# الحاوي في التفسير

الشيخ

عبدالرحمن بن محمد القماش

## المجلد الثالث عشر

الاجزاء من ٢٣٢ الى ٢٥٦

# ٱلْحَاوِي فِي ٱلتَّقْسِيمِ

الشيخ عبدالرحمن بن محمد القماش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ

الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞

وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۞

# بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة الكتاب

كتاب الحاوي في التفسير أكبر موسوعة في تفسير القرءان

الكريم حيث تحتوي على ٨٤٠ جزءا" موزعة على ٤١ مجلدا"

بذل فيه الشيخ الجليل " عبدالرحمن بن محمد القماش" جهدا"

كبيرا" و أسطوريا" في سبيل تأليف هذه الموسوعة العملاقة

وتم إكمال الموسوعة من قبل المكتبة الشاملة

في ١٤ حزيران ٢٠٠٩ وتم إكمال ملفات PDF

في آذار- نيسان ٢٠١٢ *

# محتويات الكتاب


| الجزء | الموضوع | الموضوع الفرعي | الصفحة |
|---|---|---|---|
| 232 | سورة الانعام | الآية 40 الى الآية 51 | 2 |
| 233 | = | الآية 52 الى الآية 55 | 394 |
| 234 | = | الآية 56 الى الآية 58 | 772 |
| 235 | = | الآية 59 الى الآية 64 | 1170 |
| 236 | = | الآية 65 الى الآية 71 | 1528 |
| 237 | = | الآية 72 الى الآية 78 | 1995 |
| 238 | = | الآية 79 الى الآية 82 | 2463 |
| 239 | = | الآية 83 | 2919 |
| 240 | = | الآية 84 الى الآية 89 | 3116 |
| 241 | = | الآية 90 الى الآية 91 | 3494 |
| 242 | = | الاية 92 الى الآية 94 | 3750 |
| 243 | = | الآية 95 الى الآية 99 | 4099 |
| 244 | = | الآية 100 الى الآية 103 | 4579 |
| 245 | = | الآية 104 الى الآية 109 | 5043 |
| 246 | = | الآية 110 | 5343 |
| 247 | = | الآية 111 الى الآية 115 | 5730 |
| 248 | = | الآية 116 الى الآية 121 | 6063 |
| 249 | = | الآية 122 الى الآية 125 | 6363 |
| 250 | = | الآية 126 الى الآية 128 | 6709 |
| 251 | = | الآية 129 الى الآية 132 | 7012 |
| 252 | = | الآية 133 الى الآية 137 | 7260 |
| 253 | = | الآية 138 الى الآية 140 | 7541 |
| 254 | = | الآية 141 الى الآية 144 | 7731 |
| 255 | = | الآية 145 الى الآية 147 | 8122 |
| 256 | = | الآية 148 الى الآية 150 | 8440 |

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والثلاثون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثانى والثلاثون بعد المائتين

من الآية ﴿ 40 ﴾ من سورة الأنعام

وحتى الآية ﴿ 51 ﴾ من نفس السورة

*(4/232)*

---

قوله تعالى ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (40) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كانت هذه الآية – بما فيها من التصريح بالتكذيب – شديدة الاعتناق لقوله ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ [ الأنعام : 21و 39 ] وقوله ﴿ كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ﴾ [ الأنعام : 5 ] الآيتين رجع بالذي بعدها إلى فذلكة التفاصيل الماضية وواسطة عقدها وفريدة درها ، وهو التوحيد الذي أبانته الأدلة قبل الآيتين ، فقال دالاً على اعتقادهم القدرة التي استلزم نعتُهم بطلب الآية نفيها ، واعتقادهم للتوحيد في الجملة وهم يكذبون به ، بياناً لأنهم في الظلمات مقهورون بيد المشيئة لعدم تحاشيهم من

التناقض معجباً منهم : ﴿ قل أرءيتكم ﴾ أي أخبروني يا من كذب بالآيات والقدرة عناداً وشهد أن مع الله آلهة أخرى ، وعدل بالله الذي يعلم السر والجهر ، وهو مع من يدعوه في كل سماء وكل أرض بعنايته ونصره .

ولما كانت حقيقة ﴿ أرءيتكم ﴾ : هل رأيتم أنفسكم ، وكان هذا لكونه سؤالاً عن معلوم لا يجهله أحد - مشيراً إلى أن السؤال عن غيره مما قد يخفى من أحوال النفس ، كان كأنه قيل : عن أيّ أحوال نفوسنا نُسأل ؟ فقيل تنبيهاً لهم على حالة تلزمهم بالتوحيد أو العناد الذي يصير في العلم به كالسؤال عن رؤية النفس سواء : ﴿ إن أتاكم ﴾ أي قبل مجيء الساعة كما آتى من قبلكم ﴿ عذاب الله ﴾ أي المستجمع لجامع العظمة ، فلا يقدر أحد على كشف ما يأتي به ﴿ أو أتتكم الساعة ﴾ أي القيامة بما فيها من الأهوال .

(5/232)

---

ولما عجب منهم بما مضى - كما مضى ، قال مجيباً للشرط موبخاً لهم منكراً عليهم عدم استمرارهم على دعائه ولزوم سؤاله وندائه ، ويجوز أن يكون جواب الشرط محذوفاً تقديره : من تدعون ؟ ثم زادهم توبيخاً وتبكيتاً بقوله : ﴿ أغير الله ﴾ أي الملك الذي له العظمة كلها ﴿ تدعون ﴾ أي لشدة من تلك الشدائد ، ولا تدعون الله مع ذلك الغير ﴿ إن

كنتم صادقين ﴾ أي في أن غير الله يغني شيئاً حى يستحق الإلهية ، وجواب الشرط محذوف تقديره : فادعوا ذلك الغير ، وهذه حجة لا يسعهم معها غيرُ التسليم ، فإن عادتهم كانت مستمرة أنهم إذا اشتد الأمر وضاق الخناق لا يدعون غير الله ولا يوجهون الهمم إلا إليه ، فإن سلكوا سبيل الصدق الذي له ينتحلون وبه يتفاخرون فقالوا : لا ندعو غيره ، فقد لزمتهم الحجة في أنه لا يعدل به شيء ولا شريك له ، وإن عاندوا نطق لسان الحال أنهم على محض الضلال ، وإن سكتوا أثبت عليك الخطاب ، وهي مع ذلك – كما ترى – دليل على ما أخبرت به الآية قبلها من أن الأمر كله لله ، أي إنكم كلكم مشتركون في وضوح الأمر في أنه لا منصرف إلا إليه وقد افترقتم فصدق بعض وكذب آخرون ، فلو أن الأمر موقوف على وضوح الدلالة فقط كان الكل على نهج واحد ، هذا ونقل أبو حيان عن الفراء أنه قال : للعرب في أرأيت لغتان ومعنيان : أحدهما أن تسأل الرجل : أرأيت زيداً ، أي بعينك ، فهذه مهموزة ، وثانيهما أن تقول : أرأيت ، وأنت تريد : أخبرني ، فهاهنا تترك الهمزة إن شئت ، وهو أكثر كلام العرب ، وتومئ إلى ترك الهمزة للفرق بين المعنيين ؛ ثم قال أبو حيان : وكون أرأيت وأرأيتك بمعنى أخبرني نص عليه سيبويه وغيره من أئمة العرب ، وهو تفسير معنى لا تفسير إعراب ، لأن أخبرني يتعدى بعن ، وأرأيت متعد لمفعول به صريح وإلى جملة استفهامية هي في موضع المفعول الثاني ؛ وقال في سورة يونس عليه السلام

: تقدم في سورة الأنعام أن العرب تضمن أرأيت معنى أخبرني وأنها تتعدى إذ ذاك إلى مفعولين

(6/232)

---

، وأن المفعول الثاني أكثر ما يكون جملة استفهام ، ينعقد منها ومما قبلها مبتدأ وخبر ، يقول العرب : أرأيت زيداً ما صنع ؟ المعنى : أخبرني عن زيد ما صنع ! وقبل دخول أرأيت كان الكلام : زيد ما صنع – انتهى .

قلت : وحقيقة المعنى كما مر : هل رأيت زيداً ؟ فلما استفهم عن رؤيته – والمراد الخبر لا البصر – عُلم أن السؤال عن بعض أحواله ، فكأنه قيل : ما له ؟ فقيل : ما صنع ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 634.635 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما بين غاية جهل أولئك الكفار بين من حالهم أيضاً أنهم إذا نزلت بهم بلية أو محنة يفزعون إلى الله تعالى ويلجأون إليه ولا يتمردون عن طاعته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 183 ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ نافع ﴿ أَرَأَيْتُكُم . وأرأيتكم . وأرأيت . وأفرأيت . وأرأيتك . وأفرأيتك ﴾ وأشباه ذلك بتخفيف الهمزة في كل القرآن ، والكسائي ترك الهمزة في كل القرآن ، والباقون بالهمزة .

أما تخفيف الهمزة ، فالمراد جعلها بين الهمزة والألف على التخفيف القياسي .

وأما مذهب الكسائي فحسن ، وبه قرأ عيسى بن عمر وهو كثير في الشعر ، وقد تكلمت العرب في مثله بحذف الهمزة للتخفيف كما قالوا : وسله ، وكما أنشد أحمد بن يحيى :

وإن لم أقاتل فالبسوني برقعا . . بحذف الهمزة .

أراد فألبسوني بإثبات الهمزة .

وأما الذين قرأوا بتخفيف الهمزة فالسبب أن الهمزة عين الفعل والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 183 . 184 ﴾

*(7/232)*

---

فصل

قال الفخر :

معنى الآية أن الله تعالى قال لمحمد عليه السلام : قل يا محمد لهؤلاء الكفار إن أتاكم عذاب

الله في الدنيا وأتاكم العذاب عند قيام الساعة ، أترجعون إلى غير الله في دفع ذلك البلاء والضر أو ترجعون فيه إلى الله تعالى ؟ ولما كان من المعلوم بالضرورة أنهم إنما يرجعون إلى الله تعالى في دفع البلاء والمحنة لا إلى الأصنام والأوثان ، لا جرم قال ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴾ يعني أنكم لا ترجعون في طلب دفع البلية والمحنة إلا إلى الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 184 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ﴾

هذا ابتداء احتجاج على الكفار الذين يجعلون لله شركاء .

قال الكرماني : ﴿ أرأيتكم ﴾ كلمة استفهام وتعجب وليس لها نظير .

وقال ابن عطية : والمعنى : أرأيتكم إن خفتم عذاب الله أو خفتم هلاكاً أو خفتم الساعة أتدعون أصنامكم وتلجؤون إليها في كشف ذلك إن كنتم صادقين في قولكم إنها آلهة بل تدعون الله الخالق الرازق فيكشف ما خفتموه إن شاء وتنسون أصنامكم أي تتركونهم ؟ فعبر عن الترك بأعظم وجوهه الذي هو مع الترك ذهول وإغفال ، فكيف يجعل إلهاً من هذه حاله في الشدائد ؟ و ﴿ أتاكم عذاب الله ﴾ أتاكم خوفه وأماراته وأوائله مثل الجدب والبأساء والأمراض التي يخاف منها الهلاك كالقولنج ويدعو إلى هذا التأويل إنا لو قدرنا إتيان العذاب وحلوله لم يترتب أن يقول بعد ذلك : فيكشف ما تدعون لأن ما قد صح

حلوله ومضى لا يصح كشفه ، ويحتمل أن يريد بالساعة في هذه الآية ساعة موت الإنسان ؛ انتهى .

(8/232)

---

ولا يضطر إلى هذا التأويل الذي ذكره بل إذا حل بالإنسان العذاب واستمر عليه لا يدعو إلا الله وقوله : لأن ما صح حلوله ومضى لا يصح كشفه ليس كما ذكر ، لأن العذاب الذي يحل بالإنسان هو جنس منه ما مرّ وانقضى فذلك لا يصح كشفه ومنه ما هو ملتبس بالإنسان في الحال فيصح كشفه وإزالته بقطع الله ذلك عن الإنسان ، وهذه الآية تنظر إلى قوله تعالى : ﴿ وإذا مسّ الإنسان الضرّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضرّه مرّ كأن لم يدعنا إلى ضرّ مسه ﴾ لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضرّه مرّ كأن لم يدعنا إلى ضرّ مسه فما انقضى من الضر الذي مسه لا يصح كشفه ، وما هو ملتبس به كشفه الله تعالى فالضر جنس كما أن العذاب هنا جنس .

وقال مقاتل : عذاب الله هو العذاب الذي كان يأتي الأمم الخالية .

وقال ابن عباس : هو الموت ويعني والله أعلم مقدّماته من الشدائد والجمهور على أن ﴿ الساعة ﴾ هي القيامة وأرأيت الهمزة فيها للاستفهام فإن كانت البصرية أو التي لإصابة

الرئة أو العلمية الباقية على بابها لم يجز فيها إلا تحقيق الهمزة أو تسهيلها بين بين ولا يجوز حذفها ، وتختلف التاء باختلاف المخاطب ولا يجوز إلحاق الكاف بها وإن كانت العلمية التي هي بمعنى أخبرني جاز أن تحقق الهمزة ، وبه قرأ الجمهور في ﴿ أرأيتكم ﴾ وأرأيتم وأرأيت وجاز أن تسهل بين بين وبه قرأ نافع وروي عنه إبدالها ألفاً محضة ويطول مدّها لسكونها وسكون ما بعدها ، وهذا البدل ضعيف عند النحويين إلا أنه قد سمع من كلام العرب حكاه قطرب وغيره وجاز حذفها وبه قرأ الكسائي وقد جاء ذلك في كلام العرب .

قال الراجز :

أريت إن جاءت به أملودا . . .

*(9/232)*

---

بل قد زعم الفراء أنها لغة أكثر العرب ، قال الفراء : للعرب في أرأيت لغتان ومعنيان أحدهما أن تسأل الرجل أرأيت زيداً أي بعينك فهذه مهموزة ، وثانيهما أن تقول : أرأيت وأنت تقول أخبرني فيها هنا تترك الهمزة إن شئت وهو أكثر كلام العرب تومئ إلى ترك الهمزة للفرق بين المعنيين ؛ انتهى .

وإذا كانت بمعنى أخبرني جاز أن تختلف التاء باختلاف المخاطب وجاز أن تتصل بها

الكاف مشعرة باختلاف المخاطب ، وتبقى التاء مفتوحة كحالها للواحد المذكر ومذهب البصريين أن التاء هي الفاعل وما لحقها حرف يدل على اختلاف المخاطب وأغنى اختلافه عن اختلاف التاء ومذهب الكسائي أن الفاعل هو التاء وإن أداة الخطاب اللاحقة في موضع المفعول الأول ، ومذهب الفراء أن التاء هي حرف خطاب كهي في أنت وإن أداة الخطاب بعده هي في موضع الفاعل ، استعيرت ضمائر النصب للرفع والكلام على هذه المذاهب إبدالاً وتصحيحاً مذكور في علم النحو ، وكون أرأيت وأرأيتك بمعنى أخبرني نص عليه سيبويه والأخفش والفراء والفارسي وابن كيسان وغيرهم .

وذلك تفسير معنى لا تفسير إعراب قالوا : فتقول العرب أرأيت زيداً ما صنع فالمفعول الأول ملتزم فيه النصب ، ولا يجوز فيه الرفع على اعتبار تعليق أرأيت وهو جائز في علمت ورأيت الباقية على معنى علمت المجردة من معنى أخبرني لأن أخبرني لا تعلق ، فكذلك ما كان بمعناها والجملة الاستفهامية في موضع المفعول الثاني .

قال سيبويه : وتقول أرأيتك زيداً أبو من هو وأرأيتك عمراً أعندك هو أم عند فلان لا يحسن فيه إلا النصب في زيد ألا ترى أنك لو قلت أرأيت أبو من أنت وأرأيت أزيد ثم أم فلان ، لم يحسن لأن فيه معنى أخبرني عن زيد .

ثم قال سيبويه : وصار الاستفهام في موضع المفعول الثاني وقد اعترض كثير من النحاة على سيبويه وخالفوه ، وقالوا : كثيراً ما تعلق أرأيت وفي القرآن من ذلك كثير منه ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون ﴾ ﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴾ ﴿ أرأيت إن كذب وتولى ألم يعلم ﴾ وقال الشاعر :

أرأيت إن جاءت به أملودا . . .

مرجّلاً ويلبس البرودا

أقائلن أحضروا الشهودا . . .

وذهب ابن كيسان إلى أن الجملة الاستفهامية في أرأيت زيداً ما صنع بدل من أرأيت ، وزعم أبو الحسن أن ﴿ أرأيتك ﴾ إذا كانت بمعنى أخبرني فلا بد بعدها من الاسم المستخبر عنه وتلزم الجملة التي بعده الاستفهام ، لأن أخبرني موافق لمعنى الاستفهام وزعم أيضاً أنها تخرج عن بابها بالكلية وتضمن معنى أما أو تنبه وجعل من ذلك قوله تعالى : قال ﴿ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت ﴾ وقد أمعنا الكلام على أرأيت ومسائلها في كتابنا المسمى بالتذييل في شرح التسهيل وجمعنا فيه ما لا يوجد مجموعاً في كتاب فيوقف عليه فيه ، ونحن نتكلم على كل مكان تقع فيه أرأيت في القرآن بخصوصيته .

فنقول الذي نختاره أنها باقية على حكمها من التعدّي إلى اثنين فالأول منصوب والذي لم نجده بالاستقراء إلا جملة استفهامية أو قسمية ، فإذا تقرر هذا فنقول : المفعول الأول في هذه الآية محذوف والمسألة من باب التنازع تنازع ﴿ أرأيتكم ﴾ والشرط على عذاب الله فأعمل الثاني وهو ﴿ أتاكم ﴾ فارتفع عذاب به ، ولو أعمل الأول لكان التركيب عذاب بالنصب ونظيره اضرب إن جاءك زيد على أعمال جاءك ، ولو نصب لجاز وكان من إعمال الأول وأما المفعول الثاني فهي الجملة الاستفهامية من ﴿ أغير الله تدعون ﴾ والرابط لهذه الجملة بالمفعول الأول محذوف تقديره ﴿ أغير الله تدعون ﴾ لكشفه والمعنى : قل أرأيتكم عذاب الله إن أتاكم أو الساعة إن أتتكم أغير الله تدعون لكشفه أو كشف نوازلها ، وزعم أبو الحسن أن ﴿ أرأيتكم ﴾ في هذه الآية بمعنى أما .

قال وتكون أبداً بعد الشرط وظروف الزمان والتقدير أما إن أتاكم عذابه والاستفهام جواب أرأيت لا جواب الشرط وهذا إخراج لأرأيت عن مدلولها بالكلية ، وقد ذكرنا تخريجها على ما استقر فيها فلا نحتاج إلى هذا التأويل البعيد ، وعلى ما زعم أبو الحسن لا يكون لأرأيت مفعولان ولا مفعول واحد ، وذهب بعضهم إلى أن مفعول ﴿ أرأيتكم ﴾

محذوف دل عليه الكلام تقديره أرأيتكم عبادتكم الأصنام هل تنفعكم عند مجيء الساعة ؟ ودل عليه قوله : ﴿ أغير الله تدعون ﴾ .

(12/232)

---

وقال آخرون لا تحتاج هنا إلى جواب مفعول لأن الشرط وجوابه قد حصلا معنى المفعول وهذان القولان ضعيفان ، وأما جواب الشرط فذهب الحوفي إلى أن جوابه ﴿ أرأيتكم ﴾ قدّم لدخول ألف الاستفهام عليه وهذا لا يجوز عندنا ، وإنما يجوز تقديم جواب الشرط عليه في مذهب الكوفيين وأبي زيد والمبرد وذهب غيره إلى أنه محذوف فقدره الزمخشري فقال : إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة من تدعون ؟ وإصلاحه بدخول الفاء أي فمن تدعون ؟ لأن الجملة الاستفهامية إذا وقعت جواباً للشرط فلا بد فيها من الفاء ؟ وقدره غيره إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة دعوتم الله ودل عليه الاستفهام في قوله : ﴿ أغير الله تدعون ﴾ .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يتعلق الشرط بقوله : ﴿ أغير الله تدعون ﴾ كأنه قيل أغير الله تدعون إن أتاكم عذاب الله ؛ انتهى .

(13/232)

فلا يجوز أن يتعلق الشرط بقوله : ﴿ أغير الله ﴾ لأنه لو تعلق به لكان جواباً للشرط ، فلا يجوز أن يكون جواباً للشرط لأن جواب الشرط إذا كان استفهاماً بالحرف لا يكون إلا بهل مقدماً عليها الفاء نحو إن قام زيد فهل تكرمه ؟ ولا يجوز ذلك في الهمزة لا تتقدم الفاء على الهمزة ولا تتأخر عنها ، فلا يجوز إن قام زيد فأتكرمه ولا أفتكرمه ولا أتكرمه ، بل إذا جاء الاستفهام جواباً للشرط لم يكن إلا بما يصح وقوعه بعد الفاء لا قبلها هكذا نقله الأخفش عن العرب ، ولا يجوز أيضاً من وجه آخر لأنا قد قرّرنا إن أرأيتك متعد إلى اثنين أحدهما في هذه الآية محذوف وأنه من باب التنازع والآخر وقعت الجملة الاستفهامية موقعة فلو جعلتها جواباً للشرط لبقيت ﴿ أرأيتكم ﴾ متعدّية إلى واحد ، وذلك لا يجوز وأيضاً التزام العرب في الشرط الجائي بعد أرأيت مضى الفعل دليل على أن جواب الشرط محذوف ، لأنه لا يحذف جواب الشرط إلا عند مضيّ فعله قال تعالى : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله ﴾ ﴿ قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم ﴾ ﴿ قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً ﴾ إلى غير ذلك من الآيات ، وقال الشاعر :

أرأيت إن جاءت به أملودا . . .

وأيضاً فمجيء الجمل الاستفهامية مصدرة بهمزة الاستفهام دليل على أنها ليست جواب الشرط ، إذ لا يصح وقوعها جواباً للشرط .

وقال الزمخشري : ( فإن قلت ) : إن علقت الشرطية يعني بقوله : ﴿ غير الله ﴾ فما تصنع بقوله : ﴿ فيكشف ما تدعون إليه ﴾ مع قوله : ﴿ أو أتتكم الساعة ﴾ وقوارع الساعة لا تكشف عن المشركين .

( قلت ) : قد اشترط في الكشف المشيئة وهو قوله : إن شاء إيذاناً بأنه إن فعل كان له وجه من الحكمة إلا أنه لا يفعل لوجه آخر من الحكمة أرجح منه ؛ انتهى .

وهذا مبني على أنه يجوز أن يتعلق الشرط بقوله ﴿ أغير الله ﴾ وقد استدل للفاعل أن ذلك لا يجوز وتلخص في جواب الشرط أقوال :

*(14/232)*

---

أحدها : أنه مذكور وهو ﴿ أرأيتكم ﴾ المتقدّم والآخر أنه مذكور وهو ﴿ أغير الله تدعون ﴾ .

والثالث : أنه محذوف تقديره من تدعون .

والرابع : أنه محذوف تقديره دعوتم الله ، هذا ما وجدناه منقولاً والذي نذهب إليه غير هذه الأقوال وهو أن يكون محذوفاً لدلالة ﴿ أرأيتكم ﴾ عليه وتقديره ﴿ إن أتاكم عذاب الله ﴾ فأخبروني عنه أتدعون غير الله لكشفه ، كما تقول : أخبرني عن زيد إن جاءك ما

تصنع به ؟ التقدير إن جاءك فأخبرني فحذف الجواب لدلالة أخبرني عليه ، ونظير ذلك أنت ظالم إن فعلت التقدير فأنت ظالم فحذف فأنت ظالم وهو جواب الشرط لدلالة ما قبله عليه ، وهذا التقدير الذي قدرناه هو الذي تقتضيه قواعد العربية و ﴿ غير الله ﴾ عنى به الأصنام التي كانوا يعبدونها ، وتقديم المفعول هنا بعد الهمزة يدل على الإنكار عليهم دعاء الأصنام إذ لا ينكر الدعاء إنما ينكر أن الأصنام تدعي كما تقول : أزيداً تضرب لا تنكر الضرب ولكن تنكر أن يكون محله زيداً .

قال الزمخشري : بكتهم بقوله : ﴿ أغير الله تدعون ﴾ بمعنى أتخصون آلهتكم بالدعوة فيما هو عادتكم إذا أصابكم ضرّ أم تدعون الله دونها ؟ انتهى .

وقدره بمعنى أتخصون لأن عنده تقديم المفعول مؤذن بالتخصيص والحصر ، وقد تكلمنا فيما سبق في ذلك وأنه لا يدل على الحصر والتخصيص ، وهذه الآية عند علماء البيان من باب استدراج المخاطب وهو أن يلين الخطاب ويمزجه بنوع من التلطف والتعطف حتى يوقع المخاطب في أمر يعترف به فتقوم الحجة عليه ، والله تعالى خاطب هؤلاء الكفار بلين من القول وذكر لهم أمراً لا ينازعون فيه وهو أنهم كانوا إذا مسهم الضر دعوا الله لا غيره وجواب ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ محذوف تقديره إن كنتم صادقين في دعواكم إن غير الله إله فهل تدعونه لكشف ما يحل بكم من العذاب ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُكُم ﴾ أمرٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يُبكِّتَهم ويُلقِمَهم الحجرَ بما لا سبيل لهم إلى النكير ، والكاف حرف جيء به لتأكيد الخطاب لا محلَّ له من الإعراب ومبنى التركيب وإن كان على الاستخبار عن الرؤية قلبية كانت أو بصَرية لكنّ المرادَ به الاستخبارُ عن مُتعلَّقِها أي أخبروني ﴿ إِنْ أتاكم عَذَابُ الله ﴾ حسبما أتى الأممَ السابقةَ من أنواع العذاب الدنيوي ﴿ أَوْ أَتَتْكُمْ الساعة ﴾ التي لا محيصَ عنها البتة ﴿ أَغَيْرَ الله تَدْعُونَ ﴾ هذا مناطُ الاستخبار ومحطّ التبكيت وقوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ متعلق بأرأيتكم مؤكِّد للتبكيت كاشفٌ عن كذبهم ، وجوابُ الشرط محذوفٌ ثقةً بدلالة المذكور عليه أي إن كنتم صادقين في أن أصنامكم آلهةٌ كما أنها دعواكم المعروفةُ ، أو إن كنتم قوماً صادقين فأخبروني أغيرَ الله تدعون إن أتاكم عذابُ الله الخ ، فإن صدقهم بأيِّ معنى كان من موجبات إخبارِهم بدعائهم غيرَه سبحانه ، وأما جعلُ الجواب ما يدل عليه قولُه تعالى : ﴿ أَغَيْرَ الله تَدْعُونَ ﴾ أعني فادعوه على أن الضمير لغير الله فمُخِلٌّ بجزالة

النظم الكريم ، كيف لا والمطلوبُ منهم إنما هو الإخبارُ بدعائهم غيرَه تعالى عند إتيانِ ما يأتي لا نفسُ دعائهم إياه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(16/232)

---

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُكُم ﴾ أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يبكتهم ويلقمهم الحجر بما لا سبيل لهم إلى إنكاره .

والتاء على ما قاله أبو البقاء ضمير الفاعل وما بعده حرف خطاب جىء به للتأكيد وليس اسماً لأنه لو كان كذلك لكان إما مجروراً ولا جار هنا أو مرفوعاً وليس من ضمائر الرفع ولا مقتضى له أيضاً أو منصوباً وهو باطل لثلاثة أوجه ، الأول : أن هذا الفعل قلبي بمعنى علم يتعدى إلى مفعولين كقولك : أرأيت زيداً ما فعل فلو جعل المذكور مفعولاً لكان ثالثاً .

والثاني : أنه لو جعل مفعولاً لكان هو الفاعل في المعنى وليس المعنى على ذلك إذ ليس الغرض أرأيت نفسك بل أرأيت غيرك ولذلك قلت : أرأيتك زيداً وزيد غير المخاطب ولا هو بدل منه .

والثالث : أنه لو جعل كذلك لظهرت علامة التثنية والجمع والتأنيث في التاء فكنت تقول :

أرأيتماكما وأرأيتموكم وأرأيتكن وهذا مذهب البصريين .

والمفعولان في هذه الآية قيل : الأول : منهما محذوف تقديره أرأيتكم إياه أو إياها أي العذاب أو الساعة الواقعين في قوله سبحانه : ﴿ إِنْ أتاكم عَذَابُ الله ﴾ أي الدنيوي حسبما أتى من قبلكم ﴿ أَوْ أَتَتْكُمْ الساعة ﴾ أي هو لها كما يدل عليه ما بعد لأن الكلام من باب التنازع حيث تنازع رأي وأتى في معمول واحد وهو ﴿ عَذَابُ الله ﴾ و ﴿ الساعة ﴾ فأعمل الثاني وأضمر في الأول .

والثاني : منهما جملة الاستفهام وهي قوله تعالى ﴿ أَغَيْرَ الله تَدْعُونَ ﴾ والرابط لها بالمفعول الأول محذوف أي أغير الله تدعون لكشف ذلك .

وقيل : لا تنازع والتقدير أرأيتكم عبادتكم للأصنام أو الأصنام التي تعبدونها هل تنفعكم ، وقيل : إن الجملة الاستفهامية سادة مسد المفعولين .

وذهب الرضي تبعاً لغيره أن رأى هنا بصرية وقيل : قلبية بمعنى عرف .

*(17/232)*

---

وهي على القولين متعدية لواحد وأصل اللفظ الاستفهام عن العلم أو العرفان أو الإبصار إلا أنه تجوز به عن معنى أخبرني ولا يستعمل إلا في الاستخبار عن حالة عجيبة لشيء .

وفيه على ما قال الكرماني وغيره تجوزان إطلاق الرؤية وإرادة الإخبار لأن الرؤية بأي معنى كانت سبب له .

وجعل الاستفهام بمعنى الأمر بجامع الطلب .

وقول بعضهم : إن الاستفهام للتعجيب لا ينافي كون ذلك بمعنى أخبرني لما قيل أنه بالنظر إلى أصل الكلام .

ونقل عن أبي حيان أن الأخفش قال : إن العرب أخرجت هذا اللفظ عن معناه بالكلية فقالوا : أرأيتك وأريتك بحذف الهمزة الثانية إذا كان بمعنى أخبرت وإذا كان بمعنى أبصرت لم تحذف همزته وألزمته أيضاً الخطاب على هذا المعنى فلا تقول أبداً أراني زيد عمراً ما صنع وتقول هذا على معنى أعلم ، وأخرجته أيضاً عن موضوعه بالكلية لمعنى إما بدليل دخول الفاء بعده كقوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصخرة ﴾ [ الكهف : 63 ] الآية .

فما دخلت الفاء إلا وقد خرجت لمعنى أما .

والمعنى أما إذ أوينا إلى الصخرة فالأمر كذا وكذا .

وقد أخرجته أيضاً إلى معنى أخبرني كما قدمنا ، وإذا كان بهذا المعنى فلا بد بعده من اسم المستخبر عنه وتلزم الجملة بعد الاستفهام .

وقد يخرج لهذا المعنى وبعده الشرط وظرف الزمان اه ولم يوافق في جميع ذلك .

وذهب شيخ أهل الكوفة الكسائي إلى أن التاء ضمير الفاعل وأداة الخطاب اللاحقة في موضع المفعول الأول .

وذهب الفراء إلى أن التاء حرف خطاب واللواحق بعده في موضع الرفع على الفاعلية وهي ضمائر نصب استعملت استعمال ضمائر الرفع .

والكلام على ذلك مبسوط في محله .

والمختار عند كثير من المحققين ما ذهب إليه البصريون من جعل كم هنا وكذا سائر اللواحق حرف خطاب ومتعلق الاستخبار عندهم ومحط التبكيت قوله تعالى .

﴿ أَغَيْرَ الله ﴾ الخ .

وقوله سبحانه : ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ متعلق بأريتكم مؤكد للتبكيت كاشف عن كذبهم .

*(18/232)*

---

وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه ، والتقدير على ما قيل إن كنتم صادقين في أن أصنامكم آلهة ( أو أن عبادتكم لها نافعة ) أو إن كنتم قوماً من شأنكم الصدق فأخبروني أإلهاً غير الله تعالى تدعون إن أتاكم عذاب الله الخ فإن صدقهم من موجبات

إخبارهم بدعائهم غيره سبحانه .

وقيل : إن الجواب ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ ﴾ أعني فادعوه على أن الضمير لغير الله ، واعترض بأنه يخل بجزالة النظم الكريم كيف لا والمطلوب منهم إنما هو الإخبار بدعائهم غيره جل شأنه عند ءتيان ما يأتي لا نفس دعائهم إياه ، وجوز آخرون كون متعلق الاستخبار محذوفاً تقديره أخبروني إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة من تدعون ، وجعلوا قوله سبحانه : ﴿ أَغَيْرَ اللهِ ﴾ الخ استئنافاً للتبكيت على معنى أتخصون آلهتكم بالدعوة كما هو عادتكم إذا أصابكم ضر أم تدعون الله تعالى دونها ، وعليه فتقديم المفعول للتخصيص .

وبعضهم جعل تقديمه لأن الإنكار متعلق به وأنكر تعلقه بالتخصيص . انتهى انتهى . اهـ

﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ ﴾

استئناف ابتدائي يتضمّن تهديداً بالوعيد طرداً للأغراض السابقة ، وتخلّله تعريض بالحثّ على خلع الشرك إذ ليس لشركائهم نفع بأيديهم ، فذُكِّروا بأحوال قد تعرض لهم يلجأون فيها إلى الله .

وألقي عليهم سأل أيستمرون على الإشراك بالله في تلك الحالة وهل يستمرّون من الآن على

الشرك إلى أن يأتيهم العذاب أو تأتيهم القيامة حين يلجأون إلى الإيمان بوحدانيته ، ولات حينَ إيمان .

وافتتح هذا التهديد بالأمر بالقول اهتماماً به وإلاّ فإنّ معظم ما في القرآن مأمور الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يقوله لهم .

وقد تتابع الأمر بالقول في الآيات بعد هذه إلى قوله : ﴿ لكلّ نبأ مستقرّ ﴾ [ الأنعام : 67 ] اثنتي عشرة مرّة .

وورد نظيره في سورة يونس .

*(19/232)*

---

وقوله : ﴿ أرأيتكم ﴾ تركيب شهير الاستعمال ، يفتتح بمثله الكلام الذي يراد تحقيقه والاهتمام به .

وهمزة الاستفهام فيه للاستفهام التقريري .

و( رأى ) فيه بمعنى الظنّ .

يسند إلى تاء خطاب تلازم حالة واحدة ملازمة حركة واحدة ، وهي الفتحة لا تختلف باختلاف عدد المخاطب وصنفه سواء كان مفرداً أو غيره ، مذكّراً أو غيره ، ويجعل

المفعول الأول في هذا التركيب غالباً ضمير خطاب عائداً إلى فاعل الرؤية القلبية ومستغنى به لبيان المراد بتاء الخطاب .

والمعنى أنّ المخاطب يعلم نفسه على الحالة المذكورة بعد ضمير الخطاب ، فالمخاطب فاعل ومفعول باختلاف الاعتبار ، فإنّ من خصائص أفعال باب الظنّ أنّه يجوز أن يكون فاعلها ومفعولها واحداً ( وألحق بأفعال العلم فعلان : فقَد ، وعَدِم في الدعاء نحو فقدتُني ) ، وتقع بعد الضمير المنصوب جملة في موضع مفعوله الثاني ، وقد يجيء في تلك الجملة ما يعلق فعل الرؤية عن العمل .

هذا هو الوجه في تحليل هذا التركيب .

وبعض النحاة يجعل تلك الجملة سادّة مسدّ المفعولين تفصّياً من جعل ضمائر الخطاب مفاعيل إذ يجعلونها مجرّد علامات خطاب لا محلّ لها من الإعراب ، وذلك حفاظاً على متعارف قواعد النحو في الاستعمال الأصلي المتعارف مع أنّ لغرائب الاستعمال أحوالاً خاصّة لا ينبغي غضّ النظر عنها إلاّ إذا قصد بيان أصل الكلام أو عدم التشويش على المتعلّمين .

ولا يخفى أنّ ما ذهبوا إليه هو أشدّ غرابة وهو الجمع بين علامتي خطاب مختلفتين في الصورة ومرجعهما متَّحد .

وعلى الوجه الذي اخترناه فالمفعول الثاني في هذا التركيب هو جملة : ﴿ أغير الله تدعون ﴾ .

(20/232)

---

وإنّما تركت التاء على حالة واحدة لأنّه لمَّا جعلتْ ذاتُ الفاعل ذات المفعول إعراباً وراموا أن يجعلوا هذا التركيب جارياً مجرى المثل في كونه قليل الألفاظ وافر المعنى تجنّبوا ما يحدثه الجمع بين ضميري خطاب مرفوع ومنصوب من الثقل في نحو أرأيتماكُما ، وأرأيتُمْكُم وأريْتُنَّكُنّ ، ونحو ذلك ، سلكوا هذه الطريقة الغريبة فاستغنوا بالاختلاف حالة الضمير الثاني عن اختلاف حالة الضمير الأول اختصاراً وتخفيفاً ، وبذلك تأتَّى أن يكون هذا التركيب جارياً مجرى المثل لما فيه من الإيجاز تسهيلاً لشيوع استعماله استعمالاً خاصّاً لا يغيّر عنه ، فلذلك لا تكسر تلك التاء في خطاب المؤنّث ولا تضمّ في خطاب المثنّى والمجموع .

وعن الأخفش : أخرجت العرب هذا اللفظ من معناه بالكلية فألزمته الخطاب ، وأخرجته عن موضوعه إلى معنى ( أمّا ) بفتح الهمزة ، فجعلت الفاء بعده في بعض استعمالاته كقوله تعالى : ﴿ أرأيتَ إذْ أوْينَا إلى الصخرة فإنّي نسيت الحوت ﴾ [ الكهف : 63 ] فما

دخلت الفاء إلاّ وقد أخرجت ( أرأيت ) لمعنى ( أمّا ) ؛ وأخرجته أيضاً إلى معنى ( أخبرني ) فلا بد بعده من اسم المستخبر عنه ؛ وتلزم الجملة بعد الاستفهام ، وقد يخرج لهذا المعنى وبعده الشرط وظرفِ الزمان .

اه .

في "الكشاف" : متعلِّق الاستخبار محذوف ، تقديره : إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة من تدعون ، ثم بكتهم بقوله ﴿ أغير الله تدعون ﴾ ، أي أتخصّون آلهتكم بالدعوة أم تدعون الله دونها بل إيَّاه تدعون أ هـ .

وجملة : ﴿ أغير الله تدعون ﴾ هي المفعول الثاني لفعل ﴿ أرأيتكم ﴾ .

واعلم أنّ هذا استعمال خاصّ بهذا التركيب الخاصّ الجاري مجرى المثل ، فأمّا إذا أريد جريان فعل الرؤية العلمية على أصل بابه فإنَّه يجري على المتعارف في تعدية الفعل إلى فاعله ومفعوليه .

فمن قال لك : رأيتُني عالماً بفلان .

فأردت التحقّق فيه تقول : أرأيتَك عالماً بفلان .

*(21/232)*

وتقول للمثنّى : أرأيتماكما عالمين بفلان ، وللجمع أرأيتُموكُم وللمؤنثة أرأيتِك بكسر التاء .

وقرأه نافع في المشهور بتسهيل الهمزة ألفاً ؛ وعنه رواية بجعلها بين الهمزة والألف .

وقرأه الكسائي بإسقاط الهمزة التي هي عين الكلمة ، فيقول : ﴿ أرَيْت ﴾ وهي لغة .

وقرأه الباقون بتحقيق الهمزة .

وجملة : ﴿ إن أتاكم عذاب الله ﴾ الخ معترضة بين مفعولي فعل الرؤية ، وهي جملة شرطية حذف جوابها لدلالة جملة المفعول الثاني عليه .

وإتيان العذاب : حلوله وحصوله ، فهو مجاز لأن حقيقة الإتيان المجيء ، وهو الانتقال من موضع بعيد إلى الموضع الذي استقر فيه مفعول الإتيان ، فيطلق مجازاً على حصول شيء لم يكن حاصلاً .

وكذلك القول في إتيان الساعة سواء .

ووجه إعادة فعل ﴿ أتتكم الساعة ﴾ مع كون حرف العطف مغنياً عن إعادة العامل بأن يقال : إن أتاكم عذاب الله أو الساعة ، هو ما يوجّه به الإظهار في مقام الإضمار من إرادة الاهتمام بالمُظْهَر بحيث يعاد لفظه الصريح لأنّه أقوى استقراراً في ذهن السامع .

والاهتمام هنا دعا إليه التهويل وإدخال الروع في ضمير السامع بأن يصرّح بإسناد هذا الإتيان لاسم المسند إليه الدّالّ على أمر مهول ليدلّ تعلّق هذا الفعل بالمفعول على تهويله وإراعته .

وقد استشعر الاحتياجَ إلى توجيه إعادة الفعل هنا الشيخ محمد بن عَرفة في درس تفسيره ، ولكنَّه وجّهه بأنَّه إذا كان العاملان متفاوتين في المعنى لكون أحدهما أشدّ يعاد العامل بعد حرف العطف إشعاراً بالتفاوت ، فإنّ إتيان العذاب أشدّ من إتيان الساعة ( أي بناء على أنّ المراد بعذاب الله عذاب الآخرة ) أو كان العاملان متباعدين ، فإن أريد بالساعة القيامة وبعذاب الله المحْقُ والرزايا في الدنيا فيعقبه بعد مهلة تامَّة .

وإن أريد بالساعة المدّة فالمحق الدنيوي كثير ، منه متقدّم ومنه متأخِّر إلى الموت ، فالتقدّم ظاهر أ هـ .

وفي توجيهه نظر إذ لا يشهد له الاستعمال .

(22/232)

---

وإضافة العذاب إلى اسم الجلالة لتهويله لصدوره من أقدر القادرين .

والمراد عذاب يحصل في الدنيا يضرعون إلى الله لرفعه عنهم بدليل قوله ﴿ أغير الله تدعون ﴾ ، فإنّ الدعاء لا يكون بطلب رفع عذاب الجزاء .

وهذا تهديد وإنذار .

والساعة : علَم بالغلبة على ساعة انقراض الدنيا ، أي إن أدركتْكم الساعة .

وتقديم ﴿ أغير الله ﴾ على عامله وهو ﴿ تدعون ﴾ لتكون الجملة المستفهم عنها جملة قصر ، أي أتعرضون عن دعاء الله فتدعون غيره دونه كما هو دأبكم الآن ، فالقصر لحكاية حالهم لا لقصد الردّ على الغير .

وقد دلّ الكلام على التعجّب ، أي تستمرّون على هذه الحال .

والكلام زيادة في الإنذار .

وجمل : ة ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ مستأنفة ، وجوابها محذوف دلّ عليه قوله : ﴿ أرأيتكم ﴾ الذي هو بمعنى التقرير .

فتقدير الجواب : إن كنتم صادقين فأنتم مقرّون بأَنَّكم لا تدعون غير الله .

ذَكّرهم في هذه الآية وألجأهم إلى النظر ليعلموا أنّه إذا أراد الله عذابهم لا تستطيع آلهتهم دفعه عنهم ، فهم إن توخّوا الصدق في الخبر عن هذا المستقبل أعادوا التأمّل فلا يسعهم إلاّ الاعتراف بأنّ الله إذا شاء شيئاً لا يدفعه غيرُه إلاّ بمشيئته ، لأنّهم يعترفون بأنّ الأصنام إنَّما تقرّبهم إلى الله زلفى ، فإذا صدقوا وقالوا : أندعوا الله ، فقد قامت الحجّة عليهم من الآن لأنّ من لا يغني في بعض الشدائد لا ينبغي الاعتماد عليه في بعض آخر .

ولذلك كان موقع ﴿ بَل إيّاه تدعون ﴾ عقب هذا الاستفهام موقع النتيجة للاستدلال .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين " ، ثم قال بعد : "قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم " ثم قال بعد : "قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون " وفى سورة يونس : "قل أرأيتكم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون " ففى هذه الآى الأربع أربعة أسئلة : الأول ما وجه التكرار فى الواردة فى سورة الأنعام ؟ والثانى : ما وجه اختصاص بعضها بتأكيد الخطاب الحاصل من الضمير بالإتيان بالأداة بعد فى قوله : "قل أرأيتم " وسقوط ذلك من بعضها ؟ .

الثالث : ما وجه تخصيص كل آية منها بما اتبعت به ؟ ، الرابع : ما وجه الترتيب فى الآيات الثلاث وهو قوله فى التنبيه أولا : "إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة " وتأخير التنبيه بمثل ذلك من ذكر العذاب فى قوله : "قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة . . . "الآية وتسيط التنبيه بقوله : "قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم " ؟

---

والجواب عن الأول : أنه إنما أعيد لفظ التنبيه لتسويغ معتبرات كل منها كاف فى الدلالة لمن وفق ونظير هذا ما ورد فى قوله تعالى : "قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى الله خير أما يشركون " ثم قال : "أمن خلق السماوات والأرض " أمن فعل كذا فهذه الدلالات التى نبهوا على الاعتبار بها نظائر الآى الواردة فى آية الأنعام وأما الإتيان بأداة الخطاب بعد الضمير المحصل لذلك فتأكيد فى إيقاظ المنبه إنباء باستحكام غفلته كما يحرك النائم باليد والمفرط الغفلة باليد واللسان وشبه هذا ألا ترى وصفهم قبل هذا بقوله تعالى : "والذين كفروا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات " فذكروا أولا تذكير الصم والبكم ، وإنما يذكر هؤلاء بأبلغ ما يقع به التحريك والتنبيه ، ثم لما بسط الكلام وامتد الوعظ إلى الآية الأخرى قيل لهم : "قل أرأيتم " فلم يحتج إلى التأكيد ، وذكروا بأمر مشاهد فى كثير من الخلق فقيل لهم : "إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم " ثم لما أخذوا بكل وجهة يحصل منها الإتعاظ اتبع ذلك بذكر العذاب وسوء الجزاء لمن لم يتعظ وكررت أداة الخطاب وأكد كما يقال لمن نبه فلم ينتبه ولا أجدى عليه التذكار كيف رأيت ؟ ويحرك تحريك المتمادى على غيه بتكرر الخطاب فقد حصل الجواب عن الكل .

وأما آية يونس فمنفردة ولم يتقدم قبلها ذكر صم ولا بكم يوجب تأكيد الخطاب وقد تقدم قبلها قوله تعالى : "قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار " إلى ما بعد هذا فحصل تحريكهم وتنبيهم بما لم يبق لعده الا التذكير بعذابهم ان لم يجد ذلك عليهم فالتدريج هنا حاصل كما هناك لكن بطريقة أخرى والله أعلم بما أراد .

(25/232)

---

فصل : واعلم أن من جعل الأداة المؤكد بها الخطاب فى أرأيتكم ضميرا لم يلزمه اعتراض بتعدى فعل المضمر المتضل إلى مضمره المتصل لأن ذلك جائز فى باب الظن وفى فعلين من غير باب ظننت وحسبت وهما : فقدت وعدمت ، وكذلك تعدى فعل الظاهر إلى مضمره المتصل جائز فى الأفعال المذكورة والآيات المتكلم فيها من باب الظن لأن المراد برأيت رؤية القلب فهى من الباب المستثنى وإنما الممتنع مطلقا تعدى فعل المضمر المتصل إلى ظاهره فلا اختلاف فى منع هذا فى كل الأفعال وأما من جرد أداة الخطاب المؤكد بها للحرفية وهو قول الجمهور فلا كلام فى ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 159 ﴿160.

(26/232)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴾ الآية .

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن المشركين إذ أتاهم عذاب من الله ، أو أتتهم الساعة أخلصوا الدعاء الذي هو مخ العبادة لله وحده ، ونسوا ما كانوا يشركون به . لعلمهم أنه لا يكشف الكروب إلا الله وحده جل وعلا .

ولم يبين هنا نوع العذاب الدنيوي الذي يحملهم على الإخلاص لله ، ولم يبين هنا أيضاً إذا كشف عنهم العذاب هل يستمرون على أخلاصهم ، أو يرجعون إلى كفرهم وشركهم ، ولكنه بين كل ذلك في مواضع أخر .

فبين أن العذاب الدنيوي الذي يحملهم على الإخلاص ، هو نزول الكروب التي يخاف من نزلت به الهلاك ، كأن يهيج البحر عليهم وتلتطم أمواجه ، ويغلب على ظنهم أنهم سيغرقون فيه إن لم يخلصوا الدعاء لله وحده ، كقوله تعالى ﴿ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ

يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ ﴾ [ يونس : 22-23 ] ، وقوله ﴿ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى البَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُوراً ﴾ [ الإسراء : 67 ] وقوله ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [ العنكبوت : 65 ] ، وقوله ﴿ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ [ الأنعام : 64 ] ، وقوله ﴿ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ ﴾ [ يونس : 23 ] إلى غير ذلك من الآيات .

(27/232)

---

وبين تعالى أن رجوعهم للشرك بعد أن نجاهم الله من الغرق من شدة جهلهم ، وعماهم : لأنه قادر على أن يهلكهم في البر كقدرته على إهلاكهم في البحر ، وقادر على أن يعيدهم في البحر مرة أخرى ، ويهلكهم فيه بالغرق فجرأتهم عليه إذا وصلوا البر لا وجه لها . لأنها من جهلهم وضلالهم ، وذلك في قوله ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ البَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً أَمْ أَمِنْتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً ﴾ [ الإسراء : 68-69 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 1 صـ ﴾

(28/232)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (40) ﴾

و" أرأيتكم " مكونة من استفهام وفعل ، ومن ضمير وهو لفظ التاء المفتوح للمخاطب كقولك : " أرأيت فلاناً " وكأنك تقول له : " إن كنت قد رأيته فأخبرني عنه " ، وعندما تقول للمخاطب ذلك فأنت تستفهم منه عن شيء رآه وأبصره وبعد ذلك تأتي بكاف الخطاب ، فكأنك تقول له : أخبرني عنك ، فيكون المعنى أخبروني عن أنفسكم ، وهكذا تكون : " أرأيتكم " معناها : أخبروني عن حالكم إخبار من يرى . فالأمر إذن لرسول الله ليسأل المشركين أن يخبروه ماذا يفعلون عندما يصيبهم الضر أو أي شيء فوق الأسباب ، هل هم يدعون اللات والعزى ؟

لا ، إنهم لا يستطيعون وقت الخطر الداهم أن يكذبوا على أنفسهم ، إنما ينادون الله الذي لا يعلنون الإيمان به . ولو كانوا صادقين مع كفرهم لما نادوا الله ، بل كان يجب أن ينادوا آلهتهم ؛ لكنّهم في لحظة الخطر يقولون : " يارب " كأنهم يعرفون أنه لا منقذ لهم إلا هو سبحانه . وهكذا ينكشف أمامهم كذب كفرهم وشركهم بالله . ولا أحد يغش نفسه ، حتى

الدجال الذي يدعي ممارسته شفاء الناس ، إن أصابه مرض نجده يلجأ إلى طبيب متخصص متعلم . فلا أحد يغش نفسه ، وساعة يمس الخطر ذات الإنسان نجد الحقيقة تنبع من الإنسان نفسه .

ويسألهم النبي صلى الله عليه وسلم : مَنْ يدعونه لحظة الخطر ؟ إنهم يدعون الله . وكأنهم لا يثقون في آلهتهم . ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً ﴾ [ يونس : 12 ] .

لكن ماذا يحدث عندما يعود للقلب غلظته ؟ ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾ [ يونس : 12 ] .

(29/232)

---

لماذا إذن يطلب من الله النجدة وقت الخطر ، ولا يتبع التكليف ؟ يأتي الأمر إلى الرسول ليسألهم من تدعون لحظة الخطر ؟ ويأتي الجواب أيضاً من الحق سبحانه وتعالى : ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(30/232)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

يجوز نقل همزة حركة الاستفهام إلى لام " قُلْ " ، وتُحْذَفُ الهمزةُ تخفيفاً وهي قراءة وَرْشٍ ، وهو تسهيل مُطَّرِدٌ ، و" أرأيتكم " هذه بمعنى " أخبرني " ، ولها أحكامٌ تَخْتَصُّ بها ، اضْطَرَبَتْ أقولا الناس فيها ، وانتشر خلافُهُمْ ، ولا بُدَّ من التَّعَرُّضِ لذلك ، فنقول : أرأيت إن كان البصرية ، أو العلمية الباقية على معناها ، أو التي إصابة الرئة كقولهم : " رأَيْتُ الطَّائِرَ " ، أي : أصَبْتُ رِئَتَهُ لم يَجُزْ فيها تخفيق الهمزة التي هي عَيْنُهَا ، بل تُحَقَّقُ ليس إلاَّ ، أو تُسَهَّلُ بَيْنَ من غير إبدالٍ ولا حذفٍ ، ولا يجوز أن تلحقها كافٌ على أنها حرف خطاب ، بل إن لحقها كاف كانت ضميراً مفعولاً أوَّل ، ويكون مُطَابقاً لما يُرَادُ به تَذْكِيرٍ وتأنيثٍ ، وإفراد وتثنية وجمع ، وإذا اتَّصلَتْ بها تاء الخطاب لزِمَ مُطَابَقتُهَا لما يُرَادُ بها مِمَّا ذُكِرَ ، ويكون ضميراً فاعلاً ، نحو : أرأيتم ، أرأيتما ، أرأيتما أرأيتُنَّ ، ويدخلها التَّعْلِيقُ والإلْغَاءُ ، وإن كانت العمليَّة التي ضُمِّنَتْ معنى " أخبرني " أختصَّتْ بأحكامٍ أخَرَ .

منها : أنه يجوز تَسْهِيلُ همزتها بإبدالها ألفاً ، وهي مَرْوِيَّةٌ عن نافع من طريق ورشٍ ، والنُّحاة يَسْتَضْعِفُون إبدال هذه الهمزة ألفاً ، بل المشهور عندهم تَسْهِيلُهَا بَيْنَ بَيْنَ ، وهي الرواية المشهورة عن نافع ، لكنَّهُ قد نَقَلَ الإبدال المَحْض قُطْرُبٌ وغيرهُ من اللغويين قال بعضهم "

هذا غَلَطٌ غُلِّط عليه " ، أي : على نافعٍ ، وسبب ذلك أنه يُؤدّي إلى الجَمْعِ بين ساكنين ، فإن " الياء " بعدها ساكنة .

ونقل أبو عبيد القاسم بن سلام عن أبي جعفر ونافعٍ ، وغيرهما من أهل " المدينة " أنهم يُسْقِطُونَ الهمزة ، ويَدَّعُونَ أن الألف خلفٌ منها .

قال شهاب الدين : وهذه العبارةُ تُشْعِرُ بأنَّ هذه الألف ليست بدلاً من الهمزة ، بل جيءَ بها عِوَضاً عن الهمزة السَّاقِطَةِ .

(31/232)

---

وقال مَكِّيُّ بْنُ أبي طالب : " وقد روي عن وَرْشٍ إبدالُ الهَمْزَةِ ألفاً ؛ لأن الرِّواية عنه أنه يَمُدَّ الثانية ، والمَدُّ لا يتمكن إلاَّ مع البدلِ ، وحسَّنَ جوازَ البدلِ في الهمزة وبعدها سَاكِنٌ أنَّ الأوّل حَرْفُ مدٍّ ولينٍ ، فإن هذا الذي يحدث مع السكون يقوم مقامَ حركةٍ يُتَوصَّلُ بها إلى النُّطْقِ بالساكن " .

وقد تقدَّم شَيءٌ من هذا عند قوله : ﴿ أَأَنذَرْتَهُمْ ﴾ [ البقرة : 6 ] .

ومنها : أن تُحْذَفَ الهمزة التي هي عَيْنُ الكلمة ، وبها قرأ الكسائي ، وهي فاشية نَظْماً ونَثْراً فمن النظم قوله : [ الرجز ]

2158 - أرَيْتَ مَا جَاءَتْ بِهِ أمْلُودا . . .

مُرَجَّلاً وَيَلبسُ البُرُودَا

أقَائِلُنَّ أحْضِرُوا الشُّهودَا . . .

وقال الآخر : [ الطويل ]

2159 - أرَيْتَكَ إذْ هُنَّا عَلَيْكَ أَلَمْ تَخَف . . .

رَقِيباً وَحَوْلِي مِنْ عَدُوِّكَ حُضَّرُ

وأنشد الكسائي لأبي الأسود : [ المتقارب ]

2160 - أرَيْتَ امْرَأً كُنْتُ لَمْ أبْلُهُ . . .

أتَانِي فَقَالَ : اتَّخذنِي خَلِيلاً

وزعم الفرَّاءُ أن هذه اللُّغَةَ لُغَةُ أكثر العربِ .

قال : " في أرَأَيْتَ لغتان ومعنيان :

أحدهما : أن يسأل الرجل : أرأيت زَيْداً ، أي : أعَلِمْتَ ، فهذه مهموزة .

وثانيهما : أن تقول : أرأيت بمعنى " أخْبِرْني " ، فها هنا تترك الهمزة إن شِئْتَ ، وهو أكثر كلام العرب يُومئ إلى تَرْكِ الهَمْزَةِ للفرق بين المَعْنَيَين " .

انتهى .

وفي كيفية حذف هذه الهمزة ثلاثة أوجه :

أحدها : - وهو الظَّاهر - أنه اسْتُثْقِلَ الجَمعُ بين همزتين في فعلٍ اتَّصَلَ به ضَمِيرٌ ، فَخَفَّفَهُ بإسقاط إحدى الهمزتَيْنِ ، وكانت الثانية أولى ، لأنها حصل بها الثِّقَل ؛ ولأنَّ حذفها ثابتٌ في مضارع هذا الفعل ، نحو : أرى ، ويرى ، ونرى ، وترى ، ولأنَّ حذف الأولى يُخِلُّ بالتَّفَاهُمِ ، إذ هي للاستفهام .

(32/232)

---

والثاني : أنه أبْدَلَ الهمزة ألِفاً ، كما فعل نَافِعٌ في رواية ورش ، فالتقى ساكنان ، فحذف أولهما وهو الألف .

والثالث : أنه أبْدَلَها ياءً ، ثم سَكَّنَهَا ، ثم حذفها لالتقاء الساكنين ، قاله أبو البقاء ، وفيه بُعْدٌ ، ثم قال : " وقَرَّب ذلك فيها حَذْفُها في مُسْتَقْبَلِ هذا الفعل " يعني في يرى وبابه ، ورجَّحَ بعضهم مذهبَ الكسائي بأن الهَمْزَةَ قد اجترىءَ عليها بالحذف ، وأنشد : [ الرجز ]

2161 - إنْ لَمْ أُقَاتِلْ فَالْبِسُونِي بُرْقُعَا . . .

وأنشد لأبي الأسود : [ الكامل ]

2162 - يَا بَا المُغيرةِ رُبَّ أمْرٍ مُعْضِلٍ . . .

فَرَّجْتُهُ بِالمَكْرِ مِنِّي وَالدَّهَا

[ وقولهم : " وَيْلُمِّهِ " ] .

وقوله : [ البسيط ]

2163 - وَيْلُمِّهَا خُلَّةً قَدْ سِيطَ مِنْ دَمِهَا . . .

فَجْعٌ وَوَلْعٌ وإخلافٌ وتَبْدِيلُ

وأنشد أيضاً : [ الوافر ]

2164 - وَمَنْ رَا مِثْلَ مَعْدَانَ بْنِ سَعْدٍ . . .

إذَا مَا النِّسْعُ طَالَ عَلَى المَطِيِّه

أي : ومَنْ رأى .

ومنها : أنه لا يَدْخُلُهَا تَعْلِيقٌ ، ولا إلغَاءٌ ؛ لأنها [ بمعنى ] " أخبرني " لا يُعَلَّقُ عند الجمهور . قال سيبويه : " وتقولُ : أرأيتك زَيْداً أبو مَنْ هو ؟ لا يَحْسُنُ فيه إلاَّ النَّصْبُ في " زيد " ، الا ترى لو قلت : " أرأيت أبو مَنْ أنت ؟ " لم يَحْسُنْ ؛ لأن فيه معنى أخبرني عن زيد ، وصار الاستفهامُ في موضع المفعول الثاني " وقد خالف سيبويه غَيْرُهُ من النحويين ، وقالوا : كثيراً ما تُعَلَّق " أرأيت " وفي القرآن من ذلك كثيرٌ ، واتَّدَلُّوا بهذه الآية التي نَحْنُ فيها ، وبقوله : ﴿ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وتولى أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ﴾ [ العلق : 13 ، 14 ] ، وبقوله :

2165 - أرَيْتَ مَا جَاءَتْ بِهِ أمْلُودَا . . .

وهذا لا يرد على سيبويه ، وسيأتي تأويل ذلك قريباً .

ومنها : أنها تَلْحَقُهَا " التاء " فَيُلْتَزَمُ إفْرَادُهَا وتذكيرها ، ويُسْتَغْنَى عن لحاقِ علامة الفُرُوعِ بها بِلحاقِهَا بالكافِ ، بخلاف التي لم تُضَمَّنْ معنى " أخبرني " فإنها تُطَابِقُ فيها ، كما تقدَّم ما يُرادُ بها .

ومنها : أنه يلحقها " كاف " هي حرف خطابٍ تُطابقُ ما يُرَادُ بها من إفرادٍ وتذكير وضِدَّيهما ، وهل هذه " التَّاء " فاعل ، و" الكاف " حرف خطاب [ تبيَّن أحوال التاء ، كما تبينه إذا كانت ضميراً ، أو التاء حرف خطاب ] و" الكاف " ضمير في موضع المفعول الأول ؟

ثلاثةُ مذاهب مشهورة ، الأوَّل : قول البصريين ، والثاني : قول الفراء ، والثالث : قول الكسائي ، ولنَقْتَصِرْ على بعض أدلَّةِ كُلِّ فريق .

قال أبو علي : " قولهم : " أرَأَيْتَكَ زَيْداً ما فعل " بفتح " التاء " في جميع الأحوال ، فالكافُ لا يخلو أن يكون للخطاب مُجَرَّداً ، ومعنى الاسمية مَخْلُوعٌ منه ، أو يكون دالاً على الاسم مع دلالتِهِ على الخطاب ، ولو كان اسْماً لوجب أن يكُون الاسْمُ الذي بعده هو هو ؛ لأن هذه الأفعال مفعولها الثَّاني هو الأوَّل في المعنى ، لكنه ليس به ، فتعيَّن أن يكون مَخْلُوعاً منه

الاسميَّةُ ، وإذا ثبت ا ، ه للخطَاب مُعَرى من الاسمية ثَبَت أن " التاء " لا تكون لِمُجرَّدِ الخطاب ، ألا ترى أنه لا ينبغي أن يَلْحَقَ الكَلِمَةُ علامتَا خطاب ، كما لا يحلقها علامتا تأنيث ولا علامتَا استفهامٍ ، فلمَّا لم يَجُزْ ذلك أفردَت " التاءُ " في جميع الأحْوَالِ لَمَّا كان الفِعْلُ لا بُدَّ من فاعلٍ ، وجُعِلَ على لَفْظٍ واحد اسْتِغْنَاءً بما يَلْحَقُ " الكاف " ، ولو لحق " التاء " علامةُ الفروع علامتَانِ للخطاب مما كان يَلْحَقُ " التاء " ، ومَّا كان يلحق " الكاف " ، فلما كان ذلك يُؤدّي إلى ما لا نَظِيرَ له رُفِضَ ، وأجْرِي على ما عليه سِائِرُ كلامهم " .

(34/232)

---

وقال الزَّجَّاج بعد حكايته مَذْهَبَ الفراء : " وهذا القَوْلُ لم يَقْبَلْهُ النحويون القُدَمَاءُ وهو خَطَأٌ لأنَّ قولك : " أرأيت زَيْداً ما شأنه " لو تعدَّتِ الرؤية إلى " الكاف " وإلى زيد لصار المعنى : أرَأَتْ نَفْسُكَ زيداً ما شأنُهُ وهذا مُحَالٌ " ثم ذكر مذهب البصريين .

وقال مكِّي بن أبي طالبٍ بعد حكايته مَذْهَبَ الفرَّاءِ : " وهذا مُحَالٌ ، لأنَّ " التاء " هي " الكاف " في " أرأيتكم " ، فكان يجب أن تُظْهَرَ علامةُ جمع " التاء " وكان يجب أن يكون فاعلان لفعلٍ واحدٍ وهما لِشَيءٍ واحد ، ويجب أن يكون معنى قولك : " أرأيتك زَيْداً ما صَنَعَ " : أرأيتَ نَفْسَكَ زَيْداً ما صنع ؛ لأن " الكاف " هو المُخَاطَبُ ، وهذا مُحَالٌ في

المعنى ، ومُتَنَاقِضٌ في الإعراب والمعنى ؛ لأنك تَسْتَفْهِمُ عن نفسه في صَدْرِ السُّؤال ، ثم ترد السؤال إلى غيره في آخره وتخاطبه أولاً ، ثم تأتي بغائبٍ آخر ، أو لأنه يَصِيرُ ثلاثة مفعولين لـ " رأيت " ، وهذا كله لا يَجُوزُ .

ولو قلت : " أرأيتك عالماً بزيد " لكان كلاماً صحيحاً ، وقد تعدَّى " رأى " إلى مفعولين " .

وقال أبو البقاء بعدما حكا مذهب البصريين : " والدَّليلُ على ذلك أنها – أي " الكاف " – لو كانت اسْماً لكانت : إمَّا مَجْرُورةً – وهو باطلٌ إذ لا جارَّ هنا – وإمَّا مَرْفُوعَةٌ ، وهو باطِلٌ أيضاً لأمرين :

أحدهما : أن " الكاف " ليست من ضمائر الرفع .

والثاني : أنها لا رَافِع لها ؛ إذا ليست فاعلاً ؛ لأن " التاء " فاعل ، ولا يكون لفعل واحدٍ فاعلان ، وإمَّا أن تكون مَنْصُوبةً ، وذلك باطلٌ لثلاثة أوجه :

أحدها : أن هذا الفِعْلَ يتعدَّى إلى مَفْعُولينِ كقولك : " أرأيت زيداً ما فعلَ " فلو جعلت " الكاف " مفعولاً كان ثالثاً .

*(35/232)*

والثاني : أنه لو كان مَفْعُولاً لكان هو الفاعل في المَعْنَى ، وليس المعنى على ذلك ، إذ ليس الغَرَضُ أرأيت نفسك ، بل أرأيت غيرك ، ولذلك قلت : أرأيتك زيداً وزيد غير المُخَاطَبِ ، ولا هو بدل منه .

والثالث : أنه لو كان مَنْصُوباً على أنه مَفْعُولٌ لظَهَرتْ علامةُ التثنية والجمع والتَّأنيث في " التاء " فكنت تقول : أرأيتماكما ، أرأيتموكم ، أرأيتكنَّ " .

ثم ذكر مَذْهَبَ الفرَّاءِ ثم قال : " وفيما ذكرنا إبطالٌ لمذهبه " .

وقد انْتَصَرَ أبو بكر بن الأَنْبَاريّ لمذهب الفرَّاء بأن قال : " لو كانت " الكافُ " توكيداً لوقَعت التَّثْنِيَةُ والجمع بالتاء ، كما يَقَعَانَ بها عند عدم " الكاف " ، فلمَّا فُتِحت " التاءُ " في خِطَابِ الجَمْعِ ووقع مِيْسَمُ الجمع لغيرها كان ذلك دَلِيلاً على أن " الكاف " غيرُ توكيد . ألا ترى أن " الكاف " لو سَقَطَتْ لم يَصلُحْ أن يُقالَ لجماعة : أرأيت ، فوضحَ بهذا انْصِرافُ الفِعْلِ إلى " الكاف " ، وأنها واجبةٌ لازِمَةٌ مُفْتَقَرٌ إليها " .

وهذا الذي قاله أبو بَكْرٍ بَاطِلٌ بالكاف اللاحِقَةِ لاسم الإشارة ، فإنها يَقَعُ عليها مِيْسَمُ الجَمْعِ ، ومع ذلك هي حرفٌ .

وقال الفراء : " موضعُ " الكاف " نصب ، وتأويلها رَفْعٌ ؛ لأن الفعل يَتَحَوَّلُ عن " التاء " إليها ، وهي بِمَنْزِلَةِ " الكاف " في " دونك " إذا أغْرِيَ بها ، كما تقول : " دُونَكَ زيداً " فتجد " الكاف " في اللَّفْظِ خَفْضاً ، وفي المعنى رفعاً ؛ لأنها مَأْمُورةٌ ، فكذلك هذه " الكافُ "

موضعُها نصبٌ ، وتأويلها رفع " .

قال شهابُ الدين : " وهذه الشُّبْهَةُ بَاطِلَةٌ لما تقدَّم ، والخلافُ في " دونك " و " إليك " وبابهما مَشْهُورٌ تقدَّم التَّنْبيهُ عليه مراراً " .

وقال الفرَّاءُ أيضاً كلاماً حَسَناً [ رأيت أن أذكره فإنه مُبِينٌ نَافِعٌ ] قال : للعرب في " أرأيت " لغتان ومعنيان :

(36/232)

---

أحدهما : رؤية العَيْنِ ، فإذا رأيت هذا عَدَّيتَ الرؤية بالضمير إلى المُخَاطَبِ ، ويتصرَّفُ سِائِرِ الأفعال ، تقول للرجل : " أرأيتك على غير هذه الحالِ " ، تريدُ : هل رأيت نفسك ، ثم تُثَنِّي وتَجْمَعُ فتقول : " أرَأَيْتُمَاكُمَا ، أرَأَيْتُمُوكُمْ ، أرَأَيْتُكُنَّ " .

والمعنى الآخر : أن تقول : " أرأيتك " وأنت تريد معنى " أخبرني " ، كقولك : أرأيتك إنْ فَعَلْتُ كذا ماذا تَفْعَلُ ، أي : أخبرني ، وتترك " التاء " إذا أردت هذا المعنى مُوَحَّدَةً ؛ لأنهم كل حالٍ تقول : " أرأيتكما ، أرأيتكم ، أرأيتكنَّ " ، وإنما تركتِ العربُ " التاء " واحدةً ؛ لأنهم لم يريدوا أن يكون الفِعْلُ واقعاً من المُخَاطَبِ على نفسه ، فاكْتَفَوْا من علامةِ المُخاطبِ بذكره في المكان ، وتركوا " التاء " على التذكير والتوحيد إذا لم يكون الفَعْلُ واقعاً ، والرُّؤيَةُ

من الأفعال الناقصة التي يُعَدّيها المُخَاطبُ إلى نفسه بالمكنى مثل : ظنتني ورأيتني ، ولا يقولون ذلك في الأفْعَالِ التَّامةِ ، لا يقولون خارجاً ؟ وذلك أنَّهم أرَادُوا الفَصْلَ بين الفعلِ الذي قد يُلْغَى ، وبين الفعل الذي لا يَجُوزُ إلْغَاؤهُ ، ألا ترى أنك تقول : " أنا أضُنُّ خَارجٌ " فتلغي " أظن " وقال الله تعالى

﴿ أَن رَّآهُ استغنى ﴾ [ العلق : 7 ] ولم يَقُل : رأى نَفْسَهُ .

وقد جاء في ضرورة الشعر إجْرَاءُ الأفعال التامة مُجْرَى النواقص ؛ قال جِرَانُ العَوْدِ : [ الطويل ]

2166 - لَقَدْ كَانَ لِي عَنْ ضَرَّتَيْنِ عَدِمْتُنِي . . .

وَعَمَّا ألاقِي مِنْهُمَا مُتَزَحْزَحُ

والعربُ تقول : " عَدِمتني ووَجَدْتُني " وليس بوجه الكلام . انتهى .

واعلم أنَّ النَّاس اختلفوا في الجملة الاستِفْهَامِيَّةِ الواقِعَةِ بعد المنصوب بـ " أرأيتك " [ نحو : أرأيتك ] زَيْداً ما صنع ؟

فالجموهور على أنَّ " زيداً " مفعول أوَّل ، والجملة بعده في مَحَلِّ نصبٍ سادَّةً مَسَدَّ المفعول الثاني .

وقد تقدَّم أنه لا يجُوزُ التَّعْلِيقُ في هذه ، وإن جاز في غيرها من أخَوَاتِهَا نحو : علمت زيداً أبو مَنْ هو .

وقال ابن كَيْسَان : " إن هذه الجملة الاستفهاميَّة في أرأيت زيداً ما صنع بَدَلٌ من أرأيتك " .

وقال الأخْفَشُ : " إنه لا بُدَّ بعد " أرأيت " التي بمعنى " أخبرني " من الاسم المُسْتَخْبَرِ عنه ، ويَلْزَمُ الجُمْلَةَ التي بعده الاستفهام ؛ لأن " أخبرني " موافق لمعنى الاستفهام " .

وزعم أيضاً أنها تخرج عن بابها ، فتكون بمعنى " أما " أو " تنبَّه " ، وحينيذٍ لا يكونُ لها مَفْعُولانِ ، ولا مَفْعُولٌ واحدٌ ، وجعل من ذلك : ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصخرة فَإِنِّي نَسِيتُ الحوت ﴾ [ الكهف : 63 ] .

وهذا يبغي ألاَّ يجوز ؛ لأنه إخْرَاجٌ للَّفْظَةِ عن موضوعها من غير دَاعٍ إلى ذلك .

إذا تقرَّرَ هذا فَيُلْرْجَعْ إلى الآية الكريمة فَنَقُولُ ، وبالله التوفيق : اختلف النَّاسُ في هذه الآية على ثلاثة أقوال :

أحدها : أن المفعول الأول ، والجملة الاستفهامية التي سدَّت مسدَّ الثاني مَحْذُوفانِ لفهم المعنى ، والتقديرُ : أرأيتكم عبادتكم الأصْنَامَ هل تنفعُكمُ ؟ أو اتِّخَاذُكُمْ غَيْرَ الله إلهاً هَلْ يكشِفُ ضُركم ؟ ونحو ذلك ، ف " عِبَادَتَكُمْ " أو " اتِّخاذكم " مفعول أوّل ، والجملة الاستفهامية سادَّةٌ مسدَّ الثَّاني ، و " التاء " هي الفاعل ، و " الكاف " حرف خطاب .

الثاني : أن الشَّرْطَ وجوابَهُ – وسيأتي بَيَانُهُ – قد سدَّا مَسَدَّ المفعولين ؛ لأنهما قد حَصَّلا المعنى المقصود ، فلم يَحْتَجْ هذا الفعل إلى مَفْعُولٍ ، وليس بشيء ؛ لأن الشَّرْطَ وجوابه لم يُعْهَدْ فيهما أن يَسُدَّا مَسَدَّ مفعولي " ظَنَّ " ، وكونُ الفاعلِ غيرَ مُحْتاجٍ لمفعول إخْرَاجٌ له عن وضعه ، فإن عنى بقوله : " سَدَّا مَسدَّهُ " أَنَّهُمَا دَالاَّنِ عليه فهو المُدَّعَى .

(38/232)

---

والثالث : أن المفعول الأوَّل محذوفٌ ، والمسألةُ من باب التَّنازُعِ بين " أرأيتكم وأتاكم " ، والمُتنازعُ فيه لَفْظُ " العذاب " وهذا اختيرا أبي حيَّان ، ولنُورِدْ كلامه ليظهر فإنه كلامٌ حسنٌ قال : " فنقول : الذي نَخْتَارُهُ أنها بَقِيَةٌ على حكمها في التعدّي إلى اثنين ، فالأوَّل منصوب ، والثاني لم نَجِدْهُ بالاسْتِقْرَاءِ إلاَّ حملة استفهامية أو قَسِمِيَّةً .

فإذا تقرَّرَ هذا فنقول : المفعول الأول في هذه الآية مَحْذُوفٌ ، والمسألة من باب التَّنازُعِ ، تنازع " أرأيتكم " والشرط على " عذاب الله " فأعمل الثَّاني ، وهُو " أتاكم " ، فارتفع " عذاب " به ، ولو أعمل الأوَّل لكان التَّرْكيب : " عذاب " بالنَّصْبِ ، ونظير ذلك " اضرب إنْ جاءك زيد " على إعْمَالِ " جاءك " ، ولو نصب لجاز ، وكان من إعمال الأوَّل .

وأمَّا المفعول الثَّاني ، فهو الجملة من الاستفهام " أَغَيْرَ الله تَدْعُونَ " والرَّابِطُ لهذه الجملة

بالمعفول الأوّل المحذوف مَحْذُوفٌ تقديره : أغَيْرَ الله تدعونِ لكَشْفِهِ ، والمعنى : قل : أرأيتكم عذابَ الله إن أتاكم - أو السَّاعة إن أتتكم - أغَيْرَ الله تَدْعُونَ لكشفه ، أو لكشف نَوازِلها " . انتهى .

والتقدير الإعْرَابيُّ الذي ذكره يَحْتَاجُ إلى بضع إيْضَاحٍ ، وتقديره : قل : أرأيتكموه أو أريتكم إيَّاهُ إن أتاكم عَذابُ الله ، فذلك الضمير هو ضَمِيرُ العذابِ لمَّا عَمِلض الثَّاني في ظاهره أعْطِيَ المُلْغَى ضَمِيرَهُ ، وإذا أضْمِرَ في الأوّل حُذِفَ ما لم كن مَرْفُوعاً ، أو خبراً في الأصْلِ ، وهذا الضمير ليس مَرْفُوعاً ، ولا خبراً في الأصل ، فلأجل ذلك حُذِفَ ولا يَثْبُتُ إلاَّ ضَرُورةً .

وأمَّا جوابُ الشَّرْط ففيه خَمسةُ أوجهٍ :

أحدهما : أنه مَحْذُوفٌ ، فقدَّرَهُ الزمخشري : " إن أتاكم عذابُ الله مَنْ تدعون " .

(39/232)

---

قال أبو حيَّان : " وإصْلاحُهُ أن تقول : " فَمَنْ تَدْعُون " بالفاء ؛ لأن جواب الشَّرْطِ إذا وقع جُمْلَةً اسْتفهامِيَّةً فلا بُدَّ فيه من الفاء " .

الثاني : أنه " أرأيتكم " ، قاله الحُوفي ، وهو فَاسِدٌ لوجهين :

أحدهما : أنّ جواب الشرط لا يتقدّمُ عند جمهور البصريين ، إنما جوّزه الكوفيون ، وأبو زيدٍ ، والمُبَرّدُ .

والثاني : أن الجملة المُصدّرة بالهمزة لا تقعُ جواباً للشَّرْطِ أَلْبَتَّةَ ، إنما يقع من الاسْتِفْهَامِ ما كان بـ " هل " أو اسْم من أسْمَاءِ الاستفهام ، وإنما لم تَقعِ الجُمْلَةُ المصدَّرَةُ بالهمزة جواباً ؛ لأنه لا يخْلُو : أن تأتي معها بالفاء ، أو لا تأتي بها ، لا جَائِز ألاَّ تأتي بها لأن كُلَّ ما لا يَصْلُحُ شرطاً يجب اقْتِرَانُهُ بالفاء إذا وقع جواباً .

ولا جَائِزَ أن تأتي بها ؛ لأنك : إمَّا أن تأتي بها قَبْلَ الهمزة ، نحو : " ن قمت فأزيد مُنْطَلِقٌ " ، أو بعدها نحو : " أفَزَيدٌ مُنْطَلِقٌ " ، وكلاهما مُمْتَنِعٌ ، أمَّا الأوّل فلتَصَدُّرِ " الفاء " على الهمزة .

وأما الثَّاني ، فإنه يُؤدّي إلى عدم الجواب بالفاء في موضع كان يجبُ فيه الإتْيَانُ بها وهذا بخلاف هل ، فإنك تأتي بالفاءِ قبلها ، فنقول : " إن قمت فهل زيد قَائِم " ؛ لأنه ليس لها تمامُ التصدير الذي تَسْتَحِقُهُ الهمزة ، ولذلك تَصَدَّرتْ على بعض حروف العطفِ ، وقد تقدَّم [ مشروحاً ] مراراً .

الثالث : أنه " أغير الله " وهو ظَاهِرُ عِبَارَةِ الزمخشري ، فإنه قال : " ويجوز أن يتعلَّق الشَّرْطُ بقوله : " أغير اللَّهِ تدعون " ، كأنه قيل : أغير الله تَدْعُون إن أتاكُمْ عَذابُ الله " .

قال أبو حيَّان : ولا يجوز أن يتعلّق الشرطُ بقوله : " أغير الله " ؛ لأنه لو تعلَّقَ به لكانَ جواباً له ، لكنه لا يقع جواباً ، لأن جواب الشَّرْط إذا كان اسْتِفْهاماً بالحرف لا يَقَعُ إلا بـ " هل " وذكر ما قدَّمْتُه إلى آخره ، وعزاه الأخفَشُ عن العرب ، ثم قال : " ولا يجوز أيضاً من وجْهْ آخر ؛ لأنَّا قد قرَّرْنَا أنَّ " أرأيتك " مُتعدّيةٌ إلى اثنين ؛ أحدهما في هذه الآية محذوفٌ ، وأنه من باب التَّنازُعِ ، والآخر وقعت الجُملةُ الاستفهَامِيَّةُ موقعه ، فلو جَعَلْتَهَا جواب الشَّرْطِ لبقيت " أرأيتكم " مُتعدِّيَةً إلى واحدٍ ، وذلك لا يجوز " .

قال شهابُ الدين : وهذا لا يَلْزَمُ الزمخشري ، فإنه لا يرتضي ما قاله من الإعراب المُشَارِ إليه .

قوله : " يلزم تعدّيهَا لِوَاحِدٍ " .

قلنا : لا نُسَلِّمُ ، بل يتعدَّى لاثْنَيْنِ محذوفين ثانيهما جملة الاستفهام ، كما قدَّره غَيْرُهُ : بـ " أرأيتكم عبادتكم هل تنفعكم " ثم قال : " وأيضاً التزامُ العرب في الشَّرْط الجائي بعد " أرأيت " مُضِيَّ الفعل دليلٌ على أنَّ جوابَ الشرط محْذُوفٌ ، لأنه لا يُحْذَفُ جوابُ الشرط إلاَّ عند مُضِيِّ فِعْلِهِ ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ ﴾ [ الأنعام : 47 ] ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ ﴾ [ الأنعام : 46 ] ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ ﴾ [ القصص : 71 ] ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ ﴾ [ يونس : 50 ] ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴾

[الشعراء : 205 ] ﴿ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وتولى ﴾ [العلق : 31 ] إلى غير ذلك من الآيات .

وقال الشاعر : [الرجز]

2167 - أَرَيْتَ إِنْ جَاءَتْ بِهِ أَمْلُودَا . . .

وأيضاً مَجيءُ الجملة الاستفهاميَّةِ مصدَّرةً بهمزة الاستفْهَامِ دليلٌ على أنها ليست جوابَ الشَّرْط ، إذ لا يَصِحُّ وُقُوعُهَا جواباً للشرط " انتهى .

*(41/232)*

---

ولَمَّا جوَّز الزمخشري أن الشَّرْطَ مُتعلِّقٌ بقوله : " أَغَيْرَ الله " سأل سؤالاً ، وأجاب عنه ، قال : " فإن قلت : إن علّقت الشّرْط به ، فما تصْنَعُ بقوله : ﴿ فَيَكْشِفُ ما تَدْعُون إليه ﴾ مع قوله : ﴿ أَوْ أَتَتْكُمْ الساعة ﴾ ، وقوارعُ السَّاعة لا تُكْشَفُ عن المشركين ؟

قلت : قد اشترط في الكَشْفِ المَشِيئَةَ وهو قوله : " إنْ شَاءَ " إيذاناً بأنه إنْ فَعَلَ كان له وَجْهٌ من الحكمة ، إلا أنه لا يَفْعَلُ لِوَجْهٍ آخرَ من الحكمة أرجح منه " .

قال أبو حيَّان : " وهذا مَبْنِيٌّ على أن الشَّرطَ متعلقٌ بـ " أغير الله " وقد اسْتَدْلَلْنَا على أنه لا يَجُوزُ " .

قال شهابُ الدين : ترك الشَّيخُ التَّنْبيهَ على ما هو أهَمُّ من ذلكن وهو قوله : " إلاَّ أنه لا يفعل لوجهٍ آخر من الحِكْمَةِ أرْجَحَ منه " وهذا أصْلٌ فاسدٌ من أصُولِ المعتزلة يزعمون أن أفعاله - تعالى تابعةٌ لمصالحَ وحكم ، يترَّجحُ مع بعضها الفعلُ ، ومع بعضها الترك ، ومع بضعها يَجبُ الفعلُ أو الترك ، تعالى الله عن ذلك ، بل أفْعِالُهُ لا تُعَلَّلُ بغرضٍ من الأغراض ، ﴿ لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَل ﴾ [ الأنبياء : 23 ] ، كما تقرر في علم الأصول .

الرابع : أن جوابَ الشَّرْطِ محذوف تقديره : إن أتاكم عذابُ الله ، أو أتتكم السَّاعَةُ [ دَعَوْتُمْ ] ودَلَّ عليه قوله : " أغير الله تدعون " .

الخامس : أنه مَحْذُوفٌ أيضاً ، ولكنه مُقدَّرٌ من جِنْسِ ما تقدَّمَ في المعنى ، تقديره : إن أتاكم عذابُ الله ، أو أتتكم السَّاعةُ فأخبروني عنه أتَدْعُونَ غير اللهِ لكَشْفِهِ ، كما تقول : " أخبرني عن زيدٍ إن جاءك ما تصنعُ به " ، أي إن جاءك فأخْبِرْني عنه ، فحذف الجوابُ لدلالة " أخبرني " عليه ، ونظيرُهُ : أنت ظَالِمٌ إن فعلت ، أي : فأنت ظَالِمٌ ، فحذف " فأنت ظَالِمٌ " لدلالة ما تقدَّم عليه .

وهذا ما اختارَهُ أبو حيَّان .

*(42/232)*

قال : " وهو جارٍ على قواعدِ العربية " وادَّعى أنه لم يَرهُ لغيره .

قوله : ﴿ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُون ﴾ .

" غَيْرَ " مفعول مُقدَّمٌ لـ " تَدْعون " ، وتقديمُه : إمَّا للاخْتِصَاصِ كما قال الزمخشري : بَكَّتَهُمْ بقوله : أغير الله تَدْعُون ، بمعنى : أَتَخُصُّونَ آلهتكم بالدَّعْوةِ فميا هو عَادَتُكُمْ إذا أصَابَكُمْ ضُرٌّ ، أم تدعون الله دونها ، وإمَّا للإنْكَارِ عليهم في دُعَائِهِمْ للأصْنَامِ ، لأن المُنْكَرِ إنما هو دُعَاءُ الأصْنَام لا نَفْسُ الدُّعاء ، ألا ترى أنك إذا قلت : " أزَيْداً تضربُ " إنما تُنْكِرُ كَوْنَ " زيد " محلاًّ للضَّرْب ، [ ولا تُنْكِرُ نَفْسَ الضرب ، ] وهذا من قَاعِدَةٍ بَيَانِيَّةٍ قدمت التنبيه عليها عند قوله تعالى : ﴿ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني ﴾ [ المائدة : 116 ] .

قوله : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ﴾ جوابه مَحْذُوفٌ لدلالة الكلام عليه ، وكذلك مَعْمُولُ " صَادِقِنَ " ، إن كنتم صَادِقِينَ في دعْوَاكُمْ أنَّ غير الله إلهٌ ، فهل تَدْعونه لِكَشْفِ ما يَحُلُّ بكم من العذابِ ؟ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 133. 143 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (40) ﴾

إذا مَسَّكم الضُرُّ ، ونَابَكُم أمرٌ فمِمَّنْ ترومون كَشْفَه ؟ ومَنْ الذي تؤملون لُطْفَه ؟ أمخلوقاً

شرقياً أم شخصاً غربياً ؟ أم مَلَكاً سماوياً أم عبداً أرضياً ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 471 ﴾

*(43/232)*

---

قوله تعالى ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (41) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان استفهام الإنكار بمعنى النفي ، كان كأنه قيل : لا تدعون غيره ، فعطف عليه قوله : ﴿ بل إياه ﴾ أي خاصة ﴿ تدعون ﴾ أي حينئذ ؛ ولما كان يتسبب عن دعائهم تارة الإجابة وأخرى غيرها قال : ﴿ فيكشف ﴾ أي الله في الدنيا أو في الآخرة ، فإنه لا يجب عليه شيء ، ولا يقبح منه شيء ﴿ ما تدعون إليه ﴾ أي إلى كشفه ﴿ إن شاء ﴾ أي ذلك تفضلاً عليكم كما هي عادته معكم في وقت شدائدكم ، ولكنه لا يشاء كشفه في الآخرة ، لأنه لا يبدل القول لديه وإن كان له أن يفعل ما يشاء ، ولو كان يجيبكم دائماً وأنتم لا تدعون غيره ، لكان ذلك كافياً في الدلالة على اعتقادكم أنه لا قادر إلا هو ، فكيف وهو

يجيبكم في الدنيا إذا دعوتموه تارة ويجيبكم أخرى ، ومع ذلك فلا يردكم عدم إجابته عن اعتقاد قدرته ودوام الإقبال عليه في مثل تلك الحال لما ركز في العقول السليمة والفطر الأولى من أنه الفاعل المختار ، وعلى ذلك دل قوله عطفاً على " تدعون " : ﴿ وتنسون ﴾ أي تتركون في تلك الأوقات دائماً ﴿ ما تشركون ﴾ أي من معبوداتكم الباطلة لعلمكم أنها لا تغني شيئاً ، كما هي عادتكم دائماً في أوقات الشدائد رجوعاً إلى حال الاستقامة . أفلا يكون لكم هذا زاجراً عن الشرك في وقت الرخاء خوفاً من إعادة الضراء ! . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 635 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أي فيكشف الضر الذي من أجله دعوتم وتنسون ما تشركون به ، وفيه وجوه : الأول : قال ابن عباس : المراد تتركون الأصنام ولا تدعونهم لعلمكم أنها لا تضر ولا تنفع .

*(44/232)*

الثاني : قال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى أنكم في تركككم دعاءهم بمنزلة من قد نسيهم ، وهذا قول الحسن لأنه قال : يعرضون إعراض الناسي ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا كُنتُمْ فِى الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الموج مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنهم أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ الله ﴾ [ يونس : 22 ] ولا يذكرون الأوثان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 184 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون ﴾ ﴿ إياه ﴾ ضمير نصب منفصل وتقدم الكلام عليه في قوله :

﴿ إياك نعبد ﴾ مستوفى .

وقال ابن عطية : هنا ﴿ إياه ﴾ اسم مضمر أجري مجرى المظهرات في أنه يضاف أبداً ؛ انتهى ، وهذا مخالف لمذهب سيبويه ، لأن مذهب سيبويه إن ما اتصل بأياً من دليل تكلم أو خطاب أو غيبة وهو حرف لا اسم أضيف إليه أياً لأن المضمر عنده لا يضاف لأنه أعرف المعارف ، فلو أضيف لزم من ذلك تنكره حتى يضاف ويصير إذ ذاك معرفة بالإضافة لا يكون مضمراً وهذا فاسد ، ومجيئه هنا مقدماً على فعله دليل على الاعتناء بذكر المفعول وعند الزمخشري إن تقديمه دليل على الحصر والاختصاص ، ولذلك قال : بل تخصونه بالدعاء دون الآلهة ، والاختصاص عندنا والحصر فهم من سياق الكلام لا من

تقديم المفعول على العامل و﴿ بل ﴾ هنا للإضراب والانتقال من شيء إلى شيء من غير إبطال لما تضمنه الكلام السابق من معنى النفي لأن معنى الجملة السابقة النفي وتقديرها ما تدّعون أصنامكم لكشف العذاب وهذا كلام حق لا يمكن فيه الإضراب يعني الإبطال ، و﴿ ما ﴾ من قوله ﴿ ما تدعون ﴾ الأظهر أنها موصولة أي فيكشف الذي تدعون .

قال ابن عطية : ويصح أن تكون ظرفية ؛ انتهى .

*(45/232)*

---

ويكون مفعول يكشف محذوفاً أي فيكشف العذاب مدة دعائكم أي ما دمتم داعيه وهذا فيه حذف المفعول وخروج عن الظاهر لغير حاجة ، ويضعفه وصل ﴿ ما ﴾ الظرفية بالمضارع وهو قليل جدّاً إنما بابها إن توصل بالماضي تقول ألا أكلمك ما طلعت الشمس ولذلك علة ، أما ذكرت في علم النحو ، قال ابن عطية : ويصح أن تكون مصدرية على حذف في الكلام .

وقال الزجاج : وهو مثل ﴿ واسأل القرية ﴾ انتهى .

ويكون تقدير المحذوف فيكشف موجب دعائكم وهو العذاب ، وهذه دعوى محذوف غير متعين وهو خلاف الظاهر والضمير في ﴿ إليه ﴾ عائد على ﴿ ما ﴾ الموصولة أي

إلى كشفه ودعا بالنسبة إلى متعلق الدعاء يتعدى بإلى قال الله تعالى : ﴿ وإذا دعوا إلى الله ﴾ الآية .

وقال الشاعر :

وإن دعوت إلى جلّى ومكرمة . . .

يوماً سراة كرام الناس فادعينا

وتتعدى باللام أيضاً قال الشاعر :

وإن أدع للجلى أكن من حماتها . . .

وقال آخر :

دعوت لما نابني مسوراً . . .

وقال ابن عطية : والضمير في ﴿ إليه ﴾ يحتمل أن يعود إلى الله بتقدير فيكشف ما تدعون فيه إلى الله ؛ انتهى .

وهذا ليس بجيد لأن دعا بالنسبة إلى مجيب الدعاء إنما يتعدّى لمفعول به دون حرف جر قال تعالى : ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ ﴿ أجيب دعوة الدّاع إذا دعان ﴾ ومن كلام العرب دعوت الله سميعاً ولا تقول بهذا المعنى دعوت إلى الله بمعنى دعوت الله إلا أنه يمكن أن يصحح كلامه بدعوى التضمين ضمن يدعون معنى يلجؤون ، كأنه قيل فيكشف ما يلجؤون فيه بالدّعاء إلى الله لكن التضمين ليس بقياس ولا يصار إليه إلا عند الضرورة ، ولا

ضرورة عنا تدعو إليه وعذق تعالى الكشف بمشيئته فإن شاء أن يتفضل بالكشف فعل وإن لم يشأ لم يفعل لا يجب عليه شيء .

قال الزمخشري : إن شاء إن أراد أن يتفضل عليكم ولم تكن مفسدة ؛ انتهى .

(46/232)

---

وفي قوله : ولم تكن مفسدة دسيسة الاعتزال ، وظاهر قوله : ﴿ وتنسون ما تشركون ﴾ النسيان حقيقة والذهول والغفلة عن الأصنام لأن الشخص إذا دهمه ما لا طاقة له بدفعه تجرد خاطره من كل شيء إلا من الله الكاشف لذاك الداهم ، فيكاد يصير كالملجأ إلى التعلق بالله والذهول عن من سواه فلا يذكر غير الله القادر على كشف ما دهم .

وقال الزمخشري : ﴿ وتنسون ما تشركون ﴾ وتكرهون آلهتكم وهذا فيه بعد .

وقال ابن عطية : تتركونهم وتقدم قوله هذا وسبقه إليه الزجاج فقال : تتركونهم لعلمكم أنهم في الحقيقة لا يضرون ولا ينفعون .

وقال النحاس : هو مثل قوله ﴿ لقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ﴾ وقيل : يعرضون إعراض الناسي لليأس من النجاة من قبله ، و ﴿ ما ﴾ موصولة أي وتنسون الذي تشركون .

وقيل : ﴿ ما ﴾ مصدرية أي وتنسون إشراككم ومعنى هذه الجمل بل لا ملجأ لكم إلا الله تعالى وأصنامكم مطرحة منسية قاله ابن عطية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(47/232)

---

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴾ قال أهل اللغة : بل للاستدراك والإيجاب بعد النفي .

وإنما تستعمل في موضعين : أحدهما لتدارك الغلط ، والثاني : لترك شيء وأخذ شيء آخر .

فهاهنا بيّن أنهم لا يدعون غير الله تعالى .

وإنما يدعون الله عنهم ليكشف عنهم العذاب .

﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ ﴾ وإنما قرن بالاستثناء وبالمشيئة ، لأن كشف العذاب فضل الله تعالى ، وفضل الله تعالى يؤتيه من يشاء .

ثم قال : ﴿ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ يعني : تتركون دعاء الآلهة عند نزول الشدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

وقوله تعالى : ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴾ عطفٌ على جملة منفيةٍ ينْبىء عنها الجملةُ التي تعلقَ بها الاستخبارُ إنباءً جلياً كأنه قيل : لا غيرَه تعالى تدعون بل إياه تدعون وقوله تعالى ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أي إلى كشفه ، عطفٌ على تدعون أي فيكشفه إثرَ دعائِكم ، وقوله تعالى : ﴿ إِن شَاءَ ﴾ أي إن شاء كشفَه لبيانِ أن قبولَ دعائِهم غيرُ مطَّردٍ ، بل هو تابعٌ لمشيئته المبنيةِ على حِكَمٍ خفيةٍ قد استأثر الله تعالى بعلمها فقد يقبلُه كما في بعض دعواتهم المتعلقةِ بكشف العذاب الدنيوي ، وقد لا يقبله كما في بعضٍ آخَرَ منها وفي جميع ما يتعلق بكشف العذابِ الأخرويِّ الذي من جملته الساعةُ . وقوله تعالى : ﴿ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ أي تتركون ما تشركونه به تعالى من الأصنام تركاً كلياً . عطفٌ على تدعون أيضاً وتوسيطُ الكشفِ بينهما مع تقارنهما وتأخُرِ الكشف عنهما لإظهار كمال العنايةِ بشأن الكشفِ والإيذان بترتّبه على الدعاء خاصةً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(48/232)

وقال الآلوسى :

﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ ﴾

نعم التقديم في قوله تعالى : ﴿ بَلْ إياه تَدْعُونَ ﴾ للتخصيص أي بل تخصونه سبحانه بالدعاء وليس لرعاية الفواصل ، والتخصيص مستفاد مما بعد وهو عطف على جملة منفية تفهم من الكلام السابق كأنه قيل : لا غير الله تدعون بل إياه تدعون ، وجعله في "الكشف" عطفاً على ﴿ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ ﴾ [ الأنعام : 4 ] وأورد الزمخشري على كون ﴿ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ ﴾ متعلق الاستخبار أن قوله سبحانه : ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أي ما تدعونه إلى كشفه مع قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَتَتْكُمُ الساعة ﴾ [ الأنعام : 40 ] يأباه فإن قوارع الساعة لا تكشف عن المشركين .

وأجاب بأنه قد اشترط في "الكشف" المشيئة بقوله جل شأنه : ﴿ إِن شَاء ﴾ وهو عز وجل لا يشاء كشف هاتيك الفوارع عنهم ، وخص الايراد بذلك الوجه على ما في "الكشف" لأن الشرطين فيه لما كانا متعلقين بقوله سبحانه : ﴿ أَغَيْرَ ﴾ [ الأنعام : 40 ] الخ وكان ﴿ بَلْ إياه ﴾ الخ عطفاً عليه ضرابا عنه والمعطوف في حكم المعطوف عليه وجب أن يكونا متعلقين به أيضاً .

ولما كان الكشف مستعقب الدعاء مستفاداً عنه وجب أن يكونا متعلقين به أيضاً فجاء سؤال أن قوارع الساعة لا تكشف .

وأما في الوجه الآخر فلأن ﴿ أَغَيْرَ ﴾ الخ لما كان كلاماً مستقلاً لم يتعلق به الشرطان لفظاً بل جاز أن يقدرا أو هو الظاهر إن ساعد المعنى ، وأن يقدر واحد منهما حسب استدعاء المقام وذلك أنه سبحانه بكتهم بما كانوا عليه من اختصاصهم إياه تعالى بالدعاء عند الكرب ألا ترى إلى قوله جل شأنه : ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضر فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ [ النحل : 53 ] فلا مانع من ذكر أمرين والتقريع على أحدهما دون الآخر لا سيما عند اختصاصه بالتقريع انتهى .

وربما يقال : إن كشف القوارع الدنيوية والأخروية بدعاء المؤمن أو المشرك بل قبول الدعاء مطلقاً مشروط بالمشيئة وبذلك تقيد آية ﴿ ادعونى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [ غافر : 60 ] ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنّي فَإِنّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الداع إِذَا دَعَانِ ﴾ [ البقرة : 186 ] لكن انتفاء المشيئة متحقق في بعض الصور كما في قبول دعاء الكفار بكشف قوارع الساعة وما يلقونه من سوء الجزاء على كفرهم وكشف بعض الأهوال عنهم ككرب طول الوقوف حين يشفع صلى الله عليه وسلم فيشفع في الفصل بين الخلائق يومئذٍ ليس من باب استجابة دعائهم في شيء .

*(49/232)*

على أن كرب طول الوقوف الذي يفارقونه نعيم بالنسبة إلى ما يلاقونه بعد وإن لم يعلموا ذلك قبل فالقوارع محيطة بهم في ذلك اليوم لا تفارقهم أصلاً وإنما ينتقلون فيها من شديد إلى أشد ، فقول بعضهم إثر قول الزمخشري : فإن قوارع الساعة لا تكشف عن المشركين الأحسن عندي أن هول القيامة يكشف أيضاً ككرب الموقف إذا طال كما ورد في حديث الشفاعة العظمى إلا أن الزمخشري لم يذكره لأن المعتزلة قائلون بنفي الشفاعة وقد غفل عن هذا من اتبعه كلام خال عن التحقيق ، والمعتزلة على ما في "مجمع البحار" لا ينفون الشفاعة في فصل القضاء وإنما ينكرون الشفاعة لأهل الكبائر والكفار في النجاة من النار .

هذا واختلف المفسرون في جواب الشرط الأول فقيل محذوف تقديره فمن تدعون ، وقيل : وعليه أبو البقاء تقديره دعوتم الله تعالى ، وقيل : إنه مذكور وهو أرأيتكم ، وقيل : ونسب للرضي هو الجملة المتضمنة للاستفهام بعده وهو كالمتعين على بعض الأقوال ، ورده الدماميني بأن الجملة كذلك لا تقع جواباً للشرط بدون فاء .

وبحث في ذلك الشهاب في "حواشيه على شرح الكافية" للرضي .

وقال أبو حيان وتبعه غير واحد : الذي أذهب إليه أن يكون الجواب محذوفاً لدلالة ﴿ أَرَأَيْتَكُم ﴾ [ الأنعام : 40 ] عليه تقديره إن أتاكم عذاب الله تعالى فأخبروني عنه أتدعون غير الله تعالى لكشفه كما تقول : أخبرني عن زيد إن جاءك ما تصنع به فإن التقدير إن

جاءك فأخبرني فحذف الجواب لدلالة أخبرني عليه .

ونظير ذلك أنت ظالم إن فعلت انتهى فافهم ولا تغفل .

(50/232)

---

وقوله تعالى : ﴿ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ عطف على ﴿ تَدْعُونَ ﴾ والنسيان مجاز عن الترك كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أي تتركون ما تشركون به تعالى من الأصنام تركاً كلياً ، وقيل : يحتمل أن يكون على حقيقته فإنهم لشدة الهول ينسون ذلك حقيقة ، ولا يخطر لهم ببال ولا يلزم حينئذٍ أن ينسى الله تعالى لأن المعتاد في الشدائد أن يلهج بذكره تعالى وينسى ما سواه سبحانه ، وقدم الكشف مع تأخره عن النسيان كتأخره عن الدعاء لإظهار كمال العناية بشأنه والإيذان بترتبه على الدعاء خاصة . انتهى .

اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

موقع ﴿ بَل إيّاه تدعون ﴾ عقب هذا الاستفهام موقع النتيجة للاستدلال .

فحرف ( بل ) لإبطال دعوة غير الله .

أي فأنا أجيب عنكم بأنّكم لا تدعون إلاّ الله .

ووجه تولّي الجواب عنهم من السائل نفسِه أنّ هذا الجواب لمّا كان لا يسع المسؤول إلاّ إقرارُه صحّ أن يتولّى السائل الجوابَ عنه ، كما تقدّم في قوله تعالى : ﴿ قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله ﴾ في هذه السورة [ 12 ] .

وتقديم المفعول على تَدْعون ﴾ للقصر وهو قصر إفراد للردّ على المشركين في زعمهم أنّهم يدعون الله ويدعون أصنامهم ، وهم وإن كانوا لم يزعموا ذلك في حالِ ما إذا أتاهم عذاب الله أو أتتهم الساعة إلاّ أنّهم لمّا ادّعوه في غير تلك الحالة نزّلوا منزلة من يستصحب هذا الزعم في تلك الحالة أيضاً .

وقوله : ﴿ فيكشف ﴾ عطف على ﴿ تدعون ﴾ ، وهذا إطماع في رحمة الله لعلّهم يتذكّرون .

ولأجل التعجيل به قدّم ﴿ وتنسوْن ما تشركون ﴾ وكان حقّه التأخير .

فهو شبيه بتعجيل المسرّة .

ومفعول : ﴿ تدعون ﴾ محذوف وهو ضمير اسم الجلالة ، أي ما تدعونه .

والضمير المجرور بِ ( إلى ) عائد على ﴿ ما ﴾ من قوله ﴿ ما تدعون ﴾ أي يكشف الذي تدعونه إلى كشفه .

وإنّما قيّد كشف الضرّ عنهم بالمشيئة لأنَّه إطماع لا وعد .

وعديّ فعل ﴿ تدعون ﴾ بحرف ( إلى ) لأنّ أصل الدعاء نداء فكأنّ المدعو مطلوب بالحضور إلى مكان اليأس .

ومفعول ﴿ شاء ﴾ محذوف على طريقة حذف مفعول فعل المشيئة الواقع شرطاً ، كما تقدّم آنفاً .

وفي قوله : ﴿ إن شاء ﴾ إشارة إلى مقابله ، وهو إن لم يشأ لم يكشف ، وذلك في عذاب الدنيا .

وأما إتيان الساعة فلا يُكشف إلاّ أن يراد بإتيانها ما يحصل معها من القوارع والمصائب من خسف وشبهه فيجوز كشفه عن بعض الناس .

وممَّا كشفه الله عنهم من عذاب الدنيا عذابُ الجوع الذي في قوله تعالى : ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم إلى قوله إنّا كاشفوا العذاب قليلاً إنّكم عائدون يوم نبطش البطشة الكبرى إنّا منتقمون ﴾ [ الدخان : 10 16 ] فُسّرت البطشة بيوم بدر .

وجملة : ﴿ فيكشف ﴾ الخ معترضة بين المعطوفين .

وقوله : ﴿ وتنسون ما تشركون ﴾ عطف على ﴿ إيّاه تدعون ﴾ ، أي فإنّكم في ذلك الوقت تنسون ما تشركون مع الله ، وهو الأصنام .

وقوله : ﴿ وتنسون ما تُشركون ﴾ يجوز أن يكون النسيان على حقيقته ، أي تذهلون عن الأصنامِ لِمَا ترون من هول العذاب وما يقع في نفوسهم من أنّه مرسل عليهم من الله فتنشغل أذهانهم بالذي أرسل العذاب وينسون الأصنام التي اعتادوا أن يستشفعوا بها .

ويجوز أن يكون مجازاً في الترك والإعراض ، أي وتعرضون عن الأصنام ، إذ لعلَّهم يلهمون أن يستدلّون في تلك الساعة على أنّ غير الله لا يكشف عنهم من ذلك العذاب شيئاً ، وإطلاق النسيان على الترك شائع في كلام العرب ، كما في قوله تعالى : ﴿ فاليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ [ الجاثية : 34 ] ، أي نهملكم كما أنكرتم لقاء الله هذا اليوم .

ومن قبيله قوله تعالى : ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ [ الماعون : 5 ] .

وفي قوله : ﴿ فيكشف ما تدعون إليه إن شاء ﴾ دليل على أنّ الله تعالى قد يجيب دعوة الكافر في الدنيا تبعاً لإجراء نعم الله على الكفّار .

*(52/232)*

---

والخلاف في ذلك بين الأشعري والماتريدي آئل إلى الاختلاف اللفظي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

هذه الآية تدل على أنه تعالى قد يجيب الدعاء إن شاء وقد لا يجيبه ، لأنه تعالى قال : ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء ﴾ ولقائل أن يقول : إن قوله ﴿ ادعونى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [ غافر : 60 ] يفيد الجزم بحصول الإجابة ، فكيف الطريق إلى الجمع بين الآيتين .

والجواب أن نقول : تارة يجزم تعالى بالإجابة وتارة لا يجزم ، إما بحسب محض المشيئة كما هو قول أصحابنا ، أو بحسب رعاية المصلحة كما هو قول المعتزلة ، ولما كان كلا الأمرين حاصلاً لا جرم وردت الآيتان على هذين الوجهين .

وحاصل هذا الكلام كأنه تعالى يقول لعبدة الأوثان : إذا كنتم ترجعون عند نزول الشدائد إلى الله تعالى لا إلى الأصنام والأثان ، فلم تقدمون على عبادة الأصنام التي لا تنتفعون بعبادتها ألبتة ؟ وهذا الكلام إنما يفيد لو كان ذكر الحجة والدليل مقبولاً .

أما لو كان ذلك مردوداً وكان الواجب هو محض التقليد ، كان هذا الكلام ساقطاً ، فثبت أن هذه الآية أقوى الدلائل على أن أصل الدين هو الحجة والدليل . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 184 ﴾ . بتصرف يسير .

*(53/232)*

فصل

قال الشيخ سيد قطب :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (40) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (41) ﴾

هنا – في هذه الموجة – يواجه السياق القرآني فطرة المشركين ببأس الله . بل يواجههم بفطرتهم ذاتها حين تواجه بأس الله . . حين تتعرى من الركام في مواجهة الهول ، وحين يهزها الهول فيتساقط عنها ذلك الركام ! وتنسى حكاية الآلهة الزائفة ؛ وتتجه من فورها إلى ربها الذي تعرفه في قرارتها تسأله وحده الخلاص والنجاة !

ثم يأخذ بأيديهم ليوقفهم على مصارع الغابرين من أسلافهم ، وفي الطريق يريهم كيف تجري سنة الله ، وكيف يعمل قدر الله . ويكشف لأبصارهم وبصائرهم عن استدراج الله لهم ، بعد تكذيبهم برسل الله ، وكيف قدم لهم الابتلاء بعد الابتلاء – الابتلاء بالبأساء والضراء ، ثم الابتلاء بالرخاء والنعماء – وأتاح لهم الفرصة بعد الفرصة ، لينتبهوا من الغفلة ، حتى إذا استنفدوا الفرص كلها ، وغرتهم النعمة بعد أن لم توقظهم الشدة ، جرى قدر الله ، وفق سنته الجارية وجاءهم العذاب بغتة : ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ .

وما يكاد هذا المشهد الذي يهز القلوب هزاً يتوارى ، حتى يجيء في أعقابه مشهد آخر

وهم يتعرضون لبأس الله أيضاً ، فيأخذ سمعهم وأبصارهم ، ويختم على قلوبهم ، ثم لا يجدون إلهاً غير الله يرد عليهم سمعهم وأبصارهم وإدراكهم .

*(54/232)*

---

وفي مواجهة هذين المشهدين الرائعين الهائلين يتحدث إليهم عن وظيفة الرسل . . إنها البشارة والنذارة . . ليس وراء ذلك شيء . . ليس لهم أن يأتوا بالخوارق ، ولا أن يستجيبوا لمقترحات المقترحين ! إنما هم يبلغون . يبشرون وينذرون . ثم يؤمن فريق من الناس ويعمل صالحاً فيأمن الخوف وينجو من الحزن . ويكذب فريق ويعرض فيمسه العذاب بهذا الإعراض والتكذيب . فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر . . فهذا هو المصير . .

﴿ قل : أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ، أغير الله تدعون – إن كنتم صادقين – بل إياه تدعون ، فيكشف ما تدعون إليه – إن شاء – وتنسون ما تشركون ﴾ . .

هذا طرف من وسائل المنهج الرباني في خطاب الفطرة الإنسانية بهذه العقيدة يضم إلى ذلك الطرف الذي سبق بيانه في الفقرة السابقة وفيما قبلها وما بعدها كذلك في سياق السورة .

لقد خاطبها هناك بما في عوالم الأحياء من آثار التدبير الإلهي والتنظيم ؛ وبما في علم الله من إحاطة وشمول . وهو هنا يخاطبها ببأس الله ؛ وبموقف الفطرة إزاءه حين يواجهها في صورة من صوره الهائلة ، التي تهز القلوب ، فيتساقط عنها ركام الشرك ؛ وتتعرى فطرتها من هذا الركام الذي يحجب عنها ما هو مستقر في أعماقها من معرفتها بربها ، ومن توحيدها له أيضاً :

﴿ قل : أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة . . أغير الله تدعون . . إن كنتم صادقين ﴾ . .

إنها مواجهة الفطرة بتصور الهول . . عذاب الله في الدنيا عذابَ الهلاك والدمار ؛ أو مجيء الساعة على غير انتظار .

. والفطرة حين تلمس هذه اللمسة ؛ وتتصور هذا الهول ؛ تدرك – ويعلم الله سبحانه أنها تدرك – حقيقة هذا التصور ، وتهتز له ؛ لأنه يمثل حقيقة كامنة فيها ، يعلم بارئها سبحانه أنها كامنة فيها ويخاطبها بها على سبيل التصور ؛ فتهتز لها وترتجف وتتعرى !

وهو يسألهم ويطلب إليهم الجواب بالصدق من ألسنتهم ؛ ليكون تعبيراً عن الصدق في فطرتهم :

﴿ أغير الله تدعون . . إن كنتم صادقين ﴾ .

ثم يبادر فيقرر الجواب الصادق ، المطابق لما في فطرتهم بالفعل ، ولو لم تنطق به ألسنتهم :

﴿ بل إياه تدعون . . فيكشف ما تدعون إليه إن شاء . . وتنسون ما تشركون ﴾ .

بل تدعونه وحده ؛ وتنسون شرككم كله ! . . إن الهول يعرّي فطرتكم – حينئذ – فتتجه بطلب النجاة إلى الله وحده . وتنسى أنها أشركت به أحداً . بل تنسى هذا الشرك ذاته . . إن معرفتها بربها هي الحقيقة المستقرة فيها ؛ فأما هذا الشرك فهو قشرة سطحية طارئة عليها ، بفعل عوامل أخرى . قشرة سطحية في الركام الذي ران عليها . فإذا هزها الهول تساقط هذا الركام ، وتطايرت هذه القشرة ، وتكشفت الحقيقة الأصيلة ، وتحركت الفطرة حركتها الفطرية نحو بارئها ، ترجوه أن يكشف عنها الهول الذي لا يد لها به ، ولا حيلة لها فيه . .

هذا شأن الفطرة في مواجهة الهول ؛ يواجه السياق القرآني به المشركين . . فأما شأن الله – سبحانه – فيقرره في ثنايا المواجهة . فهو يكشف ما يدعونه إليه – إن شاء – فمشيئته طليقة ، لا يرد عليها قيد . فإذا شاء استجاب لهم فكشف عنهم ما يدعون كله أو بعضه ؛ وإن شاء لم يستجب ، وفق تقديره وحكمته وعلمه .

هذا هو موقف الفطرة من الشرك الذي تزاوله أحياناً ، بسبب ما يطرأ عليها من الانحراف ، نتيجة عوامل شتى ، تغطي على نصاعة الحقيقة الكامنة فيها . . حقيقة اتجاهها إلى ربها

ومعرفتها بوحدانيته . . فما هو موقفها من الإلحاد وإنكار وجود الله أصلاً ؟

نحن نشك شكاً عميقاً – كما قلنا من قبل – في أن أولئك الذين يمارسون الإلحاد في صورته هذه صادقون فيما يزعمون أنهم يعتقدونه . نحن نشك في أن هناك خلقاً أنشأته يد الله ، ثم يبلغ به الأمر حقيقة أن ينطمس فيه تماماً طابع اليد التي أنشأته ؛ وفي صميم كينونته هذا الطابع ، مختلطاً بتكوينه متمثلاً في كل خلية وفي كل ذرة !

*(56/232)*

---

إنما هو التاريخ الطويل من العذاب البشع ، ومن الصراع الوحشي مع الكنيسة ، ومن الكبت والقمع ، ومن أنكار الكنيسة للدوافع الفطرية للناس مع استغراقها هي في اللذائذ المنحرفة . . إلى آخر هذا التاريخ النكد الذي عاشته أوربا قروناً طويلة . . هو الذي دفع الأوربيين في هذه الموجة من الإلحاد في النهاية . . فراراً في التيه ، من الغول الكريه .

ذلك إلى استغلال اليهود لهذا الواقع التاريخي ؛ ودفع النصارى بعيداً عن دينهم ؛ ليسلس لهم قيادهم ، ويسهل عليهم إشاعة الانحلال والشقاء فيهم ، وليتيسر لهم استخدامهم – كالحمير – على حد تعبير " التلمود " و" بروتوكولات حكماء صهيون " .

وما كان اليهود ليبلغوا من هذا كله شيئاً إلا باستغلال ذلك التاريخ الأوربي النكد ، لدفع

الناس إلى الإلحاد هرباً من الكنيسة .

ومع كل هذا الجهد الناصب ، المتمثل في محاولة " الشيوعية " – وهي إحدى المنظمات اليهودية – لنشر الإلحاد ، خلال أكثر من نصف قرن ، بمعرفة كل أجهزة الدولة الساحقة ، فإن الشعب الروسي نفسه لم يزل في أعماق فطرته الحنين إلى عقيدة في الله . . ولقد اضطر " ستالين " الوحشي – كما يصوره خلفه خروشوف ! – أن يهادن الكنسية ، في أثناء الحرب العالمية الثانية ، وأن يفرج عن كبير الأساقفة ، لأن ضغط الحرب كان يلوي عنقه للاعتراف للعقيدة في الله بأصالتها في فطرة الناس . . مهما يكن رأيه ورأي القليلين من الملحدين من ذوي السلطان حوله .

*(57/232)*

---

ولقد حاول اليهود – بمساعدة " الحمير " الذين يستخدمونهم من الصليبيين – أن ينشروا موجة من الإلحاد في نفوس الأمم التي تعلن الإسلام عقيدة لها وديناً . ومع أن الإسلام كان قد بهت وذبل في هذه النفوس . . فإن الموجة التي أطلقوها عن طريق " البطل " أتاتورك في تركيا . . انحسرت على الرغم من كل ما بذلوه لها – وللبطل – من التمجيد والمساعدة . وعلى كل ما ألفوه من الكتب عن البطل والتجربة الرائدة التي قام بها . . ومن ثم استداروا

في التجارب الجديدة يستفيدون من تجربة أتاتورك ، ألا يرفعوا على التجارب الرائدة راية الإلحاد . إنما يرفعون عليها راية الإسلام . كي لا تصدم الفطرة ، كما صدمتها تجربة أتاتورك . ثم يجعلون تحت هذه الراية ما يريدون من المستنقعات والقاذورات والانحلال الخلقي ، ومن أجهزة التدمير للخامة البشرية بجملتها في الرقعة الإسلامية .

غير أن العبرة التي تبقى من وراء ذلك كله ، هي أن الفطرة تعرف ربها جيداً ، وتدين له بالوحدانية ، فإذا غشي عليها الركام فترة ، فإنها إذا هزها الهول تساقط عنها ذلك الركام كله وتعرت منه جملة ، وعادت إلى بارئها كما خلقها أول مرة . . مؤمنة طائعة خاشعة . . أما ذلك الكيد كله فحسبه صيحة حق تزلزل قوائمه ، وترد الفطرة إلى بارئها سبحانه . ولن يذهب الباطل ناجياً ، وفي الأرض من يطلق هذه الصيحة . ولن يخلوا وجه الأرض مهما جهدوا ممن يطلق هذه الصيحة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 2 صـ 1086 . 1088 ﴾

*(58/232)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

و" إياه " ضمير منصوبٌ مُنْفِصلٌ تقدَّم الكلامُ عليه في " الفاتحة " .

وقال ابن عطية : " هنا " إيَّا " اسم مُضْمَرٌ أجري مجرى المظهرات في أنه مضاف أبداً " .

قال أبو حيان : وهذا خِلافُ مذهب سيبويه أن ما بعد " إيَّا " حرف يُبَيِّن أحْوالَ الضمير ، وليس مُضَافاً لما بعده لئلا يَلْزَمُ تَعْرِيفُ الإضافة ، وذلك يِسْتَدْعِي تنكيره ، والضَّمَائِرُ لا تَقْبَلُ التنكير فلا تَقْبَلُ الإضافة .

قوله : " ما تَدْعُونَ " يجوز في " ما " أربعةُ أوجهٍ :

أظهرها : أنها موصولةٌ بمعنى " الذي " ، أي : فيكشف الذي تَدْعُونَ ، والعائدُ محذوف لاسْتِكمَالِ الشروط ، أي : تَدْعُونَهُ .

الثاني : أنها ظَرْفِيَّةٌ ، قاله ابن عطية ، وعلى هذا فيكون مَفْعُول " يكشفُ " مَحْذُوفاً تقدير : فيكشف العذابَ مُدَّة دعائكم ، أي : ما دُمْتُمْ داعينه وقال أبو حيَّان : وهذا ما لا حاجةَ إليه مع أنَّ فيه وصْلها بمضارعٍ ، وهو قليلٌ جداً تقول : " لا أُكَلِّمُكَ ما طلعت الشمسُ " ، ويضعف : " ما تَطْلُعُ الشمس " .

قال شهاب الدين : قوله : " بمُضارع " كان يبغي أن يقُول : " مثبت " ؛ لأنه متى كان مَنْفِيَّا بـ " لم " كَثُرَ وصْلُهَا به ، نحو قوله : [ الطويل ]

2168 - وَلَن يَلْبَثَ الْجُهَّالُ أَنْ [ يَتَهَضَّمُوا ] . . .

أَخَا الحِلْمِ مَا لِمْ يِسْتَعِنْ بِجَهُولِ

ومِنْ وَصْلِهَا بمضارعٍ مثبتٍ قوله : [ الوافر ]

2169 - أطوّفُ مَا أطَوِّفُ ثُمَّ آوِى . . .

إلَى أمَّى ويَرْوِينِي النَّقِيعُ

وقول الآخر : [ الوافر ]

2170 - أطَوِّفُ ما أطَوِّفُ ثُمَّ آوِي . . .

إلَى بيتٍ قَعِيدَتُهُ لكَاعِ

ف " أطَوِّفُ " صِلَةٌ لـ " ما " الظرفقية .

الثالث : أنها نَكِرَةٌ مَوْصُوفَةٌ ذكره أبو البقاء ، والعِائِدُ أيضاً مَحْذُوفُ أي : فيكشفُ شَيْئاً تَدْعُونه ، أي : تَدْعُونَ كَشْفَهُ والحَذْفُ من الصِّفَةِ أقَلُّ منه من الصلة .

الرابع : أنها مَصْدَرِيةٌ ، قال ابن عطيَّة : " ويَصِحَّ أن تكون مَصْدَرِيَّةً على حذفٍ في الكلام " .

قال الزجَّاج : وهو مثْل " ﴿ واسأل القرية ﴾ [ يوسف : 82 ] .

قال شهاب الدين : فيكشف سبب دعائكم وموجبه .

قال أبو حيَّان : وهذه دَعْوَى محذوف غير مُعَيّن ، وهو خلافُ الظاهر .

وقال أبو البقاء : " وليست مَصْدَرِيَّةً إلاَّ أن تَجْعَلَهَا مصدراً بمعنى المفعول " يعني يصير

تقديره : فيكشف مَدْعُوَّكُمْ ، أي : الذي تَدْعُون لأجله ، وهو الضُّرُّ ونحوه .

قوله : " إليه " فيما يتعلَّق به وجهان :

(59/232)

---

أحدهما : أن يتعلَّق بـ " تَدْعون " ، والضَّمير حينئذٍ يعود على " ما الموصولة ، أي : الذي تَدْعُون إلى كَشْفِهِ ، و " دعا " بالنسبة إلى متعلّق الدعاء يتعدَّى بـ " إلى " أو " اللام " .

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى الله ﴾ [ فصلت : 33 ] ﴿ وَإِذَا دعوا إِلَى الله ﴾ [ النور : 48 ] .

وقال : [ الطويل ]

2171 - وإنْ أُدْعَ لِلْجُلَّى أَكُنْ مِنْ حُمَاتِهَا . . . . . .

وقال : [ البسيط ]

2172 - وَإِنْ [ دَعَوْت ] إلى جُلَّى ومَكْرُمَةٍ . . .

يَوْماً سَرَاةِ كِرَامِ النَّاسِ فَادْعِينَا

وقال : [ المتقارب ]

2173 - دَعَوْتُ لِمَا نَابِنِي مِسْوَراً . . .

فَلَبَّى فَلَبَّىْ يَدَيْ ءِ مِسْوَرِ

والثاني : أن يتعلَّق بـ " يكشفُ " .

قال أبو البقاء : " أي : يرفعه إليه " انتهى .

والضميرُ على هذا عائدٌ على الله تعالى ، وذكر أبو البقاء وَجْهَيِ التعلق ولم يَتَعَرَّضْ للضمير ، [ وقدْ عَرَفْتَهُ ] .

وقال ابن عطية : والضمير في " إليه " يَحْتَمِلُ أن يعُود إلى الله ، بتقدير : فيكشف ما تدعون فيه إليه .

قال أبو حيَّان : وهذا ليس بِجَيدٍ ؛ لأنَّ " دعا " يتعدَّى لمفعول به دون حَرْفِ جرّ : ﴿ ادعوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [ غافر : 60 ] ، ﴿ إِذَا دَعَانِ ﴾ [ البقرة : 186 ] ومن كلام العرب : " دَعَوْتُ اللهَ سِمَعاً " .

قلت : ومِثْلُهُ : ﴿ قُلِ ادعوا اللهَ أَوِ ادعوا الرحمن أَيًّا مَّا تَدْعُوا ﴾ [ الإسراء : 110 ] ﴿ ادعوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعا ﴾ [ الأعراف : 55 ] قال : " ولا تقولُ بهذا المعنى : " دعوت إلى اللهط بمعنى : دعوت الله ، إلاَّ أنه يمكن أن يُصَحَّحَ كلامُهُ بمعنى التَّضْمِينِ ، ضَمَّنَ " تدعون " معنى " تلجؤون فيه إلى الله " إلاَّ أنَّ التضمين ليس بقيسا ، لا يُصَارُ إليه إلاَّ عند الضَّرُورَةِ ، ولا ضرورةَ تدعو إليه هنا " .

قال شهاب الدين : ليس التضمين مَقْصُوراً على الضرورة ، وهو في القرآن أكثر من أن يُحْصَرَ ، وقد تقدَّم منه جملة صَالِحَةٌ ، وسيأتِي إن شاء الله – تعالى – مثلُهَا على أن قد يُقَال : تجويزُ أبي مُحَمَّدٍ عَوْدَ الضمير إلى الله – تعالى – مَحْمُولٌ على أن " إليه " مُتَعَلِّقٌ بـ " يكشف " ، كما تقدَّم نَقْلُهُ عن أبي البقاءِ ، وأن معناه يرفعه إليه ، فلا يلزم المحذور المذكور ، لولا أنه يُعَكِّرُ عليه تقديرُهُ بقوله : " تدعون فيه إليه " ، فتقديره : " فيه " ظاهرة أنه يَزْعُمُ تعَلُّقَهُ بـ " تَدْعُون " .

قوله : " إنْ شَاءَ " جوابه مَحْذُوفٌ لِفَهْمِ المعنى ، ودلالة ما قبله عليه ، أي : إنْ شَاءِ أن يَكْشِفَ كَشَفَ ، وادِّعاءُ تقديم جوابِ الشرط هنا واضِحٌ لاقترانه بـ " الفاء " فهو أحْسَنُ من قولهم : " أنت ظالم إن فعلت لكن يمنع من كونها جواباً هنا أنها سِبَبِيَّةٌ مرتبة ، أي : أنها أفادت تَرَتُّبَ الكَشْفِ عن الدعاء ، وأن الدُّعَاءَ سَبَبٌ فيه ، على أن لنا خِلاَفاً في " فاء " الجزاء : هل تفيد السَّبَبِيَّةَ أو لا ؟

قوله : ﴿ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ الظاهر في " ما " أن تكون مَوْصُولَةً اسمية ، والمُرَادُ بها ما عُبِدَ مِنْ دون اللَّهِ مُطْلَقاً : العُقَلاَء وغيرهم ، إلاّ أنه غَلَّبَ غيرا لعقلاء عليهم كقوله : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السماوات ﴾ [ النحل : 49 ] والعائد محذوف ، أي : ما تُشْرِكُونَهُ مع الله في العِبَادَةِ .

وقال الفارسيُّ : " الأصْلُ : وتَنْسَوءنَ دُعاءَ ما تشركون ، فحذف المضاف " .

ويجوز أن تكون مَصْدرِيَّةً ، وحينئذٍ لا تَحْتَاجُ إلى عائد عن الجمهور .

(61/232)

---

ثم هل هذا المصدر باقٍ على حقيقته ؟ أي : تَنْسَوْنَ الإشراك نَفْسَهُ لما يَلْحَقُكُمْ من الدَّهْشَةِ والحَيْرَةِ ، أو هو واقع موقع المعفول به ، أي : وتنسون المُشْرَكَ به ، وهي الأصنام وغيرها ، وعلى هذه فمعناه كالأوَّلِ ، وحينئذ يحتمل أن يكون السياق على بابه من " الغَفْلَة " وأن يكون بمعنى التَّرْكِ ، وإن كانوا [ ذاكرين ] لها أي : للأصنام وغيرها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 143.146 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴾ : أي إنكم – إنْ تذللتم بنفوسكم أو فكرتم طويلاً بقلوبكم – لن تجدوا من دونه أحداً ، ولا عن حكمه مُلْتَحَداً ، فتعودون إليه في استكشاف الضر ، واستلطاف الخير والبرّ ، كما قيل :

ويرجعني إليك – وإن تناءتْ . . . دياري عنكَ – معرفةُ الرجال

وقد تركناكَ للذي تريد . . . فعسى إنْ خَبَرْتَه أَنْ تعودا

فإذا جرَّبْتَ الكُل ، وذُقْتَ الحُلْوَ والمُرَّ ، أفضى بك الضرُّ إلى بابه ، فإذا رجعت بنعت الانكسار ، وشواهد الذل والاضطرار ، فإنه يفعل ما يريد : إنْ شاء أتاح اليُسْر وأزال العُسر ، وإن شاء ضاعف الضُر وعوَّض الأجر ، وإنْ شاء ترك الحال على ما ( قبل ) السؤال والابتهال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 471 ﴾

*(62/232)*

---

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أقام لهم بهذه الآية على توحيده الدليل حتى استنارت السبل في تذكيرهم أن التضرع قد يكشف به البلاء ، أخبرهم أن تركه يوجب الشقاء ، ترغيباً في إدامته وترهيباً من مجانبته فقال : ﴿ ولقد أرسلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ إلى أمم ﴾ أي أناس يؤم بعضهم بعضاً ، وهم أهل لأن يقصدهم الناس ، لما لهم من الكثرة والعظمة .

ولما كان المراد بعض الأمم ، وهم الذين أراد الله إشهادهم وقص أخبارهم ، أدخل الجار فقال : ﴿ من قبلك ﴾ أي رسلاً فخالفوهم ، وحسّن هذا الحذف كونه مفهوماً ﴿ فأخذناهم ﴾ أي فكان إرسالنا إليهم سبباً لأن أخذناهم بعظمتنا ، ليرجعوا عما زين لهم الشيطان إلى ما تدعوهم إليه الرسل ﴿ بالبأساء ﴾ من تسليط القتل عليهم ﴿ والضراء ﴾ بتسليط الفقر والأوجاع ﴿ لعلهم يتضرعون ﴾ أي ليكون حالهم حال من يرجى خضوعه وتذلله على وجه بليغ ، بما يرشد إليه – مع صيغة التفعيل – الإظهار ، ولأن مقصودها الاستدلال على التوحيد ، وعند الكشف للأصول ينبغي الإبلاغ في العبادة ، بخلاف ما يأتي في الأعراف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 636 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى بين في الآية الأولى أن الكفار عند نزول الشدائد يرجعون إلى الله تعالى ، ثم بين في هذه الآية أنهم لا يرجعون إلى الله عند كل ما كان من جنس الشدائد ، بل قد يبقون مصرين على الكفر منجمدين عليه غير راجعين إلى الله تعالى ، وذلك يدل على مذهبنا من أن الله تعالى إذا لم يهده لم يهتد ، سواء شاهد الآيات الهائلة ، أو لم يشاهدها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 185 ﴾

---

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾

في الكلام حذف يدل عليه الظاهر تقديره فكذبوا فأخذناهم ، ومعناه لازمناهم وتابعناهم الشيء بعد الشيء ، " البأساء " المصائب في الأموال ، ﴿ والضراء ﴾ في الأبدان ، هذا قول الأكثر ، وقيل قد يوضع كل واحد بدل الآخر ، ويؤدب الله تعالى عباده ﴿ بالبأساء والضراء ﴾ ومن هنالك أدب العباد نفوسهم بالبأساء في تفريق المال ، والضراء في الحمل على البدن في جوع وعري ، والترجي في " لعل " في هذا الموضع إنما هو على معتقد البشر لو رأى أحد ذلك لرجا تضرعهم بسببه ، والتضرع التذلل والاستكانة ، وفي المثل أن الحمى أضرعتني لك ، ومعنى الآية توعد الكفار وضرب المثل لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ الآية

تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وفيه إضمار ؛ أي أرسلنا إلى أُممٍ مِن قبلك رسلاً ،

وفيه إضمار آخر يدل عليه الظاهر ؛ تقديره : فكذبوا فأخذناهم .

وهذه الآية متصلة بما قبل اتصال الحال بحال قريبة منها ؛ وذلك إن هؤلاء سلكوا في مخالفة نبيهم مسلك من كان قبلهم في مخالفة أنبيائهم ، فكانوا بعرض أن ينزِل بهم من البلاء ما نزل بمن كان قبلهم .

ومعنى ﴿ بالبأسآء ﴾ بالمصائب في الأموال ﴿ والضرآء ﴾ في الأبدان ؛ هذا قول الأكثر ، وقد يوضع كل واحد منهما موضع الآخر ؛ ويؤدّب الله عباده بالبأساء والضراء وبما شاء ﴿ لاَيُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ .

قال ابن عطية : استدل العُبَّادُ في تأديب أنفسهم بالبأساء في تفريق الأموال ، والضراء في الحمل على الأبدان بالجوع والعُري بهذه الآية .

*(64/232)*

---

قلت : هذه جهالة ممن فعلها وجعل هذه الآية أصلاً لها ؛ هذه عقوبة من الله لمن شاء من عباده أن يمتحنهم بها ، ولا يجوز لنا أن نمتحن أنفسنا ونكافئها قياساً عليها ؛ فإنها المطية التي نبلغ عليها دار الكرامة ، ونفوز بها من أهوال يوم القيامة ؛ وفي التنزيل ﴿ يا أيها الرسل كُلُواْ مِنَ الطيبات واعملوا صَالِحاً ﴾ [ المؤمنون : 51 ] وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا

أَنْفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ [ البقرة : 267 ] .

﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [ البقرة : 172 ] فأمر المؤمنين بما خاطب به المرسلين ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يأكلون الطيبات ويلبسون أحسن الثياب ويتجملون بها ؛ وكذلك التابعون بعدهم إلى هلم جرا ، على ما تقدّم بيانه في "المائدة" وسيأتي في "الأعراف" من حكم اللباس وغيره ؛ ولو كان كما زعموا واستدلوا لما كان في امتنان الله تعالى بالزروع والجنات وجميع الثمار والنبات والأنعام التي سخرها وأباح لنا أكلها وشرب ألبانها والدفء بأصوافها إلى غير ذلك مما امتن به كبير فائدة ، فلو كان ما ذهبوا إليه فيه الفضل لكان أولى به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ومن بعدهم من التابعين والعلماء ، وقد تقدّم في آخر "البقرة" بيان فضل المال ومنفعته والردّ على من أَبَى من جَمْعه ؛ وقد : نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الوصال مخافة الضّعف على الأبدان ، ونهى عن إضاعة المال ردّاً على الأغنياء الجهال .

قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ أي يدعون ويذلّون ، مأخوذ من الضراعة وهي الذلّة ؛ يُقال : ضَرَعَ فهو ضارع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ﴾

هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وإن عادة الأمم مع رسلهم التكذيب والمبالغة في قسوة القلوب حتى هم إذا أخذوا بالبلايا لا يتذللون لله ولا يسألونه كشفها ، وهؤلاء الأمم الذين بعث الله تعالى إليهم الرسل أبلغ انحرافاً وأشد شكيمة وأجلد من الذين بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ خاطبهم تعالى بقوله ﴿ قل أرأيتكم ﴾ الآية .

وأخبر أنهم عند الأزمات لا يدعون لكشفها إلا الله تعالى ، وفي الكلام حذف التقدير ولقد أرسلنا الرسل إلى أمم من قبلك فكذبوا فأخذناهم وتقدم تفسير البأساء والضراء والترجي هنا بالنسبة إلى البشر أي لو رأى أحد ما حل بهم لرجا تضرعهم وابتهالهم إلى الله في كشفه ، والأخذ الإمساك بقوة وبطش وقهر وهو هنا مجاز عن متابعة العقوبة والملازمة والمعنى لعاقبناهم في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

وقولُه تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلنَا ﴾ كلام مستأنفٌ مَسوقٌ لبيان أن منهم من لا يدعو الله تعالى عند إتيانِ العذاب أيضاً لتماديهم في الغيِّ والضلال لا يتأثرون بالزواجر التكوينية كما لا يتأثرون بالزواجر التنزيلية . وتصديرُه بالجملة القَسَمية لإظهار مزيدِ الاهتمام بمضمونه ، ومفعول ( أرسلنا ) محذوف لما أن مقتضى المقام بيانُ حال المرسَل إليهم لا حالِ المرسلين ، أي وبالله لقد أرسلنا رسلاً ﴿ إلى أُمَمٍ ﴾ كثيرة ﴿ مِن قَبْلِكَ ﴾ أي كائنة من زمان قبلَ

زمانك ﴿ فأخذناهم ﴾ أي فكذبوا رسلهم فأخذناهم ﴿ بالبأساء ﴾ أي بالشدة والفقر ﴿ والضراء ﴾ أي الضرر والآفات وهما صيغتا تأنيثٍ لا مذكر لهما ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ أي لكي يدعُوا الله تعالى في كشفها بالتضرّع والتذلل ويتوبوا إليه من كفرهم ومعاصيهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

*(66/232)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلنَا إلى أُمَمٍ مّن قَبْلِكَ ﴾ كلام مستأنف سيق لبيان أن من المشركين من لا يدعو الله تعالى عند إتيان العذاب لتماديه في الغي والضلال ولا يتأثر بالزواجر التكوينية كما لا يتأثر بالزواجر التنزيلية ، وقيل : مسوق لتسليته صلى الله عليه وسلم ، وتصدير الجملة بالقسم لإظهار مزيد الاهتمام بمضمونها ، والمفعول محذوف لأن مقتضى المقام بيان حال المرسل إليهم لا حال المرسلين ؛ وتنوين ﴿ أُمَمٌ ﴾ للتكثير ، و ﴿ مِنْ ﴾ ابتدائية أو بمعنى في أو زائدة بناءً على جواز زيادتها في الإثبات وضعف أي تالله لقد أرسلنا رسلاً إلى أمم كثيرة كائنة من زمان أو في زمان قبل زمانك ﴿ فأخذناهم ﴾ أي فكذبوا فعاقبناهم ﴿ بالبأساء والضراء ﴾ أي البؤس والضر .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن جبير أنه قال : خوف السلطان وغلاء السعر .

وقيل : البأساء القحط والجوع والضراء المرض ونقصان الأنفس والأموال وهما صيغتا تأنيث لا مذكر لهما على أفعل كأحمر حمراء كما هو القياس فإنه لم يقل أضر وأبأس صفة بل للتفضيل ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ أي لكي يتذللوا فيدعوا ويتوبوا من كفرهم . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

لمّا أنذرهم بتوقّع العذاب أعقبه بالاستشهاد على وقوع العذاب بأمم من قبل ، ليَعلَم هؤلاء أنّ تلك سنة الله في الذين ظلموا بالشرك .

وهذا الخبر مستعمل في إنذار السامعين من المشركين على طريقة التعريض ، وهم المخاطبون بالقول المأمور به في الجملة التي قبلها .

فجملة : ﴿ ولقد أرسلنا ﴾ عطف على جملة : ﴿ قل أرأيتكم ﴾ [ الأنعام : 40 ] ، والواو لعطف الجمل ، فتكون استئنافية إذ كانت المعطوف عليها استئنافاً .

وافتتحت هذه الجملة بلام القسم و( قد ) لتوكيد مضمون الجملة ، وهو المفرّع بالفاء في قوله : ﴿ فأخذناهم بالبأساء والضرّاء ﴾ .

نزّل السامعون المعرّض بإنذارهم منزلة من ينكرون أن يكون ما أصاب الأمم الذين من قبلهم عقاباً من الله تعالى على إعراضهم .

وقوله : ﴿ فأخذناهم ﴾ عطف على ﴿ أرسلنا ﴾ باعتبار ما يؤذن به وصف ﴿ مِنْ قبلك ﴾ من معاملة أممهم إيّاهم بمثل ما عاملك به قومك ، فيدلّ العطف على محذوف تقديره : فكذّبوهم .

ولمّا كان أخذهم بالبأساء والضرّاء مقارناً لزمن وجود رسلهم بين ظهرانيهم كان الموقع لفاء العطف للإشارة إلى أنّ ذلك كان بمرأى رسلهم وقبل انقراضهم ليكون إشارة إلى أنّ الله أيّد رسله ونصرهم في حياتهم ؛ لأنّ أخذ الأمم بالعقاب فيه حكمتان : إحداهما : زجرهم عن التكذيب ، والثانية : إكرام الرسل بالتأييد بمرأى من المكذّبين .

وفيه تكرمة للنبيء صلى الله عليه وسلم بإيذانه بأنّ الله ناصره على مكذّبيه .

ومعنى ﴿ أخذناهم ﴾ أصبناهم إصابة تمكّن .

وتقدّم تفسير الأخذ عند قوله تعالى : ﴿ أخذته العزّة بالإثم ﴾ في سورة [ البقرة : 206 ] .

وقد ذكر متعلّق الأخذ هنا لأنّه أخْذ بشيء خاصّ بخلاف الآتي بُعيد هذا .

والبأساء والضرّاء تقدّماً عند قوله تعالى : ﴿ والصابرين في البأساء والضرّاء ﴾ في سورة

[البقرة: 177].

وقد فسّر البأساء بالجوع والضرّاء بالمرض، وهو تخصيص لا وجه له، لأنّ ما أصاب الأمم من العذاب كان أصنافاً كثيرة.

ولعلّ من فسَّره بذلك اعتبر ما أصاب قريشاً بدعوة النبي.

و(لَعلّ) للترّجي.

جُعل علّة لابتداء أخذهم بالبأساء والضرّاء قبل الاستئصال.

ومعنى يتضرّعون ﴾ يتذلّلون لأنّ الضراعة التذلّل والتخشّع، وهو هنا كناية عن الاعتراف بالذنب والتوبة منه، وهي الإيمان بالرسل.

*(68/232)*

---

والمراد: أنّ الله قدّم لهم عذاباً هيّناً قبل العذاب الأكبر، كما قال: ﴿ ولنذيقنّهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلّهم يرجعون ﴾ [السجدة: 21] وهذا من فرط رحمته الممازجة لمقتضى حكمته؛ وفيه إنذار لقريش بأنّهم سيصيبهم البأساء والضرّاء قبل الاستئصال، وهو استئصال السيف.

وإنّما اختار الله أن يكون استئصالهم بالسيف إظهاراً لكون نصر الرسول عليه الصلاة

والسلام عليهم كان بيده ويد المصدّقين به .

وذلك أوقع على العرب ، ولذلك روعي حال المقصودين بالإنذار وهم حاضرون .

فنزّل جميع الأمم منزلتهم ، فقال : ﴿ فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرّعوا ﴾ . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

في الآية محذوف والتقدير : ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك رسلاً فخالفوهم فأخذناهم بالبأساء والضراء ، وحسن الحذف لكونه مفهوماً من الكلام المذكور .

وقال الحسن ( البأساء ) شدة الفقر من البؤس ( والضراء ) الأمراض والأوجاع .

ثم قال : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ والمعنى : إنما أرسلنا الرسل إليهم وإنما سلطنا البأساء والضراء عليهم لأجل أن يتضرعوا .

ومعنى التضرع التخشع وهو عبارة عن الانقياد وترك التمرد ، وأصله من الضراعة وهي الذلة ، يقال ضرع الرجل يضرع ضراعة فهو ضارع أي ذليل ضعيف ، والمعنى أنه تعالى أعلم نبيه أنه قد أرسل قبله إلى أقوام بلغوا في القسوة إلى أن أخذوا بالشدة في أنفسهم وأموالهم فلم يخضعوا ولم يتضرعوا ، والمقصود منه التسلية للنبي صلى الله عليه وسلم .

فإن قيل : أليس قوله ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴾ يدل على أنهم تضرعوا ؟ وههنا يقول : قست

قلوبهم ولم يتضرعوا .

قلنا : أولئك أقوام ، وهؤلاء أقوام آخرون .

أو نقول أولئك تضرعوا لطلب إزالة البلية ولم يتضرعوا على سبيل الإخلاص لله تعالى فلهذا الفرق حسن النفي والإثبات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 185 ﴾

*(69/232)*

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42) ﴾

لقد أرسل الحق لأمم سابقة رسلاً بالآيات والمنهج ، فكذبتهم أقوامهم ، فأخذهم الله بالشدائد والأحداث التي تضر إما في النفس ، وإما في المال ، بالمرض ، بالفقر ، لعلهم يتضرعون إلى الله سبحانه وتعالى .

إذن فالحق حين يمس الإنسان بالبأساء أي بالشدائد أو بالضراء ، أي بالشيء الذي يضر ويؤذي ، إنما يريد من الإنسان أن يختبر نفسه ، فإن كان مؤمنا بغير الله فليذهب إلى من آمن به ، ولن يرفع عنه تلك البأساء أو ذلك الضر إلا عندما يعود إلى الله : وعندما يتضرع إلى

الله قد لا يقبل الله منه مثل هذا التضرع ويقول سبحانه : ﴿ فلولا إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(70/232)*

---

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون " وفى سورة الأعراف : "وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون " بإدغام تاء التفعل فى فاء الكلمة مع اتحاد المرمى فى الآيتين فيسأل عن وجه ذلك ؟

والجواب والله أعلم : أن العرب تراعى مجاورة الألفاظ فتحمل اللفظ على مجاوره لمجرد المضارعة اللفظية وان اختلف المعنى ومنه الاتباع فى ينوؤك ويسوؤك قال سيبويه رحمه الله وقد ذكر بعض ما تتبع فيه العرب وتحمل اللفظ على ما قرن به لول أفرد عنه لم ينطق به كذلك فقال : كما أن يتوؤك يتبع يسوؤك يريد أنك تقول : ينيئك بضم الياء وكسر النون متعديا على مثال يزيلك وزنا وتعدية إلى المفعول فإذا ذكرته بعد يسوؤط ابعته إياه فقلت يسوؤك وينوؤك مع اختلاف المعنى فهم فيما اتفق معناه من هذا أحرى أن يفعلوا فيه ذلك .

وماضى الفعل من الضراعة لا إدغام فيه إنما تقول تضرع إذ لا حرف مضارعة فيه يسوغ الإدغام فلما ورد الماضى فيما بنى علي آية الأنعام من قوله : "فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا " ولا ادغام فيه لما ذكرنا ورد الأول مفكوكا غير مدغم فقيل يتضرعون رعيا للمناسبة ، أما آية الأعراف فلم يرد فيها ما يستدعى هذه المناسبة فجاء مدغما على الوجه الأخف إذ لا داعى لخلافه والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 160 161. ﴾

*(71/232)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

في الكلام : حَذْفُ تقديره : " أرْسلْنَا رُسُلاً إلى أممٍ فكذبوا فأخذناهم " وهذا الحذفُ ظاهر جداً .

و " من قَبْلِكَ " متعلّقٌ بـ " أرْسلنا " ، وفي جعله صِفَةً لـ " أمم " كلام تقدّم مِرَاراً ، وتقدَّم تفسيرُ ﴿ البأسآء والضراء ﴾ [ البقرة : 177 ] ولم يُلْفَظْ لهما بِمُذَكرٍ على " أفْعَل " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 147 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42) ﴾

يخبر عن سالف سنته في أبداء الأمم وما أوجب لمن أطاعه منهم من النعم والكرم ، وما أحلَّ بمن خالفه من الألم وفنون النِّقَم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 472 ﴾

*(72/232)*

---

قوله تعالى ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (43) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما لم يقع منهم ما أوجبت الحال رجاءه ، تسبب عنه الإنكار عليهم ، فقال معبراً بأداة التخصيص ليفيد مع النفي أنهم ما كان لهم عذر في ترك التضرع : ﴿ فلولا ﴾ أي فهلا ﴿ إذ

جاءهم بأسنا تضرعوا ﴾ ولما كان معنى الإنكار أنهم ما تضرعوا قال : ﴿ ولكن قست قلوبهم ﴾ أي فلم يذكروا ربهم أصلاً ﴿ وزين لهم الشيطان ﴾ أي بما دخل عليهم به من باب الشهوات ﴿ ما كانوا يعملون ﴾ من العظائم والمناكر التي أوجبها النكس بالرد أسفل سافلين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 636 ﴾

*(73/232)*

---

اللغة :

[ تضرعوا ] التضرع من الضراعة وهي الذلة

[ البأساء ] من البؤس وهو الفقر

[ الضراء ] من الضر وهو البلاء ، قال القرطبي : الباساء في الأموال ، والضراء في الأبدان ، هذا قول الأكثر

[ مبلسون ] المبلس : اليائس من الخير ، من أبلس الرجل إذا يئس ، ومنه " إبليس " لأنه أبلس من رحمة الله عز وجل

[ دابر ] الدابر : الآخر ودابر القوم : خلفهم من نسلهم ، قال قطرب : يعني استؤصلوا وأهلكوا ، قال الشاعر : فاهلكوا بعذاب حصق دابرهم فما استطاعوا له صرفا ولا

انتصروا

[ يصدفون ] صدف عن الشيء أعرض عنه

[ تطرد ] الطرد : الإبعاد مع الاهانة

[ الفاصلين ] الحاكمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 388 ﴾

*(74/232)*

---

فصل

قال الفخر :

﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ ﴾ معناه نفي التضرع .

والتقدير فلم يتضرعوا إذ جاءهم بأسنا .

وذكر كلمة ( لولا ) يفيد أنه ما كان لهم عذر في ترك التضرع إلا عنادهم وقسوتهم وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 185 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فلولا إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ ﴾

"لولا" تحضيض ، وهي التي تلي الفعل بمعنى هَلاَّ ؛ وهذا عِتاب على ترك الدعاء ، وإخبار عنهم أنهم لم يَتضرَّعوا حين نزول العذاب .

ويجوز أن يكونوا تضرّعوا تضرّع من لم يُخلص ، أو تَضرعوا حين لاَبَسهم العذابُ ، والتضرع على هذه الوجوه غير نافع .

والدعاء مأمور به حال الرَّخاء والشّدّة ؛ قال الله تعالى : ﴿ ادعوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [ غافر : 60 ] وقال : ﴿ إِنَّ الذين يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ أي دعائي ﴿ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [ غافر : 60 ] وهذا وعيد شديد .

﴿ ولكن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي صَلُبت وغَلُظت ؛ وهي عبارة عن الكفر والإصرار على المعصية ، نسأل الله العافية .

﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي أغواهم بالمعاصي وحملهم عليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ ﴾ أي فلم يتضرعوا حينئذ مع تحقق ما يستدعيه ﴿ ولكن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ استدراكٌ عما قبله أي فلم يتضرعوا إليه تعالى برقةِ القلب والخضوع ، مع تحقق ما يدعوهم إليه ، ولكن ظهر منهم نقيضُه حيث قستْ قلوبُهم أي استمرتْ على ما هي عليه من القساوة أو ازدادَتْ قساوةً كقولك : لم يُكرِمْني إذ جئتُه ولكن أهانني ﴿

وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من الكفر والمعاصي فلم يُخْطِروا ببالهم أنّ ما اعتراهم من البأساء والضراء ما اعتراهم إلا لأجله وقيل : الاستدراك لبيان أنه لم يكن لهم في ترك التضرُّع عذرٌ سوى قسوةِ قلوبهم والإعجابِ بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(75/232)

---

وقال الآلوسى :

﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ ﴾ أي فلم يتضرعوا حينئذٍ مع وجود المقتضي وانتفاء المانع الذي يعذرون به ، ولولا عند الهروي تكون نافية حقيقة وجعل من ذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ ﴾ [ يونس : 98 ] والجمهور حملوه على التوبيخ والتنديم وهو يفيد الترك وعدم الوقوع ولذا ظهر الاستدراك والعطف في قوله تعالى : ﴿ ولكن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ وليست لولا هنا تحضيضية كما توهم لأنها تختص بالمضارع ، واختار بعضهم ما ذهب إليه الهروي .

ولما كان التضرع ناشئاً من لين القلب كان نفيه نفيه فكأنه قيل : فما لانت قلوبهم ولكن قست ، وقيل : كان الظاهر أن يقال : لكن يجب عليهم التضرع إلا أنه عدل إلى ما ذكر لأن

قساوة القلب التي هي المانع يشعر بأن عليهم ما ذكر ، ومعنى ﴿ قَسَتْ ﴾ الخ استمرت على ما هي عليه من القساوة أو ازدادت قساوة .

﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من الكفر والمعاصي فلم يخطروا ببالهم أن ما اعتراهم من البأساء والضراء ما اعتراهم إلا لأجله .

والتزيين له معان ، أحدها : إيجاد الشيء حسناً مزيناً في نفس الأمر كقوله تعالى : ﴿ زَيَّنَّا السماء الدنيا ﴾ [ الصافات : 6 ] والثاني : جعله مزيناً من غير إيجاد كتزيين الماشطة العروس .

والثالث : جعله محبوباً للنفس مشتهى وإن لم يكن في نفسه كذلك وهذا إما بمعنى خلق الميل في النفس والطبع وإما بمعنى تزويقه وترويجه بالقول وما يشبهه كالوسوسة والإغواء ، وعلى هذا يبنى أمر إسناده فإنه جاء في النظم الكريم تارة مسنداً إلى الشيطان كما في هذه الآية وتارة إليه سبحانه كما في قوله سبحانه ﴿ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ [ الأنعام : 108 ] وتارة إلى البشر كقوله عز وجل : ﴿ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ المشركين قَتْلَ أولادهم شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ [ الأنعام : 137 ] فإن كان بالمعنى الأول فإسناده إلى الله تعالى حقيقة ، وكذا إذا كان بالمعنى الثالث بناءً على المراد منه أولاً ، وإن كان بالمعنى الثاني أو الثالث بناءً على المراد منه ثانياً فإسناده إلى الشيطان أو البشر حقيقة ، ولا يمكن إسناد ما يكون بالإغواء والوسوسة إليه سبحانه كذلك .

وجاء أيضاً غير مذكور الفاعل كقوله سبحانه : ﴿ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ [ يونس : 12 ]

وحينئذٍ يقدر في كل مكان ما يليق به ، وقد مر لك ما يتعلق بهذا البحث فتذكر . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرّعوا ﴾

( لولا ) هنا حرف توبيخ لدخولها على جملة فعلية ماضوية واحدة ، فليست ( لولا )

حرفَ امتناع لوجود .

والتوبيخ إنّما يليق بالحاضرين دون المنقرضين لفوات المقصود .

ففي هذا التنزيل إيماء إلى مساواة الحالين وتوبيخ للحاضرين بالمهمّ من العبرة لبقاء زمن

التدارك قطعاً لمعذرهم .

ويجوز أن تجعل ( لولا ) هنا للتّمنّي على طريقة المجاز المرسل ، ويكون التّمنّي كناية عن

الإخبار بمحبّة الله الأمر المتمنّى فيكون من بناء المجاز على المجاز ، فتكون هذه المحبّة هي

ما عبّر عنه بالفرح في الحديث " الله أفرح بتوبة عبده " الحديث .

*(76/232)*

وتقديم الظرف المضاف مع جملته على عامله في قوله ﴿ إذ جاءهم بأسنا تضرّعوا ﴾ للاهتمام بمضمون جملته ، وأنّه زمن يحقّ أن يكون باعثاً على الإسراع بالتضرّع ممّا حصل فيه من البأس .

والبأس تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ وحين البأس ﴾ في سورة [ البقرة : 177 ] .

والمراد به هنا الشدّة على العدوّ وغلبته .

ومجيء البأس : مجيء أثره ، فإنّ ما أصابهم من البأساء والضرّاء أثر من آثار قوّة قدرة الله تعالى وغلبه عليهم .

والمجيء مستعار للحدوث والحصول بعد أن لم يكن تشبيهاً لحدوث الشيء بوصول القادم من مكان آخر بتنقّل الخطوات .

ولمّا دلّ التوبيخ أو التمنّي على انتفاء وقوع الشيء عطف عليه بـ ( لَكِنْ ) عطفاً على معنى الكلام ، لأنّ التضرّع ينشأ عن لين القلب فكان نفيه المفاد بحرف التوبيخ ناشئاً عن ضدّ اللين وهو القساوة ، فعطف بلكن ﴾ .

والمعنى : ولكن اعتراهم ما في خلقتهم من المكابرة وعدم الرجوع عن الباطل كأنّ قلوبهم لا تتأثّر فشبّهت بالشيء القاسي .

والقسوة : الصلابة .

وقد وجد الشيطان من طباعهم عوناً على نفث مراده فيهم فحسّن لهم تلك القساوة

وأغراهم بالاستمرار على آثامهم وأعمالهم .

ومن هنا يظهر أنّ الضلال ينشأ عن استعداد الله في خلقة النفس .

والتزيين : جعل الشيء زَيْنا .

وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ زيّن للناس حبّ الشهوات ﴾ في سورة [ آل عمران : 14 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

احتج الجبائي بقوله ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ فقال : هذا يدل على أنه تعالى إنما أرسل الرسل إليهم ، وإنما سلّط البأساء والضرّاء عليهم ، لإرادة أن يتضرعوا ويؤمنوا ، وذلك يدل على أنه تعالى أراد الإيمان والطاعة من الكل .

*(77/232)*

---

والجواب : أن كلمة ( لعل ) تفيد الترجي والتمني ؛ وذلك في حق الله تعالى محال وأنتم حملتموه على إرادة هذا المطلوب ، ونحن نحمله على أنه تعالى عاملهم معاملة لو صدرت عن غير الله تعالى لكان المقصود منه هذا المعنى ، فأما تعليل حكم الله تعالى ومشيئته

فذلك محال على ما ثبت بالدليل .

ثم نقول إن دلت هذه الآية على قولكم من هذا الوجه فإنها تدل على ضد قولكم من وجه آخر ، وذلك لأنها تدل على أنهم لم يتضرعوا لقسوة قلوبهم ولأجل أن الشيطان زين لهم أعمالهم .

فنقول : تلك القسوة إن حصلت بفعلهم احتاجوا في إيجادها إلى سبب آخر ولزم التسلسل ، وإن حصلت بفعل الله فالقول قولنا ، وأيضاً هب أن الكفار إنما أقدموا على هذا الفعل القبيح بسبب تزيين الشيطان ، إلا أن نقول : ولم بقي الشيطان مصراً على هذا الفعل القبيح ؟ فإن كان ذلك لأجل شيطان آخر تسلسل إلى غير النهاية ، وإن بطلت هذه المقادير انتهت بالآخرة إلى أن كل أحد إنما يقدم تارة على الخير وأخرى على الشر ، لأجل الدواعي التي تحصل في قلبه ، ثم ثبت أن تلك الدواعي لا تحصل إلا بإيجاد الله تعالى فحينئذ يصح قولنا ويفسد بالكلية قولهم ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 186.185 ﴾

*(78/232)*

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (43) ﴾

إنه – سبحانه – يحثهم ويحضهم على أن يتضرعوا ويتذللوا إلى الله ليرفع عنهم ما نزل بهم ، ولكن قلوبهم القاسية تمنعهم حتى في لحظة المس بالضر أن يلجأوا إلى الله خوفاً من اتباع التكليف . إن قسوة القلب تكون بالصورة التي لا ينفذ إليها الهدى وكما قال الحق : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ على قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [ المطففين : 14 ] .

أي صارت قلوبهم مغلقة ومغطاة بعد أن طبع الله وختم عليها فلا تقبل الخير ولا تميل إليه ، فلا يؤمنون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(79/232)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ فلولا إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ﴾ .

" إذ " منصوب بـ " تضرَّعوا " فَصَلَ به بين حرف التحضيض وما دخل عليه ، وهو جائز في

المفعول به ، تقول : " لولا زيداً ضَرَبْتَ " ، وتقدَّم أن حرفَ التَّخْضِيض مع الماضي يكون معناه التَّوبِيخَ ، والتَّضرُّع : " تَفَعُّل " من الضَّراعَة ؛ وهي الذِّلَّة والهَيْبَة المسببة عن الانْقِيَادِ إلى الطاعة ، يقال : " ضَرَعَ يَضْرَعُ ضراعة فهو ضارعٌ وضَرِعٌ " .

قال الشاعر : [ الطويل ]

2174 - لُبْكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِخُصُومَةٍ . . .

ومُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيحُ الطَّوائِحُ

وللسهولة والتَّذلُّلِ المفهومة من هذه المادة اشْتَقُّوا منها لِلثَّدْيِ اسماً فقالوا له : " ضَرْعاً " .

قوله : ﴿ ولكن قَسَتْ قُلُوبُهُم ﴾ " لكنْ " هنا وَاقِعَةٌ بين صدَّيْنِ ، وهما اللِّينُ والقَسْوَةُ ؛ وذلك أن قوله : " تضرَّعوا " مُشْعِرٌ باللِّينِ والسُّهُولةِ ، وكذلك إذا جعلتَ الضَّراعَةَ عبارة عن الإيمان ، والقَسْوَةَ عبارة عن الكُفْرِ ، وعبَّرت عن السبب بالمُسَبَّبِ ، وعن المُسَبَّبِ بالسبب ، ألا ترى أنه تقول : " آمنَ قلبه فتضرَّعُ ، وقسا قلبه فكفر " وهذا أحسن من قول أبي البقاء : " ولكن " استدراك على المعنى ، أي ما تَضَرَّعُوا ولكن يعني أن التَّخْضِيضَ في معنى النَّفْي ، وقد يَتَرَجَّحُ هذا بما قالهُ الزمخشري فإنه قال : مَعْنَاهُ نَفْيُ التضرُّع كأنه قيل : لم يَتَضرَّعوا إذ جاءهم بأسُنَا ، ولكنه جاء بـ " لولا " ليفيد أنه لم يكن لهم عُذْرٌ في تَرْكِ التَّضَرُّعِ ، إلاَّ قَسْوَة قلوبهم ، وإعجابهم بأعمالهم التي زَيَّنَهَا الشَّيْطَانُ لهم .

قوله : " وزَيَّنَ لَهُم " هذه الجملة تَحْتَمِلُ وجهين :

أحدهما : أن تكون اسْتِئْنَافِيَّةً أخبر تعالى عنهم بذلك .

والثاني : وهو الظاهر - : أنها داخلة في حيِّز الاستدراك فهو نسقٌ على قول : " قَسَتْ قُلُوبهم " وهذا رأي الزمخشري فإن قال : " لم يكن عُذْرٌ في ترك التَّضرُّع إلاَّ قَسْوَةُ قلوبهم وإعابُهُم بأعمالهم "كما تقدَّم و" ما " في قوله : " ما كانوا " يحتمل [ أن تكون موصولة اسمية أي : الذي كانوا يعملونه ] وأن تكون مصدرية ، أي : زيَّنَ لهم عَمْلَهُم ، كقوله : ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [ النمل : 4 ] ويَبْعُدُ جَعْلُها نكرةً موصوفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 147.148 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

*(80/232)*

---

﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (43) ﴾

يعني أنهم لما أَظَلَّهُم البلاء ، فلو رجعوا بجميل التضرع وحسن الابتهال والتملق لكشفنا عنهم المحن ، ولأتحنا لهم المنن ، ولكن صدَّهم الخذلان عن العقبى فأصروا على تمردهم ،

فَقَسَتْ قلوبُهم وتضاعفت أسباب شقوتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 472 ﴾

(81/232)

---

قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

﴿ فلما نسوا ما ذكروا به ﴾ أي فتسبب – عن تركهم التذكير والأخذ بفائدته التي هي التخشع والتسكن ، كما هو اللائق بهم لا سيما في تلك الحالة – أنا ﴿ فتحنا ﴾ أي بما يليق بعظمتنا ﴿ عليهم أبواب كل شيء ﴾ أي من الخيرات والأرزاق والملاّد التي كانت مغلقة عنهم ونقلناهم من الشدة إلى الرخاء ، وذلك استدراجاً لهم ، ومددنا زمانه وطوّلنا أيامه ﴿ حتى إذا فرحوا ﴾ أي تناهى بهم الفرح ﴿ بما أوتوا ﴾ أي معرضين عمن آتاهم هذا الرخاء بعد أن كان ابتلاهم بذلك ، فعلم أنهم في غاية من الغباوة ، لا يرتدعون بالتأديب بسياط البلاء ، ولا ينتفعون ببساط المنة والرخاء ، بل ظنوا أن البلاء عادة الزمان ،

والرخاء باستحقاقهم الامتنان ، فعلم أن قلوبهم لا يرجى لها انتباه بحار ولا بارد ولا رطب ولا يابس ﴿ أخذناهم ﴾ بعظمتنا ، وإنما أخذناهم في حال الرخاء ليكون أشد لتحسرهم ﴿ بغتة ﴾ فلم نمكنهم من التضرع عند خفوق الأمر ، ولا أمهلناهم أصلاً بل نزل عليهم من أثقال العذاب ، وأباح بهم من أحمال الشدائد وصروف البلايا ما أذهلهم وشغلهم عن كل شيء حتى بهتوا ﴿ فإذا هم مبلسون ﴾ أي تسبب عن ذلك البغت أن فاجؤوا السكوتَ على ما في أنفسهم واليأس تحسراً وتحيراً ، واستمروا بعد أن سكتوا إلى أن همدوا وخفتوا ، ففي نفي التضرع عن المتقدمين بعد أن أثبته لمشركي هذه الأمة استعطاف لطيف ، وفي ذكر استدراج أولئك بالنعم عند نسيان ما ذكروا به إلى ما أخذهم بغتة من قواصم النقم غاية التحذير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 636 . 637 ﴾

*(82/232)*

---

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذا الكلام من تمام القصة الأولى فبيّن الله تعالى أنه أخذهم أولاً بالبأساء والضراء

لكي يتضرعوا ثم بيّن في هذه الآية أنهم لما نسوا ما ذكروا به من البأساء والضراء فتحنا عليهم أبواب كل شيء ، ونقلناهم من البأساء والضراء إلى الراحة والرخاء وأنواع الآلاء والنعماء ، والمقصود أنه تعالى عاملهم بتسليط المكاره والشدائد عليهم تارة فلم ينتفعوا به ، فنقلهم من تلك الحالة إلى ضدها وهو فتح أبواب الخيرات عليهم وتسهيل موجبات المسرات والسعادات لديهم فلم ينتفعوا به أيضاً .

وهذا كما يفعله الأب المشفق بولده يخاشنه تارة ويلاطفه أخرى طلباً لصلاحه حتى إذا فرحوا بما أوتوا من الخير والنعم ، لم يزيدوا على الفرح والبطر من غير انتداب لشكر ولا إقدام على اعتذار وتوبة ، فلا جرم أخذناهم بغتة .

واعلم أن قوله ﴿ فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾ معناه فتحنا عليهم كل شيء كان مغلقاً عنهم من الخير ، ﴿ حتى إذا فرحوا ﴾ أي إذا ظنوا أن الذي نزل بهم من البأساء والضراء ما كان على سبيل الانتقام من الله .

ولما فتح الله عليهم أبواب الخيرات ظنوا أن ذلك باستحقاقهم ، فعند ذلك ظهر أن قلوبهم قست وماتت وأنه لا يرجى لها انتباه بطريق من الطرق ، لا جرم فاجأهم الله بالعذاب من حيث لا يشعرون .

قال الحسن : في هذه الآية مكر بالقوم ورب الكعبة ، وقال صلى الله عليه وسلم : " إذا رأيت الله يعطي على المعاصي فإن ذلك استدراج من الله تعالى " ثم قرأ هذه الآية .

قال أهل المعاني : وإنما أخذوا في حال الرخاء والراحة ليكون أشد لتحسرهم على ما فاتهم من حال السلامة والعافية وقوله : ﴿ فإذا هم مبلسون ﴾ أي آيسون من كل خير .

قال الفرّاء : المبلس الذي انقطع رجاؤه ، ولذلك قيل للذي سكت عند انقطاع حجته قد أبلس .

وقال الزجاج : المبلس الشديد الحسرة الحزين ، والابلاس في اللغة يكون بمعنى اليأس من النجاة عند ورود الهلكة ، ويكون بمعنى انقطاع الحجة ، ويكون بمعنى الحيرة بما يرد على النفس من البلية وهذه المعاني متقاربة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 187.186 ﴾

*(83/232)*

---

وقال السمرقندى :

﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ ﴾ يعني : الأمم الخالية حين لم يعتبروا بالشدة ولم يرجعوا : ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ من النعم والخصب ويقال : إن الله تعالى يبتلي العوام بالشدة ، فإذا أنعم عليهم يكون استدراجاً .

وأما الخواص فيبتليهم بالنعمة والرخاء فيعرفون ويعدّون ذلك بلاء .

كما روي في الخبر : إن الله تعالى أوحى إلى موسى بن عمران إذا رأيت الفقر مقبلاً إليك فقل : مرحباً بشعار الصالحين .

وإذا رأيت الغنى مقبلاً إليك فقل : ذنب عجلت عقوبته فهؤلاء الذين أرسل إليهم ، ابتلاهم الله تعالى بالشدة ، فلم يعتبروا ولم يرجعوا ، فتح عليهم أبواب كل خير عقوبة لهم لكي يعتبروا فيها .

قال الفقيه : حدّثنا الخليل بن أحمد قال : حدّثنا عبد الله بن أحمد قال : حدّثنا أبو عتبة قال : حدّثنا محمد بن حمير عن شهاب بن خراش عن حرملة عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا رَأَيتَ اللهَ يُعْطِي عَبْداً مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعْصِيَةٍ مِمَّا يُحِبَّ فإنَّمَا ذلك مِنْهُ اسْتِدْرَاج " ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ الآية .

وقال الحسن : والله ما أحد من الناس بسط الله له في الدنيا فلم يخف أن يكون قد مكر له فيها إلا كان قد نقص عمله وعجز رأيه .

وما أمسكها الله تعالى عن عبد فلم يظن أنه قد خير له فيها إلا كان قد نقص عمله وعجز رأيه .

﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ ﴾ يعني : تركوا ما وعظوا به ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يعني : أرسلنا عليهم كل خير .

ويقال : ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الرزق ﴾ قرأ ابن عامر : ﴿ فَتَّحْنَا ﴾ بالتشديد على معنى المبالغة .

(84/232)

---

والباقون بالتخفيف ﴿ حتى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ ﴾ من أنواع الخير فأعجبهم ما هم فيه ﴿ أخذناهم بَغْتَةً ﴾ يعني : أصبناهم بالعذاب فجأة ﴿ فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ ﴾ يعني : آيسين من كل خير .

وقال مجاهد : الإبلاس : الفضيحة .

وقال الفراء : المبلس : المنقطع بالحجة .

وقال الزجاج : المبلس : الشديد الحسرة والآيس الحزين .

وقال بعضهم : في الآية تقديم وتأخير .

ومعناه : فلما فتحنا عليهم أبواب كل شيء ، ونسوا ما ذكروا به أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ ﴾ أي أنكروا ما عظوا وأمروا به ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ

شَيْءٍ ﴾ أي بدلناهم مكان البلاء والشدة بالرخاء في العيش والصحة في الأبدان ﴿ حتى إِذَا فَرِحُواْ ﴾ أعجبوا ﴿ بِمَآ أوتوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ﴾ فجأة من ما كانوا بالعجب ما كانت الدنيا لهم ، ﴿ فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ ﴾ يئسون من كل خير .

قال السدي : هالكون ، ابن كيسان : خاضعون ، وقال الحسن : منصتون .

وقرأ عبد الرحمن السلمي : مبلسون بفتح اللام مفعولا بهم أي مؤيسون . وأصل الإبلاس الإطراق من الحزن والندم .

وقال مجاهد : الإبلاس الفضيحة . وقال : ابن زيد المبلس الذي قد نزل به الشر الذي لا يدفعه .

قال جعفر الصادق : فلما نسوا ما ذكروا به من التعظيم فتحنا عليهم أبواب كل شيء من النعم حتى إذا فرحوا بما أوتوا من الترفيه والتنعيم جاءتهم بغتة إلى سوء الجحيم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ ﴾ معنى ذلك أنهم تركوا ما ذَكَّرَهُم الله من آياته الدالة على توحيده وصدق رسوله .

﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يعني من نِعَمِ الدنيا وسَعَة الرزق .

وفي إنعامه عليهم مع كفرهم وجهان :

أحدهما : ليكون إنعامه عليهم داعياً إلى إيمانهم . والثاني : ليكون استدراجاً وبلوى ، وقد روى ابن لهيعة بإسناده عن عقبة ابن عامر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إِذَا رَأَيْتَ اللَّه يعطي العِبَادَ مَا يَشَاءُونَ عَلَى مَعَاصِيهِم إِيَّاهُ فَإِنَّمَا ذَلِكَ اسْتِدْرَاجٌ مِنْهُ " ثم تلا : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ .

﴿ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ ﴾ يعني من النِّعَمْ فلم يؤمنوا .

﴿ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾ يحتمل وجهين .

أحدهما : أنه تعجيل العذاب المُهْلك جزاء لأمرين .

أحدهما : لكفرهم به .

والثاني : لكفرهم بِنعَمِهِ .

والوجه الثاني : هو سرعة الموت عند الغفلة عنه بالنِّعَمِ قَطْعاً للذة ، وتعذيباً للحسرة .

ثم قال تعالى : ﴿ فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ وفيه خمسة تأويلات :

أحدها : أن الإِبلاس : الإِياس قال عدي بن زيد :

ملك إذا حل العفاة ببابه . . . غبطوا وأنجح منهم المستبلس

يعني الآيس .

والثاني : أنه الحزن والندم .

والثالث : الخشوع .

والرابع : الخذلان .

والخامس : السكوت وانقطاع الحجة ، ومنه قول العجاج :

يا صاح هل تعرف رسماً مكرساً . . . قال نعم أعرفه وأبلسا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ ﴾ يُقال : لِم ذمّوا على النسيان وليس من فعلهم ؟ فالجواب أنّ "نَسُوا" بمعنى تركوا ما ذكّروا به ، عن ابن عباس وابن جُرَيْج ، وهو قول أبي عليّ ؛ وذلك لأن التارك للشيء إعراضاً عنه قد صيره بمنزلة ما قد نسِي ، كما يُقال : تركه .

في النِّسْي .

جواب آخر وهو أنهم تعرّضوا للنّسيان فجاز الذمّ لذلك ؛ كما جاز الذمّ على التعرّض لسخط الله عزّ وجلّ وعقابه .

ومعنى ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي من النعم والخيرات ، أي كثرنا لهم ذلك .

والتقدير عند أهل العربية : فتحنا عليهم أبواب كل شيء كان مغلقاً عنهم .

﴿ حتى إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أوتوا ﴾ معناه بَطَروا وأشِروا وأعجبوا وظنّوا أن ذلك العطاء لا يَبِيد ، وأنه دال على رضاء الله عزّ وجلّ عنهم ﴿ أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ﴾ أي استأصلناهم وسطونا بهم .

و "بَغْتَةً" معناه فجأة ، وهي الأخذ على غِرّة ومن غير تقدّم أمارة ؛ فإذا أخذ الإنسان وهو غارٌّ غافل فقد أُخِذ بغتةً ، وأنكى شيءٍ ما يَفْجأُ من البَغْت .

وقد قيل : إن التذكير الذي سلف فأعرضوا عنه قام مقام الأمارة .

والله أعلم .

و "بَغْتَةً" مصدر في موضع الحال لا يُقاس عليه عند سيبويه كما تقدّم ؛ فكان ذلك استدراجا من الله تعالى كما قال : ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [ القلم : 45 ] نعوذ بالله من سخطه ومكره .

قال بعض العلماء : رحم الله عبداً تدبر هذه الآية ﴿ حتى إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أوتوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ﴾ .

وقال محمد بن النَّضر الحارثي : أمهل هؤلاء القوم عشرين سنة .

وروى عقبة بن عامر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا رأيتم الله تعالى يعطي العباد ما يشاءون على معاصيهم فإنما ذلك استدراج منه لهم " ثم تلا : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ ﴾ الآية كلها .

وقال الحسن : والله ما أحد من الناس بسط الله له في الدنيا فلم يخف أن يكون قد مكر له فيها إلاَّ كان قد نقص عمله ، وعجز رأيه .

وما أمسكها الله عن عبد فلم يظن أنه خيرٌ له فيها إلاَّ كان قد نقص عمله ، وعجز رأيه .

وفي الخبر " أن الله تعالى أوحى إلى موسى صلى الله عليه وسلم : "إذا رأيت الفقر مقبلاً إليك فقل مرحباً بشِعار الصالحين وإذا رأيت الغِنى مقبلاً إليك فقل ذنب عُجّلت عقوبته" .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ ﴾ المبلس الباهت الحزين الآيس من الخير الذي لا يُحير جواباً لشدّة ما نزل به من سوء الحال ؛ قال العجاج :

يَا صاحِ هل تَعرفُ رَسْماً مُكْرَساً . . .

قال نَعَمْ أعرفُه وأَبْلَسَا

أي تحيّر لهول ما رأى ، ومن ذلك اشتق اسم إبليس ؛ أُبْلَس الرجلُ سَكَت ، وأَبْلَسَت الناقةُ وهي مِبْلاَسٌ إذا لم تَرْغُ من شدّة الضّبَعة ؛ ضَبِعتِ الناقةُ تَضْبَع ضَبَعَةً وَضَبْعاً إذا أرادت الفحل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾

أي فلما تركوا الاتعاظ والازدجار بما ذكروا به من البأس استدرجناهم بتيسير مطالبهم الدنيوية وعبر عن ذلك بقوله : ﴿ فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾ إذ يقتضي شمول الخيرات وبلوغ الطلبات .

﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ﴾ معنى هذه الجمل معنى قوله ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ﴾ وفي الحديث الصحيح عن عقبة بن عامر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا رأيتم الله تعالى يعطي العباد ما يشاؤون على معاصيهم فإنما ذلك استدراج منه لهم " ثم تلا ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به ﴾ الآية ، والأبواب استعارة عن الأسباب التي هيأها الله لهم المقتضية لبسط الرزق عليهم والإبهام في هذا العموم لتهويل ما فتح عليهم وتعظيمه وغيا الفتح بفرحهم بما أوتوا وترتب

على فرحهم أخذهم بغتة أي إهلاكهم فجأة وهو أشد الإهلاك إذ لم يتقدم شعور به فتتوطن النفس على لقائه ، ابتلاهم أولاً بالبأساء والضراء فلم يتعظوا ثم نقلهم إلى ما أوجب سرورهم من إسباغ النعم عليهم فلم يجد ذلك عندهم ولا قصدوا الشكر ولا أصغوا إلى إنابة بل لم يحصلوا إلا على فرح بما أسبغ عليهم .

قال محمد بن النضر الحارثي : أمهل هؤلاء القوم عشرين سنة .

﴿ فإذا هم مبلسون ﴾ أي باهتون بائسون لا يخبرون جواباً .

(88/232)

---

وقرأ ابن عامر فتحنا بتشديد التاء والتشديد لتكثير الفعل وإذا هي الفجائية وهي حرف على مذهب الكوفيين وظرف مكان ، ونسب إلى سيبويه وظرف زمان وهو مذهب الرياشي والعامل فيها إذا قلنا بظرفيتها هو خبر المبتدإ أي ، ففي ذلك المكان ﴿ هم مبلسون ﴾ أي مكان إقامتهم وذلك الزمان ﴿ هم مبلسون ﴾ وأصل الإبلاس الإطراق لحلول نقمة أو زوال نعمة .

قال الحسن : مكتئبون .

وقال السدي : هالكون .

وقال ابن كيسان وقطرب : خاشعون .

وقال ابن عباس : متحيرون .

وقال الزجاج : متحسرون .

وقال ابن جرير : الساكت عند انقطاع الحجة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن كثير :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ أي : أعرضوا عنه وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي : فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون ، وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم ، عياذا بالله من مكره ؛ ولهذا قال : ﴿ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا ﴾ أي : من الأموال والأولاد والأرزاق ﴿ أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ﴾ أي : على غفلة ﴿ فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ أي : آيسون من كل خير .

قال الوالبي ، عن ابن عباس : المبلس : الآيس .

وقال الحسن البصري : من وسع الله عليه فلم ير أنه يمكر به ، فلا رأي له . ومن قتر عليه فلم ير أنه ينظر له ، فلا رأي له ، ثم قرأ : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ قال الحسن : مكر بالقوم ورب الكعبة ؛ أعطوا حاجتهم ثم أخذوا . رواه ابن أبي حاتم .

وقال قتادة : بَغَت القومَ أمرُ الله ، وما أخذ الله قومًا قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعيمهم فلا تغتروا بالله ، إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون . رواه ابن أبي حاتم أيضًا .

(89/232)

---

وقال مالك ، عن الزهري : ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ قال : إرخاء الدنيا وسترها .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن غَيْلان ، حدثنا رِشْدِين - يعني ابن سعد أبا الحجاج المهري - عن حَرْمَلَة بن عمران التُّجيبي ، عن عُقْبة بن مسلم ، عن عقبة بن عامر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إذا رأيت الله يُعْطِي العبدَ من الدنيا على مَعاصيه ما يُحِبُّ ، فإنما هو اسْتِدْرَاج" . ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم ، من حديث حَرْمَلة وابن لَهِيعة ، عن عقبة بن مسلم ، عن عقبة بن عامر ، به (1)

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا عِرَاك بن خالد بن يزيد ، حدثني أبي ، عن إبراهيم بن أبي عَبْلة ، عن عبادة بن الصامت [رضي الله عنه] أن رسول

الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : "إن الله [تبارك وتعالى] إذا أراد الله بقوم بقاء – أو : نماء – رزقهم القصد والعفاف ، وإذا أراد الله بقوم اقتطاعًا فتح لهم – أو فتح عليهم – باب خيانة" (2) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 256. 257 ﴾

---

(1) المسند (154/4) وتفسير الطبري (361/11) ورواه الدولابي (111/1) من طريق حجاج بن سليمان ، عن حرملة بن عمران به ، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر برقم (32) من طريق بشر بن عمر ، عن عبد الله بن لهيعة ، عن عقبة بن مسلم به .

(2) ورواه ابن مردويه وأبو الشيخ كما في الدر (270/3) .

*(90/232)*

---

وقال أبو السعود :

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ ﴾ عطفٌ على مقدَّر ينساق إليه النظمُ الكريم أي فانهمَكوا فيه ونسُوا ما ذُكِّروا به من البأساء والضّراء ، فلما نسوه ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من فنون النَّعْماء على منهاج الاستدراج ، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال : " مُكِر بالقوم ورب الكعبة " وقرىء ( فتّحنا ) بالتشديد للتكثير وفي ترتيب الفتح

على النسيان المذكور إشعارٌ بأن التذكر في الجملة غير خالٍ عن النفع ، و( حتى ) في قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ ﴾ هي التي يُبتدأ بها الكلام دخلت على الجملة الشرطية كما في قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا جَاء أَمْرُنَا ﴾ الآية ونظائره ، وهي مع ذلك غاية لقوله تعالى : ﴿ فَتَحْنَا ﴾ أو لما يدل هم عليه كأنه قيل : ففعلوا ما فعلوا حتى إذا اطمأنوا بما أتيح لهم وبطِروا وأشِروا ﴿ أخذناهم بَغْتَةً ﴾ أي نزل بهم عذابنا فجأةً ليكون أشدَّ عليهم وقعاً وأفظع هولاً ﴿ فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ ﴾ متحسّرون غاية الحسرة آيسون من كل خير ، واجمون ، وفي الجملة الاسمية دلالة على استقرارهم على تلك الحالة الفظيعة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

*(91/232)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ ﴾ أي تركوا ما دعاهم الرسل عليهم الصلاة والسلام إليه وردوه عليهم ولم يتعظوا به كما روي عن ابن جريج ، وقيل : المراد أنهم انهمكوا في معاصيهم ولم يتعظوا بما نالهم من البأساء والضراء فلما لم يتعظوا ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ من النعم الكثيرة كالرخاء وسعة الرزق مكراً بهم واستدراجاً لهم .

فقد روى أحمد والطبراني والبيهقي في "شعب الإيمان" من حديث عقبة بن عامر مرفوعاً " إذا رأيت الله تعالى يعطي العبد في الدنيا وهو مقيم على معاصيه فإنما هو استدراج ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ ﴾ الآية وما بعدها " وروي عن الحسن أنه لما سمع الآية قال : "مكر بالقوم ورب الكعبة أعطوا حاجتهم ثم أخذوا" وقيل : المراد فتحنا عليهم ذلك إلزاماً للحجة وإزاحة للعلة ، والظاهر أن ﴿ فَتَحْنَا ﴾ جواب ( لما ) لأن فيها سواء قيل بحرفيتها أو اسميتها معنى الشرط .

واستشكل ذلك بأنه لا يظهر وجه سببية النسيان لفتح أبواب الخير .

وأجيب بأن النسيان سبب للاستدراج المتوقف على فتح أبواب الخير ، وسببية شيء لآخر تستلزم سببيته لما يتوقف عليه أو يقال : إن الجواب ما ذكر باعتبار ماله ومحصله وهو ألزمناهم الحجة ونحوه وتسببه عنه ظاهر ، وقيل : إنه مسبب عنه باعتبار غايته وهو أخذهم بغتة .

وقرأ أبو جعفر وابن عامر ﴿ فَتَّحْنَا ﴾ بالتشديد للتكثير .

*(92/232)*

﴿ حتى إِذَا فَرِحُواْ ﴾ فرح بطر ﴿ بِمَا أُوتُواْ ﴾ من النعم ولم يقوموا بحق المنعم جل شأنه ﴿ أخذناهم ﴾ عاقبناهم وأنزلنا بهم العذاب ﴿ بَغْتَةً ﴾ أي فجأة ليكون أشد عليهم وأفظع هولاً ، وهي نصب على الحالية من الفاعل أو المفعول أي مباغتين أو مبغوتين أو على المصدرية أي بغتناهم بغتة ﴿ فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ ﴾ أي آيسون من النجاة والرحمة كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

وقال البلخي : أذلة خاضعون ، وعن السدي الإبلاس تغير الوجه ومنه سمي إبليس لأن الله تعالى نكس وجهه وغيره ، وعن مجاهد هو بمعنى الاكتئاب .

وفي "الحواشي الشهابية" للإبلاس ثلاثة معان في اللغة : الحزن والحسرة واليأس وهي معان متقاربة .

وقال الراغب : هو الحزن المعترض من شدة اليأس ، ولما كان المبلس كثيراً ما يلزم السكوت وينسى ما يعنيه قيل : أبلس فلان إذا سكت وإذا انقطعت حجته ، وإذا هي الفجائية وهي ظرف مكان كما نص عليه أبو البقاء .

وعن جماعة أنها ظرف زمان ، ومذهب الكوفيين أنها حرف ؛ وعلى القولين الأولين الناصب لها خبر المبتدأ أي أبلسوا في مكان إقامتهم أو في زمانها . انتهى انتهى . اهـ

﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ فلمّا نسوا ما ذُكِّروا به ﴾ عطف على جملة ﴿ قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ﴾ .

والنسيان هنا بمعنى الإعراض ، كما تقدّم آنفاً في قوله : ﴿ وتَنسون ما تشركون ﴾ [ الأنعام : 41 ] .

وظاهرٌ تفرّع الترك عن قسوة القلوب وتزيين الشيطان لهم أعمالهم .

و( ما ) موصولة ما صْدَقُها البأساء والضرّاء ، أي لمّا انصرفوا عن الفطنة بذلك ولم يهتدوا إلى تدارك أمرهم .

ومعنى ﴿ ذُكِّروا به ﴾ أنّ الله ذكّرهم عقابه العظيم بما قدّم إليهم من البأساء والضرّاء .

و( لمَّا ) حرف شرط يدلّ على اقتران وجود جوابه بوجود شرطه ، وليس فيه معنى السببية مثل بقية أدوات الشرط .

*(93/232)*

---

وقوله : ﴿ فتحنا عليهم أبواب كلّ شيء ﴾ جواب ﴿ لمّا ﴾ والفتح ضدّ الغلق ، فالغلق : سد الفرجة التي يمكن الاجتياز منها إلى ما وراءها بباب ونحوه ، بخلاف إقامة الحائط فلا تسمّى غلقاً .

والفتح : جعْل الشيء الحاجز غيرَ حاجز وقابلاً للحجز ، كالباب حين يفتح .

ولكون معنى الفتح والغلق نسبيين بعضهما من الآخر قيل للآلة التي يمسك بها الحاجز ويفتح بها مِفتاحاً ومِغْلاقاً ، وإنّما يعقل الفتح بعد تعقّل الغلق ، ولذلك كان قوله تعالى : ﴿ فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾ مقتضياً أنّ الأبواب المراد ها هنا كانت مغلقة وقت أن أخذوا بالبأساء والضرّاء ، فعلم أنّها أبواب الخير لأنّها التي لا تجتمع مع البأساء والضرّاء .

فالفتح هنا استعارة لإزالة ما يؤلم ويغمّ كقوله : ﴿ ولو أنّ أهل القُرى آمنوا واتَّقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ [ الأعراف : 96 ] .

ومنه تسمية النصر فتحنا لأنّه إزالة غمّ القهر .

وقد جُعل الإعراض عمَّا ذُكّروا به وقتاً لفتح أبواب الخير ، لأنّ المعنى أنّهم لمّا أعرضوا عن الاتِّعاظ بنُذر العذاب رفعنا عنهم العذاب وفتحنا عليهم أبواب الخير ، كما صُرّح به في قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا في قرية من نبّيء إلاّ أخذنا أهلها بالبأساء والضرّاء لعلّهم يضرّعون ثمّ بدّلنا مكان السيّئة الحسنة حتّى عفوا وقالوا قد مسّ آباءنا الضرّاء والسرّاء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ [ الأعراف : 94 ، 95 ] .

وقرأ الجمهور ﴿ فتحنا ﴾ بتخفيف المثنّاة الفوقية .

وقرأه ابن عامر ، وأبو جعفر ورُويس عن يعقوب بتشديدها للمبالغة في الفتح بكثرته كما أفاده قوله ﴿ أبوابَ كلّ شيء ﴾ .

ولفظ ( كلّ ) هنا مستعمل في معنى الكثرة ، كما في قول النابغة :

بها كلّ ذيّال وخنساء ترعوي

إلى كلّ رجّاف من الرمل فارد . . .

(94/232)

---

أو استعمل في معناه الحقيقي ؛ على أنَّه عامّ مخصوص ، أي أبواب كل شيء يبتغونه ، وقد علم أنّ المراد بكلّ شيء جميع الأشياء من الخير خاصّة بقرينة قوله : ﴿ حتى إذا فرحوا ﴾ وبقرينة مقابلة هذا بقوله : ﴿ أخذنا أهلها بالبأساء والضرّاء ﴾ [ الأعراف : 79 ] ، فهنالك وصف مقدّر ، أي كلّ شيء صالح ، كقوله تعالى : ﴿ يأخذ كلّ سفينة غصبا ﴾ [ الكهف : 79 ] أي صالحة .

و﴿ حتّى ﴾ في قوله : ﴿ حتَّى إذا فرحوا ﴾ ابتدائية .

ومعنى الفرح هنا هو الازدهاء والبطر بالنعمة ونسيان المنعم ، كما في قوله تعالى : ﴿ إذ قال له قومه لا تفرح إنّ الله لا يحبّ الفرحين ﴾ [ القصص : 76 ] .

قال الراغب : ولم يرخّص في الفرح إلاّ في قوله تعالى : ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ [ يونس : 58 ] .

و( إذا ) ظرف زمان للماضي .

ومراد الله تعالى من هذا هو الإمهال لهم لعلّهم يتذكّرون الله ويوحّدونه فتطهر نفوسهم ، فابتلاهم الله بالضرّ والخير ليستقصي لهم سببي التذكّر والخوف ، لأنّ من النفوس نفوساً تقودها الشدّة ونفوساً يقودها اللين .

ومعنى الأخذ هنا الإهلاك .

ولذلك لم يذكر له متعلِّق كما ذكر في قوله آنفاً ﴿ فأخذناهم بالبأساء والضرّاء ﴾ للدلالة على أنَّه أخذ لا هوادة فيه .

والبغتة فعلة من البغْت وهو الفُجأة ، أي حصول الشيء على غير ترقّب عند من حصل له وهي تستلزم الخفاء .

فلذلك قوبلت بالجهرة في الآية الآتية .

وهنا يصحّ أن يكون مؤوّلاً باسم الفاعل منصوباً على الحال من الضمير المرفوع ، أي مباغتين لهم ، أو مؤوّلاً باسم المفعول على أنَّه حال من الضمير المنصوب ، أي مبغوتين ، ﴿ وكذلك أخذ ربّك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ﴾ [ هود : 102 ] .

وقوله : ﴿ فإذا هم مبلسون ﴾ ( إذا ] فجائية .

وهي ظرف مكان عند سيبويه ، وحرف عند نحاة الكوفة .

والمبلسون اليائسون من الخير المتحيّرون ، وهو من الإبلاس ، وهو الوجوم والسكوت عند طلب العفو يأساً من الاستجابة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(95/232)

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44) ﴾

إنهم عندما نسوا ما جاءهم من تذكير الحق لهم بالمنهج والتوحيد من خلال الرسل إنه – سبحانه – يصيبهم بالعذاب الذي يفاجئهم به فيقعون في حيرة تأخذ عليهم ألبابهم وتشتت قلوبهم وتقطع رجاءهم .

والرسل إنما تأتي لتذكر ؛ لأن الإيمان موجود بالفطرة . ولكن الغفلة هي التي تخفي الإيمان . والإنسان يحيا في كون مليء بالنعم ولا دخل لأحد بها ، ولا بد لأحد فيها ، ولم يدعها أحد لنفسه ، كان يجب على هذا الإنسان أن يعيش دائماً في رحاب الحمد لله ، مولى هذه النعمة .

والتذكير من الحق لعباده يكون بالنعم أو الرسل الذين يأتون بالرسالات المتوالية . وهب أن

إنساناً قد غفل عن نعمة الله في الطعام ، ثم جاءت لحظة الجوع ، فجلس يشتهي الطعام فمنحه الله ذلك الطعام فكيف ينسى لحظة الشبع من وهب له هذا الطعام .

﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ ﴾ إما أن يكون هو الإخبار بواسطة الرسل الذين يذكرون الناس بأن المنعم هو الله ، وأن الله أنزل المنهج ليصلح الكون به ، وإما أن يكون بواسطة النعم التي تمر على الإنسان في كل لحظة من اللحظات ؛ لأنها تنبه الإنسان إلى أن هناك من أعطاها .

مثال ذلك ساعة يستر الإنسان عورته وجسده بلباس جميل ، ألا يتساءل عن الذي وهب الصانع تلك الموهبة التي صمم بها الزي . إذن كيف يأخذ الإنسان النعمة ولا يتذكر المنعم ؟ إن الله سبحانه لا يحرمهم من النعم ساعة أن تركوا شكرها ، بل يفتح عليهم أبواب كل شيء ، أي يعطيهم من النعم أكثر وأكثر ، فيترفون ويعيشون في ألوان من حياة العز والصحة والسعة والجاه والسيطرة والمكانة . ثم ما الذي يحدث ؟ ﴿ أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ ﴾ .

*(96/232)*

---

وقلنا من قبل هذا المثل الريفي : لا يقع أحد من فوق الحصير . ولكن الحق يعلي الكافر المشرك في بعض الأحيان ثم يأخذه بغتة فيقع ليكون الألم عظيماً . فإن رأيت إنساناً أسرف

على نفسه ووسع الحق عليه في نظام الحياة . إياك أن تفتن وتقول : آه إن الكافر الظالم يركب أفخر السيارات ويعيش في أبهى القصور ، لا تقل ذلك لأنك سترى نهاية هذا الظالم البشعة .

وانظر إلى دقة التعبير في قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ لقد فتح عليهم . . أي سلط عليهم ، لا فتح لهم ، ويقول الحق سبحانه في موقع آخر من القرآن الكريم : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ .

وهكذا نعرف أن الفتح لك غير الفتح عليك ؛ لأن الفتح على أحد يعني الاستدراج إلى إذلال قسري سوف يحدث له . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ ﴾ [ الأنعام : 44 ] .

إن القبض يأتي لحظة الفرح .

وكثيراً ما نرى مثل هذه الأحداث في الحياة ، نلتفت إلى كارثة تحدث للعريس أو العروس في يوم الزفاف . ويصدق قول الشاعر :

مشت الحادثات في غرف الحمراء . . . مشي النعي في دار عرس

وهذا يشرح القول الكريم : ﴿ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ﴾ [ الأنعام : 44 ] .

وعندما ندقق في كلمة : ﴿ بِمَا أُوتُوا ﴾ فإننا نجد أن ما حصلوا عليه من نعمة إنما جاءهم

كتمهيد إلهي ييسر هذه المسائل ، ثم يأخذهم الحق بغتة ، أي أن الحادث الضار يأتي بدون مقدمات ؛ لأن مجيء المقدمات قد يجعل الإنسان يتيقظ ويحتاط أو يتوقع ذلك . ونعرف أن الحق يقول في موقع آخر من القرآن الكريم : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً ﴾ [ الأنعام : 47 ] .

أي أن العذاب قد يأتي مرة بغتة ، وقد يأتي مرة أخرى جهراً . والعذاب يأتي بغتة عقاباً ، ويأتي جهرة حتى لا يقولن أحد : لولا أنّ مجيء العذاب بغتة لكان قد احتاط لذلك الأمر . ويأتيهم العذاب وهم مبلسون أي يائسون لا منجى ولا منقذ ولا خلاص لهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(97/232)

---

سؤال : فإن قال لنا قائل : وكيف قيل : " فتحنا عليهم أبوابَ كل شيء " ، وقد علمت أن بابَ الرحمة وباب التوبة [لم يفتحا لهم] ، لم تفتح لهم أبواب أخر غيرهما كثيرة ؟ (1)

قيل : إن معنى ذلك على غير الوجه الذي ظننتَ من معناه ، وإنما معنى ذلك : فتحنا عليهم ، استدراجًا منا لهم ، أبوابَ كل ما كنا سددنا عليهم بابه ، عند أخذنا إياهم بالبأساء والضراء ليتضرعوا ، إذ لم يتضرعوا وتركوا أمر الله تعالى ذكره ، لأنّ آخر هذا

الكلام مردودٌ على أوله . وذلك كما قال تعالى ذكره في موضع آخر من كتابه : وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ، [سورة الأعراف : 94 - 95] ، ففتح الله على القوم الذين ذكر في هذه الآية [أنهم نسوا ما] ذكرهم ، بقوله : " فلما نسوا ما ذكّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء " ، هو تبديله لهم مكانَ السيئة التي كانوا فيها في حال امتحانه إياهم ، من ضيق العيش إلى الرخاء والسعة ، ومن الضر في الأجسام إلى الصحة والعافية ، وهو " فتح أبواب كل شيء " كان أغلق بابه عليهم ، مما جرى ذكره قبل قوله : " فتحنا عليهم أبواب كل شيء " ، فردّ قوله : " فتحنا عليهم أبواب كل شيء " ، عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 10 صـ 358. 359 ﴾

*(98/232)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " فَتَحْنَا " : قرأ الجمهور " فَتَحْنَا " مخففاً ، وابن عامر " فَتَّحْنَا " مثقلاً ، والتقيل مُؤذِن

بالتكثير؛ لأن بَعْدَهُ "أبواب" فناسب التكثير والتخفيف هو الأصل.

وقرا ابن عامر أيضاً في "الأعراف" ﴿ لَفَتَحْنَا ﴾ [الأعراف: 96] وفي "القمر" ﴿ فَفَتَحْنَآ ﴾ [القمر: 11] بالتَّشديد أيضاً، وشدَّدَ أيضاً ﴿ فُتِحَتْ يَأْجُوجُ ﴾ [الأنبياء: 96] والخلافُ أيضاً في ﴿ فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ في "الزمر" في الموضعين [آية 71، 73]، ﴿ وَفُتِحَتِ السمآء ﴾ في النبأ [آية 19] فإن الجماعة وافقوا ابن عامر على تشديدها، ولم يَقْرَأها بالتخفيق إلاَّ الكوفيون، فقد جَرَى ابن عامر على نَمَطٍ واحدٍ في هذا الفِعْلِ، والباقون شَدَّدُوا في المواضع الثلاثة المُشَارِ إليها، وخَفَّفُوا في الباقي جَمْعاً بين اللغتين.

قوله: "فَإِذَا مُبْلِسُونَ" "إذا" هي الفُجَائِيَّةُ، وفيها ثلاثة مذاهب:

مذهب سيبويه أنها ظرف مكان، ومذهبُ جماعة منهم الرّياشي أنها ظرف زمان، ومذهب الكُوفيين أنها حرف، فعلى تقدير كونها ظَرْفاً زماناً أو مكاناً النَّصابُ لها خبر المبتدأ، أي: أَبْلِسُوا في مكان إقامَتِهِمْ أو في زمانها.

والإبْلاسُ: الإطْرَاقُ.

وقيل: هو الحزن المعترض من شدة البَأسِ، ومنه أشْتُقَّ "إبْلِيسُ" وقد تقدَّم في موضعه، وأنَّهُ هل هو أعجمي أم لا؟

قال القرطبي: المُبْلِسُ الباهت الحزين الآيسُ من الخير الذي لا يحيرُ جواباً لشدَّةِ ما نزل به من

سُوءِ الحالِ.

قال العجَّاج: [الرجز]

2175 - يَا صَاحِ هَلْ تَعْرِفُ رَسْماً مُكْرَسَا . . .

قال: نَعَمْ أعْرِفُه وأبْلَسَا

(99/232)

---

أي: تحيّر لهَوْل ما رَأى، ومن ذلك اشْتُقَّ اسم إبْليس، وأبْلَسَ الرَّجُلُ سَكَتَ، وأبْلَسَت النَّاقَةُ وهي مبلاسٌ إذا لم تَرْعَ من شِدَّةِ الضَّبَعة يقال: ضَبِعَت النَّاقة تَضْبَع ضَبَعَةً وضَبْعاً إذا أرادت الفَحْلَ.

"أخَذْنَاهُم بَغْتَةً": فُجَاءةً أين ما كانوا.

قال أهْلُ المعاني: وإنما أخذوا في حَالِ الرَّاحةِ والرَّخَاءِ ليكون أشَدَّ لتحَسُّرِهِمْ على ما فَاتَهُمْ من حال السلامة والعَافِيَةِ، "فإذا هم مُبْلسون" آيِسُونَ من كُلِّ خيرٍ.

قال الفرَّاء: المُبْلسُ الذي انقطع رَجَاؤُهُ، ولذلك قيل للذي سكت عند انقطاع حُجَّتِهِ: قد أبْلِسَ.

وقال الزَّجَّاجُ: المُبْلسُ الشديد الحَسْرَةِ الحزين. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ

8 صـ 150. 151 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ يخبر عن خَفِيَ مكره بهم ، وكيف أنه استدرجهم ، ثم أذاقهم وبالَ أمرهم فقال : لما طالتْ عن الحضرة غيبتُهم ، ولم تنجحْ مواعظُنا فيهم سَهَّلْنَا لهم أسبابَ العوافي وصببنا عليهم عزالي النِّعم ، وفتحنا لهم أبواب الرفاهية ، فلما استمكن الرجاءُ من قلوبهم أخذناهم بغتةً وعذبنَاهم فجأة ، وأذقناهم حسرةً فإذا هم من الرحمة قانطون ، ولِمَا خامر قلوبَهم – من أسباب الوحشة عن الاستراحة بدوام المناجاة – آيسون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 472 ﴾

*(100/232)*

---

قوله تعالى ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (45) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان من عادة الغالب من أهل الدنيا أن يفوته آخر الجيوش وشُذّابهم لملل أصحابه من الطلب وضجرهم من النصب والتعب وقصورهم عن الإحاطة بجميع الأرب ، أخبر تعالى أن أخذه على غير ذلك ، وأن نيله للآخر كنيله للأول على حد سواء ، فقال مسبباً عن الأخذ الموصوف مشيراً بالبناء للمفعول إلى تمام القدرة ، وبالدابر إلى الاستئصال :

﴿ فقطع دابر ﴾ أي آخر ﴿ القوم الذين ظلموا ﴾ أي بوضع الشيء في غير موضعه دأب الماشي في الظلام ، وضعوا لقسوة موضع الرقة التي تدعو إليها الشدة ، ووضعوا الفرح بالنعمة موضع الخشية من الرد إلى الشدة ، كما ظلمتم أنتم بدعاء الأصنام وقت الرخاء وكان ذلك موضع دعاء من أفاض تلك النعم ، ودعوتم الله وقت الشدة وكان ذلك موضع دعاء من عبدتموه وقت الرخاء ، لئلا تقعوا فيما جرت عادتكم بالذم به .

وإن تكون كريهة أدعى لها . . .

وإذا يحاس الحيس يدعى جندب

*(101/232)*

---

ولما كان استئصالهم من أجل النعم على من عادوهم فيه من الرسل عليهم السلام وأتباعهم رضي الله عنهم ، نبه على ذلك بالجملة مع ما يشير إليه من ظهور الاستغناء المطلق فقال :

﴿ والحمد ﴾ أي قطع أمرهم كله والحال أن الإحاطة بأوصاف الكمال ﴿ لله ﴾ المتفرد بنعوت الجلال والجمال ﴿ رب العالمين ﴾ الموجد لهم أجمعين ، أي له ذلك كله بعد فناء الخلق على أيّ صفة كانوا من إيمان أو كفر ، كما كان له ذلك قبل وجودهم وعند خلقهم على كل من حالتيهم - كما أشير إليه بأول السورة ، فكأنه قيل : الكمال لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ، فقطع دابرهم ، والكمال له لم يتغير ، لأنه لا يزيده وجود موجود ، ولا ينقصه فقد مفقود ، فهو محمود حال الإعدام والمحق كما كان محموداً حال الإيجاد والخلق ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، فإنه لا يخرج شيء عن إيمانهم ولا كفرانهم عن إرادته سبحانه ، فلا عليك منهم اقترحوا الآيات أولا ، فإنه ليس عليك إلا البلاغ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 637 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا ﴾ الدابر التابع للشيء من خلفه كالولد للوالد يقال : دبر فلان القوم يدبرهم دبوراً ودبراً إذا كان آخرهم .

قال أُمية بن أبي الصلت :

فاستؤصلوا بعذاب حص دابرهم . . فما استطاعوا له صرفا ولا نتصروا

وقال أبو عبيدة : دابر القوم آخرهم الذي يدبرهم .

وقال الأصمعي الدابر الأصل يقال قطع الله دابره أي أذهب الله أصله .

وقوله : ﴿ والحمد لله ربّ العالمين ﴾ فيه وجوه :

الأول .

معناه أنه تعالى حمد نفسه على أن قطع دابرهم واستأصل شأفتهم لأن ذلك كان جارياً مجرى النعمة العظيمة على أولئك الرسل في إزالة شرهم عن أولئك الأنبياء .

*(102/232)*

---

والثاني : أنه تعالى لما علم قسوة قلوبهم لزم أن يقال : إنه كلما ازدادت مدة حياتهم ازدادت أنواع كفرهم ومعاصيهم ، فكانوا يستوجبون به مزيد العقاب والعذاب فكان إفناؤهم وإماتتهم في تلك الحالة موجباً أن لا يصيروا مستوجبين لتلك الزيادات من العقاب فكان ذلك جارياً مجرى الإنعام عليهم .

والثالث : أن يكون هذا الحمد والثناء إنما حصل على وجود إنعام الله عليهم في أن كلفهم وأزال العذر والعلة عنهم ودبرهم بكل الوجوه الممكنة في التدبير الحسن ، وذلك بأن أخذهم أولاً بالبأساء والضراء ، ثم نقلهم إلى الآلاء والنعماء ، وأمهلهم وبعث الأنبياء

والرسل إليهم ، فلما لم يزدادوا إلا انهماكاً في الغي والكفر ، أفناهم الله وطهر وجه الأرض من شرهم ، فكان قوله : ﴿ والحمد الله ربّ العالمين ﴾ على تلك النعم الكثيرة المتقدمة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 187 ﴾

*(103/232)*

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ القوم الذين ظَلَمُواْ ﴾

الدابر الآخر ؛ يُقال : دَبَر القومَ يَدْبِرُهم دَبْراً إذا كان آخرهم في المجيء .

وفي الحديث عن عبد الله بن مسعود : " من الناس من لا يأتي الصَّلاة إلاَّ دبريّاً " أي في آخر الوقت ؛ والمعنى هنا قطع خلفهم من نسلهم وغيّرهم فلم تبق لهم باقية .

قال قُطْرُب : يعني أنهم استؤصلوا وأهلكوا .

قال أُميّة بن أبي الصَّلْت :

فأهلِكُوا بعذابٍ حَصَّ دابَرَهم . . .

فما استطاعوا له صَرْفاً ولا انتصروا

ومنه التدبير لأنه إحكام عواقب الأُمور .

﴿ والحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ قيل : على إهلاكهم ، وقيل : تعليم للمؤمنين كيف يحمدونه .

وتضمنت هذه الآية الحجة على وجوب ترك الظلم ؛ لما يعقِب من قطع الدابر ، إلى العذاب الدائم ، مع استحقاق القاطع الحمدَ من كل حامد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا ﴾ عبارة عن استئصالهم بالهلاك والمعنى : فقطع دابرهم ونبه على سبب الاستئصال بذكر الوصف الذي هو الظلم ، وهو هنا الكفر والدابر التابع للشيء من خلفه يقال : دبر الوالد الولد يدبره ، وفلان دبر القوم دبوراً ودبراً إذا كان آخرهم .

وقال أمية بن أبي الصلت :

فاستؤصلوا بعذاب خص دابرهم . . .

فما استطاعوا له صرفاً ولا انتصروا

قال أبو عبيدة : ﴿ دابر القوم ﴾ آخرهم الذي يدبرهم .

وقال الأصمعي : الدابر الأصل يقال : قطع الله دابره أي أذهب أصله ، وقرأ عكرمة ﴿ فقطع دابر ﴾ بفتح القاف والطاء والراء أي فقطع الله وهو التفات إذ فيه الخروج من ضمير

المتكلم إلى ضمير الغائب .

﴿ والحمد لله رب العالمين ﴾ قال الزمخشري : إيذان بوجوب الحمد لله عند هلاك الظلمة وأنه من أجل النعم وأجزل القسم ؛ انتهى .

*(104/232)*

---

والذي يظهر أنه تعالى لما أرسل إلى هؤلاء الأمم كذبوهم وآذوهم فابتلاهم الله تارة بالبلاء ، وتارة بالرخاء فلم يؤمنوا فأهلكهم واستراح الرسل من شرهم وتكذيبهم وصار ذلك نعمة في حق الرسل إذ أنجز الله وعده على لسانهم بهلاك المكذبين فناسب هذا الفعل كله الختم بالحمدلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ القوم الذين ظَلَمُواْ ﴾ أي آخرهم كما قال غير واحد ، وهو من دبره إذا تبعه فكأنه في دبره أي خلفه ، ومنه "إن من الناس من لا يأتي الصلاة إلا دبراً" أي في آخر الوقت .

وقال الأصمعي : الدابر الأصل ؛ ومنه قطع الله دابره أي أصله .

وأياً ما كان فالمراد أنهم استؤصلوا بالعذاب ولم يبق منهم أحد ، ووضع الظاهر موضع الضمير للإشعار بعلة الحكم .

﴿ والحمد للَّهِ رَبّ العالمين ﴾ على ما جرى عليهم من النكال والإهلاك فإن إهلاك الكفار والعصاة من حيث إنه تخليص لأهل الأرض من شؤم عقائدهم الفاسدة وأعمالهم الخبيثة نعمة جليلة يحق أن يحمد عليها فهذا منه تعالى تعليم للعباد أن يحمدوه على مثل ذلك ، واختار الطبرسي أنه حمد منه عز اسمه لنفسه على ذلك الفعل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وجملة ﴿ فقطع دابر القوم ﴾ معطوفة على جملة ﴿ أخذناهم ﴾ ، أي فأخذناهم أخذ الاستئصال .

فلم يُبق فيهم أحداً .

والدابر اسم فاعل من دَبَره من باب كَتَب ، إذا مشى من ورائه .

(105/232)

---

والمصدر الدبور بضم الدال ، ودابر الناس آخرهم ، وذلك مشتقّ من الدُّبر ، وهو الوراء ، قال تعالى : ﴿ واتَّبِع أدبارهم ﴾ [ الحجر : 65 ] .

وقطع الدابر كناية عن ذهاب الجميع لأنّ المستأصل يبدأ بما يليه ويذهب يستأصل إلى أن

يبلغ آخره وهو دَابره ، وهذا ممّا جرى مجرى المثل ، وقد تكرّر في القرآن ، كقوله : ﴿ أنّ دابر هؤلاء مَقطوع مصبحين ﴾ [ الحجر : 66 ] .

والمراد بالذين ظلموا المشركون ، فإنّ الشرك أعظم الظلم ، لأنَّه اعتداء على حقّ الله تعالى على عباده في أن يعترفوا له بالربوبية وحده ، وأنّ الشرك يستتبع مظالم عدّة لأنّ أصحاب الشرك لا يؤمنون بشرع يزع الناس عن الظلم .

وجملة : ﴿ والحمد لله ربّ العالمين ﴾ يجوز أن تكون معطوفة على جملة : ﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ﴾ بما اتَّصل بها .

عطف غرض على غرض .

ويجوز أن تكون اعتراضاً تذييلياً فتكون الواو اعتراضية .

وأيّاً ما كان موقعها ففي المراد منها اعتبارات ثلاثة:

أحدها : أن تكون تلقيناً للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن يحمدوا الله على نصره رسلَه وأولياءهم وإهلاك الظالمين ، لأنّ ذلك النصر نعمة بإزالة فساد كان في الأرض ، ولأنّ في تذكير الله الناس به إيماء إلى ترقّب الإسوة بما حصل لمن قبلهم أن يترقَّبوا نصر الله كما نصر المؤمنين من قبلهم ؛ فيكون ﴿ الحمد لله ﴾ مصدراً بدلاً من فعله ، عُدل عن نصبه وتنكيره إلى رفعه وتعريفه للدلالة على معنى الدوام والثبات ، كما تقدّم في قوله تعالى : ﴿ الحمد لله ﴾ في سورة [ الفاتحة : 2 ] .

﴿ ثانيها ﴾ : أن يكون ﴿ الحمد لله ﴾ كناية عن كون ما ذكر قبله نعمة من نعم الله تعالى لأنّ من لوازم الحمد أن يكون على نعمة ، فكأنّه قيل : فقطع دابر القوم الذين ظلموا .

وتلك نعمة من نعم الله تقتضي حمده .

(106/232)

---

ثالثها : أن يكون إنشاءَ حمد لله تعالى من قِبَل جلاله مستعملاً في التعجيب من معاملة الله تعالى إيّاهم وتدريجهم في درجات الإمهال إلى أن حقّ عليهم العذاب .

ويجوز أن يكون إنشاءَ الله تعالى ثناء على نفسه ، تعريضاً بالامتنان على الرسول والمسلمين .

واللام في ﴿ الحمد ﴾ للجنس ، أي وجنس الحمد كلّه الذي منه الحمد على نعمة إهلاك الظالمين .

وفي ذلك كلّه تنبيه على أنَّه يحقّ الحمد لله عند هلاك الظلمة ، لأنّ هلاكهم صلاح للناس ، والصلاح أعظم النعم ، وشكر النعمة واجب .

وهذا الحمد شكر لأنّه مقابل نعمة .

وإنّما كان هلاكهم صلاحاً لأنّ الظلم تغيير للحقوق وإبطال للعمل بالشريعة ، فإذا تغير الحقّ

والصلاح جاء الدمار والفوضى وافتتن الناس في حياتهم فإذا هلك الظالمون عاد العدل ، وهو ميزان قوام العالم .

أخرج أحمد بن حنبل عن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحبّ فإنّما هو استدراج ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فلمّا نسُوا ما ذكّروا به فتحنا عليهم أبواب كلّ شيء حتّى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله ربّ العالمين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

*(107/232)*

---

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾

أي : آخرهم . كناية عن الاستئصال ، لأن ذهاب آخر الشيء يستلزم ذهاب ما قبله .

وهو من ( دَبَرَهُ ) إذا تبعه ، فكان في دُبُرِهِ . أي : خلفه . فالدابر ما يكون بعد الآخر ، ويطلق عليه تجوّزاً . وقال أبو عبيد : دابر القوم آخرهم . وقال الأصمعيّ : الدابر الأصل ،

ومنه : قطع الله دابره : أصله .

﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي : على ما جرى عليهم من الهلاك . فإن إهلاك الكفار والعصاة من حيث إنه تخليص لأهل الأرض ، من شؤم عقائدهم وأعمالهم ، نعمة جليلة يحق أن يحمد عليها ، لا سيما مع ما فيه من إعلاء كلمة الحق التي نطقت بها رسلهم ، عليهم السلام .

تنبيهات :

الأول – روي في هذه الآية أخبار وآثار . منها ما أخرجه الإمام أحمد عن عقبة بن عامر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : < إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب ، فإنما هو استدراج > . ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ –إلى : ﴿ هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم عنه .

وروى ابن أبي حاتم أيضاً عن عُبَادَة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : < إذا أراد الله بقوم اقتطاعاً فتح لهم ( أَوْ فُتِحَ عَلَيْهِمْ ) باب خيانة ﴿ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾ الآية > . ورواه أحمد وغيره .

وقال الحسن البصريّ : من وسع الله عليه ، فلم ير أنه يمكر به ، فلا رأي له . ومن قتّر عليه ، ولم ير أنه ينظر له ، فلا رأي له . ثم قرأ ﴿ فَلَمَّا نَسُوا ﴾ الآية – قل الحسن : مكر بالقوم ، ورب الكعبة ! أعطوا حاجاتهم ثم أخذوا .

وقال قتادة : بغت القومَ أمرُ الله ، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم ، فلا تغتروا بالله ، فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون – روى ذلك ابن أبي حاتم – .

الثاني –قال الرازيّ : قال أهل المعاني : وإنما أخذوا في حال الرخاء والراحة ليكون أشد ، لتحسرهم على ما فاتهم من السلامة والعافية .

الثالث – قال الزمخشري : في قوله تعالى : ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ إيذان بوجوب الحمد عند هلاك الظلمة ، وأنه من أجل النعم ، وأجزل القسم . أي : فهو إخبار بمعنى الأمر ، تعليماً للعباد .

قال الناصر في " الانتصاف " : ونظيرها قوله تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ ﴾ [ النمل : 58 – 59 ] فيمن وقف ههنا ، وجعل الحمد على إهلاك المتقدم ذكرهم من الطاغين ، ومنهم من وقف على : ﴿ الْمُنذَرِينَ ﴾ وجعل الحمد متصلاً بما بعده من إقامة البراهين على وحدانية الله تعالى ، وأنه جل جلاله خير مما يشركون . فعلى الأول يكون الحمد ختماً ، وعلى الثاني فاتحة ، وهو مستعمل فيهما شرعاً ، ولكنه في آية النمل أظهر في كونه مفتتحاً لما بعده ، وفي آية الأنعام

ختم لما تقدمه حتماً ، إذ لا يقتضي السياق غير ذلك . انتهى .

فقلت : إذا جرينا على ما هو الأسدّ في الآي من توافق النظائر ، اقتضى حمل آية النمل على ما هنا ، وادعاء الأظهرية فيها ممنوع . فإن التنزيل يفسر بعضه بعضاً . فتأمل . ثم أمر تعالى رسوله بتكرير التبكيت عليهم . وتثنية الإلزام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 366. 368 ﴾

*(109/232)*

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (45) ﴾

وما دام هؤلاء القوم قد نسوا ما ذُكِّروا به ، وفتح الله عليهم أبواب كل شيء ثم فرحوا بما أوتوا وأخذهم الحق بغتة ، كل ذلك يلفتنا إلى أنه يجب علينا أن نحمد الله لأن يربي الخلق بالنقمة والنعمة ويطهر الكون من المفسدين ، وقطع دابر المفسدين مصيبة لهؤلاء المفسدين ، ونعمة من نعم الله على المؤمنين . وقد يتساءل البعض : كيف يأتي القرآن بالنقم وكأنها نعم ؟

ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يا معشر الجن والإنس إِنِ استطعتم أَن تَنفُذُواْ مِنْ

أَقْطَارِ السماوات والأرض فانفذوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [ الرحمن : 33-36 ] .

إنها نقم يتحدث عنها الحق كإرسال الشواظ من نار ونحاس ، وهي نقم بالنسبة للكافرين وعليهم ، وهي نعم للمؤمنين . ونعلم أن التهويل في أمر العذاب يجعل الناس ترتدع ، وهذا الوعيد نعمة من الله . وحين يتجلى الحق بنعمه على خلقه ويقطع دابر الظالمين ، يقول المؤمنون الحمد لله : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ القوم الذين ظَلَمُواْ والحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [ الأنعام : 45 ] .

ويعود الحق إلى استنطاقهم بالإخبار عن المرئيات : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ الله . . . ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(110/232)*

---

لطيفة

قال فى البحر المديد :

الإشارة : المقصود من إظهار النقم الظاهرة ؛ ما يؤول الأمر إليه من النعم الباطنة ، فإن

الأشياء كامنة في أضدادها ، النعمة في النقمة ، والرخاء في الشدة ، والعز في الذل ، والجمال في الجلال ، إن وقع الرجوع إلى الله والانكسار والتذلل . " أنا عندَ المنكسرةِ قلوبُهم مِن أجلي " . فانكسار القلوب إلى علام الغيوب عبادة كبيرة ، تُوجب نعمًا غزيرة ، فإذا قسَت القلوب ولم يقع لها عند الشدة انكسار ولا رجوع ، كان النازل بلاءً ونقمة وطردًا وبُعدًا . فإنَّ ما ينزل بالإنسان من التعرفات منها : ما يكون أدبًا وكفارة ، ومنها : زيادة وترقية ، ومنها : ما يكون عقوبة وطردًا ، فإن صحبها التيقظ والتوبة ، كان أدبًا مما تقدم من سوء الأدب ، وإن صحبه الرضى والتسليم ، ولم يقع ما يوجب الأدب ، كان ترقية وزيادة ، وإن غضب وسخِط كان طردًا وبُعدًا . أعاذنا الله من موارد النقم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المديد حـ 2 صـ 118 ﴾

(111/232)

---

فائدة

قال فى روح البيان :

وفي الآيات أمور .

منها أن الله تعالى هو المرجع في كل أمر حال الاختيار والاضطرار ، والعاقل لا يلتجىء إلى

غيره تعالى ؛ لأن ما سوى الله آلات وأسباب والمؤثر في الحقيقة هو الله تعالى فشأن المؤمن هو النظر إلى بابه والاستعداد من جنابه حال السراء والضراء بخلاف الكافر فإنه يفتح عينيه عند نزول الشدة والمقبول هو الرجوع اختياراً فإن العبد المطيع لا يترك باب سيده على كل حال .

ومنها أن الله تعالى يقلب الإنسان تارة من البأساء والضراء إلى الراحة والرخاء وأنواع الآلاء والنعماء وأخرى يعكس الأمر كما يفعله الأب المشفق بولده يخاشنه تارة ويلاطفه أخرى طلباً لصلاحه وإلزاماً للحجة وإزاحة للعلة ففي هذه المعاملة تربية له وفائدة عظيمة في دينه ودنياه إن تفطن

ومنها إن الهلاك بقدر الاستدراج ونعوذ بالله تعالى من المكروه

ومنها أن النعمة لا بد لها من الحمد والشكر وفي الخبر الصحيح "أول من يدعى إلى الجنة الحامدون على كل حال" ولما حمد نوح عليه السلام بقوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (المؤمنون : 28) وجد السلامة حيث قال تعالى : يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا ﴾ (هود : 48) فلا بد من الحمد على السلامة سواء كانت من جهة الدين أو من جهة الدنيا إذ كل منهما نعمة .

ودخل رجل على سهل بن عبد الله فقال : إن اللص دخل داري وأخذ متاعي ، فقال اشكر الله لو دخل اللص قلبك وهو الشيطان وأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع .

يقول الفقير جامع هذه المجالس الشريفة : سئلت في المنام عن معنى الحمد ، فقلت : الحمد إظهار الكمال بتهيئة أسبابه ، فقال السائل : وهو واحد من سادات المشايخ ما تهيئة الأسباب ؟ فقلت : أن ترفع يديك إلى السماء وتنظر إلى جانب الملكوت وتظهر الخضوع والخشوع وأن تثني على الله تعالى ثناء حقاً كما ينبغي

*(112/232)*

---

ثم استيقظت فجاء التفسير بحمد الله تعالى مشيراً إلى مراتب الشكر ، كما قال بعضهم :

الشكر قيد للنعم

مستلزم دفع النقم

وهو على ثلاثة

قلب يد فاعلم وفم

والحمد تعالى ولي الأنعام على الاستمرار والدوام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 3 صـ 41.43 ﴾ . باختصار يسير .

*(113/232)*

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " فَقُطِعَ دَابِرُ " الجمهور على " فَقُطِعَ " مِبْنِيًّا للمفعولِ " دابرُ " مرفوعٌ به .

وقرأ عِكْرِمَةُ : " قطع " مبنياً للفاعل ، وهو الله تعالى ، " دَابِرَ " مفعول به ، وفيه التَفَاتٌ ، إذ هو خروج من تكلم في قوله : " أَخَذْنَاهُمْ " إلى غَيْبَةٍ .

و " الدَّابِرُ " التَّابعُ من خَلْفٍ ، يقال : دَبَرَ الوَلَدُ والِدَه ، ودَبَرَ فلان القَوْمَ يَدْبُرُهُمْ دُبُوراً ودَبْراً .

وقيل : الدَّابِرُ الأَصْلُ ، يقال : قَطَعَ اللَّهُ دَابِرَهُ ، أي : أصله قاله الأَصْمَعِيُّ ، وقال أَبو عُبَيْدٍ " " دَابِرُ القوم آخِرُهُمْ " ، وأنشدوا لأُمَيَّة بن أبي الصَّلْتِ : [ البسيط ]

2176 - فاستُؤصِلُوا بعَذَابٍ حَصَّ دَابِرَهُمْ . . .

فَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ صَرْفاً وَلاَ انْتَصَرُوا

ومنه دَبَرَ السَّهْمُ الهَدَفَ ، أي : سقط خَلْفَهُ .

وفي الحديث عن عبد الله بن مَسْعُودٍ " مِنَ النَّاسِ مَنْ لا يَأْتِي الصَّلاَةَ إلاَّ دُبُرًّا "

أي : في آخر الوقت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 151 . 152 ﴾ .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (45) ﴾

فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى لم يبقَ منهم عين ولا أثر ، ولم يَرِدْ حديث منهم أو خبر ، والله – سبحانه وتعالى – بنعت العِزِّ واستحقاق الجلال لا عن فَقْدِهم له استيحاش ، ولا بوجودهم استرواح أو استبشار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 473.472 ﴾

*(114/232)*

---

قوله تعالى ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (46) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قدم التنبيه بإتيان مطلق العذاب في مطلق الأحوال ، وكان الإتيان بالكاف ثَمَّ مشيراً مع إفادة التأكيد إلى أن ثَمَّ نوع مهلة ، وأتبعه أن أخذ الأمم كان بغتة ، أعقبه التنبيه بعذاب خاص تصورُ شناعته يهذأ الأركان ويقطع الكبود ويملأ الجنان ، فإنه لا أشنع حالاً من أصم أعمى مجنون ، فقال مشيراً – بإسقاط كاف الخطاب مع التعبير بالأخذ الذي عهد أنه

للبغث بالسطوة والقهر – إلى غاية التحذير من سرعة أيّ الأخذ : ﴿ قل أرءيتم ﴾ فكانت حقيقة المقترن بالكاف : هل رأيتم أنفسكم ، وهذا هل رأيتم مطلق رؤية ، لما تقدمت الإشارة إليه من الإيماء إلى طلب الإسراع بالجواب خوف المفاجأة بالعذاب وإن كان المراد في الموضعين : أخبروني ﴿ إن أخذ الله ﴾ أي القادر على كل شيء العالم بكل شيء ﴿ سمعكم ﴾ وأفرده لقلة المفاوتة فيه ، لأنه أعظم الطرق لإدراك القلب الذي لا أعظم من المفاوتة فيه حتى للإنسان الواحد بالنسبة إلى الأحوال المختلفة ، ليكون ذلك أدل على الفعل بالاختيار ﴿ وأبصاركم ﴾ أي فأصمكم وأعماكم عمى وصمماً ظاهرين وباطنين بسلب المنفعة ﴿ وختم على قلوبكم ﴾ فجعلها لا تعي أصلاً أو لا ينتفع بالوعي ﴿ من إله ﴾ أي معبود بحق ، لأن له إحاطة العلم والقدرة ؛ ثم وصف هذا الخبر بقوله : ﴿ غير الله ﴾ أي الذي له جميع العظمة ﴿ يأتيكم به ﴾ أي بذلك الذي هو أشرف معاني أشرف أعضائكم ، أو بشيء منه .

*(115/232)*

---

ولما بلغت هذه الآيات – من الإبلاغ في البيان في وحدانيته وبطلان كل معبود سواه – أعلى المقامات ، نبه على أنه على ذلك ، بالأمر بالنظر فيها وفي حالهم بعدها ، دالاً على ما تقدم

من أن المقترحات لا تنفع من أراد سبحانه شقاوته فقال : ﴿ انظر كيف نصرف ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ الآيات ﴾ أي نوحيها لهم ولغيرهم في كل وجه من وجوه البيان بالغ من الإحسان ما يأخذ بالعقول ويدهش الألباب ، ويكون كافياً في الإيصال إلى المطلوب ؛ ولما كان الإعراض عن مثل هذا في غاية البعد عبر بأداة التراخي فقال : ﴿ ثم هم ﴾ أي بعد هذا البيان بصميم ضمائرهم ﴿ يصدفون ﴾ أي يعرضون إعراضاً لازماً لهم لزوم الصفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 638 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن المقصود من هذا الكلام ذكر ما يدل على وجود الصانع الحكيم المختار ، وتقريره أن أشرف أعضاء الإنسان هو السمع والبصر والقلب فالأذن محل القوة السامعة والعين محل القوة الباصرة ، والقلب محل الحياة والعقل والعلم .

فلو زالت هذه الصفات عن هذه الأعضاء اختل أمر الإنسان وبطلت مصالحه في الدنيا وفي الدين .

ومن المعلوم بالضرورة أن القادر على تحصيل هذه القوى فيها وصونها عن الآفات والمخافات ليس إلا الله .

وإذا كان الأمر كذلك ، كان المنعم بهذه النعم العالية والخيرات الرفيعة هو الله سبحانه

وتعالى فوجب أن يقال المستحق للتعظيم والثناء والعبودية ليس إلا الله تعالى وذلك يدل على أن عبادة الأصنام طريقة باطلة فاسدة. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 188.187﴾

فصل

قال الفخر:

ذكروا في قوله ﴿وَخَتَمَ على قُلُوبِكُمْ﴾ وجوهاً:

الأول: قال ابن عباس: معناه وطبع على قلوبهم فلم يعقلوا الهدى.

الثاني: معناه وأزال عقولكم حتى تصيروا كالمجانين.

والثالث: المراد بهذا الختم الاماتة أي يميت قلوبكم. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 188﴾

*(116/232)*

---

وقال الطبرى:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين بي الأوثانَ والأصنامَ، المكذبين بك: أرأيتم، أيها المشركون بالله غيرَه، إن أصمّكم الله

فذهب بأسماعكم ، وأعماكم فذهب بأبصاركم ، وختم على قلوبكم فطبع عليها ، حتى لا تفقهوا قولا ولا تبصروا حجة ، ولا تفهموا مفهومًا ، أيّ إله غير الله الذي له عبادة كل عابد " يأتيكم به " ، يقول : يرد عليكم ما ذهب الله به منكم من الأسماع والأبصار والأفهام ، فتعبدوه أو تشركوه في عبادة ربكم الذي يقدر على ذهابه بذلك منكم ، وعلى ردّه عليكم إذا شاء ؟

وهذا من الله تعالى ذكره ، تعليم نبيَّه الحجة على المشركين به ، يقول له : قل لهم : إن الذين تعبدونهم من دون الله لا يملكون لكم ضرًّا ولا نفعًا ، وإنما يستحق العبادةَ عليكم من كان بيده الضر والنفع ، والقبض والبسط ، القادرُ على كل ما أراد ، لا العاجز الذي لا يقدر على شيء .

ثم قال تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : " انظر كيف نصرف الآيات " ، يقول : انظر كيف نتابع عليهم الحجج ، ونضرب لهم الأمثال والعبر ، ليعتبروا ويذكروا فينيبوا ، " ثم هم يصدفون " ، يقول : ثم هم مع متابعتنا عليهم الحجج ، وتنبيهنا إياهم بالعبر ، عن الادّكار والاعتبار يُعْرضون .

يقال منه : " صدف فلانٌ عني بوجهه ، فهو يصدِفُ صُدوفًا وصَدفًا " ، أي : عدل وأعرض ، ومنه قول ابن الرقاع :

إِذَا ذَكَرْنَ حَدِيثًا قُلْنَ أَحْسَنَهُ ، . . . وَهُنَّ عَنْ كُلِّ سُوءٍ يُتَّقَى صُدُفُ

وقال لبيد :

يُرْوِي قَوامِحَ قَبْلَ اللَّيْلِ صَادِفَةً . . . أَشْبَاهَ جِنّ ، عَلَيْهَا الرَّيْطُ وَالأُزُرُ

فإن قال قائل : وكيف قيل : " من إله غير الله يأتيكم به " ، فوحّد " الهاء " ، وقد مضى الذكر قبلُ بالجمع فقال : " أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم " ؟

(117/232)

---

قيل : جائز أن تكون " الهاء " عائدة على " السمع " ، فتكون موحّدة لتوحيد " السمع " وجائز أن تكون معنيًّا بها : من إله غير الله يأتيكم بما أخذ منكم من السمع والأبصار والأفئدة ، فتكون موحده لتوحيد " ما " . والعرب تفعل ذلك ، إذا كنتْ عن الأفعال وحّدت الكناية ، وإن كثر ما يكنى بها عنه من الأفاعيل ، كقولهم : " إقبالك وإدبارك يعجبني " .

وقد قيل : إن " الهاء " التي في " به " كناية عن " الهدى " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 10 صـ 365 . 367 ﴾

(118/232)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم ﴾

أي : أذهبها ، ﴿ وختم على قلوبكم ﴾ حتى لا تعرفون شيئا ، ﴿ من إله غيرُ الله يأتيكم به ﴾ في هاء "به" ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها تعود على الفعل ، والمعنى : يأتيكم بما أخذ الله منكم ، قاله الزجاج .

وقال الفراء : إذا كنيت عن الأفاعيل ، وإن كثرتْ ، وحَّدتَ الكناية ، كقولك للرجل : إقبالك وإدبارك يؤذيني .

والثاني : أنها تعود إلى الهدى ، ذكره الفراء .

فعلى هذا تكون الكناية عن غير مذكور ، ولكن المعنى يشتمل عليه ، لأن من أُخذ سمعه وبصره وُختم على قلبه لم يهتد .

والثالث : أنها تعود على السمع ، ويكون ما عُطف عليه داخلاً معه في القصة ، لأنه معطوف عليه ، ذكره الزجاج .

والجمهور يقرؤون : ﴿ مَن إِله غير الله يأتيكم بِهِ انظُر ﴾ بكسر هاء "به" .

وروى المسيبَّي ، عن نافع : "بهُ انظر" بالضم .

قال أبو علي : من كسر ، حذف الياء التي تلحق الهاء ، في نحو : بهي عيب ؛ ومن ضم

فعلى قول من قال : فخسفنا بهو وبدارهو الأرض ، فحذف الواو .

قوله تعالى : ﴿ انظر كيف نصرف الآيات ﴾ قال مقاتل : يعني تكون العلامات في أُمور شتى ، فيخوفهم بأخذ الأسماع والأبصار والقلوب ، وبما صُنع بالأُمم الخالية ﴿ ثم هم يصدفون ﴾ أي : يعرضون فلا يعتبرون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ ﴾ .

أي أذهب وانتزع .

ووحد "سمعكم" لأنه مصدر يدل على الجمع .

﴿ وَخَتَمَ ﴾ أي طبع ، وقد تقدّم في "البقرة" .

وجواب "إنْ" محذوف تقديره : فمن يأتيكم به ، وموضعه نصب ؛ لأنها في موضع الحال ، كقولك : اضربه إن خرج أي خارجاً .

ثم قيل : المراد المعاني القائمة بهذه الجوارح ، وقد يذهب الله الجوارح والأعراض جميعاً فلا يبقي شيئاً ، قال الله تعالى : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً ﴾ [ النساء : 47 ] .

والآية احتجاج على الكفار .

(119/232)

﴿ مَّنْ إله غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ﴾ "من" رفع بالابتداء وخبرها "إله" و"غيره" صفة له، وكذلك "يأتيكم" موضعه رفع بأنه صفة "إله" ومخرجها مخرج الاستفهام، والجملة التي هي منها في موضع مفعولي رأيتم.

ومعنى "أَرَأَيْتُمْ".

علمتم ووحّد الضمير في "به" وقد تقدّم الذكر بالجمع لأنّ المعنى أي بالمأخوذ فالهاء راجعة إلى المذكور.

وقيل: على السمع بالتصريح؛ مثل قوله: ﴿ واللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة: 62] ودخلت الأبصار والقلوب بدلالة التضمين.

وقيل: ﴿ مَّنْ إله غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ ﴾.

بأحد هذه المذكورات.

وقيل: على الهدى الذي تضمنه المعنى.

وقرأ عبد الرحمن الأعرج "بِهُ انظر" بضم الهاء على الأصل؛ لأن الأصل أن تكون الهاء مضمومة كما تقول: جئت معه.

قال النقاش: في هذه الآية دليل على تفضيل السمع على البصر لتقدمته هنا وفي غير آية، وقد مضى هذا في أوّل "البقرة" مستوفى.

وتصريف الآيات الإتيان بها من جهات ؛ من إعذار وإنذار وترغيب وترهيب ونحو ذلك .

﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ أي يعرضون .

عن ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة والسُّدّي ؛ يُقال : صدف عن الشيء إذا أعرض عنه صَدْفاً وصُدُوفاً فهو صادفٌ .

وصادفته مصادفة أي لقيته عن إعراض عن جهته ؛ قال ابن الرِّقاع :

إذَا ذَكَرْنَ حديثاً قُلْنَ أحسنَه . . .

وهُنّ عن كلّ سوءٍ يُتَّقَى صُدُفُ

والصَّدَف في البعير أن يميل خُفُّه من اليد أو الرجل إلى الجانب الوَحْشيّ ؛ فهم يصدفون أي مائلون معرضون عن الحجج والدلالات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ

﴾

وقال الخازن :

(120/232)

---

قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين : ﴿ إن أخذ الله سمعكم ﴾ يعني الذي تسمعون به فأصمكم حتى لا تسمعوا شيئاً ﴿ وأبصاركم ﴾ يعني وأخذ

أبصاركم التي تبصرون بها فأعماكم حتى لا تبصروا شيئاً أصلاً ﴿ وختم على قلوبكم ﴾ يعني لا تفقهوا شيئاً أصلاً ولا تعرفوا شيئاً مما تعرفون من أمور الدنيا .

وإنما ذكر هذه الأعضاء الثلاثة ، لأنها أشرف أعضاء الإنسان فإذا تعطلت هذه الأعضاء ، اختل نظام الإنسان وفسد أمره وبطلت مصالحه في الدين والدنيا .

ومقصود هذا الكلام ذكر ما يدل على وجود الصانع الحكيم المختار وتقريره أن القادر على إيجاد هذه الأعضاء وأخذها هو الله تعالى المستحق للعبادة لا الأصنام التي تعبدونها وهو قوله تعالى : ﴿ من إله غير الله يأتيكم به ﴾ يعني يأتيكم بما أخذ الله منكم لأن الضمير في به يعود على معنى الفعل ويجوز أن يعود على السمع الذي ذكر أولاً ويندرج تحته غيره ﴿ انظر ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ويدخل معه غيره أن انظر يا محمد ﴿ كيف نصرف الآيات ﴾ يعني كيف نبين لهم العلامات الدالة على التوحيد والنبوة ﴿ ثم هم يصدفون ﴾ يعني يعرضون عنها مكذبين لها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به ﴾

لما ذكر أولاً تهديدهم بإتيان العذاب أو الساعة كان ذلك أعظم من هذا التهديد ، فأكد

خطاب الضمير بحرف الخطاب فقيل أرأيتكم ولما كان هذا التهديد أخف من ذلك لم يؤكد به ، بل اكتفى بخطاب الضمير فقيل ﴿ أرأيتم ﴾ وفي تلك وهذه الاستدلال على توحيد الله تعالى وأنه المتصرف في العالم الكاشف للعذاب والراد لما شاء بعد الذهاب ، وأن آلهتهم لا تغني عنهم شيئاً والظاهر من قوله ﴿ أخذ سمعكم وأبصاركم ﴾ أنه ذهاب الحاسة السمعية والبصرية فيكون أخذاً حقيقياً .

*(121/232)*

---

وقيل : هو أخذ معنوي والمراد إذهاب نور البصر بحيث يحصل العمى ، وإذهاب سمع الأذن بحيث يحصل الصمم ، وتقدم الكلام على إفراد السمع وجمع الأبصار وعلى الختم على القلوب في أول البقرة فأغنى عن إعادته .

ومفعول ﴿ أرأيتم ﴾ الأول محذوف والتقدير قل أرأيتم سمعكم وأبصاركم إن أخذها الله ، والمفعول الثاني هو الجملة الاستفهامية كما تقول : أرأيتك زيداً ما يصنع وقد قررنا أن ذلك من باب الأعمال أعمل الثاني وحذف من الأول وأوضحنا كيفية ذلك في الآية قبل هذه ، والضمير في ﴿ به ﴾ أفرده إجراء له مجرى اسم الإشارة كأنه قيل تأتيكم بذلك أو يكون التقدير بما أخذ وختم عليه .

وقيل : يعود على السمع بالتصريح وتدخل فيه القلوب والأبصار .

وقيل : هو عائد على الهدى الذي يدل عليه المعنى لأن أخذ السمع والبصر والختم على القلوب سبب الضلال وسد لطرق الهداية ، و ﴿ من إله ﴾ استفهام معناه توقيفهم على أنه ليس ثم سواه فالتعلق بغيره لا ينفع .

قال الحوفي : وحرف الشرط وما اتصل به في موضع نصب على الحال والعامل في الحال ﴿ أرأيتم ﴾ كقوله : اضربه إن خرج أي خارجاً ، وجواب الشرط ما تقدم مما دخلت عليه همزة الاستفهام ؛ انتهى ، وهذا الإعراب تخليط .

انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون ﴾ روى أبو قرة المسيبي عن نافع به ﴿ انظر ﴾ بضم الراء وهي قراءة الأعرج ، وانظر خطاب للسامع وتصريف الآيات قال مقاتل : نخوفهم بأخذ الأسماع والأبصار والقلوب وبما صنع بالأمم السالفة .

وقال ابن فورك : تصريفها مرة تأتي بالنقمة ومرة تأتي بالنعمة ومرة بالترغيب ومرة بالترهيب .

وقيل : تتابع لهم الحجج وتضرب لهم الأمثال .

وقيل : نوجهها إلى الإنشاء والإفناء والإهلاك .

وقيل : الآيات على صحة توحيده وصدق نبيه والصدف والصدوف الإعراض والنفور .

قال ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد والسدي : ﴿ يصدفون ﴾ يعرضون ولا

يعتبرون .

وقرأ بعض القراء كيف نصرف من صرف ثلاثياً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(122/232)

---

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أمرٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم بتكرير التبكيت عليهم وتثنيةِ الإلزامِ بعد تكملةِ الإلزامِ الأولِ ببيان أنه أمرٌ مستمرٌ لم يزَلْ جارياً في الأمم ، وهذا أيضاً استخبارٌ عن متعلَّق الرؤية وإن كان بحسَب الظاهرِ استخباراً عن نفسِ الرؤية ﴿ إِنْ أَخَذَ الله سَمْعَكُمْ وأبصاركم ﴾ بأن أصَمّكم وأعماكم بالكلية ﴿ وَخَتَمَ على قُلُوبِكُمْ ﴾ بأن غطى عليها بما لا يبقى لكم معه عقلٌ وفهمٌ أصلاً وتصيرون مجانين ، ويجوز أن يكون الختمُ عطفاً تفسيرياً للأخذ المذكور فإن السمعَ والبصر طريقان للقلب ، منهما يرِدُ ما يرِدُه من المدرَكات ، فأخذُهما سدٌّ لبابه بالكلية ، وهو السر في تقديم أخذِهما على ختمها ، وأما تقديمُ السمع على الإبصار فلأنه موردُ الآياتِ القرآنية ، وإفرادُه لما أن أصله مصدَرٌ وقوله تعالى : ﴿ مِنْ إِلَهٌ ﴾ مبتدأ وخبرٌ و( من ) استفهامية ، وقوله تعالى : ﴿ غَيْرُ الله ﴾

صفةٌ للخبر ، وقوله تعالى : ﴿ يَأْتِيكُمْ بِهِ ﴾ أي بذاك على أن الضميرَ مستعارٌ لاسم الإشارة ، أو بما أَخَذ وخَتَم عليه ، صفةٌ أخرى له والجملة متعلَّقُ الرؤية ومناطُ الاستخبار أي أخبروني إنْ سلب الله مشاعركم من إله غيرُه تعالى يأتيكم بها . وقوله تعالى : ﴿ انظر كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيات ﴾ تعجيبٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم من عدم تأثُّرِهم بما عاينوا من الآيات الباهرةِ أي انظر كيف نكرِّرها ونقرِّرها مصروفةً من أسلوب إلى أسلوب ، تارةً بترتيب المقدّمات العقلية وتارةً بطريق الترغيب والترهيب ، وتارةً بالتنبيه والتذكير ﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ عطفٌ على نصرِّف داخلٌ في حكمه ، وهو العُمدة في التعجيب و( ثم ) لاستبعاد صدوفهم أي إعراضِهم عن تلك الآيات بعد تصريفها على هذا النمط البديعِ الموجبِ للإقبال عليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

*(123/232)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد على سبيل التبكيت والإلزام أيضاً ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ الله سَمْعَكُمْ وأبصاركم ﴾ أي أصمكم وأعماكم فأخذهما مجاز عما ذكر لأنه لازم له ، والاستدلال بالآية على بقاء العرض زمانين محل نظر .

﴿ وَخَتَمَ على قُلُوبِكُمْ ﴾ بأن غطى عليها بما لا يبقى لكم معه عقل وفهم أصلاً .

وقيل : يجوز أن يكون الختم عطفاً تفسيرياً للأخذ فإن البصر والسمع طريقان للقلب منهما يرد ما يرده من المدركات فأخذهما سد لبابه بالكلية وهو السر في تقديم أخذهما على الختم عليها .

واعترض بأن من المدركات ما لا يتوقف على السمع والبصر ، ولهذا قال غير واحد بوجوب الإيمان بالله تعالى على من ولد أعمى أصم وبلغ سن التكليف ، وقيل : في التقديم إنه من باب تقديم ما يتعلق بالظاهر على ما يتعلق بالباطن .

ووجه تقديم السمع وإفراده قد تقدمت الإشارة إليه .

﴿ مَّنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِهِ ﴾ أي بذلك على أن الضمير مستعار لاسم الإشارة المفرد لأنه الذي كثر في الاستعمال التعبير به عن أشياء عدة وأما الضمير المفرد فقد قيل فيه ذلك .

ونقل عن الزجاج أن الضمير راجع إلى المأخوذ والمختوم عليه في ضمن ما مر أي المسلوب منكم أو راجع إلى السمع وما بعده داخل معه في القصد ولا يخفى بعده .

وجوز أن يكون راجعاً إلى أحد هذه المذكورات ، و ﴿ مِنْ ﴾ مبتدأ و ﴿ إِلَهٍ ﴾ خبره و ﴿ غَيْرِ ﴾ صفة للخبر و ﴿ يَأْتِيكُمُ ﴾ صفة أخرى ، والجملة كما قال غير واحد متعلق الرؤية ومناط الاستخبار أي أخبروني إن سلب الله تعالى مشاعركم من إله غيره

سبحانه يأتيكم به وترك كاف الخطاب هنا قيل : لأن التخويف فيه أخف مما تقدم ومما يأتي .

وقيل : اكتفاء بالسابق واللاحق لتوسط هذه الخطاب بينهما ، وقيل : لما كان هذا العذاب مما لا يبقى القوم معه أهلاً للخطاب حذفت كافه إيماء لذلك ورعاية لمناسبة خفية .

﴿ انظر كَيْفَ نُصَرّفُ الآيات ﴾ أي نكررها على أنهار مختلفة ، ومنه تصريف الرياح .

*(124/232)*

---

والمراد من الآيات على ما روي عن الكلبي الآيات القرآنية وهل هي على الإطلاق أو ما ذكر من أول السورة إلى هنا ؟ أو ما ذكر قبل هذا ؟ أقوال أقربها عندي الأقرب وفيها الدال على وجود الصانع وتوحيده وما فيه الترغيب والترهيب والتنبيه والتذكير .

وهذا تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل : لمن يصلح للخطاب من عدم تأثرهم بما مر من الآيات الباهرات .

﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ أي يعرضون عن ذلك : وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنشد لهذا المعنى قول أبي سفيان بن الحرث

: عجبت لحكم الله فينا وقد بدا . . .

له صدفنا عن كل حق منزل

وذكر بعضهم أنه يقال : صدف عن الشيء صدوفاً إذا مال عنه .

وأصله من الصدف الجانب والناحية ومثله الصدفة وتطلق على كل بناء مرتفع .

وجاء في الخبر أنه صلى الله عليه وسلم مر بصدف مائل فأسرع .

والجملة عطف على ﴿ نُصَرِّفُ ﴾ داخل معه في حكمه وهو العمدة في التعجيب .

و ﴿ ثُمَّ ﴾ للاستبعاد أي أنهم بعد ذلك التصريف الموجب للإقبال والإيمان يدبرون ويكفرون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ ﴾

استئناف ابتدائي عاد به إلى الجدال معهم في إشراكهم بالله تعالى بعد أن انصرف الكلام عنه بخصوصه من قوله تعالى : ﴿ قل أي شيء أكبر شهادة ﴾ [ الأنعام : 19 ] وما تفنّن عقب ذلك من إثبات البعث وإثبات صدق الرسول وذكر القوارع والوعيد إلى قوله : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ﴾ [ الأنعام : 40 ] الآيات .

وتكرير الأمر بالقول للوجه الذي تقدّم آنفاً عند قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله ﴾ [ الأنعام : 40 ] الآية .

والرؤية قلبية متعدّية إلى مفعولين ، وليس هذا من قبيل الاستعمال المتقدّم آنفاً في قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ﴾ [ الأنعام : 40 ] الآية .

(125/232)

---

واختلاف القرّاء في ﴿ أرأيتم ﴾ كاختلافهم في مثله من قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله ﴾ [ الأنعام : 40 ] الآية .

والأخذ : انتزاع الشيء وتناوله من مقرّه ، وهو هنا مجاز في السلب والإعدام ، لأنّ السلب من لوازم الأخذ بالنسبة إلى المأخوذ منه فهو مجاز مرسل .

ولك أن تجعله تمثيلاً لأنّ الله هو معطي السمع والبصر فإذا أزالها كانت تلك الإزالة كحالة أخذ ما كان أعطاه ، فشبّهت هيئة إعدام الخالق بعض مواهب مخلوقه بهيئة انتزاع الآخذ شيئاً من مقرّه .

فالهيئة المشبّه هنا عقلية غير محسوسة والهيئة المشبّهة بها محسوسة .

والختم على القلوب تقدّم بيانه في سورة [ البقرة : 7 ] عند قوله تعالى : ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾ والمراد بالقلوب العقول التي بها إدراك المعقولات .

والسمع مصدر دالّ على الجنس فكان في قوة الجمع ، فعمّ بإضافته إلى ضمير المخاطبين

ولا حاجة إلى جمعه .

والأبصار جمع بصر ، وهو في اللغة العين على التحقيق .

وقيل : يطلق البصر على حاسّة الإبصار ولذلك جمع ليعمّ بالإضافة جميع أبصار المخاطبين ، ولعلّ إفراد السمع وجمْع الأبصار جرى على ما يقتضيه تمام الفصاحة من خفَّة أحد اللفظين مُفْرداً والآخر مجموعاً عند اقترانهما ، فإنّ في انتظام الحروف والحركات والسكنات في تنقُّل اللسان سِرّاً عجيباً من فصاحة كلام القرآن المعبّر عنها بالنَّظم .

وكذلك نرى مواقعها في القرآن قال تعالى : ﴿ وجعلنا لهم سمعاً وإبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء ﴾ [الأنعام : 26 .

]

والقلوب مراد بها العقول في كلام العرب لأنّ القلب سبب إمداد العقل بقوّة الإدراك .

وقوله : ﴿ مَنْ إله ﴾ معلِّق لفعل الرؤية لأنّه استفهام ، أي أعلِمتم جوابَ هذا الاستفهام أم أنتم في شكّ .

*(126/232)*

وهو استفهام مستعمل في التقرير يقصد منه إلجاء السامعين إلى النظر في جوابه فيوقنوا أنّه لا إله غير الله يأتيهم بذلك لأنّه الخالق للسمع والأبصار والعقول فإنّهم لا ينكرون أنّ الأصنام لا تخلق ، ولذلك قال لهم القرآن : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تَذَكَّرون ﴾ [ النحل : 17 ] .

و﴿ مَنْ ﴾ في موضع رفع على الابتداء ، و﴿ إله ﴾ خَبَر ﴿ مَنْ ﴾ ، و﴿ غيرُ الله ﴾ صفة ﴿ إله ﴾ ، و﴿ يأتيكم ﴾ جملة في محلّ الصفة أيضاً ، والمستفهم عنه هو إله ، أي ليس إله غير الله يأتي بذلك ، فدلّ على الوحدانية .

ومعنى ﴿ يأتيكم به ﴾ يُرجعه ، فإنّ أصل أتى به ، جاء به .

ولمّا كان الشيء المسلوب إذا استنقذه منقذ يأتي به إلى مقرّه أطلق الإتيان بالشيء على إرجاعه مجازاً أو كناية .

والضمير المجرور بالباء عائد إلى السمع والأبصار والقلوب ، على تأويلها بالمذكور فلذلك لم يقل بها .

وهذا استعمال قليل في الضمير ، ولكنّه فصيح .

وقد تقدّم في تفسير قوله تعالى : ﴿ إنّ الذين كفروا لو أنّ لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به ﴾ في سورة [ المائدة : 36 ] ، وعند قوله : ﴿ وآتوا النساء صدقاتهنّ نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً ﴾ في سورة [ النساء : 4 ] ، وإيثاره هنا على أن يقال :

يأتيكم بها ، لدفع توهّم عود الضمير إلى خصوص القلوب .

والكلام جار مجرى التهديد والتخويف ، اختير فيه التهديد بانتزاع سمعهم وأبصارهم وسلْب الإدراك من قلوبهم لأنَّهم لم يشكروا نعمة هذه المواهب بل عدموا الانتفاع بها ، كما أشار إليه قوله آنفاً ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا كلّ آية لا يؤمنوا بها ﴾ [ الأنعام : 25 ] .

فكان ذلك تنبيهاً لهم على عدم إجداء هذه المواهب عليهم مع صلاحيتها للانتفاع ، وناسب هنا أن يهدّدوا بزوالها بالكليّة إن داموا على تعطيل الانتفاع بها فيما أمر به خالقها .

*(127/232)*

---

وقوله ﴿ انْظُرْ ﴾ تنزيل للأمر المعقول منزلة المشاهد ، وهو تصريف الآيات مع الإعراض عنها حتّى أنّ النّاظر يستطيع أن يراها ، فأمّا الأمر فهو مستعمل في التعجيب من حال إعراضهم .

والجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً تنزّل منزلة التذييل للآيات السابقة ، فإنّه لمَّا غمرهم بالأدلّة على الوحدانية وصدْق الرسول ، وأبطل شبههم عقّب ذلك كلّه بالتعجيب من قوّة

الأدلّة مع استمرار الإعراض والمكابرة ، وقد تقدّم قريب منه عند قوله تعالى : ﴿ انظر كيف يفترون على الله الكذب ﴾ في سورة [ النساء : 50 ] .

وهذا تذكير لهم بأنّ الله هو خالق أسماعهم وأبصارهم وألبابهم فما كان غيره جديراً بأن يعبدون .

وتصريف الآيات اختلاف أنواعها بأن تأتي مرة بحجج من مشاهدات في السماوات والأرض ، وأخرى بحجج من دلائل في نفوس الناس ، ومرّة بحجج من أحوال الأمم الخالية التي أنشأها الله ، فالآيات هنا هي دلائل الوحدانية ، فهي متَّحدة في الغاية مختلفة الأساليب متفاوتة في الاقتراب من تناول الأفهام عامّها وخاصّها ، وهي أيضاً مختلفة في تركيب دلائلها من جهتي المقدّمات العقلية وغيرها ، ومن جهتي الترغيب والترهيب ومن التنبيه والتذكير ، بحيث تستوعب الإحاطة بالأفهام على اختلاف مدارك العقول .

والتعريف في الآيات ﴾ للعهد ، وهي المعهودة في هذه السورة ابتداء من قوله : ﴿ الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾ [ الأنعام : 1 ] .

و﴿ ثم ﴾ للترتيب الرتبي لأنّها عطفت جملة على جملة ، فهي تؤذن بأنّ الجملة المعطوفة أدخل في الغرض المسوق له الكلام ، وهو هنا التعجيب من قوة الأدلّة وأنّ استمرار الإعراض والمكابرة مع ذلك أجدر بالتعجيب به .

وجيء بالمسند في جملة ﴿ هم يصدفون ﴾ فعلاً مضارعاً للدلالة على تجدّد الإعراض

منهم .

وتقديم المسند إليه على الخبر الفِعْلِيّ لتَقَوّي الحُكم .

و﴿ يصدفون ﴾ يعرضون إعراضاً شديداً .

(128/232)

---

يقال : صَدَف صَدْفاً وصُدوفاً ، إذا مال إلى جانب وأعرض عن الشيء .

وأكثر ما يستعمل أن يكون قاصراً فيتعدّى إلى مفعوله بـ ( عن ) .

وقد يستعمل متعدّياً كما صرّح به في "القاموس" .

وقلّ التعرّض لذلك في كتب اللغة ولكن الزمخشري في تفسير قوله تعالى في أواخر هذه السورة ﴿ فمن أظلم ممّن كذّب بآيات الله وصدف عنها ﴾ [ الأنعام : 157 ] قدّر : وصدف الناسَ عنها ، مع أنّه لم يتعرّض لذلك في الأساس ولا علّق على تقديره شارحوه .

ولمّا تقدّم ذكر الآيات حُذف متعلِّق ﴿ يصدفون ﴾ لظهوره ، أي صدف عن الآيات .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

روي عن نافع ﴿ بِهِ انظر ﴾ بضم الهاء وهو على لغة من يقرأ ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض ﴾ [ القصص : 81 ] فحذف الواو لالتقاء الساكنين فصار ﴿ بِهِ انظر ﴾ والباقون بكسر الهاء .

وقرأ حمزة والكسائي ﴿ يَصْدِفُونَ ﴾ باشمام الزاي والباقون بالصاد أي يعرضون عنه .

يقال : صدف عنه أي أعرض والمراد من تصريف الآيات إيرادها على الوجوه المختلفة المتكاثرة بحيث يكون كل واحد منها يقوي ما قبله في الايصال إلى المطلوب فذكر تعالى أن مع هذه المبالغة في التفهيم والتقرير والإيضاح والكشف ، انظر يا محمد أنهم كيف يصدفون ويعرضون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 188 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال الكعبي : دلت هذه الآية على أنه تعالى مكنهم من الفهم ، ولم يخلق فيهم الاعراض والصد ولو كان تعالى هو الخالق لما فيهم من الكفر لم يكن لهذا الكلام معنى .

واحتج أصحابنا بعين هذه الآية وقالوا : إنه تعالى بين أنه بالغ في إظهار هذه الدلالة وفي تقريرها وتنقيحها وإزالة جهات الشبهات عنها ، ثم إنهم مع هذه المبالغة القاطعة للعذر ما زادوا إلا تمادياً في الكفر والغي والعناد ، وذلك يدل على أن الهدى والضلال لا يحصلان إلا

بهداية الله وإلا بإضلاله فثبت أن هذه الآية دلالتها على قولنا أقوى من دلالتها على قولهم ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 188 ﴾

*(129/232)*

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴾

هنا يأمر الحق نبيه صلى الله عليه وسلم أن يستنطقهم : ماذا يفعلون إن سلب الله السمع وغطى قلوبهم بما يجعلها لا تدرك شيئاً ، وسلب منهم نعمة البصر ، هل هناك إله آخر يستطيع أن يرد لهم ما سلبه الحق سبحانه منهم ؟ لقد أخذوا نعمة الله واستعملوها لمحادَّة الله وعداوته ، أخذوا السمع ولكنهم صموا عن سماع الهدى ، وأخذوا الأبصار ولكنهم عموا عن رؤية آيات الله . ومنحوا القلوب ولكنهم أغلقوها في وجه قضايا الخير . فماذا يفعلون إن أخذ الله منهم هذه النعم ؟ هل هناك إله آخر يلجأون إليه ليستردوا ما أخذه الله منهم ؟

وترى في الحياة أن الحق قد حرم بعضاً من خلقه من نعم أدامها على خلق آخرين . إن في ذلك وسيلة إيضاح في الكون . وإياك أن تظن أيها الإنسان أن الحق حين سلب إنساناً نعمة ،

أنَّه يكره هذا الإنسان ، إنه سبحانه أراد أن يذكر الناس بأن هناك منعماً أعلى يجب أن يؤمنوا به . فإن أخذ الحق هذه النعم من أي كافر فماذا سيفعل ؟ إنه لن يستطيع شيئاً مع فعل الله .

وها هوذا النبي يوضح لهم بالبراهين الواضحة ، ولكنهم مع ذلك يُعْرِضون عن التدبر والتفكر والإيمان ﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾

والمؤمن حين يرى إنساناً من أصحاب العاهات فهو يشكر الله على نعمه ، إن الحق – سبحانه – بواسع رحمته يعطي صاحب العاهة تفوقاً في مجال آخر . ولنذكر قول الشاعر :

عميت جنيناً والذكاء من العمى . . . فجئت عجيب الظن للعلم موئلا

وغاض ضياء العين للقلب رافداً . . . لعلم إذا ما ضيع الناس حصلا

*(130/232)*

---

إننا قد نرى أعمى يقود ببصيرته المبصرين إلى الهداية . ونرى أصم كبيتهوفن – على سبيل المثال – قد فتن الناس بموسيقاه وهو أصم . وهكذا نجد من أصيب بعاهة فإن الله يعوضه بجودٍ وفضل منه في نواحٍ ومجالات أخرى من حياته . ولا يوجد إله آخر يمكن أن يعوض كافراً ابتلاه الله ؛ لأن الله هو الواحد الأحد . ﴿ انظر كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيات ثُمَّ هُمْ

يَصْدِفُونَ ﴾ ، أي انظر يا محمد وتعجب كيف نبّين لهم الآيات ونصرفها من أسلوب إلى أسلوب ما بين حجج عقلية وتوجيه إلى آيات كونية وترغيب وتنبيه وتذكير ومع ذلك فإن هؤلاء الكافرين لا يتفكرون ولا يتدبرون ، بل إنهم يعرضون ويتولون عن الحق بعد بيانه وظهوره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(131/232)*

---

لطيفة

قال فى البحر المديد :

الإشارة : إنما خلق الأسماع والأبصار ، لسماع الوعظ والتذكار ، ولنظرة التفكر والاعتبار ، فمن صرفهما في ذلك فقد شكر نعمتهما ، ومن صرفهما في غير ذلك فقد كفر نعمتهما ، ومن كفر نعمتهما يوشك أن تؤخذ منه تلك النعمة ، وكذلك نور العقل ، ما جعله الله في العبد إلا ليعرفه به ، ويعرف دلائل توحيده ، ويتبصرّ به في أمره . فإذا صرفه في تدبير هواه وشهواته فقد كفر نعمته ، فيوشك أيضاً أن يؤخذ منه .

وإذا أنعم الله عليه باستعمال هذه الحواس فيما خلقت لأجله ؛ فليكن على حذر من آخذ ذلك منه أيضاً ، فلا يأمن مكر الله ، فإن الأسماع والأبصار والقلوب بيد الله ، يُقلبها كيف

شاء ، فإن أخذها لن يقدر على ردها ، ولذلك كان العارف لا يزول اضطراره ، ولا يكون مع غير الله قراره ، والعذاب الذي يأتي بغتة ، هو السلب بغتة ، أي : فقد القلب في مرة واحدة ، والذي يأتي جهرة هو فقده شيئًا فشيئًا ، وسبب هذا الهلاك : هو ظلم العبد لنفسه ، إما بسوء أدب مع الله ، أو نقض عهد الشيوخ العارفين بالله . وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 2 صـ 119 ﴾

*(132/232)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ ﴾ المفعول الأوَّل محذوف ، تقديره : أرأيتم سَمْعَكُمْ وأبصاركم إن أخذنا اللَّهُ ، والجملة الاسْتِفْهَامِيَّةُ في موضع الثاني ، وقد تقدَّم أن أبا حيَّان يجعله من التَّنازُعِ ، وجوابُ الشرط مَحْذُوفٌ على نحو ما مَرَّ .

وقال الحوفي : وحَرْفُ الشَّرْطِ وما اتَّصَلَ به في موضع نَصْبٍ على الحالِ ، والعاملُ في الحالِ " أرأيتم " كقولك : " اضْرِبْهُ إن خرج " أي : خارجاً ، وجواب الشَّرْطِ ما تقدَّم مما دَخَلَتْ عليه هَمْزَةُ الاستفهام وهذا إعرابٌ لا يَظْهَرُ .

ولمْ يُؤتَ هنا بـ "كاف" الخطاب، وأتِيَ به هناك؛ لأن التَّهْديدَ هناك أعْظَمُ فَنَاسَبَ التأكيد بالإتيان بـ "كاف" الخطاب ولمَّا لمْ يُؤتَ بالكافِ وجَبَ بروز علامةِ الجَمْعِ في التاء لئلا يَلْتَبِسَ، ولو جيء معها بالكافِ لاسْتُغْنِيَ بها كما تقدَّمَ، وتوْحِيدُ السَّمْعِ، وجَمْعُ الأبصارِ مفهومق مما تقدَّمَ في "البقرة".

قوله: "مَنْ إلهٌ" مبتدأ وخبر، و"مَنْ" استِفْهَامِيَّةٌ، و"غيرُ الله" صِفَةٌ لـ "إله" و"يأتيكم" صِفَةٌ ثانية، و"الهاء" في "به" تعود على "سمعكم".

وقيل: تعود على الجميع، ووُحِّد ذهَاباً به مذهب اسم الإشارةِ.

وقيل: تعود على الهدى المدلول عليه بالمعنى.

(133/232)

---

وقيل: يَعُودُ على المَأْخُوذِ والمختُومِ المدلول عليهما والخَتْمِ، والاستفهامُ هنا للإنكارِ.

والجمهور: "بِهِ انظر" بكسر الهاء على الأصل، وروى المُسَيَّبي عن نافع "بهُ انظر" بضم الهاء [وهي لغةُ من يقرأ "فخسفنا بهو وبدارهُو الأرض" فحذف "الواو" لالتقاء الساكنين، فصارَ "به انظر" والباقون بكسرها.

وقرأ حمزة، والكسائي "يَصْدِفُونَ" بإشْمَامِ الزَّاين والباقون بالصاد.

قوله : ﴿ انظر كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيات ﴾ .

"كيف" مَعْمُول لـ "نُصرِّفُ" ونَصبُها : إمَّا على التَّشْبيه بالحالِ ، أو التشبيه بالظَّرْفِ ، وهي مُعْلّقةٌ لـ "انظر" فهي في مَحَلِّ نصب بإسْقَاطِ حرفِ الجرِّ ، وهذا ظاهرٌ مما تقدَّم .

و "نُصَرِّف" : نُبَيِّنُ ، و "يَصْدِفُون" معناه : يُعْرِضُونَ ، يقال : صَدَقَ عن الشيء صَدفاً وصدوفاً وصدافيةً ، وصادَفْتُهُ مُصادفةً أي : لقِيتُهُ عن إعْراضٍ من جهتِهِ .

قال عِدِيُّ بْنُ الرقَاعِ : [ البسيط ]

2177 - إذَا ذَكَرْنَ حَدِيثاً قُلْنَ أحْسَنَه . . .

وهُنَّ كُلِّ سُوءٍ يُتَّقَى صُدُفُ

"صُدُف" جمع "صَدُوف" كـ "صُبُر" في جمع "صَبُور" .

وقيل : معنى "صَدَف" : "مال" ، مأخوذة من الصَّدَفِ في البعيرِ ، وهو ان يميل خُفُّهُ من اليد إلى الرِّجْلِ من الجانب الوَحْشِيّ .

و "الصَّدَفُ" جمع "صَدَفَة" ، وهي المَحَارَةُ التي تكون فيها الدُّرَّة .

قال : [ البسيط ]

2178 - وَزَادَهَا عَجَباً أنْ رُحْتُ فِي سُبُلٍ . . .

وَمَا دَرَتْ دَوَرَانَ الدُّرِّ في الصَّدَفِ

و "الصَّدَفُ" و "الصُّدُف" بفتح الصاد والداله ناحية الجَبَلِ المُرْتفعِ ، وسأتي لهذا مزيدُ

بيان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 152.154 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

(134/232)

---

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (46) ﴾

عَرَّفهم محلَّ عجزهم ، وحقيقة حاجتهم إلى القدرة القديمة لدوام فقرهم .

وحذَّرهم فقال : إنْ لم يُدِمْ عليهم نعمة أسماعهم وأبصارهم ، ولم يوجِبْ لهم ما ألبسهم من العوافي – بكل وجهٍ في كل لحظة – فمن الذي يهب ما سلبه ، أو يضع ما منعه ، أو يعيد ما نفاه ، أو يَرُدُّ ما أبداه ؟ كلا . . . بل هو الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 473 ﴾

(135/232)

---

قوله تعالى ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (47) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قرن الأخذ بالبغت تارة صريحاً وتارة بإسقاط الكاف ؛ كان ربما وقع في وهم السؤال عن حالة الجهر ، أتبع ذلك ذكره مفصلاً لما أجمل من الأحوال في الآيتين قبل فقال : ﴿ قل أرءيتكم ﴾ ولما كان المعنى : أخبروني ، وكان كأنه قيل : عما ذا ؟ قيل : ﴿ إن أتاكم عذاب الله ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال فلا يعجزه شيء ﴿ بغتة ﴾ أي بحيث لا يرى إلا ملتبساً بكم من غير أن يشعر به ويظهر شيء من أماراته ، ﴿ أو جهرة ﴾ أي بحيث ترونه مقبلاً إليكم مقدماً عليكم ﴿ هل ﴾ .

ولما كان المخوف بالذات هو الهلاك من غير نظر إلى تعيين الفاعل ، بني للمفعول قوله : ﴿ يهلك ﴾ أي في واحدة من الحالتين هلاكاً هو الهلاك ، وهو هلاك السخط ﴿ إلا القوم ﴾ أي الذين لهم قوة المدافعة وشدة المقاتلة في زعمكم والمقاومة ﴿ الظالمون ﴾ أي بوضع الأشياء في غير مواضعها من إعطاء الشيء لمن لا يستحقه ومنع المستحق ما له ، وأما المصلح فإنه ناج إما في الدارين وإما في الآخرة التي من فاز فيها فلا توى عليه ؛ وذكر أبو حيان أنه لما كان مطلق العذاب صالحاً لكل ما يعلم من تفاصيل أهواله وما لا يعلم ، كان

التوعد به أهول ، فلذلك أكد فيه في الآيتين الخطاب بالضمير بحرف الخطاب ، والتوعد بأخذ السمع وما معه من جملة الأنواع التي اشتمل عليها ذلك المطلق فأعري من حرف الخطاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 639 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن الدليل المتقدم كان مختصاً بأخذ السمع والبصر والقلب وهذا عام في جميع أنواع العذاب ، والمعنى : أنه لا دافع لنوع من أنواع العذاب إلا الله سبحانه ، ولا محصل لخير من الخيرات إلا الله سبحانه ، فوجب أن يكون هو المعبود بجميع أنواع العبادات لا غيره .

فإن قيل : ما المراد بقوله ﴿ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً ﴾ قلنا العذاب الذي يجيئهم إما أن يجيئهم من غير سبق علامة تدلهم على مجيء ذلك العذاب أو مع سبق هذه العلامة .

فالأول : هو البغتة .

والثاني : هو الجهرة .

والأول سماه الله تعالى بالبغتة ، لأنه فاجأهم بها وسمى الثاني جهرة ، لأن نفس العذاب وقع بهم وقد عرفوه حتى لو أمكنهم الاحتراز عنه لتحرزوا منه .

وعن الحسن أنه قال : ﴿ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً ﴾ معناه ليلاً أو نهاراً .

وقال القاضي : يجب حمل هذا الكلام على ما تقدم ذكره لأنه لو جاءهم ذلك العذاب ليلاً

وقد عاينوا مقدمته ، لم يكن بغتة ولو جاءهم نهاراً وهم لا يشعرون بمقدمته لم يكن جهرة .

فأما إذا حملناه على الوجه الذي تقدم ذكره ، استقام الكلام .

فإن قيل : فما المراد بقوله ﴿ هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ القوم الظالمون ﴾ مع علمكم بأن العذاب إذا نزل لم يحصل فيه التمييز .

قلنا : إن الهلاك وإن عم الأبرار والأشرار في الظاهر ، إلا أن الهلاك في الحقيقة مختص بالظالمين الشريرين ، لأن الأخيار يستوجبون بسبب نزول تلك المضار بهم أنواعاً عظيمة من الثواب والدرجات الرفيعة عند الله تعالى ، فذاك وإن كان بلاء في الظاهر ، إلا أنه يوجب سعادات عظيمة ؟

أما الظالمون فإذا نزل البلاء بهم فقد خسروا الدنيا والآخرة معاً ، فلذلك وصفهم الله تعالى بكونهم هالكين وذلك تنبيه على أن المؤمن التقي النقي هو السعيد ، سواء كان في البلاء أو في الآلاء والنعماء وأن الفاسق الكافر هو الشقي ، كيف دارت قضيته واختلفت أحواله ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 188.189 ﴾

*(136/232)*

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً ﴾

الحسن : "بغتة" ليلاً "أو جهرة" نهاراً .

وقيل : بغتة فجأة .

وقال الكسائي : يُقال بَغَتهم الأمرُ يَبغَتهم بَغْتاً وبغتة إذا أتاهم فجأة ، وقد تقدّم .

﴿ هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ القوم الظالمون ﴾ نظيره ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ القوم الفاسقون ﴾ [ الأحقاف : 35 ] أي هل يهلك إلاَّ أنتم لشرككم ؛ والظلم هنا بمعنى الشرك ، كما قال لقمان لابنه : ﴿ يا بني لاَ تُشْرِكْ بالله إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [ لقمان : 13 ] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون ﴾

هذا تهديد ثالث فالأول بأحد أمرين : العذاب والساعة ، والثاني : بالأخذ والختم ، والثالث : بالعذاب فقط .

قيل : ﴿ بغتة ﴾ فجأة لا يتقدم لكم به علم وجهرة تبدو لكم مخايلة ثم ينزل .

وقال الحسن : ﴿ بغتة ﴾ ليلاً و ﴿ جهرة ﴾ نهاراً .

وقال مجاهد : ﴿ بغتة ﴾ فجأة آمنين و ﴿ جهرة ﴾ وهم ينظرون ، ولما كانت البغتة

تضمنت معنى الخفية صح مقابلتها للجهرة وبدىء بها لأنها أردع من الجهرة ، والجملة من قوله ﴿ هل يهلك ﴾ معناها النفي أي ما يهلك ﴿ إلا القوم الظالمون ﴾ ولذلك دخلت ﴿ إلا ﴾ وهي في موضع المفعول الثاني لأرأيتكم والرابط محذوف أي هل يهلك به ؟ والأول من مفعولي ﴿ أرأيتكم ﴾ محذوف من باب الإعمال لما قررناه ، ولما كان التهديد شديداً جمع فيه بين أداتي الخطاب والخطاب لكفار قريش والعرب وفي ذكر الظلم تنبيه على علة الإهلاك والمعنى هل يهلك إلا أنتم لظلمكم ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(137/232)

---

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُم ﴾ تبكيتٌ آخَرُ لهم بإلجائهم إلى الاعترافِ باختصاص العذاب بهم ﴿ إِنْ أتاكم عَذَابُ الله ﴾ أي عذابُه العاجلُ الخاصُّ بكم كما أتى مَنْ قبلكم من الأمم ﴿ بَغْتَةً ﴾ أي فجأةً من غير أن يظهرَ منه مخايلُ الإتيان وحيثُ تضمّن هذا معنى الخُفية قوبل بقوله تعالى : ﴿ أَوْ جَهْرَةً ﴾ أي بعد ظهورِ أماراتِه وعلائمه ، وقيل : ليلاً أو نهاراً كما في قوله تعالى : ﴿ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا ﴾ لما أن الغالبَ فيما أتى ليلاً البغتةُ وفيما أتى نهاراً الجهرةُ ،

وقرىء بغتة أو جهرة وهما في موضع المصدر أي إتيانَ بغتةٍ أو إتيانَ جهرة ، وتقديمُ البغتة لكونها أهولَ وأفظعَ ، وقوله تعالى : ﴿ هَلْ يُهْلَكُ ﴾ متعلَّق الاستخبار ، والاستفهام للتقرير أي قل لهم تقريراً لهم باختصاص الهلاكِ بهم أخبروني إن أتاكم عذابُه تعالى حسبما تستحقونه هل يُهلك بذلك العذاب إلا أنتم ؟ أي هل يُهلك غيركم ممن لا يستحقه ؟ وإنما وُضع موضعَه ﴿ إِلاَّ القوم الظالمون ﴾ تسجيلاً عليهم بالظلم وإيذاناً بأن مناطَ إهلاكهم ظلمُهم الذي هو وضعُهم الكفرَ موضعَ الإيمان .

وقيل : المرادُ بالظالمين الجنسُ وهم داخلون في الحكم دخولاً أولياً . قال الزجاج : هل يُهلك إلا أنتم ومن أشبهكم ؟ ويأباه تخصيصُ الإتيان بهم ، وقيل : الاستفهامُ بمعنى النفي فمتعلَّق الاستخبارِ حينئذ محذوفٌ كأنه قيل : أخبروني إن أتاكم عذابه تعالى بغتة أو جهرة ماذا يكون الحال ؟ ثم قيل بياناً لذلك : ما يُهلك إلا القومُ الظالمون أي ما يُهلك بذلك العذاب الخاصِّ بكم إلا أنتم . فمن قيَّد الهلاكَ بهلاك التعذيب والسُخط لتحقيق الحصْرِ بإخراج غيرِ الظالمينِ لما أنه ليس بطريقِ التعذيب والسَّخَطِ بل بطريق الإثابة ورفع الدرجة فقد أهمل ما يُجديه واشتغل بما لا يَعنيه وأخلَّ بجزالة النظم الكريم وقرىء هل يَهلِك من الثلاثي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(138/232)

وقال الشوكانى :

قوله : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أتاكم عَذَابُ الله ﴾ أي أخبروني عن ذلك ، وقد تقدّم تفسير البغتة قريباً أنها الفجأة .

قال الكسائي : بغتهم يبغتهم بغتا وبغتة : إذا أتاهم فجأة ، أي من دون تقديم مقدّمات تدل على العذاب .

والجهرة أن يأتي العذاب بعد ظهور مقدمات تدل عليه .

وقيل البغتة : إتيان العذاب ليلاً ، والجهرة : إتيان العذاب نهاراً كما في قوله تعالى : ﴿ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا ﴾ [ يونس : 50 ] .

﴿ هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ القوم الظالمون ﴾ الاستفهام للتقرير ، أي ما يهلك هلاك تعذيب وسخط إلا القوم الظالمون .

وقرىء "يهلك" على البناء للفاعل .

قال الزجاج : معناه هل يهلك إلا أنتم ومن أشبهكم ؟ انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُكُم ﴾ تبكيت آخر لهم بالجائهم إلى الاعتراف باختصاص العذاب بهم ﴿ إِنْ

أتاكم عَذَابُ الله ﴾ أي العاجل الخاص بكم كما أتى أضرابكم من الأمم قبلكم ﴿ بَغْتَةً ﴾ أي فجأة من غير ظهور أمارة وشعور ولتضمنها بهذا الاعتبار ما في الخفية من عدم الشعور صح مقابلتها بقولهسبحانه : ﴿ أَوْ جَهْرَةً ﴾ وبدأ بها لأنها أردع من الجهرة .

وإنما لم يقل : خفية لأن الإخفاء لا يناسب شأنه تعالى .

وزعم بعضهم أن البغتة استعارة للخفية بقرينة مقابلتها بالجهرة وإنها مكنية من غير تخييلية .

ولا يخفى أنه على ما فيه تعسف لا حاجة إليه فإن المقابلة بين الشيء والقريب من مقابله كثيرة في الفصيح .

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " بشروا ولا تنفروا " .

وعن الحسن أن البغتة أن يأتيهم ليلا والجهرة أن يأتيهم نهاراً .

وقرىء ﴿ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً ﴾ بفتح الغين والهاء على أنهما مصدران كالغلبة أي أتيانا بغتة أو أتيانا جهرة .

*(139/232)*

وفي "المحتسب" لابن جني أن مذهب أصحابنا في كل حرف حلق ساكن بعد فتح لا يحرك إلا على أنه لغة فيه كالنهر والنهر والشعر والشعر والحلب والحلب والطرد والطرد .

ومذهب الكوفيين أنه يجوز تحريك الثاني لكونه حرفاً حلقياً قياسياً مطرداً كالبحر والبحر ، وما أرى الحق إلا معهم .

وكذا سمعت من عامه عقيل .

وسمعت الشجري يقول : محموم بفتح الحاء .

وليس في كلام العرب مفعول بفتح الفاء .

وقالوا : اللحم يريد اللحم .

وسمعته يقول تغدو بمعنى تغدوا .

وليس في كلامهم مفعل بفتح الفاء وقالوا : سار نحوه بفتح الحاء ولو كانت الحركة أصلية ما صحت اللام أصلاً اه .

وهي كما قال الشهاب فائدة ينبغي حفظها .

وقرىء ﴿ بَغْتَةً ﴾ بالواو الواصلة .

﴿ هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ القوم الظالمون ﴾ أي إلا أنتم ووضع الظاهر موضع ضميرهم تسجيلاً عليهم بالظلم وإيذاناً بأن مناط إهلاكهم ظلمهم ووضعهم الكفر موضع الإيمان والإعراض موضع الإقبال وهذا كما قال الجماعة متعلق الاستخبار والاستفهام للتقرير أي قل تقريراً

لهم باختصاص الهلاك بهم أخبروني إن أتاكم عذابه جل شأنه حسبما تستحقونه هل يهلك بذلك العذاب إلا أنتم أي هل يهلك غيركم ممن لا يستحقه ، وقيل : المراد بالقوم الظالمين الجنس وهم داخلون فيه دخولاً أولياً .

واعترض بأنه يأباه تخصيص الإتيان بهم ، وقيل : الاستفهام بمعنى النفي لأن الاستثناء مفرغ والأصل فيه النفي ، ومتعلق الاستخبار حينئذ محذوف كأنه قيل : أخبروني إن أتاكم عذابه عز وجل بغتة أو جهرة ماذا يكون الحال .

ثم قيل : بياناً لذلك ما يهلك إلا القوم الظالمون أي ما يهلك بذلك العذاب الخاص بكم ألا أنتم .

وقيد الطبرسي وغيره الهلاك بهلاك التعذيب والسخط توجيهاً للحصر إذ قد يهلك غير الظالم لكن ذلك رحمة منه تعالى به ليجزيه الجزاء الأوفى على ابتلائه ، ولعله اشتغال بما لا يعني .

وقرىء ﴿ يُهْلَكُ ﴾ بفتح الياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

*(140/232)*

﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (47) ﴾

استئناف للتهديد والتوعّد وإعذار لهم بأنّ إعراضهم لا يرجع بالسوء إلاّ عليهم ولا يضرّ بغيرهم ، كقوله : ﴿ وهم يَنْهَوْن عنه ويَنْأَوْن عنه وإنْ يُهْلِكُون إلاّ أنفسهم وما يشعرون ﴾ [ الأنعام : 26 ] .

والقول في ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة ﴾ الآية كالقول في نظيريْه المتقدّمين .

وجيء في هذا وفي نظيره المتقدّم بكاف الخطاب مع ضمير الخطاب دون قوله : ﴿ قل أرأيتم إنْ أخذَ الله سمْعكم وأبْصاركم ﴾ [ الأنعام : 46 ] الآية لأنّ هذا ونظيره أبلغ في التوبيخ لأنّهما أظهر في الاستدلال على كون المشركين في مكنة قدرة الله ، فإنّ إتيان العذاب أمكن وقوعاً من سلب الأبصار والأسماع والعقول لندرة حصول ذلك ، فكان التوبيخ على إهمال الحذر من إتيان عذاب الله ، أقوى من التوبيخ على الاطمئنان من أخذ أسماعهم وأبصارهم ، فاجتلب كاف الخطاب المقصود منه التنبيه دون أعيان المخاطبين .

والبغتة تقدّمت آنفاً .

والجهرة : الجَهْر ، ضدّ الخفية ، وضدّ السرّ .

وقد تقدّم عنه قوله تعالى : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ في سورة [ البقرة : 55 ]

وقد أوقع الجهرة هنا في مقابلة البغتة وكان الظاهر أن تقابل البغتة بالنّظرة أو أن تقابل الجهرة

بالخفية ، إلاّ أنّ البغتة لمّا كانت وقوع الشيء من غير شعور به كان حصولها خفيّاً فحسن مقابلته بالجهرة ، فالعذاب الذي يجيء بغتة هو الذي لا تسبقه علامة ولا إعلام به .

والذي يجيء جهرة هو الذي تسبقه علامة مثل الكِسْف المحكي في قوله تعالى : ﴿ فلمّا رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض مُمطرنا ﴾ [ الأحقاف : 24 ] أو يسبقه إعلام به كما في قوله تعالى : ﴿ فعَقروها فقال تمتّعوا في داركم ثلاثة أيام ﴾ [ هود : 65 ] .

فإطلاق الجهرة على سبق ما يشعر بحصول الشيء إطلاق مجازي .

وليس المراد من البغتة الحاصل ليلاً ومن الجهرة الحاصل نهاراً .

والاستفهام في قوله : ﴿ هل يُهلَك ﴾ مستعمل في الإنكار فلذلك جاء بعده الاستثناء .

والمعنى لا يهلك بذلك العذاب إلاّ الكافرون .

والمراد بالقوم الظالمين المخاطبون أنفُسهم فأظهر في مقام الإضمار ليتأتّى وصفهم أنّهم ظالمون ، أي مشركون ، لأنَّهم ظالمون أنفسهم وظالمون الرسول والمؤمنين .

وهذا يتضمَّن وعْداً من الله تعالى بأنه منجي المؤمنين ، ولذلك أذنَ رسوله بالهجرة من مكة مع المؤمنين لئلاّ يحلّ عليهم العذاب تكرمة لهم كما أكرم لُوطاً وأهله ، وكما أكرم نوحاً ومن آمن معه ، كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم ﴾ [ الأنفال :

33 ] ثم قوله : ﴿ وما لهم أن لا يعذّبهم الله ﴾ [ الأنفال : 34 ] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(141/232)

---

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) .

هَذَا قَوْلٌ مُسْتَأْنَفٌ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يُوَجِّهَهُ إِلَى الْمُشْرِكِينَ مُذَكِّرًا إِيَّاهُمْ بِمَا أَوْدَعَ فِي فِطْرَتِهِمْ مِنْ تَوْحِيدِهِ عَزَّ وَجَلَّ ، لِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا تَقَلَّدُوهُ مِنَ الشِّرْكِ عَارِضٌ شَاغِلٌ يُفْسِدُ أَذْهَانَهُمْ وَمُخَيِّلَاتِهِمْ فِي وَقْتِ الرَّخَاءِ ، وَمَا يَخِفُّ حِمْلُهُ مِنَ الْبَلَاءِ ، حَتَّى إِذَا مَا نَزَلَ بِهِمْ مَا لَا يُطَاقُ مِنَ اللَّأْوَاءِ ، وَأَثَارَ تَقَطُّعُ الْأَسْبَابِ فِي أَنْفُسِهِمْ ضَرَاعَةَ الدُّعَاءِ ، دَعَوُا اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ (لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ 10 : 22) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ وَمَا وَضَعَتْ رَمْزًا لَهُ مِنْ مَلَكٍ أَوْ إِنْسَانٍ ؛ لِأَنَّ هَذَا دُعَاءُ الْقَلْبِ لَا دُعَاءُ اللِّسَانِ ، ذَكَّرَهُمْ بِهَذَا بَعْدَ تَذْكِيرِهِمْ بِالْمُشَابَهَةِ بَيْنَ أُمَمِ النَّاسِ وَأُمَمِ الْحَيَوَانِ وَحَالِ مَنْ فَسَدَتْ قُوَاهُمُ الْفِطْرِيَّةُ مِنَ النَّاسِ ، وَلِذَلِكَ قَفَّى عَلَيْهِ

بِذِكْرِ مَنْ تَرَكُوا التَّضَرُّعَ لَهُ تَعَالَى حِينَ الْبَأْسِ ، وَقَبْلَ أَنْ يُحِيطَ بِهِمُ الْيَأْسُ ، فَابْتَلَاهُمْ بِالسَّرَّاءِ وَالنَّعْمَاءِ ، بَعْدَ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ، فَأَعْقَبَهُمْ بَدَلَ الشُّكْرِ فَرَحَ الْبَطَرِ ، فَأَخَذَهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ، قَالَ تَعَالَى :

(142/232)

---

(قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) .

قَوْلُهُ تَعَالَى : (أَرَأَيْتَكُمْ) هُوَ عِنْدَ جُمْهُورِ عُلَمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ بِمَعْنَى (أَخْبِرُونِي) وَالتَّاءُ ضَمِيرُ رَفْعٍ ، وَالْكَافُ حَرْفُ خِطَابٍ أُكِّدَ بِهِ الضَّمِيرُ لَا مَحَلَّ لَهُ ، وَتَتَغَيَّرُ حَرَكَتُهُ بِاخْتِلَافِ الْمُخَاطَبِ دُونَ التَّاءِ ؛ فَتَظَلُّ مَفْتُوحَةً فِي الْمُؤَنَّثِ وَالْمُثَنَّى وَالْجَمْعِ ، وَقَدْ أَطَالُوا الْقَوْلَ فِي الْمَذَاهِبِ وَالْآرَاءِ فِي إِعْرَابِهِ وَمَعْنَاهُ فِي كُتُبِ اللُّغَةِ وَبَعْضِ كُتُبِ التَّفْسِيرِ . وَأَقُولُ : إِنَّ هَذِهِ الصِّيغَةَ (أَرَأَيْتَكُمْ) فِي خِطَابِ الْجَمْعِ بِالْكَافِ وَالْمِيمِ لَمْ تُذْكَرْ إِلَّا فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَفِي الْآيَةِ الْآتِيَةِ بَعْدَ بِضْعِ آيَاتٍ ، وَذُكِرَتْ فِي خِطَابِ الْمُفْرَدِ بِالْكَافِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ " سُورَةِ الْإِسْرَاءِ " : (أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ) (17 : 62) إِلَخْ ، وَلَيْسَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ اسْتِفْهَامٌ فِي الْجُمْلَةِ الشَّرْطِيَّةِ ، وَلَكِنَّ الْمُفَسِّرِينَ قَدَّرُوا فِيهَا اسْتِفْهَامًا مَحْذُوفًا . قَالَ الْبَيْضَاوِيُّ كَغَيْرِهِ : وَالْمَعْنَى : أَخْبِرْنِي عَنْ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ بِأَمْرِي بِالسُّجُودِ لَهُ ، لِمَ

كَرَّمْتَهُ عَلَيَّ ؟ وَجَعَلَ قَوْلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ : (لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) (17 : 62) إِلَخْ كَلَامًا مُبْتَدَأً .

*(143/232)*

---

وَقَدِ اسْتَعْمَلَ " أَرَأَيْتَ " وَ " أَرَأَيْتُمْ " - بِدُونِ كَافٍ - مِثْلَ هَذَا الِاسْتِعْمَالِ فِي أَكْثَرِ مِنْ عِشْرِينَ آيَةً أَكْثَرُهَا قَدْ صَرَّحَ فِيهِ بَعْدَهَا بِالِاسْتِفْهَامِ ، فَمِنْهُ فِي جُمْلَةٍ غَيْرِ شَرْطِيَّةٍ قَوْلُهُ تَعَالَى : (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا) (25 : 43) وَقَوْلُهُ : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ) (46 : 4) وَمِثْلُهَا الْآيَاتُ الَّتِي فِي " سُورَةِ الْوَاقِعَةِ " . وَمِنْهُ فِي الْجُمَلِ الشَّرْطِيَّةِ (أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ

*(144/232)*

---

سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ) (26 : 205 - 207) وَمِثْلُهَا الْآيَاتُ الَّتِي فِي آخِرِ " سُورَةِ الْعَلَقِ " وَالْآيَاتُ الَّتِي فِي آخِرِ " سُورَةِ الْمُلْكِ " . فَمَنْ تَأَمَّلَ هَذِهِ الْآيَاتِ كُلَّهَا لَا يَظْهَرُ لَهُ فِيهَا مَا قَالُوهُ مِنْ أَنَّ مَعْنَاهَا أَخْبِرْنِي وَأَخْبِرُونِي إِلَّا بِمَا

يَأْتِي مِنَ التَّوْجِيهِ . قَالَ الْقَاضِي الْبَيْضَاوِيُّ فِي (أَرَأَيْتَكُمْ) : اسْتِفْهَامٌ وَتَعْجِيبٌ . وَقَالَ الرَّاغِبُ فِي مُفْرَدَاتِهِ بَعْدَ الْإِشَارَةِ إِلَى عِدَّةِ آيَاتٍ مُصَدَّرَةٍ بِهَذَا اللَّفْظِ : كُلُّ ذَلِكَ فِيهِ مَعْنَى التَّنْبِيهِ . وَقَدْ سَدَّدَ كُلٌّ مِنْهُمَا وَقَارَبَ . وَالَّذِي أَرَاهُ جَامِعًا بَيْنَ الْأَقْوَالِ أَنَّ (أَرَأَيْتَكُمْ) وَ (أَرَأَيْتُمْ) اسْتِفْهَامٌ عَنِ الرَّأْيِ أَوْ عَنِ الرُّؤْيَةِ الَّتِي بِمَعْنَى الْعِلْمِ ، وَأَنَّ الِاسْتِفْهَامَ فِي هَذَا الِاسْتِعْمَالِ لِلتَّقْرِيرِ وَأَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ التَّنْبِيهُ وَالتَّمْهِيدُ لِمَا يُذْكَرُ بَعْدَهُ مِنْ نَبَأٍ غَرِيبٍ أَوْ عَجِيبٍ ، أَوِ اسْتِفْهَامٍ تَقُومُ بِهِ فِي الْمَسْأَلَةِ الْحُجَّةُ ، وَتَدْحَضُ الشُّبْهَةُ ، وَلَوْلَا أَنَّ الِاسْتِفْهَامَ لِلتَّقْرِيرِ لَمَا كَانَ لِقَوْلِ الْجُمْهُورِ أَنَّهُ بِمَعْنَى طَلَبِ الْإِخْبَارِ وَجْهٌ وَجِيهٌ ، وَالْمَفْعُولُ الْأَوَّلُ لِـ " أَرَأَيْتَ " أَوْ " أَرَأَيْتُمْ " الَّتِي تَتْلُوهَا الْجُمْلَةُ الشَّرْطِيَّةُ مَحْذُوفٌ يُفْهَمُ مِنْ مَضْمُونِهَا وَيُقَدَّرُ بِحَسَبِ الْمَقَامِ ، وَقَدْ تَسُدُّ الْجُمْلَةُ الِاسْتِفْهَامِيَّةُ مَسَدَّ الْمَفْعُولَيْنِ .

*(145/232)*

---

وَالْمَعْنَى : قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ : أَرَأَيْتُمْ أَنْفُسَكُمْ كَيْفَ تَكُونُ حَالُكُمْ مَعَ مَنْ تَعْبُدُونَ - أَوْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ - أَيْ أَخْبِرُونِي عَنْ رَأْيِكُمْ أَوْ عَنْ مَبْلَغِ عِلْمِكُمْ ، فِي ذَلِكَ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ بِمَنْ كَانَ مِنْ أَقْوَالِ الرُّسُلِ قَبْلَكُمْ ، كَالرِّيحِ الصَّرْصَرِ الْعَاتِيَةِ وَالصَّاعِقَةِ أَوِ الرَّجْفَةِ الْقَاضِيَةِ ، وَمِيَاهِ الطُّوفَانِ الْمُغْرِقَةِ ، وَحَرَارَةِ الظُّلَّةِ

الْمُحْرِقَةِ ، أَوْ أَتَتْكُمْ

السَّاعَةُ بِمُقَدِّمَاتِ أَهْوَالِهَا أَوْ مَا يَلِي الْبَعْثَ مِنْ خَزِينِهَا وَنَكَالِهَا ، أَغَيْرَ اللهِ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ تَدْعُونَ أَمْ إِلَى غَيْرِهِ فِيهَا تَجْأَرُونَ ؟ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي دَعْوَاكُمْ أُلُوهِيَّةَ هَؤُلَاءِ الشُّرَكَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذْتُمُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ، وَزَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُفَعَاءُ ، أَوْ إِنْ كَانَ مِنْ شَأْنِكُمُ الصِّدْقُ فَأَخْبِرُونِي أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِذَا أَتَاكُمْ أَحَدُ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ اللَّذَيْنِ يَحْلُو دُونَهُمَا الْأَمْرَيْنِ ؟ وَذَهَبَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى كَوْنِ مُتَعَلَّقِ الِاسْتِخْبَارِ مَحْذُوفًا تَقْدِيرُهَا : أَخْبِرُونِي إِنْ أَتَاكُمْ مَا ذُكِرَ ، مَنْ تَدْعُونَ لِكَشْفِهِ ، أَتَخُصُّونَ غَيْرَ اللهِ بِالدُّعَاءِ ، كَمَا هُوَ شَأْنُكُمْ وَقْتَ الرَّخَاءِ ؟ أَمْ تَخُصُّونَهُ وَحْدَهُ بِالدُّعَاءِ وَتَنْسَوْنَ مَا اتَّخَذْتُمْ مِنَ الشُّرَكَاءِ إِذْ يَضِلُّ عَنْكُمْ مَنْ تَرْجُونَ مِنَ الشِّفَاءِ ؟ ثُمَّ أَجَابَ تَعَالَى عَنْهُمْ مُخْبِرًا إِيَّاهُمْ عَمَّا تَقْتَضِيهِ فِطْرَتُهُمْ فَقَالَ :

(146/232)

---

(بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ) أَيْ لَا تَدْعُونَ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ غَيْرَهُ – لَا وَحْدَهُ وَلَا مَعَهُ – بَلْ تَخُصُّونَهُ وَحْدَهُ بِالدُّعَاءِ ، فَيَكْشِفُ أَيْ يُزِيلُ مَا تَدْعُونَهُ إِلَى كَشْفِهِ إِنْ شَاءَ ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْقَادِرُ عَلَيْهِ دُونَ جَمِيعِ الْعِبَادِ ، وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ الْآنَ مِنَ الشُّفَعَاءِ وَالْأَنْدَادِ ؛ لِأَنَّ الْفَزَعَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ عِنْدَ شِدَّةِ الضِّيقِ وَالْيَأْسِ مِنَ الْأَسْبَابِ

مَرْكُوزٌ فِي فِطْرَةِ الْبَشَرِ ، تَنْبَعِثُ إِلَيْهِ بِذَاتِهَا كَمَا تَنْبَعِثُ إِلَى طَلَبِ الْغِذَاءِ عِنْدَ الْجُوعِ مَثَلًا ، فَلَا يَذْهَبُ بِهِ مَا يُتَلَقَّى بِالتَّعْلِيمِ الْبَاطِلِ مِنْ مَسَائِلِ الدِّينِ غَالِبًا إِلَّا مَنْ تَمَّ فَسَادُ فِطْرَتِهِ ، وَانْتَهَتْ سَفَالَةُ طِينَتِهِ ، حَتَّى كَانَ كَالْأَعْجَمِ ، لَا يَفْهَمُ وَلَا يُفْهِمُ ، وَإِنَّمَا مَثَلُ تَعَالِيمِ الشِّرْكِ مَعَ هَذِهِ الْغَرِيزَةِ الْفِطْرِيَّةِ كَمَثَلِ مَا كَانَ عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَحْكَامِ الطَّعَامِ الْبَاطِلَةِ مَعَ غَرِيزَةِ التَّغَذِّي ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُحَرِّمُونَ بَعْضَ الطَّيِّبَاتِ كَالْبَحَائِرِ وَالسَّوَائِبِ وَيُبِيحُونَ بَعْضَ الْخَبَائِثِ كَالْمَيْتَةِ وَالدَّمِ الْمَسْفُوحِ ، فَيَجْنُونَ عَلَى غَرِيزَةِ التَّغَذِّي بِأَكْلِ هَذَا وَالْحِرْمَانِ مِنْ ذَاكَ ، ثُمَّ يَأْكُلُونَ كُلَّ شَيْءٍ عِنْدَ الِاضْطِرَارِ كَذَلِكَ يَجْنُونَ عَلَى غَرِيزَةِ التَّوَجُّهِ إِلَى خَالِقِهِمْ وَخَالِقِ الْعَالَمِ كُلِّهِ بِمَا يَتَّخِذُونَ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَوْلِيَاءِ وَالشُّفَعَاءِ الَّذِينَ يَتَوَجَّهُونَ إِلَيْهِمْ كَمَا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى اللهِ

(147/232)

---

وَيُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ، ذَلِكَ الْحُبُّ الَّذِي مَنْشَؤُهُ التَّقْدِيسُ وَاعْتِقَادُ الْقُدْرَةِ عَلَى النَّفْعِ وَدَفْعِ الضُّرِّ مِنْ غَيْرِ طَرِيقِ الْأَسْبَابِ ، فَإِنَّهُمْ عِنْدَ الشِّدَّةِ يَنْسَوْنَهَا وَيَدْعُونَ اللهَ وَحْدَهُ .

وَلِهَذَا الِاعْتِقَادِ وَمَا يَسْتَلْزِمُهُ مِنَ الْحُبِّ وَالتَّعْظِيمِ ثَلَاثُ دَرَجَاتٍ : أَسْفَلُهَا وَأَعْرَقُهَا فِي الْجَهْلِ أَنْ يَعْتَقِدَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ أَنَّهُ هُوَ الْإِلَهُ الَّذِي يَنْفَعُ وَيَضُرُّ بِذَاتِهِ فَيَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ وَيَدْعُوهُ وَيَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ حَتَّى عِنْدَ اشْتِدَادِ الْبَأْسِ بَاكِيًا مُتَضَرِّعًا ؛ لِأَنَّ غَرِيزَةَ الْإِيمَانِ بِالسُّلْطَةِ

الْغَيْبِيَّةِ حُصِرَتْ عِنْدَهُ فِي هَذَا الْمَخْلُوقِ أَوْ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ كَمَا تَلْقَى عَنْ قَوْمِهِ ، وَهُوَ لَا يُفَكِّرُ فِي كَوْنِ ذَلِكَ مَعْقُولًا أَوْ غَيْرَ مَعْقُولٍ ، وَيَلِي هَذِهِ الدَّرَجَةَ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ الْإِلَهَ نَفْسَهُ قَدْ حَلَّ فِي بَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ وَاتَّحَدَ بِهَا كَمَا تَحِلُّ الرُّوحُ فِي الْبَدَنِ وَتُدَبِّرُهُ فَيَكُونَانِ بِذَلِكَ شَيْئًا وَاحِدًا ، وَالْفَصْلُ بَيْنَ هَذِهِ الدَّرَجَةِ وَمَا قَبْلَهَا هُوَ أَنَّ هَذِهِ مُفَرَّغَةٌ فِي قَالَبٍ مِنَ النَّظَرِيَّاتِ الْفَلْسَفِيَّةِ ،

مُزَيَّنَةٌ بِحُلِيٍّ وَحُلَلٍ مِنَ التَّخَيُّلَاتِ الشِّعْرِيَّةِ ، وَتِلْكَ سَاذَجَةٌ غُفْلٌ مِنَ الْفَلْسَفَةِ الْجَدَلِيَّةِ عُطْلٌ مِنَ الْمُزَيِّنَاتِ الْخَيَالِيَّةِ ، وَيَشْتَرِكَانِ فِي أَنَّ مُنْتَحِلِيهِمَا يَعْبُدُونَ ذَلِكَ الْمَخْلُوقَ الْمُدْرَكَ بِالْحَوَاسِّ وَيَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً حَتَّى عِنْدَ اشْتِدَادِ الْكَرْبِ وَالْبَأْسِ ،

(148/232)

---

وَوَرَاءَهُمَا الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ الَّتِي هِيَ أَرْقَى دَرَجَاتِ الشِّرْكِ إِذْ هِيَ أَرَقُّهَا وَأَضْعَفُهَا ، وَهِيَ أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، الْمُتَصَرِّفُ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنْ دُونِهِ شَيْئًا ، وَلَكِنْ لَهُ وُسَطَاءُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ يُقَرِّبُونَهُمْ إِلَيْهِ زُلْفَى وَيَشْفَعُونَ لَهُمْ عِنْدَهُ ، فَهُوَ لِأَجْلِهِمْ يُعْطِي وَيَمْنَعُ ، وَيَضُرُّ وَيَنْفَعُ ، وَيَغْفِرُ وَيَرْحَمُ ، وَيُوجِدُ وَيُعْدِمُ ، وَهَذِهِ هِيَ الدَّرَجَةُ الَّتِي ارْتَقَتْ إِلَيْهَا وَثَنِيَّةُ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ ، فَقَدْ حَكَى اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ

فِي كِتَابِهِ أَنَّهُمْ يُقِرُّونَ بِأَنَّهُ هُوَ الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ فِيمَا اتَّخَذُوهُ مِنْ دُونِهِ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى) (39 : 3) (هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ) (10 : 18) فَلَمَّا كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ لَهُمْ تَأْثِيرًا وَوَسَاطَةً فِي أَفْعَالِ اللهِ تَعَالَى - كَدَفْعِ الضُّرِّ وَجَلْبِ النَّفْعِ - يَدْعُونَهُمْ وَيُعَظِّمُونَهُمْ لِأَجْلِهَا ، كَانَ دُعَاؤُهُمْ وَتَعْظِيمُهُمْ إِيَّاهُمْ عِبَادَةً ، إِذْ لَا مَعْنًى لِلْعِبَادَةِ إِلَّا هَذَا ، وَلَمَّا كَانُوا عِنْدَهُمْ غَيْرَ مُسْتَقِلِّينَ بِذَلِكَ مِنْ دُونِ اللهِ ، وَكَانَ اللهُ تَعَالَى - بِزَعْمِهِمْ - غَيْرَ فَاعِلٍ ذَلِكَ بِمَحْضِ إِرَادَتِهِ الْأَزَلِيَّةِ مِنْ دُونِ شَفَاعَتِهِمْ وَوَسَاطَتِهِمْ - سُمُّوا شُرَكَاءَ لِلَّهِ .

*(149/232)*

---

وَأَمَّا التَّوْحِيدُ الْخَالِصُ فَهُوَ الْإِيمَانُ الْجَازِمُ بِأَنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ بِمَحْضِ إِرَادَتِهِ الْأَزَلِيَّةِ الْمُنَزَّهَةِ عَنْ تَأْثِيرِ الْحَوَادِثِ فِيهَا ، وَأَنَّ جَمِيعَ الْخَلْقِ مُسَخَّرُونَ بِإِرَادَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ ، خَاضِعُونَ لِسُنَنِهِ وَتَقْدِيرِهِ ، لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ مِنْهُمْ لِنَفْسِهِ وَلَا لِغَيْرِهِ شَيْئًا إِلَّا فِي دَائِرَةِ الْأَسْبَابِ الَّتِي جَعَلَهَا بَيْنَهُمْ شَرْعًا ، وَأَنَّ الْوَسَاطَةَ بَيْنَ اللهِ تَعَالَى وَعِبَادِهِ مَحْصُورَةٌ فِي تَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ إِلَيْهِمْ دُونَ تَصَرُّفِهِ فِيهِمْ ، وَأَنَّ شَفَاعَةَ الْآخِرَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ ، يَأْذَنُ لِمَنْ شَاءَ إِذَا شَاءَ بِمَا شَاءَ مِنَ الدُّعَاءِ لِمَنْ يَشَاءُ مِمَّنِ ارْتَضَى . وَمِنْ دَلَائِلِ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى لِخَاتَمِ رُسُلِهِ : (لَيْسَ لَكَ مِنَ

الْأَمْرِ شَيْءٌ) (3 : 128) (قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ) (3 : 154) (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) (7 : 188) (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) (28 : 56) (قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ) (72 : 21 - 23) (قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا) (39 : 44) (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ) (2 : 255) (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) (21 : 28) إِلَخْ . .

*(150/232)*

---

وَلَمَّا كَانَتْ تِلْكَ الْوَسَاطَةُ الشِّرْكِيَّةُ وَهْمِيَّةً لَا أَثَرَ لَهَا فِي الْوُجُودِ ، وَإِنَّمَا هِيَ تَقَالِيدُ مَوْرُوثَةٌ كَانَ أُولَئِكَ الْأَذْكِيَاءُ جَدِيرِينَ بِأَنْ يَنْسَوْهَا إِذَا جَدَّ الْجِدُّ وَعَظُمَ الْخَطْبُ كَالْحَالَتَيْنِ اللَّتَيْنِ ذَكَرَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَوْ مَا دُونَهُمَا كَالْحَالَةِ الَّتِي بَيَّنَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ : (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) (29 : 65)

*(151/232)*

وَقَوْلُهُ : (وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ) (31 : 32) وَمِثْلُهَا فِي "سُورَةِ يُونُسَ" الْآيَةَ 22 وَقَالَ تَعَالَى فِي "سُورَةِ الْإِسْرَاءِ" : (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا) (17 : 67) فَسَّرُوا الضَّلَالَ هُنَا بِالنِّسْيَانِ فَهُوَ بِمَعْنَى الْآيَةِ الَّتِي نُفَسِّرُهَا ، وَأَمَّا ضَلَالُ آلِهَتِهِمْ عَنْهُمْ فِي الْآخِرَةِ فَقَدْ ذُكِرَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ فِي سُوَرٍ مُتَفَرِّقَةٍ ، وَيُرَادُ بِبَعْضِهَا غَيْبَتُهَا عَنْهُمْ بِعَدَمِ وُجُودِهَا مَعَهُمْ هُنَالِكَ وَحِرْمَانِهِمْ مِمَّا كَانُوا يَرْجُونَ مِنْ شَفَاعَتِهَا ، لَا غَيْبَتُهَا عَنْ قُلُوبِهِمْ وَخَوَاطِرِهِمْ كَمَا هُوَ الْمُرَادُ هُنَا ، وَرُوِيَ عَنْ بَعْضِ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ الْمُرَادَ بِنِسْيَانِهِمْ إِيَّاهَا جَعْلَهَا بِمَنْزِلَةِ الْمَنْسِيِّ بِعَدَمِ دُعَائِهَا ، فَقَدْ ذَكَرَ الرَّازِيُّ فِي النِّسْيَانِ قَوْلَيْنِ ، قَالَ : (الْأَوَّلُ) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : الْمُرَادُ تَتْرُكُونَ الْأَصْنَامَ وَلَا تَدْعُونَهُمْ لِعِلْمِكُمْ أَنَّهَا لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ (الثَّانِي) قَالَ الزَّجَّاجُ : يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى أَنَّكُمْ فِي تَرْكِكُمْ دُعَاءَهُمْ بِمَنْزِلَةِ مَنْ قَدْ نَسِيَهُمْ ، وَهَذَا قَوْلُ الْحَسَنِ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ : يُعْرِضُونَ عَنْهُ إِعْرَاضَ النَّاسِي . اهـ . أَقُولُ : لَمْ يَنْقِلِ ابْنُ جَرِيرٍ وَلَا ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفَاسِيرِهِمَا وَلَا السُّيُوطِيُّ فِي الدُّرِّ

الْمَنْثُورِ شَيْئًا فِي الْآيَةِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَلَا الْحَسَنِ وَلَا غَيْرِهِمَا مِنْ مُفَسِّرِي الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ

.

وَقَدِ اسْتَشْكَلَ الْمُفَسِّرُونَ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ مِنْ جَوَازِ كَشْفِ عَذَابِ الِاسْتِئْصَالِ وَعَذَابِ السَّاعَةِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ بِدُعَائِهِمْ لِمُخَالَفَتِهِمْ لِمَا عُرِفَ مِنْ سَائِرِ النُّصُوصِ مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) (13 : 14) وَأُجِيبُ بِأَنَّ مَا مَضَتْ بِهِ سُنَّتُهُ تَعَالَى فِي الْأُمَمِ وَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ إِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ وُقُوعِ هَذَا الْكَشْفِ لَا عَلَى عَدَمِ جَوَازِهِ ، وَقَدْ عَلَّقَ كَشْفَ ذَلِكَ هُنَا بِمَشِيئَتِهِ تَعَالَى ، فَهُوَ يَقُولُ إِنَّهُ يَكْشِفُ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ ؛ لِأَنَّ مَشِيئَتَهُ نَافِذَةٌ حَتَّى فِي كَشْفِ عَذَابِ الِاسْتِئْصَالِ وَأَهْوَالِ السَّاعَةِ ، وَهُمَا النَّوْعَانِ اللَّذَانِ لَا تَتَعَلَّقُ قُدَرُ الْمَخْلُوقِينَ الْمَوْهُوبَةُ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِمَا ؛ لِأَنَّهُمَا فَوْقَ الْأَسْبَابِ الَّتِي سَخَّرَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِخَلْقِهِ ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى لَا يَشَاءُ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ يُنَافِي حِكْمَتَهُ

*(153/232)*

---

وَتَقْدِيرَهُ الَّذِي جَرَتْ بِهِ سُنَنُهُ فِي الْأُمَمِ ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُجَابَ أَيْضًا بِأَنَّ الْمُرَادَ بِإِتْيَانِ عَذَابِ اللَّهِ ظُهُورُ أَمَارَاتِهِ وَمُقَدِّمَاتِهِ ، وَبِالسَّاعَةِ الْقِيَامَةُ الصُّغْرَى أَيِ الْمَوْتُ بِظُهُورِ عَلَامَاتِهِ وَنُزُولِ

سَكَرَاتِهِ ، وَالْإِيمَانُ يُقْبَلُ قَبْلَ وُصُولِ عَذَابِ الِاسْتِئْصَالِ إِلَى مُسْتَحِقِّيهِ بِالْفِعْلِ وَقَبْلَ بُلُوغِ الرُّوحِ الْحُلْقُومَ مِنَ الْمُحْتَضِرِ ، وَقِيلَ : إِنَّ بَعْضَ كُرُوبِ السَّاعَةِ تُكْشَفُ حَتَّى عَنِ الْكُفَّارِ كَكَرْبِ طُولِ الْوُقُوفِ بِالشَّفَاعَةِ الْعُظْمَى ، وَلَكِنَّ هَذَا لَا يَصِحُّ جَوَابًا ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ بِدُعَائِهِمْ

.

وَمِنْ مَبَاحِثِ اخْتِلَافِ الْأَدَاءِ فِي الْقِرَاءَةِ أَنَّ نَافِعًا قَرَأَ أَرَأَيْتَ وَأَرَأَيْتُمْ - بِكَافٍ وَبِغَيْرِ كَافٍ فِي جَمِيعِ الْقُرْآنِ - بِتَسْهِيلِ الْهَمْزَةِ الثَّانِيَةِ بِأَنْ جَعَلَهَا بَيْنَ الْهَمْزَةِ وَالْأَلِفِ ، وَقَرَأَ الْكِسَائِيُّ بِحَذْفِهَا وَالْبَاقُونَ بِإِثْبَاتِهَا ، وَهِيَ لُغَاتٌ لِلْعَرَبِ مَعْرُوفَةٌ ، وَمِنْ شَوَاهِدِ حَذْفِ الْهَمْزَةِ (سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ) (2 : 211) أَصْلُهَا : اسْأَلْ . وَمِنْهَا فِي الشِّعْرِ

إِنْ لَمْ أُقَاتِلْ فَالْبِسُونِي بُرْقُعًا

أَصْلُهُ فَأْلْبِسُونِي .

*(154/232)*

---

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ) أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ أَرْسَلَ رُسُلًا قَبْلَهُ إِلَى أُمَمٍ قَبْلَ أُمَّتِهِ فَكَانُوا أَرْسَخَ مِنْ قَوْمِهِ فِي الشِّرْكِ وَأَشَدَّ مِنْهُمْ إِصْرَارًا عَلَى الظُّلْمِ ، فَإِنَّ قَوْمَهُ يَدْعُونَ اللَّهَ تَعَالَى

وَحْدَهُ عِنْدَ شِدَّةِ الضِّيقِ وَيَنْسَوْنَ مَا اتَّخَذُوهُ مِنْ دُونِهِ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَالْأَنْدَادِ ، وَأَمَّا تِلْكَ الْأُمَمُ فَلَمْ تَلِنِ الشَّدَائِدُ قُلُوبَهُمْ ، وَلَمْ تُصْلِحْ مَا أَفْسَدَ الشَّيْطَانُ مِنْ فِطْرَتِهِمْ .

(155/232)

---

الْأَخْذُ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ عِبَارَةٌ عَنْ إِنْزَالِهِمَا بِهِمْ ، وَأَخْذُ الشَّيْءِ يُطْلَقُ عَلَى حَوْزِهِ وَتَحْصِيلِهِ بِالتَّنَاوُلِ وَالْمِلْكِ أَوِ الِاسْتِيلَاءِ وَالْقَهْرِ ، وَقَدْ يُسْنَدُ هَذَا إِلَى الْأَسْبَابِ غَيْرِ الْفَاعِلَةِ الْمُرِيدَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ - فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ - فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ - فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ . الصَّاعِقَةُ . الرَّجْفَةُ) وَالْبَأْسَاءُ : اسْمٌ يُطْلَقُ عَلَى الْحَرْبِ وَالْمَشَقَّةِ . وَالْبَأْسُ : الشِّدَّةُ فِي الْحَرْبِ ، وَالْخَوْفُ فِي الشِّدَّةِ ، وَالْعَذَابُ الشَّدِيدُ ، وَالْقُوَّةُ ، وَالشَّجَاعَةُ ، وَالْبُؤْسُ ، وَالْخُضُوعُ ، وَالْفَقْرُ كَذَا فِي لِسَانِ الْعَرَبِ وَقَالَ الرَّاغِبُ : الْبُؤْسُ وَالْبَأْسُ . وَالْبَأْسَاءُ : الشِّدَّةُ وَالْمَكْرُوهُ ، إِلَّا أَنَّ الْبُؤْسَ فِي الْفَقْرِ وَالْحَرْبِ أَكْثَرُ ، وَالْبَأْسُ وَالْبَأْسَاءُ فِي النِّكَايَةِ ، وَأَوْرَدَ الشَّوَاهِدَ عَلَى ذَلِكَ ، وَالضَّرَّاءُ فَعْلَاءُ مِنَ الضُّرِّ - وَهُوَ ضِدُّ النَّفْعِ وَتُطْلَقُ عَلَى السَّنَةِ - أَيِ الْجَدْبِ - وَالْأَذَى وَسُوءِ الْحَالِ حِسِّيًّا كَانَ أَوْ مَعْنَوِيًّا كَالسَّرَّاءِ مِنَ السُّرُورِ ، وَهِيَ ضِدُّهَا الَّتِي

(156/232)

تُقَابِلُهَا كَالنَّعْمَاءِ ، وَأَمَّا الضُّرُّ فَيُقَابِلُهُ النَّفْعُ ، وَفَسَّرَ ابْنُ جَرِيرٍ الْبَأْسَاءَ بِشِدَّةِ الْفَقْرِ وَالضِّيقِ فِي الْمَعِيشَةِ ، وَالضَّرَّاءَ بِالْأَسْقَامِ وَالْعِلَلِ الْعَارِضَةِ فِي الْأَجْسَامِ ، وَنَقَلَ نَحْوَهُ الرَّازِيُّ عَنِ الْحَسَنِ ، وَأَخْرَجَ أَبُو الشَّيْخِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّ الْبَأْسَاءَ خَوْفُ السُّلْطَانِ وَغَلَاءُ السِّعْرِ ، وَالْأَقْوَالُ فِي الْكَلِمَتَيْنِ مُتَقَارِبَةٌ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا - كَمَا أَفْهَمُ - أَنَّ الْبَأْسَاءَ مَا يَقَعُ فِي الْخَارِجِ مِنَ الْأُمُورِ الشَّدِيدَةِ الْوَقْعِ عَلَى مَنْ يَمَسُّهُ تَأْثِيرُ الْحَرْبِ الْحَاضِرَةِ الْآنَ ، فَإِنَّ وَقْعَهَا أَلِيمٌ شَدِيدٌ عَلَى مَنْ أُصِيبُوا بِفَقْدِ أَوْلَادِهِمْ ، أَوْ تَخْرِيبِ بِلَادِهِمْ ، أَوْ ضِيقِ مَعَايِشِهِمْ ، وَأَمَّا الضَّرَّاءُ فَهِيَ كُلُّ مَا يُؤْلِمُ النَّفْسَ أَلَمًا شَدِيدًا سَوَاءٌ كَانَ سَبَبُهُ نَفْسِيًّا أَوْ بَدَنِيًّا أَوْ خَارِجِيًّا - فَعَلَى هَذَا تَكُونُ الْبَأْسَاءُ مِنْ أَسْبَابِ الضَّرَّاءِ ، وَقَالُوا : إِنَّهُمَا جَاءَتَا عَلَى وَزْنِ حَمْرَاءَ ، وَلَمْ يَرِدْ فِي مُذَكَّرِهِمَا وَزْنُ أَحْمَرَ صِفَةً ، بَلْ وَرَدَ اسْمُ تَفْضِيلٍ ، وَالتَّضَرُّعُ إِظْهَارُ الضَّرَاعَةِ بِتَكَلُّفٍ أَوْ تَكَثُّرٍ ، وَهِيَ الضَّعْفُ أَوِ الذُّلُّ وَالْخُضُوعُ .

*(157/232)*

---

وَمَعْنَى الْآيَةِ : نُقْسِمُ أَنَّا قَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَدَعَوْهُمْ إِلَى تَوْحِيدِنَا وَعِبَادَتِنَا فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ، فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ ابْتِلَاءٍ وَاخْتِبَارٍ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ مُعِدًّا

لَهُمْ لِلْإِيمَانِ لِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ - بِحَسَبِ طِبَاعِ الْبَشَرِ وَأَخْلَاقِهِمْ - مِنَ التَّضَرُّعِ وَالْجُؤَارِ بِالدُّعَاءِ لِرَبِّهِمْ ، إِذْ مَضَتْ سُنَّتُنَا بِجَعْلِ الشَّدَائِدِ مُرَبِّيَةً لِلنَّاسِ بِمَا تُرْجِعُ الْمَغْرُورِينَ عَنْ غُرُورِهِمْ ، وَتَكُفُّ الْفُجَّارَ

عَنْ فُجُورِهِمْ ، فَمَا أَجْدَرَهَا بِإِرْجَاعِ أَهْلِ الْأَوْهَامِ ، عَنْ دُعَاءِ أَمْثَالِهِمْ مِنَ الْبَشَرِ وَمَا دُونَهُمْ مِنَ الْأَصْنَامِ ، وَلَكِنْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَصِلُ إِلَى غَايَةٍ مِنَ الشِّرْكِ وَالْفِسْقِ لَا يُزِيلُهَا بَأْسٌ ، وَلَا يُزَلْزِلُهَا بُؤْسٌ ، فَلَا تَنْفَعُ مَعَهُمُ الْعِبَرُ وَلَا تُؤَثِّرُ فِيهِمُ الْغِيَرُ ، وَكَانَ أُولَئِكَ الْأَقْوَامُ مِنْهُمْ ، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ :

(158/232)

---

(فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا) جَعَلَ ابْنُ جَرِيرٍ " لَوْلَا " هُنَا لِلتَّحْضِيضِ بِمَعْنَى " هَلَّا " ، وَجَعَلَهَا الْجُمْهُورُ نَافِيَةً ، أَيْ فَهَلَّا تَضَرَّعُوا خَاشِعِينَ لَنَا تَائِبِينَ إِلَيْنَا عِنْدَمَا جَاءَهُمُ الْبَئِيسُ مِنْ عَذَابِنَا ، فَرَأَوْا بَوَادِرَهُ وَحَذِرُوا أَوَاخِرَهُ ، لِنَكْشِفَهُ عَنْهُمْ قَبْلَ أَنْ يُحِيطَ بِهِمْ ؟ أَوْ فَمَا خَشَعُوا وَلَا تَضَرَّعُوا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا (وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ) فَكَانَتْ أَقْسَى مِنَ الْحَجَرِ ، إِذْ لَمْ تُؤَثِّرْ فِيهَا النُّذُرُ (وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي بِمَا يُوَسْوِسُ إِلَيْهِمْ مِنْ تَحْسِينِ الثَّبَاتِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُهُمْ

وَأَجْدَادُهُمْ ، وَتَقْبِيحِ الطَّاعَةِ وَالِانْقِيَادِ إلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ لَا مَزِيَّةَ لَهُ عَلَيْهِمْ . وَقَدْ فَصَّلْنَا الْقَوْلَ مِنْ قَبْلُ فِي تَزْيِينِ أَعْمَالِ النَّاسِ إلَيْهِمْ وَمَا يُنْسَبُ مِنْهَا إلَى الشَّيْطَانِ لِقُبْحِهِ ، وَمَا يُنْسَبُ إلَى اللَّهِ تَعَالَى لِأَنَّهُ تَعْبِيرٌ عَنْ خَلْقِهِ وَتَقْدِيرِهِ وَسُنَنِهِ فِي عِبَادِهِ ، وَمَا يُحْسِنُ إسْنَادُهُ إلَى الْمَجْهُولِ ، فَيُرَاجِعُ فِي تَفْسِيرِ (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ 3 : 14) مِنْ جُزْءِ التَّفْسِيرِ الثَّالِثِ [رَاجِعْ ص 196 وَمَا بَعْدَهَا ج 3 ط الْهَيْئَةِ] .

*(159/232)*

---

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ) أَيْ : فَلَمَّا أَعْرَضُوا عَمَّا أُنْذِرَهُمْ وَوَعَظَهُمْ بِهِ الرُّسُلُ ، وَتَرَكُوا الِاهْتِدَاءَ بِهِ حَتَّى نَسَوْهُ أَوْ جَعَلُوهُ كَالْمَنْسِيِّ فِي عَدَمِ الِاعْتِبَارِ وَالِاتِّعَاظِ بِهِ - لِإِصْرَارِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ ، وَجُمُودِهِمْ عَلَى تَقْلِيدِ مَنْ قَبْلَهُمْ ، بَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ بِمَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ مِنْ أَبْوَابِ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ سَعَةِ الرِّزْقِ وَرَخَاءِ الْعَيْشِ وَصِحَّةِ الْأَجْسَامِ وَالْأَمْنِ عَلَى الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي قَوْمِ مُوسَى : (وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (7 : 168) فَلَمْ يَتَرَبَّوْا بِالنِّعَمِ ، وَلَا شَكَرُوا الْمُنْعِمَ ، بَلْ أَفَادَتْهُمُ النِّعَمُ فَرَحًا وَبَطَرًا كَمَا أَفَادَتْهُمُ الشَّدَائِدُ قَسْوَةً وَأَشَرًا (حَتَّى إذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا) مِنْهَا ، وَفَسَقُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ بَطَرًا وَغُرُورًا بِهَا (أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) أَيْ :

أَخَذْنَاهُمْ بِعَذَابِ الِاسْتِئْصَالِ حَالَ كَوْنِنَا مُبَاغِتِينَ لَهُمْ أَوْ حَالَ كَوْنِهِمْ مَبْغُوتِينَ إِذْ فَجَأَهُمْ عَلَى غِرَّةٍ مِنْ غَيْرِ سَبْقِ أَمَارَةٍ وَلَا إِمْهَالٍ لِلِاسْتِعْدَادِ أَوْ لِلْهَرَبِ فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ، أَيْ مُتَحَسِّرُونَ يَائِسُونَ مِنَ النَّجَاةِ أَوْ هَالِكُونَ مُنْقَطِعَةٌ حُجَجُهُمْ ، وَالْإِبْلَاسُ فِي اللُّغَةِ : الْيَأْسُ وَالْقُنُوطُ مِنَ الْخَيْرِ وَالرَّحْمَةِ ، وَالتَّحَيُّرُ : الدَّهْشَةُ ، وَانْقِطَاعُ الْحُجَّةِ ، وَالسُّكُوتُ مِنَ الْحُزْنِ أَوِ الْخَوْفِ وَالْغَمِّ ، وَاسْتَشْهَدُوا لَهُ بِقَوْلِ الْعَجَّاجِ :

(160/232)

---

يَا صَاحِ هَلْ تَعْرِفُ رَسْمًا مُكْرَسَا . . . قَالَ نَعَمْ أَعْرِفُهُ وَأَبْلَسَا

وَلِقَوْلِهِمْ : أَبْلَسَتِ النَّاقَةُ إِذَا لَمْ تَرْغُ مِنْ شِدَّةِ الضَّبَعَةِ ، وَهِيَ بِالتَّحْرِيكِ شِدَّةُ شَهْوَةِ الْفَحْلِ ، يُقَالُ : ضَبِعَتِ النَّاقَةُ ضَبَعًا وَضَبَعَةً (مِنْ بَابِ فَرِحَ) .

وَالْآيَةُ تُفِيدُ أَنَّ الْبَأْسَاءَ وَالضَّرَّاءَ ، وَمَا يُقَابِلُهُمَا مِنَ السَّرَّاءِ وَالنَّعْمَاءِ مِمَّا يَتَرَبَّى وَيَتَهَذَّبُ بِهِ الْمُوَفَّقُونَ مِنَ النَّاسِ ، وَإِلَّا كَانَتِ النِّعَمُ أَشَدَّ وَبَالًا عَلَيْهِمْ مِنَ النِّقَمِ وَهَذَا ثَابِتٌ بِالِاخْتِبَارِ ، فَلَا خِلَافَ فِي أَنَّ الشَّدَائِدَ مُصْلِحَةٌ لِلْفَسَادِ ، وَأَجْدَرُ النَّاسِ بِالِاسْتِفَادَةِ مِنَ الْحَوَادِثِ الْمُؤْمِنُ ، كَمَا ثَبَتَ فِي حَدِيثِ صُهَيْبٍ مَرْفُوعًا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ " عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا

لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ " وَقَدْ بَيَّنَّا وَجْهَ اسْتِفَادَةِ الْمُؤْمِنِ مِنَ الشَّدَائِدِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ الَّتِي نَزَلَتْ فِي شَأْنِ غَزْوَةِ أُحُدٍ مِنْ " سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ " ، وَهَاكَ بَعْضُ مَا رَوَوْهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْآثَارِ ، قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ :

(161/232)

---

" قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : مَنْ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَلَمْ يَرَ أَنَّهُ يَمْكُرُ بِهِ فَلَا رَأْيَ لَهُ ، وَمَنْ قُتِّرَ عَلَيْهِ فَلَمْ يَرَ أَنَّهُ يَنْظُرُ لَهُ فَلَا رَأْيَ لَهُ . ثُمَّ قَرَأَ : (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ) الْآيَةَ . قَالَ الْحَسَنُ : مُكِرَ بِالْقَوْمِ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ ، أُعْطُوا حَاجَتَهُمْ ثُمَّ أُخِذُوا . رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ . وَقَالَ قَتَادَةُ . بَغَتَ الْقَوْمَ أَمْرُ اللَّهِ ، مَا أَخَذَ اللَّهُ قَوْمًا قَطُّ إِلَّا عِنْدَ سَكْرَتِهِمْ وَغِرَّتِهِمْ وَنِعْمَتِهِمْ ، فَلَا تَغْتَرُّوا بِاللَّهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَغْتَرُّ بِاللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ . رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ أَيْضًا . وَقَالَ مَالِكٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ (فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ) قَالَ : رَخَاءَ الدُّنْيَا وَسَتْرَهَا .

(162/232)

---

وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ غَيْلَانَ ، حَدَّثَنَا رِشْدِينُ بْنُ سَعْدٍ أَبُو الْحَجَّاجِ الْمَهْرِيُّ ، عَنْ حَرْمَلَةَ بْنِ عِمْرَانَ التُّجِيبِيِّ عَنْ عُقْبَةَ ، عَنْ مُسْلِمٍ ، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : " إذَا رَأَيْت اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ " ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ) الْآيَةَ وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، مِنْ حَدِيثِ حَرْمَلَةَ وَابْنِ لَهِيعَةَ ، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ بِهِ . وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ : حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عَمَّارٍ ، حَدَّثَنَا عِرَاكُ بْنُ خَالِدِ بْنِ يَزِيدَ ، حَدَّثَنِي أَبِي ، عَنْ إبْرَاهِيمَ بْنِ أَبِي عَبْلَةَ ، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ يَقُولُ : " إذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ اقْتِطَاعًا فَتَحَ لَهُمْ أَوْ فَتَحَ عَلَيْهِمْ بَابَ خِيَانَةٍ (حَتَّى إذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) " كَمَا قَالَ : (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) وَرَوَاهُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ . اهـ .

وَسَيُعَادُ هَذَا الْبَحْثُ فِي تَفْسِيرِ " سُورَةِ الْأَعْرَافِ 7 : 94 " وَمَا يَلِيهَا مِنْ آيَاتٍ وَغَيْرِهَا مِمَّا فِي مَعْنَاهَا .

*(163/232)*

وَمِنْ مَبَاحِثِ اللَّفْظِ النَّحْوِيَّةِ أَنَّ " إِذَا " مِنْ قَوْلِهِ : (فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) هِيَ الَّتِي يُسَمُّونَهَا الْفُجَائِيَّةَ لِإِفَادَتِهَا تَرَتُّبُ مَا بَعْدَهَا عَلَى مَا قَبْلَهَا فَجْأَةً ، وَهِيَ حَرْفٌ عِنْدَ الْكُوفِيِّينَ ، وَظَرْفُ زَمَانٍ

أَوْ مَكَانٍ عِنْدَ الْبَصْرِيِّينَ (قَوْلَانِ) مَنْصُوبَةٌ بِخَبَرِ الْمُبْتَدَأِ ، فَالْمَعْنَى عَلَيْهِ هُنَا أَنَّهُمْ أُبْلِسُوا فِي مَكَانِ إِقَامَتِهِمْ أَوْ فِي زَمَانِهَا ، عَلَى أَنَّ الْفَاءَ وَحْدَهَا تُفِيدُ التَّعْقِيبَ ، وَهُوَ تَرَتُّبُ مَا بَعْدَهَا عَلَى مَا قَبْلَهَا مِنْ غَيْرِ فَاصِلٍ ، وَلَكِنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ " فَهُمْ مُبْلِسُونَ " وَبَيْنَ " فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ " عَظِيمٌ ، لَا يَخْفَى عَلَى ذِي ذَوْقٍ سَلِيمٍ . فَذَاكَ خَبَرٌ مُجَرَّدٌ ، وَهَذَا تَمْثِيلٌ لِمَعْنًى مُؤَكَّدٍ مُجَدَّدٍ .

(فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا) أَيْ فَهَلَكَ أُولَئِكَ الْقَوْمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِتَكْذِيبِ الرُّسُلِ وَالْإِصْرَارِ عَلَى الشِّرْكِ وَأَعْمَالِهِ ، وَاسْتُؤْصِلُوا فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ . كَنَّى عَنْ ذَلِكَ بِقَطْعِ دَابِرِهِمْ ، وَهُوَ آخِرُ الْقَوْمِ الَّذِي يَكُونُ فِي أَدْبَارِهِمْ ، وَقِيلَ : دَابِرُهُمْ أَصْلُهُمْ ، وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنِ السُّدِّيِّ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ ، وَالْأَصْمَعِيِّ مِنْ نَقَلَةِ اللُّغَةِ ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ ، وَالْمَعْنَى عَلَى الْقَوْلَيْنِ وَاحِدٌ ، وَوَضَعَ الْمُظْهَرَ الْمَوْصُوفَ بِالْمَوْصُولِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ ؛ لِلْإِشْعَارِ بِعِلَّةِ الْإِهْلَاكِ وَسَبَبِهِ وَهُوَ الظُّلْمُ ، وَلَا بُدَّ مِنْ زُهُوقِ الْبَاطِلِ فَظُهُورِ الْحَقِّ .

(وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) أَيْ : وَالثَّنَاءُ الْحَسَنُ فِي ذَلِكَ الَّذِي جَرَى مِنْ نَصْرِ اللَّهِ تَعَالَى لِرُسُلِهِ بِإِظْهَارِ حُجَجِهِمْ ، وَتَصْدِيقِ نُذُرِهِمْ ، وَإِهْلَاكِ الْمُشْرِكِينَ الظَّالِمِينَ ، وَإِرَاحَةِ الْأَرْضِ مِنْ شِرْكِهِمْ وَظُلْمِهِمْ - ثَابِتٌ وَمُسْتَحَقٌّ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الْمُدَبِّرِ لِأُمُورِهِمْ ، الْمُقِيمِ لِأَمْرِ اجْتِمَاعِهِمْ بِحِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ ، وَسُنَنِهِ الْعَادِلَةِ . فَهَذِهِ الْجُمْلَةُ بَيَانٌ لِلْحَقِّ الْوَاقِعِ مِنْ كَوْنِ الْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ عَلَى ذَلِكَ مُسْتَحَقًّا لِلَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ ، وَإِرْشَادٌ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، يُذَكِّرُهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَمْدِهِ عَلَى نَصْرِ الْمُرْسَلِينَ الْمُصْلِحِينَ ، وَقَطْعِ دَابِرِ الظَّالِمِينَ الْمُفْسِدِينَ ، وَحَمْدِهِ فِي عَاقِبَةِ كُلِّ أَمْرٍ ، وَخَاتِمَةِ كُلِّ عَمَلٍ كَمَا قَالَ فِي عِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ : (وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (10 : 10) وَسَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ الْأَمْرُ الَّذِي تَمَّ مِنَ السَّرَّاءِ أَوِ الضَّرَّاءِ فَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا عِبْرَةً وَفَائِدَةً ، وَنِعْمَةً ظَاهِرَةً أَوْ بَاطِنَةً .

*(165/232)*

---

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) .

إنَّ الْقَوْلَ فِي مُنَاسَبَةِ هَذِهِ الْآيَاتِ لِمَا قَبْلَهَا كَالْقَوْلِ فِيمَا قَبْلَهَا سَوَاءٌ ، فَهِيَ ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ الدَّعْوَةِ إلَى التَّوْحِيدِ وَالرِّسَالَةِ بِوَجْهٍ آخَرَ مِنْ وُجُوهِ الِاحْتِجَاجِ ، ، قَالَ تَعَالَى :

*(166/232)*

---

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ)

أَيْ قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ بِك وَبِمَا جِئْتَ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْهُدَى : أَرَأَيْتُمْ مَاذَا يَكُونُ مِنْ شَأْنِكُمْ مِنْ آلِهَتِكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَهُمْ رَاجِينَ شَفَاعَتَهُمْ إنْ أَصَمَّكُمُ اللَّهُ تَعَالَى فَذَهَبَ بِسَمْعِكُمْ ، وَأَعْمَالِكُمْ فَذَهَبَ بِأَبْصَارِكُمْ ، وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَأَلْبَابِكُمُ الَّتِي هِيَ مَرَاكِزُ الْفَهْمِ وَالشُّعُورِ وَالْعَقْلِ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، فَأَصْبَحْتُمْ لَا تَسْمَعُونَ قَوْلًا وَلَا تُبْصِرُونَ طَرِيقًا ، وَلَا تَعْقِلُونَ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ، ، وَلَا تُدْرِكُونَ حَقًّا وَلَا بَاطِلًا – مَنْ إلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِذَلِكَ ، أَوْ بِمَا ذُكِرَ مِمَّا أَخَذَ اللَّهُ مِنْكُمْ ؟ أَيْ : لَا إلَهَ غَيْرُهُ يَقْدِرُ عَلَى إتْيَانِكُمْ بِهِ . وَلَوْ كَانَ مَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَوْلِيَاءِ آلِهَةً لَقَدَرُوا عَلَى ذَلِكَ ، وَإِذَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ ، فَلِمَاذَا تَدْعُونَهُمْ وَالدُّعَاءُ عِبَادَةٌ لَا يَكُونُ إلَّا لِلْإِلَهِ الْقَدِيرِ ؟ (انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ) أَيْ : انْظُرْ كَيْفَ نُنَوِّعُ الْحُجَجَ وَالْبَيِّنَاتِ الْكَثِيرَةِ وَنَجْعَلُهَا عَلَى وُجُوهٍ شَتَّى

لِيَتَذَكَّرُوا وَيَقْتَنِعُوا ، فَيُنِيبُوا وَيَرْجِعُوا ، ثُمَّ هُمْ يُعْرِضُونَ عَنْهَا ، وَيَتَجَنَّبُونَ التَّأَمُّلَ فِيهَا ، يُقَالُ : صَدَفَ عَنِ الشَّيْءِ صَدْفًا وَصُدُوفًا إِذَا أَعْرَضَ إِعْرَاضًا شَدِيدًا ، وَقِيلَ : إِنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنْ صَدَفَةِ الْجَبَلِ

(167/232)

---

أَيْ جَانِبِهِ وَمُنْقَطَعِهِ . وَالْعَطْفُ بِـ " ثُمَّ " يُفِيدُ الِاسْتِبْعَادَ ; لِأَنَّ تَصْرِيفَ الْآيَاتِ وَالدَّلَائِلِ سَبَبُ غَايَةِ الْإِقْبَالِ ، فَكَانَ مِنَ الْمُسْتَبْعَدِ فِي الْمُعْتَادِ وَالْمَعْقُولِ أَنْ يَتَرَتَّبَ عَلَيْهِ مُنْتَهَى الْإِعْرَاضِ ، وَقَدْ سَبَقَ مِثْلُ هَذَا فِي أَوَّلِ السُّورَةِ ، وَيَلِيهِ فِي أَوَائِلِهَا الْكَلَامُ فِي إِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْآيَاتِ ، وَقَدْ فَصَّلْنَا الْقَوْلَ فِي تَفْسِيرِهِ تَفْصِيلًا .

(168/232)

---

(قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ) أَيْ : قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الظَّالِمِينَ : أَرَأَيْتَكُمْ أَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ كَيْفَ يَكُونُ شَأْنُكُمْ - أَوْ أَخْبِرُونِي عَنْ مَصِيرِكُمْ - إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ الَّذِي مَضَتْ سُنَّتُهُ فِي الْأَوَّلِينَ ، بِإِنْزَالِهِ بِأَمْثَالِكُمْ مِنَ

الْمُكَذِّبِينَ الْمُعَانِدِينَ ، مُبَاغِتًا وَمُفَاجِئًا لَكُمْ - أَوْ إِتْيَانَ مُبَاغَتَةٍ - فَأَخَذَكُمْ عَلَى غِرَّةٍ لَمْ تَتَقَدَّمْهُ أَمَارَةٌ تُشْعِرُكُمْ بِقُرْبِ نُزُولِهِ بِكُمْ ، أَوْ أَتَاكُمْ ظَاهِرًا مُجَاهِرًا - أَوْ إِتْيَانَ جَهْرَةٍ - بِحَيْثُ تَرَوْنَ مَبَادِيهِ وَمُقَدِّمَاتِهِ بِأَبْصَارِكُمْ ، هَلْ يُهْلَكُ بِهِ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ مِنْكُمْ وَهُمُ الْمُصِرُّونَ عَلَى الشِّرْكِ وَأَعْمَالِهِ عِنَادًا وَجُحُودًا ، إِذْ مَضَتْ سُنَّتُهُ تَعَالَى فِي مِثْلِ هَذَا الْعَذَابِ أَنْ يُنْجِيَ مِنْهُ الرُّسُلَ وَمَنِ اتَّبَعَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَكَأَنَّهُ قَالَ : لَا يَهْلِكُ بِهِ غَيْرُكُمْ ، وَإِنَّمَا تَهْلِكُونَ بِظُلْمِكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَجِنَايَتِكُمْ عَلَيْهَا . وَقَدْ ظَنَّ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ هَذَا مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي يَكُونُ عَامًّا ، يُؤْخَذُ فِيهِ غَيْرُ الظَّالِمِ بِجَرِيرَةِ الظَّالِمِ ، كَالْمَصَائِبِ الَّتِي تَحِلُّ بِالْأُمَمِ مِنْ جَرَّاءِ ظُلْمِهِمْ وَفُجُورِهِمُ الَّذِي يُفْضِي إِلَى ضَعْفِهِمْ وَالِاعْتِدَاءِ عَلَى اسْتِقْلَالِهِمْ ، أَوْ إِلَى تَفَشِّي الْأَمْرَاضِ أَوِ الْمَجَاعَاتِ فِيهِمْ ، فَتَكَلَّفُوا فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ تَكَلُّفًا يُصَحِّحُونَ بِهِ ظَنَّهُمْ ، فَزَعَمُوا أَنَّ هَلَاكَ غَيْرِ

*(169/232)*

---

الظَّالِمِ بِهَذَا الْعَذَابِ لَا يُنَافِي الْحَصْرَ ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ عَذَابًا فِي الظَّاهِرِ فَقَطْ .

وَأَمَّا فِي الْبَاطِنِ وَالْحَقِيقَةِ فَهُوَ سَعَادَةٌ لِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الثَّوَابِ وَالدَّرَجَاتِ الرَّفِيعَةِ ، وَمِنْ أَشْهَرِ هَؤُلَاءِ الظَّانِّينَ فِي الْآيَةِ غَيْرَ الْحَقِّ : الرَّازِيُّ وَالطَّبَرَسِيُّ . وَيَدُلُّ عَلَى مَا اخْتَرْنَاهُ مَا ذُكِرَ

مِنَ الْجَزَاءِ عَلَى تَكْذِيبِ الرُّسُلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :

(وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 7 صـ 350.340 ﴾

*(170/232)*

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (47) ﴾

ونلحظ أن " تاء الضمير " في هذه الآية قد فتحت ، بينما الآية السابقة لها جاءت فيها " تاء الضمير " مضمومة ، حيث يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انظر كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ [ الأنعام : 46 ] .

ونلحظ أيضاً أن الآية التي نحن بصددها الآن تأتي فيها كاف الخطاب : " أرأيتكم " بينما الآية السابقة لها لا تحمل كاف الخطاب " أرأيتم " ونعرف أن كل لفظة من هذه الألفاظ قد جاءت لتؤدي معنىً لا يؤدي بغيرها ، وإن تشابهت الأساليب ، فقوله ( أرأيتكم ) يشمل

ويضم ضمير المخاطب وهو التاء المفتوحة ويشمل أيضا كاف الخطاب والجمع بين علامتي الخطاب ( التاء ) و( الكاف ) يدل على أن ذلك تنبيه على شيء ما عليه من مزيد . إنه تنبيه إلى أن هلاكهم سيكون هلاك استئصال وإبادة ، ومرة يقول الحق : " أرأيتم " أي أخبروني أنتم وأعلموني إعلاماً يؤكد لي صدق القضية ، ويأتي الاستفهام هنا من مادة " أرى " و" رأى " .

إن السبب في ذلك أنك حين تستفهم عن شيء إما أن يكون المستفهم منه قد حضر حدوث الشيء ، وإما أن يكون المستفهم منه لم يحضر حدوث الشيء . فإن كان قد حضر حدوث الشيء فإنك تقول له : أرأيت ما حدث لفلان وفلان ؟ فيقول لك : نعم رأيت كذا وكذا . وإن كان المستفهَم منه لم يعلم بالأمر ولم يره فهو يجيب بالنفي ، وهذا ما يحدث بين البشر ، لكن حين يكون الاستفهام من الله ، ويكون الحادث المستفهَم عنه قد حدث من قبل وجود المستفهم منه ، فالإيمان يقتضي أن يجيب المستفهم منه عن هذا الحادث ب " نعم " .

*(171/232)*

ومثال ذلك قول الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل ﴾ [ الفيل : 1 ] .

وهذا خطاب من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم عنا حدث لأصحاب الفيل في عام ولادته صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن الحدث موضع رؤية لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ولقائل أن يقول : كيف يخاطب الله ورسوله باستفهام عن حادث لم يره ؟ ونقول : إن الحق بهذا الاستفهام يوضح لرسوله : اسمع مني ، وسماعك مني فوق رؤية عينيك للحدث ، فإذا ما قلت لك : " ألم تر " فمعناها : اعلم علماً يقينياً ، وهذا العلم اليقيني يجب أن تثق في صدقه كأنك رأيته رؤية العين وفوق ذلك أيضاً فإن عينك قد تخدعك أو تكذب عليك ، ولكن حين يخبرك ربك لا يخدعك ولا يكذب عليك أبداً .

إذن فالحق يريد أن يخرج هذه الأساليب مخرج اليقين .

وأضرب هذا المثل – ولله المثل الأعلى – فحين يحاول إنسان قد أحسنت إليه كثيراً أن يجحد إحسانك ، فأنت لا تقول له : أنا أحسنت إليك ، ولكنك تقول له : أرأيت ما فعلته معك يوم كذا ، ويوم كذا ؟ وهنا يبدو كلامك كاستفهام منك ، لأنك واثق أنه حين يدير رأسه في الجواب فلم يجد إلا ما يؤيد منطقك من وقوفك إلى جانبه ، وإحسانك إليه ، ولن يجد إلا أن يقول لك : نعم رأيت أنك وقفت بجانبي في كل المواقف التي تذكرها . وفي مثل هذا القول إلزام لا من موقع المتكلم ، ولكن من واقع المخاطب .

وبعد أن تكلم الحق عن تعنت الكافرين أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعدم اكتفائهم بالآيات التي أنزلها الله مؤيدة لصدق رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم تماديهم في اقتراح آيات من عندهم ، وقد اقترحوها في شيء من الصفاقة والسماجة ، فقالوا : ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ [ الإسراء : 90- 93 ] .

وكلها أسئلة مليئة بالتعنت ، والحق سبحانه وتعالى هو الذي اختار القرآن معجزة ومنهجاً لرسوله صلى الله عليه وسلم . ويعلم سبحانه صدق رسوله في البلاغ عنه ، لكل ذلك يبين الحق لرسوله أن يبلغ هؤلاء الكافرين أنه سبحانه وتعالى لن يعود عليه أي نفع أو ضر نتيجة إيمانهم به سبحانه ، لكن النفع بالإيمان يكون للعباد ويعود خيره إليهم ؛ لأنه سبحانه وتعالى له صفات الكمال كلها قبل أن يخلق الخلق . إنها له أزلا وأبداً .

فبصفات الكمال – علماً وقدرة ؛ وحكمة ؛ وإرادة – خلق الخلق جميعا . فإياكم أيها الناس أن تفهموا أن إيمانكم بالله يزيده صفة من صفات الجلال أو الجمال ، وإنما الإيمان عائد إليكم أنتم ، فإذا كان منكم متكبرون ومتعنتون ، فالحق سبحانه لا يترك من تكبر وتعنت ليقف أمام منهجه الذي يحكم حركة الحياة في الأرض ، ولكنه سبحانه يأخذ أهل التكبر والتعنت أخذ عزيز مقتدر . واستقرئوا أيها الناس ما حدث لمن كذبوا رسل الله ، وماذا صنع الله بهم ؟ إنه بقدرته سبحانه وتعالى يستطيع أن يصنع معكم ما صنعه معهم . وإذا ما استقرأتم قصص الرسل مع المكذبين لله وجدتم العذاب قد جاء للقوم بغتة ، فها هوذا الحق يقول عن قوم عاد : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فاستكبروا فِي الأرض بِغَيْرِ الحق وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ الله الذي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الخزي فِي الحياة الدنيا وَلَعَذَابُ الآخرة أخزى وَهُمْ لاَ يُنصَرُونَ ﴾

[ فصلت : 15-16 ] .

لقد تكبر قوم عاد على سيدنا هود عليه السلام والذين آمنوا معه ، وظنوا أنهم أقوى

الأقوياء ، وغفلوا عن قدرة الخالق الأعلى وهو القوي الأعظم وأنكروا آيات الله ، فماذا كان مصيرهم ؟ فاجأهم الحق بإرسال ريح ذات صوت شديد في أيام كلها شؤم ليذيقهم عذاب الهوان والخزي والذل في هذه الدنيا ، ويقسم الحق بأن عذاب الآخرة أشد خزياً ؛ لأنهم في هذا اليوم لا يجدون ناصراً لهم لأنهم كفروا بالذي ينصف وينصر وهو الحق جلت قدرته .

*(174/232)*

---

وماذا عن قوم ثمود ؟ لقد بين لهم الحق طريق الهداية . لكنهم اختاروا الضلال واستحبوا لأنفسهم الكفر على الإيمان ، وكذبوا نبي الله صالحاً عليه السلام وعقروا الناقة ، فنزلت عليهم الصاعقة لتحرقهم بمهانة بسبب ما فعلوا من تكذيب لرسولهم . ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فاستحبوا العمى عَلَى الهدى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ العذاب الهون بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [ فصلت : 17 ] .

وماذا فعل الحق بأصحاب الفيل ؟ لقد جاء قوم أبرهة لهدم الكعبة ، فاستقبلتهم الطير الأبابيل . . أي التي جاءت في جماعات كثيرة متتابعة بعضها في إثر بعض بحجارة من طين متحجر محرق قد كتب وسجل عليهم أن يعذبوا به : ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ *

وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [ الفيل : 2-5 ] .

*(175/232)*

---

وكل حدث من تلك الأحداث أجراه الله بغتة . ومعنى البغتة أن يفاجئ الخطبُ القومَ بدون مقدمات علم به . وهناك أيضاً من الأحداث الجسام أنزلها الله بالكافرين جهرة ، فها هم أولاء قوم فرعون يغرقهم الله علناً . وكذلك قارون أهلكه الله جهرة : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ موسى فبغى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الكنوز مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بالعصبة أُوْلِي القوة إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الفرحين * وابتغ فِيمَا آتَاكَ الله الدار الآخرة وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدنيا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ الله إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الفساد فِي الأرض إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ المفسدين * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عندي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الله قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ القرون مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المجرمون * فَخَرَجَ على قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الذين يُرِيدُونَ الحياة الدنيا ياليت لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الذين أُوتُواْ العلم وَيْلَكُمْ ثَوَابُ الله خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصابرون * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ الله وَمَا كَانَ مِنَ

المنتصرين ﴾ [القصص: 76-81] .

لقد أخذ قارون نعمة الله ونسبها إلى نفسه ، وصار مفتوناً بما امتلك ، وغرق في الغرور ، فماذا فعل الله به ؟ خسف الله به جهرة وأمام أعين الذين تمنوا مكانه .

*(176/232)*

---

إذن فمن الممكن ان يأتي عذاب الله بغتة للكافرين به أو يأتيهم بالعذاب جهرة . وما السبب في التلوين بين " بغتة " و" جهرة " ؟ البغتة تثبت لمن يعبد غير الله أنه مخدوع في عبادته لغير الله ، لأنه لو كان يعبد إلهاً حقاً لما قبل هذه الإله أن يعذب أتباعه من حيث لا يشعر . إذن فالبغتة تثبت عجز المعبودين من أصنام وغيرها ، فقد عجزت تلك الأصنام أن تحتاط للعابدين لها . وقد يقول قائل منهم : لقد جاءنا العذاب فجأة ، لكن لو جاء لنا مواجهة لكنا قادرين على مواجهته والوقوف أمامه .

فيأتي الله أيضاً بالعذاب جهرة فلا يستطيعون مواجهته فتنقطع حجتهم ، وعلى الرغم من ذلك تموت في قلوب هؤلاء المعاندين القدرة على إبصار ضرورة الإيمان . ويعامل سبحانه خصوم رسولنا – صلى الله عليه وسلم – مثل هذه المعاملة ، فعندما عانده القوم جاءهم الله سبحانه بأمور معجزة لعلهم يتفكرون .

فها هم أولاء قد اتفقوا على قتلة قبل الهجرة ، ويقفون على باب بيته ، ويخرجه الحق من بينهم وهم لا يبصرون ، ولا يفلحون في التآمر على رسول الله ، ولا ينجح لهم تبييت ضد رسول الله ، ويكون مكر الله فوق كل مكر يريد به أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم إيذاءه به . وهم قد ذهبوا إلى الجن ليسحروا له ، لكن لا هذا السحر قد نفع ، ولا ذاك التبييت أتى بنتيجة . وكانت تكرمة الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فوق كل شيء ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ القوم الظالمون ﴾ [ الأنعام : 47 ] .

ويكون تذييل الآية – أيضاً – على هيئة استفهام ، والاستفهام هنا – كما علمنا من قبل – إنما جاء ليؤكد المعنى ، وليكون الإقرار من أفواه من يتلقون هذا الاستفهام وعن يقين منهم ، وليكون الاعتراف منهم إجابة بالإقرار ، والإقرار – كما نعلم – هو سيد الأدلة .

*(177/232)*

---

وهب أن صاعقة نزلت أو خسفاً حدث فيه عذاب ، فكيف ينجي الله المؤمنين به من هذا العذاب أو ذلك الخسف ؟

إن الهلاك فقط يكون للقوم الظالمين ؛ لأن الهلاك هو إعدام الحياة للحي المتمتع بالحياة ،

والذي لا يؤمن إلا بهذه الدنيا إذا جاءته مصيبة لتهلكه فهو يشعر بمرارة الخسران ؛ لأنه لا يعتقد ولا يؤمن بالحياة الأخرى ، لكن المؤمن الذي يتيقن أن له إلهاً وأنه سيعود إليه ليحاسبه ويجزيه عن إيمانه خير الجزاء إن حدثت له محنة في طي محنة كبرى للكافرين فهو يذهب إلى الجنة ويكون ذلك منحة له لا محنة عليه لتستمر حياته إلى خلود .

وهكذا نجد أن الهلاك إنما يحدث للقوم الظالمين فقط لأنه يُفْقِدهم كل ما كانوا يتمتعون به في دنياهم وليس لهم في الآخرة إلا البوار والخسران والعذاب الدائم ، أما غير الظالمين فالحق سبحانه وتعالى ينقلهم إلى حياة خالدة هي خير من هذه الحياة ، إذن فالمؤمنون إنما يتلقون فيوضات الله عليهم في النعماء وفي البلاء أيضاً .

ويتكلم الحق سبحانه وتعالى في الآية التالية عن التصور الإيماني الذي يجب أن يرسخ في أذهان المؤمنين برسول مبلغ عن الله ، وعندما يسمع العقل الطبيعي الفطري البلاغ عن الرسول فهو يصدقه فوراً ؛ لأن الفطرة عندما ترى فساد الكون ، وترى أن هناك من جاء بمنهج لإصلاح الكون لا بد أن تتجه إلى الإيمان بالمبلغ عن الله وهو الرسول . وعندما ترى الفطرة أن الكون كله قد تم إعداده لخدمة الإنسان ، لا بد لها أن تتساءل عن الخالق لهذا الكون وعن المنهج الذي يجب أن تسير عليه لصيانة هذه النعمة ، نعمة الوجود في الكون .

ويقتضي الإحساس السليم من الإنسان أن يتعرف إلى حقيقة واضحة ، وهي أن الإنسان قد طرأ على الكون ، وأن هذا الكون مليء وغني بالخيرات ، ولم يدع أحد أبداً أنه خلق السموات أو الأرض أو الماء أو الهواء . ولا بد أن يدور في خلد صاحب الفطرة السليمة تساؤل عن هذا الخالق الأكرم الذي وهب للإنسان حق الاستخلاف في كل هذا الكون .

فإذا ما جاء رسول ليقطع هذا القلق وذلك الصمت ويقول : أنا جئتكم لأخبركم بمن خلقكم ، وبمن خلق السموات ، وبمن خلق الأرض ، وبمن رزقكم هذا الرزق .

هنا تنصت الفطرة إلى سماع الخبر الذي كانت تستشرف له . وإذا ما جاء هدا الرسول مؤيداً بآية من الله ومعجزة لا يقدر عليها البشر ، فالعقل البشري يعترف اعتراف الإقرار على الفور ؛ لأنه وجد حاجته عند ذلك الرسول .

ولكن على الذين يؤمنون بما جاء به الرسول ، وعلى الرسول نفسه ، وحتى على الكافرين به ، عليهم جميعاً ألا يتعدوا الحدود ، وألا يضعوا أي رسول في مكان أعلى من منزلته ، لأنه رسول من الله ، إنه واحد من البشر تفضل الله عليه بالوحي واصطفاه للمهمة التي جاء بها . ولا بد للجميع أن يفهم أن الرسول مبلغ عن الله فقط ، وأنه لا يستطيع أن يأتي بالآيات التي يقترحها بعض من القوم ؛ لأن الرسول لا يقترح الآيات ولا يصنعها ، الرسول مقصور على أداء

الأمانة الموكلة إليه وهي أمانة البلاغ عن الله . ولذلك يقول لنا الحق : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ المرسلين إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(179/232)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " هل يهلك " هذا اسْتِفْهَامٌ بمعنى النَّفْيِ ؛ ولذلك دخلت " إلاَّ " وهو استثناء مُفَرَّغٌ ، والتقديرُ : ما يُهْلَكُ إلاَّ القَوْمُ الظالمون ، وهذه الجملة الاستفهامية في موضع المفعول الثاني لـ " أرأيتكم " والأوَّلُ مَحْذُوفٌ ، وهو من التَّنَازع على رأي أبي حيَّان كما تقدَّم تَقْرِيرُهُ .

وقال أبو البقاء : الاسْتِفْهَامُ هنا بمعنى التَّقْرير ، فلذلك نَابَ عن جواب الشَّرْط ، أي : إن أتاكم هلكتم ، والظَّاهِرُ ما تقدَّم ، ويجيء هنا قول الحُوفِيّ المتقدَّم في الآية قبلها من كون الشرط حالاً .

وقرأ ابن محيصن : " هل يَهْلَكُ " مَبْنيًا للفاعل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 155 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (47) ﴾

يقول إنْ عجَّلَ موعودَه لكم من العقاب أفترون أن غيرَ المستوجِب يُبْتَلى ؟ أو أن المستحِقَّ له يجد من دونه مهرباً ومَنْجَى ؟ إنَّ هذا محالٌ من الظن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 473 ﴾

*(180/232)*

---

قوله تعالى ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (48) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان ذلك كله في مناضلة من كذب الرسل ، وأعرض عما أرسلهم به ربهم من الآيات التي ما منها إلا ما آمن على مثله البشر ، وطلبه منهم ما لا يقدر عليه إلا مرسلهم من الإتيان بغير ما أتوا به من الآيات ؛ بين لهم حقيقة الرسالة إشارة إلى ظلمهم في طلبهم من الرسل ما لا يطلب إلا من الإله ، فقال عاطفاً على ﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ﴾ [ الأنعام : 42

] ﴿ وما نرسل ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ المرسلين ﴾ أي نوجد هذا الأمر في هذا الزمان وكل زمان من الماضي وغيره ﴿ إلا مبشرين ﴾ لمن أطاع ﴿ ومنذرين ﴾ لمن عصى ، عريقين في كل من الوصفين ، لا مجيبين إلى ما يقترح الأمم ، ولا معذبين لمن يعاندهم ؛ ثم سبب عن ذلك غاية الرسالة من النفع والضر فقال : ﴿ فمن آمن وأصلح ﴾ أي تصديقاً لإيمانه ﴿ فلا خوف عليهم ﴾ أي في الدنيا ولا في الآخرة ، أما في الآخرة فواضح ، وأما في الدنيا الفانية فلأن خوفهم فيها يزيد أمنهم في الآخرة الباقية ، فهو إلى فناء ثم إلى سرور دائم ، فهو عدم ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ أي حزناً يضر بحياتهم الأبدية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 639 ﴾

*(181/232)*

---

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى حكى عن الكفار فيما تقدم أنهم قالوا ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [ الأنعام : 37 ] وذكر الله تعالى في جوابهم ما تقدم من الوجوه الكثيرة ثم ذكر هذه الآية والمقصود منها أن الأنبياء والرسل بعثوا مبشرين ومنذرين ولا قدرة لهم على إظهار الآيات

وإنزال المعجزات ، بل ذاك مفوض إلى مشيئة الله تعالى وكلمته وحكمته فقال : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ المرسلين إِلاَّ مُبَشّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ مبشرين بالثواب على الطاعات ، ومنذرين بالعقاب على المعاصي ، فمن قبل قولهم وأتى بالإيمان الذي هو عمل القلب والإصلاح الذي هو عمل الجسد ﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 189 ﴾

*(182/232)*

---

وقال السمرقندى :

﴿ وَمَا نُرْسِلُ المرسلين إِلاَّ مُبَشّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾

يعني : ليس لهم أن يقترحوا من أنفسهم ، وإنما أرسلهم بتبليغ الرسالة مبشرين بالجنة لمن أطاعه ، ومنذرين بالنار لمن عصاه .

﴿ فَمَنْ ءامَنَ ﴾ يعني : صدق بالرسل ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ يعني : سلك طريقهم ، وأصلح العمل .

ويقال : أخلص العمل بعد الإيمان ﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ يعني : لا خوف عليهم من أهوال القيامة ولا هم يحزنون عند الصراط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ

1 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وما نرسل المرسلين ﴾ الآية ، المعنى إنما نرسل الأنبياء المخصوصين بالرسالة ليبشروا بإنعامنا ورحمتنا لمن آمن وينذروا بعذابنا وعقابنا من كذب وكفر ، ولسنا نرسلهم ليقترح عليهم الآيات ويتابعوا شذوذ كل متعسف متعمق ، ثم وعد من سلك طريق البشارة فآمن وأصلح في امتثال الطاعات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ المرسلين إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾

أي بالترغيب والترهيب .

قال الحسن : مبشرين بسعة الرزق في الدنيا والثواب في الآخرة ؛ يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى آمَنُواْ واتقوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السمآء والأرض ﴾ [ الأعراف : 96 ] .

ومعنى "منذرين" مخوفين عقاب الله ؛ فالمعنى : إنما أرسلنا المرسلين لهذا لا لما يقترح عليهم من الآيات ، وإنما يأتون من الآيات بما تظهر معه براهينهم وصدقهم .

وقوله : ﴿ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

تقدّم القول فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال ابن كثير :

قوله : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾

(183/232)

---

أي : مبشرين عباد الله المؤمنين بالخيرات ومنذرين من كفر بالله النقمات والعقوبات . ولهذا قال [سبحانه وتعالى] (3) ﴿ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ ﴾ أي : فمن آمن قلبه بما جاءوا به وأصلح (4) عمله باتباعه إياهم ، ﴿ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : بالنسبة إلى ما يستقبلونه ﴿ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أي : بالنسبة إلى ما فاتهم وتركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا وصنيعها ، الله وليهم فيما خلفوه ، وحافظهم فيما تركوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 258 ﴾

(184/232)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا نُرْسِلُ المرسلين ﴾ كلام مستأنفٌ مَسوقٌ لبيان وظائفِ منْصِبِ الرسالة على الإطلاق وتحقيقِ ما في عُهدة الرسلِ عليهم السلام ، وإظهارُ أن ما يقترحه الكفرةُ عليه عليه السلام ليس مما يتعلقُ بالرسالة أصلاً ، وصيغةُ المضارع لبيانِ أن ذلك أمرٌ مستمرٌّ جرتْ عليه العادةُ الإلهية ، وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مُبَشّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ حالان مقدّرتان من المُرْسلين أي ما نرسِلُهم إلا مقدّرًا تبشيرُهم وإنذارُهم ففيهما معنى العلةِ الغائيّة قطعاً أي ليبشروا قومَهم بالثواب على الطاعة وينذروهم بالعقاب على المعصية أي ليُخبروهم بالخبر السار والخبرِ الضارّ دنيوياً كان أو أُخروياً من غير أن يكون لهم دخلٌ ما في وقوع المخبَر به أصلاً ، وعليه يدور القصرُ والإلزام أن لا يكون بيان الشرائع والأحكام من وظائف الرسالة ، والفاء في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ ءامَنَ وَأَصْلَحَ ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها و( من ) موصوله والفاء في قوله تعالى : ﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ لشَبَه الموصول بالشرط أي لا خوف عليهم من العذاب الذي أُنذِروه دنيوياً كان أو أخروياً ولا هم يحزنون بفوات ما بُشّروا به من الثواب العاجل والآجل . وتقديمُ نفْيِ الخوفِ على نفْيِ الحُزْن لمراعاة حقِّ المقام ، وجمعُ الضمائر الثلاثة الراجعة إلى ( من ) باعتبار معناها ، كما أن إفرادَ الضميرَيْن السابقين باعتبار لفظِهما ، أي لا يعتريهم ما يوجب ذلك لا أنه يعتريهم لكنهم لا يخافون ولا يحزنون ، والمرادُ بيانُ دوامِ انتفائِهما لا بيانُ انتفاءِ دوامِهما كما يوهمه كونُ الخبر في

الجملة الثانية مضارعاً لما تقرر في موضعه من أن النفيَ وإن دخل على نفس المضارع يُفيد الدوام والاستمرارَ بحسب المقام ، ألا يُرى أن الجملةَ الاسمية تدل بمعونة المقام على استمرار الثبوت فإذا دخل عليها حرفُ النفي دلت على استمرار الانتفاءِ لا على انتفاء الاستمرار

(185/232)

---

، كذلك المضارعُ الخالي عن حرف النفي يفيد استمرارَ الثبوت فإذا دخل عليه حرفُ النفي يفيد استمرارَ الانتفاء لا انتفاء الاستمرار ولا بُعْد في ذلك ، فإن قولك : ما زيداً ضربت مفيدٌ لاختصاص النفي لا نفي الاختصاص ، كما بُيّن في محله . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الشوكانى :

قوله : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ المرسلين إِلاَّ مُبَشّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾

كلام مبتدأ لبيان الغرض من إرسال الرسل ، أي مبشرين لمن أطاعهم بما أعدّ الله له من الجزاء العظيم ، ومنذرين لمن عصاهم بما له عند الله من العذاب الوبيل .

وقيل : مبشرين في الدنيا بسعة الرزق وفي الآخرة بالثواب ، ومنذرين مخوّفين بالعقاب ، وهما حالان مقدرّتان ، أي ما نرسلهم إلا مقدّرين تبشيرهم وإنذارهم ﴿ فَمَنْ ءامَنَ وَأَصْلَحَ ﴾

أي آمن بما جاءت به الرسل ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ حال نفسه بفعل ما يدعونه إليه ﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ بوجه من الوجوه ﴿ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ بحال من الأحوال ، هذا حال من آمن وأصلح ، وأما حال المكذبين فهو أنه يمسهم العذاب بسبب فسقهم ، أي خروجهم عن التصديق والطاعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(186/232)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا نُرْسِلُ المرسلين ﴾ إلى الأمم ﴿ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ ﴾ من أطاع منهم بالثواب ﴿ وَمُنذِرِينَ ﴾ من عصى منهم بالعذاب ، واقتصر بعضهم على الجنة والنار لأنهما أعظم ما يبشر به وينذر به ، والمتعاطفان منصوبان على أنهما حالان مقدرتان مفيدتان للتعليل . وصيغة المضارع للإيذان بأن ذلك أمر مستمر جرت عليه العادة الإلهية ، والآية مرتبطة بقوله سبحانه : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ ءايَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [ الأنعام : 37 ] أي ما نرسل المرسلين ألا لأجل أن يبشروا قومهم بالثواب على الطاعة وينذروهم بالعذاب على المعصية ولم نرسلهم ليقترح عليهم ويسخر بهم ﴿ فَمَنْ ءامَنَ ﴾ بما يجب الإيمان به ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ ما يجب إصلاحه والإتيان به على وفق الشريعة ، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها و(

من ) موصولة ولشبه الموصول بالشرط دخلت الفاء في قوله سبحانه : ﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ من العذاب الذي أنذر الرسل به ﴿ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ لفوات الثواب الذي بشروا به ، وقد تقدم الكلام في هذه الآية غير مرة ، وجمع الضمائر الثلاثة الراجعة إلى ( من ) باعتبار معناها كما أن إفراد الضميرين السابقين باعتبار لفظها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾

عطف على جملة ﴿ انظر كيف نصرّف الآيات ثم هم يصدفون ﴾ [ الأنعام : 46 ] .

والمناسبة أنّ صدوفهم وإعراضهم كانوا يتعلّلون له بأنَّهم يَرُومون آيات على وفق مقترحهم وأنَّهم لا يقنعون بآيات الوحدانية ، ألا ترى إلى قولهم : ﴿ لن نؤمن لك حتّى تفجّر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ [ الإسراء : 90 ] إلى آخر ما حكي عنهم في تلك الآية ، فأنبأهم الله بأنّ إرسال الرسل للتبليغ والتبشير والنذارة لا للتّلهّي بهم باقتراح الآيات .

وعُبِّر بـ ﴿ نُرسل ﴾ دون ﴿ أرسلنا ﴾ للدلالة على تجدّد الإرسال مقارناً لهذين الحالين ، أي ما أرسلنا وما نرسل ، فقوله : ﴿ مُبشّرين ومنذرين ﴾ حالان مقدّرتان باعتبار المستقبل ومحقّقتان باعتبار الماضي .

والاستثناء من أحوال محذوفة ، أي ما أرسلناهم إلاّ في حالة كونهم مبشّرين ومنذرين .

والقصرُ إضافي للردّ على من زعموا أنّه إنْ لم يأتهم بآية كما اقترحوا فليس برسول من عند الله ، فهو قصر قلب ، أي لم نرسل الرسول للإعجاب بإظهار خوارق العادات .

وكنّى بالتبشير والإنذار عن التبليغ لأنّ التبليغ يستلزم الأمرين وهما الترغيب والترهيب ، فحصل بهذه الكناية إيجاز إذ استغنى بذكر اللازم عن الجمع بينه وبين الملزوم .

والفاء في قوله : ﴿ فمن آمن ﴾ للتفريع ، أي فمن آمن من المرسل إليهم فلا خوف الخ .

و﴿ مَنْ ﴾ الأظهر أنَّها موصولة كما يرجّحه عطف ﴿ والذين كذّبوا ﴾ عليه .

ويجوز أن تكون شرطية لا سيما وهي في معنى التفصيل لقوله : ﴿ مبشِّرين ومنذرين ﴾ .

فإن كانت شرطية فاقتران ﴿ فلا خوف ﴾ بالفاء بيِّن ، وإن جعلت موصولة فالفاء لمعاملة الموصول معاملة الشرط ، والاستعمالات متقاربان .

ومعنى ﴿ أصْلح ﴾ فَعَلَ الصلاح ، وهو الطاعة لله فيما أمر ونهى ، لأنّ الله ما أراد بشرعه إلاّ إصلاح الناس كما حكَى عن شعيب ﴿ إن أريد إلاّ الإصلاح ما استطعت ﴾ [ هود : 88 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾

أي أن الحق سبحانه لم يعط الرسل قدرته ليفعلوا ما شاءوا ، ولكنهم فقط مبلّغون عن الله ، فلا يطلبن منهم أحد آيات ؛ لأنهم لا يستطيعون أن يأتوا بالآيات ، وكل رسول يعلم أنه من البشر ، وهو يستقبل عن الله فقط ، ولذلك فلنأخذ الرسل على أنهم مبشرون ومنذرون

﴿ وَمَا نُرْسِلُ المرسلين إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ .

ونعرف أن البشارة هي الإخبار بما يسر قبل أن يقع . والسبب في البشارة هو تهيئة السامع لها ليبادر إلى ما يجعل البشارة واقعاً بأن يمتثل إلى المنهج القادم من الإله الخالق . ونعرف أن الإنذار هو الإخبار بما يسوء قبل أن يقع ليحترز السامع أن يقع في المحاذير التي حرمها الله .

والبشارة – كما نعلم – تلهب في الراغب في الفعل والمحب له أن يفعل العمل الطيب ، والإنذار يحذر ويخوف من يرغب في العمل الشيء ليزدجر ويرتدع . إذن فمهمة الرسل هي البشارة والإنذار ، فلا تخرجوا بهم أيها الناس إلى مرتبة أخرى أو منزلة ليست لهم فتطلبوا

منهم آيات أو أشياء ؛ لأن الآيات والأشياء كلها من تصريف الحق تبارك وتعالى ، ومن سوء الأدب أن نُخطّئ الله في الآيات التي أرسلها مع الرسل ونطلب آيات أخرى . إنكم بهذا تستدركون على الله .

ويبيّن الحق لنا حدود مهمة الرسل فيقول : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [ الأنعام : 48 ] .

هذا هو عمل الرسل ، فماذا عن عمل الذين يستمعون للرسل ؟ إن الحق يقول : ﴿ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [ الأنعام : 48 ] .

*(189/232)*

---

فالمطلوب – إذن – من الذين يستمعون إلى الرسل أن يقبلوا على اختيار الإيمان ، وأن يستمعوا إلى جوهر المنهج وأن يطبقوه . فمن آمن منهم وأصلح فلا خوف عليه لأنه قد ضمن الفوز العظيم ، ولا يصيبه أو يناله حزن ، لأن ناتج عمله كله يلقاه في كتابه يوم القيامة .

والإيمان هو اطمئنان القلب إلى قضية عقدية لا تطفو إلى الذهن لتناقش من جديد .

ولذلك نسمي الإيمان عقيدة ، أي شيئاً انعقد عقداً لا ينحل أبداً .

إنّ على المؤمن بربه أن يستحضر الأدلة والآيات التي تجعل إيمانه بربه إيماناً قوياً معقوداً ؛

وهذا عمل القلب . ويعرف المؤمن أن عمل القلب لا يكفي كتعبير عن الإيمان ؛ لأن الكائن الحي ليس قلباً فقط ، ولكنه قلب وجوارح وأجهزة متعددة ، وكل الكائن الحي المؤمن يجب أن ينقاد إلى منهج ربه ، فلا بد من التعبير عن الإيمان بأن يصلح الإنسان كل عمل فيؤديه بجوارحه أداء صحيحا سليما .

إنني أقول ذلك حتى يسمع الذي يقول : إن قلبي مؤمن وسليم . لا ، فليست المسألة في الإيمان هكذا ، صحيح أنك آمنت بقلبك ولكن لماذا عطلت كل جوارحك عن أداء مطلوب الإيمان ؟ لماذا لا تعطي عقلك فرصة ليتدبر ويفكر ويخطط ويتذكر ، لماذا لا تعطي العين فرصة لتعتبر وتستفيد من معطيات ما ترى ؟ وكذلك اليد ، واللسان ، والأذن ، والقدم ، وكل الجوارح .

والإصلاح هو عمل الجوارح ، فيفكر الإنسان بعقله في الفكرة التي تنفع الناس ، ويسمع القول فيتبع أحسنه ، ويصلح بيديه كل ما يقوم به من أعمال . ويعلم المؤمن أنه حين أقبل على الكون وجده محكماً غاية الإحكام ، ويرى الإنسان الأشياء التي لا دخل له فيها في هذا الكون وهي على أعلى درجات الصلاحية الراقية ، فالمطر ينزل في مواسمه ، والرياح تهب في مواسمها ومساراتها ، وحركة الشمس تنتظم مع حركة الأرض ، وكل عمل في النواميس العليا هو على الصلاح المطلق .

إن الفساد يأتي مما للإنسان دخل فيه ، فالهواء يفسد من بناء المنازل المتقاربة ، وعدم وجود مساحات من الخضرة الكافية ، ويفسد الهواء أيضاً بالآلات التي تعمل ولها من السموم ما تخرجه وتدفعه من أثر عملية احتراق الوقود . وعندما صنع الإنسان الآلات نظر إلى هواه في الراحة ، وغابت عنه أشياء كان يجب أن يحتاط لها ، ومثال ذلك : " عادم " السيارات الذي يزيد من تلوث البيئة ، ورغم اكتشاف بعض من الوسائل التي يمكن أن تمنع هذا التلوث . إلا أن البعض يتراخى في الأخذ بها .

ونحن حين نأخذ بقمة الحضارة ونركب السيارات فلماذا ننسى القاعدة التي تقوم عليها الحضارة وهي الدراسة العلمية الدقيقة لنصنع الآلات ونأخذ من الآلات ما يفيد الناس ، فنعمل على الأخذ بأسباب تنقية البيئة من التلوث ونمنع الأذى عن حياة الناس . فالعادم الذي من صناعتنا – مثل عادم السيارات والآلات – يفسد علينا الهواء فتفسد الرئة في الإنسان .

إن علينا أن نعرف أن من مسئولية الإيمان أن ننظر إلى الشيء الذي نصنعه وكمية الضر الناتجة عنه ، وكل إنسان يحيا في مدينة مزدحمة إنما يضار بآثار عادم السيارات على الرغم من أنه ليس في مقدور كل إنسان أن يشتري سيارة ليركبها ، فكيف يرتضي راكب السيارة لنفسه ألا يصلح من تلك الآلة التي تسهل له حياته ويصيب بعادمها الضر لنفسه ولغيره من

الناس ؟ لذلك فعلى المسلم ألا يأخذ الحضارة من مظهرها وشكلها بل على المجتمع المسلم أن يعمل على الأخذ بأسباب الحضارة من قواعدها الأصلية ، وأن يدرس كيفية تجنب الأضرار حتى لا نقع في دائرة الأخسرين أعمالاً ، هؤلاء الذين قال فيهم الحق سبحانه : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخسرين أَعْمَالاً * الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحياة الدنيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ [ الكهف : 103-104 ] .

*(191/232)*

---

ولنا أن نأخذ المثل الأعلى دائماً من الكون الذي خلقه الله لنصونه ، إن عادم وأثر وناتج أي شيء مخلوق لله يفيد الإنسان ويفيد الكون حتى فضلات الحيوان يُنتفع بها في تسميد الأرض وزيادة خصوبتها . وهكذا نعرف معنى : ﴿ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

فالإيمان عمل القلب ، والإصلاح عمل الجوارح ، ولذلك يجب أن نصلح في الكون بما يزيد من صلاحه . ولنعلم أن الكون لم يكن ناقصاً وأننا بعملنا نستكمل ما فيه من نقص ، ليس الأمر كذلك ، ولكننا أردنا أن نترف في الحياة ، وما دمنا نريد الترف فلنزد من عمل العقل المخلوق لله في المواد والعناصر التي أمامنا وهي المخلوقة لله . وأن نتفاعل معها بالطاقات والجوارح

المخلوقة لله ، ما دمنا نريد أن نتنعم نعيماً فوق ضروريات الحياة .

ومثال ذلك أننا قديماً وفي أوائل عهد البشرية بالحياة ، كان الإنسان عندما يعاني من العطش ، يشرب من النهر ، وبعد ذلك وجد الإنسان أنه لا يسعد بالارتواء عندما يمد يده ليأخذ غرفة من ماء النهر ، فصنع إناءً من فخار ليشرب منه الماء ، ثم صنع إناءً من الصاج ، ثم صنع إناء من البلور ، فهل هذه الأشياء أثرت في ضرورة الحياة أو هي ترف الحياة ؟

*(192/232)*

---

إنها من ترف الحياة . فإن أردت أن تترف حياتك فلتُعمل عقلك المخلوق لله في العناصر المخلوقة لله ، بالطاقة والجوارح المخلوقة لله ، وبذلك يهبك الله من الخواطر ما تستكشف به آيات العلم في الكون . ومثال ذلك : أن أهل الريف قديماً كانوا يعتمدون على نسائهم ليملأن الجرار من الآبار أو الترع ثم تقوم سيدة البيت بترويق المياه . وعندما ارتقينا قليلاً ، كان هناك من الرجال من يعمل في مهنة السقاية ، ويمر بالقرب المملوءة بالماء على البيوت . وعندما قام أهل العلم بالاستنباط والاعتبار اكتشفوا قانون الاستطراق ، فرفعوا المياه إلى خزانٍ عالٍ ، وامتدت من الخزان " مواسير " وأنابيب مختلفة الأقطار والأحجام ، وصار الماء موجوداً في كل منزل ، هذا ما فعله الناس الذين استخدموا العقول المخلوقة لله .

وكان الناس من قبل ذلك يكتفون بالضروري من كميات المياه ، فالأسرة كانت تكتفي بملء قربة أو قربتين من الماء ، ولكن بعد أن صارت في كل منزل ، أساء الكثير من الناس استخدام المياه ، فأهدروا كميات تزيد عن حاجتهم ، وتمثل ضغطاً على " مواسير " الصرف الصحي ، فتنفجر ويشكو الناس من طفح المجاري .

إن على المسلم أن يرعى حق الله في استخدامه لكل شيء ، فالماء الذي يهدره الإنسان قد يحتاج إليه إنسان آخر ، وعندما نتوقف عن إهداره ، نمنع الضرر عن أنفسنا وعن غيرنا من طفح " مواسير " الصرف الصحي . وليحسب كل منا – على سبيل المثال – كم يستهلك من مياه في أثناء الوضوء . إن الإنسان منا يفتح الصنبور ويغسل يديه ثلاثاً ويتمضمض ثلاثاً ، ويستنشق ثلاثاً ، ويغسل وجهه ثلاثاً ، ويغسل ذراعيه ثلاثاً ، ويمسح برأسه ، ويغسل أقدامه . ويترك الإنسان الصنبور مفتوحاً طَوال تلك المدة فيهدر كميات من المياه ، ولو فكر في حسن استخدام المياه التي تنزل من الصنبور لما اشتكى غيره من قلة المياه .

*(193/232)*

---

فلماذا لا يفكر المسلم في أن يأخذ قدراً من المياه يكفي الوضوء ويحسن استخدام الماء ؟ وكان الإنسان يتوضأ قديماً من إناء به نصف لتر من الماء ، فلماذا لا نحسن استخدام ما

استخلفنا الله فيه ؟

على الإنسان منا أن يعلم أن الإيمان كما يقتضي أو يوجب ويفرض الصلاة ليصلح الإنسان من نفسه ، يقتضي – أيضاً – إصلاح السلوك فلا نبذر ونهدر فيما نملك من إمكانات ، وأن ندرس كيفية الارتقاء بالصلاح ، فلا نتخلص من متاعب شيء لنقع في متاعب ناتجة من سوء تصرفنا في الشيء السابق ، بل علينا أن ندرس كل أمر دراسة محكمة حتى لا يدخل الإنسان منا في مناقضة قوله الحق : ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السمع والبصر والفؤاد كُلُّ أُولئك كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [ الإسراء : 36 ] .

أي عليك أن تعرف أيها المسلم أنك مسئول عن السمع والبصر والقلب وستسأل عن ذلك يوم القيامة ، لذلك لا يصح أن تتوانى عن الأخذ بأحسن العلم ليحسن قولك وفعلك .

وبذلك لا يكون هناك خوف عليك في الدنيا أو الآخرة ؛ لأنك آمنت وأصلحت ، وأيضاً لا حزن يمسك في الدنيا ولا في الآخرة : ﴿ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

إنك بذلك تصون نفسك في الآخرة وفي الدنيا أيضاً ؛ لأنك تسير في الحياة بإيمان وتصلح في الدنيا متبعاً قوانين الله . وإن رأيت أيها المسلم متعبة في الكون فاعلم أن حكماً من أحكام الله قد عطِّل ، إن رأيت فقيراً جائعاً أو عرياناً فاعلم أن حقاً من حقوقه قد أكله أو جحده غيره ؛ لأن الذي خلق الكون ، خلق ما يعطيه الغني من فائض عنه للفقير ليسد عوزه ، لكن

الغني قبض يده عن حق الله ، وأيضاً جاء قوم يتسولون بغير حاجة للتسول ، والفساد هنا إنما يأتي من ناحيتين : ناحية إنسان استمرأ أن يبني جسمه من عرق غيره ، أو من إنسان آخر غني لا يؤدي حق الله في ماله ، بذلك يعاني المجتمع من المتاعب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(194/232)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ حالٌ من " المرسلين " ، وفي هذه الحال معنى الغَلَبة ، أي : لم نرسلهم لأن نقترح عليهم الآيات ، بل لأن يبشروا وينذروا .

وقرأ إبراهيم ، ويحيى : " مُبْشِرين " بالتخفيف ، وقَدْ تقدَّم أن " أَبْشَرَ " لغة في " بَشَّرَ " .

قوله : " فَمَنْ آمَنَ " يجوز في " مَنْ " أن تكون شَرْطِيَّةً ، وأن تكون مَوْصُولةً ، وعلى كلا التقديرين فَمَحَلُّهَا رفع بالابتداء .

والخبر " فلا خَوْفَ " فإن كانت شَرْطِيَّة ، فالفاء جواب الشَرْط ، وإن كانت مَوْصُولةً فالفاء زائدة لشبه الموصول بالشرط ، وعلى الأول يكون مَحَلُّ الجملتين الجَزْمَ ، ولعى الثاني لا

مَحَلِّ للأولى وممحل الثانية الرفع ، وحمل على اللفظ فأفرد في "آمن" و"أَصْلَحَ" ، وعلى المعنى فجمع في ﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ، ويُقَوِّي كونها موصولة مقابلتها بالموصول بعدها في قوله : ﴿ والذين كَذَّبُواْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 155.156 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (48) ﴾

يعني ليس أمرنا لهم إلا بالتزام ما فيه نجاتهم ، ثم بجميل الوعد لهم ، ومفارقة ما فيه هلاكهم ، ثم بأليم العقوبة في الآجل ما يحل من خلافهم .

فَمَنْ آمن وصدَّق أنجزنا له الوعد ، ومَنْ كفر وجحد عارضنا عليه الأمر ، وأدخلنا عليه الضُّر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 474 ﴾

*(195/232)*

قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (49) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بين حال المصلحين ، أتبعه حال المفسدين فقال : ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ﴾ أي على ما لها بنسبتها إلينا من العظمة ﴿ يمسهم العذاب ﴾ أي الدائم المتجدد ، وكني عن قربه بأن جعل له قوة المس ، كأنه حي مريد فقال : ﴿ بما كانوا ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ يفسقون ﴾ أي يديمون الخروج مما ينبغي الاستقرار فيه من الإيمان وما يقتضيه ، وأما الفسق العارض فإن صاحبه يصدر التوبة منه فيعفى عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 639 . 640 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ والذين كَذَّبُواْ بآياتنا يَمَسُّهُمُ العذاب ﴾ ومعنى المس في اللغة التقاء الشيئين من غير فصل .

قال القاضي : إنه تعالى علل عذاب الكفار بكونهم فاسقين ، وهذا يقتضي أن يكون كل فاسق كذلك ، فيقال له هذا معارض بما أنه خص الذين كذبوا بآيات الله بهذا الوعيد وهذا يدل على أن من لم يكن مكذباً بآيات الله أن لا يلحقه الوعيد أصلاً .

وأيضاً فهذا يقتضي كون هذا الوعيد معللاً بفسقهم فلم قلتم أن فسق من عرف الله وأقر بالتوحيد والنبوّة والمعاد ، مساو لفسق من أنكر هذه الأشياء ؟ والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 189 ﴾

*(196/232)*

---

وقال ابن عطية :

وأوعد الذين سلكوا طريق النذارة فكذب بآيات الله ، وفسق أي خرج عن الحد في كفرانه وعصيانه ، وقال ابن زيد : كل فسق في القرآن فمعناه الكذب ، ذكره عنه الطبري مسنداً و ﴿ يمسهم ﴾ أي يباشرهم ويلصق بهم ، وقرأ الحسن والأعمش ﴿ العذاب بما ﴾ بإدغام الباء في الباء ، ورويت عن أبي عمرو ، وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش " يفسِقون " بكسر السين وهي لغة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

وقوله عز وجل : ﴿ والذين كَذَّبُواْ ﴾ عطفٌ على مَنْ آمن داخلٌ في حكمه وقوله تعالى : ﴿ بآياتنا ﴾ إشارة إلى أن ما ينطِقُ له الرسلُ عليهم السلام عند التبشير والإنذار ويبلّغونه إلى الأمم آياتُه تعالى ، وأن من آمن به فقد آمن بآياته تعالى ، ومن كذب به فقد كذب بها ،

وفيه من الترغيب في الإيمان والتحذيرِ عن تكذيبه ما لا يخفى . والمعنى ما نرسل المرسلين إلا ليُخبروا أممهم من جهتنا بما سيقع منا من الأمور السارّة والضارّة لا ليُوقعوها استقلالاً من تلقاء أنفسهم ، أو استدعاءً من قِبَلِنا ، حتى يقترحوا ، فإذا كان الأمرُ كذلك فمن آمن بما أَخبروا به من قبلنا تبشيراً أو إنذاراً في ضمن آياتنا ، وأصلح ما يجب إصلاحُه من أعماله ، أو دخل في الصلاح فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا التي بُلِّغوها عند التبشير والإنذار ﴿ يَمَسُّهُمُ العذاب ﴾ أي العذاب الذي أُنذِروه عاجلاً ، أو آجلاً ، أو حقيقةُ العذاب وجنسُه المنتظمُ له انتظاماً أولياً ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ أي بسبب فسقهم المستمر الذي هو الإصرارُ على الخروج عن التصديق والطاعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

*(197/232)*

---

وقال فى روح البيان :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بآياتنا ﴾ وهي ما ينطق به الرسل عليهم السلام عند التبشير والإنذار ويبلغونه إلى الأمم .

﴿ يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ ﴾ الأليم وأسند المس إلى العذاب مع أن حقه أن يسند إلى الإحياء

لكونه من الأفعال المسبوقة بالقصد ، والاختيار على طريق الاستعارة بالكناية فجعل كأنه حي يطلب إيلامهم والوصول إليهم ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أي : بسبب فسقهم المستمر الذي هو الإصرار على الخروج عن التصديق والطاعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 3 صـ 44 ﴾

*(198/232)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ والذين كَذَّبُواْ بآياتنا ﴾ أي التي بلغتها الرسل عليهم الصلاة والسلام عند التبشير والإنذار ، وقيل : المراد بها نبينا صلى الله عليه وسلم ومعجزاته ؛ والأول هو الظاهر ، والموصول مبتدأ وقوله تعالى : ﴿ يَمَسُّهُمُ العذاب ﴾ خبره والجملة عطف على ﴿ فَمَنْ ءامَنَ ﴾ [ الأنعام : 48 ] الخ .

والمراد بالعذاب العذاب الذي أنذروه عاجلاً أو آجلاً أو حقيقة العذاب وجنسه المنتظم لذلك انتظاماً أولياً ؛ وفي جعله ماساً إيذان بتنزيله منزلة الحي الفاعل لما يريد ففيه استعارة مكنية على ما قيل .

وجوز الطيبي أن يكون في المس استعارة تبعية من غير استعارة في العذاب ، والظاهر أن ما

ذكر مبني على أن المس من خواص الأحياء .

وفي "البحر" أنه يشعر بالاختيار ، ومنع ذلك بعضهم ، وادعى عصام الملة أنه أشير بالمس إلى أن العذاب لا يأخذهم بحيث يعدمهم حتى يتخلصوا بالهلاك وله وجه .

﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ أي بسبب فسقهم .

نعم أخرج ابن جرير عن ابن زيد "أن كل فسق في القرآن معناه الكذب" ، ولعله في حيز المنع وخروجهم المستمر عن حظيرة الإيمان والطاعة ، وقد يقال : الفاسق لمن خرج عن التزام بعض الأحكام لكنه غير مناسب ههنا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

المسُّ حقيقته مباشرة الجسم باليد وهو مرادف اللمس والجسّ ، ويستعار لإصابة جسم جسماً آخر كما في هذه الآية .

وقد تقدّم في قوله تعالى : ﴿ لَيَمَسَّنّ الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ في سورة [ المائدة : 73 ] .

ويستعار أيضاً للتَّكيّف بالأحوال كما يقال : به مسّ من الجنون .

قال تعالى : ﴿ إنّ الذين اتَّقوا ءا مسَّهم طائف من الشيطان تذكَّروا فإذا هم مبصرون ﴾ [ الأعراف : 201 ] .

وجمع الضمائر العائدة إلى ( مَنْ ) مراعاة لمعناها ، وأمَّا إفراد فعل ﴿ آمن ﴾ و ﴿ أصلح

﴿ فلرعي لفظها .

والباء للسببية ، و( ما ) مصدرية ، أي بسبب فسقهم .

والفسق حقيقته الخروج عن حدّ الخير .

وشاع استعماله في القرآن في معنى الكفر وتجاوز حدود الله تعالى .

وتقدّم تفصيله عند قوله تعالى : ﴿ وما يضلّ به إلاّ الفاسقين ﴾ في سورة [ البقرة : 26 ] .

وجيء بخبر ( كان ) جملة مضارعية للإشارة إلى أنّ فسقهم كان متجدّداً متكرّراً ، على أنّ الإتيان بـ ( كان ) أيضاً للدلالة على الاستمرار لأنّ ( كان ) إذا لم يقصد بها انقضاء خبرها فيما مضى دلَّت على استمرار الخبر بالقرينة ، كقوله تعالى : ﴿ وكان الله غفوراً رحيما ﴾ [ النساء : 96 ] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

*(199/232)*

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (49) ﴾

والذين كذبوا بآيات الله هم إما من كذب الرسول في الآيات الدالة على صدقه وهو المبلغ

عن الله ، وهؤلاء دخلوا في دائرة الكفر . وإمّا هم الذين كذبوا بآيات المنهج ، فلم يستخدموا المنهج على أصوله وانحرفوا عن الصراط المستقيم والطريق السوي . وهؤلاء وهؤلاء قد فسقوا ، أي خرجوا عن الطاعة ، ونعلم أن كلمة " الفسق " مأخوذة من خروج " الرطبة " عن قشرتها عندما يصير حجمها أصغر مما كانت عليه لاكتمال نضجها . والذي يفسق عن منهج الله هو الذي يقع في الخسران ؛ لأن منهج الله هدفه صيانة الإنسان المخلوق لله ب " افعل كذا " و " لا تفعل كذا " .

إن الإنسان يفسق عندما لا يفعل ما أمره الله أن يفعله ، أو يفعل ما نهاه الله عن أن يفعله . ونجد الإنسان منا يخاف على جهاز التسجيل أو جهاز التليفزيون من أن يفسد فيتبع القواعد المرعية لاستخدامه . فلا يمد – مثلاً – جهازاً من الأجهزة الكهربية بنوعية من الطاقة غير التي يحددها الصانع ، فإن قال لصانع : استخدم كهرباء مقدارها مائتان وعشرون فولتاً حتى لا تفسد الآلة فالإنسان ينصاع لما قاله الصانع ، فما بالنا بالإنسان ، إن الله – جلت قدرته – خلق الإنسان ووضع له قوانين صيانته . إذن فمن يفسد في قوانين صيانة نفسه يمسه العذاب ، وكلمة يمسهم الذعاب تعطي وتوحي بأن العقوبة تعشق أن تقع على المجرم ، كأن العذاب سعى إليه ليناله ويمسه وها هوذا قول الحق عن النار . ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ [ الملك : 8 ] .

وهو سبحانه القائل عن النار : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ ق : 30 ] .

(200/232)

---

إذن فالعقوبة نفسها حريصة على أن تنفذ إلى من أساء . ولذلك يلح العذاب في أن يمس الذين فسقوا . ويأتي الحق هنا بكلمة " المس " لحكمة ، ذلك أن عقوبة الله لا تقارن بعقوبة البشر .

فالإنسان يعاقب إنساناً بمقياس قدرته وقوته ، وليس لأحد من الخلق أن يتمثل قدرة الله في العذاب ، ولذلك يكفي المس فقط ، لأن التعذيب يختلف باختلاف قدرة المعذِّب ، فلو نسبنا التعذيب إلى قدرة الله لكان العذاب رهيباً لا طاقة لأحد عليه . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(201/232)

---

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (43) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (45) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (46) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (47) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (48) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (49) ﴾

*(202/232)*

---

إنها المواجهة بنموذج من بأس الله سبحانه . نموذج من الواقع التاريخي . نموذج يعرض ويفسر كيف يتعرض الناس لبأس الله ، وكيف تكون عاقبة تعرضهم له ، وكيف يمنحهم الله

الفرصة بعد الفرصة ، ويسوق إليهم التنبيه بعد التنبيه ؛ فإذا نسوا ما ذكروا به ، ولم توجههم الشدة إلى التوجه إلى الله والتضرع له ، ولم توجههم النعمة إلى الشكر والحذر من الفتنة ، كانت فطرتهم قد فسدت الفساد الذي لا يرجى معه صلاح ، وكانت حياتهم قد فسدت الفساد الذي لا تصلح معه للبقاء . فحقت عليهم كلمة الله . ونزل بساحتهم الدمار الذي لا تنجو منه ديار . .

﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ، فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون . فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ﴾ . .

*(203/232)*

---

ولقد عرف الواقع البشري كثيراً من هذه الأمم ، التي قص القرآن الكريم على الإنسانية خبر الكثير منها ، قبل أن يولد " التاريخ " الذي صنعه الإنسان ! فالتاريخ الذي سجله بنو الإنسان حديث المولد ، صغير السن ، لا يكاد يعي إلا القليل من التاريخ الحقيقي للبشر على ظهر هذه الأرض ! وهذا التاريخ الذي صنعه البشر حافل – على قصره – بالأكاذيب والأغاليط ؛ وبالعجز والقصور عن الإحاطة بجميع العوامل المنشئة والمحركة للتاريخ البشري ؛ والتي يكمن بعضها في أغوار النفس ، ويتوارى بعضها وراء ستر الغيب ،

ولا يبدو منها إلا بعضها . وهذا البعض يخطىء البشر في جمعه ، ويخطئون في تفسيره ، ويخطئون أيضاً في تمييز صحيحه من زائفة – إلا قليلاً – ودعوى أي بشر أنه أحاط بالتاريخ البشري علماً ، وأنه يملك تفسيره تفسيراً " علمياً " ، وأنه يجزم بحتمياته المقبلة أيضاً . . هي أكبر أكذوبة يمكن أن يدعيها بشر ! ومن عجب أن بعضهم يدعيها ! والأشد إثارة للعجب أن بعضهم يصدقها ! ولو قال ذلك المدعي : إنه يتحدث عن ( توقعات ) لا عن ( حتميات ) لكان ذلك مستساغاً . . ولكن إذا وجد المفتري من المغفلين من يصدقه فلماذا لا يفتري ؟ !

والله يقول الحق ؛ ويعلم ماذا كان ، ولماذا كان . ويقص على عبيده – رحمة منه وفضلاً – جانباً من أسرار سنته وقدره ؛ ليأخذوا حذرهم ويتعظوا ؛ وليدركوا كذلك ما وراء الواقع التاريخي من عوامل كامنة وأسباب ظاهرة ؛ يفسرون بها هذا الواقع التاريخي تفسيراً كاملاً صحيحاً . ومن وراء هذه المعرفة يمكن أن يتوقعوا ما سيكون ، استناداً إلى سنة الله التي لا تتبدل . . هذه السنة التي يكشف الله لهم عنها . .

*(204/232)*

وفي هذه الآيات تصوير وعرض لنموذج متكرر في أمم شتى . . أمم جاءتهم رسلهم . فكذبوا . فأخذهم الله بالبأساء والضراء . في أموالهم وفي أنفسهم . في أحوالهم وأوضاعهم . . البأساء والضراء التي لا تبلغ أن تكون " عذاب الله " الذي تحدثت عنه الآية السابقة ، وهو عذاب التدمير والاستئصال . .

وقد ذكر القرآن نموذجاً محدداً من هذه الأمم ، ومن البأساء والضراء التي أخذها بها . . في قصة فرعون وملئه : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون . فإذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه . ألا إنما طائرهم عند الله ، ولكن أكثرهم لا يعلمون . وقالوا : مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، آيات مفصلات ، فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾ وهو نموذج من نماذج كثيرة تشير إليها الآية . .

لقد أخذهم الله بالبأساء والضراء ليرجعوا إلى أنفسهم ؛ وينقبوا في ضمائرهم وفي واقعهم ، لعلهم تحت وطأة الشدة يتضرعون إلى الله ، ويتذللون له ، وينزلون عن عنادهم واستكبارهم ، ويدعون الله أن يرفع عنهم البلاء بقلوب مخلصة ، فيرفع الله عنهم البلاء ، ويفتح لهم أبواب الرحمة . . ولكنهم لم يفعلوا ما كان حرياً أن يفعلوا . لم يلجأوا إلى الله ، ولم يرجعوا عن عنادهم ، ولم ترد إليهم الشدة وعيهم ، ولم تفتح بصيرتهم ، ولم تلين قلوبهم .

وكان الشيطان من ورائهم يزين لهم ما هم فيه من الضلال والعناد :

﴿ ولكن قست قلوبهم ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ﴾ . .

*(205/232)*

---

والقلب الذي لا ترده الشدة إلى الله قلب تحجر فلم تعد فيه نداوة تعصرها الشدة ! ومات فلم تعد الشدة تثير فيه الإحساس ! وتعطلت أجهزة الاستقبال الفطرية فيه ، فلم يعد يستشعر هذه الوخزة الموقظة ، التي تنبه القلوب الحية للتلقي والاستجابة . والشدة ابتلاء من الله للعبد ؛ فمن كان حياً أيقظته ، وفتحت مغاليق قلبه ، وردته إلى ربه ؛ وكانت رحمة له من الرحمة التي كتبها الله على نفسه . . ومن كان ميتاً حسبت عليه ، ولم تفده شيئاً ، وإنما أسقطت عذره وحجته ، وكانت عليه شقوة ، وكانت موطئة للعذاب !

وهذه الأمم التي يقص الله – سبحانه – من أنبائها على رسوله – صلى الله عليه وسلم – ومن وراءه من أمته . . لم تفد من الشدة شيئاً . لم تتضرع إلى الله ، ولم ترجع عما زينه لها الشيطان من الإعراض والعناد . . وهنا يملي لها الله – سبحانه – ويستدرجها بالرخاء :

﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء . حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ، فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين

﴿ . .

إن الرخاء ابتلاء آخر كابتلاء الشدة . وهو مرتبة أشد وأعلى من مرتبة الشدة ! والله يبتلي بالرخاء كما يبتلي بالشدة . يبتلي الطائعين والعصاة سواء . بهذه وبذاك سواء . . والمؤمن يبتلى بالشدة فيصبر ، ويبتلى بالرخاء فيشكر . ويكون أمره كله خيراً . . وفي الحديث : " عجباً للمؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له " ( رواه مسلم ) .

فأما هذه الأمم التي كذبت بالرسل ، والتي يقص الله من أنبائها هنا .

فإنهم لما نسوا ما ذكروا به ، وعلم الله – سبحانه – أنهم مهلكون ، وابتلاهم بالبأساء والضراء فلم يتضرعوا . . فأما هؤلاء فقد فتح عليهم أبواب كل شيء للاستدراج بعد الابتلاء . .

*(206/232)*

---

والتعبير القرآني : ﴿ فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾ . . يصور الأرزاق والخيرات ، والمتاع ، والسلطان . . متدفقة كالسيول ؛ بلا حواجز ولا قيود ! وهي مقبلة عليهم بلا عناء ولا كد ولا حتى محاولة !

إنه مشهد عجيب ؛ يرسم حالة في حركة ؛ على طريقة التصوير القرآني العجيب .

﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا ﴾ . .

وغمرتهم الخيرات والأرزاق المتدفقة ؛ واستغرقوا في المتاع بها والفرح لها - بلا شكر ولا ذكر - وخلت قلوبهم من الاختلاج بذكر المنعم ومن خشيته وتقواه ؛ وانحصرت اهتماماتهم في لذائذ المتاع واستسلموا للشهوات ، وخلت حياتهم من الاهتمامات الكبيرة كما هي عادة المستغرقين في اللهو والمتاع . وتبع ذلك فساد النظم والأوضاع ، بعد فساد القلوب والأخلاق ؛ وجر هذا وذلك إلى نتائجه الطبيعية من فساد الحياة كلها . . عندئذ جاء موعد السنة التي لا تتبدل :

﴿ أخذناهم بغتة ، فإذا هم مبلسون ﴾ . .

فكان أخذهم على غرة ؛ وهم في سهوة وسكرة . فإذا هم حائرون منقطعو الرجاء في النجاة عاجزون عن التفكير في أي اتجاه . واذا هم مهلكون بجملتهم حتى آخر واحد منهم .

﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا ﴾ . .

ودابر القوم هو آخر واحد منهم يدبرهم أي يجيء على أدبارهم فإذا قطع هذا فأوائلهم أولى ! . . و﴿ الذين ظلموا ﴾ تعني هنا الذين أشركوا . . كما هو التعبير القرآني في أغلب المواضع عن الشرك بالظلم وعن المشركين بالظالمين . .

﴿ والحمد لله رب العالمين ﴾ . .

تعقيب على استئصال الظالمين ( المشركين ) بعد هذا الاستدراج الإلهي والكيد المتين . .

وهل يحمد الله على نعمة ، أجل من نعمة تطهير الأرض من الظالمين ، أو على رحمة أجل من رحمته لعباده بهذا التطهير ؟

لقد أخذ الله قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط ، كما أخذ الفراعنة والإغريق والرومان وغيرهم بهذه السنة ؛ ووراء ازدهار حضارتهم ثم تدميرها ، ذلك السر المغيب من قدر الله ؛ وهذا القدر الظاهر من سنته ؛ وهذا التفسير الرباني لهذا الواقع التاريخي المعروف .

*(207/232)*

---

ولقد كان لهذه الأمم من الحضارة ؛ وكان لها من التمكين في الأرض ؛ وكان لها من الرخاء والمتاع ؛ ما لا يقل – إن لم يزد في بعض نواحيه – عما تتمتع به اليوم أمم ؛ مستغرقة في السلطان والرخاء والمتاع ؛ مخدوعة بما هي فيه ؛ خادعة لغيرها ممن لا يعرفون سنة الله في الشدة والرخاء . .

هذه الأمم لا تدرك أن هناك سنة ، ولا تشعر أن الله يستدرجها وفق هذه السنة . والذين

يدورون في فلكها يبهرهم اللألاء الخاطف ، ويتعاظمهم الرخاء والسلطان ، ويخدعهم إملاء الله لهذه الأمم ، وهي لا تعبد الله أو لا تعرفه ، وهي تتمرد على سلطانه ، وهي تدعي لأنفسها خصائص ألوهيته ، وهي تعيث في الأرض فساداً ، وهي تظلم الناس بعد اعتدائها على سلطان الله .

.

ولقد كنت – في أثناء وجودي في الولايات المتحدة الأمريكية – أرى رأي العين مصداق قول الله سبحانه : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾ . . فإن المشهد الذي ترسمه هذه الآية . . مشهد تدفق كل شيء من الخيرات والأرزاق بلا حساب ! . . لا يكاد يتمثل في الأرض كلها كما يتمثل هناك !

وكنت أرى غرور القوم بهذا الرخاء الذي هم فيه ، وشعورهم بأنه وقف على " الرجل الأبيض " وطريقة تعاملهم مع الملونين في عجرفة مرذولة ، وفي وحشية كذلك بشعة ! وفي صلف على أهل الأرض كلهم لا يقاس إليه صلف النازية الذي شهر به اليهود في الأرض كلها حتى صار علماً على الصلف العنصري . بينما الأمريكي الأبيض يزاوله تجاه الملونين في صورة أشد وأقسى ! وبخاصة إذا كان هؤلاء الملونون من المسلمين . .

كنت أرى هذا كله فأذكر هذه الآية ، وأتوقع سنة الله ، وأكاد أرى خطواتها وهي تدب إلى الغافلين :

﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ . .

*(208/232)*

---

وإذا كان الله قد رفع عذاب الاستئصال بعد بعثة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فهناك ألوان من العذاب باقية . والبشرية – وبخاصة الأمم التي فتحت عليها أبواب كل شيء – تذوق منها الكثير . على الرغم من هذا النتاج الوفير ، ومن هذا الرزق الغزير !

إن العذاب النفسي ، والشقاء الروحي ، والشذوذ الجنسي ، والانحلال الخلقي . . الذي تقاسي منه هذه الأمم اليوم ، ليكاد يغطي على الإنتاج والرخاء والمتاع ؛ وليكاد يصبغ الحياة كلها بالنكد والقلق والشقاء ! ذلك إلى جانب الطلائع التي تشير إليها القضايا الأخلاقية السياسية ، التي تباع فيها أسرار الدولة ، وتقع فيها الخيانة للأمة ، في مقابل شهوة أو شذوذ . . وهي طلائع لا تخطىء على نهاية المطاف !

وليس هذا كله إلا بداية الطريق . . وصدق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا – على معاصيه – ما يحب . فإنما هو استدراج " . ثم تلا ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء . حتى إذا فرحوا بما أوتوا

أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾ . . ( رواه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ) .

غير أنه ينبغي ، مع ذلك ، التنبيه إلى أن سنة الله في تدمير ( الباطل ) أن يقوم في الأرض ( حق ) يتمثل في ( أمة ) . . ثم يقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق . . فلا يقعدنّ أهل الحق كسالى يرتقبون أن تجري سنة الله بلا عمل منهم ولا كد . فإنهم حينئذ لا يمثلون الحق ، ولا يكونون أهله . . وهم كسالى قاعدون . . والحق لا يتمثل إلا في أمة تقوم لتقر حاكمية الله في الأرض ، وتدفع المغتصبين لها من الذين يدعون خصائص الألوهية .

*(209/232)*

---

. هذا هو الحق الأول ، والحق الأصيل . . ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ بعد ذلك يقف السياق القرآني المشركين بالله ، أمام بأس الله ، في ذوات أنفسهم ، في أسماعهم وأبصارهم وقلوبهم ، وهم عاجزون عن رده ، وهم لا يجدون كذلك إلهاً غير الله ، يرد عليهم أسماعهم وأبصارهم وقلوبهم إن أخذها الله منهم :

﴿ قل : أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم ، من إله غير الله يأتيكم به ؟ انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون ! ﴾ . .

وهو مشهد تصويري يجسم لهم عجزهم أمام بأس الله من جانب ، كما يصور لهم حقيقة ما

يشركون به من دون الله في موقف الجد من جانب . . ولكن هذا المشهد يهزهم من الأعماق . . إن خالق الفطرة البشرية يعلم أنها تدرك ما في هذا المشهد التصويري من جد ، وما وراءه من حق . . أنها تدرك أن الله قادر على أن يفعل بها هذا . قادر على أن يأخذ الأسماع والأبصار ، وأن يختم على القلوب ، فلا تعود هذه الأجهزة تؤدي وظائفها . وأنه – إن فعل ذلك – فليس هناك من إله غيره يرد بأسه . .

وفي ظلال هذا المشهد ، الذي يبعث بالرجفة في القلوب والأوصال ، ويقرر في الوقت ذاته تفاهة عقيدة الشرك ، وضلال اتخاذ الأولياء من دون الله . . في ظلال هذا المشهد يعجب من أمر هؤلاء الذين يصرف لهم الآيات ، وينوعها ، ثم هم يميلون عنها كالبعير الذي يصدف أي يميل بخفه إلى الجانب الوحشي الخارجي من مرض يصيبه !

﴿ انظر كيف نصرّف الآيات ، ثم هم يصدفون ! ﴾ . .

وهو تعجيب مصحوب بمشهد الصدوف ! المعروف عند العرب ، والذي يذكرهم بمشهد البعير المؤوف ! فيثير في النفس السخرية والاستخفاف والعزوف !

وقبل أن يفيقوا من تأثير ذلك المشهد المتوقع يتلقاهم بتوقع جديد ، ليس على الله ببعيد ، يريهم فيه مصارعهم – وهم الظالمون : أي المشركون – وهو يرسم مصارع الظالمين حين يباغتهم عذاب الله أو يواجههم ؛ وحين يأتيهم على غرة أو وهم مستيقظون :

﴿ قل : أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة ، هل يهلك إلا القوم الظالمون ؟ ﴾ . .

إن عذاب الله يأتي في أية صورة وفي أية حالة . وسواء جاءهم العذاب بغتة وهم غارون لا يتوقعونه ، أو جاءهم جهرة وهم صاحون متأهبون . فإن الهلاك سيحل بالقوم الظالمين – أي المشركين كغالبية التعبير في القرآن الكريم – وسينالهم هم دون سواهم . ولن يدفعوه عن أنفسهم سواء جاءهم بغتة أو جهرة . فهم أضعف من أن يدفعوه ولو واجهوه ! ولن يدفعه عنهم أحد ممن يتولونهم من الشركاء . فكلهم من عبيد الله الضعفاء !

وهو توقع يعرضه السياق عليهم ليتقوه ، ويتقوا أسبابه قبل أن يجيء . والله – سبحانه – يعلم أن عرض هذا التوقع في هذا المشهد يخاطب الكينونة البشرية خطاباً تعرفه في قرارتها ، وتعرف ما وراءه من حقيقة ترجف لها القلوب !

وحين تبلغ الموجة أقصى مدها ، بعرض هذه المشاهد المتوالية ، والتعقيبات الموحية ، والإيقاعات التي تحمل الإنذار إلى أعماق السرائر .

. تختم ببيان وظيفة الرسل ، الذين تطالبهم أقوامهم بالخوارق ، وإن هم إلا مبلغين ، مبشرين ومنذرين ، ثم يكون بعد ذلك من أمر الناس ما يكون ، وفق ما يتخذونه لأنفسهم من مواقف يترتب عليها الجزاء الأخير :

﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين . فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم

يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا يمسّهم العذاب بما كانوا يفسقون ﴾ . .

لقد كان هذا الدين يعد البشرية للرشد العقلي ، ويؤهلها لاستخدام هذه الأداة العظيمة التي وهبها الله للإنسان استخداماً كاملاً في إدراك الحق الذي تنبث آياته في صفحات الوجود ، وفي أطوار الحياة ، وفي أسرار الخلق ؛ والذي جاء هذا القرآن لكشفه وتجليته وتوجيه الإدراك البشري إليه . .

*(211/232)*

---

وكان هذا كله يقتضي الانتقال بالبشرية من عهد الخوارق الحسية ؛ التي تلوي الأعناق وتجبر المنكرين على الإذعان ، أمام القهر بالخارقة المادية البادية للعيان ! إلى توجيه الإدراك البشري لملاحظة بدائع الصنعة الإلهية في الوجود كله . وهي في ذاتها خوارق معجزة . . ولكنها خوارق دائمة يقوم عليها كيان الوجود ، ويتألف منها قوامه وإلى مخاطبة هذا الإدراك بكتاب من عند الله باهر معجز في تعبيره ومعجز في منهجه ومعجز في الكيان الاجتماعي العضوي الحركي الذي يرمي إلى إنشائه على غير مثال . والذي لم يلحق به من بعده أي مثال !

وقد اقتضى هذا الأمر تربية طويلة ، وتوجيهاً طويلاً ، حتى يألف الإدراك البشري هذا

اللون من النقلة ، وهذا المدى من الرقي ؛ وحتى يتجه الإنسان إلى قراءة سفر الوجود بإدراكه البشري ، في ظل التوجيه الرباني ، والضبط القرآني ، والتربية النبوية . . قراءة هذا السفر قراءة غيبية واقعية إيجابية في آن واحد ، بعيدة عن منهج التصورات الذهنية التجريدية التي كانت سائدة في قسم من الفلسفة الإغريقية واللاهوت المسيحي ؛ وعن منهج التصورات الحسية المادية التي كانت سائدة في قسم من تلك الفلسفة وفي بعض الفلسفة الهندية والمصرية والبوذية والمجوسية كذلك ، مع الخروج من الحسية الساذجة التي كانت سائدة في العقائد الجاهلية العربية !

وجانب من تلك التربية وهذا التوجيه يتمثل في بيان وظيفة الرسول ، وحقيقة دوره في الرسالة على النحو الذي تعرضه هاتان الآيتان – كما ستعرضه الموجة التالية في سياق السورة – فالرسول بشر ، يرسله الله ليبشر وينذر ، وهنا تنتهي وظيفته ، وتبدأ استجابة البشر ، ويمضي قدر الله ومشيئته من خلال هذه الاستجابة ، وينتهي الأمر بالجزاء الإلهي وفق هذه الاستجابة . . فمن آمن وعمل صالحاً يتمثل فيه الإيمان ، فلا خوف عليه مما سيأتي ولا هو يحزن على ما أسلف . فهناك المغفرة على ما أسلف ، والثواب على ما أصلح .

. ومن كذب بآيات الله التي جاءه بها الرسول ، والتي لفته إليها في صفحات هذا الوجود . يمسهم العذاب بسبب كفرهم ، الذي يعبر عنه هنا بقوله : ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ حيث يعبر القرآن غالباً عن الشرك والكفر بالظلم والفسق في معظم المواضع . .

تصور واضح بسيط لا تعقيد فيه ولا غموض . وبيان محكم عن الرسول ووظيفته وحدود عمله في هذا الدين . . تصور يفرد الله سبحانه بالألوهية وخصائصها ؛ ويرد إلى مشيئة الله وقدره الأمر كله ، ويجعل للإنسان – من خلال ذلك – حرية اتجاهه وتبعة هذا الاتجاه ، ويبين مصائر الطائعين لله والعصاة بياناً حاسماً ؛ وينفي كل الأساطير والتصورات الغامضة عن طبيعة الرسول وعمله ، مما كان سائداً في الجاهليات . . وبذلك ينقل البشرية إلى عهد الرشد العقلي ؛ دون أن يضرب بها في تيه الفلسفات الذهنية ، والجدل اللاهوتي ، الذي استنفذ طاقة الإدراك البشري أجيالاً بعد أجيال ! ! ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 2 صـ 1088.1094 ﴾

*(213/232)*

قوله تعالى ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (50) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بين وظيفة الرسل ، وقسم المرسل إليهم ، أمره بنفي ما يتسبب عنه قولهم من أن البشر لا يكون رسولاً ، واقتراحهم عليه الآيات من ظن قدرته على ما يريد ، أو أن كل ما يقدر عليه يبديه لهم ، أو إلزامه بذلك ، منها لهم على وجه ظلمهم بغلظهم أو عنادهم فقال : ﴿ قل ﴾ أي في جواب قولهم ﴿ لولا أنزل عليه آية ﴾ [ يونس : 20 ] ونحوه .

ولما لم يكن لهم عهد بأن بشراً يكون عنده الخزائن ، يتصرف فيها بما يريد ، وكان يأتيهم من الآيات من انشقاق القمر ومشي الشجر وكلام الضب والحجر ونبع الماء والحراسة بشواظ النار وفحل الجمال ونحو ذلك مما هو معلوم في دلائل النبوة بما ربما أوقع في ظنهم أن لازمه دعواه لأنه يملك الخزائن ، فكانوا يقترحون عليه الآيات الدالة إلزاماً له بذلك لقصد التكذيب .

نفى ما ظنوا أنه يلزمه دعواه فقال : ﴿ لا أقول لكم ﴾ أي الآن ولا فيما يستقبل من الزمان ، ولما كان تعالى قد أعطاه مفاتيح خزائن الأرض ، فأباها تواضعاً لله سبحانه ، قيد بقوله " لكم " إفهاماً لما يخبر به المؤمنين من ذلك ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ، وأما الكفرة فإن

إخبارهم بذلك مما يغريهم على الاقتراحات استهزاء فلا فائدة له ﴿ عندي خزائن الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي له الغنى المطلق والعزة البالغة ، فلا كفوء له أي فآتيكم ما تقترحون من الآيات وما تشتهونه من الكنوز وما تستهزئون به من العذاب ، وإنما الخزائن بيده ، يفعل فيها ما يشاء .

*(214/232)*

---

ولما كانوا يعهدون أن بعض البشر من الكهان يخبرون بشيء من المغيبات ، وكان الكهان يخلطون الصدق بالكذب ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخبرهم بمغيبات كثيرة فيكون كما قال دائماً لا خلف في شيء منها ولا زيادة ولا نقص ، فصاروا يظنون أنه يعلم الغيب ، ولكنهم يظنونه من آيات الكهان حتى أطلقوا عليه أنه كاهن ، فكانوا يسألونه عن وقت العذاب الذي يتوعدهم به وعن غيره ، لعلهم يظفرون عليه بشيء مما يقوله الكهان ولا يكون ، فيعدونه عليه ؛ نفى ما ظنوه غيره على هذا المقام أن ينسب إلى غير مالكه الذي لا يجوز أن يكون لغيره ، فقال نافياً له من أصله ، لا للقول فقط كما في سابقه ولاحقه ، عاطفاً على ﴿ لا أقول ﴾ لا على ﴿ عندي ﴾ ﴿ ولا أعلم الغيب ﴾ أي فأخبركم بوقت الفصل بيني وبينكم من مطلق العذاب أو قيام الساعة ، فإن هاتين الحالتين – ملك الخزائن وعلم الغيب

- ليستا إلا لمرتبة الألوهية ، وإنما لم أدّع الأول كما ألزمتموني به ، ولا اتصفت بالثاني بما ظننتم .

ولما كانوا يظنون أن الرسول لا يكون إلا ملكاً ، فكانوا يلزمونه بدعواه الرسالة دعوى الملائكة ليلزموه بذلك ادعاء ما هو ظاهر البطلان ، قال : ﴿ ولا أقول ﴾ أي بدعوى الرسالة ؛ ولما كان صلى الله عليه وسلم أعلى الأنبياء صفاء وأنورهم قلباً وأشدهم في كل هدى إضاءة وأنقاهم من نقائص البشر ، وكان هذا أمراً من الله له .

قيد بقوله : ﴿ لكم ﴾ إفهاماً لأنه لا يمتنع عليه أن يقول ذلك ، بل لو قاله كان صادقاً ، ومثله كثير في مجازاتهم ومجاري عاداتهم في محاوراتهم ، وأما إسقاط " لكم " في قصة نوح من سورة هود عليهما السلام فتواضعاً منه لكونه من قوله ، من غير تصريح بإسناد الأمر فيه إلى الله تعالى ﴿ إني ملك ﴾ فأقوى على الأفعال التي تقوى عليها الملائكة من التحرز عن المأكل والمشرب وغيرهما من أفعال الملائكة .

*(215/232)*

---

فلما انتفى عنه ما ألزموه به وما ظنوه فيه من كونه إلهاً أو ملكاً ، انحصر الأمر في أنه رسول واقف عند ما حده له مرسله ، فقال على وجه النتيجة : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ أتبع ﴾ أي

بغاية جهدي ﴿ إلا ما يوحى إلي ﴾ أي ما رتبتي إلا امتثال ما يأمرني به ربي في هذا القرآن الذي هو – بعجزكم عن معارضته – أعظم شاهد لي ، ولم يوح إلي فيه أن أقول شيئاً مما تقدم نفيه ، وأوحى إلي لأنذركم به خصوصاً ، وأنذر به كل من بلغه عموماً ، وذلك غير منكر في العقل ولا مستبعد بل قد وقع الإرسال لكثير من البشر ، وقد قام على ثبوته لي واضح الدلائل وثابت الحجج وقاطع البراهين ، فإن كان فيه الإذن لي بإبراز خارق أبرزته ، وإن كان فيه الإعلام بمغيب أبديته ، وإلا اقتصرت على الإبلاغ مع التحدي ، وهو مخبر بأن الله – الذي ثبت بعجزكم عن معارضته أنه قوله – شاهد لي بصحة الرسالة وصدق المقالة .

ولما ثبت بهذا أنهم عمي الأبصار والبصائر ، لا يهتدون إلى ما ينفعهم ، ولا يقدرون على إفحام خصم ولا التفصي عن وهم ولا وصم ، بل هم كالسالك بين المهالك ، يتبين بادئ بدئه في دعواه الحكمة زوره وكذبه وفجوره لأتباع الهوى الذي هو أدوأ أدواء ، وأنه صلى الله عليه وسلم أبصر البصراء وأحكم الحكماء لأتباعه علام الغيوب ، وكان موضع أن يقال : ما يوحى إليك في هذا المقام ؟ قال على وجه التبكيت لهم : ﴿ قل ﴾ أي لكل من يسمع قولك بعد هذا البيان الفائت لقوى الإنسان ﴿ هل يستوي ﴾ أي يكون سواء من غير مرية ﴿ الأعمى والبصير ﴾ فإن قالوا : نعم ، كابروا الحس ، وإن قالوا : لا ، قيل : فمن تبع هذه الآيات الجليات فهو البصير ، ومن أعرض عنها فهو العمى ، ومن سوى بين الخالق وبين شيء

من خلقه فهو أعمى العمى ؛ ثم أمره بعد الإنكار للتسوية بينهما بأن ينكر عليهم فساد نظرهم وعمى فكرهم بقوله : ﴿ أفلا تتفكرون ﴾ أي فيردكم فكركم عن هذه الضلالات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 640. 641 ﴾

(216/232)

---

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذا من بقية الكلام على قوله ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ ءايَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [ الأنعام : 37 ] فقال الله تعالى قل لهؤلاء الأقوام ، إنما بعثت مبشراً ومنذراً ، وليس لي أن أتحكم على الله تعالى وأمره الله تعالى أن ينفي عن نفسه أموراً ثلاثة ، أولها : قوله ﴿ لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ الله ﴾ فاعلم أن القوم كانوا يقولون له إن كنت رسولاً من عند الله ، فاطلب من الله حتى يوسع علينا منافع الدنيا وخيراتها ، ويفتح علينا أبواب سعادتها .

فقال تعالى قل لهم إني لا أقول لكم عندي خزائن الله ، فهو تعالى يؤتي الملك من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير لا بيدي والخزائن جمع خزانة ، وهو اسم للمكان الذي يخزن فيه الشيء وخزن الشيء إحرازه ، بحيث لا تناله الأيدي .

وثانيها : قوله ﴿ وَلَا أَعْلَمُ الغيب ﴾ ومعناه أن القوم كانوا يقولون له إن كنت رسولاً من عند الله فلا بدّ وأن تخبرنا عما يقع في المستقبل من المصالح والمضار ، حتى نستعد لتحصيل تلك المصالح ، ولدفع تلك المضار .

فقال تعالى : قل إني لا أعلم الغيب فكيف تطلبون مني هذه المطالب ؟

والحاصل أنهم كانوا في المقام الأول يطلبون منه الأموال الكثيرة والخيرات الواسعة ، وفي المقام الثاني كانوا يطلبون منه الاخبار عن الغيوب ، ليتوسلوا بمعرفة تلك الغيوب إلى الفوز بالمنافع والاجتناب عن المضار والمفاسد .

وثالثها : قوله ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ ومعناه أن الوقم كانوا يقولون ﴿ مَّالِ هذا الرسول يَأْكُلُ الطعام وَيَمْشِى فِى الاسواق ﴾ [ الفرقان : 7 ] ويتزوج ويخالط الناس .

فقال تعالى : قل لهم إني لست من الملائكة .

واعلم أن الناس اختلفوا في أنه ما الفائدة في ذكر نفي هذه الأحوال الثلاثة ؟

فالقول الأول : أن المراد منه أن يظهر الرسول من نفسه التواضع لله والخضوع له والاعتراف بعبوديته ، حتى لا يعتقد فيه مثل اعتقاد النصارى في المسيح عليه السلام .

والقول الثاني : أن القوم كانوا يقترحون منه إظهار المعجزات القاهرة القوية ، كقولهم ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعًا ﴾ [ الإسراء : 90 ] إلى آخر الآية فقال تعالى في آخر الآية ﴿ قُلْ سبحان رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ [ الإسراء : 93 ] يعني لا أدعي إلا الرسالة والنبوّة ، وأما هذه الأمور التي طلبتموها ، فلا يكن تحصيلها إلا بقدرة الله ، فكان المقصود من هذا الكلام إظهار العجز والضعف وأنه لا يستقل بتحصيل هذه المعجزات التي طلبوها منه .

والقول الثالث : أن المراد من قوله ﴿ لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ الله ﴾ معناه إني لا أدعي كوني موصوفاً بالقدرة اللائقة بالإله تعالى .

وقوله ﴿ وَلا أَعْلَمُ الغيب ﴾ أي ولا أدعي كوني موصوفاً بعلم الله تعالى .

وبمجموع هذين الكلامين حصل أنه لا يدعي الإلهية .

ثم قال : ﴿ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ وذلك لأنه ليس بعد الإلهية درجة أعلى حالاً من الملائكة ، فصار حاصل الكلام كأنه يقول لا أدعي الإلهية ولا أدعي الملكية ولكني أدعي الرسالة ، وهذا منصب لا يمتنع حصوله للبشر ، فكيف أطبقتم على استنكار قولي ودفع دعواي ؟ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 190 . 191 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللَّهِ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : الرزق ، أي لا أقدر على إغناء فقير ، ولا إفقار غني ، قاله الكلبي .

والثاني : مفاتيح خزائن العذاب لأنه خَوَّفَهُم منه ، فقالوا متى يكون هذا ؟ قاله مقاتل .

﴿ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : علم الغيب في نزول العذاب عليهم متى يكون ؟ ، قاله مقاتل .

والثاني : علم جميع ما غاب من ماض ومستقبل ، إلا أن المستقبل لا يعلمه إلا الله أو من أطلعه الله تعالى على علمه من أنبيائه ، وأما الماضي فقد يعلمه المخلوقون من أحد الوجهين : إما من معاينة أو خبر ، فإن كان الإِخبار عن مستقبل ، فهو من آيات الله المعجزة ، وإن كان عن ماض فإن علم به غير المخبر والمخبر لم يكن معجزاً ، وإن لم يعلم به أحد وعلم به المخبِر وحده كان معجزاً ، فنفى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نفسه علم الغيب ، لأنه لا يعلمه غير الله تعالى ، وإن ما أخبر به من غيب فهو عن الله ووحيه .

﴿ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه يريد أنه لا يقدر على ما يعجز عنه العباد ، وإن قدرت عليه الملائكة .

والثاني : أنه يريد بذلك أنه من جملة البشر وليس بمَلَك ، لينفي عن نفسه غُلُوَّ النصارى في المسيح وقولهم : إنه ابن الله .

ثم في نفيه أن يكون ملكاً وجهان :

أحدهما : أنه بَيَّنَ بذلك فضل الملائكة على الأنبياء ، لأنه دفع عن نفسه منزلة ليست له .

والثاني : أنه أراد إني لست ملكاً في السماء ، فأعلم غيب السماء الذي تشاهده الملائكة ويغيب عن البشر ، وإن كان الأنبياء أفضل من الملائكة مع غيبهم عما تشاهده الملائكة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ ﴾

*(219/232)*

---

هذا جواب لقولهم : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ فالمعنى ليس عندي خزائن قدرته فأنزل ما اقترحتموه من الآيات ، ولا أعلم الغيب فأخبركم به .

والخزانة ما يُخزَن فيه الشيءُ ؛ ومنه الحديث : " فإنما تَخزُن لهم ضروعُ مواشيهم أطعماتهم أيحب أحدكم أن توتى مَشْرَبَته فتكسرِ خَزانتُه " وخزائن الله مقدوراته ؛ أي لا أملك أن

أفعل كل ما أُريد مما تقترحون ﴿ ولا أَعْلَمُ الغيب ﴾ أيضاً ﴿ ولا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ وكان القوم يتوهمون أن الملائكة أفضل ، أي لست بملَك فأشاهد من أُمور الله ما لا يشهده البشر .

واستدل بهذا القائلون بأن الملائكة أفضل من الأنبياء .

وقد مضى في "البقرة" القول فيه فتأمّله هناك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال الخازن :

(220/232)

---

قوله تعالى : ﴿ قل لا أقول لكم ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يعني : قل يا محمد لهؤلاء المشركين لا أقول لكم ﴿ عندي خزائن الله ﴾ نزلت حين اقترحوا عليه الآيات فأمره الله تعالى أن يقول لهم إنما بعثت بشيراً ونذيراً ولا أقول لكم عندي خزائن الله جمع خزانة وهي اسم للمكان الذي يخزن فيه الشيء وخزن الشيء إحرازه بحيث لا تناله الأيدي والمعنى ليس عندي خزائن رزق الله فأعطيكم منها ما تريدون لأنهم كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم إن كنت رسولاً من الله فاطلب منه أن يوسع علينا عيشنا ويغني

فقرنا فأخبر أن ذلك بيد الله لا بيدي ﴿ ولا أعلم الغيب ﴾ يعني فأخبركم بما مضى وما سيقع في المستقبل ، وذلك أنهم قالوا له : أخبرنا بمصالحنا ومضارنا في المستقبل حتى نستعد لتحصيل المصالح ودفع المضار ، فأجابهم بقوله : ولا أعلم الغيب فأخبركم بما تريدون ﴿ ولا أقول لكم إني ملك ﴾ وذلك أنهم قالوا : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ويتزوج النساء ؟ فأجابهم بقوله : ولا أقول لكم إني ملك لأن الملك يقدر على ما لا يقدر عليه البشر ويشاهد ما لا يشاهدون فلست أقول شيئاً من ذلك ولا أدّعيه فتنكرون قولي وتجحدون أمري .

وإنما نفي عن نفسه الشريفة هذه الأشياء تواضعاً لله تعالى واعترافاً له بالعبودية وأن لا يقترحوا عليه الآيات العظام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

*(221/232)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ ﴾ أيها الرسول البشير النذير للكفرة الذين يقترحون عليك ما يقترحون : ﴿ لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ الله ﴾ أي مقدوراته جمع خزينة أو خزانة وهي في الأصل ما يحفظ فيه الأشياء النفيسة تجوز فيها عما ذكر ، وعلى ذلك الجبائي وغيره ، ولم يقل : لا أقدر على ما

يقدر عليه الله قيل : لأنه أبلغ لدلالته على أنه لقوة قدرته كأن مقدوراته مخزونة حاضرة عنده ، وقيل : إن الخزائن مجاز عن المرزوقات من إطلاق المحل على الحال أو اللازم على الملزوم ؛ وقيل : الكلام على حذف مضاف أي خزائن رزق الله تعالى أو مقدوراته ، والمعنى لا أدعي أن هاتيك الخزائن مفوضة إليَّ أتصرف فيها كيفما أشاء استقلالاً أو استدعاء حتى تقترحوا عليَّ تنزيل الآيات أو إنزال العذاب أو قلب الجبال ذهباً أو غير ذلك مما لا يليق بشأني .

﴿ وَلا أَعْلَمُ الغيب ﴾ عطف على محل ﴿ عِندِى خَزَائِنُ الله ﴾ فهو مقول ﴿ أَقُولُ ﴾ أيضاً ، ونظر فيه الحلبي من حيث إنه يؤدي إلى أن يصير التقدير ولا أقول لكم لا أعلم الغيب وليس بصحيح .

وأجيب بأن التقدير ولا أقول لكم أعلم الغيب بإضماء القول بين ﴿ لا ﴾ و ﴿ أَعْلَمُ ﴾ لا بين الواو و ﴿ لا ﴾ ، وقيل : ( لا ) في ﴿ لا أَعْلَمُ ﴾ مزيدة مؤكدة للنفي .

وقال أبو حيان : "الظاهر أنه عطف على ﴿ لا أَقُولَ ﴾ لا معمول له فهو أمر أن يخبر عن نفسه بهذه الجمل ( الثلاث ) فهي معمولة للأمر الذي هو ﴿ قُلْ ﴾ " ، وتعقب بأنه لا فائدة في الإخبار بأني لا أعلم الغيب وإنما الفائدة في الإخبار بأني لا أقول ذلك ليكون نفيا لا دعاء الأمرين اللذين هما من خواص الإلهية ليكون المعنى إني لا أدعي الإلهية .

﴿ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ ولا أدعي الملكية ، ويكون تكرير ﴿ لا أَقُولَ ﴾ إشارة إلى

هذا المعنى .

وقال بعض المحققين : إن مفهومي ﴿ عِندِى خَزَائِنُ الله ﴾ .

(222/232)

---

و ﴿ إِنّى مَلَكٌ ﴾ لما كان حالهما معلوماً عند الناس لم يكن حاجة إلى نفيهما وإنما الحاجة إلى نفي ادعائهما تبرياً عن دعوى الباطل ، ومفهوم ﴿ أَنّى لاَ أَعْلَمُ الغيب ﴾ لما لم يكن معلوماً احتيج هنا إلى نفيه فدعوى أنه لا فائدة في الإخبار بذلك منظور فيها .

والذي اختاره مولانا شيخ الإسلام القول الأول وأن المعنى "ولا أدعي أيضاً أني أعلم الغيب من أفعاله عز وجل حتى تسألوني عن وقت الساعة أو وقت إنزال العذاب أو نحوهما .

وخص ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الغيب بعاقبة ما يصيرون إليه أي لا أدعي ذلك ولا أدعي أيضاً الملكية حتى تكلفوني من الأفاعيل الخارقة للعادات ما لا يطيقه البشر من الرقي في السماء ونحوه أو تعدوا عدم اتصافي بصفاتهم قادحاً في أمري كما ينبىء عنه قولهم :

﴿ مالِ هذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطعام وَيَمْشِى فِى الأسواق ﴾ [ الفرقان : 7 ] وليس في الآية على هذا دليل على تفضيل الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيما هو محل النزاع

كما زعم الجبائي لأنها إنما وردت رداً على الكفار في قولهم ﴿ مالِ هذاَ الرَّسُولِ ﴾ الخ وتكليفهم له عليهم الصلاة والسلام بنحو الرقي في السماء .

ونحن لا ندعي تميز الأنبياء على الملائكة عليهم الصلاة والسلام في عدم الأكل مثلا والقدرة على الأفاعيل الخارقة كالرقي ونحوه ولا مساواتهم لهم في ذلك بل كون الملائكة متميزين عليهم عليهم الصلاة والسلام في ذلك مما أجمع عليه الموافق والمخالف ولا يوجب ذلك اتفاقاً على أن الملائكة أفضل منهم بالمعنى المتنازع فيه وإلا لكان كثير من الحيوانات أفضل من الإنسان ولا يدعي ذلك الاجماد .

وهذا الجواب أظهر مما نقل عن القاضي زكريا من أن هذا القول منه صلى الله عليه وسلم من باب التواضع وإظهار العبودية نظير قوله عليه الصلاة والسلام : " لا تفضلوني على ابن متى " في رأي بل هو ليس بشيء كما لا يخفى .

*(223/232)*

---

وقيل : إن الأفضلية مبنية على زعم المخاطبين وهو من ضيق العطن ، وقيل : حيث كان معنى الآية لا أدعي الألوهية ولا الملكية لا يكون فيها ترق من الأدنى إلى الأعلى بل هي حينئذ ظاهرة في التدلي ، وبذلك تهدم قاعدة استدلال الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ لَّن

يَسْتَنكِفَ المسيح أَن يَكُونَ عَبْداً للَّهِ وَلاَ الملائكة المقربون ﴾ [النساء : 172] على تفضيل الملك على البشر إذ لا يتصور الترقي من الألوهية إلى ما هو أعلا منها إذ لا أعلا ليترقى إليه .

وتعقب بأنه لا هدم لها مع إعادة ﴿ لا أَقُولَ ﴾ الذي جعله أمراً مستقلاً كالإضراب إذ المعنى لا أدعي الألوهية بل ولا الملكية ، ولذا كرر ﴿ لا أَقُولَ ﴾ .

وقال بعضهم في التفرقة بين المقامين : إن مقام نفي الاستنكاف ينبغي فيه أن يكون المتأخر أعلا لئلا يلغو ذكره ، ومقام نفي الادعاء بالعكس فإن من لا يتجاسر على دعوى الملكية أولى أن لا يتجاسر على دعوى الألوهية الأشد استبعاداً ، نعم في كون المراد من الأول نفي دعوى الألوهية والتبري منها نظر وإلا لقيل لا أقول لكن إني إله كما قيل ﴿ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ وأيضاً في الكناية عن الألوهية بعندي خزائن الله ما لا يخفى من البشاعة ، وإضافة الخزائن إليه تعالى منافية لها .

ودفع المنافاة بأن دعوى الألوهية ليس دعوى أن يكون هو الله تعالى بل أن يكون شريكاً له عز اسمه في الألوهية فيه نظر لأن إضافة الخزائن إليه تعالى اختصاصية فتنافي الشركة اللهم إلا أن يكون خزائن مثل خزائن أو تنسب إليه وهو كما ترى .

ومن هنا قال شيخ الإسلام : إن جعل ذلك تبرياً عن دعوى الألوهية مما لا وجه له قطعاً .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

---

وقال ابن عاشور :

﴿ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ ﴾

لمّا تقضّت المجادلة مع المشركين في إبطال شركهم ودحْض تعاليل إنكارهم نبوءة محمد صلى الله عليه وسلم بأنَّهم لا يؤمنون بنبوءته إلاّ إذا جاء بآية على وفق هواهم ، وأبطلت شبهتهم بقوله : ﴿ وما نرسل المرسلين إلاّ مبشّرين ومنذرين ﴾ [ الأنعام : 48 ] وكان محمد صلى الله عليه وسلم ممَّن شمله لفظ المرسلين ، نقل الكلام إلى إبطال معاذيرهم فأعلمهم الله حقيقة الرسالة واقترانها بالآيات فبيّن لهم أنّ الرسول هو الذي يتحدّى الأمّة لأنّه خليفة عن الله في تبليغ مراده من خلقه ، وليست الأمّة هي التي تتحدّى الرسول ، فآية صدق الرسول تجيء على وفق دعواه الرسالة ، فلو أدّعى أنّه مَلك أو أنّه بُعث لإنقاذ الناس من أرزاء الدنيا ولإدناء خيراتها إليهم لكان من عذرهم أن يسألوه آيات تؤيِّد ذلك ، فأمّا والرسول مبعوث للهدى فآيته أن يكون ما جاء به هو الهدى وأن تكون معجزته هو ما قارن دعوته ممّا يعجز البشر عن الإتيان بمثله في زمنهم .

فقوله ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ﴾ استئناف ابتدائي انتقل به الكلام من غرض

إلى غرض .

وافتتاح الكلام بالأمر بالقول للاهتمام بإبلاغه ، كما تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ﴾ [ الأنعام : 40 ] .

وقد تكرّر الأمر بالقول من هنا إلى قوله ﴿ لكلّ نبأ مستقرّ ﴾ [ الأنعام : 67 ] اثنتي عشرة مرة .

والاقتصار على نفي ادّعاء هذه الثلاثة المذكورة في الآية ناظر إلى ما تقدّم ذكره من الآيات التي سألوها من قوله تعالى : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملَك ﴾ [ الأنعام : 8 ] وقوله : ﴿ ولو نَزّلنا عليك كتاباً في قرطاس ﴾ [ الأنعام : 7 ] وقوله : ﴿ فإن استطعتَ أن تَبْتَغِي نَفَقاً في الأرض ﴾ [ الأنعام : 35 ] الآية .

*(225/232)*

---

وافتتح الكلام بنفي القول ليدلّ على أنّ هذا القول لم يقترن بدعوى الرسالة فلا وجه لاقتراح تلك الأمور المنفي قولها على الرسول لأنّ المعجزة من شأنها أن تجيء على وفق دعوى الرسالة .

واللام في ﴿ لكم ﴾ لام التبليغ ، وهي مفيدة تقوية فعل القول عندما لا تكون حاجة لذكر

المواجَه بالقول كما هنا لظهور أنّ المواجَه بالقول هم المكذّبون ، ولذلك ورد قوله تعالى : ﴿ ولا أقول إنّي ملَك ﴾ [ هود : 31 ] مجرّداً عن لام التبليغ .

فإذا كان الغرض ذكر المواجَه بالقول فاللام حينئذٍ تسمَّى لام تعدّية فعل القول فالذي اقتضى اجتلابَ هذه اللام هنا هو هذا القول بحيث لو قاله قائل لكان جديراً بلام التبليغ .

والخزائن جمع خِزانة بكسر الخاء وهي البيت أو الصندوق الذي يحتوي ما تتوق إليه النفوس وما ينفع عند الشدّة والحاجة .

والمعنى أنّي ليس لي تصرّف مع الله ولا أدّعي أني خازن معلومات الله وأرزاقه .

و﴿ خزائن الله ﴾ مستعارة لتعلّق قدرة الله بالإنعام وإعطاء الخيرات النافعة للناس في الدنيا .

شبّهت تلك التعلّقات الصّلُوحية والتنجيزية في حَجْبها عن عيون الناس وتناولهم مع نفعها إيّاهم ، بخزائن أهل اليسار والثروة التي تجمع الأموال والأحبية والخلع والطعام ، كما أطلق عليها ذلك في قوله تعالى : ﴿ ولله خزائن السماوات والأرض ﴾ [ المنافقون : 7 ] ، أي ما هو مودع في العوالم العليا والسفلى ممّا ينفع الناس ، وكذلك قوله : ﴿ وإنْ من شيء إلاّ عندنا خَزائنه ﴾ [ الحجر : 21 ] .

وتقديم المسند وهو قوله ﴿ عندي ﴾ للاهتمام به لما فيه من الغرابة والبشارة للمخبرين به لو كان يقوله .

وقوله : ﴿ ولا أعلم الغيب ﴾ عطف على ﴿ عندي خزائن الله ﴾ فهو في حيّز القول المنفي .

وأعيد حرف النفي على طريقة عطف المنفيات بعضها على بعض فإنّ الغالب أن يعاد معها حرف النفي للتنصيص على أنّ تلك المتعاطفات جميعها مقصودة بالنفي بآحادها لئلاّ يتوهّم أنّ المنفي مجموع الأمرين .

*(226/232)*

---

والمعنى لا أقول أعلم الغيب ، أي علماً مستمراً ملازماً لصفة الرسالة .

فأمّا إخباره عن بعض المغيّبات فذلك عند إرادة الله إطلاعه عليه بوحي خاصّ ، كما قال تعالى : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلاّ من ارتضى من رسول ﴾ [ الجن : 26 ، 27 ] وهو داخل تحت قوله ﴿ إنْ أتّبع إلاّ ما يوحي إلي ﴾ .

وعطف : ﴿ ولا أقول لكم إنّي ملك ﴾ على ﴿ لا أقول لكم عندي خزائن الله ﴾ بإظهار فعل القول فيه ، خلافاً لقوله : ﴿ ولا أعلم الغيب ﴾ لعلّه لدفع ثقل التقاء حرفين : ( لا ) وحرف ( إنّ ) الذي اقتضاه مقام التأكيد ، لأنّ إدّعاء مثله من شأنه أن يؤكّد ، أي لم أدّع أنّي من الملائكة فتقولوا : ﴿ لولا أنزل عليه ملك ﴾ [ الأنعام : 8 ] ، فنفي كونه ملكاً

جواب عن مقترحهم أن ينزَل عليهم ملك أو أن يكون معه ملك نذيراً .

والمقصود نفي أن يكون الرسول من جنس الملائكة حتى يكون مقارناً لمَلك آخر مقارنة تلازم كشأن أفراد الجنس الواحد .

وكانوا يتوهَّمون أنّ الرسالة تقتضي أن يكون الرسول من غير جنس البشر فلذلك قالوا : ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ﴾ [ الفرقان : 7 ] .

فالمعنى نفي ماهية المَلَكية عنه لأنّ لجنس الملك خصائص أخرى مغايرة لخصائص البشر .

وهذا كما يقول القائل لمن يكلّفه عنتاً : إنّي لست من حديد .

ومن تلفيق الاستدلال أن يستدلّ الجُبائي بهذه الآية على تأييد قول أصحابه المعتزلة بتفضيل الملائكة على الأنبياء مع بُعد ذلك عن مهيع الآية .

وقد تابعه الزمخشري ، وكذلك دأبه كثيراً ما يُرْغِم معاني القرآن على مسايرة مذهبه فتنزو عصبيته وتَنْزوي عبقريته ، وهذه مسألة سنتكلَّم عليها في مظنّتها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

قال الجبائي : الآية دالة على أن الملك أفضل من الأنبياء ، لأن معنى الكلام لا أدعي منزلة فوق منزلتي ولولا أن الملك أفضل وإلا لم يصح ذلك .

قال القاضي : إن كان الغرض بما نفى طريقة التواضع ؛ فالأقرب أن يدل ذلك على أن الملك أفضل ، وإن كان المراد نفي قدرته عن أفعال لا يقوى عليها إلا الملائكة ، لم يدل على كونهم أفضل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 191 ﴾

(227/232)

---

لطيفة

قال فى البحر المديد :

قال الورتجبي بعد قوله : ﴿ ولا أقول لكم إني مالك ﴾ : تواضع صلى الله عليه وسلم حين أقام نفسه مقام الإنسانية ، بعد أن كان أشرف خلق الله من العرش إلى الثرى ، وأظهر من الكروبيين والروحانيين على باب الله سبحانه ، خضوعًا لجبروته ، وخُنوعًا في أنوار ملكوته ، بقوله : ﴿ ولا أقول لكم إني ملك ﴾ ، وليس لي اختيارٌ في نبوتي ، ﴿ إن اتبع إلا ما يوحى إليّ ﴾ . هل يكون من هذا وصفه ، بعد كونه بصيرًا بنور الله ، ورأفته به ، كالذي عمي عن رؤية إحاطته بكل ذرة من العرش إلى الثرى ؟ أفلا تتفكرون أن من ولد من العدم بصيرًا بنور القدم ، ليس كمن ولد من العدم أعمى عن رؤية عظمته وجلاله . انتهى كلامه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 2 صـ 120 . 121 ﴾

---

قوله تعالى ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ ﴾ ظاهره يدل على أنه لا يعمل إلا بالوحي وهو يدل على حكمين .

الحكم الأول

أن هذا النص يدل على أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يحكم من تلقاء نفسه في شيء من الأحكام وأنه ما كان يجتهد بل جميع أحكامه صادرة عن الوحي ، ويتأكد هذا بقوله ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْىٌ يوحى ﴾ [ النجم : 3 ، 4 ] .

الحكم الثاني

إن نفاة القياس قالوا : ثبت بهذا النص أنه عليه السلام ما كان يعمل إلا بالوحي النازل عليه فوجب أن لا يجوز لأحد من أمته أن يعملوا إلا بالوحي النازل عليه ، لقوله تعالى : ﴿ فاتبعوه ﴾ [ سبأ : 20 ] وذلك ينفي جواز العمل بالقياس ، ثم أكد هذا الكلام بقوله

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأعمى والبصير ﴾ وذلك لأن العمل بغير الوحي يجري مجرى عمل الأعمى والعمل بمقتضى نزول الوحي يجري مجرى عمل البصير .

ثم قال : ﴿ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ والمراد منه التنبيه على أنه يجب على العاقل أن يعرف الفرق بين هذين البابين وأن لا يكون غافلاً عن معرفته ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 191 ﴾

وقال الماوردى :

﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن أخبركم إلا بما أخبرني الله به .

والثاني : أن أفعل إلا ما أمرني الله به .

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : الجاهل والعالم .

والثاني : الكافر والمؤمن .

﴿ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما : فيما ضربه الله من مثل الأعمى والبصير .

الثاني : فيما بينه من آياته الدالة على توحيده وصدق رسوله . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ ﴾ ظاهره أنه لا يقطع أمراً إلاَّ إذا كان فيه وحي .

والصحيح أن الأنبياء يجوز منهم الاجتهاد ، والقياس على المنصوص ، والقياس أحد أدلة الشرع .

وسيأتي بيان هذا في "الأعراف" وجواز اجتهاد الأنبياء في "الأنبياء" إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأعمى والبصير ﴾ أي الكافر والمؤمن ؛ عن مجاهد وغيره .

وقيل : الجاهل والعالم .

﴿ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ أنهما لا يستويان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴾ يعني ما أخبركم إلا بوحي من الله أنزله عليّ ومعنى الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم أعلمهم أنه لا يملك خزائن الله التي منها يرزق ويعطي وأنه لا يعلم الغيب فيخبر بما كان وما سيكون وأنه ليس بملك حتى يطلع على ما لا يطلع عليه البشر إنما يتبع ما يوحى إليه من ربه عز وجل فما أخبر عنه من غيب بوحي الله إليه وظاهر الآية يدل

على أن الرسول صلى الله عليه وسلم ما كان يجتهد في شيء من الأحكام بل جميع أوامره ونواهيه إنما كانت بوحي من الله إليه ﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصير ﴾ يعني : المؤمن والكافر والضال والمهتدي والعالم والجاهل ﴿ أفلا تتفكرون ﴾ يعني أنهما لا يستويان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(230/232)

---

وقال الآلوسى :

﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَىَّ ﴾ أي ما أفعل إلا اتباع ما يوحى إلي من غير أن يكون لي مدخل ما في الوحي أو في الموحي بطريق الاستدعاء أو بوجه آخر من الوجوه أصلاً .

وحاصله إني عبد يمتثل أمر مولاه ويتبع ما أوحاه ولا أدعي شيئاً من تلك الأشياء حتى تقترحوا عليّ ما هو من آثارها وأحكامها وتجعلوا عدم إجابتي إلى ذلك دليلاً على عدم صحة ما أدعيه من الرسالة .

ولا يخفى أن هذا أبلغ من إني نبي أو رسول ولذا عدل إليه .

ولا دلالة فيه لنفاة القياس ولا لمانعي جواز اجتهاده عليه الصلاة والسلام كما لا يخفى .

وذهب البعض إلى أن المقصود من هذا الرد على الكفرة كأنه قيل : إن هذه دعوى وليست

مما يستبعد إنما المستبعد ادعاء البشر الألوهية أو الملكية ولست أدعيهما .

وقد علمت آنفاً ما في دعوى أن المقصود مما تقدم نفي ادعاء الألوهية والملكية .

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأعمى والبصير ﴾ أي الضال والمهتدي على الإطلاق كما قال غير واحد .

والإستفهام إنكاري ، والمراد إنكار استواء من لا يعلم ما ذكر من الحقائق ومن يعلمها مع الإشعار بكمال ظهورها والتنفير عن الضلال والترغيب في الاهتداء ، وتكرير الأمر ( لتثبيت ) التبكيت وتأكيد الإلزام .

﴿ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ عطف على مقدر يقتضيه المقام أي ألا تسمعون هذا الكلام الحق فلا تتفكرون فيه أو أتسمعونه فلا تتفكرون .

والاستفهام ( للتقرير ) والتوبيخ .

والكلام داخل تحت الأمر .

ومناط التوبيخ عدم الأمرين على الأول وعدم التفكر مع تحقق ما يوجبه على الثاني .

وذكر بعضهم أن في ﴿ الأعمى والبصير ﴾ ثلاث احتمالات إما أن يكونا مثالاً للضال والمهتدي أو مثالاً للجاهل والعالم أو مثالاً لمدعي المستحيل كالألوهية والملكية ومدعى المستقيم كالنبوة .

وإن المعنى لا يستوي هذان الصنفان أفلا تتفكرون في ذلك فتهتدوا أي فتميزوا بين ادعاء

الحق والباطل أو فتعلموا أن اتباع الوحي مما لا محيص عنه .

والجملة تذييل لما مضى إما من أول السورة إلى هنا أو لقوله سبحانه : ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ ﴾ الخ أو لقوله عز شأنه ﴿ لا أَقُولَ ﴾ .

ورجح في "الكشف" الأول ثم الثاني .

ولا يخفى بعد هذا الترجيح .

واعترض القول بإحالة الملكية بأنها من الممكنات لأن الجواهر متماثلة والمعاني القائمة ببعضها يجوز أن تقوم بكلها .

(231/232)

---

وأجيب بعد تسليم ما فيه أن البشر حال كونه بشراً محال أن يكون ملكاً لتمايزهما بالعوارض المتنافية بلا خلاف وإقدام آدم عليه الصلاة والسلام بعد سماع ﴿ مَا نهاكما رَبُّكُمَا عَنْ هذه الشجرة إِلا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخالدين ﴾ [ الأعراف : 20 ] على الأكل ليس طمعاً في الملكية حال البشرية على أنه يجوز أن يقال : إنه لم يطمع في الملكية أصلاً وإنما طمع في الخلود فأكل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وجملة ﴿ إنْ أتَّبع إلاّ ما يُوحي إليّ ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لأنّه لمَّا نفي أن يقول هذه المقالات كان المقامُ مثيراً سؤال سائل يقول : فماذا تدّعي بالرسالة وما هو حاصلها لأنّ الجهلة يتوهَّمون أنّ معنى النبوءة هو تلك الأشياء المتبرّأ منها في قوله : ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن ﴾ الخ ، فيجاب بقوله : ﴿ إن أتَّبع إلاّ ما يوحي إليّ ﴾ ، أي ليست الرسالة إلاّ التبليغ عن الله تعالى بواسطة الوحي .

فمعنى ﴿ أتَّبع ﴾ مجاز مرسل في الاقتصار على الشيء وملازمته دون غيره .

لأنّ ذلك من لوازم معنى الاتِّباع الحقيقي وهو المشي خلف المتّبَع بفتح الموحّدة ، أي لا أحيد عن تبليغ ما يوحى إليّ إلى إجابة المقترحات من إظهار الخوارق أو لإضافة الأرزاق أوْ إخبار بالغيب ، فالتَّلقِّي والتبليغ هو معنى الاتِّباع ، وهو كنه الرسالة عن الله تعالى .

فالقصر المستفاد هنا إضافي ، أي دون الاشتغال بإظهار ما تقترحونه من الخوارق للعادة .

والغرض من القصر قلب اعتقادهم أنّ الرسول لا يكون رسولاً حتَّى يأتيهم بالعجائب المسؤولة .

وقد حصل بذلك بيان حقيقة الرسالة تلك الحقيقة التي ضلّ عن إدراكها المعاندون .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وما نرسل المرسلين إلاّ مبشّرين ومنذرين ﴾ [ الأنعام : 48 ] .

وإذ قد كان القصر إضافياً كان لا محالة ناظراً إلى قلب اعتقادهم بالنسبة لمطالبهم باتِّباع مقترحاتهم ، أي لا أَتَّبع في التبليغ إليكم إلاّ ما يوحى إليّ .

فليس في هذا الكلام ما يقتضي قصر تصرّف الرسول عليه الصلاة والسلام على العمل بالوحي حتَّى يحتجّ بها من ينفي من علمائنا جواز الاجتهاد للنبيء صلى الله عليه وسلم في أمور الدين لأنّ تلك مسألة مستقلّة لها أدلَّة للجانبين ، ولا مساس لها بهذا القصر .

ومن توهّمه فقد أساء التأويل .

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأعمى والبصير أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

هذا ختام للمجادلة معهم وتذييل للكلام المفتتح بقوله ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ﴾ ، أي قل لهم هذا التذييل عقب ذلك الاستدلال .

وشبّهت حالة من لا يفقه الأدلّة ولا يفكِّك بين المعاني المتشابهة بحالة الأعمى الذي لا يعرف أين يقصد ولا أين يضع قدمه .

وشبِّهت حالة من يُميِّز الحقائق ولا يلتبس عليه بعضها ببعض بحالة القويّ البصر حيث لا تختلط عليه الأشباح .

وهذا تمثيل لحال المشركين في فساد الوضع لأدلَّتهم وعُقم أقيستهم ، ولحال المؤمنين الذين اهتدوا ووضعوا الأشياء مواضعها ، أو تمثيل لحال المشركين التي هم متلبّسون بها والحال

المطلوبة منهم التي نفروا منها ليعلموا أيّ الحالين أولى بالتخلّق .

وقوله ﴿ أفلا تتفكّرون ﴾ استفهام إنكار .

وهو معطوف بالفاء على الاستفهام الأول ، لأنّه مترتِّب عليه لأنّ عدم استواء الأعمى والبصير بديهي لا يسعهم إلاّ الاعتراف بعدم استوائهما فلا جرم أن يتفرّع عليه إنكار عدم تفكّرهم في أنَّهم بأيّهما أشبه .

والكلام على الأمر بالقول مثل ما تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ﴾ [ الأنعام : 40 ] .

والتفكّر : جولان العقل في طريق استفادة علم صحيح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

*(233/232)*

---

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : "قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك " بتكرير ضمير الخطاب المجرور من قوله "لكم " وفى سورة هود : "ولا أقول لكم عندى

خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك " بغير تكرير الخطاب فللسائل أن يسأل عن ذلك ؟

والجواب والله سبحانه أعلم أن الوارد فى سورة هود إنما هو حكاية قوله نوح عليه السلام متلطفا ومشفقا من حال قومه ألا ترى استفتاح خطابه لهم بقوله : "أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده . . . "الآية وقوله : "ويا قوم لا أسألكم عليه مالا . . . "الآية وقوله : "يا قوم من ينصرنى من الله " إلى قوله "إنى إذا لمن الظالمين " فتأمل جليل ملاطفته عليه السلام وما يفهم من كلامهم من عظيم الإشفاق من حالهم وإرادته ما به نجاتهم من العذاب ومن أخذهم بمرتكباتهم فهذا كله استلطاف فى الدعاء لا يلائمه تكرار كلمة تفهم تعنيفا أو توبيخا والتأكيد والتكرار يفهم ذلك ويردان حيث يقصد .

*(234/232)*

---

وأما قوله تعالى فى آية الأنعام : "ولا أقول لكم إنى ملك " فوارد طى كلام أمره صلى الله عليه وسلم بتبليغه عتاة قريش والعرب توبيخا لهم وتقريعا فقيل له : "قل " والمراد : قل لهم يا محمد : " : "قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك . . . . "الآية ولم يؤمر أن يقول هذا لأبى بكر وعمر وخاصة أصحابه إنما عنى به من يقول :

"مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها " فمن يصدر عنه هذا وأشباههمما ينبئ عن الازراء وفساد الظاهر والباطن فهم المقول لهم : "لا أقول لكم عندى خزائن الله . . . . "الآية فتكرر فيها قوله "لكم " تأكيدا يفهم التعنيف ويناسب التوبيخ والتقريع ونظير هذا وان خالفه فى تخصيص المخاطب بمقصود الكلام وإنما قصد به تعنيف مستحقى التعنيف ممن لم يخاطب فهو من قبيل قولهم : إياك أعنى واسمعى يا جارة . . . ، وقوله تعالى فى خطاب عيسى عليه السلام : "وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى وتبرئ الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى " فتأمل تكرار قوله "بإذنى " وما يتضمن من توبيخ من جعل عيسى عليه السلام إلها واتخذه معبودا فخزطب عيسى عليه السلام وهو المحفوظ المعصوم من توهم استبداد دل قدره صلى الله عليه وسلم عن ذلك ولكن هذا كما قيل له صلى الله عليه وسلم : "أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله " والمراد بذلك تقريع من اتخذه عليه السلام إلها ومرادنا من هذا ما اجتمعت عليه هذه الآى من إشعار التقريع والتوبيخ الحاصلين من التأكيد والتكرار ثم يصرف ذلك فى كل من الآيتين لمن تأهل له ولما لم يكن ذلك مفصودا فى آية هود لم يرد فيها تأكيد ولا تكرار وجاء كل من ذلك على ما يناسب والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 162.161 ﴾

---

ومن فوائد البيضاوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللهِ ﴾

مقدوراته أو خزائن رزقه . ﴿ وَلا أَعْلَمُ الغيب ﴾ ما لم يوح إلي ولم ينصب عليه دليل وهو من جملة المقول . ﴿ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنّى مَلَكٌ ﴾ أي من جنس الملائكة ، أو أقدر على ما يقدرون عليه . ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ ﴾ تبرأ عن دعوى الألوهية والملكية ، وادعى النبوة التي هي من كمالات البشر رداً لاستبعادهم دعواه وجزمهم على فساد مدعاه . ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأعمى والبصير ﴾ مثل للضال والمهتدي ، أو الجاهل والعالم ، أو مدعي المستحيل كالألوهية والملكية ومدعي المستقيم كالنبوة . ﴿ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ فتهتدوا أو فتميزوا بين ادعاء الحق والباطل ، أو فتعلموا أن اتباع الوحي مما لا محيص عنه . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 410.411 ﴾

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إليّ ﴾

قال الزمخشري : أي لا أدعي ما يستبعد في العقول أن يكون لبشر من ملك خزائن الله وهي قسمة بين الخلق وأرزاقه وعلم الغيب ، وإني من الملائكة الذين هم أشرف جنس خلقه الله وأفضله وأقربه منزلة منه ، أي لم أدع الألوهية ولا الملكية لأنه ليس بعد الإلهية منزلة أرفع من منزلة الملائكة حتى تستبعدون دعواي وتستنكرونها ، وإنما ادّعي ما كان مثله لكثير من البشر وهو النبوة ، انتهى .

وما قاله : من أن المعنى إني أقول لكم إني لست بإله فأنصف بصفاته من كينونة خزائنه عندي وعلم الغيب ، وهو قول الطبري ، والأظهر أنه يريد أنه بشر لا شيء عنده من خزائن الله ولا من قدرته ولا يعلم شيئاً مما غاب عنه قاله ابن عطية .

*(236/232)*

---

وأما قول الزمخشري في الملائكة هم أشرف جنس خلقه الله وأفضله وأقربه منزلة فهو جار على مذهب المعتزلة من أن الملك أفضل خلق الله ، وقد استدل الجبائي بهذه الآية على أن الملائكة أفضل من الأنبياء قال : لأن معنى الآية لا أدّعي منزله فوق منزلتي فلولا أن الملك

أفضل لم يصح ذلك .

قال القاضي : إن كان الغرض مما نفى طريقة التواضع فالأقرب أن يدل على أن الملك أفضل وإن كان نفى قدرته عن أفعال لا يقوى عليها إلا الملائكة لم يدل على كونهم أفضل ؛ انتهى .

وقد تكلمنا على ذلك عند قوله : ﴿ ولا الملائكة المقربون ﴾ وقال ابن عطية : وتعطى قوة اللفظ في هذه الآية أن الملك أفضل من البشر وليس ذلك بلازم من هذا الموضع ، وإنما الذي يلزم منه أن الملك أعظم موقعاً في أنفسهم وأقرب إلى الله والتفضيل يعطيه المعنى عطاءً خفياً وهو ظاهر من آيات أخر وهي مسألة خلاف ، و﴿ ما يوحى ﴾ يريد به القرآن وسائر ما يأتي به الملك أي في ذلك عبر وآيات لمن تأمل ونظر ؛ انتهى .

وقال الكلبي : ﴿ خزائن الله ﴾ مقدوراته من إغناء الفقير وإفقار الغني .

وقال مقاتل : الرحمة والعذاب .

وقيل : آياته .

وقيل : مجموع هذا لقوله ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ﴾ قيل : وهذه الثلاث جواب لما سأله المشركون ، فالأول جواب لقولهم : إن كنت رسولاً فاسأل الله حتى يوسع علينا خزائن الدنيا ، والثاني : جواب لقولهم إن كنت رسولاً فأخبرنا بما يقع في المستقبل من المصالح والمضار فنستعد لتحصيل تلك ودفع هذه ، والثالث : جواب قولهم : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ؟ انتهى .

وقال الزمخشري ( فإن قلت ) : أعلم الغيب ما محله من الإعراب ؟ قلت : النصب عطفاً على محل قوله : ﴿ خزائن الله ﴾ لأنه من جملة المقول كأنه قال : لا أقول لكم هذا القول ولا هذا القول ؛ انتهى .

(237/232)

---

ولا يتعين ما قاله ، بل الظاهر أنه معطوف على لا أقول لا معمول له فهو أمر أن يخبر عن نفسه بهذه الجمل الثلاث فهي معمولة للأمر الذي هو قل وغاير في متعلق النفي فنفى قوله : ﴿ عندي خزائن الله ﴾ وقوله : ﴿ إني ملك ﴾ ونفى علم الغيب ولم يأت التركيب .

ولا أقول : إني أعلم الغيب لأن كونه ليس عنده ﴿ خزائن الله ﴾ من أرزاق العباد وقسمهم معلوم ذلك للناس كلهم فنفى ادعاءه ذلك وكونه بصورة البشر معلوم أيضاً لمعرفتهم بولادته ونشأته بين أظهرهم ، فنفى أيضاً ادعاءه ذلك ولم ينفهما من أصلهما لأن انتفاء ذلك من أصله معلوم عندهم ، فنفى أن يكابرهم في ادعاء شيء يعلمون خلافه قطعاً .

ولما كان علم الغيب أمراً يمكن أن يظهر على لسان البشر بل قد يدعيه كثير من الناس كالكهان وضراب الرمل والمنجمين ، وكان صلى الله عليه وسلم قد أخبر بأشياء من المغيبات وطابقت ما أخبر به نفي علم الغيب من أصله فقال : ﴿ ولا أعلم الغيب ﴾

تنصيصاً على محض العبودية والافتقار وإن ما صدر عنه من إخبار بغيب إنما هو من الوحي الوارد عليه لا من ذات نفسه ، فقال : ﴿ أن أتبع إلا ما يوحى إليّ ﴾ كما قال فيما حكى الله عنه ﴿ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ﴾ وكما أثر عنه عليه السلام " لا أعلم ما وراء هذا الجدار إلا أن يعلمني ربي " وجاء هذا النفي على سبيل الترقي فنفى أولاً ما يتعلق به رغبات الناس أجمعين من الأرزاق التي هي قوام الحياة الجسمانية ، ثم نفى ثانياً ما يتعلق به وتتشوف إليه النفوس الفاضلة من معرفة ما يجهلون وتعرّف ما يقع من الكوائن ثم نفى ثالثاً ما هو مختص بذاته من صفة الملائكة التي هي مباينة لصفة البشرية فترقى في النفي من عام إلى خاص إلى أخص ، ثم حصر ما هو عليه في أحواله كلها بقوله : ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إليّ ﴾ أي أنا متبع ما أوحى الله غير شارع شيئاً من جهتي ، وظاهره حجة لنفاة القياس .

*(238/232)*

---

﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصير ﴾ أي لا يستوي الناظر المفكر في الآيات والمعرض الكافر الذي يهمل النظر .

قال ابن عباس : الكافر والمؤمن .

وقال ابن جبير : الضال والمهتدي .

وقيل : الجاهل والعالم .

وقال الزمخشري : مثل للضلاّل والمهتدين ويجوز أن يكون مثلاً لمن اتبع ما يوحى إليه ومن لم يتبع أو لمن ادعى المستقيم ، وهو النبوة والمحال وهو الألوهية والملكية .

﴿ أفلا تتفكرون ﴾ هذا عرض وتحضيض معناه الأمر أي ففكروا ولا تكونوا ضالين أشباه العميّ أو فكروا فتعلمون ، أي لا أتبع إلا ما يوحى إليّ أو فتعلمون إني لا أدّعي ما لا يليق بالبشر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللّهِ ﴾

(239/232)

---

استئنافٌ مبنيٌّ على ما أسّسَ من السنة الإلهية في شأنِ إرسالِ الرسل وإنزالِ الكتُب ، مَسوقٌ لإظهار تبرِئته صلى الله عليه وسلم عما يدورُ عليه مقترحاتُهم ، أي قل للكفرة الذين يقترحون عليك تارةً تنزيلَ الآياتِ وأخرى غيرَ ذلك لا أدَّعي أن خزائنَ مقدوراتِه

تعالى مُفوَّضةٌ إلي أتصرَّفُ فيها كيفما أشاء استقلالاً أو استدعاءً ، حتى تقترحوا عليّ تنزيلَ الآياتِ أو إنزالَ العذاب ، أو قلبَ الجبال ذهباً ، أو غيرَ ذلك مما لا يليق بشأني ، وجعلُ هذا تبرُّؤاً عن دعوى الإلهية مما لا وجهَ له قطعاً ، وقوله تعالى : ﴿ وَلا أَعْلَمُ الغيب ﴾ عطفٌ على محلَّ ( عندي خزائنُ الله ) ، أي لا أدّعي أيضاً أني أعلم الغيبَ من أفعاله تعالى حتى تسألوني عن وقت الساعة أو وقت نزول العذاب أو نحوهما ﴿ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ حتى تكلفوني من الأفاعيل الخارقةِ للعادات ما لا يُطيق البشرُ من الرُقيّ في السماء ونحوه ، أو تعدوا عدمَ اتّصافي بصفاتهم قادحاً في أمري كما ينبىء عنه قولهم : ﴿ مالِ هذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطعام وَيَمْشِى فِى الاسواق ﴾ والمعنى إني لا أدَّعي شيئاً من هذه الأشياء الثلاثةِ حتى تقترحوا عليَّ ما هو من آثارها وأحكامها ، وتجعلوا عدمَ إجابتي إلى ذلك دليلاً على عدم صحةِ ما أدَّعيه من الرسالة التي لا تعلُّقَ لها بشيء مما ذُكر قطعاً بل إنما هي عبارةٌ عن تلقّي الوحْي من جهةِ الله عز وجل ، والعملِ بمقتضاه فحسْب ، حسْبما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَىَّ ﴾ لا على معنى تخصيص اتباعه صلى الله عليه وسلم بما يوحى إليه دون غيره بتوجيه القَصْر إلى المفعول بالقياس إلى مفعولٍ آخرَ كما هو الاستعمال الشائعُ الواردُ على توجيه القصْر إلى ما يتعلّق بالفعل باعتبار النفي في الأصل ، والإثبات في القيد ، بل على معنى تخصيص حالِه صلى الله عليه وسلم باتباع ما يوحى إليه بتوجيه القصرِ إلى نفس

الفعل بالقياس إلى ما يغرّه من الأفعال ، لكن لا باعتبار النفي والإثباتِ معاً في خصوصية ، فإن ذلك غيرُ ممكن قطعاً ، بل باعتبار النفي فيما يتضمّنه من مُطلق الفعل ، والإثباتِ فيما يقارنه من المعنى المخصوص ، فإنّ كلَّ فعلٍ من الأفعال الخاصَّةِ كنصر مثلاً ينحلّ عند التحقيق إلى معنىً مطلقٍ هو مدلولُ لفظِ الفعل وإلى معنىً خاصَ يقوم به فإن معناه فعَلَ النصْرَ ، يُرشدك إلى ذلك قولُهم : فلانٌ يُعطي ويمنع بمعنى يفعل الإعطاء والمنع ، فموردُ القصر في الحقيقة ما يتعلقُ بالفعل بتوجيه النفي إلى الأصل والإثباتِ إلى القيد ، كأنه قيل : ما أفعلُ إلا اتباعَ ما يوحى إليّ مِنْ غير أن يكون لي مدخَلٌ ما في الوحي أو في الموحى بطريق الاستدعاء ، أو بوجهٍ آخرَ من الوجوه أصلاً .

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأعمى والبصير ﴾ مثل للضال والمهتدي على الإطلاق ، والاستفهام إنكاري والمراد إنكارُ استواءِ مَنْ لا يعلم ما ذُكر من الحقائق ومن يعلمُها وفيه من الإشعار بكمالِ ظهورِها ومن التنفير عن الضلالِ والترغيب في الاهتداء ما لا يخفى ، وتكريرُ الأمر لتثنية التبكيتِ وتأكيدِ الإلزام ، وقوله تعالى : ﴿ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ تقريعٌ وتوبيخٌ داخلٌ تحت الأمر ، والفاء للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام ، أي ألا تسمعون هذا الكلامَ الحقَّ فلا

تتفكرون فيه ، أو أتسمعون فلا تتفكرون فيه ، فمناطُ التوبيخِ في الأول عدمُ الأمرَيْنِ معاً ، وفي الثاني عدم التفكر مع تحقق ما يُوجبه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(241/232)

---

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ ﴾

أي : قل لهؤلاء المشركين المقترحين عليك تارة تنزيل الآيات ، وأخرى غير ذلك : لا أدعي أن خزائن رزق الله مفوضة إليّ ، فأعطيكم منها ما تريدون من قلب الجبال ذهباً ، وغير ذلك .

[ والخزائن : جمع خزانة ، وهي اسم للمكان الذي يخزن فيه الشيء ، وخَزْنُ الشيء إحرازه ، بحيث لا تناله الأيدي ] .

﴿ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ أي : من أفعاله تعالى حتى تسألوني عن وقت الساعة ، أو وقت نزول العذاب أو نحوهما .

﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ أي : حتى تكلفوني من الأفاعيل الخارقة للعادات ما لا يطيقه البشر ، من الرقيّ في السماء ونحوه ، أو تعدّوا عدم اتصافي بصفاتهم قادحاً في أمري ، كما ينبئ عنه قولهم : ﴿ مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ . والمعنى : إني لا أدعي شيئاً من هذه الأشياء الثلاثة ، حتى تقترحوا عليّ ما هو من آثارها وأحكامها ، وتجعلوا عدم إجابتي إلى ذلك ، دليلاً على عدم صحة ما أدعيه من الرسالة التي لا تعلق لها بشيء مما ذكر قطعاً . بل إنما هي عبارة عن تلقي الوحي من جهة الله عز وجل ، والعلم بمقتضاه فقط ، كما ينبئ عنه قوله تعالى :

﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ أي : ما أتبع فيما أقول لكم إلا ما يوحى إليّ من جهته تعالى ، شرفني بذلك وأنعم به عليّ ، إذ يكشف لي عن الملائكة فيخبرونني .

ثم كرر الأمر تثنية للتبكيت بقوله :

(242/232)

---

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾ مثل للضال والمهتدي على الإطلاق . والاستفهام إنكاري ، والمراد إنكار استواء من لا يعلم ما ذكر من الحقائق ، ومن يعلمها . وفيه الإشعار بكمال ظهورها ، ومن التنفير عن الضلال ، والترغيب في الاهتداء – ما لا يخفى . أفاده أبو

السعود .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ تقريع وتوبيخ داخل تحت الأمر . أي : أفلا تتفكرون فتهتدوا ، ولا تكونوا ضالين أشباه العميان .

تنبيهات :

الأول – جعل بعض المفسرين قوله تعالى : ﴿ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ تبرؤا من دعوى الألوهية ، لأن قسمة الأرزاق بين العباد ، ومعرفة الغيب ، مخصوصان به تعالى : قال : ولذا كرر في الملكية لفظ : ﴿ وَلَا أَقُولُ ﴾ . والمعنى : لا أدعي الألوهية ولا الملكية .

وأورد على هذا أن المراد : لا أملك أن أفعل ما أريد مما تقترحونه ، وليس المراد التبرؤ عن دعوى الإلهية ، وإلا لقيل : لا أقول لكم إني إله . كما قيل : ولا أقول لكم إني ملك . وأيضاً في الكناية عن الألوهية بـ : ﴿ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ ﴾ ما لا يخفى من البشاعة ، بل هو جواب عن اقتراحهم عليه صلى الله عليه وسلم أن يوسع عليهم خيرات الدنيا –كذا في " العناية " – .

قال أبو السعود : وجعل هذا تبرؤاً عن دعوى الإلهية ، مما لا وجه له قطعاً .

الثاني – قال الجبائي : الآية دالة على أن الملك أفضل من الأنبياء ، لأن المعنى : لا أدعي منزلة فوق منزلتي . ولولا أن الملك أفضل ، وإلا لم يصح ذلك . قال القاضي : إن الغرض بما

نفى طريقة التواضع ، فالأقرب أن يدل ذلك على أن الملك أفضل ، وإن كان المراد نفي قدرته على أفعال لا يقوى عليها إلا الملائكة . لم يدل على كونهم أفضل .

*(243/232)*

---

وقرر الزمخشري الأول تأييداً لمذهبه فقال في تفسير الآية : أي : لا أدعي ما يستبعد في العقول أن يكون لبشر من ملك خزائن الله ، وهي قِسَمه بين الخلق وأرزاقه ، وعلم الغيب ، وإني من الملائكة الذين هم أشرف جنس خلق الله تعالى ، وأفضله ، وأقربه منزلة منه . أي : لم أدع إلهية ولا ملكية ، لأنه ليس بعد الإلهية منزلة أرفع من منزلة الملائكة ، حتى تستبعدوا دعواي وتستنكروها ، وإنما أدعي ما كان مثله لكثير من البشر ، وهو النبوة . انتهى .

وتعقبه الناصر في " الانتصاف " بقوله : هو يبنى على القاعدة المتقدمة له ، في تفضيل الملائكة على الأنبياء . ولعمري إن ظاهر هذه الآية يؤيده ، فلذلك انتهز الفرصة في الاستدلال بها . ولمخالفه أن يقول : إنما أوردت الآية ردّاً على الكفار في قولهم : ﴿ مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ ﴾ . . الآية – فردّ قولهم : ﴿ مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ﴾ بأنه بشر ،

وذلك شأن البشر ، ولم يدّع أنه ملك حتى يتعجب من أكله للطعام ، وحينئذ لا يلزم منها تفضيل الملائكة على الأنبياء ، لأنه لا خلاف أن الأنبياء ، يأكلون الطعام ، وأن الملائكة ليسوا كذلك ، فالتفرقة بهذا الوجه متفق عليها ، ولا يوجب عليه ذلك اتفاقاً على أن الملائكة أفضل من الأنبياء .

وكذلك رد قولهم : ﴿ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ ﴾ بأنه لا يملك خزائن الله تعالى حتى يأتيهم بكنز منها على وفق مقترحهم ، ولا قال لهم ذلك حتى يقام عليه الحجة به .

*(244/232)*

---

ثم قال الناصر رحمه الله : ولم يحسن الزمخشريّ في قوله : [ ليس بعد الإلهية منزلة أرفع من منزلة الملائكة ] فإنه جعل الإلهية من جملة المنازل كالملكية ، ومثل هذا الإطلاق لا يسوغ . والمنزلة عبارة عن المحل الذي يُنزل اللهُ فيه العبد من علوّ وغيره ، فإطلاقها على الإلهية تحريف . والله الموفق للصواب .

الثالث – قال الرازي : ظاهر قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ يدل على أنه صلى الله عليه وسلم لا يعمل إلا بالوحي ، وهو يدل على حكمين :

الأول – أن هذا النص يدلّ على أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يحكم من تلقاء نفسه في

شيء من الأحكام ، وأنه ما كان يجتهد ، بل جميع أحكامه صادرة عن الوحي ، ويتأكد هذا بقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ .

الثاني – أن نفاة القياس قالوا : ثبت بهذا النص أنه صلى الله عليه وسلم ما كان يعمل إلا بالوحي النازل عليه ، فوجب أن لا يجوز لأحد من أمته أن يعملوا إلا بالوحي النازل عليه ، بقوله تعالى : ﴿ فَاتَّبِعُوهُ ﴾ ، وذلك ينفي جواز العمل بالقياس . ثم أكد هذا الكلام بقوله : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾ وذلك لأن العمل بغير الوحي يجري مجرى عمل الأعمى . والعمل بمقتضى نزول الوحي يجري مجرى علم البصير . ثم قال : ﴿ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ والمراد منه التنبيه على أنه يجب على العاقل أن يعرف الفرق بين هذين البابين ، وأن لا يكون غافلاً عن معرفته . انتهى .

وفي " فتح الرحمن " : تمسك بذلك من لم يثبت اجتهاد الاجتهاد الأنبياء ، عملاً بما يفيده القصر في هذه الآية .

والمسألة مدونة في الأصول . وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : أوتيت القرآن ومثله معه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 370 . 373 ﴾

(245/232)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾

و" قل " – كما نعلم – هي أمر من الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والرسول يبلغ ما أمر به الله ، وكان يكفي أن يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : لا أقول لكم عندي خزائن الله . لكنها دقة البلاغ عن الله ، إنّ القرآن توقيفي بمعنى أن كل كلمة فيه نزلت من الله كما هي وبلغها الوحي الأمين لسيدنا رسول الله ، وبلغها لنا صلى الله عليه وسلم كما هي ، ويدل ذلك على أن أحداً لا يملك التصرف حتى في اللفظ ، بل لا بد من أمانة النقل المطلقة

.

وأبلغنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن الحق قد أرسله هادياً ومبشراً ونذيراً بآية دالة على صدق البلاغ عنه وهي القرآن . وكان يجب على مَن يستقبل هذا البلاغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه . فليس من حق أحد أن يطلب من الرسول آيات غير التي أنزلها الله ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يدَّع إلا أنه مبلغ عن الله ، فيجب أن تكون المقابلة له في إطار هذا الادعاء .

وقد تجاوز الكافرون ذلك عندما طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم آيات أخرى ، كتفجير بعض الأرض ينابيع مياه ، أو أن يكون له بيت من زخرف ، ولذلك يوضح له الحق سبحانه أن يبلغهم أنه لا يملك مع الله خزائن السموات والأرض ، فكيف تطلبون بيوتا وقصورا ، وكيف تطلبون معرفة الغيب حتى تقبلوا على النافع وتتجنبوا الضار ؟ . ألا يكفيكم المنهج الإلهي الذي يهديكم إلى صناعة كل نافع لكم ويجنبكم كل أمر ضار بكم ؟ ثم إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يقل لهم إنه يعلم الغيب . وهو بشهادتهم هم يقولون عنه ما جاء بالقرآن الكريم : ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هذا الرسول يَأْكُلُ الطعام وَيَمْشِي فِي الأسواق لولا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً * أَوْ يلقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظالمون إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ [ الفرقان : 7-8 ] .

لقد سخروا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطالبوا أن تكون له آيات أخرى ، وتساءلوا كيف يمكن أن يزعم أنه رسول وهو يأكل الطعام كما يأكلون ، ويغشى الأسواق لكسب العيش كما يفعل البشر ، ولو كان رسولاً لكفاه الله مشقة كسب العيش ، ولأنزل إليه مَلَكاً يساعده في البلاغ عن الله ، أو يلقي إليه الله من السماء بكنز ينفق منه ، أو تكون له حديقة غناء يأكل من ثمارها .

هذا ما قاله كبار المشركين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر ، وأرادوا أن يصدوا الناس عن

الإيمان بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمرة يتهمونه بأنه مسحور ، ومرة بأنه مجنون ، وثالثة بأنه يهذي ، ورابعة بأنه كذاب ، وخامسة بأنه يتلقى القرآن من أعاجم ، ويدحض الحق كل هذه الأكاذيب وكل تلك الافتراءات التي ضلوا بها وأضلوا بها سواهم .

*(247/232)*

---

إنه صلى الله عليه وسلم رسول من الرسل : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المرسلين إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطعام وَيَمْشُونَ فِي الأسواق وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾ [ الفرقان : 20 ] .

إن الرسل من قبلك يا رسول الله كانت تأكل الطعام ، وتكسب العيش من العمل ويترددون على الأسواق ، فإذا كان المشركون يعيبون عليك ذلك ويحاولون إضلال الناس بكل الأساليب ، فأنت ومن معك يا رسول الله من المؤمنين سيكتب الله لكم النصر ويَجْزِي كُلاً بما عمل . ثم إن الآيات التي يطلبها المشركون من رسول الله كانت كلها تعنتاً ؛ فهو لم يقل لهم : إنه ملك . لقد قال لهم : إنه رسول مبلغ عن الله ، وكل ما يؤديه هو صدق الأداء عن الله ، فكيف يطلبون منه أشياء لا تتعلق إلا بملكية الله لخزائن الأرض ؟ وكيف يطلبون منه أن يعلمهم الغيب ؟ وكيف ينتقدون أنه رسول وبشر يأكل ويتزوج ويمشي في الأسواق ؟

إن كل تلك الأقوال دليل التعنت ؛ لأنهم قد طلبوا أشياء تخرج عن مجال ما ادعاه رسول الله لنفسه من أنه رسول مبلغ عن الله ؛ إنهم طلبوا الخير النافع والينابيع التي تجري ، والجنات والقصور ، وأشياء كلها ليست في مقدور رسول مبلغ عن الله ، لأن الذي يهبها هو الله سبحانه وتعالى .

*(248/232)*

---

وكلمة " خزائن " هذه مفردها " خِزانة " وهي الشيء الذي يكنز فيه كل نفيس ليخرج منه وقت الحاجة . ولا تقل : خِزانة إلا لشيء جعلته ظرفاً لشيء نفيس تخاف عليه من أن تخرجه في غير أَوَانِ وزمان إخراجه . وخزائن الأرض كلها يملكها الله ، فهو سبحانه وتعالى القائل : ﴿ والأرض مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ * وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [ الحجر : 19-21 ] .

إذن فالحق جاء بالقضية الكلية ، وهي أن أسرار الله ونفائسه في الكون هي بيد الله في خزائنه ، وهو سبحانه يجليها ويظهرها ويكشفها لوقتها . كيف ؟ إن الحق سبحانه وتعالى تكلم عن بدء الخلق ، وتكلم عن خلق السموات والأرض ، وتكلم عن هذا الموضوع كلاماً

مجملاً تفسره الآيات الأخرى . فالحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العالمين * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السمآء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائتيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [ فصلت : 9- 11 ] .

يأمر الحق رسوله أن يبلغ هؤلاء المشركين كيف يكفرون بالله الذي خلق الأرض في يومين وكيف يجعلون له شركاء وهو الخالق للأرض التي هي مناط الحركة لابن آدم .

*(249/232)*

---

لقد خلق فيها سبحانه ما يقيت ابن آدم وتقوم به حياته وإن أراد الترف فلا بد له من الطموح في الحياة . وهو سبحانه جعل في الأرض رواسي – أي جبالاً – وبارك في الأرض وفي الرواسي . ثم جاء بتقدير الأقوات بعد ذكر الرواسي وهي الجبال ، فكأن الجبال في حقيقة أمرها هي مخازن القوت . وقد يقول قائل : كيف ذلك ؟

ونقول : إن الواقع قد أثبت هذه الحقيقة ؛ فأنت إن نظرت إلى الأنهار التي تجري ، لوجدتها تتكون من الماء الذي تساقط من الأمطار على الجبال ، فالمياه المكونة من ذرات صغيرة

دقيقة تنزل على هذه الجبال لتفتتها ، وكأن المياه هي " المُبَرَد " الذي يزيل من سطح الجبال هذه الرمال المليئة بالعناصر الغذائية للأرض ، وهو ما نسميه نحن " الغرين " ، والغرين – كما نعلم – هو ما ينزل مع المياه من سطوح الجبال إلى مجرى النهر ، وباندفاع المياه في مجرى النهر تنتقل المادة الخصبة إلى الأرض ، وتتكون تلك الطبقة الخصبة التي تتغذى منها النباتات . ولو شاء الحق سبحانه وتعالى لجعل سطح الأرض كله مستوياً ، وفيه الخصوبة التي تنبت النبات .

لكن حكمته سبحانه شاءت أن تصنع للنبات غذاءه بهذه الطريقة . فأنت إذا ما نظرت إلى النبات وجدته يختلف من نوع إلى نوع في أسلوب امتصاصه للعناصر الغذائية اللازمة له ، فهناك نوع من النبات يمتص غذاءه من عمق نصف المتر ، ونوع ثانٍ يأخذ غذاءه من عمق المتر ، وهكذا . وإن لم نأت للأرض المزورعة بسماد أو مخصبات أو غرين ، فإن الأرض تضعف ؛ لأن الحق يريد لعملية الزراعة أن تستمر وتمتد وتتوالى ، فجعل الجبال مكونة بشكل صُلب ، وتمر على الجبال عوامل التعرية من حرارة وبرودة وتشققات ثم ينزل عليها المطر فيذيب من سطوح الجبال بعضاً من تلك المواد الغذائية اللازمة للأرض ، تنتقل هذه المواد الغذائية عبر المياه إلى الأرض ، وبهذا يتوالى الإمداد بالخصب من الجبال إلى الأرض . وهكذا نجد أن الجبال في حقيقتها هي مخازن لخيرات الله .

وهل مقومات الحياة زرع فقط ؟ لا ، لأنك إن نظرت إلى نموذج مصغر للكرة الأرضية ، ستجده يشبه البطيخة الكبيرة ، وإن جئت لتقطع مثلثاً من محيط القشرة إلى مركز البطيخة ، وجعلت هذا المثلث يشبه الهرم ، ثم أخذت منها مثلثاً آخر من أي ناحية سواء أكان من ناحية الأرض الخصبة ، أم من البحار أم من الجبال أم من الوديان ، أم من الصحاري ، ثم نظرت من بعد كل ذلك إلى الخير المطمور في كل جزء من هذه الأجزاء لوجدته مساوياً للجزء الآخر . لماذا ؟ لأن الحياة لا تعتمد على ألوان محصورة من القوت ، ولكنها تحتاج في عمارتها إلى أدوات ومواد الحضارة من حديد وبترول ومنجنيز وغير ذلك من كنوز الأرض التي تقوم عليها الحضارة .

إننا نجد هذه الخيرات مكنوزة إما في الجبال وإما في الصحاري . ولكن كل خير من هذه الخيرات له ميعاد ، وله ميلاد ، وانت لو قست ووزنت الخيرات الموجودة في أي مثلث هرمي من الأرض من مركزها إلى محيطها ، وقارنتها بوزن قياس الخيرات الموجودة في مثلث هرمي آخر مساوٍ له من الكرة الأرضية نفسها ، لوجدت الخيرات متساوية في كل من المثلثين . ولكن لكل لون من هذه الخيرات ميلاد وميعاد . ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر : 21] .

فما يقال له شيء ، فإن له خزانة عند الله يُنْزِلُ منها سبحانه بقَدَر . ونرى ذلك من قمة الوجود ، وهو العقل ، إن العقل شيء ، وله خزائن عند الله ، فما كان موجوداً من أفكار من عشرة قرون لدى البشرية جميعا لا يقاس بكمية الأفكار التي يمتلكها . العقل الجمعي للعالم الآن ، ذلك أن كل جيل قد استفاد مقدمات من أفكار الجيل السابق له ليصل إلى نتاج جديد . إذن فهناك خزائن للأفكار وللخواطر . وكذلك كل شيء في الوجود له عند الله خزائن لا ينزل منها إلا بِقَدَر معلوم : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ .

وساعة يرى الحق أن يظهر ميلاد سر ما ، فهو سبحانه يهيء الأسباب لذلك . وعلى سبيل المثال – ولله المثل الأعلى – كنا قديما نقطع الأخشاب من الأشجار لنصنع منها وقوداً ، وكنا بعد أن نقطع الأخشاب نخشى عليها من الفساد ، لذلك وضع الحق بعضاً من إلهاماته للعقل البشري حتى يستطيع تحويل الخشب إلى فحم ليضمن الإنسان صيانة الخشب ، وليضمن وجود مصدر للطاقة هو الفحم النباتي . ومن بعد ذلك اكتشف الإنسان الفحم الحجري . ومن بعد ذلك اكتشفنا البترول ، كل ذلك من خيرات الطاقة كان مكنوزاً في

الأرض ، ولم يكتشفه الإنسان إلا بعد أن أعطاهم الله الاستعداد لاستقبال هذا الخير ، وسيظل عطاء الله قائماً إلى أن تقوم الساعة . فمع الفحم دخلنا عصر البخار ، ثم دخلنا عصر الكهرباء ، ثم دخلنا عصر الذرة .

وكل هذه الأشياء كان لكل منها ميلاد ، ولكل منها مكان في خزائن الله ، وعندما ينزل الله أي خاطر من الخواطر على عبد من عباده فإن العبد يأخذ بالأسباب ويكتشف ميلاد السر المكنوز . وكل لاحق يأخذ من خير السابق ويبني عليه . وهكذا ينمو الخير دائماً .

*(252/232)*

---

والأشياء في خزائن الله إما أن تكون مطمورة وإما تكون محكمة إحكاماً رقمياً ، وعلى سبيل المثال ، هذا هو الراديوم الذي اكتشفته " السيدة كوري " أظهره الله على يديها في وقت الحاجة إليه . وكان العلماء قبل اكتشاف الراديوم يعلمون أن هناك عنصراً لم يعرفوه له تركيب ذري معين ؛ لأن عناصر الكون مصنوعة بحكمة جليلة كبيرة .

وقد ينزل الشيء شائعاً في غيره ، ومثال ذلك أن تقطف وردة وتستمتع بأريجها وجمال منظرها إلى أن تذبل ، وقد يغيب عنك أن الوردة مكونة من تركيب معين ، فالرطوبة هي التي تعطي الوردة نضارة ، وكل شيء في الوردة هو من مادة الأرض ، وعندما تذبل الوردة

فهي تعود إلى عناصر الأرض بعد أن تتبخر منها المياه وتذهب كبخار مع غيرها من المتبخرات إلى السحاب الذي تحركه الرياح فيسقط مطراً .

وهكذا نجد أن قطرات المياه التي كانت في الوردة تبخرت وانضمت إلى السحاب ، قد عادت مرة أخرى إلى الأرض من خلال المطر ، ومادة الماء نفسها لم تزد ولم تنقص منذ أن خلق الله الخلق في هذا الكون ، ونحن ننتفع بهذا الماء ، وعندما ينتهي انتفاع إنسان بجزء من المياه فالماء يعود من خلال عمليات أرادها الله إلى خزانة الماء في الكون . وليسأل الإنسان منا نفسه : كم طناً من الماء قد شربته في حياتك ؟ وستجد أنك قد شربت وانتفعت بمئات أو بآلاف من الأطنان ، وخرج منك الماء في شكل عرق أو بول أو مخاط ، أو غير ذلك . وكم بقي من الماء في جسمك ؟

*(253/232)*

---

إنها نسبة قد تزيد على تسعين بالمائة من وزن جسمك أياً كان الوزن ، ومن بعد أن يأتي أجلك كما قدره الله . فتتبخر كمية المياه التي في هذا الجسم لتنضم إلى السحاب ثم تنزل مع المطر . إذن فكمية المياه لم تنقص في الكون ولم تزد . وهذا ما نسميه الرزق المخزون بالتحول ، تماماً كما تبخرت كمية المياه التي في الوردة ، وتبخرت رائحتها في الجو وكذلك

مادتها الملونة ذابت في الأرض . وساعة نزرع شجرة ورد تأخذ كل وردة لونها من المواد الملونة المخزونة في الأرض . إذن فكل شيء إما مخزون بذاته في خزائن الله ، وإما مخزون بعناصره المحولة إلى غيره . وكل الوجود على هذا الشكل . وحركة الحياة هي بين الاثنين . إن الإنسان – على سبيل المثال – من لحم ومن دم ، والبقرة أيضاً من لحم ودم ، ويموت الإنسان ليعود إلى الأرض ، ويستفيد الإنسان من الحيوان ، وتعود كل مادة الحيوان إلى الأرض . وتدخل العناصر في دورة جديدة . إذن هي خزائن للحق ، إما محولة ، وإما خزائن حافظة ؛ فالشيء الذي نستنبطه بحالته هو في خزائن حافظة ، والشيء الذي يدور في غيره ويرجع إلى الأصل هو في خزائن محولة .

ومن رحمة الحق بالخلق أنه لم يملك خزائن الأرض أو السموات لأحد من البشر حتى لا يستعلي إنسان على آخر . ولم يعط الحق حتى للرسل أي حق للتصرف في هذه الخزائن ؛ لأن الرسل بشر ، وقد احتفظ الحق لنفسه بخزائن الأرض والسموات ليطمئننا على هذه الخزائن . ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفاق وَكَانَ الإِنسان قَتُوراً ﴾

[ الإسراء : 100 ] .

الحق سبحانه يعلم أن الإنسان مطبوع على الحرص الشديد أو البخل ، وهو سبحانه الغني الكريم ؛ لذلك ينزل ما يشاء من خزائنه لعباده حتى ينتفعوا . ولم يدع الرسول صلى الله عليه وسلم الخزائن لنفسه ، فكيف يطالبه المشركون بما في خزائن الله ، وهو صلى الله عليه وسلم يوضح ذلك ويوضح أيضاً أنه لا يعلم الغيب : ﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللهِ ولا أَعْلَمُ الغيب ﴾ [ الأنعام : 50 ] .

وهو بذلك صلى الله عليه وسلم ينفي عن نفسه أي صفة من صفات الألوهية ؛ لأن الخزائن الكونية هي في يد الله ، وكذلك ينفي عن نفسه علم الغيب . ولقائل أن يقول : ولكن ماذا عن الأشياء والأحداث التي كان يخبرنا بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهي أحداث مستقبلية ؟

ونقول : إن ذلك ليس علماً الغيب ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم مُعَلَّم غيب ، أي أن ربنا سبحانه وتعالى قد علمه ، ومثال ذلك قول القرآن الكريم : ﴿ ذلك مِنْ أَنبَآءِ الغيب نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [ آل عمران : 44 ] .

إن الحق سبحانه هو الذي علَّم رسوله صلى الله عليه وسلم تلك الأخبار التي كانت من أنباء الغيب ، ويحسم الحق هذه المسألة عندما يقول : ﴿ عَالِمُ الغيب فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ

أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ﴾ [ الجن : 26-27 ] .

فسبحانه وتعالى هو وحده عالم الغيب ، ولا يُطْلِع أحداً من خلقه على الغيب . إلا الرسول الذي يرتضيه الله ليخبره ببعض من الغيب ، ويحفظ الحق رسوله في أثناء ذلك بملائكة حفظة تحميه من تعرض الجن لما يريد إطلاعه عليه لئلا يسترقوه ويهمسوا به إلى الكهنة قبل أن يبلغه الرسول وحتى يصل الوحي إلى الناس خالصا من تخليط الجن وعبثهم .

*(255/232)*

---

إذن فالرسول مُعَلَّم غيب وليس عالم غيب . والغيب – كما نعلم – هو ما غاب عن الحس ، ولم توجد له مقدمات تدل عليه ، فهناك أشياء تغيب عنك ولكن لها مقدمات ، فإن التزمت بالمقدمات من بدايتها يمكنك أن تصل إلى النتيجة . مثال ذلك : إن أعطيت تلميذاً مسألة حسابية ليقوم بحلها ، وعندما يحل التلميذ هذه المسألة فهو لم يعلم الغيب ، ولكنه أخذ المقدمات والمعطيات ، وبحث عن المطلوب ، وأخذ يرتب المعلومات ليستنبط منها النتيجة .

وكذلك حال الذين اكتشفوا أسراراً في الوجود ، أعلموا غيباً ؟ لا ، إنهم فقط استخدموا

بعضاً من المقدمات التي كانت موجودة أمامهم في الكون ، وتوصلوا إلى نتائج جديدة ، صحيح أن هذه النتائج كانت غائبة عنا ، ولكن مقدماتها كانت موجودة ، وكذلك كل النظريات الهندسية ، كل نظرية نجدها تعتمد على سابقتها ، وكل نظرية – حتى أعقدها وأصعبها – هي ملاحظة لأمر بدهي في الكون .

وكل علم من العلوم له مقدمات إن بحث فيها باحث فإنه يصل إلى النتائج الجديدة ، وهذا ما نسميه " غيبا إضافيا " ، أي كان غيباً في وقت ما لكنه غير غيب في وقت آخر ، ولذلك يُنسب هذا العلم إلى البشر دائماً ، ولنقرأ قول الحق سبحانه : ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَآءَ ﴾ [ البقرة : 255 ] .

والإحاطة بالعلم كلها لله ، وهو سبحانه الذي يأذن لبعض من خلقه بالإحاطة ببعضٍ من هذا العلم ، وكل سر من أسرار هذا الكون لا يولد إلا بإذن منه سبحانه وتعالى ، وهو سبحانه يوفق العلماء أن يبحثوا في المقدمات ليصلوا إلى النتائج . ولكن ماذا عن العلم الذي لا توجد له مقدمات ؟ هذا من الغيب المطلق الذي لا يظهره الحق لأحد إلا لمن ارتضى من رسول .

أقول ذلك حتى لا يخطئ أحدنا فيظن أن إخبار إنسان لإنسان بمصير شيء ضاع منه هو معرفة للغيب ، فقد يكون هذا غيباً بالنسبة لصاحب الشيء الضائع ، ولكنه ليس غيباً بالنسبة للص الذي سرقه ، ولا هو غيب بالنسبة للشخص الذي أخفى المسروقات ، ولا هو غيب بالنسبة للجان المحيطين باللص ، إذن فهذا ليس غيباً مطلقاً ، ولكنه غيب معلوم للغير . إذن فخزائن الحق سبحانه وتعالى ملأى بكل أنواع الخير التي تؤدي للإنسان مهمة البقاء في الأرض سواء من جهة الضرورات أو الأشياء الترفية . ﴿ ولا أَعْلَمُ الغيب ولا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ [ الأنعام : 50 ] .

إذن فالرسول صلى الله عليه وسلم ينفي عن نفسه بقول الحق ثلاثة أشياء : منها شيئان ينفيان الألوهية عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهي ملكية خزائن الكون ، وعلم الغيب ، وشيء ثالث وهو أنه ليس مَلَكاً ، فهل يعني ذلك أن المَلَكَ أرفع من النبي ؟ لا ، ولكنهم قالوا له : إنما يمشي في الأسواق ويتكسب العيش بالعمل ، والمَلَك لا يفعل ذلك . ولكن الرسول بالطبع أرقى منزلة من المَلَك ؛ لأنه يقوم بهداية الإنس والجن ويتبع ما يوحيه إليه مِلِكُ الملوك ، وهو الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ ﴾ .

إنه من فرط ارتفاعه في الصدق المبلغ عن الله يعلن حقيقته صلى الله عليه وسلم بأنه من البشر ، والبشر ابن أغيار ، ويعلم شيئاً ، ويجهل شيئاً ، ومن مصلحة المرسل إليهم أن يكون الرسول متبعاً لا مبتدعاً ، ذلك أنه ينقل لهم تكاليف الخالق بألفاظها لا أفكار البشر التي قد

تتغير أو تتبدل . فلو ابتدع لابتدع في إطار بشريته ، وفي ذلك نزول لا ارتقاء ، لكنه في الاتباع يأتي بالارتقاء للبشر ؛ لأنه يتبع ما أوحى به الإله الذي اصطفاه رسولاً . ولذلك كانت الأمية في رسول الله صلى الله عليه وسلم شرفاً له ولنا . أما أُمِّيَّة الإنسان العادي فهي عيب ، إنما أُمِّيَّة محمد صلى الله عليه وسلم هي الكمال .

*(257/232)*

---

و " أُمّيّ " – كما نعلم – تعني أنه كما ولدته أمه ، لم يأخذ ثقافة ولم يتعلم من أحد من البشر ، لكن علمه وثقافته فوقية كلها .

إن ذلك وحي من الله ، وهو صلى الله عليه وسلم عندما يعلن أنه نبي أمي ، فهذا معناه أنّ كل ما دخل في ذهنه لم يأخذه عن أحد من خلق الله ، وإنما كل ما جاء إلى هذا الذهن قد أخذه رسول الله عن الله . وهكذا تكون أميته شرفاً لنا ، ولكن الأمية فينا – نحن المسلمين – تختلف يجب أن نعمل جميعاً على القضاء عليها : ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ ﴾ . والرسول صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى بل يبلغ ما جاء به الوحي .

ويذيل الحق الآية بقوله : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأعمى والبصير أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [ الأنعام : 50 ] .

وساعة يأتي الحق بقضية يستخدمها كمثل ، فلا بد أن يأتي بقضية متفق عليها حتى من الخصوم المواجهين له ؛ فهم يعرفون أن الأعمى لا يستوي مع البصير ، تماماً مثلما لا يستوي الظل والحرور أو الظلمات والنور . إن الفطرة لا تقبل الخلاف في هذه الأمور . والعمى – كما نعرف – هو عدم الرؤية لمن مِن شأنه وحاله أن يرى ، فلا يقول إنسان عن حجر : إن الحجر أعمى ؛ لأن الأحجار لا تبصر .

إذن لا نقول العمى إلا كوصف لمن يفترض فيه أن يرى . وماذا تفعل عدم الرؤية في الأمر المحس ؟ إن عدم الرؤية يؤذي الإنسان لأنه كائن متحرك . فقد يقع في حفرة أو يصطدم بشيء يؤذيه ، وبإقرار الجميع نعرف أن الأعمى تضطرب حركته ويتعرض للمتاعب ، والذي يحمي الإنسان من ذلك أن يكون مبصراً أو مستعيناً بمن يبصر حتى يمكن أن يستقبل المرئيات .

*(258/232)*

---

وكان العلماء قديماً يظنون أن الإبصار هو نتيجة خروج شعاع من العين ليذهب إلى الشيء المرئي ونقض هذه القضية عالم إسلامي هو ابن الهيثم الذي علم العلماء أن الشعاع إنما يخرج من المرئي إلى عين الرائي بدليل أن الشيء المرئي لا يراه الإنسان في الظَّلام . والعمى يمنع العين

من استقبال الشعاع ، ولا يختلف أحد في أن العمى مهلك وضار ومتعب ، والإبصار مريح . وكأن الحق يقول للخلق : إياكم أن تظنوا أن حياتكم كلها تعتمد على المحيط المحس ، لا ، إن هناك قيماً إن لم يعرفها الإنسان فهو يتعثر ويضطرب ويتخبط .

إذن فمنهج السماء قد جاء ليهدي النفس البشرية إلى القيم ، كما يهدي النور الحسي الإنسان إلى المحسات . فإذا كان البصر هو وقاية للإنسان لتفادي العقبات ، فكذلك المنهج هو الذي يبين للإنسان ألا يصطدم بالعقبات في الأمور المعنوية . والإنسان يحيا بقيمه ، بدليل أن الأعمى قد يجد من يقوده من المبصرين ، ولكنه قد لا يجد هدايته في هداية مهتد . إذن فالإنسان قد يستغني عن البصر ، ولكنه لا غنى له عن الهدى ؛ لأن الضلال سيصيبه ، والضلال في القيم أبلغ وأشد قسوة من الضلال في الأمور المحسّة .

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأعمى والبصير أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ هناك تفكر ، وتذكر ، وتدبر . التفكر هو شغل العقل ابتداء بأمر ظاهر ، يريد أن يستنبط منه شيئاً . وعندما يقول إنسان لآخر : فكر في هذا الأمر . . أي أدر عقلك في كل ما يتعرض لهذا الأمر . والذي يطلب من آخر التفكير في هذا الأمر كأنه واثق من أن الذي يتفكر في أمر لن يصل إلا إلى الرأي الذي قاله من عرض عليه التفكير . وأما التذكر فهو أن يصل الإنسان إلى حكم انتهى إليه بالتفكر ثم نسيه ، ويأتي من يلفت الذهن إلى ذلك الحكم الذي انتهى منه فكرياً .

إذن فالفكر يأتي بحكم أَوَلِيٍّ ناضج ، والتذكر يأتي بحكم كان معلوماً للإنسان ولكنه غفل عنه . أما التدبر فهو ألا يكتفي الإنسان بالنظر إلى واجهة الأمور ولكن إلى ما وراء ذلك أيضاً ؛ لأن كل شيء له واجهة ، وقد تخفى الواجهة ما خلفها ، لذلك يطلب الحق من الإنسان أن ينظر إلى أعقاب الأشياء وأقفائها ، أي يدير الأمر على كل جهاته ولا يكتفي بالنظر إلى واجهاتها ، مثلما يشتري الإنسان شيئاً من تاجر أمين ، ويعرض التاجر على المشتري مواصفات الشيء بأمانة ويطلب منه أن يختبر الشيء حسب مواصفاته ، لكن التاجر الغشاش يحاول أن يخفي المواصفات لأنه يريد خداع المشتري .

وعندما يطلب الحق منا أن التفكر والتذكر والتدبر إنما يوقظ فينا المقاييس الحقيقية التي نصل بها إلى المطلوب الذي يريده الله . ولذلك يقول الحق : ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الذين يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(260/232)*

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

الخَزَائنُ : جمع " خزانة " ، وهو اسم للمكان الذي يخزن فيه الشيء ، وخَزْنُ الشيء إحرازه بحيث لا تَنَالُهُ الأيدِي .

قوله : ﴿ ولا أَعْلَمُ الغيب ﴾ في مَحَلِّ هذه الجملة وَجْهَان :

أحدهما : النَّصْبُ عَطْفاً على قوله : عِنْدِي خزائِن اللَّهِ " لأنه من جملة المَقُول ، كأنه قال : " لا أقُول لكم هذا القول ، ولا هذا القول " .

قال الزمخشري .

وفيه نَظَرٌ من حيث إنه يُؤدِّي إلى أنه يصير التقدير : ولا أقُول لكم : لا أعلم الغَيْبَ وليس بصحيح .

والثاني : أنه معطوف على " لا أقول " لا مَعْمُولٌ ، فهو أمَرَ أن يخبر عن نَفْسِهِ بهذه الجُمَلِ الثلاث فهي معمولة للأمر الذي هو " قل " ، وهذا تخريج أبي حيَّان قال بعد أن حكى قول الزَّمخشري : " ولا يتَعيَّنُ ما قاله ، بل الظَّاهرُ أنه مَعْطُوفٌ على لا أقول " إلى آخره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 156 . 157 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (50) ﴾

يعني قل لهم إني لا أتخطى خطي ، ولا أتعدّى حدّي ، ولا أُثْبِتُ من ذات نفسي شيئاً ، وإنما يقال لي أَبَلَّغْتَ ؟ وأقول : أَجَلَ ، أَوْصَلْتُ .

ثم قال : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ ﴾ : هل يتشاكل الضوءُ والظلام ؟ وهل يتماثل الجُحْدُ والتوحيد ؟ كلا . . . لا يكون ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 474 ﴾

*(261/232)*

---

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (38) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (39) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (40) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (41) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ

قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (43) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ
كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ
الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (45) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ
وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ
(46) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (47) وَمَا
نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
(48) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (49) قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ
وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ
(50) ﴾

*(262/232)*

---

التفسير : لما بين أن إنزال سائر المعجزات لو كان مصلحة لهم لفعل ذلك ، أكده بما يؤذن أن آثار فضله وإحسانه ولطفه وامتنانه واصلة إلى جميع الحيوانات ، فلو كانت مصلحة المكلفين في إظهار تلك المعجزات القاهرة الملجئة لم يخل بذلك ألبتة ، وفيه أيضاً مزيد تقرير

لأمر البعث وأنه حاصل لجميع الحيوان فضلاً عن الإنسان . فإن الحيوان إما أن يكون بحيث يدب أو يكون بحيث يطير . وإنما خص من الدواب ما في الأرض بالذكر دون ما في السماء أو في الماء ، لأن رعاية مصالح الأدون تستلزم رعاية مصالح الأشرف ، ويمكن أن يقال : إن الماء أيضاً من جملة الأرض لأنهما جميعاً ككرة واحدة . قال علماء المعاني : إنما وصف الدابة بكونها في الأرض والطائر بجناحيه ليعلم أنهما باقيان على عمومهما إذ بينهما بخواص الجنسين ، ولولا ذلك لاحتمل أن يقدّر

(263/232)

---

فيهما صفة نحو ترتع أو تصيد فتخصصا ، أو لأوهم أن المراد بهما غير الجنسين المتعارفين لقوله بعده ﴿ إلا أمم أمثالكم ﴾ وقد يقول الرجل لعبده طِرْ في حاجتي والمراد الإسراع . قال الحماسي :

طاروا إليه زرافات ووحدانا . . . وقيل : ذكر ﴿ يطير بجناحيه ﴾ ليخرج عنه الملائكة ذوو الأجنحة ، فإن المراد ذكر من هو أدون حالاً . وقيل : إن الوصف للتأكيد كقولهم : نعجة أنثى . وكما يقال : مشيت إليه برجلي . وإنما جمع الأمم مع أنه أفرد الدابة والطائر ، لأن النكرة المستغرقة في معنى الجمع . قال الفراء : كل صنف من البهائم أمة .

(264/232)

---

وفي الحديث " لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها " ثم ما وجه المماثلة بين البشر والدابة والطائر ؟ نقل الواحدي عن ابن عباس أنه قال : يعرفونني ويوحدونني ويسبحونني كقوله ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ [ الإسراء : 44 ] ﴿ كل قد علم صلاته وتسبيحه ﴾ [ النور : 41 ] وعن أبي الدرداء : أبهمت عقول البهائم إلا عن معرفة الإله وطلب الرزق . ومعرفة الذكر والأنثى . وهذا قول طائفة عظيمة من المفسرين . وقيل : وجه المماثلة كونها جماعات وكونها مخلوقة بحيث يشبه بعضها بعضاً ويأنس بعضها ببعض ويتوالد بعضها من بعض .

(265/232)

---

وضعف بأن هذا أمر معلوم مشاهد لا فائدة في الإخبار عنه . وقيل : هو أنه دبرها وخلقها وتكفل برزقها وأحصى أحوالها وما يجري عليها من العمر والرزق والأجل والسعادة والشقاوة . دليله قوله عقيبه ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ . وقيل : هو

أنها تحشر يوم القيامة ويوصل إليها حقوقها وقد جاء في الحديث " يقتص للجماء من القرناء " ولكن قوله بعد ذلك ﴿ ثم إلى ربهم يحشرون ﴾ يصير كالمكرر . وعن سفيان بن عيينة : ما في الأرض من آدمي إلا وفيه شبه من بعض البهائم . فمنهم من يقدم إقدام الأسد ، ومنهم من يعدو عدو الذئب ، ومنهم من ينبح نباح الكلب ، ومنهم من يتطوّس كفعال الطاووس ، ومنهم من يشبه الخنزير لو ألقي إليه الطعام الطيب تركه وإذا قام عن رجيعه لعب فيه ، وكذلك نجد من الأدميين من يسمع خمسين كلمة من الحكمة لا يحفظ واحدة وإن أخطأت مرة واحدة حفظها ، ولم يجلس مجلساً إلا زاد فيه . واعلم يا أخي أنك تعاشر البهائم والسباع فبالغ في الحذر والاحتراز . وذهب أهل التناسخ إلى أن الأرواح البشرية إن كانت سعيدة مطيعة لله تعالى موصوفة بالمعارف الحقة موسومة بالأخلاق الفاضلة فإنها بعد موتها تنتقل إلى أبدان الملوك ، وربما قالوا إنها تصل إلى مخالطة عالم الملائكة . وإن كانت شقية جاهلة فإنها تنقل إلى أبدان الحيوانات ، وكلما كانت أكثر شقاء فإنها تنتقل إلى بدن حيوان أخس وأكثر تعباً وعناء . قالوا : وذلك لأن لفظ المماثلة يقتضي حصول المساواة في جميع الصفات الذاتية . ثم زعموا أن الله تعالى أرسل إلى كل جنس منها رسولاً من جنسها لقوله ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ [ فاطر : 24 ] واستشهدوا بقصة النمل وحديث الهدهد ونحو ذلك . وفي تعداد مذاهب أرباب التناسخ طول والله تعالى أعلم بحقيقة الحال . ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ " من " مزيدة للاستغراق أي ما

تركنا وما أغفلنا شيئاً قط . وقيل : للتبعيض أي ما أهملنا فيه بعض شيء يحتاج المكلف إلى

(266/232)

---

معرفته . والكتاب اللوح المحفوظ المشتمل على جميع أحوال العالم على التفصيل . وقيل : القرآن لأنه هو الذي تسبق إليه الأذهان فيما بين أهل الإيمان ، وأورد عليه أنه ليس فيه تفاصيل علم الطب والحساب ولا تفاصيل كثير من العلوم ولا حاصل مذاهب الناس ودلائلهم في علم الأصول والفروع . وأجيب بأن لفظ التفريط لا يستعمل إلا فيما يجب أن يفعل ، والمحتاج إليه إنما هو الأصول والقوانين لا الفروع التي لا تضبط ولا تتناهى . وما من علم إلا وفي القرآن أصله ومنه شرفه وفضله كقوله ﴿ كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ [ الأعراف : 31 ] للطب . وقوله ﴿ وهو أسرع الحاسبين ﴾ [ الأنعام : 62 ] للحساب . وكقوله ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾

(267/232)

---

[ الأعرف : 199 ] للأخلاق . وأما تفاصيل علم الفروع فذكر العلماء أن السنة والإجماع والقياس كلها مستندة إلى الكتاب كقوله ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ [ الحشر : 7 ] وكقوله ﴿ ويتبع غير سبيل المؤمنين ﴾ [ النساء : 115 ] وكقوله : ﴿ فاعتبروا ﴾ [ الحشر : 2 ] وقيل : إن القرآن وافٍ ببيان جميع الأحكام ، لأن الأصل براءة الذمة عن التكاليف كلها وشغل الذمة لا بد فيه من دليل منفصل ، وكل حكم لم يكن مذكوراً في القرآن بالمطابقة أو التضمن أو الالتزام لم يكن ذلك تكليفاً أو يكون باقياً على أصل الإباحة والله تعالى أعلم . أما قوله ﴿ ثم إلى ربهم يحشرون ﴾ فللعقلاء فيه قولان : الأوّل قول الأشاعرة إنه تعالى يحشر الدواب والطيور لا لأن إيصال العوض إليهن واجب بل مجرد الإرادة والمشيئة ومقتضى الإلهية . الثاني قول المعتزلة لن يحشر الطيور والبهائم إلا لإيصال الأعواض إليها ، لأن إيصال الآلام إليها من غير سبق جناية لا يحسن إلا للعوض . وفرع القاضي على ذلك فقال : كل حيوان استحق العوض على الله تعالى بما لحقه من الآلام وكان ذلك العوض لم يصل إليه في الدنيا فإنه يجب على الله تعالى حشره في الآخرة ليوفر عليه ذلك العوض ، والذي لا يكون كذلك لا يكون كذلك فإنه لا يجب حشره عقلاً إلا أن السمع ورد بحشر الكل فيقطع بذلك . فرع آخر : كل حيوان أذن الله تعالى في ذبحه فالعوض له على الله تعالى ، وكذا الذي أذن في قتله في كونه مؤذياً أو ألمه بمرض أو سخره للإنسان لأجل حمل الاثقال ، وأما إذا ظلمها الناس فالعوض على الظالم ، وكذا إذا ظلم

بعضها بعضاً ، ولو ذبح المأكول لغير مأكله . فالعوض على الذابح ولهذا ورد النهى عن ذبح الحيوان لغير مأكله والمراد من العوض منافع عظيمة بلغت في الجلالة إلى حيث لو كانت هذه البهيمة عاقلة وعلمت أنه لا سبيل إلى تحصيل تلك المنافع إلا بواسطة تحمل ذلك الذبح لرضيت به . فرع آخر : مذهب القاضي وأكثر

(268/232)

---

المعتزلة أن العوض منقطع وبعد ذلك تصير تراباً وحينئذ ﴿ يقول الكافر يا ليتني كنت تراباً ﴾ [ النبأ : 40 ] وقال أبو القاسم البلخي : يجب دوام العوض لأنه لا يمكن قطع ذلك العوض إلا بإماتة تلك البهيمة ، وإماتتها توجب الألم ، وذلك الألم يوجب عوضاً آخر وهلم جراً إلى ما لا نهاية له . وأجيب بالمنع من أن الإماتة لا يمكن تحصيلها إلا بالإيلام . فرع آخر : البهيمة إذا استحقت عوضاً على بهيمة أخرى : فإن كانت البهيمة الظالمة قد استحقت عوضاً على الله تعالى فإنه تعالى يوصل ذلك العوض إلى المظلوم وإلا فإنه تعالى يتكفل بذلك العوض ، وهذا القدر يكفي في أحكام الأعواض بحسب المقام وهو سبحانه أعلم . ولما ذكر من خلائقه وآثار قدرته ما ينادي على عظمته ويشهد لربوبيته وينبه على رحمته الكاملة وعنايته الشاملة قال ﴿ والذين كذبوا بآياتنا صم ﴾ لا يسمعون كلام الله البتة ﴿

وبكم ﴿ لا ينطقون بالحق خابطون ﴿ في الظلمات ﴾ ظلمة الكفر وظلمة الشكوك وظلمة الحيرة والضلالة .

(269/232)

---

ثم بين أن الكفر والإيمان والطاعة والعصيان كلها بمشيئته وإرادته وتسخيره وتدبيره فقال ﴿ من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ﴾ والجبائي أوّل الآية بأن المراد أنهم كذلك في الآخرة كقوله ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً ﴾ [ الإسراء : 97 ] وأنهم شبهوا بمن حاله كذا ، أو هو محمول على الشتم والإهانة ، وأما قوله ﴿ من يشأ الله يضلله ﴾ أي عن طريق الجنة ولا يشاء الإضلال إلا لمن يستحق عقوبته كما أنه لا يشاء الهدي إلا للمؤمنين . أو المراد بالإضلال منع الألطاف لأنهم ليسوا من أهلها وبالهداية منحها لأنهم من أهلها . ثم بين غاية جهالة الكفار وأنهم مع جحودهم يفزعون إلى الله في البليات فقال ﴿ قل أرأيتكم ﴾ هو منقول من رأيت بمعنى أبصرت أو عرفت كأنه قيل : أبصرته وشاهدت حاله العجيبة أو أعرفتها أخبرني عنها فلا يستعمل إلا في الاستخبار عن حالة عجيبة بشيء . فهذا من باب إيقاع السبب على المسبب لأن الإخبار إنما يكون بعد المشاهدة أو العرفان . أما إعرابه فالتاء ضمير الفاعل

، والكاف للخطاب . فالتاء يكون بلفظ واحد في التثنية والجمع والتأنيث . وتختلف هذه المعاني على الكاف نحو : أرأيتك أرأيتكما أرأيتكم أرأيتكن . والتاء في جميع ذلك مفتوحة والكاف حرف خطاب وليست اسماً وإلا لكانت إما مجرورة ولا جار ، وإما مرفوعة وليست الكاف من ضمائر المرفوع ولا رافع أيضاً لأن التاء فاعل ولا يكون لفعل فاعلان ، وإما منصوبة وهو باطل من وجوه : أحدها أن هذا الفعل قد يتعدى إلى مفعولين نحو أرأيتك زيداً ما شأنه . فلو جعلت الكاف مفعولاً لكان ثالثاً . وثانيها لو كان مفعولاً لكان هو الثاني في المعنى وليس المعنى على ذلك إذ ليس الغرض أرأيت نفسك بل أرأيت غيرك ولذلك قلت : أرأيتك زيداً ، وزيد غير المخاطب ولا هو بدل منه . وثالثها لو كان منصوباً على أنه مفعول لظهرت علامة التثنية والجمع والتأنيث في التاء نحو :

(270/232)

---

أرأيتماكما وأرأيتموكم وأرأيتموكن . وقد ذهب الفراء إلى أنه اسم مضمر منصوب في معنى المرفوع ويجوز تصريف التاء . فأما مفعولا أرأيت في الآية فقيل : هما محذوفان تقديره أرأيتكم عبادتكم الأصنام هل تنفعكم عند مجيء الساعة ؟ ودل عليه قوله ﴿ أغير الله تدعون ﴾ وقيل : لا يحتاج ههنا إلى المفعول لأن الشرط وجوابه قد حصلا معنى المفعول

وأما جواب الشرط فما دل عليه الاستفهام في قوله ﴿ أغير الله ﴾ تقديره أرأيتكم الساعة دعوتم الله وحاصل الآية قل يا محمد لهؤلاء الكفار أرأيتكم إن أتاكم العذاب في الدنيا أو عند قيام الساعة ، أتخصون آلهتكم بالدعوة أم تدعون الله دونها ﴿ بل إياه تدعون ﴾ بل تخصونه بالدعاء دون الآلهة فيكشف ما تدعونه إلى كشفه إن شاء لأن قوارع الساعة لا تكشف عن المشركين .

وعلى هذا يكون قوله ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ [ غافر : 60 ] باقياً على إطلاقه لكن في الدنيا ، ولو علقت المشيئة بكشف العذاب في الدنيا كان قوله ﴿ ادعوني أستجب ﴾ [ غافر : 60 ] أيضاً مقيداً بالمشيئة ﴿ وتنسون ما تشركون ﴾ قال ابن عباس : تتركون الأصنام ولا تدعونها لعلمكم أنها لا تضر ولا تنفع ، ويجوز أن يراد لا تذكرون الأصنام في ذلك الوقت لأن أذهانكم مغمورة بذكر الله وحده ، والمقصود من الآية تبكيت الكفار كأنه قيل : إذا كنتم ترجعون عند نزول الشدائد إلى الله تعالى لا إلى الأصنام فلم تقدمون عبادتها ؟ وفيه أن مبنى الدين على الحجة والدليل لا على محض التقليد .

*(271/232)*

ثم سلى النبي صلى الله عليه وسلم بأن أعلمه أنه قد أرسل قبله إلى أقوام بلغوا في القسوة إلى أن أخذوا بالشدة في أنفسهم وأموالهم فلم يخضعوا وأصروا على كفرهم خلاف الأقوام المذكورين الذين يفزعون إلى الله في الشدائد . ويحتمل أن يقال : إن حكم الطائفتين واحد لأن التضرع واللجأ إلى الله إزالة البلية لا على سبيل الإخلاص غير معتبر . وفي الآية محذوف تقديره : ﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك رسلاً ﴾ فخالفوهم ﴿ فأخذناهم بالبأساء والضراء ﴾ وحسن الحذف لكونه مفهوماً . والبأساء والضراء البؤس والضر . أو البأساء القحط والجوع ، والضراء الأمراض والأوجاع والرزايا ﴿ لعلهم يتضرعون ﴾ يتذللون ويتخشعون وأصله الانقياد وترك التمرد . ضرع الرجل ضراعة فهو ضارع أي ذليل ضعيف . احتج الجبائي بالآية على أنه تعالى إنما أرسل الرسل إليهم وسلط هذه البأساء والضراء عليهم إرادة أن يتضرعوا ويؤمنوا ، فهو يريد الإيمان والطاعة من الكل . وأجيب بأن الترجي في حقه تعالى محال فإنهم يحملونه على الإرادة ، ونحن نحمله على أنه تعالى يعاملهم معاملة المترجي . فالترجيح على أن الفسق وتزيين الشيطان وكل ما يفرضونه لا بد أن ينتهي إلى خلق الله وتكوينه . أما قوله ﴿ فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ﴾ فمعناه نفي التضرع كأنه قيل : فلم يتضرعوا إذ جاءهم بأسنا . ولكنه جاء بلولا التحضيضية ليفيد أنه لم يكن لهم عذر في ترك التضرع إلا العناد والقسوة والإعجاب ، ثم بين أنه لما لم ينجع فيهم المواعظ والزواجر نقلهم من البأساء والضراء إلى الراحة والرخاء ففتح

أبواب الخيرات عليهم وسهل موجبات المسرات لديهم كما يفعله الأب المشفق لولده ، يخاشنه تارة ويلاينه أخرى . ومعنى ﴿ كل شيء ﴾ أي كل شيء كان مغلقاً عنهم من الخير ﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا ﴾ أي ظنوا أن ذلك باستحقاقهم ولم يزيدوا إلا بطراً وترفهاً ﴿ أخذناهم بغتة ﴾ قال الحسن : مكر بالقوم ورب الكعبة . وقال صلى الله عليه وسلم

(272/232)

---

" إذا رأيت الله يعطي العاصي فإن ذلك استدراج من الله تعالى " قال العلماء : وإنما أخذوا في حال الراحة والرخاء ليكون أشد لتحسرهم على ما فات من السلامة والعطاء ﴿ فإذا هم مبلسون ﴾ آيسون من كل خير .

(273/232)

---

وقال الفراء : المبلس الذي انقطع رجاؤه . ويقال للذي سكت عند انقطاع حجته قد أبلس . وقال الزجاج : المبلس الشديد الحسرة الحزين . " وإذا " ههنا للمفاجأة وهي

ظرف مكان " وهم " مبتدأ و﴿ مبلسون ﴾ خبره وهو العامل في " إذا " ﴿ فقطع دابر القوم ﴾ الدابر للشيء من خلفه كالولد للوالد . دبر فلان القوم يدبرهم دبوراً ودبراً إذا كان أخرهم . أبو عبيدة : دابر القوم آخرهم الذي يدبرهم . الاصمعي : منهم أحداً واستأصلهم لأن ذلك جارٍ مجرى النعمة على أولئك الرسل ، أو على أولئك الهالكين كيلا يزيدوا كفراً وعناداً فيزدادوا عذاباً وعقاباً ، أو حمد على ما أنعم عليهم قبل ذلك وهو أن كلفهم وأزال عنهم الأعذار والعلل وبعث الأنبياء والرسل وأخذهم بالبأساء . والضراء ثم نقلهم إلى الآلاء والنعماء إلا أنهم لم يزدادوا إلا انهماكاً في الغي والضلال فطهر وجه الأرض من شركهم . وفيه إيذان بوجوب الحمد لله عند هلاك كل ظالم فإن ذلك من جملة آلاء الله سبحانه ، ثم عاد إلى الدلالة على وجود الصانع الحكيم المختار وبيان وحدته جل جلاله فقال ﴿ قل أرأيتم إن أخذ الله ﴾ وتقرير ذلك أن أشرف أعضاء الإنسان هو السمع والبصر والقلب كما عدّدنا منافعها في أوائل الكتاب ، ولا ريب أن القادر على تحصيل قواها فيه وصرفها عن الآفات والمخافات ليس إلا الله وحده ، ومعنى أخذ السمع والبصر تعطيل منافعهما ، ومعنى الختم على القلب إزالة العقل حتى يصير كالمجانين . قال ابن عباس : إنه الطبع أو الإماتة حتى لا يعقل الهدى والصلاح ﴿ يأتيكم به ﴾ أي بذلك الذي أخذ من السمع والبصر والقلب ، فوضع الضمير موضع اسم الإشارة بناء على أن الضمير المذكور بحكم الاستعمال يلزم أن يكون لذي عقل ولو فرضاً . والأحسن أن يقال : إنه ذكر

أشياء متعددة فوجب أن يعود الضمير إلى جميعها مؤنثاً إذ لا ترجيح ، وحيث لم يكن الضمير مؤنثاً علم أنه أراد المذكور مطلقاً فتعين أم يشار إليه بذلك . ثم إنه أقام

(274/232)

---

الضمير المذكور مقامه أو يعود إلى ما أخذ وختم عليه وصح من غير التكلف المذكور بحكم التغليب ﴿ انظر ﴾ يا محمداً وكل من له أهلية النظر ﴿ كيف نصرف الآيات ﴾ نوردها على الوجوه المختلفة المتكاثرة بحيث يكون كل واحد منها يقوّي ما قبله في الإيصال إلى المطلوب . ومعنى " ثم " التفاوت بين الحالين و ﴿ يصدفون ﴾ أي يعرضون . ويقال : امرأة صدوف للتي تعرض وجهها عليك ثم تصدف أي تعرض . والصدف ميل في الحافر إلى الشق الوحشي . وصدف الدرة غشاؤها لميل فيه ، قال الكعبي : لو خلق الله فيهم الإعراض والصد لم ينكر ذلك عليهم . وقالت الأشاعرة : لولا منع الله تعالى لنجع فيهم الدلائل القاطعة للأعذار .

(275/232)

---

ثم عمم الدليل بقوله ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم ﴾ والمعنى أنه لا دافع لنوع من أنواع العذاب إلا الله سبحان فوجب أن لا يكون معبوداً إلا هو . ثم العذاب المفروض إما أن يجيء من غير سبق أمارة تدل على ذلك وهو البغتة وأكثر ما يكون ذلك بالليل ، أو مع سبق أمارة وهو الجهرة وأكثره بالنهار ولهذا قال الحسن : معناه ليلاً أو نهاراً . أما قوله ﴿ هل يهلك إلا القوم الظالمون ﴾ أي لا يهلك مع قوله ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ فمعناه أن الهلاك بالحقيقة وهو هلاك التعذيب والسخط مختص بالظالمين الأشرار لأن الأخيار وإن عمهم العذاب إلا أنهم يستفيدون بذلك ثواباً جزيلاً ، فهو لهم بلاء في الظاهر وآلاء في الحقيقة خلاف الظلمة فإنهم يخسرون الدنيا والآخرة ومثله قوله صلى الله عليه وسلم " إن أمر المؤمن خير كله إن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له وإن أصابته سراء فشكر كان خيراً له " واعلم أنه ذكر ههنا ﴿ أرأيتكم ﴾ مرتين فزاد خطاباً واحداً ، لأن عذاب الاستئصال ما عليه من مزيد فناسب زيادة الخطاب لأجل التأكيد ، وفيما بينهما قال ﴿ أرأيتم ﴾ حيث لم يكن كذلك ، وكذلك في يونس ، ثم ذكر أن الأنبياء والرسل بعثوا للتبشير والإنذار فقط ولا قدرة لهم على إظهار الآيات . وإنزال المعجزات التي اقترحوها في قوله ﴿ وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه ﴾ وأن ذلك مفوّض إلى مشيئة الله وحكمته فقال ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ﴾ بالثواب على الطاعات ﴿ ومنذرين ﴾ بالعقاب على المعاصي . فمن قبل قولهم وأتى بالإيمان الذي هو من أفعال القلب والعمل الصالح

الذي هو من أفعال البدن ﴿ فلا خوف عليهم والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب ﴾ ومعنى المس التقاء الشيئين من غير فصل . قال في الكشاف : جعل العذبا ماساً كأنه حي يفعل بهم ما يرد من الآلام وفيه نظر ، لأن المس ليس من خواص الأحياء ، نعم إنه من خواص الأجسام ، فلو ادعيت المبالغة من هذا الوجه لم يكن بعيداً

(276/232)

---

. قال القاضي : إنه علل عذاب الكافرين بكونهم فاسقين فيكون كل فاسق كافراً . وأقول : هذا من باب إيهام العكس ولا يلزم العكس ، فإن كل كافر فاسق ولا يلزم العكس .

ثم أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن ينفي عن نفسه أموراً ثلاثة فقال ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ﴾ وهي جمع خزانة للمكان الذي يخزن فيه الشيء ، وخزن الشيء إحرازه بحيث لا تناله الأيدي ﴿ ولا أعلم الغيب ﴾ قال في الكشاف : محله النصل عطفاً على محل قوله ﴿ عندي خزائن الله ﴾ لأنه من جملة المقول أي لا أقول لكم ذاك ولا هذا . قلت : ويحتمل أن يكون عطفاً على ﴿ لا أقول ﴾ أي قل لا أعلم الغيب فيكون فيه دلالة على أن الغيب بالاستقلال لا يعلمه إلا الله بخلاف كون خزائن الله عنده وكونه ملكاً فإن النبي صلى الله عليه وسلم يحتمل أن يكون له هذه المقامات ولكن لا يظهرها .

واختلف المفسرون في فائدة نفي هذ الأمور فقيل : المراد إظهار التواضع والخضوع لله تعالى والاعتراف بعبوديته حتى لا يعتقد فيه مثل اعتقاد النصارى في المسيح عليه السلام .

وقيل : المقصود إبداء العجز والضعف وأنه لا يستقل بإيجاد المعجزات التي كانوا يقترحونها كقولهم ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ إلى قوله ﴿ هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ [ الإسراء : 93 ] وقيل : أي لا أدّعي سوى النبوّة والرسالة ولا أدّعي الإلهية ولا الملكية وإنما زيد ههنا ﴿ لكم ﴾ بخلاف سورة هود حيث قال ﴿ ولا أقول إني ملك ﴾ [ الآية : 31 ] لأنه تقدم ذكر لكم في قوله ﴿ إني لكم نذير ﴾ [ هود : 25 ] فاكتفى بذلك . قال الجبائي : في الآية دلالة على أن الملك أفضل إذ المراد لا أدّعي فوق منزلتي .

قال القاضي : إن كان الغرض التواضع فالأقرب أن ذلك يدل على أن الملك أفضل ، وإن كان المراد نفي قدرته عن أفعال لا يقوى عليها إلا الملائكة لم يدل على أفضلية الملائكة . ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴾ قيل : هذا النص يدل على أنه صلى الله عليه وسلم لم يحكم من تلقاء نفسه بالاجتهاد في شيء من الأحكام ، ولا يجوز لأحد من أمته أن يعمل إلا بالوحي النازل عليه لقوله تعالى ﴿ فاتبعوه ﴾ [ الأنعام : 153 ] فلا يجوز العمل بالقياس ، وأكد

هذا الحكم بقوله ﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصير ﴾ وذلك أن العمل بغير الوحي يجري مجرى عمل الأعمى ، والعمل بمقتضى الوحي يقوم عمل البصير . ثم قال ﴿ أفلا تتفكرون ﴾ تنبيهاً على أنه يجب على العاقل أن يعرف الفرق بين هذين . وأجيب بأن أصل الاجتهاد والقياس إذا كان بالوحي لم يلزم الضلالة ، والآية مثل للضال والمهتدي أو لمن ادعى المستقيم وهو النبوة والمحال وهو الإلهية والملكية ﴿ أفلا تتفكرون ﴾ فلا تكونوا ضالين كالعميان ، أو فتعلموا أني ما ادعيت سوى ما يليق بالبشر والله تعالى أعلم وأحكم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 82.74 ﴾

*(278/232)*

---

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ وما من دابة ﴾ تدب في أرض البشرية وتتحرك من الحواس والجوارح والنفس وصفاتها ﴿ إلا أمم أمثالكم ﴾ في السؤال عن أقوالهم وأحوالهم كقوله ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا ﴾ [ الإسراء : 36 ] ﴿ ما فرطنا ﴾ ما تركنا في القرآن من شيء يحتاج إليه الإنسان ظاهره وباطنه ، ذاته وصفاته في السير إلى الله من

الأوامر والنواهي والندب والآداب . ﴿ ثم إلى ربهم يحشرون ﴾ ههنا بالسير وجذبات العناية ، أو هناك بالسلاسل والأغلال يسحبون في النار في نار القطيعة على وجوههم لأن من شأنهم التكذيب كما قال ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ﴾ بدلائلنا الموصلة إلينا ﴿ صم ﴾ آذان قلوبهم عن استماع الحق ﴿ بكم ﴾ ألسنة أحوالهم عن إجابة دعوة الحق في ظلمات صفات البشرية والأخلاق الذميمة ﴿ بل إياه تدعون ﴾ لأن رجوعه إلى ربه مركوز في روحانيته .

*(279/232)*

---

﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم ﴾ أي أرسلنا إليهم نعمة الصحة والكفاف والأمن فشغلوا بها عنا ، فأرسلنا إليهم بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة ندعوهم بها إلينا فلم يهتدوا ﴿ فأخذناهم بالبأساء والضراء ﴾ التي هي موجبة للإلجاء . ﴿ فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ﴾ وعلموا أن حقائق ألطافنا مدرجة في دقائق صور قهرنا ، وتحققوا أن درر محبتنا مستودعة في أصداف شدائد بأسنا ، فاستقبلوها بصدق الإلتجاء وحسن التضرع في الدعاء . ﴿ فلما نسوا ﴾ بسبب القساوة ﴿ ما ذكروا به ﴾ من معارضة البأساء والضراء فإنها تذكر أيام الرخاء وتعرّف قدر الصحة والنعماء وتؤدي إلى رؤية

المنعم ﴿ فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾ من البلاء في صورة النعماء لأرباب الظاهر بالنعم الظاهرة من الماء والجاه والقبول وأمثالها ، ولأرباب الباطن بالنعم الباطنة من فتوحات الغيب وأشباهها ﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا ﴾ وظنوا أنهم قد استغنوا عن صحبة الشيخ وتعليم تصرفاته فشرعوا في الطلب على وفق هواهم ﴿ أخذناهم بغتة ﴾ بفقد الأحوال والاشتغال بالقال ﴿ فإذا هم مبلسون ﴾ متحيرون في تيه الغرور . والحمد لله على إظهار اللطف لأربابه والقهر لأصحابه ليعلم أن الكل بقدر كما قال ﴿ قل أرأيتم ﴾ الآية إلا القوم الظالمون الذين ظلموا أنفسهم بصرف استعداد عبودية المولى في عبادة الهوى . فأما من ابتلي بعذاب الله من الآفات والمخافات والأمراض ونحوها ابتلاء فتاب ورجع فهو غيرها لك على الحقيقة ﴿ قل لا أقول لكم ﴾ لم يقل ليس ﴿ عندي خزائن الله ﴾ ليعلم أن خزائن الله وهي العلم بحقائق الأشياء وماهياتها عنده بإراءة ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ﴾ [ فصلت : 53 ] وباستجابة دعائه في قوله " أرنا الأشياء كما هي " ولكنه يكلم الناس على قدر عقولهم . ﴿ ولا أعلم الغيب ﴾ أي لا أقول لكم هذا مع أنه كان يخبرهم عما مضى وعما سيكون بإعلام الحق ، وقد قال صلى الله عليه وسلم في قصة ليلة المعراج " نظرت خلفي نظرة

علمت ما كان وما سيكون " ﴿ ولا أقول لكم إني ملك ﴾ وإن كنت قد عبرت عن مقام الملك حين قلت لجبريل : تقدم فقال : لو دنوت أنملة لاحترقت ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إليَّ ﴾ أن أخبرهم وقل معهم ﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصير ﴾ فلا يستوي مع الأعمى كلام البصير فكيف أخبركم عما أعمى الله بصائركم عنه وأنا به بصير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 82 . 83 ﴾

*(281/232)*

---

قوله تعالى ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (51) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أمره بتوبيخهم ، أمره – عاطفاً على قوله " قل " – بالإنذار على وجه مخز لهم أيضاً فقال : ﴿ وأنذر به ﴾ أي بما يوحى إليك ، وليس المراد تخصيص الإنذار بالخائف ، بل الإشارة إلى جلافتهم وعظيم بلادتهم وكثافتهم في عدم تجويز الجائز الذي هو أهل لأن يخافه

كل واحد بقوله : ﴿ الذين يخافون ﴾ أي تجويزاً للجائز عقلاً وعادة .

ولما كان المرهوب الحشر نفسه ، لا بقيد كونه من معين ؛ بني للمفعول قوله ﴿ أن يحشروا ﴾ أي يجمعوا وهم كارهون ﴿ إلى ربهم ﴾ أي المحسن إليهم بالإيجاد والتربية مع التقصير في الشكر ، حال كونهم ﴿ ليس لهم ﴾ وأشار إلى تحقير ما سواه وسفوله بالجار فقال : ﴿ من دونه ﴾ أي من المنزلة التي هي تحت منزلته ، ومن المعلوم أن كل شيء تحت قهر عظمته ومتضائل عن رتبته ، ليس لهم ذلك ، أي على وجه الانفراد أو التوسل ﴿ ولي ﴾ يتولى أمورهم فينقذهم قهراً مما يخافون ﴿ ولا شفيع ﴾ ينقذهم بحسن سفارته وعظيم رتبته وترتيبه ﴿ لعلهم يتقون ﴾ أي ليكون حالهم حال من يرجى أن يجعل بينه وبين عذاب الله وقاية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 642 ﴾

(282/232)

---

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ بالغدوة ﴾ مضموم الغين ساكن الدال مفتوح الواو وكذا في الكهف : ابن عامر الباقون : بفتح الغين والدال وبالألف ﴿ أنه ﴾ بالفتح ﴿ فإنه ﴾ بالكسر : أبو

جعفر ونافع . وقرأ ابن عامر وعاصم وسهل ويعقوب جميعاً بالفتح . الباقون : بالكسر فيهما ﴿ وليستبين ﴾ بياء الغيبة : زيد وحمزة وعلي وخلف وعاصم غير حفص والمفضل . الباقون : بالتاء الفوقانية ﴿ سبيل ﴾ بالنصب : أبو جعفر ونافع وزيد . الباقون : بالرفع ﴿ يقص ﴾ ابن كثير وأبو جعفر ونافع وعاصم . الباقون ﴿ يقضي الحق ﴾ .

الوقوف : ﴿ يتقون ﴾ ه ﴿ وجهه ﴾ ط ﴿ الظالمين ﴾ ه ﴿ من بيننا ﴾ ط ﴿ الشاكرين ﴾ ه ﴿ الرحمة ﴾ ط لمن قرأ ﴿ أنه ﴾ بكسر الألف ﴿ رحيم ﴾ ه ﴿ المجرمين ﴾ ه ﴿ من دون الله ﴾ ط ﴿ أهواءكم ﴾ لا لتعيين "إذا" بما قبله أي قد ضللت "إذا" اتبعت ﴿ المهتدين ﴾ ه ﴿ وكذبتم به ﴾ ط ﴿ تستعجلون به ﴾ ط ﴿ لله ﴾ ط ﴿ الفاصلين ﴾ ه ﴿ وبينكم ﴾ ط ﴿ بالظالمين ﴾ ه ﴿ إلا هو ﴾ ط ﴿ والبحر ﴾ ط ﴿ مبين ﴾ ه ﴿ مسمى ﴾ ط لأن "ثم" لترتيب الأخبار مع اتحاد المقصود . ﴿ تعملون ﴾ ه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 84 ﴾

(283/232)

فصل

قال الفخر :

( الإنذار ) الإعلام بموضع المخافة وقوله ﴿ بِهِ ﴾ قال ابن عباس والزجاج بالقرآن .

والدليل عليه قوله تعالى قبل هذه الآية ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ ﴾ [ الأنعام : 50 ] وقال الضحاك ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ﴾ أي بالله ، والأول أولى ، لأن الانذار والتخويف إنما يقع بالقول وبالكلام لا بذات الله تعالى .

وأما قوله ﴿ الذين يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إلى رَبِّهِمْ ﴾ ففيه أقوال : الأول : أنهم الكافرون الذين تقدم ذكرهم ، وذلك لأنه صلى الله عليه وسلم كان يخوفهم من عذاب الآخرة ، وقد كان بعضهم يتأثر من ذلك التخويف ، ويقع في قلبه أنه ربما كان الذي يقوله محمد حقاً ، فثبت أن هذا الكلام لائق بهؤلاء ، لا يجوز حمله على المؤمنين لأن المؤمنين يعلمون أنهم يحشرون إلى ربهم ، والعلم خلاف الخوف والظن .

*(284/232)*

---

ولقائل أن يقول : إنه لا يمتنع أن يدخل فيه المؤمنون ، لأنهم وإن تيقنوا الحشر فلم يتيقنوا العذاب الذي يخاف منه ، لتجويزهم أن يموت أحدهم على الإيمان والعمل الصالح وتجويز أن

لا يموتوا على هذه الحالة ، فلهذا السبب كانوا خائفين من الحشر ، بسبب أنهم كانوا مجوزين لحصول العذاب وخائفين منه .

والقول الثاني : أن المراد منه المؤمنون لأنهم هم الذين يقرون بصحة الحشر والنشر والبعث والقيامة فهم الذين يخافون من عذاب ذلك اليوم .

والقول الثالث : أنه يتناول الكل لأن لا عاقل إلا وهو يخاف الحشر ، سواء قطع بحصوله أو كان شاكاً فيه لأنه بالاتفاق غير معلوم البطلان بالضرورة فكان هذا الخوف قائماً في حق الكل ولأنه عليه السلام كان مبعوثاً إلى الكل ، وكان مأموراً بالتبليغ إلى الكل ، وخص في هذه الآية الذين يخافون الحشر ، لأن انتفاعهم بذلك الانذار أكمل ، بسبب أن خوفهم يحملهم على إعداد الزاد ليوم المعاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 192 ﴾

*(285/232)*

---

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ﴾ يعني : خوّف بالقرآن ﴿ الذين يَخَافُونَ ﴾ يعني : يعلمون ﴿ أَن يُحْشَرُواْ إلى رَبِّهِمْ ﴾ في الآخرة .

وإنما خصّ بالإنذار الذين يعلمون وإن كان منذراً لجميع الخلق ، لأن الحجة عليهم وجبت لاعترافهم بالمعاندة وهم أهل الكتاب كانوا يقرون بالبعث .

ويقال : هم المسلمون يعلمون أنهم يبعثون يوم القيامة ويؤمنون به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

و﴿ أنذر ﴾ عطف على ﴿ قل ﴾ ، والنبي عليه السلام مأمور بإنذار جميع الخلائق ، وإنما وقع التحضيض هنا بحسب المعنى الذي قصد ، وذلك أن فيما تقدم من الآيات نوعاً من اليائس في الأغلب عن هؤلاء الكفرة الذين قد قال فيهم أيضاً ﴿ أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ [ البقرة : 6 ، يس : 10 ] فكأنه قيل له هنا : قل لهؤلاء الكفرة المعرضين كذا ودعهم ورأيهم لأنفسهم وأنذر بالقرآن هؤلاء الآخرين الذين هم مظنة الإيمان وأهل للانتفاع ، ولم يرد أنه لا ينذر سواهم ، بل الإنذار العام ثابت مستقر ، والضمير في ﴿ به ﴾ عائد على ﴿ ما يوحى ﴾ " ويخافون " على بابها في الخوف أي الذين يخافون ما تحققوه من أن يحشروا ويستعدون لذلك ، ورب متحقق لشيء مخوف وهو لقلة النظر والحزم لا يخافه ولا يستعد له .

(286/232)

قال القاضي ابو محمد : وقال الطبري : وقيل ﴿ يخافون ﴾ هنا بمعنى يعلمون ، وهذا غير لازم ، وقوله ﴿ الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ﴾ يعم بنفس اللفظ كل مؤمن بالبعث من مسلم ويهودي ونصراني ، وقوله ﴿ ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع ﴾ يحتمل معنيين فإن جعلناه داخلاً في الخوف في موضع نصب على الحال أي يخافون أن يحشروا في حال من لا ولي له ولا شفيع ، فهي مختصة بالمؤمنين المسلمين ولأن اليهود والنصارى يزعمون أن لهم شفعاء وأنهم أبناء الله ونحو هذا من الأباطيل ، وإن جعلنا قوله : ﴿ ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع ﴾ إخباراً من الله تعالى عن صفة الحال يومئذ فهي عامة للمسلمين وأهل الكتاب و ﴿ لعلهم يتقون ﴾ ترجٍّ على حسب ما يرى البشر ويعطيه نظرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(287/232)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الذين يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إلى رَبِّهِمْ ﴾

بعد ما حكي لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن من الكفرة قوماً لا يتعظون بتصريف

الآيات الباهرة ، ولا يتأثرون بمشاهدة المعجزات القاهرة ، قد إيفت مشاعرُهم بالكلية ، والتحقوا بالأموات ، وقرّر ذلك بأن كرّر عليهم من فنون التبكيت والإلزام ما يُلقِمُهم الحجرَ أيَّ إلقامٍ فأبَوا إلا الإباءَ والنكيرَ ، وما نجَع فيهم عِظةٌ ولا تذكير ، وما أفادهم الإنذارُ إلا إصراراً على الإنكار ، أُمر عليه الصلاة والسلام بتوجيه الإنذار إلى مَنْ يتوقعُ منهم التأثرَ في الجملة وهم المجوِّزون منهم لحشر على الوجه الآتي ، سواء كانوا جازمين بأصله كأهل الكتاب وبعضِ المشركين المعترفين بالبعث ، المترددِين في شفاعة آبائهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كالأولين أو في شفاعة الأصنام كالآخِرين أو مترددّين فيهما معاً كبعض الكفرة الذين يُعلم من حالهم أنهم إذا سمعوا بحديث البعث يخافون أن يكون حقاً ، وأما المنكرون للحشر رأساً والقائلون به القاطعون بشفاعة آبائهم أو بشفاعة الأصنام فهم خارجون ممن أُمر بإنذراهم ، وقد قيل : هم المفرِّطون في الأعمال من المؤمنين ، ولا يساعده سِباقُ النظم الكريم ولا سياقه ، بل فيه ما يقضي باستحالة صحته كما ستقف عليه ، والضميرُ المجرورُ لما يوحى أو لما دل هو عليه من القرآن ، والمفعولُ الثاني للإنذار إما العذابَ الأخرويَّ المدلولَ عليه بما في حيز الصلة وإما مطلقَ العذاب الذي ورد به الوعيدُ ، والتعرّضُ لعنوان الربوبية المُنْبئة عن المالكيةِ المطلقةِ والتصرّف الكليِّ لتربية المهابة وتحقيق المخافة ، وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَهُمْ مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ في حيز النصْب على الحالية من ضمير ( يُحشروا ) ، و( من ) متعلقةٌ بمحذوف وقع حالاً من اسم ليس ، لأنه في

الأصل صفة له فلما قدم عليه انتصب حالاً ، خلا أن الحال الأولى لإخراج الحشر الذي لم يقيد بها عن حيز الخوف ، وتحقيقِ أن ما نيط به الخوفُ

(288/232)

---

هو الحشر على تلك الحالة لا الحشرُ كيفما كان ، ضرورةَ أن المعترفين به الجازمين بنُصرة غيرِه تعالى بمنزلةِ المنكرين له في عدم الخوفِ الذي عليه يدورُ أمرُ الإنذار ، وأما الحالُ الثانية فليست لإخراج الوليِّ الذي لم يقيَّد بها عن حيز الانتفاء لفساد المعنى لاستلزام ثبوتِ ولايتِه تعالى لهم كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ بل لتحقيق مدارِ خوفهم وهو فُقدان ما علّقوا به رجاءَهم ، وذلك إنما هو ولايةُ غيرِه سبحانه وتعالى في قوله تعالى : ﴿ وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ والمعنى أنذر به الذين يخافون أن يُحشروا غيرَ منصورين من جهة أنصارهم على زعمهم ، ومن هذا اتضح ألا سبيلَ إلى كون المرادِ بالخائفين المفرّطين من المؤمنين ، إذ ليس لهم وليٌّ سواه تعالى ليخافوا الحشرَ بدون نُصرته وإنما الذين يخافون الحشرَ بدون نصرته عز وجل ، وقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ تعليل الأمر ، أي أنذِرْهم لكي يتقوا الكفرَ

والمعاصيَ أو حال من ضمير الأمر ، أي أنذِرْهم راجياً تقواهم أو مِن الموصول أي أنذرهم مرجواً منهم التقوى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(289/232)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَأَنذِرِ ﴾ أي عظ وخوف يا محمد ﴿ بِهِ ﴾ أي بما يوحى أو بالقرآن كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما والزجاج ، وقيل : أي بالله تعالى وروي ذلك عن الضحاك . وهذا أمر منه سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بعد ما حكى سبحانه وتعالى له أن من الكفرة من لا يتعظ ولا يتأثر قد التحق بالأموات وانتظم في سلك الجمادات فما ينجع فيه دواء الإنذار ولا يفيده العظة والتذكار إذ ينذر من يتوقع في الجملة منهم الانتفاع ويرجى منهم القبول والسماع وهو المشار إليهم بقوله سبحانه : ﴿ الذين يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إلى رَبِّهِمْ ﴾ فالمراد من الموصول المجوزون للحشر على الوجه الآتي سواء كانوا جازمين بأصله كأهل الكتاب وبعض المشركين المعترفين بالبعث المترددين في شفاعة آبائهم الأنبياء كالأولين أو في شفاعة الأصنام كالآخرين أو المترددين فيهما معاً كبعض الكفرة الذين يعلم من حالهم أنهم إذا سمعوا بحديثه يخافون أن يكون حقاً ، وأما المنكرون للحشر رأساً والقائلون به

القاطعون بشفاعة آبائهم أو بشفاعة الأصنام فهم خارجون ممن أمر بإنذارهم كذا قال شيخ الإسلام .

وروي عن ابن عباس والحسن رضي الله تعالى عنهم أن المراد بالموصول المؤمنون وارتضاه غير واحد إلا أنهم قيدوا بالمفرطين لأنه المناسب للإنذار ورجاء التقوى .

وتعقبه الشيخ بأنه مما لا يساعده السباق ولا السياق بل فيه ما يقضي بعدم صحته وبينه بما سيذكر قريباً إن شاء الله تعالى ، وقيل : المراد المؤمنون والكافرون وعلله الإمام الرازي "بأنه لا عاقل إلا وهو يخاف الحشر سواء قطع بحصوله أو كان شاكاً فيه لأنه بالاتفاق غير معلوم البطلان بالضرورة فكان هذا الخوف قائماً في حق الكل وبأنه عليه الصلاة والسلام كان مبعوثاً إلى الكل فكان مأموراً بالتبليغ إليه" ولا يخفى ما فيه ، والمفعول الثاني للإنذار إما العذاب الأخروي المدلول عليه بما في حيز الصلة ، وإما مطلق العذاب الذي ورد به الوعيد .

والتعرض لعنوان الربوبية بتحقيق المخافة إما باعتبار أن التربية المفهومة منها مقتضية خلاف ما خافوا لأجل الحشر .

*(290/232)*

وإما باعتبار أنها منبئة عن المالكية المطلقة والتصرف الكلي كما قيل .

والمراد من الحشر إليه سبحانه الحشر إلى المكان الذي جعله عز وجل محلاً لاجتماعهم وللقضاء عليهم فلا تصلح الآية دليلاً للمجسمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ ﴾

الأظهر أنَّه عطف على قوله : ﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصير ﴾ [ الأنعام : 50 ] لأنّ ذلك مقدّمة لذكر مَن مثّلت حالهم بحال البصير وهم المؤمنون .

وضمير ﴿ به ﴾ عائد إلى ﴿ ما يوحى إليّ ﴾ [ الأنعام : 50 ] وهو القرآن وما يُوحى به إلى الرسول صلى الله عليه وسلم غير مراد به الإعجاز .

و ﴿ والذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ﴾ هم المؤمنون الممثّلون بحال البصير .

وعُرّفوا بالموصول لما تدلّ عليه الصلة من المدح ، ومن التعليل بتوجيه إنذاره إليهم دون غيرهم ، لأنّ الإنذار للذين يخافون أن يحشروا إنذار نافع ، خلافاً لحال الذين ينكرون الحشر ، فلا يخافونه فضلاً عن الاحتياج إلى شفعاء .

و ﴿ أن يحشروا ﴾ مفعول ﴿ يخافون ﴾ ، أي يخافون الحشر إلى ربِّهم فهم يقدّمون الأعمال الصالحة وينتهون عمَّا نهاهم خيفة أن يَلقَوا الله وهو غير راض عنهم .

وخوفُ الحشر يقتضي الإيمان بوقوعه .

ففي الكلام تعريض بأنّ المشركين لا ينجع فيهم الإنذار لأنَّهم لا يؤمنون بالحشر فكيف يخافونه .

.

ولذلك قال فيهم ﴿ إنّ الذين كفروا سواء عليهم ءَأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ [ البقرة : 6 ] .

وجملة : ﴿ ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع ﴾ حال من ضمير ﴿ أن يحشروا ﴾ ، أي يحشروا في هذه الحالة ، فهذه الحال داخلة في حيّز الخوف .

فمضمون الحال معتقد لهم ، أي ليسوا ممَّن يزعمون أنّ لهم شفعاء عند الله لا تردّ شفاعتهم ، فهم بخلاف المشركين الذين زعموا أصنامهم شفعاء لهم عند الله .

*(291/232)*

---

وقوله ﴿ من دونه ﴾ حال من ﴿ ولي ﴾ و ﴿ شفيع ﴾ ، والعامل في الحال فعل ﴿ يخافون ﴾ ، أي ليس لهم ولي دون الله ولا شفيع دون الله ذلك بأنّ الله مولى الذين آمنوا .

وهو تعريض بالمشركين الذين اتَّخذوا شفعاء وأولياء غير الله .

وفي الآية دليل على ثبوت الشفاعة بإذن الله كما قال تعالى : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلاّ بإذنه ﴾ [ البقرة : 255 ] .

ولصاحب "الكشاف" هنا تكلّفات في معنى ﴿ يخافون أن يحشروا ﴾ وفي جعل الحال من ضمير ﴿ يحشروا ﴾ حالاً لازمة ، ولعلّه يرمي بذلك إلى أصل مذهبه في إنكار الشفاعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

المجسمة تمسكوا بقوله تعالى : ﴿ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ ﴾ وهذا يقتضي كون الله تعالى مختصاً بمكان وجهة لأن كلمة ( إلى ) لانتهاء الغاية .

والجواب : المراد إلى المكان الذي جعله ربهم لاجتماعهم وللقضاء عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 192 ﴾

*(292/232)*

---

فائدة

قال الفخر :

قوله ﴿ لَيْسَ لَهُمْ مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ ﴾ قال الزجاج : موضع ﴿ لَّيْسَ ﴾ نصب على الحال كأنه قيل : متخلين من ولي ولا شفيع ، والعامل فيه يخافون .

ثم ههنا بحث : وذلك لأنه إن كان المراد من ﴿ الذين يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلى رَبِّهِمْ ﴾ الكفار ، فالكلام ظاهر ، لأنهم ليس لهم عند الله شفعاء ، وذلك لأن اليهود والنصارى كانوا يقولون : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاء اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [ المائدة : 18 ] والله كذبهم فيه وذكر أيضاً في آية أخرى فقال ﴿ مَا للظالمين مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [ غافر : 18 ] وقال أيضاً ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شفاعة الشافعين ﴾ [ المدثر : 48 ] وإن كان المراد المسلمين ، فنقول : قوله ﴿ لَيْسَ لَهُمْ مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ ﴾ لا ينافي مذهبنا في إثبات الشفاعة للمؤمنين لأن شفاعة الملائكة والرسل للمؤمنين ، إنما تكون بإذن الله تعالى لقوله ﴿ مَن ذَا الذى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [ البقرة : 255 ] فلما كانت تلك الشفاعة بإذن الله ، كانت في الحقيقة من الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 192 ﴾

وقال الآلوسى :

وقوله سبحانه : ﴿ لَيْسَ لَهُمْ مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ ﴾ في حيز النصب على الحالية من ضمير ﴿ يُحْشَرُواْ ﴾ والعامل فيه فعله .

ونقل الإمام عن الزجاج أنه حال من ضمير ﴿ يَخَافُونَ ﴾ والأول أولى .

و ﴿ مِن دُونِهِ ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالاً من اسم ليس لأنه في الأصل صفة له فلما قدم عليه انتصب على الحالية ، والحال الأولى لإخراج الحشر الذي لم يقيد بها عن حيز الخوف وتحقيق أن ما نيط به الخوف ( هو الحشر على ) تلك الحالة لا الحشر كيفما كان ضرورة أن المعترفين به الجازمين بنصرة غيره تعالى بمنزلة المنكرين له في عدم الخوف الذي يدور عليه أمر الإنذار والحال الثانية لتحقيق مدار خوفهم وهو فقدان ما علقوا به رجاءهم وذلك إنما هو ( ولاية ) ( 1 ) غيره سبحانه كما في قوله جل شأنه : ﴿ وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ﴾ [ الأحقاق : 32 ] وليست لإخراج الولي الذي لم يقيد بها عن حيز الانتفاء لاستلزامه ثبوت ولايته تعالى لهم كما في قوله سبحانه : ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ [ البقرة : 107 ] وذلك فاسد .

والمعنى أنذر به الذين يخافون حشرهم غير منصورين من جهة أنصارهم بزعمهم قاله شيخ الإسلام ، ثم قال : ومن هذا اتضح أن لا سبيل إلى كون المراد بالخائفين المفرطين من المؤمنين إذ ليس لهم ولي ولا شفيع سواه عز وجل ليخافوا الحشر بدون نصرته وإنما الذي يخافونه الحشر بدون نصرته سبحانه انتهى .

وهو تحقيق لم أره لغيره ويصغر لديه ما في "التفسير الكبير" ، ولعل ما روي عن ابن عباس والحسن رضي الله تعالى عنهم لم يثبت عنهما فتدبر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني حـ

7 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

فصل

قال الفخر :

قال ابن عباس : معناه وأنذرهم لكي يخافوا في الدنيا وينتهوا عن الكفر والمعاصي .

قالت المعتزلة : وهذا يدل على أنه تعالى أراد من الكفار التقوى والطاعة ، والكلام على هذا النوع من الاستدلال قد سبق مراراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 193 ﴾

(294/232)

---

وقال الآلوسى :

﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي لكي يخافوا في الدنيا وينتهوا عن الكفر والمعاصي كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وهو على هذا تعليل للأمر بالإنذار ، وجوز أن يكون حالاً عن ضمير الأمر أي أنذرهم راجياً تقواهم أو من الموصول أي أنذرهم مرجواً منهم التقوى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ لعلّهم يتَّقون ﴾ رجاء مسوق مساق التعليل للأمر بإنذار المؤمنين لأنَّهم يرجى تقواهم ، بخلاف من لا يؤمنون بالبعث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(295/232)

---

لطيفة

قال فى البحر المديد :

لا ينفع الوعظ والتذكير إلا من سبق له الخوف من الملك القدير ؛ إذ هو الذي ينهضه الخوف المزعج أو الشوق المقلق ، وأما من سَوّدت قلبَه الخطايا ، وانطبعت في مرآته صور الأشياء ، فلا ينفع فيه زاجر ولا واعظ ، بل ران على قلبه ما اقترفه من المآثم ، والعياذ بالله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 2 صـ 121 ﴾

(296/232)

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ ﴾

أي أنذر بالوحي – الذي تتبعه – هؤلاء الذين يخشون يوم اللقاء مع الله . والإنذار – كما نعلم – هو إعلام بشيء مخيف قبل وقوعه لنتفادى أن يقع . وما المراد بهؤلاء الذين يطلب الحق من رسوله إنذارهم بالوحي ، في أول الإسلام كان إقبال بعض المؤمنين على العمل الإيماني ضعيفاً ، وما دام في قلوبهم إيمان ، ويخشون لقاء الله فالوحي إنذار لهم بضرورة العمل الإيماني الجاد . كما يجوز أن يكون الإنذار بالوحي لأهل الكتاب ؛ لأنهم يعرفون أن هناك يوماً آخر سيلقون فيه الله . وقد يكون الإنذار لإنسان يؤمن بالبعث ولكنه يشك في الأنبياء وشفاعتهم ، فهذا الصنف قد يحمله التخويف والإنذار إلى أن يعيد النظر في قضية الإيمان ويتقبل النبأ الصدق الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولنا أن نأخذ الإنذار بالوحي على أي وجه من الوجوه السابقة . ولكن هل يخاف المؤمن أن يحشر إلى الله ؟ لا . إن المؤمن إنما يخاف أن يحشر مجرداً من الولي والناصر . إذ في الحقيقة ليس هناك أحد يحمي وينصر من الله ، ولا شفيع يخلص من عذاب الله إلا بإذنه ﴿ مَن ذَا الذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ وهذا ما يعتقده المؤمنون .

وقد حدد الحق ذلك في قوله : ﴿ لَيْسَ لَهُمْ مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [ الأنعام

: 51 ] .

إنهم هم المؤمنون الذين آمنوا بالله ، وبرسوله ولكنهم قصروا في بعض المطلوبات والتكاليف التي ينطوي عليها قوله الحق : ﴿ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ ﴾

(297/232)

---

هؤلاء المؤمنون عندما يجيئهم الإنذار فهم قد يصلحون من أمورهم خوفاً من الحشر بدون ولي ولا شفيع . المؤمن – إذن – له أمل أن يكون يوم الحشر في ولاية الله ورحمته ، وهؤلاء هم من قال عنهم الحق : ﴿ وَآخَرُونَ اعترفوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [ التوبة : 102 ] .

وإن كانت الآية الكريمة تتناول وتشمل غيرهم من أهل الكتاب وتشمل وتضم أيضا الذين يؤمنون بالبعث ولكنهم لم يتبعوا أنبياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(298/232)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (51) ﴾

الإنذارُ إعلامٌ بمواضع الخوف ، وإنما خص الخائفين بالإنذار كما خصَّ المتقين بإضافة الهدى إليهم حيث قال : ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [ البقرة : 2 ] لأن الانتفاع والاتِّباع بالتقوى ، والإنذار اختص بهم .

ويقال : الخوف ها هنا العلم ، وإنما يخاف من علم ، فأمَّا القلوب التي هي تحت غطاء الجهل فلا تباشرها طوارقُ الخوف .

قوله : ﴿ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ [ السجدة : 4 ] يعني كما أنه لا ناصر لهم من الأغيار فلا معتمدَ لهم من أفعالهم ، ولا مستندَ من أحوالهم ، ولا يؤمنون شيئاً سوى صرف العناية وخصائص الرحمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 474 ﴾

(299/232)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والثلاثون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/233)

الجزء الثالث والثلاثون بعد المائتين

من الآية ﴿ 52 ﴾ من سورة الأنعام

وحتى الآية ﴿ 55 ﴾ من نفس السورة

*(4/233)*

---

قوله تعالى ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (52) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أمره بدعاء من أعرض عنه ومجاهرته ، أمره بحفظ من تبعه وملاطفته ، فقال : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ﴾ وهم الفقراء من المسلمين ﴿ ربهم ﴾ أي المحسن إليه عكس ما عليه الكفار في دعاء من لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ؛ ثم بين من حالهم من الملازمة ما يقتضي الإخلاص فقال : ﴿ بالغداة والعشي ﴾ أي في طرفي النهار مطلقاً أو بصلاتيهما أو يكون كناية عن الدوام ؛ ثم أتبع ذلك نتيجته فقال معبراً عن الذات بالوجه ، لأنه أشرف – على ما

تتعارفه – وتذكّره يوجب التعظيم ويورث الخجل من التقصير : ﴿ يريدون وجهه ﴾ أي لأنه لو كان رياء لاضمحل على طول الزمان وتناوب الحدثان باختلاف الشأن .

(5/233)

---

ولما كان أكابر المشركين وأغنياؤهم قد وعدوه صلى الله عليه وسلم الاتباع إن طرد من تبعه ممن يأنفون من مجالستهم ، وزهدوه فيهم بفقرهم وبأنهم غير مخلصين في اتباعه ، إنما دعاهم إلى ذلك الحاجة ؛ بين له تعالى أنه لا حظ له في طردهم ولا في اتباع أولئك بهذا الطريق إلا من جهة الدنيا التي هو مبعوث للتنفير عنها ، فقال معللاً لما مضى أو مستأنفاً : ﴿ ما عليك ﴾ قدم الأهم عنده وهو تحمله ﴿ من حسابهم ﴾ وأغرق في النفي فقال : ﴿ من شيء ﴾ أي ليس لك إلا ظاهرهم ، وليس عليك شيء من حسابهم ، حتى تعاملهم بما يستحقون في الباطن من الطرد إن كانوا غير مخلصين ﴿ وما من حسابك ﴾ قدم أهم ما إليه أيضاً ﴿ عليهم من شيء ﴾ أي وليس عليهم شيء من حسابك فتخشى أن يحيفوا عليك فيه على تقدير غشهم ، أو ليس عليك من رزقهم شيء فيثقلوا به عليك ، وما من رزقك عليهم من شيء فيضعفوا عنه لفقرهم ، بل الرازق لك ولهم الله ؛ ثم أجاب النفي مسبباً عنه فقال : ﴿ فتطردهم ﴾ أي فتسبب عن أحد الشيئين طردك لهم ليقبل

عليك الأغنياء فلا يكلفوك ما كان أولئك يكلفونك ، وإن كلفتهم ما كان أولئك عاجزين عنه أطاقوه ؛ والحاصل أنه يجوز أن يكون معنى جملتي ﴿ ما عليك من حسابهم ﴾ - إلى آخرهما راجعاً إلى آية الكهف ﴿ ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ [ الكهف : 28 ] فيكون المعنى ناظراً إلى الرزق ، يعني أن دعاءك إلى الله إنما مداره الأمر الأخروي ، فليس شيء من رزق هؤلاء عليك حتى تستنفر بهم وترغب في الآغنياء ، ولا شيء من رزقك عليهم فيعجزوا عنه ، وفي اللفظ من كلام أهل اللغة ما يقبل هذا المعنى ؛ قال صاحب القاموس وغيره : الحساب : الكافي ومنه ﴿ عطاء حساباً ﴾ [ النبأ : 36 ] وحسّب فلان فلاناً : أطعمه وسقاه حتى شبع وروي .

*(6/233)*

---

وقال أبو عبيد الهروي : يقال : أعطيته فأحسبته ، أي أعطيته الكفاية حتى قال : حسبي ، وقوله ﴿ يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ [ البقرة : 212 ] أي بغير تقتير وتضييق ، وفي حديث سماك : ما حسبوا ضيفهم ، أي ما أكرموه ، وقال ابن فارس في المجمل : وأحسبته : أعطيته ما يرضيه ، وحسّبته أيضاً ، وأحسبني الشيء : كفاني .

ولما نهاه عن طردهم مبيناً أنه ضرر لغير فائدة ، سبب عن هذا النهي قوله ﴿ فتكون من

الظالمين ﴾ أي بوضعك الشيء في غير محله ، فإن طردك هؤلاء ليس سبباً لإيمان أولئك ، وليس هدايتهم إلا إلينا ، وقد طلبوا منا فيك لما فتناهم بتخصيصك بالرسالة ما لم يخف عليك من قولهم ﴿ لولا أنزل عليه ملك ﴾ [ الأنعام : 8 ] ونحوه مما أرادوا به الصرف عنك ، فكما لم تقبلهم فيك فلا تقبلهم أنت في أوليائنا ، فإنا فتناهم بك حتى سألوا فيك ما سألوا وتمنوا ما تمنوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 642 . 643 ﴾

فصل

قال الفخر :

روي عن عبد الله بن مسعود أنه قال : مر الملأ من قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده صهيب وخباب وبلال وعمار وغيرهم من ضعفاء المسلمين ، فقالوا : يا محمد أرضيت بهؤلاء عن قومك ؟ أفنحن نكون تبعاً لهؤلاء ؟ أطردهم عن نفسك ، فلعلك إن طردتهم اتبعناك ، فقال عليه السلام : " ما أنا بطارد المؤمنين " فقالوا فأقمهم عنا إذا جئنا ، فإذا أقمنا فأقعدهم معك إن شئت ، فقال "نعم" طمعاً في إيمانهم .

*(7/233)*

وروي أن عمر قال له : لو فعلت حتى ننظر إلى ماذا يصيرون ، ثم ألحوا وقالوا للرسول عليه السلام : أكتب لنا بذلك كتاباً فدعا بالصحيفة وبعلي ليكتب فنزلت هذه الآية ، فرمى الصحيفة ، واعتذر عمر عن مقالته ، فقال سلمان وخباب : فينا نزلت ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد معنا وندنو منه حتى تمس ركبتنا ركبته ، وكان يقوم عنا إذا أراد القيام ، فنزل قوله ﴿ واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ [ الكهف : 28 ] فترك القيام عنا إلى أن نقوم عنه وقال : " الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن اصبر نفسي مع قوم من أمتي معكم المحيا ومعكم الممات " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 193 ﴾

فصل

قال الفخر :

احتج الطاعنون في عصمة الأنبياء عليهم السلام بهذه الآية من وجوه : الأول : أنه عليه السلام طردهم والله تعالى نهاه عن ذلك الطرد ، فكان ذلك الطرد ذنباً .

والثاني : أنه تعالى قال : ﴿ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظالمين ﴾ وقد ثبت أنه طردهم ، فيلزم أن يقال : إنه كان من الظالمين .

والثالث : أنه تعالى حكى عن نوح عليه السلام أنه قال : ﴿ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الذين ءامَنُواْ ﴾ [ هود : 29 ] ثم إنه تعالى أمر محمداً عليه السلام بمتابعة الأنبياء عليهم السلام في جميع

الأعمال الحسنة ، حيث قال : ﴿ أُوْلَئِكَ الذين هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ [ الأنعام : 90 ] فبهذا الطريق وجب على محمد عليه السلام أن لا يطردهم ، فلما طردهم كان ذلك ذنباً .

*(8/233)*

---

والرابع : أنه تعالى ذكر هذه الآية في سورة الكهف ، فزاد فيها فقال : ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الحياة ﴾ [ الكهف : 28 ] ثم إنه تعالى نهاه عن الالتفات إلى زينة الحياة الدنيا في آية أخرى فقال ﴿ ا وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أزواجا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الحياة الدنيا ﴾ [ طه : 131 ] فلما نهى عن الالتفات إلى زينة الدنيا ، ثم ذكر في تلك الآية أنه يريد زينة الحياة الدنيا كان ذلك ذنباً .

الخامس : نقل أن أولئك الفقراء كلما دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الواقعة فكان عليه السلام يقول " مرحباً بمن عاتبني ربي فيهم " أو لفظ هذا معناه ، وذلك يدل أيضاً على الذنب .

والجواب عن الأول : أنه عليه السلام ما طردهم لأجل الاستخفاف بهم والاستنكاف من فقرهم وإنما عين لجلوسهم وقتاً معيناً سوى الوقت الذي كان يحضر فيه أكابر قريش فكان

غرضه منه التلطف في إدخالهم في الإسلام ولعلّه عليه السلام كان يقول هؤلاء الفقراء من المسلمين لا يفوتهم بسبب هذه المعاملة أمر مهم في الدنيا وفي الدين ، وهؤلاء الكفار فإنه يفوتهم الدين والإسلام فكان ترجيح هذا الجانب أولى فأقصى ما يقال إن هذا الاجتهاد وقع خطأً إلا أن الخطأ في الاجتهاد مغفور .

وأما قوله ثانياً : إن طردهم يوجب كونه عليه السلام من الظالمين .

فجوابه : أن الظلم عبارة عن وضع الشيء في غير موضعه ، والمعنى أو أولئك الضعفاء الفقراء كانوا يستحقون التعظيم من الرسول عليه السلام فإذا طردهم عن ذلك المجلس كان ذلك ظلماً ، إلا أنه من باب ترك الأولى والأفضل لا من باب ترك الواجبات وكذا الجواب عن سائر الوجوه فإنا نحمل كل هذه الوجوه على ترك الأفضل والأكمل والأولى والأحرى ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 193 . 194 ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ ابن عامر ﴿ بالغداة والعشى ﴾ بالواو وضم الغين وفي سورة الكهف مثله والباقون بالألف وفتح الغين .

قال أبو علي الفارسي الوجه قراءة العامة بالغدة لأنها تستعمل نكرة فأمكن تعريفها بإدخال لام التعريف عليها .

فأما ( غدوة ) فمعرفة وهو علم صيغ له ، وإذا كان كذلك ، فوجب أن يمتنع إدخال لام التعريف عليه ، كما يمتنع إدخاله على سائر المعارف .

وكتبة هذه الكلمة بالواو في المصحف لا تدل على قولهم ، ألا ترى أنهم كتبوا "الصلوة" بالواو وهي ألف فكذا ههنا .

قال سيبويه "غدوة وبكرة" جعل كل واحد منهما اسماً للجنس كما جعلوا أم حبين اسماً لدابة معروفة .

قال وزعم يونس عن أبي عمرو أنك إذا قلت لقيته يوماً من الأيام غدوة أو بكرة وأنت تريد المعرفة لم تنون .

فهذه الأشياء تقوي قراءة العامة ، وأما وجه قراءة ابن عامر فهو أن سيبويه قال زعم الخليل أنه يجوز أن يقال أتيتك اليوم غدوة وبكرة فجعلهما بمنزلة ضحوة ، والله أعلم . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 194 ﴾

فائدة

قال الفخر :

في قوله ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشى ﴾ قولان :

الأول : أن المراد من الدعاء الصلاة ، يعني يعبدون ربهم بالصلاة المكتوبة ، وهي صلاة الصبح وصلاة العصر وهذا قول ابن عباس والحسن ومجاهد .

وقيل : المراد من الغداة والعشى طرفا النهار ، وذكر هذين القسمين تنبيهاً على كونهم مواظبين على الصلوات الخمس .

والقول الثاني : المراد من الدعاء الذكر قال إبراهيم : الدعاء ههنا هو الذكر والمعنى يذكرون ربهم طرفي النهار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 194 ﴾

فصل

قال الفخر :

المجسمة تمسكوا في إثبات الأعضاء لله تعالى بقوله ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ وسائر الآيات المناسبة له مثل قوله ﴿ ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ [ الرحمن : 27 ] .

*(10/233)*

---

وجوابه أن قوله ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [ الإخلاص : 1 ] يقتضي الوجدانية التامة ، وذلك ينافي التركيب من الأعضاء والأجزاء ، فثبت أنه لا بدّ من التأويل ، وهو من وجهين : الأول

: قوله ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ المعنى يريدونه إلا أنهم يذكرون لفظ الوجه للتعظيم ، كما يقال هذا وجه الرأي وهذا وجه الدليل ، والثاني : أن من أحب ذاتاً أحب أن يرى وجهه ، فرؤية الوجه من لوازم المحبة ، فلهذا السبب جعل الوجه كناية عن المحبة وطلب الرضا وتمام هذا الكلام تقدم في قوله ﴿ وَلِلَّهِ المشرق والمغرب فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ الله ﴾ [ البقرة : 115 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 194 . 195 ﴾

قوله تعالى ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّن شَىْءٍ ﴾

فصل

قال الفخر :

اختلفوا في أن الضمير في قوله ﴿ حِسَابِهِمْ ﴾ وفي قوله ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ إلى ماذا يعود ؟

والقول الأول : أنه عائد إلى المشركين ، والمعنى ما عليك من حساب المشركين من شيء ولا حسابك على المشركين وإنما الله هو الذي يدبر عبيده كما يشاء وأراد .

والغرض من هذا الكلام أن النبي صلى الله عليه وسلم يتحمل هذا الاقتراح من هؤلاء الكفار ، فلعلّهم يدخلون في الإسلام ويتخلصون من عقاب الكفر ، فقال تعالى : لا تكن في قيد أنهم يتقون الكفر أم لا فإن الله تعالى هو الهادي والمدبر .

القول الثاني : أن الضمير عائد إلى الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ، وهم الفقراء ، وذلك أشبه بالظاهر .

والدليل عليه أن الكناية في قوله ﴿ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظالمين ﴾ عائدة لا محالة إلى هؤلاء الفقراء ، فوجب أن يكون سائر الكنايات عائدة إليهم ، وعلى هذا التقدير فذكروا في قوله ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ قولين : أحدهما : أن الكفار طعنوا في إيمان أولئك الفقراء وقالوا يا محمد إنهم إنما اجتمعوا عندك وقبلوا دينك لأنهم يجدون بهذا السبب مأكولاً وملبوساً عندك ، وإلا فهم فارغون عن دينك ، فقال الله تعالى إن كان الأمر كما يقولون ، فما يلزمك إلا اعتبار الظاهر وإن كان لهم باطن غير مرضي عند الله ، فحسابهم عليه لازم لهم ، لا يتعدى إليك ، كما أن حسابك عليك لا يتعدى إليهم ، كقوله ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ [ الأنعام : 164 ] .

فإن قيل : أما كفى قوله ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ حتى ضم إليه قوله ﴿ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّن شَىْءٍ ﴾

قلنا : جعلت الجملتان بمنزلة جملة واحدة قصد بهما معنى واحد وهو المعنى في قوله ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ ولا يستقل بهذا المعنى إلا الجملتان جميعاً ، كأنه قيل لا تؤاخذ أنت ولا هم بحساب صاحبه .

القول الثاني : ما عليك من حساب رزقهم من شيء فتملهم وتطردهم ، ولا حساب رزقك عليهم ، وإنما الرازق لهم ولك هو الله تعالى ، فدعهم يكونوا عندك ولا تطردهم .

واعلم أن هذه القصة شبيهة بقصة نوح عليه السلام إذ قال له قومه ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ واتبعك الأرذلون ﴾ [ الشعراء : 111 ] فأجابهم نوح عليه السلام و ﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ على رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾ [ الشعراء : 112 ، 113 ] وعنوا بقولهم ﴿ الأرذلون ﴾ الحاكة والمحترفين بالحرف الخسيسة ، فكذلك ههنا .

وقوله ﴿ فَتَطْرُدَهُمْ ﴾ جواب النفي ومعناه ، ما عليك من حسابهم من شيء فتطردهم ، بمعنى أنه لم يكن عليك حسابهم حتى أنك لأجل ذلك الحساب تطردهم ، وقوله ﴿ فَتَكُونَ مِنَ الظالمين ﴾ يجوز أن يكون عطفاً على قوله ﴿ فَتَطْرُدَهُمْ ﴾ على وجه التسبب لأن كونه ظالماً معلول طردهم ومسبب له .

وأما قوله ﴿ فَتَكُونَ مِنَ الظالمين ﴾ ففيه قولان : الأول : ﴿ فَتَكُونَ مِنَ الظالمين ﴾ لنفسك بهذا الطرد ، الثاني : أن تكون من الظالمين لهم لأنهم لما استوجبوا مزيد التقريب والترحيب كان طردهم ظلماً لهم ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 196.195 ﴾

(12/233)

فائدة

قال الطبرى :

والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن الله تعالى ذكره نهى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يطرُد قومًا كانوا يدعون ربّهم بالغداة والعشي ، و" الدعاء لله " ، يكون بذكره وتمجيده والثناء عليه قولا وكلامًا وقد يكون بالعمل له بالجوارح الأعمالَ التي كان عليهم فرضُها ، وغيرُها من النوافل التي ترضي عن العامل له عابدَه بما هو عامل له . وقد يجوز أن يكون القوم كانوا جامعين هذه المعاني كلها ، فوصفهم الله بذلك بأنهم يدعونه بالغداة والعشي ، لأن الله قد سمى " العبادة " ، " دعاء " ، فقال تعالى ذكره : وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ، [سورة غافر : 60] . وقد يجوز أن يكون ذلك على خاصّ من الدعاء .

ولا قول أولى بذلك بالصحة ، من وصف القوم بما وصفهم الله به : من أنهم كانوا يدعون ربهم بالغداة والعشي ، فيعمُّون بالصفة التي وصفهم بها ربهم ، ولا يخصُّون منها بشيء دون شيء .

(13/233)

فتأويل الكلام إذاً : يا محمد ، أنذر القرآن الذي أنزلته إليك ، الذين يعلمون أنهم إلى ربهم محشورون فهم من خوف ورودهم على الله الذي لا شفيع لهم من دونه ولا نصير ، في العمل له دائبون إذ أعرض عن إنذارك واستماع ما أنزل الله عليك المكذبون بالله واليوم الآخر من قومك ، استكبارًا على الله ولا تطردهم ولا تُقْصِهم ، فتكون ممن وضع الإقصاء في غير موضعه ، فأقصى وطرد من لم يكن له طرده وإقصاؤه ، وقرّب من لم يكن له تقديمه بقربه وإدناؤه ، فإن الذين نهيتُك عن طردهم هم الذين يدعون ربهم فيسألونه عفوه ومغفرته بصالح أعمالهم ، وأداء ما ألزمهم من فرائضه ، ونوافل تطوّعهم ، وذكرهم إياه بألسنتهم بالغداة والعشي ، يلتمسون بذلك القربة إلى الله ، والدنوّ من رضاه " ما عليك من حسابهم من شيء " ، يقول : ما عليك من حساب ما رزقتهم من الرزق من شيء وما عليهم من حساب ما رزقتك من الرزق من شيء " فتطردهم " ، حذارَ محاسبتي إياك بما خوّلتهم في الدنيا من الرزق .

وقوله : " فتطردهم " ، جواب لقوله : " ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء " .

وقوله : " فتكون من الظالمين " جواب لقوله : " ولا تطرد الذين يدعون ربهم " . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 10 صـ 387 . 388 ﴾

---

فائدة

قال التستري :

سئل عن قوله : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [ 52 ] قال : أي يريدون وجه الله ورضاه ، ولا يغيبون عنه ساعة . ثم قال : أزهد الناس أصفاهم مطعماً ، وأعبد الناس أشدهم اجتهاداً في القيام بالأمر والنهي ، وأحبهم إلى الله أنصحهم لخلقه . وسئل عن العمر قال : الذي يضيع العمر .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [ 52 ] فهو قصد العبد في حركاته وسكونه إليه ، كما قال : ﴿ والذين استجابوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصلاة ﴾ [ الشورى : 38 ] فكل من وجد حال المريد والمراد فهو من فضل الله عليه ، ألا ترى أنه جمع بينهما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ الله ﴾ [ النحل : 53 ] قيل له : فما الفصل بينهما ؟ فقال : المريد الذي يتكلف القصد إليه والعبادة لله تعالى ويطلب الطريق إليه ، فهو في الطلب بعد ، والمراد قيام الله تعالى له بها ، والرجل يجد في نفسه ما يدل على المريد ، والمراد يدخل في الطاعات وقتاً يجد ما يحمله على الأعمال من غير تكلف

وجهد نظراً من الله تعالى له ، ثم يخرج بعد ذلك إلى علو المقامات ورفيع الدرجات .

قيل له : ما معنى المقامات ؟ فقال : هي موجودة في كتاب الله تعالى في قصة الملائكة : ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [ الصافات : 164 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التستري صـ 61 ﴾

*(15/233)*

---

فائدة

قال الثعالبي:

وقوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾

قلتُ : قال الغزَّالِيُّ في "الجَوَاهر" : النيةُ والعَمَلُ ؛ بهما تمامُ العبادةِ ، فالنِّيَّة أحد جُزْأَيِ العبَادةِ ، لكنها خير الجزأَين ، ومعنى النيَّة إرادةُ وَجْه اللَّه سبحانه بالعَمَلِ ، قال اللَّه تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ ، ومعنى إخلاصها تصفيةُ الباعِثِ عن الشوائِبِ ، ثم قال الغزَّالِيُّ : وإذا عرفْتَ فَضْل النية ، وأَنَّها تحلُّ حَدَقَةَ المقْصود ، فاجتهد أنْ تستكثر مِنَ النِّيَّة في جميع أعمالِكَ ؛ حتى تنوي بعملٍ واحدٍ نيَّاتٍ

كثيرةً ، فاجتهد ولو صَدَقَتْ رغبتُكَ ، لَهُدِيتَ لطريقِ رشدك . انتهى . ا هـ

﴿ الجواهر الحسان حـ 1 صـ ﴾

(16/233)

---

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ .

نهى الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة نبيه صلى الله عليه وسلم عن طرد ضعفاء المسلمين وفقرائهم الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، وأمره في آية أخرى أن يصبر نفسه معهم ، وأن لا تعدو عيناه عنهم إلى أهل الجاه والمنزلة في الدنيا ، ونهاه عن إطاعة الكفرة في ذلك وهي قوله :

﴿ واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم بالغداة والعشي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحياة الدنيا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا واتبع هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾ [ الكهف : 28 ] كما أمره هنا بالسلام عليهم ، وبشارتهم برحمة ربهم جل وعلا في قوله :

﴿ وَإِذَا جَآءَكَ الذين يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمة ﴾ [ الأنعام : 54 ] ، الآية ، وبين في آيات أخر أن طرد ضعفاء المسلمين الذي طلبه كفار العرب من نبينا صلى الله عليه وسلم فنهاه الله عنه ، طلبه أيضاً قوم نوح من نوح ، فأبى كقوله تعالى عنه : ﴿ وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الذين آمنوا ﴾ [ هود : 29 ] الآية ، وقوله : ﴿ ويا قوم مَن يَنصُرُنِي مِنَ الله إِن طَرَدتُّهُمْ ﴾ [ هود : 30 ] الآية ، وقوله : ﴿ وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ المؤمنين ﴾ [ الشعراء : 114 ] ، وهذا من تشابه قلوب الكفار المذكور في قوله تعالى : ﴿ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [ البقرة : 118 ] ، الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 1 صـ ﴾

*(17/233)*

---

ومن فوائد ابن الجوزى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم ﴾

روى سعد بن أبي وقاص قال : نزلت هذه الآية في ستة : فيّ ، وفي ابن مسعود ، وصهيب ، وعمار ، والمقداد ، وبلال .

قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا لا نرضى أن نكون أتباعا لهؤلاء ،

فاطردهم عنك ، فدخل على رسول الله من ذلك ما شاء الله أن يدخل ، فنزلت هذه الآية .

وقال خباب بن الأرتِّ : نزلت فينا ، كنا ضعفاء عند النبي صلى الله عليه وسلم ، يعلّمنا بالغداة والعشي ما ينفعنا ، فجاء الأقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن ، فقالا : إنا من أشراف قومنا ، وإنا نكره أن يرونا معهم ، فاطردهم ، إذا جالسناك .

قال : "نعم" .

فقالوا : لا نرضى حتى تكتب بيننا كتاباً ، فأُتي بأديم ودواة ، ودعا علياً ليكتب ، فلما أراد ذلك ، ونحن قعود في ناحية ، إذ نزل جبريل بقوله تعالى : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم ﴾ إلى قوله ﴿ فتنّا بعضهم ببعض ﴾ ، فرمى بالصحيفة ودعانا ، فأتيناه وهو يقول : ﴿ سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ .

فدنونا منه يومئذ حتى وضعنا ركبنا على ركبته .

وقال ابن مسعود : مرّ الملأ من قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده خبَّاب ، وصهيب ، وبلال ، وعمَّار ، فقالوا : يا محمد ، رضيتَ بهؤلاء ، أتريد أن نكون تبعاً لهم ؟ ! فنزلت ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم ﴾ .

وقال عكرمة : جاء عتبة ، وشيبة ابنا ربيعة ، ومطعم بن عدي ، والحارث بن نوفل ، في أشراف بني عبد مناف ، إلى أبي طالب فقالوا : لو أن ابن أخيك يطرد عنه موالينا وعبيدنا

كان أعظم في صدورنا ، وأدنى لاتِّباعنا إياه ، فأتاه أبو طالب فحدثه بذلك ، فقال عمر بن الخطاب : لو فعلت ذلك حتى ننظر ما الذي يريدون ، فنزلت هذه الآيات ، فأقبل عمر يعتذر من مقالته .

(18/233)

---

وروى أبو صالح عن ابن عباس : أن هذه الآيات نزلت في الموالي ، منهم بلال ، وصهيب ، وخبَّاب ، وعمَّار ، ومِهْجَعُ ، وسلمان ، وعامر ابن فهيرة ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وأن قوله : ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ﴾ نزلت فيهم أيضا .

وقد روى العوفي عن ابن عباس : أن ناساً من الأشراف قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : نؤمن لك ، وإذا صلينا فأخِّر هؤلاء الذين معك ، فليصلوا خلفنا .

فعلى هذا ، إنما سألوه تأخيرهم عن الصف ، وعلى الأقوال التي قبله ، سألوه طردهم عن مجلسه .

قوله تعالى : ﴿ يدعون ربهم ﴾ في هذا الدعاء خمسة أقوال .

أحدها : أنه الصلاة المكتوبة ، قاله ابن عمر ، وابن عباس .

وقال مجاهد : هي الصلوات الخمس ؛ وفي رواية عن مجاهد ، وقتادة قالا : يعني صلاة

الصبح والعصر .

وزعم مقاتل أن الصلاة يومئذ كانت ركعتين بالغداة ، وركعتين بالعشي ، ثم فرضت الصلوات الخمس بعد ذلك .

والثاني : أنه ذكر الله تعالى ، قاله إبراهيم النخعي ، وعنه كالقول الأول .

والثالث : أنه عبادة الله ، قاله الضحاك .

والرابع : أنه تعلم القرآن غدوة وعشية ، قاله أبو جعفر .

والخامس : أنه دعاء الله بالتوحيد ، والإخلاص له ، وعبادته ، قاله الزجاج .

وقرأ الجمهور : "بالغداة" وقرأ ابن عامر هاهنا وفي ( الكهف ) أيضا : "بالغُدْوَةِ" بضم الغين وإسكان الدال وبعدها واو .

قال الفراء : والعرب لا تدخل الألف واللام على "الغدوة" لأنها معرفة بغير ألف ولام ، ولا تضيفها العرب ؛ يقولون : أتيتك غداة الخميس ، ولا يقولون : غُدوة الخميس ، فهذا دليل على أنها معرفة .

وقال أبو علي : الوجه : الغداة ، لأنها تستعمل نكرة ، وتتعرف باللام ؛ وأما غُدوة ، فمعرفة .

وقال الخليل : يجوز أن تقول أتيتك اليوم غُدوة وبُكرة ، فجعلها بمنزلة ضحوة ، فهذا وجه قراءة ابن عامر .

---

فإن قيل : دعاء القوم كان متصلاً بالليل والنهار ، فلماذا خص الغداة والعشي ، فالجواب : أنه نبه بالغداة على جميع النهار ، وبالعشي على الليل ، لأنه إذا كان عمل النهار خالصا له ، كان عمل الليل أصفى .

قوله تعالى : ﴿ يريدون وجهه ﴾ قال الزجاج : أي : يريدون الله ، فيشهد الله لهم بصحة النيات ، وأنهم مخلصون في ذلك .

وأما الحساب المذكور في الآية ففيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه حساب الأعمال ، قاله الحسن .

والثاني : حساب الأرزاق .

والثالث : أنه بمعنى الكفاية ، والمعنى ما عليك من كفايتهم ، ولا عليهم كفايتك .

قوله تعالى : ﴿ فتكون من الظالمين ﴾ قال ابن الأنباري : عظم هذا الأمر على النبي صلى الله عليه وسلم ، وخُوِّفَ بالدخول في جملة الظالمين ، لأنه كان قد همّ بتقديم الرؤساء على الضعفاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ الآية .

(20/233)

---

المراد ب ﴿ الذين ﴾ ضعفة المؤمنين في ذلك الوقت في أمور الدنيا بلال وعمار وابن أم عبد ومرثد الغنوي وخباب وصهيب وصبيح وذو الشمالين والمقداد ونحوهم وسبب الآية أن الكفار قال بعضهم للنبي صلى الله عليه وسلم : نحن لشرفنا وأقدارنا لا يمكننا أن نختلط بهؤلاء ، فلو طردتهم لاتبعناك وجالسناك ، ورد في ذلك حديث عن ابن مسعود ، وقيل : إنما قاله هذه المقالة أبو طالب على جهة النصح للنبي صلى الله عليه وسلم قال له : لو أزلت هؤلاء لاتبعك أشراف قومك وروي أن ملأ قريش اجتمعوا إلى أبي طالب في ذلك ، وظاهر الأمر أنهم أرادوا بذلك الخديعة ، فصوب هذا الرأي من أبي طالب عمر بن الخطاب وغيره من المؤمنين فنزلت الآية ، وقال ابن عباس : إن بعض الكفار إنما طلب أن يؤخر هؤلاء عن الصف الأول في الصلاة ، ويكونون هم موضعهم ، ويؤمنون إذا طرد هؤلاء من الصف الأول فنزلت الآية ، أسند الطبري إلى خباب بن الأرت أن الأقرع بن حابس ومن شابهه من أشراف العرب قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم اجعل لنا منك مجلساً ، لا

يخالطنا فيه العبيد والحلفاء ، واكتب لنا كتاباً ، فهمّ النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فنزلت هذه الآية .

(21/233)

---

قال القاضي أبو محمد : وهذا تأويل بعيد في نزول الآية ، لأن الآية مكية وهؤلاء الأشراف لم يفدوا إلا في المدينة ، وقد يمكن أن يقع هذا القول منهم ولكنه إن كان وقع فبعد نزول الآية بمدة اللهم إلا تكون الآية مدنية ، قال خباب رضي الله عنه : ثم نزلت ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ﴾ [ الأنعام : 54 ] الآية فكنا نأتي فيقول لنا : سلام عليكم ونقعد معه ، فإذا أراد يقوم قام وتركنا ، فأنزل الله ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم ﴾ [ الكهف : 28 ] الآية فكان يقعد معنا ، فإذا بلغ الوقت الذي يقوم فيه قمنا وتركناه حتى يقوم و ﴿ يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ قال الحسن بن أبي الحسن المراد به صلاة مكة التي كانت مرتين في اليوم بكرة وعشياً وقيل : بل قوله : ﴿ بالغداة والعشي ﴾ عبارة عن استمرار الفعل وأن الزمن معمور به ، كما تقول : الحمد لله بكرة وأصيلا ، فإنما تريد الحمد لله في كل وقت والمراد على هذا التأويل قيل ، هو الصلوات الخمس ، قاله بن عباس وإبراهيم ، وقيل الدعاء وذكر الله واللفظة على وجهها وقال بعض

القصاص : إنه الاجتماع إليهم غدوة وعشياً فأنكر ذلك ابن المسيب وعبد الرحمن بن أبي عمرة وغيرهما وقالوا : إنما الآية في الصلوات في الجماعة ، وقيل : قراءة القرآن وتعلمه قاله أبو جعفر ذكره الطبري ، وقيل العبادة قاله الضحاك : وقرأ أبو عبد الرحمن ومالك بن دينار والحسن ونصر بن عاصم وابن عامر " بالغدوة والعشي " ، وروي عن أبي عبد الرحمن " بالغدو " بغير هاء ، وقرأ ابن أبي عبلة " بالغدوات والعشيات " بألف فيهما على الجمع ، وغدوة : معرفة لأنها جعلت علماً لوقت من ذلك اليوم بعينه وجاز إدخال الألف واللام عليها كما حكى أبو زيد لقيته فينة غير مصروف والفينة بعد الفينة فألحقوا لام المعرفة ما استعمل معرفة ، وحملاً على ما حكاه الخليل أنه يقال : لقيته اليوم غدوة منوناً ، ولأن فيها مع تعيين اليوم ، إمكان تقدير معنى

(22/233)

---

الشياع ، ذكره أبو علي الفارسي و ﴿ وجهه ﴾ في هذا الموضع معناه جهة التزلق إليه كما تقول خرج فلان في وجه كذا أي في مقصد وجهة ﴿ وما عليك من حسابهم من شيء ﴾ معناه لم تكلف شيئاً غير دعائهم فتقدم أنت وتؤخر ويظهر يكون الضمير في ﴿ حسابهم ﴾ و ﴿ عليهم ﴾ للكفار الذين أرادوا طرد المؤمنين ، أي ما عليك منهم آمنوا ولا كفروا

فتطرد هؤلاء رعياً لذلك ، والضمير في " تطردهم " عائد على الضعفة من المؤمنين ، ويؤيد هذا التأويل أن ما بعد الفاء أبداً سبب ما قبلها ، وذلك لا يبين إذا كانت الضمائر كلها للمؤمنين ، وحكى الطبري أن الحساب هنا إنما هو في رزق الدنيا ، أي لا ترزقهم ولا يرزقونك .

قال القاضي أبو محمد : فعلى هذا تجيء الضمائر كلها للمؤمنين ، وذكره المهدوي ، وذكر عن الحسن أنه من حساب عملهم كما قال الجمهور ، و ﴿ ما عليك ﴾ وقوله : ﴿ فتكون ﴾ جواب النهي في قوله : ﴿ ما عليك ﴾ ﴿ فتطردهم ﴾ جواب النهي في قوله : ﴿ ولا تطرد ﴾ و ﴿ من الظالمين ﴾ ، معناه يضعون الشيء غير مواضعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(23/233)

---

ومن فوائد البيضاوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشى ﴾

بعد ما أمره بإنذار غير المتقين ليتقوا أمره بإكرام المتقين وتقريبهم وأن لا يطردهم ترضية

لقريش . روي أنهم قالوا : لو طردت هؤلاء الأعبد يعنون فقراء المسلمين كعمار وصهيب وخباب وسلمان جلسنا إليك وحادثناك فقال : " ما أنا بطارد المؤمنين " قالوا : فأقمهم عنا إذا جئناك قال "نعم" . وروي أن عمر رضي الله عنه قال له : لو فعلت حتى ننظر إلى ماذا يصيرون فدعا بالصحيفة وبعلي رضي الله تعالى عنه ليكتب فنزلت . والمراد بذكر الغداة والعشي الدوام ، وقيل صلاتا الصبح والعصر . وقرأ ابن عامر بالغدوة هنا وفي الكهف . ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ حال من يدعون ، أي يدعون ربهم مخلصين فيه قيد الدعاء بالإخلاص تنبيهاً على أنه ملاك الأمر . ورتب النهي عليه إشعاراً بأنه يقتضي إكرامهم وينافي إبعادهم . ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّن شَيْءٍ ﴾ أي ليس عليك حساب إيمانهم فلعل إيمانهم عند الله أعظم من إيمان من تطردهم بسؤالهم طمعاً في إيمانهم لو آمنوا ، أو ليس عليك اعتبار بواطنهم وإخلاصهم لما اتسموا بسيرة المتقين وإن كان لهم باطن غير مرضي كما ذكره المشركون وطعنوا في دينهم فحسابهم عليهم لا يتعداهم إليك ، كما أن حسابك عليك لا يتعداك إليهم . وقيل ما عليك من حساب رزقهم أي من فقرهم . وقيل الضمير للمشركين والمعنى : لا تؤاخذ بحسابهم ولا هم بحسابك حتى يهمك إيمانهم بحيث تطرد المؤمنين طمعاً فيه . ﴿ فَتَطْرُدَهُمْ ﴾ فتبعدهم وهو جواب النفي ﴿ فَتَكُونَ مِنَ الظالمين ﴾ جواب النهي ويجوز عطفه على

فتطردهم على وجه التسبب وفيه نظر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 412.411 ﴾

(24/233)

---

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ الآية .

قال المشركون ؛ ولا نرضى بمجالسة أمثال هؤلاء يعنون سَلْمان وصُهَيباً وبِلالاً وخَبَّاباً فاطردهم عنك ؛ وطلبوا أن يَكتب لهم بذلك ، فهمّ النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، ودعا عليّاً ليكتب ؛ فقام الفقراء وجلسوا ناحية ؛ فأنزل الله الآية .

ولهذا أشار سعد بقوله في الحديث الصحيح : فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع ؛ وسيأتي ذكره .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إنما مال إلى ذلك طمعاً في إسلامهم ، وإسلام قومهم ، ورأى أن ذلك لا يفوّت أصحابه شيئاً ، ولا ينقص لهم قدراً ، فمال إليه فأنزل الله الآية ، فنهاه عما همَّ به من الطّرد لا أنه أوقع الطرد .

روى مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ستة نفر ، فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم : اطرد هؤلاءِ عنك لا يجترئون علينا ؛ قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هُذَيل وبلال ورجلان لست أسميهما ، فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع ، فحدث نفسه ، فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ .

قيل : المراد بالدعاء المحافظة على الصَّلاة المكتوبة في الجماعة ؛ قاله ابن عباس ومجاهد والحسن .

وقيل : الذكر وقراءة القرآن .

ويحتمل أن يريد الدعاء في أوّل النهار وآخره ؛ ليستفتحوا يومهم بالدعاء رغبة في التوفيق ، ويختموه بالدعاء طلباً للمغفرة .

﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ أي طاعته ، والإخلاص فيها ، أي يخلصون في عبادتهم وأعمالهم لله ، ويتوجهون بذلك إليه لا لغيره .

وقيل : يريدون الله الموصوف بأن له الوجه كما قال : ﴿ ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجلال والإكرام ﴾ [ الرحمن : 27 ] وهو كقوله : ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابتغاء وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ [ الرعد : 22 ] .

وخص الغداة والعشيّ بالذكر ؛ لأن الشغل غالب فيهما على الناس ، ومن كان في وقت الشغل مقبلاً على العبادة كان في وقت الفراغ من الشغل أعمل .

(26/233)

---

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يصبر نفسه معهم كما أمره الله في قوله : ﴿ واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم بالغداة والعشي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ [ الكهف : 28 ] فكان لا يقوم حتى يكونوا هم الذين يبتدئون القيام ، وقد أخرج هذا المعنى مبيناً مكملاً ابن ماجه في سننه " عن خَبّاب في قول الله عزّ وجلّ : ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشي ﴾ إلى قوله : ﴿ فَتَكُونَ مِنَ الظالمين ﴾ قال : جاء الأقرعُ بن حابِس التميميّ وعُيينة بن حِصْن الفَزَاريّ فوجدا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع صُهَيب وبِلال وعَمّار وخَبّاب ، قاعداً في ناس من الضعفاء من المؤمنين ؛ فلما رأوهم حَوْل النبي صلى الله عليه وسلم حَقَروهم ؛ فأتوه فخلوا به وقالوا : إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلساً تَعرفُ لنا به العرب فضلنا ، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هذه الأعبُد ، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنك ، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت ؛

قال : "نعم" قالوا : فاكتب لنا عليك كتاباً ؛ قال : فدعا بصحيفة ودعا عليّاً رضي الله عنه ليكتب ونحن قعود في ناحية ؛ فنزل جبريل عليه السَّلام فقال : ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظالمين ﴾ ثم ذكر الأقرع بن حابس وعُيَيْنة بن حِصْن ؛ فقال : ﴿ وكذلك فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ليقولوا أهؤلاء مَنَّ الله عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ الله بِأَعْلَمَ بالشاكرين ﴾ [ الأنعام : 53 ] ثم قال : ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ الذين يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمة ﴾ [ الأنعام : 54 ] قال : فدنونا منه حتى وضعنا رُكَبنا

(27/233)

---

على رُكْبته ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس معنا فإذا أراد أن يقوم قام وتركَنَا : فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿ واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم بالغداة والعشي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحياة الدنيا ﴾ ولا تجالس الأشراف ﴿ وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ﴾ يعني عُيَيْنة والأقرع ﴿ واتبع هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾ [ الكهف : 28 ] أي هلاكاً قال : أَمْر عُيَيْنة والأقرع ؛ ثم ضرب لهم مَثَل الرجلين ومَثَل الحياة الدنيا .

قال خَبَّاب : فكنا نقعد مع النبي صلى الله عليه وسلم فإذا بلغنا الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم "

؛ رواه عن أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القَطَّان حدّثنا عمرو بن محمد العَنْقَزِيّ حدّثنا أسباط عن السُّديّ عن أبي سعيد الأَزْدي وكان قارىء الأزد عن أبي الكنود عن خَبّاب ؛ وأخرجه أيضاً " عن سعد قال : نزلت هذه الآية فينا ستة ، فيّ وفي ابن مسعود وصُهَيب وعمّار والمِقْداد وبلال ؛ قال : قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنا لا نرضى أن نكون أتباعاً لهم فاطردهم ، قال : فدخل قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك ما شاء الله أن يدخل ؛ فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشي ﴾ الآية " وقرىء "بِالغُدْوَةِ" وسيأتي بيانه في "الكهف" إن شاء الله .

قوله تعالى : ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ أي من جزائهم ولا كفاية أرزاقهم ، أي جزاؤهم ورزقهم على الله ، وجزاؤك ورزقك على الله لا على غيره .

"مِن" الأولى للتبعيض ، والثانية زائدة للتوكيد .

وكذا ﴿ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّن شَيْءٍ ﴾ المعنى وإذا كان الأمر كذلك فأقبل عليهم وجالسهم ولا تطردهم مراعاة لحق من ليس على مثل حالهم في الدّين والفضل ؛ فإن فعلت كنت ظالماً .

وحاشاه من وقوع ذلك منه ، وإنما هذا بيان للأحكام ، ولئلا يقع مثل ذلك من غيره من أهل السلام ؛ وهذا مثل قوله : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [ الزمر : 65 ] وقد علم الله منه أنه لا يُشرِك ولا يَحبط عمله .

"فَتَطْرُدَهُمْ" جواب النفي .

﴿ فَتَكُونَ مِنَ الظالمين ﴾ نصب بالفاء في جواب النهي ؛ المعنى : ولا تطرد الذين يدعون ربهم فتكون من الظالمين ، وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم ، على التقديم والتأخير .

والظلم أصله وضع الشيء في غير موضعه ؛ وقد تقدّم في "البقرة" مستوفى .

وقد حصل من قوّة الآية والحديث النهي عن أن يعظم أحد لجاهه ولثوبه ، وعن أن يحتقر أحد لخموله ولرثاثة ثوبيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

ومن فوائد الخازن فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله تعالى : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾

قال سلمان وخباب بن الأرت : فينا نزلت هذه الآية جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري وهما من المؤلفة قلوبهم فوجدوا النبي صلى الله عليه وسلم قاعداً مع

صهيب وبلال وعمار وخباب في نفر في ضعفاء المؤمنين فلما رأوهم حوله ، حقّروهم فأتوه فقالوا : يا رسول الله لو جلست في صدر المجلس ونفيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم وكانت عليهم جباب صوف لها رائحة ليس عليهم غيرها لجالسناك وأخذنا عنك فقال النبي صلى الله عليه وسلم " ما أنا بطارد المؤمنين " قالوا : فإنا نحب أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف به العرب فضلنا فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبد فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا فإذا نحن فرغنا فأقعدهم إن شئت .

قال : نعم .

قالوا فاكتب لنا عليك بذلك كتاباً .

قال : فأتى بالصحيفة ودعا علياً ليكتب .

*(29/233)*

---

قال : ونحن قعود في ناحية إذا نزل جبريل عليه السلام بقوله : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ إلى قوله ﴿ أليس الله بأعلم الشاكرين ﴾ فألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيفة من يده ثم دعانا فأتيناه وهو يقول سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة فكنا نقعد معه فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿

واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ الآية فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد معنا بعد ذلك وندنو منه حتى كانت ركبنا تمس ركبته فإذا بلغ الساعة التي يريد أن يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم وقال لنا " الحمد الله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أمتي معكم المحيا ومعكم الممات " .

وروي عن سعد بن أبي وقاص قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة نفر فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم : اطرد هؤلاء لا يجترؤون علينا .

قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هزيل وبلال ورجلان لست أسميهما فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه فأنزل الله عز وجل : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ أخرجه مسلم .

وقال الكلبي : قالوا له ، يعني أشراف قريش ، اجعل لنا يوماً ولهم يوماً .

قال : لا أفعل .

قالوا : فاجعل المجلس واحداً وأقبل علينا وولِّ ظهرك إليهم .

فأنزل الله هذه الآية .

وقال مجاهد : قالت قريش لولا بلال وابن أم عبد يعني ابن مسعود لبايعناك فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقال ابن مسعود : مر ملأ من قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم وعنده صهيب وعمار

وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين فقالوا : يا محمد رضيت بهؤلاء بدلاً من قومك هؤلاء الذين مَنَّ الله عليهم من بيننا أنحن نكون تبعاً لهؤلاء اطردهم فلعلك إن طردتهم أن نتبعك فنزلت هذه الآية .

*(30/233)*

---

وقال عكرمة : جاء عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ومطعم بن عدي والحارث بن نوفل في أشراف بني عبد مناف من أهل الكفر إلى أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا طالب لو أن ابن أخيك محمداً يطرد عنه موالينا وحلفاءنا فإنهم عبيدنا وعسفاءنا ، كان أعظم في صدورنا وأطوع له عندنا وأدنى لاتباعنا إياه وتصديقنا له فأتى أبو طالب النبي صلى الله عليه وسلم فحدثه بالذي كلموه به فقال عمر بن الخطاب : لو فعلت ذلك حتى ننظر ما الذي يريدون وإلى ماذا يصيرون فأنزل الله عز وجل هذه الآية ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم قوله أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ فجاء عمر فاعتذر من مقالته .

قلت بين هذه الروايات الرواية الأولى التي عن سلمان وخباب بن الأرث فرق كثير وبعد عظيم ، وهو أن إسلام سلمان كان بالمدينة ، وكان إسلام المؤلفة قلوبهم بعد الفتح وسورة

الأنعام مكية .

والصحيح ما روي عن ابن مسعود والكلبي وعكرمة في ذلك ، ويعضده حديث مسعد بن أبي وقاص المخرج في صحيح مسلم من أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : اطرد هؤلاء ، يعني ضعفاء المسلمين ، والله أعلم .

وأما معنى الآية فقوله : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ الخطاب فيه للنبي صلى الله عليه وسلم .

يعني : ولا تطرد هؤلاء الضعفاء ولا تبعدهم عن مجلسك لأجل ضعفهم وفقرهم .

ثم وصفهم فقال تعالى الذي يدعون ربهم بالغداة والعشي يعني صلاة الصبح وصلاة العصر .

ويروى عنه أن المراد منه الصلوات الخمس .

وإنما ذكر هذين الوقتين تنبيهاً على شرفهما ولأنهم مواظبون عليهما مع بقية الصلوات ، ولأن الصلوات تشتمل على القراءة والدعاء والذكر فعبر بالدعاء عن الصلاة لهذا المعنى .

*(31/233)*

قال مجاهد : صليت الصبح مع سعيد بن المسيب فلما سلم الإمام ابتدر الناس القاص فقال سعيد بن المسيب : ما أسرع الناس إلى هذا المجلس ؟ فقال مجاهد : يتأولون قوله تعالى يدعون ربهم بالغداة والعشي قال أوفي هذا إنما هو في الصلاة التي انصرفنا عنها الآن وقال ابن عباس إن ناساً من الفقراء كانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم فقال ناس من أشراف الناس نؤمن لك وإذا صلينا فأخِّر هؤلاء الذين معك فليصلوا خلفنا ، وقيل : المراد منه حقيقة الدعاء والذكر والمعنى : أنهم كانوا يذكرون ربهم ويدعونه طرفي النهار يريدون وجهه يعني يطلبون بعبادتهم وطاعتهم وجه الله مخلصين في عبادتهم له .

وقال ابن عباس : يطلبون ثواب الله تعالى : ﴿ ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء ﴾ يعني لا تكلف أمرهم ولا يكلفون أمرك .

وقيل : ما عليك حسابهم رزقهم فتملهم وتطردهم عنك ولا رزقك عليهم إنما الرازق لجميع الخلق هو الله تعالى فلا تطردهم عنك : ﴿ فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾ يعني بطردهم عنك وعن مجلسك .

فقوله : فتطردهم ، جواب النفي وهو قوله ما عليك من حسابهم من شيء وقوله : فتكون من الظالمين ، جواب النهي وهو قوله ولا تطرد الذين يدعون ربهم واحتج الطاعنون في عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بهذه الآية فقالوا إن النبي صلى الله عليه وسلم لما همَّ بطرد الفقراء عن مجلسه لأجل الأشراف عاتبه الله على ذلك ونهاه عن طردهم وذلك

يقدح في العصمة وقوله فتطردهم فتكون من الظالمين والجواب عن هذا الاحتجاج أن النبي صلى الله عليه وسلم ما طردهم ولا همَّ بطردهم ، لأجل استخفاف بهم والاستنكاف من فقرهم وإنما كان هذا الهم لمصلحة وهي التلطف بهؤلاء الأشراف في إدخالهم في الإسلام فكان ترجيح هذا الجانب أولى وهو اجتهاد منه فأعلمه الله تعالى أن إدناء هؤلاء الفقراء أولى الهمِّ بطردهم فقربهم منه وأدناهم .

(32/233)

---

وأما قوله فتطردهم فتكون من الظالمين فإن الظلم في اللغة وضع الشيء في غير موضعه فيكون المعنى أن أولئك الفقراء الضعفاء يستحقون التعظيم والتقريب فلا تهم بطردهم عنك فتضع الشيء في غير موضعه فهو من باب ترك الأفضل والأولى لا من باب ترك الواجبات والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾

قال سعد بن أبي وقاص : نزلت فينا ستة فيّ وفي ابن مسعود وصهيب وعمار والمقداد

وبلال قالت قريش : إنا لا نرضى أن نكون لهؤلاء تبعاً فاطردهم عنك فنزلت .

وقال خباب بن الأرت : فينا نزلت كنا ضعفاء عند النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا بالغداة والعشي ما ينفعنا ، فقال الأقرع بن حابس وعيينة بن حصين : إنا من أشراف قومنا وإنا نكره أن يرونا معهم فاطردهم إذا جالسناك فنزلت ، فأتيناه وهو يقول : سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة فدنونا منه حتى وضعنا ركبنا على ركبته وهذا فيه بعد ، لأن الآية مكية وهؤلاء الأشراف لم ينذروا إلا بالمدينة .

وفي رواية عن خباب فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله تعالى ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ الآية .

فكان يقعد معنا فإذا بلغ الوقت الذي يقوم فيه قمنا وتركناه حتى يقوم .

وروى العوفي عن ابن عباس إن ناساً من الأشراف قالوا : نؤمن بك وإذا صلينا خلفك فأخر هؤلاء الذين معك فيصلوا خلفنا فيكون الطرد تأخرهم من الصف لا طردهم من المجلس .

*(33/233)*

---

ورويت هذه الأسباب بزيادة ونقص ومضمونها أن ناساً من أشراف العرب سألوا من الرسول صلى الله عليه وسلم طرد فقراء المؤمنين عنه فنزلت ، ولما أمر تعالى بإنذار غير

المتقين ﴿ لعلهم يتقون ﴾ أردف ذلك بتقريب المتقين وإكرامهم ونهاه عن طردهم ووصفهم بموافقة ظاهرهم لباطنهم من دعاء ربهم وخلوص نياتهم ، والظاهر من قوله تعالى : ﴿ يدعون ربهم ﴾ يسألونه ويلجأون إليه ويقصدونه بالدعاء والرغبة ﴿ بالغداة والعشي ﴾ كناية عن الزمان الدائم ولا يراد بهما خصوص زمانهما كما تقول : الحمد لله بكرة وأصيلاً تريد في كل حال فكنى بالغداة عن النهار وبالعشي عن الليل ، أو خصهما بالذكر لأن الشغل فيهما غالب على الناس ومن كان في هذين الوقتين يغلب عليه ذكر الله ودعاؤه كان في وقت الفراغ أغلب عليه .

وقيل : المراد بالدعاء الصلاة المكتوبة .

فقال الحسن ومقاتل : هي الصلاة بمكة التي كانت مرتين في اليوم بكرة وعشياً .

وقال قتادة ومجاهد : في رواية عنه هي صلاة الصبح والعصر .

وقال ابن عمر وابن عباس ومجاهد في رواية وابراهيم : هي الصلوات الخمس .

وقال بعض القصاص : إنه الاجتماع إليهم غدوة وعشياً فأنكر ذلك ابن المسيب وعبد الرحمن بن أبي عمرة وغيرهما ، وقالوا : إلا الآية في الصلوات في الجماعة .

وقال أبو جعفر : هي قراءة القرآن وتعلمه .

وقال الضحاك : العبادة .

وقال ابراهيم في رواية : ذكر الله .

وقال الزجاج : دعاء الله تعالى بالتوحيد والإخلاص وعبادته .

وقرأ الجمهور ﴿ بالغداة ﴾ .

وقرأ ابن عامر وأبو عبد الرحمن ومالك بن دينار والحسن ونصر بن عاصم وأبو رجاء العطاردي بالغدو .

وروي عن أبي عبد الرحمن أيضاً بالغدوّ بغيرها .

وقرأ ابن أبي عبلة : بالغدوات والعشيات بالألف فيهما على الجمع ، والمشهور في غدوة أنها معرفة بالعلمية ممنوعة الصرف .

*(34/233)*

---

قال الفرّاء : سمعت أبا الجرّاح يقول : ما رأيت كغدوة قط يريد غداة يومه ، قال : ألا ترى أن العرب لا تضيفها فكذا لا تدخلها الألف واللام إنما يقولون : جئتك غداة الخميس ؛ انتهى .

وحكى سيبويه والخليل أن بعضهم ينكرها فيقول : رأيته غدوة بالتنوين وعلى هذه اللغة قرأ ابن عامر ومن ذكر معه وتكون إذ ذاك كفينة .

حكى أبو زيد : لقيته فينة غير مصروف ولقيته الفينة بعد الفينة أي الحين بعد الحين ولما خفيت هذه اللغة على أبي عبيد أساء الظن بمن قرأ هذه القراءة فقال : إنما نرى ابن عامر

والسلمي قرآ تلك القراءة اتباعاً للخط وليس في إثبات الواو في الكتاب دليل على القراءة بها ، لأنهم كتبوا الصلاة والزكاة بالواو ولفظهما على تركها وكذلك الغداة على هذا وجدنا العرب ؛ انتهى .

وهذا من أبي عبيد جهل بهذه اللغة التي حكاها سيبويه والخليل وقرأ بها هؤلاء الجماعة وكيف يظن بهؤلاء الجماعة القرّاء أنهم إنما قرؤا بها لأنها مكتوبة في المصحف بالواو والقراءة ، إنما هي سنة متبعة وأيضاً فابن عامر عربي صريح كان موجوداً قبل أن يوجد اللحن لأنه قرأ القرآن على عثمان بن عفان ونصر بن عاصم أحد العرب الأئمة في النحو ، وهو ممن أخذ علم النحو عن أبي الأسود الدؤلي مستنبط علم النحو والحسن البصري من الفصاحة بحيث يستشهد بكلامه فكيف يظن بهؤلاء إنهم لحنوا ؟ انتهى .

واغتروا بخط المصحف ولكن أبو عبيدة جهل هذه اللغة وجهل نقل هذه القراءة فتجاسر على ردها عفا الله عنه ، والظاهر أن العشي مرادف للعشية ألا ترى قوله : ﴿ إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد ﴾ وقيل : هو جمع عشية ومعنى ﴿ يريدون وجهه ﴾ يخلصون نياتهم له في عبادتهم ويعبر عن ذات الشيء وحقيقته بالوجه .

وقال ابن عباس : يطلبون ثواب الله والجملة في موضع الحال وقد استدل بقوله : ﴿ وجهه ﴾ من أثبت الأعضاء لله تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً .

﴿ ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء ﴾ قال الحسن والجمهور : الحساب هنا حساب الأعمال .

وقيل : حساب الأرزاق أي لا ترزقهم ولا يرزقونك حكاه الطبري .

وقال الزمخشري : كقوله : ﴿ إن حسابهم إلا على ربي ﴾ وذلك أنهم طعنوا في دينهم وإخلاصهم فقال : ﴿ ما عليك من حسابهم من شيء ﴾ بعد شهادته لهم بالإخلاص وبإرادة وجه الله تعالى في أعمالهم وإن كان الأمر كما يقولون عند الله ، فما يلزمك إلا اعتبار الظاهر والاتسام بسيرة المتقين وإن كان لهم باطن غير مرضي فحسابهم عليهم لازم لهم لا يتعداهم إليك ، كما إن حسابك عليك لا يتعداك إليهم كقوله ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ انتهى .

ولا يمكن ما ذكره من الترديد في قوله : وإن كان الأمر إلى آخره لأنه تعالى قد أخبر بأنهم ﴿ يدعون ربهم بالغداة العشي يريدون وجهه ﴾ وإخبار الله تعالى هو الصدق الذي لا شك فيه فلا يقال فيهم وإن كان الأمر كما يقولون وإن كان لهم باطن غير مرضي لأنه فرض مخالف لما أخبر الله تعالى به من خلوص بواطنهم ونياتهم له تعالى .

قال الزمخشري : ( فإن قلت ) : ما كفى قوله : ﴿ ما عليك من حسابهم من شيء ﴾ حتى ضم إليه ﴿ ما من حسابك عليهم من شيء ﴾ ( قلت ) : قد جعلت الجملتان

بمنزلة جملة واحدة وقصدهما مؤدّي واحد وهو المعنى في قوله ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ ولا يستقل بهذا المعنى إلا الجملتان جميعاً كأنه قيل : لا تؤاخذ أنت ولا هم بحساب صاحبه ؛ انتهى .

(36/233)

---

وقوله : كأنه قيل لا تؤاخذ أنت ولا هم بحساب صاحبه تركيب غير عربي ، لا يجوز عود الضمير هنا غائباً ولا مخاطباً لأنه إن أعيد غائباً فلم يتقدّم له اسم مفرد غائب يعود عليه ، إنما يتقدّم قوله : ولا هم ولا يمكن العود إليه على اعتقاد الاستغناء بالمفرد عن الجمع لأنه يصير التركيب بحساب صاحبهم وإن أعيد مخاطباً فلم يتقدّم له مخاطب يعود عليه إنما تقدم قوله : لا تؤاخذ أنت ، ولا يمكن العود إليه لأنه مخاطب فلا يعود عليه غائباً ولو أبرزته مخاطباً لم يصح التركيب أيضاً وإصلاح هذا التركيب أن يقال : لا يؤاخذ كل واحد منكم ولا منهم بحساب صاحبه أو لا تؤاخذ أنت بحسابهم ولا هم بحسابك ، أو لا تؤاخذ أنت ولا هم بحسابكم فتغلب الخطاب على الغيبة كما تقول أنت وزيد تضربان ، والظاهر أن الضمائر كلها عائدة على ﴿ الذين يدعون ﴾ .

وقيل : الضمير في ﴿ من حسابهم ﴾ وفي ﴿ عليهم ﴾ عائد على المشركين وتكون

الجملتان اعتراضاً بين النهي وجوابه ، قال الزمخشري : والمعنى لا يؤاخذون بحسابك ولا أنت بحسابهم حتى يهمك إيمانهم ويحركك الحرص عليه إلى أن تطرد المؤمنين .

وقال ابن عطية : ويحتمل أن يكون الضمير في ﴿ حسابهم ﴾ و ﴿ عليهم ﴾ للكفار الذين أرادوا طرد المؤمنين أي ما عليك منهم آمنوا ولا كفروا فتطرد هؤلاء رعياً بذلك ، والضمير في تطردهم عائد على الضعفة من المؤمنين ويؤيد هذا التأويل أن ما بعد الفاء أبداً سبب ما قبلها وذلك لا يبين إذا كانت الضمائر كلها للمؤمنين .

وحكى الطبري أن الحساب هنا إنما هو في رزق الدنيا أي لا ترزقهم ولا يرزقونك ، قال : فعلى هذا تجيء الضمائر كلها للمؤمنين ؛ انتهى .

(37/233)

---

﴿ ومن ﴾ في ﴿ من حسابهم ﴾ وفي ﴿ من حسابك ﴾ مبعضة في موضع نصب على الحال في ﴿ من حسابهم ﴾ وذو الحال هو ﴿ من شيء ﴾ لأنه لو تأخر من حسابهم لكان في موضع النعت لشيء فلما تقدّم انتصب على الحال و ﴿ عليك ﴾ في موضع الخبر لما إن كانت حجازية ، وأجزنا توسط خبرها إذا كانت ظرفاً أو مجروراً وفي موضع خبر المبتدإ إن لم نجز ذلك أو اعتقدنا أن ما تميمية وأما في ﴿ من حسابك ﴾ فقيل

: هو في موضع نصب على الحال ويضعف ذلك بأن الحال إذا كان العامل فيها معنى الفعل لم يجز تقديمها عليه خصوصاً إذا تقدمت على العامل وعلى ذي الحال .

وقيل : يجوز أن يكون الخبر ﴿ من حسابك ﴾ و ﴿ عليهم ﴾ صفة لشيء تقدّمت عليه فانتصب على الحال وهذا ضعيف ، لأن ﴿ عليهم ﴾ هو محط الفائدة فترجح أن يكون هو الخبر ويكون ﴿ من حسابك ﴾ على هذا تنبيهاً لا حالاً ولا خبراً وانظر إلى حسن اعتنائه بنبيه وتشريفه بخطابه حيث بدأ به في الجملتين معاً فقال : ﴿ ما عليك من حسابهم من شيء ﴾ ثم قال : ﴿ وما من حسابك عليهم من شيء ﴾ فقدم خطابه في الجملتين وكان مقتضى التركيب الأول لو لوحظ أن يكون التركيب الثاني ﴿ وما عليهم من حسابك من شيء ﴾ لكنه قدم خطاب الرسول وأمره تشريفاً له عليهم واعتناء بمخاطبته وفي هاتين الجملتين رد العجز على الصدر ، ومنه قول الشاعر :

وليس الذي حللته بمحلل . . .

وليس الذي حرمته بمحرّم

(38/233)

﴿ فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾ الظاهر أن قوله : ﴿ فتطردهم ﴾ جواب لقوله ﴿ ما عليك من حسابهم من شيء ﴾ يكون النصب هنا على أحد معنى النصب في قولك : ما تأتينا فتحدّثنا لأن أحد معنيي هذا ما تأتينا محدثاً إنما تأتي ولا تحدث ، وهذا المعنى لا يصح في الآية والمعنى الثاني ما تأتينا فكيف تحدثنا ؟ أي لا يقع هذا فكيف يقع هذا وهذا المعنى هو الذي يصح في الآية أن لا يكون حسابهم عليك فيكون وقع الطرد ، وأطلقوا جواب أن يكون ﴿ فتطردهم ﴾ جواباً للنفي ولم يبينوا كيفية وقوعه جواباً والظاهر في قوله : ﴿ فتكون من الظالمين ﴾ أن يكون معطوفاً على ﴿ فتطردهم ﴾ والمعنى الإخبار بانتفاء حسابهم وانتفاء الطرد والظلم المتسبب عن الطرد ، وجوّزوا أن يكون ﴿ فتكون ﴾ جواباً للنهي في قوله : ﴿ ولا تطرد ﴾ كقوله : ﴿ لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب ﴾ وتكون الجملتان وجواب الأولى اعتراضاً بين النهي وجوابه ، ومعنى ﴿ من الظالمين ﴾ من الذين يضعون الشيء في غير مواضعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشى ﴾

لما أُمر صلى الله عليه وسلم بإنذار المذكورين لينتظموا في سلك المتقين نُهِيَ صلى الله عليه وسلم عن كون ذلك بحيث يؤدي إلى طردهم . رُوي أن رؤساءَ من المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو طردتَ هؤلاء الأعبُدَ وأرواحَ جبابهم يعنون فقراءَ المسلمين كعمارٍ وصهيبٍ وخبابٍ وسَلمانَ وأضرابهم رضي الله تعالى عنهم جلسنا إليك وحادثناك . فقال صلى الله عليه وسلم : " ما أنا بطارد المؤمنين " فقالوا : فأَقِمْهم عنا إذا جئنا ، فإذا قُمنا فأقعِدْهم معك إن شئت ، قال صلى الله عليه وسلم : "نعم" طمعاً في إيمانهم . ورُوي أن عمر رضي الله تعالى عنه قال له عليه الصلاة والسلام : " لو فعلتَ حتى تنظرَ إلى ما يصيرون ؟ " وقيل : إن عُتبةَ بنَ ربيعةَ وشيبةَ بنَ ربيعةَ ومُطعِمَ بنَ عديَ والحارثَ بنَ نوفل وقرصةَ بنَ عبيد وعمروَ بنَ نوفل وأشرافَ بني عبد مناف من أهل الكفر أَتوا أبا طالب فقالوا : يا أبا طالب لو أن ابنَ أخيك محمداً يطرُد مواليَنا وحلفاءنا وهم عبيدُنا وعتقاؤُنا كان أعظمَ في صدورنا ، وأدنى لاتّباعنا إياه ، فأتى أبو طالب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فحدثه بالذي كلموه ، فقال عمر رضي الله عنه : لو فعلتَ ذلك حتى تنظرَ ما الذي يريدون ، وإلامَ يصيرون ؟ وقال سلمان وخباب : فينا نزلت هذه الآية ، جاء الأقرعُ بنُ حابسٍ التميمي وعُيَيْنةُ بنُ حِصْنٍ الفزاريُّ وعباسُ بنُ مِرْداسٍ وذووهم من المؤلفة قلوبُهم فوجدوا النبي صلى الله عليه وسلم جالساً مع أناسٍ من ضعفاءِ المؤمنين ، فلما

رأوهم حوله صلى الله عليه وسلم حقَروهم فأَتَوْه عليه الصلاة والسلام فقالوا : يا رسول الله لو جلستَ في صدر المسجد ، ونفَيْتَ عنا هؤلاء وأرواحَ جبابهم فجالسناك وحادثناك وأخذنا عنك فقال صلى الله عليه وسلم : " ما أنا بطارد المؤمنين " قالوا : فإنا نحب أن تجعل لنا معك مجلساً تعرِفُ لنا به العربُ فضلَنا فإن وفودَ العرب تأتيك فنستحي أن ترانا مع

(40/233)

---

هؤلاء الأعبُد ، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا ، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت قال صلى الله عليه وسلم : "نعم" قالوا : فاكتب لنا كتاباً فدعا بالصحيفة وبعليَ رضي الله تعالى عنه ليكتبَ ونحن قعود في ناحية ، فنزل جبريلُ عليه السلام بالآية ، فرمى عليه السلام بالصحيفة ودعانا فأتيناه وجلسنا عنده ، وكنا ندنو منه حتى تَمَسَّ رُكَبُنا رُكبتَه ، وكان يقوم عنا إذا أراد القيام فنزلت ﴿ واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ فترك القيام عنا إلى أن نقوم عنه وقال : " الحمد لله الذي لم يُمِتْني حتى أمرني أن أصبِرَ نفسي مع قومٍ من أمتي معكم المحيا ومعكم الممات "

(41/233)

والمرادُ بذكر الوقتين الدوامُ وقيل : صلاةُ الفجر والعصر وقرىء ( بالغُدوة ) وقوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ حال من ضمير ( يدعون ) أي يدعونه تعالى مخلصين له فيه ، وتقييدُه به لتأكيد علّيتِه للنهي ، فإن الإخلاصَ من أقوى موجبات الإكرام المضادّ للطرد ، وقوله تعالى : ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ اعتراضٌ وسطٌ بين النهي وجوابه تقريراً له ودفعاً لما عسى يُتوَهم كونُه مسوّغاً لطردهم من أقاويلِ الطاعنين في دينهم ، كدأب قوم نوحٍ حيث قالوا : ﴿ مَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ الرأى ﴾ أي ما عليك شيءٌ ما مِنْ حساب إيمانهم وأعمالِهم الباطنة حتى تتصدَّى له وتنْبي على ذلك ما تراه من الأحكام ، وإنما وظيفتُك حسبما هو شأنُ منصِبِ النبوة اعتبارُ ظواهرِ الأعمال وإجراءُ الأحكام على موجبها ، وأما بواطنُ الأمور فحسابُها على العليم بذات الصدور كقوله تعالى : ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ على رَبّى ﴾ وذكرُ قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّن شَىْءٍ ﴾ مع أن الجوابَ قد تم بما قبله للمبالغة في بيان انتفاءِ كون حسابِهم عليه صلى الله عليه وسلم بنظمه في سِلْك ما لا شُبهة فيه أصلاً ، وهو انتفاءُ كونِ حسابه عليه السلام عليهم على طريقة قولِه تعالى : ﴿ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ وأما ما قيل من أن ذلك لتنزيل الجملتين منزلةَ جملةٍ واحدةٍ لتأدية معنى واحدٍ على نهج قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ فغيرُ حقيقٍ بجلالة شأن التنزيل ، وتقديم ( عليك ) في الجملة الأولى

للقصد إلى إيراد النفي على اختصاص حسابهم به صلى الله عليه وسلم إذ هو الداعي إلى تصدّيه عليه الصلاة والسلام لحسابهم ، وقيل : الضمير للمشركين ، والمعنى : أنك لا تؤاخَذُ بحسابهم حتى يُهمَّك إيمانُهم ويدعُوَك الحِرْصُ عليه إلى أن تطرُدَ المؤمنين ، وقوله تعالى : ﴿

(42/233)

---

فَتَطْرُدَهُمْ ﴾ جواب النفي وقوله تعالى : ﴿ فَتَكُونَ مِنَ الظالمين ﴾ جواب النهي وقد جُوِّز عطفُه على ( فتطردَهم ) على طريقة التسبيب وليس بذاك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

ومن فوائد الشوكانى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله : ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشى يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ الدعاء العبادة مطلقاً .

وقيل : المحافظة على صلاة الجماعة .

وقيل : الذكر وقراءة القرآن .

وقيل : المراد الدعاء لله بجلب النفع ودفع الضرر .

قيل : والمراد بذكر الغداة والعشيّ الدوام على ذلك والاستمرار .

وقيل : هو على ظاهره ، و ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ في محل نصب على الحال .

والمعنى : أنهم مخلصون في عبادتهم لا يريدون بذلك إلا وجه الله تعالى ، أي يتوجهون بذلك إليه لا إلى غيره .

قوله : ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ هذا كلام معترض بين النهي وجوابه متضمن لنفي الحامل على الطرد ، أي حساب هؤلاء الذين أردت أن تطردهم موافقة لمن طلب ذلك منك هو على أنفسهم ما عليك منه شيء ، وحسابك على نفسك ما عليهم منه شيء فعلام تطردهم ؟ هذا على فرض صحة وصف من وصفهم بقوله : ﴿ مَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ [ هود : 27 ] وطعن عندك في دينهم وحسبهم ، فكيف وقد زكاهم الله عزّ وجلّ بالعبادة والإخلاص ؟ ! وهذا هو مثل قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ [ الأنعام : 164 ] وقوله : ﴿ وَأَن لَّيْسَ للإنسان إِلاَّ مَا سعى ﴾ [ النجم : 39 ] .

وقوله : ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ على رَبِّى ﴾ [ الشعراء : 113 ] .

*(43/233)*

قوله : ﴿ فَتَطْرُدَهُمْ ﴾ جواب النفي في قوله : ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ وهو من تمام الاعتراض ، أي إذا كان الأمر كذلك فأقبل عليهم وجالسهم ولا تطردهم مراعاة لحق من ليس على مثل حالهم في الدين والفضل ، و" من " في ﴿ ما عليك من حسابهم من شيء ﴾ للتبعيض ، والثانية للتوكيد .

وكذا في ﴿ ما من حسابك عليهم من شيء ﴾ .

قوله : ﴿ فَتَكُونَ مِنَ الظالمين ﴾ جواب للنهي أعني ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ أي فإن فعلت ذلك كنت من الظالمين ، وحاشاه عن وقوع ذلك .

وإنما هو من باب التعريض لئلا يفعل ذلك غيره صلى الله عليه وسلم من أهل الإسلام ، كقوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [ الزمر : 65 ] .

وقيل : إن ﴿ فتكون من الظالمين ﴾ معطوف على ﴿ فتطردهم ﴾ على طريق التسبب ، والأوّل أولى .

وقد أخرج هذا السبب مطوّلاً ابن جرير ، وابن المنذر ، عن عكرمة ، وفيه : إن الذين جاءوا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وقرظة بن عبد عمرو بن نوفل ، والحارث بن عامر بن نوفل ، ومطعم بن عدي بن الخيار بن نوفل في أشراف الكفار من عبد مناف .

وأخرجه ابن أبي شيبة ، وابن ماجه وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ،

والطبراني ، وأبو الشيخ وابن مردويه ، وأبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في الدلائل ، عن خباب قال : جاء الأقرع بن حابس التميمي ، وعيينة بن حصن الفزاري ، فذكر نحو حديث عبد الله بن مسعود مطوّلاً .

قال ابن كثير : هذا حديث غريب ، فإن هذه الآية مكية ، والأقرع وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدهر .

*(44/233)*

---

وأخرج مسلم والنسائي ، وابن ماجه ، وغيرهم ، عن سعد بن أبي وقاص قال : لقد نزلت هذه الآية في ستة : أنا وعبد الله بن مسعود ، وبلال ، ورجل من هذيل ، ورجلان لست أسميهما ، فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم : اطرد هؤلاء عنك لا يجترئون علينا ، فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع ، فحدّث نفسه ، فأنزل الله : ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشى ﴾ .

وقد روي في بيان السبب روايات موافقة لما ذكرنا في المعنى .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ بالغداة والعشى ﴾ قال : يعني الصلاة المكتوبة .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن مجاهد قال : الصلاة المكتوبة الصبح والعصر .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن إبراهيم النخعي في الآية قال : هم أهل الذكر لا تطردهم عن الذكر .

قال سفيان : أي أهل الفقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾ . بتصرف يسير .

*(45/233)*

---

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشى ﴾ .

لما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإنذار المذكورين لعلهم ينتظمون في سلك المتقين نهي عليه الصلاة والسلام عن كون ذلك بحيث يؤدي إلى طردهم ؛ ويفهم من بعض الروايات أن الآيتين نزلتا معاً ولا يفهم ذلك من البعض الآخر ، فقد أخرج أحمد والطبراني وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال : "مر الملأ من قريش على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين فقالوا : يا محمد

رضيت بهؤلاء من قومك أهؤلاء من الله تعالى عليهم من بيننا أنحن نكون تبعاً لهؤلاء اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم أن نتبعك فأنزل الله تعالى فيهم القرآن ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الذين ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ والله أَعْلَمُ بالظالمين ﴾ [ الأنعام : 51 58 ] .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ والبيهقي في "الدلائل" .

وغيرهم عن خباب رضي الله تعالى عنه قال : جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري فوجدا النبي صلى الله عليه وسلم قاعداً مع بلال وصهيب .

*(46/233)*

---

وعمار وخباب في أناس ضعفاء من المؤمنين فلما رأوهم حوله حقروهم فأتوه فخلوا به فقالوا : نحب أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا العرب له فضلنا فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا قعوداً مع هؤلاء الأعبد فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت قال : نعم قالوا : فاكتب لنا عليك بذلك كتاباً فدعا بالصحيفة ودعا علياً كرم الله تعالى وجهه ليكتب ونحن قعود في ناحية إذ نزل جبريل بهذه الآية ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الذين ﴾ الخ ثم دعانا فأتيناه وهو يقول : ﴿ سلام عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمة ﴾ [ الأنعام : 54 ] فكنا نقعد معه فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله تعالى ﴿ واصبر

نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ [ الكهف : 28 ] الخ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد معنا بعد فإذا بلغ الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم .

وأخرج ابن المنذر وغيره عن عكرمة قال : مشى عتبة وشيبة ابنا ربيعة وقرظة بن عمرو بن نوفل والحرث بن عامر بن نوفل ومطعم بن عدي في أشراف الكفار من عبد مناف إلى أبي طالب فقالوا : لو أن ابن أخيك طرد عنا هؤلاء الأعبد والحلفاء كان أعظم له في صدورنا وأطوع له عندنا وأدنى لاتباعنا إياه وتصديقه فذكر ذلك أبو طالب للنبي صلى الله عليه وسلم فقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : لو فعلت يا رسول الله حتى ننظر ما يريدون بقولهم : وما يصيرون إليه من أمرهم فأنزل الله سبحانه ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ﴾ إلى قوله سبحانه

﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بالشاكرين ﴾ [ الأنعام : 51 53 ] وكانوا بلالا وعمار بن ياسر وسالم مولى أبي حذيفة وصبيحاً مولى أسيد ، والحلفاء ابن مسعود والمقداد بن عمرو وواقد بن عبد الله الحنظلي وعمرو بن عبد عمرو ومرثد بن أبي مرثد وأشباههم .

ونزل في أئمة الكفر من قريش والموالي .

*(47/233)*

والحلفاء ﴿ وكذلك فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴾ [ الأنعام : 53 ] الآية فلما نزلت أقبل عمر رضي الله تعالى عنه فاعتذر من مقالته فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الذين يُؤْمِنُونَ بآياتنا ﴾ [ الأنعام : 54 ] الآية .

والغداة أصله غدوة قلبت الواو ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها ، وأصل العشي عشوي قلبت الواو ياء وأدغمت الياء في الياء وفاء بالقاعدة ، والظاهر أنه مفرد كالعشية وجمعه عشايا وعشيات ، وقيل : هو جمع عشية وفيه بعد ، ومعنى الأول لغة البكرة أو ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس ، ومعنى الثاني آخر النهار ، والمراد بهما ههنا الدوام كما يقال فعله مساء وصباحاً إذا داوم عليه ، والمراد بالدعاء حقيقته أو الصلاة أو الذكر أو قراءة القرآن أقوال .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد أنهما عبارة عن صلاتي الصبح والعصر لأن الزمان كثيراً ما يذكر ويراد به ما يقع فيه كما يقال صلى الصبح والمراد صلاته وقد يعكس فيراد بالصلاة زمانها نحو قربت الصلاة أي وقتها ، وقد يراد بها مكانها كما قيل في قوله تعالى : ﴿ لاَ تَقْرَبُواْ الصلاة وَأَنتُمْ سكارى ﴾ [ النساء : 43 ] أن المراد بالصلاة المساجد ، وخصا بالذكر لشرفهما .

والأقوال في الدعاء جارية على هذا القول خلا الثاني ، وقرأ ابن عامر هنا وفي الكهف ( 82 ) ( الغدوة ) بالواو وهي قراءة الحسن ومالك بن دينار وأبي رجاء العطاردي وغيرهم

، وزعم أبو عبيد أن من قرأ بالواو فقد أخطأ لأن غدوة علم جنس لا تدخله الألف واللام ، ومنشأ خطئه أنه اتبع رسم الخط لأن الغداة تكتب بالواو كالصلاة والزكاة وقد أخطأ في هذه التخطئة لأن غدوة وإن كان المعروف فيها ما ذكره لكن قد سمع مجيؤها اسم جنس أيضاً منكراً مصروفاً فتدخلها أل حينئذ ، وقد نقل ذلك سيبويه عن الخليل ، وتصديره بالزعم لا يدل على ضعفه كما يشير إليه كلام الإمام النووي في "شرح مسلم" وذكره جم غفير من أهل اللغة .

*(48/233)*

---

وذكر المبرد أيضاً عن العرب تنكير غدوة وصرفها وإدخال اللام عليها إذا لم يرد بها غدوة يوم بعينه والمثبت مقدم على النافي ومن حفظ حجة على من لم يحفظ ، وكفى بوروده في القراءة المتواترة حجة فلا حاجة كما قيل إلى التزام أنها علم لكنها نكرت فدخلتها أل لأن تنكير العلم وإدخال أل عليه أقل قليل في كلامهم بل إن تنكير علم الجنس لم يعهد ولا إلى التزام أنها معرفة ودخلتها اللام لمشاكلة العشي كما دخلت على يزيد لمشاكلة الوليد في قوله :

رأيت الوليد بن اليزيد مباركا . . .

شديداً بأعباء الخلافة كاهله

لأن هذا النوع من المشاكلة وهو المشاكلة الحقيقية قليل أيضاً ، والكثير في المشاكلة المجاز ولا دلالة في الآية على أنه صلى الله عليه وسلم وقع منه الطرد ليخدش وجه العصمة ، والذي تحكيه الآثار أنه عليه الصلاة والسلام هم أن يجعل لأولئك الداعين المتقين وقتاً خاصاً ولأشراف قريش وقتاً آخر ليتآلفوا فيقودهم إلى الإيمان ؛ وأولئك رضي الله تعالى عنهم يعلمون ما قصد صلى الله عليه وسلم فلا يحصل لهم إهانة وانكسار قلب منه عليه الصلاة والسلام .

﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ يَدْعُونَ ﴾ .

(49/233)

---

وفي المراد بالوجه عند المؤولين خلاف فقيل وهو المشهور إنه الذات أي مريدين ذاته تعالى ، ومعنى إرادة الذات على ما قيل الإخلاص لها بناء على استحالة كون الله تعالى مراداً لذاته سبحانه وتعالى لأن الإرادة صفة لا تتعلق إلا بالممكنات لأنها تقتضي ترجيح أحد طرفي المراد على الآخر وذلك لا يعقل إلا فيها أي يدعون ربهم مخلصين له سبحانه فيه ، وقيد بذلك لتأكيد عليته للنهي فإن الإخلاص من أقوى موجبات الإكرام المضاد للطرد ، وقيل : المراد به الجهة والطريق ، والمعنى مريدين الطريق الذي أمرهم جل شأنه بإرادته وهو

الذي يقتضيه كلام الزجاج ، وقيل : "إنه كناية عن المحبة وطلب الرضا لأن من أحب ذاتاً أحب أن يرى وجهه فرؤية الوجه من لوازم المحبة فلهذا ( السبب ) جعل ( الوجه ) ( 2 ) كناية عنها قاله الإمام وهو كما ترى وجوز أيضاً أن يكون ذكر الوجه للتعظيم كما يقال : هذا وجه الرأي وهذا وجه الدليل ، والمعنى يريدونه2 .

﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ ضمير الجمع للموصول السابق كما روي عن عطاء وغالب المفسرين .

*(50/233)*

---

وجوز في ( ما ) أن تكون تميمية وحجازية وفي ﴿ شَيْءٍ ﴾ أن يكون فاعل الظرف المعتمد على النفي و ﴿ مِنْ حِسَابِهِم ﴾ وصف له قدم فصار حالاً ، وأن يكون في موضع رفع بالابتداء والظرف المتقدم متعلق بمحذوف وقع خبراً مقدماً له و ﴿ مِنْ ﴾ زائدة للاستغراق ، وكلام الزمخشري يشير إلى اختياره ، والجملة اعتراض وسط بين النهي وجوابه تقريراً له ودفعاً لما عسى أن يتوهم كونه مسوغاً لطرد المتقين من أقاويل الطاعنين في دينهم كدأب قوم نوح عليه السلام حيث قالوا : ﴿ مَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ الرأى ﴾ [ هود : 27 ] ، والمعنى ما عليك شيء ما من حساب إيمانهم وأعمالهم

الباطنة كما يقوله المشركون حتى تتصدى له وتبني على ذلك ما تراه من الأحكام وإنما وظيفتك حسبما هو شأن منصب الرسالة النظر إلى ظواهر الأمور وإجراء الأحكام على موجبها وتفويض البواطن وحسابها إلى اللطيف الخبير ، وظواهر هؤلاء دعاء ربهم بالغداة والعشي وروي عن ابن زيد أن المعنى ما عليك شيء من حساب رزقهم أي من فقرهم ، والمراد لا يضرك فقرهم شيئاً ليصح لك الإقدام على ما أراده المشركون منك فيهم .

﴿ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّن شَيْءٍ ﴾ عطف على ما قبله ، وجيء به مع أن الجواب قد تم بذلك مبالغة في بيان كون انتفاء حسابهم عليه عليه الصلاة والسلام بنظمه في سلك ما لا شبهة فيه أصلاً وهو انتفاء كون حسابه صلى الله عليه وسلم عليهم فهو على طريقة قوله سبحانه : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [ الأعراف : 34 ، والنحل : 61 ] في رأي .

وقال الزمخشري : "إن الجملتين في معنى جملة واحدة تؤدي مؤدي ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [ فاطر : 18 ] كأنه قيل : لا تؤاخذ أنت ولا هم بحساب صاحبه ، وحينئذ لا بد من الجملتين" ، وتعقب بأنه غير حقيق بجلالة التنزيل .

وتقديم خطابه صلى الله عليه وسلم في الموضعين قيل للتشريف له عليه أشرف الصلاة وأفضل السلام وإلا كان الظاهر وما عليهم من حسابك من شيء بتقديم على ومجرورها كما في الأول ، وقيل : إن تقديم عليك في الجملة الأولى للقصد إلى إيراد النفي على اختصاص حسابهم به صلى الله عليه وسلم إذ هو الداعي إلى تصديه عليه الصلاة والسلام لحسابهم .

وذهب بعض المفسرين إلى أن ضمير الجمع للمشركين وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، والمعنى إنك لا تؤاخذ بحسابهم حتى يهمك إيمانهم ويدعوك الحرص عليه إلى أن تطرد المؤمنين ، والضمير في قوله سبحانه : ﴿ فَتَطْرُدَهُمْ ﴾ للمؤمنين على كل حال ، والفعل منصوب على أنه جواب النفي ، والمراد انتفاء الطرد لا انتفاء كون حسابهم عليه عليه الصلاة والسلام ضرورة انتفاء المسبب لانتفاء سببه كأنه قيل : ما يكون منك ذلك فكيف يقع منك طرد وهو أحد معنيين في مثل هذا التركيب يمتنع ثانيهما هنا .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَكُونَ مِنَ الظالمين ﴾ جواب النهي ، وجوز الإمام والزمخشري أن يكون عطفاً على ﴿ فَتَطْرُدَهُمْ ﴾ على وجه التسبب لأن الكون ظالماً معلول طردهم وسبب له .

واعترض بأن الاشتراك في النصب بالعطف يقتضي الاشتراك في سبب النصب وهو توقف الثاني على الأول بحيث يلزم من انتفاء الأول انتفاؤه والكون من الظالمين منتف سواء لوحظ

ابتداء أو بعد ترتبه على الطرد وجعله مترتباً على الطرد بلا اعتبار كونه مترتباً على المنفي ومنتفياً بانتفائه يفوت وجود سببية العطف .

وأجيب بأن الظلم بالطرد يتوقف انتفاؤه على انتفاء الرد كما لا يتوقف وجوده على وجوده وانتفاء الطرد متوقف على انتفاء كون حسابهم عليه عليه الصلاة والسلام فانتفاء الظلم بالطرد يتوقف على ذلك أيضاً فيلزم من الانتفاء الانتفاء ويتحقق الاشتراك في سبب النصب وهو ظاهر وإنكاره مكابرة .

(52/233)

---

واعترض أيضاً بأن العطف مؤذن بأن عدم الظلم لعدم تفويض الحساب إليه صلى الله عليه وسلم فيفهم منه أنه لو كان حسابهم عليه صلى الله عليه وسلم وطردهم لكان ظلماً وليس كذلك لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه .

وأجيب بأنه على حد "نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه" .

وفي "الكشف" في بيان مراد صاحب "الكشاف" أنه أراد أن الطرد سبب للظلم فقيل : ما عليك من حسابهم لتطردهم فتظلم به ويفهم منه أنه لو كان عليه حسابهم لم يكن طرده إياهم ظلماً وذلك لأن الطرد جعل سبباً للظلم على تقدير أن لا يملك حسابهم وعليه لا

حاجة إلى جعله على حد نعم العبد الخ بل هو خروج عن الحد ، وجوز بعضهم أن يكون الأول جواباً للنهي كما جاز أن يكون جواباً للنفي ، ونقل عن "الدر المصون" وقال : الكلام عليه بحسب الظاهر ولا تطردهم فتطردهم وهو كما ترى ، وجعل بعضهم اجتماع ذينك النفيين السابقين على هذا الجواب من قبيل التنازع خلا أنه لا يمكن كون الجواب للثاني بوجه أصلاً إذ يلزم المعنى حينئذ أنه لو كان عليهم شيء من حسابه عليه الصلاة والسلام كان طرده إياهم حسناً وهو خلف لا يجوز حمل القرآن عليه وليس في هذا خروج عن مختار البصريين لإعمال الثاني لأن شرطه عندهم أن يكون المعنى مستقيماً فيهما فإن لم يستقم أعمل الأول اتفاقاً كما في قوله

: ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة . . .

كفاني ولم أطلب قليل من المال

وأنت إذا علمت أن الجملة الثانية لماذا أتى بها علمت ما في هذا الكلام فافهم ؛ وأياً ما كان فالمراد فتكون من الظالمين لأنفسهم أو لأولئك المؤمنين أو فتكون ممن اتصف بصفة الظلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

(53/233)

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾

عطف على قوله : ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربّهم ﴾ [ الأنعام : 51 ] لأنّه في معنى أنذرهم ولازمهم وإن كره ذلك متكبّرو المشركين .

فقد أجريت عليهم هنا صلة أخرى هي أنسب بهذا الحكم من الصلة التي قبلها ، كما أنّ تلك أنسبُ بالحكم الذي اقترنت معه منها بهذا ، فلذلك لم يُسلك طريق الإضمار ، فيقال : ولا تَطْرُدْهُم ، فإنّ النبي صلى الله عليه وسلم جاء داعياً إلى الله فأولى الناس بملازمته الذين هجيّراهم دعاء الله تعالى بإخلاص فكيف يطردهم فإنّهم أولى بذلك المجلس ، كما قال تعالى : ﴿ إنّ أولى الناس بإبراهيم للّذين اتَّبعوه ﴾ [ آل عمران : 68 ] .

روى مسلم عن سعد بن أبي وقَّاص قال : كنّا مع النَّبيء ستة نفر ، فقال المشركون للنبيء : أطرد هؤلاء لا يَجْتَرِئُون علينا .

قال : وكنت أنا ، وابن مسعود ، ورجل من هُذيل ، وبلال ، ورجلان ، لست أسمِّيهما ، فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع ، فحدّث نفسه فأنزل الله تعالى : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ أ هـ .

وسمّى الواحدي بقيّة الستَّة : وهم صهيب ، وعمّار بن ياسر ، والمقدادُ بن الأسود ،

وخبّاب بن الأرتّ .

وفي قول ابن مسعود "فوقع في نفس رسول الله ما شاء الله" إجمال بيّنه ما رواه البيهقي أنّ رؤساء قريش قالوا لرسول الله : لو طردت هؤلاء الأعْبُدَ وأرواحَ جِبَابِهم ( جمع جُبّة ) جَلَسْنا إليك وحادثناك .

فقال : ما أنا بطارد المؤمنين .

فقالوا : فأقمهم عنّا إذا جئنا فإذا قمنا فأقعدهم معك إن شئت ، فقال : نعم ، طَعماً في إيمانهم .

فأنزل الله هذه الآية .

ووقع في "سنن" ابن ماجة عن خبَّاب أنّ قائل ذلك للنبيء صلى الله عليه وسلم الأقْرعُ بن حابس وعُيَيْنَةُ بن حِصْن ، وأنّ ذلك سبب نزول الآية ، وقال ابن عطية : هو بعيد لأنّ الآية مكية .

وعيينة والأقرع إنَّما وفَدا مع وفد بني تميم بالمدينة سنة الوفود .

اه .

(54/233)

قلت : ولعلّ ذلك وقع منهما فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الآية التي نزلت في نظير اقتراحهما .

وفي سنده أسباط بن نصر أو نضر ، ولم يكن بالقوي ، وفيه السديّ ضعيف .

وروي مثله في بعض التفاسير عن سلمان الفارسي ، ولا يعرف سنده .

وسمّى ابنُ إسحاق أنَّهم المستضعفون من المؤمنين وهم : خبَّاب ، وعمَّار ، وأبُو فُكيهة ، يسار مَولى صفوان بن أمية بن مُحرّث ، وصهيب وأشباههم ، وأنّ قريشاً قالوا : ﴿ أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ﴾ [ الأنعام : 53 ] وذكر الواحدي في "أسباب النزول" : أنّ هذه الآية نزلت في حياة أبي طالب .

فعن عكرمة قال : جاء عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، ومُطعِم بن عدي ، والحارثُ بن نوفل ، في أشراف بني عبد مناف إلى أبي طالب فقالوا : لو أنّ ابن أخيك محمداً يَطرد عنه موالينا وعبيدنا وعتقاءنا كان أعظم من صدورنا وأطمع له عندنا وأرجى لاتِّبَاعِنا إيَّاه وتصديقنا له .

فأتى أبو طالب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فحدّثه بالذي كلَّموه ، فقال عمر بن الخطاب : لو فعلت ذلك حتَّى ننظر ما الذي يريدون وإلامَ يصيرون من قولهم ، فأنزل الله هذه الآية .

فلمّا نزلت أقبل عمر يعتذر .

والمعنى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لحرصه على إيمان عظماء قريش ليكونوا قدوة

لقومهم ولعلمه بأنّ أصحابه يحرصون حرصه ولا يوحشهم أن يقاموا من المجلس إذا حضره عظماء قريش لأنّهم آمنوا يريدون وجه الله لا للرياء والسمعة ولكن الله نهاه عن ذلك .

(55/233)

---

وسمّاه طرداً تأكيداً لمعنى النهي ، وذلك لحكمة : وهي كانت أرجح من الطمع في إيمان أولئك ، لأنّ الله اطّلع على سرائرهم فعلم أنّهم لا يؤمنون ، وأراد الله أن يظهر استغناء دينه ورسوله عن الاعتزاز بأولئك الطغاة القساة ، وليظهر لهم أنّ أولئك الضعفاء خير منهم ، وأنّ الحرص على قربهم من الرسول صلى الله عليه وسلم أولى من الحرص على قرب المشركين ، وأنّ الدين يرغب الناس فيه وليس هو يرغب في الناس كما قال تعالى : ﴿ يمنّون عليك أنْ أسلموا قُل لا تَمنُوا عليّ إسلامكم بلْ اللّهُ يَمُنّ عَلَيْكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين ﴾ [ الحجرات : 17 ] .

ومعنى ﴿ يدعون ربّهم ﴾ يعلنون إيمانهم به دون الأصنام إعلاناً بالقول ، وهو يستلزم اعتقاد القائل بما يقوله ، إذ لم يكن يومئذٍ نفاق وإنَّما ظهر المنافقون بالمدينة .

والغداة : أوّل النهار .

والعشيّ من الزوال إلى الصباح .

والباء للظرفية .

والتعريف فيهما تعريف الجنس .

والمعنى أنّهم يدعون الله اليوم كلّه .

فالغداة والعشي قصد بهما استيعاب الزمان والأيام كما يقصد بالمشرق والمغرب استيعاب الأمكنة .

وكما يقال : الحمد لله بكرة وأصيلاً ، وقيل : أريد بالدعاء الصلاة .

وبالغداة والعشي عموم أوقات الصلوات الخمس .

فالمعنى ولا تطرد المصلّين ، أي المؤمنين .

وقرأ الجمهور ﴿ بالغَداة ﴾ بفتح الغين وبألف بعد الدال .

وقرأه ابن عامر بضمّ الغين وسكون الدال وبواو ساكنة بعد الدال وهي لغة في الغَدَاة .

وجملة ﴿ يريدون وجهه ﴾ حال من الضمير المرفوع في ﴿ يدعون ﴾ ، أي يدعون مخلصين يريدون وجه الله ، أي لا يريدون حظاً دنيوياً .

والوجه حقيقة الجزء من الرأس الذي فيه العينان والأنف والفم .

ويطلق الوجه على الذات كلّها مجازاً مرسلاً .

والوجه هنا مستعار للذات على اعتبار مضاف ، أي يريدون رضى الله ، أي لا يريدون إرضاء غيره .

ومنه قوله تعالى : ﴿ إنّما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ﴾ [ الإنسان : 9 ] ، وقوله : ﴿ فأينما تولّوا فثمّ وجهُ الله ﴾ ، وتقدّم في سورة [ البقرة : 115 ] .

فمعنى ﴿ يريدون وجهه ﴾ أنَّهم آمنوا ودعوا الله لا يريدون بذلك عرضاً من الدنيا .

وقد قيل : إنّ قريشاً طعنوا في إيمان الضعفاء ونسبوهم إلى النفاق ، إلاّ أنّ هذا لم يرد به أثر صحيح ، فالأظهر أنّ قوله ﴿ يريدون وجهه ﴾ ثناء عليهم بكمال إيمانهم ، وشهادة لهم بأنَّهم مجرّدون عن الغايات الدنيوية كلّها ، وليس المقصود به الرّدّ على المشركين .

وجملة ﴿ ما عليك من حسابهم من شيء ﴾ تعليل للنهي عن طردهم ، أو إبطال لعلّة الهَمّ بطردهم ، أو لعلَّة طلب طردهم .

فإنّ إبطال علَّة فعل المنهي عنه يؤول إلى كونه تعليلاً للنهي ، ولذا فصلت هذه الجملة .

والحسابُ : عَدّ أفراد الشيء ذي الأفراد ويطلق على إعمال النظر في تمييز بعض الأحوال عن بعض إذا اشتبهت على طريقة الاستعارة بتشبيه تتبّع الأحوال بعَدّ الأفراد .

ومنه جاء معنى الحِسْبَة بكسر الحاء ، وهي النظر في تمييز أحوال أهل السوق من استقامة وضدّها .

ويقال : حاسبَ فلاناً على أعماله إذا استقراها وتتبّعها .

قال النابغة :

يُحاسِبُ نفسه بِكَمْ اشتراها

فالحساب هنا مصدر حاسب .

والمراد به تتبّع الأعمال والأحوال والنظر فيما تقابل به من جزاء .

وضمير الجمع في قوله : ﴿ من حسابهم ﴾ وقوله ﴿ وما من حسابك عليهم ﴾ يجوز أن يكونا عائدين إلى ﴿ الذين يَدْعون ربّهم ﴾ وهو مَعَاد مَذْكور ، وهو المناسب لتناسق الضمائر مع قوله ﴿ فتطردهم ﴾ .

فالمعنى أنَّهم أهل الحقّ في مجلسك لأنَّهم مؤمنون فلا يطردون عنه وما عليك أن تحسب ما عدا ذلك من الأمور العارضة لهم بزعم المشركين ، وأنّ حضور أولئك في مجلسك يصدّ كبراء المشركين عن الإيمان ، أي أنّ ذلك مدحوض تجاه حقّ المؤمنين في مجلس رسولهم وسماع هديه .

(57/233)

وقيل معنى : ﴿ ما عليك من حسابهم ﴾ أنّ المشركين طعنوا في إخلاص هؤلاء النفر ، قالوا : يا محمد إنّ هؤلاء إنّما اجتمعوا عندك وقبلوا دينك لأنَّهم يجدون مأكولاً وملبوساً عندك ، فقال الله تعالى : ما يلزمك إلاّ اعتبار ظاهرهم وإن كان لهم باطن يخالفه فحسابهم على الله ، أي إحصاء أحوالهم ومناقشتهم عليها على نحو قول نوح ﴿ إنْ حسابُهم إلاّ على ربِّي لو تَشعرون ﴾ [ الشعراء : 113 ] .

فمعنى حسابهم على هذا الوجه تمحيص نياتهم وبواطنهم .

والقصد من هذا تبكيتُ المشركين على طريقة إرخاء العنان ، وليس المراد استضعاف يقين المؤمنين .

و ﴿ حسابهم ﴾ على هذا الوجه من إضافة المصدر إلى مفعوله .

ويجوز أن يكون الضميران عائدين إلى غير مذكور في الكلام ولكنّه معلوم من السياق الذي أشار إليه سبب النزول ، فيعود الضميران إلى المشركين الذين سألوا طَرد ضعفاء المؤمنين من مجلس النبي صلى الله عليه وسلم فيكون ضمير ﴿ فتطردهم ﴾ عائداً إلى المؤمنين .

ويختلف معاد الضميرين اعتماداً على ما يعيِّنه سياق الكلام ، كقوله تعالى : ﴿ وعَمَرُوها أكثر ممَّا عمروها ﴾ [ الروم : 9 ] ، وقول عباس بن مرداس في وقعة حنين :

عُدْنَا ولولا نَحْنُ أحْدَقَ جَمعُهم

بالمسلمين وأَحرَزُوا ما جَمَّعُوا . . .

أي أحرز المشركون ما جمعه المسلمون من الغنائم .

والمعنى : ما عليك من حساب المشركين على الإيمان بِك أو على عدم الإيمان شيء ، فإنّ ذلك موكول إليّ فلا تظلم المؤمنين بحرمانهم حقّاً لأجل تحصيل إيمان المشركين ، فيكون من باب قوله تعالى : ﴿ إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أوْلَى بهما فلا تتَّبعوا الهوى أن تعدلوا ﴾ [ النساء : 135 ] .

وعلى هذا الوجه يجوز كون إضافة ﴿ حسابهم ﴾ من إضافة المصدر إلى مفعوله ، أي محاسبتك إيّاهم .

ويجوز كونها من إضافته إلى فاعله ، أي من حساب المشركين على هؤلاء المؤمنين فقرَهم وضعفهم .

و ﴿ عليك ﴾ خبر مقدّم .

*(58/233)*

---

و ( على ) فيه دالّة على معنى اللزوم والوجوب لأنّ الرسول عليه الصلاة والسلام همّ أو كان بحيث يهمّ بإجابة صناديد قريش لما سألوه ، فيكون تنبيهاً على أنّ تلك المصلحة مدحوضة .

و( منْ ) في قوله : ﴿ من شيء ﴾ زائدة لتوكيد النفي للتنصيص على الشمول في سياق النفي ، وهو الحرف الذي بتقديره بُني اسم ( لا ) على الفتح للدلالة على إرادة نفي الجنس .

وتقديم المسنَدَين على المسند إليهما في قوله ﴿ ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء ﴾ تقديم غير واجب لأنّ للابتداء بالنكرتين هنا مسوّغاً ، وهو وقوعهما في سياق النفي ، فكان تقديم المجرورين هنا اختيارياً فلا بدّ له من غرض .

والغرض يحتمل مجرّدَ الاهتمام ويحتمل الاختصاص .

وحيث تأتّى معنى الاختصاص هنا فاعتباره أليق بأبلغ كلام ، ولذلك جرى عليه كلام "الكشاف" .

وعليه فمعنى الكلام قصر نفي حسابهم على النبي صلى الله عليه وسلم ليفيد أنّ حسابهم على غيره وهو الله تعالى .

وذلك هو مفاد القصر الحاصل بالتقديم إذا وقع في سياق النفي ، وهو مفاد خِفي على كثير لقلّة وقوع القصر بواسطة التقديم في سياق النفي .

ومثالُه المشهور قوله تعالى : ﴿ لا فيها غوْل ﴾ [ الصافات : 47 ] فإنَّهم فسّروه بأنّ عدم الغول مقصور على الاتِّصاف بِفي خمور الجنَّة ، فالقصر قصر قلب .

وقد اجتمع في هذا الكلام خمسة مؤكِّدات .

وهي ( مِنْ ) البيانية ، و( مِنْ ) الزّائدة ، وتقديم المعمول ، وصيغة الحصر في قوله : ﴿ ما

عليك من حسابهم من شيء ﴾ ، والتأكيدُ بالتَّتميم بنفي المقابل في قوله : ﴿ وما من حسابك عليهم من شيء ﴾ ، فإنَّه شبيه بالتوكيد اللفظي .

وكلّ ذلك للتنصيص على منتهى التبرئة من محاولة إجابتهم لاقتراحهم .

(59/233)

---

ويُفيد هذا الكلام التعريضَ برؤساء قريش الذين سألوا إبعاد الفقراء عن مجلس الرسول عليه الصلاة والسلام حين ما يحضرون وأوهموا أنّ ذلك هو الحائل لهم دون حضور مجلس الرسول عليه الصلاة والسلام والإيمان به والكون من أصحابه ، فخاطب الله رسوله بهذا الكلام إذ كان الرسول هو المسؤول أن يقضي أصحابَه عن مجلسه ليعلم السائلون أنّهم سألوه ما لا يقع ويعلموا أنّ الله أطْلَع رسوله صلى الله عليه وسلم على كذبهم ، وأنّهم لو كانوا راغبين في الإيمان لما كان عليهم حساب أحوال الناس ولاشتغلوا بإصلاح خُوَيْصِتِهم ، فيكون الخطاب على نحو قوله تعالى : ﴿ لئن أشركتَ ليحبطنّ عَمَلُك ﴾ [ الزمر : 65 ] .

وقد صرّح بذلك في قوله بعدُ

﴿ ولتستبين سبيل المجرمين ﴾ [ الأنعام : 55 ] .

وإذ كان القصر ينحلّ على نسبتي إثبات ونفي فالنسبة المقدّرة مع القصر وهي نسبة الإثبات ظاهرة من الجمع بين ضمير المخاطب وضمير الغائبين ، أي عدم حسابهم مقصور عليك ، فحسابهم على أنفسهم إذ كلّ نفس بما كسبت رهينة .

وقد دلّ على هذا أيضاً قوله بعده ﴿ ومَا من حسابك عليهم من شيء ﴾ فإنّه ذُكر لاستكمال التعليل ، ولذلك عطف على العلّة ، لأنّ مجموع مدلول الجملتين هو العلّة ، أي حسابهم ليس عليك كما أنّ حسابك ليس عليهم بل على نفسك ، إذ كلّ نفس بما كسبت رهينة ، ولا تزر وازرة وزْر أخرى .

فكما أنّك لا تنظُر إلاّ إلى أنَّهم مؤمنون ، فهم كذلك لا يطلب منهم التفريط في حق من حقوق المؤمنين لتسديد رغبة منك في شيء لا يتعلّق بهم أو لتحصيل رغبة غيرهم في إيمانه .

وتقديم المسند على المسند إليه هنا كتقديمه في نظيره السابق .

وفي قوله : ﴿ وما من حسابك عليهم من شيء ﴾ تعريض بالمشركين بأنَّهم أظهروا أنّهم أرادوا بطرد ضعفاء المؤمنين عن مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم النصح له ليكتسب إقبال المشركين عليه والإطماع بأنَّهم يؤمنون به فيكثر متَّبعوه .

ثم بهذا يظهر أن ليس المعنى : بل حسابهم على الله وحسابك على الله ، لأنّ هذا غير مناسب لسياق الآية ، ولأنَّه يصير به قوله : ﴿ وما من حسابك عليهم من شيء ﴾ مستدركاً في هذا المقام ، ولذلك لم يتكرّر نظير هذه الجملة الثانية مع نظير الجملة الأولى فيما حكى الله عن نوح ﴿ إن حسابهم إلاّ على ربِّي ﴾ في سورة [ الشعراء : 113 ] لأنّ ذلك حكي به ما صدر من نوح وما هنا حكي به كلام الله تعالى لرسوله ، فتنبّهْ .

ويجوز أن يكون تقديم المسند في الموضعين من الآية لمجرّد الاهتمام بنفي اللزوم والوجوب الذي دلّ عليه حرف ( على ) في الموضعين لا سيما واعتبار معنى القصر في قوله وَمَا مِن حسابك عليهم من شيء ﴾ غيرُ واضح ، لأنَّنا إذا سلَّمنا أن يكون للرسول عليه الصلاة والسلام شِبْه اعتقاد لزومِ تتَّبع أحوالهم فقُلب ذلك الاعتقاد بالقصر ، لا نجد ذلك بالنسبة إلى ﴿ الذين يدعون ربَّهم بالغداة والعشي ﴾ إذ لا اعتقاد لهم في هذا الشأن .

وقدّم البيان على المبيَّن في قوله : ﴿ وما من حسابك عليهم من شيء ﴾ لأنّ الأهمّ في المقامين هو ما يختصّ بالمخاطب المعرِّضُ فيه بالذين سألوه الطرد لأنَّه المقصود بالذات ، وإنَّما جيء بالجملة الثانية لاستكمال التعليل كما تقدّم .

وقوله : ﴿ فتطردهم ﴾ منصوب في جواب النهي الذي في قوله : ﴿ ولا تطرُد الذين يدعون ربَّهم ﴾ .

وإعادة فعل الطرد دون الاقتصار على قوله : ﴿ فتكونَ من الظالمين ﴾ ، لإفادة تأكيد

ذلك النهي وليبنى عليه قوله ﴿ فتكون من الظالمين ﴾ لوقوع طول الفصل بين التفريع والفرّع عليه .

فحصل بإعادة فعل ﴿ فتطردهم ﴾ غرضان لفظي ومعنوي .

على أنَّه يجوز أن يجعل ﴿ فتطردهم ﴾ منصوباً في جواب النفي من قوله : ﴿ ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء ﴾ ، أي لا تطردهم إجابة لرغبة أعدائهم .

*(61/233)*

---

وقوله : ﴿ فتكون من الظالمين ﴾ عطف على ﴿ فتطردهم ﴾ متفرّع عليه ، أي فتكون من الظالمين بطردهم ، أي فكونه من الظالمين منتف تبعاً لانتفاء سببه وهو الطرد .

وإنَّما جُعل طردهم ظلماً لأنَّه لما انتفى تكليفه بأن يحاسبهم صار طردهم لأجل إرضاء غيرهم ظلماً لهم .

وفيه تعريض بالذين سألوا طردهم لإرضاء كبريائهم بأنَّهم ظالمون مفطرون على الظلم ؛

ويجوز أن يجعل قوله : ﴿ فتكون من الظالمين ﴾ منصوباً في جواب النهي ، ويجعل قوله ﴿ فتطردهم ﴾ جيء به على هذا الأسلوب لتجديد ربط الكلام لطول الفصل بين النهي

وجوابه بالظرف والحال والتعليل ؛ فكان قوله ﴿ فتطردهم ﴾ كالمقدّمة لقوله ﴿ فتكون من الظالمين ﴾ وليس مقصودٌ بالذات للجوابية ؛ فالتقدير : فتكون من الظالمين بطردهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(62/233)

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾

نعرف أن الحق سبحانه وتعالى خلق الإنسان واستعمره في الأرض ، وجعله طارئاً على هذا الوجود الذي أودع الله له فيه كل ما يلزمه من مقومات حياته وإسعاده .

وأراد الحق من البشر أن يكون فيهم استطراق عبودي بحيث لا يوجد متعال على مستضعف ، ولا يوجد طاغ على مظلوم ، حتى تستقيم حركة الحياة استقامة يعطي فيها كل فرد على قدر ما هيئ له من مواهب . فإذا ما اختل ميزان الاستطراق البشري ردهم الحق سبحانه وتعالى إلى دليل لا يمكن أن يطرأ عليه شك ، والدليل هو أنكم أيها البشر تساويتم في أصل الوجود من تراب ، وتساويتم في العودة إلى التراب ، وتتساوون في موقفكم

يوم القيامة للحساب ، فلماذا تختلفون في بقية أموركم ؟ إن التساوي يجب أن يوجد . وها هوذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص أن تهتدي الأمة وكان يكلف نفسه فوق ما يكلفه به ربه ، فيعاتبه ربه لأنه كان يشق على نفسه حرصا على إيمان قومه .

*(63/233)*

---

وقد يظن بعض الناس أن عتاب الله لنبيه لتقصير ، ونرد على هؤلاء : ليفهم الإنسان منكم هذا اللون من العتاب على وجهه الحقيقي ، فهناك فرق بين عتاب لمصلحة المعتاب ، وعتاب للومه وتوبيخه ؛ لأن المعاتَب خالف وعصى ، ونضرب هذا المثل – ولله المثل الأعلى – أنت في يومك العادي إن نظرت إلى ابنك فوجدته يلعب ولا يذهب إلى المدرسة ولا يستذكر دروسه ، فأنت تعاتبه وتؤنبه لأنه خالف المطلوب منه ، ولكنك إن وجدت ابنك يضع كل طاقته ويصرف ويقضي أوقات راحته في المذاكرة . فأنت تطلب منه ألاّ يكلف نفسه كل هذا العناء ، وتخطف منه الكتاب وتقول له : اذهب لتستريح . أنت في هذه الحالة تلومه لمصلحته هو ، فكأن اللوم والعتاب له لا عليه . إذن قد حُلّ هذا الإشكال الذي يقولون فيه : إن الله كثيراً ما عاتب رسوله ، ونوضح أن الحق قد عاتب الرسول له لا عليه ؛ لأن الرسول وجد طريق الإيمان برسالته يسيرا سيرا سهلاً بين الضعفاء ، ولكنه

شغل نفسه وأجهدها رجاء أن يتذوق المستكبرون المتجبرون حلاوة الإيمان ، وجاء في ذلك قول الحق : ﴿ عَبَسَ وتولى * أَن جَآءَهُ الأعمى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يزكى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذكرى * أَمَّا مَنِ استغنى * فَأَنتَ لَهُ تصدى * وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يزكى ﴾ [ عبس : 1-7 ] .

إذن فالعتاب هنا لصالح من ؟ إنه عتاب لصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحين يقول الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ يا أَيُّهَا النبي لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ الله لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [ التحريم : 1 ] .

إن الآية تشير إلى أمر أغضب النبي صلى الله عليه وسلم ، فامتنع عن بعض ما ترغب فيه النفس البشرية من أمور حللها الله .

*(64/233)*

---

والعتاب هنا أيضاً لصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولشدة حرصه صلى الله عليه وسلم على هداية القوم أجمعين ، كان يحب أن يعامل الطغاة بشيء من اللين ليتألف قلوبهم . ولكن الطغاة لا يريدون أن يتساووا مع المستضعفين ، فقد مرّ الملأ من قريش ووجدوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم خبّاب بن الأرتّ وصهيباً وبلالاً وعماراً وسلمان

الفارسي وهم من المستضعفين ، فقالوا : يا محمد رضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء الذين منَّ الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نصير تبعا لهؤلاء ؟ اطردهم فلعلك إن طردتهم أن نتبعك . وكأنهم يقولون له : إنك قد اكتفيت بهؤلاء الضعفاء وتركتنا نحن الأقوياء ولن نجلس معك إلا أن تبعد هؤلاء عنك لنجلس ، فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم ببديهية الإيمان إلا أن قال : ما أنا بطارد المؤمنين . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف أن هناك من أمثالهم من قالوا لغيره من الأنبياء مثل قولهم . فقد قال قوم نوح عليه السلام له ما حكاه القرآن الكريم : ﴿ فَقَالَ الملأ الذين كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرأي وَمَا نرى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [ هود : 27 ] .

*(65/233)*

---

وحاول بعض من أهل الكفر أن يعرضوا موقفاً وسطاً على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقالوا : إذا نحن جئنا فأقمهم من عندك لنجلس معك فإذا قمنا من عندك فاجعلهم يجلسون . ووجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الرأي حلا وسطاً يمكن أن يقرب بين وجهات النظر ، واستشار صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب –

رضي الله عنه – فقال عمر : لو فعلت حتى ننظر ما الذي يريدون . وطالب أهل الكفر من أثرياء قريش أن يكتب لهم رسول الله كتاباً بذلك ، وجيء بالدواة والأقلام ، وقبل الكتابة نزل قول الله : ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظالمين ﴾ [ الأنعام : 52 ] .

ورمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصحيفة التي جيء بها ليكتبوا عليها كلاماً يفصل بين جلوس سادة قريش إلى مجلس رسول الله وجلوس الضعفاء أتباع رسول الله . والنبي – صلى الله عليه وسلم – إنما مال إلى ذلك من الكتابة طمعا في إسلام هؤلاء المشركين وإسلام قومهم بإسلامهم رحمة بهم وشفقة عليهم ، ورأى – صلى الله عليه وسلم – أن ذلك لا يفوت أصحابه شيئًا ولا ينقص لهم قدراً فمال إليه فأنزل الله الآية ونهاه عما همّ به من الطرد ، لا لأنه – صلى الله عليه وسلم – قد أوقع ذلك وطردهم وأبعدهم ، ثم دعا بعد ذلك بالضعفاء فأتوه .

*(66/233)*

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك يجلس مع المستضعفين ، وإن أحب – صلى الله عليه وسلم – أن يقوم من المجلس قام ، ولكن الله أراده أن يكرم هؤلاء القوم المستضعفين بعد أن نهاه عن طردهم ، وأن يكرمهم سبحانه بما أُهيجوا فيه ، وجاء أمر إلهي آخر بألا يقوم رسول الله من مجلسه مع المستضعفين حتى يقوموا هم ، فقال الحق تبارك وتعالى : ﴿ واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم بالغداة والعشي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحياة الدنيا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا واتبع هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾ [ الكهف : 28 ] .

وعندما نزلت هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم : " الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم " .

وبهذا القول الكريم أراد الحق سبحانه وتعالى إكرام الضعفاء والمستضعفين . ويقول سلمان الفارسي وخباب بن الأرت فينا نزلت ، فكان – رسول الله صلى الله عليه وسلم – يقعد معنا ويدنو منا حتى تمس ركبتنا ركبته ، وكان يقوم عنا إذا أراد القيام فنزلت : ﴿ واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ فترك القيام عنا إلى أن نقوم فكنا نعرف ذلك ونعجله القيام . أي أنهم هم الذين كانوا يقومون أولاً من مجلس رسول الله ، فقول الحق : ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغداة والعشي يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ هذا هو قول الله – سبحانه – أمر به رسول الله ومأمور به كذلك كل إنسان من بعد رسول الله ، وفي هذا قمة التكريم للدائمين

على ذكر الله من المستضعفين ؛ لأنهم أهل محبة الإيمان وهم الذين سبقوا إليه .

وها هوذا أحد خلفاء المسلمين وقد جاءه صناديد العرب الذين أسلموا ، واستأذنوا في الدخول إليه ، فلم يأذن لهم حتى أذن لضعفاء المسلمين . فورم أنف كل واحد من هؤلاء الصناديد وقالوا :

*(67/233)*

---

- أيأذن لهؤلاء ويتركنا نحن ؟ لقد صرنا مسلمين . فقال قائل منهم يفهم ويفقه أمر الدين : أكلكم ورم أنفه أن يؤذن لهؤلاء قبلكم ، لقد دعوا فأجابوا ، ودعيتم فتباطأتم ، فكيف بكم إذا دعوا إلى دخول الجنة وأُبطئ دخولكم .

إنّ هؤلاء الضعفاء يريدون بالطاعة وجه الله ، وكلمة " وجه الله " تدل على أن الإيمان قد أُشْرِب في قلوبهم ، وأنهم جاءوا إلى الإيمان فِراراً بدينهم من ظلم الظالمين وطغيان الطغاة الذين كانوا يريدونهم على الكفر والضلال . إنهم قد حلا لهم الإيمان ، وحلا لهم وجه الله ، وحلا لهم أن يؤجل لهم كل الثواب إلى الآخرة .

وحين نسمع قول الحق : ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ فهذا وصف لله بأنّه - جل شأنه - له وجه ، ونطبق في هذه الحالة ما نطبقه إذا سمعنا وصفاً لله ، إننا نأخذ الوصف في إطار قوله الحق :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ .

ويطلق الوجه ويراد به الذات ، لأن الوجه هو السمة المميزة للذوات . فأنت إن قابلت أناساً قد غطوا وجوههم واستغشوا ثيابهم وستروا بها رءوسهم فلن تستطيع التمييز بينهم .

ويقال : فلان قابل وجوه القوم . أي التقى بالكبار في القوم . والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ ، ويقول الحق سبحانه : ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ وفي هذا القول حرص على كرامة المستضعفين ؛ فقد يقول قائل :

لقد استجار هؤلاء الضعفاء بالدين حتى يفروا من ظلم الظالمين وليس حباً في الدين ، فيوضح الحق : ليس هذا عملك ، وليس لك إلا أن تأخذ ظاهر أعمالهم وأن تكل سرائرهم إلى الله .

﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظالمين ﴾ [ الأنعام : 52 ] .

*(68/233)*

وكأن الحق يوضح لرسوله : لو كان عليك من حسابهم شيء لجاز لك أن تطردهم ، ولكن أنت يا رسول الله تعلم أن كل واحد مجْزيٌّ بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وقد أنزل الله عليك القول الحق : ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ .

إذن فلكل إنسان كتابه . قد سطر وسجّل فيه عمله ويجازي بمقتضى هذا . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(69/233)*

---

فصل

قال فى الأمثل :

مكافحة التّفكير الطّبقي:

في هذه الآية إِشارة إِلى واحد من احتجاجات المشركين ، وهو أنّهم كانوا يريدون من النّبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يقرّ ببعض الإِمتيازات لطبقة الأغنياء ويفضلهم على طبقة الفقراء ، إِذ كانوا يرون في جلوسهم مع الفقراء من أصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)منقصة لهم أي منقصة ! مع أنّ الإِسلام كان قد جاء للقضاء على مثل هذه الإِمتيازات الزائفة الجوفاء ، كانوا يصرون على هذا الطلب في طرد أُولئك عنه ، غير

أنّ القرآن ردّ هذا الطلب مستنداً إلى أدلة حية ، فيقول: (ولا تطرد الذين يدعون ربّهم بالغداوة والعشي يريدون وجهه)(1) .

وممّا يلفت النظر أنّ القرآن لم يشر إلى هؤلاء الأشخاص إشارة خاصّة ، بل اكتفى بصفتهم البارزة وهي أنّهم يذكرون الله صباح مساء ، أي دائماً ، وانّ ذكرهم الله هذا ليس فيه رياء ، بل هو لذات الله وحده ، فهم يريدونه وحده ويبحثون عنه ، وليس ثمّة إمتياز اسمى من هذا .

يتبيّن من آيات قرآنية مختلفة أنّ هذا لم يكن أوّل طلب من نوعه يتقدم به هؤلاء المشركون الأغنياء المتكبرون إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، بل لقد تكرر إعتراضهم على النّبي بشأن اجتماع الفقراء حوله ، ومطالبتهم إياه بطردهم .

في الحقيقة كان هؤلاء يستندون في طلبهم ذاك إلى سنة قديمة خاطئة تقيم المرء على أساس ثروته ، وكانوا يعتقدون أنّ المعايير الطبقية القائمة على أساس الثروة يجب أن تبقى محفوظة ، ويرفضون كل دعوة تستهدف إلغاء هذه القيم والمعايير .

في سيرة النّبي نوح(عليه السلام) نرى أنّ أشراف زمانه كانوا يقولون له: (وما نراك اتّبعك إلاّ الذين هم أراذلنا بادي الرأي) واعتبروا ذلك دليلا على بطلان رسالته .

إنّ واحداً من دلائل عظمة الإسلام والقرآن ، وعظمة مدرسة الأنبياء عموماً ، هو أنّها وقفت ثابتة لا تتزحزح في وجه أمثال هذه الطلبات ، وراحت تحطم هذه الإمتيازات الموهومة في كل المجتمعات التي تعتبر التمايز الطبقي مسألة ثابتة ، لتعلن أنّ الفقر ليس نقصاً في أشخاص مثل سلمان وأبي ذر والخباب وبلال ، كما أنّ الثروة ليست امتيازاً اجتماعياً أو معنوياً لهؤلاء الأثرياء الفارغين المتحجرين المتكبرين .

ثمّ تقول الآية: إنّه ليس ثمّة ما يدعو إلى إبعاد هؤلاء المؤمنين عنك ، لأنّ حسابهم ليس عليك ، ولا حسابك عليهم: (ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء) ، ولكنّك مع ذلك إذا فعلت تكون ظالماً : (فتطردهم فتكون من الظّالمين) .

يختلف المفسّرون في توضيح المقصود من "الحساب" هنا .

منهم من يقول: إنّ المقصود هو حساب رزقهم ، أي أنّهم وإن كانوا فقراء فإنّهم لا يثقلون عليك بشيء ، لأن حساب رزقهم على الله ، كما أنّك أنت أيضاً لا تحملهم ثقل معيشتك ، إذ ليس من حساب رزقك عليهم من شيء .

غير أنّ هذا الإحتمال يبدو بعيداً ، لأن الظاهر أن القصد من الحساب هو حساب الأعمال ، كما يقول كثير من المفسّرين ، أمّا لماذا يقول الله أن حساب أعمالهم ليس عليك ، مع أنّهم لم يبدر منهم أي عمل سيء يستوجب هذا القول ؟ فالجواب: إنّ المشركين كانوا يتهمون

أصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) الفقراء بالإبتعاد عن الله بسبب فقرهم ، زاعمين أنّهم لو كانت أعمالهم مقبولة عند الله لزمه الترفية والتوسعة عليهم في معيشتهم ، بل كانوا يتهمونهم بأنّهم لم يؤمنوا إلاّ لضمان معيشتهم والوصول إلى لقمة العيش .

فيرد القرآن على ذلك مبيناً أنّنا حتى لو فرضنا أنّهم كذلك ، فإن حسابهم على الله ، مادام هؤلاء قد آمنوا وأصبحوا في صفوف المسلمين ، فلا يجوز طردهم بأي ثمن ، وبهذا يقف في وجه إحتجاج أشراف قريش .

*(71/233)*

---

وشاهد هذا التّفسير ما جاء في حكاية النّبي نوح (عليه السلام) التي تشبه حكاية أشراف قريش ، فأُولئك كانوا يقولون لنوح: (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) فيرد عليهم نوح قائلا: (وما علمي بما كانوا يعملون إنّ حسابهم إلاّ على ربّي لو تشعرون ، وما أنا بطارد المؤمنين) .

من هنا يجب على الأنبياء أن يتقبلوا كل امرىء يظهر الإيمان بدون أي تمييز ومن أية طبقة كان فكيف بالمؤمنين الأطهار الذين لا يريدون إلاّ وجه الله ، وكل ذنبهم هو أنّهم فقراء صفر اليدين من الثروة ، ولم يتلوثوا بالحياة الدنيئة لطبقة الأشراف !

امتياز كبير للإسلام:

إنّنا نعلم أنّ دائرة صلاحيات رجال الدين المسيحيين المعاصرين قد اتسعت اتساعاً مضحكاً بحيث إنّهم أعطوا أنفسهم حق غفران الذنوب ، فبإمكانهم طرد الأشخاص وتكفيرهم أو قبولهم لأتفه الأُمور .

إلاّ أنّ القرآن ، في هذه الآية وفي آيات أُخرى ينفي صراحة أن يكون لأحد الحقّ ، بل ولا لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) نفسه في أن يطرد أحداً أظهر إيمانه ولم يفعل ما يوجب إخراجه من الإسلام ، وأن غفران الذنوب والحساب بيد الله وحده ، ولا يحق لأحد التدخل في هذا أبداً .

والكلام هنا على "الطرد الديني" لا "الطرد الحقوقي" فلو كانت إحدى المدارس وقفاً على طبقة خاصّة من الطلاب ، وقبل أحدهم فيها لتوفر شروط القبول فيه ، ثمّ فقد بعض تلك الشروط ، فإن طرده وإخراجه من تلك المدرسة لا مانع فيه ، كذلك لو أنّ مدير مدرسة أُعطيت له صلاحيات معينة لغرض إدارة شؤونها ، فله كل الحقّ في الإستفادة من تلك الصلاحيات لحفظ النظام ورعاية مصالح المدرسة (فما ورد في حديث صاحب تفسير المنار عند تفسيره الآية ممّا يخالف هذا المعنى ناشيء من الاشتباه بين الطرد الديني والطرد الحقوقي) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الأمثل حـ 4 صـ 299 . 302 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " بالغَدَاةِ " : قرأ الجمهور " بالغَدَاةِ " هنا وفي " الكهف " وابن عامر " بالغُدْوَةِ " بضم الغين وسكون الدال ، وفتح الواو في الموضعين ، وهي قراءة أبي عبد الرحمن السّلمي ، والحسن البَصْري ، ومالِكِ بْنِ دينارٍ ، وأبي رَجَاءٍ العطارِدِيّ ، ونصر بن عاصم اللّيْثي ، والأشهر في " الغُدْوة " أنها مُعَرَّفة بالعَلَمِيَّةِ ، وهي عَلَمِيَّة الجنس كـ " أسامة " في الأشخاص ، ولذلك مُنِعَتْ من الصَّرفِ .

وقال الفراء : " سمعت أبا الجَرَّاحِ يقول : ما رأيت [ كغدوة ] قط ، يريد غَدَاة يومه " .

قال : " ألا ترى أن العرب لا تُضِيفُهَا ، فكذا لا يدخلها الألف واللام ، إنما يقولون : جئتك غداوة الخميس " .

وقال الفرَّاء في كتاب " المعاني " في " سورة الكهف " : قرأ أبو عبد الرحمن السّلَمِيُّ : " بالغُدْوَةِ والعَشِيّ " ولا أعلم أحَداً قرأ بها غيره ، والعربُ تُدْخِلُ الألف واللام في " الغدوة " ؛ لأنها معرفة بغير ألف ولام " فذكره إلى آخره .

وقد طعن أبو عُبَيْدٍ القَاسِمُ بنُ سُلاَّمٍ على هذه القراءة ، فقال : " إنما نرى ابن عامرٍ ، والسلمي قرءا تلك القراءة اتّباعاً للخَطِّ ، وليس في إثبات " الواو " في الكتاب دليلٌ على

القراءة بها ؛ لأنهم كتبوا " الصَّلاة " و" الزكاة " بالواو ، ولفظهما على تركها ، وكذلك " الغدوة " على هذا وجدنا العرب " .

وقال الفارِسِيُّ : الوَجْهُ قراءة العامة " بالغَدَاةِ " ؛ لأنها تستعمل نكرةً ومعرفةً باللام ، فأمَّا " غُدْوة " فمعرفةٌ ، وهو علمٌ وُضِعَ للتعريف ، وإذا كان كذلك ، فلا ينبغي أن تدخل عليه الألف واللام للتعريف ، كما لا تَدْخُلُ على سَائِرِ الأعْلام ، وإن كانت قد كُتِبَتْ بالواو ؛ لأنها تَدُلُّ على ذلكَ ، ألا ترى " الصلاة " و" الزكاة " بالواو ، ولا تُقرآن بها ، فكذلك " الغَدَاة " .

قال سيبويه : " غُدْوة وبُكْرة جُعِلَ كُلُّ واحد منهما اسْماً لِلْحِين ، كما جعلوا : " أمّ حُبَيْن " اسماً لدَابَّةٍ معروفة " إلاَّ أنَّ هذا الطَّعْنَ لا يُلْتَفَتُ إليهن وكيف يُطَنُّ بِمَنْ تقدَّم أنهم يَلْحنون ، والحَسَنُ البَصْرِيُّ ممن يُسْتَشْهَدُ بكلامه فَضْلاً عن قراءتِهِ ، ونَصْرُ بْنُ عَاصِمٍ شَيْخُ النحاة ، أخذَ هذا العلم عن أبي الأسْوَدِ يَنْبُوعِ الصناعِةِ ، وابن عامر لا يعرف اللَّحْنَ ؛ لأنه عربي ، وقرأ على عثمان بن عفان وغيره من الصحابة ، ولكن أبا عُبَيْدٍ – رحمه الله – لم يعرف أن تنكير " غُدْوَة " لغة ثانية عن العَرَبِ حَكَاهَا سيبويه والخليل .

قال سيبويه : زعم أنه يَجُوزُ أن تقول : " أتَيْتُكَ اليوم غُدْوَةً وبُكْرَة " فجعلها مثل " ضَحْوَة " .

قال المهدوي : " حكى سيبويه والخليل أنَّ بعضهم يُنَكِّر فيقول : " غُدْوَةً " بالتنوين ، وبذلك قرأهُ ابن عامر ، كأنه جعله نكرة ، فأدخل عليها الألفَ واللام " .

وقال أبو علي الفارسي : " وجْهُ دخول الألف واللام عليها أنه يجوز وإن كانت مَعْرِفَةً أن تُنَكَّرَ ، كما حكى أبو زَيْدٍ " لقيته فَيْنَةً " غير مَصْرُوفَة " والفَيْنَةُ بَعْدَ الفَيْنَةِ " أي : الحين بعد الحين ، فألحق " لام " التعريف ما استعمل معرفة ، ووجه ذلك أنه يُقَدَّرُ فيه التنكير والشيوع ، كما يُقَدَّرُ فيه ذلك إذا ثَنَى " .

وقال أبو جَعْفَرِ النحاس : قرأ أبو عبد الرحمن ، ومالك بن دينار ، وابن عامر : " بالغُدْوَةِ " قال : " وباب غُدْوَة أن يكون معرفة إلاَّ أَنَّهُ يجوز تنكيرها كما تُنَكَّرُ الأسماء الأعلام ، فإذا نُكِّرَتْ دخلتا الألف واللام للتعريف " .

وقال مَكّي بن أبي طالبٍ " إنما دخلت الألف واللام على " غَدَاة " لأنها نكرة ، وأكثر العرب يجعل " غُدْوَة " معرفة فلا يُنَوِّنها ، وكلهم يجعل " غَدَاة " نَكِرَةً فينوِّنها ، ومنهم من يجعل " غُدْوَة " نكرة وهم الأَقَلّ " فثبت بهذه النُّقُولِ التي ذكرْتُهَا عن هؤلاء الأئمةِ أن قراءة ابن عامر سَالِمَةٌ من طَعْنِ أبي عُبَيْدٍ ، وكأنه – رحمه الله – لم يحفظها لغة .

وأما " العَشيُّ " فنكرةٌ ، وكذلك " عَشِيَّة " .

(74/233)

وهل العَشِيُّ مرادِف لـ " عشية " أي : إن هذا اللفظ فيه لغتان : التذكير والتأنيث ، أو أن " عَشِيّاً " جَمْعُ " عَشِيَّة " في المعنى على حدّ " قَمْح " و " قَمْحَة " ، و " شعير " و " شعيرة " ، فيكون اسم جِنْسٍ ، خلاف مشهور ، والظاهر الأوّل لقوله تعالى : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بالعشي الصافنات الجياد ﴾ [ ص : 31 ] إذ المرادُ هنا عِشِيَّة واحدة ، واتفقت مصاحفُ الأمْصَارِ على رَسْمِ هذه اللفظة " الغدوة " بالواو وقد تقدَّمَ أن قراءة ابن عامرٍ ليست مُسْتَندةً إلى مجرد الرسم ، بل إلى النَّقْلِ ، وثَمَّ [ أَلْفَاظٌ اتُّفِقَ ] أيضاً على رَسْمِهَا بالواو ، واتُّفِقَ على قراءتها بالألف ، وهي : " الصَّلاة ، والزكاة ، ومناة ، ومِشْكَاة ، [ والربا ، ] والنجارة والحياة " ، وحرفٌ اتُّفِقَ على رسمه بالواو ، واختلف في قراءته بالألف والواو ، وهو " الغَدَاة " وأصْلُ غَدَاة : غَدَوَة ، تحركت الواو ، وانفتح ما قبلها ، فقُلِبَتْ ألفاً .

وقرأ ابن أبي عَبْلَةَ : " بالغدوات والعَشِيَّات " ، جمع " غَدَاة " و " عشية " وروي عن أبي عبد الرحمن أيضاً " بالغُدُوِّ " بتشديد الواو من غير هاءٍ .

قوله : " يُرِيدُونَ " هذه الجملة في مَحَلِّ نَصْبٍ على الحال من فاعل " يَدْعُونَ " أو من مفعوله ، والأوّل هو الصحيح ، وفي الكلام حَذْفٌ ، أي : يريدون بدعائهم في هَذَيْنِ الوقتين وجهه .

قوله : ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾

" ما " هذه يجوز أن تكون الحِجَازِيَّةَ النَّاصبة للخبر ، فيكون " عليك " في مَحَلِّ النصب على أنه خبرها ، عند مَنْ يُجَوِّز إعْمَالَهَا في الخبر المُقدَّمِ إذا كان ظَرْفاً أو حرف جَرٍّ ، وأمَّا

إذا كانت تَمِيميَّةً ، أو متعيِّناً إهمالُهَا في الخبر المقدّمِ مُطْلَقاً كان " عليك " في مَحَلِّ رفع خبراً مُقدَّماً ، والمبتدأ هو " مِنْ شَيءٍ " زيدت فيه " مِنْ " .

(75/233)

---

وقوله : " مِنْ حِسَابِهِمْ " قالوا : " مِنْ " تَبْعِيضيَّةٌ ، وهي في محل نَصْب على الحال ، وصاحبُ الحالِ هُو " مِنْ شيء " ؛ لأنها لو تأخرت عنه لكانت صِفَةً له ، وصفة النكرة متى قُدِّمَتْ انْتَصَبَتْ على الحالِ ، فعلى هذا تتعلَّقُ بمحذوف ، والعاملُ في الحال الاسْتِقْرَارُ في " عليك " ، ويجوز أن يكون " مِنْ شَيْءٍ " في مَحَلِّ رفع بالفاعلية ، ورافعه " عليك " لاعتماده على النفي ، و" مِن حِسَابِهِمْ " حالٌ أيضاً من " شيء " العاملُ فيها الاستقرار والتقديرُ : ما اسْتَقَرَّ عليك شَيءٌ من حسابهم .

وأُجيز أن يكون " مِنْ حِسَابِهِمْ " هو الخَبَر : إمَّا لـ " ما " ، وإمَّا للمبتدأ ، و" عليك " حالٌ من " شيء " ، والعَامِلُ فيها الاسْتِقَرارُ ، وعلى هذا فيجوز أن يكون " من حِسَابِهِمْ " هو الرفاع للفاعل على ذاك الوَجْهِ ، و" عليك حالٌ أيضاً كما تقدَّمَ تقريره ، وكون " مِنْ حِسَابِهِمْ " هو الخبر ، و" عليكط هو الحَلُ غير واضح ؛ لأن مَحَطَّ الفائدة إنما هو " عَلَيْكَ " .

قوله : ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ كالذي قبله ، إلاَّ أنَّ هنا يَمْتَنِعُ بَعْضُ ما كان

جَائِزاً هناك ، وذلك أن قوله : " مِنْ حِسَابِكَ " لا يجوز أن يَنْتَصِبَ على الحال ؛ لأنه يلزم تَقَدُّمُهُ على عامله المعنوي ، وهو ممتنعٌ ، أو ضعيف لا سيَّمَا وقدْ تقدَّمتْ هنا على العامل فيها ، وعلى صاحبها ، وقد تقدَّم أنَّ الحالَ إذا كانت ظَرْفاً أو حرف جرٍّ كان تقديمها على العامل [ المعنوي ] أحْسَنُ منه إذا لم يكن كذلك ، فحينئذٍ لك أن تجعل قوله : " من حِسابِكَ " بياناً وقد تقدَّم خطابه – عليه الصَّلاة والسلام – في الجملتين تَشْرِيفاً له ، ولو جاءت الجملة الثَّانية على نَمَطِ الأولى لكان التركيب " وما عليهم من حِسَابِكَ من شيء " فتقدَّمَ المجرور بـ " على " كما قدَّمه في الأولَى ، لكنه عَدَلَ عن ذلك لما تقدَّمَ .

*(76/233)*

---

وفي هاتين الجملتين ما يسميه أهل البَديعِ : رَدَّ الأعْجَاز على الصدور ، كقولهم : " عَادَات السَّادَات سادات العادات " ومثله في المعنى قول الشاعر : [ الطويل ]

2180 – وَلَيْسَ الَّذِي حَلَّلْتَهُ بِمُحَلَّلٍ . . .

وَلَيْسَ الَّذي حَرَّمْتَهُ بِمُحَرَّمِ

وقال الزمخشري – بعد كلام قدَّمَهُ في معنى التفسير – : فإن قلت : أما كفى قوله : " ما عليك من حسابِهِمْ من شيء " حتى ضَمَّ إليه : ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ ؟

قلت : قد جعلت الجملتان بمنزلةِ جُمْلةٍ واحدةٍ ، وقصد بها مُؤدًّى واحد ، وهو المعنى بقوله : ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى ﴾ [ الأنعام : 146 ] .

ولا يستقل بهذا المعنى إلاَّ الجملتان جميعاً ، كأنه قيل : " لاتُؤاخَذُ أنت ولا هُمْ بحسابِ صاحبه " قال أبو حيَّان " لا تُؤاخَذ أُنْتَ . . . . . .

إلى آخره تركيبٌ غير عربي ، لا يجوز عَوْدُ الضير هنا غائباً ولا مُخَاطباً ، لأنه إنْ [ عاد ] عائباً فلم يتقدَّم له اسْمٌ مفرد غائب يعود عليه ، إنما تقدَّم قوله : " هم " ولا يمكن العَوْد عليه على اعْتِقَادِ الاستغناء بالمفرد عن الجمع ، لأنه يصير التَّركيب بحساب صاحبهم ، وإن أُعيد مُخَاطباً ، فلم يتقدَّمْ مخاطب يعود عليه ، إنما تقدَّم قوله : " لا تُؤاخَذ أُنْتَ " ولا يمكن العَودُ إليه ، فإنه ضمير [ مخاطب ] ، فلا يعود عليه غَائِباً ولو أَبْرَزْتَهُ مخاطباً لم يَصِحَّ التركيب أيضاً ، فإصْلاحُ التركيب أن يقال : " لا يُؤاخَذ كُلُّ واحدٍ منك ، ولا منهم بحساب صاحبه ، أو لا تُؤاخذ أنت بحسابهم ، ولا هم بحسابك ، أو لا تؤاخذ أنت ولا هم بحسابكم " ، فتُغَلَّب الخِطَابَ على الغَيْبَةِ ، كما تقول : أنت وزيد تَضْرِبَان " .

(77/233)

قال شهابُ الدين : والذي يظهر أن كلام الزمخشري صَحِيحٌ ولكن فيه حذفٌ ، وتقديره : لا يُؤاخذ كل واحد : أنت ولا هم بِحِسَابِ صاحبه ، وتكون " أنت ولا هُمْ " بَدَلاً من " كل واحد " ، والضمير في صاحبه عائدٌ على [ قوله : ] " كل واحدٍ " ، ثم إنه وقع [ في ] محذور آخر مما أصْلَحَ به كلام الزمخشري ، وذلك أنه قال : ولا تُؤاخذ أنت وَلاَ هُمْ بحسابكم ، وهذا التركيب يحتمل أن يكون المراد نفي المُؤاخَذَةِ بحساب كُلِّ واحدٍ بالنسبة إلى نفسه هو ، لا أن كُلّ واحدٍ غير مُؤاخذ بحساب غيره ، والمعنى الثَّاني هُوَ المقصود .

والضمائر الثلاثة ، أعني التي في قوله : " مِنْ حِسَابِهِمْ " و " عليهم " و " فتطردهم " أيضاً عَوْدُهَا على نوع واحد ، وهم الذين يدعون ربَّهم ، وبه قال الطبري إلاَّ أَنَّهُ فَسَّرَ الحِسابَ بالرِّزْقِ الدُّنْيوي .

وقال الزمخشري ، وابن عطية : " إنَّ الضَّمِيرَيْنِ الأَوَّلَيْن يعودان على المشركين ، والثالث يعود على الداعين " .

قال أبو حيَّان : " وقيل : الضمير في " حسابهم " ، و " عليهم " عائد على [ المشركين ] [ وتكون الجملتان اعْتِرَاضاً بين النَّهْي وجوابه " ، وظاهر عبارته أن الجملتين لا تكونان اعْتِرَاضاً على اعتقاد كون الضميرين في " حِسَابِهِمْ " ، و " عليهم " عائدين على المشركين ] .

وليس الأمر كذلك ، بل هما اعْتِرَاضٌ بين النَّهْيِ ، وهو " ولا تَطْرُدْ " وبين جوابه وهو " فتكون

" ، وإن كانت الضمائر كلها للمؤمنين .

ويّدُلُّ على ذلك أنه قال بَعْدَ ذلك في " فتكون " : وجوّز أن تكون جواباً للنهي في قوله : " ولا تطرد " ، وتكون الجملاتن ، وجوابُ الأول اعْتِرَاضاً بين النَّهْي وجوابه ، فجعلهما اعراضاً مُطْلَقاً من غير نَظَرٍ إلى الضميرين ، ويعني بالجملتين " ما عليك من حِسَابِهِمْ من شيء " و " من حسابك عليم من شيء " وبجواب الأول قوله : " فتطردهم " .

قوله : " فتطردهم " فيه وجهان :

(78/233)

---

أحدهما : مَنْصُوبٌ على جواب [ النفي ] بأحد معنيين فقط ، وهو انْتِفَاءُ الطَّرْدِ لانْتِفَاءِ كون حسابهم عليه وحسابه عليهم ؛ لأنه يَنْتَفِي المُسَبَّبُ بانفاء سَبَبِهِ ، ولنوضح ذلك في مثال وهو : " ما تَأْتِينَا فَنُحَدِّثَنَا " بنصب " فتحدّثنا " وهو يحتمل معنيين :

أحدهما : انتفاء الإتْيَان ، وانتفاء الحديث ، كأنه قيل [ ما يكون منك إتيان ، فكيف يقعُ منك حديث ؟ وهذا المعنى هو المقصود بالآية الكريمة ، أي : ما يكون مُؤاخذة كل واحد بحساب صاحبه ، فكيف يقع طرد ؟ والمعنى الثاني : انفاء الحديث ، وثبوت الإتيان ] . كأنه قيل : ما تأتينا مُحَدِّثاً ، بل تأتينا غير مُحَدِّثٍ ، وهذا المعنى لا يليق الآية الكريمة ،

والعُلماءُ – رحمهم اله – وإن أطلقوا قولهم : إن منصوبٌ على جواب النفي ، فإنَّما يريدون المعنى الأول دون الثاني ، والثَّاني أن يكون منصوباً على جواب النهي قوله : " فتكون " ففي نصبه وجهان :

أظهرهما : أنه منصوب عَطْفاً على " فتطردهم " ، والمعنى : الإخْبارُ انْتِفَاءِ حسابهم ، والطَّرْد والظلم المُسَبَّب عن الطرد .

قال الزمخشري : ويجوز أن تكون عَطْفاً على " فتطردهم " على وجه السبب ؛ لأن كونه ظالِماً مُسَبَّبٌ عن طَرْدِهِمْ .

والثاني من وَجْهَي النصب : أنه منصوبٌ على جواب النهي في قوله : " ولا تطرد " .

ولم يذكر مكي ، ولا الواحدي ، ولا أبو البقاء غيره .

قال أبو حيَّان : " أن يكون " فتكون " جواباً للنيه في قوله : " ولا تطرد " كقوله : ﴿ لاَ تَفْتَرُواْ عَلَى اللهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾ [ طه : 61 ] ، وتكون الجملتان وجوابُ الأوَّل اعتراضاً بين النهي وجوابه " .

(79/233)

قال شهاب الدين : قد تقدَّم أن كونهما اعْتِرَاضاً لا يتوقَّفُ على عَوْدِ الضمير في قوله : " مِنْ حِسَابِهِمْ " و" عليْهِمْ " على المشركين كما هو المفهوم من قوله ها هنا ، وإن كان كلامه قبل ذلك كما حكيما عَنْهُ يُشْعِرُ بذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 168.161 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (52) ﴾

هذه وصية له – صلى الله عليه وسلم – في باب الفقراء والمستضعفين ، وذلك لما قَصَرُوا لسان المعارضة عن استدفاع ما كانوا بصدده من أمر إخلاء الرسول – صلوات الله عليه وسلامه – مجلسه منهم ، وسكنوا متضرعين بقلوبهم بين يدي الله أرادَ أنْ يُبَيِّن له أَثَرَ حُسْنِ الابتهال فتولَّى – سبحانه – خصيمتهم .

وقال : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ : لا تنظر يا محمد إلى خِرقتهم على ظاهرهم وانظر إلى حرقتهم في سرائرهم .

ويقال كانوا مستورين بحالتهم فشهرهم بأن أظهر قصتهم ، ولولا أنه – سبحانه – قال : ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ فشهد لهم بالإرادة وإلا فمن يتجاسر أن يقول إن شخصاً مخلوقاً يريد

الحق سبحانه ؟

ويقال إذا كانت الإرادة لا تتعلق – في التحقيق – إلا بالحدوث ، وحقيقة الصمدية متقدسة عن الاتصاف بالحدثان ، فمن المعلوم أن هذه الإرادة ليست بمعنى المشيئة ، ولا كاشتقاق أهل اللغة لها .

فيقال تكلم الناس في الإرادة : وأكثر تحقيقها أنها احتياج يحصل في القلوب يسلب القرار من العبد حتى يصل إلى الله ؛ فصاحب الإرادة لا يهدأ ليلاً ولا نهاراً ، ولا يجد من دون وصوله إليه – سبحانه – سكوناً ولا قراراً ، كما قال قائلهم :

*(80/233)*

---

ثم قطعتُ الليلَ في مَهْمَهٍ . . . لا أسداً أخشى ولا ذيبا

يغلبني شوقي فأطوي السُّرى . . . ولم يَزَلْ ذو الشوق مغلوبا

ويقال تقيَّدت دعوتهم بالغداة والعشيّ لأنها من الأعمال الظاهرة ، والأعمالُ الظاهرة مؤقتة ، ودامت إرادتهم فاستغرقت جميع أوقاتهم لأنها من الأحوال الباطنة ، والأحوال الباطنة مسرمدة غير مؤقتة ، فقال : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ ﴾ ثم قال : ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ أي مريدين وجهه فهي في موضع الحال .

ويقال أصبحوا ولا سؤال لهم من دنياهم ، ولا مطالبة من عقباهم ، ولا همَّ سوى حديث مولاهم ، فلما تجردوا لله تمحضت عناية الحق لهم ، فتولَّى حديثهم وقال : ولا تطردهم – يا محمد – ثم قال : ما عليك من حسابهم من شيء ؛ فالفقير خفيف الظهر لا يكون منه على أحد كثير مؤنة ؛ قال تعالى : ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ لا تطالب بحسابهم ولا يطالبون بحسابك ، بل كلٌّ يتولى الحقُّ – سبحانه – حسابَه ؛ فإن كان أمره خيراً فهو ملاقيه ، وإن كان شراً فهو مقاسيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 475.476 ﴾

*(81/233)*

---

قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (53) ﴾

" فصل "

قال البقاعى :

﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل ما فتناهم بإرسالك ﴿ فتنا ﴾ أي فعلنا فعل المختبر قسراً بما لنا من العظمة ﴿ بعضهم ببعض ﴾ بالتخصيص بالإيمان والغنى والفقر ونحو ذلك

﴿ ليقولوا ﴾ أي إنكاراً لأن تفضل غيرهم عليهم احتقاراً لهم واستصغاراً ﴿ أهؤلاء ﴾ أي الذين لا يساوون بل لا يقاربوننا في خصلة من خصال الدنيا ﴿ منَّ الله ﴾ أي على جلاله وعظمه ﴿ عليهم ﴾ أي وفقهم لإصابة الحق وما يسعدهم عنده وهم فيما نرى من الحقارة ﴿ من بيننا ﴾ فالآية ناظرة إلى ما يأتي في هذه السورة من قوله تعالى ﴿ حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله ﴾ [ الأنعام : 124 ] .

ولما كان الإنكار لا يسوغ إلاّ مع نهاية العلم بمراتب المفضلين ، وأن المفضل لا يستحق التفضيل من الوجه المفضل به ، أنكر إنكارهم بقوله : ﴿ أليس الله ﴾ أي الذي له جميع الأمر ، فلا اعتراض عليه ﴿ بأعلم بالشاكرين ﴾ أي الذين يستحقون أن يفضلوا لشكرهم على غيرهم لكفرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 643.644 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى بيّن في هذه الآية أن كل واحد مبتلى بصاحبه ، فأولئك الكفار الرؤساء الأغنياء كانوا يحسدون فقراء الصحابة على كونهم سابقين في الإسلام مسارعين إلى قبوله فقالوا : لو دخلنا في الإسلام لوجب علينا أن ننقاد لهؤلاء الفقراء المساكين وأن نعترف لهم بالتبعية ، فكان ذلك يشق عليهم .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ أَءُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا ﴾ [ القمر : 25 ] ﴿ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا

سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ [ الأحقاف : 11 ] وأما فقراء الصحابة فكانوا يرون أولئك الكفار في الراحات والمسرات والطيبات والخصب والسعة ، فكانوا يقولون كيف حصلت هذه الأحوال لهؤلاء مع أنا بقينا في هذه الشدة والضيق والقلة .

فقال تعالى : ﴿ وكذلك فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴾ فأحد الفريقين يرى الآخر متقدماً عليه في المناصب الدينية والفريق الآخر يرى الفريق الأول متقدماً عليه في المناصب الدنيوية ، فكانوا يقولون أهذا هو الذي فضله الله علينا ، وأما المحققون فهم الذين يعلمون أن كل ما فعله الله تعالى فهو حق وصدق وحكمة وصواب ولا اعتراض عليه ، إما بحكم المالكية على ما هو قول أصحابنا أو بحسب المصلحة على ما هو قول المعتزلة ، فكانوا صابرين في وقت البلاء ، شاكرين في وقت الآلاء والنعماء وهم الذين قال الله تعالى في حقهم ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بالشاكرين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 196 ﴾

(82/233)

---

وقال السمرقندى :

﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا ﴾ يقول : هكذا ابتلينا ﴿ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ يعني : الشريف بالوضيع ، والعربي بالمولى ، والغني بالفقير ﴿ لّيَقُولواْ أَهَؤُلاء مَنَّ الله عَلَيْهِم مّن بَيْنِنَا ﴾ فلم يكن

الاختبار لأجل أن يقولوا ذلك .

ولكن كان الاختبار سبباً لقولهم .

وهكذا قوله تعالى : ﴿ فالتقطه ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وهامان وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خاطئين ﴾ [ القصص : 8 ] فلم يأخذوه لأجل ذلك ، ولكن كان أخذهم سبباً لذلك فكأنهم أخذوه لأجل ذلك ، هاهنا ما كان الاختبار لأجل أن يقولوا هؤلاء منّ الله عليهم من بيننا لأنهم كانوا يقولون : لو كان خيراً ما سبقونا إليه .

ومعناه : ليظهر الذين يقولون : هؤلاء منّ الله عليهم من بيننا .

قال الله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بالشاكرين ﴾ يعني : بالموحدين منكم من غيرهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ يعني لاختلافهم في الأرزاق ، والأخلاق ، والأحوال .

وفي إفتان الله تعالى لهم قولان :

أحدهما : أنه ابتلاؤهم واختبارهم ليختبر به شكر الأغنياء وصبر الفقراء ، قاله الحسن ، وقتادة .

والثاني : تكليف ما يشق على النفس مع قدرتها عليه .

﴿ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ﴾ وهذا قول الملأ من قريش للضعفاء من المؤمنين ، وفيما مَنَّ الله تعالى به عليهم قولان :

أحدهما : ما تفضل الله به عليهم من اللطف في إيمانهم .

والثاني : ما ذكره من شكرهم على طاعته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(83/233)

---

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ﴾ الآية ﴿ فتنا ﴾ معناه في هذه الآية : ابتلينا ، فابتلاء المؤمنين بالمشركين هو ما يلقون منهم من الأذى ، وابتلاء المشركين بالمؤمنين هو أن يرى الرجل الشريف من المشركين قوماً لا شرف لهم قد عظمهم هذا الدين وجعل لهم عند نبيه قدراً ومنزلة ، والإشارة بذلك إلى ما ذكر من طلبهم أن يطرد الضعفة و ﴿ ليقولوا ﴾ معناه ليصبر بحكم القدر أمرهم إلى أن يقولوا ، فهي لام الصيرورة كما قال تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ [ القصص : 8 ] أي ليصير مثاله أن يكون لهم عدواً وقول المشركين على هذا التأويل ﴿ أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ﴾ هو على

جهة الاستخفاف والهزء ويحتمل الكلام معنى آخر وهو أن تكون اللام في ﴿ ليقولوا ﴾ على بابها في لام كي وتكون المقالة منهم استفهاماً لأنفسهم ومباحثة لها وتكون سبب إيمان من سبق إيمانه منهم ، فمعنى الآية على هذا التأويل وكذلك ابتلينا أشراف الكفار بضعفاء المؤمنين ليتعجبوا في نفوسهم من ذلك ويكون سبب نظر لمن هدي .

قال القاضي أبو محمد : والتأويل الأول أسبق والثاني يتخرج ، ومنّ على كلا التأويلين إنما هي على معتقد المؤمنين ، أي هؤلاء منّ الله عليهم بزعمهم أن دينهم منة ، وقوله ﴿ أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ أي يا أيها المستخفون أو المتعجبون على التأويل الآخر ليس الأمر أمر استخفاف ولا تعجب ، فالله أعلم بمن يشكر نعمته والمواضع التي ينبغي أن يوضع فيها فجاء إعلامهم بذلك في لفظ التقدير إذ ذلك بين لا تمكنهم فيه معاندة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وكذلك فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴾ أي كما فتنا مِن قبلك كذلك فتنا هؤلاءِ .

والفتنة الاختبار ؛ أي عاملناهم معاملة المختَبَرين .

﴿ ليقولوا ﴾ نصب بلام كي ، يعني الأشراف والأغنياء .

﴿ أهؤلاء ﴾ يعني الضعفاء والفقراء .

﴿ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَآ ﴾ قال النحاس : وهذا من المشكل ؛ لأنه يُقال : كيف فُتِنوا ليقولوا هذه الآية ؟ لأنه إن كان إنكاراً فهو كفر منهم .

وفي هذا جوابان : أحدهما أن المعنى اختبِر الأغنياء بالفقراء أن تكون مرتبتهم واحدة عند النبي صلى الله عليه وسلم ، ليقولوا على سبيل الاستفهام لا على سبيل الإنكار : ﴿ أهؤلاء مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَآ ﴾ .

والجواب الآخر أنهم لما اختبروا بهذا فآل عاقبته إلى أن قالوا هذا على سبيل الإنكار ، وصار مثل قوله : ﴿ فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ [ القصص : 8 ] .

﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بالشاكرين ﴾ فيمنّ عليهم بالإيمان دون الرؤساء الذين علم الله منهم الكفر وهذا استفهام تقرير وهو جواب لقولهم : ﴿ أهؤلاء مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَآ ﴾ وقيل : المعنى أليس الله بأعلم من يشكر الإسلام إذا هديته إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال ابن كثير :

وقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴾ أي : ابتلينا واختبرنا وامتحنا بعضهم ببعض ﴿ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان غالب من اتبعه في أول البعثه ، ضعفاء الناس من الرجال والنساء والعبيد والإماء ، ولم

يتبعه من الأشراف إلا قليل ، كما قال قومُ نوح لنوح : ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ الآية [هود : 27] ، وكما قال هرقل ملك الروم لأبي سفيان

(85/233)

---

حين سأله [عن تلك] المسائل ، فقال له : فهل اتبعه ضعفاء الناس أو أشرافهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم . فقال : هم أتباع الرسل (1)

والغرض : أن مشركي قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفائهم ، ويعذبون من يقدرون عليه منهم ، وكانوا يقولون : ﴿ أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ ؟ أي : ما كان الله ليهدي هؤلاء إلى الخير – لو كان ما صاروا إليه خيرا – ويدعنا ، كما قالوا : ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ [الأحقاف : 11] ، وكما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ [مريم : 73] .

قال الله تعالى في جواب ذلك : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴾ [مريم : 74] ، وقال في جوابهم حين قالوا : ﴿ أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ أي : أليس هو أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم ، فيوفقهم ويهديهم سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إليه صراطًا

مستقيما ، كما قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : 69] . وفي الحديث الصحيح : "إن الله لا ينظر إلى صوركم ، ولا إلى ألوانكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم" (2) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 261 ﴾

---

(1) القصة في صحيح البخاري برقم (7) من حديث عبد الله بن عباس ، رضى الله عنه .

(2) رواه مسلم في صحيحه برقم (2564) .

*(86/233)*

---

وقال أبو حيان :

﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ﴾

الكاف للتشبيه في موضع نصب والإشارة بذلك إلى فتون سابق وقد تقدم ذكر أمم رسل وإرسالهم مبشرين ومنذرين ، وتقسيم أممهم إلى مؤمن ومكذب فدل ذلك على أن اتباع الرسل مختلفون وواقع فيهم الفتون لا محالة ؛ كما وقع في هذه الأمة فشبه تعالى ابتلاء هذه الأمة واختبارها بابتلاء الأمم السالفة أي حال هذه الأمّة حال الأمم السابقة في فتون

بعضهم ببعض والفتون بالغني والفقر أو بالشرف والوضاعة والقوّة والضعف .

قال الزمخشري : ومثل ذلك الفتن العظيم فتن بعض الناس ببعض أي ابتليناهم به وذلك إن المشركين كانوا يقولون للمسلمين ﴿ أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ﴾ أي أنعم عليهم بالتوفيق لإصابة الحق ولما يسعدهم عنده من دوننا ونحن المقدمون والرؤساء وهم العبيد والفقراء إنكاراً لأن يكون أمثالهم على الحق وممنوناً عليهم من بيننا بالخير نحواً ﴿ أؤلقي الذكر عليه من بيننا ﴾ ﴿ لو كان خيراً ما سبقونا إليه ﴾ ومعنى فتناهم ليقولوا ذلك خذلانهم فافتتنوا حتى كان افتتانهم سبباً لهذا القول لأنه لا يقول مثل قولهم هذا إلا مخذول متقوّل ؛ انتهى .

وآخر كلامه على طريقة المعتزلة من تأويل الفتنة التي نسبها تعالى إليه بالخذلان لأن جرياً على عادته .

قال ابن عطية : ابتلاء المؤمنين بالمشركين هو ما يلقون منهم من الأذى ، وابتلاء المشركين بالمؤمنين هو أن يرى الرجل الشريف من المشركين قوماً لا شرف لهم قد عظمهم هذا الدين وجعل لهم عند نبيهم قدراً ومنزلة ، والإشارة بذلك إلى من ذكر من ظلمهم أن تطرد الضعفة ؛ انتهى .

ولا ينتظم هذا التشبيه إذ يصير التقدير ومثل ذلك أي طلب الطرد ﴿ فتنا بعضهم ببعض ﴾ والذي يتبادر إليه الذهن أنك إذا قلت : ضربت مثل ذلك إنما يفهم منه مثل ذلك الضرب لا أنه تقع المماثلة في غيره واللام في ﴿ ليقولوا ﴾ الظاهر أنها لام كي أي هذا الابتلاء لكي يقولوا : هذه المقالة على سبيل الاستفهام لأنفسهم والمناجاة لها ، ويصير المعنى ابتلينا أشراف الكفار بضعفاء المؤمنين ليتعجبوا في نفوسهم من ذلك ويكون سبباً للنظر لمن هدى ومن أثبت أن اللام تكون للصيرورة ، جوز هنا أن تكون للصيرورة ويكون قولهم على سبيل الاستحقاق ﴿ وهؤلاء ﴾ إشارة إلى المؤمنين ﴿ ومن الله عليهم ﴾ أي بزعمهم إن دينهم منه تعالى .

﴿ أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ هذا استفهام معناه التقرير والردّ على أولئك القائلين أي الله أعلم بمن يشكر فيضع فيه هدايته دون من يكفر فلا يهديه ، وجاء لفظ الشكر هنا في غاية من الحسن إذ تقدم من قولهم : ﴿ أهؤلاء منّ الله عليهم ﴾ أي أنعم عليهم فناسب ذكر الإنعام لفظ الشكر ؟ والمعنى أنه تعالى عالم بهؤلاء المنعم عليهم الشاكرين لنعمائه وتضمن العلم معنى الثواب والجزاء لهم على شكرهم فليسوا موضع استخفافكم ولا استعجابكم .

وقيل : بالشاكرين من منّ عليهم بالإيمان دون الرؤساء الذين علم منهم الكفر .

وقيل : من يشكر على الإسلام إذا هديته .

وقيل : بمن يوفق للإيمان كبلال ومن دونه .

وقال الزمخشري : أي الله أعلم بمن يقع منه الإيمان والشكر فيوفقه للإيمان وبمن يصمم على كفره فيخذله ويمنعه التوفيق ؛ انتهى .

وهو على طريقة الاعتزال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال الخازن :

(88/233)

---

قوله عز وجل : ﴿ وكذلك فتنَّا بعضهم ببعض ﴾ يعني وكذلك ابتلينا الغني بالفقير ، والفقير بالغني ، والشريف بالوضيع ، والوضيع بالشريف فكل أحد مبتلى بضده فكان ابتلاء الأغنياء فالشرفاء حسدهم لفقراء الصحابة على كونهم سبقوهم إلى الإسلام وتقدموا عليهم فامتنعوا من الدخول في الإسلام لذلك فكان فتنة وابتلاء لهم ، وأما فتنة الفقراء بالأغنياء ، فلما يرون من سعة رزقهم وخصب عيشهم فكان ذلك فتنة لهم ﴿ ليقولوا ﴾ يعني الأغنياء والشرفاء والرؤساء ﴿ أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا ﴾ يعني منَّ على الفقراء والضعفاء بالإسلام ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم وهذا اعتراض

من الكفار على الله تعالى فأجابهم بقوله : ﴿ أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ يعني أنه تعالى أعلم بخلقه وبأحوالهم وأعلم بالشاكرين من الكافرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(89/233)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وكذلك فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴾

استئنافٌ مبينٌ لما نشأ عنه ما سبق من النهي ، وذلك إشارة إلى مصدر ما بعده من الفعل الذي هو عبارةٌ عن تقديمه تعالى لفقراء المؤمنين في أمر الدين بتوفيقهم للإيمان مع ما هم عليه في أمر الدنيا من كمال سوء الحال ، وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجة المشار إليه ، وبُعْدِ منزلتِه في الكمال ، والكاف مُقحَمَةٌ لتأكيد ما أفاده اسمُ الإشارة من الفخامة ، ومحلُها في الأصل النصب على أنه نعتٌ لمصدرٍ مؤكّدٍ محذوف ، والتقدير فتنا بعضَهم ببعض فتوناً كائناً مثلَ ذلك الفتون ، ثم قُدّم على الفعل لإفادة القصْرِ المفيدِ لعدم القصور فقط ، واعتُبرت الكافُ مُقحَمةً فصار نفسَ المصدرِ المؤكدِ لا نعتاً له . والمعنى ذلك الفتونَ الكاملَ البديعَ فتنّا ، أي ابتلَينا بعضَ الناس ببعضهم لا فتوناً غيره ، حيث قدمنا الآخِرين في

أمر الدينِ على الأولين المتقدّمين عليهم في أمر الدنيا تقدماً كلياً ، واللام في قوله تعالى : ﴿ لِّيَقُولُواْ ﴾ للعاقبة ، أي ليقول البعضُ الأولون مُشيرين إلى الآخِرين محقّرين لهم نظراً إلى ما بينهما من التفاوت الفاحشِ الدنيوي ، وتعامياً عما هو مَناطُ التفضيلِ حقيقةً ﴿ أَهَؤُلاء مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ﴾ بأن وفّقهم لإصابة الحقّ ولِما يُسعِدَهم عنده تعالى من دوننا ، ونحن المقدّمون والرؤساء ، وهم العبيدُ والفقراء ، وغرضُهم بذلك إنكارُ وقوعِ المنّ رأساً على طريقة قولِهم : ﴿ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ لا تحقيرُ الممنونِ عليهم مع الاعتراف بوقوعه بطريق الاعتراضِ عليه تعالى ، وقولُه تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بالشاكرين ﴾ ردٌّ لقولهم ذلك وإبطال له ، وإشارةٌ إلى أن مدارَ استحقاقِ الإنعامِ معرفةُ شأنِ النعمةِ والاعترافُ بحق المُنعِم ، والاستفهامُ لتقرير علمه البالغِ بذلك ، أي أليس الله بأعلمَ بالشاكرين لِنعَمِه حتى تستبعِدوا إنعامَه عليهم ؟ وفيه من الإشارة إلى أن أولئك الضعفاءَ عارفون بحقِّ نعَم الله تعالى في تنزيل القرآنِ والتوفيقِ للإيمان ، شاكرون له تعالى على ذلك مع التعريض بأن القائلين بمعزلٍ من ذلك كله ما لا يخفى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(90/233)

وقال الآلوسى :

﴿ وكذلك فَتَنَّا ﴾ أي ابتلينا واختبرنا ﴿ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ والمراد عاملناهم معاملة المختبر وذلك إشارة إلى الفتن المذكور في النظم الكريم ، وعبر عنه بذلك إيذاناً بتفخيمه كقولك : ضربت ذلك الضرب .

والكاف مقحمة بمعنى أن التشبيه غير مقصود منها بل المقصود لازمه الكنائي أو المجازي وهو التحقق والتقرر وهو إقحام مطرد وليست زائدة كما توهم .

والمعنى مثل ذلك الفتن العظيم البديع فتنا بعض الناس ببعضهم حيث قدمنا الآخرين في أمر الدين على الأولين المتقدمين عليهم في أمر الدنيا ، ويؤول إلى أن هذا الأمر العظيم متحقق منا .

ومن ظنَّ أن التشبيه هو المقصود لم يجوز أن يكون ذلك إشارة إلى المذكور لما يلزمه من تشبيه الشيء بنفسه .

وتكلف لوجه التشبيه والمغايرة بجعل المشبه به الأمر المقرر في العقول والمشبه ما دل عليه الكلام من الأمر الخارجي ، وقيل : المراد مثل ما فتنا الكفار بحسب غناهم وفقر المؤمنين حتى أهانوهم لاختلافهم في الأسباب الدنيوية فتناهم بحسب سبق المؤمنين إلى الإيمان وتخلفهم عنه حتى حسدوهم وقالوا ما قالوا لاختلاف أديانهم ، ولا يخفى أن الأول أدق نظراً وأعلى كعباً وقد سلف بعض الكلام على ذلك .

﴿ لِّيَقُولُواْ ﴾ أي البعض الأولون مشيرين إلى الآخرين محقرين لهم ﴿ أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم ﴾ بأن وفقهم لإصابة الحق والفوز بما يسعدهم عنده سبحانه ﴿ مِّن بَيْنِنَا ﴾ أي من دوننا ونحن المقدمون والرؤساء وهم العبيد والفقراء وغرضهم بذلك إنكار المن رأساً على حد قولهم : ﴿ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ [ الأحقاف : 11 ] لا تحقير الممنون عليهم مع الإعتراف بوقوعه بطريق الاعتراض عليه سبحانه ، وذكر الإمام "أنه سبحانه وتعالى بين في هذه الآية أن كلاً من الفريقين المؤمنين والكفار مبتلى بصاحبه فأولئك الكفار الرؤساء الأغنياء كانوا يحسدون فقراء الصحابة رضي الله تعالى عنهم على كونهم سابقين في الإسلام متسارعين إلى قبوله فقالوا : لو دخلنا في الإسلام لوجب علينا أن ننقاد لهؤلاء الفقراء وكان ذلك يشق عليهم .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ ﴾ [ القمر : 25 ] .

و ﴿ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ وأما فقراء الصحابة فكانوا يرون أولئك الكفار في الراحة والمسرة والخصب والسعة فكانوا يقولون : كيف حصلت هذه الأحوال لهؤلاء الكفار مع أنا ( بقينا ) في الشدة والضيق والقلة . . .

وأما المحققون المحقون فهم الذين يعلمون أن كل ما فعله الله تعالى فهو حق وصدق وحكمة وصواب ولا اعتراض عليه إما بحكم المالكية كما نقول أو بحسب المصلحة كما يقول المعتزلة" انتهى .

وفيه نظر لأن صدر كلامه صريح في أن الكفار معترفون بوقوع المن للمشار إليهم حاسدون لهم على وقوعه وهو مناف لتنظيره بقولهم : ﴿ لَوْ كَانَ خَيْراً ﴾ الخ .

(92/233)

---

وأيضاً كلامه كالصريح في أن فقراء المؤمنين حسدوا الكفار على دنياهم واعترضوا على الله سبحانه بالترفيه على أعدائه والتضييق على أحبائه وذلك مما يجل عنه أدنى المؤمنين فكيف أولئك الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، وأيضاً مقابلة فقراء الصحابة رضي الله تعالى عنهم بالمحققين المحقين يدل على أنهم وحاشاهم لم يكونوا كذلك وهو بديهي البطلان عند المحققين المحقين فتدبر .

واللام ظاهرة في التعليل وهي متعلقة بفتنا وما بعدها علة له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

احتج أصحابنا بهذه الآية في مسألة خلق الأفعال من وجهين :

الأول : أن قوله ﴿ وكذلك فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴾ تصريح بأن إلقاء تلك الفتنة من الله تعالى ، والمراد من تلك الفتنة ليس إلا اعتراضهم على الله في أن جعل أولئك الفقراء رؤساء في الدين والاعتراض على الله كفر وذلك يدل على أنه تعالى هو الخالق للكفر .

(93/233)

---

والثاني : أنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا ﴿ أَهؤلاء مَنَّ الله عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ﴾ والمراد من قوله ﴿ مَنَّ الله عَلَيْهِم ﴾ هو أنه مَنَّ عليهم بالإيمان بالله ومتابعة الرسول ، وذلك يدل على أن هذه المعاني إنما تحصل من الله تعالى لأنه لو كان الموجد للإيمان هو العبد ، فالله ما منّ عليه بهذا الإيمان ، بل العبد هو الذي منّ على نفسه بهذا الإيمان ، فصارت هذه الآية دليلاً على قولنا في هذه المسألة من هذين الوجهين : أجاب الجبائي عنه ، بأن الفتنة في التكليف ما يوجب التشديد ، وإنما فعلنا ذلك ليقولوا أهؤلاء ؟ أي ليقول بعضهم لبعض استفهاماً لا إنكاراً ﴿ أَهؤلاء مَنَّ الله عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ﴾ بالإيمان ؟ وأجاب الكعبي عنه بأن قال : ﴿ وكذلك فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴾ ليصبروا أو ليشكروا ، فكان عاقبة أمرهم أن قالوا

﴿ أهؤلاء مَنَّ الله عَلَيْهِم مّن بَيْنِنَا ﴾ على ميثاق قوله ﴿ فالتقطه ءال فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ [ القصص : 8 ] والجواب عن الوجهين أنه عدول عن الظاهر من غير دليل لا سيما والدليل العقلي قائم على صحة هذا الظاهر ، وذلك لأنه لما كانت مشاهدة هذه الأحوال توجب الأنفة ، والأنفة توجب العصيان والاصرار على الكفر ، وموجب الموجب موجب ، كان الإلزام وارداً ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 197.196 ﴾

وقال الآلوسى :

والسلف كما قال شيخنا إبراهيم الكوراني وقاضي القضاة تقي الدين محمد التنوخي وغيرهما على إثبات العلة لأفعاله تعالى استدلالاً بنحو عشرة آلاف دليل على ذلك .

*(94/233)*

---

واحتج النافون لذلك بوجوه ردها الثاني في "المحتبر" ، وذكر الأول في "مسلك السداد" ما يعلم منه ردها ، وهذا بحث قد فرغ منه وطوي بساطه ، وقال غير واحد : هي لام العاقبة ، ونقل عن "شرح المقاصد" ما يأتي ذلك وهو أن لام العاقبة إنما تكون فيما لا يكون للفاعل شعور بالترتب وقت الفعل أو قبله فيفعل لغرض ولا يحصل له ذلك بل ضده فيجعل كأنه

فعل الفعل لذلك الغرض الفاسد تنبيهاً على خطئه ولا يتصور هذا في كلام علام الغيوب بالنظر إلى أفعاله وإن وقع فيه بالنظر إلى فعل غيره سبحانه كقوله عز وجل : ﴿ فالتقطه ءالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ [ القصص : 8 ] إذ ترتب فوائد أفعاله تعالى عليها مبنية على العلم التام ، نعم إن ابن هشام وكثيراً من النحاة لم يعتبروا هذا القيد ، وقالوا : إنها لام تدل على الصيرورة والمآل مطلقاً فيجوز أن تقع في كلامه تعالى حينئذ على وجه لا فساد فيه ، ومن الناس من قال : إنها للتعليل مقابلاً به احتمال العاقبة على أن ﴿ فَتَنَّا ﴾ متضمن معنى خذلنا أو على أن الفتن مراد به الخذلان من إطلاق المسبب على السبب . واعترض بأن التعليل هنا ليس بمعناه الحقيقي بناء على أن أفعاله تعالى منزهة عن العلل فيكون مجازاً عن مجرد الترتب وهو في الحقيقة معنى لام العاقبة فلا وجه للمقابلة .

(95/233)

---

وأجيب بأنهما مختلفان بالاعتبار فإن اعتبر تشبيه الترتب بالتعليل كانت لام تعليل وإن لم يعتبر كانت لام عاقبة ، واعترض بأن العاقبة أيضاً استعارة فلا يتم هذا الفرق إلا على القول بأنه معنى حقيقي وعلى خلافه يحتاج إلى فرق آخر ، وقد يقال في الفرق إن في التعليل المقابل للعاقبة سببية واقتضاء وفي العاقبة مجرد ترتب وإفضاء وفي التعليل الحقيقي يعتبر

البعث على الفعل وهذا هو مراد من قال : إن أفعال الله تعالى لا تعلل ، وحينئذ يصح أن يقال : إن اللام على تقدير تضمين ﴿ فَتَنَّا ﴾ معنى خذلنا أو أن الفتن مراد به الخذلان للتعليل مجازاً لأن هناك تسبباً واقتضاء فقط من دون بعث ، وعلى تقدير عدم القول بالتضمين وإبقاء اللفظ على المتبادر منه هي لام العاقبة وهو تعليل مجازي أيضاً لكن ليس فيه إلا التأدي فإن ابتلاء بعضهم ببعض مؤد للحسد وهو مؤد إلى القول المذكور وليس هناك تسبب ولا بعث أصلاً .

والحاصل أن كلاً من العاقبة والتعليل المقابل لها مجاز عن التعليل الحقيقي إلا أن التعليل المقابل أقرب إليه من العاقبة ومنشأ الأقربية هو الفارق ، والبحث بعد محتاج إلى تأمل وإذا فتح لك فاشكر الله سبحانه .

﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بالشاكرين ﴾ رد لقولهم ذلك وإشارة إلى أن مدار استحقاق ذلك الإنعام معرفة شأن النعمة والاعتراف بحق المنعم .

والاستفهام للتقرير بعلمه البالغ بذلك ، والباء الأولى سيف خطيب والثانية متعلقة باعلم ويكفي أفعل العمل في مثله .

*(96/233)*

وفي "الدر المصون" يتعدى بالباء لتضمنه معنى الإحاطة وهو كثير في كلام الناس نحو علم بكذا وله علم به ، والمعنى أليس الله تعالى عالماً على أتم وجه محيطاً علمه بالشاكرين لنعمه حتى يستبعدوا إنعامه عز وجل عليهم ، وفيه من الإشارة إلى أن أولئك الضعفاء عارفون بحق نعم الله تعالى عليهم من التوفيق للإيمان والسبق إليه وغير ذلك شاكرون عليه مع التعريض بأن القائلين في مهامه الضلال بمعزل عن ذلك كله ما لا يخفى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

فائدة

قال الفخر :

في كيفية افتتان البعض بالبعض وجوه : الأول : أن الغنى والفقر كانا سببين لحصول هذا الافتتان كما ذكرنا في قصة نوح عليه السلام ، وكما قال في قصة قوم صالح ﴿ قَالَ الذين استكبروا إِنَّا بالذى ءَامَنتُمْ بِهِ كافرون ﴾ [ الأعراف : 76 ] والثاني : ابتلاء الشريف بالوضيع .

والثالث : ابتلاء الذكي بالأبله .

وبالجملة فصفات الكمال مختلفة متفاوتة ، ولا تجتمع في إنسان واحد ألبتة ، بل هي موزعة على الخلق وصفات الكمال محبوبة لذاتها ، فكل أحد يحسد صاحبه على ما آتاه الله من صفات الكمال .

فأما من عرف سر الله تعالى في القضاء والقدر رضي بنصيب نفسه وسكت عن التعرض للخلق ، وعاش عيشاً طيباً في الدنيا والآخرة ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 197 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال هشام بن الحكم : إنه تعالى لا يعلم الجزئيات إلا عند حدوثها ، واحتج بهذه الآية ، لأن الافتتان هو الاختبار والامتحان ، وذلك لا يصح إلا لطلب العلم وجوابه قد مر غير مرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 12 صـ 197 ﴾

*(97/233)*

---

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (53) ﴾

أجرى الله تعالى الحكمة بأن أكثر أتباع الرسول ضعفاء الناس ، ولذلك " لما سأل هرقل

ملك الروم أبا سفيان عن نبينا صلى الله عليه وسلم : أأشرف الناس يتبعونه ، أم ضعفاؤهم ؟ فقال : بل ضعفاؤهم . قال : هم أتباع الرسل " .

فإذا عرفت ذلك فاعلم أنه تعالى أشار إلى أن من حكمة ذلك فتنة بعض الناس ببعض ، فإن أهل المكانة والشرف والجاه يقولون : لو كان في هذا الدين خير لما سبقنا إليه هؤلاء ، لأنا أحق منهم بكل خير كما قال هنا : ﴿ وكذلك فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ليقولوا أهؤلاء مَنَّ الله عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَآ ﴾ الآية إنكاراً منهم أن يمن الله على هؤلاء الضعفاء دونهم ، زعماً منهم أنهم أحق بالخير منهم ، وقد رد الله قولهم هنا بقوله : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ ﴾ .

وقد أوضح هذا المعنى في آيات أخر كقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ ﴾ [ الأحقاف : 11 ] الآية ، وقوله : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الخيرات بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ [ المؤمنون : 55-56 ] ، إلى غير ذلك من الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 1 صـ ﴾

*(98/233)*

---

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ﴾

الواو استئنافية كما هي في نظائره .

والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً لأنّ السامع لمَّا شعر بقصّة أوماً إليها قوله تعالى : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربَّهم ﴾ [ الأنعام : 52 ] الآية يأخذه العجب من كبرياء عظماء أهل الشرك وكيف يرضَوْن البقاء في ضلالة تكبّراً عن غشيَان مجلس فيه ضعفاء الناس من الصالحين ، فأجيب بأنّ هذا الخلق العجيب فتنة لهم خلقها الله في نفوسهم بسوء خلُقهم .

وقعت هذه الجملة اعتراضاً بين الجملتين المتعاطفتين تعجيلاً للبيان ، وقرنت بالواو للتنبيه على الاعتراض ، وهي الواو الاعتراضية ، وتسمَّى الاستئنافية ؛ فبيَّن الله أنّ داعيهم إلى طلب طردهم هو احتقار في حسد ؛ والحسد يكون أعظم ما يكون إذا كان الحاسد يرى نفسه أولى بالنعمة المحسود عليها ، فكان ذلك الداعي فتنة عظيمة في نفوس المشركين إذ جمعتْ كبراً وعُجباً وغروراً بما ليس فيهم إلى احتقار للأفاضل وحسد لهم ، وظلم لأصحاب الحق ، وإذ حالت بينهم وبين الإيمان والانتفاع بالقرب من مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم

والتشبيه مقصود منه التعجيب من المشبّه بأنَّه بلغ الغاية في العجب .

واسم الإشارة عائد إلى الفتون المأخوذ من "فتنّا" كما يعود الضمير على المصدر في نحو ﴿ اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ ، أي فتنّا بعضهم ببعض فتوناً يرغب السامع في تشبيهه وتمثيله

لتقريب كنهه فإذا رام المتكلّم أن يقرّبه له بطريقة التشبيه لم يجد له شبيهاً في غرائبه وفظاعته إلاّ أن يشبّهه بنفسه إذ لا أعجب منه ، على حدّ قولهم : والسفاعة كاسمها .

وليس ثمّة إشارة إلى شيء متقدّم مغاير للمشبّه .

وجيء باسم إشارة البعيد للدلالة على عظم المشار إليه .

وقد تقدّم تفصيل مثل هذا التشبيه عند قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً ﴾ في سورة [ البقرة : 143 ] .

(99/233)

---

والمراد بالبعض المنصوب المشركون فهم المفتونون ، وبالبعض المجرور بالباء المؤمنون ، أي فتنّا عظماءَ المشركين في استمرار شركهم وشِرْك مقلّديهم بحال الفقراء من المؤمنين الخالصين كما دلّ عليه قوله : ﴿ لِيَقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ﴾ [ الأنعام : 53 ] فإنّ ذلك لا يقوله غير المشركين ، وكما يؤيِّده قوله تعالى في تذييله ﴿ أليس الله بأعلمَ بالشاكرين ﴾ .

والقول يحتمل أن يكون قولاً منهم في أنفسهم أو كلاماً قالوه في مَلئهم .

وأيّاً ما كان فهم لا يقولونه إلاّ وقد اعتقدوا مضمونه ، فالقائلون ﴿ أهؤلاء مَنّ الله عليهم ﴾

هم المشركون .

واللام في قوله : ﴿ ليقولوا ﴾ لام التعليل ، ومدخولها هو أثرُ العلّة دالّ عليها بعد طيِّها على طريقة الإيجاز .

والتقدير : فتنّاهم ليَرَوْا لأنفسهم شفوفاً واستحقاقاً للتقدّم في الفضائل اغتراراً بحال الترفّه فيعجبوا كيف يُدعى أنّ الله يمنّ بالهدى والفضل على ناس يرونهم أحطّ منهم ، وكيف يُعَدّونهم دونَهم عند الله ، وهذا من الغرور والعُجب الكاذب .

ونظيره في طيّ العلَّة والاقتصار على ذكر أثرها قول إياس بن قبيصة الطائي :

وأقدمتُ والخَطِّيُّ يَخطِرُ بَيْنَنَا . . .

لأعْلَمَ مَنْ جَبَانُهَا من شُجاعها

أي ليظهر الجَبَان والشجاع فأعلَمَهُمَا .

والاستفهام مستعمل في التعجّب والإنكار ، كما هو في قوله ﴿ أألقي الذكرُ عليه من بيننا ﴾ [ القمر : 25 ] .

والإشارة مستعملة في التحقير أو التعجيب كما هي في قوله تعالى حكاية عن قول المشركين ﴿ أهذا الذي يذكر آلهتكم ﴾ في سورة [ الأنبياء : 36 ] .

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي لقصد تقوية الخبر .

وقولهم : مَنّ الله عليهم ﴾ قالوه على سبيل التهكّم ومجاراة الخصم ، أي حيث اعتقد

المؤمنون أنّ الله منّ عليهم بمعرفة الحق وحَرم صناديد قريش ، فلذلك تعجَّب أولئك من هذا الاعتقاد ، أي كيف يُظنّ أنّ الله يمنّ على فقراء وعبيد ويترك سادة أهل الوادي .

*(100/233)*

---

وهذا كما حكى الله عنهم ﴿ وقالوا لولا نُزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [ الزخرف : 31 ] .

وهذه شنشنة معروفة من المستكبرين والطغاة .

وقد حدث بالمدينة مثل هذا .

روى البخاري أنّ الأقرع بن حابس جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنّما بايعَك سُرّاقُ الحجيج مِنْ أسْلَمَ وغِفار ومُزَيْنَة وجُهَيْنَة فقال له رسول الله : أرأيتَ إنْ كانت أسْلَمُ وغِفَارُ ومزينةُ وجهينةُ خيراً من بني تميم وبني عامر وأسد وغطفانُ أخابوا وخسروا ( أي أخاب بنو تميم ومن عُطف عليهم ) فقال : نعم قال : فَوالذي نفسي بيده إنّهم لَخير منهم .

وفي الآية معنى آخر ، وهو أن يكون القول مضمراً في النفس ، وضميرُ ﴿ ليقولوا ﴾ عائداً إلى المؤمنين الفقراء ، فيكونوا هم البعض المفتونين ، ويكون البعض المجرور بالباء صادقاً

على أهل النعمة من المشركين ، وتكون إشارة ﴿ هؤلاء ﴾ راجعة إلى عظماء المشركين ويكون المراد بالمَنّ إعطاء المال وحُسْن حال العيش ، ويكون الاستفهام مستعملاً في التحيّر على سبيل الكناية ، والإشارةُ إلى المشركين معتبر فيها ما عرفوا به من الإشراك وسوء الاعتقاد في الله .

والمعنى : وكذلك الفتونِ الواقعِ لعظماء المشركين ، وهو فتون الإعجاب والكبرياء حين ترفّعوا عن الدخول فيما دخل فيه الضعفاء والعبيد من تصديق محمد صلى الله عليه وسلم وصحبته استكباراً عن مساواتهم ، كذلك كان فتون بعض آخر وهم بعض المؤمنين حين يشاهدون طيب عيش عظماء المشركين في الدنيا مع إشراكهم بربِّهم فيعجبون كيف منّ الله بالرزق الواسع على من يكفرون به ولم يُمُنّ بذلك على أوليائه وهم أولى بنعمة ربِّهم . وقد أعرض القرآن عن التصريح بفساد هذا الخاطر النفساني اكتفاء بأنَّه سمَّاه فتنة ، فعلم أنّه خاطر غير حقّ ، وبأنّ قوله : ﴿ أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ مشير إلى إبطال هذه الشبهة .

*(101/233)*

ذلك بأنَّها شبهة خلطت أمر شيئين متفارقين في الأسباب ، فاشتبه عليهم الجزاء على الإيمان وما أعدّ الله لأهله من النعيم الخالد في الآخرة ، المترتّب عليه ترتّب المسبّب على السبب المجعول عن حكمة الله تعالى ، بالرزق في الدنيا المترتِّب على أسباب دنيوية كالتجارة والغزو والإرث والهبات .

فالرزق الدنيوي لا تسبّب بينه وبين الأحوال القلبية ولكنّه من مسبّبات الأحوال المادّيَة فالله أعلم بشكر الشاكرين ، وقد أعدّ لهم جزاء شكرهم ، وأعلمُ بأسباب رزق المرزوقين المحْظوظين .

فالتخليط بين المقامين من ضعف الفكر العارض للخواطر البشرية والناشىء عن سوء النظر وترك التأمّل في الحقائق وفي العلل ومعلولاتها .

وكثيراً ما عرضت للمسلمين وغيرهم شُبه وأغلاط في هذا المعنى صرفتهم عن تطلّب الأشياء من مظانّها وقعدت بهم عن رفْو أخْلالهم في الحياة الدنيا أو غرّتْهُم بالتفريط فيما يجب الاستعداد له كل ذلك للتخليط بين الأحوال الدينية الأخروية وبين السنن الكونية الدنيوية ، كما عرض لابن الراوندي من حيرة الجهل في قوله:

كَمْ عالمٍ عَالمٍ أعْيَتْ مذاهبُه . . .

وجَاهلٍ جاهلٍ تلقّاه مرزوقاً

هَذا الذي ترك الأوْهَامَ حائِرَةً . . .

وصَيَّرَ العالمِ النِّحْرير زنديقاً

ولا شكّ أنّ الذين استمعوا القرآن ممّن أنزل عليه صلى الله عليه وسلم قد اهتدوا واستفاقوا ، فمن أجل ذلك تأهّلوا لامتلاك العالم ولاَقُوا .

و﴿ مِنْ ﴾ في قوله ﴿ مِنْ بيننا ﴾ ابتدائية .

و( بين ) ظرف يدلّ على التوسّط ، أي مَنّ الله عليهم مختاراً لهم من وسطنا ، أي منّ عليهم وتركنا ، فيؤول إلى معنى من دوننا .

وقوله : ﴿ أليس الله بأعلمَ بالشاكرين ﴾ تذييل للجملة كلّها ، فهو من كلام الله تعالى وليس من مقول القول ، ولذلك فصل .

والاستفهام تقريري .

وعديّ ﴿ أعلَمَ ﴾ بالباء لأَنَّه بصيغة التفضيل صار قاصراً .

*(102/233)*

---

والمعنى أنّ الله أعلم بالشاكرين من عباده فلذلك منّ على الذين أشاروا إليه بقولهم : ﴿ أهؤلاء مَنّ الله عليهم ﴾ بمنّة الإيمان والتوفيق .

ومعنى علمه تعالى بالشاكرين أَنَّه أعلم بالذين جاءوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم

مستجيبين لدعوته بقريحة طالبين النجاة من الكفر راغبين في حسن العاقبة ، فهو يلطف بهم ويسهِّل لهم الإيمان ويحبِّبه إليهم ويزيّنه في قلوبهم ويزيدهم يوماً فيوماً تمكّناً منه وتوفيقاً وصلاحاً ، فهو أعلم بقلوبهم وصدقهم من الناس الذين يحسبون أنّ رثاثة حال بعض المؤمنين تطابق حالة قلوبهم في الإيمان فيأخذون الناس ببزّاتهم دون نيّاتهم .

فهذا التذييل ناظر إلى قوله : ﴿ إنّما يستجيب الذين يسمعون ﴾ [ الأنعام : 36 ] .

وقد عُلم من قوله : ﴿ أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ أنَّه أيضاً أعلم بأضدادهم .

ضدّ الشكر هو الكفر ، كما قال تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنَّكم ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد ﴾ [ إبراهيم : 7 ] فهو أعلم بالذين يأتون الرسول عليه الصلاة والسلام مستهزئين متكبِّرين لا همّ لهم إلاّ تحقير الإسلام والمسلمين ، وقد استفرغوا وسعهم ولبّهم في مجادلة الرسول صلى الله عليه وسلم وتضليل الدهماء في حقيقة الدين .

ففي الكلام تعريض بالمشركين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

*(103/233)*

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ﴾

نحن هنا أمام " بعضين " : بعض قد استعلى أن يجتمع ببعض آخر مستضعف عند رسول أرسله الله . ويمتحن الله البعض بالفتنة ، والفتنة هي الاختبار . إن بعضاً من الناس يظن أن الفتنة أمر مذموم ، لا ، إن الفتنة لا تذم لذاتها ، وإنما تذم لما تؤول إليه . فالاختبار – إذن – لا يذم لذاته ، وإنما يذم لما يؤول إليه . وتأتي الفتنة ليُرى صدق اليقين الإيماني ، وها هوذا الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ أَحَسِبَ الناس أَن يتركوا أَن يقولوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الذين مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ الله الذين صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ الكاذبين ﴾ [ العنكبوت : 2-3 ] .

إن الحق سبحانه يختبر مدى صدق الإنسان حين يعلن الإيمان ، إنه – سبحانه – يختبرهم بالمحن والنعم ، وقد اختبر الحق الأمم السابقة بالتكاليف والنعم والمحن ويظهر ويبرز إلى الوجود ما سبق أن علمه سبحانه أزلاً ، ويميز أهل الصدق في الإيمان عن الكاذبين في الإيمان . فمن صبر على الاختبار والفتنة فقد ثبت صدقه ويقينه ، ومن لم يصبر فقد دّل بعمله هذا على أنه كان يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به ورضي ، وإن أصابه شر وفتنة انقلب على وجهه ونكص على عقبيه فخسر الدنيا والآخرة .

إذن فالفتنة مجرد اختبار . والوجود الذي نراه مبني كله على المفارقات ، وعلى هذه المفارقات نشأت حركة الحياة . ويجب الإيمان بقدر الله في خلقه ؛ فهذا طويل ، وذاك

قصير ، هذا أبيض ، وذاك أسود ، هذا مبصر وذلك أعمى ، هذا غني ، وذلك فقير ، هذا صحيح ، وذلك سقيم ، وذلك ليكون كل نقيض فتنة للآخر .

*(104/233)*

---

فالمريض – على سبيل المثال – فتنة للصحيح ، والصحيح فتنة للمريض ، ويستقبل المريض قدر الله في نفسه ولا ينظر بحقد أو غيظ للصحيح ، ولكن له أن ينظر هل يستعلي الصحيح عليه ويستذله ، أو يقدم له المساعدة ؟ والفقير فتنة للغني ، وهو ينظر إلى الغني ليعرف أيحتقره ، أيحرجه ، أيستغله ، والغني فتنة للفقير ، يتساءل الغني أينظر إليه الفقير نظرة الحاسد . أم الراضي عن عطاء الله لغيره . وهكذا تكون الفتن .

إن من البشر من هو موهوب هبة ما ، وهناك من سلب الله منه هذه الهبة ، وهذا العطاء وذلك السلب كلاهما فتنة ؛ لنؤمن بأن خالق الوجود نثر المواهب على الخلق ولم يجعل من إنسان واحد مجمع مواهب ؛ حتى يحتاج كل إنسان إلى مواهب غيره ، وليقوم التعاون بين الناس ، وينشأ الارتباط الاجتماعي .

وعندما يخلق الله الإنسان بعاهة من العاهات فهو سبحانه يعوضه بموهبة ما . هكذا نرى أن العالم كله قد فتن الله بعضه ببعض ، وكذلك كانت الجماعة المؤمنة فتنة للجماعة الكافرة

، وكانت الجماعة الكافرة فتنة لرسول الله ، ورسول الله فتنة لهم فساعة يرى رسول الله الكفار وهم يجترئون عليه ويقولون :

﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [ الزخرف : 31 ] .

يعرف أن هؤلاء القوم يستكثرون عليه أن ينزل عليه هذا القرآن العظيم ، وفي هذا القول فتنة واخْتبار لرسول الله ، وهو يصبر على ذلك ويمضي إلى إتمام البلاغ عن الله ولا يلتفت إلى ما يقولون ، بل يأخذ هذا دليلاً على قوة المعجزة الدالة على صدق رسالته .

والجماعة التي استكبرت وطلبت طرد المستضعفين هم فتنة للمستضعفين ،

والمستضعفون فتنة لهم ، فلو أن الإيمان قد اختمر في نفوس المستكبرين لما استكبروا أن يسبقهم الضعاف إلى الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم .

*(105/233)*

---

إذن فكلنا يفتن بعضنا بعضاً . وكل إنسان عندما يرى موهوباً بموهبة لا توجد لديه فليعلم أنها فتنة له وعليه أن يقبلها ويرضى بها في غيره . وما عُبِدَ الله بشيء خيرا من أن يحترم خلق الله قدر الله في بعضهم بعضاً ، ولذلك يختبرنا الحق جميعاً ، فإن كنت مؤمنا بالله فاحترم قدر الله في خلق الله حتى يجعل الله غيرك من الناس يحترمون قدر الله فيك .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وكذلك فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ليقولوا أهؤلاء مَنَّ الله عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ الله بِأَعْلَمَ بالشاكرين ﴾ [ الأنعام : 53 ] .

ووجه الفتنة هنا أن قومًا طلبوا طرد المستضعفين وقالوا كما حكى الله عنهم : ﴿ أهؤلاء مَنَّ الله عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ﴾ ؟ كأنهم تساءلوا عن المركز الاجتماعي للمستضعفين من المؤمنين ، ويأتيهم الرد من الله : ﴿ أَلَيْسَ الله بِأَعْلَمَ بالشاكرين ﴾ . فسبحانه هو العليم أزلاً بالبشر ، ولا يقترح عليه أحد ما يقرره . وقد سبق للذين كفروا أن قالوا : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلا نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ .

وجاءهم الرد من الحق سبحانه وتعالى فقال : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾ [ الزخرف : 32 ] .

*(106/233)*

---

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه وتعالى لم يضع مفاتيح الرسالة في أيدي المشركين أو غيرهم ، ليوزعوا هم الأمور ويقوموا بتدبير الأمر . بل هو سبحانه وتعالى الذي يوزع المواهب في البشر رزقاً منه ليعتمد كل إنسان على الآخرين في مواهبهم التي يعجز عنها ، ويعتمد عليها

الآخرون في موهبته التي يعجزون عنها . ومسألة النبوة هي اصطفاء إلهي يكبر ويسمو على كل مقامات الدنيا . ويدل السياق إذن على أن بعضاً من كبار العرب طلبوا أن يطرد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضاً من المستضعفين ، فأراد الله أن يطمئن المستضعفين بشيء عجل لهم به في الدنيا وإن كان قد جعله لبقية المؤمنين في الآخرة . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(107/233)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

" الكاف " في مَحَلِّ نَصبٍ على أنها نَعْتٌ لمصدر محذوف ، والتقدير : ومثل ذلك الفُتُون المتقدم الذي فُهِمَ من سياق أخبار الأمم الماضية فتنًا بعضَ هذه الأمَّةِ ببعْض ، فالإشَارَةُ بذلك إلى الفُتُونِ المَدْلُولِ عليه بقوله : " فَتَنَّا " ، ولذلك قال الزمخشري : ومثل ذلك الفتن العظيم فتن بعض الناسِ ببعضٍ فجعل الإشارةِ لمصدرَ فَتَنَّا .

وانظر كيف لم يَتَلَفَّظْ هو بإسناد الفِتْنَةِ إلى اللَّهِ – تعالى – في كلامِهِ ، وإن ان البارئ – تعالى قد أسْنَدَها ، بل قال : فتن بعض الناس فَبَناهُ للمفعُول على قَاعِدةِ المعتزلة .

وجعل ابن عطية الإشارة إلى طلب الطَّرْدِ ، فإن قال بعد كلام يتعلّق بالتفسير : " والإشارة بذلك إلى ما ذُكِرَ من طلبهِمْ أن يطرد الضَّعفَةَ " .

قال أبو حيَّان : ولا ينتظم هذا التَّشْبيه ؛ إذ يصير التقدير : مثل طلب الطرد فَتَنَّا بعضهم ببعض والمَتَبَادَرُ إلى الذِّهْنِ من قولك : " ضربتُ مثل ذلك " المُمَاثَلَةُ في الضرب ، أي : مثل ذلك الضرب لا أن تَقَعَ المُمَاثَلَةُ في غير الضَّربِ ، وقد تقدَّم مِرَاراً أن سيبويه يجعل مثل ذلك حالاً من ضير المَصْدَرِ المقدر .

قوله : " لِيَقُولُوا " في هذه " اللام " وجهان :

أظهرهما : - وعليه أكثر المعربين والمُفسّرين - أنها لام " كي " ، والتقدير : ومثل ذلك الفُتُون فَتَنَّا ليقولوا هذه المقالة ابْتِلاءً مَنَّا وامْتِحَاناً .

والثاني : أنها " لام " الصَّيْرُورَةِ أي : العاقبة كقوله : [ الوافر ]

2181 - لِدثوا لِلْمَوْتِ وابْنُوا لِلْخَرَاب . . . . . .

﴿ فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً ﴾ [ القصص : 8 ] ، ويكون قولهم " أهُؤلاء " إلى آخره صادراً على سبيل الاسْتِخْفَافِ .

قوله : " أهَؤلاءِ " يجوز فيه وجهان :

أظهرهما : أنه منصوب المَحَلِّ على الاشْتَغَالِ بفعلٍ مَحْذُوفٍ يُفَسِّرُهُ الفعل الظاهر ، العاملُ في ضميره بِوَساطَةِ " على " ، ويكون المفسِّر من حيث المعنى لا من حيث اللفظ ، والتقدير

: أَفَضَّلَ اللهُ هؤلاء مَنَّ عليهم ، أو اختار هؤلاء مَنَّ عليهم ، ولا مَحَلِّ لقوله : " مَنَّ اللَّهُ عليهم " لكونها مُفَسّرة ، وإنّما رجَّح هنا إضمار الفعل ؛ لأنه وقع بد أداةِ يغلبُ إيلاءُ الفعلِ لها .

*(108/233)*

---

والثاني : أنه مرفوع المَحَلّ على أنه مبتدأ ، والخبر : مَنَّ اللَّهُ عليهم ، وهذا وإن كان سَالِماً من الإضْمَارِ الموجود في الوجه الذي قبله ، إلاَّ أنه مَرْجوحٌ لما تقدَّم ، و" عليهم " مُتعلِّقٌ بـ " مَنَّ " .

و" من بَيْنِنَا " يجوز أن يتعلَّق به أيضاً .

قال أبو البقاء : " أي مَيَّزَهُمْ عَلَيْنَا ، ويجوز أن يكون حالاً " .

قال أبو البقاء أيضاً : مَنَّ عليهم منفردين ، وهذان التفسيران تفسيرا مَعْنِى لا تفسيراً إعراب ، إلاَّ أنه لم يَسُقْهُمَا إلاَّ تَفْسِيرَيْ إعراب .

والجملة من قول : " أهؤلاءِ مَنَّ اللّهُ " الفرقُ بين الباءين أن الأولى لا تعلُّق لها لكونها زَائدة في خبر " ليس " ، والثانية متعلّقة بـ " أعلم " وتعدّي العمل بها لِمَا ضُمِّن من معنى الإحاطَةِ ، وكثيراً ما يقع ذلك في عبارة العلماء ، فيقولون : علم بكذا والعلم بكذا لما تقدَّم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 169 . 170 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (53) ﴾

أمَّا الفاضل فَلْيشكرْ ، وأمَّا المفضول فليَصْبِرْ .

ويقال سبيل المفضول على لسان المحبة الشكر ، ولا يتقاصر شكره عن شكر الفاضل ،

قال قائلهم في معناه :

أتاني منكِ سبُّكِ لي فَسُبِّي . . . أليس جرَى بفيكِ اسمي ؟ فَحَسْبِي

وقال آخر :

وإنَّ فؤاداً بِعْتُه – لَكَ شاكرٌ . . . وإنَّ دَمَاً أجريتُه – لَكَ حامدُ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 476. 477 ﴾

*(109/233)*

---

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (54)

﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما نهاه صلى الله عليه وسلم عن طردهم ، علمه كيف يلاطفهم فقال عاطفاً على ما تقديره : وإذا جاءك الذين يحتقرون الضعفاء من عبادي فلا تحفل بهم : ﴿ وإذا جاءك ﴾ وأظهر موضع الإضمار دلالة على الوصف الموجب لإكرامهم وتعميماً لغيرهم فقال : ﴿ الذين يؤمنون ﴾ أي هم أو غيرهم أغنياء كانوا أو فقراء ، وأشار بمظهر العظمة إلى أنهم آمنوا بما هو جدير بالإيمان به فقال : ﴿ بآياتنا ﴾ على ما لها من العظمة بالنسبة إلينا ﴿ فقل ﴾ أي لهم بادئاً بالسلام إكراماً لهم وتطييباً لخواطرهم ﴿ سلام عليكم ﴾ أي سلامة مني ومن الله ،

*(110/233)*

---

ونكره لما يلحقهم في الدنيا من المصائب ؛ ثم علل ذلك بقوله : ﴿ كتب ربكم ﴾ أي المحسن إليكم ﴿ على نفسه الرحمة ﴾ ثم علل ذلك بقوله واستأنف بما حاصله أنه علم من الإنسان النقصان ، لأنه طبعه على طبائع الخسران إلا من جعله موضع الامتنان فقال : ﴿ أنه من

عمل منكم سوءاً ﴾ أي أيّ سوء كان ملتبساً ﴿ بجهالة ﴾ أي بسفه أو بخفة وحركة أخرجته عن الحق والعلم حتى كان كأنه لا يعلم شيئاً ﴿ ثم تاب ﴾ أي رجع بالندم والإقلاع وإن طال الزمان ، ولذا أدخل الجار فقال : ﴿ من بعده ﴾ أي بعد ذلك العمل ﴿ وأصلح ﴾ بالاستمرار على الخير ﴿ فإنه ﴾ أي ربكم بسبب هذه التوبة يغفر له لأنه دائماً ﴿ غفور ﴾ أي بالغ الستر والمحو لما كان من ذلك ﴿ رحيم ﴾ يكرم من تاب هذه التوبة بأن يجعله كمن أحسن بعد أن جعله بالغفر كمن لم يذنب ، ومن أصر وأفسد فإنه يعاقبه ، لأنه عزيز حكيم ، وربما كانت الآية ناظرة إلى ما قذفهم به المشركون من عدم الإخلاص ، ويكون حينئذ مرشحاً لأن المراد بالحساب المحاسبة على الذنوب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 644 ﴾

فصل

قال الفخر :

اختلفوا في قوله ﴿ وَإِذَا جَاءكَ الذين يُؤْمِنُونَ بِآيَاتنا ﴾ فقال بعضهم هو على إطلاقه في كل من هذه صفته .

وقال آخرون : بل نزل في أهل الصفة الذين سأل المشركون الرسول عليه السلام طردهم وإبعادهم ، فأكرمهم الله بهذا الإكرام .

وذلك لأنه تعالى نهى الرسول عليه السلام أولاً عن طردهم ، ثم أمره بأن يكرمهم بهذا النوع من الإكرام .

قال عكرمة : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رآهم بدأهم بالسلام ويقول : "الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأه بالسلام" وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أن عمر لما اعتذر من مقالته واستغفر الله منها .

وقال للرسول عليه السلام ، ما أردت بذلك إلا الخير نزلت هذه الآية .

وقال بعضهم : بل نزلت في قوم أقدموا على ذنوب ، ثم جاؤه صلى الله عليه وسلم مظهرين للندامة والأسف ، فنزلت هذه الآية فيهم والأقرب من هذه الأقاويل أن تحمل هذه الآية على عمومها ، فكل من آمن بالله دخل تحت هذا التشريف .

ولي ههنا إشكال ، وهو : أن الناس اتفقوا على أن هذه السورة نزلت دفعة واحدة ، وإذا كان الأمر كذلك ، فكيف يمكن أن يقال في كل واحدة من آيات السورة أن سبب نزولها هو الأمر الفلاني بعينه ؟ ! ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 3 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الذين يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا ﴾

مشتمل على أسرار عالية ، وذلك لأن ما سوى الله تعالى فهو آيات وجود الله تعالى ، وآيات صفات جلاله وإكرامه وكبريائه ، وآيات وحدانيته ، وما سوى الله فلا نهاية له ، وما لا نهاية له فلا سبيل للعقل في الوقوف عليه على التفصيل التام ، إلا أن الممكن هو أن يطلع على بعض الآيات ويتوسل بمعرفتها إلى معرفة الله تعالى ثم يؤمن بالبقية على سبيل الإجمال ثم إنه يكون مدة حياته كالسائح في تلك القفار ، وكالسابح في تلك البحار .

ولما كان لا نهاية لها فكذلك لا نهاية لترقي العبد في معارج تلك الآيات ، وهذا مشرع جملي لا نهاية لتفاصيله .

ثم إن العبد إذا صار موصوفاً بهذه الصفة فعند هذا أمر الله محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ﴿ سلام عَلَيْكُمُ ﴾ فيكون هذا التسليم بشارة لحصول السلامة .

*(112/233)*

---

وقوله : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمة ﴾ بشارة لحصول الرحمة عقيب تلك السلامة .

أما السلامة فالنجاة من بحر عالم الظلمات ومركز الجسمانيات ومعدن الآفات والمخالفات وموضع التغييرات والتبديلات ، وأما الكرامات فبالوصول إلى الباقيات الصالحات والمجردات المقدسات ، والوصول إلى فسحة عالم الأنوار والترقي إلى معارج سرادقات

الجلال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 3 . 4 ﴾

فصل

قال الفخر :

ذكر الزجاج عن المبرد .

أن السلامة في اللغة أربعة أشياء ، فمنها سلمت سلاماً وهو معنى الدعاء ، ومنها أنه اسم من أسماء الله تعالى ، ومنها الإسلام ، ومنها اسم للشجر العظيم ، أحسبه سمي بذلك لسلامته من الآفات ، وهو أيضاً اسم للحجارة الصلبة ، وذلك أيضاً لسلامتها من الرخاوة .

ثم قال الزجاج : قوله : ﴿ سلام عَلَيْكُمُ ﴾ السلام ههنا يحتمل تأويلين : أحدهما : أن يكون مصدر سلمت تسليماً وسلاماً مثل السراح من التسريح ، ومعنى سلمت عليه سلاماً ، دعوت له بأن يسلم من الآفات في دينه ونفسه .

فالسلام بمعنى التسليم ، والثاني : أن يكون السلام جمع السلامة ، فمعنى قولك السلام عليكم ، السلامة عليكم .

وقال أبو بكر بن الأنباري : قال قوم السلام هو الله تعالى فمعنى السلام عليكم يعني الله عليكم أي على حفظكم وهذا بعيد في هذه الآية لتنكير السلام في قوله ﴿ فَقُلْ سلام عَلَيْكُمْ ﴾ ولو كان معرفاً لصح هذا الوجه .

وأقول كتبت فصولاً مشبعة كاملة في قولنا سلام عليكم وكتبتها في سورة التوبة ، وهي

أجنبية عن هذا الموضع فإذا نقلته إلى هذا الموضع كمل البحث والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 4 ﴾

*(113/233)*

---

وقال ابن عطية :

قال جمهور المفسرين : ﴿ الذين ﴾ يراد بهم القوم الذين كان عرض طردهم فنهى الله عز وجل عن طردهم ، وشفع ذلك بأن أمر بأن يسلم النبي صلى الله عليه وسلم عليهم ويؤنسهم ، وقال عكرمة وعبد الرحمن بن زيد ﴿ الذين ﴾ يراد بهم القوم من المؤمنين الذين صوبوا رأي أبي طالب في طرد الضعفة فأمر الله نبيه أن يسلم عليهم ويعلمهم أن الله يغفر لهم مع توبتهم من ذلك السوء وغيره ، وأسند الطبري عن ماهان أنه قال نزلت الآية في قوم من المؤمنين استفتوا النبي صلى الله عليه وسلم في ذنوب سلفت منهم فنزلت الآية بسببهم . قال القاضي أبو محمد : وهي على هذا تعم جميع المؤمنين دون أن تشير إلى فرقة ، وقال الفضيل بن عياض : قال قوم للنبي صلى الله عليه وسلم إنَّا قد أصبنا ذنوباً فاستغفر لنا فأعرض عنهم فنزلت الآية ، وقوله ﴿ بآياتنا ﴾ يعم آيات القرآن وأيضاً علامات النبوة كلها ، و ﴿ سلام عليكم ﴾ ابتداء والتقدير : سلام ثابت أو أوجب عليكم ، والمعنى : أمنة

لكم من عذاب الله في الدنيا والآخرة ، وقيل المعنى أن الله يسلم عليكم .

قال القاضي أبو محمد : وهذا معنى لا يقتضيه لفظ الآية حكاه المهدوي ، ولفظه لفظ الخبر وهو في معنى الدعاء ، وهذا من المواضع التي جاز فيها الابتداء بالنكرة إذ قد تخصصت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ الذين يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ السلام والسلامة بمعنى واحد .

ومعنى ﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ سلمكم الله في دينكم وأنفسكم ؛ نزلت في الذين نهى الله نبيه عليه الصَّلاة والسَّلام عن طردهم ؛ فكان إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال : " الحمد لله الذي جعل في أُمتي من أمرني أن أبدأَهم بالسلام " فعلى هذا كان السلام من جهة النبي صلى الله عليه وسلم .

*(114/233)*

---

وقيل : إنه كان من جهة الله تعالى ، أي أبلغهم منا السَّلام ؛ وعلى الوجهين ففيه دليل على فضلهم ومكانتهم عند الله تعالى .

وفي صحيح مسلم عن عائِذ بن عمرو : " أن أبا سفيان أتى على سلمان وصُهَيْبٍ وبلالٍ ونفر فقالوا : والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها ؛ قال فقال أبو بكر : أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم ؟! فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال : "يا أبا بكر لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك" فأتاهم أبو بكر فقال : يا إخوتاه أغضبتكم ؟ قالوا : لا ؛ يغفر الله لك يا أخي " ؛ فهذا دليل على رفعة منازلهم وحرمتهم كما بيناه في معنى الآية .

ويستفاد من هذا احترام الصالحين واجتناب ما يغضبهم أو يؤذيهم ؛ فإن في ذلك غضب الله ، أي حلول عقابه بمن آذى أحداً من أوليائه .

وقال ابن عباس : نزلت الآية في أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم .

وقال الفُضَيل بن عِيَاض : جاء قوم من المسلمين إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنا قد أصبنا من الذنوب فاستغفر لنا فأعرض عنهم ؛ فنزلت الآية .

وروي عن أنس بن مالك مثله سواء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

*(115/233)*

" فصل "

قال الثعالبى:

ومما يناسِبُ هذا المَحَلَّ ذِكْرُ شيء ممَّا ورد في فَضْلِ المُصَافَحَة ، وقد أسند أبو عُمَر في "التمهيد" ، عن عبد الرحْمَنِ بْنِ الأسود ، عن أَبيهِ وعلقمة ؛ أنهما قَالاَ : "مَنْ تَمَامِ التَّحِيَّةِ المُصَافَحَةُ" ، وروى مالكٌ في "الموطإ" ، عن عطاءٍ الخُرَاسَانِيّ ، قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : " تَصَافَحُوا ؛ يَذْهَبُ الغِلُّ ، وَتَهَادَوْا ؛ تَحَابُّوا ، وَتَذْهَبُ الشَّحْنَاءُ " ، قال أبو عُمَر في "التمهيد" : هذا الحديثُ يتَّصلُ مِنْ وجوه شتى حِسَانٍ كلُّها ، ثم أسند أبو عُمَر من طريقِ أبي دَاوُد وغَيْره ، عن البَرَاءِ ، قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : " مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ، فَيَتَصَافَحَانِ إلاَّ غُفِرَ لَهُمَا قَبْلَ أَنْ يَتَفَرَّقَا " ، ثم أسند أبو عُمَر عن البَرَاء بن عَازِب ، قال : " لَقِيتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ، فَأَخَذَ بِيَدِي ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إنْ كُنْتُ لأَحْسِبُ أَنَّ المُصَافَحَةَ لِلْعَجَمِ فَقَالَ : نَحْنُ أَحَقُّ بِالمُصَافَحَةِ مِنْهُمْ ؛ مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ، فَيَأْخُذُ أَحَدُهُمَا بِيَدِ صَاحِبِهِ مَوَدَّةً بَيْنَهُمَا ، وَنَصِيحَةً ، إلاَّ أُلْقِيَتْ ذُنُوبُهُمَا بَيْنَهُمَا " ، وأسند أبو عُمَر عن عمر بْنِ الخَطَّاب ، قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : " إذَا التقى المُسْلِمَانِ ، فَتَصَافَحَا ، أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيهِمَا مِائَةَ رَحْمَةٍ ؛ تِسْعُونَ مِنْهَا لِلَّذِي بَدَأَ بِالمُصَافَحَةِ ، وَعَشَرَةٌ لِلَّذِي صُوفِحَ ، وَكَانَ أَحَبَّهُمَا إلَى اللَّهِ أَحْسَنُهُمَا بِشْراً بِصَاحِبِهِ " انتهى .

وقد ذكرنا طَرَفاً مِنْ آدَابِ المُصَافحة فِي غَيْرِ هذا الموضعِ ، فَقِفْ عليه ، واعمل به ، تَرْشَدْ ، فإنَّ العلْم إنما يرادُ للعَمَل ، وبالله التوفيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 1 صـ ﴾

(116/233)

---

قوله تعالى ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمة ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله كتب كذا على فلان يفيد الإيجاب .

وكلمة "على" أيضاً تفيد الإيجاب ومجموعهما مبالغة في الإيجاب .

فهذا يقتضي كونه سبحانه راحماً لعباده رحيماً بهم على سبيل الوجوب واختلف العقلاء في سبب ذلك الوجوب فقال أصحابنا : له سبحانه أن يتصرف في عبيده كيف شاء وأراد ، إلا أنه أوجب الرحمة على نفسه على سبيل الفضل والكرم .

وقالت المعتزلة : إن كونه عالماً بقبح القبائح وعالماً بكونه غنياً عنها ، يمنعه من الإقدام على القبائح ولو فعله كان ظلماً ، والظلم قبيح ، والقبيح منه محال .

وهذه المسألة من المسائل الجلية في علم الأصول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 4 ﴾

وقال الماوردى :

﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : معناه أوجب الله على نفسه .

والثاني : كتب في اللوح المحفوظ على نفسه .

و ﴿ الرَّحْمَةَ ﴾ يحتمل المراد بها هنا وجهين :

أحدهما : المعونة .

والثاني : العفو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

*(117/233)*

---

وقال ابن عطية :

و ﴿ كتب ﴾ بمعنى أوجب ، والله تعالى لا يجب عليه شيء عقلاً إلا إذا أعلمنا أنه قد حتم بشيء ما فذلك الشيء واجب ، وفي : أين هذا الكتاب اختلاف ؟ قيل في اللوح المحفوظ ، وقيل في كتاب غيره لقوله عليه السلام في صحيح البخاري : إن الله تعالى كتب

كتاباً فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمة ﴾ أي أوجب ذلك بخبره الصدق ، ووعده الحق ، فخوطب العباد على ما يعرفونه من أنه من كتب شيئاً فقد أوجبه على نفسه .

وقيل : كتب ذلك في اللوح المحفوظ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

فائدة

قال الثعالبى:

قالَ ابْنُ العَرَبِيِّ في كتاب "تفسير الأَفْعَال الواقعة في القُرآن" : قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمة ﴾ ، قال علماؤنا : كَتَبَ : معناه أَوْجَبَ ، وعندي أنه كَتَبَ حقيقةً ، قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : " إنَّ اللَّهَ خَلَقَ القَلَمَ ، فَقَالَ لَهُ : اكتب ، فَكَتَبَ مَا يَكُونُ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ " انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 1 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

دلت هذه الآية على أنه لا يمتنع تسمية ذات الله تعالى بالنفس وأيضاً قوله تعالى : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾ [ المائدة : 116 ] يدل عليه ، والنفس ههنا بمعنى الذات والحقيقة ، وأما بمعنى الجسم والدم فالله سبحانه وتعالى مقدس عنه .

لأنه لو كان جسماً لكان مركباً والمركب ممكن وأيضاً أنه أحد ، والأحد لا يكون مركباً ، وما لا يكون مركباً لا يكون جسماً وأيضاً أنه غني كما قال ﴿ والله الغنى ﴾ والغني لا يكون مركباً وما لا يكون مركباً لا يكون جسماً وأيضاً الأجسام متماثلة في تمام الماهية ، فلو كان جسماً لحصل له مثل ، وذلك باطل لقوله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ﴾ [ الشورى : 11 ] فأما الدلائل العقلية فكثيرة ظاهرة باهرة قوية جلية والحمد لله عليه . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 4 ﴾

فصل

قال الفخر :

قالت المعتزلة قوله : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمة ﴾ ينافي أن يقال : إنه تعالى يخلق الكفر في الكافر ، ثم يعذبه عليه أبد الآباد ، وينافي أن يقال : إنه يمنعه عن الإيمان ، ثم يأمره حال ذلك المنع بالإيمان ، ثم يعذبه على ترك ذلك الإيمان .

وجواب أصحابنا : أنه ضار نافع محيي مميت ، فهو تعالى فعل تلك الرحمة البالغة وفعل هذا القهر البالغ ولا منافاة بين الأمرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 4 .

5 ﴾

(119/233)

---

فصل

قال الفخر :

من الناس من قال : إنه تعالى لما أمر الرسول بأن يقول لهم : ﴿ سلام عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمة ﴾ كان هذا من قول الله تعالى ومن كلامه ، فهذا يدل على أنه سبحانه وتعالى قال لهم في الدنيا : ﴿ سلام عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمة ﴾ وتحقيق هذا الكلام أنه تعالى وعد أقواماً بأنه يقول لهم بعد الموت ﴿ سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [ يس : 58 ] ثم إن أقواماً أفنوا أعمارهم في العبودية حتى صاروا في حياتهم الدنيوية كأنهم انتقلوا إلى عالم القيامة ، لا جرم صار التسليم الموعود به بعد الموت في حق هؤلاء حال كونهم في الدنيا ، ومنهم من قال : لا ، بل هذا كلام الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقوله : وعلى التقديرين فهو درجة عالية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ

﴿ 5

قوله تعالى ﴿ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذا لا يتناول التوبة من الكفر ، لأن هذا الكلام خطاب مع الذين وصفهم بقوله : ﴿ وَإِذَا جَاءكَ الذين يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا ﴾ فثبت أن المراد منه توبة المسلم عن المعصية ، والمراد من قوله ﴿ بِجَهَالَةٍ ﴾ ليس هو الخطأ والغلط ، لأن ذلك لا حاجة به إلى التوبة ، بل المراد منه ، أن تقدم على المعصية بسبب الشهوة ، فكان المراد منه بيان أن المسلم إذا أقدم على الذنب مع العلم بكونه ذنباً ثم تاب منه توبة حقيقية فإن الله تعالى يقبل توبته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 5 ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ نافع ﴿ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ ﴾ بفتح الألف ﴿ فَأَنَّهُ غَفُورٌ ﴾ بكسر الألف ، وقرأ عاصم وابن عامر بالفتح فيهما ، والباقون بالكسر فيهما .

أما فتح الأولى فعلى التفسير للرحمة ، كأنه قيل : كتب ربكم على نفسه أنه من عمل منكم .

وأما فتح الثانية فعلى أن يجعله بدلاً من الأولى كقوله ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وعظاما أَنَّكُمْ مُّخْرَجُونَ ﴾ [ المؤمنون : 85 ] وقوله ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ ﴾ [ الحج : 4 ] وقوله ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ [ التوبة : 63 ] قال أبو علي الفارسي : من فتح الأولى فقد جعلها بدلاً من الرحمة ، وأما التي بعد الفاء فعلى أنه أضمر له خبراً تقديره ، فله أنه غفور رحيم ، أي فله غفرانه ، أو أضمر مبتدأ يكون "أن" خبره كأنه قيل : فأمره أنه غفور رحيم .

وأما من كسرهما جميعاً فلأنه لما قال ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمة ﴾ فقد تم هذا الكلام ، ثم ابتدأ وقال ﴿ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فدخلت الفاء جواباً للجزاء ، وكسرت إن لأنها دخلت على مبتدأ وخبر كأنك قلت فهو غفور رحيم .

إلا أن الكلام بأن أوكد هذا قول الزجاج .

وقرأ نافع الأولى بالفتح والثانية بالكسر ، لأنه أبدل الأولى من الرحمة ، واستأنف ما بعد الفاء . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 5 ﴾

فائدة

قال الفخر :

قوله : ﴿ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءا بِجَهَالَةٍ ﴾

قال الحسن : كل من عمل معصية فهو جاهل ، ثم اختلفوا فقيل : إنه جاهل بمقدار ما فاته من الثواب وما استحقه من العقاب ، وقيل : إنه وإن علم أن عاقبة ذلك الفعل مذمومة ، إلا أنه آثر اللذة العاجلة على الخير الكثير الآجل ، ومن آثر القليل على الكثير قيل في العرف إنه جاهل .

وحاصل الكلام أنه وإن لم يكن جاهلاً إلا أنه لما فعل ما يليق بالجهال أطلق عليه لفظ الجاهل ، وقيل نزلت هذه الآية في عمر حين أشار بإجابة الكفرة إلى ما اقترحوه ، ولم يعلم بأنها مفسدة ونظير هذه الآية قوله : ﴿ إِنَّمَا التوبة عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السوء بجهالة ﴾ [ النساء : 17 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 5.6 ﴾

فائدة

قال الفخر :

قوله ﴿ تَابَ ﴾ إشارة إلى الندم على الماضي وقوله ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ إشارة إلى كونه آتياً بالأعمال الصالحة في الزمان المستقبل .

ثم قال : ﴿ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فهو غفور بسبب إزالة العقاب ، رحيم بسبب إيصال الثواب الذي هو النهاية في الرحمة . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 6 ﴾

---

وقال الماوردى :

﴿ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ﴾ في الجهالة تأويلان :

أحدهما : الخطيئة ، قاله الحسن ، ومجاهد ، والضحاك .

والثاني : ما جهل كراهية عاقبته ، قاله الزجاج .

ويحتمل ثالثاً : أن الجهالة هنا ارتكاب الشبهة بسوء التأويل .

﴿ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ ﴾ يعني تاب من عمله الماضي وأصلح في المستقبل . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سواءا بِجَهَالَةٍ ﴾ أي خطيئة من غير قصد ؛ قال مجاهد : لا يعلم حلالاً من حرام ومن جهالته رَكِب الأمرَ ، فكل من عمل خطيئة فهو بها جاهل ؛ وقد مضى هذا المعنى في "النساء" .

وقيل : من آثر العاجل على الآخرة فهو الجاهل .

﴿ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قرأ بفتح "أَنَّ" مِن "فَأَنَّهُ" ابن عامر وعاصم ، وكذلك ﴿ أَنَّهُ مَن

عَمِلَ ﴾ ووافقهما نافع في ﴿ أَنَّهُ مَن عَمِلَ ﴾ .

وقرأ الباقون بالكسر فيهما ؛ فمن كسر فعلى الاستئناف ، والجملة مفسرة للرّحمة ؛ و"إنّ" إذا دخلت على الجمل كُسِرت وحكم ما بعد الفاء الابتداء والاستئناف فكُسِرت لذلك .

ومن فتحهما فالأُولى في موضع نصب على البدل من الرحمة ، بدل الشيء من الشيء وهو هو فأعمل فيها ﴿ كَتَبَ ﴾ كأنه قال : كتب ربكم على نفسه أنه من عمل ؛ وأما ﴿ فَأَنَّهُ غَفُورٌ ﴾ بالفتح ففيه وجهان ؛ أحدهما أن يكون في موضع رفع بالابتداء والخبر مضمر ، كأنه قال : فله أنه غفور رحيم ؛ لأن ما بعد الفاء مبتدأ ، أي فله غفران الله .

الوجه الثاني أن يضمر مبتدأ تكون "أنّ" وما عملت فيه خبره ؛ تقديره فأمره غفران الله له ، وهذا اختيار سيبويه ، ولم يُجِز الأوّل ، وأجازه أبو حاتم وقيل : إنّ "كَتَبَ" عمل فيها ؛ أي كتب ربكم أنه غفور رحيم .

وروي عن علي بن صالح وابن هُرْمز كسر الأولى على الاستئناف ، وفتح الثانية على أن تكون مبتدأة أو خبر مبتدأ أو معمولة لكتب على ما تقدّم .

ومن فتح الأولى وهو نافع جعلها بدلاً من الرحمة ، واستأنف الثانية لأنها بعد الفاء ، وهي قراءة بيِّنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

ومن فوائد الثعلبى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذَا جَآءَكَ الذين يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا ﴾

اختلفوا فيما نزلت هذه الآية . فقال عكرمة : نزلت في الذين نهى اللّه عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم عن طردهم " وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال : " الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام " .

وقال الكلبي : لما نزلت هذه الآية ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ جاء عمر ( رضي الله عنه ) للنبي صلى الله عليه وسلم فاعتذر إليه من مقالته واستغفر اللّه تعالى منها ، وقال : يا رسول اللّه ما أردت بهذا إلاّ الخير فنزل في عمر ( رضي الله عنه ) ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ الذين يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ الآية

. وقال عطاء : نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وبلال وسالم وأبي عبيدة وصهيب بن عمير وعمر وجعفر وعثمان بن مظعون وعمار بن ياسر ، والأرقم بن الأرقم وأبي سلمة بن الأسد رضي اللّه عنهم أجمعين .

وقال أنس بن مالك ( رضي الله عنه ) عنه : " أتى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم رجال فقالوا : إنا أصبنا ذنوباً كثيرة عظيمة فسكت عنهم رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فأنزل اللّه على الرجال الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمة أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سواءا بِجَهَالَةٍ ﴾ " قال مجاهد : لا يعلم حلالاً من حرام ومن جهالته ركب الأمر وكل من عمل خطيئة فهو بها جاهل ، وقيل : جاهل بما يورثه ذلك الذنب ، يقال : جهل حين آثر المعصية على الطاعة ﴿ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ ﴾ فرجع عن دينه ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ عمله ، وقيل : أخلص توبته ﴿ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ واختلف القراء في قوله تعالى ﴿ أَنَّهُ ﴾ [ الكوفيون ] بفتح الألف منهما جميعاً . ابن كثير والأعمش وابن عمر وحمزة والكسائي على الإستئناف ، ونصبها الحسن وعاصم ويعقوب بدلاً من رحمة ، وفتح أهل المدينة الأولى على معنى وكتب إنّه وكسروا الثانية على الاستئناف لأن ما بعدها لا يخبر أبداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

ومن فوائد ابن الجوزى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على خمسة أقوال . أحدها : أنها نزلت في رجال أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : إنا أصبنا ذنوباً

عظيمة ، فسكت عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت هذه الآية ، قاله أنس بن مالك .

والثاني : أنها نزلت في الذين نُهي عن طردهم ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رآهم بدأهم بالسلام ، وقال : الحمد لله الذي جعل في أُمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام ، قاله الحسن ، وعكرمة .

والثالث : أنها نزلت في أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وحمزة ، وجعفر ، وعثمان بن مظعون ، وأبي عبيدة ، ومصعب بن عمير ، وسالم ، وأبي سلمة ، والأرقم ابن أبي الأرقم ، وعمار ، وبلال ، قاله عطاء .

*(124/233)*

---

والرابع : أن عمر بن الخطاب كان اشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بتأخير الفقراء ، استمالة للرؤساء إلى الإسلام .

فلما نزلت ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم ﴾ جاء عمر يعتذر من مقالته ويستغفر منها ، فنزلت فيه هذه الآية ، قاله ابن السائب .

والخامس : أنها نزلت مبِّشرة بإسلام عمر بن الخطاب ؛ فلما جاء وأسلم ، تلاها عليه

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حكاه أبو سليمان الدمشقي .

فأما قوله تعالى : ﴿ يؤمنون بآياتنا ﴾ فمعناه : يصدّقون بحججنا وبراهيننا .

قوله تعالى : ﴿ فقل سلام عليكم ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنه أُمر بالسلام عليهم ، تشريفا لهم ؛ وقد ذكرناه عن الحسن ، وعكرمة .

والثاني : أنه أُمر بابلاغ السلام إليهم عن الله تعالى ، قاله ابن زيد .

قال الزجاج : ومعنى السلام : دعاء للانسان بأن يسلم من الآفات .

وفي السوء قولان .

أحدهما : أنه الشرك ، والثاني : المعاصي .

وقد ذكرنا في سورة ( النساء ) معنى "الجهالة" .

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : "أنه من عمل منكم سوءاً" "فانه غفور" بكسر الألف فيهما .

وقرأ عاصم ، وابن عامر ، بفتح الألف فيهما .

وقرأ نافع : بنصب ألف "أنه" وكسر ألف "فانه غفور" قال أبو علي : من كسر ألف "إنه" جعله تفسيرا للرحمة ، ومن كسر ألف ﴿ فانه غفور ﴾ فلأن ما بعد الفاء حكم الابتداء ، ومن فتح ألف "أنه من عمل" جعل "أنَّ" بدلا من الرحمة ، والمعنى : كتب ربكم "أنه من عمل" ، ومن فتحها بعد الفاء ، أضمر خبراً تقديره : فله ﴿ أنه غفور رحيم ﴾ والمعنى :

فله غفرانه ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ فإن له نار جهنم ﴾ [ التوبة : 63 ] معناه : فله أن له نار جهنم ، وأما قراءة نافع ، فانه أبدل من الرحمة ، واستأنف ما بعد الفاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

*(125/233)*

---

ومن فوائد ابن كثير فى الآية

قال رحمه الله :

وقوله : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : فأكرمهم برد السلام عليهم ، وبَشِّرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم ؛ ولهذا قال : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ أي : أوجبها على نفسه الكريمة ، تفضلا منه وإحسانًا وامتنانًا ﴿ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ﴾ قال بعض السلف : كل من عصى الله ، فهو جاهل .

وقال معتمر بن سليمان ، عن الحكم بن أبان ، عن عِكْرِمة في قوله : ﴿ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ﴾ قال : الدنيا كلها جهالة . رواه ابن أبي حاتم .

﴿ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ ﴾ أي : رجع عما كان عليه من المعاصي ، وأقلع وعزم على ألا يعود وأصلح العمل في المستقبل ، ﴿ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا مَعْمَر ، عن همَّام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لما قَضَى الله الخَلْقَ ، كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي غلبت غضبي" . أخرجاه في الصحيحين (1) وهكذا رواه الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة (2) ورواه موسى بن عقبة عن الأعرج ، عن أبي هريرة . وكذا رواه الليث وغيره ، عن محمد بن عجلان ، عن أبيه ، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم بذلك (3)

وقد روى ابن مَرْدُوَيه ، من طريق الحكم بن أبان ، عن عِكْرِمة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إذا فرغ الله من القضاء بين الخلق ، أخرج كتابًا من تحت العرش : إن رحمتي سبقت غضبي ، وأنا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة أو قبضتين فيخرج من النار خلقًا لم يعملوا خيرًا ،

---

(1) المسند (313/2) ورواه البخاري في صحيحه برقم (3194) ومسلم في صحيحه برقم (2751) من وجوه أخرى عن أبي هريرة .

(2) رواه البخاري في صحيحه برقم (7404)

(3) رواه أحمد في مسنده (433/2) .

مكتوب بين أعينهم . عُتَقَاء الله" .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر ، عن عاصم بن سليمان ، عن أبي عثمان النَّهْدِي ، عن سلمان في قوله : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ قال : إنا نجد في التوراة عطفتين : أن الله خلق السماوات والأرض ، وخلق مائة رحمة – أو : جعل مائة رحمة – قبل أن يخلق الخلق ، ثم خلق الخلق ، فوضع بينهم رحمة واحدة ، وأمسك عنده تسعًا وتسعين رحمة . قال فبها يتراحمون ، وبها يتعاطفون ، وبها يتباذلون وبها يتزاورون ، وبها تَحِنّ الناقة ، وبها تَتِجُّ البقرة ، وبها تثغو الشاة ، وبها تَتَابعُ الطير ، وبها تَتَابع الحيتان في البحر . فإذا كان يوم القيامة ، جمع الله تلك الرحمة إلى ما عنده ، ورحمته أفضل وأوسع .

وقد روي هذا مرفوعا من وجه آخر (1) وسيأتي كثير من الأحاديث الموافقة لهذه عند قوله : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : 156]

ومما يناسب هذه الآية [الكريمة] من الأحاديث أيضا قوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل : "أتدري ما حق الله على العباد ؟ أن يعبدوه لا يشركوا به شيئا" ، ثم قال : "أتدري ما حق العباد على الله إذا هم فعلوا ذلك ؟ ألا يعذبهم" (2) وقد رواه الإمام أحمد ، من طريق كميل بن زياد ، عن أبي هريرة [رضي الله عنه] (3) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 262. 264 ﴾

(1) رواه مسلم في صحيحه برقم (2753) من طريق سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن سلمان ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن لله مائة رحمة ، فمنها رحمة بها يتراحم الخلق ، وتسعة وتسعون ليوم القيامة" .

(2) رواه البخاري في صحيحه برقم (7373) ومسلم في صحيحه برقم (30) .

(3) المسند (309/2)

*(127/233)*

---

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ﴾

الجمهور أنها نزلت في الذين نهى الله عن طردهم فكان إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال : " الحمد لله الذي جعل في أمتي من أبدأهم بالسلام " وقيل : الذين صوّبوا رأي أبي طالب في طرد الضعفة .

وقال الفضيل بن عياض : قال قوم : قد أصبنا ذنوباً فاستغفر لنا فأعرض عنهم فنزلت .

وقيل : نزلت في عمر حين أشار بإجابة الكفرة ولم يعلم أنها مفسدة ، وعلى هذه الأسباب

يكون تفسير ﴿ الذين يؤمنون ﴾ فإن كان عنى بهم الستة الذين نهى عن طردهم فيكون من باب العام أريد به الخاص ويكون قوله ﴿ سلام عليكم ﴾ أمراً بإكرامهم وتنبيهاً على خصوصية تشريفهم بهذا النوع من الإكرام وإن كان عنى عمر حين اعتذر واستغفر وقال : ما أردت بذلك إلا الخير كان من إطلاق الجمع على الواحد المعظم ، والظاهر أنه يراد به المؤمنون من غير تخصيص لا بالستة ولا بغيرهم وإنها استئناف إخبار من الله تعالى بعد تقصي خبر أولئك الذين نهى عن طردهم ولو كانوا إياهم لكان التركيب الأحسن ، وإذا جاؤك والآيات هنا آيات القرآن وعلامات النبوة .

*(128/233)*

---

وقال أبو عبد الله الرازي : آيات الله آيات وجوده وآيات صفات جلاله وإكرامه وكبريائه ووحدانيته وما سوى الله لا نهاية له ، ولا سبيل للعقول إلى الوقوف عليه على التفصيل التام إلا أن الممكن هو أن يطلع على بعض الآيات ثم يؤمن بالبقية على سبيل الإجمال ثم يكون مدة حياته كالسابح في تلك البحار وكالسائح في تلك القفار ، ولما كان لا نهاية لها فكذلك ، لا نهاية في ترقي العبد في معارج تلك الآيات وهذا مشرع جملي لا نهاية لتفاصيله ، ثم إن العبد إذا كان موصوفاً بهذه الصفات فعندها أمر الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بأن يقول

لهم سلام عليكم فيكون هذا التسليم بشارة بحصول الكرامة عقيب تلك السلامة والنجاة من بحر عالم الظلمات ومركز الجسمانيات ومعدن الآفات والمخافات وموضع التغييرات والتبديلات ، وأما الكرامة بالوصول إلى الباقيات الصالحات المجردات المقدسات والوصول إلى فسحة عالم الأنوار والترقي إلى معارج سرادقات الجلال ؛ انتهى كلامه وهو تكثير لا طائل تحته طافح بإشارات أهل الفلسفة بعيد من مناهج المتشرّعين وعن مناحي كلام العرب ومن غلب عليه شيء حتى في غير مظانه ولله در القائل يغري منصور الموحدين بأهل الفلسفة من قصيدة :

وحرق كتبهم شرقاً وغربا . . .

ففيها كامن شرّ العلوم

يدب إلى العقائد من أذاها . . .

سموم والعقائد كالجسوم

وقال المبرد : السلام في اللغة اسم من أسماء الله تعالى وجمعه سلامة ومصدر واسم شجر .

وقال الزجاج : مصدر لسلم تسليماً وسلاماً كالسراح من سرّح والأداء من أدى .

وقال عكرمة والحسن : أمر بابتداء السلام عليهم تشريفاً لهم .

وقال ابن زيد : أمر بإبلاغ السلام عليهم من الله ، وقيل : معنى السلام هنا الدعاء من

الآفات .

وقال أبو الهيثم : السلام والتحية بمعنى واحد ومعنى السلام عليكم حياكم الله .

(129/233)

---

وقال الزمخشري : إما أن يكون أمر بتبليغ سلام الله إليهم وإما أن يكون أمر بأن يبدأهم بالسلام إكراماً لهم وتطييباً لقلوبهم ؛ انتهى .

وترديده إما وأما الأول قول ابن زيد ، والثاني قول عكرمة .

وقال ابن عطية : لفظه لفظ الخبر وهو في معنى الدعاء وهذا من المواضع التي جاز فيها الابتداء بالنكرة إذ قد تخصصت ؛ انتهى .

والتخصيص الذي يعنيه النحاة في النكرة التي يبتدأ بها هو أن يتخصص بالوصف أو العمل أو الإضافة ، وسلام ليس فيه شيء من هذه التخصيصات وقد رام بعض النحويين أن يجعل جواز الابتداء بالنكرة راجعاً إلى التخصيص والتعميم والذي يظهر من كلام ابن عطية أنه يعني بقوله إذ قد تخصصت أي استعملت ، في الدعاء فلم تبق النكرة على مطلق مدلولها الوصفي إذ قد استعملت يراد بها أحد ما تحتمله النكرة .

﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ أي أوجبها والباريء تعالى لا يجب عليه شيء عقلاً

إلا إذا أعلمنا أنه حتم بشيء فذلك الشيء واجب .

وقيل : ﴿ كتب ﴾ وعد والكتب هنا في اللوح المحفوظ .

وقيل : في كتاب غيره ، وفي صحيح البخاري : " إن الله تعالى كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي " وهذه الجملة مأمور بقولها تبشيراً لهم بسعة رحمة الله وتفريحاً لقلوبهم .

﴿ أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ﴾ السوء : قيل : الشرك .

وقيل المعاصي ، وتقدم تفسير عمل السوء بجهالة في قوله : ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ﴾ فأغنى عن إعادته .

﴿ ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم ﴾ أي من بعد عمل السوء ﴿ وأصلح ﴾ شرط استدامة الإصلاح في الشيء الذي تاب منه .

*(130/233)*

---

قرأ عاصم وابن عامر أنه بفتح الهمزتين فالأولى بدل من الرحمة والثانية خبر مبتدأ محذوف تقديره فأمره أنه أي أن الله غفور رحيم له ، ووهم النحاس فزعم أن قوله ﴿ فأنه ﴾ عطف على أنه وتكرير لها لطول الكلام وهذا كما ذكرناه وهم ، لأن ﴿ من ﴾ مبتدأ

سواء كان موصولاً أو شرطاً فإن كان موصولاً بقي بلا خبر وإن كان شرطاً بقي بلا جواب .

وقيل : إنه مبتدأ محذوف الخبر تقديره عليه أنه من عمل .

وقيل : فإنه بدل من أنه وليس بشيء لدخول الفاء فيه ولخلو ﴿ من ﴾ من خبر أو جواب .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والاخوان بكسر الهمزة فيهما الأولى على جهة التفسير للرحمة والثانية في موضع الخبر أو الجواب .

وقرأ نافع بفتح الأولى على الوجهين السابقين وكسر الثانية على وجهها أيضاً ، وقرأت فرقة بكسر الأولى وفتح الثانية حكاها الزهراوي عن الأعرج .

وحكى سيبويه عنه مثل قراءة نافع .

وقال الداني : قراءة الأعرج ضد قراءة نافع و ﴿ بجهالة ﴾ في موضع نصب على الحال أي وهو جاهل وما أحسن مساق هذا المقول أمره أولاً أن يقول للمؤمنين سلام عليكم فبدأ أولاً بالسلامة والأمن لمن آمن ثم خاطبهم ثانياً بوجوب الرحمة وأسند الكتابة إلى ربهم أي كتب الناظر لكم في مصالحكم والذي يربيكم ويملككم الرحمة فهذا تبشير بعموم الرحمة ، ثم أبدل منها شيئاً خاصاً وهو غفرانه ورحمته لمن تاب وأصلح ، ولو ذهب ذاهب إلى أن الرحمة مفعول من أجله وأن أنه في موضع نصب لكتب أي لأجل رحمته إياكم لم يبعد ولكن الظاهر أن الرحمة مفعول ﴿ كتب ﴾ واستدل المعتزلة بقوله : ﴿ كتب على نفسه الرحمة ﴾ أنه

لا يخلق الكفر في الكافر لأن الرحمة تنافي ذلك وتنافي تعذيبه أبد الآباد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(131/233)

---

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الذين يُؤْمِنُونَ بآياتنا ﴾ هم كما روي عن عكرمة الذين نهى صلى الله عليه وسلم عن طردهم ، والمراد بالآيات القرآنية أو الحجج مطلقاً ، وجوز في الباء أن تكون صلة الإيمان وأن تكون سببية أي يؤمنون بكل ما يجب الإيمان به سبب نزول الآيات أو النظر فيها والاستدلال بها وفي وصف أولئك الكرام بالإيمان بعد وصفهم بما وصفهم سبحانه به تنبيه على حيازتهم لفضيلتي العلم والعمل ، وتأخير هذا الوصف مع أنه كالمنشأ للوصف السابق لما أن مدار الوعد بالرحمة هو الإيمان كما أن مناط النهي عن الطرد فيما سبق هو المداومة على العبادة ، وتقدم في رواية ابن المنذر عن عكرمة ما يشير إلى أنها نزلت في عمر رضي الله تعالى عنه ، وروي ذلك أيضاً عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

وأمر صيغة الجمع على هذا ظاهر .

وأخرج عبد بن حميد ومسدد في "مسنده" وابن جرير وآخرون عن ماهان قال : أتى قوم النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنا أصبنا ذنوباً عظاماً فما رد عليه الصلاة والسلام عليهم شيئاً فانصرفوا فأنزل الله تعالى الآية فدعاهم صلى الله عليه وسلم فقرأها عليهم .

*(132/233)*

---

وروي عن أنس مثل ذلك ، وقيل : لم تنزل في قوم بأعيانهم بل هي محمولة على إطلاقها واختاره الإمام .

والمشهور الأول وسياق الآية يرجح ما روي عن ماهان .

﴿ فَقُلْ سلام عَلَيْكُمْ ﴾ أمر منه تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يبدأهم بالسلام في محل لا ابتداء به فيه إكراماً لهم بخصوصهم كما روى عن عكرمة واختاره الجبائي ، وقيل : أمره سبحانه أن يبلغهم تحيته عز شأنه وروي ذلك عن الحسن وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : إن المعنى إقبل عذرهم واعترافهم وبشرهم بالسلامة مما اعتذروا منه .

وعليه لا يكون السلام بمعنى التحية .

وهو أيضاً مبني على سبب النزول عنده رضي الله تعالى عنه ، واختار بعضهم أنه بهذا المعنى أيضاً على تقدير أن يراد بالموصول ما روي عن عكرمة فيكون الكلام أمراً له عليه

الصلاة والسلام أن يبشرهم بالسلام من كل مكروه بعد إنذار مقابليهم .

وقوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمة ﴾ أي أوجبها على ذاته المقدسة تفضلاً وإحساناً بالذات لا بتوسط شيء ( ما ) أصلاً وفيه احتمال آخر تقدم تبشير لهم بسعة رحمة الله تعالى .

ولم يعطف على جملة السلام مع أنه محكي بالقول أيضاً قيل لأنها دعائية إنشائية ، وقيل : إشارة إلى استقلال كل من مضموني الجملتين وهما السلامة من المكاره ونيل المطالب بالبشارة .

وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم إظهار للطف بهم وإشعار بعلة الحكم .

وتمام الكلام في الآية قد مر عن قريب .

وقوله تعالى : ﴿ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءا ﴾ بفتح الهمزة كما قرأ بذلك نافع وابن عامر وعاصم ويعقوب بدل من ﴿ الرحمة ﴾ كما قال أبو علي الفارسي وغيره .

وقيل : إنه مفعول ﴿ كتاب ﴾ و ﴿ الرحمة ﴾ مفعول له ، وقيل : إنه على تقدير اللام ، وجوز أبو البقاء أن يكون مبتدأ خبره محذوف أي عليه سبحانه أنه الخ ودل على ذلك ما قبله .

وقرأ الباقون ﴿ أَنَّهُ ﴾ بالكسر على الاستئناف النحوي أو البياني كأنه قيل : وما هذه الرحمة ؟ والضمير للشأن .

و( من ) موصولة أو شرطية وموضعها مبتدأ و ﴿ مِّنكُمْ ﴾ في موضع الحال من ضمير الفاعل .

وقوله سبحانه : ﴿ بِجَهَالَةٍ ﴾ حال أيضاً على الأظهر أي من عمل ذنباً وهو جاهل أي فاعل فعل الجهلة لأن من عمل ما يؤدي إلى الضرر في العاقبة وهو عالم بذلك أو ظان فهو من أهل الجهل والسفه لا من أهل الحكمة والتدبير أو جاهل بما يتعلق به من المكروه والمضرة . وعن الحسن كل من عمل معصية فهو جاهل ﴿ ثُمَّ تَابَ ﴾ عن ذلك ﴿ مِن بَعْدِهِ ﴾ أي العمل أو السوء ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ أي في توبته بأن أتى بشروطها من التدارك والعزم على عدم العود أبداً .

﴿ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي فشأنه سبحانه وأمره مبالغ في المغفرة والرحمة له .

فأن وما بعدها خبر مبتدأ محذوف ، والجملة خبر ﴿ مِنْ ﴾ أو جواب الشرط ، والخبر حينئذ على الخلاف ، وقدر بعضهم فله أنه الخ أو فعليه أنه الخ ، وحينئذ يجوز الرفع على الابتداء والرفع على الفاعلية ، وقيل : إن المنسبك في موضع نصب بفعل محذوف أي فليعلم أنه الخ ، وقيل : إن هذا تكرير لما تقدم لبعد العهد وقيل : بدل منه ، قال أبو البقاء :

وكلاهما ضعيف لوجهين الأول : أن البدل لا يصحبه حرف معنى إلا أن يجعل الفاء زائدة وهو ضعيف ، والثاني : أن ذلك يؤدي إلى أن لا يبقى لمن خبر ولا جواب على تقدير شرطيتها ، والتزام الحذف بعيد ، وفتح الهمزة هنا قراءة من فتح هناك سوى نافع فإنه كباقي القراء قرأ بالكسر .

وأجاز الزجاج كسر الأولى وفتح الثانية ، وهي قراءة الأعرج والزهري وأبي عمرو الداني ، ولم يطلع على ما قيل أبو شامة عليه الرحمة على ذلك فقال : إنه محتمل إعرابي وإن لم يقرأ به ، وليس كما قال .

*(134/233)*

---

ومن الناس من قال : إن هذه الآية تقوي مذهب المعتزلة حيث ذكر سبحانه في بيان سعة رحمته أن عمل السوء إذ قارن الجهل والتوبة والإصلاح فإنه يغفر ، ولذا قيل : إنها نزلت في عمر رضي الله تعالى عنه حيث قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو أجبتهم لما قالوا لعل الله تعالى يأتي بهم ولم يكن يعلم المضرة ثم إنه تاب وأصلح حتى أنه بكى وقال معتذراً : ما أردت إلا خيراً .

وأورد عليه أنه من المقرر أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فنزولها في حق عمر

رضي الله تعالى عنه لا يدفع الإشكال .

وتعقب بأن مراد المجيب أن اللفظ ليس عاماً وخطاب ﴿ مّنكُمْ ﴾ لمن كان في تلك المشاورة والعامل لذلك منهم عمر رضي الله تعالى عنه فلا إشكال .

وأنت تعلم أن بناء الجواب على هذه الرواية ليس من المتانة بمكان إذ للخصم أن يقول : لا نسلم تلك الرواية .

فلعل الأولى في الجواب أن ما ذكر في الآية إنما هو المغفرة الواجبة حسب وجوب الرحمة في صدر الآية .

ولا يلزم من تقييد ذلك بما تقدم تقييد مطلق المغفرة به .

فحينئذ يمكن أن يقال : إنه تعالى قد يغفر لمن لم يتب مثلاً إلا أنه سبحانه لم يكتب ذلك على نفسه جل شأنه فافهم فإنه دقيق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾

عطف على قوله ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربّهم ﴾ [ الأنعام : 52 ] وهو ارتقاء في إكرام الذين يدْعون ربَّهم بالغداة والعشي .

فهم المراد بقوله : ﴿ الذين يؤمنون بآياتنا ﴾ .

ومعنى ﴿ يؤمنون بآياتنا ﴾ أنَّهم يوقنون بأنّ الله قادر على أن ينزّل آيات جمَّة .

فهم يؤمنون بما نزّل من الآيات وبخاصّة آيات القرآن وهو من الآيات ، قال تعالى : ﴿ أو لم يكفهم أنَّا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾ [ العنكبوت : 51 ] .

*(135/233)*

---

وقوله : ﴿ فقل سلام عليكم ﴾ قيل : معناه حَيِّهم بتحيَّة الإسلام ، وهي كلمة ( سلام عليكم ) ، وقيل : أبلغهم السلام من الله تعالى تكرمة لهم لمضادّة طلب المشركين طردَهم .

وقد أكرمهم الله كرامتين الأولى أن يبدأهم النبي صلى الله عليه وسلم بالسلام حين دخولهم عليه وهي مزيَّة لهم ، لأنّ شأن السلام أن يبتدئه الداخل ، ثم يحتمل أنّ هذا حكم مستمرّ معهم كلّما أدخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحتمل أنّه للمرّة التي يبلّغهم فيها هذه البشارة ، فنزّل هو منزلة القادم عليهم لأنَّه زفّ إليهم هذه البشرى .

والكرامةُ الثانية هي بشارتهم برضى الله عنهم بأنّ غفر لهم ما يعملون من سوء إذا تابوا من بعده وأصلحوا .

وهذا الخبر وإن كان يعمّ المسلمين كلّهم فلعلّه لم يكن معلوماً ، فكانت البشارة به في وجوه المؤمنين يومئذٍ تكرمة لهم ليكونوا ميموني النقيبة على بقية إخوانهم والذين يجيئون من

بعدهم .

والسلام : الأمان ، كلمة قالتها العرب عند لقاء المرء بغيره دلالة على أنَّه مسالم لا مُحارب لأنّ العرب كانت بينهم دماء وِترات وكانوا يثأرون لأنفسهم ولو بغير المعتدي من قبيلته ، فكان الرجل إذا لقي من لا يعرفه لا يأمن أن يكون بينه وبين قبيلته إحَن وحفائظ فيؤمِّن أحدهما الآخر بقوله : السلام عليكم ، أو سلام ، أو نحو ذلك .

وقد حكاها الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام ثم شاع هذا اللفظ فصار مستعملاً في التكرمة .

ومصدر سلَّم التسليم .

والسلام اسم مصدر ، وهو يأتي في الاستعمال منكّراً مرفوعاً ومنصوباً ؛ ومعرّفاً باللام مرفوعاً لا غير .

فأمَّا تنكيره مع الرفع كما في هذه الآية ، فهو على اعتباره اسماً بمعنى الأمان ، وساغ الابتداء به لأنّ المقصود النوعية لا فرد معيّن .

وإنّما لم يقدّم الخبر لاهتمام القادم بإدخال الطمأنينة في نفس المقدوم عليه ، أنَّه طارق خير لا طارق شرّ .

فهو من التقديم لضرب من التفاؤل .

وأمَّا تعريفه مع الرفع فلدخول لام تعريف الجنس عليه .

وكلمة ( على ) في الحالتين للدلالة على تمكّن التلبّس بالأمان ، أي الأمان مستقرّ منكم متلبِّس بكم ، أي لا تخف .

وأمّا إن نصبوا مع التنكير فعلى اعتباره كمصدر سلم ، فهو مفعول مطلق أتى بدلاً من فعله . تقديره : سلّمت سلاماً ، فلذلك لا يؤتى معه بـ ( على ) .

ثم إنَّهم يرفعونه أيضاً على هذا الاعتبار فلا يأتون معه بـ ( على ) لقصد الدلالة على الدوام والثبات بالجملة الاسمية بالرفع ، لأنَّه يقطع عنه اعتبار البدلية عن الفعل ولذلك يتعيّن تقدير مبتدأ ، أي أمركم سلام ، على حدّ ﴿ فصبر جميل ﴾ [ يوسف : 18 ] .

والرفع أقوى ، ولذلك قيل : إنّ إبراهيم ردّ تحيَّة أحسن من تحية الملائكة ، كما حكي بقوله تعالى : ﴿ قالوا سلاماً قال سلام ﴾ [ هود : 69 ] .

وقد ورد في ردّ السلام أن يكون بمثل كلمة السلام الأولى ، كقوله تعالى : ﴿ إلاّ قيلاً سلاماً سلاماً ﴾ [ الواقعة : 26 ] وورد بالتعريف والتنكير فينبغي جعل الردّ أحسن دلالة .

فأمَّا التعريف والتنكير فهما سواء لأنّ التعريف تعريف الجنس .

ولذلك جاء في القرآن ذكر عيسى ﴿ وسلام عليه يوم ولد ﴾ [ مريم : 15 ] وجاء أنَّه قال : ﴿ والسلامُ عليَّ يوم وُلدت ﴾ [ مريم : 33 ] .

وجملة ﴿ كتب ربّكم على نفسه الرحمة ﴾ مستأنفة استئنافاً ابتدائياً وهي أول المقصود من المقول ، وأمَّا السلام فمقدّمة للكلام .

وجوّز بعضهم أن تكون كلاماً ثانياً .

وتقدّم تفسير نظيره في قوله تعالى : ﴿ كتب على نفسه الرحمة ليجمعنّكم إلى يوم القيامة ﴾ في هذه السورة [ 12 ] .

فقوله هنا كتب ربُّكم على نفسه الرحمة ﴾ تمهيد لقوله : ﴿ أَنَّه مَنْ عَمِلَ منكم سوءاً بجهالة ﴾ الخ .

*(137/233)*

---

وقوله : ﴿ أَنَّه من عمل منكم سوءاً بجهالة ﴾ قرأه نافع ، وابن عامر ، وعاصم ، ويعقوب بفتح الهمزة على أَنَّه بدل من ﴿ الرحمة ﴾ بدلُ اشتمال ، لأنّ الرحمة العامَّة تشتمل على غفران ذنب من عمل ذنباً ثم تاب وأصلح .

وقرأه الباقون بكسر الهمزة على أن يكون استئنافاً بيانياً لجواب سؤال متوقّع عن مَبلغ الرحمة .

( ومَنْ ) شرطية ، وهي أدلّ على التعميم من الموصولة .

والباء في قوله : ﴿ بجهالة ﴾ للملابسة ، أي ملتبساً بجهالة .

والمجرور في موضع الحال من ضمير ﴿ عَمل ﴾ .

والجهالة تطلق على انتفاء العلم بشيء مَّا .

وتطلق على ما يقابل الحلم ، وقد تقدّم في قوله تعالى : ﴿ إنَّما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ﴾ في سورة [ النساء : 17 ] .

والمناسب هنا هو المعنى الثاني ، أي من عمل سوءاً عن حماقة من نفسه وسفاهة ، لأنّ المؤمن لا يأتي السيّئات إلاّ عن غلبة هواه رُشدَه ونُهاه .

وهذا الوجه هو المناسب لتحقيق معنى الرحمة .

وأمَّا حمل الجهالة على معنى عدم العلم بناء على أنّ الجاهل بالذنب غير مؤاخذ ، فلا قوة لتفريع قوله : ثم تاب من بعده وأصلح ﴾ عليه ، إلاّ إذا أريد ثم تفطَّن إلى أنّه عمل سوءاً .

والضمير في قوله : ﴿ مِنْ بعده ﴾ عائد إلى ﴿ سوءاً ﴾ أي بعد السوء ، أي بعد عمله .

ولك أن تجعله عائداً إلى المصدر المضمون في ( عَمِلَ ) مثل ﴿ اعْدلُوا هُو أقرب للتقوى ﴾ [ المائدة : 8 ] .

ومعنى ﴿ أصلح ﴾ صيّر نفسه صالحة ، أو أصلح عمله بعد أن أساء .

وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإنّ الله يتوب عليه ﴾ في سورة [ المائدة : 39 ] .

وعند قوله : ﴿ إلاّ الذين تابوا وأصلحوا وبيّنُوا ﴾ في سورة [ البقرة : 160 ] .

وجملة : فإنَّه غفور رحيم ﴾ دليل جواب الشرط ، أي هو شديد المغفرة والرحمة .

وهذا كناية عن المغفرة لهذا التائب المصلح .

وقرأه نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو جعفر ، وخلف بكسر همزة ﴿ فإنَّه غفور رحيم ﴾ على أنّ الجملة موكَّدة بـ ﴿ إنّ ﴾ فيعلم أنّ المراد أنّ الله قد غفر لمن تاب لأنَّه كثير المغفرة والرحمة .

وقرأه ابن عامر ، وعاصم ، ويعقوب ﴿ فأنّه ﴾ بفتح الهمزة على أنَّها ( أنّ ) المفتوحة أخت ( إنّ ) ، فيكون ما بعدها مؤوّلاً بمصدر .

والتقدير : فغفرانه ورحمته .

وهذا جزء جملة يلزمه تقدير خبر ، أي له ، أي ثابت لمن عمل سوءاً ثم تاب . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

*(138/233)*

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾

لقد كان طلب الطرد لهؤلاء المستضعفين فيه إهاجة لكرامتهم ولمنزلتهم ولأنهم دون الأثرياء ووجهاء القوم ، فيطمئنهم الحق بالسلام منه في الدنيا فيأمر رسوله : ﴿ فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ . ونفهم من السلام أنه الخلو من الآفات النفسية والآفات الجسدية ، فكأن الحق سبحانه أراد ان يعوضهم بالسلام القادم من الله ﴿ فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمة ﴾ ونرى كلمة : " الرحمة " تتردد كثيراً في القرآن الكريم ، فها هوذا الحق يقول في موقع آخر : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظالمين إِلَّا خَسَاراً ﴾ [ الإسراء : 82 ] .

ما الفارق إذن بين الشفاء والرحمة ؟ الرحمة : لا يبتلي الله الإنسان بمرض ، إنها الوقاية ، أما الشفاء فهو أن يزيل الحق أي مرض أصاب الإنسان . وهذا هو البرء بعد العلاج .

إذن ففي القرآن شفاء ورحمة ، أي وقاية وعلاج . والذي يلتزم بمنهج القرآن لا تصيبه الداءات الاجتماعية والنفسية أبداً ، والذي تغفل نفسه وتشرد منه يصاب بالداء الاجتماعي والنفسي ، فإن عاد إلى منهج القرآن فهو يُشفى من أي داء . وحين يأمر سبحانه رسوله أن يقول لهؤلاء الذين أهيجوا بطلب طردهم على الرغم من إيمانهم برسالة رسول الله : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمة ﴾ فهذا يعني أن ما حدث لهم

في هذا الأمر هو آخر ابتلاءاتهم ، وقد أخذوا بهذه الإهاجة سلاما دائما ، وما دام الله قد كتب على نفسه الرحمة فكأنه وقاهم مما يصيب به غيرهم .

*(139/233)*

---

وإذا سمعت قول الله : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمة ﴾ فالكتابة تدل على التسجيل ، ولا أحد يوجب على الله شيئاً لأنه خالق الكون ، وله في الكون طلاقة المشيئة ، فلا أحد يكتب عليه شيئاً ليلزمه به ، ولكنه سبحانه هو الذي أوجب على نفسه الرحمة . ونأخذ كلمة " نفسه " في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ، ذلك أن النفس عند البشر هي الجسم والدم والحركة والحياة ، ولكن ماذا عندما تأتي كلمة " النفس " منسوبة إلى الله ؟ المراد – إذن – هو الذات الإلهية . وإن لم تأخذ مراد الكلمة بهذا المعنى فأنت تدخل إلى مخالفات كثيرة وقانا الله وإياك شرورها .

وأؤكد هذا المعنى ليستقر في ذهن كل مؤمن ، أن النفس بالنسبة للكائن الحي غيرها بالنسبة لله ، ولا بد أن نأخذ أي شيء منسوب إلى الله في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ؛ لأن النفس بالنسبة للكائن الحي عبارة عن امتزاج الروح بالمادة ، والمادة مكونة من أبعاض . وإن لم تأخذ المراد من نفس الله على ضوء ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ، فأنت – والعياذ بالله

- تنفي عن الحق " الأحدية " .

ونعرف أن للحق سبحانه وتعالى " وصفين " يتحدان في المادة وفي الحروف : الأول هو " واحد " .

*(140/233)*

---

والآخر هو " أحد " . والسطحيون في الفهم يظنون أن " واحداً " معناها " أحد " . ونقول : لا ، إن " واحداً " لها مدلول ، و" أحدًا " لها مدلول آخر . فعندما نقول : " إن الله واحد " أي لا يوجد فرد ثان من نوعه فليس له مثيل ولا شبيه ولا نظير . وعندما نقول : " إن الله أحد " أي أنه لا يتكون من أبعاض يحتاج بعضها إلى البعض الآخر لتكوين الكل ، لأن الشيء قد يكون واحداً وليس أحدًا . ولذلك نؤكد الفارق بين : " واحد " و" أحد " ، وحتى يعرفه كل مؤمن جيداً فهو - سبحانه - واحد لا يوجد فرد ثان يشاركه في وحدانيته ، فهو واحد لا شريك له ، وهو أحد جل وعلا أي ليس له أبعاض يحتاج بعضها إلى بعض .

وسبق أن أوضحنا أن هناك شيئًا اسمه : " كل " وشيئًا آخر اسمه " كلي " . والكل هو المكون من أجزاء ، كل جزء منها لا يؤدي الحقيقة ، وإنما لا يُؤدي الكل إلا بضميمة الأجزاء بعضها إلى بعض .

ومثال ذلك الكرسي : إنه مكون من خشب ومسامير وغراء ، فلا يقال للخشب كرسي ، ولا يقال للمسامير كرسي ، ولا يقال للغراء كرسي . ولكن يقال للشيء المصنوع من كل هذه الأشياء على هيئة محددة : إنه كرسي . إذن ف " الكل " له أجزاء تجتمع لتكوّنه . والكلّي يمكن أن تطلق على الإنسان ، ولكن في الجنس البشري هناك أفراد كثيرون له . وعلى ذلك فالحق سبحانه وتعالى ليس " كُلاًّ " أي لا أجزاء له لأنه أحد ، وليس " كلياً " لأنه لا شيء مثله ؛ فسبحانه وتعالى واحد أحد . ولهذا نفهم جميعاً أن كل شيء منسوب إلى الله ينبغي أن يكون في إطار : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ .

*(141/233)*

---

ونحن لا نفهم مراد كلمة " النفس " بالنسبة لله كما نفهمها بالنسبة للبشر ؛ لذلك فنفس الله ليست كنفس البشر ؛ لأن الله غني لا يحتاج إلى غيره ، وهو – سبحانه – ليس مكوناً من أجزاء ، فهو سبحانه له كل الكمال والجلال في وحدانيته وأحديته وفي سائر صفاته وأفعاله . وحين يقول سبحانه : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ ﴾ . قد يتساءل إنسان : وما مدلول الرحمة ؟

وتأتي الإجابة في قوله الحق : ﴿ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سواءا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ

فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . والحق حينما أنزل منهجاً من السماء فالمنهج يضم نصوصاً للتجريم كنصوص عقاب الزاني أو اللص ، وغير ذلك ، ولا يمكن أن تأتي عقوبة إلا إذا جاءت بعد تجريم ، مثال ذلك الرشوة والنميمة وكل مخالفة للمنهج ، فلا عقاب إلا بجريمة ، ولا جريمة إلا بنص . والحق الذي خلق الخلق يعلم أن بعضا من خلقه يكون من ضعاف النفوس ، وقد تغلب إنساناً نفسُه فيرتكب ذنباً أو معصية ، والمثال على ذلك قول الحق :

﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أَيْدِيَهُمَا جَزَآءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ الله والله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [ المائدة : 38 ] .

هذا هو عقاب السارق والسارقة .

وكذلك يقول الحق عن الزاني والزانية : ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ الله إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ المؤمنين ﴾ [ النور : 2 ] .

(142/233)

---

ما معنى إنزال مثل هذه النصوص ؟ معنى إنزال هذه النصوص أن الحق سبحانه وتعالى يعلم أن الإنسان قد يضعف في بعض مطلوبات الدين فيقع في معصية ، ولا بد أن يوجد عقاب

عليها . واحترم الحق بذلك تكوين الإنسان عندما منحه الاختيار ، فوضع الثواب والعقاب . وكما وضع الحق النص على الجرائم وعقوبتها فهو سبحانه وتعالى قد فتح باب التوبة لخلقه ، حتى لا يكون الذي عصى الله مرة واحدة فاقداً للأمل ، حتى لا يشقى المجتمع بهؤلاء العصاة . وشرع الحق التوبة للخلق ليرحهم من شرور من ارتكبوا المعاصي ، وليرحم أيضاً أصحاب المعاصي ما داموا قد تابوا عنها . وقد يرحم الله بعض خلقه من المعاصي فيحفظهم منها .

وهو الحق القائل : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [ التوبة : 118 ]

.

سبحانه – إذن – يهدي إلى التوبة ويعفو ، وهو عظيم الرحمة بالعباد التوابين .

ومن ظواهر رحمة الله سبحانه : ﴿ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [ الأنعام : 54 ] .

والسوء هو الأمر المنهي عنه من الله . هل هناك من يعمل السوء بجهالة ؟ . بعضنا يفهم الجهالة فهماً سطحياً على أساس أنها " عدم العلم " ؛ لا . إنَّ الذي لا يعلم هو الأمي الخالي الذهن ، والجهالة غير الجهل ، فالجهل هو أن يعلم الإنسان حكماً ضد الواقع ، كأن يكون مؤمناً بعقيدة تخالف الواقع . ومعالجة الجهل تقتضي أن ننزع منه هذه العقيدة التي هي ضد الواقع ثم نقنعه بالعقيدة المطابقة للواقع .

والذي يسبب المتاعب للناس هم الجهلة ؛ لأن الجاهل يعتقد في قضية ويؤمن بها وهي تخالف الواقع . وعندما جاء العلماء عند هذا القول الحكيم : ﴿ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سواءا بِجَهَالَةٍ ﴾ . قالوا : إن الجهالة هي السفه والطيش ، والطيش يكون بعدم تدبر نتائج الفعل . والسفه ألا يقدّر الإنسان قيمة ما يفوته من ثواب وما يلحقه من عقاب . وقد يكون الإنسان مؤمناً ، لكنه يرتكب السوء لأنه لم يستحضر الثواب والعقاب ويرتكب من السوء ما يحقق له شهوة عاجلة دون التمعن في نتائج ذلك مستقبلاً ، ولو استحضر الثواب والعقاب لما فعل ذلك السوء .

ويمكن أن نفهم أيضاً الجهالة على أنها ارتكاب الأمر السيئ دون أن يبيت له الإنسان أو يخطط ، وذلك كأن يخطط إنسان السفر إلى باريس لطلب العلم ، وعندما وصل إلى هناك جاءت له امرأة في غرفته في الفندق وهي في كامل فتنتها وزينتها ، وألحت عليه لارتكاب الفحشاء ، فلم يقدر على نفسه .

هذا فعل للسوء بجهالة ؛ لأنه لم يخطط لذلك السوء ، وهو يندم من بعد ذلك ، ولا يحكي عن ذلك الفعل بفخر أبداً .

هناك فارق – إذن – بين هذا الإنسان وإنسان آخر بحث في عناوين بيوت اللذة في باريس قبل أن يسافر إليها ، إنه بذلك يخطط لفعل المنكر وارتكاب الفحشاء . ويصر على السوء ، ويتفاخر به ولا يندم على فعل ؛ هذا الصنف من البشر لا يغفر له الله إن استمر على هذا الحال حتى شارف الموت أو أدركه الموت ، ولذلك يقول الحق : ﴿ إِنَّمَا التوبة عَلَى الله لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السواء بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فأولئك يَتُوبُ الله عَلَيْهِمْ وَكَانَ الله عَلِيماً حَكِيماً ﴾ [ النساء : 17 ] .

*(144/233)*

---

لأن الحق سبحانه إنما يقبل توبة من ارتكب الذنب في حالة الحماقة والطيش ، ويقبلون على التوبة فوراً ، هؤلاء يقبل الحق توبتهم ، أما الذين لا يندمون على فعل السوء فيقول الحق عنهم : ﴿ وَلَيْسَتِ التوبة لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السيئات حتى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الموت قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآن وَلاَ الذين يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أولئك أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ [ النساء : 18 ] .

إن الذين لا يُقبلون على التوبة من فور ارتكاب الذنب وينتظر الإنسان منهم مجيء الموت ليتوب قبله أي وهو في حالة الغرغرة – وهي تردد الروح في الحلق عند الموت – هؤلاء لا تقبل لهم توبة ، وكذلك الذين يموتون على الكفر – والعياذ بالله – وقد أعد الله لكليهما

عذاباً أليماً .

والحق سبحانه قد وضح لنا قبل ذلك فقال : ﴿ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سواءا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [ الأنعام : 54 ] .

إذن فالتوبة يجب أن يتبعها إصلاح وصلاح ؛ ذلك أن الحسنات يذهبن السيئات ، والحق سبحانه غفور لا يعاقب على ذنب تاب عنه العبد ، ورحيم لأنه يثيب على الفعل الحسن ، بل إنه يثيب الإنسان الذي يكرر ندمه على فعل سيء ويكتب له عن ذلك حسنة . بل إنه - بسعة رحمته - يبدل سيئاته حسنات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(145/233)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

" إذا " منصوب بجوابه ، أي فقل ، سلامٌ عليكم وَقْتَ مجيئهم أي : أوقع هذا القول كله في وقت مجيئهم إليك ، وهذا معنى واضح .

وقال أبو البقاء : " والعامل في " إذا " معنى الجواب ، أي : إذا جاءوك سَلَّمْ عليهم " ولا حَاجَة تدعو إلى ذلك مع فوات قوة المعنى ؛ لأن كونه يُبَلِّغُهُمُ السَّلام والإخبار بأنه كتب على

نفسه الرَّحْمَةَ ، وأنه من عَمِلَ سُوءاً بجَهَالَةٍ غفر له ما يقوم مقامه السَّلامُ فقط ، وتقديره يفضي إلى ذلك .

وقوله : " سلامٌ " مبتدأ ، وجاء الابتداء به وإن كان نَكِرَةً ؛ لأنه دُعَاؤٌ ، والدُّعَاءُ من المُسَوِّغَاتِ .

وقال أبو البقاء : " لما فيه من معنى الفِعْلِ " وهذا ليس من مذهب جمهور البصريين ، وإنما هو شيء نُقِلَ عن الأخفش : أنه إذا كانت النكرة في معنى الفِعْل جاز الابتداء بها ورفعها الفاعل ، وذلك نحو : " قائم أبواك " ونقل ابن مالك أن سيبويه أوْمَأ إلى جوازه ، واستدلال الأخفش بقوله : [ الطويل ]

2182 - خَبِيرٌ بَنُو لِهْبٍ فَلا تَكُ مُلْغِياً . . .

مَقَالَةَ لِهْبِيٍّ إذَا الطَّيْرُ مَرَّتِ

ولا دليل فيه لأنَّ " فعيلاً " يقع بلفظ واحدٍ للمفرد وغيره ، ف " خبير " خَبَرٌ مقدَّمٌ

واسْتَدَلَّ له أيضاً بقول الآخر : [ الوافر ]

2183 - فَخَبِيْرٌ نَحْنُ عِنْدَ النَّاسِ مِنْكُمْ . . .

إذَا الدَّاعِي المُثَوِّبُ قَالَ : يَا لاَ

ف " خير " مبتدأ ، و " نحن " [ فاعل ] سَدَّ مَسَدَّ الخبر .

قيل : لئلا يَلْزَمُ الفَصْلُ بين " أفعل " و " مِنْ " بأجنبي بخلاف جَعْلِه فاعلاً ، فإن الفاعل كالخبر بخلاف المبتدأ .

و " عليكم " خَبَرُهُ ، و " سلامٌ عليكم " أبلغ من " سَلاَماً عليكم " بالنصب ، وقد تقررَّ هذا في أوَّلِ " الفاتحة " عند قراءة " الحَمْدُ " و " الحَمْدَ " .

وقوله : " كَتَبَ رَبُّكُم " في مَحَلِّ نصب بالقولِ ، لأنه كالتفسير لقوله : " سلامٌ عليكم " .

فصل فيما يطلق عليه لفظ " السلام "

قال المبرِّد : السَّلامُ في اللغة على أربعة أشياء :

فمنها سلمت سلاماً ، وهو معنى الدعاء .

ومنها أنه أسْمٌ من أسْمَاء اللَّهِ تعالى .

ومنها الإسْلام .

ومنها الشَّجَرُ العظيم أحْسَبُهُ مُسَمَّى بذلك لسلامتِهِ من الآفَاتِ .

ومنها أيضاً اسم للحِجَارَةِ الصَّلْبَةِ ، وذلك أيضاً لسَلامتِهَا من الرَّخَاوَةِ .

ثم قال الزجَّاج : " سلام عليكم " ها هنا يحتمل أن يكون له تأويلان :

أحدهما : أن يكون مَصْدر : سَلَّمت تسليماً وسلاماً ، مثل " السَّراح " من " التَّسْرِيح " ،

ومعنى سلمت عليه سلاماً : دعوت بأن يَسْلَمَ من الآفات في دينِهِ ونَفْسِهِ ، والسَّلامُ بمعنى التَّسْلِيم .

والثاني : أن يكون " السَّلامُ " جَمْعَ " السلامة " ، فمعنى قولك : السَّلامُ عليكم : السَّلامةُ عليكم .

وقال ابن الأنباري : قال قومٌ : السلامُ هو الله تعالى ، فمعنى السَّلامُ عليكم [ يعني الله عليكم ] أي : على حفظكم ، وهذا بَعِيدٌ في هذه الآية لتنكير السَّلامِ ، ولو كان مُعَرَّفاً لصحَّ هذا الوَجْهُ .

*(147/233)*

---

قوله : " أَنَّهُ ، فأَنَّهُ " قرأ ابن عامر ، وعاصم بالفتح فيهما ، وابن كثير وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي بالكَسْرِ فيهما ، ونافعٌ بفتح الأولى ، وكسر الثانية ، وهذه القراءاتُ الثلاثُ في المُتَواتِرِ ، والأعرج بكسر الأولى وفتح الثانية عكس قراءة نافع ، هذه رواية الزّهرواوي عنه ، وكذا الدَّاني .

وأمَّا سيبويه فروى قراءته كقراءة نافعٍ ، فيحتمل أن يكون عنه رَوِيَّتَانِ .

فأمَّا القرَاءةُ الأولَى فَفَتْحُ الأولَى فيها من أربعة أوجه :

أحدها : أنها بدلٌ من " الرحمة " بدل شيء من شيء ، والتقدير : " كتب على نفسه أنه من عمل " إلى آخره ، فإنَّ نفس هذه الجمل المتضمنةِ للإخبار بذلك رَحْمَة .

والثاني : أنها في مَحَلِّ رَفْعٍ على أنها مبتدأ ، والخبر محذوف ، أي : " عليه أنه من عمل " إلى آخره .

والثالث : أنها [ فتحت ] على تقدير حَذْفِ حرف الجرَّ ، والتقدير : " لأنه من عمل " ، فلما حُذِفت " اللاَّمُ " جرى في مَحَلِّهَا الخلاف المشهور .

الرابع : أنها مَفْعُولٌ بـ " كتب " ، و " الرحمة " مفعول من أجلِهِ ، أي : أنه كتبَ أَنَّهُ من عملَ لأجل رحمته إياكم .

قال أبو حيَّان : وينبغي ألاَّ يجوز ؛ لأنَّ فيه تَهْيِئَةَ العامل للعمل ، وقطعه عنه .

وأمَّا فَتْحُ الثانية فمن خمسة أوجه :

أحدها : أنها في مَحَلِّ رفع على أنها مبتدأ ، والخبر محذوف ، أي : فَغُفْرَانُهُ ورَحْمَتُهُ حاصلان أو كائنان ، أو فعليه غفرانه ورحمته .

وقد أجمع القُرَّاءُ على فتح ما بعد " فاء " الجزاء في قوله : ﴿ أَلَمْ يعلموا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ الله وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ [ التوبة : 63 ] ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ ﴾ [ الحج : 4 ] كما أجمعو على كسرها في قوله : ﴿ وَمَن يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ [ الجن : 23 ] .

الثاني : أنها في محلِّ رفعٍ على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أي : فأمره أو شأنه أنه غفورٌ رحيم .

الثالث : أنها تكرير للأولى كُرِّرت لَمَّا طال الكلامُ وعطفت عليها بالفاء ، وهذا مَنْقُولٌ على أبي جَعْفَرٍ النحاس ، وهذا وهمٌ فاحشٌ ؛ لأنه يَلْزَمُ منه أحدُ مَحْذُورَيْنَ : إمَّا بقاءُ مبتدأ بلا خبر ، أو شرطٍ بلا جواب .

وبيانُ ذلك أنَّ " مَنْ " في قوله : " أنه مَنْ عَمِلَ " لا تخلو : إمَّا أن تكون مَوْصُولَةً أو شرطية ، وعلى كلا التقديرين ، فهي في محلِّ رفع بالابتداء ، فلو جعلنا " أن " الثانية مَعْطُوفَةً على الأولى لَزِمَ عدمُ خبر المبتدأ ، وجواب الشرط ، وهو لا يجوز .

وقد ذكر هذا الاعتراض ، وأجاب عنه الشيخ شهابُ الدين أبو شامة فقال : " ومنهم مَنْ جعل الثانية تكريراً للأولى لأجل طولِ الكلام على حَدِّ قوله : ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُّخْرَجُونَ ﴾ [ المؤمنون : 35 ] ودخلت " الفاء " في " فأنه غفور " على حدِّ دخولها في ﴿ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ ﴾ [ آل عمران : 188 ] على قول من جعلهُ تكريراً لقوله : ﴿ لاَ تَحْسَبَنَّ الذين يَفْرَحُونَ ﴾ [ آل عمران : 188 ] إلاَّ أنه هذا

ليس مثل " أَيعدكُمْ " ؛ لأن هذه لا شرط فيها ، وهذه فيها شَرْطٌ ، فيبقى بغير جواب .

فقيل : الجواب محذوف لدلالة الكلام عليه تقديره : غفر لهم " انتهى .

وفيه بُعْدٌ ، وسيأتي هذا الجواب أيضاً في القراءة الثانية منقولاً عن أبي البقاءِ ، وكان يبغي أن يجيب به هنا ، لكنه لم يفعل ولم يظهر فَرْقٌ في ذلك .

الرابع : أنها بدلٌ من الأولى ، وهو قول الفرَّاء والزَّجَّاج وهذا مَرْدُودٌ بشيئين :

أحدهما : أنَّ البدل لا يدخل فيه حَرْفُ عطفٍ ، وهذا مقترن بحرف العطف ، فامتنع أن يكون بدلاً .

فإن قيل : نجعل " الفاء " زائدة ، فالجوابُ أن زيادتها غير زائدة ، وهو شيء قال به الأخفش .

*(149/233)*

---

وعلى تقدير التَّسْليم فلا يجُوزُ ذلك من وَجْهٍ آخر ، وهو خُلُوُّ المبتدأ ، أو الشرط عن خبرٍ أو جواب .

والثاني من الشيئين : خُلُوُّ المبتدأ ، أو الشرط عن الخبر ، أو الجواب كما تقدَّم تقريره ، فإن قيل : نجعل الجواب مَحْذُوفاً - كما تقدَّم نقلهُ عن أبي شامة - قيل : هذا بعيد عن الفَهْمِ .

الخامس : أنها مرفوعة بالفاعليَّةِ ، تقديره : " فاسْتَقَرَّ أَنَّهُ غفورٌ رحيمٌ " أي : اسْتَقَرَّ وثبت غُفْرَانُهُ ، ويجوز أن يُقدَّر في هذا الوجه جَارّاً رافعاً لهذا الفاعل عند الأخْفَشِ تقديره : فعليه أنه غفورٌ ، لأنه يرفع به وإن لم يعتمد ، وقد تقدَّم تحقيقه مِرَاراً .

وأمَّا القراءة الثانية : فكسر الأولى من ثلاثة أوجه :

أحدها : أنها مُسْتَأْنَفَةٌ ، وأن الكلام تامٌّ قبلها ، وجيء بها وبما بعدها كالتَّفْسير لقوله : " كتبَ ربُّكُم على نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ " .

والثاني : أنَّها كُسِرت بعد قَوْلٍ مُقدَّرٍ ، أي : قال الله ذلك ، وهذا في المعنى كالذي قبله .

والثالث : أنه أجري "كتب " مُجْرَى " قال " ، فَكُسِرَتْ بعده كما تُكْسَرُ بعد القَوْلِ الصريح ، وهذا لا يَتَمَشَّى على أصول البصريين .

وأمَّا كَسْرُ الثانية فمن وجهين :

أحدهما : أنها على الاسْتِئْنَافِ بمعنى أنها في صَدْرِ جملةٍ وقعتْ خبراً لـ " من " الموصُولةِ ، أو جواباً لها إن كانت شرطاً .

والثاني : أنها عُطِفَتْ على الأولى ، وتكريرٌ لها ، ويعترض على هذا بأنه يَلْزَمُ بقاءُ المبتدأ بلا خبرٍ ، والشرط بلا جزاءٍ ، كما تقدَّم ذلك في المفتُوحَتَيْنِ .

وأجاب أبو البقاء عن ذلك بأن خبر " من " محذوف دلَّ عليه الكلامُ ، وقد تقدَّم أنه كان ينبغي أن يكون العائدُ مَحْذُوفاً ، أي : فإنه غفورٌ له .

قال شهاب الدين : قوله : " ويجوز " ليس بجيِّدٍ ، بل كان ينبغي أن يقول : ويجب ؛ لأنه لا بُدَّ من ضميرٍ عائدٍ على المبتدأ من الجملة الخبرية ، أو ما يقوم مُقَامَهُ إن ليم كن نفس المبتدأ .

وأمَّا القراءةُ الثالثة : فيُؤخَذُ فتْحُ الأولى وكَسْرُ الثانية مما تقدَّم من كسرها وفتحها بما يليق من ذلك نفس المبتدأ .

وأمَّا القراءة الرابعة : فكذلك .

وقال أبو شامة : " وأجاز الزَّجَّاج كَسْرَ الأولى ، وفَتْحَ الثانية ، وإن لم يقرأ به " .

قال شهاب الدين : وقد قدَّمْتُ أنَّ هذه قراءة الأعرج وأن الزهراوي وأبا عمرو الدَّاني نقلاها عنه ، فكأن الشَّيْخَ لم يَطَّلِعُ عليها .

وتقدَّم أن سيبويه لم يَرْوِ عن الأعْرَجِ إلاَّ كقارءاة نافعٍ فهذا مما يصلح أن يكون عُذْراً للزَّجَّاج ، وأمَّا أبو شَامَةَ فإنه مُتَأَخرٌ ، فعدم اطِّلاعِهِ عَجيبٌ .

و " الهاء " في " أنه " ضمير الأمر والقِصَّةِ ، و " مَنْ " يجوز أن تكون شرطيَّة ، وأن تكون موصولة ، وعلى كل تقدير فهي مُبْتَدَأَةٌ ، و " الفاءُ " ما بعدها في محلِّ جَزْمٍ جواباً إن كانت شرطاً ، وإلاَّ ففي محلِّ رفعٍ خبراً إن كانت موصُولة ، والعائدُ محذوفٌ ، أي : غفورٌ له .

و" الهاء " في " بعده " يجوز أن تعود على " السُّوء " ، وأن تعود على العمل المفهوم من الفعل كقوله : ﴿ اعدلوا هُوَ أَقْرَبُ ﴾ [ المائدة : 8 ] والأوَّل أوْلَى ؛ لأنه أصْرَحُ ، و" منكم " مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ إذ هو حالٌ من فاعل " عمل " ، ويجوز أن تكون " مِنْ " للْبَيَانِ ، فيعمل فيها " أعني " مقدراً .

وقوله : " بجهالةٍ " فيه وجهان :

أحدهما : أنه مُتَعلِّق بـ " عمل " على أن " الباء " للسَّبَبِيَّة ، أي : عمله بسبب الجَهْلِ ، وعبَّر أبو البقاء في هذا الوجه عن ذلك بالمفعول به وليس بواضحٍ .

*(151/233)*

---

والثاني : وهو الظَّاهِرُ أنه للحالِ ، أي : عمله مُصَاحباً للجَهَالَةِ ، " ومِنْ " في " مِنْ بعده " لابتداء الغاية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 172 ـ 179 ﴾ .

باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ .

أحلَّه محل الأكابر والسَّادة ، فإن السلام من شأن الجائي إلا في صفة الأكابر ؛ فإن الجائي أو الآتي يسكت لهيبة المأتي حتى يبتدئ ذلك المقصودُ بالسؤال ، فعند ذلك يجيب الآتي .

ويقال إذا قاسوا تعبَ المجيء فأزِلْ عنهم المشقةَ بأن قُلْ : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ .

ويقال السلام هو السلامة أي فَقُلْ لهم سلام عليكم ؛ سَلِمْتُمْ في الحال عن الفُرقة وفي المآل عن الحُرْقة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ .

إنْ وَكَلَ بك من كتب عليك الزلة فقد تولَّى بنفسه لك كتابة الرحمة .

ويقال كتب بمعنى حَكَمَ ، وإنه ما حكم إلا بما علم .

ويقال كتابته لك أزلية ، وكتابته عليك وقتية ، والوقتية لا تبْطِلُ الأزلية .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يعني مَنْ تعاطى شيئاً من أعمال الجُهَّال ثم سوَّف في الرجوع والأوبة قابلناه ، يعني مَن تعاطى شيئاً بحسن الإمهال وجميل الأفضال ، فإذا عاد بتوبة وحسرة أقبلنا عليه بِكُلِّ لطف وقبول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 477 ﴾

كلام نفيس للإمام ابن القيم فى السلام :

قال عليه الرحمة :

مسألة :

سلام عليكم ورحمة الله في هذا التسليم ثمانية وعشرون سؤالا : السؤال الأول: ما معنى السلام وما حقيقته السؤال الثاني : هل هو مصدر أو اسم السؤال الثالث : هل قول المسلم سلام عليكم خبر أو إنشاء السؤال الرابع: ما معنى السلام المطلوب عند التحية وإذا كان دعاء وطلبا فما الحكمة في طلبه عند التلاقي والمكاتبة دون غيره من المعاني السؤال الخامس : إذا كان من السلامة فمعلوم أن الفعل منها لا يتعدى ب على فلا يقال سلامة عليك وسلمت عليك بكسر اللام وإنما يقال سلام لك كما قال تعالى: ﴿ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ السؤال السادس : ما الحكمة في الابتداء في السلام مع كون الخبر جارا ومجرورا وقياس العربية تقديم الخبر في ذلك نحو في الدار رجل السؤال السابع : لم اختص المسلم بهذا النظم والراد بتقديم الجار والمجرور على السلام وهلا كان رده بتقديم السلام مطلقا كابتدائه السؤال الثامن : ما الحكمة في كون سلام المبتدئ بلفظ النكرة وسلام الراد عليه بلفظ المعرفة وكذلك ما الحكمة في ابتداء السلام في المكاتبة بالنكرة وفي آخرها بالمعرفة فيقال أولا سلام عليكم وفي انتهاء المكاتبة والسلام عليكم وهل هذا التعريف

لأجل العهد وتقدم السلام أم لحكمة سوى ذلك السؤال التاسع: ما الفائدة في دخول الواو العاطفة في السلام الآخر فيقول أولا: سلام عليكم وفي الانتهاء والسلام عليكم وعلى أي شيء هذا العطف السؤال العاشر: ما السر في نصب السلام في تسليم الملائكة ورفعه في تسليم إبراهيم وهل هو كما تقول النحاة: أن سلام إبراهيم أكمل لتضمنه جملة اسمية دالة على الثبوت وتضمن سلام الملائكة صيغة جملة فعلية دالة على

(153/233)

---

الحدوث أم لسر غير ذلك السؤال الحادي عشر: ما السر في نصب السلام من قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً ﴾ ورفعه من قوله: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ وما الفرق بين الموضعين السؤال الثاني عشر: ما الحكمة في تسليم الله على أنبيائه ورسله والسلام إنما هو طلب السلامة للمسلم عليه فكيف يتصور هذا المعنى في حق الله وهذا من أهم الأسئلة وأحسنها السؤال الثالث عشر: إذا ظهرت حكمة سلامه تعالى عليهم فما الحكمة في كونه سلم عليهم بلفظ النكرة وشرع لعباده أن يسلموا على رسوله بلفظ المعرفة فيقولون السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته وكذلك سلامهم على أنفسهم وعلى عباد الله الصالحين

السؤال الرابع عشر : ما السر في تسليم الله على يحيى بلفظ النكرة في قوله: ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ ﴾ وتسليم المسيح على نفسه بلفظ المعرفة بقوله: ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ ﴾ وأي السلامين أتم وأعم السؤال الخامس عشر : ما الحكمة في تقييد هذين السلامين بهذه الأيام الثلاثة ﴿ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ خاصة مع أن السلام مطلوب في جميع الأوقات فلو أتى به مطلقا أما كان أعم فإن هذا التقييد خص السلام بهذه الأيام خاصة السؤال السادس عشر: ما الحكمة في تسليم النبي صلى الله عليه وسلم على من اتبع الهدى في كتاب هرقل بلفظ النكرة وتسليم موسى على من اتبع الهدى بلفظ المعرفة كما جاء في القرآن وهلا كان سلام النبي صلى الله عليه وسلم بلفظ المعرفة ليطابق القرآن وما الفرق بينهما السؤال السابع عشر: قوله تعالى: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾ هل هذا سلام من الله فيكون الكلام قد تضمن جملتين طلبية وهي الأمر بقوله: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ وخبرية وهي سلامة تعالى على عباده وعلي هذا

*(154/233)*

---

فيكون من باب عطف الخبر على الطلب أو هو أمر من الله بالسلام عليهم وعلى هذا فيكون قد أمر بشيئين أحدهما : قول الحمد لله والثاني: قول سلام على عباده الذين

اصطفى ويكون كلاهما معمولا لفعل القول وأي المعنيين أليق بالآية السؤال الثامن عشر :

روى أبو داود في سننه من حديث

(155/233)

---

أبي جري الهجيمي قال: "أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: عليك السلام يا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: لا تقل عليك السلام فإن عليك السلام تحية الموتى" صحيح قال الترمذي حديث صحيح وقد صح عنه في السلام على الأموات فعلا وأمرا "السلام عليكم دار قوم مؤمنين " رواه مسلم فما وجه هذا الحديث وكيف الجمع بينه وبين الأحاديث الصحيحة السؤال التاسع عشر : ما وجه دخول الواو في قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم " رواه البخاري ومسلم وقد استشكل كثير من الناس أمر هذه الواو حتى أنكر بعضهم من الحذاق أن تكون ثابتة قال: لأن الواو في مثل هذا تقتضي تقرير الأول وتصديقه كما إذا قلت زيد كاتب فقال: المخاطب وفقيه فإنه يقتضي إثبات الأول وزيادة وصف فقيه فكيف دخلت في هذا الموضوع وما وجهها السؤال العشرون: ما السر في اقتران الرحمة والبركة بالسلام دون غيرهما من الصفات كالمغفرة والبر والإحسان ونحو هذا السؤال الحادي والعشرون : لم

كانت نهاية السلام عند قوله: "وبركاته" ولم تشرع الزيادة عليها السؤال الثاني والعشرون : ما الحكمة في إضافة الرحمة والبركة إلى الله تعالى وتجريد السلام عن هذه الإضافة ولم لا أضيفت كلها أو ردت كلها السؤال الثالث والعشرون : ما الحكمة في إفراد السلام والرحمة وجمع البركة السؤال الرابع والعشرون: ما الحكمة في تأكيد الأمر بالسلام على النبي بالمصدر دون الصلاة في قوله تعالى: ﴿ صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ ولم يقل صلوا صلاة السؤال الخامس والعشرون : ما الحكمة في تقديم السلام عليه في الصلاة على الصلاة عليه وهلا وقعت البداءة بالصلاة عليه أولا ثم اتبعت بالسلام لتصح البداءة بما بدأ الله به من تقديم الصلاة على السلام السؤال السادس والعشرون : ما الحكمة في كون السلام عليه في الصلاة بصيغة خطاب المواجهة وأما الصلاة عليه فجاءت بصيغة الغيبة لذكره باسم العلم

*(156/233)*

---

السؤال السابع والعشرون : وهو ما جر إليه طرد الكلام ما الحكمة في كون الثناء على الله ورد بصيغة في قولنا التحيات لله مع أنه سبحانه هو المناجي

المخاطب الذي يسمع كلامنا ويرى مكاننا وجاء السلام على النبي صلى الله عليه وسلم بصيغة الخطاب مع أن الحال كان يقتضي العكس فما الحكمة في ذلك السؤال الثامن

والعشرون : وهو خاتمة الأسئلة ما السر في كون السلام خاتمة الصلاة وهلا كان في ابتدائها وإذا كان كذلك فما السر في مجيئه معرفا وهلا جاء منكرا .

*(157/233)*

---

"وأما السؤال الأول " وهو ما حقيقة هذه اللفظة فحقيقتها البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب وعلى هذا المعنى تدور تصاريفها فمن ذلك قولك: "سلمك الله وسلم فلان من الشر ومنه دعاء المؤمنين على الصراط رب سلم اللهم سلم" ومنه سلم الشيء لفلان أي خلص له وحده فخلص من ضرر الشركة فيه قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ ﴾ أي خالصا له وحده لا يملكه معه غيره ومنه السلم ضد الحرب قال تعالى: ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ لأن كلا من المتحاربين يخلص ويسلم من أذى الآخر ولهذا يبنى منه على المفاعلة فيقال: المسالمة مثل المشاركة ومنه القلب السليم وهو النقي من الغل والدغل وحقيقته الذي قد سلم لله تعالى وحده فخلص من دغل الشرك وغله ودغل الذنوب والمخالفات بل هو المستقيم على صدق حبه وحسن معاملته فهذا هو الذي ضمن له النجاة من عذابه والفوز بكرامته ومنه أخذ الإسلام فإنه من هذه المادة لأنه الاستسلام والانقياد لله تعالى والتخلص من شوائب الشرك

فسلم لربه وخلص له كالعبد الذي سلم لمولاه ليس فيه شركاء متشاكسون ولهذا ضرب سبحانه هذين المثلين للمسلم المخلص الخالص لربه والمشرك به ومنه السلم للسلف وحقيقته العوض المسلم فيه لأن من هو في ذمته قد ضمن سلامته لربه ثم سمى العقد سلما وحقيقته ما ذكرناه فإن قيل: فهذا ينتقض بقولهم للديغ سليما قيل: ليس هذا بنقض له بل طرد لما قلناه فإنهم سمعوه سليما باعتبار ما يهمه ويطلبه ويرجو أن يئول إليه حاله من السلامة فليس عنده أهم من السلامة ولا هو أشد طلبا منه لغيرها فسمى سليما لذلك وهذا من جنس تسميتهم المهلكة

*(158/233)*

---

مفازة لأنه لا شيء أهم عند سالكها من فوزه منها أي نجاته فسميت مفازة لأنه يطلب الفوز منها وهذا أحسن من قولهم إنما سميت مفازة وسميت اللديغ سليما تفاؤلا وإن كان التفاؤل جزء هذا المعنى الذي ذكرناه وداخل فيه فهو أعم وأحسن فإن قيل: فكيف يمكنكم رد السلم إلى هذا الأصل قيل: ذلك ظاهر لأن الصاعد إلى مكان مرتفع لما كان متعرضا للهوي والسقوط طالبا للسلامة راجيا لها سميت الآلة التي يتوصل بها إلى غرضه سلما لتضمنها سلامته إذ لو صعد بتكلف من غير سلم لكان عطبه متوقعا فصح أن السلم من هذا المعنى

ومنه تسمية الجنة بدار السلام وفي إضافتها إلى السلام ثلاثة أقوال أحدها أنها إضافة إلى مالكها السلام سبحانه الثاني أنها إضافة إلى تحية أهلها فإن تحيتهم فيها السلام الثالث أنها إضافة إلى معنى السلام أي دار السلام من كل آفة ونقص وشر والثلاثة متلازمة وإن كان الثالث أظهرها فإنه لو كانت الإضافة إلى مالكها لأضيفت إلى اسم من أسمائه غير السلام وكان يقال دار الرحمن أو دار الله أو دار الملك ونحو ذلك فإذا عهدت إضافتها إليه ثم جاء دار السلام حملت على المعهود وأيضا فإن المعهود في القرآن إضافتها إلى صفتها أو إلى أهلها أما الأول: فنحو دار القرار دار المجد جنة المأوى جنات النعيم جنات الفردوس وأما الثاني: فنحو دار المتقين ولم تعهد إضافتها إلى اسم من أسماء الله تعالى في القرآن فالأولى حمل الإضافة على المعهود في القرآن وكذلك إضافتها إلى التحية ضعيف من وجهين أحدهما: أن التحية بالسلام مشتركة بين دار الدنيا والآخرة وما يضاف إلى الجنة لا يكون إلا مختصا بها كالخلد والقرار والبقاء الثاني: أن من أوصافها غير التحية ما هو أكمل منها مثل كونها دائمة وباقية ودار الخلد والتحية فيها عارضة عند التلاقي والتزاور بخلاف السلامة من كل عيب ونقص وشر فإنها من أكمل أوصافها المقصودة على الدوام التي لا يتم النعيم فيها إلا به

فإضافتها إليه أولى وهذا ظاهر .

فصل:

وإذا عرفت هذا ن فإطلاق السلام على الله تعالى اسما من أسمائه هو أولى من هذا كله وأحق بهذا الاسم من كل مسمى به لسلامته سبحانه من كل عيب ونقص من كل وجد فهو السلام الحق بكل اعتبار والمخلوق سلام بالإضافة فهو سبحانه سلام في ذاته عن كل عيب ونقص يتخيله وهم وسلام في صفاته من كل عيب ونقص وسلام في أفعاله من كل عيب ونقص وشر وظلم وفعل واقع على غير وجه الحكمة بل هو السلام الحق من كل وجه وبكل اعتبار فعلم أن استحقاقه تعالى لهذا الاسم أكمل من استحقاق كل ما يطلق عليه وهذا هو حقيقة التنزيه الذي نزه به نفسه ونزهه به رسوله فهو السلام من الصاحبة والولد والسلام من النظير والكفء والسمي والمماثل والسلام من الشريك ولذلك إذا نظرت إلى أفراد صفات كماله وجدت كل صفة سلاما مما يضاد كمالها فحياته سلام من الموت ومن السنة والنوم وكذلك قيوميته وقدرته سلام من التعب واللغوب وعلمه سلام من عزوب شيء عنه أو عروض نسيان أو حاجة إلى تذكر وتفكر وإرادته سلام من خروجها عن الحكمة والمصلحة وكلماته سلام من الكذب والظلم بل تمت كلماته صدقا وعدلا وغناه سلام من الحاجة إلى غيره بوجه ما بل كل ما سواه محتاج إليه وهو غني عن كل ما سواه وملكه سلام

من منازع فيه أو مشارك أو معاون مظاهر أو شافع عنده بدون إذنه وإلهيته سلام من مشارك له فيها بل هو الله الذي لا إله إلا هو وحلمه وعفوه وصفحه ومغفرته وتجاوزه سلام من أن تكون عن حاجة منه أو ذلك أو مصانعة كما يكون من غيره بل هو محض جوده وإحسانه وكرمه وكذلك عذابه وانتقامه وشدة بطشه وسرعة عقابه سلام من أن يكون ظلما أو تشفيا أو غلظة أو قسوة بل هو

(160/233)

---

محض حكمته وعدله ووضعه الأشياء مواضعها وهو مما يستحق عليه الحمد والثناء كما يستحقه علي إحسانه وثوابه ونعمه بل لو وضع الثواب موضع العقوبة لكان مناقضا لحكمته ولعزته فوضعه العقوبة موضعها هو من عدله وحكمته وعزته فهو سلام مما يتوهم أعداؤه والجاهلون به من خلاف حكمته وقضاؤه وقدره سلام من العبث والجور والظلم ومن توهم وقوعه على خلاف الحكمة البالغة وشرعه ودينه سلام من التناقض والاختلاف والاضطراب وخلاف مصلحة العباد ورحمتهم والإحسان إليهم وخلاف حكمته بل شرعه كله حكمة ورحمة ومصلحة وعدل وكذلك عطاؤه سلام من كونه معاوضة أو لحاجة إلى المعطى ومنعه سلام من البخل وخوف الإملاق بل عطاؤه إحسان محض لا

لمعاوضة ولا لحاجة ومنعه عدل محض وحكمة لا يشوبه بخل ولا عجز واستواؤه وعلوه على عرشه سلام من أن يكون محتاجا إلى ما يحمله أو يستوي عليه بل العرش محتاج إليه وحملته محتاجون إليه فهو الغنى عن العرش وعن حملته وعن كل ما سواه فهو استواء وعلو لا يشوبه حصر ولا حاجة إلى عرش ولا غيره ولا إحاطة شيء به سبحانه وتعالى بل كان سبحانه ولا عرش ولم يكن به حاجة إليه وهو الغني الحميد بل استواؤه على عرشه واستيلاؤه على خلقه من موجبات ملكه وقهره من غير حاجة إلى عرض ولا غيره بوجه ما ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا سلام مما يضاد علوه وسلام مما يضاد غناه وكماله سلام من كل ما يتوهم معطل أو مشبه وسلام من أن يصير تحت شيء أو محصورا في شيء تعالى الله ربنا عن كل ما يضاد كماله وغناه وسمعه وبصره سلام من كل ما يتخيله مشبه أو يتقوله معطل وموالاته لأوليائه سلام من أن تكون عن ذلك كما يوالي المخلوق المخلوق بل هي موالاة رحمة وخير وإحسان وبر كما قال: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ ﴾ فلم ينف أن يكون له ولي مطلقا

(161/233)

بل نفي أن يكون له ولي من الذل وكذلك محبته لمحبيه وأوليائه سلام من عوارض محبة المخلوق للمخلوق من كونها محبة حاجة إليه أو تملق له أو انتفاع بقربه وسلام مما يتقوله المعطلون فيها وكذلك ما أضافه إلى نفسه من اليد والوجه فإنه سلام عما يتخيله مشبه أو يتقوله معطل فتأمل كيف تضمن اسمه السلام كل ما نزه عنه تبارك وتعالى وكم ممن حفظ هذا الاسم لا يدري ما تضمنه من هذه الأسرار والمعاني والله المستعان المسئول أن يوفق للتعليق على الأسماء الحسنى على هذا النمط إنه قريب مجيب ولنقطع ها هنا الكلام على السؤال الأول

فصل:

وأما السؤال الثاني : وهو هل السلام مصدر أو اسم مصدر ؟ فالجواب: أن السلام الذي هو التحية اسم مصدر من سلم ومصدره الجاري عليه تسليم كعلم تعليما وفهم تفهيما وكلم تكليما والسلام من سلم كالكلام من كلم فإن قيل: وما الفرق بين المصدر والاسم قلنا : بينهما فرقان لفظي ومعنوي أما اللفظي فإن المصدر هو الجاري على فعله الذي هو قياسه كالأفعال من أفعل والتفعيل من فعل والانفعال من انفعل والتفعلل من تفعلل وبابه وأما السلام والكلام فليسا بجاريين على فعليهما ولو جريا عليه لقيل تسليم وتكليم وأما الفرق المعنوي فهو أن المصدر دال على الحدث وفاعله فإذا قلت تكليم وتسليم وتعليم ونحو ذلك دل على الحدث ومن قام به فيدل التسليم على السلام والمسلم وكذلك التكليم والتعليم وأما اسم

المصدر فإنما يدل على الحدث وحده فالسلام والكلام لا يدل لفظه على مسلم ولا مكلم بخلاف التكليم والتسليم وسر هذا الفرق أن المصدر في قولك سلم تسليما وكلم تكليما بمنزلة تكرار الفعل فكأنك قلت سلم سلم وتكلم تكلم والفعل لا يخلو عن فاعله أبدا وأما اسم المصدر

(162/233)

---

فإنهم جردوه لمجرد الدلالة على الحدث وهذه النكتة من أسرار العربية فهذا السلام الذي هو التحية وأما السلام الذي هو اسم من أسماء الله ففيه قولان أحدهما : أنه كذلك اسم مصدر وإطلاقه عليه كإطلاق العدل عليه والمعنى أنه ذو السلام وذو العدل على حذف المضاف والثاني: أن المصدر بمعنى الفاعل هنا أي السالم كما سميت ليلة القدر سلاما أي سالمة من كل شر بل هي خير لا شر فيها وأحسن من القولين وأقيس في العربية أن يكون نفس السلام من أسمائه تعالى كالعدل وهو من باب إطلاق المصدر على الفاعل لكونه غالبا عليه مكررا منه كقولهم: رجل صوم وعدل وزور وبابه وأما السلام الذي هو بمعنى السلامة فهو مصدر نفسه وهو مثل الجلال والجلالة فإذا حذفت التاء كان المراد نفس المصدر وإذا أتيت بالتاء كان فيه إيذان بالتحديد بالمرة من المصدر كالحب والحبة فالسلام

والجمال والجلال كالجنس العام من حيث لم يكن فيه تاء التحديد والسلامة والجلالة والملاحة والفصاحة كلها تدل على الخصلة الواحدة ألا ترى أن الملاحة خصلة من خصال الكمال والجلالة من خصال الجلال ولهذا لم يقولوا كمالة كما قالوا ملاحة وفصاحة لأن الكمال اسم جامع لصفات الشرف والفضل فلو قالوا كمالة لنقضوا الغرض المقصود من اسم الكمال فتأمله وعلى هذا جاءت الحلاوة والأصالة والرزانة والرجاحة لأنها خصلة من مطلق الكمال والجمال محدودة فجاءوا فيها بالتاء الدالة على التحديد وعكسه الحماقة والرقاعة والنذالة والسفاهة فإنها خصال محدودة من مطلق العيب والنقص فجاءوا في الجنس الذي يشمل الأنواع بغير تاء فجاءوا في أنواعه وأفراده بالتاء وقد تقدم تقرير هذا المعنى وأيضا فلا حاجة إلى إعادته فتأمل الآن كيف جاء السلام مجردا عن التاء إيذانا بحصول المسمى التام إذ لا يحصل المقصود إلا به فإنه لو سلم من آفة ووقع في آفة لم يكن قد حصل له السلام فوضح أن السلام لم يخرج عن المصدرية في جميع وجوهه فإن قيل: فما الحكمة في

مجيئه اسم مصدر ولم يجيء على أصل المصدر

قيل: هذا السر بديع وهو أن المقصود حصول مسمى السلامة للمسلم عليه على الإطلاق من غير تقييد بفاعل فلما كان المراد مطلق السلامة من غير تعرض لفاعل أتوا باسم المصدر الدال على مجرد الفعل ولم يأتوا بالمصدر الدال على الفعل والفاعل معا فتأمله .

فصل:

وأما السؤال الثالث : وهو أن قول المسلم سلام عليكم هل هو إنشاء أم خبر فجوابه: أن هذا ونحوه من ألفاظ الدعاء متضمن للإنشاء والإخبار فجهة الخبرية فيه لا تناقض جهة الإنشائية وهذا موضع بديع يحتاج إلى كشف وإيضاح فنقول الكلام له نسبتان نسبة إلى المتكلم به نفسه ونسبة إلى المتكلم فيه إما طلبا وإما خبرا وله نسبة ثالثة إلى المخاطب لا يتعلق بها هذا الغرض وإنما يتعلق تحقيقه بالنسبتين الأوليين فباعتبار تينك النسبتين نشأ التقسيم إلى الخبر والإنشاء ويعلم أين يجتمعان وأين يفترقان فله بنسبته إلى قصد المتكلم وإرادته لثبوت مضمونه وصف الإنشاء وله بنسبته إلى المتكلم فيه والإعلام بتحققه في الخارج وصف الإخبار ثم تجتمع النسبتان في موضع وتفترقان في موضع فكل موضع كان المعنى فيه حاصلا بقصد المتكلم وإرادته فقط فإنه لا يجامع فيه الخبر الإنشاء نحو قوله: بعتك كذا ووهبتكه وأعتقت وطلقت فإن هذه المعاني لم يثبت لها وجود خارجي إلا بإرادة المتكلم وقصده فهي إنشاءات وخبريتها من جهة أخرى وهي تضمنها إخبار المتكلم

عن ثبوت هذه النسبة في ذهنه لكن ليست هذه هي الخبرية التي وضع لها لفظ الخبر وكل موضع كان المعنى حاصلا فيه من غير جهة المتكلم وليس للمتكلم إلا دعاؤه بحصوله ومحبته فالخبر فيه لا يناقض الإنشاء وهذا نحو سلام عليكم فإن السلامة المطلوبة لم تحصل بفعل المسلم وليس للمسلم إلا

*(164/233)*

---

الدعاء بها ومحبتها فإذا قال سلام عليكم تضمن الإخبار بحصول السلامة والإنشاء للدعاء بها وإرادتها وتمنيها وكذلك ويل له قال سيبويه: "هو دعاء وخبر" ولم يفهم كثير من الناس قول سيبويه على وجهه بل حرفوه عما أراده به وإنما أراد سيبويه هذا المعنى: "أنها تتضمن الإخبار بحصول الويل له مع الدعاء به" فتدبر هذه النكتة التي لا تجدها محررة في غير هذا الموضع هكذا بل تجدهم يطلقون تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء من غير تحرير وبيان لمواضع اجتماعهما وافتراقهما وقد عرفت بهذا أن قولهم سلام عليكم وويل له وما أشبه هذا أبلغ من إخراج الكلام في صورة الطلب المجرد نحو اللهم سلمه .

فصل:

وأما السؤال الرابع : وهو ما معنى السلام المطلوب عند التحية ففيه قولان مشهوران:

أحدهما : أن المعنى اسم السلام عليكم والسلام هنا هو الله عز وجل ومعنى الكلام نزلت بركة اسمه عليكم وحلت عليكم ونحو هذا واختير في هذا المعنى من أسمائه عز وجل اسم السلامة دون غيره من الأسماء لما يأتي في جواب السؤال الذي بعده واحتج أصحاب هذا القول بحجج منها ما ثبت في الصحيح أنهم كانوا يقولون في الصلاة: "السلام على الله قبل عباده السلام على جبريل السلام على فلان فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تقولوا السلام على الله فإن الله هو السلام ولكن قولوا السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين " صحيح فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يقولوا السلام على الله لأن السلام هو المسلم عليه دعاء له وطلب أن يسلم والله تعالى هو المطلوب منه لا المطلوب له وهو المدعو لا المدعو له فيستحيل أن يسلم عليه بل هو المسلم على عباده كما سلم عليهم في كتابه حيث

*(165/233)*

---

يقول: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ وقوله : ﴿ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ ﴿ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ ﴾ ﴿ سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ ﴾ وقال في يحيى: ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ ﴾ وقال لنوح: ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ ﴾ ويسلم يوم

القيامة على أهل الجنة كما قال تعالى: ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴾ فقولا منصوب على المصدر وفعله ما تضمنه سلام من القول لأن السلام قول ومسند الإمام أحمد وسنن ابن ماجة من حديث محمد بن المنكدر عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بينما أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور من فوقهم فرفعوا رؤوسهم فإذا الجبار جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم وقال يا أهل الجنة سلام عليكم ثم قرأ قوله : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴾ ثم يتوارى عنهم فتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم" ضعيف وفي سنن ابن ماجة مرفوعا أول من يسلم عليه الحق يوم القيامة عمر ضعيف جدا وفيه نكارة وقال تعالى: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ فهذا تحيتهم يوم يلقونه تبارك وتعالى ومحال أن تكون هذه تحية منهم له فإنهم أعرف به من أن يسلموا عليه وقد نهوا عن ذلك في الدنيا وإنما هذا تحية منه لهم والتحية هنا مضافة إلى المفعول فهي التحية التي يحيون بها لا التحية التي يحيونه هم بها ولولا قوله تعالى في سورة يس: ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ رحيم ﴾ لاحتمل أن تكون التحية لهم من الملائكة كما قال الله: ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ ولكن هذا سلام الملائكة إذا دخلوا عليهم وهم في منازلهم من الجنة يدخلون مسلمين عليهم وأما التحية المذكورة في قوله: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ فتلك تحية لهم وقت اللقاء كما يحيى الحبيب حبيبه

إذا لقيه فماذا حرم المحجوبون عن ربهم يومئذ .

يكفي الذي غاب عنك غيبته . . . فذاك ذنب عقابه فيه

والمقصود أن الله تعالى يطلب منه السلام فلا يمتنع في حقه أن يسلم على عباده ولا يطلب له فلذلك لا يسلم عليه وقوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله هو السلام" صريح في

(167/233)

---

كون السلام اسما من أسمائه قالوا فإذا قال المسلم سلام عليكم كان معناه اسم السلام عليكم ومن حججهم ما رواه أبو داود من حديث ابن عمر: "أن رجلا سلم على النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليه حتى استقبل الجدار ثم تيمم ورد عليه وقال: إني كرهت أن أذكر الله إلا على طهر" صحيح قالوا ففي هذا الحديث بيان أن السلام ذكر الله وإنما يكون ذكرا إذا تضمن اسما من أسمائه ومن حججهم أيضا أن الكفار من أهل الكتاب لا يبدؤون بالسلام فلا يقال لهم سلام عليكم ومعلوم أنه لا يكره أن يقال لأحدهم سلمك الله وما ذاك إلا أن السلام اسم من أسماء الله فلا يسوغ أن يطلب للكافر حصول بركة ذلك الاسم عليه فهذه حجج كما ترى قوية ظاهرة القول الثاني: أن السلام مصدر بمعنى السلامة

وهم المطلوب المدعو به عند التحية ومن حجة أصحاب هذا القول أنه يذكر بلا ألف ولام بل يقول المسلم سلام عليكم ولو كان اسما من أسماء الله لم يستعمل كذلك بل كان يطلق عليه معرفة كما يطلق عليه سائر أسمائه الحسنى فيقال: ﴿ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ﴾ فإن التنكير لا يصرف اللفظ إلى معين فضلا عن أن يصرفه إلى الله وحده بخلاف المعرف فإنه ينصرف إليه تعيينا إذا ذكرت أسماؤه الحسنى ومن حججهم أيضا إن عطف الرحمة والبركة عليه في قوله سلام عليكم ورحمة الله وبركاته يدل على أن المراد به المصدر ولهذا عطف عليه مصدرين مثله ومن حججهم أيضا أنه لو كان السلام هنا اسما من أسماء الله لم يستقم الكلام إلا بإضمار وتقدير يكون به مقيدا ويكون المعنى بركة اسم السلام عليكم فإن الاسم نفسه ليس عليهم ولو قلت اسم الله عليك كان معناه بركة هذا الاسم ونحو ذلك من التقدير ومعلوم أن هذا التقدير خلاف الأصل ولا دليل عليه ومن حججهم أيضا أنه ليس المقصود من السلام هذا المعنى وإنما المقصود منه الإيذان بالسلامة خبرا ودعاء كما يأتي في جواب السؤال الذي بعد هذا

*(168/233)*

ولهذا كان السلام أمانا لتضمنه معنى السلامة وأمن كل واحد من المسلم والراد عليه من صاحبه قالوا: فهذا كله يدل على أن السلام مصدر بمعنى السلامة وحذفت تاؤه لأن المطلوب هذا الجنس لا المرة الواحدة منه والتاء تفيد التحديد كما تقدم وفصل الخطاب في هذه المسألة: أن يقال الحق في مجموع القولين فلكل منهما بعض الحق والصواب في مجموعهما وإنما نبين ذلك بقاعدة قد أشرنا إليها مرارا وهي أن من دعا الله تعالى بأسمائه الحسنى أن يسأل في كل مطلوب ويتوسل إليه بالاسم المقتضي لذلك المطلوب المناسب لحصوله حتى كأن الداعي مستشفع إليه متوسل إليه به فإذا قال: "رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور" فقد سأله أمرين وتوسل إليه باسمين من أسمائه مقتضيين لحصول مطلوبه وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة وقد سألته ما تدعو به إن وافقت ليلة القدر: "قولي اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني" صحيح وكذلك قوله للصديق وقد سأله أن يعلمه دعاء يدعو به: "اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم" رواه البخاري ومسلم وهذا كثير جدا فلا نطول بإيراد شواهده وإذا ثبت هذا فالمقام لما كان مقام طلب السلامة التي هي أهم ما عند الرجل أتى في لفظها بصيغة اسم من أسماء الله وهو السلام الذي يطلب منه السلامة فتضمن لفظ السلام معنيين أحدهما: ذكر الله كما في حديث ابن عمر والثاني: طلب السلامة وهو مقصود المسلم فقد تضمن سلام عليكم اسما من أسماء الله

وطلب السلامة منه فتأمل هذه الفائدة وقريب من هذا ما روي عن بعض السلف أنه قال في آمين أنه اسم من أسماء الله تعالى وأنكر كثير من الناس هذا القول وقالوا ليس في أسمائه آمين ولم يفهموا معنى كلامه فإنما أراد أن هذه الكلمة تتضمن اسمه تبارك وتعالى فإن معناها استجب وأعط ما سألناك فهي متضمنة لاسمه مع دلالتها على الطلب وهذا التضمن في سلام عليكم أظهر لأن السلام

من أسمائه تعالى فهذا كشف سر المسألة .

*(169/233)*

---

فصل :

إذا عرف هذا فالحكم في طلبه عند اللقاء دون غير من الدعاء أن عادة الناس الجارية بينهم أن يحيي بعضهم بعضا عند لقائه وكل طائفة لهم في تحيتهم ألفاظ وأمور اصطلحوا عليها وكانت العرب تقول في تحيتهم بينهم في الجاهلية أنعم صباحا وأنعموا صباحا فيأتون بلفظة أنعموا من النعمة بفتح النون وهي طيب العيش والحياة ويصلونها بقولهم صباحا لأن الصباح في أول النهار فإذا حصلت فيه النعمة استصحب حكمها واستمرت اليوم كله فخصوها بأوله إيذانا بتعجيلها وعدم تأخرها إلى أن يتعالى النهار وكذلك يقولون أنعموا

مساء فإن الزمان هو صباح ومساء فالصباح في أول النهار إلى بعض انتصافه والمساء من بعد انتصافه إلى الليل ولهذا يقول الناس صبحك الله بخير ومساك الله بخير فهذا معنى أنعم صباحا ومساء إلا أن فيه ذكر الله وكانت الفرس يقولون في تحيتهم هزا رساله ميمايي أي تعيش ألف سنة وكل أمة لهم تحية من هذا الجنس أو ما أشبهه ولهم تحية يخصون بها ملوكهم من هيئات خاصة عند دخولهم عليهم كالسجود ونحوه وألفاظ خاصة تتميز بها تحية الملك من تحية السوقة وكل ذلك مقصودهم به الحياة ونعيمها ودوامها ولهذا سميت تحية وهي تفعلة من الحياة كتكرمة من الكرامة لكن أدغم المثلان فصار تحية فشرع الملك القدوس السلام تبارك وتعالى لأهل الإسلام تحية بينهم سلام عليكم وكانت أولى من جميع تحيات الأمم التي منها ما هو محال وكذب نحو قولهم تعيش ألف سنة وما هو قاصر المعنى مثل أنعم صباحا ومنها ما لا ينبغي إلا لله مثل السجود فكانت التحية بالسلام أولى من ذلك كله لتضمنها السلامة التي لا حياة ولا فلاح إلا بها فهي الأصل المقدم

*(170/233)*

---

على كل شيء ومقصود العبد من الحياة إنما يحصل بشيئين بسلامته من الشر وحصول الخير كله والسلامة من الشر مقدمة على حصول الخير وهي الأصل ولهذا إنما يهتم الإنسان بل

كل حيوان بسلامته أولا ثم غنيمته ثانيا على أن السلامة المطلقة تتضمن حصول الخير فإنه لو فاته حصل له الهلاك والعطب أو النقص والضعف ففوات الخير يمنع حصول السلامة المطلقة فتضمنت السلامة نجاته من كل شر وفوزه بالخير فانتظمت الأصلين الذين لا تتم الحياة إلا بهما مع كونها مشتقة من اسمه السلام ومتضمنة له وحذفت التاء منها لما ذكرنا من إرادة الجنس لا السلامة الواحدة ولما كانت الجنة دار السلامة من كل عيب وشر وآفة بل قد سلمت من كل ما ينغص العيش والحياة كانت تحية أهلها فيها سلام والرب يحييهم فيها بالسلام ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ فهذا سر التحية بالسلام عند اللقاء وأما عند المكاتبة فلما كان المراسلان كل منهما غائب عن الآخر ورسوله إليه كتابه يقوم مقام خطابه له استعمل في مكاتبه له من السلام ما يستعمله معه لو خاطبه لقيام الكتاب مقام الخطاب .

فصل:

وأما السؤال الخامس : وهو تعدية هذا المعنى ب على فجوابه بذكر مقدمة وهي ما معنى قوله: سلمت فإذا عرف معناها عرف أن حرف على أليق به فاعلم أن لفظ سلمت عليه وصليت عليه ولعنت فلانا موضوعها ألفاظ هي جمل طلبية وليس موضوعها معاني مفردة فقولك سلمت موضوعه قلت السلام عليك وموضوع صليت عليه قلت اللهم صل عليه أو دعوت له وموضوع لعنته قلت: اللهم العنه ونظير هذا : سبحت الله قلت: سبحان

الله ونظيره وإن كان مشتقا من لفظ الجملة هلل إذا قال لا إله إلا الله وحمدل إذا قال الحمد لله وحوقل إذا قال لا حول

ولا قوة إلا بالله وحيعل إذا قال حي على الصلاة وبسمل إذا قال بسم الله قال:

وقد بسملت ليلى غداة لقيتها . . . ألا حبذا ذاك الحبيب المبسمل

*(171/233)*

---

وإذا ثبت هذا فقولك سلمت عليه أي ألقيت عليه هذا اللفظ وأوضعته عليه إيذانا باشتمال معناه عليه كاشتمال لباسه عليه وكان حرف على أليق الحروف به فتأمله وأما قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ فليس هذا سلام تحية ولو كان تحية لقال فسلام عليه كما قال: ﴿ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ ﴿ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ ﴾ ولكن الآية تضمنت ذكر مراتب الناس وأقسامهم عند القيامة الصغرى حال القدوم على الله فذكر أنهم ثلاثة أقسام مقرب له الروح والريحان وجنة النعيم ومقتصد من أصحاب اليمين له السلامة فوعده بالسلامة ووعد المقرب بالغنيمة والفوز وإن كان كل منهما سالما غانما وظالم بتكذيبه وضلاله فأوعده بنزل من حميم وتصلية جحيم فلما لم يكن المقام مقام تحية وإنما هو مقام إخبار عن حاله ذكر ما يحصل له من السلامة فإن قيل: فهذا

فرق صحيح لكن ما معنى اللام في قوله لك ومن هو المخاطب بهذا الخطاب وما معنى حرف من في قوله: ﴿ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ فهذه ثلاثة أسئلة في الآية قيل: قد وفينا بحمد الله تعالى بذكر الفرق بين هذا السلام في الآية وبين سلام التحية وهو الذي كان المقصود وهذه الأسئلة وإن كانت متعلقة بالآية فهي خارجة عن مقصودنا ولكن نجيب عنها إكمالا للفائدة بحول الله وقوته وإن كنا لم نر أحدا من المفسرين شفى في هذا الموضع الغليل ولا كشف حقيقة المعنى واللفظ بل منهم من يقول المعنى فمسلم لك إنك من أصحاب اليمين ومنهم من يقول غير ذلك مما هو حوم على معناها من غير ورود فأعلم أن المدعو به من الخير والشر مضاف إلى صاحبه بلام الإضافة الدالة على حصوله له ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾ ولم يقل عليهم اللعنة إيذانا بحصول معناها وثبوته لهم وكذلك قوله: ﴿ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾

*(172/233)*

---

ويقول في ضد هذا لك الرحمة ولك التحية ولك السلام ومنه هذه الآية ﴿ فَسَلَامٌ لَكَ ﴾ أي ثبت لك السلام وحصل لك وعلى هذا فالخطاب لكل من هو من هذا الضرب فهو خطاب للجنس أي فسلام لك يا من هو من أصحاب اليمين كما تقول هنيئًا لك يا من هو منهم ولهذا

والله أعلم أتى بحرف من في قوله: ﴿ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ والجار والمجرور في موضع حال أي سلام لك كائنا من أصحاب اليمين كما تقول هنيئا لك من اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وحزبه أي كائنا منهم والجار والمجرور بعد المعرفة ينتصب على الحال كما تقول أحببتك من أهل الدين والعلم أي كائنا منهم فهذا معنى هذه الآية وهو وإن خلت عنه كتب أهل التفسير فقد حام عليه منهم من حام وما ورد ولا كشف المعنى ولا أوضحه فراجع ما قالوه والله تعالى الموفق المان بفضله .

فصل:

وأما السؤال السادس: وهو ما الحكمة في الابتداء بالنكرة ها هنا مع أن الأصل تقديم الخبر عليها فهذا سؤال قد تضمن سؤالين أحدهما : حكمة الابتداء بالنكرة في هذا الموضع ، الثاني : أنه إذ قد ابتدئ بها فهلا قدم الخبر على المبتدأ لأنه قياس الباب نحو: في الدار رجل والجواب عن السؤال الأول: أن يقال إن النحاة قالوا : إذا كان في النكرة معنى الدعاء مثل سلام لك وويل له جاز الابتداء بها لأن الدعاء معنى من معاني الكلام فقد تخصصت النكرة بنوع من التخصيص فجاز الابتداء بها وهذا كلام لا حقيقة تحته فإن الخبر أيضا نوع من أنواع الكلام ومع هذا فلا تكون جهة الخبر مسوغة للابتداء بالنكرة فكيف تكون جهة الدعاء مسوغة للابتداء بها وأما الفرق بين كون الدعاء نوعا والخبر نوعا والطلب نوعا وهلا يفيد ذلك تعيين مسمى النكرة حتى يصلح الإخبار عنها فإن

---

المانع من الإخبار عنها ما فيها من الشياع والإبهام الذي يمنع من تحصيلها عند المخاطب في ذهنه حتى يستفيد نسبة الإسناد الخبري إليها ولا فرق في ذلك بين كون الكلام دعاء أو خبرا وقول من قال: إن الابتداء بالنكرة إنما امتنع حيث لا يفيد نحو رجل في الدنيا ورجل مات ونحو ذلك فإذا أفادت جاز الابتداء بها من غير تقييد بضابط ولا حصر بعد وأحسن من تقييد ذلك بكون الكلام دعاء أو في قوة الكلام آخر وغير ذلك من الضوابط المذكورة وهذه طريقة إمام النحو سيبويه فإنه في كتابه لم يجعل للابتداء بها ضابطا ولا حصره بعدد بل جعل مناط الصحة الفائدة وهذا هو الحق الذي لا يثبت عند النظر سواه وكل من تكلف ضابطا فإنه ترد عليه ألفاظ خارجة عنه فإما أن يتمحل لردها إلى ذلك الضابط وإما أن يفردها بضوابط أخرى حتى آل الأمر ببعض النحاة إلى أن جعل في الباب ثلاثين ضابطا وربما زاد غيره عليها وكل هذا تكلف لا حاجة إليه واسترحت من شر أهر ذا ناب وبابه قاعدة جامعة في الابتداء فإن قلت: فما عندك من الضابط إذا سلكت طريقتهم في ذلك قلت: اسمع الآن قاعدة جامعة في هذا الباب لا يكاد يشذ عنها شيء منه أصل المبتدأ أن يكون معرفة أو مخصوصا بضرب من ضروب التخصيص بوجه تحصل الفائدة من

الإخبار عنه فإن انتفت عنه وجوه التخصيص بأجمعها فلا يخبر عنه إلا أن يكون الخبر مجرورا مفيدا معرفة مقدما عليه بهذه الشروط الأربعة لأنه إذا تقدم وكان معرفة صار كأن الحديث عنه وكأن المبتدأ المؤخر خبر عنه ومثال ذلك إذا قلت: على زيد دين فإنك تجد هذا الكلام في قوة قولك زيد مديان أو مدين فمحط الفائدة هو الدين وهو المستفاد من الإخبار فلا تنحس في قيود الأوضاع وتقول على زيد جار ومجرور فكيف يكون مبتدأ فأنت تراه هو المخبر عنه في الحقيقة وليس المقصود الإخبار عن الدين بل عن زيد بأنه مديان وإن كثف ذهنك عن هذا فراجع شروط المبتدأ وشروط الخبر وإن لم يكن الخبر مفيدا لم تفد المسألة شيئا

*(174/233)*

---

وكان لا فرق بين تقديم الخبر وتأخيره كما إذا قلت: في الدنيا رجل كان في عدم الفائدة بمنزلة قولك رجل في الدنيا فهنا لم تمتنع الفائدة بتقديم ولا تأخير وإنما امتنعت من كون الخبر غير مفيد ومثل هذا قولك في الدار امرأة فإنه كلام مفيد لأنه بمنزلة قولك الدار فيها امرأة فأخبرت عن الدار بحصول المرأة فيها في اللفظ والمعنى فإنك لم ترد الإخبار عن المرأة بأنها في الدار ولو أردت ذلك لحصلت حقيقة المخبر عنه أولا ثم أسندت إليه الخبر وإنما

مقصودك الإخبار عن الدار بأنها مشغولة بامرأة وأنها اشتملت على امرأة فهذا القدر هي الذي حسن الإخبار عن النكرة ها هنا فإنها ليست خبرا في الحقيقة وإنما هي في الحقيقة خبر عن المعرفة المتقدمة فهذا حقيقة الكلام وأما تقديره الإعرابي النحوي فهو أن المجرور خبر مقدم والنكرة مرفوعة بالابتداء يشترط للابتداء بالنكرة أن تكون موصوفة فإن قلت: فمن أين امتنع تقديم هذا المبتدأ في اللفظ فلا تقول امرأة في الدار ودين على زيد قلت لأن النكرة تطلب الوصف طلبا حثيثا فيسبق الوهم إلى أن الجار والمجرور وصف لها لا خبر عنها إذ ليس من عادتها الإخبار عنها إلا بعد الوصف لها فيبقى الذهن متطلعا إلى ورود الخبر عليه وقد سبق إلى سمعه ولكن لم يتيقن أنه الخبر بل يجوز أن يكون وصفا فلا تحصل به الفائدة بل يبقى في ألم الانتظار للخبر والترقب له فإذا قدمت الجار والمجرور عليها استحال أن يكون وصفا لها لأنه لا يتقدم موصوفه فذهب وهمه إلى أن الاسم المجرور المقدم هو الخبر والحديث عن النكرة وهو محط الفائدة إذا عرفت هذا فمن التخصصات المسوغة للابتداء بها أن تكون موصوفة نحو: ﴿ وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ ﴾ أو عامة نحو ما أحد خير من رسول الله وهل أحد عندك ومن ذلك أن تقع في سياق التفضيل نحو قول عمر: "تمرة خير من جرادة" فإن التفضيل نوع من التخصيص بالعموم إذ ليس المراد واحدة غير معينة من هذا الجنس بل المراد أن هذا الجنس خير

من هذا الجنس وأتى بالتاء الدالة على الوحدة إيذانا بأن هذا التفضيل ثابت لكل فرد فرد من أفراد الجنس ومنه تأويل سيبويه في قوله تعالى: ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴾ "فإنه قدره طاعة أمثل وقول معروف أشبه وأجدر بكم وهذا أحسن" من قول بعضهم: أن المسوغ للابتداء بها هاهنا العطف عليها لأن المعطوف عليها موصوف فيصح الابتداء به وإنما كان قول سيبويه أحسن لأن تقييد المعطوف بالصفة لا يقتضي تقييد المعطوف عليه بها ولو قلت طاعة أمثل لساغ ذلك وإن لم يعطف عليها ومنه وقوع النكرة في سياق تفصيل بعد إجمال كما إذا قلت اقسم هذه الثياب بين هؤلاء فثوب لزيد وثوب لعمرو وثوب لبكر فإن النكرة هاهنا تخصصت وتعينت وزال إبهامها وشياعها في جنس الثياب بل تخصصت بتلك الثياب المعينة فكأنك قلت ثوب منها لزيد وثوب منها لعمرو وهذا تقييد وتخصيص ومنه الابتداء بالنكرة إذا لم يكن الكلام خبرا محضا بل فيه معنى التزكية والمدح فمن ذلك قولهم أمت في الحجر لا فيك لأنهم لم يقولوا أمت في الحجر وسكتوا حتى قرنوه بقولهم لا فيك فصار معنى الكلام نسبة الأمت إلى الحجر أقرب من نسبته إليك والأمت بالحجر أليق به منك لأنهم أرادوا تزكية المخاطب ونفي العيب عنه ولم يريدوا الإخبار عن أمت بأنه في الحجر بل هو في حكم النفي عن الحجر وعن المخاطب معا إلا أن نفيه عن المخاطب أوكد وإذا دخل الحديث معنى النفي فلا غرو أن يبتدأ بالنكرة لما فيه من العموم والفائدة قولهم

شر أهر ذا ناب ومن هذا قولهم شر أهر ذا ناب وفيه تقديران أحدهما : أنه على الوصف أي شر عظيم أو شر مخوف أهره والثاني: أنه في معنى كلام آخر وهو ما أهر ذا ناب إلا شر أو إنما أهره شر ولا ريب في في صحة المسألة على وجه الفاعلية فهكذا إذا كانت على وجه المبتدأ والخبر الذي في معناه ومنه قولهم شر ما جاء به لأن معنى الكلام ما جاء به إلا شر فأدت ما الزائدة هنا معنى شيئين النفي والإيجاب كما أدته في قولك إنما جاء به شر وفي قوله تعالى: ﴿ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي ما يؤمنون إلا قليلا وقليلا ما يذكرون

*(176/233)*

---

وقوله: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ ﴾ أي ما لعناهم إلا بنقضهم ميثاقهم ونحو: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ﴾ أي ما لنت لهم إلا برحمة من الله ولا تسمع قول من يقول من النحاة أن ما زائدة في هذه المواضع فإنه صادر عن عدم تأمل فإن قيل: فمن أين لكم أفادت ما هذه المعنيين المذكورين من النفي والإيجاب وهي لو كانت على حقيقتها من النفي الصريح لم تفد إلا معنى واحد وهو النفي فإذا لم يكن النفي صريحا فيها كيف تفيد معنيين قيل: نحن لم ندع أنها أفادت النفي والإيجاب بمجردها ولكن حصل ذلك منها ومن القرائن المحتفة بها في الكلام أما قولهم شر ما جاء بها فلما انتظمت مع الاسم النكرة والنكرة لا يبتدأ بها فلما

قصد إلى تقديمها علم أن فائدة الخبر مخصوصة بها وأكد ذلك التخصيص ب ما فانتفى الأمر عن غير هذا الاسم المبتدأ ولم يكن إلا له حتى صار المخاطب يفهم من هذا ما يفهم من قوله ما جاء به إلا شر واستغنوا هنا ب ما هذه عن ما النافية وبالابتداء بالنكرة عن إلا وأما قولك إنما زيد قائم فقد انتظمت ب أن وامتزجت معها وصارتا كلمة واحدة وأن تعطى الإيجاب الذي تعطيه إلا وما تعطي النفي ولذلك جاز إنما يقوم أنا ولا تكون أنا فاعله إلا إذا فصلت من الفعل ب إلا تقول ما يقوم إلا أنا ولا تقول يقوم أنا فإذا قلت: إنما قام أنا صرت كأنك لفظت ما مع إلا قال:

أدافع عن أعراض قومي وإنما . . . يدافع عن أعراضهم أنا أو مثلي

(177/233)

---

فإذا عرفت أن زيادتها مع أن واتصالها بها اقتضى هذا النفي والإيجاب فانقل هذا المعنى إلى اتصالها بحرف الجر من قوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ و ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ﴾ وتأمل كيف تجد الفرق بين هذا التركيب وبين أن يقال فبرحمة من الله وفبنقضهم ميثاقهم وإنك تفهم من تركيب الآية ما لنت لهم إلا برحمة من الله وما لعناهم إلا بنقضهم ميثاقهم وكذلك قوله: ﴿ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ ﴾ دلت على النفي بلفظها وعلى الإيجاب بتقديم ما

حقه التأخير من المعمول وارتباط ما به مع تقديم كما قرر في قولهم شر ما جاء به وقد بسطنا هذا في كتاب الفتح المكي وبينا هناك أنه ليس في القرآن حرف

(178/233)

---

زائد وتكلمنا على كل ما ذكر في ذلك وبينا أن كل لفظة لها فائدة متجددة زائدة على أصل التركيب ولا ينكر جريان القلم إلى هذه الغاية وإن لم يكن من غرضنا فإنها أهم من بعض ما نحن فيه وبصدده فلنرجع إلى المقصود فنقول: الذي صحح الابتداء بالنكرة في سلام عليكم إن المسلم لما كان داعيا وكان الاسم المبتدأ النكرة هو المطلوب بالدعاء صار هو المقصود المهتم به وينزل منزلة قولك اسأل الله سلاما عليكم واطلب من الله سلاما عليك فالسلام نفس مطلوبك ومقصودك ألا ترى أنك لو قلت: اسأل الله عليك سلاما لم يجز وهذا في قوته ومعناه فتأمله فإنه بديع جدا فإن قلت: فإذا كان في قوته فهلا كان منصوبا مثل سقيا ورعيا لأنه في معنى سقاك الله سقيا ورعاك رعيا قلت سيأتي جواب هذا في جواب السؤال العاشر: في الفرق بين سلام إبراهيم وسلام ضيفه إن شاء الله وأيضا فالذي حسن الابتداء بالنكرة ها هنا أنها في حكم الموصوفة لأن المسلم إذا قال سلام عليكم فإنما مراده سلام مني عليك كما قال تعالى: ﴿ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا ﴾ ألا ترى أن مقصود المسلم إعلام من

سلم عليه بأن التحية والسلام منه نفسه لما في ذلك من حصول مقصود السلام من التحيات والتواد والتعاطف فقد عرفت جواب السؤالين لم ابتدئ بالنكرة ولم قدمت على الخبر بخلاف الباب في مثل ذلك والله أعلم .

فصل:

(179/233)

---

وأما السؤال السابع : وهو أنه لم كان في جانب المسلم تقديم السلام وفي جانب الراد تقديم المسلم عليه فالجواب عنه: أن في ذلك فوائد عديدة أحدها : الفرق بين الرد والابتداء فإنه لو وقال له في الرد السلام عليكم أو سلام عليكم لم يعرف أهذا رد لسلامه عليه أم ابتداء تحية منه فإذا قال عليك السلام عرف أنه قد رد عليه تحيته ومطلوب المسلم من المسلم عليه أن يرد عليه سلامه ليس مقصوده أن يبدأه بسلام كما ابتدأه به ولهذا السر والله أعلم نهى النبي صلى الله عليه وسلم المسلم عليه وهو أنه لم كان في جانب المسلم تقديم السلام وفي جانب الراد تقديم المسلم عليه فالجواب عنه: أن في ذلك فوائد عديدة أحدها : الفرق بين الرد والابتداء فإنه لو وقال له في الرد السلام عليكم أو سلام عليكم لم يعرف أهذا رد لسلامه عليه أم ابتداء تحية منه فإذا قال عليك السلام عرف أنه قد رد عليه تحيته ومطلوب المسلم

من المسلم عليه أن يرد عليه سلامه ليس مقصوده أن يبدأه بسلام كما ابتدأه به ولهذا السر والله أعلم نهى النبي صلى الله عليه وسلم المسلم عليه

(180/233)

---

بقوله عليك السلام عن ذلك فقال : "لا تقل عليك السلام فإن عليك السلام تحية الموتى " صحيح وسيأتي الكلام على هذا الحديث ومعناه في موضعه أفلا ترى كيف نهاه النبي صلى الله عليه وسلم عن ابتداء السلام بصيغة الرد التي لا تكون إلا بعد تقديم سلام وليس في قوله: "فإنها تحية الموتى " ما يدل على أن المشروع في تحيات الموتى كذلك كما سنذكره وإذا كانوا قد اعتمدوا الفرق بين سلام المبتدئ وسلام الراد خصوا المبتدئ بتقديم السلام لأنه هو المقصود وخصوا الراد بتقديم الجار والمجرور الفائدة الثانية وهي أن سلام الراد يجري مجرى الجواب ولهذا يكتفي فيه بالكلمة المفردة الدالة على أختها فلو قال وعليك لكان متضمنا للرد كما هو المشروع في الرد على أهل الكتاب مع أنا مأمورون أن نرد على من حيانا بتحية مثل تحيته وهذا من باب العدل الواجب لكل أحد فدل على أن قول الراد وعليك مماثل لقول المسلم سلام عليك لكن اعتمد في حق المسلم إعادة اللفظ الأول بعينه تحقيقا للمماثلة ودفعا لتوهم المسلم عدم رده عليه لاحتمال أن يريد عليك شيئا آخر وأما

أهل الكتاب فلما كانوا يحرفوا السلام ولا يعدلون فيه وربما سلموا سلاما صحيحا غير محرف ويشتبه الأمر في ذلك على الراد ندب إلى اللفظ المفرد المتضمن لرده عليهم نظير ما قالوه ولم تشرع له الجملة التامة لأنها إما أن تتضمن من التحريف مثل ما قالوا ولا يليق بالمسلم تحريف السلام الذي هو تحية أهل السلام ولا سيما وهو ذكر الله كما تقدم لأجل تحريف الكافر له وإما أن يرد سلاما صحيحا غير محرف مع كون المسلم محرفا للسلام فلا يستحق الرد الصحيح فكان العدول إلى المفرد وهو عليك هو مقتضى العدل والحكمة مع سلامته من تحريف ذكر الله فتأمل هذه الفائدة البديعة والمقصود أن الجواب يكفي فيه قولك وعليك وإنما كمل تكميلا للعدل وقطعا للتوهم الفائدة الثالثة: وهي أقوى مما تقدم أن المسلم لما تضمن سلامة الدعاء للمسلم عليه بوقوع السلامة

*(181/233)*

---

عليه وحلولها عليه وكان الرد متضمنا لطلب أن يحل عليه من ذلك مثل ما دعا به فإنه إذا قال

وعليك السلام كان معناه وعليك من ذلك مثل ما طلبت لي كما إذا قال غفر الله تعالى لك فإنك تقول له ولك يغفر ويكون هذا أحسن من قولك وغفر لك وكذا إذا قال رحمة الله

عليك تقول وعليك وإذا قال عفا الله عنك تقول وعنك وكذلك نظائره لأن تجريد القصد إلى مشاركة المدعو له للداعي في ذلك الدعاء لا إلى إنشاء دعاء مثل ما دعا به فكأنه قال ولك أيضا وعنك أيضا أي وأنت مشارك لي في ذلك مماثل لي فيه لا أنفرد به عنك ولا أختص به دونك ولا ريب أن هذا المعنى يستدعي تقديم المشارك المساوي فتأمله .

فصل:

وأما السؤال الثامن : وهو ما الحكمة في ابتداء السلام بلفظ النكرة وجوابه بلفظ المعرفة فتقول سلام عليكم فيقول الراد وعليك السلام فهذا سؤال يتضمن لمسألتين إحداهما : هذه والثانية : اختصاص النكرة بابتداء المكاتبة والمعرفة بآخرها والجواب عنها بذكر أصل نمهده ترجع إليه مواقع التعريف والتنكير في السلام وهو أن السلام دعاء وطلب وهم في ألفاظ الدعاء والطلب إنما يأتون بالنكرة إما مرفوعة على الابتداء أو منصوبة على المصدر فمن الأول: ويل له ومن الثاني: خيبة له وجدعا وعقرا وتربا وجندلا وهذا في الدعاء عليه وفي الدعاء له سقيا ورعيا وكرامة ومسرة فجاء سلام عليكم بلفظ النكرة كما جاء سائر ألفاظ الدعاء وسر ذلك أن هذه الألفاظ جرت مجرى النطق بالفعل ألا ترى أن سقيا ورعيا وخيبة جرى مجرى سقاك الله ورعاك وكذلك سلام عليك جار مجرى سلمك الله والفعل نكرة فأحبوا أن يجعلوا اللفظ الذي هو جار مجراه وكالبدل منه نكرة مثله وأما

تعريف السلام في جانب الراد فنذكر أيضا أصلا يعرف به سره وحكمته وهو أن الألف واللام إذا دخلت على اسم

(182/233)

---

السلام تضمنت أربع فوائد إحداها الإشعار بذكر الله تعالى لأن السلام المعرف من أسمائه كما تقدم تقريره الفائدة الثانية: إشعارها بطلب معنى السلامة منه للمسلم عليه لأنك متى ذكرت اسما من أسمائه فقد تعرضت به وتوسلت به إلى تحصيل المعنى الذي اشتق منه ذلك الاسم الفائدة الثالثة: إن الألف واللام يلحقها معنى العموم في مصحوبها والشمول فيه في بعض المواضع الفائدة الرابعة: أنها تقوم مقام الإشارة إلى المعين كما تقول: ناولني الكتاب واسقني الماء وأعطني الثوب لما هو حاضر بين يديك فإنك تستغني بها عن قولك هذا فهي مؤدية معنى الإشارة وإذا عرفت هذه الفوائد الأربع فقول الراد وعليك السلام بالتعريف متضمن للدلالة على أن مقصوده من الرد مثل ما ابتدئ به وهو هو بعينه فكأنه قال ذلك السلام الذي طلبته لي مردود عليك وواقع عليك فلو أتى بالرد منكرا لم يكن فيه إشعار بذلك لأن المعرف وإن تعدد ذكره واتحد لفظه فهو شيء واحد بخلاف المنكر ومن فهم هذا فهم معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم "لن يغلب عسر يسرين " مرسل وله طرق

تعضده فإنه أشار إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ فالعسر وإن تكرر مرتين فتكرر بلفظ المعرفة فهو واحد واليسر تكرر بلفظ النكرة فهو يسران فالعسر محفوف بيسرين يسر قبله ويسر بعده فلن يغلب عسر يسرين وفائدة ثانية: وهي أن مقامات رد السلام ثلاثة مقام فضل ومقام عدل ومقام ظلم فالفضل أن يرد عليه أحسن من تحيته والعدل أن ترد عليه نظيرها والظلم أن تبخسه حقه وتنقصه منها فاختير للراد أكمل اللفظين وهو المعرف بالأداة التي تكون للاستغراق والعموم كثيرا ليتمكن من الإتيان بمقام الفضل وفائدة ثالثة: وهي أنه قد تقدم أن المناسب في حقه تقديم المسلم عليه على السلام فلو نكره وقال عليك سلام لصار بمنزلة قولك عليك دين وفي الدار رجل فخرجه مخرج الخبر المحض وإذا صار خبرا بطل معنى التحية لأن معناها

*(183/233)*

---

الدعاء والطلب فليس بمسلم من قال عليك سلام إنما المسلم من قال سلام عليك فعرف سلام الراد باللام إشعارا بالدعاء للمخاطب

وأنه راد عليه التحية طالب له السلامة من اسم السلام والله أعلم .

فصل:

وأما المسألة الثانية: وهي ابتداء السلام في المكاتبة بالنكرة واختتامها بالمعرفة فابتداؤها بالنكرة كما تقدم في ابتداء السلام النطقي بها سواء فإن المكاتبة قائمة مقام النطق وأما تعريفه في آخر المكاتبة ففيه ثلاث فوائد أحدها : أن السلام الأول قد وقع الأنس بينهما به وهو مؤذن بسلامه عليه خصوصا فكأنه قال سلام مني عليك كما تقدم وهذا أيضا من فوائد تنكر السلام الابتدائي للإيذان بأنه سلام مخصوص من المسلم فلما استقر ذلك وعلم في صدر الكتاب كان الأحسن أن يسلم عليه سلاما وهو أعم من الأول لئلا يبقى تكرارا محضا بل يأتي بلفظ يجمع سلامه وسلام غيره فيكون قد جمع له بين السلامين الخاص منه والعام منه ومن غيره ولهذه الفائدة استحسنوا أن يكون قول الكاتب وفلان يقرئك السلام وفلان في آخر المكاتبة بعد والسلام عليك لهذا الغرض الفائدة الثانية: أنه قد تقدم أن السلام المعرف اسم من أسماء الله وقد افتتح الكاتب رسالته بذكر الله فناسب أن يختمها باسم من أسمائه وهو السلام ليكون اسمه تعالى في أول الكتاب وآخره وهذه فائدة بديعة الفائدة الثالثة: بديعة جدا وهي جواب السؤال التاسع بعد هذا وهي أن دخول الواو العاطفة في قول الكاتب والسلام عليكم ورحمة الله فيها وجهان أحدهما : قول ابن قتيبة: أنها عطف على السلام المبدوء به فكأنه قال والسلام المتقدم عليكم . والقول الثاني: إنها لعطف فصول الكتاب بعضه على بعض فهي عطف لجملة السلام على ما قبلها من الجمل كما تدخل الواو في تضاعيف الفصول . وهذا أحسن من قول ابن قتيبة لوجوه منها : أن

الكلام بين السلامين قد طال فعطف آخره بعد طوله على أوله قبيح غير مفهوم من السياق

الوجه الثاني : أنه إذا حمله

(184/233)

---

على ذلك كان السلام الثاني هو الأول بعينه فلم يفد فائدة متجددة وفي ذلك شح بسلام متجدد وإخلال بمقاصد المتكاتبين من تعداد الجمل والفصول واقتضاء كل جمله لفائدة غير الفائدة المتقدمة حتى أن قارئ الكتاب كلما قرأ جمله منها لفائدة غير الفائدة المتقدمة تطلعت نوازع قلبه إلى استفادة ما بعدها فإذا كررت له فائدة واحدة مرتين سئمتها نفسه فكان اللائق بهذا المقصود أن يجدد له سلاما غير الأول يسره به كما سره بالأول وهو السلام العام الشامل ولما فرغ الكاتب من فصول كتابه وختمها أتى بالواو العاطفة مع السلام المعرف فقال: والسلام عليكم أي وبعد هذا كله السلام عليكم وقد تقدم أن السلام إذا انبنى على اسم مجرور قبله وكان سلام رد لا ابتداء فإنه يكون معرفا نحو وعليك السلام ولما كان سلام المكاتب ها هنا ليس بسلام رد قدم السلام على المجرور فقال والسلام عليكم وأتى باللام لتفيد تجديد سلام آخر والله تعالى أعلم وهذه فصاحة غريبة وحكمة سلفية موروثة عن سلف الأمة وعن الصحابة في مكاتباتهم وهكذا كانوا يكتبون إلى نبيهم

صلوات الله وسلامه عليه وقد فرغنا من جواب السؤال التاسع المتعلق بواو العطف .

فصل:

وأما السؤال العاشر : وهو السر في نصب سلام ضيف إبراهيم الملائكة ورفع سلامه

فالجواب: أنك قد عرفت قول النحاة فيه أن سلام الملائكة تضمن جملة فعلية لأن نصب السلام يدل على سلمنا عليك سلاما وسلام إبراهيم تضمن جملة اسمية لأن رفعه يدل على أن المعنى سلام عليكم والجملة الاسمية تدل على الثبوت والتقرر والفعلية تدل على الحدوث والتجدد فكان سلامه عليهم أكمل من سلامهم عليه وكان له من مقامات الرد ما يليق بمنصبه صلى الله عليه وسلم وهو مقام الفضل إذ حياهم بأحسن من تحيتهم هذا تقرير ما قالوه

*(185/233)*

---

وعندي فيه جواب أحسن من هذا وهو أنه لم يقصد حكاية سلام الملائكة فنصب قوله سلاما مفعول القول المفرد كأنه قيل قالوا قولا سلاما وقالوا سدادا وصوابا ونحو ذلك فإن القول إنما تحكي به الجمل وأما المفرد فلا يكون محكيا به بل منصوب به انتصاب المفعول به ومن هذا قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً ﴾ ليس المراد أنهم قالوا هذا

اللفظ المفرد المنصوب وإنما معناه قالوا قولا سلاما مثل سدادا وصوابا وسمي القول سلاما لأنه يؤدي معنى السلام ويتضمنه من رفع الوحشة وحصول الإستئناس وحكى عن إبراهيم لفظ سلامه فأتى به على لفظه مرفوعا بالابتداء محكيا بالقول ولولا قصد الحكاية لقال سلاما بالنصب لأن ما بعد القول إذا كان مرفوعا فعلى الحكاية ليس إلا فحصل من الفرق بين الكلامين في حكاية سلام إبراهيم ورفعه ونصب ذلك إشارة إلى معنى لطيف جدا وهو أن قوله سلام عليكم من دين الإسلام المتلقي عن إمام الحنفاء وأبي الأنبياء وأنه من ملة إبراهيم التي أمر الله بها وباتباعها فحكى لنا قوله ليحصل الإقتداء به والإتباع له ولم يحك قول أضيافه وإنما أخبر به على الجملة دون التفصيل والله أعلم فزن هذا الجواب والذي قبله بميزان غير جائر يظهر لك أقواهما وبالله التوفيق .

فصل:

وأما السؤال الحادي عشر : وهو نصب السلام من قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً ﴾ ورفعه في قوله حكاية عن مؤمني أهل الكتاب ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ فالجواب عنه أن الله سبحانه مدح عباده الذين ذكرهم في هذه الآيات بأحسن أوصافهم وأعمالهم فقال: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً ﴾ فسلاما هنا صفة لمصدر محذوف

فضحه به فالرب تعالى يستره والشيطان يجهد في كشف ستره وفضيحته فيغتر العبد ويقول هذا ذنب لم يره إلا الله تعالى ولم يشعر بأن عدوه ساع في إذاعته وفضيحته وقل من يتفطن من الناس لهذه الدقيقة ومن شره أنه إذا نام العبد عقد على رأسه عقدا تمنعه من اليقظة كما في صحيح البخاري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ويعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقدة يضرب على كل عقدة مكانها عليك ليل طويل فارقد فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقده فإن توضأ انحلت عقدة فإن صلى انحلت عقدة كلها فأصبح نشيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان " رواه البخاري ومسلم ومن شره أن يبول في أذن العبد حتى ينام إلى الصباح كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ذكر عنده رجل نام ليله حتى أصبح قال: "ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه أو قال في أذنيه" رواه البخاري رواه البخاري ومن شره أنه قعد لابن آدم بطرق الخير كلها فما من طريق من طرق الخير إلا والشيطان مرصد عليه يمنعه بجهده أن يسلكه فإن خالفه وسلكه ثبطه فيه وعوقه وشوش عليه بالمعارضات والقواطع فإن عمله وفرغ منه قيض له ما يبطل أثره ويرده على حافرته ويكفي من شره أنه أقسم بالله ليقعدن لبني آدم صراطه المستقيم وأقسم ليأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولقد بلغ شره أن أعمل المكيدة وبالغ في الحيلة حتى أخرج آدم من الجنة ثم لم

يكفه ذلك حتى استقطع من أولاده شرطة النار من كل ألف وتسعة وتسعين ثم لم يكفه ذلك حتى أعمل الحيلة في إبطال دعوة الله من الأرض وقصد أن تكون الدعوة له وأن يعبد من دون الله فهو ساع بأقصى جهده على إطفاء نور الله وإبطال دعوته وإقامة دعوة الكفر والشرك ومحو التوحيد وأعلامه من الأرض ويكفي من شره أنه تصدى لإبراهيم خليل الرحمن حتى رماه قومه بالمنجنيق في النار فرد الله تعالى كيده عليه وجعل النار على خليله بردا

*(187/233)*

---

وسلاما وتصدى للمسيح صلى الله عليه وسلم حتى أراد اليهود قتله وصلبه فرد الله كيده وصان المسيح ورفعه إليه وتصدى لزكريا ويحيى

لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ فإنها وصف لطائفة من مؤمني أهل الكتاب قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة المكرمة فآمنوا به فغيرهم المشركون وقالوا: قبحتم من وفد بعثكم قومكم لتعلموا خبر الرجل ففارقتم دينكم وتبعتموه ورغبتم عن دين قومكم فأخبر عنهم بأنهم خاطبوهم خطاب متاركة وإعراض وهجر جميل فقالوا: ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ وكان رفع السلام متعينا لأنه حكاية ما قد وقع

ونصب السلام في آية الفرقان متعينا لأنه تعليم وإرشاد لما هو الأكمل والأولى للمؤمن أن يعتمده إذا خاطبه الجاهل فتأمل هذه الأسرار التي أدناها يساوي رحلة والله تعالى المحمود وحده على ما من به وأنعم.

وهي المواهب من رب العباد فما . . . يقال لولا ولا هلا ولا فلما

فصل:

وأما السؤال الثاني عشر: وهو ما الحكمة في تسليم الله على أنبيائه ورسله والسلام هو طلب ودعاء فكيف يتصور من الله فهذا سؤال له شأن ينبغي الاعتناء به ولا يهمل أمره وقل من يدرك سره إلا من رزقه الله فهما خاصا وعناية وليس هذا من شأن أبناء الزمان الذين غاية فاضلهم نقلا أن يحكي قيلا وقالا وغاية فاضلهم بحثا أن يبدي احتمالا ويبرز إشكالا وأما تحقيق العلم كما ينبغي.

فللحروب أناس قائمون بها . . . وللدواوين كتاب وحساب

*(188/233)*

---

وقد كان الأولى بنا الإمساك وكف عنان القلم وأن نجري معهم في ميدانهم ونخاطبهم بما يألفونه وأن لا نجلوا عرائس المعاني على ضرير ولا نزف خودها إلى عنين ولكن هذه سلعة

وبضاعة لها طلا وعروس لها خطاب فستصير إلى أهلها وتهدي إلى بعلها ولا تستطل الخطابة فإنها نفثة مصدور فلنرجع إلى المقصود فنقول لا ريب أن الطلب يتضمن أمورا ثلاثة طالبا ومطلوبا ومطلوبا منه ولا تتقوم حقيقته إلا بهذه الأركان الثلاثة وتغاير هذه ظاهر إذا كان الطالب يطلب شيئا من غيره كما هو الطلب المعروف مثل من يأمر غيره وينهاه ويستفهمه وأما إذا كان طالبا من نفسه فهنا يكون الطالب هو المطلوب منه ولم يكن هنا إلا ركنان طالب ومطلوب والمطلوب منه هو الطالب نفسه فإن قيل: كيف يعقل اتحاد الطالب والمطلوب منه

وهما حقيقتان متغايرتان فكما لا يتحد المطلوب والمطلوب منه ولا المطلوب والطالب فكذلك لا يتحد الطالب والمطلوب منه فكيف يعقل طلب الإنسان من نفسه قيل هذا هو الذي أوجب غموض المسألة وإشكالها ولا بد من كشفه وبيانه فنقول الفرق بين الإرادة والطلب الطلب من باب الإرادات والمريد كما يريد من غيره أن يفعل شيئا فكذلك يريد من نفسه هو أن يفعله والطلب النفسي وإن لم يكن الإرادة فهو أخص منها والإرادة كالجنس له فكما يعقل أن يكون المريد يريد من نفسه فكذلك يطلب من نفسه وللفرق بين الطلب والإرادة وما قيل في ذلك مكان غير هذا والمقصود أن طلب الحي من نفسه أمر معقول يعلمه كل أحد من نفسه وأيضا فمن المعلوم أن الإنسان يكون آمرا لنفسه ناهيا لنفسه قال تعالى: ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ وقال: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ

الْهَوَى ﴾ وقال الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله . . . عار عليك إذا فعلت عظيم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها . . . فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

(189/233)

---

وهذا أكثر من إيراد شواهده فإذا كان معقولا أن الإنسان يأمر نفسه وينهاها والأمر والنهي طلب مع أن فوقه آمرا وناهيا فكيف يستحيل ممن لا آمر فوقه ولا ناه أن يطلب من نفسه فعل ما يحبه وترك ما يبغضه وإذا عرف هذا عرف سر سلامه تبارك وتعالى على أنبيائه ورسله وأنه طلب من نفسه لهم السلامة فإن لم يتسع لهذا ذهنك فسأزيدك إيضاحا وبيانا وهو أنه قد أخبر سبحانه في كتابه أنه كتب على نفسه الرحمة وهذا إيجاب منه على نفسه فهو الموجب وهو متعلق الإيجاب الذي أوجبه فأوجب بنفسه على نفسه وقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم هذا المعنى بما يوضحه كل الإيضاح ويكشف حقيقته بقوله في الحديث الصحيح: "لما قضى الله الخلق بيده على نفسه في كتاب فهو موضوع عنده فوق العرش إن رحمتي تغلب غضبي : وفي لفظ "سبقت غضبي" رواه البخاري ومسلم والترمذي فتأمل: كيف أكد هذا الطلب والإيجاب

بذكر فعل الكتاب وصفة اليد ومحل الكتابة وأنه كتاب وذكر مستقر الكتاب وأنه عنده فوق العرش فهذا إيجاب مؤكد بأنواع من التأكيد وهو إيجاب منه على نفسه ومنه قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فهذا حق أحقه على نفسه فهو طلب وإيجاب على نفسه بلفظ الحق ولفظ على ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح لمعاذ " أتدري ما حق الله على عباده قلت: الله ورسوله أعلم قال: حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك قلت: الله ورسوله أعلم قال: حقهم عليه أن لا يعذبهم بالنار " رواه البخاري ومسلم ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: في غير حديث "من فعل كذا وكذا كان حقا على الله أن يفعل به كذا وكذا" في الوعد والوعيد فهذا الحق هو الذي أحقه على نفسه ومنه الحديث الذي في المسند من حديث أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم في قول الماشي إلى الصلاة "أسألك بحق ممشاي هذا وبحق السائلين عليك" فهذا حق للسائلين عليه هو أحقه على نفسه لا أنهم هم أوجبوه ولا أحقوه بل أحق على نفسه أن يجيب من سأله كما أحق على نفسه في حديث معاذ أن لا يعذب من عبده فحق السائلين عليه أن يجيبهم وحق العابدين له أن يثيبهم والحقان هو الذي أحقهما

وأوجبهما لا السائلون ولا العابدون بل هو سبحانه .

ما للعباد عليه حق واجب . . . كل ولا سعي لديه ضائع

إن عذبوا فبعدله أو نعموا . . . فبفضله وهو الكريم الواسع

(191/233)

---

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾ فهذا الوعد هو الحق الذي أحقه على نفسه وأوجبه ونظير هذا ما أخبر به سبحانه من قسمه ليفعلنه نحو: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وقوله: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ وقوله: ﴿ نُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ وقوله: ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وقوله: ﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ وقوله: ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ إلى أمثال ذلك مما أخبر أن يفعله إخبارا مؤكدا

(192/233)

بالقسم والقسم في مثل هذا يقتضي الحض والمنع بخلاف القسم على ما فعله تعالى مثل قوله: ﴿ يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ والقسم على ثبوت ما ينكره المكذبون فإنه توكيد للخبر وهو من باب القسم المتضمن للتصديق ولهذا يقول الفقهاء اليمين ما اقتضى حقا أو منعا أو تصديقا أو تكذيبا فالقسم الذي يقتضي الحض والمنع هو من باب الطلب لأن الحض والمنع طلب ومن هذا ما أخبر به لا بد أن يفعله لسبق كلماته به كقوله: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ وقوله: ﴿ وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ وقوله: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ فهذا إخبار عما يفعله ويتركه أنه لسبق كلمته به فلا يتغير ومن هذا تحريمه سبحانه ما حرمه على نفسه كقوله فيما يرويه عن رسوله صلى الله علي: " يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما " رواه مسلم والترمذي فهذا التحريم نظير ذلك الإيجاب ولا يلتفت إلى ما قيل في ذلك من التأويلات الباطلة فإن الناظر في سياق هذه المواضع ومقصودها به يجزم ببعد المراد منها كقول بعضهم إن معنى الإيجاب والكتاب في ذلك كله هو إخباره به ومعنى كتب ربكم على نفسه الرحمة أخبر بها عن نفسه وقوله: "حرمت الظلم على نفسي" أي أخبرت أنه لا يكون ونحو ذلك مما يتيقن المرء أنه ليس هو المراد بالتحريم بل الإخبار هاهنا هو الإخبار بتحريمه وإيجابه على نفسه

فمتعلق الخبر هو التحريم والإيجاب ولا يجوز إلغاء متعلق الخبر فإنه يتضمن إبطال الخبر ولهذا إذا قال القائل: أوجبت على نفسي صوما فإن متعلقه وجوب الصوم على نفسه فإذا قيل: إن معناه أخبرت بأني أصوم كان ذلك إلغاء وإبطالا لمقصود الخبر فتأمله وإذا كان معقولا من الإنسان أنه يوجب على نفسه ويحرم ويأمرها وينهاها مع كونه تحت أمر غيره ونهيه

(193/233)

---

فالآمر الناهي الذي ليس فوقه آمر ولا ناه كيف يمتنع في حقه أن يحرم على نفسه ويكتب على نفسه وكتابته على نفسه سبحانه تستلزم إرادته لما كتبه ومحبته له ورضاه به وتحريمه على نفسه يستلزم بغضه لما حرمه وكراهته له وإرادة أن لا يفعله فإن محبته للفعل تقتضي وقوعه منه وكراهته لأن يفعله تمنع وقوعه منه وهذا غير ما يحبه سبحانه من أفعال عباده ويكرهه فإن محبة ذلك منهم لا تستلزم وقوعه وكراهته منهم لا تمنع وقوعه ففرق بين فعله هو سبحانه وبين فعل عباده الذي يقع مع كراهته وبغضه له ويتخلف مع محبته له ورضاه به بخلاف فعله هو سبحانه فهذا نوع وذاك نوع فتدبر هذا الموضع الذي هو منزلة أقدام الأولين والآخرين إلا من عصم الله وهداه إلى صراط مستقيم

وتأمل أين تكون محبته وكراهته موجبة لوجود الفعل ومانعة من وقوعه وأين تكون المحبة منه والكراهة لا توجب وجود الفعل ولا تمنع وقوعه ونكتة المسألة هي الفرق بين ما يريد أن يفعله هو سبحانه وما لا يريد أن يفعله وبين ما يحبه من عبده أن يفعله العبد أو لا يفعله ومن حقق هذا المقام زالت عنه شبهات ارتبكت فيها طوائف من النظار والمتكلمين والله الهادي إلى سواء السبيل واعلم أن الناس في هذا المقام ثلاث طوائف فطائفة منعت أن يجب عليه شيء أو يحرم عليه شيء بإيجابه وتحريمه وهم كثير من مثبتي القدر الذين ردوا أقوال القدرية النفاة وقابلوهم أعظم مقابلة نفوا لأجلها الحكم والأسباب والتعليل وأن يكون العبد فاعلا أو مختارا الطائفة الثانية بإزاء هؤلاء أوجبوا على الرب وحرموا أشياء بعقولهم جعلوها شريعة له يجب عليه مراعاتها من غير أن يوجبها هو على نفسه ولا حرمها وأوجبوا عليه من جنس ما يجب على العباد وحرموا عليه من جنس ما يحرم عليهم ولذلك

*(194/233)*

---

كانوا مشبهة في الأفعال والمعتزلة منهم جمعوا بين الباطلين تعطيل صفاته وجحد نعوت كماله والتشبيه له بخلقه فيما أوجبوه عليه وحرموه فشبهوا في أفعاله وعطلوا في صفات كماله

فجحدوا بعض ما وصف به نفسه من صفات الكمال وسموه توحيدا وشبهوه بخلقه فيما يحسن منهم ويقبح من الأفعال وسموا ذلك عدلا وقالوا نحن أهل العدل والتوحيد فعد لهم إنكار قدرته ومشيئته العامة الشاملة التي لا يخرج

(195/233)

---

عنها شيء من الموجودات ذواتها وصفاتها وأفعالها وتوحيدهم إلحادهم في أسمائه الحسنى وتحريف معانيها عما هي عليه فكان توحيدهم في الحقيقة تعطيلا وعدلهم شركا وهذا مقرر في موضعه والمقصود أن هذه الطائفة مشبهة في الأفعال معطلة في الصفات وهدى الله الأمة الوسط لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه فلم يقيسوه بخلقه ولم يشبهوه بهم في شيء من صفاته ولا أفعاله ولم ينفوا ما أثبته لنفسه من ذلك ولم يوجبوا عليه شيئا ولم يحرموا عليه شيئا بل أخبروا عنه بما أخبر عن نفسه وشهدت قلوبهم ما في ضمن ذلك الإيجاب والتحريم من الحكم والغايات المحمودة التي يستحق عليها كمال الحمد والثناء فإن العباد لا يحصون ثناء عليه أبدا بل هو كما أثنى على نفسه وهذا بين بحمد الله عند أهل العلم والإيمان مستقر في فطرهم ثابت في قلوبهم يشهدون انحراف المنحرفين في الطرفين وهم لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء بل هم إلى الله تعالى ورسوله متحيزون وإلى محض سنته منتسبون

يدينون دين الحق أنى توجهت ركائبه ويستقرون معه حيث استقرت مضاربه لا تستفزهم بدوات آراء المختلفين ولا تزلزلهم شبهات المبطلين فهم الحكام على أرباب المقالات والمميزون لما فيها من الحق والشبهات يردون على كل باطلة ويوافقونه فيما معه في الحق فهم في الحق سلمه وفي الباطل حربه لا يميلون مع طائفة على طائفة ولا يجحدون حقها لما قالته من باطل سواه بل هم ممتثلون قول الله تعالى يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون المائدة 8 فإذا كان قد نهى عباده أن يحملهم بغضهم لأعدائه أن لا يعدلوا عليهم مع ظهور عداوتهم ومخالفتهم وتكذيبهم لله ورسوله فكيف يسوغ لمن يدعي الإيمان أن يحلمه بغضه لطائفة منتسبة إلى الرسول تصيب وتخطيء على أن لا يعدل فيهم بل يجرد لهم العداوة وأنواع الأذى ولعله لا يدري أنهم أولى بالله

*(196/233)*

---

ورسوله وما جاء به منه علما وعملا ودعوة إلى الله على بصيرة وصبرا من قومهم على الأذى في الله وإقامة لحجة الله ومعذرة لمن خالفهم بالجهل لا كمن نصب معالمه صادرة عن آراء الرجال فدعا إليها وعاقب عليها وعادى من خالفها بالعصبية وحمية الجاهلية والله

المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا به وليكن هذا تمام الكلام في هذا السؤال فقد تعدينا به طوره وإن لم نقدره قدره .

فصل:

وأما السؤال الثالث عشر: وهو ما السر في كونه سلم عليهم بلفظ النكرة وشرع لعباده أن يسلموا على رسوله بلفظ المعرفة وكذلك تسليمهم على نفوسهم وعلى عباده الصالحين فقد تقدم بيان الحكمة في كون السلام ابتداء بلفظ النكرة ونزيد هنا فائدة أخرى وهي أنه قد تقدم أن في دخول اللام في السلام أربعة فوائد وهذا المقام مستغن عنها لأن المتكلم بالسلام هو الله تعالى فلم يقصد تبركا بذكر الاسم كما يقصد العبد فإن التبرك استدعاء البركة واستجلابها والعبد هو الذي يقصد ذلك ولا قصد أيضا تعرضا وطلبا على ما يقصده العبد ولا قصد العموم وهو أيضا غير لائق هنا لأن سلاما منه سبحانه كاف من كل سلام ومغن عن كل تحية ومقرب من كل أمنية فأدنى سلام منه ولا أدنى هناك يستغرق الوصف ويتم النعمة ويدفع البؤس ويطيب الحياة ويقطع مواد العطب والهلاك فلم يكن لذكر الألف واللام هناك معنى وتأمل قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ كيف جاء بالرضوان مبتدأ منكرا مخبرا عنه بأنه أكبر من كل ما وعدوا به فأيسر شيء من

رضوانه أكبر الجنات وما فيها من المساكن الطيبة وما حوته ولهذا لما يتجلى لأوليائه في جنات عدن ويمنيهم أي

(197/233)

---

شيء يريدون فيقولون ربنا وأي شيء نريد أفضل مما أعطيتنا فيقول تبارك وتعالى: "إن لكم عندي أفضل من ذلك أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا" وقد بان بهذا الفرق بين سلام الله على رسله وعباده وبين سلام العباد عليهم فإن سلام العباد لما كان متضمنا لفوائد الألف واللام التي تقدمت من قصد التبرك باسمه السلام والإشارة إلى طلب السلام له وسؤالها من الله باسم السلام وقصد عموم السلام كان الأحسن في حق المسلم على الرسول أن يقول السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته وإن كان قد ورد سلام عليك فالمعرفة أكثر وأصح وأتم معنى فلا ينبغي العدول عنه ويشح في هذا المقام بالألف واللام والله أعلم.

فصل:

وقد عرفت بهذا جواب السؤال الرابع عشر وهو ما الحكمة في تسليم الله تعالى على يحيى بلفظ النكرة وتسليم المسيح على نفسه بلفظ المعرفة لا ما يقوله من لا تحصيل له أن سلام

يحيى جرى مجرى ابتداء السلام في الرسالة والمكاتبة فنكر وسلام المسيح جرى مجرى السلام في آخر المكاتبة فعرف فإن السورة كالقصة الواحدة ولا يخفى فساد هذا الفرق فإنهما سلامان متغايران من مسلمين أحدهما : سلام الله تعالى على عباده والثاني : سلام العبد على نفسه فكيف يبني أحدهما على الآخر وكذلك قول من قال: إن الثاني عرف لتقدم ذكره في اللفظ فكانت الألف واللام فيه للعهد وهذا أقرب من الأول لإمكان أن يكون المسيح أشار إلى السلام الذي سلمه الله على يحيى فأراد أن لي من السلام في مثل هذه المواطن الثلاثة مثل ما حصل له والله أعلم .

فصل:

*(198/233)*

---

وأما السؤال الخامس عشر : وهو ما الحكمة في تقييد السلام في قصتي يحيى والمسيح صلوات الله عليهما بهذه الأوقات الثلاثة فسره والله أعلم أن طلب السلامة يتأكد في المواضع التي هي مظان العطب ومواطن الوحشة وكلما كان الموضع مظنة ذلك تأكد طلب السلامة وتعلقت بها الهمة فذكرت هذه المواطن الثلاثة لأن السلامة فيها آكد وطلبها أهم والنفس عليها أحرص لأن العبد فيها قد انتقل من دار كان مستقرا فيها موطن النفس على

صحبتها وسكناها إلى دار هو فيها معرض للآفات والمحن والبلاء فإن الجنين من حين خرج إلى هذه الدار انتصب لبلائها وشدائدها ولأوائها ومحنها وأفكارها كما أفصح الشاعر بهذا المعنى حيث يقول:

تأمل بكاء الطفل عند خروجه . . . إلى هذه الدنيا إذا هو يولد

تجد تحته سرا عجيبا كأنه . . . بكل الذي يلقاه منه مهدد

وإلا فما يبكيه منها وإنها . . . لأوسع مما كان فيه وأرغد

ولهذا من حين خرج ابتدرته طعنة الشيطان في خاصرته فبكى لذلك ولما حصل له من الوحشة بفراق وطنه الأول وهو الذي أدركه الأطباء والطبائعيون وأما ما أخبر به الرسول فليس في صناعتهم ما يدل عليه كما ليس فيها ما ينفيه فكان طلب السلامة في هذه المواطن من آكد الأمور الموطن الثاني خروجه من هذه الدار إلى دار البرزخ عند الموت ونسبة الدنيا إلى تلك الدار كنسبة داره في بطن أمه إلى الدنيا تقريبا وتمثيلا وإلا فالأمر أعظم من ذلك وأكبر وطلب السلامة أيضا عند انتقاله إلى تلك الدار من أهم الأمور الموطن الثالث موطن يوم القيامة يوم يبعث الله تعالى الأحياء ولا نسبة لما قبله من الدور إليه وطلب السلامة فيه آكد من جميع ما قبله فإن عطبه لا يستدرك وعثرته لا تقال وسقمه لا يداوى وفقره لا يسد فتأمل

كيف خص هذه المواطن بالسلام لشدة الحاجة إلى السلامة فيها واعرف قدر القرآن وما تضمنه من الأسرار وكنوز العلم والمعارف التي عجزت عقول الخلائق عن إحصاء عشر معشارها وتأمل ما في السلام مع الزيادة على السلامة من الأنس وذهاب الوحشة ثم نزل ذلك على الوحشة الحاصلة للعبد في هذه المواطن الثلاثة عند خروجه إلى عالم الإبتلاء وعند معاينته هول المطلع إذا قدم على الله وحيدا مجردا عن كل مؤنس إلا ما قدمه من صالح عمل وعند موافاته القيامة مع الجمع الأعظم ليصير إلى إحدى الدارين التي خلق لها واستعمل بعمل أهلها فأي موطن أحق بطلب السلامة من هذه المواطن فنسأل الله السلامة فيها بمنه وكرمه ولطفه وجوده وإحسانه .

فصل:

وأما السؤال السادس عشر: وهو ما الحكمة في تسليم النبي صلى الله عليه وسلم على من اتبع الهدى في كتابه إلى هرقل بلفظ النكرة وتسليم موسى عليهم بلفظ المعرفة فالجواب عنه أن تسليم النبي صلى الله عليه وسلم تسليم ابتدائي ولهذا صدر به الكتاب حيث قال من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى ففي تنكيره ما في تنكير سلام من الحكمة وقد تقدم بيانها وأما قول موسى والسلام على من اتبع الهدى فليس بسلام تحية فإنه لم يبتدئ به فرعون بل هو خبر محض فإن من اتبع الهدى له السلام المطلق

دون من خالفه فإنه قال له: ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ أفلا ترى أن هذا ليس بتحية في ابتداء الكلام ولا خاتمته وإنما وقع متوسطا بين الكلامين إخبارا محضا عن وقوع السلامة وحلولها على من اتبع الهدي ففيه استدعاء لفرعون وترغيب له بما جبلت النفوس على حبه

(200/233)

---

وإيثاره من السلامة وأنه إن اتبع الهدى الذي جاءه به فهو من أهل السلام والله تعالى أعلم وتأمل حسن سياق هذه الجمل وترتيب هذا الخطاب ولطف هذا القول اللين الذي سلب القلوب حسنه وحلاوته مع جلالته وعظمته كيف ابتدأ الخطاب بقوله إنا رسول ربك وفي ضمن ذلك إنا لم نأتك لننازعك ملكك ولا لنشركك فيه بل نحن عبدان مأموران مرسلان من ربك إليك وفي إضافة اسم الرب إليه هنا دون إضافته إليهما استدعاء لسمعه وطاعته وقبوله كما يقول الرسول للرجل من عند مولاه أنا رسول مولاك إليك وأستاذك وإن كان أستاذهما معا ولكن ينبهه بإضافته إليه على السمع والطاعة له ثم إنهما طلبا منه أن يرسل معهما بني إسرائيل ويخلي بينهم وبينهما ولا يعذبهم ومن طلب من غيره ترك العدوان والظلم

وتعذيب من لا يستحق العذاب فلم يطلب منه شططا ولم يرهقه من أمره عسرا بل طلب منه غاية النصف ثم أخبره بعد الطلب بثلاث إخبارات أحدها قوله تعالى: ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ ﴾ فقد برئنا من عهدة نسبتك لنا إلى التقول والافتراء بما جئناك به من البرهان والدلالة الواضحة فقد قامت الحجة ثم بعد ذلك للمرسل إليه حالتان إما أن يسمع ويطيع فيكون من أهل الهدى والسلام على من اتبع الهدى وإما أن يكذب ويتولى فالعذاب على من كذب وتولى فجمعت الآية طلب الإنصاف وإقامة الحجة وبيان ما يستحق السامع المطيع وما يستحقه المكذب المتولي بألطف خطاب وأليق قول وأبلغ ترغيب وترهيب .

فصل:

وأما السؤال السابع عشر : وهو أن قوله: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾ هل السلام من الله تعالى فيكون المأمور به الحمد والوقف التام عليه أو هو داخل في القول والأمر بهما جميعا فالجواب عنه أن الكلام يحتمل الأمرين ويشهد لكل



---

منهما ضرب من الترجيح فيرجح كونه داخلا في جملة القول بأمور منها اتصاله به وعطفه عليه من غير فاصل وهذا يقتضي أن يكون فعل القول واقعا على كل واحد منهما هذا هو

الأصل ما لم يمنع منه مانع ولهذا إذا قلت الحمد لله وسبحان الله فإن التسبيح هنا داخل في المقول ومنها أنه إذا كان معطوفا على المقول كان عطف خبر على خبر وهو الأصل ولو كان منقطعا عنه كان عطفا على جملة الطلب وليس بالحسن عطف الخبر على الطلب ومنها أن قوله: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾ ظاهر في أن المسلم هو القائل الحمد لله ولهذا أتى بالضمير بلفظ الغيبة ولم يقل سلام على عبادي ويشهد لكون السلام من الله تعالى أمور أحدها: مطابقته لنظائره في القرآن من سلامه تعالى بنفسه على عباده الذين اصطفى كقوله سلام على نوح في العالمين سلام على إبراهيم سلام على موسى وهارون سلام على آل ياسين ومنها أن عباده الذين اصطفى هم المرسلون والله سبحانه يقرن بين تسبيحه لنفسه وسلامه عليهم وبين حمده لنفسه وسلامه عليهم أما الأول فقال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ وقد ذكر تنزيهه لنفسه عما لا يليق بجلاله ثم سلامه على رسله وفي اقتران السلام عليهم بتسبيحه لنفسه سر عظيم من أسرار القرآن يتضمن الرد على كل مبطل ومبتدع فإنه نزه نفسه تنزيها مطلقا كما نزه نفسه عما يقول خلقه فيه ثم سلم على المرسلين وهذا يقتضي سلامتهم من كل ما يقول المكذبون لهم المخالفون لهم وإذا سلموا من كل ما رماهم به أعداؤهم لزم سلامة كل ما جاءوا به من الكذب والفساد وأعظم ما جاءوا به التوحيد ومعرفة الله ووصفه بما يليق بجلاله مما وصف به نفسه على ألسنتهم وإذا سلم ذلك من الكذب والمحال والفساد فهو

الحق المحض وما خالفه هو الباطل والكذب المحال وهذا المعنى بعينه في قوله: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى

(202/233)

---

عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾ فإنه يتضمن حمده بما له من نعوت الكمال وأوصاف الجلال والأفعال الحميدة والأسماء الحسنى وسلامة رسله من كل عيب ونقص وكذب وذلك يتضمن سلامة ما جاءوا به من كل باطل فتأمل هذا السر في اقتران السلام على رسله بحمده وتسبيحه فهذا يشهد لكون السلام هنا من الله تعالى كما هو في آخر الصافات وأما عطف الخبر على الطلب فما أكثره فمنه قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ ﴾ وقوله: ﴿ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ وقوله: ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ ونظائره كثيرة جدا وفصل الخطاب: في ذلك أن يقال الآية تتضمن الأمرين جميعا وتنتظمهما انتظاما واحدا فإن الرسول هو المبلغ عن الله كلامه وليس فيه إلا البلاغ والكلام كلام الرب تبارك وتعالى فهو الذي حمد نفسه وسلم على عباده وأمر رسوله بتبليغ ذلك فإذا قال الرسول الحمد لله وسلام على عباده الذي اصطفى كان قد حمد الله وسلم على عباده بما حمد به نفسه وسلم به هو على

عباده فهو سلام من الله ابتداء ومن المبلغ بلاغا ومن العباد اقتداء وطاعة فنحن نقول كما أمرنا ربنا تبارك وتعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾ ونظير هذا قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فهو توحيد منه لنفسه وأمر للمخاطب بتوحيده فإذا قال العبد ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ كان قد وحد الله بما وحد به نفسه وأتى بلفظة قل تحقيقا لهذا المعنى وأنه مبلغ محض قائل لما أمر بقوله والله أعلم وهذا بخلاف قوله: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ فإن هذا أمر محض بإنشاء الاستعاذة لا تبليغ لقوله: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ فإن الله لا يستعيذ من أحد وذلك عليه محال بخلاف قوله: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فإنه خبر عن توحيده وهو سبحانه يخبر عن نفسه بأنه الواحد الأحد فتأمل هذه النكتة البديعة والله المستعان.

فصل:

*(203/233)*

---

وأما السؤال الثامن عشر: وهو نهى النبي صلى الله عليه وسلم من قال له عليك السلام عن ذلك وقال: "لا تقل عليك السلام فإن عليك السلام تحية الموتى" فما أكثر من ذهب عن الصواب في معناه وخفي عليه مقصوده وسره فتعسف ضروبا من التأويلات

المستنكرة الباردة ورد بعضهم الحديث وقال قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: في تحية الموتى "السلام عليكم دار قوم مؤمنين" رواه مسلم قالوا: وهذا أصح من حديث النهي وقد تضمن تقديم ذكر لفظ السلام فوجب المصير إليه وتوهمت طائفة أن السنة في سلام الموتى أن يقال عليكم السلام فرقا بين السلام على الأحياء والأموات وهؤلاء كلهم إنما أتوا ما أتوه من عدم فهمهم لمقصود الحديث فإن قوله صلى الله عليه وسلم: "عليك السلام تحية الموتى" ليس تشريعا منه وإخبارا عن أمر شرعي وإنما هو إخبار عن الواقع المعتاد الذي جرى على ألسنة الشعراء والناس فإنهم كانوا يقدمون اسم الميت على الدعاء كما قال قائلهم:

عليك سلام الله قيس بن عاصم . . . ورحمته ما شاء أن يترحما

وقول الذي رثى عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

عليك سلام من أمير وباركت . . . يد الله في ذاك الأديم الممزق

(204/233)

---

وهذا أكثر في أشعارهم من أن نذكره ها هنا والإخبار عن الواقع لا يدل على جوازه فضلا عن كونه سنة بل نهيه عنه مع إخباره بوقوعه يدل على عدم مشروعيته السنة في السلام

تقديم لفظه على لفظ المسلم عليه وأن السنة في السلام تقديم لفظه على لفظ المسلم عليه في السلام على الأحياء وعلى الأموات فكما لا يقال في السلام على الأحياء عليكم السلام فكذلك لا يقال في سلام الأموات كما دلت السنة الصحيحة على الأمرين وكأن الذي تخيله القوم من الفرق أن المسلم على غيره لما كان يتوقع الجواب وأن يقال له وعليك السلام بدءوا باسم السلام على المدعو له توقعا لقوله وعليك السلام وأما الميت فما لم يتوقعوا منه ذلك قدموا المدعو له على الدعاء فقالوا: عليك السلام وهذا الفرق لو صح كان دليلا على التسوية بين الأحياء والأموات في السلام فإن المسلم على أخيه الميت يتوقع الجواب أيضا قال ابن عبد البر: ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما من رجل يمر بقبر أخيه كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد

*(205/233)*

---

عليه السلام" صحيح وبالجملة فهذا الخيال قد أبطلته السنة الصحيحة تشريع السلام على الأحياء والأموات وهنا نكتة بديعة ينبغي التفطن لها وهي أن السلام شرع على الأحياء والأموات بتقديم اسمه على المسلم عليهم لأنه دعاء بخير والأحسن في دعاء الخير أن يتقدم الدعاء به على المدعو له كقوله تعالى: ﴿ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾

وقوله: ﴿ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ ﴿ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ ﴾ ﴿ سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ ﴾ ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ وأما الدعاء بالشر فيقدم فيه المدعو عليه المدعو به غالبا كقوله تعالى لإبليس: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي ﴾ وقوله: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ ﴾ وقوله: ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ وقوله: ﴿ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ ﴾ وسر ذلك والله أعلم أن في الدعاء بالخير قدموا اسم الدعاء المحبوب الذي تشتهيه النفوس وتطلبه ويلذ للسمع لفظه فيبدأ السمع بذكر الاسم المحبوب المطلوب ويبدأ القلب بتصوره فيفتح له القلب والسمع فيبقى السامع كالمنتظر لمن يحصل هذا وعلى من يحل فيأتي باسمه فيقول عليك أو لك فيحصل له من السرور والفرح ما يبعث على التحاب والتواد والتراحم الذي هو المقصود بالسلام وأما في الدعاء عليه ففي تقديم المدعو عليه إيذان باختصاصه بذلك الدعاء وأنه عليه وحده كأنه قيل له هذا عليك وحده لا يشركك فيه السامعون بخلاف الدعاء بالخير فإن المطلوب عمومه وكل ما عم به الداعي كان أفضل وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: "فضل عموم الدعاء على خصوصه كفضل السماء على الأرض" وذكر في ذلك حديثا مرفوعا عن علي أن النبي صلى الله عليه وسلم: مر به وهو يدعو فقال "يا علي عم فإن فضل العموم على الخصوص كفضل السماء على الأرض" وفيه فائدة ثانية أيضا وهي: أنه في الدعاء عليه إذا قال له عليك انفتح سمعه وتشوف قلبه إلى أي شيء يكون عليه فإذا ذكر له اسم المدعو به صادف قلبه

فارغا متشوفا لمعرفته فكان أبلغ في نكايته ومن فهم هذا فهم السر في حذف الواو في قوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ ففاجأهم وبغتهم عذابها وما أعد الله تعالى فيها فهم بمنزلة من وقف على باب لا يدري بما يفتح له من أنواع الشر إلا أنه متوقع منه شرا عظيما ففتح في وجهه وفاجأه ما كان يتوقعه وهذا كما تجد في الدنيا من يساق إلى السجن فإنه يساق إليه وبابه مغلق حتى إذا جاءه فتح الباب في وجهه ففاجأته روعته وألمه بخلاف ما لو فتح له قبل مجيئه وهذا بخلاف أهل الجنة فإنهم لما كانوا مساقين إلى دار الكرامة وكان من تمام إكرام المدعو الزائر أن يفتح له باب الدار فيجيء فيلقاه مفتوحا فلا يلحقه ألم الانتظار فقال في أهل الجنة ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ وحذف الجواب تفخيما لأمره وتعظيما لشأنه على عادتهم في حذف الجوابات لهذا المقصد وهذه الطريقة تريحك من دعوى زيادة الواو ومن دعوى كونها واو الثمانية لأن أبواب الجنة ثمانية فإن هذا لو صح فإنما يكون إذا كانت الثمانية منسوقة في اللفظ واحدا بعد واحد فينتهون إلى السبعة ثم يستأنفون العدد من الثمانية بالواو وهنا لا ذكر للفظ الثمانية في الآية ولا عدها فتأمله على أن في كون الواو تجيء للثمانية كلام آخر قد

ذكرناه في الفتح المكي وبينا المواضع التي ادعى فيها أن الواو للثمانية وأين يمكن دعوى ذلك وأين يستحيل فإن قيل فهذا ينتقض عليكم بأن سيد الخلائق صلى الله عليه وسلم يأتي باب الجنة فيلقاه مغلقا حتى يستفتحه قلنا هذا من تمام إظهار شرفه وفضله على الخلائق أن الجنة تكون مغلقة فلا تفتح لأهلها إلا على يديه فلو جاءها وصادفها مفتوحة فدخلها هو وأهلها لم يعلم الداخلون أن فتحها كان على يديه وأنه هو الذي استفتحها لهم ألا ترى أن الخلق إذا راموا دخول باب مدينة أو حصن وعجزوا ولم يمكنهم فتحه حتى جاء رجل ففتحه لهم أحوج ما كانوا إلى فتحه كان في ذلك من ظهور سيادته عليهم وفضله وشرفه ما لا يعلم لو جاء هو وهم فوجدوه مفتوحا وقد خرجنا عن المقصود وما أبعدنا ولا تستطل هذه النكت فإنك لا تكاد تجدها في غير هذا التعليق والله تعالى المان بفضله وكرمه .

فصل:

*(207/233)*

---

وأما السؤال التاسع عشر : وهو دخول الواو في قوله صلى الله عليه وسلم: "إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم " رواه البخاري ومسلم فقد استشكلها كثير من الناس كما ذكر في السؤال وقالوا الصواب حذفها وأن يقال عليكم قال الخطابي يرويه عامة المحدثين

بالواو وابن عيينة يرويه بحذفها وهو الصواب وذلك أنه إذا حذف الواو صار قولهم الذي قالوا بعينه مردودا عليهم وبإدخال الواو يقع الاشتراك معهم والدخول فيما قالوه لأن الواو حرف العطف والاجتماع بين الشيئين قلت: معنى ما أشار إليه الخطابي أن الواو في مثل هذا تقتضي تقرير الجملة وزيادة الثانية عليها كما إذا قلت زيد كاتب فقال المخاطب وشاعر فإنه يقتضي إثبات الكتابة له وزيادة وصف الشعر وكذلك إذا قلت لرجل فلان محب لك فقال: ومحسن إلي عدة أصحاب الكهف ومن هنا استنبط السهيلي في الروض: "أن عدة أصحاب الكهف سبعة قال لأن الله تعالى عطف عليهم الكلب بحرف الواو" فقال: ﴿ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ ولم يذكر الواو فيما قبل ذلك من كلامهم والواو تقتضي تقرير الجملة الأولى وما استنبطه حسن غير أنه إنما يفيد إذا كان المعطوف بالواو ليس داخلا في جملة قولهم بل يكون قد حكى سبحانه أنهم قالوا سبعة ثم أخبر تعالى أن ثامنهم الكلب فحينئذ يكون ذلك تقريرا لما قالوه وإخبارا بكون الكلب ثامنا وأما إذا كان الإخبار عن الكلب من جملة قولهم وأنهم قالوا وهذا وهذا لم يظهر ما قاله ولا تقتضي الواو في ذلك تقريرا ولا تصديقا فتأمله وأما قوله المحدثون يروونه بالواو فهذا الحديث رواه عبد الله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إن اليهود إذا سلم عليكم أحدهم فإنما يقول السام عليكم فقولوا وعليكم" رواه البخاري ومسلم وأبو داود قال أبو داود: "وكذلك رواه مالك عن

عبد الله بن دينار ورواه الثوري عن عبد الله بن دينار وقال فيه: "وعليكم" انتهى كلامه وأخرجه الترمذي والنسائي كذلك ورواه مسلم

(208/233)

---

وفي بعض طرقه فقل: عليك ولم يذكر الواو وحديث مالك الذي ذكره أبو داود وأخرجه البخاري في صحيحه وحديث سفيان الثوري متفق عليه كلها بالواو وأما ما أشار إليه الخطابي من حديث ابن عيينة فرواه النسائي في سننه بإسقاط الواو وإذا عرف هذا فإدخال الواو في الحديث لا تقتضي محذورا البتة وذلك لأن التحية التي يحيون بها المسلمين غايتها الإخبار بوقوع الموت عليهم وطلبه لأن السام معناه الموت فإذا حيوا به المسلم فرده عليهم كان من باب القصاص والعدل وكان مضمون رده أنا لسنا نموت دونكم بل وأنتم أيضا تموتون فما تمنيتموه لنا حال بكم واقع عليكم وأحسن من هذا أن يقال ليس في دخول الواو تقرير لمضمون تحيتهم بل فيه ردها وتقريرها لهم أي ونحن أيضا ندعو عليكم بما دعوتم به علينا فإن دعاءهم قد وقع فإذا رد عليهم المجيب بقوله وعليكم كان في إدخال الواو سر لطيف وهو الدلالة على أن هذا الذي طلبتموه لنا ودعوتم به هو بعينه مردود عليكم لا تحية غيره فإدخال الواو مفيد لهذه الفائدة الجليلة وتأمل هذا في مقابلة الدعاء بالخير إذا

قال غفر الله لك فقال له ولك المعنى أن هذه الدعوة بعينها مني لك ولو قلت غفر الله لك فقال لك لم يكن فيه إشعار بأن الدعاء الثاني هو الأول بعينه فتأمله فإنه بديع جدا وعلى هذا فيكون الصواب إثبات الواو كما هو ثابت في الصحيح والسنن فهذا ما ظهر لي في هذه اللفظة فمن وجد شيئًا فليلحقه بالهامش فيشكر الله له وعباده سعيه فإن المقصود الوصول إلى الصواب فإذا ظهر وضع ما عداه تحت الأرجل وقد ذكرنا هذه المسألة مستوفاة بما أمكننا في كتاب تهذيب السنن .

فصل:

*(209/233)*

---

وأما السؤال العشرون: وهو ما الحكمة في اقتران الرحمة والبركة بالسلام فالجواب عنه: أن يقال لما كان الإنسان لا سبيل له إلى انتفاعه بالحياة إلا بثلاثة أشياء أحدها سلامته من الشر ومن كل ما يضاد حياته وعيشه والثاني حصول الخير له والثالث دوامه وثباته له فإن بهذه الثلاثة يكمل انتفاعه بالحياة لقد شرعت التحية متضمنة للثلاثة فقوله: ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ يتضمن السلامة من الشر وقوله ورحمة الله يتضمن حصول الخير وقوله وبركاته يتضمن دوامه وثباته كما هو موضوع لفظ البركة وهو كثرة الخير واستمراره ومن هنا يعلم

حكمة اقتران اسمه الغفور باسمه الرحيم في عامة القرآن ولما كانت هذه الثلاثة مطلوبة لكل أحد بل هي متضمنة لكل مطالبه وكل المطالب دونها ووسائل إليها وأسباب لتحصيلها جاء لفظ التحية دالا عليها بالمطابقة تارة وهو كمالها وتارة دالا عليها بالتضمن وتارة دالا عليها باللزوم فدلالة اللفظ عليها مطابقة إذا ذكرت بلفظها ودلالته بالتضمن إذا ذكر السلام والرحمة فإنهما يتضمنان الثالث ودلالته عليها باللزوم إذا اقتصر على السلام وحده فإنه يستلزم حصول الخير وثباته إذ لو عدم لم تحصل السلامة المطلقة فالسلامة مستلزمة لحصول الرحمة كما تقدم تقريره قد عرف بهذا فضل هذه التحية وكمالها على سائر تحيات الأمم ولهذا اختارها الله لعباده وجعلها تحيتهم بينهم في الدنيا وفي دار السلام وقد بان لك أنها من محاسن الإسلام وكماله فإذا كان هذا في فرع من فروع الإسلام وهو التحية التي يعرفها الخاص والعام فما ظنك بسائر محاسن الإسلام وجلالته وعظمته وبهجته التي شهدت بها العقول والفطر حتى أنها من أكبر الشواهد وأظهر البراهين الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وكمال دينه وفضله وشرفه على جميع الأديان وأن معزته في

نفس دعوته فلو اقتصر عليها كانت آية وبرهانا على صدقه وأنه لا يحتاج معها إلى خارق ولا آية منفصلة بل دينه وشريعته ودعوته وسيرته من أعظم معجزاته عند الخاصة من أمته حتى أن إيمانهم به إنما هو مستند إلى ذلك والآيات في حقهم مقويات بمنزلة تظاهر الأدلة ومن فهم هذا انفتح له باب عظيم من أبواب العلم والإيمان بل باب من أبواب الجنة العاجلة يرقص القلب فيه طربا ويتمنى أنه له بالدنيا وما فيها وعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيساعد على تعليق كتاب يتضمن ذكر بعض محاسن الشريعة وما فيها من الحكم البالغة والأسرار الباهرة التي هي من أكبر الشواهد على كمال علم الرب تعالى وحكمته ورحمته وبره بعباده ولطفه بهم وما اشتملت عليه من بيان مصالح الدارين والإرشاد إليها وبيان مفاسد الدارين والنهي عنها وأنه سبحانه لم يرحمهم في الدنيا برحمة ولم يحسن إليهم إحسانا أعظم من إحسانه إليهم بهذا الدين القيم وهذه الشريعة الكاملة ولهذا لم يذكر في القرآن لفظة المن عليهم إلا في سياق ذكرها كقوله: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ وقوله: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فهي محض الإحسان إليهم والرأفة بهم وهدايتهم إلى ما به صلاحهم في الدنيا والآخرة لا أنها محض التكليف والامتحان الخالي عن العواقب الحميدة والغايات التي لا سبيل إليها إلا بهذه الوسيلة فهي لغاياتها المجربة المطلوبة

بمنزلة الأكل للشبع والشرب للري والجماع لطلب الولد وغير ذلك من الأسباب التي ربطت بها مسبباتها بمقتضى الحكمة والعزة فلذلك نصب هذا الصراط

(211/233)

---

المستقيم وسيلة وطريقا إلى الفوز الأكبر والسعادة ولا سبيل إلى الوصول إليه إلا من هذه الطريق كما لا سبيل إلى دخول الجنة إلا بالعبور على الصراط فالشريعة هي حياة القلوب وبهجة النفوس ولذة الأرواح والمشقة الحاصلة فيها

والتكليف وقع بالقصد الثاني كوقوعه في الأسباب المفضية إلى الغايات المطلوبة لا أنه مقصود لذاته فضلا عن أن يكون هو المقصود لا سواه فتأمل هذا الموضع وأعطه حقه من الفكر في مصادرها ومواردها يفتح لك بابا واسعا من العلم والإيمان فتكون من الراسخين في العلم لا من الذين يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون وكما أنها آية شاهدة له على ما وصف به نفسه من صفات الكمال فهي آية شاهدة لرسوله بأنه رسول حقا وأنه أعرف الخلق وأكملهم وأفضلهم وأقواهم إلى الله وسيلة وأنه لم يؤت عبد مثل ما أوتي فوالهفاه على مساعد على سلوك هذا الطريق واستفتاح هذا الباب والإفضاء إلى ما وراءه ولو بشطر كلمة بل فوالهفاه على من لا يتصدى لقطع الطريق والصد عن هذا المطلب

العظيم ويدع المطي وحاديها ويعطي القوس باريها ولكن إذا عظم المطلوب قل المساعد وكثر المعارض والمعاند وإذا كان الاعتماد على مجرد مواهب الله وفضله يغنيه ما يتحمله المتحمل من أجله فلا يثنك شنآن من صد عن السبيل وصدق ولا تنقطع مع من عجز عن مواصلة السري ووقف فإنما هي مهجة واحدة فانظر فيما تجعل تلفها وعلى من تحتسب خلفها .

أنت القتيل بكل من أحببته . . . فانظر لنفسك في الهوى من تصطفي

وأنفق أنفاسك فيما شئت فإن تلك النفقة مردودة بعينها عليك وصائرة لا سواها إليك وبين العبد وبين السعادة والفلاح صبر ساعة لله وتحمل ملامة في سبيل الله .

وما هي إلا ساعة ثم تنقضي . . . ويذهب هذا كله ويزول

وقد أطلنا ولكن ما أمللنا فإن قلبا فيه أدنى حياة يهتز إذا ذكر الله ورسوله ويود أن لو كان المتكلم كله ألسنة تالية والسامع كله آذانا واعية ومن لم يجد قلبه ثم



---

ثم فليشتغل بما يناسبه فكل ميسر لما خلق له وكل يعمل على شاكلته .

وكل امريء يهفو إلى من يحبه

وكل امريء يصبو إلى ما يناسبه

فصل:

وقد عرفت بهذا جواب السؤال الحادي والعشرين: أن كمال التحية عند ذكر البركات إذ قد استوعبت هذه الألفاظ الثلاث جميع المطالب من دفع الشر وحصول الخير وثباته وكثرته ودوامه فلا معنى للزيادة عليها ولهذا جاء في الأثر المعروف انتهى السلام إلى وبركاته

فصل:

وأما السؤال الثاني والعشرون: وهو ما الحكمة في إضافة الرحمة والبركة إلى الله تعالى وتجريد السلام عن الإضافة فجوابه أن السلام لما كان اسما من أسماء الله تعالى استغني بذكره مطلقا عن الإضافة إلى المسمى وأما الرحمة والبركة فلو لم يضافا إلى الله لم يعلم رحمة من ولا بركة من تطلب فلو قيل: عليكم ورحمة وبركة لم يكن في هذا اللفظ إشعار بالراحم المبارك الذي تطلب الرحمة والبركة منه فقيل: رحمة الله وبركاته وجواب ثان أن السلام يراد به قول المسلم سلام عليكم وهذا في الحقيقة مضاف إليه ويراد به حقيقة السلامة المطلوبة من السلام سبحانه وتعالى وهذا يضاف إلى الله فيضاف هذا المصدر إلى الطالب الذاكر تارة وإلى المطلوب منه تارة فأطلق ولم يضف وأما الرحمة والبركة فلا يضافان إلا إلى الله تعالى وحده ولهذا لا يقال رحمتي وبركتي عليكم ويقال سلام مني عليكم وسلام من فلان

على فلان وسر ذلك أن لفظ السلام اسم للجملة القولية بخلاف الرحمة والبركة فإنهما اسمان لمعناهما دون لفظهما فتأمله فإنه بديع وجواب ثالث وهو أن الرحمة والبركة

(213/233)

---

أتم من مجرد السلامة فإن السلامة تبعيد عن الشر وأما الرحمة والبركة فتحصيل للخير وإدامة له وتثبيت وتنمية وهذا أكمل فإنه هو المقصود لذاته والأول وسيلة إليه ولهذا كان ما يحصل لأهل الجنة من النعيم أكمل من مجرد سلامتهم من النار فأضيف إلى الرب تبارك وتعالى أكمل المعنيين وأتمهما لفظا وأطلق الآخر وفهمت إضافته إليه معنى من العطف وقرينة الحال فجاء اللفظ على أتم نظام وأحسن سياق .

فصل:

وأما السؤال الثالث والعشرين : وهو ما الحكمة في إفراد السلام والرحمة وجمع البركة فجوابه: أن السلام إما مصدر محض فهو شيء واحد فلا معنى لجمعه وإما اسم من أسماء الله تعالى فيستحيل أيضا جمعه فعلى التقديرين لا سبيل إلى جمعه وأما الرحمة فمصدر أيضا بمعنى العطف والحنان فلا تجمع أيضا والتاء فيها بمنزلتها في الخلة والمحبة والرقة ليست للتحديد بمنزلتها في ضربة وتمرة فكما لا يقال رقات ولا خلات ولا رأفات لا يقال رحمات

وهنا دخول الجمع يشعر بالتحديد والتقييد بعدد وإفراده يشعر بالمسمى مطلقا من غير تحديد فالإفراد هنا أكمل وأكثر معنى من الجمع وهذا بديع جدا أن يكون مدلول المفرد أكثر من مدلول الجمع ولهذا كان قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ أعم وأتم معنى من أن يقال: فلله الحجج البوالغ وكان قوله: ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ أتم معنى من أن يقال: وإن تعدوا نعم الله لا تحصوها وقوله: ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ أتم معنى من أن يقال حسنات وكذا قوله: ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ ﴾ ونظائره كثيرة جدا وسنذكر سر هذا فيما بعد إن شاء الله تعالى وأما البركة فإنا لما كان مسماها كثرة الخير واستمراره شيئا بعد شيء كلما انقضى منه فرد

(214/233)

---

خلفه فرد آخر فهو خير مستمر يتعاقب الإفراد على الدوام شيئا بعد شيء كان لفظ الجمع أولى بها لدلالته على المعنى المقصود بها ولهذا جاءت في القرآن كذلك في قوله تعالى: ﴿ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ فأفرد الرحمة وجمع البركة وكذلك في السلام في التشهد السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.

فصل:

واعلم: أن الرحمة المضافة إلى الله تعالى نوعان أحدهما : مضاف إليه إضافة مفعول إلى فاعله والثاني : مضاف إليه إضافة صفة إلى الموصوف بها فمن الأول قوله في الحديث الصحيح: "احتجت الجنة والنار " فذكر الحديث وفيه "فقال: للجنة إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء " رواه مسلم وأحمد فهذه رحمة مخلوقة مضافة إليه إضافة المخلوق بالرحمة إلى الخالق تعالى وسماها رحمة لأنها خلقت بالرحمة وللرحمة وخص بها أهل الرحمة وإنما يدخلها الرحماء ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: " خلق الله الرحمة يوم خلقها مائة رحمة كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض " رواه مسلم والحاكم وروى البخاري نحوه ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ﴾ ومنه تسميته تعالى للمطر رحمة بقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ وعلى هذا فلا يمتنع الدعاء المشهور بين الناس قديما وحديثا وهو قول الداعي: "اللهم اجمعنا في مستقر رحمتك وذكره البخاري في كتاب الأدب المفرد له عن بعض السلف" وحكى فيه الكراهة قال: "إن مستقر رحمته ذاته" وهذا بناء على أن الرحمة صفة وليس مراد الداعي ذلك بل مراده الرحمة المخلوقة التي هي الجنة ولكن الذين كرهوا ذلك لهم نظر دقيق جدا وهو أنه إذا كان المراد

بالرحمة الجنة نفسها لم يحسن إضافة المستقر إليها ولهذا لا يحسن أن يقال اجمعنا في مستقر جنتك فإن الجنة نفسها هي دار القرار وهي المستقر نفسه كما قال حسنت مستقرا ومقاما فكيف يضاف المستقر إليها والمستقر هو المكان الذي يستقر فيه الشيء ولا يصح أن يطلب الداعي الجمع في المكان الذي تستقر فيه

*(216/233)*

---

الجنة فتأمله ولهذا قال: "مستقر رحمته ذاته" والصواب: أن هذا لا يمتنع حتى ولو قال صريحا اجمعنا في مستقر جنتك لم يمتنع وذلك أن المستقر أعم من أن يكون رحمة أو عذابا فإذا أضيف إلى أحد أنواعه أضيف إلى ما يبينه ويميزه من غيره كأنه قيل في المستقر الذي هو رحمتك لا في المستقر الآخر ونظير هذا أن يقال اجلس في مستقر المسجد أي المستقر الذي هو المسجد والإضافة في مثل ذلك غير ممتنعة ولا مستكرهة وأيضا فإن الجنة وإن سميت رحمة لم يمتنع أن يسمى ما فيها من أنواع النعيم رحمة ولا ريب أن مستقر ذلك النعيم هو الجنة فالداعي يطلب أن يجمعه الله ومن يحب في المكان الذي تستقر فيه تلك الرحمة المخلوقة في الجنة وهذا ظاهر جدا فلا يمتنع الدعاء بوجه والله أعلم وهذا بخلاف قول الداعي يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث فإن الرحمة هنا

---

صفته تبارك وتعالى وهي متعلق الإستغاثة فإنه لا يستغاث بمخلوق ولهذا كان هذا الدعاء من أدعية الكرب لما تضمنه من التوحيد والإستغاثة برحمة أرحم الراحمين متوسلا إليه باسمين عليهما مدار الأسماء الحسنى كلها وإليهما مرجع معانيها جميعها وهو اسم الحي القيوم فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال ولا يتخلف عنها صفة منها إلا لضعف الحياة فإذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمها استلزم إثباتها إثبات كل كمال يضاد نفي كمال الحياة وبهذا الطريق العقلي أثبت متكلمو أهل الإثبات له تعالى صفة السمع والبصر والعلم والإرادة والقدرة والكلام وسائر صفات الكمال وأما القيوم فهو متضمن كمال غناه وكمال قدرته فإنه القائم بنفسه لا يحتاج إلى من يقيمه بوجه من الوجوه وهذا من كمال غناه بنفسه عما سواه وهو المقيم لغيره فلا قيام لغيره إلا بإقامته وهذا من كمال قدرته وعزته فانتظم هذان الاسمان صفات الكمال والغنى التام والقدرة التامة فكأن المستغيث بهما مستغيث بكل اسم من أسماء الرب تعالى وبكل صفة من صفاته فما أولى الإستغاثة بهذين الاسمين أن يكونا في مظنة تفريج الكربات وإغاثة اللهفات وإنالة الطلبات والمقصود أن الرحمة المستغاث بها هي صفة الرب تعالى لا شيء من مخلوقاته كما أن المستعيذ بعزته في

قوله أعوذ بعزتك مستعيذ بعزته التي هي صفته لا بعزته التي خلقها يعز بها عباده المؤمنين وهذا كله يقرر قول أهل السنة إن قول النبي صلى الله عليه وسلم: "أعوذ بكلمات الله التامات" يدل على أن كلماته تبارك وتعالى غير مخلوقة فإنه لا يستعاذ بمخلوق وأما قوله تعالى حكاية عن ملائكته: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً ﴾ فهذه رحمة الصفة التي وسعت كل شيء كما قال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ وسعتها عموم تعلقها بكل شيء كما أن سعة علمه تعالى عموم تعلقه بكل معلوم.

فصل:

(218/233)

---

وأما البركة: فكذلك نوعان أيضا أحدهما : بركة هي فعله تبارك وتعالى والفعل منها بارك ويتعدى بنفسه تارة وبأداة على تارة وبأداة في تارة والمفعول منها : مبارك وهو ما جعل كذلك فكان مباركا بجعله تعالى والنوع الثاني : بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة والفعل منها تبارك ولهذا لا يقال لغيره ذلك ولا يصلح إلا له عز وجل فهو سبحانه المبارك وعبده ورسوله كما قال المسيح عليه السلام: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ﴾ فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارك وأما صفته تبارك فمختصة به تعالى كما أطلقها على نفسه

بقوله: ﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ ﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ ﴾ ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً ﴾ أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به لا تطلق على غيره وجاءت على بناء السعة والمبالغة كتعالى وتعاظم ونحوهما فجاء بناء تبارك على بناء تعالى الذي هو دال على كمال العلو ونهايته فكذلك تبارك

*(219/233)*

---

دال على كمال بركته وعظمها وسعتها وهذا معنى قوله من قال من السلف: "تبارك تعاظم" وقال آخر" معناه أن تجيء البركات من قبله فالبركة كلها منه" وقال غيره: "كثر خيره وإحسانه إلى خلقه" وقيل: "اتسعت رأفته ورحمته بهم" وقيل: "تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله" ومن هنا قيل: "معناه تعالى وتعاظم" وقيل: "تبارك تقدس والقدس الطهارة" وقيل: "تبارك أي باسمه يبارك في كل شيء" وقيل: "تبارك ارتفع والمبارك المرتفع ذكره البغوي" وقيل: "تبارك أي البركة تكتسب وتنال بذكره" وقال ابن

عباس: "جاء بكل بركة" وقيل: "معناه ثبت ودام بما لم يزل ولا يزال ذكره البغوي أيضا"

وحقيقة اللفظة: أن البركة كثرة الخير ودوامه ولا أحد أحق بذلك وصفا وفعلا منه تبارك وتعالى وتفسير السلف يدور على هذين المعنيين وهما متلازمان لكن الأليق باللفظة معنى الوصف لا الفعل فإنه فعل لازم مثل تعالى وتقدس وتعاظم ومثل هذه الألفاظ ليس معناها أنه جعل غيره عاليا ولا قدوسا ولا عظيما هذا مما لا يحتمله اللفظ بوجه وإنما معناها في نفس من نسبت إليه فهو المتعالي المتقدس فكذلك تبارك لا يصح أن يكون معناها بارك في غيره وأين أحدهما من الآخر لفظا ومعنى هذا لازم وهذا متعد فعلمت أن من فسر تبارك بمعنى ألقى البركة وبارك في غيره لم يصب معناها وإن كان هذا من لوازم كونه متباركا فتبارك من باب مجد والمجد كثرة صفات الجلال والسعة والفضل وبارك من باب أعطى وأنعم ولما كان المتعدي في ذلك يستلزم اللازم من غير عكس فسر من فسر من السلف اللفظة بالمتعدي لينتظم المعنيين فقال: مجيء البركة كلها من عنده أو البركة كلها من قبله وهذا فرع على تبارك في نفسه وقد أشبعنا القول في هذا في كتاب الفتح المكي وبينا هناك أن البركة كلها له تعالى ومنه فهو المبارك ومن ألقى عليه بركته فهو المبارك ولهذا كان كتابه مباركا وبيته مباركا والأزمنة والأمكنة

(220/233)

التي شرفها واختصها عن غيرها مباركة فليلة القدر مباركة وما حول الأقصى مبارك وأرض الشام وصفها بالبركة في أربعة مواضع من كتابه أو خمسة وتدبر قول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ثوبان الذي رواه مسلم في صحيحه عند انصرافه من الصلاة: "اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام" رواه مسلم وأبو داود وأحمد فتأمل هذه الألفاظ الكريمة كيف جمعت نوعي الثناء أعني ثناء التنزيه والتسبيح وثناء الحمد والتمجيد بأبلغ لفظ وأوجزه وأتمه معنى فأخبر أنه السلام ومنه السلام فالسلام له وصفا وملكا وقد تقدم بيان هذا في وصفه تعالى بالسلام وأن صفات كماله ونعوت جلاله وأفعاله وأسمائه كلها سلام وكذا الحمد كله له وصفا وملكا فهو المحمود في ذاته وهو الذي يجعل من يشاء من عباده محمودا فيهبه حمدا من عنده وكذلك العزة كلها له وصفا وملكا وهو العزيز الذي لا شيء أعز منه ومن عز من عباده فبإعزازه له وكذلك الرحمة كلها له وصفا وملكا وكذلك البركة فهو المتبارك في ذاته الذي يبارك فيمن شاء من خلقه وعليه فيصير بذلك مباركا ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وهذا بساط وإنما غاية معارف العلماء الدنو من أول حواشيه وأطرافه وأما ما وراء ذلك فكما قال أعلم الخلق بالله وأقربهم إلى الله وأعظمهم عنده جاها "لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك

" رواه مسلم وقال: في حديث الشفاعة الطويل "فأخر ساجدا لربي فيفتح علي من محامده بما لا أحسنه الآن" رواه البخاري ومسلم وفي دعاء الهم والغم "أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك" صحيح فدل على أن لله سبحانه وتعالى أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده دون خلقه لا يعلمها ملك مقرب ولا

(221/233)

---

نبي مرسل وحسبنا الإقرار بالعجز والوقوف عند ما أذن لنا فيه من ذلك فلا نغلو فيه ولا نجفو عنه وبالله التوفيق .

فصل:

وأما السؤال الرابع والعشرون : وهو ما الحكمة في تأكيد الأمر بالسلام على النبي صلى الله عليه وسلم بالمصدر دون الصلاة عليه في قوله: ﴿ صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ فجوابه: أن التأكيد واقع على الصلاة والسلام وإن اختلفت جهة التأكيد فإنه سبحانه أخبر في أول الآية بصلاته عليه وصلاة ملائكته عليه مؤكدا لهذا الإخبار بحرف إن مخبرا عن الملائكة بصيغة الجمع المضاف إليه وهذا يفيد العموم والاستغراق فإذا استشعرت النفوس أن شأنه

صلى الله عليه وسلم عند الله وعند ملائكته هذا الشأن بادرت إلى الصلاة عليه وإن لم تؤمر بها بل يكفي تنبيهها والإشارة إليها بأدنى إشارة فإذا أمرت بها لم تحتج إلى تأكيد الأمر بل إذا جاء مطلق الأمر بادرت وسارعت إلى موافقة الله وملائكته في الصلاة عله صلوات الله وسلامه عليه فلم يحتج إلى تأكيد الفعل بالمصدر ولما خلا السلام عن هذا المعنى وجاء في حيز الأمر المجرد دون الخبر حسن تأكيده بالمصدر ليدل على تحقيق المعنى وتثبيته ويقوم تأكيد الفعل مقام تكريره كما حصل التكرير في الصلاة خبرا وطلبا فكذلك حصل التكريم في السلام فعلا ومصدرا فتأمله فإنه بديع جدا والله أعلم وقد ذكرنا بعض ما في هذه الآية من الأسرار والحكم العجيبة في كتاب تعظيم شأن الصلاة والسلام على خير الأنام وأتينا فيه من الفوائد بما يساوي أدناها رحلة مما لا يوجد في غيره ولله الحمد فنقتصر على هذه النكتة الواحدة.

فصل:

وأما السؤال الخامس والعشرين: وهو ما الحكمة في تقديم السلام على النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة قبل عليه وهلا وقعت البداءة بما بدأ الله به في الآية

(222/233)

فهذا سؤال أيضا له شأن لا ينبغي الإضراب عنه صفحا وتمشية والنبي صلى الله عليه وسلم كان شديد التحري لتقديم ما قدمه الله والبداءة بما بدأ به فلهذا بدأ بالصفا في السعي وقال: "نبدأ بما بدأ الله به" صحيح وبدأ بالوجه ثم اليدين ثم الرأس في الوضوء ولم يخل بذلك مرة واحدة بل كان هذا وضوءه إلى أن فارق الدنيا ثم يقدم منه مؤخرا ولم يؤخر منه مقدما قط ولا يقدر أحد أن ينقل عنه خلاف ذلك لا بإسناد صحيح ولا حسن ولا ضعيف ومع هذا فوقع في الصلاة والسلام عليه تقديم السلام وتأخير الصلاة وذلك لسر من أسرار الصلاة نشير إليه بحسب الحال إشارة وهو أن الصلاة قد اشتملت على عبودية جميع الجوارح والأعضاء مع عبودية القلب فلكل عضو منها نصيب من العبودية فجميع أعضاء المصلي وجوارحه متحركة في الصلاة عبودية لله وذلا وخضوعا فلما أكمل المصلي هذه العبودية وانتهت حركاته ختمت بالجلوس بين يدي الرب تعالى جلوس تذلل وانكسار وخضوع لعظمته عز وجل كما يجلس العبد الذليل بين يدي سيده وكان جلوس الصلاة أخشع ما يكون من الجلوس وأعظمه خضوعا وتذللا فأذن للعبد في هذه الحال بالثناء على الله تبارك وتعالى بأبلغ أنواع الثناء وهو التحيات لله والصلوات والطيبات وعادتهم إذا دخلوا على ملوكهم أن يحيوهم بما يليق بهم وتلك التحية تعظيم لهم وثناء عليهم والله أحق بالتعظيم والثناء من كل أحد من خلقه فجمع العبد في قوله التحيات والصلوات والطيبات أنواع الثناء على الله وأخبر أن ذلك له وصفا وملكا وكذلك الصلوات كلها لله فهو الذي

يصلي له وحده لا لغيره وكذلك الطيبات كلها من الكلمات والأفعال كلها له فكلماته طيبات وأفعاله كذلك وهو طيب لا يصعد إليه إلا طيب والكلم الطيب إليه يصعد فكانت الطيبات كلها له ومنه وإليه له ملكا ووصفا ومنه مجيئها وابتداؤها وإليه مصعدها ومنتهاها والصلاة مشتملة على عمل صالح وكلم طيب والكلم الطيب إليه يصعد والعمل الصالح يرفعه فناسب ذكر هذا عند

*(223/233)*

---

انتهاء الصلاة وقت رفعها إلى الله تعالى سر السلام على النبي صلى الله عليه وسلم لما أتى بهذا الثناء على الرب

التفت إلى شأن الرسول الذي حصل هذا الخير على يديه فسلم عليه أتم سلام معرف باللام التي للاستغراق مقرونا بالرحمة والبركة هذا هو أصح شيء في السلام عليه فلا تبخل عليه بالألف واللام في هذا المقام ثم انتقل إلى السلام على نفسه وعلى سائر عباد الله الصالحين وبدأ بنفسه لأنها أهم والإنسان يبدأ بنفسه ثم بمن يعول ثم ختم هذا المقام بعقد الإسلام وهو التشهد بشهادة الحق التي هي أول الأمر وآخره وعندها كل الثناء والتشهد ثم انتقل إلى نوع آخر وهو الدعاء والطلب فالتشهد يجمع نوعي الدعاء دعاء الثناء والخير ودعاء

الطلب والمسألة والأول أشرف النوعين لأنه حق الرب ووصفه والثاني حظ العبد ومصلحته وفي الأثر من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ضعيف لكن لما كانت الصلاة أتم العبادات عبودية وأكملها شرع فيه النوعين وقدم الأول منهما لفضله ثم انتقل إلى النوع الثاني وهو دعاء الطلب والمسألة فبدأ بأهمه وأجله وأنفعه له وهو طلب الصلاة من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم وهو من أجل أدعية العبد وأنفعها له في دنياه وآخرته كما ذكرناه في كتاب تعظيم شأن الصلاة على النبي وفيه أيضا أن الداعي جعله مقدمة بين يدي حاجته وطلبه لنفسه وقد أشار إلى النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى في قوله ثم لينتخب من الدعاء أعجبه إليه وكذلك في حديث فضالة بن عبيد إذا دعا أحدكم فليبدأ بحمد الله والثناء عليه ثم ليصل على النبي صلى الله عليه وسلم ثم ليدع فتأمل كيف جاء التشهد من أوله إلى آخره مطابقا لهذا منتظما له أحسن انتظام فحديث فضالة هذا هو الذي كشف لنا المعنى وأوضحه وبينه فصلوات الله وسلامه على من أكمل به لنا دينه وأتم برسالته علينا نعمته وجعله رحمة للعالمين وحسرة على الكافرين .

فصل:

وأما السؤال السادس والعشرون : وهو ما الحكمة في كون السلام وقع بصيغة الخطاب والصلاة بصيغة الغيبة فجوابه: يظهر مما تقدم فإن الصلاة عليه طلب وسؤال من الله أن يصلي عليه فلا يمكن فيها إلا لفظ الغيبة إذ لا يقال اللهم صل عليك وأما السلام عليه فأتى بلفظ الحاضر المخاطب تنزيلا له منزلة المواجه لحكمة بديعة جدا وهي أنه صلى الله عليه وسلم لما كان أحب إلى المؤمن من نفسه التي بين جنبيه وأولى به منها وأقرب وكانت حقيقته الذهنية ومثاله العلمي موجودا في قلبه بحيث لا يغيب عنه إلا شخصه كما قال القائل:

مثالك في عيني وذكرك في فمي . . . ومثواك في قلبي فأين تغيب

ومن كان بهذه الحال فهو الحاضر حقا وغيره وإن كان حاضرا للعيان فهو غائب عن الجنان فكان خطابه خطاب المواجهة والحضور بالسلام عليه أولى من سلام الغيبة تنزيلا له منزلة المواجه المعاين لقربه من القلب وحلوله في جميع أجزائه بحيث لا يبقى في القلب جزء إلا ومحبته وذكره فيه كما قيل:

لو شق عن قلبي يرى وسطه ذكرك

والتوحيد في سطر لا إله إلا الله محمد رسول الله ولا تستنكر استيلاء المحبوب على قلب المحب وغلبته عليه حتى كأنه يراه ولهذا تجدهم في خطابهم لمحبوبهم إنما يعتمدون خطاب الحضور والمشاهدة مع غاية البعد العياني لكمال القرب الروحي فلم يمنعهم بعد الأشباح

عن محادثة الأرواح ومخاطبتها ومن كثفت طباعه فهو عن هذا كله بمعزل وإنه ليبلغ الحب ببعض أهله أن يرى محبوبه في القرب إليه بمنزلة روحه التي لا شيء أدنى إليه منها كما قيل:

يا مقيما مدى الزمان بقلبي . . . وبعيدا عن ناظري وعياني

أنت روحي إن كنت لست راها . . . فهي أدنى إلي من كل داني

وقال آخر:

يا ثاويا بين الجوانح والحشا . . . مني وإن بعدت علي دياره

وإنه ليلطف شأن المحبة حتى يرى أنه أدنى إليه وأقرب من روحه وهذه أبيات تلم بذلك:

وأدنى إلى الصب من نفسه . . . وإن كان عن عينه نائيا

ومن كان مع حبه هكذا . . . فأنى يكون له ساليا

*(225/233)*

---

ثم يلطف شأنها ويقهر سلطانها حتى يغيب المحب بمحبوبه عن نفسه فلا يشعر إلا بمحبوبه ولا يشعر بنفسه ومن هنا نشأت الشطحات الصوفية التي مصدرها عن قوة الوارد وضعف التمييز فحكم صاحبها فيها الحال على العلم وجعل الحكم له وعزل علمه من البين وحكم المحفوظون فيها حاكم العلم على سلطان الحال وعلموا أن كل حال لا يكون العلم

حاكما عليه فإنه لا ينبغي أن يغتر به ولا يسكن إليه إلا كما يساكن المغلوب المقهور لما يرد عليه مما يعجز عن دفعه وهذه حال الكمل من القوم الذين جمعوا بين نور العلم وأحوال من المعاملة فلم تطفئ عواصف أحوالهم نور علمهم ولم يقصر بهم علمهم عن الترقي إلى ما وراءه من مقامات الإيمان والإحسان فهؤلاء حكام على الطائفتين ومن عداهم فمحجوب بعلم لا نفوذ له فيه أو مغرور بحال لا علم له بصحيحه من فاسده والله تعالى المسؤول من فضله إنه قريب مجيب فالكامل من يحكم العلم على الحال فيتصرف في حاله بعلمه ويجعل العلم بمنزلة النور الذي يميز به الصحيح من الفاسد لا من يقدح في العلم بالحال ويجعل الحال معيارا عليه وميزانا فما وافق حاله من العلم قبله وما خالفه رده ونفاه فهذا أصل الضلال في هذا الباب بل الواجب تحكيم العلم والرجوع إلى حكمه وبهذا أوصى العارفون من شيوخ الطريق كلهم وحرضوا على العلم أعظم تحريض لعلمهم بما في الحال المجرد عنه من الغوائل والمهالك: ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

فصل:

وأما السؤال السابع والعشرون : وهو ما الحكمة في ورود الثناء على الله في التشهد بلفظ الغيبة مع كونه سبحانه هو المخاطب الذي يناجيه العبد والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم بلفظ الخطاب مع كونه غائبا فجوابه أن الثناء على الله عامة ما يجيء مضافا إلى أسمائه الحسنى الظاهرة دون الضمير إلا أن يتقدم ذكر الاسم الظاهر فيجيء بعده المضمر وهذا نحو قول المصلي: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ وقوله في الركوع: "سبحان ربي العظيم" وفي السجود "سبحان ربي الأعلى" وفي هذا من السر أن تعليق الثناء بأسمائه الحسنى هو لما تضمنت معانيها من صفات الكمال ونعوت الجلال فأتى بالاسم الظاهر الدال على المعنى الذي يثنى به ولأجله عليه تعالى ولفظ الضمير لا إشعار له بذلك ولهذا إذا كان ولا بد من الثناء عليه بخطاب المواجهة أتى بالاسم الظاهر مقرونا بميم الجمع الدالة على جمع الأسماء والصفات نحو قوله في رفع رأسه من الركوع "اللهم ربنا لك الحمد" وربما اقتصر على ذكر الرب تعالى لدلالة لفظه على هذا المعنى فتأمله فإنه لطيف المنزع جدا وتأمل كيف صدر الدعاء المتضمن للثناء والطلب بلفظة "اللهم كما في سيد الاستغفار "اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك" رواه البخاري والترمذي والنسائي الحديث وجاء الدعاء المجرد مصدرا بلفظ الرب نحو قول المؤمنين: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ وقول آدم: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾ وقول موسى: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾ وقول نوح: ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ

لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول بين السجدتين: "رب اغفر لي رب اغفر لي" صحيح وسر ذلك أن الله تعالى يسأل بربوبيته

(227/233)

---

المتضمنة قدرته وإحسانه وتربيته عبده وإصلاح أمره ويثنى عليه بإلهيته المتضمنة إثبات ما يجب له من الصفات العلى والأسماء الحسنى وتدبر طريقة القرآن تجدها كما ذكرت لك فأما الدعاء فقد ذكرنا منه أمثلة وهو في القرآن حيث وقع لا يكاد يجيء إلا مصدرا باسم الرب وأما الثناء فحيث وقع فمصدر بالأسماء الحسنى وأعظم ما يصدر به اسم الله جل جلاله نحو: ﴿ الحمد لله ﴾ حيث جاء ونحو: ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ وجاء: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ ﴾ ونحوه ﴿ سبح لله ما في السموات وما في الأرض ﴾ حيث وقعت ونحو: ﴿ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ ونظائره وجاء في دعاء المسيح: ﴿ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ فذكر الأمرين ولم يجيء في القرآن سواه ولا رأيت أحدا تعرض لهذا ولا نبه عليه سر عجيب دال على كمال معرفة المسيح بربه وتعظيمه له فإن هذا السؤال كان عقيب سؤال قومه له: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ فخوفهم الله

وأعلمهم أن هذا مما لا يليق أن يسأل عنه وأن الإيمان يرده فلما ألحوا في الطلب وخاف المسيح أن يداخلهم الشك إن لم يجابوا إلى ما سألوا بدأ في السؤال باسم ﴿ اللَّهُمَّ ﴾ الدال على الثناء على الله بجميع أسمائه وصفاته ففي ضمن ذلك تصوره بصورة المثني الحامد الذاكر لأسماء ربه المثني عليه بها وأن المقصود من هذا الدعاء وقضاء هذه الحاجة إنما هو أن يثني على الرب بذلك ويمجده به ويذكر آلاءه ويظهر شواهد قدرته وربوبيته ويكون برهانا على صدق رسوله فيحصل بذلك من زيادة الإيمان والثناء على الله أمر يحسن معه الطلب ويكون كالعذر فيه فأتى بالاسمين اسم الله الذي يثني عليه به واسم الرب الذي يدعي ويسأل به لما كان المقام مقام الأمرين فتأمل هذا السر

*(228/233)*

---

العجيب ولا يشب عنه فهمك فإنه من الفهم الذي يؤتيه الله من يشاء في كتابه وله الحمد وأما السلام على النبي صلى الله عليه وسلم بلفظ الخطاب فقد ذكرنا سره في الوجه الذي قبل هذا فالعهد به قريب .

فصل:

أما السؤال الثامن والعشرون : فقد يتضمن ذلك سؤالين أحدهما : ما السر في كون السلام في

آخر الصلاة والثاني: لم كان معرفا والجواب: أما اختتام الصلاة به فقد جعل الله تعالى لكل عبادة تحليلا منها فالتحليل من الحج بالرمي وما بعده وكذلك التحليل من الصوم بالفطر بعد الغروب فجعل السلام تحليلا من الصلاة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم "تحريمها التكبير وتحليلها التسليم" صحيح تحريمها هنا هو بابها الذي يدخل منه إليها وتحليلها بابها الذي يخرج به منها فجعل التكبير باب الدخول والتسليم باب الخروج لحكمة بديعة بالغة يفهمها من عقل عن الله وألزم نفسه بتأمل محاسن هذا الدين العظيم وسافر فكره في استخراج حكمه وأسراره وبدائعه وتغرب عن عالم العادة والألف فلم يقنع بمجرد الأشباح حتى يعلم ما يقوم به من الأرواح فإن الله تعالى لم يشرع شيئا سدى ولا خلوا من حكمة بالغة بل في طوايا ما شرعه وأمر به من الحكم والأسرار التي تبهر العقول ما يستدل به الناظر فيه على وراءه فيسجد القلب خضوعا وإذعانا فنقول وبالله التوفيق لما كان المصلي قد تخلى عن الشواغل وقطع جميع العلائق وتطهر وأخذ زينته وتهيأ للدخول على الله تعالى ومناجاته شرع له أن يدخل عليه دخول العبيد على الملوك فيدخل بالتعظيم والإجلال فشرع له أبلغ لفظ يدل على هذا المعنى وهو قول الله أكبر فإن في اللفظ من التعظيم والتخصيص والإطلاق في جانب المحذوف المجرور بمن ما لا يوجد في غيره ولهذا كان الصواب أن غير هذا اللفظ لا يقوم مقامه ولا يؤدي معناه ولا

تنعقد الصلاة إلا به كما هو مذهب أهل المدينة وأهل الحديث فجعل هذا اللفظ واستشعار معناه والمقصود باب الصلاة الذي يدخل العبد على ربه منه فإنه إذا استشعر بقلبه أن الله أكبر من كل ما يخطر بالبال استحيا منه أن يشغل قلبه في الصلاة بغيره فلا يكون موفيا لمعنى الله أكبر ولا مؤديا لحق هذا اللفظ ولا أتى البيت من بابه بل الباب عنه مسدود وهذا بإجماع السلف أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها وحضره بقلبه وما أحسن ما قال أبو الفرج بن الجوزي في بعض وعظه: حضور القلب أول منزل من منازل الصلاة فإذا نزلته انتقلت إلى بادية المعنى فإذا رحلت عنها أنخت بباب المناجاة فكان أول قرى الضيف اليقظة وكشف الحجاب لعين القلب فكيف يطمع في دخول مكة من لا خرج إلى البادية وقد تبعث قلبك في كل واد فربما تفجأك الصلاة وليس قلبك عندك فتبعث الرسول وراءه فلا يصادفه فتدخل في الصلاة بغير قلب والمقصود أنه قبيح بالعبد أن يقول بلسانه الله أكبر وقد امتلأ قلبه بغير الله فهو قبلة قلبه في الصلاة ولعله لا يحضر بين يدي ربه في شيء منها فلو قضى حق الله أكبر وأتى البيت من بابه لدخل وانصرف بأنواع التحف والخيرات فهذا الباب الذي يدخل منه المصلى وهو التحريم وأما الباب الذي يخرج منه فهو باب السلام المتضمن أحد الأسماءا الحسنى فيكون مفتتحا لصلاته باسمه تبارك وتعالى ومختتما لها باسمه فيكون ذاكرا لاسم ربه أول الصلاة وآخرها فأولها باسمه وآخرها باسمه فدخل فيها

باسمه وخرج منها باسمه مع ما في اسم السلام من الخاصية والحكمة المناسبة لانصراف المصلي من بين يدي الله تعالى فإن المصلي ما دام في صلاته بين يدي ربه فهو في حماه الذي لا يستطيع أحد أن يخفره بل هو في حمى من جميع الآفات والشرور فإذا انصرف من بين يديه تبارك وتعالى ابتدرته الآفات والبلايا والمحن وتعرضت له من كل جانب وجاءه الشيطان بمصائده وجنده فهو متعرض

(230/233)

---

لأنواع البلايا والمحن فإذا انصرف من بين يدي الله مصحوبا بالسلام لم يزل عليه حافظ من الله إلى وقت الصلاة الأخرى وكان من تمام النعمة عليه أن يكون انصرافه من بين يدي ربه بسلام يستصحبه ويدوم له ويبقى معه فتدبر هذا السر الذي لو لم يكن في هذا التعليق غيره لكان كافيا فكيف وفيه من الأسرار والفوائد ما لا يوجد عند أبناء الزمان والحمد في ذلك لله وحده فكما أن المنعم به هو الله وحده فالمحمود عليه هو الله وحده وقد عرف بهذا جواب السؤال الثاني وهو مجيء السلام هنا معرفا ليكون دالا على اسمه السلام وليكن هذا آخر الكلام في مسألة سلام عليكم فلولا قصد الاختصار لجاءت مجلدا ضخما هذا ولم تتعرض فيها إلى المسائل المسطورة في الكتب من فروع السلام ومسائله فإنها مملوءة منها فمن أرادها

فليأخذها من هناك والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بدائع الفوائد حـ 2 صـ 197.130 ﴾

(231/233)

---

قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (55) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أتى في هذه السورة وما قبلها بما أتى من عجائب التفاصيل لجميع الأحوال متضمنة واضح الدلالات وباهر الآيات البينات ، قال عاطفاً على ﴿ وكذلك فتنا ﴾ عطفاً للضد على ضده ، فإن في الاختبار نوع خفاء : ﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل الفتن بإيراد بعض ما فيه دقة وخفاء من بعض الوجوه لنضل من نشاء ، فيتميز الضال من المهتدي ﴿ نفصل الآيات ﴾ التي نريد بيانها ليتضح سبيل المصلحين فيتبع ﴿ ولتستبين ﴾ أي تظهر ظهوراً بيناً ﴿ سبيل المجرمين ﴾ فتجتنب ، وخص هذا بالذكر وإن كان يلزم منه بيان الأول ، لأن دفع المفاسد أهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 645 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نفَصّلُ الأيات وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ المجرمين ﴾ .

المراد كما فصلنا لك في هذه السورة دلائلنا على صحة التوحيد والنبوة والقضاء والقدر ، فكذلك نميز ونفصل لك دلائلنا وحججنا في تقرير كل حق ينكره أهل الباطل وقوله : ﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ المجرمين ﴾ عطف على المعنى كأنه قيل ليظهر الحق وليستبين ، وحسن هذا الحذف لكونه معلوماً واختلف القراء في قوله ﴿ ليستبين ﴾ فقرأ نافع ﴿ لتستبين ﴾ بالتاء ﴿ وسبيل ﴾ بالنصب والمعنى لتستبين يا محمد سبيل هؤلاء المجرمين .

وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿ ليستبين ﴾ بالياء ﴿ مّن سَبِيلٍ ﴾ بالرفع والباقون بالتاء ﴿ وسبيل ﴾ بالرفع على تأنيث سبيل .

وأهل الحجاز يؤنثون السبيل ، وبنو تميم يذكرونه .

وقد نطق القرآن بهما فقال سبحانه ﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرشد لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ [ الأعراف : 146 ] وقال ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ [ إبراهيم : 3 ] .

فإن قيل : لم قال ﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ المجرمين ﴾ ولم يذكر سبيل المؤمنين .

قلنا : ذكر أحد القسمين يدل على الثاني .

كقوله ﴿ سَرَابِيلَ تقيكم الحر ﴾ [ النحل : 81 ] ولم يذكر البرد .

وأيضاً فالضدان إذا كانا بحيث لا يحصل بينهما واسطة ، فمتى بانت خاصية أحد

القسمين بانت خاصية القسم الآخر والحق والباطل لا واسطة بينهما ، فمتى استبانت طريقة المجرمين فقد استبانت طريقة المحقين أيضاً لا محالة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 6 ﴾

(232/233)

---

وقال السمرقندى :

﴿ وَكَذَلِكَ نفَصّلُ الآيات ﴾

قال القتبي : يعني : نأتي بها متفرقة شيئاً بعد شيء ، ولا ننزلها جملة متصلة .

ويقال : ﴿ نُفَصّلُ الآيات ﴾ يعني : نبين الآيات بالقرآن ﴿ وِلَتَسْتَبِينَ سَبِيلُ المجرمين ﴾ يعني : طريق المشركين لماذا لا يؤمنون ، لأنهم إذا رأوا الضعفاء يسلمون قبلهم ، امتنعوا .

ويقال : ﴿ وِلَتَسْتَبِينَ سَبِيلُ المجرمين ﴾ يعني : تفرقهم .

قرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم في رواية حفص : ﴿ وِلَتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ﴾ بالتاء و ﴿ سَبِيلِ ﴾ بالضم لأن السبيل مؤنث كقوله : ﴿ قُلْ هذه سبيلى أَدْعُو إلى الله على بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتبعنى وَسُبْحَانَ الله وَمَا أَنَاْ مِنَ المشركين ﴾ [ يوسف : 108 ] ومعناه : ليظهر لكم طريق المشركين .

وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر : ﴿ وليستبين ﴾ بالياء ﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ المجرمين ﴾ بالضم لأن السبيل هو الطريق .

والطريق يذكر ويؤنث .

وقرأ نافع : ﴿ وَلِتَسْتَبِينَ ﴾ بالتاء ﴿ سَبِيلٍ ﴾ بالنصب يعني : لتعرف يا محمد طريق المشركين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيات ﴾ التفصيل التبيين الذي تظهر به المعاني ؛ والمعنى ؛ وكما فصّلنا لك في هذه السورة دلائلنا ومحاجتنا مع المشركين كذلك نُفصّل لكم الآيات في كل ما تحتاجون إليه من أمر الدّين ، ونبين لكم أدلتنا وحججنا في كل حق ينكره أهل الباطل .

وقال القُتَبِيّ : ﴿ نفَصِّلُ الآيات ﴾ نأتي بها شيئاً بعد شيء ، ولا ننزلها جملة متصلة .

﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ المجرمين ﴾ يُقال : هذه اللام تتعلق بالفعل فأين الفعل الذي تتعلق به ؟ فقال الكوفيون : هو مقدّر ؛ أي وكذلك نفصّل الآيات لنبين لكم ولتستبين ؛ قال النحاس : وهذا الحذف كله لا يحتاج إليه ، والتقدير : وكذلك نفصّل الآيات فصّلناها .

وقيل : إن دخول الواو للعطف على المعنى ؛ أي ليظهر الحق وليستبين ، قرىء بالياء والتاء .

"سَبِيل" برفع اللام ونصبها ، وقراءة التاء خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، أي ولتستبين يا محمد سبيل المجرمين .

فإن قيل : فقد كان النبي عليه السَّلام يستبينها ؟ فالجواب عند الزجاج أن الخطاب للنبي عليه السَّلام خطاب لأمته ؛ فالمعنى : ولتستبينوا سبيل المجرمين .

فإن قيل : فلم لم يذكر سبيل المؤمنين ؟ ففي هذا جوابان ؛ أحدهما أن يكون مثل قوله : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [ النحل : 81 ] فالمعنى ؛ وتقيكم البرد ثم حُذِف ؛ وكذلك يكون هذا المعنى ولتستبين سبيل المؤمنين ثم حذف .

والجواب الآخر أن يُقال : استبان الشيءُ واستبنته ؛ وإذا بان سبيل المجرمين فقد بان سبيل المؤمنين .

والسبيل يذكر ويؤنث ؛ فتميم تذكِّره ، وأهل الحجاز تؤنثه ؛ وفي التنزيل ﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرشد ﴾ [ الأعراف : 146 ] مذكَّر ﴿ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ [ آل عمران : 99 ] مؤنث ؛ وكذلك قرىء "ولتستبين" بالياء والتاء ؛ فالتاء خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمّته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين ﴾

الكاف للتشبيه وذلك إشارة إلى التفصيل الواقع في هذه السورة أي ومثل ذلك التفصيل البين نفصل آيات القرآن ونلخصها في صفة أحوال المجرمين من هو مطبوع على قلبه لا يرجى إسلامه ومن ترى فيه أمارة القبول وهو الذي يخاف إذا سمع ذكر القيامة ومن دخل في الإسلام إلا أنه لا يحفظ حدوده .

وقيل : المعنى كما فصلنا في هذه السورة دليل على صحة التوحيد والنبوة والقضاء والقدر نفصل لك دليلنا وحججنا في تقرير كل حق ينكره أهل الباطل .

وقيل : إشارة إلى التفصيل للأمم السابقة ومثل ذلك التفصيل لمن كان قبلكم نفصل لكم .

وقال التبريزي : معناه كما بينا للشاكرين والكافرين .

*(234/233)*

---

وقال ابن قتيبة : تفصيلها إتيانها متفرقة شيئاً بعد شيء .

وقال تاج القراء : الفصل بون ما بين الشيئين والتفصيل التبيين بين المعاني الملتبسة .

وقال ابن عطية : والإشارة بقوله : ﴿ وكذلك ﴾ إلى ما تقدم من النهي عن طرد المؤمنين

وبيان فساد منزع المعارضين لذلك ، وتفصيل الآيات تبيينها وشرحها وإظهارها ؛ انتهى .

واستبان يكون لازماً ومتعدّياً وتميم وأهل نجد يذكرون السبيل وأهل الحجاز يؤنثونها .

وقرأ العربيان وابن كثير وحفص ﴿ ولتستبين ﴾ بالتاء ﴿ سبيل ﴾ بالرفع .

وقرأ الأخوان وأبو بكر وليستبين بالياء ﴿ سبيل ﴾ بالرفع فاستبان هنا لازمة أي ولتظهر سبيل المجرمين .

وقرأ نافع ﴿ ولتستبين ﴾ بتاء الخطاب ﴿ سبيل ﴾ بالنصب فاستبان هنا متعدية .

فقيل : هو خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم .

وقيل له ظاهراً والمراد أمته لأنه صلى الله عليه وسلم كان استبانها وخص ﴿ سبيل المجرمين ﴾ لأنه يلزم من استبانتها استبانة سبيل المؤمنين أو يكون على حذف معطوف لدلالة المعنى عليه التقدير سبيل المجرمين والمؤمنين .

وقيل : خص ﴿ سبيل المجرمين ﴾ لأنهم الذين أثاروا ما تقدم من الأقوال وهم أهم في هذا الموضع لأنها آيات رد عليهم ، وظاهر المجرمين العموم وتأوله ابن زيد على أنه عنى بالمجرمين الآمرون بطرد الضعفة واللام في ﴿ ولتستبين ﴾ متعلقة بفعل متأخر أي ﴿ ولتستبين سبيل المجرمين ﴾ فصلناها لكم أو قبلها علة محذوفة وهو قول الكوفيين التقدير لنبين لكم ولتستبين .

وقال الزمخشري : لنستوضح سبيلهم فتعامل كلاًّ منهم بما يجب أن يعامل به فصلنا ذلك التفصيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(235/233)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَكَذَلِكَ نفَصّلُ ﴾ أي دائماً ﴿ الآيات ﴾ أي القرآنية في صفة أهل الطاعة وأهل الإجرام المصرين منهم والأوابين .

والتشبيه هنا مثله فيما تقدم آنفاً ﴿ وِلَتَسْتَبِينَ سَبِيلُ المجرمين ﴾ بتأنيث الفعل بناء على تأنيث الفاعل وهي قراءة ابن كثير وابن عامر وأبي عمرو ويعقوب وحفص عن عاصم ، وهو عطف على علة محذوفة للفعل المذكور لم يقصد تعليله بها بخصوصها ، وإنما قصد الإشعار بأن له فوائد جمة من جملتها ما ذكر أو علة لفعل مقدر وهو عبارة عن المذكور كما يشير إليه أبو البقاء فيكون مستأنفاً أي ولتتبين سبيلهم نفعل ما نفعل من التفصيل .

وقرأ نافع بالتاء ونصب السبيل على أن الفعل متعد أي ولتستوضح أنت يا محمد سبيل المجرمين فتعاملهم بما يليق بهم .

وقرأ الباقون بالياء التحتية ورفع السبيل على أن الفعل مسند للمذكر .

وتأنيث السبيل وتذكيره لغتان مشهورتان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾

الواو استئنافية كما تقدّم في قوله : ﴿ وكذلك فتنّا بعضهم ببعض ﴾ [ الأنعام : 53 ] .

والجملة تذييل للكلام الذي مضى مبتدئاً بقوله تعالى : ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربّهم ﴾ [ الأنعام : 51 ] .

والتفصيل : التبيين والتوضيح ، مشتقّ من الفصل ، وهو تفرّق الشيء عن الشيء .

ولمّا كانت الأشياء المختلطة إذا فُصلت يتبيّن بعضها من بعض أطلق التفصيل على التبيين بعلاقة اللزوم ، وشاع ذلك حتَّى صار حقيقة ، ومن هذا القبيل أيضاً تسمية الإيضاح تبييناً وإبانة ، فإنّ أصل الإبانة القطع .

*(236/233)*

---

والمراد بالتفصيل الإيضاح ، أي الإتيان بالآيات الواضحة الدلالة على المقصود منها .

والآيات : آيات القرآن .

والمعنى نفصّل الآيات ونبيّنها تفصيلاً مثل هذا التفصيل الذي لا فوقه تفصيل ، وهو تفصيل

يحصل به علم المراد منها بَيّنا .

وقوله : ﴿ ولتستبين ﴾ عطف على علَّة مقدّرة دلّ عليها قوله : ﴿ وكذلك نفصّل الآيات ﴾ لأنّ المشار إليه التفصيل البالغ غاية البيان ، فيُعلم من الإشارة إليه أنّ الغرض منه اتِّضاح العلم للرسول .

فلمَّا كان ذلك التفصيل بهذه المثابة علم منه أنَّه علَّة لشيء يناسبه وهو تبيّن الرسول ذلك التفصيل ، فصحّ أن تعطف عليه علّة أخرى من علم الرسول صلى الله عليه وسلم وهي استبانته سبيل المجرمين .

فالتقدير مثلاً : وكذلك التفصيل نفصّل الآيات لتعلم بتفصيلها كنهها ، ولتستبين سبيل المجرمين ، ففي الكلام إيجاز الحذف .

وهكذا كلّما كان استعمال ( كذلك ) نفعل بعد ذكر أفعال عظيمة صالحاً الفعل المذكور بعد الإشارة لأن يكون علَّة لأمر من شأنه أن يعلّل بمثله صحّ أن تعطف عليه علَّة أخرى كما هنا ، وكما في قوله : ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين ﴾ [ الأنعام : 75 ] بخلاف ما لا يصلح ، ولذلك فإنَّه إذا أريد ذكر علَّة بعده ذكرت بدون عطف ، نحو قوله : ﴿ وكذلك جعلناكم أمَّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ﴾ [ البقرة : 143 ] .

و ﴿ سبيل المجرمين ﴾ طريقهم وسيرتهم في الظلم والحسد والكبر واحتقار الناس

والتصلّب في الكفر .

والمجرمون هم المشركون .

وضع الظاهر موضع المضمر للتنصيص على أنَّهم المراد ولإجراء وصف الإجرام عليهم .

وخصّ المجرمين لأنَّهم المقصود من هذه الآيات كلِّها لإيضاح خفيّ أحوالهم للنبيء صلى الله عليه وسلم والمسلمين .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وابن عامر ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم ، وأبو جعفر ، ويعقوب بتاء مثنّاة فوقية في أول الفعل على أنَّها تاء خطاب .

والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم

وقرأه حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم ، وخلف بياء الغائب ، ثم إنّ نافعاً ، وأبا جعفر قرآ ﴿ سبيل ﴾ بفتح اللام على أنَّه مفعول ﴿ تستبين ﴾ فالسين والتاء للطلب .

وقرأه البقية برفع اللام على أنَّه فاعل "يستبينَ" أو "تستبينَ" .

فالسين والتاء ليسا للطلب بل للمبالغة مثل استجاب .

وقرأ ابن عامر ، وابن كثير ، وأبو عَمرو ، وحفص ، على عاصم برفع ﴿ سبيل ﴾ على أنّ تاء المضارعة تاء المؤنَّثة .

لأنّ السبيل مؤنَّثة في لغة عرب الحجاز ، وعلى أنَّه من استبان القاصر بمعنى بَانَ ف ﴿

سبيل ﴾ فاعل ﴿ تستبين ﴾ ، أي لتتّضح سبيلهم لك وللمؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(237/233)

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (55) ﴾

وساعة تسمع قوله الحق : ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيات ﴾ فاعلم أن هناك تفصيلاً سيلي ذلك يشابه تفصيلاً سبق . والآيات السابقة قد فصّل الله فيها أموراً كثيرة ؛ فصّل لنا حجة وصحة وحدانية الله سبحانه ، وفصّل لنا صحة النبوة ، وفصّل لنا صحة القضاء والقدر . ومن بعد ذلك كله يعطينا الحق المقاييس التي تقرر الحقائق التي ينكرها أهل الباطل ؛ فيفصّل لنا في العقائد ، ويفصّل لنا في حركة الحياة والحركة العبادية التي نؤدي بها تكاليف الإيمان . وكما فصل لنا سبحانه صحة الوحدانية وصحة النبوة ، وصحة القضاء والقدر ، يفصل لنا الآيات التي تقرر الحقائق : ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيات وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ المجرمين ﴾ [ الأنعام : 55 ] .

ونقرأ " سبيل " في بعض القراءات مرفوعة ، أي أن سبيل المجرمين يظهر ويستبين ويتضح ، وتقرأ في بعض القراءات منصوبة ، أي أنك يا محمد تستبين أنت السبيلَ الذي سيسلكه المجرمون .

وكلمة " سبيل " وردت في القرآن مؤنثة على الحق : ﴿ الذين يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً ﴾ [ الأعراف : 45 ] .

ووردت أيضاً في بعض الآيات مذكرة : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرشد لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ [ الأعراف : 146 ] .

ويريد الحق بذلك أن يعلمنا أن القرآن الذي نزل بلسان عربي مبين قد استقبلته قبائل من العرب ، بعضها لها السيادة كقبيلة قريش لأنها تسكن مكة ، والكعبة في مكة وكل القبائل تحج إلى الكعبة .

*(238/233)*

---

ويريد أن ينهي سبحانه هذه السيادة ، ولذلك جاء بالقرآن ببعض الألفاظ التي تنطقها القبائل الأخرى ، ومثال ذلك كلمة " سبيل " التي تؤنث في لغة " الحجاز " ، وجاء به مرة كمذكر ؛ كما تنطقها " تميم " . ولم يأت الحق بكل ألفاظ القرآن مطابقة لأسلوب قريش ،

حتى لا تظن قريش أن سيادتها التي كانت لها في الجاهلية قد انسحبت إلى الإسلام ، فقد جاء القرآن للجميع . ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ . أي أن الله سيعامل كل إنسان على مقتضى ما عنده من اليقين الإيماني .

والمعاندون لهم المعاملة التي تناسبهم ، وكذلك المصرّ على الذنوب ، والمقدم على المعاصي ، وهي تختلف عن معاملة المؤمن . ولكنها في إطار العدل الإلهي . إذن فلكلٍ المعاملة التي تناسب موقعه من الإيمان .

والمقابلون للمجرمين هم المؤمنون . فإذا استبنت سبيلَ المجرمين ، أو إذا استبان لك سبيلُ المجرمين ألا تعرف المقابل وهو سبيل المؤمنين ؟ .

وحين يذكر الحق شيئاً مقابلاً بشيء فهو يأتي بحكم شيء ثم يدع الحكم الآخر لفهم السامع ، فإذا كان الحق بين سبيل المجرمين لعناً وطرداً ، فسبيل المؤمنين يختلف عن ذلك ، إنه الرحمة والتكريم . ومثال على ذلك – والله المثل الأعلى – أنت تقول للتلميذ الذي يواظب على دروسه ويذاكر في وقت فراغه من المدرسة : إن سبيلك هو النجاح . ومن يسمع قولك هذا يعرف أن الذي لا يواظب على دروسه ولا يذاكر في وقت فراغه من المدرسة تكون عاقبة أمره الرسوب والخيبة .

*(239/233)*

وهكذا يترك الحق لفطنة السامع لكلامه أن يأتي بالمقابل ويعرف أحكام هذا المقابل : فإذا كان الحق قد قال : ﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمجرمين ﴾ فهذه إشارة أيضاً لسبيل المؤمنين من رحمة وتكريم . ونعلم أن القرآن قد جاء على أبلغ الأساليب . وهي أساليب تقتضي أن تعرف معطى كل لفظ وكل حرف حتى نفهم مقتضيات المقامات والحالات التي تطابق كل مقام . ومثال على ذلك قول الحق سبحانه : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وأخرى كَافِرَةٌ ﴾ [ آل عمران : 13 ] .

لقد ترك الحق لفطنة السامع لهذه الآية أن يعرف أن الفئة الكافرة تقاتل في سبيل الشيطان ، وأن الفئة التي تقاتل في سبيل الله هي الفئة المؤمنة ، وترك لنا الحق أن المشهد العظيم يعرفون قدر كذبهم في الدنيا ، فلا ملك لأحد إلا الله ، ولا معبود سواه ، فينطقون بما يشهدون : " والله ربنا ما كنا مشركين " .

ولقائل أن يقول : ولكن هناك في موضع آخر من القرآن نجد أن الله يقول الحق مثل هؤلاء : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * هذا يَوْمُ لاَ يَنطِقُونَ * وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [ المرسلات : 34-36 ] .

إنهم في يوم الهول الأكبر يعرفون أنهم كذبوا في الدنيا ، وهم لا ينطقون بأي قول ينفعهم ، ولا يأذن لهم الحق بأن يقدموا أعذاراً أو اعتذاراً . ونقول لمن يظن أن المكذبين لا ينطقون : إنهم بالفعل لا ينطقون قولاً يغيثهم من العذاب الذي ينتظرهم ، وهم يقعون في الدهشة البالغة والحيرة ، بل إن بعضاً من هؤلاء المكذبين بالله واليوم الآخر يكون قد صنع شيئاً استفادت به البشرية أو تطورت به حياة الناس ، فيظن أن ذلك العمل سوف ينجيه ، إن هؤلاء قد يأخذون بالفعل حظهم وثوابهم من الناس الذين عملوا من أجلهم ومن تكريم البشرية لهم ، ولكنهم يتلقون العذاب في اليوم الآخر لأنهم أشركوا بالله . ولم يكن الحق في بالهم لحظة أن قدموا ما قدموا من اختراعات ، ولذلك يقول الحق : ﴿ والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ الله عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ والله سَرِيعُ الحساب ﴾ [ النور : 39 ] .

وهكذا نعلم أن أعمال الكافرين أو المشركين يجازيهم الحق سبحانه عليها بعدله في الدنيا بالمال أو الشهرة ، ولكنها أعمال لا تفيد في الآخرة . وأعمالهم كمثل البريق اللامع الذي يحدث نتيجة سقوط أشعة الشمس على أرض فسيحة من الصحراء ، فيظنه العطشان ماء ، وما إن يقترب منه حتى يجده غير نافع له ، كذلك أعمال الكافرين أو المشركين يجدونها لا تساوي شيئاً يوم القيامة . والمشرك من هؤلاء يعرف حقيقة شركه يوم القيامة .

ولا يجد إلا الواحد الأحد القهار أمامه ، لذلك يقول كل واحد منهم : ﴿ واللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ .

إن المشرك من هؤلاء ينكر شركه . وهذا الإنكار لون من الكذب .

*(241/233)*

---

مشخص يميزه عن الجنس الآخر إما بارتفاع ترق وإما بنزول تدن . وقمة أجناس الوجود هو الإنسان الذي كرمه الحق بالحس والحركة والتفكير . ويلي الإنسان مرتبة جنسُ الحيوان الذي له الحس والحركة دون التفكير . ويلي جنس الحيوان مرتبة النبات ، وهو الذي له النمو دون الحركة والتفكير .

وعندما تُسلب من النبات غريزة النمو يصير جماداً . إذن ترتيب الأجناس من الأعلى إلى الأدنى هو كالتالي : الإنسان ثم الحيوان ، ثم النبات ثم الجماد . وكل جنس من هذه الأجناس له خصائصه ، ويأخذ الجنس الأعلى خاصية زائدة .

وأدنى الأجناس هو الجماد الذي يخدم النبات ، والنبات يخدم الحيوان والإنسان . والحيوان يخدم الإنسان ، وهكذا نجد أن أعلى الأجناس هو الإنسان بينما أدناها هو الجماد . فكيف يأخذ أعلى الأجناس وهو الإنسان رباً له من أدنى الأجناس وهو

الجماد ؟

إن تحكيم الفطرة في ذلك الأمر ينتهي إلى حكم واضح هو سخف هذا اللون من التفكير . وفطرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل البعثة هدته إلى رفض ذلك ، وجاءت البعثة لتجعل من إلف عادة رسول الله وفطرته أمر عبادة للرسول صلى الله عليه وسلم ولكل من اتبعه . ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله قُلْ لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ﴾ [ الأنعام : 56 ] .

*(242/233)*

---

إذن فمسألة عبادة المشركين للأصنام لا تنبع من هدي ولكنها خضوع إلى هوى ؛ لأن الهدي هو الطريق الموصل للغاية المعتبرة ، والهوى هو خواطر النفس التي تحقق شهوة . ولهذا نرى بعضاً من الذين يريدون إضلال البشر قد خرجوا بمذاهب ليست من الدين في شيء ، مثل القاديانية والبهائية والبابية ، وغير ذلك من تلك المذاهب ، هؤلاء الناس يدعون التدين ، وعلى الرغم من ذلك يقدمون التنازلات في أمور تمس الأخلاق ، ورأينا مثل ذلك في بعض من القضايا التي نظرتها المحاكم أخيراً ، كالذي يدعي التدين ويقبِّل كل امرأة ، ولا ينظم العلاقة بين الناس بقواعد الدين ، ولكن يطلق الغرائز حسب الهوى . وذهب إليه أناس لهم

حظ كبير ومرتبة من التعليم ، وقد أوهموا أنفسهم بخديعة كبرى ، وظنوا أنهم أخذوا بالتدين ، بينما هم يأخذون حظ الهوى المناقض للدين . ﴿ لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَآ أَنَاْ مِنَ المهتدين ﴾ [ الأنعام : 56 ] .

أي أنك يا رسول الله عليك بإبلاغ هؤلاء المشركين أنك لا تتبع أهواءهم التي تقود إلى الضلالة ؛ لأن من يتبع مثل تلك الأهواء ينحرف عن الحق ، ولا يكون من المهتدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(243/233)*

---

لطيفة

قال فى البحر المديد :

الإشارة : سبيل المؤمنين من أهل اليمين ، هو التمسك بظاهر الشريعة المحمدية ؛ بامتثال الأمر واجتناب النهي ، والمبادرة إلى التوبة ، إن أخل بأحد الأمرين من غير تحرِّ لما وراء ذلك ، وسبيل المتوجهين من السائرين والواصلين : تصفية القلوب وتهيؤها لإشراق أسرار علم الغيوب ؛ بتخليتها من الرذائل وتحليتها بأنواع الفضائل ؛ لتتهيأ بذلك لطلوع شموس العرفان ، والدخول في مقام الكشف والعيان ، الذي هو مقام الإحسان ، وما خرج عن

هذين السبيلين فهو سبيل المجرمين : إما بالكفر ، وإما بالإصرار على العصيان ، والعياذ بالله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المديد حـ 2 صـ 124 ﴾

*(244/233)*

---

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (50) وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (51) وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (52) وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (53) وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (54) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (55) ﴾

هذه الموجة بقية في مواجهة المشركين بحقيقة الرسالة ، وطبيعة الرسول ؛ بمناسبة طلبهم للخوارق – التي ذكرنا نماذج منها في الفقرة السابقة في هذا السياق – وبقية في تصحيح التصورات الجاهلية – والبشرية بصفة عامة – عن الرسالات والرسل ؛ بعدما عبثت بهذه التصورات جاهليات العرب وغيرهم من الأمم حولهم ؛ فابتعدت بها عن حقيقة الرسالة وحقيقة النبوة ، وحقيقة الوحي ، وحقيقة الرسول ؛ ودخلت بها في خرافات وأساطير وأوهام وأضاليل ؛ حتى اختلطت النبوة بالسحر والكهانة ، واختلط الوحي بالجن والجنون أيضاً ! وأصبح يطلب من النبي أن يتنبأ بالغيب ؛ وأن يأتي بالخوارق ؛ وأن يصنع ما عهد الناس أن يصنعه صاحب الجن والساحر ! . . ثم جاءت العقيدة الإسلامية لتقذف بالحق على الباطل فتدمغه فإذا هو زاهق ، ولترد إلى التصور الإيماني وضوحه وبساطته وصدقه وواقعيته ، ولتخلص صورة النبوة وصورة النبي من تلك الخرافات والأساطير والأوهام والأضاليل ، التي شاعت في الجاهليات كلها . وكان أقربها إلى مشركي العرب جاهليات أهل الكتاب من اليهود والنصارى على اختلاف الملل والنحل بينهم ، وكلها تشترك في تشويه صورة النبوة وصورة النبي أقبح تشويه !

وبعد بيان حقيقة الرسالة وحقيقة الرسول ، وتقديمها للناس مبرأة من كل ما علق بصورة النبوة وصورة النبي من أوهام وأضاليل . يقدم القرآن عقيدته للناس مجردة من كل إغراء خارج عن طبيعتها ، ومن كل زينة زائدة عن حقيقتها . . فالرسول الذي يقدمها للناس بشر ، لا يملك خزائن الله ، ولا يعلم الغيب ، ولا يقول لهم : إني ملك . . وهو لا يتلقى إلا من ربه ، ولا يتبع إلا ما يوحى إليه منه . والذين يقبلون دعوته هم أكرم البشر عند الله ، وعليه أن يلزمهم ، وأن يهش لهم ، وأن يبلغهم ما كتبه الله لهم على نفسه من الرحمة والمغفرة . كما أن عليه إنذار الذين تتحرك ضمائرهم من خشية الآخرة ؛ ليصلوا إلى مرتبة التقوى ، وفي هذا وذلك تنحصر وظيفته ، كما أنه في " البشرية " وفي " تلقي الوحي " تنحصر حقيقته . فتصح في التصورات حقيقته ووظيفته جميعاً . . ثم إنه بهذا التصحيح ، وبهذا الإنذار ، تستبين سبيل المجرمين ، عند مفرق الطريق ، ويتضح الحق والباطل ، وينكشف الغموض والوهم حول طبيعة الرسول وحول حقيقة الرسالة ، كما ينكشف الغموض حول حقيقة الهدى وحقيقة الضلال ، وتتم المفاصلة بين المؤمنين وغير المؤمنين في نور وفي يقين .

وفي ثنايا الإفصاح عن هذه الحقائق يعرض السياق جوانب من حقيقة الألوهية ، وعلاقة

الرسول بها ، وعلاقة الناس جميعاً – الطائعين منهم والعصاة – ويتحدث عن طبيعة الهدى وطبيعة الضلال عن هذه الحقيقة . فالهدى إليها بصر والضلال عنها عمى . والله كتب على نفسه الرحمة متمثلة في التوبة على عباده والمغفرة لما يرتكبونه من المعاصي في جهالة متى تأبوا منها وأصلحوا بعدها .

وهو يريد أن تستبين سبيل المجرمين ، فيؤمن من يؤمن عن بينة ، ويضل من يضل عن بينة ، ويتخذ الناس مواقفهم في وضوح لا تغشيه الأوهام والظنون . .

*(247/233)*

---

﴿ قل : لا أقول لكم : عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكم : إني ملك . إن أتبع إلا ما يوحى إليّ قل : هل يستوي الأعمى والبصير ؟ أفلا تتفكرون ﴾ . .

لقد كان المعاندون من قريش يطلبون أن يأتيهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بآية من الخوارق يصدقونه بها – وهم كانوا كما أسلفنا يعلمون صدقه ولا يشكون فيه – وتارة كانوا يطلبون أن تكون هذه الآية تحويل الصفا والمروة ذهباً ! وتارة تكون إبعادهما عن مكة ليصبح مكانهما خصباً مخضراً بالزروع والثمار ! وتارة تكون إنباءهم بما سيقع لهم من أحداث مغيبة ! وتارة تكون طلب إنزال ملك عليه ! وتارة تكون طلب كتاب مكتوب في

قرطاس يرونه يتنزل عليه من السماء . . إلى آخر هذه المطالب التي يوارون وراءها تعنتهم وعنادهم !

ولكن هذه المطالب كلها إنما كانوا يصوغون فكرتها من تلك الأوهام والأساطير التي أحاطت بصورة النبوة وصورة النبي في الجاهليات من حولهم ، وأقربها إليهم أوهام أهل الكتاب وأساطيرهم حول النبوة ، بعدما انحرفوا عما جاءتهم به رسلهم من الحق الواضح في هذه الأمور . .

ولقد شاعت في الجاهليات المتنوعة صور من " النبوءات " الزائفة ، يدعيها " متنبئون " ويصدقها مخدوعون . . ومن بينها نبوءات السحر والكهانة والتنجيم والجنون ! حيث يدعي المتنبئون قدرتهم على العلم بالغيب ، والاتصال بالجن والأرواح ، وتسخير نواميس الطبيعة بالرقى والتعاويذ ، أو بالدعوات والصلوات ، أو بغيرها من الوسائل والأساليب . وتتفق كلها في الوهم والضلالة ، وتختلف بعد ذلك في النوع والشكل والمراسم والأساليب .

*(248/233)*

---

" فنبوءة السحر يغلب عليها أنها موكلة بالأرواح الخبيثة تسخرها للاطلاع على المجهول أو السيطرة على الحوادث والأشياء . ونبوءة الكهانة يغلب عليها أنها موكلة " بالأرباب ! " لا

تطيع الكاهن ، ولكنها تلبي دعواته وصلواته وتفتح لها مغالق المجهول في يقظته أو منامه ، وترشده بالعلامات والأحلام ، ولا تلبي سائر الدعوات والصلوات ! ولكنهما – نبوءة السحر ونبوءة الكهانة – تخالفان نبوة الجذب والجنون المقدس . لأن الساحر والكاهن يدريان بما يطلبان ، ويريدان قصداً ما يطلبانه بالعزائم والصلوات ، ولكن المصاب بالجذب أو الجنون المقدس مغلوب على أمره ، ينطلق لسانه بالعبارات المبهمة وهو لا يعنيها ، ولعله لايعيها . ويكثر بين الأمم التي تشيع فيها نبوة الجذب أن يكون مع المجذوب مفسر يدعي العلم بمغزى كلامه ، ولحن رموزه وإشاراته . وقد كانوا في اليونان يسمون المجذوب " مانتي " " Manti " ويسمون المفسر : " بروفيت " " Prophet " أى المتكلم بالنيابة عن غيره . ومن هذه الكلمة نقل الأوربيون كلمة النبوة بجميع معانيها . وقلما يتفق الكهنة والمجذوبون ، إلا أن يكون الكاهن متولياً للتفسير والتعبير عن مقاصد المجذوب ، ومضامين رموزه وإشاراته .

ويحدث في أكثر الأحيان أن يختلفا ويتنازعا لأنهما مختلفان بوظيفتهما الاجتماعية مختلفان بطبيعة النشأة والبيئة . فالمجذوب ثائر لا يتقيد بالمراسم والأوضاع المصطلح عليها ، والكاهن محافظ يتلقى علمه الموروث في أكثر الأحيان من آبائه وأجداده . وتتوقف الكهانة على البيئة التي تنشأ فيها الهياكل والصوامع المقصودة في الأرجاء القريبة والبعيدة ؛ ولا

يتوقف الجذب على هذه البيئة ، لأنه قد يعتري صاحبه في البرية ، كما يعتريه في الحاضر المقصود من أطراف البلاد " .

*(249/233)*

---

" وقد كثر عدد الأنبياء في قبائل بني إسرائيل كثرة يفهم منها أنهم كانوا في أزمنتهم المتعاقبة يشبهون في العصور الحديثة أصحاب الأذكار ، ودراويش الطرق الصوفية ، لأنهم جاوزوا المئات في بعض العهود ، واصطنعوا من الرياضة في جماعاتهم ما يصطنعه هؤلاء الدراويش من التوسل إلى حالة الجذب تارة بتعذيب الجسد ، وتارة بالاستماع إلى آلات الطرب .

" جاء في كتاب صموئيل الأول :

أن شاول أرسل لأخذ داود رسلاً . . " فرأوا جماعة الأنبياء يتنبأون ، وشاول واقف بينهم رئيساً عليهم . فهبط روح الله على رسل شاول ، فتنبأوا هم أيضاً . وأرسل غيرهم فتنبأ هؤلاء . . . فخلع هو أيضاً ثيابه ، وتنبأ هو أيضاً أمام صموئيل ، وانتزع عارياً ذلك النهار كله وكل الليل " . .

" وجاء في كتاب صموئيل كذلك :

" . . . أنك تصادف زمرة من الأنبياء نازلين من الأكمة ، وأمامهم رباب ودف وناي وعود ،

وهم يتنبأون ، فيحل عليهم روح الرب ، فتتنبأ معهم ، وتتحول إلى رجل آخر .

" وكانت النبوة صناعة وراثية يتلقاها الأبناء من الآباء كما جاء في سفر الملوك الثاني : " إذ قال بنو الأنبياء يا ليشع : هو ذا الموضع الذي نحن مقيمون فيه أمامك قد ضاق علينا ، فلنذهب إلى الأردن " .

" وكانت لهم خدمة تلحق بالجيش في بعض المواضع ، كما جاء في سفر الأيام الأول . حيث قيل : إن داود ورؤساء الجيش أفرزوا للخدمة بني أساف وغيرهم من المتنبئين بالعيدان والرباب والصنوج " . . .

*(250/233)*

---

وهكذا حفلت الجاهليات – ومنها الجاهليات التي انحرفت عن التصور الصحيح الذي جاءت به الرسالات السماوية – بمثل هذه التصورات الباطلة عن طبيعة النبوة وطبيعة النبي . وكان الناس ينتظرون ممن يدعي النبوة مثل هذه الأمور ؛ ويطالبونه بالتنبؤ بالغيب تارة ؛ وبالتأثير في النواميس الكونية عن طريق الكهانة أو طريق السحر تارة . . ومن هذا المعين كانت اقتراحات المشركين على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولتصحيح هذه الأوهام كلها جاءت التقريرات المكررة في القرآن الكريم عن طبيعة الرسالة وطبيعة

الرسول . . ومنها هذا التقرير :

﴿ قل : لا أقول لكم عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكم : إني ملك . إن أتبع إلا ما يوحى إليّ .

قل : هل يستوي الأعمى والبصير ؟ أفلا تتفكرون ؟ ﴾ . .

إنه – صلى الله عليه وسلم – يؤمر من ربه أن يقدم لهم نفسه بشراً مجرداً من كل الأوهام التي سادت الجاهليات عن طبيعة النبي والنبوة . وأن يقدم لهم كذلك هذه العقيدة بذاتها مجردة من كل إغراء . . لا ثراء . ولا ادعاء . . إنها عقيدة يحملها رسول ، لا يملك إلا هداية الله ، تنير له الطريق !

ولا يتبع إلا وحي الله يعلمه ما لم يكن يعلم . . إنه لا يقعد على خزائن الله ، ليغدق منها على من يتبعه ، ولا يملك مفاتح الغيب ليدل أتباعه على ما هو كائن ؛ ولا هو ملك كما يطلبون أن ينزل الله ملكاً . . إنما هو بشر رسول ؛ وإنما هي هذه العقيدة وحدها ، في صورتها الناصعة الواضحة البسيطة . .

إنها العقيدة هتاف هذه الفطرة ، وقوام هذه الحياة ودليل الطريق إلى الآخرة ، وإلى الله . فهي مستغنية بذاتها عن كل زخرف . . من أرادها لذاتها فهو بها حقيق ، وهي عنده قيمة أكبر من كل قيمة . ومن أرادها سلعة في سوق المنافع ، فهو لا يدرك طبيعتها ، ولا يعرف قيمتها ، وهي لا تمنحه زاداً ، ولا غناء . .

لذلك كله يؤمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يقدمها للناس هكذا ، عاطلة من كل زخرف ، لأنها غنية عن كل زخرف ؛ وليعرف من يفيئون إلى ظلها أنهم لا يفيئون إلى خزائن مال ، ولا إلى وجاهة دنيا ، ولا إلى تميز على الناس بغير التقوى . إنما يفيئون إلى هداية الله وهي أكرم وأغنى .

﴿ قل : لا أقول لكم عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكم : إني ملك إنْ أتبع إلا ما يوحى إليّ ﴾ . .

ثم ليعلموا أنهم حينئذ إنما يفيئون إلى النور والبصيرة ، ويخرجون من الظلام والعماء :

﴿ قل : هل يستوي الأعمى والبصير ؟ أفلا تتفكرون ؟ ﴾ . .

ثم . . إن اتباع الوحي وحده هداية وبصر ، والمتروك بغير هذا الهادي متروك أعمى . . هذا ما تقرره هذه الآية في وضوح وصرامة . . فما شأن العقل البشري في هذا المجال ؟ سؤال جوابه في التصور الإسلامي واضح بسيط . . إن هذا العقل الذي وهبه الله للإنسان قادر على تلقي ذلك الوحي ، وإدراك مدلولاته . . وهذه وظيفته . . ثم هذه هي فرصته في النور والهداية ؛ وفي الانضباط بهذا الضابط الصحيح الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه

ولا من خلفه .

فأما حين يستقل هذا العقل البشري بنفسه بعيداً عن الوحي ، فإنه يتعرض حينئذ للضلال والانحراف ، وسوء الرؤية ، ونقص الرؤية ، وسوء التقدير ، وسوء التدبير .

يتعرض لهذا كله بسبب طبيعة تركيبه ذاتها في رؤية الوجود أجزاء لا كلا واحداً . تجربة بعد تجربة ، وحادثة بعد حادثة ، وصورة بعد صورة . . حيث يتعذر عليه أن يرى الوجود جملة ، ليقيم على أساس هذه الرؤية الكاملة أحكاماً ، ويضع على أساسها نظاماً ، ملحوظاً فيه الشمول والتوازن .

*(252/233)*

---

. ومن ثم يظل – حين ينعزل عن منهج الله وهداه – يرتاد التجارب ، ويغير الأحكام ، ويبدل النظام ، ويضطرب بين الفعل وردود الفعل ، ويتخبط من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال . . وهو في ذلك كله يحطم كائنات بشرية عزيزة ، وأجهزة إنسانية كريمة . . ولو اتبع الوحي لكفى البشر هذا الشر كله ؛ وجعل التجارب والتقلبات في " الأشياء " وفي " المادة " وفي " الأجهزة " وفي " الآلات " . . وهي مجاله الطبيعي الذي يمكن أن يستقل فيه . والخسارة في النهاية مواد وأشياء . لا أنفس وأرواح !

ويتعرض لهذا كله – بعد طبيعة تركيبه – بسبب ما ركب في الكيان البشري من شهوات وأهواء ونزعات ، لا بد لها من ضابط ، يضمن أن تؤدي وظائفها في استمرار حياة البشرية وارتقائها ، ولا تتعدى هذا الحد المأمون فتؤدي إلى تدمير الحياة أو انتكاسها ! وهذا الضابط لا يمكن أن يكون هو العقل البشري وحده ؛ فلا بد لهذا العقل الذي يضطرب تحت ضغط الأهواء والشهوات والنزعات – وهي شتى – من ضابط آخر يضبطه هو ذاته ؛ ويحرسه بعد أن يضبطه من الخلل أيضاً ، ويرجع إليه هذا العقل بكل تجربة ، وكل حكم – في مجال الحياة البشرية – ليقوّم به تجربته وحكمه ، وليضبط به اتجاهه وحركته .

والذين يزعمون للعقل البشري درجة من الأصالة في الصواب كدرجة الوحي ، باعتبار أن كليهما – العقل والوحي – من صنع الله فلا بد أن يتطابقا . . هؤلاء إنما يستندون إلى تقريرات عن قيمة العقل قال بها بعض الفلاسفة من البشر ، ولم يقل بها الله سبحانه !

*(253/233)*

---

والذين يرون أن هذا العقل يغني عن الوحي – حتى عند فرد واحد من البشر مهما بلغ عقله من الكبر – إنما يقولون في هذه القضية غير ما يقول الله . . فالله قد جعل حجته على الناس هي الوحي والرسالة ، ولم يجعل هذه الحجة هي عقلهم البشري ، ولا حتى فطرتهم التي

فطرهم الله عليها من معرفة ربها الواحد والإيمان به . لأن الله سبحانه يعلم أن العقل وحده يضل ، وأن الفطرة وحدها تنحرف . وأنه لا عاصم لعقل ولا لفطرة ، إلا أن يكون الوحي هو الرائد الهادي ، وهو النور والبصيرة .

والذين يزعمون أن الفلسفة تغني العقل عن الدين ؛ أو أن العلم – وهو من منتجات العقل – يغني البشرية عن هدى الله ؛ إنما يقولون قولاً لا سند له من الحقيقة ولا من الواقع كذلك . . فالواقع يشهد أن الحياة البشرية التي قامت أنظمتها على المذاهب الفلسفية أو على العلم ، هي أبأس حياة يشقى فيها " الإنسان " مهما فتحت عليه أبواب كل شيء ؛ ومهما تضاعف الإنتاج والإيراد ؛ ومهما تيسرت أسباب الحياة ووسائل الراحة فيها على أوسع نطاق . . وليس مقابل هذا أن تقوم الحياة على الجهل والتلقائية ! فالذين يضعون المسألة هكذا مغرضون ! فإن الإسلام منهج حياة يكفل للعقل البشري الضمانات التي تقيه عيوب تركيبه الذاتي ، وعيوب الضغوط التي تقع عليه من الأهواء والشهوات والنزعات .

ثم يقيم له الأسس ، ويضع له القواعد ، التي تكفل استقامته في انطلاقه للعلم والمعرفة والتجربة ؛ كما تكفل له استقامة الحياة الواقعية التي يعيش في ظلها – وفق شريعة الله – فلا يضغط عليه الواقع لينحرف بتصوراته ومناهجه كذلك !

والعقل بمصاحبة وحي الله وهداه بصير ، وبترك وحي الله وهداه أعمى ، واقتران الحديث عن تلقي الرسول – صلى الله عليه وسلم – من الوحي وحده ، بالإشارة إلى العمى

والبصر ، بالسؤال التحضيضي على التفكير :

﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إليّ قل : هل يستوي الأعمى والبصير : أفلا تتفكرون ؟ ﴾ . .

(254/233)

---

اقتران الإشارات وتتابعها على هذا النحو في السياق ، أمر ذو دلالة في التعبير القرآني . .

فالتفكر مطلوب ، والحض عليه منهج قرآني ؛ ولكنه التفكر المضبوط بضابط الوحي ، الذي يمضي معه مبصراً في النور ؛ لا مطلق التفكر الذي يخبط في الظلام أعمى ، بلا دليل ولا هدى ولا كتاب منير . .

والعقل البشري حين يتحرك في إطار الوحي لا يتحرك في مجال ضيق ، إنما يتحرك في مجال واسع جداً . . يتحرك في مجال هو هذا الوجود كله ، الذي يحتوي عالم الشهادة وعالم الغيب أيضاً ؛ كما يحتوي أغوار النفس ومجالي الأحداث ، ومجالات الحياة جميعاً . . فالوحي لا يكف العقل عن شيء إلا عن انحراف المنهج ، وسوء الرؤية والتواء الأهواء والشهوات ! وبعد ذلك يدفعه إلى الحركة والنشاط دفعاً . فهذه الأداة العظيمة التي وهبها الله للإنسان . . العقل . . إنما وهبها له لتعمل وتنشط في حراسة الوحي والهدى الرباني . . فلا تضل إذن ولا تطغى . .

﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون . ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء . فتطردهم فتكون من الظالمين . وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا : أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ؟ أليس الله بأعلم بالشاكرين ؟ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل : سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة : أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ، ثم تاب من بعده وأصلح ، فأنه غفور رحيم ﴾ . .

إنها عزة هذه العقيدة ، واستعلاؤها على قيم الأرض الزائفة ، وتخلصها من الاعتبارات البشرية الصغيرة . .

*(255/233)*

---

لقد أُمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يقدمها للناس دون زخرف ولا طلاء ؛ ودون إطماع في شيء من قيم الأرض ولا إغراء . . كذلك أمر أن يوجه عنايته إلى من يرجى منهم الانتفاع بالدعوة ، وأن يؤوي إليه الذين يتلقونها مخلصين ؛ ويتجهون بقلوبهم إلى الله وحده يريدون وجهه ؛ وألا يقيم وزناً بعد ذلك لشيء من قيم المجتمع الجاهلي الزائفة ؛

ولا لشيء من اعتبارات البشر الصغيرة :

﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع ، لعلهم يتقون ﴾ .

.

أنذر به هؤلاء الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ، حالة أن ليس من دونه ولي ينصرهم ولا شفيع يخلصهم . ذلك أنه ما من شفيع يشفع عند الله إلا بإذنه ، وهو لا يشفع يومئذ – بعد الإذن – إلا لمن ارتضى الله أن يتشفع عند الله فيهم . . فهؤلاء الذين تستشعر قلوبهم خوف ذلك اليوم الذي ليس فيه – من دون الله – ولي ولا شفيع ، أحق بالإنذار ، وأسمعُ له ، وأكثر انتفاعاً به . . لعلهم أن يتوقوا في حياتهم الدنيا وما يعرضهم لعذاب الله في الآخرة . فالإنذار بيان كاشف كما أنه مؤثر موحٍ . بيان يكشف لهم ما يتقونه ويحذرونه ، ومؤثر يدفع قلوبهم للتوقي والحذر ؛ فلا يقعون فيما نهوا عنه بعد ما تبين لهم :

﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ . .

لا تطرد هؤلاء الذين أخلصوا نفوسهم لله ؛ فاتجهوا لعبادته ودعائه في الصباح والمساء ؛ يريدون وجهه سبحانه ! ولا يبتغون إلا وجهه ورضاه . . وهي صورة للتجرد ، والحب ، والأدب . . فإن الواحد منهم لا يتوجه إلا إلى الله وحده بالعبادة والدعاء . وهو لا يبغي وجه الله ، إلا إذا تجرد . وهو لا يبغي وجه الله وحده حتى يكون قلبه قد أحب . وهو لا

يفرد الله – سبحانه – بالدعاء والعبادة ابتغاء وجهه إلا ويكون قد تعلم الأدب ، وصار ربانياً يعيش لله وبالله . .

(256/233)

---

ولقد كان أصل القصة أن جماعة من " أشراف " العرب ، أنفوا أن يستجيبوا إلى دعوة الإسلام ؛ لأن محمداً – صلى الله عليه وسلم – يؤوي إليه الفقراء الضعاف ، من أمثال صهيب وبلال وعمار وخباب وسلمان وابن مسعود . . ومن إليهم . . وعليهم جباب تفوح منها رائحة العرق لفقرهم ؛ ومكانتهم الاجتماعية لا تؤهلهم لأن يجلس معهم سادات قريش في مجلس واحد ! فطلب هؤلاء الكبراء إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يطردهم عنه . . فأبى . . فاقترحوا أن يخصص لهم مجلساً ويخصص للأشراف مجلساً آخر ، لا يكون فيه هؤلاء الفقراء الضعاف ، كي يظل للسادة امتيازهم واختصاصهم ومهابتهم في المجتمع الجاهلي ! فهمّ – صلى الله عليه وسلم – رغبة في إسلامهم أن يستجيب لهم في هذه . فجاءه أمر ربه :

﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ . .

روى مسلم عن سعد بن أبي وقاص ، قال كنا مع النبي – صلى الله عليه وسلم – ستة نفر .

فقال المشركون للنبي – صلى الله عليه وسلم – : اطرد هؤلاء عنك لا يجترئون علينا ! قال : وكنت أنا وابن مسعود ، ورجل من هذيل ، وبلال ، ورجلان لست أسميهما . . فوقع في نفس رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما شاء الله أن يقع .

فحدث نفسه . فأنزل الله عز وجل : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ . .

ولقد تقوّل أولئك الكبراء على هؤلاء الضعاف ، الذين يخصهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بمجلسه وبعنايته ؛ وطعنوا فيهم وعابوا ما هم فيه من فقر وضعف وما يسببه وجودهم في مجلس رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من نفور السادة وعدم إقبالهم على الإسلام . . فقضى الله سبحانه في هذه الدعوى بقضائه الفصل ؛ ورد دعواهم من أساسها ودحضها دحضاً :

﴿ ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء ، فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾ . .

(257/233)

فإن حسابهم على أنفسهم ، وحسابك على نفسك . وكونهم فقراء مقدر عليهم في الرزق هذا حسابهم عند الله ، لا شأن لك به . كذلك غناك وفقرك هو حسابك عند الله لا شأن لهم به . ولا دخل لهذه القيم في قضية الإيمان والمنزلة فيه . فإن أنت طردتهم من مجلسك بحساب الفقر والغنى كنت لا تزن بميزان الله ، ولا تقوّم بقيمه . . فكنت من الظالمين . . وحاشا لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يكون من الظالمين !

وبقي فقراء الجيوب أغنياء القلوب في مجلس رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وبقي ضعاف الجاه الأقوياء بالله في مكانهم الذي يؤهلهم له إيمانهم ؛ والذي يستحقونه بدعائهم لله لا يبتغون إلا وجهه . واستقرت موازين الإسلام وقيمه على المنهج الذي قرره الله . .

عندئذ نفر المستكبرون المستنكفون يقولون : كيف يمكن أن يختص الله من بيننا بالخير هؤلاء الضعاف الفقراء ؟ إنه لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقونا إليه ؛ ولهدانا الله به قبل أن يهديهم ! فليس من المعقول أن يكون هؤلاء الضعاف الفقراء هم الذين يمنُّ الله عليهم من بيننا ويتركنا ونحن أصحاب المقام والجاه !

وكانت هذه هي الفتنة التي قدرها الله لهؤلاء المتعالين بالمال والنسب ؛ والذين لم يدركوا طبيعة هذا الدين ؛ وطبيعة الدنيا الجديدة التي يطلع بها على البشرية ، مشرقة الآفاق ، مصعدة بهذه البشرية إلى تلك القمة السامقة ؛ التي كانت يومذاك غريبة على العرب وعلى الدنيا كلها ؛ وما تزال غريبة في ما يسمونه الديمقراطيات على اختلاف أشكالها وأسمائها !

﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا : أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا ؟ ﴾ . .

ويرد السياق القرآني على هذا الاستفهام الاستنكاري الذي يطلقه الكبراء :

﴿ أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ ؟

هذا الرد الحافل بالإيحاءات والإيماءات :

*(258/233)*

---

إذ يقرر ابتداء أن الهدى جزاء يجزي به الله من يعلم من أمرهم أنهم إذا هدوا سيشكرون هذه النعمة ، التي لا كفاء لها من شكر العبد ، ولكن الله يقبل منه جهده ويجزيه عليه هذا الجزاء الهائل الذي لا يعدله جزاء .

وإذ يقرر أن نعمة الإيمان لا تتعلق بقيمة من قيم الأرض الصغيرة التي تسود في الجاهليات البشرية .

إنما يختص الله بها من يعلم أنهم شاكرون عليها . لا يهم أن يكونوا من الموالي والضعاف والفقراء . فميزان الله لا مكان فيه لقيم الأرض الصغيرة التي تتعاظم الناس في الجاهليات !

وإذ يقرر أن اعتراض المعترضين على فضل الله إنما ينشأ من الجهالة بحقائق الأشياء . وأن توزيع هذا الفضل على العباد قائم على علم الله الكامل بمن يستحقه من هؤلاء العباد . وما

اعتراض المعترضين إلا جهل وسوء أدب في حق الله . .

ويمضي السياق يأمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو رسول الله أن يبدأ أولئك الذين أسبغ عليهم فضل السبق بالإسلام ؛ والذين يسخر منهم أولئك الكبراء الأشراف ! . . أن يبدأهم بالسلام . . وأن يبشرهم بما كتبه الله على نفسه من الرحمة ؛ متمثلاً في مغفرته لمن عمل منهم سوءاً بجهالة ، ثم تاب من بعده وأصلح :

﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل : سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ، ثم تاب من بعده وأصلح ، فأنه غفور رحيم ﴾ . .

*(259/233)*

---

وهو التكريم – بعد نعمة الإيمان واليسر في الحساب ، والرحمة في الجزاء ، حتى ليجعل الله – سبحانه – الرحمة كتاباً على نفسه للذين آمنوا بآياته ؛ ويأمر رسوله – صلى الله عليه وسلم – أن يبلغهم ما كتبه ربهم على نفسه . وحتى لتبلغ الرحمة أن يشمل العفو والمغفرة الذنب كله ، متى تابوا من بعده وأصلحوا – إذ يفسر بعضهم الجهالة بأنها ملازمة لارتكاب الذنب ؛ فما يذنب الإنسان إلا من جهالة ؛ وعلى ذلك يكون النص شاملاً لكل سوء يعمله صاحبه ؛ متى تاب من بعده وأصلح . ويؤيد هذا الفهم النصوص الأخرى التي تجعل التوبة

من الذنب – أياً كان – والإصلاح بعده ، مستوجبة للمغفرة بما كتب الله على نفسه من الرحمة . . .

ونعود – قبل الانتهاء من استعراض هذه الفقرة من السورة – إلى بعض الآثار التي وردت عن ملابسات نزول هذه الآيات ؛ وعن دلالة هذه الآثار مع النصوص القرآنية على حقيقة النقلة الهائلة التي كان هذا الدين ينقل إليها البشرية يومذاك ؛ والتي ما تزال البشرية حتى اليوم دون القمة التي بلغتها يومها ثم تراجعت عنها جداً . .

قال أبو جعفر الطبري : حدثنا هناد بن السري ، حدثنا أبو زبيد ، عن أشعث ، عن كردوس الثعلبي ، عن ابن مسعود ، قال : مر الملأ من قريش بالنبي – صلى الله عليه وسلم – وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ، ونحوهم من ضعفاء المسلمين . فقالوا : يا محمد ، رضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء الذين منَّ الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء ؟ اطردهم عنك ! فلعلك إن طردتهم أن نتبعك ! فنزلت هذه الآية : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ .

. ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ﴾ إلى آخر الآية .

*(260/233)*

وقال : حدثني الحسين بن عمرو بن محمد العنقزي ، قال : حدثنا أبي ، حدثنا أسباط ، عن السدي ، عن أبي سعيد الأزدي – وكان قارىء الأزد – عن أبي الكنود ، عن خباب في قول الله تعالى ذكره : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ . . إلى قوله : ﴿ فتكون من الظالمين ﴾ . . قال : " جاء الأقرع ابن حابس التميمي ، وعيينة بن حصن الفزاري ، فوجد النبي – صلى الله عليه وسلم – قاعداً مع بلال وصهيب وعمار وخباب ، في أناس من الضعفاء من المؤمنين . فلما رأوهم حقروهم . فأتوه فقالوا : إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا العرب به فضلنا ، فإن وفود العرب تأتيك ، فنستحيي أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبد ؛ فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا ؛ فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت ! قال : نعم ! قالوا : فاكتب لنا عليك بذلك كتاباً . قال : فدعا بالصحيفة ، ودعا علياً ليكتب . قال : ونحن قعود في ناحية ، إذ نزل جبريل بهذه الآية : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء ، فتطردهم ، فتكون من الظالمين ﴾ . . ثم قال : ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا : أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا ؟ أليس الله بأعلم بالشاكرين ؟ ﴾ . . ثم قال : ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل : سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ . . فألقى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الصحيفة من يده ؛ ثم دعانا فأتيناه وهو يقول : " سلام عليكم ، كتب ربكم على

نفسه الرحمة" . . فكنا نقعد معه ، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا . فأنزل الله تعالى : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ . . [ سورة الكهف : 28 ] قال : فكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقعد معنا بعد ، فإذا بلغ الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم !

*(261/233)*

---

وكان – صلى الله عليه وسلم – بعدها إذا رآهم بدأهم بالسلام ، وقال : الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني ربي أن أبدأهم بالسلام " .

وفي صحيح مسلم : عن عائذ بن عمرو ، " أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال ، ونفر . فقالوا : والله ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذها ! قال : فقال أبو بكر : أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم ؟ فأتى النبي – صلى الله عليه وسلم – فأخبره . فقال : يا أبا بكر ، لعلك أغضبتهم . لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك . فأتاهم أبو بكر فقال : يا إخوتاه ، أغضبتكم ؟ قالوا : لا . يغفر الله لك يا أخي " .

نحن في حاجة إلى وقفة طويلة أمام هذه النصوص .

. والبشرية بجملتها في حاجة إلى هذه الوقفة كذلك . . إن هذه النصوص لا تمثل مجرد

مبادىء وقيم ونظريات في " حقوق الإنسان ! " . . إنها أكبر من ذلك بكثير . . إنها تمثل شيئاً هائلاً تحقق في حياة البشرية فعلاً . . تمثل نقلة واسعة نقلها هذا الدين للبشرية بجملتها . . تمثل خطاً وضيئاً على الأفق بلغته هذه البشرية ذات يوم في حياتها الحقيقية . . ومهما يكن من تراجع البشرية عن هذا الخط الوضيء الذي صعدت إليه في خطو ثابت على حداء هذا الدين ، فإن هذا لا يقلل من عظمة تلك النقلة ؛ ومن ضخامة هذا الشيء الذي تحقق يوماً ؛ ومن أهمية هذا الخط الذي ارتسم بالفعل في حياة البشر الواقعية . . إن قيمة ارتسام هذا الخط وبلوغه ذات يوم . أن تحاول البشرية مرة ومرة ومرة الارتفاع إليه ؛ ما دام أنها قد بلغته ؛ فهو في طوقها إذن وفي وسعها . . والخط هناك على الأفق ، والبشرية هي البشرية ؛ وهذا الدين هو هذا الدين . . فلا يبقى إلا العزم والثقة واليقين . .

وقيمة هذه النصوص أنها ترسم للبشرية اليوم ذلك الخط الصاعد بكل نقطه ومراحله . . من سفح الجاهلية الذي التقط الإسلام منه العرب ، إلى القمة السامقة التي بلغ بهم إليها ، وأطلعتهم في الأرض يأخذون بيد البشرية من ذلك السفح نفسه إلى تلك القمة التي بلغوها !

*(262/233)*

فأما ذلك السفح الهابط الذي كان فيه العرب في جاهليتهم – وكانت في البشرية كلها – فهو يتمثل واضحاً في قوله : " الملأ " من قريش : " يا محمد ، رضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء الذين منّ الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء ؟ اطردهم عنك ! فلعلك إن طردتهم أن نتبعك ! " . . أو في احتقار الأقرع بن حابس التميمي ، وعيينة بن حصن الفزاري ، للسابقين من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بلال ، وصهيب ، وعمار ، وخباب ، وأمثالهم من الضعفاء ؛ وقولهما للنبي – صلى الله عليه وسلم – : إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا العرب به فضلنا ؛ فإن وفود العرب تأتيك ، فنستحيي أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبد ! " . .

. . هنا تتبدى الجاهلية بوجهها الكالح ! وقيمها الهزيلة ، واعتباراتها الصغيرة . . عصبية النسب والجنس واعتبارات المال والطبقة . . وما إلى ذلك من اعتبارات . هؤلاء بعضهم ليسوا من العرب ! وبعضهم ليسوا من طبقة الأشراف ! وبعضهم ليسوا من ذوي الثراء ! . . ذات القيم التي تروج في كل جاهلية ! والتي لا ترتفع عليها جاهليات الأرض اليوم في نعراتها القومية والجنسية والطبقية !

هذا هو سفح الجاهلية . . وعلى القمة السامقة الإسلام ! الذي لا يقيم وزناً لهذه القيم الهزيلة ولهذه الاعتبارات الصغيرة ، ولهذه النعرات السخيفة ! . . الإسلام الذي نزل من السماء ولم ينبت من الأرض . فالأرض كانت هي هذا السفح . . هذا السفح الذي لا

يمكن أن ينبت هذه النبتة الغريبة الجديدة الكريمة .

. الإسلام الذي يأتمر به – أول من يأتمر – محمد – صلى الله عليه وسلم – محمد رسول الله الذي يأتيه الوحي من السماء ؛ والذي هو من قبل في الذؤابة من بني هاشم في الذروة من قريش . . والذي يأتمر به أبو بكر صاحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم ؛ في شأن " هؤلاء الأعبد " . . نعم هؤلاء الأعبد الذين خلعوا عبودية كل أحد ؛ وصاروا أعبداً لله وحده ؛ فكان من أمرهم ما كان !

*(263/233)*

---

وكما أن سفح الجاهلية الهابط يرتسم في كلمات الملأ من قريش ، وفي مشاعر الأقرع وعيينة . . فإن قمة الإسلام السامقة ترتسم في أمر الله العلي الكبير ، لرسوله – صلى الله عليه وسلم – :

﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه . ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين . وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا : أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا ؟ أليس الله بأعلم بالشاكرين ؟ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل : سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة : أنه من

عمل منكم سوءاً بجهالة ، ثم تاب من بعده وأصلح ، فأنه غفور رحيم ﴾ . .

ويتمثل في سلوك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مع " هؤلاء الأعبد " . . الذين أمره ربهم أن يبدأهم بالسلام وأن يصبر معهم فلا يقوم حتى يقوموا وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم – وهو بعد ذلك – رسول الله وخير خلق الله ، وأعظم من شرفت بهم الحياة !

ثم يتمثل في نظرة " هؤلاء الأعبد " لمكانهم عند الله ؛ ونظرتهم لسيوفهم واعتبارها " سيوف الله " ونظرتهم لأبي سفيان " شيخ قريش وسيدهم " بعد أن أخره في الصف المسلم كونه من الطلقاء الذين أسلموا عام الفتح وذهبوا طلقاء عفو رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقدّمهم هم في الصف كونهم من السابقين إلى الإسلام ، وهو في شدة الابتلاء . . فلما أن عاتبهم أبو بكر – رضي الله عنه – في أمر أبي سفيان ، حذره صاحبه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يكون قد أغضب " هؤلاء الأعبد " ! فيكون قد أغضب الله – يا الله ! فما يملك أي تعليق أن يبلغ هذا المدى وما نملك إلا أن نتملاه ! – ويذهب أبو بكر – رضي الله عنه – يترضى " الأعبد " ليرضى الله : " يا إخوتاه . أغضبتكم " ؟ فيقولون : " لا يا أخي . يغفر الله لك " !

أي شيء هائل هذا الذي تحقق في حياة البشرية ؟ أية نقلة واسعة هذه التي قد تمت في واقع الناس ؟ أي تبدل في القيم والأوضاع ، وفي المشاعر والتصورات ، في آن ؟ والأرض هي الأرض والبيئة هي البيئة ، والناس هم الناس ، والاقتصاد هو الاقتصاد .

. وكل شيء على ما كان ، إلا أن وحياً نزل من السماء ، على رجل من البشر ، فيه من الله سلطان . . يخاطب فطرة البشر من وراء الركام ، ويجد و للها بطين هنالك عند السفح ، فيستجيشهم الحداء – على طول الطريق – إلى القمة السامقة . . فوق . . فوق . . هنالك عند الإسلام !

ثم تتراجع البشرية عن القمة السامقة ؛ وتنحدر مرة أخرى إلى السفح . وتقوم – مرة أخرى – في نيويورك ، وواشنطن ، وشيكاغو . . وفي جوهانسبرج . . وفي غيرها من أرض " الحضارة ! " تلك العصبيات النتنة . عصبيات الجنس واللون ، وتقوم هنا وهناك عصبيات " وطنية " و" قومية " و" طبقية " لا تقل نتناً عن تلك العصبيات . .

ويبقى الإسلام هناك على القمة . . حيث ارتسم الخط الوضيء الذي بلغته البشرية . . يبقى الإسلام هناك – رحمة من الله بالبشرية – لعلها أن ترفع أقدامها من الوحل ، وترفع عينيها عن الحمأة . . وتتطلع مرة أخرى إلى الخط الوضيء ؛ وتسمع مرة أخرى حداء هذا الدين ؛ وتعرج مرة أخرى إلى القمة السامقة على حداء الإسلام . .

ونحن لا نملك – في حدود منهجنا في هذه الظلال – أن نستطرد إلى أبعد من هذه الإشارة . . لا نملك أن نقف هنا تلك " الوقفة الطويلة " التي ندعو البشرية كلها أن تقفها أمام هذه النصوص ودلالتها . لتحاول أن تستشرف المدى الهائل الذي يرتسم من خلالها في تاريخ البشرية ؛ وهي تصعد على حداء الإسلام من سفح الجاهلية الهابط ، إلى تلك القمة السامقة البعيدة . . ثم تهبط مرة أخرى على عواء " الحضارة المادية " الخاوية من الروح والعقيدة ! . . ولتحاول كذلك أن تدرك إلى أين يملك الإسلام اليوم أن يقود خطاها مرة أخرى ؛ بعد أن فشلت جميع التجارب ، وجميع المذاهب ، وجميع الأوضاع ، وجميع الأنظمة ، وجميع الأفكار ؛ وجميع التصورات ، التي ابتدعها البشر لأنفسهم بعيداً عن منهج الله وهداه . . فشلت في أن ترتفع بالبشرية مرة أخرى إلى تلك القمة ؛ وأن تضمن للإنسان حقوقه الكريمة في هذه الصورة الوضيئة ؛ وأن تفيض على القلوب الطمأنينة – مع هذه النقلة الهائلة – وهي تنقل البشرية إليها بلا مذابح ؛ وبلا اضطهادات ؛ وبلا إجراءات استثنائية تقضي على الحريات الأساسية ؛ وبلا رعب ، وبلا فزع ، وبلا تعذيب ، وبلا جوع ، وبلا فقر ، وبلا عرض واحد من أعراض النقلات التي يحاولها البشر في ظل الأنظمة البائسة التي

يضعها البشر ؛ ويتعبد فيها بعضهم بعضاً من دون الله . .

فحسبنا هذا القدر هنا . . وحسبنا الإيحاءات القوية العميقة التي تفيض بها النصوص ذاتها ، وتسكبها في القلوب المستنيرة .

﴿ وكذلك نفصل الآيات ، ولتستبين سبيل المجرمين ﴾ . .

ختام هذه الفقرة التي قدمت طبيعة الرسالة وطبيعة الرسول في هذه النصاعة الواضحة . كما قدمت هذه العقيدة عارية من كل زخرف ؛ وفصلت الاعتبارات والقيم التي جاءت هذه العقيدة لتلغيها من حياة البشرية ؛ والاعتبارات والقيم التي جاءت لتقررها . .

﴿ وكذلك نفصل الآيات ﴾ . .

*(266/233)*

---

بمثل هذا المنهج ، وبمثل هذه الطريقة ، وبمثل هذا البيان والتفصيل . . نفصل الآيات ، التي لا تدع في هذا الحق ريبة ؛ ولا تدع في هذا الأمر غموضاً ؛ ولا تبقى معها حاجة لطلب الخوارق ؛ فالحق واضح ، والأمر بين ، بمثل ذلك المنهج الذي عرض السياق القرآني منه ذلك النموذج . .

على أن كل ما سبق في السورة من تفصيل لدلائل الهدى وموحيات الإيمان ؛ ومن بيان

للحقائق وتقرير للوقائع ، يعتبر داخلاً في مدلول قوله تعالى :

﴿ وكذلك نفصل الآيات ﴾ . .

أما ختام هذه الآية القصيرة :

﴿ ولتستبين سبيلُ المجرمين ﴾ . .

فهو شأن عجيب ! . . إنه يكشف عن خطة المنهج القرآني في العقيدة والحركة بهذه العقيدة ! إن هذا المنهج لا يُعنى ببيان الحق وإظهاره حتى تستبين سبيل المؤمنين الصالحين فحسب . إنما يعنى كذلك ببيان الباطل وكشفه حتى تستبين سبيل الضالين المجرمين أيضاً . . إن استبانة سبيل المجرمين ضرورية لاستبانة سبيل المؤمنين . وذلك كالخط الفاصل يرسم عند مفرق الطريق !

إن هذا المنهج هو المنهج الذي قرره الله – سبحانه – ليتعامل مع النفوس البشرية . . ذلك أن الله سبحانه يعلم أن إنشاء اليقين الاعتقادي بالحق والخير يقتضي رؤية الجانب المضاد من الباطل والشر ؛ والتأكيد من أن هذا باطل محض وشر خالص ؛ وأن ذلك حق ممحض وخير خالص . . كما أن قوة الاندفاع بالحق لا تنشأ فقط من شعور صاحب الحق أنه على الحق ؛ ولكن كذلك من شعوره بأن الذي يحاده ويحاربه إنما هو على الباطل . . وأنه يسلك سبيل المجرمين ؛ الذين يذكر الله في آية أخرى أنه جعل لكل نبي عدواً منهم ﴿ وكذلك

جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين ﴾ . ليستقر في نفس النبي ونفوس المؤمنين ، أن الذين يعادونهم إنما هم المجرمون ؛ عن ثقة ، وفي وضوح ، وعن يقين .

*(267/233)*

---

إن سفور الكفر والشر والإجرام ضروري لوضوح الإيمان والخير والصلاح . واستبانة سبيل المجرمين هدف من أهداف التفصيل الرباني للآيات . ذلك أن أي غبش أو شبهة في موقف المجرمين وفي سبيلهم ترتد غبشاً وشبهة في موقف المؤمنين وفي سبيلهم . فهما صفحتان ، متقابلتان وطريقان مفترقتان . . ولا بد من وضوح الألوان والخطوط . .

ومن هنا يجب أن تبدأ كل حركة إسلامية بتحديد سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين . يجب إن تبدأ من تعريف سبيل المؤمنين وتعريف سبيل المجرمين ؛ ووضع العنوان المميز للمؤمنين . والعنوان المميز للمجرمين ، في عالم الواقع لا في عالم النظريات . فيعرف أصحاب الدعوة الإسلامية والحركة الإسلامية من هم المؤمنون ممن حولهم ومن هم المجرمون . بعد تحديد سبيل المؤمنين ومنهجهم وعلامتهم ، وتحديد سبيل المجرمين ومنهجهم وعلامتهم . بحيث لا يختلط السبيلان ولا يتشابه العنوانان ، ولا تلتبس الملامح والسمات بين المؤمنين والمجرمين .

.

وهذا التحديد كان قائماً ، وهذا الوضوح كان كاملاً ، يوم كان الإسلام يواجه المشركين في الجزيرة العربية . فكانت سبيل المسلمين الصالحين هي سبيل الرسول – صلى الله عليه وسلم – ومن معه . وكانت سبيل المشركين المجرمين هي سبيل من لم يدخل معهم في هذا الدين . . ومع هذا التحديد وهذا الوضوح كان القرآن يتنزل وكان الله – سبحانه – يفصل الآيات على ذلك النحو الذي سبقت منه نماذج في السورة – ومنها ذلك النموذج الأخير – لتستبين سبيل المجرمين !

وحيثما واجه الإسلام الشرك والوثنية والإلحاد والديانات المنحرفة المتخلفة من الديانات ذات الأصل السماوي بعد ما بدّلتها وأفسدتها التحريفات البشرية . . حيثما واجه الإسلام هذه الطوائف والملل كانت سبيل المؤمنين الصالحين واضحة ، وسبيل المشركين الكافرين المجرمين واضحة كذلك . . لا يجدي معها التلبيس !

*(268/233)*

---

ولكن المشقة الكبرى التي تواجه حركات الإسلام الحقيقية اليوم ليست في شيء من هذا . . إنها تتمثل في وجود أقوام من الناس من سلالات المسلمين ، في أوطان كانت في يوم من الأيام داراً للاسلام ، يسيطر عليها دين الله ، وتحكم بشريعته . . ثم إذا هذه الأرض ،

وإذا هذه الأقوام، تهجر الإسلام حقيقة، وتعلنه اسماً. وإذا هي تتنكر لمقومات الإسلام اعتقاداً وواقعاً. وإن ظنت أنها تدين بالإسلام اعتقاداً! فالإسلام شهادة أن لا إله إلا الله.. وشهادة أن لا إله إلا الله تتمثل في الاعتقاد بأن الله – وحده – هو خالق هذا الكون المتصرف فيه. وأن الله – وحده – هو الذي يتقدم إليه العباد بالشعائر التعبدية ونشاط الحياة كله. وأن الله – وحده – هو الذي يتلقى منه العباد الشرائع ويخضعون لحكمه في شأن حياتهم كله.. وأيما فرد لم يشهد أن لا إله إلا الله – بهذا المدلول – فإنه لم يشهد ولم يدخل في الإسلام بعد. كائناً ما كان اسمه ولقبه ونسبه. وأيما أرض لم تتحقق فيها شهادة أن لا إله إلا الله – بهذا المدلول – فهي أرض لم تدن بدين الله، ولم تدخل في الإسلام بعد.. وفي الأرض اليوم أقوام من الناس أسماؤهم أسماء المسلمين؛ وهم من سلالات المسلمين. وفيها أوطان كانت في يوم من الأيام داراً للإسلام.. ولكن لا الأقوام اليوم تشهد أن لا إله إلا الله – بذلك المدلول – ولا الأوطان اليوم تدين لله بمقتضى هذا المدلول..

وهذا أشق ما تواجهه حركات الإسلام الحقيقية في هذه الأوطان مع هؤلاء الأقوام!

أشق ما تعانيه هذه الحركات هو الغبش والغموض واللبس الذي أحاط بمدلول لا إله إلا الله، ومدلول الإسلام في جانب؛ وبمدلول الشرك وبمدلول الجاهلية في الجانب الآخر..

أشق ما تعانيه هذه الحركات هو عدم استبانة طريق المسلمين الصالحين، وطريق المشركين

المجرمين ؛ واختلاط الشارات والعناوين ؛ والتباس الأسماء والصفات ؛ والتيه الذي لا تتحدد فيه مفارق الطريق !

*(269/233)*

---

ويعرف أعداء الحركات الإسلامية هذه الثغرة .

فيعكفون عليها توسيعاً وتمييعاً وتلبيساً وتخليطاً . حتى يصبح الجهر بكلمة الفصل تهمة يؤخذ عليها بالنواصي والأقدام ! . . تهمة تكفير " المسلمين " ! ! ! ويصبح الحكم في أمر الإسلام والكفر مسألة المرجع فيها لعرف الناس واصطلاحهم ، لا إلى قول الله ولا إلى قول رسول الله !

هذه هي المشقة الكبرى . . وهذه كذلك هي العقبة الأولى التي لا بد أن يجتازها أصحاب الدعوة إلى الله في كل جيل !

يجب أن تبدأ الدعوة إلى الله باستبانة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين . . ويجب ألا تأخذ أصحاب الدعوة إلى الله في كلمة الحق والفصل هوادة ولا مداهنة . وألا تأخذهم فيها خشية ولا خوف ؛ وألا تقعدهم عنها لومة لائم ، ولا صيحة صائح : انظروا ! إنهم يكفرون المسلمين !

إن الإسلام ليس بهذا التميع الذي يظنه المخدوعون ! إن الإسلام بيّن والكفر بين . .

الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله – بذلك المدلول – فمن لم يشهدها على هذا النحو ؛ ومن لم يقمها في الحياة على هذا النحو ، فحكم الله ورسوله فيه أنه من الكافرين الظالمين الفاسقين . . المجرمين . .

﴿ وكذلك نفصّل الآيات ، ولتستبين سبيل المجرمين ﴾ . .

أجل يجب أن يجتاز أصحاب الدعوة إلى الله هذه العقبة ؛ وأن تتم في نفوسهم هذه الاستبانة ؛ كي تنطلق طاقاتهم كلها في سبيل الله لا تصدها شبهة ، ولا يعوّقها غبش ، ولا يميعها لبس . فإن طاقاتهم لا تنطلق إلا إذا اعتقدوا في يقين أنهم هم " المسلمون " وأن الذين يقفون في طريقهم ويصدونهم ويصدون الناس عن سبيل الله هم " المجرمون " . . كذلك فإنهم لن يحتملوا متاعب الطريق إلا إذا استيقنوا أنها قضية كفر وإيمان . وأنهم وقومهم على مفرق الطريق ، وأنهم على ملة وقومهم على ملة . وأنهم في دين وقومهم في دين :

﴿ وكذلك نفصّل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين ﴾ . .

. . وصدق الله العظيم . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 2 صـ 1094 . 1107 ﴾

*(270/233)*

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

" الكاف " نعتٌ لمصدر مَحْذُوفٍ ، أو حال من ضمير ذلك المصدر ، كما هو رأي سيبويه ، والإشارةُ بذلك إلى التفضيل السَّابق ، تقديره : مِثْلُ التَّفْصِيل البيِّن ، وهو ما سبق من أحوال الأمم نُفَصِّل آيات القرآن .

وقال ابن عطية : والإشارةُ بقوله : " وكذلك " إلى ما تقدَّم ، من النَّهْيِ عن طَرْدِ المؤمنين ، وبيان فَسَاده بِنَزْعِ المعارضين لذلك .

و﴿ نفَصِّلُ الآيات ﴾ نُبَيِّنُهَا ونَشْرَحُهَا ، وهذا شبيه بما تقدَّم له في قوله : ﴿ وكذلك فَتَنَّا ﴾ [ الأنعام : 53 ] وتقدَّم أنه غير ظاهر .

قوله : " ولتَسْتَبِينَ سَبِيلُ " قرأ الأخوان ، وأبو بكر : " وليَسْتَبِينَ " بالياء من تحت ، و" سَبِيلُ " بالرفع .

ونافع : " وَلِتَسْتَبِينَ " بالتَّاء من فَوْق ، " سَبِيلَ " بالنصب ، والباقون : بالتاء من فوق ، و" سبيل " بالرفع .

وهذه القراءات دائرة على تذكير " السبيل " وتأنيثه وتعدي " استبان " ولزومه ، وإيضاح هذا أن لغة نجد وتميم تذكير " السبيل " وعليه قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرشد لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ [ الأعراف : 146 ] .

ولغة "الحجاز" التأنيث، وعليه ﴿ قُلْ هذه سبيلي ﴾ [يوسف: 108] وقوله: ﴿ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً ﴾ [آل عمران: 99].

وقوله: [البسيط]

2184 - خَلَّ السَّبيلَ لِمَنْ يَبْنِي المَنَارَ بِهَا .....

وأمَّا "اسْتَبَانَ" فيكونُ مُتعدِّياً، نحو: "اسْتَبَنْتُ الشَّيء"، ويكون لازماً نحو: "اسْتَبَانَ الصُّبْحُ" بمعنى "بَانَ" فمن قرأ بالياء من تحت، ورفع فإنه أسْنَدَ الفعل إلى "السَّبيل"، فرفعه على أنه مذكر وعلى أن الفعل لازمٌ.

ومن قرأ بالتَّاء من فوق، فكذلك ولكن لغة التأنيث، ومن قرأ بالتاء من فوق، ونصب "السبيل" فإنه [أسند الفعل إلى المخاطب، ونصب "السبيل" على] المفعولية وذلك على تعديته أي: ولتستبين أنت سبيل المجرمين، فالتاء في "تستبين" مختلفة المعنى، فإنها في إحدى القراءتين للخطابِ، وفي الأخرى للتأنيث وهي في كلا الحالين للمُضارعةِ، و"تستبين" منصوب بإضمار "أن" بعد لام "كي"، وفيما يتعلق به هذه اللام وجهان:

أحدهما: أنها معطوفة على عِلَّةٍ محذوفة، وتلك العَلَّةُ معمولة لقوله: "نُفَصِّل" والمعنى:

وكذلك نُفَصِّلُ الآيات لتستبين لكن ولتستبين .

والثاني : أنها مُتعلِّقةٌ بمحذوف مُقدَّر بعدها ، أي : ولتسبين سبيل المجرمين فَصَّلْنَاهَا ذلك التَّفْصَيل ، وفي الكلام حَذْفُ مَعْطُوفٍ على رأي ، أي : وسبيل المؤمنين كقوله تعالى : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [ النحل : 81 ] .

(272/233)

---

وقيل : لا يحتاج إلى ذلك لأن المقام إنما يَقْتَضِي ذِكْرَ المجرمين فقط ؛ إذ هم الذين أَثَارُوا ما تقدم ذكرهُ وقيل : لأن الضِّدَّيْنِ إذا كانا بحيث لا يَحْصُلُ بينما واسطةٌ ، فمتى بَانَتْ خَاصيَّةُ أحد القسمين بانت خاصيَّةُ القسمِ الآخر ، والحق والباطل لا وَاسِطَةَ بينهما ، فمتى اسْتَبَانَتْ طريقة المجرمين ، فقد استبانت طريقة المُحَقِّقين أيضاً لا محالة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 179 . 181 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (55) ﴾

نزيل الإشكال ، ونُفْصِحُ طريق الاستدلال ، ونُطْلِعُ شموسَ التوحيد ، ونمد أهله بحسن

التأييد ، ونَسِمُ قلوبَ الأعداء بوسم الخذلان ، ونذيقهم شؤمَ الحرمان لئلا يبقى لأحدٍ عذرٌ ، ولا في الطريق إشكال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 478 ﴾

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الذين يَسْمَعُونَ والموتى يَبْعَثُهُمُ الله ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [ الأنعام : 63 ] قال ابن عطاء : أخبر سبحانه بهذه الآية أن أهل السماع هم الأحياء وهم أهل الخطاب والجواب .

وأخبر أن الآخرين هم الأموات .

(273/233)

---

وقال غيره : المعنى أنه لا يستجيب إلا من فتح الله سبحانه سمع قلبه بالهداية الأصلية ووهب له الحياة الحقيقية بصفاء الاستعداد ونور الفطرة لا موتى الجهل الذين ماتت غرائزهم بالجهل المركب أو بالحجب الجبلية أو لم يكن لهم استعداد بحسب الفطرة فإنهم قد صموا عن السماع ولا يمكنهم ذلك بل يبعثهم الله تعالى إليه بالنشأة الثانية ثم يرجعون إليه سبحانه في عين الجمع المطلق للجزاء والمكافاة مع احتجابهم ، وقيل : الآية إشارة إلى أهل

الصحو وأهل المحو ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى الأَرض وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أمثالكم ﴾ حيث فطروا على التوحيد وجبلوا على المعرفة ولهم مشارب من بحر خطاب الله تعالى وأفنان من أشجار رياض كلماته سبحانه وحنين إليه عز وجل وتغريد باسمه عز اسمه .

قيل : إن سمنون المحب كان إذا تكلم في المحبة يسقط الطير من الهواء .

وروي في بعض الآثار أن الضب بعد أن تكلم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد برسالته أنشأ يقول :

ألا يا رسول الله إنك صادق . . .

فبوركت مهدياً وبوركت هادياً

وبوركت في الآزال حياً وميتا . . .

وبوركت مولوداً وبوركت ناشياً

وإن فيهم أيضاً المحتجبين ومرتكبي الرذائل وغير ذلك .

وقد تقدم الكلام في هذا المبحث مفصلاً ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى الكتاب ﴾ أي كتاب أعمالهم ﴿ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [ الأنعام : 38 ] في عين الجمع ﴿ والذين كَذَّبُواْ ﴾ لاحتجابهم بغواشي صفات نفوسهم ﴿ بآياتنا ﴾ وهي تجليات الصفات ﴿ صُمٌّ ﴾ فلا يسمعون بآذان القلوب ﴿ وَبُكْمٌ ﴾ فلا ينطقون بألسنة العقول ﴿ فِى الظلمات ﴾ وهي ظلمات الطبيعة وغياهب الجهل ﴿ مَن يَشَإِ الله يُضْلِلْهُ ﴾ بإسبال حجب جلاله

﴿ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ على صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [ الأنعام : 39 ] بإشراق سبحات جماله ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُم إِنْ أتاكم عَذَابُ الله ﴾ من المرض وسائر أنواع الشدائد ﴿ أَوْ أَتَتْكُمْ الساعة ﴾ الصغرى أو الكبرى ﴿ أَغَيْرَ الله تَدْعُونَ ﴾ لكشف ما ينالكم ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ ( الأنعام ؛ 40 ) ﴿ بَلْ إياه تَدْعُونَ ﴾ [ الأنعام : 41 ] لكشف ذلك .

قال بعض العارفين مرجع الخواص إلى الحق جل شأنه من أول البداية ومرجع العوام إليه سبحانه بعد اليأس من الخلق وكان هذا في وقت هذا العارف .

وأما في وقتنا فنرى العامة إذا ضاق بهم الخناق تركوا دعاء الملك الخلاق ودعوا سكان الثرى ومن لا يسمع ولا يرى .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلنَا إلى أُمَمٍ مّن قَبْلِكَ فأخذناهم بالبأساء والضراء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [ الأنعام : 42 ] أي ليطيعوا ويبرزوا من الحجاب وينقادوا متضرعين عند تجلي صفة القهر ﴿ ولكن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [ الأنعام : 43 ] أي ما تضرعوا لقساوة قلوبهم بكثافة الحجاب وغلبة غشي الهوى وحب الدنيا وأصل كل ذلك سوء الاستعداد ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ الله سَمْعَكُمْ ﴾ فلم تسمعوا خطابه ﴿ وأبصاركم ﴾ فلم تشاهدوا عجائب

قدرته وأسرار صنعته ﴿ وَخَتَمَ على قُلُوبِكُمْ ﴾ فلم يدخلها شيء من معرفته سبحانه ﴿ مَّنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِهِ ﴾ [ الأنعام : 46 ] أي هل يقدر أحد سواه جلت قدرته على فتح باب من هذه الأبواب كلا بل هو القادر الفعال لما يريد ﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى ﴾ أي من حيث أنا ﴿ خَزَائِنُ الله ﴾ أي مقدوراته ﴿ وَلا أَعْلَمُ ﴾ أي من حيث أنا أيضاً ﴿ الغيب وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ أي روح مجرد لا أحتاج إلى طعام ولا شراب ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ ﴾ أي من تلك الحيثية ﴿ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَىَّ ﴾ من الله تعالى .

*(275/233)*

---

وله صلى الله عليه وسلم مقام ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ولكن الله رمى ﴾ [ الأنفال : 17 ] .

و ﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [ الفتح : 10 ] وليس لطير العقل طيران في ذلك الجو ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الاعمى ﴾ عن نور الله تعالى وإحاطته بكل ذرة من العرش إلى الثرى وظهوره بما شاء حسب الحكمة وعدم تقييده سبحانه بشيء من المظاهر ﴿ والبصير ﴾ [ الأنعام : 50 ] بذلك فيتكلم في كل مقام بمقال ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ ﴾ أي لأجل التربية والتهذيب والامتحان ﴿ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ الذي أوصلهم حيث

أوصلهم من معارج الكمال ﴿ بالغداة ﴾ أي وقت تجلي الجمال ﴿ والعشى ﴾ أي وقت تجلي العظمة والجلال ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ أي يريدونه سبحانه بذاته وصفاته ويطلبون تجليه عز وجل لقلوبهم ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم ﴾ أي حساب أعمالهم القلبية من شيء لأن الله تعالى قد تولى حفظ قلوبهم وأمطر عليها سحائب عنايته فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّن شَىْءٍ ﴾ عطف على سابقه أتى به للمبالغة على ما مر في العبارة .

ويحتمل أن يراد لا تطرد السالكين لأجل المحجوبين فما عليك من حساب السالكين أو المحجوبين شيء ومعنى ذلك يعرف بأدنى التفات ﴿ فَتَطْرُدَهُمْ ﴾ عن الجلوس معك ﴿ فَتَكُونَ مِنَ الظالمين ﴾ [ الأنعام : 52 ] لهم بنقص حقوقهم وعدم القيام برعاية شأنهم .

*(276/233)*

---

ومن المؤولين من قال : إن الآية في أهل الوحدة أي لا تزجر الواصلين الكاملين ولا تنذرهم فإن الإنذار كما لا ينجع في الذين قست قلوبهم لا ينجع في الذين طاشوا وتلاشوا في الله تعالى وهم الذين يخصونه سبحانه بالعبادة دائماً بحضور القلب وعدم مشاهدة شيء سواه حتى ذواتهم ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم ﴾ فيما يعملون ﴿ مِن شَىْءٍ ﴾ إذ لا واسطة بينهم

وبين ربهم ﴿ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّن شَيْءٍ ﴾ أي لا يخوضون في أمور دعوتك بنصر وإعانة لاشتغالهم به سبحانه عمن سواه ودوام حضورهم معه ﴿ فَتَطْرُدَهُمْ ﴾ عما هم عليه من دوام الحضور بدعوتك لهم لشغل ديني ﴿ فَتَكُونَ مِنَ الظالمين ﴾ لتشويشك عليهم أوقاتهم ، والله تعالى أعلم بحقيقة كلامه ﴿ وكذلك فَتَنَّا بَعْضَهُمْ ﴾ أي الناس وهم المحجوبون ﴿ بِبَعْضٍ ﴾ وهم العارفون ﴿ لِّيَقُولواْ ﴾ أي المحجوبون مشيرين إلى العارفين مستحقرين لهم حيث لم يروا منهم سوى حالهم في الظاهر وفقرهم ولم يروا قدرهم ومرتبتهم وحسن حالهم في الباطن وغرهم ما هم فيه من المال والجاه والتنعم وخفض العيش ﴿ أَهَؤُلاء مَنَّ الله عَلَيْهِم ﴾ بالهداية والمعرفة ﴿ مِّن بَيْنِنَا ﴾ أرادوا أنه سبحانه لم يمن عليهم ﴿ أَلَيْسَ الله بِأَعْلَمَ بالشاكرين ﴾ [ الأنعام : 53 ] أي الذين يشكرونه حق شكره فيمن عليهم بعظيم جوده ﴿ وَإِذَا جَاءكَ الذين يُؤْمِنُونَ بآياتنا ﴾ أي بواسطتها ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم أنت أيها الوسيلة : ﴿ سلام عَلَيْكُمُ ﴾ وهذا لأنهم في مقام الوسائط ولو بلغوا إلى درجة أهل المشاهدة لمنحهم سبحانه بسلامه كما قال عز شأنه ﴿ سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [ ياس : 58 ] وباقي الآية ظاهر .

(277/233)

وقال الإمام الرازي : "إن قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ ﴾ الخ مشتمل على أسرار عالية وذلك لأن ما سوى الله تعالى فهو آيات وجود الله تعالى وآيات صفات جلاله وإكرامه ( وكبريائه ) وآيات وحدانيته وما سواه سبحانه لا نهاية له ( وما لا نهاية له ) ( 1 ) فلا سبيل للعقل إلى الوقوف عليه على التفصيل التام إلا أن الممكن هو أن يطلع على بعض الآيات ويتوسل بمعرفتها إلى معرفة الله تعالى ثم يؤمن بالبقية على سبيل الإجمال ثم إنه يكون مدة حياته كالسابح في تلك البحار وكالسائح في تلك القفار .

ولما كان لا نهاية لها فكذلك لا نهاية لترقي العبد في معارج تلك الآيات ، وهذا ( شرح إجمالي ) لا نهاية لتفاصيله .

ثم إن العبد إذا صار موصوفاً بهذه الصفة فعند هذا أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم : ﴿ سلام عَلَيْكُمُ ﴾ فيكون هذا التسليم بشارة بحصول السلامة . وقوله سبحانه ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمة ﴾ بشارة بحصول ( الكرامة ) عقيب تلك السلامة .

أما السلامة فبالنجاة من بحر عالم الظلمات ومركز الجسمانية ومعدن الآفات ( والمخافات ) وموضع التغيرات والتبدلات ، وأما الكرامة فبالوصول إلى الباقيات الصالحات والمجردات القدسيات والوصول إلى فسحة عالم الأنوار والترقي إلى معارج سرادقات الجلال" انتهى .

(278/233)

وقال آخر : الإشارة إلى نوع من السالكين أي إذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا بمحو صفاتهم في صفاتنا ﴿ فَقُلْ سلام عَلَيْكُمْ ﴾ لتنزهكم عن عيوب صفاتكم وتجردكم عن ملابسها ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمة ﴾ أي ألزم ذاته المقدسة رحمة إبدال صفاتكم بصفاته لكم لأن في الله سبحانه خلفاً عن كل ما فات ﴿ أَنَّهُ مِنَ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءا بِجَهَالَةٍ ﴾ أي ظهر عليه في تلوينه صفة من صفاته بغيبة أو غفلة ﴿ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ ﴾ أي بعد ظهور تلك الصفة بأن رجع عن تلوينه وفاء إلى الحضور ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ أي ما ظهر منه بالخضوع والتضرع بين يديه سبحانه والرياضة ( فأنه ) عز شأنه ﴿ غَفُورٌ ﴾ يسترها عنه ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ [ الأنعام : 54 ] يرحمه بهبة التمكين ونعمة الاستقامة ﴿ وَكَذَلِكَ نفَصّلُ الآيات ﴾ أي مثل ذلك التبيين الذي بيناه لهؤلاء المؤمنين نبين لك صفاتنا ﴿ وِلَتَسْتَبِينَ سَبِيلُ المجرمين ﴾ [ الأنعام : 55 ] وهم المحجوبون بصفاتهم الذين يفعلون لذلك ما يفعلون .

والله تعالى الموفق للصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

(279/233)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والثلاثون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/234)

الجزء الرابع والثلاثون بعد المائتين

من الآية ﴿ 56 ﴾ من سورة الأنعام

وحتى الآية ﴿ 58 ﴾ من نفس السورة

*(4/234)*

---

قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (56) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان محط حالهم في السؤال طرد الضعفاء قصد اتباع أهوائهم ، أمره تعالى بأن يخبرهم أنه مباين لهم – لما بين له بالبيان الواضح من سوء عاقبة سبيلهم – مباينة لا يمكن معها اتباع أهوائهم ، وهي المباينة في الدين فقال : ﴿ قل إني نهيت ﴾ أي ممن له الأمر كله ﴿ أن أعبد الذين تدعون ﴾ أي تعبدون بناء منكم على محض الهوى والتقليد في أعظم أصول الدين ، وحقر أمرهم وبين سفول رتبتهم بقوله : ﴿ من دون الله ﴾ أي الذي لا أعظم منه ، فقد وقعتم في ترك الأعظم ولزوم الدون الذي هو دونكم في أعظم الجهل المؤذن بعمى القلب مع

الكفر بالمحسن ، فمباينتي مبناها على المقاطعة ، فكيف تطمع في متابعة ! ثم أكد ذلك بأمر آخر دال على أنه لا شبهة لهم في عبادتهم فقال : ﴿ قل لا أتبع أهواءكم ﴾ أي عوضاً عما أنا عليه من الحكمة البالغة المؤيدة بالبراهين الساطعة والأدلة القاطعة .

ولما كان من المعلوم أن الهوى لا يدعو إلى هدى ، بل إلى غاية الردى ، حقق ما أفهمته هذه الجملة بقوله : ﴿ قد ضللت إذاً ﴾ أي إذا اتبعت أهواءكم ؛ ولما كان الضال قد يرجع ، بين أن هذا ليس كذلك ، لعراقتهم في الضلال ، فقال معبراً بالجملة الاسمية الدالة على الثبات : ﴿ وما أنا ﴾ أي إذ ذاك على شيء من الهداية لأعد ﴿ من المهتدين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 645 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما ذكر في الآية المتقدمة ما يدل على أنه يفصل الآيات ليظهر الحق وليستبين سبيل المجرمين ، ذكر في هذه الآية أنه تعالى نهى عن سلوك سبيلهم .

فقال : ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ وبين أن الذين يعبدونها إنما يعبدونها بناء على محض الهوى والتقليد ، لا على سبيل الحجة والدليل ، لأنها جمادات وأحجار وهي أخس مرتبة من الإنسان بكثير ، وكون الأشرف مشتغلاً بعبادة الأخس أمر يدفعه صريح العقل .

وأيضاً أن القوم كانوا ينحتون تلك الأصنام ويركبونها ، ومن المعلوم بالبديهة أنه يقبح من هذا العامل الصانع أن يعبد معموله ومصنوعه .

فثبت أن عبادتها مبنية على الهوى .

ومضادة للهدى ، وهذا هو المراد من قوله ﴿ قُلْ لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ ﴾ ثم قال : ﴿ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَاْ مِنَ المهتدين ﴾ أي إن اتبعت أهواءكم فأنا ضال وما أنا من المهتدين في شيء .

والمقصود كأنه يقول لهم أنتم كذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 7 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ﴾

أمره تعالى أن يجاهرهم بالتبري من عبادتهم غير الله ، ولما ذكر تعالى تفصيل الآيات لتستبين سبيل المبطل من المحق نهاه عن سلوك سبيلهم ومعنى نهيت زجرت .

قال الزمخشري : بما ركب في من أدلة العقل وبما أوتيت من أدلة السمع والذين يدعون هم الأصنام ، عبر عنها بالذين على زعم الكفار حين أنزلوها منزلة من يعقل و ﴿ تدعون ﴾ .

قال ابن عباس : معناه تعبدون .

وقيل : تسمونهم آلهة من دعوت ولدي زيداً سميته .

وقيل : يدعون في أموركم وحوائجكم وفي قوله : ﴿ تدعون من دون الله ﴾ استجهال لهم ووصف بالاقتحام فيما كانوا منه على غير بصيرة ، ولفظة ﴿ نهيت ﴾ أبلغ من النفي بلا ﴿ أعبد ﴾ إذ فيه ورود تكليف .

*(6/234)*

---

﴿ قل لا أتبع أهواءكم ﴾ أي ما تميل إليه أنفسكم من عبادة غير الله ولما كانت أصنامهم مختلفة كان لكل عابد صنم هوى يخصه فلذلك جمع ، و ﴿ أهواءكم ﴾ عام وغالب ما يستعمل في غير الخير ويعم عبادة الأصنام وما أمروا به من طرد المؤمنين الضعفاء وغير ذلك مما ليس بحق وهي أعم من الجملة السابقة وأنص على مخالفتهم ، وفي قوله ﴿ أهواءكم ﴾ تنبيه على السبب الذي حصل منه الضلال وتنبيه لمن أراد اتباع الحق ومجانبة الباطل كما قال ابن دريد :

وآفة العقل الهوى فمن علا . . .

على هواه عقله فقد نجا

﴿ قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين ﴾ المعنى إن اتبعت أهواءكم ضللت وما اهتديت والجملة من قوله : ﴿ وما أنا من المهتدين ﴾ مؤكدة لقوله ﴿ قد ضللت ﴾ وجاءت تلك فعلية لتدل على التجدد وهذه اسمية لتدل على الثبوت فحصل نفي تجدد الضلال وثبوته وجاءت رأس آية .

وقرأ السلمي وابن وثاب وطلحة ﴿ ضللت ﴾ بكسر فتحة اللام وهي لغة ، وفي التحرير قرأ يحيى وابن أبي ليلى هنا في السجدة في أئذا ضللنا بالصاد غير معجمة ويقال صل اللحم أنتن ويروى ضللنا أي دفنا في الضلة وهي الأرض الصلبة رواه أبو العباس عن مجاهد بن الفرات في كتاب الشواذ له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

*(7/234)*

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ قيل : "تدعون" بمعنى تعبدون .

وقيل : تدعونهم في مهمات أُموركم على جهة العبادة ؛ أراد بذلك الأصنام .

﴿ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ﴾ فيما طلبتموه من عبادة هذه الآشياء ، ومن طرد من أردتم

طرده .

﴿ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً ﴾ أي قد ضللت إن اتبعت أهواءكم .

﴿ وَمَا أَنَا مِنَ المهتدين ﴾ أي على طريق رشد وهدى .

وقرىء "ضَلَلْتُ" بفتح اللام وكسرها وهما لغتان .

قال أبو عمرو بن العلاء : ضَلَلْتُ بكسر اللام لغة تميم ، وهي قراءة يحيى بن وَثَّاب وطلحة بن مُصَرِّف ، والأولى هي الأصح والأفصح ؛ لأنها لغة أهل الحجاز ، وهي قراءة الجمهور .

وقال الجوهريّ : والضلال والضلالة ضد الرشاد ، وقد ضَلَلْتُ أَضِلُّ ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ على نَفْسِي ﴾ [ سبأ : 50 ] فهذه لغة نجد ، وهي الفصيحة ، وأهل العالية يقولون : ضَلِلْتُ بالكسر أَضَلّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

وقال البيضاوى :

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ ﴾ صرفت وزجرت بما نصب لي من الأدلة وأنزل علي من الآيات في أمر التوحيد . ﴿ أَنْ أَعْبُدَ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ عن عبادة ما تعبدون من دون الله ، أو ما تدعونها آلهة أي تسمونها . ﴿ قُلْ لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ ﴾ تأكيد لقطع أطماعهم وإشارة إلى الموجب للنهي وعلة الامتناع عن متابعتهم واستجهال لهم ، وبيان لمبدأ ضلالهم وأن ما هم عليه هوى وليس يهدي ، وتنبيه لمن تحرى الحق على أن يتبع الحجة ولا يقلد . ﴿ قَدْ

ضَلَلْتُ إِذاً ﴾ أي اتبعت أهواءكم فقد ضللت . ﴿ وَمَا أَنَاْ مِنَ المهتدين ﴾ أي في شيء من الهدى حتى أكون من عدادهم ، وفيه تعريض بأنهم كذلك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 414 ﴾

*(8/234)*

---

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ إِنّى نُهِيتُ ﴾ أُمر عليه الصلاة والسلام بالرجوع إلى مخاطبة المُصِرّين على الشرك إثرَ ما أُمر بمعاملة مَنْ عداهم من أهل الإنذار والتبشيرِ بما يليق بحالهم أي قل لهم قطعاً لأطماعهم الفارغةِ عن ركونه عليه الصلاة والسلام إليهم ، وبياناً لكون ما هم عليه من الدين هوىً محضاً وضلالاً بحتاً ، إني صُرفتُ وزُجِرْت بما نُصب لي من الأدلة وأُنزل علي من الآيات في أمر التوحيد ﴿ أَنْ أَعْبُدَ الذين تَدْعُونَ ﴾ أي عن عبادة ما تعبدونه ﴿ مِن دُونِ الله ﴾ كائناً ما كان .

﴿ قُلْ ﴾ كَرر الأمرَ مع قرب العهد اعتناءً بشأن المأمور به أو إيذاناً باختلاف المَقولَيْن من حيث إن الأولَ حكايةٌ لما من جهته تعالى من النهي ، والثاني حكايةٌ لما من جهته صلى الله عليه وسلم من الانتهاء عما ذُكر من عبادة ما يعبدونه وإنما قيل : ﴿ لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ ﴾

استجهالاً لهم وتنصيصاً على أنهم فيما هم فيه تابعون لأهواءَ باطلةٍ وليسوا على شيء مما ينطلق عليه الدين أصلاً ، وإشعاراً بما يوجب النهيَ والانتهاءَ ، وقوله تعالى : ﴿ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً ﴾ استئنافٌ مؤكِّد لانتهائه عما نُهيَ عنه مقرِّر لكونهم في غاية الضلال والغَواية ، أي إن اتبعتُ أهواءكم فقد ضللت ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنَاْ مِنَ المهتدين ﴾ عطفٌ على ما قبله ، والعدولُ إلى الجملة الاسمية للدلالة على الدوام والاستمرار أي دوامِ النفْي واستمرارِه لا نفْيِ الدوام والاستمرار كما مر مراراً أي ما أنا في شيء من الهدى حين أكون في عِدادهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

*(9/234)*

---

وقال الشوكانى :

قوله : ﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ ﴾ أمره الله سبحانه أن يعود إلى مخاطبة الكفار ، ويخبرهم بأنه نهى عن عبادة ما يدعونه ويعبدونه من دون الله ، أي : نهاه الله عن ذلك وصرفه وزجره ، ثم أمره سبحانه بأن يقول لهم : ﴿ لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ ﴾ أي لا أسلك المسلك الذي سلكتموه في دينكم ، من اتباع الأهواء والمشي على ما توجبه المقاصد الفاسدة التي يتسبب عنها الوقوع في الضلال .

قوله : ﴿ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً ﴾ أي إن اتبعت أهواءكم فيما طلبتموه من عبادة معبوداتكم ، وطرد من أردتم طرده ﴿ وَمَا أَنَاْ مِنَ المهتدين ﴾ إن فعلت ذلك ، وهذه الجملة الإسمية معطوفة على الجملة التي قبلها ، والمجيء بها اسمية عقب تلك الفعلية للدلالة على الدوام والثبات ، وقرىء " ضَلَلْتُ " بفتح اللام وكسرها وهما لغتان .

قال أبو عمرو : ضللت بكسر اللام لغة تميم ، وهي قراءة ابن وثاب وطلحة بن مصرف ، والأولى هي الأصح والأفصح ؛ لأنها لغة أهل الحجاز ، وهي قراءة الجمهور .

قال الجوهري : والضلال والضلالة ضدّ الرشاد ، وقد ضللت أضلّ ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ على نَفْسِى ﴾ [ سبأ : 50 ] قال فهذه : يعني المفتوحة لغة نجد وهي الفصيحة ، وأهل العالية يقول : " ضللت " بالكسر أضلّ انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

*(10/234)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ إِنّى نُهِيتُ ﴾ أمر له صلى الله عليه وسلم بالرجوع إلى خطاب المصرين على الشرك إثر ما أمر بمعاملة من عداهم بما يليق بحالهم أي قل لهم قطعاً لأطماعهم الفارغة عن ركونك

إليهم وبياناً لكون ما هم عليه هوى محضاً وضلالاً صرفاً إني صرفت ومنعت بالأدلة الحقانية والآيات القرآنية ﴿ أَنْ أَعْبُدَ الذين ﴾ أي عن عبادة الآلهة الذين ﴿ تَدْعُونَ ﴾ أي تعبدونهم أو تسمونهم آلهة ﴿ مِن دُونِ الله ﴾ سواء كانوا ذوي عقول أم لا .

وقد يقال : إن المراد بهم الأصنام إلا أنه عبر بصيغة العقلاء جرياً على زعمهم ﴿ قُلْ لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ﴾ تكرير الأمر مع قرب العهد اعتناء بشأن المأمور به وإيذاناً باختلاف القولين من حيث إن الأول : حكاية لما مر من جهته تعالى من النهي والثاني : ( حكاية ) لما من جهته عليه الصلاة والسلام من الانتهاء عن عبادة ما يعبدون .

وفي هذا القول استجهال لهم وتنصيص على أنهم فيما هم فيه من عبادة غير الله تعالى تابعون لأهواء باطلة وليسوا على شيء مما ينطلق عليه الدين أصلاً وإشعار بما يوجب النهي والانتهاء .

وفيه كما قيل إشارة إلى عدم كفاية التقليد الصرف في مثل هذه المطالب ، وقيل وهو في غاية البعد إن المراد لا أتبع أهواءكم في طرد المؤمنين .

﴿ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً ﴾ أي إن اتبعت أهواءكم فقد ضللت .

وهو استئناف مؤكد لانتهائه عليه الصلاة والسلام عما نهي عنه مقرر لكونه في غاية الضلال .

وقرأ يحيى بن وثاب ﴿ ضَلِلْتُ ﴾ بكسر اللام وهو لغة فيه ، والفتح كما قال أبو عبيدة هو

الغالب .

﴿ وَمَا أَنَاْ مِنَ المهتدين ﴾ عطف على ما قبله ، والعدول إلى الإسمية للدلالة على الدوام والاستمرار أي دوام النفي واستمراره لا نفي الدوام والاستمرار ، والمراد كما قيل ، وما أنا إذاً في شيء من الهدى حتى أعد في عدادهم ، وفيه تعريض بأن المقول لهم كذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾

استئناف ابتدائي عاد به الكلام إلى إبطال الشرك بالتبرّىء من عبادة أصنامهم فإنَّه بعد أن أبطل إلهية الأصنام بطريق الاستدلال من قوله ﴿ قل أغير الله أتخذ وليّاً ﴾ [ الأنعام : 14 ] الآية .

وقوله : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُم إِنْ أَتَاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ﴾ [ الأنعام : 40 ] الآية

وقوله : ﴿ قل أرأيتم إِنْ أَخَذَ الله سمعكم وأبصاركم ﴾ [ الأنعام : 46 ] الآية .

*(11/234)*

جاء في هذه الآية بطريقة أخرى لإبطال عبادة الأصنام وهي أنّ الله نهى رسوله عليه الصلاة والسلام عن عبادتها وعن اتّباع أهواء عبدتها .

وبُني ﴿ نُهيت ﴾ على صيغة المجهول للاستغناء عن ذكر الفاعل لظهور المراد ، أي نهاني الله .

وهو يتعدّى بحرف ( عن ) فحذف الحرف حذفاً مطّرداً مع ( أنْ ) .

وأجري على الأصنام اسم الموصول الموضوع للعقلاء لأنَّهم عاملوهم معاملة العقلاء فأتى لهم بما يحكي اعتقادهم ، أو لأنَّهم عبدوا الجنّ وبعض البشر فغُلِّب العُقلاء من معبوداتهم .

ومعنى ﴿ تدعون ﴾ تعبدون وتَلْجئُون إليهم في المهمّات ، أي تدعونهم .

و ﴿ مِن دون الله ﴾ حال من المفعول المحذوف ، فعامِلُه ﴿ تدعون ﴾ .

وهو حكاية لما غلب على المشركين من الاشتغال بعبادة الأصنام ودعائهم عن عبادة الله ودعائه ، حتَّى كأنَّهم عبدوهم دون الله ، وإن كانوا إنّما أشركوهم بالعبادة مع الله ولو في بعض الأوقات .

وفيه نداء عليهم باضطراب عقيدتهم إذْ أشركوا مع الله في العبادة من لا يستحقّونها مع أنَّهم قائلون بأنّ الله هو مالك الأصنام وجاعلها شفعاء لكن ذلك كالعدم لأنّ كلّ عبادة توجَّهُوا بها إلى الأصنام قد اعتدوا بها على حقّ الله في أن يَصْرفوها إليه .

وجملة ﴿ قل لا أتَّبع أهواءكم ﴾ استئناف آخر ابتدائي ، وقد عدل عن العطف إلى

الاستئناف ليكون غرضاً مستقلاً .

وأعيد الأمر بالقول زيادة في الاهتمام بالاستئناف واستقلاله ليكون هذا النفي شاملاً للاتِّباع في عبادة الأصنام وفي غيرها من ضلالتهم كطلب طرد المؤمنين عن مجلسه .

والأهواء جمع هَوى ، وهو المحبَّة المفرطة .

وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ ولئن اتَّبعتَ أهواءهم ﴾ في سورة [ البقرة : 120 ] .

وإنَّما قال : لا أتَّبع أهواءكم ﴾ دون لا أتَّبعكم للإشارة إلى أنَّهم في دينهم تابعون للهوى نابذون لدليل العقل .

وفي هذا تجهيل لهم في إقامة دينهم على غير أصل متين .

*(12/234)*

---

وجملة ﴿ قد ضللت إذا ﴾ جواب لشرط مقدّر ، أي إنْ اتَّبعتُ أهواءكم إذَنْ قد ضللتُ .

وكذلك موقع ( إذَنْ ) حين تدخل على فعل غير مستقبل فإنَّها تكون حينئذٍ جواباً لشرط مقدّر مشروط بـ ( إنْ ) أوْ ( لوْ ) مُصرّح به تارة ، كقول كُثَيِّر :

لَئِنْ عاد لي عبد العزيز بمثلها . . .

وأمكنني منها إذَنْ لا أقيلها

ومقدّرٍ أخرى كهذه الآية ، وكقوله تعالى : ﴿ وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ﴾ [ المؤمنون : 91 ] .

وتقديم جواب ( إذن ) على ( إذَنْ ) في هذه الآية للاهتمام بالجواب .

ولذلك الاهتمام أكّد بـ ﴿ قد ﴾ مع كونه مفروضاً وليس بواقع ، للإشارة إلى أنّ وقوعه محقّق لو تحقّق الشرط المقدّر الذي دلّت عليه ( إذَنْ ) .

وقوله : ﴿ وما أنا من المهتدين ﴾ عطف على ﴿ قد ضَلَلْتُ ﴾ ، عطف عليه للدلالة على أنَّه جزاء آخر للشرط المقدّر ، فيدلّ على أنَّه إن فعل ذلك يخرج عن حاله التي هو عليها الآن من كونه في عداد المهتدين إلى الكون في حالة الضلال ، وأفاد مع ذلك تأكيد مضمون جملة ﴿ قد ضللت ﴾ لأنَّه نفَى عن نفسه ضدّ الضلال فتقرّرت حقيقة الضلال على الفرض والتقدير .

وتأكيد الشيء بنفي ضدّه طريقة عربية قد اهتديتُ إليها ونبّهت عليها عند قوله تعالى : ﴿ قد ضلّوا وما كانوا مُهتدين ﴾ في هذه السورة [ 140 ] .

ونظيره قوله تعالى : وأضلّ فرعون قومه وما هدى ﴾ [ طه : 79 ] .

وقد أتي بالخبر بالجار والمجرور فقيل : ﴿ من المهتدين ﴾ ولم يقل : وما أنا مهتد ، لأنّ المقصود نفي الجملة التي خبرها ﴿ من المهتدين ﴾ ، فإنّ التعريف في ﴿ المهتدين ﴾

تعريف الجنس ، فإخبار المتكلم عن نفسه بأنّه من المهتدين يفيد أنَّه واحد من الفئة التي تُعرف عند الناس بفئة المهتدين ، فيفيد أنَّه مهتد إفادة بطريقة تشبه طريقة الاستدلال .

فهو من قبيل الكناية التي هي إثبات الشيء بإثبات ملزومه .

وهي أبلغ من التصريح .

*(13/234)*

---

قال في "الكشاف" في قوله تعالى : ﴿ قال إِنِّي لِعَمَلِكُمْ من القَالين ﴾ [ الشعراء : 168 ] :

قولك فلان من العلماء أبلغ من قولك : فلان عالم ، لأنَّك تشهد له بكونه معدوداً في زمرتهم ومعروفة مساهمته لهم في العلم .

وقال عند قوله تعالى : ﴿ قالوا سواء علينا أوعَظت أم لم تكن من الواعظين ﴾ في سورة [ الشعراء : 136 ] .

فإن قلت لوقيل : أوعظت أو لم تعظ ، كان أخصر ، والمعنى واحد .

قلت : ليس المعنى بواحد وبينهما فرق لأنّ المراد سواء علينا أفعلتَ هذا الفعل الذي هو الوعظ أم لم تكن أصلاً من أهله ومباشرته ، فهو أبلغ في قلَّة الاعتداد بوعظه من قوله : أم لم تعظ .

وقال الخفاجي إنّ أصل هذا لابن جنّي .

ولهذا كان نفي هذا الخبر مفيداً نفي هذه النسبة الكنائية فكانت أبلغيَّتُه في النفي كأبلغيَّته في الإثبات ، لأنّ المفاد الكنائي هُو هُو .

ولذلك فسّره في الكشاف ﴿ بقوله : "وما أنا من الهدى في شيء" .

ولم يتفطَّن لهذه النكتة بعض الناظرين نقله عنه الطيبي فقال : إنَّه لمَّا كان قولك : هو من المهتدين ، مفيداً في الإثبات أنّ للمخبر عنه حظوظاً عظيمة في الهدى فهو في النفي يُوجِب أن تنفى عنه الحظوظ الكثيرة ، وذلك يصدق بأن يبقى له حظّ قليل .

وهذا سفسطة خفيت عن قائلها لأنَّه إنَّما تصحّ إفادة النفي ذلك لو كانت دلالة المثبَت بواسطة القيود اللفظية ، فأمَّا وهي بطريق التكنية فهي ملازمة للفظ إثباتاً ونفياً لأنَّها دلالة عقلية لا لفظية .

ولذا قال التفتازاني : "هو من قبيل تأكيد النفي لا نفي التأكيد" فهو يفيد أنّه قد انسلخ عن هذه الزمرة التي كان معدوداً منها وهو أشدّ من مطلق الاتّصاف بعدم الهدى لأنّ مفارقة المرء فئته بعد أن كان منها أشدّ عليه من اتِّصافه بما يخالف صفاتهم قبل الاتِّصال بهم .

*(14/234)*

وقد تقدّم قوله تعالى : ﴿ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ في سورة [ البقرة : 67 ] ، وأحلنا بسطه على هذا الموضع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله قُلْ لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَآ أَنَاْ مِنَ المهتدين ﴾

" أن أعبد " في محل " أن " الخلاف المشهور ، إذ هي على حذف حرفٍ ، تقديره : نهيت عن أن أَعْبُدَ الذين تدعون من دون الله قل : لا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ في عِبَادَةِ الأَوْثَانِ ، وطرْدِ الفقراء .

قوله : " قَدْ ضَلَلْتُ " بفتح " اللام " الأولى .

وقرأ أبو عبد الرحمن ، ويحيى ، وابن أبي ليلى أنهما قرءا هنا وفي " ألم السجدة " : ﴿ أإذا صَلَلْنَا ﴾ [ السجدة : 10 ] بصاد غير معجمة يقال : صل اللَّحم أي : أَنْتَنَ ، وهذا له بَعْضُ مُناسبةٍ في آية " السجدة " ، وأما هنا فمعناه بعيد أو ممتنع .

وروى العباس عن ابن مجاهد في " الشواذ " له : " صُلِلْنَا في الأَرْضِ " ، أي : دُفِنَّا في الصِّلَّة ، وهي [ الأَرضُ ] الصَّلْبَةُ .

وقوله : " ومَا أَنَا مِن المُهتدينَ " تأكيد لقوله : " قَدْ ضَلَلْتُ " وأتى بالأولى جملة فعلية لِتَدُلَّ

على تَجَدُّدِ الفعل وحدوثه ، وبالثانية اسمية لتدل على الثبوت .

والمعنى " وما أنا من المهتدين ، يعني إن فعلت ذلك ، فقد تركت سبيل الحقّ ، وسلكت غير سبيل الهدى " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 181.182 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (56) ﴾

يعني صرِّح بالاعتراف بجميل ما خصصناكَ به من وجوه العصمة والنعمة ، وأخبرهم أنك في كنف الإيواء مُتقلَّب ، وفي قبضة ( الصون ) مُصَرَّفٌ ؛ فلا للهوى عليك سلطان ، ولا لك من محل التحقيق تباعد أو عن الحضور غيبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 478 ﴾

*(15/234)*

---

قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (57) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان طلبهم للآيات – أي العلامات الدالة على الصدق تارة بالرحمة في إنزال الأنهار والكنوز وإراحة الحياة ، وتارة بالعذاب من إيقاع السماء عليهم كسفاً ونحو ذلك – ليس في يده ولا عنده تعين وقت نزوله ، وأمره هنا أن يصرح لهم بالمباينة ويؤيسهم من الملاينة ما داموا على المداهنة ، أمره بأن يخبرهم بما هو متمكن فيه من النور وما هم فيه من العمى بقوله : ﴿ قل إني ﴾ وأشار إلى تمكنه في الأدلة الظاهرة والحجج القاهرة بحرف الاستعلاء فقال : ﴿ على بينة ﴾ أي إن العدو إنما يصانع عدوه إما لعدم الثقة بالنصرة عليه وتعذيبه بعداوته ، وإما العدم وثوقه بأنه على الحق ، وأما أنا فواثق بكلا الأمرين ﴿ من ربي ﴾ أي المحسن إليّ بإرسالي بعد الكشف التام لي عن سر الملك والملكوت ﴿ و ﴾ الحال أنكم ﴿ كذبتم به ﴾ أي ربي حيث رددتم رسالته فهو منتقم منكم لا محالة .

*(16/234)*

---

ولما قيل ذلك ، فرض أن لسان حالهم قال : فائتنا بهذه البينة ! فقال : إن ربي تام القدرة ، فلا يخاف الفوت فلا يعجل ، وأما أنا فعبد ﴿ ما عندي ﴾ أي في قدرتي وإمكاني ﴿ ما

تستعجلون به ﴾ أي في قولكم " امطر علنيا حجارة من السماء " ونحوه حتى أحكم فيكم بما يقتضيه طبع البشر من العجلة ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ الحكم ﴾ في شيء من الأشياء هذا وغيره ﴿ إلا الله ﴾ أي الذي له الأمر كله فلا كفوء له ، ثم استأنف قوله مبيناً أنه سبحانه يأتي بالأمر في الوقت الذي حده له على ما هو الأليق به من غير قدرة لأحد غيره على تقديم ولا تأخير فقال : ﴿ يقضُّ ﴾ أي يفصل وينفذ بالتقديم والتأخير ، وهو معنى قراءة الحرميين وعاصم " يقص " أي يقطع القضاء أو القصص ﴿ الحق ﴾ ويظهره فيفصله من الباطل ويوضحه ، ليتبعه من قضى بسعادته ، ويتنكب عنه من حكم بشقاوته ﴿ وهو خير الفاصلين ﴾ لأنه إذا أراد ذلك لم يدع لبساً لمن يريد هدايته ، وجعل في ذلك الظاهر سبباً لمن يريد ضلالته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 645.646 ﴾

فصل

قال الفخر :

ولما نفى أن يكون الهوى متبعاً ، على ما يجب اتباعه بقوله : ﴿ قُلْ إِنِّى على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ أي في أنه لا معبود سواه .

وكذبتم أنتم حيث أشركتم به غيره .

واعلم أنه عليه الصلاة والسلام ، كان يخوفهم بنزول العذاب عليهم بسبب هذا الشرك .

والقوم لإصرارهم على الكفر كانوا يستعجلون نزول ذلك العذاب .

فقال تعالى قل يا محمد : ﴿ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴾ يعني قولهم ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مّنَ السماء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [ الأنفال : 32 ] والمراد أن ذلك العذاب ينزله الله في الوقت الذي أراد إنزاله فيه .

ولا قدرة لي على تقديمه أو تأخيره .

ثم قال : ﴿ إِنِ الحكم إِلاَّ للَّهِ ﴾ وهذا مطلق يتناول الكل .

والمراد ههنا إن الحكم إلا لله فقط في تأخير عذابهم ﴿ يَقْضِى الحق ﴾ أي القضاء الحق في كل ما يقضي من التأخير والتعجيل ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الفاصلين ﴾ أي القاضين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 7 ﴾

*(17/234)*

---

وقال أبو حيان :

﴿ قل إني على بينة من ربي ﴾ أي على شريعة واضحة وملة صحيحة .

وقيل : البينة هي المعجزة التي تبين صدقي وهي القرآن ، قالوا : ويجوز أن تكون التاء في ﴿ بينة ﴾ للمبالغة والمعنى على أمر بين لما نفي أن يكون متبعاً للهوى نبه على ما يجب اتباعه وهو الأمر الواضح من الله تعالى .

﴿ وكذبتم به ﴾ إخبار منه عنهم أنهم كذبوا به والظاهر عود الضمير على الله أي وكذبتم بالله .

وقيل : عائد على ﴿ بينة ﴾ لأن معناه على أمر بيّن .

وقيل : على البيان الدال عليه بينة .

وقيل : على القرآن .

﴿ ما عندي ما تستعجلون به ﴾ الذي استعجلوا به قيل الآيات المقترحة قاله الزجاج .

وقيل : العذاب ورجح بأن الاستعجال لم يأت في القرآن إلا للعذاب لأنهم لم يستعجلوا بالآيات المقترحة وبأن لفظ ﴿ وكذبتم به ﴾ يتضمن أنكم واقعتم ما أنتم تستحقون به العذاب إلا أن ذلك ليس لي .

قال الزمخشري : يعني العذاب الذي استعجلوه في قولهم : ﴿ فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ أي الحكم لله على الإطلاق وهو الفصل بين الخصمين المختلفين بإيجاب الثواب والعقاب .

وقيل : القضاء بإنزال العذاب وفيه التفويض العام لله تعالى .

﴿ يقضي الحق ﴾ هي قراءة العربيين والأخوين أي يقضي القضاء الحق في كل ما يقضى فيه من تأخير أو تعجيل ، وضمن بعضهم يقضي معنى ينفذ فعداه إلى مفعول به .

وقيل : يقضي بمعنى يصنع أي كل ما يصنعه فهو حق قال الهذلي :

وعليهما مسدودتان قضاهما . . .

داود أو صنع السوابغ تبع

أي صنعهما وقيل حذف الباء والأصل بالحق ، ويؤيده قراءة عبد الله وأبي وابن وثاب والنخعي وطلحة والأعمش يقضي بالحق بياء الجر وسقطت الباء خطأ لسقوطها لفظاً لالتقاء الساكنين .

*(18/234)*

---

وقرأ مجاهد وابن جبير يقضي بالحق .

﴿ وهو خير الفاصلين ﴾ وفي مصحف عبد الله وهو أسرع الفاصلين .

وقرأ ابن عباس والحرميان وعاصم ﴿ يقص الحق ﴾ من قص الحديث كقوله ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ أو من قص الأثر أي اتبعه .

وحكى أن أبا عمرو بن العلاء سئل أهو يقص الحق أو يقضي الحق ؟ فقال : لو كان يقص لقال وهو خير القاصين أقرأ أحد بهذا وحيث قال ﴿ وهو خير الفاصلين ﴾ فإنما يكون الفصل في القضاء ؛ انتهى .

ولم يبلغ أبا عمرو أنه قرىء بها ويدل على ذلك قوله : أقرأ بها أحد ولا يلزم ما قال ، فقد جاء

الفصل في القول قال تعالى : ﴿ إنه لقول فصل ﴾ وقال : ﴿ أحكمت آياته ثم فصلت ﴾ وقال : ﴿ نفصل الآيات ﴾ فلا يلزم من ذكر الفاصلين أن يكون معيناً ليقضي و ﴿ خير ﴾ هنا أفعل التفضيل على بابها .

وقيل : ليست على بابها لأن قضاءه تعالى لا يشبه قضاء ولا يفصل كفصله أحد وهذا الاستدلال يدل على أنها بابها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

*(19/234)*

---

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ قل إني على بينة من ربي ﴾ الآية ، هذه الآية تماد في إيضاح مباينته لهم ، والمعنى قل إني على أمر بين فحذف الموصوف ثم دخلت هاء المبالغة كقوله عز وجل : ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ﴾ [ القيامة : 14 ] ويصح أن تكون الهاء في ﴿ بينة ﴾ مجردة للتأنيث ، ويكون بمعنى البيان ، كما قال ﴿ ويحيى من حيَّ عن بينة ﴾ [ الأنفال : 42 ] والمراد بالآية أني أيها المكذبون في اعتقادي ويقيني وما حصل في نفسي من العلم على بينة من ربي ﴿ وكذبتم به ﴾ الضمير في ﴿ به ﴾ عائد على بين في تقدير هاء المبالغة أو على البيان التي هي ﴿ بينة ﴾ بمعناه في التأويل الآخر ، أو على الرب ، وقيل على القرآن

وهو وإن لم يتقدم له ذكر جلي فإنه بعض البيان الذي منه حصل الاعتقاد واليقين للنبي عليه السلام ، فيصح عود الضمير عليه .

(20/234)

---

قال القاضي أبو محمد : وللنبي عليه السلام أمور أخر غير القرآن وقع له العلم أيضاً من جهتها كتكليم الحجارة له ورؤيته للملك قبل الوحي وغير ذلك وقال بعض المفسرين في ﴿ به ﴾ عائد على ﴿ ما ﴾ والمراد بها الآيات المقترحة على ما قال بعض المفسرين ، وقيل المراد بها العذاب ، وهذا يترجح بوجهين : أحدهما من جهة المعنى وذلك أن قوله ﴿ وكذبتم به ﴾ يتضمن أنكم واقعتم ما تستوجبون به العذاب إلا أنه ليس عندي ، والآخر من جهة اللفظ وهو الاستعجال الذي لم يأت في القرآن استعجالهم إلا العذاب لأن اقتراحهم بالآيات لم يكن باستعجال ، وقوله ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ أي القضاء والإنفاذ ﴿ يقص الحق ﴾ أي يخبر به ، والمعنى يقص القصص الحق ، وهذه قراءة ابن كثير وعاصم ونافع وابن عباس ، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وابن عامر " يقضي الحق " أي ينفذه ، وترجع هذه القراءة بقوله ﴿ الفاصلين ﴾ لأن الفصل مناسب للقضاء ، وقد جاء أيضاً الفصل والتفصيل مع القصص ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود " وهو أسرع الفاصلين " قال أبو عمرو الداني :

وقرأ عبد الله وأبيّ ويحيى ابن وثاب وإبراهيم النخعي وطلحة الأعمش " يقضي بالحق " بزيادة باء الجر ، وقرأ مجاهد وسعيد بن جبير " يقضي الحق وهو خير الفاصلين " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ أي دلالة ويقين وحجة وبرهان ، لا على هوى ؛ ومنه البينة لأنها تبين الحق وتظهره .

﴿ وَكَذَّبْتُم بِهِ ﴾ أي بالبينة لأنها في معنى البيان ؛ كما قال : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ القسمة أُوْلُواْ القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم مِّنْهُ ﴾ [ النساء : 8 ] على ما بيناه هناك .

وقيل يعود على الرب ، أي كذبتم بربي لأنه جرى ذكره .

وقيل : بالعذاب .

وقيل : بالقرآن .

وفي معنى هذه الآية والتي قبلها ما أنشده مُصْعَب بن عبد الله بن الزُّبير لنفسه ، وكان شاعراً محسناً رضي الله عنه :

أأقعدُ بعدما رجفتْ عظامي . . .

وكان الموتُ أقربَ ما يَليني

أُجادلُ كلَّ مُعترضٍ خَصيمِ . . .

وأجعل دِينَه غَرَضاً لِدينِي

فأتركُ ما علمتُ لرأي غيرِي . . .

وليس الرأيُ كالعلم اليقينِ

وما أنا والخصومةُ وهي شيءٌ . . .

يُصرَّفُ في الشَّمالِ وفي اليمين

وقد سُنَّت لنا سُنَنٌ قِوام . . .

يَلُحْنَ بكلِّ فَجٍّ أو وَجِين

وكان الحقُّ ليس به خفاءٌ . . .

أغَرَّ كَغُرَّةِ الفَلَقِ المبينِ

وما عِوضٌ لنا مِنهاجُ جَهْمٍ . . .

بمنهاج ابنِ آمنةَ الأمينِ

فأمّا ما علمتُ فقد كَفَانِي . . .

وأمّا ما جهلتُ فجنّبونِي

قوله تعالى : ﴿ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴾ أي العذاب ؛ فإنهم كانوا لفرط تكذيبهم يستعجلون نزوله استهزاء نحو قولهم : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السمآء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً ﴾ [ الإسراء : 92 ] ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء ﴾ [ الأنفال : 32 ] .

وقيل : ما عندي من الآيات التي تقترحونها .

﴿ إِنِ الحكم إِلاَّ للَّهِ ﴾ أي ما الحكم إلاَّ لله في تأخير العذاب وتعجيله .

وقيل : الحكم الفاصل بين الحق والباطل لله .

﴿ يَقُصُّ الحق ﴾ أي يقص القَصَص الحق ؛ وبه استدل من منع المجاز في القرآن ، وهي قراءة نافع وابن كثير وعاصم ومجاهد والأعرج وابن عباس ؛ قال ابن عباس قال الله عزّ وجل : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص ﴾ [ يوسف : 3 ] .

*(22/234)*

---

والباقون "يَقْضِ الحَقَّ" بالضاد المعجمة ، وكذلك قرأ عليّ رضي الله عنه وأبو عبد الرحمن السُّلَمِي وسعيد بن المسيّب ، وهو مكتوب في المصحف بغير ياء ، ولا ينبغي الوقف عليه ، وهو من القضاء ؛ ودل على ذلك أن بعده ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الفاصلين ﴾ والفصل لا يكون إلاَّ

قضاء دون قَصص ، ويُقوّي ذلك قوله قبله : ﴿ إِنِ الحكم إِلاَّ للَّهِ ﴾ ويقوّي ذلك أيضاً قراءة ابن مسعود "إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقْضِي بِالْحَقِّ" فدخول الباء يؤكد معنى القضاء .

قال النحاس ؛ هذا لا يلزم ؛ لأن معنى "يقضي" يأتي ويصنع فالمعنى : يأتي الحق ، ويجوز أن يكون المعنى : "يقضي" القضاء الحق .

قال مكيّ : وقراءة الصاد أحب إليّ ؛ لاتفاق الحرميَّيْن وعاصم على ذلك ، ولأنه لو كان من القضاء للزمت الباء فيه كما أتت في قراءة ابن مسعود .

قال النحاس : وهذا الاحتجاج لا يلزم ؛ لأن مثل هذه الباء تحذف كثيراً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 6 صـ ﴾

*(23/234)*

---

وقال أبو السعود :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنّى على بَيّنَةٍ ﴾ تحقيقٌ للحق الذي عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وبيانٌ لاتّباعه إياه إثرَ إبطالِ الذي عليه الكَفَرةُ وبيانِ عدمِ اتباعِه له والبينةُ الحجةُ الواضحةُ التي تفصِلُ بين الحق والباطل والمرادُ بها القرآنُ والوحْيُ وقيل : هي الحججُ العقلية أو ما يعمُّها ، ولا يساعدُه المقامُ ، والتنوينُ للتفخيم ، وقولُه تعالى : ﴿ مّن رَّبّى ﴾ متعلقٌ

بمحذوفٍ هو صفةٌ ( لبينة ) مؤكّدة لما أفادهه التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية ، وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم من التشريفِ ورفعِ المنزلة ما لا يخفى ، وقولُه تعالى : ﴿ وَكَذَّبْتُم بِهِ ﴾ إما جملةٌ مستأنفة أو حاليةٌ بتقدير قد أو بدونه ، جيء بها لاستقباح مضمونِها واستبعاد وقوعِه مع تحقق ما يقتضي عدمَه من غاية وضوحِ البينة ، والضميرُ المجرورُ للبينة ، والتذكير باعتبار المعنى المرادِ ، والمعنى إني على بينةٍ عظيمة كائنةٍ من ربي وكذبتم بها وبما فيها من الأخبار التي من جملتها الوعيدُ بمجيء العذاب ، وقولُه تعالى : ﴿ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴾ استئنافٌ مبينٌ لخطئهم في شأن ما جعلوه منشأً لتكذيبهم بها ، وهو عدمُ مجيءِ ما وَعد فيها من العذاب الذي كانوا يستعجلونه بقولهم : ﴿ متى هذا الوعد إن كُنتُمْ صادقين ﴾ بطريق الاستهزاءِ أو بطريق الإلزامِ على زعمهم أي ليس ما تستعجلونه من العذاب الموعودِ في القرآنِ وتجعلون تأخُّرَه ذريعةً إلى تكذيبه في حُكمي وقدرتي حتى أَجيءَ به وأُظهرَ لكم صِدْقَه ، أو ليس أمرُه بمُفوَّضٍ إلي ﴿ إِنِ الحكم ﴾ أي ما الحكمُ في ذلك تعجيلاً وتأخيراً أو ما الحكمُ في جميع الأشياء ، فيدخُل فيه ما ذُكر دخولاً أولياً ﴿ إِلاَّ لِلَّهِ ﴾ وحده من غير أن يكون لغيره دخْلٌ ما فيه بوجه من الوجوه ، وقولُه تعالى : ﴿ يَقُصُّ الحق ﴾ أي يَتْبعُه ، بيانٌ لشؤونه تعالى

في الحكم المعهودِ أو في جميع أحكامِه المنتظمةِ له انتظاماً أولياً ، أي لا يحكمُ إلا بما هو حقٌّ فيُثبتُ حقيقة التأخير . وقرىء ( يقضي ) فانتصابُ ( الحقَّ ) حينئذٍ على المصدرية أي يقضي القضاءَ الحقَّ أو على المفعولية أي يصنعُ الحقَّ ويدبرُه من قولهم : قضى الدِّرعَ إذا صنعها ، وأصلُ القضاءِ الفصلُ بتمام الأمرِ ، وأصلُ الحُكمِ المنعُ فكأنه يمنعُ الباطل عن معارَضةِ الحقِّ أو الخصمِ عن التعدّي على صاحبه ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الفاصلين ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ مقرِّرٌ لمضمونِ ما قبله ، مشيرٌ إلى أن قصَّ الحقِّ ها هنا بطريق خاصَ هو الفصلُ بين الحقِّ والباطل ، هذا هو الذي تَسْتَدْعيه جزالةُ التنزيلِ . وقد قيل : إن المعنى إني من معرفة ربي وأنه لا معبود سواه على حجةٍ واضحةٍ وشاهدِ صدقٍ وكذبتم به أنتم حيث أشركتم به تعالى غيرَه . وأنت خبيرٌ بأن مساقَ النظم الكريمِ فيما سَبق وما لَحِق على وصفهم بتكذيب آياتِ الله تعالى بسبب عدمِ مجيءِ العذاب الموعودِ فيها ، فتكذيبُهم به سبحانه في أمر التوحيد مما لا تعلُّقَ له بالمقام أصلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الشوكانى :

قوله : ﴿ قُلْ إِنِّى على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ﴾ البينة : الحجة والبرهان ، أي إني على برهان من ربي ويقين ، لا على هوى وشك ، أمره الله سبحانه بأن يبين لهم أن ما هو عليه من عبادة

ربه هو عن حجة برهانية يقينية ، لا كما هم عليه من اتباع الشبه الداحضة والشكوك الفاسدة التي لا مستند لها إلا مجرد الأهوية الباطلة .

قوله : ﴿ وَكَذَّبْتُم بِهِ ﴾ أي بالربّ أو بالعذاب أو بالقرآن أو بالبينة ، والتذكير للضمير باعتبار المعنى .

وهذه الجملة إما حالية بتقدير قد ، أي والحال أن قد كذبتم به ، أو جملة مستأنفة مبينة لما هم عليه من التكذيب بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحجج الواضحة والبراهين البينة .

*(25/234)*

---

قوله : ﴿ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴾ أخبرهم بأنه لم يكن عنده ما يتعجلونه من العذاب ، فإنهم كانوا لفرط تكذيبهم يستعجلون نزوله استهزاء ، نحو قوله : ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السماء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ [ الإسراء : 92 ] ، وقولهم : ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مّنَ السماء ﴾ [ الأنفال : 32 ] ، وقولهم : ﴿ متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ [ سبأ : 29 ] ، وقيل : ﴿ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴾ من الآيات التي تقترحونها عليّ .

قوله : ﴿ إِنِ الحكم إِلاَّ الله ﴾ أي ما الحكم في كل شيء إلا لله سبحانه ، ومن جملة ذلك ما تستعجلون به من العذاب أو الآيات المقترحة .

والمراد : الحكم الفاصل بين الحق والباطل .

قوله : ﴿ يَقُصُّ الحق ﴾ قرأ نافع وابن كثير وعاصم ﴿ يَقُصُّ ﴾ بالقاف والصاد المهملة ، وقرأ الباقون "يَقْضِى" بالضاد المعجمة والياء ، وكذا قرأ علي وأبو عبد الرحمن السلمي ، وسعيد بن المسيب ، وهو مكتوب في المصحف بغير ياء .

فعلى القراءة الأولى ، هو من القصص ، أي يقصّ القصص الحق ، أو من قصّ أثره ، أي يتبع الحق فيما يحكم به .

وعلى القراءة الثانية ، هو من القضاء ، أي يقضي القضاء بين عباده ، و ﴿ الحق ﴾ منتصب على المفعولية ، أو على أنه صفة لمصدر محذوف ، أي يقضي القضاء الحق ، أو يقص القصص الحق ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الفاصلين ﴾ أي بين الحق والباطل بما يقضي به بين عباده ويفصله لهم في كتابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(26/234)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ إِنِّى على بَيِّنَةٍ ﴾ ( تبيين ) للحق الذي عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيان لاتباعه إياه إثر إبطال الباطل الذي فيه الكفرة وبيان عدم اتباعه عليه الصلاة والسلام له في وقت من الأوقات .

والبينة كما قال الراغب الدلالة الواضحة من بان يبين إذا ظهر أو الحجة الفاصلة بين الحق والباطل على أنها من البينونة أي الانفصال ، وأياً ما كان فالمراد بها القرآن كما قال الجبائي وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن المراد إني على يقين .

وعن الحسن أن المراد بها النبوة وهو غير ظاهر كتفسيرها بالحجج العقلية أو ما يعمها ، والتنوين للتفخيم أي بينة جليلة الشأن .

﴿ مّن رَّبِّى ﴾ أي كائنة من جهته سبحانه .

ووصفها بذلك لتأكيد ما أفاده التنوين .

وجوز أن تكون ﴿ مِنْ ﴾ اتصالية ، وفي الكلام مضاف أي بينة متصلة بمعرفة ربي ، وقيل : هي أجلية متعلقة بما تعلق به الخبر ويقدر المضاف أيضاً أي كائن على بينة لأجل معرفة ربي والأول أظهر ، وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم من التشريف ورفع المنزلة ما لا يخفى .

وقوله سبحانه : ﴿ وَكَذَّبْتُم بِهِ ﴾ كما قال أبو البقاء جملة إما مستأنفة أو حالية بتقدير قد

في المشهور جيء بها لاستقباح مضمونها واستبعاد وقوعه مع تحقق ما يقتضي عدمه أو للتفرقة بينه عليه الصلاة والسلام وبينهم ، والضمير للبينة ، والتذكير باعتبار المعنى المراد ، وقال الزجاج : لأنها بمعنى البيان ، وجوز أن يكون الضمير لربي على معنى إن صدقت به ووحدته وأنتم كذبتم به وأشركتم .

وقوله تعالى : ﴿ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴾ استئناف مبين لخطئهم في شأن ما جعلوه منشأ لتكذيبهم بالقرآن وهو عدم مجيء ما وعد فيه من العذاب الذي كانوا يستعجلونه بقولهم بطريق الاستهزاء أو الإلزام بزعمهم ﴿ متى هذا الوعد إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ [ يونس : 48 ] وقال الإمام : "إنه عليه الصلاة والسلام كان يخوفهم بنزول العذاب عليهم بسبب هذا الشرك ، والقوم لإصرارهم على الكفر كانوا يستعجلون نزول ذلك ( العذاب ) فقال لهم : ﴿ مَا عِندِى ﴾ " الخ وكأن الكلام مبين أيضاً لخطئهم في شأن ما جعلوه منشأ لعدم الالتفات إلى نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عنه والإخبار بنزول العذاب بسببه أي ليس عندي ما يستعجلونه من العذاب الموعود به وتجعلون تأخره ذريعة إلى تكذيب القرآن أو عدم الالتفات إلى النهي عنه والوعيد عليه في حكمي وقدرتي حتى أجيء به أي ليس أمره مفوضاً إليّ .

﴿ إِنِ الحكم ﴾ أي ما الحكم في تأخير ذلك ﴿ أَلاَ لِلَّهِ ﴾ وحده من غير أن يكون لغيره سبحانه دخل ما فيه بوجه من الوجوه .

واختار بعضهم التعميم في متعلق الحكم أي ما الحكم في ذلك تأخيراً أو تعجيلاً أو ما الحكم في جميع الأشياء فيدخل فيه ما ذكر دخولاً أولياً ؛ ورجح الأول بأن المقصود من قوله سبحانه : ﴿ إِنِ الحكم ﴾ الخ التأسف على وقوع خلاف المطلوب كما يشهد به موارد استعماله وهو على التأخير فقط .

﴿ يَقُصُّ ﴾ أي يتبع ﴿ الحق ﴾ والحكمة فيما يحكم به ويقدره كائناً ما كان أو يبينه بياناً شافياً من قص الأثر أو الخبر وهو من قبيل التكميل للخاص على ما اخترناه بإردافه بأمر عام كقوله تعالى : ﴿ بِيَدِهِ الملك وَهُوَ على كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [ الملك : 1 ] .

وقرأ الكسائي وغيره "يقضي" من القضاء وحذفت الياء في الخط تبعاً لحذفها في اللفظ لالتقاء الساكنين ، وأصله أن يتعدى بالباء لا بنفسه فنصب ﴿ الحق ﴾ إما على المصدرية لأنه صفة مصدر محذوف قامت مقامه أي يقضي القضاء الحق أو على أنه مفعول به ويقضي متضمن معنى ينفذ أو هو متعد من قضى الدرع إذا صنعها أي يصنع الحق ويدبره كقول الهذلي : مسرودتان قضاهما داود .

وفي الكلام على هذا استعارة تبعية .

واحتج مجاهد للقراءة الأولى بعدم الباء المحتاج إليها في الثانية وقد علمت فساده .

واحتج أبو عمرو للثانية بقوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الفاصلين ﴾ فإن الفصل إنما يكون في القضاء لا في القصص ولو كان ذلك في الآية لقيل خير القاصين .

وأجاب أبو علي الفارسي بأن القصص ههنا بمعنى القول وقد جاء الفصل فيه قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ [ الطارق : 13 ] ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءاياته ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ [ هود : 1 ] ﴿ وَنُفَصِّلُ الايات ﴾ [ التوبة : 11 ] على أنك تعلم بأدنى التفات إلى أن القص هنا قد يؤول بلا تكلف وبعد إلى معنى القضاء .

*(28/234)*

---

وفي "إرشاد العقل السليم" أن أصل القضاء الفصل بتمام الأمر وأصل الحكم المنع فكأنه يمنع الباطل عن معارضة الحق أو الخصم عن التعدي إلى صاحبه ، وجملة ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ﴾ الخ تذييل مقرر لمضمون ما قبله مشير إلى أن قص الحق ههنا بطريق خاص هو الفصل بين الحق والباطل فافهم .

واحتج بعض أهل "السنة بقوله سبحانه : ﴿ إِنِ الحكم ﴾ الخ لإفادته الحصر على أنه لا يقدر العبد على شيء من الأشياء إلا إذا قضى الله تعالى به فيمتنع منه فعل الكفر إلا إذا

قضى الله تعالى به وحكم ، وكذلك في جميع الأفعال .

وقالت المعتزلة : إن قوله سبحانه : ﴿ يَقْضِي الحق ﴾ معناه أن كل ما يقضي به فهو الحق ، وهذا يقتضي أن لا يريد الكفر من الكافر والمعصية من العاصي لأن ذلك ليس بحق" ولا يخفى ما فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾

استئناف ابتدائي انتقل به الكلام من إبطال الشرك بدليل الوحي الإلهي المؤيِّد للأدلَّة السابقة إلى إثبات صدق الرسالة بدليل من الله مؤيِّد للأدلّة السابقة أيضاً ، ليأسوا من محاولة إرجاع الرسول عليه الصلاة والسلام عن دعوته إلى الإسلام وتشكيكه في وحيه بقولهم : ساحر ، مجنون ، شاعر ، أساطيرُ الأولين ، وليأسوا أيضاً من إدخال الشكّ عليه في صدق إيمان أصحابه ، وإلقاء الوحشة بينه وبينهم بما حاولوا من طرده أصحابَه عن مجلسه حين حضور خصومه ، فأمره الله أن يقول لهم إنَّه على يقين من أمر ربِّه لا يتزعزعُ .

*(29/234)*

وعطف على ذلك جواب عن شبهة استدلالهم على تكذيب الوعيد بما حلّ بالأمم من قبلهم بأنَّه لو كان صدقاً لعجّل لهم العذاب ، فقد كانوا يقولون : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتِنا بعذاب أليم ﴾ [ الأنفال : 32 ] ويقولون : ﴿ ربَّنا عجِّل لنا قطّنا قبل يوم الحساب ﴾ [ ص : 16 ] ، فقال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ قُل لو أنّ عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم ﴾ [ الأنعام : 58 ] ، وأكَّد الجملة بحرف التأكيد لأنَّهم ينكرون أن يكون على بيِّنه من ربِّه .

وإعادة الأمر بالقول لتكرير الاهتمام الذي تقدّم بيانه عند قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ﴾ [ الأنعام : 40 ] .

والبيِّنة في الأصل وصف مُؤنّثُ بَيِّن ، أي الواضحة ، فهي صفة جرت على موصوف محذوف للعلم به في الكلام ، أي دلالة بيِّنة أو حجّة بيِّنة .

ثم شاع إطلاق هذا الوصف فصار اسماً للحجّة المثبِتة للحقّ التي لا يعتريها شك ، وللدلالة الواضحة ، وللمعجزة أيضاً ، فهي هنا يجوز أن تكون بمعنى الدلالة البيِّنة ، أي اليقين .

وهو أنسب بـ ﴿ على ﴾ الدالة على التمكّن ، كقولهم : فلان على بصيرة ، أي أنّي متمكِّن من اليقين في أمر الوحي .

ويجوز أن يكون المراد بالبيِّنة القرآن ، وتكون ( على ) مستعملة في الملازمة مجازاً مرسلاً لأنّ الاستعلاء يستلزم الملازمة ، أي أنِّي لا أخالف ما جاء به القرآن .

و﴿ مِن ربِّي ﴾ صفة ل ﴿ بيّنة ﴾ يفيد تعظيمها وكمالها .

و( مِنْ ) ابتدائية ، أي بيّنة جائية إليّ من ربّي ، وهي الأدلَّة التي أوحاها الله إليه وجاء بها القرآن وغيرُه .

ويجوز أن تكون ( مِنْ ) اتّصالية ، أي على يقين متّصل بربِّي ، أي بمعرفته توحيده ، أي فلا أتردّد في ذلك فلا تطمعوا في صرفي عن ذلك ، أي أنِّي آمنتُ بإله واحد دلَّت على وجوده ووحدانيته دلائل خلقه وقدرته ، فأنا موقن بما آمنت به لا يتطرّقني شك .

*(30/234)*

---

وهذا حينئذٍ مسوق مساق التعريض بالمشركين في أنَّهم على اضطراب من أمر آلهتهم وعلى غير بصيرة .

وجملة ﴿ وكذّبتم به ﴾ في موضع الحال من ﴿ بيّنة ﴾ .

وهي تفيد التعجّب منهم أنْ كذّبوا بما دلَّت عليه البيّنة .

ويجوز أن تكون معطوفة على جملة ﴿ إنِّي على بيّنة من ربِّي ﴾ ، أي أنا على بيّنة وأنتم كذّبتم بما دلَّت عليه البيِّنات فشتَّان بيني وبينكم .

والضمير في قوله : ﴿ به ﴾ يعود إلى البيّنة باعتبار تأويلها بالبيان أو باعتبار أن ما صْدَقَها

اليقين أو القرآن على وجه جَعْل ( مِنْ ) ابتدائية ، أي وكذّبتم باليقين مكابرة وعناداً ، ويعود إلى ربِّي على وجه جعل ( مِنْ ) اتّصالية ، أي كنت أنا على يقين في شأن ربّي وكذّبتم به مع أنّ دلائل توحيده بيّنة واضحة .

ويعود إلى غير مذكور في الكلام ، وهو القرآن لشهرة التداول بينهم في شأنه فإذا أطلق ضمير الغائب انصرف إليه بالقرينة .

والباء التي عدّي بها فعل ﴿ كذّبتم ﴾ هي لتأكيد لصوق معنى الفعل بمفعوله ، كما في قوله تعالى : ﴿ وامسحوا برؤوسكم ﴾ [ المائدة : 6 ] .

فلذلك يدلّ فعل التكذيب إذا عدّي بالباء على معنى الإنكار ، أي التكذيب القويّ .

ولعلّ الاستعمال أنّهم لا يُعدّون فعل التكذيب بالباء إلاّ إذا أريد تكذيب حجّة أو برهان ممّا يحسب سببَ تصديق ، فلا يقال : كذّبتُ بفلان ، بل يقال : كذّبت فلاناً قال تعالى : ﴿ لَمَّا كذبوا الرسل ﴾ [ الفرقان : 37 ] وقال : ﴿ كذّبت ثمودُ بالنُذُر ﴾ [ القمر : 23 ] .

والمعنى التعريضيّ بهم في شأن اعتقادهم في آلهتهم باق على ما بيّنّاه .

وقوله : ﴿ ما عندي ما تستعجلون به ﴾ استئناف بياني لأنّ حالهم في الإصرار على التكذيب ممّا يزيدهم عناداً عند سماع تسفيه أحلامهم وتنقّص عقائدهم فكانوا يقولون : لو كان قولك حقّاً فأين الوعيد الذي تَوعّدتنا .

فإنّهم قالوا : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ [ الأنفال : 32 ] وقالوا : ﴿ أو تُسْقِط السماء علينا كما زعمت كِسَفا ﴾ [ الإسراء : 92 ] فأمر بأن يجيب أن يقول ﴿ ما عندي ما تستعجلون به ﴾ .

والاستعجال طلب التعجيل بشيء ، فهو يتعدّى إلى مفعول واحد ، وهو المطلوب منه تعجيل شيء .

فإذا أريد ذكر الأمر المعجّل عدّي إليه بالباء .

والباء فيه للتعدية .

والمفعول هنا محذوف دلّ عليه قوله : ﴿ ما عندي ﴾ .

والتقدير : تستعجلونني به .

وأمّا قوله تعالى : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ [ النحل : 1 ] فالأظهرُ أنّ ضمير الغائب عائد لاسم الجلالة ، وسيأتي في أوّل سورة النحل .

ومعنى ﴿ ما عندي ﴾ أنّه ليس في مقدرتي ، كما يقال : ما بيدي كذا .

فالعندية مجاز عن التصرّف بالعلم والمقدرة .

والمعنى : أنِّي لست العليم القدير ، أي لست إلهاً ولكنّني عبد مرسل أقف عند ما أرسلتُ به .

وحقيقة ( عندَ ) أنَّها ظرف المكان القريب .

وتستعمل مجازاً في استقرار الشيء لشيء وملكه إيَّاه ، كقوله : ﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾ [ الأنعام : 59 ] .

وتستعمل مجازاً في الاحتفاظ بالشيء ، كقوله : ﴿ وعنده علم الساعة ﴾ [ الزخرف : 85 ] ﴿ وعند الله مَكْرُهم ﴾ [ إبراهيم : 46 ] ولا يحسن في غير ذلك .

والمراد بـ ﴿ ما تستعجلون به ﴾ العذاب المتوعَّد به .

عبَّر بطريق الموصولية لما تنبىء به الصلة من كونه مؤخّراً مدّخراً لهم وأنّهم يستعجلونه وأنّه واقع بهم لا محالة ، لأنّ التعجيل والتأخير حالان للأمر الواقع ؛ فكان قوله : ﴿ تستعجلون ﴾ في نفسه وعيداً .

وقد دلّ على أنَّه بيد الله وأنّ الله هو الذي يقدّر وقته الذي ينزل بهم فيه ، لأنّ تقديم المسند الظرف أفاد قصر القلب ، لأنّهم توهّموا من توعّد النبي صلى الله عليه وسلم إيَّاهم أنّه توعّدهم بعقاب في مقدرته .

*(32/234)*

فجعلوا تأخّره إخلافاً لتوعّده ، فردّ عليهم بأنّ الوعيد بيد الله ، كما سيصرّح به في قوله : ﴿ إنِ الحكم إلاّ لله ﴾ .

فقوله : ﴿ إن الحكم إلاّ لله ﴾ تصريح بمفهوم القصر ، وتأكيد له .

وعلى وجه كون ضمير ﴿ به ﴾ للقرآن ، فالمعنى كذّبتهم بالقرآن وهو بيّنة عظيمة ، وسألتم تعجيل العذاب تعجيزاً لي وذلك ليس بيدي .

وجملة ﴿ يقصّ الحقّ ﴾ حال من اسم الجلالة أو استئناف ، أي هو أعلم بالحكمة في التأخير أو التعجيل .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وعاصم ، وأبو جعفر ﴿ يقُصّ ﴾ بضمّ القاف وبالصاد المهملة فهو من الاقتصاص ، وهو اتّباع الأثر ، أي يجري قدره على أثر الحقّ ، أي على وفقه ؛ أو هو من القصص ، وهو الحكاية أي يحكي بالحق ، أي أنّ وعده واقع لا محالة فهو لا يخبر إلاّ بالحق .

و ﴿ الحقّ ﴾ منصوب على المفعولية به على الاحتمالين .

وقرأ الباقيون ﴿ يَقْض ﴾ بسكون القاف وبضاد معجمة مكسورة على أنَّه مضارع ( قضى ) ، وهو في المصحف بغير ياء .

فاعتُذر عن ذلك بأنّ الياء حُذفت في الخطّ تبعاً لحذفها في اللفظ في حال الوصل ، إذ هو غير محلّ وقف ، وذلك ممّا أجري فيه الرسم على اعتبار الوصل على النادر كما كتب ﴿ سندعُ الزبانيةُ ﴾ [ العلق : 18 ] .

قال مكِّي قراءة الصّاد ( أي المهملة ) أحبّ إليّ لاتّفاق الحرميْن ( أي نافع وابن كثير ) عليها ولأنَّه لو كان من القضاء للزمت الباء الموحَّدة فيه ، يعني أن يقال : يقص بالحق .

وتأويله بأنّه نصب على نزع الخافض نادر .

وأجاب الزّجاج بأنّ ﴿ الحقّ ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة ، أي القضاء الحقّ ،

وعلى هذه القراءة ينبغي أن لا يوقف عليه لئلاّ يضطرّ الواقف إلى إظهار الياء فيخالف الرسم المصحفي .

وجملة : ﴿ وهو خير الفاصلين ﴾ أي يقصّ ويخبر بالحقّ ، وهو خير من يفصل بين الناس ، أو يقضي بالحقّ ، وهو خير من يفصل القضاء .

والفصْل يطلق بمعنى القضاء .

قال عُمر في كتابه إلى أبي موسى "فإنّ فصْل القضاء يورث الضغائن" .

*(33/234)*

---

ويطلق بمعنى الكلام الفاصل بين الحقّ والباطل ، والصواب والخطأ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وآتيناه الحكمة وفصْلَ الخطاب ﴾ [ ص : 20 ] وقوله : ﴿ إنَّه لَقَوْل فصْل ﴾ [ الطارق : 13 ] .

فمعنى ﴿ خير الفاصلين ﴾ يشمل القول الحقّ والقضاء العدل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

احتج أصحابنا بقوله : ﴿ إِنِ الحكم إِلاَّ للَّهِ ﴾ على أنه لا يقدر العبد على أمر من الأمور إلا إذا قضى الله به ، فيمتنع منه فعل الكفر إلا إذا قضى الله به وحكم به .

وكذلك في جميع الأفعال .

والدليل عليه أنه تعالى قال : ﴿ إِنِ الحكم إِلاَّ للَّهِ ﴾ وهذا يفيد الحصر ، بمعنى أنه لا حكم إلا لله .

واحتج المعتزلة بقوله : ﴿ يَقْضِى الحق ﴾ ومعناه أن كل ما قضى به فهو الحق .

وهذا يقتضي أن لا يريد الكفر من الكافر .

ولا المعصية من العاصي لأن ذلك ليس الحق . والله أعلم .

فصل :

قرأ ابن كثير ونافع وعاصم ﴿ يَقُصُّ الحق ﴾ بالصاد من القصص ، يعني أن كل ما أنبأ الله به وأمر به فهو من أقاصيص الحق ، كقوله : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص ﴾ [ يوسف : 3 ] وقرأ الباقون ﴿ يَقْضِ الحق ﴾ والمكتوب في المصاحف "يقض" بغير ياء لأنها

سقطت في اللفظ لالتقاء الساكنين كما كتبوا ﴿ سَنَدْعُ الزبانية ﴾ [ العلق : 18 ] ﴿ فما تغن النذر ﴾ [ القمر : 5 ] وقوله : ﴿ يقضى الحق ﴾ قال الزجاج : فيه وجهان : جائز أن يكون ﴿ الحق ﴾ صفة المصدر والتقدير : يقض القضاء الحق .

ويجوز أن يكون ﴿ يقضى الحق ﴾ يصنع الحق ، لأن كل شيء صنعه الله فهو حق .

وعلى هذا التقدير ﴿ الحق ﴾ يكون مفعولاً به وقضى بمعنى صنع .

قال الهذلي :

وعليهما مسرودتان قضاهما . . داود أو صنع السوابغ تبع

أي صنعهما داود واحتج أبو عمرو على هذه القراءة بقوله : ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الفاصلين ﴾ قال والفصل يكون في القضاء ، لا في القصص .

أجاب أبو علي الفارسي فقال القصص ههنا بمعنى القول .

وقد جاء الفصل في القول قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ [ الطارق : 13 ] وقال : ﴿ أُحْكِمَتْ ءاياته ثم فُصِلَتْ ﴾ [ هود : 1 ] وقال : ﴿ نُفَصِّلُ الآيات ﴾ [ الأعراف : 32 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 7 ﴾ . بتصرف يسير .

*(34/234)*

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴾ الآية .

أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية الكريمة أن يخبر الكفار ، أن تعجيل العذاب عليهم الذي يطلبونه منه صلى الله عليه وسلم ليس عنده . وإنما هو عند الله إن شاء عجله ، وإن شاء أخره عنهم ، ثم أمره أن يخبرهم بأنه لو كان عنده لعجله ليهم بقوله : ﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأمر بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ [ الأنعام : 58 ] الآية .

وبين في مواضع أخر أنهم ما حملهم على استعجال العذاب إلا الكفر والتكذيب ، وأنهم إن عاينوا ذلك العذاب علموا أنه عظيم هائل لا يستعجل به إلا جاهل مثلهم ، كقوله : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [ هود : 8 ] ، وقوله : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا والذين آمَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ [ الشورى : 18 ] الآية ، وقوله : ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافرين ﴾ [ العنكبوت : 54 ] ، وقوله : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ المجرمون ﴾ [ يونس : 50 ] .

وبين في موضع آخر أنه لولا أن الله حدد لهم أجلاً لا يأتيهم العذاب قبله لعجله عليهم ، وهو

قوله : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالعذاب وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ العذاب ﴾ [ العنكبوت : 53 ] ، الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 1 صـ ﴾

*(35/234)*

---

( كلام فى معنى الحكم وأنه لله وحده )

قال فى الميزان :

مادة الحكم تدل على نوع من الإتقان يتلائم به أجزاء وينسد به خلله وفرجه فلا يتجزأ إلى الإجزاء ولا يتلاشى إلى الأبعاض حتى يضعف أثره وينكسر سورته ، وإلى ذلك يرجع المعنى الجامع بين تفاريق مشتقاته كالاحكام والتحكيم والحكمة والحكومة وغير ذلك .

وقد تنبه الإنسان على نوع تحقق من هذا المعنى في الوظائف المولوية والحقوق الدائرة بين الناس فإن الموالى والرؤساء إذا أمروا بشئ فكأنما يعقدون التكليف على المأمورين ويقيدونهم به عقدا لا يقبل الحل وتقييدا لا يسعهم معه الانطلاق ، وكذلك مالك سلعة كذا ، أو ذو حق في أمر كذا كأن بينه وبين سلعته أو الأمر الذى فيه نوعا من الالتئام والاتصال الذى يمنع أن يتخلل غيره بينه وبين سلعته بالتصرف أو بينه وبين مورد حقه فيقصر عنه يده ، فإذا نازع أحد مالك سلعة في ملكها كأن ادعاه لنفسه أو ذا الحق في حقه فأراد إبطال

حقه فقد استوهن هذا الأحكام وضعف هذا الاتقان ثم إذا عقد الحكم أو القاضى الذى رفعت إليه القضية الملك أو الحق لاحد المتنازعين فقد أوجد هناك حكما أي إتقانا بعد فتور ، وقوة إحكاما بعد ضعف ووهن ، وقوله : ملك السلعة لفلان أو الحق في كذا لفلان حكم يرتفع به غائلة النزاع والمشاجرة ، ولا يتخلل غير المالك وذى الحق بين الملك والحق ، وبين ذيهما ، وبالجملة الأمر في أمره والقاضى في قضائه كأنهما يوجدان نسبة في مورد الأمر والقضاء يحكمانه بها ويرفعان به وهنا وفتورا ، وهو الذى يسمى الحكم .

*(36/234)*

---

فهذه سبيل تنبه الناس لمعنى الحكم في الأمور الوضعية الاعتبارية ثم رأوا أن معناه يقبل الانطباق على الأمور التكوينية الحقيقية إذا نسبت إلى الله سبحانه من حيث قضائه ، وقدره فكون النواة مثلا تنمو في التراب ثم تنبسط ساقا وأغصانا وتورق وتثمر وكون النطفة تتبدل جسما ذا حياة وحس وهكذا كل ذلك حكم من الله سبحانه وقضاء ، فهذا ما نعلقه من معنى الحكم وهو إثبات شئ لشئ أو إثبات شئ عند شئ .

ونظرية التوحيد التى يبنى عليها القرآن الشريف بنيان معارفه لما كانت تثبت حقيقة التأثير في الوجود لله سبحانه وحده لا شريك له ، وإن كان الانتساب مختلفا باختلاف الأشياء

غير جار على وتيرة واحدة كما ترى أنه تعالى ينسب الخلق إلى نفسه ثم ينسبه في موارد مختلفة إلى أشياء مختلفة ، بنسب مختلفه ، وكذلك العلم والقدرة والحياة والمشية والرزق والحسن إلى غير ذلك ، وبالجملة لما كان التأثير له تعالى كان الحكم الذى هو نوع من التأثير والجعل له تعالى سواء في ذلك الحكم في الحقائق التكوينية أو في الشرائع الوضعية الاعتبارية ، وقد أيد كلامه تعالى هذا المعنى كقوله : ( إن الحكم إلا لله ) ( الأنعام : 57 يوسف : 67 ) وقوله تعالى : ( ألا له الحكم ) ( الأنعام : 62 ) وقوله : ( له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم ) ( القصص : 70 ) وقوله تعالى : ( والله يحكم لا معقب لحكمه ) ( الرعد : 41 ) ولو كان لغيره تعالى حكم لكان له أن يعقب حكمه ويعارض مشيته ، وقوله : ( فالحكم لله العلى الكبير ) ( المؤمن : 12 ) إلى غير ذلك ، فهذه آيات خاصة أو عامة تدل على اختصاص الحكم التكويني به تعالى .

*(37/234)*

---

ويدل على اختصاص خصوص الحكم التشريعي به تعالى قوله : ( إن الحكم إلا لله أمر الا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ) ( يوسف : 40 ) فالحكم لله سبحانه لا يشاركه فيه غيره على ظاهر ما يدل عليه ما مر من الآيات غير انه تعالى ربما ينسب الحكم وخاصة

التشريعي منه في كلامه إلى غيره كقوله تعالى : ( يحكم به ذوا عدل منكم ) ( المائدة : 95 ) وقوله لداود عليه السلام : ( إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ) ( ص : 26 ) وقوله للنبى صلى الله عليه وآله : ( إن احكم بينهم بما أنزل الله ) ( المائدة : 49 ) وقوله : ( فاحكم بينهم بما أنزل الله ) ( المائدة : 48 ) وقوله : ( يحكم بها النبيون ) ( المائدة : 44 ) إلى غير ذلك من الآيات وضمها إلى القبيل الأول يفيد أن الحكم الحق لله سبحانه بالاصالة واولا لا يستقل به احد غيره ، ويوجد لغيره بإذنه وثانيا ، ولذلك عد تعالى نفسه احكم الحاكمين وخيرهم لما انه لازم الاصالة والاستقلال والاولية فقال : ( ا ليس الله بأحكم الحاكمين ) ( التين : 8 ) وقال ( وهو خير الحاكمين ) ( الاعراف : 87 ) .

والآيات المشتملة على نسبة الحكم إلى غيره تعالى بإذن ونحوه - كما ترى - تختص بالحكم الوضعي الاعتباري ، وأما الحكم التكويني فلا يوجد فيها - على ما اذكر - ما يدل على نسبته إلى غيره وإن كانت معاني عامة الصفات والافعال المنسوبة إليه تعالى لا تأبى عن الانتساب إلى غيره نوعا من الانتساب بإذنه ونحوه كالعلم والقدرة والحياة والخلق والرزق والاحياء والمشية وغير ذلك في آيات كثيرة لا حاجة إلى إيرادها .

*(38/234)*

ولعل ذلك مراعاة لحرمة جانبه تعالى لاشعار الصفة بنوع من الاستقلال الذى لا مسوغ لنسبته إلى هذه الأسباب المتوسطه كما ان القضاء والأمر التكوينيين كذلك ، ونظيرتها في ذلك الفاظ البديع والبارئ والفاطر والفاظ أخر يجرى مجراها في الاشعار بمعاني تنبئ عن نوع من الاختصاص ، وإنما كف عن استعمالها في غير مورده تعالى رعاية لحرمة ساحة الربوبية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الميزان حـ 7 صـ 115 . 117 ﴾

*(39/234)*

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ﴾

هنا يبلغ الحق رسوله صلى الله عليه وسلم أن تركه لعبادة الأصنام وإن كان أمراً قد اهتدى إليه صلى الله عليه وسلم بفطرته السليمة ، فإنه قد صار الآن من بعد البعثة عبادة ؛ لأن اصطفاء الحق له جعله يتبين هدى الله بالشريعة الواضحة في " افعل " ولا " تفعل " ؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم هو الأسوة الحسنة للناس ، ويؤدي كل فعل حسب ما شرع الله ، ويتبعه المؤمنون برسالته .

ومثال على ذلك من حياتنا المعاصرة : لقد نزل القرآن بتحريم الخمر ، والمؤمنون لا يشربون الخمر لأن الحق نهى عن ارتكاب هذا الفعل . ونجد الأطباء الآن في كل بلدان العالم يحرمون شرب الخمر لأنها تعتدي على كل أجهزة الإنسان : الكبد ، والمخ ، والجهاز العصبي ، والجهاز الهضمي . ونجد " أفلاماً " تظهر أثر كأس الخمر على صحة الإنسان . وقد يرى إنسان غير مؤمن مثل هذا " الفيلم " فيمتنع عن الخمر امتناع ابتغاء المصلحة لا امتناع الدين . ولكن علينا – نحن المسلمين – أن نقبل على مثل هذا الامتناع لأنه من الإيمان .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ المسلمين ﴾ [ فصلت : 33 ] .

هكذا نعرف أنه لا أحد أحسن قولاً ممن يمتثل إلى أوامر الحق لأنه مُقرّ بوحدانية الحق سبحانه ، ويعمل كل عمل صالح ويقرّ بأن هذا العمل هو تطبيق لشريعة الله :

*(40/234)*

---

﴿ قُلْ إِنِّي على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ القول يدلنا أننا دون بينة من الله لا نعرف المنهج ، ولكن ببينة من الله نعلم أنه إله واحد أنزل منهجاً " افعل " و" لا تفعل " . وجاء الحق هنا بكلمة " ربي " حتى نعرف أنه الخالق الذي يتولى تربيتنا جميعاً . وما دام سبحانه وتعالى قد خلقنا

، وتولى تربيتنا فلا بد أن نمتثل لمنهجه . وقد أنزل الإله تكليفاً لأنه معبود ، وهو في الوقت نفسه الرب الذي خلق ورزق ، ولذلك نمتثل لمنهجه ، أما المكذبون فماذا عنهم ؟ ﴿ وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الحكم إِلاَّ للَّهِ يَقُصُّ الحق وَهُوَ خَيْرُ الفاصلين ﴾ [ الأنعام : 57 ] .

فالذين كذبوا بالله اتخذوا من دونه أنداداً ، ولم يمتثلوا لمنهجه ، بل تمادى بعضهم في الكفر وقالوا ما رواه الحق عليهم : ﴿ وَإِذْ قَالُواْ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [ الأنفال : 32 ] .

وعندما نناقش ما قالوه ، نجد أنهم قالوا : " اللهم " وهذا اعتراف منهم بإله يتوجهون إليه . وما داموا قد اعترفوا بالإله فلماذا ينصرفون عن الامتثال لمنهجه وعبادته ؟ . هم يفعلون لأنهم نموذج للصلف والمكابرة المتمثل في قولهم : ﴿ إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

ألم يكن من الأجدر بهم أن يُعملوا العقل بالتدبر ويقولوا : إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه .

*(41/234)*

ونجد أيضاً أنهم لم يردوا على رسول الله فلم يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عند محمد بل قالوا : ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ ﴾ . إنهم يردُّون أمر الله ويطلبون العذاب ، وتلك قمة المكابرة ، والتمادي في الكفر وذلك بطلبهم تعجيل العذاب ، ولذلك يقول لهم رسول الله : ﴿ وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴾ .

والاستعجال هو طلب الإسراع في الأمر ، وهو مأخوذ من " العجلة " وهي السرعة إلى الغاية ، أي طلب الحدث قبل زمنه . وما داموا قد استعجلوا العذاب فلا بد أن يأتيهم هذا العذاب ، ولكن في الميعاد الذي يقرره الحق ؛ لأن لكل حدث من أحداث الكون ميلادا حدده الحق سبحانه : ﴿ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الحكم إِلاَّ للَّهِ يَقُصُّ الحق وَهُوَ خَيْرُ الفاصلين ﴾ [ الأنعام : 57 ]

إن الحكم لله وحده ، فإن شاء أن ينزل عذابا ويعجل به في الدنيا كما أنزل على بعض الأقوام من قبل فلا راد له ، وإن شاء أن يؤخر العذاب إلى أجل أو إلى الآخرة فلا معقب عليه .

ومن حكمة الحق أن يظل بقاء المخالفين للمنهج الإيماني تأييدا للمنهج الإيماني . ويجب أن نفهم أن الشر الذي يحدث في الكون لا يقع بعيدا عن إرادة الله أو على الرغم من إرادة الله ، فقد خلق الحق الإنسان وأعطاه الاختيار ، وهو سبحانه الذي سمح للإنسان أن يصدر منه ما يختاره سواءً أكان خيراً أم شراً . إذن فلا شيء يحدث في الكون قهراً عنه ؛ لأنه سبحانه الذي أوجد الاختيار . ولو أراد الحق ألا يَقْدِر أحد على شر لما فعل أحد شراً . ولكنك

أيها المؤمن إن نظرت إلى حقيقة اليقين في فلسفته لوجدت أن بقاء الشر وبقاء الكفر من أسباب تأييد اليقين الإيماني .

*(42/234)*

---

كيف ؟ لأننا لو عشنا في عالم لا يوجد به شر لما كان هناك ضحايا ، ولو لم يوجد ضحايا لما كان هناك حثٌّ على الخير وحضّ ودفع إليه . ولذلك تجد روح الإيمان تقوي حين يهاج الإسلام من أي عدو من أعدائه ، وتجد الإسلام قد استيقظ في نفوس الناس ، فلو لم يوجد في الكون آثاره ضارة للشر ، لما اتجه الناس إلى الخير . وكذلك الكفر من أسباب اليقين الإيماني ، فعندما يطغى أصحاب الكفر في الأرض فساداً واستبداداً ، نجد الناس تتدرع باليقين وتتحصن بالإيمان لأنه يعصم الإنسان من شرور كثيرة . إذن فوجود الشر والكفر هو خدمة لليقين الإيماني . ﴿ إِنِ الحكم إِلاَّ للَّهِ يَقُصُّ الحق وَهُوَ خَيْرُ الفاصلين ﴾ [ الأنعام : 57 ]

نعم إن الحكم لله لأنه سبحانه يفصل بين الموقف دون هوى لأنه لا ينتفع بشيء مما يفعل ، فقد أوجد الحق هذا الكون وهو في غنى عنه ؛ لأن لله سبحانه وتعالى كل صفات الكمال ولم

يضف له خلق الكون صفة زائدة ، وقد خلق سبحانه الكون لمصلحة خلقه فقط . ويبلغنا الرسول : ﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(43/234)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ إِنِّي على بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ أي : على بيانٍ أو بَصِيرةٍ وبُرهانٍ من ربي .

قوله : " وكَذَّبْتُم به " في هذه الجملة وجهان :

أحدهما : أنها مُسْتَأْنَفَةٌ سِيقَتْ للإخبارِ بذلك .

والثاني : أنها في مَحَل نصبٍ على الحالِ ، وحينئذٍ هل يحتاج إلى إضمار " قد " أم لا ؟

و " الهاء " في " به " يجوز أن تعود على " ربِّي " ، وهو الظاهر .

وقيل : على القرآن ؛ لأنه كالمذكور .

وقيل : على اسْتِعْجَالِهِمْ بالعذاب ؛ لأنهم كانوا يقولون : ﴿ إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً ﴾ [ الأنفال : 32 ] .

وقيل : على بيِّنةٍ ؛ لأنها في معنى البيانِ .

وقيل : لأن " التاء " فيها للمُبالغةِ ، والمعنى على أمرٍ بيّنٍ من ربي .

و" مِنْ ربّي " في محلِّ جرّ صِفَةً لـ " بيّنَةٍ " .

قوله : " ما عِنْدي مَا تَسْتَعْجِلُونه بِهِ " كان عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يخوّفهم نزول العذاب فقال تعالى : قال يا محمَّد : ما عندي ما تَسْتَعْجِلُونَ به ، يعني قولهم : ﴿ إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ ﴾ [ الأنفال : 32 ] .

وقيل : أراد به القِيامَةَ ؛ لقوله تعالى : ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ [ الشورى : 18 ] .

قوله : ﴿ إِنِ الحكم إِلاَّ للَّهِ ﴾ أي : في تأخير عذابهم .

قوله : " يَقُصُّ الحقَّ " قرأ نافع ، وابن كثير ، وعاصم " يَقُصُّ " [ بصاد مهملة مشددة ] مرفوعة ، وهي قاءة ابن عبَّاسٍ ، والباقون بضادٍ معجمة مخففة مكسورة ، وهاتان في المتواترة .

(44/234)

---

وقرأ عبد الله ، وأُبَيٌّ ، ويحيى بن وثَّابٍ ، والنخعي ، والأعمش ، وطلحة : " يَقْضِي بالحقِّ " من القضاءِ .

وقرأ سعيد بن جُبَيْرٍ ، ومجاهد : " يقضي بالحقِّ وهو خير القاضين " .

فأمَّا قراءة " يقضي " فَمِنَ القضاء .

ويؤيده قوله : " وهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ " فإن الفَصْلَ يناسب القضاء ، ولم يُرْسَمْ إلاَّ بضاد ، كأن " الباء " حذفت خطًّا كما حذفت لَفْظًا لالتقاء الساكنين ، كما حُذِفَتْ من نحو : ﴿ فَمَا تُغْنِي النذر ﴾ [ القمر : 5 ] .

وكما حذفت " الواو " في ﴿ سَنَدْعُ الزبانية ﴾ [ العلق : 18 ] ، ﴿ وَيَمْحُ اللهُ الباطل ﴾ [ الشورى : 24 ] كما تقدَّم .

وأمَّا قراءةُ نَصْبِ " الحقّ " بعدهُ ، ففيه أربعة أوجه :

أحدها : أنه مَنْصُوبٌ على أنه صِفَةٌ لمصدر مَحْذُوفٍ ، أي : يقضي القضاء الحقّ .

والثاني : أنه ضمَّن " يقضيط معنى " ينفذ " ، فلذلك عدَّاهُ إلى المفعول به .

الثالث : أن " قضى " بمعنى " صَنَع " فيتعدَّى بنفسه من غير تَضْمِينٍ ، ويدُلُّ على ذلك قول الهُذَلِيّ شِعْراً : [ الكامل ]

2185 - وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودتانِ قَضَاهُمَا . . .

دَاوُدُ أَوْ صَنَعُ السَّوَابِغِ تُبَّعُ

[ أي : صنعهما ] داود .

الرابع : أنه على إسْقَاطِ حَرْفِ الجرِّ ، أي : يقضي بالحق ، فلما حذف انْتَصَبَ مَجْرُورُهُ

على حَدّ قوله : [ الوافر ]

2186 - تَمُرُّونَ الدِّيَار ولَمْ تَعُوجُوا . . . . . .

ويُؤيِّد ذلك القراءة بها الأصل .

وأمَّا قراءةُ "يَقُصُّ" فمن "قَصَّ الحديثَ" ن أو مِنْ "قَصَّ الأثَرَ" أي : تتبَّعه .

قال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القصص ﴾ [ يوسف : 3 ] .

*(45/234)*

---

ورجَّحَ أبو عَمْرِو بْنُ العلاءِ القراءة الأولى بقوله : "الفَاصِلِينَ" وحُكِيَ عنه أنه ق : "أهُوَ يَقُصُّ الحقَّ أوْ يَقْضِي الحقَّ" فقالوا : "يَقُصُّ" فقال : لو كان "يَقُصُّ" لقال : "وهو خير القاصِّين" أقَرَأَ أحَدٌ بهذا ؟ وحيث قال : وهو خير الفاصلين فالفَصْلُ إنما يكون في القضاءِ .

وكأن أبا عمرو لم يبلغه "وهو خير القاصين" قراءة ، وقد أجاب أبو علي الفارسي عما ذكره أبو العلاء ، فقال : "القَصَصُ" هنا بمعنى القولِ ، وقد جاء القول في القَصْل أيضاً ، قال تعالى ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ [ الطارق : 13 ] .

وقال تعالى : ﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ [ هود : 1 ] .

وقال تعالى : " ونُفَصِّلُ الآياتِ " فقد حمل الفَصْلَ على القول ، واستعمل معه كما جاء مع القضاءِ ، فلا يلزم من الفاصل أن يكون معيناً لـ " يقضي " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 182.184 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (57) ﴾

قلْ إنَّ الله – سبحانه – لم يغادرني في قطر الطلب والتباس التحيَّر ، وأغناني عن ( كَدِّ ) الاستدلال ، وَروَّحَني بشموس الحقيقة . ولئن بقيتم في ظلمة الالتباس فليس لي قدرة على إزالة ما مُنيتم به من التحير ، ونفي ما امتُحِنْتُم به من الجهالة والتردد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 478 ﴾

*(46/234)*

---

قوله تعالى ﴿ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (58) ﴾

" فصل "

قال البقاعى :

﴿ قل لو أن عندي ﴾ أي على سبيل الفرض ﴿ ما تستعجلون به ﴾ أي من العذاب ﴿ لقضي ﴾ وبناه للمفعول لأن المخوف إنما هو الإهلاك ، لا كونه من معين ﴿ الأمر بيني وبينكم ﴾ أي فكنت أهلك من خالفني غضباً لربي بما ظهر لي منه من التكبر عليه ، وقد يكون فيهم مَنْ كُتِبَ في ديوان السعداء ، لكنه لم يكن الأمر إليّ لأني لا أعلم الظالم عند الله من غيره ، فليس الأمر إلا إلى الله ، لأنه أعلم بالمنصفين فينجيهم ﴿ والله ﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿ أعلم بالظالمين ﴾ أي المكتوبين في ديوان الظلمة فيهلكهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 646 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن المعنى ﴿ لَّوْ أَنَّ عِندِى ﴾ أي في قدرتي وإمكاني ﴿ مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴾ من العذاب ﴿ لَقُضِىَ الأمر بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ لأهلكتكم عاجلاً غضباً لربي ، واقتصاصاً من تكذيبكم به .

ولتخلصت سريعاً ﴿ والله أَعْلَمُ بالظالمين ﴾ وبما يجب في الحكمة من وقت عقابهم ومقداره ، والمعنى : إني لا أعلم وقت عقوبة الظالمين .

والله تعالى يعلم ذلك فهو يؤخره إلى وقته ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 8 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم ﴾ أي لو كان في قدرتي الوصول إلى ما تستعجلون به من اقتراح الآيات أو من حلول العذاب لبادرت إليه ووقع الانفصال بيني وبينكم .

وروي عن عكرمة في ﴿ لقضي الأمر بيني وبينكم ﴾ أي لقامت القيامة وما روي عن ابن جريج من أن المعنى لذبح الموت لا يصح ولا له هنا معنى .

وقال الزمخشري و ﴿ ما تستعجلون به ﴾ من العذاب لأهلكنكم عاجلاً غضباً لربي وامتعاضاً من تكذيبكم به ولتخلصت منكم سريعاً ؛ انتهى .

وهو قول ابن عباس لم أمهلكم ساعة ولأهلكنكم .

﴿ والله أعلم بالظالمين ﴾ الظاهر أن المعنى والله أعلم بكم فوضع الظاهر المشعر بوصفهم بالظلم موضع المضمر ومعنى ﴿ أعلم ﴾ بهم أي بمجازاتهم ففيه وعيد وتهديد .

وقيل : بتوقيت عقابهم وقيل : بما آل أمرهم من هداية بعض واستمرار بعض .

وقيل : بمن ينبغي أن يؤخذ وبمن يمهل .

وقيل : بما تقتضيه الحكمة من عذابهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

---

وقال الخازن :

﴿ قل لو أن عندي ما تستعجلون به ﴾ يعني : من إنزال العذاب .

والاستعجال ، المطالبة بالشيء قبل وقته ، فلذلك كانت العجلة مذمومة ، والإسراع تقديم الشيء في وقته ، فلذلك كانت السرعة محمودة .

والمعنى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين المستعجلين لنزول العذاب لو أن عندي ما تستعجلون به لم أمهلكم ساعة ولكن الله حليم ذو أناة لا يعجل بالعقوبة .

قوله تعالى : ﴿ لقضي الأمر بيني وبينكم ﴾ لانفصل ما بيني وبينكم ولأتاكم ما تستعجلون به من العذاب ﴿ والله أعلم بالظالمين ﴾ يعني أنه أعلم بما يستحقون من العذاب والوقت الذي يستحثونه فيه وقيل علم أنه سيؤمن بعض من كان يستعجل بالعذاب فلذلك أخره عنهم قال والله أعلم بالظالمين وبأحوالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قل لو أن عندي ما تستعجلون به ﴾ أي : من العذاب ﴿ لقضي الأمر بيني

وبينكم ﴾ قال ابن عباس : يقول : لم أمهلكم ساعة ، ولأهلكتكم .

قوله تعالى : ﴿ والله أعلم بالظالمين ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أن المعنى إن شاء عاجلهم ، وإن شاء أخَّر عقوبتهم .

والثاني : أعلم بما يؤول إليه أمرهم ، وأنه قد يهتدي منهم قوم ، ولا يهتدي آخرون ؛ فلذلك يؤخِّرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ قل لو أن عندي ﴾ الآية ، المعنى لو كان عندي الآيات المقترحة أو العذاب على التأويل الآخر لقضي الأمر أي لوقع الانفصال ، وتم التنازع لظهور الآية المقترحة أو لنزل العذاب بحسب التأويلين ، وحكى الزهراوي : أن المعنى لقامت القيامة ، ورواه النقاش عن عكرمة ، وقال بعض الناس : معنى ﴿ لقضي الأمر ﴾ أي لذبح الموت .

*(48/234)*

---

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : وهذا قول ضعيف جداً لأن قائله سمع هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر ﴾ [ مريم : 39 ] وذبح الموت هنا لائق فنقله إلى هذا الموضع دون شبه ، وأسند الطبري هذا القول إلى ابن جريج غير مقيد

بهذه السورة ، والظن بابن جريج أنه إنما فسر الذي في يوم الحسرة ﴿ والله أعلم بالظالمين ﴾ يتضمن الوعيد والتهديد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن كثير :

وقوله : ﴿ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي : لو كان مرجع ما تستعجلون به إلي ، لأوقعت بكم ما تستحقونه من ذلك ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴾

فإن قيل : فما الجمع بين هذه الآية ، وبين ما ثبت في الصحيحين من طريق ابن وَهْب ، عن يونس ، عن الزهري ، عن عُرْوَة ، عن عائشة ؛ أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ فقال : "لقد لقيتُ من قومك ، وكان أشد ما لقيت منه يوم العقبة ؛ إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل ابن عبد كُلال ، فلم يجبني إلى ما أردتُ ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي ، فإذا أنا بسحابة قد أظَلَّتْني ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، عليه السلام ، فناداني ، فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك مَلَك الجبال لتأمره بما شئت فيهم" . قال : "فناداني مَلَك الجبال وسلم علي ، ثم قال : يا محمد ، إن الله قد سمع قول قومك لك ، وقد بعثني ربك إليك ، لتأمرني بأمرك ، فما شئت ؟ إن

شئت أطبقت عليهم الأخشبين" ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من

(49/234)

---

يعبد الله ، لا يشرك به شيئا" ، وهذا لفظ مسلم (1)

فقد عرض عليه عذابهم واستئصالهم ، فاستأنى بهم ، وسأل لهم التأخير ، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئا . فما الجمع بين هذا ، وبين قوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴾ ؟

فالجواب – والله أعلم – : أن هذه الآية دَلَّت على أنه لو كان إليه وقوعُ العذاب الذي يطلبونه حالَ طَلَبهم له ، لأوقعه بهم . وأما الحديث ، فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم ، بل عرض عليه مَلَك الجبال أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين – وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوبا وشمالا – فلهذا استأنى بهم وسأل الرفق لهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 264 ﴾

---

(1) صحيح البخاري برقم (3231) وصحيح مسلم برقم (1795) .

وقال أبو السعود :

﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى ﴾ أي في قدرتي ومِكْنتي ﴿ مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴾ من العذاب الذي ورد به الوعيد بأن يكون أمرُه مفوّضاً إلي من جهته تعالى ﴿ لَقُضِىَ الأمر بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي بأن ينزِلَ ذلك عليكم إثرَ استعجالِكم بقولكم : متى هذا الوعد ونظائرِه ، وفي بناء الفعل للمفعول من الإيذان بتعيُّن الفاعِلِ الذي هو الله تعالى وتهويلِ الأمر ومراعاةِ حسنِ الأدب ما لا يخفى . فما قيل في تفسيره لأهلكتُكم عاجلاً غضباً لربي ولتخلصْتُ منكم سريعاً بمعزلٍ من تَوْفِيةِ المقام حقَّه . وقولُه تعالى : ﴿ والله أَعْلَمُ بالظالمين ﴾ اعتراضٌ مقرِّرٌ لما أفادتْه الجملةُ الامتناعية من انتفاءِ كونِ أمرِ العذابِ مفوَّضاً إليه صلى الله عليه وسلم المستتبِع لانتفاء قضاءِ الأمر ، وتعليلٌ له والمعنى والله تعالى أعلم بحال الظالمين وبأنهم مستحقون للإمهال بطريق الاستدراج لتشديد العذاب ولذلك لم يفوِّضِ الأمرَ إليّ فلم يقضِ الأمرَ بتعجيل العذاب والله أعلم . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى ﴾ أي في قدرتي وإمكاني ﴿ مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴾ من العذاب ﴿ لَقُضِىَ الأمر بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي بأن ينزل عليكم إثر استعجالكم ، وفي بناء الفعل للمفعول من الإيذان بتعين الفاعل الذي هو الله جلت عظمته وتهويل الأمر ومراعاة حسن الأدب ما لا يخفى .

وقال الزمخشري ومن تبعه : "المعنى لو كان ذلك في مكنتي لأهلكتكم عاجلاً غضباً لربي عز وجل وامتعاضاً من تكذيبكم به ولتخلصت منكم سريعاً" ، ولا يساعده المقام ، ومثله حمل ﴿ مَا يَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ﴾ على الآيات المقترحة وقضاء الأمر على قيام الساعة .

﴿ والله أَعْلَمُ بالظالمين ﴾ أي بحالهم وبأنهم مستحقون للإمهال بطريق الاستدراج لتشديد العذاب ، ولذلك لم يفوض الأمر إلي ولم يقض بتعجيل العذاب ، والجملة مقررة لما أفادته الجملة الامتناعية من انتفاء كون أمر العذاب مفوضاً إليه عليه الصلاة والسلام المستتبع لانتفاء قضاء الأمر وتعليل له .

وقيل : هي في معنى الاستدراك كأنه قيل : لو قدرت أهلكتكم ولكن الله تعالى أعلم بمن يهلك من غيره وله حكمة في عدم التمكين منه ، وأياً ما كان فلا حاجة إلى حذف مضاف ، وزعم بعضهم ذلك ، والتقدير وقت عقوبة الظالمين وهو كما ترى والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾

استئناف بياني لأنّ قوله : ﴿ ما عندي ما تستعجلون به ﴾ [ الأنعام : 57 ] يثير سؤالاً في نفس السامع أن يقول : فلو كان بيدك إنزال العذاب بهم ماذا تصنع ، فأجيب بقوله : ﴿ لَو أنّ عندي ما تستعجلون به ﴾ الآية .

(52/234)

---

وإذ قد كان قوله : ﴿ لو أنّ عندي ﴾ الخ استئنافاً بيانياً فالأمر بأن يقوله في قوة الاستئناف البياني لأنّ الكلام لمَّا بني كلّه على تلقين الرسول ما يقوله لهم فالسائل يتطلّب من الملقّن ماذا سيلقّن به رسوله إليهم .

ومعنى ﴿ عندي ما تستعجلون به ﴾ تقدّم آنفاً ، أي لو كان في علمي حكمته وفي قدرتي فعله .

وهذا كناية عن معنى لَسْتُ إلهاً ولكنّني عبد أتَّبع ما يوحى إليَّ .

وقوله : ﴿ لقُضي الأمر بيني وبينكم ﴾ جواب ﴿ لو ﴾ .

فمعنى ﴿ قضي ﴾ تمّ وانتهى .

والأمر مراد به النزاع والخلاف .

فالتعريف فيه للعهد ، وبُني ﴿ قضي الأمر ﴾ للمجهول لظهور أنّ قاضيَه هو مَن بيده ما يستعجلون به .

وتركيب ( قضي الأمر ) شاع فجرى مجرى المثل ، فحُذف الفاعل ليصلح التمثّل به في كلّ مقام ، ومنه قوله : ﴿ قُضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ [ يوسف : 41 ] وقوله : ﴿ ولولا كلمة الفصل لقُضيَ بينهم ﴾ [ الشورى : 21 ] وقوله : ﴿ وأنذرهم يومَ الحسرة إذ قُضي الأمر ﴾ [ مريم : 39 ] ؛ ولذلك إذا جاء في غير طريقة المثل يصرّح بفاعله كقوله تعالى : ﴿ وقَضيْنا إليه ذلك الأمر ﴾ [ الحجر : 66 ] .

وذلك القضاء يحتمل أموراً : منها أن يأتيهم بالآية المقتَرَحَة فيؤمنوا ، أوْ أن يغضَب فيهلكهم ، أو أن يصرف قلوبهم عن طلب ما لا يجيبهم إليه فيتوبوا ويرجعوا .

وجملة : ﴿ والله أعلم بالظالمين ﴾ تذييل ، أي الله أعلم منّي ومن كلّ أحد بحكمة تأخير العذاب وبوقت نزوله ، لأنَّه العليم الخبير الذي عنده ما تستعجلون به .

والتعبير ﴿ بالظالمين ﴾ إظهار في مقام ضمير الخطاب لإشعارهم بأنَّهم ظالمون في شركهم إذ اعتدوا على حقّ الله ، وظالمون في تكذيبهم إذ اعتدوا على حقّ الله ورسوله ، وظالمون في معاملتهم الرسول صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

---

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأمر ﴾ [ الأنعام : 58 ] الآية ، صريح في أنه صلى الله عليه وسلم لو كان بيده تعجيل العذاب عليهم لعجله عليهم ، مع أنه ثبت في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها أن النَّبي صلى الله عليه وسلم ارسل الله إليه ملك الجبال ، وقال له : إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين – وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها – فقال صلى الله عليه وسلم : " بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشركَ به شيئاً " .

والظاهر في الجواب : هو ما أجاب به ابن كثير – رحمه الله – في تفسير هذه الآية ، وهو أن هذه الآية دلت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذي يطلبون تعجيله في وقت طلبهم لعجله عليهم ، وأما الحديث فليس فيه أنهم طلبوا تعجيل العذاب في ذلك الوقت ، بل عرض عليه الملك إهلاكهم فاختار عدم إهلاكهم ، ولا يخفى الفرق بين المتعنت الطالب تعجيل العذاب وبين غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 1 صـ ﴾

(54/234)

---

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ) .

أَيْ : تِلْكَ سُنَّتُنَا فِي إِهْلَاكِ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ : مَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَيْهِمْ إِلَّا مُبَشِّرِينَ مَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ عَمَلًا بِالْجَزَاءِ الْحَسَنِ اللَّائِقِ بِهِمْ ، وَمُنْذِرِينَ مَنْ أَصَرَّ عَلَى الشِّرْكِ وَالْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ بِالْجَزَاءِ السَّيِّئِ الَّذِي يَسْتَحِقُّونَهُ (فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) أَيْ : فَلَا خَوْفٌ

(55/234)

---

عَلَيْهِمْ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا الَّذِي يَنْزِلُ بِالْجَاحِدِينَ ، وَلَا مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ الَّذِي أَعَدَّهُ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَوْمَ لِقَاءِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى شَيْءٍ فَاتَهُمْ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقِيهِمْ مِنْ كُلِّ فَزَعٍ : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) (75 : 22 ، 23) (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ

ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ) (80 : 38 ، 39) وَلَكَ أَنْ تَقُولَ : إِنَّ هَؤُلَاءِ الْكَمَلَةَ لَا يَحْزَنُونَ فِي الدُّنْيَا أَيْضًا مِمَّا يَحْزَنُ مِنْهُ الْكُفَّارُ وَالْفُسَّاقُ كَفَوَاتِ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَلَذَّاتِهَا ، أَوْ لَا يَكُونُ حُزْنُهُمْ كَحُزْنِهِمْ فِي شِدَّتِهِ وَطُولِ أَمَدِهِ ، فَإِنَّهُمْ إِذَا عَرَضَ لَهُمُ الْحُزْنُ لِسَبَبٍ صَرِيحٍ كَمَوْتِ الْوَلَدِ ، وَالْقَرِيبِ ، وَالصَّدِيقِ ، أَوْ فَقْدِ الْمَالِ ، وَقِلَّةِ النَّصِيرِ - يَكُونُ حُزْنُهُمْ رَحْمَةً وَعِبْرَةً ، مَقْرُونًا بِالصَّبْرِ وَحُسْنِ الْأُسْوَةِ ، لَا يَضُرُّهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ وَلَا أَبْدَانِهِمْ ، وَلَا يُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْ عَادَاتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ ، فَالْإِيمَانُ بِاللَّهِ يَعْصِمُهُمْ مِنْ إِرْهَاقِ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ، وَمِنْ بَطَرِ السَّرَّاءِ وَالنَّعْمَاءِ ، عَمَلًا بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) (57 : 23) .

*(56/234)*

---

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) أَيْ : وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الَّتِي أَرْسَلْنَا بِهَا الرُّسُلَ يُصِيبُهُمُ الْعَذَابُ فِي الدُّنْيَا أَحْيَانًا ، وَلَا سِيَّمَا عِنْدَ الْجُحُودِ وَالْعِنَادِ الَّذِي يَكُونُ فِي الْمَجْمُوعِ دُونَ بَعْضِ الْأَفْرَادِ ، وَفِي الْآخِرَةِ عَلَى سَبِيلِ الشُّمُولِ وَالِاطِّرَادِ ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ فِسْقِهِمْ ، أَيْ كُفْرِهِمْ وَإِفْسَادِهِمْ ، فَهَؤُلَاءِ قَدْ ذُكِرُوا فِي مُقَابِلِ الَّذِينَ آمَنُوا وَأَصْلَحُوا

أَنْفُسَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ وَمُعَامَلَاتِهِمْ ، فَالتَّكْذِيبُ يُقَابِلُ الْإِيمَانَ ، وَالْفِسْقُ يُقَابِلُ الْإِصْلَاحَ ، وَإِنْ كَانَ أَعَمَّ مِنْهُ فِي اللُّغَةِ وَالِاصْطِلَاحِ ، فَهُوَ يُطْلَقُ عَلَى الْكُفْرِ وَالْخُرُوجِ مِنَ الطَّاعَةِ ، وَفَسَّرَ ابْنُ زَيْدٍ الْفِسْقَ بِالْكَذِبِ هُنَا وَفِي كُلِّ الْقُرْآنِ ، وَهُوَ تَفْسِيرٌ غَيْرُ مُسَلَّمٍ .

وَالْمَسُّ : اللَّمْسُ بِالْيَدِ وَمَا يُدْرَكُ بِهِ ، وَيُطْلَقُ عَلَى مَا يُصِيبُ الْمُدْرِكَ مِمَّا يَسُوءُهُ غَالِبًا مِنْ ضُرٍّ ، وَشَرٍّ ، وَكِبَرٍ ، وَنَصَبٍ ، وَلُغُوبٍ ، وَعَذَابِ الضَّرَّاءِ وَالْبَأْسَاءِ ، وَهَذَا الِاسْتِعْمَالُ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ يُعَدُّ بِالْعَشَرَاتِ ، وَيُسْنَدُ الْفِعْلُ إِلَى سَبَبِ السُّوءِ وَالْأَلَمِ ، وَقَدْ أُسْنِدَ إِلَى مَا يَسُرُّ فِي مُقَابَلَةِ إِسْنَادِهِ

إِلَى مَا يَسُوءُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا) (3 : 120) وَفِي الْآيَةِ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ وَقَدْ

*(57/234)*

---

تَقَدَّمَ ، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ) (70 : 19 - 22) وَذَكَرَ مَسَّ الضُّرِّ فِي أَوَاخِرِ " سُورَةِ يُونُسَ " (10 : 107) وَقَابَلَهُ بِإِرَادَةِ الْخَيْرِ . وَقَدْ وَرَدَ الْمَسُّ بِمَعْنَى الْوِقَاعِ فِي " سُورَةِ الْبَقَرَةِ " ، وَلَمْ يَرِدْ فِي الْقُرْآنِ بِمَعْنَى اللَّمْسِ بِالْيَدِ إِلَّا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) (56 : 79) أَيِ

الْقُرْآنَ ، وَفَسَّرَ بَعْضُهُمُ الْمَسَّ بِالِاطِّلَاعِ وَالْمُطَهَّرِينَ بِالْمَلَائِكَةِ .

(قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) .

*(58/234)*

---

إِنَّ الْآيَاتِ الْأَرْبَعَ الَّتِي قَبْلَ هَذِهِ الْآيَاتِ قَدْ بَيَّنَتْ أَرْكَانَ الدِّينِ وَأُصُولَ الْعَقَائِدِ ، وَهِيَ تَوْحِيدُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَالرِّسَالَةُ أَوْ وَظِيفَةُ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَالْجَزَاءُ عَلَى الْأَعْمَالِ ، وَقَدْ جَاءَتِ الْآيَتَانِ الْأُولَيَانِ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ الْأَرْبَعِ بَعْدَهُنَّ مُفَصَّلَتَيْنِ لِمَا فِيهِنَّ

مِنْ بَيَانِ وَظِيفَةِ الرُّسُلِ الْعَامَّةِ بِتَطْبِيقِهَا عَلَى خَاتَمِ الرُّسُلِ – صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى

آلِهِ – وَإِزَالَةُ أَوْهَامِ النَّاسِ فِيهَا ، وَمِنْ بَيَانِ أَمْرِ الْجَزَاءِ فِي الْآخِرَةِ ، وَكَوْنِ الْأَمْرِ فِيهِ لِلَّهِ تَعَالَى

وَحْدَهُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَزِيدُ عَقِيدَةَ التَّوْحِيدِ تَقْرِيرًا وَتَأْكِيدًا وَبَيَانًا وَتَفْصِيلًا ، وَذَهَبَ الرَّازِيُّ إِلَى أَنَّ هَذَا مِنْ بَقِيَّةِ الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ : (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ) (37) وَمَا قُلْنَاهُ أَظْهَرُ . وَقَدْ بُدِئَتِ الْآيَةُ الْأُولَى بِالْأَمْرِ بِالْقَوْلِ – عَلَى مَا عَلِمْنَا مِنْ أُسْلُوبِ هَذِهِ السُّورَةِ فِي بَيَانِ الْمَسَائِلِ الَّتِي يَتَعَلَّقُ بِهَا التَّبْلِيغُ – فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ :

*(59/234)*

---

(قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ) أَيْ قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ الَّذِي لَمْ يُبْعَثْ إِلَّا كَمَا بُعِثَ غَيْرُهُ مِنَ الرُّسُلِ مُبَشِّرًا مَنْ أَجَابَ دَعْوَتَهُ بِحُسْنِ الثَّوَابِ وَمُنْذِرًا مَنْ رَدَّهَا سُوءَ الْعِقَابِ ، لِهَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ الْمُشَاغِبِينَ لَكَ بِغَيْرِ عِلْمٍ يُمَيِّزُونَ بِهِ بَيْنَ شُئُونِ الْأُلُوهِيَّةِ وَحَقِيقَةِ الرِّسَالَةِ ، الَّذِينَ يَقْتَرِحُونَ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ مَا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْبَشَرَ لَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُمْ – وَإِنْ قَالُوهُ تَعْجِيزًا – يَتَوَهَّمُونَ أَنَّ الرَّجُلَ مِنَ الْبَشَرِ لَا يَكُونُ رَسُولًا إِلَّا أَنْ يَخْرُجَ مِنْ حَقِيقَةِ الْبَشَرِيَّةِ وَيَصِيرَ إِلَهًا قَادِرًا عَلَى مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْبَشَرُ ، وَعَالِمًا بِكُلِّ مَا يَعْجِزُ عَنْ عِلْمِهِ الْبَشَرُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ مَوْضُوعِ الرِّسَالَةِ الَّتِي عُهِدَ إِلَيْهِ أَمْرُ تَبْلِيغِهَا ، أَوْ يَصِيرَ مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ فِي مُتَعَلَّقِ قُدْرَتِهِ وَمُتَنَاوَلِ عِلْمِهِ ؛ لِأَنَّ أَمْرَ الرِّسَالَةِ فِي خَيَالِهِمْ يُنَافِي الْبَشَرِيَّةَ الَّتِي حَقَّرَهَا فِي أَنْفُسِهِمْ جَهْلُهُمْ وَسُوءُ حَالِهِمْ وَفَسَادُ أَعْمَالِهِمْ – قُلْ

لِهَؤُلَاءِ : لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ أَتَصَرَّفُ بِمَا خَزَنَهُ وَحَفِظَهُ فِيهَا مِنْ أَرْزَاقِ الْعِبَادِ وَشُئُونِ الْمَخْلُوقَاتِ ، بِمَعْنَى الْمَخْزُونَاتِ ، فَالْخَزَائِنُ جَمْعُ خَزِينَةٍ أَوْ خِزَانَةٍ ، وَهِيَ مَا يَخْزُنُ فِيهَا الشَّيْءَ مَنْ يُرِيدُ حِفْظَهُ وَمَنْعَ غَيْرِهِ مِنَ التَّصَرُّفِ فِيهِ (وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (63 : 7)

*(60/234)*

---

يَتَصَرَّفُ فِيهَا كَمَا يَشَاءُ ، وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ عَلَى التَّصَرُّفِ فِي شَيْءٍ مِنْهَا إِلَّا مَا أَعْطَاهُ تَعَالَى إِيَّاهُ ، وَمَكَّنَهُ مِنَ التَّصَرُّفِ فِيهِ ، وَالْمُتَصَرِّفُ بِمَا يُعْطَى مِنَ الْخِزَانَةِ لَا يَكُونُ مُتَصَرِّفًا فِي الْخِزَانَةِ نَفْسِهَا ، فَالْمُسْتَخْدَمُونَ عِنْدَ الْمَلِكِ أَوِ الرَّجُلِ الْغَنِيِّ يُعْطَوْنَ أُجُورَهُمْ مِنْ خِزَانَتِهِ ، فَيَتَصَرَّفُونَ فِيهَا دُونَ الْخِزَانَةِ ، وَجَمِيعُ الْأَحْيَاءِ الْعَامِلِينَ يَتَصَرَّفُونَ بِمَا يُعْطِيهِمُ اللهُ تَعَالَى مِنْ خَزَائِنِ الْمَوْجُودَاتِ ، كُلٌّ بِحَسَبِ مَا أُوتِيَ مِنَ الِاسْتِعْدَادِ فِي دَائِرَةِ ارْتِبَاطِ الْأَسْبَابِ بِالْمُسَبَّبَاتِ ، وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَتَجَاوَزَ ذَلِكَ إِلَى مَا لَمْ يُؤْتَهُ وَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ اسْتِعْدَادُهُ ، فَالتَّصَرُّفُ الْمُطْلَقُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِنَّمَا هُوَ لِلَّهِ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَيْسَ مِنْ مَوْضُوعِ الرِّسَالَةِ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ – الْمُبَلِّغُ عَنِ اللهِ تَعَالَى أَمْرَ دِينِهِ – قَادِرًا عَلَى مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْبَشَرُ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي الْمَخْلُوقَاتِ

بِالْأَسْبَابِ ، فَضْلًا عَنِ التَّصَرُّفِ الذَّاتِيِّ بِغَيْرِ سَبَبٍ الَّذِي طَلَبَهُ الْمُشْرِكُونَ مِنْهُ ، وَجَعَلُوهُ شَرْطًا لِلْإِيمَانِ لَهُ ، كَتَفْجِيرِ الْيَنَابِيعِ وَالْأَنْهَارِ مِنْ أَرْضِ مَكَّةَ وَإِيجَادِ الْجَنَّاتِ وَالْبَسَاتِينِ فِيهَا ، وَإِسْقَاطِ السَّمَاءِ عَلَيْهِمْ كِسَفًا ، وَالْإِتْيَانِ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا اقْتَرَحُوهُ وَحَكَاهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي " سُورَةِ الْإِسْرَاءِ " وَغَيْرِهَا .

*(61/234)*

---

بَدَأَ بِنَفْيِ الْقُدْرَةِ عَلَى التَّصَرُّفِ فِيمَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِ الْبَشَرِ التَّصَرُّفُ فِيهِ ؛ لِعَدَمِ تَسْخِيرِ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاهُ لَهُمْ بِإِقْدَارِهِمْ عَلَى أَسْبَابِهِ ، وَثَنَّى بِنَفْيِ عِلْمِ الْغَيْبِ الْخَاصِّ بِاللَّهِ تَعَالَى فَقَالَ : (وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ) أَيْ : وَلَا أَقُولُ لَكُمْ : إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ ، وَهُوَ مَا حَجَبَ اللَّهُ عِلْمَهُ عَنِ النَّاسِ بِعَدَمِ تَمْكِينِهِمْ مِنْ أَسْبَابِ الْعِلْمِ بِهِ كَكَوْنِهِ مِمَّا لَا تُدْرِكُهُ مَشَاعِرُهُمُ الظَّاهِرَةُ وَلَا الْبَاطِنَةُ ؛ لِأَنَّهَا لَمْ تُخْلَقْ مُسْتَعِدَّةً لِإِدْرَاكِهِ وَلَا لِطُرُقِ الِاسْتِدْلَالِ عَلَيْهِ ، أَوْ لِأَنَّهَا مُسْتَعِدَّةٌ لَهُ بِالْقُوَّةِ غَيْرُ مُتَمَكِّنَةٍ مِنْ أَسْبَابِهِ بِالْفِعْلِ كَعَالَمِ الْآخِرَةِ ، فَالْغَيْبُ مِنْ جِنْسِ الْمَعْلُومَاتِ كَخَزَائِنِ اللَّهِ مِنْ جِنْسِ الْمَقْدُورَاتِ ، يُرَادُ بِهِمَا مَا اخْتَصَّ بِاللَّهِ تَعَالَى ، فَلَمْ يُمَكِّنْ عِبَادَهُ مِنْ عِلْمِهِ وَالتَّصَرُّفِ فِيهِ ، أَيْ : لَمْ يُعْطِهِمُ الْقُوَى ، وَلَمْ يُسَخِّرْ لَهُمُ الْأَسْبَابَ الْمُوصِلَةَ إِلَى ذَلِكَ .

*(62/234)*

وَالْغَيْبُ قِسْمَانِ : غَيْبٌ حَقِيقِيٌّ مُطْلَقٌ ، وَهُوَ مَا غَابَ عِلْمُهُ عَنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ حَتَّى الْمَلَائِكَةِ ، وَفِيهِ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : (قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ) (27 : 65) وَغَيْبٌ إِضَافِيٌّ ، وَهُوَ مَا غَابَ عِلْمُهُ عَنْ بَعْضِ الْمَخْلُوقِينَ دُونَ بَعْضٍ ، كَالَّذِي يَعْلَمُهُ الْمَلَائِكَةُ مِنْ أَمْرِ عَالَمِهِمْ وَغَيْرِهِ وَلَا يَعْلَمُهُ الْبَشَرُ مَثَلًا ، وَأَمَّا مَا يَعْلَمُهُ بَعْضُ الْبَشَرِ بِتَمْكِينِهِمْ مِنْ أَسْبَابِهِ وَاسْتِعْمَالِهِمْ لَهَا ، وَلَا يَعْلَمُهُ غَيْرُهُمْ لِجَهْلِهِمْ بِتِلْكَ الْأَسْبَابِ أَوْ عَجْزِهِمْ عَنِ اسْتِعْمَالِهَا ، فَلَا يَدْخُلُ فِي عُمُومِ مَعْنَى الْغَيْبِ الْوَارِدِ فِي كِتَابِ اللهِ ، وَهَذِهِ الْأَسْبَابُ مِنْهَا مَا هُوَ عِلْمِيٌّ كَالدَّلَائِلِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ ، فَإِنَّ بَعْضَ عُلَمَاءِ الرِّيَاضِيَّاتِ وَغَيْرِهَا يَسْتَخْرِجُونَ مِنْ دَقَائِقِ الْمَجْهُولَاتِ مَا يَعْجِزُ عَنْهُ أَكْثَرُ النَّاسِ ، وَيَضْبُطُونَ مَا يَقَعُ مِنَ الْخُسُوفِ وَالْكُسُوفِ بِالدَّقَائِقِ وَالثَّوَانِي قَبْلَ وُقُوعِهِ بِالْأُلُوفِ مِنَ الْأَعْوَامِ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ عَمَلِيٌّ كَالتِّلِغْرَافِ الْهَوَائِيِّ أَوِ اللَّاسِلْكِيِّ الَّذِي يَعْلَمُ الْمَرْءُ بِهِ بَعْضَ مَا يَقَعُ فِي أَقَاصِي الْبِلَادِ وَأَجْوَازِ الْبِحَارِ الَّتِي بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا أُلُوفٌ مِنَ الْأَمْيَالِ ، وَمِنْهَا مَا قَدْ يَصِلُ إِلَى حَدِّ الْعِلْمِ مِنَ

الْإِدْرَاكَاتِ النَّفْسِيَّةِ الْخَفِيَّةِ كَالْفِرَاسَةِ وَالْإِلْهَامِ ، وَأَكْثَرُ هَذَا النَّوْعِ مِنَ الِانْكِشَافِ لَوَائِحُ تَلُوحُ لِلنَّفْسِ لَا تَجْزِمُ بِهَا إِلَّا بَعْدَ وُقُوعِهَا ، فَمَا يَصِلُ مِنْهَا إِلَى حَدِّ الْعِلْمِ الَّذِي يَجْزِمُ بِهِ صَاحِبُهُ لِاسْتِكْمَالِ شُرُوطِهِ يُشْبِهُ مَا يَنْفَرِدُ بِإِدْرَاكِهِ بَعْضُ الْمُمْتَازِينَ بِقُوَّةِ الْحَاسَّةِ ، كَزَرْقَاءِ الْيَمَامَةِ الَّتِي كَانَتْ تَرَى عَلَى بُعْدٍ عَظِيمٍ مَا لَا يَرَاهُ غَيْرُهَا ، أَوْ بِقُوَّةِ بَعْضِ الْمَدَارِكِ الْعَقْلِيَّةِ كَالْعُلَمَاءِ الَّذِينَ أَشَرْنَا إِلَيْهِمْ آنِفًا ، وَأَظْهَرُ شُرُوطِ هَذَا النَّوْعِ مِنَ الْإِدْرَاكِ قُوَّةُ الِاسْتِعْدَادِ الْفِطْرِيَّةِ فِي النَّفْسِ لِذَلِكَ ، وَتَوَجُّهُ النَّفْسِ إِلَى الْمَدَارِكِ تَوَجُّهًا قَوِيًّا لَا يُعَارِضُهُ اشْتِغَالُ قُوًى بِغَيْرِهَا مِنَ الْمُدْرَكَاتِ . وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ هَذَا فِي حَالِ مَرَضٍ عَصَبِيٍّ أَوِ انْفِعَالٍ نَفْسِيٍّ قَوِيٍّ يَحْصُرُ هَمَّ النَّفْسِ كُلَّهُ فِيهِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا) (9) مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ فِي هَذَا الْجُزْءِ كَلَامٌ نَفِيسٌ فِي هَذِهِ الْإِدْرَاكَاتِ الْخَفِيَّةِ الْخَاصَّةِ . وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعُدُّهَا مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ ؛ لِخَفَاءِ أَسْبَابِهَا عَنْهُ ، وَيَرُدُّهُ أَنَّهَا مِمَّا يَكْثُرُ وَيَتَكَرَّرُ حَتَّى صَارَ مُعْتَادًا مِنْ أَهْلِهِ الْكَثِيرِينَ الْمُخْتَلِفِينَ فِي الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْآدَابِ ، وَمَا كَانَ كَذَلِكَ لَا يَكُونُ مِنَ الْخَوَارِقِ كَمَا قَالَ مُحْيِي

الدِّينِ بْنُ الْعَرَبِيِّ ، وَلَكِنَّا مَعَ هَذَا نَقُولُ : إنَّ بَعْضَهُ يَصِحُّ أَنْ يُسَمَّى كَرَامَةً كَمَا يُعْلَمُ مِنْ تَفْسِيرِنَا لِلْآيَةِ التَّاسِعَةِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ .

*(65/234)*

---

فَإِنْ قِيلَ : قَدْ عَلِمْنَا أَنَّ الرِّسَالَةَ الْإِلَهِيَّةَ لَا تَتَوَقَّفُ عَلَى إقْدَارِ الرَّسُولِ عَلَى التَّصَرُّفِ فِي الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ غَيْرِ طَرِيقِ الْأَسْبَابِ الَّتِي سَخَّرَهَا اللَّهُ لِلنَّاسِ ؛ لِأَنَّ مَوْضُوعَهَا عِلْمِيٌّ تَعْلِيمِيٌّ ، فَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ تَبْلِيغِ مَا عَلَّمَهُ اللَّهُ لِلرَّسُولِ بِوَحْيِهِ إلَيْهِ ، وَلَيْسَ مِنْ مَوْضُوعِهَا تَغْيِيرُ شَيْءٍ مِنْ خَلْقٍ ؛ وَلِذَلِكَ لَمْ يُعْطِ اللَّهُ تَعَالَى أَحَدًا مِنْ رُسُلِهِ قُدْرَةً عَلَى هِدَايَةِ أَحَدٍ بِالْفِعْلِ . قَالَ تَعَالَى لِخَاتَمِ رُسُلِهِ : (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) (2 : 272) وَقَالَ لَهُ : (إنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) (28 : 56) وَلَوْ كَانَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي الْخَلْقِ لَجَعَلَهُ نُوحٌ – نَبِيُّ اللَّهِ – فِي هِدَايَةِ وَلَدِهِ ، وَإِبْرَاهِيمُ – خَلِيلُ اللَّهِ – فِي هِدَايَةِ أَبِيهِ آزَرَ ، وَلَكِنَّ عِلْمَ الْغَيْبِ مِنْ مَوْضُوعِ الرِّسَالَةِ ، فَإِنَّ أَصْلَ مَوْضُوعِهَا رُؤْيَةُ الْمَلَائِكَةِ ، وَالتَّلَقِّي عَنْهُمْ ، وَذَلِكَ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ الَّذِي أُمِرْنَا بِالْإِيمَانِ بِهِ اتِّبَاعًا لِلرَّسُولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الَّذِي رَأَى بِعَيْنَيْهِ وَسَمِعَ بِأُذُنَيْهِ وَوَعَى بِقَلْبِهِ ، وَقَدْ أَثْبَتَ تَعَالَى عَالَمَ الْغَيْبِ

الْمُتَعَلِّقِ بِالرِّسَالَةِ لِلرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، فَقَالَ فِي آخِرِ " سُورَةِ الْجِنِّ " : (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا

(66/234)

---

إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا) (72 : 26 - 28) فَكَيْفَ أَمَرَ رَسُولَهُ أَنْ يَتَنَصَّلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنِ ادِّعَاءِ عَالِمِ الْغَيْبِ ، وَأَنْ يَسْتَدِلَّ عَلَى ذَلِكَ بَعْدَ نَفْيِ التَّصَرُّفِ بِقَوْلِهِ فِي أَوَاخِرِ الْأَعْرَافِ : (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (7 : 188) .

نَقُولُ : (أَوَّلًا) إِنَّ مَا يُظْهِرُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ الرُّسُلَ هُوَ مِنَ الْغَيْبِ الْإِضَافِيِّ لَا الْحَقِيقِيِّ الْمُطْلَقِ الَّذِي لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ الِاسْتِعْدَادَ لِعِلْمِهِ .

(67/234)

---

(ثَانِيًا) إِنَّ إِظْهَارَهُ تَعَالَى إِيَّاهُمْ عَلَى شَيْءٍ خَاصٍّ مِنْ هَذَا الْغَيْبِ لَا يَجْعَلُ ذَلِكَ دَاخِلًا فِي عُلُومِهِمُ الْكَسْبِيَّةِ ، فَإِنَّ الْوَحْيَ ضَرْبٌ مِنَ الْعِلْمِ الضَّرُورِيِّ يَجِدُهُ النَّبِيُّ فِي نَفْسِهِ عِنْدَمَا يُظْهِرُهُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ ، فَإِذَا حُبِسَ عَنْهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ قُدْرَةٌ وَلَا وَسِيلَةٌ كَسْبِيَّةٌ إِلَيْهِ كَمَا يَعْلَمُ مِمَّا وَرَدَ فِي فَتَرَاتِ الْوَحْيِ ، وَهُوَ مُقْتَضَى الْإِجْمَاعِ عَلَى أَنَّ النُّبُوَّةَ غَيْرُ مُكْتَسَبَةٍ . نَعَمْ قَدْ يَكُونُ تَوَجُّهُ قَلْبِ الرَّسُولِ إِلَى اللهِ تَعَالَى عِنْدَ بَعْضِ الْحَوَادِثِ مُقَدِّمَةً لِنُزُولِ الْوَحْيِ فِي الْحُكْمِ الَّذِي اسْتَشْرَفَ لَهُ وَتَوَجَّهَ إِلَى اللهِ تَعَالَى لِيُبَيِّنَهُ لَهُ كَمَا يُرْشِدُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا) (2 : 144) إِلَخْ . وَكَذَلِكَ رُؤْيَةُ نَبِيِّنَا – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِلْمَلَكِ عَلَى هَيْئَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللهُ عَلَيْهَا مَرَّتَيْنِ ، هِيَ خُصُوصِيَّةٌ لَا يُعَدُّ مِثْلُهَا مِنْ عُلُومِ الرُّسُلِ الْكَسْبِيَّةِ . وَأَمَّا رُؤْيَةُ الْمَلَكِ مُتَمَثِّلًا بِصُورَةِ بَشَرٍ أَوْ جِسْمٍ آخَرَ فَهُوَ سَبَبٌ عَامٌّ لِرُؤْيَتِهِ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَتَمَثَّلُ إِلَّا لِأَمْرٍ عَظِيمٍ ، أَوْ آيَةٍ لِنَبِيٍّ أَوْ صِدِّيقٍ .

*(68/234)*

---

فَعُلِمَ مِمَّا قَرَّرْنَاهُ أَنَّ الرُّسُلَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمْ يُعْطَوْا عِلْمَ الْغَيْبِ بِحَيْثُ يَكُونُ إِدْرَاكُهُ مِنْ عُلُومِهِمُ الْكَسْبِيَّةِ ، كَمَا أَنَّهُمْ لَمْ يُعْطَوْا قُوَّةَ التَّصَرُّفِ فِي خَزَائِنِ مُلْكِ اللهِ ، وَهِيَ مَا لَمْ

يُمَكِّنِ الْبَشَرَ مِنْ أَسْبَابِهِ فَيَكُونَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الْكَسْبِيَّةِ ، وَلَا أَعْطَاهُمْ إِيَّاهُ أَيْضًا عَلَى سَبِيلِ الْخُصُوصِيَّةِ . كَمَا أَظْهَرَهُمْ عَلَى بَعْضِ الْغَيْبِ الَّذِي هُوَ مَوْضُوعُ الرِّسَالَةِ . وَنَفْيُ ادِّعَاءِ الرَّسُولِ لِكُلٍّ مِنَ الْأَمْرَيْنِ يَتَضَمَّنُ التَّبَرُّؤَ مِنِ ادِّعَاءِ الْإِلَهِيَّةِ - كَمَا قِيلَ - أَوِ ادِّعَاءِ شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الْإِلَهِ وَهُوَ أَوْلَى وَيَسْتَلْزِمُ الْأَوَّلَ ؛ لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا خَاصٌّ بِالْإِلَهِ الَّذِي هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَبِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ، وَقُدْرَتُهُ وَعِلْمُهُ صِفَتَانِ ذَاتِيَّتَانِ لَهُ ، وَيَتَضَمَّنُ بَيَانَ جَهْلِ الْمُشْرِكِينَ بِحَقِيقَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَحَقِيقَةِ الرِّسَالَةِ ؛ إِذْ كَانُوا يَقْتَرِحُونَ عَلَى الرَّسُولِ مِنَ الْأَعْمَالِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا مَنْ لَهُ التَّصَرُّفُ فِيمَا وَرَاءَ الْأَسْبَابِ ، وَمِنَ الْإِخْبَارِ بِمَا يَكُونُ فِي مُسْتَقْبَلِ الزَّمَانِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا مَنْ كَانَ عِلْمُ الْغَيْبِ صِفَةً لَهُ كَسَائِرِ الصِّفَاتِ ، فَقَدْ سَأَلُوهُ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ ، وَعَنْ وَقْتِ نُزُولِ الْعَذَابِ الدُّنْيَوِيِّ بِهِمْ ، وَعَنْ وَقْتِ نَصْرِ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاهُ عَلَيْهِمْ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ .

*(69/234)*

---

وَإِذَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى لَمْ يُؤْتِ الرُّسُلَ مَا لَمْ يُؤْتِ غَيْرَهُمْ مِنْ أَسْبَابِ التَّصَرُّفِ فِي الْمَخْلُوقَاتِ وَمَنْ عِلْمِ الْغَيْبِ ، وَكَانَ كُلٌّ مِنَ التَّصَرُّفِ بِالْقُدْرَةِ الذَّاتِيَّةِ وَعِلْمِ الْغَيْبِ خَاصًّا بِهِ عَزَّ وَجَلَّ يَسْتَحِيلُ أَنْ يُشَارِكَهُ غَيْرُهُ فِيهِ - فَمِنْ أَيْنَ جَاءَتْ دَعْوَى التَّصَرُّفِ فِي الْكَوْنِ وَعِلْمِ الْغَيْبِ

لِمَنْ هُمْ دُونَ الرُّسُلِ مَنْزِلَةً وَكَرَامَةً عِنْدَ اللهِ تَعَالَى مِنَ الْمَشَايِخِ الْمَعْرُوفِينَ وَغَيْرِ الْمَعْرُوفِينَ ، حَتَّى صَارُوا يُدْعَوْنَ مِنْ دُونِ اللهِ تَعَالَى لِمَا عَزَّ نَيْلُهُ بِالْأَسْبَابِ وَالسُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ " وَالدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ " كَمَا صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ؟ وَقَدْ قَالَ الْمُفَسِّرُونَ : إِنَّ نَفْيَ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِهَذَيْنِ عَنْ نَفْسِهِ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ نَفْيِ ادِّعَاءِ الْإِلَهِيَّةِ وَبَيَانٌ لِكَوْنِ مَا اقْتَرَحُوهُ عَلَيْهِ مِمَّا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ غَيْرُ اللهِ تَعَالَى . فَضَلَالُ الْمُشْرِكِينَ فِي فَهْمِ الرِّسَالَةِ وَجَعْلِهِمْ إِيَّاهَا شُعْبَةً مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ لَا يَزَالُ مُنْتَشِرًا فِي أَذْهَانِ النَّاسِ ، حَتَّى بَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ بِاسْمِ الْقُرْآنِ الْمُتَبَرِّكِينَ بِجِلْدِ مُصْحَفِهِ وَوَرَقِهِ وَبِالتَّغَنِّي بِهِ فِي الْمَآتِمِ وَغَيْرِهَا ، الْجَاهِلِينَ بِمَا أُنْزِلَ لِبَيَانِهِ مِنْ تَوْحِيدِ اللهِ تَعَالَى وَشُئُونِ رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ ، وَمِنْ حَقِيقَةِ الرِّسَالَةِ وَوَظِيفَةِ الرُّسُلِ ، وَمِنْ مَعْنَى الْجَزَاءِ عَلَى الْعَقَائِدِ وَالْأَعْمَالِ . دَعْ مَا دُونَ هَذِهِ الْأُصُولِ الثَّلَاثَةِ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ ، إِذْ

(70/234)

---

نَرَى بَعْضَ هَؤُلَاءِ الْمَعْدُودِينَ فِي عُرْفِهِمْ وَعُرْفِ النَّاسِ مِنْ أَتْبَاعِ الْقُرْآنِ يَدَّعُونَ التَّصَرُّفَ فِي خَزَائِنِ اللهِ وَعِلْمِ الْغَيْبِ لِمَنْ دُونَ الرُّسُلِ كَمَا قُلْنَا آنِفًا .

وَمِنْ مَبَاحِثِ الْبَلَاغَةِ فِي قَوْلِهِ : (وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ) أَنَّهُ أَعَادَ فِيهِ " لَا أَقُولُ لَكُمْ " وَلَمْ يَعِدْهَا فِي نَفْيِ عِلْمِ الْغَيْبِ ، وَنُكْتَةُ ذَلِكَ أَنَّ نَفْيَ عِلْمِ الْغَيْبِ وَنَفْيَ التَّصَرُّفِ فِي خَزَائِنِ اللهِ

يُؤَلِّفَانِ

التَّبَرُّؤَ مِنْ دَعْوَى وَاحِدَةٍ ، هِيَ دَعْوَى الصِّفَاتِ الْخَاصَّةِ بِاللهِ تَعَالَى ، وَأَمَّا نَفْيُ ادِّعَاءِ الْمَلَكِيَّةِ فَهُوَ شَيْءٌ آخَرُ ، فَأُعِيدَ الْعَامِلُ لِإِفَادَةِ ذَلِكَ ، كَأَنَّهُ قَالَ : إِنَّنِي لَا أَدَّعِي صِفَاتَ الْإِلَهِ حَتَّى تَطْلُبُوا مِنِّي مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ أَوْ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ ، وَلَا أَدَّعِي أَنِّي مَلَكٌ - وَهُوَ دُونُ مَا قَبْلَهُ - حَتَّى تَطْلُبُوا مِنِّي مَا جَعَلَهُ اللهُ فِي قُدْرَةِ الْمَلَائِكَةِ وَلَمْ يَجْعَلْهُ مِنْ مَقْدُورِ الْبَشَرِ ، بَلِ ادَّعَيْتُ

أَنِّي عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ ، وَإِنَّمَا وَظِيفَةُ الْعَبْدِ الطَّاعَةُ ، وَوَظِيفَةُ الرَّسُولِ التَّبْلِيغُ ، وَعَبَّرَ عَنْ هَذَا بِقَوْلِهِ : (إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ) أَيْ : مَا أَفْعَلُ مِنْ حَيْثُ أَنَّا عَبْدٌ رَسُولٌ إِلَّا اتِّبَاعَ مَا يُوحِيهِ إِلَى مَنْ أَرْسَلَنِي مِنْ تَبْلِيغِ دِينِهِ بِالتَّبْشِيرِ وَالْإِنْذَارِ وَالْعَمَلِ بِهِ كَمَا بَيَّنْتُ لَكُمْ آنِفًا - أَيْ فِي الْآيَتَيْنِ اللَّتَيْنِ قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ .

*(71/234)*

---

ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ) أَيْ قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ : هَلْ يَسْتَوِي أَعْمَى الْبَصِيرَةِ الضَّالُّ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ فَلَا يُمَيِّزُ بَيْنَ التَّوْحِيدِ وَالشِّرْكِ ، وَلَا بَيْنَ صِفَاتِ اللهِ وَصِفَاتِ الْخَلْقِ ، الْمُقَلِّدُ فِي ضَلَالِهِ

وَجَهَالَاتِهِ لِمَنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ وَلَا عَقْلَ مِنْ آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ ، وَذُو الْبَصِيرَةِ الْمُهْتَدِي إِلَيْهِ ، الْمُسْتَقِيمُ فِي سَيْرِهِ عَلَيْهِ ، عَلَى بَيِّنَةٍ وَبُرْهَانٍ ، يَجْعَلُ مَا يَرَى الْقَلْبُ أَوْضَحَ مِمَّا تَرَى الْعَيْنَانِ ؟ الِاسْتِفْهَامُ إِنْكَارِيٌّ ، أَيْ : لَا يَسْتَوِيَانِ كَمَا أَنَّ أَعْمَى الْعَيْنَيْنِ وَبَصِيرِهِمَا لَا يَسْتَوِيَانِ ، بَلِ الْفَرْقُ بَيْنَ الْأَوَّلَيْنِ أَقْوَى وَأَظْهَرُ ، فَكَأَيِّنْ مِنْ أَعْمَى الْعَيْنَيْنِ بَصِيرُ الْقَلْبِ كَانَ مِنْ أَعْلَمِ الْعُلَمَاءِ وَأَهْدَى الْفُضَلَاءِ ، وَكَأَيِّنْ مِنْ بَصِيرِ الْعَيْنَيْنِ أَعْمَى الْقَلْبِ هُوَ أَضَلُّ مِنَ الْأَنْعَامِ ; وَلِذَلِكَ قَالَ مُقَرِّعًا لَهُمْ : (أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ) أَيْ فِي ذَلِكَ ، فَتُمَيِّزُوا بَيْنَ ضَلَالَةِ الشِّرْكِ وَهِدَايَةِ الْإِسْلَامِ ، وَتُفَرِّقُوا بَيْنَ صِفَاتِ الرَّبِّ الْإِلَهِ وَصِفَاتِ الْإِنْسَانِ ، وَتَعْقِلُوا حُجَّةَ الرِّسَالَةِ مِمَّا فِي هَذِهِ الْأَرْضِ مِنْ أَنْوَاعِ الْهِدَايَةِ وَالْعِرْفَانِ ، وَأَخْبَارِ الْغَيْبِ الَّتِي لَمْ يُؤْتَهَا إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ، عَلَى مَا فِيهِ مِنْ بَلَاغَةِ الْبَيَانِ ، وَالْأُسْلُوبِ الْبَدِيعِ الَّذِي لَمْ يَعْهَدُوهُ قَبْلَ الْآنِ . فَمَتَى كَانَ فِي قُدْرَةِ مِثْلِي شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ

(72/234)

---

، وَلَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ يَزِيدُ عَلَى الْأَرْبَعِينَ سَنَةً ، عَاطِلًا مِنْ هَذِهِ الْبَلَاغَةِ وَهَذِهِ الْمَعْرِفَةِ . ! .

هَذِهِ الْآيَةُ حُجَّةٌ مِنْ حُجَجِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُسْتَقِلِّينَ فِي هِدَايَةِ الدِّينِ ، عَلَى الْمُقَلِّدِينَ فِيهِ لِآبَائِهِمْ

وَمَشَايِخِهِمُ الْجَاهِلِينَ .

وَمِنْ مَبَاحِثِ اسْتِنْبَاطِ الْمَذَاهِبِ فِي الْآيَةِ أَنَّ الْمُعْتَزِلَةَ اسْتَدَلَّتْ بِهَا عَلَى تَفْضِيلِ الْمَلَائِكَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ ، وَنَاقَشَهُمْ جُمْهُورُ الْأَشَاعِرَةِ فِي ذَلِكَ لِمُخَالَفَتِهِ لِمَذْهَبِهِمْ ، وَقَدْ قَرَّرَ الطُّوفِيُّ الْمَسْأَلَةَ فِي تَفْسِيرِهِ " الْإِشَارَاتُ الْإِلَهِيَّةُ ، إلَى الْمَبَاحِثِ الْأُصُولِيَّةِ " عِنْدَ قَوْلِهِ : (وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إنِّي مَلَكٌ) بِقَوْلِهِ : يَحْتَجُّ بِهِ مَنْ يَرَى الْمَلَائِكَةَ أَفْضَلَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَقَدْ سَبَقَ ذَلِكَ ، وَتَقْرِيرُهُ هَاهُنَا أَنَّ الْكُفَّارَ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْمَلَكَ أَفْضَلُ

مِنَ النَّبِيِّ ; وَلِذَلِكَ طَلَبُوا رُؤْيَةَ الْمَلَائِكَةِ وَأَنْ يُرْسَلَ إلَيْهِمْ مَلَكٌ ، ثُمَّ إنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَقَرَّهُمْ عَلَى هَذَا الِاعْتِقَادِ وَقَالَ :

(73/234)

---

أَنَا لَا أَدَّعِي أَنِّي مَلَكٌ كَمَا يَعْتَقِدُونَ فِي الْمَلَكِ ، بَلْ أَنَا بَشَرٌ أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إلَيَّ ، وَحِينَئِذٍ يُقَالُ : النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَقَرَّهُمْ عَلَى اعْتِقَادِ تَفْضِيلِ الْمَلَكِ ، وَكُلُّ مَا أَقَرَّ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَيْهِ فَهُوَ حَقٌّ ، وَلِلْخَصْمِ مَنْعُ الْأُولَى . انْتَهَى كَلَامُ الطُّوفِيِّ ، وَمُرَادُهُ بِمَنْعِ الْأُولَى مَنْعُ الْمُقَدِّمَةِ الْأُولَى مِنَ الْقِيَاسِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا الصُّغْرَى ، وَهِيَ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَقَرَّهُمْ عَلَى التَّفْضِيلِ .

وَقَرَّرَ الزَّمَخْشَرِيُّ ذَلِكَ فِي ضِمْنِ تَفْسِيرِ الْآيَةِ ، فَقَالَ : أَيْ لَا أَدَّعِي مَا يُسْتَبْعَدُ فِي الْعُقُولِ أَنْ يَكُونَ لِبَشَرٍ مِنْ مُلْكِ خَزَائِنِ اللَّهِ - وَهِيَ قَسْمُهُ بَيْنَ الْخَلْقِ أَرْزَاقَهُ وَعِلْمَ الْغَيْبِ - وَأَنِّي مِنَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ أَشْرَفُ جِنْسٍ خَلَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَأَفْضَلُهُ وَأَقْرَبُهُ مَنْزِلَةً مِنْهُ ، أَيْ لَمْ أَدَّعِ إِلَهِيَّةً وَلَا مَلَكِيَّةً ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ الْإِلَهِيَّةِ مَنْزِلَةٌ أَرْفَعَ مِنْ مَنْزِلَةِ الْمَلَائِكَةِ حَتَّى تَسْتَبْعِدُوا دَعْوَايَ وَتَسْتَنْكِرُوهَا ، وَإِنَّمَا أَدَّعِي مَا كَانَ مِثْلُهُ لِكَثِيرٍ مِنَ الْبَشَرِ وَهُوَ النُّبُوَّةُ . اهـ .

*(74/234)*

---

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ الْمُنِيرِ فِي تَعَقُّبِهِ لَهُ : وَهُوَ يَنْبَنِي عَلَى الْقَاعِدَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ فِي تَفْضِيلِ الْمَلَائِكَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ ، وَلَعَمْرِي إِنَّ ظَاهِرَ هَذِهِ الْآيَةِ يُؤَيِّدُهُ ، فَلِذَلِكَ انْتَهَزَ الْفُرْصَةَ فِي الِاسْتِدْلَالِ بِهَا ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ لِمُخَالِفِهِ أَنْ يَجْعَلَهَا رَدًّا عَلَى إِنْكَارِهِمُ الشُّئُونَ الْبَشَرِيَّةَ عَلَى الرَّسُولِ كَأَكْلِ الطَّعَامِ وَالْمَشْيِ فِي الْأَسْوَاقِ ، بِأَنْ يُقَالَ : إِنَّهُ لَمْ يَدَّعِ الْمَلَكِيَّةَ حَتَّى يُسْتَنْكَرَ مِنْهُ ذَلِكَ ، وَهَذِهِ التَّفْرِقَةُ بَيْنَ الرَّسُولِ وَالْمَلَكِ لَا تَسْتَلْزِمُ تَفْضِيلًا ، وَقَدْ أَرَادَ ابْنُ الْمُنِيرِ بِالْقَاعِدَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ لَهُ مَا ذَكَرَهُ فِي تَفْسِيرِ : (لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ) (4 : 172) وَقَدْ ذَكَرْنَا مُلَخَّصَ مَا قَرَّرَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ فِيهَا وَمَا رَدَّ بِهِ عَلَيْهِ ابْنُ الْمُنِيرِ فِي تَفْسِيرِهَا ، وَهِيَ فِي أَوَاخِرِ " سُورَةِ النِّسَاءِ " مِنْ أَوَائِلِ الْجُزْءِ السَّادِسِ .

وَقَالَ الرَّازِيُّ فِي ذَلِكَ : قَالَ الْجُبَّائِيُّ : الْآيَةُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ الْمَلَكَ أَفْضَلُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ؛ لِأَنَّ مَعْنَى الْكَلَامِ لَا أَدَّعِي مَنْزِلَةً فَوْقَ مَنْزِلَتِي ، وَلَوْلَا أَنَّ الْمَلَكَ أَفْضَلُ لَمْ يَتِمَّ ذَلِكَ . قَالَ الْقَاضِي : إنْ كَانَ الْغَرَضُ بِمَا نُفِيَ طَرِيقَةَ التَّوَاضُعِ فَالْأَقْرَبُ أَنْ يَدُلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْمَلَكَ أَفْضَلُ ، وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ نَفْيَ قُدْرَتِهِ عَنْ أَفْعَالٍ لَا يَقْوَى عَلَيْهَا إلَّا الْمَلَائِكَةُ لَمْ يَدُلَّ عَلَى كَوْنِهِمْ أَفْضَلَ . اهـ .

*(75/234)*

---

وَاخْتَارَ أَبُو السُّعُودِ وَتَبِعَهُ الْأَلُوسِيُّ مَا ذَهَبَ إلَيْهِ ابْنُ الْمُنِيرِ مِنْ كَوْنِ نَفْيِ دَعْوَى الْمَلَكِيَّةِ لِلرَّدِّ عَلَى اسْتِنْكَارِهِمْ أَكْلَ الطَّعَامِ وَالْمَشْيَ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَتَكْلِيفِهِمْ إيَّاهُ نَحْوَ الرُّقِيِّ فِي السَّمَاءِ وَكَوْنِ هَذَا لَا يَقْتَضِي التَّفْضِيلَ فِيمَا هُوَ مَحَلُّ النِّزَاعِ . قَالَ الْأَلُوسِيُّ : وَهَذَا الْجَوَابُ أَظْهَرُ مِمَّا نُقِلَ عَنِ الْقَاضِي زَكَرِيَّا مِنْ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ مِنْهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنْ بَابِ التَّوَاضُعِ وَإِظْهَارِ الْعُبُودِيَّةِ نَظِيرَ قَوْلِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى ابْنِ مَتَّى " فِي رَأْيٍ ، بَلْ هُوَ لَيْسَ بِشَيْءٍ كَمَا لَا يَخْفَى . وَقِيلَ : إنَّ الْأَفْضَلِيَّةَ مَبْنِيَّةٌ عَلَى زَعْمِ الْمُخَاطَبِينَ ، وَهُوَ مِنْ ضِيقِ الْعَطَنِ . اهـ .

وَمَا نَقَلَهُ الْأَلُوسِيُّ عَنِ الْقَاضِي زَكَرِيَّا لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ مَا نَقَلَهُ الرَّازِيُّ عَنِ الْقَاضِي .

وَإِذَا أُطْلِقَ الْقَاضِي عِنْدَ مُتَكَلِّمِي الْأَشَاعِرَةِ كَالرَّازِيِّ يَنْصَرِفُ إلَى أَبِي بَكْرٍ الْبَاقِلَّانِيِّ ،

وَالْقَاضِي زَكَرِيَّا عِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ . كَالْأُلُوسِيِّ هُوَ زَكَرِيَّا الْأَنْصَارِيِّ ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الْقَاضِيَ الَّذِي ذَكَرَهُ الرَّازِيُّ جَعَلَ إِرَادَةَ التَّوَاضُعِ بِنَفْيِ الْمَلَكِيَّةِ مُقْتَضِيًا تَفْضِيلَ الْمَلَكِ عَلَى الرَّسُولِ ، وَمَا نَقَلَهُ الْأُلُوسِيُّ عَنِ الْقَاضِي زَكَرِيَّا ضِدُّهُ .

(76/234)

---

وَقَدْ ذَكَرُوا فِي الْمَقَامِ الْفَرْقَ بَيْنَ الِانْتِقَالِ هُنَا مِنْ نَفْيِ دَعْوَى الْإِلَهِيَّةِ إِلَى نَفْيِ دَعْوَى الْمَلَكِيَّةِ ، وَالِانْتِقَالِ فِي آيَةِ " سُورَةِ النِّسَاءِ " مِنْ عَدَمِ اسْتِنْكَافِ الْمَسِيحِ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ إِلَى نَفْيِ اسْتِنْكَافِ الْمَلَائِكَةِ عَنْهَا عَلَى طَرِيقَةِ التَّرَقِّي ، وَقَدْ بَيَّنَ الْمُحَقِّقُونَ أَنَّ كُلًّا مِنَ الِانْتِقَالَيْنِ وَقَعَ فِي مَوْقِعِهِ الَّذِي اقْتَضَتْهُ الْبَلَاغَةُ ؛ فَإِنَّ مَقَامَ الِاسْتِنْكَافِ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الْمُتَأَخِّرُ فِيهِ هُوَ الْأَعْلَى ؛ لِئَلَّا يَكُونَ ذِكْرُهُ لَغْوًا ، وَمُقَامُ نَفْيِ الِادِّعَاءِ يَقْتَضِي الْعَكْسَ لَا مَنْ لَا يَتَجَزَّأُ عَلَى دَعْوَى الْإِلَهِيَّةِ قَدْ يَتَجَزَّأُ عَلَى مَا دُونَهَا وَلَا عَكْسَ ، أَيْ أَنَّ مَنْ لَا يَتَسَامَى إِلَى دَعْوَى الْمَلَكِيَّةِ لَا يَتَسَامَى إِلَى مَا فَوْقَهَا مِنْ دَعْوَى الْإِلَهِيَّةِ بِالْأَوْلَى . هَذَا صَفْوَةُ مَا قَالُوا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ .

(77/234)

---

وَالْحَقُّ أَنَّ ظَوَاهِرَ الْقُرْآنِ الْوَارِدَةَ فِي الْمَلَائِكَةِ وَالرُّسُلِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ أَفْضَلُ مِنَ الْبَشَرِ ، وَلَعَلَّهُ لَوْلَا ذَلِكَ لَمَا قَالَ تَعَالَى فِي بَنِي آدَمَ : (وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) (17 : 70) بَلْ لَقَالَ عَلَى جَمِيعِ مَنْ خَلَقْنَا ، وَمُقْتَضَى ذَلِكَ أَنَّ خَوَاصَّ الْمَلَائِكَةِ - كَالْمُقَرَّبِينَ - أَفْضَلُ مِنْ خَوَاصِّ الْبَشَرِ كَالرُّسُلِ ، وَلَا يَتَحَتَّمُ أَنْ يَقْتَضِيَ كَوْنَ عَوَامِّ الْمَلَائِكَةِ أَفْضَلَ مِنْ خَوَاصِّ الْبَشَرِ كَالرُّسُلِ ، وَقَدْ يُنَافِيهِ كَوْنُ بَعْضِ الْمَلَائِكَةِ مُسَخَّرِينَ لِمَصَالِحِ الْبَشَرِ ، وَلَكِنْ لَيْسَ فِي الْمَسْأَلَةِ نَصٌّ قَاطِعٌ فِي الْمَعْنَى الَّذِي جَعَلُوهُ مَحَلَّ الْخِلَافِ كَمَا قُلْنَا فِي تَفْسِيرِ آيَةِ النِّسَاءِ الْمُشَارِ

*(78/234)*

---

إِلَيْهَا هُنَا . وَإِنَّ النَّفْيَ هُنَا وَارِدٌ فِي بَيَانِ تَحْقِيقِ مَعْنَى الرِّسَالَةِ وَوَظِيفَةِ الرَّسُولِ وَكَوْنِهَا لَا تَسْتَلْزِمُ أَنْ يَقْدِرَ عَلَى مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ ، أَوْ أَنْ يَعْلَمَ بِكَسْبِهِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَا تَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ؛ يَقْدِرُ عَلَى مَا يَقْدِرُونَ ، وَيَعْلَمُ مَا يَعْلَمُونَ . وَالْأَشَاعِرَةُ لَا يُنْكِرُونَ تَفْضِيلَ الْمَلَائِكَةِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ ، وَإِنَّمَا يُفَضِّلُونَ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمْ بِكَثْرَةِ الثَّوَابِ فِي الْآخِرَةِ لِمَا احْتَمَلُوهُ مِنَ الْمَشَقَّةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالْأَوْلَى أَنْ يُفَوَّضَ هَذَا الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَا يُجْعَلَ مَحَلَّ الْقِيلِ وَالْقَالِ ؛ إِذْ لَا فَائِدَةَ لَنَا فِي ذَلِكَ ، وَلَا عِلْمَ لَنَا بِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَى أَعْمَالِ

الْمَلَائِكَةِ مِنَ الْجَزَاءِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى .

وَاسْتَنْبَطُوا مِنَ الْآيَةِ أَيْضًا أَصْلَيْنِ مِنْ أُصُولِ الْفِقْهِ وَقَوَاعِدِ الشَّرْعِ ، قَالَ الرَّازِيُّ فِي بَيَانِهِمَا : قَوْلُهُ : (إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ) ظَاهِرُهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَعْمَلُ إِلَّا بِالْوَحْيِ ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى حُكْمَيْنِ :

(الْحُكْمُ الْأَوَّلُ) : أَنَّ هَذَا النَّصَّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمْ يَكُنْ يَحْكُمُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَحْكَامِ ، وَأَنَّهُ مَا كَانَ يَجْتَهِدُ ، بَلْ جَمِيعُ أَحْكَامِهِ صَادِرَةٌ عَنِ الْوَحْيِ ، وَيَتَأَكَّدُ هَذَا بِقَوْلِهِ : (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) (53 : 3 ، 4)

.

(79/234)

---

(الْحُكْمُ الثَّانِي) : أَنَّ نُفَاةَ الْقِيَاسِ قَالُوا : ثَبَتَ بِهَذَا النَّصِّ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا كَانَ يَعْمَلُ إِلَّا بِالْوَحْيِ النَّازِلِ عَلَيْهِ ، فَوَجَبَ أَلَّا يَجُوزَ لِأَحَدٍ مِنْ أُمَّتِهِ أَنْ يَعْمَلُوا إِلَّا بِالْوَحْيِ النَّازِلِ عَلَيْهِ ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : (فَاتَّبِعُوهُ) (6 : 153 - 155) وَذَلِكَ يَنْفِي جَوَازَ الْعَمَلِ بِالْقِيَاسِ ، ثُمَّ أَكَّدَ هَذَا الْكَلَامَ بِقَوْلِهِ : (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ) وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعَمَلَ بِغَيْرِ الْوَحْيِ يَجْرِي مَجْرَى عَمَلِ الْأَعْمَى ، وَالْعَمَلَ بِالْوَحْيِ يَجْرِي مَجْرَى عَمَلِ الْبَصِيرِ ، ثُمَّ قَالَ : (أَفَلَا

تَتَفَكَّرُونَ) وَالْمُرَادُ مِنْهُ التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَعْرِفَ الْفَرْقَ بَيْنَ هَذَيْنِ الْبَابَيْنِ ، وَأَلَّا يَكُونَ غَافِلًا عَنْ مَعْرِفَتِهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . انْتَهَى كَلَامُهُ .

أَقَرَّ الرَّازِيُّ هُنَا هَاتَيْنِ الْمَسْأَلَتَيْنِ وَأَيَّدَهُمَا أَشَدَّ التَّأْيِيدِ ، وَلَمْ يُحَامِ عَنِ الْقِيَاسِ وَهُوَ الرُّكْنُ الَّذِي بَنَى عَلَيْهِ جُلَّ فِقْهِ أَصْحَابِهِ الشَّافِعِيَّةِ وَالْجُمْهُورِ ، حَتَّى كَأَنَّهُ مِنْ غُلَاةِ الظَّاهِرِيَّةِ ، وَقَدْ حَرَّرْنَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنَ التَّفْسِيرِ (السَّابِعِ) عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ) (5 : 101) بَعْدَ كَلَامٍ فِي ذَلِكَ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ عِنْدَ تَفْسِيرِ (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) (5 : 3) وَنَقُولُ هُنَا

*(80/234)*

---

رَدًّا عَلَى الْمَسْأَلَتَيْنِ : إِنَّ الْآيَةَ لَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمْ يَكُنْ يَجْتَهِدُ فِي الْأَحْكَامِ ، وَأَنَّ جَمِيعَ أَحْكَامِهِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ بِالنَّصِّ ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ ، نَزَلَتْ فِي أَوَائِلِ الْإِسْلَامِ حَيْثُ لَا حُكُومَةَ لِلْإِسْلَامِ وَلَا أَحْكَامَ ، وَحَيْثُ الدَّعْوَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ قَاصِرَةٌ عَلَى أُصُولِ الدِّينِ وَكُلِّيَّاتِهِ وَهِيَ التَّوْحِيدُ وَالرِّسَالَةُ وَالْبَعْثُ وَالْجَزَاءُ ، وَالتَّرْغِيبُ فِي الْفَضَائِلِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَالتَّنْفِيرُ عَنِ الرَّذَائِلِ وَعَمَلِ السُّوءِ ، وَلَا حَاجَةَ إِلَى الِاجْتِهَادِ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ . وَيَقُولُ مُثْبِتُوا الِاجْتِهَادِ لَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَذِنَ لَهُ بِهِ عِنْدَ

الْحَاجَةِ إِلَيْهِ ، وَاسْتَدَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ) (4 : 105) أَيْ بِمَا أَرَاكَهُ فِيهِ نَصًّا أَوْ دَلَالَةً وَاجْتِهَادًا ، وَبَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِهَا أَنَّ الْمَانِعِينَ يَسْتَدِلُّونَ بِهَا أَيْضًا ، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ نَصًّا فِي الْمَنْعِ وَلَا الْإِثْبَاتِ [رَاجِعْ ص 322 ج 5 ط الْهَيْئَةِ] وَبَيَّنَّاهُ هُنَالِكَ أَنَّ آيَةَ النَّجْمِ خَاصَّةٌ بِالْقُرْآنِ ، إِذْ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ : إِنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمْ يَنْطِقْ إِلَّا بِالْوَحْيِ ، بَلْ ثَبَتَ أَنَّ الْوَحْيَ كَانَ يَنْقَطِعُ عَنْهُ أَيَّامًا كَثِيرَةً ، وَقَدْ حَكَمَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي أَسْرَى بَدْرٍ بِاجْتِهَادِهِ ، وَعَاتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى

*(81/234)*

---

عَلَى ذَلِكَ وَلَمْ يُقِرَّهُ عَلَيْهِ . وَالْقَائِلُونَ بِالْمَنْعِ لَا يَحْصُرُونَ الْوَحْيَ فِي الْقُرْآنِ . وَإِذَا كَانَ حُكْمُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالِاجْتِهَادِ فِيمَا لَا نَصَّ فِيهِ مِنَ الْوَحْيِ مَبْنِيًّا عَلَى إِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ بِالِاجْتِهَادِ - يَكُونُ مُتَّبَعًا فِيهِ لِمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ .

وَكَذَلِكَ يُقَالُ فِي الْقِيَاسِ : إِذَا ثَبَتَ الْإِذْنُ بِهِ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَكُونُ الْحُكْمُ بِهِ اتِّبَاعًا لِلْوَحْيِ ، وَثُبُوتُهُ فِي السُّنَّةِ يَرْجِعُ إِلَى الْقُرْآنِ ، إِذْ أَمَرَ بِاتِّبَاعِ الرَّسُولِ ، وَشَهِدَ لَهُ بِأَنَّهُ لَا يَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيْهِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ الْقِيَاسَ الْمَنْصُوصَ

عَلَى عِلَّتِهِ فِي الْكِتَابِ أَوِ السُّنَّةِ وَمَا قُطِعَ فِيهِ بِنَفْيِ الْفَارِقِ هُوَ الْقِيَاسُ الصَّحِيحُ الَّذِي لَا وَجْهَ لِلْخِلَافِ فِيهِ - وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ لَا يُسَمِّيهِ قِيَاسًا - وَأَنَّ قِيَاسَ الشَّبَهِ وَنَحْوَهُ مِنَ الْأَقْيِسَةِ الْبَعِيدَةِ عَنِ النُّصُوصِ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ وَلَا حُجَّةَ فِيهِ ، وَرَاجِعْ تَفْصِيلَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الْأُولَى وَالْآيَةِ الثَّانِيَةِ بَعْدَ الْمِائَةِ مِنْ " سُورَةِ الْمَائِدَةِ " .

*(82/234)*

---

(وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ بِهَذَا الْإِنْذَارِ الْخَاصِّ بَعْدَ أَمْرِهِ بِتَبْلِيغِ النَّاسِ حَقِيقَةَ رِسَالَتِهِ ، وَكَوْنِهَا لَا تَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِنَ التَّصَرُّفِ وَالْعِلْمِ مَا لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى ، وَلَا أَنْ يَكُونَ مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، وَالْمُنَاسَبَةُ بَيْنَهَا أَنَّ الْمَوْصُوفِينَ بِمَا ذُكِرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ

*(83/234)*

---

أَجْدَرُ مِنْ غَيْرِهِمْ بِفَهْمِ حَقِيقَةِ الرِّسَالَةِ وَالِانْتِفَاعِ بِنَذْرِ الرَّسُولِ ، فَهِيَ كَقَوْلِهِ : (إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ) (35 : 18)

وَقَوْلُهُ : (إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ) (36 : 11) أَيْ : وَأَنْذِرْ بِمَا يُوحَى إِلَيْكَ جَمَاعَةَ الْمُؤْمِنِينَ بِكَ ، الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ ، أَيْ : يَخَافُونَ شِدَّةَ وَطْأَةِ الْحَشْرِ وَالْقُدُومِ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَمَا فِيهِ مِنْ شِدَّةِ الْحِسَابِ وَمَا يَتْبَعُهُ مِنَ الْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ فِي يَوْمٍ (لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ) (2 : 254) (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) (82 : 19) وَكُلٌّ يَأْتِيهِ فِيهِ فَرْدًا لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ يَنْصُرُهُ ، وَلَا شَفِيعٌ يَدْفَعُ عَنْهُ ، إِذْ أَمْرُ النَّجَاةِ مُتَوَقِّفٌ عَلَى مَرْضَاتِهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ يُرْجَى أَنْ يَتَّقُوا اللهَ تَعَالَى اهْتِدَاءً بِإِنْذَارِكَ ، وَيَتَحَرَّوْا مَا يُؤَدِّي إِلَى مَرْضَاتِهِ ، لَا يَصُدُّهُمْ عَنْ تَقْوَاهُ الِاتِّكَالُ عَلَى الْأَوْلِيَاءِ ، وَلَا الِاعْتِمَادُ عَلَى الشُّفَعَاءِ ؛ لِصِحَّةِ تَوْحِيدِهِمْ ، وَعِلْمِهِمْ أَنَّ الشَّفَاعَةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ) (1 : 3) (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) (21 : 28) وَأَنَّ نَجَاتَهُمْ وَسَعَادَتَهُمْ إِنَّمَا تَكُونُ بِإِيمَانِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ وَتَزْكِيَتِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ لَا

*(84/234)*

---

بِانْتِفَاعِهِمْ بِصَلَاحِ غَيْرِهِمْ ، أَوِ اعْتِمَادِهِمْ عَلَى شَفَاعَةِ الشُّفَعَاءِ لَهُمْ ، كَالْمُشْرِكِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ جَهِلُوا أَنَّ مَدَارَ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ عَلَى تَزَكِّي النَّفْسِ وَطَهَارَتِهَا

بِالْإِيمَانِ الصَّحِيحِ وَالْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ ، وَمَا يَلْزَمُ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا رِضَاءُ اللهِ عَنْهَا لَا عَلَى أَمْرٍ خَارِجٍ عَنِ النَّفْسِ لَا تَأْثِيرَ لَهُ فِيهَا .

هَذَا مَا يَتَبَادَرُ إِلَى الْفَهْمِ مِنْ مَعْنَى الْآيَةِ مُؤَيَّدًا بِآيَاتٍ كَثِيرَةٍ أُخْرَى ، بَلْ بِجُمْلَةِ الدِّينِ وَكُلِّيَّاتِهِ الَّتِي أَشَرْنَا إِلَيْهَا آنِفًا ، وَبِنَحْوِهِ فَسَّرَهَا الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ الْمَأْثُورِ ، وَهَاكَ نَصُّ عِبَارَتِهِ : أَيْ : وَأَنْذِرْ بِالْقُرْآنِ يَا مُحَمَّدُ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ، الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ، (الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ) أَيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، (لَيْسَ لَهُمْ) أَيْ يَوْمَئِذٍ (مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ) أَيْ لَا قَرِيبَ لَهُمْ وَلَا شَفِيعَ فِيهِمْ مِنْ عَذَابِهِ إِنْ أَرَادَهُ بِهِمْ ، (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) أَيْ

أَنْذِرْ هَذَا الْيَوْمَ الَّذِي لَا حَاكِمَ فِيهِ إِلَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ، لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ فَيَعْمَلُونَ فِي هَذِهِ الدَّارِ عَمَلًا يُنْجِيهِمُ اللهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَذَابِهِ ، وَيُضَاعِفُ لَهُمْ بِهِ الْجَزِيلَ مِنْ ثَوَابِهِ . اهـ .

فَالْآيَةُ قَدْ نَزَلَتْ فِي إِنْذَارِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَخَافُونَ اللهَ وَيَرْجُونَهُ ، وَقَدْ رَوَى

*(85/234)*

---

أَحْمَدُ ، وَابْنُ جَرِيرٍ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، وَالطَّبَرَانِيُّ ، وَأَبُو الشَّيْخِ ، وَغَيْرُهُمْ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهَا نَزَلَتْ هِيَ وَمَا بَعْدَهَا فِي صُهَيْبٍ وَعَمَّارٍ وَبِلَالٍ وَخَبَّابٍ وَنَحْوِهِمْ مِنْ ضُعَفَاءِ

الْمُسْلِمِينَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ ، وَسَيَأْتِي بَيَانُ ذَلِكَ . وَلَمَّا كَانَتْ نَافِيَةً لِلشَّفَاعَةِ عَنْهُمْ لَجَأَ بَعْضُ مُفَسِّرِي الْخَلَفِ إلَى تَأْوِيلِهَا ، ، وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ أَنَّهَا لَا تَحْتَاجُ إلَى تَأْوِيلٍ " لِأَنَّ شَفَاعَةَ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّسُلِ لِلْمُؤْمِنِينَ إنَّمَا تَكُونُ بِإِذْنِ اللَّهِ ؛ لِقَوْلِهِ : (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلَّا بِإِذْنِهِ) (2 : 255) فَلَمَّا كَانَتْ تِلْكَ الشَّفَاعَةُ بِإِذْنِ اللَّهِ كَانَتْ فِي الْحَقِيقَةِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى " قَالَهُ الرَّازِيُّ فِي وَجْهِ نُزُولِ الْآيَةِ فِي الْمُؤْمِنِينَ ، وَذَكَرَ فِيهَا وَجْهَيْنِ آخَرَيْنِ أَحَدُهُمَا : أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْكُفَّارِ . وَثَانِيهِمَا : أَنَّهَا عَامَّةٌ . وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْكُفَّارِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ فَالْمُرَادُ بِهِ مُشْرِكُو مَكَّةَ وَمَا حَوْلَهَا ، وَإِنَّمَا يَدْخُلُ فِيهِ غَيْرُهُمْ بِدَلَائِلِ الْعُمُومِ ، وَكَانَ أُولَئِكَ الْمُشْرِكُونَ يُنْكِرُونَ الْحَشْرَ وَيُثْبِتُونَ الشَّفَاعَةَ عِنْدَ اللَّهِ لِآلِهَتِهِمْ وَأَوْلِيَائِهِمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا لَهُمُ التَّمَاثِيلَ وَالْأَصْنَامَ ، كَإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، إلَّا مَنْ شَذَّ مِنْهُمْ فَقَالَ بِالْبَعْثِ ، وَلَا أَذْكُرُ الْآنَ أَنَّهُ كَانَ فِي مَكَّةَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عِنْدَ نُزُولِ السُّورَةِ ، وَلَا يَعْقِلُ أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ نَزَلَتْ

*(86/234)*

---

فِي إنْذَارِ هَذَا الشَّاذِّ النَّادِرِ .

وَلَكِنَّ أَبَا السُّعُودِ تَنَطَّعَ فِي التَّأْوِيلِ فَذَهَبَ إلَى أَنَّ الْإِنْذَارَ هُنَا مُوَجَّهٌ " إلَى مَنْ يُتَوَقَّعُ مِنْهُمْ

التَّأَثُّرُ فِي الْجُمْلَةِ وَهُمُ الْمُجَوِّزُونَ مِنْهُمْ لِلْحَشْرِ عَلَى الْوَجْهِ الْآتِي سَوَاءٌ كَانُوا جَازِمِينَ بِأَصْلِهِ كَأَهْلِ الْكِتَابِ وَبَعْضِ الْمُشْرِكِينَ الْمُعْتَرِفِينَ بِالْبَعْثِ الْمُتَرَدِّدِينَ فِي شَفَاعَةِ آبَائِهِمُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَالْأَوَّلِينَ ، أَوْ فِي شَفَاعَةِ الْأَصْنَامِ كَالْآخَرِينَ ، أَوْ مُتَرَدِّدِينَ فِيهِمَا مَعًا كَبَعْضِ الْكَفَرَةِ الَّذِينَ يُعْلَمُ مِنْ حَالِهِمْ أَنَّهُمْ إِذَا سَمِعُوا بِحَدِيثِ الْبَعْثِ يَخَافُونَ أَنْ يَكُونَ حَقًّا ، وَأَمَّا الْمُنْكِرُونَ لِلْحَشْرِ رَأْسًا ، وَالْقَائِلُونَ بِهِ الْقَاطِعُونَ بِشَفَاعَةِ آبَائِهِمْ أَوْ بِشَفَاعَةِ الْأَصْنَامِ ، فَهُمْ خَارِجُونَ مِمَّنْ أُمِرَ بِإِنْذَارِهِمْ ، وَقَدْ قِيلَ : هُمُ الْمُفَرِّطُونَ فِي الْأَعْمَالِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا يُسَاعِدُهُ سِيَاقُ النَّظْمِ الْكَرِيمِ وَلَا سِيَاقُهُ ، بَلْ فِيهِ مَا يَقْضِي بِاسْتِحَالَةِ صِحَّتِهِ ، كَمَا سَتَقِفُ عَلَيْهِ " - هَذِهِ عِبَارَتُهُ - وَقَدْ جَعَلَ جُمْلَةَ (لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ) حَالًا مِنْ ضَمِيرِ (يُحْشَرُوا) قَالَ : " وَالْمَعْنَى : أَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا غَيْرَ مَنْصُورِينَ مِنْ جِهَةِ أَنْصَارِهِمْ عَلَى زَعْمِهِمْ ، وَمِنْ هَذَا اتَّضَحَ أَنْ لَا سَبِيلَ إِلَى كَوْنِ الْمُرَادِ بِالْخَائِفِينَ الْمُفَرِّطِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ إِذْ لَيْسَ لَهُمْ وَلِيٌّ سِوَاهُ تَعَالَى يَخَافُونَ

(87/234)

---

الْحَشْرَ بِدُونِ نُصْرَتِهِ ، وَإِنَّمَا الَّذِي يَخَافُونَهُ الْحَشْرَ بِدُونِ نُصْرَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ " انْتَهَى . وَقَدْ لَخَّصَ كَلَامَهُ السَّيِّدُ الْأَلُوسِيُّ فِي " رُوحِ الْمَعَانِي " وَقَالَ : " هُوَ تَحْقِيقٌ لَمْ أَرَهُ لِغَيْرِهِ ، وَيَصْغُرُ

لَدَيْهِ مَا فِي التَّفْسِيرِ الْكَبِيرِ ، وَلَعَلَّ

مَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - لَمْ يَثْبُتْ عَنْهُمَا فَتَدَبَّرْ " انْتَهَى .

وَمُرَادُهُ بِمَا رُوِيَ عَنِ الْحَبْرِ وَالْحَسَنِ هُوَ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْمُؤْمِنِينَ .

(88/234)

---

وَنَقُولُ : قَدْ تَدَبَّرْنَا الْكَلَامَ فَوَجَدْنَا أَنَّ هَذَا الَّذِي سَمَّيْتَهُ تَحْقِيقًا تَنَطُّعٌ وَتَكَلُّفٌ بَعِيدٌ عَنْ سِيَاقِ الْآيَةِ وَسِيَاقِهَا ، وَلَوْلَا إعْجَابُك بِهَذَا الرَّجُلِ وَاعْتِمَادُك عَلَيْهِ فِي حَلِّ تَفْسِيرِك لَمَا خَفِيَ عَنْ ذِهْنِك الْمُنِيرِ تَكَلُّفُهُ هَذَا الَّذِي خَالَفَ فِيهِ الْمَأْثُورَ الْمُتَبَادِرَ مِنَ النَّظْمِ الْكَرِيمِ الْمُوَافِقِ لِلْحَالِ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ السُّورَةُ ، فَجَعَلَ الْإِنْذَارَ مُوَجَّهًا إلَى مَنْ لَا يَكَادُ يُوجَدُ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي مَكَّةَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَشُذَّاذِ الْمُشْرِكِينَ ، وَلَا حَاجَةَ فِي حَالِ تَوْجِيهِ الْإِنْذَارِ إلَى الْمُؤْمِنِينَ إلَى تَخْصِيصِهِ بِالْمُفَرِّطِينَ مِنْهُمْ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَئِذٍ مُفَرِّطٌ وَلَا مُقَصِّرٌ ، بَلْ كُلُّهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ مُشَمِّرٌ ، فَهُمُ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ الَّذِينَ شَهِدَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ ، وَأَثْبَتَ فِي كِتَابِهِ رِضَاءَهُ عَنْهُمْ . وَالْمَأْثُورُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أُمِرَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِإِنْذَارِهِمْ هُمُ الَّذِينَ نَهَى عَنْ طَرْدِهِمْ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ :

(89/234)

(وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) رَوَى أَحْمَدُ ، وَابْنُ جَرِيرٍ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، وَالطَّبَرَانِيُّ وَغَيْرُهُمْ ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : مَرَّ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَعِنْدَهُ صُهَيْبٌ وَعَمَّارٌ وَخَبَّابٌ وَنَحْوُهُمْ مِنْ ضُعَفَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، فَقَالُوا : يَا مُحَمَّدُ أَرَضِيتَ بِهَؤُلَاءِ مِنْ قَوْمِكَ ؟ أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ؟ أَنَحْنُ نَكُونُ تَبَعًا لِهَؤُلَاءِ ؟ اطْرُدْهُمْ عَنْكَ ، فَلَعَلَّكَ إِنْ طَرَدْتَهُمْ أَنْ نَتَّبِعَكَ ، فَأُنْزِلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ (وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ) إِلَى قَوْلِهِ : (أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) وَقِيلَ : إِلَى قَوْلِهِ : (سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ) (55) وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ ، عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ : مَشَى عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ ، وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ ، وَقَرَظَةُ بْنُ عَمْرِو بْنِ نَوْفَلٍ ، وَالْحَارِثُ بْنُ عَامِرِ بْنِ نَوْفَلٍ فِي أَشْرَافِ الْكُفَّارِ مِنْ بَنِي عَبْدِ مُنَافٍ إِلَى أَبِي طَالِبٍ ، فَقَالُوا لَهُ : لَوْ أَنَّ ابْنَ أَخِيكَ طَرَدَ عَنَّا هَؤُلَاءِ الْأَعْبُدَ ، فَإِنَّهُمْ عَبِيدُنَا وَعُسَفَاؤُنَا - كَانَ لَهُ أَعْظَمَ فِي صُدُورِنَا ، وَأَطْوَعَ لَهُ عِنْدَنَا ، وَأَدْنَى لِاتِّبَاعِنَا إِيَّاهُ وَتَصْدِيقِهِ . فَذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو طَالِبٍ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ :

لَوْ فَعَلْتَ يَا رَسُولَ اللهِ حَتَّى نَنْظُرَ مَا يُرِيدُونَ بِقَوْلِهِمْ وَمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِهِمْ . فَأَنْزَلَ اللهُ (وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ) إِلَى قَوْلِهِ : (أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) قَالَ : وَكَانُوا بِلَالًا ، وَعَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ ، وَسَالِمًا مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ ، وَصُبَيْحًا مَوْلَى أُسَيْدٍ ، وَمِنَ الْحُلَفَاءِ : ابْنُ مَسْعُودٍ ، وَالْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو ، وَوَاقِدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الْحَنْظَلِيُّ ، وَعَمْرُو بْنُ عَبْدِ عَمْرٍو ذُو الشِّمَالَيْنِ ، وَمَرْثَدُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ ، وَأَشْبَاهُهُمْ ، وَنَزَلَتْ فِي أَئِمَّةِ الْكُفْرِ مِنْ قُرَيْشٍ وَالْمَوَالِي وَالْحُلَفَاءِ (وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا) الْآيَةَ ، فَلَمَّا نَزَلَتْ أَقْبَلَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَاعْتَذَرَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ : (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا) (54) الْآيَةَ . هَذَا أَقْوَى مَا أَوْرَدَ السُّيُوطِيُّ فِي الدُّرِّ الْمَنْثُورِ ، وَاخْتَصَرَ الرِّوَايَتَيْنِ فِي لُبَابِ النُّقُولِ ، وَلَا يُنَافِي هَذَا نُزُولُ السُّورَةِ دُفْعَةً وَاحِدَةً ، وَكَوْنُ هَذِهِ الْآيَاتِ لَيْسَتْ مِمَّا اسْتَثْنَاهُ بَعْضُهُمْ وَبَيَّنَّاهُ فِي الْكَلَامِ عَلَيْهَا قَبْلَ الشُّرُوعِ فِي تَفْسِيرِهَا ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُمْ إِنْ كَذَا نَزَلَ فِي كَذَا يُصَدَّقُ بِنُزُولِهِ وَحْدَهُ وَبِنُزُولِهِ فِي ضِمْنِ سُورَةٍ كَامِلَةٍ أَوْ سِيَاقٍ مِنْ سُورَةٍ ، لَكِنَّ ظَاهِرَ مَا زَادَهُ عِكْرِمَةُ مِنْ نُزُولِ (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا) فِي عُمَرَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ نُزُولَهَا كَانَ بَعْدَ اعْتِذَارِهِ ، وَأَنَّ اعْتِذَارَهُ كَانَ بَعْدَ نُزُولِ مَا

قَبْلَهَا . وَيُعَارِضُ هَذَا الظَّاهِرَ مَا وَرَدَ فِي نُزُولِهَا دُفْعَةً وَاحِدَةً ، وَكَوْنَ هَذِهِ الْآيَةِ لَيْسَتْ مِمَّا اسْتُثْنِيَ ، وَهُوَ أَثْبَتُ مِنْ هَذِهِ الرِّوَايَةِ ، وَمَا وَرَدَ فِي سَبَبِ نُزُولِ الْآيَةِ أَيْضًا وَسَيَأْتِي قَرِيبًا ، وَحِينَئِذٍ يُقَالُ : إمَّا أَنَّ الزِّيَادَةَ غَيْرُ مَقْبُولَةٍ ، وَإِمَّا أَنَّ ظَاهِرَ الْعِبَارَةِ غَيْرُ مُرَادٍ ، وَإِنَّمَا لَمْ نَرُدَّ الرِّوَايَةَ مِنْ أَصْلِهَا مَعَ أَنَّ فِي سَنَدِهَا مِنَ الْمَقَالِ مَا فِيهِ ؛ لِأَنَّ نُزُولَ الْآيَاتِ الْأُولَى فِي ضُعَفَاءِ الصَّحَابَةِ هُوَ الْوَاقِعُ الَّذِي لَا مَنْدُوحَةَ عَنْهُ ، وَالرِّوَايَاتُ فِيهِ مَبْنِيَّةٌ لِلْوَاقِعِ ، يُؤَيِّدُ فِيهِ بَعْضُهَا بَعْضًا ، فَلَا يَضُرُّ فِي مِثْلِهِ ضَعْفُ الرَّاوِي بِبِدْعَةٍ أَوْ بِتَدْلِيسٍ أَوْ تَحْدِيثٍ بَعْدَ اخْتِلَاطٍ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْعِلَلِ الَّتِي فِي رِجَالِ هَذِهِ الرِّوَايَةِ .

أَمَّا كَوْنُ هَذَا هُوَ الْوَاقِعُ فَمَعْلُومٌ مِنَ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ وَمِنْ سُنَّةِ اللهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ

(92/234)

---

الْمُبَيَّنَةِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتَابِهِ ، وَهُوَ أَنْ أَوَّلَ أَتْبَاعِ خَاتَمِ الرُّسُلِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَأَتْبَاعِ مَنْ تَقَدَّمَهُ مِنْ إخْوَانِهِ الرُّسُلِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ – أَكْثَرُهُمْ مِنَ الضُّعَفَاءِ الْفُقَرَاءِ ، وَأَنَّ أَعْدَاءَهُ كَأَعْدَائِهِمْ هُمُ الْمُتْرَفُونَ مِنَ الْأَكَابِرِ وَالرُّؤَسَاءِ ، وَأَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءَ الْمُسْتَكْبِرِينَ عَنِ الْإِيمَانِ كَانُوا يَحْتَقِرُونَ السَّابِقَيْنِ إلَى الْإِيمَانِ وَيَذُمُّونَهُمْ وَيَعُدُّونَ أَنْفُسَهُمْ مَعْذُورِينَ أَوْ مُحِقِّينَ بِعَدَمِ رِضَائِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ بِمُسَاوَاتِهِمْ ، وَتَارَةً يَقْتَرِحُونَ عَلَى الرُّسُلِ

طَرْدَهُمْ وَإِبْعَادَهُمْ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي " سُورَةِ سَبَأٍ " : (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) (34 : 34 ، 35) وَقَالَ تَعَالَى فِي " سُورَةِ هُودٍ " حَاكِيًا قَوْلَ الْمَلَأِ ، أَيِ الْأَشْرَافِ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ : (وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ) (11 : 27) وَقَوْلُهُ لَهُمْ : (وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ) إِلَى قَوْلِهِ : (أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) (11 : 29 ، 30) وَقَدْ حَكَى اللهُ عَنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ أَنَّهُمْ قَالُوا فِي هَؤُلَاءِ الضُّعَفَاءِ السَّابِقِينَ إِلَى الْإِسْلَامِ : (لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ) (46 : 11) وَقَالَ فِي شَأْنِهِمْ مِنْ " سُورَةِ مَرْيَمَ " : (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ

*(93/234)*

---

كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا) (19 : 73 ، 74) .

وَمَعْنَى الْآيَةِ هُنَا : وَلَا تَطْرُدْ أَيُّهَا الرَّسُولُ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُوَحِّدِينَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ

*(94/234)*

بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ، أَيْ فِي النَّهَارِ وَآخِرِهِ أَوْ فِي عَامَّةِ الْأَوْقَاتِ ؛ لِأَنَّهُ يُكَنَّى بِطَرَفَيِ الشَّيْءِ عَنْ جُمْلَتِهِ ، يُقَالُ : يَفْعَلُ كَذَا صَبَاحًا وَمَسَاءً إذَا كَانَ مُدَاوِمًا عَلَيْهِ ، وَإِذَا أُرِيدَ بِالْغُدُوِّ وَالْعَشِيِّ حَقِيقَتُهُمَا فَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِالدُّعَاءِ الصَّلَاةُ ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ صَلَاتَيْنِ : إحْدَاهُمَا فِي الصَّبَاحِ وَالْأُخْرَى فِي الْمَسَاءِ ، وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّ الْمُرَادَ صَلَاتَا الصُّبْحِ وَالْعَصْرِ ؛ وَإِلَّا فَالدُّعَاءُ يَشْمَلُ الدُّعَاءَ الْحَقِيقِيَّ وَالصَّلَاةَ وَالْقُرْآنَ الْمُشْتَمِلَيْنِ عَلَيْهِ ، وَالْغَدَاةُ وَالْغُدْوَةُ كَالْبُكْرَةِ مَا بَيْنَ طُلُوعِ الْفَجْرِ إلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ ، وَالْعَشِيُّ آخِرُ النَّهَارِ ، وَقِيلَ : مِنَ الْمَغْرِبِ إلَى الْعِشَاءِ ، وَقِيلَ : مِنْ بَعْدِ الزَّوَالِ . وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ (بِالْغُدْوَةِ) بِضَمِّ الْغَيْنِ وَفَتْحِ الْوَاوِ ، وَيُسَاعِدُهُ رَسْمُ الْمُصْحَفِ ؛ لِأَنَّ الْكَلِمَةَ فِيهِ بِالْوَاوِ كَالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ، وَالْبَاقُونَ بِالْغَدَاةِ بِفَتْحِ الْغَيْنِ ، وَقَلْبِ الْوَاوِ أَلِفًا لِتَحَرُّكِهَا وَانْفِتَاحِ مَا قَبْلَهَا حَسَبَ الْقَاعِدَةِ . وَاسْتُعْمِلَتْ " غُدْوَةٌ " بِالضَّمِّ - بِالتَّنْوِينِ وَبِغَيْرِ التَّنْوِينِ كَبُكْرَةٍ ، وَمُعَرَّفَةٌ بِالْأَلِفِ وَاللَّامِ كَمَا

(95/234)

نَقَلَ سِيبَوَيْهِ عَنِ الْخَلِيلِ ، فَإِذَا نُوِّنَتْ قُصِدَ بِهَا صَبَاحَ يَوْمٍ غَيْرِ مُعَيَّنٍ ، وَإِذَا لَمْ تُنَوَّنْ قُصِدَ بِهَا صَبَاحَ مُعَيَّنٍ ، وَلَعَلَّ الْأَكْثَرَ فِي اسْتِعْمَالِهَا أَنْ تَكُونَ بِغَيْرِ الْأَلِفِ وَاللَّامِ ، وَقَدْ ظَنَّ أَبُو عُبَيْدٍ أَنَّ

هَذَا مُطَّرِدٌ ، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ قِرَاءَةَ ابْنِ عَامِرٍ رِوَايَةٌ مُتَوَاتِرَةٌ يَثْبُتُ بِهَا تَعْرِيفُ الْغُدْوَةِ فِي أَصَحِّ الْكَلَامِ ، بَلْ ظَنَّ أَنَّهَا خَطَأٌ جَاءَ مِنْ جِهَةِ الرَّسْمِ فَخَطَّأَ مَنْ قَرَأَ بِذَلِكَ ، وَحَسْبُكَ فِي تَخْطِئَتِهِ هُوَ أَنَّ الْقِرَاءَةَ مُتَوَاتِرَةٌ ، وَإِنْ لَمْ يَنْقُلِ الْخَلِيلُ وَكَذَا الْمُبَرِّدُ تَعْرِيفَهَا عَنِ الْعَرَبِ . وَالْمَشْهُورُ أَنَّ مَنْعَ صَرْفِ (غُدْوَةَ وَبُكْرَةَ) لِلْعَلَمِيَّةِ الْجِنْسِيَّةِ ، وَقِيلَ لِلْعَلَمِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ .

*(96/234)*

---

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ "يَدْعُونَ" ، أَيْ : يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ مُرِيدِينَ بِهَذَا الدُّعَاءِ وَجْهَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، مُبْتَغِينَ مَرْضَاتَهُ ، أَيْ يَتَوَجَّهُونَ بِهِ إِلَيْهِ وَحْدَهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فَلَا يُشْرِكُونَ مَعَهُ أَحَدًا ، وَلَا يَرْجُونَ مِنْ غَيْرِهِ عَلَيْهِ ثَوَابًا ، وَلَا يَتَوَقَّعُونَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ مَدْحًا وَلَا نَفْعًا ، فَهَذَا التَّعْبِيرُ يَدُلُّ عَلَى الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ تَعَالَى فِي الْعَمَلِ وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهِ بِهِ وَحْدَهُ وَعَدَمِ الرِّيَاءِ فِيهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ الْمُطْعِمِينَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ : (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا 76 : 9) وَكَمَا قَالَ فِي الْأَتْقَى الَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ لِيَتَزَكَّى بِهِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَيَكُونَ مَقْبُولًا مَرْضِيًّا لَدَيْهِ : (وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى) (92 : 19 - 21)

وَلَعَلَّ أَصْلَ ابْتِغَاءِ الْوَجْهِ بِالْعَمَلِ هُوَ أَنْ يَعْمَلَ لِيُوَاجِهَ بِهِ مَنْ عَمِلَ لِأَجْلِهِ ، فَيَعْتَنِي بِإِتْقَانِهِ مَا لَا يَعْتَنِي بِإِتْقَانِ مَا يَعْمَلُ لِيُرْسَلَ إِلَى مَنْ عَمِلَ لَهُ ، أَوْ لِأَنَّهُ مَطْلُوبٌ فِي الْجُمْلَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُلَاحِظَ الْعَامِلُ أَنَّ مَنْ يَعْمَلُ لَهُ يَرَاهُ ، فَضْلًا عَنْ كَوْنِهِ هُوَ الَّذِي يَعْرِضُهُ بِنَفْسِهِ عَلَى مَنْ يُرِيدُ التَّقَرُّبَ إِلَيْهِ بِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْأَعْمَالَ الَّتِي تُعْمَلُ لِلْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ مِنْهَا مَا لَا يَرَوْنَهُ الْبَتَّةَ كَأَنْ يَكُونَ لِمَا لَا يَطَّلِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِ الْخِدْمَةِ فِي قُصُورِهِمْ ، وَمِنْهَا مَا يَرَوْنَهُ رُؤْيَةً إِجْمَالِيَّةً مَعَ كَثِيرٍ مِنْ أَمْثَالِهِ ، وَمَا يَرَوْنَهُ مِنْهَا يَعْرِضُهُ عَلَيْهِمْ عُمَّالُهُمْ وَحُجَّابُهُمْ ، وَمِنْهَا مَا قَدْ يَعْرِضُهُ الْعَامِلُ بِنَفْسِهِ وَيُقَابِلُ وَجْهَ الْمَلِكِ بِهِ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الْعَمَلِ هُوَ الَّذِي يُعْتَنَى بِهِ أَكْمَلَ الِاعْتِنَاءِ ، وَلَا يُفَكِّرُ الْعَامِلُ لَهُ فِي وَقْعِهِ عِنْدَ الْحُجَّابِ أَوِ الْوُزَرَاءِ أَوْ غَيْرِهِمْ مِنْ بِطَانَةِ الْمَلِكِ أَوْ حَاشِيَتِهِ ؛ لِعِلْمِهِ بِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي سَيَعْرِضُهُ عَلَيْهِ وَيَلْقَاهُ بِهِ ، فَيَكُونُ هَمُّهُ مَحْصُورًا فِي جَعْلِهِ مَرْضِيًّا عِنْدَهُ ، جَدِيرًا بِقَبُولِهِ وَحُسْنِ الْجَزَاءِ عَلَيْهِ .

وَلَا يَغُرَّنَّكَ مَا تَخَيَّلَهُ بَعْضُ الصُّوفِيَّةِ مِنْ جَعْلِ ابْتِغَاءِ اللهِ تَعَالَى مُنَافِيًا لِابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهِ أَوِ ابْتِغَاءِ وَجْهِهِ ، فَالْحَقُّ أَنْ لَا مُنَافَاةَ ، وَأَنَّ الْكَمَالَ فِي الْجَمْعِ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ ، وَأَنَّ الْعَمَلَ لِأَجْلِ الذَّاتِ الَّتِي يُفَسِّرُونَ بِهَا الْوَجْهَ مَعَ عَدَمِ قَصْدِ الرِّضَاءِ وَلَا الثَّوَابِ مِنَ النَّظَرِيَّاتِ الَّتِي لَا يَسْهُلُ إِثْبَاتُ إِمْكَانِهَا وَلَا مَشْرُوعِيَّتِهَا ، وَلَا يُنْكَرُ مَا يَعْرِضُ لِبَعْضِ النَّاسِ مِنَ الْأَحْوَالِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي يَنْحَصِرُ تَخَيُّلُهُمْ فِيهَا ، حَتَّى يَظُنُّوا أَنَّهَا حَقِيقَةٌ ثَابِتَةٌ فِي نَفْسِهَا ، وَصَاحِبُ تِلْكَ الْحَالِ لَا يَعْرِفُ حَقِيقَةَ الذَّاتِ ، وَلَا يَعْقِلُ مَعْنَى كَوْنِ الْعَمَلِ لَهَا ، نَعَمْ إِنَّ مِنَ الْوَاقِعِ الَّذِي لَا يُنْكَرُ أَنْ يَقْصِدَ الْعَامِلُ بِعَمَلِهِ النَّجَاةَ مِنْ عِقَابِ النَّارِ أَوِ الْفَوْزَ بِنَعِيمِ الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ هَذَا حَسَنٌ وَمَحْمُودٌ شَرْعًا ، وَلَكِنَّهُ دُونَ مَرْتَبَةِ الْكَمَالِ الَّذِي هَدَى إِلَيْهِ الْقُرْآنُ ، وَهُوَ أَنْ يَقْصِدَ الْمُؤْمِنُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ تَزْكِيَةَ نَفْسِهِ وَتَكْمِيلَهَا ؛ لِتَكُونَ أَهْلًا لِلِقَاءِ اللهِ ، وَمَحَلًّا لِمَرْضَاتِهِ وَثَوَابِهِ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ ، وَأَعْلَى الثَّوَابِ رِضْوَانُ اللهِ تَعَالَى ، وَكَمَالُ الْعِرْفَانِ وَالْعِلْمِ بِهِ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ فِي الْأَحَادِيثِ الشَّرِيفَةِ بِرُؤْيَةِ وَجْهِهِ الْكَرِيمِ ، بِلَا كَيْفَ وَلَا تَشْبِيهٍ وَلَا تَمْثِيلٍ ، وَقَدْ قَرَّبْنَا هَذَا الْمَعْنَى الْعَالِيَ فِي بَابِ الْفَتْوَى مِنَ الْمَنَارِ فَيُرَاجَعُ فِيهِ ، وَلَعَلَّنَا نَعُودُ إِلَيْهِ فِي التَّفْسِيرِ .

*(99/234)*

(مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ) أَيْ مَا عَلَيْكَ شَيْءٌ مَا مِنْ أَمْرِ حِسَابِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ، لَا عَلَى دُعَائِهِمْ وَلَا عَلَى غَيْرِهِ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الدِّينِيَّةِ - كَمَا تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ صِلَةُ الْمَوْصُولِ - وَإِلَّا فَظَاهِرُ تَأْكِيدِ النَّفْيِ عُمُومُهُ . كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ مَا مِنْ أَمْرِ حِسَابِكَ عَلَى أَعْمَالِكَ حَتَّى يُمْكِنَ أَنْ يَتَرَتَّبَ عَلَى هَذَا أَوْ ذَاكَ طَرْدُكَ إِيَّاهُمْ بِإِسَاءَتِهِمْ فِي عَمَلِهِمْ أَوْ مُحَاسَبَتِكَ عَلَى عَمَلِكَ ، فَإِنَّ الطَّرْدَ جَزَاءٌ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ عَلَى عَمَلٍ سَيِّئٍ يَسْتَوْجِبُهُ ، وَلَا يَثْبُتُ إِلَّا بِحِسَابٍ ، وَالْمُؤْمِنُونَ لَيْسُوا عَبِيدًا لِلرُّسُلِ وَلَا أَعْمَالُهُمُ الدِّينِيَّةِ لَهُمْ ، بَلْ هِيَ لِلَّهِ تَعَالَى يُرِيدُونَ بِهَا وَجْهَهُ لَا أَوْجُهَ الرُّسُلِ ، وَحِسَابُهُمْ عَلَيْهِ تَعَالَى لَا عَلَيْهِمْ ، وَإِنَّمَا الرُّسُلُ هُدَاةٌ مُعَلِّمُونَ ، لَا أَرْبَابٌ وَلَا مُسَيْطِرُونَ (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ) (88 : 21 ، 22) وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لِلرُّسُلِ حَقُّ السَّيْطَرَةِ عَلَى النَّاسِ وَمُحَاسَبَتِهِمْ عَلَى أَعْمَالِهِمُ الدِّينِيَّةِ

*(100/234)*

---

فَلَيْسَ لِلنَّاسِ عَلَيْهِمْ هَذَا الْحَقُّ بِالْأَوْلَى ، وَالْمَأْثُورُ عَنِ النَّصَارَى أَنَّ الْمَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يُسَمَّى مُعَلِّمًا ، وَأَنَّ أَتْبَاعَهُ فِي عَهْدِهِ كَانُوا يُسَمَّوْنَ تَلَامِيذَ . وَأَمَّا أَتْبَاعُ نَبِيِّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَدِ اخْتَارَ لَهُمْ كَلِمَةَ الْأَصْحَابِ الدَّالَّةَ عَلَى الْمُسَاوَاةِ تَوَاضُعًا ، عَلَى أَنَّ مِنْ

أُصُولِ شَرِيعَتِهِ الْكَامِلَةِ أَنَّهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مُسَاوٍ فِي أَحْكَامِهَا لِسَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا يَجِبُ وَيُنْدَبُ وَيَحِلُّ وَيُحْرَمُ وَيُبَاحُ وَيُكْرَهُ إِلَّا مَا خَصَّهُ اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الْأَحْكَامِ ، وَلَمْ تَكُنْ تِلْكَ الْأَحْكَامُ الْخَاصَّةُ مِنْ قَبِيلِ مَا يَعْهَدُ النَّاسُ مِنِ امْتِيَازِ الْمُلُوكِ عَلَى الرَّعَايَا مِنْ أُمُورِ الْأُبَّهَةِ وَالزِّينَةِ وَالْعَظَمَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالنَّعِيمِ ، بَلْ هِيَ أَحْكَامٌ شَاقَّةٌ لَا يَقْوَى عَلَى الْقِيَامِ بِهَا غَيْرُهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَوُجُوبِ قِيَامِ اللَّيْلِ عَلَيْهِ ، وَكَوْنِ مَا يَتْرُكُهُ صَدَقَةً لِلْأُمَّةِ لَا إِرْثًا لِذُرِّيَّتِهِ ، وَكَفَالَتِهِ عِدَّةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الْأَرَامِلِ أَكْثَرُهُنَّ مُسِنَّاتٌ يُسَاوِي بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ عَائِشَةَ الْجَمِيلَةِ الصُّورَةِ الْبَارِعَةِ الذَّكَاءِ فِي كُلِّ مَا يَمْلِكُ مِنْ نَفْسِهِ وَذَاتِ يَدِهِ (وَحِكْمَةُ تَعَدُّدِهِنَّ قَدْ فَصَّلْنَاهَا فِي تَفْسِيرِ آيَةِ تَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ مِنْ أَوَّلِ " سُورَةِ النِّسَاءِ " [رَاجِعْ ص 287 وَمَا بَعْدَهَا ج 4 ط الْهَيْئَةِ] ثُمَّ زِدْنَاهَا بَيَانًا فِي الْمَنَارِ) .

*(101/234)*

---

وَقِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ هُنَا الْحِسَابُ عَلَى الرِّزْقِ إِذْ زَعَمَ الْمُشْرِكُونَ أَنَّ أُولَئِكَ الضُّعَفَاءَ مَا آمَنُوا بِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِلَّا لِأَنَّهُمْ يَجِدُونَ عِنْدَهُ رِزْقًا ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا بِصَادِقِينَ فِي إِيمَانِهِمْ فَكَأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ لَهُ لَيْسَ عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِ رِزْقِهِمْ وَلَا عَلَيْهِمْ مِنْ حِسَابِ رِزْقِكَ شَيْءٌ وَإِنَّمَا يَرْزُقُكُمُ اللهُ جَمِيعًا ، وَحَمْلُ الْآيَةِ عَلَى هَذَا ضَعِيفٌ ، وَإِنْ نُقِلَ

عَنِ ابْنِ زَيْدٍ ، وَالْأَوَّلُ مَنْقُولٌ عَنْ عَطَاءٍ ، وَعَلَيْهِ الْجُمْهُورُ . وَإِذَا صَحَّ أَنَّ كُبَرَاءَ الْمُشْرِكِينَ طَعَنُوا فِي إِيمَانِ ضُعَفَاءِ الْمُسْلِمِينَ فَالْأَقْرَبُ أَنَّهُمْ قَصَدُوا بِذَلِكَ الْكَيْدَ ؛ لِلتَّفْرِقَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَصَدَّ سَائِرِ الضُّعَفَاءِ عَنْهُ بِأَنَّ عَاقِبَتَهُمُ الطَّرْدَ وَالْإِبْعَادَ ، كَمَا يَصُدُّونَ الْأَقْوِيَاءَ وَالْكُبَرَاءَ بِإِثَارَةِ الْحَمِيَّةِ وَالْكِبْرِيَاءِ ، فَإِنْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ أَسَاءَ الظَّنَّ بِبَعْضِ أُولَئِكَ السَّابِقِينَ الْكِرَامِ لِاحْتِقَارِهِمْ إِيَّاهُمْ ، فَإِنَّمَا كَانَ فِي أَوَّلِ الْعَهْدِ بِإِسْلَامِهِمْ ، قَبْلَ أَنْ كَانَ مَا كَانَ مِنْ فِتْنَتِهِمْ ، فَقَدْ فَتَنُوهُمْ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعَذَابِ لِيَرْجِعُوا إِلَى الشِّرْكِ كَالْجُوعِ وَالْحَبْسِ ، وَالضَّرْبِ ، بَلْ كَانُوا يَكْوُونَ بَعْضَهُمْ بِالنَّارِ كَمَا فَعَلُوا بِآلِ يَاسِرٍ ، أَوْ بِوَضْعِهِمْ عُرَاةَ الْأَبْدَانِ عَلَى الرَّمْلِ الْمُحْمَّى بِهَجِيرِ الصَّيْفِ كَمَا فَعَلُوا بِبِلَالٍ .

*(102/234)*

---

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ) جَوَابٌ لِلنَّهْيِ عَنِ الطَّرْدِ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ قَبْلَهُ : (فَتَطْرُدَهُمْ) فَهُوَ جَوَابٌ لِنَفْيِ الْحِسَابِ تَنْتَهِي بِهِ الْجُمْلَةُ الِاعْتِرَاضِيَّةُ الْمُعَلَّلَةُ لِعَدَمِ جَوَازِ الطَّرْدِ بِبِنَاءِ نَفْيِهِ عَلَى نَفْيِ سَبَبِهِ الَّذِي يَتَوَقَّفُ جَوَازُهُ عَلَيْهِ . وَجَوَّزَ الزَّمَخْشَرِيُّ وَغَيْرُهُ عَطْفَ الثَّانِي عَلَى الْأَوَّلِ ، وَأَوْرَدَ عَلَيْهِ إِيرَادَاتٍ أُجِيبَ عَنْهَا بِسُهُولَةٍ ، وَجَوَّزَ بَعْضُهُمْ كَوْنَ الْأَوَّلِ جَوَابَ النَّهْيِ وَالثَّانِي مَعْطُوفًا عَلَيْهِ ، وَأَوْرَدُوا عَلَيْهِ مَا لَا يُجَابُ عَنْهُ إِلَّا بِتَكَلُّفٍ . وَالْمَعْنَى عَلَى الْأَوَّلِ -

وَهُوَ الصَّحِيحُ - لَا تَطْرُدْ هَؤُلَاءِ فَتَكُونَ بِطَرْدِكَ إيَّاهُمْ مِنْ جِنْسِ الظَّالِمِينَ وَمَعْدُودًا فِي زُمْرَتِهِمْ ؛ لِأَنَّ طَرْدَهُمْ لَا يَكُونُ حَقًّا وَعَدْلًا إلَّا إذَا كَانَ جَزَاءً عَلَى إسَاءَتِهِمْ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي يَعْمَلُونَهَا لِمَنْ لَهُ حَقٌّ حِسَابِهِمْ وَجَزَائِهِمْ عَلَيْهَا ، وَلَسْتَ أَنْتَ بِصَاحِبِ هَذَا الْحَقِّ حَتَّى يَتَأَتَّى أَنْ تَجْرِيَ فِيهِ عَلَى صِرَاطِ الْعَدْلِ ، ذَلِكَ بِأَنَّ عَمَلَهُمْ هُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ يُرِيدُونَ بِهَا وَجْهَهُ ، فَحِسَابُهُمْ وَجَزَاؤُهُمْ عَلَيْهِ وَحْدَهُ ، كَمَا قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ : (إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ 26 : 113) فَوَجْهُ الْكَوْنِ مِنَ الظَّالِمِينَ أَنَّ الطَّرْدَ لَوْ حَصَلَ يَكُونُ حُكْمًا غَيْرَ جَائِزٍ مِمَّنْ لَا يَمْلِكُ الْحُكْمَ لِذَاتِهِ (إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ) (57) وَاللَّهُ لَمْ يُفَوِّضْ إلَيْهِ هَذَا النَّوْعَ مِنْهُ ، ثُمَّ إنَّهُ جَائِزٌ فِي

*(103/234)*

---

مَوْضُوعِهِ ، مَعَ كَوْنِهِ غَيْرَ جَائِزٍ فِي صُورَتِهِ وَشَكْلِهِ ؛ إذْ هُوَ ظُلْمٌ لِلْمَحْكُومِ عَلَيْهِمْ ؛ لِأَنَّهُمْ أَوْلَى النَّاسِ بِقُرْبِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالِاسْتِفَادَةِ مِنْهُ ، وَظُلْمٌ لِنَفْسِ الْحَاكِمِ - وَحَاشَا أَنْ يَقَعَ مِنْهُ - لِأَنَّهُ يُنَافِي مَصْلَحَةَ الدَّعْوَةِ ، فَلَمَّا كَانَ ظُلْمًا مِنَ الْجِهَاتِ الثَّلَاثِ قَالَ : (فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ) وَلَمْ يَقُلْ : فَتَظْلِمَهُمْ ، أَوْ : فَتَكُونَ ظَالِمًا ، أَوْ : فَيَكُونُوا مِنَ الْمَظْلُومِينَ .

*(104/234)*

وَالْآيَةُ مُتَمِّمَةٌ لِبَيَانِ وَظَائِفِ الرَّسُولِ مِنَ الْجِهَةِ السَّلْبِيَّةِ ; إذْ صَرَّحَ فِيهَا بِأَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَا يَمْلِكُ حِسَابَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا جَزَاءَهُمْ بَعْدَ أَنْ صَرَّحَ بِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ التَّصَرُّفَ فِي الْكَوْنِ ، وَلَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ ، وَبِأَنَّهُ لَيْسَ مَلَكًا ، وَلَيْسَ الْغَرَضُ مِنْهَا التَّشْدِيدُ فِي تَنْفِيرِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنْ طَرْدِ الْمُؤْمِنِينَ ; لِأَنَّهُ كَانَ رَضِيَ بِذَلِكَ كَمَا زَعَمَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ ، وَحَاشَاهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يَرْضَى بِذَلِكَ أَوْ يَمِيلَ إلَيْهِ بَعْدَ أَنْ عَاتَبَهُ رَبُّهُ عَلَى الْإِعْرَاضِ وَالتَّلَهِّي عَنِ الْأَعْمَى (عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ) لَمَّا جَاءَهُ يَطْلُبُ الْعِلْمَ وَالْهُدَى مِنْهُ وَهُوَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُتَصَدٍّ لِدَعْوَةِ بَعْضِ كُبَرَاءِ قُرَيْشٍ ، طَامِعٍ فِي هِدَايَتِهِمْ ، وَخَافَ أَنْ يَفُوتَهُ ذَلِكَ بِإِقْبَالِهِ عَلَى ذَلِكَ الْأَعْمَى الْفَقِيرِ ، كَمَا هُوَ مُبَيَّنٌ فِي أَوَّلِ سُورَةِ (عَبَسَ وَتَوَلَّى) (80 : 1) وَالْمَرْوِيُّ أَنَّهَا نَزَلَتْ قَبْلَ " سُورَةِ الْأَنْعَامِ " ، وَقَدِ اغْتَرَّ مَنْ زَعَمَ ذَلِكَ بِرِوَايَةٍ مُنْكَرَةٍ بَاطِلَةٍ ، وَهِيَ مَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ ، وَابْنُ مَاجَهْ ، وَابْنُ جَرِيرٍ ، وَأَبُو الشَّيْخِ ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الدَّلَائِلِ ، وَغَيْرُهُمْ ، عَنْ خَبَّابٍ قَالَ : جَاءَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ ، وَعُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ الْفَزَارِيُّ فَوَجَدَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَعَ صُهَيْبٍ وَبِلَالٍ وَعَمَّارٍ وَخَبَّابٍ قَاعِدًا فِي نَاسٍ مِنَ

الضُّعَفَاءِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَلَمَّا رَأَوْهُمْ حَوْلَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَقَرُوهُمْ ، فَأَتَوْهُ فَخَلَوْا بِهِ ، وَقَالُوا : نُرِيدُ أَنْ تَجْعَلَ لَنَا مِنْكَ مَجْلِسًا تَعْرِفُ لَنَا بِهِ الْعَرَبُ فَضْلَنَا ; فَإِنَّ وُفُودَ الْعَرَبِ تَأْتِيكَ فَنَسْتَحْيِي أَنْ تَرَانَا الْعَرَبُ مَعَ هَذِهِ الْأَعْبُدِ ، فَإِنْ نَحْنُ جِئْنَا فَأَقِمْهُمْ عَنَّا ، فَإِذَا نَحْنُ فَرَغْنَا فَاقْعُدْ مَعَهُمْ إِنْ شِئْتَ . قَالَ : " نَعَمْ " قَالُوا : اكْتُبْ لَنَا عَلَيْكَ كِتَابًا ، قَالَ : فَدَعَا بِصَحِيفَةٍ ، وَدَعَا عَلِيًّا لِيَكْتُبَ وَنَحْنُ قُعُودٌ فِي نَاحِيَةٍ ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ فَقَالَ : (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ) الْآيَةَ ، فَرَمَى رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الصَّحِيفَةَ ثُمَّ دَعَانَا فَأَتَيْنَاهُ . قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ بَعْدَ إِيرَادِهِ لِسَنَدِهِ عِنْدَ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ : وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ حَدِيثِ أَسْبَاطٍ بِهِ ، وَهَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ ، فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ ، وَالْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ وَعُيَيْنَةَ إِنَّمَا أَسْلَمَا بَعْدَ الْهِجْرَةِ بِدَهْرٍ . اهـ . وَأَقُولُ : إِنَّ هَذِهِ الرِّوَايَةَ بَاطِلَةٌ مِنْ وُجُوهٍ ؛ مِنْهَا مَا ذَكَرَهُ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ مِنْ تَأَخُّرِ إِسْلَامِ الْأَقْرَعِ وَعُيَيْنَةَ ، وَظَاهِرُ مَا فِي الْإِصَابَةِ أَنَّ الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ أَسْلَمَ قُبَيْلَ فَتْحِ مَكَّةَ ، وَصَرَّحَ الْحَافِظُ

الذَّهَبِيُّ بِأَنَّهُ أَسْلَمَ بَعْدَ الْفَتْحِ ، وَيُؤَيِّدُهُ مَا فِي السِّيَرِ . وَأَمَّا عُيَيْنَةُ فَقَدْ أَسْلَمَ سَنَةَ خَمْسٍ ، وَلَمْ يَعْرِفِ الرَّجُلَانِ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَبْلَ إِسْلَامِهِمَا ، وَلَمْ يَكُونَا مِنْ أَشْرَافِ مَكَّةَ ، بَلْ كَانَا مِنْ جُفَاةِ الْأَعْرَابِ ، وَلَمَّا أَسْلَمَا كَانَا مِنْ صِنْفِ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَمِنْهَا أَنَّهُمَا ذَكَرَا قُدُومَ الْوُفُودِ

(107/234)

---

عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فِي مَكَّةَ ، بَلْ كَانَ النَّاسُ فِيهَا يَصُدُّونَ عَنْهُ صُدُودًا ، وَإِنَّمَا كَانَ فِي أَوَاخِرِ عُمْرِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَعْدَ الْهِجْرَةِ ، وَمِنْهَا مَا تَقَدَّمَ آنِفًا مِنْ عَدَمِ جَوَازِ إِجَابَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِثْلَ هَذَا الطَّلَبِ ، وَلَوْ مَعَ الْقَصْدِ الْحَسَنِ بَعْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى لَهُ : (كَلَّا) فِي " سُورَةِ عَبَسَ " ، وَقَدِ اسْتَشْكَلَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ قَوْلَهُ تَعَالَى : (وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ) بِنَاءً عَلَى أَنَّ تَعْلِيلَ نَفْيِ مِلْكِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِطَرْدِهِمْ يَتِمُّ بِنَفْيِ كَوْنِهِ يَمْلِكُ شَيْئًا مِنْ حِسَابِهِمْ ، وَأَنَّ هَذِهِ الزِّيَادَةَ وَإِنْ كَانَتْ حَقًّا لَا يَظْهَرُ لَهَا دَخْلٌ فِي التَّعْلِيلِ . وَيُجَابُ عَلَى طَرِيقَتِنَا بِأَنَّ طَرْدَ الْقَوِيِّ لِلضَّعِيفِ أَوِ الْكَبِيرِ لِلصَّغِيرِ قَدْ يَتَرَتَّبُ عَلَى مُحَاسَبَةِ كُلٍّ مِنْهُمَا لِلْآخَرِ ، فَكَمْ مِنْ قَوِيٍّ حَاسَبَ ضَعِيفًا عَلَى عَمَلٍ وَجَازَاهُ عَلَيْهِ بِالطَّرْدِ ، وَكَمْ مِنْ ضَعِيفٍ حَاسَبَ قَوِيًّا عَلَى حَقِّهِ وَطَالَبَهُ بِهِ ، أَوْ

عَلَى حَقٍّ مِنْ حُقُوقِ أُمَّتِهِ فَطَرَدَهُ الْقَوِيُّ لِمُنَاقَشَتِهِ إِيَّاهُ الْحِسَابَ ، فَلَمَّا بَيَّنَ هَاهُنَا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدِ الْفَرِيقَيْنِ فِي حِسَابِ الْآخَرِ عَلَى شَيْءٍ مَا ، عُلِمَ أَنَّ الْقَوِيَّ مِنْهُمَا لَا حَقَّ لَهُ فِي طَرْدِ الضَّعِيفِ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ ، فَإِذًا لَا يَكُونُ طَرْدُهُ إِيَّاهُ - إِنْ وَقَعَ - إِلَّا ظُلْمًا ، وَعَلَى تَقْدِيرِ التَّسْلِيمِ يُقَالُ : إِنَّهُ لَا يُسْتَنْكَرُ فِي

(108/234)

---

الْكَلَامِ الْمُرَادِ بِهِ الْهِدَايَةُ وَالْإِرْشَادُ أَنْ يُزَادَ فِيهِ مِنَ الْفَوَائِدِ الِاسْتِطْرَادِيَّةِ مَا يُنَاسِبُ الْمَقَامَ . فَلَمَّا بَيَّنَ تَعَالَى لِلرَّسُولِ أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ مِنْ حَقِّهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُحَاسِبَهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمُ الدِّينِيَّةِ وَيُجَازِيَهُمْ عَلَيْهَا ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ حَقِّ رَبِّهِمْ وَإِلَهِهِمْ ، لَا مِنْ حَقِّ رَسُولِهِمْ - بَيَّنَ لَهُ أَيْضًا أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ مِنْ حَقِّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الرَّسُولِ أَنْ يُحَاسِبُوهُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَعْمَالِهِ الْخَاصَّةِ بِهِ وَلَا الْعَامَّةِ كَتَبْلِيغِ الدِّينِ وَبَيَانِهِ ، وَلَوْ شَاءَ لَفَعَلَ ، كَمَا جَعَلَ حَقَّ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ لِبَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى بَعْضٍ ، سَوَاءٌ فِي ذَلِكَ أَئِمَّتُهُمْ وَرَعِيَّتُهُمْ ، فَالْإِمَامُ (السُّلْطَانُ) رَاعٍ ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، لِأَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ مِنَ الْأُمَّةِ أَنْ يُحَاسِبُوهُ كَمَا يُحَاسِبُ هُوَ مَنْ دُونَهُ مِنَ الْعُمَّالِ ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ أَنْ يُحَاسِبَ الرَّسُولَ عَلَى سِيَاسَتِهِ أَوْ تَبْلِيغِهِ دَعْوَةَ رَبِّهِ ، وَلَكِنْ لِلرَّسُولِ أَنْ يُحَاسِبَ النَّاسَ عَلَى مُعَامَلَةِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ عِنْدَمَا يَكُونُونَ أُمَّةً

مُقَيَّدَةً فِي أَعْمَالِهَا الدِّينِيَّةِ بِشَرِيعَةِ ذَلِكَ الرَّسُولِ ، وَلَمَّا نَزَلَتْ سُورَةُ الْأَنْعَامِ لَمْ يَكُنِ الْمُسْلِمُونَ كَذَلِكَ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ عُمُومَ النَّفْيِ فِيهَا قَدْ خُصِّصَ بَعْدَ الْهِجْرَةِ عِنْدَ مَنْ فَهِمَ مِنْهُ الْعُمُومَ ، وَعِنْدَنَا أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ فِي الْأَصْلِ خُصُوصُ الْعِبَادَةِ وَالْإِخْلَاصُ فِيهَا ، وَهُوَ مُحْكَمٌ بَاقٍ عَلَى عُمُومِهِ ،

*(109/234)*

---

وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي نُكْتَةِ ضَمِّ الْجُمْلَةِ

الثَّانِيَةِ إِلَى الْأُولَى : قَدْ جُعِلَتِ الْجُمْلَتَانِ بِمَنْزِلَةِ جُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَقُصِدَ بِهِمَا مُؤَدًّى وَاحِدٌ وَهُوَ الْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ : (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) (164) وَلَا يَسْتَقِلُّ بِهَذَا الْمَعْنَى إِلَّا الْجُمْلَتَانِ جَمِيعًا ، كَأَنَّهُ قِيلَ : لَا تُؤَاخَذُ أَنْتَ وَلَا هُمْ بِحِسَابِ صَاحِبِهِ . اهـ . أَيْ لَا يُؤَاخَذُ أَحَدٌ مِنْكُمَا بِحِسَابِ الْآخَرِ .

وَقَالَ أَبُو السُّعُودِ وَذَكَرَ قَوْلَهُ : (وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ) مَعَ أَنَّ الْجَوَابَ قَدْ تَمَّ بِمَا قَبْلَهُ لِلْمُبَالَغَةِ فِي بَيَانِ انْتِفَاءِ كَوْنِ حِسَابِهِمْ عَلَيْهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِنَظْمِهِ فِي سِلْكِ مَا لَا شُبْهَةَ فِيهِ أَصْلًا ، وَهُوَ انْتِفَاءُ كَوْنِ حِسَابِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَيْهِمْ عَلَى طَرِيقِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) . اهـ . ثُمَّ زَعَمَ أَنَّ مَا قَالَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ غَيْرُ حَقِيقٍ

بِجَلَالَةِ شَأْنِ التَّنْزِيلِ ، وَتَبِعَهُ الْأُلُوسِيُّ كَعَادَتِهِ وَلَمْ يَعْزُ الْكَلَامَ إلَيْهِ هُنَا . وَلَعَلَّ الْمُتَأَمِّلَ يَرَى أَنَّ مَا قُلْنَاهُ هُوَ الْحَقِيقِيُّ بِجَلَالِ شَأْنِ التَّنْزِيلِ ؛ لِأَنَّهُ – عَلَى كَوْنِهِ هُوَ الْمُتَبَادِرُ مِنَ الْكَلَامِ – مَبْنِيٌّ عَلَى التَّأْسِيسِ ، وَبَقَائُهُ مُحْكَمًا لَمْ يَطْرَأْ عَلَيْهِ نَسْخٌ وَلَا تَخْصِيصٌ ، وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ .

*(110/234)*

---

قَالَ الْأُلُوسِيُّ : وَتَقْدِيمُ خِطَابِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي الْمَوْضِعَيْنِ قِيلَ : لِلتَّشْرِيفِ لَهُ – عَلَيْهِ أَشْرَفُ الصَّلَاةِ وَأَفْضَلُ السَّلَامِ – وَإِلَّا كَانَ الظَّاهِرُ : وَمَا عَلَيْهِمْ مِنْ حِسَابِكَ مِنْ شَيْءٍ ، بِتَقْدِيمِ عَلَى وَمَجْرُورِهَا كَمَا فِي الْأَوَّلِ ، وَقِيلَ : إنَّ تَقْدِيمَ عَلَيْكَ فِي الْجُمْلَةِ الْأُولَى لِلْقَصْدِ إلَى إيرَادِ النَّفْيِ عَلَى اخْتِصَاصِ حِسَابِهِمْ بِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إذْ هُوَ الدَّاعِي إلَى تَصَدِّيهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِحِسَابِهِمْ . اهـ . وَالصَّوَابُ أَنَّ التَّقْدِيمَ فِي الْمَوْضُوعَيْنِ جَاءَ عَلَى الْأَصْلِ الْعَامِّ فِي اللُّغَةِ ، وَهُوَ تَقْدِيمُ الْأَهَمِّ بِحَسَبِ سِيَاقِ الْكَلَامِ ، وَالْأَهَمُّ فِي الْأَوَّلِ النَّفْيُ ، وَفِي الثَّانِي الْمَنْفِيّ ، أَعْنِي الْأَهَمَّ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – . لِأَنَّهُ تَعْلِيلٌ لِانْتِفَاءِ عَمَلٍ لَهُ (وَهُوَ الطَّرْدُ) مُتَرَتِّبٌ عَلَى ذَلِكَ النَّفْيِ ، وَلَوْ

كَانَ الثَّانِي تَعْلِيلًا لِعَمَلِ لَهُمْ لَقَالَ : وَمَا عَلَيْهِمْ مِنْ حِسَابِكَ مِنْ شَيْءٍ فَيَطْرُدُوكَ ، وَمَا شَرَحْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ الْجُمْلَتَيْنِ يُغْنِي عَنِ التَّفْصِيلِ فِي بَيَانِ هَذَا الْمَعْنَى .

*(111/234)*

---

وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى نَفْيِ الرِّيَاسَةِ الدِّينِيَّةِ الْمَعْهُودَةِ فِي الْمِلَلِ الْأُخْرَى ، وَهِيَ سَيْطَرَةُ رُؤَسَاءِ الدِّينِ عَلَى أَهْلِ دِينِهِمْ فِي عَقَائِدِهِمْ وَعِبَادَاتِهِمْ وَمُحَاسَبَتِهِمْ عَلَيْهَا ، وَعُقَابُ مَنْ يَرَوْنَ عِقَابَهُ مِنْهُمْ حَتَّى بِالطَّرْدِ مِنَ الدِّينِ وَالْحِرْمَانِ مِنْ حُقُوقِهِ ، وَيَجِبُ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْمِلَلِ أَنْ يَعْتَرِفَ كُلُّ مُكَلَّفٍ مَنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى لِلرَّئِيسِ الدِّينِيِّ بِأَعْمَالِهِ النَّفْسِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ ، وَلِلرَّئِيسِ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ مَا يَعْتَرِفُ بِهِ مِنَ الْمَعَاصِي ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ مَغْفِرَةَ اللَّهِ تَعَالَى تَتْبَعُ مَغْفِرَتَهُ ،

وَإِذَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى لَمْ يَجْعَلْ لِلرَّسُولِ الَّذِي أَوْجَبَ طَاعَتَهُ حَقَّ مُحَاسَبَةِ النَّاسِ عَلَى أَعْمَالِهِمُ الدِّينِيَّةِ وَنِيَّتِهِمْ فِيهَا ، وَلَا حَقَّ طَرْدِهِمْ مِنْ حَضْرَتِهِ - دَعْ حَقَّ طَرْدِهِمْ مِنَ الدِّينِ - فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لِمَنْ دُونَهُ مِنَ الْأُمَرَاءِ أَوِ الْقُضَاءِ أَوْ غَيْرِهِمْ مِنَ الرُّؤَسَاءِ مِثْلُ هَذَا الْحَقِّ ؟ ! وَيُسْتَنْبَطُ مِنَ الْآيَةِ أَلَّا يَجُوزَ لِرُؤَسَاءِ الْمَدَارِسِ الدِّينِيَّةِ وَلَا يَنْبَغِي لِغَيْرِهِمْ - عِقَابُ أَحَدٍ مِنْ طُلَّابِ الْعِلْمِ بِالْحِرْمَانِ مِنْ بَعْضِ الدُّرُوسِ فَضْلًا عَنْ طَرْدِهِ مِنَ الْمَدْرَسَةِ ، وَحِرْمَانِهِ

مَنْ تَلَقِّي الدِّينِ وَالْعِلْمِ أَلْبَتَّةَ ، وَلَكِنْ قَدْ يَجُوزُ ذَلِكَ بِمُقْتَضَى نِظَامٍ لَا لِأَجْلِ الِانْتِقَامِ . وَقَدْ كَانَ مِنْ هَدْيِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

(112/234)

---

تَأْلِيفُ قُلُوبِ ضُعَفَاءِ الْإِيمَانِ حَتَّى بَعْدَ قُوَّةِ الْإِسْلَامِ وَإِعْزَازِهِ ، بَلْ كَانَ يُعَامِلُ الْمُنَافِقِينَ بِمَا يَقْتَضِيهِ ظَاهِرُ إِسْلَامِهِمْ ، عَمَلًا بِقَاعِدَةِ بِنَاءِ الْأَحْكَامِ عَلَى الظَّوَاهِرِ ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى السَّرَائِرَ فَأَيْنَ هَذَا مِنْ طَرْدِ كَمَلَةِ الْمُؤْمِنِينَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ ، الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ حَظٌّ دُنْيَوِيٌّ مِنْ إِسْلَامِهِمْ إِلَّا الصَّبْرُ وَالْبَلَاءُ الْمُبِينُ ؟ .

(113/234)

---

(وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ) أَيْ : وَمِثْلُ ذَلِكَ الْفِتَنُ - أَيِ الِابْتِلَاءُ وَالِاخْتِبَارُ الْعَظِيمُ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ النَّظْمُ الْكَرِيمُ بِمَعُونَةِ وَقَائِعِ الْأَحْوَالِ ، وَمَا كَانَ عِنْدَ نُزُولِ السُّورَةِ مِنَ التَّفَاوُتِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكُفَّارِ ، فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ، أَيْ جَعَلْنَا - بِحَسَبِ سُنَّتِنَا فِي غَرَائِزِ الْبَشَرِ وَأَخْلَاقِهِمْ - بَعْضَهُمْ فِتْنَةً لِبَعْضٍ تَظْهَرُ بِهِ حَقِيقَةُ حَالِهِ غَيْرَ مَشُوبَةٍ بِشَيْءٍ مِنَ الشَّوَائِبِ الَّتِي

تَلْتَبِسُ بِهَا فِي الْعَادَةِ ، كَمَا يَظْهَرُ لِلصَّائِغِ حَقِيقَةُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ يَفْتِنُهُمَا بِالنَّارِ أَوْ بِعَرْضِهِمَا عَلَى الْفَتَّانَةِ (حَجَرُ الصَّائِغِ) (لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ) أَيْ لِيَتَرَتَّبَ عَلَى هَذَا الْفَتْنِ أَنْ يَقُولَ الْمَفْتُونُونَ مِنَ الْأَقْوِيَاءِ الْمُسْتَكْبِرِينَ ، فِي شَأْنِ الضُّعَفَاءِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ : أَهَؤُلَاءِ الصَّعَالِيكُ مِنَ الْعَبِيدِ وَالْمَوَالِي وَالْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَخَصَّهُمْ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ مِنْ جُمْلَتِنَا وَمَجْمُوعِنَا أَوْ مِنْ دُونِنَا ؟ الْمَنُّ : الْإِثْقَالُ بِنِعْمَةٍ عَظِيمَةٍ أَوْ نِعَمٍ كَثِيرَةٍ ، وَالِاسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ وَالتَّعْجِيبِ ، يَعْنُونَ أَنَّهُ لَا يَتَأَتَّى ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ هُمُ الْمُفَضَّلُونَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا أَعْطَاهُمْ مِنَ الْغِنَى وَالثَّرْوَةِ وَالْجَاهِ وَالْقُوَّةِ ، فَلَوْ كَانَ هَذَا الدِّينُ خَيْرًا لَمَنَحَهُمْ إِيَّاهُ دُونَ هَؤُلَاءِ الضُّعَفَاءِ ، قِيَاسًا عَلَى مَا أَعْطَاهُمْ قَبْلَهُ مِنَ الْجَاهِ وَالثَّرَاءِ ، وَمِنْ شَوَاهِدِ هَذَا

*(114/234)*

---

الْقِيَاسِ مَا حَكَاهُ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ : (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) (43 : 31) إِلَخْ . قَالَ الْمُفَسِّرُونَ : أَيْ عَظِيمٍ بِالْمَالِ وَالْجَاهِ كَالْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ مِنْ مَكَّةَ وَهِيَ إِحْدَى الْقَرْيَتَيْنِ ، أَوْ عُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيِّ مِنَ الطَّائِفِ وَهِيَ الْقَرْيَةُ الْأُخْرَى ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِعَظِيمِ مَكَّةَ أَبُو جَهْلٍ ، وَالشَّوَاهِدُ عَلَى هَذَا الْقِيَاسِ الْحَمْلِيِّ كَثِيرَةٌ عَنْهُمْ وَعَنْ غَيْرِهِمْ .

وَقَدْ رَدَّ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ : (أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) وَهَذَا الِاسْتِفْهَامُ التَّقْرِيرِيُّ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهٍ ؛ لِبِنَائِهِ عَلَى إِحَاطَةِ عِلْمِهِ تَعَالَى ، وَوَجْهُ الرَّدِّ أَنَّ الْحَقِيقِيَّ بِمَنِّ اللهِ وَزِيَادَةِ نِعَمِهِ إِنَّمَا هُمُ الَّذِينَ يُقَدِّرُونَهَا قَدْرَهَا ، وَيَعْرِفُونَ حَقَّ الْمُنْعِمِ بِهَا ، فَيَشْكُرُونَهَا لَهُ بِاسْتِعْمَالِهَا فِيمَا تَتِمُّ بِهِ حِكْمَتُهُ وَتُنَالُ مَرْضَاتُهُ - لَا مَنْ سَبَقَ إِنْعَامُهُ عَلَيْهِمْ فَكَفَرُوا وَبَطَرُوا ، وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِهِ ، وَاسْتَكْبَرُوا بَلْ هَؤُلَاءِ جَدِيرُونَ بِأَنْ يَسْلُبَ مِنْهُمْ مَا كَانَ أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ ، وَبِهَذَا مَضَتْ سُنَّتُهُ فِي عِبَادِهِ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانَتِ النِّعَمُ خَالِدَةً تَالِدَةً لَا تُنْزَعُ مِمَّنْ أُوتِيهَا ، بَلْ تُزَادُ وَتُضَاعَفُ لَهُ وَإِنْ كَفَرَ بِهَا ، وَإِذًا لَمَا افْتَقَرَ غَنِيٌّ ، وَلَا ضَعُفَ قَوِيٌّ ، وَلَا ذَلَّ عَزِيزٌ وَلَا ثُلَّ عَرْشُ أَمِيرٍ ، وَهَلِ الْحَقُّ

*(115/234)*

---

الْوَاقِعُ إِلَّا خِلَافَ هَذَا ؟ وَهَلْ فُتِنَ أُولَئِكَ الْكُبَرَاءُ إِلَّا بِالْوَاقِعِ لَهُمْ مِنَ الْغِنَى وَالْقُوَّةِ ، فَظَنُّوا لِقِصَرِ نَظَرِهِمْ ، وَغُرُورِهِمْ بِحَاضِرِهِمْ ، وَجَهْلِهِمْ بِسُنَّةِ اللهِ فِي أَمْثَالِهِمْ - أَنَّهُ تَعَالَى مَا أَعْطَاهُمْ ذَلِكَ إِلَّا تَكْرِيمًا لِذَوَاتِهِمْ ، وَتَفْضِيلًا لَهُمْ عَلَى غَيْرِهِمْ ، حَتَّى إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَحْسَبُ أَنَّ هَذَا حَقٌّ لَهُ عَلَى رَبِّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَإِنْ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ ، كَمَا بَيَّنَ تَعَالَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً

وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى) (41 : 50) وَأُنْزِلَ فِي الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ مِنْ طُغَاةِ قُرَيْشٍ (أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا) (19 : 77) أَيْ فِي الْآخِرَةِ - الْآيَاتِ . وَقَالَ بَعْضُ الْمَغْرُورِينَ بِهَذَا الْقِيَاسِ :

لَقَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ فِيمَا مَضَى كَذَلِكَ يُحْسِنُ فِيمَا بَقِيَ .

وَقَدْ كَشَفَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الْغُرُورَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ وَضَرَبَ لِأَصْحَابِهِ الْأَمْثَالَ كَمَثَلِ ذِي الْجَنَّتَيْنِ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ ، وَزَجَرَ أَهْلَهُ وَأَضْدَادَهُمْ فِي سُورَةِ الْفَجْرِ ، وَفَصَّلَ لَهُمُ الْحَقِيقَةَ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ ، بِقَوْلِهِ : (كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ) (17 : 20) .

*(116/234)*

---

وَهَذَا الرَّدُّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ هُنَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَدُومُ لَهُمْ مِنَ النِّعَمِ ، مَا اغْتَرُّوا بِهِ ، وَلَا يَبْقَى الْمُؤْمِنُونَ عَلَى الضَّعْفِ الَّذِي صَبَرُوا عَلَيْهِ ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ تَنْعَكِسَ الْحَالُ ، فَيُسْلَبُ

*(117/234)*

---

أُولَئِكَ الْأَقْوِيَاءُ مَا أُعْطُوا مِنَ الْقُوَّةِ وَالْمَالِ ، وَتَدُولُ الدَّوْلَةُ لِهَؤُلَاءِ الضُّعَفَاءِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَيَكُونُوا هُمُ الْأَئِمَّةَ الْوَارِثِينَ ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى وَفَّقَهُمْ لِلْإِيمَانِ ، وَأَوْدَعَ فِي أَنْفُسِهِمُ الِاسْتِعْدَادَ لِلشُّكْرِ وَهُوَ يُوجِبُ الْمَزِيدَ (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) (14 : 76) وَكَذَلِكَ كَانَ ، وَصَدَقَ وَعْدُ الرَّحْمَنِ وَظَهَرَ إِعْجَازُ الْقُرْآنِ ، وَمَا بَعْدَ بَيَانِ اللهِ تَعَالَى مِنْ بَيَانٍ ، وَإِنَّنَا نَرَى النَّاسَ عَنْ هِدَايَتِهِ غَافِلِينَ ، وَبِوُجُوهِ إِعْجَازِهِ جَاهِلِينَ ، حَتَّى إِنَّ فِيمَنْ يُسَمَّوْنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ مَنْ يَفْتَتِنُ بِشُبْهَةِ أُولَئِكَ الْمُشْرِكِينَ الدَّاحِضَةِ ، فَيَجْعَلُهَا حُجَّةً نَاهِضَةً ؛ تَارَةً عَلَى تَفْضِيلِ الْأَغْنِيَاءِ عَلَى الْفُقَرَاءِ ، وَتَارَةً عَلَى تَفْضِيلِ الْأُمَمِ الْقَوِيَّةِ عَلَى الْأُمَمِ الضَّعِيفَةِ ، جَاهِلِينَ أَنَّ الْفَضِيلَةَ الصَّحِيحَةَ فِي شُكْرِ النِّعَمِ بِاسْتِعْمَالِهَا فِيمَا يُرْضِي الرَّبَّ لَا فِي أَعْيَانِ النِّعَمِ الَّتِي تُرَى فِي الْيَدِ . فَرُبَّ غَنِيٍّ شَاكِرٌ ، وَرُبَّ فَقِيرٍ صَابِرٌ ، وَكَمْ مِنْ مُنَعَّمٍ سُلِبَ النِّعْمَةَ بِكُفْرِهَا ، وَكَمْ مِنْ مَحْرُومٍ أُوتِيَ النِّعَمَ بِالِاسْتِعْدَادِ لِشُكْرِهَا ، ثُمَّ زِيدَتْ بِقَدْرِ شُكْرِهِ لَهَا ، وَكَمْ مِنْ قَوِيٍّ أَضْعَفَهُ اللهُ بِبَغْيِهِ ، وَكَمْ مِنْ ذَلِيلٍ أَعَزَّهُ اللهُ بِإِيمَانِهِ وَعَدْلِهِ .

*(118/234)*

هَذَا وَإِنَّ ظَاهِرَ حِكَايَةِ قَوْلِ الْمَفْتُونِينَ يَدُلُّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ : (فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ) فَتَنَّا كُبَرَاءَ الْمُشْرِكِينَ بِضُعَفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ - أَيِ اخْتَبَرْنَا بِهِ حَالَهُمْ فِي كَوْنِ تَرْكِهِمْ لِلْإِيمَانِ لَمْ يَكُنْ إِلَّا جُحُودًا نَاشِئًا عَنِ الْكِبْرِ وَالْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ ، لَا عَنْ حُجَّةٍ وَلَا شُبْهَةٍ مِمَّا يُظْهِرُونَهُ ، وَمَفْهُومُهُ أَنَّ ضُعَفَاءَ الْمُؤْمِنِينَ السَّابِقِينَ لَمْ يَفْتَتِنُوا بِغِنَى كُبَرَاءِ الْمُشْرِكِينَ وَقُوَّتِهِمْ ، وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ

الْمُفَسِّرِينَ أَنَّهُمْ فُتِنُوا وَإِنْ لَمْ تُبَيِّنِ الْآيَةُ كَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ، إِذْ لَمْ تَحْكِ شَيْئًا عَنْ لِسَانِهِمْ . وَقَدْ وَرَدَ فِي الِاخْتِبَارِ الْعَامِّ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ : (وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ) (25 : 20) أَيْ جَعَلْنَا كُلًّا مِنْكُمُ اخْتِبَارًا لِلْآخَرِ فِي اخْتِلَافِ حَالِهِ مَعَهُ بِالْغِنَى وَالْفَقْرِ ، أَوِ الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ ، أَوِ الصِّحَّةِ وَالْمَرَضِ ، أَوِ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ - هَذَا يَحْتَقِرُ هَذَا وَيَبْغِي عَلَيْهِ ، وَهَذَا يَحْسُدُ هَذَا وَيَكِيدُ لَهُ . فَاصْبِرُوا فَإِنَّهُ لَا يَسْلَمُ مِنْ هَذِهِ الْفِتَنِ إِلَّا الصَّابِرُونَ . نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا مِنَ الصَّابِرِينَ الشَّاكِرِينَ .

*(119/234)*

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ) .

*(120/234)*

---

هَاتَانِ الْآيَتَانِ مُتَمِّمَتَانِ لِلسِّيَاقِ فِيمَا قَبْلَهُمَا بِالْجَمْعِ بَيْنَ الْإِرْشَادِ السَّلْبِيِّ وَالْإِيجَابِيِّ لِلرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي سِيَاسَتِهِ لِلْمُؤْمِنِينَ ، فَبَعْدَ أَنْ نَهَاهُ رَبُّهُ عَنْ طَرْدِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْهُمْ مِنْ حَضْرَتِهِ اسْتِمَالَةً لِكُبَرَاءِ الْمُتَكَبِّرِينَ مِنْ قَوْمِهِ ، وَطَمَعًا فِي إِقْبَالِهِمْ عَلَيْهِ وَسَمَاعِهِمْ لِدَعْوَتِهِ وَإِيمَانِهِمْ بِهِ - كَمَا اقْتَرَحَ عَلَيْهِ بَعْضُهُمْ - أَمَرَهُ بِأَنْ يَلْقَاهُمْ كَسَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالتَّحِيَّةِ وَالسَّلَامِ وَالتَّبْشِيرِ بِرَحْمَةِ اللهِ وَمَغْفِرَتِهِ عَلَى الْوَجْهِ الْمُبَيَّنِ فِي الْآيَةِ الْأُولَى مِنْ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي سَبَبِ نُزُولِ (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ) مِنْ رِوَايَةِ عِكْرِمَةَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ اسْتَحْسَنَ إِجَابَةَ أَشْرَافِ الْكُفَّارِ إِلَى اقْتِرَاحِهِمْ ، وَأَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتِ الْآيَاتُ فِي ذَلِكَ أَقْبَلَ فَاعْتَذَرَ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي قَبُولِ اعْتِذَارِهِ ، وَتَقَدَّمَ أَنَّ الرِّوَايَةَ ضَعِيفَةٌ ، وَأَنَّ هَذِهِ الزِّيَادَةَ فِيهَا غَيْرُ مَقْبُولَةٍ ، وَأَنَّ رِوَايَاتِ نُزُولِ الْأَنْعَامِ دُفْعَةً وَاحِدَةً أَقْوَى مِنْهَا ، وَهِيَ مُعَارِضَةٌ لَهَا . وَالْآنَ رَأَيْتُ فِي التَّفْسِيرِ الْكَبِيرِ لِلرَّازِيِّ اسْتِشْكَالَ هَذَا بِاتِّفَاقِ النَّاسِ عَلَى

نُزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ دُفْعَةً وَاحِدَةً ، وَقَدْ تَقَدَّمَ التَّحْقِيقُ فِي مَسْأَلَةِ نُزُولِ السُّورَةِ دُفْعَةً وَاحِدَةً وَفِي زِيَادَةِ رِوَايَةِ عِكْرِمَةَ ، وَيُعَارِضُهُ أَيْضًا مَا أَخْرَجَهُ جُلُّ رُوَاةِ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ عَنْ مَاهَانَ

(121/234)

---

قَالَ : أَتَى قَوْمٌ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالُوا : إِنَّا أَصَبْنَا ذُنُوبًا عِظَامًا ، فَمَا رَدَّ عَلَيْهِمْ شَيْئًا ، فَانْصَرَفُوا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا) الْآيَةَ فَدَعَاهُمْ فَقَرَأَهَا عَلَيْهِمْ ، وَلَكِنَّ الرِّوَايَةَ مِنْ مَرَاسِيلِ مَاهَانَ ، لَا يُحْتَجُّ بِهَا ، وَلَيْسَتْ صَرِيحَةً كَرِوَايَةِ عِكْرِمَةَ فِي مُعَارَضَةِ نُزُولِ السُّورَةِ دُفْعَةً وَاحِدَةً ، إِذْ يُجِيزُ أَنْ يَكُونَ

النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تَلَاهَا عَلَى مَنْ سَأَلُوهُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ عِنْدَ نُزُولِهَا فِي ضِمْنِ السُّورَةِ ، وَمِثْلُ هَذَا التَّعْبِيرِ كَثِيرٌ فِي كَلَامِ رُوَاةِ التَّفْسِيرِ . وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي مُعَامَلَةِ جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ لَا فِي عُمَرَ وَحْدَهُ كَمَا فِي رِوَايَةِ عِكْرِمَةَ ، وَلَا فِيمَنْ سَأَلُوهُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ كَمَا فِي رِوَايَةِ مَاهَانَ - وَإِنْ فَرَضْنَا صِحَّةَ الرِّوَايَتَيْنِ - وَلَا فِيمَنْ نُهِيَ عَنْ طَرْدِهِمْ خَاصَّةً كَمَا يَقُولُ بَعْضُ

الْمُفَسِّرِينَ ، بَلْ فِي جَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مِنَ الْفُقَرَاءِ الْمُسْتَضْعَفِينَ الَّذِينَ اقْتُرِحَ

عَلَيْهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – طَرْدُهُمْ فَيَدْخُلُونَ فِيهَا بِمَعُونَةِ السِّيَاقِ دُخُولًا أَوَّلِيًّا ، وَهَذَا مَا تُفْهِمُهُ عِبَارَتُهَا ، وَمَا سِوَاهُ فَمُتَكَلَّفٌ لِتَطْبِيقِهِ عَلَى الرِّوَايَاتِ .

*(122/234)*

---

وَبَعْدَ كِتَابَةِ مَا تَقَدَّمَ ، وَالتَّوَجُّهِ إلَى بَيَانِ مَعْنَى الْآيَةِ وَمُرَاجَعَةِ الْمُصْحَفِ الشَّرِيفِ فِيهَا وَفِيمَا قَبْلَهَا ، كَانَ أَوَّلُ مَا تَبَادَرَ إلَى ذِهْنِي أَنَّ الْمُرَادَ بِالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآيَاتِ هُنَا هُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَدْخُلُونَ فِي الْإِسْلَامِ آنًا بَعْدَ آنٍ ، عَنْ بَيِّنَةٍ وَبُرْهَانٍ ، لَا مَنْ آمَنُوا وَأَسْلَمُوا مِنْ قَبْلُ مِمَّنْ نُهِيَ عَنْ طَرْدِهِمْ وَغَيْرُهُمْ ، ذَلِكَ بِأَنَّ الْفِعْلَ الْمُضَارِعَ "يُؤْمِنُونَ" يُفِيدُ وُقُوعَ الْإِيمَانِ فِي الْحَالِ أَوِ الِاسْتِقْبَالِ ، وَلَا يُعَبَّرُ بِهِ عَمَّنْ آمَنُوا فِي الْمَاضِي إلَّا بِضَرْبٍ مِنَ التَّجَوُّزِ فِي الِاسْتِعْمَالِ – كَمَا يُعَبَّرُ بِالْمَاضِي عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ أَحْيَانًا لِنُكْتَةٍ تَقْتَضِي ذَلِكَ – كَإِرَادَةِ تَصْوِيرِ مَا مَضَى كَأَنَّهُ وَاقِعٌ الْآنَ ، أَوْ إفَادَةِ مَا يَتْلُو ذَلِكَ الْمَاضِي مِنَ التَّجَدُّدِ وَالِاسْتِمْرَارِ ، وَلَا يَظْهَرُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ظُهُورًا بَيِّنًا يُرَجِّحُ صَرْفَ الْفِعْلِ عَنْ أَصْلِ مَعْنَاهُ ، وَلَكِنْ قَدْ يُرَادُ بِهِ التَّعْبِيرُ عَنِ الشَّأْنِ ، فَإِنَّهُ يَكْثُرُ فِي الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ إذَا كَانَ صِلَةً لِلْمَوْصُولِ ، وَيُرَجِّحُ الْأَصْلُ هُنَا تَطْبِيقَ السِّيَاقِ عَلَى حَالِ النَّاسِ فِي زَمَنِ نُزُولِ السُّورَةِ ، وَالْجُمْلَةُ الشَّرْطِيَّةُ الَّتِي افْتُتِحَتْ بِهَا الْآيَةُ ، وَإِنَّمَا نُبَيِّنُ ذَلِكَ بِمَا يَظْهَرُ بِهِ التَّنَاسُبُ بَيْنَ الْآيَاتِ أَتَمَّ الظُّهُورِ .

كَانَ جُمْهُورُ النَّاسِ كَافِرِينَ ، إمَّا كُفْرُ جُحُودٍ وَعِنَادٍ ، وَإِمَّا كُفْرُ جَهْلٍ وَتَقْلِيدٍ لِلْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ ، وَكَانَ يَدْخُلُ فِي الْإِسْلَامِ الْأَفْرَادُ بَعْدَ الْأَفْرَادِ ، وَكَانَ أَكْثَرُ السَّابِقِينَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَالْفُقَرَاءِ ، وَكَانَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَكُونُ تَارَةً مَعَ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُعَلِّمُهُمْ وَيُرْشِدُهُمْ ، وَتَارَةً يَتَوَجَّهُ إلَى أُولَئِكَ الْكَافِرِينَ يَدْعُوهُمْ وَيُنْذِرُهُمْ ، وَكَانَ الْمُعَانِدُونَ مِنْ كُبَرَائِهِمْ يَقْتَرِحُونَ عَلَيْهِ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةَ لِلتَّعْجِيزِ ، وَتَارَةً يُحَقِّرُونَ شَأْنَهُ بِوُجُودِهِ فِي عَامَّةِ أَوْقَاتِهِ مَعَ أُولَئِكَ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَقَدِ اقْتَرَحُوا عَلَيْهِ طَرْدَهُمْ مِنْ حَضْرَتِهِ ، وَلَعَلَّهُمْ كَانُوا يُرِيدُونَ بِذَلِكَ أَنْ يَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ ، وَأَنْ يَكُونَ مُنْفَرِدًا لِغَيْرِهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ ، وَكَانَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حَرِيصًا عَلَى إيمَانِ أُولَئِكَ الْكُبَرَاءِ لِمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ ، فَأَرْشَدَهُ رَبُّهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ فِي هَذَا السِّيَاقِ الْقَوْلِيِّ الْأَخِيرِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ إلَى أَنْ يُبَيِّنَ لِمُقْتَرِحِي الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ مِنَ الْكُفَّارِ أَنَّ حَقِيقَةَ الرِّسَالَةِ لَا تَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ قُدْرَةُ

الرَّسُولِ وَعِلْمُهُ كَقُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى وَعِلْمِهِ ، وَلَا أَنْ يَكُونَ مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ حَتَّى يَقْدِرَ عَلَى مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْبَشَرُ مِنَ الْآيَاتِ ، وَبِأَنْ يُنْذِرَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِنْذَارًا خَاصًّا بِهِمْ ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يُرْجَى أَنْ يَنْتَفِعُوا بِكُلِّ إِنْذَارٍ ، وَبِأَلَّا يَطْرُدَ مِنْ حَضْرَتِهِ مِنْهُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ، بِبَاعِثِ النِّيَّةِ الصَّحِيحَةِ وَالْإِخْلَاصِ ، وَيَسْتَلْزِمُ ذَلِكَ أَنْ يَسْتَمِرَّ عَلَى مُعَامَلَتِهِمُ الْأَوْلَى الَّتِي أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِهَا فِي قَوْلِهِ : (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) (18 : 28) فَبَعْدَ هَذَا الْإِرْشَادِ فِي شَأْنِ الْكُفَّارِ الْمُعَانِدِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ السَّابِقِينَ حَسُنَ أَنْ يُرْشِدَ اللهُ رَسُولَهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِلَى شَيْءٍ فِي شَأْنِ الْفَرِيقِ الثَّالِثِ مِنَ النَّاسِ ، وَهُمُ الَّذِينَ يَجِيئُونَ الرَّسُولَ آنًا بَعْدَ آنٍ مُؤْمِنِينَ بِآيَاتِ اللهِ الْمُثْبِتَةِ لِلتَّوْحِيدِ وَالرِّسَالَةِ ، فَيَدْخُلُونَ فِي الْإِسْلَامِ مُذْعِنِينَ لِأَمْرِ اللهِ وَرَسُولِهِ – وَهُمُ الَّذِينَ أَرَادَ رُؤَسَاءُ الْمُشْرِكِينَ تَنْفِيرَهُمْ وَحَاوَلُوا صَدَّهُمْ – فَأَمَرَهُ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ أَنَّهُمْ صَارُوا فِي سَلَامٍ وَأَمَانٍ مِنَ اللهِ تَعَالَى ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى كَتَبَ عَلَى

نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ فَهُوَ لَا يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَانَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، وَمَنْ عَمِلَ بَعْدَهُ سُوءًا بِجَهَالَةٍ فَمَا عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَمْحُوَ أَثَرَهُ بِالتَّوْبَةِ وَالْإِصْلَاحِ ، قَالَ :

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) السَّلَامُ وَالسَّلَامَةُ مَصْدَرَانِ مِنَ الثُّلَاثِيِّ ، يُقَالُ : سَلِمَ فُلَانٌ مِنَ الْمَرَضِ أَوْ مِنَ الْبَلَاءِ سَلَامًا وَسَلَامَةً ، وَمَعْنَاهُمَا الْبَرَاءَةُ وَالْعَافِيَةُ ، وَالسَّلَامُ وَالْمُسَالَمَةُ مَصْدَرَانِ مِنَ الرُّبَاعِيِّ أَيْضًا ، يُقَالُ : سَالَمَهُ أَيْ بَارَأَهُ وَتَارَكَهُ ، وَمِنْهُ تَرْكُهُ الْحَرْبَ . وَالسَّلَامُ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى ، يَدُلُّ عَلَى تَنْزِيهِهِ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنْ نَقْصٍ ، وَعَجْزٍ ، وَفَنَاءٍ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ عُيُوبِ الْخَلْقِ وَضَعْفِهِمْ . وَاسْتُعْمِلَ السَّلَامُ فِي الْمُتَارَكَةِ وَفِي التَّحِيَّةِ مَعْرِفَةً وَنَكِرَةً ، يُقَالُ : سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ ، وَهُوَ بِمَعْنَى الدُّعَاءِ بِالسَّلَامَةِ مِنْ كُلِّ مَا يَسُوءُ ، وَيُفِيدُ تَأْمِينَ الْمُسَلَّمِ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ أَذًى يَنَالُهُ مِنَ الْمُسْلِمِ ،

*(126/234)*

---

فَهُوَ آيَةُ الْمَوَدَّةِ وَالصَّفَاءِ ، وَثَبَتَ فِي التَّنْزِيلِ أَنَّ السَّلَامَ تَحِيَّةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ يُحَيِّيهِمْ بِهَا رَبُّهُمْ جَلَّ وَعَلَا ، وَمَلَائِكَتُهُ الْكِرَامُ وَيُحَيِّي بِهَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَهُوَ تَحِيَّةُ الْإِسْلَامِ الَّذِي هُوَ دِينُ السِّلْمِ وَالْمُسَالَمَةِ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً) (2 : 208) وَاخْتَلَفُوا فِي هَذَا السَّلَامِ هُنَا : أَهُوَ تَحِيَّةٌ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ أَنْ يَبْدَأَ بِهَا الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِهِ إِذَا جَاءُوهُ إِكْرَامًا

خَاصًّا بِهِمْ مُخَالِفًا لِلْأَصْلِ الْعَامِّ – وَهُوَ كَوْنُ الْقَادِمِ هُوَ الَّذِي يُلْقِي السَّلَامَ – أَمْ هُوَ تَحِيَّةٌ مِنْهُ تَعَالَى أَمَرَ رَسُولَهُ أَنْ يُبَلِّغَهُمْ إِيَّاهَا عَنْهُ ، أَمْ هُوَ إِخْبَارٌ عَنْهُ تَعَالَى بِسَلَامَتِهِمْ وَأَمْنِهِمْ مِنْ عِقَابِهِ ، قَفَّى عَلَيْهِ بِبِشَارَتِهِمْ بِمَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ؟ رُوِيَ الْأَوَّلُ عَنْ عِكْرِمَةَ فَهُوَ ، خَاصٌّ بِمَنْ قَالَ : إِنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِمْ ، وَالثَّانِي عَنِ الْحَسَنِ ، وَالثَّالِثُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَهُوَ أَظْهَرُهَا ، وَالْمُرَادُ بِالْآيَاتِ آيَاتُ الْقُرْآنِ ، الْمُشْتَمِلَةُ عَلَى حُجَجِ اللهِ وَآيَاتِهِ فِي الْأَنْفُسِ وَالْآفَاقِ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى آيَةِ النَّهْيِ (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ) . إِلَخْ . وَالْآيَةُ الَّتِي بَيْنَهُمَا مُعْتَرِضَةٌ بَيَّنَ فِيهَا ابْتِلَاءَ كُبَرَاءِ الْمُشْرِكِينَ بِضُعَفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ وَرَغْبَتَهُمْ فِي طَرْدِهِمْ .

*(127/234)*

---

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) تَقَدَّمَ مِثْلُهُ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ ، وَكِتَابَتُهَا إِيجَابُهَا عَلَى ذَاتِهِ الْعَلِيَّةِ ، وَلَهُ أَنْ يُوجِبَ عَلَى نَفْسِهِ مَا شَاءَ وَلَا يُوجِبُ عَلَيْهِ أَحَدٌ شَيْئًا . فَالرَّحْمَةُ مِنْ شُئُونِ الرُّبُوبِيَّةِ الْوَاجِبَةِ لَهَا لَا عَلَيْهَا ، وَإِنَّ فِي نِظَامِ الْفِطْرَةِ الْبَشَرِيَّةِ وَمَا سَخَّرَ اللهُ لِلْبَشَرِ مِنْ أَسْبَابِ الْمَعِيشَةِ الْمَادِّيَّةِ ، وَمَا آتَاهُمْ مِنْ وَسَائِلِ الْعُلُومِ الْكَسْبِيَّةِ ، وَمِنْ هِدَايَةِ الْوَحْيِ الْوَهْبِيَّةِ – لَآيَاتٍ بَيِّنَاتٍ عَلَى سَعَةِ الرَّحْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ ، وَتَرْبِيَةِ عِبَادِهِ بِهَا فِي حَيَاتِهِمُ الْجَسَدِيَّةِ وَالرُّوحِيَّةِ ، بَلْ هِيَ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، وَلَكِنَّ كِتَابَتَهَا

أَمْرٌ آخَرُ خَصَّ بِهِ بَعْضَ الْخَلْقِ كَمَا يَأْتِي فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ . وَقَدْ بَيَّنَ لَنَا سُبْحَانَهُ أَصْلًا مِنْ أُصُولِ الدِّينِ ، فِي هَذِهِ الرَّحْمَةِ الْمَكْتُوبَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ :

(128/234)

---

(أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ) إلَخْ . قَرَأَ نَافِعٌ ، وَابْنُ عَامِرٍ ، وَعَاصِمٌ ، وَيَعْقُوبُ " أَنَّهُ " بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ " إنَّهُ " بِكَسْرِهَا ، فَأَمَّا قِرَاءَةُ الْفَتْحِ فَعَلَى الْبَدَلِ مِنَ الرَّحْمَةِ ، أَيْ بَدَلِ الْبَعْضِ مِنَ الْكُلِّ ؛ إذْ ذَكَرَ مِنْ أَنْوَاعِ الرَّحْمَةِ الْمَكْتُوبَةِ مَا هُمْ أَحْوَجُ إلَى مَعْرِفَتِهِ بِنَصِّ الْوَحْيِ ، وَهُوَ حُكْمُ مَنْ يَعْمَلُ السُّوءَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَكَيْفَ يُعَامِلُهُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَأَمَّا سَائِرُ أَنْوَاعِهَا ، وَمَا هُوَ إحْسَانٌ غَيْرُ مَكْتُوبٍ مِنْهَا ، فَيُمْكِنُ أَنْ يُسْتَدَلَّ عَلَيْهِمَا بِالنَّظَرِ

(129/234)

---

فِي الْأَنْفُسِ وَالْآفَاقِ ، وَهُوَ مَا أَشَرْنَا إلَيْهِ فِي تَفْسِيرِ كِتَابَتِهَا . وَأَمَّا قِرَاءَةُ الْكَسْرِ فَعَلَى الِاسْتِئْنَافِ النَّحْوِيِّ أَوِ الْبَيَانِيِّ ، كَأَنَّهُ قِيلَ : مَا هَذِهِ الرَّحْمَةُ ؟ أَوْ : مَا حَظُّنَا مِنْهَا فِي أَعْمَالِنَا ؟ وَهَلْ مِنْ مُقْتَضَاهَا أَلَّا نُؤَاخَذَ بِذَنْبٍ ، وَأَنْ يُغْفَرَ لَنَا كُلُّ سُوءٍ بِلَا شَرْطٍ وَلَا قَيْدٍ ؟ فَجَاءَ

الْجَوَابُ : إِنَّهُ - أَيِ الْحَالَ وَالشَّأْنَ - مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ عَمَلًا تَسُوءُ عَاقِبَتُهُ وَتَأْثِيرُهُ لِضَرَرِهِ الَّذِي حَرَّمَهُ اللَّهُ لِأَجْلِهِ حَالَ كَوْنِهِ مُتَلَبِّسًا بِجَهَالَةٍ دَفَعَتْهُ إِلَى ذَلِكَ السُّوءِ ، كَغَضَبٍ شَدِيدٍ حَمَلَهُ عَلَى السَّبِّ أَوِ الضَّرْبِ ، أَوْ شَهْوَةٍ مُغْتَلِمَةٍ قَادَتْهُ إِلَى انْتِهَاكِ عِرْضٍ ، فَالْجَهَالَةُ هُنَا هِيَ السَّفَهُ وَالْخِفَّةُ الَّتِي تُقَابِلُهَا الرَّوِيَّةُ وَالْحِكْمَةُ وَالْعِفَّةُ ، وَقِيلَ : إِنَّهَا الْجَهْلُ الَّذِي يُقَابِلُهُ الْعِلْمُ ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ يَعْمَلِ السُّوءَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ جَاهِلًا ، فَإِمَّا أَنْ يَجْهَلَ مَا فِيهِ مِنَ الْقُبْحِ وَالضَّرَرِ ، وَإِمَّا أَنْ يَجْهَلَ سُوءَ عَاقِبَتِهِ وَقُبْحَ تَأْثِيرِهِ فِي نَفْسِهِ ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ سُخْطِ رَبِّهِ وَعِقَابِهِ ، ذَهَابًا مَعَ الْأَمَانِي وَاغْتِرَارًا بِتَأَوُّلِ النُّصُوصِ . وَمِنْ هُنَا قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : كُلُّ مَنْ عَمِلَ مَعْصِيَةً فَهُوَ جَاهِلٌ .

*(130/234)*

---

وَحَاصِلُ الْمَعْنَى عَلَى الْقِرَاءَةِ الْأُولَى : كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ الْخَاصَّةَ الَّتِي هِيَ الْمَغْفِرَةُ وَالرَّحْمَةُ لِمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ عَمَلِ السُّوءِ بِجَهَالَةٍ وَأَصْلَحَ عَمَلَهُ ، وَعَلَى الثَّانِيَةِ : إِنْ سَأَلْتُمْ عَنْ حَظِّكُمْ مِنْ هَذِهِ الرَّحْمَةِ فَالْجَوَابُ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ (ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ) أَيْ ثُمَّ رَجَعَ عَنْ ذَلِكَ السُّوءِ بَعْدَ أَنْ عَمِلَهُ شَاعِرًا بِقُبْحِهِ ، نَادِمًا عَلَيْهِ خَائِفًا مِنْ عَاقِبَتِهِ ، وَأَصْلَحَ

عَمَلَهُ بِأَنْ أَتْبَعَ الْعَمَلَ السَّيِّئَ التَّأْثِيرَ فِي النَّفْسِ عَمَلًا يُضَادُّهُ وَيَذْهَبُ بِأَثَرِهِ مِنْ قَلْبِهِ ، حَتَّى يَعُودَ إِلَى النَّفْسِ زَكَاؤُهَا وَطَهَارَتُهَا ، وَتَصِيرَ كَمَا كَانَتْ أَهْلًا لِنَظَرِ الرَّبِّ وَقُرْبِهِ (فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) أَيْ : فَشَأْنُهُ سُبْحَانَهُ فِي مُعَامَلَتِهِ أَنَّهُ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ ، فَيَغْفِرُ لَهُ مَا تَابَ عَنْهُ ، وَيَتَغَمَّدُهُ بِرَحْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ .

*(131/234)*

---

وَهَذِهِ قَاعِدَةٌ مِنْ قَوَاعِدِ الدِّينِ وَأُسٌّ مِنْ إِسَاسِهِ ، أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ أَنْ يُبَلِّغَهَا لِمَنْ يَدْخُلُونَ فِيهِ لِيَهْتَدُوا بِهَا ، حَتَّى لَا يَغْتَرُّوا بِمَغْفِرَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَيَحْمِلَهُمُ الْغُرُورُ عَلَى التَّفْرِيطِ فِي جَنْبِ اللَّهِ ، وَالْغَفْلَةِ عَنْ تَزْكِيَةِ أَنْفُسِهِمْ ، وَالْمُبَادَرَةِ إِلَى تَطْهِيرِهَا مِنْ إِفْسَادِ الذُّنُوبِ لَهَا ، إِلَى أَنْ تُحِيطَ بِهَا خَطِيئَتُهَا ، وَقَدْ بَيَّنَّا هَذِهِ الْقَاعِدَةَ مِرَارًا فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ الْمُقَرِّرَةِ لَهَا ؛ تَارَةً بِالْإِيجَازِ ، وَتَارَةً بِالْإِطْنَابِ ، وَتَارَةً بِالتَّوَسُّطِ بَيْنَهُمَا . وَكَانَ أَوْسَعُ مَا كَتَبْنَاهُ فِيهَا تَفْسِيرَ قَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ) إِلَى قَوْلِهِ : (أَلِيمًا) (4 : 17 ، 18) فَيُرَاجَعُ فِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنَ التَّفْسِيرِ [رَاجِعْ ص 361 - 370 ج4 ط الْهَيْئَةِ] ، وَنَدَعُ أَصْحَابَ الْمَذَاهِبِ الْكَلَامِيَّةِ وَالْفِقْهِيَّةِ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ يَتَجَادَلُونَ فِي كَوْنِ الْآيَةِ مُؤَيِّدَةً لِمَذْهَبِ الْمُعْتَزِلَةِ أَوْ غَيْرَ مُؤَيِّدَةٍ لَهُ ، فَإِنَّ هَذِهِ

الْمُجَادَلَاتِ تَصْرِفُ الْمُشْتَغِلِينَ بِهَا عَنِ الْمَوْعِظَةِ وَالْحِكْمَةِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللهُ تَعَالَى لِبَيَانِهِمَا .

وَقَدْ فَتَحَ هَمْزَةَ " فَأَنَّهُ " فِي الْآيَةِ مَنْ فَتَحَ هَمْزَةَ " أَنَّهُ " مِنَ الْقُرَّاءِ سِوَى نَافِعٍ ، فَإِنَّهُ قَرَأَ بِالْكَسْرِ كَبَاقِي الْقُرَّاءِ . وَأَجَازَ الزَّجَّاجُ كَسْرَ الْأُولَى وَفَتْحَ الثَّانِيَةِ ، وَهِيَ قِرَاءَةُ الْأَعْرَجِ وَالزُّهْرِيِّ وَأَبِي عَمْرٍو الدَّانِي .

(132/234)

---

(وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ) أَيْ : وَمِثْلُ ذَلِكَ التَّفْصِيلِ الْوَاضِحِ وَعَلَى نَحْوِهِ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ الْمُنَزَّلَةِ فِي بَيَانِ الْحَقَائِقِ الَّتِي يَهْتَدِي بِهَا أَهْلُ النَّظَرِ الصَّحِيحِ وَالْفِقْهِ الدَّقِيقِ لِمَا فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ وَالْمَوَاعِظِ وَالْعِبْرَةِ ، (وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ) أَيْ وَلِأَجْلِ أَنْ يَظْهَرَ بِهَا طَرِيقُ الْمُجْرِمِينَ فَيَمْتَازُونَ بِهَا عَنْ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ . قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ ، وَابْنُ عَامِرٍ ، وَأَبُو عُمَرَ ، وَيَعْقُوبَ ، وَحَفْصٌ ، عَنْ عَاصِمٍ " وَلِتَسْتَبِينَ " بِالتَّاءِ وَ " سَبِيلٌ " بِالرَّفْعِ - أَيْ وَلِتَظْهَرَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ وَتُعْرَفَ - وَالسَّبِيلُ يُؤَنِّثُهُ أَهْلُ الْحِجَازِ ، وَيُذَكِّرُهُ بَنُو تَمِيمٍ ، وَجَاءَ التَّنْزِيلُ بِاللُّغَتَيْنِ - وَقَرَأَ نَافِعٌ بِالتَّاءِ وَنَصَبَ السَّبِيلَ عَلَى أَنَّهُ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَيْ وَلِتَتَبَيَّنَ أَيُّهَا الرَّسُولُ طَرِيقَ الْمُجْرِمِينَ فَلَا يَخْفَى عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْهَا ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ " وَلِيَسْتَبِينَ " بِالْيَاءِ وَرَفْعِ " سَبِيلُ " عَلَى لُغَةِ التَّذْكِيرِ ، فَفَائِدَةُ اخْتِلَافِ الْقِرَاءَاتِ هُنَا لَفْظِيَّةٌ ، وَهِيَ

تَذْكِيرُ السَّبِيلِ وَتَأْنِيثُهَا ، وَمَجِيءُ فِعْلِ الِاسْتِبَانَةِ لَازِمًا وَمُتَعَدِّيًا ، يُقَالُ : بَانَ الشَّيْءُ وَاسْتَبَانَ بِمَعْنَى : وَضَحَ وَظَهَرَ ، وَيُقَالُ : اسْتَبَنْتُ الشَّيْءَ بِمَعْنَى اسْتَوْضَحْتُهُ وَتَبَيَّنْتُهُ ، أَيْ : عَرَفْتُهُ بَيِّنًا ، وَأَمَّا فَائِدَةُ الْجَمْعِ بَيْنَ الْغَيْبَةِ وَالْخِطَابِ فِيهَا فَهِيَ أَنَّ تَفْصِيلَ الْآيَاتِ هُوَ فِي نَفْسِهِ مُوَضِّحٌ لِسَبِيلِ الْمُجْرِمِينَ ،

(133/234)

---

وَأَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمُخَاطَبِ بِذَلِكَ أَوَّلًا وَبِالذَّاتِ ثُمَّ لِغَيْرِهِ أَنْ يَسْتَبِينَهُ مِنْهَا بِتَأَمُّلِهَا وَفَهْمِهَا وَالِاعْتِبَارِ بِهَا ، فَكَمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ فِي نَفْسِهَا يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْهَا (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) (12 : 105) وَالْعَطْفُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَلِتَسْتَبِينَ) قِيلَ : إِنَّهُ عَطْفٌ عَلَى عِلَّةٍ مَحْذُوفَةٍ لِقَوْلِهِ : (نُفَصِّلُ) لَمْ يَقْصِدْ تَعْلِيلَهُ بِهَا بِخُصُوصِهَا ، وَإِنَّمَا قَصَدَ الْإِشْعَارَ بِأَنَّ لَهُ فَوَائِدَ جَمَّةً مِنْ جُمْلَتِهَا مَا ذُكِرَ ، أَيْ : وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِمَا فِي تَفْصِيلِهَا مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْحِكَمِ ، وَبَيَانِ الْحُجَجِ وَالْمَوَاعِظِ وَالْعِبَرِ ، وَلِأَجْلِ أَنْ تَسْتَبِينَ سَبِيلُ

(134/234)

الْمُجْرِمِينَ ، فَيَكُونَ مِنْ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ . وَقِيلَ : إِنَّهُ عِلَّةٌ لِفِعْلٍ مُقَدَّرٍ هُوَ عَيْنُ الْمَذْكُورِ ، أَيْ : وَلِأَجْلِ أَنْ تَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ يُعْرَفُ بِضِدِّهِ ، بَلْ بَيَّنَ قَبْلَهُ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ مِنَ الْكُفَّارِ أَيْضًا . وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : وَمِثْلُ ذَلِكَ التَّفْصِيلِ الْبَيِّنِ نُفَصِّلُ آيَاتِ الْقُرْآنِ وَنُلَخِّصُهَا فِي صِفَةِ أَحْوَالِ الْمُجْرِمِينَ ؛ مَنْ هُوَ مَطْبُوعٌ عَلَى قَلْبِهِ لَا يُرْجَى إِسْلَامُهُ ، وَمَنْ يُرَى فِيهِ أَمَارَةُ الْقَبُولِ وَهُوَ الَّذِي يَخَافُ إِذَا سَمِعَ ذِكْرَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَحْفَظُ حُدُودَهُ ، وَلِتَسْتَوْضِحَ سَبِيلُهُمْ فَتُعَامِلَ كُلًّا مِنْهُمْ بِمَا يَجِبُ أَنْ يُعَامَلَ بِهِ فَصَّلْنَا ذَلِكَ التَّفْصِيلَ . انْتَهَى . وَيَسُرُّنِي أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ يُؤَيِّدُ مَا قَدَّمْتُهُ فِي بَيَانِ أَصْنَافِ النَّاسِ فِي زَمَنِ نُزُولِ السُّورَةِ ، وَمَا أَرْشَدَتْ إِلَيْهِ الْآيَاتُ فِي مُعَامَلَةِ كُلِّ صِنْفٍ مِنْهُمْ ، وَأَنَّ مَا قُلْتُهُ خَيْرٌ مِمَّا قَالَهُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ : وَفِي الْآيَةِ مِنْ مَحَاسِنِ إِيجَازِ الْقُرْآنِ مَا لَا يَخْفَى .

وَسَيَأْتِي مِثْلُ هَذَا التَّعْبِيرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ : ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (105) وَقَوْلُهُ مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ : ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (7 : 174) وَلَا أَذْكُرُ أَنَّ فِي الْقُرْآنِ غَيْرَهُمَا .

(قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ) .

بَعْدَ أَنْ أَرْشَدَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ إِلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ سِيَاسَةِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتَبْلِيغِهِمْ مَا ذَكَرَ مِنْ أُصُولِ حِكْمَةِ الدِّينِ ، عَادَ إِلَى تَلْقِينِهِ مَا يُحَاجُّ بِهِ الْمُشْرِكِينَ ، مِنْ بَلَاغِ الْوَحْيِ وَنَاصِعِ الْبَرَاهِينِ ، فَقَالَ :

*(136/234)*

---

(قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) النَّهْيُ : الزَّجْرُ عَنِ الشَّيْءِ بِالْقَوْلِ - مِثْلَ : لَا تَكْذِبْ وَاجْتَنِبْ قَوْلَ الزُّورِ - وَالْكَفُّ عَنْهُ بِالْفِعْلِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى) (79 : 40) وَالدُّعَاءُ : النِّدَاءُ وَطَلَبُ الْخَيْرِ أَوْ دَفْعُ الضُّرِّ مِنَ الْأَعْلَى ، وَإِنَّمَا يَكُونُ عِبَادَةً إِذَا كَانَ فِي أَمْرٍ وَرَاءَ الْأَسْبَابِ الْمُسَخَّرَةِ لِلْعِبَادِ الَّتِي يَنَالُونَهَا بِكَسْبِهِمْ لَهَا وَاجْتِهَادِهِمْ فِيهَا وَتَعَاوُنِهِمْ عَلَيْهَا ، فَإِنَّ مَا نَعْجِزُ عَنْ نَيْلِهِ بِالْأَسْبَابِ الْمُسَخَّرَةِ لَنَا لَا نَطْلُبُهُ إِلَّا مِنَ الْخَالِقِ الْمُسَخِّرِ لِلْأَسْبَابِ - وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ مِرَارًا كَثِيرَةً - فَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ لِرَسُولِهِ هُنَا : قُلْ أَيُّهَا

الرَّسُولِ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى : إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَهُمْ وَتَسْتَغِيثُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ ، أَيْ غَيْرَ اللهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَعِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ ، بَلْهَ مَا دُونَهُمْ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ الَّتِي لَا عِلْمَ لَهَا وَلَا عَمَلَ ، وَهَذَا النَّهْيُ يُصَدِّقُ بِنَهْيِ اللهِ تَعَالَى إِيَّاهُ عَنْ ذَلِكَ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَثِيرَةِ وَأَمْرِهِ بِضِدِّهِ وَهُوَ دُعَاءُ اللهِ تَعَالَى وَحْدَهُ ، وَبِنَهْيِ الْعَقْلِ وَالْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ ، فَإِنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَانَ قَبْلَ الْبَعْثَةِ مُوَحِّدًا ، وَلَمْ يَكُنْ قَطُّ مُشْرِكًا ، وَلِأَجْلِ هَذَا قَالَ : " نُهِيتُ " بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ .

*(137/234)*

---

(قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) أَيْ قُلْ لَهُمْ : لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ فِي عِبَادَتِهِمْ وَلَا فِي غَيْرِهَا مِنْ أَعْمَالِكُمُ الَّتِي تَتَّبِعُونَ بِهَا الْهَوَى ، وَلَسْتُمْ فِي شَيْءٍ مِنْهَا عَلَى بَيِّنَةٍ وَلَا هُدًى ، وَلِمَاذَا ؟ لِأَنِّي إِنِ اتَّبَعْتُهَا فَقَدْ ضَلَلْتُ ضَلَالًا أَخْرُجُ بِهِ مِنْ جِنْسِ الْمُهْتَدِينَ ، فَلَا أَكُونُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ، فَإِنَّ هَذَا الضَّلَالَ لَا يُقَاسُ بِغَيْرِهِ ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ عَنْ صِرَاطِ الْهُدَى .

(قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي) أَيْ : قُلْ لَهُمْ أَيُّهَا الرَّسُولُ أَيْضًا : إِنِّي فِيمَا أُخَالِفُكُمْ فِيهِ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي هَدَانِي إِلَيْهَا بِالْوَحْيِ وَالْعَقْلِ ، وَالْبَيِّنَةُ كُلُّ مَا يُتَبَيَّنُ بِهِ الْحَقُّ مِنَ الْحُجَجِ وَالدَّلَائِلِ

الْعَقْلِيَّةِ ، وَالشَّوَاهِدِ وَالْآيَاتِ الْحِسِّيَّةِ ، وَمِنْهُ تَسْمِيَةُ شَهَادَةِ الشُّهُودِ بَيِّنَةً ، وَالْقُرْآنُ بَيِّنَةٌ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى أَنْوَاعٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الْبَيِّنَاتِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْكَوْنِيَّةِ ، فَهُوَ عَلَى كَوْنِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى - لِلْقَطْعِ بِعَجْزِ الرَّسُولِ كَغَيْرِهِ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ - مُؤَيَّدٌ بِالْحُجَجِ وَالْبَيِّنَاتِ الْمُثْبِتَةِ لِمَا فِيهِ مِنْ قَوَاعِدِ الْعَقَائِدِ وَأُصُولِ الْهِدَايَةِ (وَكَذَّبْتُمْ بِهِ) أَيْ وَالْحَالُ أَنَّكُمْ كَذَّبْتُمْ بِهِ ، أَيْ بِالْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ بَيِّنَتِي مِنْ رَبِّي ، فَكَيْفَ تُكَذِّبُونَ أَنْتُمْ

*(138/234)*

---

بِبَيِّنَةِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى أَظْهَرِ الْحَقَائِقِ وَأَبْيَنِ الْهِدَايَاتِ ، ثُمَّ تَطْمَعُونَ أَنْ أَتَّبِعَكُمْ عَلَى ضَلَالٍ مُبِينٍ لَا بَيِّنَةَ لَكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا مَحْضَ التَّقْلِيدِ ، وَمَا كَانَ التَّقْلِيدُ بَيِّنَةً مِنَ الْبَيِّنَاتِ ، وَإِنَّمَا هُوَ بَرَاءَةٌ مِنَ الِاسْتِدْلَالِ ، وَرِضَاءٌ بِجَهْلِ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ ، فَالْكَلَامُ حُجَّةٌ مُسَكِّتَةٌ مُبَكِّتَةٌ عَلَى مَا قَبْلَهَا مِنْ نَفْيِ عِبَادَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِلَّذِينَ يَدْعُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَقِيلَ : إِنَّ الْمَعْنَى وَكَذَّبْتُمْ بِرَبِّي ، أَيْ : بِآيَاتِهِ أَوْ بِدِينِهِ ، وَإِلَّا فَإِنَّ الْقَوْمَ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ رَبُّهُمْ وَرَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَالْقُرْآنُ نَاطِقٌ بِذَلِكَ ، وَفَسَّرَ بَعْضُهُمُ التَّكْذِيبَ بِالرَّبِّ بِاتِّخَاذِ شَرِيكٍ لَهُ ، وَلَمْ يَكُنِ اتِّخَاذُهُمُ الشُّرَكَاءَ تَكْذِيبًا بِالرُّبُوبِيَّةِ ؛ إِذْ لَمْ يَكُونُوا يَقُولُونَ : إِنَّ غَيْرَهُ تَعَالَى يَخْلُقُ

مَعَهُ أَوْ يَرْزُقُ ، وَإِنَّمَا كَانُوا يَدْعُونَ غَيْرَهُ لِيُقَرِّبَهُمْ إِلَيْهِ وَيَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَهُ ، وَهَذَا الدُّعَاءُ عِبَادَةٌ وَشِرْكٌ بِالْإِلَهِيَّةِ لَا تَكْذِيبٌ بِالرُّبُوبِيَّةِ .

(139/234)

---

وَلَمَّا ذَكَرَ بَيِّنَتَهُ وَتَكْذِيبَهُمْ بِهِ قَفَّى بِرَدِّ شُبْهَةٍ تَخْطُرُ عِنْدَ ذَلِكَ بِالْبَالِ ، وَمِنْ شَأْنِهَا أَنْ يَقَعَ عَنْهَا مِنْهُمُ السُّؤَالُ ، وَهِيَ أَنَّ اللَّهَ أَنْذَرَهُمْ عَذَابًا يَحِلُّ بِهِمْ إِذَا أَصَرُّوا عَلَى عِنَادِهِمْ وَكُفْرِهِمْ ، وَوَعَدَ بِأَنْ يَنْصُرَ رَسُولَهُ عَلَيْهِمْ ، وَقَدِ اسْتَعْجَلُوا النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ذَلِكَ ، فَكَانَ عَدَمُ وُقُوعِهِ شُبْهَةً لَهُمْ عَلَى صِدْقِ الْقُرْآنِ ، لِجَهْلِهِمْ بِسُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي شُئُونِ الْإِنْسَانِ ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ : (مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ) أَيْ لَيْسَ عِنْدَمَا تَطْلُبُونَ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ وَعِيدِهِ ، وَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ : إِنَّ اللَّهَ فَوَّضَ أَمْرَهُ إِلَيَّ حَتَّى تُطَالِبُونِي بِهِ وَتَعُدُّونَ عَدَمَ إِيقَاعِهِ حُجَّةً عَلَى تَكْذِيبِهِ (إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ) أَيْ مَا الْحُكْمُ فِي ذَلِكَ وَفِي غَيْرِهِ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي شُئُونِ الْأُمَمِ إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ ، وَلَهُ فِي ذَلِكَ سُنَنٌ حَكِيمَةٌ وَمَقَادِيرُ مُنْتَظِمَةٌ تَجْرِي عَلَيْهَا أَفْعَالُهُ وَآجَالٌ مُسَمَّاةٌ تَقَعُ فِيهَا ، فَلَا يَتَقَدَّمُ شَيْءٌ عَنْ أَجَلِهِ وَلَا يَتَأَخَّرُ (وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ) (13 : 8) (وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) .

(140/234)

(يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ) قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَنَافِعٌ وَعَاصِمٌ "يَقُصُّ" مِنَ الْقَصَصِ ، وَهُوَ ذِكْرُ الْخَبَرِ أَوْ تَتَبُّعُ الْأَثَرِ ، أَيْ يَقُصُّ عَلَى رَسُولِهِ الْقَصَصَ الْحَقَّ فِي جَمِيعِ أَخْبَارِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ، أَوْ يَتَتَبَّعُ الْحَقَّ وَيُصِيبُهُ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ الَّتِي يَتَصَرَّفُ بِهَا فِي عِبَادِهِ ، وَقَرَأَهُ الْبَاقُونَ "يَقْضِ" مِنَ الْقَضَاءِ وَأَصْلُهُ يَقْضِي بِالْيَاءِ فَحُذِفَتِ الْيَاءُ فِي الْخَطِّ كَمَا حُذِفَتْ فِي اللَّفْظِ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ ، وَلَمَّا كَانَتِ الْمَصَاحِفُ غَيْرَ مَنْقُوطَةٍ كَانَتِ الْكَلِمَةُ فِي الْمُصْحَفِ الْإِمَامِ هَكَذَا "نقص" فَاحْتَمَلَتِ الْقِرَاءَتَيْنِ ، وَحَذْفُ حَرْفِ الْمَدِّ الَّذِي يَسْقُطُ مِنَ اللَّفْظِ مَعْهُودٌ فِي الْمَصَاحِفِ ، وَمِنْهُ (حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ) (سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ) (96 : 18) وَمَعْنَاهُ يَقْضِي فِي أَمْرِكُمْ وَغَيْرِهِ الْقَضَاءَ الْحَقَّ ، أَوْ يُنْفِذُ الْأَمْرَ وَيُفَصِّلُهُ بِالْحَقِّ ، وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ فِي كُلِّ أَمْرٍ ؛ لِأَنَّهُ الْحَكَمُ الْعَدْلُ ، الْمُحِيطُ عِلْمُهُ وَالنَّافِذُ حُكْمُهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَتَقَدَّمَ تَحْقِيقُ مَعْنَى الْقَضَاءِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ .

*(141/234)*

---

(قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) أَيْ قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ كَقَوْلِهِمْ (اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً

مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) (8 : 32) : "لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ" بِأَنْ كَانَ مِمَّا جَعَلَهُ اللهُ فِي مَكِنَتِي وَتَصَرُّفِي بِقُدْرَتِي الْكَسْبِيَّةِ أَوْ بِجَعْلِهِ آيَةً خَاصَّةً بِي "لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ" بِإِهْلَاكِي لِلظَّالِمِينَ مِنْكُمُ الَّذِينَ يَصُدُّونَنِي عَنْ تَبْلِيغِ دَعْوَةِ رَبِّي وَيَصُدُّونَ النَّاسَ عَنِّي ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ مِنْ عَجَلٍ ، وَإِنَّمَا أَسْتَعْجِلُ أَنَا بِإِهْلَاكِ الظَّالِمِينَ مِنْكُمْ مَا وَعَدَنِي رَبِّي مِنْ نَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُصْلِحِينَ الْمَظْلُومِينَ ، وَخِذْلَانِ الْكَافِرِينَ الْمُفْسِدِينَ الظَّالِمِينَ ، وَهُوَ اسْتِعْجَالٌ لِلْخَيْرِ ، وَأَنْتُمْ تَسْتَعْجِلُونَ الشَّرَّ لِأَنْفُسِكُمْ ، وَتَقْطَعُونَ عَلَيْهَا طَرِيقَ الْهِدَايَةِ بِإِمْهَالِ اللهِ لَكُمْ (وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ)

*(142/234)*

---

الَّذِينَ تَمَكَّنَ الظُّلْمُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَأَحَاطَ بِهَا ، فَلَا رَجَاءَ بِرُجُوعِهِمْ عَنْهُ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْحَقِّ وَالْعَدْلِ ، وَبِمَنْ أَلَمَّ بِهِمُ الظُّلْمُ أَوْ أَلَمُّوا بِهِ ، لَكِنَّهُ لَمْ يَمْحُ نُورَ الْفِطْرَةِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَلَمْ يَذْهَبْ بِاسْتِعْدَادِهِمْ لِلِاهْتِدَاءِ إِلَى الْحَقِّ الَّذِي أَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ . وَلَمَّا كَانَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمَ بِالظَّالِمِينَ لَمْ يَجْعَلْ أَمْرَ عِقَابِهِمْ إِلَيَّ ، فَهُوَ عِنْدَهُ لَا عِنْدِي ، وَلِكُلٍّ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ، يَرَاهُ قَرِيبًا وَتَرَوْنَهُ بَعِيدًا ، وَأَيَّامُهُ تَعَالَى فِي عَالَمِ التَّكْوِينِ وَشُئُونِ الْأُمَمِ لَيْسَتْ قَصِيرَةً كَأَيَّامِنَا بَلْ طَوِيلَةً (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا

عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ) (22 : 47 ، 48) فَهُوَ لَا يُؤَخِّرُ مَا وَعَدَ بِهِ إِلَى الْأَجَلِ الْمُسَمَّى عِنْدَهُ إِلَّا لِحِكْمَةٍ (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) (7 : 34) .

هَذَا مَا ظَهَرَ لَنَا فِي قَضَاءِ الْأَمْرِ عَلَى تَقْدِيرِ كَوْنِ مَا يَسْتَعْجِلُونَ بِهِ فِي مَكِنَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ إِنْ كَانَ يُهْلِكُهُمْ كُلُّهُمْ كَمَا هَلَكَتِ الْأُمَمُ الَّتِي كَذَّبَتِ الرُّسُلَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، أَيْ : لَيْسَ الْمُرَادُ بِمَا يَقْضِي مِنَ الْأَمْرِ هُنَا عَذَابَ الِاسْتِئْصَالِ وَلَا عَذَابَ الْآخِرَةِ ، وَإِنْ كَانُوا قَدِ

*(143/234)*

---

اسْتَعْجَلُوا كُلًّا مِنْهُمَا ، بَلْ نَصْرَ الرَّسُولِ عَلَيْهِمْ . وَفِي قَوْلِهِ : (لَقُضِيَ الْأَمْرُ) بِإِسْنَادِ الْفِعْلِ إِلَى الْمَفْعُولِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ لَوْ كَانَ عِنْدَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَقُضِيَ لَمَا قُضِيَ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ .

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا

كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ) .

(144/234)

---

لَمَّا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنْ يُبَيِّنَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنَّهُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ فِيمَا بَلَّغَهُمْ إِيَّاهُ مِنْ رِسَالَتِهِ ، وَأَنَّ مَا يَسْتَعْجِلُونَ بِهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ وَنَصْرِهِ عَلَيْهِمْ – تَعْجِيزًا أَوْ تَهَكُّمًا أَوْ عِنَادًا – لَيْسَ عِنْدَهُ ، وَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَ اللهِ الَّذِي قَضَتْ سُنَّتُهُ أَنْ يَكُونَ لِكُلِّ شَيْءٍ أَجَلٌ وَمَوْعِدٌ لَا يَتَقَدَّمُ وَلَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يَقْضِي الْحَقَّ وَيَقُصُّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَبِيَدِهِ تَنْفِيذُ وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ – قَفَّى عَلَى ذَلِكَ بِبَيَانِ كَوْنِ مَفَاتِحِ الْغَيْبِ عِنْدَهُ ، وَكَوْنِ التَّصَرُّفِ فِي الْخَلْقِ بِيَدِهِ ، وَكَوْنِهِ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ لَا يُشَارِكُهُ أَحَدٌ مِنْ رُسُلِهِ وَلَا غَيْرِهِمْ فِي ذَلِكَ حَتَّى يَصِحَّ أَنْ يُطَالَبُوا بِهِ ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ :

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 7 صـ 350 ﴿381.

(145/234)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾

هذا بلاغ من رسول الله لكل الخلق بأن أحداث الكون إنما يجريها الحق بإرادته وبمواقيت لا يعلمها إلا هو سبحانه ، وهو – جل وعلا – الذي يأذن بها . . أي قل لهم أيها النبي : لو كان في قدرتي وإمكاني ما تستعجلون به من العذاب لانتهى الأمر بيني وبينكم ولأهلكتكم بعقاب وعذاب عاجل غضبا لربي وسخطا عليكم من تكذيبكم به – سبحانه – ولتخلصت منكم سريعا ، لكن الأمر ليس لي ، إنه إلى الله الحكيم الذي يعلم ما يستحقه الظالمون . ويقول – سبحانه – في موضع آخر من القرآن الكريم : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ العذاب إلى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [ هود : 8 ] .

وحكمة الله – إذن – هي التي اقتضت تأجيل العذاب إلى وقت يحدده الله ، وفي هذا ما يجعل بعضاً من الكافرين يجترئون على الله ويوغلون في الكفر ويقولون ما الذي يمنع عنا العذاب ؟

إنهم يقولون ذلك استهزاء وسخرية ، ولا يعلمون أن العذاب آت حتماً ولا خلاص لهم منه ؛ لأن الله صادق في وعده ووعيده وسيأتيهم العذاب لأنهم استهزأوا وسخروا فلا مناص

لهم عنه ولا مهرب لهم منه .

وفي موقع آخر يقول الحق : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ * يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [ العنكبوت : 53-55 ] .

(146/234)

---

وهكذا نرى تحدي الكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليأتيهم بالعذاب ، لكنه تحدٍ مردود عليه بأن الحق هو الذي يقرر ميلاد كل أمر ولسوف يأتيهم العذاب فجأة ، وهو واقع لا محالة وإن جهنم ستحيط بهم ، وسيغمرهم العذاب من أعلاهم ومن أسفلهم ، ويسمعون صوت الملك الموكل بعذابهم : ذوقوا عذاباً أنكرتموه وهو جزاء أعمالكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(147/234)

---

" فوائد بلاغية "

قال الشيخ الصابونى :

البَلاَغَة :

1 - ﴿ والموتى يَبْعَثُهُمُ الله ﴾ فيه استعارة لأن الموتى عبارة عن الكفار لموت قلوبهم .

2 - ﴿ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ تأكيد لدفع توهم المجاز لأن الطائر قد يستعمل مجازاً للعمل كقوله ﴿ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ [ الإسراء : 13 ] .

3 - ﴿ صُمٌّ وَبُكْمٌ ﴾ تشبيه بليغ أي كالصم والبكم في عدم السماع وعدم الكلام فحذفت منه الأداة ووجه الشبه .

4- ﴿ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴾ فيه قصر أي لا تدعون غيره لكشف الضر ، فهو قصر صفة على موصوف .

5- ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ﴾ كناية عن إهلاكهم بعذاب الاستئصال .

6 - ﴿ الأعمى والبصير ﴾ استعارة عن الكافر والمؤمن .

7- ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِّن شَيْءٍ ﴾ في هاتين الجملتين من أنواع البديع ما يسمى ردّ الصدر على العجز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 393.394 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (58) ﴾

لو قدرتُ على إبداء ما طلبتم من إقامة البراهين لأجبتكم إلى كل ما اقترحتم عليَّ – شفقةً عليكم ، لكن المتفرِّد بالحكم لا يُعَارَضُ فيما يريد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 479 ﴾

*(149/234)*

---

( كلام في معنى حقيقة فعله وحكمه تعالى )

قال فى الميزان :

فعله وحكمه تعالى نفس الحق لا مطابق للحق موافق له ، بيان ذلك ان الشئ انما يكون حقا إذا كان ثابتا في الخارج واقعا في الاعيان من غير ان يختلقه وهم أو يصنعه ذهن كالإنسان الذى هو احد الموجودات الخارجية والأرض التى يعيش عليها والنبات والحيوانات التى

يغتذى ، بها والخبر إنما يكون حقا إذا طابق الواقع الثابت في نفسه مستقلا عن ادراكنا والحكم والقضاء إنما يكون حقا إذا وافق السنة الجارية في الكون فإذا أمر الأمر بشئ أو قضى القاضى بشئ فإنما يكون حكم هذا وقضاء ذاك حقا مطلقا إذا وأفق المصلحة المطلقة المأخوذة من السنة الجارية في الكون ، ويكون حقا نسبيا إذا وأفق المصلحة النسبية المأخوذة من سنة الكون بالنسبة إلى بعض أجزائه من غير نظر إلى النظام العام العالمي .

فإذا أمرنا آمر بالتزام العدل أو اجتناب الظلم فإنما يعد ذلك حقا لأن نظام الكون يهدى الأشياء إلى سعادتها وخيرها ، وقد قضى على الإنسان ان يعيش اجتماعيا ، وقضى على كل مجتمع مركب من أجزاء أن يتلائم أجزاؤه ولا يزاحم بعضها بعضا ، ولا يفسد طرف منه طرفا ، حتى ينال ما قسم له من سعادة الوجود ، ويتوزع ذلك بين أجزائه المجتمعين ، فمصلحة هذا النوع المطلقة هي سعادته في الحياة ، ويطابقها الأمر بالعدل والنهى عن الظلم فكل منهما حكم حق ، ولا يطابقها الأمر بالظلم والنهى عن العدل فهما من الباطل ، والتوحيد حق لأنه يهدى إلى سعادة الإنسان في حياته الحقيقيه ، والشرك باطل لأنه يجر الإنسان إلى شقاء مهلك وعذاب خالد .

وكذلك القضاء بين متخاصمين انما يكون حقا إذا وافق الحكم المشروع المراعى فيه المصلحة الإنسانية المطلقة أو مصلحة قوم خاص أو امة خاصة ، والمصلحة الحقيقية – كما – عرفت – مأخوذه من السنة الجارية في الكون مطلقا أو نسبيا .

فقد تبين ان الحق ايا ما كان انما هو مأخوذ من الكون الخارجي والنظام المنبسط عليه والسنة الجارية فيه ، ولا ريب ان الكون والوجود مع ما له من النظام والسنن والنواميس فعله سبحانه منه يبتدئ وبه يقوم ، واليه ينتهى ، فالحق ايا ما كان والمصلحة كيفما فرضت يتبعان فعله ويقتفيان اثره ، ويثبتان بالاستناد إليه لا انه تعالى يتبع الحق في فعله ويقفو اثره فهو تعالى حق بذاته وكل ما سواه حق به .

ونحن معاشر الآدميين لما كنا نطلب بأفعالنا الاختيارية تتميم نواقص وجودنا ورفع حوائج حياتنا ، وكانت أفعالنا ربما طابقت سعادتنا المطلوبة لنا وربما خالفت اضطررنا في ذلك إلى رعاية جانب المصلحة التى نذعن بأنها مصلحة أي فيها صلاح حالنا وسعادة جدنا وأدى ذلك إلى الإذعان بقوانين جارية وأحكام عامة ، واعتبار شرائع وسنن اجتماعية لازمة المراعاة واجبة الاتباع لموافاتها المصلحة الإنسانية وموافقتها السعادة المطلوبة .

وأدى ذلك إلى الإذعان بأن للمصالح والمفاسد ثبوتا واقعيا وظروفا من التحقق منحازا عن العالمين : – الذهن والخارج – منعزلا عن الدارين : – العلم والعين – وهى تؤثر أثرها في خارج الكون بالموافقة والمخالفة فإذا طابقت أفعالنا أو أحكامنا المصالح الواقعية الثابتة

في نفس الأمر ظهرت فيها المصلحة وانتهت إلى السعادة ، وإذا خالفتها وطابقت المفاسد الواقعية الحقيقية ساقتنا إلى كل ضر وشر ، وهذا النحو من الثبوت ثبوت واقعي غير قابل للزوال والتغير فللمصالح والمفاسد الواقعية وكذا لما معها من الصفات الداعيه إلى الفعل والترك كالحسن والقبح وكذا للاحكام المنبعثة منها كوجوب الفعل والترك مثلا لكل ذلك ثبوت واقعي يتأبى عن الفناء والبطلان ، ويمتنع عن التغير والتبدل وهي حاكمة فينا باعثة لنا إلى أفعال كذا أو صارفة ، والعقل ينال هذه الأمور النفس الامرية كما ينال سائر الأمور الكونية .

*(151/234)*

---

ثم لما وجدوا أن الأحكام والشرائع الإلهية لا تفارق الأحكام والقوانين الإنسانية المجعولة في المجتمعات من جهة معنى الحكم ، وكذا افعاله تعالى لا تختلف مع أفعالنا من جهة معنى الفعل حكموا بأن الأحكام الإلهية والأفعال المنسوبة إلى الله سبحانه كأفعالنا في الانطباق على المصالح الواقعية والاتصاف بصفة الحسن ، فالمصالح الواقعية تأثير في أفعاله تعالى وحكومة على احكامه وخاصة من حيث إنه تعالى عالم بحقائق الأمور بصير بمصالح عباده .

وهذا كله من إفراط الرأى ، وقد عرفت مما تقدم ان هذه احكام وعلوم اعتبارية غير حقيقية اضطرنا إلى اعتبارها وجعلها الحوائج الطبيعية وضرورة الحياة الاجتماعية لا خبر عنها في الخارج عن ظرف الاجتماع ، ولا قيمة لها إلا أنها أمور متقررة في ظرف الوضع والاعتبار يميز بها الإنسان ما ينفعه من الأعمال مما يضره ، وما يصلح شأنه مما يفسده ، وما يسعده مما يشقيه .

وقد ساقت العصبية المذهبية الطائفتين الباحثتين عن المعارف الدينية في صدر الإسلام إلى تقابل عجيب بالإفراط والتفريط في هذا المقام فطائفة – وهم المفوضة – أثبتوا مصالح ومفاسد نفس أمرية وحسنا وقبحا واقعيين هي ثابتة ثبوتا أزليا أبديا غير متغير ولا متبدل وهى حاكمة على الله سبحانه بالإيجاب والتحريم ، مؤثرة في أفعاله تكوينا وتشريعا بالحظر والترخيص فأخرجوه تعالى عن سلطانه ، وأبطلوا إطلاق ملكه .

وطائفة – وهم المجبرة – نفت ذلك كله ، وأصرت على أن الحسن في الشئ إنما هو تعلق الأمر به ، والقبح تعلق النهى به ، ولا غرض ولا غاية في تكوين ولا تشريع ، وأن الإنسان لا يملك من فعله شيئا ولا قدرة قبل الفعل عليه كما أن الطائفة الأولى ذهبت إلى أن الفعل مخلوق للإنسان وأن الله سبحانه لا يملك من فعل الإنسان شيئا ولا تتعلق به قدرته .

والقولان – كما ترى – إفراط وتفريط فلا هذا ولا ذاك بل حقيقة الأمر أن هذه ونظائرها أمور اعتبارية وضعية لها أصل حقيقي وهو أن الإنسان – ونظيره سائر الحيوانات الاجتماعية كل على قدره في مسيره الحيوى الذى لا يريد به إلا إبقاء الحياة ونيل السعادة ناقص محتاج يرفع جهات نقصه وحاجته بأعماله الاجتماعية الصادرة عن الشعور والإرادة فاضطره ذلك إلى أن يصف أعماله والأمور التى تتعلق بها اعماله في طريق الوصول إلى غاية سعادته والتجنب عن شقائه بأوصاف الأمور الخارجية من حسن وقبح ووجوب وحرمة وجواز وملك وحق وغير ذلك ، ويجرى فيها نواميس الأسباب والمسببات فيضع في إثر ذلك قوانين عامة وخاصة ، ويعتقد لذلك نوعا من الثبوت الذى يعتقده للامور الحقيقية حتى يتم له بذلك أمر حياته الاجتماعية .

فترانا نعتقد أن العدل حسن كما أن الورد حسن جميل ، والظلم قبيح شأئه كما أن الميتة المنتنة كذلك ، وأن المال لنا كما أن أعضاءنا لنا ، والعمل الكذائي واجب كما أن الآثار واجبة لعللها التامة ، وعلى هذا القياس ، ولذلك ترى أن هذه الآراء تختلف بين الأقوام إذا اختلفت مقاصد مجتمعاتهم فترى هؤلاء يحسنون ما يقبحه آخرون وتجد طائفة تلغى من الأحكام ما تعتبره أخرى ، وتلفى أمة تنكر ما تعرفه أمة أو تعجبها ما يستشنعه غيرها ، وربما تترك سنة مأخوذة ثم تؤخذ ثم تترك في أمه واحدة على نسق الدوران بحسب مراحل

السير الاجتماعي ومساسه بلوازم الحياة ، هذا في المقاصد التى تختلف في المجتمعات ، وأما المقاصد العامة التى لا يختلف فيه اثنان كاصل الاجتماع والعدل والظلم ونحو ذلك فما لها من وصف الحسن والقبح والوجوب والحرمة وغيرها لا تختلف البتة ولا يختلف فيه ، هذا فيما يرجع إلينا .

*(153/234)*

---

والله سبحانه لما قلب دينه في قالب السنن العامة الاجتماعية اعتبر في بيانه المعارف الحقيقية المسبوكة في قالب السنن الاجتماعية ما نعتبره نحن في مسير حياتنا فأراد منا أن نفكر فيما يرجع إلى معارفه ، ونتلقى ما يلقيه إلينا من الحقائق كما نفكر ونتلقى ما عندنا من سنن الحياة فعد نفسه ربا معبودا ، وعدنا عبادا مربوبين ، وذكرنا أن له دينا مؤلفا من عقائد أصلية وقوانين عملية تستعقب ثوابا وعقابا وأن في اتباعه صلاح حالنا ، وحسن عاقبتنا ، وسعاده جدنا على نحو المسلك الذى نسلكه في آرائنا الاجتماعية .

فهناك عقائد أصليه يجب علينا أن نعتقد بها ونلزمها ، وهناك وظائف عملية وقوانين إلهية في العبادات والمعاملات والسياسات يجب علينا أن نعمل بها ونراعيها كما أن الأمر في جميع المجتمعات الإنسانية على ذلك .

وهذا هو الذى يسوغ لنا أن نبحث عن المعارف الدينية اعتقادية أو عملية كما نبحث عن المعارف الاجتماعية اعتقادية أو عملية ، وأن نستند في المعارف الدينية من الآراء العقلية ، والقضايا العملية بعين ما نستند إليه في المعارف الاجتماعية فالله سبحانه لا يختار لعباده من الوظائف والتكاليف إلا ما فيه المصلحة التى تصلح شأنهم في دنياهم وآخرتهم ، ولا يأمر إلا بالحسن الجميل ، ولا ينهى إلا عن القبيح الشائه الذى فيه فساد دين أو دنيا ، ولا يفعل إلا ما يؤثره العقل ، ولا يترك إلا ما ينبغى أن يترك .

إلا أنه تعالى ذكرنا مع ذلك بأمرين :

*(154/234)*

---

أحدهما : أن الأمر في نفسه أعظم من ذلك وأعظم فإن ذلك كله معارف مأخوذة من مواد الآراء الاجتماعية وهى في الحقيقة لا تتعدى طور الاجتماع ، ولا ترقى إلى عالم السماء كما قال : ( إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ، وإنه في أم الكتاب لدينا لعلى حكيم ) ( الزخرف : 4 ) وقال في مثل ضربه : ( أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل ) الآية ( الرعد : 17 ) وقال صلى الله عليه وآله : إنا معاشر الأنبياء أمرنا

أن نكلم الناس على قدر عقولهم ، إلى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة .

وليس معنى هذا البحث نفى الحسن والمصلحة مثلا عن أفعاله تعالى بمعنى إثبات ما يقابله حتى يستتبع ذلك اثبات القبح والمفسدة أو سقوط أفعاله عن الاعتبار العقلائي كأفعال الصبيان تعالى عن ذالك كما أن نفى البصر بمعنى الجارحة عن العقل لا يوجب اثبات العمى له أو سقوطه عن مرتبة الادراك بل تنزيه عن النقص .

وثانيهما : أن جهات الحسن ومزايا المصالح وان كانت تعلل بها أفعاله تعالى وشرائع أحكامه وتبين بها وظائف العبودية كما تعلل بها ما عندنا من الأحكام والاعمال العقلائية إلا أن بين البابين فرقا وهو أنها في جانبنا حاكمة على الإرادة مؤثره في الاختيار فنحن بما أنا عقلاء إذا وجدنا فعلا ذا صفة حسن مقارنا لمصلحة غير مزاحمة بعثنا ذلك إلى اقتراف العمل وإذا وجدنا حكما على هذا النعت لم نتردد في تقنينه وحكمنا به وأجريناه في مجتمعنا مثلا .

*(155/234)*

---

وليست هذه الوجوه والعلل أعنى جهات الحسن والمصلحة إلا معاني أخذناها من سنة التكوين والوجود الخارجي الذى هو منفصل من أذهاننا مستقل دوننا فأردنا في اختيار الأعمال الحسنة ذوات المصلحة أن لا نخبط في مسيرنا وتنطبق أعمالنا على سنة التكوين

وتقع في صراط الحقيقة ، فهذه الجهات والمصالح معان منتزعة من خارج الاعيان متفرعة عليه ، وأعمالنا متفرعة على هذه الجهات محكومة لها متأثرة عنها ، والكلام في أحكامنا المجعولة لنا نظير الكلام في أعمالنا .

وأما فعله تعالى فهو نفس الكون الخارجي والوجود العينى الذى كنا ننتزع منه وجوه الحسن والمصلحة وكانت تتفرع عليه بما أنها انتزعت منه فكيف يمكن أن يعد فعله تعالى متفرعا عليها محكوما لها متأثرا عنها ، وكذلك أحكامه تعالى المشرعة تستتبع الواقع لا أنها تتبع الواقع فأفهم ذلك .

فقد تبين : أن جهات الحسن والمصلحة وما يناظرها في عين أنها موجودة في أفعاله تعالى وأحكامه ، وفي أفعالنا وأحكامنا بما نحن عقلاء تختلف في أنها بالنسبة إلى أعمالنا وأحكامنا حاكمة مؤثرة ، وإن شئت قلت دواع وعلل غائية ، وبالنسبة إلى أفعاله وأحكامه تعالى لازمة غير منفكة وإن شئت قلت : فوائد مطردة ، فنحن بما أنا عقلاء نفعل ما نفعل ونحكم ما نحكم لانا نريد به تحصيل الخير والسعادة وتملك ما لا نملكه بعد ، وهو تعالى يفعل ما يفعل ويحكم ما يحكم لأنه الله ، ويترتب على فعله ما يترتب على فعلنا من الحسن والمصلحة ، وأفعالنا مسؤول عنها معللة بغاياتها ومصالحها ، وأفعاله غير مسؤول عنها ولا معللة بغاية لا يملكها بل مكشوفة بلوازمها ونعوتها اللازمة ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون فافهم ذلك .

وهذا هو الذى يهدى إليه كلامه عز اسمه كقوله تعالى : ( لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ) ( الانبياء : 23 ) وقوله : ( له الحمد في الأولى والاخرة وله الحكم ) ( القصص : 70 ) وقوله : ( ويفعل الله ما يشاء ) إبراهيم : 27 ) وقوله : ( والله يحكم لا معقب لحكمه ) ( الرعد : 41 ) .

ولو كان فعله تعالى كأفعالنا العقلائية لكان لحكمه معقب إلا أن يعتضد بمصلحة محسنة ولم يكن له ليفعل ما يشاء بل ما تشير إليه المصلحة المقارنة ، وقوله : ( قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ) ( الاعراف : 28 ) وقوله : ( يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ) ( الانفال : 24 ) وغير ذلك من الآيات التى تعلل الأحكام بوجوه الحسن والمصلحة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الميزان حـ 7 صـ 118 . 123 ﴾

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَقالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قادِرٌ عَلى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (37) ﴾

لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ نزل بمعنى أنزل . وقرئ أن ينزل بالتشديد والتخفيف . وذكر الفعل والفاعل مؤنث ، لأن تأنيث آية غير حقيقى ، وحسن للفصل . وإنما قالوا ذلك مع تكاثر ما أنزل من الآيات على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، لتركهم الاعتداد بما أنزل عليه ، كأنه لم ينزل عليه شيء من الآيات عناداً منهم قُلْ إِنَّ اللَّهَ قادِرٌ عَلى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً تضطرهم إلى الإيمان . كنتق الجبل على بنى إسرائيل ونحوه ، أو آية إن جحدوها جاءهم العذاب وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ

*(158/234)*

---

أنّ اللّه قادر على أن ينزل تلك الآية ، وأن صارفا من الحكمة يصرفه عن إنزالها .

[سورة الأنعام (6) : آية 38]

وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ

شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (38)

أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ مكتوبة أرزاقها وآجالها وأعمالها كما كتبت أرزاقكم وآجالكم وأعمالكم ما فَرَّطْنا ما تركنا وما أغفلنا فِي الْكِتابِ في اللوح المحفوظ مِنْ شَيْءٍ من ذلك لم نكتبه ولم نثبت ما وجب أن يثبت مما يختص به ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ يعنى الأمم كلها من الدواب والطير فيعوضها وينصف بعضها من بعض ، كما روى أنه يأخذ للجماء من القرناء . فإن قلت : كيف قيل : إِلَّا أُمَمٌ مع إفراد الدابة والطائر ؟ فإن قلت : لما كان قوله تعالى وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ دالا على معنى الاستغراق ومغنيا عن أن يقال : وما من دواب ولا طير ، حمل قوله إِلَّا أُمَمٌ على المعنى ، فإن قلت ، هلا قيل : وما من دابة ولا طائر «1» إلا أمم أمثالكم ؟ وما معنى زيادة قوله فِي الْأَرْضِ وَيَطِيرُ بِجَناحَيْهِ قلت : معنى ذلك زيادة التعميم والإحاطة ، كأنه قيل : وما من دابة فقط في جميع الأرضين السبع ، وما من طائر قط في جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم محفوظة أحوالها غير مهمل أمرها . فإن قلت : فما الغرض في ذكر ذلك ؟ قلت : الدلالة على عظم قدرته ، ولطف علمه ، وسعة سلطانه وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس ، المتكاثرة الأصناف ، وهو حافظ لما لها وما عليها ، مهيمن على أحوالها ، لا يشغله شأن عن شأن ، وأنّ المكلفين ليسوا بمخصوصين بذلك دون من عداهم من سائر الحيوان . وقرأ ابن أبى عبلة : ولا طائر ، بالرفع على المحل ، كأنه قيل :

وما دابة ولا طائر. وقرأ علقمة: ما فرطنا، بالتخفيف.

[سورة الأنعام (6): آية 39]

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُماتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (39)

فإن قلت: كيف أتبعه قوله وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنا؟ قلت: لما ذكر من خلائقه وآثار قدرته ما يشهد لربوبيته وينادى على عظمته قال: والمكذبون صُمٌّ لا يسماعون كلام المنبه

---

(1). قال محمود: «إن قلت هلا قبل: وما من دابة ولا طائر... الخ» قال أحمد: ولم يبين وجه زيادتها للتعميم.

ولقائل أن يقول: يلزم من العموم في أجناس الطير دخول كل طائر في الجو في العموم وإن لم يذكر في الجو، وكذلك يلزم من عموم الدواب في سائر أصنافها أن يندرج في ذلك كل دابة في الأرضين وإن لم يذكر في الأرض، فلا بد من بيان وجه الزيادة فنقول: موقع قوله فِي الْأَرْضِ وَيَطِيرُ بِجَناحَيْهِ موقع الوصف العام، وصفة العام عامة ضرورة المطابقة، فكأنه مع زيادة الصفة تظافرت صفتان عامتان، والله أعلم. [.....]

بُكْمٌ لا ينطقون بالحق ، خابطون في ظلمات الكفر ، فهم غافلون عن تأمل ذلك والتفكر فيه ، ثم قال إيذاناً بأنهم من أهل الطبع «1» مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ أى يخذله ويخله وضلاله لم يلطف به ، «2» لأنه ليس من أهل اللطف وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ أى يلطف به لأنّ اللطف يجدى عليه .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 40 إلى 41]

قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (40)

بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ وَتَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ (41)

أَرَأَيْتَكُمْ أخبرونى . والضمير الثاني لا محل له من الإعراب ، لأنك تقول : أرأيتك زيداً ما شأنه ، فلو جعلت للكاف محلا لكنت كأنك تقول : أرأيت نفسك زيدا ما شأنه ؟ وهو خلف من القول ومتعلق الاستخبار محذوف ، تقديره : إن أتاكم عذاب انّه «3» أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ من تدعون . ثم بكتهم بقوله أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ بمعنى أتخصون آلهتكم بالدعوة فيما هو عادتكم إذا أصابكم ضرّ ، أم تدعون اللّه دونها بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ بل تخصونه بالدعاء دون الآلهة فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ أى ما تدعونه إلى كشفه إِنْ شاءَ إن أراد أن يتفضل عليكم ولم يكن مفسدة وَتَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ وتتركون آلهتكم ، «4» أو لا تذكرونها في ذلك الوقت ، لأنّ أذهانكم في ذلك الوقت مغمورة بذكر ربكم وحده ، إذ هو القادر على كشف الضر دون غيره . ويجوز أن يتعلق الاستخبار بقوله أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ «5» كأنه قيل :

(1) . قوله «إيذانا بأنهم من أهل الطبع» أى الختم على القلوب . وقوله «أى يخذله . . . الخ» فسر الإضلال بذلك ، لأنه تعالى لا يخلق الشر عند المعتزلة ، أما عند أهل السنة فيخلق الشر كالخير ، فالاضلال على ظاهره عندهم بمعنى خلق الضلال في القلب . (ع)

(2) . قال محمود : «معنى يضلله يخذله ولم يلطف به . . . الخ» قال أحمد : وهذا من تحريفاته للهداية والضلالة اتباعا لمعتقده الفاسد في أن اللّه تعالى لا يخلق الهدى ولا الضلال ، وأنهما من جملة مخلوقات العباد . وكم تخرق عليه هذه العقيدة فيروم أن يرقعها ، وقد اتسع الخرق على الراقع ، واللّه الموفق .

(3) . قال محمود : «متعلق الاستخبار محذوف تقديره . . . الخ» قال أحمد : هو لا يدع أن يحجر واسعا فيوجب على اللّه رعاية المصالح بناء على القاعدة الفاسدة من مراعاة الصلاح والأصلح .

(4) . عاد كلامه . قال : «و تنسون ما تشركون : أى وتتركون آلهتكم . . . الخ» قال أحمد : وإنما يلقى الاختصاص حيث يقول : معناه أتخصون آلهتكم ، ثم قال : بل تخصون اللّه بالدعاء من حيث تقدم المفعول على الفعل في قوله أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ وقوله بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ وتقديم المفعول عنده يفيد الاختصاص والحصر . وقوله تعالى إِيَّاكَ نَعْبُدُ في قوة قولك : لا نعبد إلا إياك . وقد مضى الكلام عليه .

(5) . عاد كلامه . قال : «ويجوز أن يتعلق الاستخبار بقوله أغير اللّه تدعون . . . الخ»

قال أحمد : ولقد سدد النظر لولا أنه نغص ذلك بما يفهم وجوب مراعاة المصالح . وأن مشيئة اللّه تعالى تابعة للمصلحة ، وقد تقدم آنفا فاحذره . وعليك بما سواه فانه من بديع النظر ، واللّه الموفق .

*(160/234)*

---

أغير اللّه تدعون إن أتاكم عذاب اللّه . فإن قلت : إن علقت الشرط به فما تصنع بقوله : فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ مع قوله أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ وقوارع الساعة لا تكشف عن المشركين ؟ قلت : قد اشترط في الكشف المشيئة ، وهو قوله : إِنْ شاءَ إيذاناً بأنه إن فعل كان له وجه من الحكمة ، إلا أنه لا يفعل لوجه آخر من الحكمة أرجح منه .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 42 إلى 45]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42) فَلَوْلا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا وَلكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (43) فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ (44) فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (45)

البأساء ، والضراء : البؤس ، والضر . وقيل البأساء : القحط والجوع . والضراء : المرض

ونقصان الأموال والأنفس . والمعنى : ولقد أرسلنا إليهم الرسل فكذبوهم فأخذناهم لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ يتذللون ويتخشعون لربهم ويتوبون عن ذنوبهم فَلَوْلا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا معناه : نفى التضرع ، كأنه قيل : فلم يتضرعوا إذ جاءهم بأسنا . ولكنه جاء بلولا ليفيد أنه لم يكن لهم عذر في ترك التضرع إلا عنادهم وقسوة قلوبهم ، وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ من البأساء والضراء : أى تركوا الاتعاظ به ولم ينفع فيهم ولم يزجرهم فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ من الصحة والسعة وصنوف النعمة ، ليزاوج عليهم بين نوبتي الضراء والسراء ، كما يفعل الأب المشفق بولده يخاشنه تارة ويلاطفه أخرى ، طلباً لصلاحه حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا من الخير والنعم ، لم يزيدوا على الفرح والبطر ، من غير انتداب لشكر ولا تصدّ لتوبة واعتذار أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ واجمون «1» متحسرون آيسون فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ آخرهم لم يترك منهم أحد ، قد استؤصلت شأفتهم «2» وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ

---

(1) . قوله «واجمون» في الصحاح «الواجم» الذي اشتد حزنه حتى أمسك عن الكلام . (ع)

(2) . قوله «شأفتهم» قرحة تخرج من أسفل القدم فتكوى فتذهب ، ثم ضربت مثلا في الاستئصال . أوده الصحاح . (ع)

---

إيذان بوجوب الحمد عند هلاك الظلمة «1» وأنه من أجلّ النعم وأجزل القسم . وقرئ «فتحنا» بالتشديد .

[سورة الأنعام (6) : آية 46]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصارَكُمْ وَخَتَمَ عَلى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (46)

إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصارَكُمْ بأن يصمكم ويعميكم وَخَتَمَ عَلى قُلُوبِكُمْ بأن يغطى عليها ما يذهب عنده فهمكم وعقلكم يَأْتِيكُمْ بِهِ أى يأتيكم بذاك ، إجراء للضمير مجرى اسم الإشارة أو بما أخذ وختم عليه يَصْدِفُونَ يعرضون عن الآيات بعد ظهورها .

[سورة الأنعام (6) : آية 47]

قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (47)

لما كانت البغتة أن يقع الأمر من غير أن يشعر به وتظهر أماراته ، قيل بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً وعن الحسن : ليلا أو نهاراً . وقرئ بغتة أو جهرة «2» هَلْ يُهْلَكُ أى ما يهلك هلاك تعذيب وسخط إلا الظالمون . وقرئ . هل يهلك بفتح الياء .

[سورة الأنعام (6) : آية 48]

وَما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (48)

مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ من آمن بهم وبما جاءوا به وأطاعهم ، ومن كذبهم وعصاهم ولم يرسلهم ليتلهى بهم ويقترح عليهم الآيات بعد وضوح أمرهم بالبراهين القاطعة وَأَصْلَحَ ما يجب عليه إصلاحه مما كلف .

[سورة الأنعام (6) : آية 49]

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا يَمَسُّهُمُ الْعَذابُ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (49)

---

(1) . قال محمود : «الحمد ها هنا إيذان بوجوب الحمد عند هلاك . . . الخ» قال أحمد : ونظيرها قوله تعالى وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ، قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى فيمن وقف ها هنا وجعل الحمد على إهلاك المتقدم ذكرهم من الطاغين . ومنهم من وقف على المنذرين وجعل الحمد متصلا بما بعده من إقامة البراهين على وحدانية اللّه تعالى ، وأنه جل جلاله خير مما يشركون ، فعلى الأول يكون الحمد حتما ، وعلى الثاني فاتحة ، وهو مستعمل فيهما شرعا ، ولكنه في ، آية النمل أظهر في كونه مفتتحا لما بعده ، وفي آية الأنعام ختم لما تقدمه ختما ، إذ لا يقتضى السياق غير ذلك ، واللّه أعلم .

(2) . قوله «بغتة أو جهرة» كذا في أبى السعود والبيضاوي . وفي بعض نسخ هذا الكتاب بغتة أو جهرة ، وكتب عليه : أى بتحريك الغين والهاء . اه (ع)

*(162/234)*

---

جعل العذاب ماسا ، كأنه حىّ يفعل بهم ما يريد من الآلام . ومنه قولهم : لقيت منه الأمرّين والأقورين»

حيث جمعوا جمع العقلاء : وقوله إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً .

[سورة الأنعام (6) : آية 50]

قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ (50)

أى لا أدعى ما يستبعد في العقول «2» أن يكون لبشر من ملك خزائن اللّه - وهي قسمه بين الخلق وإرزاقه ، وعلم الغيب ، وأنى من الملائكة الذين هم أشرف جنس «3» خلقه اللّه تعالى وأفضله وأقربه منزلة منه . أى لم أدّع إلهية ولا ملكية ، لأنه ليس بعد الإلهية منزلة أرفع من منزلة الملائكة ، حتى تستبعدوا دعواي وتستنكرونها . وإنما أدّعى ما كان مثله لكثير من البشر وهو النبوّة هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ مثل للضالّ والمهتدى «4» ويجوز

أن يكون

---

(1) . قوله «الأمرين والأقورين» الأمرين – بنون الجمع – : الدواهي . والأقورين – بكسر الراء – : الدواهي العظام ، كذا في الصحاح . (ع)

(2) . قال محمود : «أى لا أدعى ما يستبعد في العقول . . . الخ» قال أحمد رحمه اللّه : هو ينبنى على القاعدة المتقدمة له في تفضيل الملائكة على الأنبياء . ولعمري إن ظاهر هذه الآية يؤيده ، فلذلك انتهز الفرصة في الاستدلال بها ولمخالفة أن يقول : إنما وردت الآية رداً على الكفار في قولهم مالِ هذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ . . . الآية فرد قولهم : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ، بأنه بشر وذلك شأن البشر ، ولم يدع أنه ملك حتى يتعجب من أكله للطعام ، وحينئذ لا يلزم منها تفضيل الملائكة على الأنبياء لأنه لا خلاف أن الأنبياء يأكلون الطعام وأن الملائكة ليسوا كذلك ، فالتفرقة بهذا الوجه متفق عليها ، ولا يوجب ذلك اتفاقا على أن الملائكة أفضل من الأنبياء . وكذلك رد قولهم . أو يلقى إليه كنز ، بأنه لا يملك خزائن اللّه تعالى حتى يأتيهم بكنز منها على وفق مقترحهم ، ولا قال لهم ذلك حتى يقام عليه الحجة به . وهذه الآية جاء الترتيب فيها مخالفاً لترتيب قوله لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلَا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ

قال الزمخشري : لأنهم أعلى من الأنبياء ، وقد أخر هاهنا دعوى الملكية عن دعوى الالهية

، إذ الالهية أجل وأعلى ، والملكية أدنى ، ولا محل لذلك إلا التمهيد الذي أسلفته وقد جعلت الأمر في التقديم والتأخير تبعا للسياق ، فقد تقضى البلاغة في بعضه عكس ما تقتضيه في الآخر . ولم يحسن الزمخشري في قوله : ليس بعد الالهية منزلة أرفع من منزلة الملائكة ، فانه جعل الالهية من جملة المنازل كالملكية . ومثل هذا الإطلاق لا يسوغ . والمنزلة عبارة عن المحل الذي ينزل اللّه فيه العبد من علو وغيره ، فاطلاقها على الالهية تحريف ، واللّه الموفق للصواب .

(3) . قوله «من الملائكة الذين هم أشرف جنس» أى عند المعتزلة ، أما عند أهل السنة ، فالبشر أشرف ، على ما تقرر في التوحيد . (ع)

(4) . عاد كلامه . قال : والأعمى والبصير مثل للضال والمهتدى . . . الخ» قال أحمد : قوله أو ادعى المحال يعنى المستحيل ، ولذلك قابله بالمستقيم يريد الممكن ، وذلك مسبب عن دعوى الالهية ، إذ ادعاؤها لا يجوز عقلا . وأما مدعى الملكية فلا يقاس بمدعي الالهية في الاستحالة العقلية . ويجوز في القدرة أن يجعل البشر ملكا والملك بشراً ، كما يجوز أن يجعل البشر أنبياء . ويدل على هذا الجواز قوله وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا هذا مع أن العقل يجيزه في قدرة اللّه تعالى ، لأن الجواهر متماثلة ، والمعاني القائمة ببعضها يجوز أن تقوم بكلها فالمعاني التي بها كان الملك ملكا يجوز أن يخلقها اللّه تعالى للبشر وبالعكس . وعدم وقوعه لا يأبى استقامته وإمكانه ، واللّه الموفق .

مثلا لمن اتبع ما يوحى إليه . ومن لم يتبع . أو لمن ادّعى المستقيم وهو النبوة ، والمحال وهو الإلهية أو الملكية أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ فلا تكونوا ضالين أشباه العميان . أو فتعلموا أنى ما ادعيت ما لا يليق بالبشر . أو فتعلموا أن أتباع ما يوحى إلىَّ مما لا بدّ لي منه . فإن قلت : أَعْلَمُ الْغَيْبَ ما محله من الإعراب ؟ قلت : النصب عطفاً على قوله عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ ، لأنه من جملة المقول كأنه قال : لا أقول لكم هذا القول ولا هذا القول .

[سورة الأنعام (6) : آية 51]

وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (51)

وَأَنْذِرْ بِهِ الضمير راجع إلى قوله ما يُوحى إِلَيَّ وَالَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إمّا قوم داخلون في الإسلام مقرّون بالبعث إلا أنهم مفرطون في العمل «1» فينذرهم بما يوحى إليه لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أى يدخلون في زمرة المتقين من المسلمين . وإمّا أهل الكتاب لأنهم مقرّون بالبعث . وإما ناس من المشركين علم من حالهم أنهم يخافون إذا سمعوا بحديث البعث أن يكون حقاً فيهلكوا ، فهم ممن يرجى أن ينجع فيهم الإنذار ، دون المتمرّدين منهم ، فأمر أن ينذر هؤلاء .

وقوله لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ في موضع الحال من يحشروا ، بمعنى يخافون أن يحشروا غير منصورين ولا مشفوعا لهم ، ولا بدّ من هذه الحال ، لأن كلا

---

(1) . قال محمود : «الذين يخافون إما قوم آمنوا إلا أنهم مفرطون . . . الخ» قال أحمد : وإنما كانت هذه الحال لازمة لو قيل : وأنذر به الذين يحشرون ، لأنه لولا الحال لعم الأمر بالإنذار كل أحد والمقصود تخصيصه بالبعض .

وأما وقد قيل وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلى رَبِّهِمْ فهذا الكلام مستقل برأسه . ومضمونه تخصيص الانذار المأمور به بالقوم الخائفين من البعث ، إما لأنهم مقرون به . وإما لأنهم يحتاطون لأنفسهم فيحملهم الخوف على النظر المفضى إلى اليقين ، دون العتاة المصممين على الجحد وليس كل خائف من البعث لا شفيع له ، فان الموحدين أجمعين خائفون وهم مشفوع لهم ، وإن عنى باللازمة التي لا ينفك ذو الحال عنها ، كالتي في قوله وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً قائما هو حينئذ يبتنى على قاعدته في إنكار الشفاعة ، فكل خائف عنده لا شفيع له إذ لا يخاف إلا أصحاب الكبائر غير التائبين أو الكفار . والكل عنده سواء لا شفيع لهم . وحيث أثبتت الشفاعة ، جعلها خاصة بزيادة الثواب ، فلا ينالها إلا من يستوجب على زعمه الثواب بعمله الصالح ، وتكون الشفاعة مفيدة للمزيد على ما يرضيه . فهذا عنده لا يخاف من البعث ، لأنه يستوجب الجنة . فمن ثم جعل الحال لازمة إذ الناس قسمان : غير مخالف ، فلا تتناوله الآية .

وخائف ، فذاك إنما خاف لأنه استوجب العقاب فلا شفاعة تناله . وهذه من دفائنه الخفية ، ومكامنه المزوية ، فتفطن لها ، والله الموفق برحمته . [ . . . . . ]

(164/234)

---

محشور ، فالمخوف إنما هو الحشر على هذه الحال .

[سورة الأنعام (6) : آية 52]

وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (52)

ذكر غير المتقين من المسلمين وأمر بإنذارهم ليتقوا ، ثم أردفهم ذكر المتقين منهم وأمره بتقريبهم وإكرامهم ، وأن لا يطيع فيهم من أراد بهم خلاف ذلك ، وأثنى عليهم بأنهم يواصلون دعاء ربهم أى عبادته ويواظبون عليها . والمراد بذكر الغداة والعشى : الدوام . وقيل معناه : يصلون صلاة الصبح والعصر ، ووسمهم بالإخلاص في عبادتهم بقوله يُرِيدُونَ وَجْهَهُ والوجه يعبر به عن ذات الشيء وحقيقته . روى أن رؤسا من المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو طردت عنا هؤلاء الأعبد يعنون فقراء المسلمين ، وهم عمار وصهيب وبلال وخباب وسلمان وأضرابهم رضوان الله عليهم ، وأرواح جبابهم -

وكانت عليهم جباب من صوف - جلسنا إليك وحادثناك ، فقال عليه الصلاة والسلام : ما أنا بطارد المؤمنين . فقالوا : فأقمهم عنا إذا جئنا ، فإذا قمنا فأقعدهم معك إن شئت . فقال : نعم ، طمعاً في إيمانهم «1» . وروى أن عمر رضى اللّه عنه قال : لو فعلت حتى ننظر إلى ما يصيرون . قال فاكتب بذلك كتابا ، فدعا بصحيفة وبعلىّ رضى اللّه عنه ليكتب ، فنزلت . فرمى بالصحيفة ، واعتذر عمر من مقالته «2» . قال سلمان وخباب : فينا نزلت فكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقعد معنا ويدنو منا حتى تمس ركبتنا ركبته . وكان يقوم عنا إذا أراد القيام فنزلت «3» : واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم ، فترك القيام عنا إلى أن تقوم

---

(1) . رواه البيهقي في الشعب في أواخره والواحدي في الأسباب من رواية أبى مشجعة بن ربعي عن سلمان قال «جاءت المؤلفة قلوبهم إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : عيينة بن بدر والأقرع بن حابس وذووهم فقالوا يا رسول اللّه ، إنك لو جلست في صدر المسجد ونفيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم يعنون أبا ذر وسلمان وفقراء المسلمين ، وكانت عليهم جباب صوف لم يكن عليهم غيرها جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك . فأنزل اللّه تعالى وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ - إلى قوله - لِلظَّالِمِينَ نَاراً فقام النبي صلى اللّه عليه وسلم يلتمسهم . الحديث» ولابن ماجة وابن أبى شيبة والطبراني وأبو نعيم في ترجمة خباب . وإسحاق وأبو يعلى والبزار والبيهقي أيضا والواحدي من طريق أبى الكنود عن

خباب في قوله تعالى وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ - الآية إلى الظَّالِمِينَ قال : جاء الأقرع وعيينة فوجدوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مع صهيب وبلال وعمار وخباب ، قاعداً في ناس من ضعفاء المؤمنين . فذكره مطولا .

(2) . قلت هو في حديث خباب المذكور آنفا دون مشورة عمر . واعتذاره .

(3) . قلت أما حديث خباب فمن أوله إلى قوله «أن تقوم» في حديثه المذكور آنفا . وأما حديث سلمان فقد ذكرته أولا . وأما قوله «و قال الحمد للّه . . . إلى آخره» فهو في حديث سلمان وحده .

*(165/234)*

---

عنه وقال : الحمد للّه الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أمتي . معكم المحيا ومعكم الممات ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كقوله إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلى رَبِّي وذلك أنهم طعنوا في دينهم وإخلاصهم ، فقال ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ بعد شهادته لهم بالإخلاص وبإرادة وجه اللّه في أعمالهم على معنى : وإن كان الأمر على ما يقولون عند اللّه ، فما يلزمك إلا اعتبار الظاهر والاتسام بسيمة «1» المتقين ، وإن كان لهم باطن غير

مرضى فحسابهم عليهم لازم لهم لا يتعدّاهم إليك ، كما أن حسابك عليك لا يتعدّاك إليهم ، كقوله وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى . فإن قلت :

أما كفى قوله ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حتى ضم إليه وَما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ ؟

قلت : قد جعلت الجملتان بمنزلة جملة واحدة ، وقصد بهما مؤدى واحد وهو المعنىّ في قوله وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ولا يستقل بهذا المعنى إلا الجملتان جميعاً ، كأنه قيل : لا تؤاخذ أنت ولا هم بحساب صاحبه . وقيل : الضمير للمشركين . والمعنى : لا يؤاخذون بحسابك ولا أنت بحسابهم ، حتى يهمك إيمانهم ويحرّك الحرص عليه إلى أن تطرد المؤمنين فَتَطْرُدَهُمْ جواب النفي فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ جواب النهى . ويجوز أن يكون عطفا على فَتَطْرُدَهُمْ على وجه التسبيب ، لأن كونه ظالما مسبب عن طردهم . وقرئ : بالغدوة والعشى .

[سورة الأنعام (6) : آية 53]

وَكَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (53)

وَكَذلِكَ فَتَنَّا ومثل ذلك الفتن العظيم ، فتنا بعض الناس ببعض ، أى ابتلينا هم بهم . وذلك أنّ المشركين كانوا يقولون للمسلمين أَهؤُلاءِ الذين مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا أى أنعم عليهم

بالتوفيق لإصابة الحق ولما يسعدهم عنده من دوننا ، ونحن المقدمون والرؤساء ، وهم العبيد والفقراء ، إنكاراً لأن يكون أمثالهم على الحق وممنونا عليهم من بينهم بالخير ، ونحوه أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا ، لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ . ومعنى فتناهم ليقولوا ذلك : خذلناهم «2» فافتتنوا ، حتى كان افتتانهم سببا لهذا القول ، لأنه لا يقول مثل قولهم هذا إلا مخذول مفتون أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ أى الله أعلم بمن يقع منه الإيمان والشكر فيوفقه للإيمان . وبمن يصمم على كفره فيخذله ويمنعه التوفيق .

[سورة الأنعام (6) : آية 54]

وَإِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (54)

---

(1) . قوله «بسيمة» لعله «بسمة» . (ع)

(2) . قوله «خذلناهم فافتتنوا» فسر بهذا على مذهب المعتزلة : أنه تعالى لا يخلق الشر . وعند أهل السنة يخلق الشر كالخير . (ع)

فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ إما أن يكون أمراً بتبليغ سلام اللّه إليهم. وإما أن يكون أمراً بأن يبدأهم بالسلام إكراماً لهم وتطييبا لقلوبهم. وكذلك قوله كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ من جملة ما يقول لهم ليسرهم ويبشرهم بسعة رحمة اللّه وقبوله التوبة منهم. وقرئ: إنه، فإنه بالكسر على الاستئناف كأن الرحمة استفسرت فقيل أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ وبالفتح على الإبدال من الرحمة بِجَهالَةٍ في موضع الحال، أى عمله وهو جاهل. وفيه معنيان، أحدهما: أنه فاعل فعل الجهلة لأنّ من عمل ما يؤدى إلى الضرر في العاقبة وهو عالم بذلك أو ظانّ فهو من أهل السفه والجهل، لا من أهل الحكمة والتدبير. ومنه قول الشاعر:

على أنّها قالت عشيّة زرتها جهلت على عمد ولم تك جاهلا «1»

والثاني: أنه جاهل بما يتعلق به من المكروه والمضرة. ومن حق الحكيم أن لا يقدم على شيء حتى يعلم حاله وكيفيته. وقيل: إنها نزلت في عمر رضى اللّه عنه حين أشار بإجابة الكفرة إلى ما سألوا ولم يعلم أنها مفسدة.

[سورة الأنعام (6): آية 55]

وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (55)

وقرئ وَلِتَسْتَبِينَ بالتاء والياء مع رفع السبيل لأنها تذكر وتؤنث. وبالتاء على خطاب الرسول مع نصب السبيل. يقال: استبان الأمر وتبين واستبنته وتبينته. والمعنى: ومثل ذلك التفصيل البين نفصل آيات القرآن ونلخصها في صفة أحوال المجرمين، من هو مطبوع

على قلبه لا يرجى إسلامه ، ومن يرى فيه أمارة القبول وهو الذي يخاف إذا سمع ذكر القيامة ، ومن دخل في الإسلام إلا أنه لا يحفظ حدوده ، ولتستوضح سبيلهم فتعامل كلا منهم بما يجب أن يعامل به ، فصلنا ذلك التفصيل .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 56 إلى 58]

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لا أَتَّبِعُ أَهْواءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَما أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (56) قُلْ إِنِّي عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ما عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفاصِلِينَ (57) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (58) _____

(1) . «على» بمعنى «مع» أى قالت عشية زيارتي إياها «جهلت» أى فعلت فعل الجاهل ، أو تجاهلت وادعيت الجهل ، مع تعمدك ولم تك جاهلا حين الفعل . أو لم تك فيما مضى جاهلا بشيء . (ع)



---

نُهِيتُ صرفت وزجرت ، بما ركب فيّ من أدلة العقل ، وبما أوتيت من أدلة السمع عن عبادة ما تعبدون مِنْ دُونِ اللَّهِ وفيه استجهال لهم ووصف بالاقتحام فيما كانوا فيه على غير

بصيرة قُلْ لا أَتَّبِعُ أَهْواءَكُمْ أى لا أجرى في طريقتكم التي سلكتموها في دينكم من اتباع الهوى دون اتباع الدليل ، وهو بيان للسبب الذي منه وقعوا في الضلال ، وتنبيه لكل من أراد إصابة الحق ومجانبة الباطل قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً أى إن اتبعت أهواءكم فأنا ضال وما أنا من الهدى في شيء يعنى أنكم كذلك . ولما نفى أن يكون الهوى متبعا نبه على ما يجب اتباعه بقوله قُلْ إِنِّي عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ومعنى قوله إِنِّي عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ : إنى من معرفة ربى وأنه لا معبود سواه ، على حجة واضحة وشاهد صدق وَكَذَّبْتُمْ بِهِ أنتم حيث أشركتم به غيره . يقال : أنا على بينة من هذا الأمر وأنا على يقين منه ، إذا كان ثابتا عندك بدليل . ثم عقبه بما دل على استعظام تكذيبهم بالله وشدة غضبه عليهم لذلك وأنهم أحقاء بأن يغافصوا « 1 » بالعذاب المستأصل فقال ما عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ يعنى العذاب الذي استعجلوه في قولهم فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ في تأخير عذابكم يَقُصُّ الْحَقَّ أى القضاء الحق في كل ما يقضى من التأخير والتعجيل في أقسامه وَهُوَ خَيْرُ الْفاصِلِينَ أى القاضين . وقرئ : يقص الحق « 2 » أى يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به ويقدّره ، من قصر أثره لَوْ أَنَّ عِنْدِي أى في قدرتي وإمكانى ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ من العذاب لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ لأهلكتكم عاجلا غضبا لربي وامتعاضا « 3 » من تكذيبكم به . ولتخلصت منكم سريعا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ وبما يجب في الحكمة من كنه عقابهم .

وقيل عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي على حجة من جهة ربى وهي القرآن وَكَذَّبْتُمْ بِهِ أى بالبينة . وذكر الضمير على تأويل البيان أو القرآن . فإن قلت : بم انتصب الحق ؟ قلت : بأنه صفة لمصدر يقضى ، أى يقضى القضاء الحق . ويجوز أن يكون مفعولا به من قولهم : قضى الدرع إذا صنعها ، أى يصنع الحق ويدبره . وفي قراءة عبد اللّه : يقضى بالحق . فإن قلت : لم أسقطت الياء في الخط ؟ قلت : اتباعا للخط اللفظ ، وسقوطها في اللفظ لالتقاء الساكنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 2 صـ 20 . 30﴾

---

(1) . قوله «يغافصوا» أى يؤاخذوا على غفلة . يقال : غافصت الرجل أخذته على غرة اه (ع)

(2) . قوله «و قرئ يقص الحق» ظاهره أن قراءة يَقُصُّ من القضاء ، هي المشهورة . فليحرر . (ع)

(3) . قوله «و امتعاضا» الامتعاض : امتداد الغضب . أفاده الصحاح . (ع)

*(168/234)*

---

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى الآيات السابقة

سورة الأنعام

من الآية 1 - إلى الآية 110

[ سورة الأنعام (6) : آية 1 ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (1)

الإعراب :

(الحمد ) مبتدأ مرفوع (للّه) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ نعت للفظ الجلالة (خلق) فعل ماض ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (السّموات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (الواو) عاطفة (الأرض) معطوف على السموات منصوب (الواو) عاطفة (جعل) مثل خلق (الظلمات) مثل السموات (الواو) عاطفة (النور) معطوف على الظلمات منصوب (ثمّ) حرف عطف للتراخي والاستبعاد (الذين) موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (كفروا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو ضمير في محلّ رفع فاعل (بربّ)

جارّ ومجرور متعلّق بـ (كفروا) " 1 " ، و(هم) ضمير مضاف إليه (يعدلون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . . والواو فاعل .

جملة " الحمد للّه . . . " : لا محلّ لها ابتدائية .

وجملة " خلق السموات . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة " جعل الظلمات . . . . " : لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة " الذين كفروا . . . " : لا محلّ لها معطوفة على الجملة الابتدائيّة .

وجملة "كفروا " : لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " يعدلون " : في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

البلاغة

1 – ثبوت الديمومة التي يستحقها سبحانه ، وهي ديمومة الحمد له بسبب كونه منعما ، والكلام خبري أريد به الأمر .

2 – الطباق : بين السموات والأرض ، والظلمات والنور ، وإذا تعدد الطباق سمي مقابلة .

3 – المخالفة في الإفراد والجمع : في قوله تعالى " وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ " حيث جمع الظلمات لظهور كثرة أسبابها ومحالّها عند الناس ومشاهدتهم إياها على التفصيل ، وتقديمها على النور لتقدم الإعدام على الملكات مع ما فيه من رعاية حسن المقابلة بين القرينتين .

---

(1) يجوز تعليقه بـ (يعدلون) وهو بمعنى التسوية فمفعوله محذوف . . أمّا في التعليق أعلاه فهو لازم أي يميلون عنه .

---

4 – الإظهار في موضع الإضمار : في قوله تعالى " ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ " حيث وضع الرب موضع ضميره تعالى لزيادة التشنيع والتقبيح والتقديم لمزيد الاهتمام والمسارعة إلى تحقيق مدار الإنكار والاستبعاد والمحافظة على الفواصل .

5 – حذف المفعول : في قوله تعالى " يعدلون " أي " به " وقد ترك المفعول لظهوره أو لتوجيه الإنكار إلى نفس الفعل بتنزيله منزلة اللازم إيذانا بأنه المدار في الاستبعاد والاستنكار لا خصوصية المفعول . هذا هو التحقيق بجزالة التنزيل والخليق بفخامة شأنه الجليل .

الفوائد

1 – الفعل " جعل " هو من الأفعال التي تنصب مفعولين وذلك عند ما تكون بمعنى " صيّر " ولكنها في هذه الآية بمعنى " أنشأ " ولذلك نصبت مفعولا واحدا وذو الفطنة يدرك الفرق الدقيق بين الجعل والخلق فالأول فيه معنى التحويل من شيء إلى شيء . والخلق فيه البدء من لا شيء وقد لحظ ذلك ابن جني فقال في الخصائص : " إن العرب قد تتوسع فتوقع أحد الفعلين موقع الآخر إيذانا بأن هذا الفعل قد اكتسب معنى الفعل الآخر " .

2 – الفعل " عدل " يقبل معنى التضاد فهو في هذه الآية بمعنى الميل عن جادة الصواب والانحراف مع الهوى . ويستعمل أيضا بمعنى العدل وهو التسوية بين الشيئين والإنصاف بتقديم الحقوق إلى الناس . وهو من خصائص لغة الضاد وذو العقل يدرك الفرق بين المعنيين ويخصص الفعل بأحدهما استنادا إلى مقام الحديث ومقتضى الحال . . .

3 – حذف المفعول للفعل " يعدلون " لإدراكه من سياق الكلام وهو ضرب من الإيجاز وخاصة من خصائص قواعد اللغة واتخاذها التقدير مبدءا من مبادئها العريقة .

[سورة الأنعام (6) : آية 2]

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (2)

الإعراب :

(هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (الذي) موصول خبر (خلقكم) مثل خلق السموات " 1 " ، (من طين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (خلق) " 2 " ، (ثمّ) حرف عطف (قضى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (أجلا) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (أجل) مبتدأ مرفوع " 3 " ، (مسمّى) نعت لأجل مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (عند) ظرف مكان منصوب متعلّق بمحذوف خبر و(الهاء) ضمير مضاف إليه (ثمّ) حرف عطف (أنتم) ضمير منفصل في

محلّ رفع مبتدأ (تمترون) مثل يعدلون " 4 " .

جملة " هو الذي . . . . " : لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " خلقكم . . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة " قضى . . . . " : لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة " أجل مسمّى عنده " : لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

---

(1) في الآية السابقة .

(2) وفي الكلام حذف مضاف أي خلق أصلكم من طين . . . ويجوز تعليقه بحال من المقدّر .

(3) جاز جعل النكرة مبتدأ لأنها وصفت .

(4) في الآية السابقة .



---

وجملة " أنتم تمترون " : لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف .

وجملة " تمترون " : في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنتم) .

الصرف :

(تمترون) ، فيه إعلال بالحذف ، أصله تمتريون بضمّ الياء ، استثقلت الضمّة فوق الياء فسكّنت ونقلت إلى الراء ، ولمّا التقى ساكنان – الياء وواو الجماعة – حذفت الياء فأصبح تمترون وزنه تفتعون .

البلاغة

1 – العطف بثم : في قوله تعالى " ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ " وذلك استبعاد واستنكار لامترائهم في البعث بعد معاينتهم لما ذكر من الحجج الباهرة الدالة عليه . أي تمترون في وقوعه وتحققه في نفسه مع مشاهدتكم في أنفسكم من الشواهد ما يقطع مادة الامتراء بالكلية .

2 – التنكير : في قوله تعالى : " وأجل " فقد ابتدأ به وهو نكره وصح الابتداء به لتخصيصه بالوصف أو لوقوعه في موقع التفصيل و " عنده " هو الخبر ، وتنوينه لتفخيم شأنه وتهويل أمره وقدم على خبره الظرف مع أن الشائع في النكرة المخبر عنها به لزوم تقديمه عليها وفاء بحق التفخيم .

[سورة الأنعام (6) : آية 3]

وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ (3)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (هو) مثل السابق " 1 " ، (اللّه) لفظ الجلالة خبر مرفوع (في السموات) جارّ ومجرور متعلّق بلفظ الجلالة لأن فيه معنى المعبود في السموات والأرض " 2 " ،

(الواو) عاطفة (في الأرض)

---

(1) في الآية السابقة. [. . . . . ]

(2) في تعليل هذا التعليق كلام طويل يمكن تلخيصه بما يلي :

*(172/234)*

---

جارّ ومجرور متعلّق بما تعلّق به في السموات فهو معطوف عليه (يعلم) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (سرّ) مفعول به منصوب و(كم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (جهركم) معطوف على سرّكم منصوب (الواو) عاطفة (يعلم) مثل الأول (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (تكسبون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة " هو اللّه . . . " : لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة في الآية السابقة وجملة " يعلم . . " : في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ (هو) " 1 " .

وجملة " يعلم (الثانية) " : في محلّ رفع معطوفة على جملة يعلم (الأولى) .

وجملة " تكسبون " : لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

الصرف :

(سرّكم) ، اسم لما يكتمه الإنسان في نفسه ، وقد يكون اسم مصدر لفعل أسرّ الرباعيّ ، وزنه فعل بكسر فسكون ، جمعه أسرار .

الفوائد

1 - شغل تعليق الجار والمجرور " فِي السَّماواتِ وَفِي الْأَرْضِ " رعيل المفسرين والمعربين وذهبوا بتعليقه وجوها كثيرة أحصاها بعضهم فأضفت على اثني عشر وجها :

وقد اعتمد كبار هؤلاء ومنهم الزجاج والزمخشري أن يعلقا بصفة

---

- يتعلّق الجارّ والمجرور بلفظ الجلالة من حيث ملاحظة الوصف الذي تضمّنه ، وهو كونه معبودا فاللّه فيه معنى العبادة . هذا وقد أعرب بعضهم الضمير (هو) ضمير الشأن ، ولفظ الجلالة مبتدأ خبره جملة يعلم . ويجوز تعليق الجارّ بفعل يعلم ، والجملة في هذه الحال خبر ثاني للمبتدأ (هو) .

(1) أو لا محلّ لها استئنافيّة .



---

للفظ الجلالة أو بالخبر المحذوف على أن لفظ الجلالة مبتدأ والضمير " هو " ضمير الشأن . ويكون التقدير " اللّه كائن أو معبود أو موجود " في السموات وفي الأرض ولا حاجة بنا

للتقديم والتأخير والتعقيد والتعسير. أما من له مزاج في تتبع الآراء القوية والضعيفة والمستقيمة والشاذة وسلوك طرائق المقارنة والترجيح فعليه بالمطولات من كتب النحو وتواليف المفسرين . . .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 4 إلى 5]

وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (4) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (5)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ما) نافية (تأتي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء و(هم) ضمير مفعول به (من) زائدة (آية) مجرور لفظا مرفوع محلا فاعل تأتي (من آيات) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لآية (ربّ) مضاف إليه مجرور و(هم) ضمير مضاف إليه (إلّا) أداة حصر (كانوا) فعل ماض ناقص مبنيّ على الضمّ . . والواو ضمير اسم كان (عن) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمعرضين (معرضين) خبر كان منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة " تأتيهم . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة "كانوا . . . " : في محلّ نصب حال من مفعول تأتي أو من فاعله .

(الفاء) تعليليّة " 1 " ، (قد) حرف تحقيق (كذّبوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (بالحقّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (كذّبوا) ، وقد يضمّن الفعل معنى استهزءوا (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط متعلّق بالجواب (جاء) فعل ماض ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو و(هم) ضمير مفعول به (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (سوف) أحرف استقبال (يأتيهم) مثل تأتيهم (أنباء) فاعل مرفوع (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (كانوا به) مثل كانوا عنها ، والجارّ متعلّق بالفعل (يستهزئون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

وجملة "كذّبوا بالحقّ" : لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة "جاءهم" : في محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة "يستهزئون" : في محلّ نصب خبر كانوا .

[سورة الأنعام (6) : آية 6]

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً وَجَعَلْنَا الْأَنْهارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (6)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام (لم) حرف نفي وجزم وقلب (يروا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . والواو فاعل " 2 " ، (كم) خبريّة كناية عن عدد مبنيّ على السكون في محلّ نصب مفعول به

---

(1) جعلها الزمخشريّ رابطة لجواب شرط مقدّر أي : إن كانوا معرضين عن الآيات فلا تعجب فقد كذبوا بالحقّ .

(2) من المحتمل أن تكون الرؤية بصريّة ، أو قلبيّة علميّة .

*(175/234)*

---

مقدّم " 1 " ، (أهلك) فعل ماض مبنيّ على السكون و(نا) ضمير فاعل (من قبل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أهلكنا) ، و(هم) ضمير مضاف إليه (من قرن) جارّ ومجرور تمييز كم (مكّنّا) مثل أهلكنا و(هم) ، ضمير مفعول به – وهو يعود إلى القرون بمعنى الأمم – (في الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بـ (مكّناهم) ، (ما) نكرة موصوفة ، اسم مبني في محلّ نصب مفعول به ثان عامله مكّناهم بتضمينه معنى أعطيناهم " 2 " ، (لم) مثل الأول (نمكّن) مضارع مجزوم ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن للتعظيم (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (نمكّن) ، (الواو) عاطفة (أرسلنا) مثل أهلكنا (السماء) مفعول به

منصوب (على) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أرسلنا) ، (مدرارا) حال منصوبة من السماء (الواو) عاطفة (جعلنا) مثل أهلكنا (الأنهار) مفعول به منصوب (تجري) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هي (من تحت) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تجري) ، و(هم) ضمير مضاف إليه . وفي الكلام حذف مضاف أي من تحت مساكنهم (الفاء) عاطفة (أهلكنا) مثل الأول و(هم) ضمير مفعول به (بذنوب) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أهلكنا) ، والباء للسببيّة و(هم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (أنشأنا) مثل أهلكنا (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أنشأنا) ، و(هم) مضاف إليه (قرنا) مفعول به منصوب (آخرين) نعت لقرن – هو اسم جمع – منصوب وعلامة النصب الياء .

---

(1) أعربها العكبريّ استفهاميّة ، وجعلها في بعض أعاريبه ظرفا ، ومفعولا مطلقا ، ومفعول أهلكنا هو قرن على زيادة (من) .

(2) أو اسم موصول نعت لمصدر محذوف أي : مكّناهم في الأرض التمكين الذي لم نمكّنه لكم .

جملة " يروا . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " أهلكنا . . . " : في محلّ نصب مفعول به لفعل الرؤية " 1 " .

وجملة " لم نمكّن لكم " : في محلّ نصب نعت لـ (ما) " 2 " .

وجملة " أرسلنا . . . " في محلّ جر معطوفة على جملة مكناهم .

وجملة " جعلنا . . . . " في محلّ جر معطوفة على جملة مكناهم .

وجملة " تجري . . . " في محلّ نصب مفعول به ثان عامله جعلنا " 3 " .

وجملة " أهلكناهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدر أي كفروا فأهلكناهم .

وجملة " أنشأنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أهلكناهم .

الصرف :

(قرن) ، اسم جمع كقوم ورهط ، وفيه معان كثيرة ، فهو بمعنى الجماعة من الناس لاقترانهم في مدة من الزمان ، ويطلق على المدة من الزمن التي تقع في مائة سنة ، وبعضهم يجعله أكثر من ذلك أو أقل من ذلك ، وقيل هو المقدار الوسط من أعمار الناس . . . وزنه فعل بفتح فسكون .

البلاغة

1 – الالتفات : في قوله تعالى " ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ " لما في مواجهتهم بضعف الحال مزيد بيان

لشأن الفريقين ولدفع الاشتباه من أول الأمر عن مرجعي الضميرين والسياق يقتضي : ما لم نمكن لهم .

---

(1) أو في محلّ نصب سدّت مسدّ مفعولي يروا المعلّق بـ (كم) .

(2) أو لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

(3) وإذا كان الفعل متعديا لواحد كانت الجملة حالا . . .

*(177/234)*

---

2 - المجاز المرسل : في قوله تعالى " وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ " أي السحاب واستعمالها في ذلك مجاز مرسل ، والعلاقة المحلية . وقد عبر بالسماء عن السحاب لأنه ينزل منها .

الفوائد

1 - قوله : ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ .

تقبل " ما " أن تكون على حالات متعددة . . . .

أولها : أن تكون نكرة تامة بمعنى شيء في محل مفعول مطلق أو مفعول به ثان وثانيها : أن تكون مصدرية ظرفية أي مدة تمكنكم .

وثالثها : أن تكون اسما موصولا بمعنى الذي أي التمكين الذي لم نمكنه لكم .

ويختلف اعراب الجملة التي بعدها حسب التقدير الذي نقدره والاعراب الذي نعتمده .

[سورة الأنعام (6) : آية 7]

وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (7)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (لو) حرف شرط غير جازم (نزّلنا) فعل ماض مبني على السكون . . . (ونا) ضمير فاعل (على) حرف جر و(الكاف) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (نزلنا) ، (كتابا) مفعول به منصوب (في قرطاس) جارّ ومجرور متعلق بـ (كتابا) " 1 " (الفاء) عاطفة (لمسوا) فعل ماض وفاعله و(الهاء) ضمير مفعول به (بأيدي) جار ومجرور متعلق بـ (لمسوه) ، و(هم) ضمير مضاف إليه (اللام) واقعة في جواب لو (قال) فعل ماض (الذين) اسم موصول مبني في محلّ رفع فاعل

---

(1) وهو بمعنى مكتوب ، ويجوز تعليقه بمحذوف نعت لكتاب .

(كفورا) فعل ماض وفاعله (إن) حرف نفي (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبني في محلّ رفع مبتدأ (إلا) أداة حصر (سحر) خبر مرفوع (مبين) نعت مرفوع.

جملة "نزّلنا . . . "لا محلّ لها استئنافية.

وجملة "لمسوه . . . "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافية.

وجملة "قال الذين . . . "لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة "كفروا "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة "إن هذا إلا سحر "في محلّ نصب مقول القول.

الصرف:

(قرطاس)، اسم جامد لما يكتب فيه وزنه فعلال بكسر الفاء وهو الأشهر وقد تضم الفاء . . . وفي القاموس مثلث القاف. ولا يقال قرطاس إلا إذا كان مكتوبا وإلا فهو طرس أو كاغد.

البلاغة

1 – الإطناب: في قوله تعالى "فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ" مع ظهور أن اللمس لا يكون عادة إلا بالأيدي لزيادة التعين ودفع احتمال التجوز الواقع في قوله تعالى "وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ" أي تفحصنا أي فمسوه بأيديهم بعد ما رأوه بأعينهم بحيث لم يبق لهم في شأنه اشتباه ولم يقدروا

على الاعتذار بتسكير الأبصار .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 8 إلى 9]

*(179/234)*

---

وَقالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ (8) وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ (9)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (قالوا) فعل ماض وفاعله (لولا) حرف تحضيض أي هلا " 1 " ، (أنزل) فعل ماض مبني للمجهول (عليه) مثل عليك " 2 " ، متعلق بـ (أنزل) ، (ملك) نائب فاعل مرفوع (الواو) ، استئنافيّة ، (لو أنزلنا ملكا) مثل لو نزلنا . . . كتابا " 3 " ، (اللام) واقعة في جواب لو (قضي) فعل ماض مبني للمجهول (الأمر) نائب فاعل مرفوع (ثم) حرف عطف (لا) نافية (ينظرون) مضارع مبني للمجهول مرفوع . . . والواو نائب فاعل .

جملة " قالوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة في السابقة .

وجملة " أنزل عليه ملك " في محل نصب مقول القول .

وجملة " أنزلنا . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " قضي الأمر . . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة " لا ينظرون " لا محلّ لها معطوفة على جواب الشرط .

(9) (الواو) عاطفة (لو جعلناه ملكا ) أداة شرط وفعل وفاعل ومفعول أول ومفعول ثان (اللام) واقعة في جواب لو (جعلنا ) فعل ماض وفاعله و(الهاء) ضمير مفعول به أول (رجلا) مفعول به ثان (الواو) عاطفة (اللام) مثل الأول (لبسنا ) مثل جعلنا (على) حرف جر و(هم) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (لبسنا ) مثل جعلنا (على) حرف جر و(هم) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (لبسنا ) ، (ما ) اسم موصول مبني في محلّ نصب مفعول به " 4 " ، (يلبسون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

---

(1) بعضهم يجعلها للاستفهام – كالهروي – وبعضهم يجعلها للتقريع – كابن هشام – .

(2) في الآية السابقة .

(3) في الآية السابقة (7) . [ . . . . . ]

(4) يجوز أن يكون (ما ) حرفا مصدريا ، والمصدر المؤول في محل نصب مفعولا مطلقا أي للبسنا عليهم لبسهم على غيرهم .

وجملة " جعلناه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنزلنا .

وجملة " جعلنا (الثانية) " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة " لبسنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب الشرط .

وجملة " يلبسون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

الصرف :

(ملك) ، واحد الملائكة اسم من (ملك يملك) باب ضرب أو من (ألك) بمعنى أبلغ الرسالة مع القلب وانظر مزيد تفصيل في الآية (30) من سورة البقرة .

الفوائد

1 – عقد بعض النحاة فصلا خاصا لـ " لولا ولوما " نلخص لك ما أورد فيهما :

قالوا : لهذين الحرفين استعمالان :

الأول : امتناع جوابهما لوجود شرطهما وفي هذا الحال يختصان بالجمل الاسمية كقوله تعالى : " لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ " وقول الشاعر :

لولا الإصاخة للوشاة لكان لي من بعد سخطك في الرضاء رجاء

وفي هذه الحالة يجب حذف الخبر لأنه معلوم من سياق الكلام ، ويدل الجواب على امتناعه ، ووجود المبتدأ يدل على وجوب تقدير الجواب .

الاستعمال الثاني : هو دلالتهما على التحضيض وفي هذه الحالة يختصان بالجمل الفعلية نحو

قوله تعالى : " لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ " .

ويساويهما في التحضيض والاختصاص بالأفعال " هلّا وألّا وألا " .

ونضيف إلى الاستعمالين الأساسيين لهذه الأدوات انها قد تستعمل للتوبيخ والتنديد

والتنديم وعندئذ تختص بالماضي أو ما في تأويله نحو :

" لَوْلا جاؤُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ " وقول الشاعر :

نبئت ليلى أرسلت بشفاعة إليّ فهلّا نفس ليلى شفيعها

2 - " بين سيبويه والمبرد " . .

يرى سيبويه أن " لولا " تخفض المضمر ويستشهد بقول يزيد بن الحكم الثقفي :

وكم موطن لولاي طحت كما هوى بأجرامه من قلّة النوق منهوي

*(181/234)*

---

و يردّ عليه المبرّد إذ يرى أن الصواب في استعمالها مع الضمير أن يكون منفصلا كقولنا : " لولا أنت ولولا أنا " وقوله تعالى : " لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ " وليس بعد كلام اللّه من حجة .

[سورة الأنعام (6) : آية 10]

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (10)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (استهزئ) فعل ماض مبني للمجهول (برسل) جار ومجرور في محل رفع نائب فاعل (من قبل) جار ومجرور متعلق بنعت لرسل " 1 " ، و(الكاف) ضمير مضاف إليه (الفاء) عاطفة لربط المسبب بالسبب (حاق) فعل ماض (الباء) حرف جر (الذين) اسم موصول مبني في محلّ جر متعلق بـ (حاق) ، (سخروا) فعل ماض مبني على الضم . . . والواو فاعل (من) حرف جر و(هم) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (سخروا) " 2 " ، (ما) اسم موصول مبني في محلّ رفع فاعل حاق ، والعائد هو الهاء في (به) " 3 " (كانوا) فعل ماض ناقص مبني على

---

(1) أو متعلق بفعل (استهزئ) .

(2) وإذا كان الضمير يعود إلى الساخرين فإن الجار متعلق بحال من فاعل سخروا .

(3) وهنا أقام السبب مكان المسبب وهو العذاب المفهوم من سياق الآية أي حاق بهم العذاب الذي سببه استهزاؤهم بالرسل . . . هذا ويجوز أن يكون (ما) حرفا مصدريا أي كونهم يستهزئون ، والهاء في (به) عائد على الرسول الذي يتضمنه الجمع أي حاق بهم عاقبة

الضم . . والواو اسم كان (الباء) حرف جر و(الهاء) ضمير في محلّ جر متعلق بـ

(يستهزئون) وهو مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

جملة " استهزئ . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدر .

وجملة " حاق . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الجواب .

وجملة " سخروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " كانوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الاسمي أو الحرفي .

وجملة " يستهزئون " في محلّ نصب خبر كانوا .

الصرف :

(حاق) ، فيه إعلال بالقلب ، الألف فيه أصلها ياء لأن مضارعه يحيق ، جاءت الياء

متحركة بعد فتح قلبت ألفا .

البلاغة

1 – الكناية : في قوله تعالى " فَحاقَ بِالَّذِينَ " فهو كناية عن إهلاكهم وإسناده إلى ما أسند

إليه مجاز عقلي إذ من المعلوم أن مذهب أهل الحق أن المهلك ليس إلا اللّه تعالى ، فاسناده

إلى غيره لا يكون إلا مجازا .

2 – فن رد الاعجاز على الصدور في هذه الآية ضرب من المحسنات اللفظية والمعنوية

أطلق عليه علماء البلاغة " ردّ العجز على الصدر " وهو فنّ لطيف تباري فيه الشعراء قديما وتبعهم الناثرون ويبقى هذا الفن ضربا من الحسن ما لم يلج باب التصنّع والتكلف ومن هذا الفن قوله تعالى : وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ .

---

استهزائهم بالرسول المندرج في جملة الرسل . . . ويرى أن في الكلام حذف مضاف أي حاق بهم عاقبة كونهم مستهزئين .

*(183/234)*

---

فالحظ معي هذا التجاوب بين " استهزئ ويستهزئون وكيف ترتاح النفس لهذا التقابل وكأنها كانت تنتظر وروده قبل أن يرد . . . وقد رمق هذا الفن وتطلع إليه كثير من الشعراء قبل أن يتحول من الصنعة إلى التصنّع . .

ثوى بالثرى من كان يحيى به الثرى ويغمر صرف الدهر نائله الغمر

[سورة الأنعام (6) : آية 11]

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (11)

الإعراب :

(قل) فعل أمر ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (سيروا) فعل أمر مبني على حذف النون . . . والواو فاعل (في الأرض) جار ومجرور متعلق بـ (سيروا) " 1 " ، (ثم) حرف عطف (انظروا) مثل سيروا (كيف) اسم استفهام مبني في محلّ نصب خبر كان مقدم (كان) فعل ماض ناقص (عاقبة) اسم كان مرفوع (المكذبين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجر الياء .

جملة " قل . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " سيروا . . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " انظروا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة " كان عاقبة . . . " في محلّ نصب مفعول به لفعل النظر المعلق بالاستفهام .

---

(1) يجوز تعليقه بمحذوف حال من الواو في (سيروا) .



---

[سورة الأنعام (6) : آية 12]

قُلْ لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (12)

الإعراب :

(قل) مثل السابق " 1 " ، (اللام) حرف جر (من) اسم استفهام مبني في محلّ جر متعلق بمحذوف خبر مقدم (ما) اسم مبني في محلّ رفع مبتدأ مؤخر (في السموات) جار ومجرور متعلق بمحذوف صلة ما (الواو) عاطفة (الأرض) معطوف على السموات مجرور مثله (قل) مثل الأول " 2 " ، (لله) جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ، والمبتدأ مقدر دل عليه المبتدأ السابق أي : ما في السموات لله (كتب) فعل ماض والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (على نفس) جار ومجرور متعلق بـ (كتب) بتضمينه معنى أوجب وقضى و(الهاء) ضمير مضاف إليه (الرحمة) مفعول به منصوب (اللام) واقعة في جواب قسم مقدر (يجمع) مضارع مبني على الفتح في محلّ رفع . . . (والنون) للتوكيد و(كم) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (إلى يوم) جار ومجرور متعلق بـ (يجمعنكم) بتضمينه معنى يؤخرنكم (القيامة) مضاف إليه مجرور (لا) نافية للجنس (ريب) اسم ، لا مبني على الفتح في محلّ نصب (في) حرف جر و(الهاء) ضمير في محلّ جر متعلق بمحذوف خبر لا (الذين) اسم موصول مبني في محلّ رفع مبتدأ (خسروا) فعل ماض مبني على الضم . . . والواو فاعل (أنفس) مفعول به منصوب و(هم) ضمير مضاف

---

(1 ، 2) في الآية السابقة .

---

إليه (الفاء) زائدة " 1 " ، (هم) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع مبتدأ (لا) نافية (يؤمنون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

جملة " قل . . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " لمن ما في السموات " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " قل (الثانية) " لا محلّ لها استئناف بياني لتقرير الجملة الأولى .

وجملة " (هو) لله " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة "كتب . . . " لا محلّ لها استئنافية غير داخلة في حيز القول .

وجملة " ليجمعنكم . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر .

وجملة " لا ريب فيه " في محلّ نصب حال من يوم القيامة .

وجملة " الذين خسروا . . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " خسروا أنفسهم " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " هم لا يؤمنون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

وجملة " لا يؤمنون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

[سورة الأنعام (6) : آية 13]

وَلَهُ ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (13)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (اللام) حرف جر و(الهاء) ضمير في

---

(1) جاءت الفاء زائدة لأن زيادتها في الخبر غير ممتنعة على رأي الجمهور ، أو لأن (الذين) فيه مشابهة للشرط فاقتضى ربط خبره بالفاء .

*(186/234)*

---

محلّ جر متعلق بمحذوف خبر مقدم (ما) اسم موصول مبتدأ مؤخر (سكن) فعل ماض ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو وهو العائد (في الليل) جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من فاعل سكن " 1 " ، (الواو) عاطفة (النهار) معطوف على الليل مجرور " 2 " ، (الواو) عاطفة (هو) ضمير منفصل مبتدأ (السميع) خبر مرفوع (العليم) خبر ثان مرفوع .

جملة " له ما سكن . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 3 " .

وجملة " سكن " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " هو السميع . . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

البلاغة

1 - الاكتفاء بأحد الضدين : في قوله تعالى " ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهارِ " كما في قوله تعالى " سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ " والتقدير ما سكن وتحرك وإنما اكتفى بالسكون عن ضده دون العكس لأن السكون أكثر وجودا وعاقبة كل متحرك السكون . ولأن السكون في الغالب نعمة لكونه راحة ولا كذلك الحركة .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 14 إلى 15]

قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (14) قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15)

---

(1) أو متعلق بـ (سكن) .

(2) إن فسر (سكن) بمعنى استقر فلا حذف في الآية ، وإن فسّر بمعنى هدأ ففي الآية حذف أي : له ما سكن في الليل وتحرك في النهار .

(3) يجوز عطفها على الجملة المحكيّة في الآية السابقة أي وقل : له ما سكن . . .

الإعراب :

(قل) فعل أمر ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (الهمزة) للاستفهام الإنكاري (غير) مفعول به أول مقدم منصوب (الله) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (أتخذ) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا ، (وليا) مفعول به ثان منصوب (فاطر) بدل من لفظ الجلالة مجرور مثله ، أو نعت له (السموات) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (الأرض) معطوف على السموات مجرور (الواو) حالية (هو) مثل السابق " 1 " ، (يطعم) مضارع مرفوع ، والفاعل هو (الواو) عاطفة (لا) نافية (يطعم) مضارع مبني للمجهول مرفوع ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو (قل) مثل الأول (إنّ) حرف مشبه بالفعل و(الياء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (أمرت) فعل ماض مبني للمجهول . . . والتاء ضمير في محلّ رفع نائب فاعل (أن) حرف مصدري ونصب (أكون) مضارع منصوب ناقص ، واسمه ضمير مستتر تقديره أنا (أول) خبر أكون منصوب (من) اسم موصول مبني في محلّ جر مضاف إليه " 2 " ، (أسلم) فعل ماض ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو وهو العائد . والمصدر المؤوّل (أن أكون) في محلّ جر بباء محذوف أي بأن أكون . . . متعلق بـ (أمرت) . (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (تكوننّ) مضارع ناقص مبني على الفتح في محلّ جزم . . . والنون للتوكيد واسمه ضمير مستتر تقديره أنت (من المشركين) جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر تكونن ، وعلامة الجر الياء .

---

(1) في الآية السابقة .

(2) أو نكرة موصوفة واقعة موقع اسم جمع أي أول فريق أسلم ، والجملة بعده في محلّ جر نعت له .

*(188/234)*

---

جملة " قل . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " أتخذ . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " هو يطعم " في محلّ نصب حال .

وجملة " لا يطعم " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هو) .

وجملة " لا يطعم " في محلّ رفع معطوفة على جملة يطعم .

وجملة " قل (الثانية) " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " إنّي أمرت " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " أمرت " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة " أكون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) .

وجملة " لا تكوننّ . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدر أي : قيل لي : لا تكوننّ . . .

وجملة القول المقدرة معطوفة على جملة قل الاستئنافيّة " 1 " .

(قل) مثل الأول (إنّي أخاف) مثل إنّي أمرت ، والفعل لمعلوم والفاعل أنا (إن) حرف شرط جازم (عصيت) فعل ماض مبني على السكون في محلّ جزم فعل الشرط . . . والتاء فاعل (ربّ) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدرة على ما قبل الياء و(الياء) ضمير مضاف إليه (عذاب) مفعول به عامله أخاف ، منصوب (يوم) مضاف إليه مجرور (عظيم) نعت ليوم مجرور .

وجملة " قل . . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " إنّي أخاف . . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " أخاف . . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

---

(1) يجوز عطفها على جملة الاستئناف قل إني . . . فلا محلّ لها . [ . . . . . ]



---

وجملة " عصيت . . . " لا محلّ لها اعتراضية . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه مضمون الكلام السابق أي إن عصيت ربي نالني العذاب .

الصرف :

(فاطر) ، اسم فاعل من الثلاثي فطر ، وزنه فاعل .

[سورة الأنعام (6) : آية 16]

مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (16)

الإعراب :

(من) اسم شرط جازم مبني في محلّ رفع مبتدأ (يصرف) مضارع مبني للمجهول مجزوم فعل الشرط ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو يعود على العذاب في الآية السابقة (عن) حرف جر و(الهاء) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (يصرف) ، (يوم) ظرف زمان منصوب متعلق بـ (يصرف) " 1 " ، (إذ) اسم ظرفي مبني في محلّ جر مضاف إليه ، والتنوين عوض من جملة محذوفة (الفاء) رابطة لجواب الشرط (قد) حرف تحقيق (رحمه) فعل ماض ومفعوله ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي الله (الواو) عاطفة (ذلك) اسم إشارة مبني في محلّ رفع مبتدأ . . . و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (الفوز) خبر المبتدأ مرفوع (المبين) نعت للفوز مرفوع .

جملة " من يصرف . . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " يصرف . . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 2 " .

وجملة " قد رحمه " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة " ذلك الفوز . . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

---

(1) يجوز أن يتعلق بمحذوف حال من الضمير في (يصرف) .

(2) أو الخبر هو جملتا الشرط والجواب معا .

*(190/234)*

---

الفوائد

1 - تنوين العوض . .

التنوين الذي يلحق " إذ " عند ما تتصل باليوم أو الحين وما في زمرتهما كالوقت والساعة والقرن إلى آخر ما هنالك من هذه الأسرة . .

نحو يومئذ وحينئذ وساعتئذ ، وقد أطلق عليه النحاة تنوين العوض لأنه حلّ محلّ الجملة التي كان حقها أن تذكر بعد الظرف وبالتالي يضاف الظرف إليها وهو ضرب من الإيجاز الذي استأثرت به لغة الضاد وغايته تحسين اللفظ إلى جانب الاختصار .

وأما الكسرة التي لحقت " الذال " فليست كسرة اعراب لأن " إذ " ملازمة للبناء وإنما هي لالتقاء الساكنين .

[سورة الأنعام (6) : آية 17]

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

(17)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (إن) حرف شرط جازم (يمسس) مضارع مجزوم فعل الشرط و(الكاف) ضمير مفعول به (الله) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (بضرّ) جار ومجرور متعلق بـ (يمسس) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لا) نافية للجنس (كاشف) اسم لا مبني على الفتح في محل نصب (اللام) حرف جر و(الهاء) ضمير في محل جر متعلق بمحذوف خبر لا (إلا) أداة استثناء (هو) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع بدل من محل لا مع اسمها " 1 " (الواو) عاطفة (إن يمسسك بخير) مثل إن يمسسك بضر (الفاء) رابطة لجواب الشرط (هو) ضمير منفصل مبتدأ

---

(1) أو بدل من الضمير المستكن في الخبر.

*(191/234)*

---

(على كل) جار ومجرور متعلق بقدير (شيء) مضاف إليه مجرور (قدير) خبر المبتدأ هو ، مرفوع.

جملة " إن يمسسك الله . . . . " لا محلّ لها استئنافية.

وجملة " لا كاشف له . . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة " إن يمسسك بخير " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة " هو . . . قدير " في محلّ جزم جواب الشرط " 1 " .

الصرف :

(ضرّ) ، مصدر سماعي لفعل ضر يضر باب نصر ، وزنه فعل بضم الفاء ، وثمة مصدر آخر هو ضرّ بفتح الضاد .

(كاشف) اسم فاعل من كشف يكشف باب ضرب ، وزنه فاعل .

[سورة الأنعام (6) : آية 18]

وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (18)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (هو) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع مبتدأ (القاهر) خبر مرفوع (فوق) ظرف مكان منصوب متعلق بـ (القاهر) " 2 " ، (عباد) مضاف إليه مجرور و(الهاء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (هو الحكيم) مثل هو القاهر (الخبير) خبر ثان مرفوع .

---

(1) يرى بعضهم أن هذه الجملة تعليلية لا محلّ لها لكل من جواب الشرط الأول والثاني . . . وأن جواب الشرط الثاني محذوف تقديره : لا راد له غيره – كما جاء في سورة يونس ، الآية (107) . وما أثبتناه أعلاه هو رأي ابن هشام حيث جعل جملة (هو على كل شي

ء قدير) جوابا للشرط الثاني (شذور الذهب ص 415 ط/ 3) .

(2) أو متعلق بمحذوف خبر ثان تقديره غالب أو مسيطر . . . ويجوز أن يكون متعلقا بمحذوف حال من الضمير في القاهر .

*(192/234)*

---

جملة " هو القاهر . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " هو الحكيم . . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

الصرف :

(القاهر) ، اسم فاعل من قهر يقهر باب فتح ، وزنه فاعل .

[سورة الأنعام (6) : آية 19]

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (19)

الإعراب :

(قل) فعل أمر والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (أي) اسم استفهام مبني في محلّ رفع مبتدأ

(شيء) مضاف إليه مجرور (أكبر) خبر مرفوع (شهادة) تمييز منصوب (قل) مثل الأول (الله) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (شهيد) خبر مرفوع " 1 " ، (بين) ظرف مكان منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدرة على ما قبل الياء و(الياء) ضمير مضاف إليه ، والظرف متعلق بـ(شهيد) " 2 " ، (الواو) حرف عطف (بينكم) ظرف مثل بيني ومتعلق بما تعلّق به (الواو) حرف عطف (أوحي) فعل ماض مبني للمجهول (إلى) حرف جر و(الياء) ضمير في محلّ جر متعلق بـ(أوحي) ، (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبني في محلّ رفع نائب فاعل (القرآن) بدل

---

(1) أو هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو ، وخبر (الله) محذوف دلّ عليه السؤال المتصدر أي : الله أكبر شهادة .

(2) أو متعلق بمحذوف نعت لشهيد .



---

من (ذا) أو عطف بيان له مرفوع (اللام) لام التعليل (أنذر) مضارع منصوب ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا و(كم) ضمير مفعول به (الباء) حرف جر و(الهاء) ضمير في محل

جر متعلق بـ (أنذر) .

والمصدر المؤول (أن أنذر) في محل جر باللام متعلق بـ (أوحي) .

(الواو) عاطفة (من) اسم موصول مبني في محلّ نصب معطوف على ضمير الخطاب في (أنذركم) ، والعائد محذوف أي بلغه القرآن (بلغ) فعل ماض والفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي القرآن (الهمزة) للاستفهام الإنكاري (إنّ) حرف مشبه بالفعل و(كم) ضمير في محل نصب اسم إن (اللام) هي المزحلقة (تشهدون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل (أن) مثل إنّ (مع) ظرف منصوب متعلق بمحذوف خبر مقدّم (الله) لفظ الجلالة مضاف إليه (آلهة) اسم أن منصوب (أخرى) نعت لآلهة منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدرة على الألف .

والمصدر المؤول (أن مع الله آلهة) في محلّ نصب مفعول به عامله تشهدون .

(قل) مثل الأول (لا) نافية (أشهد) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (قل) مثل الأول (إنما) كافة ومكفوفة (هو) ضمير منفصل مبتدأ (إله) خبر مرفوع (واحد) نعت لإله مرفوع (الواو) عاطفة (إن) مثل الأول ، و(النون) للوقاية و(الياء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (بريء) خبر إنّ مرفوع (من) حرف جر (ما) اسم موصول مبني في محل جر متعلق ببريء " 1 " ، (تشركون) مثل تشهدون .

---

(1) يجوز أن يكون (ما) حرفا مصدريا ، والمصدر المؤول في محلّ جر أي من إشراككم .

---

جملة " قل . . . (الأولى) " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " أي شيء أكبر " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " قل . . . (الثانية) " لا محلّ لها استئنافية بيانية .

وجملة " الله شهيد " في محلّ نصب مقول القول . . . وهي في معنى جواب الاستفهام .

وجملة " أوحي إليّ . . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة الله شهيد " 1 " .

وجملة " أنذركم به " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر .

وجملة " بلغ " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة " إنكم لتشهدون " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " تشهدون " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة " قل . . . (الثالثة) " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " لا أشهد " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " قل . . . (الرابعة) " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " هو إله . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " إنني بريء . . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة هو إله . . .

وجملة " تشركون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

---

(1) يجوز فصلها على الاستئناف فلا محلّ لها .

*(195/234)*

---

البلاغة

- خروج الاستفهام عن معناه الأصلي : في قوله تعالى " أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى " فالاستفهام هنا للتقرير أو للإنكار وقيل : لهما ، وفيه جمع بين المعاني المجازية .

الفوائد

- عقد النحاة فصلا خاصا لـ " أي " وأوضحوا أنها تأتي للدلالة على أمور متعددة وقد ذكروا لها أقساما نلمح إليها باختصار :

آ - يطلب بها تعيين الشيء نحو " أي رجل جاء ؟ " . . .

ب - وتكون وصلة لنداء ما فيه " ال " ملحقة بهاء التنبيه نحو " يا أَيُّهَا النَّاسُ " وقد ألمحنا إلى هذا القسم فيما مضى .

ج- وتكون اسما موصولا . .

د - وقد تأتي للدلالة على معنى الكمال وتسمّى " أيا الكماليّة " نحو " خالد رجل أي رجل " فهو كامل في صفات الرجال ، وتعرب صفة بعد النكرة وحالا بعد المعرفة .

[سورة الأنعام (6) : آية 20]

الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (20)

الإعراب :

*(196/234)*

---

(الذين) اسم موصول مبني في محلّ رفع مبتدأ (آتينا) فعل ماض مبني على السكون . . . (ونا) فاعل و(هم) ضمير مفعول به أول (الكتاب) مفعول به ثان منصوب (يعرفون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل و(الهاء) ضمير مفعول به (الكاف) حرف جر (ما) حرف مصدري (يعرفون) مثل الأول (أبناء) مفعول به و(هم) ضمير مضاف إليه .

والمصدر المؤول (ما يعرفون) في محلّ جر بالكاف متعلق بمحذوف مفعول مطلق أي يعرفون عرفانا كعرفانهم أبناءهم .

(الذين خسروا) مثل الذين آتينا (أنفس) مفعول به منصوب و(هم) ضمير مضاف إليه

(الفاء) زائدة لمشابهة الموصول للشرط (هم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (لا) نافية

(يؤمنون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

جملة " الذين آتيناهم . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " آتيناهم الكتاب " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الأول .

وجملة " يعرفونه " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

وجملة " يعرفون أبناءهم " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (ما) .

وجملة " الذين خسروا " لا محلّ لها بدل من جملة الاستئناف – أو استئنافية .

وجملة " خسروا . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة " هم لا يؤمنون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

وجملة " لا يؤمنون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

الفوائد

1 – بعض المحدثين أعرب " الفاء " في قوله تعالى : " الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ "

أنها رابطة للجواب وعلل ذلك بقوله : إن الموصول يتضمن معنى الشرط .

ونحن لا نردّ ذلك ولكن نرجح تسميتها بالفاء الزائدة كما أسماها علماء النحو

وقد عرفوها بأنها " الفاء الداخلة على خبر المبتدأ إذا تضمن معنى الشرط " وقد مثلوا

لها بقولهم " الذي يأتي فله درهم " وإنما كانت زائدة لأن الخبر مستغن عن رابط يربطه بالمبتدأ فتأمل . .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 21 إلى 24]

*(197/234)*

---

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (21) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (22) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ (23) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (24)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (من) اسم استفهام مبني في محلّ رفع مبتدأ (أظلم) خبر مرفوع (من) حرف جر و(من) اسم موصول مبني في محلّ جر متعلق بـ (أظلم) ، (افترى) فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (على الله) جار ومجرور متعلق بـ (افترى) ، (كذبا) مفعول به منصوب (أو) حرف عطف (كذب) مثل افترى (بآيات) جار ومجرور متعلق بـ (كذّب) ، و(الهاء) ضمير مضاف إليه (إنّ) حرف مشبه

بالفعل و(الهاء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ ، وهو ضمير الشأن (لا) نافية (يفلح) مضارع مرفوع (الظالمون) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة " من أظلم . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " افترى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة "كذّب بآياته " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة " إنّه لا يفلح . . " لا محلّ لها استئنافية في حكم التعليل .

وجملة " لا يفلح الظالمون " في محلّ رفع خبر إنّ .

*(198/234)*

---

(22) (الواو) عاطفة (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بفعل لا يفلح لأنه معطوف على ظرف مقدّر متعلق بالفعل نفسه أي : لا يفلح الظالمون اليوم ويوم نحشرهم جميعا " 1 " ، (نحشر) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن و(هم) ضمير مفعول به (جميعا ) حال منصوبة من الضمير المفعول في (نحشرهم) ، (ثم) حرف عطف (نقول) مثل نحشر (اللام) حرف جر (الذين) اسم موصول مبني في محلّ جر متعلق بـ (نقول) ، (أشركوا) فعل ماض مبني على الضمّ . . . والواو فاعل (أين) اسم استفهام مبني في محلّ نصب على

الظرفية المكانية متعلق بمحذوف خبر مقدم (شركاء) مبتدأ مؤخر مرفوع و(كم) ضمير مضاف إليه (الذين) موصول في محلّ رفع نعت لشركاء (كنتم) فعل ماض ناقص مبني على السكون (تم) ضمير في محلّ رفع اسم كان (تزعمون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل ، ومفعولا الفعل المتعدي الاثنين مقدران . . . أي تزعمونهم شركاء .

وجملة " نحشرهم . . . " في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة " نقول . . " في محلّ جر معطوفة على جملة نحشرهم .

وجملة " أشركوا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الأول .

وجملة " أين شركاؤكم " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " كنتم تزعمون " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

---

(1) يجوز أن يعرب الاسم مفعولا به لفعل محذوف تقديره اذكر أو اتقوا أو احذروا . . .



---

وجملة " تزعمون " في محلّ نصب خبر كنتم .

(23) (ثمّ) حرف عطف (لم) حرف نفي وجزم وقلب (تكن) مضارع مجزوم ناقص (فتنة) اسم تكن مرفوع و(هم) ضمير مضاف إليه (إلا) أداة حصر (أن) حرف مصدري

(قالوا) مثل أشركوا (الواو) واو القسم (الله) لفظ الجلالة مجرور بالواو متعلق بفعل أقسم المقدّر (ربّنا) نعت للفظ الجلالة مجرور ، أو بدل منه . . . (ونا) ضمير مضاف إليه (ما) نافية (كنّا) مثل كنتم (مشركين) خبر كنا منصوب وعلامة النصب الياء .

والمصدر المؤول (أن قالوا) في محلّ نصب خبر تكن .

وجملة " لم تكن فتنتهم . . . " في محلّ جر معطوفة على جملة نقول . . .

وجملة " قالوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) .

وجملة " (نقسم) بالله . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " ما كنا مشركين " لا محلّ لها جواب القسم .

(24) (انظر) فعل أمر ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (كيف) اسم استفهام مبني في محلّ نصب حال عامله (كذبوا) وهو مثل أشركوا (على أنفس) جار ومجرور متعلق بـ (كذبوا) ، و(هم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة – أو استئنافية – (ضلّ) مثل افترى (عن) حرف جر و(هم) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (ضلّ) بتضمينه معنى غاب (ما) اسم موصول مبني في محلّ رفع فاعل ، والعائد محذوف " 1 " ، (كانوا) مثل كنتم (يفترون) مثل تزعمون .

جملة " انظر . . . " لا محلّ لها استئنافية .

---

(1) أو حرف مصدري ، والمصدر المؤول في محلّ رفع فاعل .

---

وجملة "كذبوا . . . " في محلّ نصب مفعول به لفعل النظر المعلق بالاستفهام .

وجملة " ضلّ . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة كذبوا " 1 " .

وجملة "كانوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " يفترون . . . " في محلّ نصب خبر (كانوا) .

الفوائد

1 - للمستثنى بـ " إلّا " بحث ضاف قتله النحاة بحثا وتوضيحا ، ولا يعنينا في هذه الآية سوى " الاستثناء المفرغ " على حد تعبير بعضهم " واعراب المستثنى بإلّا على حسب العوامل " على حد تعبير الآخرين وسواء راق لنا هذا التعريف أو ذاك فلا بد للمستثنى من شرطين حتى يعرب بحسب العوامل وهما : أولا أن يكون مفرغا من ذكر المستثنى منه . ثانيا : أن يكون الكلام منفيا وفي هذه الحالة يمكن أن نسمي " إلا " أداة حصر ، على حد تعبير علماء البلاغة .

1 - أجمع النحاة على أن "كيف " اسم يستفهم به عن حالة الشيء ، وقد تكتسب معنى التعجب نحو "كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ " أو معنى النفي والإنكار نحو :

"كيف افعل هذا " أو معنى التوبيخ كقوله تعالى : " وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلى عَلَيْكُمْ آياتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ " وقد تتضمن "كيف " معنى الشرط إما متصلة بـ " ما " نحو "كيفما تكن يكن قرينك " أو غير متصلة بها نحو : "كيف تجلس أجلس " .

وفي إعمالها أو إهمالها مذهبان :

---

(1) يجوز أن تكون استئنافية فلا محلّ لها .

*(201/234)*

---

مذهب الكوفيين وهم يجزمون بها فعل الشرط وجوابه .

ومذهب البصريين وهي عندهم اسم شرط غير جازم فالفعلان بعدها مرفوعان فاختر أيهما أقرب للصواب ولا تألو . . . !

[سورة الأنعام (6) : آية 25]

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها حَتَّى إِذا جاؤُكَ يُجادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (25)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (من) حرف جر و(هم) ضمير في محلّ جر متعلق بمحذوف خبر مقدم "

1 " ، (من) اسم موصول مبني في محلّ رفع مبتدأ (يستمع) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (إلى) حرف جر (الكاف) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (يستمع) ، (الواو) عاطفة – أو حالية – (جعلنا) فعل ماض مبني على السكون . . . (ونا) فاعل (على قلوب) جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من أكنّة " 2 " ، و(هم) ضمير مضاف إليه (أكنّة) مفعول به منصوب (أن) حرف مصدري ونصب (يفقهوا) منصوب وعلامة النصب حذف النون . . . والواو فاعل و(الهاء) ضمير مفعول به .

والمصدر المؤوّل (أن يفقهوه) في محلّ نصب مفعول لأجله على

---

(1) يجوز أن يكون نعتا لمبتدأ محذوف ، والتقدير : بعض منهم من يستمع . . . وحينئذ يصبح الاسم الموصول خبرا .

(2) وإذا كان الفعل بمعنى صيّر كان الجار والمجرور مفعولا ثانيا ، وإذا كان الفعل بمعنى ألقى فالجار متعلق به . [ . . . . . ]



---

حذف مضاف أي كراهة أن يفقهوه .

(الواو) عاطفة (في آذان) جار ومجرور متعلق بما تعلق به (على قلوبهم) بسبب العطف ، وكذلك (وقرا) معطوفة على أكنّة " 1 " ، (الواو) عاطفة (إن) حرف شرط جازم (يروا) مضارع مجزوم فعل الشّرط وعلامة الجزم حذف النون . . . والواو فاعل (كلّ) مفعول به منصوب (آية) مضاف إليه مجرور (لا) نافية (يؤمنوا) مضارع مجزوم جواب الشرط مثل يروا (الباء) حرف جر و(ها) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (يؤمنوا) ، (حتّى) حرف ابتداء (إذا) ظرف للمستقبل متضمّن معنى الشّرط في محلّ نصب متعلق بـ (يقول) ، (جاؤوا) فعل ماض وفاعله و(الكاف) ضمير مفعول به (يجادلون) مضارع مرفوع . . . والفاعل الواو و(الكاف) ضمير مفعول به (يقول) مثل يستمع (الذين) اسم موصول مبني في محلّ رفع فاعل (كفروا) مثل جاؤوا (إن) حرف نفي (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبني في محلّ رفع مبتدأ (إلا) أداة حصر (أساطير) خبر مرفوع (الأوّلين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجر الياء .

جملة " منهم من يستمع . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " يستمع . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة " جعلنا . . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة " 2 " .

وجملة " يفقهوه " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) .

---

(1) يجوز تقدير فعل محذوف يفسره المذكور أي وجعلنا في آذانهم وقرا ، والجملة المقدرة

معطوفة .

(2) يجوز أن تكون الجملة منصوبة على الحال بتقدير (قد) ، أي يستمع إليه في حال جعل الأكنة على قلبه .

*(203/234)*

---

وجملة " يروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة " لا يؤمنوا بها . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة " جاؤوك . . . " في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة " يجادلونك . . . . " في محلّ نصب حال من فاعل جاؤوك .

وجملة " يقول الذين . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " إن هذا إلا أساطير " في محلّ نصب مقول القول .

الصرف :

(أكنّة) ، جمع كنان كأعنة وعنان ، اسم جامد من فعل كن باب ردّ . وكنان وزنه فعال بكسر الفاء ووزن أكنّة أفعلة جاءت العين واللام من حرف واحد .

(وقرا) ، مصدر سماعي من فعل وقر يوقر باب فرح وباب وعد . . .

ووقر الله الأذن . . . فالفعل يستعمل لازما ومتعديا . وزنه فعل بفتح فسكون .

(أساطير) ، جمع أسطورة ، بضم الهمزة وإسطارة بكسر الهمزة ، وقيل أساطير جمع أسطار وهو جمع سطر بفتح الطاء . وأسطورة اسم بمعنى الحديث الباطل وزنه أفعولة بضم الهمزة ، ووزن أساطير أفاعيل .

(الأوّلين) ، جمع الأول ، وهو اسم يدل على الترتيب في العدد ، وهو وحده يأتي على هذه الصيغة وأما ما يليه فيكون على وزن الفاعل كالثاني والثالث . . .

البلاغة

1 - الكناية : في قوله تعالى " وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً " .

فالكلام عند غير واحد تمثيل كناية عن كمال جهلهم بشؤون النبي (صلّى اللّه عليه وسلّم) وفرط نبو قلوبهم عن فهم القرآن الكريم وصمم أسماعهم ، وجوزوا أن يكون هناك استعارة تصريحية أو مكنية أو مشاكلة .

[سورة الأنعام (6) : آية 26]

وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ (26)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (هم) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع مبتدأ (ينهون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . . والواو فاعل (عن) حرف جر و(الهاء) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (ينهون) ، ومفعول ينهون محذوف أي ينهون الناس . (ينأون عنه) مثل ينهون عنه (الواو) استئنافية (إن) نافية (يهلكون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل (إلّا) أداة حصر (أنفس) مفعول به منصوب و(هم) ضمير مضاف إليه (الواو) حالية (ما) نافية (يشعرون) مل (ينهون) .

جملة " هم ينهون . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة في الآية السابقة .

وجملة " ينهون . . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ هم .

وجملة " ينأون . . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة ينهون .

وجملة " يهلكون . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " ما يشعرون " في محلّ نصب حال " 1 " .

الصرف :

(ينهون) ، فيه إعلال بالحذف ، أصله ينهاون ، جاءت الألف والواو ساكنتين ، حذفت الألف لالتقاء الساكنين ، وزنه يفعون .

(ينأون) ، فيه إعلال جرى مجرى ينهون .

البلاغة

- الجناس : في قوله تعالى " وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ " وهو جناس التصريف الذي هو اختلاف صيغة الكلمتين بإبدال حرف من حرف قريب من مخرجه ، سواء أكان الإبدال في الأول أم في الوسط أم في الآخر .

الفوائد

1 - قبل أن نغادر هذه الآية حقيق بنا أن نقف مليا عند قوله : ينهون وينأون : فهو من الجناس الناقص كما يقول علماء البلاغة .

وتعريف الجناس هو " اتفاق الكلمتين في اللفظ واختلافهما في المعنى : فإذا اختلف لفظاهما بحرف واحد سمي جناسا ناقصا كما هو في هذه الآية ، وهو من المحسنات اللفظية في القرآن ويبدو أن هذا الفن قد لعب دورا كبيرا في عقول الأدباء وأذواقهم خلال عصر من العصور الأدبية حتى آل إلى ظاهرة من ظواهر التصنّع خلال عصور الركود والجمود ، وقد تلقفه الشعراء الشعبيون عن زملائهم الشعراء المثقفين وحسبوا أنه مفخرة من مفاخر الأدب وأنه غاية وليس وسيلة وأنه يطلب لذاته فاتخذوه معيار الموازنة بين الشعراء فعليه يقوم فنّ العتابا وفنون أخرى من الشعر الشعبي ويدعونه " المرصود " وفي الحقيقة هو ضرب من التزام ما لا يلزم في الشعر أو في النثر . ويبقى الجناس فنا أصيلا ما دام يأتي عفو الخاطر فإذا راح

(1) يجوز أن تعطف الجملة على جملة يهلكون فلا محلّ لها . . . أو تجعل استئنافية أصلا .

(205/234)

---

الأديب يلهث في إثره أصبح تصنعا وتكلفا وسمة ضعف في شعر الشعراء ونثر الناثرين .

[سورة الأنعام (6) : آية 27]

وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (27)

الإعراب :

(206/234)

---

(الواو) استئنافية (لو) شرطية غير جازمة (ترى) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الألف والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت " 1 " ، (إذ) ظرف استعمل للمستقبل لأنه في حكم المحقق (وقفوا) فعل ماض مبني للمجهول مبني على الضم . . .

والواو نائب فاعل (على النار) جار ومجرور متعلق بـ (وقفوا) بتضمينه معنى عرضوا (الفاء) عاطفة (قالوا) فعل ماض وفاعله (يا) أداة تنبيه " 2 " ، (ليت) حرف مشبه بالفعل للتمني و(نا) ضمير في محلّ نصب اسم ليت (نردّ) مضارع مبني للمجهول مرفوع ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره نحن (الواو) واو المعية (لا) نافية (نكذّب) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد واو المعية ، والفاعل نحن (بآيات) جار ومجرور متعلق بـ (نكذب) ، (رب) مضاف إليه مجرور و(نا) ضمير مضاف إليه .

والمصدر المؤول (أن نكذّب) معطوف على مصدر متصيّد من الكلام السابق أي ليت لنا ردّا وإنفاء تكذيب بآيات ربنا وكوننا من المؤمنين .

---

(1) يحتمل أن يكون (ترى) فعلا بصريا ، مفعوله مقدر أي ترى حالهم . . . أو يكون فعلا قلبيا ينصب مفعولين وهما مقدران أيضا أي : لو تراهم خائفين .

(2) أو أداة نداء ، والمنادي محذوف تقديره يا قوم .



---

(الواو) عاطفة (نكون) مضارع ناقص منصوب معطوف على (نكذّب) ، واسمه ضمير مستتر تقديره نحن (من المؤمنين) جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر نكون .

جملة " ترى . . . . " لا محلّ لها استئنافية . . . وجواب لو محذوف أي : لرأيت أمرا عظيما .

وجملة " وقفوا " في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة " قالوا . . . . " في محلّ جر معطوفة على جملة وقفوا .

وجملة " ليتنا نرد " في محلّ نصب مقول القول " 1 " .

وجملة " نرد . . . . " في محلّ رفع خبر ليت .

جملة " لا نكذّب " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المقدّر .

وجملة " نكون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة صلة الموصول الحرفي .

البلاغة

1 – الإيجاز بالحذف : وهو هنا في الآية حذف جواب " لو " ثقة بظهوره وإيذانا بقصور العبارة عن تفصيله . وكذا مفعول ترى لدلالة ما في حيز الظرف عليه ، أي " لو تراهم " حين يقفون على النار حتى يعاينوها لرأيت ما لا يسعه التعبير . وصيغة الماضي للدلالة على التحقق .

الفوائد

1 – من المصطلح عليه أن " إذ " ظرف لما مضى من الزمن ولكنها قد تكون على قلّة ظرفا للمستقبل كقوله تعالى : فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ .

(1) يجوز أن تكون جوابا للنداء ، وجملة النداء مقول القول .



---

وهي من الظروف المبنية وبناؤها على السكون في محلّ نصب وقد تأتي مضافا إليه كقوله تعالى : " رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وقد تقع موقع المفعول به نحو " وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا " . وهي تضاف دائما إلى الجمل .

وقد تحذف الجملة بعدها ويعوض عنها بتنوين العوض كقوله تعال : فَلَوْلا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ " أي وأنتم حين إذ بلغت الروح الحلقوم تنظرون .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 28 إلى 29]

بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (28) وَقالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (29)

الإعراب :

(بل) للإضراب والابتداء (بدا) فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف (اللام) حرف جر و(هم) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (بدا) ، (ما) اسم موصول مبني في محلّ رفع فاعل (كانوا) فعل ماض ناقص مبني على الضم . . . والواو اسم كان (يخفون) مضارع

مرفوع . . . والواو فاعل (من) حرف جر (قبل) اسم مبني على الضم في محلّ جر متعلق بـ (يخفون) ، (الواو) عاطفة (لو) شرط غير جازم (ردّوا) فعل ماض مبني للمجهول مبني على الضم . . . والواو نائب فاعل (اللام) واقعة في جواب لو (عادوا) مثل قالوا " 1 " ، (اللام) حرف جر (ما) اسم موصول مبني في محلّ جر متعلق بـ (عادوا) ، (نهوا) مثل ردّوا (عنه) مثل السابق " 2 " متعلق بـ (نهوا) ، (الواو) عاطفة (إنّ) حرف مشبه بالفعل

---

(1 ، 2) في الآية السابقة (27) .

و(هم) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (اللام) هي المزحلقة تفيد التوكيد (كاذبون) خبر إنّ مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة " بدا لهم ما كانوا . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " كانوا . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الأول .

وجملة " يخفون . . . . " في محلّ نصب خبر كانوا .

وجملة " ردّوا . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة بدا لهم . . .

وجملة " عادوا " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة " نهوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

وجملة " إنهم لكاذبون " لا محلّ لها معطوفة على جملة عادوا " 1 " .

(29) (الواو) عاطفة (قالوا) مثل الأول " 2 " ، (إن) حرف نفي (هي) ضمير منفصل "

3 " في محلّ رفع مبتدأ (إلا) أداة حصر (حياة) خبر مرفوع و(نا) ضمير مضاف إليه (الدنيا) نعت للحياة مرفوع مثله وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الألف (الواو) عاطفة (ما) نافية عاملة عمل ليس (نحن) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع اسم ما (الباء) زائدة (مبعوثين) خبر ليس مجرور لفظا منصوب محلا ، وعلامة الجر الياء .

وجملة " قالوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جمل عادوا " 4 " .

وجملة " إن هي إلا حياتنا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) يجوز حملها على الاستئناف فلا محلّ لها .

(2) في الآية (27) من هذه السورة .

(3) الضمير يعود إلى مفهوم (الحياة) الظاهر في سياق الآيتين السابقتين .

(4) أو معطوفة على جملة (إنهم لكاذبون) .



---

وجملة " ما نحن بمبعوثين " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

الصرف :

(بدا) ، فيه إعلال بالقلب أصله بدو بفتح الواو ، مضارع يبدو . . . جاءت الواو متحركة

بعد فتح قلبت ألفا .

(يخفون) ، فيه إعلال بالتسكين وإعلال بالحذف ، أصله يخفيون بضم الياء الثانية مع الأولى . . . استثقلت الضمة على الياء الثانية فسكّنت - إعلال بالتسكين - ونقلت الحركة إلى الفاء . . . ثم حذفت الياء لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة الساكنة فأصبح (يخفون) ، وزنه يفعون بضم الياء والعين . وفيه حذف همزة الماضي .

(عادوا) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله عودوا بفتح الواو ، جاءت الواو متحركة بعد فتح قلبت ألفا .

(بمبعوثين) ، جمع مبعوث ، اسم مفعول من بعث الثلاثي ، وزنه مفعول .

[سورة الأنعام (6) : آية 30]

وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلى رَبِّهِمْ قالَ أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَرَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (30)

الإعراب :

(الواو) عاطفة - أو استئنافية - (لو ترى إذ وقفوا) مثل السابقة ، (على رب) جار ومجرور متعلق بـ (وقفوا) ، و(هم) ضمير مضاف إليه (قال) فعل ماض والفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي الله (الهمزة) للاستفهام التوبيخي (ليس) فعل ماض ناقص جامد (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبني في محلّ رفع اسم ليس (الباء) حرف جر زائد

---

(الحق) مجرور لفظا منصوب محلا خبر ليس (قالوا) مرّ إعرابها ، (بلى) حرف جواب لا محلّ له (الواو) واو القسم (ربّ) مجرور بالواو متعلق بفعل أقسم مقدّرا و(نا) ضمير مضاف إليه (قال) مثل الأول (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدر (ذوقوا) فعل أمر مبني على حذف النون . . . والواو فاعل (العذاب) مفعول به منصوب (الباء) حرف جر للسببية (ما) حرف مصدري " 1 " ، (كنتم) فعل ماض ناقص مبني على السكون . . . و(تم) ضمير اسم كان في محلّ رفع (تكفرون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

والمصدر المؤول (ما كنتم . . . ) في محلّ جر بالباء متعلق بـ (ذوقوا) .

جملة " ترى . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ترى الأولى " 2 " . . . . أو استئنافية .

وجملة " وقفوا . . . . " في محلّ جر مضاف إليه . . . وجواب لو محذوف تقديره لرأيت أمرا عظيما .

وجملة " قال . . . . " لا محلّ لها استئنافية " 3 " .

وجملة " أليس هذا بالحق " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " قالوا . . . . " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة " (نقسم) " بربنا " لا محلّ لها اعتراضية . . . وجملة الجواب المقدرة بعد القسم هي مقول القول .

وجملة " قال . . . " لا محلّ لها استئنافية .

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جر متعلق بـ (ذوقوا) ، والعائد محذوف أي تكفرون به .

(2) في الآية (27) من هذه السورة .

(3) أو في محلّ نصب حال من ربهم بتقدير (قد) . [ . . . . . ]



---

وجملة " ذوقوا . . . " جواب شرط مقدر أي إن كنتم كفرتم في الدنيا فذوقوا والشرط والجواب هو مقول القول .

وجملة " كنتم تكفرون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الحرفي أو الاسمي .

وجملة " تكفرون " في محلّ نصب خبر كنتم .

البلاغة

1 - الاستعارة المكنية : في قوله تعالى " فَذُوقُوا الْعَذابَ " حيث أستعير الذوق لما

سيلاقونه من العذاب .

2 – التمثيل : أي قوله تعالى " وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلى رَبِّهِمْ " تمثيل لحبسهم للسؤال والتوبيخ أو كناية عنه عند من لم يشترط فيها إمكان الحقيقة .

الفوائد

1 – قسم النحاة أحرف الجر إلى ثلاثة أقسام :

أصلي وزائد وشبيه بالزائد . .

وقد أوضحوا الفوارق بين هذه الزمر الثلاث بما يلي :

أولا : الأصلي يحتاج إلى تعليق ولا يستغنى عنه لا معنى ولا اعرابا نحو : " قرأت في الكتاب " .

الثاني : الزائد وهو ما لا يستغنى عنه إعرابا ولا يحتاج إلى تعليق كذلك لا يستغنى عنه في المعنى ، لأنه إنما جيء به لتوكيد مضمون الكلام نحو " ما جاءنا من أحد " وليس سعيد بمسافر .

الثالث : الشبيه بالزائد وهو لا يستغنى عنه لفظا ولا معنى غير أنه لا يحتاج إلى تعلق .

وهو خمسة أحرف " ربّ وخلا وعدا وحاشى ولعلّ .

وهو شبيه بالزائد من جهة لأنه لا يحتاج إلى متعلق ، وشبيه بالأصلي من جهة ثانية ، حيث أنه لا يستغنى عنه لفظا ولا معنى .

[سورة الأنعام (6) : آية 31]

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قالُوا يا حَسْرَتَنا عَلى ما فَرَّطْنا فِيها وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ (31)

الإعراب :

(قد) حرف تحقيق (خسر) فعل ماض (الذين) اسم موصول مبني في محلّ رفع فاعل (كذّبوا) فعل ماض وفاعله (بلقاء) جار ومجرور متعلق بـ (كذّبوا) ، (الله) مضاف إليه مجرور (حتى إذا جاءتهم الساعة) مثل نظيرها المتقدمة " 1 " ، (بغتة) مصدر في موضع الحال أي مباغتة " 2 " ، (قالوا) مثل كذّبوا (يا) أداة نداء وتحسّر (حسرتنا) منادى مضاف منصوب . ونا ضمير مضاف إليه (على) حرف جر (ما) حرف مصدري " 3 " ، (فرّطنا) فعل ماض مبني على السكون . . . (ونا) فاعل (في) حرف جر و(ها) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (فرط) .

والمصدر المؤول (ما فرّطنا) في محلّ جر متعلق بالحسرة . (الواو) حالية (هم) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع مبتدأ (يحملون) مثل تكفرون " 4 " مفعول به منصوب و(هم) ضمير مضاف إليه (على ظهور) جار ومجرور متعلق بـ (يحملون) ، و(هم) ضمير مضاف إليه (ألا) أداة

---

(1) في الآية (25) من هذه السورة .

(2) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو نوعه أي جاءتهم مجيء البغت .

(3) أو اسم موصول في محلّ جر متعلق بالحسرة والعائد محذوف .

(4) في الآية السابقة (30) .

*(212/234)*

---

تنبيه (ساء) فعل ماض لإنشاء الذم (ما) نكرة موصوفة في محلّ رفع فاعل ساء " 1 " ،

(يزرون) مثل يحملون . . . والمخصوص بالذم محذوف تقديره حملهم ذاك .

وجملة " قد خسر الذين . . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة "كذّبوا . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " جاءتهم الساعة " في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة " قالوا . . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة " التحسر : يا حسرتنا " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " فرّطنا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (ما) أو الاسمي .

وجملة " هم يحملون . . . " في محلّ نصب حال من فاعل قالوا .

وجملة " يحملون . . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

وجملة " ساء ما يزرون " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " يزرون " في محلّ رفع نعت لـ (ما) " 2 " .

الصرف :

(لقاء) ، مصدر سماعي لفعل (لاقى) الرباعي ، وزنه فعال بكسر الفاء ، وفي الكلمة إبدال حرف العلة الياء همزة لمجيئها متطرفة بعد ألف ساكنة ، والأصل لقاي .

(الساعة) ، اسم جامد بمعنى الوقت ، ويستعار للقيامة ، وزنه فعلة بفتح الفاء وسكون العين وألفه منقلبة عن واو . . . ساع يسوع الرجل انتقل

---

(1) يجوز أن يكون (ما) منصوبا على التمييز ، ميّز الضمير المستتر وجوبا فاعل ساء .

(2) أو في محلّ نصب إذا كان (ما) تمييزا .



---

من ساعة إلى ساعة ، جمعها ساعات وساع .

(بغتة) ، مصدر بغت يبغت باب فتح وزنه فعلة ، وثمة مصدر آخر هو البغت أي مفاجأة الشيء بسرعة من غير اعتداد له ولا جعل بال منه ، فلو استشعر الإنسان به ثم جاء بسرعة لا يقال فيه بغتة .

(حسرة) ، مصدر سماعي لفعل حسر يحسر باب فرح ، وزنه فعلة بفتح فسكون ، وثمة مصدر آخر للفعل هو حسر بفتحتين . وحسر تلهف .

(أوزار) ، جمع وزر بكسر الواو كحمل وأحمال ، فعله وزر يزر باب ضرب .

(يزرون) ، فيه إعلال بالحذف لأنه معتل مثال حذفت فاؤه في المضارع ، وزنه يعلون .

البلاغة

1 – الاستعارة التمثيلية : في قوله تعالى " قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ " فلقاء اللّه تعالى استعارة تمثيلية عن البعث ، فقد شبه البعث بلقاء اللّه ثم حذف المشبه وأبقى المشبه به .

2 – الاستعارة التمثيلية التصريحية : في قوله تعالى " وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ " أي يحملون ذنوبهم وخطاياهم وجعل الذنوب والآثام محمولة على الظهر من باب الاستعارة التمثيلية التصريحية ، فقد شبه الذنوب بالأوزار الثقيلة ، ثم حذف المشبه وأبقى المشبه به . والمراد بيان سوء حالهم وشدة ما يجدونه من المشقة والآلام .

3 – المقارنة في الآية الكريمة : فقد اقترن ضربان من فنون البديع في الكلام وهما التنكيت والمبالغة ، فإن لقائل أن يقول : ما النكتة التي رجحت اختصاص الظهور بالحمل دون الرؤوس ؟ والجواب أن النكتة في ذلك الإشارة إلى ثقل الأوزار ، لأن الظهور أحمل للنقل من الرؤوس ، وما يلزم من ذكر

الظهور من عجز الرؤوس عن حمل هذه الأوزار من المبالغة في ثقلها مقترن بالتنكيت .

الفوائد

- ألا : هي أحد أحرف التحضيض والتنديم وقد أوضح بعض النحاة الفرق بين التحضيض والتنديم فقالوا :

*(214/234)*

---

إذا دخلت إحدى هذه الأدوات " هلّا وألّا ولوما وألا " على المضارع فهي للحض على العمل وترك التهاون به نحو " هلا يرتدع فلان عن غيّه " وإن دخلت على الماضي كانت للتنديم فهي تجعل الفاعل يندم على فوات الأمر وعلى التهاون به نحو " هلّا اجتهدت " وقوله تعالى : أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ

[سورة الأنعام (6) : آية 32]

وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (32)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (ما) نافية مهملة (الحياة) مبتدأ مرفوع (الدنيا) نعت للحياة مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الألف (إلا) أداة حصر (لعب) خبر مرفوع (الواو) عاطفة (لهو) معطوف على لعب مرفوع (الواو) عاطفة (اللام) للابتداء تفيد التوكيد

(الدار) مبتدأ مرفوع (الآخرة) نعت للدار مرفوع (خير) خبر مرفوع (اللام) حرف جر (الذين) اسم موصول مبني في محلّ جر متعلق بخير (يتقون) مثل يحملون " 1 " ، (الهمزة) للاستفهام (الفاء) استئنافية " 2 " (لا) نافية (تعقلون) مثل يحملون " 3 " .

---

(1 ، 3) في الآية السابقة (31) .

(2) المعربون يجعلون هذه الفاء عاطفة ، فيعطفون الفعل الظاهر على مقدر أي : أ تغفلون فلا تعقلون . . . والملاحظ أن المقدر جملة استئنافية ، لهذا فلا مانع من جعل الفاء استئنافية والمعنى لا يأبى ذلك ، وصناعة النحو لا تأباه .

*(215/234)*

---

جملة " ما الحياة . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " للدار الآخرة . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف .

وجملة " يتقون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " تعقلون " لا محلّ لها استئنافية .

الصرف :

(لعب) ، مصدر سماعي لفعل يلعب باب فرح ، وزنه فعل بفتح فكسر ، وثمة مصادر

أخرى للفعل هي لعب بفتح اللام وكسرها مع سكون العين ، وتلعاب بفتح التاء .

(لهو) مصدر سماعي لفعل لها يلهو باب نصع ، وزنه فعل بفتح فسكون .

1 - التشبيه البليغ : في قوله تعالى " وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ " والمراد ما أعمال الحياة الدنيا المختصة بها إلا كاللعب واللهو في عدم النفع والثبات ، فالكلام من التشبيه البليغ ولو لم يقدر مضاف ، وجعلت الدنيا نفسها لعبا ولهوا مبالغة كما في قوله : إنما هي إقبال وإدبار .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 33 إلى 35]

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (33) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (34) وَإِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ (35)

الإعراب :

(قد) حرف تحقيق وتأكيد (نعلم) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن للتعظيم (إن) حرف مشبه بالفعل و(الهاء) ضمير الشأن اسم إن (اللام) المزحلقة للتوكيد (يحزن) مثل نعلم و(الكاف) ضمير مفعول به (الذي) اسم موصول مبني في محلّ رفع فاعل (يقولون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . . والواو فاعل والعائد محذوف أي يقولونه (الفاء) للتعليل ، لأن القول السابق يفيد النهي أي لا تحزن (إنهم) مثل إنّه ، والضمير يعود إلى الفاعل يقولون (لا) نافية (يكذبون) مثل يقولون و(الكاف) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (لكن) حرف مشبه بالفعل للاستدراك (الظالمين) اسم لكنّ منصوب وعلامة النصب الياء (بآيات) جار ومجرور متعلق بفعل يجحدون (الله) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (يجحدون) مثل يقولون .

جملة " قد نعلم . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " إنّه ليحزنك . . . في محلّ نصب سدّت مسدّ مفعولي نعلم ، وقد علّق الفعل بسبب دخول لام الابتداء الظاهرة في خبر إنّ " 1 " .

وجملة " يحزنك . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة " يقولون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة " إنّهم لا يكذبونك " لا محلّ لها تعليلية .

وجملة " لا يكذبونك " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة " لكنّ الظالمين . . . " لا محلّ لها معطوفة على التعليلية .

---

(1) كسرت همزة إن لمجيء اللام في خبرها .

(217/234)

---

وجملة " يجحدون " في محلّ رفع خبر لكن .

(34) (الواو) عاطفة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (كذّبت) فعل ماض مبني للمجهول (التاء) للتأنيث ، (رسل) نائب فاعل مرفوع (من قبل) جار ومجرور متعلق بـ (كذبت) ، و(الكاف) ضمير مضاف إليه (الفاء) عاطفة (صبروا) فعل ماض مبني على الضم . . . والواو فاعل (على) حرف جر (ما) حرف مصدري (كذّبوا) ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل (الواو) عاطفة (أوذوا) مثل كذّبوا . . .

والمصدر المؤول (ما كذّبوا) في محلّ جر متعلق بـ (صبروا) .

(حتى) حرف غاية وجر (أتى) فعل ماض مبني على الفتح المقدر و(هم) ضمير مفعول به (نصر) فاعل مرفوع و(نا) ضمير مضاف إليه .

والمصدر المؤول (أن أتاهم نصرنا) في محلّ جر بـ (حتى) متعلق بـ (صبروا) " 1 " .

(الواو) عاطفة (لا) نافية للجنس (مبدل) اسم لا مبني على الفتح في محلّ نصب (لكلمات)

جار ومجرور متعلق بمبدل (الله) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور ، وخبر لا محذوف تقديره موجود (الواو) عاطفة – أو استئنافية – (اللام) واقعة في جواب قسم مقدر (قد) مثل الأول (جاءك) مثل أتاهم . . . والفاعل محذوف دل عليه لفظ الرسل والتقدير : جاءك الخبر (من نبأ) جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من فاعل جاء " 2 " ، أي جاءك

---

(1) يجوز تعليقه بـ (أوذوا) أيضا إذا جعل الفعل معطوفا على (صبروا) ، وعلى (أوذوا) وحده إن جعل مستأنفا .

(2) أجاز الأخفش زيادة الجار ليكون (نبأ) فاعل جاءك خلافا لسيبويه .



---

الخبر كائنا من نبأ الرسل (المرسلين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجر الياء .

وجملة " قد كذبت رسل . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدر . . .

وجملة القسم المقدرة معطوفة على جملة الاستئناف في الآية السابقة .

وجملة " صبروا " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

وجملة "كذبوا " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (ما) .

وجملة " أوذوا . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة صبروا " 1 " .

وجملة " أتاهم نصرنا " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) .

وجملة " لا مبدل لكلمات الله " لا محلّ لها معطوفة على جملة القسم المقدرة " 2 " .

وجملة " جاءك من نبأ . . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر . . . وجملة القسم المقدرة معطوفة على جملة القسم الأولى . . . أو استئنافية .

(35) (الواو) عاطفة (إن) حرف شرط جازم (كان) فعل ماض ناقص مبني في محلّ جزم فعل الشرط ، واسمه ضمير الشأن مستتر " 3 " ، (كبر) فعل ماض (على) حرف جر و(الكاف) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (كبر) ، (إعراض) فاعل كبر مرفوع و(هم) ضمير مضاف إليه (الفاء)

---

(1) يجوز أن تكون معطوفة على جملة جواب القسم . . . أو معطوفة على جملة الصلة (كذّبوا) ، أي صبروا على تكذيبهم وإيذائهم . . . ويجوز أن تكون مستأنفة .

(2) يجوز أن تكون اعتراضية .

(3) يجوز أن يكون الاسم ضميرا مستترا وجوبا يعود على (إعراض) المتنازع عليه مع فعل كبر ، ولكن الإعراب أعلاه ألصق بالأسلوب القرآني ، ولأن الإتيان بـ (كان) يبقي الشرط على مضية . [ . . . . . ]

رابطة لجواب الشرط (إن) مثل الأول (استطاع) فعل ماض مبني على السكون في محلّ جزم فعل الشرط (التاء) ضمير في محلّ رفع فاعل (أن) حرف مصدري ونصب (تبتغي) مضارع منصوب ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (نفقا) مفعول به منصوب (في الأرض) جار ومجرور متعلق بـ (تبتغي) " 1 " ، (أو) حرف عطف (سلّما) معطوف على (نفقا) منصوب (في السماء) مثل في الأرض .

والمصدر المؤول (أن تبتغي) في محلّ نصب مفعول به عامله استطعت .

(الفاء) عاطفة (تأتي) مثل تبتغي ومعطوف عليه (هم) ضمير مفعول به (بآية) جار ومجرور متعلق بفعل تأتيهم . (الواو) عاطفة (لو) شرط غير جازم (شاء) مثل كبر (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (اللام) واقعة في جواب لو (جمع) فعل ماض و(هم) ضمير مفعول به ، والفاعل هو (على الهدى) جار ومجرور متعلق بـ (جمعهم) وعلامة الجر الكسرة المقدرة على الألف (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (لا) ناهية جازمة (تكوننّ) مضارع مبني على الفتح في محلّ جزم والنون نون التوكيد ، واسمها ضمير مستتر تقديره أنت (من الجاهلين) جار ومجرور متعلق بخبر تكونن ، وعلامة الجر الياء .

وجملة "كان كبر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قد نعلم .

وجملة "كبر . . . إعراضهم " في محلّ نصب خبر كان .

وجملة " استطعت . . . " في محلّ جزم جواب الشرط (إن كان) .

وجملة " تبتغي . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) .

وجملة " تأتيهم " لا محلّ لها معطوفة على جملة تبتغي .

---

(1) أو متعلق بمحذوف نعت لـ (نفقا) ، أو بحال من الضمير في (تبتغي) أي وأنت في الأرض .

*(220/234)*

---

وجملة " لو شاء الله " لا محلّ لها معطوفة على جملة كان كبر .

وجملة " جمعهم . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة " تكونن . . . " جواب شرط مقدّر أي : إن عرفت إرادة الله بعدم هدايتهم فلا تكونن . . .

الصرف :

(أوذوا) ، فيه إعلال بالقلب ، قلبت الألف بعد الهمزة إلى واو لمجيئها ساكنة بعد ضم - لمناسبة البناء للمجهول - . وفيه أيضا إعلال بالحذف ، أصله أوذيوا بضم الياء ، استثقلت الضمة على الياء فسكنت ونقلت الحركة إلى الذال ، فلما سكنت الياء مع واو

الجماعة الساكنة حذفت الياء . . . وزنه فوعوا .

(أتاهم) ، فيه إعلال بالقلب أصله أتي بتحريك الياء بالفتح ، فلما جاءت الياء متحركة بعد فتح قلبت ألفا .

(نصر) مصدر سماعي لفعل نصر ينصر الباب الأول ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(مبدّل) ، اسم فاعل من (بدّل) الرباعي وزنه مفعل بضم الميم وكسر العين المشددة .

(المرسلين) ، جمع المرسل ، اسم مفعول من (أرسل) الرباعي ، وزنه مفعل بضم الميم وفتح العين .

(نفقا) ، اسم جامد بمعنى سرب في الأرض له مخرج إلى مكان معهود ، وفعله نفق ينفق ، الباب الأول والباب الرابع ، وزنه فعل بفتحتين .

(سلّما) ، اسم جامد لما يرقى عليه من خشب أو حجر أو مدر ، يذكر ويؤنث ، جمعه سلالم ، وسلاليم ، وزنه فعّل بضم الفاء وفتح العين المشددة .

*(221/234)*

---

البلاغة

1 – استعارة أحد الضدين للآخر : في قوله تعالى " قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ " .

فكلمة قد لتأكيد العلم بما ذكر المفيد لتأكيد الوعيد كما في قوله تعالى " قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ " بإخراجه إلى معنى التكثير . جريا على سنن العرب عن قصد الإفراط في التكثير تقول لبعض قواد العساكر كم عندك من الفرسان فيقول رب فارس عندي يريد بذلك التمادي في تكثير فرسانه ولكنه يروم إظهار براءته عن التزيد وإبراز أنه يقلل كثير ما عنده فضلا عن تكثير القليل وعليه قوله عز وجل ، " رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ " وهذه طريقة إنما تسلك عند كون الأمر من الوضوح بحيث لا تحول حوله شائبة ريب حقيقة .

2 – وضع الظاهر موضع المضمر : في قوله تعالى " وَلكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ " أي ولكنهم بآياته تعالى يكذبون ، فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلا عليهم بالرسوخ في الظلم الذي جحودهم هذا فن من فنونه .

3 – الالتفات البديع : من ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم في قوله تعالى " حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا " للإشارة إلى الاعتناء بشأن النصر ، ولو جرى الكلام على نسقه لقيل : نصره .

الفوائد

1 – من لطائف هذه اللغة وعوامل حيويتها أننا نجد للحرف الواحد من حروف المعاني عدة دلالات أو عدة معان يمكن التعبير بالحرف الواحد عنها وموضوع هذه اللطيفة من لطائف اللغة " اللام " ولها ستة معان نجتزئ لك تسميتها خشية الاطالة : وهي لام الجر ، ولام الأمر ، ولام الابتداء ، ولام البعد ، ولام الجواب ، واللام الموطئة للقسم .

وقد وردت لام الابتداء في هذه الآية بموضعين هما : وللدار الآخرة ، و " إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ " فقد تزحلقت لوجود إن في أول الكلام .

(222/234)

---

2 - من النحاة من يرى أن لام الابتداء عند ما تدخل على الفعل الماضي هي لام القسم ، وأن القسم محذوف ، وقد جاء جوابه مصحوبا باللام . مثال ذلك ، " لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آياتٌ لِلسَّائِلِينَ " وقوله تعالى " لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ " الآية .

3 - للام الابتداء فائدتان :

الأولى : توكيد مضمون الجملة المثبتة ولذا تسمى " لام التوكيد " وسميت لام الابتداء لأنها في الأصل تدخل على المبتدأ أو لأنها تقع في ابتداء الكلام .

الثانية : تخليصها الخبر للحال لذا كان المضارع بعدها خالصا للزمان الحاضر بعد أن كان محتملا للحال والاستقبال .

[سورة الأنعام (6) : آية 36]

إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (36)

الإعراب :

(إنما) كافة ومكفوفة (يستجيب) مضارع مرفوع (الذين) اسم موصول مبني في محلّ رفع فاعل (يسمعون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . . والواو فاعل (الواو) عاطفة (الموتى) مبتدأ مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الألف (يبعث) مثل يستجيب و(هم) ضمير مفعول به (الله) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (ثمّ) حرف عطف (إلى) حرف جر و(الهاء) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (يرجعون) وهو مضارع مبني للمجهول مرفوع . . . والواو نائب فاعل .

جملة " يستجيب الذين . . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " يسمعون " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " الموتى يبعثهم الله " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة " يبعثهم الله " في محلّ رفع خبر .

وجملة " يرجعون " في محلّ رفع معطوفة على جملة يبعثهم الله .

الصرف :

(الموتى) ، جمع الميت . . . . انظر الآية (28) من سورة البقرة .

[سورة الأنعام (6) : آية 37]

وَقالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قادِرٌ عَلى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (37)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (قالوا) فعل ماض وفاعله (لولا) حرف تحضيض بمعنى هلّا (نزل) فعل ماض مبني للمجهول (على) حرف جر و(الهاء) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (نزّل) ، (آية) نائب فاعل مرفوع (من رب) جار ومجرور متعلق بـ (نزّل) " 1 " ، و(الهاء) مضاف إليه (قل) فعل أمر ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (إنّ) حرف مشبه بالفعل (اللّه) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (قادر) خبر إنّ مرفوع (على) مثل الأول (أن) حرف مصدري ونصب (ينزّل) مضارع منصوب ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (آية) مفعول به منصوب .

والمصدر المؤول (أن ينزل) في محلّ جر بـ (على) معلق بقادر .

---

(1) يجوز تعليقه بمحذوف نعت لآية .

(الواو) عاطفة (لكن) حرف مشبه بالفعل للاستدراك (أكثر) اسم لكن منصوب و(هم) ضمير مضاف إليه (لا) نافية (يعلمون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

جملة " قالوا . . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " لولا نزل عليه آية " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " قل . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " إن الله قادر " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " ينزل . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي .

وجملة " لكن أكثرهم لا يعلمون " في محلّ نصب معطوفة على مقول القول .

وجملة " لا يعلمون " في محلّ رفع خبر لكن .

الصرف :

(قادر) ، اسم فاعل من قدر يقدر باب نصر وباب ضرب وباب فرح ، وزنه فاعل .

الفوائد

1 – لولا : في هذه الآية وردت للتنديم والتنديم قسم من التحضيض .

وللتفرقة بين التحضيض والتنديم :

فقد فرق النحاة بين الاثنين فقالوا إذا دخلت لولا على الفعل المضارع فهي للتحضيض وإن دخلت على الفعل الماضي فهي للتنديم .

[سورة الأنعام (6) : آية 38]

وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (38)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (ما) نافية مهملة (من) حرف جر زائد (دابة) مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ (في الأرض) جار ومجرور متعلق بنعت لدابة (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (طائر) معطوف على دابة مجرور مثله لفظا (يطير) مضارع مرفوع ، والفاعل هو (بجناحي) جار ومجرور متعلق بـ (يطير) " 1 " ، وعلامة الجر الياء و(الهاء) ضمير مضاف إليه (إلا) أداة حصر (أمم) خبر مرفوع (أمثال) نعت لأمم مرفوع و(كم) ضمير مضاف إليه (ما) نافية (فرّطنا) فعل ماض وفاعله (في الكتاب) جار ومجرور متعلق بـ (فرّطنا) " 2 " ، (من) مثل الأول (شيء) مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به (ثم) حرف عطف (إلى رب) جار ومجرور متعلق بـ (يحشرون) ، و(هم) ضمير مضاف إليه (يحشرون) مضارع مبني للمجهول مرفوع . . . والواو نائب فاعل .

جملة " ما من دابة . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " يطير . . . " في محلّ جر - أو رفع - نعت لطائر .

وجملة " ما فرطنا . . . " لا محلّ لها اعتراضية لتقرير مضمون ما قبلها .

وجملة " يحشرون " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

الصرف :

(طائر) ، اسم جامد للحيوان المعروف ، وزنه فاعل على وزن اسم الفاعل لأنه في الأصل كذلك ثم نقل إلى الجامد ، مشتق من طار يطير باب ضرب .

(جناحيه) ، مثنى جناح ، اسم جامد لعضو الطائر المعروف ، وزنه

---

(1) أو متعلق بمحذوف حال من فاعل يطير وهي حال مؤكدة .

(2) أو متعلق بمحذوف حال من (شيء) – نعت تقدم على المنعوت – .

*(225/234)*

---

فعل بفتح الفاء ، مأخوذ من جنح يجنح من الأبواب نصر وضرب وفتح .

البلاغة

1 – فن الانفصال لزيادة التعميم والشمول :

وهو أن يقول المتكلم ما هو معلوم ظاهر ، ولكنه ينطوي على أمر وراء ذلك ، وهو أبعد غاية وأسمى منالا ، وذلك في قوله تعالى " وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ " فإن لقائل أن يقول : هلا قيل : وما من دابة ولا طائر إلا أمم أمثالكم ؟ وما معنى زيادة قوله " فِي

الْأَرْضِ " و "يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ " قلت : معنى ذلك زيادة التعميم والإحاطة ، كأنه قيل : وما من دابة قط في جميع الأرضين السبع ، وما من طائر قط في جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم محفوظة أحوالها غير مهمل أمرها . فإن قلت : فما الغرض في ذلك ؟ قلت الدلالة على عظم قدرته ، ولطف علمه ، وسعة سلطانه وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس ، المتكاثرة الأصناف .

وهو حافظ لما لها وما عليها ، مهيمن على أحوالها .

[سورة الأنعام (6) : آية 39]

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُماتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (39)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (الذين) اسم موصول مبني في محلّ رفع مبتدأ (كذّبوا) فعل ماض مبني على الضم والواو فاعل (بآيات) جار ومجرور متعلق بـ (كذّبوا) ، و(نا) ضمير مضاف إليه (صمّ) خبر مرفوع (الواو) عاطفة (بكم) معطوف على صمّ مرفوع (في الظلمات) جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من الضمير في بكم " 1 " ، (من) اسم شرط جازم مبني في محلّ رفع مبتدأ (يشأ) مضارع مجزوم فعل الشرط وحرك

(1) أو متعلق بخبر آخر للمبتدأ تقديره عمي ، أو متعلق بنعت لكم أي بكم كائنون في الظلمات .

*(226/234)*

---

بالكسر لالتقاء الساكنين (الله) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (يضلل) مضارع مجزوم جواب الشرط ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو ، و(الهاء) ضمير مفعول به " 1 " (الواو) عاطفة (من يشأ يجعله) مثل نظيرتها المتقدمة (على صراط) جار ومجرور متعلق بـ (يجعله) " 2 " ، (مستقيم) نعت لصراط مجرور مثله .

جملة " الذين كذّبوا . . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة "كذّبوا . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " من يشأ . . . " لا محلّ لها استئنافية جاءت لتقرير حال الذين كذّبوا .

وجملة " يشأ الله . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 3 " .

وجملة " يضلله " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة " من يشأ " (الثانية) لا محلّ لها معطوفة على جملة من يشأ (الأولى) .

وجملة " يشأ . . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 4 " .

---

(1) أما مفعول يشأ فمحذوف تقديره إضلاله ، وذلك على القاعدة ، إن وقعت المشيئة شرطا فمفعولها ضمير الجزاء .

(2) وهو في الواقع المفعول الثاني لـ (يجعله) أي مهديا .

(3 ، 4) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب .

*(227/234)*

---

وجملة " يجعله . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

البلاغة

2 – التشبيه البليغ : في قوله تعالى " وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُماتِ " فالكلام من التشبيه البليغ على القول الأصح في أمثاله . أي انهم كالصم وكالبكم فلا يسمعون الآيات سماعا تتأثر منه نفوسهم ولا يقدرون على أن ينطقوا بالحق ولذلك لا يستجيبون ويقولون في الآيات ما يقولون .

الفوائد

1 – يجوز تعدد الخبر شريطة أن يكون في التعدد مغايرة كاملة ، كما إذا قلنا : أحمد كريم شجاع وليس منه قولك أحمد طويل قصير لأن اجتماع الصفتين تدلان على صفة واحدة

وهو أنه معتدل القامة.

[سورة الأنعام (6) : آية 40]

قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (40)

الإعراب:

(قل) فعل أمر، والفاعل أنت (الهمزة) للاستفهام (رأيت) فعل وفاعل و(كم) حرف خطاب " 1 " لا محلّ له . . . والفعل بمعنى أخبروني، ومفعول رأيت ضمير مستتر تقديره إيّاه يعود على العذاب

---

(1) حول هذا التعبير كلام طويل اختلف فيه علماء البصرة مع علماء الكوفة، وما جرينا عليه أعلاه هو رأي علماء البصرة . . . أما الكسائي فجعل (الكاف) ضميرا مفعولا به أول، والفراء جعل التاء حرف خطاب و(الكاف) في موضع الفاعل أستعير ضمير النصب للرفع . . .

وثمة آراء أخرى متفرعة وكثيرة ارجع إليها في البحر المحيط لأبي حيان، والجمل في حاشيته على الجلالين.

الآتي ، وفي الكلام تنازع بين الفعلين : رأيت – أتى . (إن) حرف شرط جازم (أتى) فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف في محلّ جزم فعل الشرط و(كم) ضمير مفعول به (عذاب) فاعل أتى مرفوع " 1 " ، (الله) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (أو) حرف عطف (أتتكم الساعة) مثل أتاكم عذاب . . . والتاء الثانية للتأنيث (الهمزة) للاستفهام التوبيخي (غير) مفعول به مقدم منصوب (الله) مثل الأول (تدعون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل (إن) مثل الأول (كنتم) فعل ماض ناقص مبني على السكون في محلّ جزم فعل الشرط . . . و(تم) ضمير اسم كان (صادقين) خبر كان منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة " قل . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " أرأيتكم . . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " إن أتاكم عذاب . . . " لا محلّ لها اعتراضية تقرر معنى الرؤية . . . وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله أي : إن أتاكم عذاب الله فأخبروني عنه أ تدعون غير الله لكشفه " 2 " .

وجملة " أتتكم الساعة . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أتاكم عذاب . . .

---

(1) هنا عمل الفعل أتى في الاسم الظاهر (العذاب) فكان فاعلا له ، ولو عمل الأول لكان (العذاب) منصوبا على أنه مفعول به عامله أرأيتكم ، وفاعل أتى ضمير مستتر يعود على العذاب .

وبعضهم لا يجعل في الكلام تنازعا ، فالمفعول عنده محذوف دل عليه الكلام أي :

أرأيتكم عبادتكم الأصنام هل تنفعكم عند مجيء الساعة . . وقد دل عليه قوله تعالى :

أغير الله تدعون ؟

(2) ويجوز أن يكون الجواب المقدر دل على مضمون الاستفهام الآتي أي : فمن تدعون ؟

أو إن أتاكم . . . دعوتموه .

*(229/234)*

---

وجملة " تدعون " في محلّ نصب مفعول به ثان لفعل أرأيتكم .

وجملة "كنتم صادقين " لا محلّ لها استئنافية . . . وجواب الشرط محذوف تقديره

فادعوا غير الله .

البلاغة

1 - خروج الاستفهام عن معناه الأصلي : في قوله تعالى " أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ " وأصل اللفظ

الاستفهام عن العلم أو العرفان أو الأبصار إلا أنه تجوز به عن معنى أخبرني ولا يستعمل إلا

في الاستخبار عن حالة عجيبة لشيء .

[سورة الأنعام (6) : آية 41]

بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ وَتَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ (41)

الإعراب :

(بل) للإضراب والابتداء (إياه) ضمير منفصل مبني على الضم في محلّ نصب مفعول به مقدم (تدعون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل (الفاء) عاطفة لربط المسبب بالسبب " 1 " ، (يكشف) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي الله (ما) اسم موصول مبني في محلّ نصب مفعول به " 2 " ، (تدعون) مثل الأول (إلى) حرف جر و(الهاء) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (تدعون) أي إلى كشفه ، فالضمير يعود إلى الموصول (إن) حرف شرط جازم (شاء) فعل ماض في محلّ جزم فعل الشرط ، والفاعل هو (الواو) عاطفة (تنسون) مثل تدعون (ما) مثل الأول (تشركون) مثل تدعون .

---

(1) أي أفادت ترتب الكشف على الدعاء ، والدعاء سبب فيه .

(2) أو نكرة موصوفة والجملة بعدها نعت له .



---

جملة " تدعون (الأولى) " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " يكشف . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة " تدعون (الثانية) " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " شاء . . . . " لا محلّ لها اعتراضية . . . . وجواب الشرط محذوف أي : إن شاء أن يكشف كشف .

وجملة " تنسون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يكشف .

وجملة " تشركون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

[سورة الأنعام (6) : آية 42]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (اللام) واقعة في جواب قسم مقدر (قد) حرف تحقيق (أرسلنا) فعل ماض وفاعله - والمفعول مقدر أي رسلا - (إلى أمم) جار ومجرور متعلق بـ (أرسلنا) ، (من قبل) جار ومجرور متعلق بـ (أرسلنا) و(الكاف) ضمير مضاف إليه (الفاء) عاطفة (أخذنا) مثل (أرسلنا) و(هم) ضمير مفعول به (بالبأساء) جار ومجرور متعلق بـ (أخذناهم) بتضمينه معنى عاقبناهم (الواو) عاطفة (الضراء) معطوف على البأساء مجرور (لعلّ) حرف مشبه بالفعل للترجي و(هم) ضمير في محلّ نصب اسم لعل (يتضرعون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

جملة " أرسلنا . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر .

وجملة " أخذناهم . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة مقدرة أي فكذبوهم فأخذناهم .

وجملة " لعلهم يتضرعون " لا محلّ لها استئناف بياني أو تعليلية .

وجملة " يتضرعون " في محلّ رفع خبر لعل .

الصرف :

(البأساء) اسم للشدة والفقر ، وهي صيغة تأنيث لا مذكر لها فلا يقال أبأس إلا للتفضيل ، وزنه فعلاء مأخوذ من بئس يبأس باب فرح .

(الضراء) ، اسم للشدة والمرض - نقيض السراء - وهي صيغة تأنيث لا مذكر لها ، فلا يقال أضرّ إلا للتفضيل ، وزنه فعلاء من ضر يضر باب نصر .

*(231/234)*

---

[سورة الأنعام (6) : آية 43]

فَلَوْلا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا وَلكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (43)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة (لولا) حرف توبيخ وندامة " 1 " ، (إذ) ظرف للزمن الماضي مبني في محلّ نصب متعلق بـ (تضرعوا) ، (جاء) فعل ماض و(هم) ضمير مفعول به (بأسنا) فاعل مرفوع ، ومضاف إليه (تضرعوا) فعل ماض مبني على الضم . . . والواو فاعل (الواو) عاطفة (لكن) حرف استدراك (قست) فعل ماض . . . والتاء للتأنيث (قلوب) فاعل مرفوع و(هم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (زيّن) مثل جاء (اللام) حرف جر و(هم) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (زيّن) ، (الشيطان) فاعل مرفوع (ما) اسم موصول مبني في محلّ نصب مفعول به " 2 " ، (كانوا) فعل ماض ناقص مبني على الضم . . . والواو ضمير في

---

(1) لأنها متلوة بفعل ماض هو (تضرّعوا) ، وإن فصل عنها بـ (إذ) . [ . . . . . ]

(2) أو حرف مصدري ، والمصدر المؤول مفعول زين .



---

محلّ رفع اسم كان (يعملون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

جملة " جاءهم بأسنا " في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة " تضرّعوا " لا محلّ لا استئناف بياني .

وجملة " قست قلوبهم " لا محلّ لها معطوفة على جملة تضرّعوا .

وجملة " زيّن . . . الشيطان " لا محلّ لها معطوفة على جملة قست قلوبهم " 1 " .

وجملة " كانوا يعملون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " يعملون " في محلّ نصب خبر كانوا .

[سورة الأنعام (6) : آية 44]

فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ (44)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمن معنى الشرط متعلق بـ (فتحنا) ، (نسوا) فعل ماض مبني على الضم . . . والواو فاعل (ما) اسم موصول مبني في محلّ نصب مفعول به (ذكروا) فعل ماض مبني للمجهول مبني على الضم . . . . والواو نائب فاعل (الباء) حرف جر و(الهاء) ضمير في محلّ جر بالباء متعلق بـ (ذكّروا) ، (فتحنا) فعل ماض مبني على السكون وفاعله (على) حرف جر و(هم) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (فتحنا) ، (أبواب) مفعول به منصوب (كلّ) مضاف إليه مجرور (شيء) مضاف إليه مجرور (حتى) حرف ابتداء (إذا) ظرف للزمن المستقبل مبني في محلّ نصب متعلق بـ (أخذناهم) ، (فرحوا) مثل

---

(1) يجوز قطعها على الاستئناف أصلا .

---

نسوا (الباء) حرف جر (ما) اسم موصول مبني في محلّ جر متعلق بـ (فرحوا) ، (أوتوا) مثل ذكّروا (أخذنا) مثل فتحنا ، و(هم) ضمير مفعول به (بغتة) مصدر في موضع الحال " 1 " ، (الفاء) عاطفة (إذا) فجائية " 2 " (هم) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (مبلسون) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة " نسوا . . . . " في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة " ذكّروا . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " فتحنا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة " فرحوا . . . . " في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة " أوتوا . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

وجملة " أخذناهم . . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير الجازم .

وجملة " هم مبلسون " لا محلّ لها معطوفة على جملة الجواب " 3 " .

الصرف :

(نسوا) ، فيه إعلال بالتسكين وبالحذف ، أصله نسيوا بضم الياء ، استثقلت الضمة على

الياء فسكنت ونقلت الحركة إلى السين - إعلال بالتسكين - ثم حذفت الياء لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة ، فأصبح نسوا ، وزنه فعوا - إعلال بالحذف - .

(مبلسون) ، جمع مبلس ، اسم فاعل من الرباعي أبلس ، وهو اليائس المنقطع رجاؤه ، وزنه مفعل بضم الميم وكسر العين . وفي المختار أبلس من رحمة الله يئس .

---

(1) وانظر الآية (31) من هذه السورة .

(2) على رأي الأخفش ، وهي ظرف مكان على رأي سيبويه والمبرّد ، متعلق بـ (مبلسون) .

(3) والعطف بالفاء التي فيها معنى السببية فتربط المسبب وهو الإبلاس بالأخذ المباغت .



---

الفوائد

فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ :

1 - ذهب البصريون ومنهم الكسائي إلى أن إذا ظرف زمان متعلق بالخبر الذي يليه .

2 - ذهب الكوفيون إلى أنها حرف لا تحتاج إلى تعليق وسنعود إليها في مواطن أخرى .

[سورة الأنعام (6) : آية 45]

فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (45)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة (قطع) فعل ماض مبني للمجهول (دابر) نائب فاعل مرفوع (القوم) مضاف إليه مجرور ، (الذين) اسم موصول مبني في محلّ جر نعت للقوم (ظلموا) مثل نسوا " 1 " ، (الواو) استئنافية (الحمد) مبتدأ مرفوع (لله) جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ (رب) نعت لله مجرور مثله (العالمين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجر الياء .

وجملة " قطع دابر . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة (هم مبلسون) " 2 " .

وجملة " ظلموا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " الحمد لله . . . " لا محلّ لها استئنافية .

الصرف :

(دابر) ، اسم فاعل من الثلاثي دبر باب نصر بمعنى الآخر ، وزنه فاعل .

---

(1 ، 2) في الآية السابقة (44) .

البلاغة

1 - وضع وضع الظاهر موضع الضمير : في قوله تعالى " فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا " للإشعار بعلة الحكم فإن هلاكهم بسبب ظلمهم الذي هو وضع الكفر موضع الشكر وإقامة المعاصي مقام الطاعات .

[سورة الأنعام (6) : آية 46]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصارَكُمْ وَخَتَمَ عَلى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (46)

الإعراب :

(قل) فعل أمر ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (الهمزة) للاستفهام (رأيتم) فعل ماض وفاعله بمعنى أخبروني (إن) حرف شرط جازم (أخذ ) فعل ماض في محلّ جزم فعل الشرط (الله) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (سمع) مفعول به منصوب و(كم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (أبصاركم) معطوف على سمعكم منصوب مثله ، ومضاف إليه (الواو) عاطفة (ختم) مثل أخذ (على قلوب) جار ومجرور متعلق بـ (ختم) ، و(كم) ضمير مضاف إليه (من) اسم استفهام مبني في محلّ رفع مبتدأ (إله) خبر مرفوع (غير) نعت لإله مرفوع مثله (الله) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (يأتي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع

الضمة المقدرة على الياء و(كم) ضمير مفعول به (الباء) حرف جر (الهاء) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (يأتي) ، (انظر) مثل قل (كيف) اسم استفهام مبني في محلّ نصب حال عامله نصرف (نصرف) مضارع مرفوع ، والفعل ضمير مستتر تقديره نحن للتعظيم (الآيات) مفعول به منصوب ، وعلامة النصب الكسرة (ثم) حرف عطف (هم) ضمير منفصل مبتدأ

(يصدفون) مضارع مرفوع . . . . والواو فاعل .

جملة (قل . . . ) لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " أرأيتم . . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " أخذ الله . . . . " لا محلّ لها اعتراضية ، وجواب الشرط محذوف دل عليه الاستفهام الآتي ، أي : إن أخذ الله سمعكم . . .

فأخبروني من إله غير الله . . . أو فلا أحد يأتيكم به غير الله .

وجملة " ختم . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أخذ الله .

وجملة " من إله . . . . " في محلّ نصب مفعول به ثان عامله رأيتم ، والمفعول الأول محذوف تقديره رأيتم سمعكم وأبصاركم . . .

وجملة " يأتيكم به " في محلّ رفع نعت ثان لإله .

وجملة " انظر . . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " نصرف . . . . " في محلّ نصب مفعول به لفعل النظر المعلق بالاستفهام .

وجملة " هم يصدفون " في محلّ نصب معطوفة على جملة نصرف .

وجملة " يصدفون " في محلّ رفع خبر المبتدأ هم .

[سورة الأنعام (6) : آية 47]

قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (47)

الإعراب :

(قل أ رأيتكم . . . الله) مرّ إعرابها " 1 " ، (بغتة) مثل

---

(1) في الآية (40) من هذه السورة .



---

السابق " 1 " ، (أو) حرف عطف (جهرة) معطوف على بغتة منصوب مثله (هل) حرف

استفهام (يهلك) مضارع مبني للمجهول مرفوع (إلا) أداة حصر (القوم) نائب فاعل مرفوع (الظالمون) نعت للقوم مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة " قل . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " أرأيتكم . . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " أتاكم عذاب الله . . . . " لا محلّ لها اعتراضية ، وجواب الشرط محذوف تقديره فأخبروني .

وجملة " يهلك . . . . " في محلّ نصب مفعول به ثان عامله أرأيتكم .

[سورة الأنعام (6) : آية 48]

وَما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (48)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (ما) نافية (نرسل) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن للتعظيم (المرسلين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء (إلا) أداة حصر (مبشرين) حال منصوبة وعلامة النصب الياء (الواو) عاطفة (منذرين) معطوف على مبشرين منصوب وعلامة النصب الياء (الفاء) عاطفة (من) اسم شرط جازم مبني في محلّ رفع مبتدأ (آمن) فعل ماض مبني في محلّ جزم فعل الشرط ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو

(الواو) عاطفة (أصلح) مثل آمن ومعطوف عليه

---

(1) في الآية (44) من هذه السورة والآية (31) .

*(238/234)*

---

(الفاء) رابطة لجواب الشرط (لا) نافية مهملة " 1 " ، (خوف) مبتدأ مرفوع (على) حرف جر و(هم) ضمير في محلّ جر متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (هم) ضمير منفصل مبتدأ ، (يحزنون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

جملة " نرسل . . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " من آمن . . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة " آمن . . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 2 " .

وجملة " أصلح " في محلّ رفع معطوفة على جملة آمن .

وجملة " لا خوف عليهم " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة " هم يحزنون " في محلّ جزم معطوفة على جملة جواب الشرط .

وجملة " يحزنون " في محلّ رفع خبر المبتدأ هم .

الصرف :

(نرسل) ، فيه حذف الهمزة للتخفيف ، أصله نؤرسل ماضيه أرسل ، وزنه نفعل بضم النون وكسر العين .

الفوائد

1 - " لا " المشبهة بليس مهملة لدى جميع العرب إلا الحجازيين فقد يعملونها بشروط يجدها من ينشد هذا العلم في مظانّه ومما تختص به عن " لا " النافية للجنس أنها قد تنفي الواحد وقد تنفي الجنس ويعرف ذلك من سياق الكلام .

---

(1) أو عاملة عمل ليس ، و(خوف) اسمها و(عليهم) خبرها .

(2) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .



---

ونعود للقول بأن الأولى بالأولى إهمالا فيكون ما بعدها مبتدأ وخبرا ولدي إهمالها يكثر تكرارها كقوله تعالى في الآية التي نحن بصددها :

فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ

[سورة الأنعام (6) : آية 49]

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا يَمَسُّهُمُ الْعَذابُ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (49)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (الذين) اسم موصول مبني في محلّ رفع مبتدأ (كذّبوا) فعل ماض وفاعله (بآيات) جار ومجرور متعلق به (كذّبوا) ، و(نا) ضمير مضاف إليه (يمسّ) مضارع مرفوع ، و(هم) ضمير مفعول به (العذاب) فاعل مرفوع (الباء) حرف جر (ما) حرف مصدري (كانوا) فعل ماض ناقص مبني على الضم . . . والواو ضمير اسم كان (يفسقون) مضارع مرفوع . . . . والواو فاعل .

والمصدر المؤوّل (ما كانوا . . . ) في محلّ جر بالباء متعلق بـ (يمسّهم) ، أي يمسهم العذاب بسبب فسقهم :

جملة " الذين كذّبوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة من آمن " 1 " .

وجملة "كذّبوا . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " يمسهم العذاب " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

وجملة "كانوا . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي .

وجملة " يفسقون " في محلّ نصب خبر كانوا .

---

(1) في الآية السابقة (48) .

البلاغة

1 - الاستعارة التصريحية التبعية : في قوله تعالى "يَمَسُّهُمُ الْعَذابُ" والظاهر أن ما ذكر مبني على أن المس من خواص الأحياء ، فكأن العذاب كائن حي يفعل بهم ما يريده من الآلام .

[سورة الأنعام (6) : آية 50]

قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ (50)

الإعراب :

(قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (لا) نافية (أقول) مضارع مرفوع والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (اللام) حرف جر و(كم) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (أقول) ، (عند) ظرف مكان منصوب متعلق بمحذوف خبر مقدم ، وعلامة النصب الفتحة المقدرة على ما قبل الياء و(الياء) ضمير مضاف إليه (خزائن) مبتدأ مؤخر مرفوع (الله) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (لا أعلم) مثل لا أقول (الغيب) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (لا أقول لكم) مثل الأولى (إنّ) حرف مشبه بالفعل و(الياء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (ملك) خبر إنّ مرفوع (إن) نافية (أتبع) مثل أقول (إلا) أداة حصر (ما) اسم موصول مبني

في محلّ نصب مفعول به (يوحى) مضارع مبني للمجهول مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو ، وهو العائد (إلى) حرف جر و(الياء) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (يوحى) ، (قل) مثل الأول (هل) حرف استفهام (يستوي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الياء (الأعمى) فاعل مرفوع

وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الألف (الواو) عاطفة (البصير) معطوفة على الأعمى مرفوع (الهمزة) للاستفهام الإنكاري (الفاء) عاطفة (لا) نافية (تتفكّرون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

جملة " قل . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " لا أقول . . . . " في محلّ نصب مقول القول الأول .

وجملة " عندي خزائن . . . . " في محلّ نصب مقول القول الثاني .

وجملة " لا أعلم . . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة عندي خزائن . . .

وجملة " لا أقول (الثانية) " في محلّ نصب معطوفة على جملة لا أقول (الأولى) .

وجملة " إنّي ملك " في محلّ نصب مقول القول (الثالث) .

وجملة " إن أتّبع . . . . " لا محلّ لها تعليلية ، أو استئناف مقدر .

وجملة " يوحى إليّ " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " قل . . . . " لا محلّ لها استئنافية .

---

وجملة " هل يستوي الأعمى " في محلّ نصب مقول القول الرابع .

وجملة " تتفكرون " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي : ألا تسمعون فتتفكرون فيه .

الصرف :

(الأعمى) صفة مشبهة من فعل عمي يعمى باب فرح وزنه أفعل ، وفيه إعلال بالقلب ، قلبت الياء – لام الكلمة – ألفا لسكونها وفتح ما قبلها .

(خزائن) ، جمع خزانة اسم لما يحفظ بها الحوائج ، وزنه فعالة بكسر الفاء والجمع فعائل .

(يوحى) ، فيه إعلال بالقلب لمناسبة البناء للمجهول ، معلومه يوحي ، قلبت الياء ألفا لتحرّكها وفتح ما قبلها .

البلاغة

1 – الطباق : بين الأعمى والبصير ، وهما تشبيهان بليغان للضّال والمهتدي . ويجوز أن يعتبرا من باب الاستعارة التصريحية ، لأن المشبه لم يذكر وذكر المشبه به .

2 – خروج الاستفهام عن معناه الأصلي : في قوله تعالى " قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ "

فالاستفهام هنا إنكاري ، والمراد انكار استواء من لا يعلم ما ذكر من الحقائق ومن يعلمها مع الاشعار بكمال ظهورها والتنفير عن الضلال والترغيب في الاهتداء ، وتكرير الأمر لتثبيت التبكيت وتأكيد الإلزام .

الفوائد

1 - يكثر في القرآن الكريم أسلوب الحصر لأنه وسيلة لتقرير الأحكام وتأكيدها . وأكثر ما يرد مسبوقا بالنفي سواء بـ " ما " أو " لا " أو " إن " كما هو في هذه الآية . وفي سائرها تخرج " إلا " عن كونها أداة استثناء وتصبح أداة للحصر . ليس إلا . . . !

[سورة الأنعام (6) : آية 51]

وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (51)

الإعراب :



---

(الواو) عاطفة (أنذر) فعل أمر ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (الباء) حرف جر و(الهاء) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (أنذر) ، (الذين) اسم موصول مبني في محلّ نصب

مفعول به (يخافون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل (أن) حرف مصدريّ ونصب (يحشروا) مضارع

مبني للمجهول منصوب ، وعلامة النصب حذف النون . . . والواو نائب فاعل .

والمصدر المؤوّل (أن يحشروا) في محلّ نصب مفعول به عامله يحشروا أي يخافون حشرهم إلى ربهم .

(إلى رب) جار ومجرور متعلق بـ (يحشروا) ، و(هم) ضمير مضاف إليه (ليس) فعل ماض ناقص جامد ، (لهم) مثل به متعلق بمحذوف خبر ليس مقدم (من دون) جار ومجرور متعلق بحال من ولي ، و(الهاء) ضمير مضاف إليه (ولي) اسم ليس مؤخر مرفوع (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (شفيع) معطوف على وليّ مرفوع مثله (لعل) حرف مشبه بالفعل للترجّي و(هم) ضمير في محلّ نصب اسم لعلّ (يتّقون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

جملة " يخافون " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) . . .

جملة " أنذر . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جمل قل في الآية السابقة .

وجملة " يحشروا . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) .

وجملة " ليس لهم . . . وليّ " لا محلّ لها استئناف بياني " 1 " .

وجملة " لعلهم يتقون " لا محلّ لها تعليلية .

وجملة " يتقون " في محلّ رفع خبر لعل .

الصرف :

(شفيع) ، صفة مشبهة من شفع يشفع باب فتح ، وزنه فعيل .

---

(1) أو في محلّ نصب حال من نائب الفاعل لفعل يحشروا .

*(243/234)*

---

[سورة الأنعام (6) : آية 52]

وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (52)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة (تطرد) مضارع مجزوم ، وحرّك بالكسر لالتقاء الساكنين (الذين) اسم موصول مبني في محلّ نصب مفعول به (يدعون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (ربهم) مفعول به منصوب ومضاف إليه (بالغداة) جارّ ومجرور متعلق بـ (يدعون) (العشي) معطوف على الغداة بالواو مجرور مثله (يريدون) مثل يدعون (وجه) مفعول به منصوب و(الهاء) ضمير مضاف إليه (ما) نافية (على) حرف جر و(الكاف) ضمير في

محلّ جر متعلق بمحذوف خبر مقدم (من حساب) جار ومجرور متعلق بحال من شيء (هم) ضمير مضاف إليه (من) حرف جر زائد (شيء) مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخر (الواو) عاطفة (ما من حسابك . . . شيء) مثل نظيرتها " 1 " ، (الفاء) فاء السببية (تطرد) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء و(هم) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (الفاء) عاطفة (تكون) مضارع ناقص منصوب معطوف على (تطرد) " 2 " ، واسمه ضمير مستتر تقديره أنت (من الظالمين) جار ومجرور متعلق بخبر

---

(1) يجوز جعل (من حسابك) الخبر أو حالا ، وكذلك (عليك) بالتبادل .

(2) هذا رأي الزمخشري . . . ويجوز أن تكون الفاء فاء السببية أيضا ، والفعل منصوب بأن مضمرة ، والمصدر المؤول (أن تكون . . .) معطوف على مصدر متصيّد من النهي المتقدم أي لا يكن منك طرد . . . فظلم . . [ . . . . . ]



---

تكون ، وعلامة الجر الياء .

والمصدر المؤوّل (أن تطردهم) معطوف على مصدر متصيّد من النفي المتقدم أي ما يكون مؤاخذة فطرد .

جملة " لا تطرد . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنذر في السابقة .

وجملة " يدعون . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " يريدون . . . . " في محلّ نصب حال من فاعل يدعون .

وجملة " ما عليك . . . . " لا محلّ لها تعليلية – أو استئناف بياني .

وجملة " ما من حسابك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما عليك . . .

وجملة " تطردهم . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) .

وجملة " تكون من الظالمين " لا محلّ لها معطوفة على جملة تطردهم .

الصرف :

(الغداة) ، اسم للوقت بين الفجر وطلوع الشمس ، أصله الغدوة بفتح الدال والواو ، فلما تحركت الواو وانفتح ما قبلها قلبت ألفا ، ففي الكلمة إعلال بالقلب .

البلاغة

1 – فن ردّ العجز على الصدر : في قوله تعالى " وَما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ " ومعنى هذا الفن أن يجعل المتكلم أحد اللفظين المتفقين في النطق والمعنى ، أو المتشابهين في النطق دون المعنى أو اللذين يجمعهما الاشتقاق أو شبه الاشتقاق ، في آخر الكلام بعد جعل اللفظ الآخر له في أوله .

الفوائد

- من صور المساواة في الإسلام :

قال رؤساء المشركين للرسول/ صلّى اللّه عليه وسلّم/ لو طردت عنا هؤلاء الأعبد ، " عمار ابن ياسر ، وصهيب ، وبلال " ومن على شاكلتهم جلسنا إليك وحادثناك فقال/ صلّى اللّه عليه وسلّم/ ما أنا بطارد المؤمنين . فقالوا فأقمهم عنا إذا جئنا ، فإذا قمنا فأقعدهم معك إن شئت فقال : نعم طمعا في إسلامهم فقالوا : اكتب لنا كتابا بذلك ، فأتى بالصحيفة ودعا عليا ليكتب . وإذا بجبريل يهبط من السماء مبلغا رسول اللّه قوله تعالى : وَلا تَطْرُدِ . . . " الآية ،

وهذه صورة من صور المساواة الرائعة في الإسلام . . . !

[سورة الأنعام (6) : آية 53]

وَكَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (53)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (الكاف) حرف جر وتشبيه " 1 " ، (ذا) اسم إشارة مبني في محلّ جر متعلق بمحذوف مفعول مطلق عامله فتنا أي وفتونا كذلك فتنا بعضهم و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (فتنّا) فعل ماض . . (ونا) فاعل (بعض) مفعول به منصوب و(هم) ضمير مضاف إليه (ببعض) جار ومجرور متعلق بحال من بعضهم (اللام) لام العاقبة أو للتعليل (يقولوا) مضارع بأن مضمرة بعد اللام وعلامة النصب حذف النون . . . والواو فاعل .

والمصدر المؤوّل (أن يقولوا) في محلّ جر باللام متعلق بـ (فتنّا) .

---

(1) أو اسم بمعنى مثل في محلّ نصب نعت لمصدر محذوف مفعول مطلق أي وفتونا مثل ذلك فتنّا .

*(246/234)*

---

(الهمزة) للاستفهام للاستخفاف (ها) حرف تنبيه (أولاء) اسم إشارة مبني في محلّ رفع مبتدأ (منّ) فعل ماض (الله) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (على) حرف جر و(هم) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (منّ) ، (من بين) جار ومجرور متعلق بـ (منّ) ، " 1 " ، و(نا) ضمير مضاف إليه (الهمزة) للاستفهام (ليس) فعل ماض ناقص جامد (الله) لفظ الجلالة اسم

ليس مرفوع (الباء) حرف جر زائد (أعلم) مجرور لفظا منصوب محلا خبر ليس

(بالشاكرين) جارّ ومجرور متعلق بـ (أعلم) ، وعلامة الجر الياء .

جملة " فتنّا . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " يقولوا . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) .

وجملة " هؤلاء منّ الله . . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " منّ الله عليهم " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هؤلاء) .

وجملة " ليس الله . . . " لا محلّ لها استئنافية .

[سورة الأنعام (6) : آية 54]

وَإِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (54)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (إذا) ظرف للمستقبل متضمن معنى الشرط في محلّ نصب متعلق بالجواب قل (جاء) فعل ماض و(الكاف) ضمير مفعول به (الذين) اسم موصول مبني في محلّ رفع فاعل (يؤمنون)

---

(1) أو بمحذوف حال من ضمير عليهم .

---

مضارع مرفوع . . . والواو فاعل (بآيات) جار ومجرور متعلق بـ (يؤمنون) ، و(نا) ضمير مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب الشرط (قل) فعل أمر والفاعل أنت (سلام) مبتدأ مرفوع " 1 " ، (عليكم) مثل عليهم في الآية السابقة متعلق بمحذوف خبر المبتدأ (كتب) مثل جاء (رب) فاعل مرفوع و(كم) ضمير مضاف إليه (على نفس) جار ومجرور متعلق بـ (كتب) ، و(الهاء) ضمير مضاف إليه (الرحمة) مفعول به منصوب (إنّ) حرف مشبه بالفعل و(الهاء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ – وهو ضمير الشأن – (من) اسم شرط جازم مبني في محلّ رفع مبتدأ (عمل) فعل ماض مبني في محلّ جزم فعل الشرط ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (من) حرف جر و(كم) ضمير في محلّ جر متعلق بحال من الضمير في (عمل) ، (سوءا) مفعول به منصوب (بجهالة) جار ومجرور متعلق بحال من فاعل عمل أي متلبسا بجهالة (ثم) حرف عطف (تاب) مثل عمل (من بعد) جار ومجرور متعلق بـ (تاب) ، و(الهاء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (أصلح) مثل عمل (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إنّ) مثل الأول و(الهاء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ يعود إلى لفظ الجلالة (غفور) خبر مرفوع (رحيم) خبر ثان مرفوع .

جملة " جاءك الذين . . . " في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة " يؤمنون . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " قل . . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة " سلام عليكم " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " كتب ربكم . . . . " لا محلّ لها استئناف في حيّز القول " 2 " .

---

(1) جاز البدء بالنكرة لأن اللفظ دعاء ، والدعاء فيه معنى العموم وهو من المسوغات .

(2) يجوز أن تكون الجملة مقول القول ، وجملة (سلام عليكم) اعتراضية .

*(248/234)*

---

وجملة " إنه من عمل . . . . " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة " من عمل . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة " عمل منكم سوءا " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " .

وجملة " تاب . . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة عمل . . . .

وجملة " أصلح " في محلّ رفع معطوفة على جملة تاب .

وجملة " إنّه غفور . . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء ، والرابط مع الشرط مقدر أي غفور رحيم به " 2 " .

الصرف :

(سلام) ، اسم مصدر لفعل سلم الرباعيّ ، وزنه فعال بفتح الفاء .

[سورة الأنعام (6) : آية 55]

وَكَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (55)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (كذلك نفصل) مثل كذلك فتنا " 3 " ، (الآيات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (الواو) عاطفة (اللام) للتعليل (تستبين) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (سبيل) فاعل مرفوع (المجرمين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجر الياء . والمصدر المؤوّل (أن تستبين) في محلّ جر معطوف على مصدر مؤوّل محذوف تقديره ليظهر الحق . . . . متعلق بـ (نفصّل) .

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

(2) في قراءة يجوز فتح همزة (إنّ) في الموضعين أو فتح الأولى وكسر الثانية (الجمل ج 2 ص 35) .

(3) في الآية (53) من هذه السورة .

---

جملة " نفصّل . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " تستبين " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر .

الصرف :

(المجرمين) ، جمع المجرم ، اسم فاعل من أجرم الرباعي ، وزنه مفعل بضم الميم وكسر العين .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 56 إلى 58]

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لا أَتَّبِعُ أَهْواءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَما أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (56) قُلْ إِنِّي عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ما عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفاصِلِينَ (57) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (58)

الإعراب :

(قل) فعل أمر ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (إنّ) حرف مشبه بالفعل و(الياء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (نهيت) فعل ماض مبني للمجهول مبني على السكون . . . و(التاء) ضمير نائب فاعل (أن) حرف مصدري ونصب (أعبد) مضارع منصوب ،

والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (الذين) اسم موصول مبني في محلّ نصب مفعول به (تدعون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل (من دون) جار ومجرور متعلق بمحذوف مفعول به ثان بتضمين فعل تدعون معنى تجعلون " 1 " ، (الله) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (قل) مثل الأول (لا) نافية (أتّبع) مضارع مرفوع ، والفاعل أنا (أهواء) مفعول به منصوب و(كم) ضمير مضاف إليه (قد ) حرف تحقيق (ضللت) فعل ماض وفاعله (إذا ) حرف جواب لا محلّ له (الواو) عاطفة (ما ) نافية عاملة عمل ليس (أنا ) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع اسم ما (من المهتدين) جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ما ، وعلامة الجر الياء .

جملة " قل . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " إني نهيت " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " نهيت " في محلّ رفع خبر إن .

وجملة " أعبد . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) .

وجملة " تدعون . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " قل . . . (الثانية) " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " لا أتبع . . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " قد ضللت . . . " لا محلّ لها استئناف بياني أو تعليلية .

وجملة " ما أنا من المهتدين " لا محلّ لها معطوفة على جملة قد ضللت .

والمصدر المؤول (أن أعبد . . . . " في محلّ جر بحرف جر محذوف متعلق بـ (نهيت) ،

والتقدير نهيت عن أن أعبد . . .

---

(1) أو في محلّ نصب حال من ضمير المفعول المقدر في (تدعون) ، أي تدعونه موجودا من دون الله .

*(250/234)*

---

(قل إني) مثل الأولى (على بينة) جار ومجرور متعلق بخبر إن (من رب) جار ومجرور متعلق بنعت لبينة على حذف مضاف أي من عند ربي ، و(الياء) ضمير مضاف إليه (الواو) حالية (كذّبتم) مثل ضللت (الباء) حرف جر و(الهاء) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (كذبتم) ، (ما) نافية مهملة (عند) ظرف مكان منصوب متعلق بمحذوف خبر مقدم ، وعلامة النصب الفتحة المقدرة على ما قبل الياء و(الياء) ضمير مضاف إليه (ما) اسم موصول مبني في محلّ رفع مبتدأ مؤخر (تستعجلون) مثل تدعون (به) مثل الأول متعلق بـ (تستعجلون) ، (إن) نافية (الحكم) مبتدأ مرفوع (إلا) أداة حصر (لله) جار ومجرور متعلق بخبر المبتدأ (يقصّ) مضارع مرفوع ، والفاعل هو (الحق) مفعول به منصوب ، (الواو)

عاطفة (هو) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (حير) مرفوع (الفاصلين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجر الياء .

وجملة " قل . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " إني على بينة " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة "كذّبتم . . . " في محلّ نصب حال بتقدير قد .

وجملة " ما عندي ما تستعجلون " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " تستعجلون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " إن الحكم إلا لله " لا محلّ لها في حكم التعليل .

وجملة " يقص . . . " في محلّ نصب حال من لفظ الجلالة .

وجملة " هو خير . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة يقص .

(قل) مثل الأول (لو) حرف شرط غير جازم (أن) حرف مشبه بالفعل (عندي ما تستعجلون به) مثل الأولى والظرف خبر أن وما اسمه

*(251/234)*

(اللام) واقعة في جواب لو (قضي) فعل ماض مبني للمجهول (الأمر) نائب فاعل مرفوع (بين) ظرف مكان منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدرة على ما قبل الياء ، متعلق بـ (قضي) ، و(الياء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (بينكم) مثل بيني ومتعلق بما تعلق به (الواو) استئنافية (الله أعلم بالظالمين) مرّ إعراب نظيرها .

وجملة " قل . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " لو (ثبت) وجود . . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " تستعجلون . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " قضي الأمر " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة " الله أعلم . . . . " لا محلّ لها استئنافية .

والمصدر المؤوّل (أن عندي ما تستعجلون به) في محلّ رفع فاعل لفعل محذوف تقديره ثبت أي : لو ثبت وجود ما تستعجلون به لقضي الأمر .

الصرف :

(بيّنة) ، صفة مشتقة ، وقد تستعمل اسما ، وزنها فيعلة من غير إعلال والتاء إما للتأنيث أو للمبالغة .

(الفاصلين) ، جمع الفاصل ، اسم فاعل من فصل الثلاثي ، وزنه فاعل .

(أعلم) ، صفة مشتقة جاءت على وزن اسم التفضيل وليس فيها تفضيل ، ووزن أعلم

أفعل من علم يعلم باب فرح.

الفوائد

1 - يرى الفراء في كتابة "إذا" أنها إن كانت عاملة كتبت بالألف، وإن كانت مهملة كتبت بالنون وقد تبعه في هذا التفريق ابن خروف وهو تفريق جيد ووجيه. وقد تقع إذن لغوا وذلك إذا افتقر ما قبلها إلى ما وقع بعدها وذلك كقول الشاعر:

وما أنا بالساعي إلى أم عاصم لأضربها اني إذن لجهول. انتهى انتهى. ا هـ ﴿الجدول حـ 7 صـ 167.77﴾

*(252/234)*

---

وقال العلامة محيي الدين الدرويش:

(6) سورة الأنعام

مكيّة وآياتها خمس وستون ومائة

[سورة الأنعام (6): الآيات 1 إلى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ

يَعْدِلُونَ (1) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (2)

اللغة :

(جَعَلَ) : تكون بمعنى أنشأ وأحدث فتنصب مفعولا واحدا ، وتكون بمعنى صيّر فتتعدى إلى مفعولين . وقال ابن جنّي في الخصائص : " إن العرب قد تتسع فتوقع أحد الفعلين موقع الآخر إيذانا بأن هذا الفعل في معنى ذلك الآخر " . والفرق بين الجعل والخلق دقيق يلتقطه الخاطر المرهف ، وهو أن الخلق فيه معنى التقدير ، والجعل فيه معنى التضمين ، كإنشاء شيء من شيء ، أو تصيير شيء شيئا ، أو نقله من مكان إلى مكان آخر .

(يمترون) يشكّون ، والامتراء الشك ، وفعله : مرى في الأمر وامترى وتمارى ، وما فيه مرية أي شك ، ومريت الناقة وأمريتها حلبتها فأمرت ، ومن المجاز قرع مروته ، قال أبو ذؤيب الهذلي :

حتى كأني للحوادث مروة بصفا المشقّر كل يوم تقرع

وماريته مماراة : جادلته ولاججته ، وتماروا ومعناه المحالبة .

كأنّ كل واحد يحلب ما عند صاحبه .

الاعراب :

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ) كلام مستأنف للحث على التفكير والتأمل ، والعدول عن الجدل والمماراة .

*(253/234)*

---

و الحمد مبتدأ ، ولله جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبره ، والذي اسم موصول في محل جر صفة ، وجملة خلق السموات والأرض صلة الموصول والسموات مفعول به وجملة وجعل الظلمات والنور عطف على الجملة الأولى (ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي والعطف على قوله الحمد الله وما بعده على معنى أن الله خليق بالحمد على ما خلق لأنه خلق ما خلق نعمة للبشر ثم الذين كفروا به يعدلون فيكفرون نعمته . والذين مبتدأ وكفروا فعل وفاعل والجملة صلة الموصول وبربهم متعلقان بكفروا فيكون يعدلون بمعنى يميلون عنه من العدول ويجوز أن يتعلقا بيعدلون وقدم الجار والمجرور للفاصلة ويكون يعدلون من العدل وهو التسوية بين الشيئين ، أي : ثم الذين كفروا يسوّون بربهم غيره من المخلوقين فيكون المفعول محذوفا (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ

ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ)

كلام مستأنف مسوق لإقامة الحجة على امترائهم وهو مبتدأ والذي خبر وجملة خلقكم لا محل لها من الإعراب لأنها صلة الموصول ومن طين جار ومجرور متعلقان بخلقكم ، ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي وقضى أجلا فعل ماض ومفعول به ، والجملة عطف على جملة خلقكم ، وأجل الواو استئنافية ، وأجل مبتدأ ، ساغ الابتداء به مع أنه نكرة لأنه وصف بقوله : " مسمى " ، وعنده ظرف مكان متعلق بمحذوف خبره ، ثم حرف عطف واستبعاد لتراخي الرتبتين ، وأنتم مبتدأ وجملة تمترون خبر .

البلاغة :

في الآيتين فنون متعددة من البلاغة نوجزها فيما يلي :

1- ثبوت الديمومة التي يستحقها سبحانه ، وهي ديمومة الحمد له بسبب كونه منعما ، والكلام خبري أريد به الأمر .

2- الطباق بين السموات والأرض ، والظلمات والنور ، وإذا تعدد الطباق سمّي مقابلة .

*(254/234)*

---

3- المخالفة في الإفراد والجمع ، فقد أفرد النور وجمع الظلمات ، لأن الظلمات من الأجرام المتكاثفة ، ولها أسباب كثيرة ، ولأن النور من جنس متحد ، وهو النار .

4- الإظهار في موضع الإضمار : فقد أظهر الضمير فقال :

" ربهم " مع أن ذكر اللّه تقدم ، تفخيما لجلاله . وهي سنة من سنن العرب في كلامهم ، يعيدون الاسم ظاهرا وإن تقدّم ، دون تعبير عنه

بالضمير ، للدلالة على كمال العناية . وقد تقدم هذا البحث والاستشهاد عليه بمطلع سينية البحتري .

5- التنكير : فقد ابتدأ بالنكرة ، وهو " أجل " ، وكان الظاهر أن يؤخر المبتدأ ، تقول : عندي كتاب ، ولا تقول كتاب عندي .

ولكن الذي أوجب تقديم النكرة تعظيم شأن الأجل المضروب عنده سبحانه ، والمراد به الساعة وتهويل أمرها .

6- حذف المفعول به لظهوره ، أي : يعدلون به ، أي :

يسوون بربهم غيره مما لا يقدر على شيء مما يقدر عليه . وهذه نهاية الحمق ، وغاية الرّقاعة .

7- العطف بثمّ لاستبعاد صدور الشك منهم مع وجود ما يقتضي عدمه .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 3 إلى 5]

وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ (3) وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (4) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَسَوْفَ

يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (5)

الإعراب :

(وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ)

*(255/234)*

---

الكلام مستأنف مسوق للتنبيه على صفات الألوهية التي لا يستحقها غيره . وهو ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ أو هو ضمير الشأن ، واللّه خبر ، وفي السموات جار ومجرور متعلقان بمعنى اسم اللّه ، أي : المعبود فيها وفي الأرض جار ومجرور متعلقان أيضا بمعنى اسم اللّه . وسيرد في باب الفوائد المزيد من تعليق هذا الجار والمجرور .

وجملة يعلم خبر ثان أو حالية ، وسركم مفعول به ، وجهركم عطف على سركم ، وجملة ويعلم عطف على جملة يعلم ، وما اسم موصول مفعول به ، وجملة تكسبون صلة لا محل لها (وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ) الواو استئنافية ، والكلام مستأنف لبيان إصرارهم على الكفر ، والإعراض عن الآيات الباهرة الدّالة على التوحيد . وما نافية ، وتأتيهم فعل مضارع ومفعول به مقدم ، ومن حرف جر زائد ، وآية

مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه فاعل تأتيهم ، ومن آيات ربهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لآية ، وإلا أداة حصر ، وكان واسمها ، وعنها جار ومجرور متعلقان بالخبر " معرضين " وجملة كانوا حالية (فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ) الفاء الفصيحة ، وقد حرف تحقيق ، وكذبوا فعل وفاعل ، وبالحق جار ومجرور متعلقان بكذبوا ، أي : إذا كانوا معرضين عنها فقد كذبوا بما هو أعظم منها ، وهو الحق . والجملة على كل حال لا محل لها من الاعراب . ولما حينية أو رابطة ، وعلى الأول فهي متعلقة ، وجملة جاءهم في محل جرّ بالإضافة ، وعلى الثاني لا محل لها (فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ) الفاء عاطفة ، وسوف حرف استقبال ، ويأتيهم فعل مضارع ومفعول به مقدم ، وأنباء فاعل مؤخر ، وما اسم موصول مضاف اليه ، وجملة كانوا صلة ، والواو اسم كان ، وجملة يستهزئون خبرها ، وبه جار ومجرور متعلقان بيستهزئون .

الفوائد :

*(256/234)*

---

ما اخترناه في تعليق قوله تعالى : " في السموات " هو وجه من اثني عشر وجها أوردها المفسرون والمعربون في إعراب هذا التعبير ، وقد اختاره الزّجاج والزمخشريّ وابن عطية

وأبو السعود ، كأنه قيل :

وهو المعبود فيها ، وقال ابن عطية : هو عندي أفضل الأقوال وأكثرها إحرازا . لفصاحة اللفظ ، وجزالة المعنى . وفيما يلي بعض الوجوه المستساغة .

1- في السموات : متعلقان بمحذوف صفة للّه تعالى ، حذفت لفهم المعنى ، والتقدير : وهو اللّه المعبود أو المدبر .

2- الكلام تمّ عند قوله : " وهو اللّه " ، والجار والمجرور متعلقان بمفعول يعلم وهو : سركم وجهركم فيهما .

3- متعلقان بيعلم ، وجملة يعلم على هذا الوجه مستأنفة .

ونتجاوز بقية الأوجه لأنها لم تستقم معنا .

[سورة الأنعام (6) : آية 6]

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً وَجَعَلْنَا الْأَنْهارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (6)

اللغة :

(مكّن له في الأرض) جعل له مكانا ومكنته أثبته .

(المدرار) : المغزار ، ومفعال صيغة مبالغة تدل على الكثرة ، كمذكار للمرأة التي كثرت

ولادتها للذكور ، ومئنات للتي تلد الإناث .

(قَرْناً) القرن اسم جمع ، كقوم ورهط . وقد اختلف الناس في القرن حالة إطلاقه على الزمان ، فجمهور أهل اللغة على أنه مائة سنة ، ويطلق على الجماعة من الناس أهل زمان واحد ، كما في الآية ، ويجمع على قرون .

الاعراب :

)

(257/234)

---

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ) الكلام مستأنف مسوق للشروع في توبيخ الذين لا يؤمنون ، لأنهم غمطوا نعمة ربهم ، وكذبوا بالحق لما جاءهم . والهمزة للاستفهام التقريري والتوبيخي في وقت واحد ، ولم حرف نفي وقلب وجزم ، ويروا فعل مضارع مجزوم بلم ، والرؤية بصرية أو علمية ، وكم خبرية أو استفهامية في محل نصب مفعول مقدم لأهلكنا ، وجملة أهلكنا سدت مسد مفعول أو مفعولي الرؤية ، ومن قبلهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، ومن الجارة ومجرورها في موضع نصب تميز كم . (مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ) الجملة في محل جر صفة لقرن ، وفي الأرض جار ومجرور متعلقان بمكناهم ،

ومكناهم فعل وفاعل ومفعول به ، وفي الأرض جار ومجرور متعلقان بمكناهم ، و" ما " يجوز أن تكون نكرة تامة بمعنى

شيء في محل نصب مفعول مطلق ، أي : شيئا من التمكين لم نمكنه لكم ، فتكون الجملة بعدها في محل نصب صفة ، ويجوز أن تكون مصدرية ظرفية أي : مدة تمكنهم أطول من مدة تمكنكم ، وتكون الجملة صفة أيضا . وقيل : " ما " اسم موصول بمعنى الذي ، ويكون التقدير :

*(258/234)*

---

التمكين الذي لم نمكن لكم ، فحذف المنعوت وأقيم النعت مقامه ، والجملة بعده صلة ، والضمير العائد على " ما " محذوف ، أي : الذي لم نمكنه لكم ، والأول أسهلها . ولم حرف نفي وقلب وجزم ، ونكن فعل مضارع مجزوم بلم ، ولكم متعلقان بنمكن (وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً) الواو عاطفة ، وأرسلنا السماء فعل وفاعل ومفعول به ، وعليهم جار ومجرور متعلقان بأرسلنا ، ومدرارا حال (وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ) عطف أيضا على ما تقدم ، وجملة تجري من تحتهم في محل نصب مفعول به ثان لجعلنا ، فأهلكناهم الفاء عاطفة ، وأهلكناهم فعل وفاعل ومفعول به ، وبذنوبهم جار

ومجرور متعلقان بأهلكناهم (وَأَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ) عطف أيضا ، وأنشأنا فعل وفاعل ، ومن بعدهم جار ومجرور متعلقان بأنشأنا ، وقرنا مفعول به ، وآخرين صفة .

البلاغة :

1- الالتفات في قوله : " ما لم نمكن لكم " ، والسياق يقتضي :

ما لم نمكن لهم ، لتخصيص المرسل إليهم الرسول محمد صلى اللّه عليه وسلم بالمواجهة ، فضلا عن تطرية نشاط السامع .

2- المجاز المرسل : في قوله : " وأرسلنا السماء عليهم مدرارا " ،

والعلاقة المحلية ، يريد المطر الكثير ، عبر عنه بالسماء لأنه ينزل منها ، وقد رمق هذا المجاز الشاعر بقوله :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

[سورة الأنعام (6) : الآيات 7 إلى 8]

وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (7) وَقالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ (8)

اللغة :

(قِرْطاسٍ) القرطاس : ما يكتب فيه ، وكسر القاف فيه أشهر من ضمها . والقرطس : وزن " جعفر " : لغة فيه ، وفي القاموس :

"

مثلث القاف ، وكجعفر ودرهم : الكاغد ، والكاغد معروف ، بفتح الغين والدال المهملة ، وربما قيل بالذال المعجمة وهو معرّب " وهو المراد هنا ، وله معان أخرى منها الغرض ، وبرد مصريّ ، والجارية البيضاء المديدة القامة ، والناقة الفتية ، والجمع قراطيس .

الاعراب :

(وَلَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ) كلام مستأنف مسوق لبيان فرط تعنتهم وتماديهم في المكابرة واللجاج .

ولو شرطية ونزلنا فعل وفاعل ، وعليك جار ومجرور متعلقان بنزلنا ، وكتابا مفعول به ، وفي قرطاس جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة ل "كتابا " ، فلمسوه الفاء عاطفة ، ولمسوه فعل وفاعل ومفعول به ، عطف على نزلنا ، وبأيديهم جار ومجرور متعلقان بلمسوه (لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) اللام واقعة في جواب لو ، وقال الذين فعل وفاعل ، والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ، وجملة كفروا لا محل لها لأنها صلة الموصول ، وإن نافية ، وهذا مبتدأ ، وإلا أداة حصر ، وسحر خبر هذا ، ومبين صفة ،

وجملة النفي مقول القول (وَقالُوا : لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ) الجملة مستأنفة مسوقة لتأكيد لجاجتهم وتماديهم في التعنت والمكابرة ، وقالوا فعل وفاعل ، ولولا حرف تحضيض لا تحتاج إلى جواب ، وأنزل فعل ماض مبني للمجهول ، وعليه جار ومجرور متعلقان بأنزل ، وملك نائب فاعل ، وجملة التحضيض في محل نصب مقول القول (وَلَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ) الجملة مستأنفة مسوقة للردّ عليهم بجوابين على تعنتهم ومكابرتهم . ولو شرطية ، وأنزلنا ملكا فعل وفاعل ومفعول ، واللام واقعة في جواب لو ، وجملة قضي الأمر لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ، ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي لبعد ما بين الأمرين :

(260/234)

---

قضاء الأمر وعدم الإنظار ، أي : إن بعد قضاء الأمر شدة ، أين منها منها ما رأوه !

والمفاجأة بالشدة أصعب من الشدة نفسها . ولا نافية ، وينظرون فعل مضارع مرفوع مبني للمجهول معطوف على قضى الأمر ، والواو نائب فاعل .

البلاغة :

الإطناب في قوله : " فلمسوه بأيديهم " ، وإنما ذكر الأيدي

واللمس لا يكون إلا بها حتى يجتمع لهم إدراك الحاسّتين : حاسة البصر وحاسة اللمس .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 9 إلى 11]

وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ (9) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (10) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (11)

اللغة :

(يَلْبِسُونَ) : يقال لبس عليه الأمر يلبسه ، بضم الباء في المضارع ، لبسا : جعله يلتبس في أمره ، وشبهته وجعله مشكلا عليه ، وأصله الستر بالثوب .

الاعراب :

(وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ) الواو استئنافية ، والجملة مستأنفة مسوقة للرد عليهم بالجواب الثاني ، ولو شرطية ، وجعلناه فعل وفاعل ومفعول به ، وملكا مفعول به ثان ، والضمير يعود على النذير الذي اقترحوه ، والمعنى : لو جعلنا ذلك النذير ملكا لمثلنا ذلك الملك رجلا لعدم تمكّن الآحاد من رؤية الملك

بزيه وهيكله ، واللام رابطة لجواب لو ، وجملة جعلناه رجلا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ، وللبسنا عطف على " لجعلنا " وعليهم متعلقان بلبسنا ، و" ما " يجوز أن تكون موصولة بمعنى الذي ، أي : لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم أو على غيرهم ، وتكون مفعولا به ويجوز أن تكون مصدرية ، أي : وللبسنا عليهم لبسا مثل ما يلبسون على غيرهم ، فتكون منسبكة بمصدر مفعول مطلق ، وجملة يلبسون لا محل لها على الحالين (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ) كلام مستأنف مسوق لتسلية النبي صلى الله عليه وسلم ، واللام جواب للقسم المحذوف ، وقد حرف تحقيق ، واستهزئ فعل ماض مبني للمجهول ، وبرسل جار ومجرور متعلقان باستهزئ وقد نابا عن نائب الفاعل ، ومن قبلك جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة (فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ) الفاء عاطفة ، وحاق فعل ماض معطوف على استهزئ ، وبالذين جار ومجرور متعلقان بحاق ، وجملة سخروا لا محل لها لأنها صلة الموصول ، ومنهم جار ومجرور متعلقان بسخروا ، وما فاعل حاق ، وهي إما موصولة وإما مصدرية ، وكان واسمها ، وجملة يستهزئون خبرها ، وبه جار ومجرور متعلقان بيستهزئون ، والضمير في به يعود على الرسول ، والمعنى أنه حاق بهم عاقبة استهزائهم بالرسول المنتظم في سلك الرسل ، أو على كلمة ما المصدرية أو الموصولية (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا) كلام مستأنف مسوق للحض على التفكير والسير في الأرض للتأمل في مغاب الأمم السابقة ومصائرها . وجملة سيروا في محل نصب مقول القول ،

وأتى بثم للإشارة إلى البعد الكامن في السير المؤدي إلى الاستبصار والتأمل ، ولأن وجوب السير لم يكن إلا لبلوغ هذه المرتبة السامية التي هي قصارى ما تطمع إليه الهمم العالية ، وفي الأرض

(262/234)

---

جار ومجرور متعلقان بسيروا ، وثم حرف عطف للترتيب مع التراخي ، وانظروا فعل أمر وفاعل (كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ) الجملة في محل نصب مفعول انظروا ، وكيف اسم استفهام في محل نصب خبر مقدم لكان ، وعاقبة اسمها ، ولم تؤنث كان لأن العاقبة مؤنث مجازي ، وقد علقت النظر عن العمل لفظا ، والمكذبين مضاف إليه .

البلاغة :

1- المجاز المرسل في قوله : " عاقبة المكذبين " ، والعلاقة هي المصير والمآل الذي ينتهي اليه مصير المكذبين ومآلهم .

2- في قوله : " ولقد استهزئ " إلى قوله : " ما كانوا به يستهزئون " فن يسمى رد الاعجاز على الصدور ، وهو عبارة عن كل كلام بين صدره وعجزه رابطة لفظية غالبا ، أو معنوية نادرا ، ما تحصل بها الملاءمة والتلاحم بين قسمي كل كلام ، وهو ثلاثة أقسام :

1- ما وافق آخر كلمة في الكلام آخر كلمة في صدره أو كانت مجانسة لها ، كقوله تعالى في سورة " النساء " : " أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى باللّه شهيدا " .

2- ما وافق آخر كلمة من الكلام أول كلمة منه ، كقوله تعالى في سورة " آل عمران " : " وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهّاب " .

3- ما وافق آخر كلمة من الكلام بعض كلمات صدره ، حيث كانت كالآية التي نحن بصددها . وهذه الروابط كلها لفظية ، وقد

تكون معنوية كقوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم " .

نماذج شعرية :

ومن أمثلة هذا الفن في الشعر قول البحتري :

ضرائب أبدعتها في السماح فلسنا نرى لك فيها ضريبا

وقول أبي تمام :

ولم يحفظ مضاع المجد شيء من الأشياء كالمال المضاع

وأبيات الحماسة المشهورة الرائعة :

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

شهور ينقضين وما شعرنا بأنصاف لهنّ ولا سرار

وتظرّف الثعالبي فجمع بين هذا الفن وفن التجنيس ، فقال- ويكاد يكون طريفا لولا مسحة التكلف- :

*(263/234)*

---

وإذا البلابل أفصحت بلغاتها فانف البلابل باحتساء بلابل

فالبلابل الأولى جمع بلبل ، وهو طائر غرد معروف ، والثانية :

جمع بلبال ، وهو الحزن ، والثالثة : جمع بلبلة ، بالضم ، وهي إبريق الخمر . وتظرّف آخر

فجمع بين هذا الفنّ وفنّ التجنيس وفن التورية فقال :

لا كان إنسان تيمّم قاصدا صيد المها فاصطاده إنسانها

فالإنسان الأول هو الشخص المعروف ، والإنسان الثاني بؤبؤ العين . وفيما يلي طائفة من

أمثلة هذا الفنّ موزّعة على أقسامه الثلاثة المتقدمة . قال أبو العلاء :

لو اختصرتم من الإحسان زرتكم والعذب يهجر للإفراط في الخصر

والخصر بفتحتين : البرودة .

وقال أبو تمام :

ومن يك بالبيض الكواعب مغرما فما زلت بالبيض القواضب مغريا

وما أجمل قول بعضهم :

فدع الوعيد فما وعيدك ضائري أطنين أجنحة الذباب يضير ؟

وقال أبو تمام راثيا :

ثوى بالثّرى من كان يحيا به الثّرى ويغمر حرف الدهر نائله الغمر

وقد كانت البيض القواضب قبله بواتر فهي الآن من بعده بتر

[سورة الأنعام (6) : آية 12]

قُلْ لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (12)

الإعراب :

)

(264/234)

---

قُلْ لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ) كلام مستأنف مسوق لتبكيت الكفار وتوبيخهم على ما بدر منهم من تخلّف في الكفر ، وعجز عن التأمل والاستبصار . ولمن جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، ومن اسم استفهام للتوبيخ والإنكار ، وما اسم موصول

مبتدأ مؤخر ، والجملة في محل نصب مقول القول ، وفي السموات جار ومجرور متعلقان بمحذوف لا محل له لأنه صلة " ما " ، والأرض عطف على السموات (قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) كلام مستأنف مسوق ليبدأ الرسول بالجواب الذي ليس ثمة جواب غيره . ولله جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف ، أي : هو لله ، والجملة في محل نصب مقول القول ، وجملة كتب على نفسه الرحمة مستأنفة ، لأنها مستقلة عما قبلها ، غير مندرجة في سلك المقول ، وعلى نفسه جار ومجرور متعلقان بكتب ، والرحمة مفعول به (لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ) اللام جواب للقسم المحذوف المفهوم من قوله : "كتب على نفسه " ، كأنه أقسم على ذلك ، وجملة يجمعنكم لا محل لها من الاعراب لأنها جواب للقسم ، وقد اختلف في هذه الجملة كثيرا ولكن ما ارتأيناه أولى بالصواب . والى يوم القيامة جار ومجرور

متعلقان بمحذوف حال ، أي : مبعوثين أو محشورين إلى يوم القيامة ، ولا نافية للجنس ، وريب اسمها ، وفيه جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبرها ، والجملة حالية (الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) الذين نصب على الذم ، ويجوز أن تعربها مبتدأ خبره جملة فهم لا يؤمنون ، وجيء بالفاء لما في الموصول من رائحة الشرط ، وجملة خسروا أنفسهم لا محل لها لأنها صلة الموصول ، وهم مبتدأ ، وجملة لا يؤمنون خبره ، وجملة الذين خسروا أنفسهم على وجه النصب على الذم في محل نصب على الحال ، وعلى وجه الرفع مستأنفة

مسوقة لبيان سبب خسرانهم .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 13 إلى 14]

(265/234)

---

وَلَهُ ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (13) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (14)

اللغة :

(سَكَنَ) : يحتمل أن يكون من السكنى ، ويتعدى بفي ، ومعناه حل وثبت . ويحتمل أن يكون من السكون ضد التحرك .

واكتفى بأحد الضدين ، لأنه يدل على ضده ، وخصه بالذكر لأن السكون هو الأصل ، والحركة طارئة ، ويتعدى بفي أيضا .

(فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ) : مبدعهما .

ويروى عن ابن عباس قوله : ما عرفت فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أي :

ابتدعتها . وسيأتي مزيد بحث عن هذه المادة .

الاعراب :

)

(266/234)

---

وَلَهُ ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهارِ) الواو استئنافية ، وله جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، وما اسم موصول مبتدأ مؤخر ، وجملة سكن في الليل والنهار صلة الموصول ، واختار الزمخشري أن تكون الواو عاطفة نسقا على قوله : " للّه " ، أي على الجملة المحكية ب " قل " ، أي قل : هو للّه ، وقل : وله ما سكن . ولا بأس بذلك (وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) الواو عاطفة ، وهو مبتدأ ، والسميع خبر أول ، والعليم خبر ثان (قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا) كلام مستأنف مسوق لمتابعة الرد عليهم حين دعوه إلى دين آبائه . وقل فعل أمر ، وفاعله مستتر تقديره أنت ، والهمزة للاستفهام الإنكاري ، وغير اللّه مفعول به أول لأتخذ ، ووليا مفعول به ثان ، والجملة في محل نصب مقول القول (فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ) فاطر السموات والأرض نعت أو بدل للّه ، والواو عاطفة ، وهو مبتدأ ، وجملة يطعم بالبناء للمعلوم خبر ، وجملة لا يطعم بالبناء للمجهول عطف عليها (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ

أَسْلَمَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) كلام مستأنف مسوق لتكرير الرد عليهم . وإن واسمها ، وجملة أمرت خبرها . وإن واسمها وخبرها في محل نصب مقول القول ، وأمرت فعل ماض مبني للمجهول ، والتاء نائب فاعل ، وأن وما في حيزها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض ، والجار والمجرور متعلقان بأمرت ، وأول خبر أكون ، ومن اسم موصول في محل جر بالإضافة ، وجملة أسلم صلة الموصول ، ولا تكونن الواو عاطفة ، ولا ناهية ، وتكونن فعل مضارع مبني على الفتح في محل جزم ب " لا " ، والجملة مقول القول محذوف معطوف على ما تقدم ، أي : وقيل لي : لا تكونن ، ومن المشركين خبر تكونن . والمعنى أمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 15 إلى 18]

*(267/234)*

---

قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (16) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (17) وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (18)

الإعراب :

(قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) كلام مستأنف ليكون جوابا ثالثا للردّ عليهم . وإن واسمها ، وجملة أخاف خبرها ، والجملة في محل نصب مقول القول ، وإن شرطية ، وعصيت ربي فعل ماض وفاعل ومفعول به في محل جزم فعل الشرط ، والجواب محذوف دلّ عليه ما قبله ، والجملة الشرطية يجوز أن تكون معترضة بين فعل أخاف ومفعوله ، وهو : عذاب يوم عظيم ، ويجوز أن تكون حالية ، والأول أولى ، ويوم مضاف اليه ، وعظيم صفة (مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ)

*(268/234)*

---

الجملة صفة لعذاب يوم عظيم ، ومن شرطية في محل رفع مبتدأ ، ويصرف فعل الشرط وهو مبني للمجهول ، ونائب الفاعل مستتر تقديره هو ، وعنه جار ومجرور متعلقان بيصرف ، ويومئذ ظرف مضاف إلى مثله متعلق بيصرف ، والتنوين في " إذ " عوض عن جملة ، وسيأتي بحثه في باب الفوائد . والفاء رابطة لجواب الشرط ، وقد حرف تحقيق ، ورحمه فعل ومفعول به ، والجملة في محل جزم جواب الشرط ، وجملة فعل الشرط وجوابه في محل رفع خبر " من " . (وَذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ) الواو استئنافية أو حالية ، وذلك اسم إشارة في محل رفع مبتدأ ، والفوز خبر ، والمبين صفة والجملة مستأنفة أو حالية (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ

بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ) الواو عاطفة ، وإن شرطية ويمسسك فعل الشرط ، والكاف مفعول به المقدم ، والله فاعله المؤخر لفظا ، وبضرّ جار ومجرور متعلقان بيمسسك ، فلا الفاء رابطة للجواب لأن الجواب جملة اسمية ، ولا نافية للجنس ، وكاشف اسمها المبني على الفتح ، وله جار ومجرور متعلقان بكاشف ، وإلا أداة حصر وهو بدل من محل لا واسمها ، وخبر " لا " محذوف ، أي : موجود والجملة في محل جزم جواب الشرط (وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) عطف على ما تقدم ، وجملة : " وهو على كل شيء قدير " تعليلية لجواب الشرط المحذوف ، أي : فلا رادّ له غيره ، وهو مبتدأ ، وقدير خبر ، وعلى كل شيء متعلقان بقدير (وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) الواو استئنافية أو حالية ، وهو مبتدأ ، والقاهر خبر ، وفوق عباده ظرف متعلق بالقاهر ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف خبر ثان أو بمحذوف حال ، أي : مستعليا . والصورة رائعة للقهر والعلوّ بالغلبة والقدرة .

الفوائد :

)

(269/234)

يَوْمَئِذٍ) التنوين اللاحق ل " إذ " في نحو : يومئذ وحينئذ ، عوض عن الجملة التي تضاف " إذ " إليها ، والأصل : يوم إذ يصرف عنه فقد رحمه ، فحذفت جملة " يصرف عنه " وجيء بالتنوين عوضا عن الجملة المحذوفة ، إيجازا وتحسينا ، فالتقى ساكنان : ذال " إذ " والتنوين ، فكسرت الذال على أصل التقاء الساكنين ، وليست هذه الكسرة كسرة إعراب باضافة " يوم " إليها لأن " إذ " ملازمة للبناء لشبهها بالحرف في الافتقار إلى جملة وفي الوضع على حرفين ، وليست الاضافة في " يومئذ " ونحوها من إضافة أحد المترادفين للآخر ، بل من إضافة الأعم إلى الأخص ، كشجر أراك .

[سورة الأنعام (6) : آية 19]

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (19)

اللغة :

(شَيْءٍ) الشيء : ما يصحّ أن يعلم ويخبر عنه ، ويجمع على أشياء . وقد تقدم القول في منع أشياء من الصرف ، والشيء في اصطلاح المتكلمين هو أعم العام لوقوعه على كل ما يصح أن يندرج تحته . وقد

شجر بين المتكلمين خلاف نلمح إليه لطرافته ، فقد ذهب الأشاعرة- وهم من أهل

السنة- إلى أنه الموجود ليس إلّا ، وخالفهم المعتزلة بأنه الذي يصح وجوده ، فشمل المعدوم . ولكن الفريقين اتفقا على خروج المستحيل من مفهومه . والمفهوم اللغوي أنه لا يتناوله ، قال أبو الطيب المتنبي :

وضاقت الأرض حتى كاد هاربهم إذا رأى غير شيء ظنّه رجلا

الاعراب :

)

(270/234)

---

قُلْ : أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً) كلام مستأنف مسوق للردّ على من طلبوا من الرسول صلى اللّه عليه وسلم أن يريهم من يشهد له بأنه رسول اللّه . وقل فعل أمر وفاعله ضمير مستتر تقديره أنت ، وأي شيء مبتدأ ، وأكبر خبر ، وشهادة تمييز محوّل عن المبتدأ ، والجملة في محل نصب مقول القول (قُلِ : اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) الجملة مستأنفة مسوقة لتهيئة الرد عليهم ، واللّه مبتدأ ، وشهيد خبره ، والظرفان متعلقان بشهيد ، والجملة في محل نصب مقول القول .

وإذا كان اللّه هو الشهيد بينهم وبينه فهو أكبر شهادة (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ

وَمَنْ بَلَغَ) الواو عاطفة أو استئنافية ، وأوحي فعل ماض مبني للمجهول ، وإلى جار ومجرور متعلقان بأوحي ، وهذا اسم إشارة في محل رفع نائب فاعل أوحي ، والقرآن بدل من اسم الاشارة ، والجملة معطوفة أو مستأنفة بمثابة التعليل ، والمعنى أن شهادة اللّه لي بأني رسوله كافية في نزول هذا القرآن ، واللام للتعليل ،

*(271/234)*

---

و أنذركم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والكاف مفعول ، ومن الواو عاطفة ، ومن اسم موصول منسوق على الكاف في أنذركم ، أي : لأنذركم وأنذر كل من بلغه القرآن (أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى ) الهمزة للاستفهام الإنكاري التقريري ، وإن واسمها ، واللام المزحلقة ، وجملة تشهدون خبرها ، وأن واسمها وخبرها سدت مسد مفعول تشهدون ، والجملة الاستفهامية في محل نصب مقول قول محذوف أي : ويقول : أئنكم لتشهدون ، وأن حرف مشبه بالفعل ومع ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر أن المقدم ، وآلهة اسمها المؤخر ، وأخرى صفة لآلهة (قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) الجملة مستأنفة مسوقة لتقرير الردّ عليهم ، لا نافية وأشهد فعل مضارع ، والجملة نصب على أنها مقول القول ، وقل فعل أمر وفاعل مستتر تقديره أنت ، والجملة

مستأنفة أيضا للغرض نفسه ، وإنما كافة ومكفوفة ، وهو مبتدأ وإله خبر ، وواحد صفة ، وإنني الواو عاطفة ، وإن واسمها ، وبريء خبرها ، والجملة منسوقة على ما قبلها ، ومما جار ومجرور متعلقان ببريء ، و" ما " يحتمل أن تكون مصدرية أو موصولة ، أي : من إشراككم بالله ، أو من الأصنام التي تشركونها مع الله .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 20 إلى 21]

الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (20) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (21)

الاعراب :

)

(272/234)

---

الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمُ) كلام مستأنف مسوق للرد على الذين يزعمون أن أهل الكتاب لا يعرفونه ، أي الرسول ، ويجوز أن يعود الضمير على القرآن .

والذين اسم موصول في محل رفع مبتدأ ، وجملة آتيناهم صلة الموصول ، والكتاب مفعول به ثان ، وجملة يعرفونه خبر الذين ، وكما الكاف حرف جر ، وما مصدرية مؤولة مع ما بعدها

بمصدر مجرور بالكاف ، والجار والمجرور نصب على المفعولية المطلقة ، وقد تقدمت له نظائر كثيرة .

وأبناءهم مفعول به (الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) الذين مبتدأ أيضا ، وجملة خسروا صلة الموصول ، وأنفسهم مفعول به ، والفاء رابطة لما في الموصول من رائحة الشرط ، وهم مبتدأ ثان وجملة لا يؤمنون خبر " هم " ، والمبتدأ الثاني وخبره خبر الذين ، ولك أن تعربه خبرا لمبتدأ محذوف ، أي : هم الذين خسروا أنفسهم ، وأعربها ابن جرير نعتا ل " الذين " الأولى ، وهو سائغ . وقيل : هو منصوب على الذّم ، وهو محتمل أيضا (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً) الواو استئنافية ، ومن اسم استفهام معناه النفي والتوبيخ ، أي لا أحد أظلم ، وهو مبتدأ ، وأظلم خبر ، وممن جار ومجرور متعلقان بأظلم ، وجملة افترى صلة الموصول ، وعلى اللّه جار ومجرور متعلقان بافترى ، وكذبا مفعول به (أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ) عطف على جملة افترى داخلة في حيز الصلة (إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) إن واسمها ، وجملة لا يفلح الظالمون خبر ، والجملة تعليل لما سبق .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 22 إلى 23]

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (22) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ (23)

الإعراب :

)

(273/234)

---

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ) الواو استئنافية ، ويوم ظرف ناصبه محذوف مبهم زيادة في التخويف والتهويل ، والمعنى : ويوم نحشرهم كان كذا وكذا . ويجوز أن يكون مفعول ل " اذكر " مقدرا ، وجملة نحشرهم في محل جر بإضافة الظرف إليها ، والهاء مفعول به ، وجميعا حال (ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا : أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) ثم حرف عطف للتراخي ، لطول المدة بين الحشر والقول ، وللذين جار ومجرور متعلقان بنقول ، وجملة أشركوا صلة الموصول ، وأين اسم استفهام في محل نصب ظرف مكان ، والظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم ، وشركاؤكم مبتدأ مؤخر ، والذين اسم موصول صفة لشركاء ، وجملة كنتم صلة ، والتاء اسم كنتم ، وجملة تزعمون خبرها ، ومفعولا تزعمون محذوفان للعلم بهما ، أي : تزعمونهم شركاء (ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا) ثم حرف عطف للتراخي ، ولم حرف نفي وقلب وجزم ، وتكن فعل مضارع ناقص مجزوم بلم ، وفتنتهم اسم تكن . وإلا أداة حصر ، وأن ما في حيزها في تأويل مصدر خبر تكن (وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا

مُشْرِكِينَ) الواو حرف قسم وجر ، ولفظ الجلالة مجرور بالواو ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف تقديره " نقسم " ، وربنا بدل أو نعت ل " اللّه " ، وجملة القسم في محل نصب مقول قولهم ، وما نافية ، وكان واسمها ، ومشركين خبرها .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 24 إلى 25]

انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (24) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها حَتَّى إِذا جاؤُكَ يُجادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (25)

اللغة :

)

(274/234)

---

أَكِنَّةً) الأكنّة : جمع كنان بكسر الكاف ، وهو وقاء كل شيء وستره ، ويجمع على أكنان أيضا . وكنّه وأكنّه : ستره ، قال أبو زيد :

الثلاثي والرباعي لغتان في الستر والإخفاء جميعا ، واستكن استتر ، وأكننته في نفسي : سترته وأضمرته . وسميت جعبة السهام كنانة لأنها تسترها فإذا أراد إخراجها نثرها ،

ومنه قول الحجاج في خطبته " نثر كنانته بين يديه " . وكانون الشتاء الذي هو أشده بردا ، ومن أقوالهم : " أحسن من الكانون في الكانون " ، والكانون الأول المصطلى . والكنة بفتح الكاف امرأة الابن أو الأخ ، وجمعها كنائن ، ومن معاني الكانون : الثقيل ، ومنه قول الحطيئة يهجو أمه :

أغر بالاً إذا استودعت سرّا وكانونا على المتحدثينا

ومن العاميّ الفصيح قولهم : "كنكن في البيت " أي : رزمه واستقر فيه ، وخاصة في الشتاء .

(وَقْراً) الوقر : بفتح الواو مصدر وقرت أذنه ، أي ثقلت وذهب سمعه ، والكلمة من المجاز . ومن غريب أمر هذه المادة أنها تدل على الثقل والرزانة ، يقال : وقر يقر – بكسر عين المضارع – العظم :

صدعه ، ووقر يقر قرة ووقارة ووقرا الرجل كان رزينا ذا وقار وثبت .

ووقرت أذنه من باب تعب : ثقلت أو ذهب سمعه . والوقار : الحلم والرزانة ، وهو مصدر وقر بالضم ، والمرأة وقور : فعول بمعنى فاعل ، مثل صبور وشكور ، قال أبو فراس :

وقور وريعان الصبا يستفزّها فتأرن أحيانا كما يأرن المهر

(أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ) : في مختار الصحاح : الأساطير : الأباطيل ، والواحدة أسطورة بالضم ، وإسطارة بالكسر . وقال غيره : إنه جمع جمع ، فأساطير جمع أسطار ، وأسطار جمع سطر بفتح الطاء . وأما سطر بسكونها فجمعه في القلة على أسطر ، وفي الكثرة على سطور ، وقيل : إنه جمع جمع الجمع ، فأساطير جمع أسطار ، وأسطار جمع أسطر ، وأسطر جمع سطر ، وقال المبرّد : إنه جمع أسطورة ، نحو : أرجوحة وأراجيح ، وأحدوثة وأحاديث . ومعنى الأساطير الأحاديث الباطلة .

الاعراب :

(انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ) كلام مستأنف مسوق للإخبار عنهم بالكذب . وانظر فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت ، وكيف اسم استفهام في محل نصب حال ، وكذبوا فعل وفاعل ، والجملة في محل نصب بانظر لأنها معلقة لها عن العمل ، وعلى أنفسهم جار ومجرور متعلقان بكذبوا (وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ) يجوز أن تكون الواو عاطفة ، فتكون الجملة منسوقة على جملة كذبوا ، فتكون داخلة في حيّز النظر ، ويجوز أن تكون الواو استئنافية ، فتكون الجملة مستأنفة ، مسوقة للإخبار بها عن كذبهم . وضلّ فعل ماض ، وعنهم جار ومجرور متعلقان بضل ، وما يجوز أن تكون موصولة اسمية ، فتكون فاعلًا لضلّ ، وجملة كانوا يفترون صلة ، ويجوز أن تكون مصدرية فالمصدر المؤوّل

هو فاعل ضلّ ، وجملة يفترون خبر كان (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ) الواو عاطفة ، أو استئنافية ، ومنهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، ومن اسم موصول مبتدأ مؤخر ، وجملة يستمع صلة ، وإليك جار ومجرور متعلقان بيستمع ، وسيأتي سر إفراد الصلة في باب البلاغة (وَجَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً) الواو عاطفة على الجملة قبلها من عطف الفعلية على الاسمية . وقيل : الواو للحال بتقدير " قد " ، أي : وقد جعلنا .

*(276/234)*

---

و جعلنا فعل وفاعل ، وعلى قلوبهم جار ومجرور متعلقان بجعلنا على أنه مفعوله الثاني ، هذا إذا اعتبرنا جعلنا للتصيير ، وأما إذا كانت بمعنى خلقنا فتتعدى لواحد وهو أكنة ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال منه ، لأنهما لو تأخرا لوقعا صفة له ، وأن يفقهوه مصدر مؤول في محل نصب مفعول لأجله على حذف مضاف ، أي : كراهية أن يفقهوه ، وفي آذانهم وقرا عطف على الجملة السابقة (وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها) الواو عاطفة ، وإن شرطية ويروا فعل الشرط والواو فاعل وكل آية مفعول به ولا نافية ويؤمنوا جواب الشرط وبها جار ومجرور متعلقان بيؤمنوا (حَتَّى إِذا جاؤُكَ يُجادِلُونَكَ) يجوز أن تكون "

حتى " هنا غاية وجر ، ويكون " إذا جاءوك " في محل الجر ، بمعنى : حتى وقت مجيئهم ، وجملة يجادلونك حال ، ويجوز

أن تكون حتى ابتدائية ، وهي التي تقع بعدها الجمل ، وعلى كل حال جملة يجادلونك حال من الواو في جاءوك (يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ) الجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ، والذين فاعل ، وجملة كفروا صلة ، وإن نافية ، وهذا اسم إشارة مبتدأ ، وإلا أداة حصر ، وأساطير الأولين خبر ، والجملة المنفية في محل نصب مقول القول .

البلاغة :

الكناية- في جعل الأكنة- على القلوب والوقر في الآذان عن نبوّ قلوبهم ومسامعهم عن قبول الحق والاعتقاد بصحته ، ونزيد هنا أن الكناية مزية إعطاء المعاني صورة المحسسات ، وهذه المزية من أبرز خواص الفنون ، فان المصوّر إذا رسم لك صورة للأمل أو اليأس بهرك وجعلك ترى ما كنت تعجز عن التعبير عنه واضحا ملموسا ، وعلى هذا تتضح لك روعة الصورة لهؤلاء الذين ضربت على قلوبهم الأسداد ، وتبلدت منهم الأذهان ، فما تتمخض عن ذوق ولا تسفر عن فنّ ، ولا تهيج إلى معرفة ، ومن هذا القبيل في إظهار الروعة قول البحتريّ :

يغضّون فضل اللحظ من حيث ما بدا لهم عن مهيب في الصدور محبّب

فإنه كنى عن إكبار الناس للمدوح وهيبتهم إياه بعض الأبصار الذي هو في الحقيقة برهان على الهيبة والإجلال ، وتظهر هذه الخاصة

جلية في الكنايات التي سترد عليك في القرآن عن الصفة والموصوف والنسبة ، مما سنشير إليه في مواطنه .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 26 إلى 27]

وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ (26) وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (27)

الإعراب :

(وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ) الواو استئنافية ، وهم مبتدأ ، وجملة ينهون خبر ، وعنه جار ومجرور متعلقان بينهون ، وضمير " هم " يعود على الكفار ، وضمير " عنه " يعود على القرآن أو النبي صلى اللّه عليه وسلم وجملة ينأون عنه عطف على ينهون عنه (وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ) الواو حالية ، وإن نافية ، ويهلكون فعل مضارع وفاعل ، وإلا أداة حصر ، وأنفسهم مفعول به ، والواو حرف عطف ، وما نافية ، وجملة يشعرون معطوفة على يهلكون (وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ) كلام مستأنف مسوق للشروع في وصف ما

يصدر عنهم يوم القيامة من أحوال متناقضة متهافتة ، والواو شرطية ، وترى فعل مضارع ، وجواب لو محذوف لفهم المعنى ، والتقدير : لرأيت شيئًا مذهلًا عظيما . والرؤية هنا يجوز أن تكون قلبية : أي لو انصرفت إليهم بقلبك وفكرك لتتدبر أحوالهم وتكتنه

(278/234)

---

حقيقة أمرهم في ذلك الوقت تزداد يقينا . ويجوز أن تكون بصرية ومفعولها محذوف ، أي : لو ترى أحوالهم وتعاينها عن كثب . وإذ ظرف لما مضى من الزمن متعلق بتري ، وجملة وقفوا في محل جر بالإضافة ، والواو نائب فاعل ، وعلى النار جار ومجرور متعلقان بوقفوا (فَقَالُوا : يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) الفاء حرف عطف ، وقالوا عطف على وقفوا ، ويا حرف نداء ، والمنادى محذوف ، أو هي لمجرد التنبيه ، وليت واسمها ، وجملة نرد خبرها ، والواو للمعية ، ولا نافية ، ونكذب فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد واو المعية ، وأن وما بعدها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متوهم ، والتقدير : يا ليتنا لنا رد وانتفاء تكذيب والكون من المؤمنين ، وجملة التمني في محل نصب مقول القول ، ولأبي جعفر الطبري كلام مطوّل حول قراءة " ولا نكذب " بالرفع ، وانتهى إلى ترجيحها على قراءة النصب ، وهو مجرّد تعسف . والواو حرف عطف ، ونكون عطف

على نكذب ، واسم نكون مستتر تقديره نحن ، ومن المؤمنين خبرها .

البلاغة :

في هذه الآية فنان جميلان :

1 - الجناس بين ينهون وينأون ، وهو جناس التصريف الذي هو اختلاف صيغة الكلمتين بإبدال حرف من حرف أو من قريب من مخرجه ، سواء أكان الإبدال في الأول أم في الوسط أم في الآخر ، ومن طريف هذا التجنيس في الشعر قول البحتري :

عجب الناس لاغترابي وفي الأطراف تلقى منازل الأشراف

وقعودي عن التقلب والأرض لمثلي رحيبة الأكناف

ليس عن ثروة بلغت مداها غير أني امرؤ كفاني كفافي

وجميل قول أبي فراس الحمدانيّ :

تعس الحريص وقل ما يأتي به عوضا عن الإلحاح والإلحاف

إن الغنيّ هو الغنيّ بنفسه ولو انه عاري المناكب حافي

ما كلّ ما فوق البسيطة كافيا وإذا قنعت فكلّ شيء كاف

وبلغ الشريف الرضيّ الغاية منه حيث قال :

لا يذكر الرمل إلا حنّ مغترب له إلى الرمل أوطار وأوطان

2- والفن الثاني : هو الإيجاز بحذف جواب " لو " في الآية الثانية ، ومفعول ترى فيها أيضا .

والحذف كثير شائع في القرآن ، وفائدته أن النفس تذهب في تقدير المحذوف كل مذهب ، والخيال يتسع للتقدير ، ومما جاء من حذف جواب لو قول أبي تمام في قصيدته البائية التي يمدح بها المعتصم بالله عند فتحه عمورية :

لو يعلم الكفر كم من أعصر كمنت له المنيّة بين السّمر والقضب

أي لو يعلم الكفر ذلك لأخذ أهبته ، أو لما أقدم على ما فرط منه .

على أن حذف الجواب لا بد له من دليل يدل عليه ، ولذلك ورد الجواب

في قوله تعالى : " ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلّوا فيه يعرجون لقالوا : إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون " إذ لو حذف الجواب لما علم مكان المحذوف .

الفوائد :

كان المشركون يظنون أنهم يستطيعون أن يضروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويستطيعون إيذاءه وكان عمّه أبو طالب يحول بينهم وبين ابن أخيه فقال من نظمه :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة وابشر بذاك وقرّ منه عيونا

ودعوتني وزعمت أنك ناصح ولقد صدقت وكنت ثمّ أمينا

وعرضت دينا لا محالة أنه من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذاري سبّةً لوجدتني سمحا بذاك مبينا

[سورة الأنعام (6) : الآيات 28 إلى 29]

بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (28) وَقالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (29)

الإعراب :

(بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ) بل حرف إضراب وعطف ،

(280/234)

---

و المراد بالإضراب هنا إبطال كلام الكفرة ، وبدا فعل ماض ، ولهم جار ومجرور متعلقان ببدا ، وما اسم موصول في محل رفع فاعل بدا ، وجملة كانوا صلة الموصول ، وكان واسمها ، وجملة يخفون خبر كانوا ، ومن قبل جار ومجرور متعلقان بيخفون (وَلَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ) الواو عاطفة ، ولو شرطية ، وردوا فعل ماض ونائب فاعل ، واللام واقعة في جواب لو ، وجملة لعادوا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ، ولما اللام حرف جر ، وما اسم موصول في محل جر باللام ، والجار والمجرور متعلقان بعادوا ، وجملة نهوا عنه صلة الموصول

، والجار والمجرور متعلقان بنهوا (وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ) الواو حالية ، وإن واسمها ، واللام المزحلقة وكاذبون خبر إن (وَقالُوا : إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ) يجوز أن تكون الواو عاطفة على جملة عادوا ، فالجملة داخلة في حيز الجواب ، أو على قوله " وإنهم لكاذبون " ، ويجوز أن تكون استئنافية وإن نافية وهي مبتدأ ، وإلا أداة حصر ، وحياتنا خبر ، والدنيا صفة ، والواو عاطفة ، وما حجازية تعمل عمل ليس ، ونحن ضمير منفصل في محل رفع اسمها ، والباء حرف جر زائد ومبعوثين مجرور لفظا خبر " ما " الحجازية محلًا .

[سورة الأنعام (6) : آية 30]

وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلى رَبِّهِمْ قالَ أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَرَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (30)

الإعراب :

(وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلى رَبِّهِمْ) الواو استئنافية ، ولو شرطية ،

*(281/234)*

---

و ترى فعل مضارع وهو شرط لو ، وجوابها محذوف لفهم المعنى ، والتقدير : لرأيت شيئًا عظيما ، و " ترى " يجوز أن تكون بصرية ومفعولها محذوف ، ويجوز أن تكون قلبية ،

والمعنى لو حرفت قلبك وفكرك لتتدبر أحوالهم وتكتنه حقيقة أمرهم في ذلك الوقت لازددت يقينا . وإذ ظرف لما مضى متعلق بترى ، وجملة وقفوا في محل جر بالإضافة ، والواو نائب فاعل ، وعلى ربهم جار ومجرور متعلقان بوقفوا (قالَ : أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ) الجملة مستأنفة مسوقة لتكون جواب سؤال مقدر تقديره : ماذا قال لهم ربهم إذا وقفوا عليه ؟ ويجوز أن تكون حالية وصاحب الحال " ربهم " ، كأنه قيل : وقفوا عليه قائلًا لهم : أليس هذا بالحق ؟ والهمزة للاستفهام التوبيخي الإنكاري ، وليس فعل ماض ناقص ، وهذا اسم اشارة في محل رفع اسمها ، والباء حرف جر زائد ، والحق مجرور بالباء لفظا منصوب محلًا على أنه خبر ليس (قالُوا : بَلى وَرَبِّنا ) كلام مستأنف مسوق لتأكيد اعترافهم باليمين . وبلى حرف جواب لإثبات النفي ، وربنا الواو حرف قسم وجر ، وربنا مجرور بواو القسم ، والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف تقديره ، نقسم (قالَ : فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ) جملة مستأنفة مسوقة لبيان ما قال لهم . والفاء الفصيحة ، أي : إذا علمتم هذا ثم انحرفتم عن مقتضاه فذوقوا العذاب ، والعذاب مفعول به لذوقوا ، والباء حرف جر ، وما موصولية أو مصدرية ، أي : بالذي كنتم ، أو بكونكم كفرتم ، وكان واسمها ، وجملة تكفرون خبر كنتم .

البلاغة :

الاستعارة المكنية في قوله : " فذوقوا العذاب " ، وقد تقدم القول فيها ، فجدّد به عهدا :

واللّه يعصمك .

[سورة الأنعام (6) : آية 31]

(282/234)

---

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قالُوا يا حَسْرَتَنا عَلى ما فَرَّطْنا فِيها وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ (31)

اللغة :

(أَوْزارَهُمْ) الأوزار : جمع وزر بكسر الواو ، وهو الحمل الثقيل ، والوزر في الأصل : الثقل ، ومنه وزرته ، ووزير الملك من هذا ، لأنه يتحمل أعباء ما قلده من أمور الرعية ، ومنه أوزار الحرب لسلاحها وعتادها وآلتها ، قال الأعشى :

وأعددت للحرب أوزارها رماحا طوالًا وخيلًا ذكورا

ووضعت الحرب أوزارها : أي أثقالها ، كناية عن توقفها .

الاعراب :

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ) كلام مستأنف مسوق لبيان مصير هؤلاء الذين حكيت أقوالهم . وقد حرف تحقيق ، وخسر فعل ماض ، والذين اسم موصول فاعله ، وجملة

كذبوا صلة ، وبلقاء اللّه جار ومجرور متعلقان بكذبوا (حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً)

تقدم القول قريبا في أن " حتى " في مثل هذا التركيب يجوز أن تكون غاية للتكذيب لا للخسران ، أو ابتدائية ، وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى

*(283/234)*

---

الشرط ، وجملة جاءتهم الساعة في محل جر بالإضافة . وبغتة حال أو منصوب على المصدر ، قال سيبويه : وهي مصدر في موضع الحال ، قال . ولا يجوز أن يقاس عليه . فلا يقال : جاء فلان سرعة (قالُوا : يا حَسْرَتَنا عَلى ما فَرَّطْنا فِيها ) الجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم . وقالوا فعل وفاعل ، ويا حرف نداء ، وحسرتنا منادى مضاف ، وعلى ما فرطنا متعلقان بالحسرة ، وجملة فرطنا فيها صلة " ما " (وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ) الواو حالية ، وهم ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ ، وجملة يحملون خبر ، وعلى ظهور هم جار ومجرور متعلقان بيحملون (أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ) ألا أداة تنبيه ، وساء فعل ماض لإنشاء الذم ، وما نكرة تامة منصوبة على التمييز ، أو اسم موصول فاعل ، وجملة يزرون صفة على الأول ، وصلة على الثاني .

البلاغة :

1- الاستعارة التصريحية ، فقد شبه الذنوب بالأوزار الثقيلة ، ثم حذف المشبه وأبقى المشبه به .

2- فنّ المقارنة : فقد اقترن ضربان من فنون البديع في الكلام ، وهما التنكيت والمبالغة ، فإن لقائل أن يقول : ما النكتة التي رجّحت اختصاص الظهور بالحمل دون الرؤوس ؟

والجواب أن النكتة في ذلك الإشارة إلى ثقل الأوزار ، لأن الظهور أحمل للثقل من الرؤوس ، وما يلزم من ذكر الظهور عن عجز الرؤوس عن حمل هذه الأوزار من المبالغة في ثقلها مقترن بالتنكيت ، وما اكتنف هذا الاقتران من تجنيس المزاوجة في قوله تعالى : " أوزارهم " قبل قوله : " على ظهورهم " ،

وقوله تعالى : " يزرون " بعدها ، وترشيح هذا التجنيس لتمكين الفاصلة بالتصدير ، واقتران الترشيح بالتصدير .

نموذج شعري :

ومن نماذج هذا الفنّ الشعري قول إدريس بن اليمان :

وكنت إذا استنزلت من جانب الرضا نزلت نزول الغيث في البلد المحل

وإن هيّج الأعداء منك حفيظة وقعت وقوع النار في الحطب الجزل

فإن الشاعر قرن في البيت الاستعارة في قوله " نزلت نزول الغيث " بالتشبيه فقد استعار الشاعر النزول للمدوح ، لأن حقيقة ما أراد : إذا استرضيت رضيت ، وأما التشبيه ففي قوله : " نزول الغيث " فإن التقدير : نزلت نزولا مثل نزول الغيث ، وقرن تجنيس التغاير في قوله " نزلت نزول الغيث " فإن اللفظة الأولى فعل والثانية اسم بالترشيح ، فإنه رشح بذلك التجنيس للإيغال ، وجاءت المبالغة مدمجة في التشبيه ، إذ شبه نزوله بنزول الغيث ، وقرن في البيت الثاني الاستعارة التي في قوله : " وقعت " بالتشبيه الذي في لفظ : " وقوع النار " وأدمج المبالغة في هذا التشبيه ، لأن قوله : " وقعت وقوع النار " مبالغة ، وأدمج في تجنيس التغاير الذي في لفظتي " وقعت " و" وقوع " ، والترشيح للإيغال . وجميلة المقارنة في قول تميم بن مقبل :

لدن غدوة حتى نزعنا عشيّة وقد مات شطر الشمس والشطر مدنف

فإنه قرن في هذا البيت الإرداف والاستعارة ، لأنه عبر عن الغروب بموت شطر الشمس في أوائل العجز ، وهذا هو الإرداف ، واستعار للشطر الآخر الدنف وهو شدة المرض ، وهذا بليغ جدا حيث أتت المقارنة في عجز البيت وحده .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 32 إلى 33]

وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ (32) قَدْ نَعْلَمُ

إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (33)

الإعراب :

)

(285/234)

---

وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ) الواو استئنافية ، والجملة مستأنفة مسوقة لتأكيد ما وراء الطبيعة ، وأن هناك حياة أخرى ، وتبيان حقيقة تينك الحياتين . وما نافية ، والحياة مبتدأ والدنيا صفة ، وإلا أداة حصر ، ولعب خبر الحياة ، ولهو عطف على لعب (وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ) الواو حالية ، واللام لام الابتداء ، والدار مبتدأ والآخرة صفة ، وخير خبر ، وللذين جار ومجرور متعلقان بخير ، وجملة يتقون صلة الموصول ، والجملة نصب على الحال . ولك

أن تجعل الواو استئنافية فتكون الجملة مستأنفة مسوقة لإتمام بيان حال الحياتين ، والهمزة للاستفهام الإنكاري داخلة على مقدر ، والفاء حرف عطف ، والمعطوف عليه محذوف ، والتقدير : أتغفلون فلا تعقلون ، والجملة الاستفهامية مستأنفة (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ) الجملة مستأنفة مسوقة للتسرية عن الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، وقد في الأصل

للتقليل ، ولكن أريد بها التكثير ، وسيرد تفسير ذلك في باب البلاغة . ونعلم فعل مضارع متعد لاثنين ، وما بعده سادّ مسدّهما ، فانه معلق عن العمل بلام الابتداء ، وكسرت همزة إن لدخول اللام في حيزها ، وإنه واسمها ، وجملة يحزنك خبر إن ، والذي فاعل يحزنك ، وجملة يقولون صلة (فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) الفاء تعليلية ، وإن واسمها ، ولا نافية ، وجملة لا يكذبونك خبرها ، ولكن الواو حالية أو عاطفة ، ولكن واسمها ، وبآيات اللّه جار ومجرور متعلقان بيجحدون ، وجملة يجحدون خبر لكن .

البلاغة :

في الآية الثانية نوعان من البلاغة :

*(286/234)*

---

1 - الرجوع إلى الضد فيما بلغ الغاية ، وهي سنة من سنن العرب ولطائفهم ، فيسمون الجميلة المفرطة في جمالها قبيحة ، ويعبرون عن الشيء بضده ، وقد رمق أبو الطيب المتنبي سماء هذه البلاغة بقوله :

ولجدت حتى كدت تبخل حائلا للمنتهى ومن السرور بكاء

يريد أنك بلغت في الجود أقصى غايته وطلبت شيئا آخر وراءه فلم تجد فكدت تحول أي

ترجع عن آخره لما انت هيت اليه ، إذ ليس من شأنك أن تقف في الكرم على غاية بعد بلوغك غايته . وهذا من أحسن الكلام أي إذا تناهى الإنسان في الجود كاد يعود إلى البخل .

وفي الآية عبر ب " قد " التي هي للتقليل إذا دخلت على الفعل المضارع تنبيها على زيادة الفعل ، والمراد بكثرة علمه تعالى كثرة متعلقاته .

وسيرد الكثير منه في هذا الكتاب .

2- أقام الظاهر مقام المضمر بقوله : " ولكن الظالمين " وقياس الظاهر يقتضي إضماره ، ولكنه عدل عن القياس للإسهاب في ذمهم وللتصريح بلفظ الظلم وتسميتهم به ، ليكون سمة يتميزون بها زيادة في تأكيد ذمهم .

[سورة الأنعام (6) : آية 34]

وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (34)

الإعراب :

(وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ) الواو استئنافية ، والجملة مستأنفة مسوقة للتسرية عنه ، صلى اللّه عليه وسلم ، واللام جواب للقسم المحذوف ، وقد حرف تحقيق ، وكذبت فعل ماض مبني للمجهول ، والتاء تاء التأنيث الساكنة ، ورسل نائب فاعل ، ومن قبلك

جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لرسل (فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا) الفاء عاطفة ، وصبروا فعل وفاعل عطف على كذبت ، و" على ما " جار ومجرور متعلقان بصبروا و" ما " مصدرية مؤولة مع ما بعدها بمصدر ، أي : على تكذيبهم ، وأوذوا عطف على " صبروا " ، وحتى تحتمل الغاية- ولعلها هنا أرجح- وتحتمل أن تكون ابتدائية ، وأتاهم نصرنا فعل ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر (وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ) الواو حالية ، ولا نافية للجنس ، ومبدل اسمها المبني على الفتح ، ولكلمات اللّه جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ، والواو استئنافية ، واللام جواب القسم محذوف ، وقد حرف تحقيق ، وجاءك فعل ومفعول به ، وفاعل جاءك مشكل ، والظاهر أن الجار والمجرور متعلقان بمحذوف هو صفة للفاعل نابت منابه ، أي جاءك بعض أنبائهم أو مزيد من أنبائهم وقصصهم ، ويجوز أن يعلق الجار والمجرور بمحذوف حال من الفاعل المستتر في جاء ، والعائد إلى ما هو مفهوم من الجملة السابقة ، أي : ولقد جاءك هذا الخبر كائنا من نبأ المرسلين . والأول أسهل ، وأبعد عن التكلف .

البلاغة :

الالتفات البديع من ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم في قوله تعالى :

" حتى أتاهم نصرنا " ، إذ قبله : " بآيات اللّه يجحدون " ، ولو جرى الكلام على نسقه لقيل : نصره ، وفائدة هذا الالتفات- بالإضافة إلى تطرية الكلام وتنويعه- إسناد النصر إلى ضمير المتكلم المشعر بالعظمة ، والحافز على وجوب مداومة الجهاد والنضال والصمود في سبيل تحقيق المطمح الكبير ، وتأدية الرسالة السامية المثلى .

[سورة الأنعام (6) : آية 35]

*(288/234)*

---

وَإِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ (35)

اللغة :

(نَفَقاً) النفق : سرب في الأرض له مخرج إلى مكان معهود ، ومنه نفق السكة الحديدية . وقد تقدم البحث مستوفى في هذه المادة .

(السلم) : هو المصعد ، وقيل : هو الدّرج ، وقيل : هو السبب أيّا كان ، تقول العرب : اتخذني سلما لحاجتك ، أي : سببا ، وهو مشتق من السلامة ، لأن الصاعد به تكتب له

السلامة . والأفصح تذكيره ، وحكى الفرّاء تأنيثه عن العرب .

الاعراب :

(وَإِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ) كلام مستأنف مسوق لتأكيد وجوب صبره صلى اللّه عليه وسلم . وإن شرطية ، وكان فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط ، واسم كان هو ضمير الشأن ، وجملة كبر عليك إعراضهم خبر ، وعليك جار ومجرور متعلقان بكبر ، وإعراضهم فاعل (فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ) الفاء رابطة لجواب الشرط ، والجملة في محل جزم جواب الشرط ، وإن شرطية أيضا ، واستطعت فعل ماض في محل جزم فعل الشرط والجواب محذوف ، أي : فافعل . والمعنى : إن استطعت منفذا تحت الأرض تنفذ فيه فتطلع لهم بآية ، أو سلما تصعد به إلى السماء

*(289/234)*

---

فتنزل منها بآية فافعل ، وأن تبتغي مصدر مؤول في محل نصب مفعول استطعت ، والشرط الثاني وجوابه جواب الشرط الأول ، وفي الأرض صفة ل " نفقا " وفي السماء جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة ل " سلما " (فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى) الفاء حرف عطف ، وتأتيهم فعل مضارع معطوف على تبتغي ، والواو استئنافية ، ولو شرطية

، وشاء اللّه فعل وفاعل ، واللام واقعة في جواب لو ، وجملة جمعهم على الهدى لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم (فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ) الفاء الفصيحة ، أي : إذا عرفت هذا فلا تكونن ، ولا ناهية ، وتكونن فعل مضارع ناقص مبني على الفتح في محل جزم ب " لا " ، ومن الجاهلين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر تكونن .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 36 إلى 38]

إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (36) وَقالُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قادِرٌ عَلى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (37) وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (38)

الاعراب :

)

*(290/234)*

---

إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) كلام مستأنف مسوق لتأكيد أن عدم استجابتهم ناشىء عن وجود الأكنة على قلوبهم والوقر في آذانهم ، لأنهم

يحسبون في عداد الأحياء وهم في الحقيقة موتى . وإنما كافة ومكفوفة ، ويستجيب فعل مضارع مرفوع ، والذين فاعله ، وجملة يسمعون صلة الموصول لا محل لها ، والموتى الواو يجوز أن تكون مستأنفة ، والموتى مبتدأ ، وجملة يبعثهم اللّه خبره ، ويجوز أن تكون الواو عاطفة ، والموتى منصوب على الاشتغال بفعل مضمر يفسره الاسم الظاهر بعده وتكون جملة يبعثهم اللّه مفسرة لا محل لها ، ولعل هذا الوجه أولى ، لينسجم التركيب . وثم حرف عطف للترتيب مع التراخي ، واليه جار ومجرور متعلقان بيرجعون ، ويرجعون فعل مضارع عطف على جملة يبعثهم (وَقالُوا : لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ) الواو استئنافية ، وقالوا فعل وفاعل ، والجملة مستأنفة لحكاية نمط آخر من أنماط جناياتهم ، ولولا حرف تحضيض ، ونزل فعل ماض مبني للمجهول ، وعليه جار ومجرور متعلقان بنزل ، وآية نائب فاعل ، ومن ربه جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لآية ، والجملة في محل نصب مقول قولهم . (قُلْ : إِنَّ اللَّهَ قادِرٌ عَلى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً) الجملة مستأنفة مسوقة للدلالة على إفراطهم في اللجاجة ، وتماديهم في الفساد ، مع ترادف الآيات وتتابعها . وإن واسمها وخبرها ، والجملة في محل نصب مقول القول ، وعلى حرف جر ، وإن وما في حيزها في تأويل مصدر مجرور بعلى ، والجار والمجرور متعلقان بقادر ، وآية مفعول به لينزل (وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ) الواو حالية ، ولكن واسمها ، ولا نافية ، وجملة يعلمون خبرها ،

و الجملة نصب على الحال (وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ) كلام مستأنف مسوق لبيان قدرته تعالى وعلمه وتدبيره .

وما نافية ، ومن حرف جر زائد ، ودابة اسم مجرور بمن لفظا مرفوع محلا على أنه مبتدأ ، وفي الأرض جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لدابة ، والواو حرف عطف ، ولا نافية ، وطائر اسم معطوف على دابة ، وجملة يطير بجناحيه صفة لطائر ، وسيأتي مزيد من بحث هذه الآية في باب البلاغة (إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ) إلا أداة حصر ، وأمم خبر دابة ، وأمثالكم صفة لأمم (ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) ما نافية ، وفرطنا فعل وفاعل ، وفي الكتاب جار ومجرور متعلقان بفرطنا ، ومن حرف جر زائد ، وشيء مجرور لفظا منصوب محلا على المصدرية أو المفعولية وجملة ما فرطنا استئنافية ، وسيأتي مزيد من إعراب هذا الكلام في باب الفوائد ، وثم حرف عطف للترتيب مع التراخي ، وإلى ربهم جار ومجرور متعلقان بيحشرون ، ويحشرون فعل مضارع معطوف على ما تقدم .

البلاغة :

في قوله : " يطير بجناحيه " فن الانفصال لزيادة التعميم والشمول ، فإن لقائل أن يقول : جملة قوله تعالى : " يطير بجناحيه " لا فائدة في الإتيان بها ظاهرا ، إذ كل طائر يطير بجناحيه ، وهذا إخبار بمعلوم ، والانفصال عن ذلك أن يقال : إنه سبحانه أراد أن يدمج في هذا الخبر

النهي عن قتل الحيوان الذي لا يؤذي عبثا بدليل قوله :

" إلا أمم أمثالكم " ، ففي مساواته بين ذلك وبين المكلفين إشارة إلى أن الإنسان يدان بما يفعله مع كل جسم قابل للحياة ، وفي دواب

(292/234)

---

الأرض ما لا حرج على قاتله ، كالذباب والبعوض والنمل والعقارب والجعلان وسائر الهمج . فأراد تبيين هذا الصنف من هذا النوع ، وهو أشرف أصنافه الذي امتنّ اللّه سبحانه على نبيّه داود عليه السلام بتسخيره له وعلى ابنه سليمان بتعليم منطقه ، وقال فيه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مصرحا بأن الإنسان يدان به : " من قتل عصفورا عبثا . . . " الحديث ، فخصّص هذا الصنف بصفة مميزة له من بقية الأصناف فقال " يطير بجناحيه " ، لأنه لا يطلق الجناح حقيقة إلا على العضو الذي ليس له ريش وقصب وأباهر وخوافي وقوارم ، ليستدل يكون هذا الصنف من بين جميع أصناف الطائر هو المقصود بالنهي عن قتله وتعذيبه ، على أن المراد بالدابة المذكورة في صدر الآية هي الصنف الشريف من أصناف الدواب ، لتخرج الحشرات من ذلك النوع كما خرجت الهمج من نوع الطائر بتمييز الصنف المشار اليه منه ، واكتفى بتبيين الثاني عن تبيين الأول

لعلمه أن العارف بترتيب نظم الكلام يقيس الأول منه على الثاني . وفي صحيح مسلم : إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : لتؤدنّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء .

الفوائد :

هل تزاد " من " في بقية المفاعيل ؟ الجواب إنها لا تزاد في المفعول معه والمفعول لأجله والمفعول فيه ، ووجه منع زيادتها أنهن في المعنى بمنزلة المجرور بالإضافة وباللام وبفي ، ولا تجامعهن " من " ، ولكن لا يظهر وجه للمنع في المفعول المطلق ، وقد خرّج عليه أبو البقاء قوله تعالى : " ما فرطنا في الكتاب من شيء " ، فقال : من زائدة ،

(293/234)

---

وشيء في موضع المصدر ، أي : تفريطا شيئا ، فحذف الموصوف وأقيمت صفته مقامه ، ثم زيدت " من " ، قال : ولا يكون مفعولا به ، لأنّ " فرط " إنما يتعدى إليه ب " في " ، وقد عدّي بها إلى الكتاب ، قال : وعلى هذا فلا حجة في الآية لمن ظنّ أن الكتاب يحتوي على ذكر كل شيء صريحا . والردّ على هؤلاء الظانّين بأن هذا لا يسلم إلا لو كان " من شيء " مفعولا به لأن المعنى : ما فرطنا أي : ما تركنا شيئا في الكتاب ، وأما لو جعل المفعول به "

في الكتاب " وجعل قوله :

" من شيء " مصدرا ، أي : ما فرطنا في الكتاب فلا دلالة له على ذلك .

وزاد ابن هشام فقال : " وكذا لا حجة فيها لو كان " شيء " مفعولا به ، لأن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ ، كما في قوله تعالى : " ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين " وهو رأي الزمخشري ، والسياق يقتضيه .

[سورة الأنعام (6) : آية 39]

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُماتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (39)

الإعراب :

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُماتِ) الواو استئنافية ، والكلام مستأنف مسوق لبيان مصير المكذبين . والذين مبتدأ ، وجملة كذبوا صلة الموصول لا محل لها ، وبآياتنا جار ومجرور متعلقان بكذبوا ، وصم خبر ، وبكم عطف على صم ، وفي الظلمات جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ثان ، وقد وهم أبو البقاء فظنّ أنهما من باب " الرمان حلو حامض " ، فجعل الكلمتين خبرا ، وليس الأمر

كذلك ، لأن الاختلاف واضح بين التعبيرين ، فكلمتا حلو حامض تعبران عن معنى واحد ، وهو مزّ ، أما صم وبكم فلكل واحدة منهما معناها القائم بها ، فالصمم عدم السمع ، والبكم عدم النطق ، وسيأتي مزيد لهذا البحث الفريد . (مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ) كلام مستأنف مسوق لتقدير ما سبق من حالهم ، ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ ، ويشأ فعل الشرط ، ويضلله جوابه ، وفعل الشرط وجوابه خبر " من " ، ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم عطف على الجملة السابقة ، ومفعول المشيئة في كلا الفعلين محذوف ، وهو مضمون الجزاء ، أي : إضلاله وهدايته .

الفوائد :

يجوز أن يتعدد الخبر ، نحو : " زيد كاتب شاعر " ، وليس من تعدّد الخبر ما ذكره بعضهم من قولهم : " الرّمان حلو حامض " لأن معنى الخبرين راجع إلى شيء واحد ، إذ معناهما مزّ .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 40 إلى 41]

قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (40)
بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ وَتَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ (41)

الإعراب :

(قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ) الكلام مستأنف مسوق لطلب الإخبار عن حالتهم

العجيبة ، وأ رأيتكم تعبير استفاض في كلامهم وكثرت فيهم أقوال العلماء والمعربين ، وسترى تلخيصا مفيدا في باب الفوائد لما قيل فيه ، وهو على وجه الاختصار . الهمزة للاستفهام ، ورأى فعل ماض مبني على السكون ، والتاء فاعل ، والكاف حرف خطاب يدل على اختلاف المخاطب ، والتاء مفتوحة دائما في جميع أحواله ، ومعنى الكلام :

(295/234)

---

أخبروني عن حالتكم العجيبة ، وقد جرى ذلك على سبيل المجاز ، لأنه لما كان العلم بشيء سببا للإخبار عنه أو الإبصار به طريقا للإحاطة به علما والى صحة الإخبار عنه استعملت الصيغة التي هي لطلب العلم أو لطلب الإبصار في طلب الخبر لاشتراكهما في الطلب ، ففيه مجازان :

رأى بمعنى علم أو أبصر في الإخبار ، واستعمال الهمزة التي هي لطلب الرؤية في طلب الإخبار . هذا ولا يلزم من كون " أ رأيت " بمعنى " أخبرني " أن يتعدى تعديته لأن أخبرني يتعدّى ب " عن " ، وأ رأيت يتعدى لمفعول به صريح ، وإلى جملة استفهامية في موضع المفعول الثاني . والمفعول الأول في هذه الآية محذوف ، تقديره :

" أ رأيتم إياه " أي : العذاب ، والثاني هو الجملة الاستفهامية ، وهي :

" أغير اللّه تدعون " ، (إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ) إن شرطية ، وأتاكم فعل ماض في محل جزم فعل الشرط ، والكاف مفعول به ، وعذاب اللّه فاعل ، وأو حرف عطف ، وأتتكم الساعة عطف على أتاكم ، وجواب الشرط محذوف تقديره : " فمن تدعون " ، وقيل : تقديره :

" فأخبروني عنه أتدعون غير اللّه لكشفه " ؟ (أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) الجملة استئنافية والهمزة للاستفهام ، وغير اللّه مفعول به مقدم لتدعون ، وإن شرطية ، وكنتم فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط ، وصادقين خبرها ، وجواب إن محذوف ، أي : إن كنتم صادقين في أن الأصنام تنفعكم فادعوها

*(296/234)*

---

)

بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ وَتَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ) بل حرف إضراب وعطف ، وإياه ضمير منفصل في محل نصب مفعول به مقدم لتدعون ، فيكشف عطف على تدعون ، وما اسم موصول في محل نصب مفعول يكشف ، وجملة تدعون إليه صلة ، الواو حرف عطف وإن شرطية ، وشاء فعل الشرط ، والجواب محذوف لفهم المعنى

ودلالة ما قبله عليه ، والمراد بها ما عبد من دون اللّه مطلقا من العقلاء وغيرهم ، وغلب " غير اللّه " زيادة في التنديد بهم ، وتنسون معطوفة على تدعون ، وما اسم موصول مفعول به ، وجملة تشركون صلة " ما " .

الفوائد :

(أَرَأَيْتَكُمْ) هذه التاء من الأمور الغريبة في لغتنا ، وذلك أنه إذا أريد ب " أرأيت " معنى " أخبرني " جاز أن تتصل به تاء الخطاب ، فإن لم تتصل به وجب للتاء ما يجب لها مع سائر الأفعال ، من تذكير وتأنيث ، وتثنية وجمع ، عما يلحق التاء مما يلزمها في خطاب المفرد المذكّر ، ولو كان الخطاب لاثنين لقيل : أرأيتكما ، أو للجمع لقيل :

أرأيتكم ، أو للإناث لقيل : أرأيتكن ، فتلزم التاء الفتح والتجريد عن الخطاب ، والكاف في هذا حرف خطاب لا موضع لها من الاعراب ، واستدل سيبويه على ذلك بقول العرب : أرأيتك فلانا ما حاله ؟ أما إذا لم يرد ب " أرأيت " معنى أخبرني فإنه يجب للتاء والكاف مجتمعتين ما يجب لهما منفردتين ، فيقال : أرأيتك قادرا أو أرأيتكما قادرين أو أرأيتكم قادرين أو أرأيتكنّ قادرات ، كما تقول :

أعلمتك قادرا .

خلاصة المذاهب في هذا التعبير :

إذا قررنا هذا فنقول : اختلف العلماء في هذه الآية على ثلاثة أقوال :

المذهب الأول :

(297/234)

---

إن المفعول الأول والجملة التي سدّت مسد المفعول الثاني محذوفان لفهم المعنى ، والتقدير : أرأيتكم عبادتكم الأصنام هل تنفعكم ؟ أو اتخاذكم غير اللّه إلها هل يكشف عنكم العذاب ؟ ونحو ذلك ، فعبادتكم واتخاذكم مفعول أول ، والجملة الاستفهامية مسد الثاني ، والتاء هي الفاعل ، والكاف حرف خطاب .

المذهب الثاني :

إن الشرط وجوابه قد سدّا مسدّ المفعولين ، لأنهما قد حصلا المعنى المقصود ، فلم يحتج هذا الفعل إلى مفعول .

المذهب الثالث :

إن المفعول الأول محذوف ، والمسألة من باب التنازع بين أرأيتكم وأتاكم ، والمتنازع فيه هو لفظ العذاب .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 42 إلى 43]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (42) فَلَوْلا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا وَلكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (43)

الإعراب :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ) الجملة القسمية كلام مستأنف مسوق لتسليته صلى اللّه عليه وسلم . والواو استئنافية ، واللام جواب قسم محذوف ، وأرسلنا فعل وفاعل ، وإلى أمم جار ومجرور متعلقان بأرسلنا ، ومن قبلك جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لأمم ، وجملة قد أرسلنا لا محل لها لأنها جواب للقسم المحذوف (فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ) الفاء حرف عطف ، وأخذناهم فعل وفاعل ومفعول به ، والجملة معطوفة على محذوف تقديره :

*(298/234)*

---

فكذبوا فأخذناهم ، وبالبأساء جار ومجرور متعلقان بأخذناهم ، والضراء عطف على قوله : بالبأساء ، ولعل واسمها ، وجملة يتضرعون خبرها ، وجملة الرجاء حالية (فَلَوْلا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا) الفاء استئنافية ، والكلام مستأنف مسوق لتوبيخهم وحثهم على الندامة والتخويف من العاقبة واللياذ بالتضرّع إليه تعالى . ولولا وإذ ظرف لما مضى من

الزمن متعلق بتضرعوا ، وجملة جاءهم في محل جر بالإضافة ، وبأسنا فاعل تضرعوا

(وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ) الواو حالية ، ولكن مخففة من الثقيلة مهملة ، فهي لمجرد الاستدراك ، وقست قلوبهم فعل ماض وفاعل ، والجملة حالية ، أي : والحال أنها استمرت على ما هي عليه من القساوة وجفاء الطبع .

وزين فعل ماض ، ولهم جار ومجرور متعلقان بزين ، والشيطان فاعل ، والجملة معطوفة ، وما اسم موصول مفعول به ، وجملة كانوا صلة ، والواو اسم كان ، وجملة يعملون خبرها .

الفوائد :

(لولا) تكون على ثلاثة أوجه :

1- حرف امتناع لوجود ، يمتنع الشرط لوجود الجواب ، والاسم بعدها مبتدأ محذوف الخبر وجوبا ، ويجب كون الخبر كونا مطلقا . أما إذا كان مقيدا كالقيام والقعود فيجب ذكره ، ولذلك لحنوا أبا العلاء المعري بقوله يصف السيف :

يذيب الرّعب منه كلّ عضب فلولا الغمد يمسكه لسالا

وأجيب عنه بأن جملة يمسكه ليست خبرا وإنما هي بدل اشتمال من الغمد أو حالية ، وإذا وليها مضمر فحقه أن يكون ضمير رفع ، نحو قوله : " لولا أنتم لكنّا مؤمنين " . وسمع قليلا : لولاي ولولاك ولولاه فهي عندئذ حرف جر ولا تتعلق بشيء .

2- حرف تحضيض وعرض ، فتختص بالمضارع أو ما في تأويله ، نحو : " لولا تستغفرون الله " و " لولا أخرتني إلى أجل قريب " .

(299/234)

---

3- حرف توبيخ وتنديم ، فتختص بالماضي كهذه الآية ، وكثيرا ما ترافقها إذ الظرفية أو إذا ، كقوله تعالى : " فلولا إذا بلغت الحلقوم " .

وسيأتي مزيد بحث عنها في مواطنه .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 44 إلى 45]

فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ (44) فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (45)

اللغة :

(مُبْلِسُونَ) : واجمون متحيرون آيسون .

(دابِرُ) : الدابر : التابع من خلف ، أي آخرهم .

الاعراب :

(فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ) الفاء استئنافية ، ولما ظرفية ،

ونسوا فعل وفاعل ، وجملة نسوا في محل جر بالإضافة ، وما اسم موصول في محل نصب مفعول به ، وجملة ذكروا صلة الموصول ، وبه جار ومجرور متعلقان بذكروا ، وفتحنا فعل وفاعل . والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ، وعليهم جار ومجرور متعلقان بفتحنا ، وأبواب مفعول به ، وكل شيء مضاف إليه (حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ) حتى ابتدائية أو غائية ، وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط متعلق بأخذناهم ، وجملة فرحوا في محل جر بالإضافة ، وبما جار ومجرور متعلقان بفرحوا ، وجملة أوتوا صلة الموصول ، وأوتوا فعل ماض مبني

للمجهول والواو نائب فاعل ، وجملة أخذناهم من الفعل والفاعل والمفعول لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ، وبغتة حال أو مفعول مطلق ، فإذا الفاء عاطفة ، وإذا هي الفجائية وهي حرف على ما اخترناه ، وهم مبتدأ ، ومبلسون خبر ، والجملة استئنافية .

)

(300/234)

---

فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ) الفاء عاطفة ، وقطع فعل ماض مبني للمجهول ، ودابر نائب فاعل ، والقوم مضاف إليه ، والذين اسم موصول في محل جر نعت

للقوم ، وجملة ظلموا لا محل لها لأنها صلة الموصول ، والحمد الواو استئنافية ، والحمد مبتدأ ، ولله جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ، ورب نعت أو بدل ، والعالمين مضاف اليه .

الفوائد :

(إذا الفجائية) فيها ثلاثة مذاهب :

1- مذهب سيبويه : وهو أنها ظرف مكان أو زمان .

2- مذهب جماعة آخرين من البصريين : وهو أنها ظرف زمان .

وفي الحالين تتعلق بالخبر وهو قوله : مبلسون ، أي أبلسوا في زمان إقامتهم أو مكانها .

3- مذهب الكوفيين : وهو أنها حرف فلا تتعلق بشيء .

وهذا ما اخترناه . وسترد تفاصيل عنها في مواطنها .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 46 إلى 47]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصارَكُمْ وَخَتَمَ عَلى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (46) قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (47)

اللغة :

(يَصْدِفُونَ) في المختار : " صدف عنه : أعرض ، وبابه ضرب وجلس . وأصدفه عنه

كذا : أماله عنه " ، وصادفه قابله على قصد وبدونه ، فما تقوله العامة : صدفة خطأ ولحن . وزعم صاحب المنجد أن الصدفة بكسر الصاد : لفظة مولّدة بمعنى المصادفة والاتفاق .

الاعراب :

(قُلْ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصارَكُمْ وَخَتَمَ عَلى قُلُوبِكُمْ) كلام مستأنف مسوق لأخذ الحجة عليهم ، وقطع الطريق على مكابرتهم .

*(301/234)*

---

و قل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت يا محمد ، والهمزة للاستفهام التقريري ، ومفعول رأيتم الأول محذوف تقديره : أرأيتم سمعكم وأبصاركم إن أخذها اللّه ؟ والجملة الاستفهامية الآتية وهي : " من إله " في موضع المفعول الثاني ، وإن شرطية ، وأخذ فعل ماض في محل جزم فعل الشرط ، والجواب محذوف ، وقد تقدم إعراب نظيره في : " أرأيتكم " ، ولم يؤت هنا بكاف الخطاب كما أتى به هناك لهول التهديد في الأول ، ووحد السمع وجمع الأبصار لسرّ تقدم ذكره في

سورة البقرة ، وقيل : جائز أن تكون الهاء عائدة على السمع فتكون موحدة لتوحيده ،

وجائز أن تكون موحدة لتوحيد " من " ، أي :

من إله غير اللّه يأتيكم بما أخذ منكم من السمع والأبصار والأفئدة ؟

وسمعكم مفعول به وأبصاركم عطف ، وجملة ختم معطوفة وعلى قلوبكم متعلقان بختم .

(مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ) من اسم استفهام للتوبيخ ، وهو مبتدأ ، وإله خبره ، وغير اللّه صفة ، وجملة يأتيكم صفة ثانية ، وبه جار ومجرور متعلقان بيأتيكم (انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ) الجملة مستأنفة ، وانظر فعل أمر ، وكيف اسم استفهام في محل نصب حال ، وقد علقت انظر عن العمل ، وجملة نصرف الآيات في محل نصب مفعول به ، والآيات مفعول به ، وثم حرف عطف للترتيب مع التراخي ، وهم مبتدأ ، وجملة يصدفون خبر (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً) تقدم الكلام في أرأيتكم قريبا ، وإعراب بغتة أو جهرة (هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ) إلا أداة حصر ، والقوم نائب فاعل ، والظالمون صفة .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 48 إلى 49]

*(302/234)*

وَما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (48) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنا يَمَسُّهُمُ الْعَذابُ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (49)

الإعراب :

(وَما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ) الواو استئنافية ، والكلام مستأنف مسوق لتبيان مهام الرسالة ، ودقة التكليف الذي يتمرس به المرسلون . ونرسل المرسلين فعل وفاعل مستتر ومفعول به ،

وإلا أداة حصر ، ومبشرين حال ، ومنذرين عطف على مبشرين (فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) الفاء استئنافية ، ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ ، وآمن فعل ماض وهو فعل الشرط ، وأصلح عطف عليه والفاء رابطة لجواب الشرط ، ولا نافية مهملة وخوف مبتدأ ، وعليهم خبر ، ولا هم يحزنون الجملة عطف على الجملة الأولى ، وجملة " لا خوف عليهم " في محل جزم جواب الشرط ، وفعل الشرط وجوابه خبر " من " ، ويجوز أن تكون " من " موصولة لمناسبة ما بعدها ، فتكون في محل رفع مبتدأ ، وتكون جملة : " لا خوف عليهم " هي الخبر للموصول ، وجيء بالفاء لما في الموصول من رائحة الشرط (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنا يَمَسُّهُمُ الْعَذابُ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ) الواو عاطفة أو استئنافية ، والذين مبتدأ ، وجملة كذبوا صلة ، وبآياتنا جار ومجرور متعلقان بكذبوا ، وجملة يمسهم العذاب خبر اسم الموصول ، وبما الباء حرف جر ، وما مصدرية ، والمصدر المؤول مجرور

بالباء ، والجار والمجرور متعلقان بيمسهم ، أي : بسبب فسقهم ، وكان واسمها ، وجملة يفسقون خبرها .

البلاغة :

في قوله : " يمسهم العذاب " استعارة تصريحية تبعية كأن العذاب كائن حيّ يفعل بهم ما يريده من الآلام . وقد تقدم أمثالها كثيرا .

*(303/234)*

---

]

سورة الأنعام (6) : آية 50]

قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ (50)

الإعراب :

(قُلْ : لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ)

الكلام مستأنف مسوق لتنزيه نفسه مما يقترحونه عليه . وقل فعل أمر ، ولا نافية ، وأقول فعل مضارع ، ولكم جار ومجرور متعلقان بأقول ، وجملة لا أقول مقول القول الأول ، ولكم

متعلقان بأقول وعندي ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر مقدم ، وخزائن اللّه مبتدأ مؤخر ، والجملة في محل نصب مقول القول الثاني (وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ) جملة ولا أعلم الغيب معطوفة على جملة عندي خزائن اللّه لأنه من جملة مقول القول وجملة لا أقول لكم إني ملك معطوفة على جملة لا أقول لكم الأولى ، وإني ملك : إن واسمها وخبرها مقول القول أيضا . (إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ) الجملة داخلة في حيز المقول الذي لم ينته بعد ، وإن نافية ، وإلا أداة حصر ، و" ما " اسم موصول في محل نصب مفعول به ، وجملة يوحى صلة الموصول ، ونائب الفاعل مستتر ، وإليّ جار ومجرور متعلقان بيوحى (قُلْ : هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ) كلام مستأنف لتتمة الوصايا ، وهل حرف استفهام معناه النفي ، أي : لا يستويان ، ويستوي فعل مضارع ، والأعمى فاعله ، والبصير عطف على الأعمى ، والجملة في محل نصب مقول القول ، أفلا الهمزة للاستفهام الإنكاري ، والفاء عاطفة ، ولا نافية ، وتتفكرون عطف على مقدر محذوف تقديره أي لا يستمعون هذا الكلام الذي يتلى عليكم فلا تتفكرون فيه وتتبينون مغاّبه ؟

البلاغة :

الطباق بين الأعمى والبصير، وهما تشبيهان بليغان للضّالّ والمهتدي. ويجوز أن يعتبرا من باب الاستعارة التصريحية، لأن المشبّه لم يذكر وذكر المشبه به.

[سورة الأنعام (6) : الآيات 51 إلى 52]

وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (51) وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (52)

الإعراب:

(وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلى رَبِّهِمْ) الواو عاطفة، والكلام معطوف على ما تقدم معدولا به إلى توجيه الانذار للذين يتفرس فيهم قبول الاتعاظ والاستعداد لتقبّله، وهم المؤمنون العاصون.

وأنذر فعل أمر، وبه جار ومجرور متعلقان بأنذر، والذين اسم موصول مفعول به، وجملة يخافون صلة الموصول، وأن وما بعدها في تأويل مصدر مفعول يخافون (لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ

لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

الجملة حال من الضمير في أن يحشروا ، أي : أنذر به هؤلاء الذين يخافون الحشر حال كونهم لا ولي لهم يواليهم ولا نصير ولا شفيع يشفع لهم من دون اللّه ، وليس فعل ماض ناقص ، ولهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ليس ، ومن دونه جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، وولي اسم ليس ، ولا شفيع عطف على ولي ، ولعل واسمها ، وجملة يتقون خبرها ، وجملة الرجاء حالية (وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ) الواو حرف عطف ، ولا ناهية ، وتطرد فعل مضارع مجزوم بلا الناهية والفاعل مستتر تقديره أنت ، والذين اسم موصول مفعول به وجملة يدعون صلة وربهم مفعول به وبالغداة جار ومجرور متعلقان بيدعون ، والعشي عطف على الغداة (يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) الجملة حال من ضمير يدعون ، أي : يدعونه مخلصين ، ووجهه مفعول به (ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ) ما يجوز أن تكون الحجازية العاملة عمل ليس فيكون " عليك " في محل نصب على أنه خبرها ، عند من يجوز إعمالها في الخبر المقدّم ، إذا كان ظرفا أو جارا ومجرورا ، أما في حال المنع فيكون الجار والمجرور متعلقين بمحذوف خبر مقدم ، والمبتدأ المؤخر هو " شيء " زيدت فيه " من " . وقوله من حسابهم حال ، وصاحب الحال هو " شيء " لأن الجار والمجرور لو تأخرا عنه لتعلقا بمحذوف صفة له ، وصفة النكرة متى تقدمت انتصبت على الحال ، وجملة ما عليك إلخ حال أيضا (وَما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ)

الواو عاطفة ، وما من حسابك عليهم من شيء تقدم إعرابها ، إلا أن من حسابك يشكل جعلها حالًا لأنه يلزم تقدم الحال على عامله المعنوي ، وهو ضعيف ، ولو جاءت الجملة الثانية على نمط الأولى لكان التركيب :

وما عليهم من حسابك من شيء ، فتقدم المجرور بعلى كما قدمته في الأولى ، لكنه قدمه تشريفا له صلى اللّه عليه وسلم ليكون الخطاب

*(306/234)*

---

مواجها له ، وإذن أنت مضطر أن تجعله صفة مقدمة على موصوفها .

فتطردهم الفاء هي السببية وهي جواب النفي ، وتطردهم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة ، فتكون الفاء أيضا سببية ، وهي جواب النهي ، فتأمل دقّة الفرق بين معنى الفاءين . ويجوز أن تجعل الفاء الثانية عاطفة ، وتكون معطوفة على تطردهم على وجه التسبيب ، لأن كونه ظالما مسبب عن طردهم ، ومن الظالمين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر تكون .

البلاغة :

1- في قوله : " يريدون وجهه " أي : ذاته وحقيقته : مجاز مرسل ، والعلاقة ذكر البعض

وإرادة الكل ، وهو مجاز سائغ في كلامهم .

2- في قوله : " وما من حسابك عليهم من شيء " فنّ ردّ العجز على الصدر ، وهو أن يجعل المتكلم أحد اللفظين المتفقين في النطق والمعنى ، أو المتشابهين في النطق دون المعنى أو اللذين يجمعهما الاشتقاق أو شبه الاشتقاق ، في آخر الكلام بعد جعل اللفظ الآخر له في أوله .

ومنه قول البحتري :

ضرائب أبدعتها في السّماح فلسنا نرى لك فيها ضريبا

وقول أبي تمام :

ولم يحفظ مضاع المجد شيء من الأشياء كالمال المضاع

وقول المعرّي :

لو اختصرتم من الإحسان زرتكم والعذب يهجر للإفراط في الخصر

وبيت الحماسة المشهور :

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشيّة من عرار

الفوائد :

روي أن رؤساء المشركين قالوا لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم :

لو طردت عنا هؤلاء الأعبد ، يعنون فقراء المسلمين ، وهم عمار بن ياسر وصهيب وبلال وأرواح جبابهم- وكانت عليهم جباب من صوف لمداومة لبسها ولعدم وجود غيرها - جلسنا إليك وحادثناك ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : ما أنا بطارد المؤمنين . فقالوا : فأقمهم عنّا إذا جئنا ، فإذا قمنا فأقعدهم معك إن شئت . فقال : نعم ، طمعا في إسلامهم . فقالوا فاكتب لنا كتابا عليك بذلك ، فأتى بالصحيفة ودعا عليّا ليكتب ، فنزل عليه جبريل بقوله : " ولا تطرد . . " الآية . وهذا من أروع مثل المساواة الاسلامية .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 53 إلى 54]

وَكَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (53) وَإِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (54)

اللغة :

(فَتَنَّا) : اختبرنا وابتلينا .

(مَنَّ) : أنعم ، وله عليّ منّة ومنن ، ومنّ عليّ بما صنع ، وامتننت منك بما فعلت منّة جسيمة أي : احتملت منّة ، وليس لقلبه منّة أي : قوّة . ومادة الميم والنون تفيد الإعطاء والمنع على الأغلب ، ومنه : منح وفلان منّاح ، وفلان يعطي المنائح والمنح ، ومنح الشيء

ومنه وعنه ، وهو منوع ومنّاع . وهذا من غرائب لغتنا التي لا تقف عند حدّ .

الاعراب :

)

(308/234)

---

وَكَذِلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ) الكلام مستأنف مسوق لبيان أن الإسلام جعل المساواة شرعة ومنهاجا ، لأن اللّه ابتلى الغني بالفقير والفقير بالغنيّ ، وكل مبتلى بضده حتى تعم المساواة ، فلا رفيع ولا وضيع ، ولا كبير ولا صغير ، والكاف في محل نصب على أنها نعت لمصدر محذوف ، أو هي حرف جر ، واسم الاشارة في محل جر ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لموصوف محذوف ، وقد تقدم بحثه ، وسيبويه يختار إعرابه حالا ، وبعضهم مفعول به ، وببعض جار ومجرور متعلقان بفتنّا (لِيَقُولُوا : أَهؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشّاكِرِينَ) اللام للتعليل ، ويقولوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والتقدير : ومثل ذلك الفتون فتنا ليقولوا هذه المقالة ابتلاء منا وامتحانا ، ويجوز أن تكون اللام هي

(309/234)

لام الصيرورة أو العاقبة ، ويكون قوله : " أ هؤلاء " صادرا عنهم على سبيل الاستخفاف بالمؤمنين ، والجملة الاستفهامية في محل نصب مقول القول ، والهمزة للاستفهام التقريري والتهكمي ، وهؤلاء اسم إشارة في محل رفع مبتدأ ، وجملة " منّ " اللّه خبر ، وعليهم جار ومجرور متعلقان ب " منّ " ، ومن بيننا جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، ويجوز أن نعرب " هؤلاء " نصبا على الاشتغال بفعل محذوف يفسره الفعل الظاهر العامل في ضميره بواسطة " على " ، ويكون المفسر من حيث المعنى لا من حيث اللفظ ، والتقدير : أفضل اللّه هؤلاء ومنّ عليهم أو اختارهم ، وتكون جملة منّ اللّه عليهم لا محل لها من الاعراب لأنها مفسرة ، وإنما ساغ هذا الوجه وفضله الكثيرون لأنه ولي همزة الاستفهام ، وهي أداة يغلب إيلاء الفعل بعدها . وقوله : أليس الهمزة للاستفهام التقريري ، وليس فعل ماض ناقص ، واللّه اسمها ، والباء حرف جر زائد ، وأعلم مجرور لفظا بالباء منصوب محلا على أنه خبر ليس ، وبالشاكرين جار ومجرور متعلقان بأعلم ، والجملة الاستفهامية مستأنفة مسوقة لتكون جوابا للاستفهام التقريري (وَإِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ) الواو استئنافية ، والكلام مستأنف مسوق للعودة إلى ذكر المؤمنين الذين نهي عن طردهم وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط متعلق بالجواب ، أي : فقل سلام عليكم وقت مجيئهم ، وجملة جاءك في محل جر بالإضافة ، والذين فاعل ، وجملة يؤمنون صلة ، فقل الفاء واقعة

في جواب الشرط ، وسلام مبتدأ ساغ الابتداء به مع أنه نكرة لما فيه من معنى الدعاء ، وعليكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ، وجملة قل لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ، وجملة سلام عليكم في محل نصب مقول القول (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) الجملة داخلة في حيز المقول لأنه من جملة ما يقوله

*(310/234)*

---

لهم ، وكتب ربكم فعل وفاعل ، وعلى نفسه جار ومجرور متعلقان بكتب ، والرحمة مفعول به (أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) قرئ بفتح الهمزة ، فتكون أن واسمها في موضع نصب بدل من الرحمة ، وتكون الجملة منتظمة في حيز القول .

وفي قراءة بكسر الهمزة ، فالجملة استئنافية مسوقة لتفسير الرحمة ، وتكون الهاء ضمير الشأن اسم إن . ومن اسم شرط جازم أو موصولية ، وهي مبتدأ على كل حال ، وعمل فعل ماض في محل جزم فعل الشرط ، وسوءا مفعول به ، ومنكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من فاعل عمل ، وبجهالة جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال أيضا من الفاعل نفسه ، أي : عمل وهو جاهل بحقيقة ما ينجم عنه من المضارّ والمثالب ، وسوء

العواقب ، ثم حرف عطف ، وتاب عطف على تاب ، وأصلح عطف عليه أيضا ، والفاء رابطة لجواب الشرط ، وأن المفتوحة الهمزة وما في حيزها خبر لمبتدأ محذوف ، أي : فأمره ومآله غفران اللّه له ، وغفور رحيم خبران لأن ، وقرئ بكسر همزة إن على الاستئناف ، ورجحها ابن جرير على أنه استئناف لوقوعها بعد الفاء ، وجملة من عمل خبر إن ، وفعل الشرط وجوابه خبر " من " .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 55 إلى 56]

وَكَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيٰاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (55) قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لا أَتَّبِعُ أَهْوٰاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَما أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (56)

الاعراب :

*(311/234)*

---

(وَكَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيٰاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ) كلام مستأنف مسوق لبيان الغاية من تفصيل الآيات . وكذلك في محل نصب مفعول مطلق ، والآيات مفعول به ، والواو عاطفة على محذوف ، والتقدير : ليظهر الحق ولتظهر سبيل المجرمين ، واللام للتعليل ، وتستبين فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل ، وسبيل فاعل ، والسبيل مؤنثة وقد تذكر ،

وقد قرئ : " ليستبين " ، فتأنيث الفعل لتأنيث السبيل وتذكيره لتذكيره (قُلْ : إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) كلام مستأنف مسوق للرجوع إلى مخاطبتهم حسما لأطماعهم الفارغة . وقل فعل أمر ، وإن واسمها ، وجملة نهيت خبرها ، والجملة في محل نصب مقول القول ، وأن وما بعدها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض ، والجار والمجرور متعلقان بنهيت ، والمعنى : ونهيت عن عبادة الذين تدعون . والذين اسم موصول في محل نصب مفعول به ، وجملة تدعون صلة الموصول ، ومن دون اللّه جار ومجرور متعلقان بتدعون (قُلْ لا أَتَّبِعُ أَهْواءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَما أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) الكلام مستأنف مسوق ليرجع صلى اللّه عليه وسلم إلى مخاطبتهم وكرره مع قرب ذكره زيادة في التأكيد . وجملة لا أتبع أهواءكم في محل نصب مقول القول ، وجملة قد ضللت مستأنفة مسوقة منه صلى اللّه عليه وسلم لتأكيد انتهائه عما نهي عنه . وإذن حرف جواب وجزاء ، فيه معنى الشرط ، والمعنى : إن اتبعت أهواءكم ضللت وما اهتديت . فهي في قوة شرط وجواب ، والواو حرف عطف ، وما نافية حجازية تعمل عمل ليس ، وأنا اسمها ، ومن المهتدين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبرها ، وإنما عدل عن الفعلية إلى الاسمية للدلالة على الديمومة والاستمرار .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 57 إلى 58]

قُلْ إِنِّي عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ما عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفاصِلِينَ (57) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (58)

الإعراب :

(قُلْ : إِنِّي عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي) كلام مستأنف لبيان الحق الذي يتبعه النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وإزهاق الباطل الذي يتبعونه . قل فعل أمر وجملة إني على بينة مقول القول ، وإن واسمها ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبرها ، ومن ربي جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لبينة (وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ما عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ) الواو استئنافية ، والكلام مستأنف مسوق لاستقباح تكذيبهم ، ويجوز أن تكون حالية ، فالجملة في محل نصب على الحال ، ولا بدّ من تقدير " قد " عندئذ . وكذبتم فعل وفاعل ، وبه متعلقان بتستعجلون ، وما نافية ، وعندي ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر مقدم ، وما اسم موصول في محلّ رفع مبتدأ مؤخر ، وجملة تستعجلون صلة الموصول ، وبه جار ومجرور متعلقان بتستعجلون ، وجملة ما عندي مستأنفة (إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفاصِلِينَ) كلام مستأنف مسوق لبيان أن الحكم هو للّه سبحانه . وإن نافية ، والحكم مبتدأ ، وإلا أداة حصر ، وللّه جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر الحكم ، وجملة يقصّ الحق في محل نصب

على الحال ، والحق مفعول به ، وفي

قراءة : " يقضي الحق " بالضاد ، من القضاء بمعنى الحكم والفصل بالقضاء ، ورجّحها ابن جرير قال : " لأن الفصل بين المختلفين إنما يكون بالقضاء لا بالقصيص ، والحق عندئذ صفة لمصدر محذوف أي :

*(313/234)*

---

ليقضي القضاء الحق ، والواو استئنافية أو حالية ، وهو مبتدأ ، وخير الفاصلين خبر (قُلْ : لَوْ أَنَّ عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) الجملة مستأنفة لبيان أن الأمر راجع إلى اللّه تعالى ، ولو شرطية . وأن وما في حيزها في محل رفع فاعل لفعل محذوف ، تقديره ثبت ، والجملة في محل نصب مقول القول ، والظرف متعلق بمحذوف خبر أن المقدم ، وما اسم موصول في محل نصب اسم أن المؤخر ، وجملة تستعجلون صلة الموصول ، وبه جار ومجرور متعلقان بتستعجلون ، واللام واقعة في جواب لو ، وقضي فعل ماض مبني للمجهول . والأمر نائب فاعل ، والجملة لا محل لها لأنها جواب لشرط غير جازم ، وبيني ظرف مكان متعلق بقضي ، وبينكم ظرف أيضا معطوف على الظرف السابق (وَاللَّهُ أَعْلَمُ

بِالظَّالِمِينَ) كلام مستأنف ، واللّه مبتدأ ، وأعلم خبر ، وبالظالمين جار ومجرور متعلقان بأعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 3 صـ 60.129 ﴾

(314/234)

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والثلاثون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/235)

---

الجزء الخامس والثلاثون بعد المائتين

من الآية ﴿ 59 ﴾ من سورة الأنعام

وحتى الآية ﴿ 64 ﴾ من نفس السورة

(4/235)

---

قوله تعالى ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (59) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانت هذه الآيات مثبتة لجزئيات من علمه تعالى وقدرته ، وكان ختامها العلم بالظالم وغيره ، أتبعها الاختصاص بما هو أعم من ذلك ، وهو علم مفاتح الغيب الذي لا يصل إليه

إلا من حازها ، إذ لا يطلع على الخزائن إلا من فتحها ، ولا يفتحها إلا من حاز مفاتيحها وعلم كيف يفتح بها ، فإثبات ذلك في هذا الأسلوب من باب الترقية في مراقي الاعتقاد من درجة كاملة إلى أكمل منها ، فقال عاطفاً على معنى ما سبق ، وهو : فعنده خاصة جميع ذلك : ﴿ وعنده ﴾ أي وحده ﴿ مفاتح الغيب ﴾ أي التي لا يدرك الغيب إلا من علمها . ولما كان معنى ذلك الاختصاص ، صرح به في قوله : ﴿ لا يعلمها إلا هو ﴾ وتخصيصها بالنفي دون الخزائن دال على ما فهمته من أن التقييد فيها ب " لكم " يفهم أنه يجوز أن نقول ذلك للمؤمنين .

(5/235)

---

ولما ذكر علم الغيب ، أتبعه علم الشهادة ، لأن القضايا العقلية المحضة يصعب تحصيل العلم بها على سبيل التمام إلا للكُمَّل من الأنام الذين تجردوا فتعودوا استحضار المعقولات المجردة ، والقرآن إنما أنزل لنفع جميع الخلق : الذكي منهم والغبي ، فكان ذكر المحسوسات الداخلة تحت القضية العقلية الكلية معيناً على تصور ذلك المعقول ورسوخه في القلب ، فقال مؤكداً لهذا المعقول الكلي المجرد بمثال داخل تحته يجري مجرى المحسوس ، وعطفُه بالواو عطفَ الخاص على العام إشارة إلى تعظيمه فقال : ﴿ ويعلم ما في البر ﴾ وقدمه لأن

الإنسان أكثر ملابسة له بما فيه من القرى والمدن والمفاوز والجبال والتلال وكثرة ما بها من الحيوان والنبات النجم وذي الساق والمعادن ﴿ والبحر ﴾ وأخره لأن إحاطة العقل بأحواله أقل وإن كان الحس يدل على أن عجائبها أكثر ، وطولها وعرضها أعظم ، وما فيها من الحيوانات وأجناس المخلوقات أعجب ، فكان هذا الأمر المحسوس مقوياً لعظمة ذلك الأمر المعقول .

ولما ذكر ما يعم الثابت والمنتقل : خص المنتقل تنصيصاً على الجزئيات وتعظيماً للعلم بتعظيم المعلومات فقال : ﴿ وما تسقط ﴾ وأغرق في النفي بقوله : ﴿ من ورقة ﴾ ونكرها إتماماً للتعميم ﴿ إلا يعلمها ﴾ ولما كان هذا مع عظمه ظاهراً ، ذكر ما هو أدق منه فقال : ﴿ ولا ﴾ أي وما من ﴿ حبة ﴾ ودل على أن الأرض ليس لها من نفسها نور تنبيهاً على ما أودع هذا الآدمي المكوّن منها من الغرائب بقوله : ﴿ في ظلمات الأرض ﴾ أي ولو كان في أقصى بطنها ، فكيف بما هو في النور وهو أكبر من الحبة .

*(6/235)*

---

ولما خص ، رجع إلى التعميم رداً للآخر على الأول فقال : ﴿ ولا رطب ولا يابس ﴾ أي وجد أو لم يوجد أو سيوجد ﴿ إلا في كتاب مبين ﴾ أي موضح لأحواله وأعيانه وكل أموره

وأحيانه ، فثبت أنه فاعل لجميع العالم بجواهره وأعراضه على سبيل الإحكام والإتقان ، لأنه وحده عالم بجميع المعلومات ، ومن اختص بعلم جميع المعلومات كان مختصاً بصنع جميع المصنوعات قادراً على جميع المقدورات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 647.646 ﴾

فصل

قال الفخر :

المفاتح جمع مفتح .

ومفتح ، والمفتح بالكسر المفتاح الذي يفتح به والمفتح بفتح الميم الخزانة وكل خزانة كانت لصنف من الأشياء فهو مفتح ، قال الفراء في قوله تعالى : ﴿ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بالعصبة ﴾ [ القصص : 76 ] يعني خزائنه فلفظ المفاتح يمكن أن يكون المراد منه المفاتيح ويمكن أن يراد منه الخزائن ، أما على التقدير الأول .

فقد جعل للغيب مفاتيح على طريق الاستعارة لأن المفاتيح يتوصل بها إلى ما في الخزائن المستوثق منها بالأغلاق والأقفال فالعالم بتلك المفاتيح وكيفية استعمالها في فتح تلك الأغلاق والأقفال يمكنه أن يتوصل بتلك المفاتيح إلى ما في تلك الخزائن فكذلك ههنا الحق سبحانه لما كان عالماً بجميع المعلومات عبر عن هذا المعنى بالعبارة المذكورة وقرىء ﴿ مفاتيح ﴾ وأما على التقدير الثاني فالمعنى وعنده خزائن الغيب .

فعلى التقدير الأول يكون المراد العلم بالغيب ، وعلى التقدير الثاني المراد منه القدرة على كل الممكنات في قوله : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [ الحجر : 21 ] وللحكماء في تفسير هذه الآية كلام عجيب مفرع على أصولهم فإنهم قالوا : ثبت أن العلم بالعلة علة للعلم بالمعلول وأن العلم بالمعلول لا يكون علة للعلم بالعلة .

*(7/235)*

---

قالوا : وإذا ثبت هذا فنقول : الموجود إما أن يكون واجباً لذاته ، وإما أن يكون ممكناً لذاته ، والواجب لذاته ليس إلا الله سبحانه وتعالى .

وكل ما سواه فهو ممكن لذاته ، والممكن لذاته لا يوجد إلا بتأثير الواجب لذاته وكل ما سوى الحق سبحانه فهو موجود بإيجاده كائن بتكوينه واقع بإيقاعه .

إما بغير واسطة وإما بواسطة واحدة وإما بوسائط كثيرة على الترتيب النازل من عنده طولاً وعرضاً .

إذا ثبت هذا فنقول : علمه بذاته يوجب عمله بالأثر الأول الصادر منه ، ثم علمه بذلك الأثر الأول يوجب عمله بالأثر الثاني لأن الأثر الأول علة قريبة للأثر الثاني .

وقد ذكرنا أن العلم بالعلة يوجب العلم بالمعلول فبهذا علم الغيب ليس إلا علم الحق بذاته

المخصوصة ثم يحصل له من علمه بذاته علمه بالآثار الصادرة عنه على ترتيبها المعتبر ، ولما كان علمه بذاته لم يحصل إلا لذاته لا جرم صح أن يقال : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ فهذا هو طريقة هؤلاء الفرقة الذين فسروا هذه الآية بناء على هذه الطريقة .

ثم اعلم أن ههنا دقيقة أخرى ، وهي : أن القضايا العقلية المحضة يصعب تحصيل العلم بها على سبيل التمام والكمال إلا للعقلاء الكاملين الذين تعودوا الإعراض عن قضايا الحس والخيال وألفوا استحضار المعقولات المجردة ، ومثل هذا الإنسان يكون كالنادر وقوله : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ قضية عقلية محضة مجردة فالإنسان الذي يقوى عقله على الإحاطة بمعنى هذه القضية نادر جداً .

والقرآن إنما أنزل لينتفع به جميع الخلق .

*(8/235)*

---

فههنا طريق آخر وهو أن من ذكر القضية العقلية المحضة المجردة ، فإذا أراد إيصالها إلى عقل كل أحد ذكر لها مثالاً من الأمور المحسوسة الداخلة تحت القضية العقلية الكلية ليصير ذلك المعقول بمعاونة هذا المثال المحسوس مفهوماً لكل أحد ، والأمر في هذه الآية ورد على هذا القانون ، لأنه قال أولاً : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ ثم أكد هذا المعقول

الكلي المجرد بجزئي محسوس فقال : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي البر والبحر ﴾ وذلك لأن أحد أقسام معلومات الله هو جميع دواب البر ، والبحر ، والحس ، والخيال قد وقف على عظمة أحوال البر والبحر ، فذكر هذا المحسوس يكشف عن حقيقة عظمة ذلك المعقول .

وفيه دقيقة أخرى وهي : إنه تعالى قدم ذكر البر ، لأن الإنسان قد شاهد أحوال البر ، وكثرة ما فيه من المدن والقرى والمفاوز والجبال والتلال ، وكثرة ما فيها من الحيوان والنبات والمعادن .

وأما البحر فإحاطة العقل بأحواله أقل إلا أن الحس يدل على أن عجائب البحار في الجملة أكثر وطولها وعرضها أعظم وما فيها من الحيوانات وأجناس المخلوقات أعجب .

فإذا استحضر الخيال صورة البحر والبر على هذه الوجوه .

(9/235)

---

ثم عرف أن مجموعها قسم حقير من الأقسام الداخلة تحت قوله : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ فيصير هذا المثال المحسوس مقوياً ومكملاً للعظمة الحاصلة تحت قوله : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ ثم إنه تعالى كما كشف عن عظمة قوله ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب ﴾ بذكر البر والبحر كشف عن عظمة البر والبحر بقوله : ﴿ وَمَا

تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا ﴾ وذلك لأن العقل يستحضر جميع ما في وجه الأرض من المدن والقرى والمفاوز والجبال والتلال ، ثم يستحضر كم فيها من النجم والشجر ثم يستحضر أنه لا يتغير حال ورقة إلا والحق سبحانه يعلمها ثم يتجاوز من هذا المثال إلى مثال آخر أشد هيئة منه وهو قوله : ﴿ وَلاَ حَبَّةٍ فِى ظلمات الأرض ﴾ وذلك لأن الحبة في غاية الصغر وظلمات الأرض موضع يبقى أكبر الأجسام وأعظمها مخفياً فيها فإذا سمع أن تلك الحبة الصغيرة الملقاة في ظمات الأرض على اتساعها وعظمتها لا تخرج عن علم الله تعالى ألبتة ، صارت هذه الأمثلة منبهة على عظمة عظيمة وجلالة عالية من المعنى المشار إليه بقوله : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ بحيث تتحير العقول فيها وتتقاصر الأفكار والألباب عن الوصول إلى مباديها ، ثم إنه تعالى لما قوى أمر ذلك المعقول المحض المجرد بذكر هذه الجزئيات المحسوسة فبعد ذكرها عاد إلى ذكر تلك القضية العقلية المحضة المجردة بعبارة أخرى فقال : ﴿ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِى كتاب مُّبِينٍ ﴾ وهو عين المذكور في قوله : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ فهذا ما عقلناه في تفسير هذه الآية الشريفة العالية . ومن الله التوفيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 8.10 ﴾

*(10/235)*

وقال أبو السعود :

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب ﴾ بيانٌ لاختصاص المقدوراتِ الغيبية به تعالى من حيثُ العلمُ إثرَ بيانِ اختصاصِ كلِّها به تعالى من حيثُ القدرةُ ، والمفاتحُ إما جمعُ مفتَح بفتح الميم وهو المخزَن فهو مستعارٌ لمكان الغيب كأنها مخازنُ خُزِنت فيها الأمورُ الغيبيةُ يُغلق عليها ويُفْتَح ، وإما جمعُ مفتِح بكسرها ، وهو المفتاح ، ويؤيده قراءةُ مَنْ قرأ ( مفاتيحُ الغيب ) فهو مستعارٌ لما يُتوصَّل به إلى تلك الأمورِ بناءً على الاستعارة الأولى ، أي عنده تعالى خاصةُ خزائنِ غُيوبِه أو يُتوصَّل به إليها ، وقولُه عز وجل : ﴿ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ تأكيدٌ لمضمونِ ما قبله ، وإيذانٌ بأن المرادَ هو الاختصاصُ من حيث العلمُ لا من حيث القدرةُ ، والمعنى أن ما تستعجلونه من العذاب ليس مقدوراً لي حتى أُلزِمَكم بتعجيله ، ولا معلوماً لديّ لأُخبرَكم وقتَ نزولِه ، بل هو مما يَختصُّ به تعالى قدرةً وعلماً فيُنزِلُه حسبما تقتضيه مشيئتُه المبنيةُ على الحِكَم والمصالح . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(11/235)

---

فصل

قال الفخر :

المتكلمون قالوا إنه تعالى فاعل العالم بجواهره وأعراضه على سبيل الإحكام والإتقان ، ومن كان كذلك كان عالماً بها فوجب كونه تعالى عالماً بها والحكماء قالوا : إنه تعالى مبدأ لجميع الممكنات ، والعلم بالمبدأ يوجب العلم بالأثر فوجب كونه تعالى عالماً بكلها :

واعلم أن هذا الكلام من أدل الدلائل على كونه تعالى عالماً بجميع الجزئيات الزمانية وذلك لأنه لما ثبت أنه تعالى مبدأ لكل ما سواه وجب كونه مبدأ لهذه الجزئيات بالأثر .

فوجب كونه تعالى عالماً بهذه التغيرات والزمانيات من حيث إنها متغيرة وزمانية وذلك هو المطلوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 10 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ يدل على كونه تعالى منزهاً عن الضد والند وتقريره : أن قوله : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب ﴾ يفيد الحصر ، أي عنده لا عند غيره .

ولو حصل موجود آخر واجب الوجود لكان مفاتح الغيب حاصلة أيضاً عند ذلك الآخر ، وحينئذ يبطل الحصر .

وأيضاً فكما أن لفظ الآية يدل على هذا التوحيد ، فكذلك البرهان العقلي يساعد عليه .

وتقريره : أن المبدأ لحصول العلم بالآثار والنتائج والصنائع هو العلم بالمؤثر والمؤثر الأول في كل

الممكنات هو الحق سبحانه .

فالمفتح الأول للعلم بجميع المعلومات هو العلم به سبحانه لكن العلم به ليس إلا له لأن ما سواه أثر والعلم بالأثر لا يفيد العلم بالمؤثر .

فظهر بهذا البرهان أن مفاتح الغيب ليست إلا عند الحق سبحانه . والله أعلم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 10 ﴾

فصل

قال الفخر :

قرىء ﴿ ولا حبة وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ ﴾ بالرفع وفيه وجهان : الأول : أن يكون عطفاً على محل من ورقة وأن يكون رفعاً على الابتداء وخبره ﴿ إِلاَّ فِى كتاب مُّبِينٍ ﴾ كقولك : لا رجل منهم ولا امرأة إلا في الدار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 10 ﴾

*(12/235)*

---

وقال أبو السعود :

وقولُه تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى البر والبحر ﴾ بيان لتعلّق علمِه تعالى بالمشاهَدات إثرَ بيان تعلُّقِه بالمغيَّباتِ تكملةً له وتنبيهاً على أن الكلَّ بالنسبة إلى علمِه المحيطِ سواءٌ في الجَلاءِ ،

أي يعلم ما فيهما من الموجودات مُفصّلةً على اختلاف أجناسِها وأنواعِها وتكثُّرِ أفرادِها .

وقولُه تعالى : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا ﴾ بيانٌ لتعلُّقه بأحوالها المتغيِّرة بعد بيانِ تعلقِه بذواتها ، فإن تخصيصَ حالِ السقوطِ بالذكر ليس إلا بطريق الاكتفاءِ بذكرها عن ذكر سائر الأحوال ، كما أن ذكرَ حالِ الورقةِ وما عُطفَ عليها خاصةً دون أحوالِ سائرِ ما فيهما من فنونِ الموجودات الفائتة للحصر باعتبارِ أنها أُنموذجٌ لأحوال سائرِها .

وقولُه تعالى : ﴿ وَلاَ حَبَّةٍ ﴾ عطفٌ على ( ورقةٍ ) وقولُه تعالى : ﴿ فِى ظلمات الأرض ﴾ متعلّقٌ بمحذوفٍ هو صفةٌ لحبة مفيدةٌ لكمال نفوذِ علمِه تعالى أي ولا حبةٍ كائنةٍ في بطونِ الأرض إلا يعلمها ، وكذا قولُه تعالى : ﴿ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ ﴾ معطوفان عليها داخلان في حُكمها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

*(13/235)*

---

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ إِلاَّ فِى كتاب مُّبِينٍ ﴾ فيه قولان : الأول : أن ذلك الكتاب المبين هو علم الله تعالى لا غير .

وهذا هو الصواب .

والثاني : قال الزجاج : يجوز أن يكون الله جل ثناؤه أثبت كيفية المعلومات في كتاب من قبل أن يخلق الخلق كما قال عز وجل : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى الأَرضِ وَلاَ فِى أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾ [ الحديد : 22 ] وفائدة هذا الكتاب أمور : أحدها : أنه تعالى إنما كتب هذه الأحوال في اللوح المحفوظ لتقف الملائكة على نفاذ علم الله تعالى في المعلومات وأنه لا يغيب عنه مما في السموات والأرض شيء .

فيكون في ذلك عبرة تامة كاملة للملائكة الموكلين باللوح المحفوظ لأنهم يقابلون به ما يحدث في صحيفة هذا العالم فيجدونه موافقاً له .

وثانيها : يجوز أن يقال إنه تعالى ذكر ما ذكر من الورقة والحبة تنبيهاً للمكلفين على أمر الحساب وإعلاماً بأنه لا يفوته من كل ما يصنعون في الدنيا شيء : لأنه إذا كان لا يهمل الأحوال التي ليس فيها ثواب ولا عقاب ولا تكليف فبأن لا يهمل الأحول المشتملة على الثواب والعقاب أولى .

وثالثها : أنه تعالى علم أحوال جميع الموجودات فيمتنع تغييرها عن مقتضى ذلك العلم ، وإلا لزم الجهل .

فإذا كتب أحوال جميع الموجودات في ذلك الكتاب على التفصيل التام امتنع أيضاً تغييرها وإلا لزم الكذب فتصير كتبة جملة الأحوال في ذلك الكتاب موجباً تاماً وسبباً كاملاً في أنه

يمتنع تقدم ما تأخر وتأخر ما تقدم كما قال صلوات الله عليه : " جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة " والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 10 . 11 ﴾

وقال أبو السعود :

وقولُه تعالى : ﴿ إِلاَّ فِى كتاب مُّبِينٍ ﴾ بدلٌ من الاستثناءِ الأول بدلَ الكلِّ ( من الكل ) على أن الكتابَ المُبينَ عبارةٌ عن علمه تعالى أو بدلَ الاشتمالِ على أنه عبارةٌ عن اللوحِ المحفوظ ، وقرىء الأخيران بالرفع عطفاً على محلِّ ( من ورقة ) وقيل : رفعُهما بالابتداء والخبرُ ( إلا في كتاب مبين ) وهو الأنسبُ بالمقام لشمول الرطبِ واليابس حينئذٍ لما ليس من شأنه السقوطُ ، وقد نُقل قراءةُ الرفعِ في ( ولا حبةٌ ) أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

*(14/235)*

---

ومن فوائد السمرقندى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب يعني : يعلم ما يهلك في البر والبحر .

ويقال : يعلم ما في البر من النبات والحب والنوى وما في البحر من الدواب وقوت ما فيها ﴾

وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ ﴾ من الشجر ﴿ إِلاَّ يَعْلَمُهَا ﴾ يعلم من وقت سقوطه ، وموضع مسقطه .

وروى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنه قال : ليس أحد من خلق الله تعالى أكثر من الملائكة ، وليس من شجرة تخرج إلا وملك موكل بها .

ويقال : إن الإنسان كالشجرة ، وأعضاءه كالأغصان ، والحركات منه كالأوراق ، فهو يعلم حركة بني آدم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلاَ حَبَّةٍ فِى ظلمات الأرض ﴾ يعني : تحت الصخرة التي هي أسفل الأرضين السابعة .

ويقال : الحبة التي تحت الأرض التي يخرج منها النبات .

ثم قال : ﴿ وَلاَ رَطْبٍ ﴾ يعني : الماء ﴿ وَلاَ يَابِسٍ ﴾ يعني : الحجر ويقال : ولا رطب : يعني العمران والأمصار والقرى ﴿ وَلاَ يَابِسٍ ﴾ يعني : الخراب والبادية ﴿ إِلاَّ فِى كتاب مُّبِينٍ ﴾ يعني في اللوح المحفوظ .

ويقال : ﴿ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ ﴾ يعني : لا قليل ولا كثير ﴿ إِلاَّ فِى كتاب مُّبِينٍ ﴾ يعني : في اللوح المحفوظ .

ويقال : القرآن قد بيّن فيه كل شيء ، بعضه مفسر ، وبعضه يعرف بالاستدلال والاستنباط .

وقرأ بعضهم : ﴿ وَلاَ حَبَّةٍ ﴾ ﴿ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ ﴾ كل ذلك بالضم على معنى الابتداء .

وهي قراءة شاذة والقراءة المعروفة بالكسر لأجل : ﴿ مِنْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

ومن فوائد ابن الجوزى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾

قال ابن جرير : المفاتح : جمع مفتح ؛ يقال مفتح ومفتاح ، فمن قال : مفتح ، جمعه : مفاتح .

ومن قال : مفتاح ، جمعه : مفاتيح ، وفي ﴿ مفاتح الغيب ﴾ سبعة أقوال .

أحدها : أنها خمس لا يعلمها إلا الله عز وجل .

*(15/235)*

---

روى البخاري في أفراده من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ، لا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله ، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله ، ولا يعلم ما في غدٍ إلا الله ، ولا تعلم نفس بأي أرض تموت إلا الله ، ولا يعلم

متى ينزل الغيث إلا الله " قال ابن مسعود : أُوتي نبيُّكم علم كل شيء إلا مفاتيحَ الغيب .

والثاني : أنها خزائن غيب السموات من الأقدار والأرزاق ، قاله ابن عباس .

والثالث : ما غاب عن الخلق من الثواب والعقاب ، وما تصير إليه الأمور ، قاله عطاء .

والرابع : خزائن غيب العذاب ، متى ينزل ، قاله مقاتل .

والخامس : الوُصلة إلى علم الغيب إذا اسْتُعْلم ، قاله الزجاج .

والسادس : عواقب الأعمار وخواتيم الأعمال .

والسابع : ما لم يكن ، هل يكون ، أم لا يكون ؟ وما يكون كيف يكون وما لا يكون ، إن كان ، كيف يكون ؟ فأما البَرُّ ، فهو القفر .

وفي البحر قولان .

أحدهما : أنه الماء ، قاله الجمهور .

والثاني : أنه القرى ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ﴾ قال الزجاج : المعنى أنه يعلمها ساقطة وثابتة ، كما تقول : ما يجيئك أحد إلا وأنا أعرفه ، ليس تأويله : اعرفه في حال مجيئه فقط .

فأما ظلمات الأرض ، فالمراد بها بطن الأرض .

وفي الرطب واليابس ، خمسة أقوال .

أحدها : أن الرطب : الماء ، واليابس : البادية .

والثاني : الرطب : ما يُنبِت ، واليابس : مالا يُنبِت .

والثالث : الرطب : الحي ، واليابس : الميت .

والرابع : الرطب : لسان المؤمن يذكر الله ، واليابس : لسان الكافر لا يتحرك بذكر الله .

والخامس : أنهما الشيء ينتقل من إحدى الحالتين إلى الأخرى ، فهو يعلمه رطباً ، ويعلمه يابساً .

وفي الكتاب المبين قولان .

أحدهما : أنه اللوح المحفوظ ، قاله مقاتل .

والثاني : أنه علم الله المتقَنُ ، ذكره الزجاج .

*(16/235)*

---

فإن قيل : ما الفائدة في إِحصاء هذه الأشياء في كتاب ؟ فعنه ثلاثة أجوبة ، ذكرهن ابن الأنباري .

أحدها : أنه أحصاها في كتاب ، لتقف الملائكة على نفاذ علمه .

والثاني : أنه نبه بذلك عباده على تعظيم الحساب ، وأعلمهم أنه لا يفوته ما يصنعون ، لأن من يثبت مالا ثواب فيه ولا عقاب ، فهو إلى إثبات ما فيه ثواب وعقاب أسرع .

والثالث : أن المراد بالكتاب : العلم ؛ فالمعنى : أنها مثبتة في علمه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ مفاتح ﴾ جمع مفتح وهذه استعارة عبارة عن التوصل إلى الغيوب كما يتوصل في الشاهد بالمفتاح إلى المغيب عن الإنسان ولو كان جمع مفتاح لقال مفاتيح ، ويظهر أيضاً أن ﴿ مفاتح ﴾ جمع مفتح بفتح الميم أي مواضع تفتح عن المغيبات ، ويؤيد هذا قول السدي وغيره ﴿ مفاتح الغيب ﴾ خزائن الغيب ، فأما مِفتح بالكسر فهو بمعنى مفتاح ، وقال الزهراوي : ومَفتح أفصح ، وقال ابن عباس وغيره ،

*(17/235)*

---

الإشارة ب ﴿ مفاتح الغيب ﴾ هي إلى الخمسة التي في آخر لقمان ، ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ [ لقمان : 34 ] الآية ، لأنها تعم جميع الأشياء التي لم توجد بعد ، ثم قوي البيان بقوله ﴿ ويعلم ما في البر والبحر ﴾ تنبيهاً على أعظم المخلوقات المجاورة للبشر وقوله ﴿ من ورقة ﴾ على حقيقته في ورق النباتات ، و ﴿ من ﴾ زائدة و ﴿ إلا يعلمها ﴾ يريد

على الإطلاق وقبل السقوط ومعه وبعده ، ﴿ ولا حبة في ظلمات الأرض ﴾ يريد في أشد حال التغيب ، وهذا كله وإن كان داخلاً في قوله ﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾ عند من رآها في الخمس وغيرها ففيه البيان والإيضاح والتنبيه على مواضع العبر ، أي إذا كانت هذه المحقورات معلومة فغيرها من الجلائل أحرى ، ﴿ ولا رطب ولا يابس ﴾ عطف على اللفظ وقرأ الحسن وعبد الله بن أبي إسحاق " ولا رطبٌ ولا يابسٌ " بالرفع عطفاً على الموضع في ﴿ ورقة ﴾ ، لأن التقدير وما تسقط ورقة و﴿ إلا في كتاب مبين ﴾ قيل يعني كتاباً على الحقيقة ، ووجه الفائدة فيه امتحان ما يكتبه الحفظة ، وذلك أنه روي أن الحفظة يرفعون ما كتبوه ويعارضونه بهذا الكتاب المشار إليه ليتحققوا صحة ما كتبوه ، وقيل : المراد بقوله : ﴿ إلا في كتاب ﴾ علم الله عز وجل المحيط بكل شيء ، وحكى النقاش عن جعفر بن محمد قولاً : أن " الورقة " يراد بها السقط من أولاد بني آدم ، و" الحبة " يراد بها الذي ليس يسقط ، و" الرطب " يراد به الحي ، و" اليابس " يراد به الميت ، وهذا قول جار على طريقة الرموز ، ولا يصح عن جعفر بن محمد رضي الله عنه ، ولا ينبغي أن يلتفت إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

*(18/235)*

ومن فوائد الخازن فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله عز وجل : ﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾ المفتاح الذي يفتح به المغلاق جمعه مفاتيح ويقال فيه تفتح بكسر الميم وجمعه مفاتح والمفتح بفتح الميم الخزانة وكل خزانة كانت لصنف من الأشياء فهي مفتح وجمعه مفاتح فقوله وعنده مفاتح الغيب يحتمل أن يكون المراد منه المفاتيح التي يفتح بها ويحتمل أن يكون المراد منه الخزائن .

فعلى التفسير الأولى فقد جعل للغيب مفاتيح على طرق الاستعارة ، لأن المفاتيح هي التي يتوصل بها إلى ما في الخزائن المستوثق منها بالإغلاق ، فمن علم كيف يفتح بها ويتوصل إلى ما فيها ، فهو عالم .

وكذلك ها هنا لأن الله تعالى لما كان عالماً بجميع المعلومات وما غاب منها وما لم يغب عن هذا المعنى بهذه العبارة .

وعلى التفسير الثاني ، يكون المعنى وعنده خزائن الغيب والمراد منه القدرة الكاملة على كل الممكنات ثم اختلفت أقوال المفسرين في قوله وعنده مفاتح الغيب ﴿ لا يعلمها إلا هو ﴾ فقيل : مفاتيح الغيب خمس وهي ما روي عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله تعالى ، لا يعلم أحد ما يكون في غد إلا الله ، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام إلا الله ، ولا تعلم نفس ماذا تكسب غداً ، ولا

تدري نفس بأي أرض تموت ، ولا يدري أحد متى يجيء المطر " .

وفي رواية أخرى : " لا يعلم أحد ما تغيض الأرحام ، ولا يعلم ما في غد إلا الله ، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله ، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله ، ولا يعلم متى الساعة إلا الله " ، أخرجه البخاري .

وقال الضحاك ومقاتل : مفاتح الغيب : خزائن الأرض ، وعلم نزول العذاب ، وقال عطاء : هو ما غاب عنكم من الثواب والعقاب .

وقيل : هو انقضاء الآجال وعلم أحوال العباد من السعادة والشقاوة وخواتيم أعمالهم .

*(19/235)*

---

وقيل : هو علم ما لم يكن بعد أن يكون إذ يكون كيف يكون وما لا يكون أن لو كان كيف يكون وقال ابن مسعود : أوتي نبيكم صلى الله عليه وسلم كل شيء إلا مفاتح الغيب .

وقال ابن عباس : إنها خزائن غيب السموات والأرض من الأقدار والأرزاق ﴿ ويعلم ما في البر والبحر ﴾ قال مجاهد : البر المفاوز والقفاز ، والبحر القُرى والأمصار لا يحدث فيها شيء إلا وهو يعلمه .

وقال جمهور المفسرين : هو البر والبحر المعروفان ، لأن جميع الأرض إما بر وإما بحر وفي كل

واحد منهما من عجائب مصنوعاته وغرائب مبتدعاته ما يدل على عظيم قدرته وسعة علمه ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ﴾ يريد ساقطة وثابتة والمعنى أنه يعلم عدد ما يسقط من الورق وما بقي على الشجر من ذلك ويعلم كم انقلبت ظهراً لبطن إلى أن تسقط على الأرض ﴿ ولا حبة في ظلمات الأرض ﴾ قيل : هو الحب المعروف يكون في بطن الأرض قبل أن ينبت .

وقيل : هي الحبة التي في الصخرة التي في أسفل الأرضين ﴿ ولا رطب ولا يابس ﴾ قال ابن عباس : الرطب الماء واليابس البادية .

وقال عطاء : يريد ما ينبت وما لا ينبت .

وقيل : المراد بالرطب الحي واليابس الميت .

وقيل : هو عبارة عن كل شيء لأن جميع الأشياء إما رطبة وإما يابسة .

فإن قلت إن جميع هذه الأشياء داخلة تحت قوله وعنده مفاتح الغيب فَلِمَ أفرد هذه الأشياء بالذكر وما فائدة ذلك ؟ .

*(20/235)*

قلت : لما قال الله تعالى وعنده مفاتح الغيب على سبيل الإجمال ذكر من بعد ذلك الإجمال ما يدل على التفصيل ، فذكر هذه الأشياء المحسوسة ليدل بها على غيرها ، فقدم ذكر البر والبحر لما فيهما من العجائب والغرائب من المدن والقرى والمفاوز والجبال وكثرة ما فيها من المعادن والحيوان ، وأصناف المخلوقات مما يعجز الوصف عن إدراكها ، ثم ذكر بعد ذلك ما هو أقل من ذلك وهو مشاهد لكل أحد لأن الورقة الساقطة والثابتة يراها كل أحد ، لكن لا يعلم عددها وكيفية خلقها إلا الله تعالى ثم ذكر بعد ذلك ما هو أصغر من الورقة وهي الحبة .

ثم ذكر بعد ذلك مثالاً يجمع الكل وهو الرطب واليابس فذكر هذه الأشياء وأنه لا يخرج شيء منها عن علمه سبحانه وتعالى فصارت هذه الأمثال منبهة على عظمة عظيمة وقدرة عالية وعلم واسع فسبحان العليم الخبير .

قوله تعالى : ﴿ إلا في كتاب مبين ﴾ فيه قولان : أحدهما أن الكتاب المبين هو علم الله الذي لا يغير ولا يبدل .

والثاني : أن المراد بالكتاب المبين ، هو اللوح المحفوظ ، لأن الله كتب فيه علم ما يكون وما قد كان قبل أن يخلق السموات والأرض .

وفائدة إحصاء الأشياء كلها في هذا الكتاب ، لتقف الملائكة على إنفاذ علمه ونبه بذلك على تعظيم الحساب وأعلم عباده أنه لا يفوته شيء مما يصنعونه لأنه من أثبت ما لا ثواب فيه

ولا عقاب في كتاب فهو إلى إثبات ما فيه ثواب وعقاب أسرع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(21/235)

---

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : جاء في الخبر أن هذه الآية لما نزلت نزل معها اثنا عشر ألف مَلَك .

وروى البخاريّ عن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " مفاتح الغيب خمسٌ لا يعلمها إلا الله لا يعلم ما تَغِيض الأرحام إلا الله ولا يعلم ما في غدٍ إلا الله ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله ولا تدري نفس بأيّ أرض تموت إلا الله ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله " وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت : من زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر بما يكون في غدٍ فقد أعظم على الله الفِرْية ؛ والله تعالى يقول : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السماوات والأرض الغيب إِلَّا الله ﴾ .

ومفاتح جمع مَفْتَح ، هذه اللغة الفصيحة .

ويقال : مفتاح ويجمع مفاتيح .

وهي قراءة ابنِ السَّمَيْقَع "مفاتِيح" .

والمِفتح عبارة عن كل ما يَحُلّ غَلَقَا ، محسوسا كان كالقُفْل على البيت أو معقولا كالنظر .

وروى ابن ماجه في سننه وأبو حاتم البُسْتيّ في صحيحه عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ من الناس مفاتيحَ للخير مَغَالِيق للشرّ وإن من الناس مفاتيحَ للشرّ مغالِيق للخير فطُوبَى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه وويْلٌ لمن جعل الله مفاتيحَ الشرّ على يديه " وهو في الآية استعارة عن التوصُّل إلى الغيوب كما يتوصّل في الشاهد بالمفتاح إلى المغيب عن الإنسان ؛ ولذلك قال بعضهم : هو مأخوذ من قول الناس افتح عليّ كذا ؛ أي أعطني أو علّمني ما أتوصل إليه به .

فالله تعالى عنده علم الغيب ، وبيده الطرق الموصّلة إليه ، لا يملكها إلا هو ، فمن شاء إطلاعه عليها أطلعه ، ومن شاء حجبه عنها حجبه .

ولا يكون ذلك من إفاضته إلا على رسله ؛ بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللهِ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغيب وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَآءُ ﴾ وقال : ﴿ عَالِمُ الغيب فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً ﴾ ﴿ إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ ﴾ .

الآية وقيل : المراد بالمفاتح خزائن الرزق ؛ عن السُّدّي والحسن .

---

مُقاتِل والضحّاك : خزائن الأرض .

وهذا مجاز ، عبّر عنها بما يتوصّل إليها به .

وقيل : غير هذا مما يتضمنه معنى الحديث أي عنده الآجال ووقت انقضائها .

وقيل : عواقب الأعمار وخواتم الأعمال ؛ إلى غير هذا من الأقوال .

والأوّل المختار . والله أعلم .

الثانية : قال علماؤنا : أضاف سبحانه علم الغيب إلى نفسه في غير ما آيةٍ من كتابه إلا من اصطفى من عباده .

فمن قال : إنه ينزّل الغَيْث غدا وجزم فهو كافر ، أخبر عنه بأمارة ادعاها أم لا .

وكذلك من قال : إنه يعلم ما في الرّحِم فهو كافر ؛ فإن لم يجزم وقال : إن النَّوْء ينزل الله به الماء عادة ، وأنه سبب الماء عادة ، وأنه سبب الماء على ما قدّره وسبق في علمه لم يكفر ؛ إلا أنه يستحب له ألا يتكلم به ، فإن فيه تشبيها بكلمة أهل الكفر ، وجهلا بلطيف حكمته ؛ لأنه ينزل متى شاء ، مرّة بنَوْء كذا ، ومرّة دون النَّوْء ؛ قال الله تعالى :

" أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بالكوكب " على ما يأتي بيانه في "الواقعة" إن شاء

الله .

قال ابن العربيّ : وكذلك قول الطبيب : إذا كان الثَّدْي الأيمن مسودّ الحَلَمة فهو ذكر ، وإن كان في الثدي الأيسر فهو أنثى ، وإن كانت المرأة تجد الجنب الأيمن أثقل فالولد أنثى ؛

وادعى ذلك عادة لا واجبا في الخلقة لم يكفر ولم يفسق .

وأما من ادعى الكسب في مستقبل العمر فهو كافر .

أو أخبر عن الكوائن المجملة أو المفصلة في أن تكون قبل أن تكون فلا رِيبة في كفره أيضا .

فأمّا من أخبر عن كسوف الشمس والقمر فقد قال علماؤنا : يؤدّب ولا يسجن .

أمّا عدم تكفيره فلأن جماعة قالوا : إنه أمر يُدرَك بالحساب وتقدير المنازل حسب ما أخبر الله عنه من قوله : ﴿ والقمر قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ .

وأما أدبهم فلأنهم يُدخلون الشك على العامّة ، إذ لا يدركون الفرق بين هذا وغيره ؛

فيشوّشون عقائدهم ويتركون قواعدهم في اليقين فأدّبوا حتى يُسِروا ذلك إذا عرفوه ولا يعلِنوا به .

*(23/235)*

قلت : ومن هذا الباب ( أيضا ) ما جاء في صحيح مسلم عن بعض أزواج النبيّ صلى الله عليه وسلم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من أتى عَرّافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة " والعرّاف هو الحازر والمنجِّم الذي يدّعي علم الغيب .

وهي من العِرافة وصاحبها عَرّاف ، وهو الذي يستدل على الأمور بأسباب ومقدّمات يدّعي معرفتها .

وقد يعتضِد بعض أهل هذا الفن في ذلك بالزَّجْر والطرْق والنجوم ، وأسباب معتادة في ذلك .

وهذا الفنّ هو العِيَافة ( بالياء ) .

وكلّها ينطلق عليها اسم الكهانة ؛ قاله القاضي عِيَاض .

والكهانة : ادعاء علم الغيب .

قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب الكافي : من المكاسب المجتمع على تحريمها الربا ومهور البغايا والسُّحْت والرّشا وأخذ الأجرة على النياحة والغناء ، وعلى الكهانة وادعاء الغيب وأخبار السماء ، وعلى الزمر واللّعِب والباطل كله .

قال علماؤنا : وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان بإتيان المنجّمين والكُهّان لا سِيّما بالديار المصرية ؛ فقد شاع في رؤسائهم وأتباعهم وأمرائهم اتخاذ المنجِّمين ، بل ولقد انخدع كثير من المنتسبين للفقه والدِّين فجاءوا إلى هؤلاء الكهنة والعرّافين فَبَهْرجوا عليهم بالمُحال

، واستخرجوا منهم الأموال فحصلوا من أقوالهم على السراب والآل ، ومن أديانهم على الفساد والضلال .

وكل ذلك من الكبائر ؛ لقوله عليه السلام : " لم تقبل له صلاة أربعين ليلة"

فكيف بمن اتخذهم وأنفق عليهم معتمدا على أقوالهم .

*(24/235)*

---

روى مسلم ( رحمه الله ) عن عائشة ( رضي الله عنها ) قالت : " سأل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أناسٌ عن الكُهّان فقال : "إنهم ليسوا بشيء" فقالوا : يا رسول الله ، إنهم يحدّثونا أحيانا بشيء فيكون حقّاً ا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تلك الكلمة من الحق يخطفها الجِنيّ فيُقرّها في أذن وِليّه قَرّ الدجاجة فيخلطون معها مائة كذبة" " قال الحُميدِيّ : ليس ليحيى بن عروة عن أبيه عن عائشة في الصحيح غير هذا وأخرجه البخاريّ أيضا من حديث أبي الأسود محمد بن عبد الرحمن عن عروة عن عائشة أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الملائكة تنزل في العَنَان وهو السحاب فتذكر الأمر قُضِي في السماء فتَسْتَرِق الشياطينُ السمع فتسمعه فتوحِيه إلى الكُهّان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم " وسيأتي هذا المعنى في "سبأ" إن شاء الله

تعالى .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي البر والبحر ﴾ خصّهما بالذّكر لأنهما أعظم المخلوقات المجاورة للبشر ، أي يعلم ما يهلك في البر والبحر .

ويقال : يعلم ما في البر من النبات والحبّ والنّوى ، وما في البحر من الدواب ورزق ما فيها ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا ﴾ روى يزيد بن هارون عن محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ما مِن زرع على الأرض ولا ثمار على الأشجار ولا حبة في ظلمات الأرض إلا عليها مكتوب بسم الله الرحمن الرحيم رِزق فلان ابن فلان " وذلك قوله في محكم كتابه : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأرض وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ .

وحكى النقّاش عن جعفر بن محمد أن الورقة يراد بها السّقط من أولاد بني آدم ، والحبة يراد بها الذي ليس بسقط ، والرطب يراد به الحيّ ، واليابس يراد به الميت .

*(25/235)*

---

قال ابن عطية : وهذا قول جارٍ على طريقة الرّموز ، ولا يصح عن جعفر بن محمد ولا ينبغي أن يلتفت إليه .

وقيل : المعنى ﴿ وما تسقط من ورقة ﴾ أي من ورقة الشجر إلا يعلم متى تسقط وأين تسقط وكم تدور في الهواء ، ولا حبة إلا يعلم متى تنبت وكم تنبت ومن يأكلها ، ﴿ وَظُلُمَاتِ الأَرْضِ ﴾ بطونها وهذا أصح ؛ فإنه موافق للحديث وهو مقتضى الآية .

والله الموفق للهداية .

وقيل : ﴿ فِي ظُلُمَاتِ الأرض ﴾ يعني الصخرة التي هي أسفل الأرضِين السابعة .

﴿ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ ﴾ بالخفض عطفا على اللفظ .

وقرأ ابن السَّمَيْقَع والحسن وغيرهما بالرفع فيهما عطفا على موضع ﴿ من ورقة ﴾ ؛ ف "مِن" على هذا للتوكيد .

﴿ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ أي في اللوح المحفوظ لتعتبر الملائكة بذلك ، لا أنه سبحانه كتب ذلك لنسيانٍ يلحقه ، تعالى عن ذلك .

وقيل : كتبه وهو يعلمه لتعظيم الأمر ، أي اعملوا أن هذا الذي ليس فيه ثواب ولا عقاب مكتوب ، فكيف بما فيه ثواب وعقاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

ومن فوائد ابن كثير فى الآية

قال رحمه الله :

وقوله : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ قال البخاري : حدثنا عبد العزيز بن

عبد الله حدثنا إبراهيم بن سعد ، عن ابن شهاب ، عن سالم بن عبد الله ، عن أبيه ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان : 34] (1) .

---

(1) صحيح البخاري برقم (4627) .

(26/235)

---

وفي حديث عمر [رضي الله عنه] أن جبريل حين تَبدَّى له في صورة أعرابي فسأل عن الإسلام والإيمان والإحسان ، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال له : "خمس لا يعلمهن إلا الله " ، ثم قرأ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ الآية [لقمان : 34] .

وقوله : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ أي : يحيط علمه الكريم بجميع الموجودات ، بَريها وبحريها لا يخفى عليه من ذلك شيء ، ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء . وما أحسن ما قال الصَّرْصَرِيّ :

فَلا يَخْفَى عليه الذَّر إمَّا . . . تَرَاءى للنواظر أو تَوَارى . . .

وقوله : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا ﴾ أي : ويعلم الحركات حتى من الجمادات ،

فما ظنك بالحيوانات ، ولا سيما المكلفون منهم من جنهم وإنسهم ، كما قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر : 19] .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا الحسن بن الرَّبيع ، حدثنا أبو الأحْوَص ، عن سعيد بن مسروق ، عن حسان النمري ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا ﴾ قال : ما من شجرة في بر ولا بحر إلا وملك موكل بها ، يكتب ما يسقط منها .

وقوله : ﴿ وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ قال محمد بن إسحاق ، عن يحيي بن النضر ، عن أبيه ، سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : إن تحت الأرض الثالثة وفوق الرابعة من الجن ما لو أنهم ظهروا - يعني لكم - لم تروا معهم نورًا ، على كل زاوية من زوايا الأرض خاتم من خواتيم الله ، عَزَّ وجل ، على كل خاتم مَلَك من الملائكة يبعث الله ، عَزَّ وجل ، إليه في كل يوم ملكا من عنده : أن احتفظ بما عندك .

*(27/235)*

---

قال ابن أبي حاتم : حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن المِسوَر الزهري : حدثنا مالك بن سُعَيْر ، حدثنا الأعمش ، عن يزيد بن أبي زياد ، عن عبد الله بن الحَارث قال : ما

في الأرض من شجرة ولا مغْرَز إبرة إلا عليها ملك موكل يأتي الله بعلمها : رطوبتها إذا رطبت ، ويَبَسها إذا يبست .

وكذا رواه ابن جرير عن أبي الخطاب زياد بن عبد الله الحساني ، عن مالك بن سعير ، به

ثم قال ابن أبي حاتم : ذُكر عن أبي حذيفة ، حدثنا سفيان ، عن عمرو بن قيس ، عن رجل عن وهي الدواة – وخلق الألواح ، فكتب فيها أمر الدنيا حتى ينقضي ما كان من خلق مخلوق ، أو رزق حلال أو حرام ، أو عمل بر أو فجور وقرأ هذه الآية : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا ﴾ إلى آخر الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 264 . 266 ﴾

*(28/235)*

---

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾

لما قال تعالى : إن الحكم إلا لله وقال هو أعلم بالظالمين بعد قوله ﴿ ما تستعجلون به ﴾

انتقل من خاص إلى عام وهو علم الله بجميع الأمور الغيبية ، واستعارة للقدرة عليها المفاتح

لما كانت سبباً للوصول إلى الشيء فاندرج في هذا العام ما استعجلوا وقوعه وغيره .

والمفاتح جمع مفتح بكسر الميم وهي الآية التي يفتح بها ما أغلق .

قال الزهراوي : ومفتح أفصح من مفتاح ويحتمل أن يكون جمع مفتاح لأنه يجوز في مثل هذا أن لا يؤتى فيه بالياء قالوا : مصابح ومحارب وقراقر في جميع مصباح وقرقور .

وقرأ ابن السميفع : مفاتيح بالياء وروي عن بعضهم مفتاح الغيب على التوحيد .

وقيل : جمع مفتح بفتح الميم ويكون للمكان أي أماكن الغيب ومواضعها يفتح عن المغيبات ويؤيده ما روي عن ابن عباس إنها خزائن المطر والنبات ونزول العذاب .

وقال السدي وغيره : خزائن الغيب .

وروي عن ابن عمر عنه عليه السلام أنه قال : " مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله " ، ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ إلى آخر السورة .

وقيل : ﴿ مفاتح الغيب ﴾ الأمور التي يستدلّ بها على الغائب فتعلم حقيقته من قولك : فتحت على الإمام إذا عرّفته ما نسي .

وقال أبو مسعود : أوتي نبيكم كل شيء إلا مفاتح الغيب .

وروي عن ابن عباس أنها خزائن غيب السموات والأرض من الأقدار والأرزاق .

وقال عطاء : ما غاب من الثواب والعقاب وما تصير إليه الأمور .

وقال الزجاج : الوصلة إلى علم الغيب إذا استعلم .

وقيل : عواقب الأعمار وخواتيم الأعمال .

(29/235)

---

وقيل : ما لم يكن هل يكون أم لا يكون ؟ وما يكون كيف يكون وما لا يكون إن كان كيف يكون ؟ و ﴿ لا يعلمها إلا هو ﴾ حصر أنه لا يعلم تلك المفاتح ولا يطلع عليها غيره تعالى ، ولقد يظهر من هؤلاء المنتسبة إلى الصوف أشياء من ادعاء علم المغيبات والاطلاع على علم عواقب أتباعهم وأنهم معهم في الجنة مقطوع لهم ولأتباعهم بها يخبرون بذلك على رؤوس المنابر ولا ينكر ذلك أحد هذا مع خلوهم عن العلوم يوهمون أنهم يعلمون الغيب . وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها ومن زعم أن محمداً يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية والله تعالى يقول : ﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾ وقد كثرت هذه الدّعاوى والخرافات في ديار مصر وقام بها ناس صبيان العقول يسمون بالشيوخ عجزوا عن مدارك العقل والنقل وأعياهم طلاب العلوم :

فارتموا يدعون أمراً عظيما . . .

لم يكن للخليل لا والكليم

بينما المرء منهم في انسفال . . .

أبصر اللوح ما به من رقوم

فجنى العلم منه غضاً طرياً . . .

ودرى ما يكون قبل الهجوم

إن عقلي لفي عقال إذا ما . . .

أنا صدقت بافتراء عظيم

﴿ ويعلم ما في البرّ والبحر ﴾ لما كان ذكره تعالى ﴿ مفاتح الغيب ﴾ أمراً معقولاً أخبر تعالى باستئثاره بعلمه واختصاصه به ذكر تعلق علمه بهذا المحسوس على سبيل العموم ثم ذكر علمه بالورقة والحبة والرطب واليابس على سبيل الخصوص ، فتحصل إخباره تعالى بأنه عالم بالكليات والجزئيات مستأثر بعلمه وما نعلمه نحن وقدم ﴿ البر ﴾ لكثرة مشاهدتنا لما اشتمل عليه من المدن والقرى والمفاوز والجبال والحيوان والنبات والمعادن أو على سبيل الترقي إلى ما هو أعجب في الجملة ، لأن ما فيه من أجناس الحيوانات أعجب وطوله وعرضه أعظم والبر مقابل البحر .

وقيل : ﴿ البر ﴾ القفار ﴿ والبحر ﴾ المعروف فالمعنى ويعلم ما في البر من نبات ودواب وأحجار وأمدار وغير ذلك ، وما في البحر من حيوان وجواهر وغير ذلك .

وقال مجاهد : ﴿ البرّ ﴾ الأرض القفار التي لا يكون فيها الماء ﴿ والبحر ﴾ كل قرية وموضع فيه الماء .

وقيل : لم يرد ظاهر البرّ والبحر وإنما أراد أن علمه تعالى محيط بنا وبما أعد لمصالحنا من منافعهما وخصا بالذكر لأنهما أعظم مخلوق يجاوزنا .

﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ﴾ ﴿ من ﴾ زائدة لاستغراق جنس الورقة و ﴿ يعلمها ﴾ مطلقاً قبل السقوط ومعه وبعده .

قال الزجاج : ﴿ يعلمها ﴾ ساقطة وثابتة كما تقول : ما يجيئك أحد إلا وأنا أعرفه ليس تأويله في حال مجيئه فقط .

وقيل : يعلم متى تسقط وأين تسقط وكم تدور في الهواء .

وقيل : يعلمها كيف انقلبت ظهراً لبطن إلى أن وقعت على الأرض ، و ﴿ يعلمها ﴾ في موضع الحال من ﴿ ورقة ﴾ وهي حال من النكرة .

كما تقول : ما جاء أحد إلا راكباً .

﴿ ولا حبة في ظلمات الأرض ﴾ قيل : تحت الأرض السابعة .

وقيل : تحت التراب .

وقيل : الحب الذي يزرع يخفيها الزرّاع تحت الأرض .

وقيل : تحت الصخرة في أسفل الأرضين .

وقيل : ولا حبة إلا يعلم متى تنبت ومن يأكلها ، وانظر إلى حسن ترتيب هذه المعلومات بدأ أولاً بأمر معقول لا ندركه نحن بالحس وهو قوله : ﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾ ثم ثانياً بأمر ندرك كثيراً منه بالحس وهو ﴿ يعلم ما في البرّ والبحر ﴾ وفيه عموم ثم ثالثاً بأمر بجزأين لطيفين أحدهما علوي وهو سقوط ورقة من علوّ إلى أسفل ، والثاني سفلي وهو اختفاء حبة في بطن الأرض .

ودلت هذه الجمل على أنه تعالى عالم بالكليات والجزئيات وفيها ردّ على الفلاسفة في زعمهم أن الله لا يعلم الجزئيات ومنهم من يزعم أنه تعالى لا يعلم الكليات ولا الجزئيات حتى هو لا يعلم ذاته تعالى الله عن ذلك .

﴿ ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ الرطب واليابس وصفان معروفان والمراد العموم في المتصف بهما ، وقد مثل المفسرون ذلك بمثل .

فقيل : ما ينبت وما لا ينبت .

وقيل : لسان المؤمن ولسان الكافر .

*(31/235)*

وقيل : العين لباكية من خشية الله والعين الجامدة للقسوة ، وأما ما حكاه النقاش عن جعفر الصادق أن الورقة هي السقط من أولاد بني آدم والحبة يراد بها الذي ليس بسقط ، والرّطب المراد به الحيّ واليابس يراد به الميت فلا يصح عن جعفر وهو من تفسير الباطنية لعنهم الله .

وقال مقاتل ﴿ في كتاب مبين ﴾ : هو اللوح المحفوظ .

وقال الزجاج : كناية عن علم الله المتيقن وهذا الاستثناء جار مجرى التوكيد لأن قوله : ولا حبة ﴿ ولا رطب ولا يابس ﴾ معطوف على قوله ﴿ من ورقة ﴾ والاستثناء الأول منسحب عليها كما تقول : ما جاءني من رجل إلا أكرمته ولا امرأة ، فالمعنى إلا أكرمتها ولكنه لما طال الكلام أعيد الاستثناء على سبيل التوكيد وحسنه كونه فاصلة رأس آية .

وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق وابن السميفع ﴿ ولا رطب ولا يابس ﴾ بالرفع فيهما والأولى أن يكونا معطوفين على موضع ﴿ من ورقة ﴾ ويحتمل الرفع على الابتداء وخبره ﴿ إلا في كتاب مبين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب ﴾ أي مفاتيحه كما قرىء به فهو جمع مفتح بكسر الميم وهو كمفتاح آلة الفتح ، وقيل : إنه جمع مفتاح كما قيل في جمع محراب محارب ، والكلام على

الاستعارة حيث شبه الغيب بالأشياء المستوثق منها بالأقفال .

وأثبت له المفاتيح تخييلاً وهي باقية على معناها الحقيقي ، وجعلها بمعنى العلم قرينة المكنية بناءً على أنه لا يلزم أن تكون حقيقة بعيد ، وأبعد منه تكلف التمثيل .

وقيل : الأقرب أن يعتبر هناك استعارة مصرحة تحقيقية بأن يستعار العلم للمفاتح وتجعل القرينة الإضافة إلى الغيب .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي أن المراد من المفاتح الخزائن فهي حينئذٍ جمع مفتح بفتح الميم وهو المخزن .

وجوز الواحدي أن يكون مصدراً بمعنى الفتح وليس بالمتبادر .

وفي الكلام استعارة مكنية تخييلية ، وتقديم الخبر لإفادة الحصر .

*(32/235)*

---

والمراد بالغيب المغيبات على سبيل الإستغراق ، والمقصود على كل تقدير أنه سبحانه هو العالم بالمغيبات جميعها كما هي ابتداء .

﴿ لاَيَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ في موضع الحال من ﴿ مَفَاتِحُ ﴾ ، والعامل فيها كما قال أبو البقاء ما تعلق به الظرف أو نفسه إن رفعت به ، ويجوز أن يكون تأكيداً لمضمون ما قبله ، والكلام

إما مسوق لبيان اختصاص المقدورات الغيبية به سبحانه من حيث العلم إثر بيان اختصاص كلها به تعالى من حيث القدرة ، والمعنى أن ما تستعجلون به من العذاب ليس مقدوراً لي حتى ألزمكم بتعجيله ولا معلوماً لديَّ حتى أخبركم بوقت نزوله بل هو مما يختص به جل شأنه قدرة وعلماً فينزله حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم ، وإما لإثبات العلم العام له سبحانه وهو علمه بكل شيء بعد إثبات العلم الخاص وهو علمه بالظالمين ، وذكر الإمام "أن معنى الآية على تقدير أن يراد بالمفاتح الخزائن أنه سبحانه القادر على جميع الممكنات كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ ﴾ [ الحجر : 21 ] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : مفاتح الغيب خمس وتلا ﴿ إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ [ لقمان : 34 ] الآية ، وروي نحوه عن ابن مسعود ، وأخرج أحمد والبخاري وغيرهما عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما مرفوعاً نحو ذلك ، ولعل الحمل على الاستغراق أولى ، وما في الأخبار يحمل على بيان البعض المهم لا على دعوى الحصر إذ لا شبهة في أن ما عدا الخمس من المغيبات لا يعلمه أيضاً إلا الله تعالى .

*(33/235)*

﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي البر والبحر ﴾ عطف على جملة ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ ﴾ الخ أو على الجملة قبله وهو ظاهر على تقدير حاليتها ، وإما على تقدير كونها تأكيداً فقد منعه البعض لأن المعطوف لا يصلح للتأكيد ولو كان علمه سبحانه بالمغيبات عند المحققين المحقين على وجه التفصيل والاختصاص لأن علم الغيب والشهادة متغايران فلا يؤكد أحدهما الآخر .

نعم قيل : من لم يجعلها مؤكدة جوز العطف عليها فيكون الجملتان مستأنفتين لتفصيل علمه سبحانه وشموله لا غير ، وجوز أن يكون المجموع مؤكداً لاشتماله على مضمون ما قبله لأنه ليس توكيداً اصطلاحياً ، والمراد من هذه الجملة كما قال غير واحد بيان تعلق علمه تعالى بالمشاهدات إثر بيان تعلقه بالمغيبات تكملة له وتنبيهاً على أن الكل بالنسبة إلى علمه المحيط سواء ، والمراد من البر الصحراء ومن البحر خلافه ، وفي "القاموس" أنه الماء الكثير أو الملح فقط ويجمع وجمعه أبحر وبحور وبحار وتصغيره أُبَيْحِر لا بُحَيْرُ" .

وعن مجاهد أن المراد بالبر القفار وبالبحر كل قرية فيها ماء وهو خلاف الظاهر ، وأياً ما كان فالمعنى يعلم ما فيهما من الموجودات مفصلة على اختلاف أجناسها وأنواعها وتكثر أفرادها .

﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا ﴾ أي وما تسقط ورقة من أي شجرة كانت إلا عالماً بها ، فمن زائدة في الفاعل ، والجملة بعد ( إلا ) في موضع الحال منه ، وجاءت الحال من النكرة لاعتمادها على النفي ، والتفريغ في الحال شائع سائغ .

وجوز أن تكون في موضع النعت للنكرة ، والكلام مسوق كما قيل لبيان تعلق علمه تعالى بأحوال المشاهدات المتغيرة بعد بيان تعلقه بذواتها فإن تخصيص حال السقوط بالذكر ليس إلا بطريق الاكتفاء بذكرها عن ذكر سائر الأحوال كما أن ذكر أحوال الورقة وما عطف عليها خاصة دون أحوال سائر ما في البر والبحر من الموجودات التي لا يحيط بها نطاق الحصر باعتبار أنها أنموذج لأحوال سائرها ، قيل : ولعل الاكتفاء بحال السقوط دون الاكتفاء بغيرها من الأحوال لشدة ملاءمتها لما سيأتي إن شاء الله تعالى في آية التوفي ، ولأن التغيير فيها أظهر فهو أوفق بما سيقت له الآية ، وقيل : لأن العلم بالسقوط لكونه من الأحوال الساقطة التي يغفل عنها يستلزم العلم بغيره من الأحوال المعتنى بها فتدبر ، فكأنه قيل : وما تتغير ورقة من حال إلى حال إلا يعلمها .

﴿ وَلَا حَبَّةٍ ﴾ عطف على ﴿ وَرَقَةٍ ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ فِى ظلمات الأرض ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لحبة مفيدة لكمال ظهور علمه تعالى ، والمراد من ظلمات الأرض بطونها ، وكني بالظلمة عن البطن لأنه لا يدرك فيه كما لا يدرك في الظلمة .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما المراد ظلمات الأرض ما تحت الصخرة في أسفل

الأرضين السبع أو تحت حجر أو شيء ، وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ ﴾ عطف على ﴿ وَرَقَةٍ ﴾ أيضاً داخل معها في حكمها ، والمراد بالرطب واليابس رطب ويابس من شأنهما السقوط كالثمار مثلاً لاقتضاء العطف ذلك .

وقوله سبحانه : ﴿ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ كالتكرير لقوله سبحانه : ﴿ إِلاَّ يَعْلَمُهَا ﴾ لأن معناهما واحد في المآل سواء أريد بالكتاب المبين علمه تعالى أو اللوح المحفوظ الذي هو محل معلوماته سبحانه ، وإلى هذا ذهب الزمخشري وأراد كما قال السعد : أنه تكرير من جهة المعنى ، وأما من جهة اللفظ فهو صفة للمذكورات كما أن ﴿ إِلاَّ يَعْلَمُهَا ﴾ صفة لورقة .

*(35/235)*

---

وأورد عليه بأن صفة شيء كيف تكون تكريراً لصفة شيء آخر معنى .

وأجيب بأنه غير وارد لأن الورقة داخلة في الرطب واليابس فلا تغاير بحسب المعنى فيصح ما ذكر ، وقيل : إنه بدل من الاستثناء الأول بدل الكل إن فسر الكتاب بالعلم وبدل الاشتمال إن فسر باللوح وفيه تأمل .

وقرىء ﴿ وَلاَ حَبَّةٍ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ ﴾ بالرفع على العطف على محل ﴿ وَرَقَةٍ ﴾ وخص بعضهم هذه القراءة بالأخيرين .

وجوز أن يكون الرفع على الابتداء والخبر ﴿ إِلاَّ فِى كتاب ﴾ قيل هو الأنسب بالمقام لشمول الرطب واليابس حينئذٍ لما ليس من شأنه السقوط .

وقد جعلهما غير واحد شاملين لجميع الأشياء لأن الأجسام كلها لا تخلو من أن تكون رطبة أو يابسة ويدخل في ذلك الحار والبارد ، والمراد من كل معناه اللغوي لا مصطلح الأطباء كما لا يخفى .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد بالرطب ما ينبت وباليابس ما لا ينبت .

وفي رواية أخرى عنه أن الأول الماء والثاني الثرى .

وروى أبو الشيخ عنه ما يفيد العموم ، ولعله الأولى بالقبول ، وقيل : الرطب الحي واليابس الميت .

*(36/235)*

---

وروى الإمامية عن أبي عبد الله رضي الله تعالى عنه أنه قال : الورقة السقط والحبة الولد وظلمات الأرض الأرحام والرطب ما يحيى واليابس ما يغيض ، وأنا أجل أبا عبد الله رضي الله تعالى عنه عن التفوه بهذا التفسير إذ هو خلاف الظاهر جداً ، ومثله في عدم التبادر ما أخرجه أبو الشيخ عن محمد بن جحادة أنه قال : إن لله تعالى شجرة تحت العرش

ليس مخلوق إلا له فيها ورقة فإذا سقطت ورقته خرجت روحه من جسده ، وذلك قوله سبحانه : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ ﴾ ثم إن تفسير الكتاب باللوح هو الذي مشى عليه جماعة من المفسرين منهم الزجاج فقد قال : إنه تعالى أثبت المعلومات في كتاب من قبل أن يخلق الخلق كما قال سبحانه : ﴿ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾ [ الحديد : 22 ] وفي رواية لمسلم : " إن الله تعالى كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السماء والأرض بخمسين ألف سنة " .

وفائدة ذلك أمور : أحدها : اعتبار الملائكة عليهم السلام موافقات المحدثات للمعلومات الإلهية .

وثانيها : وعليه اقتصر الحسن تنبيه المكلفين على عدم إهمال أحوالهم المشتملة على الثواب والعقاب حيث ذكر أن الورقة والحبة في الكتاب .

وثالثها : عدم تغيير الموجودات عن الترتيب السابق في الكتاب ، ولذا جاء "جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة" ، وهذا الكتاب يسمى اللوح المحفوظ لحفظه عن التحريف ووصول الشياطين إليه أو من المحو والإثبات بناءً على أنهما إنما يكونان في صحف الملائكة دونه .

والبلخي اختار أن معنى قوله تعالى : ﴿ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ أنه محفوظ غير منسي ولا مغفول عنه ، كما يقول القائل لغيره ما تصنع مسطور مكتوب عندي فإنه إنما يريد أنه حافظ له يريد مكافأته عليه .

وأنشد لذلك

: إن لسلمى عندنا ديواناً . . .

(37/235)

---

وذكر الإمام ههنا ما سماه "دقيقة ، وهو أن القضايا العقلية المحضة يصعب تحصيل العلم بها على سبيل التمام والكمال إلا للعقلاء الكاملين الذين تعودوا الإعراض عن قضايا الحس والخيال وألفوا استحضار المعقولات المجردة وهم كالكبريت الأحمر ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب ﴾ من تلك القضايا وحيث أريد إيصالها إلى كل عقل لأن القرآن إنما نزل لينتفع به جميع الخلق ذكر مثال من الأمور المحسوسة الداخلة تحت تلك القضية العقلية الكلية ليصير ذلك المعقول بمعاونة هذا المثال المحسوس مفهوماً لكل واحد فذكر ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى البر والبحر ﴾ ليكشف به عن حقيقة عظمة ذلك المعقول .

وقدم ذكر البر لأن الإنسان قد شاهد أحواله وكثرة ما فيه .

وأما البحر فإحاطة العقل بأحواله أقل إلا أن الحس يدل على أن عجائب البحار في الجملة أكثر وطولها وعرضها أعظم وما فيها من الحيوانات وأجناس المخلوقات أعجب فإذا استحضر الخيال معلومات البر والبحر وعرف أن مجموعها حقير من جنب ما دخل في

دائرة عموم ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب ﴾ يصير ذلك مقوياً ومكملاً للعظمة الحاصلة تحت ذلك ، ثم كشف سبحانه عن عظمة البر والبحر بقوله عز وجل : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا ﴾ ، وذلك لأن العقل يستحضر جميع ما في الأرض من المدن والقرى والمفاوز والمهالك ثم يستحضر كم فيها من النجم والشجر ثم يستحضر أنه لا يتغير حال ورقة إلا والحق يعلمها ، ثم ذكر مثالاً أشد هيبة وهو ﴿ وَلاَ حَبَّةٍ ﴾ الخ .

(38/235)

---

وذلك لأن الحبة تكون في غاية الصغر و ﴿ ظلمات الأرض ﴾ يخفى فيها أكبر الأجسام وأعظمها فإذا سمع العاقل أن تلك الحبة الصغيرة الملقاة في ظلمات الأرض على اتساعها وعظمتها لا تخرج من علمه سبحانه انتبه غاية الانتباه وفاز من مجموع ذلك بالحظ الأوفر من المعنى المشار إليه في صدر الآية ، ثم إنه تعالى لما قوى ذلك المعقول المحض المجرد بذكر هذه الجزئيات المحسوسة عاد إلى ذكر تلك القضية بعبارة أخرى وهي قوله عز اسمه : ﴿ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِى كتاب ﴾ فإنه عين ما تقدم2 .

وهذا مبني على أحد الوجوه في الآية فلا تغفل ، وفيها دليل على أن الله تعالى عالم بالجزئيات .

ونسبت المخالفة فيه للفلاسفة ، والحق أنهم لا ينكرون ذلك وإنما ينكرون علمه سبحانه بها بوجه جزئي وهو بحث طويل الذيل ، وكذا بحث علمه تعالى من حيث هو .

وقد ألفت فيه الرسائل وصار معترك أفهام الأواخر والأوائل وسبحان من لا يقدر قدره غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

(39/235)

---

ومن فوائد الشوكانى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾

المفاتح جمع مفتح بالفتح وهو المخزن ، أي عنده مخازن الغيب ، جعل للأمور الغيبية مخازن تخزن فيها على طريق الاستعارة ، أو جمع مفتح بكسر الميم ، وهو المفتاح ، جعل للأمور الغيبية مفاتح يتوصل بها إلى ما في المخازن منها على طريق الاستعارة أيضاً ، ويؤيد أنها جمع مفتح بالكسر قراءة ابن السميفع " وَعِندَهُ مَفَاتِيح الغيب " فإن المفاتيح جمع مفتاح والمعنى : إن عنده سبحانه خاصة مخازن الغيب ، أو المفاتيح التي يتوصل بها .

وقوله : ﴿ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ جملة مؤكّدة لمضمون الجملة الأولى ، وأنه لا علم لأحد من

خلقه بشيء من الأمور الغيبية التي استأثر الله بعلمها ، ويندرج تحت هذه الآية علم ما يستعجله الكفار من العذاب كما يرشد إليه السياق اندراجاً أوّلياً .

وفي هذه الآية الشريفة ما يدفع أباطيل الكهان والمنجمين والرمليين وغيرهم من المدّعين ما ليس من شأنهم ، ولا يدخل تحت قدرتهم ، ولا يحيط به علمهم ، ولقد ابتلى الإسلام وأهله بقوم سوء من هذه الأجناس الضالة ، والأنواع المخذولة ، ولم يربحوا من أكاذيبهم وأباطيلهم بغير خطة السوء المذكورة في قول الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم " من أتى كاهناً أو منجماً فقد كفر بما أنزل على محمد "

قوله : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي البر والبحر ﴾ خصهما بالذكر لأنهما من أعظم مخلوقات الله ، أي يعلم ما فيهما من حيوان وجماد علماً مفصلاً لا يخفى عليه منه شيء ، أو خصهما لكونهما أكثر ما يشاهده الناس ويتطلعون لعلم ما فيهما ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا ﴾ أي من ورق الشجر وهو تخصيص بعد التعميم ، أي يعلمها ويعلم زمان سقوطها ومكانه .

وقيل : المراد بالورقة ما يكتب فيه الآجال والأرزاق .

*(40/235)*

وحكى النقاش عن جعفر بن محمد : أن الورقة يراد بها هنا السقط من أولاد بني آدم ، قال ابن عطية : وهذا قول جار على طريقة الرموز ، ولا يصح عن جعفر بن محمد ولا ينبغي أن يلتفت إليه ﴿ وَلاَ حَبَّةٍ ﴾ كائنة ﴿ فِى ظلمات الأرض ﴾ أي في الأمكنة المظلمة .

وقيل : في بطن الأرض ﴿ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ ﴾ بالخفض عطفاً على حبة ، وهي معطوفة على ورقة .

وقرأ ابن السميفع ، والحسن ، وغيرهما بالرفع عطفاً على موضع ﴿ من ورقة ﴾ ، وقد شمل وصف الرطوبة واليبوسة جميع الموجودات .

قوله : ﴿ إِلاَّ فِى كتاب مُّبِينٍ ﴾ هو اللوح المحفوظ ، فتكون هذه الجملة بدل اشتمال من ﴿ إِلاَّ يَعْلَمُهَا ﴾ .

وقيل : هو عبارة عن علمه فتكون هذه الجملة بدل كل من تلك الجملة . انتهى انتهى . اهـ

﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد السعدى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ .

هذه الآية العظيمة ، من أعظم الآيات تفصيلا لعلمه المحيط ، وأنه شامل للغيوب كلها ، التي

يطلع منها ما شاء من خلقه . وكثير منها طوى علمه عن الملائكة المقربين ، والأنبياء المرسلين ، فضلا عن غيرهم من العالمين ، وأنه يعلم ما في البراري والقفار ، من الحيوانات ، والأشجار ، والرمال والحصى ، والتراب ، وما في البحار من حيواناتها ، ومعادنها ، وصيدها ، وغير ذلك مما تحتويه أرجاؤها ، ويشتمل عليه ماؤها .

﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ ﴾ من أشجار البر والبحر ، والبلدان والقفر ، والدنيا والآخرة ﴿ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ ﴾ من حبوب الثمار والزروع ، وحبوب البذور التي يبذرها الخلق ؛ وبذور النوابت البرية التي ينشئ منها أصناف النباتات .

*(41/235)*

---

﴿ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ ﴾ هذا عموم بعد خصوص ﴿ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ وهو اللوح المحفوظ ، قد حواها ، واشتمل عليها ، وبعض هذا المذكور ، يبهر عقول العقلاء ، ويذهل أفئدة النبلاء ، فدل هذا على عظمة الرب العظيم وسعته ، في أوصافه كلها .

وأن الخلق -من أولهم إلى آخرهم- لو اجتمعوا على أن يحيطوا ببعض صفاته ، لم يكن لهم قدرة ولا وسع في ذلك ، فتبارك الرب العظيم ، الواسع العليم ، الحميد المجيد ، الشهيد ، المحيط .

وجل مِنْ إله ، لا يحصي أحد ثناء عليه ، بل كما أثنى على نفسه ، وفوق ما يثني عليه عباده ، فهذه الآية ، دلت على علمه المحيط بجميع الأشياء ، وكتابه المحيط بجميع الحوادث .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير السعدى صـ 259 ﴾

*(42/235)*

---

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾

عُطف على جملة : ﴿ والله أعلم بالظالمين ﴾ [ الأنعام : 58 ] على طريقة التخلّص .

والمناسبة في هذا التخلّص هي الإخبار بأنّ الله أعلم بحالة الظالمين ، فإنّها غائبة عن عيان الناس ، فالله أعلم بما يناسب حالهم من تعجيل الوعيد أو تأخيره ، وهذا انتقال لبيان اختصاصه تعالى بعلم الغيب وسعة علمه ثم سعة قدرته وأنّ الخلق في قبضة قدرته .

وتقديم الظرف لإفادة الاختصاص ، أي عنده لا عند غيره .

والعندية عندية علم واستئثار وليست عندية مكان .

والمفاتح جمع مِفْتَح بكسر الميم وهو الآلة التي يفتح بها المغلق ، وتسمّى المِفتاح .

وقد قيل : إنّ مفتح أفصح من مفتاح ، قال تعالى : ﴿ وآتيناه من الكنوز ما إنّ مَفَاتِحَه لتنوء بالعُصْبَة أولي القوة ﴾ [ القصص : 76 ] .

والغيب ما غاب على علم الناس بحيث لا سبيل لهم إلى علمه ، وذلك يشمل الأعيان لمغيَّبة كالملائكة والجنّ ، والأعراض الخفيَّة ، ومواقيت الأشياء .

و﴿ مفاتح الغيب ﴾ هنا استعارة تخييلية تنبني على مكنية بأن شُبِّهت الأمور المغيّبة عن الناس بالمتاع النفيس الذي يُدّخر بالمخازن والخزائن المستوثق عليها بأقفال بحيث لا يعلم ما فيها إلاّ الذي بيده مفاتحها .

وأثبتت لها المفاتِح على سبيل التخييلية .

والقرينة هي إضافة المفاتح إلى الغيب ، فقوله : ﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾ بمنزلة أن يقول : عنده علم الغيب الذي لا يعلمه غيرُه .

ومفاتح الغيب جَمْع مضاف يعمّ كلّ المغيّبات ، لأنّ علمها كلّها خاصّ به تعالى ، وأمّا الأمور التي لها أمارات مثل أمارات الأنواء وعلامات الأمراض عند الطبيب فتلك ليْست من الغيب بل من أمور الشهادة الغامضة .

وغمُوضُها متفاوت والناس في التوصّل إليْها متفاوتون ومعرفتهم بها من قبيل الظنّ لا من قبيل اليقين فلا تسمّى عِلماً ، وقيل : المفاتح جمع مَفْتَح بفتح الميم وهو البيت أو المخزن الذي من شأنه أن يُغلق على ما فيه ثم يُفْتح عند الحاجة إلى ما فيه ، ونقل هذا عن السدّي

، فيكون استعارة مصرّحة والمشبَّه هو العلم بالغيب شبّه في إحاطته وحَجبه المغيّبات ببيت الخزم تشبيه معقول بمحسوس .

وجملة ﴿ لا يعلمها إلاّ هو ﴾ مُبيَّنة لمعنى ﴿ عندَه ﴾ ، فهي بيان للجملة التي قبلها ومفيدة تأكيداً للجملة الأولى أيضاً لرفع احتمال أن يكون تقديم الظرف لمجرّد الاهتمام فأعيد ما فيه طريق مُتَعيِّن كونُه للقصر .

وضمير ﴿ يعلمها ﴾ عائد إلى ﴿ مفاتح الغيب ﴾ على حذف مضاف من دلالة الاقتضاء .

تقديره : لا يعلم مكانَها إلاّ هو ، لأنّ العلم لا يتعلّق بذوات المفاتح ، وهو ترشيح لاستعارة مفاتح الغيب للعلم بالمغيّبات ، ونفيُ علم غيره لها كناية عن نفي العلم بما تغلق عليه المفاتح من علم المغيّبات .

*(43/235)*

---

ومعنى : ﴿ لا يعلمها إلاّ هو ﴾ أي علماً مستقلاً به ، فأمّا ما أُطْلع عليه بعضَ أصفيائه ، كما قال تعالى : ﴿ عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً إلاّ مَن ارتضى مِن رسول ﴾ [ الجن : 26 ] فذلك علم يحصل لمن أطلعه بإخبار منه فكان راجعاً إلى علمه هو .

والعلم معرفة الأشياء بكيفية اليقين .

وفي الصحيح عن عبد الله بن عمر أنّ رسول يا لله صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ مفاتح الغيب خمس : إنّ الله عندَه علمُ الساعة ، ويُنزّل الغيث ، ويعلَم ما في الأرحام ، وما تدري نفس مَاذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت إنّ الله عليم خبير ﴾ .

وجملة : ﴿ ويعلم ما في البرّ والبحر ﴾ عطف على جملة ﴿ لا يعلمها إلاّ هو ﴾ ، أو على جملة ﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾ ، لأنّ كلتيهما اشتملت على إثبات علم لله ونفي علم عن غيره ، فعُطفت عليهما هذه الجملة التي دلَّت على إثبات علم لله تعالى ، دون نفي علم غيره وذلك علم الأمور الظاهرة التي قد يتوصّل الناس إلى علم بعضها ، فعطفُ هذه الجملة على جملة ﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾ لإفادة تعميم علمه تعالى بالأشياء الظاهرة المتفاوتة في الظهور بعد إفادة علمه بما لا يظهر للناس .

وظهور ما في البرّ للناس على الجملة أقوى من ظهور ما في البحر .

وذكر البرّ والبحر لقصد الإحاطة بجميع ما حوته هذه الكرة ، لأنّ البرّ هو سطح الأرض الذي يمشي فيه الحيوان غير سابح ، والبحر هو الماء الكثير الذي يغمر جزءاً من الأرض سواء كان الماء ملحاً أم عذباً .

والعرب تسمِّي النهر بحراً كالفرات ودجلة .

والموصول للعموم فيشمل الذوات والمعاني كلّها .

وجملة : ﴿ وما تسقط من ورقة ﴾ عطف على جملة : ﴿ ويعلم ما في البرّ والبحر ﴾ لقصد زيادة التعميم في الجزئيات الدقيقة .

فإحاطة العلم بالخفايا مع كونها من أضعف الجزئيات مؤذن بإحاطة العلم بما هو أعظم أولى به .

*(44/235)*

---

وهذه من معجزات القرآن فإنّ الله عِلمَ ما يعتقده الفلاسفة وعلم أنْ سيقول بقولهم من لا رسوخ له في الدين من أتباع الإسلام فلم يترك للتأويل في حقيقة علمه مجالاً ، إذ قال : ﴿ وما تسقط من ورقة إلاّ يعلمها ولا حبَّة في ظُلمات الأرض ﴾ كما سنبيّن الاختيار في وجه إعرابه .

والمراد بالورقة ورقة من الشّجر .

وحرف ( مِنْ ) زائد لتأكيد النفي ليفيد العموم نصّاً .

وجملة ﴿ يعلمها ﴾ في موضع الحال من ﴿ ورقة ﴾ الواقعة في حيِّز النفي المستغنية بالعموم عن الصفة .

وذلك لأنّ الاستثناء مفرّغ من أحوال ، وهذه الحال حال لازمة بعد النفي حصل بها مع

الفعل المنفي الفائدة الاستثناء من عموم الأحوال ، أي ما تسقط من ورقة في حالة إلاّ حالة يعلمها .

والأظهر في نظم قوله : ﴿ وما تسقط من ورقة ﴾ أن يكون ﴿ ورقة ﴾ في محلّ المبتدأ مجرور بـ ﴿ منْ ﴾ الزّائدة ، وجملة ﴿ تسْقط ﴾ صفة ل ﴿ ورقة ﴾ مقدّمة عليها فتُعرب حالاً ، وجملة ﴿ إلاّ يعلمها ﴾ خبر مفرّغ له حرفُ الاستثناء .

﴿ ولا حبّة ﴾ عطف على المبتدأ بإعادة حرف النفي ، و ﴿ في ظلمات الأرض ﴾ صفة ل ﴿ حبّة ﴾ ، أي ولا حبّة من بذور النبت مظروفة في طبقات الأرض إلى أبعد عمق يمكن ، فلا يكون ﴿ حبَّة ﴾ معمولاً لفعل ﴿ تسقط ﴾ لأنّ الحبَّة التي تسقط لا تبلغ بسقوطها إلى ظلمات الأرض .

﴿ ولا رطبٍ ولا يابس ﴾ معطوفان على المبتدأ المجرور بـ ﴿ من ﴾ .

والخبر عن هذه المبتدآت الثلاثة هو قوله : ﴿ إلاّ في كتاب مبين ﴾ لوروده بعد الثلاثة ، وذلك ظاهر وقُوع الإخبار به عن الثلاثة ، وأنّ الخبر الأول راجع إلى قوله : ﴿ من ورقة ﴾ .

والمراد بالكتاب المبين العلم الثابت الذي لا يتغيّر ، وما عسى أن يكون عند الله من آثار العلم من كتابة أو غيرها لم يطلعنا على كنهها .

وقيل : جرّ ﴿ حبَّة ﴾ عطف على ﴿ ورقة ﴾ مع إعادة حرف النفي ، و ﴿ في ظلمات الأرض ﴾ وصف ل ﴿ حبّة ﴾ .

(45/235)

---

وكذلك قوله : ﴿ ولا رطب ولا يابس ﴾ بالجرّ عطفاً على ﴿ حبَّة ﴾ و ﴿ ورقة ﴾ ، فيقتضي أنَّها معمولة لفعل ﴿ تسقط ﴾ ، أي ما يَسقط رطب ولا يابس ، ومقيَّدة بالحال في وقوله : ﴿ إلاّ يعلمها ﴾ .

وقوله : ﴿ إلاّ في كتاب مبين ﴾ تأكيد لقوله : ﴿ إلاُّ يعلمها ﴾ لأنّ المراد بالكتاب المبين علم الله تعالى سواء كان الكتاب حقيقة أم مجازاً عن الضبط وعدم التبديل .

وحسَّن هذا التأكيد تجديد المعنى لبعد الأول بالمعطوفات وصفاتها ، وأعيد بعبارة أخرى تفنّناً .

وقد تقدّم القول في وجه جمع ﴿ ظلمات ﴾ عند قوله تعالى : ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ في هذه السورة [ 1 ] .

ومبين إمّا من أبان المتعدّي ، أي مبين لبعض مخلوقاته ما يريده كالملائكة ، أو من أبَانَ القاصر الذي هو بمعنى بان ، أي بيّن ، أي فصل بما لا احتمال فيه ولا تردّد .

وقد علم من هاته الآيات عموم علمه تعالى بالكلّيات والجزئيّات .

وهذا متّفق عليه عند أهل الأديان دون تصريح به في الكتب السابقة وما أعلنه إلاّ القرآن في نحو قوله : ﴿ وهو بكلّ شيء عليم ﴾ [ البقرة : 29 ] .

وفيه إبطال لقول جمهور الفلاسفة أنّ الله يعلم الكلّيات خاصّة ولا يعلم الجزئيّات ، زعماً منهم بأنّهم ينزّهون العلم الأعلى عن التجزّي ؛ فهم أثبتوا صفة العلم لله تعالى وأنكروا تعلّق علمه بجزئيات الموجودات .

وهذا هو المأثور عنهم عند العلماء .

وقد تأوّله عنهم ابن رشد الحفيدُ ونصير الدين الطُوسي .

وقال الإمام الرازي في "المباحث المشرقية" : ولا بدّ من تفصيل مذهب الفلاسفة فإنّ اللائق بأصولهم أن يقال : الأمور أربعة أقسام ؛ فإنّها إمّا أن لا تكون متشكّلة ولا متغيّرة ، وإمّا أن تكون متشكّلة غير متغيّرة ، وإمّا أن تكون متغيّرة غير متشكّلة ؛ وإمّا أن تكون متشكّلة ومتغيّرة معاً .

فأمّا ما لا تكون متشكّلة ولا متغيّرة فإنّه تعالى عالم به سواء كان كلّياً أو جزئياً .

(46/235)

وكيف يمكن القول بأنَّه تعالى لا يعلم الجزئيّات منها مع اتّفاق الأكثر منهم على علمه تعالى بذاته المخصوصة وبالعقول .

وأمّا المتشكّلة غير المتغيّرة وهي الأجرام العلوية فهي غير معلومة له تعالى بأشخاصها عندهم ، لأنّ إدراك الجسمانيات لا يكون إلاّ بالآت جسمانية .

وأمّا المتغيّرة غير المتشكّلة فذلك مثل الصور والأعراض الحادثة والنفوس الناطقة ، فإنَّها غير معلومة له لأنّ تعلّقها يحوج إلى آلة جسمانية بل لأنَّها لمّا كانت متغيّرة يلزم من تغيّرها العلم .

وأمّا ما يكون متشكّلاً ومتغيّراً فهو الأجسام الكائنة الفاسدة .

وهي يمتنع أن تكون مُدْركة له تعالى للوجهين ( أي المذكورين في القسمين الثاني والثالث ) أ هـ .

وقد عُدّ إنكار الفلاسفة أنّ الله يعلم الجزئيَّات من أصول ثلاثة لهم خالفت المعلوم بالضرورة من دين الإسلام .

وهي : إنكار علم الله بالجزئيَّات ؛ وإنكار حشر الأجساد ، والقول بقدم العالم .

ذكر ذلك الغزالي في "تهافت الفلاسفة" فمن يوافقهم في ذلك من المسلمين يعتبر قوله كفراً ، لكنَّه من قبيل الكفر باللازم فلا يعتبر قائله مرتدّاً إلاّ بعد أن يوقف على ما يفضي إليه قولُه

ويأبى أن يرجع عنه فحينئذٍ يستتاب ثلاثاً فإن تاب وإلاّ حكم بردّته . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(47/235)

---

ومن فوائد الشيخ الشنقيطى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ ﴾ الآية .

بين تعالى المراد بمفاتح الغيب بقوله : ﴿ إِنَّ الله عِندَهُ عِلْمُ الساعة وَيُنَزِّلُ الغيث وَيَعْلَمُ مَا فِي الأرحام وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ الله عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [ لقمان : 34 ] فقد أخرج البخاري وأحمد وغيرهما عن ابن عمر ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم " أن المراد بمفاتح الغيب الخمس المذكورة في الآية المذكورة " .

والمفاتح الخزائن جمع تفتح بفتح الميم ، بمعنى المخزن ، وقيل هي المفاتح جمع مِفتح ، بكسر الميم ، وهو المفتاح وتدل له قراءة ابن السميقع .

مفاتيح بياء بعد التاء جمع مفتاح ، وهذه الآية الكريمة تدل على أن الغيب لا يعلمه إلا الله ، وهو كذلك ، لأن الخلق لا يعلمون إلا ما علمهم خالقهم جل وعلا .

وعن عائشة رضي الله عنها ، قالت : " من زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر بما يكون في غدٍ فقد أعظم على الله الفرية " ، والله يقول : ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السماوات والأرض الغيب إِلاَّ الله ﴾ [ النمل : 65 ] أخرجه مسلم والله تعالى في هذه السورة الكريمة أمره صلى الله عليه وسلم ان يعلن للناس أنه لا يعلم الغيب ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ الله ولا أَعْلَمُ الغيب ولا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يوحى إِلَيَّ ﴾ [ الأنعام : 50 ] .

ولذا لما رميت عائشة رضي الله عنها بالإفكِ ، لم يعلم ، أهي بريئة أم لا حتى أخبره الله تعالى بقوله : ﴿ أولئك مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ [ النور : 26 ] .

وقد ذبح إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام عجله للملائكة ، ولا علم له بأنهم ملائكة حتى أخبروه ، وقالوا له :

*(48/235)*

---

﴿ إِنَّا أُرْسِلْنَا إلى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [ هود : 70 ] ، ولما جاؤوا لوطاً لم يعلم أيضاً أنهم ملائكة ، ولذا ﴿ سيء بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ [ هود : 77 ] يخاف عليهم من أن يفعل بهم قومه فاحشتهم المعروفة حتى قال : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوي إلى

رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [ هود : 80 ] ولم يعلم خبرهم حتى قالوا له : ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يصلوا إِلَيْكَ ﴾ [ هود : 81 ] الآيات .

ويعقوب عليه السلام ابيضت عيناه من الحزن على يوسف ، وهو في مصر لا يدري خبره حتى أظهره الله خبر يوسف .

وسليمان عليه السلام مع أن الله سخر له الشياطين والريح ما كان يدري عن أهل مأرب قوم بلقيس حتى جاءه الهدهد ، وقال له : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [ النمل : 22 ] الآيات .

ونوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ما كان يدري أنه ابنه الذي غرق ليس من أهله الموعود بنجاتهم حتى قال : ﴿ رَبِّ إِنَّ ابني مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحق ﴾ [ هود : 45 ] الآية ، ولم يعلم حقيقة الأمر حتى أخبره الله بقوله : ﴿ يا نوح إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِني أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجاهلين ﴾ [ هود : 46 ] .

وقد قال تعالى عن نوح في سورة هود : ﴿ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ الله وَلاَ أَعْلَمُ الغيب ﴾ [ هود : 31 ] الآية ، والملائكة عليهم الصلاة والسلام لما قال لهم : ﴿ أَنبِئُونِي بِأَسْمَآءِ هؤلاء إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَآ إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ [ البقرة : 31-32 ] .

فقد ظهر أن أعلم المخلوقات وهم الرسل ، والملائكة لا يعلمون من الغيب إلا ما علمهم الله تعالى ، وهو تعالى يعلم رسله من غيبه ما شاء ، كما أشار له بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغيب وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَآءُ ﴾ [ آل عمران : 179 ] ، وقوله : ﴿ عَالِمُ الغيب فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ ﴾ [ الجن : 26-27 ] ، الآية .

تنبيه

لما جاء القرآن العظيم بأن الغيب لا يعلمه إلا الله كان جميع الطرق التي يراد بها التوصل إلى شيء من علم الغيب غير الوحي من الضلال المبين ، وبعض منها يكون كفراً .

ولذا ثبت عن النَّبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من أَتى عرَّافاً فسأله عن شيءٍ لم تقبل له صلاة أربعين يوماً " ، ولا خلاف بين العلماء في منع العيافة والكهانة والعرافة ، والطرق والزجر ، والنجوم وكل ذلك يدخل في الكهانة ، لأنها تشمل جميع أنواع ادعاء الإطلاع على علم الغيب .

وقد سئل صلى الله عليه وسلم عن الكهَّان فقال : " ليسوا بشيء "

وقال القرطبي في تفسير هذه الآية ما نصه : فمن قال إنه ينزل الغيث غداً . وجزم به فهو كافر أخبر عنه بأمارة ادعاها أم لا ، وكذلك من قال إنه يعلم ما في الرحم فإنه كافر ، فإن لم

يجزم ، وقال : إن النوء ينزل به الماء عادة ، وإنه سبب الماء عادة ، وإنه سبب الماء على ما قدره وسبق في علمه لم يكفر إلا أنه يستحب له ألا يتكلم به ، فإن فيه تشبيهاً بكلمة اهل الكفر وجهلا بلطيف حكمته ، لأنه ينزل متى شاء مرة بنوء كذا ، ومرة دون النوء .

قال الله تعالى : " أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بالكواكب " على ما يأتي بيانه في الواقعة إن شاء الله تعالى .

*(50/235)*

---

قال ابن العربي : وكذلك قول الطبيب إذا كان الثدي الأيمن مسود الحلمة ، فهو ذكر ، وإن كان في الثدي الأيسر فهو أنثى ، وإن كانت المرأة تجد الجنب الأيمن أثقل فالولد أنثى ، وادعى ذلك عادة لا واجباً في الخلقة لم يكفر ، ولم يفسق .

وأما من ادعى الكسب في مستقبل العمر فهو كافر ، أو أخبر عن الكوائن المجملة ، أو المفصلة في أن تكون قبل أن تكون فلا ريبة في كفره أيضاً .

فأما من أخبر عن كسوف الشمس والقمر ، فقد قال علماؤنا : يؤدب ولا يسجن ، أما عدم كفره فلأن جماعة قالوا : إنه أمر يدرك بالحساب وتقدير المنازل حسبما أخبر الله عنه من قوله : ﴿ والقمر قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ [ يس : 39 ] .

وأما أدبهم ، فلأنهم يدخلون الشك على العامة ، إذ لا يدرون الفرق بين هذا وغيره فيشوشون عقائدهم ، ويتركون قواعدهم في اليقين ، فأدبوا حتى يستروا ذلك إذا عرفوه ولا يعلنوا به .

قلت : ومن هذا الباب ما جاء في صحيح مسلم عن بعض أزواج النَّبي صلى الله عليه وسلم أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة " ، والعراف : هو الحازي والمنجم الذي يدعي علم الغيب ، وهي العرافة وصاحبها عراف ، وهو الذي يستدل على الأمور بأسباب ومقدمات يدَّعي معرفتها . وقد يعتضد بعض أهل هذا الفن في ذلك بالرجز والطرق والنجوم ، وأسباب معتادة في ذلك ، وهذا الفن هو العيافة بالياء ، وكلها ينطلق عليها اسم الكهانة ، قاله القاضي عياض . والكهانة : ادعاء علم الغيب .

قال أبو عمر بن عبد البر في ( الكافي ) : من المكاسب المجتمع على تحريمها الربا ، ومهور البغايا ، والسحت ، والرشا ، وأخذ الأجرة على النياحة ، والغناء ، وعلى الكهانة ، وادعاء الغيب ، وأخبار السماء ، وعلى الزمر واللعب والباطل كله . اه من القرطبي بلفظه ، وقد رأيت تعريفه للعراف والكاهن .

*(51/235)*

وقال البغوي : العراف الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ، ومكان الضالة ونحو ذلك ، وقال أبو العباس بن تيمية : العراف : اسم للكاهن والمنجم والرمال ، ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق .

والمراد بالطرق : قيل الخط الذي يدعي به الإطلاع على الغيب ، وقيل إنه الضرب بالحصى الذي يفعله النساء ، والزجر هو العيافة ، وهي التشاؤم والتيامن بالطير ، وادعاء معرفة الأمور من كيفية طيرانها ومواقعها وأسمائها وألوانها وجهاتها التي تطير إليها .

ومنه قول علقمة بن عبدة التميمي :

ومن تعرض للغربان يزجرها . . . على سلامته لا بد مشؤوم

وكان أشد العرب عيافة بنو لهب حتى قال فيهم الشاعر :

خبير بنو لهب فلا تك ملغياً . . . مقالة لهبي إذا الطير مرت

وإليه الإشارة بقول ناظم عمود النسب :

في مدلج بن بكر القيافة . . . كما للهب كانت العيافة

ولقد صدق من قال :

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى . . . ولا زاجرات الطير ما الله صانع

ووجه تكفير بعض أهل العلم لمن يدعي الإطلاع على الغيب أنه ادعى لنفسه ما استأثر الله

تعالى به دون خلقه ، وكذب القرآن الوارد بذلك كقوله ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السماوات والأرض الغيب إِلاَّ الله ﴾ [ النمل : 65 ] ، وقوله هنا ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ ﴾ ونحو ذلك .

وعن الشيخ أبي عمران من علماء المالكية أن حلوان الكاهن لا يحل له ، ولا يرد لمن أعطاه له ، بل يكون للمسلمين في نظائر نظمها بعض علماء المالكية بقوله :

وأي مال حرموا أن ينتفع . . . موهوبه به ورده منع

حلوان كاهن وأجرة الغنا . . . ونائح ورشوة مهر الزنا

هكذا قيل . والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 1 صـ ﴾

(52/235)

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾

و" مفاتيح " هي إما جمع لِمفْتح أو جمع لَمفْتح . و" المِفْتح " هو آلة الفتح ، ومثلها " مِبرد " أي آلة البرد . وآلة الفتح هي المفتاح . و" مَفْتح " هو الشيء الذي يقع عليه الفتح مثل الخِزانة ،

ونعلم أن بعض الأسماء تأتي على وزن " مِفْعل " أو " مفعال " . فإذا أخذنا " مفاتح " على أساس أنها جمع لمفتح ، فمعنى ذلك أن الحق سبحانه وتعالى يملك المفاتيح التي تفتح على الغيب . وإن اخذنا " مفاتح " على أساس أنها جمع " مَفْتح " أي خِزانة فمعنى ذلك أن الحق عنده خزائن الغيب . وكلا الأمرين لا زمان له . والخزائن لا يوضع فيها إلا كل نفيس وهو مخزون لأوانه ولكل خزانة مفتاح . يقول الحق عن قارون : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ موسى فبغى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الكنوز مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بالعصبة أُوْلِي القوة ﴾ [ القصص : 76 ] .

هكذا نعلم أنه لا يوجد مخزون إلا وهو كنز . وعند الحق مفاتح الغيب ، والغيب هو ما غاب عنك ، وهو نوعان : أمر غائب عنك ومعلوم لغيرك ؛ وهو غيب غير مطلق ولكنه غيب إضافي .

ومثال ذلك ، عندما يقوم نشال بسرقة حافظة نقودك وأنت في الطريق ، أنت لا تعرف أين نقودك ، ولكن اللص يعرف تماماً مكان ما سرق منك . هكذا ترى أنه يوجد فارق بين غيب عنك ، ولكنه ليس غيباً عن غيرك .

*(53/235)*

ولكن هناك ما يغيب عنك وعن غيرك ، ولهذا الغيب مقدمات إن أخذ الإنسان بها فهو يصل إلى معرفة هذا الغيب ، وهذا ما نراه في الاكتشافات العلمية التي تولد أسرارها بأخذ العلماء بالأسباب التي وضعها الله في الكون ، وهو لون من الغيب الإضافي . وهناك لون ثالث من الغيب هو الغيب المطلق ، وهو الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ، مثل ميعاد اليوم الآخر ، وغير ذلك من الغيب الذي يحتفظ الله به لنفسه .

ولذلك نقول : إنه لا يوجد أبداً في هذه الدنيا عالِمُ غيبٍ إلا الله . وعنده سبحانه مفاتح الغيب ، هذا الغيب الذي لا نحس به حساً مشهوداً بالمدركات ، أو كان غيباً بالمقدمات أي أنه ليس له أسباب يمكن لأحدٍ أن يأخذ بها .

ويقول الحق : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي البر والبحر وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأرض وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [ الأنعام : 59 ] .

الحق سبحانه وتعالى – إيناساً لخلقه – حينما يأتي لهم بأمر غير محس لهم ، فإنه يوضح ذلك بالمحس . وعالم المشهد المحس إما مسموع وإما مرئي وإما متذوق وإما ملموس .

وهناك عالم الغيب ، فقد يصطفي الله بعضاً من خلقه ليلقي إليهم هبَّاتٍ من فيضه وعطائه توضح بعض الأمور ، ومثال ذلك العبد الصالح الذي سار معه موسى عليه السلام وقال : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾ [ الكهف : 82 ] .

ومثل هذه الهبَّة تأتي لتثبت لصاحبها أنه على علاقة بربه ، ولا يعطي الحق سبحانه هذه الهبات لتصبح عملاً ملازماً للإنسان ، وجزءاً من طبيعته بحيث نذهب إليه في كل أمر فيخبرنا بما ينبغي علينا أن نقوم به . إن الأمر ليس كذلك بل هي مجرد هبات صفائية ، يمنحها – سبحانه – وينزعها ويمنعها ؛ فسبحانه عنده مفاتح كل الغيب ، ويأتي لنا بالعالم المحسوس : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي البر والبحر ﴾ . وأتى الحق بالبر أولاً قبل البحر ، والبر مُحس لكل الناس بما فيه من جمادات ونباتات وأشجار وحيوانات وأناس وبلاد وطرق . وهناك من البلاد ما لا تطل على بحار أبداً ، ولذلك جاء الحق بالبر أولاً ، ثم جاء بالبحر الذي يمكن أن يُشاهد ، ولكن عالم البحر أخفى من عالم البر . وعوالم البحر تأخذ من مسطح الكرة الأرضية مساحات كبيرة للغاية وكل يوم نكتشف في عالم البحار جديداً .

ومن بعد ذلك يردنا الحق إلى البر مرة أخرى فيقول : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا ﴾ [ الأنعام : 59 ] .

إلى هذه الدرجة يوضح لنا الحق علمه الأزلي ؛ فسبحانه يعلم كل ما يتعلق بورقة شجرة بعد أن تؤدي مهمتها من التمثيل الكلوروفيلي وتغذية الشجرة وإنضاج الثمار ثم سقوطها على

الأرض . والسقوط كما نعرفه هو هبوط شيء مادي إلى أسفل ، وفسره العلماء من بعد ذلك بالجاذبية الأرضية .

وعندما تسقط الورقة من الشجرة تكون خفيفة الوزن ، والحق سبحانه وتعالى هو المتصرف في الأجواء التي تحيط بمجال هبوطها ، وحركة الريح التي تحركها . ولماذا جاء الحق بمسألة الورقة هذه ؟ جاء لنا الحق بمثل هذا المثل لنعلم أنه عندما ذيل الحق سبحانه الآية السابقة بقوله : ﴿ واللهُ أَعْلَمُ بالظالمين ﴾ [ الأنعام : 58 ] .

(55/235)

---

إن هذا التذييل قد احتاج إلى أن يشرحه لنا الحق بأن يعلم أوقات تحركات كل ورقة من أية شجرة ، وهذا يدل على كمال الإحاطة والعلم ، فضلا على أن هذه الأمور لا يترتب عليها ثواب ولا عقاب ، فكيف بالأمور التي يترتب عليها الثواب والعقاب ؟ لا بد أنه سبحانه وتعالى يعلمها ويفصل فيها . ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأرض ﴾ [ الأنعام : 59 ] .

إنه سبحانه أيضاً يعلم بالحبة التي تختفي في باطن الأرض وأحوالها .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [ الأنعام : 59

] .

أي أنه جلت قدرته يعلم أمر كل كائن في هذا العالم ؛ لأن كل كائن في هذه الدنيا إما رطب وإمّا يابس ، وسبحانه لا يعلم ذلك فقط ولكن كل ذلك معلوم له ومكتوب أيضاً .

ويشرف على حركة تلك الكائنات الملائكةُ المدبرات أمرا ، وحين تجد الملائكة أن حركة الكون تسير بنظام محكم دقيق على وفق ما في الكتاب ، فإنها لا تفتر عن تسبيح الله ليلاً أو نهاراً : ﴿ وَلَهُ مَن فِي السماوات والأرض وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ الليل والنهار لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ [ الأنبياء : 19-20 ] .

وللحق مُلك السموات والأرض ، ومن حقه وحده أن يُعبَد ، ولا تتكبر الملائكة عن عبادته والخضوع له ولا يشعرون بالملل من العبادة والتنزيه له سبحانه . وأنت أيها العبد تكون في بعض الأمور مقهوراً ولك في بعض الأمور اختيار ، وهو سبحانه عالم بما ستختار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(56/235)*

---

ومن فوائد ابن العربى فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ .

فِيهَا سَبْعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَعِنْدَهُ ﴾ اعْلَمُوا أَنَّا قَدْ بَيَّنَّا هَذِهِ الْآيَةَ فِي مُلْجِئَةِ الْمُتَفَقِّهِينَ إلَى مَعْرِفَةِ غَوَامِضِ النَّحْوِيِّينَ " بِمَا الْمَقْصُودُ مِنْهُ هَاهُنَا أَنَّ " عِنْدَهُ " كَلِمَةٌ يُعَبَّرُ بِهَا عَمَّا قَرُبَ مِنْك وَتَحْقِيقُهُ أَنَّ دُنُوَّ الشَّيْءِ مِنْ الشَّيْءِ يُقَالُ فِيهِ قَرِيبٌ ، وَنَأْيُهُ عَنْهُ يُقَالُ فِيهِ بَعِيدٌ ، وَأَصْلُهُ : الْمَكَانُ فِي الْمِسَاحَةِ ، تَقُولُ : زَيْدٌ قَرِيبٌ مِنْك ، وَعَمْرٌو بَعِيدٌ عَنْك .

وَيُوضَعُ الْفِعْلُ مَوْضِعَ الِاسْمِ ؛ فَتَقُولُ : زَيْدٌ قُرْبُك ، ثُمَّ يُنْقَلُ إلَى الْمَكَانَةِ الْمَعْقُولَةِ غَيْرِ الْمَحْسُوسَةِ ، فَيُقَالُ : الْعِلْمُ مِنْك قَرِيبٌ ، وَعَلَيْهِ يُتَأَوَّلُ مَا يُخْبِرُ بِهِ عَنْ الْبَارِي سُبْحَانَهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَبِهِ يُفَسَّرُ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَإِذَا سَأَلَك عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ بِعِشْرِينَ مَعْنًى جَائِزَةٍ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، مِمَّا يَصِحُّ أَنْ يُوصَفَ بِهَا وَيُخْبَرُ عَنْهُ بِمَعْنَاهَا عَلَى مَا بَيَّنَّا فِي كِتَابِ الْمُشْكِلَيْنِ " .

وَتَقُولُ : زَيْدٌ قُدَّامُك ، وَعَمْرٌو وَرَاءَك .

(57/235)

فَإِذَا قُلْت زَيْدٌ قُدَّامُك احْتَمَلَ الْمَسَافَةَ مِنْ لَدُنْ جِسْمِهِ إلَى مَا لَا يَنْحَصِرُ مُنْتَهَاهُ قَدَمًا ، وَكَذَلِكَ وَرَاءَك ، فَصَغَّرُوهُ إذَا أَرَادُوا قُرْبَ الْمَسَافَةِ مِنْ الْمُخْبَرِ عَنْهُ ، فَقَالُوا : قُدَيْدِيمَةُ .

وَإِذَا أَرَادُوا تَخْلِيصَ الْقُرْبِ بِغَايَةِ الدُّنُوِّ قَالُوا : زَيْدٌ عِنْدَك ، عَبَّرُوا بِهِ عَنْ نِهَايَةِ الْقُرْبِ ، وَلِذَلِكَ لَمْ يُصَغِّرُوهُ ، فَيَقُولُوا فِيهِ عُنَيْدَ .

وَقَدْ يُعَبَّرُ بِهَا أَيْضًا عَمَّا فِي مِلْكِ الْإِنْسَانِ ، فَيُقَالُ : عِنْدَهُ كَذَا وَكَذَا ؛ أَيْ فِي مِلْكِهِ لِأَنَّ الْمِلْكَ يَخْتَصُّ بِالْمَرْءِ اخْتِصَاصَ الصِّفَةِ بِالْمَوْصُوفِ ؛ فَعَبَّرُوا بِأَقْرَبِ الْوُجُوهِ إلَيْهِ بِقَوْلِهِ : عِنْدَهُ ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ : ﴿ نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ بَيْعِ مَا لَيْسَ عِنْدَك ﴾ يَعْنِي فِي مِلْكِك .

إذَا ثَبَتَ هَذَا وَهِيَ :

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ قُرْبَهَا مِنْهُ قُرْبَ مَكَانَةٍ وَتَيْسِيرٍ ، لَا قُرْبَ مَكَانٍ .

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ أَنَّهَا فِي مِلْكِهِ يُظْهِرُ مِنْهَا مَا يَشَاءُ وَيُخْفِي مَا يَشَاءُ .

(58/235)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : هَذِهِ الْآيَةُ أَصْلٌ مِنْ أُصُولِ عَقَائِدِ الْمُسْلِمِينَ ، وَرُكْنٌ مِنْ قَوَاعِدِ الدِّينِ ، مُعْظَمُهَا يَتَفَسَّرُ بِهَا ، وَفِيهَا مِنْ الْأَحْكَامِ نُكْتَةٌ وَاحِدَةٌ ؛ فَأَمَّا مَنْزَعُهَا فِي الْأُصُولِ فَقَدْ أَوْضَحْنَاهُ فِي كِتَابِ الْمُشْكِلَيْنِ ؛ وَأَمَّا نُكْتَتُهَا الْأَحْكَامِيَّةُ فَنُشِيرُ إلَيْهَا فِي هَذَا الْمَجْمُوعِ ؛ لِأَنَّهَا مِنْ جِنْسِ مَضْمُونِهِ ، وَمَعَ هَذَا فَلَا بُدَّ مِنْ الْإِشَارَةِ إلَى مَا تَضَمَّنَهُ كِتَابُ الْمُشْكِلَيْنِ لِيَنْفَتِحَ بِذَلِكَ غَلْقُ الْحُكْمِ الْمَطْلُوبِ فِي هَذَا الْمَجْمُوعِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ﴾ وَاحِدُهَا مَفْتَحٌ وَمِفْتَاحٌ ، وَجَمْعُهُ مَفَاتِحُ وَمَفَاتِيحُ ، وَهُوَ فِي اللُّغَةِ عِبَارَةٌ عَنْ كُلِّ مَعْنًى يَحِلُّ غَلْقًا ، مَحْسُوسًا كَانَ كَالْقُفْلِ عَلَى الْبَيْتِ ، أَوْ مَعْقُولًا كَالنَّظَرِ ، وَالْخَبَرُ يَفْتَحُ قُفْلَ الْجَهْلِ عَنْ الْعِلْمِ وَالْغَيْبِ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : عِبَارَةٌ عَنْ مُتَعَلِّقٍ لَا يُدْرَكُ حِسًّا أَوْ عَقْلًا ، وَكَمَا لَا يُدْرِكُ الْبَصَرُ مَا وَرَاءَ الْجِدَارِ أَوْ مَا فِي الْبَيْتِ الْمُقْفَلِ ، كَذَلِكَ لَا تُدْرِكُ الْبَصِيرَةُ مَا وَرَاءَ الْمَحْسُوسَاتِ الْخَمْسِ ، وَالْمَحْسُوسَاتُ مُنْحَصِرَةُ الطُّرُقِ بِانْحِصَارِ الْحَوَاسِّ وَالْمَعْقُولَاتُ لَا تَنْحَصِرُ طُرُقُهَا إلَّا مِنْ جِهَةِ قِسْمَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : مَا يُدْرَكُ بِبَدِيهَةِ النَّظَرِ .

الثَّانِي : مَا يَتَحَصَّلُ مِنْ سَبِيلِ النَّظَرِ .

أَمَّا إِنَّهُ لَهُ أُمَّهَاتٌ خَمْسٌ وَقَعَتْ الْإِشَارَةُ إِلَيْهَا وَجَاءَتْ الْعِبَارَةُ عَنْهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

فَالْأُمُّ الْكُبْرَى : السَّاعَةُ ؛ وَمَا تَضَمَّنَتْ مِنْ الْحَشْرِ وَالنَّشْرِ وَالْمَوْقِفِ ، وَمَا فِيهِ مِنْ الْأَهْوَالِ ، وَحَالُ الْخَلْقِ فِي الْحِسَابِ ، وَمِنْقَلُهُمْ بَعْدَ تَفْصِيلٍ وَحَطٍّ وَتَفْصِيلِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ .

الْأُمُّ الثَّانِيَةُ : تَنْزِيلُ الْغَيْثِ وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ الْإِحْيَاءِ وَالْإِنْبَاتِ ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْأَثَرِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَضَعَ ذَلِكَ عَلَى يَدَيْ مِيكَائِيلَ وَتَحْتَ نَظَرِهِ مَلَائِكَةٌ لَا يُحْصِيهَا إلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ تَصْدُرُ عَنْ أَمْرِهِ فِي تَنْفِيذِ الْمَقَادِيرِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِذَلِكَ مِنْ إنْشَاءِ الرِّيَاحِ ، وَتَأْلِيفِ السَّحَابِ ، وَإِلْقَاحِهَا بِالْمَاءِ ، وَفَتْقِهَا بِالْقَطْرِ ، وَعَلَى يَدَيْ كُلِّ مَلِكٍ قَطْرَةٌ يُنْزِلُهَا إلَى بُقْعَةٍ مَعْلُومَةٍ لِيُنَمِّيَ بِهَا شَجَرَةً مَخْصُوصَةً ؛ لِيَكُونَ رِزْقًا لِحَيَوَانٍ مُعَيَّنٍ حَتَّى يَنْتَهِيَ إلَيْهِ الْأُمُّ الثَّالِثَةُ : مَا تَحْوِيهِ الْأَرْحَامُ ، وَقَدْ وَكَّلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِذَلِكَ فِي مَوْرِدِ الْأَمْرِ مَلَكًا يُقَالُ لَهُ إسْرَافِيلُ ، وَفِي زِمَامِهِ : مِنْ الْمَلَائِكَةِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ تَعَالَى ، وَقَرَنَ بِكُلِّ رَحِمٍ مَلَكًا يَجْرِي عَلَى يَدَيْهِ تَدْبِيرُ النُّطْفَةِ فِي أَطْوَارِ الْخِلْقَةِ .

*(60/235)*

الْأُمُّ الرَّابِعَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ .

وَهُوَ مَعْنًى خَبَّأَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنْ الْخَلْقِ تَحْتَ أَسْتَارِ الْأَقْدَارِ ، بِحِكْمَتِهِ الْقَائِمَةِ ، وَحُجَّتِهِ الْبَالِغَةِ ، وَقُدْرَتِهِ الْقَاهِرَةِ ، وَمَشِيئَتِهِ النَّافِذَةِ ، فَكَائِنَاتُ غَدٍ تَحْتَ حِجَابِ اللَّهِ ، وَنَبَّهَ : بِالْكَسْبِ عَنْ تَعْمِيَتِهَا ؛ لِأَنَّهُ أَوْكَدُ مَا عِنْدَ الْمَرْءِ لِلْمَعْرِفَةِ ، وَأَوْلَاهُ لِلتَّحْصِيلِ ، وَعَلَيْهِ يَتَرَكَّبُ الْعُمْرُ وَالرِّزْقُ ، وَالْأَجَلُ ، وَالنَّجَاةُ ، وَالْهَلَكَةُ ، وَالسُّرُورُ ، وَالْغَمُّ ، وَالْغَرَائِزُ الْمُزْدَوِجَةُ فِي جِبِلَّةِ الْآدَمِيِّ مِنْ مَفْرُوحٍ بِهِ أَوْ مَكْرُوهٍ لَهُ .

الْأُمُّ الْخَامِسَةُ :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ .

نَبَّأَ بِهِ عَنْ الْعَاقِبَةِ الَّتِي انْفَرَدَ بِالِاطِّلَاعِ عَلَيْهَا رَبُّ الْعِزَّةِ .

(61/235)

---

وَقَدْ رَوَيْنَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي تَأْكِيدِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ الصَّحَابَةِ ؛ مِنْهُمْ أَبُو ذَرٍّ ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ ؛ قَالَا : ﴿ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجْلِسُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَصْحَابِهِ ، فَيَجِيءُ الْغَرِيبُ فَلَا يَدْرِي أَيُّهُمْ هُوَ حَتَّى يَسْأَلَ عَنْهُ ، فَطَلَبْنَا إلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ نَجْعَلَ لَهُ مَجْلِسًا يَعْرِفُهُ الْغَرِيبُ إذَا أَتَاهُ ، فَبَنَيْنَا لَهُ دُكَّانًا مِنْ طِينٍ ، كَانَ

يَجْلِسُ عَلَيْهِ ، وكُنَّا نَجْلِسُ جَانِبَيْهِ ، فَإِنَّا لَجُلُوسٌ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَجْلِسِهِ إِذْ أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْهًا ، وَأَطْيَبِ النَّاسِ رِيحًا ، وَأَنْقَى النَّاسِ ثَوْبًا ، كَأَنَّ ثِيَابَهُ لَمْ يَمَسَّهَا دَنَسٌ ، إِذْ وَقَفَ فِي طَرَفِ السِّمَاطِ ، فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ .

فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، أَدْنُو ؟ قَالَ : ادْنُهْ .

فَمَا زَالَ بِهِ يَقُولُ : أَدْنُو ؟ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَهُ : ادْنُهْ ، حَتَّى وَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى رُكْبَتَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ أَخْبِرْنِي مَا الْإِسْلَامُ ؟

قَالَ : الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ .

قَالَ : فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَقَدْ أَسْلَمْتَ ؟ قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ : صَدَقْتَ .

قَالَ : فَلَمَّا أَنْ سَمِعْنَا قَوْلَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ أَنْكَرْنَا ذَلِكَ .

(62/235)

ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، أَخْبِرْنِي مَا الْإِيمَانُ ؟ قَالَ : أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ .

قَالَ : فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَقَدْ آمَنْتَ ؟ قَالَ : نَعَمْ .

قَالَ : صَدَقْتَ .

قَالَ : فَمَا الْإِحْسَانُ ؟ قَالَ : الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ .

قَالَ : صَدَقْتَ .

قَالَ : فَمَتَى السَّاعَةُ ؟ قَالَ : فَنَكَّسَ فَلَمْ يُجِبْهُ ، ثُمَّ دَعَاهُ فَلَمْ يُجِبْهُ ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ ، فَحَلَفَ بِاللَّهِ ، وَقَالَ : مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ ، وَلَكِنْ لَهَا عَلَامَاتٌ يَجِئْنَ ، إِذَا رَأَيْتَ رِعَاءَ الْغَنَمِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ ، وَرَأَيْتَ الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ مُلُوكَ الْأَرْضِ ، وَرَأَيْتَ الْمَرْأَةَ تَلِدُ رَبَّهَا ، هُنَّ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ .

وَذَكَرَ كَلِمَةً مَعْنَاهَا ، ثُمَّ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ مَا كُنْتَ بِأَعْلَمَ بِهِ مِنْ رَجُلٍ مِنْكُمْ ، وَإِنَّهُ لَجِبْرِيلُ نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِي صُورَةِ دَحْيَةَ الْكَلْبِيِّ ، يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُمْ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : قَالَ السُّدِّيُّ : الْمُرَادُ بِهَذَا خَزَائِنُ الْغَيْبِ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ ، وَقَرَأَ الْآيَاتِ الْخَمْسَ الْمُتَقَدِّمَةَ .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : هُوَ مَا يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ مِنْ قَوْلِ النَّاسِ : افْتَحْ عَلَيَّ كَذَا أَيْ أَعْطِنِي ، أَوْ عَلِّمْنِي مَا أَتَوَصَّلُ [ بِهِ ] إِلَيْهِ .

فَأَمَّا قَوْلُ السُّدِّيِّ : إِنَّ الْمُرَادَ بِالْمَفَاتِحِ الْخَزَائِنُ فَمَجَازٌ بَعِيدٌ .

وَأَمَّا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ فَعِلْمٌ سَدِيدٌ مِنْ فَكٍّ شَدِيدٍ .

وَأَمَّا قَوْلُ الثَّالِثِ فَأَنْكَرَهُ شَيْخُنَا النَّحْوِيُّ نَزِيلُ مَكَّةَ ، وَقَالَ : أَجْمَعَتْ أَيْ الْفِرْقَةُ السَّالِفَةُ الصَّالِحَةُ مِنْ الْأُمَّةِ عَلَى غَيْرِهِ ؛ وَذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ أَصَحُّ وَأَوْلَى .

وَأَظُنُّهُ لَمْ يَفْهَمْ الْمَقْصُودَ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ ، وَلَا اغْتَرَى فِيهِ الْمَغْزَى ، وَلَقَدْ أَلْحَمَ فِيهِ الصَّوَابَ وَسَدَى ، وَإِذَا مَنَحْتَهُ نَقْدًا لَمْ تَعْدَمْ فِيهِ هُدًى ؛ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى عِلْمُ الْغَيْبِ ، وَبِيَدِهِ الطُّرُقِ الْمُوصِلَةِ إِلَيْهِ ، لَا يَمْلِكُهَا إِلَّا هُوَ ؛ فَمَنْ شَاءَ إِطْلَاعَهُ عَلَيْهَا أَطْلَعَهُ ، وَمَنْ شَاءَ حَجْبَهُ عَنْهَا حَجَبَهُ ، فَلَا يَكُونُ ذَلِكَ مِنْ إِفَاضَتِهِ إِلَّا عَلَى رُسُلِهِ ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ : مَقَامَاتُ الْغَيْبِ الْخَمْسَةُ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا إلَّا اللَّهُ لَا أَمَارَةَ عَلَيْهَا ، وَلَا عَلَامَةَ عَلَيْهَا ، إلَّا مَا أَخْبَرَ بِهِ الصَّادِقُ الْمُجْتَبَى لِاطِّلَاعِ الْغَيْبِ مِنْ أَمَارَاتِ السَّاعَةِ ، وَالْأَرْبَعَةُ سِوَاهَا لَا أَمَارَةَ عَلَيْهَا ؛ فَكُلُّ مَنْ قَالَ : إنَّهُ يَنْزِلُ الْغَيْثُ غَدًا فَهُوَ كَافِرٌ ، أَخْبَرَ عَنْهُ بِأَمَارَاتٍ ادَّعَاهَا ، أَوْ بِقَوْلٍ مُطْلَقٍ .

وَمَنْ قَالَ : إنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي الرَّحِمِ فَهُوَ كَافِرٌ ؛ فَأَمَّا الْأَمَارَةُ عَلَى هَذَا فَتَخْتَلِفُ ؛ فَمِنْهَا كُفْرٌ ، وَمِنْهَا تَجْرِبَةٌ ، وَالتَّجْرِبَةُ مِنْهَا أَنْ يَقُولَ الطَّبِيبُ : إذَا كَانَ الثَّدْيُ الْأَيْمَنُ مُسْوَدَّ الْحَلَمَةِ فَهُوَ ذَكَرٌ ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ فِي الثَّدْيِ الْأَيْسَرِ فَهُوَ أُنْثَى ؛ وَإِنْ كَانَتْ الْمَرْأَةُ تَجِدُ الْجَنْبَ الْأَيْمَنَ أَثْقَلَ فَهُوَ ذَكَرٌ ، وَإِنْ وَجَدَتْ الْجَنْبَ الْأَشْأَمَ أَثْقَلَ فَالْوَلَدُ أُنْثَى ، وَادَّعَى ذَلِكَ عَادَةً لَا وَاجِبًا فِي الْخِلْقَةِ لَمْ نُكَفِّرْهُ ، وَلَمْ نُفَسِّقْهُ .

فَأَمَّا مَنْ ادَّعَى عِلْمَ الْكَسْبِ فِي مُسْتَقْبَلِ الْعُمْرِ فَهُوَ كَافِرٌ ، أَوْ أَخْبَرَ عَنْ الْكَوَائِنِ الْجُمَلِيَّةِ أَوْ الْمُفَصَّلَةِ فِيمَا يَكُونُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ ، فَلَا رِيبَةَ فِي كُفْرِهِ أَيْضًا .

*(65/235)*

---

فَأَمَّا مَنْ أَخْبَرَ عَنْ كُسُوفِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ فَقَدْ قَالَ عُلَمَاؤُنَا : يُؤَدَّبُ وَيُسْجَنُ وَلَا يُكَفَّرُ ، أَمَّا عَدَمُ تَكْفِيرِهِ فَلِأَنَّ جَمَاعَةً قَالُوا : إنَّهُ أَمْرٌ يُدْرَكُ بِالْحِسَابِ ، وَتَقْدِيرِ الْمَنَازِلِ ، حَسْبَمَا أَخْبَرَ

اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي قَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ فَلِحِسَابِهِمْ لَهُ ، وَإِخْبَارِهِمْ عَنْهُ ، وَصِدْقِهِمْ فِيهِ ، تَوَقَّفَتْ عُلَمَاؤُنَا عَنْ الْحُكْمِ بِتَكْفِيرِهِمْ .

وَأَمَّا أَدَبُهُمْ فَلِأَنَّهُمْ يُدْخِلُونَ الشَّكَّ عَلَى الْعَامَّةِ فِي تَعْلِيقِ الْعِلْمِ بِالْغَيْبِ الْمُسْتَأْنَفِ وَلَا يَدْرُونَ قَدْرَ الْفَرْقِ بَيْنَ هَذَا وَغَيْرِهِ ، فَتُشَوَّشُ عَقَائِدُهُمْ فِي الدِّينِ ، وَتَتَزَلْزَلُ قَوَاعِدُهُمْ فِي الْيَقِينِ ، فَأَدِّبُوا حَتَّى يُسِرُّوا ذَلِكَ إذَا عَرَفُوهُ وَلَا يُعْلِنُوا بِهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(66/235)

---

ومن فوائد صاحب الميزان فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ( وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ) إلى آخر الآية .

ذكروا في وجه اتصال الآية بما قبلها أن الآية السابقة لما ختمت بقوله : ( والله أعلم بالظالمين ) زاد الله سبحانه في بيانه فذكر أن خزائن الغيب أو مفاتيح تلك الخزائن عنده سبحانه لا يعلمها إلا هو ، ويعلم كل دقيق وجليل .

وهذا الوجه لا يتضح به معنى الحصر الذى يدل عليه قوله : ( لا يعلمها إلا هو ) فالاولى أن

يوجه الاتصال بما يشتمل عليه مجموع الآيتين السابقتين أعنى قوله : ( قل إنى على بينة من ربى - إلى قوله - والله أعلم بالظالمين ) حيث يدل المجموع على أن ما كانوا يقترحونه من الآية وما يستتبعه من الحكم الفصل والقضاء بينه وبينهم إنما هو عند الله لا سبيل إليه لغيره فهو العالم بذلك الحاكم به ، ولا يغلط في حكمه الفصل وتعذيب الظالمين لأنه أعلم بهم فهو عالم بالغيب لا يشاركه فيه غيره ، وعالم بكل ما جل ودق لا يضل ولا ينسى ، ثم زاد ذلك بيانا بقوله : ( وعنده مفاتح الغيب ) الآية فبين به اختصاصه تعالى بعلم الغيب وشمول علمه كل شئ ، ثم تمم البيان بالآيات الثلاث التى تتلوها .

وبذلك تصير الآيات جارية مجرى ما سيقت إليه نظائرها في مثل المورد كقوله تعالى في قصه هود وقومه : ( قالوا أ جئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما ارسلت به ) ( الأحقاف : 23 ) .

*(67/235)*

---

ثم نقول : المفاتح جمع مفتح بفتح الميم وهو الخزينة ، وربما احتمل أن يكون جمع مفتح بكسر الميم وهو المفتاح ، ويؤيده ما قرئ شاذا : ( وعنده مفاتيح الغيب ) ومآل المعنيين واحد فإن من عنده مفاتيح الخزائن هو عالم بما فيها قادر على التصرف فيها كيف شاء عادة كمن

عنده نفس الخزائن إلا أن سائر كلامه تعالى فيما يشابه هذا المورد يؤيد المعنى الأول فإنه تعالى كرر في كلامه ذكر خزائنه وخزائن رحمته – وذلك في سبعة مواضع – ولم يذكر لها مفاتيح في شئ من كلامه قال تعالى : ( أم عندهم خزائن ربك ) ( الطور : 37 ) وقال : ( لاأقول لكم عندي خزائن الله ) ( الانعام : 50 ) وقال : ( وإن من شئ إلا عندنا خزائنه ) ( الحجر : 21 ) وقال : ( ولله خزائن السماوات والأرض )

( المنافقون : 7 ) وقال : ( أم عندهم خزائن رحمة ربك ) ( ص : 9 ) فالاقرب أن يكون المراد بمفاتح الغيب خزائنه .

وكيف كان فقوله : ( وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ) مسوق لبيان انحصار العلم بالغيب فيه تعالى إما لأن خزائن الغيب لا يعلمها إلا الله ، وإما لأن مفاتيح الغيب لا يعلمها غيره تعالى فلا سبيل لغيره إلى تلك الخزائن إذ لا علم له بمفاتيحها التى يتوصل بها إلى فتحها والتصرف فيها .

وصدر الآية وإن أنبأ عن انحصار علم الغيب فيه تعالى لكن ذيلها لا يختص بعلم الغيب بل ينبئ عن شمول علمه تعالى بكل شئ أعم من أن يكون غيبا أو شهادة فإن كل رطب ويابس لا يختص بما يكون غيبا وهو ظاهر فالآية بمجموعها يبين شمول علمه تعالى لكل غيب وشهادة ، غير أن صدرها يختص ببيان علمه بالغيوب ، وذيلها ينبئ عن علمه بكل شئ أعم من الغيب والشهادة .

ومن جهة أخرى صدر الآية يتعرض للغيوب التى هي واقعة في خزائن الغيب تحت أستار الخفاء وأقفال الابهام ، وقد ذكر الله سبحانه في قوله : وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ) ( الحجر : 21 ) أن التى في خزائن الغيب عنده من الأشياء امور لا يحيط بها الحدود المشهودة في الأشياء ، ولا يحصرها الاقدار المعهودة ، ولا شك انها انما صارت غيوبا مخزونة لما فيها من صفة الخروج عن حكم الحد والقدر فإنا لا نحيط علما إلا بما هو محدود ومقدر ، وأما التى في خزائن الغيب من الأشياء فهى قبل النزول في منزل الشهود والهبوط إلى مهبط الحد والقدر ، وبالجملة قبل أن يوجد بوجوده المقدر له غير محدودة مقدرة مع كونها ثابتة نوعا من الثبوت عنده تعالى على ما تنطق به الآية .

فالأمور الواقعة في هذا الكون المشهود المسجونة في سجن الزمان هي قبل وقوعها وحدوثها موجودة عند الله ثابته في خزائنه نوعا من الثبوت مبهما غير مقدر وإن لم نستطع أن نحيط بكيفية ثبوتها فمن الواقع في مفاتح الغيب وخزائنه الأشياء قبل حدوثها واستقرارها في منزلها المقدر لها من منازل الزمان ، ولعل هناك أشياء أخر مذخورة

مخزونة لا تسانخ ما عندنا من الأمور الزمانية المشهودة المعهودة ، ولنسم هذا النوع من الغيب غير الخارج إلى عرصة الشهود بالغيب المطلق .

*(69/235)*

---

وأما الأشياء بعد تلبسها بلباس التحقق والوجود ونزولها في منزلها بالحد والقدر فالذي في داخل حدودها وأقدارها يرجع بالحقيقة إلى ما في خزائن الغيب ويرجع إلى الغيب المطلق ، وأما هي مع ما لها من الحد والقدر فهى التى من شأنها أن يقع عليها شهودنا ويتعلق بها علمنا فعند ما نعلم بها تصير من الشهادة وعند ما نجهل بها تصير غيبا ، ومن الحرى أن نسميها عند ما تصير مجهولة لنا غيبا نسبيا لأن هذا الوصف الذى يطرؤها عندئذ وصف نسبي يختلف بالنسب والاضافات كما أن ما في الدار مثلا من الشهادة بالنسبة إلى من فيها ، ومن قبيل الغيب بالنسبة إلى من هو في خارجها ، وكذا الاضواء والالوان المحسوسة بحاسة البصر من الشهادة بالنسبة إلى البصر ، ومن الغيب بالنسبة إلى حاسة السمع ، والمسموعات التى ينالها السمع شهادة بالنسبة إليه وغيب بالنسبة إلى البصر ، ومحسوساتهما جميعا من الشهادة بالنسبة إلى الإنسان الذى يملكهما في بدنه ومن الغيب بالنسبة إلى غيره من الأناسى .

والتى عدها تعالى في الايه بقوله : ( ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبه في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس ) من هذا الغيب النسبى فإنها جميعا أمور محدودة مقدرة لا تأبى بحسب طبعها أن يتعلق بها علمنا ولا أن يكون مشهودة لنا فهى من الغيب النسبى .

وقد دلت الآية على ان هذه الأمور في كتاب مبين فما هو الذى منها في كتاب مبين ؟ أهو هذه الأشياء من جهة شهادتها وغيبها جميعا أم هي من جهة غيبها فقط ؟ وبعبارة أخرى : الكتاب المبين أهو هذا الكون المشتمل على اعيان هذه الأشياء لا يغيب عنه شئ منها وإن غاب بعضها عن بعض ام هو أمر وراء هذا الكون مكتوبة فيه هذه الأشياء نوعا من الكتابة مخزونة فيه نوعا من الخزن غائبة من شهادة الشهداء من اهل العالم فيكون ما في الكتاب من الغيب المطلق .

*(70/235)*

---

وبلفظ آخر الأشياء الواقعة في الكون المعدودة بنحو العموم في الآية أهى واقعة بنفسها في الكتاب المبين كما تقع الخطوط بأنفسها في الكتب التى عندنا أم هي واقعة بمعانيها فيه كما تقع المطالب الخارجية بمعانيها بنوع من الوقوع في ما نكتبه من الصحائف والرسائل ثم تطابق

الخارج مطابقة العلم العين ؟ .

لكن قوله تعالى : ( ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ) ( الحديد : 22 ) يدل على ان نسبة هذا الكتاب إلى الحوادث الخارجية نسبة الكتاب الذى يكتب فيه برنامج العمل إلى العمل الخارجي ، ويقرب منه قوله تعالى ( وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ) ( يونس : 61 ) وقوله : ( لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ) ( سبا : 3 ) وقوله : ( قال فما بال القرون الأولى ، قال علمها عند ربى في كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ) ( طه : 52 ) إلى غير ذلك من الآيات .

فالكتاب المبين أيا ما كان هو شئ غير هذه الخارجيات من الأشياء بنحو من المغايرة ، وهو يتقدمها ثم يبقى بعد فنائها وانقضائها كالبرنامجات المكتوبة للاعمال التى تشتمل على مشخصات الأعمال قبل وقوعها ثم تحفظ المشخصات المذكورة بعد الوقوع .

على أن هذا الموجودات والحوادث التى في عالمنا متغيرة متبدلة تحت قوانين الحركة العامة والآيات تدل على عدم جواز التغير والفساد فيما يشتمل عليه هذا الكتاب كقوله تعالى : ( يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ) ( الرعد : 39 ) وقوله : ( في لوح محفوظ ) ( البروج : 22 ) وقوله : ( وعندنا كتاب حفيظ ) ( ق : 4 ) فالايات – كما ترى – تدل

على أن هذا الكتاب في عين أنه يشتمل على جميع مشخصات الحوادث وخصوصيات الاشخاص المتغيرة المتبدلة لا يتبدل هو في نفسه ولا يتسرب إليه أي تغير وفساد .

*(71/235)*

---

ومن هنا يظهر أن هذا الكتاب بوجه غير مفاتح الغيب وخزائن الأشياء التى عند الله سبحانه فإن الله تعالى وصف هذه المفاتح والخزائن بأنها غير مقدرة ولا محدودة ، وإن القدر إنما يلحق الأشياء عند نزولها من خزائن الغيب إلى هذا العالم الذى هو مستوى الشهادة ، ووصف هذا الكتاب بأنه يشتمل على دقائق حدود الأشياء وحدود الحوادث ، فيكون الكتاب المبين من هذه الجهة غير خزائن الغيب التى عند الله سبحانه ، وإنما هو شئ مصنوع لله سبحانه يضبط سائر الأشياء ويحفظها بعد نزولها من الخزائن وقبل بلوغها منزل التحقق وبعد التحقق والانقضاء .

ويشهد بذلك أن الله سبحانه إنما ذكر هذا الكتاب في كلامه لبيان إحاطة علمه بأعيان الأشياء والحوادث الجارية في العالم سواء كانت غائبة عنا أو مشهودة لنا ، وأما الغيب المطلق الذى لا سبيل لغيره تعالى إلى الاطلاع عليه فإنما وصفه بأنه في خزائنه والمفاتح التى عنده لا يعلمها إلا هو بل ربما أشعرت أو دلت بعض الآيات على جواز اطلاع غيره على

الكتاب دون الخزائن كقوله تعالى : ( في كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون ) ( الواقعة : 79 ) .

فما من شئ مما خلقه الله سبحانه إلا وله في خزائن الغيب أصل يستمد منه ، وما من شئ مما خلقه الله إلا والكتاب المبين يحصيه قبل وجوده وعنده وبعده غير أن الكتاب أنزل درجة من الخزائن ، ومن هنا يتبين للمتدبر الفطن أن الكتاب المبين - في عين أنه كتاب محض - ليس من قبيل الألواح والأوراق الجسمانية فإن الصحيفة الجسمانية أيا ما فرضت وكيفما قدرت لا تحتمل أن يكتب فيها تاريخ نفسه فيما لا يزال فضلا عن غيره فضلا عن كل شئ في مدى الأبد .

*(72/235)*

---

فقد بان بما مر من البحث أولا : أن المراد بمفاتح الغيب الخزائن الإلهية التى تشتمل على الأشياء قبل تفريغها فى قالب الأقدار ، وهى تشتمل على غيب كل شئ على حد ما يدل عليه قوله تعالى : ( وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ) ( الحجر : 21 ) .

وثانيا : أن المراد بالكتاب المبين أمر نسبته إلى الأشياء جميعا نسبة الكتاب المشتمل على

برنامج العمل إلى نفس العمل ففيه نوع تعيين وتقدير للاشياء إلا أنه موجود قبل الأشياء ومعها وبعدها ، وهو المشتمل على علمه تعالى بالاشياء علما لا سبيل للضلال والنسيان إليه ، ولذلك ربما يحدس أن المراد به مرتبة واقعية الأشياء وتحققها الخارجي الذى لا سبيل للتغير إليه فإن شيئا ما لا يمتنع من عروض التغير عليه إلا بعد الوقوع وهو الذى يقال : إن الشئ لا يتغير عما وقع عليه .

وبالجملة هذا الكتاب يحصى جميع ما وقع في عالم الصنع والايجاد مما كان وما يكون وما هو كائن من غير أن ان يشذ عنه شاذ إلا أنه مع ذلك إنما يشتمل على الأشياء من حيث تقدرها وتحددها ، ووراء ذلك ألواح وكتب تقبل التغيير والتبديل ، وتحتمل المحو والاثبات كما يدل عليه قوله تعالى : ( يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب ) فإن المحو والاثبات – وخاصة إذا قوبلا بام الكتاب – إنما يكونان في الكتاب .

*(73/235)*

---

وعند ذلك يتضح اتصال الآية أعنى قوله : ( وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ) إلى آخر الآية بما قبلها من الآيات فإن محصل الآيتين السابقتين أن الذى تقترحونه على من الآيات القاضية بينى وبينكم ليس في مقدرتي ، ولا الحكم الحق راجع إلى بل هو عند ربى في علمه

وقدرته ولو كان ذلك إلى لقضى بينى وبينكم وأخذكم العذاب الذى لا يأخذ إلا الظالمين لأن الله يعلم أنكم أنتم الظالمون وهو العالم الذى لا يجهل شيئا أما أنه لا سبيل إلى الوقوف والتسلط على ما يريده ويقضيه من آية قاضية فلان مفاتح الغيب عنده لا يعلمها إلا هو ، وأما أنه أعلم بالظالمين ولا يخطئهم إلى غيرهم فلانه يعلم ما في البر والبحر ويعلم كل دقيق وجليل ، والكل في كتاب مبين .

فقوله تعالى : ( وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ) راجع إلى الغيب المطلق الذى لا سبيل لغيره تعالى إليه ، وقوله : ( لا يعلمها ) ( الخ ) حال وهو ) يدل على أن مفاتح الغيب من قبيل العلم غير أن هذا العلم من غير سنخ العلم الذى نتعارفه فإن الذى يتبادر إلى أذهاننا من معنى العلم هو الصورة المأخوذة من الأشياء بعد وجودها وتقدرها بأقدارها ومفاتح الغيب – كما تبين – علم بالاشياء وهى غير موجودة ولا مقدرة بأقدارها الكونية أي علم غير متناه من غير انفعال من معلوم .

وقوله : ( ويعلم ما في البر والبحر ) تعميم لعلمه بما يمكن أن يتعلق به علم غيره مما ربما يحضر بعضه عند بعض وربما يغيب بعضه عن بعض ، وإنما قدم ما في البر لأنه اعرف عند المخاطبين من الناس .

وقوله : ( وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ) اختص بالذكر لأنه مما يستصعب الإنسان حصول العلم به لأن الكثرة البالغة التى في أوراق الاشجار تعجز الإنسان أن يميز معها بعضها من

بعض فيراقب كلا منها فيما يطرا عليه من الأحوال ، ويتنبه على انتقاصها بالساقط منها إذا سقط .

(74/235)

---

وقوله : ( ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس ) الخ ، معطوفات على قوله : ( من ورقة ) على ظاهر السياق ، والمراد بظلمات الأرض بطونها المظلمة التى تستقر فيها الحبات فينمو منها ما ينمو ويفسد ما يفسد فالمعنى : ولا تسقط من حبة في بطون الأرض المظلمة ولا يسقط من رطب ولا من يابس أيا ما كانا إلا يعلمها ، وعلى هذا فقوله : ( إلا في كتاب مبين ) بدل من قوله : ( إلا يعلمها ) سد مسده ، وتقديره إلا هو واقع مكتوب في كتاب مبين .

وتوصيف الكتاب بالمبين إن كان بمعنى المظهر إنما هو لكونه يظهر لقارئه كل شئ على حقيقة ما هو عليه من غير إن يطرا عليه إيهام التغير والتبدل وسترة الخفاء في شئ من نعوته ، وإن كان المبين بمعنى الظاهر فهو ذلك أيضا لأن الكتاب في الحقيقة هو المكتوب ، والمكتوب هو المحكى عنه ، وإذا كان ظاهرا لا سترة عليه ولا خفاء فيه فالكتاب كذلك .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ الميزان حـ 7 صـ 124 . 130 ﴾

ومن فوائد صاحب الأمثل فى الآية :

تشرع الآية في الكلام على علم الله فتقول: (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها هو) .

"مفاتح" جمع "مفتح" (بكسر الميم وفتح التاء) وهو المفتاح ، أمّا إذا كانت بفتح الميم فهي بمعنى الخزانة التي تختزن فيها الأشياء .

وعلى الأوّل يكون المعنى: إنّ جميع مفاتيح الغيب بيد الله .

وعلى الثّاني يكون المعنى: إنّ جميع خزائن الغيب بيد الله .

ويحتمل أن يكون المعنيان قد اجتمعا في عبارة واحدة ، وكما هو ثابت في علم الأُصول ، فإن استعمال لفظة واحدة لعدة معان لا مانع منه ، وعلى كل حال فهاتان الكلمتان متلازمتان ، لأنّه حيثما كانت الخزانة كان المفتاح .

وأغلب الظن أنّ "مفاتح" بمعنى "مفاتيح" لا بمعنى "خزائن" لأنّ الهدف هو بيان علم الله ، فتكون المفاتيح وسائل لمعرفة مختلف الذخائر وهو أنسب بالآية ، وفي موضعين آخرين في القرآن ترد كلمة "مفاتح" بمعنى المفاتيح(1) .

ثمّ لتوكيد ذلك أكثر يقول: (ويعلم ما في البرّ والبحر) .

"البرّ" كل مكان واسع فسيح ، وتطلق على اليابسة ، "والبحر" كذلك تعني المحل الواسع الذي يتجمع فيه الماء ، وتطلق على البحار والمحيطات وعلى الأنهر العظيمة أحياناً .

فالقول بأنّ الله يعلم ما في البر والبحر ، كناية عن إحاطته بكل شيء ، وهذه الإحاطة بما في البرّ والبحر إنّما تمثل في الحقيقة جانباً من علمه الأوسع .

فهو عالم بحركة آلاف الملايين من الكائنات الحية ، الكبيرة والصغيرة ، في أعماق البحار .

وهو عالم بارتعاش أوراق الأشجار في كل غابة وجبل .

وهو عالم بمسيرة كل برعمة وتفتح أوراقها .

وهو عالم بجريان النسيم في البوادي ومنعطفات الوديان .

وهو عالم بعدد خلايا جسم الإنسان وكريات دمه .

وهو عالم بكل الحركات الغامضة في الإلكترونات في قلب الذّرة .

وهو عالم بكل الأفكار التي تمرّ بتلافيف أدمغتنا حتى أعماق أرواحنا . . . نعم أنّه عالم بكل ذلك على حدّ سواء .

لذلك فإنّه يؤكّد ذلك مرّة أُخرى فيقول: (وما تسقط من ورقة إلاّ يعلمها) .

أي أنّه يعلم عدد الأوراق ولحظة إنفصال كل ورقة عن غصنها وطيرانها في الهواء ، حتى لحظة استقرارها على الأرض ، كل هذا جلي أمام علم الله .

كذلك لا تختفي حبّة بين طيات التراب إلاّ ويعلمها الله ويعلم كل تفاصيلها : (ولا حبّة في

ظلمات الأرض) .

التركيز هنا ـ في الحقيقة ـ على نقطتين حساستين لا يمكن أن يتوصل إليهما الإنسان حتى لو أمضى ملايين السنين من عمره يرتقي سلم الكمال في صنع أجهزته وأدواته المدهشة .

ترى من ذا الذي يستطيع أن يعرف كم تحمل الرياح معها في هبوبها على مختلف أصقاع الأرض في الليل والنهار ، من أنواع البذور المنفصلة عن نباتاتها ؟ وإلى أين تحملها وتنشرها ، أو تدسها في التراب حيث تبقى سنوات مختفية ، حتى يتهيأ لها الماء فتنبت وتنمو ؟

من ذا الذي يعلم كم من هذه البذور في كل أنحاء الدنيا تحمل عن طريق الإنسان أو الحشرات في كل ساعة من نقطة إلى نقطة أُخرى ؟

*(76/235)*

---

أي دماغ الكتروني هذا الذي يستطيع أن يحصي عدد أوراق الشجر التي تسقط كل يوم من أشجار الغابات ؟ انظر إلى غابة من الغابات في الخريف ، وخاصّة بعد مطر شديد أو ريح عاصفة ، وتطلع إلى مشهد سقوط الأوراق المتواصل البديع ، عندئذ تتكشف لك هذه الحقيقة ، وهي أنّ علوماً من هذا القبيل

لن تكون يوماً في متناول يد الإنسان .

إنّ سقوط الورقة ـ في الحقيقة ـ هو لحظة موتها ، بينما سقوط البذرة في مكمنها من الأرض هو لحظة بدء حياتها ، وما من أحد غير الله يعلم بنظام هذا الموت وهذه الحياة ، وحتى أنّ كل خطوة تخطوها البذرة نحو حياتها وإنبعاثها وتكاملها خلال اللحظات والساعات ، جلية في علم الله .

إنّ لهذا الموضوع أثراً "فلسفياً" وآخر "تربوياً" :

أمّا أثره الفلسفي ، فينفي رأي الذين يحصرَون علم الله بالكليات ، ويعتقدون أنّه لا يعلم عن الجزئيات شيئاً ، وفي الآية هنا تأكيد على أنّ الله يعلم الكليات والجزئيات كلها .

أمّا أثره التربوي فواضح ، لأنّ الإيمان بهذا العلم الواسع لله يقول للإنسان : إنّ جميع أسرار وجودك ، وأعمالك ، وأقوالك ونياتك ، وأفكارك كلّها بيّنة أمام الله ، فإذا آمن الإنسان حقّاً بهذا ، فكيف يمكن له أن لا يكون رقيباً على نفسه ويسيطر على أعماله وأقواله ونياته !

وفي ختام الآية يقول تعالى : (ولا رطب ولا يابس إلاّ في كتاب مبين) .

تبيّن هذه العبارة القصيرة سعة علم الله اللامحدود وإحاطته بكل الكائنات بدون أي إستثناء ، إذ أن "الرطب" و"اليابس" لا يقصد بهما المعنى اللغوي ، بل هما كناية عن الشمول والعمومية .

وللمفسّرين آراء متعددة في معنى : "كتاب مبين" ، ولكنّ الأقوى أنّه كناية عن علم الله

الواسع ، أي انّ كل الموجودات مسجلة في علم الله اللامحدود ، كما أنّه تفسر بكونه "اللوح المحفوظ" نفسه ، إذ لا يستبعد أن يكون اللوح المحفوظ هو صفحة علم الله .

وثمّة احتمال آخر عن معنى "كتاب مبين" وهو أنّه عالم الخلق وسلسلة العلل والمعلولات التي كتب فيها كل شيء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الأمثل حـ 4 صـ 312.314 ﴾

*(77/235)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

في " مَفَاتح " ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه جمع " مِفْتح " بكسر الميم والقَصْر ، وهو الآلة التي يُفْتَحُ بها نحو : " مِنْجَل ومَنَاجل " .

والثاني : أنه جمع " مَفتح " بفتح الميم وهو المكان .

ويؤيده تَفْسِيرُ ابن عبَّاسٍ : هي خزائن المطر .

قال الفراء : قوله تعالى : ﴿ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بالعصبة ﴾ [ القصص : 76 ] يعني : خزائنه .

فعلى الأول فقد جعل للغيب [ مفاتيح ] على الاسْتِعَارةِ ؛ لأن المفاتيحَ يُتَوَصَّلُ بها إلى ما في الخزائن المُسْتوثقِ منها بالأغلاقِ والأقفَال .

وعلى الثاني : فالمعنى : وعنده خزائن الغَيْبِ ، والمراد منه القُدْرَةُ على كل الممكنات .

والثالث : أنه جمع " مِفْتاح " بكسر الميم والألف ، وهو الآلة أيضاً إلاَّ أن هذا فيه ضعفٌ من حيث إنه كان ينبغي أن تُقْلَبَ ألف المفرد ياءً ، فيقال : مفاتيح كـ " دنانير " ولكنه قد نقل في جمع " مِصْبَاح " " مَصَابِح " ، وفي جمع " مِحْرَاب " " مَحَارِب " ، وفي جمع " قرقور " " قراقر " ، وهذا كما أتوا بالياء في جمع ما لا مدة في مفرده كقولهم : " دَرَاهيم " و " صَيَارِيف " في جمع " دِرْهَم " و " صَيْرَف " قال : [ البسيط ]

2187 - تَنْفِي يداها الحَصَى فِي كُلِّ هَاجِرَةٍ . . .

نَفْيَ الدَّراهيمِ تَنْقَادُ الصَّيَارِيفِ

وقالوا : عيَّل وعَيَايِيل ؛ قال : [ الزجر ]

2188 - فِيهَا عَيَايِيلُ أُسُودٌ ونُمُرْ . . .

قالوا : عيَّايِيل ونُمور [ فزاد في ] ذلك ونقص .

وقد قرئ " مفاتيح " بالياء ، وهي تؤيد أن " مَفَاتح " ، وإنما حذفت مدّته .

وجوَّز الوَاحِدِيُّ أن يكون " مَفَاتح " جمع " مَفْتح " بفتح الميم ، على أنه مصدر قال بعد كلام حكاه عن أبي إسْحاقَ : فعلى هذا " مفاتح " جمع " المَفْتح " بمعنى الفَتْح كأن المعنى :

وعنده فُتُوحُ الغيب ، أي : هو يفتح الغَيْبَ على مَنْ يَشَاءُ من عباده .

وقال أبو البقاء : " مفاتح " جمع " مفتح " ، والمفتح الخزانَةُ .

فأما ما يفتح به فهو " المِفْتَاحُ " ، وجمعه " مفاتيح " ، وقد قيل : " مفتح " أيضاً انتهى يريد جمع " مَفْتَح " أي : بفتح الميم .

وقد قيل : مفتح ، يعني أنها لغة قليلة في الآلة ، والكثير فيها المد ، وكان ينبغي أن يوضح عبارته فإنها موهمة ، ولذلك شرحناها .

قوله : " لا يَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ " في مَحَلِّ نَصْبٍ على الحال من " مفاتح " والعامل فيها الاسْتِقْرَارُ الذي تَضَمَّنَهُ حرف الجر لوقوعه خبراً .

(78/235)

---

وقال أبو البقاء : نفس الظَّرْفِ إن رفعت به " مفاتح " ، أي : إن رفعته به فاعلاً ، وذلك على رأي الأَخْفشِ ، وتَضَمُّنُهُ الاسْتِقْرارَ لا بد منه على كل قول ، فلا فَرْقَ بين أن يرفع به الفاعل ، أو يجعله خبراً .

قوله : " مِنْ وَرَقَةٍ " فاعل " تسقط " ، و " من " زائدة لاسْتِغْرَاقِ الجنس .

وقوله : " إلاَّ يَعْلَمُهَا " حالٌ من " ورقة " ، وجاءت الحال من النكرة لاعتمادها على النَّفْي ،

والتقدير : وما تسقط من ورقة إلا عالم هن بها ، كقولك : ما أكرمت أحداً إلا صالحاً .

قال شهاب الدّين : ويجوز عندي أن تكون الجُمْلَةُ نعتاً لـ " ورقة " وإذا كانوا أجَازُوا في قوله : ﴿ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [ الحجر : 4 ] أن تكون نَعْتاً لـ " قرية " في قوله : ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [ الحجر : 4 ] مع كونها بالواو ويعتذرون عن زيادة " الواو " فَبِأنْ يجيزوا ذلك هنا أوْلَى .

وحينئذ فيجوز أن تكون في موضع جرّ على اللفظ ، أو رفع على المَحَلّ ، [ والمعنى : يريد ساقط أو نَائِيَة أي : يعلم عدد ما يسقط من ورقِ الشجر ، وما يبقى عليه .

وقيل : يعلم كم انقلبت ظَهراً لبطنٍ إلى أن سقطتْ على الأرض ] .

قوله : " ولا حَبَّةٍ " عطف على لفظ " وَرقة " ، ولو قرئ بالرفع لَكانَ على الموضع والمراد : الحب المعروف في بطُونِ الأرض .

وقيل : تحت الصَّخْرَةِ في أسفل الأرضين و " في ظلمات " صِفَةٌ لـ " حَبّة " .

قوله : ﴿ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِس ﴾ مَعْطُوفانِ أيضاً على لَفْظ " ورقة " ، وقرأهما ابن السَّمَيْفَعِ ، والحسن ، وابن أبي إسْحَاق بالرفع على المَحَلِّ ، وهذا هو الظاهر ويجوز أن يكونا مبتدأين ، والخبر قوله : " إلاَّ في كتابٍ مُبينٍ " .

ونقل الزمخشري أن الرَّفْعَ في الثلاثة أعني قوله " ولا حبَّةٍ ولا رطبٍ ولا يابسٍ " وذكر وَجْهَيِ الرفع المتقدمين ، ونظر الوجه الثاني بقولك : لا رجل منهم ولا امرأة إلا في الدار .

قال ابن عبَّاس : المراد بـ " الرطب " الماء ، و " اليابس " البادية .

وقال عطاء : يريد ما نَبَتَ وما لا يَنْبُتُ .

وقيل : ولا حَيّ ولا مَوَات .

وقيل : هو عبارة عن كل شيء .

قوله : " إلاَّ فِي كتابِ مُبين " في هذه الاسْتِثْنَاءِ غُمُوضٌ ، فقال الزمخشري : وقوله " إلاَّ في كتابٍ مُبينٍ " كالتكرار لقوله : " إلاَّ يَعْلَمُهَا " لأن معنى " إلاَّ يَعْلَمُهَا " ومعنى " إلاَّ في كتابٍ مُبينٍ " واحد .

و " الكتاب " علم الله ، أو اللَّوْحُ ، وأبرزه أبو حيَّان في عبارة قريبة من هذه فقال : " وهذا الاسْتِثْنَاءُ جارٍ مُجْرى التوكيد ، لأن قوله " ولا حبَّةٍ " " ولا رطب " " ولا يابس " معطوف على " مِنْ ورقَةٍ " ، والاسْتِثْنَاءُ الأول مُنْسَحِبٌ عليها ، كما تقول : ما جاءني من رجل إلا أكرمته ، ولا امرأة ، فالمعنى إلاَّ أكرمتها ، ولكنه لما طال الكلام أعيد الاستثناء على سبيلِ التوكيد ، وحسَّنه كونه فاصلة " انتهى .

وجعل صاحب " النظم " الكلام تامًّا عند قوله : " وَلاَيَابِس " ، ثم اسْتَأْنَفَ خبراً آخر بقوله

: " إلاَّ في كتابٍ مُبين " بمعنى : وهو في كتاب مُبين أيضاً ، قال : لأنك لو جعلت قوله : إلاَّ فِي كتابٍ مُبينٍ " مُتصلاً بالكلام الأوَّل لفسد المعنى ، وبيان فساده في فَصْلٍ طويل مذكور في سورة " يونس " في قوله : ﴿ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك ولا أَكْبَرَ إلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [ يونس : 61 ] .

قال شهابُ الدّين : إنما كان فاسد المعنى من حيث اعتقد أنه اسْتِثْنَاءٌ آخر مستقل ، وسيأتي كيف فَسَادُهُ .

أمَّا لو [ جعله ] اسْتِثْنَاءً مؤكّداً للأول ، كما قاله الزمخشري لم يَفْسُدِ المعنى .

*(80/235)*

---

وكيف يُتَصَوَّرُ تمام الكلام على قوله تعالى : " ولا يَابِسٍ " ويبتدأ بـ " إلاَّ " ، وكيف تقع " إلاَّ " هكذا ؟

وقد نَحَا أبو البقاء لشيء مما قاله الجُرْجَانِيُّ ، فقال : " إلاَّ فِي كتابٍ مبين " أي : إلاَّ هو في كتاب مُبين ، ولا يجوز أن يكون اسْتِثْنَاء يعمل فيه " يعلمها " ؛ لأن المعنى يصير : ومَا تَسْقُطُ لم يكُنْ إلاَّ في كتاب ، وجب أن يعلمها في الكتاب ، فإذن يكون الاسْتِثْنَاءُ الثاني بدلاً من الأوَّلِ ، أي : " وما تَسْقُطُ من ورقةٍ إلاَّ هي في كتاب ، وما يعلمها إلاَّ هُوَ " انتهى .

وجَوَابُهُ ما تقدَّم من جَعْلِ الاستثناء تأكيداً ، وسيأتي تقريره إن شاء الله – تعالى – في سورة " يونس " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 184.190 ﴾ .

باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ ﴾ : المفتاح ما به يرتفع الغَلْقُ ، والذي يحصل مقصود كلِّ أحد ، وهو قدرة الحق – سبحانه ؛ فإنَّ التأثير لها في الإيجاد ، والموصوفُ بقدرةِ الإيجاد هو الله .

ويقال أراد بهذا شمول علمه ، أي هو المتفرِّد بالإحاطة بكل معلوم ، وقطعاً لا يُسأَل عن شيء ، ولا يخفى عليه شيء .

ويقال عندك مفاتح الغيب وعنده مفاتح الغيب فإنْ آمنتَ بغيبه مدَّ الشمس على غيبك .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 479 ﴾

*(81/235)*

---

قوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (60) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان من مفاتح الغيب الموت والبعث الذي ينكرونه ، وكان من أدلته العظمة النوم والإيقاظ منه مع ما فيه من الإحسان المتكرر ، وكان فيه مع ذلك تقرير لكمال القدرة بعد تقريره لكمال العلم ، أتبع ذلك قوله : ﴿ وهو ﴾ أي وحده ﴿ الذي يتوفاكم ﴾ أي يقبض أرواحكم كاملة بحيث لا يبقى عندكم شعور أصلاً ، فيمنعكم التصرف بالنوم كما يمنعكم بالموت ، وذكر الأصل في ذلك فقال : ﴿ بالّيل ويعلم ﴾ أي والحال أنه يعلم ﴿ ما جرحتم ﴾ أي كسبتم ﴿ بالنهار ﴾ أي الذي تعقبه النوم ، من الذنوب الموجبة للإهلاك ، ويعاملكم فيها بالحلم بعد العلم ولا يعجل عليكم ، وهو معنى ﴿ ثم يبعثكم ﴾ أي يوقظكم بعد ذلك النوم المستغرق ، فيصرفكم فيما يشاء ﴿ فيه ﴾ أي في النهار الذي تعقب ذلك النوم بعد استحقاقكم للانتقام ﴿ ليقضى ﴾ أي يتم ﴿ أجل مسمى ﴾ كتبه للموتة الكبرى .

ولما تمهد بهذا النشر بعد ذاك الطي في الموتة الصغرى القدرة على مثل ذلك في الموتة الكبرى ، وكان فيه تقريب عظيم له قال : ﴿ ثم ﴾ يبعثكم من تلك الموتة كما بعثكم من هذه ، ويكون ﴿ إليه ﴾ أي وحده ﴿ مرجعكم ﴾ أي حساً بالحشر إلى دار الجزاء ، ومعنى بانقطاع الأسباب على ما عهد في الدنيا ﴿ ثم ﴾ بعد تلك المواقف الطوال والزلازل

والأهوال ، ويمكن أن تشير أداة التراخي إلى عظمة العلم بذلك ، وإليه يرشد أكثر ما قبله من السياق ﴿ ينبئكم ﴾ أي يخبركم إخباراً عظيماً جليلاً مستقصى ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ أي فيجازيكم عليه ، ولعلمه عبر بالعمل لأن الحساب يكون على المكلفين الذين لهم أهلية العلم ، فتقرر – مع كمال قدرته سبحانه على اختراع هذه الأشياء والعلم بها – استقلالُه بحفظها في كل حال وتدبيرها على أحسن وجه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 648 ﴾

*(82/235)*

---

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما بين كمال علمه بالآية الأولى بين كمال قدرته بهذه الآية وهو كونه قادراً على نقل الذوات من الموت إلى الحياة ومن النوم إلى اليقظة واستقلاله بحفظها في جميع الأحوال وتدبيرها على أحسن الوجوه حالة النوم واليقظة .

فأما قوله : ﴿ الذى يتوفاكم بالليل ﴾ فالمعنى أنه تعالى ينيمكم فيتوفى أنفسكم التي بها تقدرون على الإدراك والتمييز كما قال جل جلاله ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مِوْتِهَا والتى لَمْ

تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ التي قضى عَلَيْهَا الموت وَيُرْسِلُ الأخرى إلى أَجَلٍ مسمى ﴾ [ الزمر : 42 ] ، فالله جل جلاله يقبض الأرواح عن التصرف بالنوم كما يقبضها بالموت ، وههنا بحث : وهو أن النائم لا شك أنه حي ومتى كان حياً لم تكن روحه مقبوضة ألبتة ، وإذا كان كذلك لم يصح أن يقال إن الله توفاه فلا بد ههنا من تأويل وهو أن حال النوم تغور الأرواح الحساسة من الظاهر في الباطن فصارت الحواس الظاهرة معطلة عن أعمالها ، فعند النوم صار ظاهر الجسد معطلاً عن بعض الأعمال ، وعند الموت صارت جملة البدن معطلة عن كل الأعمال ، فحصل بين النوم وبين الموت مشابهة من هذا الاعتبار ، فصح إطلاق لفظ الوفاة والموت على النوم من هذا الوجه .

ثم قال : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بالنهار ﴾ يريد ما كسبتم من العمل بالنهار قال تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِّنَ الجوارح ﴾ والمراد منها الكواسب من الطير والسباع واحدتها جارحة .

قال تعالى : ﴿ والذين اجترحوا السيآت ﴾ أي اكتسبوا .

وبالجملة فالمراد منه أعمال الجوارح .

ثم قال تعالى : ﴿ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ أي يرد إليكم أرواحكم في النهار ، والبعث ههنا اليقظة .

ثم قال : ﴿ لِّيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ أي أعماركم المكتوبة ، وهي قوله : ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ﴾ والمعنى يبعثكم من نومكم إلى أن تبلغوا آجالكم ، ومعنى القضاء فصل الأمر على سبيل التمام ، ومعنى قضاء الأجل فصل مدة العمر من غيرها بالموت .

واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه ينيمهم أولاً ثم يوقظهم ثانياً كان ذلك جارياً مجرى الإحياء بعد الإماتة ، لا جرم استدل بذلك على صحة البعث والقيامة .

فقال : ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في ليلكم ونهاركم وفي جميع أحوالكم وأعمالكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 11 . 12 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما ذكر استئثاره بالعلم التام للكليات والجزئيات ذكر استئثاره بالقدرة التامّة تنبيهاً على ما تختص به الإلهية وذكر شيئاً محسوساً قاهراً للأنام وهو التوفي بالليل والبعث بالنهار وكلاهما ليس للإنسان فيه قدرة ، بل هو أمر يوقعه الله تعالى بالإنسان والتوفي عبارة في العرف عن الموت وهنا المعني به النوم على سبيل المجاز للعلاقة التي بينه وبين الموت وهي زوال إحساسه ومعرفته وفكره .

ولما كان التوفي المراد به النوم سبباً للراحة أسنده تعالى إليه وما كان بمعنى الموت مؤلماً قال : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت ﴾ و ﴿ توفته رسلنا ﴾ ﴿ تتوفاهم الملائكة ﴾ والظاهر أن الخطاب عام لكل سامع .

وقال الزمخشري : الخطاب للكفرة وخص الليل بالنوم والبعث بالنهار وإن كان قد ينام بالنهار ويبعث بالليل حملاً على الغالب ، ومعنى ﴿ جرحتم ﴾ كسبتم ومنه جوارح الطير أي كواسبها واجترحوا السيئات اكتسبوها والمراد منها أعمال الجوارح ومنه قيل للأعضاء جوارح .

*(84/235)*

---

قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون من الجرح كأن الذنب جرح في الدين والعرب تقول : وجرح اللسان كجرح اليد .

وقال مكي : أصل الاجتراح عمل الرجل بجارحة من جوارحه يده أو رجله ثم كثر حتى قيل لكل مكتسب مجترح وجارح ، وظاهر قوله : ﴿ ما جرحتم ﴾ العموم في المكتسب خيراً كان أو شراً .

وقال الزمخشري : ما كسبتم من الآثام ؛ انتهى ، وهو قول ابن عباس .

وقال قتادة : ما عملتم .

وقال مجاهد : ما كسبتم والبعث هنا هو التنبه من النوم والضمير في ﴿ فيه ﴾ عائد على ﴿ النهار ﴾ قاله مجاهد وقتادة والسدي ، عاد عليه لفظاً والمعنى في يوم آخر كما تقول : عندي درهم ونصفه وقال عبد الله بن كثير يعود على التوفي أي يوقظكم في التوفي أي في خلاله وتضاعيفه .

وقيل : يعود على الليل .

وقال الزمخشري : ثم يبعثكم من القبور في شأن ذلك الذي قطعتم به أعماركم من النوم بالليل وكسب الآثام بالنهار ، ومن أجله ، كقولك : فيم دعوتني فتقول : في أمر كذا ؛ انتهى .

وحمله على البعث من القبور ينبو عنه قوله : ﴿ ليقضى أجل مسمى ﴾ لأن المعنى والله أعلم أنه تعالى يحييهم في هاتين الحالتين من النوم واليقظة ليستوفوا ما قدر لهم من الآجال والأعمار المكتوبة ، وقضاء الأجل فصل مدّة العمر من غيرها ومسمى في علم الله أو في اللوح المحفوظ أو عند تكامل الخلق ونفخ الروح ، ففي الصحيح أن الملك يقول عند كمال ذلك .

فما الرزق فما الأجل .

وقال الزمخشري : هو الأجل الذي سماه وضربه لبعث الموتى وجزائهم على أعمالهم ﴿ ثم إليه مرجعكم ﴾ هو المرجع إلى موقف الحساب ﴿ ثم ينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ في ليلكم

ونهاركم ؛ انتهى .

وقال غيره : كابن جبير : مرجعكم بالموت الحقيقي .

ولما ذكر تعالى النوم واليقظة كان ذلك تنبيهاً على الموت والبعث وإن حكمهما بالنسبة إليه تعالى واحد فكما أنام وأيقظ يميت ويحيي .

وقرأ طلحة وأبو رجاء ليقضي أجلاً مسمى بنى الفعل للفاعل ونصب أجلاً أي ليتم الله آجالهم كقوله : ﴿ فلما قضى موسى الأجل ﴾ وفي قراءة الجمهور ، ويحتمل أن يكون الفاعل المحذوف ضميره أو ضميرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(85/235)

---

وقال السمرقندى :

﴿ وَهُوَ الذى يتوفاكم بالليل ﴾

يعني : يقبض أرواحكم في منامكم ﴿ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم ﴾ يعني : ما كسبتم من خير أو شر ﴿ بالنهار ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ يعني : من النوم في النهار ويرد إليكم أرواحكم ﴿ ليقضى أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ يعني : ليتم أجلكم وتأكلون رزقكم إلى آخر العمر .

قال بعضهم : إذا نام الإنسان تخرج منه روحه كما روي في الخبر " الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا

تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ " يعني : الأرواح إذا تعارفت وقعت الألفة بين الأبدان .

وإذا لم تتعارف الأرواح تناكرت الأبدان وقال : إن الروح إذا خرجت في المنام من البدن يبقى فيه الحياة ، فلهذا تكون فيه الحركة والنفس .

وإذا انقضى عمره خرجت روحه وتنقطع حياته ، وصار ميتاً لا يتحرك ، ولا يتنفس .

فإن قيل : لو خرجت روحه فكيف لا يتوجع لخروجه إذا نام ؟ قيل : لأنه يخرج بطيبة نفسه ، ويعلم أنه يعود .

وأما إذا انقطع عمره خرج بالكره ، فتوجع له .

وقال بعضهم : لا تخرج منه الروح ، ولكن يخرج منه الذهن .

وهو الذي يسمى بالفارسية روان وقال بعضهم : إنما هو ثقل يدخل في نفسه ، وهو سبب لراحة البدن وغذائه كقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ﴾ [ النبأ : 9 ] أي : راحة ويقال : هذا أمر لا يعرف حقيقته إلا الله تعالى ، وهذا أصح الأقاويل .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ يعني : مصيركم في الآخرة ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ من خير أو شر فيجازيكم بذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيلِ ﴾ يعني به النوم ، لأنه يقبض الأرواح فيه عن

التصرف ، كما يقبضها بالموت ، ومنه قول الشاعر :

إنَّ بَنِي الأَدْرَدِ لَيْسوا مِن أَحَدْ . . . ولَا تَوَفَّاهُم قُرَيْشٌ في العَدَدْ

أي لا تقبضهم .

(86/235)

---

﴿ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾ أي ما كسبتم لأنه مستفاد بعمل الجارحة ، ومنه جوارح الطير لأنها كواسب بجوارحها ، وجَرْحُ الشهادة هو الطَّعْن فيها لأنه مكسب الإثم ، قاله الأعشى :

وهوَ الدَّافِعُ عن ذي كُرْبَةٍ . . . أَيْدِي القَوْمِ إذا الْجَانِي اجْتَرَحْ

﴿ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ يعني في النهار باليقظة ، وتصرف الروح بعد قبضها بالنوم .

﴿ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ يعني استكمال العمر وانقضاء الأجل بالموت .

﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ يعني بالبعث والنشور في القيامة .

﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا من خير وشر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ﴾ الآية ، فيها إيضاح الآيات المنصوبة للنظر ، وفيها ضرب مثل للبعث من القبور ، أن هذا أيضاً إماتة وبعث على نحو ما ، والتوفي هو استيفاء عدد ، قال الشاعر [ منظور الوبري ] : [ الرجز ]

إنَّ بني الأَدْرَمِ لَيْسُوا مِنْ أَحَدْ . . . وَلاَ توفّاهُمْ قريشُ في العَدَدْ

(87/235)

---

وصارت اللفظة عرفاً في الموت ، وهي في النوم على بعض التجوز ، و ﴿ جرحتم ﴾ معناه كسبتم ، ومنه جوارح الصيد أي كواسبه ، ومنه جوراح البدن أنها كواسب النفس ، ويحتمل أن يكون ﴿ جرحتم ﴾ هنا من الجرح كأن الذنب جرح في الدين ، والعرب تقول جرح اللسان كجرح اليد ، وروي عن ابن مسعود أو سلمان شك ابن دينار ، أنه قال : إن هذه الذنوب جراحات فمنها شوى ومنها مقتلة ، ألا وإن الشرك بالله مقتلة ، و ﴿ يبعثكم ﴾ يريد الإيقاظ ، ففي ﴿ فيه ﴾ عائد على النهار قاله مجاهد ، وقتادة والسدي ، وذكر النوم مع الليل واليقظة مع النهار بحسب الأغلب وإن كان النوم يقع بالنهار واليقظة بالليل فنادر ، ويحتمل أن يعود الضمير على التوفي أي يوقظكم في التوفي أي في خلاله وتضاعيفه قاله عبد الله بن كثير ، وقيل يعود على الليل وهذا قلق في اللفظ وهو في المعنى نحو من الذي

قبله ، وقرأ طلحة بن مصرف وأبو رجاء " ليقضي أجلاً مسمى " والمراد بالأجل آجال بني آدم ، ﴿ ثم إليه مرجعكم ﴾ يريد بالبعث والنشور ﴿ ثم ينبئكم ﴾ أي يعلمكم إعلام توقيف ومحاسبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(88/235)

---

وقال البيضاوى :

﴿ وَهُوَ الذى يتوفاكم بالليل ﴾ ينيمكم فيه ويراقبكم ، استعير التوفي من الموت للنوم لما بينهم من المشاركة في زوال الإِحساس والتمييز فإن أصله قبض الشيء بتمامه . ﴿ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بالنهار ﴾ كسبتم فيه خص الليل بالنوم والنهار بالكسب جرياً على المعتاد . ﴿ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ ﴾ يوقظكم أطلق البعث ترشيحاً للتوفي ﴿ فِيهِ ﴾ في النهار . ﴿ ليقضى أَجَلٌ مّسَمًّى ﴾ ليبلغ المتيقظ آخر أجله المسمى له في الدنيا ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ بالموت . ﴿ ثُمَّ يُنَبّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بالمجازاة عليه . وقيل الآية خطاب للكفرة والمعنى أنكم ملقون كالجيف بالليل وكاسبون للآثام بالنهار ، وأنه سبحانه وتعالى مطلع على أعمالكم يبعثكم من القبور في شأن ذلك الذي قطعتم به أعماركم من النوم بالليل وكسب الآثام بالنهار ، ليقضي الأجل الذي سماه وضربه لبعث الموتى وجزائهم على

أعمالهم ، ثم إليه مرجعكم بالحساب ، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون بالجزاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 416.417 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي يَتَوَفَّاكُم بالليل ﴾ أي ينيمكم فيقبض نفوسكم التي بها تميزون ، وليس ذلك موتا حقيقة بل هو قبض الأرواح عن التصرف بالنوم كما يقبضها بالموت .

والتَّوَفِّي استيفاء الشيء .

وتُوُفِّيَ الميت استوفى عدد أيام عمره ، والذي ينام كأنه استوفى حركاته في اليقظة .

والوفاة الموت .

وأوفيتك المال ، وتوفيته ، واستوفيته إذا أخذته أجمع .

وقال الشاعر :

إن بني الأَدْرَدِ ليسوا مِن أحدْ . . .

ولا توفّاهم قريشٌ في العَدَدْ

ويقال : إن الروح إذا خرج من البدن في المنام تبقى فيه الحياة ؛ ولهذا تكون فيه الحركة والتنفس ، فإذا انقضى عمره خرجت روحه وتنقطع حياته ، وصار ميتا لا يتحرك ولا يتنفس .

وقال بعضهم .

لا تخرج منه الروح ، ولكن يخرج منه الذهن .

ويقال : هذا أمر لا يعرف حقيقته إلا الله تعالى .

وهذا أصح الأقاويل ، والله أعلم .

(89/235)

---

﴿ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ أي في النهار ؛ ويعني اليقظة .

﴿ ليقضى أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ أي ليستوفي كل إنسان أجلا ضرب له .

وقرأ أبو رَجاء وطلحة بن مصرِّف "ثم يبعثكم فيه ليقضي أجلا مسمى" أي عنده .

و﴿ جَرَحْتُم ﴾ كسبتم .

وقد تقدّم في "المائدة" .

وفي الآية تقديم وتأخير ، والتقدير وهو الذي يتوفاكم بالليل ثم يبعثكم بالنهار ويعلم ما جرحتم فيه ؛ فقدّم الأهم الذي من أجله وقع البعث في النهار .

وقال ابن جُريج : "ثم يبعثكم فِيهِ" أي في المنام .

ومعنى الآية : إن إمهاله تعالى للكفار ليس لغفلة عن كفرهم فإنه أحصى كل شيء عددا وعَلمه وأثبته ، ولكن ليقضي أجلا مسمى من رزق وحياة ، ثم يرجعون إليه فيجازيهم .

وقد دلّ على الحشر والنشر بالبعث ؛ لأن النشأة الثانية منزلتها بعد الأولى كمنزلة اليقظة بعد النوم في أنّ من قدر على أحدهما فهو قادر على الآخر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(90/235)

---

وقال ابن كثير :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (60) ﴾

يخبر تعالى إنه يتوفى عباده في منامهم بالليل ، وهذا هو التوفي الأصغر كما قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ [ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ] ﴾ [آل عمران : 55] ، وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ [الزمر : 42] ، فذكر في هذه الآية الوفاتين : الكبرى والصغرى ، وهكذا ذكر في هذا المقام حكم الوفاتين الصغرى ثم الكبرى ، فقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ﴾ أي : ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار . وهذه جملة معترضة دلت على إحاطة علمه تعالى بخلقه في

ليلهم ونهارهم، في حال سكونهم وفي حال حركتهم، كما قال: ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ [الرعد: 10]، وكما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ أي: في الليل ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [القصص: 73] أي: في النهار، كما قال: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ [النبأ: 10، 11]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ﴾ أي: ما كسبتم بالنهار ﴿ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ أي: في النهار. قاله مجاهد، وقتادة، والسُّدِّي.

وقال ابن جريج عن عبد الله بن كثير: أي في المنام.

(91/235)

---

والأول أظهر. وقد روى ابن مَرْدُوَيه بسنده (1) عن الضحاك، عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مع كل إنسان ملك إذا نام أخذ نفسه، ويُرَد إليه. فإن أذن الله في قبض روحه قبضه، وإلا رد إليه"، فذلك قوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ ﴾ وقوله ﴿ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ يعني به: أجل كل واحد من الناس، ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ ﴾ أي: فيخبركم ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

أي : ويجزيكم على ذلك إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 266 ﴾

---

(1) ورواه أبو الشيخ كما في الدر المنثور (280/3) وفي إسناده انقطاع بين الضحاك وابن عباس .

(92/235)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَهُوَ الذى يتوفاكم بالليل ﴾ أي يُنيمُكم فيه على استعارة التوفّي من الإماتة للإنامة لما بين الموتِ والنومِ من المشاركة في زوال الإحساس والتمييز ، وأصله قبضُ الشيء بتمامه ﴿ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بالنهار ﴾ أي ما كَسَبتم فيه والمرادُ بالليل والنهار الجنسُ المتحققُ في كل فردٍ من أفرادهما ، إذْ بالتوفي والبعثِ الموجودَين فيها يتحققُ قضاءُ الأجلِ المسمَّى المترتبِ عليها لا في بعضِها ، والمرادُ بعلمه تعالى ذلك علمُه قبل الجَرْحِ كما يلوحُ به تقديمُ ذكره على البعث أي يعلم ما تجرَحون بالنهار ، وصيغةُ الماضي للدلالة على التحقّق ، وتخصيصُ التوفي بالليل والجَرْحِ بالنهار مع تحقّق كلَ منهما فيما خُصَّ بالآخر للجَرْي على سَنن العادة ﴿ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ أي يوقظكم في النهار ، عطفٌ على يتوفاكم ، وتوسيطُ قوله تعالى :

﴿ وَيَعْلَمَ ﴾ الخ ، بينهما لبيان ما في بعثهم من عظيمِ الإحسانِ إليهم بالتنبيه على أن ما يكتسبونه من السيئات مع كونها موجبةً لإبقائهم على التوفّي بل لإهلاكهم بالمرة يُفيض عليهم الحياة ويُمهلُهم كما ينبىء عنه كلمةُ التراخي ، كأنه قيل : هو الذي يتوفاكم في جنس الليالي ثم يبعثكم في جنس النهار مع علمه بما ستجرَحون فيها ﴿ ليقضى أَجَلٌ مّسَمًّى ﴾ معيَّنٌ لكل فردٍ فردٌ بحيث لا يكاد يتخطى أحدٌ ما عُيّن له طرفةَ عينٍ ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أي رجوعُكم بالموت لا إلى غيره أصلاً ﴿ ثُمَّ يُنَبّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بالمجازاة بأعمالكم التي كنتم تعملونها في تلك الليالي والأيامِ ، وقيل : الخطابُ مخصوصٌ بالكفرة ، والمعنى أنكم مُلقَوْن كالجيف بالليل كاسبون للآثام بالنهار ، وأنه تعالى مطّلعٌ على أعمالكم يبعثكم الله من القبور في شأن ما قطعتم به أعمارَكم من النوم بالليل وكسْبِ الآثامِ بالنهار ليقضى الأجلُ الذي سماه وضَرَبه لبعث الموتى وجزائِهم على أعمالهم .

وفيه ما لا يخفى من التكلّف والإخلالِ ، لإفضائه إلى كون البعث معلَّلاً بقضاء الأجلِ المضروب له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(93/235)

وقال الآلوسى :

﴿ وَهُوَ الذى يتوفاكم بالليل ﴾ أي ينيمكم فيه كما نقل عن الزجاج والجبائي ، ففيه استعارة تبعية حيث استعير التوفي من الموت للنوم لما بينهما من المشاركة في زوال إحساس الحواس الظاهرة والتمييز ، قيل : والباطنة أيضاً ، وأصله قبض الشيء بتمامه ، ويقال : توفيت الشيء واستوفيته بمعنى .

﴿ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بالنهار ﴾ أي ما كسبتم وعملتم فيه من الإثم كما أخرج ذلك ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقتادة ، وهو الذي يقتضيه سياق الآية فإنه للتهديد والتوبيخ ، ولهذا أوثر ﴿ يتوفاكم ﴾ على ينيمكم ونحوه و ﴿ جَرَحْتُم ﴾ على كسبتم إدخالاً للمخاطبين الكفرة في جنس جوارح الطير والسباع ، وبعضهم يجعل الخطاب عاماً والمراد من الليل والنهار الجنس المتحقق في كل فرد من أفرادهما ؛ إذ بالتوفي والبعث الموجودين فيهما يتحقق قضاء الأجل المسمى المترتب عليهما ، والباء في الموضعين بمعنى في كما أشرنا إليه .

والمراد بعلمه سبحانه ذلك كما قيل : علمه قبل الجرح كما يلوح به تقديم ذكره على البعث أي يعلم ما تجرحون ( بالنهار ) وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ، وتخصيص التوفي بالليل والجرح بالنهار للجري على السنن المعتاد وإلا فقد يعكس .

﴿ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ أي يوقظكم في النهار ، وهل هو حقيقة في هذا المعنى أو مجاز فيه

قولان .

والمتبادر منه في عرف الشرع إحياء الموتى في الآخرة وجعلوه ترشيحاً للتوفي وهو ظاهر جداً على المتبادر في عرف الشرع لاختصاصه بالمشبه به .

ويقال على غيره : إنه لا يشترط في الترشيح اختصاصه بالمشبه به بل أن يكون أخص به بوجه كما قرروه في قوله

(94/235)

---

: له لبد أظفاره لم تقلم . . .

والبعث في الموتى أقوى لأن عدم الإحساس فيه كذلك فإزالته أشد .

وقد صرحوا أيضاً أن الترشيح يجوز أن يكون باقياً على حقيقته تابعاً للاستعارة لا يقصد به إلا تقويتها ويجوز أن يكون مستعاراً من ملائم المستعار منه لملائم المستعار له ، والجملة عطف على ﴿ يتوفاكم ﴾ وتوسيط ﴿ وَيَعْلَمَ ﴾ الخ بينهما لبيان ما في بعثهم من عظيم الإحسان إليهم بالتنبيه على أن ما يكسبونه من الإثم مع كونه مما يستأهلون به إبقاءهم على التوفي بل إهلاكهم بالمرة يفيض سبحانه عليهم الحياة ويمهلهم كما ينبىء عنه كلمة التراخي كأنه قيل : هو الذي يتوفاكم في جنس الليالي ثم يبعثكم في جنس الأنهر مع علمه جل شأنه

بما ترتكبون فيها .

﴿ ليقضى أَجَلٌ مّسَمًّى ﴾ معين لكل فرد وهو أجل بقائه في الدنيا ، وتكلف الزمخشري في تفسير الآية فجعل ضمير ﴿ فِيهِ ﴾ جارياً مجرى اسم الإشارة عائداً على مضمون كونهم متوفين وكاسبين و ﴿ فِى ﴾ بمعنى لام العلة كما في قولك : فيم دعوتني ؟ والأجل المسمى هو الكون في القبور أي ثم يبعثكم من القبور في شأن ذلك الذي قطعتم به أعماركم من النوم بالليل وكسب الآثام بالنهار ومن أجله ليقضى الأجل الذي سماه سبحانه وضربه لبعث الموتى وجزائهم على أعمالهم ، وما ذكرناه هو الذي ذهب إليه الزجاج والجبائي وغالب المفسرين وهو عري عن التكلف الذي لا حاجة إليه .

*(95/235)*

---

وزعم بعضهم أن الداعي إليه هو أن قوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بالنهار ﴾ دال على حال اليقظة وكسبهم فيها ، وكلمة ثم تقتضي تأخير البعث عنها فلهذا عدل الزمخشري إلى ما عدل إليه ، وقال بعض المحققين : إن قوله سبحانه : ﴿ وَيَعْلَمَ ﴾ الخ إشارة إلى ما كسب في النهار السابق على ذلك الليل والواو للحال ولا دلالة فيه على الإيقاظ من هذا التوفي وأن الإيقاظ متأخر عن التوفي وأن قولنا : يفعل ذلك التوفي لتقضى مدة الحياة المقدرة كلام منتظم

غاية الانتظام ، ولا يخفى أن فيه تكلفاً أيضاً مع أن واو الحال لا تدخل على المضارع إلا شذوذاً أو ضرورة في المشهور ووجه سنان التراخي المفاد بثم بأن حقيقة الإماتة في الليل تتحقق في أوله والإيقاظ متراخ عنه وإن لم يتراخ عن جملته واعترض بأنه حينئذٍ لا وجه لتوسيط ﴿ وَيَعْلَمَ ﴾ الخ بينهما وفيه نظر يعلم مما ذكرنا ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ ﴾ سبحانه لا إلى غيره أصلاً ﴿ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أي رجوعكم ومصيركم بالموت ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بالمجازاة بأعمالكم التي كنتم داومتم على عملها في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ﴾

عطف جملة ﴿ وهو الذي يتوفَّاكم ﴾ على جملة ﴿ وما تسقط من ورقة إلاّ يعلمها ﴾ [ الأنعام : 59 ] انتقالاً من بيان سعة علمه إلى بيان عظيم قدرته لأنّ ذلك كلَّه من دلائل الإلهية تعليماً لأوليائه ونعياً على المشركين أعدائه .

وقد جرت عادة القرآن بذكر دلائل الوحدانية في أنفس الناس عقب ذكر دلائلها في الآفاق فجمع ذلك هنا على وجه بديع مؤذن بتعليم صفاته في ضمن دليل وحدانيته .

وفي هذا تقريب للبعث بعد الموت .

فقوله : ﴿ وهو الذي يتوفَّاكم ﴾ صيغة قصر لتعريف جزأي الجملة ، أي هو الذي يتوفَّى الأنفس دون الأصنام فإنَّها لا تملك موتاً ولا حياة .

(96/235)

---

والخطاب موجه إلى المشركين كما يقتضيه السياق السابق من قوله : ﴿ لَقُضي الأمر بيني وبينكم ﴾ [ الأنعام : 58 ] واللاحق من قوله ﴿ ثم أنتم تشركون ﴾ [ الأنعام : 64 ] ويقتضيه طريق القصر .

ولمَّا كان هذا الحال غير خاصّ بالمشركين علم منه أنّ الناس فيه سواء .

والتوفّي حقيقته الإماتة ، لأنَّه حقيقة في قبض الشيء مستوفى .

وإطلاقه على النوم مجاز لشبه النوم بالموت في انقضاع الإدراك والعمل .

ألا ترى قوله تعالى : ﴿ الله يتوفَّى الأنفسَ حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمَّى ﴾ [ الزمر : 42 ] .

وقد تقدّم تفصيله عند قوله تعالى : ﴿ إذ قال الله يا عيسى إنِّي متوفِّيك ﴾ في سورة [ آل عمران : 55 ] .

والمراد بقوله : يتوفَّاكم ﴾ ينيمكم بقرينة قوله : ﴿ ثم يبعثكم فيه ﴾ ، أي في النهار ، فأراد

بالوفاة هنا النوم على التشبيه .

وفائدته أنّه تقريب لكيفية البعث يوم القيامة ، ولذا استعير البعث للإفاقة من النوم ليتمّ التقريب في قوله : ﴿ ثم يبعثكم فيه ﴾ .

ومعنى ﴿ جرحتم ﴾ كسبتم ، وأصل الجرح تمزيق جلد الحيّ بشيء محدّد مثل السكين والسيف والظُفُر والناب .

وتقدّم في قوله : ﴿ والجروح قصاص ﴾ في سورة [ العقود : 45 ] .

وأطلق على كلاب الصيد وبزاته ونحوها اسمُ الجوارح لأنَّها تجرح الصيد ليُمسكه الصائد .

قال تعالى : ﴿ وما عَلَّمتم من الجوارح مكلِّبين ﴾ وتقدّم في سورة [ العقود : 4 ] .

كما سمَّوها كواسب ، كقول لبيد :

غُضْفا كَواسبَ ما يُمَنّ طَعَامُها

فصار لفظ الجوارح مرادفاً للكواسب ؛ وشاع ذلك فأطلق على الكسب اسم الجرح ، وهو المراد هنا .

وقال تعالى : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيّئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ [ الجاثية : 21 ] .

وجملة : ﴿ ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ معترضة لقصد الامتنان بنعمة الإمهال ، أي ولولا فضله لما بعثكم في النهار مع علمه بأنَّكم تكتسبون في النهار عبادة غيره ويكتسب بعضكم بعض ما نهاهم عنه كالمؤمنين .

ووقع الاقتصار على الإخبار بعلمه تعالى ما يكسب الناس في النهار دون الليل رعياً للغالب ، لأنّ النهار هو وقت أكثر العمل والاكتساب ، ففي الإخبار أنّه يعلم ما يقع فيه تحذير من اكتساب ما لا يرضَى الله باكتسابه بالنسبة للمؤمنين ، وتهديد للمشركين .

وجملة : ﴿ ثم يبعثكم فيه ﴾ معطوفة على ﴿ يتوفَّاكم بالليل ﴾ فتكون ( ثُمّ ) للمهلة الحقيقية ، وهو الأظهر .

ولك أن تجعل ( ثم ) للترتيب الرتبي فتعطف على جملة ﴿ ويعلم ما جرحتم ﴾ ؛ أي وهو يعلم ما تكتسبون من المناهي ثم يردّكم ويمهلكم .

وهذا بفريق المشركين أنسب .

و( في ) للظرفية .

والضمير للنهار .

والبعثُ مستعار للإفاقة من النوم لأنّ البعث شاع في إحياء الميّت وخاصّة في اصطلاح القرآن ﴿ قالوا أئذا متنا وكنَّا تراباً وعظاماً أإنَّا لمبعوثون ﴾ [ المؤمنون : 82 ] وحسَّن

هذه الاستعارة كونها مبنية على استعارة التوفِّي للنوم تقريباً لكيفية البعث التي حارت فيها عقولهم ، فكلّ من الاستعارتين مرشّحٍ للأخرى .

واللاّم في ﴿ ليقضى أجل مُسمّى ﴾ لام التعليل لأنّ من الحكم والعلل التي جعل الله لها نظام اليقظة والنوم أن يكون ذلك تجزئة لعُمُر الحي ، وهو أجله الذي أجّلت إليه حياته يومَ خلقه ، كما جاء في الحديث " يؤمر بكتب رزقه وأجله وعمله " فالأجل معدود بالأيام والليالي ، وهي زمان النوم واليقظة .

والعلَّةُ التي بمعنى الحكمة لا يلزم اتِّحادها فقد يكونِ لفعل الله حِكَم عديدة .

فلا إشكال في جَعل اللاّم للتعليل .

وقضاء الأجل انتهاؤه .

ومعنى كونه مُسمَّى أنَّه معيَّن محدّد .

والمرجع مصدر ميمي ، فيجوز أن يكون المراد الرجوع بالموت ، لأنّ الأرواح تصير في قبضة الله ويبطل ما كان لها من التصرّف بإرادتها .

ويجوز أن يكون المراد بالرجوع الحشر يوم القيامة ، وهذا أظهر .

وقوله : ﴿ ثُم يُنَبّئكم بما كنتم تعملون ﴾ أي يحاسبكم على أعمالكم بعد الموت ، فالمهلة في ( ثم ) ظاهرة ، أو بعد الحشر ، فالمهلةُ لأنّ بين الحشر وبين ابتداء الحساب زمناً ، كما ورد في حديث الشفاعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(98/235)

---

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي يَتَوَفَّاكُم بالليل وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بالنهار ﴾ الآية .

ذكر في هذه الآية الكريمة أن النوم وفاة ، وأشار في موضع آخر إلى أن وفاة صغرى وأن صاحبها لم يمت حقيقة ، وأنه تعالى يرسل روحه إلى بدنه حتى ينقضي أجله ، وأن وفاة الموت التي هي الكبرى قد مات صاحبها ، ولذا يمسك روحه عنده ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مِوْتِهَا والتي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ التي قضى عَلَيْهَا الموت وَيُرْسِلُ الأخرى إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [ الزمر : 42 ] .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 1 صـ ﴾

(99/235)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " باللَّيْلِ " متعلّق بما قبله على أنه ظَرْفٌ له ، و" الباءُ " تأتي بمعنى " في " ، وقَدْ تقدَّم منه جملة صالحة .

وقال أبو البقاء هنا : وجاز ذلك ؛ لأن " الباءس " للإلْصَاقِ والمُلاصِقُ للزمان والمكان حَصِلٌ فيها ، يعني في هذه العلاقةِ المجوزة للتَّجَوُّر ، وعلى هذا فلا حَاجَةَ إلى أن يَنُوب حَرْفٌ مكان آخر ، بل نقول : هي هنا للإلْصَاقِ مَجَازاً ، نحو ما قالوه في " مررتُ بزيد " ، وأسند التَّوَفِّي هنا إلى ذاتِهِ المُقَدَّسَةِ ، لأنه لا ينفر منه هنا ، إذ المُرَادُ به الدعَةُ والرَّاحَةُ ، وأسند إلى غيره في قوله : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ [ الأنعام : 61 ] ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الموت ﴾ [ السجدة : 11 ] لأنه ينفر منه ، إذا المُرَادُ به المَوْتُ .

وها هنا بَحْثٌ ، وهو أن النائم لا شكَّ أنَّهُ حيٌّ ، ومتى كان حَيّاً لم تكن رُوحُهُ مَقْبُوضَةً أَلْبَتَّةَ فلا بُدَّ ها هنا من تأويلٍ ، وهو أنه حالَ النوم تَغُورُ الأرواح الحسَّاسَةُ من الظاهر في الباطن ، فصارت الحواسُّ الظاهِرَةُ مُعَطَّلَةً عن أعمالها ، فعند النوم صار ظَاهِرُ الجَسَدِ مُعَطَّلاً عن كُلِّ الأعمال ، فحصل بين النَّوءم وبين الموت مُشَابَهَةٌ من هذه الحَيْثِيَّةِ ، فلذلك صَحَّ إطلاق لفظ المَوْتِ والوفَاةِ على النوم .

قوله : " مَا جَرَحْتُمْ " الظاهر أنها مَصْدَرِيَّةٌ ، وإن كان كونها موصولة اسمية أكثر ويجوز أن تكون نَكِرَةً مَوْصُوفَةً بما بعدها ، والعَائِدُ على كلا التقديرين الآخرين مَحْذُوفٌ ، وكذا عند الأخْفَشِ وابن السّراجِ على القول الأول .

و " بالنَّهَارِ " كقوله : " باللَّيْلِ " والضميرُ في " فيه " عائد على " النهار " وهذا هو الظاهر .

قال أبو حيَّان : " عاد عليه لَفْظاً ، والمعنى : في يوم آخر ، كما تقول : عندي دِرْهَمٌ ونَصْفُهُ " .

قال شهابُ الدين : ولا حَاجَةَ في الظَّاهِرِ على عَوْدِهِ على نظير المذكور ، إذ عَوْدُهُ على المذكور لا مَحْذُورَ فيه .

وأمَّا ما ذكره من نحو " درهم ونِصْفُهُ " فلضرورة انْتِفَاءِ العِيِّ من الكلامِ ، قالوا : لأنك إذا قلت : " عندي درهمٌ " أنَّ عندك نصفه ضرورة .

فقولك بعد ذلك : " ونصفه " تضطَرُّ إلى عَوْدِهِ إلى نظير ما عندك ، بخلاف ما نَحْنُ فيه .

وقيل : يعود على اللَّيل .

وقيل : يعود على التَّوَفِّي ، وهو النوم أي : يوقظكم في خلالِ النوم .

وقال الزمخشري : " ثم يَبْعَثُكُمْ من القبور في شَأنِ الذي قطعتم به أعْمَارَكُمْ من النوم باللَّيْلِ ، وكَسْب الآثام بالنهار " انتهى . وهو حَسَنٌ .

قوله : " لِيُقْضَى أجَلٌ " الجمهور على لِيُقْضَى " مبنيّاً للمعفولِ ، و" أجَلٌ " رفع به ، وفي الفاعل المَحْذُوفِ احتمالان :

أحدهما : أنه ضمير البَارِئ تعالى .

والثاني : أنه ضير المخاطبين أي : لتقضوا آجالكم .

وقرأ أبو رجاءٍ ، وطلحة : " لِيَقْضِي " مَبْنياً للفاعل ، وهو الله تعالى ، و" أجَلاً " مفعول به ، و" مُسَمى " صفة ، فهو مرفوع على الأوّل ، ومنصوب على الثاني وتيرتَّبُ على ذلك خلافٌ للقُرَّاءِ في إمالَةِ ألِفِهِ ، و" اللام " في " ليقضي " متعلّقة بما قبلها من مجموع الفِعْلَيْن ، أي : يتوفاكم ثُمَّ يبعثكم لأجْلِ ذلك .

والمرادُ : الأجَلُ المسمَّى ، أي : عمركم المكتوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 191.193 ﴾ . باختصار .

*(101/235)*

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ

مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (60)

إنه يتوفَّى الأنفس في حال النوم وفي حال الوفاة ، وكما أنه لا يعاقبك بالليل فإنه لا يعذبك – إذا توفَّاك – على ما جرحت بالنهار مع علمه بأفعالك ، فبالحريّ ألا يعذّبَك غداً – إذا توفَّاك – على ما علمه من قبيح أحوالك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 479 ﴾

*(102/235)*

---

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (51) وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (52) وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (53) وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (54) وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ

الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (55) قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (56) قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي
وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ
(57) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ
(58) وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا
يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (59) وَهُوَ الَّذِي
يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ
ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (60) ﴾

*(103/235)*

---

التفسير : لما وصف الرسل بكونهم مبشرين ومنذرين أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالإنذار وهو الإعلام بموضع المخافة فقال له ﴿ وأنذر به ﴾ قال ابن عباس والزجاج : أي بالقرآن وهو المذكور هنا في قوله ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إليّ ﴾ [ الأنعام : 50 ] وقال الضحاك : أي بالله . قيل : والأول أولى لأن الإنذار والتخويف إنما يقع بالقول وفيه نظر ، لأن الإنذار لا نزاع فيه أنه قول ولكن المنذر به قلما يكون قولاً لقوله ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة ﴾ [

غافر : 18 ] ﴿ فأنذرتكم ناراً تلظى ﴾ [ الليل : 14 ] ولو زعم أن المراد وأنذرهم النار والعذاب بواسطة القرآن قلنا : فقدر مثله ههنا ،

(104/235)

---

والمعنى أنذرهم العذاب بقول ينبىء عن شدة سخط الله وعقوبته . أما ﴿ الذين يخافون أن يحشروا ﴾ فقيل : إنهم الكافرون الذين سبق ذكرهم ، فلعل ناساً من المشركين من حالهم أنهم يخافون إذا سمعوا بحديث البعث أن يكون حقاً فيهلكوا فهم ممن يرجى أن ينجع فيهم الإنذار فأمر أن ينذر هؤلاء دون المتمردين منهم . ثم قال هذا القائل ولا يجوز حمله على المؤمنين لأنهم يعلمون أنهم يحشرون ، والعلم خلاف الخوف والظن . وضعف بأن الخوف شامل للناس كافة لعدم الجزم بالثواب وقبول الطاعة وإن كانوا مقرين بصحة الحشر والنشر فالظاهر أن الضمير يتناول الكل لأن العاقل لا بد أن يخاف الحشر سواء كان جازماً به أو شاكاً فيه . وأيضاً إنه مأمور بتبليغ الكل فلا وجه للتخصيص . وقيل : إنهم قوم مسلمون مفرطون في العمل فينذرهم بما أوحي إليه لعلهم يدخلون في زمرة أهل التقوى من المسلمين . وقيل : هم أهل الكتاب لأنهم مقرون بالعبث . ومعنى ﴿ إلى ربهم ﴾ إلى حكمه وقضائه فلا يلزم منه مكان ولا جهة .

أما قوله ﴿ ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع ﴾ فقال الزجاج : إن الجملة في موضع الحال من ضمير ﴿ يحشروا ﴾ أي يخافون أن يحشروا غير منصورين ولا مشفوعاً لهم . فإن كان الضمير للكفار فظاهر ، وإن كان للمؤمنين فشفاعة الملائكة والرسل إذا كانت بإذن الله تعالى فإنها تكون بالحقيقة من الله تعالى فصح أنه ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع ، ولا بد من هذه الحال لأن الحشر مطلقاً ليس مخوفا وإنما المخوف هو الحشر على هذه الحالة لأنهم اعتقدوا أن لا ناصر ولا شفيع إلا الله وإذا لم يكن الله ناصراً وشفيعاً لزم أن لا يكون ناصراً أصلاً . ﴿ لعلهم يتقون ﴾ قال ابن عباس : لكي يخافوا في الدنيا وينتهوا عن الكفر والمعاصي . قالت المعتزلة : فيه دلالة على أنه أراد من الكفار التقوى والطاعة . وأجيب بأن الترجي راجع إلى العباد . ولما أمر بإنذار عموم المكلفين ليتقوا أردفهم بذكر المتقين وأمر بتقريبهم وإكرامهم . " روي عن ابن مسعود أن الملأ من قريش مروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم – وعنده صهيب وبلال وخباب وعمار وغيرهم من ضعفاء المسلمين – فقالوا : يا محمد ، أرضيت بهؤلاء أتريد أن نكون تبعاً لهؤلاء ؟ اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم اتبعناك . فقال صلى الله عليه وسلم : ما أنا بطارد المؤمنين . فقالوا : فأقمهم عنا

إذا جئنا فإذا قمنا فأقعدهم معك إن شئت . فقال : نعم طمعاً في إيمانهم " وروي أن عمر قال له : لو فعلت حتى ننظر إلى ماذا يصيرون . ثم إنهم قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : اكتب بذلك كتاباً ، فدعا الصحيفة وعلي ليكتب فنزلت ﴿ ولا تطرد ﴾ الآية . فرمى بالصحيفة واعتذر عمر عن مقالته . قال سلمان وخباب : فينا نزلت . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد معنا وندنو منه حتى تمس ركبتنا ركبته ، وكان يقوم عنا إذا أراد القيام فنزلت ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم ﴾ [ الكهف : 28 ] فترك القيام عنا إلى أن نقوم عنه . وقال : الحمد لله الذي لم

*(106/235)*

---

يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أمتي معكم المحيا ومعكم الممات ، أثنى الله عليهم بأنهم يدعون ربهم بالغداة والعشي . قال ابن عباس والحسن ومجاهد : أي يصلون صلاة الصبح والعصر . وقيل : أي يذكرون ربهم طرفي النهار ، والمراد بالغداة والعشي الدوام . والغداة لغة ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس ، والعشي ما بين الزوال إلى الغروب . قال الجوهري : غدوة بالتنوين نكرة وبدونه معرفة غير مصروفة كسحر . ومحل ﴿ يريدون وجهه ﴾ نصب على الحال أو على الاستئناف كأنه قيل : ما أرادوا بالمواظبة على

الدعاء ؟ فأجيب بقوله ﴿ يريدون وجهه ﴾ ولا يثبت به لله تعالى عضو كما زعمت المجسمة ولكن المراد به التعظيم ، فقد يعبر به عن ذات الشيء أو حقيقته كما يقال : هذا وجه الرأي وذاك وجه الدليل .

*(107/235)*

---

وأيضاً المحبة تستلزم طلب رؤية الوجه فلهذا السبب جعل الوجه كناية عن المحبة وطلب الرضا . ثم علل النهي بقوله ﴿ ما عليك من حسابهم من شيء ﴾ قيل : الضمير عائد إلى المشركين أي لا يؤاخذوا بحسابك ولا أنت بحسابهم حتى يهمك إيمانهم ويدعوك ذلك إلى أن تطرد المؤمنين ، والأولى أن يعود إلى الفقراء ليناسب قوله ﴿ فتطردهم ﴾ كما في قصة نوح ﴿ إن حسابهم إلا على ربي ﴾ [ الشعراء : 113 ] وذلك أنهم طعنوا في دينهم وإخلاصهم كان الأمر على ما زعموا فيما يلزمك إلا اعتبار الظاهر إن كان لهم باطن غير مرضي فحسابهم لا يتعدى إليك كما أن حسابك لا يتعدى إليهم ، فالجملتان لهما مؤدى واحد وهو المفهوم من قوله ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [ الأنعام : 164 ] كأنه قيل : لا تؤاخذ أنت ولا هم بحساب صاحبه . وقيل : ما عليك من حساب رزقهم من شيء ولا من حساب رزقك عليهم من شيء . وإنما الرازق لك ولهم هو الله سبحانه فدعهم يكونوا

عندك ، أما قوله ﴿ فتطردهم ﴾ فهو جواب النفي في ﴿ ما عليك ﴾ وفي انتصاب ﴿ فتكون ﴾ وجهان : أحدهما أنه جواب النهي ، والثاني أنه عطف على ﴿ فتطردهم ﴾ على وجه التسبب ، لأن كونه ظالماً معلوم من طردهم ومسبب عنه ، فإن طرد من يستوجب التقريب والترحيب وضع للشيء في غير موضعه ومن هنا طعن بعض الناس في عصمة النبي صلى الله عليه وسلم قالوا : كان يقول كلما دخل أولئك الفقراء عليه بعد هذه الواقعة مرحباً بمن عاتبني ربي فيهم أو لفظ هذا معناه . والجواب أنه ما طردهم لأجل الاستخفاف بهم والاستنكاف من فقرهم وإنما أفرد لهم مجلساً تألفاً لقلوب المشركين وتكثيراً لسواد الإسلام مع علمه بأنه لا يفوت الفقراء بهذه المصالحة أمر مهم في الدنيا ولا في الدين ، فغاية ذلك أنه يكون من باب تبرك الأولى والأفضل ، ﴿ وكذلك ﴾ أي مثل ذلك الفتن العظيم ﴿ فتنا ﴾ ابتلينا بعض الناس ببعض ، فأحد الفريقين وهم الكفار يرى الآخر مقدماً عليه في المناصب الدينية فيقول ﴿

*(108/235)*

---

أهؤلاء ﴾ المسترذلون ﴿ منّ الله عليهم من بيننا ﴾ كقوله : ﴿ أألقي الذكر عليه من بيننا ﴾ [ القمر : 25 ] والفريق الآخر يرى الأول مقدماً عليه في الخيرات العاجلة والخصب

والسعة الراحة والدعة فيقول : أهذا هو الذي فضله الله علينا . وأما المحققون فهم الذين يعلمون أن كل ما فعله الله فهو صواب ، ولا اعتراض عليه بحكم المالكية وبحسب رعاية الأصلح . وبالجملة فصفات الكمال غير محصورة ولا تجتمع في إنسان واحد ألبتة بل هي موزعة على الخلائق وكلها محبوبة لذاتها . فكل إنسان يحسد صاحبه على ما آتاه الله تعالى من صفة الكمال ، فمن عرف سر القدر رضي بنصيب نفسه وسكت عن التعرض لغيره وعاش عيشاً طيباً في الدنيا والآخرة . قال هشام بن الحكم الافتتان الاختبار والامتحان ، وفيه دليل على أنه تعالى لا يعلم الجزئيات إلا عن حدوثها .

والجواب أنه يعامل المكلف معاملة المختبر وقد مر مراراً . وقالت الأشاعرة : في الآية دلالة على مسألة خلق الأعمال لأن تلك الفتنة التي ألقاها الله تعالى ليست إلا اعتراضهم على الله والاعتراض عليه كفر . فهو تعالى خالق للكفر . وأيضاً منة الله عليهم ليست إلا بالإيمان ومتابعة الرسول ، فلو كان الموجد للإيمان هو العبد كان العبد هو المان على نفسه . أجاب المعتزلة بأن معنى فتناهم ليقولوا خذلناهم حتى آل أمرهم إلى أن قالوا : فتكون اللام لام العاقبة ، وزيف بأنه عدول عن الظاهر مع أنا ننقل الكلام إلى الخذلان فلا بد من الانتهاء إليه تعالى ﴿ أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ بمن يصرف كل ما أنعم به عليه فيما أعطاه لأجله فيظهر أفعاله على حسب معلوم الله تعالى . وقال في الكشاف : أي الله أعلم بمن يقع منه الإيمان والشكر فيوفقه للإيمان ، وبمن يصمم على كفره فيخذله ويمنعه التوفيق .

﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا ﴾ قال عكرمة : نزلت في الذين نهى الله نبيّه صلى الله عليه وسلم عن طردهم وكان إذا رآهم بدأهم بالسلام ، وقال : " الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام " وقال ماهان الحنفي : أتى قوم النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنا أصبنا ذنوباً عظاماً ، وأظهروا الندامة والأسف فما أخاله رد عليهم بشيء . فلما ذهبوا وتولوا نزلت الآية . قال في التفسير الكبير : الأقرب أن تحمل الآية على عمومها ، فكل من آمن بآيات الله تعالى يدخل تحت هذا التشريف والإكرام ثم أبدى إشكالاً وهو أن المفسرين اتفقوا على أن هذه السورة نزلت دفعة واحدة ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن يقال في كل واحدة من جميع آي هذه السورة إنها نزلت بسبب الأمر الفلاني ؟ قلت : لا استبعاد في أن تنزل السورة دفعة وينزل الصحابة كل آية منها على واقعة تناسبها ، كيف وهم أعرف بحقائق التنزيل وأعلم بدقائق التأويل لأنهم أهل مشاهدة الوحي وأرباب مزاولة الأمر والنهي ؟ ! واعلم أن ما سوى الله تعالى فهو آيات وجود الله ، وأنها لا تكاد تنحصر فيجب على المكلف أن يكون مدة حياته كالسابح في تلك البحار والسائح في هذه القفار ليكون دائماً مترقياً في معارجها مترقباً أن تفيض عليه الأنوار من

مدارجها فيستعد لبشارة ﴿ سلام عليكم ﴾ ويستأهل لكرامة ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ ﴿ فقل سلام عليكم ﴾ إما أن يكون أمراً بتبليغ سلام الله إليهم ، وإما أن يكون أمراً بأن يبدأهم بالسلام إكراماً لهم . قال الزجاج : ﴿ سلام ﴾ إما مصدر " سلمت سلاماً وتسليماً " مثل : كلمت كلاماً وتكليماً . ومعناه الدعاء بأن يسلم من الآفات في نفسه ودينه ، وإما أن يكون جمع سلامة . وقيل : السلام هو الله أي الله عليكم أي على حفظكم ولعل هذا الوجه إنما يتأتى في المعرف لا في المنكر .

(110/235)

---

﴿ كتب ربكم ﴾ من جملة المقول لهم تبشيراً بسعة رحمة الله وقبوله التوبة . ومعنى كتب على نفسه أوجب على ذاته إيجاب الكرم لا إيجاباً يستحق بتركه الذم . وقالت المعتزلة : كونه عالماً بقبح القبائح وباستغنائه عنها يمنعه عن الإقدام عليها ولو فعل كان ظلماً ، وإيجاب الرحمة ينافي القول بأنه منع الكافر من الإيمان ثم أمره حال ذلك المنع بالإيمان ثم يعذبه على ترك ذلك الإيمان ، وأجيب بأنه فاعل لما يشاء ولا اعتراض عليه . ﴿ أنه من عمل ﴾ من قرأ بالفتح فعلى الإبدال من الرحمة ، ومن قرأ بالكسر فعلى الاستئناف كأن الرحمة استفسرت فقيل : إنه من عمل ﴿ منكم سوءاً بجهالة ﴾ وهو في موضع الحال أي

عمله وهو جاهل . والمراد أنه فاعل فعل الجهال لأن من عمل ما يضره في العاقبة وهو عالم بذلك أو ظان فهو من أهل السفه لا من أهل الحكمة والتدبير ، أو أنه جاهل بعاقبته ومن حق الحكيم أن لا يقدم على ما لا يعرف مآل حاله . ﴿ ثم تاب من بعده ﴾ بأن يندم على ما فعله ﴿ وأصلح ﴾ العمل في المستقبل ﴿ فأنه غفور ﴾ يزيل العقاب عنه ﴿ رحيم ﴾ يوصل الثواب إليه من قرأ بالكسر فعلى : أن الجملة جزاء للشرط ، ومن قرأ بالفتح فعلى أن الخبر أو المبتدأ محذوف أي فغفرانه كائن أو فأمره أنه غفور . قيل : إن الآية نزلت في عمر حين أشار بإجابة الكفرة إلى ما طلبوا ولم يعلم أنها مفسدة . ﴿ وكذلك ﴾ أي كما فصلنا في هذه السورة دلائلنا على التوحيد والنبوة والقضاء والقدر ﴿ نفصل الآيات ﴾ ونميزها لك في تقرير كل حق ينكره أهل الباطل ﴿ وليستبين ﴾ معطوف على محذوف كأنه قيل : ليظهر الحق وليستبين ، أو معلق بمحذوف أي وليستبين سبيل المجرمين فصلنا ذلك التفصيل البين . من رفع " السبيل " قرأ ﴿ ليستبين ﴾ بالياء أو بالتاء لأن السبيل يذكر ويؤنث ، ومن نصب السبيل قرأ ﴿ لتستبين ﴾ بتاء الخطاب مع الرسول يقال : استبان الأمر وتبين واستبنته وتبينته واستبانة سبيل المجرمين تستلزم استبانة طريق

المحقين ، فلذلك اقتصر على أحدهما كقوله ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ [ النحل : 81 ] ولم يذكر البرد . وإنما ذكر المجرمين دون المحقين لأن طريق الحق واحد والمجرمون أصناف يشتبه أمرهم ، فمنهم من هو مطبوع على قلبه ، ومنهم من يرجى فيهم قبول الإسلام ، ومنهم من دخل في الإسلام إلا أنه لا يحفظ حدوده فينبغي أن يستوضح سبيلهم ليعامل كلاً منهم بما يجب ، ومن جملة ذلك أنه نهى عن عبادة معبوداتهم وذلك قوله ﴿ قل إني نهيت ﴾ أي صرفت بدلائل العقلية والسمعية ﴿ أن أعبد الذين تدعون ﴾ تعبدون ﴿ من دون الله قل لا أتبع أهواءكم ﴾ لأن عبادة المصنوع والمخلوف محض التقليد وعين الهوى ﴿ قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين ﴾ أثبت الضلال إذ ذاك ونفى الهدى مع أنهما متلازمان للتقرير والتأكيد ، وفيه تعريض بهم أنهم كذلك .

*(112/235)*

---

ثم نبه على ما يجب اتباعه بقوله ﴿ قل إني على بينة من ربي ﴾ على حجة واضحة من مغفرة ربي وأنه لا معبود سواه ﴿ وكذبتم ﴾ أنتم به حيث أشركتم به غيره . يقال : أنا على بينة من هذا الأمر وأنا على يقين منه إذا كان ثابتاً عنده بدليل . وقيل : أي على حجة من جهة ربي وهي القرآن ﴿ وكذبتم به ﴾ أي بالبينة وذكر الضمير على تأويل القرآن أو

البيان . ﴿ ما عندي ما تستعجلون به ﴾ يعني العذاب الذي استعجلوه في قولهم ﴿ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ [ الأنفال : 32 ] قال الكلبي : نزلت في النضر بن الحرث ورؤساء قريش كانوا يقولون : يا محمد آتنا بالعذاب الذي تعدنا به استهزاء منهم . ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ مطلق يتناول الكل . فقال الأشاعرة : لا يقدر العبد على أمر من الأمور إلا إذا قضى الله تعالى فيمتنع منه فعل الكفر إلا بإرادة الله ، واحتجت المعتزلة بقوله ﴿ يقضي الحق ﴾ أي كل ما قضى به فهو الحق ، وهذا يقتضي أن لا يريد الكفر من الكافر ولا المعصية من العاصي لأن ذلك ليس بحق . ويمكن أن يقال : إن جميع أحكامه حق وصدق ولا اعتراض لأحد عليه بحكم المالكية . وانتصاب ﴿ الحق ﴾ على أنه صفة مصدر أي يقضي القضاء الحق ، أو مفعول به من قولهم : قضى الدرع إذا صنعها أي يصنع الحق ويدبره . ومثله من قرأ ﴿ يقصر الحق ﴾ كقوله ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ [ يوسف : 2 ] أي يقول الحق أو يتبعه من قص أثره ﴿ وهو خير الفاصلين ﴾ أي القاضي ، وإنما كتب ﴿ يقض ﴾ في المصاحف بغير ياء لأنها سقطت في اللفظ لالتقاء الساكنين ، وليوافق قراءة ﴿ يقص ﴾ ﴿ قل لو أن عندي ﴾ أي في قدرتي وإمكاني ﴿ ما تستعجلون ﴾ من العذاب ﴿ لقضي الأمر ﴾ أمر الإهلاك ﴿ بيني وبينكم ﴾ عاجلاً غضباً لربي ﴿ والله أعلم بالظالمين ﴾ فيؤخر عقابهم إلى وقته

وأنا لا أعلم ما يجب في الحكمة من وقت عقابهم ومقداره . فإن قلت : أما يناقض هذا قوله ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم

(113/235)

---

يؤمنوا ﴾ [ الكهف : 6 ] فإن استعجال الهلاك ينافي الحرص على الإيمان ، لأن من حرص على إيمان أحد حرص على طول حياته طمعاً في إيمانه . قلت : لا ، بل يؤكده لاشتراك كل من الحكمين في الاستعجال اللازم للبشرية في قوله ﴿ وكان الإنسان عجولا ﴾ [ الإسراء : 11 ] ثم بين سبحانه أعلميته بقوله على سبيل الاستعارة ﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾ أراد أن المتوصل إلى المغيبات وحده كمن عنده مفاتح أقفال المخازن ويعلم فتحها ولم يمنعه من ذلك مانع ، والمفاتح جمع مفتح وهو المفتاح ، أو جمع مفتح بفتح الميم وهو المخزن ، قال الحكيم في بيانه : إن العلم بالعلة التامة يوجب العلم بالمعلول وكل ما سوى الواجب فإنه موجود بإيجاده وتكوينه بواسطة أو بوسائط ، فعلمه بذاته يوجب العلم بجميع آثاره على ترتيبها المعتبر - كليات كانت أو جزئيات - وعلمه بذاته لم يحصل إلا لذاته فصح ان يقال : وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو .

(114/235)

وفيه أنه لا ضد له ولا ند إذ لو كان في الوجود واجب آخر لكانت مفاتح الغيب حاصلة أيضاً عنده فيبطل هذا الحصر ، ولا يمكن أن تكون هذه المفاتح عند شيء من الممكنات لأن المحاط لا يحيط بمحيطه فلا يحيط ما دون الواجب بالواجب ، فلا يكون المفتاح الأوّل للعلم بجميع المعلومات إلا عنده . ثم إن قوله ﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾ قضية معقولة مجردة ، والإنسان الذي يقوي على الإحاطة بمعنى هذه القضية نادر جداً والقرآن إنما نزل لينتفع به جميع الناس فذكر من الأمور المحسوسة الداخلة تحت تلك القضية الكلية أمثالاً لها ليعين الحس العقل فقال ﴿ ويعلم ما في البر والبحر ﴾ لأن ذكر هذا المحسوس يكشف عن حقيقة عظيمة لذلك المعقول ، وقدم ذكر البر لأن الإنسان قد شاهد أحوال البر وكثرة ما فيه من المدن والقرى والجبال والتلال والمعادن والنبات والحيوان ، وأما البحر فإحاطة الحس بأحواله أقل مع كثرة ما فيها من العجائب والغرائب أيضاً . ثم أفرد من هذه المحسوسات قسماً فقال ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ﴾ أي لا يتغير حال ورقة إلا والحق يعلمها . ثم عدل عن التعجيب من كثرة المدركات إلى التعجيب من صغر المدرك وخفائه فقال ﴿ ولا حبة في ظلمات الأرض ﴾ وفي تخصيص الحبة والورقة تنبيه للمكلفين على أمر الحساب لأنه إذا كان بحيث لا يهمل أمر الأشياء التي ليس لها ثواب ولا عقاب فلأن لا يهمل أمر المكلفين أولى . ثم عاد إلى ذكر القضية الكلية المجردة بعبارة أخرى فقال ﴿ ولا

رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ قال في الكشاف : ولا حبة ولا رطب ولا يابس عطف على ورقة وداخل في حكمها كأنه قيل : وما يسقط شيء من هذه الأشياء إلا وهو يعلمه . وقوله ﴿ إلا في كتاب مبين ﴾ كالتكرير لقوله ﴿ إلا يعلمها ﴾ ومعنى ﴿ إلا في كتاب مبين ﴾ واحد . والكتاب المبين علم الله أو اللوح . قال علماء التفسير : يجوز أن يكون الله جل شأنه أثبت كيفية المعلومات في كتاب من قبل أن يخلق الخلق لتقف

(115/235)

---

الملائكة على نفاذ علمه في المعلومات وأنه لا يغيب عنه شيء ، فيكون في ذلك عبرة كاملة للملائكة الموكلين باللوح المحفوظ لأنهم يقابلون به ما يحدث في العالم فيجدونه موافقاً له . أو لأنه إذا كتب أحوال جميع الموجودات في ذلك الكتاب على التفصيل التام امتنع تغيرها وإلا لزم الكذب أو الجهل فتصير كتبة جملة الأحوال في ذلك الكتاب سبباً تاماً في أنه يمتنع تقدم ما تأخر وتأخر ما تقدم .

(116/235)

---

ثم لما بين كمال علمه أردفه ببيان كمال قدرته بقوله ﴿ وهو الذي يتوفاكم ﴾ أي يتوفى أنفسكم التي بها تقدرون على الإدراك والتمييز . وذلك أن الأرواح الجسمانية تغور حالة النوم من الظاهر إلى الباطن فتتعطل الحواس عن بعض الاعمال ، وأما عند الموت فتصير جملة البدن معطلة عن كل الأعمال فلهذا كان النوم أخا الموت فصح إطلاق لفظ الوفاة على النوم من هذا الوجه ﴿ ويعلم ما جرحتم ﴾ أي ما كسبتم من العمل بالنهار ومنه الجوارح للأعضاء وللسباع ﴿ ثم يبعثكم فيه ﴾ أي يردّ إليكم أرواحكم بالنهار ﴿ ليقضي أجل مسمى ﴾ أي أعماركم المكتوبة . وقضاء الأجل فصل مدة العمر من غيرها بالموت . ثم لما ذكر أنه يميتهم أولاً ثم يوقظهم ثانياً كان ذلك جارياً مجرى الإحياء بعد الإماتة فلا جرم استدل بذلك على صحة البعث في القيامة فقال ﴿ ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ في ليلكم ونهاركم وجميع أحوالكم وأوقاتكم . واعلم أن في هذه الآية إشكالاً لأن قوله ﴿ ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ كان ينبغي أن يكون بعد قوله ﴿ ثم يبعثكم فيه ﴾ فإن البعث في النهار مقدم على الكسب فيه بل على تعلق العلم بالكسب . ويمكن أن يجاب بأن المراد ويعلم ما جرحتم في النهار الماضي بدليل قوله ﴿ جرحتم ﴾ دون " تجرحون " ثم يبعثكم في النهار الآتي . والغرض بيان إحاطة علمه وقدرته بالزمانين المحيطين بالليل . ولعل صاحب الكشاف لمكان هذا الإشكال عدل عن هذا التفسير إلى أن قال : ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ﴾ والخطاب للكفرة أي أنتم منسدحون الليل

كالحيف . والانسداح الانبطاح أو الاستلقاء ﴿ ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ ما كسبتم من الآثام فيه ﴿ ثم يبعثكم ﴾ من القبور ﴿ فيه ﴾ أي في شأن ذلك الذي قطعتم به أعماركم من النوم بالليل وكسب الآثام في النهار ومن أجله كقولك : فيم دغوتني ؟ فيقول : في أمر كذا ﴿ ليقضي أجل مسمى ﴾ وهو الأجل الذي سماه وضربه لبعث الموتى وجزائهم على أعمالهم ﴿ ثم إليه

(117/235)

---

مرجعكم ﴾ وهو المرجع إلى موقف الحساب . والأصوب عندي أن يقال : الخطاب عام ، وكذا الكسب في النهار فينبغي أن لا يقيد بالآثام . أما الضمير في ﴿ فيه ﴾ فيكون جارياً مجرى اسم الإشارة إلى الكسب . والبعث هو البعث من القبور إلى آخر ما قال والله علم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 84 . 91 ﴾

(118/235)

---

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ وأنذر به ﴾ أي بهذه الحقائق والمعاني ﴿ الذين يخافون ﴾ أي يرجون ﴿ أن يحشروا إلى ربهم ﴾ بجذبات العناية ويتحقق لهم أن ﴿ ليس لهم ﴾ في الوصول إلى الله ﴿ من دونه ولي ﴾ من الأولياء ﴿ ولا شفيع ﴾ يعني من الأنبياء ، لأن الوصول لا يمكن إلا بجذبات الحق . ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ﴾ أخبر عن الفقراء أنهم جلساؤه بالغداة والعشي كما قال " أنا جليس من ذكرني "

فلا تطردهم عن مجالستك فإنهم يطلبوني في متابعتك لا يريدون الدنيا ولا الآخرة ولكن يريدون وجهه .

وكل له سؤل ودين ومذهب . . . ووصلكم سؤلي وديني رضاكم

*(119/235)*

---

قال المحققون : الإرادة اهتياج يحصل في القلب يسلب القرار من العبد حتى يصل إلى الله . فصاحب الإرادة لا يهدأ ليلاً ولا نهاراً ، ولا يجد من دون الوصول إلى الله سبحانه سكوناً ولا قراراً ﴿ ما عليك من حسابهم من شيء ﴾ يعني الذي لنا معك في الحساب من

المواصلة والتوحيد في الخلوة فإنهم ليسوا في شيء من ذلك ليكون عليك ثقلاً ﴿ وما من حسابك عليهم من شيء ﴾ أي الذي لنا معهم في الحساب من التفرد للوصول والوصال ليس لك إلى ذلك حاجة ليثقل عليهم ﴿ فتطردهم ﴾ فتكسر قلوبهم بالطرد ﴿ فتكون من الظالمين ﴾ بوضع الكسر مقام الجبر فإنك بعثت لجبر قلوبهم لا لكسر قلوبهم كقوله ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ [ الحجر : 88 ] ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ﴾ ليشكر الفاضل وليصبر المفضول فيستويان في الفضل فلهذا قيل : لسليمان ولأيوب كليهما : نعم العبد . مع قدرة سليمان على أسباب الطاعة وعجز أيوب عنها . ومن فتنة الفاضل في المفضول رؤية فضله على المفضول أو تحقيره ، ومنع حقه عنه في فضله ، ومن فتنة المفضول في الفاضل حسده على فضله وسخطه عليه في منع حقه من فضله عنه ، فإن المعطي والمانع هو الله . ومنه أن لا يرى الفاضل مستحقاً للفضل ليقولوا ﴿ أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ﴾ ﴿ فقل سلام عليكم ﴾ إنه سبحانه من كمال فضله على الفقراء حملهم محمل الأكابر والملوك في الدنيا فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : "كن مبتدئاً بالسلام عليهم وفي الآخرة فألهم الملائكة أن يسلموا عليهم في الجنة" ﴿ سلام عليكم طبتم ﴾ [ الزمر : 73 ] بل سلم بذاته عليهم ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ [ يس : 58 ] وكل ذلك نتيجة سلامتهم من ظلمة الخلقة بإصابة رشاش النور في الأزل فلهذا قال ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ أي الرحمة الخاصة كما خص الخضر في قوله ﴿ وآتيناه رحمة

من عندنا ﴾ [ الكهف : 65 ] والرحمة العامة كما في الحديث الرباني للجنة " إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي " ﴿ أنه من

(120/235)

---

عمل منكم ﴾ أي من المؤمنين ﴿ سوءاً بجهالة ﴾ أي بجهالة الجهولية التي جبل الإنسان عليها لا بجهالة الضلالة التي هي نتيجة إخطاء النور فإن هذه لا توبة لها ﴿ ثم تاب من بعده ﴾ أي رجع إلى الله بقدم السير من بعد إفساد الاستعداد الفطري وأصلح الاستعداد بالأعمال الصالحة لقبول الفيض . ﴿ قل إني نهيت ﴾ في الأزل بإصابة النور المرشش . ﴿ ما عندي ما تستعجلون به ﴾ من عبادة الهوى ﴿ لقضي الأمر ﴾ يعني أمر القتال والخصومات ولاسترحت من أذيتكم لأن الشيء إنما ينفعل عن ضده لا عن شبيهه ﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾ يعني العلوم العقلية التي هي سبب فتح باب صور عالم الشهادة كالنقاش ينشيء الصور في ذهنه ثم يصوّرها في الخارج .

وإنما وحد الغيب وجمع المفاتح لأن عالم الغيب عالم التكوين وهو واحد في جميع الأشياء وفي الملكوت كثرة يعلم التكوين ﴿ ويعلم ما في البر ﴾ وهو عالم الشهادة ﴿ والبحر ﴾ وهو عالم الغيب ﴿ و ﴾ بهذا العلم ﴿ ما تسقط من ورقة ﴾ عن شجرة الوجود ﴿ إلا

يعلمها ﴾ لأنه مكونها ومسقطها ﴿ ولا حبة ﴾ هي حبة الروح ﴿ في ظلمات ﴾ صفات أرض النفس ، أو حبة المحبة في ظلمات أرض القلب ﴿ ولا رطب ولا يابس ﴾ الرطب المؤمن ، واليابس ما سيصير موجوداً وما قد صار . أو الرطب الروحانيات . واليابس الجمادات . أو الرطب المؤمن ، واليابس الكافر . أو الرطب العالم ، واليابس الجاهل . أو الرطب العارف ، واليابس الزاهد . أو الرطب أهل المحبة ، واليابس أهل السلوة . أو الرطب صاحب الشهود ، اليابس صاحب الوجود . أو الرطب الباقي بالله واليابس الباقي بنصيبه ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ﴾ ليل القضاء ﴿ ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ نهار القدر أو الليل ، ليل صفات البشرية والنهار نهار الشهود في عالم الوحدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 91.93 ﴾

*(121/235)*

---

قوله تعالى ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (61) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر بتمام العلم والقدرة ، أخبر بغالب سلطنته وعظيم جبروته وأن أفعاله هذه على سبيل القهر لا يستطاع مخالفتها ، فلو بالغ أحد في الاجتهاد في أن ينام في غير وقته ما قدر ، أو أن يقوم وقت النوم لعجز ، أو أن يحيي وقت الموت لم يستطع إلى غير ذلك فقال : ﴿ وهو ﴾ أي يفعل ذلك والحال أنه وحده بما له من غيب الغيب وحجب الكبرياء ﴿ القاهر ﴾ وصور ذلك بقوله : ﴿ فوق عباده ﴾ أي في الإحاطة بالعلم والفعل ، أما قهره للعدم فبالتكوين والإيجاد ، وأما قهره للوجود فبالإفناء والإفساد بنقل الممكن من العدم إلى الوجود تارة ومن الوجود إلى العدم أخرى ، فيقهر النور بالظلمة والظلمة بالنور ، والنهار بالليل والليل بالنهار – إلى غير ذلك من ضروب الكائنات وصروف الممكنات

﴿ ويرسل ﴾ ورجع إلى الخطاب لأنه أصرح فقال : ﴿ عليكم ﴾ من ملائكته ﴿ حفظة ﴾ أي يحفظون عليكم كل حركة وسكون لتستحيوا منهم وتخافوا عاقبة كتابتهم .

ويقوم عليكم بشهادتهم الحجة على مجاري عاداتكم ، وإلا فهو سبحانه غني عنهم ، لأنه العالم القادر فيحفظونكم على حسب مراده فيكم ﴿ حتى إذا جاء ﴾ .

ولما كان تقديم المفعول أخوف قال : ﴿ أحدكم الموت ﴾ أي الذي لا محيد له عنه ولا محيص ﴿ توفته ﴾ أي أخذت روحه كاملة ﴿ رسلنا ﴾ من ملك الموت وأعوانه على ما لهم من العظمة بالإضافة إلينا ﴿ وهم لا يفرطون ﴾ في نفس واحد ولا ما دونه ولا ما فوقه

بالتواني عنه ليتقدم ذلك عن وقته أو يتأخر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 649.648 ﴾

(122/235)

---

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ توفته ﴾ و ﴿ استهوته ﴾ ممالة : حمزة الباقون : بتاء التأنيث ﴿ قل من ينجيكم ﴾ من الإنجاء : سهل ويعقوب وعباس . الباقون : بالتشديد ﴿ وخفية ﴾ بالكسر حيث كان : أبو بكر وحماد . الباقون : بالضم ﴿ أنجانا ﴾ ممالة : حمزة وعلي وخلف ﴿ أنجانا ﴾ بدون الإمالة : عاصم . الباقون ﴿ أنجيتنا ﴾ ﴿ قل الله ينجيكم ﴾ بالتشديد : يزيد وحمزة وخلف وعاصم وهشام . الباقون : بالتخفيف ﴿ بعضٍ انظر ﴾ وأشباه ذلك بكسر التنوين : أبو عمرو وسهل ويعقوب وحمزة وعاصم وابن شنبوذ عن أهل مكة ، وابن ذكوان ﴿ ينسينك ﴾ بالتشديد : ابن عامر .

الوقوف : ﴿ حفظة ﴾ ط ﴿ لا يفرطون ﴾ ه ﴿ الحق ﴾ ط ﴿ الحاسبين ﴾ ه ﴿ وخفية ﴾ ط لاحتمال الإضمار أي يقولون لئن أنجيتنا ، وتعلق " لئن " بمعنى القول في ﴿

تدعونه ﴾ أصح ﴿ الشاكرين ﴾ ه ﴿ تشركون ﴾ ه ﴿ بأس بعض ﴾ ط ﴿ يفقهون ﴾ ه ﴿ وهو الحق ﴾ ط ﴿ بوكيل ﴾ ه ﴿ مستقر ﴾ ط للإبتداء ب "سوف" على التهديد مع شدة اتصال المعنى ﴿ يعلمون ﴾ ه ﴿ غيره ﴾ ج ﴿ الظالمين ﴾ ه ﴿ يتقون ﴾ ه ﴿ ولا شفيع ﴾ ط للشرط مع العطف ﴿ بما كسبوا ﴾ لا لانقطاع النظم مع اتصال المعنى، أو لاحتمال أن يكون ﴿ الذين ﴾ صفة ﴿ أولئك ﴾ وقوله ﴿ لهم شراب ﴾ خبر ﴿ الهدى ائتنا ﴾ ج ﴿ هو الهدى ﴾ ط ﴿ العالمين ﴾ لا لأن التقدير وأمرنا بأن أقيموا الصلاة ﴿ واتقوه ﴾ ط ﴿ تحشرون ﴾ ه ﴿ بالحق ﴾ ط ﴿ فيكون ﴾ ط ﴿ في الصور ﴾ ط ﴿ والشهادة ﴾ ط ﴿ الخبير ﴾ ه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 94 ﴾

*(123/235)*

---

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذا نوع آخر من الدلائل الدالة على كمال قدرة الله تعالى وكمال حكمته .

وتقريره أنا بينا فيما سبق أنه لا يجوز أن يكون المراد من هذه الآية الفوقية بالمكان والجهة بل

يجب أن يكون المراد منها الفوقية بالقهر والقدرة ، كما يقال أمر فلان فوق أمر فلان بمعنى أنه أعلى وأنفذ ومنه قوله تعالى : ﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [ الفتح : 10 ] ومما يؤكد أن المراد ذلك أن قوله : ﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ مشعر بأن هذا القهر إنما حصل بسبب هذه الفوقية ، والفوقية المفيدة لصفة القهر هي الفوقية بالقدرة لا الفوقية بالجهة ، إذ المعلوم أن المرتفع في المكان قد يكون مقهوراً .

وتقرير هذا القهر من وجوه : الأول : إنه قهار للعدم بالتكوين والإيجاد ، والثاني : أنه قهار للوجود بالإفناء والإفساد فإنه تعالى هو الذي ينقل الممكن من العدم إلى الوجود تارة ومن الوجود إلى العدم أخرى .

فلا وجود إلا بإيجاده ولا عدم إلا بإعدامه في الممكنات .

والثالث : أنه قهار لكل ضد بضده فيقهر النور بالظلمة والظلمة بالنور ، والنهار بالليل والليل بالنهار .

وتمام تقريره في قوله : ﴿ قُلِ اللهم مالك الملك تُؤْتِى الملك مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الملك مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء ﴾ [ آل عمران : 26 ] .

وإذا عرفت منهج الكلام .

فاعلم أنه بحر لا ساحل له لأن كل مخلوق فله ضد ، فالفوق ضده التحت ، والماضي ضده المستقبل ، والنور ضده الظلمة ، والحياة ضدها الموت ، والقدرة ضدها العجز .

وتأمل في سائل الأحوال والصفات لتعرف أن حصول التضاد بينها يقضي عليها بالمقهورية والعجز والنقصان ، وحصول هذه الصفات في الممكنات يدل على أن لها مدبراً قادراً قاهراً منزهاً عن الضد والند ، مقدساً عن الشبيه والشكل .

كما قال : ﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ والرابع : أن هذا البدن مؤلف من الطبائع الأربع . وهي متنافرة متباغضة متباعدة بالطبع والخاصة فاجتماعها لا بد وأن يكون بقسر قاسر وأخطأ من قال إن ذلك القاسر هو النفس الإنسانية ، وهو الذي ذكره ابن سينا في الإشارات لأن تعلق النفس بالبدن إنما يكون بعد حصول المزاج واعتدال الأمشاج ، والقاهر لهذه الطبائع على الاجتماع سابق على هذا الاجتماع ، والسابق على حصول الاجتماع مغاير للمتأخر عن حصول الاجتماع .

فثبت أن القاهر لهذه الطبائع على الاجتماع ليس إلا الله تعالى ، كما قال : ﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ وأيضاً فالجسد كثيف سفلي ظلماني فاسد عفن ، والروح لطيف علوي نوراني مشرق باق طاهر نظيف ، فبينهما أشد المنافرة والمباعدة .

ثم إنه سبحانه جمع بينهما على سبيل القهر والقدرة ، وجعل كل واحد منهما مستكملاً

بصاحبه منتفعاً بالآخر .

فالروح تصون البدن عن العفونة والفساد والتفرق ، والبدن يصير آلة للروح في تحصيل السعادات الأبدية ، والمعارف الإلهية ، فهذا الاجتماع وهذا الانتفاع ليس إلا بقهر الله تعالى لهذه الطبائع ، كما قال ﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ وأيضاً فعند دخول الروح في الجسد أعطى الروح قدرة على فعل الضدين ، ومكنة من الطرفين إلا أنه يمتنع رجحان الفعل على الترك تارة والترك على الفعل أخرى إلا عند حصول الداعية الجازمة الخالية عن المعارض .

*(125/235)*

---

فلما لم تحصل تلك الداعية امتنع الفعل والترك فكان إقدام الفاعل على الفعل تارة وعلى الترك أخرى بسبب حصول تلك الداعية في قلبه من الله يجري مجرى القهر فكان قاهراً لعباده من هذه الجهة ، وإذا تأملت هذه الأبواب علمت أن الممكنات والمبدعات والعلويات والسفليات والذوات والصفات كلها مقهورة تحت قهر الله مسخرة تحت تسخير الله تعالى ، كما قال : ﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً ﴾ فالمراد أن من جملة قهره لعباده إرسال الحفظة عليهم وهؤلاء الحفظة هم المشار إليهم بقوله تعالى : ﴿ لَهُ معقبات مّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ

خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﴾ [ الرعد : 11 ] وقوله : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ ق : 18 ] وقوله : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ ﴾ [ الانفطار : 10 ، 11 ] واتفقوا على أن المقصود من حضور هؤلاء الحفظة ضبط الأعمال .

ثم اختلفوا فمنهم من يقول : إنهم يكتبون الطاعات والمعاصي والمباحات بأسرها بدليل قوله تعالى : ﴿ مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ [ الكهف : 49 ] وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن مع كل إنسان ملكين : أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، فإذا تكلم الإنسان بحسنة كتبها من على اليمين ، وإذا تكلم بسيئة قال من على اليمين لمن على اليسار انتظره لعله يتوب منها ، فإن لم يتب كتب عليه .

والقول الأول : أقوى لأن قوله تعالى : ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً ﴾ يفيد حفظة الكل من غير تخصيص .

والبحث الثاني : أن ظاهر هذه الآيات يدل على أن اطلاع هؤلاء الحفظة على الأقوال والأفعال ، أما على صفات القلوب وهي العلم والجهل فليس في هذه الآيات ما يدل على اطلاعهم عليها .

*(126/235)*

أما في الأقوال ، فلقوله تعالى : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ وأما في الأعمال فلقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لحافظين * كِرَاماً كاتبين * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [ الانفطار : 10-12 ] فأما الإيمان والكفر والإخلاص والإشراك فلم يدل الدليل على اطلاع الملائكة عليها .

البحث الثالث : ذكروا في فائدة جعل الملائكة موكلين على بني آدم وجوهاً : الأول : أن المكلف إذا علم أن الملائكة موكلون به يحصون عليه أعماله ويكتبونها في صحائف تعرض على رؤوس الأشهاد في مواقف القيامة كان ذلك أزجر له عن القبائح .

الثاني : يحتمل في الكتابة أن يكون الفائدة فيها أن توزن تلك الصحائف يوم القيامة لأن وزن الأعمال غير ممكن ، أما وزن الصحائف فممكن .

الثالث : يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد .

ويجب علينا الإيمان بكل ما ورد به الشرع سواء عقلنا الوجه فيه أو لم نعقل ، فهذا حاصل ما قاله أهل الشريعة وأما أهل الحكمة فقد اختلفت أقوالهم في هذا الباب على وجوه :

الوجه الأول : قال المتأخرون منهم : ﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ ومن جملة ذلك القهر أنه خلط الطبائع المتضادة ومزج بين العناصر المتنافرة ، فلما حصل بينها امتزاج استعد ذلك الممتزج بسبب ذلك الامتزاج لقبول النفس المدبرة والقوى الحسية والحركية والنطقية فقالوا

المراد من قوله : ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً ﴾ تلك النفوس والقوى ، فإنها هى التي تحفظ تلك الطبائع المقهورة على امتزاجاتها .

*(127/235)*

---

والوجه الثاني : وهو قول بعض القدماء أن هذه النفوس البشرية والأرواح الإنسانية مختلفة بجواهرها متباينة بماهياتها ، فبعضها خيرة وبعضها شريرة وكذا القول في الذكاء والبلادة والحرية والنذالة والشرف والدناءة وغيرها من الصفات ولكل طائفة من هذه الأرواح السفلية روح سماوي هو لها كالأب الشفيق والسيد الرحيم يعينها على مهماتها في يقظاتها ومناماتها تارة على سبيل الرؤيا ، وأخرى على سبيل الإلهامات فالأرواح الشريرة لها مبادىء من عالم الأفلاك ، وكذا الأرواح الخيرة وتلك المبادىء تسمى في مصطلحهم بالطباع التام يعني تلك الأرواح الفلكية في تلك الطبائع والأخلاق تامة كاملة ، وهذه الأرواح السفلية المتولدة منها أضعف منها لأن المعلول في كل باب أضعف من علته ولأصحاب الطلسمات والعزائم الروحانية في هذا الباب كلام كثير .

والقول الثالث : النفس المتعلقة بهذا الجسد .

لا شك في أن النفوس المفارقة عن الأجساد لما كانت مساوية لهذه في الطبيعة والماهية

فتلك النفوس المفارقة تميل إلى هذه النفس بسبب ما بينهما من المشاكلة والموافقة وهي أيضاً تتعلق بوجه ما بهذا البدن وتصير معاونة لهذه النفس على مقتضيات طبيعتها فثبت بهذه الوجوه الثلاثة أن الذي جاءت الشريعة الحقة به ليس للفلاسفة أن يمتنعوا عنها لأن كلهم قد أقروا بما يقرب منه وإذا كان الأمر كذلك كان إصرار الجهال منهم على التكذيب باطلاً والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 12.14 ﴾

*(128/235)*

---

وقال أبو حيان :

﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة ﴾

تقدم الكلام في تفسير وهو القاهر فوق عباده .

قال هنا ابن عطية : ﴿ القاهر ﴾ أن أخذ صفة فعل أي مظهر القهر بالصواعق والرياح والعذاب ، فيصح أن تجعل ﴿ فوق ﴾ ظرفية للجهة لأن هذه الأشياء إنما تعاهدها للعباد من فوقهم وإن أخذ ﴿ القاهر ﴾ صفة ذات بمعنى القدرة والاستيلاء ففوق لا يجوز أن يكون للجهة وإنما هو لعلو القدر والشأن ، كما تقول : الياقوت فوق الحديد ؛ انتهى .

وظاهر ﴿ ويرسل ﴾ أن يكون معطوفاً على ﴿ وهو القاهر ﴾ عطف جملة فعلية على

جملة اسمية وهي من آثار القهر .

وجوز أبو البقاء أن تكون معطوفة على قوله : ﴿ يتوفاكم ﴾ وما بعده من الأفعال وأن يكون معطوفاً على ﴿ القاهر ﴾ التقدير وهو الذي يقهر ويرسل ، وأن يكون حالاً على إضمار مبتدإ أي وهو يرسل وذو الحال إما الضمير في ﴿ القاهر ﴾ وإما الضمير في الظرف وهذا أضعف هذه الأعاريب ، ﴿ وعليكم ﴾ ظاهره أنه متعلق بيرسل كقوله : ﴿ يرسل عليكما شواظ ﴾ ولفظة على مشعرة بالعلو والاستعلاء لتمكنهم منا جعلوا كان ذلك علينا ويحتمل أن يكون متعلقاً بحفظة أي ويرسل حفظة عليكم أي يحفظون عليكم أعمالكم ، كما قال : ﴿ وإن عليكم لحافظين ﴾ كما تقول : حفظت عليك ما تعمل .

وجوّزوا أن يكون حالاً لأنه لو يتأخر لكان صفة أي حفظه كائنة عليكم أي مستولين عليكم و ﴿ حفظة ﴾ جمع حافظ وهو جمع منقاس لفاعل وصفاً مذكراً صحيح اللام عاقلاً وقل فيما لا يعقل .

قال الزمخشري : أي ملائكة حافظين لأعمالكم وهم الكرام الكاتبون ؛ انتهى .

وقال ابن عطية : المراد بذلك الملائكة الموكلون بكتب الأعمال ؛ انتهى .

وما قالاه هو قول ابن عباس وظاهر الجمع أنه مقابل الجمع ولم تتعرض الآية لعدد ما على كل واحد ولا لما يحفظون عليه .

وعن ابن عباس : ملكان مع كل إنسان أحدهما عن يمينه للحسنات ، والآخر عن شماله للسيئات وإذا عمل سيئة قال من على اليمين : انتظره لعله يتوب منها فإن لم يتب كتبت عليه .

*(129/235)*

---

وقيل : ملكان بالليل وملكان بالنهار أحدهما يكتب الخير والآخر يكتب الشر ، فإذا مشى كان أحدهما بين يديه والآخر وراءه وإذا جلس فأحدهما عن يمينه والآخر عن شماله .

وقيل : خمسة من الملائكة اثنان بالليل واثنان بالنهار ، وواحد لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً والمكتوب الحسنة والسيئة .

وقيل : الطاعات والمعاصي والمباحات .

وقيل : لا يطلعون إلا على القول والفعل لقوله : ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ ولقوله : ﴿ يعلمون ما تفعلون ﴾ وأما أعمال القلوب فعلمه لله تعالى .

وقيل : يطلعون عليها على الإجمال لا على التفصيل فإذا عقد سيئة خرجت من فيه ريح خبيثة أو حسنة خرجت ريح طيبة .

وقال الزمخشري ( فإن قلت ) : الله غني بعلمه عن كتب الكتبة فما فائدتها ؟ ( قلت ) :

فيها لطف للعباد لأنهم إذا علموا أن الله رقيب عليهم ، والملائكة الذين هم أشرف خلقه موكلون بهم يحفظون عليهم أعمالهم ويكتبونها في صحائف تعرض على رؤوس الأشهاد في مواقف القيامة ، كان ذلك أزجر لهم عن القبيح وأبعد من السوء ؛ انتهى .

وقوله : والملائكة الذين هم أشرف خلقه هو جار على مذهب المعتزلة في الملائكة ، ولا تتعين هذه الفائدة إذ يحتمل أن تكون الفائدة فيها أن توزن صحائف الأعمال يوم القيامة لأن وزن الأعمال بمجردها لا يمكن ، وهذه الفائدة جارية على مذهب أهل السنة ، وأما المعتزلة فتأولوا الوزن والميزان ولا يشعر قوله : ﴿ حفظة ﴾ أن ذلك الحفظ بالكتابة كما فسروا بل قد قيل : هم الملائكة الذي قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم : " تتعاقب فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار " قاله قتادة والسدّي .

وقيل : يحفظون الإنسان من كل شيء حتى يأتي أجله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

*(130/235)*

---

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه أعلى قهراً ، فلذلك قال : ﴿ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ .

والثاني : أن الأقدر إذا استحق صفة المبالغة عبَّر عنه بمثل هذه العبارة ، فقيل : هو فوقه في القدرة أي أقدر ، وفوقه في العلم أي أعلم .

﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنه جوارحهم التي تشهد عليهم بما كانوا يعملون .

والثاني : الملائكة . ويحتمل ﴿ حَفَظَةً ﴾ وجهين :

أحدهما : حفظ النفوس من الآفات .

والثاني : حفظ الأعمال من خير وشر ، ليكون العلم بإتيانها أزجر عن الشر ، وأبعث على الخير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ القاهر ﴾ إن أخذ صفة فعل أي مظهر القهر بالصواعق والرياح والعذاب فيصح أن يجعل ﴿ فوق ﴾ ظرفية للجهة لأن هذه الأشياء إنما تعاهدها العباد من فوقهم ، وإن أخذ ﴿ القاهر ﴾ صفة ذات بمعنى القدرة والاستيلاء ف ﴿ فوق ﴾ لا يجوز أن تكون للجهة ، وإنما هي لعلو القدر والشأن على حد ما تقول : الياقوت فوق الحديد ، ﴿ ويرسل عليكم ﴾ معناه يبثهم فيكم ، و ﴿ حفظة ﴾ جمع حافظ مثل كاتب وكتبة ، والمراد بذلك الملائكة الموكلون بكتب الأعمال ، وروي أنهم الملائكة الذين قال فيهم النبي عليه السلام "

تتعاقب فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار " وقاله السدي وقتادة ، وقال بعض المفسرين ﴿ حفظة ﴾ يحفظون الإنسان من كل شيء حتى يأتي أجله ، والأول أظهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ يعني فوقية المكانة والرتبة لا فوقية المكان والجهة ، على ما تقدّم بيانه أوّل السورة .

﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً ﴾ أي من الملائكة .

*(131/235)*

---

والإرسال حقيقته إطلاق الشيء بما حمل من الرسالة ؛ فإرسال الملائكة بما حملوا من الحفظ الذي أمروا به ، كما قال : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ أي ملائكة تحفظ أعمال العباد وتحفظهم من الآفات .

والحَفَظَة جمع حافظ ، مثل الكَتَبَة والكاتب .

ويقال : إنهما مَلَكان بالليل ومَلَكان بالنهار ، يكتب أحدهما الخير والآخر الشر ، وإذا مشى الإنسان يكون أحدهما بين يديه والآخر وراءه ، وإذا جلس يكون أحدهما عن يمينه

والآخر عن شماله ؛ لقوله تعالى : ﴿ عَنِ اليمين وَعَنِ الشمال قَعِيدٌ ﴾ الآية .

ويقال : لكل إنسان خمسة من الملائكة : اثنان بالليل ، واثنان بالنهار ، والخامس لا يفارقه ليلا ولا نهارا . والله أعلم .

وقال عمر بن الخطاب ( رضي الله عنه ) :

ومن الناس مَن يعيش شقِيّاً . . .

جاهلَ القلب غافل اليقظَهْ

فإذا كان ذا وفاء ورأيٍ . . .

حذِر الموتَ واتقى الحفظه

إنما الناس راحل ومقيم . . .

فالذي بَانَ للمقيم عِظه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ يعني وهو العالي عليهم بقدرته لأن كل من قهر شيئاً وغلبه فهو مستعلٍ عليه بالقهر والقدرة .

فهو كما يقال : أمرُ فلانٍ فوقَ أمرِ فلانٍ ، يعني : أنه أقدر منه .

وأغلب هذا مذهب أهل التأويل في معنى لفظة فوق في قوله : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ وأما مذهب السلف .

فيها : فإمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تأويل ولا إطلاق على جهة والقاهر هو الغالب لغيره المذلل له والله تعالى هو القاهر لخلقه وقهر كل شيء بضده فقهر الحياة بالموت والإيجاد بالإعدام والغنى بالفقر والنور بالظلمة .

*(132/235)*

---

وقوله تعالى : ﴿ ويرسل عليكم حفظة ﴾ يعني أن من جملة قهره لعباده إرسال الحفظة عليهم والمراد بالحفظة الملائكة الذي يحفظون أعمال بني آدم من الخير والشر والطاعة والمعصية وغير ذلك من الأقوال والأفعال قيل إن مع كل إنسان ملكين ملكاً عن يمينه وملكاً عن شماله فإذا عمل حسنة كتبها صاحب اليمين وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال اصبر عليه لعله يتوب منها فإن لم يتب منها كتبها عليه صاحب الشمال .

وفائدة جعل الملائكة موكلين بالإنسان أنه إذا علم أن له حافظاً من الملائكة موكلاً به يحفظ عليه أقواله وأفعاله في صحائف تنشر له وتقرأ عليه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد كان ذلك زاجراً له عن فعل القبيح وترك المعاصي .

وقيل : المراد بقوله ويرسل عليكم حفظة ، هم الملائكة الذين يحفظون بني آدم ويحفظون أجسادهم .

قال قتادة : حفظه يحفظون على ابن آدم رزقه وأجله وعمله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(133/235)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ أي هو المتصرِّفُ في أمورهم لا غيرُه يفعل بهم ما يشاء إيجاداً وإعداماً وإحياءً وإماتة وتعذيباً وإثابةً إلى غير ذلك ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم ﴾ خاصة أيها المكلفون ﴿ حَفَظَةً ﴾ من الملائكة وهم الكرام الكاتبون و( عليكم ) متعلقٌ بيُرسل لما فيه من معنى الاستيلاء ، وتقديمُه على المفعول الصريح لما مر مراراً من الاعتناء بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخر ، وقيل : متعلقٌ بمحذوفٍ هو حال من ( حفظة ) إذ لو تأخر لكان صفةً أي كائنين عليكم ، وقيل : متعلق بحفظةً والمحفوظُ محذوفٌ على كل حال أي يرسل عليكم ملائكةً يحفظون أعمالَكم كائنةً ما كانت ، وفي ذلك حكمةٌ جميلةٌ ونعمةٌ جليلة لما أن المكلفَ إذا عَلم أن أعماله تُحفظ عليه وتُعرض على رؤوس الأشهادِ كان ذلك أزجرَ له عن تعاطي المعاصي والقبائحِ وأن العبد إذا وثِقَ بلُطف سيّدِه واعتمد على عفوه وسَترِه لم

يحتشمه احتشامه من خدمه الواقفين على أحواله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(134/235)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ فلا يعجزه أحد منهم ولا يحول بينه سبحانه وبين ما يريده فيهم ، و ﴿ فَوْقَ ﴾ نصب على الظرفية حال أو خبر بعد خبر ، وقد تقدم الكلام مبسوطاً فيما للعلماء في هذه الآية ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً ﴾ من الملائكة وهم الكرام الكاتبون المذكورون في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لحافظين كِرَاماً كاتبين ﴾ [ الانفطار : 10 ، 11 ] أو المعقبات المذكورة في قوله سبحانه : ﴿ لَهُ معقبات مّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله ﴾ [ الرعد : 11 ] ، وقيل : المراد ما يشمل الصنفين ، ويقدر المحفوظ الأعمال والأنفس والأعم .

وعن قتادة يحفظون العمل والرزق والأجل .

والذي ذهب إليه أكثر المفسرين المعنى الأول في الحفظة ، وهم عند بعض يكتبون الطاعات والمعاصي والمباحات بأسرها كما يشعر بذلك ﴿ مالِ هذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ

كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ [ الكهف : 49 ] وجاء في الأثر تفسير الصغيرة بالتبسم والكبيرة بالضحك و﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ ق : 18 ] وقال آخرون : لا يكتبون المباحات إذ لا يترتب عليها شيء .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن مع كل إنسان ملكين أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره فإذا تكلم الإنسان بحسنة كتبها من على اليمين وإذا تكلم بسيئة قال من على اليمين لمن على اليسار : لتنتظره لعله يتوب منها فإن لم يتب كتب عليه والمشهور أنهما على الكتفين ، وقيل : على الذقن ، وقيل : في الفم يمينه ويساره .

*(135/235)*

---

واللازم الإيمان بهما دون تعيين محلهما والبحث عن كيفية كتابتهما ، وظواهر الآيات تدل على أن اطلاع هؤلاء الحفظة على الأقوال والأفعال كقوله تعالى : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ ﴾ [ ق : 18 ] الخ ، وقوله سبحانه : ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [ الانفطار : 12 ] وأما على صفات القلوب كالإيمان والكفر مثلاً فليس في الظواهر ما يدل على اطلاعهم عليها ، والأخبار بعضها يدل على الاطلاع كخبر " إذا هم العبد بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة " فإن الهم من أعمال القلب كالإيمان والكفر ، وبعضها يدل على عدم الاطلاع كخبر " إذا

كان يوم القيامة يجاء بالأعمال في صحف محكمة فيقول الله تعالى اقبلوا هذا وردوا هذا فتقول الملائكة وعزتك ما كتبنا إلا ما عمل فيقول سبحانه : إن عمله كان لغيري وإني لا أقبل اليوم إلا ما كان لوجهي " وفي رواية مرسلة لابن المبارك " إن الملائكة يرفعون أعمال العبد من عباد الله تعالى فيستكثرونه ويزكونه حتى يبلغوا به حيث شاء الله تعالى من سلطانه فيوحي الله تعالى إليهم إنكم حفظة عمل عبدي وأنا رقيب على ما في نفسه إن عبدي هذا لم يخلص في عمله فاجعلوه في سجين " الحديث .

والقائل بأنهم لا يكتبون إلا الأعمال الظاهرة يقول : معنى كتبت في حديث الهم بالحسنة ثبتت عندنا وتحققت لا كتبت في صحف الملائكة .

والقائل بأنهم يكتبون الأعمال القلبية يقول باستثناء الرياء فيكتبون العمل دونه ويخفيه الله تعالى عنهم ليبطل سبحانه به عمل المرائي بعد كتابته إما في الآخرة أو في الدنيا زيادة في تنكيله وتفظيع حاله ، ولعل هذا كما يفعل به يوم القيامة من رده إلى النار بعد تقريبه من الجنة .

*(136/235)*

فقد روى أبو نعيم والبيهقي وابن عساكر وابن النجار أنه "يؤمر بناس يوم القيامة إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستنشقوا ريحها ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعد الله تعالى لأهلها نودوا أن اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون والآخرون بمثلها فيقولون : ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا من ثوابك وما أعددت فيها لأوليائك كان أهون علينا قال : ذلك أردت بكم يا أشقياء كنتم إذا خلوتم بارزتموني بالعظائم وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين تراؤون الناس بأعمالكم خلاف ما تعطوني من قلوبكم هبتم الناس ولم تهابوني وأجللتم الناس ولم تجلوني وتركتم للناس ولم تتركوا لي فاليوم أذيقكم العذاب مع ما حرمتم من الثواب" والكل عندي محتمل ولا قطع فتدبر .

واختلفوا في أن الحفظة هل يتجددون كل يوم وليلة أم لا ؟ فقيل : إنهم يتجددون وملائكة الليل غير ملائكة النهار دائماً إلى الموت ، وقيل : إن ملائكة الليل يذهبون فتأتي ملائكة النهار ثم إذا جاء الليل ذهبوا ونزل ملائكة الليل الأولون لا غيرهم وهكذا ، وقيل : إن ملائكة الحسنات يتجددون دون ملائكة السيئات وهو الذي يقتضيه حسن الظن بالله تعالى .

واختلف في مقرهم بعد موت المكلف فقيل : يرجعون مطلقاً إلى معابدهم في السماء ، وقيل : يبقون حذاء قبر المؤمن يستغفرون له حتى يقوم من قبره .

وصحح غير واحد أن كاتب الحسنات لا ينحصر في واحد لحديث " رأيت كذا وكذا يبتدرونها أيهم يكتبها أول " والحكمة في هؤلاء الحفظة "أن المكلف إذا علم أن أعماله تحفظ عليه وتعرض على رؤوس الأشهاد كان ذلك أزجر له عن تعاطي المعاصي والقبائح" وأن العبد إذا وثق بلطف سيده واعتمد على ستره وعفوه لم يحتشم منه احتشامه من خدمه المطلعين عليه ، وقول الإمام : "يحتمل أن تكون الفائدة في الكتابة أن توزن تلك الصحائف يوم القيامة لأن وزن الأعمال غير ممكن" بخلاف وزن الصحائف فإنه ممكن ليس بشيء كما لا يخفى ، والقول بوزن الصحائف أنفسها قول لبعضهم ، هذا ﴿ وَيُرْسِلُ ﴾ إما مستأنف أو عطف على ﴿ القاهر ﴾ لأنه بمعنى الذي يقهر ، وعطفه كما زعم أبو البقاء على ﴿ يتوفاكم ﴾ وما بعده من الأفعال المضارعة ليس بشيء كاحتمال جعله حالاً من الضمير في ﴿ القاهر ﴾ أو في الظرف لأن الواو الحالية كما أشرنا إليه آنفاً لا تدخل على المضارع ، وتقدير المبتدأ لا يخرجه عن الشذوذ على الصحيح ، و ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ متعلق بيرسل لما فيه من معنى الاستيلاء ، وتقديمه على المفعول الصريح لما مر غير مرة من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ، وقيل : هو متعلق بمحذوف وقع حالاً من ﴿ حَفَظَةً ﴾ إذ لو تأخر لكان صفة أي كائنين عليكم .

وقيل : متعلق بحفظة وهو جمع حافظ ككتبة وكاتب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى

حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾

عطف على جملة ﴿ وهو الذي يتوفَّاكم ﴾ [ الأنعام : 60 ] ، وتقدّم تفسير نظيره آنفاً .

والمناسبة هنا أنّ النوم والموت خلقهما الله فغلبا شِدّة الإنسان كيفما بلغت فبيَّن عقب ذكرهما أنّ الله هو القادر الغالب دون الأصنام .

فالنوم قهر ، لأنّ الإنسان قد يريد أن لا ينام فيغلبه النوم ، والموت قهر وهو أظهر ، ومن الكلم الحق : سبحان من قهر العباد بالموت .

*(138/235)*

---

﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حتى إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ الموت تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ ﴾ .

﴿ ويرسل ﴾ عطف على ﴿ القاهر ﴾ ، فيعتبر المسند إليه مقدّماً على الخبر الفعلي ، فيدلّ على التخصيص أيضاً بقرينة المقام ، أي هو الذي يرسل عليكم حفظة دون غيره .

والقصر هنا حقيقي ، فلا يستدعي ردّ اعتقاد مُخالف .

والمقصود الإعلام بهذا الخبر الحقّ ليحذر السامعون من ارتكاب المعاصي .

ومعنى ( على ) في قوله ﴿ عليكم ﴾ الاستعلاء المجازي ، أي إرسال قهر وإلزام ، كقوله : ﴿ بعثنا عليكم عباداً لنا ﴾ [ الإسراء : 5 ] ، لأنّ سياق الكلام خطاب للمشركين كما علمتَ ، ومثله قوله تعالى : ﴿ كلاّ بل تكذّبون بالدّين وإنّ عليكم لحافظين ﴾ [ الإنفطار : 9 ، 10 ] .

و ﴿ عليكم ﴾ متعلِّق بِ ﴿ يرسل ﴾ فعلم ، أنّ المراد بحفظ الحفظة الإحصاء والضبط من قولهم : حفظتُ عليه فعله كذا .

وهو ضدّ نسيَ .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وعندنا كتاب حفيظ ﴾ [ ق : 4 ] .

وليس هو من حفظ الرعاية والتعهّد مثل قوله تعالى : ﴿ حافظات للغيب بما حفظ الله ﴾ [ النساء : 34 ] .

فالحفظة ملائكة وظيفتهم إحصاء أعمال العباد من خير وشرّ .

وورد في الحديث الصحيح : " يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار " الحديث .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

*(139/235)*

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً ﴾ الآية .

لم يبين هنا ماذا يحفظون وبينه في مواضع أخر فذكر أن مما يحفظونه بدن الإنسان بقوله : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﴾ [ الرعد : 11 ] ، وذكر أن مما يحفظونه جميع أعماله من خير وشر ، بقوله : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [ الانفطار : 10-12 ] ، وقوله : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ ق : 17-18 ] ، وقوله : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [ الزخرف : 80 ] .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 1 صـ ﴾

*(140/235)*

---

قوله تعالى ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾

فصل

قال الفخر :

ههنا بحثان :

البحث الأول : أنه تعالى قال : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [ الزمر : 42 ] وقال : ﴿ الذى خَلَقَ الموت والحياة ﴾ [ الملك : 2 ] فهذا النصان يدلان على أن توفي الأرواح ليس إلا من الله تعالى .

ثم قال : ﴿ قُلْ يتوفاكم مَّلَكُ الموت ﴾ [ السجدة : 11 ] وهذا يقتضي أن الوفاة لا تحصل إلا من ملك الموت .

ثم قال في هذه الآية : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ فهذه النصوص الثلاثة كالمتناقضة .

والجواب : أن التوفي في الحقيقة يحصل بقدرة الله تعالى ، وهو في عالم الظاهر مفوض إلى ملك الموت ، وهو الرئيس المطلق في هذا الباب ، وله أعوان وخدم وأنصار ، فحسنت إضافة التوفي إلى هذه الثلاثة بحسب الاعتبارات الثلاثة والله أعلم .

البحث الثاني : من الناس من قال : هؤلاء الرسل الذين بهم تحصل الوفاة ، وهم أعيان أولئك الحفظة فهم في مدة الحياة يحفظونهم من أمر الله ، وعند مجيء الموت يتوفونهم ، والأكثرون أن الذين يتولون الحفظ غير الذين يتولون أمر الوفاة ، ولا دلالة في لفظ الآية تدل على الفرق ، إلا أن الذي مال إليه الأكثرون هو القول الثاني ، وأيضاً فقد ثبت بالمقاييس العقلية أن الملائكة الذين هم معادن الرحمة والخير والراحة مغايرون للذين هم أصول الحزن والغم فطائفة من الملائكة هم المسمون بالروحانيين لإفادتهم الروح والراحة والريحان ،

وبعضهم يسمون بالكروبيين لكونهم مبادىء الكرب والغم والأحزان . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 14 ﴾

فائدة

قال الفخر :

الظاهر من قوله تعالى : ﴿ قُلْ يتوفاكم مَّلَكُ الموت ﴾ أنه ملك واحد هو رئيس الملائكة الموكلين بقبض الأرواح ، والمراد بالحفظة المذكورين في هذه الآية : أتباعه ، وأشياعه عن مجاهد : جعل الأرض مثل الطست لملك الموت يتناول من يتناوله ، وما من أهل بيت إلا ويطوف عليهم في كل يوم مرتين ، وجاء في الأخبار من صفات ملك الموت ومن كيفية موته عند فناء الدنيا وانقضائها أحوال عجيبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 14.15 ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ حمزة : توفاه بالألف ممالة والباقون بالتاء ، فالأول لتقديم الفعل ، ولأن الجمع قد يذكر ، والثاني على تأنيث الجمع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 15 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا ﴾ أي أسباب الموت ﴿ توفته ﴾ قبضت

روحه ﴿ رسلنا ﴾ جاء جمعاً .

فقيل : عنى به ملك الموت عليه السلام وأطلق عليه الجمع تعظيماً .

(141/235)

---

وقيل : ملك الموت وأعوانه والأكثرون على أن ﴿ رسلنا ﴾ عين الحفظة يحفظونهم مدة الحياة ، وعند مجيء أسباب الموت يتوفونهم ولا تعارض بين قوله : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ وبين قوله : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت ﴾ وبين قوله : ﴿ توفته رسلنا ﴾ لأن نسبة ذلك إلى الله تعالى بالحقيقة ولغيره بالمباشرة ، ولملك الموت لأنه هو الآمر لأعوانه وله ولهم بكونهم هم المتولون قبض الأرواح .

وعن مجاهد جعلت الأرض له كالطست يتناول منه من يتناوله وما من أهل بيت إلا ويطوف عليهم في كل يوم مرتين .

وقرأ حمزة : توفاه بألف ممالة وظاهره أنه فعل ماض كتوفته إلا أنه ذكر على معنى الجمع ، ومن قرأ توفته أنث على معنى الجماعة ويحتمل أن يكون مضارعاً وأصله تتوفاه فحذفت إحدى التاءين على الخلاف في تعيين المحذوفة .

وقرأ الأعمش يتوفاه بزيادة ياء المضارعة على التذكير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(142/235)

---

وقال السمرقندى :

وقوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الموت ﴾ يعني : حضر أحدكم الوفاة عند انقضاء أجله ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ يعني : ملك الموت وأعوانه ﴿ وَهُمْ لاَ يُفَرّطُونَ ﴾ يعني : لا يؤخرون طرفة عين .

قرأ حمزة ﴿ توفيه ﴾ بلفظ التذكير بالإمالة .

وقرأ الباقون : ﴿ الموت تَوَفَّتْهُ ﴾ بلفظ التأنيث .

لأن فعل الجماعة إذا تقدم على الاسم جاز أن يذكر ويؤنث .

ويقال : معه سبعون من ملائكة الرحمة وسبعون من ملائكة العذاب ، فإذا قبض نفساً مؤمنة دفعها إلى ملائكة الرحمة فيبشرونها بالثواب ، ويصعدون بها إلى السماء .

وإذا قبض نفساً كافرة دفعها إلى ملائكة العذاب ، فيبشرونها بالعذاب ، ويفزعونها ، ثم يصعدون بها إلى السماء ، ثم ترد إلى سجّين ، وروح المؤمن إلى عليين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ الموت ﴾ يريد أسبابه ؛ كما تقدّم في "البقرة" .

﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ على تأنيث الجماعة ؛ كما قال : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بالبينات ﴾ و ﴿ كُذِّبَتْ رُسُلٌ ﴾ .

وقرأ حمزة "توفّاه رسلُنا" على تذكير الجمع .

وقرأ الأعمش "تتوفاه رسلنا" بزيادة تاء والتذكير .

والمراد أعوان ملك الموت ؛ قاله ابن عباس وغيره .

ويروى أنهم يَسُلُّون الروح من الجسد حتى إذا كان عند قبضها قبضها ملك الموت .

وقال الكَلْبيّ : يقبِض ملك الموت الروح من الجسد ثم يسلمها إلى ملائكة الرحمة إن كان مؤمنا أو إلى ملائكة العذاب إن كان كافرا .

ويقال : معه سبعة من ملائكة الرحمة وسبعة من ملائكة العذاب ؛ فإذا قبض نفساً مؤمنة دفعها إلى ملائكة الرحمة فيبشرونها بالثواب ويصعدون بها إلى السماء وإذا قبض نفساً كافرة دفعها إلى ملائكة العذاب بالعذاب ويفزعونها ، ثم يصعدون بها إلى السماء ثم ترد إلى سجين ، وروح المؤمن إلى عِلّيّين .

والتوفي تارة يضاف إلى ملك الموت ؛ كما قال : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الموت ﴾ .

وتارة إلى الملائكة لأنهم يتولون ذلك ؛ كما في هذه الآية وغيرها .

وتارة إلى الله وهو المُتَوَفِّي على الحقيقة ؛ كما قال : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مِوْتِهَا ﴾ ﴿ قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ﴾ ﴿ الذي خَلَقَ الموت والحياة ﴾ .

فكل مأمورٍ من الملائكة فإنما يفعل ما أمر به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

سؤال : فإن قيل : كيف الجمع بين قوله : ﴿ توفته رسلنا ﴾ وبين قوله : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت ﴾ [ السجدة : 11 ] فعنه جوابان .

أحدهما : أنه يجوز أن يريد بالرسل ملك الموت وحده ، وقد يقع الجمع على الواحد .

والثاني : أن أعوان مَلَك الموت يفعلون بأمره ، فأضيف الكل إلى فعله .

وقيل : تَوَفِّيّ أعوان ملك الموت بالنزع ، وتوفِّي ملك الموت بأن يأمر الأرواح فتجيب ، ويدعوها فتخرج ، وتوفِّي الله تعالى بأن يخلق الموت في الميت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

و( حتى ) في قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الموت ﴾ هي التي يبتدأ بها الكلام

وهي مع ذلك تَجعلُ ما بعدها من الجملة الشرطية غايةً لما قبلها كأنه قيل : ويُرسلُ عليكم حفظة يحفَظون أعمالَكم مدةَ حياتكم حتى إذا انتهت مدةُ أحدِكم كائناً مَنْ كان وجاءه أسبابُ الموت ومباديه ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ الآخرون المفوَّضُ إليهم ذلك ، وهم ملكُ الموتِ وأعوانُه وانتهى هناك حِفظُ الحفظة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(144/235)

---

وقال الآلوسى :

و﴿ حتى ﴾ في قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الموت ﴾ هي التي يبتدأ بها الكلام وهي مع ذلك تجعل ما بعدها من الجملة الشرطية غاية لما قبلها كأنه قيل : ويرسل عليكم حفظة يحفظون ما يحفظون منكم مدة حياتكم حتى إذا انتهت مدة أحدكم وجاء أسباب الموت ومباديه ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ الآخرون المفوض إليهم ذلك وانتهى هناك حفظ الحفظة ؛ والمراد بالرسل على ما أخرجه ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهم أعوان ملك الموت ، ونحوه ما أخرجاه عن قتادة قال : إن ملك الموت له رسل يباشرون قبض الأرواح ثم يدفعونها إلى ملك الملك .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن الكلبي أن ملك الموت هو الذي يلي ذلك ثم يدفع الروح إن كانت مؤمنة إلى ملائكة الرحمة وإن كانت كافرة إلى ملائكة العذاب .

والأكثرون على أن المباشر ملك الموت وله أعوان من الملائكة ، وإسناد الفعل إلى المباشر والمعاون معاً مجاز كما يقال بنو فلان قتلوا قتيلاً والقاتل واحد منهم ، وقد جاء إسناد الفعل إلى ملك الموت فقط باعتبار أنه المباشر وإلى الله تعالى باعتبار أنه سبحانه الآمر الحقيقي .

وقد أشرنا فيما تقدم أن بعض الصوفية قدس الله تعالى أسرارهم قال : إن المتوفي تارة يكون هو الله تعالى بلا واسطة وتارة الملك وتارة الرسل وغيره وذلك حسب اختلاف أحوال المتوفى .

وعن الزجاج وهو غريب أن المراد بالرسل هنا الحفظة فيكون المعنى يرسلهم للحفظ في الحياة والتوفي عند مجيء الممات .

وقرأ حمزة "توفاه" بألف ممالة .

وقرىء في الشواذ "تتوفاه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ إذا جاء أحدكم الموت ﴾ غاية لما دلّ عليه اسم الحفظة من معنى الإحصاء ، أي فينتهي الإحصاء بالموت ، فإذا جاء الوقت الذي ينتهي إليه أجل الحياة توفَّاه الملائكة المرسلون لقبض الأرواح .

فقوله : ﴿ رسلُنا ﴾ في قوّة النكرة لأنّ المضاف مشتقّ فهو بمعنى اسم المفعول فلا تفيده الإضافة تعريفاً ، ولذلك فالمراد من الرسل التي تتوفَّى رسلٌ غيرُ الحفظة المرسلين على العباد ، بناء على الغالب في مجيء نكرة عقب نكرة أنّ الثانية غيرُ الأولى .

وظاهر قوله : ﴿ توفّته رُسُلنا ﴾ أنّ عدداً من الملائكة يتولّى توفّي الواحد من الناس .

وفي الآية الأخرى ﴿ قل يَتوفَّاكم مَلَك الموت الذي وُكِّل بكم ﴾ [ السجدة : 11 ] ، وسمِّي في الآثار عزرائيلَ ، ونقل عن ابن عباس : أنّ لملك الموت أعواناً .

فالجمع بين الآيتين ظاهر .

وعُلِّق فعل التوفِّي بضمير ﴿ أحدكم ﴾ الذي هو في معنى الذات .

والمقصود تعليق الفعل بحال من أحوال أحدكم المناسب للتَّوفي ، وهو الحياة ، أي توفَّت حياتَه وختمتْها ، وذلك بقبض روحه .

وقرأ الجمهور ﴿ توفَّته ﴾ بمثناة فوقية بعد الفاء .

(145/235)

---

وقرأ حمزة وحده ﴿ توفّاه رسلنا ﴾ وهي في المصحف مرسومة بنتْأة بعد الفاء فتصلح لأن تكون مثناة فوقية وأن تكون مثناة تحتية على لغة الإمالة .

وهي التي يرسم بها الألفات المنقلبة عن الياءات .

والوجهان جائزان في إسناد الفعل إلى جمع التكسير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ ﴾

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ ﴾ أي لا يقصرون فيما أمرهم الله تعالى به ، وهذا يدل على أن الملائكة الموكلين بقبض الأرواح لا يقصرون فيما أمروا به .

وقوله في صفة ملائكة النار : ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ ﴾ يدل على أن ملائكة العذاب لا يقصرون في تلك التكاليف ، وكل من أثبت عصمة الملائكة في هذه الأحوال أثبت عصمتهم على الإطلاق ، فدلت هذه الآية على ثبوت عصمة الملائكة على الإطلاق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 15 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وهم لا يفرطون ﴾ جملة حالية والعامل فيها توفته أو استئنافية أخبر عنهم بأنهم لا يفرطون في شيء مما أمروا به من الحفظ والتوفي ومعناه : لا يقصرون .

وقرأ الأعرج وعمرو بن عبيد ﴿ لا يفرطون ﴾ بالتخفيف أي لا يجاوزون الحد فيما أمروا به .

قال الزمخشري : فالتفريط التولي والتأخر عن الحد والإفراط مجاوزة الحد أي لا ينقصون مما أمروا به ولا

يزيدون فيه ؛ انتهى ، وهو معنى كلام ابن جني .

وقال ابن بحر : ﴿ يفرطون ﴾ لا يدعون أحداً يفرط عنهم أي يسبقهم ويفوتهم .

وقيل : يجوز أن تكون قراءة التخفيف معناها لا يتقدّمون على أمر الله وهذا لا يصح إلا إذا نقل أن أفرط بمعنى فرط أي تقدم .

وقال الحسن : إذا احتضر الميت احتضره خمسمائة ملك يقبضون روحه فيعرجون بها .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ ﴾ أي لا يضيّعون ولا يقصّرون ، أي يطيعون أمر الله .

وأصله من التقدّم ، كما تقدّم .

فمعنى فرّط قدّم العَجز .

وقال أبو عبيدة : لا يتوانون .

وقرأ عبيد بن عمير "لاَ يُفْرِطون" بالتخفيف ، أي لا يجاوزون الحدّ فيما أمروا به من الإكرام والإهانة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَهُمْ ﴾ أي الرسل ﴿ لاَ يُفَرّطُونَ ﴾ بالتواني والتأخير .

وقرأ الأعرج ﴿ يُفَرّطُونَ ﴾ بالتخفيف من الإفراط .

وهو مجاوزة الحد وتكون بالزيادة والنقصان أي لا يجاوزون ما حد لهم بزيادة أو نقصان ،

والجملة حال من ﴿ رُسُلُنَا ﴾ وقيل : مستأنفة سبقت لبيان اعتنائهم بما أمروا به . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وجملة : ﴿ وهم لا يفرّطون ﴾ حال .

والتفريط : التقصير في العمل والإضاعة في الذوات .

والمعنى أنَّهم لا يتركون أحداً قد تمّ أجله ولا يؤخّرون توفّيَه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير

والتنوير حـ 6 صـ ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾

والقاهر هو المتحكم بقدرة فائقة محيطة مستوعبة . ولقائل أن يقول : ما دام الحق هو القاهر

فكيف يكفر الكافر وكيف يعصي العاصي ؟ . ونقول : إن الكافر يكفر بما خلق الله فيه من اختيار وكذلك تكون معصية العاصي . ولكن الحق أوجد في الإنسان اضطراريات وقهريات تدلنا على أنه سبحانه فعال لما يريد . ولا أحد من المتمردين على منهج الله يجرؤ أن يسحب هذا التمرد على ما يجريه الله عليه من مرض أو موت .

والمتمرد أو الكافر إنما يختار من باطن الاختيار الذي خلقه الله فيه ، والله هو الحاكم للميلاد والموت ولا شيء للإنسان فيهما ، وكذلك هو سبحانه له تصريف أمور الغنى والفقر ولا يجرؤ متمرد على أن يتمرد على المصائب التي تحدث له وإن تمرد على منهج الله ؛ لأن التمرد هو من باطن خلق الله للاختيار الذي أودعه في الإنسان . ﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حتى إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ الموت تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ ﴾ [ الأنعام : 61 ] .

وحين يتكلم الحق سبحانه عن ذاته ونفسه ، قد يتكلم بضمير المتكلم . فيقول : ﴿ إِنني أَنَا الله ﴾ [ طه : 14 ] .

وقد يقول سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [ الحجر : 9 ] .

ومرة يتكلم عن ذاته بما نسميه نحن ضمير الغيبة مثل قوله هنا : ﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [ الأنعام : 61 ] .

لأن ضمير المتكلم معه دليله ، إنّ المتكلم يقول : أنا ، ويخاطبك فيقول : أنت . لكن الذي يتكلم بضمير الغيبة لا بد أن يعود الضمير على مرجع لهذا الضمير . وحين يتكلم الحق عن ذاته بما يسمى لدينا ضمير الغيبة فإنه – سبحانه – يريد أن يبين لنا أنه في أجلىَ مجال المشاهدة والحضور ؛ فكأنه إذا قال " هو " لا تنصرف إلا إلى ذاته العليا ؛ فكأنه لا يوجد مرجع ضمير إلا هو ، ولذلك يقول : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ [ الإخلاص : 1 ] .

وسبحانه يقول : " هو " قبل أن يذكر المرجع ، وهو " الله " ؛ مع أن الأصل في المرجع أن يتقدم ، ولكنه يقول : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ [ الإخلاص : 1 ]

فكأنه إذا أُطلِق هذا الضمير فلا ينصرف إلا إلى ذاته . وحين يتكلم بضمير المتكلم نراه يتكلم عن ذاته بضمير الإفراد فيقول : ﴿ إنني أَنَا الله ﴾ [ طه : 14 ] .

ويقول مرة أخرى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [ الحجر : 9 ] .

لماذا ؟ . إنه سبحانه إن تكلم عن فعل من أفعاله نجد أن كل فعل من أفعاله يتطلب صفات الكمال كلها فيه ، لأنه يتطلب علماً بما يتكلم به ، ويتطلب قدرة لإبرازه ، ويتطلب حكمة ، ويتطلب صفات كثيرة ، فإذا قال سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [ الحجر : 9 ] .

فالتنزيل فعل ، والفعل يقتضي صفات متعددة . فلا بد أن يأتي بضمير التعظيم وهو الجمع ؛

لأن كل صفات الكمال متجلية في التنزيل .

ولكن إن تكلم عن الذات في التوحيد لا يأتي بضمير الجمع أبداً ؛ لأنه يريد أن تنفي عن ذاته أنه متعدد ؛ لأنه هو الواحد الذي لا شريك له ، فحين يتكلم عن الذات يقول : ﴿ إنني أَنَا الله . . . ﴾ [ طه : 14 ] .

وحين يتكلم عن الذكر يقول : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر . . . ﴾ [ الحجر : 9 ] .

*(148/235)*

---

ففي مجال التعظيم والتنزيل الذي يتطلب تجلي كثير من صفاته – جل شأنه – يأتي بضمير الجمع ، وفي التوحيد والتفرد ونفي الشريك يأتي بضمير الإفراد .

هنا يقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ . . . ﴾ [ الأنعام : 61 ] .

وكلمة " قاهر " إذا سمعتها تتطلب مقهوراً . وما دام هناك قاهر ومقهور ففي ذلك ميزانان بين مجالين . وما دام هو قاهراً ففي أي مجال وبأية طريقة سيكون الطرف الثاني مقهوراً له ؟

إننا نعلم أن كل شيء في الكون مقهور له ، فقد قهر العدم فأوجد ، وقهر الوجود فأعدم . وقهر الغنى فأفقر ، وقهر الفقر فأغنى . وقهر الصحة فأمرض ، وقهر المرض فأصح .

إذن فكل شيء في الوجود مقهور لله حتى الروح التي جعلها الله مصدر الحس والحركة

للإنسان يقهرها سبحانه . فإذا جاء إنسان وقتل إنساناً آخر بأن ضربه على المكان الذي لا توجد عند عدمه وفقده حياة بأن أذهب صلاحيته للبقاء تنسحب الروح . وهذا يوضح لنا أن الروح في الجسم هي المسيطرة ، لكن من ينقض البنية التي تسكنها الروح يُذْهبُ الروح ويخرجها من الجسم . ومرة يقهر المادة بالروح ، فيأخذ الروح من غير آفة ومن غير أية إصابة ويتحول الجسم إلى رمّة . إذن فسبحانه يقهر الروح ، ويقهر المادة ، ولا توجد متقابلات في الوجود عالية ومتأبية ومتمردة عليه – سبحانه – : ﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام : 61] .

*(149/235)*

---

والقاهر هو المتحكم بقدرة شاملة على المقهور . وانظر أي تقابل في الحياة تجده مديناً وخاضعا لصفة القهر . ﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ وكلمة " فوق " تقتضي مكانية . ولكن المكانية تحديد ، وما دام القهر يتطلب قدرة فهل يعني ذلك أن القادر لا بد أن يكون في مكان أعلى ؟ لأننا نجد – على سبيل المثال ولله المثل الأعلى – من يضع قنبلة تحت العمارة العالية ويقهر من فيها . إذن فالقهر لا يقتضي الفوقية المكانية ، إذن فالفوقية المرادة هي فوقية الاستعلاء ، ونحن عندما تكلمنا عن الحق سبحانه وتعالى أوضحنا أن نلتزم

بإطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ فهو ذات لا ككل الذوات . وصفاته ليست ككل الصفات ، وكذلك نأتي ونقول في فعله ، وعلى سبيل المثال نجد خلق الله يحتاجون إلى زمن ويحتاجون إلى علاج ، وكل جزئية من الفعل تحتاج إلى جزئية من الزمن ، لكن هو سبحانه إذا فعل أيحتاج فعله إلى زمن ؟ لا ؛ لأنه لا يفعل بعلاج ، ولا يجلس ليباشر العملية ، إنما يفعل سبحانه ب "كن" ، إذن القهر في قوله : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ هو قهر الاستعلاء . ولذلك يقول لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة لآخر رمضان " .

ففي آية ليلة ينزل فيها الله ؟ ليلتك أم ليلة المقابل لك ؟ أم الليلة التي تشرق الشمس فيها في مكان ، وتغيب عن مكان آخر ؟ إذن ، فكل واحد من المليون من الثانية ينشأ ليل وينشأ نهار ، وهكذا نعلم أن الله معك ومع غيرك ، باسطا لك ولغيرك يده . ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [ المائدة : 64 ] .

لذلك لا تفهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها " . لا تفهم ذلك بتخصيص ليل معين أو نهار معين ؛ لأن يده مبسوطة في كل زمان وفي كل مكان وليس كمثله شيء .

﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ . وعباده من مادة العين والباء والدال ، ومفردها " عَبْد " ، وجمعها يكون مرة " عبيداً " وأخرى " عِبادا " . و" العباد " هم المقهورون لله فيما لا اختيار لهم فيه ، وهم أيضاً المنقادون لحكم الله فيما لهم فيه اختيار ؛ لأن الإنسان مقهور في بعض الأمور ولا تصرف له فيها : لا تصرف له في نَفَسه ، ولا تصرف له في نبضات قلبه ، ولا تصرف له في حركة المعدة ، ولا تصرف له في حركة الأمعاء ، ولا تصرف له في حركة الحالبين ، ولا تصرف له في حركة الكُلْيَة ، وكلها مسائل تشمل المؤمن والكافر ، والكل مقهور فيها .

إن من رحمة الله أننا مقهورون فيها ولا رأى لنا ؛ لأنه لو كان لنا رأي في مثل هذه الأمور لكان لنا أن نسأل : كيف ننظم عملية تنفسنا في أثناء النوم ؟ . إذن فمن رحمة الله أن منع عنا الاختيار في بعض الأمور التي تمس حياتنا . ومن رحمة الله أن كلاًّ منا مقهور فيها ، فمن يستطيع أن يقول لمعدته : اهضمي الطعام ؟ ومن يستطيع أن يأمر الكلى بالعمل ؟ ! ! .

إذن فكل أمر مقهور فيه الإنسان ، هو فيه منقاد لله ولا اختيار له . أما الأمر الذي لك فيه اختيار فهو مناط التكليف . ولذلك لا يقول لك المنهج : " افعل " إلا وأنت صالح ألا تفعل ، ولا يقول لك " لا تفعل " إلا وأنت صالح أن تفعل .

إذن الأمور الاختيارية هي التي وردت فيها " افعل " و" لا تفعل " . وهي الأمور التي فيها

التكليف . ومن يطع ربنا في منهج التكليف يصبح وكأنه مقهور للحكم ، ويكون ممن يسميهم الله " عباداً " ، فكأنهم تنازلوا عن اختيارهم في الأحكام التكليفية ، وقالوا : يارب لن نفعل إلا ما يريده منهجك .

*(151/235)*

---

وكل منهم ينفذ حكم الله فيما له اختيار ألا ينفذه . أما العبيد فهم من يتمردون على التكليف ، فالمؤمنون بالله هم عباده . ولذلك يقول الحق : ﴿ قُلْ يا عبادي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله إِنَّ الله يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً . . . ﴾ [ الزمر : 53 ]

.

ويوضح سبحانه سمات هؤلاء العباد فيقول : ﴿ وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً ﴾ [ الفرقان : 63 ] .

هؤلاء هم العباد الذين تنازلوا عن اختيارهم في الفعل ، وقبلوا أن يكونوا مأمورين ومطيعين لله فيما كلفَّ به ، وهم في الأمور التي لا اختيار لهم فيها يكونون مثل بقية الكائنات ، فكل الخلق والكون عبيد الله ، فيما لا اختيار لهم فيه أما المؤمنون به فهم عباد الله . ولكن آية واحدَة في القرآن وهي التي تثير بعض الجدل في مثل هذا الموضوع . ساعة يقول الحق

سبحانه وتعالى عما يحدث في الآخرة : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَءِ . . . ﴾ [ الفرقان : 17 ] .

وكأن " عبادي " هنا أطلقت على الضالين ، ويقول : نعم ؛ لأن الكل في الآخرة عباد ؛ إذ لا اختيار لأحد هناك . لكن في الدنيا فالمؤمنون فقط هم العباد ، والكافرون عبيد لأنهم متمردون في الاختيارات . ﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً ﴾ [ الأنعام : 61 ] .

ومع مجيء معنى القهر يرسل الحق حفظة ، وإذا كان القهر يعني الغلبة والتملك والسيطرة والقدرة ، فهو قهار على عباده وأيضاً يرسل عليهم حفظة .

ويقول في موقع آخر : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ ﴾ [ الرعد : 11 ] .

(152/235)

---

وهكذا يكون قهر الله لنا ، لمصلحتنا نحن ؛ لأن الضعيف حين يقهره جبار ، يمكنه أن يقول : الله هو القهار الأعلى ، وفي هذا تذكير للقوى نسبياً أن هناك قهاراً فوق كل الكائنات ، فالله قهار فوق الجميع ، وبذلك يرتدع القوي عن قهره ، فيمتنع عن الذنب ، وتمتنع عنه العقوبة ،

وفي ذلك رحمة له .

﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً ﴾ [ الأنعام : 61 ] .

وجاء معنى " الحفظة " في القرآن في قوله الحق : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ ق : 18 ] .

فكل لفظ له رقيب عتيد ، حفظة أي ملائكة يحفظون ويحصون أعمالكم ويسجلونها وهم الكرام الكاتبون ، وكلما تقدم العلم أعطانا فهماً للمعاني الغيبية ، وإن كانت المعاني الغيبية التي نستقبلها عن الله دليلنا فيها السماع ، ففيه رقيب وعتيد يكتبان فقط ، هكذا قال ربنا فآمنا بما قال وانتهت المسألة ، وهذا هو المطلوب . ولذلك قال الحق : ﴿ الذين يُؤْمِنُونَ بالغيب ﴾ [ البقرة : 3 ] .

لأن الإيمان لو كان بالمشهد فما الفرق – إذن – بين الناس ؟ إن الإيمان في كماله وقمته هو الإيمان بالغيب ، فإذا قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ ق : 18 ] .

فهذا خبر عن الملائكة الذين يكتبون الحسنات ، ويكتبون السيئات . وحين ننظر إلى البشر ، نجدهم يتفاوتون ويرتفع بعض منهم على بعض في صفات وقدرات ، وكلما تقدّم الزمن عرف الإنسان سِراً من أسرار الله يترقى به .

وقديماً عندما صنعوا جهاز التسجيل كان حجمه كبيراً ثم تقدم العلم حتى صغر حجم

المسجل ، إذن كلما تقدمت الصنعة صغرت الآلة ، لدرجة أنهم صنعوا مسجلاً يشبه الحبوب ، وينثرونها في أي مكان عندما يريدون التقاط أسرار جماعة أو أسرار مجلس ، إذن كلما قويت قدرة الصانع دقت الصنعة . فإذا نسبتها لله ، فأين دقة الذي صنعته أنت بجانب دقة صنعة الله ؟

*(153/235)*

---

فإذا كان واحد من البشر قد استطاع أن يأتي بمسجلات غير مرئية مع أن قدرته محدودة ، وحكمته في الصنعة محدودة ، فإذا قال ربك : إن هناك ملائكة لن تراهم وستحصى عليك أعمالك وهم غيب فقل على العين والرأس ، وسبحانه القائل : ﴿ كِرَاماً كَاتِبِينَ ﴾ [ الانفطار : 11 ] .

وهنا يقول الحق : ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حتى إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ الموت ﴾ [ الأنعام : 61 ] .

وعندما أراد العلماء أن يعرِّفوا الموت قالوا : الموت سهم أرسل ، وعمُرك بقدر سفره إليك ، هو إذن سهم قد انطلق ، لكن عمرك يُقدّر بمقدار سفره إليك ، وحين يقول الحق : ﴿ حتى إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ الموت ﴾ فهو ينسب الموت لمن ؟ . لقد أبهم الله زمانه ، وأبهم مكانه ،

وأبهم سببه ، وأبهم قدره ، وهذا الإبهام هو أشد أنواع البيان ؛ لأنه ما دام قد أبهمه في كل هذه الأمور يجب أن نستعد للقائه في كل زمان ، وفي كل مكان ، وبأي سبب .

وإياك أن تتعجب لأنه يحدث في أي سن ، فإبهام الحق له هو أكبر بيان ؛ لأنه سبحانه لو حدده زماناً أو سنّاً أو سبباً ؛ لكان على الإنسان أن ينتظر الموت ، لكن شاء هذا الابهام وهو أقوى أنواع البيان ، ليلفتك ويحثك على أن تنتظره في أي زمان وفي أي مكان وبأي سبب وفي أي سن ، وبهذا يكون الموت واضحاً أمامنا جميعاً ، ولذلك تخشى ارتكاب أي ذنب حتى لا تقبض روحك وأنت على الذنب ؛ لأنك لا تحب أن تلقى الله وأنت عاصٍ .

وعندما يؤذن لصلاة الظهر ولم تصلِّه ، قد تقول : إن وقته ممتد ، وتجد من يقول لك : اضمن لي انك ستعيش إلى أن ينتهي وقت الظهر . " ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم : عندما سأله عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قائلا : أيّ الأعمال أفضل ؟ قال : الصلاة على وقتها ، قلت : ثم أيُّ ؟ قال : برّ الوالدين ، قلت : ثم أي ؟ قال : " الجهاد في سبيل الله " .

*(154/235)*

إنك لا تضمن من عمرك أن تعيش إلى آخر الوقت . ولذلك عندما نقول : إن الإبهامات من أقوى أنواع البيان فيجب أن نصدق ذلك ؛ لأن البعض يقول : لماذا لم يبين الله لنا ذلك ؟

ودائماً أقول : لقد أوضح الله ما أبهم ، فإن الإبهام هو أقوى بيان ، ألم نر إنساناً ذهب لطبيب ليعالجه في مسألة فكان الطبيب سبب موته ؟ لقد رأينا ذلك . لقد أخذ هذا الإنسان بالأسباب ولم يمنع ذلك أن قدر الله قد نفذ فيه .

ولذلك قال شوقي – رحمة الله عليه – :

أسد لعمرك من يموت بظفره عند . . . اللقاء كمن يموت بنابه

إن نام عنك فكل طب نافع . . . أو لم ينم فالطب من أذنابه

فقد يخطئ الطبيب – مثلاً – في إعطاء حقنة – فتنتهي الحياة ويقولون : خطأ الطبيب إصابة الأقدار .

مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ الموت تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ [ الأنعام : 61 ] .

وعندما تأتي كلمة " توفّى " تجدها في القرآن دائرة على ثلاثة ألوان : اللون الأول هو قول الحق : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفس حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [ الزمر : 42 ] .

وقوله سبحانه : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الموت ﴾ [ السجدة : 11 ] .

ومرة يقول الحق سبحانه : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ [ الأنعام : 61 ] .

سبحانه – إذن – ينسب الموت له ولملك الموت ، ولرسله .

وهل الرسل يأخذون الأرواح ويقبضونها إلا بإذن من ملك الموت ؟ إنهم جنوده ، فلا أحد يميت دون إذن من الله ، فأخذ الأرواح وقبضها إلى الله أمراً ، وإلى ملك الموت وسيلة وواسطة ، وإلى الرسل تنفيذاً .

﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ ﴾ [ الأنعام : 61 ]

*(155/235)*

---

من أين يأتي التفريط ؟ لقد تقدم في هذه الآية شيئان اثنان : حفظة يحفظون عليك تصرفاتك وفعالك ، وهم يأخذون الروح أيضاً . وهؤلاء الملائكة لا يفرطون في هذه المهمة أو تلك . وحين ننظر في مادة ال " فاء " ، وال " الراء " وال " الطاء " نجدها تأتي مرة " فرّط " ، ومرة " أفرط " . ومن العجيب أنها تأتي للمتقابلين ؛ ففرَّط في الشيء أي أهمله ، وأفرط في الشيء أي جاوز الحد والقدر في الحدث .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ ﴾ أي لا يهملون ولا يقصرون . وفي إحدى قراءات القرآن نجد من يقرأ : " لا يفرطون " بالتخفيف ، والمقصود أنهم لا يتجاوزون الحد . ولذلك نجد الحق يقول : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [ الأعراف : 34 ] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً ﴾ : فيه خمسة أوجه :

أحدها : أنه عَطْفٌ على اسم الفاعل الواقع صِلَةً لـ " أل " ؛ لأنه في معنى يَفْعَل ، والتقدي : وهو الذي يقهر عبادَهُ ويرسل ، فعطف الفعل على الاسم ؛ لأنه في تأويله ، ومثله عند بعضهم : ﴿ إِنَّ المصدقين والمصدقات وَأَقْرَضُواْ ﴾ [ الحديد : 18 ] [ قالوا ] : " أقْرَضُوا " عطف على " مُصَّدِّقِين " الواقع صِلَةً لـ " أل " ؛ لأنه في معنى : إنَّ الذين صَدَّقُوا وأقْرَضُوا ، وهذا ليس بشيء ؛ لأنه يلزم من ذلك الفَصْلُ بين أبْعَاضِ الصِّلةِ بأجنبي ، وذلك أن " وأقْرَضُوا " من تمام صِلَةِ " أل " في " المُصَّدِّقين " ، وقد عطف على الموصُولِ قوله " المُصَّدِّقات " وهو أجنبي ، وقد تقرَّر غير مرَّةٍ أنه لا يتبغ الموصول إلاَّ بعد تمام صلته .

وأمَّا قوله تعالى ﴿ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾ [ الملك : 19 ] ف " يَقْبِضْنَ " في تأويل اسم ، أي : وقابضات .

ومن عطف الاسم على الفعل لكونه في تأويل الاسم قوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت ﴾

[الأنعام: 95].

وقوله: [الطويل]

2189 - فَأَلْفَيْتُهُ يَوْماً [يُبِيرُ] عَدُوَّهُ . . .

[ومُجْرٍ] عَطَاءً يِسْتَخِفُّ المَعَابِرَا

والثاني: أنها جملة فعلية على جملة اسمية وهي قوله: "وهُوَ القَاهِرُ".

(157/235)

---

والثالث: أنها مَعْطُوفَةٌ على الصِّلَةِ، وما عطف عليها، وهو قوله: "يَتَوَفَّاكُمْ" و"يَعْلَم" وما بعده، أي: وهو الذي يتوفاكم ويرسل.

الرابع: أَنَّهُ خبر مبتدأ محذوف، والجملةُ في محلِّ نصبٍ على الحالِ، وفي صاحبها وجهان:

أظهرهما: أنه الضمير المُسْتَكِنُّ في "القَاهِرِ".

والثاني: أنها حالٌ من الضمير المُسْتَكِنِّ في الظرف، هكذا قال أبو البقاء، ونقله عنه أبو حيَّان قال: "وهذا الوجهُ أضعفُ الأعاريبِ".

وقولهما: "الضمير الذي في الظرف" ليس هنا ظَرْفٌ يُتَوَهَّمُ كون هذه الحال من ضير فيه، إلاَّ قوله: "فَوْقَ عِبَادِهِ"، ولكن بأيِّ طريق يتحمَّلُ هذا الظرف ضميراً؟

والجوابُ : أنه قد تقدَّم في الآية المشبهة لهذه أن " فَوْقَ عِبَادِهِ " فيه خمسة أوجه :

ثلاثة منها تتحمَّلُ فيها ضَمِيراً ، وهي : كونه خبراً ثانياً ، أو بَدَلاً من الخبرِ ، أو حالاً ، وإنما اضْطررْنَا إلى تقدير مبتدأ قَبْلَ "يُرْسِلُ" ؛ لأن المضارع المثبت إذا وقع حالاً لم يقترن بالواو كما تقدَّم إيضاحه .

والخامس : أنها مُسْتَأْنَفَةٌ سيقت للإخبار بذلك ، وهذا الوجه هو في المعنى كالثاني .

قوله : " عليكم " يحتملُ ثلاثة أوجه :

أظهرها : أنه متعلّق بـ " يرسل " ومنه ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ ﴾ [ الرحمن : 35 ] ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ [ الأعراف : 133 ] ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرا ﴾ [ الفيل : 3 ] إلى غير ذلك .

والثاني : أنه متعلّق بـ " حَفَظَة " ، يقال : حفظت عليه عمله ، فالتقدير : ويرسل حَفَظَةً عليْكُمْ .

قال أبو حيَّان : أي : يحفظون عليكم أعمالكم ، كما قال : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾ [ الانفطار : 10 ] كما تقول : حفظت عليك ما تعمل فقوله كما قال تشبيه من حيث المعنى ، لا أن " عَلَيْكُمْ " تعلَّقَ بـ " حافظين " ؛ لأن " عَلَيْكُمْ " هو الخبر لـ " أنَّ " ، فيتعلق بمحذوف .

والثالث : أنه مُتَعلِّقٌ بمحذوف على أنه حالٌ من " حَفَظَة " ، إذ لو تأخَّر لجاز أن يكون صِفَةً لها .

قال أبو البقاء : " عَلَيْكُمْ " فيه وجهان :

أحدهما : هو مُتعلّق بـ " يرسل " .

والثاني : أن يكون في نِيَّةِ التَّأخير ، وفيه وجهان :

أحدهما أن يتعلَّق بنفس " حَفَظَة " ن والمفعول محذوف ، أي : يرسل عليكم من يحفظ أعمالكم .

والثاني : أن يكون صفة لـ " حفظة " قدمت فصارت حالاً .

قوله : والمفعول محذوف يعني : مفعول " حفظة " ، إلاَّ أنَّهُ يُوهِمُ أنَّ تقدير المفعول خاصٌّ بالوجه الذي ذكره ، وليس كذلك ، بل لا بُدَّ من تقديره على كُلِّ وجْهٍ ، و " حَفَظَة " إنما عمل في ذلك المقدَّر لكونه صِفَةً لمحذوفٍ تقديره : ويرسل عليكم ملائكة حَفَظَةً ؛ لأنه لا يعمل إلاَّ بشروطٍ هذا منها ، أعني كونه معتمداً على موصوف ، و " حفظة " جمعُ " حافظ " ، وهو مُنْقَاسٌ في كُلِّ وصْفٍ على فاعلٍ صحيح " اللام " لعقلٍ مذكرٍ ، كـ " بارّ " و " بَررَة " ، و " فاجر " و " فَجَرَة " ، و " كاملٍ " و " كَمَلَه " ، وينقل في غير العاقل ، كقوله : " غُرابٌ نَاعقٌ " و " غِرْبَانٌ نعقة " .

وقوله : " تَوَفَّتْهُ " قرأ الجمهور " تَوَفَّتْهُ " ، ماضياً بتاء التأنيث لتأنيث الجمع .

وقرأ حمزة : " تَوَفَّاهُ " من غير تاء تأنيث ، وهي تحتمل وجهين .

أظهرهما : أنه ماض ، وإنما حذفَ تاء التأنيث لوجهين :

أحدهما : كونه تأنيثاً مجازياً .

والثاني : الفَصْلُ بين الفِعْلِ وفاعله بالمفعول .

والثاني : أنه مضارع ، وأصله : تَتَوَفَّاهُ بتاءين ، فحذفت إحداهما على خلافٍ في أيّتهما كـ " تَنَزَّلُ " وبابه ، وحمزة على بابه في إمالة مثل هذه الألف .

وقرأ الأعمش : " يَتَوَفَّاهُ " مُضارعاً بياء اليغَيْبَةِ اعتباراً بكونه مؤنثاً مجازياً ، أوْ للفَصْلِ ، فهو كقراءة حَمْزَةَ في الوجْهِ الأوَّل من حيث تذكير الفعلِ وكقراءته فغي الوَجْهِ الثاني من حيث إنه أتى به مُضَارعاً .

*(159/235)*

---

وقال أبو البقاء : " وقرئ شاذاً " " تَتَوَفَّاهُ " على الاسْتِقْبَالِ ، ولم يذكر بياء ولا تاء .

قوله : " وهُمْ لا يُفَرِّطُونَ " هذه الجملة تحتمل وجهين :

أظهرهما : أنها حالٌ من " رسلنا " .

والثاني : أنها اسْتِئْنَافِيَّةٌ سيقت للإخبار عنهم بهذه الصِّفة ، والجمهور على التشديد في " يُفَرِّطُون " ، ومعناه : لا يُقَصِّرُون .

وقرأ عمرو بن عُبيد والأعرج "يُفْرِطُون " مخففاً من " أفرط " ، وفيها تأويلان :

أحدهما : أنها بمعنى : لا يجاوزون الحَدَّ فيما أمِرُوا به .

قال الزمخشري : " فالتفريط : التَّوَاني والتأخير عن الحَدِّ ، والإفراط مُجَاوَزَةُ الحدِّ أي : لا ينقصون مما أمروا بِهِ ، ولا يزيدون " .

والثاني : أنَّ معناه لا يتقدَّمُون على أمْرِ الله ، وهذا يحتاج إلى نَقْلِ أنَّ " أفْرَطَ " بمعنى " فَرَّط " ، أي : تقدَّم .

قال الجَاحِظُ قريباً من هذا فغنه قال : " معنى لا يُفْرِطون : لا يدعون أحَداً يَفْرُط عنهم ، أي : يَسْبِقُهُمْ ويفوتهم " .

وقال أبو البقاء : ويقرأ بالتخفيف ، أي : لا يزيدون على ما أمِرُوا به ، وهو قريبٌ مما تقدَّم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 193 ـ 198 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (61) ﴾

فوق عباده بالقهر والرفعة ، وفوقهم بالقدرة على أن يُعَذِّبهم من فوقهم بإنزال العقوبة عليهم والسخطة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 480 ﴾

(160/235)

---

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (62) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أشار سبحانه إلى قوته بالجنود التي تفوت الحصر – وإن كان عنهم غنياً بصفة القهر – نبه بصيغة المجهول إلى استحضار عظمته وشامل جبروته وقدرته فقال : ﴿ ثم ﴾ أي بعد حبسهم في قيد البرزخ ﴿ ردوا ﴾ أي ردهم راد منه لا يستطيعون دفاعه أصلاً ﴿ إلى الله ﴾ أي الذي لا تحد عظمته ولا تعد جنوده وخدمته ﴿ مولاهم ﴾ أي مبدعهم ومدبر أمورهم كلها ﴿ الحق ﴾ أي الثابت الولاية ، وكل ولاية غير ولايته من الحفظة وغيرهم عدم ، لأن الحفظة لا يعلمون إلا ما ظهر لهم ، وهو سبحانه يعلم السر وأخفى .

ولما استحضر المخاطب عزته وقهره ، وتصور جبروته وكبره ، فتأهل قلبه وسمعه لما يلقى إليه ويتلى عليه ، قال : ﴿ ألا له ﴾ أي وحده حقاً ﴿ الحكم ﴾ ولما كان الانفراد بالحكم

بين جميع الخلق أمراً يحير الفكر ، ولا يكاد يدخل تحت الوهم ، قال محقراً في جنب قدرته : ﴿ وهو ﴾ أ يوحده ﴿ أسرع الحاسبين ﴾ يفصل بين الخلائق كلهم في أسرع من اللمح كما أنه يقسم أرزاقهم في الدنيا في مثل ذلك ، لا يقدر أحد أن ينفك عن عقابه بمطاولة في الحساب ولا مغالطة في ثواب ولا عقاب ، لأنه سبحانه لا يحتاج إلى فكر وروية ولا عقد ولا كتابة ، فلا يشغله حساب عن حساب ولا شيء عن شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 649 ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ ففيه مباحث : الأول : قيل المردودون هم الملائكة يعني كما يموت بنو آدم يموت أيضاً أولئك الملائكة .

وقيل : بل المردودون البشر ، يعني أنهم بعد موتهم يردون إلى الله .

*(161/235)*

---

واعلم أن هذه الآية من أدل الدلائل على أن الإنسان ليس عبارة عن مجرد هذه البنية ، لأن صريح هذه الآية يدل على حصول الموت للعبد ويدل على أنه بعد الموت يرد إلى الله ،

والميت مع كونه ميتاً لا يمكن أن يرد إلى الله لأن ذلك الرد ليس بالمكان والجهة ، لكونه تعالى متعالياً عن المكان والجهة ، بل يجب أن يكون ذلك الرد مفسراً بكونه منقاداً لحكم الله مطيعاً لقضاء الله ، وما لم يكن حياً لم يصح هذا المعنى فيه ، فثبت أنه حصل ههنا موت وحياة أما الموت ، فنصيب البدن : فبقي أن تكون الحياة نصيباً للنفس والروح ولما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ رُدُّواْ إلى الله ﴾ وثبت أن المرد وهو النفس والروح ، ثبت أن الإنسان ليس إلا النفس والروح ، وهو المطلوب .

واعلم أن قوله : ﴿ ثُمَّ رُدُّواْ إلى الله ﴾ مشعر بكون الروح موجودة قبل البدن ، لأن الرد من هذا العالم إلى حضرة الجلال : إنما يكون لو أنها كانت موجودة قبل التعلق بالبدن ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ ارجعى إلى ربّكِ ﴾ [ الفجر : 28 ] وقوله : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً ﴾ [ يونس : 4 ] ونقل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " خلق الله الأرواح قبل الأجساد بألفي عام " وحجة الفلاسفة على إثبات أن النفوس البشرية غير موجودة قبل وجود البدن حجة ضعيفة بينا ضعفها في "الكتب العقلية" .

البحث الثاني : كلمة "إلى" تفيد انتهاء الغاية فقوله إلى الله يشعر بإثبات المكان والجهة لله تعالى وذلك باطل فوجب حمله على أنهم ردوا إلى حيث لا مالك ولا حاكم سواه .

البحث الثالث : أنه تعالى سمى نفسه في هذه الآية باسمين : أحدهما المولى ، وقد عرفت أن لفظ المولى ، ولفظ الولي مشتقان من الولي : أي القرب ، وهو سبحانه القريب البعيد الظاهر الباطن لقوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد ﴾ [ ق : 16 ] وقوله : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نجوى ثلاثة إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ [ المجادلة : 7 ] وأيضاً المعتق يسمى بالمولى ، وذلك كالمشعر بأنه أعتقهم من العذاب ، وهو المراد من قوله : "سبقت رحمتي غضبي" وأيضاً أضاف نفسه إلى العبد فقال : ﴿ مولاهم الحق ﴾ وما أضافهم إلى نفسه وذلك نهاية الرحمة ، وأيضاً قال : مولاهم الحق ، والمعنى أنهم كانوا في الدنيا تحت تصرفات الموالي الباطلة وهي النفس والشهوة والغضب كما قال : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ [ الجاثية : 23 ] فلما مات الإنسان تخلص من تصرفات الموالي الباطلة ، وانتقل إلى تصرفات المولى الحق .

والاسم الثاني الحق : واختلفوا هل هو من أسماء الله تعالى ، فقيل : الحق مصدر . وهو نقيض الباطل ، وأسماء المصادر لا تجري على الفاعلين إلا مجازاً كقولنا فلان عدل ورجاء وغياث وكرم وفضل ، ويمكن أن يقال : الحق هو الموجود وأحق الأشياء بالموجودية هو الله سبحانه لكونه واجباً لذاته ، فكان أحق الأشياء بكونه حقاً هو هو ، واعلم أنه قرىء الحق بالنصب على المدح كقولك : الحمد لله الحق . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 15.16 ﴾

وقال أبو حيان :

*(163/235)*

---

﴿ ثم ردّوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ الظاهر عود الضمير على العباد ، وجاء عليكم على سبيل الالتفات لما في الخطاب من تقريب الموعظة من السامعين ، ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿ ردّوا ﴾ على أحدكم على المعنى لأنه لا يريد ب ﴿ أحدكم ﴾ ظاهره من الإفراد إنما معناه الجمع وكأنه قيل : حتى إذا جاءكم الموت ، وقرىء ﴿ ردّوا ﴾ بكسر الراء نقل حركة الدال التي أدغمت إلى الراء والراد المحذر من الله أو بالبعث في الآخرة أو الملائكة ردّتهم بالموت إلى الله .

وقيل : الضمير يعود على ﴿ رسلنا ﴾ أي الملائكة يموتون كما يموت بنو آدم ويردّون إلى الله تعالى وعوده على العباد أظهر و ﴿ مولاهم ﴾ لفظ عام لأنواع الولاية التي تكون بين الله وبين عبيده من الملك والنصرة والرزق والمحاسبة وغير ذلك ، وفي الإضافة إشعار برحمته لهم وظاهر الإخبار بالرد إلى الله أنه يراد به البعث والرجوع إلى حكم الله وجزائه يوم القيامة ويدل عليه آخر الآية .

وقال أبو عبد الله الرازي : صريح الآية يدل على حصول الموت للعبد ورده إلى الله والميت مع كونه ميتاً لا يمكن أن يرد إلى الله بل المردود هو النفس والروح وهنا موت وحياة ، فالموت نصيب البدن والحياة نصيب النفس والروح فثبت أن الإنسان ليس إلا النفس والروح وليس عبارة عن مجرد هذه البنية وفي قوله : ﴿ ردّوا إلى الله ﴾ إشعار بكون الروح موجودة قبل البدن لأن الرد من هذا العالم إلى حضرة الجلال إنما يكون إذا كانت موجودة قبل التعلق بالبدن ونظيره ﴿ ارجعي إلى ربك ﴾ ﴿ إلى الله مرجعكم جميعاً ﴾ وجاء في الحديث : " خلقت الأرواح قبل الأجساد بألفي عام " .

وحجة الفلاسفة على كون النفوس غير موجودة قبل وجود البدن ضعيفة وبينا ضعفها في الكتب العقلية ؛ انتهى كلامه وفيه بعض تلخيص .

وقال أيضاً : ﴿ إلى الله ﴾ يشعر بالجهة وهو باطل فوجب حمله على أنهم ردّوا إلى حيث لا مالك ولا حاكم سواه ؛ انتهى .

والظاهر أن هذا الرد هو بالبعث يوم القيامة إلا ما أراده الرازي ووصفه تعالى بالحق معناه العدل الذي ليس بباطل ولا مجاز .

وقال أبو عبد الله الرازي : كانوا في الدنيا تحت تصرفات الموالي الباطلة وهي النفس والشهوة والغضب كما قال تعالى : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ فلما مات تخلص من تصرفات الموالي الباطلة وانتقل إلى تصرف المولى الحق انتهى كلامه .

وتفسيره خارج عن مناحي كلام العرب ومقاصدها وهو في أكثره شبيه بكلام الذين يسمون أنفسهم حكماء .

وقرأ الحسن والأعمش ﴿ الحق ﴾ بالنصب والظاهر أنه صفة قطعت فانتصبت على المدح وجوز نصبه على المصدر تقديره الرد الحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

*(164/235)*

---

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ ﴾ وفي متولِّي الرد قولان :

أحدهما : أنهم الملائكة التي توفتهم .

والثاني : أنه الله بالبعث والنشور .

وفي ردهم إلى الله وجهان :

أحدهما : معناه ردهم إلى تدبير الله وحده ، لأن الله دبرهم عند خلقهم وإنشائهم ، مكَّنهم من التصرف فصاروا في تدبير أنفسهم ، ثم كَفَّهم عنه بالموت فصاروا في تدبير الله كالحالة الأولى ، فصاروا بذلك مردودين إليه .

والثاني : أنهم ردوا إلى الموضع الذي لا يملك الحكم عليهم فيه إلا الله ، فجعل الرد إلى ذلك الموضع رداً إليه .

فإن قيل : فكيف قال : ﴿ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ ﴾ وقد قال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُم ﴾ [ محمد : 11 ] . قيل : عنه جوابان :

أحدهما : أنه قال هذا لأنهم دخلوا في جملة غيرهم من المؤمنين المردودين فعمَّهم اللفظ .

والثاني : أن المولى قد يعبر به عن الناصر تارة وعن السيد أخرى ، والله لا يكون ناصراً للكافرين ، وهو سيد الكافرين والمؤمنين .

و ﴿ الْحَقِّ ﴾ هنا يحتمل ثلاثة أوجه :

أحدهما : أن الحق هو من أسمائه تعالى .

والثاني : لأنه مستحق الرد عليه .

والثالث : لحُكْمِهِ فيهم بالرد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن كثير :

وقوله : ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ ﴾ قال ابن جرير : ﴿ ثُمَّ رُدُّوا ﴾ يعني : الملائكة ﴿ إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ ﴾

ونذكر هاهنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد [ عن أبي هريرة في ذكر صعود الملائكة بالروح من سماء إلى سماء حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عَزَّ وجل] حيث قال : حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا ابن أبي ذئب ، عن محمد بن عمرو بن عطاء ، عن سعيد بن يَسَار ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن الميت تحضره الملائكة ، فإذا كان الرجل الصالح قالوا : اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ، اخرجي حميدة ، وأبشري بروح وريحان ، ورب غير غضبان ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يُعْرَج بها إلى السَّماء فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان ، فيقال : مرحبا بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ، ادخلي حميدة وأبْشري بروح وريحان ورب غير غضبان . فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عَزَّ وجل . وإذا كان الرجل السوء ، قالوا : اخرجي أيتها النفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث ، اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغساق ، وآخر من شكله أزواج ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان ، فيقال : لا مرحبًا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ، ارجعي ذميمة ، فإنه لا يفتح لك أبواب السماء . فترسل من السماء ثم تصير إلى القبر ، فيجلس الرجل الصالح فيقال له

مثل ما قيل في الحديث الأول ، ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول

هذا حديث غريب (1)

ويحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ يعني : الخلائق كلهم إلى الله يوم القيامة ، فيحكم فيهم بعدله ، كما قال [تعالى] ﴿ قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ [الواقعة : 49 ، 50] ، وقال ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : 47 - 49] ؛ ولهذا قال : ﴿ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 267 . 268 ﴾

(1) المسند (2/364 ، 365) .

وقال الآلوسى :

﴿ ثُمَّ رُدُّواْ ﴾ عطف على ﴿ تَوَفَّتْهُ ﴾ [ الأنعام : 61 ] والضمير كما قيل للكل المدلول عليه بأحد وهو السر في مجيئه بطريق الالتفات ، والإفراد أولاً والجمع آخراً لوقوع التوفي على الإنفراد والرد على الاجتماع .

وذهب بعض المحققين أن فيه التفاتاً من الخطاب إلى الغيبة ومن التكلم إليها لأن الرد يناسبه الغيبة بلا شبهة وإن لم يكن الرد حقيقة لأنهم ما خرجوا من قبضة حكمه سبحانه طرفة عين .

ونقل الإمام القول بعود الضمير على الرسل أي أنهم يموتون كما يموت بنو آدم ، والأول هو الذي عليه غالب المفسرين .

والمراد : ثم ردوا بعد البعث والحشر أو من البرزخ ﴿ إِلَى اللهِ ﴾ أي إلى حكمه وجزائه أو إلى موضع العرض والسؤال ﴿ مولاهم ﴾ أي مالكهم الذي يلي أمورهم على الإطلاق ولا ينافي ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ الكافرين لاَ مولى لَهُمْ ﴾ [ محمد : 11 ] لأن المولى فيه بمعنى الناصر ﴿ الحق ﴾ أي العدل أو مظهر الحق أو الصادق الوعد .

*(168/235)*

وذكر حجة الإسلام قدس سره أن الحق مقابل الباطل وكل ما يخبر عنه فإما باطل مطلقاً وإما حق مطلقاً وإما حق من وجه باطل من وجه ، فالممتنع بذاته هو الباطل مطلقاً والواجب بذاته هو الحق مطلقاً والممكن بذاته الواجب بغيره حق من وجه باطل من وجه ، فمن حيث ذاته لا وجود له فهو باطل ومن جهة غيره مستفيد للوجود فهو حق من الوجه الذي يلي مفيد الوجود ، فمعنى الحق المطلق هو الموجود الحقيقي بذاته الذي منه يؤخذ كل حقيقة وليس ذلك إلا الله تعالى ، وهذا هو مراد القائل إن الحق هو الثابت الباقي الذي لا فناء له .

وفي "التفسير الكبير" "أن لفظ المولى والولي مشتقان من [ الوَلْيُ : أي ] القرب وهو سبحانه القريب ( البعيد . . .

) ويطلق المولى أيضاً على المعتق وذلك كالمشعر بأنه جل شأنه أعتقهم من العذاب وهو المراد من قوله سبحانه "سبقت رحمتي غضبي" وأيضاً أضاف نفسه إلى العبيد وما أضافهم إلى نفسه وذلك نهاية الرحمة ، وأيضاً قال عز اسمه : ﴿ مولاهم الحق ﴾ والمعنى أنهم كانوا في الدنيا تحت تصرفات الموالي الباطلة وهي النفس والشهوة والغضب كما قال سبحانه : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتخذ إلهه هَوَاهُ ﴾ [ الجاثية : 32 ] فلما مات الإنسان تخلص من تصرفات الموالي الباطلة وانتقل إلى تصرف المولى الحق" انتهى .

وهو كما ترى .

وادعى "أن هذه الآية من أدل الدلائل على أن الإنسان ليس عبارة عن مجرد هذه البنية لأن صريحها يدل على حصول الموت للعبد ويدل على أنه بعد الموت يرد إلى الله تعالى والميت مع كونه ميتاً لا يمكن أن يرد إلى الله تعالى لأن ذلك الرد ليس بالمكان والجهة لتعاليه سبحانه عنهما بل يجب أن يكون مفسراً بكونه منقاداً لحكم الله تعالى مطيعاً لقضائه وما لم يكن حياً لا يصح هذا المعنى فيه فثبت أنه حصل ههنا موت وحياة أما الموت فنصيب البدن فتبقى الحياة نصيب الروح ولما قال سبحانه : ﴿ رُدُّواْ ﴾ وثبت أن المردود هو الروح ثبت أن الإنسان ليس إلا هي وهو المطلوب ، وكذا تشعر بكون الروح موجودة قبل التعلق بالبدن لأن الرد من هذا العالم إلى حضرة الجلال إنما يكون لو كانت موجودة كذلك ، ونظيره قوله سبحانه ﴿ ارجعى إلى ربّكِ ﴾ [ الفجر : 28 ] وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ [ الأنعام : 60 ] ولا يخفى ما في ذلك فتدبر .

وقرىء ﴿ الحق ﴾ بالنصب على المدح.

وجوز أن يكون على أنه صفة للمفعول المطلق أي الرد الحق فلا يكون حينئذ المراد به الله عز وجل والأول أظهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

والضمير في قوله : ﴿ رُدّوا ﴾ عائد إلى ﴿ أحد ﴾ باعتبار تنكيره الصادق بكلّ أحد ، أي ثمّ يُردّ المتوفَّوْن إلى الله .

والمراد رجوع الناس إلى أمر الله يوم القيامة ، أي ردّوا إلى حكمه من نعيم وعذاب ، فليس في الضمير التفات .

والمولى هنا بمعنى السيد ، وهو اسم مشترك يطلق على السيد وعلى العبد .

و﴿ الحقّ ﴾ بالجرّ صفة ل ﴿ مولاهم ﴾ ، لما في ﴿ مولاهم ﴾ من معنى مالكهم ، أي مالكهم الحقّ الذي لا يشوب مِلكه باطلٌ يُوهن ملكه .

وأصل الحقّ أنَّه الأمر الثابت فإن كلّ ملك غير ملك الخالقية فهو مشوب باستقلال مملوكه عنه استقلالاً تفاوتاً ، وذلك يُوهن المِلك ويضعف حقّيّته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(170/235)

---

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ . . ﴾ الآية ، هذه الآية الكريمة تدل على أن الله مولى الكافرين ونظيرها قوله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ .

وقد جاء في آية أخرى ما يدل على خلاف ذلك وهي قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ .

والجواب عن هذا أن معنى كونه مولى الكافرين أنه مالكهم المتصرف فيهم بما شاء, ومعنى كونه مولى المؤمنين دون الكافرين أي ولاية المحبة والتوفيق والنصر ، والعلم عند الله تعالى .

وأما على قول من قال: إن الضمير في قوله: ﴿ رُدُّوا ﴾ , وقوله: ﴿ مَوْلاهُمُ ﴾ عائد على الملائكة فلا إشكال في الآية أصلاً, ولكن الأول أظهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 117 ﴾

*(171/235)*

---

قوله تعالى ﴿ أَلَا لَهُ الحكم وَهُوَ أَسْرَعُ الحاسبين ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله : ﴿ أَلَا لَهُ الحكم وَهُوَ أَسْرَعُ الحاسبين ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ أَلَا لَهُ الحكم ﴾ معناه أنه لا حكم إلا لله .

ويتأكد ذلك بقوله : ﴿ إن الحكم إلا لله ، وذلك يوجب أنه لا حكم لأحد على شيء إلا الله ، وذلك يوجب أن الخير والشر كله بحكم الله وقضائه ، فلولا أن الله حكم للسعيد بالسعادة والشقي بالشقاوة ، وإلا لما حصل ذلك .

المسألة الثانية :

قال أصحابنا هذه الآية تدل على أن الطاعة لا توجب الثواب والمعصية لا توجب العقاب ، إذ لو ثبت ذلك لثبت للمطيع على الله حكم ، وهو أخذ الثواب ، وذلك ينافي ما دلت الآية عليه أنه لا حكم إلا لله .

المسألة الثالثة :

احتج الجبائي بهذه الآية على حدوث كلام الله تعالى .

قال لو كان كلامه قديماً لوجب أن يكون متكلماً بالمحاسبة .

الآن : وقبل خلقه ، وذلك محال لأن المحاسبة تقتضي حكاية عمل تقدم وأصحابنا عارضوه بالعلم ، فإنه تعالى كان قبل الخلق عالماً بأنه سيوجد ، وبعد وجوده صار عالماً بأنه قبل ذلك وجد ، فلم يلزم منه تغير العلم ، فلم لا يجوز مثله في الكلام . والله أعلم .

المسألة الرابعة :

اختلفوا في كيفية هذا الحساب ، فمنهم من قال : إنه تعالى يحاسب الخلق بنفسه دفعة واحدة ، لا يشغله كلام عن كلام ، ومنهم من قال بل يأمر الملائكة حتى أن كل واحد من الملائكة يحاسب واحداً من العباد ، لأنه تعالى لو حاسب الكفار بنفسه لتكلم معهم ، وذلك باطل لقوله تعالى في صفة الكفار ، ﴿ ولا يكلمهم ﴾ [ آل عمران : 77 ] ، وأما الحكماء فلهم كلام في تفسير هذا الحساب ، وهو أنه إنما يتخلص بتقديم مقدمتين .

فالمقدمة الأولى : أن كثرة الأفعال وتكررها توجب حدوث الملكات الراسخة القوية الثابتة والاستقراء التام يكشف عن صحة ما ذكرناه .

*(172/235)*

---

ألا ترى أن كل من كانت مواظبته على عمل من الأعمال أكثر كان رسوخ الملكة التامة على ذلك العمل منه فيه أقوى .

المقدمة الثانية : إنه لما كان تكرر العمل يوجب حصول الملكة الراسخة ، وجب أن يكون لكل واحد من تلك الأعمال أثر في حصول تلك الملكة ، بل كان يجب أن يكون لكل جزء من أجزاء العمل الواحد أثر بوجه ما في حصول تلك الملكة ، والعقلاء ضربوا لهذا الباب

أمثلة .

المثال الأول : أنا لو فرضنا سفينة عظيمة بحيث لو ألقي فيها مائة ألف من فإنها تغوص في الماء بقدر شبر واحد ، فلو لم يلق فيها إلا حبة واحدة من الحنطة ، فهذا القدر من إلقاء الجسم الثقيل في تلك السفينة يوجب غوصها في الماء بمقدار قليل ، وإن قلت وبلغت في القلة إلى حيث لا يدركها الحس ولا يضبطها الخيال .

المثال الثاني : أنه ثبت عند الحكماء أن البسائط أشكالها الطبيعية كرات فسطح الماء يجب أن يكون كرة والقسى المشابهة من الدوائر المحيطة بالمركز الواحد متفاوتة ، فإن تحدب القوس الحاصل من الدائرة العظمى يكون أقل من تحدب القوس المشابهة للأولى من الدائرة الصغرى وإذا كان الأمر كذلك فالكوز إذا ملىء من الماء ، ووضع تحت الجبل كانت حدبة سطح ذلك الماء أعظم من حدبته عندما يوضع الكوز فوق الجبل ، ومتى كانت الحدبة أعظم وأكثر كان احتمال الماء بالكوز أكثر ، فهذا يوجب أن احتمال الكوز للماء حال كونه تحت الجبل أكثر من احتماله للماء حال كونه فوق الجبل ، إلا أن هذا القدر من التفاوت بحيث لا يفي بإدراكه الحس والخيال لكونه في غاية القلة .

والمثال الثالث : إن الإنسانين اللذين يقف أحدهما بالقرب من الآخر ، فإن رجليهما يكونان أقرب إلى مركز العالم من رأسيهما ، لأن الأجرام الثقيلة تنزل من فضاء المحيط إلى ضيق المركز ، إلا أن ذلك القدر من التفاوت لا يفي بإدراكه الحس والخيال .

فإذا عرفت هذه الأمثلة : وعرفت أن كثرة الأفعال توجب حصول الملكات فنقول : لا فعل من أفعال الخير والشر بقليل ولا كثير ، إلا ويفيد حصول أثر في النفس .

إما في السعادة ، وإما في الشقاوة ، وعند هذا ينكشف بهذا البرهان القاطع صحة قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [ الزلزلة : 7 ، 8 ] ولما ثبت أن الأفعال توجب حصول الملكات والأفعال الصادرة من اليد ، فهي المؤثرة في حصول الملكة المخصوصة ، وكذلك الأفعال الصادرة من الرجل ، فلا جرم تكون الأيدي والأرجل شاهدة يوم القيامة على الإنسان ، بمعنى أن تلك الآثار النفسانية ، إنما حصلت في جواهر النفوس بواسطة هذه الأفعال الصادرة عن هذه الجوارح ، فكان صدور تلك الأفعال من تلك الجارحة المخصوصة جارياً مجرى الشهادة لحصول تلك الآثار المخصوصة في جوهر النفس ، وأما الحساب : فالمقصود منه معرفة ما بقي من الدخل والخرج ، ولما بينا أن لكل ذرة من أعمال الخير والشر أثراً في حصول هيئة من هذه الهيئات في جوهر النفس ، إما من الهيئات الزاكية الطاهرة أو من الهيئات المذمومة الخسيسة ، ولا شك أن تلك الأعمال كانت مختلفة .

فلا جرم كان بعضها يتعارض بالبعض ، وبعد حصول تلك المعارضات بقي في النفس قدر مخصوص من الخلق الحميد ، وقدر آخر من الخلق الذميم ، فإذا مات الجسد ظهر مقدار ذلك الخلق الحميد ، ومقدار ذلك الخلق الذميم ، وذلك الظهور إنما يحصل في الآن الذي لا ينقسم ، وهو الآن الذي فيه ينقطع تعلق النفس من البدن ، فعبر عن هذه الحالة بسرعة الحساب ، فهذه أقوال ذكرت في تطبيق الحكمة النبوية على الحكمة الفلسفية ، والله العالم بحقائق الأمور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 16 . 17 ﴾

*(174/235)*

---

وقال الماوردى :

﴿ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ ﴾ يعني القضاء بين عباده .

فإن قيل : فقد جعل لغيره الحكم ؟

فعنه جوابان :

أحدهما : أن له الحكم في يوم القيامة وحده .

والثاني : أن غيره يحكم بأمره فصار الحكم له .

ويحتمل قوله : ﴿ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ ﴾ وجهاً ثانياً : أن له أن يحكم لنفسه فصار بهذا الحكم

مختصاً .

﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : يعني سرعة الحكم بين العباد لتعجيل الفصل ، وعبر عن الحكم بالحساب من تحقيق المستوفي بهما من قليل وكثير .

والثاني : وهو الظاهر أنه أراد سرعة محاسبة العباد على أعمالهم .

ويحتمل مراده بسرعة حسابه وجهين .

أحدهما : إظهار قدرته بتعجيل ما يعجز عنه غيره .

والثاني : أنه يبين به تعجيل ما يستحق عليه من ثواب ، وتعجيل ما يستحق على غيره من عقاب جمعاً بين إنصافه وانتصافه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ ألا له الحكم ﴾ ابتداء كلام مضمنه التنبيه وهز نفس السامع ، " الحكم " تعريفه للجنس أي جميع أنواع التصرفات في العباد و ﴿ أسرع الحاسبين ﴾ متوجه على أن الله عز وجل حسابه لعبيده صادر عن علمه بهم فلا يحتاج في ذلك إلى إعداد ولا تكلف سبحانه لا رب غيره ، وقيل لعلي بن أبي طالب كيف يحاسب الله العباد في حال واحدة ؟ قال : كما يرزقهم في حال واحدة في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَا لَهُ الحكم ﴾ يومئذ صورة ومعنى لا لغيره بوجه من الوجوه .

واستدل بذلك على أن الطاعة لا توجب الثواب والمعصية لا توجب العقاب إذ لو ثبت ذلك لثبت للمطيع على الله تعالى حكم وهو أخذ الثواب وهو ينافي ما دلت عليه الآية من الحصر ﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ الحاسبين ﴾ يحاسب جميع الخلائق بنفسه في أسرع زمان وأقصره ، ويلزم هذا أن لا يشغله حساب عن حساب ولا شأن عن شأن .

وفي الحديث " أنه تعالى يحاسب الكل في مقدار حلب شاة " .

وفي بعض الأخبار " في مقدار نصف يوم " .

وذهب بعضهم إلى أنه تعالى لا يحاسب الخلق بنفسه بل يأمر سبحانه الملائكة عليهم السلام فيحاسب كل واحد منهم واحداً من العباد .

وذهب آخرون إلى أنه عز وجل إنما يحاسب المؤمنين بنفسه وأما الكفار فتحاسبهم الملائكة لأنه تعالى لو حاسبهم لتكلم معهم وذلك باطل لقوله تعالى في صفتاهم : ﴿ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ ﴾ [ البقرة : 174 ] وأجاب الأولون عن هذا بأن المراد أنه تعالى لا يكلمهم بما ينفعهم فإن ظواهر الآيات ومنها ما تقدم في هذه السورة من قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [ الأنعام : 22 ] وقوله

سبحانه : ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ وُقِفُواْ على رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هذا بالحق قَالُواْ بلى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ العذاب بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [ الأنعام : 30 ] تدل على تكليمه تعالى لهم في ذلك اليوم ، ثم إن كيفية ذلك الحساب مما لا تحيط بتفصيلها عقول البشر من طريق الفكر أصلاً وليس لنا إلا الايمان به مع تفويض الكيفية وتفصيلها إلى عالم الغيب والشهادة .

*(176/235)*

---

"وادعى الفلاسفة أن كثرة الأفعال وتكررها يوجب حدوث الملكات الراسخة وأنه يجب أن يكون لكل واحد من تلك الأعمال أثر في حصول تلك الملكة بل يجب أن يكون لكل جزء من أجزاء العمل الواحد أثر بوجه ما في ذلك وحينئذ يقال : إن الأفعال الصادرة من اليد هي المؤثرة في حصول الملكة المخصوصة وكذلك الأفعال الصادرة من اليد هي المؤثرة في حصول الملكة المخصوصة وكذلك الأفعال الصادرة من الرجل فتكون الأيدي والأرجل شاهدة على الإنسان بمعنى أن تلك الآثار النفسانية إنما حصلت في جواهر النفوس بواسطة هذه الأفعال الصادرة عن هذه الجوارح فكان ذلك الصدور جارياً مجرى الشهادة بحصول تلك الآثار في جواهر النفس .

وأما الحساب فالمقصود منه استعلام ما بقي من الدخل والخرج ، ولما كان لكل ذرة من

الأعمال أثر حسن أو قبيح حسب حسن العمل وقبحه ولا شك أن تلك الأعمال كانت مختلفة فلا جرم كان بعضها معارضاً بالبعض وبعد حصول المعارضة يبقى في النفس قدر مخصوص من الخلق الحميد وقدر آخر من الذميم فإذا مات الجسد ظهر مقدار ذلك وهو إنما يحصل في الآن الذي لا ينقسم وهو الآن الذي فيه فيقطع فيه تعلق النفس من البدن فعبر عن هذه الحالة بسرعة الحساب" ، وزعم من نقل هذا عنهم أنه من تطبيق الحكمة النبوية على الحكمة الفلسفية ، وأنا أقول

: راحت مشرقة ورحت مغربا . . .

شتان بين مشرق ومغرب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وجملة : ﴿ ألا لَهُ الحكمُ وهو أسرع الحاسبين ﴾ تذييل ولذلك ابتدىء بأداة الاستفتاح المؤذنة بالتنبيه إلى أهمية الخبر .

والعرب يجعلون التذييلات مشتملة على اهتمام أو عموم أو كلام جامع .

وقدّم المجرور في قوله ﴿ له الحكم ﴾ للاختصاص ، أي له لا لغيره ، فإن كان المراد من الحكم جنس الحكم فقصره على الله إمَّا حقيقي للمبالغة لعدم الاعتداد بحكم غيره ، وإمَّا إضافي للردّ على المشركين ، أي ليس لأصنامكم حكم معه ، وإن كان المراد من الحكم الحساب ، أي الحكم المعهود يوم القيامة ، فالقصر حقيقي .

وربَّما ترجَّح هذا الاحتمال بقوله عقبه : ﴿ وهو أسرع الحاسبين ﴾ أي ألاَ له الحساب ، وهو أسرع من يحاسب فلا يتأخَّر جزاؤه .

وهذا يتضمَّن وعداً ووعيداً لأنَّه لمَّا أتي بحرف المهلة في الجمل المتقدّمة وكان المخاطبون فريقين : فريق صالح وفريق كافر ، وذكر أنَّهم إليه يرجعون كان المقام مقام طماعية ومخالفة ؛ فالصالحون لا يحبّون المهلة والكافرون بعكس حالهم ، فعُجِّلت المسرّة للصالحين والمساءة للمشركين بقوله : ﴿ وهو أسرع الحاسبين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(177/235)

---

فائدة

قال فى روح البيان :

قال بعض العلماء : المحاسبة لتقدير الأعمال والوزن لإظهار مقاديرها فيقدم الحساب على الميزان ولهذا لا ميزان لمن يدخل الجنة بلا حساب .

واعلم : أن الحشر والحساب لا يكون على وجه الأرض وإنما يكون في الأرض المبدلة وهي أرض بيضاء كالفضة لم يسفك فيها دم ولم يظلم عليها أحد فإذا ثبت الحشر والحساب ، وأن

الله تعالى هو المحاسب وجب على العاقل أن يحاسب نفسه قبل أن يناقش في الحساب لأنه هو التاجر في طريق الآخرة وبضاعته عمره وربحه صرف عمره في الطاعات والعبادات ، وخسرانه صرفه في المعاصي والسيئات ونفسه شريكه في هذه التجارة ، وهي وإن كانت تصلح للخير والشر لكنها أميل وأقبل إلى المعاصي والشهوات فلا بد له من مراقبتها ومحاسبتها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 3 صـ 61 ﴾

*(178/235)*

---

ومن فوائد السعدى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ ثُمَّ ﴾ بعد الموت والحياة البرزخية وما فيها من الخير والشر ﴿ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ ﴾ أي الذي تولاهم بحكمه القدري فنفذ فيهم ما شاء من أنواع التدبير ثم تولاهم بأمره ونهيه وأرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب ثم ردوا إليه ليتولى الحكم فيهم بالجزاء ويثيبهم على ما عملوا من الخيرات ويعاقبهم على الشرور والسيئات ولهذا قال ﴿ أَلا لَهُ الْحُكْمُ ﴾ وحده لا شريك له ﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ لكمال علمه وحفظه لأعمالهم بما أثبتته في اللوح المحفوظ ثم أثبته ملائكته في الكتاب الذي بأيديهم فإذا كان تعالى هو المنفرد

بالخلق والتدبير وهو القاهر فوق عباده وقد اعتنى بهم كل الاعتناء في جميع أحوالهم وهو الذي له الحكم القدري والحكم الشرعي والحكم الجزائي فأين للمشركين العدول عن من هذا وصفه ونعته إلى عبادة من ليس له من الأمر شيء ولا عنده مثقال ذرة من النفع ولا له قدرة وإرادة ؟

أما والله لو علموا حلم الله عليهم وعفوه ورحمته بهم وهم يبارزونه بالشرك والكفران ويتجرءون على عظمته بالإفك والبهتان وهو يعافيهم ويرزقهم لانجذبت دواعيهم إلى معرفته وذهلت عقولهم في حبه ولمقتوا أنفسهم أشد المقت حيث انقادوا لداعي الشيطان الموجب للخزي والخسران ولكنهم قوم لا يعقلون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير السعدى صـ 260.259 ﴾

*(179/235)*

---

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ) .

الْمَفَاتِحُ جَمْعُ مَفْتَحٍ - بِفَتْحِ الْمِيمِ - وَهُوَ الْمَخْزَنُ ، وَبِكَسْرِهَا وَهُوَ الْمِفْتَاحُ الَّذِي تُفْتَحُ بِهِ

الْأَقْفَالُ ، وَقُرِئَ فِي الشَّوَاذِّ " مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ " وَيُؤَيِّدُ هَذِهِ الْقِرَاءَةَ حَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ الْآتِي فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ، وَيَجُوزُ اسْتِعْمَالُ اللَّفْظِ فِي مَعْنَيَيْهِ ، أَيْ أَنَّ خَزَائِنَ الْغَيْبِ - وَهُوَ مَا غَابَ عِلْمُهُ عَنِ الْخَلْقِ - هِيَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَفِي

(180/235)

---

تَصَرُّفِهِ وَحْدَهُ ، وَأَنَّ الْمَفَاتِيحَ - أَيِ الْوَسَائِلَ الَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ - هِيَ عِنْدَهُ أَيْضًا لَا يَعْلَمُهَا عِلْمًا ذَاتِيًّا إِلَّا هُوَ ، فَهُوَ الَّذِي يُحِيطُ بِهَا عِلْمًا وَسِوَاهُ جَاهِلٌ بِذَاتِهِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُحِيطَ عِلْمًا بِهَا وَلَا أَنْ يَعْلَمَ شَيْئًا مِنْهَا إِلَّا بِإِعْلَامِهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَالْوَاجِبُ أَنْ يُفَوَّضَ إِلَيْهِ إِنْجَازُ وَعْدِهِ لِرَسُولِهِ بِالنَّصْرِ ، وَوَعِيدِهِ لِأَعْدَائِهِ بِالْعَذَابِ وَالْقَهْرِ ، مَعَ الْقَطْعِ بِأَنَّهُ لَا يُخْلِفُ وَعْدَهُ رُسُلَهُ ، وَإِنَّمَا يُؤَخِّرُ إِنْجَازَهُ إِلَى الْأَجَلِ الَّذِي اقْتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ بَيَانُ حَقِيقَةِ الْغَيْبِ وَاسْتِئْثَارِ اللَّهِ تَعَالَى بِعِلْمِهِ ، وَمَا يُعَلِّمُهُ بَعْضَ خَلْقِهِ مِنَ الْحَقِيقِيِّ أَوِ الْإِضَافِيِّ مِنْهُ ، وَسَنَزِيدُ ذَلِكَ بَيَانًا (وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) قَالَ الرَّاغِبُ : أَصْلُ الْبَحْرِ كُلُّ مَكَانٍ وَاسِعٍ جَامِعٍ لِلْمَاءِ الْكَثِيرِ . وَقِيلَ : إِنَّ أَصْلَهُ الْمَاءُ الْمِلْحُ ، وَأُطْلِقَ عَلَى الْأَنْهَارِ بِالتَّوَسُّعِ أَوِ التَّغْلِيبِ . وَالْبَرُّ مَا يُقَابِلُهُ مِنَ الْأَرْضِ ، وَهُوَ مَا يُسَمِّيهِ عُلَمَاءُ خَرْتِ الْأَرْضِ بِالْيَابِسَةِ . وَعِلْمُهُ تَعَالَى بِمَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مِنْ عِلْمِ الشَّهَادَةِ الْمُقَابِلِ لِعِلْمِ الْغَيْبِ .

عَلَى أَنَّ أَكْثَرَ مَا فِي خَفَايَا الْبَرِّ وَالْبَحْرِ غَائِبٌ عَنْ عِلْمِ أَكْثَرِ الْخَلْقِ ، وَإِنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ مَوْجُودًا يُمْكِنُ أَنْ يَعْلَمَهُ الْبَاحِثُ مِنْهُمْ عَنْهُ ، وَقَدَّمَ ذِكْرَ الْبَرِّ عَلَى الْبَحْرِ

(181/235)

---

عَلَى طَرِيقَةِ التَّرَقِّي مِنَ الْأَدْنَى إِلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ ، فَإِنَّ قَسْمَ الْبَحْرِ مِنَ الْأَرْضِ أَعْظَمُ مِنْ قَسْمِ الْبَرِّ ، وَخَفَايَاهُ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ (وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ) أَيْ وَمَا تَسْقُطُ وَرَقَةٌ مَا مِنْ نَجْمٍ أَوْ شَجَرٍ مَا إِلَّا يَعْلَمُهَا ؛ لِإِحَاطَةِ عِلْمِهِ بِالْجُزْئِيَّاتِ كُلِّهَا (وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) أَيْ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ حَبَّةٍ بِفِعْلِ فَاعِلٍ مُخْتَارٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ كَالْحَبِّ الَّذِي يُلْقِيهِ الزُّرَّاعُ فِي بُطُونِ الْأَرْضِ يَسْتُرُونَهُ بِالتُّرَابِ فَيَحْتَجِبُ عَنْ نُورِ النَّهَارِ ، وَالَّذِي تَذْهَبُ بِهِ النَّمْلُ وَغَيْرِهَا مِنَ الْحَشَرَاتِ فِي قُرَاهَا وَجُحُورِهَا ، أَوْ بِغَيْرِ فِعْلِ فَاعِلٍ كَالَّذِي يَسْقُطُ مِنَ النَّبَاتِ فِي شُقُوقِهَا وَأَخَادِيدِهَا ، وَمَا يَسْقُطُ مِنْ رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ مِنَ الثِّمَارِ وَنَحْوِهَا - إِلَّا كَائِنٌ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ - وَهُوَ عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي يُشْبِهُ الْمَكْتُوبَ فِي الصُّحُفِ بِثَبَاتِهِ وَعَدَمِ تَغَيُّرِهِ - أَوْ كِتَابُهُ الَّذِي كَتَبَ فِيهِ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ وَسَيَأْتِي ذِكْرُهُ ، وَهُوَ بِمَعْنَى قَوْلِهِ فِيمَا قَبْلَهُ : (إِلَّا يَعْلَمُهَا )

وَلِذَلِكَ قِيلَ : إِنَّهُ تَكْرِيرٌ لَهُ

بِالْمَعْنَى ، وَقِيلَ : بَدَلُ كُلٍّ أَوْ بَدَلُ اشْتِمَالٍ مِنْهُ .

(182/235)

---

فَإِنْ قِيلَ : مَا حِكْمَةُ تَخْصِيصِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ بِالذِّكْرِ ؟ قُلْنَا : إِنَّ الْمَعْلُومَ - أَوْ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْعِلْمُ إِمَّا مَوْجُودٌ وَإِمَّا مَعْدُومٌ ، وَالْمَوْجُودُ إِمَّا حَاضِرٌ مَشْهُودٌ ، وَإِمَّا غَائِبٌ فِي حُكْمِ الْمَفْقُودِ ، وَلَيْسَ فِي الْوُجُودِ شَيْءٌ غَائِبٌ عَنِ اللهِ تَعَالَى ، فَعِلْمُهُ تَعَالَى بِالْأَشْيَاءِ إِمَّا عِلْمُ غَيْبٍ وَهُوَ عِلْمُهُ بِالْمَعْدُومِ ، وَإِمَّا عِلْمُ شَهَادَةٍ وَهُوَ عِلْمُهُ بِالْمَوْجُودِ ، وَأَمَّا أَهْلُ الْعِلْمِ مِنَ الْخَلْقِ فَمِنَ الْمَوْجُودَاتِ مَا هُوَ حَاضِرٌ مَشْهُودٌ لَدَيْهِمْ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ حَاضِرٌ غَيْرُ مَشْهُودٍ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ لَهُمْ آلَةً لِلْعِلْمِ بِهِ كَعَالَمِ الْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ مَعَ الْإِنْسِ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ غَائِبٌ عَنْ شُهُودِهِمْ وَهُمْ مُسْتَعِدُّونَ لِإِدْرَاكِهِ لَوْ كَانَ حَاضِرًا ، وَمَا هُوَ غَائِبٌ وَهُمْ غَيْرُ مُسْتَعِدِّينَ لِإِدْرَاكِهِ لَوْ حَضَرَ ، فَكُلُّ مَا خُلِقُوا غَيْرُ مُسْتَعِدِّينَ لِإِدْرَاكِهِ مِنْ مَوْجُودٍ وَمَعْدُومٍ فَهُوَ غَيْبٌ حَقِيقِيٌّ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ ، وَكُلُّ مَا خُلِقُوا مُسْتَعِدِّينَ لِإِدْرَاكِهِ دَائِمًا أَوْ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ فَهُوَ - إِنْ غَابَ عَنْهُمْ - غَيْبٌ إِضَافِيٌّ . وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى لَنَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ خَزَائِنَ عَالَمِ الْغَيْبِ كُلِّهَا عِنْدَهُ ، وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُهَا وَأَسْبَابُهَا الْمُوصِلَةُ إِلَيْهَا ، وَأَنَّ عِنْدَهُ مِنْ عِلْمِ الشَّهَادَةِ

مَا لَيْسَ عِنْدَ غَيْرِهِ ، وَذَكَرَ عَلَى سَبِيلِ الْمَثَلِ عِلْمَهُ بِكُلِّ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مِنْ ظَاهِرٍ وَخَفِيٍّ ، ثُمَّ خَصَّ بِالذِّكْرِ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ مِمَّا فِي الْبَرِّ :

(183/235)

---

إِحَاطَةُ عِلْمِهِ بِكُلِّ وَرَقَةٍ تَسْقُطُ مِنْ نَبْتَةٍ ، وَكُلِّ حَبَّةٍ تَسْقُطُ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ ، وَكُلِّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ . فَأَمَّا الْوَرَقُ الَّذِي يَسْقُطُ فَهُوَ مَا كَانَ حَبًّا رَطْبًا مِنَ النَّبَاتِ فَأَشْرَفَ عَلَى الْيُبْسِ وَفَقَدَ الْحَيَاةَ النَّبَاتِيَّةَ وَالْتَحَقَ بِمَوَادِّ الْأَرْضِ الْمَيْتَةِ ، وَقَدْ يَتَغَذَّى بِهِ حَيَوَانٌ بَعْدَ يُبْسِهِ أَوْ قَبْلَهُ ، أَوْ يَتَحَلَّلُ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ سُقُوطِهِ ، وَيَتَغَذَّى بِهِ نَبَاتٌ آخَرُ فَيَدْخُلُ فِي عَالَمِ الْأَحْيَاءِ بِطَوْرٍ آخَرَ ، وَأَمَّا الْحَبُّ فَهُوَ أَصْلُ تَكْوِينِ النَّبَاتِ الْحَيِّ يَسْقُطُ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ ، فَمِنْهُ مَا يَنْبُتُ وَيَكُونُ نَجْمًا أَوْ شَجَرًا ، وَمِنْهُ مَا يَتَغَذَّى بِهِ بَعْضُ الْأَحْيَاءِ مِنَ الْحَيَوَانِ ، كَالطَّيْرِ وَالْحَشَرَاتِ ، فَيَدْخُلُ فِي بِنْيَتِهَا كَمَا قُلْنَا فِيمَا قَبْلَهُ . وَأَمَّا ذِكْرُ الرَّطْبِ وَالْيَابِسِ فَهُوَ تَعْمِيمٌ بَعْدَ تَخْصِيصٍ فِي هَذَا الْبَابِ ، فَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ مِنْ عَالَمِ الشَّهَادَةِ تَدْخُلُ فِي عَالَمِ الْغَيْبِ ، ثُمَّ تَبْرُزُ فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ . وَعِلْمُ اللهِ تَعَالَى مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا عَلَى كَثْرَتِهَا وَدِقَّةِ بَعْضِهَا وَصِغَرِهِ ، وَتَنَقُّلِهِ فِي أَطْوَارِ الْخَلْقِ وَالتَّكْوِينِ وَمَا يَتْبَعُهُمَا مِنَ الصُّوَرِ وَالْمَظَاهِرِ ، وَحَسْبُكَ هَذَا الْإِيمَاءُ مِنْ حِكْمَةِ تَخْصِيصِهَا بِالذِّكْرِ .

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مَبَاحِثُ لِعُلَمَاءِ الْآثَارِ ، وَجَوْلَاتٌ لِلنُّظَّارِ ، نَذْكُرُ الْمُهِمَّ مِنْهَا فِي فُصُولٍ :

فَهْمُ عُلَمَاءِ الْكَلَامِ وَالْحُكَمَاءِ لِلْآيَةِ

(184/235)

---

قَالَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ الْكَبِيرِ الَّذِي سَمَّاهُ (مَفَاتِحُ الْغَيْبِ) مَا نَصُّهُ :

" اعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى : (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ) يَعْنِي أَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْعَالِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، فَهُوَ يُعَجِّلُ مَا تَعْجِيلُهُ أَصْلَحُ وَيُؤَخِّرُ مَا تَأْخِيرُهُ أَصْلَحُ . وَفِي الْآيَةِ مَسَائِلُ :

(185/235)

---

(الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى) الْمَفَاتِحُ جَمْعُ مِفْتَحٍ ، وَمَفْتَحٍ وَالْمِفْتَحُ بِالْكَسْرِ الْمِفْتَاحُ الَّذِي يُفْتَحُ بِهِ ، وَالْمَفْتَحُ بِفَتْحِ الْمِيمِ الْخِزَانَةُ ، وَكُلُّ خِزَانَةٍ كَانَتْ لِصِنْفٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ فَهُوَ مَفْتَحٌ ، قَالَ الْفَرَّاءُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ) (28 : 76) يَعْنِي خَزَائِنَهُ ، فَلَفْظُ الْمَفَاتِحِ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْهُ الْمَفَاتِيحُ ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُرَادَ مِنْهُ الْخَزَائِنُ . أَمَّا عَلَى التَّقْدِيرِ الْأَوَّلِ فَقَدْ جَعَلَ لِلْغَيْبِ مَفَاتِيحَ عَلَى طَرِيقِ الِاسْتِعَارَةِ ؛ لِأَنَّ الْمَفَاتِيحَ يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى مَا فِي الْخَزَائِنِ

الْمُسْتَوْثِقِ مِنْهَا بِالْأَغْلَاقِ وَالْأَقْفَالِ ، فَالْعَالِمُ بِتِلْكَ الْمَفَاتِيحِ وَكَيْفِيَّةِ اسْتِعْمَالِهَا فِي فَتْحِ تِلْكَ الْأَغْلَاقِ وَالْأَقْفَالِ يُمْكِنُهُ أَنْ يَتَوَصَّلَ بِتِلْكَ الْمَفَاتِيحِ إِلَى مَا فِي تِلْكَ الْخَزَائِنِ ، فَكَذَلِكَ هَاهُنَا الْحَقُّ سُبْحَانَهُ ، لَمَّا كَانَ عَالِمًا بِجَمِيعِ الْمَعْلُومَاتِ عَبَّرَ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى بِالْعِبَارَةِ الْمَذْكُورَةِ ، وَقُرِئَ " مَفَاتِيحُ " . وَأَمَّا عَلَى التَّقْدِيرِ الثَّانِي فَالْمَعْنَى وَعِنْدَهُ خَزَائِنُ الْغَيْبِ ، فَعَلَى التَّقْدِيرِ الْأَوَّلِ يَكُونُ الْمُرَادُ الْعِلْمَ بِالْغَيْبِ ، وَعَلَى التَّقْدِيرِ الثَّانِي الْمُرَادُ مِنْهُ : الْقُدْرَةُ عَلَى كُلِّ الْمُمْكِنَاتِ كَمَا فِي قَوْلِهِ : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) (15 : 21) .

*(186/235)*

---

" وَلِلْحُكَمَاءِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ كَلَامٌ عَجِيبٌ مُفَرَّعٌ عَلَى أُصُولِهِمْ ، فَإِنَّهُمْ قَالُوا : ثَبَتَ أَنَّ الْعِلْمَ بِالْعِلَّةِ عِلَّةٌ لِلْعِلْمِ بِالْمَعْلُولِ ، وَأَنَّ الْعِلْمَ بِالْمَعْلُولِ لَا يَكُونُ عِلَّةً لِلْعِلْمِ بِالْعِلَّةِ ، قَالُوا : وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فَنَقُولُ : الْمَوْجُودُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ وَاجِبًا لِذَاتِهِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مُمْكِنًا لِذَاتِهِ .

وَالْوَاجِبُ لِذَاتِهِ لَيْسَ إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَكُلُّ مَا سِوَاهُ فَهُوَ مُمْكِنٌ لِذَاتِهِ ، وَالْمُمْكِنُ لِذَاتِهِ لَا يُوجَدُ إِلَّا بِتَأْثِيرِ الْوَاجِبِ لِذَاتِهِ ، وَكُلُّ مَا سِوَى الْحَقِّ سُبْحَانَهُ فَهُوَ مَوْجُودٌ بِإِيجَادِهِ ، كَائِنٌ بِتَكْوِينِهِ وَاقِعٌ بِإِيقَاعِهِ ، إِمَّا بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ وَإِمَّا بِوَاسِطَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَإِمَّا بِوَسَائِطَ كَثِيرَةٍ

عَلَى التَّرْتِيبِ النَّازِلِ مِنْ عِنْدِهِ طُولًا وَعَرْضًا ، إذَا ثَبَتَ هَذَا فَنَقُولُ : عِلْمُهُ بِذَاتِهِ يُوجِبُ عِلْمَهُ بِالْأَثَرِ الْأَوَّلِ الصَّادِرِ مِنْهُ ، ثُمَّ عِلْمُهُ بِذَلِكَ الْأَثَرِ الْأَوَّلِ يُوجِبُ عِلْمَهُ بِالْأَثَرِ الثَّانِي ؛ لِأَنَّ الْأَثَرَ الْأَوَّلَ عِلَّةٌ قَرِيبَةٌ لِلْأَثَرِ الثَّانِي ، وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْعِلْمَ بِالْعِلَّةِ يُوجِبُ الْعِلْمَ بِالْمَعْلُولِ ، فَبِهَذَا عِلْمُ الْغَيْبِ

(187/235)

---

لَيْسَ إلَّا عِلْمُ الْحَقِّ بِذَاتِهِ الْمَخْصُوصَةِ ، ثُمَّ يَحْصُلُ بِهِ مِنْ عِلْمِهِ بِذَاتِهِ عِلْمُهُ بِالْآثَارِ الصَّادِرَةِ عَنْهُ عَلَى تَرْتِيبِهَا الْمُعْتَبَرِ ، وَلَمَّا كَانَ عِلْمُهُ بِذَاتِهِ لَمْ يَحْصُلْ إلَّا لِذَاتِهِ - لَا جَرَمَ - صَحَّ أَنْ يُقَالَ (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إلَّا هُوَ) فَهَذَا هُوَ طَرِيقَةُ هَؤُلَاءِ الْفِرْقَةِ الَّذِينَ فَسَّرُوا هَذِهِ الْآيَةَ بِنَاءً عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ .

" ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ هَاهُنَا دَقِيقَةً أُخْرَى ، وَهِيَ أَنَّ الْقَضَايَا الْعَقْلِيَّةَ الْمَحْضَةَ يَصْعُبُ تَحْصِيلُ

(188/235)

---

الْعِلْمِ بِهَا عَلَى سَبِيلِ التَّمَامِ وَالْكَمَالِ إِلَّا لِلْعُقَلَاءِ الْكَامِلِينَ الَّذِينَ تَعَوَّدُوا الْإِعْرَاضَ عَنْ قَضَايَا الْحِسِّ وَالْخَيَالِ ، وَأَلِفُوا اسْتِحْضَارَ الْمَعْقُولَاتِ الْمُجَرَّدَةِ ، وَمِثْلُ هَذَا الْإِنْسَانِ يَكُونُ كَالنَّادِرِ ، وَقَوْلُهُ : (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ) قَضِيَّةٌ عَقْلِيَّةٌ مَحْضَةٌ مُجَرَّدَةٌ ، فَالْإِنْسَانُ الَّذِي يَقْوَى عَقْلُهُ عَلَى الْإِحَاطَةِ بِمَعْنَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ نَادِرٌ جِدًّا ، وَالْقُرْآنُ إِنَّمَا أُنْزِلَ لِيَنْتَفِعَ بِهِ جَمِيعُ الْخَلْقِ . فَهَا هُنَا طَرِيقٌ آخَرُ ، وَهُوَ أَنَّ مَنْ ذَكَرَ الْقَضِيَّةَ الْعَقْلِيَّةَ الْمَحْضَةَ الْمُجَرَّدَةَ ، فَإِذَا أَرَادَ إِيصَالَهَا إِلَى عَقْلِ كُلِّ أَحَدٍ ذَكَرَ لَهَا مِثَالًا مِنَ الْأُمُورِ الْمَحْسُوسَةِ الدَّاخِلَةِ تَحْتَ الْقَضِيَّةِ الْعَقْلِيَّةِ الْكُلِّيَّةِ لِيَصِيرَ ذَلِكَ الْمَعْقُولُ بِمُعَاوَنَةِ هَذَا الْمِثَالِ الْمَحْسُوسِ مَفْهُومًا لِكُلِّ أَحَدٍ ، وَالْأَمْرُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَرَدَ عَلَى هَذَا الْقَانُونِ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ أَوَّلًا : (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ) ثُمَّ أَكَّدَ هَذَا الْمَعْقُولَ الْكُلِّيَّ الْمُجَرَّدَ بِجُزْئِيٍّ مَحْسُوسٍ فَقَالَ : (وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) وَذَلِكَ لِأَنَّ أَحَدَ أَقْسَامِ مَعْلُومَاتِ اللَّهِ هُوَ جَمِيعُ دَوَابِّ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ . وَالْحِسُّ وَالْخَيَالُ قَدْ وَقَفَ عَلَى عَظَمَةِ أَحْوَالِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، فَذِكْرُ هَذَا الْمَحْسُوسِ يَكْشِفُ عَنْ حَقِيقَةِ عَظَمَةِ ذَلِكَ الْمَعْقُولِ . وَفِيهِ دَقِيقَةٌ أُخْرَى وَهِيَ أَنَّهُ تَعَالَى قَدَّمَ ذِكْرَ الْبَرِّ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ

شَاهَدَ أَحْوَالَ الْبَرِّ وَكَثْرَةَ مَا فِيهِ مِنَ الْمُدُنِ وَالْقُرَى وَالْمَفَاوِزِ وَالْجِبَالِ وَالتِّلَالِ ، وَكَثْرَةَ مَا فِيهَا مِنَ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ وَالْمَعَادِنِ ، وَأَمَّا الْبَحْرُ فَإِحَاطَةُ الْعَقْلِ بِأَحْوَالِهِ أَقَلُّ ، إِلَّا أَنَّ الْحِسَّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَجَائِبَ الْبَحَّارِ فِي الْجُمْلَةِ أَكْثَرُ ، وَطُولُهَا وَعَرْضُهَا أَعْظَمُ . وَمَا فِيهَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَأَجْنَاسِ الْمَخْلُوقَاتِ أَعْجَبُ . فَإِذَا اسْتَحْضَرَ الْخَيَالُ صُورَةَ الْبَحْرِ وَالْبَرِّ عَلَى هَذِهِ الْوُجُوهِ ثُمَّ عَرَفَ أَنَّ مَجْمُوعَهَا قِسْمٌ حَقِيرٌ مِنَ الْأَقْسَامِ الدَّاخِلَةِ تَحْتَ قَوْلِهِ : (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ) فَيَصِيرُ هَذَا الْمِثَالُ الْمَحْسُوسُ مُقَوِّيًا وَمُكَمِّلًا لِلْعَظَمَةِ الْحَاصِلَةِ تَحْتَ قَوْلِهِ : (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ) ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى كَمَا كَشَفَ عَنْ عَظَمَةِ قَوْلِهِ : (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ) بِذِكْرِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ

(190/235)

---

كَشَفَ عَنْ عَظَمَةِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِقَوْلِهِ : (وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ) وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعَقْلَ يَسْتَحْضِرُ جَمِيعَ مَا فِي وَجْهِ الْأَرْضِ مِنَ الْمُدُنِ وَالْمَفَاوِزِ وَالْجِبَالِ وَالتِّلَالِ ، ثُمَّ يَسْتَحْضِرُ كُمْ فِيهَا مِنَ النَّجْمِ وَالشَّجَرِ ، ثُمَّ يَسْتَحْضِرُ أَنَّهُ لَا يَتَغَيَّرُ حَالُ وَرَقِهِ إِلَّا وَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُهَا ثُمَّ يَتَجَاوَزُ مِنْ هَذَا الْمِثَالِ إِلَى مِثَالٍ آخَرَ أَشَدَّ هَيْبَةً مِنْهُ وَهُوَ قَوْلُهُ : (وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ) وَذَلِكَ لِأَنَّ الْحَبَّةَ فِي غَايَةِ الصِّغَرِ ، وَظُلُمَاتِ الْأَرْضِ مَوَاضِعُ يَبْقَى أَكْبَرُ الْأَجْسَامِ

وَأَعْظَمُهَا مَخْفِيًّا فِيهَا ، فَإِذَا سُمِعَ أَنَّ تِلْكَ الْحَبَّةَ الصَّغِيرَةَ الْمُلْقَاةَ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ عَلَى اتِّسَاعِهَا وَعَظَمَتِهَا لَا تَخْرُجُ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى أَلْبَتَّةَ صَارَتْ هَذِهِ الْأَمْثِلَةُ مُنَبِّهَةً عَلَى عَظَمَةٍ عَظِيمَةٍ وَجَلَالَةٍ عَالِيَةٍ مِنَ الْمَعْنَى الْمُشَارِ إِلَيْهَا بِقَوْلِهِ : (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ) بِحَيْثُ تَتَحَيَّرُ الْعُقُولُ فِيهَا ، وَتَتَقَاصَرُ الْأَفْكَارُ وَالْأَلْبَابُ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى مَبَادِيهَا . ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا قَوَّى أَمْرَ ذَلِكَ الْمَعْقُولِ الْمَحْضِ الْمُجَرَّدِ بِذِكْرِ هَذِهِ الْجُزْئِيَّاتِ الْمَحْسُوسَةِ ، فَبَعْدَ ذِكْرِهَا عَادَ إِلَى ذِكْرِ تِلْكَ الْقَضِيَّةِ الْعَقْلِيَّةِ الْمَحْضَةِ الْمُجَرَّدَةِ بِعِبَارَةٍ أُخْرَى ، فَقَالَ : (وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) وَهُوَ عَيْنُ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ : (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا

(191/235)

---

هُوَ) فَهَذَا مَا عَقَلْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الشَّرِيفَةِ الْعَالِيَةِ ، وَمِنَ اللَّهِ التَّوْفِيقُ .

(الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ) : الْمُتَكَلِّمُونَ قَالُوا : إِنَّهُ تَعَالَى فَاعِلُ الْعَالَمِ بِجَوَاهِرِهِ وَأَعْرَاضِهِ عَلَى سَبِيلِ الْإِحْكَامِ وَالْإِتْقَانِ . وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ كَانَ عَالِمًا بِهَا ، فَوَجَبَ كَوْنُهُ تَعَالَى عَالِمًا بِهَا .

وَالْحُكَمَاءُ قَالُوا : إِنَّهُ تَعَالَى مَبْدَأٌ لِجَمِيعِ الْمُمْكِنَاتِ ، وَالْعِلْمُ بِالْمَبْدَأِ يُوجِبُ الْعِلْمَ بِالْأَثَرِ ، فَوَجَبَ كَوْنُهُ تَعَالَى عَالِمًا بِكُلِّهَا . وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ مِنْ أَدَلِّ الدَّلَائِلِ عَلَى كَوْنِهِ تَعَالَى

عَالِمًا بِجَمِيعِ الْجُزْئِيَّاتِ الزَّمَانِيَّةِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمَّا ثَبَتَ أَنَّهُ تَعَالَى مَبْدَأٌ لِكُلِّ مَا سِوَاهُ وَجَبَ كَوْنُهُ مَبْدَأً لِهَذِهِ الْجُزْئِيَّاتِ بِالْأَثَرِ ، فَوَجَبَ كَوْنُهُ تَعَالَى عَالِمًا بِهَذِهِ التَّغْيِيرَاتِ وَالزَّمَانِيَّاتِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا مُتَغَيِّرَةٌ وَزَمَانِيَّةٌ ، وَذَلِكَ هُوَ الْمَطْلُوبُ .

(الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ) قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ) يَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِ تَعَالَى مُنَزَّهًا عَنِ الضِّدِّ وَالنِّدِّ ، وَتَقْرِيرُهُ أَنَّ قَوْلَهُ : (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ) يُفِيدُ الْحَصْرَ ، أَيْ : عِنْدَهُ لَا عِنْدَ غَيْرِهِ ، وَلَوْ حَصَلَ مَوْجُودٌ آخَرُ وَاجِبُ الْوُجُودِ لَكَانَ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ حَاصِلَةً أَيْضًا عِنْدَ ذَلِكَ الْآخَرِ ، وَحِينَئِذٍ يَبْطُلُ الْحَصْرُ ، وَأَيْضًا فَكَمَا أَنَّ لَفْظَ

(192/235)

---

الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى هَذَا التَّوْحِيدِ ، فَكَذَلِكَ الْبُرْهَانُ الْعَقْلِيُّ يُسَاعِدُ عَلَيْهِ ، وَتَقْرِيرُهُ أَنَّ الْمَبْدَأَ لِحُصُولِ الْعِلْمِ بِالْآثَارِ وَالنَّتَائِجِ وَالصَّنَائِعِ هُوَ الْعِلْمُ بِالْمُؤَثِّرِ ، وَالْمُؤَثِّرُ الْأَوَّلُ فِي كُلِّ الْمُمْكِنَاتِ هُوَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ ، فَالْمِفْتَحُ الْأَوَّلُ لِلْعِلْمِ بِجَمِيعِ الْمَعْلُومَاتِ هُوَ الْعِلْمُ بِهِ سُبْحَانَهُ ، لَكِنَّ الْعِلْمَ بِهِ لَيْسَ إِلَّا لَهُ ؛ لِأَنَّ مَا سِوَاهُ أَثَرٌ ، وَالْعِلْمُ بِالْأَثَرِ لَا يُفِيدُ الْعِلْمَ بِالْمُؤَثِّرِ ، فَظَهَرَ بِهَذَا الْبُرْهَانِ أَنَّ مَفَاتِحَ الْغَيْبِ لَيْسَتْ إِلَّا عِنْدَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ) : قُرِئَ (وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ) بِالرَّفْعِ وَفِيهِ

وَجْهَانِ ؛ (الْأَوَّلُ) أَنْ يَكُونَ عَطْفًا عَلَى مَحَلِّ مِنْ " وَرَقَةٍ " ، وَأَنْ يَكُونَ رَفْعًا عَلَى الِابْتِدَاءِ ، وَخَبَرُهُ " إلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ " ، كَقَوْلِكَ : لَا رَجُلٌ مِنْهُمْ ، وَلَا امْرَأَةٌ إلَّا فِي الدَّارِ .

(الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ) : قَوْلُهُ (إلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) فِيهِ قَوْلَانِ : (الْأَوَّلُ) أَنَّ ذَلِكَ الْكِتَابَ الْمُبِينَ هُوَ عِلْمُ اللَّهِ تَعَالَى لَا غَيْرَ ، وَهَذَا هُوَ الْأَصْوَبُ ، (وَالثَّانِي) قَالَ الزَّجَّاجُ : يَجُوزُ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَثْبَتَ كَيْفِيَّةَ الْمَعْلُومَاتِ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا) (57 : 22) .

*(193/235)*

---

وَفَائِدَةُ هَذَا الْكِتَابِ أُمُورٌ : (أَحَدُهَا) أَنَّهُ تَعَالَى إنَّمَا كَتَبَ هَذِهِ الْأَحْوَالَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ لِتَقِفَ الْمَلَائِكَةُ عَلَى نَفَاذِ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْمَعْلُومَاتِ ، وَأَنَّهُ لَا يَغِيبُ عَنْهُ مِمَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْءٌ ، فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ عِبْرَةٌ تَامَّةٌ كَامِلَةٌ لِلْمَلَائِكَةِ الْمُوَكَّلِينَ بِاللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ؛ لِأَنَّهُمْ يُقَابِلُونَ بِهِ مَا يَحْدُثُ فِي صَحِيفَةِ هَذَا الْعَالَمِ فَيَجِدُونَهُ مُوَافِقًا لَهُ .

(وَثَانِيهَا) يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ : إنَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ مَا ذَكَرَ مِنَ الْوَرَقَةِ وَالْحَبَّةِ تَنْبِيهًا لِلْمُكَلَّفِينَ عَلَى أَمْرِ الْحِسَابِ وَإِعْلَامًا بِأَنَّهُ لَا يَفُوتُهُ مِنْ كُلِّ مَا يَصْنَعُونَ فِي الدُّنْيَا شَيْءٌ ؛ لِأَنَّهُ إذَا كَانَ لَا يُهْمِلُ

الْأَحْوَالَ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا ثَوَابٌ وَلَا عِقَابٌ وَلَا تَكْلِيفٌ ، فَبِأَنْ لَا يُهْمِلَ الْأَحْوَالَ الْمُشْتَمِلَةَ عَلَى الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ أَوْلَى .

(وَثَالِثُهَا ) أَنَّهُ تَعَالَى عَلِمَ أَحْوَالَ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ فَيَمْتَنِعُ تَغْيِيرُهَا عَنْ مُقْتَضَى ذَلِكَ الْعِلْمِ وَإِلَّا لَزِمَ الْجَهْلُ ، فَإِذَا كَتَبَ أَحْوَالَ جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ عَلَى التَّفْصِيلِ التَّامِّ امْتَنَعَ أَيْضًا تَغْيِيرُهَا وَإِلَّا لَزِمَ الْكَذِبُ ، فَتَصِيرُ كِتَابَةُ جُمْلَةِ الْأَحْوَالِ فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ مُوجِبًا تَامًّا وَسَبَبًا كَامِلًا فِي أَنَّهُ يَمْتَنِعُ تَقَدُّمُ مَا تَأَخَّرَ وَتَأَخُّرُ مَا تَقَدَّمَ ، كَمَا قَالَ – صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ – : " جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ " وَاللَّهُ أَعْلَمُ . اهـ .

*(194/235)*

---

هَذَا مَا أَوْرَدَهُ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ، وَمَا نَقَلَهُ عَنِ الْحُكَمَاءِ يُرِيدُ بِهِ إِثْبَاتَ عِلْمِ الْغَيْبِ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى طَرِيقَتِهِمْ ، وَلَا يَقْتَضِي ذَلِكَ إِقْرَارَ تِلْكَ الطَّرِيقَةِ وَمَا قَالُوهُ فِي الْمَعْلُومِ وَالْعِلَّةِ .

(التَّفْسِيرُ الْمَرْفُوعُ لِمَفَاتِحِ الْغَيْبِ) .

*(195/235)*

---

هَذَا وَإِنَّ فِي تَفْسِيرِ مَفَاتِحِ الْغَيْبِ حَدِيثًا صَحِيحًا فِيهِ مَبَاحِثُ دَقِيقَةٌ ، فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ، عَنْ أَبِيهِ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ : (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (31 : 34) " وَهَذِهِ الْآيَةُ خَاتِمَةُ " سُورَةِ لُقْمَانَ " ، وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي تَفْسِيرِهَا هَذَا الْحَدِيثَ ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا بِلَفْظِ " مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ " ثُمَّ قَرَأَ (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) وَرَوَاهُ بِلَفْظِ " مَفَاتِيحُ " فِي كِتَابِ التَّوْحِيدِ أَيْضًا ، وَبِلَفْظِ " مَفَاتِحُ " فِي تَفْسِيرِ الْمَائِدَةِ وَالرَّعْدِ ، وَبِلَفْظِ " مِفْتَاحٌ " فِي أَبْوَابِ الِاسْتِسْقَاءِ ، وَرَوَى أَحْمَدُ وَالْبَزَّارُ ، وَصَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ ، مِنْ حَدِيثِ بُرَيْدَةَ رَفَعَهُ قَالَ : " خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللهُ : (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) الْآيَةَ . وَذَكَرَ الْعُلَمَاءُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ وَالْحَدِيثِ قَوْلَ عِيسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – الَّذِي حَكَاهُ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ : (وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ) (3 : 49) وَقَوْلَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِصَاحِبَيِ السِّجْنِ الَّذِي حَكَاهُ اللهُ عَنْهُ فِي سُورَتِهِ : (لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ

قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ) (12 : 37) وَأَجَابُوا عَنْهُ بِأَنَّهُ دَاخِلٌ فِي فِيمَا يُظْهِرُ اللَّهُ عَلَيْهِ رُسُلَهُ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ ، فَقَدْ قَالَ فِي سُورَةِ الْجِنِّ : (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ) (72 : 26 ، 27) وَأَدْخَلُوا فِيهِ مَا نُقِلَ كَثِيرًا عَنِ الْأَوْلِيَاءِ مِنَ الْكَشْفِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْحَوَادِثِ مِنْ كَسْبِ النَّاسِ وَالْإِخْبَارِ بِمَا فِي الْأَرْحَامِ ، وَبِمَوْتِ بَعْضِ النَّاسِ قَبْلَ وُقُوعِهِ ، وَوَجَّهُوهُ بِأَنَّ الْوَلِيَّ لَمَّا حَصَلَ لَهُ هَذَا الْكَشْفُ بِاتِّبَاعِهِ لِلرَّسُولِ كَانَ الْكَشْفُ لِلرَّسُولِ بِالْأَصَالَةِ وَلَهُ بِالتَّبَعِ ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ صَاحِبُ الْهَمْزِيَّةِ بِقَوْلِهِ :

وَالْكَرَامَاتُ مِنْهُمْ مُعْجِزَاتٌ . . . حَازَهَا مِنْ نَوَالِكَ الْأَوْلِيَاءُ

وَلَكِنَّ ظَاهِرَ الْحَصْرِ فِي الْآيَةِ يُنَافِي هَذَا الرَّأْيَ ، وَالصَّوَابُ فِي هَذَا الْبَابِ مَا حَقَّقْنَاهُ هُنَا وَفِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الْخَمْسِينَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ " الْأَنْعَامُ " فَمِنْهُ يُعْلَمُ أَنَّ أَمْثَالَ هَذِهِ الْمُكَاشَفَاتِ لَيْسَتْ مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ الْحَقِيقِيِّ الَّذِي اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِهِ ، وَأَنَّ مَا يُظْهِرُ اللَّهُ عَلَيْهِ الرُّسُلَ مِنَ الْغَيْبِ الْحَقِيقِيِّ لَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ مِنْ عِلْمِهِمُ الْكَسْبِيِّ الَّذِي يَصِحُّ أَنْ يُسْنَدَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَبِيلِ الْحَقِيقَةِ .

سَبَبُ الذُّكُورَةِ وَالْأُنُوثَةِ فِي الْحَمْلِ :

وَمِمَّا قَدْ يَسْتَشْكِلُهُ فِي هَذَا الْمَقَامِ مَنْ لَمْ يَقِفْ عَلَى حَقِيقَةِ عِلْمِ الْغَيْبِ الَّتِي حَرَّرْنَاهَا هُنَا وَفِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الْخَمْسِينَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ - مَا اكْتَشَفَهُ بَعْضُ الْأَطِبَّاءِ مِنْ سُنَّةِ اللهِ تَعَالَى فِي سَبَبِ الذُّكُورَةِ وَالْأُنُوثَةِ فِي الْحَمْلِ ، وَمُلَخَّصُهُ أَنَّ الْبُيُوضَ الَّتِي يَحْصُلُ الْحَمْلُ بِتَلْقِيحِهَا بِمَاءِ الذَّكَرِ مِنْهَا مَا يَخْلُقُهُ اللهُ تَعَالَى فِي جَانِبِ الرَّحِمِ الْأَيْمَنِ وَمِنْهُ يَتَكَوَّنُ الذُّكُورُ ، وَمِنْهَا مَا يَخْلُقُهُ فِي جَانِبِ الرَّحِمِ الْأَيْسَرِ وَمِنْهُ يَتَوَلَّدُ الْإِنَاثُ ، وَأَنَّ الْبُيُوضَ تُوجَدُ بِالتَّنَاوُبِ فِي أَثْنَاءِ حَيْضِ الْمَرْأَةِ فَحَيْضَةٌ تَنْتَهِي بِخَلْقِ بُيُوضِ الذُّكُورِ فِي الْجَانِبِ الْأَيْمَنِ ، فَإِذَا حَصَلَ التَّلْقِيحُ عَقِبَهَا كَانَ الْجَنِينُ ذَكَرًا ، وَحَيْضَةٌ تَنْتَهِي بِضِدِّ ذَلِكَ ، فَإِذَا حَصَلَ التَّلْقِيحُ عَقِبَهَا كَانَ الْجَنِينُ أُنْثَى ، وَقَدْ أَلَّفُوا فِي بَيَانِ هَذِهِ السُّنَّةِ الْإِلَهِيَّةِ كُتُبًا مِنْهَا (كِتَابُ تَعْلِيلِ النَّوْعِ) مِنْ تَأْلِيفِ الطَّبِيبِ " رِمْلِي دُوسُونْ " الْإِنْكِلِيزِيِّ ، وَقَدْ تَرْجَمَهُ بِالْعَرَبِيَّةِ الطَّبِيبُ مُحَمَّد عَبْد الْحَمِيدِ الْمِصْرِيُّ . وَمَنْ عَلِمَ أَشْهُرَ وِلَادَةِ امْرَأَةٍ سَهُلَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ بِمُقْتَضَى هَذِهِ السُّنَّةِ نَوْعَ الْجَنِينِ فِي الْحَمْلِ الثَّانِي ، وَيَتَسَلْسَلُ ذَلِكَ فِيمَا بَعْدَهُ إِذَا كَانَ الْحَمْلُ مُنْتَظِمًا وَالْوَضْعُ فِي مَوْعِدِهِ ، وَلَكِنْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ الْعِلْمُ بِذَلِكَ مُطَّرِدًا فِي كُلِّ أُنْثَى لِأَسْبَابٍ تَحُولُ دُونَ ذَلِكَ بَيَّنَهَا الْبَاحِثُونَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ،

قَالَ صَاحِبُ كِتَابِ " تَعْلِيلِ النَّوْعِ " فِي أَوَّلِ الْفَصْلِ الْخَامِسِ وَالْعِشْرِينَ الَّذِي عُنْوَانُهُ (التَّنَبُّؤُ بِنَوْعِ الطِّفْلِ الْآتِي) مَا تَرْجَمَتُهُ :

بَعْدَ مَعْرِفَةِ أَنَّ تَكْوِينَ الْبَيْضِ يَحْدُثُ بِالتَّنَاوُبِ ؛ مَرَّةً مِنَ الْمِبْيَضِ الْأَيْمَنِ أَوِ الذَّكَرِ ، وَمَرَّةً مِنَ الْمِبْيَضِ الْأَيْسَرِ أَوِ الْأُنْثَى – تَمَكَّنْتُ مِنَ التَّنَبُّؤِ بِمَعْرِفَةِ نَوْعِ الطِّفْلِ الْآتِي فِي النِّسَاءِ الْحَوَامِلِ مِنْ مَرْضَايَ وَغَيْرِهِنَّ مِمَّنْ لَمْ تَسْبِقْ لِي رُؤْيَتُهُنَّ ، وَأَذْكُرُ أَنِّي نَجَحْتُ فِي (97) فِي الْمِائَةِ ، وَأَمَّا الْفَشَلُ فِي الْأَحْوَالِ الثَّلَاثَةِ الْبَاقِيَةِ مِنَ الْمِائَةِ فَتَابِعٌ لِعَدَمِ اسْتِطَاعَةِ الْأُمِّ أَنْ تُخْبِرَنِي بِالدِّقَّةِ عَنْ شَهْرِ الْوِلَادَةِ . فَمَثَلًا : إِذَا أَخْبَرَتْنِي مَرِيضَةٌ أَنَّهَا سَتَضَعُ فِي يُونْيُو وَتَنَبَّأْتُ أَنَّ طِفْلَهَا أُنْثَى ، ثُمَّ هِيَ وَضَعَتْ طِفْلًا ذَكَرًا كَامِلَ الْعِدَّةِ فِي مَايُو (أَيَارَ) أَوْ يُولْيُو (تَمُّوزَ) يَكُونُ النَّبَأُ خَطَأً ، وَلَوْ أَنَّهَا أَخْبَرَتْنِي أَنَّ الْوِلَادَةَ سَتَحْدُثُ فِي مَايُو أَوْ يُولْيُو لَتَنَبَّأْتُ لَهَا بِأَنَّ الطِّفْلَ ذَكَرًا .

*(199/235)*

---

" وَالتَّنَبُّؤُ بِنَوْعِ الطِّفْلِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَنِ الْأَطْفَالِ الَّتِي تُولَدُ فِي مِيعَادِهَا تَمَامًا ؛ لِأَنَّ الْأَطْفَالَ الَّتِي تُولَدُ قَبْلَ الْمِيعَادِ قَدْ تَجْعَلُ النَّبَأَ خَطَأً ؛ لِأَنَّ الطِّفْلَ إِذَا وُلِدَ قَبْلَ الْمِيعَادِ بِشَهْرَيْنِ يَكُونُ

الْمِيعَادُ صَحِيحًا ، وَأَمَّا إِذَا وُلِدَ قَبْلَ الْمِيعَادِ بِبِضْعَةِ أَيَّامٍ لِشَهْرٍ يَكُونُ النَّبَأُ كَاذِبًا ، وَمِثْلُ الْأَطْفَالِ الْمَوْلُودَةِ قَبْلَ الْمِيعَادِ أَحْوَالُ الْإِجْهَاضِ ، وَكُلُّهَا تَخْتَلِفُ فِي عَمَلِ الْحِسَابِ فِي الْحَمْلِ السَّالِفِ .

وَنَشَأَ الْفَشَلُ فِي أَحْوَالٍ أُخْرَى مِنْ تَكْوِينِ بَيْضٍ تَكْوِينًا غَيْرَ قِيَاسِيٍّ ، فَبَدَلًا مِنْ أَنْ يَحْدُثَ الْبَيْضُ كُلَّ (28) يَوْمًا مَرَّةً بِانْتِظَامٍ يُحْدُثُ كُلَّ (21) يَوْمًا أَوْ (20) يَوْمًا ، وَيَنْشَأُ الْخَطَأُ أَيْضًا بِعَدَمِ الِانْتِظَامِ فِي الدَّوْرَةِ الْبَيْضِيَّةِ OVULATION RHYTHM كَحُدُوثِ الْبَيْضِ فِي الْمِبْيَضَيْنِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ كَمَا يَتَّضِحُ مِنْ وِلَادَةِ تَوْأَمَيْنِ مُخْتَلِفَيِ النَّوْعِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ .

" وَكَذَلِكَ إِذَا حَدَثَ الْحَمْلُ أَثْنَاءَ الرَّضَاعَةِ وَمُدَّةِ غِيَابِ الْحَيْضِ فَوَقْتَئِذٍ يَصْعُبُ مَعْرِفَةُ أَيِّ مِبْيَضٍ هَيَّأَ الْبُوَيْضَةَ الَّتِي تَلَقَّحَتْ .

*(200/235)*

---

فَإِذَا فَرَضْنَا أَنَّ مُتَوَسِّطَ نَوْبَةِ الْحَيْضِ هِيَ (28) يَوْمًا أَوْ أَرْبَعَةَ أَسَابِيعَ (وَالْحَيْضُ الْعَلَامَةُ الظَّاهِرِيَّةِ عَلَى الْبَيْضِ) تَتَكَرَّرُ ظَاهِرَةُ تَكْوِينِ الْبِيضِ (13) مَرَّةً فِي أَسَابِيعَ السَّنَةِ ، وَهِيَ (52) أُسْبُوعًا ، وَأَمَّا إِذَا حَدَثَ الْبَيْضُ فِي كُلِّ (21) يَوْمًا فَتَزْدَادُ الْمَرَّاتُ ، وَإِذَا حَدَثَ

كُلَّ (30) يَوْمًا فَالْعَدَدُ يَنْقُصُ إِلَى (12) مَرَّةً مَعَ زِيَادَةِ مَرَّةٍ كُلَّ سِتِّ سَنَوَاتٍ .

وَيُشْتَرَطُ مَعْرِفَةُ كُلِّ هَذِهِ الْخَوَاصِّ فِي النِّسَاءِ عِنْدَ التَّنَبُّؤِ بِالنَّوْعِ ، وَيُمَكِّنُ الطَّبِيبُ بَعْدَ مَعْرِفَةِ الْقَوَاعِدِ وَالْأَمْثِلَةِ الْآتِيَةِ أَنْ يَتَنَبَّأَ بِنَوْعِ الطِّفْلِ فِي الْمَرْأَةِ الْحَامِلِ إِذَا كَانَ هُوَ طَبِيبَهَا ، كَمَا يُمْكِنُ أَنْ يُخْبِرَ النِّسَاءَ عَنِ الشُّهُورِ الَّتِي يَجِبُ الِامْتِنَاعُ فِيهَا إِذَا أُرِيدَ الْحُصُولُ عَلَى نَوْعٍ مَخْصُوصٍ .

يُمْكِنُ عَمَلُ ذَلِكَ بِالْقَرِيبِ بِوَسَاطَةِ جَدْوَلِ الْوِلَادَةِ الِاعْتِيَادِيِّ ؛ لِأَنَّنَا إِذَا عَرَفْنَا نَوْعَ الطِّفْلِ الْأَخِيرِ وَيَوْمَ مِيلَادِهِ نَعْرِفُ شَهْرَ تَكْوِينِ الْبَيْضِ ، وَبِالطَّبْعِ نَوْعَ الْبُوَيْضَةِ الْمَخْصُوصَةِ بِكُلِّ سُهُولَةٍ مِنَ الْجَدْوَلِ ، وَلَكِنِّي رَأَيْتُ أَنَّ الْأَسْهَلَ اسْتِخْرَاجُ ذَلِكَ

بِوَسَاطَةِ طَرِيقَةِ الْأَرْبَعِينَ أُسْبُوعًا الَّتِي أَذْكُرُهَا هُنَا .

يَجِبُ الْحُصُولُ عَلَى الْأَشْيَاءِ الْآتِيَةِ مِنَ الْمَرِيضَةِ أَوِ الْحَامِلِ حَتَّى يُمْكِنَ التَّنَبُّؤُ بِنَوْعِ الطِّفْلِ :

*(201/235)*

---

كَمْ مَرَّةً يَحْدُثُ الْحَيْضُ عِنْدَكُمْ ؟ كَمْ يَوْمًا يَمْكُثُ الْحَيْضُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ ؟ هَلِ الْحَيْضُ مُنْتَظِمٌ ؟ فِي أَيِّ يَوْمٍ كَانَ مِيلَادُ الطِّفْلِ الْأَخِيرِ ؟ (يُذْكَرُ الْيَوْمُ وَالشَّهْرُ وَالسَّنَةُ) أَنَوْعُ الطِّفْلِ ذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى ؟ مَا مُدَّةُ رَضَاعَتِكِ لِلطِّفْلِ إِذَا كُنْتِ أَنْتِ الَّتِي تُرْضِعِينَهُ ؟ مَتَى يَرْجِعُ الْحَيْضُ بَعْدَ الْوِلَادَةِ

؟ هَلْ حَدَثَ إِجْهَاضٌ مُنْذُ الْوِلَادَةِ الْأَخِيرَةِ ؟ .

مُدَّةُ الْحَمْلِ الِاعْتِيَادِيَّةِ لِلْمَرْأَةِ (280) يَوْمًا أَوْ عَشَرَةُ أَشْهُرٍ كُلُّ شَهْرٍ أَرْبَعَةُ أَسَابِيعَ - أَيْ أَرْبَعُونَ أُسْبُوعًا فِي سَبْعَةِ أَيَّامٍ . وَلَا بُدَّ مِنْ هَجْرِ الِاصْطِلَاحِ " تِسْعَةُ أَشْهُرِ الْحَمْلِ " .

فَإِذَا عَرَفْنَا يَوْمَ مِيلَادِ الطِّفْلِ الْأَخِيرِ نَرْجِعُ أَرْبَعِينَ أُسْبُوعًا حَتَّى نَعْرِفَ شَهْرَ تَكْوِينِ الْبَيْضِ أَوِ الشَّهْرَ الَّذِي تَلَقَّحَتْ فِيهِ الْبُوَيْضَةُ الَّتِي تَكَوَّنَ مِنْهَا الطِّفْلُ ، فَإِذَا عَرَفْنَا نَوْعُ الطِّفْلِ نَتَقَدَّمُ مِنْ هَذَا الشَّهْرِ بِالتَّنَاوُبِ حَتَّى نَصِلَ إِلَى مَرَّةِ تَكْوِينِ الْبَيْضِ الْعَاشِرَةِ قَبْلَ شَهْرِ الْوِلَادَةِ الْمُنْتَظَرِ فِيهِ وِلَادَةُ الطِّفْلِ الْحَدِيثِ مَعَ حِسَابِ نَوْبَةِ تَكْوِينِ بَيْضٍ إِضَافِيَّةٍ بَيْنَ شَهْرَيْ دِيسِمْبَرَ وَيَنَايِرَ - كَانُونُ الْأَوَّلُ وَكَانُونُ الثَّانِي - لِكُلِّ سَنَةٍ تَالِيَةٍ ، وَبِذَلِكَ نَعْرِفُ نَوْعَ الْبَيْضَةِ الَّتِي تَلَقَّحَتْ وَالَّتِي تَكُونُ الْمَرْأَةُ حَامِلًا بِهَا ، وَبِذَلِكَ نَتَمَكَّنُ مِنْ مَعْرِفَةِ نَوْعِ الطِّفْلِ الْآتِي .

*(202/235)*

---

وَلِوُجُودِ (13) مَرَّةَ تَكْوِينِ بيضٍ فِي السَّنَةِ نَرَى أَنَّ تَكْوِينَ الْبُوَيْضَةِ الْمُلَقَّحَةِ فِي أُكْتُوبَرَ - تِشْرِينُ الْأَوَّلُ - مِنْ سَنَةٍ يَجْعَلُ الْبَيْضَ الثَّانِيَ فِي أُكْتُوبَرَ مِنَ النَّوْعِ الْمُضَادِّ بِسَبَبِ زِيَادَةِ الشَّهْرِ الثَّالِثِ عَشَرَ أَوِ النَّوْبَةِ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ الَّتِي يَلْزَمُ إِضَافَتُهَا بَيْنَ شَهْرَيْ أُكْتُوبَرَ ، فَمَثَلًا إِذَا وَلَدَتِ الْمَرْأَةُ طِفْلًا فِي شَهْرٍ مِنْ سَنَةٍ وَطِفْلًا آخَرَ فِي نَفْسِ الشَّهْرِ مِنَ السَّنَةِ التَّالِيَةِ يَكُونُ الطِّفْلَانِ

مُخْتَلِفِي النَّوْعِ" . انْتَهَى الْمُرَادُ مِنْ هَذَا الْفَصْلِ ، وَقَدْ ذَكَرَ الْمُؤَلِّفُ أَمْثِلَةً كَثِيرَةً لِقَاعِدَتِهِ .

فَمَعْرِفَةُ نَوْعِ الْحَمْلِ فِي الرَّحِمِ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ يُعَدُّ مِنْ عُلُومِ الْبَشَرِ الْكَسْبِيَّةِ ؛ إذْ هُوَ مَعْرِفَةُ الْمُسَبَّبِ بِسَبَبِهِ ، وَهُوَ لَا يُعَارِضُ كَوْنَ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا فِي الْأَرْحَامِ مِنْ مَفَاتِحِ عِلْمِ الْغَيْبِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا إلَّا هُوَ ، فَإِنَّ مَعْنَى هَذَا الْحَصْرِ أَنَّ مَا سَيَحْدُثُ فِي عَالَمِ الْحَيَوَانِ مِنَ التَّكْوِينِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ هُوَ مِنْ خَزَائِنِ الْغَيْبِ الَّتِي لَا يُحِيطُ بِمَا فِيهَا إلَّا اللَّهُ ، وَمِفْتَاحُ الْعِلْمِ بِأَيِّ شَيْءٍ مِنْهَا عِنْدَهُ ، فَإِذَا هَدَى عِبَادَهُ إلَى سُنَّةٍ مِنْ سُنَنِهِ الَّتِي هِيَ مِفْتَاحٌ مُوَصِّلٌ إلَى الِاطِّلَاعِ عَلَى بَعْضِ مَا تَحْتَوِيهِ هَذِهِ الْخِزَانَةُ فَذَلِكَ لَا يَنْفِي مَا ذُكِرَ .

(203/235)

---

بَعْدَ أَنْ كَتَبْتُ مَا تَقَدَّمَ فِي الْمَسْأَلَةِ وَطُبِعَ فِي الْمَنَارِ بَقِيَ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنْهُ ، فَتَفَكَّرْتُ فِيهِ عِنْدَ النَّوْمِ فَظَهَرَ لِي أَنَّ الْعِلْمَ بِسُنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي سَبَبِ الذُّكُورَةِ وَالْأُنُوثَةِ لَمْ يَتَرَتَّبْ عَلَيْهِ عِلْمُ أَحَدٍ عِلْمًا قَطْعِيًّا بِمَا فِي رَحِمِ امْرَأَةٍ بِعَيْنِهَا حَتَّى مَعَ الْعِلْمِ بِالشُّرُوطِ الَّتِي اشْتَرَطُوهَا لِلْعِلْمِ بِذَلِكَ – دَعِ الْعِلْمَ بِجَمِيعِ مَا فِي أَرْحَامِ جَمِيعِ الْإِنَاثِ مِنْ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ كُلِّهَا – وَإِنَّمَا تَرَتَّبَ عَلَيْهِ الظَّنُّ الْغَالِبُ فِي حَالِ الْعِلْمِ بِالشُّرُوطِ ، وَالْجَهْلُ التَّامُّ فِي حَالِ عَدَمِ الْعِلْمِ بِهَا . وَالْعِلْمُ الصَّحِيحِ بِمَا فِي الرَّحِمِ هُوَ الَّذِي لَا يَتَوَقَّفُ عَلَى صِدْقِ الْحَامِلِ فِيمَا أَخْبَرَتْ مِنْ تَحْدِيدِ

شَهْرِ الْوِلَادَةِ وَلَا عَلَى خُلُوِّ الرَّحِمِ مِنْ بَيْضٍ تَكُونُ عَلَى خِلَافِ الْقَاعِدَةِ الَّتِي ذَكَرُوهَا مِنْ كَوْنِ الْأَصْلِ فِيهِ أَنْ يَكُونَ مَرَّةً فِي كُلِّ أَرْبَعَةِ أَسَابِيعَ ، فَإِنَّهُمْ جَزَمُوا بِأَنَّ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ غَيْرُ مُطَّرِدَةٍ - وَلَا عَلَى تَكَوُّنِ الْبَيْضِ فِي جَانِبَيِ الرَّحِمِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ وَهُوَ الَّذِي يَكُونُ سَبَبُ الْحَمْلِ بِالتَّوْأَمَيْنِ الْمُخْتَلِفَيْنِ ، فَاحْتِمَالُ وُقُوعِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ فِي كُلِّ حَمْلٍ وَإِنْ كَانَ قَلِيلًا يَنْفِي الْعِلْمَ الْقَطْعِيَّ بِمَا فِي رَحِمِ أَيِّ امْرَأَةٍ بِعَيْنِهَا ، فَمَا الْقَوْلُ فِي الْعِلْمِ بِمَا فِي الْأَرْحَامِ كُلِّهَا ؟ .

*(204/235)*

---

خَطَرَ لِي هَذَا الْمَعْنَى فِي الْفِرَاشِ ، وَانْتَقَلَ ذِهْنِي مِنْهُ إلَى قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الرَّعْدِ : (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (13 : 8 ، 9) فَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَعْلَمُ حَمْلَ كُلِّ أُنْثَى أَذَكَرٌ هُوَ أَمْ أُنْثَى . وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ مِنْ نَقْصِ الْحَمْلِ أَوْ فَسَادِهِ بَعْدَ الْعُلُوقِ ، وَمَا تَزْدَادُ مِنَ الْحَمْلِ كَالْحَمْلِ بِالتَّوْأَمَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ . وَقَدْ رَوَى الشَّافِعِيُّ عَنْ شَيْخٍ بِمِنًى أَنَّ امْرَأَتَهُ وَلَدَتْ لَهُ بُطُونًا فِي كُلٍّ مِنْهَا خَمْسَةُ أَوْلَادٍ ، فَأَنَّى يَهْتَدِي إلَى الْعِلْمِ بِمِثْلِ هَذِهِ النَّوَادِرِ الْأَطِبَّاءُ ؟ وَسَنَزِيدُ هَذَا الْبَحْثَ إيضَاحًا فِي سُورَةِ الرَّعْدِ إذَا أَطَالَ اللَّهُ عُمُرَنَا وَوَفَّقَنَا لِتَفْسِيرِهَا .

(وَجْهُ تَفْسِيرِ مَفَاتِحِ الْغَيْبِ بِهَذِهِ الْخَمْسِ) .

لَمْ أَرَ لأَحَدٍ كَلاَمًا فِي وَجْهِ تَفْسِيرِ مَفَاتِحِ الْغَيْبِ بِالْخَمْسِ الْمَذْكُورَةِ فِي آخِرِ سُورَةِ لُقْمَانَ ، وَكُنْتُ قَدْ فَكَّرْتُ فِي ذَلِكَ فِي أَيَّامِ طَلَبِي لِلْعِلْمِ ، فَظَهَرَ لِي أَنَّ عِلْمَ اللهِ تَعَالَى بِجَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ عِلْمُ شَهَادَةٍ ، وَعِلْمُهُ بِمَا لَمْ يُوجَدْ عِلْمُ غَيْبٍ ، وَأَنَّ مَا لَمْ يُوجَدْ فَخَزَائِنُهُ أَوْ مَفَاتِيحُ

(205/235)

---

خَزَائِنِهِ الَّتِي يَسْتَفِيدُ النَّاسُ مِنْ بَيَانِهَا هِيَ تِلْكَ الْخَمْسُ ، وَهِيَ لَمْ تُذْكَرْ بِصِيغَةِ الْحَصْرِ ، وَقَدْ بَيَّنْتُ ذَلِكَ فِي كِتَابِي " الْحِكْمَةُ الشَّرْعِيَّةُ " الَّذِي أَلَّفْتُهُ فِي عَهْدِ الطَّلَبِ فِي سِيَاقِ الْبَحْثِ فِي الْكَشْفِ عَنْ أَنْوَاعِ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ ، وَبَعْدَ ذِكْرِ الْآيَةِ وَالْحَدِيثِ فِي تَفْسِيرِهَا بِتِلْكَ الْخَمْسِ قُلْتُ مَا نَصُّهُ :

(206/235)

---

ثُمَّ إِنَّهُ لَا يَخْفَى أَنَّ مَعْلُومَاتِ اللهِ تَعَالَى الْغَيْبِيَّةَ لَا تَدْخُلُ تَحْتَ الْحَصْرِ ، فَمَا مَعْنَى تَخْصِيصِ هَذِهِ الْخَمْسِ بِالذِّكْرِ مَعَ كَوْنِهَا مِمَّا قَدْ يَطَّلِعُ بَعْضُ عِبَادِهِ عَلَى بَعْضِهِ ؟ وَمَا مَعْنَى كَوْنِهَا مَفَاتِحَ

الْغَيْبِ ؟ وَأُجِيبُ بِأَنَّ هَذِهِ الْخَمْسَ هِيَ الَّتِي كَانُوا يَدَّعُونَ عِلْمَهَا ، وَالْعَدَدُ لَا مَفْهُومَ لَهُ عَلَى الرَّاجِحِ فَلَا يَنْفِي زَائِدًا عَلَى الْمَذْكُورِ . (قُلْتُ) : وَهَذَا لَا يَدُلُّ عَلَى كَوْنِهَا مَفَاتِحَ الْغَيْبِ ، وَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيَّ بِفَهْمِ مَعْنًى لَطِيفٍ فِي كَوْنِ هَذِهِ الْخَمْسِ مَفَاتِحَ أَوْ مَفَاتِيحَ لِلْغَيْبِ . وَعَرَضْتُهُ عَلَى مَشَايِخِي كَالْأُسْتَاذِ الشَّيْخِ مُحَمَّدٍ الْقَاوُقْجِيِّ ، وَالْعَلَّامَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدْ نُشَّابَةْ وَغَيْرِهِمَا فَأُعْجِبُوا بِهِ ، وَهُوَ أَنَّ الْمَفَاتِحَ جَمْعُ مَفْتَحٍ بِفَتْحِ الْمِيمِ أَوْ كَسْرِهَا ، بِمَعْنَى الْخَزَائِنِ أَوِ الْمَفَاتِيحِ ، وَالْغَيْبُ مَا غَابَ عَنِ الْوُجُودِ أَوِ الشُّهُودِ ، وَهُوَ عَالَمُ الْبَرْزَخِ ، وَعَالَمُ الْآخِرَةِ ، وَبَعْضُ عَالَمِ الدُّنْيَا وَهُوَ النَّبَاتُ الَّذِي لَمْ يُوجَدْ ، وَالْحَيَوَانُ الَّذِي لَمْ يُولَدْ ، وَكَسْبُ الْأَنْفُسِ الَّذِي يَحْصُلُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) إِشَارَةٌ إِلَى جَمِيعِ ذَلِكَ ، فَالسَّاعَةُ مِفْتَاحُ عَالَمِ الْآخِرَةِ ، وَالْغَيْثُ مِفْتَاحُ عَالَمِ النَّبَاتِ ، وَمَا فِي الْأَرْحَامِ مِفْتَاحُ

*(207/235)*

---

عَالَمِ الْحَيَوَانِ ، وَقَوْلُهُ : (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ) ظَاهِرٌ فِي مَفْتَحِ الْكَسْبِ وَالْأَعْمَالِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ) أَيْ كَمَا لَا تَدْرِي بِأَيِّ وَقْتٍ إِشَارَةً بِالْمَوْتِ إِلَى عَالَمِ

الْبَرْزَخِ ، وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى : الْعَوَالِمُ ثَلَاثَةٌ ، الْأَوَّلُ : الْقَرِيبُ الدَّانِي الَّذِي نُقِيمُ فِيهِ قَبْلَ الْمَوْتِ . وَالْآخَرُ : الَّذِي نُقِيمُ فِيهِ بَعْدَ الْمَوْتِ أَبَدًا إلَى غَيْرِ نِهَايَةٍ ، وَالثَّالِثُ : الْوَسَطُ بَيْنَهُمَا ، وَهُوَ مَا نُقِيمُ فِيهِ بَيْنَ الْعَالَمَيْنِ حَتَّى يَتِمَّ جَمْعُنَا بِانْتِهَاءِ الدُّنْيَا ، وَنَفِدُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى جَمِيعًا ، فَالثَّانِي وَالثَّالِثُ مِنَ الْغَيْبِ الَّذِي لَيْسَ مَشْهُودًا لَنَا ، وَمَفْتَحُهُمَا السَّاعَةُ وَالْمَوْتُ ، وَأَمَّا الْأَوَّلُ فَمِنْهُ مَا هُوَ مَشْهُودٌ لَنَا وَلَا يَحْصُلُ فِيهِ زِيَادَةٌ يُبْرِزُهَا

اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْعَدَمِ كَالْأَحْجَارِ وَالْمَعَادِنِ وَنَحْوِهَا مِنَ الْمَوْجُودَاتِ الَّتِي وُجِدَتْ فِي الْكَوْنِ تَدْرِيجًا أَوْ دُفْعَةً وَاحِدَةً ، وَمِنْهُ مَا هُوَ غَيْبٌ وَهُوَ مَا يَتَجَدَّدُ بِصُورَةٍ مَخْصُوصَةٍ لَمْ تَكُنْ مَشْهُودَةً ، وَهُوَ النَّبَاتُ وَمَفْتَحُهُ الْغَيْثُ ، وَالْحَيَوَانُ وَمَفْتَحُهُ الْأَرْحَامُ غَالِبًا أَوْ عُبِّرَ بِهَا عَنْهُ ، وَكَسْبُ الْحَيَوَانِ وَعَمَلُهُ ، وَهُوَ مَفْتَحٌ وَخِزَانَةٌ مِنْ خَزَائِنِ الْغَيْبِ . اهـ .

*(208/235)*

---

ثُمَّ ذَكَرْتُ هُنَالِكَ مَا يَرُدُّ عَلَى حَصْرِ الْمَفَاتِحِ بِهَذِهِ الْخَمْسِ أَوْ تَخْصِيصِهَا بِالذِّكْرِ ، وَأَجَبْتُ وَفِي الْعِبَارَةِ شَيْءٌ مِنَ الضَّعْفِ ، وَهِيَ مِنَ الْقِسْمِ الَّذِي لَا يَزَالُ مُسَوَّدَةً مِنْ ذَلِكَ الْكِتَابِ الَّذِي كَانَ أَوَّلَ تَمْرِينٍ لَنَا عَلَى التَّأْلِيفِ وَالْإِنْشَاءِ ، فَإِنَّنَا لَمْ نَتَعَلَّمِ الْإِنْشَاءَ تَعَلُّمًا . وَفِي حَاشِيَتِهَا تَعْلِيقٌ عَلَى كَلِمَةِ " وَمَفْتَحُهُ الْأَرْحَامُ غَالِبًا " وَجَعْلِ نَحْوِ دُودِ الْفَاكِهَةِ وَالْخَلِّ مِنْ

غَيْرِ الْغَالِبِ بَيَّنَّا فِيهِ مَا ثَبَتَ عِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ كَوْنِ الْحَيِّ لَا يُولَدُ إلَّا مِنْ حَيٍّ مِثْلِهِ ، فَمَا كَانَ يُقَالُ فِي بَحْثِ التَّوَلُّدِ الذَّاتِيِّ مِنْ تَوَلُّدِ دُودِ الْفَاكِهَةِ مِنْهَا وَكَذَا الْخَلُّ ، وَتَوَلُّدِ الْفَأْرَةِ مِنَ التُّرَابِ - كُلُّهُ بَاطِلٌ .

(كِتَابَةُ اللَّهِ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ، وَهُوَ الْإِمَامُ الْمُبِينُ ، وَأُمُّ الْكِتَابِ ، وَالذِّكْرُ ، وَالزُّبُرُ ، وَاللَّوْحُ الْمَحْفُوظِ) .

*(209/235)*

---

وَرَدَ فِي مَعْنَى الْآيَةِ الَّتِي نُفَسِّرُهَا آيَاتٌ ، فَفِي سُورَةِ يُونُسَ (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ 10 : 61) وَفِي سُورَةِ هُودٍ بَعْدَ بَيَانِ عِلْمِهِ بِمَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ وَمَا فِي الصُّدُورِ (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ 11 : 6) وَفِي سُورَةِ النَّمْلِ (وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ 27 : 74 ، 75) وَفِي سَبَأٍ (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي

الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (34 : 3) وَفِي سُورَةِ طَهَ (فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (20 : 51 ، 52) وَفِي سُورَةِ الْحَدِيدِ (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا 57 : 22) وَفِي

(210/235)

---

سُورَةِ يس (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ 36 : 12) وَفِي سُورَةِ الرَّعْدِ (لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) (13 : 38 ، 39) .

وَفِي سُورَةِ الزُّخْرُفِ (حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ) (43 : 1 – 4) وَفِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) (21 : 105) وَرَدَ الذِّكْرُ كَثِيرًا بِمَعْنَى الْقُرْآنِ وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ يَحْتَمِلُ الْمَعْنَى الَّذِي نَحْنُ بِصَدَدِ بَيَانِهِ وَغَيْرِهِ ، وَفِي سُورَةِ الْقَمَرِ (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ) (54 : 52 ، 53) وَفِي سُورَةِ الْبُرُوجِ

(بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ) (85 : 21 ، 22) جُمْهُورُ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ كُلَّهَا فِي مَعْنًى وَاحِدٍ فَسَّرَتْهُ الْأَحَادِيثُ الَّتِي نُورِدُ أَشْهَرَهَا :

*(211/235)*

---

رَوَى الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ - مَرْفُوعًا - وَغَيْرِهِ " لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ : إنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي " وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ مَرْفُوعًا " كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرَهُ ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ ، وَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ " هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ فِي أَوَّلِ بَدْءِ الْخَلْقِ . وَرَوَاهُ فِي كِتَابِ التَّوْحِيدِ بِلَفْظِ " وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ " وَفِيهَا " ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ " وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ مَرْفُوعًا " إنَّ اللَّهَ كَتَبَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ - قَالَ - وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ " قَالَ شُرَّاحُ الْبُخَارِيِّ فِي قَوْلِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - " كَانَ اللَّهُ " إلَخْ - إنَّ الْمُرَادَ بِـ " كَانَ " فِي الْأَوَّلِ : الْأَزَلِيَّةُ ، وَفِي الثَّانِي : الْحُدُوثُ بَعْدَ الْعَدَمِ ، وَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعَرْشَ وَالْمَاءَ كَانَا مَبْدَأَ هَذَا الْعَالَمِ ، أَيْ عَالَمِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، كَأَنَّهُمْ يَعْنُونَ أَنَّ الْمَاءَ أَصْلُ مَادَّتِهِ ، وَالْعَرْشَ مَرْكَزُ التَّقْدِيرِ وَالتَّدْبِيرِ لَهُ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَيَّنَ لَنَا فِي سُورَةِ

(حم فُصِّلَتْ) أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ الْأَرْضَ مِنْ دُخَانٍ ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ : إِنَّ الْمَاءَ فِي حَالَتِهِ الْبُخَارِيَّةِ يَكُونُ دُخَانًا ، أَوْ أَنَّ تِلْكَ الْمَادَّةَ الدُّخَانِيَّةَ

(212/235)

---

مُعْظَمُهَا بُخَارٌ مَائِيٌّ . وَرَوَى أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ مِنْ حَدِيثِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ مَرْفُوعًا " أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمُ ، ثُمَّ قَالَ : اكْتُبْ ، فَجَرَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ " وَرَوَاهُ غَيْرُهُمَا عَنْ غَيْرِهِ بِمَعْنَاهُ ، قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : إِنَّ أَوَّلِيَّةَ خَلْقِ الْقَلَمِ نِسْبِيَّةٌ ، وَالْعَرْشُ خُلِقَ قَبْلَهُ ، وَكَذَا الْمَاءُ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : بَلْ هُوَ الْأَوَّلُ ، وَكَذَا اللَّوْحُ الَّذِي كُتِبَ فِيهِ . وَلَمْ يَرِدْ فِي خَلْقِ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ حَدِيثٌ مَرْفُوعٌ صَحِيحٌ ، بَلْ وَرَدَ فِيهِ آثَارٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ مِنْ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ .

فَلِهَذِهِ الْأَحَادِيثِ وَالْآثَارِ اتَّفَقَ عُلَمَاءُ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ عَلَى تَفْسِيرِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ وَالْإِمَامِ الْمُبِينِ ، وَأُمِّ الْكِتَابِ ، وَالذِّكْرِ فِي الْآيَاتِ الَّتِي سَرَدْنَاهَا بِذَلِكَ الْكِتَابِ الْمُسَمَّى بِاللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ، وَمِنَ التَّكَلُّفِ الظَّاهِرِ أَنْ يُقَالَ : إِنَّ الْمُرَادَ بِهَا الْعِلْمُ الْإِلَهِيُّ كَمَا قَالَ الرَّازِيُّ هُنَا ، وَمَذْهَبُ السَّلَفِ أَنْ نُؤْمِنَ بِالْقَلَمِ الْإِلَهِيِّ وَاللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ، وَمَا كَتَبَ الْقَلَمُ فِي اللَّوْحِ مِنْ مَقَادِيرِ الْخَلْقِ

وَإِحْصَائِهِ جَمِيعَ مَا كَانَ وَيَكُونُ فِي هَذَا الْعَالَمِ مِنْ بَدْءِ تَكْوِينِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ نُحَكِّمَ آرَاءَنَا وَأَقْيِسَتَنَا

(213/235)

---

فِي صِفَةِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا نَقْبَلُ قَوْلَ أَحَدٍ – غَيْرِ الْمَعْصُومِ – فِيمَا يَزْعُمُهُ مِنْ وَصْفِ اللَّوْحِ أَوِ الْقَلَمِ أَوْ تِلْكَ الْكِتَابَةِ ، وَمِنَ الْجَهْلِ الْفَاضِحِ أَنْ نُشَبِّهَ ذَلِكَ بِمَا نَعْهَدُهُ مِنْ كِتَابَتِنَا ، وَنَحْنُ نَرَى الْبَشَرَ قَدِ اخْتَرَعُوا لِتَدْوِينِ الْكَلَامِ طُرُقًا يَتَلَقَّاهَا بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ عَلَى مَسَافَةِ أُلُوفٍ مِنَ الْأَمْيَالِ وَالْفَرَاسِخِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِوَاسِطَةِ الْكَهْرَبَاءِ الَّتِي تُسَخَّرُ لِذَلِكَ بِأَسْلَاكٍ وَبِغَيْرِ أَسْلَاكٍ ، فَيَكْتُبُ أَحَدُهُمْ فِي لَوْحِ الْجَوِّ مَا شَاءَ أَنْ يَكْتُبَ فَيَتَكَيَّفُ بِهِ الْهَوَاءُ فِي هَذَا الْجَوِّ الْوَاسِعِ كُلِّهِ وَيَتَلَقَّاهَا آخَرُونَ بِآلَاتٍ عِنْدَهُمْ تَرْسُمُ لَهُمْ مَا رَسَمَ فِي الْهَوَاءِ ، فَيَقْرَءُونَهُ وَيُدَوِّنُونَهُ لِلْمُرْسَلِ إِلَيْهِ أَوْ لِمَنْ يُرِيدُونَ أَنْ يَنْتَفِعَ بِهِ .

(214/235)

---

وَالَّذِينَ يُؤَوِّلُونَ مَا وَرَدَ فِي اللَّوْحِ وَالْقَلَمِ وَالْعَرْشِ لَيْسُوا أَبْعَدَ عَنْ مَذْهَبِ السَّلَفِ مِمَّنْ يُشَبِّهُونَ هَذِهِ الْعَوَالِمَ الْغَيْبِيَّةَ بِمَا يَعْهَدُونَ مِنْ صُنْعِ الْبَشَرِ فِي هَذَا الْعَالِمِ الْمُتَغَيِّرِ ، وَهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ هَذِهِ الْمَصْنُوعَاتِ تَتَغَيَّرُ وَتَتَرَقَّى كُلَّمَا تَرَقَّى النَّاسُ فِي الصِّنَاعَاتِ ، حَتَّى إِنَّ الشَّيْخَ الشَّعْرَانِيَّ صَوَّرَ الْمِيزَانَ الْإِلَهِيَّ الَّذِي يَزِنُ بِهِ تَعَالَى أَعْمَالَ الْعِبَادِ الْمَعْنَوِيَّةَ كُلَّهَا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ قَصِيرٍ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبَيْنِ بِصُورَةِ أَحْقَرِ الْمَوَازِينِ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي اخْتَرَعُوهَا فِي طَوْرِ الْبَدَاوَةِ وَالْجَهْلِ بِفُنُونِ الصِّنَاعَةِ ، وَنَحْنُ نَرَى الْبَشَرَ قَدِ اخْتَرَعُوا فِي هَذَا الْعَصْرِ أَنْوَاعًا مِنَ الْمَوَازِينِ الدَّقِيقَةِ لِلْأَثْقَالِ الْمَادِّيَّةِ وَلِلْأُمُورِ الْمَعْنَوِيَّةِ ، كَالرُّطُوبَةِ وَالْحَرَارَةِ وَالْبُرُودَةِ وَالسُّرْعَةِ ، حَتَّى إِنَّهُمْ لَيَعْرِفُونَ أَثْقَالَ الْكَوَاكِبِ ، وَإِنَّ رُكَّابَ السَّفِينَةِ الْغَوَّاصَةِ لَيَعْلَمُونَ وَهُمْ فِي لُجَّةِ الْبَحْرِ مَا يَكُونُ حَوْلَهُمْ إِلَى أَبْعَادٍ عَظِيمَةٍ مِنْ أَحْوَالِ
الْمَرَاكِبِ الَّتِي عَلَى ظَهْرِ الْبَحْرِ وَأَثْقَالِهَا ، وَبَعْضِ مَا يَتَحَرَّكُ فِي الْبَرِّ أَيْضًا .

(215/235)

---

هَذَا وَإِنَّ مِنَ التَّشْبِيهِ مَا هُوَ فِتْنَةٌ مُنَفِّرَةٌ ، وَمِنَ التَّأْوِيلِ مَا يُزِيلُ بَعْضَ الشُّبُهَاتِ الْمُضَلِّلَةِ أَوِ الْمُكَفِّرَةِ ، وَلِذَلِكَ نَذْكُرُ بَعْضَ تَأْوِيلَاتِ الْخَلَفِ ، مَعَ اسْتِمْسَاكِنَا بِتَفْوِيضِ السَّلَفِ ، وَعَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ كَانَ شَيْخُنَا الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ ، إِذْ قَالَ فِي تَفْسِيرِ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ فِي آخِرِ سُورَةِ

الْبُرُوجِ مَا نَصُّهُ :

" وَاللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ شَيْءٌ أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ ، وَأَنَّهُ أَوْدَعَهُ كِتَابَهُ ، وَلَمْ يُعَرِّفْنَا حَقِيقَتَهُ ، فَعَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِأَنَّهُ شَيْءٌ مَوْجُودٌ ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ حَفِظَ فِيهِ كِتَابَهُ إِيمَانًا بِالْغَيْبِ ، وَأَمَّا دَعْوَى أَنَّهُ جُرْمٌ مَخْصُوصٌ فِي سَمَاءٍ مُعَيَّنَةٍ ، وَوَصْفُهُ بِمَا جَاءَ فِي رِوَايَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ ، فَهُوَ مِمَّا لَمْ يَثْبُتْ عَنِ الْمَعْصُومِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِالتَّوَاتُرِ ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقَائِدِ أَهْلِ الْيَقِينِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .

" وَمَا أَجْدَرَنَا لَوْ أَرَدْنَا التَّأْوِيلَ بِأَنْ نَأْخُذَ بِمَا قِيلَ مِنْ أَنَّ اللَّوْحَ الْمَحْفُوظَ هُوَ لَوْحُ الْوُجُودِ الْحَقِّ ، وَمَعَانِي الْقُرْآنِ وَقَضَايَاهُ الشَّرِيفَةُ ، لَمَّا كَانَتْ لَا يَأْتِيهَا الْبَاطِلُ وَلَا يُدَانِيهَا الْخَطَأُ كَانَتْ ثَابِتَةً فِي لَوْحِ الْوَاقِعِ الْمَحْفُوظِ الَّذِي لَا حَقَّ إِلَّا مَا وَافَقَهُ ، وَلَا بَاطِلَ إِلَّا مَا خَالَفَهُ ، وَلَا بَاقِيَ إِلَّا مَا رُسِمَ فِيهِ ، وَلَا ضَائِعَ إِلَّا مَا لَمْ يَنْطَبِقْ عَلَيْهِ . اهـ .

*(216/235)*

---

وَنَقُولُ : إِنَّ تِلْكَ الرِّوَايَاتِ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا لَمْ تَثْبُتْ عَنِ الْمَعْصُومِ بِالتَّوَاتُرِ وَلَا بِغَيْرِ التَّوَاتُرِ مِنْ أَحَادِيثِ الْآحَادِ الصَّحِيحَةِ ، وَمَا ذَكَرَهُ مِنَ التَّأْوِيلِ قَرِيبٌ مِمَّا فَصَّلَهُ الْإِمَامُ الْغَزَالِيُّ فِي كِتَابِ التَّوْحِيدِ وَالتَّوَكُّلِ مِنَ الْإِحْيَاءِ ، وَكِلَاهُمَا مِمَّا يُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْإِيمَانِ بِأَنَّ اللَّوْحَ وَالْقَلَمَ

وَالْعَرْشَ أَشْيَاءُ مَوْجُودَةٌ هِيَ مَظْهَرُ الْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ وَالتَّدْبِيرِ الرَّبَّانِيِّ الَّذِي قَامَ بِهِ نِظَامُ الْكَوْنِ ، لَا تُشْبِهُ أَقْلَامَ الْبَشَرِ وَأَلْوَاحَهُمْ وَدَفَاتِرَهُمُ الَّتِي يُدَوِّنُونَ بِهَا نِظَامَ دُوَلِهِمْ وَمَصَالِحِهِمْ ، وَلَا عُرُوشَ مُلُوكِهِمْ وَأُمَرَائِهِمْ ، وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ شَدِيدُ الْغُرُورِ بِعِلْمِهِ وَمَأْلُوفِهِ ، فَالْأُمِّيُّ وَالصَّبِيُّ وَقَلِيلُ الِاشْتِغَالِ بِالْعِلْمِ مِنْ أَفْرَادِهِ أَشَدُّ غُرُورًا مِنَ الْعُلَمَاءِ وَاسِعِي الْعِلْمِ وَالِاطِّلَاعِ ، كُلٌّ مِنْهُمْ يَتَّخِذُ مَا عِنْدَهُ مِنْ عِلْمٍ قَلِيلٍ مِعْيَارًا أَوْ قَالَبًا لِمَا لَا يَعْلَمُهُ – وَهُوَ كَثِيرٌ – وَمَهْمَا يَتَّسِعْ مِنْ عِلْمِ الْمَرْءِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى غَيْرِهِ فَمَا عِلْمُهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَعْلَمَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ، فَمَا الْقَوْلُ بِمَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَعْلَمَهُ (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا 17 : 85) وَإِنَّ لَنَا فِي دِمَاغِ الْإِنْسَانِ الْعِبْرَةَ فِي هَذَا الْمُقَامِ ، فَهُوَ كَلَوْحٍ تَرْسِمُ فِيهِ أَقْلَامُ الْمَعْلُومَاتِ

*(217/235)*

---

الْحِسِّيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ فِي كُلِّ آنٍ عِلْمًا جَدِيدًا يُمْكِنُهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ فَيَقْرَأَ مَا خَطَّهُ فِيهِ الزَّمَنُ الْمَاضِي كَمَا يُرَاجِعُ مَا يَكْتُبُ فِي الْقَرَاطِيسِ وَيُدَوِّنُ فِي الْأَسْفَارِ ، فَإِنْ كَانَ يَنْسَى كَثِيرًا مِنْهُ فِي الدُّنْيَا ، فَسَيَقْرَؤُهُ كُلَّهُ فِي كِتَابِهِ (يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى 79 : 35) وَيُشِيرُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى تَأْوِيلُ الْغَزَالِيِّ الَّذِي أَشَرْنَا إِلَيْهِ آنِفًا ، فَإِنَّهُ ضَرَبَ مَثَلًا لِلْمَغْرُورِينَ بِالْأَسْبَابِ الْقَرِيبَةِ لِلْحَوَادِثِ الَّذِينَ لَا تَرْتَقِي أَنْظَارُهُمْ فِي سِلْسِلَةِ الْأَسْبَابِ إِلَى أَنْ

يَنْتَهُوا مِنْهَا إِلَى خَالِقِهَا وَجَاعِلِهَا أَسْبَابًا : ضَرَبَ لَهُمْ مَثَلًا نَمْلَةً وَاقِفَةً عَلَى قِرْطَاسٍ تُبْصِرُ رَأْسَ الْقَلَمِ يَجْرِي عَلَيْهِ ، فَيُسَخِّمُهُ بِالسَّوَادِ ، فَتَنْسُبُ هَذَا الْفِعْلَ إِلَيْهِ ؛ إِذْ لَا يَمْتَدُّ نَظَرُهَا إِلَى الْيَدِ الْمُحَرِّكَةِ لَهُ ، دَعْ صَاحِبَ الْيَدِ الْكَاتِبَ بِهِ الَّذِي لَوْلَاهُ لَمْ تَرَهُ يَكْتُبُ .

*(218/235)*

---

وَقَدْ شَرَحَ الْغَزَالِيُّ هَذَا الْمَثَلَ بِعِبَارَةٍ طَوِيلَةٍ مِنْ أَبْلَغِ مَا كَتَبَ قَلَمُهُ السَّيَّالُ ، جَعَلَهَا مُحَاوَرَةً بَيْنَ أَحَدِ النَّاظِرَيْنِ عَنْ مِشْكَاةِ نُورِ اللهِ وَبَيْنَ الْقَلَمِ وَالْيَدِ مِنْ جَوَارِحِ الْبَشَرِ ، ثُمَّ بَيْنَ الْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْعِلْمِ مِنْ صِفَاتِ الْبَشَرِ ، ثُمَّ انْتَقَلَ مِنْ ذَلِكَ إِلَى الْقَلَمِ الْإِلَهِيِّ وَالصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ ، عَاتَبَ الْقَلَمَ الَّذِي سَوَّدَ الْقِرْطَاسَ فَأَحَالَهُ عَلَى الْيَدِ الْمُحَرِّكَةِ لَهُ ، وَهِيَ أَحَالَتْهُ عَلَى الْقُدْرَةِ الَّتِي صَرَفَتْهَا فِي قَطْعِ الْقَلَمِ وَبَرْيِهِ وَالْكِتَابَةِ بِهِ ، فَلَمَّا سَأَلَهَا عَنْ سَبَبِ ذَلِكَ أَحَالَتْهُ عَلَى الْإِرَادَةِ الْمُسَخِّرَةِ لَهَا وَكَوْنِهَا لَا تَسْتَطِيعُ مُخَالَفَةَ أَمْرِهَا ، وَهَذِهِ أَحَالَتْهُ عَلَى الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ الَّذِي هُوَ مُرْشِدُهَا وَصَاحِبُ السُّلْطَانِ عَلَيْهَا لَا تَنْبَعِثُ إِلَّا إِذَا بَعَثَهَا ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى الْعِلْمِ وَسَأَلَهُ عَنْ سَبَبِ بَعْثِهِ الْإِرَادَاتِ إِلَى تَسْخِيرِ الْقُدَرِ فِي اسْتِخْدَامِ الْجَوَارِحِ ، أَجَابَهُ أَنَّهُ خَطَّ رَسْمَهُ الْقَلَمُ الْإِلَهِيُّ فِي لَوْحِ الْقَلْبِ ، وَقَالَ لَهُ : فَسَلِ الْقَلَمَ عَنِّي ، وَذَكَرَ لَهُ أَنَّ هَذَا الْقَلَمَ مِنْ عَالَمِ

الْمَلَكُوتِ الَّذِي لَا يُدْرَكُ بِالْحِسِّ ، وَأَنَّ فِي طَرِيقِ وُصُولِهِ إِلَيْهِ الْمَهَامِهُ الْفِيحُ ، وَالْجِبَالُ الشَّاهِقَةُ ، ثُمَّ قَالَ الْغَزَالِي بَعْدَ حِوَارٍ طَوِيلٍ فِي ذَلِكَ :

(219/235)

---

" فَقَالَ السَّالِكُ السَّائِلُ : قَدْ تَحَيَّرْتُ فِي أَمْرِي ، وَاسْتَشْعَرَ قَلْبِي خَوْفًا مِمَّا وَصَفْتَهُ مِنْ خَطَرِ الطَّرِيقِ ، وَلَسْتُ أَدْرِي ، أُطِيقُ قَطْعَ هَذِهِ الْمَهَامِهِ الَّتِي وَصَفْتَهَا أَمْ لَا ؟ فَهَلْ لِذَلِكَ مِنْ عَلَامَةٍ ؟ قَالَ نَعَمْ : افْتَحْ بَصَرَكَ ، وَاجْمَعْ ضَوْءَ عَيْنَيْكَ وَحَدِّقْهُ نَحْوِي ، فَإِنْ ظَهَرَ لَكَ الْقَلَمُ الَّذِي بِهِ انْكَتَبْتُ فِي

لَوْحِ الْقَلْبِ فَيُشْبِهُ أَنْ تَكُونَ أَهْلًا لِهَذَا الطَّرِيقِ ، فَإِنَّ كُلَّ مَنْ جَاوَزَ عَالَمَ الْجَبَرُوتِ - أَيْ عَالَمَ الصِّفَاتِ الْبَشَرِيَّةِ - وَقَرَعَ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ الْمَلَكُوتِ كُوشِفَ بِالْقَلَمِ ، أَمَا تَرَى أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ كُوشِفَ بِالْقَلَمِ ، إِذْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ

(220/235)

---

مَا لَمْ يَعْلَمْ) (96 : 3 – 5) فَقَالَ السَّالِكُ : لَقَدْ فَتَحْتُ بَصَرِي ، وَحَدَّقْتُهُ ، فَوَاللهِ مَا أَرَى قَصَبًا وَلَا خَشَبًا ، وَلَا أَعْلَمُ قَلَمًا إِلَّا كَذَلِكَ . فَقَالَ الْقَلَمُ : لَقَدْ أَبْعَدْتَ النُّجْعَةَ ، أَمَا سَمِعْتَ أَنَّ مَتَاعَ الْبَيْتِ يُشْبِهُ رَبَّ الْبَيْتِ ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا تُشْبِهُ ذَاتُهُ سَائِرَ الذَّاتِ ، فَكَذَلِكَ لَا تُشْبِهُ يَدُهُ الْأَيْدِيَ وَلَا قَلَمُهُ الْأَقْلَامَ ، وَلَا كَلَامُهُ سَائِرَ الْكَلَامِ ، وَلَا خَطُّهُ سَائِرَ الْخُطُوطِ ، وَهَذِهِ أُمُورٌ إِلَهِيَّةٌ مِنْ عَالَمِ الْمَلَكُوتِ ، فَلَيْسَ اللهُ تَعَالَى فِي ذَاتِهِ بِجِسْمٍ وَلَا هُوَ فِي مَكَانٍ بِخِلَافِ غَيْرِهِ ، وَلَا يَدُهُ لَحْمٌ وَعَظْمٌ وَدَمٌ بِخِلَافِ الْأَيْدِي وَلَا قَلَمُهُ مِنْ قَصَبٍ ، وَلَا لَوْحُهُ مِنْ خَشَبٍ ، وَلَا كَلَامُهُ بِصَوْتٍ وَحَرْفٍ ، وَلَا خَطُّهُ رَقْمٌ وَرَسْمٌ ، وَلَا حِبْرُهُ زَاجٌ وَعَفْصٌ ، فَإِنْ كُنْتَ لَا تُشَاهِدُ هَذَا هَكَذَا فَمَا أَرَاكَ إِلَّا مُخَنَّثًا بَيْنَ فُحُولَةِ التَّنْزِيهِ وَأُنُوثَةِ التَّشْبِيهِ ، مُذَبْذَبًا بَيْنَ هَذَا وَذَاكَ ، لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ ، فَكَيْفَ نَزَّهْتَ ذَاتَهُ وَصِفَاتَهُ تَعَالَى عَنِ الْأَجْسَامِ وَصِفَاتِهَا ، وَنَزَّهْتَ كَلَامَهُ عَنْ مَعَانِي الْحُرُوفِ وَالْأَصْوَاتِ ، وَأَخَذْتَ تَتَوَقَّفُ فِي يَدِهِ وَقَلَمِهِ وَلَوْحِهِ وَخَطِّهِ ؟ فَإِنْ كُنْتَ قَدْ فَهِمْتَ مِنْ قَوْلِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – " أَنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ " الصُّورَةَ الظَّاهِرَةَ الْمُدْرَكَةَ بِالْبَصَرِ فَكُنْ مُشَبِّهًا مُطْلَقًا ، كَمَا يُقَالُ : كُنْ يَهُودِيًّا صِرْفًا وَإِلَّا فَلَا تَلْعَبْ بِالتَّوْرَاةِ ، وَإِنْ

فَهِمْتَ مِنْهُ الصُّورَةَ الْبَاطِنَةَ الَّتِي تُدْرَكُ بِالْبَصَائِرِ لَا بِالْأَبْصَارِ ، فَكُنْ مُنَزِّهًا صِرْفًا وَمُقَدِّسًا فَحْلًا ، وَاطْوِ الطَّرِيقَ فَأَنْتَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ، وَاسْتَمِعْ بِسِرِّ قَلْبِكَ لِمَا يُوحَى ، فَلَعَلَّكَ تَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ، وَلَعَلَّكَ مِنْ سُرَادِقَاتِ الْعَرْشِ تُنَادَى بِمَا نُودِيَ بِهِ مُوسَى (إِنِّي أَنَا رَبُّكَ) (20 : 12) فَلَمَّا سَمِعَ السَّالِكُ مِنَ الْعِلْمِ ذَلِكَ اسْتَشْعَرَ قُصُورَ نَفْسِهِ ، وَأَنَّهُ مُخَنَّثٌ بَيْنَ التَّشْبِيهِ وَالتَّنْزِيهِ ، فَاشْتَعَلَ قَلْبُهُ نَارًا مِنْ حِدَّةِ غَضَبِهِ عَلَى نَفْسِهِ لَمَّا رَآهَا بِعَيْنِ النَّقْصِ ، وَلَقَدْ كَانَ زَيْتُهُ الَّذِي كَانَ فِي مِشْكَاةِ قَلْبِهِ يَكَادُ يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ، فَلَمَّا نَفَخَ فِيهِ الْعِلْمَ بِحِدَّتِهِ اشْتَعَلَ زَيْتُهُ فَأَصْبَحَ نُورًا عَلَى نُورٍ . فَقَالَ لَهُ الْعِلْمُ : اغْتَنِمِ الْآنَ هَذِهِ الْفُرْصَةَ ، وَافْتَحْ بَصَرَكَ لَعَلَّكَ تَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ، فَفَتَحَ بَصَرَهُ ، فَانْكَشَفَ لَهُ الْقَلَمُ الْإِلَهِيُّ ، فَإِذَا هُوَ كَمَا وَصَفَهُ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي التَّنْزِيهِ مَا هُوَ مِنْ خَشَبٍ ، وَلَا قَصَبٍ ، وَلَا لَهُ رَأْسٌ وَلَا ذَنَبٌ ، وَهُوَ يَكْتُبُ عَلَى الدَّوَامِ فِي قُلُوبِ الْبَشَرِ كُلِّهِمْ أَصْنَافَ الْعُلُومِ ، وَكَأَنَّ لَهُ فِي كُلِّ قَلْبٍ رَأْسًا وَلَا رَأْسَ لَهُ ، فَقَضَى مِنْهُ الْعَجَبَ وَقَالَ : نِعْمَ الرَّفِيقُ الْعِلْمُ ، فَجَزَاهُ اللَّهُ عَنِّي خَيْرًا ، إِذِ الْآنَ ظَهَرَ لِي صِدْقُ أَنْبَائِهِ عَنْ أَوْصَافِ الْقَلَمِ ، فَإِنِّي أَرَاهُ قَلَمًا لَا كَالْأَقْلَامِ .

(222/235)

فَعِنْدَ هَذَا وَدَّعَ الْعِلْمَ وَشَكَرَهُ ، وَقَالَ : قَدْ طَالَ مَقَامِي عِنْدَكَ وَمُرَادَتِي لَكَ ، وَأَنَا عَازِمٌ عَلَى أَنْ أُسَافِرَ إِلَى حَضْرَةِ الْقَلَمِ ، وَأَسْأَلَهُ عَنْ شَأْنِهِ ، فَسَافَرَ إِلَيْهِ وَقَالَ لَهُ : مَا بَالُكَ أَيُّهَا الْقَلَمُ ، تَخُطُّ عَلَى الدَّوَامِ فِي الْقُلُوبِ مِنَ الْعُلُومِ مَا تُبْعَثُ بِهِ الْإِرَادَاتُ إِلَى أَشْخَاصِ الْقُدَرِ وَصَرْفِهَا إِلَى الْمَقْدُورَاتِ ؟ فَقَالَ : أَوَقَدْ نَسِيتَ مَا رَأَيْتَ فِي عَالَمِ الْمُلْكِ وَالشَّهَادَةِ ، وَسَمِعْتَ مِنْ جَوَابِ الْقَلَمِ إِذَا سَأَلْتَهُ فَأَحَالَكَ عَلَى الْيَدِ ؟ قَالَ : لَمْ أَنْسَ ذَلِكَ . قَالَ : فَجَوَابِي مِثْلُ جَوَابِهِ ، قَالَ : كَيْفَ وَأَنْتَ لَا تُشْبِهُهُ ، قَالَ الْقَلَمُ : أَمَا سَمِعْتَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَسَلْ عَنْ شَأْنِي الْمُلَقَّبَ بِيَمِينِ الْمَلِكِ ، فَإِنِّي فِي قَبْضَتِهِ ، وَهُوَ الَّذِي يَرْدُدُنِي وَأَنَا مَقْهُورٌ مُسَخَّرٌ ، فَلَا فَرْقَ بَيْنَ الْقَلَمِ الْإِلَهِيِّ وَقَلَمِ الْآدَمِيِّ فِي مَعْنَى التَّسْخِيرِ ، وَإِنَّمَا الْفَرْقُ فِي ظَاهِرِ الصُّورَةِ . فَقَالَ : فَمَنْ يَمِينُ الْمَلِكِ ؟ فَقَالَ الْقَلَمُ : أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَهُ تَعَالَى : (وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) (39 : 67) قَالَ : نَعَمْ ، وَالْأَقْلَامُ أَيْضًا فِي قَبْضَةِ يَمِينِهِ هُوَ الَّذِي يُرَدِّدُهَا . فَسَافَرَ السَّالِكُ مِنْ عِنْدِهِ إِلَى الْيَمِينِ حَتَّى شَاهَدَهُ ، وَرَأَى مِنْ عَجَائِبِهِ مَا يَزِيدُ عَلَى عَجَائِبِ الْقَلَمِ ، وَلَا يَجُوزُ وَصْفُ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَلَا شَرْحُهُ ، بَلْ لَا تَحْوِي مُجَلَّدَاتٌ كَثِيرَةٌ عُشْرَ عُشَيْرِ وَصْفِهِ ، وَالْجُمْلَةُ فِيهِ أَنَّهُ يَمِينٌ

(223/235)

لَا كَالْأَيْمَانِ ، وَيَدٌ لَا كَالْأَيْدِي ، وَأَصْبُعٌ لَا كَالْأَصَابِعِ ، فَرَأَى الْقَلَمَ مُحَرَّكًا فِي قَبْضَتِهِ فَظَهَرَ لَهُ عُذْرُ الْقَلَمِ ، فَسَأَلَ الْيَمِينَ عَنْ شَأْنِهِ وَتَحْرِيكِهِ لِلْقَلَمِ ، فَقَالَ : جَوَابِي مِثْلُ مَا سَمِعْتَهُ مِنَ الْيَمِينِ الَّتِي رَأَيْتَهَا فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ ، وَهِيَ الْحَوَّالَةُ عَلَى الْقُدْرَةِ ، إِذِ الْيَدُ لَا حُكْمَ لَهَا فِي نَفْسِهَا ، وَإِنَّمَا مُحَرِّكُهَا الْقُدْرَةُ لَا مَحَالَةَ . فَسَافَرَ السَّالِكُ إِلَى عَالَمِ الْقُدْرَةِ ، وَرَأَى فِيهِ مِنَ الْعَجَائِبِ مَا اسْتَحْقَرَ عِنْدَهَا مَا قَبْلَهُ ، وَسَأَلَهَا عَنْ تَحْرِيكِ الْيَمِينِ فَقَالَتْ : إِنَّمَا أَنَا صِفَةٌ ، فَاسْأَلِ الْقَادِرَ ؛ إِذِ الْعُمْدَةُ عَلَى الْمَوْصُوفَاتِ لَا عَلَى الصِّفَاتِ ، وَعِنْدَ هَذَا كَادَ أَنْ يَزِيغَ وَيُطْلِقَ بِالْجَرَاءَةِ لِسَانَ السُّؤَالِ ، فَثُبِّتَ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ، وَنُودِيَ مِنْ وَرَاءِ حِجَابِ سُرَادِقَاتِ الْحَضْرَةِ (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) (21 : 23) فَغَشِيَتْهُ هَيْبَةُ الْحَضْرَةِ ، فَخَرَّ صَعِقًا يَضْطَرِبُ فِي غَشْيَتِهِ ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ : سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ شَأْنَكَ ، تُبْتُ إِلَيْكَ ، وَتَوَكَّلْتُ عَلَيْكَ ، وَآمَنْتُ بِأَنَّكَ الْمَلِكُ الْجَبَّارُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ، فَلَا أَخَافُ غَيْرَكَ ، وَلَا أَرْجُو سِوَاكَ ، وَلَا أَعُوذُ إِلَّا بِعَفْوِكَ مِنْ عِقَابِكَ ، وَبِرِضَاكَ مِنْ



---

سُخْطِكَ ، وَمَا لِي إِلَّا أَنْ أَسْأَلَكَ وَأَتَضَرَّعَ إِلَيْكَ ، وَأَبْتَهِلَ بَيْنَ يَدَيْكَ ، فَأَقُولُ : اشْرَحْ لِي صَدْرِي لِأَعْرِفَكَ ، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي لِأُثْنِيَ عَلَيْكَ . فَنُودِيَ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ : إِيَّاكَ

أَنْ تَطْمَعَ فِي الثَّنَاءِ وَتَزِيدَ عَلَى سَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ ، بَلِ ارْجِعْ إِلَيْهِ ، فَمَا آتَاكَ فَخُذْهُ ، وَمَا نَهَاكَ عَنْهُ فَانْتَهِ عَنْهُ ، وَمَا قَالَهُ فَقُلْهُ ، فَإِنَّهُ مَا زَادَ فِي هَذِهِ الْحَضْرَةِ عَلَى أَنْ قَالَ : " سُبْحَانَكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ " فَقَالَ : إِلَهِي إِنْ لَمْ يَكُنْ لِلِّسَانِ جَرَاءَةٌ عَلَى الثَّنَاءِ عَلَيْكَ فَهَلْ لِلْقَلْبِ مَطْمَعٌ فِي مَعْرِفَتِكَ ؟ فَنُودِيَ : إِيَّاكَ أَنْ تَتَخَطَّى رِقَابَ الصِّدِّيقِينَ ، فَارْجِعْ إِلَى الصِّدِّيقِ الْأَكْبَرِ فَاقْتَدِ بِهِ ، فَإِنَّ أَصْحَابَ سَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ كَالنُّجُومِ ، بِأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمُ اهْتَدَيْتُمْ ، أَمَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ : الْعَجْزُ عَنْ دَرَكِ الْإِدْرَاكِ إِدْرَاكٌ فَيَكْفِيكَ نَصِيبًا مِنْ حَضْرَتِنَا أَنْ تَعْرِفَ أَنَّكَ مَحْرُومٌ عَنْ حَضْرَتِنَا ، عَاجِزٌ عَنْ مُلَاحَظَةِ جَمَالِنَا وَجَلَالِنَا " انْتَهَى الْمُرَادُ مِنْهُ .

(225/235)

---

وَلَا نَدْرِي لِمَ وَقَفَ أَبُو حَامِدٍ هُنَا عِنْدَ صِفَةِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَلَمْ يُتِمَّ تَطْبِيقَ الْمَثَلِ . وَمِنَ الْمَعْلُومِ الْمُقَرَّرِ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ وَالصُّوفِيَّةِ وَكَذَا الْفَلَاسِفَةِ أَنَّ قُدْرَةَ اللهِ تَعَالَى إِنَّمَا تَجْرِي بِمَا خَصَّصَتْهُ إِرَادَتُهُ وَاقْتَضَتْهُ مَشِيئَتُهُ ، وَأَنَّ تَخْصِيصَ الْإِرَادَةِ لِلْمُمْكِنِ بِبَعْضِ مَا يَجُوزُ عَلَيْهِ دُونَ بَعْضٍ إِنَّمَا يَكُونُ بِحَسَبِ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ ، وَالْعِلْمِ بِوُجُوهِ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ وَالنِّظَامِ وَالْخَلَلِ وَالْكَمَالِ وَالنَّقْصِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الْمُتَقَابِلَةِ إِذَا كَانَ تَامًّا

كَامِلًا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الْإِرَادِيَّةِ مَا هُوَ عَيْنُ الْحِكْمَةِ ، فَلَوْ أَنَّ السَّائِلَ سَأَلَ الْإِرَادَةَ الْإِلَهِيَّةَ عَمَّا تَجْرِي بِهِ الْقُدْرَةُ بِتَخْصِيصِهَا فِي عَالَمِ التَّكْوِينِ ، لَأَجَابَتْهُ بِلِسَانِ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ بِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ مَا اقْتَضَاهُ الْعِلْمُ الْإِلَهِيُّ الْمُحِيطُ بِالْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، فَهُوَ عَيْنُ الْحِكْمَةِ وَغَايَةُ النِّظَامِ ، لَيْسَ فِيهِ خَلَلٌ وَلَا جُزَافٌ ، وَلَا هُوَ بِالْأَمْرِ الْأُنُفِ الَّذِي يَكُونُ بِمَحْضِ الِاسْتِبْدَادِ (وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ) (13 : 8 ، 9) وَكِتَابَةُ مَقَادِيرِ الْخَلْقِ الَّتِي أَرْشَدَتْ إِلَيْهَا الْآيَةُ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِ تَفْسِيرِهَا تُثْبِتُ هَذَا ، وَكُلَّمَا اتَّسَعَ عِلْمُ الْإِنْسَانِ بِالنِّظَامِ وَالْقَدَرِ الْإِلَهِيِّ فِي هَذَا الْكَوْنِ رَسَخَ إِيمَانُهُ بِذَلِكَ ، وَقَلَّتْ حَيْرَتُهُ ،

(226/235)

---

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) فَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّ فِي أَفْعَالِهِ شَيْئًا عَبَثًا أَوْ سُدًى أَوْ جُزَافًا جَاءَ آنِفًا بِمَحْضِ الْمَشِيئَةِ ، عَارِيًا عَنِ النِّظَامِ وَالتَّقْدِيرِ الَّذِي اقْتَضَتْهُ الْحِكْمَةُ ، كَلَّا إِنَّمَا مَعْنَاهُ أَنَّ سُلْطَانَهُ تَعَالَى فَوْقَ كُلِّ سُلْطَانٍ ، فَلَيْسَ لِمَوْجُودٍ سُلْطَانٌ عَلَيْهِ فَيَسْأَلُهُ عَمَّا يَفْعَلُ ، يُحَاسِبُهُ عَلَيْهِ ، أَوْ يُلْقِي عَلَيْهِ تَبِعَتَهُ إِنْ فُرِضَ أَنَّهُ يَرَى ذَلِكَ ، فَلَا حُجَّةَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِلْجَبْرِيِّ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ ، وَلَا لِلْمُذَبْذَبِ الْجَبْرِيِّ فِي الْبَاطِنِ السُّنِّيِّ فِي الظَّاهِرِ .

(حِكْمَةُ كِتَابَةِ مَقَادِيرِ الْخَلْقِ) .

رُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّ حِكْمَةَ كِتَابَةِ اللهِ تَعَالَى لِمَقَادِيرِ الْخَلْقِ تَنْبِيهُ الْمُكَلَّفِينَ عَلَى عَدَمِ إِهْمَالِ أَحْوَالِهِمُ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ، حَيْثُ ذَكَرَ أَنَّ الْوَرَقَةَ وَالْحَبَّةَ فِي الْكِتَابِ ، وَزَادَ بَعْضُهُمْ حِكْمَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ إِحْدَاهُمَا : اعْتِبَارُ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مُوَافَقَةَ الْمُحْدَثَاتِ لِلْمَعْلُومَاتِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَالثَّانِيَةُ : عَدَمُ تَغَيُّرِ الْمَوْجُودَاتِ عَنِ التَّرْتِيبِ السَّابِقِ فِي الْكِتَابِ .

وَلِذَا جَاءَ " جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا

(227/235)

---

هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ " - ذَكَرَ ذَلِكَ الْأُلُوسِيُّ ، وَجَعَلَ قَوْلَ الْحَسَنِ هُوَ الثَّانِي فِي التَّرْتِيبِ ، وَالْعِبَارَةُ الْأَخِيرَةُ حَدِيثٌ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْمُشْتَهِرَةِ عَلَى الْأَلْسِنَةِ بِاللَّفْظِ الَّذِي ذَكَرَهُ الْأُلُوسِيُّ ، وَلَا نَعْرِفُهُ مَرْوِيًّا بِهَذَا اللَّفْظِ ، وَلَكِنْ وَرَدَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَعْفَرٍ عِنْدَ الطَّبَرَانِيِّ " وَاعْلَمْ أَنَّ الْقَلَمَ قَدْ جَفَّ بِمَا هُوَ كَائِنٌ " وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ " جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا أَنْتَ لَاقٍ " وَوَرَدَ " جَفَّ الْقَلَمُ " " وَجَفَّتِ الْأَقْلَامُ " فِي أَثْنَاءِ أَحَادِيثَ أُخْرَى .

(228/235)

وَهَذَا الَّذِي قَالُوهُ فِي حِكْمَةِ الْكِتَابَةِ ضَعِيفٌ ، وَحِكْمَةُ اللهِ الْبَالِغَةُ فِيهِ فَوْقَ ذَلِكَ ، وَيَتَوَقَّفُ تَلَمُّحُ شَيْءٍ مِنْ جَلَالِهَا وَجَمَالِهَا عَلَى تَدَبُّرِ النِّظَامِ الْعَامِّ الَّذِي قَامَتْ بِهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالنِّظَامِ الْخَاصِّ بِكُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَخْلُوقَاتِ فِيهِمَا ، وَعَلَى كَوْنِ تِلْكَ النُّظُمِ الَّتِي يُعَبَّرُ عَنْهَا فِي عُرْفِنَا بِالسُّنَنِ وَبِالْأَقْدَارِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَفِي عُرْفِ بَعْضِ عُلَمَاءِ الدُّنْيَا بِالنَّوَامِيسِ أَوِ الْقُوَى الطَّبِيعِيَّةِ ، إِنَّمَا يُنَفِّذُهَا أَصْنَافٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، ذُكِرَ فِي الْآيَةِ الَّتِي بَعْدَ هَذِهِ صِنْفُ الْحَفَظَةِ وَرُسُلِ الْمَوْتِ مِنْهُمْ ، وَوَرَدَ فِي بَعْضِ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ أَنَّ (وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا 77 : 1) وَمَا عُطِفَ عَلَيْهَا (وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا 79 : 1) وَمَا عُطِفَ عَلَيْهَا إِلَى قَوْلِهِ : (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا 79 : 5) أَصْنَافٌ مِنْهُمْ ، وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ الْمُوَكَّلُونَ بِتَدْبِيرِ أَمْرِ الْخَلْقِ

(229/235)

---

مِنْ عِنْدِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ مَا جَاءَ مِنْ أَحَادِيثَ مِنْهَا الصِّحَاحُ وَالْحِسَانُ وَالضِّعَافُ ، يَدُلُّ مَجْمُوعُهَا عَلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ وَكَّلَ بِكُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْخَلْقِ مَلَائِكَةً هُمْ أَرْوَاحُ النِّظَامِ لَهُ . فَإِذَا كَانَ الْخَالِقُ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَدْ جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ، وَجَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَسْبَابِ الْمَعَايِشِ كَالرِّيَاحِ وَالْأَمْطَارِ وَغَيْرِهَا خَزَائِنَ لَا يُنَزِّلُهَا إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ، وَإِذَا

كَانَ مِنْ حِكْمَتِهِ أَنْ جَعَلَ لِهَذَا الْمُلْكِ الْعَظِيمِ الَّذِي يُدَارُ بِأَعْلَى دَرَجَةٍ مِنَ التَّقْدِيرِ وَالتَّنْظِيمِ عَرْشًا عَظِيمًا هُوَ مَصْدَرُ التَّدْبِيرِ ، أَفَلَا يَكُونُ مِنْ كَمَالِ الْحِكْمَةِ وَالْإِتْقَانِ أَنْ يَكُونَ لِذَلِكَ كِتَابٌ مُبِينٌ هُوَ مَظْهَرُ ذَلِكَ النِّظَامِ وَالتَّقْدِيرِ ، كَمَا يُعْهَدُ لِلْمَمَالِكِ الْمُنَظَّمَةِ مِنْ كُتُبِ النُّظُمِ وَالْقَوَانِينِ ؟ بَلَى وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ، وَإِنَّ لَنَا فِيمَا نَرَى فِي خَلْقِهِ مِنْ نِظَامٍ وَكَمَالٍ وَفِي التَّكْوِينِ آيَاتٍ عَلَى كَمَالِ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ ، وَنُفُوذِ إِرَادَتِهِ وَقُدْرَتِهِ ، وَفِيمَا نَرَى مِنْ كَسْبِ الْبَشَرِ مِنْ نَقْصٍ وَعَجْزٍ دَلَائِلَ عَلَى تَنْزِيهِهِ عَنْ مُشَابَهَةِ الْخَلْقِ ، وَعَلَى أَنَّ مَلَائِكَتَهُ أَكْمَلُ مِنَ الْبَشَرِ فِي تَنْفِيذِ مَا قُدِّرَ وَمَا أُمِرَ (لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ 21 : 27) (لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ 66 : 6) وَنَكْتَفِي بِهَذَا التَّلْمِيحِ الْآنَ ، فَقَدْ طَالَ الْكَلَامُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ كَمَا طَالَ فِي تَفْسِيرِ مَا

*(230/235)*

---

تَقَدَّمَ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ ، وَلَعَلَّنَا نَعُودُ إِلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ .

(وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ) التَّوَفِّي أَخْذُ الشَّيْءِ وَافِيًا أَيْ تَامًّا كَامِلًا ، وَيُقَابِلُهُ التَّوْفِيَةُ وَهُوَ إِعْطَاءُ الشَّيْءِ تَامًّا كَامِلًا ، يُقَالُ وَفَّاهُ حَقَّهُ فَتَوَفَّاهُ مِنْهُ وَاسْتَوْفَاهُ ، وَمِنْهُ (وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ 24 : 39) وَيُقَالُ تَوَفَّاهُ وَاسْتَوْفَاهُ بِمَعْنَى أَحْصَى عَدَدَهُ ، نَطَقَتِ

الْعَرَبُ بِالْمَعْنَيَيْنِ ، وَأُطْلِقَ التَّوَفِّي عَلَى الْمَوْتِ ؛ لِأَنَّ الْأَرْوَاحَ تُقْبَضُ وَتُؤْخَذُ أَخْذًا تَامًّا حَتَّى لَا يَبْقَى لَهَا تَصَرُّفٌ فِي الْأَبْدَانِ ، وَأُطْلِقَ عَلَى النَّوْمِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَفِي آيَةِ الزُّمَرِ الَّتِي نَذْكُرُهَا قَرِيبًا ، فَقَالَ الْعُلَمَاءُ : إنَّهُ إطْلَاقٌ مَجَازِيٌّ مَبْنِيٌّ عَلَى تَشْبِيهِ النَّوْمِ بِالْمَوْتِ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمُشَارَكَةِ فِي زَوَالِ إحْسَاسِ الْحَوَاسِّ وَالتَّمْيِيزِ ، وَإِنَّمَا جَعَلُوهُ اسْتِعَارَةً عَنِ النَّوْمِ بِنَاءً عَلَى جَعْلِهِ حَقِيقَةً فِي الْمَوْتِ ، وَهُوَ كَذَلِكَ فِي الْعُرْفِ الْعَامِّ لَا فِي أَصْلِ اللُّغَةِ ؛ يَقُولُونَ تُوُفِّيَ فُلَانٌ - بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ - بِمَعْنَى مَاتَ ، وَتَوَفَّاهُ اللَّهُ بِمَعْنَى أَمَاتَهُ ، وَمَا أَعْلَمُ أَنَّ الْعَرَبَ اسْتَعْمَلَتِ التَّوَفِّي فِي الْمَوْتِ ، وَإِنَّمَا هُوَ اسْتِعْمَالٌ إسْلَامِيٌّ مَبْنِيٌّ عَلَى الْمَوْتِ ، يَحْصُلُ

(231/235)

---

بِقَبْضِ الْأَنْفُسِ الَّتِي تَحْيَا بِهَا النَّاسُ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الزُّمَرِ : (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ 39 : 42) فَهَذِهِ الْآيَةُ نَصٌّ فِي كَوْنِ التَّوَفِّي أَعَمَّ مِنَ الْمَوْتِ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مُرَادِفًا لَهُ ، فَقَدْ صَرَّحَتْ بِأَنَّ الْأَنْفُسَ الَّتِي تُتَوَفَّى فِي مَنَامِهَا غَيْرُ مَيِّتَةٍ . فَقَوْلُهُ تَعَالَى : (يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ) مَعْنَاهُ يَتَوَفَّى أَنْفُسَكُمْ فِي حَالَةِ نَوْمِكُمْ بِاللَّيْلِ ، وَمِثْلُهُ النَّوْمُ فِي النَّهَارِ ، وَإِنَّمَا اقْتَصَرَ عَلَى ذِكْرِ اللَّيْلِ ؛ لِأَنَّ الْوَاجِبَ فِي الْفِطْرَةِ وَالْغَالِبَ فِي الْعَادَةِ أَنْ يَكُونَ

النَّوْمُ فِيهِ ، فَلَا يُعْتَدُّ بِمَا يَقَعُ مِنْهُ فِي النَّهَارِ . أُطْلِقَ التَّوَفِّي فِي الْمَنَامِ عَلَى إزَالَةِ الْإِحْسَاسِ وَالْمَنْعِ مِنْ تَصَرُّفِ الْأَنْفُسِ فِي الْأَبْدَانِ عَلَى مَا هُوَ الْمَعْرُوفُ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ ، وَلَكِنَّ بَعْضَ فَلَاسِفَةِ الْغَرْبِ الْمُتَأَخِّرِينَ يَرَى أَنَّ لِلْإِنْسَانِ نَفْسَيْنِ ، تُفَارِقُهُ إحْدَاهُمَا عِنْدَ النَّوْمِ ، وَتُفَارِقُهُ كِلْتَاهُمَا بِالْمَوْتِ ، فَإِذَا صَحَّ هَذَا يَكُونُ التَّوَفِّي حَقِيقَةً فِي الْمَنَامِ وَفِي الْمَوْتِ ؛ لِأَنَّ الْأَوَّلَ يَحْصُلُ بِقَبْضٍ غَيْرِ تَامٍّ لِأَحَدِ النَّفْسَيْنِ ، وَالثَّانِي بِقَبْضٍ تَامٍّ لِكِلْتَيْهِمَا ، وَهُوَ يُوَافِقُ ظَاهِرَ آيَةِ الزُّمَرِ .

(232/235)

---

ثُمَّ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : (وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ) الْجَرْحُ : يُطْلَقُ بِمَعْنَى الْعَمَلِ وَالْكَسْبِ بِالْجَوَارِحِ وَهِيَ الْأَعْضَاءُ الْعَامِلَةُ ، وَبِمَعْنَى التَّأْثِيرِ الدَّامِي مِنَ السِّلَاحِ وَمَا فِي مَعْنَاهُ كَالْبَرَاثِنِ وَالْأَظْفَارِ وَالْأَنْيَابِ مِنْ سِبَاعِ الطَّيْرِ وَالْوَحْشِ . قِيلَ : إنَّ هَذَا الْأَخِيرَ هُوَ الْحَقِيقَةُ وَالْأَوَّلُ مَجَازٌ ، وَإِنَّ عَوَامِلَ الْإِنْسَانِ مَا سُمِّيَتْ جَوَارِحَ إلَّا تَشْبِيهًا لَهَا بِجَوَارِحِ السِّبَاعِ ، وَإِنَّ هَذِهِ مَا سُمِّيَتْ جَوَارِحَ إلَّا لِأَنَّهَا تَجْرَحُ مَا تَصِيدُهُ وَمَا تَفْتَرِسُهُ ، وَظَاهِرُ عِبَارَةِ لِسَانِ الْعَرَبِ أَنَّ الْجُرْحَ حَقِيقَةً فِي الْكَسْبِ ، وَأَنَّ جَوَارِحَ الصَّيْدِ سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِكَسْبِهَا لِنَفْسِهَا أَوْ لِمُعَلِّمِهَا الَّذِي يَصِيدُ بِهَا ، وَأَنَّ الْخَيْلَ وَالْأَنْعَامَ الْمُنْتِجَةَ تُسَمَّى جَوَارِحَ أَيْضًا ؛ لِأَنَّ نِتَاجَهَا كَسْبُهَا ،

فَالْجُرْحُ كَالْكَسْبِ ، يُطْلَقُ عَلَى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ مِنْهُ . نَقَلَ ذَلِكَ اللِّسَانُ عَنِ الْأَزْهَرِيِّ .

وَظَاهِرُ كَلَامِ الزَّمَخْشَرِيِّ أَنَّهُ فِعْلُ الشَّرِّ ، وَبِذَلِكَ فَسَّرَ الْآيَةَ فِي الْكَشَّافِ كَمَا سَيَأْتِي ، وَقَدِ اسْتُعْمِلَ الِاجْتِرَاحُ بِمَعْنَى فِعْلِ الشَّرِّ خَاصَّةً فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْجَاثِيَةِ : (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) (45 : 21) - الْآيَةَ - وَلَمْ يُذْكَرِ الْجَرْحُ وَالِاجْتِرَاحُ

*(233/235)*

---

فِي الْقُرْآنِ إِلَّا فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ . وَقَدْ يَكُونُ التَّخْصِيصُ بِعَمَلِ السَّيِّئَاتِ لِصِيغَةِ الِافْتِعَالِ كَمَا وَرَدَ كَثِيرًا فِي الِاكْتِسَابِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ : (لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) وَهُوَ غَيْرُ مُطَّرِدٍ فِي ذَلِكَ ، فَكُلٌّ مِنَ الْكَسْبِ وَالِاكْتِسَابِ يُسْتَعْمَلُ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ .

فَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ) يَعْلَمُ جَمِيعَ عَمَلِكُمْ وَكَسْبِكُمْ فِي وَقْتِ الْيَقَظَةِ الَّذِي يَكُونُ مُعْظَمُهُ فِي النَّهَارِ خَيْرًا كَانَ أَوْ شَرًّا ، قِيلَ : إِنَّ الْمَاضِيَ هُنَا بِمَعْنَى الْمُسْتَقْبَلِ ، أَيْ : وَيَعْلَمُ مَا تَجْرَحُونَهُ فِي النَّهَارِ الَّذِي يَلِي اللَّيْلَ ، عَبَّرَ بِهِ لِتُحَقِّقِ وُقُوعِهِ ، وَقِيلَ

: بَلْ هُوَ عَلَى أَصْلِهِ وَيُرَادُ بِهِ النَّهَارُ السَّابِقُ عَلَى اللَّيْلِ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ فِيهِ ، أَوِ الْمُرَادُ يَتَوَفَّاكُمْ فِي جِنْسِ اللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ فِي جِنْسِ النَّهَارِ .

*(234/235)*

---

(ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ) أَيْ : ثُمَّ إِنَّهُ بَعْدَ تَوَفِّيكُمْ بِالنَّوْمِ يُثِيرُكُمْ وَيُرْسِلُكُمْ مِنْهُ فِي النَّهَارِ ، فَالْبَعْثُ – كَمَا قَالَ الرَّاغِبُ – إِثَارَةُ الشَّيْءِ وَتَوْجِيهُهُ ، يُقَالُ بَعَثْتُ الْبَعِيرَ أَيْ أَثَرْتُهُ مِنْ بَرْكِهِ وَسَيَّرْتُهُ . فَإِطْلَاقُ الْبَعْثِ عَلَى الْإِيقَاظِ مِنَ النَّوْمِ حَقِيقَةٌ لُغَوِيَّةٌ ، وَمَنْ جَعَلَهُ مَجَازًا نَظَرَ إِلَى الْعُرْفِ الشَّرْعِيِّ ، فَإِنْ قِيلَ كَانَ الظَّاهِرُ أَنْ يُقَالَ : وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ بِالنَّهَارِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ فِيهِ ، فَمَا نُكْتَةُ هَذَا التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ فِي الْآيَةِ ؟ قُلْتُ : الظَّاهِرُ الْمُتَبَادِرُ أَنَّ تَأْخِيرَ ذِكْرِ الْبَعْثِ لِأَجْلِ أَنْ تَتَّصِلَ بِهِ عِلَّتُهُ الْمَقْصُودَةُ بِالذِّكْرِ فِي هَذَا السِّيَاقِ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى) إِلَخْ أَنْ يُوقِظَكُمْ وَيُرْسِلَكُمْ فِي أَعْمَالِكُمْ لِأَجْلِ أَنْ يُقْضَى وَيَنْفُذَ الْأَجَلُ الْمُسَمَّى فِي عِلْمِهِ تَعَالَى لِكُلِّ فَرْدٍ مِنْكُمْ ، فَإِنَّ لِأَعْمَارِكُمْ آجَالًا مَقْدِرَةً مَكْتُوبَةً لَا بُدَّ مِنْ قَضَائِهَا وَإِتْمَامِهَا (ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ) ثُمَّ إِلَيْهِ وَحْدَهُ يَكُونُ رُجُوعُكُمْ إِذَا انْتَهَتْ آجَالُكُمْ وَمُتُّمْ (ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) إِذْ يَبْعَثُكُمْ مِنْ مَرَاقِدِ الْمَوْتِ كَمَا كَانَ يَبْعَثُكُمْ مِنْ مَضَاجِعِ

النَّوْمِ ؛ لِأَنَّهُ عَالِمٌ بِتِلْكَ الْأَعْمَالِ كُلِّهَا فَيُذَكِّرُكُمْ بِهَا ، وَيُحَاسِبُكُمْ عَلَيْهَا ، وَيَجْزِيكُمْ بِهَا ، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، وَفِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ الْقَادِرَ عَلَى الْبَعْثِ مِنْ



---

تَوَفِّي النَّوْمِ قَادِرٌ عَلَى الْبَعْثِ مِنْ تَوَفِّي الْمَوْتِ .

وَقَدْ خَالَفَ الزَّمَخْشَرِيُّ الْجُمْهُورَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ، فَجَعَلَهَا خِطَابًا لِلْكُفَّارِ خَاصَّةً ، إِذْ جَعَلَ الْجُرْحَ خَاصًّا بِعَمَلِ السُّوءِ ، وَجَعَلَ الْغَرَضَ مِنْ ذِكْرِ تَوَفِّيهِمْ فِي اللَّيْلِ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ مُنْسَدِحِينَ فِيهِ كَالْجِيَفِ ، وَمِنَ الْجُرْحِ بِالنَّهَارِ : عَمَلُ الْآثَامِ فِيهِ . وَجَعَلَ الْبَعْثَ عَلَى مَعْنَاهُ الشَّرْعِيِّ ، وَ " فِي " لِلتَّعْلِيلِ أَوِ الشَّأْنِ كَحَدِيثِ دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ . وَقَالَ فِي بَيَانِ هَذَا : ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ مِنَ الْقُبُورِ فِي شَأْنِ ذَلِكَ الَّذِي قَطَعْتُمْ بِهِ أَعْمَارَكُمْ مِنَ النَّوْمِ بِاللَّيْلِ وَكَسْبِ الْآثَامِ بِالنَّهَارِ وَمِنْ أَجْلِهِ ، كَقَوْلِكَ :

فِيمَ دَعَوْتَنِي ؟ فَأَقُولُ : فِي أَمْرٍ كَذَا . وَفَسَّرَ الْأَجَلَ الْمُسَمَّى بِمَا ضَرَبَهُ اللَّهُ لِبَعْثِ الْمَوْتَى وَجَزَائِهِمْ ، وَالْمَرْجِعَ بِالرُّجُوعِ إِلَى مَوْقِفِ الْحِسَابِ ، وَفِيهِ تَكَلُّفٌ لَا يَدْفَعُهُ إِلَّا نَصٌّ فِي نُزُولِ الْآيَةِ فِي الْكُفَّارِ وَحْدَهُمْ وَكَوْنِ الْجُرْحِ بِمَعْنَى فِعْلِ الْآثَامِ ، وَكِلَاهُمَا لَا يَثْبُتُ .

وَفِي ذِكْرِ الْأَجَلِ الْمُسَمَّى فِي الْآيَةِ وَالرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِأَجْلِ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ تَأْيِيدٌ لِمَا

تَقَدَّمَ مِنْ حِكْمَةِ تَأْخِيرِ مَا كَانَ مُشْرِكُو مَكَّةَ يَسْتَعْجِلُونَ بِهِ مِنْ وَعِيدِ اللهِ لَهُمْ ، وَوَعِيدِهِ لِرَسُولِهِ بِالنَّصْرِ عَلَيْهِمْ وَبَيَانُ عَذَابِ الْآخِرَةِ وَرَاءَ مَا أُنْذِرُوا مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا ، فَمَنْ لَمْ يُدْرِكْهُ الْأَوَّلُ لِمَوْتِهِ قَبْلَ وُقُوعِهِ لَمْ يُفْلِتْ مِنَ الْآخَرِ .

*(236/235)*

---

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى بَيَّنَ مَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْإِجْمَالِ فِي الْمَوْتِ ، وَالرُّجُوعِ إِلَى اللهِ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ مُبْتَدِئًا ذَلِكَ بِذِكْرِ قَهْرِهِ لِعِبَادِهِ ، وَاسْتِعْلَائِهِ عَلَيْهِمْ ، وَإِرْسَالِهِ الْحَفَظَةَ لِإِحْصَاءِ أَعْمَالِهِمْ وَكِتَابَتِهَا عَلَيْهِمْ فَقَالَ : (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً) بَيَّنَّا مَعْنَى الْجُمْلَةِ الْأُولَى بِنَصِّهَا فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الثَّامِنَةِ عَشْرَةَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ ، وَكَلِمَةُ " فَوْقَ " تُسْتَعْمَلُ - كَمَا قَالَ الرَّاغِبُ - فِي الْمَكَانِ وَالزَّمَانِ وَالْجِسْمِ وَالْعَدَدِ وَالْمَنْزِلَةِ ، وَذَلِكَ أَضْرُبٌ ضَرَبَ لَهَا الرَّاغِبُ الْأَمْثِلَةَ ، فَـ " فَوْقَ " الْعُلْوِيَّةِ يُقَابِلُهُ " تَحْتُ " ، وَ " فَوْقَ " الصُّعُودِ يُقَابِلُهُ فِي الْحُدُودِ الْأَسْفَلُ ، وَ " فَوْقَ " الْعَدَدِ يُقَابِلُهُ الْقَلِيلُ أَوِ الْأَقَلُّ مِنْهُ ، وَ " فَوْقَ " الْحَجْمِ يُقَابِلُهُ الصَّغِيرُ أَوِ الْأَصْغَرُ مِنْهُ ، وَ " فَوْقَ " الْمَنْزِلَةِ يَكُونُ بِمَعْنَى الْفَضِيلَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ) (43 : 32) (وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (2 : 212) وَبِمَعْنَى الْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ فِرْعَوْنَ : (وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ) (7 :

127) وَبِهِ فَسَّرُوا هَذِهِ الْآيَةَ وَمَا قَبْلَهَا .

وَأَمَّا إرْسَالُ الْحَفَظَةِ عَلَى النَّاسِ فَمَعْنَاهُ إرْسَالُهُمْ مُرَاقِبِينَ عَلَيْهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ - كَمُرَاقَبَةِ رِجَالِ الْبُولِيسِ السِّرِّيِّ فِي حُكُومَاتِ عَصْرِنَا - مُحْصِينَ لِأَعْمَالِهِمْ

(237/235)

---

بِكِتَابَتِهَا وَحِفْظِهَا فِي الصُّحُفِ الَّتِي تُنْشَرُ يَوْمَ الْحِسَابِ ، وَهِيَ الْمُرَادَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ) (81 : 10) وَهَؤُلَاءِ الْحَفَظَةُ هُمُ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ : (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ) (82 : 10 - 12) وَلَمْ يَرِدْ فِي كَلَامِ اللَّهِ وَلَا كَلَامِ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَيَانٌ تَفْصِيلِيٌّ لِصِفَةِ هَذِهِ الْكِتَابَةِ ، فَنُؤْمِنُ بِهَا كَمَا نُؤْمِنُ بِكِتَابَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِمَقَادِيرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَا نَتَحَكَّمُ فِيهَا بِآرَائِنَا ، وَأَمْثَلُ مَا أُوِّلَتْ بِهِ أَنَّهَا عِبَارَةٌ عَنْ تَأْثِيرِ الْأَعْمَالِ فِي النَّفْسِ ، وَأَنَّهُ يَكُونُ بِفِعْلِ الْمَلَائِكَةِ . وَقِيلَ : إنَّ الْحَفَظَةَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ غَيْرُ الْكَاتِبِينَ لِلْأَعْمَالِ ، وَهُمُ الْمُعَقِّبَاتُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ الرَّعْدِ : (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) (13 : 11) قِيلَ : إنَّهُمْ مَلَائِكَةٌ يَحْفَظُونَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ ، وَقِيلَ : مِنْ كُلِّ ضَرَرٍ يَكُونُ عُرْضَةً لَهُ لَمْ يَكُنْ مُقَدَّرًا أَنْ يُصِيبَهُ ، فَإِذَا جَاءَ الْقَدَرُ تَخَلَّوْا عَنْهُ ، وَلَكِنْ لَمْ يَصِحَّ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ يُعْتَدُّ بِهِ . وَفِي هَذِهِ

الْآيَةِ أَقْوَالٌ أُخْرَى لِأَهْلِ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ ؛ مِنْهَا أَنَّهَا خَاصَّةً بِالنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَنَّهَا نَزَلَتْ

(238/235)

---

حِينَ أَرَادَ أَرْبَدُ بْنُ قَيْسٍ وَعَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ قَتْلَهُ ، عَلَى أَنْ يُلْهِيَهُ الثَّانِي بِالْحَدِيثِ فَيَقْتُلُهُ الْأَوَّلُ ، فَلَمَّا وَضَعَ يَدَهُ عَلَى السَّيْفِ يَبِسَتْ عَلَى قَائِمَتِهِ فَلَمْ يَسْتَطِعْ سَلَّهُ . وَمِنْهَا أَنَّهَا فِي الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ . وَمِنْهَا أَنَّهَا فِي الْأُمَرَاءِ وَالْمُلُوكِ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْحَرَسَ الْجَلَاوِزَةَ يَحْفَظُونَهُمْ مِمَّنْ يُرِيدُ قَتْلَهُمْ ، وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، وَأَبُو الشَّيْخِ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ فِي الْآيَةِ : الْمُلُوكُ يَتَّخِذُونَ الْحَرَسَ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمَامِهِ وَمِنْ خَلْفِهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنَ الْقَتْلِ ، أَلَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : (وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا 13 : 11) لَمْ يُغْنِ الْحَرَسُ عَنْهُ شَيْئًا . وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الَّذِي يُنَاسِبُ قَوْلَهُ تَعَالَى قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ : (سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ) (10 ، 11) الْآيَةَ ، وَسَيَأْتِي تَفْصِيلُ ذَلِكَ فِي مَحَلِّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَلَيْسَ عِنْدَنَا مِنَ الْأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ إِلَّا حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا مَرْفُوعًا "يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ

(239/235)

---

يَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ : كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي ؟ فَيَقُولُونَ : تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ " وَرُوِيَ بِلَفْظِ " وَالْمَلَائِكَةُ يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ " بِوَاوٍ وَبِغَيْرِ وَاوٍ ، لَكِنْ لَمْ يَرِدْ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الرَّعْدِ ، فَإِذَا كَانَ هَؤُلَاءِ الْمَلَائِكَةُ هُمُ الْحَفَظَةُ الْكَاتِبِينَ فَلَا مَحَلَّ لِاخْتِلَافِ الْعُلَمَاءِ فِي تَجَدُّدِهِمْ وَتَعَاقُبِهِمْ .

(240/235)

---

وَذَكَرُوا مِنَ الْحِكْمَةِ فِي كِتَابَةِ الْأَعْمَالِ وَحِفْظِهَا عَلَى الْعَامِلِينَ أَنَّ الْمُكَلَّفَ إِذَا عَلِمَ أَنَّ أَعْمَالَهُ تُحْفَظُ عَلَيْهِ وَتُعْرَضُ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ ، كَانَ ذَلِكَ أَزْجَرَ لَهُ عَنِ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ ، وَأَبْعَثَ لَهُ عَلَى الْتِزَامِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، فَإِنْ لَمْ يَصِلْ إِلَى مَقَامِ الْعِلْمِ الرَّاسِخِ الَّذِي يُثْمِرُ

الْخَشْيَةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَالْمَعْرِفَةِ الْكَامِلَةِ الَّتِي تُثْمِرُ الْحَيَاءَ مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَالْمُرَاقَبَةَ لَهُ ، يَغْلِبُ عَلَيْهَا الْغُرُورُ بِالْكَرَمِ الْإِلَهِيِّ وَالرَّجَاءِ فِي مَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ تَعَالَى ، فَلَا يَكُونُ لَدَيْهِمْ مِنْ خَشْيَتِهِ وَالْحَيَاءِ مِنْهُ مَا يَزْجُرُهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ كَمَا يَزْجُرُهُمْ تَوَقُّعُ الْفَضِيحَةِ فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ عَلَى أَعْيُنِ الْخَلَائِقِ وَأَسْمَاعِهِمْ ، وَزَادَ الرَّازِيُّ احْتِمَالَ أَنْ تَكُونَ فَائِدَتُهَا أَنْ تُوزَنَ تِلْكَ الصُّحُفُ ؛ لِأَنَّ وَزْنَهَا مُمْكِنٌ وَوَزْنُ الْأَعْمَالِ غَيْرُ مُمْكِنٍ ، - كَذَا قَالَ . وَهُوَ احْتِمَالٌ ضَعِيفٌ ، بَلْ لَا قِيمَةَ لَهُ ؛ لِأَنَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى تَشْبِيهِ وَزْنِ اللَّهِ لِلْأُمُورِ الْمَعْنَوِيَّةِ بِوَزْنِ الْبَشَرِ لِلْأَثْقَالِ الْجِسْمِيَّةِ .

*(241/235)*

---

وَأَمَّا بَيَانُ هَذِهِ الْحِكْمَةِ عَلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي جَرَيْنَا عَلَيْهَا فِي بَيَانِ حِكْمَةِ مَقَادِيرِ الْخَلْقِ فَتُعْلَمُ مِمَّا مَرَّ هُنَالِكَ ، وَأَمَّا عَلَى طَرِيقَةِ مَنْ يَقُولُونَ إِنَّ الْمُرَادَ بِكِتَابَةِ الْأَعْمَالِ حِفْظُ صُوَرِهَا وَآثَارِهَا فِي النَّفْسِ ، فَهِيَ أَنَّهَا تَكُونُ الْمَظْهَرَ الْأَتَمَّ الْأَجْلَى لِحُجَّةِ اللَّهِ الْبَالِغَةِ ، فَإِذَا وُضِعَ كِتَابُ كُلِّ أَحَدٍ يَوْمَ الْحِسَابِ وَنُشِرَتْ صُحُفُهُ الْمَطْوِيَّةُ فِي سَرِيرَةِ نَفْسِهِ تُعْرَضُ عَلَيْهِ أَعْمَالُهُ فِيهَا بِصُوَرِهَا وَمَعَانِيهَا فَتَتَمَثَّلُ لِذَاكِرَتِهِ وَلِحِسِّهِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ كَمَا عَمِلَهَا فِي الدُّنْيَا لَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ مِنْ

صِفَاتِهَا الْحِسِّيَّةِ وَلَا الْمَعْنَوِيَّةِ - كَاللَّذَّةِ وَالْأَلَمِ - فَيَكُونُ حَسِيبًا عَلَى نَفْسِهِ ، وَعَلَى عَيْنِ الْيَقِينِ مِنْ عَدْلِ اللهِ وَفَضْلِهِ : (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) (17 : 13 ، 14) .

(وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا 18 : 49)

.

*(242/235)*

---

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ) قَرَأَ حَمْزَةُ (تَوَفَّاهُ) بِأَلِفٍ مُمَالَةٍ بَعْدَ الْفَاءِ ، وَالْبَاقُونَ (تَوَفَّتْهُ) بِالتَّاءِ بَعْدَ الْفَاءِ ، وَرَسْمُهُمَا فِي مُصْحَفِ الْإِمَامِ وَاحِدٌ هَكَذَا (تَوَفَّتْهُ) لِأَنَّ الْأَلِفَ رُسِمَتْ يَاءً كَأَصْلِهَا ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ تَعَالَى يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً مِنَ الْمَلَائِكَةِ يُرَاقِبُونَكُمْ وَيُحْصُونَ عَلَيْكُمْ أَعْمَالَكُمْ مُدَّةَ حَيَاتِكُمْ ، حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ وَانْتَهَى عَمَلُهُ تَوَفَّتْهُ أَيْ قَبَضَتْ رُوحَهُ رُسُلُنَا الْمُوَكَّلُونَ بِذَلِكَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، وَهَؤُلَاءِ الرُّسُلُ هُمْ أَعْوَانُ مَلَكِ الْمَوْتِ الَّذِي قَالَ اللهُ فِيهِ : (قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ 32 : 11) فَالْأَرْوَاحُ أَصْنَافٌ كَثِيرَةٌ ، لِكُلٍّ مِنْهَا مُسْتَقَرٌّ فِي الْبَرْزَخِ يَلِيقُ بِهِ ،

وَلِلْمَوْتِ أَصْنَافٌ كَثِيرَةٌ ، لِكُلٍّ مِنْهَا سُنَنٌ وَنِظَامٌ فِي الْحَيَاةِ خَاصٌّ بِهِ فَقَبْضُ الْأُلُوفِ مِنَ الْأَرْوَاحِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ ، وَوَضْعُهَا فِي الْمَوَاضِعِ اللَّائِقَةِ بِهَا عَمَلٌ عَظِيمٌ وَاسِعُ النِّطَاقِ ، يَقُومُ بِإِدَارَتِهِ وَنِظَامِهِ رُسُلٌ كَثِيرُونَ وَكُلُّ عَمَلٍ مُنَظَّمٍ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ لَهُ جِهَةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ مَكَانُ الرِّيَاسَةِ وَالنِّظَامِ مِنْهُ ، وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ وَأَبُو الشَّيْخِ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ مَلَكِ الْمَوْتِ ، أَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يَقْبِضُ الْأَرْوَاحَ ؟ قَالَ : هُوَ الَّذِي يَلِي أَمْرَ الْأَرْوَاحِ ، وَلَهُ أَعْوَانٌ عَلَى ذَلِكَ ، وَقَرَأَ الْآيَةَ ثُمَّ قَالَ : غَيْرَ

(243/235)

---

أَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ هُوَ الرَّئِيسُ إِلَخْ . وَرُوِيَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ وَمُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ : أَنَّ الْأَعْوَانَ يَقْبِضُونَ الْأَرْوَاحَ مِنَ الْأَبْدَانِ ثُمَّ يَدْفَعُونَهَا إِلَى مَلَكِ الْمَوْتِ ، فَكُلٌّ مِنْهُمَا مُتَوَفٍّ ، وَعَنِ الْكَلْبِيِّ أَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ هُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى الْقَبْضَ بِنَفْسِهِ وَيَدْفَعُهَا إِلَى الْأَعْوَانِ ، فَإِنْ كَانَ الْمَيِّتُ مُؤْمِنًا دَفَعَهَا إِلَى مَلَائِكَةِ الرَّحْمَةِ ، وَإِنْ كَانَ كَافِرًا دَفَعَهَا إِلَى مَلَائِكَةِ الْعَذَابِ ، أَيْ وَهُمْ يَذْهَبُونَ بِالْأَرْوَاحِ إِلَى حَيْثُ يُوَجِّهُهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى .

وَقَدْ أُسْنِدَ التَّوَفِّي إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي آيَةِ الزُّمَرِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِ الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَ هَذِهِ (ص 399) إِمَّا عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْآمِرُ لِمَلَكِ الْمَوْتِ وَلِأَعْوَانِهِ جَمِيعًا بِذَلِكَ - وَهُوَ مَا صَرَّحُوا بِهِ

- وَإِمَّا عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْفَاعِلُ الْحَقِيقِيُّ وَالْمُسَخِّرُ لِمَلَكِ الْمَوْتِ وَأَعْوَانِهِ ، فَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ، وَبِتَسْخِيرِهِ يَتَصَرَّفُونَ ، لَا يَعْتَدُونَ فِي تَنْفِيذِ إِرَادَتِهِ وَلَا يُفَرِّطُونَ ، وَالتَّفْرِيطُ التَّقْصِيرُ بِنَحْوِ التَّوَانِي وَالتَّأْخِيرِ ، وَتَقَدَّمَ مَعْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ 38) وَقَرَأَ الْأَعْرَجُ

(يُفْرِطُونَ) مِنَ الْإِفْرَاطِ الْمُقَابِلِ لِلتَّفْرِيطِ ، أَيْ لَا يَتَجَاوَزُونَ وَلَا يَعْتَدُونَ فِيهِ ، وَمَعْنَاهُ صَحِيحٌ . وَلَكِنَّ الْحَاجَةَ إِلَى نَفْيِ الْإِفْرَاطِ غَيْرُ قَوِيَّةٍ ، وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى عِصْمَةِ الْمَلَائِكَةِ كَمَا قَالَ الْمُفَسِّرُونَ .

*(244/235)*

---

(ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ) الظَّاهِرُ الْمُتَبَادِرُ أَنَّ الْمَعْنَى : ثُمَّ يَرُدُّ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الرُّسُلُ إِلَى اللَّهِ الَّذِي هُوَ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ لِيُحَاسِبَهُمْ وَيُجَازِيَهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ ، فَيَكُونُ بِمَعْنَى آيَةِ (الم السَّجْدَةِ) (32 : 11) الَّتِي تَقَدَّمَتْ آنِفًا . وَقِيلَ : إِنَّ الْمَعْنَى : ثُمَّ يَرُدُّ أُولَئِكَ الرُّسُلُ إِلَى رَبِّهِمْ بَعْدَ إِتْمَامِ مَا وُكِّلَ إِلَيْهِمْ بِمَوْتِ جَمِيعِ النَّاسِ ، فَيَمُوتُونَ هُمْ أَيْضًا ، ذَكَرَهُ الرَّازِيُّ ، وَهُوَ ضَعِيفٌ مِنْ وُجُوهٍ مِنْهَا مُخَالَفَتُهُ لِآيَةِ السَّجْدَةِ ، وَمِنْهَا أَنَّ الْكَلَامَ فِي الْبَشَرِ وَبَيَانِ الدِّينِ لَهُمْ وَإِقَامَةِ حُجَجِهِ عَلَيْهِمْ ، وَمِنْهَا أَنَّ الْحِسَابَ الَّذِي خُتِمَتْ بِذِكْرِهِ الْآيَةُ حِسَابُ الْبَشَرِ لَا

حِسَابُ مَلَكِ الْمَوْتِ وَأَعْوَانِهِ .

وَفِي الْجُمْلَةِ مَبَاحِثُ لَفْظِيَّةٌ وَمَعْنَوِيَّةٌ يَتَّضِحُ بِهَا مَا فِيهَا مِنَ الْبَلَاغَةِ .

(الْأَوَّلُ) أَنَّ فِي الْكَلَامِ الْتِفَاتًا مِنَ الْخِطَابِ إِلَى الْغَيْبَةِ ؛ لِأَنَّ مَا قَبْلَهُ خِطَابٌ مِنْهُ سُبْحَانَهُ لِلْمُكَلَّفِينَ . وَالْتِفَاتًا آخَرَ مِنَ التَّكَلُّمِ إِلَى الْغَيْبَةِ ، وَإِلَّا لَقَالَ : ثُمَّ رَدَدْنَاكُمْ أَوْ : رَدَدْنَاهُمْ - عَلَى الِالْتِفَاتِ - إِلَخْ . وَنُكْتَةُ الِالْتِفَاتِ تُفْهَمُ مِنَ الْمَبَاحِثِ الْأُخْرَى .

(245/235)

---

(الثَّانِي) أَنَّهُ جَعَلَ فِعْلَ الرَّدِّ مَبْنِيًّا لِلْمَفْعُولِ ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ لَهُ تَعَالَى رُسُلًا أُخْرَى - وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ غَيْرُ رُسُلِ الْمَوْتِ وَرُسُلِ الْحِفْظِ - يَرُدُّونَ الْعِبَادَ إِلَيْهِ بَعْدَ الْبَعْثِ عِنْدَمَا يَحْشُرُونَهُمْ بِأَمْرِهِ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ ، وَهَذِهِ أَظْهَرُ نُكَتِ الِالْتِفَاتِ .

(الثَّالِثُ) ذَهَبَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ : (رُدُّوا) لِلْكُلِّ الْمَدْلُولِ عَلَيْهِ بِأَحَدٍ مِنْ قَوْلِهِ : (إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ) وَأَنَّ هَذَا هُوَ السِّرُّ فِي مَجِيئِهِ بِطَرِيقِ الِالْتِفَاتِ وَالْإِفْرَادِ أَوَّلًا وَالْجَمْعِ آخِرًا ، لِوُقُوعِ التَّوَفِّي عَلَى الْإِفْرَادِ وَالرَّدِّ عَلَى الْجُمْلَةِ وَالْمَجْمُوعِ . وَنَحْنُ نَرَى أَنَّهُ لَا حَاجَةَ إِلَى تَكَلُّفِ الْقَوْلِ بِرُجُوعِهِ إِلَى الْكُلِّ الْمَدْلُولِ عَلَيْهِ بِأَحَدٍ ، وَالِالْتِفَاتُ عِبَارَةٌ عَنْ جَعْلِ ضَمِيرِ الْخِطَابِ الَّذِي لِلْجَمَاعَةِ ضَمِيرَ غَيْبَةٍ لَهُمْ .

(الرَّابِعُ) أَنَّ هَذَا الرَّدَّ يَكُونُ بَعْدَ الْبَعْثِ ، فَكَانَ الْأَصْلُ أَنْ يُعَبَّرَ عَنْهُ بِفِعْلِ الِاسْتِقْبَالِ كَمَا فِي آيَةِ السَّجْدَةِ (ثُمَّ تُرَدُّونَ) وَعَبَّرَ هُنَا بِالْمَاضِي لِإِفَادَةِ تَحْقِيقِ الْوُقُوعِ حَتَّى كَأَنَّهُ وَقَعَ وَانْقَضَى .

(الْخَامِسُ) مِنْ فَوَائِدِ الِالْتِفَاتِ مِنَ التَّكَلُّمِ إِلَى الْغَيْبَةِ ذِكْرُ اسْمِ الْجَلَالَةِ وَوَصْفُهُ بِمَا وُصِفَ بِهِ ، وَلَا يَخْفَى أَنَّ تَأْثِيرَهُ فِي النَّفْسِ هُنَا أَعْظَمُ مِنْ تَأْثِيرِ ضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِ

(246/235)

---

(السَّادِسُ) قَالُوا : إِنَّ الرَّدَّ إِلَى اللهِ هُوَ الرَّدُّ إِلَى حُكْمِهِ وَقَضَائِهِ وَحِسَابِهِ وَجَزَائِهِ ، أَوْ إِلَى مَوْقِفِ الْحِسَابِ ، وَمَكَانِ الْعَرْضِ وَالسُّؤَالِ ؛ لِأَنَّ الرَّدَّ إِلَى ذَاتِهِ غَيْرُ مَعْقُولٍ وَغَيْرُ مُمْكِنٍ ، وَهَذَا التَّعْلِيلُ لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْعَرَبِيُّ الْقُحُّ لِفَهْمِ مَا ذُكِرَ مِنَ الْآيَةِ ، وَلَا الدَّخِيلُ فِي الْعَرَبِيَّةِ إِلَّا مَنْ كَانَ مُطَّلِعًا عَلَى مَذْهَبِ غُلَاةِ أَهْلِ الْوَحْدَةِ ، وَلَوْ صَحَّ مَذْهَبُهُمْ لَكَانَ سِيَاقُ الْكَلَامِ مَانِعًا أَنْ يَكُونَ مُرَادًا مِنَ الْعِبَارَةِ كَمَا يَمْنَعُهُ مِنْ أُسْلُوبِهِ وَصْفُ اسْمِ الذَّاتِ بِمَا وُصِفَ بِهِ ، وَمَا خُتِمَتْ بِهِ الْآيَةُ وَهَاكَ بَيَانُهُ :

(247/235)

(السَّابِعُ) أَنَّ وَصْفَ الِاسْمِ الْكَرِيمِ بِمَوْلَاهُمُ الْحَقِّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ رَدَّهُمْ إِلَيْهِ حَتْمٌ ؛ لِأَنَّهُ هُوَ سَيِّدُهُمُ الْحَقُّ الَّذِي يَتَوَلَّى أُمُورَهُمْ وَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ . وَالْحَقُّ فِي اللُّغَةِ هُوَ الثَّابِتُ الْمُتَحَقِّقُ ، وَهَذَا الْوَصْفُ لَا يَتَحَلَّى بِهِ أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ إلَّا عَلَى سَبِيلِ الْعَارِيَةِ الْمُؤَقَّتَةِ ، فَمَا كَانَ مِنْ تَوَلِّي بَعْضِ الْعِبَادِ أُمُورَ بَعْضٍ بِمِلْكِ الرَّقَبَةِ ، أَوْ مِلْكِ التَّصَرُّفِ وَالسِّيَاسَةِ – فَمِنْهُ مَا هُوَ بَاطِلٌ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ ، وَمِنْهُ مَا هُوَ بَاطِلٌ مِنْ حَيْثُ إنَّهُ مَوْقُوتٌ لَا ثَبَاتَ وَلَا بَقَاءَ لَهُ ، وَحَقٌّ مِنْ حَيْثُ إنَّ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَقَرَّهُ فِي سُنَنِهِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ أَوْ شَرَائِعِهِ الْمُنَزَّلَةِ لِمَصْلَحَةِ الْعِبَادِ الْعَارِضَةِ مُدَّةَ حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا ، فَثَبَتَ بِذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَحْدَهُ ، وَمَا كَانَ مِنْ وِلَايَةِ غَيْرِهِ الْبَاطِلَةِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ أَوِ الْبَاطِلَةِ فِي ذَاتِهَا دُونَ صُورَتِهَا الْمُؤَقَّتَةِ فَقَدْ زَالَ كُلُّ ذَلِكَ بِزَوَالِ عَالَمِ الدُّنْيَا وَبَقِيَ الْمَوْلَى الْحَقُّ وَحْدَهُ ، كَمَا زَالَ كُلُّ مِلْكٍ وَمُلْكٍ صُورِيَّيْنِ كَانَا لِلْخَلْقِ فِي هَذَا الْعَالَمِ ، وَصَارُوا إلَى يَوْمٍ لَا تَمْلِكُ فِيهِ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا (س 82 : 19) وَظَهَرَ يَوْمَئِذٍ أَنَّ الْمِلْكَ الصُّورِيَّ وَالْحَقِيقِيَّ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (س 40 : 16) وَكُلُّ هَذَا مُبْطِلٌ لِخَيَالِ وَحْدَةِ الْوُجُودِ ، وَكَذَا مَا بَعْدَهُ وَهُوَ (أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ) " أَلَا " حَرْفُ اسْتِفْتَاحٍ يُذْكَرُ فِي

أَوَّلِ الْكَلَامِ لِتَنْبِيهِ الْمُخَاطَبِ لِمَا بَعْدَهُ إذَا كَانَ مُهِمًّا ؛ لِئَلَّا يَفُوتَهُ مِنْهُ شَيْءٌ ، وَقَوْلُهُ : (لَهُ الْحُكْمُ) يُفِيدُ الْحَصْرَ ، أَيْ لَهُ الْحُكْمُ وَحْدَهُ لَيْسَ لِغَيْرِهِ مِنْهُ شَيْءٌ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، لَا عَلَى سَبِيلِ

الصُّورَةِ وَالْإِضَافَةِ الْمُؤَقَّتَةِ وَلَا عَلَى سَبِيلِ الْحَقِيقَةِ (إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ 27 : 78) (وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إلَى اللَّهِ) (42 : 10) (قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ 39 : 46) وَالْآيَاتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ . وَفَسَّرَ كَوْنَهُ تَعَالَى أَسْرَعَ الْحَاسِبِينَ بِأَنَّهُ يُحَاسِبُ الْعِبَادَ كُلَّهُمْ فِي أَسْرَعِ زَمَنٍ وَأَقْصَرِهِ لَا يَشْغَلُهُ حِسَابُ أَحَدٍ عَنْ حِسَابِ غَيْرِهِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ ، فَاسْمُ التَّفْضِيلِ فِيهِ عَلَى غَيْرِ بَابِهِ ؛ إذْ لَا مُحَاسِبَ هُنَالِكَ غَيْرُهُ ، أَوْ هُوَ بِالنِّسْبَةِ إلَى الْمُحَاسَبِينَ أَوِ الْحَاسِبِينَ فِي غَيْرِ الْآخِرَةِ ، وَلَفْظُ الْحَاسِبِينَ اسْمُ الْفَاعِلِ مِنْ حَسَبَ الثُّلَاثِيِّ لَا مِنْ حَاسَبَ ، وَالْحِسَابُ مَصْدَرٌ لِكُلٍّ مِنْهُمَا ، يُقَالُ : حَسَبَهُ حَسْبًا وَحِسَابًا وَحَاسَبَهُ مُحَاسَبَةً وَحِسَابًا ، وَالْمُحَاسَبَةُ أَوِ الْحِسَابُ فِي الْمُعَامَلَةِ مَبْنِيٌّ عَلَى الْحَسْبِ وَالْحِسَابِ الَّذِي هُوَ الْعَدُّ وَالْإِحْصَاءُ ، لِأَنَّ الْمُحَاسِبَ

يُحْصِي عَلَى مَنْ يُحَاسِبُهُ الْعَدَدَ فِي الْمَالِ ، أَوْ مَا نِيطَ بِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ . وَالْمُرَادُ هُنَا أَنَّهُ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ إِحْصَاءً لِلْأَعْمَالِ وَمُحَاسَبَةً عَلَيْهَا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ (وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (2 : 202) فَيُرَاجَعُ فِي ج 2 مِنَ التَّفْسِيرِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 7 صـ 381. 406 ﴾

*(250/235)*

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (62) ﴾

وكلمة " ردوا " تفيدا أن كان لهم التقاء به أولا ، وبعد ذلك سوف يرجعون ، كيف ؟ لقد كانوا منه إيجاداً ثم ردوا إليه حسابا ثوابا وعقابا ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو القائل : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ . . . ﴾ [ طه : 55 ] .

﴿ ثُمَّ ردوا إلى الله مَوْلاَهُمُ الحق ﴾ وكلمة " مولى " تعني أنه هو الذي يليك ، ولا يليك إلا من هو قريب منك . وهذا القريب قد يكون منْجدا لك إن حدث لك ما يفزعك وهو الذي

يُعينك ، وهكذا أخذت كلمة " مولى " معنى القريب ، والناصر والمعين الذي تفزع إليه في شدائدك ، وقد يوجد لك مولى في الدنيا وهو من الأغيار . ومن الجائز أن يتغير قلبه عليك ، ومن الجائز أن تنالك الأحداث التي هي فوق قدرته وطاقته ، ومن الجائز أن يكون لك مولى تنشده وتطلبه لنصرتك فيرفض ؛ لأن خصْمك له بهذا المولى ولاء أقوى وأشد فيقف بجانب خصمك وقد يوهمك أنه معك لكن قلبه ليس معك .

لكن هناك في الآخرة مولى حق واحد ﴿ ردوا إلى الله مَوْلاَهُمُ الحق ﴾ وتطلق كلمة " موْلى " على السيد حين يعتق عبده . وحين يعتقنا ربنا من النار أليس في ذلك أعظم ولاية ؟ .

إنه المولى الحق ، فلا توجد قوة أعلى منه وهو لا يتغير ؛ لأن الأغيار من طبيعة الخلق .

وحين يطلب منك الحق أن تُعمل عقلك لأنك حين تعتمد على واحد ينفعك في أمورك فأنت تتوكل عليه ، وتطلب مساعدته ، وهنا يأمرك الحق بأن تتوكل على الحي الذي لا يموت ، ولا تتكل على واحد من الأغيار فقد يصبح الصباح فتجده قد خلا بك وتخلّى عنك . أما إذا كان مولاك هو الحق فلن يخذلك .

*(251/235)*

﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ ﴾ . ولماذا جاء بكلمة " الحكم " هنا ؟ ؛ لأننا في دنيا الأغيار قد يسند سبحانه بعض الأحكام إلى بعض خلقه ؛ فهذا يحكم ، وذلك يتصرف ، وآخر يصدر قراراً بالتعيينات ، وكلها أحكام ، أما في الآخرة فالحق يقول : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [ غافر : 16 ] .

وأنت في الدنيا تملك ، ويكون رزق ابنك – على سبيل المثال – من يدك ، وتملك أن تصدر قراراً بترقية من هو أقل منك ، وتملك أن تخيط الثوب لغيرك إن كانت تلك مهنتك ، ففي الدنيا كل منا يملك بعضاً من أسباب الآخر . لكن في الآخرة لا يوجد شيء من هذا : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [ غافر : 16 ] .

وساعة تسمع " ألا له الحكم " ف " ألا " في اللغة أداة تنبيه لما يأتي بعدها ، ولماذا تأتي أداة التنبيه هنا ؟ لأن الحكم القادم بعدها حكم مهم . والكلام – كما نعرف – واسطة بين متكلم ومستمع ؛ لأن المتكلم ينقل أفكاره وخواطره توجد في خياله نسبة ذهنية ، أي أنه يعايش مشروع الكلام ويتدبره قبل أن يتكلم ، أما السامع فهو يفاجأ ، وعندما تريد أن تقول أمراً مُهمّاً فأنت تحاول أن تضمن انتباه السامع حتى لا تفلت منه أية جزئية من كلامك ، فتقول : " ألا " لتشد انتباه السامع تماما .

والحق هنا يقول : " ألا " ليأخذ انتباه السامع ، ويأتي بعدها قوله : ﴿ لَهُ الْحُكْمُ ﴾ .

إذن : ساعة تسمع " ألا " فاعرف أن فيها تنبيهاً لأمر قادم ﴿ لَهُ الْحُكْمُ ﴾ .

والحكم : هو الفصل بين أمرين ، ويختلف الفصل بين أمرين باختلاف الحاكم ؛ فإن كان الحاكم له هوى فالحكم يميل ، لكن الفصل بين الأمرين يجب أن يكون بلا هوى ، فالحكم بالميزان يقتضي أن تكون له كفة هنا وكفة تقابلها ، وساعة ما نضبط الميزان نحاول أن نوازن الكفتين لنفصل بين مسألتين ملتحمتين ، وما دمنا نريد التساوي فنحن نسمي ذلك : الإنصاف ، أي أن نقف في النصف دون ميل أو حيْف .

*(252/235)*

---

﴿ أَلَا لَهُ الحكم وَهُوَ أَسْرَعُ الحاسبين ﴾ وساعة يسمع إنسان ﴿ أَلَا لَهُ الحكم ﴾ فالواحد منا يعلم أنه سبحانه يحكم بين الخلق بداية من آدم إلى أن تنتهي الدنيا ، وكل واحد منا تتشابك مسائله مع غيره ، وما دام الله الحكم فليس لغيره معه حكم ، ويحكم بين الخلق جميعاً وفعله لا يحتاج إلى زمن ، ونتذكر هنا الإمام عليّا – كَرّمَ الله وجهه – حين قالوا له : كيف يحاسب ربنا الناس جميعا في وقت واحد ، وبمقدار حلب شاة كما قال بعضهم ؟ فقال الإمام عليّ : "كما يرزقهم في وقت واحد يحاسبهم في وقت واحد " ، وهذه مسألة سهلة ليس فيها أدنى صعوبة أبداً . وقديماً عندما كانوا ينيرون الطرقات كانوا يشعلون المسارج : هنا مسرجة ، وهناك مسرجة ، وعلى البعد مسرجة ثالثة ، وكان الوقاد يمشي

ليشعل المسارج . . إلخ ، وارتقى العقل البشري المخلوق لله واستطاع أن ينير الطرقات بالطاقة الكهربائية أو الطاقة الشمسية وفي وقت واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(253/235)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " مَوْلاهُمُ الحَقِّ " صِفتانِ للَّهِ عزَّ وجلَّ .

وقرأ الحسنُ ، والأعمش : " الحقَّ نَصْباً ، وفيه تأويلان :

أظهرهما : أنه نَعْتٌ مقطوع .

والثاني : أنه نَعْت مَصْدر محذوف ، أي : رَدُّوا الرَّدَّ الحقَّ لا الباطل ، وقرئ رِدُّوا بكسر الرَّاء ، وتقدَّم تخريجها .

والضميرُ في " مَوْلاهم " فيه ثلاثة أوجهٍ :

أظهرها : أنه للعباد فى قوله : " فَوْقَ عِبَادِهِ " فقوله : ﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً ﴾ التِفَاتٌ ؛ إذ الأصل : ويرسل عليهم ، وفائدة هذا الالتِفَاتِ والتَّنْبيهُ والإيقَاظُ .

والثاني : أنه يعود على الملائكة المعنيّين بقوله : " رسلنا " يعني انهم يموتون كما يموت بَنُو آدَمَ ، ويُرَدُّون إلى ربِّهِمْ كما تقدَّم .

والثالث : أنه يعود على " أحدٍ " في قوله : ﴿ جَآءَ أَحَدَكُمُ الموت ﴾ [ الأنعام : 61 ] ؛ إذ المراد به الجَمْعُ لا الإفراد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 198 .

199 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (62) ﴾

ردَّهم إلى نفسه . وما غابوا عن القبضة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 480 ﴾

*(254/235)*

---

قوله تعالى ﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (63) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تعرف بأفعاله وشؤونه حتى اتضحت وحدانيته وثبتت فردانيته ، ذكرهم أحوالهم في إقرار توحيده وقت الشدائد والرجوع عن ذلك عند الإنجاء منها ، فكانوا كمن طلب من شخص شيئاً وأكد له الميثاق على الشكر ، فلما أحسن إليه بإعطائه سؤله نقض عهده وبالغ في الكفر ، وذلك عندهم في غاية من القبائح لا توصف فقال : ﴿ قل ﴾ أي لهؤلاء الذين يدعون محاسن الأعمال ﴿ من ينجيكم ﴾ أي كثيراً وعظيماً ﴿ من ظلمات البر والبحر ﴾ أي حيث لا هداية لكم بنجم ولا جبل ولا غيرهما ، أإو عبر بالظلمات عن الكروب التي بلغت شدتها إلى أن صاحبها يكون كأنه في أشد ظلام ، فهو بحيث إنه لا يهتدي فيها إلى وجه حيلة بنوع وسيلة ﴿ تدعونه ﴾ أي على وجه الإخلاص له والتوحيد والإعراض عن كل شرك وشريك لزوال الحظوظ عند إحاطة الرعب واستيلائه على مجامع القلب ، فلا يبقى إلا الفطرة السليمة ؛ قال الإمام عبد الحق الإشبيلي في كتابه الواعي : ﴿ تضرعاً ﴾ أي مظهرين الضراعة ، وهي شدة الفقر ، وحقيقته الخشوع ﴿ و ﴾ قوله : ﴿ خفية ﴾ أي تخفون في أنفسكم مثل ما تظهرون ؛ قال شمر : يقال : ضرع له وهو ضارع بيّن الضراعة ، وهؤلاء قوم ضرع ، أي أذلاء ، وهم ضرعة أي متضرعون ، والتضرع إلى الله : التخشع إليه والتذلل ، وإذا كان الرجل مختل الجسم قلت : إنه لضارع الجسم بيّن الضروع ، وفي الذل بين الضراعة – انتهى .

ولما بين وصفهم وقت الدعاء ، بين قولهم إذ ذاك فقال : ﴿ لئن أنجانا من هذه ﴾ فأكدوا وخصوا وبينوا غاية البيان ﴿ لنكونن من الشاكرين ﴾ أي العريقين في الشكر ؛ ولما كانوا مقرين بأن فاعل ذلك هو الله ، ولكنهم يكفرون نعمته ، عدوا منكرين فأمره بالجواب غير منتظر لجوابهم بقوله : ﴿ قل الله ﴾ أي الذي له جميع العظمة ﴿ ينجيكم منها ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 650 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أن هذا نوع آخر من الدلائل الدالة على كمال القدرة الإلهية ، وكمال الرحمة والفضل والإحسان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 18 ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿ قُلْ مَن يُنَجّيكُمْ ﴾ بالتشديد في الكلمتين ، والباقون بالتخفيف .

قال الواحدي : والتشديد والتخفيف لغتان منقولتان من نجا ، فإن شئت نقلت بالهمزة ،

وإن شئت نقلت بتضعيف العين : مثل : أفرحته وفرحته ، وأغرمته وغرمته ، وفي القرآن ﴿ فأنجيناه والذين مَعَهُ ﴾ [ الأعراف : 72 ] وفي آية أخرى ﴿ وَنَجَّيْنَا الذين ءامَنُواْ ﴾ [ فصلت : 18 ] ولما جاء التنزيل باللغتين معاً ظهر استواء القراءتين في الحسن ، غير أن الاختيار التشديد ، لأن ذلك من الله كان غير مرة ، وأيضاً قرأ عاصم في رواية أبي بكر خفية بكسر الخاء والباقون بالضم ، وهما لغتان ، وعلى هذا الاختلاف في سورة الأعراف ، وعن الأخفش في خفية وخفية أنهما لغتان ، وأيضاً الخفية من الإخفاء ، والخيفة من الرهب ، وأيضاً ﴿ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا ﴾ من هذه .

قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿ لَّئِنْ أنجانا ﴾ على المغايبة ، والباقون ﴿ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا ﴾ على الخطاب ، فأما الأولون : وهم الذين قرؤا على المغايبة ، فقد اختلفوا .

*(256/235)*

---

قرأ عاصم بالتفخيم ، والباقون بالإمالة ، وحجة من قرأ على المغايبة أن ما قبل هذا اللفظ ، وما بعده مذكور بلفظ المغايبة ، فأما ما قبله فقوله : ﴿ تَدْعُونَهُ ﴾ وأما ما بعده فقوله : ﴿ قُلِ اللهُ يُنَجّيكُمْ مّنْهَا ﴾ وأيضاً فالقراءة بلفظ الخطاب توجب الإضمار ، والتقدير : يقولون لئن أنجيتنا ، والإضمار خلاف الأصل .

وحجة من قرأ على المخاطبة قوله تعالى في آية أخرى : ﴿ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هذه لَنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 18 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ ظلمات البر والبحر ﴾ مجاز عن مخاوفهما وأهوالهما .

يقال : لليوم الشديد يوم مظلم .

ويوم ذو كواكب أي اشتدت ظلمته حتى عادت كالليل ، وحقيقة الكلام فيه أنه يشتد الأمر عليه ، ويشتبه عليه كيفية الخروج ، ويظلم عليه طريق الخلاص ، ومنهم من حمله على حقيقته فقال : أما ظلمات البحر فهي أن تجتمع ظلمة الليل ، وظلمة البحر وظلمة السحاب ، ويضاف الرياح الصعبة والأمواج الهائلة إليها ، فلم يعرفوا كيفية الخلاص وعظم الخوف ، وأما ظلمات البر فهي ظلمة الليل وظلمة السحاب والخوف الشديد من هجوم الأعداء ، والخوف الشديد من عدم الاهتداء إلى طريق الصواب ، والمقصود أن عند اجتماع هذه الأسباب الموجبة للخوف الشديد لا يرجع الإنسان إلا إلى الله تعالى ، وهذا الرجوع يحصل ظاهراً وباطناً ، لأن الإنسان في هذه الحالة يعظم إخلاصه في حضرة الله تعالى ، وينقطع رجاؤه عن كل ما سوى الله تعالى ، وهو المراد من قوله : ﴿ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ فبين تعالى أنه إذا شهدت الفطرة السليمة والخلقة الأصلية في هذه الحالة بأنه لا ملجأ إلا إلى الله ، ولا

تعويل إلا على فضل الله ، وجب أن يبقى هذا الإخلاص عند كل الأحوال والأوقات ، لكنه ليس كذلك ، فإن الإنسان بعد الفوز بالسلامة والنجاة .

*(257/235)*

---

يحيل تلك السلامة إلى الأسباب الجسمانية ، ويقدم على الشرك ، ومن المفسرين من يقول : المقصود من هذه الآية الطعن في إلهية الأصنام والأوثان ، وأنا أقول : التعلق بشيء مما سوى الله في طريق العبودية يقرب من أن يكون تعلقاً بالوثن ، فإن أهل التحقيق يسمونه بالشرك الخفي ، ولفظ الآية يدل على أن عند حصول هذه الشدائد يأتي الإنسان بأمور : أحدها : الدعاء .

وثانيها : التضرع .

وثالثها : الإخلاص بالقلب ، وهو المراد من قوله : ﴿ وَخُفْيَةً ﴾ ورابعها : التزام الاشتغال بالشكر ، وهو المراد من قوله : ﴿ لَئِنْ أَنجَيتنا مِنْ هذه لَنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 18.19 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ﴾

لما تقدم ذكره دلائل على ألوهيته تعالى من العلم التام والقدرة الكاملة ذكر نوعاً من أثرهما وهو الإنجاء من الشدائد وهو استفهام يراد به التقرير والإنكار والتوبيخ والتوقيف على سوء معتقدهم عند عبادة الأصنام وترك الذي ينجي من الشدائد ويلجأ إليه في كشفها .

قيل : وأريد حقيقة الظلمة وجمعت باعتبار موادها ففي البر والبحر ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة الصواعق ، وفي البر أيضاً ظلمة الغبار وظلمة الغيم وظلمة الريح ، وفي البحر أيضاً ظلمة الأمواج ويكون ذلك على حذف مضاف التقدير مهالك ظلمة البر والبحر ومخاوفها وأكثر المفسرين على أن الظلمات مجاز عن شدائد البر والبحر ومخاوفهما وأهوالهما ، والعرب تقول : يوم أسود ويوم مظلم ويوم ذو كواكب كأنه لإظلامه وغيبوبة شمسه بدت فيه الكواكب ويعنون به أن ذلك اليوم شديد عليهم .

قال قتادة والزجاج : من كرب البر والبحر .

وحكى الطبري : ضلال الطريق في الظلمات .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يراد ما يشفون عليه من الخسف في البر والغرق في البحر بذنوبهم فإذا دعوا وتضرعوا كشف الله عنهم الخسف والغرق فنجوا من ظلماتها ؛ انتهى .

*(258/235)*

﴿ تدعونه تضرعاً وخفية ﴾ أي تنادونه مظهري الحاجة إليه ومخفيها والتضرع وصف باد على الإنسان والخفية الإخفاء .

وقال الحسن : تضرعاً وعلانية خفية أي نية وانتصبا على المصدر ، و﴿ تدعونه ﴾ حال ويقال : خفية بضم الخاء وهي قراءة الجمهور وبكسرها وهي قراءة أبي بكر .

وقرأ الأعمش ﴿ وخفية ﴾ من الخوف .

وقرأ الكوفيون ﴿ من ينجيكم قل الله ينجيكم ﴾ بالتشديد فيهما ، وحميد بن قيس ويعقوب وعلي بن نصر عن أبي عمرو بالتخفيف فيهما والحرميان والعربيان بالتشديد في ﴿ من ينجيكم ﴾ والتخفيف في ﴿ قل الله ينجيكم ﴾ جمعوا بين التعدية بالهمزة والتضعيف ، كقوله : ﴿ فمهل الكافرين أمهلهم ﴾ ﴿ لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾ هذه إشارة إلى الظلمات والمعنى قائلين لئن أنجانا لما دعوه ، أقسموا أنهم يشكرونه على كشف هذه الشدائد ودل ذلك على أنهم لم يكونوا قبل الوقوع في هذه الشدائد شاكرين لأنعمه .

وقرأ الكوفيون ﴿ لئن أنجانا ﴾ على الغائب وأماله الاخوان .

وقرأ باقي السبعة على الخطاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(259/235)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ﴾

هذا تماد في توبيخ العادلين بالله الأوثان ، وتوقيفهم على سوء الفعل في عبادتهم الأصنام وتركهم الذي ينجي من المهلكات ويلجأ إليه في الشدائد ، و﴿ من ﴾ استفهام رفع بالابتداء ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي " من ينَجّيكم قل الله يَنجّيكم " بتشديد الجيم وفتح النون ، وقرأ أبو عمرو في رواية علي بن نصر عنه وحميد بن قيس ويعقوب " ينْجِيكم " فيها بتخفيف الجيم وسكون النون ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر بالتشديد في الأولى والتخفيف في الثانية فجمعوا بين التعدية بالألف والتعدية بالتضعيف كما جاء ذلك في قوله تعالى : ﴿ فمهِّل الكافرين أمْهِلهم رويداً ﴾ [ الطارق : 17 ] و﴿ ظلمات البر والبحر ﴾ يراد به شدائدهما ، فهو لفظ عام يستغرق ما كان من الشدائد بظلمة حقيقية وما كان بغير ظلمة ، والعرب تقول عام أسود ويوم مظلوم ويوم ذو كواكب ونحو هذا يريدون به الشدة ، قال قتادة : المعنى من كرب البر والبحر ، وقاله الزجّاج و﴿ تدعونه ﴾ في موضع الحال و﴿ تضرعاً ﴾ نصب على المصدر والعامل فيه ﴿ تدعونه ﴾ ، والتضرع صفة بادية على الإنسان ، ﴿ وخفية ﴾ معناه الاختفاء والسر ، فكأن نسق القول : تدعونه جهراً وسراً هذه العبارة بمعان زائدة ، وقرأ الجميع غير عاصم : " وخُفية " بضم

الخاء ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر " وخِفية " بكسر الخاء ، وقرأ الأعمش : " وخيفة " من الخوف وقرأ الحجازيون وأهل الشام : " أنجيتنا " ، وقرأ الكوفيون " أنجانا " على ذكر الغائب ، وأمال حمزة والكسائي الجيم ، و﴿ من الشاكرين ﴾ أي على الحقيقة ، والشكر على الحقيقة يتضمن الإيمان ، وحكى الطبري في قوله ﴿ ظلمات ﴾ أنه ضلال الطرق في الظلمات ونحوه المهدوي أنه ظلام الليل والغيم والبحر .

*(260/235)*

---

قال القاضي أبو محمد : وهذا التخصيص كله لا وجه له وإنما هو لفظ عام لأنواع الشدائد في المعنى ، وخص لفظ " الظلمات " بالذكر لما تقرر في النفوس من هول الظلمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ﴾

يعني يا محمد ، قل لهؤلاء الكفار الذين يعبدون الأصنام من دون الله من ذا الذي ينجيكم من ظلمات البر إذا ضللتم فيه وتحيرتم وأظلمت عليكم الطرق ومن ذا الذي ينجيكم من ظلمات البحر إذا ركبتم فيه فأخطأتم الطريق وأظلمت عليكم السبل فلم تهتدوا وقيل :

ظلمات البر والبحر مجاز عما فيهما من الشدائد والأهوال وقيل الحل على الحقيقة أولى .

فظلمات البر هي ما اجتمع فيه من ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة الرياح فيحصل من ذلك الخوف الشديد لعدم الاهتداء إلى الطريق الصواب وظلمات البحر ما اجتمع فيه من ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة الرياح العاصفة والأمواج الهائلة فيحصل من ذلك أيضاً الخوف الشديد من الوقوع في الهلاك فالمقصود أن عند اجتماع هذه الأسباب الموجبة للخوف الشديد لا يرجع الإنسان فيه إلا إلى الله سبحانه وتعالى لأنه هو القادر على كشف الكروب وإزالة الشدائد وهو المراد من قوله : ﴿ تدعونه تضرعاً وخفية ﴾ يعني فإذا اشتد بكم الأمر تخلصون له الدعاء تضرعاً منكم إليه واستكانة .

جهراً وخفية : يعني سراً وحالاً ﴿ لئن أنجانا من هذه ﴾ قائلين في حال الدعاء والتضرع لئن أنجيتنا من هذه الظلمات وخلصتنا من الهلاك ﴿ لنكونن من الشاكرين ﴾ يعني لك على هذه النعمة والشكر وهو معرفة النعمة مع القيام بحقها لمن أنعم بها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(261/235)

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ مَن يُنَجّيكُمْ مّن ظلمات البر والبحر ﴾ أي قل تقريراً لهم بانحطاط شركائِهم عن رتبةِ الإلهية مَنْ ينجّيكم من شدائدهما الهائلةِ التي تُبطل الحواسَّ وتَدْحَض العقولَ ، ولذلك استُعير لها الظلماتُ المبطلةُ لحاسةِ البصَر ، يقال لليوم الشديد : يومٌ مظلم ويومٌ ذو كواكبَ أو من الخسف في البر والغرقِ في البحر ، وقرىء ينْجيكم من الإنجاء والمعنى واحد وقوله تعالى : ﴿ تَدْعُونَهُ ﴾ نصبٌ على الحالية من مفعول ( ينجّيكم ) والضميرُ ( لمن ) أي مَن ينجّيكم منها حال كونكم داعين له ، أو من فاعله أي مَنْ ينجّيكم منها حال كونه مدعواً من جهتكم وقوله تعالى : ﴿ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ إما حالٌ من فاعل تدعونه أو مصدرٌ مؤكّد له ، أي تدعونه متضرعين جهاراً ومُسِرّين أو تدعونه دعاءَ إعلانٍ وإخفاء ، وقرىء ( خِفية ) بكسر الخاء وقوله تعالى : ﴿ لَّئِنْ أنجانا ﴾ حال من الفاعل أيضاً على تقدير القول أي تدعونه قائلين : لئن أنجيتنا ﴿ مِنْ هذه ﴾ الشدة والورطة التي عبر عنها بالظلمات ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين ﴾ أي الراسخين في الشكر المداومين عليه لأجل هذه النعمةِ أو جميع النعماءِ التي من جملتها هذه ، وقرىء لئن أنجانا مراعاة لقوله تعالى : ﴿ تَدْعُونَهُ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(262/235)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُمْ مِّن ظلمات البر والبحر ﴾

أي قل لهم تقريراً بانحطاط شركائهم عن رتبة الإلهية ، والمراد من ظلمات البر والبحر كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما شدائدهما وأهوالهما التي تبطل الحواس وتدهش العقول .

والعرب كما قال الزجاج تقول لليوم الذي يلقى فيه شدة يوم مظلم حتى أنهم يقولون : يوم ذو كواكب أي أنه يوم قد اشتدت ظلمته حتى صار كالليل في ظلمته ، وأنشد

: بني أسد هل تعلمون بلاءنا . . .

إذا كان يوم ذو كواكب أشهب

ومن الأمثال القديمة رأى الكواكب ظهراً أي أظلم عليه يومه لاشتداد الأمر فيه حتى كأنه أبصر النجم نهاراً ، ومن ذلك قول طرفة

: إن تنوله فقد تمنعه . . .

وتريه النجم يجري بالظهر

وقيل : المراد ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة البحر ، وقيل : ظلمة البر بالخسف فيه وظلمة البحر بالغرق فيه ، والظلمات على الأول : كما قيل استعارة وعلى الأخيرين

حقيقة .

ومنهم من جعلها كناية عن الخسف والغرق والكلام في الكناية معلوم .

ومن جوز جمع الحقيقة والمجاز فسر الظلمات بظلمة الليل والغيم والبحر والتيه والخوف وقرأ يعقوب وسهل ﴿ يُنَجّيكُمْ ﴾ بالتخفيف من الإنجاء والمعنى واحد .

وقوله تعالى : ﴿ تَدْعُونَهُ ﴾ في موضع الحال من مفعول ﴿ يُنَجّيكُمْ ﴾ كما قال أبو البقاء ، والضمير لمن أي من ينجيكم منها حال كونكم داعين له .

وجوز أن يكون حالاً من فاعله أي من ينجيكم منها حال كونه مدعواً من جهتكم ﴿ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ أي إعلاناً وسراراً كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما والحسن فنصبهما على المصدرية ، وقيل : بنزع الخافض ، والإعلان والاسرار يحتمل أن يراد بهما ما باللسان ويحتمل أن يراد بهما ما باللسان والقلب ، وجوز أن يكونا منصوبين على الحال من فاعل ﴿ تَدْعُونَ ﴾ أي معلنين ومسرين .

وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿ خفية ﴾ بكسر الخاء وهو لغة فيه كالأسوة والإسوة .

وقوله سبحانه : ﴿ وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجانا ﴾ في محل النصب على المفعولية لقول مقدر وقع حالاً من فاعل ( تدعون ) أيضاً أي قائلين : لئن أنجيتنا ، والكوفيون يحكون بما يدل على معنى القول كتدعون من غير تقدير والصحيح التقدير ، وقيل : إن الجملة القسمية تفسير للدعاء فلا محل لها .

وقرأ أهل الكوفة ﴿ أنجانا ﴾ بلفظ الغيبة مراعاة لتدعونه دون حكاية خطابهم في حالة الدعاء غير أن عاصماً قرأ بالتفخيم والباقون بالأمالة ، وقوله سبحانه : ﴿ مِنْ هذه ﴾ إشارة إلى ما هم فيها المعبر عنها بالظلمات ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين ﴾ أي الراسخين في الشكر المداومين عليه لأجل هذه النعمة الجليلة أو جميع النعم التي هذه من جملتها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

(263/235)

---

﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ استئناف ابتدائي .

ولَمَّا كان هذا الكلام تهديداً وافتتح بالاستفهام التقريري تعيَّن أنّ المقصود بضمائر الخطاب المشركون دون المسلمين .

وأصرح من ذلك قوله : ﴿ ثم أنتم تشركون ﴾ .

وإعادة الأمر بالقول للاهتمام ، كما تقدّم بيانه عند قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ﴾ [ الأنعام : 40 ] الآية .

والاستفهام مستعمل في التقرير والإلجاء ، لكون ذلك لا ينازعون فيه بحسب عقائد

الشرك .

والظلمات قيل على حقيقتها ، فيتعيَّن تقدير مضاف ، أي من إضرار ظلمات البرّ والبحر ، فظلمات البرّ ظلمة الليل التي يلتبس فيها الطريق للسائر والتي يخشى فيها العدوّ للسائر وللقاطن ، أي ما يحصل في ظلمات البرّ من الآفات .

وظلمات البحر يخشى فيها الغرق والضلال والعدوّ .

وقيل : أطلقت الظلمات مجازاً على المخاوف الحاصلة في البرّ والبحر ، كما يقال : يوم مُظلم إذا حصلت فيه شدائد .

ومن أمثال العرب ( رأى الكواكب مُظْهِراً ) ، أي أظلم عليه يومه إظلاماً في عينيه لما لاقاه من الشدائد حتَّى صار كأنَّه ليل يرى فيه الكواكب .

والجمع على الوجهين روعي فيه تعدّد أنواع ما يعرض من الظلمات ، على أنَّنا قدّمنا في أوّل السورة أنّ الجمع في لفظ الظلمات جَرى على قانون الفصاحة .

وجملة : ﴿ تدعونه ﴾ حال من الضمير المنصوب في ﴿ يُنَجِّكُمْ ﴾ .

وقرىء ﴿ من ينجِّيكم ﴾ بالتشديد لنافع ، وابن كثير ، وابن عامر ، وأبي عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وأبي جعفر ، وخلف .

وقرأه يعقوب بالتخفيف .

والتضرّع : التذلّل ، كما تقدّم في قوله : ﴿ لعلَّهم يتضرّعون ﴾ في هذه السورة [ 42 ] .

وهو منصوب على الحال مؤوّلاً باسم الفاعل .

والخفية بضم الخاء وكسرها ضد الجهر .

وقرأه الجمهور بضم الخاء .

وقرأه أبو بكر عن عاصم بكسر الخاء وهو لغة مثل أسوة وإسوة .

(264/235)

---

وعطف خفية ﴿ على ﴾ تضرّعاً ﴿ إمَّا عطف الحال على الحال كما تعطف الأوصاف فيكون مصدراً مؤوّلاً باسم الفاعل ، وإما أن يكون عطف المفعول المطلق على الحال على أنَّه مبيّن لنوع الدعاء ، أي تدعونه في الظلمات مخفين أصواتكم خشية انتباه العدوّ من النّاس أو الوحوش .

وجملة ﴿ لِئن أنجيتنا ﴾ في محلّ نصب بقول محذوف ، أي قائلين .

وحذف القول كثير في القرآن إذا دلَّت عليه قرينة الكلام .

واللام في ﴿ لئن ﴾ الموّطئة للقسم ، واللام في ﴿ لَنكونَنّ ﴾ لام جواب القسم .

وجيء بضمير الجمع إمَّا لأنّ المقصود حكاية اجتماعهم على الدعاء بحيث يدعو كلّ واحد عن نفسه وعن رفاقه .

وإمَّا أريد التعبير عن الجمع باعتبار التوزيع مثل : رِكبَ القوم خَيْلَهم ، وإنَّما ركب كلّ واحد فَرَساً .

وقرأ الجمهور ﴿ أنجيتنا ﴾ بمثناة تحتية بعد الجيم ومثناة فوقية بعد التحتية .

وقرأه عاصم ، وحمزة ، والكسائي وخلف ﴿ أنجانا ﴾ بألف بعد الجيم والضمير عائد إلى ﴿ مَنْ ﴾ في قوله : ﴿ قل من ينجيّكم ﴾ .

والإشارة بـ ﴿ هذه ﴾ إلى الظلمة المشاهدة للمتكلِّم باعتبار ما ينشأ عنها ، أو باعتبار المعنى المجازي وهو الشدّة ، أو إلى حالة يعبّر عنها بلفظ مؤنّث مثل الشدّة أو الورطة أو الرِّبْقة .

والشاكر هو الذي يراعي نعمة المنعم فيحسن معاملته كلّما وجد لذلك سبيلاً .

وقد كان العرب يرون الشكر حقّاً عظيماً ويعيّرون من يكفر النعمة .

وقولهم : ﴿ من الشاكرين ﴾ أبلغ من أن يقال : لنكونَنَّ شاكرين ، كما تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ لقد ضللت إذن وما أنا من المهتدين ﴾ [ لأنعام : 56 ] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(265/235)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾

المتعب للخلق أن تأتي الظلمة وتكون في مهمة النور ، وأن يأتي النور في مهمة الظلمة ، فلكل من الظلمات والنور ودور مهمة في الحياة . ولذلك قلنا في أول السورة حين تكلم الحق سبحانه وتعالى قائلاً : ﴿ الحمد للَّهِ الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَجَعَلَ الظلمات والنور . . . ﴾ [ الأنعام : 1 ] .

لقد ظن البعض أن المفترض أن يقول سبحانه : وجعل النور والظلمات ، ولكن لنتلمس القول الحق ، ولنعترف أن مهمة الظلمة تتساوى مع مهمة النور ، وعلى الإنسان أن يعي مهمة الظلمة ، وكلنا يعرف مهمة النور الذي يعيننا على السعي على أمور حياتنا ، ويتطلب السعي طاقة ، ولا يمكن أن تأتي الطاقة إلا بعد سكون وهدوء واطمئنان وراحة ؛ لذلك فالراحة تحتاج إلى ظلمة لينام الإنسان ويستريح ، إذن فالظلمة نعمة من نعم الله ، والذي يتعب الإنسان أن يغير ويبدل فيجعل النور مكان الظلمة ، ويجعل الظلمة مكان النور ، وهذا خروج عن مهمة كل متقابلين . وحين ينشئ الحق المتقابلات لا ينشئها على أنها تتضاد ، أو على أنها تتعاند ، ولكنه – سبحانه – يريد متكاملا يعين متكاملا ، فلا شيء

يهدم شيئًا مقابلاً له ، بل كل متكامل يساعد الآخر . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ والليلِ إذَا يغشى * والنهارِ إذَا تجلى ﴾ [ الليل : 1-2 ] .

(266/235)

---

وقد جاء سبحانه بالليل أولاً ، والنهار ثانياً ، ولكل منهما مهمة ، ولا يمكن أن تؤدي مهمة النهار على حقيقتها إلا إن جاءت مهمة الليل فأُدِّيَت على حقيقتها . وهات إنساناً لم يأخذ من الليل الراحة والسكون والهدوء ، وعانى من قرص ولسْع الناموس أو البراغيث ، أو من ضجيج وخلافه ، ولم ينم ، ثم في الصبح تجده نصف نائم ، نصف مرهق ، غير قادر على التركيز أو كما يقولون " مذهول " .

إذن فمن أجل حركة الضوء لا بد أن توجد الظلمة : ﴿ والليلِ إذَا يغشى * والنهارِ إذَا تجلى ﴾ [ الليل : 1-2 ]

الليل والنهار - إذن نعمتان ، وكل نعمة تساوي الأخرى ، وإياك أن تقول هذه ضد تلك ، أو أنها جاءت لتعاندها ، لا . لقد جاءت كل منهما لتساند الأخرى . وفي سورة الليل يتابع الحق : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذكر والأنثى ﴾ [ الليل : 3 ]

لقد جاء سبحانه أيضاً بمتقابلين ، وإياك أن تظن أنهما متعاندان فقد جعلهما الله متكاملين

لتنجح الحياة . وإن تعاندا تفسد الحياة . وما دام الليل له مهمة والنهار له مهمة ، إذن فالذكر له مهمة ، والأنثى لها مهمة . وإن خَلَطت المهمتين ينتج الفساد . ﴿ والليل إذَا يغشى * والنهار إذَا تجلى * وَمَا خَلَقَ الذكر والأنثى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى ﴾ [ الليل : 1-4 ]

ويقول الحق هنا : ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُمْ مِّن ظُلُمَاتِ البر والبحر تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هذه لَنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين ﴾ [ الأنعام : 63 ]

والظلمة – إذن – هي عدم النور . ولم يقل الحق إن طلب النجاة يكون من ظلمة واحدة ، وإنما طلب النجاة من ظلمات متعددة ، وهي ظلمات متراكمة ؛ لأن الظلمة إذا ما غُشيت بظلمة ثانية ، ثم بظلمة ثالثة ، حينئذ تصير ظلمات مركبة بعضها فوق بعض .

*(267/235)*

---

والحق سبحانه قال : ﴿ ظُلُمَاتِ البر والبحر ﴾ ، وحتى نعرف أهي ظلمات حسّية أم ظلمات معنوية لا بد لنا أن نعرف الظلمة في معناها الحسي ، إنها ما يؤدي إلى عدم الاهتداء إلى الحركة المنجية ، إذن فكل أمر يؤدي إلى عدم الاهتداء – حسّياً أو معنوياً – هو ظلمة ؛ لأن الإنسان في هذه الحالة يسير في أموره بغير اهتداء ، والأحداث والكوارث التي يصعب

على الناس أن يعرفوا طريق النجاة منها تُعتبر ظلمة ، سواء أكانت ظلمة حسّية أَمْ معنوية . والحق سبحانه وتعالى يقرب لنا المعنويات بالأمور الحسّية ، والمراد بالظلمات هنا هي الأحداث والكوارث والنوازل التي تضيق أسباب البشر عن النجاة منها . والإنسان حريص دائماً على نفع نفسه . وتظهر التناقضات في أفعال إنسان عن أفعال إنسان آخر لاختلاف كل منهما في تقييم وتقدير النفعية . والمثال على ذلك واضح ونضربه دائماً هو : مثال التلميذ الذي يذهب صباحاً مبكراً إلى مدرسته ، وينتبه إلى أساتذته ، ويعود إلى منزله ليؤدي واجبه ، ويخرج من لذيذ الكسل ليجد لذة في العمل ، إنَّه بذلك يحب نفسه ويريد النفع لها . أما التلميذ الذي ينام يوقظه أهله فلا يستيقظ ، وإذا أيقظوه فهو يخرج من البيت ليتسكع في الطريق ، مثل هذا التلميذ يحب نفسه حباً أحمق لأنه يريد اللذة العاجلة التي تعقبها سلسلة من الآلام الآجلة . إنه ينتظر مستقبلاً لا كرامة له فيه عكس التلميذ المجد الذي يتبوأ المكانة اللائقة به .

*(268/235)*

---

والمثال الواضح أيضاً في الريف هو الفلاح الذي يقضي وقته على المقهى ويسهر الليل أمام التلفيزيون ويترك الأرض بلا حرث ولا ري ولا تسميد ، ولا يمكن أن تنتج الأرض التي يفلحها

محصولاً مساوياً لأرض الفلاح الذي يأخذ بأسباب الله فيحرث الأرض وينتظم في ريها في المواعيد المحددة ، ويضع السماد المقرر لها ؛ لأن الذي أخذ بأسباب الله وتعب وبذل جهداً لا بد أن يعطيه الحقُّ الرزقَ الوفيرَ . أما الذي يكسل عن أداء عمله فقد أحب نفسه حباً أحمق قصير الأجل ، وأما الذي أخذ بأسباب الله وأقبل على عمله بحب وتقدير فقدد أحب نفسه حباً أعمق ، فيه نفع له ولغيره .

إن كل حركة يصنعها الإنسان في الحياة إنما يريد بها نفع نفسه ، ولكنْ هناك اختلاف في تقدير النفعية بين إنسان وآخر ، والعاقل من يرى النفعية الآجلة المجدية ويعمل لها .

وها هوذا المتنبي الشاعر العربي يقول :

أرى كلنا يبغى الحياة لنفسه . . . حريصا عليها مستهامًا بها صبّاً

فحب الجبان النفس أورده التقى . . . وحب الشجاع النفس أورده الحربا

حب الشجاع لنفسه – إذن – جعله طموحاً إلى الحياة الخالدة كشهيد في سبيل الله ، وحب الجبان لنفسه جعله أسير الخوف على الحياة الفانية .

*(269/235)*

فإذا ما صُدم الإنسان بأحداث ونوازل وكوارث نرى نفعيته وهي تحركه إلى البحث عن أسباب للنجاة ، ويعتمد على أسبابه أو أسباب من هو قريب منه ، أما إذا عزّت أسباب البشر . وكان غافلاً عن الله ، فإن الأحداث والمصائب والكوارث تعيده وتذكره بخالقه فيقول : " يارب " ، وبذلك لا يبيع نفسه رخيصاً . لكن إن خدع مثل هذا الإنسان نفسه من البداية وأعرض عن الله تمرد على ربّه ووجد نفسه أمام الكوارث فهو يسلم أمره لله في وقت الشدة ، فإن انجاب وانكشف عنه الضر عاد إلى كفره وتمرده . ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضر فِي البحر ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى البر أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإنسان كَفُوراً ﴾ [ الإسراء : 67 ]

ونجد الذين يقابلون الأهوال وتنتهي أسبابهم لا يكذبون على أنفسهم . بل يتجهون فطرياً إلى الحق القادر على الأخذ بأيديهم . فلحظة أن تضطرب سفينة وتحيطها عواصف الموج والرياح ، وتختل آلاتها لا تجد إلا كلمة : يارب ، يارب . يارب على ألسنة كل ركابها بداية من " القبطان " والقائد إلى أصغر راكب بها ، وتجد من يتمتم بآيات القرآن توسلاً إلى الله للنجاة . وكذلك لحظة أن تضطرب طائرة في الجو ، ولا يعرف قائدها طريقاً للنجاة لا يقفز إلى أذهان الركاب وطاقم الطائرة إلا نداء التضرع إلى الله .

ولهذا يقول لنا الحق سبحانه : ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ ودعوة الإنسان ربّه ومولاه هي الوسيلة الأولى من وسائل اليقين ، ونعلم أن أحداث الحياة تتراوح ما بين أمرين ؛ أمر

يبسط ويسعد الإنسان ، وأمر يقبض ويضيق على الإنسان ويشقى به ، فأما الذي يبسط ويسعد فهو إدراك الجمال ، والنعمة والراحة ، والسعادة ، والإحساس بالرضى . وأما الذي يضيِّق على الإنسان ويشقيه فهو يريد أن يفلت منه وينجو .

*(270/235)*

---

ولنا العبرة الكاملة من الفطرة التي فطر الله الإنسان عليها ، فالإنسان بفطرته إن رأى ما يسعده ، لا يجد تعبيراً أقوى من أن يقول : " الله " . وهي صيحة التقدير والتقديس لله الذي أعطاه موهبة إتقان العمل . وتتجلى العبرة الكاملة أيضاً عندما يدهم الإنسان الخطر فيقول بفطرته : " يارب " . إذن فلا ملجأ إلا إلى الله .

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُمْ مِّن ظُلُمَاتِ البر والبحر ﴾ ؟ ويتضمن السؤال الحقيقة التي لا بد أن يقررها السامع لهذا السؤال وهي : إن الله هو المنجي من ظلمات البر والبحر . وحين يأمر الحق رسوله أن يقول هذا التساؤل للكافرين فهو سبحانه عليم بأن إجابة الفطرة هي التي ستغلب على ألسنة الكافرين ويعترفون به سبحانه وحده بأنه هو المنجي من ظلمات البر والبحر . والكون – كما نعلم – إما بر وإمّا بحر . ولقائل أن يقول : ولكن هناك كوارث جديدة في عصرنا هي كوارث الجو .

؟

ونقول : يجب أن تفهم أن كل جو يأخذ حكم مكانه . فجو البر من البر ، وجو البحر من البحر ، ومثال ذلك ما نراه عند الصلاة في المسجد الحرام ؛ فنحن نرى المصلين يؤدون الصلاة حول الكعبة أو في الدور والطابق الأول أو الثاني أو الثالث من المباني المقامة كمسجد حول الكعبة . ونلحظ أن ارتفاع الكعبة لا يزيد على ارتفاع دور واحد من أدوار المباني التي حولها . والمصلون يتجهون في صلواتهم في تلك الأدوار إلى جو الكعبة ، ذلك أن جو المكان المقدس هو مقدس أيضاً ، وجو الحرم من الحرم .

*(271/235)*

---

ومثال آخر هو السعي بين الصفا والمروة ؛ فالمسلم يسعى بين الصفا والمروة في الدور الأرضي ، وهناك الآن دور ثان أقيم للسعي . وهكذا نرى أن جو المسعى مسعى أيضاً . وقديماً كان محرّماً على الطائرات أن تطير في جو مكة أو المدينة . حدث ذلك أيام أن كان الطيارون من غير المسلمين ، وذلك حتى لا يطير غير المسلم في الجو المقدس . أما الآن فقد صار مسموحاً للطيارين المسلمين أن يقودوا طائراتهم في أجواء مكة والمدينة المنورة . فالجو له حكم المكان سواء أكان المكان براً أم بحراً .

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُمْ مِّن ظُلُمَاتِ البر والبحر تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ إن الدعاء بالفطرة يتجه إلى الله ، والدعاء هو طلب لشيء . والطلب يقتضي طالباً ، ومطلوباً ، ومطلوباً منه . والطالب هو من يدعو . والمطلوب منه هو من ندعوه ونسأله . والمطلوب هو الشيء الذي نتضرع بالدعاء رجاء أن يحدث . والطلب لون من الأمر ، لكن إذا ما جاء الطلب من الأدنى إلى الأعلى فلا تقل إنه أمر ، بل هو دعاء .

وفي اللغة عندما نسأل الطالب أن يقوم بإعراب " رب اغفرلي " ، نجد الذي استذكر دروسه دون تفقه يقول : " اغفر فعل أمر " ، أما الطالب المتفقه في فهم دينه مع إجادة لدراسته فيقول بأدب الإيمان : اغفر هي فعل دعاء ؛ لأن الطلب إن صدر من الأدنى إلى الأعلى فهو دعاء ، وإن صدر من المساوى للمساوى فهو التماس ، وإن صدر من الأعلى إلى الأدنى فهو أمر .

وحين ننظر إلى الحالة النفسية لمن تحيطه الكوارث والأحداث والنوازل وتضغط عليه الظروف ولا يجد من ينقذه ، هل مثل هذا الإنسان يأمر أو يدعو إنه يدعو بطبيعة الحال ، ويدعو بتذلل وامتثال وخضوع ، وهذا معنى الدعاء . . . إنه السؤال بتضرع وخضوع ، والتضرع يقتضي قولاً ، ويقتضي فعلاً ويكون التضرع بالوجدانيات والسلوكيات .

(272/235)

ويخطئ من يظن أن هناك تضرعاً بالقول دون أن يربط ذلك بفعل ، فعندما تكون في موقع قوة أو نفوذ ويسألك سائل أن تتفضل عليه بشيء ، فهذا منه تضرع بالقول . لكن عندما تكون في موقع قوة أو نفوذ ويسألك سائل أن يفعل لك أمراً ، فهذا تضرع بالقول والفعل . وفي لحظة الخطر يدعو الإنسان ربه ولا يمكن أن يكون في قلبه ذرة من نفاق ؛ لأن الحق يقول : ﴿ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ .

والتضرع خفية يكون بالقلب أيضاً . وليس في ذلك رياء ؛ لأن القلب لا اطلاع لأحد عليه إلاّ الخالق البارئ ، والمثال على ذلك ما فعلته امرأة أوربية قرأت تاريخ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووصلت في قراءتها إلى أسباب نزول قوله الحق : ﴿ واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ الناس ﴾ [ المائدة : 67 ] .

ووجدت أن هذا القول الكريم قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان نائماً بعد ليلة من السهر ، فقالت له عائشة رضي الله عنها : ألا من رجل صالح يحرسنا الليلة ؟ وبينما هي تقول ذلك حتى سمعت صوت السلاح ، وكان ذلك إعلانا عن مقدم سعد وحذيفة وقالا :

جئنا نحرسك يا رسول الله . ونام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعت سيدتنا عائشة غطيطه ، ثم نزل عليه الوحي بهذا القرآن الكريم : ﴿ واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ الناس ﴾

[المائدة: 67] .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من النوم وقال: " انصرفوا أيها الناس فقد عصمني الله ".

(273/235)

---

وعندما قرأت المرأة الأوربية هذه الحكاية في تاريخ محمد صلى الله عليه وسلم وأحسنت الفهم لها أعلنت إسلامها على الفور قائلة: لو كان محمد يخدع الناس جميعاً ما خدع نفسه في حياته. لقد أدركت هذه المرأة بالفطنة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن ليصرف عنه الحرس لو لم يثق تمام الثقة في أن الله يحميه، وأنه سبحانه قادر على أن يحفظه. والإنسان لحظة الخطر إنما يدعو الله تضرعاً وخفية. والدعاء - كما علمنا - يحتاج إلى قول وفعل ووجدان. وهذه الأركان الثلاثة تتوافر في قوله الحق: ﴿ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنجَانَا مِنْ هذه لَنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين ﴾ [الأنعام: 63].

فكلمة (تدعونه): قول و(تضرعا): فعل لأنه خشوع وخضوع - و(خفية): انكسار القلب وخشيته و" أنجانا " تدل على التعدد؛ لأن الفعل للتجدد والحدوث وأيضاً قوله: ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُمْ ﴾ يدل على التكثير، أي أنه لا ينجِّي مرة واحدة ولكنه ينجِّي لمرات

كثيرة . ويأتي لنا سبحانه بصور كثيرة لقدرته على أن ينجّينا إما بتكرار النجاة أو بتعدي النجاة من موقف لموقف . وتكرار النجاة هو أن يكون الحدث واحداً وينجي الحق فيه أفراداً كثيرين ، أو يكون الحدث واحداً والطالب للنجاة منه فرداً واحداً ، ويكرر الله نجاته من هذا الحدث . إن الحق سبحانه ينجّي الفرد أو الجماعة من الأحداث أو الكوارث المختلفة . وسبحانه القائل : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾ [ يونس : 12 ] .

(274/235)

---

إن الإنسان إذا ما أصابه الضر في نفسه أو ماله أو نحو ذلك ، أحس بضعفه ودعا ربه في أي حالة من حالاته – سواء أكان مضطجعاً أم قاعداً أم قائماً – حتى يكشف الله عنه هذا البلاء ، وعندما يستجيب الله لدعاء هذا الإنسان ينسى هذا الإنسان فضل الله عليه كأنه لم يدع الله أن يزيل عنه الضر .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضر فِي البحر ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى البر أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُوراً ﴾ [ الإسراء : 67 ] .

وسبحانه – هنا – يُذكِّر المشركين ومن كان على شاكلتهم أنهم عندما يصيبهم الضر في

البحر يغيب عنهم كل من كانوا يدعونه سواء من الأصنام أو غيرها ولا يلجأون إلا الله حتى ينجيهم من الغرق ويخرجهم إلى البر ، ومن بعد ذلك يعودون إلى الشرك بالله والجحود بنعمته سبحانه .

وكذلك هنا في هذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها .

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُمْ مِّن ظُلُمَاتِ البر والبحر تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هذه لَنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين ﴾ [ الأنعام : 63 ] .

لقد دعوا الله بالتضرع والتذلل أن ينّجيهم من ظلمات البر والبحر ، ووعدوا أن يكونوا من الشاكرين ، ولكن ماذا كان موقفهم بعد أن أنجاهم الله ؟

يقول الحق سبحانه : ﴿ قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ . . . ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(275/235)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قرأ السبعة هذه مشدّدة : ﴿ قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُم ﴾ [ الأنعام : 64 ] قرأها الكوفيون

وهشام بن عامر عن ابن عامر كالأول .

وقرأ الثِّنْتينِ بالتخفيف من " أَنْجَى " حُمَيْدُ بن قيس ، ويعقوب ، وعلي بن نَصْرٍ عن أبي عمرو ، وتحصَّل من ذلك أن الكوفيين وهشاماً يثقلون في الموضعين ، وأن حميداً ومن مَعَهُ يُخَفِّفُونَ فيهما ، وأن نافعاً ، وابن كثير ، وأبا عمرو ، وابن ذكوان عن ابن عامرٍ يُثَقِّلُون الأولى ، ويُخَفِّفُون الثانية ، والقراءات واضحة ، فإنها من : نجَّى وأَنْجى ، فالتضعيف والهمزة كلاهما للتَّعديَةِ .

فالكوفيون وهشام التَزَمُوا التَّعْديةَ بالتضعيف ، وحميد وجماعته التَزَمُوهَا بالهمزة .

والباقون جمعوا بين التَّعديتين جمعاً بين اللُّغَتَيْنِ كقوله تعالى : ﴿ فَمَهِّلِ الكافرين أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ﴾ [ الطارق : 17 ] .

والاستفهام للتقرير والتَّوْبيخ ، وفي الكلام حَذفُ مضاف ، أي : مِنْ مهالِكِ ظُلُمات ، أو من مخاوفها ، والظلمات كِنَايةٌ عن الشدائد والأهوال إذا سافروا في البرِّ والبَحْرِ .

قوله : " تَدْعُونَهُ " في مَحَلِّ نصب على الحال ، إما من مفعول " ينجيكم " ، وهو الظاهر ، أي : ينجيكم داعين إيَّاه ، وإما من فاعله ، أي : مدعُوَّاً من جهتكم .

قوله : " تَضَرُّعاً وخُفْيَةً " يجوز فيها وجهان :

أحدهما : إنهما مصدران في موضع الحالِ ، أي : تدعونه مُتَضَرِّعين ومُخْفِينَ .

والثاني : أنها مصدارن من معنى العامل لا من لفظه كقولك : قعدت جُلُوساً .

وقرأ الجمهور : " خُفْيَةً " بضم الخاء ، وقرأ أبو بكر بكسرها ، وهما لغتانِ ، كالعُدْوةِ والعِدْوةِ ، والأَسْوَة والإِسْوَة .

وقرأ الأعمش : " وخيفة " كالتي في " الأعراف " وهي من الخَوْفِ ، قُلِبَتْ " الواو " ياء لانكسار ما قبلها وسكونها ، ويظهر على هذه القراءة أن يكون مفعولاً من أجله لولا ما يَأْبَاهُ " تَضرُّعاً " من المعنى .

قوله : " لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا " الظاهر أن هذه الجملة القسميَّة تفسير للدُّعاءِ قبلها

(276/235)

---

ويجوز أن تكون مَنْصُوبَةً المَحلِّ على إضمار القول ، ويكون ذلك القول في محلِّ نصب على الحال من فاعل " تدعونه " أي : تدعونه قائلين ذلك ، وقد عرف مما تقدَّم غير مرَّةٍ كيفية اجتماع الشرط والقسم .

وقرأ الكوفيون " أَنْجَانَا " بلفظ الغَيْبَةِ مُرَعَاةً لقوله " تَدْعُونَهُ " والباقون " أنجيتَنَا " بالخطاب حكاية لخطابِهِمْ في حالة الدعاء ، وقد قرأ كُلٌّ بما رسم في مصحفه ، فإن في مصاحف " الكوفة " : أَنْجَانَا " ، وفي غيرها : " أَنْجَيْتَنَا " .

قوله : " مِنْ هَذِهِ " متعلِّقٌ بالفعل قَبْلَهُ ، و " مِنْ " لابتداء الغاية ، و " هذه " إشارةٌ إلى

الظُّلماتِ ، لأنها تجري مجرى المؤنثة الواحدة ، وكذلك في " منها " تعود على الظلمات .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 200 . 201 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (63) ﴾

تذكير النعمة يوجب الزيادة في المحبة ، فإنه إذا عرف جميلاً أسداه تمكَّن من قلبه الحبُّ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 480 ﴾

*(277/235)*

---

قوله تعالى ﴿ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (64) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

﴿ قل الله ﴾ أي الذي له جميع العظمة ﴿ ينجيكم منها ﴾ أي من تلك الشدة ﴿ ومن كل كرب ﴾ أي وقعتم فيه ، وما أعظم موقع قولُه : ﴿ ثم أنتم ﴾ مع التزام الإخلاص في وقت

الكرب ومع التزام الشكر ﴿ تشركون ﴾ مشيراً إلى استبعاد نقضهم بأداة التراخي مع ما فيه من الجِناس لما كان ينبغي لهم من أنهم يشكرون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 650 ﴾

اللغة :

[ كرب ] الكرب : الغم الذي يأخذ بالنفس

[ شيعا ] الشيعة : الفرقة تتبع الأخرى ويجمع على شيع وأشياع

[ أبسلوا ] الإبسال : تسليم الإنسان نفسه للهلاك

[ عدل ] فدية

[ حميم ] الحميم : الماء الحار

[ حيران ] الحيرة : التردد في الأمر لا يهتدي إلى مخرج منه

[ الغيب ] ما غاب عن الحواس

[ الشهادة ] ما كان مشاهدا ظاهرا للعيان

[ تحشرون ] تجمعون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 394 ﴾

*(278/235)*

فصل

قال الفخر :

ثم بين تعالى أنه ينجيهم من تلك المخاوف ، ومن سائر موجبات الخوف والكرب .

ثم إن ذلك الإنسان يقدم على الشرك ، ونظير هذه الآية قوله : ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ ﴾ وقوله ﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللهَ مُخْلِصِينَ ﴾ وبالجملة فعادة أكثر الخلق ذلك . إذا شاهدوا الأمر الهائل أخصلوا ، وإذا انتقلوا إلى الأمن والرفاهية أشركوا به . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 19 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون ﴾ الضمير في ﴿ منها ﴾ عائد على ما أشير إليه بقوله ﴿ من هذه ﴾ ومن كل معطوف على الضمير المجرور أعيد معه الخافض وأمره تعالى بالمسابقة إلى الجواب ليكون هو صلى الله عليه وسلم أسبق إلى الخير وإلى الاعتراف بالحق ثم ذكر أنه تعالى ينجي من هذه الشدائد التي حضرتهم ومن كل كرب فعم بعد التخصيص ثم ذكر قبيح ما يأتون بعد ذلك وبعد إقرارهم بالدعاء والتضرع ووعدهم إياه بالشكر من إشراكهم معه في العبادة .

قال ابن عطية : وعطف ب ﴿ ثم ﴾ للمهلة التي تبين قبح فعلهم أي ثم بعد معرفتكم بهذا كله وتحققه أنتم تشركون ؛ انتهى .

وقيل : معنى ﴿ تشركون ﴾ تعودون إلى ما كنتم عليه من الإشراك وعبادة الأصنام ولا يخفى ما في هذه الجملة الإسمية من التقبيح عليهم إذ ووجهوا بقوله : ﴿ ثم أنتم ﴾ كقوله : ﴿ ثم أنتم ﴾ هؤلاء بعد قوله ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ﴾ وإذا كان الخبر ﴿ تشركون ﴾ بصيغة المضارع المشعر بالاستمرار والتجدد في المستقبل كما كانوا عليه فيما مضى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(279/235)

---

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ قل الله ينجيكم ﴾ الآية : سبق في المجادلة إلى الجواب ، إذ لا محيد عنه ، ﴿ ومن كل كرب ﴾ لفظ عام أيضاً ليتضح العموم الذي في الظمات ، ويصح أن يتأول من قوله ﴿ ومن كل كرب ﴾ تخصيص الظلمات قبل ، ونص عليها لهولها ، وعطف في هذا الموضع ب ﴿ ثم ﴾ للمهلة التي تبين قبح فعلهم ، أي ثم بعد معرفتكم بهذا كله وتحققكم به أنتم تشركون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ﴾ وقرأ الكوفيون "يُنَجِّيكُمْ" بالتشديد

، الباقون بالتخفيف .

قيل : معناهما واحد مثل نجا وأنجيته ونجّيته .

وقيل : التشديد للتكثير .

والكرب : الغم يأخذ بالنفس ؛ يقال منه : رجل مكروب .

قال عنترة :

ومكروبٍ كشفتُ الكرب عنه . . .

بطعنةِ فَيْصَلٍ لما دعانِي

والكُرْبة مشتقة من ذلك .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ تقريع وتوبيخ ؛ مثل قوله في أوّل السورة ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ .

لأن الحجة إذا قامت بعد المعرفة وجب الإخلاص ، وهم قد جعلوا بدلاً منه وهو الإشراك ؛ فحسُن أن يُقرَّعوا ويُوبَّخوا على هذه الجهة وإن كانوا مشركين قبل النجاة . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ﴾ أُمر صلى الله عليه وسلم بتقرير الجواب مع كونه من وظائفهم للإيذان بأنه متعيِّنٌ عندهم ، ولبناءِ قولِه تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ عليه ،

أي الله تعالى وحده ينجيكم مما تدعونه إلى كشفه من الشدائد المذكورةِ وغيرِها من الغموم والكُرَبِ ثم أنتم بعد ما تشاهدون هذه النعمَ الجليلةَ تشركون بعبادته تعالى غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

*(280/235)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ﴾ أي غم يأخذ بالنفس ، والمراد به إما ما يعم ما تقدم والتعميم بعد التخصيص كثير أو ما يعتري المرء من العوارض النفسية التي لا تتناهى كالأمراض والأسقام ، وأمره صلى الله عليه وسلم بالجواب مع كونه من وظائفهم للإيذان بظهوره وتعينه أو للإهانة لهم مع بناء قوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ عليه أي الله تعالى وحده ينجيكم مما تدعونه إلى كشفه ومن غيره ثم أنتم بعد ما تشاهدون هذه النعم الجليلة تعودون إلى الشرك في عبادته سبحانه ولا توفون بالعهد .

ووضع ﴿ تُشْرِكُونَ ﴾ موضع لا تشكرون الذي هو الظاهر المناسب لوعدهم السابق المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين ﴾ ( الأنعام ؛ 63 ) للتنبيه على أن من أشرك في عبادة الله تعالى فكأنه لم يعبده رأساً إذ التوحيد ملاك الأمر وأساس العبادة ،

وقيل : لعل المقصود التوبيخ بأنهم مع علمهم بأنه لم ينجهم إلا الله تعالى كما أفاده تقديم المسند إليه أشركوا ولم يخصوا الله تعالى بالعبادة فذكر الإشراك في موقعه ، وكلمة ثم ليس للتراخي الزماني بل لكمال البعد بين إحسان الله تعالى عليهم وعصيانهم ، ولم يذكر متعلق الشرك لتنزيله منزلة اللازم تنبيهاً على استبعاد الشرك في نفسه .

وقرأ أهل الكوفة وأبو جعفر وهشام عن ابن عامر ﴿ يُنَجّيكُمْ ﴾ بالتشديد والباقون بالتخفيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وجملة : ﴿ قل الله ينجيكم منها ﴾ تلقين لجواب الاستفهام من قوله : ﴿ مَنْ يُنجّيكم ﴾ أن يُجيب عن المسؤولين ، ولذلك فصلت جملة ﴿ قل ﴾ لأَنَّها جارية مجرى القول في المحاورة ، كما تقدّم في هذه السورة .

وتولَّى الجواب عنهم لأنّ هذا الجواب لا يسعهم إلاّ الاعتراف به .

وقدّم المسند إليه على الخبر الفعلي لإفادة الاختصاص ، أي الله ينجيكم لا غيره ، ولأجل ذلك صرّح بالفعل المستفهم عنه .

ولولا هذا لاقتصر على ﴿ قل الله ﴾ .

(281/235)

والضمير في ﴿ منها ﴾ للظلمات أو للحادثة .

وزاد ﴿ مِنْ كلّ كرب ﴾ لإفادة التعميم ، وأنّ الاقتصار على ظلمات البرّ والبحر بالمعنيين لمجرّد المثال .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وهشام عن ابن عامر ، ويعقوب ﴿ يُنجيكم ﴾ بسكون النون وتخفيف الجيم على أنَّه من أنجاه ، فتكون الآية جمعت بين الاستعمالين .

وهذا من التفنّن لتجنّب الإعادة .

ونظيره ﴿ فمهِّل الكافرين أمْهِلْهُم ﴾ [ الطارق : 17 ] .

وقرأه ابن ذكوان عن ابن عامر ، وأبو جعفر ، وخلف ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ﴿ يُنجِّيكم ﴾ بالتشديد مثل الأولى .

و﴿ ثم ﴾ من قوله : ﴿ ثم أنتم تشركون ﴾ للترتيب الرتبي لأنّ المقصود أنّ إشراكهم مع اعترافهم بأنَّهم لا يلجأون إلاّ إلى الله في الشدائد أمر عجيب ، فليس المقصود المهلة .

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي لمجرّد الاهتمام بخبر إسناد الشرك إليهم ، أي أنتم الذين تتضرّعون إلى الله باعترافكم تُشركون به من قَبل ومن بعد ، من باب ﴿ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ﴾ [ البقرة : 85 ] ، ومن باب : لو غيرُك قالها ، ولو ذاتُ سِوار لَطَمَتْني .

وجيء بالمسند فعلاً مضارعاً لإفادة تجدّد شركهم وأنّ ذلك التجدّد والدوامَ عليه

أعجب .

والمعنى أنّ الله أنجاكم فوعدتم أن تكونوا من الشاكرين فإذا أنتم تشركون .

وبيْن ﴿ الشاكرين ﴾ و﴿ تشركون ﴾ الجناس المحرّف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(282/235)

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (64) ﴾

إن الحق ينجيهم من الظلمات المادية في البر البحر ، وسبحانه بعلمه الأزلي يعلم أنهم بعد النجاة سيعودون إلى ما نهاهم عنه من شرك به ؛ لأن الإنسان بطبيعته عندما يجد حياته مكتفية بما يملكه قد يقع فيما قاله الحق تبارك وتعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّآهُ استغنى ﴾ [ العلق : 6-7 ] .

والإنسان قد يتجاوز حدوده ويتكبر على من حوله ، بل وعلى ربه إن رأى نفسه صاحب ثراء ، ولا يعصم الإنسان من مثل هذا الموقف إلا الإيمان بالله ؛ لأن الإنسان بدون منهج الله يسبح في بحر الغرور والتكبر ، ولكن من يحيا في ضوء منهج الله فهو يعرف كيف يرعى الله

في كل إمكانات أو ثراء يمنحه له الله ، وينشر معونته ليستظل بها المحتاج غير الواحد .

ولذلك نجد أن كلمة " الإنسان " إذا أُطلقت تقترن بالخسارة . ﴿ والعصر * إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ ﴾ [ العصر : 1-2 ] .

أي أن الإنسان على إطلاقه في خُسْر . ولكن الحق يستثني مَن ؟ . . ﴿ إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَتَوَاصَوْاْ بالحق وَتَوَاصَوْاْ بالصبر ﴾ [ العصر : 3 ] .

إذن فالإنسان المعزول عن منهج الله هو الذي يحيا في خسران ، لكن من يعيش في رحاب المنهج هو الذي لا يخسر أبداً . والإنسان حين يعيش دون منهج يصدر ويحدث منه ما رواه الحق سبحانه : ﴿ فَإِذَا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [ الزمر : 49 ] .

لأن الذي يعيش دون منهج يدعو الله إن أصابه الضرّ ، فإذا ما أنجاه الله ادعّى أن النجاة إنما كانت بأسباب امتلكها هو ، وإذا ما أعطاه الله نعمة من النعم زاد في الادعاء وزعم أن هذه النعمة مصدرها علم من عنده هو ولا ينسب ذلك إلى الموجد الحقيقي وهو الله ، إنّه نسي أن كل نعمة هي مجرد اختبار من الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(283/235)*

فصل

قال صاحب الأمثل :

﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (63) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (64) ﴾

النّور الّذي يضيء في الظّلام :

مرّة أُخرى يأخذ القرآن بيد المشركين ويتوغلّ بهم إلى أعماق فطرتهم ، وهناك في تلك الأغوار المحفوفة بالأسرار الغامضة يريهم نور التوحيد وعبادة الواحد الأحد ، فيقول للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) قل لهم: (قُل مَن يُنجّيكُم مِنْ ظُلمات البرّ وَالبَحر) ؟

إنّ الظلام يكون حسياً أحياناً ومعنوياً أحياناً أُخرى ، الظلام الحسي هو الذي يكون عند انقطاع النّور إنقطاعاً تاماً ، أو يضعف بحيث لا يرى شيء ، أو يرى بالجهد الجهيد ، والظلام المعنوي هو المشاكل والصعوبات ذات النهايات المظلمة الغامضة ، الجهل . . .

الإضطرابات الإجتماعية والإقتصادية والفكرية ، والإنحرافات والفساد الأخلاقي التي لا يمكن التكهن بعواقبها السيئة ، أو التي تجر إلى التعاسة والشقاء . . . كلّها ظلام .

إنّ الظلام بذاته مخيف مثير للأوهام والتخيلات ، فهجوم الكثير من الحيوانات الخطرة وسطوة اللصوص والمجرمين يقع تحت جنح الظلام ، أنّ لكل امرىء ذكرياته عن هذه الحالات ، فعند هبوط الظلام تنشط الأوهام وتخرج منها الأشباح المرعبة ، فيستولي الخوف والهلع

على العامّة من الناس .

الظلام من العدم ، والإِنسان يهرب بطبيعته من العدم ويخافه ، ولهذا نراه يخاف الظلام .

*(284/235)*

---

وإِذا حدثت في هذا الظلام حوادث واقعية مرعبة ، كأن يكون الإِنسان مسافراً في البحر ، وتحاصره في ليلة ظلماء الأمواج الهائلة والدوامات المائية ، فإنّ خوفه من ذلك يكون أضعاف ما لو حدث ذلك بالنهار ، لأنّ الإِنسان في مثل هذه الظروف يجد أبواب النجاة مسدودة في وجهه ، وهكذا لو كان في ليلة حالكة الظلام يسير في الصحراء فيضل الطريق ويسمع زمجرة الوحوش المفترسة من هنا وهناك وهي تبحث عن فريسة ، في مثل هذه اللحظات ينسى الإِنسان كل شيء ولا يعود يتذكر شيئاً سوى نفسه ، والنّور الذي يسطع في أعماقه ويجذبه نحو المبدأ قادر على إِزالة ما يعتوره من بلاء وضيق ، هذه الحالات تفتح نوافذ على عالم التوحيد ومعرفة الله ، لذلك يقول في أمثال هذه الحالات: (تدعونه تضرعاً وخفية) .

وتعقدون ـ وأنتم في تلك الحالة ـ عهداً وميثاقاً على أنفسكم ، وتقولون: (لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين) .

ثمّ تأمر الآية النّبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يخبرهم أنّ الله سوف ينجيهم من هذه ومن غيرها من الأخطار ، وقد فعل ذلك من قبل مراراً ، ولكنّهم بعد زوال الخطر عنهم يعودون إلى طريق الشرك والكفر : (قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثمّ أنتم تشركون) .

ملاحظات:

هنا لابدّ من الإلتفات إلى عدّة نقاط:

1 . لعل ذكر "التضرع" وهو الدعاء علانية ، و"الخفية" هي الدّعاء في السرّ ، إشارة إلى أنّ المصائب تختلف ، فالتي لم تصل مرحلة شديدة قد تستدعي الدعاء خفية ، وعندما تكون شديدة تحمل المرء على أن يرفع يديه بالدعاء جهراً ، وقد يصاحب ذلك البكاء والصراخ ، أي أنّ الله يحل مشاكلكم خفيفها وشديدها .

2 . يرى بعضهم أنّ الآية تشير إلى أربع حالات نفسية في الإنسان ، كل واحدة منها ردة فعل معينة لظهور المشاكل : حالة "الدعاء" وحالة "التضرع" وحالة "الإخلاص" وحالة "تقديم الشكر عند النجاة من الأخطار" .

*(285/235)*

ولكنّ الذي يؤسف له أن هذه الحالات تمر ببعض الناس مروراً خاطفاً وكأنّه حالات اضطرارية في مواجهة الأخطار والمشاكل ، وبما أنّها ليست مصحوبة بالوعي والإِدراك ، فأنّها تخفت وتنطفىء بمجرّد إنتهاء الأزمة .

وبناء على ذلك ، فإِن هذه الحالات ، وان تكن خاطفة ، تستطيع أن تكون دليلا على معرفة الله لمن عسر عليه ادراك الدلائل الأُخرى .

3 ـ "الكرب" في الأصل بمعنى حفر الأرض وقلبها ، وكذلك تعني العقدة المحكمة الشد في حبل الدلو ، ثمّ أطلقت بعد ذلك على الغم والهم والحزن التي تقلب قلب الإِنسان وتثقل عليه كالعقدة .

لذلك فإِنّ ذكر "الكرب" بما له من المعنى الواسع الذي يشمل أنواع المشاكل والأزمات بعد ذكر (ظلمات البرّ والبحر) والتي تشمل جانباً من المشاكل فقط ، يعتبر من قبيل ذكر مفهوم عام بعد بيان مفهوم خاص (تأمل بدقة) .

وهذا يجدر بنا أنّ نذكر حديثاً تورده بعض التفاسير في هذه الآية:

روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: "خير الدعاء الخفي وخير الرزق ما يكفي" (لا الثروات الضخمة التي هي حصيلة حرمان الآخرين ، وتكون عبئاً على كاهل الإِنسان) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الأمثل حـ 4 صـ 319 . 322﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " ومِنْ كُلِّ كَرْبٍ " عطف على الضمير المجرور بإعادةِ حرف الجر ، وهو واجب عند البصريين ، وقد تقدَّم .

و " الكَرْبُ " غاية الغَمِّ الذي يأخذ النَّفْسَ .

قوله : " ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ " يريد أنهم يُقرُّونَ أن الذي يدعونه عند الشدة هو الذي يُنَجِّيهم ، ثم يشركون معه الأصنامَ التي علموا أنها لا تضر ولا تنفع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 201 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (64) ﴾

المتفرِّدُ بالقدرة على إيجادكم اللهُ ، والذي هو ( الخَلَفَ ) عما يفوتكم اللهُ ، والذي حكَمَ بنجاتكم اللهُ ، والذي يأخذ بأيديكم كلما عَثَرْتم اللهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 480 ﴾

(287/235)

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والثلاثون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/236)

---

الجزء السادس والثلاثون بعد المائتين

من الآية ﴿ 65 ﴾ من سورة الأنعام

وحتى الآية ﴿ 71 ﴾ من نفس السورة

*(4/236)*

---

قوله تعالى ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (65) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانوا بإشراكهم كأنهم يظنون أن الشدة زالت عنهم زوالاً لا يعود ، وكان اللائق بهم دوام التذلل إما وفاء وإما خوفاً ، أخبرهم ترهيباً لهم من سطوته وتحذيراً من بالغ قدرته أن شدتهم تلك التي أذلتهم لم تزل في الحقيقة ، فإن قدرة الملك عليها حالة الرخاء كقدرته عليها في وقتها سواء ، فإنه خالق الحالتين وأسبابهما وما فيهما ، ولكنهم عمي الأبصار أجلاف الطبائع فقال : ﴿ قل هو ﴾ أي وحده ﴿ القادر ﴾ ولم يصغه صيغة مبالغة لأنهم لم يكونوا

ينكرون قدرته إنما كانوا يدعون المشاركة التي نفاها بالتخصيص ،

على أن التعريف يفيد به المبالغة ﴿ على أن يبعث ﴾ أي في أيّ وقت يريده ﴿ عليكم ﴾ أي في كل حالة ﴿ عذاباً من فوقكم ﴾ بإسقاط السماء قطعاً أو شيء منها كالحجارة التي حصب

(5/236)

---

بها قوم لوط وأصحاب الفيل أو بتسليط أكابركم ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ أي بالخسف أو إثارة الحيات أو غيرها من الأرض كما وقع لبعض من سلف ، أو بتسليط سفلتكم وعبيدكم عليكم ﴿ أو يلبسكم ﴾ أي يخلط بينكم حال كونكم ﴿ شيعاً ﴾ أي متفرقين ، كل شيعة على هوى ، فيكون ذلك سبباً للسيف ﴿ ويذيق بعضكم ﴾ أي بعض تلك الشيع ﴿ بأس بعض ﴾ فيساوي في ذلك بين الحرم وغيره ، ويصير التخطف بالنهب والغارات عاماً ، وسوق هذا الكلام هكذا يفهم إيقاعه في وقت ما لناس ما ، لأن كلام الملوك يصان عن أن لا يكون له صورة توجد وإن كان على سبيل الشرط ونحوه ، فكيف بملك الملوك علام الغيوب ! وللتدريب على مثل هذا الفهم في كلام الله تعالى قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذي في التفسير عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : أما

إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد .

وقال : حسن غريب ، وسيأتي لهذا مزيد بسط وتحقيق في قوله تعالى في الفرقان ﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك ﴾ [ الفرقان : 10 ] .

*(6/236)*

---

ولما كان هذا بياناً عظيماً ، أشار إلى عظمه بقوله : ﴿ انظر ﴾ وعظمه تعظيماً آخر بالاستفهام فقال ﴿ كيف نصرف الآيات ﴾ أي أي نكررها موجهة في جميع الوجوه البديعة النافعة البليغة ﴿ لعلهم يفقهون ﴾ أي ليكون حالهم حال من يرجى فهمه وانتفاعه به ، كان هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 650 . 651 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذا نوع آخر من دلائل التوحيد وهو ممزوج بنوع من التخويف فبين كونه تعالى قادراً على إيصال العذاب إليهم من هذه الطرق المختلفة ، وأما إرسال العذاب عليهم تارة من فوقهم ، وتارة من تحت أرجلهم ففيه قولان : الأول : حمل اللفظ على حقيقته فنقول : العذاب النازل عليهم من فوق مثل المطر النازل عليهم من فوق ، كما في قصة نوح والصاعقة

النازلة عليهم من فوق .

وكذا الصيحة النازلة عليهم من فوق .

كما حصب قوم لوط ، وكما رمى أصحاب الفيل ، وأما العذاب الذي ظهر من تحت أرجلهم .

فمثل الرجفة ، ومثل خسف قارون .

وقيل : هو حبس المطر والنبات وبالجملة فهذه الآية تتناول جميع أنواع العذاب التي يمكن نزولها من فوق ، وظهورها من أسفل .

القول الثاني : أن يحمل هذا اللفظ على مجازه .

قال ابن عباس : في رواية عن عكرمة عذاباً من فوقكم أي من الأمراء ، ومن تحت أرجلكم من العبيد والسفلة .

أما قوله : ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ﴾ فاعلم أن الشيع جمع الشيعة ، وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة والجمع شيع وأشياع .

قال تعالى : ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ [ سبأ : 54 ] وأصله من الشيع وهو التبع ، ومعنى الشيعة الذين يتبع بعضهم بعضاً .

قال الزجاج قوله : ﴿ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ﴾ يخلط أمركم خلط اضطراب لا خلط اتفاق ، فيجعلكم فرقاً ولا تكونون فرقة واحدة ، فإذا كنتم مختلفين قاتل بعضكم بعضاً وهو معنى قوله : ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما : لما نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية شق ذلك على الرسول عليه الصلاة والسلام وقال : " ما بقاء أمتي إن عوملوا بذلك " فقال له جبريل : إنما أنا عبد مثلك فادع ربك لأمتك ، فسأل ربه أن لا يفعل بهم ذلك .

فقال جبريل : إن الله قد أمنهم من خصلتين أن لا يبعث عليهم عذاباً من فوقهم كما بعثه على قوم نوح ولوط ، ولا من تحت أرجلهم كما خسف بقارون ولم يجرهم من أن يلبسهم شيعاً بالأهواء المختلفة ويذيق بعضهم بأس بعض بالسيف .

وعن النبي صلى الله عليه وسلم : " إن أمتي ستفترق على ثنتين وسبعين فرقة الناجية فرقة " وفي رواية أخرى كلهم في الجنة إلا الزنادقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 19.20 ﴾

*(8/236)*

فائدة

قال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ القادر على أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مّن فَوْقِكُمْ ﴾

يعني : الحصب بالحجارة كما فعل بقوم لوط ، والغرق كما أرسل على قوم نوح .

يعني : إن استكبرتم ، وأصررتم ، وكذبتم رسلي مثل ما فعل قوم نوح ، أو فعلتم الفعلة التي فعل قوم لوط ثم قال : ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ يعني يخسف بكم كما خسف بقارون ومن معه ، إن استكبرتم واغتررتم بالدنيا كما فعل قارون .

ثم قال : ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ﴾ يعني : الأهوال المختلفة ، كما ألبس بني إسرائيل إن تركتم أمر رسولي ، واتبّعتم هواكم كما فعل بنو إسرائيل ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ يعني يقتل بعضكم بعضاً بالسيف كما فعل بالأمم الخالية ، إن فعلتم مثل ما فعلوا .

فلما نزلت هذه الآية قال النبي : صلى الله عليه وسلم " يا جِبْرِيلُ ما بَقَاءُ أُمَّتِي عَلَى ذلك ؟ " قال له جبريل : إِنَّمَا أنا عَبْدٌ مِثْلُكَ فادْعُ رَبَّكَ وَسَلْهُ لأُمَّتِكَ فقام النبي صلى الله عليه وسلم فتوضأ ، وأسبغ الوضوء ، فأحسن الصلاة ، ثم دعا فنزل جبريل فقال : إِنَّ الله تعالَى سَمِعَ مَقَالَتَكَ ، وَأَجَارَهُمْ مِنْ خَصْلَتَيْنِ ، وَهُوَ العَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ ، وَمِنْ تَحْتَ أَرْجُلِهِمْ .

(9/236)

فَقَالَ : "يَا جِبْرِيلُ ما بَقَاءُ أُمَّتِي إذا كان فِيهِمْ أَهْوَاءَ مُخْتَلِفَةٌ وَيُذِيقُ بَعْضُهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ؟ "

فنزل جبريل بهذه الآية ﴿ الم أَحَسِبَ الناس أَن يتركوا أَن يقولوا ءَامَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ [ العنكبوت : 2/1 ] الآية وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " افْتَرَقَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي اثْنَانَ وَسَبْعُونَ فِرْقَةً كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلاَّ وَاحِدَةً " قالوا : يا رسول الله ما هذه الواحدة ؟ قال : " أَهْلَ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ الَّذِي أنا عَلَيْهِ ، وأَصْحَابِي "

وفي خبر آخر .

" السَّوَادُ الأَعْظَمُ " وروى عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله أنه قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ قُلْ هُوَ القادر على أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أَعُوذُ بِوَجْهِ الله " فلما نزلت ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال : " هاتان أهون " ويقال : عذاباً من فوقكم يعني : سلطاناً جائراً ، ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ من سفهائكم يقلبون عليكم ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ يعني : الفتنة بين المحلتين أو القريتين .

ثم قال : ﴿ انظر كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيات ﴾ يعني : نبيّن الآيات من البلاء والعذاب في القرآن ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ يعني : يعقلون ما هم عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ

﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أن العذاب الذي من فوقهم الرجم ، والذي من تحت أرجلهم الخسف ، قاله ابن جبير ، ومجاهد ، وأبو مالك .

(10/236)

---

والثاني : أن العذاب الذي من فوقهم أئمة السوء ، والعذاب الذي من تحت أرجلهم عبيد السوء ، قاله ابن عباس .

والثالث : أن الذي من فوقهم الطوفان ، والذي من تحت أرجلهم الريح ، حكاه علي بن عيسى .

ويحتمل أن العذاب الذي من فوقهم طوارق السماء التي ليست من أفعال العباد لأنها فوقهم ، والتي من تحت أرجلهم ما كان من أفعال العباد لأن الأرض تحت أرجل جميعهم .

﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : أنها الأهواء المُخْتَلِفَة ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنها الفتن والاختلاف ، قاله مجاهد .

ويحتمل ثالثاً : أي يسلط عليكم أتباعكم الذين كانوا أشياعكم ، فيصيروا لكم أعداء بعدما كانوا أولياء ، وهذا من أشد الانتقام أن يستعلي الأصاغر على الأكابر .

روي أن موسى بن عمران عليه السلام دعا ربه على قوم فأوحى الله إليه : أو ليس هذا هو العذاب العاجل الأليم .

هذا قول المفسرين من أهل الظاهر ، وَتَأَوَّلَ بعض المتعمقين في غوامض المعاني ﴿ عَذَاباً مِن فَوقِكُمْ ﴾ معاصي السمع والبصر واللسان ﴿ أَوْمِن تَحْتِ أَرْجِلِكُمْ ﴾ المشي إلى المعاصي حتى يواقعوها ، وما بينهما يأخذ بالأقرب منهما ﴿ أَوَيَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ﴾ يرفع من بينكم الأُلفة .

﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ تكفير أهل الأهوال بعضهم بعضاً ، وقول الجمهور : ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ يعني بالحروب والقتل حتى يفني بعضهم بعضاً ، لأنه لم يجعل الظفر لبعضهم فيبقى .

﴿ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : نفصل آيات العذاب وأنواع الانتقام .

والثاني : نصرف كل نوع من الآيات إلى قوم ولا يعجزنا أن نجمعها على قوم .

﴿ لَعَلَّهُم يَفْقَهُونَ ﴾ أي يتعظون فينزجرون .

واختلف أهل التأويل في نزول هذه الآية على قولين :

(11/236)

---

أحدهما : أنها في أهل الصلاة ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، وأن نزولها شق على النبي صلى الله عليه وسلم ، [ فقام ] فصلى صلاة الضحى وأطالها فقيل له : ما أطلت صلاة كاليوم ، فقال : " إِنَّهَا صَلاَةُ رَغْبَةٍ وَرَهْبَةٍ ، إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ يُجِيرَنِي مِنْ أَرْبَعٍ فَأَجَارَنِي مِنْ خَصْلَتَيْنِ وَلَمْ يُجِرْنِي مِنْ خَصْلَتَيْنِ : سَأَلْتُهُ أَلاَّ يُهْلِكَ أُمَّتِي بِعَذَابٍ مِنْ فَوْقِهِم كَمَا فَعَلَ بِقَوْمِ نُوحٍ ، وَبِقَوْمِ لُوطٍ فَأَجَارَنِي ، وَسَأَلْتُهُ أَلاَّ يُهْلِكَ أُمَّتِي بِعَذَابٍ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِم كَمَا فَعَلَ بِقَارُونَ فَأَجَارَنِي ، وَسَأَلْتُهُ أَلاَّ يُفَرِّقَهُمْ شِيَعاً فَلَمْ يُجِرْنِي ، وَسَأَلْتُهُ أَلاَّ يُذِيقَ بَعْضَهُم بَأْسَ بَعْضٍ فَلَمْ يُجِرْنِي " وَنَزَلَ عَلَيهِ قَولُه تعالى : ﴿ الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ [ العنكبوت : 221 ]

والقول الثاني : أنها نزلت في المشركين ، قاله بعض المتأخرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أن الذي فوقهم : العذاب النازل من السماء ، كما حُصب قوم لوط ، وأصحاب الفيل .

والذي من تحت أرجلهم : كما خُسف بقارون ، قاله ابن عباس ، والسدي ، ومقاتل .

وقال غيرهم : ومنه الطوفان ، والريح ، والصيحة ، والرجفة .

والقول الثاني : أن الذي من فوقهم : من قِبَل أمرائهم .

والذي من تحتهم : من سَفَلَتهم ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس .

وقال في رواية أخرى : الذي من فوقهم : أئمة السوء ؛ والذي من تحت أرجلهم : عبيد السوء .

قوله تعالى : ﴿ أو يلبسكم شيعاً ﴾ قال ابن عباس : يَبُثُّ فيكم الأهواء المختلفة ، فتصيرون فِرَقاً ، قال ابن قتيبة : يلبسكم : من الالتباس عليهم .

(12/236)

والمعنى : حتى تكونوا شِيعَاً ، أي : فرقا مختلفين .

ثم يذيق بعضكم بأس بعض بالقتال والحرب .

وقال الزجاج : يلبسكم ، أي : يخلط أمركم خلط اضطراب ، لا خلط اتفاق .

يقال : لَبَسْتُ عليهم الأمر ، ألبسه : إذا لم أبيّنه .

ومعنى شيعاً ، أي يجعلكم فرقاً ، فاذا كنتم مختلفين ، قاتل بعضكم بعضاً .

قوله تعالى : ﴿ ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ أي : يقتل بعضكم بيد بعض ، وفيمن عُني بهذه الآية ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها في المسلمين أهل الصلاة ، هذا مذهب ابن عباس ، وأبي العالية ، وقتادة .

وقال أُبي بن كعب في هذه الآية : هن أربع خلال ، وكلُّهن عذاب ، وكلُّهن واقع قبل يوم القيامة ، فمضت اثنتان بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين سنة ، أُلبسوا شيعاً ، وأذيق بعضهم بأس بعض .

وثنتان واقعتان لا محالة : الخسف : والرجم .

والثاني : أن العذاب للمشركين ، وباقي الآية للمسلمين ، قاله الحسن .

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " سألت ربي ثلاثاً ، فأعطاني اثنتين ، ومنعني واحدة ، سألته أن لا يصيبكم بعذاب أصاب به مَن كان قبلكم ، فأعطانيها ، وسألته إن لا يسلِّط عليكم عدواً يستبيح بيضتكم ، فأعطانيها ، وسألته أن لا يلبسكم

شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض ، فمنعنيها "

والثالث : أنها تهدُّدٌ للمشركين ، قاله ابن جرير الطبري ، وأبو سليمان الدمشقي . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

فائدة

قال القاسمى :

قال الخفاجى : فإن قلت : كيف أجيبت الدعويان ، وسيكون خسف بالمشرق وخسف بجزيرة العرب ؟ أى كما رواه الترمذى وغيره ؟

قلت : الممنوع : خسف مستأصل لهم ، وأما عدم إجابته فى بأسهم ، فبذنوب منهم ، ولأنهم بعد تبليغه ( صلى الله عليه وسلم ) لهم ، ونصيحته لهم ، لم يعملوا بقوله . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 397 ﴾

*(13/236)*

---

وقال ابن عطية :

قوله عز وجل : ﴿ قَلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾

هذا إخبار يتضمن الوعيد ، والأظهر من نسق الآيات أن هذا الخطاب للكفار الذين تقدم ذكرهم وهو مذهب الطبري ، وقال أبيّ بن كعب وأبو العالية وجماعة معهما : هي للمؤمنين وهم المراد ، قال أبي بن كعب : هي أربع خلال وكلهن عذاب وكلهن واقع قبل يوم القيامة فمضت اثنتان بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين سنة ، ثم لبسوا شيعاً وأذيق بعضهم بأس بعض ، واثنتان واقعتان لا محالة الخسف والرجم ، وقال الحسن بن أبي الحسن : بعضها للكفار وبعضها للمؤمنين بعث العذاب من فوق وتحت للكفار وسائرها للمؤمنين ، وهذا الاختلاف إنما هو بحسب ما يظهر من أن الآية تتناول معانيها المشركين والمؤمنين ، وروي من حديث جابر وخالد الخزاعي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت ﴿ أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ قال أعوذ بوجهك فلما نزلت ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ قال : أعوذ بوجهك فلما نزلت ﴿ أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ قال هذه أهون أو هذه أيسر ، فاحتج بهذا من قال إنها نزلت في المؤمنين ، وقال الطبري : وغير ممتنع أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم تعوذ لأمته من هذه الأشياء التي توعد بها الكفار ، وهون الثالثة لأنها بالمعنى هي التي دعا بها فمنع حسب حديث الموطأ وغيره ، وقد قال ابن مسعود : إنها أسوأ الثلاث ، وهذا عندي على جهة الإغلاظ في الموعظة ، والحق أنها أيسرها كما قال عليه السلام ، و ﴿ من فوقكم ومن تحت أرجلكم ﴾ لفظ عام للمنطبقين على الإنسان وقال السدي عن أبي مالك ﴿ من فوقكم ﴾ الرجم

﴿ ومن تحت أرجلكم ﴾ الخسف وقاله سعيد بن جبير ومجاهد ، وقال ابن عباس رضي الله عنه : ﴿ من فوقكم ﴾ ولاة الجور ﴿ ومن تحت أرجلكم ﴾ سفلة السوء وخدمة السوء .

*(14/236)*

---

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : وهذه كلها أمثلة لا أنها هي المقصود ، إذ هذه وغيرها من القحوط والغرق وغير ذلك داخل في عموم اللفظ و ﴿ يلبسكم ﴾ على قراءة الستة معناه يخلطكم شيعاً فرقاً بتشيع بعضها لبعض ، واللبس الخلط ، وقال المفسرون هو افتراق الأهواء والقتال بين الأمة ، وقرأ أبو عبد الله المدني "يُلبسكم" بضم الياء من ألبس فهو على هذه استعارة من اللباس ، فالمعنى أو يلبسكم الفتنة شيعاً و ﴿ شيعاً ﴾ منصوب على الحال وقد قال الشاعر [ النابغة الجعدي ] : [ المتقارب ]

لبِسْت أُناساً فأَفْنَيْتهم . . . فهذه عبارة عن الخلطة والمقاساة ، والبأس القتل وما أشبهه من المكاره ، ﴿ ويذيق ﴾ استعارة إذ هي من أجل حواس الاختبار ، وهي استعارة مستعملة في كثير من كلام العرب وفي القرآن ، وقرأ الأعمش " ونذيق " بنون الجماعة ، وهي نون العظمة في جهة الله عز وجل ، وتقول أذقت فلاناً العلقم تريد كراهية شيء صنعته به

ونحو هذا ، وفي قوله تعالى ﴿ انظر كيف نصرف ﴾ الآية ، استرجاع لهم وإن كان لفظها لفظ تعجيب للنبي صلى الله عليه وسلم فمضمنها أن هذه الآيات والدلائل إنما هي لاستصرافهم عن طريق غيهم ، و" الفقه " الفهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ ﴾ أي القادر على إنجائكم من الكرب ، قادر على تعذيبكم .

ومعنى ﴿ مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ الرجم بالحجارة والطوفان والصيحة والريح ؛ كما فعل بعادٍ وثمودَ وقومِ شعيبٍ وقومِ لوطٍ وقومِ نوحٍ ؛ عن مجاهد وابن جُبير وغيرِهما .

﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ الخسْف والرّجفة ؛ كما فعل بقارون وأصحاب مَدْين .

وقيل : "من فوقكم" يعني الأمراء الظلمة ، "ومن تحت أرجلكم" يعني السّفِلة وعَبيد السّوء ؛ عن ابن عباس ومجاهد أيضاً .

*(15/236)*

---

﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ﴾ وروي عن أبي عبد الله المدِنيّ "أو يُلبسكم" بضم الياء ، أي يجلّلكم العذاب ويعمّكم به ، وهذا من اللُّبس بضم الأوّل ، وقراءة الفتح من اللَّبْس .

وهو موضع مشكِل والأعراب يبيّنه .

أي يَلبس عليكم أمركم ، فحذف أحد المفعولين وحرف الجر ؛ كما قال : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ ﴾ [ المطففين : 3 ] وهذا اللَّبس بأن يخلط أمرهم فيجعلهم مختلِفي الأهواء ؛ عن ابن عباس .

وقيل : معنى "يلبسكم شيعاً" يقوّي عدوّكم حتى يخالطكم وإذا خالطكم فقد لبِسكم .

﴿ شِيَعاً ﴾ معناه فِرقاً .

وقيل يجعلكم فرقاً يقاتل بعضكم بعضاً ؛ وذلك بتخليط أمرهم وافتراق أمرائهم على طلب الدنيا .

وهو معنى قوله ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ أي بالحرب والقتل في الفتنة ؛ عن مجاهد .

والآية عامّة في المسلمين والكفار .

وقيل هي في الكفار خاصّةً .

وقال الحسن : هي في أهل الصلاة .

قلت : وهو الصحيح ؛ فإنه المشاهد في الوجود ، فقد لَبِسنا العدوّ في ديارنا واستولى على أنفسنا وأموالنا ، مع الفتنة المستولية علينا بقتل بعضنا بعضاً واستباحة بعضنا أموال بعض .

نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن .

وعن الحسن أيضاً أنه تأوّل ذلك فيما جرى بين الصحابة رضي الله عنهم .

*(16/236)*

---

روى مسلم عن ثَوْبَانَ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله زوَى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإنّ أمتي سيبلغ مُلْكها ما زُوِيَ لي منها وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض وإني سألت ربي لأمّتي ألا يهلكها بسنَة عامّة وألاّ يسلّط عليهم عدوًّا مِن سِوَى أنفسِهم فيستبيحَ بَيْضَتَهم وإنّ ربّي قال : يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يُردّ وإني قد أعطيتك لأمتك ألاّ أهلكهم بسنَة عامّة وألا أسلط عليهم عدوّاً من سِوَى أنفسهم يستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بإقطارها أو قال من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يُهلك بعضاً ويَسْبِي بعضهم بعضاً " وروى النسائيّ " عن خَبّاب بن الأَرَتّ ، وكان قد شهِد بدراً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه راقب رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلةَ كلّها حتى كان مع الفجر ، فلما سلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلاته جاءه خَبّاب فقال : يا رسول الله ، بأبِي أنت وأمي لقد صليتَ الليلة صلاة ما رأيتك صَليتَ نحوها ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أجَلْ إنها صلاة رَغَب ورَهَب سألتُ الله عز وجل

فيها ثلاث خصال فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة سألت ربي عز وجل ألا يُهلكنا بما أهلك به الأمم فأعطانيها وسألت ربي عز وجل ألا يظهر علينا عدوًّا مِن غيرنا فأعطانيها وسألت ربي عز وجل ألا يُلبسنا شِيَعاً فمنعنِيها" "

وقد أتينا على هذه الأخبار في كتاب (التذكرة) والحمد لله.

" وروي أنه لما نزلت هذه الآية قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لجبريل: "يا جبريل ما بقاء أمتي على ذلك"؟ فقال له جبريل: "إنما أنا عبد مثلك فادع ربك وسله لأمتك" فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فتوضأ وأسبغ الوضوء وصلى وأحسن الصلاة، ثم دعا فنزل جبريل وقال: "يا محمد إن الله تعالى سمع مقالتك وأجارهم من خصلتين وهو العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم".

*(17/236)*

---

فقال: "يا جبريل ما بقاء أمتي إذا كان فيهم أهواء مختلفة ويذيق بعضهم بأس بعض"؟ فنزل جبريل بهذه الآية: ﴿ الم ﴾ ﴿ أَحَسِبَ الناس أَن يتركوا أَن يقولوا آمَنَّا ﴾ الآية" وروى عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله قال: "لما نزلت هذه الآية ﴿ قُلْ هُوَ القادر على أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : "أعوذ بوجه الله" فلما نزلت ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال : "هاتان أهون" " وفي سنن ابن ماجه عن ابن عمر قال : " لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدع هؤلاء الكلمات حين يمسِي وحين يصبح : اللَّهُمَّ إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة .

اللَّهُمَّ إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي .

اللَّهُمَّ استر عوراتي وآمن رَوْعاتي واحفظني من بين يديّ ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي وأعوذ بك أن أغتال مِن تحتي " قال وكيع : يعني الخَسْف .

قوله تعالى : ﴿ انظر كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيات ﴾ أي نبين لهم الحجج والدلالات ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ يريد بطلان ما هم عليه من الشِّرْك والمعاصي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ أي : قل يا محمد لقومك إن الله هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم يعني الصيحة والحجارة والريح والطوفان كما فعل بقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ يعني الرجفة والخسف كما فعل بقوم شعيب وقارون .

وقال ابن عباس ومجاهد : عذاباً من فوقكم ، يعني أئمة السوء والسلاطين الظلمة أو من

تحت أرجلكم يعني عبيد السوء .

وقال الضحاك : من فوقكم يعني من قبل كباركم أو من تحت أرجلكم يعني السفلة ﴿ أو يلبسكم شيعاً ﴾ الشيع جمع شيعة وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة وأشياع وأصله من التشيع .

*(18/236)*

---

ومعنى الشيعة : الذين يتبع بعضهم بعضاً : وقيل : الشيعة هم الذين يتقوى بهم الإنسان .

قال الزجاج : في قوله أو يلبسكم شيعاً يعني يخلط أمركم خلط اضطراب لا خلط إنفاق فيجعلكم فرقاً مختلفين يقاتل بعضكم بعضاً وهو معنى قوله : ﴿ ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ قال ابن عباس : قوله أو يلبسكم شيعاً يعني الأهواء المختلفة ويذيق بعضكم بأس بعض يعني أنه يقتل بعضكم بيد بعض .

وقال مجاهد : يعني أهواء متفرقة وهو ما كان فيهم من الفتن والاختلاف .

وقال ابن زيد : هو الذي فيه الناس اليوم من الاختلاف والأهواء وسفك بعضهم دماء بعض .

ثم اختلف المفسرون فيمن عني بهذه الآية فقال قوم عني بها المسلمون من أمة محمد صلى

الله عليه وسلم وفيهم نزلت هذه الآية .

قال أبو العالية : في قوله ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ الآية .

قال : هن أربع وكلهن عذاب فجاءت اثنتان بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين سنة ألبسوا شيعاً وأذيق بعضهم بأس بعض وبقيت اثنتان وهما لا بد واقعتان يعني الخسف والمسخ .

وعن أبي بن كعب نحوه وهن أربع خلال وكلهن واقع قبل يوم القيامة مضت ثنتان بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين سنة ألبسوا شيعاً وأذيق بعضهم بأس بعض ثنتان واقعتان لا محالة الخسف والرجم .

وقال مجاهد : في قوله من فوقكم أو من تحت أرجلكم لأمة محمد فأعفاهم منه أو يلبسكم شيعاً ما كان بينهم من الفتن والاختلاف زاد غيره ويذيق بعضكم بأس بعض يعني ما كان فيهم من القتل بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم (خ) عن جابر قال لما نزلت هذه الآية قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أعوذ بوجهك أو من تحت أرجلكم قال أعوذ بوجهك أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض قال هذا أهون أو هذا أيسر " (م) .

---

(1) أخرجه البخاري في التفسير ، سورة الأنعام ، باب "قل هو القادر على أن يبعث

عليكم . . . " 8 / 291 ، وفي الاعتصام ، وفي التوحيد . وأخرجه البغوي في شرح السنة : 14 / 217 .

*(19/236)*

---

عن سعد بن أبي وقاص أنه أقبل مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم من العالية حتى إذا مر بمسجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتين وصلينا معه ودعا ربه طويلاً ثم انصرف إلينا فقال : " سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها وسألت ربي أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها وسألت ربي أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها " (1)

عن خباب بن الأرت قال صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة فأطالها فقالوا يا رسول الله صليت صلاة لم تكن تصليها قال : " أجل إنها صلاة رغبة ورهبة إني سألت الله فيها ثلاثة فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألته أن لا تهلك أمتي بسنة فأعطانيها وسألته أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فأعطانيها وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها " أخرجه الترمذي . (2)

وقوله تعالى : ﴿ انظر كيف نصرف الآيات ﴾ أي انظر يا محمد كيف نبين دلائلنا وحجتنا

لهؤلاء المكذبين ﴿ لعلهم يفقهون ﴾ يعني يفهمون ويعتبرون فينزجروا ويرجعوا عما هم عليه من الكفر والتكذيب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

---

(1) أخرجه مسلم عن عثمان بن حكيم ، في الفتن ، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض ، برقم(2890) : 4 / 2216 . والبغوى في شرح السنة : 14 / 214 - 21 .

(2) أخرجه الترمذي في الفتن ، باب سؤال النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثا في أمته : 6 / 397 - 398 ، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

*(20/236)*

---

وقال النسفى :

﴿ قُلْ هُوَ القادر ﴾ هو الذي عرفتموه قادراً أو هو الكامل القدرة فاللام يحتمل العهد والجنس ﴿ على أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مّن فَوْقِكُمْ ﴾ كما أمطر على قوم لوط وعلى أصحاب الفيل الحجارة ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ كما غرّق فرعون وخسف بقارون ، أو من قبل سلاطينكم وسفلتكم ، أو هو حبس المطر والنبات ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ﴾ أو يخلطكم فرقاً مختلفين على أهواء شتى ، كل فرقة منكم مشايعة لإمام .

ومعنى خلطهم أن ينشب القتال بينهم فيختلطوا ويشتبكوا في ملاحم القتال ﴿ وَيُذِيقَ

بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ يقتل بعضكم بعضاً .

والبأس السيف وعنه عليه الصلاة والسلام " سألت الله تعالى أن لا يبعث على أمتي عذابا من فوقهم أو من تحت أرجلهم فأعطاني ذلك أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعني وأخبرني جبريل أن فناء أمتي بالسيف " ﴿ انظر كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيات ﴾ بالوعد والوعيد ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 17 ﴾

*(21/236)*

---

وقال أبو حيان :

﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم ﴾

هذا إخبار يتضمن الوعيد ، والأظهر من نسق الآيات أنه خطاب للكفار وهو مذهب الطبري .

وقال أبي وأبو العالية وجماعة : هي خطاب للمؤمنين .

قال أبي : هنّ أربع : عذاب قبل يوم القيامة مضت اثنتان قبل وفاة الرسول بخمس وعشرين سنة لبسوا شيعاً وأذيق بعضهم بأس بعض ، وثنتان واقعتان لا محالة الخسف والرجم .

وقال الحسن : بعضها للكفار بعث العذاب من فوق ومن تحت وسائرها للمؤمنين ، انتهى .

وحين نزلت استعاذ الرسول صلى الله عليه وسلم وقال في الثالثة : " هذه أهون أو هذه أيسر " واحتج بهذا من قال هي للمؤمنين .

وقال الطبري : لا يمتنع أن يكون عليه لسلام تعوذ لأمته مما وعد به الكفار وهون الثالثة لأنها في المعنى هي التي دعا فيها فمنع كما في حديث الموطأ وغيره .

والظاهر ﴿ من فوقكم أو من تحت أرجلكم ﴾ الحقيقة كالصواعق وكما أمطر على قوم لوط وأصحاب الفيل الحجارة وأرسل على قوم نوح الطوفان ، كقوله : ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ﴾ وكالزلازل ونبع الماء المهلك وكما خسف بقارون .

وقال السدي عن أبي مالك وابن جبير : الرجم والخسف .

وقال ابن عباس : ﴿ من فوقكم ﴾ ولاة الجور و ﴿ من تحت أرجلكم ﴾ سفلة السوء وخدمته .

وقيل : حبس المطر والنبات .

وقيل : ﴿ من فوقكم ﴾ خذلان السمع والبصر والآذان واللسان و ﴿ من تحت أرجلكم ﴾ خذلان الفرج والرجل إلى المعاصي ؛ انتهى ، وهذا والذي قبله مجاز بعيد .

﴿ أو يلبسكم شيعاً ﴾ أي يخلطكم فرقاً مختلفين على أهواء شتى كلّ فرقة منكم مشايعة لإمام ومعنى خلطهم انشاب القتال بينهم فيختلطوا ويشتبكوا في ملاحم القتال كقول الشاعر :

وكتيبة لبستها بكتيبة . . .

حتى إذا التبست نفضت لها يدي

فتركتهم تقص الرماح ظهورهم . . .

ما بين منعفر وآخر مسند

قال ابن عباس ومجاهد : تثبت فيكم الأهواء المختلفة فتصيرون فرقاً .

وقيل : المعنى يقوي عدوكم حتى يخالطوكم .

وقرأ أبو عبد الله المدني ﴿ يلبسكم ﴾ بضمّ الياء من اللبس استعارة من اللباس فعلى فتح الياء يكون ﴿ شيعاً ﴾ حالاً .

وقيل : مصدر والعامل فيه ﴿ يلبسكم ﴾ من غير لفظه ؛ انتهى .

*(22/236)*

---

ويحتاج في كونه مصدراً إلى نقل من اللغة وعلى ضم الياء يحتمل أن يكون التقدير أو يلبسكم الفتنة شيعاً ويكون ﴿ شيعاً ﴾ حالاً ، وحذف المفعول الثاني ويحتمل أن يكون المفعول الثاني شيعاً كان الناس يلبسهم بعضهم بعضاً كما قال الشاعر :

لبست أناساً فأفنيتهم . . .

وغادرت بعد أناس أناسا

وهي عبارة عن الخلطة والمعايشة .

﴿ ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ البأس الشدة من قتل وغيره والإذاقة والإنالة والإصابة هي من أقوى حواس الاختبار وكثر استعمالها في كلام العرب وفي القرآن قال تعالى : ﴿ ذوقوا مس سقر ﴾ وقال الشاعر :

أذقناهم كؤوس الموت صرفاً . . .

وذاقوا من أسنتنا كؤوسا

وقرأ الأعمش : ونذيق بالنون وهي نون عظمة الواحد وهي التفات فأيدته نسبة ذلك إلى الله على سبيل العظمة والقدرة القاهرة .

﴿ انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون ﴾ هذا استرجاع لهم ولفظة تعجب للنبي صلى الله عليه وسلم والمعنى إنا نسألك في مجيء الآيات أنواعاً رجاء أن يفقهوا ويفهموا عن الله تعالى ، لأن في اختلاف الآيات ما يقتضي الفهم إن غربت آية لم تعزب أخرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

*(23/236)*

وقال أبو السعود :

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ القادر على أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبيان أنه تعالى هو القادرُ على إلقائهم في المهالك إثرَ بيانِ أنه هو المُنْجي لهم منها ، وفيه وعيدٌ ضمنيٌّ بالعذاب لإشراكهم المذكورِ على طريقة قولِه عز وجل : ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ البر ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أخرى ﴾ الآية ، و( عليكم ) متعلقٌ ( ببيعثَ ) وتقديمُه على مفعوله الصريح للاعتناء به والمسارعةِ إلى بيان كون المبعوثِ مما يضرُّهم ، ولتهويل أمْرِ المؤخرِ . وقوله تعالى : ﴿ مّن فَوْقِكُمْ ﴾ متعلقٌ به أيضاً أو بمحذوف وقع صفةً لعذاباً أي عذاباً كائناً من جهة الفوق كما فَعَل بمن فَعَل من قوم لوطٍ وأصحابِ الفيل وأضرابِهم ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ أو من جهة السُفلِ كما فعل بِفِرْعونَ وقارونَ ، وقيل : ( مِنْ فوقكم ) أكابرِكم ورؤسائِكم و( من تحت أرجلِكم ) سفلتُكم وعبيدُكم ، وكلمة أو لمنع الخُلوّ دون الجمع ، فلا منْعَ لما كان من الجهتين معاً ، كما فُعل بقوم نوحٍ ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ﴾ أي يخلطَكم فِرَقاً متحزّبين على أهواءَ شتّى ، كلُّ فرقةٍ مشايعةٌ لإمامٍ فينشَبُ بينكم القتالُ فتختلطوا في الملاحم كقول الحَماسي :

وكتيبةٍ لبَّستُها بكتيبة . . . حتى إذا التَبَسَتْ نفضْتُ لها يدي

(24/236)

﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ عطفٌ على ( يبعثَ ) وقرىء بنون العظمة على طريقة الالتفات لتهويل الأمرِ والمبالغةِ في التحذير ، والبعضُ الأولُ الكفارُ والآخَرُ المؤمنون ففيه وعدٌ ووعيد . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ( أنه قال عند قوله تعالى : ﴿ عَذَاباً مّن فَوْقِكُمْ ﴾ : "أعوذُ بوجهك" . وعند قوله تعالى : ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ : "أعوذ بوجهك" . وعند قوله تعالى : ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ : هذا أهونُ أو هذا أيسرُ" ) . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " سألت ربي أن لا يبعثَ على أمتي عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلِهم فأعطاني ذلك ، وسألته أن لا يجعلَ بأسهم بينهم فمنعني ذلك " ﴿ انظر كَيْفَ نُصَرّفُ الآيات ﴾ من حال إلى حال ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ كي يفقَهوا ويقِفوا على جلية الأمرِ فيرجِعوا عما هم عليه من المكابرة والعِناد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

*(25/236)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار ﴿ هُوَ القادر ﴾ لا غيره سبحانه ﴿ على أَن يَبْعَثَ ﴾

أي يرسل ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ متعلق بيبعث .

وتقديمه على المفعول الصريح وهو قوله سبحانه : ﴿ عَذَاباً ﴾ للاعتناء به والمسارعة إلى بيان كون المبعوث مما يضرهم ولتهويل أمر المؤخر ، والكلام استئناف مسوق لبيان أنه تعالى هو القادر على إلقائهم في المهالك إثر بيان أنه سبحانه هو المنجى لهم منها ، وفيه وعيد ضمني بالعذاب لإشراكهم المذكور ، والتنوين للتفخيم أي عذاباً عظيماً .

﴿ مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ أي من جهة العلو كالصيحة والحجارة والريح وإرسال السماء ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ أي من جهة السفل كالرجفة والخسف والإغراق ، وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : من فوقكم أي من قبل أمرائكم وأشرافكم ومن تحت أرجلكم أي من قبل سفلتكم وعبيدكم .

وفي رواية أخرى عنه تفسير الأول بأئمة السوء والثاني بخدم السوء والمتبادر ما قدمنا وهو المروي عن غير واحد من المفسرين .

والجار والمجرور متعلق بيبعث أيضاً ، ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف وقع صفة لعذاب .

و( أو ) لمنع الخلو دون الجمع فلا منع لما كان من الجهتين معاً كما فعل بقوم نوح عليه الصلاة والسلام .

﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ ﴾ أي يخلط أمركم عليكم ففي الكلام مقدر ، وخلط أمرهم عليهم بجعلهم مختلفي الأهواء ، وقيل : المراد اختلاط الناس في القتال بعضهم ببعض فلا تقدير ، وعليه

قول السلمي

: وكتيبة لبستها بكتيبة . . .

حتى إذا التبست نفضت لها يدي

وقرىء ﴿ يَلْبِسَكُمْ ﴾ بضم الياء وهو عطف على ﴿ يَبْعَثَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ شِيَعاً ﴾ جمع شيعة كسدرة وسدر وهم كل قوم اجتمعوا على أمر نصب على الحال ، وقيل : إنه مصدر منصوب بيلبسكم من غير لفظه ، وجوز على هذا أن يكون حالاً أيضاً أي مختلفين .

وقوله سبحانه : ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ عطف على ﴿ يَبْعَثَ ﴾ كما نقل عن السمين ، ويفهم من كلام البعض أنه عطف على يلبس وهو من قبيل عطف التفسير أو من عطف المسبب على السبب .

وقرىء ﴿ نذيق ﴾ بنون العظمة على طريق الالتفات لتهويل الأمر والمبالغة في التحذير .

*(26/236)*

---

والبعض الأول على ما قيل الكفار والثاني المؤمنون ففيه حينئذ وعد ووعيد ، وقيل : كلا البعضين من الكفار أي نذيق كلاً بأس الآخر ؛ وقيل البعضان من المؤمنين فقد أخرج ابن

جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن أنه قال في قوله سبحانه : ﴿ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ هذا للمشركين وفي قوله تعالى : ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ ﴾ الخ هذا للمسلمين ولا يخفى أنه تفكيك للنظم الكريم ، ولعل مراد الحسن أن هذا يكون للمسلمين ويقع فيهم دون الأول ، وأخرج ابن جرير عنه أيضاً أنه قال : "لما نزلت هذه الآية قام النبي صلى الله عليه وسلم فتوضأ فسأل ربه عز وجل أن لا يرسل عليهم عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم ولا يلبس أمته شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض كما أذاق بني إسرائيل فهبط إليه صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام فقال : يا محمد إنك سألت ربك أربعاً فأعطاك اثنتين ومنعك اثنتين لن يأتيهم عذاب من فوقهم ولا من تحت أرجلهم يستأصلهم فإنهما عذابان لكل أمة استجمعت على تكذيب نبيها ورد كتاب ربها ولكنهم يلبسون شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض ، وهذان عذابان لأهل الإقرار بالكتب والتصديق بالأنبياء عليهم السلام" وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه واللفظ له عن ثوبان أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن ربي زوى لي الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها وأعطاني الكنزين الأحمر والأبيض وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة فأعطانيها وسألته أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فأعطانيها وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها وقال : يا محمد إني إذا قضيت قضاء لم يرد إني أعطيتك لأمتك

أن لا أهلكها بسنة عامة ولا أظهر عليهم عدواً من غيرهم فيستبيحهم عامة ولو اجتمع من بين أقطارها حتى يكون بعضهم هو يهلك بعضاً وبعضهم هو يسبي بعضاً

(27/236)

---

" الحديث .

وأخرج أحمد والطبراني وغيرهما عن أبي بصرة الغفاري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " سألت ربي أربعاً فأعطاني ثلاثاً ومنعني واحدة سألت الله تعالى أن لا يجمع أمتي على ضلالة فأعطانيها وسألت الله تعالى أن لا يظهر عليهم عدواً من غيرهم فأعطانيها وسألت الله تعالى أن لا يهلكهم بالسنين كما أهلكت الأمم فأعطانيها وسألت الله تعالى أن لا يلبسهم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها " والأخبار في هذا المعنى كثيرة .

وفي بعضها دلالة على عد اللبس والإذاقة أمراً واحداً وفي بعضها دلالة على عد ذلك أمرين ، ومن هنا نشأ الاختلاف السابق في العطف ، وأيد بعضهم العطف على يلبس لا على ﴿ يَبْعَثَ ﴾ بكونه بالواو دون أو .

ولا يعارض ما روي عن الحسن من عدم وقوع الأولين في هذه الأمة ما أخرجه أحمد والترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه

وسلم قال في هذه الآية : أما أنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد ، وكذا ما أخرج الأول في مسنده من طريق أبي العالية عن ابن كعب أنه قال في الآية : هن أربع وكلهن واقع لا محالة لجواز أن يراد بالوقوع وقوع لا على وجه الاستئصال وبعدم الوقوع عدمه على وجه الاستئصال وكلام الحسن كالصريح في هذا فافهم .

﴿ انظر كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيات ﴾ أي نُحَوِّلها من نوع آخر من أنواع الكلام تقريراً للمعنى وتقريباً إلى الفهم أو نصرفها بالوعد والوعيد ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ أي كي يعلموا جلية الأمر فيرجعوا عما هم عليه من المكابرة والعناد ، واستدل بعض أهل السنة بالآية على أن الله تعالى خالق للخير والشر ، "وقال بعض الحشوية والمقلدة : إنها من أدل الدلائل على المنع من النظر والاستدلال لما أن في ذلك فتح باب التفرق والاختلاف المذموم بحكم الآية" وليس بشيء كما لا يخفى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

*(28/236)*

---

﴿ قُلْ هُوَ القادر على أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ .

استئناف ابتدائي عُقّب به ذكرُ النعمة التي في قوله : ﴿ قل من يُنجّيكم ﴾ بذكر القدرة على الانتقام ، تخويفاً للمشركين .

وإعادة فعل الأمر بالقول مثل إعادته في نظائره للاهتمام المبيَّن عند قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ﴾ [ الأنعام : 40 ] .

والمعنى قل للمشركين ، فالمخاطب بضمائر الخطاب هم المشركون .

والمقصود من الكلام ليس الإعلام بقدرة الله تعالى فإنَّها معلومة ، ولكن المقصود التهديد بتذكيرهم بأنّ القادر من شأنه أن يُخاف بأسُه فالخبر مستعمل في التعريض مجازاً مرسلاً مركّباً ، أو كناية تركيبية .

وهذا تهديد لهم ، لقولهم ﴿ لولا أنزل عليه آية من ربّه ﴾ [ يونس : 20 ] .

وتعريف المسند والمسند إليه أفاد القصر ، فأفاد اختصاصه تعالى بالقدرة على بعث العذاب عليهم وأنّ غيره لا يقدر على ذلك فلا ينبغي لهم أن يخشوا الأصنام ، ولو أرادوا الخير لأنفسهم لخافوا الله تعالى وأفردوه بالعبادة لمرضاته ، فالقصر المستفاد إضافي .

والتعريف في ﴿ القادر ﴾ تعريف الجنس ، إذ لا يقدر غيره تعالى على مثل هذا العذاب .

والعذاب الذي من فوق مثل الصواعق والريح ، والذي من تحت الأرجل مثل الزلازل والخسف والطوفان .

و﴿ يلبسكم ﴾ مُضارع لَبَسَه بالتحريك أي خلطه ، وتعدية فعل ﴿ يلبسكم ﴾ إلى

ضمير الأشخاص بتقدير اختلاط أمرهم واضطرابه ومَرجه ، أي اضطراب شؤونهم ، فإنّ استقامة الأمور تشبه انتظام السلك ولذلك سمّيت استقامة أمور الناس نظاماً .

وبعكس ذلك اختلال الأمور والفوضى تشبه اختلاط الأشياء ، ولذلك سمّي مَرَجاً ولَبْساً .

(29/236)

---

وذلك بزوال الأمن ودخول الفساد في أمور الأمّة ، ولذلك يقرن الهَرْج وهو القتل بالمَرْج ، وهو الخلط فيقال : هم في هَرْج ومَرْج ، فسكون الراء في الثاني للمزاوجة .

وانتصب ﴿ شِيَعاً ﴾ على الحال من الضمير المنصوب في ﴿ يَلْبِسَكم ﴾ .

والشيَع جمع شيعة بكسر الشين وهي الجماعة المتَّحدة في غرض أو عقيدة أو هوى فهم متّفقون عليه ، قال تعالى : ﴿ إنّ الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيَاً لست منهم في شيء ﴾ [ الأنعام : 159 ] .

وشيعة الرجل أتباعه والمقتدون به قال تعالى : ﴿ وإنّ من شيعته لإبراهيم ﴾ [ الصافات : 83 ] أي من شيعة نوح .

وتشتّت الشيع وتعدّد الآراء أشدّ في اللبس والخلط ، لأنّ اللبس الواقع كذلك لبس لا يرجى

بعده انتظام .

وعطف عليه ﴿ ويذيق بعضَكم بأس بعض ﴾ لأنّ من عواقب ذلك اللبس التقاتل .

فالبأس هو القتل والشرّ ، قال تعالى : ﴿ وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾ [ النحل : 81 ] .

والإذاقة استعارة للألم .

وهذا تهديد للمشركين كما قلنا بطريق المجاز أو الكناية .

وقد وقع منه الأخير فإنّ المشركين ذاقوا بأس المسلمين يومَ بدر وفي غزوات كثيرة .

في "صحيح البخاري" عن جابر بن عبد الله قال : " لما نزلتْ ﴿ قُلْ هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ قال رسول صلى الله عليه وسلم أعوذُ بوجهك .

قال : ﴿ أوْ من تحت أرجلكم ﴾ قال : أعوذ بوجهك قال : ﴿ أو يلبِسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ قال رسول الله : هذا أهون ، أو هذا أيسر " انتهى انتهى . ا هـ .

*(30/236)*

---

واستعاذة النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك خشية أن يعمّ العذاب إذا نزل على الكافرين مَن هو بجوارهم من المسلمين لقوله تعالى : ﴿ واتَّقُوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصّة ﴾ [ الأنفال : 25 ] وفي الحديث قالوا : " يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون قال

: نعم إذا كثر الخبث " وفي الحديث الآخر " ثم يُحْشَرُون على نيّاتهم " ومعنى قوله : هذه أهون ، أنّ القتل إذا حلّ بالمشركين فهو بيد المسلمين فيلحق المسلمين منه أذى عظيم لكنّه أهون لأنّه ليس فيه استئصال وانقطاع كلمة الدين ، فهو عذاب للمشركين وشهادة وتأييد للمسلمين .

وفي الحديث : " لا تتمنّوا لقاء العدوّ واسألوا الله العافية " وبعض العلماء فسّر الحديث بأنّه استعاذ أن يقع مثل ذلك بين المسلمين .

ويتّجه عليه أن يقال : لماذا لم يستعذ الرسول صلى الله عليه وسلم من وقوع ذلك بين المسلمين ، فلعلّه لأنه أوحي إليه أنّ ذلك يقع في المسلمين ، ولكن الله وعده أن لا يسلِّط عليهم عدوّاً من غير أنفسهم .

وليست استعاذته بدالة على أنّ الآية مراد بها خطاب المسلمين كما ذهب إليه بعض المفسّرين ، ولا أنّها تهديد للمشركين والمؤمنين ، كما ذهب إليه بعض السلف ؛ إلاّ على معنى أنّ مفادها غيرَ الصريح صالح للفريقين لأنّ قدرة الله على ذلك صالحة للفريقين ، ولكن المعنى التهديدي غير مناسب للمسلمين هنا .

وهذا الوجه يناسب أن يكون الخبر مستعملاً في أصل الإخبار وفي لازمه فيكون صريحاً وكناية ولا يناسب المجاز المركّب المتقدّم بيانه .

﴿ انظر كَيْفَ نُصَرِّفُ الايات لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ .

استئناف وردَ بعد الاستفهامين السابقين .

وفي الأمر بالنظر تنزيل للمعقول منزلة المحسوس لقصد التعجيب منه ، وقد مضى في تفسير قوله تعالى : ﴿ انظر كيف يفترون على الله الكذب ﴾ في سورة [ النساء : 50 ]

وتصريف الآيات تنويعها بالترغيب تارة والترهيب أخرى .

فالمراد بالآيات آيات القرآن .

*(31/236)*

---

وتقدّم معنى التصريف عند قوله تعالى : ﴿ انظر كيف نصرّف الآيات ثم هم يصدفون ﴾ في هذه السورة [ 46 ] .

﴿ ولعلّهم يفقهون ﴾ استئناف بياني جواب لسؤال سائل عن فائدة تصريف الآيات ، وذلك رجاء حصول فهمهم لأنَّهم لعنادهم كانوا في حاجة إلى إحاطة البيان بأفهامهم لعلَّها تتذكَّر وترعوي .

وتقدّم القول في معنى ( لعلّ ) عند قوله تعالى : ﴿ لعلّكم تتّقون ﴾ في سورة [ البقرة : 21 ] .

وتقدّم معنى الفقه عند قوله تعالى : ﴿ فَمالِ هؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ﴾ في

سورة [ النساء : 78 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فائدة

قال الفخر :

ظاهر قوله : ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ﴾ هو أنه تعالى يحملهم على الأهواء المختلفة والمذاهب المتنافية .

وظاهر أن الحق منها ليس إلا الواحد ، وما سواه فهو باطل فهذا يقتضي أنه تعالى قد يحمل المكلف على الاعتقاد الباطل وقوله : ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ لا شك أن أكثرها ظلم ومعصية ، فهذا يدل على كونه تعالى خالقاً للخير والشر ، أجاب الخصم عنه بأن الآية تدل على أن الله تعالى قادر عليه وعندنا الله قادر على القبيح .

إنما النزاع في أنه تعالى هل يفعل ذلك أم لا ؟

والجواب : أن وجه التمسك بالآية شيء آخر فإنه قال : ﴿ هُوَ القادر ﴾ على ذلك وهذا يفيد الحصر فوجب أن يكون غير الله غير قادر على ذلك وهذا الاختلاف بين الناس حاصل وثبت بمقتضى الحصر المذكور أن لا يكون ذلك صادراً عن غير الله فوجب أن يكون صادراً عن الله وذلك يفيد المطلوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 20 ﴾

فصل

قال الفخر :

قالت المقلدة والحشوية : هذه الآية من أدل الدلائل على المنع من النظر والاستدلال ، وذلك لأن فتح تلك الأبواب يفيد وقوع الاختلاف والمنازعة في الأديان وتفرق الخلق إلى المذاهب والأديان وذلك مذموم بحكم هذه الآية ، والمفضي إلى المذموم مذموم ، فوجب أن يكون فتح باب النظر والاستدلال في الدين مذموماً وجوابه سهل والله أعلم .

ثم قال تعالى في آخر الآية : ﴿ انظر كَيْفَ نُصَرِّفُ الأيات لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ قال القاضي : هذا يدل على أنه تعالى أراد بتصريف هذه الآيات وتقرير هذه البينات ، أن يفهم الكل تلك الدلائل ويفقه الكل تلك البينات .

وجوابنا : بل ظاهر الآية يدل على أنه تعالى ما صرف هذه الآيات إلا لمن فقه وفهم ، فأما من أعرض وتمرد فهو تعالى ما صرف هذه الآيات لهم ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 20 ﴾

*(32/236)*

---

فصل

قال ابن كثير :

قوله : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ لما قال : ﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ عقبه بقوله : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا [مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ] ﴾ أي : بعد إنجائه إياكم ، كما قال في سورة سبحان : ﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا * أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلا * أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ [الإسراء : 66 - 69] .

قال ابن أبي حاتم : ذكر عن مسلم بن إبراهيم ، حدثنا هارون الأعور ، عن جعفر بن سليمان ، عن الحسن في قوله : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال : هذه للمشركين .

وقال ابن أبي نجيح ، عن مجاهد [في قوله] ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فعفا عنهم .

ونذكر هنا الأحاديث الواردة في ذلك والآثار ، وبالله المستعان ، وعليه التكلان ، وبه الثقة .

قال البخاري ، رحمه الله ، في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ يلبسكم : يخلطكم ، من الالتباس ، يَلْبِسوا : يَخْلطُوا . شيعًا : فرقًا .

حدثنا أبو النعمان ، حدثنا حماد بن زيد ، عن عمرو بن دينار ، عن جابر بن عبد الله قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أعوذ بوجهك" . ﴿ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال : "أعوذ بوجهك" . ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هذه أهون – أو قال : هذا أيسر" .

وهكذا رواه أيضا في "كتاب التوحيد" عن قتيبة ، عن حماد ، به (1)

ورواه النسائي [أيضا] في "التفسير" ، عن قتيبة ، ومحمد بن النضر بن مساور ، ويحيى بن حبيب بن عربي أربعتهم ، عن حماد بن زيد ، به .

وقد رواه الحميدي في مسنده ، عن سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، سمع جابرًا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، به .

ورواه ابن حبان في صحيحه ، عن أبي يعلى الموصلي ، عن أبي خيثمة ، عن سفيان بن

عيينة ، به .

---

(1) صحيح البخاري برقمي (4628) ، (7406)

*(34/236)*

---

ورواه ابن جرير في تفسيره عن أحمد بن الوليد القرشي وسعيد بن الربيع ، وسفيان بن وَكِيع ، كلهم عن سفيان بن عيينة ، به .

ورواه أبو بكر بن مَرْدُوَيه ، من حديث آدم بن أبي إياس ، ويحيى بن عبد الحميد ، وعاصم بن علي ، عن سفيان بن عيينة ، به .

ورواه سعيد بن منصور ، عن حماد بن زيد ، وسفيان بن عيينة ، كلاهما عن عمرو بن دينار ، به (1)

طريق أخرى : قال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُوَيه في تفسيره : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا مقدام ابن داود ، حدثنا عبد الله بن يوسف ، حدثنا بن لهيعة ، عن خالد بن يزيد ، عن أبي الزبير ، عن جابر قال : لما نزلت : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أعوذ بالله من ذلك" ﴿ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أعوذ بالله من ذلك" ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ

شِيَعًا ﴾ قال : "هذا أيسر" ، ولو استعاذه لأعاذه (2)

ويتعلق بهذه الآية [الكريمة] أحاديث كثيرة :

أحدها : قال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده : حدثنا أبو اليمان ، حدثنا أبو بكر – هو ابن أبي مريم – عن راشد – هو ابن سعد المقرئي – عن سعد بن أبي وقاص [رضي الله عنه] قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ فقال : "أما إنها كائنة ، ولم يأت تأويلها بعد" .

وأخرجه الترمذي ، عن الحسن بن عرفة ، عن إسماعيل بن عياش ، عن أبي بكر بن أبي مريم ، به (3) ثم قال : هذا حديث غريب . [جدا]

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا يعلى – هو ابن عبيد – حدثنا عثمان بن حكيم ، عن عامر ابن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه قال : أقبلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى مررنا على مسجد بني معاوية ، فدخل فصلى ركعتين ، فصلينا معه ، فناجى ربه ، عَزَّ وجل ، طويلا قال سألت ربي ثلاثا "سألته ألا يهلك أمتي بالغرق ، فأعطانيها وسألته ألا يهلك أمتي بالسنة ، فأعطانيها . وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم ، فمنعنيها" .

---

(1) النسائي في السنن الكبرى برقم (11164) ومسند الحميدي (530/2) ومسند أبي يعلى (362/3) وتفسير الطبري (422/11)

(2) وفي إسناده عبد الله بن لهيعة وقد اختلط .

(3) المسند (170/1) وسنن الترمذي برقم (3066) .

*(35/236)*

---

انفرد بإخراجه مسلم ، فرواه في "كتاب الفتن" عن أبي بكر بن أبي شيبة ، ومحمد بن عبد الله ابن نمير ، كلاهما عن عبد الله بن نمير – وعن محمد بن يحيى بن أبي عمر ، عن مروان بن معاوية ، كلاهما عن عثمان بن حكيم ، به (1)

حديث آخر : قال الإمام أحمد : قرأت على عبد الرحمن بن مَهْدِيّ ، عن مالك ، عن عبد الله بن عبد الله بن جابر بن عتيك ، عن جابر بن عتيك ؛ أنه قال : جاءنا عبد الله بن عمر في بني معاوية – قرية من قرى الأنصار – فقال لي : هل تدري أين صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسجدكم هذا ؟ فقلت : نعم . فأشرت إلى ناحية منه ، فقال : هل تدري ما الثلاث التي دعا بِهِنّ فيه ؟ فقلت : نعم . فقال : وأخبرني بهن ، فقلت دعا ألا يُظْهِر عليهم عدوا من غيرهم ، ولا يهلكهم بالسنين ، فَأُعْطِيْهِمَا ، ودعا بأن لا يجعل بأسهم بينهم ، فَمُنِعَهَا . قال : صدقت ، فلا يزال الهرج إلى يوم القيامة" (2)

ليس هو في شيء من الكتب الستة ، وإسناده جيد قوي ، ولله الحمد والمنة .

---

(1) المسند (175/1) وصحيح مسلم برقم (2890) .

(2) المسند (445/5) وقال الهيثمي في المجمع (221/7) : "رجاله ثقات" .

*(36/236)*

---

حديث آخر : قال محمد بن إسحاق ، عن حكيم بن حكيم بن عباد عن حُنَيف عن علي بن عبد الرحمن ، أخبرني حذيفة بن اليمان قال : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حرة بني معاوية ، قال : فصلى ثماني ركعات ، فأطال فيهن ، ثم التفت إليّ فقال : حبستك ؟ قلت الله ورسوله أعلم . قال : إني سألت الله ثلاثًا ، فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة . سألته ألا يسلط على أمتي عدوا من غيرهم ، فأعطاني وسألته ألا يهلكهم بغرق ، فأعطاني . وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم ، فمنعني" .

رواه ابن مَرْدُوَيه من حديث ابن إسحاق (1)

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا عبيدة بن حميد ، حدثني سليمان الأعمش ، عن رجاء الأنصاري ، عن عبد الله بن شداد ، عن معاذ بن جبل ، رضي الله عنه ، قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أطلبه فقيل لي : خرج قَبْلُ . قال : فجعلت لا أمر بأحد إلا قال : مر قبل . حتى مررت فوجدته قائما يصلي . قال : فجئت حتى قمت خلفه

، قال : فأطال الصلاة ، فلما قضى صلاته قلت : يا رسول الله ، لقد صليت صلاة طويلة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إني صليت صلاة رغبة ورهبة ، سألت الله ، عَزَّ وجل ، ثلاثا فأعطاني اثنتين ، ومنعني واحدة . سألته ألا يهلك أمتي غرقا ، فأعطاني وسألته ألا يُظْهِر عليهم عدوا ليس منهم ، فأعطانيها . وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم ، فردها علي" .

ورواه ابن ماجه في "الفتن" عن محمد بن عبد الله بن نمير ، وعلي بن محمد ، كلاهما عن أبي معاوية ، عن الأعمش ، به (2)

---

(1) ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (318/10) من طريق عبد الله بن نمير عن محمد بن إسحاق به .

(2) المسند (240/5) وسنن ابن ماجه برقم (3951) .

*(37/236)*

---

ورواه ابن مَرْدُوَيه من حديث أبي عَوَانة ، عن عبد الله بن عُمَيْر ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم ، بمثله أو نحوه .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا هارون بن معروف ، حدثنا عبد الله بن وَهْب ،

أخبرني عمرو بن الحارث ، عن بُكَيْر بن الأشج ، أن الضحاك بن عبد الله القرشي حدثه ، عن أنس بن مالك أنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر صلى سُبْحَة الضحى ثماني ركعات . فلما انصرف قال : "إني صليت صلاة رغبة ورهبة ، سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة : سألته ألا يبتلي أمتي بالسنين ، ففعل . وسألته ألا يظهر عليهم عدوهم ، ففعل . وسألته ألا يَلْبِسَهُم شيعًا ، فأبى عليّ" .

رواه النسائي في الصلاة ، عن محمد بن سلمة ، عن ابن وهب ، به . (1)

---

(1) المسند (146/2) .

*(38/236)*

---

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب بن أبي حمزة ، قال : قال الزهري : حدثني عبد الله بن عبد الله بن الحارث بن نوفل ، عن عبد الله بن خباب ، عن أبيه خباب بن الأرت – مولى بني زهرة ، وكان قد شهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم – أنه قال : راقبت رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة صلاها كلها ، حتى كان مع الفجر فسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلاته ، قلت يا رسول الله ، لقد صليت الليلة صلاة ما رأيتك صليت مثلها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أجل

، إنها صلاة رَغَب ورَهَب . سألت ربي ، عَزَّ وجل ، فيها ثلاث خصال ، فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة : سألت ربي ، عَزَّ وجل ، ألا يهلكنا بما أهلك به الأمم قبلنا ، فأعطانيها . وسألت ربي ، عَزَّ وجل ، ألا يظهر علينا عدوا من غيرنا ، فأعطانيها . وسألت ربي ، عَزَّ وجل ، ألا يلبسنا شيعًا ، فمنعنيها" .

ورواه النسائي من حديث شعيب بن أبي حمزة ، به (1) ومن وجه آخر . وابن حبان في صحيحه ، بإسناديهما عن صالح بن كيسان – والترمذي في "الفتن" من حديث النعمان بن راشد – كلاهما عن الزهري ، به (2) وقال : حسن صحيح .

حديث آخر : قال أبو جعفر بن جرير في تفسيره : حدثني زياد بن عبيد الله المزني ، حدثنا مروان بن معاوية الفزاري ، حدثنا أبو مالك ، حدثني نافع بن خالد الخزاعي ، عن أبيه ؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى صلاة خفيفة تامة الركوع والسجود ، فقال : "قد كانت صلاة رَغْبَة ورَهْبَة ، سألت الله ، عَزَّ وجل ، فيها ثلاثا ، أعطاني اثنتين ومنعني واحدة . سألت الله ألا يصيبكم بعذاب أصاب به من قبلكم ، فأعطانيها . وسألت الله ألا يسلط عليكم عدوا يستبيح بيضتكم ، فأعطانيها . وسألته ألا يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض فمنعنيها" . قال أبو مالك : فقلت له : أبوك سمع هذا من في رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

---

(1) المسند (108/5) وسنن النسائي (216/3) .

(2) النسائي في السنن الكبرى كما في تحفة الأشراف (115/3) وصحيح ابن حبان (180/9) "الإحسان" ، وسنن الترمذي برقم (2175)

*(39/236)*

---

فقال : نعم ، سمعته يحدث بها القوم أنه سمعها من في رسول الله صلى الله عليه وسلم (1)

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق قال : قال مَعْمَر ، أخبرني أيوب ، عن أبي قلابة ، عن أبي الأشعث الصنعاني ، عن أبي أسماء الرَّحْبي ، عن شداد بن أوْس ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله زوَى لي الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها ، وإن مُلْك أمتي سيبلغ ما زُوي لي منها ، وإني أعطيت الكنزين الأبيض والأحمر ، وإني سألت ربي ، عَزَّ وجل ، ألا يهلك أمتي بسنَة بعامة وألا يسلط عليهم عدوّا فيهلكهم بعامة ، وألا يلبسهم شيعا ، وألا يذيق بعضهم بأس بعض . فقال : يا محمد ، إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد . وإني قد أعطيتك لأمتك ألا أهلكتهم بسنة بعامة ، وألا أسلط عليهم عدوا ممن سواهم فيهلكهم بعامة ، حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ، وبعضهم يقتل بعضا ، وبعضهم يسبي بعضا" . قال : وقال النبي صلى الله عليه وسلم "وإني لا أخاف على أمتي إلا الأئمة المضلين ، فإذا وضع السيف في أمتي ، لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة" (2)

ليس في شيء من الكتب الستة ، وإسناده جيد قوي ، وقد رواه ابن مَرْدُوَيه من حديث حماد ابن زيد ، وعباد بن منصور ، وقتادة ، ثلاثتهم عن أيوب ، عن أبي قلابة ، عن أبي أسماء ، عن ثَوْبان ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحوه (3) فالله أعلم

---

(1) تفسير الطبري (433/11) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (192/4) والبزار في مسنده برقم (3289) "كشف الأستار" من طريق مروان بن معاوية به .

(2) المسند (123/4) وقال الهيثمي في المجمع (221/7) : "رجال أحمد رجال الصحيح"

(3) ورواه مسلم في صحيحه برقم (2889) من طريق حماد بن زيد به ورواه من طريق معاذ بن هشام عن أبيه عن قتادة عن أبي قلابة به ولم يذكر أيوب .

*(40/236)*

---

حديث آخر : قال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُوَيه : حدثنا عبد الله بن إسماعيل بن إبراهيم الهاشمي وميمون بن إسحاق بن الحسن الحنفي قالا حدثنا أحمد بن عبد الجبار ، حدثنا محمد بن فضيل ، عن أبي مالك الأشجعي ، عن نافع بن خالد الخزاعي ، عن أبيه قال – وكان أبوه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان من أصحاب الشجرة – :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى والناس حوله ، صلى صلاة خفيفة تامة الركوع والسجود . قال : فجلس يوما فأطال الجلوس حتى أومأ بعضنا إلى بعض : أن اسكتوا ، إنه ينزل عليه . فلما فرغ قال له بعض القوم : يا رسول الله ، لقد أطلت الجلوس حتى أومأ بعضنا إلى بعض : إنه ينزل عليك . قال : "لا ولكنها كانت صلاة رَغْبة ورهبة ، سألت الله فيها ثلاثا فأعطاني اثنتين ، ومنعني واحدة . سألت الله ألا يعذبكم بعذاب عذب به من كان قبلكم ، فأعطانيها . ألا يسلط على أمتي عدوا يستبيحها ، فأعطانيها . وسألته ألا يَلْبسَكم شِيعًا وألا يذيق بعضكم بأس بعض ، فمنعنيها" ، قال : قلت له : أبوك سمعها من رسول الله صلى الله عليه ؟ قال : نعم ، سمعته يقول : إنه سمعها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عدد أصابعي هذه ، عشر أصابع (1)

---

(1) ورواه البزار في مسنده برقم (3289) "كشف الأستار" والطبراني في المعجم الكبير (192/4) من طريق أبي مالك الأشجعي عن نافع عن أبيه به .

*(41/236)*

---

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا يونس – هو ابن محمد المؤدب – حدثنا ليث – هو ابن سعد عن أبي وهب الخولاني ، عن رجل قد سماه ، عن أبي بَصْرَة الغفاري صاحب

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "سألت ربي ، عَزَّ وجل ، أربعًا فأعطاني ثلاثًا ، ومنعني واحدة . سألت الله ألا يجمع أمتي على ضلالة ، فأعطانيها . وسألت الله ألا يظهر عليهم عدوا من غيرهم ، فأعطانيها . وسألت الله ألا يهلكهم بالسنين كما أهلك الأمم قبلهم ، فأعطانيها . وسألت الله ، عَزَّ وجل ، ألا يلبسهم شيعا وألا يذيق بعضهم بأس بعض ، فمنعنيها" (1)

لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة .

حديث آخر : قال الطبراني : حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا منجاب بن الحارث ، حدثنا أبو حذيفة الثعلبي ، عن زياد بن عِلاقة ، عن جابر بن سَمُرَة السَّوَائي ، عن علي [رضي الله عنه] ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "سألت ربي ثلاث خصال فأعطاني اثنتين ، ومنعني واحدة ، فقلت : يا رب ، لا تهلك أمتي جوعا فقال : هذه لك . قلت : يا رب ، لا تسلط عليهم عدوا من غيرهم - يعني أهل الشرك - فيجتاحهم . قال ذلك لك قلت : يا رب ، لا تجعل بأسهم بينهم" . قال : "فمنعني هذه" (2)

---

(1) المسند (396/6) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (280/2) من طريق الليث به .

تنبيه : وقع في المسند كما هو هنا : "أبو وهب الخولاني" وفي المعجم الكبير للطبراني : "أبو هانئ الخولاني" وهو الصحيح ، كما ذكره المزي في تهذيب الكمال (401/7) وابن عبد

البر في الاستغناء (976/2) .

(2) المعجم الكبير للطبراني (107/1) وقال الهيثمي في المجمع (222/7) : " فيه أبو حذيفة الثعلبي ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات" .

*(42/236)*

---

حديث آخر : قال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُوَيه : حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم ، عن أحمد بن محمد بن عاصم ، حدثنا أبو الدرداء المروزي ، حدثنا إسحاق بن عبد الله بن كيسان ، حدثني أبي ، عن عِكْرِمة ، عن ابن عباس ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "دعوت ربي ، عَزَّ وجل ، أن يرفع عن أمتي أربعًا ، فرفع الله عنهم اثنتين ، وأبى عليّ أن يرفع عنهم اثنتين . دعوت ربي أن يرفع الرجم من السماء ، والغرق من الأرض ، وألا يلبسهم شيعًا ، وألا يذيق بعضهم بأس بعض ، فرفع الله عنهم الرجم من السماء ، والغرق من الأرض ، وأبى الله أن يرفع اثنتين : القتل ، والهَرج" .

طريق أخرى عن ابن عباس أيضا : قال ابن مَرْدُوَيه : حدثني عبد الله بن محمد بن زيد حدثني الوليد بن أبان ، حدثنا جعفر بن منير ، حدثنا أبو بدر شجاع بن الوليد ، حدثنا عمرو بن قيس ، عن رجل ، عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ

عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال : فقام النبي صلى الله عليه وسلم فتوضأ ، ثم قال : "اللهم لا ترسل على أمتي عذابًا من فوقهم ، ولا من تحت أرجلهم ، ولا تلبسهم شيعا ، ولا تذق بعضهم بأس بعض" قال : فأتاه جبريل فقال : يا محمد ، إن الله قد أجار أمتك أن يرسل

(43/236)

---

عليهم عذابا من فوقهم أو من تحت أرجلهم (1)

حديث آخر : قال ابن مَرْدُوَيه : حدثنا أحمد بن محمد بن عبد الله البزار ، حدثنا عبد الله بن أحمد بن موسى ، حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد ، حدثنا عمرو بن محمد العَنْقَزِي ، حدثنا أسباط ، عن السُّدِّي ، عن أبي المِنْهَال ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "سألت ربي لأمتي أربع خصال ، فأعطاني ثلاثًا ومنعني واحدة . سألته ألا تكفر أمتي واحدة ، فأعطانيها . وسألته ألا يعذبهم بما عذب به الأمم قبلهم ، فأعطانيها . وسألته ألا يظهر عليهم عدوًا من غيرهم ، فأعطانيها . وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم ، فمنعنيها" .

ورواه ابن أبي حاتم ، عن أبي سعيد بن يحيى بن سعيد القطَّان ، عن عمرو بن محمد

العنقزي ، به نحوه (2)

طريق أخرى : وقال ابن مَرْدُوَيه : حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم ، حدثنا محمد بن يحيى ، حدثنا أبو كُرَيب ، حدثنا زيد بن الحُباب ، حدثنا كثير بن زيد الليثي المدني ، حدثني الوليد بن رباح مولى آل أبي ذُبَاب ، سمع أبا هريرة يقول : قال النبي صلى الله عليه وسلم : "سألت ربي ثلاثا ، فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة . سألته ألا يسلط على أمتي عدوًا من غيرهم فأعطاني . وسألته ألا يهلكهم بالسنين ، فأعطاني . وسألته ألا يلبسهم شيعا وألا يذيق بعضهم بأس بعض ، فمنعني" .

ثم رواه ابن مَرْدُوَيه بإسناده عن سعد بن سعيد بن أبي سعيد المقبري ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، بنحوه . ورواه البزار من طريق عمر بن سلمة ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه (3)

---

(1) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (374/11) من طريق أبي الدرداء المروزي به ، وفي إسناده من لم أعرفهم .

(2) ورواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (4336) "مجمع البحرين" من طريق القطيعي عن عمرو بن محمد العنقزي به . قال الهيثمي في المجمع (222/7) : "رجاله ثقات" .

(3) مسند البزار برقم (3290) "كشف الأستار" .

(44/236)

---

أثر آخر : قال سفيان ، الثوري عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب قال : أربعة من هذه الأمة : قد مضت ثنتان ، وبقيت ثنتان : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ قال : الرجم . ﴿ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال : الخسف . ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال سفيان : يعني : الرجم والخسف . وقال أبو جعفر الرازي ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال : فهي أربع خلال ، منها ثنتان بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين سنة ، أُلبِسوا شيعًا ، وذاق بعضهم بأس بعض ، وبقيت اثنتان لا بد منهما واقعتان الرجم والخسف .

(45/236)

---

ورواه أحمد ، عن وكيع ، عن أبي جعفر . ورواه ابن أبي حاتم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا المنذر بن شاذان ، حدثنا أحمد بن إسحاق ، حدثنا أبو الأشهب ، عن الحسن ، في قوله : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ [عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا] ﴾ الآية ، قال : حبست عقوبتها حتى عمل ذنبها ، فلما عمل ذنبها أرسلت عقوبتها .

وهكذا قال سعيد بن جُبَيْر ، وأبو مالك ومجاهد ، والسُّدّي وابن زيد في قوله : ﴿ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ يعني : الرجم . ﴿ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ يعني : الخسف . وهذا هو اختيار ابن جرير .

ورواه ابن جرير ، عن يونس ، عن ابن وَهْب ، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال : كان عبد الله بن مسعود [رضي الله عنه] يصيح وهو في المجلس - أو على المنبر - يقول : ألا أيها الناس ، إنه قد نزل بكم .

إن الله يقول : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ [أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ] ﴾ لو جاءكم عذاب من السماء ، لم يبق منكم أحدا ﴿ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ لو خسف بكم الأرض أهلككم ، لم يبق منكم أحدا ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ ألا إنه نزل بكم أسوأ الثلاث .

قول ثان : قال ابن جرير وابن أبي حاتم : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وَهْب ، سمعت خلاد بن سليمان يقول : سمعت عامر بن عبد الرحمن يقول : إن ابن عباس كان يقول في هذه الآية : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ فأما العذاب من فوقكم ، فأئمة السوء ﴿ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ فخدم السوء .

*(46/236)*

---

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ يعني : أمراءكم . ﴿ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ يعني : عبيدكم وسفلتكم .

وحكى ابن أبي حاتم ، عن أبي سنان وعمير بن هانئ ، نحو ذلك .

وقال ابن جرير : وهذا القول وإن كان له وجه صحيح ، لكن الأول أظهر وأقوى .

وهو كما قال ابن جرير ، رحمه الله ، ويشهد له بالصحة قوله تعالى : ﴿ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ * [وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ] ﴾ [الملك : 16 - 18] ، وفي الحديث : "ليكونن في هذه الأمة قَذْفٌ وخَسْفٌ ومَسْخٌ" (1) وذلك مذكور مع نظائره في أمارات الساعة وأشراطها وظهور الآيات

(1) رواه أحمد في مسنده (163/2) من حديث عبد الله بن عمرو ، رضي الله عنه .

*(47/236)*

---

قبل يوم القيامة ، وستأتي في موضعها إن شاء الله تعالى .

وقوله : ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ﴾ أي : يجعلكم ملتبسين شيعا فرقا متخالفين . قال الوالبي ، عن ابن عباس : يعني : الأهواء وكذا قال مجاهد وغير واحد .

وقد ورد في الحديث المروي من طرق عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة" .

وقوله : ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال ابن عباس وغير واحد : يعني يسلط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل .

وقوله : ﴿ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ﴾ أي : نبينها ونوضحها ونُقَرِّرُهَا ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ أي : يفهمون ويتدبرون عن الله آياته وحججه وبراهينه .

قال زيد بن أسلم : لما نزلت ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ [أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ] ﴾ الآية ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رِقاب بعض بالسيوف . قالوا : ونحن نشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك

رسول الله ؟ قال : " نعم " . فقال بعض الناس : لا يكون هذا أبدا ، أن يقتل بعضنا بعضا ونحن مسلمون ، فنزلت : ﴿ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ * وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ * لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

رواه ابن أبي حاتم وابن جرير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 269 . 277 ﴾

*(48/236)*

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾

وكلمة " قادر " تعني تمام التمكن وأنه لا قدرة ولا حيلة لأحد حيال قدرة الله ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يملي للقوم الظالمين ويمد لهم الأمر ثم يأخذهم بغتة بالعذاب ، وقد يأتي العذاب من فوقهم كما جاء لقوم أبرهة الذين أرادوا هدم الكعبة ، فسلط عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، جعلتهم كعصف مأكول ، وهناك من أخذهم الحق بالصيحة ، وهناك من أهلكتهم بريح صرصر عاتية ، وكل ذلك عذاب جاء من فوق تلك الأقوام . أما قارون فقد خسف الله به وبداره الأرض ، وكذلك قوم فرعون أغرقتهم المياه ، وهذه

هي التحتية . فالعذاب قد يأتي من فوق أو من تحت الأرجل حسّياً ، وقد يأتي أيضاً من فوقيّة أو تحتيّة معنوية ، ومثال ذلك العذاب الذي يسلطه الله على الطغاة الكبار المستبدين ، وقد يأتي العذاب من الفئات الفقيرة التي تعيش أسفل السلم الاجتماعي .

﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [ الأنعام : 65 ] .

والمقصود بلبس الأمر أي خلطه بصورة لا يتبينها الرائي . و" شيعاً " هي جمع " شيعة " . والشيعة هم : المتعاونون على أمر ولو كان باطلا ، ويجمعهم عليه كلمة واحدة وحركة واحدة وغاية واحدة . والمقصود بقوله الحق : ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ﴾ أي أن كل جماعة منكم تتفرق ويكون لكل منهم أمير ، وتختلط الأمور بين الاختلافات المذهبية التي تختفي وراء الأهواء ، وبذلك يذيق الله الناس بأس بعضهم بعضاً .

*(49/236)*

---

ولماذا كل ذلك ؟ لأن الناس ما دامت قد انفرطت عن منهج الله نجد الحق يترك بعضهم لبعض ويتولى كل قوم إذاقة غيرهم العذاب . ولكن أُغيّر ذلك في ملك الله ونواميسه الثابتة من شيء ؟ أبداً ، فالسماء هي السماء ، والأرض بعناصرها هي الأرض ، والشمس هي الشمس ، والقمر هو القمر ، والنجوم هي النجوم ، والمطر هو المطر .

إن الذي يحدث فقط هو أن يذيق الله الناس بعضهم بأس بعض ، ويصير كل بعض من الناس ظالماً للبعض الآخر . وعندما نرى الناس تشكو ، نعلم أن الناس كلها مذنبة ، ومادام الكل قد أذنب وخرج عن منهج الله فلا بد أن يسلط الحق بعضنا على بعض حتى يعرف الجميع أنهم قد انفلتوا عن منهج الله لذلك يلقون المتاعب ، ولن يرتاحوا إلا إذا عادوا إلى أحضان منهج الله ؛ لأن منهج الله يمنع أن يتكبر إنسان مؤمن على أخيه المؤمن . والكل يسجد لإله واحد . ولهذا وضع الحق لنا العبادات الجماعية حتى يرى الضعيف في سلطان الدنيا القوي في السلطان وهو يشترك معه في السجود للإله الواحد .

مثال ذلك ما نراه من طواف الناس حول الكعبة في ملابس الإحرام ، إن من بين الذين يطوفون قوما من وجهاء الناس وأصحاب الرتب العالية والمنازل الرفيعة ، ومن بين هؤلاء أيضاً نجد الذين لا يحتلون إلا المكانة الضئيلة ، ويرى الضعيف نفسه مساوياً لمن في المركز الاجتماعي القوي .

الكل يقف أمام ربّه وهو ذليل ويمسك بأستار الكعبة باكياً . ويريد سبحانه بذلك استطراق الغرور بين المؤمنين ويكون الناس جميعا أمام الله وفي بيته على سواء . ﴿ قُلْ هُوَ القادر على أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظر كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيات لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [ الأنعام : 65 ] .

وها نحن أولاء نرى كيف أن الحق يلبس الناس شيعاً ، إننا نرى المنسوبين إلى الإسلام يذبح بعضهم بعضاً لسنوات طويلة . وإذا كان هؤلاء وأولئك طائفتين مؤمنتين تتقاتلان فأين الطائفة الثالثة التي تفصل بين الطائفتين مصداقاً لقوله الحق : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا على الأخرى فَقَاتِلُواْ التي تَبْغِي حتى تفياء إلى أَمْرِ الله فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بالعدل وأقسطوا إِنَّ الله يُحِبُّ المقسطين ﴾ [ الحجرات : 9 ] .

ها هوذا الدم المنسوب إلى الإسلام يسيل ، ويزداد عدد الضحايا ، ومن العجيب أن الآخرين يقفون موقف المتفرج ، أو يمدون كل طائفة بأدوات الدمار . وذلك يدل على أن المسألة طامة وعامة .

والقاعدة التي قلناها من قبل لا تتغير ، القاعدة أنه لا يوجد صراع بين حقين ؛ لأنه لا يوجد في الأمر الواحد إلا حق واحد . ولا يطول أبداً الصراع بين الحق والباطل ؛ لأن الباطل زهوق وزائل . ولكن الصراع إنما يطول بين باطلين ؛ لأن أحدهما ليس أولى من الآخر بأن ينصره الله .

ومثال آخر كنا نراه في بلد كلبنان – إبان الحرب الأهلية – وكان الصراع الدائر هناك يكاد يوضح لنا أن كل فرد صار طائفة بمفرده ، وكل إنسان منهم له هواه ، وكل إنسان يذيق غيره

العذاب ويذوق من غيره العذاب .

﴿ انظر كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيات لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [ الأنعام : 65 ] .

وينوع سبحانه الحجج والبراهين ويأتي لهم بالأحداث والنوازل حتى يتبين للجميع أنه لا راحة أبداً في الانفلات عن منهج الله حتى يفقهوا . والفقه هو شدة الفهم . والمقصود أن نأخذ ونتفهم العظة من كل الآيات التي يجريها الحق أمامنا عسانا نرجع إلى مراد الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(51/236)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (65) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ قال : يعني من أمرائكم ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ يعني سفلتكم ﴿ أو يلبسكم شيعاً ﴾ يعني بالشيع الأهواء المختلفة ﴿ ويذيق بعضكم

بأس بعض ﴾ قال : يسلط بعضكم على بعض بالقتل والعذاب .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ من وجه آخر عن ابن عباس في قوله ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ قال : أئمة السوء ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ قال : خدم السوء .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ عذاباً من فوقكم ﴾ قال : من قبل أمرائكم وأشرافكم ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ قال : من قبل سفلتكم وعبيدكم .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن أبي مالك ﴿ عذاباً من فوقكم ﴾ قال : القذف ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ قال : الخسف .

وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ قال : الصيحة والحجارة والريح ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ قال : الرجفة والخسف وهما عذاب أهل التكذيب ﴿ ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ قال : عذاب أهل الاقرار . ؟

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ عذاباً من فوقكم ﴾ قال : الحجارة ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ قال : الخسف ﴿ أو يلبسكم شيعاً ﴾ قال : الاختلاف والاهواء المفترقة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : عذاب هذه الأمة أهل الاقرار بالسيف ﴿ أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ وعذاب أهل التكذيب الصيحة والزلزلة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والبخاري والترمذي والنسائي ونعيم بن حماد في الفتن وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن جابر بن عبد الله قال : " لما نزلت هذه الآية ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعوذ بوجهك ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ قال : أعوذ بوجهك ﴿ أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ قال : هذا أهون أو أيسر " .

وأخرج ابن مردويه عن جابر قال : " لما نزلت ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعوذ بالله من ذلك ﴿ أو يلبسكم شيعاً ﴾ قال : هذا أيسر ولو استعاذه لأعاذه " .

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه ونعيم بن حماد في الفتن وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم : " " في هذه الآية ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم ﴾ فقال النبي صلى الله عليه

وسلم : أما انها كائنة ولم يأت تأويلها بعد " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية من طريق أبي العالية عن أبي بن كعب في قوله ﴿ قل هو القادر . . . ﴾ الآية . قال : هن أربع وكلهن عذاب ، وكلهن واقع لا محالة ، فمضت اثنتان بعد وفاة رسول صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين سنة ، فألبسوا شيعاً وذاق بعضهم بأس بعض ، وبقيت اثنتان واقعتان لا محالة ، الخسف والرجم .

*(53/236)*

---

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : " لما نزلت هذه الآية ﴿ قل هو القادر ﴾ قام النبي صلى الله عليه وسلم فتوضأ ، ثم قال " اللهم لا ترسل على أمتي عذاباً من فوقهم ، ولا من تحت أرجلهم ، ولا تلبسهم شيعاً ، ولا تذق بعضهم بأس بعض ، فأتاه جبريل فقال : إن الله قد أجار أمتك أن يرسل عليهم عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم " " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : دعوت ربي أن يدفع عن أمتي أربعاً ، فرفع عنهم اثنتين وأبى أن يرفع عنهم اثنتين : دعوت ربي أن يرفع عنهم الرجم من السماء ، والغرق من الأرض ، وأن لا يلبسهم شيعاً ، وأن لا يذيق بعضهم

بأس بعض ، فرفع عنهم الرجم والغرق ، وأبى أن يرفع القتل والهرج " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم وأبو الشيخ وابن مردويه وابن خزيمة وابن حبان عن سعد بن أبي وقاص " أن النبي صلى الله عليه وسلم أقبل ذات يوم من العالية ، حتى إذا مر بمسجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتين وصلينا معه ، ودعا ربه طويلاً ثم انصرف إلينا فقال : سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة ، سألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها ، وسألته أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها " .

وأخرج ابن مردويه عن معاوية بن أبي سفيان قال : " خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " تحدثون من آخركم وفاة ؟ قلنا : أجل . قال : فإني من أوّلكم وفاة وتتبعوني أفناداً يهلك بعضكم بعضاً ، ثم نزع هذه الآية ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ حتى بلغ ﴿ لكل نبإ مستقر وسوف تعلمون ﴾ " " .

*(54/236)*

---

وأخرج أحمد وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة والبزار وابن حبان والحاكم وصححه واللفظ له وابن مردويه عن ثوبان " أنه سمع رسول الله صلى الله عليه

وسلم يقول : إن ربي روي لي الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها ، وأعطاني الكنزين الأحمر والأبيض ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها ، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة فأعطانيها ، وسألته أن لا يسلط عليها عدواً من غيرهم فأعطانيها ، وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها ، وقال : يا محمد إني إذاً قضيت قضاء لم يرد ، إني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكها بسنة عامة ، ولا أظهر عليهم عدواً من غيرهم فيستبيحهم بعامة ، ولو اجتمع من بين أقطارها حتى يكون بعضهم هو يهلك بعضاً وبعضهم هو يسبي بعضاً ، وإني لا أخاف على أمتي إلا الأئمة المضلين ، ولن تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين ، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان ، وإذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنها إلى يوم القيامة ، وأنه قال : كلها يوجد في مائة سنة ، وسيخرج في أمتي كذابون ثلاثون ، كلهم يزعم أنه نبي الله ، وأنا خاتم الأنبياء لا نبي بعدي ، ولن يزال في أمتي طائفة يقاتلون على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله . قال وزعم أنه لا ينزع رجل من أهل الجنة شيئاً من ثمرها إلا أخلف الله مكانها مثلها ، وأنه قال : ليس دينار ينفقه رجل بأعظم أجراً من دينار ينفقه على عياله ، ثم دينار ينفقه على فرسه في سبيل الله ، ثم دينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله . قال : وزعم أن نبي الله عظم شأن المسألة وأنه إذا كان يوم القيامة جاء أهل الجاهلية يحملون أوثانهم على ظهورهم ، فيسألهم ربهم ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون : ربنا لم ترسل إلينا رسولاً ولم يأتنا امر . فيقول : أرأيتم إن أمرتكم بأمر

تطيعوني ؟ فيقولون : نعم . فيأخذ مواثيقهم على ذلك فيأمرهم أن يعمدوا لجهنم فيدخلونها ، فينطلقون حتى إذا جاءوها رأوا

(55/236)

---

لها تغيظاً وزفيراً فهابوا ، فرجعوا إلى ربهم فقالوا : ربنا فرقنا منها . فيقول : ألم تعطوني مواثيقكم لتطيعن ، اعمدوا إليها فادخلوا . فينطلقون حتى إذا رأوها فرقوا فرجعوا ، فيقول : ادخلوها داخرين . قال نبي الله صلى الله عليه وسلم : لو دخلوها أوّل مرة كان عليهم برداً وسلاماً " .

وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن عبد الله بن عبد الله بن جابر بن عتيك عن جابر بن عتيك قال : جاءنا عبد الله بن عمرو في بني معاوية وهي قرية من قرى الأنصار ، فقال لي : هل تدري أين صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجدكم هذا ؟ قلت : نعم . وأشرت له إلى ناحية منه فقال : هل تدري ما الثلاث التي دعا بهن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ؟ قلت : نعم . فقال أخبرني بهن . قلت : دعا أن لا يظهر عليهم عدواً من غيرهم ، ولا يهلكهم بالسنين فاعطيها ، ودعا بأن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعها .

قال : صدقت لا يزال الهرج إلى يوم القيامة .

وأخرج أحمد والطبراني وابن مردويه عن أبي نضرة الغفاري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال . " سألت ربي أربعاً فأعطاني ثلاثاً ومنعني واحدة ، سألت الله أن لا يجمع أمتي على ضلالة فأعطانيها ، وسألت الله أن لا يظهر عليهم عدواً من غيرهم فأعطانيها ، وسألت الله أن لا يهلكهم بالسنين كما أهلك الأمم فأعطانيها ، وسألت الله أن لا يلبسهم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها " .

وأخرج أحمد والنسائي وابن مردويه عن أنس قال : " رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر صلى سبحة الضحى ثمان ركعات ، فلما انصرف قال " إني صليت صلاة رغبة ورهبة ، سألت ربي ثلاثاً فأعطاني إثنتين ومنعني واحدة ، سألته أن لا يبتلي أمتي بالسنين ففعل ، وسألته أن لا يظهر عليها عدوهم ففعل ، وسألته أن لا يلبسهم شيعاً فأبى عليّ " " .

*(56/236)*

---

وأخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه عن حذيفة بن اليمان قال " خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى حرة بني معاوية ، واتبعت أثره حتى ظهر عليها فصلى الضحى ثماني ركعات ، فأطال فيهن ثم التفت إلي فقال : إني سألت الله ثلاثاً فأعطاني إثنتين ومنعني واحدة ،

سألته أن لا يسلط على أمتي عدوّاً من غيرهم فأعطاني ، وسألته أن لا يهلكهم بغرق فأعطاني ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعني " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " سألت ربي ثلاثاً فأعطاني إثنتين ومنعني واحدة ، سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنين ففعل ، وسألت ربي أن لا يسلط على أمتي عدواً لها ففعل ، وسألت ربي أن لا يهلك أمتي بعضها ببعض فمنعنيها " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " صليت صلاة رغباً ورهباً ودعوت دعاء رغباً ورهباً حتى فرج لي عن الجنة ، فرأيت عناقيدها فهويت أن أتناول منها شيئاً فخوفت بالنار ، فسألت ربي ثلاثاً فأعطاني إثنتين وكف عني الثالثة ، سألته أن لا يظهر على أمتي عدوها ففعل ، وسألته أن لا يهلكها بالسنين ففعل ، وسألته أن لا يلبسها شيعاً ولا يذيق بعضها بأس بعض فكفها عني " .

*(57/236)*

---

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن شداد قال : " فقد معاذ بن جبل أو سعد بن معاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجده قائماً يصلي في الحرة ، فأتاه فتنحنح ، فلما انصرف

قال : يا رسول الله رأيتك صليت صلاة لم تصل مثلها ؟ قال " صليت صلاة رغبة ورهبة ، سألت ربي فيها ثلاثاً فأعطاني إثنتين ومنعني واحدة ، سألته أن لا يهلك أمتي جوعاً ففعل ، ثم قرأ ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين . . . ﴾ [ الأعراف : 130 ] الآية . وسألته أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم ففعل ، ثم قرأ ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ﴾ [ الفتح : 28 ] إلى آخر الآية ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعني ، ثم قرأ ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ إلى آخر الآية ، ثم قال : لا يزال هذا الذين ظاهراً على من ناوأهم " " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والترمذي وصححه والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن خباب بن الأرت في قوله ﴿ أو يلبسكم شيعاً ﴾ قال : " راقب خباب النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ، حتى إذا كان في الصبح قال له : يا نبي الله لقد رأيتك تصلي هذه الليلة صلاة ما رأيتك تصلي مثلها ؟ قال " أجل إنها صلاة رغبة ورهبة ، سألت ربي فيها ثلاث خصال فأعطاني إثنتين ومنعني واحدة ، سألته أن لا يهلكنا بما أهلكت به الأمم قبلكم فأعطاني ، وسألته أن لا يسلط علينا عدواً من غيرنا فأعطاني ، وسألته أن لا يلبسنا شيعاً فمنعني " " .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق نافع بن خالد الخزاعي عن أبيه " أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى صلاة خفيفة تامة الركوع والسجود ، فقال : قد كانت صلاة رغبة

ورهبة ، فسألت الله فيها ثلاثاً فأعطاني إثنتين وبقي واحدة ، سألت الله أن لا يصيبكم بعذاب أصاب به قبلكم فأعطانيها ، وسألت الله أن لا يسلط عليكم عدواً يستبيح بيضتكم فأعطانيها ، وسألته أن لا يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض فمنعنيها " .

*(58/236)*

---

وأخرج الطبراني عن خالد الخزاعي وكان من أصحاب الشجرة قال : " صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم صلاة فأخف وجلس فأطال الجلوس ، فلما انصرف قلنا : يا رسول الله أطلت الجلوس في صلاتك ؟ قال : " إنها صلاة رغبة ورهبة ، سألت الله فيها ثلاث خصال فأعطاني إثنتين ومنعني واحدة ، سألته أن لا يسحتكم بعذاب أصاب من كان قبلكم فأعطانيها ، وسألته أن لا يسلط على بيضتكم عدواً فيجتاحها فأعطانيها ، وسألته أن لا يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض فمنعنيها "

وأخرج نعيم بن حماد في كتاب الفتن عن ضرار بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " في قوله ﴿ أو يلبسكم شيعاً ﴾ قال : أربع فتن : تأتي فتنة الأولى يستحل فيها الدماء ، والثانية يستحل فيها الدماء والأموال ، والثالثة يستحل فيها الدماء والأموال والفروج ، والرابعة عمياء مظلمة تمور مور البحر ، تنتشر حتى لا يبقى بيت من العرب إلا

دخلته " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن شداد بن أوس يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال " إن الله زوى لي الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها ، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوي لي منها ، وأني أعطيت الكنزين الأحمر والأبيض ، وإني سألت ربي أن لا يهلك قومي بسنة عامة ، وأن لا يلبسهم شيعاً ولا يذيق بعضهم بأس بعض . فقال : يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد ، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة ، ولا أسلط عليهم عدواً من سواهم فيهلكوهم حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ، وبعضهم يقتل بعضاً ، وبعضهم يسبي بعضاً ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إني أخاف على أمتي الأئمة المضلين ، فإذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة " .

*(59/236)*

---

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن ماجة وابن المنذر واللفظ له وابن مردويه عن معاذ بن جبل قال : " صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة فأطال قيامها وركوعها وسجودها ، فلما انصرف قلت : يا رسول الله لقد أطلت اليوم الصلاة ؟ فقال " إنها صلاة

رغبة ورهبة ، إني سألت ربي ثلاثاً فأعطاني إثنتين ومنعني واحدة ، سألت ربي أن لا يسلط على أمتي عدواً من سواهم فيهلكهم عامة فأعطانيها ، وسألته أن لا يسلط عليهم سنة فتهلكهم عامة فأعطانيها ، ولفظ أحمد ، وابن ماجة ، وسألته أن لا يهلكهم غرقاً فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها " " .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " سألت ربي لأمتي أربع خصال فأعطاني ثلاثاً ومنعني واحدة ، سألته أن لا تكفر أمتي واحدة فأعطانيها ، وسألته أن لا يظهر عليهم عدواً من غيرهم فأعطانيها ، وسألته أن لا يعذبهم بما عذب به الأمم من قبلهم فأعطانيها ، وسألته لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها " .

وأخرج ابن جرير عن الحسن قال " لما نزلت هذه الآية ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً ﴾ قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فتوضأ ، فسأل ربه أن لا يرسل عليهم عذاباً من فوقهم ، أو من تحت أرجلهم ، ولا يلبس أمته شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض كما أذاق بني إسرائيل ، فهبط إليه جبريل فقال : يا محمد إنك سألت ربك أربعاً فأعطاك إثنتين ومنعك إثنتين ، لن يأتيهم عذاب من فوقهم ولا من تحت أرجلهم يستأصلهم ، فإنهما عذابان لكل أمة اجتمعت على تكذيب نبيها ورد كتاب ربها ، ولكنهم يلبسهم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض وهذان عذابان لأهل الإقرار بالكتب والتصديق بالأنبياء ولكن يعذبون بذنوبهم ، وأوحى الله إليه ﴿ فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون ﴾ [

الزخرف : 41 ] يقول : من أمتك ، أو نرينك الذي وعدناهم من العذاب وأنت حي فإنا عليهم مقتدرون .

*(60/236)*

---

فقام نبي الله صلى الله عليه وسلم فراجع ربه فقال : أي مصيبة أشد من أن أرى أمتي يعذب بعضها بعضاً ، وأوحى إليه ﴿ آلمَ ، أحسب الناس أن يتركوا ﴾ [ العنكبوت : 1-2 ] الآيتين . فأعلمه أن أمته لم تخص دون الأمم بالفتن ، وأنها ستبتلى كما ابتليت الأمم ، ثم أنزل عليه ﴿ قل رب إما تريني ما يوعدون رب فلا تجعلني في القوم الظالمين ﴾ [ المؤمنون : 93 ] فتعوذ نبي الله فأعاذه الله لم ير من أمته إلا الجماعة والألفة والطاعة ، ثم أنزل عليه آية حذر فيها أصحاب الفتنة ، فأخبره أنه إنما يخص بنها ناس منهم من دون ناس فقال ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ [ الأنفال : 25 ] فخص بها أقواماً من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بعده ، وعصم بها أقواماً " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال : " لما نزلت ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً ﴾ الآية . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض بالسيوف ، فقالوا : ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وإنك

رسول الله ؟ قال : نعم . فقال بعض الناس : لا يكون هذا أبداً ، فأنزل الله ﴿ انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون ، وكذب به قومك وهو الحق ﴾ إلى قوله ﴿ وسوف تعلمون ﴾ " " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن في قولة ﴿ عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم ﴾ قال : هذا للمشركين ﴿ أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ قال : هذا للمسلمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

*(61/236)*

---

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (56) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (65) ﴾

هذه الموجة عودة إلى " حقيقة الألوهية " بعد بيان " حقيقية الرسالة وحقيقة الرسول " في الموجة السابقة لها في السياق المتلاحم ؛ وبعد استبانة سبيل المجرمين واستبانة سبيل المؤمنين – كما ذكرنا ذلك في نهاية الفقرة السابقة .

وحقيقة الألوهية في هذه الموجة تتجلى في مجالات شتى ؛ نجملها هنا – قبل تفصيلها في استعراض النصوص القرآنية :

تتجلى في قلب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو يجد في نفسه بينة من ربه ، هو منها على يقين ، لا يزعزعه تكذيب المكذبين . ومن ثم يخلص نفسه لربه ، ويفاصل قومه مفاصلة المستيقن من ضلالهم يقينه من هداه ﴿ قل : إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله . قل : لا أتبع أهواءكم ، قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين . قل : إني على بينة من ربي وكذبتم به . ما عندي ما تستعجلون به ، إن الحكم إلا لله ، يقص الحق وهو خير الفاصلين ﴾ . .

*(62/236)*

---

وتتجلى في حلم الله على المكذبين ، وعدم استجابته لاقتراحاتهم أن ينزل عليهم خارقة مادية حتى لا يعجل لهم بالعذاب عند تكذيبهم بها – كما جرت سنته تعالى – وهو قادر

عليه . ولو كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يملك هذا الذي يستعجلون به ، ما أمسكه عنهم ، ولضاقت بشريته بهم وبتكذيبهم . فإمهالهم هذا الإمهال هو مظهر من مظاهر حلم الله ورحمته ، كما أنها مجال تتجلى فيه ألوهيته : ﴿ قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم ، والله أعلم بالظالمين ﴾ . .

وتتجلى في علم الله بالغيب ؛ وإحاطة هذا العلم بكل ما يقع في هذا الوجود ؛ في صورة لا تكون إلا لله ؛ ولا يصورها هكذا إلا الله : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ . .

وتتجلى في هيمنة الله على الناس وقهره للعباد في كل حالة من حالاتهم ، في النوم والصحو ، في الموت والحياة ، في الدنيا والآخرة : ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ، ثم إليه مرجعكم ، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة ، حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا ، وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق . ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾ .

وتتجلى في فطرة المكذبين أنفسهم ، حين يواجهون الهول ؛ فلا يدعون إلا الله لرفعه عنهم . . ثم هم مع ذلك يشركون ، وينسون أن الله ، الذي يدعونه لكشف الضر ، قادر على أن يذيقهم ألوان العذاب فلا يدفعه عنهم أحد : ﴿ قل : من ينجيكم من ظلمات البر والبحر

تدعونه تضرعاً وخفية : لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين ؟ قل : الله ينجيكم منها ومن كل كرب ، ثم أنتم تشركون .

(63/236)

---

قل : هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم ، أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض . انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون ﴾ .

﴿ قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله . قل لا أتبع أهواءكم . قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين . . قل إني على بينة من ربي – وكذبتم به – ما عندي ما تستعجلون به . إن الحكم إلا لله يقص الحق ، وهو خير الفاصلين . قل : لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم ، والله أعلم بالظالمين ﴾ . .

تحتشد هذه الموجة بالمؤثرات الموحية ، التي تتمثل في شتى الإيقاعات التي تواجه القلب البشري بحقيقة الألوهية في شتى مجاليها . . ومن بين هذه المؤثرات العميقة ، ذلك الإيقاع المتكرر : " قل . . قل . . قل . . " خطاباً لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – ليبلغ عن ربه ، ما يوحيه إليه ؛ وما لا يملك غيره ؛ ولا يتبع غيره ؛ ولا يستوحي غيره :

﴿ قل : إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله . قل : لا أتبع أهواءكم . قد ظللت

إذاً ، وما أنا من المهتدين ﴾ . .

يأمر الله – سبحانه – رسوله – صلى الله عليه وسلم – أن يواجه المشركين بأنه منهي من ربه عن عبادة الذين يدعونهم من دون الله ويتخذونهم أنداداً لله . . ذلك أنه منهي عن اتباع أهوائهم – وهم إنما يدعون الذين يدعون من دون الله عن هوى لا عن علم ، ولا عن حق – وأنه إن يتبع أهواءهم هذه يضل ولا يهتدي . فما تقوده أهواؤهم وما تقودهم إلا إلى الضلال .

يأمر الله – سبحانه – نبيه – صلى الله عليه وسلم – أن يواجه المشركين هذه المواجهة ، وأن يفاصلهم هذه المفاصلة ؛ كما أمره من قبل في السورة بمثل هذا وهو يقول : ﴿ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل : لا أشهد . قل : إنما هو إله واحد ، وإنني بريء مما تشركون ﴾ . .

*(64/236)*

---

ولقد كان المشركون يدعون رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يوافقهم على دينهم ، فيوافقوه على دينه ! وأن يسجد لآلهتم فيسجدوا لإلهه ! كأن ذلك يمكن أن يكون ! وكأن الشرك والإسلام يجتمعان في قلب ! وكأن العبودية لله يمكن أن تقوم مع العبودية لسواه ! وهو

أمر لا يكون أبداً . فالله أغنى الشركاء عن الشرك . وهو يطلب من عباده أن يخلصوا له العبودية ؛ ولا يقبل منهم عبوديتهم له إذا شابوها بشيء من العبودية لغيره . . في قليل أو كثير . .

ومع أن المقصود في الآية أن يواجههم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بأنه منهي عن عبادة أيٍّ مما يدعون ويسمون من دون الله ، فإن التعبير ب ﴿ الذين ﴾ في قوله تعالى : ﴿ قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ﴾ .

.

يستوقف النظر . فكلمة الذين تطلق على العقلاء . ولو كان المقصود هي الأوثان ، والأصنام وما إليها لعبر ب " ما " بدل " الذين " . . فلا بد أن يكون المقصود بالذين نوعاً آخر – مع الأصنام والأوثان وما إليها – نوعاً من العقلاء الذين يعبر عنهم بالاسم الموصول : " الذين " فغلب العقلاء ، ووصف الجميع بوصف العقلاء . . وهذا الفهم يتفق مع الواقع من جهة ؛ ومع المصطلحات الإسلامية في هذا المقام من جهة :

فمن جهة الواقع نجد أن المشركين ما كانوا يشركون بالله الأصنام والأوثان وحدها . ولكن كانوا يشركون معه الجن والملائكة والناس . . وهم ما كانوا يشركون الناس إلا في أن يجعلوا لهم حق التشريع للمجتمع وللأفراد . حيث يسنون لهم السنن ، ويضعون لهم التقاليد ؛ ويحكمون بينهم في منازعاتهم وفق العرف والرأي . .

وهنا نصل إلى جهة المصطلحات الإسلامية . . فالإسلام يعتبر هذا شركاً ؛ ويعتبر أن تحكيم الناس في أمور الناس تأليه لهم ؛ وجعلهم أنداداً من دون الله . . وينهى الله عنه نهيه عن السجود للأصنام والأوثان ؛ فكلاهما في عرف الإسلام سواء . . شرك بالله ، ودعوة أنداد من دون الله !

*(65/236)*

---

ثم يجيء الإيقاع الثاني موصولاً بالإيقاع الأول ومتمماً له :

﴿ قل : إني على بينة من ربي ؛ وكذبتم به ، ما عندي ما تستعجلون به . إن الحكم إلا لله ، يقص الحق ، وهو خير الفاصلين ﴾ . .

وهو أمر من الله – سبحانه – لنبيه – صلى الله عليه وسلم – أن يجهر في مواجهة المشركين المكذبين بربهم – بما يجده في نفسه من اليقين الواضح الراسخ ، والدليل الداخلي البين ، والإحساس الوجداني العميق ، بربه . . ووجوده ، ووحدانيته ، ووحيه إليه . وهو الشعور الذي وجده الرسل من ربهم ، وعبروا عنه مثل هذا التعبير أو قريباً منه :

قالها نوح – عليه السلام – : ﴿ قال : يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ، وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم ؟ أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟ ﴾ وقالها صالح – عليه

السلام – : ﴿ قال : يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة ، فمن ينصرني من الله إن عصيته ؟ فما تزيدونني غير تخسير ﴾ وقالها إبراهيم – عليه السلام – : ﴿ وحاجه قومه . قال : أتحاجوني في الله وقد هدان ؟ ﴾ وقالها يعقوب – عليه السلام – لبنيه : ﴿ فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً . قال ألم أقل لكم : إني أعلم من الله ما لا تعلمون ؟ ﴾ فهي حقيقة الألوهية كما تتجلى في قلوب أوليائه ؛ ممن يتجلى الله لهم في قلوبهم ؛ فيجدونه – سبحانه – حاضراً فيها ؛ ويجدون هذه الحقيقة بينة هنالك في أعماقهم تسكب في قلوبهم اليقين بها .

وهي الحقيقة التي يأمر الله نبيه أن يجهر بها في مواجهة المشركين المكذبين ؛ الذين يطلبون منه الخوارق لتصديق ما جاءهم به من حقيقة ربه ، الحقيقة التي يجدها هو كاملة واضحة عميقة في قلبه :

﴿ قل إني على بينة من ربي ، وكذبتم به ﴾ . .

*(66/236)*

---

كذلك كانوا يطلبون أن ينزل عليهم خارقة أو ينزل بهم العذاب ، ليصدقوا أنه جاءهم من عند الله . . وكان يؤمر أن يعلن لهم حقيقة الرسالة وحقيقة الرسول ؛ وأن يفرق فرقاناً

كاملاً بينها وبين حقيقة الألوهية ؛ وأن يجهر بأنه لا يملك هذا الذي يستعجلونه ؛ فالذي يملكه هو الله وحده ؛ وهو ليس إلهاً ، إنما هو رسول :

﴿ ما عندي ما تستعجلون به ، إن الحكم إلا لله ، يقص الحق وهو خير الفاصلين ﴾ . .

إن إيقاع العذاب بهم بعد مجيء الخارقة وتكذيبهم بها حكم وقضاء ؛ ولله وحده الحكم والقضاء . فهو وحده الذي يقص الحق ويخبر به ؛ وهو وحده الذي يفصل في الأمر بين الداعي إلى الحق والمكذبين به . وليس هذا أو ذلك لأحد من خلقه .

وبذلك يجرد الرسول – صلى الله عليه وسلم – نفسه من أن تكون له قدرة ، أو تدخل في شأن القضاء الذي ينزله الله بعباده . فهذا من شأن الألوهية وحدها وخصائصها ، وهو بشر يوحى إليه ، ليبلغ وينذر ؛ لا لينزل قضاء ويفصل . وكما أن الله سبحانه هو الذي يقص الحق ويخبر به ؛ فهو كذلك الذي يقضي في الأمر ويفصل فيه . . وليس بعد هذا تنزيه وتجريد لذات الله – سبحانه – وخصائصه ، عن ذوات العبيد . .

ثم يؤمر أن يلمس قلوبهم وعقولهم ويلفتها إلى دلالة قوية على أن هذا الأمر من عند الله ، ومتروك لمشيئة الله . فلو أن أمر الخوارق – بما فيها إنزال العذاب – في مقدوره – وهو بشر – ما استطاع أن يمسك نفسه عن الاستجابة لهم ، وهم يلحفون هذا الإلحاف . ولكن لأن الأمر بيد الله وحده ، فهو يحلم عليهم ؛ فلا يجيئهم بخارقة يتبعها العذاب المدمر ، إن هم كذبوا بها كما فعل بمن قبلهم :

﴿ قل : لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم ، والله أعلم بالظالمين ﴾ . .

إن للطاقة البشرية حدوداً في الصبر والحلم والإمهال . وما يحلم على البشر ويمهلهم – على عصيانهم وتمردهم وتبجحهم – إلا الله الحليم القوي العظيم . .

*(67/236)*

---

وصدق الله العظيم . . فإن الإنسان ليرى من بعض الخلق ما يضيق به الصدر ، وتبلغ منه الروح الحلقوم . . ثم ينظر فيجد الله – سبحانه – يسعهم في ملكه ، ويطعمهم ، ويسقيهم ، ويغدق أحياناً عليهم ، ويفتح عليهم أبواب كل شيء . . وما يجد الإنسان إلا أن يقول قولة أبي بكر – رضي الله عنه – والمشركون يضربونه الضرب المبرح الغليظ ، حتى ما يعرف له أنف من عين : " رب ما أحلمك ! رب ما أحلمك ! " .

. فإنما هو حلم الله وحده . . وهو يستدرجهم من حيث لا يعلمون !

﴿ والله أعلم بالظالمين ﴾ . .

فهو يمهلهم عن علم ، ويملي لهم عن حكمة ، ويحلم عليهم وهو قادر على أن يجيبهم إلى ما يقترحون ، ثم ينزل بهم العذاب الأليم . .

وبمناسبة علم الله – سبحانه – بالظالمين ؛ واستطراداً في بيان حقيقة الألوهية ؛ يجلي هذه الحقيقة في مجال ضخم عميق من مجالاتها الفريدة . . مجال الغيب المكنون ، وعلم الله المحيط بهذا الغيب إحاطته بكل شيء ، ويرسم صورة فريدة لهذا العلم ؛ ويرسل سهاماً بعيدة المدى تشير إلى آماده وآفاقه من بعيد :

﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس ، إلا في كتاب مبين ﴾ . .

إنها صورة لعلم الله الشامل المحيط ؛ الذي لا يند عنه شيء في الزمان ولا في المكان ، في الأرض ولا في السماء ، في البر ولا في البحر ، في جوف الأرض ولا في طباق الجو ، من حي وميت ويابس ورطب . .

ولكن أين هذا الذي نقوله نحن – بأسلوبنا البشري المعهود – من ذلك النسق القرآني العجيب ؟ وأين هذا التعبير الإحصائي المجرد ، من ذلك التصوير العميق الموحي ؟

*(68/236)*

---

إن الخيال البشري لينطلق وراء النص القصير يرتاد آفاق المعلوم والمجهول ، وعالم الغيب وعالم الشهود ، وهو يتبع ظلال علم الله في أرجاء الكون الفسيح ، ووراء حدود هذا

الكون المشهود . . وإن الوجدان ليرتعش وهو يستقبل الصور والمشاهد من كل فج وواد . وهو يرتاد – أو يحاول أن يرتاد – أستار الغيوب المختومة في الماضي والحاضر والمستقبل ؛ البعيدة الآماد والآفاق والأغوار . . مفاتحها كلها عند الله ؛ لا يعلمها إلا هو . . ويجول في مجاهل البر وفي غيابات البحر ، المكشوفة كلها لعلم الله . ويتبع الأوراق الساقطة من أشجار الأرض ، لا يحصيها عد ، وعين الله على كل ورقة تسقط . هنا وهنا وهناك . ويلحظ كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض لا تغيب عن عين الله . ويرقب كل رطب وكل يابس في هذا الكون العريض ، لا يند منه شيء عن علم الله المحيط . .

إنها جولة تدير الرؤوس ، وتذهل العقول . جولة في آماد من الزمان ، وآفاق من المكان ، وأغوار من المنظور والمحجوب ، والمعلوم والمجهول . . جولة بعيدة موغلة مترامية الأطراف ، يعيا بتصور آمادها الخيال . . وهي ترسم هكذا دقيقة كاملة شاملة في بضع كلمات . .

ألا إنه الإعجاز !

وننظر إلى هذه الآية القصيرة من أي جانب فنرى هذا الإعجاز ، الناطق بمصدر هذا القرآن .

ننظر إليها من ناحية موضوعها ، فنجزم للوهلة الأولى بأن هذا كلام لا يقوله بشر ؛ فليس عليه طابع البشر . . إن الفكر البشري – حين يتحدث عن مثل هذا الموضوع : موضوع شمول العلم وإحاطته – لا يرتاد هذه الآفاق .

. إن مطارح الفكر البشري وانطلاقاته في هذا المجال لها طابع آخر ولها حدود . إنه ينتزع تصوراته التي يعبر عنها من اهتماماته . . فما اهتمام الفكر البشري بتقصي وإحصاء الورق الساقط من الشجر ، في كل أنحاء الأرض ؟ إن المسألة لا تخطر على بال الفكر البشري ابتداء . لا يخطر على باله أن يتتبع ويحصي ذلك الورق الساقط في أنحاء الأرض . ومن ثم لا يخطر له أن يتجه هذا الاتجاه ولا أن يعبر هذا التعبير عن العلم الشامل ! إنما الورق الساقط شأن يحصيه الخالق ؛ ويعبر عنه الخالق !

وما اهتمام الفكر البشري بكل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض ؟ إن أقصى ما يحفل به بنو البشر هو الحب الذي يخبأونه هم في جوف الأرض ويرتقبون إنباته . . فأما تتبع كل حبة مخبوءة في ظلمات الأرض ؛ فمما لا يخطر للبشر على بال أن يهتموا به ، ولا أن يلحظوا وجوده ، ولا أن يعبروا به عن العلم الشامل ! إنما الحب المخبوء في ظلمات الأرض شان يحصيه الخالق ، ويعبر عنه الخالق !

وما اهتمام الفكر البشري بهذا الإطلاق : ﴿ ولا رطب ولا يابس ﴾ . . إن أقصى ما يتجه إليه تفكير البشر هو الانتفاع بالرطب واليابس مما بين أيديهم . . فأما التحدث عنه

كدليل للعلم الشامل . فهذا ليس من المعهود في اتجاه البشر وتعبيراتهم كذلك ! إنما كل رطب وكل يابس شأن يحصيه الخالق ، ويعبر عنه الخالق !

ولا يفكر البشر أن تكون كل ورقة ساقطة ، وكل حبة مخبوءة ، وكل رطب وكل يابس في كتاب مبين ، وفي سجل محفوظ . . فما شأنهم بهذا ، وما فائدته لهم ؟ وما احتفالهم بتسجيله ؟ إنما الذي يحصيه ويسجله هو صاحب الملك ، الذي لا يند عنه شيء في ملكه . . الصغير كالكبير ؛ والحقير كالجليل ؛ والمخبوء كالظاهر ؛ والمجهول كالمعلوم ؛ والبعيد كالقريب . .

*(70/236)*

---

إن هذا المشهد الشامل الواسع العميق الرائع . . مشهد الورق الساقط من شجر الأرض جميعاً ، والحب المخبوء في أطواء الأرض جميعاً ، والرطب واليابس في أرجاء الأرض جميعاً . . إن هذا المشهد كما أنه لا يتجه إليه الفكر البشري والاهتمام البشري ؛ وكذلك لا تلحظه العين البشرية ؛ ولا تلم به النظرة البشرية . . إنه المشهد الذي يتكشف هكذا بجملته لعلم الله وحده ؛ المشرف على كل شيء ، المحيط بكل شيء . . الحافظ لكل شيء ، الذي تتعلق مشيئته وقدره بكل شيء . . الصغير كالكبير ، والحقير كالجليل ، والمخبوء

كالظاهر ، والمجهول كالمعلوم ، والبعيد كالقريب . .

والذين يزاولون الشعور ويزاولون التعبير من بني البشر يدركون جيداً حدود التصور البشري ، وحدود التعبير البشري أيضاً . ويعلمون – من تجربتهم البشرية – أن مثل هذا المشهد ، لا يخطر على القلب البشري ؛ كما أن مثل هذا التعبير لا يتأتى له أيضاً . . والذين يمارون في هذا عليهم أن يراجعوا قول البشر كله ، ليروا إن كانوا قد اتجهوا مثل هذا الاتجاه أصلاً !

وهذه الآية وأمثالها في القرآن الكريم تكفي وحدها لمعرفة مصدر هذا الكتاب الكريم .

.

كذلك ننظر إليها من ناحية الإبداع الفني في التعبير ذاته ، فنرى آفاقاً من الجمال والتناسق لا تعرفها أعمال البشر ، على هذا المستوى السامق :

﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾ . . آماد وآفاق وأغوار في " المجهول " المطلق . في الزمان والمكان ، وفي الماضي والحاضر والمستقبل ، وفي أحداث الحياة وتصورات الوجدان . .

﴿ ويعلم ما في البر والبحر ﴾ . . آماد وآفاق وآغوار في " المنظور " ، على استواء وسعة وشمول . . تناسب في عالم الشهود المشهود تلك الآماد والآفاق والأغوار في عالم الغيب المحجوب .

﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ﴾ . . حركة الموت والفناء ؛ وحركة السقوط والانحدار ، من علو إلى سفل ، ومن حياة إلى اندثار .

(71/236)

---

﴿ ولا حبة في ظلمات الأرض ﴾ . . حركة البزوغ والنماء ، المنبثقة من الغور إلى السطح ، ومن كمون وسكون إلى اندفاع وانطلاق .

﴿ ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ . . التعميم الشامل ، الذي يشمل الحياة والموت ، والأزدهار والذبول ؛ في كل حي على الإطلاق . .

فمن ذا الذي يبدع ذلك الاتجاه والانطلاق ؟ ومن ذا الذي يبدع هذا التناسق والجمال ؟ . .

من ذا الذي يبدع هذا كله وذلك كله ، في مثل هذا النص القصير . . من ؟ إلا الله !

ثم نقف أمام قوله تعالى :

﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾ . .

نقف لنقول كلمة عن ﴿ الغيب ﴾ و ﴿ مفاتحه ﴾ واختصاص الله - سبحانه - " بالعلم " بها . . ذلك أن حقيقة الغيب من " مقومات التصور الإسلامي " الأساسية ؛ لأنها من مقومات العقيدة الإسلامية الأساسية ؛ ومن قواعد " الإيمان " الرئيسية . . وذلك أن

كلمات " الغيب " و" الغيبية " تلاك في هذه الأيام كثيراً – بعد ظهور المذهب المادي – وتوضع في مقابل " العلم " و" العلمية " . . والقرآن الكريم يقرر أن هناك " غيباً " لا يعلم " مفاتحه " إلا الله . ويقرر أن ما أوتيه الإنسان من العلم قليل . . وهذا القليل إنما آتاه الله له بقدر ما يعلم هو – سبحانه – من طاقته ومن حاجته . وأن الناس لا يعلمون – فيما وراء العلم الذي أعطاهم الله إياه – إلا ظناً ، وأن الظن لا يغني من الحق شيئاً . . كما يقرر – سبحانه – أن الله قد خلق هذا الكون ، وجعل له سنناً لا تتبدل ؛ وأنه علم الإنسان أن يبحث عن هذه السنن ويدرك بعضها ؛ ويتعامل معها – في حدود طاقته وحاجته – وأنه سيكشف له من هذه السنن في الأنفس والآفاق ما يزيده يقيناً وتأكداً أن الذي جاءه من عند ربه هو الحق . . دون أن يخل هذا الكشف عن سنن الله التي لا تبديل لها ، بحقيقة " الغيب " المجهول للإنسان ، والذي سيظل كذلك مجهولاً ، ولا بحقيقة طلاقة مشيئة الله وحدوث كل شيء بقدر غيبي خاص من الله ، ينشىء هذا الحدث ويبرزه للوجود .

*(72/236)*

---

. في تناسق تام في العقيدة الإسلامية ، وفي تصور المسلم الناشىء من حقائق العقيدة . . فهذه الحقائق بجملتها – على هذا النحو المتعدد الجوانب المتناسق المتكامل – تحتاج منا

هنا – في الظلال – إلى كلمة نحاول بقدر الإمكان أن تكون مجملة ، وألا تخرج عن حدود المنهج الذي اتبعناه في الظلال أيضاً .

إن الله سبحانه يصف المؤمنين في مواضع كثيرة من القرآن بأنهم الذين يؤمنون بالغيب ؛ فيجعل هذه الصفة قاعدة من قواعد الإيمان الأساسية :

﴿ ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين : الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون ﴾ [ البقرة : 1 –5 ] .

والإيمان بالله – سبحانه – هو إيمان بالغيب . فذات الله – سبحانه – غيب بالقياس إلى البشر ؛ فإذا آمنوا به فإنما يؤمنون بغيب ، يجدون آثار فعله ، ولا يدركون ذاته ، ولا كيفيات أفعاله .

والإيمان بالآخرة كذلك ، هو إيمان بالغيب . فالساعة بالقياس إلى البشر غيب ، وما يكون فيها من بعث وحساب وثواب وعقاب كله غيب يؤمن به المؤمن ، تصديقاً لخبر الله سبحانه .

والغيب الذي يتحقق الإيمان بالتصديق به يشمل حقائق أخرى يذكرها القرآن الكريم في وصف واقع المؤمنين وعقيدتهم الشاملة :

﴿ آمن الرسول بما إنزل إليه من ربه والمؤمنون . كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . لا

نفرق بين أحد من رسله . وقالوا : سمعنا وأطعنا . غفرانك ربنا ، وإليك المصير ﴾ [ البقرة : 285 ] .

*(73/236)*

---

فنجد في هذا النص أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والمؤمنين كذلك ، كلٌّ آمن بالله – وهو غيب – وآمن بما أنزل الله على رسوله – وما أنزل الله على رسوله فيه جانب من إطلاعه – صلى الله عليه وسلم – على جانب من الغيب بالقدر الذي قدره الله – سبحانه – كما قال في الآية الأخرى : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبة أحداً إلا من ارتضى من رسول ﴾ [ الجن : 26 – 27 ] .

وآمن بالملائكة – وهي غيب – لا يعرف عنه البشر إلا ما يخبرهم به الله ، على قدر طاقتهم وحاجتهم .

ويبقى من الغيب الذي لا يقوم الإيمان إلا بالتصديق به : قدر الله – وهو غيب لا يعلمه الإنسان حتى يقع – كما جاء في حديث الإيمان : " . . . والقدر خيره وشره " . . ( اخرجه الشيخان ) .

على أن الغيب في هذا الوجود يحيط بالإنسان من كل جانب . . غيب في الماضي وغيب

في الحاضر ، وغيب في المستقبل . . غيب في نفسه وفي كيانه ، وغيب في الكون كله من حوله . . غيب في نشأة هذا الكون وخط سيره ، وغيب في طبيعته وحركته .

. غيب في نشأة الحياة وخط سيرها ، وغيب في طبيعتها وحركتها . . غيب فيما يجهله الإنسان ، وغيب فيما يعرفه كذلك !

ويسبح الإنسان في بحر من المجهول . . حتى ليجهل اللحظة ما يجري في كيانه هو ذاته فضلاً على ما يجري حوله في كيان الكون كله ؛ وفضلاً عما يجري بعد اللحظة الحاضرة له وللكون كله من حوله : ولكل ذرة ، وكل كهرب من ذرة ؛ وكل خلية وكل جزئي من خلية !

*(74/236)*

---

إنه الغيب . . إنه المجهول . . والعقل البشري – تلك الذبالة القريبة المدى – إنما يسبح في بحر المجهول . فلا يقف إلا على جزر طافية هنا وهنالك يتخذ منها معالم في الخضم . ولولا عون الله له ، وتسخير هذا الكون ، وتعليمه هو بعض نواميسه ، ما استطاع شيئاً . . ولكنه لا يشكر . . ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ بل إنه في هذه الأيام ليتبجح بما كشف الله له من السنن ، وبما آتاه من العلم القليل . . يتبجح فيزعم أحياناً أن " الإنسان يقوم وحده " ولم يعد في حاجة إلى إله يعينه ! ويتبجح أحياناً فيزعم أن " العلم " يقابل " الغيب " وأن "

العلمية " في التفكير والتنظيم تقابل " الغيبية " وأنه لا لقاء بين العلم والغيب ؛ كما أنه لا لقاء بين العقلية العلمية والعقلية الغيبية !

فلنلق نظرة على وقفة " العلم " أمام " الغيب " . . في بحوث وأقوال " العلماء " من بني البشر أنفسهم – بعد أن نقف أمام كلمة الفصل التي قالها العليم الخبير عن علم الإنسان القليل – ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ [ الإسراء : 85 ] ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ [ النجم : 29 ] وأن الغيب كله لله : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾ . . . [ الأنعام : 59 ] وأن الذي يعلم الغيب هو الذي يرى : ﴿ أم عنده علم الغيب فهو يرى ؟ ﴾ [ النجم : 35 ] . . . وهي ناطقة بذاتها عن مدلولاتها . .

*(75/236)*

---

فلنلق نظرة على وقفة " العلم " أمام " الغيب " في بحوث وأقوال العلماء من بني الإنسان لا لنصدق بها كلمة الفصل من الله سبحانه – فحاشا للمؤمن أن يصدق قول الله بقول البشر – ولكننا نقف هذه الوقفة لنحاكم الذين يلوكون كلمات العلم والغيب ، والعلمية والغيبية ، إلى ما يؤمنون هم به من قول البشر ! ليعلموا أن عليهم هم أن يحاولوا " الثقافة " و " المعرفة "

ليعيشوا في زمانهم ؛ ولا يكونوا متخلفين عن عقليته ومقررات تجاربه ! وليستيقنوا أن " الغيب " هو الحقيقة " العلمية " الوحيدة المستيقنة من وراء كل التجارب والبحوث والعلم الإنساني ذاته ! وأن " العلمية " في ضوء التجارب والنتائج الأخيرة مرادفة تماماً " للغيبية " . . أما الذي يقابل الغيبية حقاً فهو " الجهلية " ! ! ! الجهلية التي تعيش في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر – ربما – ولكنها لا تعيش في القرن العشرين ! ! !

عالم معاصر – من أمريكا – يقول عن " الحقائق " التي يصل إليها " العلم " بجملتها :

" إن العلوم حقائق مختبرة ؛ ولكنها مع ذلك تتأثر بخيال الإنسان وأوهامه ومدى بعده عن الدقة في ملاحظاته وأوصافه واستنتاجاته .

ونتائج العلوم مقبولة داخل هذه الحدود . فهي بذلك مقصورة على الميادين الكمية في الوصف والتنبؤ . وهي تبدأ بالاحتمالات ، وتنتهي بالاحتمالات كذلك . . وليس باليقين . . ونتائج العلوم بذلك تقريبية ، وعرضة للأخطاء المحتملة في القياس والمقارنات ؛ ونتائجها اجتهادية ، وقابلة للتعديل بالإضافة والحذف ، وليست نهائية . وإننا لنرى أن العالِم عندما يصل إلى قانون أو نظرية يقول : إن هذا هو ما وصلنا إليه حتى الآن ، ويترك الباب مفتوحاً لما قد يستجد من التعديلات " .

وهذه الكلمة تلخص حقيقة جميع النتائج التي وصل إليها العلم ، والتي يمكن أن يصل إليها كذلك . فطالما أن " الإنسان " بوسائله المحدودة ، بل بوجوده المحدود بالقياس إلى الأزل والأبد هو الذي يحاول الوصول إلى هذه النتائج ؛ فإنه من الحتم أن تكون مطبوعة بطابع هذا الإنسان ، ولها مثل خصائصه من كونها محدودة المدى ؛ وقابلة للخطأ والصواب ، والتعديل والتبديل . .

على أن الوسيلة التي يصل بها الإنسان إلى أية نتيجة هي التجربة والقياس . فهو يجرب ، ثم يعمم النتيجة التي يصل إليها عن طريق القياس ؛ والقياس – باعتراف العلم وأهله – وسيلة تؤدي إلى نتيجة ظنية ؛ ولا يمكن أبداً أن تكون قطعية ولا نهائية . والوسيلة الأخرى – وهي التجربة والاستقصاء بمعنى تعميم التجربة على كل ما هو من جنس ما وقعت عليه التجارب في جميع الأزمنة وفي جميع الظروف – وسيلة غير مهيأة للإنسان . وهي إحدى الوسائل الموصلة إلى نتائج قطعية . ولا سبيل إلى نتيجة قطعية وحقيقة يقينية إلا عن طريق هدى الله الذي يبينه للناس . ومن ثم يبقى علم الإنسان فيما وراء ما قرره الله له ، علماً ظنياً لا يصل إلى مرتبة اليقين بحال !

على أن " الغيب " ضارب حول الإنسان فيما وراء ما يصل إليه علمه الظني ذاك . . . هذا الكون من حوله . . إنه ما يزال يضرب في الفروض والنظريات حول مصدره ونشأته

وطبيعته وحول حركته ، وحول " الزمان " ما هو وحول " المكان " وارتباطه بالزمان وارتباط ما يجري في الكون بالزمان والمكان .

والحياة . ومصدرها . ونشأتها . وطبيعتها . وخط سيرها . والمؤثرات فيها . وارتباطها بهذا الوجود " المادي " ! إن كان هناك في الكون مادة على الإطلاق ذات طبيعة غير طبيعة " الفكر " وغير طبيعة الطاقة على العموم !

" والإنسان " ما هو ؟ ما الذي يميزه من المادة ؟ وما الذي يميزه عن بقية الأحياء ؟ وكيف جاء إلى هذه الأرض وكيف يتصرف ؟ وما " العقل " الذي يتميز به ويتصرف ؟ وما مصيره بعد الموت والإنحلال ؟ .

.

*(77/236)*

---

بل هذا الكيان الإنساني ذاته ، ما الذي يجري في داخله من تحليل وتركيب في كل لحظة ؟ وكيف يجري ؟ . .

إنها كلها ميادين للغيب ، يقف العلم على حافاتها ، ولا يكاد يقتحمها ، حتى على سبيل الظن والترجيح . وإن هي إلا فروض واحتمالات !

ولندع ما لا يشغل العلم به نفسه – إلا قليلاً في هذا القرن – من حقيقة الألوهية ، وحقيقة العوالم الأخرى من ملائكة وجن وخلق لا يعلمه إلا الله . ومن حقيقة الموت ، وحقيقة الآخرة . وحقيقة الحساب والجزاء . . لندع هذا كله لحظة ففي " الغيب " القريب ، الكفاية ، ومن هذا الغيب يقف العلم وقفة التسليم ، الذي لا يخرج عنه إلا من يؤثرون المراء على " العلم " والتبجح على الإخلاص !

ونضرب بعض الأمثال . .

1 – في قاعدة بناء الكون وسلوكه :

الذرة – فيما يقول العلم الحديث – قاعدة بناء الكون . وليست هي أصغر وحدة في بناء هذا العالم . فهي مؤلفة من بروتونات ( طاقة كهربية موجبة ) والكترونات ( طاقة كهربية سالبة ) ونيوترونات ( طاقة محايدة مكونة من طاقة كهربائية موجبة وطاقة كهربائية سالبة متعادلتين ساكنتين ) وحين تحطم الذرة تتحرر الكهارب ( الإلكترونات ) ولكنها لا تسلك في المعمل سلوكاً حتمياً موحداً . فهي تسلك مرة كأنها أمواج ضوئية ومرة كأنها قذائف . ولا يمكن تحديد سلوكها المقبل مقدماً . وإنما هي تخضع لقانون آخر – غير الحتمية – هو قانون الاحتمالات . وكذلك تسلك الذرة نفسها ، والمجموعة المحدودة من الذرات ( في صورة جزيئات ) هذا السلوك .

يقول سير جيمس جينز – الإنجليزي – الأستاذ في الطبيعيات والرياضيات :

" لقد كان العلم القديم يقرر تقرير الواثق ، أن الطبيعة لا تستطيع أن تسلك إلا طريقاً واحداً : وهو الطريق الذي رسم من قبل ، لتسير فيه من بداية الزمن إلى نهايته ، وفي تسلسل مستمر بين علة ومعلول ، وألا مناص من أن الحالة ( أ ) تتبعها الحالة ( ب ) أما العلم الحديث فكل ما يستطيع أن يقوله حتى الآن هو : أن الحالة ( أ ) يحتمل أن تتبعها ( ب ) أو ( ج ) أو ( د ) أو غيرها من الحالات الأخرى التي يخطئها الحصر . نعم إن في استطاعته أن يقول : إن حدوث الحالة ( ب ) أكثر أحتمالاً من حدوث الحالة ( ج ) وإن الحالة ( ج ) أكثر احتمالاً من الحالة ( د ) . . وهكذا . بل إن في مقدوره أن يحدد درجة احتمال كل حالة من الحالات ( ب ) و( ج ) و( د ) بعضها بالنسبة إلى بعض . ولكنه لا يستطيع أن يتنبأ عن يقين : أي الحالات تتبع الأخرى . لأنه يتحدث دائماً عما يحتمل . أما ما يجب أن يحدث فأمره موكول إلى الأقدار – مهما تكن حقيقة هذه الأقدار ! " .

فماذا يكون " الغيب " وماذا يكون قدر الله المغيب عن علم الإنسان ، إن لم يكن هو هذا الذي تنتهي إليه تجارب العلم الإنساني ، وتقف على عتباته في صلب الكون وذراته ؟

ويضرب مثلاً لذلك إشعاع ذرات الراديوم ، وتحولها إلى رصاص وهليوم . . وهي خاضعة تماماً لقدر مجهول ، وغيب مستور ، يقف دونه علم الإنسان :

(79/236)

---

" ولنضرب لذلك مثلاً مادياً يزيده وضوحاً : من المعروف أن ذرات الراديوم وغيره من المواد ذات النشاط الإشعاعي ، تتفكك بمجرد مرور الزمن عليها ، وتخلف وراءها ذرات من الرصاص والهليوم . ولهذا فإن كتلة من الراديوم ينقص حجمها باستمرار ، ويحل مكانها رصاص وهليوم . والقانون العام الذي يتحكم في معدل التناقص غريب غاية الغرابة . ذلك أن كمية من الراديوم تنقص بنفس الطريقة التي ينقص بها عدد من السكان ، إذا لم تجد عليهم مواليد ، وكانت نسبة تعرض كل منهم للوفاة واحدة بغض النظر عن السن ؛ أو أنها تنقص كما ينقص عدد أفراد كتيبة من الجند معرضين لنيران ترسل عليهم اعتباطاً ، ومن غير أن يكون أحدهم مقصوداً لذاته . ومجمل القول إنه ليس لكبر السن أثر ما في ذرة الراديوم الواحدة . فإنها لا تموت لأنها قد استوفت حظها من الحياة ، بل لأن المنية قد أصابتها خبط عشواء .

" ولنوضح هذه الحقيقة بمثل مادي فنقول : إذا فرض أن بحجرتنا ألفين من ذرات الراديوم .

فإن العلم لا يستطيع أن يقول : كم منها يبقى حياً بعد عام . بل كل ما يستطيعه هو أن يذكر فقط الاحتمالات التي ترجح بقاء 2000 أو 1999 أو 1998 ، وهكذا . وأكثر الأمور احتمالاً في الواقع هو أن يكون العدد 1999 ، أي أن أرجح الاحتمالات هو أن ذرة واحدة لا أكثر من الألفي ذرة ، هي التي تتحلل في العام التالي .

*(80/236)*

---

" ولسنا ندري بأية طريقة تختار تلك الذرة المعينة من بين هذه الألفي ذرة . وقد نشعر في بادىء الأمر بميل إلى افتراض أن هذه الذرة ستكون هي التي تتعرض للاصطدام أكثر من غيرها ، أو التي تقع في أشد الأمكنة حرارة ، أو التي يصادفها غير هذا أو ذاك من الأسباب في العام التالي . ولكن هذا كله غير صحيح ، لأنه إذا كان في استطاعة الصدمات أو الحرارة أن تفكك ذرة واحدة ، فإن في استطاعتها أيضاً أن تفكك ال 1999 ذرة الباقية ، ويكون في استطاعتنا أن نعجل بتفكيك الراديوم بمجرد ضغطه أو تسخينه ؛ ولكن كل عالم من علماء الطبيعة يقرر أن ذلك مستحيل ؛ بل هو يعتقد على الأرجح أن الموت يصيب في كل عام ذرة واحدة من كل 2000 من ذرات الراديوم ، ويضطرها إلى أن تتفكك . وهذه هي نظرية " التفكك التلقائي " التي وضعها " رذرفورد " و" سدي " في عام 1903 .

فكيف إذن يكون القدر الغيبي إن لم يكن هو هذا الذي تتشعع به الذرات على غير اختيار منها ولا من أحد . وعلى غير علم منها ولا من أحد ؟ !

إن الرجل الذي يقول هذا الكلام ، لا يريد أن يثبت به القدر الإلهي المغيب عن الناس . بل إنه ليحاول جاهداً أن يهرب من ضغط النتائج التي ينتهي إليها العلم البشري ذاته . ولكن حقيقة الغيب تفرض نفسها عليه فرضاً على النحو الذي نراه !

2 – وكما تفرض حقيقة " الغيب " نفسها على قاعدة بناء الكون وحركته ، فهي كذلك تفرض نفسها على قاعدة انبثاق الحياة وحركتها بنفس القوة في النتائج التي ينتهي إليها العلم البشري .

يقول عالم الأحياء والنبات " رسل تشارلز إرنست " الأستاذ بجامعة فرانكفورت بألمانيا :

*(81/236)*

---

" لقد وضعت نظريات عديدة لكي تفسر نشأة الحياة من عالم الجمادات ؛ فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة قد نشأت من البروتوجين ، أو من الفيروس ، أو من تجمع بعض الجزئيات البروتينية الكبيرة . وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوة التي تفصل بين عالم الأحياء وعالم الجمادات . ولكن الواقع الذي ينبغي أن نسلم به هو أن

جميع الجهود التي بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية ، قد باءت بفشل وخذلان ذريعين . ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع على أن مجرد تجمع الذرات والجزيئات عن طريق المصادفة ، يمكن أن يؤدي إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التي شاهدناها في الخلايا الحية . وللشخص مطلق الحرية في أن يقبل هذا التفسير لنشأة الحياة ، فهذا شأنه وحده ! ولكنه إذ يفعل ذلك ، فإنما يسلم بأمر أشد إعجازاً وصعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله ، الذين خلق الأشياء ودبرها .

" إنني أعتقد أن كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقد درجة يصعب علينا فهمها . وأن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرته شهادة تقوم على الفكر والمنطق . ولذلك فإنني أؤمن بوجود الله إيماناً راسخاً " .

*(82/236)*

---

والذي يهمنا هنا من هذه الشهادة هو أن سر الحياة ونشأتها غيب من غيب الله ، كنشأة الكون وحركته ؛ وأن ليس لدى البشر عن ذلك إلا الاحتمالات . وصدق الله العظيم : ﴿ ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم ﴾ 3 – ونخطو خطوة واسعة

لنصل إلى الإنسان . . إن الدفقة الواحدة من ماء الرجل تحتوي على نحو ستين مليوناً من الحيوانات المنوية . . كلها تدخل في سباق لتلحق بالبويضة في رحم المرآة . . ولا يعلم أحد من الذي يسبق ! فهو غيب ، أو هو قدر غيبي لا علم للبشر به – بما فيهم الرجل والمرأة صاحبا الدور في هذا الأمر ! – ثم يصل السابق من بين ستين مليوناً ! ويلتحم مع البويضة ليكوّنا معاً خلية واحدة ملقحة هي التي ينتج منها الجنين .

ولما كانت كل كروموسومات البويضة مؤنثة ، بينما كروموسومات الحيوان المنوي بعضها مذكر وبعضها مؤنث ؛ فإن غلبة عدد كروموسومات التذكير أو كروموسومات التأنيث في الحيوان المنوي الذي يلتحم بالبويضة ، هو الذي يقرر مصير الجنين – ذكراً أو أنثى – وهذا خاضع لقدر الله الغيبي لا علم به ولا دخل للبشر – بما فيهم أبوا الجنين أنفسهما : ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد . وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾ [ الرعد : 8 – 9 ] ﴿ لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكراناً وإناثا ويجعل من يشاء عقيماً ، إنه عليم قدير ﴾ [ الشورى : 49 – 50 ] ﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك ، لا إله إلا هو فأنى تصرفون ؟ ﴾ [ الزمر : 6 ] .

هذا هو " الغيب " الذي يقف أمامه " العلم " البشري ؛ ويواجهه في القرن العشرين . . بينما الذين يعيشون على فتات القرون الماضية يزعمون أن " الغيبية " تنافي " العلمية " . وأن المجتمع الذي يريد أن يعيش بعقلية علمية ينبغي له أن يتخلص من العقلية الغيبية ! ذلك بينما العلم البشري ذاته . . علم القرن العشرين . . يقول : إن كل ما يصل إليه من النتائج هو " الاحتمالات " ! وإن الحقيقة المستيقنة الوحيدة هي أن هنالك " غيباً " لا شك فيه !

على أننا قبل أن نغادر هذه الوقفة المجملة أمام حقيقة الغيب ، ينبغي أن نقول كلمة عن طبيعة " الغيب " في العقيدة الإسلامية ، وفي التصور الإسلامي ، وفي العقلية الإسلامية .

إن القرآن الكريم – وهو المصدر الأساسي للعقيدة الإسلامية التي تنشىء التصور الإسلامي والعقلية الإسلامية – يقرر أن هناك عالماً للغيب وعالماً للشهادة . فليس كل ما يحيط بالإنسان غيباً ، وليس كل ما يتعامل معه من قوى الكون مجهولاً . .

إن هنالك سنناً ثابتة لهذا الكون ؛ يملك " الإنسان " أن يعرف منها القدر اللازم له ، حسب طاقته وحسب حاجته ، للقيام بالخلافة في هذه الأرض . وقد أودعه الله القدرة على معرفة هذا القدر من السنن الكونية ؛ وعلى تسخير قوى الكون وفق هذه السنن للنهوض بالخلافة ، وتعمير الأرض ، وترقية الحياة ، والانتفاع بأقواتها وأرزاقها وطاقاتها . .

وإلى جانب هذه السنن الثابتة – في عمومها – مشيئة الله الطليقة ؛ لا تقيدها هذه السنن

وإن كانت من عملها . وهناك قدر الله الذي يُنفذ هذه السنن في كل مرة تنفذ فيها . فهي ليست آلية بحتة ، فالقدر هو المسيطر على كل حركة فيها ؛ وإن جرت وفق السنة التي أودعها الله إياها .

وهذا القدَر الذي يُنفذ هذه السنن في كل مرة تنفذ فيها " غيب " لا يعلمه أحد علم يقين ؛ وأقصى ما يصل إليه الناس هو الظنون و" الاحتمالات " . . وهذا ما يعترف به العلم البشري أيضاً . .

*(84/236)*

---

وإن ملايين الملايين من العمليات لتتم في كيان الإنسان في اللحظة الواحدة ؛ وكلها " غيب " بالقياس إليه ، وهي تجري في كيانه ! ومثلها ملايين ملايين العمليات التي تتم في الكون من حوله ؛ وهو لا يعلمها !

وإن الغيب ليحيط بماضيه وماضي الكون . وحاضره وحاضر الكون . ومستقبله ومستقبل الكون . . وذلك مع وجود السنن الثابتة ، التي يعرف بعضها ، وينتفع بها انتفاعاً علمياً منظماً في النهوض بعبء الخلافة .

وإن " الإنسان " ليجيء إلى هذا العالم على غير رغبة منه ولا علم بموعد قدومه ! وإنه

ليذهب عن هذا العالم على غير رغبة منه ولا علم بموعد رحيله ! . . وكذلك كل شيء حي . . ومهما تعلم ومهما عرف ، فإن هذا لن يغير من هذا الواقع شيئاً !

إن العقلية الإسلامية عقلية " غيبية علمية " لأن " الغيبية " هي " العلمية " بشهادة " العلم " والواقع . . أما التنكر للغيب فهو " الجهلية " التي يتعالم أصحابها وهم بهذه الجهالة !

وإن العقلية الإسلامية لتجمع بين الاعتقاد بالغيب المكنون الذي لا يعلم مفاتحه إلا الله ؛ وبين الاعتقاد بالسنن التي لا تتبدل ، والتي تمكن معرفة الجوانب اللازمة منها لحياة الإنسان في الأرض ، والتعامل معها على قواعد ثابته . . فلا يفوت المسلم " العلم " البشري في مجاله ، ولا يفوته كذلك إدراك الحقيقة الواقعة ؛ وهي أن هنالك غيباً لا يُطلع الله عليه أحداً ، إلا من شاء بالقدر الذي يشاء . .

*(85/236)*

---

والإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها " الفرد " فيتجاوز مرتبة " الحيوان " الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه ، إلى مرتبة " الإنسان " الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدود الذي تدركه الحواس – أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس – وهي نقلة بعيدة الأثر في تصور الإنسان لحقيقة الوجود كله ، ولحقيقة وجوده الذاتي ، ولحقيقة

القوى المنطلقة في كيان هذا الوجود ؛ وفي إحساسه بالكون ، وما وراء الكون من قدرة وتدبير . كما أنها بعيدة الآثر في حياته على الأرض . فليس من يعيش في الحيز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته ؛ ويتلقى أصداءه وإيحاءاته في أطوائه وأعماقه ؛ ويشعر أن مداه أوسع في الزمان والمكان من كل ما يدركه وعيه في عمره القصير المحدود ؛ وأن وراء الكون . . ظاهره وخافيه . . حقيقة أكبر من الكون ، هي التي صدر عنها ، واستمد من وجودها وجوده . . حقيقة الذات الإلهية التي لا تدركها الأبصار ، ولا تحيط بها العقول .

. . . " لقد كان الإيمان بالغيب هو مفرق الطريق في ارتقاء الإنسان عن عالم البهيمة . ولكن جماعة الماديين في هذا الزمان – كجماعة الماديين في كل زمان – يريدون أن يعودوا بالإنسان القهقرى . . إلى عالم البهيمة ، الذي لا وجود فيه لغير المحسوس ! ويسمون هذا " تقدمية " ! وهو النكسة التي وقى الله المؤمنين إياها . فجعل صفتهم المميزة هي صفة : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ . . والحمد لله على نعمائه ؛ والنكسة للمنتكسين والمرتكسين " .

والذين يتحدثون عن " الغيبية " و" العلمية " يتحدثون كذلك عن " الحتمية التاريخية " كأن كل المستقبل مستيقن ! و" العلم " في هذا الزمان يقول : إن هناك " احتمالات " وليست هنالك " حتميات " !

ولقد كان ماركس من المتنبئين " بالحتميات " ! ولكن أين نبوءات ماركس اليوم ؟

لقد تنبأ بحتمية قيام الشيوعية في انجلترا ، نتيجة بلوغها قمة الرقي الصناعي ومن ثم قمة الرأسمالية في جانب والفقر العمالي في جانب آخر . . فإذا الشيوعية تقوم في أكثر الشعوب تخلفاً صناعياً . . في روسيا والصين وما إليها . . ولا تقوم قط في البلاد الصناعية الراقية !

ولقد تنبأ لينين وبعده ستالين بحتمية الحرب بين العالم الرأسمالي والعالم الشيوعي . وها هو ذا خليفتهما " خروشوف " يحمل راية " التعايش السلمي " !

ولا نمضي طويلاً مع هذه " الحتميات " التنبؤية ! فهي لا تستحق جدية المناقشة !

إن هنالك حقيقة واحدة مستيقنة هي حقيقة الغيب ، وكل ما عداها احتمالات . وإن هنالك حتمية واحدة هي وقوع ما يقضي به الله ويجري به قدره . وقدر الله غيب لا يعلمه إلا هو . وإن هنالك – مع هذا وذلك – سنناً للكون ثابتة ، يملك الإنسان أن يتعرف إليها ، ويستعين بها في خلافة الأرض ، مع ترك الباب مفتوحاً لقدر الله النافذ ؛ وغيب الله المجهول . . وهذا قوام الأمر كله . . ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ ومن علم الله الشامل بمفاتح الغيب ، وبما يجري في جنبات الكون ، ينتقل السياق إلى مجال من مجالات هذا العلم الشامل ، في ذوات البشر ، ومجال كذلك من مجالات الهيمنة الإلهية ، بعد العلم

المحيط :

﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ، ثم إليه مرجعكم ، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ . .

بضع كلمات أخرى ، كالتي رسمت آفاق الغيب وآماده وأغواره ، وأشارت إلى مدى العلم الإلهي وشموله في الآية السابقة . . بضع كلمات أخرى تضم حياة البشرية كلها في قبضة الله - سبحانه - وفي علمه وقدره وتدبيره . . صحوهم ومنامهم . . موتهم وبعثهم . حشرهم وحسابهم . . ولكن على " طريقة القرآن " المعجزة في الإحياء والتشخيص ، وفي لمس المشاعر واستجاشتها ، مع كل صورة وكل مشهد وكل حركة يرسمها تعبيره العجيب .

﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ﴾ . .

*(87/236)*

---

فهي الوفاة إذن حين يأخذهم النعاس ؛ هي الوفاة في صورة من صورها بما يعتري الحواس من غفلة ، وما يعتري الحس من سهوة ، وما يعتري العقل من سكون ، وما يعتري الوعي من سبات - أي انقطاع - وهو السر الذي لا يعلم البشر كيف يحدث ؛ وإن عرفوا ظواهره وآثاره ؛ وهو " الغيب " في صورة من صوره الكثيرة المحيطة بالإنسان . . وهؤلاء هم البشر

مجردين من كل حول وطول – حتى من الوعي – ها هم أولاء في سبات وانقطاع عن الحياة . ها هم أولاء في قبضة الله – كما هم دائماً في الحقيقة – لا يردهم إلى الصحو والحياة الكاملة إلا إرادة الله . . فما أضعف البشر في قبضة الله !

﴿ ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ . .

فما تتحرك جوارحهم لأخذ أو ترك ، إلا وعند الله علم بما كسبت من خير أو شر . .

وهؤلاء هم البشر مراقبين في الحركات والسكنات ؛ لا يند عن علم الله منهم شيء ، مما تكسبه جوارحهم بعد الصحو بالنهار !

﴿ ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ﴾ . .

أي يوقظكم في النهار من سباتكم وانقطاعكم ؛ لتتم آجالكم التي قضاها الله . . وهؤلاء هم البشر داخل المجال الذي قدره الله . لا مهرب لهم منه ، ولا منتهى لهم سواه !

﴿ ثم إليه مرجعكم ﴾ . .

فهي الأوبة إلى الراعي بعد انقضاء المراح !

﴿ ثم ينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ . .

فهو عرض السجل الذي وعى ما كان ، وهو العدل الدقيق الذي لا يظلم في الجزاء .

وهكذا تشمل الأية الواحدة ، ذات الكلمات المعدودة ، ذلك الشريط الحافل بالصور والمشاهد ، والمقررات والحقائق ، والإيحاءات والظلال . . فمن ذا الذي يملك أن يصنع

ذلك ؟ وكيف تكون الآيات الخوارق ، إن لم تكن هي هذه ؟ التي يغفل عنها المكذبون ، ويطلبون الخوارق المادية وما يتبعها من العذاب الأليم !

*(88/236)*

---

ولمسة أخرى من حقيقة الألوهية . . لمسة القوة القاهرة فوق العباد . والرقابة الدائمة التي لا تغفل . والقدر الجاري الذي لا يتقدم ولا يتأخر ، والمصير المحتوم الذي لا مفر منه ولا مهرب . والحساب الأخير الذي لا يني ولا يمهل . . وكله من الغيب الذي يلف البشر ويحيط بالناس :

﴿ وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة ، حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ، ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾ . .

﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ . .

فهو صاحب السلطان القاهر ؛ وهم تحت سيطرته وقهره . هم ضعاف في قبضة هذا السلطان ؛ لا قوة لهم ولا ناصر . هم عباد . والقهر فوقهم . وهم خاضعون له مقهورون . . وهذه هي العبودية المطلقة للألوهية القاهرة . . وهذه هي الحقيقة التي ينطق بها واقع الناس

- مهما ترك لهم من الحرية ليتصرفوا ، ومن العلم ليعرفوا ، ومن القدرة ليقوموا بالخلافة - إن كل نفس من أنفاسهم بقدر ؛ وكل حركة في كيانهم خاضعة لسلطان الله بما أودعه في كيانهم من ناموس لا يملكون أن يخالفوه .

وإن كان هذا الناموس يجري في كل مرة بقدر خاص حتى في النفس والحركة !

﴿ ويرسل عليكم حفظة ﴾ . .

لا يذكر النص هنا ما نوعهم . . وفي مواضع أخرى أنهم ملائكة يحصون على كل إنسان كل ما يصدر عنه . . أما هنا فالمقصود الظاهر هو إلقاء ظل الرقابة المباشرة على كل نفس . ظل الشعور بأن النفس غير منفردة لحظة واحدة ، وغير متروكة لذاتها لحظة واحدة . فهناك حفيظ عليها رقيب يحصي كل حركة وكل نأمة ؛ ويحفظ ما يصدر عنها لا يند عنه شيء . . وهذا التصور كفيل بأن ينتفض له الكيان البشري ؛ وتستيقظ فيه كل خالجة وكل جارحة . .

﴿ حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ . .

*(89/236)*

الظل نفسه ، في صورة أخرى . . فكل نفس معدودة الأنفاس ، متروكة لأجل لا تعلمه – فهو بالنسبة لها غيب لا سبيل إلى كشفه – بينما هو مرسوم محدد في علم الله ، لا يتقدم ولا يتأخر . وكل نفس موكل بأنفاسها وأجلها حفيظ قريب مباشر حاضر ، لا يغفو ولا يغفل ولا يهمل – فهو حفيظ من الحفظة – وهو رسول من الملائكة – فإذا جاءت اللحظة المرسومة الموعودة – والنفس غافلة مشغولة – أدى الحفيظ مهمته ، وقام الرسول برسالته . . وهذا التصور كفيل كذلك بأن يرتعش له الكيان البشري ؛ وهو يحس بالقدر الغيبي يحيط به ؛ ويعرف أنه في كل لحظة قد يُقبض ، وفي كل نفس قد يحين الأجل المحتوم .

﴿ ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ . .

مولاهم الحق من دون الآلهة المدعاة . . مولاهم الذي أنشأهم ، والذي أطلقهم للحياة ما شاء . . في رقابته التي لا تغفل ولا تفرط . . ثم ردهم إليه عندما شاء ؛ ليقضي فيهم بحكمه بلا معقب :

﴿ ألا له الحكم ، وهو أسرع الحاسبين ﴾ . .

فهو وحده يحكم ، وهو وحده يحاسب . وهو لا يبطىء في الحكم ، ولا يمهل في الجزاء . . ولذكر السرعة هنا وقعه في القلب البشري . فهو ليس متروكاً ولو إلى مهلة في الحساب !

وتصور المسلم للأمر على هذا النحو الذي توحي به أصول عقيدته في الحياة والموت والبعث والحساب ، كفيل بأن ينزع كل تردد في إفراد الله سبحانه بالحكم – في هذه الأرض

- في أمر العباد . .

إن الحساب والجزاء والحكم في الآخرة ، إنما يقوم على عمل الناس في الدنيا ؛ ولا يحاسب الناس على ما اجترحوا في الدنيا إلا أن تكون هناك شريعة من الله تعين لهم ما يحل وما يحرم ، مما يحاسبون يوم القيامة على أساسه ؛ وتوحد الحاكمية في الدنيا والآخرة على هذا الأساس . .

*(90/236)*

---

فأما حين يحكم الناس في الأرض بشريعة غير شريعة الله ؛ فعلام يحاسبون في الآخرة ؟ أيحاسبون وفق شريعة الأرض البشرية التي كانوا يحكمون بها ؛ ويتحاكمون إليها ؟ أم يحاسبون وفق شريعة الله السماوية التي لم يكونوا يحكمون بها ؛ ولا يتحاكمون إليها ؟ إنه لا بد أن يستيقن الناس أن الله محاسبهم على أساس شريعته هو لا شريعة العباد . وأنهم إن لم ينظموا حياتهم ، ويقيموا معاملاتهم - كما يقيمون شعائرهم وعباداتهم - وفق شريعة الله في الدنيا ، فإن هذا سيكون أول ما يحاسبون عليه بين يدي الله . وأنهم يومئذ سيحاسبون على أنهم لم يتخذوا الله - سبحانه - إلهاً في الأرض ؛ ولكنهم اتخذوا من دونه أرباباً متفرقة . وأنهم محاسبون إذن على الكفر بألوهية الله - أو الشرك به باتباعهم

شريعته في جانب العبادات والشعائر ، واتباعهم شريعة غيره في النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، وفي المعاملات والارتباطات – والله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء . .

ثم يحاكمهم إلى فطرتهم التي تعرف حقيقة الألوهية ؛ وتلتجىء إلى إلهها الحق في ساعة الشدة ؛ ويرسم لهم هذه الفطرة أمام الهول والكرب ؛ وكيف يخالفون عنها في اليسر والرخاء . . في مشهد قصير سريع ، ولكنه واضح حاسم ، وموح مؤثر .

إن الهول والكرب الذي ترتعد له الفرائص ليس مؤجلاً دائماً إلى يوم الحشر والحساب . فهم يصادفون الهول في ظلمات البر والبحر . فلا يتوجهون عند الكرب إلا لله ؛ ولا ينجيهم من الكرب إلا الله . . ولكنهم يعودون إلى ما كانوا فيه من الشرك عند اليسر والرخاء :

﴿ قل : من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ، تدعونه تضرعاً وخفية : لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين . قل : الله ينجيكم منها ومن كل كرب ، ثم أنتم تشركون ﴾ . .

إن تصور الخطر ، وتذكر الهول ، قد يردان النفوس الجامحة ، ويرققان القلوب الغليظة ، ويذكران النفس لحظات الضعف والإنابة ؛ كما يذكرانها رحمة الفرج ونعمة النجاة :

﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية : لئن أنجانا من هذه لنكون من الشاكرين ﴾ . .

إنها تجربة يعرفها كل من وقع في ضيقة ، أو رأى المكروبين في لحظة الضيق . . وظلمات البر والبحر كثيرة . وليس من الضروري أن يكون الليل لتتحقق الظلمات . فالمتاهة ظلام ، والخطر ظلام ، والغيب الذي ينتظر الخلق في البر والبحر حجاب . . وحيثما وقع الناس في ظلمة من ظلمات البر والبحر لم يجدوا في أنفسهم إلا الله يدعونه متضرعين أو يناجونه صامتين . . إن الفطرة تتعرى حينئذ من الركام ؛ فتواجه الحقيقة الكامنة في أعماقها . . حقيقة الألوهية الواحدة . . وتتجه إلى الله الحق بلا شريك ؛ لأنها تدرك حينئذ سخافة فكرة الشرك ، وتدرك انعدام الشريك ! ويبذل المكروبون الوعود :

﴿ لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾ . .

والله – سبحانه – يقول لرسوله – صلى الله عليه وسلم – ليذكرهم بحقيقة الأمر :

﴿ قل : الله ينجيكم منها ومن كل كرب ﴾ . فليس هنالك غيره يستجيب ، ويقدر على دفع الكروب .

. ثم ليذكرهم بتصرفهم المنكر العجيب :

﴿ ثم أنتم تشركون ﴾ . .

وهنا يواجههم ببأس الله الذي قد يأخذهم بعد النجاة ! فما هي مرة وتنتهي ، ثم يفلتون من

القبضة كما يتصورون :

﴿ قل : هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ، أو من تحت أرجلكم ، أو يلبسكم شيعاً ، ويذيق بعضكم بأس بعض . انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون ﴾ . .

وتصور العذاب الغامر من فوق ، أو النابع من تحت ، أشد وقعاً في النفس من تصوره آتياً عن يمين أو شمال . فالوهم قد يخيل للإنسان أنه قد يقدر على دفع العذاب من يمين أو شمال ! أما العذاب الذي يصب عليه من فوق ، أو يأخذه من تحت ، فهو عذاب غامر قاهر مزلزل ، لا مقاومة له ولا ثبات معه ! والتعبير الموحي يتضمن هذا المؤثر القوي في حس الإنسان ووهمه ، وهو يقرر حقيقة قدرة الله على أخذ العباد بالعذاب من حيث شاء وكيف شاء .

*(92/236)*

---

ويضيف إلى ألوان العذاب الداخلة في قدرة الله ؛ والتي قد يأخذ العباد بها متى شاء ؛ لوناً آخر بطيئاً طويلاً ؛ لا ينهي أمرهم كله في لحظة ؛ ولكنه يصاحبهم ويساكنهم ويعايشهم بالليل والنهار :

﴿ أو يلبسكم شيعاً ، ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ . .

وهي صورة من العذاب المقيم الطويل المديد ؛ الذي يذوقونه بأيديهم ، ويجرعونه لأنفسهم ؛ إذ يجعلهم شيعاً وأحزاباً ، متداخلة لا يتميز بعضها عن بعض ، ولا يفاصل بعضها بعضاً ، فهي أبداً في جدال وصراع ، وفي خصومة ونزاع ، وفي بلاء يصبه هذا الفريق على ذاك . .

ولقد عرفت البشرية في فترات كثيرة من تاريخها ذلك اللون من العذاب ، كلما انحرفت عن منهج الله ؛ وتركت لأهواء البشر ونزواتهم وشهواتهم وجهالتهم وضعفهم وقصورهم . . تصريف الحياة وفق تلك الأهواء والنزوات والشهوات والجهالة والضعف والقصور . وكلما تخبط الناس وهم يضعون أنظمة للحياة وأوضاعاً وشرائع وقوانين وقيماً وموازين من عند أنفسهم ؛ يتعبد بها الناس بعضهم بعضاً ؛ ويريد بعضهم أن يخضع لأنظمته وأوضاعه وشرائعه وقوانينه البعض الآخر ، والبعض الآخر يأبى ويعارض ، وأولئك يبطشون بمن يأبى ويعارض . وتتصارع رغباتهم وشهواتهم وأطماعهم وتصوراتهم . فيذوق بعضهم بأس بعض ، ويحقد بعضهم على بعض ، وينكر بعضهم بعضاً ، لأنهم لا يفيئون جميعاً إلى ميزان واحد ؛ يضعه لهم المعبود الذي يعنو له كل العبيد ، حيث لا يجد أحدهم في نفسه استكباراً عن الخضوع له ، ولا يحس في نفسه صغاراً حين يخضع له .

إن الفتنة الكبرى في الأرض هي أن يقوم من بين العباد من يدعي حق الألوهية عليهم ، ثم يزاول هذا الحق فعلاً ! إنها الفتنة التي تجعل الناس شيعاً ملتبسة ؛ لأنهم من ناحية المظهر يبدون أمة واحدة أو مجتمعاً واحداً ، ولكن من ناحية الحقيقة يكون بعضهم عبيداً لبعض ؛

ويكون بعضهم في يده السلطة التي يبطش بها – لأنها غير مقيدة بشريعة من الله – ويكون بعضهم في نفسه الحقد والتربص .

(93/236)

---

. ويذوق الذين يتربصون والذين يبطشون بعضهم بأس بعض ! وهم شيع ؛ ولكنها ليست متميزة ولا منفصلة ولا مفاصِلة !

والأرض كلها تعيش اليوم في هذا العذاب البطيء المديد !

وهذا يقودنا إلى موقف العصبة المسلمة في الأرض . وضرورة مسارعتها بالتميز من الجاهلية المحيطة – بها والجاهلية كل وضع وكل حكم وكل مجتمع لا تحكمه شريعة الله وحدها ، ولا يفرد الله سبحانه بالألوهية والحاكمية – وضرورة مفاصلتها للجاهلية من حولها ؛ باعتبار نفسها أمة متميزة من قومها الذي يؤثرون البقاء في الجاهلية ، والتقيد بأوضاعها وشرائعها وأحكامها وموازينها وقيمها .

إنه لا نجاة للعصبة المسلمة في كل أرض من أن يقع عليها هذا العذاب : ﴿ أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ . . إلا بأن تنفصل هذه العصبة عقيدياً وشعورياً ومنهج حياة عن أهل الجاهلية من قومها – حتى يأذن الله لها بقيام " دار إسلام " تعتصم بها – وإلا

أن تشعر شعوراً كاملاً بأنها هي " الأمة المسلمة " وأن ما حولها ومن حولها ، ممن لم يدخلوا فيما دخلت فيه ، جاهلية وأهل جاهلية . وأن تفاصل قومها على العقيدة والمنهج ؛ وأن تطلب بعد ذلك من الله أن يفتح بينها وبين قومها بالحق وهو خير الفاتحين .

فإذا لم تفاصل هذه المفاصلة ، ولم تتميز هذا التميز ، حق عليها وعيد الله هذا . وهو أن تظل شيعة من الشيع في المجتمع ، شيعة تتلبس بغيرها من الشيع ، ولا تتبين نفسها ، ولا يتبينها الناس مما حولها . وعندئذ يصيبها ذلك العذاب المقيم المديد ؛ دون أن يدركها فتح الله الموعود !

إن موقف التميز والمفاصلة قد يكلف العصبة المسلمة تضحيات ومشقات . . غير أن هذه التضحيات والمشقات لن تكون أشد ولا أكبر من الآلام والعذاب الذي يصيبها نتيجة التباس موقفها وعدم تميزه ، ونتيجة اندغامها وتميعها في قومها والمجتمع الجاهلي من حولها . .

*(94/236)*

---

ومراجعة تاريخ الدعوة إلى الله على أيدي جميع رسل الله ، يعطينا اليقين الجازم بأن فتح الله ونصره ، وتحقيق وعده بغلبة رسله والذين آمنوا معهم . . لم يقع في مرة واحدة ، قبل تميز

العصبة المسلمة ومفاصلتها لقومها على العقيدة وعلى منهج الحياة – أي الدين – وانفصالها بعقيدتها ودينها عن عقيدة الجاهلية ودينها – أي نظام حياتها – وأن هذه كانت هي نقطة الفصل ومفرق الطريق في الدعوات جميعاً .

وطريق هذه الدعوة واحد . ولن يكون في شأنها إلا ما كان على عهود رسل الله جميعاً ، صلوات الله عليهم وسلامه :

﴿ انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون ﴾ . .

والله نسأل أن يجعلنا ممن يصرف الله لهم الآيات فيفقهون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 2 صـ 1108.1126 ﴾

*(95/236)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " عَذَاباً مِنْ فَوقكُم " يجوز أن يكون الظَّرْفُ معلّقاً بـ " نبعث " وأن يكون متعلّقاً بمحذوف على أنه صفةٌ لـ " عذاباً " أي : كائناً من هاتين الجِهَتين .

قوله : " أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً " عطف على " يبعث " .

والجمهور على فتح الياء من "يَلْبِسَكُمْ" وفيه وجهان :

أحدهما : أنه بمعنى يخلطكم فِرقاً مختلفين على أهْوَاء شَتَّى كل فرقة مُشَايعة لإمام ، ومعنى خَلْطِهم : إنْشابُ القتالِ بيهم ، فيختلطون في ملاحم القتال كقول الحماسي : [ الكامل ]

2190 - وكَتِيبَةٍ لَبَّسْتُهَا بكَتِيبَةٍ . . .

حَتَّى إذَا الْتَبَسَتْ نَفَضْتُ لَهَا يدِي

فَتَرَكْتُهُمْ تَقِصُ الرِّمَاحُ ظُهُورَهُم . . .

مَا بَيْنَ مُنْعَفِرٍ وآخَرَ مُسْنَدِ

وهذه عبارة الزمخشري : فجعله من اللَّبْسِ الذي هو الخَلْطُ ، وبهذا التفسر الحسن ظهر تعدّي "يلبس" إلى المفعول ، و"شِيَعاً" نصب على الحال ، وهي جمع غير الصدر كقعدت جلوساً .

*(96/236)*

---

قال أبو حيَّان : "ويحتاج في جعله مصدراً إلى نقل من اللغة" .

ويجوز على هذا أيضاً أن يكون حالاً كـ "أَتَيْتُهُ رَكْضاً" أي : راكضاً ، أو ذا ركض .

وقال أبو البقاء : والجمهور على فتح الياء ، أي : يَلْبِسُ عليكم أموركم ، فحذف حرف الجر

والمفعول، والأجود أن يكون التقدير: أو يَلْبِسُ أموركم، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه.

فصل في قراءة "يلبسكم"

قرأ أبو عبد الله المدني: "يُلْبِسَكُمْ" بضم الياء من "أَلْبَسَ" رباعياً، وفيه وجهان:

أحدهما: أن يكون المفعول الثَّاني مَحْذُوفاً، تقديره أو يُلْبِسكم الفِتْنَةَ، و"شيعاً" على هذا حالٌ، أي: يلبسكم الفِتْنَةَ في حال تفرُّقكُمْ وشَتَاتِكُمْ.

الثاني: أن يكون "شيعاً" هو المفعول الثاني، كأنه جعل النَّاس يلبسن بعضهم مجازاً كقوله: [المتقارب]

2191 - لَبِسْتُ أَنَاساً فَأَفْنَيْتُهُمْ...

وأَفْنَيْتُ بَعْدَ أَنَاسٍ أَنَاسَا

والشِّيعَةُ: من يَتَقَوَّى بهم الإنسان، والجمع: "شيع" كما تقدم، و"أَشْيَاع"، كذا قال الراغب، والظاهر أن "أَشْيَاعاً" جمع "شِيعَ" كـ"عنب" و"أَعْنَاب"، و"ضِلَع" و"أَضْلاع" و"شيع" جمع "شِيْعَة" فهو جمع الجمع.

قوله: "ويُذِيقَ" نَسَقٌ على "يَبْعَث"، والإذاقَةُ اسْتِعَارَةٌ، وهي فاشية: ﴿ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القمر: 48]، ﴿ ذُقْ إِنَّكَ ﴾ [الدخان: 49]، ﴿ فَذُوقُواْ العذاب ﴾ [الأنعام: 30].

وقال : [ الوافر ]

2192 - أَذَقْنَاهُمْ كُئُوسَ المَوْتِ صِرْفاً . . .

وَذَاقُوا مِنْ أَسِنَّتِنَا كُئُوسَا

وقرأ الأعمش : " ونُذِيقَ " بنون العظمة ، وهو الْتِفَاتٌ ، فائدته تعظيم الأمر ، والتحذير من سطوَتِهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 202 . 204 ﴾ . باختصار .

*(97/236)*

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ قُلْ هُوَ القَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجَلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ﴾ .

إذا أراد الله هلاك قومٍ أمر البلاء حتى يحيط بهم سرادقه كما يحيط بالكفار غداً إذا أدركتهم العقوبة ، وخرج بعضهم على بعض ؛ حتى يتبرأ التابع من المتبوع ، والمتبوع من التابع .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ .

لا طعمَ أرداً للإنسان من طعم الإنسان : إن شِئْتَ من الولاية والمحبة ، وإن شئت في العداوة والبغضة ؛ فَمَنْ مُنِي بالبغضة مع أشكاله تنغَّصَ عليه عَيْشُه في الدنيا ، ومَنْ مُنِيَ بمحبة أمثاله تكدَّرَ عليه حالُه مع المولى ، ومن صانَه عن الخلق فهو المحفوظ ( المعاني ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 480 . 481 ﴾

*(98/236)*

---

قوله تعالى ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (66) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

﴿ و ﴾ الحال أنه ﴿ كذب به ﴾ أي هذا العذاب أو القرآن المشتمل على الوعد والوعيد والأسباب المبينة للخلق جميع ما ينفعهم ليلزموه وما يضرهم ليحذروه ﴿ قومك ﴾ أي الذين من حقهم أن يقوموا بجميع أمرك ويسروا بسيادتك ، فإن القبيلة إذا ساد أحدها عزت به ، فإن عزه عزها وشرفه شرفها ، ولا سيما إذا كان من بيت الشرف ومعدن السيادة ، وإذا سفل أحدها اهتمت به غاية الاهتمام وسترت عيوبه مهما أمكنها فإن عاره لاحق بها ، فهو من عظيم التوبيخ لهم ودقيق التقريع ، وزاد ذلك بقوله : ﴿ وهو ﴾

أي والحال أنه ﴿ الحق ﴾ أي الثابت الذي لا يضره التكذيب به ولا يمكن زواله .

ولما كان الإنسان ربما حصل له اللوم بسبب قومه كان صلى الله عليه وسلم في هذا المقام بمعرض أن يخاف عاقبة ذلك ويقول : فماذا أصنع بهم ؟ فقال تعالى معلماً أنه ليس عليه بأس من تكذيبهم : ﴿ قل لست ﴾ وقدم الجار والمجرور للاهتمام به معبراً بالأداة الدالة على القهر والغلبة فقال : ﴿ عليكم بوكيل ﴾ أي حفيظ ورقيب لأقهركم على الرد عما أنتم فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 651 . 652 ﴾

فصل

قال الفخر :

الضمير في قوله : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ ﴾ إلى ماذا يرجع فيه أقوال : الأول : أنه راجع إلى العذاب المذكور في الآية السابقة ﴿ وَهُوَ الحق ﴾ أي لا بد وأن ينزل بهم .

الثاني : الضمير في "به" للقرآن وهو الحق أي في كونه كتاباً منزلاً من عند الله .

الثالث : يعود إلى تصريف الآيات وهو الحق لأنهم كذبوا كون هذه الأشياء دلالات ، ثم قال : ﴿ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أي لست عليكم بحافظ حتى أجازيكم على تكذيبكم وإعراضكم عن قبول الدلائل .

إنما أنا منذر والله هو المجازي لكم بأعمالكم قال ابن عباس والمفسرون : نسختها آية القتال وهو بعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 20 . 21 ﴾

---

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ وفيما كذَّبوا به قولان :

أحدهما : أنه القرآن ، قاله الحسن ، والسدي .

والثاني : تصريف الآيات ، قاله بعض المتأخرين .

﴿ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ يعني ما كذَّبوا به ، والفرق بين الحق والصواب أن الحق قد يُدْرَكُ بغير طلب ، والصواب لا يُدْرَكُ إلا بطلب .

﴿ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : معناه لست عليكم بحفيظ لأعمالكم لأجازيكم عليها ، وإنما أنا منذر ، قاله الحسن .

والثاني : لست عليكم بحفيظ أمنعكم من أن تكفروا ، كما يمنع الوكيل على الشيء من إلحاق الضرر به ، قاله بعض المتأخرين .

والثالث : معناه لست آخذكم بالإيمان اضطراراً وإجباراً ، كما يأخذ الوكيل بالشيء ، قاله الزجاج . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وكذب به قومك ﴾ في هاء "به" ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها كناية عن القرآن .

والثاني : عن تصريف الآيات .

والثالث : عن العذاب .

قوله تعالى : ﴿ قل لست عليكم بوكيل ﴾ فيه قولان .

أحدهما : لست حفيظاً على أعمالكم لأُجازيكم بها ، إنما أنا منذر ، قاله الحسن .

والثاني : لست حفيظاً عليكم أخذكم بالإيمان ، إنما أدعوكم إلى الله قاله ، الزجاج .

فصل

وفي هذا القدر من الآية قولان .

أحدهما : أنه اقتضى الاقتصار في حقهم على الإنذار من غير زيادة ، ثم نسخ ذلك بآية السيف .

والثاني : أن معناه لست حفيظاً عليكم ، إنما أُطالبكم بالظواهر من الإِقرار والعمل ، لا بالأسرار ؛ فعلى هذا هو محكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وكذب به قومك وهو الحق ﴾ قال السديّ : ﴿ به ﴾ عائد على القرآن الذي فيه

جاء تصريف الآيات .

وقال الزمخشري : ﴿ به ﴾ راجع إلى العذاب وهو الحق أي لا بد أن ينزل بهم .

وقال ابن عطية : ويحتمل أن يعود على الوعيد الذي تضمنته الآية ونحا إليه الطبري .

*(100/236)*

---

وقيل : يعود على النبي صلى الله عليه وسلم وهذا لقرب مخاطبته بعد ذلك بالكاف ؛ انتهى .

وقرأ ابن أبي عبلة : وكذبت به قومك بالتاء ، كما قال : ﴿ كذبت قوم نوح ﴾ والظاهر أن قوله : ﴿ وهو الحق ﴾ جملة استئناف لا حال .

﴿ قل لست عليكم بوكيل ﴾ أي لست بقائم عليكم لإكراهكم على التوحيد .

وقيل : ﴿ بوكيل ﴾ بمسلط وقيل : لا أقدر على منعكم من التكذيب إجباراً إنما أنا منذر .

قال ابن عطية : وهذا كان قبل نزول الجهاد والأمر بالقتال ثم نسخ .

وقيل : لا نسخ في هذا إذ هو خبر والنسخ فيه متوجه لأن اللازم من اللفظ لست الآن وليس فيه أنه لا يكون في المستقبل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ ﴾ أي بالقرآن .

وقرأ ابن أبي عَبْلَة "وكذبت" .

بالتاء ﴿ وَهُوَ الحق ﴾ أي القصص الحق .

﴿ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ قال الحسن : لست بحافظ أعمالكم حتى أجازيكم عليها ، إنما أنا مُنْذِر وقد بلّغت ؛ نظيره ﴿ وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ أي أحفظ عليكم أعمالكم .

ثم قيل : هذا منسوخ بآية القتال .

وقيل : ليس بمنسوخ ، إذ لم يكن في وُسعه إيمانهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

*(101/236)*

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَكَذَّبَ بِهِ ﴾ أي بالعذاب الموعود أو القرآنِ المجيد الناطقِ بمجيئه ، ﴿ قَوْمِكَ ﴾ أي المعاندون منهم ، ولعل إيرادَهم بهذا العنوان للإيذان بكمالِ سوءِ حالِهم ، فإن تكذيبَهم

بذلك مع كونهم من قومه عليه الصلاة والسلام مما يقضي بغاية عَتُوّهم ومكابرتهم ، وتقديم الجار والمجرور على الفاعل لما مر مراراً من إظهار الاهتمام بالمقدَّمِ والتشويق إلى المؤخر ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الحق ﴾ حال من الضمير المجرورِ أي كذبوا به والحال أنه الواقعُ لا محالة ، أو أنه الكتابُ الصادقُ في كل ما نطقَ به ، وقيل : هو استئنافٌ ، وأياً ما كان ففيه دلالةٌ على عِظَم جنايتِهم ونهاية قُبْحِها ﴿ قُلْ ﴾ لهم منبّهاً على ما يؤول إليه أمرُهم وعلى أنك قد أديتَ ما عليك من وظائف الرسالة ﴿ لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ بحفيظٍ وكِّلَ إليَّ أمرُكم لأمنَعَكم من التكذيب وأُجبِرَكم على التصديق ، إنما أنا منذرٌ وقد خرجتُ عن العُهدة حيث أخبرتُكم بما سترَونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(102/236)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَكَذَّبَ بِهِ ﴾ أي القرآن كما قال الأزهري وروي ذلك عن الحسن ، وقيل : الضمير لتصريف الآيات ، واختاره الجبائي والبلخي .

وقيل : هو للعذاب واختاره غالب المفسرين ﴿ قَوْمِكَ ﴾ أي قريش ، وقيل : هم وسائر العرب ، وأياً ما كان فالمراد المعاندون منهم ، قيل : ولعل إيرادهم بهذا العنوان للإيذان

بكمال سوء حالهم فإن تكذيبهم بذلك مع كونهم من قومه عليه الصلاة والسلام مما يقضي بغاية عتوهم ومكابرتهم ، وتقديم الجار والمجرور على الفاعل لما مر مراراً .

﴿ وَهُوَ الحق ﴾ أي الكتاب الصادق في كل ما نطق به لا ريب فيه أو المتحقق الدلالة أو الواقع لا محالة .

والواو حالية والجملة بعدها في موضع الحال من الضمير المجرور ، وقيل : الواو استئنافية وبعدها مستأنفة .

وأياً ما كان ففيه دلالة على عظم جنايتهم ونهاية قبحها .

﴿ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أي ( بموكل فوض أمركم إلى أحفظ أعمالكم لأجازيكم بها ) إنما أنا منذر ولم آل جهداً في الإنذار والله سبحانه هو المجازي قاله الحسن .

وقال الزجاج : المراد إني لم أومر بجربكم ومنعكم عن التكذيب وفي معناه ما نقل عن الجبائي .

والآية على ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما منسوخة بآية القتال ولا بعد في ذلك على المعنى الثاني . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾

عطف على ﴿ انظر كيف نُصَرِّفُ الآيات ﴾ [ الأنعام : 65 ] ، أي لعلَّهم يفقهون فلم

يفقهوا وكذّبوا .

وضمير ﴿ به ﴾ عائد إلى العذاب في قوله ﴿ على أن يبعث عليكم عَذَاباً ﴾ [ الأنعام : 65 ] ، وتكذيبهم به معناه تكذيبهم بأنّ الله يعذّبهم لأجل إعراضهم .

والتعبير عنهم بـ ﴿ قومك ﴾ تسجيل عليهم بسوء معاملتهم لمن هو من أنفسهم ، كقوله تعالى : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القُرْبى ﴾ [ الشورى : 23 ] ، وقال طرفة :

وظُلْمُ ذوي القُربى أشدُّ مضاضةً

على المرْء من وقْع الحُسام المهنّدِ . . .

وتقدّم وجه تعدية فعل ( كذّب ) بالباء عند قوله تعالى : ﴿ وكذّبتم به ﴾ في هذه السورة [ 57 ] .

وجملة ﴿ وهو الحقّ ﴾ معترضة لقصد تحقيق القدرة على أن يبعث عليهم عذاباً الخ .

وقد تحقّق بعض ذلك بعذابٍ من فوقهم وهو عذاب القحط ، وبإذاقتهم بأس المسلمين يوم بدر .

ويجوز أن يكون ضمير به عائداً إلى القرآن ، فيكون قوله : ﴿ وكذّب به ﴾ رجوعاً بالكلام إلى قوله ﴿ قل إنّي على بيّنة من ربّي وكذّبتم به ﴾ [ الأنعام : 57 ] ، أي كذّبتم بالقرآن ، على وجه جعل ( مِنْ ) في قوله : ﴿ من ربّي ﴾ [ الأنعام : 57 ] ابتدائية كما تقدّم ، أي

كذّبتم بآية القرآن وسألتم نزولَ العذاب تصديقاً لرسالتي وذلك ليس بيدي .

ثم اعتُرض بجمل كثيرة .

(103/236)

---

أولاها : ﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾ [ الأنعام : 59 ] ، ثم ما بعده من التعريض بالوعيد ، ثم بنى عليه قوله : ﴿ وكذّب به قومك وهو الحقّ ﴾ فكأنّه قيل : قل إنّي على بيّنة من ربّي وكذّبتم به وهو الحقّ قُل لست عليكم بوكيل .

وقوله : ﴿ قل لست عليكم بوكيل ﴾ إرغام لهم لأنَّهم يُرُونَه أنَّهم لمَّا كذّبوه وأعرضوا عن دعوته قد أغاظوه ، فأعلمهم الله أنَّه لا يغيظه ذلك وأنّ عليه الدعوة فإذا كانوا يُغيظون فلا يغيظون إلاّ أنفسهم .

والوكيل هنا بمعنى المدافع الناصر ، وهو الحفيظ .

وتقدّم عند قوله تعالى : ﴿ وقالوا حسبُنا الله ونعم الوكيل ﴾ في سورة [ آل عمران : 173 ] .

وتعديته بـ ( على ) لتضمّنه معنى الغلبة والسلطة ، أي لست بقيِّم عليكم يمنعكم من

التكذيب ، كقوله تعالى : ﴿ فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلاّ البلاغ ﴾ [ الشورى : 48 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(104/236)

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (66) ﴾

ما الذي كذب به القوم ؟ المقصود هو القرآن أو المنهج عامة ؛ لأن المنهج الإيماني يشمل القرآن ويشمل ما آتى به الرسول عليه الصلاة والسلام . فالقرآن معجزة مشتملة على الأصول . وجاء الرسول صلى الله عليه وسلم بالسنُّة ليبين ويشرِّع . ولذلك نرد على هؤلاء الذين يطلبون كل حكم من الأحكام من القرآن ونقول :

إن القرآن جاء معجزة تتكلم عن أصول العقيدة ، والرسول صلى الله عليه وسلم جاء بالتشريعات التي تكمل المنهج ، ومثال ذلك عدد الصلوات في كل فرض من الفروض الخمسة وعدد ركعات كل فرض من فروض الصلوات الخمس . إن القرآن لم يذكرها ، ولكن أوضحها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو القائل في حديث شريف : " صلوا كما رأيتموني أصلي " . والرسول صلى الله عليه وسلم مفوض بالتشريع بنص القرآن الكريم :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ﴾ [ الحشر : 7 ] .

ونحن نصلي كما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ونزكي بنصاب الزكاة الذي حدده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحج إلى بيت الله الحرام كما حج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أنزل سبحانه القرآن ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو أول من طبق القرآن والسنة . ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [ النحل : 44 ] .

أي أن هناك من الأمور العقدية التي أنزلها الحق مجملة في القرآن وفصلها للمؤمنين رسول الله صلى الله عليه وسلم بتكليف من الحق . وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم واجبة بنص القرآن وهي ضمن طاعة الحق سبحانه وتعالى ، فالحق يقول مرة : ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ الله والرسول ﴾ [ آل عمران : 32 ] .

وهنا طاعة الرسول غير مكررة إنها ضمن طاعة الله .

*(105/236)*

---

ويقول سبحانه مرة أخرى : ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ [ النور : 54 ] .

أي أن هناك أمراً بإطاعة الله وأمراً بإطاعة الرسول .

ومرة ثالثة يقول سبحانه : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا ﴾ .

وكل ذلك حتى نستوعب الأحكام التي التقت السنة فيها بكتاب الله .

وحين قال الحق : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ أَطِيعُواْ الله وَأَطِيعُواْ الرسول وَأُوْلِي الأمر مِنْكُمْ ﴾ [ النساء : 59 ] .

فهو سبحانه لم يأت بطاعة مستقلة لأولي الأمر ولكنه جعلها طاعة من باطن طاعتين هما : طاعة الله ، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ونعود إلى معنى الآية التي نحن بصددها : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الحق قُل لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ [ الأنعام : 66 ] .

إذن فالذي كذب بوجود الله وكذب بالقرآن هو مكذب للمنهج أيضا . فالمكَذَّب به هنا هو الحق ، والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير ، وفي حياتنا اليومية تحدث واقعة ما ويأتي أكثر من شاهد عِيان لها فلا نجدهم يختلفون في رواية الواقعة لأنهم يستوحون واقعاً ، لكن إن كان بعض من الشهود لم يروْا الواقعة التي يشهدون عليها الوقائع من أفواه الشهود ؛ لأن الحق قد يختفي قليلا وراء بعضٍ من الضباب لكن لا يدوم اختفاؤه طويلاً بل يظهر جلياً ناصعاً .

والحق يضرب لنا المثل فيقول سبحانه : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فاحتمل السيل زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النار ابتغآء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كذلك

يَضْرِبُ اللهُ الحق والباطل فَأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس فَيَمْكُثُ فِي الأرض كذلك يَضْرِبُ اللهُ الأمثال ﴾ [ الرعد : 17 ] .

(106/236)

---

الماء – إذن – ينزل بأمر الله من السماء فتستمر به حياة النبات والحيوان والإنسان ، ويأخذ كل وادٍ على قدر حاجته . وعندما ينزل السيل فهو يصحب معه بعضاً من الشوائب التي تطفو على المياه ، ومثل تلك الشوائب يَطفو – أيضاً – عندما يُصهر الذهب أو أي معدن ويُسمى الخبث . وهكذا يطفو الباطل كالزَّبَدِ ويذهب جُفاء مطروحا ومرميا به بعيداً أو ينزل على جوانبه ، أما الحق الذي ينفع الناس فهو يبقى في الأرض .

وتكذيب القوم للحق من الله وللقرآن وللمنهج الإيماني هو البهتان ، والرسول صلى الله عليه وسلم ليس بوكيل على المكذبين ولا يلزمهم أن يصدقوا ، فالوكيل هو الله الحق الذي يعاقب كل مكذِّب له ، ومهمة الرسول صلى الله عليه وسلم هي البلاغ .

" وكذّب به قومك " ، وكلمة " قومك " هذه هي تقريع فظيع لهم ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء منهم ، وعرفوه صادقاً أميناً مدة أربعين عاماً قبل الرسالة ، وما جرّبوا عليه كذباً ، ومقتضى مكثه معهم هذا التاريخ الطويل كان يفرض عليهم أن يتساءلوا من فور

بلاغهم بالرسالة : إنه لم يكذب علينا قط ونحن من الخلق ، أيكذب على الخالق ؟ . ولكن الهوى أعمى بصيرتهم ، ولذلك يقول الحق عن هذا البلاغ : ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [ يونس : 16 ] .

أي قل لهم يا محمد : لو أراد الله ألا ينزل قرآنا عليّ من لدنه وألاَّ أبلغكم وأعلمكم به ما أنزله وما تلوته عليكم ، ولكنه أنزله وأرسلني به إليكم . وعندما يمتن الله على الذين أرسل إليهم رسوله صلى الله عليه وسلم فهو يقول سبحانه : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [ التوبة : 128 ] .

وبرغم تكبر وعناد وتكذيب المشركين من قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإنه عندما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ترك علياً بمكة ليسلم للناس أماناتهم . فهل هناك حمق أكثر من حمق هؤلاء الذين كذبوا برسول الله صلى الله عليه وسلم . أيكون أمينا معهم ولا يكون أمينا مع ربه ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(107/236)*

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الحق قُل لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾

قوله : " وكذَّبَ بِهِ " " الهاء " في " ربه " تعود على العذاب المُتقدّمِ في قوله : " عذاباً مِنْ فَوقِكُمْ " قال الزمخشري .

وقيل : تعود على القُرْآنِ .

وقيل : تعود على الوعيد المتضمن في هذه الآيات المتقدمة .

وقيل : على النبي صلى الله عليه وسلم وهذا بعيد ؛ لأنه خُوطبَ بالكاف عقِيبَهُ ، فلو كان كذلك لقال : وكذب به قومك ، وادَّعاءُ الالتفات فيه أبْعَدُ .

وقيل : لا بد من حَذْفِ صِفَةٍ هنا ، أي : وكذب به قومك المُعَانِدُونَ ، أو الكافرون ؛ لأن قومه كلهم لم يُكَذِّبُوهُ ، كقوله : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ [ هود : 46 ] أي الناجين ، وحذف الصفة وبقاء الموصوف قليل جداً ، بخلاف العكس .

وقرأ ابن أبي عبلة : " وكذَّبت " بتاء التأنيث ، كقوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ [ الشعراء : 105 ] ، ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ﴾ [ الشعراء : 160 ] باعتبار الجماعة .

قوله : " وهُوَ الحقُّ " في هذه الجملة وجهان :

الظاهر منهما : أنها استئناف .

والثاني : أنها حالٌ من " الهاء " في " به " ، أي : كذبوا به في حالِ كونه حقًّا ، وهو أعظم في القبح .

والمعنى أن الضمير في " به " للعذاب ، فمعنى كونه حقًّا لا بد أن ينزل بهم ، وإن عاد إلى القرآن ، فمعنى كونه حقّا ، أي : كتاب منزل من عند الله ، وإن عاد إلى تصريف الآيات أي : أنهم كذَّبوا كون هذه الأشياءِ دلالاتٍ ، وهو حق .

قوله : " عَلَيْكُمْ " مُتعلِّقٌ بما بعده ، وهو توكيد ، وقدم لأجل الفواصِلِ ، ويجوز أن يكون حالاً من قوله : " بِوَكِيلٍ " ؛ لأنه لو تَأَخَّرَ لجاز أن يكون صفة له ، وهذا عند من يُجيزُ تقديم الحال على صاحبها المجرور بالحرف ، وهو اختيار جماعةٍ ، وأنشدوا عليه : [ الخفيف ]

2193 - غَافِلاً تَعْرِضُ المَنِيَّةُ لِلْمَرْءِ . . .

فَيُدْعَى وَلاتَ حِينَ إِبَاءُ

فقدم " غافلاً " على صاحبها ، وهو " المرء " ، وعلى عامها وهو " تَعْرُضُ " فهذا أَوْلَى .

ومنه [ الطويل ]

2194 - لَئِنْ كَانَ بَرْدُ المَاءِ هَيْمَانَ صَادِياً . . .

إِلَيَّ حَبِيباً إِنَّهَا لَحَبِيب

أي : إِلَيَّ هيمان صادِياً ، ومثله : [ الطويل ]

2195 - فَإِنْ يَكُ أَذْوَادٌ أُصِبْنَ وِنِسْوَةٌ . . .

فَلَنْ يَذْهَبُوا فَرْغاً بِقَتْلِ حِبَالِ

" فَرْغاً " حال من " يقتل " ، و" حبال " بالمهملة اسم رَجُلٍ مع أن حرف الجر هنا زائد ، فجوازه أوْلَى مما ذكرناه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 205 .

206 ﴾

*(108/236)*

---

قوله تعالى ﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (67) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانوا بصدد أن يقولوا تهكماً : كن كذلك ، فلا علينا منك ! قال مهدداً : ﴿ لكل ﴾ وأشار إلى جلالة خبره بقوله : ﴿ نبإٍ ﴾ أي خبر أخبرتكم به من هذه الأخبار العظيمة ، ومعنى ﴿ مستقر ﴾ موضع ووقت قرار من صدق أو كذب ، أي لا بد أن يحط الخبر على واحد منهما ، لا ينفك خبر من الأخبار عن ذلك ﴿ وسوف تعلمون ﴾ أي محط خبره العظيم بوعد صادق لا خلف فيه وإن تأخر وقوعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 652 ﴾

فصل

قال الفخر :

المستقر يجوز أن يكون موضع الاستقرار ، ويجوز أن يكون نفس الاستقرار لأن ما زاد على الثلاثي كان المصدر منه على زنة اسم المفعول نحو المدخل والمخرج ، بمعنى الإدخال والإخراج ، والمعنى : أن لكل خبر يخبره الله تعالى وقتاً أو مكاناً يحصل فيه من غير خلف ولا تأخير وإن جعلت المستقر بمعنى الاستقرار ، كان المعنى لكل وعد ووعيد من الله تعالى استقرار ولا بد أن يعلموا أن الأمر كما أخبر الله تعالى عنه عند ظهوره ونزوله . وهذا الذي خوف الكفار به ، يجوز أن يكون المراد منه عذاب الآخرة ، ويجوز أن يكون المراد منه استيلاء المسلمين على الكفار بالحرب والقتل والقهر في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 21 ﴾

*(109/236)*

---

وقال السمرقندى :

﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ المستقر : هو غاية ينتهي إليها .

يقال : لكل قول وفعل حقيقة ما كان منه في الدنيا فستعرفونه ، وما كان منه في الآخرة

فسوف تبدو لكم ، وستعلمون ذلك في الدنيا وفي الآخرة ويقال : معناه : سوف أؤمر بقتالكم إذا جاء وقته ﴿ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ في ذلك الوقت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ موضع قوله وحقيقة ومنتهى ينتهي إليه فيتبين صدقه من كذبه وحقه من باطله .

قال مقاتل : لكل خبر يخبره اللّه تعالى وقت ومكان يقع فيه من غير خلف ولا تأخير .

قال الكلبي : لكل قول أو فعل حقيقة ما كان منه في الدنيا فستعرفونه . وما كان منه في الآخرة فسوف يبدو لهم ﴿ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك .

وقال الحسن : لكل عمل جزاء فمن عمل عملاً من الخير جوزي به الجنة ، ومن عَمِل عَمَل سوء جوزي به النار ، وسوف تعلمون يا أهل مكة .

وقال السدي : لكل نبأ مستقر أي ميعاد وحد تكتموه ، فسيأتيكم حتى تعرفوه .

وقال عطاء : لكل نبأ مستقر يؤخر عقوبته ليعمل ذنبه فإذا عمل ذنبه عاقبه .

قال الثعلبي : ورأيت في بعض التفاسير أن هذه الآية نافعة من وجع الضرس إذا كتبت على كاغد ووضع عليه السن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

فيه ثلاثة أقاويل :

أحدهما : معناه أن لكل خَبَرٍ أَخْبَرَ الله تعالى به من وعد أو وعيد مستقراً في مستقبل الوقت أو ماضيه أو حاضره في الدنيا وفي الآخرة ، وهذا معنى قول ابن عباس ، ومجاهد .

والثاني : أنه وعيد من الله للكافرين في الآخرة لأنهم لا يقرون بالبعث ، قاله الحسن .

والثالث : أنه وعيد لهم بما ينزل بهم في الدنيا ، قاله الزجاج . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ لكل نبأٍ مستقر ﴾ أي : لكل خبر يخبر الله به وقت يقع فيه من غير خلف ولا تأخير .

*(110/236)*

---

قال السدي : فاستقر نبأ القرآن بما كان يَعِدهم من العذاب يوم بدر .

وقال مقاتل : منه في الدنيا يوم بدر ، وفي الآخرة جهنم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ لكل خبرٍ حقيقة ، أي لكلّ شيء وقتٌ يقع فيه من غير تقدّم وتأخر .

وقيل : أي لكل عمل جزاء .

قال الحسن : هذا وعيد من الله تعالى للكفار ؛ لأنهم كانوا لا يُقِرّون بالبعث .

الزجّاج : يجوز أن يكون وعيداً بما ينزل بهم في الدنيا .

( قال ) السُّدِّي : استقر يومَ بَدْر ما كان يَعِدُهم به من العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ لكل نبأ مستقر ﴾ أي لكل أجل شيء ينبأ به يعني من أنبائه بأنهم يعذبون وإبعادهم به وقت استقرار وحصول لا بد منه .

وقيل : لكل عمل جزاء وليس هذا بالظاهر .

وقال السدي : استقر نبأ القرآن بما كان يعدهم من العذاب يوم بدر .

وقال مقاتل : منه في الدنيا يوم بدر وفي الآخرة جهنم .

﴿ وسوف تعلمون ﴾ مبالغة في التهديد والوعيد فيجوز أن يكون تهديد بعذاب الآخرة ،

ويجوز أن يكون تهديداً بالحرب وأخذهم بالإيمان على سبيل القهر والاستيلاء . انتهى

انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(111/236)

---

وقال الآلوسى :

﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ ﴾ أي لكل شيء ينبأ به من الأنباء التي من جملتها عذابكم أو لكل خبر من الأخبار التي من جملتها خبر مجيئه ﴿ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ أي وقت استقرار ووقوع ألبتة أو وقت استقراره بوقوع مدلوله وليس مصدراً ميمياً .

﴿ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي حال نبئكم في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً ، و( سوف ) للتأكيد . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وجملة ﴿ لكلّ نبأ مستقرّ ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً ، لأنّ قوله ﴿ وهو الحق ﴾ يثير سؤالهم أن يقولوا : فمتى ينزل العذاب .

فأجيبوا بقوله : ﴿ لكلّ نبأ مستقرّ ﴾ .

والنبأ : الخبر المهم ، وتقدّم في هذه السورة .

فيجوز أن يكون على حقيقته ، أي لكلّ خبر من أخبار القرآن ، ويجوز أن يكون أطلق المصدر على اسم المفعول ، أي لكلّ مخبَر به ، أي ما أخبِروا به من قوله : ﴿ أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ [ الأنعام : 65 ] الآية .

والمستقرّ وقت الاستقرار ، فهو اسم زمانِه ، ولذلك صيغ بوزن اسم المفعول ، كما هو قياس صوغ اسم الزمان المشتقّ من غير الثلاثي .

والاستقرار بمعنى الحصول ، أي لكلّ موعود به وقت يحصل فيه .

وهذا تحقيق للوعيد وتفويض زمانه إلى علم الله تعالى .

وقد يكون المستقرّ هنا مستعملاً في الانتهاء والغاية مجازاً ، كقوله تعالى : ﴿ والشمس تجري لمستقرّ لها ﴾ [ يس : 38 ] ، وهو شامل لوعيد الآخرة ووعيد الدنيا ولكلَ مستقرّ .

وعن السّدّي : استقرّ يوم بدر ما كان يَعِدهم به من العذاب .

وعطف ﴿ سوف تعلمون ﴾ على جملة ﴿ لكلّ نبأ مستقرّ ﴾ أي تعلمونه ، أي هو الآن

غير معلوم وتعلمونه في المستقبل عند حلوله بكم .

وهذا أظهر في وعيد العذاب في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(113/236)

---

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً) .

أَمَرَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ أَنْ يُبَيِّنَ لِعِبَادِهِ إِحَاطَةَ عِلْمِهِ وَشُمُولَ قُدْرَتِهِ ، وَاسْتِعْلَاءَهُ عَلَيْهِمْ بِالْقَهْرِ ، وَحِفْظَهُ أَعْمَالَهُمْ عَلَيْهِمْ ، وَكَوْنَهُ هُوَ مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ الَّذِي يُحَاسِبُهُمْ وَيُجَازِيهِمْ عَلَيْهَا بَعْدَ أَنْ يُمِيتَهُمْ ثُمَّ يَبْعَثَهُمْ . ثُمَّ أَمَرَهُ بِهَذَا الْقَوْلِ أَنْ يُذَكِّرَهُمْ بِشَيْءٍ يَجِدُونَهُ فِي أَنْفُسِهِمْ وَيَقُولُونَهُ بِأَفْوَاهِهِمْ ، وَيَغْفُلُونَ عَمَّا يَسْتَلْزِمُهُ مِنْ كَوْنِ اللهِ تَعَالَى هُوَ مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ الَّذِي يَجِبُ تَوْحِيدُهُ وَإِفْرَادُهُ بِالْعِبَادَةِ ، وَلَا سِيَّمَا مَظْهَرَهَا الْأَعْلَى وَهُوَ الدُّعَاءُ فِي الرَّخَاءِ كَالدُّعَاءِ فِي الشِّدَّةِ ، فَقَالَ :

(قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً) ظُلُمَاتُ الْبَرِّ

(114/236)

وَالْبَحْرِ قِسْمَانِ : ظُلُمَاتٌ حِسِّيَّةٌ كَظُلْمَةِ اللَّيْلِ وَظُلْمَةِ السَّحَابِ وَظُلْمَةِ الْمَطَرِ ، وَظُلُمَاتٌ مَعْنَوِيَّةٌ كَظُلْمَةِ الْجَهْلِ بِالطُّرُقِ وَالْمَسَالِكِ ، وَظُلْمَةُ فَقْدِ الصُّوَى وَالْمَنَارِ ، أَوِ اشْتِبَاهِ الْأَعْلَامِ وَالْآثَارِ ، وَظُلْمَةُ الشَّدَائِدِ وَالْأَخْطَارِ ، كَالْعَوَاطِفِ وَالْأَعَاصِيرِ وَهِيَاجِ الْبِحَارِ ، أَوْ مُسَاوَرَةِ الْأَفَاعِي وَالسِّبَاعِ ، أَوْ مُكَافَحَةِ الْعَدَدِ الْكَثِيرِ مِنَ الْأَعْدَاءِ ، وَتَسْمِيَةُ هَذِهِ الْأُمُورِ الْمَعْنَوِيَّةِ ظُلُمَاتٍ مِنَ الْمَجَازِ كَتَسْمِيَةِ الْجَهْلِ وَالْكُفْرِ وَالضَّلَالِ بِذَلِكَ - وَهُوَ كَثِيرٌ فِي التَّنْزِيلِ - وَنَقَلُوا أَنَّهُ قِيلَ لِلْيَوْمِ الشَّدِيدِ يَوْمٌ مُظْلِمٌ وَيَوْمٌ ذُو كَوَاكِبَ . وَأَقُولُ : لَا يَصِحُّ إِطْلَاقُ الظُّلْمَةِ عَلَى كُلِّ شِدَّةٍ ، بَلْ عَلَى الشِّدَّةِ الَّتِي لَهَا عَاقِبَةٌ سَيِّئَةٌ مَجْهُولَةٌ تُخْشَى وَلَا تُعْلَمُ ، فَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى مَعْنَى الْجَهْلِ . وَالتَّضَرُّعُ : الْمُبَالَغَةُ فِي الضَّرَاعَةِ وَهِيَ الذُّلُّ وَالْخُضُوعُ ، وَقَالَ الرَّاغِبُ : هُوَ إِظْهَارُ الضَّرَاعَةِ بَعْدَ أَنْ فَسَّرَهَا بِالضَّعْفِ وَالذُّلِّ ، وَالْإِظْهَارُ قَدْ يَكُونُ إِظْهَارُ مَا هُوَ وَاقِعٌ وَقَدْ يَكُونُ إِظْهَارُ مَا هُوَ غَيْرُ وَاقِعٍ عَلَى سَبِيلِ الرِّيَاءِ ، وَالْمُرَادُ بِالتَّضَرُّعِ هُنَا مَا هُوَ صَادِرٌ عَنِ الْإِخْلَاصِ الَّذِي يُثِيرُهُ الْإِيمَانُ الْفِطْرِيُّ الْمَطْوِيُّ فِي أَنْفُسِ الْبَشَرِ . وَالْخُفْيَةُ - بِالضَّمِّ وَالْكَسْرِ - الْخَفَاءُ وَالِاسْتِتَارُ ، فَإِذَا كَانَ التَّضَرُّعُ إِظْهَارُ الْحَاجَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَالتَّذَلُّلُ لَهُ بِالْجَهْرِ وَالدُّعَاءِ ، وَرَفْعُ الصَّوْتِ بِهِ

مَعَ الْبُكَاءِ - فَالْخُفْيَةُ فِي الدُّعَاءِ عِبَارَةٌ عَنْ

إِسْرَارِهِ هَرَبًا مِنَ الرِّيَاءِ ، وَهَاتَانِ حَالَتَانِ تَعْرِضَانِ لِلْإِنْسَانِ عِنْدَ شُعُورِهِ بِالْحَاجَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَيَأْسِهِ مِنَ الْأَسْبَابِ ؛ تَارَةً يَجْأَرُ بِالدُّعَاءِ رَافِعًا صَوْتَهُ مُتَضَرِّعًا مُبْتَهِلًا ، وَتَارَةً يُسِرُّ الدُّعَاءَ وَيُخْفِيهِ مُخْلِصًا مُحْتَسِبًا ، وَيَتَحَرَّى أَلَّا تَسْمَعَهُ أُذُنٌ ، وَلَا يَعْلَمَ بِهِ أَحَدٌ ، وَيَرَى أَنَّهُ يَكُونُ بِذَلِكَ أَجْدَرَ بِالْقَبُولِ ، وَأَرْجَى لِنَيْلِ السُّؤْلِ ، وَالْمَعْنَى : قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْغَافِلِينَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَمَا أُودِعَ مِنْ آيَاتِ التَّوْحِيدِ فِي أَعْمَالِ فِطْرَتِهِمْ : مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ الْحِسِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ عِنْدَمَا تَغْشَاكُمْ فِي أَسْفَارِكُمْ حَالَ كَوْنِكُمْ تَدْعُونَهُ عِنْدَ وُقُوعِكُمْ فِي كُلِّ ظُلْمَةٍ مِنْهَا دُعَاءَ تَضَرُّعٍ وَدُعَاءَ خُفْيَةٍ قَائِلِينَ : (لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) أَيْ مُقْسِمِينَ هَذَا الْقَسَمَ فِي دُعَائِكُمْ : لَئِنْ أَنْجَانَا اللَّهُ مِنْ هَذِهِ الظُّلْمَةِ أَوِ الدَّاهِيَةِ الْمُظْلِمَةِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَّصِفِينَ بِالشُّكْرِ الدَّائِمِ لَهُ ، الْمُنْتَظِمِينَ فِي سِلْكِ أَهْلِهِ ، وَفِي قِرَاءَةٍ (لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا) بِالْخِطَابِ وَسَيَأْتِي .

(قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ) الْكَرْبُ : الْغَمُّ الشَّدِيدُ ،

مَأْخُوذٌ مِنْ كَرْبِ الْأَرْضِ ، وَهُوَ إِثَارَتُهَا وَقَلْبُهَا بِالْحَفْرِ ، إِذِ الْغَمُّ يُثِيرُ النَّفْسَ كَذَلِكَ ، أَوْ مِنَ الْكَرَبِ (بِالتَّحْرِيكِ) وَهُوَ الْعِقْدُ الْغَلِيظُ فِي رِشَاءِ الدَّلْوِ (حَبْلُهُ) وَقَدْ يُوصَفُ الْغَمُّ بِأَنَّهُ عُقْدَةٌ عَلَى الْقَلْبِ ، أَيْ لِمَا يَشْعُرُ بِهِ الْمَغْمُومُ مِنَ الضَّغْطِ عَلَى قَلْبِهِ وَالضِّيقِ فِي صَدْرِهِ ، أَوْ مِنْ أَكْرَبْتُ الدَّلْوَ إِذَا مَلَأْتَهُ – أَفَادَهُ الرَّاغِبُ . وَالْمَعْنَى أَنَّ اللهَ يُنْجِيكُمُ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ مِنْ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ وَمَنْ كُلِّ كَرْبٍ يَعْرِضُ لَكُمْ ، ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ بِهِ غَيْرَهُ بَعْدَ النَّجَاةِ أَقْبَحَ الشِّرْكِ مُخْلِفِي وَعْدَكُمْ لَهُ بِالشُّكْرِ ، حَانِثِينَ بِمَا وَكَّدْتُمُوهُ بِهِ مِنَ الْيَمِينِ ، مُوَاظِبِينَ عَلَى هَذَا الشِّرْكِ مُسْتَمِرِّينَ ، لَا تَكَادُونَ تَنْسَوْنَهُ إِلَّا عِنْدَ ظُلْمَةِ الْخَطْبِ ، وَشِدَّةِ الْكَرْبِ . وَأَجْلَى شِرْكِكُمْ أَنَّكُمْ تَدْعُونَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ وَتُسْنِدُونَ إِلَيْهِمُ الْأَعْمَالَ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِالِاسْتِقْلَالِ فَبِالشَّفَاعَةِ عِنْدَ اللهِ ، حَتَّى إِنَّكُمْ لَا تَسْتَثْنُونَ مِنْهَا تِلْكَ النَّجَاةَ ، وَهَذِهِ الْحُجَّةُ مِنْ أَبْلَغِ الْحُجَجِ لِمَنْ تَأَمَّلَهَا ، وَلِذَلِكَ تَكَرَّرَ فِي التَّنْزِيلِ ذِكْرُهَا ، وَطَالَمَا ذَكَرْنَاهَا فِي آيَاتِ التَّوْحِيدِ وَدَلَائِلِهِ ، وَأَقْرَبُ بَسْطٍ لَهَا مَا أَوْرَدْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَتَيْنِ (40) ، وَ(41) مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ ، وَفِيهِ شَوَاهِدُ بِمَعْنَى هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ .

*(117/236)*

قَرَأَ عَاصِمٌ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ (يُنَجِّيكُمْ) بِالتَّشْدِيدِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ ؛ مِنَ التَّنْجِيَةِ ، وَالْبَاقُونَ بِالتَّخْفِيفِ فِيهِمَا ؛ مِنَ الْإِنْجَاءِ وَهُمَا لُغَتَانِ فِي تَعْدِيَةِ نَجَا يَنْجُو ، يُقَالُ : نَجَّاهُ وَأَنْجَاهُ ، وَنَطَقَ بِهِمَا الْقُرْآنُ فِي غَيْرِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ أَيْضًا ، وَلَكِنْ فِي التَّشْدِيدِ مِنَ الْمُبَالَغَةِ وَالدَّلَالَةِ عَلَى التَّكْرَارِ مَا لَيْسَ فِي التَّخْفِيفِ ، وَقَرَأَ عَاصِمٌ فِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ (خِفْيَةً) بِكَسْرِ الْخَاءِ وَالْبَاقُونَ بِضَمِّهَا وَهُمَا لُغَتَانِ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَقَرَأَ عَاصِمٌ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ (أَنْجَانَا) عَلَى الْغَيْبَةِ ، فَعَاصِمٌ فَخَّمَهَا وَالْآخَرُونَ قَرَءُوهَا بِالْإِمَالَةِ ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ (أَنْجَيْتَنَا) عَلَى الْخِطَابِ ، وَهِيَ مَرْسُومَةٌ فِي الْمُصْحَفِ الْإِمَامِ هَكَذَا (أَنْجَيْنَا) وَقِرَاءَةُ الْغَيْبَةِ أَقْوَى مُنَاسَبَةً لِلَّفْظِ ، وَالْخِطَابُ أَشَدُّ تَأْثِيرًا فِي النَّفْسِ .

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) .

*(118/236)*

---

ذَكَّرَ اللَّهُ تَعَالَى هَؤُلَاءِ النَّاسَ فِي الْآيَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ بِبَعْضِ آيَاتِهِ فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَمِنَّتِهِ عَلَيْهِمْ فِي وَقَائِعِ أَحْوَالِهِمُ الَّتِي يَشْعُرُ بِهَا كُلُّ مَنْ وَقَعَتْ لَهُ مِنْهُمْ ، وَكَوْنِهِ هُوَ الَّذِي يُنْجِيهِمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ

وَالْكُرُوبِ وَالْأَهْوَالِ وَالْخُطُوبِ ، إِمَّا بِتَسْخِيرِ الْأَسْبَابِ ، وَإِمَّا بِدَقَائِقِ اللُّطْفِ وَالْإِلْهَامِ ، ثُمَّ قَالَ :

(119/236)

---

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ) فَهَذَا تَذْكِيرٌ بِقُدْرَتِهِ عَلَى تَعْذِيبِهِمْ إِثْرَ التَّذْكِيرِ بِقُدْرَتِهِ عَلَى تَنْجِيَتِهِمْ ، لَا فَرْقَ فِيهِمَا بَيْنَ أَفْرَادِهِمْ وَبَيْنَ مَجْمُوعِهِمْ وَجُمْلَتِهِمْ ، وَإِنْذَارٌ بِأَنَّ عَاقِبَةَ كُفْرِ النِّعَمِ أَنْ تَزُولَ وَتَحِلَّ مَحَلَّهَا النِّقَمُ . وَالْمَعْنَى : قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ لِقَوْمِكَ وَمَنْ وَرَاءَهُمْ مِنَ الْكَافِرِينَ بِنِعَمِ اللَّهِ ، الَّذِينَ يُشْرِكُونَ بِهِ سِوَاهُ ، وَلَا يَشْكُرُونَ لَهُ مَا مَنَّ بِهِ مِنَ النِّعَمِ وَأَسْدَاهُ ، وَمِنَ الَّذِينَ يَتَنَكَّبُونَ سُنَنَ اللَّهِ ، وَيَخْتَلِفُونَ فِي الْكِتَابِ بَعْدَ أَنْ هَدَاهُمْ بِهِ اللَّهُ : هُوَ اللَّهُ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يُثِيرَ وَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا تَجْهَلُونَ كُنْهَهُ فَيَصُبَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ ، أَوْ يُثِيرَهُ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ، أَوْ يَلْبِسَكُمْ وَيَخْلِطَكُمْ فِرَقًا وَشِيَعًا ، مُخْتَلِفِينَ عَلَى أَهْوَاءٍ شَتَّى ، كُلُّ فِرْقَةٍ مِنْكُمْ تُشَايِعُ إِمَامًا فِي الدِّينِ ، أَوْ تَتَعَصَّبُ لِمَلِكٍ أَوْ رَئِيسٍ ، وَيُذِيقُ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ وَهُوَ مَا عِنْدَهُ مِنَ الشِّدَّةِ وَالْمَكْرُوهِ فِي السِّلْمِ وَالْحَرْبِ . وَقَالَ صَاحِبُ الْكَشَّافِ بَعْدَ تَفْسِيرِ اللَّبْسِ بِالْخَلْطِ : وَمَعْنَى خَلَطَهُمْ : أَنْ يُنْشِبَ الْقِتَالَ بَيْنَهُمْ فَيَخْتَلِطُوا وَيَشْتَبِكُوا فِي مَلَاحِمِ

الْقِتَالِ مِنْ قَوْلِهِ :

وَكَتِيبَةٍ لَبَّسْتُهَا بِكَتِيبَةٍ . . . حَتَّى إِذَا الْتَبَسَتْ نَفَضْتُ لَهَا يَدِي .

(120/236)

---

أَقُولُ : وَأَصْلُ مَعْنَى اللَّبْسِ التَّغْطِيَةُ ، كَاللِّبَاسِ ، وَهَذَا التَّفْرِيقُ وَالِاخْتِلَافُ بَيْنَ الشِّيَعِ كَالْغِطَاءِ ، يَسْتُرُ عَنْ كُلِّ شِيعَةٍ مَا عَلَيْهِ الْأُخْرَى مِنَ الْحَقِّ ، وَمَا فِي الِاتِّفَاقِ مَعَهَا مِنَ الْمَصْلَحَةِ وَالْخَيْرِ ،

وَلِمَادَّةِ (ش ي ع) ثَلَاثَةُ مَعَانٍ أَصْلِيَّةٍ فِي اللُّغَةِ (أَحَدُهَا) الِانْتِشَارُ وَالتَّفَرُّقُ ، وَمِنْهُ شَاعَ وَأَشَاعَ الْأَخْبَارَ ، وَطَارَتْ نَفْسُهُ شُعَاعًا . (ثَانِيهَا) الِاتِّبَاعُ وَالدَّعْوَةُ إِلَيْهِ ، وَمِنَ الْأَوَّلِ تَشْيِيعُ الْمُسَافِرِ وَتَشْيِيعُ الْجِنَازَةِ ، وَمِنَ الثَّانِي قَوْلُهُمْ : أَشَاعَ بِالْإِبِلِ ، أَيْ دَعَاهَا إِذَا اسْتَأْخَرَ بَعْضُهَا لِيَتْبَعَ بَعْضُهَا بَعْضًا . (ثَالِثُهَا) التَّقْوِيَةُ وَالتَّهْيِيجُ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ شَيَّعَ النَّارَ إِذَا أَلْقَى عَلَيْهَا حَطَبًا يُذْكِيهَا بِهِ ، وَالشِّيَاعُ – بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ – مَا تُضْرَمُ بِهِ النَّارُ ، وَكُلُّ هَذِهِ الْمَعَانِي ظَاهِرَةٌ فِي الشِّيَعِ ، وَالْأَحْزَابُ الْمُتَفَرِّقَةُ بِالْخِلَافِ فِي الدِّينِ أَوِ السِّيَاسَةِ . وَفَسَّرَ ابْنُ عَبَّاسٍ الشِّيَعَ بِالْأَهْوَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ أَيْ أَصْحَابِهَا .

(121/236)

وَقَدْ وَرَدَ فِي الْمَأْثُورِ تَفْسِيرُ الْعَذَابِ مِنْ فَوْقُ بِالرَّجْمِ مِنَ السَّمَاءِ ، أَيْ : مِنْ جِهَةِ الْعُلُوِّ – وَكَذَا الطُّوفَانُ – كَمَا وَقَعَ لِبَعْضِ الْأُمَمِ الْقَدِيمَةِ . وَالْعَذَابُ مِنْ تَحْتِ الْأَرْجُلِ بِالْخَسْفِ وَالزَّلَازِلِ الْمَعْهُودَةِ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ ، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْفَوْقِ أَئِمَّةُ السُّوءِ – أَيِ الْحُكَّامِ وَالرُّؤَسَاءِ – وَبِالتَّحْتِ خَدَمُ السُّوءِ ، وَفِي رِوَايَةٍ (مِنْ فَوْقِكُمْ) يَعْنِي أُمَرَاءَكُمْ (أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) يَعْنِي عَبِيدَكُمْ وَسَفَلَتَكُمْ ، وَهَذَا مَعْنًى صَحِيحٌ فِي نَفْسِهِ ، وَلَعَلَّ مُرَادَ الْخَبَرِ مِنْهُ أَنَّهُ يَدْخُلُ فِي عُمُومِ مَا تُرْشِدُ إِلَيْهِ الْآيَةُ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِالْفَوْقِ حَبْسُ الْمَطَرِ ، وَبِالتَّحْتِ مَنْعُ الثَّمَرَاتِ ، وَهَذَا تَفْسِيرٌ سَلْبِيٌّ ، وَالتَّعْبِيرُ عَنْهُ بِالْإِرْسَالِ تَعْبِيرٌ عَنِ الشَّيْءِ بِضِدِّهِ ، فَإِنَّ الْإِرْسَالَ ضِدُّ الْمَنْعِ وَالْإِمْسَاكِ وَالْحَبْسِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ) (35 : 2) وَلَمَّا كَانَ لَفْظُ الْعَذَابِ فِي الْآيَةِ نَكِرَةً جَازَ حَمْلُهُ عَلَى كُلِّ عَذَابٍ يَأْتِي مِنْ فَوْقِ الرُّءُوسِ وَمِنْ تَحْتِ الْأَرْجُلِ ، أَوْ مِنْ رُؤَسَاءِ النَّاسِ أَوْ مِنْ تُحُوتِهِمْ ، وَلَوْلَا أَنَّ هَذَا الْإِبْهَامَ مُرَادٌ لِأَجْلِ هَذَا الشُّمُولِ لَصَرَّحَ بِالْمُرَادِ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ 67 : 16 ،

17) وَحِكْمَةُ مِثْلِ هَذَا الْإِبْهَامِ فِي الْقُرْآنِ أَنْ يَنْطَبِقَ مَعْنَى اللَّفْظِ عَلَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ مِمَّا يَحْدُثُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ أَوْ نَكْشِفُ لِلنَّاسِ فِيهِ مَا كَانَ خَفِيًّا عَنْهُمْ ، إذْ وَرَدَ فِي وَصْفِ الْقُرْآنِ أَنَّهُ لَا تَنْتَهِي عَجَائِبُهُ ، وَأَنَّ فِيهِ نَبَأَ مَنْ قَبْلِ الَّذِينَ نَزَلَ فِي زَمَانِهِمْ ، وَمَنْ كَانَ مَعَهُمْ ، وَمَنْ يَجِيءُ بُعْدَهُمْ .

مِثَالُ مَا عَبَّرَ الْقُرْآنُ عَنْهُ وَلَمْ يَنْكَشِفْ لِجُمْهُورِ النَّاسِ انْكِشَافًا تَامًّا إلَّا بَعْدَ نُزُولِهِ بِقُرُونٍ – كَوْنُ الثِّمَارِ وَغَيْرِهَا أَزْوَاجًا ؛ مِنْهَا الذَّكَرُ وَالْأُنْثَى ، قَالَ تَعَالَى : (وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ 13 : 3) وَقَالَ : (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ) (51 : 49) وَكَانُوا يَحْمِلُونَ الْآيَاتِ فِي ذَلِكَ عَلَى الْمَجَازِ – وَكَوْنُ الرِّيَاحِ تُلَقِّحُ النَّبَاتَ كَمَا هُوَ صَرِيحُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ) (15 : 22) وَقَدْ جَعَلَهُ بَعْضُ مُفَسِّرِي السَّلَفِ تَلْقِيحًا مَجَازِيًّا كَقَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – : إنَّهَا تُلَقِّحُ السَّحَابَ فَيَدِرُّ كَمَا تَدِرُّ اللِّقْحَةُ . نَعَمْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ

–

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – وَكَذَا الْحَسَنُ : تُلَقِّحُ الشَّجَرَ وَتَمْرِي السَّحَابَ . وَلَكِنَّ هَذَا الْقَوْلَ الْمُقْتَبَسَ مِنَ التَّنْزِيلِ بِنُورِ الْفَهْمِ الصَّحِيحِ لَمْ يَزَلْ خَفِيًّا فِي تَفْصِيلِهِ حَتَّى عَنِ الْعَرَبِ الَّذِينَ كَانُوا يُلَقِّحُونَ النَّخِيلَ – إِلَى أَنِ اكْتَشَفَ النَّاسُ أَعْضَاءَ الذُّكُورَةِ وَالْأُنُوثَةِ فِي النَّبَاتِ وَكَوْنَهَا تُثْمِرُ بِالتَّلْقِيحِ ، وَكَوْنَ الرِّيَاحِ تَنْقِلُ مَادَّةَ الذُّكُورَةِ مِنْ ذَكَرِهَا إِلَى أُنْثَاهَا فَتُلَقِّحُهَا بِهِ ، وَلَمَّا عَلِمَ الْإِفْرِنْجُ بِهَذَا قَالَ بَعْضُ الْمُطَّلِعِينَ عَلَى الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ مِنَ الْمُسْتَشْرِقِينَ مِنْهُمْ : إِنَّ أَصْحَابَ الْإِبِلِ – يَعْنِي الْعَرَبَ – قَدْ عَرَفُوا أَنَّ الرِّيحَ تُلَقِّحُ الْأَشْجَارَ وَالثِّمَارَ قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَهَا أَهْلُ أُورُبَّةَ بِثَلَاثَةَ عَشَرَ قَرْنًا .

(124/236)

---

وَمِثَالُ مَا عَبَّرَ الْقُرْآنُ عَنْهُ مِمَّا شَمِلَ مَا لَمْ يَكُنْ فِي زَمَنِ تَنْزِيلِهِ وَلَا فِيمَا قَبْلَهُ بِحَسَبِ مَا يَعْلَمُ الْبَشَرُ – هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي ظَهَرَ تَفْسِيرُهَا فِي هَذَا الزَّمَانِ بِهَذِهِ الْحَرْبِ الْأُورُبِّيَّةِ الَّتِي لَمْ يَسْبِقْ لَهَا نَظِيرٌ ؛ فَقَدْ أَرْسَلَ اللهُ عَلَى الْأُمَمِ عَذَابًا مِنْ فَوْقِهَا بِمَا تَقْذِفُهُ الطَّيَّارَاتُ وَالْمَنَاطِيدُ مِنَ الْمَقْذُوفَاتِ النَّارِيَّةِ وَالسُّمُومِ الْبُخَارِيَّةِ وَالْغَازِيَّةِ الَّتِي لَمْ تُعْرَفْ قَبْلَ هَذِهِ الْحَرْبِ فَوْقَ مَقْذُوفَاتِ الْمَدَافِعِ وَغَيْرِهَا مِمَّا كَانَ مَعْرُوفًا قَبْلَهَا ، وَلَكِنْ بَعْدَ تَنْزِيلِ الْآيَةِ – وَعَذَابًا مِنْ تَحْتِهَا بِمَا يَتَفَجَّرُ مِنَ الْأُلْغَامِ النَّارِيَّةِ ، وَبِمَا تُرْسِلُهُ الْمَرَاكِبُ الْغَوَّاصَةُ فِي الْبَحْرِ الَّتِي اخْتُرِعَتْ

فِي هَذَا الْعَصْرِ ، وَلَبَّسَهَا شِيَعًا مُتَعَادِيَةً ، وَأَذَاقَ بَعْضَهَا بَأْسَ بَعْضٍ ، فَحَلَّ بِهَا مِنَ التَّقْتِيلِ وَالتَّخْرِيبِ مَا لَمْ يُعْهَدْ لَهُ نَظِيرٌ فِي الْأَرْضِ . وَقَدْ شَرَحْنَا هَذَا فِي مَقَالَةٍ نَشَرْنَاهَا فِي الْمَنَارِ . وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ دَلَالَةَ الْآيَةِ عَلَى هَذِهِ الْمُخْتَرَعَاتِ مُرَادٌ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُنْزِلَ الْقُرْآنِ هُوَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ . وَفِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ مَا يُشِيرُ إلَى ذَلِكَ ؛ فَقَدْ رَوَى أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ : سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ) إلَى آخِرِهَا ، فَقَالَ : " أَمَا إنَّهَا كَائِنَةٌ وَلَمْ يَأْتِ تَأْوِيلُهَا بَعْدُ " وَيُقَوِّيهِ مَا وَرَدَ فِي تَطْبِيقِهَا عَلَى

*(125/236)*

---

أُمَّتِنَا ؛ لِأَنَّهُ سُنَّةُ اللَّهِ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ قَبْلَنَا كَمَا يَأْتِي قَرِيبًا .

(انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ) أَيِ انْظُرْ بِعَيْنِ عَقْلِكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ - وَمِثْلُهُ فِي هَذَا كُلُّ مُخَاطَبٍ بِالْقُرْآنِ - كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَالدَّلَائِلَ فَنَجْعَلُهَا عَلَى أَنْحَاءٍ شَتَّى ، مِنْهَا مَا طَرِيقُهُ الْحِسُّ ، وَمِنْهَا مَا طَرِيقُهُ الْعَقْلُ ، وَمِنْهَا مَا طَرِيقُهُ عِلْمُ الْغَيْبِ - لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ الْحَقَّ ، وَيُدْرِكُونَ كُنْهَ الْأَمْرِ ، فَإِنَّ الْفِقْهَ هُوَ فَهْمُ الشَّيْءِ بِدَلِيلِهِ وَعِلَّتِهِ ، الْمُفْضِي إلَى الِاعْتِبَارِ وَالْعَمَلِ بِهِ ، وَإِنَّمَا يُرْجَى تَحْصِيلُهُ بِتَصَرُّفِ الْآيَاتِ وَتَنْوِيعِ الْبَيِّنَاتِ .

فَعُلِمَ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ عَامَّةٌ وَإِنْ نَزَلَتْ فِي سِيَاقِ إِنْذَارِ مُشْرِكِي مَكَّةَ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ، فَالْعِبْرَةُ فِيهَا كَغَيْرِهَا بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ أَوْ مُقْتَضَى السِّيَاقِ ، كَمَا تَقَرَّرَ فِي الْأُصُولِ ، وَقَدْ جَهِلَ هَذَا بَعْضُ الْمُعَمِّمِينَ فَأَنْكَرُوا عَلَيْنَا مُنْذُ أَوَّلِ الْعَهْدِ بِإِنْشَاءِ (الْمَنَارِ)

*(126/236)*

---

مَا كُنَّا نُورِدُهُ فِي سِيَاقِ تَذْكِيرِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي نَزَلَتْ فِي الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ .

وَمِمَّا يُؤَيِّدُ مَسْلَكَنَا هَذَا مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَالنَّسَائِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ) قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " أَعُوذُ بِوَجْهِكَ " قَالَ : (أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) قَالَ : " أَعُوذُ بِوَجْهِكَ " (أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ) قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " هَذَا أَهْوَنُ أَوْ هَذَا أَيْسَرُ " هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ فِي كِتَابِ التَّفْسِيرِ مِنْ صَحِيحِهِ ، وَوَقَعَ فِي كِتَابِ الِاعْتِصَامِ مِنْهُ " هَاتَانِ أَهْوَنُ أَوْ أَيْسَرُ " – وَالشَّكُّ مِنَ الرَّاوِيِّ – وَإِنَّمَا كَانَتْ خَصْلَتَا اللَّبْسِ وَإِذَاقَةِ الْبَأْسِ أَهْوَنَ أَوْ أَيْسَرَ ؛ لِأَنَّ الْمُسْتَعَاذَ مِنْهُ قَبْلَهَا هُوَ عَذَابُ الِاسْتِئْصَالِ بِإِحْدَى الْخَصْلَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ بِأَنْ لَا يَبْقَى مِنَ الْأُمَّةِ أَحَدٌ ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَحَادِيثُ

مُتَعَدِّدَةٌ ؛ مِنْهَا حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ عِنْدَ أَبِي بَكْرِ بْنِ مَرْدَوَيْهِ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : " دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يَرْفَعَ عَنْ أُمَّتِي أَرْبَعًا ، فَرَفَعَ عَنْهُمُ اثْنَتَيْنِ وَأَبَى أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُمُ اثْنَتَيْنِ : دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُمُ الرَّجْمَ مِنَ السَّمَاءِ وَالْخَسْفَ مِنَ الْأَرْضِ ، وَأَلَّا يَلْبِسَهُمْ شِيَعًا ، وَلَا يُذِيقَ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ، فَرَفَعَ

(127/236)

---

عَنْهُمُ الْخَسْفَ وَالرَّجْمَ ، وَأَبَى أَنْ يَرْفَعَ الْأُخْرَيَيْنِ " وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى عِنْدَهُ عَنْهُ - أَيِ ابْنِ عَبَّاسٍ - قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ . . .) قَامَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَتَوَضَّأَ ثُمَّ قَالَ : " اللَّهُمَّ لَا تُرْسِلْ عَلَى أُمَّتِي عَذَابًا مِنْ فَوْقِهِمْ وَلَا مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَلَا تَلْبِسْهُمْ شِيَعًا وَلَا تُذِقْ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ " قَالَ : فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ قَدْ أَجَارَ اللهُ أُمَّتَكَ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْهِمْ عَذَابًا

مِنْ فَوْقِهِمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ . أَيْ : وَلَمْ يُجِرْهُمْ مِنَ الْعَذَابَيْنِ الْآخَرَيْنِ ؛ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَتَّبِعُوا سُنَنَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَيَحِلَّ مَا حَلَّ بِهِمْ مِنْ عَذَابِ التَّفَرُّقِ وَالْخِلَافِ ، وَذَلِكَ مُقْتَضَى سُنَّتِهِ تَعَالَى فِي عِقَابِ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ ، يَخْتَلِفُونَ فِي الدِّينِ الْجَامِعِ لِكَلِمَتِهِمْ فَيَكُونُونَ مَذَاهِبَ وَشِيَعًا ، وَيَتْبَعُ ذَلِكَ اخْتِلَافُهُمْ فِي السُّلْطَةِ وَالسِّيَاسَةِ أَوْ يَتَقَدَّمُهُ ، وَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ

التَّخَاصُمُ وَالِاقْتِتَالُ الَّذِي نَعْهَدُهُ ، وَهَذَا مَعْنَى قَضَاءِ اللهِ فِي حَدِيثِ ثَوْبَانَ الَّذِي يَأْتِي قَرِيبًا .

(128/236)

---

وَرَوَى أَبُو الشَّيْخِ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ أَنَّ هَذَا الْعَذَابَ عَذَابُ أَهْلِ الْإِقْرَارِ ، وَأَنَّ الْعَذَابَ الْأَوَّلَ عَذَابُ أَهْلِ التَّكْذِيبِ . وَأَوْضَحُ مِنْهُ مَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، عَنِ الْحَسَنِ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا) قَامَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَتَوَضَّأَ ، فَسَأَلَ رَبَّهُ أَلَّا يُرْسِلَ عَلَيْهِمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِهِمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ، وَلَا يَلْبِسَ أُمَّتَهُ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ كَمَا أَذَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ . فَهَبَطَ إِلَيْهِ جِبْرِيلُ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّكَ سَأَلْتَ رَبَّكَ أَرْبَعًا ، فَأَعْطَاكَ اثْنَتَيْنِ ، وَمَنَعَكَ اثْنَتَيْنِ : لَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ مِنْ فَوْقِهِمْ وَلَا مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ يَسْتَأْصِلُهُمْ ، فَإِنَّهُمَا عَذَابَانِ لِكُلِّ أُمَّةٍ اجْتَمَعَتْ عَلَى تَكْذِيبِ نَبِيِّهَا وَرَدِّ كِتَابِ رَبِّهَا ، وَلَكِنَّهُ يَلْبِسُهُمْ شِيَعًا ، وَيُذِيقُ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ، وَهَذَانِ عَذَابَانِ لِأَهْلِ الْإِقْرَارِ بِالْكُتُبِ

(129/236)

وَالتَّصْدِيقِ بِالْأَنْبِيَاءِ ، وَلَكِنْ يُعَذَّبُونَ بِذُنُوبِهِمْ . وَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ (فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ) (43 : 41) يَقُولُ مِنْ أُمَّتِكَ (أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ (42) مِنَ الْعَذَابِ وَأَنْتَ حَيٌّ (فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ) (42) فَقَامَ نَبِيُّ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَرَاجَعَ رَبَّهُ ، فَقَالَ : " أَيُّ مُصِيبَةٍ أَشَدُّ مِنْ أَنْ أَرَى أُمَّتِي يُعَذِّبُ بَعْضُهَا بَعْضًا ؟ " وَأُوحِيَ إِلَيْهِ (الم أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا) (29 : 1 ، 2) الْآيَتَيْنِ فَأَعْلَمَهُ أَنَّ أُمَّتَهُ لَمْ تُخَصَّ دُونَ الْأُمَمِ بِالْفِتَنِ ، وَأَنَّهَا سَتُبْتَلَى كَمَا ابْتُلِيَتِ الْأُمَمُ ، ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ (قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (23 : 93 ، 94) فَتَعَوَّذَ نَبِيُّ اللهِ فَأَعَاذَهُ اللهُ ، لَمْ يَرَ مِنْ أُمَّتِهِ إِلَّا الْجَمَاعَةَ وَالْأُلْفَةَ وَالطَّاعَةَ ، ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةً حَذَّرَ فِيهَا أَصْحَابَ الْفِتْنَةِ ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَخُصُّ بِهَا نَاسًا مِنْهُمْ دُونَ نَاسٍ ، فَقَالَ : (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (8 : 25) فَخَصَّ بِهَا أَقْوَامًا مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَعْدَهُ وَعَصَمَ بِهَا أَقْوَامًا . اهـ .

*(130/236)*

وَقَدْ وَفَّى الْحَسَنُ – رَحِمَهُ اللهُ – الْمَسْأَلَةَ حَقَّهَا مِنَ الْبَيَانِ بِذِكْرِ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا ، وَإِنْ نَزَلَ بَعْدَهَا بِسِنِينَ كَآيَةِ الْأَنْفَالِ الْأَخِيرَةِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُبَيِّنْ مَعْنَى هَذِهِ ، وَهُوَ بَيَانُ سُنَّتِهِ تَعَالَى فِي الْفِتَنِ ، تُصَابُ بِهَا الْأُمَمُ لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ، وَكَانُوا سَبَبَ الْعَذَابِ الْمُتَرَتِّبِ عَلَيْهَا خَاصَّةً ، بَلْ تَحِلُّ بِهِمْ وَبِمَنْ لَمْ يَمْنَعْهُمْ عَنِ الظُّلْمِ وَلَوْ عَجْزًا ، بَلْ ظَاهِرُ الرِّوَايَةِ مُخَالِفٌ لِظَاهِرِ الْآيَةِ فِي هَذَا ، وَلَعَلَّهُ مُحَرَّفٌ .

وَاعْلَمْ أَنَّهُ وَرَدَ فِي هَذَا الْمَعْنَى أَحَادِيثُ أُخْرَى ؛ مِنْهَا أَنَّهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – دَعَا رَبَّهُ أَلَّا يُهْلِكَ أُمَّتَهُ بِتَسْلِيطِ عَدُوٍّ عَلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْفُسِهِمْ ، وَلَا بِالسَّنَةِ الْعَامَّةِ – أَيِ الْمَجَاعَةِ وَالْقَحْطِ – وَلَا بِالْغَرَقِ ، وَلَا بِمَا عَذَّبَ بِهِ الْأُمَمَ قَبْلَهُمْ كَالرِّيحِ وَالصَّيْحَةِ وَالرَّجْفَةِ . وَقَدْ أَوْرَدَ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ ، وَالسُّيُوطِيُّ فِي الدُّرِّ الْمَنْثُورِ .

*(131/236)*

---

وَقَدِ اسْتَشْكَلَ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ الْعُلَمَاءُ بِمَا وَرَدَ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْمُتَعَدِّدَةِ مِنَ الطُّرُقِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي إِثْبَاتِ وُقُوعِ الْخَسْفِ وَالْمَسْخِ وَالْقَذْفِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَأَمْثَلُ مَا أَجَابُوا بِهِ عَنْهَا هُوَ أَنَّ مَا دَعَا بِهِ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِنَّمَا هُوَ عَدَمُ هَلَاكِ أُمَّتِهِ كُلِّهَا بِمَا ذَكَرَ كَمَا هَلَكَتْ عَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَغَيْرُهُمْ ، وَوُقُوعُ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فِي بَعْضِ الْأُمَّةِ لَا يُنَافِي

اسْتِجَابَةَ الدُّعَاءِ ، فَإِنَّ مِنْهُ الْمَوْتَ غَرَقًا أَوْ جُوعًا ، وَقَدْ وَقَعَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْأُمَّةِ حَتْمًا .

ثُمَّ حَدَثَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ فِي الْأَجْيَالِ الْأَخِيرَةِ مَا هُوَ أَوْلَى بِالْإِشْكَالِ ، وَأَحْوَجُ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْجَوَابِ ، وَهُوَ تَسْلِيطُ الْأَعْدَاءِ عَلَيْهَا الْمُعَارِضُ لِمَا وَرَدَ فِي هَذَا الْبَابِ وَأَصَحُّهُ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ ، مِنْ حَدِيثِ ثَوْبَانَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الْأَرْضَ فَرَأَيْتُ

(132/236)

---

مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا ، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا ، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَلَّا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ ، وَأَلَّا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَلَّا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ ، وَأَلَّا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا - أَوْ قَالَ : مِنْ بَيْنِ أَقْطَارِهَا - حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا "

(133/236)

وَرَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَصْحَابُ السُّنَنِ - إِلَّا النَّسَائِيَّ - وَغَيْرُهُمْ بِزِيَادَةٍ عَمَّا هُنَا ، وَقَدْ ظَهَرَ صِدْقُ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي بُلُوغِ مُلْكِ أُمَّتِهِ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ، وَفِي وُقُوعِ بَأْسِهِمْ بَيْنَهُمْ ، وَمَا زَالَ مُلْكُهُمْ عَنْ أَكْثَرِ تِلْكَ الْمَمَالِكِ إِلَّا بِتَفَرُّقِهِمْ ، ثُمَّ بِمُسَاعَدَتِهِمْ لِلْأَجَانِبِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَكَمْ تَأَلَّبَتْ عَلَيْهِمُ الْأُمَمُ ، فَلَمْ يَنَالُوا مِنْهُمْ بِدُونِ ذَلِكَ مَنَالًا ، وَمَا بَقِيَ لَهُمُ الْآنَ قَلِيلٌ ضَعِيفٌ ، يَتَوَقَّعُ الطَّامِعُونَ الِاسْتِيلَاءَ عَلَيْهِ قَرِيبًا ، وَنَحْنُ نَرْجُو خِذْلَانَ الطَّامِعِينَ ، وَإِقَامَةَ قَوَاعِدِ اسْتِقْلَالِنَا عَلَى أَسَاسٍ مَتِينٍ ، يَضْمَنُهُ تَكَافُلُ الْأُمَمِ وَحِفْظُهَا لِلسِّلْمِ وَلَوْ عَشَرَاتٍ مِنَ السِّنِينَ ، لَعَلَّنَا نَصِيرُ فِي فُرْصَتِهَا مِنَ الْعَالِمِينَ الْعَامِلِينَ ، الَّذِينَ يَحْفَظُونَ حَقِيقَتَهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ ، وَلَا يَتَّكِلُونَ عَلَى تَنَازُعِ الطَّامِعِينَ فِيهِمْ ، فَإِنَّ هَذَا اتِّكَالٌ عَلَى أَمْرٍ سَلْبِيٍّ لَا يَدُومُ لَنَا ، وَإِنْ كَانَ هُوَ الَّذِي أَبْقَى لَنَا هَذَا الْقَلِيلَ الَّذِي ذَكَرْنَا ، وَبَقَاؤُهُ هُوَ مِصْدَاقُ الْحَدِيثِ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُعْتَمَدَةِ فِي الْجَوَابِ عَنِ الدُّعَاءِ بِرَفْعِ الْخَسْفِ وَالْقَحْطِ وَالْغَرَقِ وَغَيْرِهَا فِي الْأَحَادِيثِ الْأُخْرَى .

*(134/236)*

وَيُمْكِنُ أَنْ يُجَابَ عَنْ حَدِيثِ ثَوْبَانَ هَذَا بِجَوَابٍ آخَرَ غَيْرِ الَّذِي يُؤْخَذُ مِنْ جَوَابِهِمْ عَنْ غَيْرِهِ وَغَيْرِ مَا أَشَرْنَا إلَيْهِ آنِفًا فِي بَيَانِ صِدْقِهِ ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُسَلِّطُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ مَا دَامُوا مُسْتَمْسِكِينَ بِعُرْوَةِ الْإِيمَانِ الْوُثْقَى ، وَقَائِمِينَ بِحُقُوقِهِ وَمِنْهَا الْأَسْبَابُ الَّتِي وَعَدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى النَّصْرَ مَا دَامُوا مُسْتَمْسِكِينَ بِهَا ، وَقَدْ بَيَّنَهَا لَهُمْ فِي كِتَابِهِ ، وَتَقَدَّمَ كَثِيرٌ مِنْهَا فِيمَا مَرَّ مِنَ التَّفْسِيرِ ، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ حَدِيثٌ آخَرَ عَنْ ثَوْبَانَ نَفْسِهِ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : "يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إلَى قَصْعَتِهَا ، فَقَالَ قَائِلٌ : أَوَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ : بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَسَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ ، وَلَيَقْذِفَنَّ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ . قَالَ قَائِلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَا الْوَهَنُ ؟ قَالَ : حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ " رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ .

(تَنْبِيهُ غَافِلٍ ، وَتَعْلِيمُ جَاهِلٍ) .

*(135/236)*

يُسِيءُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ تَأْوِيلَ حَدِيثَيْ ثَوْبَانَ وَغَيْرِهِمَا مِنْ أَحَادِيثِ الْفِتَنِ ، وَيَحْمِلُونَهَا عَلَى مَا يَضُرُّهُمْ ، وَهُوَ مَا لَمْ يُرِدْهُ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَا يَرْضَاهُ لَهُمْ ، فَوَجَبَ أَنْ نُبَيِّنَ الْحَقَّ فِي ذَلِكَ ؛ فَنَقُولُ :

(136/236)

---

إِنَّ لِأَحْوَالِ الْأُمَمِ الْعَامَّةِ تَأْثِيرًا عَظِيمًا فِي فَهْمِ أَفْرَادِهَا لِنُصُوصِ الدِّينِ وَغَيْرِهَا مِنْ أَقْوَالِ الْحُكَمَاءِ وَالشُّعَرَاءِ ، فَهِيَ فِي حَالِ ارْتِقَائِهَا بِالْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ وَمَا يُثْمِرَانِ مِنَ الْعِزَّةِ وَالْقُوَّةِ تَكُونُ أَصَحَّ أَفْهَامًا ، وَأَصْوَبَ أَحْكَامًا ، وَأَكْثَرَ اعْتِبَارًا وَادِّكَارًا ، وَأَحْسَنَ اسْتِفَادَةً وَاسْتِبْصَارًا ، وَفِي حَالِ فُشُوِّ الْغَبَاوَةِ وَالْجَهْلِ ، وَمَا يُنْتِجَانِ مِنَ الضَّعْفِ وَالذُّلِّ ، تَكُونُ بِالضِّدِّ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَضْرِبُ مَثَلًا لِذَلِكَ : النُّصُوصُ وَالْحِكَمُ الْمَنْظُومَةِ وَالْمَنْثُورَةِ فِي ذَمِّ الطَّمَعِ وَالْحِرْصِ عَلَى الْمَالِ وَزِينَةِ الدُّنْيَا ، وَمَا يُقَابِلُهَا مِنْ تَعْظِيمِ أَمْرِ الْآخِرَةِ وَالتَّرْغِيبِ فِي مَعَالِي الْأُمُورِ وَبَذْلِ الْمَالِ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ . لَمْ تَكُنْ تِلْكَ النُّصُوصُ وَالْحِكَمُ وَالْأَشْعَارُ وَالْأَمْثَالُ بِصَادَّةٍ لِلْأُمَّةِ فِي طَوْرِ حَيَاتِهَا وَارْتِقَائِهَا عَنِ الْفَتْحِ وَالْكَسْبِ ، وَإِحْرَازِ قَصَبِ السَّبْقِ فِي جَمِيعِ مَيَادِينِ التَّنَازُعِ عَلَى السِّيَادَةِ وَمَوَارِدِ الرِّزْقِ ، بَلْ كَانَتْ هِيَ الْحَافِزَةُ لَهَا إِلَى ذَلِكَ بِقَصْدِ إِعْزَازِ الْمِلَّةِ ، وَرَفْعِ شَأْنِ الْأُمَّةِ ، لِذَلِكَ كَانُوا يَبْذُلُونَ تِلْكَ الْأَمْوَالَ بِمُنْتَهَى السَّخَاءِ فِي

سَبِيلِ الْبِرِّ وَأَعْمَالِ الْخَيْرِ ، وَلَوْ حَفِظَ الْمُتَأَخِّرُونَ مِنَّا مَا حَبَسَهُ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأَوْقَافِ عَلَى جَمِيعِ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ وَأَنْوَاعِ الْبِرِّ لَوَجَدُوا أَنَّ جَمِيعَ مَا مَلَكُوهُ مِنَ الْأَرْضِ كَانَ وَقْفًا بَلْ وُقِفَ مِرَارًا ؛ لِأَنَّ الْخَلَفَ الصَّالِحَ صَارَ يُحَوِّلُ أَوْقَافَ

(137/236)

---

السَّلَفِ الصَّالِحِ إلَى مِلْكٍ ، حَتَّى كَانَ عَمُّ وَالِدِي الشَّيْخُ النَّقَّادُ الْخَبِيرُ السَّيِّدُ أَحْمَدُ أَبُو الْكَمَالِ يَقُولُ عَلَى سَبِيلِ الْمُبَالَغَةِ فِي هَذَا الْمَعْنَى : فِي كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ يَتَحَوَّلُ كُلُّ وَقْفٍ فِي طَرَابُلُسَ الشَّامِ مِلْكًا ، وَكُلُّ مِلْكٍ وَقْفًا .

كَانَتْ تِلْكَ النُّصُوصُ وَالْحِكَمُ لِلْأُمَّةِ فِي تِلْكَ الْحَيَاةِ كَالْغِذَاءِ الصَّالِحِ لِلْجِسْمِ السَّلِيمِ ، يَزِيدُهُ قُوَّةً ، وَيَحْفَظُ لَهُ حَيَاتَهُ وَيُعَوِّضُهُ عَنْ كُلِّ مَا يَنْحَلُّ مِنْهُ مِنَ الدَّقَائِقِ الْمَيِّتَةِ مَادَّةً حَيَّةً خَيْرًا مِنْهَا ، ثُمَّ صَارَتْ فِي طَوْرِ الضَّعْفِ كَالْغِذَاءِ الْجَيِّدِ فِي الْجِسْمِ الْعَلِيلِ ، لَا يَزِيدُهُ إلَّا ضَعْفًا وَانْحِلَالًا ؛ إذْ صَارُوا

يَفْهَمُونَ مِنْهَا أَنَّ الْكَسَلَ وَالْخُمُولَ وَالتَّوَاكُلَ وَالْفَقْرَ وَالذُّلَّ مِنْ مَقَاصِدِ الدِّينِ ، فَصَارُوا لَا يَسْتَفِيدُونَ مِنْهَا إلَّا ضَعْفًا وَعَجْزًا ، وَلَا يَزْدَادُونَ مَعَ ذَلِكَ إلَّا حِرْصًا وَدَنَاءَةً وَبُخْلًا .

(138/236)

إِذَا تَدَبَّرْتَ هَذَا الْمِثَالَ فَاجْعَلْهُ مِرْآةً لِمَا وَرَدَ فِي الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ مِنْ أَنْبَاءِ مُسْتَقْبَلِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، كَسِعَةِ مُلْكِهَا فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا - أَيْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْحِجَازِ - ثُمَّ تَدَاعِي الْأُمَمِ عَلَيْهَا كَمَا تَتَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا ، وَمِنْ تَفَرُّقِهَا شِيَعًا وَوُقُوعِ بَأْسِهَا بَيْنَهَا ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفِتَنِ ، وَمَا يَكُونُ قَبْلَ قِيَامِ السَّاعَةِ مِنَ الْإِحْدَاثِ وَالْبِدَعِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَصَابَ الْأُمَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ بِسُوءِ فَهْمِهَا لِهَذِهِ الْأَحَادِيثِ - بَعْدَ فُشُوِّ الْجَهْلِ فِيهَا - هُوَ نَحْوٌ مِمَّا أَصَابَهَا بِسُوءِ فَهْمِهَا لِتِلْكَ النُّصُوصِ وَالْحِكَمِ الَّتِي أَشَرْنَا إِلَيْهَا فِي الْمِثَالِ . وَظَنَّ جَمَاهِيرُ الْمُسْلِمِينَ أَنْفُسَهُمْ مُنْذُ قُرُونٍ عَلَى الرِّضَا بِجَمِيعِ الْفِتَنِ وَالشُّرُورِ الَّتِي أَنْبَأَتِ الْأَحَادِيثُ بِوُقُوعِهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، فَقَعَدَتْ هِمَمُهُمْ عَنِ الْقِيَامِ بِمَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَدَفْعِ الْمَكْرُوهِ ، وَالدِّفَاعِ عَنِ الْحَقِّ بِقَدْرِ الِاسْتِطَاعَةِ ، مُعْتَذِرِينَ لِأَنْفُسِهِمْ بِأَنَّ ذَلِكَ قَدْرٌ قَدْ وَرَدَ بِوُقُوعِهِ الْخَبَرُ ، فَلَا مَهْرَبَ مِنْهُ وَلَا مَفَرَّ ، كَمَا يَعْتَذِرُونَ لِأَنْفُسِهِمْ عَنْ تَرْكِ مُجَارَاةِ الْأُمَمِ الْعَزِيزَةِ فِي أَسْبَابِ الْعِزَّةِ وَطُرُقِ الثَّرْوَةِ بِالنُّصُوصِ وَالْحِكَمِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي التَّنْفِيرِ عَنِ الطَّمَعِ وَالْجَشَعِ وَتَهْوِينِ أَمْرِ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا ، وَالتَّرْغِيبِ فِي مَعَالِي الْأَمْرِ وَإِيثَارِ

الْحَيَاةِ الْبَاقِيَةِ . وَلَا حُجَّةَ لَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، بَلْ لِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ عَلَيْهِمْ ، وَقَدْ بَسَطْنَا ذَلِكَ مِرَارًا فِي التَّفْسِيرِ وَفِي غَيْرِ التَّفْسِيرِ .

وَتَرَاهُمْ مَعَ هَذَا قَدْ تَرَكُوا السَّعْيَ وَالْعَمَلَ لِمَا وُعِدُوا بِهِ فِي الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ مِنَ الْخَيْرِ وَالسِّيَادَةِ كَمَا كَانَ يَسْعَى وَيَعْمَلُ لَهُ سَلَفُهُمْ ، وَمِنْ تِلْكَ الْوُعُودِ مَا لَمْ يَأْتِ تَأْوِيلُهُ وَلَا بُدَّ مِنْ إِتْيَانِهِ ؛ لِأَنَّ وَعْدَ اللهِ مَفْعُولٌ لَا بُدَّ مِنْهُ ، كَمَا تَرَكُوا الْعَمَلَ بِالنُّصُوصِ الْآمِرَةِ بِالْبَذْلِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، مَعَ ادِّعَائِهِمُ الْأَخْذَ بِمَا وَرَدَ فِي إِيثَارِ الْآخِرَةِ عَلَى الدُّنْيَا أَوِ احْتِجَاجِهِمْ بِهِ .

وَحَقِيقَةُ الْأَمْرِ أَنَّهُمْ رُزِئُوا بِالْجَهْلِ وَالْكَسَلِ وَسُقُوطِ الْهِمَّةِ ، فَهُمْ بِجَهْلِهِمْ يَتْعَبُونَ وَيَشْقَوْنَ فِي اتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ وَالسَّعْيِ لِحُظُوظِهِمُ الشَّخْصِيَّةِ الدَّنِيئَةِ ، وَلَا يُفَكِّرُونَ فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ ، وَلَا يَعْقِلُونَ وَجْهَ ارْتِبَاطِ الْمَنَافِعِ الْخَاصَّةِ بِهَا ، بَلْ يَتْرُكُونَهَا زَاعِمِينَ أَنَّهُمْ قَدْ وَكَّلُوا أَمْرَهَا إِلَى اللهِ وَعَمِلُوا بِهَدْيِ دِينِهِ فِيهَا . بَلْ لَا يَخْطُرُ فِي بَالِ أَحَدٍ مِنْهُمْ هَذَا الزَّعْمَ إِلَّا إِذَا عَذَلَهُ عَاذِلٌ أَوْ وَبَخَهُ مُوَبِّخٌ عَلَى تَفْرِيطِهِ فِي حُقُوقِ أُمَّتِهِ وَمَا يَجِبُ عَلَيْهِ لِمِلَّتِهِ ، فَحِينَئِذٍ يَعْتَذِرُونَ بِالْأَقْدَارِ ، أَوْ بِأَنَّ الْآخِرَةَ لَهُمْ وَالدُّنْيَا لِلْكُفَّارِ ، وَقَدْ ذَكَّرْنَاهُمْ بِفَسَادِ شُبْهَتِهِمْ هَذِهِ مِرَارًا (وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ) (40 : 13) .

إِنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمْ يُخْبِرْ أُمَّتَهُ بِمَا سَيَقَعُ فِيهَا مِنَ التَّفَرُّقِ وَالشِّيَعِ ، وَرُكُوبِ سُنَنِ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي الْإِحْدَاثِ وَالْبِدَعِ ، وَبِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَخْبَارِ الْفِتَنِ الْخَاصَّةِ بِهِمْ وَالْمُشْتَرِكَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْأُمَمِ - إِلَّا لِأَجْلِ أَنْ يَكُونُوا عَلَى بَصِيرَةٍ فِي مُقَاوَمَةِ ضُرِّهَا وَاتِّقَاءِ تَفَاقُمِ شَرِّهَا ، ، لَا لِأَجْلِ أَنْ يَتَعَمَّدُوا إِثَارَةَ تِلْكَ الْفِتَنِ وَالِاصْطِلَاءِ بِنَارِهَا ، وَالِاقْتِرَافِ لِأَوْزَارِهَا ، فَمَثَلُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي ذَلِكَ كَمَثَلِ الطَّبِيبِ الَّذِي يُخْبِرُ الْمُسَافِرِينَ إِلَى أَرْضٍ مَجْهُولَةٍ لَهُمْ بِمَا فِيهَا مِنَ الْأَمْرَاضِ ؛ لِأَجْلِ أَنْ يَبْذُلُوا جُهْدَهُمْ فِي اتِّقَاءِ وُقُوعِهَا بِهِمْ ، ثُمَّ فِي مُدَاوَاةِ مَنْ يُصَابُ بِهَا مِنْهُمْ ، لَا لِأَجْلِ أَنْ يَجْعَلُوا أَنْفُسَهُمْ عُرْضَةً لَهَا بِإِتْيَانِ أَسْبَابِهَا ، وَتَوْطِينِ النَّفْسِ عَلَى الْهَلَاكِ بِتَرْكِ التَّدَاوِي مِنْهَا . وَقَدْ كَانَ أَهْلُ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ يَفْهَمُونَ ذَلِكَ مِنَ النُّصُوصِ ، كَمَا صَرَّحَتْ بِهِ عَائِشَةُ فِي حَدِيثِ لَعْنِ أَهْلِ الْكِتَابِ لِاتِّخَاذِ قُبُورِ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ ، فَإِنَّهَا عَلَّلَتْهُ بِقَوْلِهَا : يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا . وَقَدْ صَرَّحَتِ النُّصُوصُ بِالنَّهْيِ عَنِ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ الَّذِي تَدَهْوَرَ فِي تَيْهُورِهِ أَهْلُ الْكِتَابِ حَتَّى لَا نَقَعَ فِيهِ عَلَى غَرَارَةٍ وَجَهَالَةٍ فَيَكُونُ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ، وَلَا نَهْتَدِي إِلَى تَخْفِيفِهِ سَبِيلًا (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ

أُولُوا الْأَلْبَابِ) (39 : 9) وَلَوْ أَنَّ عُلَمَاءَ الصَّحَابَةِ أَوِ التَّابِعِينَ كَتَبُوا فِي التَّفْسِيرِ وَشَرْحِ الْحَدِيثِ لَبَيَّنُوا لَنَا ذَلِكَ .

وَلَمْ يُقَصِّرِ الْمُصَنِّفُونَ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ فِي شَيْءٍ مِنْ عِلْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كَمَا قَصَّرُوا فِي بَيَانِ مَا هَدَى إِلَيْهِ الْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ مِنْ سُنَنِ اللهِ تَعَالَى فِي الْأُمَمِ ، وَالْجَمْعِ بَيْنَ النُّصُوصِ فِي ذَلِكَ وَالْحَثِّ عَلَى الِاعْتِبَارِ بِهَا ، وَلَوْ عَنُوا بِذَلِكَ بَعْضَ عِنَايَتِهِمْ

*(142/236)*

---

بِفُرُوعِ الْأَحْكَامِ وَقَوَاعِدِ الْكَلَامِ لَأَفَادُوا الْأُمَّةَ مَا يُحْفَظُ بِهِ دِينُهَا وَدُنْيَاهَا ، وَهُوَ مَا لَا يُغْنِي عَنْهُ التَّوَسُّعُ فِي دَقَائِقِ مَسَائِلِ النَّجَاسَةِ وَالطَّهَارَةِ ، وَالسَّلَمِ وَالْإِجَارَةِ ، فَإِنَّ الْعِلْمَ بِسُنَنِ اللهِ تَعَالَى فِي عِبَادِهِ ، لَا يَعْلُوهُ إِلَّا الْعِلْمُ بِاللهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ ، بَلْ هُوَ مِنْهُ أَوْ مِنْ طُرُقِهِ وَوَسَائِلِهِ .

وَقَدْ فَطِنَ لِهَذَا بَعْضُ حُكَمَاءِ الْعُلَمَاءِ ، فَقَالَ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ فِي بَيَانِ الْقَدْرِ الْمَحْمُودِ مِنَ الْعُلُومِ الْمَحْمُودَةِ مِنْ كِتَابِ الْعِلْمِ فِي الْإِحْيَاءِ : وَأَمَّا الْقِسْمُ الْمَحْمُودُ إِلَى أَقْصَى غَايَاتِ الِاسْتِقْصَاءِ فَهُوَ الْعِلْمُ بِاللهِ تَعَالَى وَبِصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ ، وَسُنَنِهِ فِي خَلْقِهِ وَحِكْمَتِهِ فِي تَرْتِيبِ الْآخِرَةِ عَلَى الدُّنْيَا ، فَإِنَّ هَذَا عِلْمٌ مَطْلُوبٌ لِذَاتِهِ . ثُمَّ فَضَّلَ أَهْلَ هَذَا الْعِلْمِ عَلَى جَمِيعِ

الْعُلَمَاءِ كَالْمُتَكَلِّمِينَ وَالْفُقَهَاءِ ، وَأَيَّدَهُ فِي ذَلِكَ الْعِزُّ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ إِذِ اسْتُفْتِيَ فِيهِ فَأَفْتَى بِصِحَّتِهِ . وَبَيَّنَ الْغَزَالِيُّ فِي غَيْرِ هَذَا الْفَصْلِ مِنْ فُصُولِ الْبَابِ الثَّانِي مِنْ أَبْوَابِ الْعِلْمِ أَنَّ هَذَا الْعِلْمَ هُوَ الَّذِي امْتَازَ بِهِ عُظَمَاءُ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، وَأَنَّهُ هُوَ الْعِلْمُ الَّذِي عَنَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ لَمَّا مَاتَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِقَوْلِهِ : مَاتَ تِسْعَةُ أَعْشَارِ الْعِلْمِ (وَرَوَاهُ أَبُو خَيْثَمَةَ فِي كِتَابِ الْعِلْمِ بِلَفْظِ : إِنِّي لَأَحْسَبُ عُمَرَ قَدْ ذَهَبَ بِتِسْعَةِ أَعْشَارِ الْعِلْمِ) .

*(143/236)*

---

أَقُولُ : أَمَّا الْعِلْمُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَبِصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ فَهُوَ مِعْرَاجُ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ ، وَأَمَّا الْعِلْمُ بِسُنَّتِهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ فَهُوَ وَسِيلَةٌ وَمَقْصِدٌ ، أَعْنِي أَنَّهُ أَعْظَمُ الْوَسَائِلِ لِكَمَالِ الْعِلْمِ الَّذِي قَبْلَهُ ، وَمِنْ أَقْرَبِ الطُّرُقِ إِلَيْهِ ، وَأَقْوَى الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ ، وَأَنَّهُ أَعْظَمُ الْعُلُومِ الَّتِي يَرْتَقِي بِهَا الْبَشَرُ فِي الْحَيَاةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ الْمَدَنِيَّةِ فَيَكُونُونَ بِهَا أَعِزَّاءَ أَقْوِيَاءَ سُعَدَاءَ ، وَإِنَّمَا يُرْجَى بُلُوغُ كَمَالِ الِاسْتِفَادَةِ مِنْهُ إِذَا نُظِرَ فِيهِ إِلَى الْوَجْهِ الرَّبَّانِيِّ وَالْوَجْهِ الْإِنْسَانِيِّ جَمِيعًا ، وَهُوَ مَا كَانَ عُمَرُ يَنْظُرُ فِيهِ بِنُورِ اللَّهِ فِي فِطْرَتِهِ وَهِدَايَةِ كِتَابِهِ ، وَأَمَّا أَبُو حَامِدٍ فَقَدْ لَاحَظَ الْوَجْهَ الرَّبَّانِيَّ فَقَطْ ، وَإِنَّ فِي سِيَاسَةِ عُمَرَ وَفِي كَلَامِهِ لَدَلَائِلَ كَثِيرَةً عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنْ بَصِيرَتِهِ فِي هَذَا الْعِلْمِ ،

فَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ أَهْلِهِ ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ وَسِيلَةً لَنَا لِتَكْمِيلِ أَنْفُسِنَا ، وَإِصْلَاحِ مَا فَسَدَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِنَا ، آمِينَ .

*(144/236)*

---

إِذَا تَدَبَّرْتَ هَذَا أَيُّهَا الْقَارِئُ ، فَاعْلَمْ أَنَّ الِاسْتِدْلَالَ بِمَا وَرَدَ مِنَ الْأَخْبَارِ وَالْآثَارِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ لَا يَدُلُّ هُوَ وَلَا غَيْرُهُ مِنْ أَحَادِيثِ الْفِتَنِ وَالسَّاعَةِ عَلَى أَنَّ الْأُمَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ قَدْ قُضِيَ عَلَيْهَا بِدَوَامِ مَا هِيَ عَلَيْهِ الْآنَ مِنَ الضَّعْفِ وَالْجَهْلِ وَلَوَازِمِهِمَا كَمَا يَزْعُمُ الْجَاهِلُونَ بِسُنَنِ اللهِ ، الْيَائِسُونَ مِنْ رُوحِ اللهِ ، بَلْ تُوجَدُ نُصُوصٌ أُخْرَى تَدُلُّ عَلَى أَنَّ لِجَوَادِهَا نَهْضَةً مِنْ هَذِهِ الْكَبْوَةِ ، وَأَنَّ لِسَهْمِهَا قَرْطَسَةً بَعْدَ هَذِهِ النَّبْوَةِ كَالْآيَةِ النَّاطِقَةِ بِاسْتِخْلَافِهِمْ فِي الْأَرْضِ ، فَإِنَّ عُمُومَهَا لَمْ يَتِمَّ بَعْدُ ، وَكَخَبَرِ " لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا ، وَحَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ بَيْنَ الْعِرَاقِ وَمَكَّةَ لَا يَخَافُ إِلَّا ضَلَالَ الطَّرِيقِ " رَوَاهُ أَحْمَدُ ، وَالشَّطْرُ الْأَوَّلُ مِنْهُ لَمْ يَتَحَقَّقْ بَعْدُ ، وَيُؤَيِّدُهُ وَيُوَضِّحُ مَعْنَاهُ مَا صَحَّ عِنْدَ مُسْلِمٍ مِنْ أَنَّ مِسَاحَةَ الْمَدِينَةِ سَوْفَ تَبْلُغُ الْمَوْضِعَ الَّذِي يُقَالُ لَهُ : إِهَابٌ ، أَيْ أَنَّ مِسَاحَتَهَا سَتَكُونُ عِدَّةَ أَمْيَالٍ ، فَكُونُوا يَا قَوْمُ مِنَ الْمُبَشِّرِينَ لَا مِنَ الْمُنَفِّرِينَ (وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ) (38 : 88) .

---

(وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ) الْخِطَابُ لِلرَّسُولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَيْ : وَكَذَّبَ جُمْهُورُ قَوْمِكَ وَهُمْ قُرَيْشٌ بِالْعَذَابِ أَوْ بِالْقُرْآنِ ، عَلَى مَا صَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ الْجَاذِبَةِ إِلَى فِقْهِ الْإِيمَانِ بِجَعْلِهَا حُجَجًا يُثْبِتُهَا الْحِسُّ وَالْعَقْلُ وَالْوِجْدَانُ فِي أَعْلَى أَسَالِيبِ الْبَلَاغَةِ وَحُسْنِ الْبَيَانِ ، وَالْحَالُ أَنَّهُ هُوَ الْحَقُّ الثَّابِتُ فِي نَفْسِهِ ، الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، وَمَا سَبَبُ ذَلِكَ إِلَّا الْكِبْرُ وَالْعِنَادُ وَالْجُمُودُ عَلَى تَقْلِيدِ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ (قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ) أَيْ : قُلْ لَهُمْ أَيُّهَا الرَّسُولُ : إِنَّنِي لَسْتُ بِوَكِيلٍ مُسَيْطِرٍ عَلَيْكُمْ ، وَإِنَّمَا أَنَا رَسُولٌ لَكُمْ ، فَالْوَكِيلُ هُوَ الَّذِي تُوكَلُ إِلَيْهِ الْأُمُورُ ، وَفِي الْوَكَالَةِ مَعْنَى السَّيْطَرَةِ وَالتَّصَرُّفِ ، فَمَنْ جَعَلَهُ السُّلْطَانُ أَوِ الْمَلِكُ وَكِيلًا لَهُ عَلَى بِلَادِهِ أَوْ مَزَارِعِهِ يَكُونُ مَأْذُونًا بِالتَّصَرُّفِ عَنْهُ فِيهَا وَالسَّيْطَرَةِ عَلَى أَهْلِهَا ، وَالرَّسُولُ مُبَلِّغٌ عَنِ اللهِ تَعَالَى ، يُذَكِّرُ النَّاسَ وَيُعَلِّمُهُمْ وَيُبَشِّرُهُمْ وَيُنْذِرُهُمْ ، وَيُقِيمُ دِينَ اللهِ فِيهِمْ ، هَذِهِ وَظِيفَتُهُ ، وَلَيْسَ وَكِيلًا عَنْ رَبِّهِ وَمُرْسِلِهِ ، وَلَا يُعْطَى الْقُدْرَةَ عَلَى التَّصَرُّفِ فِي عِبَادِهِ حَتَّى يُجْبِرَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ إِجْبَارًا وَيُكْرِهَهُمْ عَلَيْهِ إِكْرَاهًا (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) (2 : 256) –

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ) (88 : 21 ، 22) (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ) (50 : 45) (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) (2 : 272) وَرَاجِعْ تَفْسِيرَ (6 : 48) وَقِيلَ : الْوَكِيلُ الْحَفِيظُ الْمُجَازِيُّ .

وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نُسِخَتْ بِآيَةِ الْقِتَالِ ، وَتَمَسَّكَ بِهَذِهِ الرِّوَايَةِ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ الْمُغْرَمِينَ بِتَكْثِيرِ الْآيَاتِ الْمَنْسُوخَةِ ، قَالَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ : وَهُوَ بَعِيدٌ ، وَهُوَ فِي قَوْلِهِ الْمُصِيبُ ، فَإِنَّ الْأَذَى بِالْقِتَالِ لِلدِّفَاعِ عَنِ الْحَقِّ وَالْحَقِيقَةِ

*(147/236)*

---

وَحِمَايَةِ الدَّعْوَةِ وَالْبَيْضَةِ لَمْ يُخْرِجِ الرَّسُولَ عَنْ كَوْنِهِ رَسُولًا ، أَيْ عَبْدًا لِلَّهِ مُبَلِّغًا عَنْهُ ، لَا شَرِيكًا لَهُ وَلَا وَكِيلًا ، وَمَا أَرَى الرِّوَايَةَ تَصِحُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَلَوْ صَحَّتْ لَكَانَ الْوَجْهُ فِي مُرَادِهِ مِنْهُ أَنَّ آيَةَ الْقِتَالِ أَزَالَتْ مَا كَانَ مِنْ لَوَازِمِ هَذِهِ الْآيَةِ وَأَمْثَالِهَا مِنْ إِرْشَادِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى السُّكُوتِ لِلْمُشْرِكِينَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ لِمَا جَاءَ بِهِ ، ذَلِكَ التَّكْذِيبُ الْقَوْلِيُّ الْعَمَلِيُّ الَّذِي أَبْرَزُوهُ بِالصَّدِّ عَنْهُ ، وَمَنْعِهِ مِنْ تَبْلِيغِ دَعْوَةِ رَبِّهِ ، وَإِيذَائِهِ

وَإِيذَاءِ مَنْ آمَنَ بِهِ ، فَإِنَّ الصَّحَابَةَ كَانُوا يُرِيدُونَ مِنَ النَّسْخِ مَعْنًى أَعَمَّ مِنَ الْمَعْنَى الَّذِي قَرَّرَهُ عُلَمَاءُ الْأُصُولِ ، وَهُوَ الَّذِي يَجْرِي عَلَيْهِ الْمُفَسِّرُونَ ، وَمِنْ هُنَا قَالَ الزَّجَّاجُ فِي تَفْسِيرِ الْعِبَارَةِ : أَيْ أَنِّي لَمْ أُؤْمَرْ بِحَرْبِكُمْ وَمَنْعِكُمْ عَنِ التَّكْذِيبِ . انْتَهَى . وَبِنَاءً عَلَى هَذَا قَالَ كَثِيرُونَ بِنَسْخِ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي أَمَرَ بِهَا النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالصَّبْرِ وَالْعَفْوِ وَحُسْنِ الْمُعَامَلَةِ ، وَهِيَ هِيَ الْفَضَائِلُ الَّتِي كَانَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُتَحَلِّيًا بِهَا طُولَ عُمُرِهِ مَعَ وَضْعِهِ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ .

وَوَضْعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ فِي الْعُلَا . . . مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى .

*(148/236)*

---

(لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) هَذَا تَمَامُ مَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ أَنْ يَقُولَهُ لِقَوْمِهِ الْمُكَذِّبِينَ ، وَالنَّبَأُ : الْخَبَرُ كَمَا قِيلَ ، أَوِ الْخَبَرُ الَّذِي لَهُ شَأْنٌ يُهْتَمُّ بِهِ ، وَقَالَ الرَّاغِبُ : خَبَرٌ ذُو فَائِدَةٍ عَظِيمَةٍ يَحْصُلُ بِهِ عِلْمٌ أَوْ غَلَبَةُ ظَنٍّ ، وَلَا يُقَالُ لِلْخَبَرِ نَبَأٌ حَتَّى يَتَضَمَّنَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الثَّلَاثَةَ . انْتَهَى . وَيُرَادُ بِهِ الْمَعْنَى الْمَصْدَرِيُّ أَوْ مَدْلُولُهُ الَّذِي يَقَعُ مُصَدِّقًا لَهُ ، وَالْمُسْتَقَرُّ مَصْدَرٌ مِيمِيٌّ بِمَعْنَى الِاسْتِقْرَارِ وَهُوَ الثَّبَاتُ الَّذِي لَا تَحَوُّلَ فِيهِ ، وَاسْمُ زَمَانٍ وَمَكَانٍ لَهُ ، وَإِرَادَةُ الزَّمَانِ هُنَا أَظْهَرُ ، وَيَسْتَلْزِمُ غَيْرَهُ مَعَهُ . وَالْمَعْنَى : لِكُلِّ شَيْءٍ يُنَبَّأُ عَنْهُ مُسْتَقَرٌّ تَظْهَرُ فِيهِ حَقِيقَتُهُ ،

وَيَتَمَيَّزُ حَقُّهُ مِنْ بَاطِلِهِ ، فَلَا يَبْقَى مَجَالٌ لِلِاخْتِلَافِ فِيهِ ، وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مُسْتَقَرَّ مَا أُنْبِأَ بِهِ الْقُرْآنُ الَّذِي كَذَّبْتُمْ بِهِ مِنْ وَعْدٍ وَوَعِيدٍ ، أَوْ لِكُلِّ نَبَأٍ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرْآنِ الْحَقِّ الَّذِي كَذَّبُوا بِهِ زَمَانٌ يَحْصُلُ فِيهِ مَضْمُونُهُ ، فَيَكُونُ قَارًّا ثَابِتًا فِيهِ . وَمِنْ هَذِهِ الْأَنْبَاءِ مَا وَعَدَ اللَّهُ الرَّسُولَ ، مِنْ نَصْرِهِ عَلَيْهِمْ وَمَا أَوْعَدَهُمْ مِنَ الْخِزْيِ وَالْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ (كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (39 : 25 ، 26)

*(149/236)*

---

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ

عَذَابٌ مُقِيمٌ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ) (39 : 39 - 41) وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ذَلِكَ عِنْدَ وُقُوعِهِ .

وَحَسْبُكَ هَذِهِ الشَّوَاهِدُ فَهِيَ مُطَابَقَةٌ لِمَا هُنَا أَتَمَّ الْمُطَابَقَةِ ، وَإِذْ جُعِلَ الْمُسْتَقَرُّ بِمَعْنَى الِاسْتِقْرَارِ كَانَ مَعْنَاهُ لِكُلِّ نَبَأٍ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرْآنِ اسْتِقْرَارٌ أَيْ وُقُوعٌ ثَابِتٌ لَا بُدَّ مِنْهُ . وَمِنْ أَنْبَاءِ الْقُرْآنِ مَا هُوَ خَاصٌّ بِأُولَئِكَ الْقَوْمِ ، وَمِنْهُ مَا هُوَ فِي غَيْرِهِمْ ، وَمِنْهُ مَا هُوَ نَبَأٌ عَنْ أَهْلِ ذَلِكَ

الْعَصْرِ ، وَمِنْهُ مَا هُوَ نَبَأٌ عَمَّنْ بَعْدَهُمْ ، وَمِنْهُ مَا هُوَ عَامٌّ يَشْمَلُ أُمُورًا تَأْتِي فِي أَزْمِنَةٍ مُخْتَلِفَةٍ ، فَيَحْصُلُ فِي كُلِّ زَمَنٍ مِنْهَا مَا يَثْبُتُ لِمَنْ فَقِهَ حَقِّيَّةَ الْقُرْآنِ (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) (41 : 52 ، 53) وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَزْدَادَ فَهْمًا بِوُجُوهِ الِاتِّصَالِ وَالتَّنَاسُبِ بَيْنَ الْآيَاتِ فِي هَذَا السِّيَاقِ ، فَارْجِعْ إِلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْكَلَامِ فِي مَسْأَلَةِ اسْتِعْجَالِهِمُ الْعَذَابَ وَأَجَلِهِ الَّذِي لَا يَتَعَدَّاهُ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 7 صـ 406. 419 ﴾

*(150/236)*

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (67) ﴾

والنبأ هو الخبر المهم ، فليس كل خبر نبأ ، ذلك أن هناك المثير من الأخبار التافهة التي يتساوى فيها العلم الذي لا ينفع بالجهل الذي لا يضر . ومثال على الخبر المهم هو قوله الحق :

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النبإ العظيم * الذي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ [ النبأ : 1-3 ] .

إذن فكل نبأ مستقر ، والمستقر هو ما طُلب القرار فيه . والنبأ مظروف والمستقر مظروف

فيه . والمظروفية تنقسم قسمين : مظروفية زمان ، ومظروفية مكان . أي أن الحق سبحانه وتعالى جعل لكل حدث زمانا ومكانا يقع فيهما الخبر . وسوف يعلم الإنسان مستقر كل خبر عندما يأذن الحق بميلاد هذا المستقر الذي يُعلن فيه الخبر .

النبأ – إذن – هو الخبر العظيم المدهش . ولا أعظم من تجلي السماء على الأرض بمنهج جديد ينقذها مما هي فيه من ضلال ، وهو منهج عام لكل زمان ولكل مكان . إذن هو نبأ عظيم ؛ لأنه يخلص دنيا الناس من جبابرة الأرض ، ويلفت كل الناس إلى منهج يخرجهم جميعاً من أهوائهم . فلا أضر بالمجتمع من أن يتبع كل إنسان هواه ؛ لأن هوى كل نفس يخدم شهواتها ، والشهوات متضاربة ، فإذا حكّم كل إنسان هواه فلن تجد في الأرض قضية متفقاً عليها . ولذلك تكفل الحق سبحانه وتعالى للإنسان بمسألة تنظيم المنهج وهو الأمر الذي تختلف فيه الأهواء . وأما الأمر الذي تلتقي فيه الأهواء وهو استنباط ما في الأرض من كنوز واستكشاف ما في الكون من أسرار فقد تركه الحق للإنسان ليستنبطه بالعقل الذي خلقه الله ، من الكون الذي خلقه الله ، وليسعد الإنسان بتلك الأسرار التي يستكشفها في الكون .

*(151/236)*

ويؤكد لنا واقع الحياة هذه القضية ، ونجد طموح العقل البشري عندما فكر في مادة الكون استنبط منها الأسرار وأنجز الكثير من الاكتشافات العلمية . ولم تختلف الدول والمعسكرات في تلك المجالات ، بل التقت كل الأهواء عند هذه الاكتشافات ، فلا توجد – كما قلنا – كهرباء روسية وأخرى أمريكية ، ولا نجد "كيمياء انجليزية" وأخرى "فرنسية" ، ولذلك تجد الأنظمة السياسية والاجتماعية على اختلافها تلتقي في مجالات العلم وتتفق ولا تختلف حتى إن بعضها قد يسرق من البعض الآخر ما توصل إليه . ولا نجد في عالم المادة والمعمل والتجربة اختلافات بين نظام سياسي ونظام آخر ، بل تلتقي الأهواء عند القوانين المكتشفة والمأخوذة من مادة الكون ، وهو الأمر الذي تركه الله للناس ليكونوا أحراراً فيه ، ويفكرون ، وينظرون ، ويتأملون ، ويبتكرون ، ويصلون إلى أسرار في الكون تخفف عنهم تبعات الحياة ، وتؤدي لهم غايات السعادة في الوجود بأقل مجهود .

ولكننا نجد الصراع العنيف على الجانب الآخر – جانب المبادئ والمنهج – وهو صراع لا يهدأ أبداً ؛ لأنه صراع الأهواء فيما لم تحكمه تجربة مادية ، وهم يختلفون خلافات عميقة ، الرأسمالية تختلف عن الاشتراكية ، وتتنوع الخلافات بين كافة المذاهب التي أنتجتها الأهواء : الشيوعية ، الوجودية ، الاشتراكية ، الرأسمالية ، وكل هذه المسائل لم تحكمها تجربة أو معمل ذلك كان الخلاف .

ومن المؤسف أن البشر قد استغلوا ما اتفقوا فيه من ابتكارات علمية في فرض النظم التي

اختلفوا عليها .

وقد أوضح الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر ؛ إنه جل وعلا قد ترك عقول البشرية حرة في كل ما يخضع للتجربة ، ولكنه نظم حياة الإنسان على الأرض في ضوء المنهج الإيماني ؛ لأن الإسلام جاء في إثر ديانة حاول القائمون على أمرها من الكهنة أن يفرضوا سيطرة الكهنوت على العقل البشري في أسرار الكون .

*(152/236)*

---

والمثال على ذلك واضح تماماً في التاريخ البشري ، ففي العصر الذي تأخرت فيه أوروبا وسُمي " عصر الظلمات " كان المسلمون في الشرق باتباعهم لمنهج الله يعيشون في عصر النور ؛ لأن الإسلام علمهم مجال استعمال العقل وقدراته على استنباط أسرار الله في الكون ، وجاء سبحانه بهذا الدين وهو النبأ العظيم ليوضح لنا في مسيرة هذا الدين كل عبرة ، وكأنه يقول لنا :

إن هذا الدين قد بدأ ضعيفاً والذين آمنوا به قلة مستضعفة لا يستطيعون حماية أنفسهم بل تلمسوا الحماية وطلبوها عند ملك غريب في الحبشة ، وعلى الرغم من ذلك أنتصروا لأنهم أخذوا بهذا الدين .

وقال صلى الله عليه وسلم مقالة ربه : ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [ الأنعام : 67 ] .

ومعنى " مستقر " أي ميلاد يستقر فيه . أي لا تتعجلوا الأحداث ، ولا تجهضوها ؛ فإن شاء الله سيكون لهذا الدين انتشار ، وهذا الانتشار له ميلاد في زمان وميلاد في مكان ، أما زمانه فإلى أن تقوم الساعة ، وأما مكانه فالأرض كلها ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء رسولاً للناس كافة ، وخاتما للنبيين والمرسلين .

ويؤيد الحق سبحانه قضية ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ بأن يشهد الواقع من الحقائق ما يؤكد ذلك . ومثل ما حدث في الزمن القريب المعاصر لميلاد الدعوة الإسلامية . فحينما جاء الإسلام آمن به قلة مستضعفة ، ولما نزل قوله سبحانه : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ [ القمر : 45 ] .

*(153/236)*

---

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أي جمع هذا الذي سيهُزم ويولون الدبر ونحن لا نستطيع حماية أنفسنا ؟ فلما جاء يوم بدر ورأى مصارع القوم كما قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم بلاغاً عن الله قال عمر بن الخطاب : صدق الله ، لقد هُزم الجمع وولَّوْا الدبر

. ونجد كل قضية قرآنية محفوظة ومسجلة في السطور ، يحفظها الله حتى لا يكون للناس على الله حجة ؛ لأنه سبحانه القائل : ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [ الأنعام : 67 ] .

فلو لم يكن الواقع يؤيد أن لكل نبأ مستقراً ، ولكن حدث ميلاداً زماناً ومكاناً ، فماذا يظن الناس الذين يستقبلون القرآن ؟ لذلك أتى الحق بكل قضية قرآنية ومعها دليلها ، وأعطى الحق بعضاً من الحقائق الموثقة بالأحداث زماناً ومكاناً ليتأكد قوله الحق : ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [ الأنعام : 67 ] .

وقد علمت الدنيا وانتصر الإسلام . لقد شاء الحق أن يربي حامل الدعوة الأول – عليه الصلاة والسلام – ويعلم معه صحابته رضوان الله عليهم ، يعلمهم منطقاً ليسايروا به أحداث الكون .

ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى كان يُنزل الرسل بالأديان على فترات ، وعندما يعُم الفساد في الأرض ينزل الحق منهجه على رسول ليهدي الناس إلى الصراط المستقيم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى جعل في كل نفس بشرية تعادلاً ذاتياً ، فإذا اشتهى الإنسان شهوة يحرمها الدين ، وقضى الإنسان هذه الشهوة ، وهدأت شرّة وحدّة المعصية في نفسه ، فالإنسان يؤنب نفسه ويوبخها . ولكن النفس قد تستمرئ الشهوات ، وينعدم الوازع الذي يردع الإنسان .

وإذا انعدم الوازع في فرد واحد فلن ينعدم في المجتمع ، ونجد من الناس من يحمل المجتمع على المعروف ، ويوجه صاحب النفس التي استمرأت المعصية إلى التوبة والخير . أما إذا عم الفساد في الفرد وفي المجتمع فماذا يكون الموقف ؟

*(154/236)*

---

لا بد أن تتدخل السماء برسول جديد ، ومنهج جديد . ويأتي الرسول الجديد ومعه المنهج اللازم لإصلاح الكون . ولا يتبع الرسول الجديد إلا المستضعفون القلة ، وأهل البصيرة من أهل القوة حتى لا يظن ظان أن الضعفاء لاذوا بالدين ومالوا إليه بسبب ضعفهم . ويحذر الحق المؤمنين وكأنه يقول : إنكم تواجهون باطلاً عض الناس وأرهقهم وأعنتهم ، وحين يعضّ الباطل المجتمعات فالذي ينتفع من ذلك هم أهل الباطل ، والذي يشقى بذلك هم أهل الحق . فلكل فساد طبقة منتفعة به . وحين توجد الطبقة المنتفعة بالفساد . وحين توجد كلمة الحق فإن المنتفعين بالفساد ينظرون إلى نفوذهم الذي سينحسر حتماً عندما تسود كلمة الحق .

وحين ينتصر الحق لا بد أن يزول الفساد ومعه كل نفوذ أهل المفاسد . لذلك يقف المنتفعون

من الفساد ضد الدين الجديد ليحافظوا على مكانتهم في المجتمع . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(155/236)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ [ الأنعام : 67 ] يجوز رفع " نبأ " بالابتدائية ، وخبره الجَارُّ قَبلهُ ، وبالفاعلية عند الأخفش بالجار قبله ، ويجوز أن يكون " مسقر " اسم مصدر أي : استقرار [ مكان ، أو زمان ؛ ] لأن ما زاد على الثُّلاثيّ كان المصدر منه على زنةِ اسم المفعول ؛ نحو : " المدخل " و " المخرج " بمعنى " الإدخال " و " الإخراج " ، والمعنى أن لك وعْد ووعيد من الله استقرار ، ولا بد وأن يعلموا [ أن الأمر كما أخبر الله تعالى ] ويجوز أن يكون مكان الاستقرار أو زمانه [ وأن ] لكل خبر يخبره الله وقتاً أو مكاناً يحصل فيه من غير خُلْفٍ ولا تأخير ، وهذا الذي خَوَّفَ الكفار به يجوز أن يكون المُرَادُ به عذابَ الآخرة ، ويجوز أن يكون المراد منه الاستيلاء عليهم بالحَرْبِ والقَتْلِ في الدُّنيا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 206 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (66) لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (67) ﴾

يعني قل لهم إنما على تبليغ الرسالة ، فأمَّا تحقيق الوصلة بالوجود والحال فَمِنْ خصائص القدرة وأحكام المشيئة الأزلية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 481 ﴾

*(156/236)*

---

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (68) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أمره بما يقول جواباً لتكذيبهم ، تقدم إليه فيما يفعل وقت خوضهم في التكذيب فقال : ﴿ وإذا رأيت ﴾ خاطب النبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره ليكون أردع ﴿ الذين

يخوضون ﴾ أي يتكلمون ﴿ في آياتنا ﴾ أي بغير تأمل ولا بصيرة بل طوع الهوى ، كما يفعل خائض الماء في وضعه لرجله على غير بصيرة لستر مواضع الخُطا وبغير تمام الاختيار لغلبة الماء ﴿ فأعرض عنهم ﴾ بترك المجالسة أو ما يقوم مقامها ؛ ولما كان الخوض في الآيات دالاً على قلة العقل قال : ﴿ حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾ فحكم على حديثهم فيما سوى ذلك أيضاً بالخوض ، لأن فيه الغث والسمين ، لأنه غير مقيد بنظام الشرع .

ولما كان الله تعالى – وله الحمد – قد رفع حكم النسيان عن هذه الأمة ، قال مؤكداً : ﴿ وإما ينسينك الشيطان ﴾ أي إنساء عظيماً إشارة إلى أن مثل هذا الأمر جدير بأن لا ينسى ﴿ فلا تقعد بعد الذكرى ﴾ أي التذكر لهذا النهي ﴿ مع القوم الظالمين ﴾ أظهر موضع الإضمار تعميماً ودلالة على الوصف الذي هو سبب الخوض ، وهو الكون في الظلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 652. 653 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى قال في الآية الأولى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الحق قُل لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ فبين به أن الذين يكذبون بهذا الدين فإنه لا يجب على الرسول أن يلازمهم وأن يكون حفيظاً عليهم ثم بين في هذه الآية أن أولئك المكذبين إن ضموا إلى كفرهم وتكذيبهم الاستهزاء بالدين والطعن في الرسول فإنه يجب الاحتراز عن مقارنتهم وترك مجالستهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 21 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ﴾ قيل إنه خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره ، وقيل : الخطاب لغيره أي إذا رأيت أيها السامع الذين يخوضون في آياتنا .

*(157/236)*

---

ونقل الواحدي أن المشركين كانوا إذا جالسوا المؤمنين وقعوا في رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن ، فشتموا واستهزؤوا فأمرهم أن لا يقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره .

ولفظ الخوض في اللغة عبارة عن المفاوضة على وجه العبث واللعب ، قال تعالى حكاية عن الكفار : ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخائضين ﴾ وإذا سئل الرجل عن قوم فقال : تركتهم يخوضون أفاد ذلك أنهم شرعوا في كلمات لا ينبغي ذكرها ومن الحشوية من تمسك بهذه الآية في النهي عن الاستدلال والمناظرة في ذات الله تعالى وصفاته .

قال : لأن ذلك خوض في آيات الله ، والخوض في آيات الله حرام بدليل هذه الآية ، والجواب عنه : أنا نقلنا عن المفسرين أن المراد من "الخوض" الشروع في آيات الله تعالى على سبيل

الطعن والاستهزاء .

وبينا أيضاً أن لفظ "الخوض" وضع في أصل اللغة لهذا المعنى فسقط هذا الاستدلال والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 21 ﴾

*(158/236)*

---

فصل

قال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا ﴾

فيمن أريد بهذه الآية ثلاثة أقوال .

أحدها : المشركون .

والثاني : اليهود .

والثالث : أصحاب الأهواء .

والآيات : القرآن .

وخوض المشركين فيه : تكذيبهم به ، واستهزاؤهم ، ويقاربه خوض اليهود ، وخوض أهل الأهواء بالمراء والخصومات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الذين يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا ﴾ بالتكذيب والردّ والاستهزاء ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ والخطاب مجرّد للنبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقيل : إن المؤمنين داخلون في الخطاب معه .

وهو صحيح ؛ فإن العلة سماع الخوض في آيات الله ، وذلك يشملهم وإياه .

وقيل : المراد به النبيّ صلى الله عليه وسلم وحده ؛ لأن قيامه عن المشركين كان يشق عليهم ، ولم يكن المؤمنون عندهم كذلك ؛ فأُمِر أن ينابذهم بالقيام عنهم إذا استهزءوا وخاضوا ليتأدّبوا بذلك ويدَعُوا الخوض والاستهزاء .

والخَوْض أصله في الماء ، ثم استعمل بعدُ في غَمَرات الأشياء التي هي مجاهل ، تشبيهاً بغَمَرات الماء فاستعير من المحسوس للمعقول .

وقيل : هو مأخوذ من الخلط .

وكل شيء خُضْتَه فقد خلطته ؛ ومنه خاض الماءَ بالعسل خلطه .

فأدّب الله عز وجل نبيه ( صلى الله عليه وسلم ) بهذه الآية ؛ ( لأنه ) كان يقعد إلى قوم من المشرِكينَ يَعِظهم ويدعوهم فيستهزءون بالقرآن ؛ فأمره الله أن يُعرض عنهم إعراضَ مُنْكِر . ودلّ بهذا على أن الرجل إذا علم من الآخر منكَراً وعلم أنه لا يقبل منه فعليه أن يُعرض عنه إعراض منكر ولا يُقبل عليه .

وروى شِبْل عن ابن أبي نَجيح عن مجاهد في قوله : "وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا" قال : هم الذين يستهزءون بكتاب الله ، نهاه الله عن أن يجلس معهم إلاّ أن ينسى فإذا ذَكَر قام .

وروى وَرْقَاء عن ابن أبي نَجيح عن مجاهد قال : هم الذين يقولون في القرآن غير الحق .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

*(159/236)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الذين يَخُوضُونَ فِى ءاياتنا ﴾ بالتكذيب والاستهزاء بها والطعن فيها كما هو دأب قريش وديدنهم في أنديتهم وهم المراد بالموصول .

وعن مجاهد أهل الكتاب فإن ديدنهم ذلك أيضاً ، ولذا أتى بإذا الدالة على التحقيق ، وهذا بخلاف النسيان الآتي ، وأصل الخوض من خاض القوم في الحديث وتخاوضوا إذا تفاوضوا فيه ، وقال الطبرسي : "الخوض التخليط في المفاوضة على سبيل العبث واللعب وترك التفهم والتبيين" ، وقال بعض المحققين : أصل معنى الخوض عبور الماء استعير للتفاوض في الأمور ، وأكثر ما ورد في القرآن للذم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7

صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾

عطف على جملة ﴿ وكذّب به قومك ﴾ [ الأنعام : 66 ] .

والعدول عن الإتيان بالضمير إلى الإتيان بالاسم الظاهر وهو اسم الموصول ، فلم يقل : وإذا رأيتهم فأعرض عنهم ، يدلّ على أنّ الذي يخوضون في الآيات فريق خاص من القوم الذين كذّبوا بالقرآن أو بالعذاب .

فعُمُوم القوم أنكروا وكذّبوا دون خَوض في آيات القرآن ، فأولئك قسم ، والذين يخوضون في الآيات قسم كان أبذَى وأقذَع ، وأشدّ كفراً وأشنع ، وهم المتصدّون للطعن في القرآن .

وهؤلاء أُمِر الرسول صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن مجادلتهم وترك مجالسهم حتَّى يرعُووا عن ذلك .

ولو أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بالإعراض عن جميع المكذّبين لتعطَّلت الدّعوة والتبليغ .

ومعنى ﴿ إذا رأيتَ الذين يخوضون ﴾ إذا رأيتهم في حال خوضهم .

وجاء تعريف هؤلاء بالموصولية دون أن يقال الخائضين أو قوماً خائضين لأنّ الموصول فيه إيماء إلى وجه الأمر بالإعراض لأنَّه أمر غريب ، إذ شأن الرسول عليه الصلاة والسلام أن

يمارس الناس لعرض دعوة الدين ، فأمرُ الله إيَّاه بالإعراض عن فريق منهم يحتاج إلى توجيه واستئناس .

وذلك بالتعليل الذي أفاده الموصول وصلته ، أي فأعرض عنهم لأنَّهم يخوضون في آياتنا .

وهذه الآية أحسن ما يمثّل به ، لمجيء الموصول للإيماء إلى إفادة تعليل ما بني عليه من خبر أو إنشاء ، ألا ترى أنّ الأمر بالإعراض حُدّد بغاية حصول ضدّ الصلة .

وهي أيضاً أعدل شاهد لصحة ما فسّر به القطب الشيرازي في "شرح المفتاح" قولَ السكاكي ( أو أن تومىء بذلك إلى وجه بناء الخبر ) بأنّ وجه بناء الخبر هو علَّته وسببه ، وإن أبى التفتازاني ذلك التفسير .

والخوض حقيقته الدخول في الماء مشياً بالرّجْلين دون سباحة ثم استعير للتصرّف الذي فيه كلفة أو عنت ، كما استعير التعسّف وهو المشي في الرمل لذلك .

*(160/236)*

---

واستعير الخوض أيضاً للكلام الذي فيه تكلَّف الكذب والباطل لأنَّه يتكلَّف له قائله ، قال الراغب : وأكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يُذمّ الشروع فيه ، قال تعالى : ﴿ يخوضون في آياتنا ﴾ ، ﴿ نخوض ونلعب ﴾ [ التوبة : 65 ] ، ﴿ وخضتم كالذي خاضوا ﴾ [

التوبة : 69 ] ، ﴿ ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ [ الأنعام : 91 ] .

فمعنى ﴿ يخوضون في آياتنا ﴾ يتكلَّمون فيها بالباطل والاستهزاء .

والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة وحكم بقية المسلمين كحكمه ، كما قال في ذكر المنافقين في سورة النساء ( 140 ) ﴿ فلا تقعدوا معهم حتَّى يخوضوا في حديث غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ ابن عامر ﴿ يُنسِيَنَّكَ ﴾ بالتشديد وفعل وأفعل يجريان مجرى واحد كما بينا ذلك في مواضع .

وفي التنزيل ﴿ فَمَهِّلِ الكافرين أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً ﴾ [ الطارق : 17 ] والاختيار قراءة العامة لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشيطان ﴾ [ الكهف : 63 ] ومعنى الآية : إن نسيت وقعدت فلا تقعد بعد الذكرى ، وقم إذا ذكرت .

والذكرى اسم للتذكرة قاله الليث .

وقال الفراء : الذكرى يكون بمعنى الذكر ، وقوله : ﴿ مَعَ القوم الظالمين ﴾ يعني مع المشركين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 21 . 22 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ وهذا الإعراض يحتمل أن يحصل بالقيام عنهم ويحتمل بغيره .

فلما قال بعد ذلك ﴿ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذكرى ﴾ صار ذلك دليلاً على أن المراد أن يعرض عنهم بالقيام من عندهم وههنا سؤالات :

السؤال الأول : هل يجوز هذا الإعراض بطريق آخر سوى القيام عنهم ؟ والجواب : الذين يتمسكوا بظواهر الألفاظ ويزعمون وجوب إجرائها على ظواهرها لا يجوزون ذلك ، والذين يقولون المعنى هو المعتبر جوزوا ذلك قالوا : لأن المطلوب إظهار الإنكار ، فكل طريق أفاد هذا المقصود فإنه يجوز المصير إليه .

*(161/236)*

---

السؤال الثاني : لو خاف الرسول من القيام عنهم ، هل يجب عليه القيام مع ذلك ؟

الجواب : كل ما أوجب على الرسول فعله وجب عليه ذلك سواء ظهر أثر الخوف أو لم يظهر فإنا إن جوزنا منه ترك الواجب بسبب الخوف ، سقط الاعتماد عن التكاليف التي بلغها إلينا أما غير الرسول فإنه عند شدة الخوف قد يسقط عنه الفرض ، لأنه إقدامه على الترك

لا يفضي إلى المحذور المذكور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 22 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ أي أتركهم ولا تجالسهم ﴿ حتى يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ ﴾ أي كلام ﴿ غَيْرِهِ ﴾ أي غير آياتنا .

والتذكير باعتبار كونها حديثاً فإن وصف الحديث بمغايرتها مشير إلى اعتبارها بعنوان الحديثية ، وقيل : باعتبار كونها قرآناً .

والمراد بالخوض هنا التفاوض لا بقيد التكذيب والاستهزاء .

وادعى بعضهم أن المعنى حتى يشتغلوا بحديث غيره وأن ذكر ﴿ يَخُوضُواْ ﴾ للمشاكلة ، واستظهر عود الضمير إلى الخوض .

واستدل بعض العلماء بالآية على أن ﴿ إِذَا ﴾ تفيد التكرار لحرمة القعود مع الخائض كلما خاض ، ونظر فيه بأن التكرار ليس من إذا بل من ترتب الحكم على مأخذ الاشتقاق .

واستدلال بعض الحشوية بها على النهي عن الاستدلال والمناظرة في ذات الله تعالى وصفاته زاعماً أن ذلك خوض في آيات الله تعالى مما لا ينبغي أن يلتفت إليه . انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

والإعراض عنهم هنا هو ترك الجلوس إلى مجالسهم ، وهو مجاز قريب من الحقيقة لأَنَّه يلزمه

الإعراض الحقيقي غالباً ، فإن هم غشُوا مجلس الرسول عليه الصلاة والسلام فالإعراض عنهم أن يقوم عنهم وعن ابن جريج : فجَعَل إذَا استهزأوا قام فحذِروا وقالوا لا تستهزءوا فيقومَ .

وفائدة هذا الإعراض زجرهم وقطع الجدال معهم لعلَّهم يرجعون عن عنادهم .

(162/236)

---

وحتَّى ﴾ غاية للإعراض لأنَّه إعراض فيه توقيف دعوتهم زماناً أوجبه رعي مصلحة أخرى هي من قبيل الدعوة فلا يضرّ توقيف الدعوة زماناً ، فإذا زال موجب ذلك عادت محاولة هديهم إلى أصلهم لأنَّها تمحَّضت للمصلحة .

وإنَّما عبّر عن انتقالهم إلى حديث آخر بالخوض لأنَّهم لا يتحدّثون إلاّ فيما لا جدوى له من أحوال الشرك وأمور الجاهلية .

و﴿ غيرِه ﴾ صفة لِ ﴿ حديث ﴾ .

والضمير المضاف إليه عائد إلى الخوض باعتبار كونه حديثاً حسبما اقتضاه وصف ﴿ حديث ﴾ بأنَّه غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشيطان فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذكرى ﴾ يفيد أن التكليف ساقط عن الناسي قال الجبائي : إذا كان عدم العلم بالشيء يوجب سقوط التكليف ، فعدم القدرة على الشيء أولى بأن يوجب سقوط التكليف .

وهذا يدل على أن تكليف ما لا يطاق لا يقع ، ويدل على أن الاستطاعة حاصلة قبل الفعل لأنها لو لم تحصل إلا مع الفعل لما كانت حاصلة قبل الفعل .

فوجب أن لا يكون الكافر قادراً على الإيمان فوجب أن لا يتوجه عليه الأمر بالإيمان .

واعلم أن هذه الكلمات كثر ذكرها في هذا الكتاب مع الجواب فلا نطول الكلام بذكر الجواب ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 22 ﴾

*(163/236)*

---

وقال القرطبى :

﴿ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذكرى ﴾

قيل : هذا خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمته ؛ ذهبوا إلى تبرئته عليه السلام من النسيان .

وقيل : هو خاص به ، والنسيان جائز عليه .

قال ابن العربيّ : وإن عذَرْنا أصحابنا في قولهم إن قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ خطابٌ للأمة باسم النبيّ صلى الله عليه وسلم لاستحالة الشِّرْك عليه ، فلا عُذْر لهم في هذا لجواز النسيان عليه .

قال عليه السلام : " نَسِيَ آدمُ فنَسِيت ذرِّيَّتُه " خرّجه الترمذيّ وصحّحه .

وقال مخبراً عن نفسه : " إنما أنا بشر مثلكم أَنْسَى كما تَنسَوْن فإذا نسيت فذكّروني " خرّجه في الصحيح ، فأضاف النسيان إليه .

وقال وقد سمع قراءة رجل : "لقد أذكرَني آيةَ كذا وكذا كنتُ أنسيتها" .

واختلفوا بعد جواز النسيان عليه ؛ هل يكون فيما طريقه البلاغ من الأفعال وأحكام الشرع أم لا .

؟ فذهب إلى الأوّل فيما ذكره القاضي عياض عامّةُ العلماء والأئمةُ النُّظار ؛ كما هو ظاهر القرآن والأحاديث ، لكن شرط الأئمة أن الله تعالى ينبّهه على ذلك ولا يقرّه عليه .

ثم اختلفوا هل مِن شرط التنبيه اتصاله بالحادثة على الفَوْر ، وهو مذهب القاضي أبي بكر والأكثرِ من العلماء ، أو يجوز في ذلك التَّراخِي ما لم يَنخرِم عمره وينقطع تبليغه ، وإليه نحا أبو المعَالِي .

ومنعت طائفة من العلماء السَّهوَ عليه في الأفعال البلاغِية والعبادات الشرعيّة ؛ كما منعوه

اتفاقا في الأقوال البلاغِية ، واعتذروا عن الظواهر الواردة في ذلك ؛ وإليه مال الأستاذ أبو إسحاق .

وشذّت الباطِنيّة وطائفة من أرباب علم القلوب فقالوا : لا يجوز النسيان عليه ، وإنما يَنْسَى قصداً ويتعمّد صورةَ النسيان ليَسُنّ .

ونَحَا إلى هذا عظيم من أئمة التحقيق وهو أبو المظفر الإسفِرايِيني في كتابه ( الأوسط ) وهو منحًى غيرُ سديد ، وجمعُ الضدّ مع الضدّ مستحيل بعيد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

*(164/236)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشيطان ﴾ بأن يشغلك فتنسى الأمر بالإعراض عنهم فتجالسهم ابتداء أو بقاء ، وهذا على سبيل الفرض إذ لم يقع وأنى للشيطان سبيل إلى إشغال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذا عبر بأن الشرطية المزيدة ما بعدها .

وذهب بعض المحققين أن الخطاب هنا وفيما قبل لسيد المخاطبين عليه الصلاة والسلام والمراد غيره ، وقيل : لغيره ابتداء أي إذا رأيت أيها السامع وإن أنساك أيها السامع والمشهور

عن الرافضة اختيار أن النبي صلى الله عليه وسلم منزه عن النسيان لقوله تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ [ الأعلى : 6 ] وأن غيرهم ذهب إلى جوازه وعلى نسبة الأول إليهم نص صاحب "الأحكام" والجبائي وغيرهما .

وقال الأخير : إن الآية دليل على بطلان قولهم ذلك .

والذي وقفت عليه في معتبرات كتبهم أنهم لا يجوزون النسيان ، وكذا السهو على النبي صلى الله عليه وسلم وكذا على سائر الأنبياء عليهم السلام فيما يؤديه عن الله تعالى من القرآن والوحي ، وأما ما سوى ذلك فيجوزون عليه عليه الصلاة والسلام أن ينساه ما لم يؤد إلى إخلال الدين .

وأنا أرى أن محل الخلاف النسيان الذي لا يكون منشؤه اشتغال السر بالوساوس والخطرات الشيطانية فإن ذلك مما لا يرتاب مؤمن في استحالته على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتفصيل الكلام في ذلك على ما في معتبرات كتبنا أن مذهب جمهور العلماء جواز النسيان عليه صلى الله عليه وسلم في أحكام الشرع وهو ظاهر القرآن والأحاديث لكن اتفقوا على أنه عليه الصلاة والسلام لا يقر عليه بل يعلمه الله تعالى به ، ثم قال الأكثرون يشترط تنبهه عليه الصلاة والسلام على الفور متصلاً بالحادثة ولا يقع فيه تأخير ، وجوزت طائفة تأخيره مدة حياته صلى الله عليه وسلم واختاره إمام الحرمين ، ومنعت ذلك طائفة من العلماء في الأفعال البلاغية والعبادات كما أجمعوا على منعه واستحالته عليه صلى الله عليه وسلم

في الأقوال البلاغية ، وأجابوا عن الظواهر الواردة في ذلك .

وإليه مال الأستاذ أبو إسحاق الإسفرائيني ، وصحح النووي الأول فإن ذلك لا ينافي النبوة ، وإذا لم يقر عليه لم يتحصل منه مفسدة ولا ينافي الأمر بالاتباع بل يحصل منه فائدة وهو بيان أحكام الناسي وتقرر الأحكام .

*(165/236)*

---

وذكر القاضي أنهم اختلفوا في جواز السهو عليه صلى الله عليه وسلم في الأمور التي لا تتعلق بالبلاغ وبيان أحكام الشرع من أفعاله وعاداته وأذكار قلبه فجوزه الجمهور .

وأما السهو في الأقوال البلاغية فأجمعوا على منعه كما أجمعوا على امتناع تعمده ، وأما السهو في الأقوال الدنيوية وفيما ليس سبيله البلاغ من الكلام الذي لا يتعلق بالأحكام ولا أخبار القيامة وما يتعلق بها ولا يضاف إلى وحي فيجوزه قوم إذ لا مفسدة فيه ، ثم قال : والحق الذي لا شك فيه ترجيح قول من قال : يمتنع ذلك على الأنبياء عليهم السلام في كل خبر من الأخبار كما لا يجوز عليهم خلف في خبر لا عمداً ولا سهواً لا في صحة ولا مرض ولا رضى ولا غضب ، وحسبك في ذلك أن سِيَره صلى الله عليه وسلم وكلامه وأفعاله مجموعة يعتنى بها على مر الزمان ويتناولها الموافق والمخالف والمؤمن والمرتاب فلم يأت في

شيء منها استدراك غلط في قول ولا اعتراف بوهم في كلمة ولو كان لنقل كما نقل سهوه في الصلاة ونومه عليه الصلاة والسلام عنها واستدراكه رأيه في تلقيح النخل وفي نزوله بأدنى مياه بدر إلى غير ذلك .

وأما جواز السهو في الاعتقادات في أمور الدنيا فغير ممتنع .

وسيأتي إن شاء الله تعالى تتمة الكلام على هذا المبحث عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ [ الحج : 52 ] الآية .

وقرأ ابن عامر ﴿ يُنسِيَنَّكَ ﴾ بتشديد السين ونسي بمعنى أنسى ، وقال ابن عطية : نسي أبلغ من أنسى والنون في القراءتين مشددة وهي نون التوكيد ، والمشهور أنها لازمة في الفعل الواقع بعد أن الشرطية المصحوبة بما الزائدة ، وقيل : لا يلزم فيه ذلك ، وعليه قول ابن دريد :

أما ترى رأسي حاكي لونه . . .

طرة صبح تحت أذيال الدجى

أما ترى رأسي حاكي لونه . . .

طرة صبح تحت أذيال الدجى

﴿ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذكرى ﴾ أي بعد تذكر الأمر بالإعراض كما عليه جمهور المفسرين .

وقال أبو مسلم : المعنى بعد أن تذكرهم بدعائك إياهم إلى الدين ونهيك لهم عن الخوض في الآيات وليس بشيء .

وجوز الزمخشري أن تكون ﴿ الذكرى ﴾ بمعنى تذكير الله تعالى إياه وأن المعنى "وإن كان الشيطان ينسيك قبل النهي قبح مجالسة المستهزئين لأنها مما تنكره العقول فلا تقعد بعد أن ذكرناك قبحها ونبهناك عليه" ، ولا يخفى أنه وجه بعيد مبني على قاعدة القبح والحسن التي هدمتها معاول أفكار العلماء الراسخين ، ثم إنا لا نسلم أن مجالسة المستهزئين مما ينكره العقول مطلقاً ، وذكر ابن المنير أن اللائق على ما قال وإن أنساك دون ﴿ أَمَّا يُنسِيَنَّكَ ﴾ على أن إنساء الشيطان إن صح فعن السمعي أيسر ، وليس هذا أول خوض من الزمخشري في تأويل الآيات بل ذلك دأبه .

﴿ مَعَ القوم الظالمين ﴾ أي معهم فوضع المظهر موضع المضمر نعياً عليهم أنهم بذلك الخوض ظالمون واضعون للتكذيب والاستهزاء ، موضع التصديق والتعظيم راسخون في ذلك ، وفي الآية كما قال غير واحد إيذان بعدم تكليف الناسي ، وهذه من المسائل المتنازع فيها بينهم وعنونوها بمسألة تكليف الغافل وعدوا منه الناسي وللأشعري فيها قولان وصوب عدم التكليف لعدم الفائدة فيه أصلاً بخلاف التكليف بالمحال .

ونقل ابن برهان في "الأوسط" عن الفقهاء القول بصحة تكليفه على معنى ثبوت الفعل بالذمة ، وعن المتكلمين المنع إذ لا يتصور ذلك عندهم ، وقد يظن أن الشافعي لنصه على تكليف السكران يرى تكليف الغافل وهو من بعض الظن فإنه إنما كلف السكران عقوبة له لأنه تسبب بمحرم حصل باختياره ولهذا وجب عليه الحد بخلاف الغافل .

*(167/236)*

---

وأورد على القول بالامتناع أن العبد مكلف بمعرفة الله تعالى بدون العلم بالأمر وذلك لأن الأمر بمعرفته سبحانه وارد فلا جائز أن يكون وارداً بعد حصولها لامتناع تحصيل الحاصل فيكون وارداً قبله فيستحيل الإطلاق على هذا الأمر لأن معرفة أمره تعالى بدون معرفته سبحانه مستحيل فقد كلف معرفة الله تعالى مع غفلته عن ذلك التكليف .

وأجيب : بأن المعرفة الإجمالية كافية في انتفاء الغفلة والمكلف به هو المعرفة التفصيلية أو بأن شرط التكليف إنما هو فهم المكلف له بأن يفهم الخطاب قدر ما يتوقف عليه الامتثال لا بأن يصدق بتكليفه وإلا لزام الدور وعدم تكليف الكفار وهو هنا قد فهم ذلك وإن لم يصدق به .

وصاحب "المنهاج" تبعاً لصاحب "الحاصل" أجاب بأن التكليف بمعرفة الله تعالى خارج

عن القاعدة بالإجماع ، وتمام البحث يطلب من "كتب الأصول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله ﴿ وإمَّا ينسينَّك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾ عطف حالة النّسيان زيادة في تأكيد الأمر بالإعراض .

وأسند الإنساء إلى الشيطان فدلّنا على أنّ النسيان من آثار الخلقة التي جعل الله فيها حظّاً العلم الشيطان .

كما ورد أنّ التثاؤب من الشيطان ، وليس هذا من وَسْوسة الشيطان في أعمال الإنسان لأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم معصوم من وسوسة الشيطا في ذلك ، فالنسيان من الأعراض البشرية الجائزة على الأنبياء في غير تبليغ ما أمروا بتبليغه ، عند جمهور علماء السنّة من الأشاعرة وغيرهم .

قال ابن العربي في "الأحكام" : إنّ كبار الرافضة هم الذين ذهبوا إلى تنزيه النبي صلى الله عليه وسلم من النسيان أ هـ .

وهو قول لبعض الأشعرية وعزي إلى الأستاذ أبي إسحاق الإسفِرائيني فيما حكاه نور الدين الشيرازي في "شرح للقصيدة النونية" لشيخه تاج الدين السبكي .

ويتعيّن أنّ مراده بذلك فيما طريقه البلاغ كما يظهر ممّا حكاه عنه القرطبي : وقد نَسي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلَّم من ركعتين في الصلاة الرباعية ، ونسي آيات من بعض السور تذكّرها لمّا سمع قراءة رجل في صلاة الليل ، كما في الصحيح .

وفي الحديث الصحيح : "إنّما أنا بَشَر أنسَى كما تنسَوْن فإذا نسيتُ فذكّروني" فذلك نسيان استحضارها بعد أن بلَّغها .

وليس نظرنا في جواز ذلك وإنَّما نظرنا في إسناد ذلك إلى الشيطان فإنَّه يقتضي أنّ للشيطان حظّاً له أثر في نفس الرسول ، فيجوز أن تكون بعض الأعراض البشرية التي يجوز طروّها على الأنبياء قد جعلها الله في أصل الخلقة من عمل الشياطين ، كما جعل بعض الأعراض موكولة للملائكة ، ويكون النسيان من جملة الأعراض الموكولة إلى الشياطين كما تكرّر إسناده إلى الشيطان في آيات كثيرة منها .

وهذا مثل كون التثاؤب من الشيطان ، وكوْن ذات الجَنْب من الشيطان .

وقد قال أيوب ﴿ أَنِّي مسَّنِي الشيطان بنُصب وعَذَاب ﴾ [ ص : 41 ] ، وحينئذٍ فالوجه أنّ الأعراض البشرية الجائزة على الأنبياء التي لا تخلّ بتبليغ ولا تُوقعُ في المعصية قد يكون بعضها من أثر عمل الشيطان وأنّ الله عصمهم من الشيطان فيما عدا ذلك .

ويجوز أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم قد خصّ من بين الأنبياء بأن لا سلطة لعمل

شيطاني عليه ولو كان ذلك من الأعراض الجائزة على مقام الرسالة ، فإنَّما يتعلَّق به من تلك الأعراض ما لا أثر للشيطان فيه .

*(169/236)*

---

وقد يدلّ لهذا ما ورد في حديث شقّ الصدر : أنّ جبريل لمَّا استخرج العلقة قال : هذا حظّ الشيطان منك ، يعني مركز تصرّفاته ، فيكون الشيطان لا يتوصّل إلى شيء يقع في نفس نبيّنا صلى الله عليه وسلم إلاّ بواسطة تدبير شيء يشغل النبي حتَّى ينسى مثل ما ورد في حديث "الموطأ" حين نام رسول الله صلى الله عليه وسلم ووكَّل بلالاً بأن يكلأ لهم الفجر ، فنام بلال حتَّى طلعت الشمس ، فإنّ النبي قال : " إنّ الشيطَان أتى بلالاً فلم يزل يُهَدّئه كما يُهَدّأ الصبيّ حتّى نام " فأمّا نوم النبي والمسلمين عدا بلالاً فكان نوماً معتاداً ليس من عمل الشيطان .

وإلى هذا الوجه أشار عياض في "الشفاء" .

وقريب منه ما ورد أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ليلة القدر ، فخرج ليُعلم الناس فتَلاحَى رجلان فرُفعت .

فإنّ التلاحي من عمل الشيطان ، ولم يكن يستطيع رفع ليلة القدر بنفسه فوسوس

بالتّلاحي .

والحاصل أنّ الرّسول صلى الله عليه وسلم معصوم من الوسوسة ، وأمّا ما دونها مثل الإنساء والنزْغ فلا يلزم أن يعصم منه .

وقد يفرّق بين الأمرين : أنّ الوسوسة آثارها وجودية والإنساء والنزغ آثارهما عدمية ، وهي الذهول والشغل ونحو ذلك .

:

فالمعنى إن أنساك الشيطان الإعراض عنهم فإن تذكّرتَ فلا تقعد معهم ، فهذا النسيان ينتقل به الرسول صلى الله عليه وسلم من عبادة إلى عبادة ، ومن أسلوب في الدّعوة إلى أسلوب آخر ، فليس إنساء الشيطان إيّاه إيقاعاً في معصية إذ لا مفسدة في ارتكاب ذلك ولا يحصل به غرض من كيد الشيطان في الضلال ، وقد رفع الله المؤاخذة بالنسيان ، ولذلك قال : ﴿ فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾ ، أي بعد أن تتذكَّر الأمر بالإعراض .

فالذكرى اسم للتذكّر وهو ضدّ النّسيان ، فهي اسم مصدر ، أي إذا أغفلت بَعد هذا فقعدت إليهم فإذا تذكَّرت فلا تقعد ، وهو ضدّ فأعرض ، وذلك أنّ الأمر بالشيء نهي عن ضدّه .

وقرأ الجمهور : ﴿ يُنْسِيَنّك ﴾ بسكون النون وتخفيف السين .

وقرأه ابن عامر بفتح النون وتشديد السين من التنسية ، وهي مبالغة في أنساه .

ومن العلماء من تأوّل هذه الآية بأنَّها مما خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمّته ، كقوله تعالى : ﴿ لئن أشركت ليحبطنّ عملك ﴾ [ الزمر : 65 ] قال أبو بكر بن العربي إذا عذرنا أصحابنا في قولهم ذلك في ﴿ لئن أشركت ليحبطنّ عملك لاستحالة الشرك عليه فلا عذر لهم في هذه الآية لجواز النسيان عليه .

والقوم الظالمون هم الذين يخوضون في آيات الله ، فهذا من الإظهار في مقام الإضمار لزيادة فائدة وصفهم بالظلم ، فيعلم أنّ خوضهم في آيات الله ظلم ، فيعلم أنَّه خوض إنكار للحقّ ومكابرة للمشاهدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

*(170/236)*

---

فصل فى النهي عن مجالسة الظالمين

قال الجصاص :

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ الآية ، فأمر الله نبيه بالإعراض عن الذين يخوضون في آيات الله ، وهي القرآن ، بالتكذيب وإظهار الاستخفاف إعراضا يقتضي الإنكار عليهم وإظهار الكراهة لما يكون منهم إلا أن يتركوا

ذلك ويخوضوا في حديث غيره . وهذا يدل على أن علينا ترك مجالسة الملحدين وسائر الكفار عند إظهارهم الكفر والشرك وما لا يجوز على الله تعالى إذا لم يمكنا إنكاره وكنا في تقية من تغييره باليد أو اللسان; لأن علينا اتباع النبي صلى الله عليه وسلم فيما أمره الله به إلا أن تقوم الدلالة على أنه مخصوص بشيء منه

قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ ﴾ المراد: إن أنساك الشيطان ببعض الشغل فقعدت معهم وأنت ناس للنهي فلا شيء عليك في تلك الحال . ثم قال تعالى: ﴿ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ يعني: بعد ما تذكر نهي الله تعالى لا تقعد مع الظالمين . وذلك عموم في النهي عن مجالسة سائر الظالمين من أهل الشرك وأهل الملة لوقوع الاسم عليهم جميعا ، وذلك إذا كان في ثقة من تغييره بيده أو بلسانه بعد قيام الحجة على الظالمين بقبح ما هم عليه ، فغير جائز لأحد مجالستهم مع ترك النكير سواء كانوا مظهرين في تلك الحال للظلم والقبائح أو غير مظهرين له; لأن النهي عام عن مجالسة الظالمين; لأن في مجالستهم مختارا مع ترك النكير دلالة على الرضا بفعلهم ونظيره قوله تعالى: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [المائدة:78] الآيات ، وقد تقدم ذكر ما روي فيه ، وقوله تعالى: ﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ [هود:113] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْت الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَالَ عُلَمَاؤُنَا : أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْإِعْرَاضِ عَنْ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ ، وَفِي ذَلِكَ نَزَلَتْ .

وَالْخَوْضُ هُوَ الْمَشْيُ فِيمَا لَا يَتَحَصَّلُ حَقِيقَةً ، مِنْ الْخَائِضِ فِي الْمَاءِ الَّذِي لَا يُدْرَى بَاطِنُهُ ، اُسْتُعِيرَ مِنْ الْمَحْسُوسِ لِلْمَعْقُولِ عَلَى مَا نَبَّهْنَا عَلَيْهِ فِي الْأُصُولِ ، وَحَرَّمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْمُشَارَكَةَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ عَلَى رَسُولِهِ بِالْمُجَالَسَةِ ، سَوَاءٌ تَكَلَّمَ مَعَهُمْ فِي ذَلِكَ أَوْ كَرِهَهُ .

وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مُجَالَسَةَ أَهْلِ الْمُنْكَرِ لَا تَحِلُّ .

*(172/236)*

---

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ قَالَ قَوْمٌ : هَذَا خِطَابٌ مِنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ الْأُمَّةُ ، وَكَأَنَّ الْقَائِلِينَ بِذَلِكَ ذَهَبُوا إلَى تَنْزِيهِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ النِّسْيَانِ

وَهُمْ كِبَارُ الرَّافِضَةِ ، قَبَّحَهُمْ اللَّهُ ، وَإِنْ عَذَرْنَا أَصْحَابَنَا فِي قَوْلِهِمْ : إنْ قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُك ﴾ ، خِطَابٌ لِلْأُمَّةِ بِاسْمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ لِاسْتِحَالَةِ الْإِشْرَاكِ عَلَيْهِ فَلَا عُذْرَ لَهُمْ فِي هَذَا لِجَوَازِ النِّسْيَانِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ سَنُقْرِئُك فَلَا تَنْسَى ﴾ .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُخْبِرًا عَنْ نَفْسِهِ : ﴿ إنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ ﴾ ، وَقَالَ وَقَدْ سَمِعَ قِرَاءَةَ رَجُلٍ يَقْرَأُ : ﴿ لَقَدْ أَذْكَرَنِي كَذَا وَكَذَا آيَةً كُنْت أُنْسِيتهَا ﴾ .

وَقَالَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ : ﴿ تَلَاحَى رَجُلَانِ فَنَسِيتهَا ﴾ .

وَقَالَ : ﴿ لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ نَسِيت آيَةَ كَذَا ، بَلْ نُسِّيتهَا ﴾ ، كَرَاهِيَةَ إضَافَةِ اللَّفْظِ إلَى الْقُرْآنِ ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كَذَلِكَ أَتَتْك آيَاتُنَا فَنَسِيتهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ .

(173/236)

---

وَفَائِدَتُهُ : أَنَّ لَفْظَ " نَسِيت " يَنْطَلِقُ عَلَى تَرَكْت انْطِلَاقًا طِبْقِيًّا ، ثُمَّ نَقُولُ فِي تَقْسِيمِ وَجْهَيْ مُتَعَلِّقِهِ سَهَوْت إذَا كَانَ تَرَكَهُ عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ ، وَعَمَدْت إذَا كَانَ تَرَكَهُ عَنْ قَصْدٍ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ عُلَمَاؤُنَا : إنَّ قَوْلَهُ : ﴿ مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا فَلْيُصَلِّهَا إذَا ذَكَرَهَا ﴾ عَامٌّ فِي وَجْهَيْ النِّسْيَانِ الْعَمْدِ وَالسَّهْوِ .

وَقَوْلُهُ إِذَا ذَكَرَهَا : يَعْنِي أَنَّ السَّاهِيَ يَطْرَأُ عَلَيْهِ الذِّكْرُ فَيَتَوَجَّهُ عَلَيْهِ الْخِطَابُ ، وَأَنَّ الْعَامِدَ ذَاكِرٌ أَبَدًا فَلَا يَزَالُ الْخِطَابُ يَتَوَجَّهُ عَلَيْهِ أَبَدًا ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(174/236)

---

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾

هذا خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه المؤمنون لأن علة النهي وهو سماع الخوض في آيات الله يشمله وإياهم .

وقيل : هو خاص بتوحيده لأن قيامه عنهم كان يشق عليهم وفراقه على مغاضبه والمؤمنون عندهم ليسوا كهو .

وقيل : خطاب للسامع والذين يخوضون المشركون أو اليهود أو أصحاب الأهواء ثلاثة أقوال ، و ﴿ رأيت ﴾ هنا بصرية ولذلك تعدت إلى واحد ولا بد من تقدير حال محذوفة أي ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا ﴾ وهم خائضون فيها أي وإذا رأيتهم ملتبسين

بهذه الحالة .

وقيل : ﴿ رأيت ﴾ علمية لأن الخوض في الآيات ليس مما يدرك بحاسة البصر وهذا فيه بعد لأنه يلزم من ذلك حذف المفعول الثاني من باب علمت فيكون التقدير ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا ﴾ خائضين فيها وحذفه اقتصاراً لا يجوز وحذفه اختصاراً عزيز جداً حتى أن بعض النحويين منعه والخوض في الآيات كناية عن الاستهزاء بها والطعن فيها .

وكانت قريش في أنديتها تفعل ذلك ﴿ فأعرض عنهم ﴾ أي لا تجالسهم وقم عنهم وليس إعراضاً بالقلب وحده بينه ﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم ﴾ وقد تقدم من قول المفسرين في هذه الآية أن قوله : وقد نزل عليكم في الكتاب : أن الذي نزل في الكتاب هو قوله : ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون ﴾ الآية و ﴿ حتى يخوضوا ﴾ غاية الإعراض عنهم أي فلا بأس أن تجالسهم والضمير في ﴿ غيره ﴾ قال الحوفي عائد إلى الخوض كما قال الشاعر :

إذ نهى السفيه جرى إليه . . .

وخالف والسفيه إلى خلاف

أي جرى إلى السفه .

وقال أبو البقاء : إنما ذكر الهاء لأنه أعادها على معنى الآيات ولأنها حديث وقول :

(175/236)

---

﴿ وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾ أي إن شغلك بوسوسته حتى تنسى النهي عن مجالستهم فلا تقعد معهم بعد الذكرى أي ذكرك النهي .

قال الزمخشري : ويجوز أن يراد وإن كان الشيطان ينسيك قبل النهي قبح مجالسة المستهزئين لأنها مما تنكره العقول فلا تقعد بعد الذكرى أي بعد إن ذكرناك قبحها ونبهناك عليه معهم ؛ انتهى .

وهو خلاف ظاهر الشرط لأنه قد نهي عن القعود معهم قبل ثم عطف على الشرط السابق هذا الشرط فكله مستقبل وما أحسن مجيء الشرط الأول بإذا التي هي للمحقق لأن كونهم يخوضون في الآيات محقق ومجيء الشرط الثاني بأن لأن إن لغير المحقق وجاء ﴿ مع القوم الظالمين ﴾ تنبيهاً على علة الخوض في الآيات والطعن فيها وأن سبب ذلك ظلمهم وهو مجاوزة الحد ووضع الأشياء غير مواضعها .

قال ابن عطية : وأما شرط ويلزمها النون الثقيلة في الأغلب وقد لا تلزم كما قال الشاعر :

أما يصبك عدو في مناوأة . . .

إلى غير ذلك من الأمثلة ؛ انتهى .

وهذه المسألة فيها خلاف ، ذهب بعض النحويين إلى أنها إذا زيدت بعد إن ما لزمت نون التوكيد ولا يجوز حذفها إلا ضرورة وذهب بعضهم إلى أنها لا تلزم وإنه يجوز في الكلام وتقييده الثقيلة ليس بجيد بل الصواب النون المؤكدة سواء كانت ثقيلة أم خفيفة وكأنه نظر إلى مواردها في القرآن وكونها لم تجيء فيها بعد أما إلا الثقيلة .

وقرأ ابن عامر ﴿ ينسينك ﴾ مشدّداً عداه بالتضعيف وعداه الجمهور بالهمزة .

وقال ابن عطية : وقد ذكر القراءتين إلا أن التشديد أكثر مبالغة ؛ انتهى .

وليس كما ذكر لا فرق بين تضعيف التعدية والهمزة ومفعول ﴿ ينسينك ﴾ الثاني محذوف تقديره ﴿ وإما ينسينك الشيطان ﴾ نهينا إياك عن القعود معهم والذكرى مصدر ذكر جاء على فعلى وألفه للتأنيث ولم يجيء مصدر على فعلى غيره . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

*(176/236)*

ومن فوائد الشوكانى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الذين يَخُوضُونَ فِى ءاياتنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾

الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، أو لكل من يصلح له .

والخوض : أصله في الماء ثم استعمل في غمرات الأشياء التي هي مجاهل تشبيها بغمرات الماء ، فاستعير من المحسوس للمعقول .

وقيل : هو مأخوذ من الخلط ، وكل شيء خضته فقد خلطته ، ومنه خاض الماء بالعسل : خلطه .

والمعنى : إذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا بالتكذيب والردّ والاستهزاء فدعهم ، ولا تقعد معهم لسماع مثل هذا المنكر العظيم حتى يخوضوا في حديث مغاير له ، أمره الله سبحانه بالإعراض عن أهل المجالس التي يستهان فيها بآيات الله إلى غاية هي الخوض في غير ذلك .

وفي هذه الآية موعظة عظيمة لمن يتسمح بمجالسة المبتدعة ، الذين يحرّفون كلام الله ، ويتلاعبون بكتابه وسنة رسوله ، ويردّون ذلك إلى أهوائهم المضلة وبدعهم الفاسدة ، فإن إذا لم ينكر عليهم ويغير ما هم فيه فأقلّ الأحوال أن يترك مجالستهم ، وذلك يسير عليه غير عسير .

وقد يجعلون حضوره معهم مع تنزّهه عما يتلبسون به شبهة يشبهون بها على العامة ،

فيكون في حضوره مفسدة زائدة على مجرد سماع المنكر .

وقد شاهدنا من هذه المجالس الملعونة ما لا يأتي عليه الحصر ، وقمنا في نصرة الحق ودفع الباطل بما قدرنا عليه ، وبلغت إليه طاقتنا ، ومن عرف هذه الشريعة المطهرة حق معرفتها ، علم أن مجالسة أهل البدع المضلة فيها من المفسدة أضعاف أضعاف ما في مجالسة من يعصي الله بفعل شيء من المحرّمات ، ولا سيما لمن كان غير راسخ القدم في علم الكتاب والسنة ، فإنه ربما ينفق عليه من كذباتهم وهذيانهم ما هو من البطلان بأوضح مكان ، فينقدح في قلبه ما يصعب علاجه ويعسر دفعه ، فيعمل بذلك مدّة عمره ويلقى الله به معتقداً أنه من الحق ، وهو من أبطل الباطل وأنكر المنكر .

*(177/236)*

---

قوله : ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشيطان فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذكرى ﴾ "إما" هذه هي الشرطية وتلزمها غالباً نون التأكيد ولا تلزمها نادراً ، ومنه قول الشاعر :

إما يصبك عدوّ في منازلة . . . يوماً فقل كيف يستعلي وينتصر

وقرأ ابن عباس "ينسينك" بتشديد السين ، ومثله قول الشاعر :

وقد ينسيك بعض الحاجة الكسل . . . والمعنى : إن أنساك الشيطان أن تقوم عنهم فلا

تقعد بعد الذكرى إذا ذكرت ﴿ مَعَ القوم الظالمين ﴾ أي الذين ظلموا أنفسهم بالاستهزاء بالآيات والتكذيب بها .

قيل : وهذا الخطاب وإن كان ظاهره للنبي صلى الله عليه وسلم فالمراد التعريض لأمته لتنزّهه عن أن ينسيه الشيطان .

وقيل : لا وجه لهذا ، فالنسيان جائز عليه كما نطقت بذلك الأحاديث الصحيحة " إنما أنا بشر أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت فذكروني " ونحو ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

*(178/236)*

---

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ ﴾

أي : بالطعن والاستهزاء ﴿ فِي آيَاتِنَا ﴾ أي : المنسوبة إلى مقام عظمتنا ، التي حقها أن تعظم بما يناسب عظمتنا . والموصول كناية عن مشركي مكة ، فقد كان ديدنهم ذلك ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ أي : فلا تجالسهم ، وقم عنهم ﴿ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾

أي : حتى يأخذوا في كلام آخر ، غير ما كانوا فيه من الخوض في آياتنا .

﴿ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ ﴾ بأن يشغلك فتنسى النهي عن مجالستهم ﴿ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي : إن ينسينّك الشيطان ، فجلست معهم ، فلا تؤاخذ به ، لكن إذا ذكرت النهي ، فلا تقعد معهم ، لأنهم ظالمون بالطعن في الكلام المعجز ، عناداً .

وفي الحديث : < إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان ، وما استكرهوا عليه > - رواه الطبرانيّ عن ثوبان مرفوعاً . وإسناده صحيح - وهذه الآية هي المشار إليها في قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُم ﴾ الآية . لأن في حضور المنكَر مع إمكان التباعد عنه ، مشاركة لصاحبه .

فوائد :

قال السيوطي في " الإكليل " : في هذه الآية وجوب اجتناب مجالس الملحدين ، وأهل اللغو ، ويستدل بها على أن الناسي غير مكلف ، وأنه إذا ذكر عاد إليه التكليف ، فيعفى عما ارتكبه في حال نسيانه . ويندرج تحت ذلك مسائل كثيرة في العبادات والتعليقات . انتهى .

وقال الرازي : ومن الحشوية من استدل بهذه الآية في النهي عن الاستدلال والمناظرة في ذات الله تعالى وصفاته . قال : لأن ذلك خوض في آيات الله ، والخوض في آيات الله حرام بدليل هذه الآية .

والجواب عنه : أن المراد من الخوض في الآية الشروع في الطعن والاستهزاء . فسقط هذا الاستدلال – والله أعلم – .

وقال بعض مفسري الزيدية – ثمرة الآية أحكام :

الأول –وجوب الإعراض عن مجالس المستهزئين بآيات الله أو بحججه أو برسله ، وأن لا يقعد معهم ، لأن في القعود إظهار عدم الكراهة ، وذلك لأن التكليف عامّ لنا ، ولرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما يجب الإعراض ، وترك الجلوس معهم ، إذا لم يطمع في قبولهم ، فإذا انقطع طمعه إذاً ، فلا فائدة في دعائهم . ويجب القيام عن مجالسهم إذا عرف أن قيامه يكون سبباً في ترك الخوض ، وأنهم إنما يفعلونه مغايظة للواقف ، إذ كان وقوفه يوهم عدم الكراهة .

الحكم الثاني – جواز مجالسة الكفار ، مع عدم الخوض ، لأنه إنما أمرنا بالإعراض مع الخوض . وأيضاً فقد قال تعالى : ﴿ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ . قال الحاكم : والآية تدل أيضاً على المنع من مجالسة الظلمة والفسقة ، إذا أظهروا المنكرات ، وتدل على إباحة

الدخول عليهم لغرض ، كما يباح للتذكير . وفي الآية أيضاً دلالة على وجوب الإنكار ، لأن الإعراض إنكار . قال : وتدل على أن التقية من الأنبياء والأئمة بإظهارهم المنكر لا تجوز ، خلاف الإمامية ، وتدل على جواز النسيان على الأنبياء .

(180/236)

---

الحكم الثالث – أن الناسي مرفوع عنه الحرَج ، فإن قيل : النسيان فعل الله ، فِلمَ أضيف إلى الشيطان ؟ أجيب : بأن السبب من الشيطان ، وهو الوسوسة والإعراض عن الذكر ، فأضيف إليك لذلك . كما أن من ألقى غيره في النار فمات ، يقال ، إنه القاتل ، وإن كان الإحراق فعل الله ، واختلف في النسيان ما هو ؟ فقال الحاكم : هو معنى يحدثه الله في القلب . وقال أبو هاشم وأصحابه : ليس بمعنى ، وإنما هو زوال العلم الضروريّ الذي جرت العادة بحصوله . انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 399 . 401 ﴾

(181/236)

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾

وبهذا القول يوضح الله لرسوله صلى الله عليه وسلم : اعلم أن ما جئت به سيخاض فيه ، ويقال مرة إنه سحر ، ومرة إنه شعر ، وثالثة إنه كهانة ، ورابعة يتهمونك بالكذب ، ولا يقول ذلك إلا المنتفعون بفساد الكون ، فإذا ما جاء مصلح فسيجعلونه عدواً لهم . لذلك لا بد أن تحافظ على أمرين . . الأمر الأول : أن الذين اتبعوك – وهم ضعاف – قد لا يستطيعون مواجهة القوة الظالمة ؛ لذلك لا تحملهم ما لا طاقة لهم به ولكن تَرَيَّثْ ؛ فإن لكل نبأ مستقراً ، والأمر الثاني : أَنك إذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم وبيِّن لهم الجفوة فلا تقبل عليهم ، ولا توادهم ، ولا تستمع إليهم ، ولا يسمع إليهم أصحابك ، لماذا ؟ لأنهم يخوضون في آيات الله . ولكن أيستمر هذا الإعراض عنهم طوال الوقت ؟ ، لا ، فالإعراض عنهم إنما يكون في أثناء خوضهم وتكذيبهم لآيات الله ، أما في غير ذلك من الأوقات فاعلم أن آذانهم في حاجة إلى سماع صيحة من الحق ، لذلك انتهز به ؛ لأنك إن تركتهم على ضلالهم فإن قضية الإيمان تصير بعيدة عنهم ، وأنت مهمتك البلاغ ، والله يريد الخير لكل خلقه .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حتى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ [الأنعام : 68] .

(182/236)

---

وكلمة " الخوض " هذه تشعرنا بمعنى في منتهى الدقة ؛ لأن الخوض في أصله هو الدخول في الماء الكثير . والماء الكثير ساتر لما تحت قدمي الذي يخوض فيه ، وما دام قد ستر ما تحت قدميه فهو لا يدري إلى أي موقع تقع قدماه ، وربما وقعتا في هوّة ، لكن الذي يسير في غير ماء فالطريق واضح أمامه ، يضع قدميه حيث يرى فيها ثباتاً واستقراراً وعدم إيذاء . وأخذوا من ذلك المعنى وصف الكلام بالباطل ، لأنه خوض بدون اهتداء . ولذلك يقول الحق : ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام : 91] .

ولماذا وصف فعلهم هذا بأنه لعب ؟

ذلك لأن اللعب هو شغل النفس بشيء غير مطلوب وكان في قالب الجد . ولكن إذا كان هذا الشيء يؤدي إلى نبوغ في مجال من مجالات الحياة فنحن ندرب أبناءنا عليه في فترة ما قبل البلوغ . ومثال ذلك تدريب الأبناء على السباحة والرماية . وركوب الخيل . وما إن يبلغ الإنسان فترة البلوغ حتى تصير له مهمة في الحياة ، ويصبح عليه أن يتحمل المسئولية ،

فلا يضيع وقته في اللعب أو فيما يلهيه عن أداء الواجب .

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الذين يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حتى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ [ الأنعام : 68 ] .

والنفس البشرية لها أغيار . وهذه الأغيار قد تنسيها بعض التوجهات . لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم موعود من ربه بعدم النسيان . ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ [ الأعلى : 6 ] .

فإذا كان هذا بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف نفهم قول الحق هنا : ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشيطان فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذكرى مَعَ القوم الظالمين ﴾ [ الأنعام : 68 ] .

*(183/236)*

---

إننا نفهم هذا القول على أساس أنه تعليم لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وحينما ينزل أمر من السماء فرسول الله أولى الناس بتطبيقه ، فإذا كان الرسول يُخاطَب : ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشيطان ﴾ فإذا ما نسي إنسان لغفلة من الغفلات ، فليأخذ علاج الله للنسيان ، وهو ألا يقعد مع هؤلاء القوم الذين يخوضون في آيات الله في أثناء خوضهم ، ولكن عليه أن يتركهم ويعرض عنهم . إذن فالحق سبحانه وتعالى احترم خلقه ؛ لأنه وهو العليم بهم ، خلق

لكل إنسان ملكة حافظة ، وملكة ذاكرة ، وملكة مخيلة ، وكل ملكة من هذه الملكات تؤدي مهمة : فالملكة الحافظة تحفظ المعلومات ، والذاكرة تأتي بالمعلومات المحفوظة القديمة لتجعلها في بؤرة الشعور . ولو لم يكن هناك نسيان لما استطاعت فكرة أن تدخل في ذهن الإنسان ؛ لأن العقل لا ينشغل إلا بقضية واحدة في بؤرة الشعور . وحتى تدخل قضية أخرى في بؤرة الشعور ، لا بد أن تتزحزح القضية الأولى من بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور .

لذلك لا بد من نسيان خاطر ما ليحل محله خاطر آخر . ولو ظل الإنسان ذاكراً لقضية من القضايا في نفسه لصار من المحال أن تدخل قضية جديدة أخرى . ولهذا خلق الله النسيان ، أي انتقال قضية ما من بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور .

والإنسان منا يتذكر شيئاً حدث من عشرين عاماً ، ثم يمر هذا الحادث بالخاطر فجأة ، ويتساءل الإنسان ، كيف ؟ ويعرف الإنسان أن هذا الحادث كان محفوظاً ومصوناً في دوائر شعورية بعيدة . ولذلك نجد الإنسان عندما يريد استعادة معنى من المعاني فهو يترك لنفسه فرصة لاستعادة هذا الخاطر أو ذلك المعنى ، ولذلك يسمون هذه المسألة " تذكر " .

﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشيطان فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذكرى مَعَ القوم الظالمين ﴾ [ الأنعام : 68 ] .

ولماذا ينسب الحق النسيان للشيطان ؟ ، لأن حقائق الحق في دينه هي الصدق ، ولا يصح أن تغيب أبداً عن بال المؤمن ، وهي لا تغيب عن بال المؤمن إلا بعمل الشيطان فالشيطان يزين الأمر الذي يحبه الإنسان ويشغله عن أمر آخر ، فإذا ما نزغ الشيطان لينسى الإنسان ، وتذكر الإنسان أن هذا من نزغ الشيطان فليستعذ بالله من الشيطان ولا يقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين .

وأنت حين تفعل ذلك وتنفر من هؤلاء القوم الظالمين فأنت تلفتهم إلى أن ما عندك من يقين إيماني هو أعز عندك مما في مجالسهم من حديث وما يكون لديهم من نفع . وبذلك تنتفع أنت بهذه التذكرة وهم أيضاً يلتفتون إلى أهمية الإيمان وأفضليته عند المؤمن على ما عداه .

وما كان الحق سبحانه وتعالى ليفرض على المؤمنين مقاطعة المشركين في أثناء فترة ضعف المؤمنين في بداية الدعوة . وكان المؤمنون يلتقون في المسجد الحرام ، وكان المشركون يذهبون أيضاً إلى الكعبة قبل فتح مكة ، فهي مكان حجيجهم ، فهل يقاطع المسلمون المسجد الحرام في بداية الدعوة الإسلامية ولا يلتقون ؟ قطعاً لا . ولكن كان المسلمون يذهبون للقاء في المسجد الحرام ، وإذا جاء الذين يخوضون في آيات الله فهم يعرضون عنهم . ووزر الخائضين على أنفسهم . ولذلك يقول الحق : ﴿ وَمَا عَلَى الذين يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

والخَوْضُ في اللغة عبارة عن المُفاوضةِ على وجه اللَّعبِ والعبثِ .

قال تعالى حكاية عن الكفار : ( وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَآئِضِينَ ( [ المدثر : 45 ] وإذا قال الرجل : تركت القوم يَخُوضُونَ أفاد أنهم شَرَعثوا في كَلِمَاتٍ لا ينبغي ذِكْرُهَا .

قوله : " إذَا " منصوب بجوابها ، وهو " فأعْرَضْ " ؛ أي : فأعرض عنهم في هذا الوَقْتِ و" رأيت " هنا تحتمل أن تكون البصريَّة ، وهو الظاهر ، ولذلك تعدّت لواحد .

قال أبو حيَّان : " ولأبدَّ من تقدير حالٍ مَحْذُوفَةٍ ، أي : وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا ، وهو خائضون فيها ، أي : وإذا رأيتهم مُلْتَبِسينَ بالخَوْضِ فيها " . انتهى .

قال شهاب الدّين : ولا حَاجَةَ إلى ذلك ؛ لأن قوله : "يَخُوضُونَ " مُضارع ، والراجح حَالِيَّتُهُ وأيضاً فإن " الذينَ يَخُوضُونَ " في قُوَّةِ الخائضين ، واسم الفاعل حَقيقَةٌ في الحال بلا خلاف ، فيحمل هذا على حقيقته ، فيُسْتَغْنَى عن حذف هذه الحال التي قدَّرها وهي حال مؤكدة .

---

ويحتمل أن تكون علمية ، وضعَّفَهُ أبو حيان بأنه يَلْزَمُ منه حذف المفعول الثاني ، وحذفه إما اقْتِصَارٌ ، وإما اخْتِصَارٌ ، فإن كان الأوَّل : فممنوع اتفاقاً وإن كان الثاني : فالصحيح المَنْعُ حتى منع ذلك بعض النحويين .

قوله : " غَيْرِهِ " " الهاء " فيها وجهان :

أحدهما : أنها تعود على الآياتِ ، وعاد مفرداً مذكراً ؛ لأن الآيات في معنى الحديثِ والقرآن .

وقيل : إنها تعود على الخَوْضِ ، أي : المدلول عليه بالفِعْلِ كقوله : [ الوافر ]

2196 - إذَا نُهِيَ السَّفِيهُ جَرَى إلَيْهِ

وخَالَفَ والسَّفِيهُ إلى خلافِ

أي : جرى إلى السَّفَهِ ، دَلَّ عليه الصِّفَةُ كما دَلَّ الفعل على مصدره ؛ أي : حتى يخوضوا في حديث غير الخَوْضِ .

وقوله : " وإمَّا يُنْسِيَنَّكَ " قراءة العامّة " يُنْسِيَنَّكَ " بتخفيف السِّين من " أَنْسَاهُ " كقوله : ( وَمَا أَنسَانِيهُ إلاَّ الشَّيْطَانُ ( [ الكهف : 63 ] قال تعلى في الآية الأولى ) فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ( [

يوسف : 42 ] .

وقرأ ابن عامر : بتشديدها من " نسَّاهُ " ، والتعدّي جاء في هذا الفعل بالهمزة مرة ، وبالتضعيف أخرى ، كما تقدم في " أَنْجَى " و " نَجَّى " و " أَمْهَل " و " مَهَّلَ " . والمفعول الثاني محذوف في القراءتين ؛ تقديره : وإما يُنْسِيَنَّك الشَّيْطانُ الذِّكرَ أو الحقَّ .

والأحسن أن يقدر ما يليق بالمعنى ، أي : وإما نيسينك الشيطان ما أمرت به من ترك مُجَالَسَةِ الخائضين بعد تذكيرك ، فلا تقعدْ بعد ذلك معهم ، وإنما أبرزهم ظاهرين تسجيلاً عليهم بصفة الظُّلْم ، وجاء الشرط الأول ب " إذا " ؛ لأن خَوْضَهُمْ في الآيات مُحَقَّقٌ ، وفي الشرط الثاني ب " إن " إنْسَاءَ الشيطان له لي أمراً مُحَقَّقاً ، بل قد يقع وقد لا يقعن وهو مَعْصُومٌ منه .

ولم يجئ مصدر على " فِعْلَى " غير ذِكْرَى " .

*(187/236)*

---

وقال ابن عطيَّة : " وإمَّا شرطن ويلزمها في الأغلب النون الثقيلة ، وقد لا تلزم كقوله : [ البسيط ]

2197 - إمَّا يُصِبْكَ عَدُوٌّ في مُنَاوَأَةٍ

. . . . . .

وهذا الذي ذكره من لُزُوم التوكيد هو مذهب الزَّجَّاجِ ، والنَّاسُ على خلافه ، وأنشدوا ما أنشده ابن عيطة وأبياتاً أُخَرَ منها : [ الرجز ]

2189 - إمَّا تَرَيْنِي اليَوْمَ أمَّ حَمْزِ

وقد تقدَّم طرفٌ من هذه المسألة أوَّل البقرة ، إلا أن أحداً لم يَقُلْ : يلزم توكيده بالثقيلة دون الخفيفة ، وغن كان ظاهر كلام ابن عطية ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 207. 208 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِى ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ .

لا توافقهم في الحالة ، ولا ترد عليهم ببسط القالة . ذَرْهُم ووحشتَهم بِحُسْنِ الإعراض عنهم ، والبعد عن الإصغاء إلى تهاويشهم بحُسْنِ الانقباض .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

أي إنْ بَدَرَ منك تغافلٌ فتداركْتَه بحسن التذكر وجميل التَّنَبُّه ، فاجتهِدْ ألا ( تزل ) في تلك

الغلطة قدمُك ثانيةً لئلا تقاسي أليمَ العقوبة مِنّا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 482 ﴾

(188/236)

---

قوله تعالى ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (69) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانت هذه الآية مكية ، وكانوا إذ ذاك عاجزين عن الإنكار بغير القلب ، قال : ﴿ وما على الذين يتقون ﴾ أي يخافون الله فلا يكذبون بآياته في مجالسة الكفرة ﴿ من حسابهم ﴾ أي الخائضين إذا كانوا أقوى منهم ﴿ من شيء ﴾ وما نهينا عن المجالسة لأن عليهم فيها - والحالة هذه - إثماً ﴿ ولكن ﴾ نهينا لتكون المفارقة إظهاراً للكراهة ﴿ ذكرى ﴾ للخائضين لاستحيائهم من أذى الجليس ﴿ لعلهم يتقون ﴾ أي ليكون حالهم بذلك حال من يرجى منه التقوى ، فيجتنب الخوض في الآيات إكراماً للجليس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 653 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال ابن عباس : قال المسلمون لئن كنا كلما استهزأ المشركون بالقرآن وخاضوا فيه قمنا عنهم لما قدرنا على أن نجلس في المسجد الحرام وأن نطوف بالبيت ، فنزلت هذه الآية وحصلت الرخصة فيها للمؤمنين بأن يقعدوا معهم ويذكرونهم ويفهمونهم .

قال ومعنى الآية : ﴿ وَمَا عَلَى الذين يَتَّقُونَ ﴾ الشرك والكبائر والفواحش ﴿ مِنْ حِسَابِهِم ﴾ من آثامهم ﴿ مّن شَىْء ولكن ذكرى ﴾ قال الزجاج : قوله ﴿ ذِكْرَى ﴾ يجوز أن يكون في موضع رفع ، وأن يكون في موضع نصب .

أما كونه في موضع رفع فمن وجهين : الأول : ولكن عليكم ذكرى أي أن تذكروهم وجائز أن يكون ولكن الذي تأمرونهم به ذكرى ، فعلى الوجه الأولى الذكرى بمعنى التذكير ، وعلى الوجه الثاني الذكرى تكون بمعنى الذكر وأما كونه في موضع النصب ، فالتقدير ذكروهم ذكرى لعلهم يتقون .

والمعنى لعل ذلك الذكرى يمنعهم من الخوض في ذلك الفضول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 22 . 23 ﴾

فصل

قال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ﴾

في سبب نزولها ثلاثة أقوال .

أحدها : أن المسلمين قالوا : لئن كنا كلما استهزأ المشركون بالقرآن ، وخاضوا فيه ، فمنعناهم ، لم نستطع أن نجلس في المسجد الحرام ، ولا أن نطوف بالبيت ، فنزلت هذه الآية .

والثاني : أن المسلمين قالوا : إنا نخاف الإثم إن لم ننههم عن الخوض ، فنزلت هذه الآية .

والثالث : أن المسلمين قالوا : لو قمنا عنهم إذا خاضوا فانا نخشى الإثم في مجالستهم ، فنزلت هذه الآية .

هذا عن مقاتل ، والأولان عن ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ وما على الذين يتقون ﴾ فيه قولان .

أحدهما : يتقون الشرك .

والثاني : يتقون الخوض .

قوله تعالى : ﴿ من حسابهم ﴾ يعني : حساب الخائضين .

وفي ﴿ حسابهم ﴾ قولان .

أحدهما : أنه كفرهم وآثامهم .

والثاني : عقوبة خوضهم .

قوله تعالى : ﴿ ولكن ذكرى ﴾ أي : ولكن عليكم أن تذكروهم .

وفيما تذكرونهم به قولان .

أحدهما : المواعظ .

والثاني : قيامكم عنهم .

قال مقاتل : إذا قمتم عنهم ، منعهم من الخوض الحياء منكم ، والرغبة في مجالستكم .

قوله تعالى : ﴿ لعلهم يتقون ﴾ فيه قولان .

أحدهما : يتقون الاستهزاء .

والثاني : يتقون الوعيد .

فصل

وقد ذهب قوم إلى أن هذه الآية منسوخة ، لأنها اقتضت جواز مجالسة الخائضين والاقتصار على تذكيرهم ، ثم نسخت بقوله : ﴿ وقد نَزَّل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يُكفَر بها ويُستهزَأ بها فلا تقعدوا معهم ﴾ [ النساء : 140 ] والصحيح أنها

محكمة ، لأنها خبر ، وإنما دلت على أن كل عبد يختص بحساب نفسه ، ولا يلزمه حساب غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(190/236)

---

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾

فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : وما على الذين يتقون الله في أوامره ونواهيه من حساب الكفار فيما فعلوه من الاستهزاء والتكذيب ما آثم يؤاخذون بها ، ولكن عليهم أن يذكروهم بالله وآياته لعلهم يتقون ما هم عليه من الاستهزاء والتكذيب ، قاله الكلبي .

والثاني : وما على الذين يتقون الله من الحساب يوم القيامة ما على الكفار في الحساب من التشديد والتغليظ لأن محاسبة المتقين ذكرى وتخفيف ، ومحاسبة الكفار تشديد وتغليظ لعلهم يتقون إذا علموا ذلك .

والثالث : وما على الذين يتقون الله فيما فعلوه من رد وصد حساب ، ولكن اعدلوا إلى الذكرى لهم بالقول قبل الفعل ، لعلهم يتقون إذا علموا .

ويحتمل هذا التأويل وجهين :

أحدهما : يتقون الاستهزاء والتكذيب .

والثاني : يتقون الوعيد والتهديد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قال ابن عباس : لما نزل لا تقعدوا مع المشركين وهو المراد بقوله : "فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ" قال المسلمون : لا يمكننا دخول المسجد والطّواف ؛ فنزلت هذه الآية .

﴿ وَلَكِنْ ذِكْرَى ﴾ أي فإن قعدوا يعني المؤمنين فليذكّروهم .

﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ اللَّهَ في ترك ما هم فيه .

ثم قيل : نسخ هذا بقوله : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الكتاب أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حتى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ [ النساء : 140 ] .

وإنما كانت الرُّخْصَة قبل الفتح وكان الوقت وقت تَقِيّة .

وأشار بقوله : "وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ" إلى قوله : "وذَرِ الَّذِينَ اتخذوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً" .

قال القُشَيْرِيّ : والأظهر أن الآية ليست منسوخة .

والمعنى : ما عليكم شيء من حساب المشركين ، فعليكم بتذكيرهم وزجرهم فإن أبوْا فحسابهم على الله .

---

و ﴿ ذِكْرَى ﴾ في موضع نصب على المصدر ، ويجوز أن تكون في موضع رفع ؛ أي ولكن الذي يفعلونه ذكرى ، أي ولكن عليهم ذكرى .

وقال الكسِائِيّ : المعنى ولكن هذه ذكرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ﴾ ﴿ الذين يتقون ﴾ هم المؤمنون والضمير في ﴿ حسابهم ﴾ عائد على المستهزئين الخائضين في الآيات .

وروي أن المؤمنين قالوا : لما نزلت ﴿ فلا تقعدوا معهم ﴾ لا يمكننا طواف ولا عبادة في الحرم فنزلت ﴿ وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ﴾ فأبيح لهم قدر ما يحتاج إليه من التصرف بينهم في العبادة ونحوها ، والظاهر أن حكم الرسول موافق لحكم غيره لاندراجه في قوله : ﴿ وما على الذين يتقون ﴾ أمر هو صلى الله عليه وسلم بالإعراض عنهم حتى إن عرض نسيان وذكر فلا تقعد معهم .

وقيل : للمتقين وهو رأسهم أي ما عليكم من حسابهم من شيء .

﴿ ولكن ذكرى ﴾ أي ولكن عليكم أن تذكروهم ذكرى إذا سمعتموهم يخوضون بأن تقوموا عنهم وتظهروا كراهة فعلهم وتعظوهم .

﴿ لعلهم يتقون ﴾ أي لعلهم يجتنبون الخوض في الآيات حياء منكم ورغبة في مجالستكم قاله مقاتل ، أو ﴿ لعلهم يتقون ﴾ الوعيد بتذكيركم إياهم .

وقيل : المعنى لا تقعدوا معهم ولا تقربوهم حتى لا تسمعوا استهزاءهم وخوضهم ، وليس نهيكم عن القعود لأن عليكم شيئاً من حسابهم وإنما هو ذكرى لكم لعلكم تتقون أي تثبتون على تقواكم وتزدادونها ، فالضمير في ﴿ لعلهم ﴾ عائد على ﴿ الذين يتقون ﴾ ومن قال الخطاب في ﴿ وإذا رأيت ﴾ خاص بالرسول قال ﴿ الذين يتقون ﴾ للمؤمنين دونه ومعناها الإباحة لهم دونه كأنه قال : يا محمد لا تقعد معهم وأما المؤمنون فلا شيء عليهم من حسابهم فإن قعدوا فليذكروهم ﴿ لعلهم يتقون ﴾ الله في ترك ما هم عليه .

*(192/236)*

---

وقال هذا القائل : هذه الإباحة التي اقتضتها هذه الآية نسختها آية النساء وذكرى يحتمل أن تكون في موضع نصب أي ولكن تذكرونهم ، ومن قال الإباحة كانت بسبب العبادات قال نسخ ذلك آية النساء أو ذكروهم وفي موضع رفع أي ولكن عليهم ذكرى وقدّره بعضهم

ولكن هو ذكري أي الواجب ذكري .

وقيل : هذا ذكرى أي النهي ذكرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(193/236)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا عَلَى الذين يَتَّقُونَ ﴾

قال أبو جعفر عليه الرحمة : لما نزلت ﴿ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذكرى ﴾ [ الأنعام : 68 ] الخ قال المسلمون لئن كنا نقوم كلما استهزأ المشركون بالقرآن لم نستطع أن نجلس في المسجد الحرام ولا نطوف بالبيت فنزلت ، أي وما يلزم الذين يتقون قبائح أعمال الخائضين وأحوالهم .

﴿ مِنْ حِسَابِهِم ﴾ أي مما يحاسب الخائضون الظالمون عليه من الجرائر ﴿ مِن شَىْءٍ ﴾ أي شيء ما على أن ( من ) زائدة للاستغراق و ﴿ شَىْءٍ ﴾ في محل الرفع مبتدأ و ( ما ) تميمية أو اسم لها وهي حجازية و ﴿ مِنْ حِسَابِهِم ﴾ كما قال أبو البقاء حال منه لأن نعت النكرة إذا قدم عليها أعرب حالاً .

وليست ﴿ مِنْ ﴾ بمعنى الأجل خلافاً لمن تكلفه .

و ﴿ عَلَى الذين يَتَّقُونَ ﴾ متعلق بمحذوف مرفوع وقع خبراً للمبتدأ أو لما الحجازية على

رأي من لا يجيز إعمالها في الخبر المقدم مطلقاً أو منصوب وقع خبراً لما على رأي من يجوز إعمالها في الخبر المقدم عند كونه ظرفاً أو حرف جر .

﴿ ولكن ذكرى ﴾ استدراك من النفي السابق أي ولكن عليهم أن يذكروهم ويمنعوهم عما هم فيه من القبائح بما أمكن من العظة والتذكير ويظهروا لهم الكراهة والنكير ، ومحل ﴿ ذِكْرِى ﴾ عند كثير من المحققين إما النصب على أنه مصدر مؤكد للفعل المحذوف أي عليهم أن يذكروهم تذكيراً أو الرفع على أنه مبتدأ خبره محذوف أي ولكن عليهم ذكرى ، وجوز أبو البقاء النصب والرفع أيضاً لكن قدر في الأول نذكرهم ذكرى بنون العظمة ، وفي الثاني هذه ذكرى ، وإلى ذلك يشير كلام البلخي ، ولم يجوز الزمخشري عطفه على محل ﴿ مِن شَىْءٍ ﴾ لأن من حسابهم يأباه إذ يصير المعنى : ولكن ذكرى من حسابهم وهو كما ترى .

*(194/236)*

---

واعترض بأنه لا يلزم من العطف على مقيد اعتبار ذلك القيد في المعطوف ، والعلامة الثاني يقول : إنه إذا عطف مفرد على مفرد لا سيما بحرف الاستدراك فالقيود المعتبرة في المعطوف عليه السابقة في الذكر عليه معتبرة في المعطوف ألبتة بحكم الاستعمال تقول : ما

جاءني يوم الجمعة أو في الدار أو راكباً أو من هؤلاء القوم رجل ولكن امرأة فيلزم مجيء المرأة في يوم الجمعة وفي الدار وبصفة الركوب وتكون من القوم ألبتة ولم يجيء الاستعمال بخلافه ولا يفهم من الكلام سواه بخلاف ما جاءني رجل من العرب ولكن امرأة فإنه لا يبعد كون المرأة من غير العرب ، قالوا : والسر فيه أن تقدم القيود يدل على أنها أمر مسلم مفروغ عنه وأنها قيد للعامل منسحب على جميع معمولاته وأن هذه القاعدة مخصوصة بالمفرد لذلك ، وأما في الجمل فالقيد إن جعل جزأ من المعطوف عليه وإن سبق لم يشاركه فيه المعطوف كما في قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [ يونس : 49 ] على ما في "شرح المفتاح" ، وهذا إذا لم تقم القرينة على خلافه كما في قولك : جاءني من تميم رجل وامرأة من قريش .

وتخصيص هذه القاعدة بتقدم القيد وادعاء اطرادها كما ذكره بعض المحققين مما يقتضيه الذوق ، ومنهم من عمها كما قال الحلبي : إن أهل اللسان والأصوليين يقولون : إن العطف للتشريك في الظاهر فإذا كان في المعطوف عليه قيد فالظاهر تقييد المعطوف بذلك القيد إلا أن تجيء قرينة صارفة فيحال الأمر عليها فإذا قلت : ضربت زيداً يوم الجمعة وعمراً فالظاهر اشتراك زيد وعمرو في الضرب مقيداً بيوم الجمعة .

وإذا قلت : وعمراً يوم السبت لم يشاركه في قيده والآية من القبيل الأول فالظاهر مشاركته في قيده ويكفي في المنع وبحث فيه السفاقسي وغيره فتدبر .

---

ومن منع العطف على محل ﴿ مِن شَىْءٍ ﴾ لما تقدم منع العطف على ﴿ شَىْءٍ ﴾ لذلك أيضاً ولأن ( من ) لا تقدر عاملة بعد الإثبات لأنها إذا عملت كانت في قوة المذكورة المزيدة وهي لا تزاد في الإثبات في غير الظروف أو مطلقاً عند الجمهور .

﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أي يجتنبون الخوض حياء أو كراهة لمساءتهم .

وجوز أن يكون الضمير للذين يتقون أي لكن يذكر المتقون الخائضين ليثبت المتقون على تقواهم ولا يأثموا بترك ما وجب عليهم من النهي عن المنكر أو ليزدادوا تقوى بذلك .

وهذه الآية كما أخرج النحاس عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وأبو الشيخ عن السدي وابن جبير منسوخة بقوله تعالى النازل في المدينة ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى الكتاب أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءايات الله يُكَفَرُ بِهَا ﴾ [ النساء : 140 ] الخ وإليه ذهب البلخي والجبائي وفي "الطود الراسخ في المنسوخ والناسخ" أنه لا نسخ عند أهل التحقيق في ذلك لأن قوله سبحانه : ﴿ وَمَا عَلَى الذين ﴾ الخ خبر ولا نسخ في الأخبار فافهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال الشوكاني :

قوله : ﴿ وَمَا عَلَى الذين يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾

أي ما على الذين يتقون مجالسة الكفار عند خوضهم في آيات الله من حساب الكفار من شيء .

وقيل المعنى : ما على الذين يتقون ما يقع منهم من الخوض في آيات الله في مجالستهم لهم من شيء ، وعلى هذا التفسير ففي الآية الترخيص للمتقين من المؤمنين في مجالسة الكفار إذا اضطروا إلى ذلك كما سيأتي عند ذكر السبب .

قيل : وهذا الترخيص كان في أوّل الإسلام ، وكان الوقت وقت تقية ، ثم نزل قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الكتاب أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءايات الله يُكفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حتى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ [ النساء : 140 ] فنسخ ذلك ، قوله : ﴿ ولكن ذكرى لَعَلَّهُمْ ﴾ " ذكرى " في موضع نصب على المصدر ، أو رفع على أنها مبتدأ ، وخبرها محذوف ، أي ولكن عليهم ذكرى .

وقال الكسائي : المعنى ولكن هذه ذكرى ، والمعنى على الاستدراك من النفي السابق : أي ولكن عليهم الذكرى للكافرين بالموعظة والبيان لهم بأن ذلك لا يجوز .

أما على التفسير الأوّل : فلأن مجرد اتقاء مجالس هؤلاء الذين يخوضون في آيات الله لا

يسقط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وأما على التفسير الثاني : فالترخيص في المجالسة لا يسقط التذكير ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ الخوض في آيات الله إذا وقعت منكم الذكرى لهم .

وأما جعل الضمير للمتقين فبعيد جدّاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(197/236)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾

لَمَّا كان الإعراض عن مجالس الذين يخوضون بالطعن في الآيات قد لا يحول دون بلوغ أقوالهم في ذلك إلى أسماع المؤمنين من غير قصد أُتْبع الله النهي السابق بالعفو عمَّا تتلقَّفه أسماع المؤمنين من ذلك عَفْواً ، فتكون الآية عذراً لما يطرق أسماعَ المؤمنين من غير قعودهم مع الطاعنين .

والمراد بـ ﴿ الَّذين يتَّقون ﴾ المؤمنون ، والنبي صلى الله عليه وسلم هو أوّل المتَّقين ، فالموصول كتعريف الجنس فيكون شاملاً لجميع المسلمين كما كان قوله ﴿ فأعرض عنهم ﴾ [ الأنعام : 68 ] حكمه شاملاً لبقية المسلمين بحكم التبع .

وقال جمع من المفسّرين : كانت آية ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم ﴾ [ الأنعام : 68 ] خاصّة بالنبي صلى الله عليه وسلم وجاء قوله تعالى : ﴿ وما على الذين يتَّقون من حسابهم من شيء ﴾ رخصة لغير النبي من المسلمين في الحضور في تلك المجالس لأنّ المشركين كان يغضبهم قيام النبي من مجالسهم .

ونسب هذا إلى ابن عبَّاس ، والسديّ ، وابن جبير ، فيكون عموم الموصول في قوله : ﴿ الذين يتَّقون ﴾ مخصوصاً بما اقتضته الآية التي قبلها .

وروى البغوي عن ابن عبَّاس قال : لمَّا نزلت ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم ﴾ [ الأنعام : 68 ] قال المسلمون : كيف نقعد في المسجد الحرام ونطوف بالبيت وهم يخوضون أبداً .

فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿ وما على الذين يتّقون من حسابهم من شيء ﴾ يعني إذا قمتم عنهم فما عليكم تبعةُ ما يقولون في حال مجانبتكم إيَّاهم إذ ليس عليكم جرى ذلك وما عليهم أن يمنعوهم .

وقوله : ﴿ وما على الذين يتّقون من حسابهم من شيء ﴾ تقدّم تفسير نظيره آنفاً ، وهو قوله : ﴿ ما عليك من حسابهم من شيء ﴾ [ الأنعام : 68 ] .

ثمّ الحساب هنا مصدر مضاف إلى ضمير الذين يخوضون في الآيات .

فهذا المصدر بمنزلة الفعل المبني للمجهول فيحتمل أن يكون فاعله ﴿ الذين يتَّقون ﴾ على

وزان ما تقدّم في قوله : ﴿ ما عليك من حسابهم من شيء ﴾ [ الأنعام : 52 ] ، أي ما على الذين يتَّقون أن يحاسِبُوا الخائضين ، أي أن يمنعوهم من الخوض إذ لم يكلّفهم الله بذلك لأنَّهم لا يستطيعون زجر المشركين ، ويحتمل أن يكون فاعله الله تعالى كقوله : ﴿ ثمّ إنّ علينا حسابهم ﴾ [ الغاشية : 26 ] أي ما على الذين يتَّقون تبعة حساب المشركين ، أي ما عليهم نصيب من إثم ذلك الخوض إذا سمعوه .

وقوله : ﴿ ولكن ذكرى ﴾ عطفت الواو الاستدراكَ على النفي ، أي ما عليهم شيء من حسابهم ولكن عليهم الذكرى .

*(198/236)*

---

والذكرى اسم مصدر ذكَّر بالتشديد بمعنى وعظ ، كقوله تعالى : ﴿ تبصرة وذكرى لكلّ عبد منيب ﴾ [ ق : 8 ] ، أي عليهم إن سمعُوهم يستهزئون أن يعظُوهم ويُخوّفوهم غضب الله فيجوز أن يكون ﴿ ذكرى ﴾ منصوباً على المفعول المطلق الآتي بدلاً من فعله .

والتقدير : ولكن يُذكّرونهم ذكرى .

ويجوز أن يكون ذكرى مرفوعاً على الابتداء ، والتقدير : ولكن عليهم ذكرى .

وضمير ﴿ لعلَّهم يتَّقون ﴾ عائد إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ حسابهم ﴾ أي لعلّ الذين

يخوضون في الآيات يتَّقون ، أي يتركون الخوض .

وعلى هذا فالتقوى مستعملة في معناها اللغوي دون الشرعي .

ويجوز أن يكون الضمير عائداً إلى ﴿ الذين يتَّقون ﴾ ، أي ولكن عليهم الذكرى لعلَّهم يتَّقون بتحصيل واجب النهي عن المنكر أو لعلَّهم يستمرّون على تقواهم .

وعن الكسائي : المعنى ولكن هذه ذكرى ، أي قوله : ﴿ وإمَّا ينسينَّك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾ [ الأنعام : 68 ] تذكرة لك وليست مؤاخذة بالنسيان ، إذ ليس على المتَّقين تبعة سماع استهزاء المستهزئين ولكنّا ذكَّرناهم بالإعراض عنهم لعلَّهم يتَّقون سماعهم .

والجمهور على أنّ هذه الآية ليست بمنسوخة .

وعن ابن عبَّاس والسدّي أنَّها منسوخة بقوله تعالى في سورة [ النساء : 140 ] ﴿ وقد نزّل عليكم في الكتاب أنْ إذا سمعتم آيات الله يُكْفَرُ بها ويُستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتَّى يخُوضُوا في حديث غيره إنَّكم إذن مثلهم بناء على رأيهم أنّ قوله : وما على الذين يتَّقون من حسابهم من شيء ﴾ أباح للمؤمنين القعود ولم يمنعه إلاّ على النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ وإذا رأيتَ الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم ﴾ [ الأنعام : 68 ] كما تقدّم آنفاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (69) ﴾

أي أنك إذا كنت معهم وخاضوا في الحديث فقمت من مجلسهم أو نسيت وقعدت ثم تذكرت فقمت ، فأنت تلفتهم إلى أنّ ما أقامك من مجلسهم هو شيء أكثر أهمية من هذا المجلس ، إنه احترام تكليف الله فيما أمرك به ونهاك عنه ، وليس عليك ولا على الذين يتقون الله من أوزار هؤلاء الظالمين من شيء ، وليس عليكم من حسابهم من شيء ، ومجرد قيامكم من مجلسهم هو تذكرة لهم لعلهم يتفكرون في منطق الحق ويخشون الله ويبعدون أنفسهم عن الوقوع في الباطل حتى يكونوا في وقاية من عذاب الله وسخطه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(200/236)*

---

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ ,

هذه الآية الكريمة يفهم منها أنه لا إثم على من جالس الخائضين في آيات الله بالاستهزاء والتكذيب .

وقد جاءت آية تدل على أن من جالسهم كان مثلهم في الإثم وهي قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ ﴾ .

اعلم أولا أن في معنى قوله: ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ وجهين للعلماء:

الأول: أن المعنى: وما على الذين يتقون مجالسة الكفار عند خوضهم في آيات الله من حساب الكفار من شيء, وعلى هذا الوجه فلا إشكال في الآية أصلا .

الوجه الثاني: أن معنى الآية وما على الذين يتقون ما يقع من الكفار في الخوض في آيات الله في مجالستهم لهم من شيء, وعلى هذا القول فهذا الترخيص في مجالسة الكفار للمتقين من المؤمنين كان في أول الإسلام للضرورة ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ ﴾ , وممن قال بالنسخ فيه مجاهد والسدي وابن جريج وغيرهم كما نقله عنهم ابن كثير .

فظهر أن لا إشكال على كلا القولين .

ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ على الوجه الأول أنهم إذا اجتنبوا مجالستهم سلموا من الإثم ولكن الأمر باتقاء مجالستهم عند الخوض في الآيات لا يسقط

وجوب تذكيرهم ووعظهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر لعلهم يتقون الله بسبب ذلك, وعلى الوجه الثاني فالمعنى أن الترخيص في المجالسة لا يسقط التذكير لعلهم يتقون الخوض في آيات الله بالباطل إذا وقعت منكم الذكرى لهم وأما جعل الضمير للمتقين فلا يخفى بعده والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 117 . 118 ﴾

*(201/236)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (68) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (69) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا ﴾ ونحو هذا في القرآن قال : أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة ، وأخبرهم إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم ﴾ قال : نهاه الله أن يجلس مع الذين يخوصون في آيات الله يكذبون بها ، فإن نسى فلا يقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا ﴾ قال : يستهزئون بها ، نهى محمد صلى الله عليه وسلم أن يقعد معهم إلا أن ينسى ، فإذا ذكر فليقم ، وذلك قول الله ﴿ فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وأبو داود في ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي مالك وسعيد بن جبير في قوله ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا ﴾ قال : الذين يكذبون بآياتنا يعني المشركين ﴿ وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى ﴾ بعد ما تذكر . قال : إن نسيت فذكرت فلا تجلس معهم ﴿ وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ﴾ قال : ما عليك أن يخوضوا في آيات الله إذا فعلت ذلك ﴿ ولكن ذكرى لعلهم يتقون ﴾ ذكروهم ذلك وأخبروهم أنه يشق عليكم مساءتكم ، ثم أنزل الله ﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب ﴾ [ النساء : 140 ] الآية .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي في الآية قال : كان المشركون إذا جالسوا المؤمنين وقعوا في النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن فسبوه واستهزأوا به ، فأمرهم الله أن لا يقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن سيرين في قوله ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا ﴾ قال : كان يرى أن هذه الآية نزلت في أهل الأهواء .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو نعيم في الحلية عن أبي جعفر قال : لا تجالسوا أهل الخصومات فإنهم الذين يخوضون في آيات الله .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن محمد بن علي قال : أن أصحاب الأهواء من الذين يخوضون في آيات الله .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عي ابن جريج قال : كان المشركون يجلسون إلى النبي صلى الله عليه وسلم يحبون أن يسمعوا منه ، فإذا سمعوا استهزأوا ، فنزلت ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم .

. . . ﴾ الآية . قال فجعلوا إذا استهزأوا قام فحذروا ، وقالوا : لا تستهزأوا فيقوم ، فذلك قوله ﴿ لعلهم يتقون ﴾ إن يخوضوا فيقوم ، ونزل ﴿ وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ﴾ أن تقعد معهم ولكن لا تعقد ، ثم نسخ ذلك قوله بالمدينة ﴿ وقد نزل عليكم في

الكتاب أن إذا سمعتم ﴾ [ النساء : 140 ] إلى قوله ﴿ إنكم إذاً مثلهم ﴾ [ النساء : 140 ] نسخ قوله ﴿ وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ﴾ الآية .

وأخرج الفريابي وأبو نصر السجزي في الإِبانة عن مجاهد في قوله ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا ﴾ قال : هم أهل الكتاب ، نهى أن يقعد معهم إذا سمعهم يقولون في القرآن غير الحق .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي وائل قال : إن الرجل ليتكلم بالكلمة من الكذب ليضحك بها جلساءه فيسخط الله عليه ، فذكر ذلك لإِبراهيم النخعي فقال : صدق ، أو ليس ذلك في كتاب الله ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم . . . ﴾ الآية .

*(203/236)*

---

وأخرج أبو الشيخ عن مقاتل قال : كان المشركون بمكة إذا سمعوا القرآن من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خاضوا واستهزأوا ، فقال المسلمون : لا يصلح لنا مجالستهم نخاف أن نخرج حين نسمع قولهم ونجالسهم فلا نعيب عليهم ، فأنزل الله في ذلك ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم . . . ﴾ الآية .

وأخرج أبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا . . . ﴾ الآية . قال : نسختها هذه الآية التي في سورة النساء ﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ﴾ [ النساء : 140 ] الآية . ثم أنزل بعد ذلك ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [ التوبة : 5 ] .

وأخرج النحاس في ناسخة عن ابن عباس في قوله ﴿ وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ﴾ قال : هذه مكية نسخت بالمدينة بقوله ﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ﴾ [ النساء : 140 ] الآية .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ﴾ إن قعدوا ولكن لا تقعد .

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال : لما هاجر المسلمون إلى المدينة جعل المنافقون يجالسونهم ، فإذا سمعوا القرآن خاضوا واستهزأوا كفعل المشركين بمكة ، فقال المسلمون : لا حرج علينا قد رخص الله لنا في مجالستهم ، وما علينا من خوضهم فنزلت بالمدينة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن هشام بن عروة قال : أتى عمر بن عبد العزيز بقوم قعدوا على شراب معهم رجل صائم ، فضربه وقال ﴿ لا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

فصل

قال القرطبى :

في هذه الآية ردٌّ من كتاب الله عز وجل على من زعم أن الأئمة الذين هم حُجَجٌ وأتباعَهم لهم أن يخالطوا الفاسقين ويصوّبوا آراءهم تَقِيّة .

وذكر الطبريّ عن أبي جعفر محمد بن عليّ ( رضي الله عنه ) أنه قال : لا تجالسوا أهل الخصومات ، فإنهم الذين يخوضون في آيات الله .

قال ابن العربيّ : وهذا دليل على أن مجالسة أهل الكبائر لا تحِلّ .

قال ابن خُوَيْزَمَنْدَاد : من خاض في آيات الله تُركت مجالسته وهُجر ، مؤمناً كان أو كافراً .

قال : وكذلك منع أصحابنا الدخولَ إلى أرض العدوّ ودخولَ كنائسهم والبِيعَ ، ومجالسةَ الكفار وأهلِ البِدَع ، وألاّ تُعتقد مودّتهم ولا يُسمع كلامهم ولا مناظرتهم .

وقد قال بعض أهل البِدع لأبي عِمران النَّخَعِيّ : اسمع مني كلمة ؛ فأعرض عنه وقال : ولا نصف كلمة .

ومثله عن أيوب السِّخْتِيانيّ .

وقال الفُضيل بن عِيَاض : من أحبّ صاحبَ بدعة أحبط الله عمله وأخرج نور الإسلام من قلبه ، ومن زوّج كريمته من مُبْتدِع فقد قطع رَحِمَها ، ومن جلس مع صاحب بِدْعة لم

يُعط الحكمة ، وإذا علم الله عز وجل من رجل أنه مُبغِض لصاحب بِدْعة رجَوْتُ أن يغفر الله له .

وروى أبو عبد الله الحاكم عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من وَقّر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام " فبطل بهذا كُلِّه قولُ مَن زعم أن مجالستهم جائزة إذا صانوا أسماعهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

*(205/236)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

يجوز أن تقدر " ما " حجازية ، فيكون " مِنْ شيءٍ " اسمها ، و" من " مزيدة فيه لتأكيد الاستغراقِ ، و" على الذين يتَّقُون " خبرها عند من يُجيزُ إعمالها مقدمة الخبر مطلقاً ، أو يرى ذلك في الظَّرْفِ وعديلِهِ .

و" مِنْ حِسَابِهِمْ " حالٌ من " شيء " لأنه لو تأخَّر لكان صِفَةً ، ويجوز أن تكون مُهْمَلةً إما على لُغَةِ " تميم " وإما على لغة " الحجاز " لِفَواتِ شرطٍ ، وهو تقديم خبرها وإن كان طرفاً

، وتحقيق ذلك مما تقدَّم في قوله : ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ [ الأنعام : 52 ]

قوله : " ولَكِنْ ذِكْرَى " فيه أربعة أوجه :

أحدهما : أنها مَنْصُوبَةٌ على المَصْدَرِ بفعلٍ مُضْمَرٍ ، فَقَدَّرَهُ بعضهم أمراً ؛ أي : ولكن ذكِّروهم ذِكْرَى ، وبعضهم قدَّرَهُ خبراً ؛ أي : ولكن يذكرونهم ذكرى .

الثاني : أنه مبتدأ خَبَرُهُ محذوف ؛ أي : ولكن عليهم ذكرى ؛ أي : النهي عن مُجَالَسَتِهِمْ والامتناع منها ذكرى .

الرابع : أنه عطفٌ على موضع " شيء " المجرور بـ " مِنْ " ؛ أي : ما على المُتَّقِين من حسابهم شيء ، ولكن عليهم ذكرى ، فيكون من عَطْفِ المفردات ، وأما على الأوجه السَّابقة فمن عطف الجُمَلِ .

وقد رَدَّ الزمخشري هذا الوَجْهَ الرابع ، ورَدَّهُ عليه أبو حيان .

فأما رَدّ الزمخشري فقال : " ولا يجوز أن يكون عَطْفاً على مَحَلِّ من شيء ؛ كقولك : " ما في الدار من أحد ولكن زيد " ؛ لأن قوله : " مِنْ حِسَابِهِمْ " يأبى ذلك " .

قال أبو حيَّان : كأنه تَخَيَّلَ أن في العَطْفِ يلزم القَيْدُ الذي في المعطوف عليه ، وهو " مِنْ حِسَابِهِم " فهو قيد في " شيء " فلا يجوز عنده أن يكون من عَطْفِ المفردات عطفاً على " من شيء " على الموضع ؛ لأنه يصير التقدير عنده : ولكن ذكرى من حسابهم ، وليس المعنى على هذا ، وهذا الذي تَخَيَّلَهُ ليس بشيء ، ولا يلزم في العطف بـ " لكن " ما ذكر ؛ تقول : ما عندنا رَجُلُ سُوءٍ ولكن رَجُلُ صِدْقٍ ، وما عندما رَجُلٌ من تميم ولكن رَجُلٌ من قريش ، وما قام من رَجُلٍ عالم ولكن رَجُل جاهل ، فعلى هذا الذي قَرَّرْنَاهُ يجوز أن يكون من عطف الجمل كما تقدم ، وأن يكون من عَطْفِ المفرادات والعطف بالواو ، ولكن جيء بها للاستدراك .

قال شهاب الدِّين : قوله : " تقول : ما عندنا رجل سوء وكن رجل صدق " إلى آخر الأمثلة التي ذكرها لا يَرُدُّ على الزمخشري ؛ لأن الزمخشري وغيره من أهْلِ اللِّسانِ والأصوليين يقولون : إنَّ العطف ظَاهِرٌ في التشريك ، فإن كان في المعطوف عليه قَيْدٌ فالظَّاهِرُ تقييد المعطوف بذلك القَيْد ؛ إلاَّ أن تجيء قرينَةٌ صارِفَةٌ ، فيُحَالُ الأمر عليها .

فإذا قلت : ضربت زيداً يوم الجمعة وعمراً ، فالظاهر اشتراك عمرو مع زيد في الضَّربِ مقيداً بيوم الجمعة ، فإن قلت : وعمراً يوم السبت لم يشاركه في قَيْدِهِ ، والآية الكريمة من قَبِيلِ النوع الأول ؛ أي : لم يؤت مع المعطوف بقرينه تُخْرِجُهُ ، فالظاهر مُشَارَكَتُهُ للأول في قيده ، ولو شاركه في قيده لزم منه ما ذكر الزومخشري ، وأما الأمثلة التي أَوْرَدَهَا فالمعطوف

مُقَيَّدٌ بيغر القيد الذي قيد به الأوَّل ، وإنما كان نبغي أن يُمَثِّلَ بقوله : " ما عندنا رجل سوء ولكن امرأة وما عندنا رجل من تميم ولكن صبي " ، فالظاهر من هذا أن المعنى : ولكن امرأة سوء ، ولكن صبي من قريش .

(207/236)

---

وقول الزمخشري : " عَطْفاً على محل : من شيء " ولم يقل : عطفاً على لفظه لفائدة حَسَنَةٍ يَعْسُرُ مَعْرِفَتُهَا ، وهو أن " لكن " حرف إيجاب ، فلو عطفت ما بعدها على المجرور بـ " مِنْ " لَفْظاً لزم زيادة " من " في الواجب ، وجمهور البصريين على عدم زيادتها فيه ، ويَدُلُّ على اعتبار الإيجاب في " لكن " أنهم إذا عَطَفُوا بعد خبر " ما " الحجازية أَبْطَلُوا النَّصْبَ ؛ لأنها لا تعمل في المنتقض النفي ، و" بل " كـ " لكن " فيما ذكرنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 208.210 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (69) ﴾

أي من كان نقيَّ ( الثوب ) عن ارتكاب الإجرام يُعْزَل يوم نشره عن ملاقاة تلك الآلام . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 482 ﴾

*(208/236)*

---

قوله تعالى ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (70) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أبرز هذا الأمر في صيغة النهي ، أعاده بصيغة الأمر اهتماماً به وتأكيداً له ، وأظهر لهم وصفاً آخر هو غاية الوصف الأول مع ما ضم إليه من الإرشاد إلى الإنقاذ من المعاطب فقال : ﴿ وذر ﴾ أي اترك أي ترك كان ولو كان على أدنى الوجوه ﴿ الذين اتخذوا ﴾ أي كلفوا أنفسهم في اتباع الهوى بمخالفة العقل المستقيم والطبع الفطري السليم بأن أخذوا ﴿ دينهم ﴾ على نمط الأسخف من دنياهم ؛ ولما كان الدين ملكة راسخة في النفس ، ولا شيء من كيفيات النفس أرسخ منها ولا أثبت ، وهو أشرف ما عند الإنسان ، وكان

اللعب ضده لا شيء أسرع من انقضائه ولا أوهى من بنائه ، قال ذامّاً لهم بأنهم بدلوا مقصود هذه السورة – الذي هو من الاستدلال على التوحيد الذي لا أشرف منه مطلقاً ولا أعلى ولا أنفس بوجه ولا أحلى – بما لا أدنى منه ولا أوهى ولا أمحق للمروءة ولا أدهى : ﴿ لعباً ﴾ ولما كان ربما قيل : إنهم إذا انقضى اللعب عادوا إلى الاشتغال بالدين ، أتبعه الباعث عليه إشارة إلى أنه كلما ملوا اللعب بعثوا النفوس إليه باللهو كما ترى الراقص كلما فتر في رقصة بعثوه عليه بتقوية اللهو أو الانتقال من فن إلى آخر من فنونه وشأن بديع من شؤونه فقال : ﴿ ولهواً ﴾ أي في الاستهزاء بالدين الحق بالمكاء والتصدية وبالبحائر والسوائب وغير ذلك ، فلا تبال بهم ولا يشغل قلبك بهم ﴿ وغرتهم ﴾ أي خدعتهم ﴿ الحياة الدنيا ﴾ التي هم من أعرف الناس بزوالها ، وأن كل من بها هالك ، فمنَتْهم النعم التي منَّ عليهم سبحانه بها فيما لا ينالونه من السعادة إلا باتباع أوامره واجتناب نواهيه .

*(209/236)*

---

ولما كان ربما أفهم ذلك تركهم في كل حالة ، نفاه بقوله : ﴿ وذكر به ﴾ أي تحديث الآيات ، وهي القرآن المتجدد إنزاله ، والضمير في الحقيقة للآيات ، أي دعهم يفعلوا ما أرادوا ، لا تبال بشيء من ذلك ، ولا تترك وعظّهم بهذا القرآن ، أي ما عليك إلا البلاغ ، لم نكلفك في

هذه الحالة أكثر منه ﴿ أن تبسل ﴾ قال في المجمل : البسل : النخل ، وأبسلته : أسلمته للهلكة ، فالمعنى : كراهة أن تخلي وتسلم ﴿ نفس بما ﴾ أي بسبب ما ﴿ كسبت ﴾ في دنياها كائنة ﴿ ليس لها من دون الله ﴾ أي المنفرد بالعظمة ﴿ ولي ﴾ أي يتولى نصرها ﴿ ولا شفيع ﴾ ينقذها بشفاعته .

ولما كان الفداء من اسباب الخلاص قال : ﴿ وإن تعدل ﴾ أي تلك النفس لأجل التوصل إلى الفكاك ﴿ كل عدل ﴾ أي كل شيء يظن أنه يعدلها ولو كان أنفس شيء ؛ " ولما " كان الضار عدم الأخذ ، لا كونه من معين ، بني للمفعول قوله : ﴿ لا يؤخذ منها ﴾ ولما أنتج ذلك قطعاً أن من هذا حاله هالك ، قال : ﴿ أولئك ﴾ أي الذين عملوا هذه الأعمال البعيدة عن الخير ﴿ الذين أبسلوا ﴾ أي أسلموا ﴿ بما كسبوا ﴾ ثم استأنف قوله : ﴿ لهم شراب من حميم ﴾ أي هو غاية الحر يصهر به ما في بطونهم بما اعتقدوا في الآيات ما ظهر على ألسنتهم ﴿ وعذاب أليم ﴾ أي يعم دائماً ظواهرهم وبواطنهم بما ظهر عليهم من ذلك بعد ما بطن ﴿ بما ﴾ أي بسبب ما ﴿ كانوا يكفرون ﴾ أي يجددون من تغطية الآيات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 653.654 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتخذوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ

نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُولَئِكَ الذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾

(210/236)

---

اعلم أن هؤلاء هم المذكورون بقوله : ﴿ الذين يَخُوضُونَ فِى ءايا تنا ﴾ ومعنى ﴿ ذَرْهُمْ ﴾ أعرض عنهم وليس المراد أن يترك إنذارهم لأنه تعالى قال بعده : ﴿ وَذَكِّرْ بِهِ ﴾ ونظيره قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الذين يَعْلَمُ الله مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ والمراد ترك معاشرتهم وملاطفتهم ولا يترك إنذارهم وتخويفهم .

واعلم أنه تعالى أمر الرسول بأن يترك من كان موصوفاً بصفتين :

الصفة الأولى : أن يكون من صفتهم أنهم اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وفي تفسيره وجوه : الأول : المراد أنهم اتخذوا دينهم الذي كلفوه ودعوا إليه وهو دين الإسلام لعباً ولهواً حيث سخروا به واستهزؤوا به .

الثاني : اتخذوا ما هو لعب ولهو من عبادة الأصنام وغيرها ديناً لهم .

الثالث : أن الكفار كانوا يحكمون في دين الله بمجرد التشهي والتمني ، مثل تحريم السوائب والبحائر وما كانوا يحتاطون في أمر الدين ألبتة ، ويكتفون فيه بمجرد التقليد فعبر الله تعالى

عنهم أنهم اتخذوا دينهم لعباً ولهواً .

والرابع : قال ابن عباس جعل الله لكل قوم عيداً يعظمونه ويصلون فيه ويعمرونه بذكر الله تعالى .

ثم إن الناس أكثرهم من المشركين ، وأهل الكتاب اتخذوا عيدهم لهواً ولعباً غير المسلمين فإنهم اتخذوا عيدهم كما شرعه الله تعالى .

والخامس : وهو الأقرب ، أن المحقق في الدين هو الذي ينصر الدين لأجل أنه قام الدليل على أنه حق وصدق وصواب .

فأما الذين ينصرونه ليتوسلوا به إلى أخذ المناصب والرياسة وغلبة الخصم وجمع الأموال فهم نصروا الدين للدنيا ، وقد حكم الله على الدنيا في سائر الآيات بأنها لعب ولهو .

فالمراد من قوله : ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتخذوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً ﴾ هو الإشارة إلى من يتوسل بدينه إلى دنياه .

وإذا تأملت في حال أكثر الخلق وجدتهم موصوفين بهذه الصفة وداخلين تحت هذه الحالة .

والله أعلم .

*(211/236)*

الصفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا ﴾ وهذا يؤكد الوجه الخامس الذي ذكرناه كأنه تعالى يقول إنما اتخذوا دينهم لعباً ولهواً لأجل أنهم غرتهم الحياة الدنيا .

فلأجل استيلاء حب الدنيا على قلوبهم أعرضوا عن حقيقة الدين واقتصروا على تزيين الظواهر ليتوسلوا بها إلى حطام الدنيا .

إذا عرفت هذا ، فقوله : ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتخذوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً ﴾ معناه أعرض عنهم ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم ولا تقم لهم في نظرك وزناً ﴿ وَذَكِّرْ بِهِ ﴾ واختلفوا في أن الضمير في قوله : ﴿ بِهِ ﴾ إلى ماذا يعود ؟ قيل : وذكر بالقرآن وقيل أنه تعالى قال : ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتخذوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً ﴾ والمراد الدين الذي يجب عليهم أن يتدينوا به ويعتقدوا صحته . فقوله : ﴿ وَذَكِّرْ بِهِ ﴾ أي بذلك الدين لأن الضمير يجب عوده إلى أقرب المذكور .

والدين أقرب المذكور ، فوجب عود الضمير إليه .

أما قوله ﴿ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ فقال صاحب "الكشاف" : أصل الإبسال المنع ومنه ، هذا عليك بسل أي حرام محظور ، والباسل الشجاع لامتناعه من خصمه ، أو لأنه شديد البسور ، يقال بسر الرجل إذا اشتد عبوسه ، وإذا زاد قالوا بسل ، والعابس منقبض الوجه .

إذا عرفت هذا فنقول : قال ابن عباس : ﴿ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أي ترتهن في جهنم بما كسبت في الدنيا .

وقال الحسن ومجاهد : تسلم للمهلكة أي تمنع عن مرادها وتخذل .

وقال قتادة : تحبس في جهنم ، وعن ابن عباس ﴿ تُبْسَلَ ﴾ تفضح و ﴿ أُبْسِلُواْ ﴾ فضحوا ، ومعنى الآية وذكرهم بالقرآن ، ومقتضى الدين مخافة احتباسهم في نار جهنم بسبب جناياتهم لعلهم يخافون فيتقون .

ثم قال تعالى : ﴿ لَيْسَ لَهَا ﴾ أي ليس للنفس ﴿ مِن دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا ﴾ أي وإن تفذ كل فداء ، والعدل الفدية لا يؤخذ ذلك العدل وتلك الفدية منها .

*(212/236)*

---

قال صاحب "الكشاف" : فاعل يؤخذ ليس هو قوله : ﴿ عَدْلٍ ﴾ لأن العدل ههنا مصدر ، فلا يسند إليه الأخذ .

وأما في قوله : ﴿ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ فبمعنى المفدى به ، فصح إسناده إليه .

فنقول : الأخذ بمعنى القبول وارد .

قال تعالى : ﴿ وَيَأْخُذُ الصدقات ﴾ أي يقبلها .

وإذا ثبت هذا فيحمل الأخذ ههنا على القبول ، ويزول السؤال .

والله أعلم .

والمقصود من هذه الآية : بيان أن وجوه الخلاص على تلك النفس منسدة ، فلا ولي يتولى دفع ذلك المحذور ، ولا شفيع يشفع فيها ، ولا فدية تقبل ليحصل الخلاص بسبب قبولها حتى لو جعلت الدنيا بأسرها فدية من عذاب الله لم تنفع .

فإذا كانت وجوه الخلاص هي هذه الثلاثة في الدنيا ، وثبت أنها لا تفيد في الآخرة ألبتة ، وظهر أنه ليس هناك إلا الإبسال الذي هو الارتهان والانغلاق والاستسلام ، فليس لها ألبتة دافع من عذاب الله تعالى ، وإذا تصور المرء كيفية العقاب على هذا الوجه يكاد يرعد إذا أقدم على معاصي الله تعالى .

ثم إنه تعالى بين ما به صاروا مرتهنين وعليه محبوسين ، فقال ﴿ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ وذلك هو النهاية في صفة الإيلام . والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 23.24 ﴾

*(213/236)*

---

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتخذوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً ﴾

قال الضحاك : يعني : كفار قريش نصبوا أصنامهم في المسجد الحرام إلى أنصاب الحرم ، وقرطوها بالمقراط ، وعلقوا بيض النعامة في أعناقها .

فنزل ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتخذوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً ﴾ وقال الكلبي : إن الله تعالى جعل لكل قوم عيداً يعظمونه ، ويصلون فيه لله تعالى ، وكل قوم اتخذوا دينهم يعني : عيدهم لعباً ولهواً إلا هذه الأمة ، فإنهم اتخذوا عيدهم صلاة لله ، وحصناً للصدقة ، وهي الجمعة والفطر والأضحى .

قال مقاتل : اتخذوا دينهم الإسلام لعباً يعني : باطلاً ولهواً عنه .

ثم قال : ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا وَذَكِّرْ بِهِ ﴾ يعني : عِظْ وَخَوِّفْ بالقرآن ﴿ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ ﴾ يعني : لكي لا تهلك نفس ﴿ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ يعني : بما عملت ويقال : تحبس نفس يعني تسلم نفس بذنوبها إلى النار وهذا قول الضحاك .

وقال الأخفش : أن ترهن نفس بما عملت .

ويقال : تحبس .

وقال القتبي : أي تسلم للهلكة .

ويقال : تخذل ولا تنصر .

ثم قال : ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ الله وَلِىٌّ ﴾ يعني : إذا وقع في العذاب ، لم يكن لها مانع يمنعها من العذاب ﴿ وَلاَ شَفِيعٍ ﴾ يشفع لها ﴿ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا ﴾ يقول : لو

جاءت بعدل نفسها رجلاً مكانها أو يفتدي بما في الأرض جميعاً لا يؤخذ يعني : لا يقبل منها ﴿ أُوْلَئِكَ الذين أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ يعني : أهلكوا .

ويقال : أسلموا بذنوبهم إلى النار ﴿ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ يعني : ماء حار قد انتهى حره ﴿ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

*(214/236)*

---

وقال الثعلبى :

﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتخذوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً ﴾ باطلاً وفرحاً ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا ﴾ وذلك أن اللّه تعالى جعل لكل قوم عيداً يعظمونه ويصلون فيه فكان قوم اتخذوا عيدهم لهواً ولعباً إلاّ أمة محمد صلى الله عليه وسلم فإنهم اتخذوا عيدهم صلاة للّه .

وذكرا مثل الجمعة والفطر والنحر ﴿ وَذَكِّرْ بِهِ ﴾ وعظ بالقرآن ﴿ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ يعني أن لا تبسل كقوله تعالى يبين اللّه لكم أن تضلوا . ومعنى الآية ذكرهم ليؤمنوا فلا تبسل نفس بما كسبت .

قال ابن عباس : تهلك ، قتادة : تحيس .

الحسن ، ومجاهد ، وعكرمة ، والسدي : تسلم للهلكة . علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس : تفضح .

الضحاك : تفضح وتحرق . المؤرخ ، وابن زيد : تؤخذ .

قال الشاعر :

وإبسالي بني بغير جرم . . . بعونها ولا بدم مراق

العوف بن الأحوض : وكان رهن بيته وحمل عن غنى لبني قشير دم السحقية . فقالوا : لا نرضى بك ، فدفعهم رهناً ، وقوله بعونا أي جنيناً ، والبعو الجناية .

وقال الأخفش : تبسل أي تجزى . وقال الفراء : ترتهن .

وأنشد النابغة الجعدي :

ونحن رهناً بالأفاقة عامراً . . . بما كان في الدرداء رهنا فأبسلا

وقال عطية العوفي : يسلم في خزية جهنم .

وقال أهل اللغة : أصل الإبسال التحريم ، يقال : أبسلت الشيء إذا حرمته ، والبسل الحرام .

قال الشاعر :

بكرت تلومك بعد وهن في الندى . . . بسل عليك ملامتي وعتابي

فقال : أنشدنا بسل أي شجاع لا يقدّر موته كأنه قد حرم نفسه ثم جعل ذلك نعتاً لكل

شديد . يترك ، ويبقى . ويقال : شراب بسل أي متروك .

قال الشنفرى :

هنالك لا أرجو حياة تسرني . . . سمير الليالي مبسلاً بالجرائر

وقوله تعالى ﴿ لَيْسَ لَهَا ﴾ أي لتلك الأنفس ﴿ مِن دُونِ اللهِ وَلِيٌّ ﴾ حميم وصديق ﴿ وَلاَ شَفِيعٌ ﴾ يشفع لهم في الآخرة ﴿ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ ﴾ تفد كل فداء ، ﴿ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَآ ﴾ .

قال أبو عبيدة : وإن يقسطه كل قسط لا يقبل منها لأن التوبة في الحياة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(215/236)

---

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً ﴾ فيهم قولان :

أحدهما : أنهم الكفار الذين يستهزئون بآيات الله إذا سمعوها ، قاله علي بن عيسى .

والثاني : أنه ليس قوم لهم عيد يلهون فيه إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن أعيادهم صلاة وتكبير وبر وخير ، قاله الفراء .

﴿ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : معناه وغرتهم الحياة الدنيا بالسلامة فيها ، ونيل المطلوب منها .

والثاني : معناه وغرتهم الدنيا بالحياة والسلامة منها ، فيكون الغرور على الوجه الأول بالحياة ، وعلى الثاني بالدنيا .

﴿ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ قيل معناه أن لا تبسل كما قال تعالى : ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ﴾ [ النساء : 176 ] بمعنى أن لا تضلوا .

وفي قوله : ﴿ أَن تُبْسَلَ ﴾ ستة أوجه :

أحدها : أن تسلم ، قاله الحسن ، وعكرمة ، ومجاهد ، والسدي .

والثاني : أن تُحْبَس ، قاله قتادة .

والثالث : أن تُفْضح ، قاله ابن عباس .

والرابع : أن تُؤْخَذ بما كسبت ، قاله ابن زيد .

والخامس : أن تُجْزَى ، قاله الكلبي .

والسادس : أن تُرْتَهن ، قاله الفراء ، من قولهم أسد باسل لأن فريسته مُرْتَهَنَة معه لا تَفْلِت منه ، ومنه قول عوف بن الأحوص الكلابي :

وإبسالي بني بغير جرم . . . بعوناه ولا بدم مراق

وقوله : بعوناه أي جنيناه ، وأصل الإبسال التحريم من قولهم : شراب بَسْل اي حرام ، قال

الشاعر :

بَكَرت تَلُومُكَ بَعْدَ وَهْنٍ في النَّدى . . . بسلٌ عليكِ مَلاَمَتِي وَعِتَابي

أي حرام عليك .

وفي قوله تعالى : ﴿ . . . وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا ﴾ تأويلان :

أحدهما : معناه وإن تفد كل فدية من جهة المال والثروة ، قاله قتادة ، والسدي ، وابن زيد .

(216/236)

---

والثاني : من جهة الإِسلام والتوبة ، قاله الحسن .

واختلف في نسخها على قولين :

أحدهما : أنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيثُ وَجَدْتُمُوهُم ﴾ [ التوبة : 5 ] قاله قتادة .

والثاني : أنها ثابتة على جهة التهديد كقوله تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴾ [ المدثر : 11 ] ، قاله مجاهد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً ﴾ فيهم قولان .

أحدهما : أنها الكفار .

والثاني : اليهود والنصارى .

وفي اتخاذهم دينهم لعباً ولهواً ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه استهزاؤهم بآيات الله إذا سمعوها .

والثاني : أنهم دانوا بما اشتَهوا ، كما يلهون بما يشتهون .

والثالث : أنهم يحافظون على دينهم إذا اشتَهوا ، كما يلهون إذا اشتَهوا .

قال الفراء : ويقال : إنه ليس من قوم إلا ولهم عيد ، فهم يَلْهون في أعيادهم ، إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن أعيادهم صلاة وتكبير وبرٌ وخير .

فصل

ولعلماء الناسخ والمنسوخ في هذا القدر من الآية ، قولان .

أحدهما : أنه خرج مخرج التهديد ، كقوله : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ [ المدثر : 11 ] فعلى هذا ، هو محكم .

وإلى هذا المعنى ذهب مجاهد .

والثاني : أنه اقتضى المسامحة لهم والإعراض عنهم ، ثم نسخ بآية السيف ؛ وإلى هذا ذهب قتادة ، والسدي .

قوله تعالى : ﴿ وذكِّر به ﴾ أي : عظ بالقرآن .

وفي قوله : ﴿ أن تبسل ﴾ قولان .

أحدهما : لئلا تبسل نفس كقوله : ﴿ أن تضلوا ﴾ [ النساء : 176 ] .

والثاني : ذكّرهم إبسال المبسلين بجناياتهم ، لعلَّهم يخافون .

وفي معنى ﴿ تبسل ﴾ سبعة اقوال .

أحدها : تُسْلَم .

رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، ومجاهد ، والسدي .

وقال ابن قتيبة : تُسْلَم إلى الهلكة .

قال الشاعر :

وإبسالي بَنّي بِغَيْرِ جُرْمٍ . . .

بَعَوْناه ولا بِدمٍ مُرَاقِ

أي : بغير جرم أجرمناه ؛ والبَعْوُ : الجناية .

(217/236)

وقال الزجاج : تُسْلَمُ بعملها غير قادرة على التخلص .

والمستبسل : المستسلم الذي لا يعلم أنه يقدر على التخلص .

والثاني : تُفْضَح ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : تُدفع ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والرابع : تُهلَكُ ، روي عن ابن عباس أيضاً .

والخامس : تُحبس وتُؤخذ ، قاله قتادة ، وابن زيد .

والسادس : تُجزى ، قاله ابن السائب ، والكسائي .

والسابع : تُرتهن ، قاله الفراء .

وقال أبو عبيدة : تُرتهن وتسلم ؛ وأنشد

هُنَالِكَ لا أَرْجُو حَيَاةً تَسُرُّنِي . . .

سَمِيْرَ اللَّيالي مُبْسَلاً بالجَرَائِر

سمير الليالي : أَبَدَ الليالي .

فأما الولي : فهو الناصر الذي يمنعها من عذاب الله .

والعدل : الفداء .

قال ابن زيد : وإن تفتد كلَّ فداء لا يقبل منها .

فأما الحميم ، فهو الماء الحار .

قال ابن قتيبة : ومنه سمي الحمّام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتخذوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً ﴾

هذا أمر بالمشاركة وكان ذلك بحسب قلة أتباع الإسلام حينئذ ، قال قتادة : ثم نسخ ذلك وما جرى مجراه بالقتال ، وقال مجاهد : الآية إنما هي للتهديد والوعيد فهي كقوله تعالى : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ [ المدثر : 11 ] وليس فيها نسخ لأنها متضمنة خبراً وهو التهديد ، وقوله ﴿ لعباً ولهواً ﴾ يريد إذ يعتقدون أن لا بعث فهم يتصرفون بشهواتهم تصرف اللاعب اللاهي ، ﴿ وغرتهم الحياة الدنيا ﴾ أي خدعتهم من الغرور وهو الإطماع بما لا يتحصل فاغتروا بنعم الله ورزقه وإمهاله وطمعهم ذلك فيما لا يتحصل من رحمته .

قال القاضي أبو محمد : ويتخرج في ﴿ غرتهم ﴾ هنا وجه آخر من الغَرور بفتح العين أي ملأت أفواههم وأشبعتهم ، ومنه قول الشاعر : [ الطويل ]

ولما التَقَيْنَا بالحَنِيَّةِ غَرَّنِي . . . بِمَعْرُوفِهِ حتّى خَرَجَتُ أُفَوّقُ

(218/236)

ومنه غر الطائر فرخه ، ولا يتجه هذا المعنى في تفسير " غر " وفي كل موضع وأضاف الدين إليهم على معنى أنهم جعلوا اللعب واللهو ديناً ، ويحتمل أن يكون المعنى اتخذوا دينهم الذي كان ينبغي لهم لعباً ولهواً ، والضمير في ﴿ به ﴾ عائد على الدين ، وقيل : على القرآن ، و ﴿ أن تبسل ﴾ في موضع المفعول أي لئلا تبسل أو كراهية أن تبسل ، ومعناه تسلم ، قال الحسن وعكرمة ، وقال قتادة : تحبس وترتهن ، وقال ابن عباس : تفضي وقال الكلبي وابن زيد : تجزى ، وهذه كلها متقاربة بالمعنى ، ومنه قول الشنفرة : [ الطويل ]

هنالك لا أَرْجُو حَيَاةً تَسُرُّنِي . . . سَمِيرَ اللَّيالي مُبْسَلاً بالجَرَائِرِ

وقال بعض الناس هو مأخوذ من البَسَل أي من الحرام كما قال الشاعر [ ضمرة النهشاني ] : [ الكامل ]

بَكَرَتْ تَلُومُكَ بِعْدَ وَهْنٍ في النَّدَى . . . بَسل عَلَيْك مَلامَتِي وعِتابي

قال القاضي أبو محمد : وهذا بعيد ، و ﴿ نفس ﴾ تدل على الجنس ، ومعنى الآية وذكر بالقرآن والدين وادع إليه لئلا تبسل نفس التارك للإيمان بما كسبت من الكفر وآثرته من رفض الإسلام ، وقوله تعالى : ﴿ ليس لها من دون الله ﴾ في موضع الحال ، و ﴿ من ﴾ لابتداء الغاية ويجوز أن تكون زائدة و ﴿ دون ﴾ ظرف مكان وهي لفظة تقال باشتراك ، وهي في هذه الآية الدالة على زوال من أضيفت إليه من نازلة القول كما في المثل :

وأمر دون عبيدة الودم . . . والولي والشفيع هما طريقا الحماية والغوث في جميع الأمور ﴿

وإن تعدل كل عدل ﴾ أي وإن تعط كل فدية ، وإن عظمت فتجعلها عدلاً لها لا يقبل منها ، وحكى الطبري عن قائل ان المعنى وإن تعدل من العدل المضاد للجور ، ورد عليه وضعّفه بالإجماع على أن توبة الكافر مقبولة .

(219/236)

---

قال القاضي أبو محمد : ولا يلزم هذا الرد لأن الأمر إنما هو يوم القيامة ولا تقبل فيه توبة ولا عمل ، والقول نص لأبي عبيدة ، و" العدل " في اللغة مماثل الشيء من غير جنسه ، وقيل : العِدل بالكسر المثل والعَدل بالفتح القيمة ، و﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الجنس المدلول عليه بقوله ﴿ تبسل نفس ﴾ ، و﴿ ابسلوا ﴾ معناه أسلموا بما اجترحوه من الكفر ، و" الحميم " الماء الحار ، ومنه الحمام والحمة ومنه قول أبي ذؤيب : [ الكامل ]

إلا الحَميمَ فإنَّه يَتَبَصَّعُ . . . " وأليم " فعيل بمعنى أي مؤلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً ﴾ الخطاب للنبي .

يعني : وذر يا محمد هؤلاء المشركين الذين اتخذوا دينهم الذي أمروا به ودعوا إليه وهو دين

الإسلام لعباً ولهواً وذلك حيث سخروا به واستهزؤوا به وقيل إنهم اتخذوا عبادة الأصنام لعباً ولهواً .

وقيل : إن الكفار إذا سمعوا القرآن لعبوا ولهوا عند سماعه .

وقيل إن الله جعل لكل قوم عيداً فاتخذ كل قوم دينهم يعني عيدهم لعباً ولهواً يلعبون ويلهون فيه إلا المسلمين فإنهم اتخذوا عيدهم صلاة وتكبيراً وفعل الخير فيه مثل عيد الفطر وعيد النحر ويوم الجمعة ﴿ وغرتهم الحياة الدنيا ﴾ يعني أنهم اتخذوا دينهم لعباً ولهواً لأجل أنهم غرتهم الحياة الدنيا وغلب حبها على قلوبهم فأعرضوا عن دين الحق واتخذوا دينهم لعباً ولهواً ومعنى الآية : وذَرْيا محمد الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً واتركهم ولا تبالِ بتكذيبهم واستهزائهم وهذا يقتضي الإعراض عنهم ثم نسخ ذلك الإعراض بآية السيف وهو قول قتادة والسدي .

وقيل : إنه خرج مخرج التهديد فهو كقوله ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ وهذا قول مجاهد فعلى هذا تكون الآية محكمة .

*(220/236)*

وقيل : المراد بالإعراض عنهم : ترك معاشرتهم ومخالطتهم لا ترك الإنذار والتخويف ويدل عليه قوله : ﴿ وذكر به ﴾ يعني وذكر بالقرآن وعِظْ به هؤلاء المشركين ﴿ أن تبسل نفس بما كسبت ﴾ أي لئلا تبسل نفس وأصل البسل في اللغة : التحريم وضم الشيء ومنعه .

وهذا عليك بسل : أي حرام ممنوع .

فمعنى تبسل نفس بما كسبت : ترتهن وتحبس في جهنم وتحرم من الثواب بسب بما كسبت من الآثام .

وقال ابن عباس : تبسل تهلك .

وقال قتادة : تحبس يعني في جهنم .

وقال الضحاك : تحرق بالنار .

وقال ابن زيد : تؤخذ يعني بما كسبت .

وقيل : تفضح .

والمعنى : وذكرهم بالقرآن ومواعظه وعرفهم الشرائع لكي لا تهلك نفس وترتهن في جنهم بسبب الجنايات التي اكتسبت في الدنيا وتحرم الثواب في الآخرة ﴿ ليس لها ﴾ يعني لتلك النفس التي هلكت ﴿ من دون الله ولي ﴾ أي قريب يلي أمرها ﴿ ولا شفيع ﴾ يعني يشفع لها في الآخرة ﴿ وإن تعدل كل عدل ﴾ يعني وإن تفتد بكل فداء والعدل الفداء ﴿ لا يؤخذ منها ﴾ يعني العدل وتلك الفدية ﴿ أولئك الذين ﴾ إشارة إلى الذين اتخذوا

دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا ﴿ أبسلوا بما كسبوا ﴾ يعني أسلموا إلى الهلاك بسبب ما اكتسبوا ﴿ لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ ذلك لهم بسبب كفرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا ﴾

أي لا تعلّق قلبك بهم فإنهم أهل تَعنُّت وإن كنت مأموراً بوَعْظِهم .

قال قتادة : هذا منسوخ ، نسخه ﴿ فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [ التوبة : 5 ] .

ومعنى ﴿ لَعِباً وَلَهْواً ﴾ أي استهزاءً بالدين الذي دعوتهم إليه .

وقيل : استهزءوا بالدين الذي هم عليه فلم يعملوا به .

والاستهزاء ليس مُسَوَّغاً في دين .

وقيل : "لَعِباً وَلَهْواً" باطلاً وفرحاً ، وقد تقدّم هذا .

وجاء اللّعب مقدّماً في أربعة مواضع ، وقد نُظمت :

إذا أتى لعب ولهو . . .

وكم من موضع هو في القُران

فحرف في الحديد وفي القتال . . .

وفي الأنعام منها موضعان

وقيل : المراد بالدِّين هنا العِيدُ .

قال الكلبيّ : إن الله تعالى جعل لكل قوم عيداً يعظمونه ويصلّون فيه لله تعالى ، وكل قوم اتّخذوا عيدهم لعباً ولهواً إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنهم اتخذوه صلاة وذكراً وحضوراً بالصدقة ، مثل الجمعة والفطر والنحر .

قوله تعالى : ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا ﴾ أي لم يعلموا إلا ظاهراً من الحياة الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ بِهِ ﴾ أي بالقرآن أو بالحساب .

﴿ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أي تُرْتَهن وتُسلم للْهَلَكة ؛ عن مجاهد وقتادة والحسن وعِكْرمة والسُّدّي .

والإبسال : تسليم المرء للهلاك ؛ هذا هو المعروف في اللغة .

أَبْسلتُ ولدي أرهنته ؛ قال عَوْف بن الأحوص بن جعفر :

وإبْسالِي بَنِيَّ بغيْر جُرْمٍ . . .

بَعَوْناه ولا بِدَمٍ مُرَاقِ

"بَعَوْناه" بالعين المهملة معناه جنيْناه .

والبَعْوُ الجناية .

وكان حَمَل عن غَنِيٍّ لبني قُشيرٍ دَمَ ابني السُّجَيْفَة فقالوا : لا نرضى بك ؛ فرهنَهم بَنِيّه طلباً للصلح .

وأنشد النابغة الجعدي :

ونحن رَهنّا بالأُفاقة عامراً . . .

بما كان في الدَّرْدَاء رَهْناً فأُبسِلاَ

الدرداء : كتيبة كانت لهم .

﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ ﴾ تقدّم معناه .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَآ ﴾ الآية .

العدل الفدْية ، وقد تقدم في "البقرة" .

والحَمِيم الماء الحارّ ؛ وفي التنزيل ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحميم ﴾ [ الحج : 19 ] الآية .

﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ [ الرحمن : 44 ] .

والآية منسوخة بآية القتال .

وقيل : ليست بمنسوخة ؛ لأن قوله : ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتخذوا دِينَهُمْ ﴾ تهديد ؛ كقوله : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ ﴾ [ الحجر : 3 ] .

(222/236)

---

ومعناه لا تحزن عليهم ؛ فإنما عليك التبليغ والتذكير بإبسال النفوس .

فمن أبسل فقد أسلم وارتهن .

وقيل : أصله التحريم ، من قولهم : هذا بَسْلٌ عليك أي حرام ؛ فكأنهم حُرِموا الجنة وحُرِّمت عليهم الجنة .

قال الشاعر :

أجارتْكُم بَسْلٌ علينا مُحَرَّمٌ . . .

وجارتنا حِلٌّ لكم وحَلِيلُها

والإبسال : التحريم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً ﴾

هذا أمر بتركهم وكان ذلك لقلة أتباع الإسلام حينئذ .

قال قتادة : ثم نسخ ذلك وما جرى مجراه بالقتال .

وقال مجاهد : إنما هو أمر تهديد ووعيد كقوله تعالى : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ ولا نسخ فيها لأنها متضمنة خبراً وهو التهديد ودينهم ما كانوا عليه من البحائر والسوائب والحوامي والوصائل وعبادة الأصنام والطواف حول البيت عراة يصفرون ويصفقون أو الذي كلفوه ودعوا إليه وهو دين الإسلام ﴿ لعباً ولهواً ﴾ حيث سخروا به واستهزؤوا ، أو عبادتهم لأنهم كانوا مستغرقين في اللهو واللعب وشرب الخمر والعزف والرقص لم تكن لهم عبادة إلا ذلك أقوال ثلاثة وانتصب ﴿ لعباً ولهواً ﴾ على المفعول الثاني لاتخذوا .

*(223/236)*

---

وقال أبو عبد الله الرازي : الأقرب أن المحقق في ﴿ الدّين ﴾ هو الذي ينصر الدّين لأجل أنه قام الدليل على أنه حق وصدق وصواب ، وأما الذين ينصرونه ليتوسلوا به إلى أخذ المناصب والرئاسة وغلبة الخصم وجمع الأموال فهم نصروا الدّين للدنيا وقد حكم الله على الدّنيا في سائر الآيات بأنها لعب ولهو ، فالآية إشارة إلى من يتوسل بدينه إلى دنياه وأكثر الخلق موصوفون بهذه الصفة ؛ انتهى ، وفيه بعض تلخيص وظاهر تفسيره يقتضي أن ﴿ اتخذوا ﴾ هنا متعدّية إلى واحد وأن انتصاب ﴿ لعباً ولهواً ﴾ على المفعول من أجله

فيصير المعنى اكتسبوا دينهم وعملوه وأظهروا اللعب واللهو أي للدّنيا واكتسابها ويظهر من بعض كلام الزمخشري وابن عطية أن ﴿ لعباً ولهواً ﴾ هو المفعول الأول لاتخذوا و ﴿ دينهم ﴾ هو المفعول الثاني .

قال الزمخشري : أي دينهم الذي كان يجب أن يأخذوا به ﴿ لعباً ولهواً ﴾ وذلك أن عبادتهم وما كانوا عليه من تحريم البحائر والسوائب وغير ذلك من باب اللعب واتباع هوى النفس والعمل بالشهوة ، ومن جنس الهزل دون الجدّ واتخذوا ما هو لعب ولهو من عبادة الأصنام وغيرها ديناً لهم واتخذوا دينهم الذي كلفوه ودعوا إليه هو دين الإسلام ﴿ لعباً ولهواً ﴾ حيث سخروا به واستهزؤوا ؛ انتهى .

فظاهر تقديره الثاني هو ما ذكرناه عنه .

وقال ابن عطية : وأضاف الدين إليهم على معنى أنهم جعلوا اللهو واللعب ديناً ويحتمل أن يكون المعنى ﴿ اتخذوا دينهم ﴾ الذي كان ينبغي لهم ﴿ لعباً ولهواً ﴾ ؛ انتهى .

فتفسيره الأول هو ما ذكرناه عنه .

قال الزمخشري : وقيل : جعل الله لكل قوم عيداً يعظمونه ويصلون فيه ويعمرونه بذكر الله والناس كلهم من المشركين ، وأهل الكتاب اتخذوا عيدهم ﴿ لعباً ولهواً ﴾ غير المسلمين فإنهم اتخذوا دينهم عيدهم كما شرعه الله ومعنى ذرهم أعرض عنهم ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم ولا تشغل قلبك بهم ؛ انتهى .

﴿ وغرّتهم الحياة الدنيا ﴾ يحتمل أن يكون معطوفاً على الصلة وأن يكون استئناف إخبار أي خدعتهم الغرور وهي الأطماع فيما لا يتحصل فاغتروا بنعم الله ورزقه وإمهاله إياهم .

وقيل : غرّتهم بتكذيبهم بالبعث .

وقال أبو عبد الله الرازي : لأجل استيلاء حب الدنيا أعرضوا عن حقيقة الدين واقتصروا على تزيين الظواهر ليتوصلوا بها إلى حطام الدنيا ؛ انتهى .

وقيل : ﴿ غرتهم ﴾ من الغرّ بفتح الغين أي ملأت أفواههم وأشبعتهم .

ومنه قول الشاعر :

ولما التقينا بالحليبة غرّني . . .

بمعروفه حتى خرجت أفوق

ومنه غر الطائر فرخه .

﴿ وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ﴾ الضمير في ﴿ به ﴾ عائد على القرآن أو على ﴿ الذين ﴾ أو على ﴿ حسابهم ﴾ ثلاثة أقوال : أولاها الأوّل كقوله : ﴿ فذكر بالقرآن

من يخاف وعيد ﴾ و﴿ تبسل ﴾ ، قال ابن عباس : تفضح .

وقال الحسن وعكرمة : تسلم .

وقال قتادة : تحبس وترتهن .

وقال الكلبي وابن زيد والأخفش : تجزي .

وقال الضحاك : تحرق .

وقال ابن زيد أيضاً : يؤخذ .

وقال مؤرخ : تعذب .

وقيل يحرم عليها النجاة ودخول الجنة .

*(225/236)*

---

وقال أبو بكر : استحسن بعض شيوخنا قول من قال : تسلم بعملها لا تقدر على التخلص لأنه يقال : استبسل للموت أي رأى ما لا يقدر على دفعه واتفقوا على أن ﴿ تبسل ﴾ في موضع المفعول من أجله وقدروا كراهة ﴿ أن تبسل ﴾ ومخافة ﴿ أن تبسل ﴾ ولئلا ﴿ تبسل ﴾ ويجوز عندي أن يكون في موضع جر على البدل من الضمير ، والضمير مفسر بالبدل وأضمر الإبسال لما في الإضمار من التفخيم كما أضمر الأمر والشأن وفسر بالبدل

وهو الإبسال فالتقدير وذكر بارتهان النفوس وحبسها بما كسبت كما قالوا : اللهم صل عليه الرؤوف الرحيم وقد أجاز ذلك سيبويه قال : فإن قلت ضربت وضربوني قومك نصبت إلا في قول من قال : أكلوني البراغيث أو يحمله على البدل من المضمر وقال أيضاً : فإن قلت ضربني وضربتهم قومك رفعت على التقديم والتأخير إلا أن تجعل ها هنا البدل كما جعلته في الرفع ؛ وقد روي قوله :

تنخل فاستاكت به عود أسحل . . .

بجر عود على أنه بدل من الضمير والمعنى ﴿ أن تبسل ﴾ نفس تاركة للإيمان بما كسبت من الكفر أو بكسبها السيئ .

﴿ ليس لها من دون الله ﴾ أي من دون عذاب الله .

﴿ ولي ﴾ فينصرها .

﴿ ولا شفيع ﴾ فيدفع عنها بمسألته وهذه الجملة صفة أو حال أو مستأنفة إخبار وهو الأظهر و﴿ من ﴾ لابتداء الغاية .

وقال ابن عطية : ويجوز أن تكون زائدة ؛ انتهى ، وهو ضعيف .

*(226/236)*

﴿ وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها ﴾ أي وإن تفد كل فداء والعدل الفدية لأن الفادي يعدل الفداء بمثله ، ونقل عن أبي عبيدة أن المعنى بالعدل هنا ضدّ الجور وهو القسط أي وإن تقسط كل قسط بالتوحيد والانقياد بعد العناد وضعف هذا القول الطبري بالإجماع على أن توبة الكافر مقبولة ، ولا يلزم هذا لأنه إخبار عن حالة يوم القيامة وهي حال معاينة وإلجاء لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، قالوا : وانتصب ﴿ كل عدل ﴾ على المصدر ويؤخذ الضمير فيه عائد على المعدول به المفهوم من سياق الكلام ولا يعود على المصدر لأنه لا يسند إليه الأخذ وأما في ﴿ لا يؤخذ منها ﴾ عدل فمعنى المفدى به فيصح إسناده إليه ويجوز أن ينتصب كل عدل على المفعول به أي ﴿ وإن تعدل ﴾ بذاتها ﴿ كل ﴾ أي كل ما تفدى به ﴿ لا يؤخذ منها ﴾ ويكون الضمير على هذا عائداً على ﴿ كل عدل ﴾ وهذه الجملة الشرطية على سبيل الفرض والتقدير لا على سبيل إمكان وقوعها .

﴿ أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا ﴾ الظاهر أنه يعود على الذين اتخذوا ﴾ وقاله الحوفي وتبعه الزمخشري .

وقال ابن عطية : ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الجنس المدلول عليه بقوله : ﴿ أن تبسل نفس ﴾ .

﴿ لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ الأظهر أنها جملة استئناف

إخبار ويحتمل أن تكون حالاً وشراب فعال بمعنى مفعول كطعام بمعنى مطعوم ولا ينقاس فعال بمعنى مفعول ، لا يقال : ضراب ولا قتال بمعنى مضروب ولا مقتول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(227/236)

---

وقال البيضاوى :

﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتخذوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً ﴾

أي بنوا أمر دينهم على التشهي وتدينوا بما لا يعود عليهم بنفع عاجلاً وآجلاً ، كعبادة الأصنام وتحريم البحائر والسوائب ، أو اتخذوا دينهم الذي كلفوه لعباً ولهواً حيث سخروا به ، أو جعلوا عيدهم الذي جعل ميقات عبادتهم زمان لهو ولعب . والمعنى أعرض عنهم ولا تبال بأفعالهم وأقوالهم ، ويجوز أن يكون تهديداً لهم كقوله تعالى : ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا ﴾ حتى أنكروا البعث . ﴿ وَذَكِّرْ بِهِ ﴾ أي بالقرآن . ﴿ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ مخافة أن تسلم إلى الهلاك وترهن بسوء عملها . وأصل الأبسال والبسل المنع ومنه أسد باسل لأن فريسته لا تفلت منه ، والباسل الشجاع لامتناعه من قرنه وهذا بسل عليك أي حرام . ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ الله وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ ﴾ يدفع عنها العذاب . ﴿ وَإِن

تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ ﴾ وإن تفد كل فداء والعدل الفدية لأنها تعادل المفدي وها هنا الفداء وكل نصب على المصدرية. ﴿ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا ﴾ الفعل مسند إلى منها لا إلى ضميره بخلاف قوله: ﴿ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ فإنه المفدى به. ﴿ أُوْلَئِكَ الذين أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ أي سلموا إلى العذاب بسبب أعمالهم القبيحة وعقائدهم الزائغة. ﴿ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ تأكيد وتفصيل لذلك، والمعنى هم بين ماء مغلي يتجرجر في بطونهم ونار تشتعل بأبدانهم بسبب كفرهم. انتهى انتهى. اهـ

﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 419. 420 ﴾

(228/236)

---

وقال أبو السعود:

﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتخذوا دِينَهُمْ ﴾ الذي كُلِّفوه وأُمروا بإقامة مواجبه ﴿ لَعِباً وَلَهْواً ﴾ حيث سخِروا به واستهزأوا أو بنَوْا أمرَ دينهم على ما لا يكادُ يتعاطاه العاقلُ بطريق الجِدّ وإنما يصدُر عنه لو صدَر بطريق اللعِبِ واللهوِ كعبادة الأصنام وتحريمِ البحائرِ والسوائبِ ونحوِ ذلك، والمعنى أعرضْ عنهم ولا تُبالِ بأفعالهم وأقوالهم وقيل: هو تهديدٌ لهم كقوله تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ ﴾ الآية، ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا ﴾ واطمأنوا بها حتى زعموا

أنْ لا حياةَ بعدها أبداً ﴿ وَذَكِّرْ بِهِ ﴾ أي بالقرآن من يصلُح للتذكير ﴿ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أي لئلا تُبْسَلَ كقوله تعالى : ﴿ أَن تَضِلُّواْ ﴾ الآية ، أو مخافةَ أن تُبسَل أو كراهةَ أن تبسل نفوسٌ كثيرة كما في قوله تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ وتُرتَهنَ لسوء عملِها ، وأصلُ الإبسالِ والبَسْل المنعُ ، ومنه أسد باسلٌ لأن فريستَه لا تُفلت منه أو لأنه ممتَنِعٌ ، والباسل الشجاع لامتناعه من قِرْنه وهذا بَسْلٌ عليك أي حرام ممنوعٌ وقد جوّز أن يكون الضميرُ المجرورُ في ( به ) راجعاً إلى الإبسال مع عدم جريان ذكرِه كما في ضمير الشأن وتكون الجملةُ بدلاً منه مفسّراً له ، لما في الإبهام أولاً والتفسيرِ ثانياً من التفخيم وزيادةِ التقرير كما في قوله :

(229/236)

---

على جودِه لَضَنَّ بالماء حاتمِ . . . بجرّ حاتم على أنه بدل من ضمير جوده فالمعنى وذكر بارتهان النفوس وحبسها بما كسبت وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ للإخبار بذلك وقيل : في محل النصب على أنه حالٌ من ضمير ( كسبت ) وقيل : في محل الرفع على أنه وصفٌ ( لنفسٌ ) والأظهرُ أنه حالٌ من ( نفسٌ ) فإنه في قوة نفسٌ كافرةٌ أو نفوسٌ كثيرة كما في قوله تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ و( من

دون الله ) متعلقٌ بمحذوف هو حال من ( وليٌّ ) كما بُيّن في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ﴾ الآية ، وقيل : هو خبرٌ لليس فيكون ( لها ) حينئذٍ متعلقاً بمحذوفٍ على البيان ﴿ وَإِن تَعْدِلْ ﴾ أي إن تَفْدِ تلك النفسُ ﴿ كُلَّ عَدْلٍ ﴾ أي كلَّ فِداءٍ على أنه مصدرٌ مؤكد ﴿ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا ﴾ على إسنادِ الفعلِ إلى الجار والمجرور لا إلى ضمير العدل كما في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ فإنه المَفْدِيُّ به لا المصدرُ كما نحن فيه ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة ، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد درجتهم في سوء الحال ، ومحلُه الرفعُ على الابتداء والخبرُ قوله تعالى : ﴿ الذين أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ والجملةُ مستأنفةٌ سيقت إثرَ تحذيرِهم من الإبسال المذكور لبيان أنهم المبتَلَوْن بذلك أي أولئك المتخِذون دينَهم لعباً ولهواً المغترون بالحياة الدنيا هم الذين أُبسِلوا بما كسبوا ، وقولُه تعالى : ﴿ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ استئناف آخرُ مُبينٌ لكيفية الإبسال المذكور وعاقبتِه ، مبنيٌّ على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل : ماذا لهم حين أُبسلوا بما كسبوا ؟ فقيل : لهم شرابٌ من ماءٍ مغليَ يتجَرْجَرُ في بطونهم وتتقطَّعُ به أمعاؤهم ﴿ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ بنار تشتعل بأبدانهم ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ أي بسبب كفرهم

المستمر في الدنيا وقد جُوِّز أن يكون ( لهم شراب ) الخ ، حالاً من ضمير ( أبسلوا ) وترتيبُ ما ذُكر من العذابَيْن على كفرهم مع أنهم معذبون بسائر معاصيهم أيضاً حسبما ينْطق به قولُه تعالى : ﴿ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ لأنه العُمدةُ في إيجاب العذاب والأهمُ في باب التحذير ، أو أريد بكفرهم ما هو أعمُّ منه ومن مستتْبِعاته من المعاصي والسيئات هذا ، وقد جوِّز أن يكون أولئك إشارةً إلى النفوس المدلولِ عليها ( بنفسٌ ) محلُه الرفعُ بالابتداء والموصولُ الثاني صفتُه أو بدلٌ منه ولهم شراب الخ خبرُه والجملة مَسوقةٌ لبيان تَبعةِ الإبسال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(231/236)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتخذوا دِينَهُمْ ﴾ الذي فرض عليهم وكلفوه وأمروا بإقامة مواجبه وهو الإسلام ﴿ لَعِباً وَلَهْواً ﴾ حيث سخروا به واستهزأوا ، وجوز أن يكون المعنى اتخذوا الدين الواجب شيئاً من جنس اللعب واللهو كعبادة الأصنام وتحريم البحائر والسوائب ونحو ذلك أو اتخذوا ما يتدينون به وينتحلونه بمنزلة الذين لأهل الأديان شيئاً من اللعب واللهو .

وحاصله أنهم اتخذوا اللعب واللهو ديناً ، وقيل : المراد بالدين العيد الذي يعاد إليه كل حين معهود بالوجه الذي شرعه الله تعالى كعيد المسلمين أو بالوجه الذي لم يشرع من اللعب واللهو كأعياد الكفرة لأن أصل معنى الدين العادة والعيد معتاد كل عام ونسب ذلك لابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، والمعنى على سائر الأقوال لا تبال بهؤلاء وامض لما أمرت به .

وأخرج ابن جرير وغيره أن المعنى على التهديد كقوله تعالى : ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴾ [ المدثر : 11 ] و ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ ﴾ [ الحجر : 3 ] ، وقيل : المراد الأمر بالكف عنهم وترك التعرض لهم .

والآية عليه منسوخة بآية السيف ، وهو مروي عن قتادة .

ونصب ﴿ لَعِباً ﴾ على أنه مفعول ثان لاتخذوا وهو اختيار السفاقسي ، ويفهم من ظاهر كلام البعض أنه مفعول أول و ﴿ دِينَهُمْ ﴾ ثان ، وفيه إخبار عن النكرة بالمعرفة .

ويفهم من كلام الإمام أنه مفعول لأجله واتخذ متعد لواحد فإنه قال بعد سرد وجوه التفسير في الآية : "والخامس وهو الأقرب أن ( المحق ) في الدين هو الذي ينصر الدين لأجل أن قام الدليل على أنه حق وصدق وصواب فأما الذين ينصرونه ليتوسلوا به إلى أخذ المناصب والرياسة وغلبة الخصم وجمع الأموال فهم نصروا الدين للدنيا ، وقد حكم الله تعالى عليها في سائر الآيات بأنها لعب ولهو .

فالمراد من قوله سبحانه : ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتخذوا ﴾ الخ هو الإشارة إلى من يتوسل بدينه إلى دنياه .

وإذا تأملت في حال أكثر الخلق وجدتهم موصوفين بهذه الصفة وداخلين تحت هذه الآية" اه .

ولا يخفى أنه أبعد من العيوق فلا تغتر به وإن جل قائلة .

﴿ وَغَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا ﴾ أي خدعتهم وأطمعتهم بالباطل حتى أنكروا البعث وزعموا أن لا حياة بعدها واستهزأوا بآيات الله تعالى .

وجعل بعضهم غر من الغر وهو ملء الفم أي أشبعتهم لذاتها حتى نسوا الآخرة وعليه قوله : ولما التقينا بالعشية غرني . . .

*(232/236)*

---

بمعروفه حتى خرجت أفوق

﴿ وَذَكِّرْ بِهِ ﴾ أي بالقرآن .

وقد جاء مصرحاً به في قوله سبحانه : ﴿ فَذَكِّرْ بالقرءان مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ ق : 45 ] والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

وقيل : الضمير لحسابهم ، وقيل : للدين .

وقيل : إنه ضمير يفسره قوله سبحانه : ﴿ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ فيكون بدلاً منه واختاره أبو حيان .

وعلى الأوجه الأخر هو مفعول لأجله أي لئلا تبسل أو مخافة أو كراهة أن تبسل .

ومنهم من جعله مفعولاً به لذكر .

ومعنى ﴿ تُبْسَلَ ﴾ تحبس كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

وأنشد له قول زهير

: وفارقتك برهن لافكاك له . . .

يوم الوداع وقلبي مبسل علقاً

وفي رواية ابن أبي حاتم عنه تسلم .

وروي ذلك أيضاً عن الحسن ومجاهد والسدى واختاره الجبائي والفراء ، وفي رواية ابن جرير وغيره تفضح .

وقال الراغب : ﴿ تُبْسَلَ ﴾ هنا بمعنى تحرَمَ الثواب .

وذكر غير واحد أن الإبسال والبسل في الأصل المنع ، ومنه أسد باسل لأن فريسته لا تفلت منه أو لأنه متمنع ، والباسل الشجاع لامتناعه من قرنه ، وجاء البسل بمعنى الحرام .

وفرق الراغب بينهما "بأن الحرام عام لما منع منه بحكم أو قهر والبسل الممنوع ( منه ) بالقهر"

، ويكون بسل بمعنى أجل ونعم ، واسم فعل بمعنى أكفف .

وتنكير ﴿ نَفْسٌ ﴾ للعموم مثله في قوله تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ [ التكوير : 14 ] أي لئلا تحبس وترهن كل نفس في الهلاك أو في النار أو تسلم إلى ذلك أو تفضح أو تحرم الثواب بسبب عملها السوء أو ذكر بحبس أو حبس كل نفس بذلك ، وحمل النكرة على العموم مع أنها في الإثبات لاقتضاء السياق له ، وقيل : إنها هنا في النفي معنى ، وفيما اختاره أبو حيان من التفخيم وزيادة التقرير ما لا يخفى .

*(233/236)*

---

وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَهَا ﴾ أي النفس ﴿ مِن دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٍ ﴾ إما استئناف للإخبار بذلك أو في محل رفع صفة ﴿ نَفْسٌ ﴾ أو في محل نصب على الحالية من ضمير ﴿ كَسَبَتْ ﴾ أو من ﴿ نَفْسٌ ﴾ فإنه في قوة نفس كافرة أو نفوس كثيرة واستظهر بعض الحالية .

ومن ﴿ دُونِ اللهِ ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من ﴿ وَلِيٌّ ﴾ ، وقيل : خبراً لليس ، و ﴿ لَهَا ﴾ حينئذ متعلق بمحذوف على البيان ، ومن جعلها زائدة لم يعلقها بشيء ، والمراد أنه لا يحول بينها وبين الله تعالى بأن يدفع عقابه سبحانه عنها ولي ولا شفيع .

﴿ وَإِن تَعْدِلْ ﴾ أي إن تفد تلك النفس ﴿ كُلَّ عَدْلٍ ﴾ أي كل فداء .

و"كل" نصب على المصدرية لأنه بحسب ما يضاف إليه لا مفعول به ، وقيل : إنه صفة لمحذوف وهو بمعنى الكامل كقولك : هو رجل كل رجل أي كامل في الرجولية والتقدير عدلاً كل عدل .

ورد بأن كلا بهذا المعنى يلزم التبعية والإضافة إلى مثل المتبوع نعتاً لا توكيداً كما في "التسهيل" ولا يجوز حذف موصوفة .

وقوله تعالى : ﴿ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا ﴾ جواب الشرط ، والفعل مسند إلى الجار والمجرور كسير من البلد لا إلى ضمير العدل لأن العدل كما علمت مصدر وليس بمأخوذ بخلافه في قوله تعالى : ﴿ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ [ البقرة : 48 ] فإنه فيه بمعنى المفدى به ، وجوز كون الإسناد إلى ضميره مراداً به الفدية على الاستخدام إلا أنه لا حاجة إليه مع صحة الإسناد إلى الجار والمجرور ، وبذلك يستغنى أيضاً عن القول بكونه راجعاً إلى المعدول به المأخوذ من السياق .

وقيل : معنى الآية وإن تقسط تلك النفس كل قسط في ذلك اليوم لا يقبل منها لأن التوبة هناك غير مقبولة وإنما تقبل في الدنيا .

﴿ أولئك ﴾ أي المتخذون دينهم لعباً ولهواً المغترون بالحياة الدنيا ﴿ الذين أُبْسِلُواْ ﴾ أي حرموا الثواب وسلموا للعذاب أو بأحد المعاني الباقية للإبسال ﴿ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ أي بسبب أعمالهم القبيحة وعقائدهم الزائغة .

واسم الإشارة مبتدأ ، وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد درجة المشار إليهم في سوء الحال ، وخبره الموصول بعده ، والجملة استئناف سيق إثر تحذير أولئك من الإبسال المذكور لبيان أنهم المبتلون بذلك .

وقوله سبحانه : ﴿ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ استئناف آخر مبين لكيفية الإبسال المذكور مبنى على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل : ماذا لهم حين أبسلوا ؟ فقيل : لهم شراب من حميم أي ماء حار يتجرجر ويتردد في بطونهم ويتقطع به أمعاؤهم ﴿ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ بنار تشتعل بأبدانهم كما هو المتبادر من العذاب ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ أي بسبب كفرهم المستمر في الدنيا ، ويطلق الحميم على الماء البارد فهو ضد كما في "القاموس" .

وجوز أبو البقاء أن تكون جملة ﴿ لَهُمْ شَرَابٌ ﴾ حالاً من ضمير ﴿ أُبْسِلُواْ ﴾ وان تكون خبراً لاسم الإشارة ويكون ﴿ الذين ﴾ نعتاً له أو بدلاً منه .

وأن تكون خبراً ثانياً .

واختار كما يشير إليه كلامه أن تكون الإشارة إلى النفوس المدلول عليها بنفس وجعلت

الجملة لبيان تبعة الإبسال .

واختار كثير من المحققين ما أشرنا إليه .

وترتيب ما ذكر من العذابين على كفرهم مع أنهم معذبون بسائر معاصيهم أيضاً حسبما ينطق به قوله سبحانه : ﴿ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ لأنه العمدة في أيجاب العذاب والأهم في باب التحذير أو أريد كما قيل بكفرهم ما هو أعم منه ومن مستتبعاته من المعاصي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

*(235/236)*

---

فصل

قال الشوكانى :

قوله : ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتخذوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً ﴾

أي اترك هؤلاء الذين اتخذوا الدين الذي كان يجب عليهم العمل به والدخول فيه لعباً ولهواً ، ولا تعلق قلبك بهم فإنهم أهل تعنت ، وإن كنت مأموراً بإبلاغهم الحجة .

وقيل : هذه الآية منسوخة بآية القتال .

وقيل المعنى : أنهم اتخذوا دينهم الذي هم عليه لعباً ولهواً ، كما في فعلهم بالأنعام من تلك

الجهالات والضلالات المتقدم ذكرها .

وقيل : المراد بالدين هنا العيد ، أي اتخذوا عيدهم لعباً ولهواً ، وجملة : ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا ﴾ معطوفة على ﴿ اتخذوا ﴾ أي غرّتهم حتى آثروها على الآخرة وأنكروا البعث وقالوا : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [ المؤمنون : 37 ] .

قوله : ﴿ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ الضمير في " بِهِ " للقرآن أو للحساب .

والإبسال : تسليم المرء نفسه للهلاك ، ومنه أبسلت ولدي ، أي رهنته في الدم ، لأن عاقبة ذلك الهلاك .

قال النابغة :

ونحن رهناً بالأُفاقة عامراً . . . بما كان في الدرداء رهناً فأبسلا

أي فهلك ، والدرداء : كتيبة كانت لهم معروفة بهذا الاسم ، فالمعنى : وذكر به خشية أو مخافة أو كراهة أن تهلك نفس بما كسبت ، أي ترتهن وتسلم للهلكة ، وأصل الإبسال : المنع ، ومنه شجاع باسل ، أي ممتنع من قرنه .

قوله : ﴿ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا ﴾ العدل هنا : الفدية .

والمعنى : وإن بذلت تلك النفس التي سلمت للهلاك كل فدية لا يؤخذ منها ذلك العدل حتى تنجو به من الهلاك ، وفاعل ﴿ يُؤْخَذْ ﴾ ضمير يرجع إلى العدل ، لأنه بمعنى المفدى به كما

في قوله : ﴿ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ [ البقرة : 48 ] .

وقيل : فاعله ﴿ منها ﴾ ، لأن العدل هنا مصدر لا يسند إليه الفعل .

(236/236)

---

وكل عدل منصوب على المصدر ، أي عدلاً كل عدل ، والإشارة بقوله ﴿ أولئك ﴾ إلى المتخذين دينهم لعباً ولهواً ، وحبره ﴿ الذين أبسلوا بما كسبوا ﴾ أي هؤلاء الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً هم الذين سلموا للهلاك بما كسبوا ، و ﴿ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ جواب سؤال مقدّر كأنه قيل : كيف حال هؤلاء ؟ فقيل : لهم شراب من حميم ، وهو الماء الحارّ ، ومثله قوله تعالى : ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءوسِهِمُ الحميم ﴾ [ الحج : 19 ] وهو هنا : شراب يشربونه فيقطع أمعاءهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(237/236)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾

عطف على جملة : ﴿ فأعرض عنهم ﴾ [ الأنعام : 68 ] أو على جملة : ﴿ وما على الذين يتّقون من حسابهم من شيء ﴾ [ الأنعام : 69 ] .

وهذا حكم آخر غير حكم الإعراض عن الخائضين في آيات الله ولذلك عطف عليه .

وأتي بموصول وصلة أخرى فليس ذلك إظهاراً في مقام الإضمار .

و﴿ ذرْ ﴾ فعل أمر .

قيل : لم يرد له ماض ولا مصدر ولا اسم فاعل ولا اسم مفعول .

فتصاريفه هذه مماتة في الاستعمال استغناء عنها بأمثالها من مادّة ترك تجنّباً للثقل واستعملوا مضارعه والأمر منه .

وجعله علماء التصريف مثالاً واوياً لأنَّهم وجدوه محذوف أحد الأصول ، ووجدوه جارياً على نحو يَعِد ويَرث فجزموا بأنّ المحذوف منه الفاء وأنَّها واو .

وإنَّما حذفت في نحو ذَرْ ودَعْ مع أنَّها مفتوحة العين اتّباعاً للاستعمال ، وهو حذف تخفيف لا حذف دفع ثقل ، بخلاف حذف يَعِد ويَرث .

ومعنى : ( ذَر ) اترك ، أي لا تخالط .

وهو هنا مجاز في عدم الاهتمام بهم وقلَّة الاكتراث باستهزائهم كقوله تعالى : ﴿ ذَرْني ومن خلقتُ وحيداً ﴾ [ المدثر : 11 ] ، وقوله : ﴿ فذرني ومن يكذّب بهذا الحديث ﴾ ، وقول طرفة :

فذَرْني وخُلْقي إنَّني لَك شاكر

ولو حلّ بيتي نَائِياً عند ضَرْغد . . .

أي لا تبال بهم ولا تهتمّ بضلالهم المستمرّ ولا تشغل قلبك بهم فالتذكير بالقرآن شامل لهم ، أو لا تعبأ بهم وذكّرهم به ، أي لا يصدّك سوء استجابتهم عن إعادة تذكيرهم .

والدّين في قوله : اتَّخذوا دينهم ﴾ يجوز أن يكون بمعنى الملَّة ، أي ما يتديَّنون به وينتحلونه ويتقرّبون به إلى الله ، كقول النابغة :

مجلّتهم ذات الإله ودينُهم

قَويم فما يرجُون غيرَ العَوَاقِب . . .

أي اتَّخذُوه لعباً ولهواً ، أي جعلوا الدين مجموع أمور هي من اللعب واللهو ، أي العبث واللهو عند الأصنام في مواسمها ، والمكاء والتصدية عند الكعبة على أحد التفسيرين في قوله تعالى : ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت إلاّ مكاء وتصدية ﴾ [ الأنفال : 35 ] .

*(238/236)*

---

وإنَّما لم يقل اتَّخذوا اللهو واللعب ديناً لمكان قوله : ﴿ اتَّخذوا ﴾ فإنَّهم لم يجعلوا كلّ ما هو من اللهو واللعب ديناً لهم بل عمدوا إلى أن ينتحلوا ديناً فجمعوا له أشياء من اللعب واللهو

وسمّوها ديناً .

ويجوز أن يكون المراد من الدّين العادة ، كقول المُثقّب العبدي:

تَقول وقد دَرَأتُ لها وَظِيني . . .

أهَذَا دينُه أبَداً ودِينِي

أي الذين دأبهم اللعب واللهو المعرضون عن الحقّ ، وذلك في معاملتهم الرسول صلى الله عليه وسلم

واللعب واللهو تقدّم تفسيرهما في قوله تعالى : ﴿ وما الحياة الدنيا إلاّ لعب ولهو ﴾ في هذه السورة [ 32 ] .

والذين اتَّخذوا دينهم لعباً ولهواً فريق عُرفوا بحال هذه الصلة واختصّت بهم ، فهم غير المراد من الذين يخوضون في الآيات بل بينهم وبين الذين يخوضون في الآيات ؛ فيجوز أن يكون المراد بهم المشركين كلَّهم بناء على تفسير الدين بالملَّة والنِّحلة فهم أعمّ من الذين يخوضون فبينهم العموم والخصوص المطلق .

وهذا يناسب تفسير ذَرْ ﴾ بمعنى عدم الاكتراث بهم وبدينهم لقصد عدم اليأس من إيمانهم أو لزيادة التسجيل عليهم ، أي وذكِّرْهم بالقرآن ، ويجوز أن يكون المراد بهم فريقاً من المشركين سفهاء اتَّخذوا دأبهم اللعب واللهو ، بناء على تفسير الدين بمعنى العادة فبينهم وبين الذين يخوضون العموم والخصوص الوجهي .

﴿ وغَرّتْهم ﴾ أي خدعتهم الحياة الدنيا وظنّوا أنّها لا حياة بعدها وأنّ نعيمها دائم لهم بطراً منهم .

وتقدّم تفسير الغرور عند قوله تعالى : ﴿ لا يغرّنّك تقلّب الذين كفروا في البلاد ﴾ في سورة [آل عمران : 196 ] .

وذكر الحياة هنا له موقع عظيم وهو أنّ همّهم من هذه الدنيا هو الحياة فيها لا ما يتكسب فيها من الخيرات التي تكون بها سعادة الحياة في الآخرة ، أي غرّتهم الحياة الدنيا فأوهمتهم أن لا حياة بعدها وقالوا : ﴿ إن هي إلاّ حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ [ الأنعام : 29 ] .

*(239/236)*

---

والضمير المجرور في ﴿ وذكِّر به ﴾ عائد إلى القرآن لأنّ التذكير هو التذكير بالله وبالبعث وبالنعيم والعذاب .

وذلك إنَّما يكون بالقرآن فيعلم السامع أنّ ضمير الغيبة يرجع إلى ما في ذهن المخاطب من المقام ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ فذكِّر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ [ ق : 45 ] .

وحذف مفعول ﴿ ذكّر ﴾ لدلالة قوله : ﴿ وذرِ الذين اتَّخذُوا دينهم لعباً ولهواً ﴾ أي وذكِّرْهم به .

وقوله : ﴿ أنْ تُبْسَل نفس ﴾ يجوز أن يكون مفعولاً ثانياً لِ ﴿ ذكّرْ ﴾ وهو الأظهر ، أي ذكِّرْهم به إبسال نفس بما كسبت ، فإنّ التذكير يتعدّى إلى مفعولين من باب أعطى لأنّ أصل فعله المجرّد يتعدّى إلى مفعول فهو بالتضعيف يتعدّى إلى مفعولين هما "هم" و ﴿ أن تبسل نفس ﴾ .

وخُصّ هذا المصدر من بين الأحداث المذكّر بها لما فيه من التهويل .

ويجوز أن يكون ﴿ أن تُبْسل ﴾ على تقدير لام الجرّ تعليلاً للتذكير ، فهو كالمفعول لأجله فيتعيّن تقدير لا النافية بعد لام التعليل المحذوفة .

والتقدير : لِئلاّ تبسل نفس ، كقوله تعالى : ﴿ يبيّن الله لكم أن تضلّوا ﴾ ، وقد تقدّم في آخر سورة [ النساء : 176 ] .

وجوّز فيه غير ذلك ولم أكن منه على ثلج .

ووقع لفظ ( نفس ) وهو نكرة في سياق الإثبات وقصد به العموم بقرينة مقام الموعظة ، كقوله تعالى : ﴿ عَلِمَتْ نَفْس ما قدّمَتْ وأخَّرَتْ ﴾ [ الأنفطار : 5 ] أي كلّ نفس علمت نفس ما أحْضَرَتْ ، أي كلّ نفس .

والإبسال : الإسلام إلى العذاب ، وقيل : السجنُ والارتهان ، وقد ورد في كلامهم بالمعنيين وهما صالحان هنا .

وأصله من البَسْل وهو المنع والحرام .

قال ضمرة النهشلي :

بَكَرَتْ تَلُومُكَ بعد وَهْنٍ في النَّدى

بَسْلٍ عليكِ مَلاَمَتِي وعِتَابِي . . .

وأمَّا الإبسال بمعنى الإسلام فقد جاء فيه قول عوف بن الأحوص الكلابي :

وإبْسَالِي بَنِيّ بغير جُرْمٍ

بَعَوْنَاهُ ولا بِدَمٍ مُرَاقِ . . .

ومعنى : ﴿ بما كسبت ﴾ بما جنت .

فهو كسب الشرّ بقرينة ﴿ تبسل ﴾ .

*(240/236)*

---

وجملة : ﴿ ليس لها من دون الله ﴾ الخ في موضع الحال من ﴿ نفس ﴾ لعموم ﴿ نفس ﴾ ، أو في موضع الصفة نظراً لكون لفظه مفرداً .

والوليّ : الناصر .

والشفيع : الطالب للعفو عن الجاني لمكانة له عند من بيده العقاب .

وقد تقدّم الولي عند قوله تعالى : ﴿ قُلْ أغير الله أتَّخِذُ وليّاً ﴾ في هذه السورة [ 14 ] ،

والشفاعة عند قوله تعالى : ﴿ ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ﴾ في سورة [ البقرة : 48 ] .

وجملة : وإنْ تعدل كلّ عدل لا يؤخذ منها ﴾ عطف على جملة ﴿ ليس لها من دون الله وليّ ولا شفيع ﴾ .

و ﴿ تَعْدلْ ﴾ مضارع عَدَل إذا فدى شيئاً بشيء وقدّره به .

فالفداء يسمَّى العدل كما تقدّم في قوله تعالى : ﴿ ولا يؤخذ منها عدل ﴾ في سورة [ البقرة : 48 ] .

وجيء في الشرط بإنْ ﴾ المفيدة عدم تحقّق حصول الشرط لأنّ هذا الشرط مفروض كما يفرض المحال .

والعدْل في قوله : ﴿ كلّ عدْل ﴾ مصدر عدل المتقدّم .

وهو مصدره القياسي فيكون ﴿ كلّ ﴾ منصوباً على المفعولية المطلقة كما في "الكشّاف" ، أي وإن تُعط كلّ عطاء للفداء لا يقبل عطاؤها ، ولا يجوز أن يكون مفعولاً به ل ﴿ تعدل ﴾ لأنّ فعل ( عَدل ) يتعدّى للعوض بالباء وإنَّما يتعدّى بنفسه للمعوّض وليس هو المقصود هنا .

فلذلك منع في "الكشّاف" أن يكون ﴿ كلّ عدل ﴾ مفعولاً به ، وهو تدقيق .

و ﴿ كُلّ ﴾ هنا مجاز في الكثرة إذ ليس للعدل ، أي للفداء حصر حتّى يحاط به كلّه .

وقد تقدّم استعمال ( كلّ ) بمعنى الكثرة وهو مجاز شائع عند قوله تعالى : ﴿ ولئن أَتيتَ الذين أوتوا الكتاب بكلّ آية ﴾ في سورة [ البقرة : 145 ] .

وقوله : لا يؤخذ منها ﴾ أي لا يؤخذ منها ما تعدل به .

فقوله : ﴿ منها ﴾ هو نائب الفاعل ل ﴿ يؤخذ ﴾ .

وليس في ﴿ يؤخذ ﴾ ضمير العدل لأنَّك قد علمت أنّ العدل هنا بمعنى المصدر ، فلا يسند إليه الأخذ كما في "الكشاف" ، فقد نزّل فعل الأخذ منزلة اللازم ولم يقدّر له مفعول كأنَّه قيل : لا يؤخذ منها أخْذ .

*(241/236)*

---

والمعنى لا يؤخذ منها شيء .

وقد جمعت الآية جميع ما تعارف الناس التخلّص به من القهر والغلب ، وهو الناصر والشفيع والفدية .

فهي كقوله تعالى : ﴿ ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون ﴾ في سورة [ البقرة : 48 ]

وجملة : ﴿ أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً لأنّ الكلام يثير سؤال

سائل يقول : فما حال الذين اتّخذوا دينهم لعباً ولهواً من حال النفوس التي تُبْسَل بما كسبت ، فأجيب بأنّ أولئك هم الذين أبسلوا بما كسبوا ، فتكون الإشارة إلى الموصول بما له من الصلة ، والتعريف للجزأين أفادَ القصر ، أي أولئك هم المبسَلُون لا غيرهم .

وهو قصر مبالغة لأنّ إبسالهم هو أشدّ إبسال يقع فيه الناس فجُعل ما عداه كالمعدوم .

ويجوز أن تكون الإشارة إلى النفس في قوله : ﴿ أن تُبسل نفس ﴾ باعتبار دلالة النكرة على العموم ، أي أنّ أولئك المبسَلون العادمون وليّاً وشفيعاً وقبولَ فديتهم هم الذين إبسلوا بما كسبوا ، أي ذلك هو الإبسال الحقّ لا ما تعرفونه في جَرَائركم وحروبكم من الإبسال ، كإبسال أبناء عوف بن الأحوص المتقدّم آنفاً في شعره ، فهذا كقوله تعالى: ﴿ ذلك يوم التغابن ﴾ [ التغابن : 9 ] .

وجملة ﴿ لهم شراب من حميم ﴾ بيان لمعنى الإبسال أو بدَل اشتمال من معنى الإبسال ، فلذلك فصلت .

والحميم : الماء الشديد الحرارة ، ومنه الحَمة بفتح الحاء العينُ الجارية بالماء الحارّ الذي يستشفى به من أوجاع الأعضاء والدمل .

وفي الحديث : " مَثَل العالم مثل الحَمَّة يأتيها البعداء ويتركها القرباء " .

وخصّ الشراب من الحميم من بين بقية أنواع العذاب المذكور من بعد للإشارة إلى أنَّهم يعطشون فلا يشربون إلاّ ماء يزيدهم حرارة على حرارة العطش .

والباء في ﴿ بما كانوا يكفرون ﴾ للسببية ، و( ما ) مصدرية .

وزيد فعل ( كان ) ليدلّ على تمكّن الكفر منهم واستمرارهم عليه لأنّ فعل مادّة الكَوْن تدلّ على الوجود ، فالإخبار به عن شيء مخبَر عنه بغيره أو موصوف بغيره لا يفيد فائدة الأوصاف سوى أنَّه أفاد الوجود في الزمن الماضي ، وذلك مستعمل في التمكّن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

*(242/236)*

---

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ) .

أَنْذَرَ اللهُ تَعَالَى فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ هَذِهِ الْأُمَّةَ - أُمَّةَ الدَّعْوَةِ - مِثْلَ الْعَذَابِ الَّذِي بَعَثَهُ عَلَى مُكَذِّبِي الرُّسُلِ مِنَ الْأَوَّلِينَ ، وَعَلَى الْمُتَفَرِّقِينَ الْمُخْتَلِفِينَ فِي دِينِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَجَعَلَ ذَلِكَ مَعَ مَا قَبْلَهُ مِنْ حُجَجِ الْقُرْآنِ وَآيَاتِهِ الْمُثْبِتَةِ لِكَوْنِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ لَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِهِ الْأُمِّيِّ الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ شَيْئًا مِنْ أَخْبَارِ الْأُمَمِ وَلَا مِنْ سُنَنِ اللهِ فِي مُكَذِّبِي الرُّسُلِ وَمُتَّبِعِيهِمْ - تِلْكَ الْآيَاتُ الَّتِي يُرْجَى لِمَنْ تَدَبَّرَهَا فِقْهُ الْأُمُورِ وَإِدْرَاكُ حَقَائِقِ الْعِلْمِ .

وَذَكَرَ بَعْدَ هَذَا الْإِنْذَارِ وَالْبَيَانِ تَكْذِيبَ قُرَيْشٍ بِالْقُرْآنِ ، وَكَوْنَ الرَّسُولِ مُبَلِّغًا لَا خَالِقًا لِلْإِيمَانِ ، وَإِحَالَتَهُمْ فِي ظُهُورِ صِدْقِ أَنْبَائِهِ عَلَى الزَّمَانِ . ثُمَّ بَيَّنَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ كَيْفَ يُعَامَلُ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِالْبَاطِلِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ - أَعْنِي أُمَّةَ الدَّعْوَةِ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنْ كُفَّارِهَا الَّذِينَ لَمْ يُجِيبُوا دَعْوَتَهَا - بِمَا يُعْلَمُ مِنْهُ حُكْمُ مَنْ يَدْخُلُ فِي عُمُومِ ذَلِكَ مِمَّنْ أَجَابُوهُمَا عَلَى نَحْوِ مَا تَقَدَّمَ فِي الْآيَاتِ الَّتِي قَبْلَهَا ، فَقَالَ :

*(243/236)*

---

(وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ) رُوِيَ عَنْ أَبِي مَالِكٍ ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ، وَابْنِ جُرَيْجٍ ، وَقَتَادَةَ ، وَمُقَاتِلٍ ، وَالسُّدِّيِّ ، وَمُجَاهِدٍ فِي إِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنْهُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ فِي الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِالْقُرْآنِ وَالنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَأَبِي جَعْفَرٍ ، وَمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ ، وَمُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ أَنَّهَا فِي أَهْلِ الْأَهْوَاءِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَهَذَا الْخِلَافُ مَبْنِيٌّ عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِيمَا قَبْلَهَا مِنْ كَوْنِهِ يَشْمَلُ الْمُشْرِكِينَ وَغَيْرَهُمْ . فَمَنْ قَالَ : إِنَّ هَذِهِ فِي الْمُشْرِكِينَ فَقَطْ ، فَإِنَّمَا رَجَّحَ ذَلِكَ بِمَعُونَةِ السِّيَاقِ وَالْوَقْتِ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ الْآيَاتُ بَلِ السُّورَةُ كُلُّهَا فِي أَوَائِلِ الْبَعْثَةِ ، وَمَنْ قَالَ : إِنَّهَا فِي أَهْلِ الْأَهْوَاءِ فَإِنَّمَا رَجَّحَ ذَلِكَ بِمَا وَرَدَ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْمَرْفُوعَةِ

فِي كَوْنِ الْإِنْذَارِ بِالْعَذَابِ مُوَجَّهًا إلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ بِجُمْلَتِهَا - مَنْ أَجَابَ دَعْوَتَهَا وَمَنْ لَمْ يُجِبْ - وَكَوْنِ تَفَرُّقِهَا شِيَعًا يَذُوقُ بَعْضُهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَمْرًا مَقْضِيًّا مَضَتْ بِهِ سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى فَلَا مَرَدَّ لَهُ ، وَالْخِطَابُ عَلَى الْأَوَّلِ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَيُشَارِكُهُ فِي حُكْمِهِ كُلُّ مَنْ بَلَغَهُ ، وَعَلَى الثَّانِي كُلُّ مَنْ يَقْرَأُ الْآيَةَ وَيَسْمَعُهَا . وَالرِّوَايَةُ الثَّانِيَةُ عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهَا فِي أَهْلِ الْكِتَابِ وَهُوَ بَعِيدٌ ؛ إذْ لَا

(244/236)

---

وَجْهَ لِتَخْصِيصِهِمْ ، لَا مِنَ السِّيَاقِ - وَالسُّورَةُ مَكِّيَّةٌ - وَلَا مِنَ الْأَخْبَارِ الْمَرْفُوعَةِ فِي مَعْنَاهَا ، وَلَكِنَّ الْخَائِضِينَ مِنْهُمْ يَدْخُلُونَ فِي عُمُومِهَا .

وَأَصْلُ الْخَوْضِ وَحَقِيقَتُهُ الدُّخُولُ فِي الْمَاءِ وَالْمُرُورُ مَشْيًا أَوْ سِبَاحَةً ، وَجَدْحُ السَّوِيقِ أَيْ لَتُّ الدَّقِيقِ بِاللَّبَنِ ، وَيُسْتَعَارُ لِمُرُورِ الْإِبِلِ فِي السَّرَابِ ، وَوَمِيضِ الْبَرْقِ فِي السَّحَابِ ، وَلِلِانْدِفَاعِ فِي الْحَدِيثِ وَالِاسْتِرْسَالِ فِيهِ ، وَلِلدُّخُولِ فِي الْبَاطِلِ مَعَ أَهْلِهِ ، وَبِهَذَيْنِ الْمَعْنَيَيْنِ اسْتُعْمِلَ فِي الْقُرْآنِ ، وَفُسِّرَ الْخَوْضُ هُنَا عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ بِالْكُفْرِ بِالْآيَاتِ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِهَا .

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَجْلِسُونَ إلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُحِبُّونَ أَنْ يَسْمَعُوا مِنْهُ ، فَإِذَا سَمِعُوا اسْتَهْزَءُوا ، فَنَزَلَتْ (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ) الْآيَةَ . قَالَ : فَجَعَلَ إِذَا اسْتَهْزَءُوا قَامَ ، فَحَذَّرُوا وَقَالُوا : لَا تَسْتَهْزِئُوا فَيَقُومُ . . إِلَخْ . وَقَالَ السُّدِّيُّ : كَانَ الْمُشْرِكُونَ إِذَا جَالَسُوا الْمُؤْمِنِينَ

(245/236)

---

وَقَعُوا فِي النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالْقُرْآنِ فَسَبُّوهُ وَاسْتَهْزَءُوا بِهِ ، فَأَمَرَهُمُ اللهُ بِأَلَّا يَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ . وَقَالَ مُقَاتِلٌ : كَانَ الْمُشْرِكُونَ بِمَكَّةَ إِذَا سَمِعُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَاضُوا وَاسْتَهْزَءُوا ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ : لَا يَصِحُّ لَنَا مُجَالَسَتُهُمْ ؛ نَخَافُ أَنْ نَخْرِجَ حِينَ نَسْمَعُ قَوْلَهُمْ وَنُجَالِسُهُمْ فَلَا نَعِيبُ عَلَيْهِمْ ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِي ذَلِكَ (وَإِذَا رَأَيْتَ) أَيْ أَنْزَلَهُ فِي أَثْنَاءِ هَذِهِ السُّورَةِ . وَهَذَا مُرَادُ ابْنِ جُرَيْجٍ أَيْضًا . وَقَوْلُهُمْ نَخْرِجُ " مَعْنَاهُ نَقَعُ فِي الْحَرَجِ وَالْإِثْمِ .

وَفُسِّرَ الْخَوْضُ فِي الْآيَاتِ عَلَى الْقَوْلِ الْآخَرِ لِمُفَسِّرِي السَّلَفِ بِالْمِرَاءِ وَالْجَدَلِ وَالْخُصُومَةِ فِيهَا اتِّبَاعًا لِلْأَهْوَاءِ . وَانْتِصَارًا لِلْمَذَاهِبِ وَالْأَحْزَابِ ، أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا) وَنَحْوُ هَذَا فِي الْقُرْآنِ - قَالَ : أَمَرَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَمَاعَةِ ، وَنَهَاهُمْ عَنِ الِاخْتِلَافِ وَالْفُرْقَةِ ، وَأَخْبَرَهُمْ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ بِالْمِرَاءِ وَالْخُصُومَاتِ فِي دِينِ اللهِ . وَرَوَى عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ ، وَابْنُ

جَرِيرٍ ، وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي الْحِلْيَةِ ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ قَالَ : لَا تُجَالِسُوا أَهْلَ الْأَهْوَاءِ ؛ فَإِنَّهُمُ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِ اللهِ .

(246/236)

---

وَالصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي الْآيَةِ أَنَّهَا عَامَّةٌ ، وَأَنَّ الْمُخَاطَبَ بِهَا أَوَّلًا بِالذَّاتِ سَيِّدُنَا الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَكُلُّ مَنْ كَانَ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَكُلُّ مَا وَرَدَ عَنِ السَّلَفِ فِي تَفْسِيرِهَا صَحِيحٌ . وَالْمَعْنَى الْعَامُّ الْجَامِعُ الْمُخَاطَبُ بِهِ كُلُّ مُؤْمِنٍ فِي كُلِّ زَمَنٍ : " وَإِذَا رَأَيْتَ " أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ " الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا " الْمُنَزَّلَةِ ، مِنَ الْكُفَّارِ الْمُكَذِّبِينَ أَوْ مِنْ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ الْمُفَرِّقِينَ ، فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ أَيِ انْصَرِفْ عَنْهُمْ ، وَأَرِهِمْ عَرْضَ ظَهْرِكَ بَدَلًا مِنَ الْقُعُودِ مَعَهُمْ أَوِ الْإِقْبَالِ عَلَيْهِمْ بِوَجْهِكَ " حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ " أَيْ غَيْرِ ذَلِكَ الْحَدِيثِ الَّذِي مَوْضِعُهُ الْكُفْرُ بِآيَاتِ اللهِ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِهَا مِنْ قِبَلِ الْكُفَّارِ ،

أَوْ تَأْوِيلُهَا بِالْبَاطِلِ مِنْ قِبَلِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ ، لِتَأْيِيدِ مَا اسْتَحْدَثُوا مِنَ الْمَذَاهِبِ وَالْآرَاءِ ، وَتَفْنِيدِ أَقْوَالِ خُصُومِهِمْ بِالْجِدَالِ وَالْمِرَاءِ ، فَإِذَا خَاضُوا فِي غَيْرِهِ فَلَا بَأْسَ بِالْقُعُودِ مَعَهُمْ .

وَقِيلَ : إِنَّ الضَّمِيرَ فِي " غَيْرِهِ " لِلْقُرْآنِ ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْمُرَادُ بِالْآيَاتِ ، فَأُعِيدَ الضَّمِيرُ عَلَيْهَا بِحَسَبِ الْمَعْنَى .

(247/236)

---

وَسَبَبُ هَذَا النَّهْيِ أَنَّ الْإِقْبَالَ عَلَى الْخَائِضِينَ وَالْقُعُودَ مَعَهُمْ أَقَلُّ مَا فِيهِ أَنَّهُ إِقْرَارٌ لَهُمْ عَلَى خَوْضِهِمْ ، وَإِغْرَاءٌ بِالتَّمَادِي فِيهِ ، وَأَكْبَرُهُ أَنَّهُ رِضَاءٌ بِهِ وَمُشَارَكَةٌ فِيهِ ، وَالْمُشَارَكَةُ فِي الْكُفْرِ وَالِاسْتِهْزَاءِ كُفْرٌ ظَاهِرٌ ، لَا يَقْتَرِفُهُ بِاخْتِيَارِهِ إِلَّا مُنَافِقٌ مُرَاءٍ أَوْ كَافِرٌ مُجَاهِرٌ ، وَفِي التَّأْوِيلِ لِنَصْرِ الْمَذَاهِبِ أَوِ الْآرَاءِ مَزْلَقَةٌ فِي الْبِدَعِ وَاتِّبَاعِ الْأَهْوَاءِ ، وَفِتْنَتُهُ أَشَدُّ مِنْ فِتْنَةِ الْأَوَّلِ ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي الْجَدَلِ وَالْمِرَاءِ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ وَغَيْرِهِمْ تَغُشُّهُمْ أَنْفُسُهُمْ بِأَنَّهُمْ يَنْصُرُونَ الْحَقَّ ، وَيَخْدِمُونَ الشَّرْعَ ، وَيُؤَيِّدُونَ الْأَئِمَّةَ الْمُهْتَدِينَ ، وَيَخْذُلُونَ الْمُبْتَدِعِينَ الْمُضِلِّينَ ; وَلِذَلِكَ حَذَّرَ السَّلَفُ الصَّالِحُونَ مِنْ مُجَالَسَةِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ أَشَدَّ مِمَّا حَذَّرُوا مِنْ مُجَالَسَةِ الْكُفَّارِ ، إِذْ لَا يُخْشَى عَلَى الْمُؤْمِنِ مِنْ فِتْنَةِ

(248/236)

---

الْكُفَّارِ مَا يُخْشَى عَلَيْهِ مِنْ فِتْنَةِ الْمُبْتَدِعِ ; لِأَنَّهُ يُحْذَرُ مِنَ الْأَوَّلِ عَلَى ضَعْفِ شُبْهَتِهِ ، مَا لَا يُحْذَرُ مِنَ الثَّانِي وَهُوَ يَجِيئُهُ مِنْ مَأْمَنِهِ ، وَلَا يُعْقَلُ أَنْ يَقْعُدَ الْمُؤْمِنُ بِاخْتِيَارِهِ مَعَ الْكُفَّارِ فِي

حَالِ اسْتِهْزَائِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ ، وَتَكْذِيبِهِمْ بِهَا ، وَطَعْنِهِمْ فِيهَا كَمَا يَقْعُدُ مُخْتَارًا مَعَ الْمُجَادِلِينَ فِيهَا الْمُتَأَوِّلِينَ لَهَا ، وَإِنَّمَا يُتَصَوَّرُ قُعُودُ الْمُؤْمِنِ مَعَ الْكَافِرِ الْمُسْتَهْزِئِ فِي حَالِ الْإِكْرَاهِ وَمَا يَقْرُبُ مِنْهَا ، كَشِدَّةِ الضَّعْفِ ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ فِي دَارِ الْحَرْبِ . وَلَمْ تَكُنْ مَكَّةُ دَارَ إِسْلَامٍ عِنْدَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ . وَيَدْخُلُ فِي أَهْلِ الْأَهْوَاءِ الْمُقَلِّدُونَ الْجَامِدُونَ الَّذِينَ يُحَاوِلُونَ تَطْبِيقَ آيَاتِ اللهِ وَسُنَنِ رَسُولِهِ عَلَى آرَاءِ مُقَلِّدِيهِمْ بِالتَّكَلُّفِ ، أَوْ يَرُدُّونَهَا وَيُحَرِّمُونَ الْعَمَلَ بِهَا بِدَعْوَى احْتِمَالِ النَّسْخِ أَوْ وُجُودِ مُعَارِضٍ آخَرَ ، وَقَدْ نَقَلْنَا كَلَامًا فِي هَذَا الْمَعْنَى عَنْ فَتْحِ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ سُورَةِ النِّسَاءِ الَّتِي بِمَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا) (4 : 140) . وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُحَرِّفُ آيَاتِ اللهِ عَنْ مَوَاضِعِهَا بِهَوَاهُ لِأَجْلِ أَنْ يُكَفِّرَ بِهَا مُسْلِمًا أَوْ يُضَلِّلَ بِهَا مُهْتَدِيًا ،

*(249/236)*

---

بَغْيًا عَلَيْهِ وَحَسَدًا لَهُ ، كَمَا فَعَلَ بَعْضُ أَدْعِيَاءِ الْعِلْمِ بِمِصْرَ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ، وَفِيمَا وَرَدَ فِي النَّهْيِ عَنْ تَوَلِّي أَعْدَاءِ اللهِ وَأَعْدَاءِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْكُفَّارِ بِنَحْوِ إِعَانَتِهِمْ

عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي الْحَرْبِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْمُمْتَحِنَةِ : (لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ) (60 : 1) زَعَمَ الْمُحَرِّفُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ تَنْطَبِقُ عَلَى مَنْ حَضَرَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ نَادِيًا لِلنَّصَارَى ابْتَنَوا فِيهِ طَبِيبًا مِنْهُمْ لَمْ يَكْفُرُوا فِيهِ بِآيَاتِ اللهِ ، وَلَمْ يَسْتَهْزِئُوا بِهَا ، وَلَمْ تَكُنْ مِنْ مَوْضُوعِ حَدِيثِهِمْ ، وَلَيْسُوا مُحَارِبِينَ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَمِثْلُ هَذَا التَّحْرِيفِ أَوْلَى بِالدُّخُولِ فِي عُمُومِ آيَتَيِ الْأَنْعَامِ وَالنِّسَاءِ مِنْ تَأْوِيلِ أَصْحَابِ الْمَذَاهِبِ وَالشِّيَعِ الَّذِي نَقَلْنَا عَنْ بَعْضِ الْمُفَسِّرِينَ إِدْخَالَهُ فِيهِ أَوْ تَفْسِيرِهِ بِهِ . وَأَمَّا تَحْرِيفُ آيَةِ الْمُمْتَحِنَةِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ فَيَرُدُّهُ تَقْيِيدُ النَّهْيِ – وَهُوَ فِي وِلَايَةِ الْمُحَارِبِينَ – بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْ وَطَنِهِمْ لِأَجْلِ إِيمَانِهِمْ ، ثُمَّ تَأْيِيدُ هَذَا التَّقْيِيدِ بِمَا يَنْفِي عُمُومَ النَّهْيِ ، وَذَلِكَ صَرِيحُ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْمُمْتَحِنَةِ بَعْدَهُ : (لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ) إِلَى قَوْلِهِ : (الظَّالِمُونَ) (8 ، 9) .

*(250/236)*

---

وَقَدْ بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِ آيَةِ النِّسَاءِ مِنَ الْجُزْءِ الْخَامِسِ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا يَقْعُدُونَ فِي الْمَدِينَةِ مَعَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِمَا ذُكِرَ ، كَمَا فَعَلَ بَعْضُ ضُعَفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَكَّةَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةَ كَمَا أَنْزَلَ آيَةَ الْأَنْعَامِ فِي أُولَئِكَ الضُّعَفَاءِ عَلَى مَا وَرَدَ فِي بَعْضِ

الرِّوَايَاتِ ، وَلِذَلِكَ كَانَ التَّشْدِيدُ فِي آيَةِ النِّسَاءِ أَعْظَمَ مِنْهُ فِي آيَةِ الْأَنْعَامِ ؛ إذْ كَانَ لِضُعَفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ بَعْضُ الْعُذْرِ ، وَلَيْسَ لِمُنَافِقِي الْمَدِينَةِ عُذْرٌ إلَّا إخْفَاءُ الْكُفْرِ ، عَلَى أَنَّ آيَةَ الْأَنْعَامِ أَوَّلُ مَا نَزَلَ فِي هَذَا النَّهْيِ ، فَعَمِلَ بِهَا الْمُؤْمِنُونَ ، وَانْتَهَوْا عَمَّا قِيلَ إنَّهُ كَانَ قَدْ وَقَعَ مِنْهُمْ ، فَمَا عُذْرُ الْمُنَافِقِينَ فِي الْقُعُودِ

مَعَ الْمُسْتَهْزِئِينَ بَعْدَ النَّهْيِ وَهُمْ يَتْلُونَهُ أَوْ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ؟ لِهَذَا شَدَّدَ اللَّهُ فِي آيَةِ النِّسَاءِ ، وَقَالَ فِي الَّذِينَ يَقْعُدُونَ مَعَهُمْ : (إنَّكُمْ إذًا مِثْلُهُمْ) ، وَأَمَّا أُولَئِكَ فَعَذَرَهُمْ بِنِسْيَانِ النَّهْيِ فِي قَوْلِهِ :

*(251/236)*

---

(وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) أَيْ ، وَإِنْ فُرِضَ أَنْ أَنْسَاكَ الشَّيْطَانُ النَّهْيَ مَرَّةً مَا ، وَقَعَدْتَ مَعَهُمْ فِي تِلْكَ الْحَالِ ثُمَّ ذَكَرْتَهُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ التَّذَكُّرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ بِتَكْذِيبِ آيَاتِ رَبِّهِمْ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِهَا ، بَدَلًا مِنَ الْإِحْسَانِ إلَيْهَا بِالْإِيمَانِ وَالِاهْتِدَاءِ بِهَا ، وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ : (يُنَسِّيَنَّكَ) بِتَشْدِيدِ السِّينِ ، وَهُوَ يُفِيدُ أَنَّ النِّسْيَانَ عُذْرٌ ، وَإِنْ تَكَرَّرَ ؛ لِأَنَّ فِي التَّنْسِيَةِ مَعْنَى التَّكْرَارِ .

وَهَلِ الْخِطَابُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِلرَّسُولِ وَالْمُرَادُ غَيْرُهُ كَمَا قِيلَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ غَيْرِهَا عَلَى حَدِّ الْمَثَلِ " إيَّاكِ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَةُ " وَهُوَ كَثِيرٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ ؟ أَمْ لِلرَّسُولِ بِالذَّاتِ وَلِغَيْرِهِ

بِالتَّبَعِ كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فِي غَيْرِ الْأَحْكَامِ الْخَاصَّةِ بِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَمْ لِكُلِّ مَنْ بَلَغَهُ كَمَا قِيلَ آيَاتٌ أُخْرَى ؟ أَقُولُ : ظَاهِرُ مَا نَقَلْنَاهُ عَنِ السُّدِّيِّ وَمُقَاتِلٍ اخْتِيَارُ الْأَوَّلِ مِنْهَا .

(252/236)

---

وَقَدِ اسْتَشْكَلَ إِنْسَاءُ الشَّيْطَانِ لَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ الْخِطَابَ فِي الْآيَةِ لَهُ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي نَصِّ الْقُرْآنِ أَنَّ الشَّيْطَانَ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى عِبَادِ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ، وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَخْلَصُهُمْ وَأَفْضَلُهُمْ وَأَكْمَلُهُمْ ، بَلْ وَرَدَ فِي سُورَةِ النَّحْلِ : (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ) (16 : 99 : 100) وَلَكِنَّ إِنْسَاءَ الشَّيْطَانِ بَعْضَ الْأُمُورِ لِلْإِنْسَانِ لَيْسَ مِنْ قَبِيلِ التَّصَرُّفِ وَالسُّلْطَانِ ، وَإِلَّا لَمْ يَقَعْ إِلَّا لِأَوْلِيَائِهِ الْمُشْرِكِينَ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ فَتَى مُوسَى حِينَ نَسِيَ الْحُوتَ : (وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ) (18 : 63) وَإِنَّمَا كَانَ فَتَاهُ - أَيْ خَادِمَهُ لَا عَبْدَهُ - يُوشَعُ بْنُ نُونٍ كَمَا فِي الْبُخَارِيِّ ، وَالْمَشْهُورُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ، وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي تَفْسِيرِ (فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ) (12 : 42) الْآيَةَ أَنَّ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ، إِذْ أَمَرَ النَّاجِيَ مِنْ صَاحِبَيْهِ فِي السِّجْنِ بِذِكْرِهِ عِنْدَ الْمَلِكِ وَابْتِغَاءِ الْفَرَجِ مِنْ عِنْدِهِ (فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ

سِنِينَ) عُقُوبَةً لَهُ ، بَلْ ذَكَرَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ حَدِيثًا مَرْفُوعًا فِي ذَلِكَ ، رَوَوْهُ مُرْسَلًا وَمَوْصُولًا ، وَهُوَ " لَوْلَمْ يَقُلْ يُوسُفُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - الْكَلِمَةَ الَّتِي

(253/236)

---

قَالَ ، مَا لَبِثَ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ ، حَيْثُ يَبْتَغِي الْفَرَجَ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى " هَذِهِ رِوَايَةُ ابْنِ عَبَّاسٍ رَفَعَهَا ، أَخْرَجَهَا عَنْهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِ الْعُقُوبَاتِ ، وَابْنُ جَرِيرٍ ، وَالطَّبَرَانِيُّ ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ ، فَثَبَتَ بِهَذَا أَنَّ نِسْيَانَ الشَّيْءِ الْحَسَنِ الَّذِي يُسْنَدُ إلَى الشَّيْطَانِ لِكَوْنِهِ ضَارًّا أَوْ مُفَوِّتًا لِبَعْضِ الْمَنَافِعِ ، أَوْ لِكَوْنِهِ حَصَلَ بِوَسْوَسَتِهِ وَلَوْ بِإِشْغَالِهَا الْقَلْبَ بِبَعْضِ الْمُبَاحَاتِ - لَا يَصِحُّ أَنْ يُعَدَّ مِنْ سُلْطَانِ الشَّيْطَانِ عَلَى النَّاسِي ، وَاسْتِحْوَاذِهِ عَلَيْهِ بِالْإِغْوَاءِ وَالْإِضْلَالِ الَّذِي

نَفَاهُ اللَّهُ عَنْ عِبَادِهِ الْمُخْلَصِينَ ; وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُ كِبَارِ مُفَسِّرِي السَّلَفِ بِأَنَّ الْخِطَابَ فِي الْآيَةِ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَضَّلَهُ عَلَى سَائِرِ عِبَادِهِ الْمُخْلَصِينَ الْمَعْصُومِينَ بِإِعَانَتِهِ عَلَى شَيْطَانِهِ حَتَّى أَسْلَمَ ، فَلَا يَأْمُرُ إلَّا بِالْحَقِّ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ ، وَقَدْ يَنْسَى الْإِنْسَانُ خَيْرًا بِاشْتِغَالِ فِكْرِهِ بِخَيْرٍ آخَرَ . قَالَ مُجَاهِدٌ : نُهِيَ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يَقْعُدَ مَعَهُمْ إلَّا أَنْ يَنْسَى ،

فَإِذَا ذَكَرَ فَلْيَقُمْ . إِلَخْ . رَوَاهُ عَنْهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ ، وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ ، وَابْنُ جَرِيرٍ ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ .

*(254/236)*

---

وَأَمَّا وُقُوعُ النِّسْيَانِ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ بِغَيْرِ وَسْوَسَةٍ مِنَ الشَّيْطَانِ فَلَا وَجْهَ لِلْخِلَافِ فِي جَوَازِهِ ، قَالَ تَعَالَى لِخَاتَمِ رُسُلِهِ : (وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ) (18 : 24) بَلْ ثَبَتَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ (الْكَهْفِ) وُقُوعُهُ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ (قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ) (18 : 73) وَإِنَّمَا يَقُومُ الدَّلِيلُ عَلَى عِصْمَتِهِمْ مِنْ نِسْيَانِ شَيْءٍ مِمَّا أَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِتَبْلِيغِهِ ، وَهَذَا مَحَلُّ إجْمَاعٍ ، وَمِثْلُهُ النِّسْيَانُ الَّذِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ إخْلَالٌ كَإِضَاعَةِ فَرِيضَةٍ أَوْ تَحْرِيمِ حَلَالٍ ، أَوْ تَحْلِيلِ حَرَامٍ ، وَقَدْ جَزَمَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي تَفْسِيرِ (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا) (2 : 106) بِبُطْلَانِ مَا ذَكَرَ السُّيُوطِيُّ فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : كَانَ رُبَّمَا نَزَلَ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْوَحْيُ بِاللَّيْلِ وَنَسِيَهُ بِالنَّهَارِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ (مَا نَنْسَخْ) الْآيَةَ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مُخَالِفٌ لِلْقَاعِدَةِ الْقَطْعِيَّةِ الْمُجْمَعِ عَلَيْهَا . وَقَدْ وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ إسْنَادُ النِّسْيَانِ إلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَدِيثُ لَيْلَةِ الْقَدْرِ " فَنَسِيتُ " وَهُوَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ ، وَفِي رِوَايَةٍ " فَأُنْسِيتُهَا " وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَالسُّنَنِ سَهْوُ النَّبِيِّ -

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي الصَّلَاةِ ، وَقَوْلُهُ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ عِنْدَهُمْ مَا عَدَا التِّرْمِذِيَّ : " إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ ، فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي " إِلَخْ

(255/236)

---

. وَهُوَ فِي بَابِ التَّوَجُّهِ نَحْوَ الْقِبْلَةِ مِنَ الْبُخَارِيِّ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ، قَالَ الْحَافِظُ فِي شَرْحِهِ لَهُ مِنَ الْفَتْحِ : وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى وُقُوعِ السَّهْوِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي الْأَفْعَالِ . قَالَ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ : وَهُوَ قَوْلُ عَامَّةِ الْعُلَمَاءِ وَالنُّظَّارِ ، وَشَذَّتْ طَائِفَةٌ فَقَالَتْ : لَا يَجُوزُ عَلَى النَّبِيِّ السَّهْوُ ، وَهَذَا الْحَدِيثُ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ . اهـ .

وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ لِلْحَدِيثِ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مَا نَصُّهُ : " فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ النِّسْيَانِ عَلَيْهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي أَحْكَامِ الشَّرْعِ ، وَهُوَ مَذْهَبُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ ، وَهُوَ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ . وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لَا يُقَرُّ عَلَيْهِ ، بَلْ يُعْلِمُهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ ، ثُمَّ قَالَ الْأَكْثَرُونَ : شَرْطُهُ تَنَبُّهُهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَلَى الْفَوْرِ مُتَّصِلًا بِالْحَادِثَةِ ، وَلَا يَقَعُ فِيهِ تَأْخِيرٌ ، وَجَوَّزَتْ طَائِفَةٌ تَأْخِيرَهُ مُدَّةَ حَيَاتِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَاخْتَارَهُ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ ، وَمَنَعَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ السَّهْوَ عَلَيْهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي الْأَفْعَالِ الْبَلَاغِيَّةِ وَالْعِبَادَاتِ ، كَمَا أَجْمَعُوا عَلَى مَنْعِهِ

وَاسْتِحَالَتِهِ عَلَيْهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْأَقْوَالِ الْبَلَاغِيَّةِ ، وَأَجَابُوا عَنِ الظَّوَاهِرِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ ، وَإِلَيْهِ مَالَ الْأُسْتَاذُ أَبُو إِسْحَاقَ الْإِسْفَرَايِينِيُّ ، وَالصَّحِيحُ

(256/236)

---

الْأَوَّلُ ؛ فَإِنَّ السَّهْوَ لَا يُنَاقِضُ النُّبُوَّةَ ، وَإِذَا لَمْ يُقَرَّ عَلَيْهِ لَمْ تَحْصُلْ مِنْهُ مَفْسَدَةٌ ، بَلْ تَحْصُلُ فِيهِ فَائِدَةٌ ، وَهُوَ بَيَانُ أَحْكَامِ النَّاسِي ، وَتَقْرِيرُ الْأَحْكَامِ .

" قَالَ الْقَاضِي : وَاخْتَلَفُوا فِي جَوَازِ السَّهْوِ عَلَيْهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْأُمُورِ الَّتِي لَا تَتَعَلَّقُ بِالْبَلَاغِ وَبَيَانِ أَحْكَامِ الشَّرْعِ مِنْ أَفْعَالِهِ وَعَادَاتِهِ وَادِّكَارِ قَلْبِهِ - فَجَوَّزَهُ الْجُمْهُورُ ، وَأَمَّا السَّهْوُ فِي الْأَقْوَالِ الْبَلَاغِيَّةِ فَأَجْمَعُوا عَلَى مَنْعِهِ كَمَا أَجْمَعُوا عَلَى امْتِنَاعِ تَعَمُّدِهِ ، وَأَمَّا السَّهْوُ فِي الْأَقْوَالِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَفِيمَا لَيْسَ سَبِيلُهُ الْبَلَاغَ مِنَ الْكَلَامِ الَّذِي لَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَحْكَامِ ، وَلَا أَخْبَارِ الْقِيَامَةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا ، وَلَا يُضَافُ إِلَى وَحْيٍ - فَجَوَّزَهُ قَوْمٌ ؛ إِذْ لَا مَفْسَدَةَ فِيهِ .

(257/236)

---

" قَالَ الْقَاضِي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : وَالْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ : تَرْجِيحُ قَوْلِ مَنْ مَنَعَ ذَلِكَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ فِي كُلِّ خَبَرٍ مِنَ الْأَخْبَارِ ، كَمَا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِمْ خُلْفٌ فِي خَبَرٍ لَا عَمْدًا وَلَا سَهْوًا ، لَا فِي صِحَّةٍ وَلَا فِي مَرَضٍ ، وَلَا رِضًا وَلَا غَضَبٍ ، وَحَسْبُكَ فِي ذَلِكَ أَنَّ سِيرَةَ نَبِيِّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَكَلَامَهُ مَجْمُوعَةٌ مُعْتَنًى بِهَا عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ ، يَتَدَاوَلُهَا الْمُوَافِقُ وَالْمُخَالِفُ ، وَالْمُؤْمِنُ وَالْمُرْتَابُ ، فَلَمْ يَأْتِ فِي شَيْءٍ مِنْهَا اسْتِدْرَاكُ غَلَطٍ فِي قَوْلٍ وَلَا اعْتِرَافٌ بِوَهْمٍ فِي كَلِمَةٍ ، وَلَوْ كَانَ لَنُقِلَ كَمَا نُقِلَ سَهْوُهُ فِي الصَّلَاةِ وَنَوْمُهُ عَنْهَا ، وَاسْتِدْرَاكُهُ رَأْيَهُ فِي تَلْقِيحِ النَّخْلِ ، وَفِي نُزُولِهِ بِأَدْنَى مِيَاهِ بَدْرٍ ، وَقَوْلُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " وَاللهِ لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا فَعَلْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ ، وَكَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي " وَغَيْرُ ذَلِكَ . وَأَمَّا جَوَازُ السَّهْوِ فِي الِاعْتِقَادَاتِ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا فَغَيْرُ مُمْتَنِعٍ ، وَاللهُ أَعْلَمُ " . اهـ .

أَمَّا حَدِيثُ تَلْقِيحِ النَّخْلِ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ (الْقَاضِي عِيَاضٌ فَهُوَ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ ، عَنْ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ : مَرَرْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِقَوْمٍ عَلَى رُءُوسِ النَّخْلِ ، فَقَالَ : " مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ ؟ " قُلْتُ : يُلَقِّحُونَهُ ، يَجْعَلُونَ الذَّكَرَ فِي الْأُنْثَى فَتَلْقَحُ ،

(258/236)

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – " مَا أَظُنُّ ذَلِكَ يُغْنِي شَيْئًا " قَالَ : فَأُخْبِرُوا بِذَلِكَ فَتَرَكُوهُ ، فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِذَلِكَ ، فَقَالَ : " إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ ، فَإِنِّي إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا ، فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ ، وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنِ اللهِ شَيْئًا فَخُذُوا بِهِ ، فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ " وَرَوَاهُ مِنْ حَدِيثِ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ ، قَالَ : قَدِمَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الْمَدِينَةَ وَهُمْ يُؤَبِّرُونَ النَّخْلَ – يَقُولُ يُلَقِّحُونَ النَّخْلَ – ، فَقَالَ : " مَا تَصْنَعُونَ ؟ " قَالُوا : كُنَّا نَصْنَعُهُ ، قَالَ : " لَعَلَّكُمْ لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا كَانَ خَيْرًا " فَتَرَكُوهُ ، فَنَفَضَتْ – أَوْ قَالَ : فَنَقَصَتْ – قَالَ : فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ : " إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِي فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ " قَالَ عِكْرِمَةَ : أَوْ نَحْوَ هَذَا . قَالَ الْمَعْقِرِيُّ : فَنَفَضَتْ وَلَمْ يَشُكَّ . وَرَوَاهُ أَيْضًا عَنْ عَائِشَةَ وَأَنَسٍ مَعًا بِلَفْظِ ، مَرَّ بِقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ ، فَقَالَ : " لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا يَصْلُحْ " قَالَ ، فَخَرَجَ شِيصًا ، فَمَرَّ بِهِمْ ، فَقَالَ : " مَا لِنَخْلِكُمْ ؟ " قَالُوا : قُلْتَ كَذَا وَكَذَا . قَالَ : " أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ " .

وَالشِّيصُ : الْبُسْرُ الرَّدِيءُ ، إِذَا يَبِسَ صَارَ حَشَفًا ، وَاخْتِلَافُ الْأَلْفَاظِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا رُوِيَتْ بِالْمَعْنَى .

*(259/236)*

قَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ ، قَالَ الْعُلَمَاءُ : وَلَمْ يَكُنْ هَذَا الْقَوْلُ خَبَرًا ، وَإِنَّمَا كَانَ ظَنًّا كَمَا بَيَّنَهُ فِي هَذِهِ الرِّوَايَاتِ ، قَالُوا : وَرَأْيُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي أُمُورِ الْمَعَايِشِ وَظَنُّهُ كَغَيْرِهِ ، فَلَا يَمْتَنِعُ وُقُوعُ مِثْلِ هَذَا ، وَلَا نَقْصَ فِي ذَلِكَ ، وَسَبَبُهُ تَعَلُّقُ هِمَمِهِمْ بِالْآخِرَةِ وَمَعَارِفِهَا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . اهـ .

وَأَمَّا مَسْأَلَةُ مَاءِ بَدْرٍ فَهِيَ مَا رَوَاهُ أَهْلُ السِّيَرِ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ لَمَّا خَرَجَ لِلِقَاءِ الْمُشْرِكِينَ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ نَزَلَ عِنْدَ أَدْنَى مَاءٍ مِنْ بَدْرٍ - أَيْ أَقْرَبِهِ - فَقَالَ لَهُ الْحُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَرَأَيْتَ هَذَا الْمَنْزِلَ ، أَمَنْزِلٌ أَنْزَلَكَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَيْسَ لَنَا أَنْ نَتَقَدَّمَهُ وَلَا نَتَأَخَّرَ عَنْهُ ، أَمْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ ؟ قَالَ : " بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالْحَرْبُ وَالْمَكِيدَةُ " قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ : إِنَّ هَذَا لَيْسَ بِمَنْزِلٍ ، فَانْهَضْ بِالنَّاسِ حَتَّى تَأْتِيَ أَدْنَى مَاءٍ مِنَ الْقَوْمِ

(أَيْ قُرَيْشٍ) فَإِنِّي أَعْرِفُ غَزَارَةَ مَائِهِ - كَثْرَتَهُ - بِحَيْثُ لَا يَنْزَحُ ، فَنَنْزِلُهُ ثُمَّ نُغَوِّرُ مَا عَدَاهُ مِنَ الْقُلُبِ (جَمْعُ قَلِيبٍ كَقَتِيلٍ ، وَهُوَ مَا لَمْ يُبْنَ مِنَ الْآبَارِ) ثُمَّ نَبْنِي عَلَيْهِ حَوْضًا ، فَنَمْلَأُهُ مَاءً ، فَنَشْرَبُ وَلَا يَشْرَبُونَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " لَقَدْ أَشَرْتَ بِالرَّأْيِ "

.

(260/236)

هَذَا وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُؤَلِّفِينَ الْمُتَأَخِّرِينَ يُبَالِغُونَ فِي تَعْظِيمِ الْأَنْبِيَاءِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ - وَتَعْظِيمِ مَنْ دُونَهُمْ بِالْأَقْوَالِ كَالشُّعَرَاءِ مِنْ غَيْرِ الْتِزَامِ مَا جَاءُوا بِهِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَا ثَبَتَ فِي سِيرَتِهِمْ . وَالْقَاضِي عِيَاضٌ - أَحْسَنَ اللَّهُ جَزَاءَهُ - كَانَ مِنَ الْمَيَّالِينَ إلَى الْمُبَالَغَةِ فِي

(261/236)

التَّعْظِيمِ . وَقِيَاسُهُ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى خَاتَمِهِمُ الَّذِي أَكْمَلَ اللَّهُ بِهِ دِينَهُمْ ، وَتَمَّمَ بِهِ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ ، وَشَهِدَ لَهُ بِالْخُلُقِ الْعَظِيمِ - لَا يَصِحُّ (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ) (2 : 253) وَإِنَّمَا يَظْهَرُ الْحَقُّ فِي مَسْأَلَةِ نِسْيَانِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ (ص) بِمَا ذَكَرْنَا مِنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ وَالْأَخْبَارِ النَّبَوِيَّةِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي أَوَاخِرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ : (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ) (7 : 200 - 202) فَظَاهِرُ السِّيَاقِ أَنَّ الْخِطَابَ هُنَا لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَإِنْ كَانَ يَأْتِي فِيهِ الْوُجُوهَ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِ الْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِ تَفْسِيرِهَا . وَرَوَى

ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي زَيْدٍ قَالَ : لَمَّا نَزَلَتْ (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) (7 : 199) قَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : "يَا رَبِّ كَيْفَ وَالْغَضَبُ" فَنَزَلَ (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ) الْآيَةَ . وَكَحَدِيثِ عَائِشَةَ وَابْنِ مَسْعُودٍ عِنْدَ مُسْلِمٍ "مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَقَدْ وَكَّلَ اللَّهُ بِهِ قَرِينَهُ مِنَ الْجِنِّ ، قَالُوا : وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : وَإِيَّايَ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ" .

*(262/236)*

---

فَمَنْ تَأَمَّلَ هَذِهِ النُّصُوصَ جَزَمَ بِأَنَّ سُلْطَانَ الشَّيْطَانِ عَلَى الْإِنْسَانِ عِبَارَةٌ عَنْ تَمَكُّنِهِ مِنْ إغْوَائِهِ وَإِضْلَالِهِ ، وَإِنَّ مُجَرَّدَ الْوَسْوَسَةِ لَيْسَ سُلْطَانًا ، وَلَا سِيَّمَا أَدْنَاهَا وَمَبْدَؤُهَا الْمُعَبَّرُ عَنْهُ فِي آيَتَيِ الْأَعْرَافِ بِالنَّزْغِ وَالْمَسِّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ السُّلْطَانَ مَجَازِيٌّ لَا حَقِيقِيٌّ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى إكْرَاهِ إنْسَانٍ عَلَى شَيْءٍ ، وَلَكِنْ سُمِّيَتْ طَاعَةُ وَسْوَسَتِهِ سُلْطَانًا تَشْبِيهًا بِطَاعَةِ الْمُلُوكِ وَالْقُوَّادِ الَّذِينَ يُجْبِرُونَ أَتْبَاعَهُمْ عَلَى مَا يَأْمُرُونَهُمْ بِهِ فَيَأْتُونَهُ

*(263/236)*

---

كُرْهًا ، يَدُلُّ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ) (14 : 22) الْآيَةَ . وَقَوْلُهُ : (قُضِيَ الْأَمْرُ) مَعْنَاهُ أَمْرُ الْحِسَابِ فِي الْآخِرَةِ . فَمَنْ وَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ فَأَمَرَهُ بِمُنْكَرٍ فَلَمْ يُطِعْهُ كَانَ مَحْفُوظًا مِنْ إغْوَائِهِ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَيْهِ لَا حَقِيقَةً وَلَا مَجَازًا ، وَقَدْ يَكُونُ لَهُ مَزِيَّةٌ عَلَى مَنْ لَمْ يُوَسْوِسْ إِلَيْهِ وَلَمْ يُزَيِّنْ لَهُ الْمَعَاصِيَ ، إذَا صَحَّ مَا قَالُوا فِي تَفْضِيلِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ مِنْ كَوْنِهِمْ قَدْ رُكِّبَتْ فِيهِمُ الشَّهَوَاتُ الدَّاعِيَةُ إلَى الْمَعَاصِي ، فَقَاوَمُوهَا وَالْتَزَمُوا الطَّاعَةَ ، وَفِي إطْلَاقِهِ بَحْثٌ نَدَعُهُ إلَى مَكَانٍ آخَرَ هَرَبًا مِنَ التَّطْوِيلِ ، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ الْمُتَّقِينَ قَدْ يَمَسُّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ – وَهُوَ الْوَسْوَسَةُ أَوْ مَبْدَؤُهَا – وَلَكِنَّهُ إذَا مَسَّهُمْ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ فَلَا يَقَعُونَ فِي فَخِّ طَاعَتِهِ ، بَلْ يُنَبِّهُهُمْ طَائِفُهُ مِنَ الْغَفْلَةِ ، فَيَكُونُونَ بَعْدَ مَسِّهِ أَشَدَّ اتِّقَاءً لِمَا لَا يَنْبَغِي

وَاجْتِهَادًا فِيمَا يَنْبَغِي . وَالْأَنْبِيَاءُ الْمُرْسَلُونَ وَغَيْرُ الْمُرْسَلِينَ ، هُمْ سَادَاتُ الْمُتَّقِينَ ، فَهُمْ لَا يَغْفُلُونَ عَنْ وَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ ، فَأَنَّى يَكُونُ لَهُ عَلَيْهِمْ أَدْنَى سُلْطَانٍ ؟ .

*(264/236)*

وَأَمَّا النِّسْيَانُ الَّذِي تَكُونُ الْوَسْوَسَةُ سَبَبُهُ فَلَيْسَ طَاعَةً لِلشَّيْطَانِ فَيَكُونُ مِنْ سُلْطَانِهِ الْمُجَازِيِّ عَلَى النَّاسِي ، وَلَكِنَّهُ إذَا كَانَ نِسْيَانُ وَاجِبٍ أَدَّى إلَى تَرْكِهِ حَتَّى فَاتَ وَقْتُهُ ، أَوْ نِسْيَانُ نَهْيٍ أَدَّى إلَى فِعْلِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ - كَانَ وُقُوعُهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مُشْكِلًا ، وَلَيْسَ مِنْهُ نِسْيَانُ يُوسُفَ لِذِكْرِ رَبِّهِ عِنْدَ كَلَامِهِ مَعَ أَحَدِ صَاحِبَيِ السِّجْنِ ، وَلَا نِسْيَانُ فَتَى مُوسَى لِلْحُوتِ ، وَنَبِيُّنَا - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ - لَمْ يَقَعْ مِنْهُ نِسْيَانٌ أَدَّى إلَى مُخَالَفَةِ الْأَمْرِ بِالْإِعْرَاضِ عَنِ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ كَقُعُودِهِ مَعَهُمْ نَاسِيًا ، وَلَوْ وَقَعَ ذَلِكَ - مَعَاذَ اللَّهِ - لَمْ يَكُنْ مِنْهُ مَعْصِيَةً كَمَعْصِيَةِ آدَمَ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ رَفَعَ عَنْهُ وَعَنْ أُمَّتِهِ الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ كَمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْآيَةُ وَالْحَدِيثُ الَّذِي يَأْتِي قَرِيبًا . وَلَكِنَّ هَذَا النِّسْيَانَ يُنَافِي الْعَزْمَ ، وَهُوَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سَيِّدُ أُولِي الْعَزْمِ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي آدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : (فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) (20 : 115) وَقَالَ : (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) (20 : 121) وَمَا زَالَ الْعُلَمَاءُ يَعُدُّونَ الْجَوَابَ عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أَعْقَدَ الْمُشْكِلَاتِ فِي بَابِ الْقَوْلِ بِعِصْمَةِ الرُّسُلِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - مَعَ الْجَزْمِ بِأَنَّ آدَمَ لَمْ يَكُنْ وَقْتَ الِامْتِحَانِ بِالنَّهْيِ عَنِ الْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ نَبِيًّا رَسُولًا ، وَلَمْ يَكُنْ فِي دَارِ التَّكْلِيفِ

*(265/236)*

عَلَى مَا عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ ، وَهُمْ لَا يَقُولُونَ بِعِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَ الْبَعْثَةِ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ ، وَإِنَّمَا مَنَعُوا صُدُورَ الْكَبَائِرِ عَنْهُمْ عَمْدًا ، قَالَ فِي " الْمَوَاقِفِ " : وَأَمَّا سَهْوًا فَجَوَّزَهُ الْأَكْثَرُونَ ، وَأَمَّا الصَّغَائِرُ عَمْدًا ، فَجَوَّزَهُ الْجُمْهُورُ إلَّا الْجُبَّائِيَّ ، وَأَمَّا سَهْوًا فَهُوَ جَائِزٌ اتِّفَاقًا ، إلَّا الصَّغَائِرَ الْخَسِيسَةَ كَسَرِقَةِ حَبَّةٍ أَوْ لُقْمَةٍ . انْتَهَى الْمُرَادُ مِنْهُ . وَلَمْ تَكُنْ مَعْصِيَةُ آدَمَ إلَّا عَنْ نِسْيَانٍ ، وَحِكْمَتُهَا أَنَّهَا مَظْهَرُ اسْتِعْدَادِ نَوْعِ الْإِنْسَانِ ، وَلَمْ تَكُنْ سَبَبًا لِسُوءِ قُدْوَةٍ ، وَلَا مُعَارَضَةً لِمَا قِيلَ فِي بُرْهَانِ الْعِصْمَةِ .

(266/236)

---

وَمِنَ الْغَرِيبِ أَنَّ إِنْجِيلَ مَتَّى رَوَى أَنَّ إِبْلِيسَ حَاوَلَ فِتْنَةَ – أَيْ تَجْرِبَةَ – سَيِّدِنَا عِيسَى – عَلَيْهِ السَّلَامُ – بِعِدَّةِ أُمُورٍ ، ثُمَّ قَالَ : (4 : 8 ثُمَّ أَخَذَهُ أَيْضًا إِلَى جَبَلٍ عَالٍ جِدًّا ، وَأَرَاهُ جَمِيعَ مَمَالِكِ الْعَالَمِ وَمَجْدَهَا (9 وَقَالَ لَهُ : أُعْطِيكَ هَذِهِ جَمِيعًا إِنْ خَرَرْتَ وَسَجَدْتَ لِي (10) حِينَئِذٍ قَالَ لَهُ يَسُوعُ : اذْهَبْ يَا شَيْطَانُ ؛ لِأَنَّهُ مَكْتُوبٌ : لِلرَّبِّ إِلَهِكَ تَسْجُدُ ، وَإِيَّاهُ تُعْبَدُ) . وَعِنْدَنَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَعَاذَ عِيسَى وَأُمَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَمَسَّهُ حِينَ وُلِدَ كَمَا يَمَسُّ الْوِلْدَانَ ، فَنَحْنُ أَشَدُّ تَعْظِيمًا لَهُمَا بِالْحَقِّ مِمَّنْ عَبَدُوهُمَا بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَلَيْسَتْ وَسْوَسَةُ الشَّيْطَانِ لِأَيِّ إِنْسَانٍ وَأَمْرُهُ إِيَّاهُ بِالشَّرِّ وَنَهْيُهُ عَنِ الْخَيْرِ بِنَقِيصَةٍ ، وَإِنَّمَا النَّقِيصَةُ

طَاعَتُهُ لَعَنَهُ اللهُ ، وَقَدْ عَصَمَ اللهُ تَعَالَى مِنْهَا رُسُلَهُ وَحَفِظَ مَنْ دُونَهُمْ مِنْ عِبَادِهِ الْمُخْلَصِينَ .

فَمَثَلُ قُرَنَاءِ السُّوءِ مِنْ جِنَّةِ الشَّيَاطِينِ كَمَثَلِ مِيكْرُوبَاتِ الْأَمْرَاضِ مِنْ جِنَّةِ الْحَشَرَاتِ ؛

(267/236)

---

فَهَذِهِ تَمَسُّ كُلَّ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ ، فَمَنْ كَانَ قَوِيَّ الْمِزَاجِ مُعْتَدِلَ الْمَعِيشَةِ مُتَّقِيًا لَهَا بِمَا يُرْشِدُ إِلَيْهِ الطِّبُّ مِنَ النَّظَافَةِ وَاسْتِعْمَالِ الْمُطَهِّرَاتِ الْقَاتِلَةِ لَهَا ، فَإِنَّهَا قَلَّمَا تُصِيبُهُ ، وَإِذَا أَصَابَتْهُ فَلَا تَضُرُّهُ ، بَلْ قَدْ تَنْفَعُهُ بِتَعْوِيدِ مِزَاجِهِ عَلَى الْمُقَاوَمَةِ ، وَمَنْ كَانَ ضَعِيفَ الْمِزَاجِ مُسْرِفًا فِي الْمَعِيشَةِ غَيْرَ مُتَّقٍ لَهَا بِمِثْلِ مَا ذُكِرَ فَإِنَّهَا تُؤْذِيهِ ، وَيَحْدُثُ لَهُ بِسَبَبِهَا مِنَ الْأَمْرَاضِ وَالْأَدْوَاءِ مَا يَكُونُ بِهِ حَرَضًا أَوْ يَكُونُ مِنَ الْهَالِكِينَ . وَالنَّفْسُ الزَّكِيَّةُ الْفِطْرَةِ ، الْمُتَّقِيَةُ لِلَّهِ تَعَالَى بِهِدَايَةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَا يَكَادُ الشَّيْطَانُ يُضِلُّهَا ، وَإِذَا طَافَ بِهَا طَائِفٌ مِنْ وَسْوَسَتِهِ فِي حَالِ الْغَفْلَةِ كَانَ هُوَ الْمُذَكِّرُ لَهَا فَإِذَا هِيَ مُبْصِرَةٌ قَائِمَةٌ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهَا . فَمَثَلُهَا فِي عَدَمِ تَأْثِيرِ الْوَسْوَسَةِ فِيهَا أَوْ عَدَمِ إِفْسَادِهَا لَهَا كَمَثَلِ الْبَدَنِ الْقَوِيِّ فِي عَدَمِ اسْتِعْدَادِهِ لِفَتْكِ جَرَاثِيمِ الْأَمْرَاضِ بِهِ ، كَمَا أَنَّ النَّفْسَ الْفَاسِدَةَ الْفِطْرَةِ بِالشِّرْكِ أَوِ النِّفَاقِ وَالْمَعَاصِي وَسُوءِ الْأَخْلَاقِ تَكُونُ مُسْتَعِدَّةً لِطَاعَةِ الشَّيْطَانِ كَاسْتِعْدَادِ الْبَدَنِ الضَّعِيفِ وَالْمِزَاجِ الْفَاسِدِ لِتَأْثِيرِ مِيكْرُوبَاتِ الْأَمْرَاضِ . وَمِنَ الْأَرْوَاحِ وَالْأَبْدَانِ

(268/236)

---

مَا لَيْسَ فِي مُنْتَهَى الْقُوَّةِ وَلَا غَايَةِ الضَّعْفِ ، فَكُلٌّ مِنْهَا يَتَأَثَّرُ بِقَدْرِ اسْتِعْدَادِهِ ، وَتَكُونُ عَاقِبَتُهُ السَّلَامَةَ إنْ كَانَ أَقْرَبَ إلَى الصِّحَّةِ وَالْقُوَّةِ ، وَالْهَلَاكَ إنْ كَانَ بِضِدِّ ذَلِكَ .

(269/236)

---

فَعُلِمَ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ الْآيَةَ لَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الشَّيْطَانَ يُنْسِي النَّبِيَّ الْأَعْظَمَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَا ذُكِرَ . إمَّا لِأَنَّ الْخِطَابَ فِيهَا لِغَيْرِهِ ابْتِدَاءً ، وَإِمَّا لِأَنَّ الْمُرَادَ بِهِ غَيْرُهُ وَإِنَّ وُجِّهَ إلَيْهِ عَلَى حَدِّ : (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) (39 : 65) وَفَائِدَةُ مِثْلِهِ مُبَالَغَةُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْحَذَرِ مِنْ وَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ الْمُؤَدِّيَةِ إلَى الْوُقُوعِ فِي النَّهْيِ . وَكَوْنُ الْأَنْبِيَاءِ مَعْصُومِينَ مِنَ الشِّرْكِ مِنَ الْمَسَائِلِ الْقَطْعِيَّةِ الَّتِي لَا نِزَاعَ فِيهَا ؛ فَإِنَّ عِلْمَهُمْ بِالتَّوْحِيدِ بُرْهَانِيٌّ وِجْدَانِيٌّ عِيَانِيٌّ ، وَهُوَ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِحَقِّ الْيَقِينِ وَعَيْنِ الْيَقِينِ ، وَقَدْ رُجِّحَ هَذَا الْوَجْهُ بِهَذَا الْمَثَلِ ، كَمَا تُرَجِّحُهُ الْآيَةُ الْآتِيَةُ بِجَعْلِهَا مَوْضُوعَ الْمَسْأَلَةِ فِي جَمَاعَةِ الْمُتَّقِينَ ، وَإِمَّا لِأَنَّ الْخِطَابَ لَهُ عَلَى سَبِيلِ الْفَرْضِ لِأَجْلِ الْمُبَالَغَةِ فِي الزَّجْرِ ، وَيُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَ هَذَا الْوَجْهِ وَمَا قَبْلَهُ . وَمِنَ الْمَعْهُودِ فِي

التَّخَاطُبِ أَنَّ مَا يُقَالُ عَلَى سَبِيلِ الْفَرْضِ يَدْخُلُ فِيهِ الْمُحَالُ ، فَهُوَ لَا يَقْتَضِي جَوَازَ الْوُقُوعِ وَلَا احْتِمَالَهُ ، وَذَلِكَ هُوَ الْأَصْلُ فِي الْجُمْلَةِ الشَّرْطِيَّةِ الْمَبْدُوءَةِ بِـ " إِنْ " فَقَدْ قَالُوا : إِنَّهَا لِلشَّكِّ ، وَإِنَّمَا يَأْتِي مِثْلُهُ فِي كَلَامِ اللَّهِ بِحَسَبِ الْأُسْلُوبِ الْعَرَبِيِّ لِبَيَانِ الْمُرَادِ فِي نَفْسِهِ بِصَرْفِ النَّظَرِ عَنِ الْقَائِلِ . وَفَائِدَتُهُ هُنَا بَيَانُ كَوْنِ النِّسْيَانِ عُذْرًا ، فَإِنْ لَمْ يَقَعْ مِنَ الْمُخَاطَبِ

(270/236)

---

فَقَدْ يَقَعُ مِنْ غَيْرِهِ فَيَكُونُ مَعْذُورًا .

وَذَهَبَ الزَّمَخْشَرِيُّ مَذْهَبًا آخَرَ فِي تَنْزِيهِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنْ هَذَا النِّسْيَانِ بِإِيرَادِ احْتِمَالٍ آخَرَ فِي الْجُمْلَةِ قَالَ : وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ : وَإِنْ كَانَ الشَّيْطَانُ يُنْسِيكَ قَبْلَ النَّهْيِ قُبْحَ مُجَالَسَةِ الْمُسْتَهْزِئِينَ لِأَنَّهَا مِمَّا تُنْكِرُهُ الْعُقُولُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى - بَعْدَ أَنْ ذَكَّرْنَاكَ قُبْحَهَا وَنَبَّهْنَاكَ عَلَيْهِ - مَعَهُمْ . انْتَهَى . وَقَدْ رَدُّوا عَلَيْهِ هَذَا الْوَجْهَ ؛ لِأَنَّهُ بِنَاءٌ عَلَى قَاعِدَةِ الْمُعْتَزِلَةِ فِي التَّحْسِينِ وَالتَّقْبِيحِ الْعَقْلِيَّيْنِ ، وَبِنَاؤُهُ عَلَيْهَا غَيْرُ مُتَعَيِّنٍ ، وَلَا يُنْكِرُ الْأَشَاعِرَةُ وَلَا غَيْرُهُمْ أَنَّ عَقْلَ الْمُؤْمِنِ يَجْزِمُ بِقُبْحِ الْقُعُودِ مَعَ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْعَقْلُ مُسْتَقِلًّا بِالتَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ فَيُمْكِنُ تَوْجِيهُ هَذَا الْجَوَازِ مَعَ رَدِّ تِلْكَ الْقَاعِدَةِ ، إِلَّا أَنْ يُمْنَعَ مِنْهُ التَّعْبِيرُ بِفِعْلِ الِاسْتِقْبَالِ وَهُوَ مَا اعْتَرَضَ بِهِ ابْنُ الْمُنِيرِ ، وَلَكِنْ كَيْفَ يَخْفَى مِثْلُهُ عَلَى هَذَا

اللُّغَوِيِّ النِّحْرِيرِ ؟ .

وَاسْتَنْبَطَ الْعُلَمَاءُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ الْإِنْسَانَ غَيْرُ مُؤَاخَذٍ بِمَا يَفْعَلُهُ فِي حَالِ النِّسْيَانِ بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا يُعَاقَبُ عَلَيْهِ ، وَإِذَا أَكَلَ فِي رَمَضَانَ نَاسِيًا لَا يَبْطُلُ صِيَامُهُ ، لَا بِمَعْنَى أَنَّ

(271/236)

---

4الْحُقُوقَ تَسْقُطُ بِهِ ، وَيَسْتَدِلُّ الْأُصُولِيُّونَ وَالْفُقَهَاءُ عَلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بِحَدِيثِ " رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ " وَقَدِ اشْتَهَرَ الْحَدِيثُ بِهَذَا اللَّفْظِ فِي كُتُبِهِمْ ، وَفِيهِ مَقَالٌ لِلْمُحَدِّثِينَ مَعْرُوفٌ ؛ أَنْكَرَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رِوَايَةً وَدِرَايَةً ، فَقَالَ : لَا يَصِحُّ وَلَا يَثْبُتُ إِسْنَادُهُ . وَقَالَ : مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ مَرْفُوعٌ فَقَدْ خَالَفَ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَإِنَّ اللَّهَ أَوْجَبَ فِي قَتْلِ النَّفْسِ فِي الْخَطَأِ الْكَفَّارَةَ . وَقَدْ يُجَابُ عَنْ هَذَا بِمَا ذَكَرْنَاهُ آنِفًا مِنْ أَنَّ رَفْعَ النِّسْيَانِ عِبَارَةٌ عَنْ رَفْعِ الْإِثْمِ لَا رَفْعِ الْحُقُوقِ ، فَمَنْ نَسِيَ الصَّلَاةَ أَعَادَهَا ، وَحُقُوقُ الْعِبَادِ أَوْلَى بِأَلَّا تَسْقُطَ بِنِسْيَانٍ وَلَا خَطَأٍ . وَأَمَّا إِسْنَادُهُ فَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ فِي بَابِ طَلَاقِ الْمُكْرَهِ وَالنَّاسِي مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا بِلَفْظِ " إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ ، وَالنِّسْيَانَ ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ " قَالَ فِي الزَّوَائِدِ : إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ إِنْ سَلِمَ مِنَ الِانْقِطَاعِ ، وَلَكِنْ رَجَحَ أَنَّهُ مُنْقَطِعٌ ، وَقَالَ الدَّبِيعُ فِي الْأَحَادِيثِ الْمُشْتَهِرَةِ

: وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ ، وَابْنُ أَبِي عَاصِمٍ بِلَفْظِ " إِنَّ اللهَ وَضَعَ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ثَلَاثًا : الْخَطَأُ ، وَالنِّسْيَانُ ، وَالْأَمْرُ يُكْرَهُونَ عَلَيْهِ " وَرُوَاتُهُ ثِقَاتٌ ، كَذَا صَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ .

(272/236)

---

(وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ) أَيْ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ اللهَ مِنْ حِسَابِ الْخَائِضِينَ فِي آيَاتِهِ شَيْءٌ مَا ، فَلَا يُحَاسَبُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ خَوْضِهِمْ وَلَا عَلَى غَيْرِهِ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي يُحَاسِبُهُمُ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهَا إِذَا هُمْ تَجَنَّبُوهُمْ وَأَعْرَضُوا عَنْهُمْ كَمَا أُمِرُوا ، وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الْمَعْنَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ : مَا عَلَيْكَ أَنْ يَخُوضُوا فِي آيَاتِ اللهِ إِذَا تَجَنَّبْتَهُمْ وَأَعْرَضْتَ عَنْهُمْ ، قِيلَ : هُوَ رُخْصَةٌ ، وَمَعْنَاهُ : مَا عَلَيْهِمْ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنْ قَعَدُوا مَعَهُمْ - وَأَنَّهُ مَنْسُوخٌ بِآيَةِ سُورَةِ النِّسَاءِ إِذْ قَالَ فِيهَا : (إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ) (4 : 140) وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَالسُّدِّيِّ وَابْنِ جُرَيْجٍ ، وَهُوَ بَعِيدٌ جِدًّا ، لِأَنَّهُ لَا يَصِحُّ أَنْ يَتَّصِلَ بِالنَّهْيِ مَا يُبْطِلُهُ وَهُوَ قَدْ نَزَلَ مَعَهُ كَمَا هُنَا . قَالَ الْأَلُوسِيُّ : وَفِي الطَّوْدِ الرَّاسِخِ فِي الْمَنْسُوخِ وَالنَّاسِخِ أَنَّهُ لَا نَسْخَ عِنْدَ أَهْلِ التَّحْقِيقِ فِي ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ : (وَمَا عَلَى الَّذِينَ) إِلَخْ . خَبَرٌ ، وَلَا نَسْخَ فِي الْأَخْبَارِ ، فَافْهَمْ . انْتَهَى . وَقَدْ يُقَالُ : إِنَّ الْجُمْلَةَ إِنْشَائِيَّةُ الْمَعْنَى ، فَهِيَ حُكْمٌ شَرْعِيٌّ مَعْنَاهُ عَدَمُ مُؤَاخَذَةِ أَحَدٍ بِذَنْبِ غَيْرِهِ ، لَا خَبَرٌ مِنَ الْأَخْبَارِ الَّتِي قَالُوا إِنَّهَا لَا تُنْسَخُ ،

وَالْعُمْدَةُ فِي رَدِّ الْقَوْلِ بِنَسْخِهَا مَا ذُكِرَ آنِفًا ، فَتَعَيَّنَ تَقْدِيرُ الشَّرْطِ الَّذِي ذَكَرَهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ ، أَوْ أَنْ يُقَالَ فِي التَّقْدِيرِ : وَمَا عَلَى الَّذِينَ

(273/236)

---

يَتَّقُونَ اللَّهَ مِنْ حِسَابِ الْخَائِضِينَ مِنْ شَيْءٍ ؛

إِذْ كَانُوا يَقْعُدُونَ مَعَهُمْ قَبْلَ النَّهْيِ كَارِهِينَ

لِخَوْضِهِمْ وَبَاطِلِهِمْ ، وَكَانَ يَشُقُّ عَلَيْهِمْ تَجَنُّبُهُمْ وَالْإِعْرَاضُ عَنْهُمْ ، فَلَيْسَ سَبَبُ النَّهْيِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَحْمِلُونَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا لَوْ لَمْ يَنْهَوْا عَنْهُ ; فَإِنَّهُ تَعَالَى مَا أَخَّرَ النَّهْيَ إِلَّا إِلَى وَقْتِهِ الْمُنَاسِبِ لَهُ ، وَلَا يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَانَ مِنْهُمْ قَبْلَهُ ، فَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى بَعْدَ تَحْرِيمِ مُحَرَّمَاتِ النِّكَاحِ : (إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ) (4 : 22 ، 23) .

(وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) أَيْ : وَلَكِنْ جُعِلَ النَّهْيُ مَوْعِظَةً وَذِكْرَى ؛ لَعَلَّ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ تَعَالَى يَتَّقُونَ أَيْضًا كُلَّ مَا لَا يَنْبَغِي لَهُمْ مِنْ سَمَاعِ الْخَوْضِ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِالْبَاطِلِ ، فَهَذِهِ التَّقْوَى الْمَرْجُوَّةُ بِالنَّهْيِ هِيَ تَقْوَى خَاصَّةٌ ، وَتِلْكَ التَّقْوَى هِيَ الْكُلِّيَّةُ الْعَامَّةُ ، هَذَا هُوَ الْوَجْهُ عِنْدَنَا . وَالذِّكْرَى هُنَا بِمَعْنَى التَّذْكِيرِ ، وَفِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ بِمَعْنَى التَّذَكُّرِ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَقِيلَ : إِنَّ الْمَعْنَى : مَا عَلَيْهِمْ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَعْرَضُوا أَوْ قَعَدُوا مَعَهُمْ ، وَلَكِنْ عَلَيْهِمْ أَنْ

يُذَكِّرُوهُمْ ، أَيْ يَعِظُوهُمْ وَيُنْكِرُوا عَلَيْهِمْ فِي تِلْكَ الْحَالِ ؛ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ الْخَوْضَ وَلَوْ فِي حَضْرَتِهِمْ .

(274/236)

---

ذَكَرُوا هَذَا الْمَعْنَى لِلذِّكْرَى عَلَى كُلٍّ مِنَ التَّقْدِيرَيْنِ الْمُتَضَادَّيْنِ . قَالَ ابْنُ جُبَيْرٍ : ذَكِّرُوهُمْ ذَلِكَ ، وَأَخْبِرُوهُمْ أَنَّهُ يَشُقُّ عَلَيْكُمْ فَيَتَّقُونَ مُسَاءَتَكُمْ ، وَكَأَنَّهُ نَسِيَ أَنَّ السُّورَةَ نَزَلَتْ فِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَضْطَهِدُونَ فِيهِ الْمُؤْمِنِينَ أَشَدَّ الِاضْطِهَادِ ، وَيَتَحَرَّوْنَ مُسَاءَتَهُمْ ، وَيَكْرَهُونَ مَسَرَّتَهُمْ ، وَقَدْ يَتَّجِهُ جَعْلُ التَّذْكِيرِ لَهُمْ عَلَى تَقْدِيرِ الْقُعُودِ مَعَهُمْ إِذَا صَحَّ مَا ذَكَرَهُ الرَّازِيُّ وَغَيْرُهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ الْمُسْلِمُونَ : لَئِنْ كُنَّا كُلَّمَا اسْتَهْزَأَ الْمُشْرِكُونَ بِالْقُرْآنِ وَخَاضُوا فِيهِ قُمْنَا عَنْهُمْ لَمَا قَدَرْنَا أَنْ نَجْلِسَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَأَنْ نَطُوفَ بِالْبَيْتِ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، وَحَصَلَتِ الرُّخْصَةُ فِيهَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَقْعُدُوا مَعَهُمْ وَيُذَكِّرُوهُمْ وَيُفَهِّمُوهُمْ . انْتَهَى . وَهُوَ مُعَارَضٌ بِنُزُولِ السُّورَةِ دُفْعَةً وَاحِدَةً إِلَّا مَا اسْتُثْنِيَ ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْهُ . وَمِنَ الْبَدِيهِيِّ أَنَّ الطَّوَافَ بِالْبَيْتِ لَا يَسْتَلْزِمُ الْقُعُودَ مَعَ الْمُسْتَهْزِئِينَ وَلَا الْإِقْبَالَ عَلَيْهِمْ ، وَأَمَّا الْقُعُودُ بِالْبَيْتِ فَلَا ضَرَرَ فِي تَرْكِهِ إِذَا اسْتَلْزَمَ أَنْ يَكُونَ مَعَ الْمُسْتَهْزِئِينَ . وَمِنَ الْغَرِيبِ أَنَّ الرَّازِيَّ اكْتَفَى بِهَذَا الْوَجْهِ الضَّعِيفِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ، وَلَمْ يَذْكُرْ غَيْرَهُ ؛ لَا نَقْلًا وَلَا مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ .

(275/236)

---

أَشَرْنَا فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ السَّابِقَةِ إِلَى أَنَّ جَعْلَ هَذِهِ الْآيَةِ فِي جَمَاعَةِ الْمُتَّقِينَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ هُمُ الْمُرَادُونَ فِيمَا قَبْلَهَا بِخِطَابِ الرَّسُولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنْ دُونِهِ ، وَيُؤَكِّدُهُ الرُّجُوعُ إِلَى الْخِطَابِ فِي قَوْلِهِ : (وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ اللَّعِبِ وَاللَّهْوِ وَنُكْتَةِ تَقْدِيمِ أَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ (32) وَالْمَعْنَى هُنَا وَدَعْ أَيُّهَا الرَّسُولُ ، وَمِثْلُهُ فِيهِ مَنْ تَبِعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ – الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ ، وَهُمُ الْمَقْصُودُونَ أَوَّلًا وَبِالذَّاتِ ، وَمِثْلُهُمْ كُلُّ مَنْ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا الْفَانِيَةُ ، فَآثَرُوهَا عَلَى الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ الْبَاقِيَةِ ، بَلْ أَنْكَرَهَا الْمُشْرِكُونَ ، وَلَمْ

(276/236)

---

يَسْتَعِدَّ لَهَا الْفَاسِقُونَ ، أَمَّا اتِّخَاذُهُمْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا فَفِيهِ وُجُوهٌ ، الْمُتَبَادِرُ مِنْهَا أَنَّ أَعْمَالَ دِينِهِمُ الَّتِي يَعْمَلُونَهَا لَمَّا لَمْ تَكُنْ مُزَكِّيَةً لِلْأَنْفُسِ ، وَلَا مُهَذِّبَةً لِلْأَخْلَاقِ ، وَلَا وَاقِعَةً عَلَى الْوَجْهِ

الَّذِي يُرْضِي الرَّحْمَنَ وَيُعِدُّ الْمَرْءَ لِلِقَائِهِ فِي دَارِ الْكَرَامَةِ وَالرِّضْوَانِ ، وَلَا مُصْلِحَةً لِشُئُونِ الِاجْتِمَاعِ وَالْعُمْرَانِ ، كَانَتْ إمَّا صَرْفًا لِلْوَقْتِ فِيمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ وَهُوَ مَعْنَى اللَّعِبِ ، وَإِمَّا شَاغِلَةٌ عَنْ بَعْضِ الْهُمُومِ وَالشُّئُونِ وَهُوَ اللَّهْوُ ، وَيَظْهَرُ ذَلِكَ فِي أَعْمَالِ الدِّينِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ كَالْمَوَاسِمِ وَالْأَعْيَادِ ، وَقَدْ رُوِيَ الْقَوْلُ بِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا يُعَظِّمُونَهُ ، وَيُصَلُّونَ فِيهِ ، وَيُعَمِّرُونَهُ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، ثُمَّ إنَّ النَّاسَ - أَكْثَرُهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ - اتَّخَذُوا عِيدَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا ، غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ ، فَإِنَّهُمْ اتَّخَذُوا عِيدَهُمْ كَمَا شَرَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى . وَهُوَ يُرِيدُ أَنَّ هَذَا مِمَّا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْآيَةُ لَا أَنَّهُ كُلُّ الْمُرَادِ مِنْهَا ، وَهَذَا أَحَدُ وُجُوهٍ خَمْسَةٍ ذَكَرَهَا الرَّازِيُّ فِي الْآيَةِ وَجَعَلَهُ الرَّابِعَ .

(277/236)

---

وَأَمَّا الْوُجُوهُ الْأُخْرَى (فَأَوَّلُهَا) أَنَّهُمُ اتَّخَذُوا دِينَهُمُ الَّذِي كُلِّفُوهُ وَدُعُوا إلَيْهِ - وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ - لَعِبًا وَلَهْوًا حَيْثُ سَخِرُوا بِهِ وَاسْتَهْزَءُوا بِهِ . (الثَّانِي) اتَّخَذُوا مَا هُوَ لَعِبٌ وَلَهْوٌ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ دِينًا لَهُمْ . (الثَّالِثُ) أَنَّ الْكُفَّارَ كَانُوا يَحْكُمُونَ فِي دِينِ اللَّهِ بِمُجَرَّدِ التَّشَهِّي وَالتَّمَنِّي مِثْلَ تَحْرِيمِ السَّوَائِبِ وَالْبَحَائِرِ ، وَمَا كَانُوا يَحْتَاطُونَ فِي أَمْرِ الدِّينِ أَلْبَتَّةَ ، وَيَكْتَفُونَ فِيهِ بِمُجَرَّدِ التَّقْلِيدِ ، فَعَبَّرَ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا . (الْخَامِسُ) قَالَ - وَهُوَ

الْأَقْرَبُ - : إنَّ الْمُحَقِّقَ فِي الدِّينِ هُوَ الَّذِي يَنْصُرُ الدِّينَ لِأَجْلِ أَنَّهُ أَقَامَ الدَّلِيلَ عَلَى أَنَّهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ وَصَوَابٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ يَنْصُرُونَهُ لِيَتَوَسَّلُوا بِهِ إلَى أَخْذِ الْمَنَاصِبِ وَالرِّيَاسَةِ وَغَلَبَةِ الْخَصْمِ وَجَمْعِ الْأَمْوَالِ

فَهُمُ الَّذِينَ نَصَرُوا الدِّينَ لِلدُّنْيَا ، وَقَدْ حَكَمَ اللَّهُ عَلَى الدُّنْيَا فِي سَائِرِ الْآيَاتِ بِأَنَّهَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، فَالْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ : (وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا) هُوَ الْإِشَارَةُ إلَى مَنْ يَتَوَسَّلُ بِدِينِهِ إلَى دُنْيَاهُ ، وَإِذَا تَأَمَّلْتَ فِي حَالِ أَكْثَرِ الْخَلْقِ وَجَدْتَهُمْ مَوْصُوفِينَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ وَدَاخِلِينَ تَحْتَ هَذِهِ الْحَالَةِ ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . اهـ .

*(278/236)*

---

أَقُولُ : كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَذْكُرَ نَحْوًا مِنْ هَذَا فِي التَّفْسِيرِ (وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) وَقَدْ جَعَلَ هُوَ هَذِهِ الْجُمْلَةَ مُؤَيِّدَةً لَهُ ، وَجَعَلَهُ هُوَ الْمُرَادَ مِنَ اللَّعِبِ وَاللَّهْوِ ، ذَاهِلًا عَنْ كَوْنِهِ لَا يَظْهَرُ فِي كُفَّارِ قُرَيْشٍ الَّذِينَ قُصِدُوا بِهِ أَوَّلًا وَبِالذَّاتِ ، وَالْوَجْهُ الْأَوَّلُ اعْتَمَدَهُ الْمُتَأَخِّرُونَ ، وَفِيهِ أَنَّهُ مُخَالِفٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) (109 : 6) وَقَوْلُهُ : (لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا) (5 : 57) فَاللَّهُ تَعَالَى لَا يُضِيفُ دِينَ الْإِسْلَامِ إلَى الْكُفَّارِ . وَأَمَّا مَعْنَى غَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَهُوَ أَنَّهَا خَدَعَتْهُمْ وَأَغْفَلَتْهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَمَا هِيَ مُسْتَعِدَّةٌ لَهُ مِنَ الْكَمَالِ ، وَعَنْ

كَوْنِ الْبَعْثِ حَقًّا ، وَالْعَدْلِ الْمَحْضِ مِنَ الْمُحَالِ ، فَاشْتَغَلُوا بِلَذَّاتِهَا الْحَقِيرَةِ الْفَانِيَةِ الْمَشُوبَةِ بِالْمُنَغِّصَاتِ عَمَّا جَاءَهُمْ مِنَ الْحَقِّ مُؤَيَّدًا بِالْحُجَجِ الْقَيِّمَةِ وَالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ ، فَاسْتَبْدَلُوا الْخَوْضَ فِيهَا ، بِمَا كَانَ يَجِبُ مِنْ فِقْهِهَا وَتَدَبُّرِهَا .

*(279/236)*

---

وَهَذَا الْأَمْرُ بِتَرْكِ هَؤُلَاءِ الْمَغْرُورِينَ قَدْ جَاءَ عَلَى سَبِيلِ التَّهْدِيدِ كَقَوْلِهِ : (ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) (15 : 3) وَهُوَ تَهْدِيدٌ بِعَذَابِ الدُّنْيَا ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ بَعْدَهُ : (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ) (4 ، 5) وَوَرَدَ مِثْلُهُ عَذَابُ الْآخِرَةِ فِي الْآيَتَيْنِ (43 : 83 ، 70 : 42) وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِهِ الْأَمْرُ بِالْكَفِّ عَنْهُمْ ، وَتَرْكُ التَّعَرُّضِ لَهُمْ ، وَأَنَّهُ نُسِخَ بِآيَةِ الْقِتَالِ ، رُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ وَضَعَّفَهُ الْمُحَقِّقُونَ . وَإِذَا لَمْ يَتَضَمَّنْ مَعْنَى التَّهْدِيدِ كَانَ مَعْنَاهُ : ذَرْهُمْ وَلَا تَهْتَمَّ بِخَوْضِهِمْ وَلَا تُكَذِّبِهِمْ ، وَعَلَيْكَ مَا كُلِّفْتَهُ وَحَمَلْتَهُ مِنْ تَبْلِيغِ دَعْوَةِ رَبِّكَ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ :

(وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ) الْبَسْلُ مَصْدَرُ بَسَلَهُ ، يُطْلَقُ بِمَعْنَى حَبْسِ الشَّيْءِ وَمَنْعِهِ بِالْقَهْرِ ، وَبِمَعْنَى الرَّهْنِ وَالْإِبَاحَةِ ، وَأَبْسَلَ الشَّيْءَ كَبَسَلَهُ : أَسْلَمَهُ لِلْهَلَاكِ ، وَمِنْهُ أَسَدٌ بَاسِلٌ وَرَجُلٌ بَاسِلٌ ، أَيْ شُجَاعٌ مُمْتَنِعٌ عَلَى أَقْرَانِهِ ، أَوْ مَانِعٌ لِمَا يُرِيدُ حِفْظَهُ أَنْ يُنَالَ ،

وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ : (بِهِ) لِلْقُرْآنِ الْمَعْلُومِ بِقَرِينَةِ الْحَالِ ; لِأَنَّهُ هُوَ الذِّكْرُ الَّذِي بُعِثَ بِهِ الرَّسُولُ الْمُذَكِّرُ ، وَبِقَرِينَةِ الْمُقَالِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي آخِرِ سُورَةِ " ق " : (فَذَكِّرْ

(280/236)

---

بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ) (50 : 45) وَالْقُرْآنُ يُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضًا كَمَا قَالُوا . وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ فِي مَعْنَى الْإِبْسَالِ : الْفَضِيحَةُ ، وَالْإِسْلَامُ لِلْهَلَاكِ ، وَالْحَبْسُ فِي النَّارِ . وَكَانَ الْأَخِيرُ جَوَابَهُ لِنَافِعِ بْنِ الْأَزْرَقِ ، وَهُوَ تَفْسِيرٌ بِالْأَخَصِّ لِبَيَانِ الْمُرَادِ ، قَالَ نَافِعٌ : أَوَتَعْرِفُ الْعَرَبُ ذَلِكَ فِي كَلَامِهَا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، أَمَا سَمِعْتَ زُهَيْرًا وَهُوَ يَقُولُ :

وَفَارَقَتْكَ بِرَهْنٍ لَا فِكَاكَ لَهُ . . . يَوْمَ الْوَدَاعِ وَقَلْبٌ مُبْسَلٌ غَلِقًا .

وَالْمَعْنَى : وَذَكِّرِ النَّاسَ وَعِظْهُمْ بِالْقُرْآنِ اتِّقَاءَ أَنْ تُبْسَلَ كُلُّ نَفْسٍ فِي الْآخِرَةِ بِمَا كَسَبَتْ ، أَيِ اتِّقَاءَ حَبْسِهَا ، أَوْ رَهْنِهَا فِي الْعَذَابِ ، أَوْ إِسْلَامِهَا إِلَيْهِ ، أَوْ مَنْعِهَا مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ ، وَتَفَادِيًا مِنْ ذَلِكَ بِمَا بَيَّنَهُ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ مِنْ أَسْبَابِ النَّجَاةِ وَالسَّعَادَةِ . وَيُؤَيِّدُ التَّقْدِيرَ الْأَوَّلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ) (74 : 38 ، 39) الْآيَةَ .

وَقَدَّرَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ " مَخَافَةَ " أَوْ " كَرَاهَةَ " أَنْ تُبْسَلَ . وَبَعْضُهُمْ : لِئَلَّا تُبْسَلَ .

(281/236)

ثُمَّ وَصَفَ تَعَالَى النَّفْسَ الْبِسِلَةَ أَوْ عَلَّلَ إِبْسَالَهَا بِقَوْلِهِ : (لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ) أَيْ : وَلَيْسَ لَهَا مِنْ غَيْرِ اللَّهِ وَلِيٌّ ، أَيْ نَاصِرٌ يَنْصُرُهَا ، أَوْ قَرِيبٌ يَتَوَلَّى أَمْرَهَا ، وَلَا شَفِيعٌ يَشْفَعُ لَهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى : (مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ) (40 : 18) فِي يَوْمٍ وَصَفَهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : (لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ) (2 : 254) وَالْأَمْرُ فِيهِ لِلَّهِ وَحْدَهُ (قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا) (39 : 44) (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) (2 : 255) (وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) (34 : 23) (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) (21 : 28)

فَكُلُّ نَفْسٍ تَأْتِيهِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ - وَهُوَ تَعَالَى غَيْرُ رَاضٍ عَنْهَا - فَهِيَ مُبْسَلَةٌ بِمَا كَسَبَتْ مِنْ سَيِّئِ عَمَلِهَا .

*(282/236)*

---

(وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا) الْعَدْلُ - بِالْفَتْحِ - مَا عَادَلَ الشَّيْءَ وَسَاوَاهُ مِنْ غَيْرِ جِنْسِهِ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ (أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا) (5 : 95) وَهُوَ هُنَا بِمَعْنَى الْفِدَاءِ ; لِأَنَّ الْفَادِيَ يَعْدِلُ الْمَفْدِيَّ بِمِثْلِهِ كَمَا قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ ، وَعَدْلُ هَذَا يَتَعَدَّى إِلَى الْمَفْعُولِ بِهِ

بِالْبَاءِ كَمَا قَالَ فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ : (بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) فَكُلُّ عَدْلٍ مَنْصُوبٌ هُنَا عَلَى الْمَصْدَرِيَّةِ لَا الْمَفْعُولِيَّةِ ، وَالْمَعْنَى : وَإِنْ تَفْدِ النَّفْسُ الْمُبْسَلَةُ كُلَّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْفِدَاءِ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا - أَيْ لَا يَقَعُ الْأَخْذُ وَلَا يَحْصُلُ ، فَهُوَ عَلَى حَدِّ أَكْلٍ مِنَ الْقَصْعَةِ وَسَيْرٍ مِنَ الْبَلَدِ ؛ لِأَنَّ الْعَدْلَ - وَهُوَ مَصْدَرٌ - لَا يُؤْخَذُ أَخْذًا ، وَيَجُوزُ أَنْ يُضَمَّنَ الْأَخْذُ مَعْنَى الْقَبُولِ ، وَأَنْ يُعَادَ الضَّمِيرُ عَلَى الْعَدْلِ ، وَهُوَ الْفِدَاءُ بِمَعْنَى الْمَفْدِيِّ بِهِ وَإِنْ عُدَّ هُنَا مِنْ قَبِيلِ الِاسْتِخْدَامِ ، وَقَدِ اسْتُعْمِلَ الْعَدْلُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِمَعْنَى الْمَعْدُولِ بِهِ ، أَيِ الْفِدْيَةِ ، وَأُسْنِدَ إِلَى الْأَخْذِ وَإِلَى الْقَبُولِ ، قَالَ : (وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ) (2 : 48) . وَقَالَ : (وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ) (2 : 123) .

*(283/236)*

---

وَالْمُرَادُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا إِبْطَالُ أَصْلٍ مِنْ أُصُولِ الْوَثَنِيَّةِ ، وَهُوَ تَعْلِيقُ النَّجَاةِ فِي الْآخِرَةِ - كَنَيْلِ كَثِيرٍ مِنَ الْمَقَاصِدِ فِي الدُّنْيَا - بِتَقْدِيمِ الْفِدْيَةِ لِلَّهِ تَعَالَى ، أَوْ بِشَفَاعَةِ الشَّافِعِينَ عِنْدَهُ أَيْ بِوَسَاطَةِ الْوُسَطَاءِ - وَتَقْرِيرُ أَصْلِ الدِّينِ الْإِلَهِيِّ وَهُوَ أَنَّ النَّجَاةَ فِي الْآخِرَةِ ، وَرِضْوَانَ اللَّهِ ، وَالْقُرْبَ مِنْهُ لَا تُنَالُ إِلَّا بِمَا شَرَعَهُ اللَّهُ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ

- وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي تَتَزَكَّى بِهِ الْأَنْفُسُ مَعَ الْإِيمَانِ الْإِذْعَانِيِّ بِاللهِ وَبِرُسُلِهِ وَمَا جَاءُوا بِهِ ، وَمِنْ إِبْسَالِهِمْ كَسْبُهُمْ لِلسَّيِّئَاتِ وَالْخَطَايَا ، وَاتِّخَاذُهُمُ الدِّينَ لَعِبًا وَلَهْوًا ، وَغُرُورُهُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فَلَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةٌ وَلَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ فِدْيَةٌ .

*(284/236)*

---

(أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا) أَيْ أُولَئِكَ الْمَوْصُوفُونَ بِمَا ذَكَرَهُمْ ، الَّذِينَ أُسْلِمُوا لِلْهَلَكَةِ ، وَارْتُهِنُوا ، وَحُبِسُوا عَنْ دَارِ السَّعَادَةِ بِسَبَبِ مَا كَسَبُوا مِنَ الْأَوْزَارِ وَالْآثَامِ ، حَتَّى أَحَاطَتْ بِهِمْ خَطَايَاهُمْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ دِينِهِمُ الَّذِي اتَّخَذُوهُ لَعِبًا وَلَهْوًا مَا يَزْجُرُهُمْ عَنْهَا . وَمَاذَا يَكُونُ جَزَاؤُهُمْ بَعْدَ الْإِبْسَالِ ؟ (لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) أَيْ لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ مَاءٍ حَمِيمٍ ، وَهُوَ الشَّدِيدُ الْحَرَارَةِ - وَيُطْلَقُ عَلَى الشَّدِيدِ الْبُرُودَةِ أَيْضًا - وَعَذَابٌ شَدِيدُ الْأَلَمِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمُ الَّذِي ظَلُّوا مُسْتَمِرِّينَ عَلَيْهِ طُولَ حَيَاتِهِمْ ، حَتَّى صَرَفَهُمْ عَمَّا جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَى - لَوِ اتَّبَعُوهُ - سَبَبَ نَجَاتِهِمْ . أَوِ التَّقْدِيرُ : أُولَئِكَ الْمُبْسَلُونَ بِكَسْبِهِمْ ، لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِاسْتِمْرَارِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ ; وَبِهَذَا ظَهَرَ الْفَرْقُ بَيْنَ التَّعْلِيلِ الْأَوَّلِ بِالْكَسْبِ وَالتَّعْلِيلِ الثَّانِي بِالْكُفْرِ ، فَالْأَوَّلُ ذُكِرَ بِصِيغَةِ الْمَاضِي ، وَالثَّانِي بِصِيغَةِ الْمُسْتَقْبَلِ الدَّالِّ عَلَى الِاسْتِمْرَارِ ، فَلَوْلَا رُسُوخُهُمْ فِي الْكُفْرِ الَّذِي أَفْسَدَ فِطْرَتَهُمْ حَتَّى

أَصَرُّوا عَلَيْهِ إِصْرَارًا دَائِمًا دَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ فِيهِمُ اسْتِعْدَادٌ لِلْحَقِّ وَالْخَيْرِ - لَمَا كَانَ مُجَرَّدُ كَسْبِ بَعْضِ السَّيِّئَاتِ الْمُنْقَطِعَةِ يَنْهَضُ سَبَبًا لِهَلَاكِهِمْ وَوُقُوعِهِمْ فِي هَذَا الْعَذَابِ كُلِّهِ . وَفِي الْآيَةِ أَكْبَرُ الْعِبَرِ لِمَنْ يَفْقَهُ

(285/236)

---

الْكَلَامَ ، وَلَا يَغْتَرُّ بِلَقَبِ الْإِسْلَامِ ، فَإِنَّمَا الْمُسْلِمُ مَنِ اتَّخَذَ إِمَامَهُ الْقُرْآنَ وَسُنَّةَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ، لَا مَنِ اغْتَرَّ بِالْأَمَانِ وَالْأَوْهَامِ ، وَانْخَدَعَ بِالرُّؤَى وَالْأَحْلَامِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 7 صـ 419. 435 ﴾

(286/236)

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾

قلنا - من قبل - : إن اللعب هو الاشتغال بما لا يفيد لقتل الوقت . وعرفنا أن اللعب مجاله قبل التكليف أي قبل سن البلوغ . وإذا شغلك اللعب عن شيء مطلوب منك فهو لهو ؛

لأنك لهيت عن امر واجب عليك ، فاللهو – إذن – هو الترويح عن النفس بما لا تقتضيه الحكمة .

وقوله الحق : ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا ﴾ هو تصوير لا يوجد أبرع منه ؛ لأنهم أصحاب العقول التي تغتر بالحياة الدنيا فهي عقول تائهة ؛ فالعقل الناضج يفهم الدنيا على أنها أقل شأناً من أن تكون غاية ، ولكنها وسيلة أو مجال وطريق ومزرعة إلى الآخرة .

وعلى العقل الناضج أن يعاملها دون نسيان مهمتها ، وآفة الناس أنهم جعلوا الوسائل غايات ، وغاية وجود الناس على الأرض أن يعمروها بالعمل الصالح وعبادة الحق ، فمن انحرف عن ذلك فله عقابه يوم الغاية الكبرى ، وهو يوم الحساب .

إننا نعلم أن غاية الإنسان من الحياة الدنيا ليست أن يعيش عمراً طويلاً ، ولا أن ينال المناصب ، ولا أن يحصل على الثراء ، ولا أن ينال القوة ، فكل ذلك من الأغيار ، والأغيار تختلف من إنسان إلى آخر .

*(287/236)*

---

وما نختلف فيه نحن البشر ليس غاية لوجودنا ، والغاية للوجود الإنساني لا بد أن تكون واحدة . وأن نتفق فيها جميعاً ، هذه الغاية هي ما نصير إليه بعد الموت . ونجاح كل عمل

بمقدار ما يقرب الغاية منه . ولذلك فالمؤمن الحق يرى استقبال البشر لقضية الموت استقبالاً أحمق ، فعندما يموت شاب في العشرين نجد من يقول : "إنه لم يستمتع بشبابه" والمؤمن الحق يرد على مثل هذا القول متسائلاً : أين تريد أن يستمتع بشبابه ؟ . ويجيب أصحاب الفهم السطحي : لقد مات قبل أن يستمتع بشبابه في هذه الدنيا .

ويقول المؤمن الحق : وهل هذه الدنيا هي الغاية ؟ . إنها ليست الغاية ، بل الغاية هي الحياة الأخرى . ومن مات قبل التكليف فقد أنقذه الله من الحساب وأوطنه الجنة يتلقى نعيمها الدائم . فلماذا – إذن – هذه المبالغة في الحزن على أي ميت ؟ والذي يقترب من الغاية يحب هذه الغاية . وهب أن إنساناً غايته أن يذهب إلى الإسكندرية ، والوسيلة إليها قد تكون حصاناً أو عربة أو طائرة ، فكل شيء يقربه من الغاية يكون هو الأفضل .

فإذا كان الله يريد أن يأخذ بعضاً من خلقه وهم في بطون أمهاتهم ، فهذه إرادته . والذي ذهب من بطن الأم إلى القبر قرب من الغاية ، وخلص من المراحل التي كانت في طياتها الفتنة . ودخل الجنة .

وهب أن الوليد عاش إلى عمر المائة وصار شيخاً ومر بكل اختبارات الفتنة واستقام على المنهج ، فإلى أين مصيره ؟ إنه إلى الجنة .

إذن فعلينا أن نستقبل كل قدر الله بحب : قدر الميلاد أو قدر الخروج من الدنيا ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ تَبَارَكَ الذي بِيَدِهِ الملك وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الذي خَلَقَ الموت والحياة لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [ الملك : 1-2 ] .

(288/236)

---

إنه سبحانه لم يقل إنه خلق الحياة والموت ، لا ، بل قال : ﴿ خَلَقَ الموت والحياة ﴾ وذلك حتى يستقبل كل منا الحياة ، ويسبقها في الذهن ما ينقض هذه الحياة وهو الموت . إذن فهذه هي الغاية التي يتفق فيها كل الجنس البشري ، أما ما عداها فهي أغيار نختلف فيها .

لذلك لا تقل إن الغاية من ابنك أن ينجح في القبول للإعدادية ثم يحصل على الشهادة الإعدادية ، ثم يحصل على الثانوية العامة ، ثم يحصل على ليسانس الكلية أو بالكالوريوس التخرج أو درجة الماجستير أو درجة الدكتوراة ، ثم يصير صاحب شأن في الحياة ، لا تقل ذلك ؛ لأن كل ذلك ليس غاية في الحياة ، ولأن الغاية هي ما لا يوجد بعدها بعد ، ولكن علينا أن نقوم بإعمار الأرض كما أمرنا الله ولكن لا نجعلها هي الغاية .

ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿ اعلموا أَنَّمَا الحياة الدنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأموال والأولاد كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكفار نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخرة عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ الله وَرِضْوَانٌ وَمَا الحياة الدنيا إِلاَّ مَتَاعُ الغرور

﴾ [الحديد : 20] .

هذه هي الحياة الدنيا ، ولذلك يجب أن نحيا دائماً على ضوء ما ينجينا من العذاب وهو ذكر الله ، إن الحق سبحانه يقول : ﴿ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ ﴾ [الأنعام : 70]

*(289/236)*

---

والذكر هنا مقصود به التذكير بالقرآن وهو المنهج النازل من السماء وطبقه رسول الله ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الذكر أيضاً ، أو الذكر هنا مقصود به العذاب الذي ينتظر من يخالف المنهج ، وقوله الحق : ﴿ وَذَكِّرْ بِهِ ﴾ ، يدل على أن منطق الفطرة يقتضي أننا نعرف أن الحق لا يمكن أن يعامل المتقين في الدنيا كما يعامل المنحرفين . ومثال ذلك الإنسان الذي يخوض في أعراض الناس ويظلمهم لا يتصور أبداً –أن يلقى من الحق – سبحانه – المعاملة التي يعامل بها الإنسانَ الملتزم بمنهج الإيمان ؛ فالفطرة تقول لنا : إن الحق يجازي كل إنسان بعمله ، سواء أكان الجزاء في الدنيا أم في الآخرة . ومن المأثور عن بعض العرب أنه قال : لن يموت ظلوم حتى ينتقم منه الله . ومن بعد ذلك مات رجل ظلوم ولم ير فيه الناس انتقام السماء ، فقال الرجل العربي :

والله إن وراء هذه الدار داراً يُجازى فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

﴿ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ والبَسْلُ معناه : المنع ، والمنع له صورتان : الأولى منع حركة حياة حي .

. أي أن تحبسه في مكان محدد يتحرك فيه ، والثانية : منع من أصل الحياة . . أي أن تهلكه وتزهق روحه ، ﴿ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أي تُمنع نفس بما كسبت ، والمنع إما بالهلاك أو بالحبس حبساً يديم عليها العذاب . والحبس – في أعراف البشر – وهو وضع إنسان في مكان لكفِّه عن ظلم غيره ، أي أننا نمنع شرور إنسان عن المجتمع بوضعه في الحبس

.

وعندما جاء الإسلام لم يحبس فرداً إنما حبس المجتمع عن فرد ، وهذا عقاب أكبر وأشد ؛ فقد ترك الإسلام المجرم حرّاً في المجتمع ولكنه حبس المجتمع عنه ؛ فالمجرم يمشي فلا يجد من يكلمه أو يضحك له أو يفرح معه أو يشاركه حزنه .

*(290/236)*

---

وحدث ذلك عندما حبس المؤمنون أنفسهم عن ثلاثة تخلفوا عن الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أن إنساناً منهم جاء ليقرب امرأته فرفضت . وحاول ثان أن يسلم

على ابن عمه فما رد عليه السلام فجلس يبكي . وقاطع كل الناس هؤلاء الثلاثة ، وهذه هي عظمة الإسلام ، لقد سجن المجتمع عن المجرم فتعذب المجرم بقطيعة المجتمع له .

﴿ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أي ذكر بالقرآن أو بالمنهج أو بعاقبة مخالفة الإنسان للمنهج . والعقاب إما حبس وإما هلاك ، وذلك بسبب ما تكسب النفس .

والكسب في اللغة معناه زيادة على رأس المال . وللكلمة اشتقاق ثان وهو " اكتسب " .

ومرة تأتي الكلمتان في معنى واحد ، فالكسب يحدث دون افتعال ودون تعب أو مشقة ، أما الاكتساب فهو يحدث بافتعال وبمعالجة وعنت ؛ لأن الذي يصنع المحرَّم يأخذ أكثر من قدرة ذاته ، فيكون قد اكتسب . أما الذي يأخذ الأمر المشروع له فهو قد كسب . ولكن بعض الناس تأخذ ما اكتسبوه باحتيال ومكر ويظنون أنه كسب وهذا هو الشر ؛ لأنه يأخذ غير المشروع له ويحلله لنفسه ، ويعتبره كسباً لا اكتساباً .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكتسبت ﴾ [ البقرة : 286 ]

.

إن " لها " أي لصالح النفس ؛ لأنها أخذت ما هو حق لها . و" عليها " أي ضد النفس ؛ لأنها افتعلت في أخذ ما ليس حقاً لها . ومثال ذلك : نظرة الرجل إلى زوجته ، إنها نظرة طيبة إلى حلال طيب . لكن نظرة الرجل إلى امرأة غريبة قد تحتوي من الافتعال الكثير ؛

فهو يتلصص ليراها ، ولا يرغب في أن يراه أحد وهو يختلس النظر إليها ، وهذه كلها انفعالات مفتعلة .

(291/236)

---

ومثال آخر : سيدة البيت عندما تدخل إلى مطبخها فتتناول شيئاً لتأكله ، إنها تأكل من حلال مال زوجها ، أما الخادمة فعندما تريد أن تأخذ قطعة من اللحم من المطبخ دون علم أهل البيت فهي تتلصص ، وتحاول معرفة عدد قطع اللحم ، وقد تتساءل بينها وبين نفسها : ألم تقم ربة البيت بحصر عدد قطع اللحم ؟ ولذلك فهي تأخذ من كل قطعة لحم قطعة صغيرة .

وهذا افتعال يتعب الجوارح ؛ لأن مثل هذه الأمور تتعب ملكات الإنسان ، إنّه يحاول أن يرضي ملكة واحدة فيتعب كل ملكاته الأخرى .

﴿ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَآ ﴾ [ الأنعام : 70 ] .

إذن فهي النفس التي تحبس وتسلم نفسها إلى الهلكة والعذاب بسوء كسبها ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع ، ولا يُقبل منها عدل . وهذه مراحل متعددة تبدأ بقوله الحق : ﴿

لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللهِ وَلِيٌّ ﴾ والولي هو الذي ينصرك إن كنت في مأزق . ومأزق الآخرة كبير ، فماذا عن الإنسان الذي ليس له ولاية ؟ إنه العذاب الحق .

والمرحلة الثانية ﴿ وَلاَ شَفِيعٌ ﴾ أي ليس له من يشفع عند من يملك النصرة وهو الله ؛ فالذي يحبك إن لم ينصرك بذاته فإنه قد يشفع لك عند من يستطيع أن ينصرك . وهذا أيضاً لا يوجد لمن لم يتذكر ويتعظ ولم يتبع المنهج الإيماني .

والمرحلة الثالثة ﴿ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَآ ﴾ أي أنه لا تقبل منه فدية . فهذه المنافذ الثلاثة قد سُدّت ولا سبيل للنّجاة لهؤلاء الذين قال فيهم الحق : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ أي أهلكوا أو حُبسوا في الجحيم حبساً لا فكاك منه ، وليس هذا فقط ولكن الحق يقول أيضاً : ﴿ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ .

(292/236)

---

إن كلمة " شراب " إذا سمعناها فإننا نفهم منها الرّي . ولكن الحق هنا يتبع كلمة " شراب " بتحديد مصدر هذا الشراب ، إنه " من حميم " ليحدث ما يُسمى " انبساط " و" انقباض " ؛ فالشيء الذي يسرّ الإنسان تنبسط له النفس . والشيء الذي يحزن الإنسان تنقبض له النفس . ولو أن الأمر المحزن جاء بداية في هذا القول الكريم لانقبضت النفس في المسار

الطبيعي ، لكن الحق شاء أن يأتي أولاً بكلمة من يسمعها تُسر نفسه وهي " شراب " ثم تبعها بما يقبض النفس " من حميم " ليكون الألم ألمين : ألم زوال السرور ، وألم مجيء الحزن .

ويصور القرآن في موضع آخر هذه الصورة فيقول : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ . . . ﴾ [ الكهف : 29 ] .

وتنبسط النفس حين تسمع الجزء الأول وهو : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ ﴾ ولكنها تنقبض فور سماعها ﴿ بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ .

وصورة أخرى عندما يقول الحق : ﴿ . . . فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [ التوبة : 34 ] .

وتنبسط النفس – كما علمنا – حينما تسمع خير البشارة ؛ لأن البشارة تأتي للأمر المفرح ، وتنقبض عندما تعلم أن البشارة هي بالعذاب الأليم . إذن فقد جاء الحق بالانبساط ، وجاء بالانقباض . وهذه سنة من سنن الله في التأديب . ومثال على ذلك : عندما يرتكب إنسان مظالم كثيرة ، وتفاقم واستفحل شره ويريد الله أن ينتقم منه ، إنه سبحانه لا ينتقم منه وهو على حاله الطبيعي ، إنما يرفع الحق – سبحانه – هذا الظالم إلى درجات عالية ثم يخسف به الأرض .

ولذلك يقول الحق : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً . . . ﴾ [ الأنعام : 44 ] .

وساعة تسمع ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ فأنت تخاف ؛ لأن الفتح هنا " عليهم " وليس " لهم " .

لكنك ساعة تسمع قوله الحق : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ [ الفتح : 1 ] .

فإنك تحس بالانشراح والسرور ؛ لأن الفتح هنا لصالح المتلقي وليس عليه هكذا يريد الحق أن يصْلى المتجبرون العذاب المضاعف : ﴿ . . . لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴾ [ الأنعام : 70 ] .

والعذاب هنا نتيجة لما فعلوه وليس فعل جبار متسلط . أما غيرهم من المتساوين معهم في الملكات ، واختاروا الخير فآمنوا بالمنهج وطبقوه على أنفسهم فقد نالوا الخير بما فعلوا ، والتكوين الإنساني في ذاته صالح لفعل الخير ولفعل الشر ، وسنة الحق واضحة جلية : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ [ الزلزلة : 7-8 ] .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(294/236)*

---

فائدة

قال الجصاص :

قوله تعالى: ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾

قال قتادة: هي منسوخة بقوله تعالى: ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾

[التوبة:5] وقال مجاهد: ليست بمنسوخة، لكنه على جهة التهدد كقوله تعالى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴾ وقوله ﴿ تُبْسَلَ ﴾ قال الفراء: "ترتهن" وقال الحسن ومجاهد والسدي: "تسلم". وقال قتادة: "تحبس". وقال ابن عباس: "تفضح". وقيل: أصله الارتهان، وقيل: التحريم، ويقال أسد باسل لأن فريسته مرتهنة به لا تفلت منه، وهذا بسل عليك أي حرام عليك لأنه مما يرتهن به، ويقال: أعطي الراقي بسلته أي أجرته لأن العمل مرتهن بالأجرة، والمستبسل المستسلم لأنه بمنزلة المرتهن بما أسلم فيه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص جـ 3 صـ ﴾

*(295/236)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا

كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (70) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً ﴾ قال : مثل قوله ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ [ المدثر : 11 ] .

وأخرج عبد بن حميد وأبو داود في ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه عن قتادة في قوله ﴿ وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً ﴾ قال : ثم أنزل في سورة براءة فأمر بقتالهم ، فقال ﴿ اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [ التوبة : 5 ] فنسختها .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ اتخذوا دينهم لعباً ولهواً ﴾ قال : أكلاً وشرباً .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ أن تبسل ﴾ قال : تفضح . وفي قوله ﴿ أبسلوا ﴾ قال : فضحوا .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ أن تبسل ﴾ قال : تسلم وفي قوله ﴿ أبسلوا بما كسبوا ﴾ قال : أسلموا بجرائرهم .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل أن

تبسل نفس ؟ قال : يعني أن تحبس نفسه بما كتبت في النار . قال وهل تعرف العرب ذلك ؟

قال : نعم ، أما سمعت زهيراً وهو يقول :

وفارقتك برهن لا فكاك له . . . يوم الوداع وقلبي مبسل علقاً

(296/236)

---

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ أن تبسل نفس ﴾ قال : تؤخذ فتحبس . وفي قوله ﴿ وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها ﴾ قال : لو جاءت بملء الأرض ذهباً لم يقبل منها .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا ﴾ قال : أخذوا بما كسبوا .

وأخرج أبو الشيخ عن سفيان بن حسين أنه سأل عن قوله ﴿ أبسلوا ﴾ قال : اخذلوا أو أسلموا ، أما سمعت قول الشاعر :

فإن أقفرت منهم فأنهم بسل . . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(297/236)

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (66) لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (67) وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (68) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (69) وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (70) ﴾

إنها جولة لتقرير المفاصلة التي انتهت بها الموجة السابقة ؛ فقوم النبي – صلى الله عليه وسلم – هم الذين كذبوا بما جاءهم به – وهو الحق – ومن ثم انفصل ما بينه وبين قومه وانبتَّ ؛ وأُمر أن يفاصلهم فيعلن إليهم أنه ليس عليهم بوكيل ، وأنه يتركهم لمصيرهم الذي لا بد آتٍ ، وأمر أن يعرض عنهم فلا يجالسهم متى رآهم يخوضون في الدين ، ويتخذونه لعباً ولهواً ، ولا يوقرونه التوقير الواجب للدين ، وأمر – مع ذلك – أن يذكرهم ويحذرهم ويبلغهم وينذرهم ، ولكن على أنه وإياهم – وهم قومه – فريقان مختلفان ، وأمتان متميزتان . . فلا

قوم ولا جنس ولا عشيرة ولا أهل في الإسلام . . إنما هو الدين الذي يربط ما بين الناس أو يفصم . . وإنما هي العقيدة التي تجمع بين الناس أو تفرق . وحين يوجد أساس الدين توجد تلك الروابط الأخرى . وحين تنفصم هذه العروة تفصم الروابط والصلات .

*(298/236)*

---

وهذه هي الخلاصة المجملة لهذه الموجة من السياق .

﴿ وكذب به قومك – وهو الحق – قل : لست عليكم بوكيل . لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون ﴾ . .

والخطاب لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – يعطيه ، ويعطي المؤمنين من ورائه ، الثقة التي تملأ القلب بالطمأنينة . الثقة بالحق – ولو كذب به قومه وأصروا على التكذيب – فما هم بالحكم في هذا الأمر ، إنما كلمة الفصل فيه لله سبحانه . وهو يقرر أنه الحق . وأن لا قيمة ولا وزن لتكذيب القوم !

ثم يأمر الله تعالى نبيه – صلى الله عليه وسلم – أن يبرأ من قومه وينفض منهم يده ، وأن يعلنهم بهذه المفاصلة ، ويعلمهم أنه لا يملك لهم شيئاً ؛ وأنه ليس حارساً عليهم ولا موكلاً بهم بعد البلاغ ، ولا مكلفاً أن يهدي قلوبهم – فليس هذا من شأن الرسول – ومتى أبلغهم

ما معه من الحق ، فقد انتهى بينه وبينهم الأمر ؛ وأنه يخلي بينهم وبين المصير الذي لا بد أن ينتهي إليه أمرهم . فإن لكل نبأ مستقراً ينتهي إليه ويستقر عنده . وعندئذ يعلمون ما سيكون !

﴿ لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون ﴾ . .

وفي هذا الإجمال من التهديد ما يزلزل القلوب . .

إنها الطمأنينة الواثقة بالحق ؛ الواثقة بنهاية الباطل مهما تبجح ، الواثقة بأخذ الله للمكذبين في الأجل المرسوم ، الواثقة من أن كل نبأ إلى مستقر ؛ وكل حاضر إلى مصير .

وما أحوج أصحاب الدعوة إلى الله – في مواجهة التكذيب من قومهم ، والجفوة من عشيرتهم ، والغربة في أهلهم ، والأذى والشدة والتعب واللأواء . . ما أحوجهم إلى هذه الطمأنينة الواثقة التي يسكبها القرآن الكريم في القلوب !

*(299/236)*

---

فإذا أنهى إليهم هذا البلاغ ، وإذا واجه تكذيبهم بهذه المفاصلة . . فإنه – صلى الله عليه وسلم – مأمور بعد ذلك ألا يجالسهم – حتى للبلاغ والتذكير – إذا رآهم يخوضون في آيات الله بغير توقير ؛ ويتحدثون عن الدين بغير ما ينبغي للدين من الجد والمهابة ؛ ويجعلون الدين

موضعاً للعب واللهو ؛ بالقول أو بالفعل ؛ حتى لا تكون مجالسته لهم – وهم على مثل هذه الحال – موافقة ضمنية على ما هم فيه ؛ أو قلة غيرة على الدين الذي لا يغار المسلم على حرمة كما يغار عليه .

فإذا أنساه الشيطان فجلس معهم ، ثم تذكر ، قام من فوره وفارق مجلسهم :

﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره . وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾ . .

ولقد كان هذا الأمر للرسول – صلى الله عليه وسلم – ويمكن في حدود النص أن يكون أمراً لمن وراءه من المسلمين . . كان هذا الأمر في مكة . حيث كان عمل الرسول – صلى الله عليه وسلم – يقف عند حدود الدعوة . وحيث كان غير مأمور بقتال للحكمة التي أرادها الله في هذه الفترة . وحيث كان الاتجاه واضحاً لعدم الاصطدام بالمشركين ما أمكن . . فكان هذا الأمر بألا يجلس النبي – صلى الله عليه وسلم – في مجالس المشركين ؛ متى رآهم يخوضون في آيات الله ويذكرون دينه بغير توقير ، والمسارعة إلى ترك هذه المجالس – لو أنساه الشيطان – بمجرد أن يتذكر أمر الله ونهيه . وكان المسلمون كذلك مأمورين بهذا الأمر كما تقول بعض الروايات . . والقوم الظالمون ، المقصود بهم هنا القوم المشركون . كما هو التعبير الغالب في القرآن الكريم . .

فأما بعد أن قامت للإسلام دولة في المدينة ، فكان للنبي – صلى الله عليه وسلم – شأن

آخر مع المشركين . وكان الجهاد والقتال حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . حيث لا يجترىء أحد على الخوض في آيات الله !

*(300/236)*

---

ثم يكرر السياق المفاصلة بين المؤمنين والمشركين ، كما قررها من قبل بين الرسول – صلى الله عليه وسلم – وبين المشركين . ويقرر اختلاف التبعة واختلاف المصير :

﴿ وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ، ولكن ذكرى لعلهم يتقون ﴾ . .

فليست هنالك تبعة مشتركة بين المتقين والمشركين . فهما أمتان مختلفتان – وإن اتحدتا في الجنس والقوم فهذه لا وزن لها في ميزان الله ، ولا في اعتبار الإسلام . . إنما المتقون أمة ، والظالمون ( أي المشركون ) أمة ، وليس على المتقين شيء من تبعة الظالمين وحسابهم . ولكنهم إنما يقومون بتذكيرهم رجاء أن يتقوا مثلهم ، وينضموا إليهم . . وإلا فلا مشاركة في شيء ، إذا لم تكن مشاركة في عقيدة !

هذا دين الله وقوله . . ولمن شاء أن يقول غيره . ولكن ليعلم أنه يخرج من دين الله كله إذ يقول ما يقول !

ويستمر السياق في تقرير هذه المفاصلة ؛ وفي بيان الحدود التي تكون فيها المعاملة :

﴿ وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرّتهم الحياة الدنيا ، وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع ، وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها . أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا ، لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ . . ونقف من الآية أمام عدة أمور :

(301/236)

---

أولها : أن الرسول صلى الله عليه وسلم – وينسحب الأمر على كل مسلم – مأمور أن يهمل شأن الذين يتخذون دينهم لعباً ولهواً . . وهذا يتم بالقول كما يتم بالفعل . . فالذي لا يجعل لدينه وقاره واحترامه باتخاذه قاعدة حياته اعتقاداً وعبادة ، وخلقاً وسلوكاً ، وشريعة وقانوناً ، إنما يتخذ دينه لعباً ولهواً . . والذي يتحدث عن مبادئ هذا الدين وشرائعه فيصفها أوصافاً تدعو إلى اللعب واللهو . كالذين يتحدثون عن " الغيب " – وهو أصل من أصول العقيدة – حديث الاستهزاء . والذين يتحدثون عن " الزكاة " وهي ركن من أركان الدين حديث الاستصغار . والذين يتحدثون عن الحياء والخلق والعفة – وهي من مبادىء هذا الدين – بوصفها من أخلاق المجتمعات الزراعية ، أو الإقطاعية ، أو " البرجوازية " الزائلة ! والذين يتحدثون عن قواعد الحياة الزوجية المقررة في الإسلام حديث

إنكار أو استنكار . والذين يصفون الضمانات التي جعلها الله للمرأة لتحفظ عفتها بأنها " أغلال ! " . . وقبل كل شيء وبعد كل شيء . . الذين ينكرون حاكمية الله المطلقة في حياة الناس الواقعية : السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتشريعية . . ويقولون : إن للبشر أن يزاولوا هذا الاختصاص دون التقيد بشريعة الله . . أولئك جميعاً من المعنيين في هذه الآيات بأنهم يتخذون دينهم لعباً ولهواً . وبأن المسلم مأمور بمفاصلتهم ومقاطعتهم إلا للذكرى . وبأنهم الظالمون – أي المشركون – والكافرون الذين أبسلوا بما كسبوا ، فلهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون . .

وثانيها : أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – وينسحب الأمر على كل مسلم – مأمور بعد إهمال شأن هؤلاء الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا – أن يقوم بتذكيرهم وتخويفهم من أن ترتهن نفوسهم بما كسبوا ، وأن يلاقوا الله ليس لهم من دونه ولي ينصرهم ، ولا شفيع يشفع لهم ؛ كما أنه لا يقبل منهم فدية لتطلق نفوسهم بعد ارتهانها بما كسبت .

*(302/236)*

وللتعبير القرآني جماله وعمقه وهو يقول :

﴿ وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع ، وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها ﴾ . .

فكل نفس على حدة تبسل ( أي ترتهن وتؤخذ ) بما كسبت ، حالة أن ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع ، ولا يقبل منها عدل تفتدى به وتفك الربقة !

فأما أولئك الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا فهؤلاء قد ارتهنوا بما كسبوا ؛ وحق عليهم ما سبق في الآية ؛ وكتب عليهم هذا المصير :

﴿ أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا ، لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ .

.

لقد أخذوا بما فعلوا ؛ وهذا جزاؤهم : شراب ساخن يشوي الحلوق والبطون ؛ وعذاب أليم بسبب كفرهم ، الذي دل عليه استهزاؤهم بدينهم . .

وثالثها : قول الله تعالى في المشركين : ﴿ الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً ﴾ . .

فهل هو دينهم ؟ . .

إن النص ينطبق على من دخل في الإسلام ، ثم اتخذ دينه هذا لعباً ولهواً . . وقد وجد هذا الصنف من الناس وعرف باسم المنافقين . . ولكن هذا كان في المدينة . .

فهل هو ينطبق على المشركين الذين لم يدخلوا في الإسلام ؟ إن الإسلام هو الدين . . هو دين البشرية جميعاً . . سواء من آمن به ومن لم يؤمن . . فالذي رفضه إنما رفض دينه . . باعتبار أنه الدين الوحيد الذي يعده الله ديناً ويقبله من الناس بعد بعثة خاتم النبيين .

ولهذه الإضافة دلالتها في قوله :

﴿ وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً ﴾ . .

فهي – والله أعلم – إشارة إلى هذا المعنى الذي أسلفناه ، من اعتبار الإسلام ديناً للبشرية كافة . فمن اتخذه لعباً ولهواً ، فإنما يتخذ دينه كذلك . . ولو كان من المشركين . .

*(303/236)*

---

ولا نزال نجدنا في حاجة إلى تقرير من هم المشركون ؟ إنهم الذين يشركون بالله أحداً في خصائص الألوهية . سواء في الاعتقاد بألوهية أحد مع الله . أو بتقديم الشعائر التعبدية لأحد مع الله . أو بقبول الحاكمية والشريعة من أحد مع الله . ومن باب أولى من يدعون لأنفسهم واحدة من هذه ، مهما تسمَّوا بأسماء المسلمين ! فلنكن من أمر ديننا على يقين !

ورابعها : حدود مجالسة الظالمين – أي المشركين – والذين يتخذون دينهم لعباً ولهواً . .

وقد سبق القول بأنها لمجرد التذكير والتحذير . فليست لشيء وراء ذلك – متى سمع

الخوض في آيات الله ؛ أو ظهر اتخاذها لعباً ولهواً بالعمل بأية صورة مما ذكرنا أو مثلها . .

وقد جاء في قول القرطبي في كتابه : الجامع لأحكام القرآن بصدد هذه الآية :

" في هذه الآية ردٌّ من كتاب الله عز وجل ، على من زعم أن الأئمة الذين هم حجج وأتباعهم ، لهم أن يخالطوا الفاسقين ، ويصوّبوا آراءهم تَقيةً . . "

ونحن نقول : إن المخالطة بقصد الموعظة والتذكير وتصحيح الفاسد والمنحرف من آراء الفاسقين تبيحها الآية في الحدود التي بينتها . أما مخالطة الفاسقين والسكوت عما يبدونه من فاسد القول والفعل من باب التقية فهو المحظور . لأنه – في ظاهره – إقرار للباطل ، وشهادة ضد الحق . وفيه تلبيس على الناس ، ومهانة لدين الله وللقائمين على دين الله . وفي هذه الحالة يكون النهي والمفارقة .

كذلك روى القرطبي في كتابه هذه الأقوال :

" قال ابن خويز منداد : من خاض في آيات الله تركت مجالسته وهجر – مؤمناً كان أو كافراً – قال : وكذلك منع أصحابنا الدخول إلى أرض العدو ، ودخول كنائسهم والبيع ، ومجالسة الكفار وأهل البدع ؛ وألا تعتقد مودتهم ، ولا يسمع كلامهم ولا مناظرتهم .

*(304/236)*

وقد قال بعض أهل البدع لأبي عمران النخعي : اسمع مني كلمة . فأعرض عنه ، وقال : ولا نصف كلمة ! . ومثله عن أيوب السختياني . وقال الفضيل بن عياض : من أحب صاحب بدعة أحبط الله عمله ، وأخرج الإسلام من قلبه ، ومن زوج كريمته من مبتدع فقد قطع رحمها ؛ ومن جلس مع صاحب بدعة لم يعط الحكمة ، وإذا علم الله من رجل أنه مبغض لصاحب بدعة رجوت أن يغفر الله له . وروى أبو عبد الله الحاكم عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : " قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام " .

فهذا كله في صاحب البدعة وهو على دين الله . . وكله لا يبلغ مدى من يدعي خصائص الألوهية بمزاولته للحاكمية ؛ ومن يقره على هذا الادعاء . . فليس هذا بدعة مبتدع ؛ ولكنه كفر كافر ، أو شرك مشرك . مما لم يتعرض له السلف لأنه لم يكن في زمانهم . فمنذ أن قام الإسلام في الأرض لم يبلغ من أحد أن يدعي هذه الدعوى ، وهو يزعم الإسلام . ولم يقع شيء من ذلك إلا بعد الحملة الفرنسية التي خرج بعدها الناس من إطار الإسلام – إلا من عصم الله – وكذلك لم يعد في قول هؤلاء السلف ما ينطبق على هذا الذي كان ! فقد تجاوز كل ما تحدثوا عنه بمثل هذه الأحكام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 2 صـ 1130.1126 ﴾

لطيفة

قال فى البحر المديد :

الإشارة : لا ينبغي للشيخ أو الواعظ أن يمل من التذكير ، ولو رأى من أصحابه غاية الصفاء ، ولا ينبغي للمريد أن يمل من التصفية والتشمير ، ولو بلغ من تصفية نفسه ما بلغ ، أو أَظهرت له من الاستقامة ما أظهرت ، قال تعالى : ﴿ وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها ﴾ .

قال أبو حفص النيسابوري رضي الله عنه : من لم يتَّهم نفسه على دوام الأوقات ، ولم يخالفها في جميع الأحوال ، ولم يجرها إلى مكروهها في سائر أيامه ، كان مغرورًا ، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها ، وكيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه ؛ والكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم ، يقول : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [ يوسف : 53 ] . وقال أيضاً : منذ أربعين سنة اعتقادي في نفسي أن الله ينظر إليَّ نظر السخط ، وأعمالي تدل على ذلك . وقال الجنيد رضي الله عنه : لا تسكن إلى نفسك ، وإن دامت طاعتها لك في طاعة ربك . وقال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه : ( ما رضيت عن نفسي طرفة عين ) . إلى غير ذلك من مقالاتهم التي تدل على عدم الرضى عن النفس وعدم القناعة منها بالتصفية التي آظهرت .

ويُحكى عن القطب بن مشيش ؛ أنه لما بلغ في تلاوته هذه الآية ، تواجد وأخذه حالٌ عظيم

اقتطعه عن حسه ، حتى كان يتمايل ، فيميل الجبل معه يمينًا وشمالاً . نفعنا الله بذكرهم آمين .

(306/236)

---

فإن قلت : العارف لم تبق له نفس يتهمها ؛ لفنائه في شهوده وانطوائه في وجوده ؟ قلت : العارف الكامل هو الذي لا يحجبه جمعه عن فرقة ، ولا فرقة عن جمعه ، فإذا رجع إلى شهود فرقه ، رأى نفسه عبدًا متصفًا بنقائص العبودية التي لا نهاية لها ، ولذلك قالوا : للنفس من النقائص ما لله من الكمالات . فلو تطهرت كل التطهير لم يقبل منها ، وإذا نظر إلى نعت جمعه رأى نفسه مجموعًا في الحضرة ، متصفًا بالكمالات التي لا نهاية لها ، فيغيب عن شهود عبوديته في عظمة ربوبيته ، لكنه لا يحجب بجمعه عن فرقه ؛ لكماله ، وإلى هذا المعنى أشار في الحكم بقوله : لا نهاية لمذامك إن أرجعك إليك ، ولا تفرغ مدائحك إن أظهر جوده عليك . وبالله التوفيق . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المديد حـ 2 صـ 132 .

﴿133

(307/236)

موعظة

قال فى روح البيان :

اعلم أن التكذيب بآيات الله تعالى والاستهزاء بها هو الكفر وعاقبة الكفر هو العذاب الأليم وكذا الإصرار على المعاصي يجر كثيراً من عصاة المؤمنين إلى الموت على الكفر والعياذ بالله .

وعن أبي إسحاق الفزاري قال : كان رجل يكثر الجلوس إلينا ونصف وجهه مغطى ، فقلت له : إنك تكثر الجلوس إلينا ونصف وجهك مغطى ، أطلعني على هذا ، فقال : وتعطيني الأمان ؟ قلت : نعم قال كنت نباشاً فدفنت امرأة فأتيت قبرها فنبشت حتى وصلت إلى اللبن ثم ضربت بيدي إلى الرداء ، ثم ضربت بيدي إلى اللفافة فمددتها فجعلت تمدها هي ، فقلت : أتراها تغلبني فجيت على ركبتي ، فجررت اللفافة فرفعت يدها فلطمتني وكشف وجهه ، فإذا أثر خمس أصابع ، فقلت له : ثم مه ؟ قال : ثم رددت عليها لفافتها وإزارها ، ثم رددت التراب وجعلت على نفسي أن لا أنبش ما عشت ، قال : فكتبت بذلك إليّ الأوزاعي فكتب إلى الأوزاعي ويحك سله عمن مات من أهل السنة ووجهه إلى القبلة فسألته عن ذلك ، فقال : أكثرهم حول وجهه عن القبلة فكتبت بذلك إلى الأوزاعي فكتب إليّ إنا لله وإنا إليه راجعون ثلاث مرات ، أما من حول وجهه عن القبلة

فإنه مات على غير السنة ، وأراد بالسنة ملة الإسلام نسأل الله تعالى العفو والمغفرة والرضوان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 3 صـ 67 ﴾

(308/236)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

" اتَّخَذُوا " فيها وجهان :

أحدهما : أنها مُتَعَدِّيَةٌ لواحد ، على أنها بمعنى " اكتسبوا " و" عملوا " ، و" لهواً ولعلباً " على هذا مفعول من أجله ؛ أي : اكتسبوه لأجل اللهو واللعب .

قال أبو حيَّان : ويظهر من بعض كلام الزمخشري ، وكلام ابن عطية أنَّ " لعباً ولهواً " هوا لمفعول الأوَّل ، و" دينهم " هو المفعول الثاني .

قال الزمخشري : أي دينهم الذي كان يجب أن يأخذوا به لَعِباً ولهواً ، وذلك أن عبادتهم وما كانوا عليه من تَبْحِير البَحَائِرِ وتسييب والسَّوائبِ من باب اللَّهْوِ واللعبِ واتِّباعِ هوى النفس وما هو من جِنْسِ الهَزْلِ لا الجِدِّ ، أو اتخذوا ما هو لَعِبٌ ولهو من بعادة الأصنام دِيناً لهم ، أو اتخذوا دينهم الذي كُلِّفُوُ ، وهو دين الإسلام لعباً ولهواً ، فتفسيره الأوَّلُ هو ما ذكرناه عنه " .

انتهى قال شهاب الدين : وهذا الذي ذَكَرَاهُ إنما ذَكَرَاهُ تفسير معنى لا تفسير إعراب ، وكيف يجعلان النكرة مَفْعُولاً أوّل ، والمعرفة مفعولاً ثانياً ثم غير داعية إلى ذلك ، مع أنهما من أكابر أهْلِ هذا اللسان ، وانظر كيف أبرزا ما جَعَلاَهُ مفعولاً أول معرفة ، وما جعلاه ثانياً نكرة في تركيب كلامها [ يخرج ] على كلام العرب ، فكيف يظن بهما أن يجعلا النكرة محدثاً عنها ، والمعرفة حديثاً في كلام الله تعالى ؟ قوله تعالى : و﴿ وَغَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا ﴾ تحتمل وجهين : أحدهما : أنها مستأنفة .

*(309/236)*

---

والثاني : أنها عطف على صلة " الَّذين " ، أي : الذين اتَّخذُوا وغرَّتْهُم ، وقد تقدم معنى " الغُرُور " في آخر آل عمران .

وقيل : هنا : غَرَّتْهُمْ من " الغَرّ " بفتح الغين ، أي : ملأت أفواههم وأشبعتهم ، وعليه قول الشاعر : [ الطويل ]

2199 - وَلَمَّا الْتَقَيْنَا بالحُلَيْبَةِ غَرَّني . . .

بِمَعْرُوفِهِ حَتَّى خَرَجْتُ أَفُوقُ

قوله : " أنْ تُبْسَلَ " في هذا وجهان :

المشهور – بل الإجماع – على أنه مفعول من أجْلِهِ ، وتقديره : مَخَافَةَ أن تُبْسَلَ ، أو كاراهة أن تُبْسَلَ أو ألاَّ تبسل .

والثاني : قال أبو حيَّان بعد أن نقل الاتِّفاقَ على المفعول من أجله : " ويجوز عندي أن يكون في موضع جرّ على البدلِ من الضمير ، والضمير مفسّر بالبَدَلِ ، ويضمر الإبْسَالُ لما في الإضمار من التَّفْخيمِ ، كما أضمروا ضمير الأمْرِ والشَّأنِ ، والتقدير : وذَكِّرْ بارتهان النفوسن وحبسها بما كسبت ، كما قالوا : " اللهم صَلِّ عليه الرءوف الرحيم " ، وقد أجاز ذلك سيبويه ؛ قال : فإن قلت : وضربوني قومك ، نَصَبْتَ إلا في قول من قال : " أكلوني البراغيث " أو تحمله على البَدَل من المضمر .

وقال أيضاً : فإن قلت : " ضربين وضربتهم قومك ، رفعت على التقديم والتأخير إلا أن تجعل ها هنا البدلن كما جعلته في الرفع " . انتهى .

وقد روي قوله : [ الطويل ]

2200 - . . . . . .

فاسْتَاكَتْ بِهِ عُودِ إسْحِلِ

بجر " عُود " على البدل من الضمير .

قال شهاب الدين : أما تفسير الضمير غير المرفوع بالبدل ، فهو قول الأخفش ، وأنشد عليه هذا العَجُزَ وأوله : [ الطويل ]

2201 - إذَا هِيَ لَمْ تَسْتَك بِعُودِ أرَاكَةٍ . . .

تُنُخِّلَ فَاسْتَاكَتْ بِهِ عُودِ إسْحِلِ

*(310/236)*

---

والبيت لطُفَيْلٍ الغَنَوِيّ ، يروى برفع " عُود " ، وهذا هو المشهور عند النُّحَاةِ ، ورفعه على إعمال الأول ، وهو " تُنُخِّلَ " ، وإهمال الثاني وهو " فَاسْتَاكَتْ " ، فأعطاه ضميره ، ولو أعمله لقال : " فاستاكت بعود إسحل " ، ولا يكن لانكسار البيت ، والرواية الأخرى التي استشهد بها ضعيفة جداً لا يعرفها أكثر المُعْرِبينَ ، ولو استشهد بما لا خلاف عليه فيه كقوله : [ الطويل ]

2202 - عَلَى حَالَةٍ لَوْ أنَّ فِي القَوْمِ حَاتِماً . . .

عَلَى جُودِهِ لَضَنَّ بالمَاءِ حَاتِمِ

بجر " حاتم " بدلاً من الهاء في " جوده " ، والقوافي مجرور لكان أوْلَى .

والإبْسَالُ : الارتهان ، ويقال : أبْسَلْتُ ولدي وأهلي ، أي أرْتَهَنْتُهُمْ ؛ قال : [ الوافر ]

2203 - وإبْسالِي بَنِيَّ بِغَيْرِ جُرْمٍ . . .

بَعَوْنَاهُ ولا بِدَمٍ مُرَاقِ

بَعَوْنَا : جَنَيْنَا والبَعْوُ : الجِنَاية .

وقيل : الإبسَالُ أن يُسْلِمَ الرجل نفسه للهَلَكَةِ وقال الراغب : " البَسْلُ : ضَمُّ الشيء ومنعه ، ولتَضَمُّنِهِ معنى الضَّمِّ استعير لتَقَطُّبِ الوَجْهِ ، فقيل : هو باسل ومُبْتسلُّ الوجه ، ولتضمينه معنى المنع قيل للمُحَرَّم والمرتهن : بَسْلٌ " ، ثم قال : والفرقُ بين الحرام والبَسْل أنَّ الحرام عام فيما كان ممنوعاً منه بالقَهْرِ والحكم ، والبَسْلُ هو الممنوع بالقَهْرِ ، وقيل للشجاعة : بَسَالَة ؛ إما لما يوصف به الشجاع من عُبُوس وَجْهِهِ ، ولأنه شديد البُسُورَةِ يقال بسر الرجل إذا استد عبوسه ، وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾ [ المدثر : 22 ] فإذا زاد قالوا بَسَلَ ، أو لكونه محرماً على أقرانه ، أو لأنه يَمْنع ما حَوْزَتِهِ ، وما تحت يده من أعدائه والبُسْلَةُ ، أجْرَةُ الرَّاقِي مأخوذة من قول الرَّاقي : أبْسَلْتُ زيداً ؛ أي : جَعَلْتُهُ مُحَرَّماً على الشيطان ، أو جعلته شجاعاً قويًا على مُدافعتِهِ ، و" بَسَل " في معنى " أجَلْ " و" بَسْ " .

(311/236)

---

أي : فيكون حَرْفَ جواب كـ " أجل " ، واسم فعل بمعنى اكتف كـ " بس " .

وقوله " بما " متعلّق بـ " تُبْسَلَ " ، أي بسبب ، و" ما " مصدرية ، أو بمعنى " الذي " ، أو نكرة وأمرها واضح .

فصل في معنى التبسل

قال مجاهد وعكرمة والسدي : قال ابن عبَّاس : " تُبْسَل " : تَهْلِكُ ، وروي عن ابن عباس تُرتهنُ في جَهنَّم بما كسبت في الدنيا ، وهو قول الفراء .

وقال قتادة : تُحْبَسُ في جهنم .

وقال الضحاك : تُحْرَقُ .

وقال الأخفش : تُجَازَى .

وروي عن ابن عباس : تُفضحُ وقال ابن زيد : تُؤخَذُ .

قوله : " لَيْسَ لَهَا " هذه الجملة فيها ثلاثة أوجه :

أحدها : أنها مُسْتَأنَفَةٌ سِيقَتْ للإخبار بذلك .

والثاني : أنها في مَحَلِّ رفع صفة لـ " نفس " .

والثالث : أنها في مَحَلِّ نَصْبٍ حالاً من الضمير في " كسبت " .

قوله : " مِنْ دُون " في " مِنْ " وجهان :

أظهرهما : أنها لابْتِدَاءِ الغاية .

والثاني : أنها زَائِدَةٌ نقله ابن عطية ، وليس بشيء وإذا كانت لابتداء الغايةِ ، ففيما يتعلَّق به وجهان :

أحدهما : أنها حالٌ من " وليّ " ؛ لأنها لو تأخَّرَتْ لكانت صِفَةً له فتتعلَّقُ بمحذوف هو

حال.

الثاني: أنها خبر "ليس" فتتعلَّق بمحذوف أيضاً وهو خبر لـ "ليس"، وعلى هذا فيكون "لها" متعلقاً بمحذوف على البيان، كما تقدم نظيره، و"من دون الله" فيه حذف مُضَاف أي: من دون عذابه وجزائه وَلِيّ ولا شفيع يشفع لها في الآخرة.

*(312/236)*

---

قوله: "وإن تَعْدِل" أي: تَفْتَدِي "كُلَّ عَدْلٍ": كُلّ فداء، و"كل" منصوب على المصدرية؛ لأن "كل" بحسب ما تضاف إليه هذا هو المشهور، ويجوز نَصْبُهُ على المفعول به؛ أي: وإن تلإس يَداهَا كُلَّ ما تَفْدِي به لأُؤخَذُ، فالضمير في "لا يؤخَذُ" على الأوَّل، قال أبو حيَّان: "عائد على المَعْدُولِ به المفهوم من سياق الكلام، ولا يعود إلى المصدر؛ لأنه لا يُسْنَدُ إليه الأخْذُ، وأما في ﴿ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ [البقرة: 48] فبمعنى المَفْدِيِّ به فيصح" انتهى.

أي: إنه إنما أسند الأخْذَ إلى العَدْلِ صريحاً في "البقرة"؛ لأنه ليس المراد المصدر، بل الشيء المَفْدِيَّ به، وعلى الثَّاني يعود على "كل عدل"؛ لأنه ليس مصدراً فهو كآية البقرة.

وقال ابن الخطيب: ويمكن حَمْلُ الأخذ هنا بمعنى القَبُولِ؛ قال تعالى ﴿ وَيَأْخُذُ الصدقات

﴿ [التوبة : 104 ] أي : يقبلها وإذا [ ثبت هذا فيُحْمَلُ ] الأخذ هاهنا على القبول ويزول المحذور ، وفي إسناد الأَخْذِ إلى المصدر عبارة عن الفعل يعني يؤخذ مسنداً " إلى " منها لا إلى ضميره أي : لأن العدل بالمعنى المصدري لا يؤخذ ، بخلاف قوله : ﴿ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْل ﴾ فإنه المَفْدِيُّ به .

*(313/236)*

---

قوله : ﴿ أولئك الذين أُبْسِلُواْ ﴾ يجوز أن يكون " الَّذينَ " خبراً ، و" لهم شراب " خبراً ثانياً ، وأن يكون " لهم شراب " حالاً ؛ إما من الضمير في " أُبْسِلواط وإمَّا من الموصول نفسه ، و" شراب " فاعلٌ لاعتماد الجار قبله على ذِي الحالِ ، ويجوز أن يكون " لهم شراب " مُسْتَأنفاً ، فهذه ثلاثة أوجه ، ويجوز أن يكون " الذين " بدلاً من " أولئك " أو نعتاً فيتعين أن يكون الجملة من " لهم شراب " خبراً للمبتدأ ، فيحصل في الموصُولِ أيضاً ثلاثة أوجه ؛ كونه خبراً ، وأو بدلاً ، أو نعتاً فجاءت مع ما قبلها ستة أوجه ستة أوجه في هذه الآية ، و" شراب " يجوز رَفْعُهُ من وجهين ؛ الابتدائية والفاعلية عند الأخفش ، وعند سيبويه أيضاً على أن يكون " لهم " هو خبر المبتدأ أو حالاً ، حيث جعلناه حالاً ، و" شراب " مُرتفعٌ به لاعتماده على ما تقدَّم ، و" ن حميم " صفة لـ" شراب " فهو في مَحَلِّ رفع ، ويتعلق

بمحذوف .

و" شراب " فعال بمعنى مفعول كـ" طعام " بمعنى " مطعوم " ، و" شراب " بمعنى " مشروب " لا يَنْقَاسُ ولا يقال : " أكال " بمعنى " مأكول " ولا " ضراب " بمعنى " مضروب " .

والإشارة بذلك إلى الَّذين اتخذوا في قول الزمخشري والحوفي ، فلذلك أتى بصيغة الجمع ، وفي قول ابن عطية وأبي البقاء إلى الجنْسِ المفهوم من قوله " أن تُبْسَلَ نَفْسٌ " إذ المرادُ به عُمومُ الأنْفُسِ ، فلذلك أشير إليه بالجمع ، ومعنى الآية : أولئك الذين أبسلوا أسلمُوا للهلاكِ بما كسبوا " لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 211.216 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾

أي كِلْهم وما اختاروه فإِنَّا أَعْتَدْنَا لهم ( من خفيِّ المكر ما إذا أحللناه بهم كسرنا عليهم ) خُمار الوهم والغِلظة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 482 ﴾

(314/236)

قوله تعالى ﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (71) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تقرر أن غير الله لا يمنع من الله بنوع ، لا آلهتهم التي زعموا أنها شفعاؤهم ولا غيرها ، ثبت أنهم على غاية البينة من أن كل ما سواء لا ينفع شيئاً ولا يضر ، فكان في غاية التبكيت لهم قوله : ﴿ قل ﴾ أي بعد ما أقمت من الأدلة على أنه ليس لأحد مع الله أمر ، منكراً عليهم موبخاً لهم ﴿ أندعوا ﴾ أي دعاء عبادة ، وبين حقارة معبوداتهم فقال : ﴿ من دون الله ﴾ أي المنفرد بجميع الأمر .

ولما كان السياق لتعداد النعم ﴿ الذي خلق السماوات والأرض ﴾ [ الأنعام : 73 ] ﴿ خلقكم من طين ﴾ [ الأنعام : 2 ] ﴿ يطعم ولا يطعم ﴾ [ الأنعام : 14 ] ﴿ ويرسل عليكم حفظة ﴾ [ الأنعام : 61 ] ﴿ من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ﴾ [ الأنعام : 63 ] ﴿ الله ينجيكم منها ومن كل كرب ﴾ [ الأنعام : 64 ] قدم النفع في قوله : ﴿ ما لا ينفعنا ولا يضرنا ﴾ أي لا يقدر على شيء من ذلك ، ليكونوا على غاية اليأس من اتباع

حزب الله لهم ، وهذا كالتعليل لقوله ﴿ إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ﴾ [ الأنعام : 56 ] .

(315/236)

---

ولما ذكر عدم المنفعة في دعائهم ، أشار إلى وجود الخسارة في رجائهم فقال : ﴿ ونرد ﴾ أي برجوعنا إلى الشرك ، وبناه للمفعول لأن المنكر الرد نفسه من أيّ راد كان ﴿ على أعقابنا ﴾ أي فنأخذ في الوجه المخالف لقصدنا فنصير كل وقت في خسارة بالبعد عن المقصود ﴿ بعد إذ هدانا الله ﴾ أي الذي لا خير إلا وهو عنده ولا ضر إلا وهو قادر عليه ، إلى التوجه نحو المقصد ، ووفقنا له وأنقذنا من الشرك .

ولما صور حالهم ، مثّله فقال : ﴿ كالذي ﴾ أي نرد من علو القرب إلى المقصود إلى سفول البعد عنه رداً كرد الذي ﴿ استهوته ﴾ أي طلبت مزوله عن درجته ﴿ الشياطين ﴾ فأنزلته عن أفق مقصده إلى حضيض معطبه ، شبه حاله بحال من سقط من عال في مهواة مظلمة فهو في حال هويه في غاية الاضطراب وتحقق التلف والعمى عن الخلاص ﴿ في الأرض ﴾ حال كونه ﴿ حيران ﴾ تائهاً ضالاً لا يهتدي لوجهه ولا يدري كيف يسلك ثم استأنف قوله : ﴿ له ﴾ أي هذا الذي هوى ﴿ أصحاب ﴾ أي عدة ، ولكنه لتمكن

الحيرة منه لا يقبل ﴿ يدعونه إلى الهدى ﴾ وبين دعاءهم بقوله : ﴿ ائتنا ﴾ وهو قد اعتسف المهمة تابعاً للشياطين ، لا يجيبهم ولا يأتيهم لأنه قد غلب على نفسه ، وحيل بينه وبين العبر والنزوان .

ولما كان هذا مما يعرفونه وشاهدوه مراراً ، وكانوا عالمين بأن دعاء أصحابه له في غاية النصيحة والخير ، وأنه إن تبعهم نجا ، وإلا هلك هلاكاً لا تدارك له ، فكان جوابهم : إن دعاء أصحابه به لهدى ، بين أنه مضمحل تافه جداً بحيث إنه يجوز أن يقال : ليس هدى بالنسبة إلى هذا الذي يدعوهم إليه ، بقوله : ﴿ قل إن هدى الله ﴾ أي المستجمع لصفات الكمال ﴿ هو ﴾ أي خاصة ﴿ الهدى ﴾ أي لا غيره كدعاء أصحاب المستهوي ، بل ذاك الهدى مع إنقاذه من الهلاك إلى جنب هذا الهدى كلا شيء ، لأن الشيء هو الموصل إلى سعادة الأبد .

*(316/236)*

---

ولما كان التقدير : فقد أمرنا أن نلزمه ونترك كل ما عداه ، عطف عليه أمراً عاماً فقال : ﴿ وأمرنا لنسلم ﴾ أي ورد علينا الأمر ممن لا أمر لغيره بكل ما يرضيه لأن نسلم بأن نوقع الإسلام وهو الانقياد التام فنتخلى عن كل هوى ، وأن نقيم الصلاة بأن نوقعها بجميع

حدودها الظاهرة والباطنة فنتحلى بفعلها أشرف حلى ﴿ لرب العالمين ﴾ أي لإحسانه إلى كل أحد بكل شيء خلقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 654 .

655 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن المقصود من هذه الآية الرد على عبدة الأصنام وهي مؤكدة لقوله تعالى قبل ذلك : ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ فقال : ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ الله ﴾ أي أنعبد من دون الله النافع الضار ما لا يقدر على نفعنا ولا على ضرنا ، ونرد على أعقابنا راجعين إلى الشرك بعد أن أنقدنا الله منه وهدانا للإسلام ؟ ويقال لكل من أعرض عن الحق إلى الباطل أنه رجع إلى خلف ، ورجع على عقبيه ورجع القهقرى ، والسبب فيه أن الأصل في الإنسان هو الجهل ، ثم إذا ترقى وتكامل حصل له العلم .

قال تعالى : ﴿ والله أَخْرَجَكُم مّن بُطُونِ أمهاتكم لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة ﴾ [ النحل : 78 ] فإذا رجع من العلم إلى الجهل مرة أخرى فكأنه رجع إلى أول مرة ، فلهذا السبب يقال : فلان رد على عقبيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 24 . 25 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا ﴾

أي ما لا ينفعنا إن دعوناه .

﴿ وَلاَ يَضُرُّنَا ﴾ إن تركناه ؛ يريد الأصنام .

﴿ وَنُرَدُّ على أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ ﴾ أي نرجع إلى الضلالة بعد الهدى .

وواحد الأعقاب عِقب وهو مؤنث ؛ وتصغيره عقيبة .

يقال : رجع فلان على عِقبيه إذا أدبر .

قال أبو عبيدة : يقال لمن ردّ عن حاجته ولم يظفر بها : قد ردّ على عقبيه .

وقال المبرد : معناه تعقب بالشر بعد الخير .

وأصله من العاقبة والعقبى وهما ما كان تالياً للشيء واجباً أن يتبعه ؛ ومنه ﴿ والعاقبة لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

ومنه عَقِب الرّجل .

ومنه العقوبة ، لأنها تالية للذنب ، وعنه تكون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

---

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي أن المشركين قالوا للمؤمنين : اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد صلى الله عليه وسلم فقال الله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ الخ .

وقيل : نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه حين دعاه ابنه عبد الرحمن إلى عبادة الأصنام .

وفي توجيه الأمر إليه صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى من تعظيم شأن المؤمنين أو أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أي أنعبد متجاوزين عبادة الله تعالى الجامع لجميع صفات الألوهية التي من جملتها القدرة على النفع والضر ما لا يقدر على نفعنا أن عبدناه ولا على ضرنا إذا تركناه ، وأدنى مراتب المعبودية القدرة على ذلك .

وفاعل ﴿ نَدْعُواْ ﴾ وكذا ما عطف عليه من قوله سبحانه : ﴿ وَنُرَدُّ على أعقابنا ﴾ عام لسيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم ولغيره وليس مخصوصاً بالصديق رضي الله تعالى عنه بناء على أنه سبب النزول .

وفي الآية تغليب إذ لا يتصور الرد على العقب المراد به الرجوع إلى الشرك منه صلى الله عليه وسلم .

والمعنى أيليق بنا معشر المسلمين ذلك .

والأعقاب جمع عقب وهو مؤخر الرجل يقال : رجع على عقبه إذا انثنى راجعاً .

ويكنى به كما قيل عن الذهاب من غير رؤية موضع القدم وهو ذهاب بلا علم بخلاف الذهاب مع الإقبال ؛ وقيل : الرد على الأعقاب بمعنى الرجوع إلى الضلال والجهل ، شركاً أو غيره .

والجمهور على الأول .

والتعبير عن الرجوع إلى الشرك بالرد على الأعقاب كما قال شيخ الإسلام لزيادة تقبيحه بتصويره بصورة ما هو علم في القبح مع ما فيه من الإشارة إلى كون الشرك حالة قد تركت ونبذت وراء الظهر .

وإيثار ﴿ نُرَدُّ ﴾ على نرتد لتوجيه الإنكار إلى الارتداد برد الغير تصريحاً بمخالفة المضلين وقطعاً لاطماعهم الفارغة وإيذاناً بأن الارتداد من غير راد ليس في حيز الاحتمال ليحتاج إلى نفيه وإنكاره .

﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ ﴾ أي إلى التوحيد والإسلام أو إلى سائر ما يترتب عليه الفوز في الآخرة على ما قيل .

والظرف متعلق بنرد مسوق لتأكيد النكير لا لتحقيق معنى الرد وتصويره فقط وإلا لكفى أن يقال : بعد إذ اهتدينا كأنه قيل : أنرد إلى ذلك بإضلال المضل بعد إذ هدانا الله الذي لا هادي سواه .

(319/236)

---

وليست الآية من باب التنازع فيما يظهر ولا أن جملة ﴿ نُرَدُّ ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ ندعو ﴾ أي ونحن نرد وجوزه أبو البقاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾

استئناف ابتدائي لتأييس المشركين من ارتداد بعض المسلمين عن الدين ، فقد كان المشركون يحاولون ارتداد بعض قرابتهم أو من لهم به صلة .

كما ورد في خبر سعيد بن زيد وما لَقِي من عُمر بن الخطاب .

وقد روي أنّ عبد الرحمان بن أبي بكر الصديق دعا أباه إلى عبادة الأصنام ، وأنّ الآية نزلت في ذلك ، ومعنى ذلك أنّ الآية نزلت مشيرة إلى ذلك وغيره وإلاّ فإنّ سورة الأنعام نزلت جملة

واحدة .

وحاول المشركون صرف النبي صلى الله عليه وسلم عن الدعوة إلى الإسلام وهم يُرْضُونه بما أحبّ كما ورد في خبر أبي طالب .

والاستفهام إنكار وتأييس ، وجيء بنون المتكلّم ومعه غيره لأنّ الكلام من الرسول صلى الله عليه وسلم عن نفسه وعن المسلمين كلّهم .

و﴿ من دون الله ﴾ متعلّق بـ ﴿ ندعوا ﴾ .

والمراد بما لا ينفع ولا يضرّ الأصنامُ ، فإنَّها حجارة مشاهد عدمُ نفعها وعجزُها عن الضرّ ، ولو كانت تستطيع الضرّ لأضرّت بالمسلمين لأنَّهم خلعوا عبادتها وسفَّهوا أتباعها وأعلنوا حقارتها ، فلمَّا جعلوا عدَم النفع ولا الضرّ علَّة لنفي عبادة الأصنام فقد كنّوا بذلك عن عبادتهم النافع الضارّ وهو الله سبحانه .

وقوله : ﴿ ونُردّ على أعقابنا ﴾ عطف على ﴿ ندعوا ﴾ فهو داخل في حيّز الإنكار .

والردّ : الإرجاع إلى المكان الذي يؤتى منه ، كقوله تعالى : ﴿ رُدّوها عليّ ﴾ [ ص : 33 ] .

والأعقاب جمع عَقِب وهي مؤخّر القدم .

وعقب كلّ شيء طَرفه وآخره ويقال : رجع على عَقِبه وعلى عَقِبَيْه ونكص على عقبيه بمعنى رجع إلى المكان الذي جاء منه لأنَّه كان جاعلاً إيَّاه وراءه فرَجَع .

وحرف ( على ) فيه للاستعلاء ، أي رجع على طريق جهة عقبه ، كما يقال : رجع وراءه ، ثم استعمل تمثيلاً شائعاً في التَّلبّس بحالة ذميمة كان فارقها صاحبُها ثم عاد إليها وتلبّس بها ، وذلك أنّ الخارج إلى سفر أو حاجة فإنَّما يمشي إلى غرض يريده فهو يمشي القُدُمية فإذا رجع قبل الوصول إلى غرضه فقد أضاع مشيَه ؛ فيمثّل حاله بحال من رجع على عقبيه . وفي الحديث : " اللهمّ أمْض لأصحابي هِجْرتهم ولا تَرُدّهم على أعقابهم " فكذلك في الآية هو تمثيل لحال المرتدّ إلى الشرك بعد أن أسلَم بحال من خرج في مهمّ فرجع على عقبيه ولم يقض ما خرج له .

وهذا أبلغ في تمثيل سوء الحالة من أن يُقال : ونرجعُ إلى الكفر بعد الإيمان .

وقد أضيف ( بعد ) إلى ﴿ إذْ هدانا ﴾ وكلاهما اسم زمان ، فإنّ ( بعد ) يدلّ على الزمان المتأخِّر عن شيء كقوله : ﴿ ومن بعد صلاة العشاء ﴾ [ النور : 58 ] و( إذا ) يدلّ على زمان معرّف بشيء ، ف ( إذا ) اسم زمن متصرّف مراد به الزمان وليس مفعولاً فيه .

والمعنى بعدَ الزمن الذي هدانا الله فيه ، ونظيره

﴿ ربّنا لا تُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ﴾ في سورة [آل عمران : 8 ] .

ارتقى في تمثيل حالهم لو فُرض رجوعهم على أعقابهم بتمثيل آخر أدقّ ، بقوله : ﴿ كالذي استهوته الشياطين في الأرض ﴾ ، وهو تمثيل بهيئة متخيّلة مبنيّة على اعتقاد المخاطبين في أحوال الممسُوسينَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

*(321/236)*

---

قوله تعالى ﴿ كالذى استهوته الشياطين فِى الأرض ﴾

فصل

قال الفخر :

اختلفوا في اشتقاق ﴿ استهوته ﴾ على قولين :

القول الأول : أنه مشتق من الهوى في الأرض ، وهو النزول من الموضع العالي إلى الوهدة السافلة العميقة في قعر الأرض ، فشبه الله تعالى حال هذا الضال به وهو قوله : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بالله فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السماء ﴾ [ الحج : 31 ] ولا شك أن حال هذا الإنسان عند هويه من المكان العالي إلى الوهدة العميقة المظلمة يكون في غاية الاضطراب والضعف والدهشة .

والقول الثاني : أنه مشتق من اتباع الهوى والميل ، فإن من كان كذلك فإنه ربما بلغ النهاية في الحيرة ، والقول الأول أولى ، لأنه أكمل في الدلالة على الدهشة والضعف .

الصفة الثانية : قوله : ﴿ حَيْرَانَ ﴾ قال الأصمعي : يقال حار يحار حيرة وحيراً ، وزاد الفراء حيراناً وحيرورة ، ومعنى الحيرة هي التردد في الأمر بحيث لا يهتدي إلى مخرجه . ومنه يقال : الماء يتحير في الغيم أي يتردد ، وتحيرت الروضة بالماء إذا امتلأت فتردد فيها الماء .

واعلم أن هذا المثل في غاية الحسن ، وذلك لأن الذي يهوي من المكان العالي إلى الوهدة العميقة يهوي إليها مع الاستدارة على نفسه ، لأن الحجر حال نزوله من الأعلى إلى الأسفل ينزل على الاستدارة ، وذلك يوجب كمال التردد والتحير ، وأيضاً فعند نزوله لا يعرف أنه يسقط على موضع يزداد بلاؤه بسبب سقوطه عليه أو يقل ، فإذا اعتبرت مجموع هذه الأحوال علمت أنك لا تجد مثالاً للمتحير المتردد الخائف أحسن ولا أكمل من هذا المثال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 25 ﴾

*(322/236)*

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ كالذي ﴾ الكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف .

﴿ استهوته الشياطين فِي الأرض حَيْرَانَ ﴾ أي استغوته وزيّنت له هواه ودعته إليه .

يقال : هَوَى يَهْوِي إلى الشيء أسرع إليه .

وقال الزجاج : هو من هَوِيَ يَهْوَى ، مِن هَوَى النفس ؛ أي زَيّن له الشيطان هواه .

وقراءة الجماعة "استهوته" أي هوت به ، على تأنيث الجماعة .

وقرأ حمزة "استهواه الشياطين" على تذكير الجمع .

وروي عن ابن مسعود "استهواه الشيطان" ، وروي عن الحسن ، وهو كذلك في حرف أَبيّ .

ومعنى "ائتنا" تابعنا .

وفي قراءة عبد الله أيضاً "يَدعُونه إلى الهُدَى بَيِّناً" .

وعن الحسن أيضاً "استهوته الشياطون" .

﴿ حَيْرَان ﴾ نصب على الحال ، ولم ينصرف لأن أنثاه حيرى كسكران وسكرى وغضبان وغضبى .

والحَيْرَانُ هو الذي لا يهتدِي لجهة أمره .

وقد حار يَحار حَيْراً وحَيْرَة وحَيْرُورة ، أي تردّد .

وبه سُمِّي الماء المستنقع الذي لا منفذ له حائراً ، والجمع حُورَان .

والحائر الموضع الذي يتحير فيه الماء .

قال الشاعر :

تَخْطُو على بَرْدِيَّتَيْن غذاهما . . .

غَدِقٌ بساحة حائرٍ يَعْبُوبُ

قال ابن عباس : أي مَثَل عابد الصنم مثل من دعاه الغُول فيتبعه فيُصبح وقد ألقته في مَضَلّة ومَهْلَكة ؛ فهو حائر في تلك المَهامِة .

وقال في رواية أبي صالح : نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصدّيق ، كان يدعو أباه إلى الكفر وأبواه يدعوانه إلى الإسلام والمسلمون ؛ وهو معنى قوله : ﴿ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الهدى ﴾ فيأبى .

قال أبو عمر : أمُّه أمُّ رُومانَ بنت الحارث بن غَنْم الكنانية ؛ فهو شقيق عائشة .

وشهِد عبد الرحمن بن أبي بكر بَدْراً وأُحُداً مع قومه وهو كافر ، ودعا إلى البراز فقام إليه أبوه ليبارزه فذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له "مَتِّعْنِي بنفسك" .

ثم أسلم وحسُن إسلامه ، وصحب النبي صلى الله عليه وسلم في هُدْنَة الحُدَيْبِيَة .

(323/236)

هذا قول أهل السِّيَر .

قالوا : كان اسمه عبدَ الكعبة فغيّر رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمَه عبد الرحمن ، وكان أسنَّ ولد أبي بكر .

ويقال : إنه لم يدرك النبيّ صلى الله عليه وسلم أربعةٌ وِلاءً : أبٌ وبنوه إلا أبا قُحافة وابنَه أبا بكر وابنه عبد الرحمن بن أبي بكر وابنَه أبا عتيق محمد بن عبد الرحمن ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

وقوله سبحانه : ﴿ الله كالذى استهوته الشياطين ﴾ نعت لمصدر محذوف أي أنرد رداً مثل رد الذي استهوته الخ .

وقدر الطبرسي "أندعو دعاء مثل دعاء الذي" الخ وليس بشيء كما لا يخفى ، وقيل : إنه في موضع الحال من فاعل ﴿ نُرَدُّ ﴾ أي أنرد على أعقابنا مشبهين بذلك .

واعترضه صاحب "الفرائد" بأن حاصل الحالية أنرد في حال مشابهتنا كقولك : جاء زيد راكباً أي في حال ركوبه والرد ليس في حال المشابهة كما أن المجيء في حال الركوب .

(324/236)

وأجاب عنه الطيبي بأن الحال مؤكدة كقوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [ التوبة : 25 ] فلا يلزم ذلك ، ولا يخفى أنه في حيز المنع .

والاستهواء استفعال من هوى في الأرض يهوي إذا ذهب كما هو المعروف في اللغة كأنها طلبت هويه وحرصت عليه أي كالذي ذهبت به مردة الجن في المهامه والقفار .

والكلام من المركب العقلي أو من التمثيل حيث شبه فيه من خلص من الشرك ثم نكص على عقبيه بحال من ذهبت به الشياطين في المهمه وأضلته بعد ما كان على الجادة المستقيمة .

وليس هذا مبنياً على زعمات العرب كما زعم من استهوته الشياطين .

وادعى بعضهم أن استهوى من هوى بمعنى سقط يقال : هوى يهوي هوياً بفتح الهاء إذا سقط من أعلى إلى أسفل .

والمقصود "تشبيه حال هذا الضال بحال من سقط من الموضع العالي إلى الوهدة السافلة العميقة لأنه في غاية الاضطراب والضعف والدهشة .

ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ [ الحج : 31 ] وفيه بعد وإن قال الإمام : إنه أولى من المعنى الأول" مع أنه يتوقف على ورود الاستفعال من هوى بهذى المعنى ، وجوز أبو البقاء في "الذي" أن يكون مفرداً أي كالرجل أو كالفريق الذي وأن

يكون جنساً . والمراد الذين .

قرأ حمزة ﴿ استهواه ﴾ بألف ممالة مع التذكير .

﴿ ضَلَّلْنَا فِى الأرض ﴾ أي جنسها .

والجار متعلق باستهوته أو بمحذوف وقع حالا من مفعوله أي كائناً في الأرض .

وكذا قوله سبحانه : ﴿ حَيْرَانَ ﴾ حال منه أيضاً على أنها بدل من الأولى أو حال ثانية عند من يجيزها أو من "الذي" أو من المستكن في الظرف .

*(325/236)*

---

وجوز أبو البقاء أن يكون الجار حالاً من ﴿ حَيْرَانَ ﴾ وهو ممنوع من الصرف ومؤنثه حيرى أي تائهاً ضالاً عن الجادة لا يدري ما يصنع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

الكاف في موضع الحال من الضمير في ﴿ نُردّ على أعقابنا ﴾ ، أي حال كوننا مشْبهينَ للذي استهوته الشياطين فهذه الحال مؤكّدة لما في ﴿ نردّ على أعقابنا ﴾ من معنى التَمثيل بالمرتدّ على أعقابه .

والاستهواء استفعال ، أي طلب هَوى المرء ومحبّته ، أي استجلاب هَوى المرء إلى شيء يحاوله المستجلِب .

وقرّبه أبو علي الفارسي بمعنى همزة التعدية .

فقال : استهواه بمعنى أهواه مثل استزلّ بمعنى أزلّ .

ووقع في "الكشّاف" أنَّه استفعال من هَوَى في الأرض إذا ذهب فيها ، ولا يعرف هذا المعنى من كلام أئمّة اللغة ولم يذكره هو في "الأساس" مع كونه ذكر ﴿ كالذي استهوته الشياطين ﴾ ولم ينبّه على هذا مَن جاء بعده .

والعرب يقولون : استهوته الشياطين ، إذا اختطفت الجنّ عقله فسيَّرتْه كما تريد .

وذلك قريب من قولهم : سَحَرتْه ، وهم يعتقدون أنّ الغيلان هي سحرة الجنْ ، وتسمَّى السعالي أيضاً ، واحدتُها سَعْلاة ، ويقولون أيضاً : استهامته الجنّ إذا طلبت هُيامه بطاعتها .

وقوله : ﴿ في الأرض ﴾ متعلّق بـ ﴿ استهوته ﴾ ، لأَنَّه يتضمَّن معنى ذهبت به وضلّ في الأرض .

وذلك لأنّ الحالة التي تتوهَّمها العرب استهواء الجنّ يصاحبها التوحّش وذهاب المجنون على وجهه في الأرض راكباً رأسه لا ينتصح لأحد ، كما وقع لكثير من مجانينهم ومَن يزعمون أنّ الجنّ اختطفتهم .

ومن أشهرهم عَمْرو بن عَدي الأيادي اللخمي ابن أخت جُذيمة بن مالك ملك الحيرة .

وجوّز بعضهم أن يكون ﴿ في الأرض ﴾ متعلّقاً بـ ﴿ حَيْران ﴾ ، وهو بعيد لعدم وجود مقتض لتقديم المعمول .

و﴿ حَيْرانَ ﴾ حال من ﴿ الذي استهوتْه ﴾ ، وهو وصف من الحَيْرة ، وهي عدم الاهتداء إلى السبيل .

يقال : حارَ يحَار إذ تاهَ في الأرض فلم يعلم الطريق .

(326/236)

---

وتطلق مجازاً على التردّد في الأمر بحيث لا يعلم مخرجه ، وانتصب ﴿ حيران ﴾ على الحال من ﴿ الذي ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ لَهُ أصحاب يَدْعُونَهُ إِلَى الهدى ائتنا ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ لَهُ أصحاب يَدْعُونَهُ إِلَى الهدى ائتنا ﴾

قالوا : نزلت هذه الآية في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه فإنه كان يدعو

أباه إلى الكفر وأبوه كان يدعوه إلى الإيمان ويأمره بأن يرجع من طريق الجهالة إلى الهداية ومن ظلمة الكفر إلى نور الإيمان .

وقيل : المراد أن لذلك الكافر الضال أصحاباً يدعونه إلى ذلك الضلال ويسمونه بأنه هو الهدى وهذا بعيد .

والقول الصحيح هو الأول .

ثم قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الهدى ﴾ يعني هو الهدى الكامل النافع الشريف كما إذا قلت علم زيد هو العلم وملك عمرو هو الملك كان معناه ما ذكرناه من تقرير أمر الكمال والشرف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 25 . 26 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ لَهُ ﴾ أي للمستهوي ﴿ أصحاب ﴾ أرى رفقة ﴿ يَدْعُونَهُ إِلَى الهدى ﴾ أي الطريق المستقيم أطلق عليه مبالغة على حد زيد عدل والجار الأول متعلق بمحذوف وقع خبراً مقدماً و﴿ أصحاب ﴾ مبتدأ ، والجملة إما في محل نصب على أنها صفة لحيران أو حال من الضمير فيه أو من الضمير في الظرف أو بدل من الحال التي قبلها .

وإما لا محل لها على أنها مستأنفة ، وجملة ﴿ يَدْعُونَهُ ﴾ صفة لأصحاب .

وقوله سبحانه : ﴿ ائتنا ﴾ يقدر فيه قول على أنه بدل من ﴿ يَدْعُونَهُ ﴾ أو حال من فاعله .

وقيل : محكي بالدعاء لأنه بمعنى القول .

وهذا مبني على الخلاف بين البصريين والكوفيين في أمثال ذلك .

والمشهور التقدير أي يقول ائتنا .

وفيه إشارة إلى أنهم مهتدون ثابتون على الطريق المستقيم وأن من يدعونه ليس ممن يعرف الطريق ليدعى إلى إتيانه وإنما يدرك سمت الداعي ومورد النعيق .

*(327/236)*

---

وقرأ ابن مسعود كما رواه ابن جرير وابن الأنباري عن أبي إسحاق "بيناً" على أنه حال من الهدى أي واضحاً .

﴿ قُلْ ﴾ لهؤلاء الكفار ﴿ إِنَّ هُدَى الله ﴾ الذي هدانا إليه وهو الإسلام ﴿ هُوَ الهدى ﴾ أي وحده كما يدل عليه تعريف الطرفين أو ضمير الفصل وما عداه ضلال محض وغي صرف .

وتكرير الأمر للاعتناء بشأن المأمور به أو لأن ما سبق للزجر عن الشرك وهذا حث على الإسلام وهو توطئة لما بعده فإن اختصاص الهدى بهداه تعالى مما يوجب امتثال الأوامر بعده . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وجملة : ﴿ له أصحاب ﴾ حال ثانية ، أي له رفقة معه حين أصابه استهواء الجنّ .

فجملة ﴿ يدعونه ﴾ صفة ل ﴿ أصحاب ﴾ .

والدعاء : القول الدالّ على طلب عمل من المخاطب .

والهدى : ضدّ الضلال .

أي يدعونه إلى ما فيه هداه .

وإيثارُ لفظ ﴿ الهُدى ﴾ هنا لما فيه من المناسبة للحالة المشبَّهة .

ففي هذا اللفظ تجريد للتمثيلية كقوله تعالى : ﴿ فلمّا أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ﴾ في سورة [ البقرة : 17 ] .

ولذلك كان لتعقيبه بقوله : قل إنّ هدى الله هو الهدى ﴾ وقع بديع .

وجوّز في "الكشاف" أن يكون الهدى مستعاراً للطريق المستقيم .

وجملة : ﴿ ائتنا ﴾ بيان ل ﴿ يدعونه إلى الهدى ﴾ لأنّ الدعاء فيه معنى القول .

فصحّ أن يبيّن بما يقولونه إذا دعَوه ، ولكونها بياناً فُصلت عن التي قبلها ، وإنَّما احتاج إلى بيان الدعاء إلى الهدى لتمكِين التمثيل من ذهن السامع ، لأنّ المجنون لا يخاطب بصريح المقصد فلا يدعى إلى الهدى بما يَفهم منه أنَّه ضالّ لأنّ من خُلق المجانين العناد والمكابرة ،

فلذلك يدعونه بما يفهم منه رغبتُهم في صحبته ومحبتُهم إيَّاه ، فيقولون : ايتنا ، حتَّى إذا تمكَّنوا منه أوثقوه وعادوا به إلى بيته .

(328/236)

---

وقد شبّهت بهذا التمثيل العجيب حالة من فُرض ارتدادُه إلى ضلالة الشرك بعد هدى الإسلام لدعوة المشركين إيَّاه وتركه أصحابه المسلمين الذين يصدّونه عنه ، بحَال الذي فسد عقله باستهواء من الشياطين والجنّ ، فتاه في الأرض بعد أن كان عاقلاً عارفاً بمسالكها ، وترك رفقته العقلاء يدعونه إلى موافقتهم ، وهذا التركيب البديع صالح للتفكيك بأن يشبّه كل جزء من أجزاء الهيئة المشبّهة بجزء من أجزاء الهيئة المشبّهة بها ، بأن يشبه الارتداد بعد الإيمان بذهاب عقل المجنون ، ويشبّه الكفر بالهُيام في الأرض ، ويشبّه المشركون الذين دعَوْهم إلى الارتداد بالشياطين وتُشَبّه دعوة الله الناس للإيمان ونزولُ الملائكة بوحيه بالأصحاب الذين يدعون إلى الهدى .

وعلى هذا التفسير يكون ﴿ الذي ﴾ صادقاً على غير معيّن ، فهو بمنزلة المعرّف بلام الجنس .

وروي عن ابن عباس أنّ الآية نزلت في عبد الرحمان بن أبي بكر الصدّيق حين كان كافراً

وكان أبوه وأمّه يدعوانه إلى الإسلام فيأبى ، وقد أسلم في صلح الحديبية وحسن إسلامه .

جملة : ﴿ قل إنّ هدى الله هو الهدى ﴾ مستأنفة استئنافَ تكريرٍ لما أُمِر أن يقوله للمشركين حين يدعون المسلمين إلى الرجوع إلى ما كانوا عليه في الجاهلية ، وقد روي أنَّهم قالوا للنبيء صلى الله عليه وسلم اعْبُد آلهتنا زمناً ونعبُدُ إلهك زمناً .

وكانوا في خلال ذلك يزعمون أنّ دينهم هدى فلذلك خوطبوا بصيغة القصر .

وهي ﴿ إنّ هدى الله هو الهدى ﴾ فجيء بتعريف الجزأين ، وضمير الفصل ، وحرف التوكيد ، فاجتمع في الجملة أربعة مؤكّدات ، لأنّ القصر بمنزلة مؤكِّدَيْن إذ ليس القصر إلاّ تأكيداً على تأكيد ، وضمير الفصل تأكيد ، و( إنّ ) تأكيد ، فكانت مقتضَى حال المشركين المنكرين أنّ الإسلام هدى .

وتعريف المسند إليه بالإضافة للدلالة على الهدى الوارد من عند الله تعالى ، وهو الدين المُوصى به ، وهو هنا الإسلام ، بقرينة قوله ﴿ بعد إذْ هدانا الله ﴾ .

*(329/236)*

---

وقد وصف الإسلام بأنَّه ﴿ هُدى الله ﴾ في قوله تعالى : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتَّى تتّبع ملَّتهم قل إنّ هدى الله هو الهدى ﴾ في سورة [ البقرة : 120 ] ، أي

القرآن هو الهدى لا كُتُبُهم .

وتعريف المسند بلام الجنس للدلالة على قصر جنس الهدى على دين الإسلام ، كما هو الغالب في تعريف المسند بلام الجنس ، وهو قصر إضافي لأنّ السياق لردّ دعوة المشركين إيَّاهم الرجوع إلى دينهم المتضمّنة اعتقادهم أنَّه هدى ، فالقصر للقلب إذ ليسوا على شيء من الهدى ، فلا يكون قصر الهدى على هدى القرآن بمعنى الهدى الكامل ، بخلاف ما في سورة البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ العالمين ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن قوله : ﴿ إِنَّ هُدَى الله هُوَ الهدى ﴾ دخل فيه جميع أقسام المأمورات والاحتراز عن كل المنهيات ، وتقرير الكلام أن كل ما تعلق أمر الله به ، فإما أن يكون من باب الأفعال ، وإما أن يكون من باب التروك .

أما القسم الأول : فإما أن يكون من باب أعمال القلوب وإما أن يكون من باب أفعال الجوارح ، ورئيس أعمال القلوب الإيمان بالله والإسلام له ، ورئيس أعمال الجوارح الصلاة ، وأما الذي يكون من باب التروك فهو التقوى وهو عبارة عن الاتقاء عن كل ما لا ينبغي ، والله سبحانه لما بين أولاً أن الهدى النافع هو هدى الله ، أردف ذلك الكلام الكلي بذكر أشرف

أقسامه على الترتيب وهو الإسلام الذي هو رئيس الطاعات الروحانية ، والصلاة التي هي رئيسة الطاعات الجسمانية ، والتقوى التي هي رئيسة لباب التروك والاحتراز عن كل ما لا ينبغي ، ثم بين منافع هذه الأعمال فقال : ﴿ وَهُوَ الذى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ يعني أن منافع هذه الأعمال إنما تظهر في يوم الحشر والبعث والقيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 26 ﴾

*(330/236)*

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ العالمين وَأَنْ أَقِيمُواْ الصلاة واتقوه ﴾

اللام لام كي ، أي أمرنا كي نسلم وبأن أقيموا الصلاة ؛ لأن حروف الإضافة يعطف بعضها على بعض .

قال الفَرّاء : المعنى أمرنا بأن نسلم ؛ لأن العرب تقول : أمرتك لتذهب ، وبأن تذهب بمعنًى .

قال النحاس : سمعت أبا الحسن بن كَيْسان يقول هي لام الخفض ، واللامات كلها ثلاث : لامُ خفضٍ ولامُ أمرٍ ولامُ توكيد ، لا يخرج شيء عنها .

والإسلام الإخلاص .

وإقامة الصلاة الإتيان بها والدّوام عليها .

ويجوز أن يكون "وأن أقيموا الصلاة" عطفاً على المعنى ، أي يدعونه إلى الهدى ويدعونه أن أقيموا الصلاة ؛ لأن معنى ائتنا أن ائتنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَأُمِرْنَا ﴾ عطف على ﴿ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الهدى ﴾ داخل معه تحت القول ، واللام في قوله سبحانه : ﴿ لِنُسْلِمَ ﴾ للتعليل ومفعول ﴿ أَمْرُنَا ﴾ الثاني محذوف أي أمرنا بالإخلاص لكي ننقاد ونستسلم ﴿ لِرَبِّ العالمين ﴾ ، وقيل : هي بمعنى الباء أي أمرنا بالإسلام .

*(331/236)*

---

وتعقبه أبو حيان بأنه غريب لا تعرفه النحاة ، وقيل : زائدة أي أمرنا أن نسلم على حذف الباء ، وقال الخليل وسيبويه ومن تابعهما : الفعل في هذا وفي نحو ﴿ يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ [ النساء : 26 ] مؤول بالمصدر وهو مبتدأ واللام وما بعدها خبره أي أمرنا للإسلام ، وهو نظير تسمع بالمعيدى خير من أن تراه ولا يخفى بعده .

وذهب الكسائي والفراء إلى أن اللام حرف مصدري بمعنى أن بعد أردت وأمرت خاصة فكأنه قيل : وأمرنا أن نسلم ، والتعرض لوصف ربوبيته تعالى للعالمين لتعليل الأمر وتأكيد وجوب الامتثال به . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وجملة : ﴿ وأُمِرْنا لِنُسْلِم ﴾ عطف على المقول .

وهذا مقابل قوله ﴿ قل إِنّي نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ﴾ [ الأنعام : 56 ] ، وقوله ﴿ قل أندعو من دون الله ﴾ الآية .

واللام في ﴿ لِنُسْلِم ﴾ أصلها للتعليل وتنوسي منها معنى التعليل فصارت لمجرّد التأكيد .

وهي اللام التي يكثر ورودها بعد مادّة الأمر ومادّة الإرادة .

وسمّاها بعضهم لام أنْ بفتح الهمزة وسكون النون قال الزجّاج : العرب تقول : أَمَرْتُك بأنْ تفعل وأمرتُك أن تفعل وأمرتك لِتَفعل .

فالباء للإلصاق ، وإذا حذفوها فهي مقدّرة مع ( أنْ ) .

وأمّا أمرتك لتفعل ، فاللام للتعليل ، فقد أخبر بالعلَّة التي لها وقَع الأمر .

يعني وأغنت العلَّة عن ذكر المعلّل .

وقيل : اللام بمعنى الباء ، وقيل : زائدة ، وعلى كلّ تقدير ف ( أنْ ) مضرة بعدها ، أي لأجل أن نُسْلِمَ .

والمعنى : وأمرنا بالإسلام ، أي أمرنا أن أسلموا .

وتقدّم الكلام على هذه اللام عند قوله تعالى : ﴿ يريد الله ليُبيّن لكم ﴾ في سورة [ النساء : 26 ] .

واللام في قوله : لربّ العالمين ﴾ متعلّقة بـ ﴿ نسلم ﴾ لأَنَّه معنى تخلّص له ، قال : ﴿ فقل أسلمت وجهي لله ﴾ .

وقد تقدّم القول في معنى الإسلام عند قوله تعالى : ﴿ إذ قال له ربّه أسْلِم قال أسلمت لربّ العالمين ﴾ في سورة [ البقرة : 131 ] .

وفي ذكر اسم الله تعالى بوصف الربوبية لجميع الخلق دون اسمه العَلَم إشارة إلى تعليل الأمر وأحقِّيّته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

*(332/236)*

---

ومن فوائد السمرقندى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا ﴾

قال مقاتل : وذلك أن كفار مكة عذبوا نفراً من المسلمين ، وراودوهم على الكفر .

قال الله تعالى للمسلمين : قولوا لهم ﴿ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ الله ﴾ يعني : الأوثان ﴿ مَا لاَ يَنفَعُنَا ﴾ في الآخرة ﴿ وَلاَ يَضُرُّنَا ﴾ في الدنيا ﴿ وَنُرَدُّ على أعقابنا ﴾ نعود ونرجع إلى الشرك ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَانَا الله ﴾ إلى الإسلام ﴿ كالذى استهوته الشياطين فِى الأرض حَيْرَانَ ﴾ يعني : كمثل رجل كان مع قوم ، فضلَّ الطريق ، فحيره الشياطين و ﴿ لَهُ أصحاب يَدْعُونَهُ إِلَى الهدى ﴾ يعني : إلى الطريق أن ﴿ ائتنا ﴾ فإنا على الطريق ، فأبى أن يأتيهم .

فذلك مثلنا إن تركنا دين محمد عليه السلام .

وقال مجاهد : هذا مثل ضربه الله تعالى للكفار ، يقول : الكافر حيران يدعوه المسلم إلى الهدى فلا يجيب الكافر .

وقال ابن عباس في رواية أبي صالح : نزلت الآية في عبد الرحمن بن أبي بكر ، كان أبوه وأمه يدعوانه إلى الإسلام ، فأبى أن يأتيهما وهو يدعوهما إلى الشرك .

فضرب الله تعالى له المثل بالذي استهوته الشياطين يعني : أضلته .

﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى الله هُوَ الهدى ﴾ يعني : دين الله هو الإسلام ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ العالمين ﴾ يعني : لنخلص بالعبادة والتوحيد بالله تعالى .

قرأ حمزة ﴿ استهواه ﴾ بلفظ التذكير بالإمالة .

وقرأ الباقون ﴿ كالذى استهوته ﴾ بلفظ التأنيث ، لأن فعل الجماعة مقدم ، فيجوز أن

يذكر ويؤنث كقوله : ﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حتى إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ الموت تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ ﴾ [ الأنعام : 61 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

(333/236)

---

﴿ قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونردّ على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ﴾

المعنى : قل في احتجاجك : أنطيع رأيكم في أن ندعو من دون الله ، والدعاء يعم العبادة وغيرها لأن من جعل شيئاً موضع دعائه فإياه يعبد وعليه يتكل ﴿ ما لا ينفعنا ولا يضرنا ﴾ يعني الأصنام ، إذ هي جمادات حجارة وخشب ونحوه ، وضرر الأصنام في الدين لا يفهمه الكفار فلذلك قال : ﴿ ولا يضرنا ﴾ إنما الضرر الذي يفهمونه من نزول المكاره الدنياوية ، ﴿ ونرد على أعقابنا ﴾ تشبيه ، وذلك أن المردود على العقب هو أن يكون الإنسان يمشي قدماً وهي المشية الجيدة فيرد يمشي القهقرى ، وهي المشية الدنية فاستعمل المثل بها فيمن رجع من خير إلى شر ووقعت في هذه الآية في تمثيل الراجع من

الهدي إلى عبادة الأصنام ، و﴿ هدانا ﴾ بمعنى أرشدنا ، قال الطبري وغيره الرد على العقب يستعمل فيمن أمل أمراً فخاب أمله .

قال القاضي أبو محمد : وهذا قول قلق وقوله تعالى : ﴿ كالذي استهوته الشياطين ﴾ الآية الكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف تقديره رداً كرد الذي و﴿ استهوته ﴾ استفعلته بمعنى استدعت هواه وأمالته ، قال أبو عبيدة : ويحتمل هويه وهو جده وركوب رأسه في النزوع إليهم ، والهوى من هوى يهوى يستعمل في السقوط من علو إلى أسفل ، ومنه قول الشاعر :

هوى ابْنِي مِنْ دَار أشرف . . . فَزَلَّتْ رِجْلُهُ ويَدُه

وهذا المعنى لا مدخل له في هذه الآية إلا أن تتأول اللفظة بمعنى ألقته الشياطين في هوة ، وقد ذهب إليه أبو علي وقال : هو بمعنى أهوى كما أن استزل بمعنى أزل .

قال القاضي أبو محمد : والتحرير : أن العرب تقول : هوى وأهواه غيره واستهواه بمعنى طلب منه أن يهوي هو أو طلب منه أن يهوي شيئاً ، وبيستعمل الهوى أيضاً في ركوب الرأس في النزوع إلى الشيء ومنه قوله تعالى : ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ﴾ [ إبراهيم : 37 ] ، ومنه قول شاعر الجن : [ السريع ]

تهوي إلى مَكّةَ تَبْغي الهُدَى . . . ما مؤمنُ آلجِنّ كأنجاسِها

وهذا المعنى هو الذي يليق بالآية ، وقرأ الجمهور من الناس " استهوته الشياطين " وقرأ الحسن " استهوته الشياطون " . وقال بعض الناس : هو لحن ، وليس كذلك بل هو شاذ قبيح وإنما هو محمول على قولهم ، سنون وأرضون إلا أن هذه في جمع مسلم وشياطون في جمع مكسر فهذا موضع الشذوذ ، وقرأ حمزة " استهواه الشياطين " وأمال استهواه ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي والأعمش وطلحة " استهويه الشيطان " بالياء وإفراد الشيطان ، وذكر الكسائي أنها كذلك في مصحف ابن مسعود ، وقوله : ﴿ في الأرض ﴾ يحكم بأن ﴿ استهوته ﴾ إنما هو بمعنى استدعت هويه الذي هو الجد في النزوع و ﴿ حيران ﴾ في موضع الحال ، ومؤنثه حيرى فهو لا ينصرف في معرفة ولا نكرة ، ومعناه ضالاً متحيراً وهو حال من الضمير في ﴿ استهوته ﴾ والعامل فيه ﴿ استهوته ﴾ ، ويجوز أن يكون من الذي والعامل فيه المقدر بعد الكاف ، وقوله ﴿ استهوته ﴾ يقتضي أنه كان على طريق فاستدعته .

(335/236)

قال القاضي أبو محمد : فسياق هذا المثل كأنه قال أيصلح أن يكون بعد الهدي نعبد الأصنام فيكون ذلك منا ارتداداً على العقب فيكون كرجل على طريق واضح فاستهوته عنه الشياطين فخرج عنه إلى دعوتهم فبقي حائراً وقوله : ﴿ وله أصحاب ﴾ يحتمل أن يريد له أصحاب على الطريق الذي خرج منه فيشبه بالأصحاب على هذا المؤمنون الذين يدعون من ارتد إلى الرجوع إلى الهدى ، وهذا تأويل مجاهد وابن عباس ويحتمل أن يريد له أصحاب أي من الشياطين الدعاة أولاً يدعونه إلى الهدى بزعمهم وإنما يوهمونه فيشبه بالأصحاب على هذا الكفرة الذين يثبتون من ارتد عن الإسلام على ارتداده ، وروي هذا التأويل عن ابن عباس أيضاً ، و﴿ ائتنا ﴾ من الإتيان بمعنى المجيء ، وفي مصحف عبد الله " إلى الهدي بيناً " وهذه تؤيد تأويل من تأول الهدى حقيقة إخبار من الله ، حكى مكي وغيره أن المراد ب " الذي " في هذه الآية عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وب " الأصحاب " أبوه وأمه .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف لأن في الصحيح أن عائشة رضي الله عنها لما سمعت قول قائل : إن قوله تعالى : ﴿ والذي قال لوالديه أف لكما ﴾ [ الأحقاف : 17 ] نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قالت : كذبوا والله ما نزل فينا من القرآن شيء إلا براءتي .

قال القاضي أبو محمد : حدثني أبي رضي الله عنه قال : سمعت الفقيه الإمام أبا عبد الله

المعروف بالنحوي المجاور بمكة يقول : من نازع أحداً من الملحدة فإنما ينبغي أن يرد عليه وينازعه بالقرآن والحديث فيكون كمن يدعو إلى الهدى بقوله : ﴿ ائتنا ﴾ ، ومن ينازعهم بالجدل ويحلق عليهم به فكأنه بعد عن الطريق الواضح أكثر ليرد هذا الزائغ فهو يخاف عليه أن يضل .

*(336/236)*

---

قال القاضي أبو محمد : وهذا انتزاع حسن جداً ، وقوله تعالى : ﴿ قل إن هدى الله ﴾ الآية ، من قال إن " الأصحاب " هم من الشياطين المستهزئين وتأول إلى الهدى بزعمهم قال : إن قوله : ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾ رد عليهم في زعمهم فليس ما زعموه صحيحاً وليس بهدي بل هو نفسه كفر وضلال ، وإنما الهدى هدى الله وهو الإيمان ، ومن قال : إن " الأصحاب " هم على الطريق المدعو إليها وإن المؤمنين الداعين للمرتدين شبهوا بهم وإن الهدى هو هدى على حقيقته يجيء على قوله : ﴿ قل إن هدى الله ﴾ بمعنى أن دعاء الأصحاب وإن كان إلى هدى فليس بنفس دعائهم تقع الهداية وإنما يهتدي بذلك الدعاء من هداه الله تعالى بهداه ، ﴿ وأمرنا لنسلم ﴾ اللام لام كي ومعها أن مقدرة ويقدر مفعول ل ﴿ أمرنا ﴾ مضمر تقديره وأمرنا بالإخلاص أو بالإيمان ونحو هذا ، فتقدير الجملة

كلها وأمرنا بالإخلاص لأن نسلم ، ومذهب سيبويه في هذه أن ﴿ لنسلم ﴾ هو موضع المفعول وأن قولك : أمرت لأقوم وأمرت أن أقوم يجريان سواء ومثله قول الشاعر : [ الطويل ]

أردت لأنسى ذكرها . . . إلى غير ذلك من الأمثلة ، " ونسلم " يعم الدين والاستسلام .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونردّ على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ﴾

(337/236)

---

أي من دون الله النافع الضار المبدع للأشياء القادر ما لا يقدر على أن ينفع ولا يضر إذ هي أصنام خشب وحجارة وغير ذلك ﴿ ونرد ﴾ إلى الشرك ﴿ على أعقابنا ﴾ أي رد القهقرى إلى وراء وهي المشية الدنية بعد هداية الله إيانا إلى طريق الحق وإلى المشية السجح الرفيعة ﴿ ونرد ﴾ معطوف على ﴿ أندعو ﴾ أي أيكون هذا وهذا استفهام بمعنى الإنكار أي لا يقع شيء من هذا وجوز أبو البقاء أن تكون الواو فيه للحال أي ونحن نرد أي أيكون هذا الأمر في هذه الحال وهذا فيه ضعف لإضمار المبتدأ ولأنها تكون حالاً

مؤكدة ، واستعمل المثل بها فيمن رجع من خير إلى شر .

قال الطبري وغيره : الردّ على العقب يستعمل فيمن أمّل أمراً فخاب .

﴿ كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا ﴾ قال الزمخشري : ﴿ كالذي ﴾ ذهب به مردة الجن والغيلان في الأرض في المهمة حيران تائهاً ضالاً عن الجادة لا يدري كيف يصنع له أي لهذا المستهوي أصحاب رفقة يدعونه إلى الهدى أي إلى أن يهدوه الطريق المستوي ، أو سمي الطريق المستقيم بالهدى يقولون له : ﴿ ائتنا ﴾ وقد اعتسف المهمة تابعاً للجن لا يجيبهم ولا يأتيهم وهذا مبني على ما تزعمه العرب وتعتقده من أن الجنّ تستهوي الإنسان والغيلان تستولي عليه كقوله : ﴿ كالذي يتخبطه الشيطان ﴾ فشبه به الضال عن طريق الإسلام التابع لخطوات الشيطان والمسلمون يدعونه إليه فلا يلتفت إليهم ؛ انتهى .

وأصل كلامه مأخوذ من قول ابن عباس ولكنه طوله وجوده .

*(338/236)*

---

قال ابن عباس : مثل عابد الصنم مثل من دعاه الغول فيتبعه فيصبح وقد ألقته في مهمة ومهلكة فهو حائر في تلك المهامة وحمل الزمخشري ﴿ استهوته ﴾ على أنه من الهوى الذي

هو المودة والميل كأنه قيل كالذي أمالته الشياطين عن الطريق الواضح إلى المهمة القفر وحمله غيره كأبي علي على أنه من الهوي أي ألقته في هوة ، ويكون استفعل بمعنى افعل نحو استزل وأزل تقول العرب : هوى الرجل وأهواه غيره واستهواه طلب منه أن يهوى هوى ويهوى شيئاً والهوي السقوط من علو إلى سفل .

قال الشاعر :

هوى ابني من ذرى شرف . . .

فزلت رجله ويده

ويستعمل الهوى أيضاً في ركوب الرأس في النزوع إلى الشيء ومنه ﴿ واجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ﴾ وقال :

تهوي إلى مكة تبغي الهدى . . .

ما مؤمنوا الجن ككفارها

وقال أبو عبد الله الرازي : هذا المثل في غاية الحسن وذلك أن الذي يهوي من المكان العالي إلى الوهدة العميقة يهوي إليها مع الاستدارة على نفسه ، لأن الحجر كان حال نزوله من الأعلى إلى الأسفل ينزل على الاستدارة وذلك يوجب كمال التردد والتحير ، فعند نزوله من الأعلى إلى الأسفل لا يعرف أنه يسقط على موضع يزداد بلاؤه بسبب سقوطه عليه أو يقل ، ولا تجد للحائر الخائف أكمل ولا أحسن من هذا المثل ؛ انتهى .

وهو كلام تكثير لا طائل تحته وجعل الزمخشري قوله : ﴿ له أصحاب ﴾ أي له رفقة وجعل مقابلهم في صورة التشبيه المسلمين يدعونه إلى الهدى فلا يلتفت إليهم وهو تأويل ابن عباس ومجاهد ، وجعلهم غيره ﴿ له أصحاب ﴾ من الشياطين الدعاة أو لا يدعونه إلى الهدى بزعمهم وبما يوهمونه فشبه بالأصحاب هنا الكفرة الذين يثبتون من ارتد عن الإسلام على الارتداد .

*(339/236)*

---

وروي هذا التأويل عن ابن عباس أيضاً وحكى مكي وغيره أن المراد بالذي استهوته الشياطين هو عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وبالأصحاب أبوه وأمه ، وذكر أهل السير أنه فيه نزلت هذه الآية دعا أياه أبا بكر إلى عبادة الأوثان وكان أكبر ولد أبي بكر وشقيق عائشة أمهما أم رومان بنت الحارث بن غنم الكنانية وشهد بدراً وأحداً مع قومه كافراً ودعا إلى البراز فقام إليه أبوه أبو بكر رضي الله عنه ليبارزه فذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : " متعني بنفسك " ثم أسلم وحسن إسلامه وصحب الرسول عليه السلام في هدنة الحديبية وكان اسمه عبد الكعبة فسماه الرسول صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن ، وفي الصحيح أن عائشة سمعت قول من قال : إن قوله : ﴿ والذي قال لوالديه أف لكما ﴾

أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر فقالت : كذبوا والله ما نزل فينا من القرآن شيء إلا براءتي .

قال الزمخشري ( فإن قلت ) : إذا كان هذا وارداً في شأن أبي بكر فكيف قيل للرسول : ﴿ قل أندعو ﴾ .

قلت : للاتحاد الذي كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وخصوصاً بينه وبين الصديق رضي الله عنه ؛ انتهى .

وهذا السؤال إنما يرد إذا صح أنها نزلت في أبي بكر وابنه عبد الرحمن ولن يصح ، وموضع ﴿ كالذي ﴾ نصب قيل : على أنه نعت لمصدر محذوف أي رداً مثل رد الذي والأحسن أن يكون حالاً أي كائنين كالذي والذي ظاهره أنه مفرد ويجوز أن يراد به معنى الجمع أي كالفريق الذي وقرأ حمزة استهواه بألف ممالة .

وقرأ السلمي والأعمش وطلحة : ﴿ استهوته ﴾ الشيطان بالتاء وأفراد الشيطان .

وقال الكسائي : أنها كذلك في مصحف ابن مسعود ؛ انتهى .

والذي نقلوا لنا القراءة عن ابن مسعود إنما نقلوه الشياطين جمعاً .

وقرأ الحسن : الشياطون وتقدم نظيره وقد لحن في ذلك .

وقد قيل : هو شاذ قبيح وظاهر قوله ﴿ في الأرض ﴾ أن يكون متعلقاً باستهوته .

وقيل : حال من مفعول ﴿ استهوته ﴾ أي كائناً في الأرض .

وقيل : من ﴿ حيران ﴾ .

(340/236)

---

وقيل : من ضمير ﴿ حيران ﴾ و ﴿ حيران ﴾ لا ينصرف ومؤنثه حيرى و ﴿ حيران ﴾ حال من مفعول ﴿ استهوته ﴾ .

وقيل : حال من الذي والعامل فيه الرد المقدر والجملة من قوله ﴿ له أصحاب ﴾ حالية أو صفة لحيران أو مستأنفة و ﴿ إلى الهدى ﴾ متعلق بيدعونه وأتنا من الإتيان .

وفي مصحف عبد الله أتينا فعلاً ماضياً لا أمراً فإلى الهدى متعلق به .

﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾ من قال : ﴿ إن له أصحاب ﴾ يعني به الشياطين وإن قوله ﴿ إلى الهدى ﴾ بزعمهم كانت هذه الجملة رداً عليهم أي ليس ما زعمتم هدى بل هو كفر وإنما الهدى هدى الله وهو الإيمان ومن قال : إن قوله ﴿ أصحاب ﴾ مثل للمؤمنين الداعين إلى الهدى الذي هو الإيمان ، كانت إخباراً بأن الهدى هدى الله من شاء لا إنه يلزم من دعائهم إلى الهدى وقوع الهداية بل ذلك بيد الله من هداه اهتدى .

﴿ وأمرنا لنسلم لرب العالمين ﴾ الظاهر أن اللام لام كي ومفعول ﴿ أمرنا ﴾ الثاني

محذوف وقدروه ﴿ وأمرنا ﴾ بالإخلاص لكي ننقاد ونستسلم ﴿ لرب العالمين ﴾

والجملة داخلة في المقول معطوفة على ﴿ إن هدى الله هو الهدى ﴾ .

وقال الزمخشري : هو تعليل للأمر فمعنى ﴿ أمرنا ﴾ قيل لنا : اسلموا لأجل أن نسلم .

وقال ابن عطية : ومذهب سيبويه أن ﴿ لنسلم ﴾ في موضع المفعول وإن قولك : أمرت لأقوم وأمرت أن أقوم يجريان سواء ومثله قول الشاعر :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما . . .

تمثل لي ليلى بكل سبيل

إلى غير ذلك من الأمثلة ؛ انتهى .

فعلى ظاهر كلامه تكون اللام زائدة وكون أن نسلم هو متعلق ﴿ أمرنا ﴾ على جهة أنه مفعول ثان بعد إسقاط حرف الجر .

وقيل : اللام بمعنى الباء كأنه قيل ﴿ وأمرنا ﴾ بأن نسلم ومجيء اللام بمعنى الباء قول غريب ، وما ذكره ابن عطية عن سيبويه ليس كما ذكر بل ذلك مذهب الكسائي والفراء زعما أن لام كي تقع في موضع أن في أردت وأمرت ، قال تعالى :

﴿ يريد الله ليبين لكم ﴾ ﴿ يريدون ليطفئوا ﴾ أي أن يطفئوا ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس ﴾ أريد لأنسى ذكرها ورد ذلك عليهما أبو إسحاق ، وذهب سيبويه وأصحابه إلى أن اللام هنا تتعلق بمحذوف وأن الفعل قبلها يراد به المصدر والمعنى الإرادة للبيان والأمر للإسلام فهما مبتدأ وخبر فتحصل في هذه اللام أقوال : أحدها أنها زائدة ، والثاني أنها بمعنى كي للتعليل إما لنفس الفعل وإما لنفس المصدر المسبوك من الفعل ، والثالث أنها لام كي أجريت مجرى أن ، والرابع أنها بمعنى الباء وقد تكلمنا على هذه المسألة في كتاب التكميل وجاء ﴿ لرب العالمين ﴾ تنبيهاً على أنه مالك العالم كله معبودهم من الأصنام وغيرها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا ﴾

*(342/236)*

---

قيل : نزلت في أبي بكر رضي الله عنه حين دعاه ابنه عبدُ الرحمن إلى عبادة الأصنام فتوجيهُ الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ للإيذان بما بينهما من الاتصال

والاتحادِ تنويهاً بشأن الصّدّيق رضي الله تعالى عنه أي أنعبد متجاوزين عبادةَ الله الجامعِ لجميع صفاتِ الألوهية التي من جملتها القدرةُ على النفع والضرر ما لا يقدِرُ على نفعنا إذا عبدناه ولا على ضَرِّنا إذا تركناه وأدنى مراتبِ المعبوديةِ القُدرةُ على ذلك . وقوله تعالى : ﴿ وَنُرَدُّ على أعقابنا ﴾ عطفٌ على ( ندعوا ) داخلٌ في حكم الإنكارِ والنفْي أي ونُرَدّ إلى الشرك ، والتعبيرُ عنه بالردِّ على الأعقاب لزيادة تقبيحِه بتصويره بصورةِ ما هو عَلَمٌ في القُبح مع ما فيه من الإشارة إلى كون الشركِ حالةً قد تُركت ونُبذتْ وراءَ الظهر ، وإيثارُ ( نرد ) على نرتد لتوجيه الإنكار إلى الارتداد بردِّ الغير تصريحاً بمخالفة المُضلِّين وقطعاً لأطماعهم الفارغةِ وإيذاناً بأن الارتدادَ من غير رادَ ليس في حيز الاحتمال ليُحتاجَ إلى نفيه وإنكاره ، وقوله تعالى : ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَانَا الله ﴾ أي إلى الإسلام وأنقذنا من الشرك متعلقٌ بنرُدّ مَسوقٌ لتأكيد النكيرِ لا لتحقيق معنى الرد وتصويرِه فقط وإلا لكفى أن يقالَ : بعد إذ اهتدينا كأنه قيل : ونُرَدّ إلى الشرك بإضلال المضِلّ بعد إذ هدانا الله الذي لا هاديَ سواه وقوله تعالى : ﴿ كالذى استهوته الشياطين ﴾ في محل النصبِ على أنه حالٌ من مرفوع ( نُرد ) أي أنرد على أعقابنا مشبَّهين بالذي استهوته مَرَدةُ الجن واستغوته إلى المهامِهِ والمهالك ، أو على أنه نعتٌ لمصدر محذوف أي أنُرد رداً مثلَ ردِّ الذي استهوته الخ ، والاستهواءُ استفعال من هَوَى في الأرض إذا ذهب فيها كأنها طلبت هُوِيَّه وحرصت عليه وقرىء

استهواه بألفٍ مُمالة ، وقوله تعالى : ﴿ فِى الأرض ﴾ إما متعلق باستهوته أو بمحذوفٍ هو حال من مفعوله أي كائناً في الأرض

(343/236)

---

وكذا قوله تعالى : ﴿ حَيْرَانَ ﴾ حال منه على أنها بدلٌ من الأولى أو حال ثانية عند من يجيزها أو من ( الذي ) أو من المستكن في الظرف أي تائهاً ضالاً عن الجادة لا يدري ما يصنع وقوله تعالى : ﴿ لَهُ أصحاب ﴾ جملة في محل النصب على أنها صفةٌ لحيران أو حالٌ من الضمير فيه أو مستأنفةٌ سيقت لبيان حالِه ، وقوله تعالى : ﴿ يَدْعُونَهُ إِلَى الهدى ﴾ صفةٌ لأصحاب أي لذلك المستهوى رفقةٌ يهدونه إلى الطريق المستقيم ، تسميةٌ له بالمصدر مبالغةً كأنه نفس الهدى ﴿ ائتنا ﴾ على إرادة القول على أنه بدل مِنْ ( يدعونه ) أو حال من فاعله أي يقولون : ائتنا ، وفيه إشارة إلى أنهم مهتدون ثابتون على الطريق المستقيم وأن من يدعونه ليس ممن يعرف الطريق المستقيم ليدعى إلى إتيانه ، وإنما يُدرك سمتَ الداعي ومورِدَ النعيق فقط ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى الله ﴾ الذي هدانا إليه وهو الإسلام ﴿ هُوَ الهدى ﴾ وحدَه وما عداه ضلال محضٌ وغيٌّ بحتٌ كقوله تعالى : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الحق إِلاَّ الضلال ﴾ ونحوِه ، وتكريرُ الأمر للاعتناء بشأن المأمورِ به ولأن ما سبق للزجْرِ عن الشرك وهذا

حثٌّ على الإسلام ، وهو توطِئةٌ لما بعده ، فإن اختصاصَ الهُدى بهُداه تعالى مما يوجبُ الامتثالَ بالأوامر الواردةِ بعده ﴿ وَأُمِرْنَا ﴾ عطفٌ على ( إن هُدى الله هو الهدى ) داخلٌ تحت القول ، واللام في ﴿ لِنُسْلِمَ لِرَبِّ العالمين ﴾ لتعليل الأمر المَحْكيِّ وتعيينِ ما أريد به من الأوامر الثلاثة كما في قوله تعالى : ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الذين ءامَنُواْ يُقِيمُواْ الصلاة وَيُنْفِقُواْ ﴾ الآية ، كأنه قيل : أمرنا وقيل لنا : أسلِموا لأجل أن نسلَمَ وقيل : هي بمعنى الباء أي أمرنا بأن نُسلم ، وقيل : زائدة أي أُمرنا أن نُسلم على حذف الباء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

*(344/236)*

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾

هذه الآية تبدأ بسؤال عن عبادة الأصنام أو غيرها ، ما الذي صنعته تلك الأصنام أو غيرها لمن عبدها ؟ وماذا صنعت لمن لم يعبدها ؟ . وهذا أول منطق في بطلان ألوهية غير الله ، فمن عبد الشمس مثلا ماذا أعطته الشمس ؟ ومن كفر بها كيف عاقبته

الشمس ؟ . إنها تشرق لمن عبدها ولمن لم يعبدها . والصنم الذي عبدوه ، ماذا صنع لهم ؟ لا شيء . وهذا الصنم لم يُنْزِل عقاباً على مَنْ لم يعبده ، بل إن الذي انتفع هو من لم يعبد الأصنام ؛ لأنه أعمل فكره ليبحث عن خالق لهذا الكون .

وهكذا نجد النفع والضر إنما يأتيان من الإله الحق : ﴿ وَنُرَدُّ على أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا الله ﴾ والإنسان دائماً حين يسير فهو يقطع خطوة إلى الأمام فيقصر المسافة أمامه ، أما من يُرَدُّ على عقبه فهو من يرجع هذه الخطوة التي خطاها .

وهذا حديث المؤمنين الذي يرفضون أن يعودوا إلى عبادة غير الله لأنهم آمنوا وساروا في طريق الهدى ، وليس من المنطق أن يرتدوا على أعقابهم وأن ينقلبوا خاسرين .

﴿ كالذي استهوته الشياطين فِي الأرض ﴾ كلمة " شيطان " مقصود بها عاصي الجن . والجن جنس مقابل للإنس ، وما دام في الإنس طائعون وعاصون فكذلك في الجن طائعون وعاصون .

والحق قال : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ استمع نَفَرٌ مِّنَ الجن فقالوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً * يهدي إِلَى الرشد فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً ﴾ [ الجن : 1-2 ] .

*(345/236)*

إذن فمن الجن من هو مؤمن . ومن الجن من هو عاصٍ . والعاصي من الجن يُسمى شيطاناً . وإياك أن تنكر أيها المسلم وجود الشيطان لأنك لا تراه ، لأن الشيطان من المخلوقات التي ذكرها الله من عالم الغيب ، وحجة وجودها هو تصديقك لمن قال عنها ، وهناك فرق منطقي وفلسفي بين وجود الشيء وبين إدراك وجود الشيء . والذي يتعب الناس أنهم يريدون أن يوحدوا ويربطوا بين وجود شيء وإدراكه . وهناك فارق بين أن يوجد أو يدرك ؛ ذلك أن هناك ما يكون موجوداً ولكنه لا يُدرك .

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ على أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ ﴾ [ الأنعام : 71 ] .

جاء هذا التصور في صورة استفهام . إنّ الحق طلب من رسوله أن يقوله ، فكأن الصورة : أن قوماً هداهم الله إلى الحق فدُعُوا إلى أن يعبدوا غير الله ويدعوا ما لا ينفع ولا يضر ، فيردوا على أعقابهم ، أي بعد الهداية ، وهذه هي صورة الحيرة والتردد ؛ لأنهم كانوا على هدى ، ثم دُعُوا إلى أن يعبدوا من دون الله ما لا ينفع ولا يضر . وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطينا صورة لهذه الحيرة ، ولهذا التردد ، فقال : ﴿ كالذي استهوته الشياطين ﴾ .

و" استهوته " من مادة " استفعل " وتأتي دائماً للطلب ؛ كقولنا " استفهم " .

أي طلب الفهم ، و" استخرج " . أي طلب الإخراج للشيء ، " فاستهوته " طلبت هُوِيَّة . أي جعلته يتقبّل ما تريد واستولت عليه دون أن يكون لديه أي دليل أو حجة على صحة ما

تدعوه إليه بأن صار عجينة تشكله الشياطين كما تشاء ، وترده مادة " الهاء والواو والياء " لمعانٍ ، إن مُدَّت ؛ فهي الهواء الذي نتنفسه ، وما به أصل الحياة ، وإن قُصِرَت ، فإنها هي الهَوَى وهو ميل النفس إلى شيء ، أو تكون هُوِيًّا أي سقوطاً .

*(346/236)*

---

إذن فالمادة تأتي إما للهواء إن كانت ممدودة ، وإن كانت بالقصر فهي من الهَوَى أو من الهُوِيّ ؛ كأن تقول : " هَوَى ، يَهْوِي ؛ هُوِيّاً " أي سقط من علوٍ إلى أسفل ، وهَوِيَ ، يَهْوَى ، هَوّى . أي أحبَّ ، وهكذا نعرف أن " استهوته " أي طلبت هويَّه أو هواه أي ميل نفسه إلى اتباع الهَوَى ، وحين تستهوي الشياطين الإنسان فهي تريد أن تجتذبه إلى ناحية هواه ، وتوقظ الهوى في النفس ، وبذلك تدعوه ليَهْوِي . والحق يقول : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [ الحج : 31 ] .

وحين يخرّ عبد من السماء ، إما أن تتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ، وحين تأتي إلى الهَوَى والهُوِيّ فاعلم أن الهوى يجذبك إلى ما يضرك ، ولذلك لا تسلم منه إلا أن يكون هواك تبعاً لما جاء به الحق ، ولكن إن اتبعت هواك فلا بد أن يؤدي بك إلى الهُوِيّ : ﴿ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾ [ الأنعام : 71 ] .

وما هي الحَيْرة ؟ هي التردد بين أمر ومقابله . وعرفنا من قبل أن الحَيْرة في هذه الآية جاءت لمن اهتدى وسار خطوة للمنهج ثم رُدَّ على أعقابه ورجع ، ولكن له أصحاب يدعونه إلى الهدى ، فهو بين شيطان يستهويه ، وأصحاب يدعونه للمنهج ؛ لذلك يكون حيران : بين هاوية ونجاة ، والشيء الذي يهوي لا استقرار له ، وحين نرى – على سبيل المثال – حجراً يهوي للأرض نجده يدور ، ولا اتجاه له . وهذه صورة معبرة ، ويأتي له القول الفصل : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الهدى ﴾ [ الأنعام : 71 ] .

*(347/236)*

---

فمن يتبع إذن ؟ إنه يتبع الذين يدعونه إلى منهج الحق سبحانه وتعالى ؛ لأن الهدى هو المنهج والطريق الموصل للغاية ، والصنعة لا تضع غاية لنفسها ، بل الذي يضع الغاية هو من صنعها ، وسبق أن قلت : إنّ التليفزيون لا يقول لنا غايته ، ولا يعرف كيف يصون نفسه ، بل يضع ذلك مَنْ صنعه ، وكذلك الإنسان عليه أن يأخذ غايته مِمَّن خلقه ، والذي يفسد الدنيا أن الله خلق ، لكن الناس أرادوا أن يضعوا لأنفسهم قانون الصيانة ، لذلك نقول : إن علينا أن نأخذ قانون الصيانة ممن خلقنا ، وهدى الله هو هدى الحق .

وجاءت " الهدى " هنا لتعطينا يقيناً إيمانياً في إله واحد ، وحين توجد عقيدتنا في إله

واحد ، لا تختلف أهواؤنا أبداً ؛ لأنه هو الذي يضع لنا القانون ، وساعة يضع لنا القانون ويكون كلٌّ مِنّا خاضعا لقانونه ، لا يذل أحد منا لأحد آخر ؛ فأنا وأنت عبيد لإله واحد ، ولا غضاضة عليك ولا غضاضة عليّ . وحين يُريد البشر أن يسير الناس على أفكارهم فإن صاحب الفكر يريد أن يُذِل الآخرين له ويأخذهم على منهجه وعلى مبدئه ، وهو في الحقيقة ليس أفضل منهم ، ولذلك تجد الهداية الحقة حين نخضع جميعاً لإله واحد ، ويتساند المجتمع ويتعاضد ولا يتعاند ، ويتوجه الهوى إلى محبة منهج الله . ﴿ وَلَوِ اتبع الحق أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السماوات والأرض ﴾ [ المؤمنون : 71 ] .

ولهذا جاء الدين ؛ لأن الشرع لا يقرر شيئاً ضد الإنسان .

ونذكر جميعاً قصة ملكة سبأ وسيدنا سليمان عليه السلام حينما قالت : ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ ﴾ . ولم تقل : أسلمت لسليمان بل أسلمت مع سليمان لله ، فلا غضاضة أن تكون قد أسلمت فهي ليست تابعة لسليمان ، بل تابعة لرب سليمان ، إذن حين يأتي التشريع من أعلى ، لا غضاضة لأحد في أن يؤمن ، ولا يظن واحد أنه تبع لآخر بل كلنا عبيد لله . وحين نكون جميعاً عبيداً لواحد نكون جميعاً سادة .

ويتمثل الهدى في الإيمان بإله واحد ، ونأخذ هذا الإيمان بأدلتنا العقلية . إننا ندخل عليه من باب العقل ، ونسلم أمرنا له ؛ لأنه هو أعلم بما يصلحنا . ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ العالمين ﴾ [ الأنعام : 71 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (71) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ قل أندعوا من دون الله ﴾ هذا مثل ضربه الله للآلهة وللدعاة الذين يدعون إلى الله ، كمثل رجل ضل عن الطريق تائهاً ضالاً إذ ناداه مناد فلان بن فلان هلم إلى الطريق ، وله أصحاب يدعونه يا فلان بن فلان هلم إلى الطريق ، فإن اتبع الداعي الأول انطلق به حتى يلقيه في هلكة ، وإن أجاب من يدعو إلى الهدى اهتدى إلى الطريق ، وهذه الداعية التي تدعو في البرية الغيلان . يقول : مثل من يعبد هذه الآلهة من دون الله فإنه يرى أنه في شيء حتى يأتيه الموت فيستقبل الهلكة والندامة . وقوله ﴿ كالذي استهوته الشياطين في الأرض ﴾ يقول : أضلته وهم الغيلان ، يدعونه باسمه واسم أبيه وجده فيتبعها ويرى أنه في شيء ، فيصبح وقد ألقته في هلكه وربما أكلته

أو تلقيه في مضلة من الأرض يهلك فيها عطشاً ، فهذا مثل من أجاب الآلهة التي تعبد من دون الله .

(349/236)

---

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ قل أندعوا من دون الله . . . ﴾ الآية . قال : قال المشركون للمؤمنين : اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد . فقال الله ﴿ قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ﴾ فهذه الآلهة ﴿ ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ﴾ فيكون مثلنا ﴿ كمثل الذي استهوته الشياطين في الأرض ﴾ يقول : مثلكم إن كفرتم بعد الإِيمان كمثل رجل كان مع قوم على الطريق فضل الطريق فحيرته الشياطين واستهوته في الأرض ، وأصحابه على الطريق فجعلوا يدعونه إليهم يقولون ائتنا فإنا على الطريق فأبى أن يأتيهم ، فذلك مثل من تبعكم بعد المعرفة لمحمد ، ومحمد الذي يدعو إلى الطريق والطريق هو الإِسلام .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ﴾ قال : الأوثان . وفي قوله ﴿ كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران ﴾ قال : رجل حيران يدعو أصحابه إلى

الطريق ، فذلك مثل من يضل بعد إذ هدى .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ كالذي استهوته الشياطين . . . ﴾ الآية . قال : هو الرجل الذي لا يستجيب لهدي الله ، وهو رجل أطاع الشيطان وعمل في الأرض بالمعصية وجار عن الحق وضل عنه ، وله أصحاب يدعونه إلى الهدى يزعمون أن الذي يأمرونه به هدى الله ، ويقول الله ذلك لأوليائهم من الإِنس بقول ﴿ إن الهدى هدى الله ﴾ والضلالة ما يدعوا إليه الجن . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في الآية قال : خصومة علمها الله محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، يخاصمون بها أهل الضلالة .

وأخرج ابن الأنباري في المصاحف عن أبي إسحق قال : في قراءة عبد الله ﴿ كالذي استهواه الشيطان ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن الأنباري عن أبي إسحق قال : في قراءة عبد الله ﴿ يدعونه إلى الهدى بينا ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال : في قراءة ابن مسعود ﴿ يدعونه إلى الهدى بينا ﴾ قال : الهدى الطريق ، أنه بين ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(350/236)

لطيفة

قال فى البحر المديد :

الإشارة : إذا توجه العبد إلى مولاه ، وانقطع بكليته إلى الله ، طالبًا منه معرفته ورضاه ، قد يمتحن بشيء من شدائد الزمان ؛ كالفاقة وإيذاء الخلق والأحزان ، فيقال اختبارًا له : تعلق في دفع ما نزل بك بشيء من السِّوى ، فيجب عليه أن يقول : ﴿ أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونُردُّ على أعقابنا ﴾ بالالتفات إلى غير ربنا ، بعد إذ هدانا الله إلى توحيده ومعرفته ، ونكون كالذي استهوته الشياطين في الأرض ، حيران بالتفاته إلى غير الكريم المنان ، ﴿ قل إن هدى الله ﴾ أي : هدايته الخاصة ، وهي الإنقطاع إليه وحده في الشدائد ، ﴿ هو الهدى ﴾ ، وقد أُمرنا بالانقياد بكليتنا إلى ربنا ، وأُمرنا إذا حزبنا شيء بإقامة الصلاة ؛ لأنها مفتاح الفرج ، وبالتقوى ؛ لأنها سبب النصر ؛ ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾ ، وآخر أمرنا الموت والحشر إلى ربنا ، والاستراحة إلى الروح والريحان . وبالله التوفيق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المديد حـ 2 صـ 134 ﴾

*(351/236)*

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " أَنَدْعُوا " استفهام توبيخ وإنكار ، والجملة في مَحَلِّ نصب بالقول ، و" ما " مفعولة بـ " ندعوا " ، وهي موصولة أو نكرة موصوفة ، و" مِنْ دون الله " متعلِّقٌ بـ " ندعوا " .

قال أبو البقاء : " ولا يجوز أن يكون حالاً من الضمير في " يَنْفَعُنَا " ولا معمولاً لـ " يَنْفَعُنَا " لتقدُّمِهِ على " ما " ، والصلة والصفة لا تَعْمل فيما قبل الموصول والموصوف .

قوله : " من الضمير في يَنْفعنَا " يعني به المرفوع العائد على " ما " وقوله : " لا تعمل فيما قبل الموصول والموصوف " يعني : أن " ما " لا تخرج عن هذين القسمين ولكن يجوز أن يكون " من دون " حالاً من " ما " نفسها على قوله ؛ إذ لم يجعل المانع من جعله حالاً من ضميره الذي في " يَنْفَعُنَا " إلاَّ صِناعِياً لا معنوياً ، ولا فرق بين الظاهر وضميره بمعنى أنه إذا جاز أن يكون حالاً من ظاهره ، جاز أن يكون حالاً من ضميره ، إلا أن يمنع مَانِعٌ .

قوله : " ونُرَدُّ " فيه وجهان :

أظهرهما : أنه نَسَقٌ على " نَدْعُوا " فهو داخل في حيِّز الاستفهام المُتَسَلِّطِ عليه القَوْلُ .

الثاني : أنه حالٌ على إضمار مبتدأ ؛ أي : ونحن نُرَدُّ .

(352/236)

قال أبو حيَّان بعد نقله هنا عن أبي البقاء : " وهو ضعيف لأضمار المبتدأ ، ولأنها تكون حالاً مؤكّدة " ، وفي كونها مؤكدة نظرٌ ؛ لأن المؤكدة ما فهم معناها من الأوَّلِ ، وكأنه يقول : من لازم الدعاء " من دون الله " الارتداد على العقب .

قوله : " عَلى أعْقَابِنَا " فيه وجهان :

أحدهما : أنه معلّق بـ " نُرَدُّ " .

والثاني : أنه متعلِّق بمحذوف على أنه حال من مرفوع " نرد " أي : نرد راجعين على أعْقابنا ، أو منقلبين ، أو متأخرين كذا قدَّرُوهُ ، وهو تفسير معنى ؛ إذا المُقَدَّرُ في مثله كونٌ مُطلقٌ ، وهذا يحتمل أن يقال فيه : إنه حال مؤكدة ، و" بعد إذ " مُتعلِّقٌ بـ " نُرَدُّ " .

قوله " كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ " في هذه الكاف وجهان :

أحدهما : أنه نَعْتُ مصدرٍ محذوف ؛ أي : نُرَدُّ رَدَّاً مثل ردِّ الذين .

الثاني : في مَحَلّ نصب على الحال من مرفوع " نرد " ، أي : نرد مُشْبهينَ الذي استهوته الشياطين ، فمن جوَّز تعدُّدّ الحالِ جعلها حالاً ثانية ، إن جعل " على أعقابنا " حالاً ، ومن لم يُجَوِّزْ ذلك جعل هذه الحال بدلاً من الحال الأولى ، أو لم يجعل على أعقابنا حالاً ، بل معلّقاً بـ " نرد " .

الجمهور على " اسْتَهْوَتْهُ " بتاء التأنيث ، وحمزة " اسْتَهْوَاهُ " وهو على قاعدته من الإمالة ،

والوجهان معروفان مما تقدم في ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ [الأنعام: 61] وقرأ أبو عبد الرحمن والأعمش: "اسْتَهْوَتْهُ الشَّيْطانُ" بتأنيث الفعل، والشيطان مفرداً.

قال الكسائي: "وهي كذلك في مصحف ابن مسعود"، وتوجيه هذه القراءة أنَّا نُؤوِّل المذكر بمؤنث كقولهم: "أتته كتابي فاحتقرها"؛ أي: صحيفتي، وتقدَّم له نظائر.

(353/236)

---

وقرأ الحسن البصري: "الشَّيَاطُون" وجعلوها لَحْناً، ولا تَصِلُ إلى الَّحْنِ، إلا أنها لُغَيَّةٌ رديئة، سُمِع: حول بسان فلان بساتون وله سلاطون، ويُحْكَى أنه لما حيكت قراءة الحسن لَحَّنَهُ بعضهم، فقال الفراء: "أي والله يُلحِّنُون الشيخ، ويستشهدون بقول رؤبة".

ولعمري لقد صدق الفراء في إنكار ذلك.

والمراد بـ "الَّذي" الجِنْسُ، ويحتمل أن يراج به الواحد الفَذُّ.

قوله: "في الأرْضِ" فيه أربعة أوجه:

أحدها: أنه مُتعلِّق بقوله: "اسْتَهْوَتْهُ".

الثاني: أنه حالٌ من مفعول "اسْتَهْوَتْهُ".

الثالث: أنه حالٌ من "حيران".

الرابع : أنه حالٌ من الضمير المُسْتَكِنّ في " حيران " ، و" حيران " حال إما من " هاء " " استهوته " على أنها بدلٌ من الأولى ، وعند من يجيز تعدُّدَهَا ، وإما من " الَّذِي " ، وإما من الضمير المستكن في الظرف ، و" حيران " مؤنثة " حيرى " ، فلذلك لم يَنْصَرِفُ ، والفعل حَارَ يَحَارُ حَيْرةً وحَيَراناً وحَيْرورةً ، و" الحيران " المُتَرَدِّدُ في الأمر لا يهتدي إلى مَخْرَجٍ .

وفي اشتقاق " اسْتَهْوَتْهُ " قولان :

الأول : أنه مشتق من الهُوِيِّ في الأرض ، وهو النزول من الموضع العالي إلى الوهدة [ السافلة ] العميقة [ في قعر الأرض ] فشبه الله تعالى حال هذا الضَّالِّ به ، كقوله : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بالله فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السمآء ﴾ [ الحج : 31 ] ولا شك : أن الإنسان حال هُوِيِّهِ من المكان المعالي إلى الوهْدةِ العميقة يكون في غايةِ الاضْطرابِ والدهشة والحيرةِ .

والثاني : أنه مُشْتَقٌّ من اتِّباعِ الهَوَى والميل ، فإنه من كان كذلك ، فإنه ربما بلغ النهاية في الحَيْرَةِ .

واعلم أن هذا المثل في غاية الحُسْنِ ؛ لأن الذي يَهْوِي من المكان العالي إلى الوَهْدَةِ العميقة ، يحصل له كمال التَّرَدُّدِ والدهشة والحيرة ؛ لأنه لا يعرف أي موضع يزداد بلاؤُهُ بسبب سقوطه عليه أو يَقِلُّ .

(354/236)

قوله "لَهُ أَصْحَابٌ" جملة في مَحَلّ نصب صفة لـ "حيران"، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في "حيران"، وأن تكون مستأنفة، و"إلى الهدى" متعلقة بـ "يدعونه"، وفي مصحف ابن مسعود وقراءته: "أتينا" بصيغة الماضين و"إلى الهدى" على هذه القراءة معلّق به، وعلى قراءة الجمهور، فالجملة الأمرية في محل نصب بقول مضمر أي يقولون: أئتنا والقول المضمر في محل صفة لأصحاب وكذلك "يدعونه".

قوله: "وأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ" في هذه "اللام" أقوال:

أحدها: وهو مذهب سيبويه أن هذه اللام بعد الإرادة للقيام، والأمر للذَّهاب، كذا نقل أبو حيَّان ذلك عن سيبويه وأصحابه، وفيه ضَعْفٌ تقدَّم في سورة النساء عند قوله: ﴿ يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ [النساء: 26].

الثاني: أن مفعول الأمر والإرادة محذوف، وتقديره: وأمرنا بالإخلاص لنسلم.

الثالث: قال الزمخشري: هي تَعْلِيلٌ للأمر بمعنى أمرنا وقيل لنا أسلموا لأجل أن نسلم.

الرابع: أن "اللام" زائدة؛ أي: أمرنا أن نسلم.

الخامس: أنها بمعنى "الباء" أي بأن نسلم.

السادس: أن "اللام" وما بعدها مفعول الأمر واقعة موقع "أن" أي: أنهما مُتعاقِبَانِ، فتقول: أمرتك لتقوم، وأن تقوم، وهذا مذهب الكوفيين.

وقال ابن عطية : ومذهب سبيويه أن " لِنُسْلِمَ " في موضع المفعول ، وأن قولك : أمرت لأقوم وأن أقوم بيجريان سواءً وقال الشاعر : [ الطويل ]

2044 - أُرِيدُ لأَنْسَى حُبَّهَا فَكَأَنَّمَا . . .

تَمَثَّلُ لِي لَيْلَى بِكُلِّ طَرِيقِ

وهذا ليس مذهب سبيويه ، إنما مذهبه ما تقدَّم تحقيقه في " سورة النساء " .

قوله " وأَنْ أَقِيمُوا " فيه أقوال :

أحدها : أنها في مَحَلِّ نصب بالقول نَسَقاً على قوله : " إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الهُدَى " أي : قل هذين الشيئين .

(355/236)

---

والثاني : أنه نَسَقٌ على " لنسلم " أي : وأمرنا بكذا للإسلام ، ولنقيم الصلاة ، و " أن " تُوصل بالأمر كقولهم : كتب إليه بأن قم ، حكاه سبيويه وهذا رَأْيُ الزَّجَّاج .

والثالث : أنه نَسَقٌ على " ائْتِنَا " قال مكي : لأن معناه : " أن ائتنا " ، وهو غير ظاهر .

والرابع : أنه مَعْطُوفٌ على مفعول الأمر المقدر ، والتقدير : وأمرنا بالإيمان ، وبإقامة الصلاة قاله ابن عطية .

قال أبو حيَّان : وهذا لا بأس به ، إذ لا بُدَّ من تقدير المفعول الثاني لـ " أمرنا " ويجوز حذف المعطوف عليه لِفَهْمِ المعنى ؛ تقول : أضَرَبْتَ زيداً ؟ فيجب نعم وعمراً ؛ والتقدير : ضربته وعمراً .

وقد أجاز الفراء : " جاءني الذي وزيد قائمان " ، التقدير : الذي هو وزيد قائمان ، فحذف " هو " لدلالة المعنى عليه ، وهذا الذي قاله أنه لا بأس به ليس من أصول البصريين .

و " أما نعم وعمراً " فلا دلالة فيه ؛ لأن " نعم " قامت مقام الجملة المحذوفة .

وقال مكي قريباً من هذا القول ، إلاَّ أنه لم يُصَرِّحْ بحذف المعطوف عليه ، فإنه قال : و " أن " في موضع نَصْب بحذف الجارِّ ، تقديره : وبأنْ أقيموا ، فقوله : وبأن أقيموا هو معنى قول ابن عطية ، إلاَّ أن ذلك [ أوضحه ] بحذف المعطوف عليه .

وقال الزمخشري : فإن قلت : علام عطف قوله : " وأن أقيموا " ؟ قلت : على موضع " لنسلم " كأنه قيل : وأمرنا أن نسلم ، وأن أقيموا .

*(356/236)*

قال أبو حيَّان : وظاهر هذا التقدير أن " لنسلم " في موضع المفعُولِ الثاني لـ " أمرنا " وعطف عليه : " وأن أقيموا " فكتون اللام على هذا زائِدَةً ، وكان قد تقدَّم قبل هذا أن " اللام " تعليل للأمر ، فتناقض كلامه ؛ لأن ما يكون عِلَّةً يستحيل أن يكون مفعولاً ، ويدلُّ على أنه أراد بقوله : " أن نسلم " في موضع المفعول الثاني قوله بعد ذلك : ويجوز أن يكون التقدير : وأمرنا لأن نسلم ، ولأن أقيموا ، أي للإسلام ولإقامة الصلاة ، وهذا قول الزَّجَّاجِ ، فلو لم يكن هذا القول مغايراً لقوله الأوَّل لاتَّحَدَ قَوْلاَهُ ، وذلك خُلْفٌ .

قال الزَّجَّاج : " أن أقيموا " عطف على قوله " " لنسلم " ، تقديره : وأمرنا لأن نسلم ، وأن أقيموا .

قال ابن عطية : واللَّفْظُ يُمانِعُهُ ، لأن " نسلم " معرب ، و" أقيموا " مبني ، وعطف المبني على المعرب لا يجوز ، لأن العطف يقتضي التَّشْرِيكَ في العامل .

قال أبو حيان : وما ذكر من أنه لا يعطف المبني على المعرب ليس كما ذكر ، بل يجوز ذلك نحو : " قام زيد وهذا " ، وقال تعالى : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القيامة فَأَوْرَدَهُمُ النار ﴾ [ هود : 98 ] غَايَةُ ما في الباب أن العامل يُؤثِّرُ في المعرب ، ولا يُؤثِّرُ في المبني ، وتقول : " إن قام زيد ويقصدني أكرمه " ، ف " إن " لم تُؤثِّرْ في " قام " ؛ لأنه مبني ، وأثرت في " يقصدني " ؛ لأنه معرب ثم قال ابن عطية : " اللهم إلا أن تجعل العطف في " إن " وحدها ، وذلك قلق ، وإنما يَتَخَرَّجُ على أن يقدر قوله : " وأن أقيموا " بمعنى " ولنقم " ، ثم خرجت بلفظ الأمر لما في

ذلك من جزالةِ اللفظ ، فجاز العطفُ على أن يلغي حكم اللفظ ، ويعول على المعنى ، ويشبه هذا من وجهة ما حكاهُ يونس عن العرب : ادخلوا الأوّل فالأوّل ، وإلا فلا يجوز إلاَّ الأول فالأوّل بالنصب " .

(357/236)

---

قال أبو حيَّان : وهذا الذي استدركه بقوله : " اللهم إلا " إلى آخره هو الذي أراده الزَّجَّاج بعينه ، وهو " أن أقيموا " معطوف على " أن نسلم " ، وأن كليهما عِلَّةٌ للمأمور به المحذوف ، وإنما قلق عند ابن عطية ؛ لأنه أراد بقاء " أن أقيموا " على معناها من موضوع الأمر ، وليس كذلك ؛ لأن " أنْ " إذا دخلت على فعل الأمر ، وكانت المصْدَرِيَّةَ انْسَبَكَ منها ومن الأمر مصدر ، وإذا انْسَبَكَ منهما مصدر زال معنى الأمر ، وقد أجاز النحويون سيبويه وغيره أن تُوصَلَ " أن " المصدرية الناصبة للمضارع بالماضي والأمر .

قال سيبويه : وتقول : كتبت إليه بأن قم ، أي بالقيام ، فإذا كان الحكم كذا كان قوله : " لنسلم " و " أن أقيموا " في تقدير الإسلام ولإقامة الصلاة ، وأما تشبيه ابن عطيَّة له بقوله : ادخلوا الأوّل فالأول : بالرفع ، فليس بتشبيهح لأن ادخلوا لا يمكن لو أزيل عنه الضمير أن يتسلَّطَ على ما بعده ، بخلاف " أنْ " فإنها تُوصَلُ بالأمرِ ، فإذن لا شبه بينهما انتهى .

أما قول أبي حيَّان : " وإنما قلق عند ابن عطية ؛ لأنه أراد بقاء " أنْ أقيموا " على معناها من موضوع الأمر " ، فليس القلقُ عنده لذلك فقط كما حصره الشيخ ، بل لأمر آخر من جهة اللفظ ، وهو أن السِّيَاقَ التَّرْكِيبِيَّ يقتضي لعى ما قاله الزجاج أن يكون " لنسلم وأن نقيم " ، فتأتي في الفعل الثاني بضمير المتكلم ، فلما لم يقل ذلك قلق عنده ، ويدلُّ على [ ما ذكرته ] قول ابن عطية : " بمعنى : ولنقم ثم خرجت بلفظ الأمر " إلى آخره .

والخامس : أنه مَحْمُولٌ على المعنى ؛ إذا المعنى قيل لنا : أسْلِمُوا وأن أقيموا .

وقال الزجاج : فإن قيل : كيف حَسُنَ عطف قوله : " وأن أقيموا الصلاة واتقوه " على قوله " وأُمِرْنَا لِنُسلمَ لِرَبِّ العالمينَ " ؟

فالجواب من وجهين :

الأول : أن يكون التقدير : وأمرنا لنسلم لرب العالمين ، ولأن نقيم الصلاة .

(358/236)

---

الثاني : أن يكون التقدير : وأمرنا فقيل لنا أسلموا لربِّ العالمين ، وأقيموا الصَّلاة .

فإن قيل : هَبْ أن المُرَادَ ما ذكرتم ، لكن ما الحِكْمَةُ في العُدُولِ عن هذا اللَّفْظِ الظَّاهِرِ ، والتركيب الموافق للعقل إلى ذلك اللفظ الذي لا يهتدي العقل إلى معناه ، إلاَّ بالتأويل ؟ ! .

فالجواب : لأن الكافر ما دام [ يبقى ] على كُفْرِه كان كالغَائبِ الأجنبي ، فلا جرم خُوطِبَ بخطاب الغائبين ، فيقال له : " وأمِرْنَا لِنُسلِمَ لِرَبِّ العَالمينَ " فإذا أسلم [ وآمن ] ودخل في الإيمان صار كالقريب الحاضر ، فلا جرمَ خُوطِبَ بخطاب الحاضرين ، ويقال له " وأنْ أقيمُوا الصَّلاة وأتَّقُوُ " فالمقصود من ذِكْرِ هذهين النوعين من الخطاب للتنبيه على الفَرْقِ بين حالتي الكُفْرِ والإيمان ، وتقريره أن الكافر بعيد غائب ، والمؤمن قريب حاضر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 216.222 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (71) ﴾

أي كان الكفار يدعون المسلمين إلى الرجوع عن الدين والعوْد إلى الشِرْك ، فقال لهم الله : قل لهم – يا محمد – : أنُؤْثِرُ الضلالَ على الهدى بعد طلوع شمس البرهان ؟

ونَدَعُ الطريقة المُثْلى بعد ظهور البيان ؟ ونترك عِقوةَ الجَنَّةِ وقد نزلناها ؟ ونطلب الجحيم مثوًى بعد ما كُفِيناها ؟ إنَّ هذا بعيدٌ من المعقول ، محالٌ من الظنون .

وكيف يساعد أتباعُ الشيطانِ مَنْ وَجَدَ الخلاصَ من صحبتهم ، وأبصر الغيَّ من صفتهم ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 483 ﴾

(359/236)

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والثلاثون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/237)

---

الجزء السابع والثلاثون بعد المائتين

من الآية ﴿ 72 ﴾ من سورة الأنعام

وحتى الآية ﴿ 78 ﴾ من نفس السورة

(4/237)

---

قوله تعالى ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (72) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

ثم فسر المأمور به ، فكأنه قال : أن أسلموا ﴿ وأن أقيموا الصلاة ﴾ لوجهه ﴿ واتقوه ﴾ مع ذلك ، أي افعلوها لا على وجه الهزء واللعب ، بل على وجه التقوى والمراقبة ليدل ما ظهر منها على ما بطن من الإسلام للمحسن .

ولما كان التقدير : فهو الذي ابتدأ خلقكم من طين فإذا أنتم بشر مصورون ، وجعلكم

أحياء فبقدرته على مدى الأيام تنتشرون ، عطف عليه قوله : ﴿ وهو الذي إليه ﴾ أي لا إلى غيره بعد بعثكم من الموت ﴿ تحشرون ﴾ فأتى بالبعث الذي هم له منكرون لكثرة ما أقام من الأدلة على تمام القدرة في سياق دال على أنه مما لا مجال للخلاف فيه ، وأن النظر إنما هو فيما وراء ذلك ، وهو أن عملهم للباطل سوّغ تنزيلهم منزلة من يعتقد أنه يحشر إلى غيره سبحانه ممن لا قدرة له على جزائهم ، فأخبرهم أن الحشر إليه لا إلى غيره ، لأنه لا كلام هناك لسواه ، فلا علق بين المحشورين ولا تناصر كما في الدنيا ، والجملة مع ذلك كالتعليل للأمر بالتقوى ، وقد بان أن الآية من الاحتباك ، فإنه حذف الصلاة أولاً لدلالة ذكرها ثانياً ، والإسلام ثانياً لدلالة ذكره أولاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 655 .

656 ﴾

(5/237)

---

فصل

قال السمرقندى :

﴿ وَأَنْ أَقِيمُواْ الصلاة ﴾

يعني : وأمرنا بالهدى وبالعمل : يعني : أقيموا الصلاة ﴿ واتقوه ﴾ يعني : وحّدوه .

ويقال : أطيعوه ويقال : هذا عطف على قوله : و ﴿ لَهُ أصحاب يَدْعُونَهُ إِلَى الهدى ﴾ وإلى إقامة الصلاة .

ويقال : معناه : أمرنا بالإسلام ، وبإقامة الصلاة ﴿ واتقوه ﴾ يعني : وحّدوه .

وقيل : أطيعوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وأن أقيموا ﴾ يتجه أن يكون بتأويل وإقامة فهو عطف على المفعول المقدر في ﴿ أمرنا ﴾ [ الأنعام : 71 ] ، وقيل بل هو معطوف على قوله ﴿ لنسلم ﴾ [ الأنعام : 71 ] تقديره لأن نسلم ﴿ وأن أقيموا ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : وهذا قول الزجاج واللفظ يمانعه وذلك أن قوله " لأن نسلم " معرب ، وقوله ﴿ أن أقيموا ﴾ مبني وعطف المبني على المعرب لا يجوز لأن العطف يقتضي التشريك في العامل اللهم إلا أن تجعل العطف في " أن " وحدها وذلك قلق وإنما يتخرج على أن يقدر قوله ﴿ وأن أقيموا ﴾ بمعنى لنقيم ثم خرجت بلفظ الأمر لما في ذلك من جزالة اللفظ فجاز العطف على أن يلغى حكم اللفظ ويعول على المعنى ، ويشبه هذا من جهة " ما " ما حكاه يونس عن العرب : أدخلوا الأول فالأول بالنصب ، وقال الزجّاج أيضاً : يحتمل أن يكون ﴿ وأن أقيموا ﴾ معطوفاً على ﴿ ائتنا ﴾ [ الأنعام : 71 ] .

قال القاضي أبو محمد : وفيه بعد ، والضمير في قوله ﴿ واتقوه ﴾ عائد على رب العالمين

﴿ وهو ﴾ ابتداء وما بعده وهو لفظ خبر يتضمن التنبيه والتخويف . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(6/237)

---

وقال أبو حيان :

﴿ وأن أقيموا الصلاة واتقوه ﴾

أن هنا مصدرية واختلف في ما عطف عليه ، قال الزجاج هو معطوف على قوله : لنسلم تقديره لأن نسلم و ﴿ أن أقيموا ﴾ .

قال ابن عطية : واللفظ يمانعه لأنّ ﴿ نسلم ﴾ معرب و ﴿ أقيموا ﴾ مبني وعطف المبني على المعرب لا يجوز لأن العطف يقتضي التشريك في العامل انتهى ، وما ذكره من أنه لا يعطف المبني على المعرب وأنّ ذلك لا يجوز ليس كما ذكر ، بل ذلك جائز نحو قام زيد وهذا ، وقال تعالى : ﴿ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ﴾ غاية ما في هذا أن العامل إذا وجد المعرب أثر فيه وإذا وجد المبني لم يؤثر فيه ويجوز إن قام زيد ويقصدني أحسن إليه ، بجزم يقصدني فإنْ لم تؤثر في قام لأنه مبني وأثرت في يقصدني لأنه معرب ، ثم قال ابن عطية : اللهم إلا أن يجعل العطف في إن وحدها وذلك قلق وإنما يتخرج على أن يقدر قوله : ﴿ أن

أقيموا ﴾ بمعنى وليقم ثم خرجت بلفظ الأمر لما في ذلك من جزالة اللفظ فجاز العطف على أن نلغي حكم اللفظ ونعوّل على المعنى ، ويشبه هذا من جهة ما حكاه يونس عن العرب : أدخلوا الأول فالأول وإلا فليس يجوز إلا ادخلوا الأول فالأول بالنصب انتهى ، وهذا الذي استدركه ابن عطية بقوله اللهم إلا أن إلى آخره هو الذي أراده الزجاج بعينه وهو أنّ ﴿ أن أقيموا ﴾ معطوف على أن نسلم وأنّ كلاهما علة للمأمور به المحذوف وإنما قلق عند ابن عطية لأنه أراد بقاء ﴿ أن أقيموا ﴾ على معناها من موضوع الأمر وليس كذلك لأن أن إذا دخلت على فعل الأمر وكانت المصدرية انسبك منها ومن الأمر مصدر ، وإذا انسبك منهما مصدر زال منها معنى الأمر ، وقد أجاز النحويون سيبويه وغيره أن توصل أن المصدرية الناصبة للمضارع بالماضي وبالأمر ، قال سيبويه : وتقول : كتبت إليه بأن قم ، أي بالقيام فإذا كان الحكم كذا كان قوله : ﴿ لنسلم ﴾ ﴿ وأن أقيموا ﴾ في تقدير للإسلام ، ولإقامة الصلاة وأما تشبيه ابن عطية بقوله : ادخلوا الأول فالأول بالرفع فليس يشبهه لأن ادخلوا لا يمكن لو أزيل عنه الضمير أن يتسلط على ما بعده ، بخلاف أن فإنها توصل بالأمر فإذاً لا شبه بينهما .

(7/237)

وقال الزمخشري ( فإن قلت ) : على عطف قوله : ﴿ وأن أقيموا ﴾ ( قلت ) : على موضع ﴿ لنسلم ﴾ كأنه قيل وأمرنا أن نسلم وأن أقيموا انتهى وظاهر هذا التقدير أنّ ﴿ أنْ نسلم ﴾ في موضع المفعول الثاني لقوله : ﴿ وأمرنا ﴾ وعطف عليه ﴿ وأن أقيموا ﴾ فتكون اللام على هذا زائدة ، وكان قد قدّم قبل هذا أن اللام تعليل للأمر فتناقض كلامه لأن ما يكون علة يستحيل أن يكون مفعولاً ويدل على أنه أراد بقوله ﴿ أن نسلم ﴾ أنه في موضع المفعول الثاني قوله بعد ذلك ، ويجوز أن يكون التقدير وأمرنا لأن نسلم ولأن أقيموا أي للإسلام ولإقامة الصلاة انتهى ، وهذا قول الزجاج فلو لم يكن هذا القول مغايراً لقوله الأول : لاتحد قولاه وذلك خلف ، وقال الزجاج : ويحتمل أن يكون ﴿ وأن أقيموا ﴾ معطوفاً على ﴿ أتنا ﴾ .

وقيل : معطوف على قوله : ﴿ إن هدى الله هو الهدى ﴾ والتقدير قل أن أقيموا وهذان القولان ضعيفان جدًّا ، ولا يقتضيهما نظم الكلام ، قال ابن عطية : يتجه أن يكون بتأويل وإقامة فهو عطف على المفعول المقدّر في أمرنا ؛ انتهى .

وكان قد قدّر : وأمرنا بالإخلاص أو بالإيمان لأن نسلم وهذا قول لا بأس به وهو أقرب من القولين قبلة إذ لا بد من تقدير المفعول الثاني لأمرنا ويجوز حذف المعطوف عليه لفهم المعنى تقول : أضربت زيداً فتجيب نعم وعمراً التقدير ضربته وعمراً وقد أجاز الفراء جاءني الذي وزيد قائمان التقدير جاءني الذي هو وزيد قائمان فحذف هو لدلالة المعنى عليه

والضمير المنصوب في ﴿ واتقوا ﴾ عائد على رب العالمين .

﴿ وهو الذي إليه تحشرون ﴾ جملة خبرية تتضمن التنبيه والتخويف لمن ترك امتثال ما أمر به من الإسلام والصلاة واتقاء الله ، وإنما تظهر ثمرات فعل هذه الأعمال وحسرات تركها يوم الحشر والقيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(8/237)

---

وقال أبو السعود :

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَقِيمُواْ الصلاة واتقوه ﴾

أي الله تعالى في مخالفة أمره ، عطفٌ على نُسلم على الوجوه الثلاثة على أنّ أنْ المصدرية إذا وُصلت بالأمر يتجرّدُ هو عن معنى الأمر نحوُ تجرُّد الصلةِ الفعليةِ عن معنى المُضيِّ والاستقبال ، فالمعنى على الأول أمرنا أي قيل لنا : أسلموا وأقيموا الصلاة واتقوا الله لأجل أن نُسلمَ ونُقيمَ الصلاة ونتّقِيَه تعالى ، وعلى الأخيرين أمرنا بأن نسلمَ ونقيمَ الصلاة ونتقيَه تعالى والتعرضُ لوصف ربوبيته تعالى للعالمين لتعليل الأمرِ وتأكيدِ وجوبِ الامتثالِ به كما أن قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ موجبةٌ للامتثال بما أُمر به من الأمور الثلاثة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

---

وقال الآلوسى :

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَقِيمُواْ الصلاة واتقوه ﴾ أي الرب في مخالفة أمره سبحانه بتقدير حرف الجر وهو عطف على الجار والمجرور السابق ، وقد صرح بدخول أن المصدرية على الأمر سيبويه وجماعة ، وجوز أن يعطف ﴿ أَنْ أَقِيمُواْ ﴾ على موضع ﴿ لِنُسْلِمَ ﴾ [ الأنعام : 71 ] كأنه قيل : أمرنا أن نسلم وأن أقيموا .

وقيل : العطف على مفعول الأمر المقدر أي أمرنا بالإيمان وإقامة الصلاة ، وقيل : على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هُدَى الله ﴾ [ الأنعام : 71 ] الخ أي قل لهم إن هدى الله هو الهدى وأن أقيموا ، وقيل : على ﴿ ائتنا ﴾ [ الأنعام : 71 ] ، وقيل : غير ذلك .

وذكر الإمام أنه كان الظاهر أن يقال : أمرنا لنسلم ولأن نقيم إلا أنه عدل لما ذكر للإيذان " بأن الكافر ما دام كافراً كان كالغائب الأجنبي فخوطب بما خوطب به الغُيَّب وإذا أسلم ودخل في زمرة المؤمنين صار كالقريب الحاضر فخوطب بما يخاطب به الحاضرون " وقوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ الذى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ جملة مستأنفة موجبة للامتثال بما أمر به سبحانه من الأمور الثلاثة ، وتقديم المعمول لإفادة الحصر مع رعاية الفواصل أي إليه

سبحانه لا إلى غيره تحشرون يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ وأن أقيموا الصلاة ﴾ إنْ جُعلت ( أنْ ) فيه مصدرية على قول سيبويه ، إذ يسوّغ دخول ( أنْ ) المصدرية على فِعل الأمر فتفيد الأمر والمصدرية معاً لأنّ صيغة الأمر لم يؤت بها عبثاً ، فقول المعربين : إنَّه يتجرّد عن الأمرية ، مرادهم به أنَّه تجرّد عن معنى فعل الأمر إلى معنى المصدرية فهو من عطف المفردات .

وهو إمّا عطف على ﴿ لنسلم ﴾ بتقدير حرف جرّ محذوف قبل ( أنْ ) وهو الباء .

وتقدير الحرف المحذوف يدلّ عليه معنى الكلام ، وإمّا عطف على معنى ﴿ لنسلم ﴾ لأنَّه وقع في موقع بأن نسلم ، كما تقدّم عن الزجّاج .

فالتقدير : أمرنا بأن نسلم ، ثم عطف عليه ﴿ وأن أقيموا ﴾ أي وأمرنا بأن أقيموا ، والعطف على معنى اللفظ وموقِعه استعمال عربي ، كقوله تعالى : ﴿ لولا أخَّرْتَنِي إلى أجل قريب فأصّدّقَ وأكُنْ ﴾ [ المنافقون : 10 ] إذ المعنى إنْ تؤخّرني أصّدّقْ وأكُنْ .

وإن جُعلت ( أنْ ) فيه تفسيرية فهو من عطف الجمل .

*(10/237)*

فيقدّر قوله : ﴿ أمرنا لنسلم ﴾ بأمِرْنا أن أسلموا لنُسلم ﴿ وأن أقيموا الصلاة ﴾ ، أي لنقيم فيكون في الكلام احتباك .

وأظهر من هذا أن تكون ( أنْ ) تفسيرية .

وهي تفسير لما دلَّت عليه واوُ العطف من تقدير العامل المعطوف عليه ، وهو ﴿ وأمرنا ﴾ ، فإنّ ﴿ أمرنا ﴾ فيه معنى القول دون حروفه فناسب موقع ( أنْ ) التفسيرية .

وتقدّم معنى إقامة الصلاة في صدر سورة البقرة ( 3 ) .

و ﴿ اتَّقوه ﴾ عطف على ﴿ أقيموا ﴾ ويجري فيه ما قُرّر في قوله ﴿ وأن أقيموا ﴾ .

والضمير المنصوب عائد إلى ﴿ ربّ العالمين ﴾ وهو من الكلام الذي أمروا بمقتضاه بأن قال الله للمؤمنين : أسلموا لربّ العالمين وأقيموا الصلاة واتَّقُوه .

ويجوز أن يكون محكياً بالمعنى بأن قال الله : اتَّقون ، فحُكي بما يوافق كلام النبي المأمور بأن يقوله بقوله تعالى : ﴿ قل إنّ هدى الله هو الهدى ﴾ ، كما في حكاية قول عيسى : ﴿ ما قلتُ لهم إلاّ مَا أمَرتني به أن اعبدوا الله ربِّي وربّكم ﴾ [ المائدة : 117 ] .

وجَمع قوله : ﴿ واتَّقوه ﴾ جميعَ أمور الدين ، وتخصيصُ إقامة الصلاة بالذكر للاهتمام .

وجملة : ﴿ وهو الذي إليه تُحشرون ﴾ إمّا عطف على جملة ﴿ اتَّقُوه ﴾ عطف الخبر على الإنشاء فتكون من جملة المقول المأمور به بقوله : ﴿ قل إنّ هدى الله ﴾ ، أي وقل لهم وهو الذي إليه تحشرون ، أو عطف على ﴿ قل ﴾ فيكون من غير المقول .

وفي هذا إثبات للحشر على منكريه وتذكير به للمؤمنين به تحريضاً على إقامة الصلاة والتقوى .

(11/237)

---

واشتملت جملة ﴿ وهو الذي إليه تحشرون ﴾ على عدّة مؤكّدات وهي : صيغة الحصر بتعريف الجزأين ، وتقديم معمول ﴿ تحشرون ﴾ المفيد للتقوّي لأنّ المقصود تحقيق وقوع الحشر على من أنكره من المشركين وتحقيق الوعد والوعيد للمؤمنين ، والحصر هنا حقيقي إذ هم لم ينكروا كون الحشر إلى الله وإنَّما أنكروا وقوع الحشر ، فسلك في إثباته طريق الكناية بقصره على الله تعالى المستلزم وقوعه وأنَّه لا يكون إلاّ إلى الله ، تعريضاً بأنّ آلهتهم لا تغني عنهم شيئاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(12/237)

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (72) ﴾

هنا تجد الأمر بثلاثة أشياء : نُسْلِمُ لرب العالمين ، ونقيم الصلاة ، ونتقيه سبحانه ، لماذا ؟ ؛ لأن كل الأعمال الشرعية التي تصدر من الجوارح لا بد أن تكون من ينابيع عقدية في القلب . وكيف نسلم لرب العالمين ؟ . أي نفعل ما يريد وننتهي عما ينهى عنه ، ثم نقيم الصلاة وهو أمر إيجابي ، ونتقي الله أي نتقي الأشياء المحرمة وهو أمر سلبي ، وهكذا نجد أن الهدى يتضمن إيماناً عقدياً برب نسلم زماننا له ؛ لتأتي حركتنا في الوجود طبقاً لما رسم لنا في ضوء " افعل " و" لا تفعل " ، وحركتنا في الوجود إما فعل وإما ترك . والفعل أن نقوم بسيد الأفعال وهو الصلاة ، والترك أن نتقي المحارم ، وهذا كله إنما يصدر من الينبوع العقدي الذي يمثله قوله : ﴿ لِنُسْلِمَ لِرَبِّ العالمين ﴾ .

والحق سبحانه وتعالى حينما يأمر بفعل أو ينهى عن شيء هو يعلم أنك صالح للفعل وللترك ، فإذا قال لك : افعل كذا ، فأنت صالح ألا تفعل ، وإذا قال : " لا تفعل كذا " ، فأنت صالح أن تفعل ، ولو كنت لا تصلح لأن تفعل لا يقول لك : افعل ؛ لأنك مخلوق على هيئة تستطيع أن تفعل وتستطيع ألا تفعل ، وهذا هو الاختيار المخلوق في الإنسان ، أما بقية الكون كله فليس عنده هذا الاختيار .

مثال ذلك : الشمس ، إنها ليست حرّة أن تشرق أو لا تشرق ، الهواء ليس ليس حراً أن يهب أو لا يهب ، والأرض في عناصرها ليست حرّة في أن تكتمها أو لا تكتمها ، لكن الإنسان مميز بقدرته على أن يختار بين البدائل ؛ لذلك لا بد أن يكون صالحاً للأمرين ،

والخطأ إنما يأتي من أن تنقل مجال " افعل " في " لا تفعل " . أو مجال " لا تفعل " في " افعل " .

والمؤمن يأخذ منطقية " افعل " في مجال " الفعل " ، ومنطقية " لا تفعل " في مجال الترك .

*(13/237)*

---

وحين تنظر إلى الإنسان تجد أن التكليف الإلهي يناسب التكوين البشري . وأنت تشترك مع الجماد في أشياء ، ومع النبات في أشياء ، ومع الحيوان في أشياء ، وتتفوق على الكل بقدرة الاختيار التي منحك الله إياها .

ولتوضيح هذا الأمر أقول : لنفترض أن واحداً أخذك إلى مكان مرتفع ثم تركك في الجو عندئذ تسقط على الأرض ، وهكذا تجد أن قانون الجماد ينطبق عليك ، فليس لك إرادة أن تقول : " لا أريد أن أقع " وهكذا نرى الجمادية فيك ، وانظر إلى " النمو " الذي لا تتحكم فيه ولا تقدر أن تقول : " سأنمو اليوم بزيادة في الطول قدرها نصف المليمتر " بل أنت لا تعرف كيف تنمو ، وأنت لا تعرف كيف ينبض قلبك ، ولا سرّ الحركات الدودية للأمعاء ، ولا حركة المعدة ، أو عمل الكبد ، أو حركة التنفس التي بها تقوم الحياة ، وكل ذلك أمور قهرية ، ومن رحمة الله بنا أنها قهرية ، فلو كانت اختيارية لتحكم فيها غيرك .

إذن من رحمته بنا سبحانه أن جعلنا مقهورين في هذه المسائل ، ومسخرين فيها ، وبعد

ذلك خلق لنا الاختيار في التكليف ، افعل ، ولا تفعل ، والتكليف من الله سبحانه وتعالى في الأفعال التي تقع من الإنسان لا في الأفعال التي تقع على الإنسان ؛ لأن الأفعال التي تقع من الإنسان هي التي فيها اختيار ويبحثها العقل أولاً ، لينفذها الإنسان بعد ذلك . ولذلك لا يكلف ربنا إلا العاقل الناضج ؛ لأنه لا توجد قوة تقهره على غير ما يختار . أما المجنون فليس عليه تكليف ؛ لأنه لم يُدرْ المسألة في رأسه قبل ان يفعل ، وكذلك من لم ينضج ؛ لأنه لم يصل إلى قوة الفهم الكامل ، وكذلك المقهور على فعل بقوة إنسان أو سلطان أقوى منه .

وهكذا نعلم أن التكليف لا يلزم الإنسان في تلك الحالات حيث لا يوجد عقل أو يكون العقل غير ناضج ، أو أن يوجد قهر .

*(14/237)*

---

ويتابع الحق : ﴿ وَهُوَ الذي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ولو أن المسألة – مسألة الإيمان – مجرد مظهر لا جوهر لما ترتب عليها نتيجة ، ولكن لننتبه إلى أن هناك غاية . وأضرب هذا المثل – ولله المثل الأعلى – نجد التلميذ مثلاً إن حضر الدرس أو لم يحضر ، استمع إلى المدرس أولاً ، ذاكر أو لم يذاكر ، ألا يظهر كل ذلك في شهادة نهاية العام ؟ .

إذن فالحساب قائم على كل فعل ؛ لأنك تتمتع أيها الإنسان بخاصية الاختيار ، أي أنك

صالح لتفعل أو ألاَّ تفعل ، ولذلك يرشدك الإيمان إلى العمل الصالح ؛ لأن هناك غاية ؛ إنَّك ستصير إلى من يحاسبك على أنك نقلت " افعل " في مجال " لا تفعل " ، أو " لا تفعل " في مجال " افعل " . فإن كنت لا تأخذ أمور الإيمان لصلاحية حياتك فخذها خوفاً من الجزاء والحساب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(15/237)*

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (72) ﴾

أي أَمَرَنا بملازمة محل المناجاة لأن اللسان إنْ تعوَّد نجوى السلطان متى ينطق ( بمكالمه ) الأخَسِّ ؟ ! انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 483 ﴾

*(16/237)*

---

قوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (73) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانوا بعبادة غيره تعالى – مع إقرارهم بأنه هو خالق السماوات والأرض – في حال من يعتقد أن ذلك الذي يعبدونه من دونه هو الذي خلقهما ، أو شاركاً فيهما .

فلا قدرة لغيره على حشر من في مملكته ، قال تعالى منبهاً لهم من غفلتهم وموقظاً من رقدتهم معيداً الدليل الذي ذكره أول السورة على وجه آخر : ﴿ وهو ﴾ أي وحده ﴿ الذي خلق ﴾ أي أوجد واخترع وقدر ﴿ السماوات والأرض ﴾ أي على عظمهما وفوت ما فيهما من الحكم والمنافع الحصر ﴿ بالحق ﴾ أي بسبب إقامة الحق ، وأنتم ترون أنه غير قائم في هذه الدار ولا هو قريب من القيام ، فوجب على كل من يعلم أن الله حكيم خبير أن يعتقد أنه لا بد من بعثة العباد بعد موتهم – كما وعد بذلك – ليظهر العدل بينهم ، فيبطل كل باطل ويحق كل حق ، ويظهر الحكم لجميع الخلق .

ولما قرر أن إقامة الحق هي المراد ، قرر قدرته عليها بقوله : ﴿ ويوم يقول ﴾ أي للخلق ولكل شيء يريده في هذه الدار وتلك الدار ﴿ كن فيكون ﴾ أي فهو يكون لا يتخلف أصلاً .

ولما قرر أنه لا يتخلف شيء عن أمره ، علله فقال : ﴿ قوله الحق ﴾ أي لا قول غيره ، لأن أكثر قول غيره باطل ، لأنه يقول شيئاً فلا يكون ما أراد ؛ ولما كان في مقام الترهيب من سطوته ، قال مكرراً لقوله " وهو الذي إليه تحشرون " : ﴿ وله ﴾ أي وحده بحسب الظاهر والباطن ﴿ الملك يوم ﴾ ولما كان المقصود تعظيم النفخة ، بني للمفعول قوله : ﴿ ينفخ في الصور ﴾ لانقطاع العلائق بين الخلائق ، لا كما ترون في هذه الدار من تواصل الأسباب ، وقولُه- : ﴿ عالم الغيب ﴾ وهو ما غاب عن كل ما سواه سبحانه ﴿ والشهادة ﴾ وهو ما صار بحيث يطلع عليه الخلق - مع كونه علة لما قبله من تمام القدرة كما سيأتي إن شاء الله تعالى في طه من تمام الترهيب ، أي أنه لا يخفى عليه شيء من أحوالكم ، فاحذروا جزاءه يوم تنقطع الأسباب ، ويذهب التعاضد والتعاون ، وهو على عادته سبحانه في أنه ما ذكر أحوال البعث إلاّ قرر فيه أصلين : القدرة على جميع الممكنات ، والعلم بجميع المعلومات الكليات والجزئيات ، لأنه لا يقدر على البعث إلا من جمع الوصفين ﴿ وهو ﴾ أي وحده ﴿ الحكيم ﴾ أي التام الحكمة ، فلا يضع شيئاً في غير محله ولا على غير أحكام ، فلا معقب لأمره ، فلا بد من البعث ﴿ الخبير ﴾ بجميع الموارد والمصادر ،

فلا خفاء لشيء من أفعال أحد من الخلق عليه في ظاهر ولا باطن ليهملهم عن الحساب .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 656. 657 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما بين في الآيات المتقدمة فساد طريقة عبدة الأصنام ، ذكر ههنا ما يدل على أنه لا معبود إلا الله وحده وهو هذه الآية ، وذكر فيها أنواعاً كثيرة من الدلائل .

*(18/237)*

---

أولها : قوله ﴿ وَهُوَ الذى خَلَقَ السموات والأرض بالحق ﴾ أما كونه خالقاً للسموات والأرض ، فقد شرحنا في قوله : ﴿ الحمد للَّهِ الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ وأما أنه تعالى خلقهما بالحق فهو نظير لقوله تعالى في سورة آل عمران ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا باطلا ﴾ [ آل عمران : 191 ] وقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ ﴾ [ الأنبياء : 16 ] ﴿ مَا خلقناهما إِلاَّ بالحق ﴾ [ الدخان : 39 ] وفيه قولان .

القول الأول : وهو قول أهل السنة أنه تعالى مالك لجميع المحدثات مالك لكل الكائنات وتصرف للمالك في ملكه حسن وصواب على الإطلاق ، فكان ذلك التصرف حسناً على

الإطلاق وحقاً على الإطلاق .

والقول الثاني : وهو قول المعتزلة أن معنى كونه حقاً أنه واقع على وفق مصالح المكلفين مطابق لمنافعهم .

قال القاضي : ويدخل في هذه الآية أنه خلق المكلف أولاً حتى يمكنه الانتفاع بخلق السموات والأرض ، ولحكماء الإسلام في هذا الباب طريقة أخرى ، وهي أنه يقال : أودع في هذه الأجرام العظيمة قوى وخواص يصدر بسببها عنها آثار وحركات مطابقة لمصالح هذا العالم ومنافعه .

وثانيها : قوله : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ﴾ في تأويل هذه الآية قولان .

الأول : التقدير وهو الذي خلق السموات والأرض وخلق يوم يقول كن فيكون ، والمراد من هذا اليوم يوم القيامة ، والمعنى أنه تعالى هو الخالق للدنيا ولكل ما فيها من الأفلاك والطبائع والعناصر والخالق ليوم القيامة والبعث ولرد الأرواح إلى الأجساد على سبيل كن فيكون .

والوجه الثاني : في التأويل أن نقول قوله : ﴿ الحق ﴾ مبتدأ و ﴿ يَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ﴾ ظرف دال على الخبر ، والتقدير : قوله : ﴿ الحق ﴾ واقع ﴿ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ كقولك يوم الجمعة القتال ، ومعناه القتال واقع يوم الجمعة .

والمراد من كون قوله حقاً في ذلك اليوم أنه سبحانه لا يقضي إلا بالحق والصدق ، لأن أقضيته منزهة عن الجور والعبث .

وثالثها : قوله : ﴿ وَلَهُ الملك يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصور ﴾ فقوله : ﴿ وَلَهُ الملك ﴾ يفيد الحصر ، والمعنى : أنه لا ملك في يوم ينفخ في الصور إلا الحق سبحانه وتعالى ، فالمراد بالكلام الثاني تقريراً لحكم الحق المبرأ عن العبث والباطل ، والمراد بهذا الكلام تقرير القدرة التامة الكاملة التي لا دافع لها ولا معارض .

فإن قال قائل : قول الله حق في كل وقت ، وقدرته كاملة في كل وقت ، فما الفائدة في تخصيص هذا اليوم بهذين الوصفين ؟

قلنا : لأن هذا اليوم هو اليوم الذي لا يظهر فيه من أحد نفع ولا ضر ، فكان الأمر كما قال سبحانه : ﴿ والأمر يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ فلهذا السبب حسن هذا التخصيص ، ورابعها : قوله : ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ تقديره ، وهو عالم الغيب والشهادة .

واعلم أنا ذكرنا في هذا الكتاب الكامل أنه سبحانه ما ذكر أحوال البعث في القيامة إلا وقرر فيه أصلين : أحدهما : كونه قادراً على كل الممكنات ، والثاني : كونه عالماً بكل المعلومات لأن بتقدير أن لا يكون قادراً على كل الممكنات لم يقدر على البعث والحشر ورد الأرواح إلى الأجساد وبتقدير أن لا يكون عالماً بجميع الجزئيات لم يصح ذلك أيضاً منه لأنه ربما اشتبه

عليه المطيع بالعاصي .

والمؤمن بالكافر ، والصديق بالزنديق ، فلا يحصل المقصود الأصلي من البعث والقيامة .

أما إذا ثبت بالدليل حصول هاتين الصفتين كمل الغرض والمقصود ، فقوله : ﴿ وَلَهُ الملك يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصور ﴾ يدل على كمال القدرة ، وقوله : ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ يدل على كمال العلم فلا جرم لزم من مجموعهما أن يكون قوله حقاً ، وأن يكون حكمه صدقاً ، وأن تكون قضاياه مبرأة عن الجور والعبث والباطل .

*(20/237)*

---

ثم قال : ﴿ وَهُوَ الحكيم الخبير ﴾ والمراد من كونه حكيماً أن يكون مصيباً في أفعاله ، ومن كونه خبيراً ، كونه عالماً بحقائقها من غير اشتباه ومن غير التباس . والله أعلم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 26 . 28 ﴾

فصل

قال الفخر :

قد ذكرنا في كثير من هذا الكتاب أنه ليس المراد بقوله : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ خطاباً وأمراً لأن ذلك الأمر إن كان للمعدوم فهو محال ، وإن كان للموجود فهو أمر بأن يصير الموجود موجوداً

وهو محال ، بل المراد منه التنبيه على نفاذ قدرته ومشيئته في تكوين الكائنات وإيجاد الموجودات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 28 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصور ﴾ ولا شبهة أن المراد منه يوم الحشر ، ولا شبهة عند أهل الإسلام أن الله سبحانه خلق قرناً ينفخ فيه ملك من الملائكة وذلك القرن يسمى بالصور على ما ذكر الله تعالى هذا المعنى في مواضع من الكتاب الكريم ولكنهم اختلفوا في المراد بالصور في هذه الآية على قولين :

القول الأول : أن المراد منه ذلك القرن الذي ينفخ فيه وصفته مذكورة في سائر السور .

والقول الثاني : إن الصور جمع صورة والنفخ في الصور عبارة عن النفخ في صور الموتى ، وقال أبو عبيدة : الصور جمع صورة مثل صوف وصوفة .

*(21/237)*

---

قال الواحدي رحمه الله : أخبرني أبو الفضل العروضي عن الأزهري عن المنذري عن أبي الهيثم : أنه قال ادعى قوم أن الصور جمع الصورة كما أن الصوف جمع الصوفة والثوم جمع

الثومة ، وروي ذلك عن أبي عبيدة قال أبو الهيثم ، وهذا خطأ فاحش لأن الله تعالى قال : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [ غافر : 64 ] وقال : ﴿ وَنُفِخَ فِى الصور ﴾ [ ياس : 51 ، الزمر : 68 ] فمن قرأ ونفخ في الصور ، وقرأ ﴿ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ فقد افترى الكذب ، وبدل كتاب الله ، وكان أبو عبيدة صاحب أخبار وغرائب ، ولم يكن له معرفة بالنحو ، قال الفراء : كل جمع على لفظ الواحد المذكر سبق جمعه واحده ، فواحده بزيادة هاء فيه ، وذلك مثل الصوف والوبر والشعر والقطن والعشب فكل واحد من هذه الأسماء اسم لجميع جنسه ، وإذا أفردت واحدته زيدت فيها هاء لأن جمع هذا الباب سبق واحده ، ولو أن الصوفة كانت سابقة للصوف لقالوا صوفة وصوف وبسرة وبسر كما قالوا غرفة وغرف ، وزلفة وزلف ، وأما الصور القرن فهو واحد لا يجوز أن يقال واحدته صورة وإنما تجمع صورة الإنسان صوراً لأن واحدته سبقت جمعه ، قال الأزهري : قد أحسن أبو الهيثم في هذا الكلام ، ولا يجوز عندي غير ما ذهب إليه ، وأقول : ومما يقوي هذا الوجه أنه لو كان المراد نفخ الروح في تلك الصور لأضاف تعالى ذلك النفخ إلى نفسه لأن نفخ الأرواح في الصور يضيفه الله إلى نفسه ، كما قال : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [ الحجر : 29 ] وقال : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ وقال : ﴿ ثُمَّ أنشأناه خلقا آخر ﴾ وأما نفح الصور بمعنى النفخ في القرن ، فإنه تعالى يضيفه لا إلى نفسه كما قال : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِى الناقور ﴾ [ المدثر : 8 ] وقال : ﴿ وَنُفِخَ فِى الصور فَصَعِقَ مَن فِى السموات وَمَن فِى

الأرض . . .

ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [ الزمر : 68 ] فهذا تمام القول في هذا البحث ، والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 28 ﴾

*(22/237)*

---

وقال السمرقندى :

﴿ وَهُوَ الذى خَلَقَ السموات والأرض بالحق ﴾

يعني : للحق والعبرة ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ ﴾ اليوم صار نصباً ، لأن معناه : واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً .

ويقال : معناه واذكروا يوم يقول : ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ يعني : يوم البعث يقول : انتشروا فانتشروا كلهم كقوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث ﴾ يعني : القبور ﴿ خُشَّعاً أبصارهم يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ [ القمر : 7 ] .

ثم قال ﴿ قَوْلُهُ الحق ﴾ ﴿ قَوْلُهُ ﴾ رفع بالابتداء ، وخبره ﴿ الحق ﴾ يعني : قوله الصدق أنه كائن .

قرأ ابن عامر ﴿ فَيَكُونُ ﴾ بالنصب على معنى الخير ، وكذا في كل القرآن ، إلا في موضعين

: ها هنا ، وفي آل عمران .

وقرأ الباقون : بالرفع على معنى الخبر .

﴿ وَلَهُ الملك يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصور ﴾ يوم صار نصباً لنزع الخافض .

ومعناه : وله الملك في يوم ينفخ في الصور وهذا كقوله عز وجل : ﴿ يَوْمَ هُم بارزون لاَ يخفى عَلَى الله مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ الملك اليوم للَّهِ الواحد القهار ﴾ [ غافر : 16 ] وكقوله : ﴿ مالك يَوْمِ الدين ﴾ [ الفاتحة : 4 ] ويقال : هذا مبين لقوله الأول ، ومعناه : يوم يقول له ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ .

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصور ﴾ وروي عن أبي عبيدة أنه قال : معناه : يوم يَنْفُخ الأرواح في الصور .

يعني : في الأجسام .

وهذا خلاف أقاويل جميع المفسرين لأنهم كلهم قالوا : هو نفخ إسرافيل في الصور .

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدِ الْتَقَمَهُ " وفي خبر آخر " وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدِ الْتَقَمَهُ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ فَيَنْفُخَ فِيهِ "

ثم قال : ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ الغيب ما غاب عن العباد والشهادة ما علم العباد به ، ويقال السر والعلانية .

ويقال ﴿ عالم ﴾ بما يكون وبما قد كان .

---

ويقال : ﴿ عالم ﴾ بأمر الآخرة وبأمر الدنيا ﴿ وَهُوَ الحكيم الخبير ﴾ يعني : ﴿ الحكيم ﴾ في أمره ﴿ الخبير ﴾ بأفعال الخلق وبأمر البعث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق ﴾

فيه أربعة أقوال .

أحدها : خلقهما للحق .

والثاني : خلقهما حقاً .

والثالث : خلقهما بكلامه ، وهو الحق .

والرابع : خلقهما بالحكمة .

قوله تعالى : ﴿ ويوم يقول كن فيكون ﴾ قال الزجاج : الأجود أن يكون منصوباً على معنى : واذكر يوم يقول كن فيكون ، لأن بعده ﴿ وإذ قال إبراهيم ﴾ فالمعنى : واذكر هذا وهذا .

وفي الذي يقول له كن فيكون ، ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه يوم القيامة ، قاله مقاتل .

والثاني : ما يكون في القيامة .

والثالث : أنه الصور ، وما ذكر من أمر الصور يدل عليه ، قالهما الزجاج .

قال : وخُصَّ ذلك اليوم بسرعة إيجاد الشيء ، ليدل على سرعة أمر البعث .

قوله تعالى : ﴿ قوله الحق ﴾ أي : الصدق الكائن لا محالة ﴿ وله الملك يوم ينفخ في الصور ﴾ .

وروى إسحاق بن يوسف الأزرق عن أبي عمرو : "ننفخ" بنونين ومعنى الكلام : أن الملوك يومئذ لا ملك لهم ، فهو المنفرد بالملك وحده ، كما قال : ﴿ والأمر يومئذ لله ﴾ [ الإنفطار : 19 ] وفي "الصور" قولان .

أحدهما : أنه قرن ينفخ فيه ؛ " روى عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصور ، فقال : "هو قرن ينفخ فيه" " وقال مجاهد : الصور كهيأة البوق .

وحكى ابن قتيبة : أن الصور : القرن ، في لغة قوم من أهل اليمن ، وأنشد :

نَحْنُ نَطَحْنَاهُم غَدَاةَ الجَمْعَيْن . . .

بالضَّابِحَاتِ فِي غُبارِ النَّقْعَيْن

نَطْحاً شَدِيداً لا كَنَطْحِ الصّورَيْن . . .

وأنشد الفراء :

لَوْلاَ ابنُ جَعْدَةَ لَم يُفْتَحْ قُهُنْدُزُكُم . . .

وَلاَ خُرَاسَانُ حتَّى يُنْفَخَ الصُّوْرُ

وهذا اختيارُ الجمهور .

(24/237)

---

والثاني : أن الصور جمع صورة ؛ يقال : صورة وصور ، بمنزلة سورة وسور ، كسورة البناء ؛ والمراد نفخ الأرواح في صُوَرِ الناس ، قاله قتادة : وأبو عبيدة .

وكذلك قرأ الحسن ، ومعاذ القارىء ، وأبو مِجْلَز ، وأبو المتوكل "في الصُّوَر" بفتح الواو .

قال ثعلب : الأجود أن يكون الصور : القرن ، لأنه قال عز وجل ﴿ ونُفخ في الصور فصَعِق من في السماوات ومن في الأرض ﴾ ثم قال : ﴿ ثم نُفخ فيه أخرى ﴾ ؛ ولو كان الصُّوَر ، كان : ثم نُفخ فيها أو فيهن ؛ وهذا يدل على أنه واحد ؛ وظاهر القرآن يشهد أنه يُنفخ في الصُّور مرتين .

وقد روى أهل التفسير عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "

الصور قرن يُنفخ فيه ثلاث نفخات ؛ الأولى : نفخة الفزع ، والثانية : نفخة الصعق ، والثالثة : نفخة القيام لرب العالمين " قال ابن عباس : وهذه النفخة المذكورة في هذه الآية هي الأولى ، يعني : نفخة الصعق .

قوله تعالى : ﴿ عالم الغيب ﴾ وهو ما غاب عن العباد مما لم يعاينوه ، ﴿ والشهادة ﴾ وهو ما شاهدوه ورأوه .

وقال الحسن : يعني بذلك السر والعلانية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وهو الذي خلق ﴾ الآية ، ﴿ خلق ﴾ ابتدع وأخرج من العدم إلى الوجود ، و ﴿ بالحق ﴾ ، أي لم يخلقها باطلاً بغير معنى بل لمعان مفيدة ولحقائق بينة منها ما يحسه البشر من الاستدلال بها على الصانع ونزول الأرزاق وغير ذلك ، وقيل المعنى بأن حق له أن يفعل ذلك ، وقيل ﴿ بالحق ﴾ معناه بكلامه في قوله للمخلوقات ﴿ كن ﴾ وفي قوله : ﴿ ائتيا طوعاً أوكرهاً ﴾ [ فصّلت : 11 ] .

*(25/237)*

قال القاضي أبو محمد : وتحرير القول أن المخلوقات إنما إيجادها بالقدرة لا بالكلام ، واقتران "كن " بحالة إيجاد المخلوق فائدته إظهار العزة والعظمة ونفوذ الأوامر وإعلان القصد ، ومثال ذلك في الشاهد أن يضرب إنسان شيئاً فيكسره ويقول في حال الكسر بلسانه : انكسر فإن ذلك إنفاذ عزم وإظهار قصد ، ولله المثل الأعلى ، لا تشبيه ولا حرف ولا صوت ولا تغير ، أمره واحدة كلمح البصر فكأن معنى الآية على هذا القول وهو الذي خلق السماوات والأرض بقوله ﴿ كن ﴾ المقترنه بالقدرة التي بها يقع إيجاد المخلوق بعد عدمه فعبر عن ذلك ﴿ بالحق ﴾ ، ﴿ ويوم يقول ﴾ نصب على الظرف وهو معلق بمعمول فعل مضمر ، تقديره : واذكر الخلق والإعادة يوم ، وتحتمل الآية مع هذا أن يكون معناها : واذكر الإعادة يوم يقول الله للأجساد كن معادة ، ثم يحتمل أن يتم الكلام هنا ثم يبدأ بإخبار أن يكون قوله الحق الذي كان في الدنيا إخباراً بالإعادة ، ويحتمل أن يكون تمام الكلام في قوله ﴿ فيكون ﴾ ويكون ﴿ قوله الحق ﴾ ابتداء وخبر أو على الاحتمال الذي قبل ف ﴿ قوله ﴾ فاعل ، قال الزجّاج قوله ﴿ يوم ﴾ معطوف على الضمير من قوله ﴿ واتقوه ﴾ فالتقدير هنا على هذا القول واتقوا العقاب أو الأهوال والشدائد يوم ، وقيل : إن الكلام معطوف على قوله ﴿ خلق السماوات ﴾ والتقدير على هذا : وهو الذي خلق السماوات والأرض والمعادات إلى الحشر يوم ، ولا يجوز أن تعمل هذه الأفعال لا تقديرك اذكر ولا اتقوا ولا خلق في يوم لأن أسماء الزمان إذا بنيت مع الأفعال فلا يجوز أن تنصب إلا

على الظرف ، ولا يجوز أن يتعلق ﴿ يوم ﴾ بقوله : ﴿ قوله الحق ﴾ لأن المصدر لا يعمل فيما تقدمه ، وقد أطلق قوم أن العامل اذكر أو خلق ، ويحتمل أن يريد ب " يقول " معنى المضي كأنه قال : وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق يوم يقول بمعنى قال لها " كن " ، ف ﴿ يوم ﴾ ظرف معطوف على موضع ﴿ قوله الحق ﴾ إذ هو في موضع نصب ، ويجيء

(26/237)

---

تمام الكلام في قوله ﴿ فيكون ﴾ ، ويجيء ﴿ قوله الحق ﴾ ابتداء وخبراً ويحتمل أن يتم الكلام في ﴿ كن ﴾ ، ويبتدأ ﴿ فيكون قوله الحق ﴾ وتكون " يكون " تامة بمعنى يظهر ، و ﴿ الحق ﴾ صفة للقول و ﴿ قوله ﴾ فاعل ، وقرأ الحسن " قُوله " بضم القاف ، ﴿ وله الملك ﴾ ابتداء وخبر ﴿ يوم ينفخ في الصور ﴾ " يوم " بدل من الأولى على أن " يقول " مستقبل لا على تقدير مضيه ، وقيل : بل متعلق بما تضمن الملك من معنى الفعل او بتقدير ثابت أو مستقر يوم ، و ﴿ في الصور ﴾ قال أبو عبيدة هو جمع صورة فالمعنى يوم تعاد العوالم وقال الجمهور هو الصور القرن الذي قال النبي صلى الله عليه وسلم إنه ينفخ فيه للصعق ثم للبعث ورجحه الطبري بقول النبي عليه السلام : " إن إسرافيل قد التقم الصور وحنى

جبهته ينظر متى يؤمر فينفخ " ، وقرأ الحسن " في الصوَر " يفتح الواو وهذه تؤيد التأويل الأول وحكاها عمرو بن عبيد عن عياض ﴿ عالم ﴾ رفع بإضمار مبتدأ وقيل نعت ل ﴿ الذي ﴾ وقرأ الحسن والأعمش " عالمٍ " بالخفض على النعت للضمير الذي في ﴿ له ﴾ ، أو على البدل منه من قوله ﴿ له الملك ﴾ ، وقد رويت عن عاصم ، وقيل ارتفع " عالم " بفعل مضمر من لفظ الفعل المبني للمفعول تقديره ينفخ فيه عالم على ما أنشد سيبويه : [ الطويل ]

لِيَبْكِ يزيدَ ضارعٌ لخصومةٍ . . . وآخرُ مِمّنْ طَوّحَتْهُ الطَّوائحُ

التقدير يبكيه ضارع ، وحكى الطبري هذا التأويل الذي يشبه ليبك يزيد عن ابن عباس ونظيرها من القرآن قراءة من قرأ ﴿ زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ﴾ [ الأنعام : 137 ] بضم الزاي ورفع الشركاء وروي عن عبد الوارث عن أبي عمرو " يوم ننفخ في الصور " بنون العظمة ، و ﴿ الغيب والشهادة ﴾ معناه ما غاب عنا وما حضر ، وهذا يعم جميع الموجودات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(27/237)

وقال القرطبى :

﴿ وَهُوَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض ﴾

أي فهو الذي يجب أن يُعبد لا الأصنام .

ومعنى ﴿ بالحق ﴾ أي بكلمة الحق .

يعني قوله "كُنْ" .

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي واذكر يوم يقول كن .

أو اتقوا يوم يقول كن .

أو قَدِّر يوم يقول كن .

وقيل : هو عطف على الهاء في قوله : ﴿ واتقوه ﴾ .

قال الفراء : "كن فيكون" يقال : إنه للصُّور خاصَّة ؛ أي ويوم يقول للصُّور كن فيكون .

وقيل : المعنى فيكون جميع ما أراد من موت الناس وحياتهم .

وعلى هذين التأويلين يكون ﴿ قَوْلُهُ الحق ﴾ ابتداءً وخبراً .

وقيل : إن قوله تعالى : ﴿ قَوْلُهُ ﴾ رفع بيكون ؛ أي فيكون ما يأمر به .

و "الْحَقُّ" من نعته .

ويكون التمام على هذا "فيكون قوله الحق" .

وقرأ ابن عامر "فيكونَ" بالنصب ، وهو إشارة إلى سرعة الحساب والبعث .

وقد تقدّم في "البقرة" القول فيه مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور ﴾ أي وله المُلْك يومَ ينفخ في الصُّور .

أو وله الحق يوم ينفخ في الصور .

وقيل : هو بدل من "يوم يقول" .

والصُّور قَرْن من نُور يُنفخ فيه ، النفخة الأولى للفَناء والثانية للإنشاء .

وليس جمع صُورة كما زعم بعضهم ؛ أي ينفخ في صُور الموتى على ما نبيّنه .

روى مُسْلم من حديث عبد الله بن عمرو : " . . .

ثم يُنفخ في الصُّور فلا يسمعه أحد إلا أصغى لِيتاً ورفَع ليتا قال وأوّل من يسمعه رجل يَلُوطُ حَوْض إبِله قال فَيَصْعَق ويَصْعَق الناسُ ثم يرسل الله أو قال ينزل الله مطراً كأنه الطّلُّ فَتَنْبُت منه أجسادُ الناس ثم يُنفخ فيهِ أخرى فإذا هم قيام ينظرون" وذكر الحديث .

وكذا في التنزيل ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى ﴾ [ الزمر : 68 ] ولم يقل فيها ؛ فعُلم أنه ليس جمع الصُّورة .

والأمم مُجْمِعة على أن الذي يَنفخ في الصُّور إسرافيلُ عليه السلام .

قال أبو الْهَيْثم : من أنكر أن يكون الصُّور قَرْنا فهو كمن يُنكر العرش والميزان والصراط ، وطلب لها تأويلات .

قال ابن فارس : الصُّور الذي في الحديث كالقَرْن يُنفَخ فيه ، والصُّور جمع صُورة .

---

وقال الجوهري : الصُّور القَرْن .

قال الراجز :

لقد نَطحناهم غَداةَ الجَمْعَيْن . . .

نَطْحاً شديداً لا كنطح الصُّورَيْن

ومنه قوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور ﴾ [ النمل : 87 ] .

قال الكَلْبِيّ : لا أدري ما هو الصُّور .

ويقال : هو جمع صُورة مثل بُسْرَة وبُسْر ؛ أي يُنفخ في صُوَر الموتى والأرواح .

وقرأ الحسن "يومَ يُنْفَخُ في الصُّوَر" .

والصِّور ( بكسر الصاد ) لغة في الصُّوَر جمع صُورة والجمع صِوار ، وصِيّار ( بالياء ) لغة فيه .

وقال عمرو بن عبيد : قرأ عِياض "يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّوَر" فهذا يعني به الخلق .

والله أعلم .

قلت : وممن قال إن المراد بالصُّور في هذه الآية جمع صُورة أبو عبيدة .

وهذا وإن كان محتملاً فهو مردود بما ذكرناه من الكتاب والسُّنّة .

وأيضاً لا ينفخ في الصور للبعث مرتين ؛ بل ينفخ فيه مرة واحدة ؛ فإسرافيل عليه السلام يَنفخ في الصُّور الذي هو القَرْن والله عز وجل يُحيي الصُّوَر .

وفي التنزيل ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [ التحريم : 21 ] .

قوله تعالى : ﴿ عَالِمُ الغيب والشهادة ﴾ برفع ﴿ عالم ﴾ صفة ل ﴿ الذِي ﴾ ؛ أي وهو الذي خلق السموات والأرض عالم الغيب .

ويجوز أن يرتفع على إضمار المبتدأ .

وقد رُوي عن بعضهم أنه قرأ "يَنْفُخ" فيجوز أن يكون الفاعل ﴿ عَالِمُ الغَيْبِ ﴾ ؛ لأنه إذا كان النفخ فيه بأمر الله عز وجل كان منسوباً إلى الله تعالى .

ويجوز أن يكون ارتفع ﴿ عَالِمُ ﴾ حملاً على المعنى ؛ كما أنشد سيبويه :

لِيُبْكَ يَزِيدُ ضارِعٌ لِخُصومةٍ . . .

وقرأ الحسن والأعمش "عالِم" بالخفض على البدل من الهاء التي في "له" . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق ﴾

يعني إظهاراً للحق فعلى هذا تكون الباء بمعنى اللام لأنه جعل صنعه دليلاً على وحدانيته .

وقيل : خلقها بكمال قدرته وشمول علمه وإتقان صنعه وكل ذلك حق .

*(29/237)*

---

وقيل خلقها بكلامه الحق وهو قول كن فيه دليل على أن كلام الله تعالى ليس بمخلوق لأنه لا يخلق مخلوق بمخلوق ﴿ ويوم يقول كن فيكون ﴾ .

وقيل إنه راجع إلى خلق السموات .

والمعنى : اذكر يوم قال للسموات والأرض كن فيكون .

قيل : يرجع إلى القيام ويدل عليه سرعة البعث والحساب كأنه قال : ويوم يقول للخلق موتوا فيموتون وقوموا للحساب فيقومون أحياء ﴿ قوله الحق ﴾ يعني أن قول الله تبارك وتعالى للشيء إذا أراده كن فيكون حق وصدق وهو كائن لا محالة ﴿ وله الملك يوم ينفخ في الصور ﴾ إنما أخبر عن ملكه يومئذ وإن كان الملك له سبحانه وتعالى خالصاً في كل وقت في الدنيا والآخرة لأنه لا منازع يومئذ يدعي الملك وأنه المنفرد بالملك يومئد وأن من كان يدعي الملك بالباطل من الجبابرة والفراعنة وسائر الملوك الذين كانوا في الدنيا قد زال ملكهم واعترفوا بأن الملك لله الواحد القهار وإنه لا منازع له فيه واعلموا أن الذي كانوا يدعونه من الملك في

الدنيا باطل وغرور .

واختلف العلماء في الصور المذكور في الآية فقال قوم : هو قرن ينفخ فيه وهو لغة أهل اليمن : قال مجاهد : الصور قرن كهيئة البوق ويدل على صحة هذا القول ما روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ما الصور ؟ " قال قرن ينفخ فيه " أخرجه أبو داود والترمذي .

عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " كيف أنتم وقد التقم صاحب القرن القرن وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ فكان ذلك ثقل على أصحابه " فقالوا كيف نفعل يا رسول الله وكيف نقول ؟ قال : " قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا ، وربما قال توكلنا على الله " أخرجه الترمذي .

وقال أبو عبيدة : الصور جمع صورة والنفخ فيه إحياؤها بنفخ الروح فيها .

وهذا قول الحسن ومقاتل .

*(30/237)*

---

والقول الأول أصح لما تقدم في الحديث ولقوله تعالى في آية أخرى : ثم نفخ فيه أخرى : ولإجماع أهل السنة أن المراد بالصور هو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل نفختين ، نفخة

الصعق ، ونفخة البعث للحساب .

وقوله تعالى : ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ يعني أنه تعالى ما غاب عن عباده وما يشاهدونه فلا يغيب عن علمه شيء ﴿ وهو الحكيم ﴾ يعني في جميع أفعاله وتدبير خلقه ﴿ الخبير ﴾ يعني بكل ما يفعلونه من خير أو شر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق ﴾

لما ذكر تعالى أنه إلى جزائه يحشر العالم وهو منتهى ما يؤول إليه أمرهم ذكر مبتدأ وجود العالم واختراعه له بالحق أي بما هو حق لا عبث فيه ولا هو باطل أي لم يخلقهما باطلاً ولا عبثاً بل صدرا عن حكمة وصواب وليستدل بهما على وجود الصانع إذ هذه المخلوقات العظيمة الظاهر عليها سمات الحدوث لا بد لها من محدث واحد عالم قادر مريد سبحانه وعلا .

وقيل : معنى ﴿ بالحق ﴾ بكلامه في قوله للمخلوقات ﴿ كن ﴾ وفي قوله : ﴿ ائتيا طوعاً أو كرهاً ﴾ والمراد في هذا ونحوه إنما هو إظهار انفعال ما يريد تعالى أن يفعله وإبرازه للوجود بسرعة وتنزيله منزلة ما يؤمر فيمتثل .

﴿ ويوم يقول كن فيكون قوله الحق ﴾ جوزوا في ﴿ يوم ﴾ أن يكون معمولاً لمفعول فعل محذوف وقدروه واذكر الإعادة يوم يقول : كن أي يوم يقول للأجساد كن معادة ويتم الكلام عند قوله : ﴿ كن ﴾ ، ثم أخبر بأنه يكون قوله الحق الذي كان في الدنيا إخباراً بالإعادة

فيكون قوله فاعلاً بفيكون أو يتم الكلام عند قوله : ﴿ كن فيكون ﴾ ويكون ﴿ قوله الحق ﴾ مبتدأ وخبراً .

وقال الزجاج ﴿ يوم يقول ﴾ معطوف على الضمير من قوله ﴿ واتقوه ﴾ أي واتقوا عقابه والشدائد ويوم فيكون انتصابه على أنه مفعول به لا ظرف .

*(31/237)*

---

وقيل : ﴿ ويوم ﴾ معطوف على السموات والأرض ﴾ والعامل فيه خلق ، وقيل : العامل اذكر أو معطوفاً على قوله ﴿ بالحق ﴾ إذ هو في موضع نصب ويكون ﴿ يِقُول ﴾ بمعنى الماضي كأنه قال وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق ويوم قال لها كن ويتم الكلام عند قوله ﴿ فيكون ﴾ ، ويكون ﴿ قوله الحق ﴾ مبتدأً وخبراً أو يتم عند ﴿ كن ﴾ ويبتدىء ﴿ فيكون قوله الحق ﴾ أي يظهر ما يظهر وفاعل يكون ﴿ قوله ﴾ و ﴿ الحق ﴾ صفة و ﴿ يكون ﴾ تامة وهذه الأعاريب كلها بعيدة ينبو عنها التركيب وأقرب ما قيل ما قاله الزمخشري وهو أن ﴿ قوله الحق ﴾ مبتدأ ﴿ والحق ﴾ صفة له و ﴿ يوم يقول ﴾ خبر المبتدأ فيتعلق بمسْتقر كما تقول يوم الجمعة القتال واليوم بمعنى الحين والمعنى أنه خلق السموات والأرض قائماً بالحق والحكمة وحين يقول للشيء من الأشياء كن فيكون ذلك

الشيء قوله الحق والحكمة أي لا يكون شيء من السموات والأرض وسائر المكونات إلا عن حكمة وصواب ، وجوز الزمخشري وجهاً آخر وهو أن يكون ﴿ قوله الحق ﴾ فاعلاً بقوله ﴿ فيكون ﴾ فانتصاب ﴿ يوم ﴾ بمحذوف دل عليه قوله ﴿ بالحق ﴾ كأنه قيل : كن يوم بالحق وهذا إعراب متكلف .

﴿ وله الملك يوم ينفخ في الصور ﴾ قيل ﴿ يوم ﴾ بدل من قوله ﴿ ويوم يقول ﴾ ، وقيل : منصوب بالملك وتخصيصه بذلك اليوم كتخصيصه بقوله : ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ وبقوله : ﴿ والأمر يومئذ لله ﴾ وفائدته الإخبار بانفراده بالملك حين لا يمكن أن يدعي فيه ملك ، وقيل هو في موضع نصب على الحال وذو الحال الملك والعامل له ، وقيل هو في موضع الخبر لقوله : ﴿ قوله الحق ﴾ أي يوم ينفخ في الصور ، وقيل ظرف لقوله ﴿ تحشرون ﴾ أو ليقول أو لعالم الغيب والشهادة .

وقرأ الحسن ﴿ في الصور ﴾ وحكاها عمرو بن عبيد عن عياض ويؤيد تأويل من تأوله أن الصور جمع صورة كثومة وثوم والظاهر أن ثم نفخاً حقيقة ، وقيل : هو عبارة عن قيام الساعة ونفاد الدنيا واستعارة .

(32/237)

وروي عن عبد الوارث عن أبي عمرو ننفخ بنون العظمة .

﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي هو عالم أو مبتدأ على تقدير من النافخ أو فاعل بيقول أو بينفخ محذوفة يدل عليه ينفخ نحو رجال بعد قوله : ﴿ يسبح ﴾ بفتح الباء وشركاؤهم بعد ﴿ زين ﴾ مبنياً للمفعول ورفع قتل ونحو ضارع لخصومة بعد ليبكِ يزيد التقدير يسبح له رجال وزينه شركاؤهم ويبكيه ضارع أو نعت للذي أقوال أجودها الأول والغيب والشهادة يعمان جميع الموجودات ، وقرأ الأعمش ﴿ عالم ﴾ بالخفض ووجه على أنه بدل من الضمير في له أو من رب العالمين أو نعت للضمير في ﴿ له ﴾ ، والأجود الأول لبعد المبدل منه في الثاني وكون الضمير الغائب يوصف وليس مذهب الجمهور إنما أجازه الكسائي وحده .

﴿ وهو الحكيم الخبير ﴾ لما ذكر خلق الخلق وسرعة إيجاده لما يشاء وتضمن البعث إفناءهم قبل ذلك ناسب ذكر الوصف بالحكيم ولما ذكر أنه عالم الغيب والشهادة ناسب ذكر الوصف بالخبير إذ هي صفة تدل على علم ما لطف إدراكه من الأشياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَهُوَ الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾

أُريد بخلقهما خلقُ ما فيهما أيضاً ، وعدمُ التصريح بذلك لظهور اشتمالهما على جميع العُلويات والسُفليات ، وقوله تعالى : ﴿ بالحق ﴾ متعلقٌ بمحذوفٍ هو حالٌ من فاعل ( خلق ) أو من مفعوله ، أو صفةٌ لمصدره المؤكّد له أي قائماً بالحق أو متلبّساً بالحق أو متلبساً به . وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الحق ﴾ استئنافٌ لبيانِ أنّ خلقَه تعالى لما ذَكر من السمواتِ والأرض ليس مما يَتوقَّفُ على مادّةٍ أو مُدّة بل يتَمّ بمحض الأمرِ التكوينيِّ من غير توقفٍ على شيءٍ آخَرَ أصلاً وأن ذلك الأمرَ المتعلّقَ بكل فردٍ فردٌ من أفراد المخلوقات في حينٍ معينٍ من أفراد الأحيان حقٌّ في نفسه متضمنٌ للحكمة ، ( ويومَ ) ظرفٌ لمضمون جملةِ ( قولُه الحقُّ ) والواو بحسب المعنى داخلٌ عليها وتقديمُه عليها للاعتناءِ به من حيث إنه مدارُ الحقّيةِ ، وتركُ ذكرِ المقولِ له للثقةِ بغاية ظهوره ، والمرادُ بالقول كلمةُ ( كن ) تحقيقاً أو تمثيلاً كما هو المشهورُ فالمعنى وأمرُه المتعلقُ بكل شيءٍ يريد خلقَه من الأشياء في حينِ تعلّقِه به لا قبلَه ولا بعده من أفراد الأحيان الحقُّ أي المشهودُ له بالحقّية المعروفُ بها ، هذا وقد قيل : ( قوله ) مبتدأ و( الحق ) صفتُه و( يوم يقول ) خبرُه مقدماً عليخ كقولك : يومَ الجمعةِ القتالُ وانتصابه بمعنى الاستقرار .

وحاصلُ المعنى قولُه الحقُّ كائنٌ حينَ يقول لشيءٍ من الأشياء كنْ فيكونُ ذلك الشيءُ ، وقيل : يوم منصوبٌ بالعطف على السمواتِ أو على الضمير في ( واتقوه ) أو بمحذوف دل

عليه ( بالحق ) وقوله الحق مبتدأ وخبر ، أو فاعلُ ( يكون ) على معنى حين يقول لقوله الحق ، أي لقضائه الحقِّ كن فيكون ، والمرادُ حين يكوِّن الأشياءَ ويُحدِثُها أو حين تقومُ القيامةُ فيكونُ التكوينُ حشرَ الأجساد وإحياءَها فتأملْ حقَّ التأمل .

(34/237)

---

﴿ وَلَهُ الملك يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصور ﴾ تقييدُ اختصاصِ المُلك به تعالى بذلك اليومِ مع عموم الاختصاصِ لجميع الأوقات لغاية ظهورِ ذلك بانقطاعِ العلائقِ المجازيةِ الكائنةِ في الدنيا ، المصحّحة للمالكيةِ المجازية في الجملة كقوله تعالى : ﴿ لّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي هو عالمُهما ﴿ وَهُوَ الحكيم ﴾ في كلِّ ما يفعله ﴿ الخبير ﴾ بجميعِ الأمور الجليّة والخفيّة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(35/237)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَهُوَ الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾

أي هذين الأمرين العظيمين .

ولعله أريد بخلقهما خلق ما فيهما أيضاً ، وعدم التصريح بذلك لظهور اشتمالهما على جميع العلويات والسفليات .

وقوله سبحانه : ﴿ بالحق ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل ﴿ خُلِقَ ﴾ أي قائماً بالحق ، ومعنى الآية حينئذ كما قيل كقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا باطلا ﴾ [ ص : 27 ] وجوز أن يكون حالاً من المفعول أي متلبسة بالحق ، وأن يكون صفة لمصدر الفعل المؤكد أي خلقاً متلبساً بالحق .

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الحق ﴾ تذييل لما تقدم ؛ والواو للاستئناف .

واليوم بمعنى الحين متعلق بمحذوف وقع خبراً مقدماً و ﴿ قَوْلُهُ ﴾ مبتدأ و ﴿ الحق ﴾ صفته ، والمراد بالقول المعنى المصدري أي القضاء الصواب الجاري على وفق الحكمة فلذا صح الإخبار عنه بظرف الزمان أي وقضاؤه سبحانه المعروف بالحقية كائن حين يقول سبحانه لشيء من الأشياء كن فيكون ذلك الشيء وتقديم الخبر للاهتمام بعموم الوقت كما قيل ، ونفى السعد كونه للحصر لعدم مناسبته وجعل التقديم لكونه الاستعمال الشائع .

وتعقب بأن المعروف الشائع تقديم الخبر الظرفي إذا كان المبتدأ نكرة غير موصوفة أو نكرة موصوفة أما إذا كان معرفة فلم يقله أحد .

وقيل : إن ﴿ قَوْلُهُ الحق ﴾ مبتدأ وخبر و ﴿ يَوْمٍ ﴾ ظرف لمضمون الجملة والواو بحسب

المعنى داخلة عليها والتقديم للاعتناء به من حيث إنه مدار الحقية ، وترك ذكر المقول له للثقة بغاية ظهوره .

والمراد بالقول كلمة ﴿ كُنَّ ﴾ تحقيقاً أو تمثيلاً .

(36/237)

---

والمعنى وأمره سبحانه المتعلق بكل شيء يريد خلقه من الأشياء حين تعلقه به لا قبله ولا بعده من أفراد الأحيان الحق أي المشهود له بالحقية ، وقيل : إن الواو للعطف و ﴿ يَوْمٍ ﴾ إما معطوف على ﴿ السموات ﴾ فهو مفعول لخلق مثله ، والمراد به يوم الحشر أي وهو الذي أوجد السموات والأرض وما فيهما وأوجد يوم الحشر والمعاد ، وإما على الهاء في ﴿ اتقوه ﴾ [ الأنعام : 72 ] فهو مفعول به مثله أيضاً ، والكلام على حذف مضاف أي اتقوا الله تعالى واتقوا هول ذلك اليوم وعقابه فزعه .

وإما متعلق بمحذوف دل عليه ﴿ ءادَمَ بالحق ﴾ أي يقوم بالحق يوم الخ ، وهو إعراب متكلف كما قال أبو حيان .

وقيل : إنه معطوف على ﴿ بالحق ﴾ وهو ظرف لخلق أي خلق السموات والأرض بعظمها حين قال كن فكان .

والتعبير بصيغة الماضي احضار للأمر البديع .

وفيه أنه يتوقف على صحة عطف الظرف على الحال بناء على أن الحال ظرف في المعنى وهو تكلف .

و ﴿ قَوْلُهُ الحق ﴾ مبتدأ وخبر أو فاعل يكون على معنى وحين يقول لقوله الحق أي لقضائه كن فيكون .

والمراد به حين يكون الأشياء ويحدثها أو حين يقوم القيامة فيكون التكوين إحياء الأموات للحشر وقيل غير ذلك فتدبر .

﴿ وَلَهُ الملك يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصور ﴾ أي استقر الملك له في ذلك اليوم صورة ومعنى بانقطاع العلائق المجازية الكائنة في الدنيا المصححة للمالكية في الجملة فلا يدعيه غيره بوجه .

والصور قرن ينفخ فيه كما ثبت في الأحاديث والله تعالى أعلم بحقيقته .

وقد فصلت أحواله في "كتب السنة" .

وصاحبه إسرافيل عليه السلام على المشهور .

وأخرج البزار والحاكم عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً أن ملكين موكلين بالصور ينتظران متى يؤمران فينفخان .

وقرأ قتادة "في الصور" جمع صورة والمراد بها الأبدان التي تقوم بعد نفخ الروح فيها لرب العالمين .

﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي كل غيب وشهادة ﴿ وَهُوَ الحكيم ﴾ في كل ما يفعله ﴿ الخبير ﴾ بجميع الأمور الخفية والجلية .

(37/237)

---

والجملة تذييل لما تقدم وفيه لف ونشر مرتب هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وجملة : ﴿ وهو الذي خلق السماوات ﴾ عطف على ﴿ وهو الذي إليه تحشرون ﴾ ، والقصر حقيقي إذ ليس ثم ردّ اعتقاد لأنّ المشركين يعترفون بأنّ الله هو الخالق للأشياء التي في السماء والأرض كما قدّمناه في أول السورة .

فالمقصود الاستدلال بالقصر على أنَّه هو المستحقّ للعبادة لأنّ الخلائق عبيده كقوله تعالى : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكّرون ﴾ [ النحل : 17 ] .

والباء من قوله : ﴿ بالحقّ ﴾ للملابسة ، والمجرور متعلّق بـ ﴿ خلَق ﴾ أو في موضع الحال من الضمير .

والحقّ في الأصل مصدر ( حقّ ) إذا ثبت ، ثم صار اسماً للأمر الثابت الذي لا يُنكر من

إطلاق المصدر وإرادة اسم الفاعل مثل فلان عَدْل .

والحقّ ضدّ الباطل .

فالباطل اسم لضدّ ما يسمَّى به الحقّ فيطلق الحقّ إطلاقاً شائعاً على الفعل أو القول الذي هو عَدل وإعطاء المستحقّ ما يستحقّه ، وهو حينئذٍ مرادف العدل ويقابله الباطل فيرادفُ الجَور والظلم ، ويطلق الحق على الفعل أو القول السديد الصالح البالغ حدّ الإتقان والصواب ، ويرادف الحكمة والحقيقة ، ويقابله الباطل فيرادف العبث واللعبَ .

والحقّ في هذه الآية بالمعنى الثاني ، كما في قوله تعالى : ﴿ ما خلقناهما إلاّ بالحقّ ﴾ [ الدخان : 39 ] بعد قوله : ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ﴾ [ الدخان : 38 ] وكقوله : ﴿ ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلاً ﴾ [ آل عمران : 191 ] .

*(38/237)*

---

فالله تعالى أخرج السماوات والأرض وما فيهنّ من العَدم إلى الوجودِ لحكم عظيمة وأودع في جميع المخلوقات قُوى وخصائص تصدر بسببها الآثار المخلوقة هي لها ورتَّبها على نُظم عجيبة تحفظ أنواعها وتُبرز ما خُلقت لأجله ، وأعظمها خَلق الإنسان وخَلْق العقل فيه

والعلم ، وفي هذا تمهيد لإثبات الجزاء إذ لو أهملت أعمال المكلّفين لكان ذلك نقصاناً من الحقّ الذي خُلقت السماوات والأرض ملابِسة له ، فعُقّب بقوله : ﴿ ويوم يقول كن فيكون قوله الحقّ ﴾ .

وجملة : ﴿ ويوم يقول كن فيكون قوله الحقّ ﴾ معطوفة على التي قبلها لمناسبة ملابسة الحقّ لأفعاله تعالى فبُينت ملابسة الحقّ لأمره تعالى الدّال عليه ﴿ يقول ﴾ .

والمراد بـ ﴿ يومَ يقول كن ﴾ يوم البعث ، لقوله بعده : ﴿ يوم يُنفخ في الصور ﴾ .

وقد أشكل نظم قوله : ﴿ ويوم يقول كن فيكون قوله الحقّ ﴾ ، وذهب فيه المفسّرون طرائق .

والوجه أنّ قوله ﴿ ويوم يقول كن فيكون ﴾ ظرف وقع خبره مقدّماً للاهتمام به ، والمبتدأ هو ﴿ قوله ﴾ ويكون ﴿ الحق ﴾ صفة للمتبدأ .

وأصل التركيب : وقوله الحقّ يومَ يقول : كن فيكون .

ونكتة الاهتمام بتقديم الظرف الردّ على المشركين المنكرين وقوع هذا التكوين بعد العدم .

ووصف القول بأَنَّه الحقّ للردّ على المشركين أيضاً .

وهذا القول هو عين المقولِ لفعل ﴿ يقول كن ﴾ ، وحُذف المقول له ﴿ كن ﴾ لظهوره من المقام ، أي يقول لغير الموجود الكائن : كُن .

وقوله : ﴿ فيكون ﴾ اعتراض ، أي يقول لمّا أراد تكوينه ( كن ) فيوجد المقولُ له ﴿ كُن

﴿ عقِب أمر التكوين .

والمعنى أنَّه أنشأ خلق السماوات والأرض بالحقّ ، وأنّه يعيد الخلق الذي بدأه بقول حقّ ، فلا يخلو شيء من تكوينه الأول ولا من تكوينه الثاني عن الحقّ .

ويتضمَّن أنّه قول مستقبل ، وهو الخلق الثاني المقابل للخلق الأول ، ولذلك أتي بكلمة ﴿ يوم ﴾ للإشارة إلى أنَّه تكوين خاصّ مقدّر له يوم معيّن .

(39/237)

---

وفي قوله : ﴿ قولُه الحقّ ﴾ صيغة قصر للمبالغة ، أي هو الحقّ الكامل لأنّ أقوال غيره وإن كان فيها كثير من الحقّ فهي معرّضة للخطأ وما كان فيها غيرَ معرض للخطأ فهو من وحي الله أو من نعمته بالعقل والإصابة ، فذلك اعتداد بأنَّه راجع إلى فضل الله .

ونظير هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه : " قولك الحقّ ووعدك الحقّ " .

والمراد بالقول كلّ ما يدلّ على مراد الله تعالى وقضائه في يوم الحشر ، وهو يوم يقول كن ، من أمرِ تكوين ، أو أمر ثواب ، أو عقاب ، أو خبر بما اكتسبه الناس من صالح الأعمال وأضدادها ، فكلّ ذلك من قول الله في ذلك اليوم وهو حقّ .

وخصّ من بين الأقوال أمرُ التكوين لما اقتضاه التقديم من تخصيصه بالذكر كما علمت .

وللمفسّرين في إعراب هذه الآية وإقامة المعنى من ذلك مسالك أخرى غير جارية على السبل الواضحة .

وقوله ﴿ وله الملك يوم ينفخ في الصور ﴾ جملة مستقلّة وانتظامها كانتظام جملة ﴿ ويوم يقول كن فيكون قوله الحقّ ﴾ إلاّ أنّ في تقديم المسند إليه على المسند قصر المسند إليه على المسند ، أي المُلك مقصور على الكَون له لا لغيْره لردّ ما عسى أن يطمع فيه المشركون من مشاركة أصنامهم يومئذٍ في التصرفّ والقضاء .

والمقصود من هذا الظرف تهويل ذلك اليوم .

والنفخ في الصور مَثَل ضُرب للأمر التكويني بحياة الأموات الذي يعُمّ سائر الأموات ، فيحيون به ويحضرون للحشر كما يحضر الجيش بنفخ الأبواق ودَقّ الطبول .

والصّور : البُوق .

وورد في الحديث : " أن المَلَك الموكَّل بنفخ الصور هو إسرافيل ، ولا يَعلم كنه هذا النفخ إلاّ الله تعالى " ويومُ النّفخ في الصّور هو يومَ يقُول : كن فيكون ، ولكنّه عبّر عنه هنا بـ ﴿ يوم ينفخ في الصور ﴾ لإفادة هذا الحال العجيب ، ولأنّ اليوم لمّا جعل ظرفاً للقول عُرّفَ بالإضافة إلى جملة ﴿ يقول كن فيكون ﴾ .

ولمَّا جعل اليوم ظرفاً للمُلك ناسب أن يعرّف اليوم بما هو من شعار المُلك والجند .

وقد انتصب ﴿ يوم ينفخ ﴾ على الظرفية ، والعامل فيه للاستقرار الذي في قوله ﴿ وله الملك ﴾ .

ويجوز أن يجعل بدلاً من ﴿ يومَ يقول كُن فيكون ﴾ .

ويجعل ﴿ وله الملك ﴾ عطفاً على ﴿ قوله الحقّ ﴾ على أنّ الجميع جملة واحدة .

وعن ابن عبّاس : الصور هنا جمع صُورة ، أي ينفخ في صُوَر الموجودات .

ولما انتهى المقصود من الإخبار عن شؤون من شأن الله تعالى أتبع بصفات تشير إلى المحاسبة على كلّ جليل ودقيق ظاهر وباطن بقوله : ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ .

وجاء أسلوب الكلام على طريقة حذف المخبَر عنه في مقام تَقَدُّم صفاته .

فحذْف المسند إليه في مثله تبع لطريقة الاستعمال في تعقيب الأخبار بخبر أعظم منها يجعل فيه المخبر عنه مسنداً إليه ويلتزم حذفه .

وقد تقدّم بيانه عند قوله تعالى : ﴿ مقامُ إبراهيم ﴾ في سورة [ آل عمران : 97 ] ، فلذلك قال هنا عالم الغيب ﴾ فحذف المسند إليه ثم لم يحذف المسند إليه في قوله : ﴿ وهو الحَكِيم الخبير ﴾ .

والغيب : ما هو غائب .

وقد تقدّم بيانه عند قوله تعالى : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ في سورة [ البقرة : 3 ] ،

وعند قوله ﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾ في هذه السورة [ 59 ] .

والشهادة : ضدّ الغيب ، وهي الأمور التي يشاهدها الناس ويتوصّلون إلى علمها يقال : شَهِد ، بمعنى حضر ، وضدّه غَاب ، ولا تخرج الموجودات عن الاتّصاف بهذين الوصفين ، فكأَنَّه قيل : العالم بأحوال جميع الموجودات .

والتعريف في الغيب والشهادة ﴾ للاستغراق ، أي عالم كلّ غيب وكلّ شهادة .

وقوله : ﴿ وهو الحكيم الخبير ﴾ عطف على قوله : ﴿ عالم الغيب ﴾ .

وصفة ﴿ الحكيم ﴾ تجمع إتقان الصنع فتدلّ على عظم القدرة مع تعلّق العلم بالمصنوعات .

وصفة ﴿ الخبير ﴾ تجمع العلم بالمعلومات ظاهرها وخفيّها .

فكانت الصفتان كالفذلكة لقوله : ﴿ وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحقّ ﴾ ولقوله ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

*(41/237)*

---

فصل

قال ابن كثير :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أي : بالعدل ، فهو خالقهما ومالكهما ، والمدبر لهما ولمن فيهما .

وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ يعني : يوم القيامة ، الذي يقول الله : ﴿ كُنْ ﴾ فيكون عن أمره كلمح البصر ، أو هو أقرب .

﴿ وَيَوْمَ ﴾ منصوب إما على العطف على قوله : ﴿ وَاتَّقُوهُ ﴾ وتقديره : واتقوا يوم يقول كن فيكون ، وإما على قوله : ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ أي : وخلق يوم يقول كن فيكون . فذكر بدء الخلق وإعادته ، وهذا مناسب . وإما على إضمار فعل تقديره : واذكر يوم يقول كن فيكون .

وقوله : ﴿ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ ﴾ جملتان محلهما الجر ، على أنهما صفتان لرب العالمين .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ يحتمل أن يكون بدلا من قوله : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ ويحتمل أن يكون ظرفًا لقوله : ﴿ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ كقوله ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر : 16] ، وكقوله ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ [الفرقان : 26] ، وما أشبه ذلك .

واختلف المفسرون في قوله : ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ فقال بعضهم : المراد بالصور هاهنا جمع "صورة" أي : يوم ينفخ فيها فتحيا .

قال ابن جرير : كما يقال سور – لسور البلد هو جمع سورة . والصحيح أن المراد بالصور : "القَرْن" الذي ينفخ فيه إسرافيل ، عليه السلام ، قال ابن جرير : والصواب عندنا ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن إسرافيل قد التقم الصور وحنى جبهته ، ينتظر متى يُؤمَر فينفخ" .

*(42/237)*

---

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا سليمان التيمي ، عن أسلم العِجْلي ، عن بِشْر بن شَغَاف ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال أعرابي : يا رسول الله ، ما الصور ؟ قال : "قرن ينفخ فيه . (1)

وقد روينا حديث الصور بطوله ، من طريق الحافظ أبي القاسم الطبراني ، في كتابه "الطّوالات" قال : حدثنا أحمد بن الحسن المصري الأيلي ، حدثنا أبو عاصم النبيل ، حدثنا إسماعيل بن رافع ، عن محمد بن زياد ، عن محمد بن كعب القُرَظي ، عن أبي هريرة ، رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو في طائفة من أصحابه ، فقال : "إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض ، خلق الصور فأعطاه إسرافيل ، فهو واضعه على فيه ، شاخصًا بصرَه إلى العرش ، ينتظر متى يؤمر" . قلت : يا رسول الله ،

وما الصور ؟ قال "القَرْن" . قلت : كيف هو ؟ قال : "عظيم ، والذي بعثني بالحق ، إن عظم دارة فيه كعرض السموات والأرض . ينفخ فيه ثلاث نفخات : النفخة الأولى نفخة الفزع ، والثانية نفخة الصعق ، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين . يأمر الله تعالى إسرافيل بالنفخة الأولى ، فيقول . انفخ ، فينفخ نفخة الفزع ، فيفزع أهل السموات [وأهل] الأرض إلا من شاء الله . ويأمره فيديمها ويطيلها ولا يفتر ، وهي كقول الله : ﴿ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلاءِ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴾ [ص : 15] ، فيسير الله الجبال فتمر مر السحاب ، فتكون سرابًا" .

---

(1) المسند (192/2) .

*(43/237)*

---

ثم ترتج الأرض بأهلها رجة فتكون كالسفينة المرمية في البحر ، تضربها الأمواج ، تكفأ بأهلها كالقنديل المعلق بالعرش ، ترجرجه الرياح ، وهي التي يقول ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ [النازعات : 6 – 8] ، فَيَميدُ الناس على ظهرها ، وتذهل المراضع ، وتضع الحوامل ، وتشيب الولدان ، وتطير الشياطين هاربة من الفزع ، حتى تأتي الأقطار ، فتأتيها الملائكة فتضرب وجوهها ، فترجع ، ويولي الناس مدبرين ما

لهم من أمْر الله من عاصم ، ينادي بعضهم بعضا ، وهو الذي يقول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ [غافر : 32] .

فبينما هم على ذلك ، إذ تصدعت الأرض من قطر إلى قطر ، فرأوا أمرا عظيما لم يروا مثله ، وأخذهم لذلك من الكرب والهول ما الله به عليم ، ثم نظروا إلى السماء ، فإذا هي كالمُهْل ، ثم انشقت فانتشرت نجومها ، وانخسف شمسها وقمرها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الأموات لا يعلمون بشيء من ذلك" قال أبو هريرة : يا رسول الله ، من استثنى الله ، عَزَّ وجل ، حين يقول : ﴿ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ [النمل : 87] ، قال : "أولئك الشهداء ، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء ، وهم أحياء عند الله يرزقون ، وقاهم الله فزع ذلك اليوم ، وآمنهم منه ، وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه" ، قال : وهو الذي يقول الله ، عَزَّ وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج : 1 ، 2] ،

*(44/237)*

فيكونون في ذلك العذاب ما شاء الله ، إلا أنه يطول .

ثم يأمر الله إسرافيل بنفخة الصعق ، فينفخ نفخة الصعق ، فيصعق أهل السموات [وأهل] الأرض إلا من شاء الله ، فإذا هم قد خمدوا ، وجاء ملك الموت إلى الجبار ، عَزَّ وجل ، فيقول : يا رب ، قد مات أهل السموات والأرض إلا من شئت . فيقول الله – وهو أعلم بمن بقي – : فمن بقي ؟ فيقول : يا رب ، بقيتَ أنت الحي الذي لا تموت ، وبقيت حملة العرش ، وبقي جبريل وميكائيل ، وبقيت أنا . فيقول الله ، عَزَّ وجل : ليمت جبريل وميكائيل . فيُنْطِقُ الله العرش فيقول : يا رب ، يموت جبريل وميكائيل ! ! فيقول : اسكت ، فإني كتبت الموت على كل من كان تحت عرشي ، فيموتان . ثم يأتي ملك الموت إلى الجبار [عَزَّ وجل] فيقول يا رب ، قد مات جبريل وميكائيل . فيقول الله [عَزَّ وجل] – وهو أعلم بمن بقي – : فمن تبقي ؟ فيقول : بقيت أنت الحي الذي لا تموت ، وبقيت حملة عرشك ، وبقيت أنا . فيقول الله ، [عَزَّ وجل] ليمت حملة عَرْشي . فيموتوا ، ويأمر الله العرش . فيقبض الصور من إسرافيل ، ثم يأتي ملك الموت ، فيقول : يا رب ، قد مات حملة عرشك . فيقول الله – وهو أعلم بمن بقي – : : فمن بقي ؟ فيقول : يا رب ، بقيت أنت الحي الذي لا تموت ، وبقيت أنا . فيقول الله [عَزَّ وجل] أنت خَلْق من خلقي ، خلقتك لما رأيت ، فمِت . فيموت . فإذا لم يبق إلا الله الواحد القهار الأحد [الصمد] الذي لم يلد ولم يولد ، كان آخرًا كما كان أولا طوى السموات والأرض طي السجل للكتب ثم دحاهما ثم يلقفهما ثلاث

مرات ، ثم يقول : أنا الجبار ، أنا الجبار ، أنا الجبار ثلاثًا . ثم هتف بصوته : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ ثلاث مرات ، فلا يجيبه أحد ، ثم يقول لنفسه : ﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر : 16] ، يقول الله : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ﴾ [إبراهيم : 48] ، فيبسطهما ويسطحهما ، ثم يمدهما مد الأديم العكاظي ﴿ لا تَرَى

(45/237)

---

فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ﴾ [طه : 107] .

ثم يزجر الله الخلق زجرة ، فإذا هم في هذه الأرض المبدلة مثل ما كانوا فيها من الأولى ، من كان في بطنها كان في بطنها ، ومن كان على ظهرها كان على ظهرها ، ثم ينزل الله [عَزَّ وجل] عليهم ماء من تحت العرش ، ثم يأمر الله السماء أن تمطر ، فتمطر أربعين يومًا ، حتى يكون الماء فوقهم اثني عشر ذراعا ، ثم يأمر الله الأجساد أن تنبت فتنبت كنبات الطراثيث - أو : كنبات البقل - حتى إذا تكاملت أجسادهم فكانت كما كانت ، قال الله ، عَزَّ وجل : لِيَحْيَا حملةُ عرشي ، فيحيون . ويأمر الله إسرافيل فيأخذ الصور ، فيضعه على فيه ، ثم يقول : ليحيا جبريل وميكائيل ، فيحيان ، ثم يدعو الله الأرواح

فيؤتى بها تتوهج أرواح المسلمين نورا ، وأرواح الكافرين ظلمة ، فيقبضها جميعا ثم يلقيها في الصور .

(46/237)

---

ثم يأمر الله إسرافيل أن ينفخ نفخة البعث ، فينفخ نفخة البعث ، فتخرج الأرواح كأنها النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض ، فيقول [الله] وعزتي وجلالي ، ليرجعن كل روح إلى جسده ، فتدخل الأرواح في الأرض إلى الأجساد ، فتدخل في الخياشيم ، ثم تمشي في الأجساد كما يمشي السم في اللديغ ، ثم تَنْشَقّ الأرض عنكم وأنا أول من تَنْشَقّ الأرض عنه ، فتخرجون سراعًا إلى ربكم تنسلون ﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [القمر : 8] حَفَاة عُرَاة [غُلْفًا] غُرْلا فتقفون موقفًا واحدًا مقداره سبعون عامًا ، لا يُنْظَر إليكم ولا يقضى بينكم ، فتبكون حتى تنقطع الدموع ، ثم تدمعون دمًا وتَعْرَقون حتى يلجمكم العرق ، أو يبلغ الأذقان ، وتقولون من يشفع لنا إلى ربنا فيقضي بيننا ؟ فتقولون من أحق بذلك من أبيكم آدم ، خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وكلمه قبلا ؟ فيأتون آدم ، فيطلبون ذلك إليه فيأبى ، ويقول : ما أنا بصاحب ذلك . فيستقرءون الأنبياء نبيا نبيا ، كلما جاءوا نبيا ، أبى عليهم" . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "حتى يأتوني ،

فأنطلق إلى الفحص فأَخر ساجدًا" قال أبو هريرة : يا رسول الله ، وما الفَحْص ؟ قال : "قدام العرش حتى يبعث الله إلي ملكا فيأخذ بعضدي ، ويرفعني ، فيقول لي : يا محمد فأقول : نعم يا رب . فيقول الله ، عَزَّ وجل : ما شأنك ؟ وهو أعلم ، فأقول : يا رب ، وعدتني الشفاعة فشَفعني في خلقك ، فاقض بينهم . قال [الله] قد شفعتك ، أنا آتيكم أقضي بينكم" .

*(47/237)*

---

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فأرجع فأقف مع الناس ، فبينما نحن وقوف ، إذ سمعنا حسا من السماء شديدا ، فهالنا فنزل أهل السماء الدنيا بمثلي من في الأرض من الجن والإنس ، حتى إذا دنوا من الأرض ، أشرقت الأرض بنورهم ، وأخذوا مصافهم ، وقلنا لهم : أفيكم ربنا ؟ قالوا : لا وهو آت .

ثم ينزل [من] أهل السماء الثانية بمثلي من نزل من الملائكة ، وبمثلي من فيها من الجن والإنس ، حتى إذا دنوا من الأرض ، أشرقت الأرض بنورهم ، وأخذوا مصافهم ، وقلنا لهم : أفيكم ربنا ؟ فيقولون : لا وهو آت .

ثم ينزلون على قدر ذلك من التضعيف ، حتى ينزل الجبار ، عَزَّ وجل ، في ظُلل من الغمام

والملائكة ، فيحمل عرشه يومئذ ثمانية – وهم اليوم أربعة – أقدامهم في تخوم الأرض السفلى ،

(48/237)

---

والأرض والسموات إلى حُجْزَتهم والعرش على مناكبهم ، لهم زجل في تسبيحهم ، يقولون : سبحان ذي العرش والجبروت ، سبحان ذي الملك والملكوت ، سبحان الحي الذي لا يموت ، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت ، سُبُّوح قدوس قدوس قدوس ، سبحان ربنا الأعلى ، رب الملائكة والروح ، سبحان ربنا الأعلى ، الذي يميت الخلائق ولا يموت ، فيضع الله كرسيه حيث يشاء من أرضه ، ثم يهتف بصوته يا معشر الجن والإنس ، إني قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا ، أسمع قولكم وأبصر أعمالكم ، فأنصتوا إلي ، فإنما هي أعمالكم وصحفكم تقرأ عليكم ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه .

ثم يأمر الله جهنم ، فيخرج منها عنق [مظلم] ساطع ، ثم يقول : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ * هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ – أو

: بها تكذبون - شك أبو عاصم - ﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ [يس : 60 - 64] فيميز الله الناس وتجثو الأمم . يقول الله تعالى : ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية : 28] فيقضي الله ، عَزَّ وجل ، بين خلقه ، إلا الثقلين الجن والإنس ، فيقضي بين الوحش والبهائم ، حتى إنه ليقضي للجماء من ذات القرن ، فإذا فرغ من ذلك ، فلم تبق تبعة عند واحدة للأخرى قال الله [لها] كوني ترابًا . فعند ذلك يقول الكافر : ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ [النبأ : 40]

*(49/237)*

---

ثم يقضي الله [عَزَّ وجل] بين العباد ، فكان أول ما يقضي فيه الدماء ، ويأتي كلّ قتيل في سبيل الله ، عَزَّ وجل ، ويأمر الله [عَزَّ وجل] كلّ قتيل فيحمل رأسه تَشْخُب أو داجه يقول : يا رب ، فيم قتلني هذا ؟ فيقول - وهو أعلم - : فيم قتلتهم ؟ فيقول : قتلتهم لتكون العزة لك . فيقول الله له : صدقت . فيجعل الله وجهه مثل نور الشمس ، ثم تمر به الملائكة إلى الجنة .

ويأتي كل من قُتل على غير ذلك يحمل رأسه وتشخب أوداجه ، فيقول : يا رب ، [فيم] قتلني هذا ؟ فيقول - وهو أعلم - : لم قتلتهم ؟ فيقول : يا رب ، قتلتهم لتكون العزة لك

ولي . فيقول : تعست . ثم لا تبقى نفس قتلها إلا قتل بها ، ولا مظلمة ظلمها إلا أخذ بها ، وكان في مشيئة الله إن شاء عذبه ، وإن شاء رحمه .

ثم يقضي الله تعالى بين من بقي من خلقه حتى لا تبقى مظلمة لأحد عند أحد إلا أخذها [الله] للمظلوم من الظالم ، حتى إنه ليكلف شائب اللبن بالماء ثم يبيعه أن يخلص اللبن من الماء .

فإذا فرغ الله من ذلك ، ناد مناد يسمع الخلائق كلهم : ألا ليلحق كل قوم بآلهتهم وما كانوا يعبدون من دون الله . فلا يبقى أحد عبد من دون الله إلا مثلت له آلهته بين يديه ، ويجعل يومئذ ملك من الملائكة على صورة عُزَير ، ويجعل ملك من الملائكة على صورة عيسى ابن مريم . ثم يتبع هذا اليهود وهذا النصارى ، ثم قادتهم آلهتهم إلى النار ، وهو الذي يقول [تعالى] ﴿ لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الأنبياء : 99] .

*(50/237)*

---

فإذا لم يبق إلا المؤمنون فيهم المنافقون ، جاءهم الله فيما شاء من هيئته ، فقال : يا أيها الناس ، ذهب الناس فالحقوا بآلهتكم وما كنتم تعبدون . فيقولون : والله ما لنا إله إلا الله ، وما كنا نعبد غيره ، فينصرف عنهم ، وهو الله الذي يأتيهم فيمكث ما شاء الله أن يمكث ،

ثم يأتيهم فيقول : يا أيها الناس ، ذهب الناس فالحقوا بآلهتكم وما كنتم تعبدون . فيقولون : والله ما لنا إله إلا الله وما كنا نعبد غيره ، فيكشف لهم عن ساقه ، ويتجلى لهم من عظمته ما يعرفون أنه ربهم ، فيخرون سجدا على وجوههم ، ويخر كل منافق على قفاه ، ويجعل الله أصلابهم كصياصي البقر . ثم يأذن الله لهم فيرفعون ، ويضرب الله الصراط بين ظهراني جهنم كحد الشفرة – أو : كحد السيف – عليه كلاليب وخطاطيف وحسك كحسك السعدان ، دون جسر دحض مزلة ، فيمرون كطرف العين ، أو كلمح البرق ، أو كمر الريح ، أو كجياد الخيل ، أو كجياد الركاب ، أو كجياد الرجال . فناج سالم ، وناج مخدوش ، ومكردس على وجهه في جهنم .

فإذا أفضى أهل الجنة إلى الجنة ، قالوا : من يشفع لنا إلى ربنا فندخل الجنة ؟ فيقولون : من أحق بذلك من أبيكم آدم ، عليه السلام ، خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وكلمه قبلا ؟ فيأتون آدم فيطلبون ذلك إليه ، فيذكر ذنبا ويقول : ما أنا بصاحب ذلك ، ولكن عليكم بنوح ، فإنه أول رسل الله . فيؤتى نوح فيُطْلَب ذلك إليه ، فيذكر ذنبا ويقول : ما أنا بصاحب ذلك ، ويقول عليكم بإبراهيم ، فإن الله اتخذه خليلا . فيؤتى إبراهيم ، فيُطْلَب ذلك إليه ، فيذكر ذنبا ويقول : ما أنا بصاحب ذلك ، ويقول : عليكم بموسى فإن الله قربه نَجيّا ، وكلمه وأنزل عليه التوراة . فيؤتى موسى ، فيطلب ذلك إليه ، فيذكر ذنبا ويقول : لست بصاحب ذلك ، ولكن عليكم بروح الله وكلمته عيسى ابن مريم .

فيؤتى عيسى ابن مريم ، فيطلب ذلك إليه ، فيقول : ما أنا بصاحبكم ، ولكن عليكم بمحمد " . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فيأتوني – ولي عند ربي ثلاث شفاعات [وعدنهن] – فأنطلق فآتي الجنة ، فآخذ بحَلَقَة الباب ، فأستفتح فيفتح لي ، فأحييّ ويرحب بي . فإذا دخلت الجنة فنظرت إلى ربي خررت ساجدا ، فيأذن الله لي من حمده وتمجيده بشيء ما أذن به لأحد من خلقه ، ثم يقول : ارفع رأسك يا محمد ، واشفع تشفع ، وسل تعطه . فإذا رفعت رأسي يقول الله – وهو أعلم – : ما شأنك ؟ فأقول : يا رب ، وعدتني الشفاعة ، فشفعني في أهل الجنة فيدخلون الجنة ، فيقول الله : قد شفعتك وقد أذنت لهم في دخول الجنة" .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "والذي نفسي بيده ، ما أنتم في الدنيا بأعرف بأزواجكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم ، فيدخل كل رجل منهم على اثنتين وسبعين زوجة ، سبعين مما ينشئ الله ، عَزَّ وجل ، وثنتين آدميتين من ولد آدم ، لهما فضل على من أنشأ الله ، لعبادتهما الله في الدنيا . فيدخل على الأولى في غرفة من ياقوتة ، على سرير من ذهب مكلل باللؤلؤ ، عليها سبعون زوجا من سندس وإستبرق ، ثم إنه يضع

يده بين كتفيها ، ثم ينظر إلى يده من صدرها ، ومن وراء ثيابها وجلدها ولحمها ، وإنه لينظر إلى مُخّ ساقها كما ينظر أحدكم إلى السلك في قصبة الياقوت ، كبدها له مرآة ، وكبده لها مرآة . فبينا هو عندها لا يملها ولا تمله ، ما يأتيها من مرة إلا وجدها عذراء ، ما يَفْتَرُ ذَكَرُهُ ، وما تشتكي قبلها . فبينا هو كذلك إذ نودي : إنا قد عرفنا أنك لا تمل ولا تمل ، إلا أنه لا مَني ولا مَنِية إلا أن لك أزواجا غيرها . فيخرج فيأتيهن واحدة واحدة ، كلما أتى واحدة [له] قالت : له والله ما أرى في الجنة شيئا أحسن منك ، ولا في الجنة شيء أحب إلي منك .

*(52/237)*

---

وإذا وقع أهل النار في النار ، وقع فيها خلق من خلق ربك أوبقتهم أعمالهم ، فمنهم من تأخذ النار قدميه لا تجاوز ذلك ، ومنهم من تأخذه إلى أنصاف ساقيه ، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه إلى حقويه ، ومنهم من تأخذ جسده كله ، إلا وجهه حرم الله صورته عليها " . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فأقول يا رب ، من وقع في النار من أمتي . فيقول : أخرجوا من عرفتم ، فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد . ثم يأذن الله في الشفاعة فلا يبقى نبي ولا شهيد إلا شفع ، فيقول الله : أخرجوا من وجدتم في قلبه زنة

الدينار إيمانا . فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد ، ثم يشفع الله فيقول : أخرجوا من [وجدتم] في قلبه إيمانا ثلثي دينار . ثم يقول : ثلث دينار . ثم يقول : ربع دينار . ثم يقول : قيراطا . ثم يقول : حبة من خردل . فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد ، وحتى لا يبقى في النار من عمل لله خيرا قط ، ولا يبقى أحد له شفاعة إلا شفع ، حتى إن إبليس ليتطاول مما يرى من رحمة الله رجاء أن يشفع له ، ثم يقول : بقيت وأنا أرحم الراحمين . فيدخل يده في جهنم فيخرج منها ما لا يحصيه غيره ، كأنهم حُمَم ، فيلقون على نهر يقال له : نهر الحيوان ، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل ما يلقى الشمس منها أخيضر ، وما يلي الظل منها أصيفر ، فينبتون كنبات الطراثيث ، حتى يكونوا أمثال الذر ، مكتوب في رقابهم : "الجُهَنَّمِيُّون عتقاء الرحمن" ، يعرفهم أهل الجنة بذلك الكتاب ، ما عملوا خيرًا لله قط ، فيمكثون في الجنة ما شاء الله ، وذلك الكتاب في رقابهم ، ثم يقولون : ربنا امح عنا هذا الكتاب ، فيمحوه الله ، عَزَّ وجل ، عنهم" .

*(53/237)*

---

هذا حديث [مشهور] وهو غريب جدا ، ولبعضه شواهد في الأحاديث المتفرقة (1) وفي بعض ألفاظه نكارة . تفرد به إسماعيل بن رافع قاص أهل المدينة ، وقد اختلف فيه ، فمنهم

من وثقه ، ومنهم من ضعفه ، ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة ، كأحمد بن حنبل ، وأبي حاتم الرازي ، وعمرو بن علي الفَلاس ، ومنهم من قال فيه : هو متروك . وقال ابن عدي : أحاديثه كلها فيها نظر إلا أنه يكتب حديثه في جملة الضعفاء .

قلت : وقد اختلف عليه في إسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة ، قد أفردتها في جزء على حدة . وأما سياقه ، فغريب جدًا ، ويقال : إنه جمعه من أحاديث كثيرة ، وجعله سياقا واحدا ، فأنكر عليه بسبب ذلك . وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي يقول : إنه رأى للوليد بن مسلم مصنفا قد جمع فيه كل الشواهد لبعض مفردات هذا الحديث ، فالله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 281.288 ﴾

---

(1) الأحاديث الطوال للطبراني برقم (36) وقد خولف فيه أحمد بن الحسن الأيلي ، فرواه أبو الشيخ الأصبهاني في العظمة برقم (387) من طريق إسحاق بن راهوية ، والبيهقي في البعث والنشور برقم (669) من طريق أبي قلابة الرقاشي كلاهما إسحاق – وأبو قلابة – من طريق أبي عاصم الضحاك ، عن إسماعيل بن رافع ، عن محمد بن أبي زياد ، عن محمد بن كعب القرظي ، عن رجل من الأنصار ، عن أبي هريرة . به ، وروى من طريق أخرى مدارها على إسماعيل بن رافع المدني ، وقد ضعفه الأئمة وتركه الدار قطني .

وقال ابن عدي : "أحاديثه كلها مما فيه نظر" .

---

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ) .

ضَرَبَ اللهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُولَى مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ مَثَلًا يَتَّضِحُ لِمَنْ عَقَلَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مَا تَقَرَّرَ فِيهَا وَفِي الْآيَاتِ قَبْلَهَا مِنْ بَيِّنَاتِ التَّوْحِيدِ وَدَلَائِلِهِ ، وَيُظْهِرُ لَهُمْ سُوءَ حَالِهِمْ وَقُبْحَ مَآلِهِمْ فِي شِرْكِهِمْ ، وَيُعَلِّلُ لَهُمْ مَا بُدِئَ بِهِ سِيَاقُ الْآيَاتِ الْأَخِيرَةِ فِيهِ – أَيِ التَّوْحِيدِ – مِنَ النَّهْيِ عَنْ دُعَاءِ غَيْرِ اللهِ وَعَنِ اتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ ، وَيَشْرَحُ لَهُمْ مَفْهُومَهُ ، وَيُفَصِّلُ لَهُمْ مَضْمُونَهُ ، وَيُبَيِّنُ لَهُمْ مُقَابِلَهُ . وَأَعْنِي بِهَذَا السِّيَاقِ مَا فِي حَيِّزِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ) (40 : 66) إِلَخْ . وَحَيِّزُ قَوْلِهِ : (قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) (63) وَمَا يَلِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ بِعَذَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَخَتَمَ الْآيَةَ بِالْأَمْرِ بِالْإِسْلَامِ الْمُقَابِلِ لِطَرِيقِ الضَّلَالِ وَالْهَوَى ، وَبَدَأَ الْآيَةَ الثَّانِيَةَ بِبَيَانِ أَعْظَمِ أَعْمَالِ طَرِيقِ الْهُدَى ، وَالْآيَةُ الثَّالِثَةُ فِي التَّذْكِيرِ بِدَلَائِلِ ذَلِكَ ، وَعَاقِبَتِهِ ، وَصِدْقِ وَعِيدِهِ تَعَالَى ، وَكَمَالِ عِلْمِهِ ، وَحِكْمَتِهِ فِيهِ ، قَالَ :

(قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ) رُوِيَ عَنِ السُّدِّيِّ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لِلْمُؤْمِنِينَ : اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَاتْرُكُوا دِينَ مُحَمَّدٍ ، فَقَالَ اللهُ : (قُلْ أَنَدْعُوا) الْآيَةَ ، وَعَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ قَالَ فِي الْآيَةِ : خُصُومَةٌ عَلَّمَهَا اللهُ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَصْحَابَهُ يُخَاصِمُونَ بِهَا أَهْلَ الضَّلَالَةِ . وَلَعَلَّ هَذَا مُرَادُ السُّدِّيِّ ؛ إِذْ لَا يَظْهَرُ أَنَّ مُرَادَهُ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا ذَلِكَ مَرَّةً وَاحِدَةً لِبَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ لِجَمِيعِهِمْ ، بَلْ كَانُوا يَفْتِنُونَ الْمُسْلِمِينَ دَائِمًا وَيَدْعُونَهُمْ إِلَى الْعَوْدِ إِلَى الْكُفْرِ ، وَمِنْهُ مَا رُوِيَ مِنْ دَعْوَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا لِأَبِيهِ إِلَى الشِّرْكِ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ رَدًّا عَلَيْهِمْ ، فَلَقَّنَهُمُ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الْحُجَّةَ الْمُؤَثِّرَةَ - بِمَا فِيهَا مِنَ الْمَثَلِ الْجَلِيِّ الْوَاضِحِ لِحَالَيِ الشِّرْكِ وَضَلَالِهِ وَالتَّوْحِيدِ وَهِدَايَتِهِ - فِي سِيَاقِ حُجَجِ الْحَقِّ الْكَثِيرَةِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الَّتِي نَزَلَتْ دُفْعَةً وَاحِدَةً كَمَا تَقَدَّمَ ، وَالِاسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ وَالتَّعَجُّبِ ، وَالْمَعْنَى : قُلْ أَنَدْعُو - مُتَجَاوِزِينَ دُعَاءَ اللهِ الْقَادِرِ عَلَى اسْتِجَابَةِ دُعَائِنَا - مَا لَا يَضُرُّنَا وَلَا يَنْفَعُنَا - كَالْأَصْنَامِ وَسَائِرِ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ - وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بِالْعَوْدِ إِلَى ضَلَالَةِ الشِّرْكِ الْفَاضِحَةِ بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ إِلَى الْإِسْلَامِ ! .

*(56/237)*

وَمِنْ بَلَاغَةِ هَذِهِ الْعِبَارَةِ أَنَّهَا بَيَّنَتْ عِلَّةَ الْإِنْكَارِ وَالتَّعَجُّبِ فِي الِاسْتِفْهَامِ مِنْ خَمْسَةِ أَوْجُهٍ :

(أَحَدُهَا) أَنَّ دُعَاءَ غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى تَحَوُّلٌ وَارْتِدَادٌ مِنْ دُعَاءِ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، الَّذِي يَكْشِفُ مَا يُدْعَى إلَيْهِ إنْ شَاءَ - إلَى دُعَاءِ الْعَاجِزِ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى نَفْعٍ وَلَا ضُرٍّ .

(ثَانِيهَا) أَنَّهُ نُكُوصٌ عَلَى الْأَعْقَابِ ، وَتَقَهْقُرٌ إلَى الْوَرَاءِ ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ فِيمَنْ عَجَزَ بَعْدَ قُدْرَةٍ ، أَوْ سَفُلَ بَعْدَ رِفْعَةٍ ، أَوْ أَحْجَمَ بَعْدَ إقْدَامٍ عَلَى مَحْمَدَةٍ : نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ ، وَارْتَدَّ عَلَى عَقِبَيْهِ وَرَجَعَ الْقَهْقَرَى ، وَالْأَصْلُ فِيهِ رُجُوعُ الْهَزِيمَةِ أَوِ الْخَيْبَةِ وَالْعَجْزِ عَنِ السَّيْرِ الْمَحْمُودِ ، ثُمَّ صَارَ يُطْلَقُ عَلَى كُلِّ تَحَوُّلٍ مَذْمُومٍ .

(ثَالِثُهَا) التَّعْبِيرُ بِ (نُرَدُّ) الْمَبْنِيِّ لِلْمَجْهُولِ بَدَلَ التَّعْبِيرِ بِ " نَرْتَدُّ " أَوْ " نَرْجِعُ " ، وَالنُّكْتَةُ فِيهِ أَنَّ هَذَا التَّحَوُّلَ الْمَذْمُومَ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَقَعَ مِنْ عَاقِلٍ ؛ لِأَنَّ الْعَاقِلَ إذَا وَصَلَ إلَى مَرْتَبَةٍ عَالِيَةٍ مِنَ الْعِلْمِ وَالْكَمَالِ فَإِنَّهُ لَا يَخْتَارُ الرُّجُوعَ عَنْهَا وَاسْتِبْدَالَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَأَعْلَى ، فَإِذَا كَانَتْ فِطْرَتُهُ وَعَقْلُهُ يَأْبَيَانِ عَلَيْهِ هَذِهِ الرِّدَّةَ وَالنُّكُوصَ ، فَكَيْفَ يُرَدُّ وَهُوَ لَا يَرْتَدُّ ؟ .

(57/237)

(رَابِعُهَا) أَنَّ مَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ الْقَدِيرُ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ مِنَ الضَّلَالَةِ ، وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطِ السَّعَادَةِ بِمَا أَرَاهُ مِنْ آيَاتٍ فِي الْأَنْفُسِ وَالْآفَاقِ ، وَمَا شَرَحَ بِهِ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ، فَمَنْ يَقْدِرُ أَنْ يُضِلَّهُ بَعْدَ إِذْ هَدَاهُ اللَّهُ ؟ (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ) (39 : 37) .

(خَامِسُهَا) الْمَثَلُ الَّذِي يُصَوِّرُ الْمُرْتَدَّ فِي أَقْبَحِ حَالَةٍ كَانَتْ تَتَصَوَّرُهَا الْعَرَبُ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا) قَرَأَ حَمْزَةُ " اسْتَهْوَاهُ " بِأَلِفٍ مُمَالَةٍ ، وَكَانُوا يَرْسُمُونَهَا يَاءً كَأَصْلِهَا وَإِنْ تَكُنْ طَرَفًا ، وَرَسْمُهَا فِي الْمُصْحَفِ

(58/237)

---

الْإِمَامِ هَكَذَا (اسْتَهْوَتْهُ) وَهُوَ يَحْتَمِلُ الْقِرَاءَتَيْنِ . وَتَقْدِيرُ التَّشْبِيهِ فِي الْكَلَامِ أُنْرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ تِلْكَ الْهِدَايَةِ مِثْلَ رَدِّ الَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ ، أَوْ مُشَبَّهِينَ بِالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ - إِلَخْ ! . قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ : اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ : ذَهَبَتْ بِهَوَاهُ وَعَقْلِهِ ، وَقِيلَ : اسْتَهَامَتْهُ وَحَيَّرَتْهُ . وَقِيلَ : زَيَّنَتْ لَهُ هَوَاهُ ، وَيُقَالُ لِلْمُسْتَهَامِ الَّذِي اسْتَهَامَتْهُ الْجِنُّ : وَاسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ . الْقُتَيْبِيُّ : اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ هَوَتْ بِهِ وَأَذْهَبَتْهُ - جَعَلَهُ مِنْ هَوَى

يَهْوِي . وَجَعَلَهُ الزَّجَّاجُ مِنْ هَوَى يَهْوَى ، أَيْ زَيَّنَتْ لَهُ هَوَاهُ . كَذَا فِي لِسَانِ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِ ، وَالْمُسْتَهَامُ هُوَ الَّذِي جَعَلَهُ الْعِشْقُ أَوِ الْجُنُونُ هَائِمًا ، أَيْ يَسِيرُ عَلَى وَجْهِهِ لَا يَقْصِدُ غَايَةً مُعَيَّنَةً ، وَكَانَتِ الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَزْعُمُ أَنَّ الْجُنُونَ كُلَّهُ مِنْ تَأْثِيرِ الْجِنِّ ، وَالْأَصْلُ فِي قَوْلِهِمْ : جُنَّ فُلَانٌ – مَسَّتْهُ الْجِنُّ فَذَهَبَتْ بِعَقْلِهِ . وَكَانُوا يَقُولُونَ : إِنَّ الْجِنَّ تَظْهَرُ لَهُمْ فِي الْبَرَارِي وَالْمَهَامِهِ ، وَتَتَلَوَّنُ لَهُمْ بِأَلْوَانٍ مُخْتَلِفَةٍ ، فَتَذْهَبُ بِلُبِّ مَنْ يَرَاهَا فَيَهِيمُ عَلَى وَجْهِهِ لَا يَدْرِي أَيْنَ يَذْهَبُ حَتَّى يَهْلِكَ . وَالشَّيَاطِينُ الَّتِي تَتَلَوَّنُ هِيَ الَّتِي يُسَمُّونَهَا الْغِيلَانَ وَالْأَغْوَالَ وَالسَّعَالِي (بِوَزْنِ الصَّحَارِي) ، وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : " لَا

(59/237)

---

عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ وَلَا غُولَ " قَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ : قَالَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ : كَانَتِ الْعَرَبُ تَزْعُمُ أَنَّ الْغِيلَانَ فِي الْفَلَوَاتِ ، وَهِيَ مِنْ جِنْسِ الشَّيَاطِينِ ، تَتَرَاءَى لِلنَّاسِ وَتَتَغَوَّلُ تَغَوُّلًا ، أَيْ تَتَلَوَّنُ تَلَوُّنًا فَتُضِلُّهُمْ عَنِ الطَّرِيقِ فَتُهْلِكُهُمْ ، فَأَبْطَلَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ذَاكَ ، وَقَالَ آخَرُونَ : لَيْسَ الْمُرَادُ نَفْيَ وُجُودِ الْغُولِ ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ إِبْطَالُ مَا تَزْعُمُهُ الْعَرَبُ مِنْ تَلَوُّنِ الْغُولِ بِالصُّوَرِ الْمُخْتَلِفَةِ وَاغْتِيَالِهَا . قَالُوا : وَمَعْنَى " لَا غُولَ " لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُضِلَّ أَحَدًا ،

وَيَشْهَدُ لَهُ حَدِيثٌ آخَرُ " لَا غُولَ وَلَكِنِ السَّعَالِي " وَقَالَ الْعُلَمَاءُ : السَّعَالِي - بِالسِّينِ الْمَفْتُوحَةِ وَالْعَيْنِ الْمُهْمَلَتَيْنِ - هُمْ سَحَرَةُ الْجِنِّ ، أَيْ : وَلَكِنْ فِي الْجِنِّ سَحَرَةٌ ، لَهُمْ تَلْبِيسٌ وَتَخْيِيلٌ " وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ " إِذَا تَغَوَّلَتِ الْغِيلَانُ فَنَادُوا بِالْأَذَانِ " أَيِ ادْفَعُوا شَرَّهَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ نَفْيُ أَصْلِ وُجُودِهَا ، وَفِي حَدِيثِ أَبِي أَيُّوبَ : كَانَ لِي تَمْرٌ فِي سَهْوَةٍ ، وَكَانَتِ الْغُولُ تَجِيءُ فَتَأْكُلُ مِنْهُ . اهـ .

(60/237)

---

أَقُولُ : إِنَّ هَذَا الشَّرْحَ مَأْخُوذٌ مِنَ النِّهَايَةِ لِابْنِ الْأَثِيرِ ، لَيْسَ لِلنَّوَوِيِّ مِنَ التَّصَرُّفِ فِيهِ إِلَّا عَزْوُ نَفْيِ وُجُودِ الْغُولِ إِلَى جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ ، وَهُوَ الْقَوْلُ الَّذِي قَدَّمَهُ ابْنُ الْأَثِيرِ ، وَقَدْ نَقَلَ عِبَارَتَهُ ابْنُ مَنْظُورٍ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ وَغَيْرُهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ . وَمَا عَزَاهُ النَّوَوِيُّ إِلَى الْجُمْهُورِ هُوَ الْمُتَبَادِرُ فِي لَفْظِ الْحَدِيثِ ، فَإِنَّ كَلِمَةَ " لَا غُولَ " نَافِيَةٌ لِجِنْسِ الْغُولِ كَمَا هُوَ الْمُتَبَادِرُ ، وَقَدْ وَرَدَ هَذَا اللَّفْظُ وَحْدَهُ فِي حَدِيثٍ لِأَبِي هُرَيْرَةَ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ ، وَمَا أُيِّدَ بِهِ قَوْلُ غَيْرِ الْجُمْهُورِ لَا يُحْتَجُّ بِشَيْءٍ مِنْهُ ; وَلِذَلِكَ لَمْ يُعَرِّجِ الْجُمْهُورُ عَلَيْهِ ، وَلَكِنْ رَوَى ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ أَنَّ الْغِيلَانَ ذُكِرُوا عِنْدَ عُمَرَ فَقَالَ : إِنَّ أَحَدًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَحَوَّلَ عَنْ صُورَتِهِ الَّتِي خَلَقَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا ، وَلَكِنْ لَهُمْ سَحَرَةٌ كَسَحَرَتِكُمْ ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَأَذِّنُوا وَهَذَا

رَأْيٌ لِعُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -

فِيمَا كَانُوا يَرَوْنَهُ ، وَهُوَ أَنَّهُ تَخْيِيلٌ بَاطِلٌ مِنْ ذَلِكَ سِحْرُ الْجِنِّ . وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّ الْجِنَّ تَتَشَكَّلُ ، وَهُوَ لَا يَقْتَضِي إثْبَاتُ الْغُولِ ، وَقَدِ اشْتُهِرَ أَنَّ الْغُولَ اسْمٌ لَيْسَ لَهُ مُسَمًّى فِي الْحَقِيقَةِ . قَالَ ابْنُ هِشَامٍ فِي قَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ :

فَمَا تَدُومُ عَلَى حَالٍ تَكُونُ بِهَا . . . كَمَا تَلَوَّنُ فِي أَثْوَابِهَا الْغُولُ

(61/237)

---

مِنْ شَرْحِهِ لِقَصِيدَتِهِ (بَانَتْ سُعَادُ) وَالْغُولُ بِالضَّمِّ كُلُّ شَيْءٍ اغْتَالَ الْإِنْسَانَ فَأَهْلَكَهُ ، وَالْمُرَادُ هُنَا الْوَاحِدَةُ مِنَ السَّعَالِي وَهِيَ إنَاثُ الشَّيَاطِينِ ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا - فِيمَا زَعَمُوا - تَغْتَالُهُمْ ، أَوْ لِأَنَّهَا تَتَلَوَّنُ كُلَّ وَقْتٍ ، وَمِنْ قَوْلِهِمْ : تَغَوَّلْتُ عَلَى الْبِلَادِ - إذَا اخْتَلَفْتُ . وَلِلْعَرَبِ أُمُورٌ تَزْعُمُهَا لَا حَقِيقَةَ لَهَا ، مِنْهَا أَنَّ الْغُولَ تَتَرَاءَى وَتَتَلَوَّنُ لَهُمْ ، وَتُضِلُّهُمْ عَنِ الطَّرِيقِ . وَذَكَرَ أَشْيَاءَ أُخْرَى مِنْ خُرَافَاتِهِمْ ، ثُمَّ ذَكَرَ حَدِيثَ مُسْلِمٍ فِي نَفْيِ الْغُولِ وَالطِّيَرَةِ ، وَقَوْلَ بَعْضِ الشُّعَرَاءِ :

الْجُودُ وَالْغُولُ وَالْعَنْقَاءُ ثَالِثَةٌ . . . أَسْمَاءُ أَشْيَاءَ لَمْ تُخْلَقْ وَلَمْ تَكُنِ .

(62/237)

وَمَا فَسَّرَ بِهِ ابْنُ هِشَامٍ الْغُولَ هُوَ الْمُعْتَمَدُ الْمَشْهُورُ ، قَالَ فِي اللِّسَانِ : وَالسِّعْلَاةُ وَالسِّعْلَاءُ - الْغُولُ . وَقِيلَ : هِيَ سَاحِرَةُ الْجِنِّ ، فَجَعَلَ هَذَا قَوْلًا ضَعِيفًا ثُمَّ ذَكَرَ قَوْلَيْنِ آخَرَيْنِ مِثْلَهُ . أَحَدُهُمَا : إنَّهَا أَخْبَثُ الْغِيلَانِ ، وَثَانِيهِمَا : أَنَّهَا أُنْثَى الْغِيلَانِ . وَيُشَبِّهُونَ الْمَرْأَةَ الْقَبِيحَةَ الْوَجْهِ السَّيِّئَةَ الْخُلُقِ بِالسِّعْلَاةِ ، وَشَبَّهُوا بِهَا الْخَيْلَ أَيْضًا ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ بَعْضَهُمْ كَانَ يُخَيَّلُ إلَيْهِ الْخَوْفُ فِي الْبَرَارِي الْمُنْقَطِعَةِ شَيْئًا يَتَلَوَّنُ فِيهِمْ عَلَى وَجْهِهِ خَوْفًا لِاعْتِقَادِهِ أَنَّهُ مِنَ الْجِنِّ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بَعْضُهُمْ رَأَى بَعْضَ الْقِرَدَةِ الرَّاقِيَةِ الَّتِي تُشْبِهُ الْعَجُوزَ الْقَبِيحَةَ الْوَجْهِ فَسَمُّوهَا السِّعْلَاةَ ، وَأَنْ تَكُونَ السِّعْلَاةُ الَّتِي أَكَلَتْ مِنَ التَّمْرِ فِي حَدِيثِ أَبِي أَيُّوبَ مِنْهَا - إنْ صَحَّ مَا رُوِيَ وَكَانَ عَنْ مُشَاهَدَةٍ - وَإِلَّا كَانَ مَبْنِيًّا عَلَى مَا تَوَارَثَهُ قَبْلَ نَفْيِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَهُ أَوْ قَبْلَ الْعِلْمِ بِهَذَا النَّفْيِ . وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الشَّيْطَانِ : (إنَّهُ يَرَاكُمْ

*(63/237)*

---

هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ) (7 : 27) وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : إنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمْ يَرَ الْجِنَّ حِينَ اسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ مِنْهُ ، بَلْ عَلِمَ ذَلِكَ بِالْوَحْيِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : (قُلْ أُوحِيَ إلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ) (72 : 1) وَلَكِنْ فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ - وَكَانَ مَعَهُ - أَنَّهُ

رَأَى أَسْوِدَةً تُشْبِهُ السَّحَابَ ، وَسَيَأْتِي تَفْصِيلُ ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ . وَرَوَى الْبَيْهَقِيُّ فِي مَنَاقِبِ الشَّافِعِيِّ بِإِسْنَادِهِ عَنِ الرَّبِيعِ : سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ يَقُولُ : مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَرَى الْجِنَّ أَبْطَلْنَا شَهَادَتَهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا . انْتَهَى . وَقَدْ حَمَلُوهُ كَمَا حَمَلُوا الْآيَةَ عَلَى مَنْ يَدَّعِي رُؤْيَتَهُمْ بِصُورَتِهِمُ الَّتِي خَلَقَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهَا دُونَ الصُّوَرِ الَّتِي يَتَمَثَّلُونَ بِهَا .

*(64/237)*

---

عَلَى أَنَّنَا نَقُولُ : إِنَّ مَا اشْتُهِرَ عَنِ الْعَرَبِ فِي مَسْأَلَةِ الْأَغْوَالِ وَاسْتِهْوَائِهَا بَعْضَ النَّاسِ فِي الْفَلَوَاتِ حَتَّى يَضِلُّوا الطُّرُقَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَصْلٌ عِنْدَهُمْ . وَالرَّاجِحُ الْمَعْقُولُ فِيهِ مَا ذَكَرْنَاهُ عَنْ سَيِّدِنَا عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَصَرَّحَ بِهِ بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ مِنْ أَنَّهُ تَخَيُّلٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ فِي الْخَارِجِ ، وَقَدْ يَكُونُ مِنْهُ رُؤْيَةُ حَيَوَانٍ غَرِيبٍ كَبَعْضِ الْقِرَدَةِ . وَالْعَرَبُ تُطْلِقُ اسْمَ الشَّيْطَانِ عَلَى الْعَاتِي الْمُتَمَرِّدِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، وَعَلَى بَعْضِ الْحَيَوَانِ وَالْحَشَرَاتِ ، وَعَلَى كُلِّ قَبِيحِ الصُّورَةِ . قَالَ تَعَالَى فِي شَجَرَةِ الزَّقُّومِ : (طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ) (37 : 65) قِيلَ هُوَ نَبَاتٌ قَبِيحٌ ، وَقِيلَ : شَبَّهَهَا بِالْعَارِمِ مِنَ الْجِنِّ . قَالَ فِي التَّاجِ : وَقَالَ الزَّجَّاجُ فِي تَفْسِيرِهِ : وَجْهُهُ أَنَّ الشَّيْءَ إِذَا اسْتُقْبِحَ شُبِّهَ بِالشَّيَاطِينِ ، فَيُقَالُ : كَأَنَّهُ وَجْهُ شَيْطَانٍ ، وَكَأَنَّهُ رَأْسُ شَيْطَانٍ ، وَالشَّيْطَانُ لَا يُرَى ، وَلَكِنَّهُ يُسْتَشْعَرُ أَنَّهُ أَقْبَحُ مَا يَكُونُ مِنَ الْأَشْيَاءِ ، وَلَوْ رُئِيَ لَرُئِيَ

فِي أَقْبَحِ صُورَةٍ . وَقِيلَ : كَأَنَّهُ رُءُوسُ حَيَّاتٍ ، فَإِنَّ الْعَرَبَ تُسَمِّي بَعْضَ الْحَيَّاتِ شَيْطَانًا ، وَأَوْرَدَ شَاهِدًا مِنَ الشِّعْرِ عَلَى ذَلِكَ ، وَوَرَدَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ أَنَّ حَيَّاتِ الْبُيُوتِ مِنَ الْجِنِّ ، وَفِي حَدِيثِ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ عِنْدَ ابْنِ حِبَّانَ وَالْحَاكِمِ وَغَيْرِهِمَا " الْجِنُّ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ : صِنْفٌ لَهُمْ أَجْنِحَةٌ يَطِيرُونَ فِي الْهَوَاءِ ، وَصِنْفٌ

(65/237)

---

حَيَّاتٌ وَعَقَارِبُ ، وَصِنْفٌ يَحِلُّونَ وَيَظْعَنُونَ " . قَالَ السُّهَيْلِيُّ : هَذَا الْأَخِيرُ هُمُ السَّعَالِي ، وَعَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ أَنَّهُمْ أَجْنَاسٌ خَالِصُهُمْ رِيحٌ - أَيْ كَالرِّيحِ - لَا يَأْكُلُونَ ، وَلَا يَشْرَبُونَ ، وَلَا يَتَوَالَدُونَ ، وَلَا يَمُوتُونَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْكُلُونَ . . إلَخْ . وَالْحَاصِلُ أَنَّ اسْمَ الْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ يُطْلَقُ عِنْدَ الْعَرَبِ عَلَى بَعْضِ الْحَشَرَاتِ ، وَالْحَيَوَانَاتِ الضَّارَّةِ ، أَوِ الْقَبِيحَةِ ، وَعَلَى مَا يُؤْثَرُ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْعَالَمِ الرُّوحِيِّ الْغَيْبِيِّ الَّذِي يُوَسْوِسُ لِلنَّاسِ فَيُزَيِّنُ لَهُمُ الشَّرَّ ، وَيُلَابِسُ بَعْضُهُمْ أَحْيَانًا فَيُصَابُونَ بِالصَّرْعِ أَوِ الْجُنُونِ ، وَيَتَمَثَّلُ لِلْكُهَّانِ وَغَيْرِهِمْ ، وَيَرَاهُ الْأَنْبِيَاءُ وَبَعْضُ الصَّالِحِينَ مِنْ بَابِ الْكَرَامَةِ الْخَاصَّةِ . وَالْأَكَاذِيبُ عَنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ ، وَالشُّبُهَاتُ فِيهَا غَيْرُ قَلِيلَةٍ . وَلَكِنْ قَلَّ الْمُصَدِّقُونَ بِهَا فِي بِلَادِ الْعِلْمِ وَالْمَدَنِيَّةِ .

بَعْدَ هَذَا الشَّرْحِ نَقُولُ : إِنَّ لِلْمُفَسِّرِينَ قَوْلَيْنِ : تَفْسِيرُ (كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ) أَشَرْنَا إِلَيْهِمَا فِي تَفْسِيرِ الِاسْتِهْوَاءِ :

(66/237)

---

(الْأَوَّلُ) أَنَّهُ تَشْبِيهٌ لِمَنْ يَرْتَدُّ مُشْرِكًا بَعْدَ الْإِيمَانِ بِالْمُسْتَهَامِ الَّذِي يَضِلُّ فِي الْفَلَوَاتِ حَيْرَانَ لَا يَهْتَدِي ، تَارِكًا رِفَاقَهُ عَلَى الْجَادَّةِ يُنَادُونَهُ : ائْتِنَا ، عُدْ إِلَيْنَا ، فَلَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ لِانْجِذَابِهِ وَرَاءَ مَا تَرَاءَى لَهُ مِنَ الْغِيلَانِ بِغَيْرِ عَقْلٍ وَلَا بَصِيرَةٍ . وَهَذَا التَّفْسِيرُ مَرْوِيٌّ عَنِ السُّدِّيِّ ، وَهُوَ إِحْدَى رِوَايَتَيْنِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ . قَالَ السُّدِّيُّ بَعْدَ بَيَانِ التَّشْبِيهِ : فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ تَبِعَكُمْ بَعْدَ الْمَعْرِفَةِ لِمُحَمَّدٍ ، وَمُحَمَّدٌ الَّذِي يَدْعُو إِلَى الطَّرِيقِ ، وَالطَّرِيقُ هُوَ الْإِسْلَامُ . وَمِمَّا جَاءَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ : " إِنَّ الْغُولَ تَدْعُوهُ بِاسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ وَجَدِّهِ ، فَيَتْبَعُهَا وَيَرَى أَنَّهُ فِي شَيْءٍ ، فَيُصْبِحُ وَقَدْ أَلْقَتْهُ فِي هَلَكَةٍ وَرُبَّمَا أَكَلَتْهُ ، أَوْ تُلْقِيهِ فِي مُضِلَّةِ الْأَرْضِ يَهْلِكُ فِيهَا عَطَشًا " وَمِنَ الْمُفَسِّرِينَ مَنْ يَرَى أَنَّ هَذَا

(67/237)

---

التَّشْبِيهَ مُثْبِتٌ لِلْغُولِ الَّذِي نَفَاهُ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ الَّذِي أَخَذَ بِهِ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَنَّهُ لَا يَقْتَضِي إثْبَاتَهُ ؛ لِأَنَّ التَّشْبِيهَ قَدْ يُبْنَى عَلَى الْمُتَعَارَفِ لِأَجْلِ التَّأْثِيرِ ، وَقَدْ أَشَارَ الزَّمَخْشَرِيُّ إلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : وَهَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى مَا كَانَتْ تَزْعُمُهُ الْعَرَبُ وَتَعْتَقِدُهُ مِنْ أَنَّ الْجِنَّ تَسْتَهْوِي الْإِنْسَانَ ، وَالْغِيلَانَ تَسْتَوْلِي عَلَيْهِ كَقَوْلِهِ : (الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ) (2 : 275) انْتَهَى . وَقَدْ شَنَّعَ عَلَيْهِ ابْنُ الْمُنِيرِ فِي هَذَا ، إذْ جَعَلَهُ مِنْ إنْكَارِ الْجِنِّ - وَهُوَ لَا يُنْكِرُهُمْ - وَتَبِعَهُ الْأَلُوسِيُّ فَقَالَ : وَلَيْسَ هَذَا مَبْنِيًّا عَلَى زَعَمَاتِ الْعَرَبِ كَمَا زَعَمَ مَنِ اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ . انْتَهَى . وَمَا هَذَا الشَّنِيعُ إلَّا مِنْ تَعَصُّبِ الْمَذَاهِبِ ، وَلَوْلَاهُ لَمَا وَقَعَ أَمْثَالُ هَؤُلَاءِ الْأَذْكِيَاءِ فِي هَذِهِ الْغَيَاهِبِ ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَا دَلِيلَ عَلَى كَوْنِ مَا كَانَتْ تَزْعُمُهُ الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنِّ ، وَأَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَذَّبَهُمْ فِي دَعْوَى الْغُولِ ، وَأَنَّ جُمْهُورَ الْعُلَمَاءِ أَخَذُوا بِهَذَا التَّكْذِيبِ

*(68/237)*

---

وَلَمْ يُؤَوِّلُوهُ ، وَأَنَّ مَنْ أَوَّلَهُ بِإِنْكَارِ تَغَوُّلِ الْغِيلَانِ وَإِضْلَالِهِمْ لِلنَّاسِ مُكَذِّبٌ لِلْعَرَبِ فِي زَعْمِهَا ذَاكَ ، وَإِنَّمَا بَنَى التَّشْبِيهَ عَلَى مَا قِيلَ مِنِ اسْتِهْوَائِهِمْ وَإِضْلَالِهِمْ بِتَغَوُّلِهِمْ ، لَا عَلَى مُجَرَّدِ وُجُودِهِمْ ، وَإِذَا كَانَ الِاسْتِهْوَاءُ بِتَخَيُّلَاتٍ لَا حَقِيقَةَ لَهَا يَكُونُ التَّشْبِيهُ أَبْلَغَ وَأَقْوَى ، وَخُلَاصَتُهُ أَنَّ مَنْ يَتَبَعْ

دَاعِيَ الشِّرْكِ كَالْمُسْتَهْوَى بِمَا لَا حَقِيقَةَ لَهُ مِنَ الْأَوْهَامِ الضَّارَّةِ الشَّيْطَانِيَّةِ الَّتِي تُنْسَبُ إِلَى الْأَغْوَالِ الْخَيَالِيَّةِ . وَلَا يَقْتَضِي ذَلِكَ إِنْكَارَ الْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ ، وَمَا كَانَ الزَّمَخْشَرِيُّ وَلَا شِيعَتُهُ مِنَ الْمُنْكِرِينَ ، وَإِنَّمَا الْجِنُّ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ ، لَا نُصَدِّقُ مِنْ خَبَرِهِمْ إِلَّا مَا أَثْبَتَهُ الشَّرْعُ ، أَوْ مَا هُوَ فِي قُوَّتِهِ مِنْ دَلِيلِ الْحِسِّ أَوِ الْعَقْلِ ، وَلَمْ يَثْبُتْ شَرْعًا وَلَا عَقْلًا وَلَا اخْتِيَارًا أَنَّ شَيَاطِينَ الْجِنِّ تَأْكُلُ النَّاسَ ، وَلَا أَنَّهَا تَظْهَرُ لَهُمْ فِي الْفَيَافِي وَالْقِفَارِ ، كَمَا كَانَتْ تَزْعُمُ الْعَرَبُ وَغَيْرُ الْعَرَبِ فِي طَوْرِ الْجَهْلِ وَالْخُرَافَاتِ .

(69/237)

---

وَأَمَّا حَدِيثُ خُرَافَةَ فَقَدْ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي جَامِعِهِ وَفِي الشَّمَائِلِ مِنْ طَرِيقِ أَبِي عَقِيلٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَقِيلٍ الثَّقَفِيِّ ، وَأَبُو عَقِيلٍ مُخْتَلَفٌ فِيهِ ، وَثَّقَهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ ، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ مَعِينٍ أَنَّهُ مُنْكَرُ الْحَدِيثِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ قَدْ ذُكِرَ عَلَى سَبِيلِ الْحِكَايَةِ ، فَهُوَ نَحْوٌ مِمَّا نَقَلَهُ الْكَلْبِيُّ عَنِ الْعَرَبِ مِنْ أَنَّهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عُذْرَةَ أَسَرَتْهُ الْجِنُّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَأَقَامَ فِيهِمْ زَمَنًا ثُمَّ أَعَادُوهُ إِلَى الْإِنْسِ ، فَكَانَ يُحَدِّثُ بِمَا رَأَى فِيهِمْ مِنَ الْعَجَائِبِ ، فَصَارَ النَّاسُ يَقُولُونَ : " حَدِيثُ خُرَافَةَ " لِكُلِّ حَدِيثٍ مُسْتَمْلَحٍ يُكَذِّبُونَهُ ، عَلَى أَنَّ مَا عَسَاهُ يَثْبُتُ لِبَعْضِ الْأَفْرَادِ عَلَى خِلَافِ الْأَصْلِ لَا يُتَّخَذُ دَلِيلًا عَلَى صِدْقِ مَا كَذَّبَهُ الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ مِنْ أَخْبَارِ

الْأَغْوَالِ وَنَحْوِهَا ، وَهَذَا الْحَدِيثُ غَيْرُ مُعَارِضٍ لِهَذِهِ الْآيَةِ حَتَّى عَلَى هَذَا الْقَوْلِ فِي التَّشْبِيهِ ؛ لِجَوَازِ أَنْ يُسَمَّى مَا كَانَ يَتَرَاءَى لَهُمْ بِالشَّيْطَانِ لِقُبْحِهِ وَضَرَرِهِ ، وَإِنْ كَانَ كَالسَّرَابِ لَا حَقِيقَةَ لَهُ فِي نَفْسِهِ ، أَوْ يَكُونُ حَيَوَانًا مُفْتَرِسًا تُمَثِّلُهُ الْأَوْهَامُ بِأَشْكَالٍ مُخْتَلِفَةٍ . وَرَاجِعْ مَا يُقَرِّبُ لَكَ فِي هَذَا تَفْسِيرَ (وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ) (4 : 157) .

(70/237)

---

فَإِنْ فَرَضْنَا وُقُوعَ التَّعَارُضِ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ نَمْنَعُهُ بِتَرْجِيحِ (الْقَوْلِ الثَّانِي) عَلَيْهِ ، وَهُوَ أَنَّ الَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ هُوَ الَّذِي أَضَلَّتْهُ بِوَسْوَسَتِهَا ، وَحَمَلَتْهُ عَلَى اتِّبَاعِ هَوَاهُ ، فَاتَّخَذَ دِينَهُ لَعِبًا وَلَهْوًا ، وَغَرَّتْهُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فَآثَرَهَا عَلَى الْآخِرَةِ لِإِنْكَارِهِ إِيَّاهَا ، أَوْ عَدَمِ إِيمَانِهِ بِوَعْدِ اللَّهِ وَوَعِيدِهِ فِيهَا . وَهَذَا فِي مَعْنَى الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ : هُوَ الرَّجُلُ الَّذِي لَا يَسْتَجِيبُ لِهُدَى اللَّهِ ، وَهُوَ رَجُلٌ أَطَاعَ الشَّيْطَانَ ، وَعَمِلَ فِي الْأَرْضِ بِالْمَعْصِيَةِ ،

(71/237)

---

وَحَادَ عَنِ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُ . إِلَّا أَنَّ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ أَنَّ أَصْحَابَ الْمُسْتَهْوَى الَّذِينَ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى هُمُ الضَّالُّونَ الْمُتَّبِعُونَ لِلْهَوَى ، وَإِنَّمَا يَصْحَبُ الْإِنْسَانُ أَمْثَالَهُ ، فَالْمُرَادُ يَدْعُونَهُ إِلَى مَا يَزْعُمُونَ أَنَّهُ هُدًى كَمَا هُوَ شَأْنُ كُلِّ دَاعٍ إِلَى ضَلَالَةٍ ، فَكَلِمَةُ الْهُدَى ذُكِرَتْ بِطَرِيقِ الْحِكَايَةِ ، أَوِ الْمُرَادُ بِهَا الطَّرِيقُ الْجَادَّةُ ، وَقَدْ رَوَى أَبُو الشَّيْخِ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ (يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى بَيِّنًا) قَالَ : الْهُدَى : الطَّرِيقُ ، أَنَّهُ بَيِّنٌ . وَالْكَلَامُ بَعْدَهَا رَدٌّ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِهَذَا الزَّعْمِ ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ الْهُدَى صِرَاطُ اللهِ الْمُسْتَقِيمُ لَا مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ طُرُقِ الْوَهْمِ . وَأَنْكَرَ ابْنُ جَرِيرٍ هَذِهِ الرِّوَايَةَ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْجُمْلَةَ لَمْ تَرِدْ عَلَى سَبِيلِ الْحِكَايَةِ ، وَإِنَّمَا هِيَ مِنْ كَلَامِ اللهِ تَعَالَى ، وَاللهُ تَعَالَى لَا يُسَمِّي الضَّلَالَةَ هُدًى ، وَسَوَاءٌ أَصَحَّ مَا أَنْكَرَهُ ابْنُ جَرِيرٍ أَمْ لَا ، فَإِنَّ الْمَعْنَى الثَّانِيَ لَا يُتَوَقَّفُ عَلَيْهِ ، بَلْ يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ : إِنَّ ذَلِكَ الَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ بِوَسْوَسَتِهَا - حَالَ كَوْنِهِ حَيْرَانَ - لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى وَالْخُرُوجِ مِنْ ذَلِكَ الضَّلَالِ ، تَتَنَازَعُهُ وَسْوَسَةُ شَيَاطِينِهِ وَدَعْوَةُ أَصْحَابِهِ ، فَلَا يَسْتَطِيعُ التَّفَلُّتَ مِنَ الْأَوْلَى فَيَكُونُ مِنَ الْمُهْتَدِينَ ، وَلَا الْبَتَّ بِرَدِّ الْأُخْرَى فَيَكُونُ مِنَ الْأَخْسَرِينَ ، بَلْ يَظَلُّ هَائِمًا فِي حَيْرَتِهِ ، مُضْطَرِبًا فِي أَمْرِهِ ،

وَإِنَّمَا جَعَلَ دُعَاةَ الْهُدَى أَصْحَابًا لَهُ بِاعْتِبَارِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ قَبْلَ إِضْلَالِ الشَّيَاطِينِ لَهُ ، وَمِثْلُ هَذَا لَا يَسْتَقِرُّ عَلَى حَالٍ مِنَ الْقَلَقِ ، وَالتَّشْبِيهُ يَدُلُّ بِهَذَا التَّوْجِيهِ عَلَى أَنَّ الْمُرْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَعُودَ مُطْمَئِنًّا بِالشِّرْكِ ، وَوَجْهُ الِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ : أَيُعْقَلُ أَنْ يَخْتَارَ هَذِهِ الْحَالَ السَّوْأَى الَّتِي لَا بُدَّ مِنْهَا لِمَنْ يَرْتَدُّ عَنِ الْإِيمَانِ ، وَهِيَ أَسْوَأُ حَالٍ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ ؟ .

(قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى) أَعَادَ الْأَمْرَ مِنَ الْقَوْلِ هُنَا كَمَا أَعَادَهُ فِيمَا تَقَدَّمَ قَرِيبًا بِمَعْنَى مَا هُنَا مِنَ التَّبَرُّؤِ مِنَ الشِّرْكِ وَالضَّلَالَةِ وَالِاعْتِصَامِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْهِدَايَةِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : (قُلْ إِنِّي نُهِيتُ) (56) إِلَى قَوْلِهِ : (قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ) إِلَخْ . وَفِي ذَلِكَ مَا فِيهِ مِنَ الْعِنَايَةِ بِكُلٍّ مِنَ الْبَرَاءَةِ وَالِاعْتِصَامِ فِي النَّهْيِ وَالْأَمْرِ ، وَيُعَبِّرُونَ عَنْهُمَا بِالتَّخَلِّي وَالتَّحَلِّي . أَيْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ بِهِ آيَاتِهِ ، وَأَقَامَ عَلَيْهِ حُجَجَهُ وَبَيِّنَاتِهِ - هُوَ الْهُدَى الْحَقُّ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، لَا مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ مِنْ أَهْوَائِكُمْ اتِّبَاعًا لِمَا أَلْفَيْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ، وَهَذَا الْهُدَى الْمَعْقُولُ هُوَ الَّذِي دُعِينَا إِلَيْهِ

فَأَجَبْنَا ، وَأُمِرْنَا بِهِ فَأَطَعْنَا ، (وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) فَأَسْلَمْنَا ، وَاللَّامُ فِي "لِنُسْلِمَ" فِيهَا وَجْهَانِ : (أَحَدُهُمَا) أَنَّهَا لِلتَّعْلِيلِ ، وَالتَّقْدِيرُ : وَأُمِرْنَا بِهَذَا الْهُدَى لِأَجْلِ أَنْ نُسْلِمَ قُلُوبَنَا وَنُوَجِّهَهَا لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَحْدَهُ بِالْإِذْعَانِ وَالْخُضُوعِ لِدِينِهِ وَالْإِخْلَاصِ فِي عِبَادَتِهِ ، إذْ لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ مِنَ الْعِبَادِ إلَّا رَبُّهُمُ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَغَذَّاهُمْ بِنِعَمِهِ (وَثَانِيهِمَا) أَنَّهَا لِلْمَصْدَرِيَّةِ ، أَيْ وَأُمِرْنَا بِأَنْ نُسْلِمَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَقَدْ رُوِيَ الْقَوْلُ بِتَأْوِيلِ الْفِعْلِ بِالْمَصْدَرِ هُنَا وَفِي مِثْلِ (يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ) (4 : 26) (مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ) (5 : 6) إلَخْ . عَنِ الْخَلِيلِ وَسِيبَوَيْهِ وَمَنْ تَابَعَهُمَا . وَصَرَّحَ الْكِسَائِيُّ وَالْفَرَّاءُ بِأَنَّ اللَّامَ تَكُونُ حَرْفًا مَصْدَرِيًّا بَعْدَ الْفِعْلِ ، مِنَ الْأَمْرِ وَالْإِرَادَةِ خَاصَّةً . وَهَذَا الْوَجْهُ أَوْجَهُ وَأَظْهَرُ .

*(74/237)*

---

(وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ) أَيْ أُمِرْنَا بِأَنْ نُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَبِأَنْ أَقِيمُوا وَاتَّقُوهُ ، أَيْ قِيلَ لَنَا ذَلِكَ ، وَقَدَّرَ بَعْضُهُمْ : أُمِرْنَا بِالْإِسْلَامِ وَبِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَالتَّقْوَى ، وَإِقَامَةُ الصَّلَاةِ : الْإِتْيَانُ بِهَا عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي شُرِعَتْ لِأَجْلِهِ ، وَهُوَ كَوْنُهَا تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَتُزَكِّي النَّفْسَ بِمُنَاجَاةِ اللَّهِ وَذِكْرِهِ (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) (29 : 45) وَلَمْ يَكُنْ شُرِعَ عِنْدَ نُزُولِ السُّورَةِ زَكَاةٌ وَلَا صِيَامٌ وَلَا حَجٌّ ، وَالتَّقْوَى : اتِّقَاءُ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى مُخَالَفَةِ دِينِ اللَّهِ وَشَرْعِهِ وَتَنَكُّبِ سُنَنِهِ

فِي خَلْقِهِ مِنْ ضَرَرٍ وَفَسَادٍ ، فَهَذَا أَوْسَعُ مَعْنًى مِنْ تَفْسِيرِهَا بِامْتِثَالِ الْأَمْرِ وَاجْتِنَابِ النَّهْيِ

(وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) أَيْ تُجْمَعُونَ وَتُسَاقُونَ إِلَى لِقَائِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ دُونَ غَيْرِهِ ، فَيُحَاسِبُكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ ، وَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهَا . وَإِذَا كَانَ الْحَشْرُ إِلَيْهِ وَحْدَهُ ، وَالْجَزَاءُ بِيَدِهِ وَحْدَهُ ، فَمِنَ الْجُنُونِ أَنْ يُعْبَدَ غَيْرُهُ وَيُدْعَى ، أَوْ يُخَافَ أَوْ يُرْجَى .

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ) أَيْ خَلَقَهُمَا بِالْأَمْرِ الثَّابِتِ الْمُتَحَقِّقِ ، وَهُوَ آيَاتُهُ الْقَائِمَةُ بِالسُّنَنِ الْمُطَّرِدَةِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ الدَّالَّةِ عَلَى وُجُودِهِ وَصِفَاتِهِ الْكَامِلَةِ ، فَلَمْ يَخْلُقْهُمَا بَاطِلًا وَلَا عَبَثًا ، فَإِذًا لَا يَتْرُكُ النَّاسَ سُدًى ، بَلْ يَجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى .

*(75/237)*

---

(وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ) أَيْ وَقَوْلُهُ هُوَ الْحَقُّ يَوْمَ يَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ ، وَهُوَ وَقْتُ الْإِيجَادِ وَالتَّكْوِينِ ، فَلَا مَرَدَّ لِأَمْرِهِ التَّكْوِينِيِّ وَلَا تَخَلُّفَ ، فَكَذَلِكَ يَجِبُ الْإِسْلَامُ وَالْخُضُوعُ لِأَمْرِهِ التَّكْلِيفِيِّ بِلَا حَرَجٍ فِي النَّفْسِ وَلَا تَكَلُّفٍ ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ حَقٌّ ، وَالْخَلْقَ حَقٌّ (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(7 : 45) .

(وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ) وَيَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ، فَإِذَا كَانَ لِغَيْرِهِ مُلْكٌ مَا فِي الدُّنْيَا بِمُقْتَضَى سُنَنِهِ الْمُقَدَّرَةِ ، وَشَرِيعَتِهِ الْمُقَرَّرَةِ ، فَلَا تَمْلِكُ يَوْمَئِذٍ نَفْسٌ مَا مَهْمَا تَكُنْ مُكْرَمَةً لِنَفْسٍ مَا مَهْمَا تَكُنْ قَرِيبَةً أَوْ مُقَرَّبَةً - شَيْئًا مَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ، أَوْ نَفْعٍ أَوْ ضُرٍّ ، وَإِنَّمَا الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ وَحْدَهُ . فَكَيْفَ يَدْعُو مَنْ هَدَاهُ إلَى هَذِهِ الْحَقَائِقِ غَيْرَهُ مَنْ دُونِهِ فَيُرَدَّ عَلَى عَقِبَيْهِ ، وَيَرْجِعَ إلَى شَرِّ حَالَيْهِ ! وَالصُّورُ فِي اللُّغَةِ : الْقَرْنُ ، وَاسْتَشْهَدَ لَهُ فِي اللِّسَانِ بِقَوْلِ الرَّاجِزِ :

لَقَدْ نَطَحْنَا هُمْ غَدَاةَ الْجَمْعَيْنِ . . . نَطْحًا شَدِيدًا لَا كَنَطْحِ الصُّورَيْنِ

وَقَدْ ثَقَبَ النَّاسُ قُرُونَ الْوُعُولِ وَالظِّبَاءِ وَغَيْرِهَا فَجَعَلُوا مِنْهَا أَبْوَاقًا يَنْفُخُونَ فِيهَا فَيَكُونُ لَهَا

(76/237)

---

صَوْتٌ شَدِيدٌ يُدْعَى بِهِ النَّاسُ إلَى الِاجْتِمَاعِ ، وَيَعْزِفُونَ بِهِ كَغَيْرِهِ مِنْ آلَاتِ السَّمَاعِ ، وَقَدْ وَرَدَ ذِكْرُهُ فِي سِفْرِ الْأَيَّامِ الْأُولَى مِنْ كُتُبِ الْعَهْدِ الْعَتِيقِ قَالَ : (5 : 28 فَكَانَ جَمِيعُ إِسْرَائِيلَ يَصْعَدُونَ تَابُوتَ عَهْدِ الرَّبِّ بِهُتَافٍ وَبِصَوْتِ الْأَصْوَارِ وَالْأَبْوَاقِ وَالصُّنُوجِ ، يُصَوِّتُونَ بِالرَّبَابِ وَالْعِيدَانِ) وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ : إنَّ الصُّورَ جَمْعُ صُورَةٍ كَبُسْرٍ وَبُسْرَةٍ ، وَصُوفٍ وَصُوفَةٍ . وَقِيلَ فِي سُورِ الْمَدِينَةِ أَيْضًا : إنَّهُ جَمْعُ سُورَةٍ ، وَنَقَلُوا هَذَا التَّفْسِيرَ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ مِنْ

رُوَاةِ اللُّغَةِ ، وَقَدْ رَدَّهُ جُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ بِأَنَّهُ لَا يَظْهَرُ مَعْنَاهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ) (39 : 68) وَهَذِهِ هِيَ النَّفْخَةُ الْأُولَى ، وَلَا يَظْهَرُ مَعْنًى لِكَوْنِهَا فِي صُوَرِ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَإِنَّمَا يَظْهَرُ ذَلِكَ فِي النَّفْخَةِ الْأُخْرَى الَّتِي يَبْعَثُ اللَّهُ بِهَا الْعِبَادَ ، وَهِيَ قَوْلُهُ فِي تَتِمَّةِ الْآيَةِ : (ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ) وَبِأَنَّهُ مُخَالِفٌ لِمَا وَرَدَ فِي الْأَخْبَارِ وَالْآثَارِ مِنْ تَفْسِيرِهِ بِالْقَرْنِ وَالْبُوقِ أَوْ بِمَا يُشْبِهُهُمَا ، وَفِي بَعْضِ الْآثَارِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ أَنَّهُ مُسْتَقَرُّ أَرْوَاحِ الْخَلْقِ ، فَإِذَا نُفِخَ فِيهِ نَفْخَةُ الْبَعْثِ تُصِيبُ النَّفْخَةُ تِلْكَ الْأَرْوَاحَ ، فَتَذْهَبُ إِلَى أَجْسَادِهَا بَعْدَ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَدْ أَعَادَهَا كَمَا بَدَأَهَا ، وَرَدَّهُ اللُّغَوِيُّونَ أَيْضًا بِأَنَّ الْمَقِيسَ فِي

*(77/237)*

---

كَلَامِ الْعَرَبِ أَنَّ مَا كَانَ عَلَى وَزْنِ فُعْلَةٍ بِضَمِّ الْفَاءِ يُجْمَعُ عَلَى فُعَلٍ بِضَمِّ الْفَاءِ وَفَتْحِ الْعَيْنِ ، كَغُرْفَةٍ وَغُرَفٍ ، وَصُورَةٍ وَصُوَرٍ ، وَقَدْ أَجْمَعَ الْقُرَّاءُ عَلَى فَتْحِ الْوَاوِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ) (40 : 64) وَأَمَّا مَا جَاءَ مِنْ جَمْعِهِ بِضَمٍّ فَسُكُونٍ كَبُسْرٍ وَصُوفٍ فَهُوَ خَاصٌّ بِمَا سَبَقَ اسْتِعْمَالُ الْجَمْعِ فِيهِ عَلَى اسْتِعْمَالِ الْوَاحِدِ ، وَرَوَى الْأَزْهَرِيُّ

هَذَا الرَّدَّ بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ ، وَيُرَاجَعُ فِي مَادَّتَيْ سُورَةٍ وَصُورٍ مِنْ لِسَانِ الْعَرَبِ ، فَقَدْ أَطَالَ الْكَلَامَ فِي الْمَسْأَلَةِ فِيهِمَا .

(78/237)

---

وَأَمَّا الْأَخْبَارُ الْمَرْفُوعَةُ فِي الصُّورِ فَقَدْ أَخْرَجَهَا أَصْحَابُ السُّنَنِ وَالتَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ وَغَيْرِهِمْ بِأَسَانِيدَ لَمْ يَصِحَّ مِنْهَا شَيْءٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ ، وَلِذَلِكَ لَمْ يُخْرِجَا مِنْهَا شَيْئًا ، وَأَقْوَاهَا مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ ، وَالنَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمْ ، وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ : سُئِلَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنِ الصُّورِ فَقَالَ : " هُوَ قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ " وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ : الصُّورُ كَهَيْئَةِ الْقَرْنِ يُنْفَخُ فِيهِ ، وَوَرَدَ فِي رِوَايَاتٍ يُقَوِّي بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَصَحَّحَ بَعْضَهَا الْحَاكِمُ - أَنَّ الْمَلَكَ الْمُوَكَّلَ بِالصُّورِ مُسْتَعِدٌّ لِلنَّفْخِ فِيهِ ، يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ ، وَفِي بَعْضِهَا أَنَّهُ وُكِّلَ بِهِ مَلَكَانِ ، وَوَرَدَ فِي وَصْفِ مَلَكِ الصُّورِ ، وَفِي صِفَةِ الصُّورِ ، وَالنَّفْخِ وَتَأْثِيرِهِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ ، وَمَا يَكُونُ يَوْمَئِذٍ - رِوَايَاتٌ مُنْكَرَةٌ ، بَعْضُهَا مَأْخُوذٌ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ ، عَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ وَوَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ ، وَبَعْضُهَا مُلَفَّقٌ مِنْ أَخْبَارٍ كَثِيرَةٍ ، وَمَمْزُوجٌ بِالْآيَاتِ الْوَارِدَةِ فِي قِيَامِ السَّاعَةِ كَحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ الطَّوِيلِ الَّذِي رَوَاهُ عَنْهُ الطَّبَرَانِيُّ مِنْ طَرِيقِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ رَافِعٍ قَاضِي الْمَدِينَةِ ، وَقَدْ ذَكَرَ مِنْهُ ابْنُ كَثِيرٍ مَا يَمْلَأُ عِدَّةَ

صَفَحَاتٍ ، وَذَكَرَ أَنَّهُ غَرِيبٌ جِدًّا ، وَأَنْ إِسْمَاعِيل تَفَرَّدَ بِهِ ، وَأَنَّهُ اخْتُلِفَ عَلَيْهِ فِي إِسْنَادِهِ عَلَى وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ ، وَذَكَرَ الْخِلَافَ فِي

(79/237)

---

تَوْثِيقِ إِسْمَاعِيل وَتَضْعِيفِهِ ، وَمِنْهُ أَنَّهُ نَصَّ عَلَى نَكَارَةِ حَدِيثِهِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ كَأَحْمَدَ وَأَبِي حَاتِمٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إِنَّهُ مَتْرُوكٌ . وَسَنَعُودُ إِلَى الْكَلَامِ عَلَى الصُّورِ وَحِكْمَةِ النَّفْخِ فِيهِ فِي تَفْسِيرِ سُورَتَيِ الْأَنْبِيَاءِ وَالزُّمَرِ ، إِنْ أَحْيَانَا اللَّهُ تَعَالَى .

(عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) فَسَّرَ ابْنُ عَبَّاسٍ الْغَيْبَ وَالشَّهَادَةَ هُنَا بِالسِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، وَقَالَ الْحَسَنُ : الشَّهَادَةُ مَا قَدْ رَأَيْتُمْ خَلْقَهُ ، وَالْغَيْبُ مَا غَابَ عَنْكُمْ مِمَّا لَمْ تَرَوْهُ . وَتَقَدَّمَ الْقَوْلُ فِي عَالِمِ الْغَيْبِ فِي مَوْضِعَيْنِ مِنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ مُفَصَّلًا تَفْصِيلًا .

وَالْمَعْنَى أَنَّ الَّذِي خَلَقَ الْخَلْقَ بِالْحَقِّ ، وَالَّذِي قَوْلُهُ الْحَقُّ فِي التَّكْوِينِ ، وَالَّذِي لَهُ الْمُلْكُ وَحْدَهُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَيُحْشَرُ الْخَلْقُ - هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الَّذِي يَضَعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي مَوْضِعِهِ ، وَهُوَ الْخَبِيرُ بِدَقَائِقِ الْأُمُورِ وَخَفَايَاهَا ، فَلَا يَشِذُّ عَنْ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ شَيْءٌ مِنْهَا ، فَلَا يَلِيقُ بِعَاقِلٍ أَنْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ وَلَوْ بِقَصْدِ التَّوَسُّلِ وَالتَّقْرِيبِ إِلَيْهِ زُلْفَى (فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا) (72 : 18) (بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ)

(6 : 41) فَفِي هَذَا التَّذْيِيلِ تَقْرِيرٌ لِمَضْمُونِ الْآيَةِ ، وَفَذْلَكَةٌ لِلسِّيَاقِ الْوَارِدِ فِي إِنْكَارِ دُعَاءِ غَيْرِ اللهِ تَعَالَى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 7 صـ 435. 444 ﴾

*(80/237)*

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾

والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير ، وما دام الحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير فلننظر إلى خلق السماء والأرض ، يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولاَ ﴾ [ فاطر : 41 ]

وحين ننظر إلى الأفق نجد السماء من غير عمد ، وهذه مسألة عجيبة ، ولذلك يقول سبحانه : ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [ الرعد : 2 ]

وهنا يقول الحق : ﴿ خَلَقَ السماوات والأرض ﴾ وذلك حتى نعرف أن خلق السموات والأرض ليست عملية سهلة وهو سبحانه القادر ؛ إنّه خلقك أنت بخلق عجيب ، وأعجب منه خلق السموات والأرض ، فهو القائل : ﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ [ غافر : 57 ]

وحين ينظر الإنسان في تكوينه يجد أشياء عجيبة ، ويتحقق من قول الله : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [ الذاريات : 21 ]

وحين تتأمل السماء والأرض تجد دقة الخلق ، فكأنه سبحانه قد جعل نفسك مقياساً ، إنك ستعلم أحوالها تباعاً وأنك سَتُهْدَي مع الأيام ، إلى سر جديد في هذه النفس ، هذا السر لم يعرفه الأولون ، لكنك حين تتقدم في البحث العلمي وآلات السبر وآلات الاختبار تتعرف وتكتشف هذا الجديد .

*(81/237)*

---

مثال ذلك ما يسمى بالاستطراق ، وكلنا رأينا الأواني المستطرقة التي نضع فيها سائلا ينفذ في أنابيب متعرجة وأخرى مستقيمة ، فيرتفع السائل فيها بمستوى واحد وهو ما نسميه بظاهرة الاستطراق ، وهناك استطراق مائي ، ويوجد أيضاً حراري ، ويتمثل الاستطراق الحراري حين نأتي بالمدفأة في الشتاء ونجلس في الغرفة ، ونشعر بالحرارة التي تشع من المدفأة ، وأنت تجد نفسك محتفظاً بدرجة حرارتك العادية وهي سبع وثلاثون درجة . ومن العجيب أنها تتساوى في البشر جميعا حتى في القطب الشمالي والقطب الجنوبي ! ! فلماذا لم تستطرق درجة حرارتك مع الجو ؟ ولماذا لم يأخذ الجو البارد من حرارتك

لتتساوى درجات الحرارة ؟ .

إن ذلك يثبت أن ذلك ذاتية تجعلك وحدة مستقلة عن الكون الذي تحيا فيه ، وتظل درجة حرارتك عند خط الاستواء 37 درجة ، وفي القطبين 37 درجة ، هذا عجيب ، والأعجب من ذلك أن أجزاء جسمك المختلفة تختلف فيها درجة الحرارة ، فلو أن درجة حرارة العين 37 درجة لانصهرت ؛ لذلك تجد أن درجة حرارة العين تسع درجات فقط ، وهناك الكبد الذي تبلغ درجة حرارته أربعين درجة ، وكل أعضاء جسمك وهي مجموعة في شكل واحد ومع ذلك لا تستطرق فيها درجة الحرارة . ولذلك قال الحق : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ .

ومثال آخر من عملية التنفس ، فحين تدخل ذرة من غبار في مجرى النفس نجد السعال قد هاجم الإنسان ليطرد هذه الذرة وتجد أنك قد سعلت قسراً إلى أن تطرد هذه الذرة ، فهل أنت سعلت بقرار منك ؟ لا ، بل هو عمل لا إرادي خاضع لنظام دقيق لا يمكن أن يصممه إلا خالق له مطلق الحكمة ، وعلى سبيل المثال نجد الكبد محوطا بتغليفات متتابعة ليحتفظ بحرارته التي تبلغ أربعين درجة ؛ لأنه لا يؤدي مهمته إلا عند هذه الدرجة .

وكذلك نجد أنّ الأذن هي أطول عضو يشعر بالبرودة ؛ لأن درجة حرارتها قليلة ، وهكذا أراد الصانع الأعلى . كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي خَلَقَ السماوات والأرض بالحق ﴾ [ الأنعام : 73 ]

لقد خلق الحق السموات والأرض بقوانين ثابتة لا تتغير إلا بمشيئته ، فهو القائل : ﴿ لاَ الشمس يَنبَغِي لَهَآ أَن تدْرِكَ القمر وَلاَ الليل سَابِقُ النهار وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [ يس : 40 ]

فيا مَنْ تريد النظام دليلاً على حكمة الخالق الموجد خذها في النظام الأعلى . ويا من تريد الشذوذ دليلاً على سيطرة الحق فوق الميكانيكية ، خذها في الأفراد ؛ لأنه لو حصل شذوذ في الكون الأعلى لفسدت السموات والأرض ، لكن عندما يوجد أعمى واحد من ألف إنسان ، فلا يحدث خلل في الكون ، ولذلك نجد الشذوذ إنما يأتي فيما فيه عوض ، والنظام يأتي فيما في تركه فساد ، كما يقول سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الحق ﴾ [ الأنعام : 73 ]

وبذلك نرى الإيجاد الأول بالحق ، وأيضاً حين يهدم سبحانه السماء والأرض وينهي الدنيا ويزيلها ، فتمور السماء ، والكواكب تنتثر وتتساقط ؛ فإن ذلك يحدث أيضاً بالحق ، فليس الخلق والإيجاد وحده دليلاً على عظمة الخالق بل إنهاء الخلق وإفناؤه وإزالته أيضاً دليل عظمة ؛ لأنه سبحانه قال في البدء : "كن " فكان الكون ، وفي النهاية يقول : "كن " فيكون

إنهاء الخلق ليعطي للمحسن جزاء إحسانه ، ويحاسب المسيء ؛ لأن المحسن قد يشقى بإحسانه طول عمره ، ولا بد له من ثواب ، والمسيء لن يأخذ راحته بل يأخذ عقاباً . فمن الخير والعظمة أن تنتهي الحياة ليأتي يوم الحساب لينال كلٌّ جزاءه .

إذن فخلق السموات والأرض حق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق ، فالحق في الإيجاد والحق في الإعدام ، إنّه حاصل في بدء الخلق ، وفي نهايته .

﴿ وَلَهُ الملك يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور عَالِمُ الغيب والشهادة وَهُوَ الحكيم الخبير ﴾ [ الأنعام : 73 ]

*(83/237)*

---

وهل كان الملك يوماً لغير الله ؟

في هذا المقام علينا أن ننتبه إلى أن فيه ملْكاً ، ويقال لصاحبه مالك ، وفيه مُلك ويقال لصاحبه ملك . والملك ما تملكه ؛ فقد تملك جلبابك الذي ترتديه . أما المُلْك فهو أن تملك من يَمْلك ، فهذا اسمه مُلْك ، وربنا سبحانه وتعالى في دنيا الأسباب جعل لكل واحد منا ملكاً ، وجعل لبعض علينا مُلكاً فبقوا ملوكاً ، لكن في الآخرة لا يوجد شيء من هذا ، لذلك يقول الحق : ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ [ غافر : 16 ]

وفي الدنيا قد تملك مثلاً أن توظفني عندك وتعطيني أجراً ، وقد تملك أنك تطبخ لي طعامي أو تعطيني طعاماً ، أو تملك أنك تخيط جلبابي ، لكن في الآخرة لا يملك أحد لأحد سبباً ؛ لأننا نحيا في الدنيا بالأسباب التي منحنا الله إياها ، وفي الآخرة بالمسبب وحده دون أسباب .

﴿ وَلَهُ الملك يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور ﴾ ولو سلسلتها قبل أن ينفخ في الصور تجد الملك أيضاً لله ولكن بوسائط ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى جعل الأرض أرض معاش ، وهناك الآخرة إنّها أرض معاد ، لذلك قال : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض ﴾ [ إبراهيم : 48 ]

والأرض التي نحيا عليها مخلوقة لنستعمرها ، ونحرث جزءاً منها لنزرعه ، ونبني بيوتاً على جزء آخر ، وهكذا تكون المسألة كلها أسبابا يتوافق بعضها مع بعض ؛ فأنا لا أستطيع أن أحرث إلا بمحراث ، وكذلك من يرغب في استخراج عنصر الحديد من الأرض يقيم منجماً ، ومن يرغب في استخراج البترول يأتي بالآلات التي تستكشف أماكنه ، ولا أحد يستطيع أن يملك كل أسباب حياته بل توجد في يده زاوية واحدة ، وباقي الزوايا في أيدي بقية الخلق .

وحين تسلسل الأسباب التي نحيا بها سنرجع للحق سبحانه وتعالى ، فحين تنتهي يد المخلوق وأسبابه تضيق به فإن يد الخالق جلت قدرته مبسوطة إليه دائماً ، وإياك أن تغرك الأسباب ولكن سلسل الأسباب إلى أن تنتهي إلى الله .

ولو سلسلت كل ظاهرة من ظواهر الكون لوصلت إلى منطق الحق ؛ فالطفل الصغير يرقب ظاهرة في البيت ، هي زر في الحائط ، عندما يضغطون عليه بأصبع واحد يضيء المصباح ، فيقلدهم ، وحين يراه أخوه الذي يدرس الإعدادية يقول له : لا تصدق أن الضوء يأتي من هذا الزر بل هناك سلك قادم من خارج المنزل يربط بين صندوق الكهرباء والمنازل ، وحين يسمعهما من هو أعلى منهما علماً يشرح لهما أن الكهرباء الموجودة داخل هذا الصندوق قادمة من المولد الكبير الذي في موقع ما من المدينة ، وقد صنعته المعامل والعقول حتى ينتهي الشرح فيصل إلى فكرة التيار المكهرب المستخلص من شلالات الأنهار مثلا .

إذن فكل ظاهرة تراها أمامك وراءها حلقات غيبية لو سلسلتها لوصلت إلى الحق سبحانه وتعالى ، وسبحانه قد احترم دنيانا وجعلنا نفهم أن بعضنا له مُلك ، ولكن نقول لكل مَلِك : إن هذا المُلك ليس بذاتك ؛ لأنه لو كان بذاتك لما سلبك أحد هذا المُلْك أبداً .

وسبحانه القائل : ﴿ قُلِ اللهم مَالِكَ الملك ﴾ [ آل عمران : 26 ]

إذن فليس هناك من له المُلْك بذاته إلا الله .

والحق يقول هنا : ﴿ وَلَهُ الملك يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور عَالِمُ الغيب والشهادة وَهُوَ الحكيم الخبير

﴾ [الأنعام: 73] .

ينفخ في الصور تفيد الإيذان بمقدم أمر ما ، فبعد النفخة الأولى يموت من كان حيًّا ، وبعد النفخة الثانية يصحو الموتى ويقومون .

وكلمة ﴿ عَالِمُ الغيب والشهادة ﴾ تشرح لنا أنه سبحانه ما دام عالم الغيب فمن باب أولى أنه يعلم المشهود . وهذا تعبير دقيق ، وإنّه يعلم الغيب ويعلم الشهادة وعلمه يترتب عليه جزاء لا عن تحكم ، ولكن عن حكمة .

*(85/237)*

---

ويذيل الحق الآية بقوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ الحكيم الخبير ﴾ والحكيم هو الذي يضع كل أمر في مكانه ، والخبير هو من يعلم كل شيء بإحاطة تامة ، وسبحانه ليس بحاجة إلى أن يظلم أحداً ، لأن من يظلم إنما يريد أن ينتفع بالشيء الموجود لدى المظلوم ، وربنا لا ينتفع بحاجة من هذه ، بل ينفعنا جميعاً ، ولذلك إذا نظرت إلى الإيمان تجده كله عزّة ، وأنت تجد الناس تكره كلمة " عبودية " ، وتقوم حروب من أجل تحرير البشر من عبودية البشر ، أما عبودية بشر للحق فأمرها مختلف ؛ لأن العبودية للبشر ، نجد فيها أن السيد يأخذ خير عبده ، ولكن العبودية لله نجد فيها أن العبد يأخذ خير سيده ، وهكذا تكون العبودية لله عزّة ، أما

العبودية للبشر فهي ذلة .

ولذلك نجد الله سبحانه وتعالى قد امتن على نبيه بصفة العبودية فقال : ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ [ الإسراء : 1 ] .

فقد أخلص صلى الله عليه وسلم العبودية لله ، فأخذ من فيوضات الحق بما يناسب عبوديته .

والحق سبحانه يوضح لكل عبد : نم ملء جفنيك ؛ فأنا لا تأخذني سنة ولا نوم ، وأنا قيوم ، وإن احتجت مني إلى شيء ما فادعني وسأمد لك يد العون بما يناسبك ، فهل في هذه العبودية لله شيء غير العزّة ؟ ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(86/237)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (73) ﴾

أخرج ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد وأبو داود والترمذي وحسنه والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث عن عبد الله بن عمرو قال : " سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الصور ؟ فقال " هو قرن ينفخ فيه " " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لو أن أهل منى اجتمعوا على أن يقلوا القرن من الأرض ما أقلوه " .

وأخرج مسدد في مسنده وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني عن ابن مسعود قال : الصور كهيئة القرن ينفخ فيه .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : الصور كهيئة البوق .

وأخرج ابن ماجة والبزار وابن أبي حاتم عن أبي سيعد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يزال صاحبا القرن ممسكين بالصور ينتظران متى يؤمران " .

وأخرج الحاكم وصححه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن طرف صاحب الصور مذ وكل به مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يَرْتَد إليه طرفه ، كأن عينيه كوكبان دريان " .

وأخرج أحمد والطبراني في الأوسط والحاكم والبيهقي في البعث عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن ، وحنى

جبهته ، وأصغى بسمعه ينتظر متى يؤمر ؟ قالوا : كيف نقول يا رسول الله ؟ قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا " .

(87/237)

---

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن المنذر والحاكم والبيهقي عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم " قال : كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن ، وحنى الجبهة ، وأصغى بالأذن متى يؤمر فينفخ ؟ قالوا : فما نقول يا رسول الله ؟ قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا " .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " كيف أنعم وصاحب القرن قد التقمه ، وحنى جبهته ، وأصغى بسمعه ينتظر متى يؤمر فينفخ ؟ قالوا : يا رسول الله فما تأمرنا ؟ قال : حسبنا الله ونعم الوكيل " .

وأخرج البزار والحاكم عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ما من صباح إلا وملكان يناديان ، يقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً ، وملكان موكلان بالصور ينتظران متى يؤمران فينفخان ، وملكان يناديان : يا باغي الخير هلم ، ويقول الآخر : يا باغي الشر أقصر ، وملكان يناديان يقول أحدهما : ويل

للرجال من النساء وويل للنساء من الرجال " .

وأخرج أحمد والحاكم عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " النافخان في السماء الثانية رأس أحداهما بالمشرق ورجلاه بالمغرب ، وينتظران متى يؤمران أن ينفخا في الصور فينفخا " .

*(88/237)*

---

وأخرج عبد بن حميد والطبراني في الأوسط وأبو الشيخ في العظمة بسند حسن عن عبد الله بن الحارث قال "كنت عند عائشة وعندها كعب الحبر ، فذكر إسرافيل فقالت عائشة : أخبرني عن إسرافيل ؟ فقال كعب : عندكم العلم . . . ! قالت : أجل فأخبرني ؟ قال : له أربعة أجنحة ، جناحان في الهواء ، وجناح قد تسربل به ، وجناح على كاهله ، والقلم على أذنه ، فإذا نزل الوحي كتب القلم ثم درست الملائكة ، وملك الصور جاث على إحدى ركبتيه وقد نصب الأخرى فالتقم الصور محنى ظهره ، وقد أمر إذا رأى إسرافيل قد ضم جناحيه أن ينفخ في الصور . فقالت عائشة : هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن وهب بن منبه قال : خلق الله الصور من لؤلؤة بيضاء في

صفاء الزجاجة ، ثم قال للعرش : خذ الصور فتعلق به ، ثم قال : كن فكان إسرافيل ، فأمره أن يأخذ الصور فأخذه وبه ثقب بعدد كل روح مخلوقة ونفس منفوسة لا تخرج روحان من ثقب واحد ، وفي وسط الصور كوّة كاستدارة السماء والأرض ، وإسرافيل واضع فمه على تلك الكوّة ، ثم قال له الرب تعالى : قد وكلتك بالصور فأنت للنفخة والصيحة ، فدخل إسرافيل في مقدم العرش فأدخل رجله اليمنى تحت العرش وقدم اليسرى ، ولم يطرف منذ خلقه الله ينتظر متى يؤمر به .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي بكر الهذلي قال : إن ملك الصور وكل به أن إحدى قدميه لفي الأرض السابعة ، وهو جاث على ركبتيه شاخص بصره إلى إسرافيل ، ما طرف منذ خلقه الله تعالى ينتظر متى يشير إليه فينفخ في الصور .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ يوم ينفخ في الصور ﴾ قال : يعني النفخة الأولى ، ألم تسمع أنه يقول ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى ﴾ [ الزمر : 68 ] يعني الثانية ﴿ فإذا هم قيام ينظرون ﴾ [ الزمر : 68 ] .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة أنه قرأ ﴿ يوم ينفخ في الصور ﴾ أي في الخلق .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ يعني أن عالم الغيب والشهادة هو الذي ينفخ في الصور .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ قال : السر والعلانية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : الشهادة ما قد رأيتم من خلقه ، والغيب ما غاب عنكم مما لم تروه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

*(90/237)*

---

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (71) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ

تُحْشَرُونَ (72) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (73) ﴾

هذا الإيقاع القوي بحقيقة الألوهية وخصائصها ؛ وباستنكار الشرك والعودة إليه بعد الهدى ؛ وبمشهد الذي يرجع القهقرى مرتداً عن دين الله ؛ وحيرته في التيه بلا اتجاه ؛ وبتقرير أن هدى الله وحده هو الهدى . . هذا الإيقاع يختم برنة عالية عميقة مدوية . عن سلطان الله المطلق ، في الأمر والخلق ؛ وعن انكشاف هذا السلطان وتفرده بالظهور – حتى للمنكرين المطموسين – ﴿ يوم ينفخ في الصور ﴾ ويبعث من في القبور ؛ ويستيقن من لم يكن يستيقن أن الملك لله وحده ، وأن إليه المصير :

﴿ قل : أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ، ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ، كالذي استهوته الشياطين في الأرض ، حيران ، له أصحاب يدعونه إلى الهدى . ائتنا . قل : إن هدى الله هو الهدى ، وأمرنا لنسلم لرب العالمين . وأن أقيموا الصلاة واتقوه ﴾ . .

*(91/237)*

---

﴿ قل ﴾ . . الإيقاع القوي المتكرر في السورة ؛ الذي يوحي بأن هذا الأمر لله وحده ، وأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – إنما هو منذر ومبلغ ؛ والذي يوحي بجلال هذا الأمر

وعلويته ورهبته ؛ وأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – إنما هو مأمور به من ربه .

﴿ قل : أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ؟ ﴾ . .

قل لهم يا محمد ما هم عليه من دعوة غير الله والاستعانة به وإسلام مقادهم لهؤلاء الذين يدعونهم من دونه ، وهم لا يملكون نفعاً ولا ضراً . سواء كان ما يدعونه وثناً أو صنماً ، حجراً أو شجراً ، روحاً أم ملكاً ، شيطاناً أم إنساناً . . . فكلهم سواء في أنهم لا ينفعون شيئاً ولا يضرون . فهم أعجز من النفع والضر . وكل حركة إنما تجري بقدر من الله . فما لم يأذن به الله لا يكون ، ولا يكون إلا قدره وما جرى به قضاؤه من الأمور . .

قل لهم مستنكراً دعوة غير الله ، وعبادة غير الله ، والاستعانة بغير الله ، والخضوع لغير الله . وسخف هذا التصرف وهذا الاتجاه . . وسواء كان ذلك رداً على ما كان يقترحه المشركون على النبي – صلى الله عليه وسلم – من مشاركتهم عبادة آلهتهم ليشاركوه عبادة ربه ! أو كان ذلك استنكاراً مبتدأ لما عليه المشركون ، وإعلاناً للمفارقة والمفاصلة فيه من جانب النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين . . فإن المؤدى في النهاية واحد ؛ وهو استنكار هذا السخف الذي يرفضه العقل البشري ذاته متى عرض له في النور ؛ بعيداً عن الموروثات الراسبة ، وبعيداً كذلك عن العرف السائد في البيئة !

ولتجسيم السخف وتضخيم الاستنكار يعرض هذه المعتقدات في ضوء ما هدى الله المسلمين إليه من عبادته وحده ، واتخاذه وحده إلهاً ، والدينونة له وحده بلا شريك :

﴿ قل : أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا ؟ ﴾ .

.

فهو ارتداد على الأعقاب ؛ ورجوع إلى الوراء ؛ بعد التقدم والارتقاء . .

ثم هذا المشهد الشاخص المتحرك الموحي المثير :

(92/237)

---

﴿ كالذي استهوته الشياطين في الأرض . . حيران . . له أصحاب يدعونه إلى الهدى : ائتنا ﴾ . .

إنه مشهد حي شاخص متحرك للضلالة والحيرة التي تنتاب من يشرك بعد التوحيد ، ومن يتوزع قلبه بين الإله الواحد ، والآلهة المتعددة من العبيد ! ويتفرق إحساسه بين الهدى والضلال ، فيذهب في التيه . . إنه مشهد ذلك المخلوق التعيس : ﴿ الذي استهوته الشياطين في الأرض ﴾ – ولفظ الاستهواء لفظ مصور بذاته لمدلوله – ويا ليته يتبع هذا الاستهواء في اتجاهه ، فيكون له اتجاه صاحب القصد الموحد – ولو في طريق الضلال ! – ولكن هناك ، من الجانب الآخر ، أصحاب له مهتدون ، يدعونه إلى الهدى ، وينادونه ﴿ ائتنا ﴾ – وهو بين هذا الاستهواء وهذا الدعاء ﴿ حيران ﴾ لا يدري أين يتجه ، ولا أي

الفريقين يجيب !

إنه العذاب النفسي يرتسم ويتحرك ، حتى ليكاد يحس ويلمس من خلال التعبير !

ولقد كنت أتصور هذا المشهد وما يفيض به من عذاب الحيرة والتأرجح والقلقلة كلما قرآت هذا النص . . ولكن مجرد تصور . . حتى رأيت حالات حقيقية ، يتمثل فيها هذا الموقف ، ويفيض منها هذا العذاب . . حالات ناس عرفوا دين الله وذاقوه – أياً كانت درجة هذه المعرفة وهذا التذوق – ثم ارتدوا عنه إلى عبادة الآلهة الزائفة ، تحت قهر الخوف والطمع . . ثم إذا هم في مثل هذا البؤس المرير . . وعندئذ عرفت ماذا تعني هذه الحالة ، وماذا يعني هذا التعبير !

وبينما ظل المشهد الحي الشاخص المتحرك الموحي ، يغمر النفس بالوجل من هذا المصير التعيس . . يأتي التقرير الحاسم بالاتجاه الثابت المستقيم :

﴿ قل : إن هدى الله هو الهدى ، وأمرنا لنسلم لرب العالمين ، وأن أقيموا الصلاة واتقوه ﴾ . .

إنه التقرير الحاسم في الظرف النفسي المناسب ، فالنفس التي ترتسم لها صورة الحيرة الطاغية ، والعذاب المرير من هذه الحيرة التي لا تستقر على قرار ، تكون أقرب ما تكون إلى استقبال القرار الحاسم بالراحة والتسليم . .

ثم إنه الحق في ذلك التقرير الحاسم :

﴿ قل : إن هدى الله هو الهدى ﴾ . .

هو وحده الهدى – كما يفيد التركيب البياني للجملة – وإنه لكذلك عن يقين . .

وإن البشرية لتخبط في التيه ، كلما تركت هذا الهدى ، أو انحرفت عن شيء منه واستبدلت به شيئاً من تصوراتها هي ومقولاتها ، وأنظمتها وأوضاعها ، وشرائعها وقوانينها ، وقيمها وموازينها ، بغير " علم " ولا " هدى " ولا " كتاب منير " . .

إن " الإنسان " موهوب من الله القدرة على تعرف بعض نواميس الكون وبعض طاقاته وقواه ، للانتفاع بها في الخلافة في الأرض ، وترقية هذه الحياة . . ولكن هذا الإنسان ذاته غير موهوب من الله القدرة على استكناه الحقائق المطلقة في هذا الكون ، ولا على الإحاطة بأسرار الغيوب التي تلفه من كل جانب ، ومنها غيب عقله هو وروحه ، بل غيب وظائف جسمه والأسباب الكامنة وراء هذه الوظائف ، والتي تدفعها للعمل هكذا ، وبهذا الانتظام ، وفي هذا الاتجاه .

ومن ثم يحتاج هذا " الإنسان " إلى هدى الله في كل ما يختص بكينونته وحياته من عقيدة وخلق ، وموازين وقيم ، وأنظمة وأوضاع ، وشرائع وقوانين تحكم هذه الكينونة وتنظم لها

واقع الحياة . .

وكلما فاء هذا " الإنسان " إلى هدى الله اهتدى . لأن هدى الله هو الهدى . وكلما بعد كلية عنه ، أو انحرف بعض الانحراف واستبدل به شيئاً من عنده ضل . لأن ما ليس من هدى الله فهو ضلال . . إذ ليس هنالك نوع ثالث ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ ﴾ . ولقد ذاقت البشرية من ويلات هذا الضلال – وما تزال كلها تذوق – ما هو " حتمي " في تاريخ البشرية حين تنحرف عن هدى الله . . فهذه هي " الحتمية التاريخية " الوحيدة المستيقنة لأنها من أمر الله ، ومن خبر الله ، لا تلك الحتميات المدعاة ! والذي يريد أن يتملى شقاء البشرية في انحرافها عن هدى الله ، لا يحتاج أن ينقب ، فهو حوله في كل أرض تراه الأعين وتلمسه الأيدي ، ويصرخ منه العقلاء في كل مكان .

*(94/237)*

---

ومن ثم يستطرد السياق في الآية ليقرر ضرورة الاستسلام لله وحده ، وعبادته وحده ، ومخافته وتقواه :

﴿ وأمرنا لنسلم لرب العالمين ، وأن أقيموا الصلاة واتقوه ﴾ . .

قل يا محمد وأعلن أن هدى الله هو الهدى ؛ وأننا – من ثم – أمرنا أن نسلم لرب العالمين .

فهو وحده الذي يستسلم له العالمون . فالعوالم كلها مستسلمة له ، فماذا الذي يجعل الإنسان وحده – من بين العالمين – يشذ عن الاستسلام لهذه الربوبية الشاملة التي تستسلم لها العوالم في السماوات والأرضين ؟

إن ذكر الربوبية للعالمين هنا له موضعه . . إنه يقرر الحقيقة التي لا مناص من الاعتراف بها وهي استسلام الوجود كله ، وما فيه من عوالم مشهودة ومغيبة ، للنواميس التي وضعها الله لها ؛ وهي لا تملك الخروج عليها ، والإنسان – من ناحية تركيبه العضوي – يستسلم كذلك لهذه النواميس كرهاً ، ولا يملك الخروج عليها . . فلا يبقى إلا أن يستسلم في الجانب الذي ترك له الخيار فيه ليبتلى فيه ، وهو جانب الاختيار . . اختيار الهدى أو الضلال . . ولو استسلم فيه استسلام كيانه العضوي ، لاستقام أمره ، وتناسق تكوينه وسلوكه ، وجسمه وروحه ، ودنياه وآخرته . .

وفي إعلان الرسول – صلى الله عليه وسلم – والمسلمين معه ، أنهم أمروا بالاستسلام فاستسلموا ، إيحاء مؤثر لمن يفتح الله قلبه للتلقي والاستجابة على مدى الزمان .

وبعد إعلان الاستسلام لرب العالمين تجيء التكاليف التعبدية والشعورية :

﴿ وأن أقيموا الصلاة واتقوه ﴾ .

فالأصل هو الاستسلام لربوبية رب العالمين ، وسلطانه وتربيته وتقويمه . ثم تجيء العبادات الشعائرية ؛ وتجيء الرياضات النفسية .

. لتقوم على قاعدة الاستسلام . . فإنها لا تقوم إلا إذا رسخت هذه القاعدة ليقوم عليها البناء .

(95/237)

---

وفي الإيقاع الأخير في الفقرة يحشد السياق المؤثرات من الحقائق الأساسية في العقيدة : حقيقة الحشر . وحقيقة الخلق . وحقيقة السلطان . وحقيقة العلم بالغيب والشهادة . وحقيقة الحكمة والخبرة . . من خصائص الألوهية ، التي هي الموضوع الرئيسي في هذه السورة :

﴿ وهو الذي إليه تحشرون . وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق . ويوم يقول : كن فيكون . قوله الحق ، وله الملك يوم ينفخ في الصور ، عالم الغيب والشهادة ، وهو الحكيم الخبير ﴾ . .

﴿ وهو الذي إليه تحشرون ﴾ . .

إن الاستسلام لرب العالمين ضرورة وواجب . . فهو الذي إليه تحشر الخلائق . . فأولى لهم أن يقدموا بين يدي الحشر – الحتمي – ما ينجيهم ؛ وأولى لهم أن يستسلموا اليوم له استسلام العالمين ؛ قبل أن يقفوا أمامه مسؤولين . . وكذلك يصبح تصور هذه الحقيقة –

حقيقة الحشر – موحياً بالاستسلام في المبدأ ، ما دام أنه لا مفر من الاستسلام في المصير !

﴿ وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق ﴾ . .

وهذه حقيقة أخرى تحشد كمؤثر آخر . . فالله الذي يؤمرون بالاستسلام له هو الذي خلق السماوات والأرض – والذي يخلق يملك ويحكم ويقضي ويتصرف – ولقد خلق السماوات والأرض " بالحق " . فالحق قوام هذا الخلق . . وفضلاً عما يقرره هذا النص من نفي الأوهام التي عرفتها الفلسفة عن هذا الكون – وبخاصة الأفلاطونية والمثالية – من أن هذا العالم المحسوس وهم لا وجود له على الحقيقة ! – فضلاً على تصحيح مثل هذه التصورات ، فإن النص يوحي بأن الحق أصيل في بنية هذا الكون ، وفي مآلاته كذلك . فالحق الذي يلوذ به الناس يستند إلى الحق الكامن في فطرة الوجود وطبيعته ، فيؤلف قوة هائلة ، لا يقف لها الباطل ، الذي لا جذور له في بنية الكون ، وإنما هو كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار . وكالزبد يذهب جفاء ، إذ لا أصالة له في بناء الكون . . كالحق . . . وهذه حقيقة ضخمة ، ومؤثر كذلك عميق . .

*(96/237)*

إن المؤمن الذي يشعر أن الحق الذي معه – هو شخصياً وفي حدود ذاته – إنما يتصل بالحق الكبير في كيان هذا الوجود . وفي الآية الأخرى : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ فيتصل الحق الكبير الذي في الوجود بالحق المطلق في الله سبحانه . . إن المؤمن الذي يشعر بهذه الحقيقة على هذا النحو الهائل ، لا يرى في الباطل – مهما تضخم وانتفخ وطغى وتجبر وقدر على الأذى المقدر – إلا فقاعة طارئة على هذا الوجود ؛ لا جذور لها ولا مدد ؛ تنفثىء من قريب ، وتذهب كأن لم تكن في هذا الوجود .

كما أن غير المؤمن يرتجف حسه أمام تصور هذه الحقيقة . وقد يستسلم ويثوب !

﴿ ويوم يقول : كن فيكون ﴾ . .

فهو السلطان القادر ، وهي المشيئة الطليقة ، في الخلق والإبداع والتغيير والتبديل .

. وعرض هذه الحقيقة – فضلاً على أنه من عمليات البناء للعقيدة في قلوب المؤمنين – هو كذلك مؤثر موح في نفوس الذين يُدعون إلى الاستسلام لله رب العالمين الخالق بالحق . . الذي يقول : كن فيكون .

﴿ قوله الحق ﴾ . .

سواء في القول الذي يكون به الخلق : ﴿ كن فيكون ﴾ . أو في القول الذي يأمر به بالاستسلام له وحده . أو في القول الذي يشرع به للناس حين يستسلمون . أو في القول الذي يخبر به عن الماضي والحاضر والمستقبل . وعن الخلق والنشأة والحشر والجزاء .

قوله الحق في هذا كله . . فأولى أن يستسلم له وحده من يشركون به ما لا ينفع ولا يضر من خلقه . ومن يتبعون قول غيره كذلك وتفسيره للوجود وتشريعه للحياة . في أي اتجاه .

﴿ وله الملك يوم ينفخ في الصور ﴾ . .

*(97/237)*

---

ففي هذا اليوم يوم الحشر . . يوم ينفخ في الصور ( هو القرن المجوف كالبوق ) وهو اليوم الذي يكون فيه البعث والنشر ؛ بكيفية غيبية لا يعلمها البشر ، فهي من غيب الله الذي احتفظ به . والصور كذلك غيب من ناحية ماهيته وحقيقته ، ومن ناحية كيفية استجابة الموتى له ، والروايات المأثورة ؛ تقول : هو بوق من نور ينفخ فيه ملك ، فيسمع من في القبور ، حيث يهبون للنشور – وهذه هي النفخة الثانية – أما الأولى فيصعق لها من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله كما جاء في آية الزمر : ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض – إلا من شاء الله – ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ وهذه الأوصاف للصور ولآثار النفخة فيه تعطينا – عن يقين – أنه على غير ما يمكن أن يكون البشر قد عهدوه في هذه الأرض أو تصوروه . . وهو من ثم غيب من غيب الله . . نعلمه بقدر ما أعطانا الله من وصفه وأثره ، ولا نتجاوز هذا القدر الذي لا أمان في تجاوزه ، ولا

يقين . إنما هي الظنون !

في هذا اليوم الذي ينفخ فيه في الصور يبرز – حتى للمنكرين – ويظهر – حتى للمطموسين – أن الملك لله وحده ، وأنه لا سلطان إلا سلطانه ، ولا إرادة إلا إرادته . . فأولى لمن يأبون الاستسلام له في الدنيا طائعين أن يستسلموا قبل أن يستسلموا لسلطانه المطلق يوم ينفخ في الصور .

﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ . .

الذي يعلم ذلك الغيب المحجوب ، كما يعلم هذا الكون المشهود . والذي لا تخفى عليه خافية من أمر العباد ، ولا يند عنه شأن من شؤونهم . . فأولى لهم أن يسلموا له ويعبدوه ويتقوه . وهكذا تذكر هذه الحقيقة لذاتها ، وتتخذ مؤثراً موحياً في مواجهة المكذبين والمعارضين .

﴿ وهو الحكيم الخبير ﴾ . .

*(98/237)*

---

يصرف أمور الكون الذي خلقه ، وأمور العباد الذين يملكهم في الدنيا والآخرة بالحكمة والخبرة . . فأولى أن يستسلموا لتوجيهه وشرعه ، ويسعدوا بآثار حكمته وخبرته .

ويفيئوا إلى هداه وحده . ويخرجوا من التيه ، ومن الحيرة ، إلى ظلال الحكمة والخبرة ، وإلى كنف الهدى والبصيرة . .

وهكذا تتخذ هذه الحقيقة مؤثراً موحياً للعقول والقلوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 2 صـ 1131.1135 ﴾

(99/237)

---

" فوائد بلاغية "

قال الشيخ الصابونى :

البَلاَغَة : 1 - ﴿ مَفَاتِحُ الغيب ﴾ استعار المفاتح للأمور الغيبية كأنها مخازن خزنت فيها المغيبات قال الزمخشري : مفاتح على طريق الاستعارة لأن المفاتح يتوصل بها إلى ما في المخازن المغلقة بالأقفال ، فهو سبحانه العالم بالمغيّبات وحده .

2 - ﴿ وَهُوَ الذي يَتَوَفَّاكُم بالليل ﴾ استعير التوفي من الموت للنوم لما بينهما من المشاركة في زوال الإحساس والتمييز .

3 - ﴿ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذكرى مَعَ القوم الظالمين ﴾ وضع الظاهر موضع المضير " معهم " للتسجيل عليهم بشناعة ما ارتكبوا حيث وضعوا التكذيب والاستهزاء مكان التصديق

والتعظيم .

4 - ﴿ وَنُرَدُّ على أَعْقَابِنَا ﴾ عبّر بالرد على الأعقاب عن الشرك لزيادة تقبيح الأمر وتشنيعه .

5 - ﴿ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ ﴾ بينهما جناس الاشتقاق .

6 - من المحسنات البديعية الطباق في كل من ﴿ رَطْبٍ ويَابِسٍ ﴾ و ﴿ الليل وَالنهار ﴾ و ﴿ فَوْقَ وَتَحْتِ ﴾ و ﴿ يَنفَعُنَا وَيَضُرُّنَا ﴾ و ﴿ الغيب والشهادة ﴾ والسجع في ﴿ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ والله أعلم .

تنبيه : قال الحاكم : دلّ قوله تعالى ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب ﴾ على بطلان قول الإمامية : إن الإمام يعلم شيئاً من الغيب ، انتهى أقول : هذا كذب وبهتان لأن الغيب لا يعلمه إلا الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 399.400 ﴾

*(100/237)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

وقوله : " بالحق " قيل : الباء بمعنى اللام ، أي إظهار للحق ؛ لأنه جعل صُنْعَهُ دليلاً على

وحدانيته ، فهو نظير قوله : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً ﴾ [ آل عمران : 191 ] ، وقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ ﴾ [ الدخان : 38 ] .

وثانيها : قوله : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ﴾ في " يوم " ثمانية أوجه :

أحدهما : - وهو قول الزَّجَّاج - أنه مفعول به لا ظرْفٌ ، وهو معطوف على الهاء في " اتقواه " أي : واتقوا يوماً أي : عقاب يوم يقول ، أو هوله أو فزعه ، فهو كقوله تعالى في موضع آخر : ﴿ واتقوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي ﴾ [ البقرة : 48 ] على المشهور في إعرابه .

والثاني : أنه مفعول به أيضاً ، ولكنه نَسَقٌ على السموات والأرض ، أي : وهو الذي خَلَقَ يوم يقول .

الثالث : أنه مفعول لـ " اذكر " مقدراً .

الرابع : أنه منصوب بعامل مقدر ، وذلك العامل المُقدَّرُ مفعول فعل مقدر أيضاً ، والتقدير : واذكروا الإعادة يوم يقول : كن ، أي يوم يقول الله للإجساد : كوني مُعَادَةً .

الخامس : أنه عَطْفٌ على موضع قوله : " بالحق " فإن موضعه نَصْبٌ ، ويكون " يقول " بمعنى قال ماضياً ن كأنه قيل : وهو اذي خلق السموات والأرض بالحق ويوم قال لها : كن .

السادس : أن يكون " يوم يقول : كن فيكون ، وإليه ننحا الزمخشري ، فإنه قال : " قوله الحق " مبتدأ ، و " يوم يقول " خبره مقدماً عليه ، وانْتِصَابُهُ بمعنى الاستقرار ، كقولك : " يوم الجمعة

القتال " واليوم بمعنى الحينِ ، والمعنى : أنه خلق السموات والأرض قائماً بالحكم ، وحين يقول لشيء من الأشياء : كن فيكون ذلك الشيء قوله الحق والحكمة .

(101/237)

---

فإن قيل : قول الله حَقّ في كل وقت ، فما الفائدةُ في تخصيص هذا اليوم بهذين الوصفين ؟

فالجواب : لأن هذا اليوم لا يَظْهَرُ فيه من أحَدٍ نَفْعٌ ولا ضر ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً ﴾ ﴿ والأمر يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ [ الانفطار : 19 ] فلهذا السبب حَسُنَ هذا التخصيص .

السابع : أنه مَنْصُوبٌ على الظرف ، والناصب له معنى الجملة التي هي " قوله الحق " أي : حق قوله في يوم يقول : كن .

الثامن : أنه مَنْصُوبٌ بمحذوف دلَّ عليه بالحق .

قال الزمخشري : وانْتِصَابُ اليوم بمحذوف دلَّ عليه قوله : " بالحق " ، كأنه قيل : " وحين يكون ويقدر يقوم بالحق " قال أبو حيان : " وهذا إعراب مُتَكَلَّفٌ " .

قوله : " فيكون " هي هنا تامَّةٌ ، وكذلك قوله : " كُنْ " فتكتفي هنا بمرفوع ، وتحتاج إلى منصوب ، وفي فاعلها أربعة أوجه :

أحدها : أنه ضمير جميع ما يخلقه الله – تعالى – يوم القيامة ، كذا قَيَّدَهُ أبو البقاء بيوم القيامة .

وقال مكي : " وقيل : تقدير المضمر في " فيكون " جميع ما أراد " ، فأطلق ولم يُقَيِّدْهُ وهذا أوْلَى وكأن أبا البقاء أخذ ذلك من قرينة الحال .

الثاني : أنه ضمير الصُّور المنفوخ فيها ، ودَلَّ عليه قوله : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصور ﴾ [ طه : 102 ] .

الثالث : هو ضمير اليوم ؛ أي : فيكون ذلك اليوم العظيم .

الرابع : أن الفاعل هو " قوله " و " الحق " صفته ؛ أي : فيوجد قوله الحق ، ويكون الكلام على هذا تامًّا على " الحق " .

قوله " قولهُ الحَقُّ " فيه أربعة أوجه :

أحدها : أنه مبتدأ ، و " الحق " نعته ، وخبره قوله : " يوم يقول " .

والثاني : أنه فاعلٌ لقوله : " فيكون " و " الحق " نعته أيضاً ، وقد تقدَّم هذان الوجهان .

الثالث : أن " قوله " مبتدأ ، و " الحق " خبره أخبر عن قوله بأنه لا يكون إلاَّ حقًّا .

*(102/237)*

والرابع : أنه مبتدأ أيضاً ، و" الحق " نعته ، و" يوم يُنفَخُ " خبره وعلى هذا ففي قوله : " وله الملك " ثلاثة أوجه :

أحدها : تكون جُمْلَةً من مبتدأ وخبر معترضة بين المبتدأ وخبره ، فلا محل لها حنئيذ من الإعراب .

والثاني : أن يكون " الملك " عطفاً على " قوله " و" أل " فيه عوض عن الضمير ، و" له " في محلِّ نصب على الحال من " الملك " العامل فيه الاسْتِقْرَارُ ، والتقدير : قوله الحق ، وملكه كائناً له يوم ينفخ ، فأخبر عن القول الحق والملك الذي لله بأنهما كائنانِ في يوم ينفخ في الصُّورِ .

الثالث : أن الجملة من " وله الملك " في محل نصبٍ على الحال ، وهذا الوجه ضعيف لشيئين :

أحدهما : أنها تكون حالاً مؤكّدة ، والأصل أن تكون مؤسّسة .

الثاني : أن العامل فيها معنوي ؛ لأنه الاستقرار المُقَدَّرُ في الظرف الواقع خبراً ، ولا يجيزه إلا الأخفش ، ومن تابعه ، وقد تقدَّم تقرير مذهبه .

قوله : "يَوْمَ يُنْفَخُ " فيه ثمانية أوجه :

أحدها : أنها خبر لقوله تعالى : " قوله الحق " ، وقد تقدم تحقيقه .

الثاني : أنه بَدَلٌ من " يوم يقول " فيكون حُكْمُهُ ذاك .

الثالث : أنه طرف لـ " تحشرون " أي : وهو الذي إليه تحشرون في يوم يُنْفَخُ في الصور .

الرابع : أنه منصوب بنفس المُلْك ، أي : وله المُلْكُ في ذلك اليوم .

فإن قيل : يلزم من ذلك تقييد الملك بـ " يوم النَّفْخ " ، والملك له كل وقت .

فالجواب : ما تقدم في قوله " الحق " ، وقوله : ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم ﴾ [ غافر : 16 ] وقوله : ﴿ والأمر يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ [ الانفطار : 19 ] وهو أن فائدة الإخبار بذلك أنه أثبت المُلْكَ والأَمْرَ في يوم لا يمكن لأحد أن يدعي فيها شيئاً من ذلك .

الخامس : أنه حالٌ من المُلْكِ ، والعامل فيه " له " لما تضمنه من معنى الفعل .

السادس : أنه منصوب بقوله : " يقول " .

السابع : أنه مَنْصُوبٌ بعالم الغيب بعده .

*(103/237)*

---

الثامن : أنه منصوبٌ بقوله تعالى : " قوله الحق " فقد تحصَّل في كل من اليومين ثمانية أوجه .

والجمهور على "يُنْفَخُ" مبنياً للمفعول بياء الغيبة ، والقائم مقام الفاعل الجار بعده .

وقرأ أبو عمرو في رواية عبد الوارث : "نَنْفُخُ" بنون العظمة مبنياً للفاعل .

والصُّورُ : الجمهور على قراءته ساكن العين وقرأه الحسن البصري بفتحها .

فأما قراءة الجمهور ، فاختلفوا في معنى " الصُّور " [ فيها ] فقال جماعة الصور : جمع "

صُورة "كالصُّوف جمع "صوفة" ، والثوم جمع "ثومة" ، وهذا ليس جمعاً صِنَاعيًا ، وإنما هو اسم جنس ، إذ يفرق بينه وبين واحد بتاء التأنيث ، وأيَّدُوا هذا القول بقراءة الحسن المتقدمة .

وقال جماعة : الصُّور هو القَرْنُ .

قال مجاهد كَهَيْئَةِ البُوقِ ، وقيل : هو بلغة أهل اليمن ، وأنشدوا : [ السريع أو الرجز ]

2205 - نَحْنُ نَطَحْنَاهُمْ غَدَاةَ الجَمْعَيْن . . .

بالشَّامِخَاتِ فِي غُبَارِ النُّقْعَيْنْ

نَطْحاً شَدِيداً لا كَنَطْحِ الصُّورَيْنْ . . .

وأيَّدُوا ذلك بما ورد في الأحاديث الصحيحة ، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : " جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما الصُّورُ ؟ قال : " قَرْنٌ يُنْفَخُ فيهِ " وعن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كَيْفَ أَنْعَمُ وصَحِبُ الصُّورِ قَد التَقَمَهُ وأصْغَى سَمْعَهُ وَحَتَى جَبْهَتَهُ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤمَرُ " .

فقالوا : يا رسول الله وما تأمرنا ؟ فقال : " قُولُوا : حَسْبُنَا اللَّهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ " .

وقيل في صفته : إنه قَرْنٌ مستطبل في أبخاش ، وأن أرواح الناس كلهم فيه ، فإذا نفخ فيه إسرافيل خرجت رُوحُ كُلِّ جسدٍ من بخش من تلك الأبخاش .

وأنحى أبو الهيثم على من ادَّعى أن الصور جمع "صُورة"، فقال: "وقد اعترض قوم فأنكروا أن يكون الصور قَرْنًا كما أنكروا العَرْشَ والميزان والصراط، وادَّعُوا أن الصور جمع "صورة"، كالصوف جمع الصوفة، ورووا ذلك عن أبي عُبَيْدة، وهذا خطأ فاحش، وتحريف لكلام الله – عزَّ وجلَّ – عن مواضعهِ؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [غافر: 64] و"نفخ في الصور" فمن قرأها: و"نفخ في الصور" أي بالفتح، وقرأ "فأحْسَنَ صُوْركم" أي بالسكون فقد افترى الكذب على الله – عزَّ وجلَّ – وكان أبو عبيدة صاحب أخبار غريبة ولم يكن له معرفة بالنحو".

قال الأزْهَرِيُّ: قد احتج أبو الهيثم فأحسن الاحتجاج، ولا يجوز عندي غير ما ذهب إليه، وهو قول أهل السنّة والجماعة انتهى.

[قال السمين: ولا ينبغي أن ينسب ذلك إلى هذه الغاية التي ذكرها أبو الهيثم].

قال ابن الخطيب ومما يقوّي هذا الوجه أنه لو كان المراد نفخ الروح في تلك الصورة لأضاف ذلك إلى نَفْسِه، لأن نَفْخَ الأرواح في الصور يضيفه الله إلى نفسه؛ كقوله: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ [الحجر: 29] وقال: ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [التحريم: 12] وقال ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ [المؤمنون: 14]، وأما نفخ الصور بمعنى النَّفخ في القَرْنِ، فإنه تعالى يضيفه لا إلى نفسه كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ

﴿ [المدثر : 8 ] وقال : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور فَصَعِقَ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض إِلاَّ مَن شَآءَ الله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُون ﴾ [الزمر : 68 ] .

وقال الفراء : "يُقَال : نفخ في الصور ، ونفخ الصور " ، وأنشد : [البسيط ]

2206 - لَوْلاَ ابْنُ جَعْدَةَ لَمْ يُفْتَحْ قُهَنْدُزُكُمْ . . .

ولا خُرَاسَانُ حَتَّى يُنْفَخَ الصُّورُ

*(105/237)*

---

قوله : " عَالِمُ الغَيْبِ " في رفعه أربعة أوجه :

أحدها : أن يكون صِفةً لـ " الذي " في قوله : " وهو الذي خلق " ، وفيه بُعْدٌ لطُولِ الفَصْلِ بأجنبي .

الثاني : أنه خبر مضمر أي : هو عالم .

الثالث : أنه فاعل لقوله : " يقول " أي : يوم يقول عالم الغيب .

والرابع : أنه فاعل بفعل محذوف يَدُلُّ عليه الفعل المبني للمفعول ؛ لأنه لما قال : " ينفخ في الصور " سأل سَائِلٌ فقال : من الذي يَنْفُخُ فيه ؟ فقيل : " عَلِمُ الغَيْبِ " ، أي : ينفخ فيه عالم الغيب ، أي : يأمر بالنَّفْخِ فيه لقوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والآصال رِجَالٌ ﴾ [

النور : 36 ، 37 ] أي : تُسَبِّحُهُ .

ومثله أيضاً قول الآخر : [ الطويل ]

2207 - لِيُبْكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِخُصُومَةٍ . . .

وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيحُ الطَّوَائِحُ

أي : مَنْ يبكيه ؟ فقيل : ضارع ، أي : يبكيه ضارع لخصومة .

ومثله : ﴿ وكذلك زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ المشركين قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾ [ الأنعام : 137 ]

في قراءة من يبني " زُيِّنَ " للمفعول ورفع " قَتْلُ " ، و " شركاؤهم " كأنه قيل : من زَيَّنَهُ لهم ؟

فقيل : زَيَّنَهُ شُرَكَاؤُهُمْ ، والرفع على ما تقدم قراءة الجمهور .

وقرأ الحسن البصري والأعمش : " عالم " بالجر وفيها ثلاثة أوجه :

أحسنها : أنه بدل من الهاء في " له " .

[ الثاني : أنه بدل من " رب العالمين " ، وفيه بُعْدٌ لطول الفصل بين البدل والمبدل منه ] .

الثالث : أنه نعت للهاء في " له " ، وهذا إنما يتمشى على رأي الكسائي حيث يُجيزُ نعت المضمر بالغائب ، وهو ضعيف عند البصريين والكوفيين غير الكسائي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 223 . 228 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (73) ﴾

يعني أنه لا يعترض على قدرته - سبحانه - حدوث مقصود ، ولا يتقاصر حكمه عن تصريف موجود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 483 ﴾

*(107/237)*

---

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾

جعل للغيب مفاتح على طريق الاستعارة ، لأنّ المفاتح يتوصل بها إلى ما في المخازن «1» المتوثق منها بالأغلاق والأقفال . ومن علم مفاتحها وكيف تفتح ، توصل إليها ، فأراد أنه هو المتوصل إلى المغيبات وحده لا يتوصل إليها غيره كمن عنده مفاتح أقفال المخازن ويعلم

فتحها ، فهو المتوصل إلى ما في المخازن . والمفاتح : جمع مفتح وهو المفتاح . وقرئ مفاتيح ، وقيل : هي جمع مفتح - بفتح الميم - وهو المخزن . وَلا حَبَّةٍ . . . وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ عطف على ورقة «2» وداخل في حكمها ، كأنه قيل : وما يسقط من شيء من هذه الأشياء إلا يعلمه . وقوله إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ كالتكرير لقوله إِلَّا يَعْلَمُها لأنّ معنى إِلَّا يَعْلَمُها ومعنى إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ واحد . والكتاب المبين : علم اللّه تعالى ، أو اللوح : وقرئ : ولا حبة . ولا رطب .

ولا يابس ، بالرفع . وفيه وجهان : أن يكون عطفاً على محل مِنْ وَرَقَةٍ وأن يكون رفعاً على الابتداء وخبره إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ : كقولك : لا رجل منهم ولا امرأة إلا في الدار .

[سورة الأنعام (6) : آية 60]

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (60)

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ الخطاب للكفرة ، أى أنتم منسدحون «3» الليل كله

---

(1) . قال محمود : «المفاتح استعارة ، لأن المفاتح يتوصل بها إلى ما في المخازن . . . الخ» قال أحمد : إطلاق التوصل على اللّه تعالى ليس سديدا فانه يوهم تجدد وصول بعد تباعد إذ قول القائل توصل زيد إلى كذا يفهم أنه وصل بعد تكلف وبعد واللّه تعالى مقدس عن ذلك والغائب كالحاضر في علمه والعلم بالكائن هو العلم بما سيكون لا يتغاير ولا يختلف

وليس لما أن نطلق مثل هذا الإطلاق إلا عن ثبت ، والله الموفق .

(2) . عاد كلامه . قال : «ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس ، عطف على ورقة وداخل في حكمها . . . الخ» قال أحمد : وفائدة هذا التكرير التطرية لما بعد عهده ، لأنه لما عطف على ورقة بعد أن سلب الإيجاب لمقصود للعلم في قوله إِلَّا يَعْلَمُها وكانت هذه المعطوفات داخلة في إيجاب العلم وهو المقصود وطالت ، وبعد ارتباط آخرها بالإيجاب السالف كان ذلك جديراً بتجديد العهد بالمقصود ، ثم كان اللائق بالبلاغة المألوفة في القرآن التجديد بعبارة أخرى ، ليتلقاها السامع غضة جديدة غير مملولة بالتكرير . وهذا السر إنما ينقب عنه المسيطر في علم البيان ونسكت اللبان ، والله الموفق .

(3) . قوله «منسدحون» أي منسطحون على القفا ، أو منقلبون على الوجه أفاده الصحاح . (ع)

*(108/237)*

---

كالجيف وَيَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ ما كسبتم من الآثام فيه ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ثم يبعثكم من القبور في شأن ذلك الذي قطعتم به أعماركم ، من النوم بالليل ، وكسب الآثام بالنهار ، ومن أجله ، كقولك : فيم دعوتني ؟ فتقول : «1» في أمر كذا لِيُقْضى أَجَلٌ مُسَمًّى وهو الأجل الذي

سماه وضربه لبعث الموتى وجزائهم على أعمالهم . ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ وهو المرجع إلى موقف الحساب ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ في ليلكم ونهاركم .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 61 إلى 62]

وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ (61) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحاسِبِينَ (62)

حَفَظَةً ملائكة حافظين لأعمالكم وهم الكرام الكاتبون . وعن أبى حاتم السجستاني كان يكتب عن الأصمعى كل شيء يلفظ به من فوائد العلم ، حتى قال فيه . أنت شبيه الحفظة ، تكتب لغط اللفظة : فقال أبو حاتم : وهذا أيضاً مما يكتب . فإن قلت : اللّه تعالى غنىّ بعلمه عن كتبة الملائكة ، فما فائدتها ؟ قلت : فيها لطف للعباد ، لأنهم إذا علموا أن اللّه رقيب عليهم والملائكة الذين هم أشرف خلقه موكلون بهم يحفظون عليهم أعمالهم ويكتبونها في صحائف تعرض على رؤس الأشهاد في مواقف القيامة ، كان ذلك أزجر لهم عن القبيح وأبعد عن السوء تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا أى استوفت روحه وهم ملك الموت وأعوانه . وعن مجاهد : جعلت الأرض له مثل الطست يتناول من يتناوله . وما من أهل بيت إلا ويطوف عليهم في كل يوم مرّتين . وقرئ :

توفاه . ويجوز أن يكون ماضياً ومضارعا بمعنى تتوفاه . ويُفَرِّطُونَ بالتشديد والتخفيف ،

فالتفريط التواني والتأخير عن الحدّ ، والإفراط مجاوزة الحدّ أى لا ينقصون مما أمروا به أو لا يزيدون فيه ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ أى إلى حكمه وجزائه مَوْلاهُمُ مالكهم الذي يلي عليهم أمورهم الْحَقِّ العدل الذي لا يحكم إلا بالحق أَلا لَهُ الْحُكْمُ يومئذ لا حكم فيه لغيره وَهُوَ أَسْرَعُ الْحاسِبِينَ لا يشغله حساب عن حساب . وقرئ الْحَقِّ بالنصب على المدح كقولك : الحمد للّه الحق .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 63 إلى 64]

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجانا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (63) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْها وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (64)

---

(1) . قوله «فتقول في أمر كذا» لعله : فيقول . (ع)



---

ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مجاز عن مخاوفهما وأهوالهما . يقال لليوم الشديد : يوم مظلم ، ويوم ذو كواكب ، أى اشتدت ظلمته حتى عاد كالليل ، ويجوز أن يراد . ما يشفون «1» عليه من الخسف في البر والغرق في البحر بذنوبهم ، فإذا دعوا وتضرعوا كشف اللّه عنهم الخسف والغرق فنجوا من ظلماتهما لَئِنْ أَنْجَيْتَنا على إرادة القول مِنْ هذِهِ من هذه الظلمة

الشديدة. وقرئ يُنَجِّيكُمْ بالتشديد والتخفيف. وأنجانا. وخفية، بالضم والكسر.

[سورة الأنعام (6) : الآيات 65 إلى 67]

قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (65) وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (66) لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (67)

هُوَ الْقادِرُ هو الذي عرفتموه قادراً وهو الكامل القدرة عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ كما أمطر على قوم لوط وعلى أصحاب الفيل الحجارة، وأرسل على قوم نوح الطوفان أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ كما أغرق فرعون وخسف بقارون، وقيل من فوقكم: من قبل أكابركم وسلاطينكم. ومن تحت أرجلكم: من قبل سفلتكم وعبيدكم. وقيل: هو حبس المطر والنبات أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً أو يخلطكم فرقا مختلفين على أهواء شتى، كل فرقة منكم مشايعة لإمام. ومعنى خلطهم: أن ينشب القتال بينهم فيختلطوا ويشتبكوا في ملاحم القتال، من قوله:

وكتيبة لبستها بكتيبة حتّى إذا التبست نفضت لها يدى «2»

---

(1). قوله «ما يشفون عليه» أى يشرفون ويقربون. أفاده الصحاح. (ع) [. . . . .]

(2) وكتيبة لبستها بكتيبة حتى إذا التبست نفضت لها يدي

فتركتهم تقص الرماح ظهورهم من بين منعقر وآخر مسند

ما كان ينفعني مقال نسائهم وقتلت دون رجالها لا تبعد

للفرار السلمي ، يمدح نفسه بأنه مهياج للشر يعرف مداخله ومخارجه . يقول : رب جماعة خلطتها بأخرى ، حتى إذا تم اختلاطهما تخلصت منهما وتركتهما في حيص بيص ، لكن فيه إثبات طرف من اللؤم ، ونفض اليد : كناية عن التخلص . والوقص : الدق والكسر . والمنعقر : المجروح بالسهم ، فتنقطع قوته من العقر وهو القطع . ويروى :

منعفر ، بالفاء أى متعفر بالتراب . والمسند : اسم مفعول ، أى دابرين بين ساقط ومتكئ على غيره ، ولا تبعد :

مقول المقال ، وهو بفتح العين أى لا تهلك ، وهي كلمة تقولها النساء عند المصيبة . وقوله «و قتلت» حال ، أى والحال أنى قد قتلت دون رجال تلك النساء ، أى أمامهم ، أو من بينهم لكفايتى عنهم . أى لو صبرت لقتلت ، ولم يحينى كلام نسائهم وتفجعهم على مع سلامة رجالهن . (3 - كشاف - 2)

*(110/237)*

---

وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «سألت اللّه أن لا يبعث على أمتى عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم فأعطانى ذلك ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعني ، وأخبرنى جبريل أنّ فناء أمتى بالسيف» «1» وعن جابر بن عبد اللّه لما نزل مِنْ فَوْقِكُمْ

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «أعوذ بوجهك» فلما نزل أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ. أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً قال «هاتان أهون» «2» ومعنى الآية: الوعيد بأحد أصناف العذاب المعدودة. والضمير في قوله وَكَذَّبَ بِهِ راجع إلى العذاب وَهُوَ الْحَقُّ أى لا بدّ أن ينزل بهم قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ بحفيظ وكل إلىّ أمركم أمنعكم من التكذيب إجباراً، إنما أنا منذر لِكُلِّ نَبَإٍ لكل شيء ينبأ به، يعنى إنباءهم بأنهم يعذبون وإيعادهم به مُسْتَقَرٌّ وقت استقرار وحصول لا بدّ منه. وقيل: الضمير في بِهِ للقرآن.

[سورة الأنعام (6): الآيات 68 إلى 69]

وَإِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (68) وَما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلكِنْ ذِكْرى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (69)

يَخُوضُونَ فِي آياتِنا في الاستهزاء بها والطعن فيها، وكانت قريش في أنديتهم يفعلون ذلك فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ فلا تجالسهم وقم عنهم حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ فلا بأس أن تجالسهم حينئذ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ وإن شغلك بوسوسته حتى تنسى النهى عن مجالستهم «3»

---

(1). كذا ذكره الثعلبي بغير سند. وهو في عدة أحاديث دون خبر جبريل. فروى ابن مردويه من حديث عمرو بن قيس عن رجل عن ابن عباس قال «لما نزلت هذه الآية قُلْ هُوَ

الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ . . . الآية قال : فقال النبي صلى الله عليه وسلم فتوضأ ثم قال : اللهم لا ترسل على أمتى عذابا من فوقهم ولا من تحت أرجلهم ، ولا تلبسهم شيعا . فأتاه جبريل . فقال : يا محمد إن الله قد أجار أمتك أن يبعث عليهم عذابا من فوقهم أو من تحت أرجلهم» وله شواهد : منها في مسلم عن سعد مرفوعا «سألت ربى أن لا يهلك أمتى بالغرق فأعطانيها . وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعها» وعند مسلم من حديث ثوبان مطولا . وعند عبد الرزاق من حديث شداد بن أوس مطولا أيضا وفي الموطأ عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «دعا لأمته أن لا يظهر عليهم عدوا من غيرهم ولا يهلكهم بالسنين فأعطيها ودعا بأن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعها» ولابن ماجة من حديث معاذ نحو حديث سعد والنسائي من حديث أنس نحوه وللترمذي من حديث خباب بن الأرت نحوه ، وعند أحمد من حديث أبى بصرة الغفاري نحوه وفي الطبراني من حديث ابن عباس ، وقوله «أن فناء أمتى بالسيف» رواه من حديث

(2) . أخرجه البخاري من حديث جابر

(3) . قال محمود : «معناه وإن شغلك بوسوسته حتى تنسى النهى . . . الخ» قال أحمد : وهذا التأويل الثاني يروم تنزيله على قاعدة التحسين والتقبيح بالعقل ، وأنه كاف وإن لم يرد شرع في التحريم وغيره من الأحكام إذا كانت واضحة للعقل ، كمجالسته المستهزئين فان قبحها بين العقل فهو مستقل بتحريمها ، وحيث ورد الشرع بذلك فهو كاشف لحكمها

ومبنية عليه ، لا منشئ فيها حكما . وقد علمت فساد هذه القاعدة ومخالفتها للعقائد السنية ، على أن الآية تنبو عنه فانه لو كان النسيان المراد ها هنا نسيان الحكم الذي يدل عليه العقل قبل ورود هذا النهى ، لما عبر بالمستقبل في قوله وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ فأما وقد ورد بصيغة الاستقبال فلا وجه لحمله على الماضي ، والله الموفق .

*(111/237)*

---

فَلا تَقْعُدْ معهم بَعْدَ الذِّكْرى بعد أن تذكر النهى . وقرئ : ينسينك . بالتشديد .

ويجوز أن يراد : وإن كان الشيطان ينسينك قبل النهى «1» قبح مجالسة المستهزئين لأنها مما تنكره العقول فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى بعد أن ذكرناك قبحها ونبهناك عليه معهم وَما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وما يلزم المتقين الذين يجالسونهم شيء مما يحاسبون عليه من ذنوبهم وَلكِنْ عليهم أن يذكروهم ذِكْرى إذا سمعوهم يخوضون ، بالقيام عنهم ، وإظهار الكراهة لهم ، وموعظتهم لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ لعلهم يجتنبون الخوض حياء أو كراهة لمساءتهم .

ويجوز أن يكون الضمير للذين يتقون ، أى يذكرونهم إرادة أن يثبتوا على تقواهم ويزدادوها .

وروى أن المسلمين قالوا : لئن كنا نقوم كلما استهزؤا بالقرآن لم نستطع أن نجلس في المسجد الحرام وأن نطوف ، فرخص لهم . فإن قلت : ما محل ذِكْرى ؟ قلت : يجوز أن يكون نصباً

على : ولكن يذكرونهم ذكرى ، أى تذكيراً . ورفعا على : ولكن عليهم ذكرى .

ولا يجوز أن يكون عطفاً على محل مِنْ شَيْءٍ ، كقولك : ما في الدار من أحد ولكن زيد ، لأنّ قوله مِنْ حِسابِهِمْ يأبى ذلك .

[سورة الأنعام (6) : آية 70]

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْها أُولئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِما كَسَبُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (70)

اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً أى دينهم الذي كان يجب أن يأخذوا به لعباً ولهواً . وذلك أن عبدة الأصنام وما كانوا عليه من تحريم البحائر والسوائب وغير ذلك ، من باب اللعب واللهو واتباع هوى النفس والعمل بالشهوة ، ومن جنس الهزل دون الجد . واتخذوا ما هو لعب ولهو من عبادة الأصنام وغيرها ديناً لهم . أو اتخذوا دينهم الذي كلفوه ودعوا إليه وهو دين

---

(1) . قوله «كان الشيطان ينسينك قبل النهى» بناء على أن هناك حكما قبل الشرع وهو مذهب المعتزلة ، ولا حكم قبل الشرع عند أهل السنة . (ع)

الإسلام لعباً ولهواً ، حيث سخروا به واستهزؤا . وقيل : جعل اللّه لكل قوم عيداً يعظمونه ويصلون فيه ويعمرونه بذكر اللّه والناس كلهم من المشركين وأهل الكتاب اتخذوا عيدهم لعباً ولهواً ، غير المسلمين فإنهم اتخذوا عيدهم كما شرعه اللّه . ومعنى «ذرهم» اعرض عنهم ، ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم ولا تشغل قلبك بهم وَذَكِّرْ بِهِ أى بالقرآن أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ مخافة أن تسلم إلى الهلكة والعذاب وترتهن بسوء كسبها . وأصل الإبسال المنع ، لأن المسلم إليه يمنع المسلم ، قال :

وإبسالى بنىَّ بغير جرم بعوناه ولا بدم مراق «1»

ومنه : هذا عليك بسل ، أى حرام محظور . والباسل : الشجاع لامتناعه من قرنه ، أو لأنه شديد البسور . يقال : بسر الرجل إذا اشتدّ عبوسه ، فإذا زاد قالوا : بسل . والعابس : منقبض الوجه وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْها وإن تفد كل فداء ، والعدل الفدية «2» لأن الفادي يعدل المفدى بمثله . وكلّ عدل : نصب على المصدر . وفاعل يُؤْخَذْ قوله مِنْها لا ضمير العدل لأنّ العدل هاهنا مصدر فلا يسند إليه الأخذ . وأما في قوله تعالى وَلا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ فبمعنى المفدىّ به ، فصحّ إسناده إليه أُولئِكَ إشارة إلى المتخذين دينهم لعباً ولهواً . قيل : نزلت في أبى بكر الصديق رضى اللّه عنه حين دعاه ابنه عبد الرحمن إلى عبادة الأوثان «3» .

[سورة الأنعام (6) : آية 71]

قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُنا وَلا يَضُرُّنا وَنُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا بَعْدَ إِذْ هَدانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرانَ لَهُ أَصْحابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى وَأُمِرْنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (71)

---

(1) . لعوف بن الأحوص الباهلي . والابسال : التسليم للباسل أى الشجاع المانع العابس . والبعو : بالعين المهملة – الجناية . يتحسر على تسليم أبنائه لبنى قشير رهنا في دم رجل منهم اسمه أبو الصحيفة ، بغير جرم : أى ذنب جنيناه أنا وأولادى ، ولا بدم مراق أى مسال منا ، كناية عن القتل .

(2) . قال محمود : «معناه وإن تفد كل فداء والعدل الفدية . . . الخ» قال أحمد : وهذا أيضا من عيون إعرابه ونكت إغرابه التي طالما ذهل عنها غيره ، وهو من جنس تدقيقه في منع عود الضمير من قوله فَتَنْفُخُ فِيها إلى الهيئة من قوله كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ مع أنه السابق إلى الذهن ، وإنما حمله على القول بأن العدل ها هنا مصدر أن الفعل تعدى إليه بغير واسطة ، ولو كان المراد المفدى به لكان مفعولا به ، فلم يتعد إليه الفعل إلا بالباء ، وكان وجه الكلام : وإن تعدل بكل عدل ، فلما عدل عنه علم أنه مصدر ، والله أعلم .

(3) . قال محمود : «نزلت في أبى بكر رضى الله عنه حين دعاه ابنه عبد الرحمن إلى عبادة الأوثان . . . الخ» قال أحمد : ومن أنكر الجن واستيلاءها على بعض الأناسى بقدرة الله تعالى حتى يحدث من ذلك الخبطة والصرع ونحوهما ، فهو ممن استهوته الشياطين

في مهامه الضلال الفلسفي ، حيران له أصحاب من الموحدين يدعونه إلى الهدى الشرعي ائتنا ، وهو راكب في ضلالة التعاسيف لا يلوى عليهم ولا يلتفت إليهم ، فمرة يقول : إن الوارد في الشرع من ذلك تخييل ، كما تقدم في سورة البقرة . ومرة يعده من زعمات العرب وزخارفها . وقد أسلفنا ذلك في البقرة وآل عمران قولا شافيا بليغا ، فجدد به عهداً ، والله الموفق .

*(113/237)*

---

قُلْ أَنَدْعُوا أنعبد مِنْ دُونِ اللَّهِ الضارّ النافع ما لا يقدر على نفعنا ولا مضرتنا وَنُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا راجعين إلى الشرك بعد إذ أنقذنا الله منه وهدانا للإسلام كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ كالذي ذهبت به مردة الجن والغيلان فِي الْأَرْضِ المهمه « 1 » حَيْرانَ تائهاً ضالا عن الجادة لا يدرى كيف يصنع لَهُ أى لهذا المستهوى أَصْحابٌ رفقة يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى إلى أن يهدوه الطريق المستوى . أو سمى الطريق المستقيم بالهدى ، يقولون له ائْتِنا وقد اعتسف المهمه تابعاً للجن لا يجيبهم ولا يأتيهم . وهذا مبنى على ما تزعمه العرب وتعتقده : أن الجنّ تستهوى الإنسان ، والغيلان تستولى عليه ، كقوله الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ فشبه الضالّ عن طريق الإسلام التابع لخطوات الشيطان والمسلمون يدعونه إليه فلا يلتفت إليهم

قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ وهو الإسلام هُوَ الْهُدى وحده وما وراءه ، ضلال وغىّ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً . فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ . فإن قلت : فما محل الكاف في قوله كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ ؟ قلت النصب على الحال من الضمير في نُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا أى : أننكص مشبهين من استهوته الشياطين ؟ فإن قلت : ما معنى اسْتَهْوَتْهُ ؟ قلت : هو استفعال ، من هوى في الأرض إذا ذهب فيها ، كأن معناه : طلبت هويه وحرصت عليه . فإن قلت : ما محل أُمِرْنا قلت : النصب عطفاً على محل قوله إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى على أنهما مقولان ، كأنه قيل : قل هذا القول وقل أمرنا لنسلم . فإن قلت : ما معنى اللام في لِنُسْلِمَ ؟ قلت : هي تعليل للأمر ، بمعنى : أمرنا وقيل لنا أسلموا لأجل أن نسلم . فإن قلت : فإذا كان هذا وارداً في شأن أبى بكر الصديق رضى اللّه عنه «2» فكيف قيل للرسول عليه الصلاة والسلام قل أندعوا ؟

---

(1) . قوله «الأرض المهمه» أى المفازة المتسعة . أفاده الصحاح . (ع)

(2) . عاد كلامه . قال : «فان قلت إذا كان هذا وارداً في أبى بكر فكيف قيل للرسول عليه الصلاة والسلام قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ . . . الخ ؟ قال أحمد : هو مبنى على أن الأمر هو الارادة ، أو من لوازمه إرادة المأمور به ، وهذا الإعراب منزل على معتقده هذا . وأما أهل السنة فكما علمت أن الأمر عندهم غير الارادة ولا يستلزمها .

وقولهم في هذه اللام كقولهم وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ من نفى كونها تعليلا .

والوجه في ذلك أنهم لما أوضحت لهم الآيات البينات وأزيحت عنهم العلل وتمكنوا من الإسلام والعبادة امتثالا للأمر جعلوا بمثابة من أريد منهم ذلك تمكيناً لحضهم على الامتثال ولقطع أعذارهم إذا فعل بهم فعل المراد منهم ذلك ، وما شأن المريد للشيء إذا كان قادراً على حصوله أن يزيح العلل ويرفع الموانع ، وكذلك فعل مع المكلفين وإن لم تكن الطاعة مرادة من جميعهم ، وأما إذا كانت اللام هي التي تصحب المصدر كما يقول الزجاج : تقديره الأمر للإسلام وكذلك يقول في قوله تعالى يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ الارادة للبيان وهي اللام التي تصحب المفعول عند تقدمه في قولك : لزيد ضربت ، فهي على هذا الوجه غير محتاجة للتأويل .

وقد قيل إنها بمعنى أن كأنه قيل : وأمرنا أن نسلم قال هذا القائل . وكى ولام كى في أمرت وأردت خاصة ، بمعنى «أن» لا على بابها من التعليل . والغرض من دخولها إفادة الاستقبال على وجه أوثق وأبلغ ، إذ لا يتعلق هذان المعنيان – أعنى الأمر والارادة – إلا بمستقبل ، وقد جمع بين

الثلاثة اللام وكى وأن ، في قوله أردت لكيما أن يطير . . .

«البيت» وهذا الوجه أيضا سالم المعنى من الخلل الذي يعتقده الزمخشري ، والمحافظة على العقيدة . وقد وجدنا السبيل إلى ذلك بحمد اللّه متعينة ، واللّه الموفق .

قلت : للاتحاد الذي كان بين رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والمؤمنين ، خصوصاً بينه وبين الصديق أبى بكر رضى اللّه تعالى عنه .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 72 إلى 73]

وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (72) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (73)

فإن قلت : علام عطف قوله وَأَنْ أَقِيمُوا «1» ؟ قلت : على موضع لِنُسْلِمَ كأنه قيل : وأمرنا أن نسلم ، وأن أقيموا . ويجوز أن يكون التقدير : وأمرنا لأن نسلم ، ولأن أقيموا : أى للإسلام ولإقامة الصلاة قَوْلُهُ الْحَقُّ مبتدأ . ويوم يقول : خبره مقدّما عليه ، وانتصابه بمعنى الاستقراء ، كقولك : يوم الجمعة القتال . واليوم بمعنى الحين . والمعنى : أنه خلق السموات والأرض قائما بالحق والحكمة ، وحين يقول لشيء من الأشياء كُنْ فيكون ذلك الشيء قوله الحق والحكمة ، أى لا يكون شيأ من السموات والأرض وسائر المكونات إلا عن حكمة وصواب . وَيَوْمَ يُنْفَخُ ظرف لقوله وَلَهُ الْمُلْكُ كقوله لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ؟ ويجوز أن يكون قَوْلُهُ الْحَقُّ فاعل يكون ، على معنى : وحين يقول لقوله الحق ، أى لقضائه الحق كُنْ فيكون قوله الحق . وانتصاب اليوم لمحذوف»

دلّ عليه قوله بِالْحَقِّ كأنه قيل : وحين يكوّن ويقدّر يقوم بالحق عالِمُ الْغَيْبِ هو عالم الغيب ، وارتفاعه على المدح. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 2 صـ 31. 39 ﴾

---

(1) . عاد كلامه . قال : «فان قلت علام عطف قوله : وأن أقيموا . . . الخ» ؟ قال أحمد : وهذا مصداق القول بأن لنسلم معناه أن نسلم ، وأن اللام فيه رديفة «أن» لا يراد عطفها عليها ، فذلك هو الوجه الصحيح إن شاء اللّه .

وفي ورود أَقِيمُوا الصَّلاةَ محكيا بصيغته ، وورود «نسلم» محكيا بمعناه ، إذ الأصل المطابق لأقيموا : أسلموا ، مصداق لما قدمته عند قوله تعالى ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وبينت ثم أن ذلك جائز على أن يكون عيسى عليه السلام حكى قول اللّه تعالى : اعبدوا اللّه ربكم ورب عيسى بمعناه فقال : اعبدوا اللّه ربى وربكم ، فهذا مثله حكاية المعنى دون اللفظ ، واللّه أعلم .

(2) . قوله «لمحذوف» لعله «بمحذوف» . (ع)

*(115/237)*

---

وقال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ

رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (61) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ
الْحَاسِبِينَ (62) قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا
مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (63) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ
(64) قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ
يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (65)
وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (66) لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
(67) وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ
وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (68) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ
مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (69) وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا
وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ
وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ
وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (70) قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ
عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ
يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (71) وَأَنْ
أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (72) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ

بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (73) ﴾

(116/237)

---

التفسير : من الدلائل الدالة على كمال قدرته وحكمته قوله ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ والمراد منه الفوقية بالقدرة والتسخير كما يقال : أمر فلان فوق أمر فلان أي أنه أعلى وأنفذ منه ، ولا ريب أن الممكنات بأسرها تحت تصرف الواجب ينقلها من حيز العدم إلى حالة الوجود وبالعكس ، ويتصرف فيها كيف يشاء ، علويات كن أو سفليات ، ذوات أو صفات ، نفوساً أو أبداناً ، أخلاطاً وأركاناً . ومن جملة قهره إرسال الحفظة – وهي جمع حافظ – على عبيده بضبط أعمالهم من الطاعات والمعاصي والمباحات لأنهم مطلعون على أقوال بني آدم

(117/237)

---

لقوله ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ [ ق : 18 ] وعلى أفعالهم بقوله ﴿ يعلمون ما تفعلون ﴾ [ الانفطار : 12 ] وأما صفات القلوب كالجهل والعلم فليس في الآيات ما يدل على اطلاعهم عليها . وعن ابن عباس أن مع كل إنسان ملكين : أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، فإذا تكلم الإنسان بحسنة كتبها من على اليمين ، وإذا تكلم بسيئة قال من على اليمين لمن على اليسار : انتظر لعله يتوب عنها فإن لم يتوب عنها فإن لم يتب كتب عليه . قالت العلماء : من فوائد هذه الكتبة أن المكلف إذا علم أن الملائكة الموكلين عليه يكتبون أعماله في صحائف تعرض على رؤوس الأشهاد في مواقف القيامة كان ذلك زجراً له عن القبائح . ومنها أن توزن تلك الصحائف يوم القيامة فإن وزن الأعمال غير ممكن .

*(118/237)*

---

ومنها التعبد فعلى المكلف أن يؤمن بكل ما ورد به الشرع وإن لم يعرف وجه الحكمة في بعض ذلك . وقال بعض الحكماء : الحفظة النفوس والقوى الجسمانية التي تحفظ الأركان مع طبائعها المتضادة على امتزاجها . وقال بعض القدماء : منهم النفوس البشرية والأرواح السفلية مختلفة بجواهرها متباينة بماهياتها ، فبعضها خيرة وبعضها شريرة ، وكذا القول في

الذكاء والبلادة والحرية والنذالة والشرف والخساسة ، ولكل طائفة من هذه الأرواح السفلية روح سماوي هو لها كالأب المشفق والسيد الرحيم يعينها على مهماتها في يقظتها ومنامها على سبيل الرؤيا تارة ، وعلى سبيل الإلهامات أخرى . فالأرواح الخيرة لها مبادٍ من عالم الأفلاك وكذا الأرواح الشريرة وتلك المبادىء في مصطلحهم تسمى بالطباع التام

(119/237)

---

لأن تلك الأرواح في تلك الطبائع والأخلاق تامة كلها وهذه الأرواح السفلية المتولدة منها أضعف منها لأن المعلول في كل باب أضعف من علته ، لأصحاب الطلسمات والعزائم في هذا الباب كلام كثير . وقيل : إن النفوس المفارقة تميل إلى ما يناسبها ويساويها في الطبيعة والماهية من النفوس المتعلقة بالأبدان فتحفظها وتعينها ﴿ حتى إذا جاء أحدكم الموت ﴾ أي وقته أو أماراته ﴿ توفته رسلنا ﴾ أي بإذننا وتفويضنا فالمتوفى بالحقيقة هو الله تعالى كما قال الله ﴿ يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ [ الزمر : 42 ] . وهؤلاء الرسل أتباع ملك الموت في قوله ﴿ يتوفاكم ملك الموت ﴾ [ السجدة : 11 ] وهل هم الحفظة بأعيانهم أم غيرهم فيه قولان : أشهرهما الثاني لكون ملائكة الروح والريحان وهم الريحانيون غير ملائكة الكرب والأحزان وهم الكروبيون . وعن مجاهد : جعلت الأرض

مثل الطست لملك الموت يتناول من يتناوله ، وما من أهل بيت إلا ويطوف عليهم في كل يوم مرتين . ﴿ وهم لا يفرطون ﴾ لا يقصرون فيما أمرهم الله تعالى به وفيه مدح لهم بالعصمة ﴿ ثم ردوا إلى الله ﴾ أي إلى حكمه وجزائه ﴿ مولاهم الحق ﴾ صفتان والضمير في

*(120/237)*

---

﴿ ردوا ﴾ إما للملائكة يعني كما يموت بنو آدم يموت أولئك الملائكة ، أو إلى البشر أي أنهم بعد موتهم يردون إلى الله تعالى والمعنى أنهم كانوا في الدنيا تحت تصرفات الموالي الباطلة وهي النفس والشهوة والغضب ، فإذا ماتوا انتقلوا إلى تصرف المولى الحق . وفيه إشعار بأن الإنسان شيء آخر وراء هذا الهيكل المحسوس فإن هذا الهيكل يبقى ميتاً والإنسان مردود إليه تعالى . وفي لفظ الرد إشارة إلى أن الروح كان موجوداً قبل البدن وقد تعلق به زماناً ثم ردّ إلى موضعه الأصلي وهو عالم الأرواح بجذبة ﴿ ارجعي إلى ربك ﴾ [ الفجر : 28 ] ﴿ ألا له الحكم ﴾ كقوله : ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ [ الأنعام : 57 ] ﴿ وهو أسرع الحاسبين ﴾ حساباً قيل : إنه تعالى يحاسب الخلق بنفسه دفعة واحدة فلا يشغله كلام عن كلام . وقيل : يحاسب كل إنسان واحد من الملائكة بإذن الله تعالى لأنه لو حاسب الكفار بذاته لتكلم معهم وهو محال لقوله

﴿ ولا يكلمهم الله ﴾ [ البقرة : 174 ] وقال الحكيم : معنى سرعة المحاسبة ظهور الملكات في الهيآت على النفس في آن قطع التعلق ، قليلة كانت أو كثيرة ، حميدة أو ذميمة ، وبعد تعارض البعض بالبعض يبقى ما هو أغلب وبحسب ذلك يكون الثواب أو ضده . وذلك أنه لا يحصل للإنسان لحظة ولا لمحة ولا حركة ولا سكون إلا ويظهر منها في جوهر نفسه أثر من آثار السعادة أو ضدها قل أو كثر وهو المراد بكتبة الأعمال . قال الجبائي – ههنا : لو كان كلامه قديماً لوجب أن يكون متكلماً بالمحاسبة الآن وقبل خلقه وذلك محال لأن المحاسبة تقتضي حكاية عمل تقدم . وعورض بالعلم فإنه كان قبل العالم عالماً بأنه سيوجد وبعد وجوده صار عالماً بأنه وجد ولا يلزم منه تغير العلم . ثم عدّد لطفه وإحسانه بقوله ﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ﴾ مجازاً عن مخاوفهما وأهوالهما يقال ليوم الكربة : يوم مظلم وذو كواكب كأنه أظلم عليه وجه الخلاص ، ويحتمل أن تكون الظلمات بالحقيقة . وظلمات البر ظلمة الليل وظلمة السحاب ، وظلمات البحر هما مع ظلمة الماء . ﴿ تدعونه ﴾ في موضع الحال ﴿ تضرعاً وخفية ﴾ مفعول لأجلهما أو تمييز أو مصدر خاص . والمراد أن الإنسان عند حصول هذه الشدائد يأتي بأمور :

أحدها الدعاء . الثاني التضرع . والثالث : الإخلاص بالقلب وهو المعني بقوله ﴿ وخفية ﴾ ورابعها : التزام الشكر هو المراد من قوله ﴿ لئن أنجيتنا من هذه ﴾ الظلم والشدة ﴿ لنكونن من الشاكرين ﴾ فبين الله سبحانه أنه إذا شهدت الفطرة السليمة في هذه الحالة بأنه لا ملجأ إلا إلى الله ولا معول إلا عليه وجب أن يبقى هذا الإخلاص عند كل الأحوال والأوقات . ثم بين أنه ينجيهم من تلك المخاوف ومن سائر موجبات الحزن والكرب ، ثم إن ذلك الإنسان يقدم على الشرك الجلي وهو عبادة الأوثان أو الخفي وهو اتباع الهوى . وبالجملة فعادة أكثر الخلق ذلك إذا شاهدوا الخوف أخلصوا ، وإذا انتقلوا إلى الأمن والرفاهية أشركوا

*(122/237)*

---

. ثم ذكر نوعاً آخر من دلائل التوحيد مقروناً بنوع من التخويف فقال ﴿ قل هو القادر ﴾ واللام للعهد أو للجنس فيفيد أنه هو الذي عرفتموه قادر ، وهو الكامل القدرة ﴿ على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ كالمطر أو الحجارة مثل ما أمطر على قوم لوط وعلى أصحاب الفيل ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ كما أغرق فرعون وخسف بقارون . وقيل : من قبل أكابركم وسلاطينكم أو من جهة سفلتكم وعبيدكم . وقيل : هو حبس المطر

والنبات ﴿ أو يلبسكم شيعاً ﴾ هي جمع شيعة أي يخلطكم فرقاً مختلفين على أهواء شتى ، كل فرقة منكم مشايعة لإمام . ومعنى خلطهم أن يوقع القتال بينهم فيختلطوا ويشتبكوا في ملاحم القتال . عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " " سألت الله أن لا يبعث على أمتي عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم فأعطاني ذلك وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعني " " وأخبرني جبريل أن فناء أمتي بالسيف "

*(123/237)*

---

قالت الأشاعرة : في قوله ﴿ أو يلبسكم شيعاً ﴾ دلالة على أن الأهواء المختلفة والآراء الفاسدة والبدع كلها من الله تعالى وفي قوله ﴿ ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ إشارة إلى أن أن المعاصي وأنواع الظلم مستندة إلى الله تعالى وقالت المعتزلة : الآية لا تدل إلا على أنه تعالى قادر على القبيح والنزاع في أنه هل يفعل ذلك أم لا ؟ وأجيب بأن الآية دلت على أن القدرة على هذه الأمور تختص به ، وهذه الأمور واقعة فيكون هو فاعلها بالضرورة ﴿ انظر كيف نصرف الآيات ﴾ نقرر الدلائل الواضحات . وقد قال مثل ذلك فيما قبل فالتقدير : انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون فلا نعرض عنهم بل نكررها ﴿ لعلهم يفقهون ﴾ ﴿ وكذب به ﴾ أي بالعذاب المذكور في الآية السابقة ﴿ قومك ﴾ يعني

قريشاً ومن دان بدينهم ﴿ وهو الحق ﴾ أي لا بد أن ينزل بهم . وقيل : أي بالقرآن وهو الحق لأنه كتاب منزل من عند الله . وقيل : أي بتصريف الآيات لأنهم كذبوا كون هذه الأشياء دلالات . ﴿ قل لست عليكم بوكيل ﴾ أي بحافظ حتى أجازيكم على تكذيبكم وإعراضكم عن قبول الدلائل إنما أنا منذر . ﴿ لكل نبأ لكل ﴾ خبره يخبره الله تعالى ﴿ مستقر ﴾ أي استقرار أو موضع استقرار . والمراد بالنبأ المنبأ به لأن النبأ قد حصل ، والمقصود أن لعذاب الله تعالى أو لاستيلاء المسلمين على الكفار بالقتل والأسر والقهر وقتاً ومكاناً يحصل فيه من غير خلف ولا تأخير ﴿ وسوف تعلمون ﴾ فيه من التهديد ما فيه .

(124/237)

---

ثم بين أن أولئك المكذبين إن ضموا إلى كفرهم وتكذيبهم الاستهزاء بالدين والطعن في الرسول فإنه يجب الاحتراز عن مجالستهم فقال ﴿ وإذا رأيت ﴾ أيها السامع ﴿ الذين يخوضون في آياتنا ﴾ والخوض في اللغة عبارة عن المفاوضة على وجه اللغو والعبث ، ويقرب منه قول المفسرين إنه في الآية الشروع في آيات الله على سبيل الطعن والاستهزاء وكانت قريش في أنديتهم يفعلون ذلك ﴿ فأعرض عنهم ﴾ بالقيام عنهم لقوله بعد ذلك ﴿

فلا تقعد بعد الذكرى ﴾ وقيل : المطلوب إظهار الإنكار وكل طريق أفاد هذا الغرض وإن كان غير القيام عن مجلسهم فإنه يجوز المصير إليه ، هذا عند عدم الخوف ، أما مع الخوف فهذا الفرض ساقط والتقية واجبة . نعم كل ما أوجب على الرسول صلى الله عليه وسلم فعله وجب عليه ، سواء ظهر أثر الخوف أو لم يظهر وإلا لم يبق الاعتماد على التكاليف التي يبلغها ﴿ وإما ينسينك الشيطان ﴾ أي يشغلك بوسوسته حتى تنسى النهي عن مجالستهم ﴿ فلا تقعد بعد الذكرى ﴾ بعد أن تذكر النهي ﴿ مع القوم الظالمين ﴾ أي معهم فوضع الظاهر موضع المضمر تسجيلاً عليهم بالظلم . قال الليث : الذكرى اسم للتذكرة .

*(125/237)*

---

وقال الفراء : هي الذكر . قال في الكشاف بناء على مذهبه : يجوز أن يراد وإن كان الشيطان ينسيك قبل النهي قبح مجالسة المستهزئين لأنها مما تنكره العقول فلا تقعد بعد الذكرى ، بعد أن ذكرناك قبحها ونبهناك عليه معهم . قال الجبائي : إذا كان عدم العلم بالشيء يوجب سقوط التكليف ، فعدم القدرة على الشيء أولى بأن يوجب سقوط التكليف ، فعدم القدرة على الشيء أولى بأن يوجب سقوط التكليف ، وهذا يدل على

أن تكليف ما لا يطاق لا يقع ، ويدل على أن الاستطاعة حاصلة قبل الفعل لأنها لو لم تحصل إلا مع الفعل لم يكن الكافر قادراً على الإيمان فوجب أن لا يتوجه عليه الأمر بالإيمان . قال ابن عباس : قال المسلمون : لئن كنا كلما استهزأ المشركون بالقرآن وخاضوا فيه قمنا عنهم لم نستطع أن نجلس في المسجد الحرام وأن نطوف بالبيت فنزلت الرخصة أن يقعدوا معهم ويذكروهم ويفهموهم بقوله ﴿ وما على الذين يتقون ﴾ أي الشرك والكبائر والفواحش ﴿ من حسابهم ﴾ من ذنوبهم التي يحاسبون عليها ﴿ من شيء ولكن ذكرى ﴾ أي ولكن يذكرونهم تذكيراً ، أو ولكن عليهم أن يذكروهم ، أو ولكن الذي تأمرونهم به ذكرى . ولا يجوز أن يكون عطفاً على محل ﴿ من شيء ﴾ كقول القائل : ما في الدار من أحد ولكن زيد لأن قوله ﴿ من حسابهم ﴾ يأبى ذلك فإن الذكرى ليس من حساب المشركين . ثم أكد الإعراض عنهم بقوله ﴿ وذر الذين ﴾ والمراد ترك معاشرتهم وملاطفتهم والمبالاة بهم لا ترك إنذارهم وتخويفهم كقوله ﴿ فأعرض عنهم وعظهم ﴾ [ النساء : 63 ] وصفهم بوصفين الأوّل أنهم ﴿ اتخذوا دينهم لعباً ولهواً ﴾ وفيه وجوه : اتخذوا دينهم الذي كلفوه ودعوا إليه وهو دين الإسلام لعباً ولهواً حيث سخروا به واستهزؤا ، أو أتخذوا ما هو لعب ولهو يعني عبادة الأوثان وغيرها ديناً لهم ، أو المراد ما كانوا يحكمون به بمجرد التقليد والهوى كتحريم البحائر والسوائب ، أو المراد أن المشركين وأهل الكتاب اتخذوا أعيادهم لعباً ولهواً

لا كالمسلمين حيث اتخذوا عيدهم كما شرعه الله تعالى . قال ابن عباس : أو هو إشارة إلى من جعل دين الإسلام وسيلة إلى المناصب والرياسات والغلبة والجلال لا لأنه حق وصدق في نفسه . ويؤكد هذا الوجه الوصف الثاني وهو قوله ﴿ وغرتهم الحياة الدنيا ﴾ كأنهم أعرضوا عن حقيقة الدين واقتصروا على تزيين الظواهر ليتوسلوا بها إلى حطام الدنيا ﴿ وذكر به ﴾ أي بالقرآن أو بالدين القويم مخافة ﴿ أن تبسل نفس ﴾ قال الحسن ومجاهد : أن تسلم إلى الهلاك والعذاب وترتهن بسوء فعلها وأصله المنع فالمسلم إليه وهو العذاب يمنع المسلم ومنه الباسل الشجاع لامتناعه من قرنه . وقال قتادة : تحبس في جهنم . وعن ابن عباس : تفتضح ﴿ ليس لها ﴾ أي النفس ﴿ من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل ﴾ إن تفد كل فداء لأن الفادي يعدل المفدى بمثله ﴿ لا يؤخذ منها ﴾ قال في الكشاف : فاعل ﴿ يؤخذ ﴾ قوله ﴿ منها ﴾ لا ضمير العدل لأن العدل ههنا مصدر فلا يسند إليه الأخذ .

وأما في قوله ﴿ ولا يؤخذ منها عدل ﴾ فبمعنى المفتدى به فصح إسناده . قلت : إن فسر الأخذ بالقبول كما في قوله ﴿ ويأخذ الصدقات ﴾ [ التوبة : 104 ] ارتفع الفرق . ﴿ أولئك ﴾ المتخذون ﴿ هم الذين أبسلوا بما كسبوا ﴾ ثم بين ما به صاروا مرتهنين وعليه محبوسين بقوله ﴿ لهم شراب من حميم ﴾ ثم رد على عبدة الأصنام بقوله ﴿ قل أندعوا من دون الله ﴾ النافع الضار ﴿ ما لا ينفعنا ولا يضرنا ﴾ أي لا يقدر على النفع والضر ﴿ ونرد ﴾ داخل في الاستفهام أي أنرجع إلى الشرك بعد إذ أنقذنا الله تعالى منه وهدانا للإسلام ، فإن الردة عود إلى الحالة الأولى التي كان الإنسان عليها من الجهل كقوله ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ﴾ [ النحل : 78 ] ﴿ كالذي استهوته ﴾ محله النصب على الحال من الضمير في ﴿ نرد ﴾ أي أننكص على العقبين مشبهين من استهوته وهو استفعال من هوى في الأرض إذا ذهب فيها كأن معناه طلبت هويه أي سقوطه من الموضع العالي إلى الوهدة العميقة كقوله : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء ﴾ [ الحج : 31 ] وقيل : اشتقاقه من اتباع الهوى و ﴿ حيران ﴾ حال أخرى لكن من الضمير في ﴿ استهوته ﴾ وكذا الجملة بعده . ومعنى الحيرة التردد في الأمر بحيث لا يهتدي إلى مخرجه منه . ومنه تحيرت الروضة بالماء إذا امتلأت فتردد فيها الماء . ﴿ له ﴾ أي لهذا المستهوي ﴿ أصحاب ﴾ رفقة ﴿ يدعونه إلى الهدى ﴾ أي إن يهدوه الطريق المستوي فيكون مصدراً . وسمي الطريق المستقيم بالهدى يقولون له ﴿ ائتنا ﴾

أو الدعاء في معنى القول وهذا بناء على ما تزعمه العرب وتعتقده من أن الجن والغيلان تستهوي الإنسان وتستولي عليه ، فشبه به الضال عن طريق الإسلام التابع لخطوات الشيطان ، والمسلمون يدعونه إلى الحق وقد اعتسف المهمة تابعاً للجن غير ملتفت اليهم . وقيل : إن لذلك الكافر أصحاباً يدعونه إلى ذلك الضلال ويسمونه بأنه هو الهدى . وروي أن الآية نزلت في عبد الرحمن بن

(128/237)

---

أبي بكر الصديق فإنه كان يدعو أباه إلى عبادة الأوثان ﴿ قل إن هدى الله ﴾ وهو الإسلام ﴿ هو ﴾ الذي يحق أن يسمى هدى وما وراءه غي وضلال ﴿ وأمرنا لنسلم لرب العالمين وأن أقيموا ﴾ قال الزجاج : لا بد من تأويل ليستقيم العطف فالتقدير : وأمرنا لنسلم ولنقيم ، أو أمرنا أن أسلموا وأن أقيموا : قيل : والسر في العدول عن الظاهر أن المكلف كالغائب ما لم يسلم فإذا أسلم صار كالحاضر . وتقرير الآية أن متعلق الأمر إما أن يكون من باب الأفعال أو من باب التروك . والأول إما أن يكون من أفعال القلوب أو من أفعال الجوارح ، ورئيس أفعال القلوب الإيمان بالله والإسلام وهو قوله ﴿ لنسلم ﴾ ورئيس أعمال الجوارح

الصلاة وهو قوله ﴿ وأن أقيموا ﴾ ثم أشار إلى جوامع التروك بقوله ﴿ واتقوه ﴾ ثم قال ﴿ وهو الذي إليه تحشرون ﴾ ليعلم أن منافع هذه الأعمال إنما تظهر في يوم الحشر .

(129/237)

---

ثم دل على وجود الحاشر بقوله ﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض ﴾ قائما أو ملتبساً ﴿ بالحق ﴾ بالحكم اللطيفة والغايات الصحيحة والأغراض المطابقة ، وذلك أنه أودع في هذه الأجرام قوى وخواص وآثاراً تتضمن مصالح الأبدان ومباهج نوع الإنسان وهكذا خلق ﴿ يوم يقول كن فيكون قوله الحق ﴾ فقوله فاعل ﴿ يكون ﴾ و ﴿ يوم ﴾ مفعول ﴿ خلق ﴾ والمعنى أنه تعالى خلق العالم من الأفلاك والطبائع والعناصر والمواليد ، وخلق يوم القيامة لرد الأرواح إلى الأجساد بطريق "كن فيكون" وعلى هذا يجوز أن يكون قوله ﴿ الحق ﴾ مبتدأ وخبراً مستأنفاً ، أو قوله ﴿ الحق ﴾ مبتدأ و ﴿ يوم يقول ﴾ ظرف دال على الخبر مثل "يوم الجمعة القتال" أي القتال واقع يوم الجمعة . والمراد أن قضاءه في ذلك اليوم حق وصدق خالٍ عن الجور والعبث ﴿ ويوم ينفخ ﴾ ظرف لقوله ﴿ وله الملك ﴾ كقوله ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ [ غافر : 16 ] والمقصود أنه لا ملك في ذلك اليوم إلا له من غير دافع ولا منازع . والصور باتفاق أكثر أهل الإسلام قرن ينفخ فيه ملك من الملائكة كما

جاء في مواضع من القرآن ﴿ ونفخ في الصور فصعق ﴾ [ الزمر : 68 ] ففزع ﴿ فإذا نقر في الناقور ﴾ [ المدثر : 8 ] وقال أبو عبيدة : الصور جمع صورة مثل صوف وصوفة .

وخطأه الأئمة فقالوا : كل جمع على لفظ الواحد سبق جمعه واحده فواحده بزيادة هاء فيه كالصوف ، أما إذا سبق الواحد الجمع فليس كذلك كغرفة وغرف ولهذا يجمع صورة الإسان على صور بالفتح كقوله ﴿ فأحسن صوركم ﴾ [ غافر : 64 ] ومن أسكن فقد أخطأ ، ومما يدل على أن الصور هو القرن لا جمع صورة الإنسان أنه تعالى لم يضف النفخ إلى نفسه كما قال ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾ [ ص : 72 ] ﴿ فنفخنا فيها من روحنا ﴾ [ الأنبياء : 91 ] ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ [ المؤمنون : 14 ] ثم لما بين كمال قدرته بقوله وله الملك ذكر كمال علمه بقوله ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي هو العالم بكل المعلومات القادر على كل

*(130/237)*

---

المقدورات ﴿ وهو الحكيم ﴾ المصيب في أقواله وأفعاله ﴿ الخبير ﴾ النافذ علمه في بواطن الحقائق من غير اشتباه والتباس ، فإن أمر البعث لا يتم إلا بقدرة كاملة وعلم تام كيلا

يشتبه المطيع والعاصي والصديق والزنديق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 100.94 ﴾

(131/237)

---

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ وهو القاهر ﴾ بوصف الجلال للأولياء ، قهار بوصف الجبروت للأعداء . ﴿ ويرسل عليكم حفظة ﴾ من صفات قهره حتى لو أرادت نفسه الخروج عن قيد مجاهدتها قهرتها سطوات العتاب فردتها إلى بذل الجهد ، وإن أراد قلبه فرجة عن مطالبات العزة قهرته صدمات الهيبة فردته إلى توديع البهجة ، ولو أراد روحه استرواحاً من الحرقات قهرته بوارق التجلي فردته إلى بذل المهجة ﴿ حتى إذا جاء أحدكم الموت ﴾ يعني الفناء عن أوصاف الوجود ﴿ توفته ﴾ رسل صفات قهرنا وهم لا يقصرون في إفناء الأوصاف ﴿ ثم ردوا ﴾ إلى البقاء بالله ﴿ قل الله ينجيكم من ظلمات ﴾ بر الأجسام وبحر الأرواح فإن عالم الأرواح بالنسبة إلى عالم الألوهية ظلمانية .

(132/237)

﴿ تدعونه تضرعا ﴾ بالجسم ﴿ وخفية ﴾ بالروح ﴿ ومن كل كرب ﴾ آفة وفتنة ﴿ ثم أنتم تشركون ﴾ حين يتجلى لكم نور من أنوار صفاته ، فبعضكم يقول : أنا الحق وبعضكم يقول : سبحاني ما أعظم شأني ﴿ عذاباً من فوقكم ﴾ بسدل حجاب العزة والغيرة بينه وبينكم ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ حجاباً من أوصاف بشريتكم باستيلاء الهوى عليكم ﴿ أو يلبسكم شيعاً ﴾ بجعل الخلق فيكم فرقاً . فمن قائل هم الصديقون ، ومن قائل هم الزنديقون ﴿ ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾ بالقتل والصلب وقطع الأطراف ﴿ انظر كيف نصرف ﴾ آيات المصارف للسائرين إلى الله ﴿ لعلهم يفقهون ﴾ لشرائط السير ولا يفقهون في مقام دون الفناء عن كلية الوجود بالبقاء بشهود المعبود ﴿ وكذب ﴾ بهذا المقام ﴿ قومك ﴾ المنكرون ﴿ وهو الحق قل لست عليكم بوكيل ﴾ لا أسلك طريق هذا المقام بوكالتكم لأنه ليس للإنسان إلا ما سعى كما قال ﴿ لكل نبأ مستقر ﴾ أي لكل سائر وواقف مستقر من درجات القرب أو دركات البعد ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون ﴾ في أحوال الرجال ولا حظ لهم منها ﴿ فأعرض عنهم ﴾ ولا تجالسهم ﴿ حتى يخوضوا في حديث ﴾ غير تلك الطامات التي هي ريح في شبح . ﴿ وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً ﴾ لأن همهم من لبس الخرقة والتزيي بزي الطالبين إنما هو الدنيا وقبول الحق ﴿ أن تبسل نفس ﴾ أي كراهة أن يبطل استعدادها بالكلية ﴿ بما كانوا

يكفرون ﴾ بمقامات الرجال من الوصول والوصال ﴿ قل أندعوا من دون الله ﴾ أنطلب غير الله الذي هو النافع الضار . والنفع الحقيقي هو الفوز بالوصول إليه ، والضر الحقيقي هو الانقطاع عنه . ﴿ ونرد على أعقابنا ﴾ إلى مقام الإثنينية التي كنا فيها بعد أن هدانا الله إلى الوحدة كالذي أضلته شياطين الجن والإنس في أرض البشرية باتباع الهوى ﴿ حيران ﴾ من إغوائهم . ﴿ وأمرنا لنسلم ﴾ بترك الوجود كالكرة في ميدان القدرة مستسلماً لصولجان القضاء ﴿ وأن أقيموا الصلاة ﴾ بمحافظة الأسرار عن الأغيار والاتقاء به عن

(133/237)

---

غيره ليحشر إليه لا إلى الجنة أو النار كما قال : ألا من طلبني وجدني . ﴿ وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق ﴾ أي لإظهار صفاته ، فجعل المخلوقات مرآة لجماله وجلاله وإذا أراد أن يرى عبداً من عباده تلك الصفات يقول له : كن رائياً فيكون ، ولن يصير رائياً بمجرد سعيه لأن قوله في حق الإنسان كن رائياً هو الحق وله ملك الإراءة وملك الرؤية ، ينفخ الإراءة في صور القلب ﴿ وهو الحكيم ﴾ فيما اختص الإنسان بإراءة الآيات ﴿ الخبير ﴾ بمن يخصه من بين الناس بالإراءة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 100 ﴿101.

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ .

اعلم أن بعض ساداتنا الصوفية قدس الله تعالى أسرارهم ذكروا أن للغيب مراتب ، أولاها غيب الغيوب وهو علم الله تعالى المسمى بالعناية الأولى .

وثانيتها غيب عالم الأرواح وهو انتقاش صورة كل ما وجد وسيوجد من الأزل إلى الأبد في العالم الأول العقلي الذي هو روح العالم المسمى بأم الكتاب على وجه كلي وهو القضاء السابق .

وثالثتها غيب عالم القلوب وهو ذلك الانتقاش بعينه مفصلاً تفصيلاً علمياً كلياً وجزئياً في عالم النفس الكلية التي هي قلب العالم المسمى باللوح المحفوظ .

ورابعتها غيب عالم الخيال وهو انتقاش الكائنات بأسرها في النفوس الجزئية الفلكية منطبعة في اجرامها معينة مشخصة مقارنة لأوقاتها على ما يقع بعينه .

وذلك العالم هو الذي يعبر عنه بالسماء الدنيا إذ هو أقرب مراتب الغيوب إلى عالم الشهادة ولوح القدر الإلهي الذي هو تفصيل قضائه سبحانه ، وذكروا أن علم الله تعالى الذي هو العناية الأولى عبارة عن إحاطته سبحانه بالكل حضوراً فالخزائن المشتملة على جميع الغيوب حاضرة لذاته وليس هناك شيء زائد ولا يعلمها إلا هو سبحانه .

وكذا أبواب تلك الخزائن مغلقة ومفاتيحها بيده تعالى لا يطلع على ما فيها أحد غيره عز وجل وقد يفتح منها ما شاء لمن يشاء .

(134/237)

---

هذا وقد يقال : حقق كثير من الراسخين في العلم أن حقائق الأشياء وماهياتها ثابتة في الأزل وهي في ثبوتها غير مجعولة وإنما المجعول الصور الوجودية وهي لا تتبدل ولا تتغير ولا تتصف بالهلاك أصلا كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [ القصص : 88 ] بناء على عود الضمير إلى الشيء وتفسير الوجه بالحقيقة وعلم الله تعالى بها حضوري وهي كالمرايا لصورها الحادثة فتكون تلك الصور مشهودة لله تعالى أزلا مع عدمها في نفسها ذهناً وخارجاً ، وقد بينوا انطواء العلم بها في العلم بالذات بجميع اعتباراته التي منها كونه سبحانه مبدأ لإفاضة وجوداتها عليها بمقتضى الحكمة فيمكن أن يقال : إن المفاتح بمعنى الخزائن إشارة إلى تلك الماهيات الأزلية التي هي كالمرايا لما غاب عنا من الصور وتلك حاضرة عنده تعالى أزلا ولا يعلمها علماً حضورياً غير محتاج إلى صورة ظلية إلا هو جل وعلا ، وهذا ظاهر لمن أخذت العناية بيده .

﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى البر ﴾ أي بر النفوس من ألوان الشهوات ومراتبها ﴿ البحر ﴾ أي بحر

القلوب من لآلىء الحكم ومرجان العرفان .

﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ ﴾ من أوراق أشجار اللطف والقهر في مهيع النفس وخصم القلب ﴿ إِلاَّ يَعْلَمُهَا ﴾ في سائر أحوالها .

*(135/237)*

---

﴿ وَلاَ حَبَّةٍ ﴾ من بذر الجلال والجمال ﴿ فِى ظلمات الأرض ﴾ وهو عالم الطبائع والأشباح ﴿ وَلاَ رَطْبٍ ﴾ من الإلهامات التي ترد على القلب بلطف من غير انزعاج ﴿ وَلاَ يَابِسٍ ﴾ من الوساوس والخطرات التي تفزع منها النفس حين ترد عليها ﴿ إِلاَّ فِى كتاب مُّبِينٍ ﴾ [ الأنعام : 59 ] وهو علمه سبحانه الجامع ، وبعضهم لم يؤول شيئاً من المذكورات وفسر الكتاب بسماء الدنيا لتعين هذه الجزئيات فيها ، ويمكن أن يقال إن الكتاب إشارة إلى ماهيات الأشياء وهي المسماة بالأعيان الثابتة ، ومعنى كونها فيها ما أشرنا إليه أن تلك الأعيان كالمرايا لهذه الموجودات الخارجية ﴿ وَهُوَ الذى يتوفاكم بالليل ﴾ أي ينيمكم وقيل : يتوفاكم بطيران أرواحكم في الملكوت وسيرها في رياض حضرات اللاهوت .

وقيل : يمكن أن يكون المعنى وهو الذي يضيق عليكم إلى حيث يكاد تزهق أرواحكم في

ليل القهر وتجلي الجلال ﴿ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم ﴾ أي كسبتم ﴿ بالنهار ﴾ من الأعمال مطلقاً ، وقيل من الأعمال الشاقة على النفس المؤلمة لها كالطاعات .

وقيل : يحتمل أن يكون المعنى ويعلم ما كسبتموه بنهار التجلي الجمالي من الأنس أو شوارد العرفان ﴿ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ أي فيما جرحتم من صور أعمالكم ومكاسبكم الحسنة والقبيحة ، وقيل الحسنة ، وقيل فيما كسبتموه في نهار التجلي ، وأول الأقوال هنا وفيما تقدم أولى ﴿ ليقضى أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ أي معين عنده ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ في عين الجمع المطلق " ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ " [ الأنعام : 60 ] بإظهار صور أعمالكم عليكم وجزائكم بها ﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ لأنه الوجود المطلق حتى عن قيد الإطلاق وله الظهور حسبما تقتضيه الحكمة ولا تقيده المظاهر ﴿ والله مِن وَرَائِهِمْ مُّحِيطٌ ﴾ [ البروج : 20 ] .

*(136/237)*

---

﴿ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً ﴾ وهي القوى التي ينطبع فيها الخير والشر ويصير هيئة أو ملكة ويظهر عند انسلاخ الروح ويتمثل بصور مناسبة أو القوى السماوية التي تنتقش فيها الصور الجزئية ولا تغادر صغيرة ولا كبيرة ﴿ حتى إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الموت تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ قيل :

هم نفس أولئك الحفظة وقد أودع الله تعالى فيهم القدرة على التوفي ﴿ ثُمَّ رُدُّواْ إلى الله ﴾ في عين الجمع المطلق ﴿ مولاهم ﴾ أي مالكهم الذي يلي سائر أحوالهم إذ لا وجود لها إلا به ﴿ الحق ﴾ وكل ما سواه باطل .

وذكر بعض أهل الإشارة أن هذه أرجى آية في كتاب الله تعالى بناء على أن الله تعالى أخبر برجوع العبد إليه سبحانه وخروجه من سجن الدنيا وأيدي الكاتبين واصفاً نفسه له بأنه مولاه الحق المشعر بأن غيره سبحانه لا يعد مولى حقاً ، ولا شك أنه لا أعز للعبد من أن يكون مرده إلى مولاه ﴿ أَلاَ لَهُ الحكم وَهُوَ أَسْرَعُ الحاسبين ﴾ [ الأنعام : 62 ] إذ ظهور الأعمال بالصور المناسبة آن مفارقة الروح للجسد .

﴿ ﴾ إذ ظهور الأعمال بالصور المناسبة آن مفارقة الروح للجسد .

(137/237)

---

﴿ قُلْ مَن يُنَجّيكُمْ مّن ظلمات البر ﴾ وهي الغواشي النفسانية ﴿ والبحر ﴾ وهي حجب صفات القلب ﴿ تَدْعُونَهُ ﴾ إلى كشفها ﴿ تَضَرُّعًا ﴾ في نفوسكم ﴿ وَخُفْيَةً ﴾ في أسراركم ﴿ لَّئِنْ أنجانا مِنْ هذه ﴾ الغواشي والحجب ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشاكرين ﴾ [ الأنعام : 63 ] نعمة الإنجاء بالاستقامة والتمكين ﴿ قُلِ الله يُنَجّيكُمْ مّنْهَا ﴾ بأنوار

تجليات صفاته ومن كل كرب سوى ذلك بأن يمن عليكم بالفناء ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ ﴾ بعد علمكم بقدرته تعالى على ذلك ﴿ تُشْرِكُونَ ﴾ [ الأنعام : 64 ] به أنفسكم وأهواءكم فتعبدونها ﴿ قُلْ هُوَ القادر على أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ بأن يحجبكم عن النظر في الملكوت أو بأن يقهركم باحتجابكم بالمعقولات والحجب الروحانية ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ بأن لا يسهل عليكم القيام على باب الربوبية بنعت الخدمة وطلب الوصلة أو بأن يحجبكم بالحجب الطبيعية ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ﴾ فرقاً مختلفة كل فرقة على دين قوة من القوى تقابل الفرقة الأخرى أو يجعل أنفسكم مختلفة العقائد كل فرقة على دين دجال ﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [ الأنعام : 65 ] بالمنازعات والمجادلات حسبما يقتضيه الاختلاف ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ ﴾ أي ما ينبأ عنه ﴿ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ أي محل وقوع واستقرار ﴿ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [ الأنعام : 67 ] حين يكشف عنكم حجب أبدانكم ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الذين يَخُوضُونَ فِى ءاياتنا ﴾ بإظهار صفات نفوسهم وإثبات العلم والقدرة لها ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ [ الأنعام : 68 ] لأنهم محجوبون مشركون ﴿ وَمَا عَلَى الذين يَتَّقُونَ ﴾ وهم المتجردون عن صفاتهم ﴿ مِنْ حِسَابِهِم ﴾ أي من حساب هؤلاء المحجوبين ﴿ مِّن شَىْءٍ ولكن ذكرى ﴾ أي فليذكروهم بالزجر والردع ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [ الأنعام : 69 ] يحترزون عن الخوض .

وجوز أن يكون المعنى أن المتجردين لا يحتجبون بواسطة مخالطة المحجوبين ولكن ذكرناهم لعلهم يزيدون في التقوى ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتخذوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً ﴾ أي اترك الذين عادتهم اللعب واللهو الخ فإنهم قد حجبوا بما رسخ فيهم عن سماع الإنذار وتأثيره فيهم ﴿ وَذَكِّرْ بِهِ ﴾ أي بالقرآن كراهة ﴿ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أي تحجب بكسبها بأن يصير لها ملكة أي ذكر من لم يكن دينه اللعب واللهو لئلا يكون دينه ذلك وأما من وصل إلى ذلك الحد فلا ينفعه التذكير ﴿ أُوْلَئِكَ الذين أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ وهو شدة الشوق إلى الكمال

﴿ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [ الأنعام : 70 ] وهو الحرمان عنه بسبب الاحتجاب بما كسبوا ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا أَيُّ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ الله مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ على أعقابنا ﴾ بالشرك ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَانَا الله ﴾ إلى التوحيد الحقيقي ﴿ كالذى استهوته الشياطين ﴾ من الوهم والتخيل ﴿ فِى الأرض ﴾ أي أرض الطبيعة ومهامه النفس ﴿ حَيْرَانَ ﴾ لا يدري أين يذهب ﴿ لَهُ أصحاب ﴾ من الفكر والقوى النظرية ﴿ يَدْعُونَهُ إِلَى الهدى ﴾ الحقيقي يقولون ﴿ ائتنا ﴾ فإن الطريق الحق عندنا وهو لا يسمع ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى الله ﴾ وهو طريق التوحيد ﴿ هُوَ الهدى ﴾ وغيره

غيره ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ العالمين ﴾ [ الأنعام : 71 ] بمحو صفاتنا ﴿ وَأَنْ أَقِيمُواْ الصلاة ﴾ الحقيقية وهو الحضور القلبي .

*(139/237)*

---

قال ابن عطاء : إقامة الصلاة حفظها مع الله تعالى بالأسرار ﴿ واتقوه ﴾ أي اجعلوه سبحانه وقاية بالتخلص عن وجودكم ﴿ وَهُوَ الذى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [ الأنعام : 72 ] بالفناء فيه سبحانه ﴿ وَهُوَ الذى خَلَقَ السموات ﴾ أي سموات الأرواح ﴿ والأرض ﴾ أي أرض الجسم ﴿ بالحق ﴾ أي قائماً بالعدل الذي هو مقتضى ذاته ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ﴾ وهو وقت تعلق إرادته سبحانه القديمة بالظهور في التعينات ﴿ قَوْلُهُ الحق ﴾ لاقتضائه ما اقتضاه على أحسن نظام وليس في الإمكان أبدع مما كان ﴿ وَلَهُ الملك يَوْمَ يُنفَخُ فِى الصور ﴾ وهو وقت إفاضة الأرواح على صور المكنونات التي هي ميتة بأنفسها بل لا وجود لها ولا حياة .

﴿ عالم الغيب ﴾ أي حقائق عالم الأرواح ويقال له الملكوت ﴿ والشهادة ﴾ أي صور عالم الأشباح ويقال له الملك ﴿ وَهُوَ الحكيم ﴾ الذي أفاض على القوابل حسب القابليات

﴿ الخبير ﴾ [ الأنعام : 73 ] بأحوالها ومقدار قابلياتها لا حكيم غيره ولا خبير سواه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

*(140/237)*

---

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (74) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان مضمون هذه الآيات مضمون الآيات الثلاث المفتتح بها السورة الهادمة لمذهب الثنوية ، وهم أهل فارس قوم إبراهيم عليه السلام ، وكان إبراهيم عليه السلام يعرف بفضله جميع الطوائف ، لأن أكثرهم من نسله كاليهود والنصارى والمشركين من العرب ، والمسلمون لما يعلمون من إخلاصه لله تعالى وانتصابه لمحاجة من أشرك به واحتمال الأذى فيه سبحانه ، تلاها بمحاجته لهم بما أبطل مذهبهم وأدحض حججهم فقال : ﴿ وإذ ﴾ أي اذكر ذلك المتقدم كله لهم في الدلائل على اختصاصنا بالخلق وتمام القدرة ، ما أعظمه وما أجله وأضخمه ! وتفكر في عجائبه وتدبر في دقائقه وغرائبه تجد ما لا يقدر على مثله إلا الله ،

واذكر إذ ﴿ قال إبراهيم ﴾ أي اذكر قوله ، وحكمة التذكير بوقته التنبيهُ على أن هذا لم يزل ثابتاً مقرراً على ألسنة جميع الأنبياء في جميع الدهور ، وكان في هذه المحاجة التصريح بما لوح إليه أول هذه السورة من إبطال هذا المذهب ، وانعطف هذا على ذاك أيّ انعطاف !

وصار كأنه قيل : ثم الذين كفروا بربهم يعدلون الأصنام والنجوم والنور والظلمة ، فنبههم يا رسول الله على ذلك بأنه لا متصرف غيرنا ، اذكر لهم أني أنا الذي خلقتهم وخلقت جميع ما يشاهدون من الجواهر والأعراض ، فإن تنبهوا فهو حظهم ، وإلا فاذكر لهم محاجة خليلنا إبراهيم عليه السلام إذ قال ﴿ لأبيه ﴾ ثم بينه في قراءة الجر بقوله : ﴿ آزر ﴾ وناداه في قراءة يعقوب بالضم ؛ قال البخاري في تاريخه الكبير : إبراهيم بن آزر وهو في التوراة : تارح – انتهى .

*(141/237)*

---

وقد مضى ذلك عن التوراة في البقرة ، فلعل أحدها لقب ، وكان أهل تلك البلاد وهم الكلدانيون ، ويقال لهم أيضاً الكسدانيون – بالمهملة موضع اللام – يعتقدون إلهية النجوم في السماء والأصنام في الأرض ويجعلون لكل نجم صنماً ، إذا أرادوا التقرب إلى ذلك النجم عبدوا ذلك الصنم ليشفع لهم – كما زعموا – إلى النجم ، فقال عليه السلام لأبيه منكراً

عليه منبهاً له على ظهور فساد ما هو مرتكبه : ﴿ أتتخذ ﴾ أي أتكلف نفسك إلى خلاف ما تدعو إليه الفطرة الأولى بأن تجعل ﴿ أصناماً آلهة ﴾ أي تعبدها وتخضع لها ولا نفع فيها ولا ضر ، فنبهه بهذا الإنكار على أن معرفة بطلان ما هو متدين به لا يحتاج إلى كثير تأمل ، بل هو أمر بديهي أو قريب منه ، فإنهم يباشرون أمرها بجميع جوانبهم ويعلمون أنها مصنوعة وليست بصانعة ، وكثرتها تدل على بطلان إلهيتها بما أشار إليه قوله تعالى ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ [ الأنبياء : 22 ] .

ولما خص بالنصيحة أقرب الخلق إليه ، عم بقية أقاربه فقال : ﴿ إني أراك وقومك ﴾ أي في اتفاقكم على هذا ﴿ في ضلال ﴾ أي بُعد عن الطريق المستقيم ﴿ مبين ﴾ أي ظاهر جداً ببديهة العقل مع مخالفته لكل نبي نبأه الله تعالى من آدم عليه السلام فمن بعده ، فهو مع ظهوره في نفسه مظهر للحق من أن الإله لا يكون إلا كافياً لمن يعبده ، وإلا كان فقيراً إلى تأله من يكفيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 657 . 658 ﴾

*(142/237)*

---

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ إني أراك ﴾ بفتح الياء : أبو عمرو وابن كثير وأبو جعفر ونافع ﴿ لأبيه آزر ﴾ بالضم على النداء : يعقوب ﴿ رأى كوكباً ﴾ بإمالة الهمزة : أبو عمرو غير عباس والنجاري عن ورش . وكذلك ﴿ رآه ﴾ و ﴿ رآك ﴾ وقرأ حمزة وعلي وخلف ويحيى وعباس وهبيرة من طريق الخزاز بكسر الراء والهمزة . وافق ابن ذكوان في ﴿ رأى ﴾ فقط وخالفهم فيما اتصلت بالكاف والهاء في سورة النجم . وافق مجاهد والنقاش بالإمالة وكسر الراء في سورة " اقرأ باسم " ﴿ رأى القمر ﴾ و ﴿ رأى الشمس ﴾ ونحوهما بكسر الراء وفتح الهمزة : حمزة وخلف ونصر وعباس ويحي والخزاز . وروى خلف عن يحي بكسر الراء والهمزة ﴿ أتحاجوني ﴾ بتخفيف النون : أبو جعفر ونافع وابن ذكوان . الباقون : بإدغام نون الإعراب في نون الوقاية ﴿ وقد هدان ﴾ بالإمالة : علي . وقرأ سهل ويعقوب وابن شنبوذ عن قنبل بالياء في الحالين ، وافق أبو عمرو ويزيد واسماعيل في الوصل . ﴿ درجات ﴾ بالتنوين : عاصم وحمزة وعلي وخلف ويعقوب .

الوقوف : ﴿ آلهة ﴾ ج للابتداء بأن مع اتحاد القول ﴿ مبين ﴾ ه ﴿ الموقنين ﴾ ه ﴿ رأى كوكباً ﴾ ج لأن جواب " لما " قوله " رأى " مع اتحاد الكلام بلا عطف ﴿ ربي ﴾ ج لأن جواب " لما " منتظر مع فاء التعقيب فيها . ﴿ الآفلين ﴾ ه ﴿ هذا ربي ﴾ ج لذلك ﴿ الضالين ﴾ ه ﴿ هذا أكبر ﴾ ج لذلك ﴿ يشركون ﴾ ه ﴿ المشركين ﴾ ج لاحتمال الواو الحال أي وقد حاجه . ﴿ قومه ﴾ ط ﴿ هدان ﴾ ط لانتهاء الاستفهام ﴿ شيئاً

﴿ ط ﴿ علما ﴾ ط ﴿ تتذكرون ﴾ ه ﴿ سلطانا ﴾ ط للاستفهام بعد تمام الاستفهام ﴿ بالأمن ﴾ ج لأن جواب " إن " منتظر محذوف التقدير : إن كنتم تعلمون فأجيبوا مع اتحاد الكلام ﴿ تعلمون ﴾ ه لتناهي الاستفهام وابتداء إخبار ، ولو وصل اتصل بما قبله ﴿ يهتدون ﴾ ه ﴿ على قومه ﴾ ط ﴿ من نشاء ﴾ ط ﴿ عليم ﴾ ه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 102 ﴾

*(143/237)*

---

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه سبحانه كثيراً يحتج على مشركي العرب بأحوال إبراهيم عليه السلام وذلك لأنه يعترف بفضله جميع الطوائف والملل فالمشركون كانوا معترفين بفضله مقرين بأنهم من أولاده واليهود والنصارى والمسلمون كلهم معظمون له معترفون بجلالة قدره .

فلا جرم ذكر الله حكاية حاله في معرض الاحتجاج على المشركين .

واعلم أن هذا المنصب العظيم وهو اعتراف أكثر أهل العلم بفضله وعلو مرتبته لم يتفق لأحد كما اتفق للخليل عليه السلام ، والسبب فيه أنه حصل بين الرب وبين العبد معاهدة .

كما قال : ﴿ أَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ [ البقرة : 40 ] فإبراهيم وفى بعهد العبودية ، والله تعالى شهد بذلك على سبيل الإجمال تارة وعلى سبيل التفصيل أخرى .

أما الإجمال ففي آيتين إحداهما قوله : ﴿ وَإِذِ ابتلى إبراهيم رَبُّهُ بكلمات فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [ البقرة : 124 ] وهذا شهادة من الله تعالى بأنه تمم عهد العبودية .

والثانية قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العالمين ﴾ [ البقرة : 131 ]

وأما التفصيل : فهو أنه عليه السلام ناظر في إثبات التوحيد وإبطال القول بالشركاء والأنداد في مقامات كثيرة .

فالمقام الأول : في هذا الباب مناظراته مع أبيه حيث قال له : ﴿ يا أبت لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِى عَنكَ شَيْئاً ﴾ [ مريم : 42 ] .

والمقام الثاني : مناظرته مع قومه وهو قوله : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الليل ﴾ [ الأنعام : 76 ] .

والمقام الثالث : مناظرته مع ملك زمانه ، فقال : ﴿ رَبِّىَ الذى يُحْيِ وَيُمِيتُ ﴾ [ البقرة : 258 ] .

*(144/237)*

والمقام الرابع : مناظرته مع الكفارة بالفعل ، وهو قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلاَّ كَبِيراً لَّهُمْ ﴾ [ الأنبياء : 58 ] ثم إن القوم قالوا : ﴿ حَرِّقُوهُ وانصروا ءالِهَتَكُمْ ﴾ [ الأنبياء : 68 ] ثم إنه عليه السلام بعد هذه الواقعة بذل ولده فقال : ﴿ إِنِّى أرى فِى المنام أَنِّى أَذْبَحُكَ ﴾ [ الصافات : 102 ] فعند هذا ثبت أن إبراهيم عليه السلام كان من الفتيان ، لأنه سلم قلبه للعرفان ولسانه للبرهان وبدنه للنيران وولده للقربان وماله للضيفان ، ثم إنه عليه السلام سأل ربه فقال : ﴿ واجعل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الأخرين ﴾ [ الشعراء : 84 ] فوجب في كرم الله تعالى أنه يجيب دعاءه ويحقق مطلوبه في هذا السؤال ، فلا جرم أجاب دعاءه ، وقبل نداءه وجعله مقبولاً لجميع الفرق والطوائف إلى قيام القيامة ، ولما كان العرب معترفين بفضله لا جرم جعل الله تعالى مناظرته مع قومه حجة على مشركي العرب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 29 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه ليس في العالم أحد يثبت لله تعالى شريكاً يساويه في الوجوب والقدرة والعلم والحكمة ، لكن الثنوية يثبتون إلهين ، أحدهما حكيم يفعل الخير ، والثاني سفيه يفعل الشر ، وأما الاشتغال بعبادة غير الله .

ففي الذاهبين إليه كثرة .

فمنهم عبدة الكواكب ، وهم فريقان منهم من يقول إنه سبحانه خلق هذه الكواكب ، وفوض تدبير هذا العالم السفلي إليها ، فهذه الكواكب هي المدبرات لهذا العالم ، قالوا : فيجب علينا أن نعبد هذه الكواكب ، ثم إن هذه الأفلاك والكواكب تعبد الله وتطبعه ، ومنهم قوم غلاة ينكرون الصانع ، ويقولون هذه الأفلاك والكواكب أجسام واجبة الوجود لذواتها ويمتنع عليها العدم والفناء ، وهي المدبرة لأحوال هذا العالم الأسفل ، وهؤلاء هم الدهرية الخالصة ، وممن يعبد غير الله النصارى الذين يعبدون المسيح ومنهم أيضاً عبدة الأصنام .

*(145/237)*

---

واعلم أن هنا بحثاً لا بد منه وهو أنه لا دين أقدم من دين عبدة الأصنام ، والدليل عليه أن أقدم الأنبياء الذين وصل إلينا تواريخهم على سبيل التفصيل هو نوح عليه السلام ، وهو إنما جاء بالرد على عبدة الأصنام كما قال تعالى حكاية عن قومه أنهم قالوا : ﴿ لَا تَذَرُنَّ وُدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ﴾ [ نوح : 23 ] وذلك يدل على أن دين عبدة الأصنام قد كان موجوداً قبل نوح عليه السلام وقد بقي ذلك الدين إلى هذا الزمان فإن أكثر سكان أطراف الأرض مستمرون على هذا الدين والمذهب الذي هذا شأنه يمتنع أن يكون معلوم

البطلان في بديهة العقل ، لكن العلم بأن هذا الحجر المنحوت في هذه الساعة ليس هو الذي خلقني وخلق السماء والأرض علم ضروري ، والعلم الضروري يمتنع إطباق الخلق الكثير على إنكاره ، فظهر أنه ليس دين عبدة الأصنام كون الصنم خالقاً للسماء والأرض ، بل لا بد وأن يكون لهم فيه تأويل ، والعلماء ذكروا فيه وجوهاً كثيرة وقد ذكرنا هذا البحث في أول سورة البقرة ، ولا بأس بأن نعيده ههنا تكثيراً للفوائد .

*(146/237)*

---

فالتأويل الأول : وهو الأقوى أن الناس رأوا تغيرات أحوال هذا العالم الأسفل مربوطة بتغيرات أحوال الكواكب ، فإن بحسب قرب الشمس وبعدها من سمت الرأس تحدث الفصول الأربعة ، وبسبب حدوث الفصول الأربعة تحدث الأحوال المختلفة في هذا العالم ، ثم إن الناس ترصدوا أحوال سائر الكواكب فاعتقدوا ارتباط السعادات والنحوسات بكيفية وقوعها في طوالع الناس على أحوال مختلفة فلما اعتقدوا ذلك غلب على ظنون أكثر الخلق أن مبدأ حدوث الحوادث في هذا العالم هو الاتصالات الفلكية والمناسبات الكوكبية فلما اعتقدوا ذلك بالغوا في تعظيمها ثم منهم من اعتقد أنها واجبة الوجود لذواتها ومنهم من اعتقد حدوثها وكونها مخلوقة للإله الأكبر ، إلا أنهم قالوا إنها وإن كانت

مخلوقة للإله الأكبر ، إلا أنها هي المدبرة لأحوال هذا العالم وهؤلاء هم الذين أثبتوا الوسائط بين الإله الأكبر ، وبين أحوال هذا العالم .

وعلى كلا التقديرين فالقوم اشتغلوا بعبادتها وتعظيمها ثم إنهم لما رأوا أن هذه الكواكب قد تغيب عن الأبصار في أكثر الأوقات اتخذوا لكل كوكب صنماً من الجوهر المنسوب إليه واتخذوا صنم الشمس من الذهب وزينوه بالأحجار المنسوبة إلى الشمس وهي الياقوت والألماس واتخذوا صنم القمر من الفضة وعلى هذا القياس ثم أقبلوا على عبادة هذه الأصنام وغرضهم من عبادة هذه الأصنام هو عبادة تلك الكواكب والتقرب إليها وعند هذا البحث يظهر أن المقصود الأصلي من عبادة هذه الأصنام هو عبادة الكواكب .

وأما الأنبياء صلوات الله عليهم فلهم ههنا مقامان : أحدهما : إقامة الدلائل على أن هذه الكواكب لا تأثير لها ألبتة في أحوال هذا العالم كما قال الله تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ الخلق والأمر ﴾ [ الأعراف : 54 ] بعد أن بين في الكواكب أنها مسخرة .

*(147/237)*

---

والثاني : أنها بتقدير أنها تفعل شيئاً ويصدر عنها تأثيرات في هذا العالم إلا أن دلائل الحدوث حاصلة فيها فوجب كونها مخلوقة والاشتغال بعبادة الأصل أولى من الاشتغال

بعبادة الفرع ، والدليل على أن حاصل دين عبدة الأصنام ما ذكرناه أنه تعالى لما حكى عن الخليل صلوات الله عليه أنه قال لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة ؟ إني أراك وقومك في ضلال مبين فأفتى بهذا الكلام أن عبادة الأصنام جهل ، ثم لما اشتغل بذكر الدليل أقام الدليل على أن الكواكب والقمر والشمس لا يصلح شيء منها للإلهية وهذا يدل على أن دين عبدة الأصنام حاصله يرجع إلى القول بإلهية هذه الكواكب وإلا لصارت هذه الآية متنافية متنافرة .

وإذا عرفت هذا ظهر أنه لا طريق إلى إبطال القول بعبادة الأصنام إلا بإبطال كون الشمس والقمر وسائر الكواكب آلهة لهذا العالم مدبرة له .

الوجه الثاني : في شرح حقيقة مذهب عبدة الأصنام ما ذكره أبو معشر جعفر بن محمد المنجم البلخي رحمه الله فقال في بعض كتبه : إن كثيرا من أهل الصين والهند كانوا يثبتون الإله والملائكة إلا أنهم يعتقدون أنه تعالى جسم وذو صورة كأحسن ما يكون من الصور وللملائكة أيضاً صور حسنة إلا أنهم كلهم محتجبون عنا بالسموات ، فلا جرم اتخذوا صوراً وتماثيل أنيقة المنظر حسنة الرؤيا والهيكل فيتخذون صورة في غاية الحسن ويقولون إنها هيكل الإله ، وصورة أخرى دون الصورة الأولى ويجعلونها على صورة الملائكة ، ثم يواظبون على عبادتها قاصدين بتلك العبادة طلب الزلفى من الله تعالى ومن الملائكة ، فإن صح ما ذكره أبو معشر فالسبب في عبادة الأوثان اعتقاد أن الله تعالى جسم وفي مكان .

الوجه الثالث : في هذا الباب أن القوم يعتقدون أن الله تعالى فوض تدبير كل واحد من الأقاليم إلى ملك بعينه .

(148/237)

---

وفوض تدبير كل قسم من أقسام ملك العالم إلى روح سماوي بعينه فيقولون مدبر البحار ملك ، ومدبر الجبال ملك آخر ، ومدبر الغيوم والأمطار ملك ، ومدبر الأرزاق ملك ، ومدبر الحروب والمقاتلات ملك آخر ، فلما اعتقدوا ذلك اتخذوا لكل واحد من أولئك الملائكة صنماً مخصوصاً وهيكلاً مخصوصاً ويطلبون من كل صنم ما يليق بذلك الروح الفلكي من الآثار والتدبيرات ، وللقوم تأويلات أخرى سوى هذه الثلاثة ذكرناها في أول سورة البقرة ، ولنكتف ههنا بهذا القدر من البيان والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 29 . 31 ﴾

فصل

قال الفخر :

ظاهر هذه الآية يدل على أن اسم والد إبراهيم هو آزر ، ومنهم من قال اسمه تارح .

قال الزجاج : لا خلاف بين النسابين أن اسمه تارح ، ومن الملحدة من جعل هذا طعناً في

القرآن .

وقال هذا النسب خطأ وليس بصواب ، وللعلماء ههنا مقامان :

المقام الأول : أن اسم والد إبراهيم عليه السلام هو آزر ، وأما قولهم أجمع النسابون على أن اسمه كان تارح .

فنقول هذا ضعيف لأن ذلك الإجماع إنما حصل لأن بعضهم يقلد بعضاً ، وبالآخرة يرجع ذلك الإجماع إلى قول الواحد والاثنين مثل قول وهب وكعب وغيرهما ، وربما تعلقوا بما يجدونه من أخبار اليهود والنصارى ، ولا عبرة بذلك في مقابلة صريح القرآن .

المقام الثاني : سلمنا أن اسمه كان تارح ثم لنا ههنا وجوه :

الوجه الأول : لعل والد إبراهيم كان مسمى بهذين الاسمين ، فيحتمل أن يقال إن اسمه الأصلي كان آزر وجعل تارح لقباً له ، فاشتهر هذا اللقب وخفي الاسم .

فالله تعالى ذكره بالاسم ، ويحتمل أن يكون بالعكس ، وهو أن تارح كان اسماً أصلياً وآزر كان لقباً غالباً .

فذكره الله تعالى بهذا اللقب الغالب .

الوجه الثاني : أن يكون لفظة آزر صفة مخصوصة في لغتهم ، فقيل إن آزر اسم ذم في لغتهم وهو المخطىء كأنه قيل ، وإذ قال إبراهيم لأبيه المخطىء كأنه عابه بزيغه وكفره وانحرافه عن الحق ، وقيل آزر هو الشيخ الهرم بالخوارزمية ، وهو أيضاً فارسية أصلية .

واعلم أن هذين الوجهين إنما يجوز المصير إليهما عند من يقول بجواز اشتمال القرآن على ألفاظ قليلة من غير لغة العرب .

والوجه الثالث : أن آزر كان اسم صنم يعبده والد إبراهيم ، وإنما سماه الله بهذا الاسم لوجهين : أحدهما : أنه جعل نفسه مختصاً بعبادته ومن بالغ في محبة أحد فقد يجعل اسم المحبوب اسماً للمحب .

قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ﴾ [ الإسراء : 71 ] وثانيها : أن يكون المراد عابد آزر فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه .

الوجه الرابع : أن والد إبراهيم عليه السلام كان تارح وآزر كان عماً له ، والعم قد يطلق عليه اسم الأب ، كما حكى الله تعالى عن أولاد يعقوب أنهم قالوا : ﴿ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ [ البقرة : 133 ] ومعلوم أن إسمعيل كان عماً ليعقوب .

وقد أطلقوا عليه لفظ الأب فكذا ههنا .

واعلم أن هذه التكلفات إنما يجب المصير إليها لو دل دليل باهر على أن والد إبراهيم ما كان

اسمه آزر وهذا الدليل لم يوجد ألبتة ، فأي حاجة تحملنا على هذه التأويلات (1) ،

---

(1) هذا ما نميل إليه والله أعلم ، ولو كان المراد من الأب هنا العم فما الذى كان يمنع أن يصرح القرآن به قائلا " وإذ قال إبراهيم لعمه آزر " ؟ ؟ ! ! ! وإطلاق الأب على العم من قبيل المجاز فهو يحتاج إلى قرينة ولا يصار إليه إلا عند تعذر الحقيقة ، وما ذكر فى التوراة المحرفة " من التصريح باسم ( تارح ) لا يعول عليه لعدم سلامتها من التحريف ، والقرآن بهذا التصريح يصحح للتوراة المحرفة اسم والد إبراهيم عليه السلام . والله أعلم .

*(150/237)*

---

والدليل القوي على صحة أن الأمر على ما يدل عليه ظاهر هذه الآية ، أن اليهود والنصارى والمشركين كانوا في غاية الحرص على تكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام وإظهار بغضه ، فلو كان هذا النسب كذباً لامتنع في العادة سكوتهم عن تكذيبه وحيث لم يكذبوه علمنا أن هذا النسب صحيح والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 32.31 ﴾

*(151/237)*

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر ﴾

في ﴿ آزر ﴾ أربعة أقوال .

أحدها : أنه أسم أبيه ، روي عن ابن عباس ، والحسن ، والسدي ، وابن إسحاق .

والثاني : أنه اسم صنم ، فأما اسم أبي إبراهيم : فتارح ، قاله مجاهد : فيكون المعنى : أتتخذ آزر أصناماً ؟ فكأنه جعل أصناماً بدلاً من آزر ، والاستفهام معناه الإنكار .

والثالث : أنه ليس باسم ، إنما هو سبّ بعيب ، وفي معناه قولان .

أحدهما : أنه المعوَّج ، كأنه عابه نريغه وتعويجه عن الحق ، ذكره الفراء .

والثاني : أنه المخطىء ، فكأنه قال : يا مخطىء أتتخذ أصناماً ؟ ذكره الزجاج .

والرابع : أنه لقب لأبيه ، وليس باسمه ، قاله مقاتل بن حيان .

قال ابن الأنباري : قد يغلب على اسم الرجل لقبه ، حتى يكون به أشهر منه باسمه ،

والجمهور على قراءة ﴿ آزر ﴾ بالنصب .

وقرأ الحسن ، ويعقوب بالرفع .

قال الزجاج : من نصب ، فموضع ﴿ آزر ﴾ خفضٌ بدلاً من أبيه ؛ ومن رفع فعلى النداء .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ ﴾

تكلّم العلماء في هذا ؛ فقال أبو بكر محمد بن محمد بن الحسن الجُوَيْني الشافعيّ الأشعريّ في النكت من التفسير له : وليس بين الناس اختلاف في أن اسم والد إبراهيم تَارَح.

والذي في القرآن يدل على أن اسمه آزر .

وقيل : آزر عندهم ذمٌّ في لغتهم ؛ كأنه قال : وإذ قال لأبيه يا مخطىء ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ﴾ وإذا كان كذلك فالاختيار الرفع .

وقيل : آزر اسم صنم .

وإذا كان كذلك فموضعه نصب على إضمار الفعل ؛ كأنه قال : وإذ قال إبراهيم لأبيه أتتخذ آزر إلها ، أتتخذ أصناما آلهة .

قلت : ما ادعاه من الاتفاق ليس عليه وفاق ؛ فقد قال محمد بن إسحاق والكَلْبِيّ والضحاك : إن آزر أبو إبراهيم عليه السلام وهو تارَح ، مثل إسرائيل ويعقوب ؛ قلت فيكون له اسمان كما تقدّم .

*(152/237)*

وقال مقاتل : آزر لقب ، وتارَح اسم : وحكاه الثعلبيّ عن ابن إسحاق القُشَيْرِيّ .

ويجوز أن يكون على العكس .

قال الحسن : كان اسم أبيه آزر .

وقال سليمان التَّيْمِيّ : هو سَبٌّ وعَيْب ، ومعناه في كلامهم : المعْوَجّ .

وروى المُعْتَمِر بن سليمان عن أبيه قال : بلغني أنها أعوج ، وهي أشدّ كلمة قالها إبراهيم لأبيه .

وقال الضحّاك : معنى آزر الشيخ الهمّ بالفارسية .

وقال الفرّاء : هي صفة ذَمٍّ بلغتهم ؛ كأنه قال يا مخطىء ؛ فيمن رفعه .

أو كأنه قال : وإذ قال إبراهيم لأبيه المخطِىء ؛ فيمن خفض .

ولا ينصرف لأنه على أفعل ؛ قاله النحاس .

وقال الجوهري : آزر اسم أعجمي ، وهو مشتق من آزر فلان فلاناً إذا عاونه ؛ فهو مُؤازِرٌ قومَه على عبادة الأصنام .

وقيل : هو مشتق من القوّة ، والأزر القوّة ؛ عن ابن فارس .

وقال مجاهد ويَمانٍ : آزر اسم صنم .

وهو في هذا التأويل في موضع نصب ، التقدير : أتتخذ آزر إلهاً ، أتتخذ أصناماً .

وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ، التقدير : أتتخذ آزر أصناماً .

قلت : فعلى هذا آزر اسم جنس .

والله أعلم .

وقال الثعلبيّ في كتاب العرائس : إن اسم أبي إبراهيم الذي سمّاه به أبوه تارَخ ، فلما صار مع النُّمروذ قَيّماً على خِزانة آلهتِهِ سمّاه آزر .

وقال مجاهد : إن آزر ليس باسم أبيه وإنما هو اسم صنم .

وهو إبراهيم بن تارَخْ بن ناخور بن ساروع بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام ابن نوح عليه السلام .

و"آزر" فيه قراءات : "أإِزْراً" بهمزتين ، الأولى مفتوحة والثانية مكسورة ؛ عن ابن عباس .

وعنه "أأَزْرا" بهمزتين مفتوحتين .

وقرىء بالرفع ، وروى ذلك عن ابن عباس .

وعلى القراءتين الأُوليين عنه "تتخذ" بغير همزة .

قال المَهْدَوِيّ : أإزراً ؟ فقيل : إنه اسم صنم ؛ فهو منصوب على تقدير أتتخذ إزراً ، وكذلك أأزراً .

ويجوز أن يجعل أإزراً على أنه مشتق من الأزر وهو الظهر فيكون مفعولاً من أجله ؛ كأنه قال : أللقوّة تتخذ أصناماً .

ويجوز أن يكون إِزر بمعنى وِزر ، أبدلت الواو همزة .

قال القُشيرِيّ : ذكر في الاحتجاج على المشركين قصة إبراهيم وردّه على أبيه في عبادة الأصنام .

وأوْلَى الناس باتباع إبراهيم العرب ؛ فإنهم ذرّيته .

أي واذكر إذ قال إبراهيم .

أو ﴿ وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ وذَكِّر إذ قال إبراهيم .

وقرىء "آزرُ" أي يا آزرُ ، على النداء المفرد ، وهي قراءة أُبَيّ ويعقوب وغيرِهما .

وهو يقوّي قول من يقول : إن آزر اسم أب إبراهيم .

"أَتَتَّخِذُ أَصْنَاما آلِهَةً" مفعولان ل "تتخذ" وهو استفهام فيه معنى الإنكار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

*(154/237)*

---

فصل

قال الفخر :

قالت الشيعة : إن أحداً من آباء الرسول عليه الصلاة والسلام وأجداده ما كان كافراً وأنكروا أن يقال أن والد إبراهيم كان كافراً وذكروا أن آزر كان عم إبراهيم عليه السلام . وما كان والداً له واحتجوا على قولهم بوجوه :

الحجة الأولى : أن آباء الأنبياء ما كانوا كفاراً ويدل عليه وجوه : منها قوله تعالى : ﴿ الذى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِى الساجدين ﴾ [ الشعراء : 218 ، 219 ] .

قيل معناه : إنه كان ينقل روحه من ساجد إلى ساجد وبهذا التقدير : فالآية دالة على أن جميع آباء محمد عليه السلام كانوا مسلمين .

وحينئذ يجب القطع بأن والد إبراهيم عليه السلام كان مسلماً .

فإن قيل : قوله : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى الساجدين ﴾ يحتمل وجوهاً أخر : أحدها : إنه لما نسخ فرض قيام الليل طاف الرسول صلى الله عليه وسلم تلك الليلة على بيوت الصحابة لينظر ماذا يصنعون لشدة حرصه على ما يظهر منهم من الطاعات فوجدها كبيوت الزنانير لكثرة ما سمع من أصوات قراءتهم وتسبيحهم وتهليلهم .

فالمراد من قوله : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى الساجدين ﴾ طوافه صلوات الله عليه تلك الليلة على الساجدين .

وثانيها : المراد أنه عليه السلام كان يصلي بالجماعة فتقلبه في الساجدين معناه : كونه فيما بينهم ومختلطاً بهم حال القيام والركوع والسجود .

---

وثالثها : أن يكون المراد أنه ما يخفى حالك على الله كلما قمت وتقلبت مع الساجدين في الاشتغال بأمور الدين .

ورابعها : المراد تقلب بصره فيمن يصلي خلفه ، والدليل عليه قوله عليه السلام : " أتموا الركوع والسجود فإني أراكم من وراء ظهري " فهذه الوجوه الأربعة مما يحتملها ظاهر الآية ، فسقط ما ذكرتم .

والجواب : لفظ الآية محتمل للكل ، فليس حمل الآية على البعض أولى من حملها على الباقي .

فوجب أن نحملها على الكل وحينئذ يحصل المقصود ، ومما يدل أيضاً على أن أحداً من آباء محمد عليه السلام ما كان من المشركين قوله عليه السلام : " لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات " وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ ﴾ [ التوبة : 28 ] وذلك يوجب أن يقال : إن أحداً من أجداده ما كان من المشركين .

إذا ثبت هذا فنقول : ثبت بما ذكرنا أن والد إبراهيم عليه السلام ما كان مشركاً ، وثبت أن آزر كان مشركاً .

فوجب القطع بأن والد إبراهيم كان إنساناً آخر غير آزر .

الحجة الثانية : على أن آزر ما كان والد إبراهيم عليه السلام .

أن هذه الآية دالة على أن إبراهيم عليه السلام شافه آزر بالغلظة والجفاء .

ومشافهة الأب بالجفاء لا تجوز ، وهذا يدل على أن آزر ما كان والد إبراهيم ، إنما قلنا : إن إبراهيم شافه آزر بالغلظة والجفاء في هذه الآية لوجهين : الأول : أنه قرىء ﴿ وَإِذْ قَالَ إبراهيم لِأَبِيهِ ءَازَرَ ﴾ بضم آزر وهذا يكون محمولاً على النداء ونداء الأب بالاسم الأصلي من أعظم أنواع الجفاء .

الثاني : أنه قال لآزر : ﴿ إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ وهذا من أعظم أنواع الجفاء والإيذاء .

*(156/237)*

---

فثبت أنه عليه السلام شافه آزر بالجفاء ، وإنما قلنا : أن مشافهة الأب بالجفاء لا تجوز لوجوه : الأول : قوله تعالى : ﴿ وقضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إياه وبالوالدين إحسانا ﴾ [ الإسراء : 23 ] وهذا عام في حق الأب الكافر والمسلم ، قال تعالى : ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ [ الإسراء : 23 ] وهذا أيضاً عام .

والثاني : أنه تعالى لما بعث موسى عليه السلام إلى فرعون أمره بالرفق معه فقال ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [ طه : 44 ] والسبب فيه أن يصير ذلك رعاية لحق تربية فرعون .

فههنا الوالد أولى بالرفق .

الثالث : أن الدعوة مع الرفق أكثر تأثيراً في القلب ، أما التغليظ فإنه يوجب التنفير والبعد عن القبول .

ولهذا المعنى قال تعالى لمحمد عليه السلام : ﴿ وجادلهم بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [ النحل : 125 ] فكيف يليق بإبراهيم عليه السلام مثل هذه الخشونة مع أبيه في الدعوة ؟ الرابع : أنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام الحلم ، فقال : ﴿ إِنَّ إبراهيم لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ ﴾ [ هود : 75 ] وكيف يليق بالرجل الحليم مثل هذا الجفاء مع الآب ؟ فثبت بهذه الوجوه أن آزر ما كان والد إبراهيم عليه السلام بل كان عماً له ، فأما والده فهو تارح والعم قد يسمى بالأب على ما ذكرنا أن أولاد يعقوب سموا إسمعيل بكونه أباً ليعقوب مع أنه كان عماً له .

وقال عليه السلام : " ردوا علي أبي " يعني العم العباس وأيضاً يحتمل أن آزر كان والد أم إبراهيم عليه السلام وهذا قد يقال له الأب .

والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وسليمان ﴾ [ الأنعام : 84 ] إلى قوله :

﴿ وعِيسَى ﴾ [ الأنعام : 85 ] فجعل عيسى من ذرية إبراهيم مع أن إبراهيم عليه السلام كان جداً لعيسى من قبل الأم .

*(157/237)*

---

وأما أصحابنا فقد زعموا أن والد رسول الله كان كافراً وذكروا أن نص الكتاب في هذه الآية تدل على أن آزر كان كافراً وكان والد إبراهيم عليه السلام .

وأيضاً قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ استغفار إبراهيم لِأَبِيهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [ التوبة : 114 ] وذلك يدل على قولنا ، وأما قوله ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ قلنا : قد بينا أن هذه الآية تحتمل سائر الوجوه قوله تحمل هذه الآية على الكل ، قلنا هذا محال لأن حمل اللفظ المشترك على جميع معانيه لا يجوز ، وأيضاً حمل اللفظ على حقيقته ومجازه معاً لا يجوز ، وأما قوله عليه السلام : " لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات " فذلك محمول على أنه ما وقع في نسبه ما كان سفاحاً ، أما قوله التغليظ مع الأب لا يليق بإبراهيم عليه السلام .

قلنا : لعله أصر على كفره فلأجل الإصرار استحق ذلك التغليظ . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 32.34 ﴾

فصل

قال الفخر :

قرىء ﴿ ءَازَرَ ﴾ بالنصب وهو عطف بيان لقوله : ﴿ لأَبِيهِ ﴾ وبالضم على النداء ، وسألني واحد فقال : قرىء ﴿ ءَازَرَ ﴾ بهاتين القراءتين ، وأما قوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ موسى لأَخِيهِ هارون ﴾ قرىء ﴿ هارون ﴾ بالنصب وما قرىء ألبتة بالضم فما الفرق ؟ قلت القراءة بالضم محمولة على النداء والنداء بالاسم استخفاف بالمنادى .

وذلك لائق بقصة إبراهيم عليه السلام لأنه كان مصراً على كفره فحسن أن يخاطب بالغلظة زجراً له عن ذلك القبيح ، وأما قصة موسى عليه السلام فقد كان موسى عليه السلام يستخلف هرون على قومه فما كان الاستخفاف لائقاً بذلك الموضع ، فلا جرم ما كانت القراءة بالضم جائزة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 34 ﴾

*(158/237)*

---

فصل

قال الفخر :

اختلف الناس في تفسير لفظ "الإله" والأصح أنه هو المعبود ، وهذه الآية تدل على هذا

القول لأنهم ما أثبتوا للأصنام إلا كونها معبودة ، ولأجل هذا قال إبراهيم لأبيه : ﴿ أتتخذ أصناما آلهة ﴾ وذلك يدل على أن تفسير لفظ "الإله" هو المعبود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 34 ﴾

فصل

قال الفخر :

اشتمل كلام إبراهيم عليه السلام في هذه الآية على ذكر الحجة العقلية على فساد قول عبدة الأصنام من وجهين : الأول : أن قوله : ﴿ أتتخذ أصناما آلهة ﴾ يدل على أنهم كانوا يقولون بكثرة الآلهة ؛ إلا أن القول بكثرة الآلهة باطل بالدليل العقلي الذي فهم من قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ والثاني : أن هذه الأصنام لو حصلت لها قدرة على الخير والشر لكان الصنم الواحد كافياً ، فلما لم يكن الواحد كافياً دل ذلك على أنها وإن كثرت فلا نفع فيها ألبتة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 34 ﴾

فصل

قال الفخر :

احتج بعضهم بهذه الآية على أن وجوب معرفة الله تعالى ووجوب الاشتغال بشكره معلوم بالعقل لا بالسمع .

قال لأن إبراهيم عليه السلام حكم عليهم بالضلال ، ولولا الوجوب العقلي لما حكم عليهم

بالضلال .

لأن ذلك المذهب كان متقدماً على دعوة إبراهيم .

ولقائل أن يقول : إنه كان ضلالاً بحكم شرع الأنبياء الذين كانوا متقدمين على إبراهيم عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 34 ﴾

*(159/237)*

---

لطيفة

قال فى البحر المديد :

الإشارة : كل من سكن إلى شيء دون الله ، أو مال إليه بالعشق والمحبة ، فهو صنم في حقه ، فإن لم ينزع عن محبته ، ولم يقلع عن السكون إليه ، كان حجابًا بينه وبين شهود أسرار التوحيد . وفي الحِكَم : " ما أحببت شيئًا إلا وكنت عبدًا له ، وهو لا يحب أن تكون لغيره عبدًا " . وفي الحديث : " تَعِس عبدُ الدينار والدرهم " . . أي : خاب وخسر ، فإذا اطلع الحق تعالى على قلب عبده فرآه مائلاً لغيره ، حجب عنه أنوار قدسه ، وفي ذلك يقول الششتري رضي الله عنه :

لِي حَبِيبٌ إنما هو غَيُور ، . . . يُطلُّ في القَلبِ كَطَيرٍ حَذُور ، . . . إذا رأى شَيئًا امتَنَع أن يَزُور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 2 صـ 135 ﴾

(160/237)

---

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

العامل في ﴿ إذ ﴾ فعل مضمر تقديره : واذكر أو قص ، قال الطبري : نبه الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم على الاقتداء بإبراهيم في محاجته قومه إذ كانوا أهل أصنام وكان قوم محمد أهل أصنام .

قال القاضي أبو محمد : وليس يلزم هذا من لفظ الآية ، أما أن جميع ما يجيء من مثل هذا عرضه للاقتداء ، وقرأ السبعة وجمهور الناس " آزَرَ " بفتح الهمزة التي قبل الألف وفتح الزاي والراء ، قال السدي وابن إسحاق وسعيد بن عبد العزيز : هو اسم أبي إبراهيم .

قال القاضي أبو محمد : وقد ثبت أن اسمه تارح فله على هذا القول اسمان كيعقوب وإسرائيل ، وهو في الإعراب على هذا بدل من الأب المضاف في موضع خفض وهو اسم علم ، وقال مجاهد بل هو اسم صنم وهو في موضع نصب بفعل مضمر تقديره : أتتخذ

أصناماً .

قال القاضي أبو محمد : وفي هذا ضعف ، وقال بعضهم بل هو صفة ومعناه هو المعوج المخطىء .

قال القاضي أبو محمد : ويعترض هذا بأن " آزر " إذا كان صفة فهو نكرة ولا يجوز أن تنعت المعرفة بالنكرة ويوجه ذلك على تحامل بأن يقال أريدت فيه الألف واللام وإن لم يلفظها ، وإلى هذا أشار الزجّاج لأنه قدر ذلك فقال لأبيه المخطىء ، وبأن يقال إن ذلك مقطوع منصوب بفعل تقديره اذن المعوج أو المخطىء ، وإلا تبقى فيه الصفة بهذه الحال .

*(161/237)*

---

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف ، وقيل نصبه على الحال كأنه قال : وإذ قال إبراهيم لأبيه وهو في حال عوج وخطأ ، وقرأ أبي بن كعب وابن عباس والحسن ومجاهد وغيرهم بضم الراء على النداء ويصح مع هذا ان يكون ﴿ آزر ﴾ اسم أبي إبراهيم ، ويصح أن يكون بمعنى المعوج والمخطىء ، وقال الضحاك : ﴿ آزر ﴾ بمعنى شيء ، ولا يصح مع هذه القراءة أن يكون ﴿ آزر ﴾ صفة ، وفي مصحف أبيّ " يا أزر " بثبوت حرف النداء " اتخذت أصناماً " بالفعل الماضي ، وقرأ ابن عباس فيما روي عنه أيضاً : " أَزْراً تتخذ "

بألف الاستفهام وفتح الهمزة من آزر وسكون الزاي ونصب الراء وتنوينها وإسقاط ألف الاستفهام من " اتخذ " ومعنى هذه القراءة عضداً وقوة مظاهرة على الله تعالى تتخذ ، وهو من نحو قوله تعالى : ﴿ أشدد به أزري ﴾ [ طه : 31 ] وقرأ أبو اسماعيل رجل من أهل الشام بكسر الهمزة من هذا الترتيب ذكرها أبو الفتح ، ومعناها : أنها مبدلة من واو كوسادة وإسادة فكأنه قال : أوزراً ومأثماً تتخذ أصناماً ، ونصبه على هذا بفعل مضمر ، ورويت أيضاً عن ابن عباس ، وقرأ الأعمش : " إزْراً تتخذ " بكسر الهمزة وسكون الزاي دون ألف توقيف ، و ﴿ أصناماً آلهة ﴾ مفعولان ، وذكر : أن " آزر " أبا إبراهيم كان نجاراً محسناً ومهندساً وكان نمرود يتعلق بالهندسة والنجوم فحظي عنده آزر لذلك ، وكان على خطة عمل الأصنام تعمل بأمره وتدبيره ويطبع هو في الصنم بختم معلوم عنده ، وحينئذ يعبد ذلك الصنم ، فلما نشأ إبراهيم ابنه على الصفة التي تأتي بعد كان أبوه يكلفه بيعها ، فكان إبراهيم ينادي عليها : من يشتري ما يضره ولا ينفعه ؟ ويستخف بها ويجعلها في الماء منكوسة ، ويقول اشربي ، فلما شهر أمره بذلك وأخذ في الدعاء إلى الله تعالى قال لأبيه هذه المقالة ، و ﴿ أراك ﴾ في هذا الموضع يشترك فيها البصر والقلب لأنها رؤية قلب ومعرفته وهي متركبة على رؤية بصر ، و ﴿ مبين ﴾ بمعنى واضح ظاهر ، وهو من أبان الشيء ،

إذا ظهر ليس بالفعل المتعدي المنقول من باب يبين .

قال القاضي أبو محمد : ويصح أن يكون المفعول مقدراً تقديره : في ضلال مبين كفركم ، وقيل كان آزر رجلاً من أهل كوثا من سواد الكوفة ، قال النقاش وبها ولد إبراهيم عليه السلام ، وقيل كان من أهل حران . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(163/237)

---

ومن فوائد الخازن فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر ﴾

اختلف العلماء في لفظ آزر فقال محمد بن إسحاق والكلبي والضحاك : آزر اسم أبي إبراهيم وهو تارح ضبطه بعضهم بالحاء المهملة وبعضهم بالخاء المعجمة فعلى هذا يكون لأبي إبراهيم اسمان : آزر وتارح مثل يعقوب وإسرائيل اسمان لرجل واحد فيحتمل أن يكون اسمه الأصلي آزر وتارح لقب له وبالعكس والله سماه آزر وإن كان عند النسابين والمؤرخين اسمه تارح ليعرف بذلك وكان آزر أبو إبراهيم من كوثي وهي قرية من سواد

الكوفة .

وقال سليمان التيمي : آزر سب وعيب .

ومعناه في كلامهم المعوج .

وقيل : الشيخ الهرم وهو بالفارسية وهذا على مذهب من يجوز أن في القرآن ألفاظاً قليلة فارسية .

وقيل : هو المخطئ فكان إبراهيم عابه وذمه بسبب كفره وزيغه عن الحق .

وقال سعيد بن المسيب ومجاهد : آزر اسم صنم كان والد إبراهيم يعبده وإنما سماه بهذا الاسم لأن من عبد شيئاً أو أحبه جعل اسم ذلك المعبود أو المحبوب اسماً له فهو كقوله ﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم ﴾ وقيل : معناه وإذا قال إبراهيم لأبيه آزر فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه والصحيح هو الأول أن أزر اسم لأبي إبراهيم لأن الله تعالى سماه به وما نقل عن النسابين والمؤرخين أن اسمه تارح ففيه نظر لأنهم إنما نقلوه عن أصحاب الأخبار وأهل السير من أهل الكتاب ولا عبرة بنلقهم .

وقد أخرج البخاري في أفراده من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " يلقى إبراهيم عليه السلام أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبره " الحديث فسماه النبي صلى الله عليه وسلم آزر أيضاً ولم يقل أباه تارخ فثبت بهذا ان اسمه الأصلي آزر لا تارخ والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ أتتخذ أصناما آلهة ﴾ معناه : اذكر لقومك يا محمد قول إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة تعبدها من دون الله الذي خلقك ورزقك .

*(164/237)*

---

والأصنام : جمع صنم وهو التمثال الذي يتخذ من خشب أو حجارة أو حديد أو ذهب أو فضة على صورة الإنسان وهو الوثن أيضاً ﴿ إني أراك وقومك في ضلال مبين ﴾ يعني : يقول إبراهيم لأبيه آزر : إني أراك وقومك الذي يعبدون الأصنام معك ويتخذونها آلهة في ضلال يعني عن طريق الحق مبين يعني بيِّن لمن أبصر ذلك فإنه لا يشك أن هذه الأصنام لا تضر ولا تنفع وهذه الآية احتجاج على مشركي العرب بأحوال إبراهيم ومحاجته لأبيه وقومه لأنهم كانوا يعظمون إبراهيم صلى الله عليه وسلم ويعترفون بفضله فلا جرم ذكر قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه في معرض الاحتجاج على المشركين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين ﴾ .

لما ذكر قوله تعالى : ﴿ قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ﴾ ناسب ذكر هذه الآية هنا وكان التذكار بقصة ابراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه أنسب لرجوع العرب إليه إذ هو جدّهم الأعلى فذكروا بأن إنكار هذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم عليكم عبادة الأصنام هو مثل إنكار جدّكم ابراهيم على أبيه وقومه عبادتها وفي ذلك التنبيه على اقتفاء من سلف من صالحي الآباء والأجداد وهم وسائر الطوائف معظمون لإبراهيم عليه السلام ، والظاهر أن آزر اسم أبيه قاله ابن عباس والحسن والسدّي وابن إسحاق وغيرهم ، وفي كتب التواريخ أن اسمه بالسريانية تارخ والأقرب أن وزنه فاعل مثل تارخ وعابر ولازب وشالح وفالغ وعلى هذا يكون له اسمان كيعقوب وإسرائيل وهو عطف بيان أو بدل ، وقال مجاهد : هو اسم صنم فيكون أطلق على أبي إبراهيم لملازمته عبادته كما أطلق على عبيد الله بن قيس الرقيات لحبه نساء اسم كل واحدة منهنّ رقية .

فقيل ابن قيس الرقيات ، وكما قال بعض المحدّثين :

أدعى بأسماء تترى في قبائلها . . .

كأن أسماء أضحت بعض أسمائي

ويكون إذ ذاك عطف بيان أو يكون على حذف مضاف أي عابد آزر حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه أو يكون منصوباً بفعل مضمر أي تتخذ آزر ، وقيل : إن آزر عم ابراهيم وليس اسم أبيه وهو قول الشيعة يزعمون أن آباء الأنبياء لا يكونون كفاراً وظواهر القرآن ترد عليهم ولا سيما محاورة ابراهيم مع أبيه في غير ما آية ، وقال مقاتل : هو لقب لأبي ابراهيم وليس اسماً له وامتنع آزر من الصرف للعلمية والعجمة ، وقيل هو صفة ، قال الفراء بمعنى المعوجّ.

وقال الزجاج : بمعنى المخطىء ، وقال الضحاك : الشيخ الهمّ بالفارسية ، وإذا كان صفة أشكل منع صرفه ووصف المعرفة به وهو نكرة ووجهه الزجاج بأن تزاد فيه أل وينصب على الذمّ كأنه قيل : أذمّ المخطىء ، وقيل : انتصب على الحال وهو في حال عوج أو خطأ ، وقرأ الجمهور ﴿ آزر ﴾ بفتح الراء وأبيّ وابن عباس والحسن ومجاهد وغيرهم بضم الراء على النداء وكونه علماً ولا يصح أن يكون صفة لحذف حرف النداء وهو لا يحذف من الصفة إلا شذوذاً ، وفي مصحف أبيّ يا آزر بحرف النداء اتخذت أصناماً بالفعل الماضي فيحتمل العلمية والصفة ، وقرأ ابن عباس أيضاً أأزراً تتخذ بهمزة استفهام وفتح الهمزة بعدها وسكون الزاي ونصب الراء منوّنة وحذف همزة الاستفهام من أتتخذ ، قال ابن عطية : المعنى أعضداً وقوّة ومظاهرة على الله تتخذ وهو قوله :

﴿ اشدد به أزري ﴾ وقال الزمخشري : هو اسم صنم ومعناه أتعبد أزراً على الإنكار ثم قال : ﴿ أتتخذ أصناماً آلهة ﴾ تبييناً لذلك وتقريراً وهو داخل في حكم الإنكار لأنه كالبيان له ، وقرأ ابن عباس أيضاً وأبو اسماعيل الشامي أإزراً بكسر الهمزة بعد همزة الاستفهام تتخذ ، قال ابن عطية : ومعناها إنها مبدلة من واو كوسادة وإسادة كأنه قال : أوزراً أو مأثماً تتخذ أصناماً ونصبه على هذا بفعل مضمر ، وقال الزمخشري : هو اسم صنم ووجهه على ما وجه عليه أأزراً بفتح الهمزة ، وقرأ الأعمش إزراً تتخذ بكسر الهمزة وسكون الزاي ونصب الراء وتنوينها وبغير همزة استفهام في تتخذ والهمزة في ﴿ أتتخذ ﴾ للإنكار وفيه دليل على الإنكار على من أمر الإنسان بإكرامه إذا لم يكن على طريقة مستقيمة وعلى البداءة بمن يقرب من الإنسان كما قال : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ وفي ذكره أصناماً آلهة بالجمع تقبيح عظيم لفعلهم واتخاذهم جمعاً آلهة وذكروا أن ابراهيم كان نجاراً منجماً مهندساً وكان نمرود يتعلق بالهندسة والنجوم فحظي عنده بذلك وكان من قرية تسمى كوثا من سواد الكوفة ، قاله مجاهد قيل وبها ولد ابراهيم ، وقيل : كان آزر من أهل حرّان وهو تارخ بن ناجور بن ساروع بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح ، وأراك يحتمل أن تكون بصرية وأن تكون علمية ، والظاهر أن تتخذ يتعدّى إلى مفعولين وجوزوا أن يكون بمعنى أتعمل وتصنع لأنه كان ينحتها ويعملها ولما أنكر على

أبيه أخبر أنه وقومه في ضلال وجعلهم مظروفين للضلال أبلغ من وصفهم بالضلال كأن الضلال صار ظرفاً لهم ومبين واضح ظاهر من أبان اللازمة ، قال ابن عطية : ليس بالفعل المتعدّي المنقول من بان يبين انتهى ، ولا يمتنع ذلك يوضح كفركم بموجدكم من حيث اتخذتم دونه آلهة وهذا الإنكار من ابراهيم على أبيه والإخبار أنه وقومه في ضلال مبين أدل دليل على هداية إبراهيم وعصمته من سبق ما يوهم ظاهر قوله : هذا ربي

(167/237)

---

من نسبة ذلك إليه على أنه أخبر عن نفسه وإنما ذلك على سبيل التنزل مع الخصم وتقرير ما يبنى عليه من استحالة أن يكون متصفاً بصفات الحدوث من الجسمانية وقبوله التغيرات من البزوغ والأفول ونحوها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(168/237)

---

ومن فوائد ابن كثير فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ ﴾

قال الضحاك، عن ابن عباس: إن أبا إبراهيم لم يكن اسمه آزرُ، إنما كان اسمه تارح. رواه ابن أبي حاتم.

وقال أيضا: حدثنا أحمد بن عمرو بن أبي عاصم النبيل، حدثنا أبي، حدثنا أبو عاصم شبيب، حدثنا عِكْرِمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ ﴾ يعني بآزر: الصنم، وأبو إبراهيم اسمه تارح، وأمه اسمها مثاني، وامرأته اسمها سارة، وأم إسماعيل اسمها هاجر، وهي سرية إبراهيم.

وهكذا قال غير واحد من علماء النسب: إن اسمه تارح. وقال مجاهد والسُّدِّي: آزر: اسم صنم.

قلت: كأنه غلب عليه آزر لخدمته ذلك الصنم، فالله أعلم.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: "هو سب وعيب بكلامهم، ومعناه: مُعْوَج" ولم يسنده ولا حكاه عن أحد.

وقد قال ابن أبي حاتم: ذُكر عن مُعْتَمِر بن سليمان، سمعت أبي يقرأ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ ﴾ قال: بلغني أنها أعوج، وأنها أشد كلمة قالها إبراهيم، عليه السلام.

ثم قال ابن جرير: والصواب أن اسم أبيه آزر. ثم أورد على نفسه قول النسابين أن اسمه تارح، ثم أجاب بأنه قد يكون له اسمان، كما لكثير من الناس، أو يكون أحدهما لقبا (1)

وهذا الذي قاله جيد قوي ، والله أعلم .

---

(1) وقد اعترض على قول ابن جرير الطبري ومحاولته الجمع ، المحدث أحمد شاكر - رحمه الله - في بحث له في آخر كتاب "المعرب" للجواليقي قال في خاتمته : "والحجة القاطعة في نفي التأويلات التي زعموها في كلمة : "آزر" ، وفي إبطال ما سموه قراءات ، تخرج باللفظ عن أنه علم لوالد إبراهيم : الحديث الصحيح الصريح في البخاري : عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قترة وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك : لا تعصني ؟ فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك . . . . إلى آخر الحديث" . وفي البخاري (139/4 من الطبعة السلطانية) وفتح الباري (276/6 من طبعة بولاق) وشرح العيني (243/15 ، 244) من الطبعة المنيرية) ، فهذا النص يدل على أنه اسمه العلم ، وهو لا يحتمل التأويل ولا التحريف .

*(169/237)*

---

واختلف القراء في أداء قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ ﴾ فحكى ابن جرير عن الحسن البصري وأبي يزيد المدني أنهما كانا يقرآن : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ﴾ معناه : يا آزر ، أتتخذ أصناما آلهة .

وقرأ الجمهور بالفتح ، إما على أنه علم أعجمي لا ينصرف ، وهو بدل من قوله : ﴿ لأَبِيهِ ﴾ أو عطف بيان ، وهو أشبه .

وعلى قول من جعله نعتًا لا ينصرف أيضا كأحمر وأسود .

فأما من زعم أنه منصوب لكونه معمولا لقوله : ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ﴾ تقديره : يا أبت ، أتتخذ آزر أصناما آلهة ، فإنه قول بعيد في اللغة ؛ لأن ما بعد حرف الاستفهام لا يعمل فيما قبله ؛ لأن له صدر الكلام ، كذا قرره ابن جرير وغيره . وهو مشهور في قواعد العربية .

والمقصود أن إبراهيم ، عليه السلام ، وعظ أباه في عبادة الأصنام ، وزجره عنها ، ونهاه فلم ينته ، كما قال : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ﴾ أي : أتتأله لصنم تعبده من دون الله ، ﴿ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ ﴾ أي : السالكين مسلكك ﴿ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ أي : تائهين لا يهتدون أين يسلكون ، بل في حيرة وجهل وأمركم في الجهالة والضلال بين واضح لكل ذي عقل صحيح .

وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ

سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ [مريم : 41 - 48] ،

(170/237)

---

فكان إبراهيم ، عليه السلام ، يستغفر لأبيه مدة حياته ، فلما مات على الشرك وتبين إبراهيم ذلك ، رجع عن الاستغفار له ، وتبرأ منه ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : 114] .

وثبت في الصحيح : أن إبراهيم يلقى أباه آزر يوم القيامة فيقول له أبوه : يا بني ، اليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم : أي رب ، ألم تعدني أنك لا تخزني يوم يبعثون وأي خزي أخزي من أبي الأبعد ؟ فيقال : يا إبراهيم ، انظر ما وراءك . فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه ، فيلقى في النار . (1) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 288 . 290 ﴾

---

(1) صحيح البخاري برقم (3350) .

(171/237)

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذْ قَالَ إبراهيم ﴾ منصوب على المفعولية بمضمرٍ خُوطب به النبي عليه الصلاة والسلام معطوفٌ على ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ ﴾ لا على أقيموا كما قيل لفساد المعنى أي واذكر لهم بعد ما أنكرتَ عليهم عبادةَ ما لا يقدِرُ على نفعٍ وضُرَ وحققتَ أن الهدى هو هدى الله وما يتبعُه من شؤونه تعالى وقتَ قولِ إبراهيمَ الذي يدّعون أنهم على مِلّته موبّخاً ﴿ لأَبِيهِ ءازَرَ ﴾ على عبادة الأصنام فإن ذلك مما يبكّتُهم وينادي بفساد طريقتِهم ، وتوجيهُ الأمرِ بالذكر إلى الوقت دون ما وقعَ فيه من الحوادث مع أنها المقصودةُ لما مر مراراً من المبالغة في إيجاب ذكرِها ، وآزرُ بزنةِ آدم وعابَر وعازَر وفالَغ وكذلك تارَحُ ، ذكره محمدُ بنُ إسحاقَ والضحاكُ والكلبيُّ وكان من قريةٍ من سَواد الكوفة ، ومُنعَ صَرْفُه للعُجمة والعَلَمية ، وقيل : اسمُه بالسريانية تارَح وآزَرُ لقبُه المشهورُ وقيل : اسمُ صنمٍ لُقِّب هو به للزومه عبادتَه ، فهو عطفُ بيانٍ ( لأبيه ) أو بدلٌ منه وقال الضحاك : معناه الشيخ الهرم ، وقال الزجاج : المُخطىء وقال الفراءُ وسليمانُ التيمي : المعوَجُّ فهو نعتٌ له كما إذا جُعل مشتقاً من الأَزْرِ أو الوِزر أو أريد به عابدُ آزرَ على حذف المضافِ وإقامةِ المضافِ إليه مُقامَه وقرىء آزرُ على النداء وهو دليلُ العَلَمية إذ لا يُحذف حرفُ النداء إلا من الأعلام ، ﴿ أَتَتَّخِذُ ﴾

متعدَ إلى مفعولين هما ﴿ أَصْنَاماً آلِهَة ﴾ أي أتجعلُها لنفسك آلهةً على توجيه الإنكار إلى اتخاذ الجنس من غير اعتبار الجمعية ، وإنما إيرادُ صيغةِ الجمع باعتبار الوقوعِ ، وقرىء أَأَزْراً بفتح الهمزة وكسرها بعد همزة الاستفهام وزاءٍ ساكنةٍ وراءٍ منونةٍ منصوبةٍ وهو اسمُ صنم ، ومعناه أتعبدُ إِءَزْراً ثم قيل : أتتخِذُ أصناماً آلهة ؟ تثبيتاً لذلك وتقريراً ، وهو داخل تحت الإنكار لكونه بيناً له ، وقيل : الأزرُ القوة ، والمعنى ألِإءَجْلِ القوة والمظاهَرَة

(172/237)

---

تتخذ أصناماً آلهة ؟ إنكاراً لتعزُّزِه بها على طريقة قوله تعالى : ﴿ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ العزة ﴾ ﴿ إِنّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ ﴾ الذين يتبعونك في عبادتها ﴿ فِى ضلال ﴾ عن الحق ﴿ مُّبِينٌ ﴾ أي بيِّنٌ كونُه ضلالاً لا اشتباهَ فيه أصلاً ، والرؤيةُ إما علميةٌ فالظرفُ مفعولُها الثاني وإما بصَرية فهو حالٌ من المفعول والجملة تعليلٌ للإنكار والتوبيخ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(173/237)

---

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ قَالَ إبراهيم ﴾ نصب عند بعض المحققين على أنه مفعول به لفعل مضمر خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم معطوف على ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ ﴾ [ الأنعام : 71 ] لا على ﴿ أَقِيمُواْ ﴾ [ الأنعام : 72 ] لفساد المعنى أي واذكر يا محمد لهؤلاء الكفار بعد أن أنكرت عليهم عبادة ما لا يقدر على نفع ولا ضر وحققت أن الهدى هو هدى الله تعالى وما يتبعه من شؤونه تعالى وقت قول إبراهيم عليه السلام الذي يدعون أنهم على ملته موبخاً .

﴿ لأَبِيهِ ءازَرَ ﴾ على عبادة الأصنام فإن ذلك مما يبكتهم وينادي بفساد طريقتهم .

وآزر بزنة آدم علم أعجمي لأبي إبراهيم عليه السلام وكان من قرية من سواد الكوفة ، وهو بدل من "إبراهيم" أو عطف بيان عليه .

وقال الزجاج : ليس بين النسابين اختلاف في أن اسم أبي إبراهيم عليه السلام تارح بتاء مثناة فوقية وألف بعدها راء مهملة مفتوحة وحاء مهملة ويروى بالخاء المعجمة .

وأخرج ابن المنذر بسند صحيح عن ابن جريج أن اسمه تيرح أو تارَح .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ان اسم أبي إبراهيم عليه الصلاة والسلام يازر واسم أمه مثلى .

وإلى كون آزر ليس اسماً له ذهب مجاهد .

وسعيد بن المسيب وغيرهما .

واختلف الذاهبون إلى ذلك فمنهم من قال : إن ءازر لقب لأبيه عليه السلام .

ومنهم من قال : اسم جده .

ومنهم من قال : اسم عمه والعم والجد يسميان أبا مجازاً .

ومنهم من قال : هو اسم صنم .

وروي ذلك عن ابن عباس والسدى ومجاهد رضي الله تعالى عنهم .

ومنهم من قال : هو وصف في لغتهم ومعناه المخطىء .

وعن سلمان التيمي قال : بلغني أن معناه الأعوج .

وعن بعضهم أنه الشيخ الهرم بالخوارزمية .

وعلى القول بالوصفية يكون منع صرفه للحمل على موازنه وهو فاعل المفتوح العين فإنه يغلب منه صرفه لكثرته في الأعلام الأعجمية .

وقيل : الأولى أن يقال : إنه غلب عليه فألحق بالعلم .

وبعضهم يجعله نعتاً مشتقاً من الأزر بمعنى القوة أو الوزر بمعنى الإثم .

ومنع صرفه حينئذ للوصفية ووزن الفعل لأنه على وزن أفعل .

وعلى القول بأنه بمعنى الصنم يكون الكلام على حذف مضاف وإقامة المضاف إليه مقامه أي عابد آزر .

وقرأ يعقوب ﴿ ءازرَ ﴾ على النداء .

واستدل بذلك على العلمية بناء على أنه لا يحذف حرف النداء إلا من الأعلام وحذفه من الصفات شاذ أي يا آزر .

(174/237)

---

﴿ وَإِذْ قَالَ إبراهيم ﴾ أي أتجعلها لنفسك ءالهة على توجيه الإنكار إلى اتخاذ الجنس من غير اعتبار الجمعية وإنما إيراد صيغة ( الجنس ) باعتبار الوقوع .

وقرىء ﴿ أأزراً ﴾ بهمزتين الأولى استفهامية مفتوحة والثانية مفتوحة ومكسورة وهي إما أصلية أو مبدلة من الواو .

ومن قرأ بذلك قرأ ﴿ أَن تَتَّخِذَ ﴾ بإسقاط الهمزة وهو مفعول به لفعل محذوف أي أتعبد ازراً على أنه اسم صنم ويكون ﴿ تَتَّخِذَ ﴾ الخ بياناً لذلك وتقريراً وهو داخل تحت الإنكار أو مفعول له على أنه بمعنى القوة أي الأجل القوة تتخذ أصناما آلهة .

والكلام إنكار لتعززه بها على طريقة قوله تعالى : ﴿ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ العزة ﴾ [ النساء : 139 ] وجوز أن يكون حالاً أو مفعولاً ثانياً لتتخذ .

وأعرب بعضهم "ءازر" على قراءة الجمهور على أنه مفعول لمحذوف وهو بمعنى الصنم أيضاً

أي أتعبد ءازر .

وجعل قوله سبحانه ﴿ أَتَتَّخِذُ ﴾ الخ تفسيراً وتقريراً بمعنى أنه قرينة على الحذف لا بمعنى التفسير المصطلح عليه في باب الاشتغال لأن ما بعد الهمزة لا يعمل فيما قبلها وما لا يعمل لا يفسر عاملاً كما تقرر عندهم .

والذي عول عليه الجم الغفير من أهل السنة أن ءازر لم يكن والد إبراهيم عليه السلام وادعوا أنه ليس في آباء النبي صلى الله عليه وسلم كافر أصلاً لقوله عليه الصلاة والسلام " لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات والمشركون نجس " .

وتخصيص الطهارة بالطهارة من السفاح لا دليل له يعول عليه .

والعبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب .

وقد ألفوا في هذا المطلب الرسائل واستدلوا له بما استدلوا ، والقول بأن ذلك قول الشيعة كما ادعاه الإمام الرازي ناشىء من قلة التتبع ، وأكثر هؤلاء على أن ءازر اسم لعم إبراهيم عليه السلام .

*(175/237)*

وجاء إطلاق الأب على العم في قوله تعالى : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الموت إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إلهك وإله آبَائِكَ ﴾ [ البقرة : 133 ] وفيه إطلاق الأب على الجد أيضاً .

وعن محمد بن كعب القرظي أنه قال : الخال والد والعم والد وتلا هذه الآية .

وفي الخبر "ردوا على أبي العباس" وأيد بعضهم دعوى أن أبا إبراهيم عليه السلام الحقيقي لم يكن كافرا وإنما الكافر عمه بما أخرجه ابن المنذر في "تفسيره" بسند صحيح عن سليمان بن صرد قال : لما أرادوا أن يلقوا إبراهيم عليه السلام من النار جعلوا يجمعون الحطب حتى إن كانت العجوز لتجمع الحطب فلما تحقق ذلك قال : حسبي الله تعالى ونعم الوكيل فلما ألقوه قال الله تعالى : ﴿ قُلْنَا يانار كُونِى بَرْداً وسلاما على إبراهيم ﴾ [ الأنبياء : 69 ] فكانت فقال عمه من أجلي دفعه عنه فأرسل الله تعالى عليه شرارة من النار فوقعت على قدمه فأحرقته .

وبما أخرج عن محمد بن كعب وقتادة ومجاهد والحسن وغيرهم أن إبراهيم عليه السلام لم يزل يستغفر لأبيه حتى مات فلما مات تبين له أنه عدو لله فلم يستغفر له ثم هاجر بعد موته وواقعة النار إلى الشام ثم دخل مصر واتفق له مع الجبار ما اتفق ثم رجع إلى الشام ومعه هاجر ثم أمره الله تعالى أن ينقلها وولدها إسمعيل إلى مكة فنقلهما ودعا هناك فقال : ﴿ رَّبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ المحرم ﴾ إلى قوله :

﴿ رَبَّنَا اغفر لِى وَلِوَالِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحساب ﴾ [إبراهيم : 37 ، 41 ] فإنه يستنبط من ذلك أن المذكور في القرءان بالكفر هو عمه حيث صرح في الأثر الأول أن الذي هلك قبل الهجرة هو عمه ودل الأثر الثاني على أن الاستغفار لوالديه كان بعد هلاك أبيه بمدة مديدة فلو كان الهالك هو أبوه الحقيقي لم يصح منه عليه السلام هذا الاستغفار له أصلاً ؛ فالذي يظهر أن الهالك هو العم الكافر المعبر عنه بالأب مجازاً وذلك لم يستغفر له بعد الموت وأن المستغفر له إنما هو الأب الحقيقي وليس بآزر ، وكان في التعبير بالوالد في آية الاستغفار وبالأب في غيرها إشارة إلى المغايرة .

ومن الناس من احتج على أن آزر ما كان والد إبراهيم عليه السلام بأن هذه دالة على أن عليه السلام شافهه بالغلظة والجفاء لقوله تعالى فيها : ﴿ إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ ﴾ أي الذين يتبعونك في عباداتها ﴿ فِى ضلال ﴾ عظيم عن الحق ﴿ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهر لا اشتباه فيه أصلا ، ومشافهة الأب بالجفاء لا يجوز لما فيه من الإيذاء .

وآية التأفيف بفحواها تعم سائر أنواع الإيذاءات كعمومها للأب الكافر والمسلم .

وأيضاً إن الله تعالى لما بعث موسى عليه السلام إلى فرعون أمره بالرفق معه والقول اللين له

رعاية لحق التربية وهي في الوالد أتم .

وأيضاً الدعوة بالرفق أكثر تأثيراً فإن الخشونة توجب النفرة فلا تليق من غير إبراهيم عليه السلام مع الأجانب فكيف تليق منه مع أبيه وهو الأواه الحليم .

وأجيب بأن هذا ليس من الإيذاء المحرم في شيء وليس مقتضى المقام إلا ذاك ولا نسلم أن الداعي لأمر موسى عليه السلام باللين مع فرعون مجرد رعاية حق التربية وقد يقسو الإنسان أحياناً على شخص لمنفعته كما قال أبو تمام :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما . . .

فليقس أحياناً على من يرحم

وقال أبو العلاء المعري :

اضرب وليدك وادلله على رشد . . .

ولا تقل هو طفل غير محتلم

فرب شق برأس جر منفعة . . .

*(177/237)*

وقس على شق رأس السهم والقلم

وقال ابن خفاجة الأندلسي

: نبه وليدك من صباه بزجره . . .

فلربما أغفى هناك ذكاؤه وانهره حتى تستهل دموعه

في وجنتيه وتلتظي أحشاؤه فالسيف لا يذكو بكفك ناره . . .

حتى يسيل بصفحتيه ماؤه

وكون الرفق أكثر تأثيراً غير مسلم على الإطلاق فإن المقامات متفاوتة كما ينبىء عن ذلك قوله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام تارة : ﴿ وجادلهم بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [ النحل : 125 ] وأخرى ﴿ واغلظ عَلَيْهِمْ ﴾ [ التوبة : 73 ] نعم لو ادعى أن ما ذكر مؤيد لكون آزر ليس أباً حقيقياً لإبراهيم عليه السلام لربما قبل وحيث ادعى أنه حجة على ذلك فلا يقبل فتدبر .

والرؤية إما علمية والظرف مفعولها الثاني وإما بصرية فهو حال من المفعول والجملة تعليل للإنكار والتوبيخ ومنشأ ضلال عبدة الأصنام على ما يفهم من كلام أبي معشر جعفر بن محمد المنجم البلخي في بعض كتبه اعتقاد أن الله تعالى جسم .

فقد نقل عنه الإمام أنه قال : "إن كثيراً من أهل الصين والهند كانوا يثبتون الإله والملائكة إلا أنهم يعتقدون أنه سبحانه جسم ذو صورة كأحسن ما يكون من الصور وللملائكة أيضاً

صور حسنة إلا أنهم كلهم محتجبون ( عنا ) بالسموات فلا جرم اتخذوا صوراً وتماثيل أنيقة المنظر حسنة الرؤيا والهيكل وجعلوا الأحسن هيكل الإله وما دونه هيكل المَلَك وواظبوا على عبادة ذلك قاصدين الزلفى من الله تعالى ومن الملائكة" ، وذكر الإمام نفسه في أصل عبادة الأصنام أن الناس رأوا تغيرات أحوال هذا العالم الأسفل مربوطة بتغيرات أحوال الكواكب فزعموا ارتباط السعادة والنحوسة بكيفية وقوعها في الطوالع ثم غلب على ظن أكثر الخلق أن مبدأ حدوث الحوادث في هذا العالم هو الاتصالات الفلكية والمناسبات الكوكبية فبالغوا في تعظيم الكواكب .

ثم منهم من اعتقد أنها واجبة الوجود لذاتها .

ومنهم من اعتقد حدوثها وكونها مخلوقة للاله الأكبر إلا أنهم قالوا : إنها مع ذلك هي المدبرة لأحوال العالم .

*(178/237)*

---

وعلى كلا التقديرين اشتغلوا بعبادتها .

ولما رأوها قد تغيب عن الأبصار اتخذوا لكل كوكب صنماً من الجوهر المنسوب إليه بزعمهم وأقبلوا على عبادته وغرضهم من ذلك عبادة تلك الكواكب والتقرب إليها .

ولهذا أقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الأدلة على أن الكواكب لا تأثير لها ألبتة في أحوال هذا العالم كما قال سبحانه ﴿ لَهُ الخلق والأمر ﴾ [ الأعراف : 45 ] بعد أن بين أن الكواكب مسخرة .

وعلى أنها لو قدر صدور فعل منها وتأثير في هذا العالم لا تخلو عن دلائل الحدوث وكونها مخلوقة فيكون الاشتغال بعبادة الفرع دون عبادة الأصل ضلالاً محضاً .

ويرشد إلى أن حاصل دين عبدة الأصنام ما ذكر أنه سبحانه بعد أن حكى توبيخ إبراهيم عليه السلام لأبيه على اتخاذها أقام الدليل على أن الكواكب والقمر لا يصلح شيء منها للإلهية .

وأنا أقول : لعل هذا سبب في عبادة الأصنام أولاً وأما سبب عبادة العرب لها فغير ذلك .

قال ابن هشام : "حدثني بعض أهل العلم أن عمرو بن لحي وهو أول من غير دين إبراهيم عليه السلام خرج من مكة إلى الشام في بعض أسفاره فلما قدم ( مآب ) من أرض البلقاء وبها يومئذ العمالقة أولاد عِمْلاق ويقال عِمْلِيق بن لاوذ ( بن إرم ) بن سام بن نوح عليه السلام رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم : ما هذه التي أراكم تعبدون ؟ فقالوا : هذه الأصنام نعبدها ونستمطر بها فتمطرنا ونستنصر بها فتنصرنا فقال لهم : ألا تعطوني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه ؟ فأعطوه صنماً يقال له هبل فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته .

---

وقال ابن إسحاق : يزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل عليه السلام وذلك أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم حين ضاقت عليهم والتمسوا الفَسَحَ في البلاد إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم فحيث ما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة ( حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم ) حتى خلفهم الخلف ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام غيره فعبدوا الأوثان فصاروا على ما كانت الامم قبلهم من الضلالات" ، وسيأتي إن شاء الله تعالى تتمة الكلام على ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ﴾

عطف على الجمل السابقة التي أولاها ﴿ وكذّب به قومك وهو الحقّ ﴾ [ الأنعام : 66 ] المشتملة على الحجج والمجادلة في شأن إثبات التوحيد وإبطال الشرك ، فعُقّبت تلك

الحجج بشاهد من أحوال الأنبياء بذكر مجادلة أول رسول أعلَن التوحيد وناظر في إبطال الشرك بالحجّة الدامغة والمناظرة الساطعة ، ولأنَّها أعدل حجَّة في تاريخ الدين إذ كانت مجادلة رسول لأبيه ولقومه ، وكانت أكبر حجّة على المشركين من العرب بأنّ أباهم لم يكن مشركاً ولا مُقِرّاً للشرك في قومه ، وأعظم حجَّة للرسول صلى الله عليه وسلم إذ جاءهم بالإقلاع عن الشرك .

والكلام في افتتاح القصّة بـ ﴿ إذْ ﴾ بتقدير اذْكُر تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ وإذ قال ربّك للملائكة إنِّي جاعل في الأرض خليفة ﴾ في سورة [ البقرة : 30 ] .

وآزر ﴾ ظاهر الآية أنَّه أبو إبراهيم .

ولا شكّ أنّه عُرف عند العرب أنّ أبا إبراهيم اسمُه آزر فإنّ العرب كانوا معتنين بذكر إبراهيم عليه السلام ونسبِه وأبنائه .

وليس من عادة القرآن التعرّض لذكر أسماء غير الأنبياء فما ذكر اسمه في هذه الآية إلاّ لقصد سنذكره .

*(180/237)*

ولم يُذكر هذا الاسم في غير هذه الآية .

والذي في كتب الإسرائيليّين أنّ اسم أبي إبراهيم ( تارح ) بمثناة فوقية فألف فراء مفتوحة فحاء مهملة .

قال الزجاج : لا خلاف بين النسّابين في أنّ اسم أبي إبراهيم تارح .

وتبعه محمد بن الحسن الجويني الشافعي في "تفسير النكت" .

وفي كلامهما نظر لأنّ الاختلاف المنفي إنَّما هو في أنّ آزر اسم لأبي إبراهيم ولا يقتضي ذلك أنه ليس له اسم آخر بين قومه أو غيرهم أو في لغة أخرى غير لغة قومه .

ومثل ذلك كثير .

وقد قيل : إنّ ( آزر ) وصف .

قال الفخر : قيل معناه الهرم بلغة خوارزم ، وهي الفارسية الأصلية .

وقال ابن عطية عن الضحّاك : ( آزر ) الشيخ .

وعن الضحَّاك : أنّ اسم أبي إبراهيم بلغة الفرس ( آزر ) .

وقال ابن إسحاق ومقاتل والكلبي والضحَّاك : اسم أبي إبراهيم تارح وآزر لقب له مثل يعقوب الملقب إسرائيل ، وقال مجاهد : ( آزر ) اسم الصنم الذي كان يعبده أبو إبراهيم فلقّب به .

وأظهر منه أن يقال : أنَّه الصنم الذي كان أبو إبراهيم سادن بيته .

وعن سليمان التيْمي والفرّاء : ( آزر ) كلمةُ سبّ في لغتهم بمعنى المعْوَجّ ، أي عن طريق الخير .

وهذا وهم لأَنَّه يقتضي وقوع لفظ غير عربي ليس بعلم ولا بمعرّب في القرآن .

فإنّ المعرّب شرطه أن يكون لفظاً غير علم نقله العرب إلى لغتهم .

وفي "تفسير الفخر" : أنّ من الوجوه أن يكون ( آزر ) عمّ إبراهيم وأطلق عليه اسم الأب لأنّ العمّ قد يقال له : أب .

ونسب هذا إلى محمد بن كعب القرظي .

وهذا بعيد لا ينبغي المصير إليه فقد تكرّر في القرآن ذكر هذه المجادلة مع أبيه ، فيبعد أن يكون المراد أَنَّه عمّه في تلك الآيات كلِّها .

قال الفخر : وقالت الشيعة : لا يكون أحد من آباء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجداده كافراً .

وأنكروا أنّ ( آزر ) أب لإبراهيم وإنَّما كان عمّه .

وأمّا أصحابنا فلم يلتزموا ذلك .

*(181/237)*

قلت : هو كما قال الفخر من عدم التزام هذا وقد بيّنتُ في "رسالة" لي في طهارة نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ الكفر لا ينافي خلوص النسب النبوي خلوصاً جبليّاً لأنّ الخلوص المبحوث عنه هو الخلوص ممّا يتعيّر به في العادة .

والذي يظهر لي أنَّه : أنّ ( تارح ) لُقِّب في بلد غربة بلقب ( آزر ) باسم البلد الذي جاء منه ، ففي "معجم ياقوت" آزر بفتح الزاي وبالراء ناحية بين سوق الأهواز ورامهرمز .

وفي الفصل الحادي عشر من سفر التكوين من التوراة أنّ بلد تارح أبي إبراهيم هو ( أور الكَلْدَانيين ) .

وفي "معجم ياقوت" ( أور ) بضم الهمزة وسكون الواو من أصقاع رامهرمز من خوزستان" .

ولعلّه هو أور الكلدانيين أو جزء منه أضيف إلى سكّانه .

وفي سفر التكوين أنّ ( تارح ) خرج هو وابنه إبراهيم من بلده أور الكلدانيين قاصدَيْن أرض كنعان وأنهما مرّا في طريقهما ببلد ( حَاران ) وأقاما هناك ومات تارح في حَاران .

فلعلّ أهل حاران دعَوه آزر لأنَّه جاء من صقع آزر .

وفي الفصل الثاني عشر من سفر التكوين ما يدلّ على أنّ إبراهيم عليه السلام نُبِّىء في حاران في حياة أبيه .

ولم يرد في التوراة ذكر للمحاورة بين إبراهيم وأبيه ولا بينه وبين قومه .

ولذا فالأظهر أن يكون ﴿ آزر ﴾ في الآية منادى وأنَّه مبني على الفتح .

ويؤيد ذلك قراءة يعقوب ﴿ آزر ﴾ مضموماً .

ويؤيّده أيضاً ما روي : أنّ ابن عباس قرأه أإزر بهمزتين أولاهما مفتوحة والثانية مكسورة ، وروي : عنه أنَّه قرأه بفتح الهمزتين وبهذا يكون ذكر اسمه حكاية لخطاب إبراهيم إيّاه خطاب غلظة ، فذلك مقتضى ذكر اسمه العلم .

وقرأ الجمهور ﴿ آزر ﴾ بفتح الراء وقرأه يعقوب بضمّها .

واقتصر المفسّرون على جعله في قراءة فتح الراء بياناً من ﴿ أبيه ﴾ ، وقد علمت أنَّه لا مقتضي له .

والاستفهام في ﴿ أتتَّخذ أصناما آلهة ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ .

*(182/237)*

---

والظاهر أنّ المحكي في هذه الآية موقف من مواقف إبراهيم مع أبيه ، وهو موقف غلظة ، فيتعيَّن أنَّه كان عندما أظهر أبوه تصلّباً في الشّرك .

وهو ما كان بعد أن قال له أبوه ﴿ لئن لم تنته لأرجمنَّك ﴾ [ مريم : 46 ] وهو غير الموقف الذي خاطبه فيه بقوله : ﴿ يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ﴾ الآيات في سورة [ مريم

: 42 ].

و﴿ تتّخذ ﴾ مضارع اتّخذ ، وهو افتعال من الأخذ ، فصيغة الافتعال فيه دالَّة على التكلّف للمبالغة في تحصيل الفعل .

قال أهل اللغة : قلبت الهمزة الأصلية تاء لقصد الإدغام تخفيفاً وليّنوا الهمزة ثم اعتبروا التاء كالأصلية فربما قالوا : تخذ بمعنى اتّخذ ، وقد قرىء بالوجهين قوله تعالى : ﴿ لو شئت لاتَّخذت عليه أجراً ﴾ [ الكهف : 77 ] و﴿ لَتَخَذْت عليه أجراً فأصل فعل اتّخذ أن يتعدّى إلى مفعول واحد وكان أصل المفعول الثاني حالاً ، وقد وعدنا عند قوله تعالى : ﴿ قالوا أتتَّخذنا هزؤاً ﴾ في سورة [ البقرة : 67 ] بأن نبيّن استعمال ( اتَّخذ ) وتعديته في هذه السورة .

ومعنى تتّخذ هنا تصطفي وتختار ؛ فالمراد أتعبد أصناماً .

وفي فعل تتّخذ ﴾ إشعار بأنّ ذلك شيء مصطنع مفتعل وأنّ الأصنام ليست أهلاً للإلهية .

وفي ذلك تعريض بسخافة عقله أن يجعل إلهه شيئاً هو صنعه .

والأصنام جمع صنم ، والصنم الصورة التي تمثّل شكل إنسان أو حيوان ، والظاهر أنّ اعتبار كونه معبوداً داخل في مفهوم اسم صنم كما تظافرت عليه كلمات أهل اللغة فلا يطلق على كلّ صورة ، وفي "شفاء الغليل" : أنّ صنم مُعرّب عن ( شَمَن ) ، وهو الوثن ، أي مع قلب في بعض حروفه ، ولم يذكر اللغة المعرّب منها ، وعلى اعتبار كون العبادة داخلة في مفهوم الاسم يكون قوله ﴿ أصناماً ﴾ مفعول ﴿ تتَّخذ ﴾ على أن تتّخذ متعدّ إلى مفعول واحد على أصل استعماله ومحلّ الإنكار هو المفعول ، أي ﴿ أصناماً ﴾ ، ويكون قوله ﴿ آلهة ﴾ حالاً من ﴿ أصناماً ﴾ مؤكّدة لمعنى صاحب الحال ، أو بدلاً من ﴿ أصناماً ﴾ .

وهذا الذي يناسب تنكير ﴿ أصناماً ﴾ لأنَّه لو كان مفعولاً أوّل ل ﴿ تتّخذ ﴾ لكان معرّفاً لأنّ أصله المبتدأ .

وعلى احتمال أنّ الصنم اسم للصورة سواء عبدت أم لم تعبد يكون قوله ﴿ آلهة ﴾ مفعولاً ثانياً ل ﴿ تتّخذ ﴾ على أنّ ﴿ تتّخذ ﴾ مضمّن معنى تجعل وتصيِّر ، أي أتجعل صوراً آلهة لك كقوله ﴿ أتعبدون ما تنحتون ﴾ [ الصافات : 95 ] .

وقد تضمَّن ما حكي من كلام إبراهيم لأبيه أنَّه أنكر عليه شيئين : أحدهما جعله الصور آلهة مع أنَّها ظاهرة الانحطاط عن صفة الإلهية ، وثانيهما تعدّد الآلهة ولذلك جُعل مفعولا ﴿ تتّخذ ﴾ جَمْعَيْن ، ولم يُقل : أتتّخذ الصنم إلهاً .

وجملة : ﴿ إِنِّي أراك وقومك في ضلال ﴾ مبيِّنَة للإنكار في جملة : ﴿ أتتَّخذ أصناما آلهة ﴾ .

وأكّد الإخبار بحرف التأكيد لما يتضمَّنه ذلك الإخبار من كون ضلالهم بيّناً ، وذلك ممَّا ينكره المخاطب ؛ ولأنّ المخاطب لَمَّا لم يكن قد سمع الإنكارَ عليه في اعتقاده قبْل ذلك يحسب نفسه على هدى ولا يحسب أنّ أحداً ينكر عليه ما هو فيه ، ويظن أنّ إنكار ابنه عليه لا يبلغ به إلى حدّ أن يراه وقومه في ضلال مبين .

فقد يتأوّله بأنَّه رام منه ما هو أولَى .

(184/237)

---

والرؤية يجوز أن تكون بصرية قصد منها في كلام إبراهيم أنّ ضلال أبيه وقومه صار كالشيء المشاهَد لوضوحه في أحوال تقرّباتهم للأصنام من الحجارة فهي حالة مشاهد ما فيها من الضلال .

وعليه فقوله : ﴿ في ضلال مبين ﴾ في موضع الحال .

ويجوز كون الرؤية علمية ، وقوله : ﴿ في ضلال مبين ﴾ في موضع المفعول الثاني .

وفائدة عطف ﴿ وقومك ﴾ على ضمير المخاطب مع العلم بأنّ رؤيته أباه في ضلال

يقتضي أن يرى مما ثليه في ضلال أيضاً لأنّ المقام مقام صراحة لا يكتفي فيه بدلالة الالتزام ولينبئه من أول وهلة على أنّ موافقة جمع عظيم إياه على ضلاله لا تعصّد دينه ولا تشكّك من ينكر عليه ما هو فيه .

و﴿ مبين ﴾ اسم فاعل من أبان بمعنى بان ، أي ظاهر .

ووصف الضلال بـ ﴿ مبين ﴾ نداء على قوة فساد عقولهم حيث لم يتفطّنوا لضلالهم مع أنَّه كالمشاهد المرئي .

ومباشرتُه إيَّاه بهذا القول الغليظ كانت في بعض مجادلاته لأبيه بعد أن تقدّم له بالدعوة بالرفق ، كما حكى الله عنه في موضع آخر ﴿ يا أَبَتِ لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يُبصر ولا يغني عنك شيئاً يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتَّبعني أهْدك صراطاً سويّاً إلى قوله سلام عليك سأستغفر لك ربِّي إنَّه كان بي حفيّاً ﴾ [ مريم : 42 47 ] .

فلما رأى تصميمه على الكفر سلك معه الغلظة استقصاء لأساليب الموعظة لعلّ بعضها أن يكون أنجع في نفس أبيه من بعض فإنّ للنفوس مسالك ولمجال أنظارها ميادين متفاوتة ، ولذلك قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ ادْعُ إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ [ النحل : 125 ] ، وقال له في موضع آخر ﴿ واغلُظْ عليهم ﴾ [ التوبة : 73 ] .

فحكى الله تعالى عن إبراهيم في هذه الآية بعض مواقفه مع أبيه وليس في ذلك ما تنافي البُرور

به لأنّ المجاهرة بالحقّ دون سبّ ولا اعتداء لا ينافي البرور .

ولم يزل العلماء يخطّئون أساتذتهم وأئمّتهم وآباءهم في المسائل العلمية بدون تنقيص .

وقد قال أرسطاليس في اعتراض على أفلاطون : أفلاطون صديق والحقّ صديق لكن الحقّ أصدق .

على أنّ مراتب برّ الوالدين متفاوتة في الشرائع .

وقد قال أبناء يعقوب ﴿ تالله إنَّك لفي ضلالك القديم ﴾ [ يوسف : 95 ] . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

*(185/237)*

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ﴾

والحق سبحانه وتعالى يعطي له صلى الله عليه وسلم ما يسليه ويصبّره على مشقات الدعوة ؛ لأن الدعوة للإسلام في أوله أرهقت رسول الله وأصحاب رسول الله ، فيريد سبحانه أن يعطيهم مُثُلاً حدثت للرسل ، وهنا يأتي الحق بخبر عن أبي الأنبياء سيدنا

إبراهيم : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ﴾ [ الأنعام : 74 ] .

وساعة أن تسمع " إذ " فافهم أن " إذ " ظرف ، أي واذكر جيداً الوقت الذي قال فيه إبراهيم لأبيه آزر " أتتخذ أصناماً آلهة " ؟ وما دمت تذكر هذه ، ففي التذكرة تسلية لك عما يصيبك في أمر الدعوة . وهنا وقف العلماء وقفة طويلة ، وتساءل بعضهم : هل آزر هو أبو إبراهيم ، أو أن والده هو تارخ ؟

وقلت من قبل : إن الأبوة تمثل ما هو أصل للفرد ؛ فالأب ، والجد ، وجد الجد أب ، وأطلقت الأبوة على المساوي للأب ، مثل العم . وجاء مثل هذا في القرآن حين قال الحق سبحانه : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الموت إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وإله آبَائِكَ ﴾ [ البقرة : 133 ] .

وآباء هنا جمع ، وإذا ما عددنا هؤلاء الآباء نجدهم : إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، والكلام من يعقوب ، وأبوه إسحاق ، وإسحاق بن إبراهيم ، وبرغم ذلك جاء سيدنا إسماعيل وسط هؤلاء الآباء ، فكأنك إن وزعتها قلت : " إبراهيم أب ، ويبقى اثنان : هما إسماعيل وإسحاق . وإسماعيل هو أخ لإسحاق ، كأن القرآن نطق بأن العلم يطلق عليه أب " .

وأقول ذلك لأضفي مسألة وقع فيها اللغط الكثير ؛ فالبعض من العلماء قال : هل كان آزر أباً لإبراهيم ؛ والحديث الشريف يقول :

" خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح ، من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي ولم يصبني من سفاح الجاهلية شيء " .

فكأن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أنه من سلسلة نسب مُوَحّد لا يمكن أن يكون للشرك فيه مجال ، وآزر كان مشركاً ، وما دام الحق يقول في آية أخرى : ﴿ إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ ﴾ . فلو أن آزر الوالد الحقيقي لإبراهيم لكان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من ذريته . وأرى أنه عمّه ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : " ما زلت أتنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات " ، وهو قول يدل على أن نسبة الشريف مطهر من الشرك من جهة الآباء ومن جهة الأمهات ، إذن فلا يصح أن نعتقد أن أبا إبراهيم هو آزر ؛ لأنه كان على هذا الوضع مشركا ، لكن كيف نفسر قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ ﴾ ؟ . (1)

نقول : إننا نأخذ اللغة ، ونأخذ استعمالات القرآن في معنى الأبوة . والقرآن صريح في أن الأبوة كما تطلق على الوالد الحقيقي الذي ينحدر الولد من صلبه تطلق كذلك على أخي الوالد أو عمه .

والدليل على ذلك أن القرآن الذي قال : ﴿ لِأَبِيهِ آزَرَ ﴾ وهو بعينه القرآن الذي قال : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الموت إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وإله آبَائِكَ ﴾ [ البقرة : 133 ] .

إذن آباء هي جمع أب ، وأقل الجمع ثلاثة : إبراهيم إذن وكذلك العم إسماعيل يطلق على كل منهما أب ، وأيضاً إسحاق وهو والد يعقوب ، هؤلاء هم الآباء المذكورون في هذه الآية .

---

(1) هذا الكلام فيه نظر وقد تم الرد عليه فيما سبق . والله أعلم .

*(187/237)*

---

وهنا نفهم أن أبوة إسماعيل ليعقوب إنما هي أبوة عمومة ؛ لأن يعقوب بن إسحاق ، وإسحاق أخو إسماعيل . إذن فقد أطلق الأب وأريد به العم ، ويدلنا الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك حينما أُخِذَ عمه العباس أسيراً فقال : ردوا عليّ أبي ؛ وأراد عمّه العباس .

وبعد ذلك نأتي لنقول : إننا حين نطلق كلمة الأب في أعرافنا نعلم أن اللغة التي نتكلمها لغة منقولة بالسماع ، مركوزة في آذاننا ، ينطق بها لساننا ، والعامية وإن كانت تحرف الفصيح إلا أن أصولها منقولة عن أسلافنا وآبائنا ، وهم حين يريدون الأب الحقيقي يقولون له أب ولا يأتون باسمه الشخصي ؛ فإذا جاء لك إنسان وقال لك : أبوك موجود ؟ . ولم ينطق باسم

الوالد فهو يقصد والدك فعلاً . لكن افرض أن لك عَمّاً ، فيقول لك السائل : أبوك محمد موجود ؟

لقد جاء هنا بتحديد الاسم العلم حتى ينصرف الذهن إلى السؤال عن العم ؛ لأنه لو أراد الأب الحقيقي لما ذكر اسمه واكتفى بالسؤال عنه بالأبوة فقط ، إذن فلو قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﴾ . ولم يحدد العلم لقلنا إن آزر هو والد إبراهيم وليس عمّه وبذلك يكون هو جد رسولنا ، ولكن القرآن حدد الاسم وقال : ﴿ لأَبِيهِ آزَرَ ﴾ أي ميّز اسم الشخص ليخرج الأب الحقيقي من كلمة أب ، وبذلك تنتهي الخلافية في هذه المسألة .

*(188/237)*

---

ولماذا يطلب الحق سبحانه من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يذكر ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ ﴾ ؟ لأن رسول الله جاء على فترة من الرسل وجاء في الأزمة التي واجهت الدعوة أول مواجهة وهي أمة العرب وعلى رأسها قريش ، وهو صلى الله عليه وسلم إن كان قد جاء على فترة الرسل ، إلا أن إبراهيم يعيش في عقائد هؤلاء القوم ؛ لأن كل أمور إبراهيم النسكية كانت في هذا المكان ، فمثلاً همّه بذبح ابنه وفداء السماء لابنه كانا في هذا المكان ، ورفعه للكعبة كان في هذا المكان ، والكعبة هي مركز السيادة لقريش

، ولولا الكعبة لكانت قريش كسائر القبائل .

لقد أراد الحق أن يوضح لقريش أن السيادة التي أخذتموها على العرب كافة جاءت لكم بسبب الكعبة وهذا البيت ، فلو لم يوجد هذا البيت وهذه الكعبة ، لكنتم قبيلة من القبائل ، لا مهابة لكم ولا سلطان ، ولا جاه ، ولكنكم تعلمون أن تجارتكم تذهب إلى الشمال وإلى الجنوب ، ولا يتعرض لها أحد بسوء أبداً ؛ لأن الذين يتعرضون لكم سواء منهم من كان في الشمال أو في الجنوب سيأتون في يوم ما إلى الكعبة هذه ليؤدوا مناسك الحج وستتمكنون منهم في أثناء وجودهم في البيت .

ولذلك قلنا حينما تعرضنا إلى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [ الفيل : 1-5 ]

إن الحق أتبعها بالقول : ﴿ لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ * إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشتآء والصيف ﴾ [ قريش : 1-2 ]

إذن لو أن البيت تعرض للهدم من أبرهة الحبشي لسقطت مهابة قريش ، وقد نصرهم الله لتظل لقريش رحلة الشتاء والصيف ، ولذلك قال : ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت * الذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [ قريش : 3-4 ]

إن رب هذا البيت هو الذي أعزهم وحماهم بوجود هذا البيت الذي رفعه إبراهيم .

إذن فالقوم وإن كانوا يعبدون الأصنام إلا أن لهم صلة عقدية بإبراهيم ، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يدخل إلى قلوبهم بالحنان الذي يعرفونه لإبراهيم الذي هو سبب هذا العزّ وسبب هذا الجاه والسيادة وأيضاً لأن المواجهة العقدية إنما جاءت أولاً لعبادة الأصنام ، والمسألة في سيدنا إبراهيم كانت كذلك في عبادة الأصنام ، فهناك – إذن – ارتباطات متعددة فأتى الحق هنا بقصة سيدنا إبراهيم ليرقق بها قلب هؤلاء .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاما آلِهَةً ﴾ والأصنام هي شيء من الحجارة يصنع على مثال حي ، أما الوثن فهو قطعة من حجر خام لم يشكل أو يعالج أو يصنّع كانوا يقدسونه ، وهكذا نعرف الفارق بين الصنم والوثن ، وكيف دخلت فكرة الأصنام على عقول الناس ؟ ومن أين جاءت ؟ .

نعلم أن الناس لهم أسباب مباشرة في الحياة ؛ فالإنسان حين يتطلب الضوء يرى الشمس قد أشرقت ، وفي الليل يرى القمر قد طلع ، ويرى الجبال تعطي له الصلابة والقوة ، ويقيم فيها بيوتاً .

إذن فيه أشياء يرى الإنسان فيها السببية الظاهرة ، فيعتقد أنها الفاعلة . وحين يرى هذه الأشياء ويظن أنها الفاعلة يظن أن لها قداسة سواء أكانت الشمس أم القمر . إذن فقبل أن

توجد أصنام وجدت كواكب وكانوا يعبدونها . بدليل أن الحق يقول : ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً . . . ﴾ [الأنعام : 74]

وبعد ذلك يأتي في النقاش ولا يأتي بسيرة الأصنام : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيلُ رَأَى كَوْكَباً . . . ﴾ [الأنعام : 76]

*(190/237)*

---

إذن فقد كانت هناك علاقة بين الأصنام وبين الكواكب ، والأصل فيها أن الأنسان حينما يرى شيئاً ينفعه ، ينسب إليه كل نفع يحصل عليه ويرى له قوة يحترمها فيه ، ولم ينتبه الإنسان إلى أن خالق هذه الأشياء غيب ، فَعَبَدَ الشيء الظاهر له ، وعندما وجد الإنسان أن الكواكب تأفل وتغيب قال بعض الناس : لنقيم أصناماً تذكرنا بها ، وصار هناك صنم يمثل الشمس ، وصنم يمثل القمر ، وآخر يمثل النجم الفلاني ، أي أن الأصنام إنما جعلت لتذكر بالأصل من الكواكب ، ولذلك أقول دائما : يجب على الناس ألا تغفل عن المسبب لأنه سبحانه – هو وراء الأسباب ، وكلما ارتقى العقل يسلسل الأسباب ، إلى أن تنتهي إلى مسبب ليس وراءه سبب ، وإذا انتهت يد المخلوق وعجزت في الأسباب تبدأ يد الخالق ؛ فالذين يفتنون بالأسباب هم الذين ينظرون إليها على أنها الفاعلة بذاتها .

ولذلك حينما أغفلت وسترت قضية الدين في أذهان الناس بدأوا ينظرون إلى ما حولهم وما ينفهم ، فتوجهوا بالعبادة له ، وكانوا قبل الرسالة يحجون إلى الكعبة ويحبون الكعبة ، وحين يغتربون في كثير من الرحلات يأخذون قطعة من حجر من نوعية أحجار الكعبة في الرحلة الطويلة ، وحين يراها أحد من هؤلاء يطمئن ، ولكن بطول الزمن انفردت هذه الأشياء بتقديس خاص يعزلها عن الأسباب .

وهكذا عرفنا أن سيدنا إبراهيم خليل الرحمن كانت له عند العرب هذه المكانة ، وكذلك عند أهل الكتاب حتى أنهم ادعوا انتسابه لهم فبعضهم قال : إن إبراهيم كان يهودياً ، وقال الآخرون : إنه كان نصرانياً ، وجاء القرآن وهو يواجه كفار قريش ، وكذلك أهل الكتاب فيأتي الله بقصة سيدنا إبراهيم ليعطينا قضية العقائد ويوضحها توضيحاً يؤنسهم بمن له في نفوسهم ذكر .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [ الأنعام : 74 ]

(191/237)

والضلال أن تريد غاية فتضل الطريق إليها ، وكان الناس عندهم غاية في ذلك الزمان أن يقدسوا ، ويقدروا من ينعم عليهم بالنعم . إلا أنهم أخطأوا الطريق ووقفوا عند السبب ، ولم يذكروا ولم يدركوا ما وراء السبب ، ومن هنا جاء الضلال المبين . فكان من طبيعة الإنسان أنه يتقدم بالولاء وبالخضوع وبالشكر لمن يرى نعمة منه عليه ، لكنهم ضلوا الطريق ؛ لأنهم ساروا في النعمة في حلقات الأسباب ، ولم يصلوا بالأسباب إلى المسبب . وهذا ضلال مبين لأنه فتنة خَلْقٍ في خَلْق ؛ فالإنسان الأول الذي جاء وأقبل على عالم مخلوق له ، وأقبل على أرض وأقبل على شمس ، وأقبل على قمر ، وأقبل على نجوم ، وأقبل على سحاب يمطر له الماء ، وأقبل على جبال تمده بالأقوات كان من الواجب عليه أن يلتفت لهذه المسألة ؛ لأنه لم يصنعها ولا ادّعى أحد أنه صنعها ، أما كان من الواجب أن يفكر تفكيراً يسيرا فيمن خلق له هذه الأشياء ؟ !

إن أتفه الأشياء تحتاج إلى صانع ، مثال ذلك الكوب الذي نشرب فيه الماء لا يكون كوباً أمام أي واحد فينا إلا بعد أن انتقل وتقلب في مراحل متعددة ممن اكتشف المادة وممن صهرها كيماوياً وممن أنفق عليها إلى أن وصل إلى الكوب ، وكذلك المصباح ، إن نظرنا إلى الأجهزة التي خَلْفَه وأسهمت في إيجاده لوجدناها أجهزة كثيرة من إمكانات مالية إلى قدرات علمية ، من ماديات موجودة في الأرض إلى أن وصل إلى هذا المصباح الذي يتغير كل فترة ، فما بالنا

بالشمس التي تنير نصف الكون في وقت ، ونصف الكون الآخر في وقت آخر وليس لها قطع غيار ، ولم تقصر يوماً في أداء مهمتها .

*(192/237)*

---

وكثيراً ما درسنا في المدارس قصة من اخترع المصباح " أديسون " وكانت قصة هذا الاختراع تفيض بإعجاب من يكتبون عنها ولم نجد من يدرس لنا – بإعجاب وإيمان – دقة الشمس التي تنير الكون ، فالآفة أننا نقف فقط عند حلقات الأسباب ، والوقوف عند حلقات الأسباب هو وقفة عقلية سطحية ، ومن أجل أن نزيد من عمق الفهم لا بد أن نسلسل السبب وراء السبب وراء السبب إلى أن نصل إلى مسبب ليس وراءه سبب .

وأن نرهف آذاننا لمن يأتي ليحل لنا هذا اللغز ويقول لنا : لقد خلق الله كل الكون من أجلكم وصفاته سبحانه أنه لا مثيل له في قدرته ومطلق حكمته ، ومطلوبه هو منهجه .

إذن فالرسل قد جاءوا رحمة لينقذونا ويبينوا لنا هذا اللغز . فإذا جاء الحق سبحانه وتعالى وأوضح : أنا الذي خلقت السموات ، وأنا الذي خلقت الأرض ، وأنا الذي سخرت لك كل ما في الكون ، فهذه دعوة ، والدعوة إما أن تكون حقيقية فتعلن الإيمان به وسبحانه ، وإما غير حقيقية ، فنسأل : من خلق الكون – إذن – غير الله ؟ . ولماذا لم يقل

لنا صفاته ، ولم يرسل لنا بلاغاً عنه ؟ . ولأن أحداً لم يفعل ذلك إذن فالألوهية تثبت لمن أبلغنا عن ذاته وصفاته وصنعته عبر الرسل ، فلم يوجد معارض له ، وحين قال سبحانه : أنا إله واحد ، وأنا خلقت الكون ، وسخرته لكم فنحن نصدق هذا البلاغ .

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا ألا نقف عند الأسباب فقط حتى لا نقع في ضلال مبين ، ومن الواجب أن نبحث عما وراء الأسباب إلى أن تنتهي إلى شيء لا شيء بعده ننتهي إلى مسبب السباب ومالك الملك – جلت قدرته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(193/237)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (74) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : آزر الصنم ، وأبو إبراهيم اسمه يازر ، وأمه اسمها مثلى ، وامرأته استمها سارة ، وسريته أم اسمعيل اسمها هاجر ، وداود بن أمين

، ونوح بن لمك ويونس بن متى .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : آزر لم يكن بأبيه ولكنه اسم صنم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : اسم أبيه تارح ، وأسم الصنم آزر .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر ﴾ قال : ليس آزر بأبيه ولكن ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر ﴾ وهن الآلهة ، وهذا من تقديم القرآن ، إنما هو إبراهيم بن تيرح .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن سليمان التيمي أنه قرأ ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر ﴾ قال : بلغني أنها أعوج ، وأنها أشد كلمة قالها إبراهيم لأبيه .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة ﴾ قال : كان يقول أعضد ، أتعتضد بالآلهة من دون الله لا تفعل ؟ ويقول : إن أبا إبراهيم لم يكن اسمه آزر وإنما اسمه تارح . قال أبو زرعة : بهمزتين ( أءزر ) .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك في الآية قال : آزر أبو إبراهيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " وإذ قال " " إذ " منصوب بفعل محذوف ، أي : اذكر ، وهو معطوف على " أقيموا " : قاله أبو البقاء ، وقال : في محل خَفْضٍ بالظرف .

قوله : " آزَرَ " الجمهور على " آزرَ " ، مفتوح الزاي والراء ، وإعرابه حينئذ على أوجه :

أحدها : أنه بدلٌ من أبيه ، أو عطف بيان له إن كان آزر لَقَباً له ، وإن كان صفة له بمعنى المخطئ [ كما قال الزجاج ] أو المعوج كما قاله الفراء ، وسليمان التيمي ، أو الشيخ الهرم كما قاله الضحاك فيكون نعتاً لـ " أبيه " ، أو حالاً منه بمعنى : وهو في حال اعْوِجَاج أو خطأ ، وينسب للزجاج .

وإن قيل : إن " آزر " كان اسم صنم كان أبوه يعبده ، كما قاله سعيد بن المسيب ومجاهد ، فيكون إذ ذاك عطف بيان لـ " أبيه " أو بدلاً منه ، ووجه ذلك أنه لما لازم عبادته نُبِزَ به وصار لقباً له كما قال بعض المحدثين : [ البسيط ]

2208 - أدْعَى بِأسْمَاءَ نَبْزاً فِي قَبَائِلِهَا . . .

كَأنَّ أسْمَاءَ أضْحتْ بَعْضَ أسمَائِي

كذا نَسَبَهُ الزمخشري إلى بعض المحدثين ، ونسبه أبو حيان لبعض النحويين .

قال الزمخشري : "كما نبز ابن قيس بـ " الرقيات " [ اللاتي كان يُشبِّبُ بهن فقيل : ابن قيس الرُّقَيَّات " ] أو يكون على حذف مضاف ، أي لـ " أبيه " عابد آزر ، ثم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مُقَامَهُ ، وعلى هذا فيكون عابد صفة لـ " أبيه " أعْرِبَ هذا بإعرابه ، أو يكون منصوباً على الذَّمِّ .

*(195/237)*

---

و " آزر " ممنوع من الصرف ، واختلف في عِلّةِ منعه ، فقال الزمخشري : والأقرب أن يكون وزن " آزر " " فاعل " كـ " عابر " و " شالخ " و " فالغ " فعلى هذا هو ممنوع للعميّة والعُجْمَةِ . وقال أبو البقاء : ووزنه " أفعل " ولم ينصرف للعُجْمَةِ ، والتعريف على قول من لم يشتقه من الأزر أو الوزر ، ومن اشْتَقَّهُ من واحد منهما قال : هو عربين ولم يصرفه للتعريف ، ووزن الفعل ، وهذا الخلاف يشبه الخلاف في " آدم " وقد تقدَّم أن اختيار الزمخشري فيه أنه " فاعل " كـ " عابر " ومن جرى على ذلك ، وإذا قلنا بكونه صِفَةً على ما قاله الزَّجَّاجُ بمعنى المخطئ ، أو بمعنى المعوج ، أو بمعنى الهرم ، كما قاله الفراء والضحاك ، فيشكل مَنْعُ صرفه ، وسيشكل أيضاً وقوعه صِفَةً للمعرفة .

وقد يُجَابُ عن الأول بأن الإشكال قد يندفع بادّعاءِ وزنه على " أفعل " ، فيمتنع حينئذ

للوزن والصفة كـ " أحمر " وبابه ، وأما على قول الزمخشري فلا يَتَمَشَّى ذلك .

وعن الثاني : بأنا لا نُسَلِّمُ أنه نَعْتٌ لأبيه ، حتى يلزم وصف المعارف بالنكرات ، بل هو منصوب على الذَّمِّ ، أو على نِيَّةِ الألف واللام قالهما الزجاج .

والثاني ضعيف ؛ لأنه حَذَفَ " أل " وأراد معناها ؛ إما أن يؤثّر منع الصرف كما في " سحر " ليوم بعينه ، ويسمى عدلاً ؛ وإما أن يؤثِّر بناءً ويسمى تَضَمناً كـ " أمس " وفي " سحر " و " أمس " كلام طويل ، ولا يمكن أن يقال/ : إن " آزر " امتنع من الصرف كما امتنع " سحر " أي للعدل عن " أل " ؛ لأن العدلَ يمنع فيه مع التعريف ، فإنه لوقت بعينه ، بخلاف هذا فإنه وصف كما فرضتم .

وقرا أُبَيُّ بن كعب ، وعبد الله بن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، ويعقوب في آخرين بضم الراء على أنه منادى حذف حرف ندائه كقوله تعالى : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا ﴾ [ يوسف : 29 ] أو كقوله : [ الطويل ]

2209 - لِيُبْكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِخُصُومَةٍ . . . . . .

*(196/237)*

في أحد الوجهين ، أي يا يزيد ، ويُؤيِّدُهُ ما في مصحف أبيّ : " يا آزر " بإثبات حرفه ، وهذا إنما يَتَمَشَّى على دعوى أنه عَلَمٌ ، وإما على دعوى وَصْفِيَّتِهش فضعيف ؛ لأن حذف حرف النداء يقل فيها كقولهم : [ الخفيف ]

2210 - افْتَدِ مَعْتُوقُ وصَاحِ شَمَّرْ . . . . . .

وقرأ ابن عباس في رواسة " أأزْراً " بهمزتين مفتوحتين [ وزاي ساكنة ] وراء منونه منصوبة ، و" تتخذ " بدون همزة استفهام ، ولما حكى الزمخشري هذه القراءة لم يسقط همزة الاستفهام من " أتتخذ " فأما على القراءة الأولى ، فقال ابن عطية مُفَسّراً لمعناها : " أعَضُداً وقُوَّةً ومُظَاهرةً على الله تتَّخِذ " ، وهو من قوله : ﴿ اشدد بِهِ أَزْرِي ﴾ [ طه : 31 ] انتهى .

وعلى هذا فيحتمل " آزاراً " أن ينتصب من ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه مَفْعُولٌ من أجله و" أصناما آلهة " منصوب بـ " تتخذ " على ما سيأتي بيانه ، والمعنى : أتتخذ أصْنَاما آلهة لأجل القوة والمُظَاهرة .

والثاني : أنه ينتصب على الحال ؛ لأنها في الأصْلِ صفة لـ " أصنافاً " فلما قُدِّمَتْ عليها ، وعلى عاملها انتصبت على الحال .

والثالث : أن ينتصب على أنه مفعول ثانٍ قُدِّم على عامله ، والأصل : أتتخذ أصناما آلهة آزراً ، أي قوة ومُظَاهرةٍ .

وأما القراءة الثَّانية فقال الزمخشري : وهو اسم صِنَمٍ ، ومعناه أتعبد آزاراً على الإنكار ، ثم قال : تتخذ أصناماً آلهة تثبيتاً لذلك وتقريراً ، وهو داخل في حكم الإنكار ؛ لأنه كالبيانِ له ، فعلى هذا " آزاراً " منصوب بفعل محذوف يَدُلُّ عليه المعنى ، ولكن قوله : " وهو داخل في حكم الإنكار " يقوي أنه لم يقرأ " أتتخذ " بهمزة الاستفهام ؛ لأنه لو كان معه همزة استفهام لكان مستقلاً بالإنكار ، ولم يحتج أن يقول : " وهو داخل في حكم الإنكار ، لأنه كالبيان له .

*(197/237)*

---

وقرأ ابن عبَّاسٍ أيضاً وأبو إسماعيل " أإزراً " بهمزة استفهام بعدها همزة مكسورة ، ونصب الراء منونة ، فجعلها ابن عطيَّة بدلاً من واو اشتقاقاً من الوزر كـ " إسادة " و " إشاح " في : " وسادة " و " وشاح " .

وقال أبو البقاءِ : وفيه وجهان :

أحدهما : أنَّ الهمزة الثانية فاء الكلمة ، وليست بَدَلاً من شيء ن ومعناها الثقل وجعله الزمخشري اسم صَنَمٍ ، والكلام فيه كالكلام في " أزراً " المفتوح الهمزة وقد تقدم .

وقرأ الأعمش : " إزْراً تَتَّخِذُ " بدون همزة استفهام ، ولكن بكسر الهمزة وسكون الزاي ونصب الراء منونة ، ونصبه واضح مما تقدَّم ، و " تَتَّخِذُ " يحتمل أن تكون المتعدية لاثنين

بمعنى التَّصْيِيرِيَّةِ ، وأن تكون المتعدية لواحد ؛ لأنها بمعنى " عمل " ، ويحكى في التفسر أنَّ أباه كان ينحتها ويصنعها ، والجملة الاستفهامية في مَحَلِّ نصب بالقول ، وكذلك قوله : " إنِّي اراك " و" أراك " يحتمل أن تكون المعملية ، وهو الظَّاهر فتتعدى لاثنين ، وأن تكون بَصَرِيَّة ، وليس بذاك ف " في ضلالها حالٌ ، وعلى التقديرين يتعلق بمحذوف ، إلاَّ أنه في الأوَّل أحد جزئي الكلام ، وفي الثَّاني فَضْلَةٌ .

" مُبِين " اسم فاعل من " أبان " [ لازماً " بمعنى ظَهَرَ ، ويجوز أن يكون من المُتَعدِّين والمفعول محذوف ، أي : مبين كفركم بخالقكم ، وعلى هذا فقول ابن عطية ليس بالفعل المُتعدِّي المنقول من بان يبين غير مسلم ، وجعل الضلال طرفاً محيطاً بهم مبالغة في اتِّصافِهِمْ به ، فهو أبلغ من قوله : " أرَاكُمْ ضَالِّينَ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 228 . 232 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (74) ﴾

الأصل متَّهَمٌ في الجحود ، والنَّسْلُ متَّصِفٌ بالتوحيد ، والحقُّ – سبحانه – يفعل ما يريد .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 484 ﴾

---

فصل في ذكر إبراهيم خليل الرحمن ( صلى الله عليه وسلم )

قال ابن القيم :

وهذا الاسم من النّمط المتقدم فإن إبراهيم بالسريانية معناه أب رحيم والله سبحانه وتعالى جعل إبراهيم الأب الثالث للعالم ، فإن أبانا الأول آدم, والأب الثاني نوح, وأهل الأرض كلهم من ذريته ، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ الصافات: 77 ، وبهذا يتبين كذب المفترين من العجم الذين يزعمون أنهم لا يعرفون نوحاً ولا ولده ، ولا ينسبون إليه ، وينسبون ملوكهم من آدم إليهم ، ولا يذكرون نوحاً في أنسابهم ، وقد أكذبهم الله عز وجل في ذلك .

فالأب الثالث أب الآباء وعمود العالم ، وإمام الحنفاء الذي اتخذه الله خليلاً ، وجعل النبوة والكتاب في ذريته ، ذاك خليل الرحمن ، وشيخ الأنبياء كما سماه النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، فإنه لما دخل الكعبة وجد المشركين قد صوروا فيها صورته وصورة إسماعيل ابنه وهما يستقسمان بالأزلام ، فقال:

قاتلهم الله ، لقد علموا أن شيخنا لم يكن يستقسم بالأزلام ولم يأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتبع ملة أحد من الأنبياء غيره ، فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ النحل:123 ، وأمر أمته بذلك فقال تعالى: ﴿ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ الحج: من الآية78 , وملة منصوب على إضمار فعل ، أي: اتبعوا والزموا ملة إبراهيم ، ودل على المحذوف ما تقدم من قوله: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ الحج: من الآية78 ، وهذا هو الذي يقال له الإغراء . وقيل: منصوب انتصاب المصادر ، والعامل فيه مضمون ما تقدم قبله, وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوصي أصحابه إذا أصبحوا وإذا أمسوا أن يقولوا: أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ، ودين نبينا محمد ، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين .

وتأمل هذه الألفاظ كيف جعل الفطرة للإسلام ، فإنه فطرة الله التي فطر الناس عليها ، وكلمة الإخلاص هي: شهادة أن لا إله إلا الله, والملة لإبراهيم فإنه صاحب الملة ، وهي التوحيد وعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، ومحبته فوق كل محبة . والدين للنبي صلى الله عليه وسلم, وهو دينه الكامل وشرعه التام الجامع لذلك كله .

وسماه الله سبحانه: إماماً وأمة ، وقانتاً ، وحنيفاً . وقال تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ

بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ البقرة:124 ، فأخبر سبحانه أنه جعله إماماً للناس ، وأن الظالم من ذريته لا ينال رتبة الإمامة ، والظالم

(200/237)

---

هو المشرك ، وأخبر سبحانه أن عهده بالإمامة لا ينال من أشرك به ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِراً لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ النحل: 121-122-123 .

فالأمة هو القدوة المعلم للخير ، والقانت المطيع لله الملازم لطاعته ، والحنيف المقبل على الله ، المعرض عما سواه ، ومن فسره بالمائل فلم يفسره بنفس موضوع اللفظ, وإنما فسره بلازم المعنى ، فإن الحنف هو الإقبال ، ومن أقبل على شيء مال عن غيره ، والحنف في الرجلين هو إقبال إحداهما على الأخرى ، ويلزمه ميلها عن جهتها . قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ الروم: الآية30 ، فحنيفاً هو حال مفردة لمضمون قوله: فأقم وجهك للدين ولهذا فسرت مخلصاً فتكون الآية قد تضمنت

الصدق والإخلاص ، فإن إقامة الوجه للدين هو إفراد طلبه بحيث لا يبقى في القلب إرادة لغيره ، والحنيف المفرد لمعبوده لا يريد غيره . فالصدق أن لا ينقسم طلبك ، والإخلاص أن لا ينقسم مطلوبك ، الأول:

توحيد , والثاني: توحيد المطلوب .

والمقصود : أن إبراهيم عليه السلام هو أبونا الثالث ، وهو إمام الحنفاء ، وتسميه أهل الكتاب عمود العالم ، وجميع أهل الملل متفقة على تعظيمه وتوليه ومحبته .

وكان خير بنيه سيد ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم يجله ويعظمه ويبجله ويحترمه .

ففي الصحيحين: من حديث المختار بن فلفل, عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه, قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا خير البرية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ذاك إبراهيم" .

وسماه شيخه, كما تقدم .

*(201/237)*

---

وثبت في صحيح البخاري من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه, عن النبي صلى الله عليه وسلم, أنه قال: إنكم محشرون حفاة عراة غرلاً ثم قرأ: ﴿

كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ الأنبياء: من الآية104 ، وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشبه الخلق به ، كما في الصحيحين, عنه قال: رأيت إبراهيم فإذا أقرب الناس شبهاً به صاحبكم يعني نفسه صلى الله عليه وسلم وفي لفظ آخر: فانظروا إلى صاحبكم .

وكان صلى الله عليه وسلم يعوذ أولاد ابنته حسناً وحسيناً بتعويذ إبراهيم لإسماعيل وإسحاق ، ففي صحيح البخاري: عن سعيد بن جبير, عن ابن عباس رضي الله عنه ، قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين ويقول: "إن أبا كما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة" .

وكان صلى الله عليه وسلم أول من قرى الضيف ، وأول من اختتن ، وأول من رأى الشيب . فقال: ما هذا يا رب ؟ قال: وقار . قال: رب زدني وقاراً .

تفسير قوله تعالى " هل أتاك حديث ضيف إبراهيم" الآية وتأمل ثناء الله سبحانه عليه في إكرام ضيفه الملائكة حيث يقول سبحانه: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ ﴾ الذريات:24-25-26-27 ، ففي هذا ثناء على إبراهيم من وجوه متعددة:

أحدها : أنه وصف ضيفه بأنهم مكرمون وهذا على أحد القولين أنه إكرام إبراهيم لهم .

والثاني: أنهم المكرمون عند الله ، ولا تنافي بين القولين ، فالآية تدل على المعنيين .

(202/237)

---

الثاني: قوله تعالى: إذ دخلوا عليه فلم يذكر استئذانهم ، ففي هذا دليل على أنه صلى الله عليه وسلم كان قد عرف بإكرام الضيفان واعتياد قراهم ، بقي منزله مضيفة ، مطروقاً لمن ورده ، لا يحتاج إلى الاستئذان ، بل استئذان الداخل دخوله ، وهذا غاية ما يكون من الكرم .

الثالث : قوله: سلام بالرفع ، وهم سلموا عليه بالنصب . والسلام بالرفع أكمل فإنه يدل على الجملة الاسمية الدالة على الثبوت والتجدد ، والمنصوب يدل على الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد ، فإبراهيم حياهم بتحية أحسن من تحيتهم, فإن قولهم: سلاماً يدل على سلمنا سلاماً ، وقوله: سلام أي: سلام عليكم .

الرابع : أنه حذف المبتدأ من قوله: قوم منكرون فإنه لما أنكرهم ولم يعرفهم احتشم من مواجهتهم بلفظ ينفر الضيف لو قال: أنتم قوم منكرون ، فحذف المبتدأ هنا من ألطف الكلام .

الخامس : أنه بنى الفعل للمفعول ، وحذف فاعله ، فقال: منكرون ولم يقل إني أنكركم ، وهو أحسن في هذا المقام وأبعد من التنفير والمواجهة بالخشونة .

السادس : أنه راغ إلى أهله ليجيئهم بنزلهم ، والروغان هو الذهاب في اختفاء بحيث لا يكاد يشعر به الضيف ، وهذا من كرم رب المنزل المضيف أن يذهب في اختفاء بحيث لا يشعر به الضيف ، فيشق عليه

ويستحي ، فلا يشعر به إلا وقد جاءه بالطعام ، بخلاف من يسمع ضيفه ويقول له ، أو لمن حضر: مكانكم حتى آتيكم بالطعام ونحو ذلك مما يوجب حياء الضيف واحتشامه .

السابع: أنه ذهب إلى أهله فجاء بالضيافة فدل على أن ذلك كان معدا عندهم مهيأً للضيفان ، ولم يحتج أن يذهب إلى غيرهم من جيرانه أو غيرهم فيشتريه أو يستقرضه .

الثامن : قوله: فجاء بعجل سمين دل على خدمته للضيف بنفسه ، ولم يقل فأمر لهم ، بل هو الذي ذهب وجاء به بنفسه ، ولم يبعثه مع خادمه ، وهذا أبلغ في إكرام الضيف .

التاسع: أنه جاء بعجل كامل ولم يأت ببضعة منه ، وهذا من تمام كرمه صلى الله عليه وسلم .

*(203/237)*

العاشر: إنه سمين لا هزيل ، ومعلوم أن ذلك من أفخر أموالهم ، ومثله يتخذ للاقتناء والتربية ، فآثر به ضيفانه .

الحادي عشر: أنه قربه إليهم بنفسه ولم يأمر خادمه بذلك .

الثاني عشر: أنه قربه إليهم ولم يقربهم إليه وهذا أبلغ في الكرامة ، أن يجلس الضيف ، ثم يقرب الطعام إليه ، ويحمله إلى حضرته ، ولا يضع الطعام في ناحية ثم تأمر ضيفك بأن يتقرب إليه .

الثالث عشر: أنه قال: ألا تأكلون وهذا عرض وتلطف في القول, وهو أحسن من قوله: كلوا ، أو مدوا أيديكم ، ونحوها ، وهذا مما يعلم الناس بعقولهم حسنه ولطفه ، ولهذا يقولون: بسم الله ، أو ألا تتصدق ، أو ألا تجبر ، ونحو ذلك .

الرابع عشر: أنه إنما عرض عليهم الأكل لأنه رآهم لا يأكلون ، ولم يكن ضيوفه يحتاجون معه إلى الإذن في الأكل ، بل كان إذا قدم إليهم الطعام أكلوا ، وهؤلاء الضيوف لما امتنعوا من الأكل قال لهم: ألا تأكلون ولهذا أوجس منهم خيفة ، أي: أحسها وأضمرها في نفسه ولم يبدها لهم وهو الوجه .

الخامس عشر : فإنهم لما امتنعوا من الأكل لطعامه خاف منهم ولم يظهر لهم ذلك ، فلما علمت الملائكة منه ذلك ، قالوا : لا تخف وبشروه بالغلام .

فقد جمعت هذه الآية آداب الضيافة التي هي أشرف الآداب ، وما عداها من التكلفات

التي هي تخلف تكلف إنما هي من أوضاع الناس وعوائدهم, وكفى بهذه الآداب شرفاً وفخراً ، فصلى الله على نبينا وعلى إبراهيم وعلى آلهما وعلى سائر النبيين .

وقد شهد الله سبحانه بأنه وفى ما أمر به فقال تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ النجم: 36-37 ، قال ابن عباس رضي الله عنه: وفى جميع شرائع الإسلام ، ووفى ما أمر به من تبليغ الرسالة .

*(204/237)*

---

وقال تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ البقرة:124 ، فلما أتم ما أمر به من الكلمات جعله الله إماماً للخلائق يأتمون به .

وكان صلى الله عليه وسلم كما قيل: قلبه للرحمن ، وولده للقربان ، وبدنه للنيران ، وماله للضيفان .

ولما اتخذه ربه خليلاً والخلة هي كمال المحبة ، وهي مرتبة لا تقبل المشاركة والمزاحمة ، وكان قد سأل ربه أن يهب له ولداً صالحاً ، فوهب له إسماعيل ، فأخذ هذا الولد شعبة من قلبه ، فغار الخليل على قلب

خليله أن يكون فيه مكان لغيره ، فامتحنه بذبحه ليظهر سر الخلة في تقديمه محبة خليله على محبة ولده ، فلما استسلم لأمر ربه وعزم على فعله وظهر سلطان الخلة في الإقدام على ذبح الولد إيثاراً لمحبة خليله على محبته ، فسخ الله ذلك عنه وفداه بالذبح العظيم ، لأن المصلحة في الذبح كانت ناشئة من العزم وتوطين النفس على ما أمر به ، فلما حصلت هذه المصلحة عاد الذبح مفسدة فنسخ في حقه ، فصارت الذبائح والقرابين من الهدايا والضحايا سنة في أتباعه إلى يوم القيامة .

بيان أن إبراهيم عليه السلام هو الذي فتح للأمة باب مناظرة المشركين وأهل الباطل وكسر حججهم ,

وقد ذكر الله سبحانه مناظرته في القرآن مع إمام المعطلين ، ومناظرته مع قومه المشركين ، وكسر حجج الطائفتين بأحسن مناظرة ، وأقربها إلى الفهم وحصول العلم .

*(205/237)*

---

قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ﴾ الأنعام: من الآية83 ، قال زيد بن أسلم وغيره: بالحجة والعلم, ولما غلب أعداء الله معه بالحجة ، وظهرت حجته عليهم ، وكسر أصنامهم ، فكسر حججهم ومعبودهم ، هموا بعقوبته

وإلقائه في النار ، وهذا شأن المبطلين إذا غلبوا وقامت عليهم الحجة هموا بالعقوبة ، كما قال فرعون لموسى وقد أقام عليه الحجة: ﴿ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ الشعراء:29 ، فأضرموا له النار وألقوه في المنجنيق ، فكانت تلك السفرة من أعظم سفرة سافرها وأبركها عليه ، فإنه ما سافر سفرة أبرك ولا أعظم ولا أرفع لشأنه وأقر لعينه منها ، وفي تلك السفرة عرض له جبريل بين السماء والأرض فقال: " يا إبراهيم ألك حاجة ؟" قال: "أما إليك فلا" .

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ آل عمران:173 ، قالها نبيكم ، وقالها إبراهيم حين ألقي في النار ، فجعل الله سبحانه عليه النار برداً وسلاماً .

وقد ثبت في صحيح البخاري: من حديث أم شريك أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الوزغ وقال: "كانت تنفخ على إبراهيم" .

وهو الذي بنى بيت الله وأذن في الناس بحجه, فكل من حجه واعتمره حصل لإبراهيم من مزيد ثواب الله وإكرامه بعدد الحجاج والمعتمرين ، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ البقرة: من الآية125 ، فأمر نبيه صلى

الله عليه وسلم وأمته أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى تحقيقاً للاقتداء به وإحياء آثاره صلى الله على نبينا وعليه وسلم .

(206/237)

---

ومناقب هذا الإمام الأعظم والنبي الأكرم أجل من أن يحيط بها كتاب ، وإن مد الله في العمر أفردنا كتاباً في ذلك يكون قطرة في بحر فضائله أو أقل ، جعلنا الله ممن ائتم به ، ولا جعلنا ممن عدل عن ملته بمنه وكرمه .

وقد روى لنا عنه النبي صلى الله عليه وسلم حديثاً وقع لنا متصل الرواية إليه ، رويناه في كتاب الترمذي وغيره: من حديث القاسم بن عبد الرحمن, عن أبيه ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لقيت إبراهيم ليلة أسري بي فقال: يا محمد أقرىء أمتك السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان ، وأن غراسها : سبحان الله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر", قال الترمذي: هذا حديث حسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ جلاء الأفهام صـ 205 . 213 ﴾

(207/237)

وقال ابن الجوزى :

المجلس الخامس في قصة إبراهيم الخليل عليه السلام

الحمد لله العلي القوي المتين القاهر الظاهر المبين لا يعزب عن سمعه أقل الأنين ولا يخفى على بصره حركات الجنين ذل لكبريائه جبابرة السلاطين وقل عند دفاعه كيد الشياطين قضى قضاءه كما شاء على الخاطئين وسبق اختياره لما اختار الماء والطين فهؤلاء أهل الشمال وهؤلاء أهل اليمين جرى القدر بذلك قبل عمل العاملين ( ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ) أحمده حمد الشاكرين وأسأله معونة الصابرين وأصلي على رسوله المقدم على التبيين وعلى صاحبه الصديق أول تابع له على الدين وعلى الفاروق عمر القوي الأمين وعلى عثمان زوج ابنته ونعم القرين وعلى علي بحر العلوم الأنزع البطين وعلى عمه العباس ذي الفخر القويم والنسب الصميم قال الله تعالى ( ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ) إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن ساروغ بن أرغو بن فالغ ابن عابر ابن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح بن لامك بن متوشلخ بن أهنخ بن يرد بن مهلاييل بن قاين بن أنوش وأمه نونا بنت كرينا بن كوثا من بني أرفخشذ وكرينا هو الذي كرى نهر كوثى وكان بين الطوفان ومولد إبراهيم ألف سنة وتسع وسبعون وقيل ألف ومائتا سنة وثلاث وستون وذلك بعد خلق آدم عليه السلام بثلاثة آلاف سنة وثلاثمائة وسبع وثلاثين سنة

ولما أراد الله عز وجل إيجاد إبراهيم عليه السلام قال المنجمون لنمرود إنا نجد في علمنا أن غلاماً يولد في قريتك هذه يقال له إبراهيم يفارق دينكم ويكسر أوثانكم في شهر كذا وكذا من سنة كذا وكذا فلما دخلت السنة المذكورة بعث نمرود إلى كل امرأة حامل بقريته فحبسها عنده ولم يعلم بحبل أم إبراهيم فجعل لا يولد غلام في ذلك الشهر إلا ذبحه فلما أخذ أم إبراهيم الطلق خرجت ليلاً إلى مغارة فولدت فيها إبراهيم وأصلحت من شأنه ثم سدت عليه باب المغارة ثم رجعت إلى بيتها وذلك بمدينة كوثى وكانت تتردد إليه فتراه يمص إبهامه قد جعل الله رزقه في ذلك وكان آزر قد سألها عن حملها فقالت ولدت غلاماً فمات فسكت عنها وقيل بل أخبرته فأتاه فحفر له سرباً وسد عليه بصخرة وكانت أمه تختلف إلى رضاعه فلما تكلم قال لأمه من ربي قالت أنا قال فمن ربك قالت أبوك قال فمن رب أبي قالت له اسكت فسكت فرجعت إلى زوجها فقالت له إن الغلام الذي كنا نتحدث أنه يغير دين أهل الأرض هو ابنك فأتاه فقال له مثل ذلك فدنا إبراهيم عليه السلام بالليل من باب السرب فرأى كوكباً قال ابن عباس هو الزهرة قال وكان له حينئذ سبع سنين وقال مجاهد هو المشتري فقال هذا ربي أي على زعمكم فلما خرج كان أبوه يصنع الأصنام ويقول له بعها

فيأخذ الصنم ويخرج فيقول من يشتري ما يضره ولا ينفعه فشاع بين الناس استهزاؤه بالأصنام وجعل يقول لقومه ( ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ) أي مقيمون على عبادتها ( قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ) أي إنا نقتدي بهم ونقلدهم فخرجوا يوماً إلى عيد لهم فخرج معهم ثم ألقى نفسه في الطريق وقال ( إني سقيم )

(209/237)

---

فلما مضوا قال ( تالله لأكيدن أصنامكم ) والكيد احتيال الكائد في ضر الكيد وأراد لأكسرنها فسمع الكلمة رجل منهم فأفشاها عليه فدخل بيت الأصنام وكانت اثنين وسبعين صنماً من ذهب وفضة ونحاس وحديد وخشب فكسرها وجعلهم جذاذا أي فتاتا ثم وضع الفأس في عنق الصنم الكبير ( لعلهم إليه يرجعون ) في هاء الكناية قولان أحدهما أنها ترجع إلى الصنم فيظنون أنه فعل والثاني إلى إبراهيم والمراد الرجوع إلى دينه فلما رجعوا قالوا من فعل هذا بآلهتنا فنم عليه الذي سمع منه ( لأكيدن ) فقالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم أي يعيبهم ( قالوا فأتوا به على أعين الناس ) أي بمرأى منهم ( لعهلم يشهدون ) فيه ثلاثة أقوال أحدها يشهدون أنه قال لآلهتنا ما قال قاله ابن عباس والثاني أنه فعل ذلك قاله السدى والثالث يشهدون عقابه قاله ابن إسحاق ( قالوا أأنت فعلت هذا

بآلهتنا يا إبراهيم ) قال ( بل فعله كبيرهم ) والمعنى أنه غضب أن تعبد معه الصغار فكسرها وكان الكسائي يقف على قوله ( بل فعله ) ويقول معناه فعله من فعله ثم يبتدئ ( كبيرهم هذا ) وقال ابن قتيبة هذا من المعاريض فتقديره ( إن كانوا ينطقون فقد فعله كبيرهم هذا ) ( فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ) حين عبدتم من لا يتكلم ( ثم نكسوا على رءوسهم ) أي أدركتهم حيرة فلما ألزمهم الحجة حملوه إلى نمرود فقال له ما إلهك الذي تعبد قال ربي الذي

*(210/237)*

---

يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت آخذ رجلين قد استوجبا القتل فأقتل أحدهما فأكون قد أمته وأعفو عن الآخر فأكون قد أحييته قال ( فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ) فبهت نمرود وحبسه سبع سنين وجوع له أسدين وأرسلهما عليه فكانا يلحسانه ويسجدان له ثم أوقد له ناراً ورماه فيها فسلم فكف نمرود عنه فخرج مهاجراً إلى الشام فتزوج سارة وهي بنت ملك حران وكانت قد خالفت دين قومها ومضى فنزل أرض فلسطين فاتخذ مسجداً وبسط له الرزق وكان يضيف كل من نزل به وأنزل الله عليه صحفاً أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الباقي أنبأنا أبو الحسين ابن المهتدي أنبأنا الحسن بن أحمد بن

علي الهماني حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد الشمشاطي حدثنا جعفر بن محمد الفريابي حدثنا إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني حدثنا أبي عن جدي عن إدريس الخولاني عن أبي ذر رضي الله عنه قال قال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنزل الله تعالى على إبراهيم عليه السلام عشر صحائف قلت ما كانت صحف إبراهيم قال كانت أمثالاً كلها أيها الملك المسلط المبتلى المغرور إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم فإني لا أردها وإن كانت من كافر وكان فيها وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن تكون له ساعات ساعة يناجي فيها ربه وساعة يتفكر فيها في صنع الله وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يخلو فيها بحاجته من الحلال وعلى العاقل أن لا يكون ظاعناً إلا في ثلاث تزود لمعاد ومرمة لمعاش ولذة في غير محرم وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه مقبلاً على شأنه حافظاً للسانه ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه ثم إن الله تعالى اتخذه خليلاً وفي سبب ذلك ثلاثة أقوال

*(211/237)*

---

أحدها لإطعامه الطعام وكان لا يأكل إلا مع ضيف روى عبد الله بن عمرو ابن العاص عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال يا جبريل لم اتخذ الله إبراهيم خليلاً قال لإطعامه

الطعام والثاني أن الناس أصابتهم سنة فأقبلوا إلى باب إبراهيم يطلبون الطعام وكانت له ميرة من صديق له بمصر في كل سنة فبعث غلمانه بالإبل إلى صديقه فلم يعطه شيئاً فقالوا لو احتملنا من هذه البطحاء ليرى الناس أنا قد جئنا بميرة فملأوا الغرائر رملاً ثم أتوا إلى إبراهيم فأعلموه فاهتم لأجل الخلق فنام وجاءت سارة وهي لا تعلم ما كان ففتحت الغرائر فإذا دقيق حوارى فأمرت الخبازين فخبزوا وأطعموا الناس فاستيقظ إبراهيم فقال من أين هذا الطعام فقالت من عند خليلك المصري فقال لا بل من عند خليلي الله فحينئذ اتخذه الله خليلاً رواه أبو صالح عن ابن عباس والثالث اتخذه الله خليلاً لكسره الأصنام وجداله قومه قاله مقاتل أخبرنا محمد بن أبي طاهر البزار أنبأنا أبو محمد الحريري أنبأنا أبو عمر ابن حيوة أنبأنا أحمد بن معروف حدثنا الحارث بن أبي أسامة حدثنا محمد بن سعد حدثنا هشام بن محمد عن أبيه عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً ونبأه وله يومئذ ثلاثمائة عبد أعتقهم لله وأسلموا فكانوا يقاتلون معه بالعصي وابتلاه الله عز وجل بالكلمات فأتمهن روى طاوس عن ابن عباس قال ابتلاه الله بالطهارة خمس في الرأس قص

الشارب والمضمضة والإستنشاق والسواك وفرق الرأس وخمس في الجسد تقليم الأظافر وحلق العانة والختان ونتف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال اختتن إبراهيم بالقدوم والقدوم موضع وكان له يوم اختتن ثمانون سنة وقيل مائة وعشرون سنة وهو ختن نفسه وسأل ربه عز وجل أن يريه كيف يحيي الموتى وفي سبب ذلك أربعة أقوال أحدها أنه رأى ميتة تمزقها السباع والهوام فسأل ذلك قاله ابن عباس والثاني أنه لما بشر باتخاذه خليلاً سأل ليعلم بإجابته صحة البشارة قاله السدى عن أشياخه والثالث أنه أحب أن يزيل عوارض الوسواس قاله عطاء بن أبي رباح والرابع أنه لما قال لنمرود ربي الذي يحيي ويميت أحب أن يرى ما أخبر به قاله ابن إسحاق وأما نمرود فإنه بقي بعد إلقاء الخليل في النار أربعمائة عام لا يزداد إلا عتواً ثم حلف ليطلبن إله إبراهيم قال السدى عن أشياخه أخذ أربعة أفراخ من أفراخ النسور فرباهن باللحم والخمر حتى إذا كبرن واستفحلن قرنهن بتابوت وقعد في ذلك التابوت ثم رفع لهن اللحم فطرن به حتى إذا ذهب في السماء أشرف ينظر إلى الأرض فرآها كأنها فلك في ماء ثم صعد فوقع في ظلمة فلم ير ما فوقه ولا ما تحته ففزع فنكس اللحم فاتبعنه منقضات فلما نزل أخذ بيني الصرح فسقط الصرح

قال زيد بن أسلم بعث الله تعالى إلى نمرود ملكاً فقال له آمن بي وأتركك على ملكك فقال وهل رب غيري فأتاه ثانياً وثالثاً فأبى ففتح عليه باباً من البعوض فأكلت لحوم قومه وشربت

دماءهم وبعث الله عز وجل عليه بعوضة فدخلت في منخره فمكث أربعمائة عام يضرب رأسه بالمطارق وأرحم الناس به من يجمع يديه ثم يضرب بهما رأسه فعذب بذلك إلى أن مات وقال مقاتل عذب بالبعوضة أربعين يوماً ثم مات

الكلام على البسملة

*(213/237)*

---

إخواني السعيد من اعتبر وتفكر في العواقب ونظر أضر الخليل ما عليه جرى وهذه مدائحه كما ترى من صابر الهوى ربح واستفاد ومن غفل فإنه المراد ( يا فؤادي غلبتني عصياناً

فأطعني فقد عصيت زمانا

( يا فؤادي أما تحن طوبى إلى

إذا الريح حركت أغصاناً

( مثل الأولياء في جنة الخلد

إذا ما تقابلوا إخواناً

( قد تعالوا على أسرة در

لابسين الحرير والأرجوانا

( وعليهم تيجانهم والأكاليل

تباهي بحسنها التيجانا

( ثم آووا فاستقبلتهم حسان

من بنات النعيم فقن الحسانا

( بوجوه مثل المصابيح نوراً

ما عرفن الظلال والأكنانا

فهم الدهر في سرور عجيب

ويزورون ربهم أحياناً

يا غافلين عما نالوا ملتم عن التقوى وما مالوا ما أطيب ليلهم في المناجاة وما أقربهم من طريق النجاة كان بشر الحافي طويل السهر يقول أخاف أن يأتي أمر الله وأنا نائم كم منع نفسه من شهوة فما أنالها حتى سمع كل يا من لم يأكل لما أتى لها كم حمل عليها حملاً ومارثى لها كم همت بنيل غرض بدا لها لما خافت عقبى مرض ينالها أصبح زاهداً وأمسى عفيفاً ما أخذ من الدنيا إلا طفيفاً وما خرج عنها إلا نظيفاً هذا وكم وجد من الدنيا سعة وريفاً تقلب في ثياب الصبر نحيفاً وتوغل في طريق التقوى لطيفاً تالله لقد كان رأيه حصيفاً وما قدر حتى أعانه الرحمن ( وخلق الإنسان ضعيفاً

( بكت عينه رحمة للبدن

فعفى البكاء مكان الوسن

( وألبسه الشوق ثوب السقام

كأن السقام عليه حسن

( وأنس مدامعه بالدموع

لم يدع السر حتى علن

( فيا طول عصيانه للغرام

ويا حسن طاعته للحزن

إخواني من عرف قدر نفسه عليه هانت الدنيا كلها لديه إن العقلاء نظروا إلى مشارع الدنيا

فرأوها متوشحة بأقذار الفراط فاقتنعوا بثغب الغدران ( لله ساع بلغته قدمه

حيث تعدت عاليات همه

( أو قاعد مع العفاف قانع

ببلغة الزاد حشاه وفمه

( لم ينتقص طلاوة من وجهه

ورقه ذلك سؤال يصمه

( تلونت خلائق الدهر به

فحنكته صهبه ودهمه

(واختبر الناس فلو ساومته

(214/237)

---

قرب أخيه علة يحتشمه

(والله ما عفتك يا دنيا بلى

وإن فيك لمتاعاً أعلمه

(لكن أبناءك من لا صبغتي

صبغته ولا وفائي شيمه

(أخرج من حكمة الصدر وما

فيهم بسحري من يصح سقمه

(كم باسم لي من وراء سره

والليث لا يغرني تبسمه

(وحاطب على اتخاذي صحبتي

والبدر مولود بغير توأمه

سبحان من كشف لأحبابه ما غطى عن الغير وأعطاهم من جوده كل خير ومير فقطعوا

مفاوز الدنيا بالصبر ولا ضير وكابدوا المجاعة حتى استحيا راهب الدير أفي أحوال هذه

الدنيا تمارى أما ترى زيها مستردا مستعارا وسلب القرين يكفي وعظاً واعتباراً أما اللذات

فقد فنيت وأبقت عاراً وأما العمر فمنتهب جهاراً إياك وإيا الدنيا فراراً فراراً لقد قرت

عيون الزاهدين وماتوا أحراراً قتلت أقرانهم فانتهضوا يأخذون ثاراً وباعوها بما يبقى لا

كرها بل اختياراً قطعوا بالقيام ليلاً وبالصيام نهاراً واتخذوا الجد لحافاً والصبر شعاراً

وركبوا من العزم أمضى من العربان المهارى واهتدوا إلى نجاتهم والناس في الجهل حيارى

ربح القوم وخسرت وساروا إلى المحبوب وما سرت وأجيروا من اللوم وما أجرت

واستزيدوا إلى القرب وما استزدت ذنوبك طردتك عنهم وخطاياك أبعدتك منهم قم في

الليل ترى تلك الرفقة واسلك طريقتهم وإن بعدت الشقة وابك على تأخرك واحذر الفرقة

شمر عسى أن ينفع التشمير

وانظر بفكرك ما إليه تصير

( طولت آمالاً تكنفها الهوى

ونسيت أن العمر منك قصير

( قد أفصحت دنياك عن غدراتها

وأتى مشيبك والمشيب نذير

( دار لهوت بزهوها متمتعاً

ترجو المقام بها وأنت تسير

( واعلم بأنك راحل عنها ولو

عمرت فيها ما أقام ثبير

( ليس الغنى في العيش إلا بلغة

ويسير ما يكفيك منه كثير

( لا يشغلنك عاجل عن آجل

أبداً فملتمس الحقير حقير

( ولقد تساوى بين أطباق الثرى

في الأرض مأمور بها وأمير

الكلام على قوله تعالى

( قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم

*(215/237)*

لما كسر الخليل الأصنام حملوه إلى نمرود فعزم على إهلاكه فقال رجل حرقوه قال شعيب الجبائي خسفت الأرض بالذي قال حرقوه فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة وألقي الخليل في النار وهو ابن ست عشرة سنة قال علماء السير حبسه نمرود ثم بنوا له حوالي سفح جبل منيف طول جداره ستون ذراعاً ونادى منادي نمرود أيها الناس احتطبوا لإبراهيم ولا يتخلفن عن ذلك صغير ولا كبير فمن تخلف ألقي في تلك النار ففعلوا ذلك أربعين ليلة حتى إن كانت المرأة لتقول إن ظفرت بكذا لأحتطبن لنار إبراهيم حتى إذا كان الحطب يساوي رأس الجدار قذفوا فيه النار فارتفع لهيباً حتى كان الطائر يمر بها فيحترق ثم بنوا بنياناً شامخاً وبنوا فوقه منجنيقاً

(216/237)

---

ثم رفعوا إبراهيم على رأس البنيان فرفع إبراهيم رأسه إلى السماء فقال اللهم أنت الواحد في السماء وأنا الواحد في الأرض ليس في الأرض أحد يعبدك غيري حسبي الله ونعم الوكيل ثم رمي به فاستقبله جبريل فقال يا إبراهيم ألك حاجة فقال له أما إليك فلا فقال جبريل سل ربك فقال حسبي من سؤالي علمه بحالي أخبرنا محمد بن أبي منصور حدثنا جعفر بن أحمد أنبأنا الحسن بن علي التميمي أنبأنا أبو بكر بن أحمد بن جعفر أخبرنا عبد الله بن أحمد بن

حنبل حدثنا شيبان حدثنا أبو هلال قال حدثنا بكر قال لما ألقي إبراهيم في النار جارت عامة الخليقة إلى ربها عز وجل فقالوا يا رب خليلك يلقى في النار فأذن لنا أن نطفىء عنه فقال هو خليلي وليس لي في الأرض خليل غيره وأنا ربه ليس له رب غيري فإن استغاث بكم فأغيثوه وإلا فدعوه قال فجاء ملك القطر فقال يا رب خليلك يلقى في النار فأذن لي أطفىء عنه بالقطر فقال هو خليلي ليس لي في الأرض خليل غيره وأنا ربه ليس له رب غيري فإن استغاث بك فأغثه وإلا فدعه فلما ألقي في النار دعا ربه فقال الله تعالى ( يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ) فبردت يومئذ على أهل المشرق والمغرب فلم ينضج بها كراع قال ابن عباس لم يبق في الأرض يومئذ نار إلى طفئت ظنت أنها هي التي تعنى ولو لم يتبع بردها سلاماً لمات إبراهيم من بردها أخبرنا أبو بكر ابن حبيب أنبأنا علي بن صادق أنبأنا أبو عبد الله الشيرازي حدثنا أبو العباس محمد بن الحسن الخشاب حدثنا أبو القاسم بن موسى حدثنا يعقوب ابن إسحاق قال سمعت أحمد بن حنبل رضي الله عنه وقد سئل عن التوكل قال هو

قطع الإستشراف باليأس من الخلق قيل له فما الحجة فيه قال قصة الخليل لما وضع في المنجنيق مع جبريل عليهما السلام لما قال أما إليك فلا فقال له فسل من لك إليه الحاجة قال أحب الأمرين إلي أحبهما إليه قال علماء السير لما ألقي في النار أخذت الملائكة بضبعيه وأجلسوه على الأرض فإذا عين من ماء عذب وورد أحمر ولم تحدق النار إلى وثاقه ونزل جبريل بقميص من الجنة وطنفسة من الجنة فألبسه القميص وأجلسه على الطنفسة وقعد معه يحدثه فأقام هناك أربعين يوماً فجاء آزر إلى نمرود فقال ائذن لي أن أخرج عظام إبراهيم وأدفنها فخرج نمرود ومعه الناس فأمر بالحائط فنقب فإذا إبراهيم يمشي في روضة تهتز ونباتها يندى وعليه القميص وتحته الطنفسة والملك إلى جنبه والماء يجري في جبينه فناداه نمرود يا إبراهيم إن إلهك الذي بلغت قدرته هذا لكبير هل تستطيع أن تخرج قال نعم فقام إبراهيم يمشي حتى خرج فقال من هذا الذي رأيت معك قال ملك أرسله الله تعالى ليؤنسني فقال نمرود إني مقرب إلى إلهك قرباناً لما رأيت من قدرته فقال إذاً لا يقبل منك ما كنت على دينك فقال يا إبراهيم لا أستطيع أن أترك ملكي ولكن سوف أذبح له فذبح أربعة آلاف بقرة وكف عن إبراهيم

سجع على قوله تعالى

( قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ) سبحان من أخرج هذا السيد من آزر ثم أعانه بالتوفيق فقصد وآزر ثم بعث إليه البيان فأعان ووازر فلما رأيناه قد رحل عن

المنجنيق وسافر ولم يتزود إلا التسليم ( قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ) عبد بذل نفسه لنا فبلغناه منا المنى وعرفناه المناسك عند البيت ومنى ولما رمي

(218/237)

---

في النار لأجلنا قلنا له بلسان التفهيم ( كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ) قدم ماله إلى الضيفان وسلم ولده إلى القربان واستسلم للرمي في النيران فلما رأينا محبنا في بيداء الوجد يهيم ( قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ) ابتليناه بكلمات فأتمهن وأريناه قدرتنا يوم فصرهن وكسر الأصنام غيرة لنا منهن فلما أججت النيران ذهبت بلطفنا حرارتهن وغرسنا شجر الجنة في سواء الجحيم ( قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ) بنوا له بنيانا إلى سفح جبل واحتطب من أجله من شرب وأكل وألقوه فيها وقالوا قد اشتعل فخرج نمرود ينظر ماذا فعل وقد خرج توقيع القدم من القديم ( يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ) اعترضه وتعرض لحوائجه الملك حين قطع بيداء الهوى وسلك فقال له بلسان الحال معي من ملك إياك والتعريض بما ليس لك فلما لم يتعلق بخلق دوني إذ أضيم ( قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ) تعرضت له الأملاك فكفها كفاً فلما رأيناه لا يمد إلى غيرنا كفا مدحناه ويكفي في مدحناه له الذي وفى واجتمع الخلائق صفاً ينظرون من من صفا

فلما أتانا في وقت القلب بقلب سليم ( قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ) تنح يا جبريل فماذا موضع زحمة وخلني وخليلي فإليه رحمة وهل بذلت له إلا لحمة تبلى أو شحمة فلما وطن نفسه على أن يصير فحمة وحوشي من ذاك الكريم ( قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ) كانت الملائكة تدعي الفناء بالطاعة فخرج هاروت وماروت فخسرت البضاعة

(219/237)

---

وشاهدوا يوم الخليل ما ليس لهم به استطاعة رأى ما رأى وما أزعجه ولا راعه فلما رأيناه ساكناً والأملاك في مقعد مقيم ( قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ) قابل القوم رسولنا بأقبح تكذيب وقصدوا خليلنا بأشد تعذيب ونسوا يوم الفزع والتأنيب والخليل سره صاف والحال مستقيم ( قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ) اللهم إنا نتوسل إليك بالخليل في منزلته والحبيب في رتبته وكل مخلص في طاعته أن تغفر لكل منا زلته يا كريم برحمتك يا أرحم الراحمين . ﴿ التبصرة / لابن الجوزى حـ 1 صـ 105 . 118 ﴾ .

(220/237)

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

( بصيرة فى ذكر ابراهيم عليه السلام )

وإِبراهِيمُ اسمٌ أَعْجمِيٌّ ، وفيه لغاتٌ : إِبْراهامُ ، وإِبْراهُوم ، وإِبْراهَمُ ، وإِبراهُم ، وإِبْراهِم ، وأَبْرَهَم ، وإِبْرُهُم ، قال عبد المطَّلب :

*عُذْت بما عاذَ به إِبْراهِمُ * [مُسْتَقْبِلَ القبلة وهْوَ قائم]*

*انْفِى لِوَجْهِ القُدْسِ عانٍ راغِم * مهما تُجَشّمْنِى فإِنّى جاشِمُ*

والجمعُ أَبارِه وأَبارِيهُ وأَبارِهة وبَراهِمُ وبَراهِمة وبِراهٌ وتصغِيرهُ بُرَيْهٌ ، وقيل أُبَيْرِه ، وقيل بُرَيْهِيم .

وأَكثر المحقّقين على هذا أَنَّه اسم جامدٌ غير مُشْتَقٍّ .

وقال بعض المتكلّفين ، قال : إِنَّه اسمٌ مركَّب من البراءِ والبُرْء والبراءة ، ومن الهَيَمانِ والوهْم والهمّة ، فقالوا : برِئ من دُونِ الله ، فهام قَلْبُه بذكْرِ الله .

وقال بعضهم : برأَ من عِلَّة الزَّلَّة فهمَّ بالحُلُول فى محَلَّة الخُلَّة .

وقيل بَرَأَهُ الله فى قالَبِ القُرْبَة فَهَّم بصدق النيَّةِ إِلى مَلَكوت الهِمَّة .

قال بعضهم :

*وكنتُ بلا وَجْدٍ أَموتُ من الهَوَى *وهامَ عَلَىَّ القَلْبُ بالخَفَقانِ*

*فَلَّما أَرانِى الوَجْدُ أَنَّك حاضِرِى * شَهِدْتُك مَوْجُوداً بكلِّ مَكانِ*

وقال بعضهم : إِبْ بالسُّرْيانِيّة معناه الأَبُ ، وراهيم معناه الرَّحِيم ، فمعناه أَبٌ رَحِيمٌ .

وقد ذكر الله سبحانَه إِبْراهِيمَ بالتَّعريض والتصْرِيح فى كتابه بخمسين اسما ، منه : المُبْتَلَى بقوله : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ ﴾ ، والمُتِمّ بقوله : ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ .

(221/237)

---

والإِمامُ بقوله : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً ﴾ ، والمُطَهِّرُ بقوله : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ ﴾ والرَّافع بقوله : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ﴾ ، والحَنِيفُ والمُسْلِمُ بقوله : ﴿ حَنِيفاً مُّسْلِماً ﴾ ، والصّالح بقوله : ﴿ وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ، والمُطْمَئِنّ : ﴿ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ ، والأُمَّةُ والقانِتُ :

(222/237)

---

﴿ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ ﴾ والشاكِرُ والمُجْتَبَى والمَهْدِيُّ : ﴿ شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ ﴾ ، والرّائى : ﴿ رَأَى كَوْكَباً ﴾ ، والبَرِئ : ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ ، والمُتَوَجِّه إِلى الله :

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ ﴾ ، والحَلِيمُ ، والأَوّاهُ ، والمُنِيبُ بقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾ ، والمُتَبَرِّئُ عَمَّا دُونَ الله بقوله : ﴿ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ ، والمُبَشِّرُ بقوله : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ ﴾ ، والبَعْلُ والشَّيْخُ : ﴿ وَهذا بَعْلِي شَيْخاً ﴾ ، ومُبارَكٌ : ﴿ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ ﴾ ، والمُضِيفُ بقوله : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ / إِبْرَاهِيمَ ﴾ ، والمَذْكُور : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ، والصِّدِّيق والنَّبِيُّ : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً ﴾ ، والرَّشِيدُ بقوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ ﴾ والفَتَى بقوله : ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ﴾ ، والوافِي : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ ، والطَّامِع بقوله : ﴿ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي ﴾ ، ووارثُ الجَنَّة : ﴿ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ ، وأَبو المِلَّة : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ، ومُؤَذِّنُ الحَجِّ : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ ﴾ ، وسَقِيمُ الحُبِّ : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ ، وشِيْعة الأَنبياء : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ ﴾ ، والذاهِب إلى الله : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي ﴾ ، والمُهاجِرُ إلى ربّه : ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي ﴾ ، ومُنادَى الحَقِّ : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ ، والمُحْسِنُ : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، والمُؤْمِنُ : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، والمُرْسَلُ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ ، والحامِدُ : ﴿ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ

إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ ، والمَوْهُوب [لَهُ] : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ : والخَلِيل وإِبْراهيم : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ .

وذكر الله تعالى إِبْراهِيم باسمه فى بِضْعٍ وخمسين موضعا من الكتاب العزيز منها : ﴿ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ، ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاما آلِهَةً ﴾ ، ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ ﴾ ، ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ ، ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ﴾ ، ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ ، ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ، ﴿ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ، ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ ﴾ ، ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً ﴾ ، ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهذا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ، ﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ ، ﴿ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ﴾ ، ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ ﴾ ، ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَاذَا ﴾ ، ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذا الْبَلَدَ آمِناً ﴾ ، ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ ، ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ، ﴿ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ ﴾ ، ﴿ بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ ، ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾ ، ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ، ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ ، ﴿ سَلاَمٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ ، ﴿ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ، ﴿ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ ، ﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ ،

﴿ وَاتَّخَذَ

اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ .

(224/237)

---

قالوا وكان لإبراهيم عليه السّلام فى طريق الحقّ عشر مقاماتٍ نال بها غاية المرامات :

الأَوّل مقام الطَّلَب : ﴿ هذا ربّي ﴾ ، الثَّانى مقامُ الدَّعْوة : ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴾ ، الثالث مقام الفضيلة : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ ، الرابع مقام الفَقْر والفاقة : ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ ﴾ ، الخامِسُ مقامُ النّعمة : ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ ، السّادِس مقام المغفرة : ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي ﴾ ، السّابع مقام المحبَّة : ﴿ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ ، الثامن مقامُ المعْرِفَة : ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ﴾ ، التَّاسع مقام الهيئة : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ ، العاشر مقام الوِراثة : ﴿ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ ، وفى هذا المقام حصل له الاستِغناء عن الواسطة والوسِيلة فقال : حسْبى من سُؤَاله عِلْمُه بحالى .

*هاج نَسِيمُ الوصْلِ فاسْتَعَرتْ * نارٌ إليهِ تحسن المطْلَبا *

*ما ذكراى له مطَّرحا * وغَيْره سُراى له مَشْربا *

*بيْت جمالٍ رامه مسْكَناً * حبْل وِصالٍ راضَهُ مرْكبا *

*لا يبْتَغِى غَيْر رضا ربِّهِ * لا يدَّعِى دُون الوفا مذْهبا *

*هذا خليل اللّه فى غارة * غار على الكَوْنَيْن فاسْتَغْربا *

*أرسلَ طَيْر الفِكْر مُسْتَغْنيا * عن عالمِ العِزَّة حتَّى كَبا *

*/جَنَّ عليه اللَّيْل فى ظلْمةٍ * راود بدْرا ورأَى كَوْكَبا *

قال المُؤرّخون ؛ هاجر إِبراهيمُ عليه السّلام من العِراق إِلى الشام ، وبلغ عُمْرُه مائة وخَمْسا وسبعين سنة ، وقيل مائتى سنَة ودُفِن بالأَرض المُقَدَّسة ، وقبره مقطوعٌ به أَنَّه فى تلك المربعة ، ولا يقطع بقَبْر نبىّ وما كنه غير قبر نبيّنا محمّد صلَّى اللّه عليه وسلَّم ومكان قبر إِبراهيم عليه السّلام :

وروِّينا فى الصّحيحين قال رُسُول

(225/237)

---

اللّه صلَّى اللّه عليه وسلَّم : اخْتَتَنَ إِبراهيمُ عليه السّلام وهو ابن ثمانِين سنة بالقَدُومِ" .

وفى الصّحيحين مرفوعا : "أَوّل الخلائِق يُكْسَى ورأَيت إِبراهِيمَ وأَنا أَشْبَهُ وَلَدِه به" وفيه أَيضا : أَنّ رَجُلا قال للنّبىّ صلَّى اللّه عليه وسلَّم : يا خَيْرَ البَرِيَّة ، قال صلَّى اللّه عليه وسلَّم

: "ذاكَ إبراهيم" .

وهذا محمولٌ على التَّواضع لقَوْله صَلَّى الله عليه وسلَّم : "أَنا سَيّد وَلَدِ آدم" .

وعند البُخاريّ عن ابن عباسٍ قال : "كان آخرُ قَوْلِ إبراهيم حين أُلْقِيَ فى النَّارِ حَسْبِيَ الله ونعْمَ الوَكيل" وفى الصّحيحين فى حديث الإسراء ورُؤْيته الأَنْبياء ، وَأَنَّه رأَى إبراهيمَ فى السَّماء السّادسَة وأَنَّهُ رآه مُسْنداً ظَهْرَهُ إلى البَيْت المَعْمُور .

ورَوَيْنا فى المُوَطَّإِ عن سَعيد بن المُسَيَّب قال : "كان إبراهيمُ النبىّ صلى الله عليه وسلَّم أَوّلَ النّاس ضيّفَ الضَيْفَ ، وأَوّلَ النّاس اخْتَتَن ، وأَوّلَ النّاس قَصّ شارِبَه ، وأَوّل النّاس رأَى الشَيْبَ .

فقال يا ربّ ما هذا ؟ فقال الله تعالى : وَقارٌ ، فقال : يا ربّ زِدْنى وَقاراً" .

ورَوَيْنا فى تاريخ دمَشْق بزيادةٍ "وأَوّل من اسْتَحَدَّ وَقَلَّمَ أَظفارَهُ" .

(226/237)

---

أَخبرنى المُسْند المُعَمَّر الشيخ مُحْيِى الدّين أَبو زكرّيا يَحْيى بن محلى بن الحَدّاد عن الشيخ أَبى زكرّيا يَحْيَى النَّواوِىّ عن أَبى محمَّد بن قُدامَةَ عن أَبى حَفْص بن طَبَرْزَدْ ، عن أَبى فَتْحِ الكروخىّ ، عن القاضى ابن عامرٍ ، عن أَبى محمّد الجَرّاحىّ ، عن أَبى العباس المحتوى ،

عن أَبى عيسىَ التِّرْمذىّ ، عن عبد الله بن أَبى زِيادٍ عن يَسارٍ ، عن عبد الواحد بن زِيادٍ ، عن عبد الرّحمان ابن إِسحاق ، عن القاسم بن عبد الرَّحْمان عن أَبيه عن ابن مَسْعُودٍ رضى الله عنه ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم : "لَقيتُ إِبْراهيمَ لَيْلَةَ أُسْرِىَ بى فقال يا محمَّد أَقْرِئ أُمَّتَك منى السّلام وأَخبرهم أَنَّ الجنَّة طيّبَةُ التُّرْبَة ، عَذْبَة الماءِ ، وأَنَّها قِيعانٌ ، وأَنَّ غِراسَها سُبحانَ الله ، والحَمْدُ لِله ، ولا إِله إِلاَّ الله ، والله أَكبر" .

قال الترمذىّ : حديثٌ حَسَنٌ .

وفى تاريخ دمشق : وُلد إِبْراهيم بغُوطَة دِمَشْق بقرية يقال بها بَرْزَةُ هكذا فى هذه الروّاية ، والصحيح أَنَّه وُلد بكوثَى من أَرض العراق بإِقْليم بابل ، وإِنما نُسب إِليه هذا لِلْمُقام بَبَرْزَة ، لأَنه صلَّى فيه لما جاء مُعيناً للوط عيله السلام .

وفى التاريخ المذكور : أَنّ أَبا إِبراهيم آزَرَ كان من أَهل حَرّان ، وأَنّ أُمّ إِبراهيم اسمُها بونا وقيل نونا ، وأَنّ نُمْرُوذَ حَبَسَهُ سَبْعَ سنين ثم أَلْقاه فى النار .

وأَنَّه كان يُدْعَى أَبا الضِّيفان ، وتجارته كانت فى البُرّ ، – وأَنَّ النارَ لم تَنَلْ منه إِلاّ وَثاقه لتَنْطَلق يَداهُ .

ولّما قال الله تعالى : ﴿ يانَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ بَرَدَت النارُ فى ذلك الوقت على أَهْلِ المَشْرِق والمَغْرِب ، وأَنَّ جِبْرِيلَ مَرَّ به حين أُلْقى فى الهَواء فقال : / "يا إِبراهيمُ أَلَكَ حاجَة ؟ فقال : أَمَّا إِلَيْك فَلاَ" .

وعن علىّ رضى الله عنه ، أَنّ البغَال كانت تَتَناسَل وأَنَّها كانت أَسْرَعَ الدّوابِ فى نَقْلِ الحَطَبِ لنارِ إبراهيمَ فدَعا عليها فقَطَع الله نَسْلَها .

وعن الحَسَنِ البصرىّ فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ قال : ابْتلاهُ بالكَوْكَبِ فوَجَدُه صابراً ، وابْتلاهُ بالقَمَر فوَجَده صابراً ، وابْتلاه بالشَّمْس فوَجَده صابِراً ، ثمّ ابتلاه بالنّار فوجده صابراً ، ثمّ ابتلاه بَذْبحِ وَلَده فوجده صابراً .

وعن مجاهدٍ أَنَّ إبراهيم وإسْماعيل حَجَّا مَاشِيَيْن .

وعنه فى قوله تعالى : ﴿ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ إكرامُهم أَنَّه خَدَمَهم بنَفْسه .

وفى

حديثٍ مرفوعٍ أَنَّه كان من أَغْيَرِ النّاس .

وكان سَبَب وفاة إبراهيم أَنَّه أَتاه مَلَكٌ فى صورة شَيْخ كبير يُضَيِّفه ، وكان يأْكل كل ويُسيلُ طعامَه على لِحْيَته وصدره ، فقال إبراهيم : يا عبدَ الله : ما هذا ؟ قال : بلغتُ الكِبَرَ الذى يكون صاحبُه هكذا ، قال وكم أَتَى عَلَيْك ؟ قال مائتا سنة ، – ولإبراهيم يومئذ مائتا سنة ، فكره الحياة لئلا يصير إلى هذه الحال ، فمات بلا مرض .

وقال بعض العلماء توفّيَ إبراهيمُ وداودُ وسليمانُ صلوات الله عليهم فَجْأَةً ، وكذلك موت الصّالحين .

وهو تخفيف على المؤمن المراقب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 6 صـ 32 38. ﴾

(228/237)

---

قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان كأنه قيل : بصرنا إبراهيم عليه السلام هذا التبصير في هذا الأمر الجريء من بطلان الأصنام ، قال عاطفاً عليه : ﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل هذا التبصير العظيم الشأن ، وحكى الحال الماضية بقوله : ﴿ نري ﴾ أي بالبصر والبصيرة على مر الزمان وكر الشهور والأعوام إلى ما لا آخر له بنفسه والصلحاء من أولاده ﴿ إبراهيم ملكوت ﴾ أي باكن ملك التوحيد فيعلم أن كل من عبد غير الله صنم وغيره من قومه وغيرهم في ضلال ، كما علم ذلك في

قومه في الأصنام ﴿ وليكون من الموقنين ﴾ أي الراسخين في وصف الإيقان في أمر التوحيد كله بالنسبة إلى جميع الجزئيات لما أريناه ببصره وبصيرته ، فتأمل فيه حتى وقع فيه بعد علم اليقين على عين اليقين بل حق اليقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 658 . 659 ﴾

*(229/237)*

---

اللغة :

[ ملكوت ] ملك ، والواو والتاء للمبالغة قي الوصف ، كالرغبوت والرهبوت من الرغبة والرهبة

[ جن ] ستر بظلمته ، قال الواحدي : جن عليه الليل وأجنه الليل ، ويقال لكل ما سترته : جن وأجن ومنه الجنة ، والجن والجنون ، والجنين ، وكل هذا يعود أصله إلى الستر وا لإستتار

[ بازغا ] طالعا يقال : بزغ القمر إذا ابتدا في الطلوع ، قال الازهري : كإنه مأخوذ من البزغ وهو الشق ، لأنه بنوره يشق الظلمة شقا

[ أفل ] غاب يقال : أفل افولا إذا غاب

[ سلطانا ] حجة

[ يلبسوا ] يخلطوا ، يقال : لبس الأمر خلطه ، ولبس الثوب اكتسى به

[ اجتبيناهم ] اصطفيناهم

[ قراطيس ] جمع قرطاس وهو الورق ، قال الشاعر : استودع العلم قرطاسا فضيعه فبئس مستودع العلم القراطيس

[ غمرات ] الغمرة : الشدة المذهلة ، وأصله من غمرة الماء وهي ما يغطى الشيء

[ خولناكم ] أعطيناكم وملكناكم ، والتخويل : المنح والإعطاء

[ ضل عنكم ] ضاع وبطل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 400 ﴾

(230/237)

---

فصل

قال الفخر :

"الكاف" في كذلك للتشبيه ، وذلك إشارة إلى غائب جرى ذكره والمذكور ههنا فيما قبل هو أنه عليه السلام استقبح عبادة الأصنام ، وهو قوله : ﴿ إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ والمعنى : ومثل ما أريناه من قبح عبادة الأصنام نريه ملكوت السموات والأرض .

وههنا دقيقة عقلية ، وهي أن نور جلال الله تعالى لائح غير منقطع ولا زائل ألبتة ، والأرواح البشرية لا تصير محرومة عن تلك الأنوار إلا لأجل حجاب ، وذلك الحجاب ليس إلا الاشتغال بغير الله تعالى ، فإذا كان الأمر كذلك فبقدر ما يزول ذلك الحجاب يحصل هذا التجلي فقول إبراهيم عليه السلام : ﴿ أتتخذ أصناما آلهة ﴾ إشارة إلى تقبيح الاشتغال بعبادة غير الله تعالى ، لأن كل ما سوى الله فهو حجاب عن الله تعالى ، فلما زال ذلك الحجاب لا جرم تجلى له ملكوت السموات بالتمام ، فقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِى إبراهيم مَلَكُوتَ السموات ﴾ معناه : وبعد زوال الاشتغال بغير الله حصل له نور تجلى جلال الله تعالى ، فكان قوله : ﴿ وكذلك ﴾ منشأ لهذه الفائدة الشريفة الروحانية . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 34 . 35 ﴾

فصل

قال الفخر :

لقائل أن يقول هذه الإراءة قد حصلت فيما تقدم من الزمان ، فكان الأولى أن يقال : وكذلك أرينا إبراهيم ملكوت السموات والأرض ، فلم عدل عن هذه اللفظة إلى قوله ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِى ﴾ .

قلنا : الجواب عنه من وجوه : الأول : أن يكون تقدير الآية ، وكذلك كنا نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ، فيكون هذا على سبيل الحكاية عن الماضي .

والمعنى أنه تعالى لما حكى عنه أنه شافه أباه الكلام الخشن تعصباً للدين الحق .

فكأنه قيل : وكيف بلغ إبراهيم هذا المبلغ العظيم في قوة الدين ، فأجيب بأنا كنا نريه ملكوت السموات والأرض من وقت طفوليته لأجل أن يصير من الموقنين زمان بلوغه .

الوجه الثاني في الجواب : وهو أعلى وأشرف مما تقدم ، وهو أنا نقول : إنه ليس المقصود من إراءة الله إبراهيم ملكوت السموات والأرض هو مجرد أن يرى إبراهيم هذا الملكوت ، بل المقصود أن يراها فيتوسل بها إلى معرفة جلال الله تعالى وقدسه وعلوه وعظمته .

ومعلوم أن مخلوقات الله وإن كانت متناهية في الذوات وفي الصفات ، إلا أن جهات دلالاتها على الذوات والصفات غير متناهية .

*(231/237)*

---

وسمعت الشيخ الإمام الوالد عمر ضياء الدين رحمه الله تعالى قال : سمعت الشيخ أبا القاسم الأنصاري يقول : سمعت إمام الحرمين يقول : معلومات الله تعالى غير متناهية ، ومعلوماته في كل واحد من تلك المعلومات أيضاً غير متناهية ، وذلك لأن الجوهر الفرد يمكن وقوعه في أحياز لا نهاية لها على البدل ، ويمكن اتصافه بصفات لا نهاية لها على البدل ، وكل تلك الأحوال التقديرية دالة على حكمة الله تعالى وقدرته أيضاً ، وإذا كان

الجوهر الفرد والجزء الذي لا يتجزأ كذلك ؛ فكيف القول في كل ملكوت الله تعالى ، فثبت أن دلالة ملك الله تعالى ، وملكوته على نعوت جلاله وسمات عظمته وعزته غير متناهية ، وحصول المعلومات التي لا نهاية لها دفعة واحدة في عقول الخلق محال ، فإذن لا طريق إلى تحصيل تلك المعارف إلا بأن يحصل بعضها عقيب البعض لا إلى نهاية ولا إلى آخر في المستقبل ، فلهذا السبب والله أعلم لم يقل ، وكذلك أريناه ملكوت السموات والأرض ، بل قال : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إبراهيم مَلَكُوتَ والأرض ﴾ وهذا هو المراد من قول المحققين السفر إلى الله له نهاية ، وأما السفر في الله فإنه لا نهاية له والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 35 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ الملكوت ﴾ هو الملك ، و"التاء" للمبالغة كالرغبوت من الرغبة والرهبوت من الرهبة . واعلم أن في تفسيره هذه الإراءة قولين : الأول : أن الله أراه الملكوت بالعين ، قالوا إن الله تعالى شق له السموات حتى رأى العرش والكرسي وإلى حيث ينتهي إليه فوقية العالم الجسماني ، وشق له الأرض إلى حيث ينتهي إلى السطح الآخر من العالم الجسماني ، ورأى ما في السموات من العجائب والبدائع ، ورأى ما في باطن الأرض من العجائب والبدائع .

وعن ابن عباس أنه قال : لما أسري بإبراهيم إلى السماء ورأى ما في السموات وما في الأرض فأبصر عبداً على فاحشة فدعا عليه وعلى آخر بالهلاك ، فقال الله تعالى له : كف عن عبادي فهم بين حالين إما أن أجعل منهم ذرية طيبة أو يتوبون فأغفر لهم أو النار من ورائهم ، وطعن القاضي في هذه الرواية من وجوه : الأول : أن أهل السماء هم الملائكة المقربون وهم لا يعصون الله ، فلا يليق أن يقال : إنه لما رفع إلى السماء أبصر عبداً على فاحشة .

الثاني : أن الأنبياء لا يدعون بهلاك المذنب إلا عن أمر الله تعالى ، وإذا أذن الله تعالى فيه لم يجز أن يمنعه من إجابة دعائه .

الثالث : أن ذلك الدعاء إما أن يكون صواباً أو خطأً فإن كان صواباً فلم رده في المرة الثانية ، وإن كان خطأً فلم قبله في المرة الأولى .

ثم قال : وأخبار الآحاد إذا وردت على خلاف دلائل العقول وجب التوقف فيها .

والقول الثاني : أن هذه الإراءة كانت بعين البصيرة والعقل ، لا بالبصر الظاهر والحس الظاهر .

واحتج القائلون بهذا القول بوجوه :

الحجة الأولى : أن ملكوت السموات عبارة عن ملك السماء ، والملك عبارة عن القدرة ، وقدرة الله لا ترى ، وإنما تعرف بالعقل ، وهذا كلام قاطع ، إلا أن يقال المراد بملكوت

السموات والأرض نفس السموات والأرض ، إلا أن على هذا التقدير يضيع لفظ الملكوت ولا يحصل منه فائدة .

والحجة الثانية : أنه تعالى ذكر هذه الإراءة في أول الآية على سبيل الإجمال وهو قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِى إبراهيم ﴾ ثم فسرها بعد ذلك بقوله : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الليل رَأَى كَوْكَباً ﴾ [ الأنعام : 76 ] فجرى ذكر هذا الاستدلال كالشرح والتفسير لتلك الإراءة فوجب أن يقال إن تلك الإراءة كانت عبارة عن هذا الاستدلال .

*(233/237)*

---

والحجة الثالثة : أنه تعالى قال في آخر الآية : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءاتيناها إبراهيم على قَوْمِهِ ﴾ والرؤية بالعين لا تصير حجة على قومه لأنهم كانوا غائبين عنها وكانوا يكذبون إبراهيم فيها وما كان يجوز لهم تصديق إبراهيم في تلك الدعوى إلا بدليل منفصل ومعجزة باهرة ، وإنما كانت الحجة التي أوردها إبراهيم على قومه في الاستدلال بالنجوم من الطريق الذي نطق به القرآن .

فإن تلك الأدلة كانت ظاهرة لهم كما أنها كانت ظاهرة لإبراهيم .

والحجة الرابعة : أن إراءة جميع العالم تفيد العلم الضروري بأن للعالم إلهاً قادراً على كل

الممكنات .

ومثل هذه الحالة لا يحصل للإنسان بسببها استحقاق المدح والتعظيم .

ألا ترى أن الكفار في الآخرة يعرفون الله تعالى بالضرورة وليس لهم في تلك المعرفة مدح ولا ثواب .

وأما الاستدلال بصفات المخلوقات على وجود الصانع وقدرته وحكمته فذاك هو الذي يفيد المدح والتعظيم .

والحجة الخامسة : أنه تعالى كما قال في حق إبراهيم عليه السلام ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِى إبراهيم مَلَكُوتَ السموات والأرض ﴾ فكذلك قال في حق هذه الأمة : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءايا تنا فِى الأفاق وَفِى أَنفُسِهِمْ ﴾ [ فصلت : 53 ] فكما كانت هذه الإراءة بالبصيرة الباطنة لا بالبصر الظاهر فكذلك في حق إبراهيم لا يبعد أن يكون الأمر كذلك .

الحجة السادسة : أنه عليه السلام لما تم الاستدلال بالنجم والقمر والشمس قال بعده : ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السموات والأرض ﴾ [ الأنعام : 79 ] فحكم على السموات والأرض بكونها مخلوقة لأجل الدليل الذي ذكره في النجم والقمر والشمس .

وذلك الدليل لو لم يكن عاماً في كل السموات والأرض لكان الحكم العام بناء على دليل خاص وأنه خطأ ، فثبت أن ذلك الدليل كان عاماً فكان ذكر النجم والقمر والشمس كالمثال لإراءة الملكوت .

فوجب أن يكون المراد من إراءة الملكوت تعريف كيفية دلالتها بحسب تغيرها وإمكانها وحدوثها على وجود الإله العالم القادر الحكيم فتكون هذه الإراءة بالقلب لا بالعين .

الحجة السابعة : أن اليقين عبارة عن العلم المستفاد بالتأمل إذا كان مسبوقاً بالشك وقوله تعالى : ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ الموقنين ﴾ كالغرض من تلك الإراءة فيصير تقدير الآية نرى إبراهيم ملكوت السوات والأرض لأجل أن يصير من الموقنين .

فلما كان اليقين هو العلم المستفاد من الدليل ، وجب أن تكون تلك الإراءة عبارة عن الاستدلال .

الحجة الثامنة : أن جميع مخلوقات الله تعالى دالة على وجود الصانع وقدرته باعتبار واحد وهو أنها محدثة ممكنة وكل محدث ممكن فهو محتاج إلى الصانع .

وإذا عرف الإنسان هذا الوجه الواحد فقد كفاه ذلك في الاستدلال عى الصانع وكأنه بمعرفة هاتين المقدمتين قد طالع جميع الملكوت بعين عقله وسمع بأذن عقله شهادتها بالاحتياج والافتقار وهذه الرؤية رؤية باقية غير زائلة ألبتة .

ثم إنها غير شاملة عن الله تعالى بل هي شاغلة للقلب والروح بالله .

أما رؤية العين فالإنسان لا يمكنه أن يرى بالعين أشياء كثيرة دفعة واحدة على سبيل الكمال .

ألا ترى أن من نظر إلى صحيفة مكتوبة فإنه لا يرى من تلك الصحيفة رؤية كاملة تامة إلا حرفاً واحداً فإن حدق نظره إلى حرف آخر وشغل بصره به صار محروماً عن إدراك الحرف الأول ، أو عن إبصاره .

فثبت أن رؤية الأشياء الكثيرة دفعة واحدة غير ممكنة .

وبتقدير أن تكون ممكنة هي غير باقية وبتقدير أن تكون باقية هي شاغلة عن الله تعالى .

ألا ترى أنه تعالى مدح محمداً عليه الصلاة والسلام في ترك هذه الرؤية فقال : ﴿ مَا زَاغَ البصر وَمَا طغى ﴾ [ النجم : 17 ] فثبت بجملة هذه الدلائل أن تلك الإراءة كانت إراءة بحسب بصيرة العقل ، لا بحسب البصر الظاهر .

فإن قيل : فرؤية القلب على هذا التفسير حاصلة لجميع الموحدين فأي فضيلة تحصل لإبراهيم بسببها .

قلنا : جميع الموحدين وإن كانوا يعرفون أصل هذا الدليل إلا أن الاطلاع على آثار حكمة الله تعالى في كل واحد من مخلوقات هذا العالم بحسب أجناسها وأنواعها وأصنافها وأشخاصها وأحوالها مما لا يحصل إلا للأكابر من الأنبياء عليهم السلام .

ولهذا المعنى كان رسولنا عليه الصلاة والسلام يقول في دعائه : " اللهم أرنا الأشياء كما هي

" فزال هذا الإشكال . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 35 .

37 ﴾

(235/237)

---

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ﴾ الآية المتقدمة تقضي بهداية إبراهيم عليه السلام والإشارة هنا بذلك هي إلى تلك الهداية أي وكما هديناه إلى الدعاء إلى الله وإنكار الكفر أريناه ملكوت ، و ﴿ نُري ﴾ لفظها الاستقبال ومعناها المضي ، وحكى المهدوي : أن المعنى وكما هديناك يا محمد فكذلك نري إبراهيم .

قال القاضي أبو محمد : وهذا بعيد إذ اللفظ لا يعطيه ، و ﴿ نُرِي ﴾ هنا متعدية إلى مفعولين لا غير فهي إما من رؤية البصر وإما من أرى التي هي بمعنى عرف ولو كانت من أرى بمعنى أعلم وجعلنا أعلم منقولة من علم التي تتعدى إلى مفعولين لوجب أن تتعدى أرى إلى ثلاثة مفاعيل ، وليس كذلك ولا يصح أن يقال : إن الثالث محذوف لأنه لا يجوز حذفه إذ هو الخبر في الجملة التي يدخل عليها علمت في هذا الموضع ، وإنما هي من علم بمعنى عرف

، ثم نقلت بالهمزة فتعدت إلى مفعولين ثم جعلت " أرى " بمنزلتها في هذه الحال ، وهذه الرؤية قيل رؤية البصر ، وروي في ذلك أن الله عز وجل فرج لإبراهيم السماوات والأرضين حتى رأى ببصره الملكوت الأعلى والملكوت الأسفل فإن صح هذا المنقول ففيه تخصيص لإبراهيم عليه السلام بما لم يدركه غيره ، قبله ولا بعده ، وهذا هو قول مجاهد قال : تفرجت له السماوات والأرضون فرأى مكانه في الجنة وبه قال سعيد بن جبير وسلمان الفارسي ، وقيل : هي رؤية بصر في ظاهر الملكوت وقع له معها من الاعتبار ورؤية القلب ما لم يقع لأحد من أهل زمنه الذين بعث إليهم ، قاله ابن عباس وغيره ، ففي هذا تخصيص ما على جهة التقييد بأهل زمنه ، وقيل هي رؤية قلب رأى بها ملكوت السماوات والأرض بفكرته ونظره ، وذلك ولا بد متركب على ما تقدم من رؤيته ببصره وإدراكه في الجملة بحواسه .

*(236/237)*

---

قال القاضي أبو محمد : وهذا القولان الأخيران يناسبان الآية ، لأن الغاية التي نصبت له إنما هي أن يؤمن ويكون من جملة موقنين كثرة ، والإشارة لا محالة إلى من قبله من الأنبياء والمؤمنين وبعده واليقين يقع له ولغيره وبالرؤية في ظاهر الملكوت والاستدلال به على الصانع والخالق لا إله إلا هو ، و ﴿ ملكوت ﴾ بناء مبالغة كجبروت ورهبوت ورحموت ، وقال

عكرمة هو ملكوتي باليونانية أو بالنبطية ، وقرأ " ملكوث " بالثاء مثلثة وقرأ أبو السمال " مَلْكوت " بإسكان اللام وهي لغة ، و ﴿ ملكوت ﴾ بمعنى الملك ، والعرب تقول لفلان ملكوت اليمن أي ملكه ، واللام في ﴿ ليكون ﴾ متعلقة بفعل مؤخر تقديره وليكون من المؤقنين أريناه ، والموقن : العالم بالشيء علماً لا يمكن أن يطرأ له فيك شك ، وقال الضحاك ومجاهد أيضاً إن الإشارة ها هنا ﴿ بملكوت السماوات ﴾ هي إلى الكواكب والقمر والشمس ، وهذا راجع وداخل فيما قدمناه من أنها رؤية بصر في ظاهر الملكوت . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نري إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السماوات والأرض ﴾ أي مُلك ، وزيدت الواو والتاء للمبالغة في الصفة .

ومثله الرَّغَبُوت والرَّهَبُوت والجَبَروت .

وقرأ أبو السّمّال العَدَوِيّ "مَلْكوت" بإسكان اللام .

ولا يجوز عند سيبويه حذف الفتحة لخفّتها ، ولعلها لغة .

و"نُرِي" بمعنى أرينا ؛ فهو بمعنى المُضِيّ .

فقيل : أراد به ما في السموات من عبادة الملائكة والعجائب وما في الأرض من عصيان بني آدم ؛ فكان يدعو على مَن يراه يَعصي فيُهلِكه الله ، فأوحى الله إليه يا إبراهيم أمسك عن

عبادي ، أما علمت أن من أسمائي الصَّبور .

روى معناه عليّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقيل : كشف الله له عن السموات والأرض حتى العرش وأسفل الأرَضين .

(237/237)

---

وروى ابن جُرِيج عن القاسم عن إبراهيم النَّخَعِيّ قال : فُرِجت له السموات السبع فنظر إليهنّ حتى انتهى إلى العرش ، وفُرِجت له الأرَضون فنظر إليهنّ ، ورأى مكانه في الجنة ؛ فذلك قوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدنيا ﴾ [ العنكبوت : 27 ] ؛ عن السُّدِّي .

وقال الضحّاك : أراه من ملَكوت السماء ما قصّه من الكواكب ، ومِن ملكوت الأرض البحارَ والجبالَ والأشجارَ ، ونحو ذلك مما استدلّ به .

وقال بنحوه ابن عباس .

وقال : جُعل حين وُلد في سَرَب وجُعل رزقه في أطراف أصابعه فكان يَمَصُّها ، وكان نُمْرُود اللّعين رأى رؤيا فعبّرت له أنه يذهب ملكه على يدَيْ مولود يُولد ؛ فأمر بعزل الرجال عن النساء .

وقيل : أمر بقتل كل مولود ذَكَر .

وكان آزر من المقربين عند الملك نُمْرود فأرسله يوماً في بعض حوائجه فواقع امرأته فحملت بإبراهيم .

وقيل : بل واقعها في بيت الأصنام فحملت وخرّت الأصنام على وجوهها حينئذ ؛ فحملها إلى بعض الشِّعاب حتى ولدت إبراهيم ، وحفر لإبراهيم سَرَباً في الأرض ووَضع على با به صخرة لئلا تفترسه السباع ؛ وكانت أُمُّه تختلف إليه فتُرضعه ، وكانت تجده يمصّ أصابعه ، من أحدها عسلٌ ومن الآخر ماءٌ ومن الآخر لبنٌ ، وشَبّ فكان على سَنة مثلَ ابن ثلاث سنين .

فلما أخرجه من السَّرَب توهّمه الناس أنه وُلد منذ سنين ؛ فقال لأمّه : مَن ربّي ؟ فقالت أنا .

فقال : ومن ربّك ؟ قالت أبوك .

قال : ومَن ربّه ؟ قالت نُمروذ .

قال : ومَن ربه ؟ فلطَمَته ، وعلمت أنه الذي يَذهب مُلْكُهم على يديه .

والقصَص في هذا تامٌّ في قِصص الأنبياء للكسائي ، وهو كتاب مما يُقْتَدَى به .

وقال بعضهم : كان مولده بحرّان ولكن أبوه نقله إلى أرض بابل .

وقال عامّة السَّلَف من أهل العلم : وُلد إبراهيم في زمن النّمروذ ابن كنعان بن سنجاريب بن

كوش بن سام بن نوح .

وقد مضى ذكره في "البقرة" .

(238/237)

---

وكان بين الطوفان وبين مولد إبراهيم ألف ومائتا سنة وثلاث وستون سنة ؛ وذلك بعد خلق آدم بثلاث آلاف سنة وثلاثمائة سنة وثلاثين سنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾ معناه وكما أرينا إبراهيم البصيرة في دينه والحق في خلاف قومه وما كانوا عليه من الضلال في عبادة الأصنام نريه ملكوت السموات والأرض فلهذا السبب عبر عن هذه الرؤية بلفظ المستقبل في قوله وكذلك نرى إبراهيم لأنه تعالى كان أراه بعين البصيرة أن أباه وقومه على غير الحق فخالفهم فجزاه الله بأن أراه بعد ذلك ملكوت السموات والأرض فحسنت هذه العبارة لهذا المعنى .

والملكوت : الملك زيدت فيه التاء للمبالغة كالرهبوت والرغبوت ، والحرموت من الرهبة

والرغبة والرحمة .

قال ابن عباس : يعني خلق السموات والأرض .

وقال مجاهد وسعيد بن جبير : يعني آيات السموات والأرض وذلك أنه أقيم على صخرة وكشف له عن السموات حتى رأى العرش والكرسي وما في السموات من العجائب وحتى رأى مكانه في الجنة فذلك قوله : ﴿ وآتيناه أجره في الدنيا ﴾ يعني أريناه مكانه في الجنة وكشف له عن الأرض حتى نظر إلى أسفل الأرضين ورأى ما فيها من العجائب .

*(239/237)*

---

قال البغوي : وروي عن سليمان ورفعه بعضهم عن علي قال : لما رأى إبراهيم ملكوت السموات والأرض أبصر رجلاً على فاحشة فدعا عليه فهلك ثم أبصر آخر فدعا عليه فهلك ثم أبصر آخر فأراد أن يدعو عليه فقال له تبارك وتعالى : " يا إبراهيم أنت رجل مجاب الدعوة فلا تدعون على عبادي فإنما أنا من عبدي على ثلاث خلال : إما أن يتوب إلي فأتوب عليه وإما أن أخرج منه نسمة تعبدني وإما أن يبعث إلي فإن شئت عفوت وإن شئت عاقبت " وفي رواية ، وإن تولى فإن جهنم من ورائه ، قال قتادة : ملكوت السموات الشمس والقمر والنجوم وملكوت الأرض الجبال والشجر والبحار ، واختلف في هذه

الرؤية هل كانت بعين البصر أو بعين البصيرة على قولين : أحدهما إنها كانت بين البصر الظاهر فشق لإبراهيم السموات حتى رأى العرش وشق له الأرض حتى رأى ما في بطنها . والقول الثاني : إن هذه الرؤية كانت بعين البصيرة لأن ملكوت السموات والأرض عبارة عن الملك وذلك لا يعرف إلا بالعقل فبان بهذا أن هذه الرؤية كان بعين البصيرة ، إلا أن يقال : المراد بملكوت السموات والأرض نفس السموات والأرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾

هذه جملة اعتراض بين قوله : ﴿ وإذ قال إبراهيم ﴾ منكراً على أبيه عبادة الأصنام وبين جملة الاستدلال عليهم بإفراد المعبود ، وكونه لا يشبه المخلوقين وهي قوله : ﴿ فلما جنّ عليه الليل ﴾ و ﴿ نري ﴾ بمعنى أريناه وهي حكاية حال وهي متعدية إلى اثنين ، فالظاهر أنها بصرية .

(240/237)

قال ابن عطية وإما من أرى التي بمعنى عرف انتهى ، ويحتاج كون رأي بمعنى عرف ثم تعدّى بالهمزة إلى مفعولين إلى نقل ذلك عن العرب والذي نقل النحويون إن رأى إذا كانت بصرية تعدّت إلى مفعول واحد وإذا كانت بمعنى علم الناصبة لمفعولين تعدت إلى مفعولين ، وعلى كونها بصرية فقال سلمان الفارسي وابن جبير ومجاهد : فرجت له السموات والأرض فرأى ببصره الملكوت الأعلى والملكوت الأسفل ورأى مقامه في الجنة ، قال ابن عطية : فإن صح هذا النقل ففيه تخصيص لابراهيم بما لم يدركه غيره قبله ولا بعده ؛ انتهى .

وروي عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : كشف الله له عن السموات والأرض حتى العرش وأسفل الأرضين وإذا كانت أبصاراً فليس المعنى مجرد الإبصار ولكن وقع له معها من الاعتبار والعلم ما لم يقع لأحد من أهل زمانه الذين بعث إليهم ، قاله ابن عباس وغيره .

*(241/237)*

---

وفي ذلك تخصيص له على جهة التقييد بأهل زمانه وكونها من رؤية القلب ، وجوز ابن عطية ولم يذكر الزمخشري غيره ، قال ابن عطية : رأى بها ملكوت السموات والأرض بفكرته ونظره وذلك لا بد متركب على ما تقدّم من رؤيته ببصره وإدراكه في الجملة بحواسه

، وقال الزمخشري : ومثل ذلك التعريف والتبصير نعرّف ابراهيم ونبصره ملكوت السموات والأرض يعني الربوبية والإلهية ونوقفه لمعرفتهما ونرشده بما شرحنا صدره وسدّدنا نظره لطريق الاستدلال و﴿ نري ﴾ حكاية حال ماضية انتهى ، والإشارة بذلك إلى الهداية أو ومثل هدايته إلى توحيد الله تعالى ودعاء أبيه وقومه إلى عبادة الله تعالى ورفض الأصنام أشهدناه ملكوت السموات والأرض ، وحكى المهدوي أن المعنى وكما هديناك يا محمد أرينا ابراهيم وهذا بعيد من دلالة اللفظ ويجوز أن تكون الكاف للتعليل أي وكذلك الإنكار والدعاء إلى الله زمان ادعاء غير الله الربوبية أشهدناه ملكوت السموات والأرض فصار له بذلك اختصاص ، قال ابن عباس : جلائل الأمور سرها وعلانيتها ، فلم يخف عليه شيء من أعمال الخلائق فلما رأى ذلك جعل يلعن أصحاب الذنوب قال الله : إنك لا تستطيع هذا فرده لا يرى أعمالهم انتهى ، قال الزجاج وغيره : الملكوت الملك كالرغبوت والرهبوت والجبروت وهو بناء مبالغة ومن كلامهم : له ملكوت اليمن والعراق ، قال مجاهد : ويعني به آيات السموات والأرض ، وقال قتادة : ملكوت السموات : الشمس والقمر والنجوم وملكوت الأرض : الجبال والشجر والبحار ، وقيل : عبادة الملائكة وعصيان بني آدم ، وقرأ أبو السمال : ملكوت بسكون اللام وهي لغة بمعنى الملك ، وقرأ عكرمة ملكوت بالثاء المثلثة وقال : ملكوثا باليونانية أو القبطية ، وقال النخعي : هي ملكوثا بالعبرانية وقرىء

وكذلك تري ، بالتاء من فوق ، ﴿ إبراهيم ملكوت ﴾ ، برفع التاء ، أي تبصره دلائل الربوبية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(242/237)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِى إبراهيم ﴾ هذه الإراءةُ من الرؤية البصَريةِ المستعارةِ للمعرفة ونظرِ البصيرة ، أي عرّفناه وبصَّرناه ، وصيغةُ الاستقبال حكايةٌ للحال الماضيةِ لاستحضار صورتِها ، وذلك إشارةٌ إلى مصدرِ ( نُري ) لا إلى إراءةٍ أخرى مفهومةٍ من قوله : ( إني أراك ) وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلوّ درجة المشارِ إليه وبُعدِ منزلتِه في الفضل وكمال تمييزِه بذلك وانتظامِه بسببه في سلك الأمور المشاهَدة ، والكافُ لتأكيدِ ما أفاده اسمُ الإشارة من الفخامة ، ومحلُها في الأصل النصبُ على أنه نعتٌ لمصدر محذوف وأصل التقدير نُري إبراهيم إراءةً كائنة مثلَ تلك الإراءة فقُدّم على الفعل لإفادة القصر ، واعتبرت الكافُ مقحمةً للنكتة المذكورة فصار المشارُ إليه نفسَ المؤكد لا نعتاً له أي ذلك التبصيرَ البديعَ نبصِّره عليه السلام ﴿ مَلَكُوتَ السموات والأرض ﴾ أي ربوبيته تعالى ومالكيته لهما وسلطانَه القاهرَ عليهما وكونَهما بما فيهما مربوباً ومملوكاً له تعالى لا تبصيراً آخَرَ أدنى منه ،

والملكوتُ مصدرٌ على زنة المبالغة كالرَهَبوت والجَبَروت ، ومعناه الملكُ العظيمُ والساطان القاهرُ ، ثم هل هو مختصٌّ بمُلك الله عزَّ سلطانه أو لا فقد قيل ، وقيل : والأول هو الأظهر ، وبه قال الراغب ، وقيل : ملكوتهما عجائبُهما وبدائعهما ، روي أنه كُشف له عليه السلام عن السموات والأرض حتى العرشُ وأسفلُ الأرضين ، وقيل : آياتُهما .

(243/237)

---

وقيل : ملكوتُ السموات : الشمسُ والقمرُ والنجومُ ، وملكوتُ الأرض الجبالُ والأشجار والبحارُ . وهذه الأقوالُ لا تقتضي أن تكون الإراءَةُ بصَريةً إذ ليس المرادُ بإراءةِ ما ذُكر من الأمور الحسية مجردَ تمكينِه عليه السلام من إبصارها ومشاهدتها في أنفسها بل اطلاعَه على حقائقها وتعريفَها من حيثُ دلالتُها على شؤونه عز وجل ، ولا ريبَ في أن ذلك ليس مما يُدرَك حِسّياً كما يُنبىء عنه اسمُ الإشارة المُفصِحُ عن كون المشار إليه أمراً بديعاً ، فإن الإراءة البصَرية المعتادةَ بمعزلٍ من تلك المثابة ، وقرىء ( تُري ) بالتاء وإسنادُ الفعل إلى الملكوت أي تُبصِره عليه السلام دلائل الربوبية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(244/237)

وقال الآلوسى :

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِى إبراهيم ﴾ هذه الإراءة من الرؤية البصرية المستعارة استعارة لغوية للمعرفة من إطلاق السبب على المسبب أي عرفناه وبصرناه ، وكان الظاهر أرينا بصيغة الماضي إلا أنه عدل إلى صيغة المستقبل حكاية للحال الماضية استحضاراً لصورتها حتى كأنها حاضرة مشاهدة ، وقيل : إن التعبير بالمستقبل لأن متعلق الإراءة لا يتناهى وجه دلالته فلا يمكن الوقوف على ذلك إلا بالتدريج وليس بشيء .

والإشارة إلى مصدر "نري" لا إلى إراءة أخرى مفهومة من قوله تعالى : ﴿ إِنِّى أَرَاكَ ﴾ [ الأنعام : 74 ] ولا إلى ما أنذر به أباه وضلل قومه من المعرفة والبصارة .

وجوز كل ، وقيل : يجوز أن يجعل المشبه التبصير من حيث إنه واقع والمشبه به التبصير من حيث إنه مدلول اللفظ ، ونظيره وصف النسبة بالمطابقة للواقع وهي عين الواقع ، وجوز كون الكاف بمعنى اللام والإشارة إلى القول السابق ، وأنت تعلم ما هو الأجزل والأولى مما تقدم لك في نظائره وليس هو إلا الأول أي ذلك التبصير البديع نبصره عليه السلام .

﴿ مَلَكُوتَ السموات والأرض ﴾ أي ربوبيته تعالى ومالكيته لهما لا تبصيراً آخر أدنى منه ، "فالملكوت مصدر كالرغبوت والرحموت كما قاله ابن مالك وغيره من أهل اللغة وتاؤه

زائدة للمبالغة ولهذا فسر بالملك العظيم والسلطان القاهر ، وهو كما قال الراغب مختص به تعالى" خلافاً لبعضهم .

(245/237)

---

وعن مجاهد أن المراد بالملكوت الآيات ، وقيل : العجائب التي في السموات والأرض فإنه عليه السلام فرجت له السموات السبع فنظر إلى ما فيهن حتى انتهى بصره إلى العرش وفرجت له الأَرَضون السبع فنظر إلى ما فيهن .

وأخرج ابن مردويه عن علي كرم الله تعالى وجهه قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى إبراهيم ملكوت السموات والأرض أشرف على رجل على معصية من معاصي الله تعالى فدعا عليه فهلك ثم أشرف على آخر على معصية من معاصي الله تعالى فدعا عليه فهلك ثم أشرف على آخر فذهب يدعو عليه فأوحى الله تعالى إليه أن يا إبراهيم إنك رجل مستجاب الدعوة فلا تدع على عبادي فإنهم مني على ثلاث ، إما أن يتوب العاصي فأتوب عليه ، وإما أن أخرج من صلبه نسمة تملأ الأرض بالتسبيح وإما أن أقبضه إلي فإن شئت عفوت وإن شئت عاقبت " وروي نحو موقوفاً ومرفوعاً من طرق شتى ولا خلاف فيها لدلائل المعقول خلافاً لمن توهمه ، وقيل : ملكوت السموات : الشمس

والقمر والنجوم .

وملكوت الأرض : الجبال والأشجار والبحار .

وهذه الأقوال على ما قيل لا تقتضي أن تكون الإراءة بصرية إذ ليس المراد بإراءة ما ذكر من الأمور الحسية مجرد تمكينه عليه السلام من إبصارها ومشاهدتها في أنفسها بل اطلاعه عليه السلام على حقائقها وتعريفها من حيث دلالتها على شؤونه عز وجل ، ولا ريب في أن ذلك ليس مما يدرك حساً كما ينبىء عنه التشبيه السابق .

وقرىء "تري" بالتاء وإسناد الفعل إلى الملكوت أي تبصره عليه السلام دلائل الربوبية .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

عطف على جملة : ﴿ قال إبراهيم لأبيه آزرَ أتتّخذ أصناما آلهة ﴾ [ الأنعام : 74 ] .

*(246/237)*

---

فالمعنى وإذ نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض إراءة لا إراءة أوضح منها في جنسها والإشارة بقوله : ﴿ وكذلك ﴾ إلى الإراء المأخوذ من قوله ﴿ نُري إبراهيم ﴾ أي مثل

ذلك الإراء العجيب نُري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض .

وهذا على طريقة قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمَّة وسطاً ﴾ [ البقرة : 143 ] .

وقد تقدّم بيانه في سورة البقرة ، فاسم الإشارة في مثل هذا الاستعمال يلازم الإفراد والتذكير لأَنَّه جرى مجرى المثل .

وقوله : ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ﴾ إشارة إلى حجّة مستنبطة من دلالة أحوال الموجودات على وجود صانعها .

والرؤية هنا مستعملة للانكشاف والمعرفة ، فالإراءة بمعنى الكشف والتعريف ، فتشمل المبصرات والمعقولات المستدلّ بجميعها على الحق وهي إراءة إلهام وتوفيق ، كما في قوله تعالى : ﴿ أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض ﴾ [ الأعراف : 185 ] ، فإبراهيم عليه السلام ابتُدىء في أوّل أمره بالإلهام إلى الحقّ كما ابتدىء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرؤية الصادقة .

ويجوز أن يكون المراد بالإراءة العلم بطريق الوحي .

وقد حصلت هذه الإراءة في الماضي فحكاها القرآن بصيغة المضارع لاستحضار تلك الإراءة العجيبة كما في قوله تعالى : ﴿ الله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا ﴾ [ فاطر : 9 ] .

والملكوت اتَّفق أئمَّة اللغة على أَنَّه مصدر كالرَغَبُوت والرّحَمُوت والرّهَبُوت والجَبَرُوت .

وقالوا : إنّ الواو والتاء فيه للمبالغة .

وظاهره أنّ معناه المِلك بكسر الميم لأنّ مصدر مَلك المِلك بكسر الميم ولمَّا كان فيه زيادة تفيد المبالغة كان معناه المِلك القوي الشديد .

ولذلك فسَّره الزمخشري بالربوبية والإلهية .

وفي "اللسان" : مُلْك الله وملكوته سلطانُه ولفلان ملكوت العراق ، أي سلطانه ومُلكه .

وهذا يقتضي أنَّه مرادف للمُلك بضمّ الميم وفي طبعة "اللسان" في بولاق رُقمت على ميم مُلكه ضمّة .

*(247/237)*

---

وفي "الإتقان" عن عكرمة وابن عبَّاس : أنّ الملكوت كلمة نَبَطِيَّة .

فيظهر أنّ صيغة ( فعلوت ) في جميع الموارد التي وردت فيها أنَّها من الصيغ الدخيلة في اللغة العربية ، وأنَّها في النبطيّة دالَّة على المبالغة ، فنقلها العرب إلى لغتهم لما فيها من خصوصية القوّة .

ويستخلص من هذا أنّ الملكوت يطلق مصدراً للمبالغة في المِلك ، وأنّ المُلك ( بالضمّ ) لما كان مِلكاً ( بالكسر ) عظيماً يطلق عليه أيضاً المَلَكُوت .

فأمَّا في هذه الآية فهو مجاز على كلا الإطلاقين لأنَّه من إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول ، وهو المملوك ، كالخَلق على المخلوق ، إمَّا من المِلك بكسر الميم أو من المُلك بضمّها .

وإضافة ملكوت السماوات والأرض على معنى ( في ) .

والمعنى ما يشمله المُلك أو الملك ، والمُراد مُلك الله .

والمعنى نكشف لإبراهيم دلائل مخلوقاتنا أو عظمة سلطاننا كشفاً يطلعه على حقائقها ومعرفة أن لا خالق ولا متصرّف فيما كشفنا له سوانا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

اختلفوا في "الواو" في قوله : ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ الموقنين ﴾ وذكروا فيه وجوهاً : الأول : الواو زائدة والتقدير : نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض ليستدل بها ليكون من الموقنين .

الثاني : أن يكون هذا كلاماً مستأنفاً لبيان علة الإراءة والتقدير وليكون من الموقنين نريه ملكوت السموات والأرض .

الثالث : أن الإراءة قد تحصل وتصير سبباً لمزيد الضلال كما في حق فرعون قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أريناه ءاياتنا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وأبى ﴾ [ طه : 56 ] وقد تصير سبباً لمزيد الهداية واليقين .

فلما احتملت الإراءة هذين الاحتمالين قال تعالى في حق إبراهيم عليه السلام : إنا أريناه هذه الآيات ليراها ولأجل أن يكون من الموقنين لا من الجاحدين والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 37.38 ﴾

(248/237)

---

فصل

قال الفخر :

اليقين عبارة عن علم يحصل بعد زوال الشبهة بسبب التأمل ولهذا المعنى لا يوصف علم الله تعالى بكونه يقيناً لأن علمه غير مسبوق بالشبهة وغير مستفاد من الفكر والتأمل .

واعلم أن الإنسان في أول ما يستدل فإنه لا ينفك قلبه عن شك وشبهة من بعض الوجوه فإذا كثرت الدلائل وتوافقت وتطابقت صارت سبباً لحصول اليقين وذلك لوجوه : الأول : أنه يحصل لكل واحد من تلك الدلائل نوع تأثر وقوة فلا تزال القوة تتزايد حتى ننتهي إلى الجزم .

الثاني : أن كثرة الأفعال سبب لحصول الملكة فكثرة الاستدلال بالدلائل المختلفة على المدلول الواحد جار مجرى تكرار الدرس الواحد ، فكما أن كثرة التكرار تفيد الحفظ المتأكد الذي لا يزول عن القلب ، فكذا ههنا .

الثالث : أن القلب عند الاستدلال كان مظلماً جداً فإذا حصل فيه الاعتقاد المستفاد من الدليل الأول امتزج نور ذلك الاستدلال بظلمة سائر الصفات الحاصلة في القلب ، فحصل فيه حالة شبيهة بالحالة الممتزجة من النور والظلمة ، فإذا حصل الاستدلال الثاني امتزج نوره بالحالة الأولى ، فيصير الإشراق واللمعان أتم .

وكما أن الشمس إذا قربت من المشرق ظهر نورها في أول الأمر وهو الصبح .

فكذلك الاستدلال الأول يكون كالصبح ، ثم كما أن الصبح لا يزال يتزايد بسبب تزايد قرب الشمس من سمت الرأس ، فإذا وصلت إلى سمت الرأس حصل النور التام ، فكذلك العبد كلما كان تدبره في مراتب مخلوقات الله تعالى أكثر كان شروق نور المعرفة والتوحيد أجلى .

إلا أن الفرق بين شمس العلم وبين شمس العالم أن شمس العالم الجسماني لها في الارتقاء والتصاعد حد معين لا يمكن أن يزاد عليه في الصعود ، وأما شمس المعرفة والعقل والتوحيد ، فلا نهاية لتصاعدها ولا غاية لازديادها فقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِى إبراهيم مَلَكُوتَ السموات والأرض ﴾ إشارة إلى مراتب الدلائل والبينات ، وقوله : ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ الموقنين ﴾ إشارة إلى درجات أنوار التجلي وشروق شمس المعرفة والتوحيد . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 38 ﴾

(249/237)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وليكون من الموقنين ﴾ هذا عطف على المعنى ، لأن معنى الآية : نريه ملكوت السموات والأرض ليستدل به ، وليكون من الموقنين .

وفي ما يوقن به ثلاثة أقوال .

أحدها : وحدانية الله وقدرته .

والثاني : نبوته ورسالته .

والثالث : ليكون موقنا بعلم كل شيء ، حساً لا خبراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وليكون من الموقنين ﴾ أي أريناه الملكوت ، وقيل : ثم علة محذوفة عطفت هذه عليها وقدرت ليقيم الحجة على قومه ، وقال قوم : ليستدل بها على الصانع ، وقيل : الواو زائدة ومتعلق الموقنين قيل : بوحدانية الله وقدرته ، وقيل : بنبوته وبرسالته .

وقيل : عياناً كما أيقن بياناً انتقل من علم اليقين إلى عين اليقين كما سأل في قوله : ﴿ أرني كيف تحيي الموتى ﴾ والإيقان تقدم تفسيره أول البقرة ، وقال أبو عبد الله الرازي : اليقين عبارة عن علم يحصل بعد زوال الشبهة بسبب التأمل ولهذا لا يوصف علم الله بكونه يقيناً

لأن علمه غير مسبوق بالشبهة وغير مستفاد من الفكر والتأمل ، وإذا كثرت الدلائل وتوافقت وتطابقت صارت سبباً لحصول اليقين إذ يحصل بكل واحد منها نوع تأثير وقوة فتتزايد حتى يجزم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(250/237)

---

وقال أبو السعود :

واللام في قوله تعالى : ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ الموقنين ﴾ متعلقةٌ بمحذوفٍ مؤخر ، والجملةُ اعتراضٌ مقرِّر لما قبلها أي وليكون من زُمرة الراسخين في الإيقان البالغين درجةَ عينِ اليقين من معرفة الله تعالى ، فعلنا ما فعلنا من التبصير البديعِ المذكورِ لا لأمرٍ آخرَ فإن الوصولَ إلى تلك الغاية القاصيةِ كمالٌ مترتبٌ على ذلك التبصير لا عينُه وليس القصرُ لبيان انحصار فائدتِه في ذلك ، كيف لا وإرشادُ الخلق وإلزامُ المشركين كما سيأتي من فوائده بلا مرْية بل لبيان أنه الأصلُ الأصيلُ والباقي من مستتْبعاته . وقيل : هي متعلقة بالفعل السابق والجملةُ معطوفة على علةٍ أخرى محذوفةٍ ينسحبُ عليها الكلامُ أي ليستدِلَّ بها وليكونَ الخ ، فينبغي أن يُرادَ بملكوتهما بدائعُهما وآياتُهما لأن الاستدلالَ من غاياتِ إراءَتِها لا من غايات إراءةِ نفسِ الربوبية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ الموقنين ﴾ أي من زمرة الراسخين في الإيقان البالغين درجة عين اليقين من معرفة الله تعالى ، وهذا لا يقتضي سبق الشك كما لا يخفى ، واللام متعلقة بمحذوف مؤخر ، والجملة اعتراض مقرر لما قبلها أي وليكون كذلك فعلنا ما فعلنا من التبصير البديع المذكور ، والحصر باعتبار أن هذا الكون هو المقصود الأصلي من ذلك التبصير ونحو إرشاد الخلق وإلزام الكفار من مستتبعاته ، وبعضهم لم يلاحظ ذلك فقدر الفعل مقدماً لعدم انحصار العلة فيما ذكر .

وقيل : هي متعلقة بالفعل السابق ، والجملة معطوفة على علة مقدرة ينسحب عليها الكلام أي ليستدل ( بها ) وليكون ، واعترض بأن الاستدلال مع قطع النظر عن كونه سبباً للالتفات لا يكون علة للإراءة فكيف يعطف عليه بإعادة اللام وليس بشيء ، وادعى بعضهم أنه ينبغي على ذلك أن يراد بملكوت السموات والأرض بدائعهما وآياتهما لأن الاستدلال من غايات إراءتها لا من غاية إراءة نفس الربوبية ، وأنت تعلم أن رؤية الربوبية إنما هي برؤية دلائلها وآثارها ، ومن الناس من جوز كون الواو زائدة واللام متعلقة بما قبل

وفيه بعد وإن ذكروه وجهاً كالأولين في كل ما جاء في القرآن من هذا القبيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وعُطِف قوله : ﴿ وليَكون من الموقنين ﴾ على قوله : ﴿ وكذلك ﴾ لأنّ ﴿ وكذلك ﴾ أفاد كون المشبَّه به تعليماً فائقاً .

ففهم منه أنّ المشبَّه به علّة لأمر مهمّ هو من جنس المشبَّه به .

فالتقدير : وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض إراء تبصير وفهم ليَعْلم علماً على وفق لذلك التفهيم ، وهو العلم الكامل وليكون من الموقنين .

وقد تقدّم بيان هذا عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وكذلك نفصِّل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين ﴾ في هذه السورة [ 56 ] .

والموقن هو العالم علماً لا يقبل الشكّ ، وهو الإيقان .

والمراد الإيقان في معرفة الله تعالى وصفاته .

وقوله : وليكون من الموقنين ﴾ أبلغ من أن يقال : وليكون موقناً كما تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ قد ضللت إذن وما أنا من المهتدين ﴾ في هذه السورة [ 56 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) ﴾

أي كما اهتدى إبراهيم إلى أن عبادة الأصنام ضلال مبين فسيريه الله ملكوت السموات والأرض ما دام قد اهتدى إلى أن هناك إلهاً حقًّا ، فالإله الحق يبين له أسرار الكون :

والملكوت صيغة المبالغة في الملك ، مثلها مثل " رحموت " . وهي صيغة مبالغة من الرحمة ، والملكوت تعطينا فهم الحقائق غير المشهودة ، فالذي يمشي وراء الأسباب المشهودة له يأخذ الملك ؛ لأن ما يشهده ويحسّه هو أمامه ، والملكوت هو ما يغيب عنه ، إذن ففيه " ملك " ، وفيه " ملكوت " ، الملك هو ما تشاهده أمامك ، والملكوت هو ما وراء هذا الملك

.

والمثال هو ما قاله سيدنا إبراهيم حينما تكلم على الشركاء لله قال سبحانه : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ [ الشعراء : 77-81 ]

ولنلحظ هنا أن الأساليب مختلفة ، فهو يقول : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي ﴾ ولم يقل " الذي هو خلقني " ، ثم قال ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ لأن أحداً لم يدّع أبداً خلق الإنسان ، وهي قضية

مسلمة لله ولا تحتاج إلى تأكيد ، أما هداية الناس فهناك من يدعي أنه يهدي الناس . وما يَدَّعي من البشر يؤكد ب " هو " وما لا يُدَّعي من البشر كالخلق والإماتة والإحياء لا يؤتى فيه بكلمة هو .

(253/237)

---

ويتابع سيدنا إبراهيم : ﴿ والذي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ وهنا قفز سيدنا إبراهيم من كل الأسباب والحلقات الظاهرية إلى الحقيقة ، وعرف الغيب ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ وهو بذلك يميز بين الوسيلة للشفاء وهم الأطباء المعالجون والشافي الأعظم وهو الله – تبارك وتعالى – لأن الناس قد تفتن بالأسباب وتقول : إن الطبيب هو من يشفي ، ولذلك ينتقل سيدنا إبراهيم من ظواهر الأسباب إلى بواطن الأمور ، وينتقل من ظواهر الملك إلى باطن الملكوت حتى نعرف أن الطبيب يعالج ولكنه لا يشفي ، بدليل أننا كثيراً ما رأينا من يذهب للطبيب ويعطيه الطبيب حقنة فيموت المريض ، وبذلك يصير الطبيب في مثل هذا الموقف من وسائل الموت :

سبحان من يرث الطبيب وطبه . . . ويرى المريض مصارع الآسين

إذن ، ﴿ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ أي أن الشفاء من الله والعلاج من الطبيب .

وبذلك جاء سيدنا إبراهيم عليه السلام في قصة العقيدة نجده قد أخذ سلطاناً كبيراً يعترف به جميع الأنبياء ؛ لأن ربنا قال فيه : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الذي وفى ﴾ .

وكذلك قال سبحانه : ﴿ وَإِذِ ابتلى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً ﴾ [ البقرة : 124 ]

أي أنك يا إبراهيم مأمون أن تكون إماماً للناس ، وببشرية إبراهيم وبظاهر الملك . سأل الله أن تكون الإمامة في ذريته ، وقال : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ .

أي اجعل من ذريتي أئمة ، فيقول الحق :

﴿ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين ﴾ [ البقرة : 124 ] .

*(254/237)*

---

لأن مسألة الإمامة ليست وراثة دم ، ولا يأخذها إلا من يستحقها . وقلنا : إن سيدنا إبراهيم جاء بهاجر وابنه إسماعيل منها وأسكنهما بواد غير ذي زرع عند البيت المحرم ، ويقول القرآن على لسانه : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ المحرم رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصلاة فاجعل أَفْئِدَةً مِّنَ الناس تهوي إِلَيْهِمْ وارزقهم مِّنَ الثمرات لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [ إبراهيم : 37 ] .

أي أن سيدنا إبراهيم عليه السلام وعى مسألة تعليم الحق له لأسرار الملكوت ، وظل في ذهن سيدنا إبراهيم ، أن الحق سبحانه – لا يعطي الإمامة من ظلم ثم أوضح له أنه يجب أن تفرق بين خلافة النبوة ، وعطاء الربوبية في الطعام ويتمثل ذلك في دعاء سيدنا إبراهيم :

﴿ وارزق أَهْلَهُ مِنَ الثمرات مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بالله واليوم الآخر ﴾ [ البقرة : 126 ]

فكأن إبراهيم حين طلب الرزق من الثمرات لمن آمن بالله واليوم الآخر لم يفرق في دعائه بين عهد النبوة والإمامة ، ومطلوبات الحياة ، فيقول له الحق : ﴿ وَمَن كَفَرَ . . . ﴾ .

أي أنه سبحانه سيرزق بالطعام من آمن ومن كفر ؛ لأن الطعام ومقومات الحياة من عطاءات الربوبية ، أما المناهج فهي من عطاءات الألوهية ، والله سبحانه وتعالى رب لجميع الناس ؛ لأنه هو الذي استدعاهم جميعاً : المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي ، وما دام هو الذي استدعاهم إلى الوجود فهو لا يمنعهم الرزق .

﴿ وَكَذَلِكَ نري إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السماوات والأرض وَلِيَكُونَ مِنَ الموقنين ﴾ [ الأنعام : 75 ] .

*(255/237)*

وكل من يسير على قدم إبراهيم عليه السلام يرتبط ويتعلق بذات الحق سبحانه وتعالى ، وفيه فرق بين الارتباط والتعلق بالذات ، والارتباط والتعلق بالصفات ؛ والذي يعبد الله لأنه رزّاق ، ولأنه مُغْنٍ هو من يرتبط بالصفات . أما من يرتبط بالله لأنه إله فقط وإن أفقره فهو من يرتبط بالذّاب ، وحين صفى سيدنا إبراهيم نفسه من كل العقائد السابقة أوضح له الحق : أنت مأمون على أسرار كوني ، وأعطاه الحق الكثير كما يعطي لكل من يخلص في الارتباط بخالقه يعطيه ربنا عطاءات من أسرار كونه . ويضرب الحق سبحانه لنا كثيراً من المُثُل في القرآن فيقول : ﴿ واتقوا الله ويُعَلِّمُكُمُ الله ﴾ [ البقرة : 282 ]

أي أنك ما دمت مأموناً على ما عرفت من أحكام الحق لحركة حياتك وتنفذه فإن الحق يعتبرك أميناً على أسراره ، ويعطيك المزيد من الزيادة .

ومعنى " تتقي " أي أن تلتحم بمنهج الحق ، وإذا التحمت بالمنهج الحق كنت في الفيوضات الدائمة التي لا تنقضي من الحق ؛ لأن الذي في معيته لا بد أن يخلع الحق عليه من واردات وعطاءات صفاته ما يجلي صلته بربه ويطمئنه عليه ، ومثال ذلك ما حدث في " قصة الهجرة " تجد الرسول صلى الله عليه وسلم وسيدنا أبا بكر في الغار ، ويقول أبو بكر لرسول الله : لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا ، وهذه قضية كونية مؤكدة ، ويرد عليه الرسول صلى الله عليه وسلم بما نقله من القضية الكونية الظاهرة الواضحة إلى عالم الملكوت الخالص ،

ويقول :

" يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما "

*(256/237)*

---

أي أنه يقول له : اطمئن ، لن يرانا أحد ؛ لأننا في معية الله ، وسبحانه لا تدركه الأبصار .

وحين يكون الضعيف في معية القوي فقانون القوى هو الذي يتغلب ، فلا يصبح الضعيف ضعيفاً ، فحين يكون هناك ولد بين الأطفال الذين في مثل سنّه ويضطهدونه ويؤلمونه ويؤذنه ، ثم يرونه في يد أبيه لا يجرؤ أحد منهم أن يأتي إلى ناحيته ، والناس لا يقدر بعضهم على بعض إلا إذا انفلتوا من معية الله ، ومَن في معية الله لا يجترئ عليه أحد أبداً . ولذلك يرسل لنا ربنا قضايا الملك وقضايا الملكوت ، ويمثلها في رسول الله من أول العزم من الرسل مع عبد صالح آتاه الله شيئاً من علمه وفيضه لأنه اتقاه .

يقول الحق سبحانه : ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً ﴾ [ الكهف : 65 ] .

إن هذا العبد قد أخذ منهج الرسول الذي جاء به واتبعه ، فأداه حق الأداء فاتصل بالحق فأعطاه الحق من لدنه علماً . وحين ننظر في هذه القضية نتعجب لأننا نجد سيدنا موسى

- ينظر في عالم الملك بينما ينظر من آتاه الله من لدنه رحمة ومن عنده علما ينظر من عالم الملكوت ، وموسى معذور ؛ لأنه ينظر في دائرة الأسباب ، والعبد الصالح معذور هو الآخر لأنه ينظر في دائرة ثانية ، ولذلك سيقول العبد الصالح : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ .

أي أن المسألة ليست من ذاته ، بل هو مأمور بها . وحين ننظر إلى تقدير موقف كل منهما للآخر نجد العبد الصالح يقول : ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ . أي أن العبد الصالح يعذر موسى ، ويضيف : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ على مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾ [ الكهف : 68 ] فيقول القرآن على لسان موسى : ﴿ قَالَ سَتجدني إِن شَآءَ الله صَابِراً وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً ﴾ [ الكهف : 69 ]

*(257/237)*

---

فها هوذا الرسول الذي جاء ليبلغ المنهج يطيع عبداً صالحاً طبق المنهج من رسول سابق ونفذه كما يحب الله ، والتحم بالمنهج ، وجاء لنا ربنا بهذه القصة مع رسول من أولي العزم .

ويتلقى موسى عليه السلام الأمر من العبد الصالح : ﴿ قَالَ فَإِنِ اتبعتني فَلاَ تَسْأَلْنِي عَن شَيءٍ حتى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴾ [ الكهف : 70 ]

لماذا ؟ لأن العبد الصالح يعلم أن موسى سيتكلم عن عالم الفلك ، وهو يتكلم من عالم

الملكوت .

وحين ركبا السفينة ، وخرقها العبد الصالح ، والخرق إفساد ظاهري في عالم المُلْك .

يوضح سيدنا موسى للعبد الصالح أن هذا الفعل إخلال بالقانون ، وكيف يعتدي على السفنية بالإفساد ؟ فيرد العبد الصالح : ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً ، وليست لك طاقة على مثل هذه المسائل ، فيتذكر موسى ، ثم تأتي حكاية الغلام ، وحكاية الجدار .

وحين ندقق النظر في هذه الأمور نجد عالم الملكوت يصحح الأمور الشاذّة في عالم الملك ؛ فخرق السفينة إفساد ظاهري لكن إذا علم موسى أن هناك مَلِكاً يأخذ السفن السليمة الصالحة ويستولي عليها غصبا وهذه السفينة لمساكين يعملون في البحر ، ويريد العبد الصالح أن يحافظ لهم على السفينة فيخرقها حتى لا يأخذها المغتصب ؛ وحين يقارن الملك المغتصب بين سفينة سليمة وسفينة مخروقة . فلن يأخذ السفينة غير السليمة ، ويمكن لأصحابها إصلاحها .

إذن لو علم موسى بهذه المسألة ، ألا يجوز أن يكون موسى هو الذي كان يقوم بخرق السفينة ؟ إنه كان سيخرقها ، إذن لو علم صاحب نظرية الملك ما في نظرية الملكوت من أسرار ، لفعل هو الفعل نفسه . وحين نأتي لقتل الغلام ، لا بد من التساؤل : وما ذنب الغلام ؟ فيفسر العبد الصالح الأمر : ﴿ وَأَمَّا الغلام فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً ﴾ [ الكهف : 80 ]

والأبوان قد يدللان هذا الابن ، ويطعمانه من مال حرام ، ويكون فتنة لهما ، فقتل الغلام ليظلا على الإيمان ، وعجلّ ربنا بالولد إلى الجنة مباشرة .

وفي مسألة الجدار تجد الخلاف بين رؤية عالم المُلْك ، ورؤية عالم الملكوت ففي ظاهر الأمر أنهما حين أتيا أهل القرية طلباً للطعام ، وطلب الطعام شهادة صدق على الضرورة ، لأنه ليس طلباً للنقود ، فقد يطلب أحد النقود ليدخرها ، لكن من يقول : " أعطني رغيفاً لآكل " فهذه آية صدق الضرورة في طلب الطعام . ولكن أهل القرية أبوا أن يضيفوهما ، إذن هم لئام لا كرام . ويرى العبد الصالح جداراً يريد أن ينقض ، وآيلاً للسقوط فأقامه ، وغضب سيدنا موسى ، سبب غضبه أنه والعبد الصالح استطعما هؤلاء فلم يطعموهما ، فكيف تبني جداراً لهم ؟ ! وكان يصح أن تأخذ عليه أجراً ، وغضب سيدنا موسى سببه ظاهر ، لكن العبد الصالح يشرح المسألة :

لقد أقام الجدار لأن أهل القرية لئام ولم يعطونا طعاماً ، ولو وقع الجدار وظهر الكنز تحته أمام لئام بهذا الشكل لسرقوه من أصحابه ، وهم أطفال ، وقد بناه العبد الصالح بهندسة إيمانية ألهمه الله بها بحيث إذا بلغ الولدان الرشد يقع الجدار . أي أنه بناء موقوت ، مثلما نضبط

المنبه على وقت محدد ، كذلك الجدار بحيث إذا بلغ الولدان الرشد يقع الجدار ويأخذان الكنز .

وهذا يوضح لنا الخلاف بين عالم المُلْك وبين عالم الملكوت ؛ فعالم الملكوت هو الذي يغيب عنا وراء الأسباب . وكثير من الناس يقف عند الأسباب ، ولا ينتقل من الأسباب إلى السبب المباشر ، إلى أن ينتهي إلى مسبب ليس بعده سبب .

﴿ وَكَذَلِكَ نري إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السماوات والأرض وَلِيَكُونَ مِنَ الموقنين ﴾ [ الأنعام : 75 ] .

فهل تيقن أو لم يتيقن ؟ .

و" موقنين " جمع " موقن " والجمع أقله ثلاثة ، واليقين ينقسم إلى ثلاث مراحل : يقين بعلم من تثق فيه لأنه لا يكذب ؛ ويقين بعين ما تخبر به ، ويقين بحقيقة المُخْبَر به .

*(259/237)*

---

وحين عرض الحق سبحانه وتعالى هذه المسألة في سورة التكاثر قال : ﴿ أَلْهَاكُمُ التكاثر * حتى زُرْتُمُ المقابر * كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليقين ﴾ [ التكاثر : 1-5 ]

إذا أخبرتكم فهذا الخبر هو الصورة العلمية ، وكان يجب أن يكون ما أخبركم به علم اليقين . ﴿ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليقين * لَتَرَوُنَّ الجحيم * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليقين ﴾ [ التكاثر : 5-7 ] .

لأننا سوف نرى النار في الآخرة ، لكن لم تأت حقيقة اليقين ، وجاءت حقيقة اليقين في سورة الواقعة : ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ اليمين * فَسَلاَمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ اليمين * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ المكذبين الضآلين * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليقين ﴾ [ الواقعة : 90-95 ]

وسيدنا إبراهيم عليه السلام كان حقا من الموقنين في كل أدوار حياته ؛ لأن الله أعلمه ما وراء مظاهر الملك ، ما وراء مظاهر الأشياء ؛ وعواقبها . فمثلا عندما أُخذ ليطرح في النار جاء له جبريل ليقول : ألك حاجة ؟ قال سيدنا إبراهيم : أمّا إليك فلا .

ويقول ذلك وهو يعرف أن النار تحرق ، ولكن هذا ظاهر المُلك ، وظواهر الأشياء ، وسيدنا ابراهيم يعلم أن الذي خلقها جعلها محرقة ، ويستطيع ألا يجعلها محرقة ، وهو متيقن به ، ولذلك لم يطفئ الله النار بظاهر الأسباب ولكن جعلها الله ليّاً لأعناق خصومه ، فأوضح الحق : يا نار أنا خلقت فيك قوة الإحراق ، وأنا أقول لك الآن : لا تحرقي . ﴿ قُلْنَا يانار كُونِي بَرْداً وسلاما على إِبْرَاهِيمَ ﴾ [ الأنبياء : 69 ]

إذن فإبراهيم يعرف هذه الحقائق المختفية وراء المُلك الظاهر ، وهذا من الابتلاءات الأولى

في حياته ، ويملك أن يرد على سيدنا جبريل لحظة أن سأله قبل أن يلقوا به في النار : ألك حاجة ؟ فيقول إبراهيم : أمّا إليك فلا .

*(260/237)*

---

ثم يأتي له الابتلاء في آخر حياته بذبح ولده . ونعلم أن الإنسان تمر عليه أطوار تكوين ذاتيته ، وأحياناً تكون الذات هي المسيطرة ، وفي طور آخر تبقى ذاتية أولاده فوق ذاتيته ، أي أنه يحب أولاده أكثر من نفسه . يتمنى أن يحقق لأولاده كل ما فاته شخصياً . فلما كبر إبراهيم ووهبه الله الولد يأتيه الابتلاء بأن يذبح ابنه إنه ابتلاء شديد قاس ، وهو ابتلاء لا يأتي بواسطة وحي بل بواسطة رؤيا . وكلنا نعلم أن رؤيا الأنبياء حق . لكن إبراهيم يعلم أن الحق سبحانه وتعالى لا يطلب من خلقه إلا أن يستسلموا لقضائه ، ولذلك إذا رأيت إنساناً طال عليه قضاء ربه في أي شيء ؛ في مرض ، في مصيبة ، في مال ، أو غير ذلك فاعلم أنه لم يرض بما وقع له ، ولو أنه رضي لانتهى القضاء . فالقضاء لا يُرفع حتى يُرضى به ، ولا يستطيع أحد أن يلوي يد خالقه .

إذن فالناس هم الذين يطيلون على أنفسهم أمد القضاء .

ولذلك عرف سيدنا إبراهيم هذه القضية : قضية فهمه لعالم الملكوت . فلما قيل له : "

اذبح ابنك " لم يرد أن يمر ابنه بفترة سخط على تصرف أبيه ؛ لأنه إن أخذه من يده وفي يده الأخرى السكين فلا بد أن تكون هذه اللحظة مشحونة بالسخط ، فيحرم من الجزاء ، فيبين له المسألة . ويقول القرآن حكاية عن إبراهيم : ﴿ يا بني إني أرى فِي المنام أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ [ الصافات : 102 ]

وهذا القول يريد به إبراهيم أن ينال ابنه ثواب الاستسلام وهو دليل محبة إبراهيم لولده ، فماذا قال إسماعيل : ﴿ قَالَ يا أبت افعل مَا تُؤمَرُ ستجدني إِن شَآءَ الله مِنَ الصابرين ﴾ [ الصافات : 102 ]

قال إسماعيل ذلك ليأخذ عبودية الطاعة . ويؤكد القرآن رضا إبراهيم وابنه بالقضاء فيقول : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ [ الصافات : 103 ]

*(261/237)*

---

وهذا القبول بالقضاء هو ما يرفعه . لذلك يقول القرآن بعدها : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يا إبراهيم * قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين ﴾ [ الصافات : 104-105 ]

ويفدي الله إسماعيل بذبح عظيم ، ولا يقتصر الأمر على ذلك بل يرزق الله إبراهيم بولد آخر ؛ لأنه فهم ملكوت السموات والأرض ، وعرف نهاية الأشياء . فإذا ما أصيب

الإنسان بمصيبة فما عليه إلا أن يرضى ويقول : ما دامت هذه المصيبة لا دخل لحركتي فيها ، وأجراها عليّ خالقي فهي اختبار منه – سبحانه – ولا يوجد خالق يفسد ما خلق . ولا صانع يفسد ما صنع ، ولا بد أن لذلك حكمة عنده لا أفهمها أنا ، لكني واثق في حكمته .

إن طريق الخلاص من أي نائبة من النوائب أن يرضى المؤمن بها ، فتنتهي . ومن تحدث له مصيبة بأن يموت ولد له ، ويظل فاتحاً لباب الحزن في البيت ، وتبكي الأم كلما رأت من في مثل سنّه فسيظل باب الحزن مفتوحا ، وإن أرادوا أن يزيل الله عنهما هذا الابتلاء فليقفلا باب الحزن بالرضا . وليعلم كل مؤمن أن ما أخذ منه هو معوض عنه بأجر خير منه ، والمأخوذ الذي قبضه الله إليه وتوفاه معوض بجزاء خير مما يترك في الدنيا ، ولذلك يقال : المصاب ليس من وقعت عليه مصيبة وفارقه الأحباب ، بل المصاب من حُرم الثواب ، فكأنه باع نكبته بثمن بخس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(262/237)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

" وكذلك " في هذه الآيات ثلاثة أوجه :

أظهرها : أنها للتشبيه ، وهي في مَحَلِّ نصب نَعْتاً لمصدر محذوف ، فقدره الزمخشري : " ومثل ذلك التعريف والتصيير نعرف إبراهيم ونبصره ملكوت " .

وقَدَّرَهُ المَهْدَوِيُّ : " وكما هديناك يا محمد أرينا إبراهيم " .

قال أبو حيان : وهذا بعيدٌ من دلالة اللفظ .

قال شهاب الدين : إنما كان بعيداً ؛ لأن المحذوف من غير المَلْفُوظِ به ، ولو قدره بقوله : " وكما أريناك يا محمد الهداية " ، لكان قريباً لدلالة اللفظ معاً عليه .

وقدَّرَهُ أبو البقاء بوجهين :

أحدهما : قال : " هو نَصْبٌ على إضمار " أرَيْنَاهُ " تقديره : وكما رآه أباه وقومه في ضلال مبين ، أريناه ذلكح ما رآه صواباً بإطلاعنا إياه عليه " .

الثاني : قال : " ويجوز أن يكون منصوباً بـ " نرى " التي بعده على أنه صِفَةٌ لمصدر محذوف ؛ تقديره نريه ملكوت السموات والأرض رُؤيةَ كرؤية ضلال أبيه " انتهى .

قال شهابُ الدين فقوله : " على إضمار أريناه " لا حاجة إليه أَلْبَتَّة ، ولأنه يقتضي عدم ارتباط قوله : " نري إبراهيم ملكوت " بما قبله .

(263/237)

الثاني : أنها للتَّعْلِيلِ بمعنى " اللام " أي : ولذلك الإنكار الصَّادرِ منه عليهم ، والدعاء إلى الله في زَمَنٍ كان يُدْعَى في غير الله آلهة نريه ملكوت .

الثالث : أن " الكاف " في مَحَلِّ رفع على خبر ابتداء مضمر ، أي : والأمر كذلك ، أي كما رآه من ضلالتهم نقل الوجهين الآخرين أبو البقاء وغيره .

و " نُرِي " هذا مضارع ، والمراد به حكاية حالِ ماضيه ، والتقدير : كذا نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض .

و " نري " يحتمل أن تكون المُتعدِّية لاثنين ؛ لأنها في الأصل بصرية ، فأكسبتها همزة النقل مفعولاً ثانياً ، وجعلها ابن عطية مَنْقُولةً من " رأى " بمعنى " عرف " ، وكذلك الزمخشري فإن قال فيما قدمت حكايته عنه : " ومثل ذلك التعريف نُعَرِّف " .

قال أبو حيان بعد حكايته كلام ابن عطية : " ويحتاج كون " رأى " بمعنى " عرف " ثم يتعدى بالهمزة إلى مفعولين إلى نَقْلِ ذلك عند العربِ ، والذي نقل النحويون أن " رأى " إذا كانت بصريَّة تعدَّتْ لمفعول ، وإذا كانت بمعنى " علم " الناصبة لمفعولين تعدَّتْ إلى مفعولين " .

قال شهابُ الدِّين : والعَجَبُ كيف خص بالاعتراض ابن عطية دون الزمخشري ، وهذه الجملة المُشْتَمِلةُ على التشبيه ، أو التعليل معترضة بين قوله : " وإذْ قال إبراهيمُ " منكراً

على أبيه وقومه عبادَةَ الأصنام ، وبين الاستدلال عليهم بوحدانية الله – تعالى – ويجوز ألاَّ تكون معترضةً إن قلنا : إن قوله : " فلما " عطف على ما قبله ، وسيأتي " والملكوت " مصدر على " فَعَلُوت " بمعنى المُلْك ، وبني على هذه الزِّنَةِ ، والزيادة للمبالغة .

قال القرطبي : وزيدت الواو النافية للمبالغةِ ، وقد تقدم ذلك عند ذكر ﴿ الطاغوت ﴾ [ البقرة : 256 ]

والجمهور على " ملَكُوت " بفتح اللام .

وقرا أبو السَّمَّال بسكونها ، وهي لغة : والجمهور أيضاً على " ملكوت " بتاء مثناة .

وعكرمة قرأها مثلثة ، وقال : أصلها " ملكوثا " باليونانية أو بالنبطية .

*(264/237)*

---

وعن النخعي هي " ملكوثا " بالعبرانية ، وعلى هذا قراءة الجمهور يحتمل أن تكون من هذا ، وإنما عُرِّبَتِ الكلمة فتَلاعَبُوا بها ، وهذا كما قالوا في اليهود بأنهم سُمُّوا بذلك لأجل يَهُوذَا بن يعقوب بذال معجمة ، ولكن لما عُرِّبَتْهُ العرب أوا بالدَّال المهملة ، إلا أن الأحْسَنَ أن يكون مُشْتَقًّا من المُلْكِ ؛ لأن هذه الزِّنَةَ وَرَدَتْ في المصادر كـ " الرَّغبوت " و " الرَّهَبُوت " و " الرَّحَمُوت " و " الجَبرُوت " و " الطَّاغُوت " وهل يختص ذلك بمُلْكِ الله تعالى أم يقال له

ولغيره ؟ .

فقال الراغب : " والملكُوت مُخْتَصٌ بمُلْكِا لله تعالى وهذا الذي ينبغي " .

وقال أبو حيَّان : " ومن كلامهم : له ملكوت اليمن ، وملكوت العراق " ، فعلى هذا لا يختص .

والجمهور على " نرى " بنون العظمة .

وقرئ : " تُري " بتاء من فوق " إبراهيم " نصباً ، " ملكوت " رفعاً ، أي : تريه دلائل الربوبية ، فأسند الفعل إلى الملكوت مُؤوَّلاً بمؤنث ، فلذلك أَنَّثَ فعله .

قوله : " وليكون " فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن " الواو " زائدة ، أي : نريه ليكون من المؤمنين بالله ، و " اللام " متعلقة بالفعل قبلها ، إلا أن زيادةَ " الواوِ " ضعيفة ولم يقل بها إلاَّ الأَخْفَش ومن تابعه .

الثاني : أنها علَّة لمحذوف ، وليكون اريناه إياه ذلك ، والتقدير : وليكون من الموقنين برؤية مَلَكُوتِ السَّموات والأرض .

الثالث : أنها عطف على علَّةٍ محذوفة ، أي : ليستدل وليكون ، أو ليقيم الحُجَّة على قَوْمِهِ ، واليقين : عبارة عن عِلْمٍ يحصل بعد زال الشُّبْهِةِ بسبب التَّأَمُّلِ ، ولهذا المعنى لا يُوصَفُ علم الله بكونه يقيناً ؛ لأنّ علمه غير مَسْبُوقٍ بالشبهة ، وغير مُسْتَفَادٍ من الفِكْرِ والتأمل .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 235 . 239 ﴾ . باختصار .

(265/237)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) ﴾

لاطَفه بسابق العناية ، ثم كاشفه بِلاحِق الهداية فأراه من دلالات توحيده ما لم يبق في قضاء سِرّه شظية من غبار العيب ، فلمَّا صحا من غيم التجوز سما سِرُّه فقال بنفي الأغيار جملةً ، وتبرَّأ عن الجميع ولم يغادر منها تهمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 484 ﴾

(266/237)

---

قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كانت الأمور السماوية مشاهدة لجميع الخلق : دانيهم وقاصيهم ، وهي أشرف من الأرضية ، فإذا بطلت صلاحيتها للإلهية بطلت الأرضية من باب الأولى ؛ نصب لهم الحجاج في أمرها ، فقال مسبباً عن الإراءة المذكورة : ﴿ فلما جن ﴾ أي ستر وأظلم ، وقصره – وإن كان متعدياً – دلالة على شدة ظلام تلك الليلة ، ولذلك عداه بأداة الاستعلاء فقال : ﴿ عليه اللّيل ﴾ أي وقع الستر عليه ، فحجب ملكوت الأرض فشرع ينظر في ملكوت السماء ﴿ رأى كوكباً ﴾ أي قد بزغ ، فكأنه قيل : فماذا فعل ؟ فقيل : ﴿ قال هذا ربي ﴾ فكأنه مِنْ بَصْرِه أن أتى بهذا الكلام الصالح لأن يكون خبراً واستفهاماً ، ليوهمهم أنه مخبر ، فيكون ذلك انفى للغرض وأنجى من الشعب ، فيكون أشد استجلاباً لهم إلى إنعام النظر وتنبيهاً على موضع الغلط وقبول الحجة ، ولمثل ذلك ختم الآية بقوله : ﴿ فلما أفل ﴾ أي غاب بعد ذلك الظهور الذي كان آية سلطان ﴿ قال لا أحب الآفلين ﴾ لأن الأفول حركة ، والحركة تدل على حدوث المتحرك وإمكانه ، ولا نظن أن يظن به أنه قال ما قاله أولاً عن اعتقاد ربوبية الكواكب ، لأن الله تعالى قد دل على بطلان هذا التوهم بالإخبار بأنه أراه ملكوت الخافقين وجعله موقناً ، فاسند الأمر إلى نفسه تنبيهاً لهم ، واستدل بالأفول لأن دلالته لزوال سلطانه وحقارة شأنه اتم ، ولم يستدل بالطلوع لأنه – وإن كان حركة دالة على الحدوث والنقصان – شرف في الجملة وسلطان ، فالخواص يفهمون

من الأفول الإمكان ، والممكن لا بد له من موجد واجب الوجود ، يكون منتهى الآمال ومحط الرحال ﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾ [ النجم : 42 ] والأوساط يفهمون منه الحدوث للحركة ، فلا بد من الأستناد إلى قديم ، والعوام يفهمون أن الغارب كالمعزول لزوال نوره وسلطانه ، وأن ما كان كذلك لا يصلح للإلهية ، وخص الأفول أيضاً لأن قومه الفرس كانوا منجمين ، ومذهبهم أن الكوكب إذا كان صاعداً من المشرق إلى وسط السماء كان قوياً عظيم التأثير ، فإذا

(267/237)

---

كان نازلاً إلى المغرب كان ضعيف الأثر ، والإله هو من لا يتغير ، وهذا الاستدلال برهان في أن أصل الدين مبني على الحجة دون التقليد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 659.658 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال صاحب "الكشاف" : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الليل ﴾ عطف على قوله : ﴿ قَالَ إبراهيم لِأبيهِ ءَازَرَ ﴾ وقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِى ﴾ جملة وقعت اعتراضاً بين المعطوف والمعطوف

عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 39 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال الواحدي رحمه الله : يقال جن عليه الليل وأجنه الليل ، ويقال : لكل ما سترته جن وأجن ، ويقال أيضاً جنه الليل ، ولكن الاختيار جن عليه الليل ، وأجنه الليل .

هذا قول جميع أهل اللغة ، ومعنى ﴿ جَنَّ ﴾ ستر ومنه الجنة والجن والجنون والجان والجنين والمجن والجنن والمجن ، وهو المقبور .

والمجنة كل هذا يعود أصله إلى الستر والاستتار ، وقال بعض النحويين : ﴿ جَنَّ عَلَيْهِ الليل ﴾ إذا أظلم عليه الليل .

ولهذا دخلت "على" عليه كما تقول في أظلم .

فأما جنه فستره من غير تضمين معنى ﴿ أَظْلَمَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 39 ﴾

فصل نفيس

قال الفخر :

اعلم أن أكثر المفسرين ذكروا أن ملك ذلك الزمان رأى رؤيا وعبرها المعبرون بأنه يولد غلام ينازعه في ملكه ، فأمر ذلك الملك بذبح كل غلام يولد ، فحبلت أم إبراهيم به وما أظهرت

حبلها للناس ، فلما جاءها الطلق ذهبت إلى كهف في جبل ووضعت إبراهيم وسدت الباب بحجر ، فجاء جبريل عليه السلام ووضع أصبعه في فمه فمصه فخرج منه رزقه وكان يتعهده جبريل عليه السلام ، فكانت الأم تأتيه أحياناً وترضعه وبقي على هذه الصفة حتى كبر وعقل وعرف أن له رباً ، فسأل الأم فقال لها : من ربي ؟ فقالت أنا ، فقال : ومن ربك ؟ قالت أبوك ، فقال للأب : ومن ربك ؟ فقال : ملك البلد .

*(268/237)*

---

فعرف إبراهيم عليه السلام جهلهما بربهما فنظر من باب ذلك الغار ليرى شيئاً يستدل به على وجود الرب سبحانه فرأى النجم الذي هو أضوأ النجوم في السماء .

فقال : هذا ربي إلى آخر القصة .

ثم القائلون بهذا القول اختلفوا ، فمنهم من قال : إن هذا كان بعد البلوغ وجريان قلم التكليف عليه ، ومنهم من قال : إن هذا كان قبل البلوغ .

واتفق أكثر المحققين على فساد القول الأول واحتجوا عليه بوجوه :

الحجة الأولى : أن القول بربوبية النجم كفر بالإجماع والكفر غير جائز بالإجماع على الأنبياء .

الحجة الثانية : أن إبراهيم عليه السلام كان قد عرف ربه قبل هذه الواقعة بالدليل .

والدليل على صحة ما ذكرناه أنه تعالى أخبر عنه أنه قال قبل هذه الواقعة لأبيه آزر :

﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً ءَالِهَةً إِنِّى أَراك وقومك في ظلال مبين ﴾ [ الأنعام : 74 ] .

الحجة الثالثة : أنه تعالى حكى عنه أنه دعا أباه إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام بالرفق حيث قال : ﴿ يا أبت لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِى عَنكَ شَيْئاً ﴾ [ مريم : 42 ]

وحكى في هذا الموضع أنه دعا أباه إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام بالكلام الخشن واللفظ الموحش .

ومن المعلوم أن من دعا غيره إلى الله تعالى فإنه يقدم الرفق على العنف واللين على الغلظ ولا يخوض في التعنيف والتغليظ إلا بعد المدة المديدة واليأس التام .

فدل هذا على أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن دعا أباه إلى التوحيد مراراً وأطواراً ، ولا شك أنه إنما اشتغل بدعوة أبيه بعد فراغه من مهم نفسه .

فثبت أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن عرف الله بمدة .

الحجة الرابعة : أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن أراه الله ملكوت السموات والأرض حتى رأى من فوق العرش والكرسي وما تحتهما إلى ما تحت الثرى ، ومن كان منصبه في الدين كذلك ، وعلمه بالله كذلك ، كيف يليق به أن يعتقد إلهية الكواكب ؟

الحجة الخامسة : أن دلائل الحدوث في الأفلاك ظاهرة من خمسة عشر وجهاً وأكثر ومع هذه الوجوه الظاهرة كيف يليق بأقل العقلاء نصيباً من العقل والفهم أن يقول بربوبية الكواكب فضلاً عن أعقل العقلاء واعلم العلماء ؟

الحجة السادسة : أنه تعالى قال في صفة إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [ الصافات : 84 ] وأقل مراتب القلب السليم أن يكون سليماً عن الكفر ، وأيضاً مدحه فقال : ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا إبراهيم رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عالمين ﴾ [ الأنبياء : 51 ] أي آتيناه رشده من قبل من أول زمان الفكرة .

وقوله : ﴿ وَكُنَّا بِهِ عالمين ﴾ أي بطهارته وكماله ونظيره قوله تعالى : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [ الأنعام : 124 ] .

الحجة السابعة : قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِى إبراهيم مَلَكُوتَ السموات والأرض وَلِيَكُونَ مِنَ الموقنين ﴾ أي وليكون بسبب تلك الإراءة من الموقنين .

ثم قال بعده : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الليل ﴾ والفاء تقتضي الترتيب ، فثبت أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن صار إبراهيم من الموقنين العارفين بربه .

الحجة الثامنة : أن هذه الواقعة إنما حصلت بسبب مناظرة إبراهيم عليه السلام مع قومه ، والدليل عليه أنه تعالى لما ذكر هذه القصة قال : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءاتيناها إبراهيم على

قَوْمِهِ ﴾ ولم يقل على نفسه ، فعلم أن هذه المباحثة إنما جرت مع قومه لأجل أن يرشدهم إلى الإيمان والتوحيد .

لا لأجل أن إبراهيم كان يطلب الدين والمعرفة لنفسه .

الحجة التاسعة : أن القوم يقولون إن إبراهيم عليه السلام إنما اشتغل بالنظر في الكواكب والقمر والشمس حال ما كان في الغار ، وهذا باطل .

لأنه لو كان الأمر كذلك ، فكيف يقول ﴿ يا قوم إنى بَرِىءٌ مما تشْرِكونَ ﴾ مع أنه ما كان في الغار لا قوم ولا صنم .

*(270/237)*

---

الحجة العاشرة : قال تعالى : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللهِ ﴾ وكيف يحاجونه وهم بعد ما رأوه وهو ما رآهم ، وهذا يدل على أنه عليه السلام إنما اشتغل بالنظر في الكواكب والقمر والشمس بعد أن خالط قومه ورآهم يعبدون الأصنام ودعوه إلى عبادتها فذكر قوله : ﴿ لا أُحِبُّ الآفلين ﴾ رداً عليهم وتنبيهاً لهم على فساد قولهم .

الحجة الحادية عشر : أنه تعالى حكى عنه أنه قال للقوم : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللهِ ﴾ وهذا يدل على أن القوم كانوا خوفوه بالأصنام ، كما حكى

عن قوم هود عليه السلام أنهم قالوا له : ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعتراك بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ [ هود : 54 ] ومعلوم أن هذا الكلام لا يليق بالغار .

الحجة الثانية عشرة : أن تلك الليلة كانت مسبوقة بالنهار ، ولا شك أن الشمس كانت طالعة في اليوم المتقدم ، ثم غربت ، فكان ينبغي أن يستدل بغروبها السابق على أنها لا تصلح للآلهية ، وإذا بطل بهذا الدليل صلاحية الشمس للإلهية بطل ذلك أيضاً في القمر والكوكب بطريق الأولى هذا إذا قلنا : إن هذه الواقعة كان المقصود منها تحصيل المعرفة لنفسه .

أما إذا قلنا المقصود منها إلزام القوم وإلجاؤهم ، فهذا السؤال غير وارد لأنه يمكن أن يقال أنه إنما اتفقت مكالمته مع القوم حال طلوع ذلك النجم ، ثم امتدت المناظرة إلى أن طلع القمر وطلعت الشمس بعده وعلى هذا التقدير ، فالسؤال غير وارد ، فثبت بهذه الدلائل الظاهرة أنه لا يجوز أن يقال إن إبراهيم عليه السلام قال على سبيل الجزم : هذا ربي .

وإذا بطل هذا بقي ههنا احتمالان : الأول : أن يقال هذا كلام إبراهيم عليه السلام بعد البلوغ ولكن ليس الغرض منه إثبات ربوبية الكوكب بل الغرض منه أحد أمور سبعة .

الأول : أن يقال إن إبراهيم عليه السلام لم يقل هذا ربي ، على سبيل الأخبار ، بل الغرض منه أنه كان يناظر عبدة الكوكب وكان مذهبهم أن الكوكب ربهم وآلهم ، فذكر إبراهيم عليه السلام ذلك القول الذي قالوه بلفظهم وعبارتهم حتى يرجع إليه فيبطله ، ومثاله : أن الواحد منا إذا ناظر من يقول بقدم الجسم ، فيقول : الجسم قديم ؟ فإذا كان كذلك ، فلم نراه ونشاهده مركباً متغيراً ؟ فهو إنما قال الجسم قديم إعادة لكلام الخصم حتى يلزم المحال عليه ، فكذا ههنا قال : ﴿ هذا ربّى ﴾ والمقصود منه حكاية قول الخصم ، ثم ذكر عقيبه ما يدل على فساده وهو قوله : ﴿ لا أُحِبُّ الآفلين ﴾ وهذا الوجه هو المتعمد في الجواب ، والدليل عليه : أنه تعالى دل في أول الآية على هذه المناظرة بقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءاتيناها إبراهيم على قَوْمِهِ ﴾ .

والوجه الثاني في التأويل : أن نقول قوله : ﴿ هذا ربّى ﴾ معناه هذا ربي في زعمكم واعتقادكم ونظيره أن يقول الموحد للمجسم على سبيل الاستهزاء : أن إلهه جسم محدود أي في زعمه واعتقاده قال تعالى : ﴿ وانظر إلى إلهك الذى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً ﴾ [ طه : 97 ] وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ﴾ [ القصص : 62 ] وكان صلوات الله عليه يقول : " يا إله الآلهة "

والمراد أنه تعالى إله الآلهة في زعمهم وقال : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ [ الدخان : 49 ] أي عند نفسك .

والوجه الثالث في الجواب : أن المراد منه الاستفهام على سبيل الإنكار إلا أنه أسقط حرف الاستفهام استغناء عنه لدلالة الكلام عليه .

والوجه الرابع : أن يكون القول مضمراً فيه ، والتقدير : قال يقولون هذا ربي .

(272/237)

---

وإضمار القول كثير ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إبراهيم القواعد مِنَ البيت وإسماعيل رَبَّنَا ﴾ [ البقرة : 127 ] أي يقولون ربنا وقوله : ﴿ والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى الله زُلْفَى ﴾ [ الزمر : 3 ] أي يقولون ما نعبدهم ، فكذا ههنا التقدير : إن إبراهيم عليه السلام قال لقومه : يقولون هذا ربي .

أي هذا هو الذي يدبرني ويربيني .

والوجه الخامس : أن يكون إبراهيم ذكر هذا الكلام على سبيل الاستهزاء كما يقال لذليل ساد قوماً هذا سيدكم على سبيل الاستهزاء .

الوجه السادس : أنه صلى الله عليه وسلم أراد أن يبطل قولهم بربوبية الكواكب إلا أنه عليه السلام كان قد عرف من تقليدهم لأسلافهم وبعد طباعهم عن قبول الدلائل أنه لو صرح بالدعوة إلى الله تعالى لم يقبلوه ولم يلتفتوا إليه ، فمال إلى طريق به يستدرجهم إلى استماع

الحجة .

وذلك بأن ذكر كلاماً يوهم كونه مساعداً لهم على مذهبهم بربوبية الكواكب مع أن قلبه صلوات الله عليه كان مطمئناً بالإيمان ، ومقصوده من ذلك أن يتمكن من ذكر الدليل على إبطاله وإفساده وأن يقبلوا قوله وتمام التقرير أنه لما يجد إلى الدعوة طريقاً سوى هذا الطريق ، وكان عليه السلام مأموراً بالدعوة إلى الله كان بمنزلة المكره على كلمة الكفر ، ومعلوم أن عند الإكراه يجوز إجراء كلمة الكفر على اللسان قال تعالى : ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمان ﴾ [ النحل : 106 ] فإذا جاز ذكر كلمة الكفر لمصلحة بقاء شخص واحد فبأن يجوز إظهار كلمة الكفر لتخليص عالم من العقلاء عن الكفر والعقاب المؤبد كان ذلك أولى وأيضاً المكره على ترك الصلاة لو صلى حتى قتل استحق الأجر العظيم ، ثم إذا جاء وقت القتال مع الكفار وعلم أنه لو اشتغل بالصلاة انهزم عسكر الإسلام فههنا يجب عليه ترك الصلاة والاشتغال بالقتال .

*(273/237)*

---

حتى لو صلى وترك القتال أثم ولو ترك الصلاة وقاتل استحق الثواب ، بل نقول : أن من كان في الصلاة فرأى طفلاً أو أعمى أشرف على غرق أو حرق وجب عليه قطع الصلاة لإنقاذ

ذلك الطفل أو ذلك الأعمى عن ذلك البلاء .

فكذا ههنا أن إبراهيم عليه السلام تكلم بهذه الكلمة ليظهر من نفسه موافقة القوم حتى إذا أورد عليهم الدليل المبطل لقولهم كان قبولهم لذلك الدليل أتم وانتفاعهم باستماعه أكمل ، ومما يقوي هذا الوجه : أنه تعالى حكى عنه مثل هذا الطريق في موضع آخر وهو قوله : ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى النجوم * فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ [ الصافات : 88 90 ] وذلك لأنهم كانوا يستدلون بعلم النجم على حصول الحوادث المستقبلة فوافقهم إبراهيم على هذا الطريق في الظاهر مع أنه كان بريئاً عنه في الباطن ، ومقصوده أن يتوسل بهذا الطريق إلى كسر الأصنام ، فإذا جازت الموافقة في الظاهر ههنا . مع أنه كان بريئاً عنه في الباطن ، فلم لا يجوز أن يكون في مسألتنا كذلك ؟ وأيضاً المتكلمون قالوا : إنه يصح من الله تعالى إظهار خوارق العادات على يد من يدعى الإلهية لأن صورة هذا المدعي وشكله يدل على كذبه فلا يحصل فيه التلبيس بسبب ظهور تلك الخوارق على يده ، ولكن لا يجوز إظهارها على يد من يدعي النبوة لأنه يوجب التلبيس فكذا ههنا .

وقوله : ﴿ هذا ربّى ﴾ لا يوجب الضلال ، لأن دلائل بطلانه جلية وفي إظهاره هذه الكلمة منفعة عظيمة وهي استدراجهم لقبول الدليل فكان جائزاً والله أعلم .

الوجه السابع : أن القوم لما دعوه إلى عبادة النجوم فكانوا في تلك المناظرة إلى أن طلع النجم

الدري فقال إبراهيم عليه السلام ﴿ هذا ربّى ﴾ أي هذا هو الرب الذي تدعونني إليه ثم سكت زماناً حتى أفل ثم قال : ﴿ لا أُحِبُّ الأفلين ﴾ فهذا تمام تقرير هذه الأجوبة على الاحتمال الأول وهو أنه صلوات الله عليه ذكر هذا الكلام بعد البلوغ.

أما الاحتمال الثاني : وهو أنه ذكره قبل البلوغ وعند القرب منه فتقريره أنه تعالى كان قد خص إبراهيم بالعقل الكامل والقريحة الصافية ، فخطر بباله قبل بلوغه إثبات الصانع سبحانه فتفكر فرأى النجم ، فقال : ﴿ هذا ربّى ﴾ فلما شاهد حركته قال : ﴿ لا أُحِبُّ الأفلين ﴾ ثم إنه تعالى أكمل بلوغه في أثناء هذا البحث فقال في الحال : ﴿ إِنّى بَرِىء مّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ فهذا الاحتمال لا بأس به ، وإن كان الاحتمال الأول أولى بالقبول لما ذكرنا من الدلائل الكثيرة ، على أن هذه المناظرة إنما جرت لإبراهيم عليه السلام وقت اشتغاله بدعوة القوم إلى التوحيد والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 39 . 42 ﴾

*(274/237)*

---

لطيفة

قال القاسمى نقلا عن ابن المنير ( صاحب الانتصاف ) ما نصه :

وقد ورد الحديث الوارد فى الشفاعة أنهم يأتون إبراهيم ـ عليه السلام ـ فيلتمسون منه الشفاعة ، فيقول : نفسى نفسى ويذكر كذباته الثلاث ، ويقول لست لها ، يريد قوله لسارة هى أختى ، وإنما عنى : فى الإسلام . وقوله : إنه سقيم ، وإنما عنى همه بقومه وبشركهم ، والمؤمن يسقمه ذلك ، وقوله : ( بل فعله كبيرهم ) وقد ذكرت فيه وجوه من التعريض . فإذا عد صلوات الله عليه وسلامه على نفسه هذه الكلمات ، مع العلم بأنه غير مؤاخذ بها ، دل ذلك على أنها أعظم ما صدر منه ، فلو كان الأمر على ما يقال ، من أن هذا الكلام محكى عنه على أنه نظره لنفسه ، لكان أولى أن يعده ، وأعظم ، مما ذكرناه ؛ لأنه حينئذ يكون شكا ، بل جزما على أن الصحيح أن الأنبياء قبل النبوة معصومون من ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 412 ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيلُ رَءَا كَوْكَباً ﴾

قال مجاهد : ذكر لنا أنه رأى الزهرة طلعت عشاءً .

﴿ قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ ومعنى جَنَّ عليه الليل ، أي ستره ، ولذلك سمي البستان جَنَة لأن الشجر يسترها ، والجِنُّ لاستتارهم عن العيون ، والجُنُون لأنه يستر العقل ، والجَنِين لأنه مستور في البطن ، والمِجَنّ لأنه يستر المتترس ، قال الهذلي :

وماء وردت قيل الكرى . . . وقد جنه السدف الأدهم

وفي قوله تعالى : ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ خمسة أقاويل :

أحدها : أنه قال : هذا ربي في ظني ، لأنه في حال تقليب واستدلال .

والثاني : أنه قال ذلك اعتقاداً أنه ربه ، قاله ابن عباس .

والثالث : أنه قال ذلك في حال الطفولية والصغر ، لأن أمه ولدته في مغارة حذراً عليه من نمرود ، فلما خرج عنه قال هذا القول قبل قيام الحجة عليه ، لأنها حال لا يصح فيها كفر ولا إيمان ، ولا يجوز أن يكون قال ذلك بعد البلوغ .

والرابع : أنه لم يقل ذلك قول معتقد ، وإنما قاله على وجه الإِنكار لعبادة الأصنام ، فإذا كان الكوكب والشمس القمر وما لم تصنعه يد ولا عَمِلَه بشر لم تكن معبودة لزوالها ، فالأصنام التي هي دونها أولى ألاّ تكون معبودة .

والخامس : أنه قال ذلك توبيخاً على وجه الإِنكار الذي يكون معه ألف الاستفهام وتقديره : أهذا ربي ، كما قال الشاعر :

رفوني وقالوا يا خويلد لا ترع . . . فقلت وأنكرت الوجه هم هم

بمعنى أهم هم ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الليل ﴾

هذه الفاء في قوله ﴿ فلما ﴾ رابطة جملة ما بعدها وهي ترجح أن المراد بالملكوت هو هذا التفصيل الذي في هذه الآية ، و" جن الليل " : ستر وغطى بظلامه ، ويقال الجن ، والأول أكثر ، ويشبه أن يكون الجن والمجن والجنة والجنن وهو القبر مشتقة من جن إذا ستر ، ولفظ هذه القصة يحتمل أن تكون وقعت له في حال صباه وقبل بلوغه كما ذهب إليه ابن عباس . فإنه قال : رأى كوكباً فعبده ، وقاله ناس كثير إن النازلة قبل البلوغ والتكليف ، ويحتمل أن تكون وقعت له بعد بلوغه وكونه مكلفاً ، وحكى الطبري هذا عن فرقة وقالت إنه استفهم على جهة التوقيف بغير ألف ، قال وهذا كقول الشاعر : [ الطويل ]

رَقوني وقالوا يا خُوَيْلِدُ لَمْ تُرَعْ . . . فَقُلْتُ وأَنْكَرْتُ الوُجُوهَ هُمُ هُمُ

يريد أهم هم وكما قال الآخر : [ الطويل ]

لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِي وإِنْ كُنْتُ دَارِياً . . . شَعِيثُ بْنُ سَهْمٍ أَمْ شَعِيثُ بْنُ مِنْقَرِ

يريد أشعيث .

قال القاضي أبو محمد : والبيت الأول لا حجة فيه عندي وقد حكي أن نمرود جبار ذلك الزمن رأى منجموه أن مولوداً ولد في سنة كذا في عمله ، يكون خراب الملك على يديه فجعل يتبع الحبالى ويوكل بهن حراساً فمن وضعت أنثى تركت ومن وضعت ذكراً حمل إلى الملك فذبحه وأن أم إبراهيم حملت وكانت شابة قوية فسترت حملها فلما قربت ولادتها

بعثت تارخ أبا إبراهيم إلى سفر وتحيلت لمضيه إليه ثم خرجت هي إلى غار فولدت فيه إبراهيم وتركته في الغار وقد هيأت عليه ، وكانت تفتقده فتجده يغتذي بأن يمص أصابعه فيخرج له منها عسل وسمن ونحوها ، وحكى بل كان يغذيه ملك وحكي بل كانت تأتيه بألبان النساء اللاتي ذبح أبناؤهن ، فشب إبراهيم أضعاف ما يشب غيره ، والملك في خلال ذلك يحس بولادته ويشدد في طلبه فمكث في الغار عشرة أعوام وقيل خمس عشرة سنة ، وأنه نظر أول ما عقل من الغار فرأى الكوكب وجرت قصة الآية .

*(276/237)*

---

قال القاضي أبو محمد : وجلبت هذه القصص بغاية الاختصار في اللفظ وقصدت استيفاء المعاني التي تخص الآية ويضعف عندي أن تكون هذه القصة في الغار لقوله في آخرها ﴿ إني بريء مما تشركون ﴾ [ الأنعام : 78 ] وهي ألفاظ تقتضي محاجة ورداً على قوم ، وحاله في الغار بعيدة عن مثل هذا اللهم إلا أن يتأول في ذلك أنه قالها بينه وبين نفسه ، أي قال في نفسه معنى العبارة عنه : يا قوم إني بريء مما تشركون ، وهذا كما قال الشاعر : [ الرجز ]

ثم انثنى وَقَالَ فِي التّفكيرِ . . . إنَّ الحياةَ اليومَ فِي الكُرُورِ

قال القاضي أبو محمد : ومع هذا فالمخاطبة تبعده ، ولو قال يا قوم إني بريء من الإشراك لصح هذا التأويل وقوي ، فإن قلنا بأنه وقعت له القصة في الغار في حال الصبوة عدم التكليف على ما ذهب إليه بعض المفسرين ويحتمله اللفظ فذلك ينقسم على وجهين : إما أن يجعل قوله ﴿ هذا ربي ﴾ تصميماً واعتقاداً وهذا باطل لأن التصميم لم يقع من الأنبياء صلوات الله عليهم وإما أن يجعله تعريضاً للنظر والاستدلال كأنه قال هذا المنير البهي ربي إن عضدت ذلك الدلائل ويجيء إبراهيم عليه السلام كما قال الله تعالى لمحمد عليه السلام : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ [ الضحى : 6 ] أي مهمل المعتقد ، وإن قلنا بأن القصة وقعت له في حال كفره وهو مكلف فلا يجوز أن يقول ﴿ هذا ربي ﴾ مصمماً ولا معرضاً للنظر ، لأنها رتبة جهل أو شك وهو عليه السلام منزه معصوم من ذلك كله ، فلم يبق إلا أن يقولها على جهة التقرير لقومه والتوبيخ لهم وإقامة الحجة عليهم في عبادة الأصنام ، كأنه قال لهم : أهذا المنير ربي ؟ أو هذا ربي وهو يريد على زعمكم ؟ كما قال الله تعالى : ﴿ أين شركائي ﴾ [ النحل : 27 ، القصص : 62-74 ، فصلت : 47 ] فإنما المعنى على زعمكم ، ثم عرض إبراهيم عليهم من حركته وأفوله أمارة الحدوث ، وأنه لا يصلح أن يكون

ربّاً ثم في آخر أعظم منه وأحرى كذلك ثم في الشمس كذلك ، فكأنه يقول : فإذا بان في هذه المنيرات الرفيعة أنها لا تصلح للربوبية فأصنامكم التي هي خشب وحجارة أحرى أن يبين ذلك فيها ، ويعضد عندي هذا التأويل قوله : ﴿ إني بريء مما تشركون ﴾ [ الأنعام : 78 ] ومثل لهم بهذه الأمور لأنهم كانوا أصحاب علم نجوم ونظر في الأفلاك ، وهذا الأمر كله إنما وقع في ليلة واحدة والكوكب وهو الزهرة ، في قول قتادة وقال السدي وهو المشتري جانحاً للغروب ، فلما أفل بزغ القمر وهو أول طلوعه فسرى الليل أجمع فلما بزغت الشمس زال ضوء القمر قبلها لانتشار الصباح وخفي نوره ودنا أيضاً من مغربه

*(278/237)*

---

فسمي ذلك أفولاً لقربه من الأفول التام على تجوز في التسمية ، ثم بزغت الشمس على ذلك ، وهذا الترتيب يستقيم في الليلة الخامسة عشرة من الشهر إلى ليلة عشرين ، وليس يترتب في ليلة واحدة كما أجمع أهل التفسير إلا في هذه الليالي ، وبذلك التجوز في أفول القمر .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فلما جنَّ عليه الليل ﴾

قال الزجاج : يقال جن عليه الليل ، وأجنه الليل : إذا أظلم ، حتى يستر بظلمته ؛ ويقال لكل ما ستر : جنّ ، وأجنّ ، والاختيار أن يقال : جنّ عليه الليل ، وأجنه الليل .

الإشارة إلى بدء قصة إبراهيم عليه السلام .

روى أبو صالح عن ابن عباس قال : وُلد إبراهيم في زمن نُمروذ وكان لنمروذ ، كُهَّان ، فقالوا : له يولد في هذه السنة مولود يفسد آلهة أهل الأرض ، ويدعوهم إلى غير دينهم ، ويكون هلاك أهل بيتك على يده ، فعزل النساء عن الرجال ، ودخل آزر إلى بيته فوقع على زوجته ، فحملت ، فقال الكهان لنمروذ : إن الغلام قد حمل به الليلة .

فقال : كل من ولدت غلاما فاقتلوه .

فلما أخذ أُم إبراهيم المخاضُ ، خرجت هاربة ، فوضعته في نهر يابس ، ولفّته في خرقة ، ثم وضعته في حَلْفاء ، وأخبرت به أباه ، فأتاه ، فحفر له سرباً ، وسد عليه بصخرة ، وكانت أُمه تختلف إليه فترضعه ، حتى شب وتكلم ، فقال لأُمه : من ربي ؟ فقالت : أنا .

قال : فمن ربكِ ؟ قالت : أبوك .

قال : فمن رب أبي ؟ قالت : اسكت .

فسكت ، فرجعت إلى زوجها ، فقالت : إن الغلام الذي كنا نتحدث أنه يغير دين أهل الأرض ، ابنك .

فأتاه ، فقال له مثل ذلك .

فلما جنَّ عليه الليل ، دنا من باب السرب ، فنظر فرأى كوكباً .

(279/237)

---

قرأ ابن كثير ، وحفص عن عاصم "رأى" بفتح الراء والهمزة ، وقرأ أبو عمرو "رَإِى" ؛ بفتح الراء وكسر الهمزة ، وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم "رِإِى" ، بكسر الراء والهمزة ، واختلفوا فيها إذا لقيها ساكن ، وهو آت في ستة مواضع : ﴿ رأى القمر ﴾ ﴿ فلما رأى الشمس ﴾ وفي النحل ﴿ وإذا رأى الذين ظلموا ﴾ [ النحل : 85 ] ﴿ وإذا رأى الذين أشركوا ﴾ [ النحل : 86 ] وفي الكهف ﴿ ورأى المجرمون النار ﴾ [ الكهف : 53 ] وفي الأحزاب ﴿ ولما رأى المؤمنون ﴾ [ الأحزاب : 22 ] وقرأ أبو بكر عن عاصم ، وحمزة إلا العبسي ، وخلف في اختياره : بكسر الراء وفتح الهمزة في الكل ، وروى العبسي كسرة الهمزة أيضاً ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والكسائي : بفتح الراء والهمزة .

فإن اتصل ذلك بمكني ، نحو : رآك ، ورآه ، ورآها ؛ فإن حمزة ، والكسائي ، وخلف والوليد عن ابن عامر ، والمفضل ، وأبان ، والقزاز عن عبد الوارث ، والكسائي عن أبي بكر :

يكسرون الراء ، ويميلون الهمزة .

وفي الكوكب الذي رآه قولان .

أحدهما : أنه الزهرة ، قاله ابن عباس ، وقتادة .

والثاني : المشتري ، قاله مجاهد ، والسدي .

قوله تعالى : ﴿ قال هذا ربي ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه على ظاهره ، روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، قال : هذا ربي ، فعبده حتى غاب ، وعبد القمر حتى غاب ، وعبد الشمس حتى غابت ؛ واحتج أرباب هذا القول بقوله : ﴿ لئن لم يهدني ربي ﴾ وهذا يدل على نوع تحيير ، قالوا : وإنما قال هذا في حال طفولته على ما سبق إلى وهمه ، قبل أن يثبت عنده دليل .

وهذا القول لا يرتضى ، والمتأهِّلون للنبوة محفوظون من مثل هذا على كل حال .

*(280/237)*

---

فأما قوله : ﴿ لئن لم يهدني ربي ﴾ فما زال الأنبياء يسألون الهدى ، ويتضرعون في دفع الضلال عنهم ، كقوله : ﴿ واجنبني وبَنيَّ أن نعبد الأصنام ﴾ [ إبراهيم : 35 ] ولأنه قد آتاه رشده من قبل ، وأراه ملكوت السموات والأرض ليكون موقناً ، فكيف لا يعصمه عن

مثل هذا التحيير ؟ !

والثاني : أنه قال ذلك استدراجاً للحجة ، ليعيب آلهتهم ويريهم بغضها عند أفولها ، ولا بد أن يضمر في نفسه : إما على زعمكم ، أو فيما تظنون ، فيكون كقوله : ﴿ اين شركائي ﴾ ، وإما أن يضمر : يقولون ، فيكون كقوله : ﴿ ربنا تقبل منا ﴾ [ البقرة : 127 ] أي : يقولان ذلك ، ذكر نحو هذا أبو بكر بن الأنباري ، ويكون مراده : استدراج الحجة عليهم ، كما نقل عن بعض الحكماء أنه نزل بقوم يعبدون صنما ، فأظهر تعظيمه ، فأكرموه ، وصدروا عن رأيه ، فدهمهم عدو ، فشاورهم مِلكهم ، فقال : ندعو إلهنا ليكشف ما بنا ، فاجتمعوا يدعونه ، فلم ينفع ، فقال : ها هنا إله ندعوه ، فيستجيب ، فدعَوُا الله ، فصرف عنهم ما يحذرون ، وأسلموا .

والثالث : أنه قال مستفهما ، تقديره : أهذا ربي ؟ فأضمرت ألف الاستفهام ، كقوله : ﴿ أفان مت ، فهم الخالدون ﴾ [ الأنبياء : 34 ] ؟ أي : أفَهُمُ الخالدون ؟ قال الشاعر :

كَذَبَتْكَ عَيْنُكَ أَمْ رَأَيْتَ بِوَاسِطٍ . . .

غَلَسَ الظَّلامِ مِنَ الرَّبَابِ خَيَالاَ

أراد : أكذبتك ؟ قال ابن الأنباري : وهذا القول شاذ ، لأن حرف الاستفهام لا يضمر إذ كان فارقاً بين الإخبار والاستخبار ؛ وظاهر قوله : ﴿ هذا ربي ﴾ أنه إشارة إلى الصانع .

وقال الزجاج: كانوا أصحاب نجوم، فقال: هذا ربي، أي: هذا الذي يدبرني، فاحتج عليهم أن هذا الذي تزعمون أنه مدبر، لا نرى فيه إلا أثر مدَّبر. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى:

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الليل ﴾ أي ستره بظلمته، ومنه الجَنّة والجِنّة والجُنّة والجَنين والمِجَنّ والجِنّ كلُّه بمعنى السّتر.

(281/237)

---

وجَنان الليل ادلهمامه وستره.

قال الشاعر:

ولولا جَنان الليل أدركَ رَكْضُنَا . . .

بذِي الرِّمْثِ والأَرْطَى عِيَاضَ بنَ ناشبِ

ويقال: جُنون الليل أيضاً.

ويقال: جَنّه الليل وأجَنّه الليل، لغتان.

﴿ رَأَى كَوْكَباً ﴾ هذه قصّة أخرى، غير قصّة عرض المَلَكوت عليه.

فقيل : رأى ذلك من شَقّ الصخرة الموضوعة على رأس السَّرَب .

وقيل : لما أخرجه أبوه من السَّرَب وكان وقت غيبوبة الشمسِ فرأى الإبلَ والخيلَ والغَنم فقال : لا بدّ لها من ربّ .

ورأى المُشْتَرِي أو الزُّهْرة ثم القمرَ ثم الشمس ، وكان هذا في آخر الشهر .

قال محمد بن إسحاق : وكان ابن خمسَ عشرة سنة .

وقيل : ابن سبع سنين .

وقيل : لما حاجّ نمروذاً كان ابن سبع عشرة سنة .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ هذا رَبِّي ﴾ اختُلف في معناه على أقوال ؛ فقيل : كان هذا منه في مُهْلة النظر وحال الطفُولِيّة وقبل قيام الحجة ؛ وفي تلك الحال لا يكون كفر ولا إيمان .

فاستدلّ قائلو هذه المقالة بما روي عن عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : "فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي" فعبده حتى غاب عنه ، وكذلك الشمس والقمر ؛ فلما تَمّ نظره قال : "إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ" .

واستدل بالأفول ؛ لأنه أظهرُ الآيات على الحدوث .

وقال قوم : هذا لا يصحّ ؛ وقالوا : غير جائز أن يكون لله تعالى رسولٌ يأتي عليه وقت من الأوقات إلا وهو لله تعالى مُوَحِّد وبه عارف ، ومِن كل معبود سواه بريء .

قالوا : وكيف يصحّ أن يتوهّم هذا على مَن عصمه الله وأتاه رُشده من قبلُ ، وأراه مَلكوته ليكون من المُوقِنين ، ولا يجوز أن يُوصف بالخُلُوّ عن المعرفة ، بل عرف الربَّ أوّل النظر .

(282/237)

---

قال الزجاج : هذا الجواب عندي خطأ وغلط ممن قاله ؛ وقد أخبر الله تعالى عن إبراهيم أنه قال : ﴿ واجنبني وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأصنام ﴾ [ إبراهيم : 35 ] وقال جل وعز : ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [ الصافات : 84 ] أي لم يُشرك به قَطّ .

قال : والجواب عندي أنه قال : ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ على قولكم ؛ لأنهم كانوا يعبدون الأصنام والشمس والقمر ؛ ونظير هذا قوله تعالى : "أَيْنَ شُرَكَائِي" وهو جل وعلا واحدٌ لا شريك له .

والمعنى : أين شركائي على قولكم .

وقيل : لما خرج إبراهيم من السَّرَب رأى ضوء الكوكب وهو طالب لربّه ؛ فظن أنه ضوءه قال : ﴿ هذا ربي ﴾ أي بأنه يتراءى لي نوره .

﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ ﴾ علم أنه ليس بربّه .

﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً ﴾ ونظر إلى ضوئه ﴿ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي

رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ .

فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ وليس هذا شركاً .

إنما نَسب ذلك الضوءَ إلى ربّه فلما رآه زائلاً دلّه العلم على أنه غير مستحقّ لذلك ؛ فنفاه بقلبه وعلم أنه مَرْبُوب وليس بربّ .

وقيل : إنما قال ﴿ هذا ربّي ﴾ لتقرير الحجّة على قومه فأظهر موافقتهم ؛ فلما أَفَلَ النَّجم قرّر الحجة وقال : ما تغيّر لا يجوز أن يكون ربًّا .

وكانوا يعظّمون النجوم ويعبدونها ويحكمون بها .

وقال النحاس : ومن أحسن ما قيل في هذا ما صحّ عن ابن عباس أنه قال في قول الله عز وجل : ﴿ نُورٌ على نُورٍ ﴾ [ النور : 35 ] قال : كذلك قلب المؤمن يعرف الله عز وجل ويستدلّ عليه بقلبه ، فإذا عرفه ازداد نوراً على نور ؛ وكذا إبراهيم عليه السلام عرف الله عز وجل بقلبه واستدلّ عليه بدلائله ، فعلم أن له ربًّا وخالقاً .

فلما عرّفه الله عز وجل بنفسه ازداد معرفة فقال : ﴿ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ﴾ .

*(283/237)*

وقيل : هو على معنى الاستفهام والتوبيخ ، مُنْكِراً لفعلهم .

والمعنى أهذا ربي ، أو مثل هذا يكون ربًّا ؟ فحذف الهمزة .

وفي التنزيل ﴿ أَفَإِنْ مِّتَّ فَهُمُ الخالدون ﴾ [ الأنبياء : 34 ] أي أَفهُم الخالدون .

وقال الهُذَلِيّ :

رَفَوْنِي وقالوا يا خُوَيْلدُ لا تَرُعْ . . .

فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ

آخر :

لَعَمْرُكَ ما أدْرِي وإنْ كنتُ دارِياً . . .

بسبع رَمَيْنَ الجَمْرَ أمْ بثَمانِ

وقيل : المعنى هذا ربي على زعمكم ؛ كما قال تعالى : ﴿ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [ القصص : 62 ] .

وقال : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ [ الدخان : 49 ] أي عند نفسك .

وقيل : المعنى أي وأنتم تقولون هذا ربّي ؛ فأضمر القول ، وإضماره في القرآن كثير .

وقيل : المعنى في هذا ربي ؛ أي هذا دليل على ربّي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

وقوله تعالى : ﴿ فلما جن عليه الليل ﴾ يقال جن الليل وأجن إذا أظلم وغطى كل شيء وأجنه الليل وجن عليه إذا ستره بسواده ﴿ رأى كوكباً قال هذا ربي ﴾ .

( ذكر القصة في ذلك )

قال أهل التفسير وأصحاب الأخبار والسير : ولد إبراهيم عليه السلام في زمن نمرود بن كنعان الملك وكان نمرود أول من وضع التاج على رأسه ودعا الناس إلى عبادته وكان له كهان منجمون ، فقالوا له : إنه يولد في بلدك هذه السنة غلام يغير دين أهل الأرض ويكون هلاكك وزوال ملكك على يديه .

ويقال : إنهم وجدوا ذلك في كتب الأنبياء .

(284/237)

---

وقال السدي : رأى نمرود في منامه كأن كوكباً قد طلع فذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء ففزع من ذلك فزعاً شديداً ، فدعا السحرة والكهان وسألهم عن ذلك ، فقالوا : هو مولد يولد في ناحيتك في هذه السنة يكون هلاكك وزوال ملكك وهلاك أهل دينك على يديه ، فأمر بذبح كل غلام يولد في تلك السنة في ناحيته وأمر بعزل النساء عن الرجال وجعل على كل عشرة ، رجلاً يحفظهم فإذا حاضت المرأة خلى بينها وبين زوجها

لأنهم كانوا لا يجامعون في المحيض فإذا طهرت من الحيض حالوا بينهما .

قالوا : فرجع آزر فوجد امرأته قد طهرت من الحيض فواقعها فحملت بإبراهيم .

وقال محمد بن إسحاق : بعث نمرود إلى كل رجل امرأة حبلى بقربه فحبسها عنده إلا ما كان من أم إبراهيم فإنه لم يعلم بحبلها لأنها كانت جارية صغيرة لم يعرف الحبل في بطنها .

وقال السدي : فخرج نمرود بالرجال إلى العسكر وعزلها عن النساء تخوفاً من ذلك المولود فمكثت بذلك ما شاء الله ثم بدت له حاجة إلى المدينة فلم يأمن عليها أحداً من قومه إلا آزر فبعث إليه فأحضره عنده وقال له : إن لي إليك حاجة أحب أن أوصيك بها ولم أبعثك فيها إلا لثقتي بك فأقسمت عليك ألا تدنو من أهلك .

فقال آرز : أنا اشح على ديني من ذلك فأوصاه بحاجته فدخل المدينة وقضى حاجة الملك ، ثم قال : لو دخلت على أهلي فنظرت إليهم فلما دخل على أم إبراهيم ونظر إليها لم يتمالك حتى واقعها فحملت من ساعتها بإبراهيم .

قال ابن عباس : لما حملت أم إبراهيم قال الكهان لنمرود : إن الغلام الذي أخبرناك به قد حملت به أمه الليلة ، فأمر نمرود بذبح الغلمان فلما دنت ولادة أم إبراهيم وأخذها المخاض ، خرجت هاربة مخافة أن يطلع عليها فيقتل ولدها .

(285/237)

قالوا : فوضعته في نهر يابس ثم لفته في خرقة ووضعته في حلفاء ثم رجعت فأخبرت زوجها بأنها ولدت وأن الولد في موضع كذا ، فانطلق إليه أبوه فأخذه من ذلك المكان وحفر له سرباً في النهر فواراه فيه وسد بابه بصخرة مخافة السباع .

وكانت أمه تختلف إليه فترضعه .

وقال محمد بن إسحاق : لما وجدت أم إبراهيم الطلق خرجت ليلاً إلى مغارة كانت قريبة منها فولدت فيها إبراهيم وأصلحت من شأنه ما يصح بالمولود ثم سدت عليها باب المغارة ثم رجعت إلى بيتها .

وكانت تختلف إليه لتنظر ما فعل فتجده حياً وهو يمص إبهامه .

قال أبو روق : قالت أم إبراهيم لأنظرن إلى أصابعه فوجدته يمص من أصبع ماء ، ومن أصبع لبناً ، ومن أصبع سمناً ، ومن أصبع عسلاً ، ومن أصبع تمراً .

وقال محمد بن إسحاق : كان آزر قد سأل أم إبراهيم عن حملها ما فعل فقالت : ولدت غلاماً فما صدقها وسكت عنها .

وكان إبراهيم يشب في اليوم كالشهر وفي الشهر كالسنة فلم يمكث في المغارة إلا خمسة عشر شهراً حتى قال : أخرجيني فأخرجته عشاء فنظر وتفكر في خلق السموات والأرض .

وقال : إن الذي خلقني ورزقني وأطعمني وساقني لربي الذي ما لي إله غيره ونظر في السماء

فرأى كوكباً قال : هذا ربي ثم أتبعه بصره ينظر إليه حتى غاب فلما أفل قال : لا أحب الآفلين .

فلما رأى القمر بازغاً ، قال : هذا ربي وأتبعه بصره ينظر إليه حتى غاب ثم طلعت الشمس قال هكذا إلى آخره ثم رجعت به إلى أبيه آزر قد استقامت وجهته وعرف ربه وبرئ من دين قومه إلا أنه لم ينادهم بذلك .

فلما رجعت به أمه ، أخبرته أنه ابنه وأخبرته بما صنعت به فسر بذلك وفرح فرحاً شديداً .

وقيل : إنه مكث في السرب سبع سنين .

وقيل : ثلاث عشرة سنة وقيل سبع عشرة سنة .

قالوا : فلما شب إبراهيم وهو في السرب قال لأمه : من ربي ؟ قالت : أنا .

*(286/237)*

---

قال : فمن ربك ؟ قالت : أبوك : فمن رب أبي ؟ قالت : اسكت ، ثم رجعت إلى زوجها فقالت أرأيت الغلام الذي كنا نحدث أنه يغير دين أهل الأرض فإنه ابنك .

ثم أخبرته بما قال فأتاه أبو آزر فقال إبراهيم : يا أبتاه من ربي ؟ قال : أمك .

قال : فمن رب أمي ؟ قال : انا .

قال : فمن ربك ؟ قال : نمرود .

قال فمن رب نمرود ؟ فلطمه لطمة وقال : اسكت .

فلما جن عليه الليل دنا من باب السرب فنظر من خلال الصخرة فأبصر كوكباً قال : هذا ربي ويقال إنه قال لأبويه : أخرجاني ، فأخرجاه من باب السرب حين غابت الشمس فنظر إبراهيم إلى الإبل والخيل والغنم فسأل أباه ما هذه ؟ قال : إبل وخيل وغنم .

فقال إبراهيم : ما لهذه بد من أن يكون لها إله وهو ربها وخالقها .

ثم نظر ، فإذا المشتري قد طلع ويقال إنها الزهرة ، وكانت تلك الليلة من آخر الشهر فتأخر طلوع القمر فرأى الكوكب قبل القمر فذلك قوله عز وجل : ﴿ فلما جن عليه الليل ﴾ يعني ستره بظلامه رأى كوكباً قال ﴿ هذا ربي ﴾ ثم اختلف العلماء في وقت هذه الرؤية وفي وقت هذا القول هل كان قبل البلوغ أو بعده على قولين : أحدهما أنه كان قبل البلوغ في حال طفوليته وذلك قبل قيام الحجة عليه فلم يكن لهذا القول الذي صدر من إبراهيم في هذا الوقت اعتبار ولا يترتب عليه حكم لأن الأحكام إنما تثبت بعد البلوغ .

*(287/237)*

وقيل : إن إبراهيم لما خرج من السرب في حال صغره ونظر إلى السماء وما فيها من العجائب ونظر إلى الأرض وما فيها من العجائب وكان قد خصه الله بالعقل الكامل والفطرة السليمة تفكر في نفسه وقال لا بد لهذا الخلق من خالق مدبر وهو إله الخلق ، ثم نظر في حال تفكره فرأى الكوكب وقد أزهر ، فقال : هذا ربي على ما سبق إلى وهمه وذلك في حال طفوليته وقبل استحكام النظر في معرفة الرب سبحانه وتعالى واستدل أصحاب هذا القول على صحته بقوله ﴿ لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ﴾ قالوا وهذا يدل على نوع تحير وذلك لا يكون إلا في حال الصغر وقبل البلوغ وقيام الحجة وهذا القول ليس بسديد ولا مَرْضي لأن الأنبياء معصومون في كل حال من الأحوال وأنه لا يجوز أن يكون لله عز وجل رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلا وهو بالله عارف وله موحد وله من كل منقصة منزه ومن كل معبود سواه برئ وكيف يتوهم هذا على إبراهيم وقد عصمه الله وطهره وآتاه رشده من قبل وأراه ملكوت السموات والأرض أفبرؤية الكوكب يقول معتقداً هذا ربي ؟ حاشا إبراهيم صلى الله عليه وسلم من ذلك لأن منصبه أعلى وأشرف من ذلك صلى الله عليه وسلم .

والقول الثاني : الذي عليه جمهور المحققين إن هذه الرؤية وهذا القول كان بعد بلوغ إبراهيم وحين شرفه الله بالنبوة وأكرمه بالرسالة ثم اختلف أصحاب هذا القول في تأويل الآية ومعناها فذكروا فيها وجوهاً :

الوجه الأول : أن إبراهيم عليه السلام أراد أن يستدرج قومه بهذا القول ويعرفهم جهلهم وخطأهم في تعظيم النجوم وعبادتها لأنهم كانوا يرون أن كل الأمور إليها ، فأراهم إبراهيم أنه معظِّمُ ما عظموه فلما أفل الكوكب والقمر والشمس أراهم النقص الداخل على النجوم بسبب الغيبوبة والأقوال ليثبت خطأ ما كانوا يعتقدون فيها من الألوهية .

*(288/237)*

---

ومثل هذا كمثل الحواري الذي ورد على قوم كانوا يعبدون صنماً فأظهر تعظيمه فأكرموه لذلك حتى صاروا يصدرون عن رأيه في كثير من أمورهم إلى أن دهمهم عدو لا قبل لهم به فشاوروه في أمر هذا العدو فقال : الرأي عندي أن ندعو هذا الصنم حتى يكشف عنا ما نزل بنا ، فاجتمعوا حول الصنم يتضرعون إليه فلم يغنِ شيئاً فلما تبين لهم أنه لا ينفع ولا يضر ولا يدفع ، دعاهم الحواري وأمرهم أن يدعوا الله عز وجل ويسألوه أن يكشف ما نزل بهم ، فدعوا الله مخلصين ، فصرف عنهم ما كانوا يحذرون فأسلموا جميعاً .

الوجه الثاني : أن إبراهيم عليه السلام قال هذا القول على سبيل الاستفهام وهو استفهام إنكار وتوبيخ لقومه وتقديره : أهذا ربي الذي تزعمون ، وإسقاط حرف الاستفهام كثير في كلام العرب ومنه قوله تعالى : ﴿ أفإن مت فهم الخالدون ﴾ يعني أفهم الخالدون .

والمعنى أيكون هذا رباً ودلائل النقص فيه ظاهرة .

الوجه الثالث : أن إبراهيم عليه السلام قال ذلك على وجه الاحتجاج على قومه يقول هذا ربي بزعمكم فلما غاب قال لو كان إلهاً كما تزعمون لما غاب فهو كقوله ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ يعني عند نفسك وبزعمك وكما أخبر عن موسى عليه السلام بقوله تعالى : ﴿ انظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً ﴾ يريد إلهك بزعمك .

الوجه الرابع : إن في هذه الآية إضماراً تقديره يقولون ﴿ هذا ربي ﴾ وإضمار القول كثير في كلام العرب ومنه قوله تعالى : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا ﴾ أي يقولان ﴿ ربنا تقبل منا ﴾ الوجه الخامس : إن الله تعالى قال في حقه ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ﴾ ثم قال بعده ﴿ فلما جن عليه الليل ﴾ والفاء تقتضي التعقيب فدل هذا أن هذه الواقعة كانت بعد أن أراه الله ملكوت السموات والأرض وبعض الإيقان ومن كان معه بهذه المنزلة العالية الشريفة لا يليق بحاله أن يعبد الكواكب ويتخذها رباً .

فأما الجواب عن قوله : ﴿ لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ﴾ فإن الأنبياء عيلهم السلام لم يزالوا يسألون الله التثبيت ومنه قوله ﴿ واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام ﴾ قوله تعالى : ﴿ فلما أفل ﴾ يعني غاب والأفول غيبة النيرات ﴿ قال ﴾ يعني إبراهيم ﴿ لا

أحب الآفلين ﴾ يعني لا أحب رباً يغيب ويطلع لأن أمارات الحدوث فيه ظاهرة . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(289/237)

---

وقال ابن كثير :

وقد اختلف المفسرون في هذا المقام ، هل هو مقام نظر أو مناظرة ؟ فروى ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس ما يقتضي أنه مقام نظر ، واختاره ابن جرير مستدلا بقوله : ﴿ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي [لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ] ﴾

وقال محمد بن إسحاق : قال ذلك حين خرج من السّرب الذي ولدته فيه أمه ، حين تخوفت عليه النمرود بن كنعان ، لما أنْ قد أخبر بوجود مولود يكون ذهاب ملكك على يديه ، فأمر بقتل الغلمان عامئذٍ . فلما حملت أم إبراهيم به وحان وضعها ، ذهبت به إلى سَرَبٍ ظاهر البلد ، فولدت فيه إبراهيم وتركته هناك . وذكر أشياء من خوارق العادات ، كما ذكرها غيره من المفسرين من السلف والخلف .

(290/237)

والحق أن إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، كان في هذا المقام مناظرا لقومه ، مبينا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام ، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية ، التي هي على صورة الملائكة السماوية ، ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذين هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه ، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ، ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر ، وغير ذلك مما يحتاجون إليه . وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل ، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة ، وهي : القمر ، وعطارد ، والزهرة ، والشمس ، والمريخ ، والمشترى ، وزحل ، وأشدهن إضاءة وأشرقهن عندهم الشمس ، ثم القمر ، ثم الزهرة . فبين أولا أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية ؛ لأنها مسخرة مقدرة بسير معين ، لا تزيغ عنه يمينًا ولا شمالا ولا تملك لنفسها تصرفا ، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة ، لما له في ذلك من الحكم العظيمة ، وهي تطلع من المشرق ، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه ، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال . ومثل هذه لا تصلح للإلهية . ثم انتقل إلى القمر . فبين فيه مثل ما بين في النجم .

(291/237)

ثم انتقل إلى الشمس كذلك . فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار ، وتحقق ذلك بالدليل القاطع ، ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ أي : أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن ، فإن كانت آلهة ، فكيدوني بها جميعا ثم لا تنظرون ، ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أي : إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها ، الذي بيده ملكوت كل شيء ، وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف : 54] وكيف يجوز أن يكون إبراهيم [الخليل] ناظرا في هذا المقام ، وهو الذي قال الله في حقه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ الآيات [الأنبياء : 51 ، 52] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل : 120 - 123] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا

مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 161] .

وقد ثبت في الصحيحين ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "كل مولود يولد على الفطرة" (1) وفي صحيح مسلم عن عياض بن حماد ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "قال الله : إني خلقت عبادي حنفاء" (2) وقال الله في كتابه العزيز : ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [الروم : 30] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ [الأعراف : 172] ومعناه على أحد القولين ، كقوله : ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ كما سيأتي بيانه .

فإذا كان هذا في حق سائر الخليقة ، فكيف يكون إبراهيم الخليل – الذي جعله الله ﴿ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل : 120] ناظرا في هذا المقام ؟ ! بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة ، والسجية المستقيمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا شك ولا ريب . ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظرًا لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظرا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 291.293 ﴾

(1) صحيح البخاري برقم (1385) وصحيح مسلم برقم (2658) .

(2) صحيح مسلم برقم (2865) .

*(293/237)*

---

وقال أبو حيان :

﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكباً فقال هذا ربي ﴾ .

هذه الجملة معطوفة على قوله : ﴿ وإذ قال إبراهيم ﴾ على قول من جعل ﴿ وكذلك نري ﴾ اعتراضاً وهو قول الزمخشري .

قال ابن عطية : الفاء في قوله ﴿ فلما ﴾ رابطة جملة ما بعدها بما قبلها وهي ترجح أن المراد بالملكوت هو هذا التفصيل الذي في هذه الآية ، وقال الزمخشري : كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال ، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤدٍ إلى أن شيئاً منها لا يصح أن يكون إلهاً لقيام دليل الحدوث فيها وأن وراءها محدثاً أحدثها وصانعاً صنعها ومدبراً دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها والكوكب الزهرة ، قاله ابن عباس وقتادة ، أو المشتري ، قاله مجاهد والسدي وهو رباعي والواو فيه أصل وتكررت

فيه الفاء فوزنه فعفل نحو قوقل وهو تركيب قليل ، والظاهر أن جواب ﴿ لما رأى كوكباً ﴾ وعلى هذا جوزوا في ﴿ قال هذا ربي ﴾ أن يكون نعتاً للكوكب وهو مشكل أو مستأنفاً وهو الظاهر ويجوز أن يكون الجواب ﴿ قال هذا ربي ﴾ و ﴿ رأى كوكباً ﴾ حال أي جن عليه الليل رائياً كوكباً وهذا ربي الظاهر أنها جملة خبرية ، وقيل هي استفهامية على جهة الإنكار حذف منها الهمزة كقوله :

بسبع رمين الجمر أم بثمان . . .

(294/237)

---

قال ابن الأنباري : وهذا شاذ لأنه لا يجوز أن يحذف الحرف إلا إذا كان ثم فارق بين الأخبار والاستخبار وإذا كانت خبرية فيستحيل عليه أن يكون هذا الإخبار على سبيل الاعتقاد والتصميم لعصمة الأنبياء من المعاصي ، فضلاً عن الشرك بالله ، وما روي عن ابن عباس أن ذلك وقع له في حال صباه وقبل بلوغه وأنه عبده حتى غاب وعبد القمر حتى غاب وعبد الشمس حتى غابت فلعله لا يصح ، وما حكي عن قوم أن ذلك بعد البلوغ والتكليف ليس بشيء وما حكوا من أن أمه أخفته في غار وقت ولادته خوفاً من نمروذ أنه أخبره المنجمون أنه يولد ولد في سنة كذا يخرب ملكه على يديه ، وأنه تقدّم إلى أنه من ولد

من أنثى تركت ومن ذكر ذبحه إلى أن صار ابن عشرة أعوام ، وقيل : خمسة عشر وأنه نظر أول ما عقل من الغار فرأى الكوكب فحكاية يدفعها مساق الآية ، وقوله : ﴿ إني بريء مما تشركون ﴾ وقوله : ﴿ تلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ وتأول بعضهم ذلك على إضمار القول وكثيراً ما يضمر تقديره قال : يقولون هذا ربي على حكاية قولهم وتوضيح فساده مما يظهر عليه من سمات الحدوث ولا يحتاج هذا إلى الإضمار بل يصح أن يكون هذا كقوله تعالى : ﴿ أين شركائي ﴾ أي على زعمكم ، وقال الزمخشري : ﴿ هذا ربي ﴾ قول من ينصف خصمه مع علمه أنه مبطل فيحكى قوله كما هو غير متعصب لمذهبه ، لأن ذلك أدعى إلى الحق وأنجى من الشغب ثم يكر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة انتهى ، فيكون هذا القول منه استدراجاً لإظهار الحجة وتوسلاً إليها كما توسل إلى كسر الأصنام بقوله : ﴿ فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم ﴾ فوافقهم ظاهراً على النظر في النجوم وأوهمهم أن قوله ﴿ إني سقيم ﴾ ناشىء عن نظره فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

*(295/237)*

وقال أبو السعود :

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الليل ﴾ على الأول وهو الحق المبين عطفٌ على ( قال إبراهيم ) داخلٌ تحت ما أُمر بذكره بالأمرِ بذكرِ وقتِه ، وما بينهما اعتراضٌ مقرِّرٌ لما سبق وما لحِق ، فإن تعريفَه عليه السلام ربوبيتَه ومالكيتَه للسمواتِ والأرض وما فيهما وكونَ الكلِّ مقهوراً تحت ملكوتِه مفتقِراً إليه في الوجود وسائرَ ما يترتبُ عليه من الكمالات ، وكونَه من الراسخين في معرفة شؤونه تعالى ، الواصلين إلى ذُروة عينِ اليقين مما يقضي بأن يَحكُم عليه السلام باستحالة إلهية ما سواه سبحانه من الأصنام والكواكب ، وعلى الثاني هو تفصيلٌ لما ذُكر من إراءةِ ملكوتِ السموات والأرض ، وبيانٌ لكيفية استدلالِه عليه السلام ، ووصولِه إلى رتبة الإيقان ، ومعنى ( جَنّ عليه الليلُ ) ستره بظلامه ، وقوله تعالى : ﴿ رَأَى كَوْكَباً ﴾ جوابُ لمّا ، فإن رؤيتَه إنما تتحقق بزوال نورِ الشمس عن الحسّ ، وهذا صريحٌ في أنه لم يكن في ابتداءِ الطلوع بل كان غَيبتُه عن الحس بطريق الاضمحلال بنور الشمس ، والتحقيقُ أنه كان قريباً من الغروب كما ستعرفه ، قيل : كان ذلك الكوكبُ هو الزُّهَرَة ، وقيل : هو المشتري .

(296/237)

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ هذا ربّى ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من ( الجملة ) الشرطيةِ السابقةِ المتفرعة على بيان إراءِته عليه السلام ملكوتَ السمواتِ والأرض فإن ذلك مما يحمِلُ السامعَ على استكشاف ما ظهرَ منه عليه السلام من آثار تلك الإراءةِ وأحكامِها ، كأنه قيل : فماذا صنعَ عليه السلام حين رأى الكوكب ؟ فقيل : قال على سبيل الوضْع والفرض : هذا ربي مجاراةً مع أبيه وقومِه الذين كانوا يعبُدون الأصنامَ والكواكب ، فإن المستدِلَّ على فساد قولٍ يحكيه على رأي خصمِه ، ثم يَكُرُّ عليه بالإبطال ، ولعل سلوكَ هذه الطريقة في بيان استحالةِ ربوبيةِ الكواكب دون بيانِ استحالةِ إلهية الأصنام لما أن هذا أخفى بُطلاناً واستحالةً من الأول ، فلو صدعَ بالحق من أول الأمرِ كما فعله في حقّ عبادةِ الأصنام لتمادَوْا في المكابرة والعِناد ، ولجُّوا في طُغيانهم يعمَهون . وقيل : قاله عليه السلام على وجه النظر والاستدلال ، وكان ذلك في زمان مراهقتِه وأولِ أوانِ بلوغه ، وهو مبنيٌّ على تفسير الملكوتِ بآياتهما ، وعَطْفِ قوله تعالى : ﴿ لِيَكُونَ ﴾ على ما ذُكر من العلة المقدرة ، وجَعْلِ قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ ﴾ الخ ، تفصيلاً لما ذُكر من الإراءة وبياناً لكيفية الاستدلال ، وأنت خبير بأن كلَّ ذلك مما يُخِلُّ بجزالة النظمِ الجليل ، وجلالةِ منصِبِ الخليلِ عليه الصلاة والسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(297/237)

وقال الآلوسى :

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اليل ﴾ يحتمل أن يكون عطفاً على ﴿ وَإِذْ قَالَ إبراهيم ﴾ [ الأنعام : 74 ] وما بينهما اعتراض مقرر لما سبق ولحق ، فإن تعريفه عليه السلام ربوبيته ومالكيته تعالى للسموات والأرض وما فيهن وكون الكل مقهوراً تحت ملكوته مفتقراً إليه عز شأنه في جميع أحواله وكونه من الراسخين في المعرفة الواصلين إلى ذروة عين اليقين مما يقتضي بأن يحكم باستحالة ألوهية ما سواه سبحانه من الأصنام والكواكب التي كان يعبدها قومه ، واختاره بعض المحققين ، ويحتمل أن يكون تفصيلاً لما ذكر من إراءة الملكوت وبيانا لكيفية استدلاله عليه السلام ووصوله إلى رتبة الإيقان ، والترتيب ذكري لتأخر التفصيل عن الإجمال في الذكر ، ومعنى ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اليل ﴾ ستره بظلامه ، وهذه المادة بمتصرفاتها تدل على الستر ، وعن الراغب أصل الجن الستر عن الحاسة يقال : جنه الليل وأجنه وجن عليه فجنه وجن عليه ستره وأجنه جعل له ما يستره .

*(298/237)*

وقوله سبحانه : ﴿ رَأَى كَوْكَباً ﴾ جواب لما فإن رؤيته إنما تتحقق عادة بزوال نور الشمس عن الحس وهذا كما قال شيخ الإسلام صريح في أنه لم يكن في ابتداء الطلوع بل كان بعد غيبته عن الحس بطريق الاضمحلال بنور الشمس ، والتحقيق عنده أنه كان قريباً من الغروب وسيأتي إن شاء الله تعالى الإشارة إلى سبب ذلك ، والمراد بالكوكب فيما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما المشتري .

وأخرج ابن المنذر وغيره عن قتادة أنه قال : ذكر لنا أنه الزهرة .

﴿ قَالَ هذا رَبِّى ﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من الكلام السابق ، وهذا منه عليه السلام على سبيل الفرض وإرخاء العنان مجاراة مع أبيه وقومه الذين كانوا يعبدون الأصنام والكواكب فإن المستدل على فساد قول يحكيه ثم يكر عليه بالإبطال وهذا هو الحق الحقيق بالقبول .

وقيل : إن في الكلام استفهاماً إنكارياً محذوفاً ، وحذف أداة الاستفهام كثير في كلامهم ، ومنه قوله

: ثم قالوا تحبها قلت بهرا . . .

وقوله

: فقلت وأنكرت الوجوه هم هم . . . .

وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال في قوله تعالى : ﴿ فَلاَ اقتحم العقبة

﴾ [ البلد : 11 ] إن المعنى أفلا اقتحم وجعل من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ ﴾ [ الشعراء : 22 ] وقيل : إنه مقول على سبيل الاستهزاء كما يقال لذليل ساد قوماً : هذا سيدكم على سبيل الاستهزاء ، وقيل : إنه عليه السلام أراد أن يبطل قولهم بربوبية الكواكب إلا أنه عليه السلام كان قد عرف من تقليدهم لأسلافهم وبعد طباعهم عن قبول الدلائل أنه لو صرح بالدعوة إلى الله تعالى لم يقبلوا ولم يلتفتوا فمال إلى طريق يستدرجهم إلى استماع الحجة وذلك بأن ذكر كلاماً يوهم كونه مساعداً لهم على مذهبهم مع أن قلبه كان مطمئناً بالإيمان ، ومقصوده من ذلك أن يتمكن من ذكر الدليل على إبطاله وإن لم يقبلوا .

(299/237)

---

وقرر الإمام هذا "بأنه عليه السلام لما لم يجد إلى الدعوة طريقاً سوى هذا الطريق وكان مأموراً بالدعوة إلى الله تعالى كان بمنزلة المكره على كلمة الكفر ومعلوم أنه عند الإكراه يجوز إجراء كلمة الكفر على اللسان ، وإذا جاز ذلك لبقاء شخص واحد فبأن يجوز لتخليص عالم من العقلاء عن الكفر والعقاب المؤبد كان ذلك أولى ، فكلام إبراهيم عليه السلام كان من باب الموافقة ظاهراً للقوم حتى إذا أورد عليهم الدليل المبطل لقولهم كان قبولهم له أتم

وانتفاعهم باستماعه أكمل ، ثم قال : ومما يقوي هذا القول أنه تعالى حكى عنه مثل هذا الطريق في موضع آخر وهو قوله تعالى : ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى النجوم فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ [ الصافات : 88 ، 89 ] وذلك لأن القوم كانوا يستدلون بعلم النجوم على حصول الحوادث المستقبلة فوافقهم في الظاهر مع أنه كان بريئاً عنه في الباطن ليتوصل بذلك إلى كسر الأصنام ، فمتى جازت الموافقة لهذا الغرض فلم لا تجوز في مسألتنا لمثل ذلك ، وقيل : إن القوم بينما كانوا يدعونه عليه السلام إلى عبادة النجوم وكانت المناظرة بينهم قائمة على ساق إذ طلع النجم فقال : ﴿ هذا رَبِّى ﴾ على معنى هذا هو الرب الذي تدعونني إليه2 .

وقيل وقيل والكل ليس بشيء عند المحققين لا سيما ما قرره الإمام ، وتلك الأقوال كلها مبنية على أن هذا القول كان بعد البلوغ ودعوة القوم إلى التوحيد وسياق الآية وسباقها شاهدا عدل على ذلك .

وزعم بعضهم أنه كان قبل البلوغ ولا يلزمه اختلاج شك مؤد إلى كفر لأنه لما آمن بالغيب أراد أن يؤيد ما جزم به بأنه لو لم يكن الله تعالى إلهاً وكان ما يعبده قومه لكان إما كذا وإما كذا والكل لا يصلح لذلك فيتعين كون الله تعالى إلهاً وهو خلاف الظاهر ويأباه السياق والسباق كما لا يخفى .

*(300/237)*

وزعم أنه عليه السلام قال ما قال إذ لم يكن عارفاً بربه سبحانه والجهل حال الطفولية قبل قيام الحجة لا يضر ولا يعد ذلك كفراً مما لا يلتفت إليه أصلاً ، فقد قال المحققون المحقون : إنه لا يجوز أن يكون لله تعالى رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلا وهو لله تعالى موحد وبه عارف ومن كل معبود سواه بريء ، وقد قص الله تعالى من حال إبراهيم عليه السلام خصوصاً في صغره ما لا يتوهم معه شائبة مما يناقض ذلك فالوجه الأول لا غير .

ولعل سلوك تلك الطريقة في بيان استحالة ربوبية الكوكب دون بيان استحالة إلهية الأصنام كما قيل لما أن هذا أخفى بطلانا واستحالة من الأول فلو صدع بالحق من أول الأمر كما فعله في حق عبادة الأصنام لتمادوا في المكابرة والعناد ولجوا في طغيانهم يعمهون ، وكان تقديم بطلان إلهية الأصنام على ما ذكر من باب الترقي من الخفي إلى الأخفى .

وقيل : إن القوم كانوا يعبدون الكواكب فاتخذوا لكل كوكب صنماً من المعادن المنسوبة إليه كالذهب للشمس والفضة للقمر ليتقربوا إليها فكان الصنم كالقبلة لهم فأنكر أولا عبادتهم للأصنام بحسب الظاهر ثم أبطل منشآتها وما نسبت إليه من الكواكب بعدم استحقاقها لذلك أيضاً ، ولعلهم كانوا يعتقدون تأثيرها استقلالا دون تأثير الأصنام ولهذا تعرض لبطلان الالهية في الأصنام والربوبية فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ فلمَّا جنّ ﴾ تفريع على قوله : ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ﴾ [ الأنعام : 75 ] بقرينة قوله : ﴿ رأى كوكباً ﴾ فإنّ الكوكب من ملكوت السماوات ، وقولِه في المعطوف عليه ﴿ نُري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ﴾ [ الأنعام : 75 ] .

(301/237)

---

فهذه الرؤية الخاصّة التي اهتدى بها إلى طريق عجيب فيه إبكات لقومه مُلجىء إيّاهم للاعتراف بفساد معتقدهم ، هي فرع من تلك الإراءة التي عمَّت ملكوت السماوات والأرض ، لأنّ العطف بالفاء يستدعي مزيد الاتِّصال بين المعطوف والمعطوف عليه لما في معنى الفاء من التفريع والتسبّب ، ولذلك نعُدّ جعل الزمخشري ﴿ فلما جنّ ﴾ عطفاً على ﴿ قال إبراهيم لأبيه ﴾ [ الأنعام : 74 ] ، وجعْله ما بينهما اعتراضاً ، غيرَ رشيق .

وقوله : ﴿ جَنّ عليه الليل ﴾ أي أظلم الليل إظلاماً على إبراهيم ، أي كان إبراهيم محوطاً بظلمة الليل ، وهو يقتضي أنَّه كان تحت السَّماء ولم يكن في بيت .

ويؤخذ من قوله بعده ﴿ قال يا قوم إنِّي بريء مِمَّا تشركون ﴾ أنَّه كان سائراً مع فريق من

قومه يشاهدون الكواكب ، وقد كان قوم إبراهيم صابئين يعبدون الكواكب ويصوّرون لها أصناماً .

وتلك ديانة الكلدانيين قوم إبراهيم .

يقال : جَنَّة الليل ، أي أخفاه ، وجَنان الليل بفتح الجيم ، وجنُّه : ستره الأشياء المرئية بظلامه الشديد .

يقال : جنَّة الليل ، وهو الأصل .

ويقال : جَنّ عليه الليل ، وهذا يقصد به المبالغة في الستر بالظلمة حتَّى صارت كأَنَّها غطاء ، ومع ذلك لم يسمع في كلامهم جنّ اللَّيل قاصراً بمعنى أظلم .

وظاهر قوله : ﴿ رأى كوكباً ﴾ أَنَّه حصلت له رؤية الكواكب عَرَضاً من غير قصد للتأمّل وإلاّ فإنّ الأفق في الليل مملوء كواكبَ ، وأنّ الكواكب كان حين رآه واضحاً في السماء مشرقاً بنوره ، وذلك أنور ما يكون في وسط السماء .

فالظاهر أَنَّه رأى كوكباً من بينها شديد الضوء .

فعن زيد بن علي أنّ الكوكب هو الزهرة .

وعن السدّي أَنَّه المشتري .

ويجوز أن يكون نَظَر الكواكب فرأى كوكباً فيكون في الكلام إيجاز حذف مثل ﴿ أنِ اضربْ بعصاك البحر فانفلق ﴾ [ الشعراء : 63 ] ، أي فضرب فانفلق .

وجملة ﴿ رأى كوكباً ﴾ جواب ﴿ لَمَّا ﴾ .

والكوكب : النجم .

(302/237)

---

وجملة : ﴿ قال هذا ربِّي ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً جواباً لسؤال ينشأ عن مضمون جملة ﴿ رأى كوكباً ﴾ وهو أن يسأل سائل : فماذا كان عندما رآه ، فيكون قوله : ﴿ قال هذا ربِّي ﴾ جواباً لذلك .

واسم الإشارة هنا لقصد تمييز الكوكب من بين الكواكب ولكنْ إجراؤه على نظيريه في قوله حين رأى القمر وحين رأى الشمس ﴿ هذا ربِّي هذا ربِّي ﴾ يعيّن أنّ يكون القصد الأصلي منه هو الكناية بالإشارة عن كون المشار إليه أمراً مطلوباً مبحوثاً عنه فإذا عُثر عليه أشير إليه ، وذلك كالإشارة في قوله تعالى : ﴿ لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ﴾ [ الروم : 56 ] ، وقوله : ﴿ قالت فذلكنّ الذي لمتّنني فيه ﴾ [ يوسف : 32 ] ولم يقل فهو الذي لمتّنني .

ولعلّ منه قوله : ﴿ هذه بضاعتُنا رُدّت إلينا ﴾ [ يوسف : 65 ] إذ لم يقتصروا على "بضاعتُنا ردّت إلينا" .

وفي "صحيح البخاري" قال الأحنف بن قيس : "ذَهَبْتُ لأَنْصُر هذا الرجل" ( يعني عليّ بن أبي طالب ) ولم يتقدّم له ذكر ، لأنّ عليّاً وشأنه هو الجاري في خواطر الناس أيام صفّين ، وسيأتي قوله تعالى : ﴿ فإن يكفر بها هؤلاء ﴾ [ الأنعام : 89 ] يعني كفَّار قريش ، وفي حديث سؤال القبر : " فيقال له ما علمك بهذا الرجل " ( يعني الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا من الأغراض الداعية للتعريف باسم الإشارة التي أهملها علماء البلاغة فيصحّ هنا أن يجعل مستعملاً في معنييه الصريح والكناية .

وتعريف الجزأين مفيد للقصر لأنَّه لم يقل : هذا ربّ .

فدلّ على أنّ إبراهيم عليه السلام أراد استدراج قومه فابتدأ بإظهار أنَّه لا يَرى تعدّد الآلهة ليصل بهم إلى التوحد واستبقى واحداً من معبوداتهم ففرض استحقاقه الإلهية كيلا ينفروا من الإصغاء إلى استدلاله .

وظاهر قوله ﴿ قال ﴾ إنَّه خاطب بذلك غيره ، لأنّ القول حقيقته الكلام ، وإنَّما يساق الكلام إلى مخاطب .

*(303/237)*

ولذلك كانت حقيقة القول هي ظاهر الآية من لفظها ومن ترتيب نظمها إذْ رُتِّب قوله ﴿ فلما جنّ ﴾ على قوله : ﴿ وكذلك نري إبْراهيم ملكوت السماوات والأرض ﴾ [ الأنعام : 75 ] وقوله : ﴿ وليكون من الموقنين ﴾ [ الأنعام : 75 ] ورتّب ذلك كلّه على قوله : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتَّخذ أصناما آلهة ﴾ [ الأنعام : 74 ] الآية ، ولقوله تعالى : ﴿ قال هذا ربِّي ﴾ وإنَّما يقوله لمخاطب ، ولقوله عقب ذلك ﴿ يا قوم إنِّي بريء ممَّا تشركون ﴾ ، ولأنَّه اقتصر على إبطال كون الكواكب آلهة واستدلّ به على براءته ممَّا يشركون مع أنَّه لا يلزم من بطلان إلهية الكواكب بطلان إلهية أجرام أخرى لولا أنّ ذلك هو مدّعى قومه ؛ فدلّ ذلك كلّه على أنّ إبراهيم عليه السلام قال ذلك على سبيل المجادلة لقومه وإرخاء العنان لهم ليصلوا إلى تلقّي الحجّة ولا ينفِروا من أول وهلة فيكون قد جمع جمعاً من قومه وأراد الاستدلال عليهم .

وقوله : ﴿ هذا ربِّي ﴾ أي خالقي ومدبِّري فهو مستحقّ عبادتي .

قاله على سبيل الفرض جرياً على معتقد قومه ليصل بهم إلى نقض اعتقادهم فأظهر أنَّه موافق لهم ليهشّوا إلى ذلك ثم يكُرّ عليهم بالإبطال إظهاراً للإنصاف وطلب الحقّ .

ولا يريبك في هذا أنّ صدور ما ظاهره كُفر على لسانه عليه السلام لأنَّه لمّا رأى أنّه ذلك طريق إلى إرشاد قومه وإنقاذهم من الكفر ، واجتهد فرآه أرجى للقبول عندهم ساغ له التصريح به لقصد الوصول إلى الحقّ وهو لا يعتقده ، ولا يزيد قولُه هذا قومَه كفراً ، كالذي

يُكره على أن يقول كلمة الكفر وقلبُه مطمئنّ بالإيمان فإنَّه إذا جاز ذلك لحفظ نفس واحدة وإنقاذها من الهلاك كان جوازه لإنقاذ فريق من النَّاس من الهلاك في الدنيا والآخرة أولى .

وقد يكون فعل ذلك بإذن من الله تعالى بالوحي .

*(304/237)*

---

وعلى هذا فالآية تقتضي أنّ قومه يعبدون الكواكب وأنَّهم على دين الصابئة وقد كان ذلك الدين شائعاً في بلدان الكلدان التي نشأ فيها إبراهيم عليه السلام وأنّ الأصنام التي كانوا يعبدونها أرادوا بها أنّها صور للكواكب وتماثيلُ لها على حسب تخيّلاتهم وأساطيرهم مثلما كان عليه اليونان القدماء ، ويحتمل أنَّهم عبدوا الكواكب وعبدوا صوراً أخرى على أنَّها دون الكواكب كما كان اليونان يقسمون المعبودات إلى آلهة وأنصاف آلهة .

على أنّ الصابئة يعتقدون أنّ للكواكب روحانيات تخدمها .

وأفل النجم أفولاً : غاب ، والأفول خاصّ بغياب النيّرات السماوية ، يقال : أفلّ النجم وأفَلَتْ الشمس ، وهو المغيب الذي يكون بغروب الكوكب وراء الأفق بسبب الدورة اليومية للكرة الأرضية ، فلا يقال : أفَلَتْ الشمس أو أفَل النجم إذا احتجب بسحاب .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ أبو عمرو وورش عن نافع ﴿ رئي ﴾ بفتح الراء وكسر الهمزة حيث كان ، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بكسرهما فإذا كان بعد الألف كاف أو هاء نحو : رآك ورآها فحينئذ يكسرها حمزة والكسائي ويفتحها ابن عامر .

وروى يحيى عن أبي بكر عن عاصم مثل حمزة والكسائي فإذا تلته ألف وصل نحو : رأى الشمس ، ورأى القمر .

فإن حمزة ويحيى عن أبي بكر ونصر عن الكسائي يكسرون الراء ويفتحون الهمزة والباقون يقرؤن جميع ذلك بفتح الراء والهمزة ، واتفقوا في رأوك ، ورأوه أنه بالفتح .

قال الواحدي : أما من فتح الراء والهمزة فعلته واضحة وهي ترك الألف على الأصل نحو : رعى ورمى .

وأما من فتح الراء وكسر الهمزة فإنه أمال الهمزة نحو الكسر ليميل الألف التي في رأى نحو الياء وترك الراء مفتوحة على الأصل .

وأما من كسرهما جميعاً فلأجل أن تصير حركة الراء مشابهة لحركة الهمزة ، والواحدي طول في هذا الباب في "كتاب البسيط" فليرجع إليه . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 42 . 43 ﴾

---

فصل

قال الفخر :

القصة التي ذكرناها من أن إبراهيم عليه السلام ولد في الغار وتركته أمه وكان جبريل عليه السلام يربيه كل ذلك محتمل في الجملة .

وقال القاضي : كل ما يجري مجرى المعجزات فإنه لا يجوز لأن تقديم المعجز على وقت الدعوى غير جائز عندهم ، وهذا هو المسمى بالإرهاص إلا إذا حضر في ذلك الزمان رسول من الله فتجعل تلك الخوارق معجزة لذلك النبي .

وأما عند أصحابنا فالإرهاص جائز فزالت الشبهة والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 43 ﴾

فصل

قال الفخر :

إن إبراهيم عليه السلام استدل بأفول الكوكب على أنه لا يجوز أن يكون رباً له وخالقاً له .

ويجب علينا ههنا أن نبحث عن أمرين : أحدهما : أن الأفول ما هو ؟ والثاني : أن الأفول

كيف يدل على عدم ربوبية الكوكب ؟ فنقول : الأفول عبارة عن غيبوبة الشيء بعد ظهوره .

وإذا عرفت هذا فلسائل أن يسأل ، فيقول : الأفول إنما يدل على الحدوث من حيث إنه حركة وعلى هذا التقدير ، فيكون الطلوع أيضاً دليلاً على الحدوث ، فلم ترك إبراهيم عليه السلام الاستدلال على حدوثها بالطلوع وعول في إثبات هذا المطلوب على الأفول ؟

والجواب : لا شك أن الطلوع والغروب يشتركان في الدلالة على الحدوث إلا أن الدليل الذي يحتج به الأنبياء في معرض دعوة الخلق كلهم إلى الله لا بد وأن يكون ظاهراً جلياً بحيث يشترك في فهمه الذكي والغبي والعاقل .

ودلالة الحركة على الحدوث وإن كانت يقينية إلا أنها دقيقة لا يعرفها إلا الأفاضل من الخلق .

أما دلالة الأفول فإنها دلالة ظاهرة يعرفها كل أحد ، فإن الكوكب يزول سلطانه وقت الأفول فكانت دلالة الأفول على هذا المقصود أتم .

*(306/237)*

وأيضاً قال بعض المحققين : الهوى في خطرة الإمكان أفول ، وأحسن الكلام ما يحصل فيه حصة الخواص وحصة الأوساط وحصة العوام ، فالخواص يفهمون من الأفول الإمكان ، وكل ممكن محتاج ، والمحتاج : لا يكون مقطوع الحاجة ، فلا بد من الانتهاء إلى من يكون منزهاً عن الإمكان حتى تنقطع الحاجات بسبب وجوده كما قال : ﴿ ا وَأَنَّ إلى ربّكَ المنتهى ﴾ [ النجم : 42 ] وأما الأوساط فإنهم يفهمون من الأفول مطلق الحركة ، فكل متحرك محدث ، وكل محدث فهو محتاج إلى القديم القادر .

فلا يكون الآفل إلهاً بل الإله هو الذي احتاج إليه ذلك الآفل .

وأما العوام فإنهم يفهمون من الأفول الغروب وهم يشاهدون أن كل كوكب يقرب من الأفول والغروب فإنه يزول نوره وينتقص ضوءه ويذهب سلطانه ويصير كالمعزول ومن يكون كذلك لا يصلح للإلهية ، فهذه الكلمة الواحدة أعني قوله : ﴿ لا أُحِبُّ الآفلين ﴾ كلمة مشتملة على نصيب المقربين وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، فكانت أكمل الدلائل وأفضل البراهين .

وفيه دقيقة أخرى : وهو أنه عليه السلام إنما كان يناظرهم وهم كانوا منجمين .

ومذهب أهل النجوم أن الكوكب إذا كان في الربع الشرقي ويكون صاعداً إلى وسط السماء كان قوياً عظيماً التأثير .

أما إذا كان غريباً وقريباً من الأفول فإنه يكون ضعيف التأثير قليل القوة .

فنبه بهذه الدقيقة على أن الإله هو الذي لا تتغير قدرته إلى العجز وكماله إلى النقصان ، ومذهبكم أن الكوكب حال كونه في الربع الغربي ، يكون ضعيف القوة ، ناقص التأثير ، عاجزاً عن التدبير ، وذلك يدل على القدح في إلهيته ، فظهر على قول المنجمين أن للأفول مزيد خاصية في كونه موجباً للقدح في إلهيته ، والله أعلم .

أما المقام الثاني : وهو بيان أن كون الكوكب آفلاً يمنع من ربوبيته .

(307/237)

---

فلقائل أيضاً أن يقول : أقصى ما في الباب أن يكون أفوله دالاً على حدوثه إلا أن حدوثه لا يمنع من كونه رباً لإبراهيم ومعبوداً له ، ألا ترى أن المنجمين وأصحاب الوسايط يقولون أن الإله الأكبر خلق الكواكب وأبدعها وأحدثها ، ثم أن هذه الكواكب تخلق النبات والحيوان في هذا العالم الأسفل ، فثبت أن أفول الكواكب وإن دل على حدوثها إلا أنه لا يمنع من كونها أرباباً للإنسان وآلهة لهذا العالم .

والجواب : لنا ههنا مقامان :

المقام الأول : أن يكون المراد من الرب والإله الموجود الذي عنده تنقطع الحاجات ، ومتى ثبت بأفول الكواكب حدوثها ، وثبت في بداهة العقول أن كل ما كان محدثاً ، فإنه يكون في

وجوده محتاجاً إلى الغير .

وجب القطع باحتياج هذه الكواكب في وجودها إلى غيرها ، ومتى ثبت هذا المعنى امتنع كونها أرباباً وآلهة .

بمعنى أنه تنقطع الحاجات عند وجودها ، فثبت أن كونها آفلة يوجب القدح في كونها أرباباً وآلهة بهذا التفسير .

المقام الثاني : أن يكون المراد من الرب والإله .

من يكون خالقاً لنا وموجداً لذواتنا وصفاتنا .

فنقول : أفول الكواكب يدل على كونها عاجزة عن الخلق والإيجاد وعلى أنه لا يجوز عبادتها وبيانه من وجوه : الأول : أن أفولها يدل على حدوثها .

وحدوثها يدل على افتقارها إلى فاعل قديم قادر ويجب أن تكون قادرية ذلك القادر أزلية .

وإلا لافتقرت قادريته إلى قادر آخر ، ولزم التسلسل وهو محال ، فثبت أن قادريته أزلية .

وإذا ثبت هذا فنقول : الشيء الذي هو مقدور له إنما صح كونه مقدوراً له باعتبار إمكانه والإمكان واحد في كل الممكنات .

فثبت أن ما لأجله صار بعض الممكنات مقدوراً لله تعالى فهو حاصل في كل الممكنات ، فوجب في كل الممكنات أن تكون مقدروة لله تعالى .

وإذا ثبت هذا امتنع وقوع شيء من الممكنات بغيره على ما بينا صحة هذه المقامات بالدلائل اليقينة في علم الأصول .

(308/237)

---

فالحاصل أنه ثبت بالدليل أن كون الكواكب آفلة يدل على كونها محدثة ، وإن كان لا يثبت هذا المعنى إلا بواسطة مقدمات كثيرة ، وأيضاً فكونها في نفسها محدثة يوجب القول بامتناع كونها قادرة على الإيجاد والإبداع ، وإن كان لا يثبت هذا المعنى إلا بواسطة مقدمات كثيرة .

ودلائل القرآن إنما يذكر فيها أصول المقدمات ، فأما التفريع والتفصيل ، فذاك إنما يليق بعلم الجدل .

فلما ذكر الله تعالى هاتين المقدمتين على سبيل الرمز لا جرم اكتفى بذكرهما في بيان أن الكواكب لا قدرة لها على الإيجاد والإبداع ، فلهذا السبب استدل إبراهيم عليه السلام بأفولها على امتناع كونها أرباباً وآلهة لحوادث هذا العالم .

الوجه الثاني : أن أفول الكواكب يدل على حدوثها وحدوثها يدل على افتقارها في وجودها إلى القادر المختار ، فيكون ذلك الفاعل هو الخالق للأفلاك والكواكب ، ومن كان

قادراً على خلق الكواكب والأفلاك من دون واسطة أي شيء كان فبأن يكون قادراً على خلق الإنسان أولى لأن القادر على خلق الشيء الأعظم لا بد وأن يكون قادراً على خلق الشيء الأضعف ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السموات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ [ غافر : 57 ] وبقوله : ﴿ أَوَلَيْسَ الذى خَلَقَ السموات والأرض بقادر على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بلى وَهُوَ الخلاق العليم ﴾ [ يس : 81 ] فثبت بهذا الطريق أن الإله الأكبر يجب أن يكون قادراً على خلق البشر ، وعلى تدبير العالم الأسفل بدون واسطة الأجرام الفلكية وإذا كان الأمر كذلك كان الاشتغال بعبادة الإله الأكبر أولى من الاشتغال بعبادة الشمس والنجوم والقمر .

الوجه الثالث : أنه لو صح كون بعض الكواكب موجدة وخالقة ، لبقي هذا الاحتمال في الكل وحينئذ لا يعرف الإنسان أن خالقه هذا الكوكب .

أو ذلك الآخر أو مجموع الكواكب فيبقى شاكاً في معرفة خالقه .

*(309/237)*

---

أما لو عرفنا الكل وأسندنا الخلق والإيجاد والتدبير إلى خالق الكل فحينئذ يمكننا معرفة الخالق والموجد ويمكننا الاشتغال بعبادته وشكره ، فثبت بهذه الوجوه أن أفول الكواكب

كما يدل على امتناع كونها قديمة فكذلك يدل على امتناع كونها آلهة لهذا العالم وأرباباً للحيوان والإنسان .

والله أعلم .

فهذا تمام الكلام في تقرير هذا الدليل .

فإن قيل : لا شك أن تلك الليلة كانت مسبوقة بنهار وليل ، وكان أفول الكواكب والقمر والشمس حاصلاً في الليل السابق والنهار السابق وبهذا التقرير لا يبقى للأفول الحاصل في تلك الليلة مزيد فائدة .

والجواب أنا بينا أنه صلوات الله عليه إنما أورد هذا الدليل على الأقوام الذين كان يدعوهم من عبادة النجوم إلى التوحيد .

فلا يبعد أن يقال أنه عليه السلام كان جالساً مع أولئك الأقوام ليلة من الليالي وزجرهم عن عبادة الكواكب فبينما هو في تقرير ذلك الكلام إذ وقع بصره على كوكب مضيء .

فلما أفل قال إبراهيم عليه السلام لو كان هذا الكوكب إلهاً لما انتقل من الصعود إلى الأفول ومن القوة إلى الضعف .

ثم في أثناء ذلك الكلام طلع القمر وأفل .

فأعاد عليهم ذلك الكلام ، وكذا القول في الشمس ، فهذا جملة ما يحضرنا في تقرير دليل إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 43 .

فصل

قال الفخر :

تفلسف الغزالي في بعض كتبه وحمل الكوكب على النفس الناطقة الحيوانية التي لكل كوكب ، والقمر على النفس الناطقة التي لكل فلك ، والشمس على العقل المجرد الذي لكل ذلك ، وكان أبو علي بن سيناء يفسر الأفول بالإمكان ، فزعم الغزالي أن المراد بأفولها إمكانها في نفسها ، وزعم أن المراد من قوله : ﴿ لا أُحِبُّ الآفلين ﴾ أن هذه الأشياء بأسرها ممكنة الوجود لذواتها ، وكل ممكن فلا بد له من مؤثر ، ولا بد له من الانتهاء إلى واجب الوجود . واعلم أن هذا الكلام لا بأس به .

*(310/237)*

---

إلا أنه يبعد حمل لفظ الآية عليه ، ومن الناس من حمل الكوكب على الحس والقمر على الخيال والوهم ، والشمس على العقل ، والمراد أن هذه القوى المدركة الثلاثة قاصرة متناهية ، ومدبر العالم مستول عليها قاهر لها ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 45 ﴾

فصل

قال الفخر :

دل قوله : ﴿ لا أُحِبُّ الآفلين ﴾ على أحكام :

الحكم الأول

هذه الآية تدل على أنه تعالى ليس بجسم إذ لو كان جسماً لكان غائباً عنا أبداً فكان آفلاً أبداً ، وأيضاً يمتنع أن يكون تعالى ينزل من العرش إلى السماء تارة ويصعد من السماء إلى العرش أخرى ، وإلا لحصل معنى الأفول .

الحكم الثاني

هذه الآية تدل على أنه تعالى ليس محلاً للصفات المحدثة كما تقوله الكرامية ، وإلا لكان متغيراً ، وحينئذ يحصل معنى الأفول ، وذلك محال .

الحكم الثالث

تدل هذه الآية على أن الدين يجب أن يكون مبنياً على الدليل لا على التقليد ، وإلا لم يكن لهذا الاستدلال فائدة ألبتة .

الحكم الرابع

تدل هذه الآية على أن معارف الأنبياء بربهم استدلالية لا ضرورية ، وإلا لما احتاج إبراهيم إلى الاستدلال .

الحكم الخامس

تدل على هذه الآية على أنه لا طريق إلى تحصيل معرفة الله تعالى إلا بالنظر والاستدلال في أحوال مخلوقاته ، إذ لو أمكن تحصيلها بطريق آخر لما عدل إبراهيم عليه السلام إلى هذه الطريقة والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 45.46 ﴾

*(311/237)*

---

وقال أبو حيان :

﴿ فلما أفل قال لا أحب الآفلين ﴾ أي لا أحب عبادة الآفلين المتغيرين عن حال إلى حال المنتقلين من مكان إلى مكان المحتجبين بستر فإن ذلك من صفات الأجرام وإنما احتج بالأفول دون البزوغ ، وكلاهما انتقال من حال إلى حال ، لأن الاحتجاج بالأفول أظهر لأنه انتقال مع خفاء واحتجاب ، وجاء بلفظ الآفلين ليدل على أن ثم آفلين كثيرين ساواهم هذا الكوكب في الأفول فلا مزية له عليهم في أن يعبد للاشتراك في الصفة الدالة على الحدوث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ فَلَمَّا أَفَلَ ﴾ أي غرب ﴿ قَالَ لا أُحِبُّ الآفلين ﴾ أي الأرباب المنتقلين من مكان إلى

مكان ، المتغيرين من حال إلى حال ، المحتجبين بالأستار ، فإنهم بمعزل من استحقاق الربوبيةِ قطعاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(312/237)

---

وقال الآلوسى :

﴿ فَلَمَّا أَفَلَ ﴾ أي غرب ﴿ قَالَ لا أُحِبُّ الآفلين ﴾ أي الأرباب المنتقلين من مكان إلى مكان المتغيرين من حال إلى حال ، ونفي المحبة قيل : إشارة إلى نفي اعتقاد الربوبية .

وقيل كنى بعدم المحبة عن عدم العبادة لأنه يلزم من نفيها نفيها بالطريق الأولى ، وقدر بعضهم في الكلام مضافاً أي لا أحب عبادة الآفلين ، وأياً ما كان فمبتدأ الاشتقاق علة للحكم لأن الأفول انتقال واحتجاب وكل منهما ينافي استحقاق الربوبية والألوهية التي هي من مقتضيات الربوبية لاقتضاء ذلك الحدوث والإمكان المستحيلين على الرب المعبود القديم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ لا أحبّ ﴾ الحبّ فيه بمعنى الرضى والإرادة ، أي لا أرضى بالآفِل إلهاً ، أو لا أريد الآفل إلَهاً .

وقد علم أنّ متعلَّق المحبَّة هو إرادته إلَهاً له بقوله : ﴿ هذا ربِّي ﴾ .

وإطلاق المحبَّة على الإرادة شائع في الكلام ، كقوله تعالى : ﴿ فيه رجال يحبّون أن يتطهّروا ﴾ [ التوبة : 108 ] .

وقدّره في "الكشّاف" بحذف مضاف ، أي لا أحبّ عبادة الآفلين .

وجاء بـ ﴿ الآفلين ﴾ بصيغة جمع الذكور العقلاء المختصّ بالعقلاء بناء على اعتقاد قومه أنّ الكواكب عاقلة متصرّفة في الأكوان ، ولا يكون الموجود معبوداً إلاّ وهو عالم .

ووجه الاستدلال بالأفوال على عدم استحقاق الإلهية أنّ الأفول مغيب وابتعاد عن الناس ، وشأن الإله أن يكون دائم المراقبة لتدبير عباده فلمَّا أفلّ النجم كان في حالة أفوله محجوباً عن الاطِّلاع على النَّاس ، وقد بنَى هذا الاستدلال على ما هو شائع عند القوم من كون أفول النجم مغيباً عن هذا العالم ، يعني أنّ ما يغيب لا يستحقّ أنْ يُتَّخذ إلهاً لأنَّه لا يغني عن عباده فيما يحتاجونه حين مغيبه .

وليس الاستدلال منظوراً فيه إلى التغيّر لأنّ قومه لم يكونوا يعلمون الملازمة بين التغيّر وانتفاء صفة الإلهية ، ولأنّ الأفول ليس بتغيّر في ذات الكوكب بل هو عَرَض للأبصار المشاهِدة له ، أمَّا الكوكب فهو باق في فلكه ونظامه يغيب ويعود إلى الظهور وقوم إبراهيم يعلمون ذلك فلا يكون ذلك مقنعاً لهم .

ولأجل هذا احتجّ بحالة الأفول دون حالة البزوغ فإنّ البزوغ وإن كان طرأ بعد أفول لكنْ

الأفول السابقُ غيرُ مشاهد لهم فكان الأفول أخصر في الاحتجاج من أن يقول : إنّ هذا البازغ كان من قَبل آفِلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(313/237)

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) ﴾

و" جن " تفيد الستر والتغطية ، ومنها " الجنون " أي ستر العقل ، و" جن الليل " أي أظلم وستر عنك ، فلا ترى غيرك ولا غيرك يراك . و" الجَّنة " كذلك لأن فيها الأشجار والأشياء التي تستر من يمشي فيها ، إذن المادة كلها تفيد الستر .

وكلمة " كوكب " تفيد أنه يأخذ ضوءه من غيره ، ونفهم من الآية أن إبراهيم كان في ظلمة ثم طلع الكوكب فرآه ، ثم غاب الكوكب أي انتقل من بزوغ وطلوع إلى أفول ، وقديماً كانوا يعبدون الكواكب والنجوم ، فجاء لهم إبراهيم من جنس ما يعبدون ، وقال : ﴿ لا أُحِبُّ الآفلين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(314/237)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " فَلَمَّا جَنَّ " يجوز أن تكون هذه الجملة نَسَقاً على قوله : " وإذْ قَالَ إبْرَاهِيمُ " عطفاً للدليل على مدلوله ، فيكون " وكَذِلكَ نُري إبْرَاهِيمَ " معترضاً كما تقدم ، ويجوز أن تكون مَعْطُوفَةً على الجملة من قوله : " وكَذِلكَ نُري إبراهيم " .

قال ابن عطيَّة : " الفاء " في قوله " فَلَمَّا رَابِطَةٌ جملة ما بعدها بما قبلها ، وهي ترجح أن المراد بالملكوت التَّفْضِيلُ المذكور في هذه الآية ، والأوَّل أحسن ، وإليه نحا الزمخشري .

و " جَنَّ " : سَتَرَ وقد تقدم اشْتِقَاقُ هذه المادة عند ذكر ﴿ الجنة ﴾ [ البقرة : 35 ] وهنا خصوصية لذكر الفِعْلِ المسند إلى الليل يقال : جَنَّ عليه الليلن وأجن عليه بمعنى : أظْلَمَ فيستعمل قاصراً ، وجَنَّهُ ، فيستعمل متعدياً فهذا مما اتفق فيه فَعَلَ وأفْعَلَ لزوماً وتعدياً إلا أن الأجْوَدَ في الاستعمال جَنَّ عليه الليلن وأجنه الليل ، فيكون الثلاثيّ لازماً وأفعل متعدياً .

ومن مجيء الثلاثي متعدياً قوله : [ المتقارب ]

2212 - وَمَاءٍ وَرَدْتُ قُبَيْلَ الكَرَى . . .

وَقَدْ جَنَّهُ السَّدَفُ الأدْهَمُ

ومصدره جَنٌّ وجنان وجنون .

وفرق الرَّاغِبُ بين " جَنَّه " و " أجَنَّه " ، فقال : جنه إذا سترهُ ، وأجنة جعل له ما يجنه ، كقولك : قَبَرْتُهُ وأقْبَرتُهُ ، وسَقَيْتُهُ وقد تقدم لك شيء من هذا عند ذكر " حزن " و " أحزن " [ البقرة : 38 ] ويحتمل أن يكون " جنَّ " في الآية الكريمة متعدياً حذف المفعول فيها ، تقدير : جَنَّ الأشْيَاء والمبصرات .

*(315/237)*

---

قوله : " رَأى كَوْكَباً " هذا جواب " لَمَّا " ، وللقراء فيه وفيما بعده من الفعلين خلافٌ كبير بالنسبة إلى الإمالةِ وعدمها ، وتلخيصه أن " رأى " الثابت الألف فأمال رَاءَهُ وهمزته إمالة مَحْضَة الأخوان ، وأبو بكر عن عاصم ، وابن ذكوان عن ابن عامر ، وأمال الهمزة منه فقط دون الراء أبو عَمْرٍو وبكماله ، وأمال السوسي بخلاف عنه عن ابن عَمْرٍو الراء أيضاً ، فالسوسي في أحد وَجْهَيْهِ يوافق الجماعة المتقدمين ، وأمال وَرْشٌ الراء والهمزة بَيْنَ بَيْنَ من هذا الحرف ، حيث وقع هذا كله ما لم يَتَّصِلْ به ضمير نحو ما تقدم ، فأما إن اتَّصَلَ به ضمير نحو : ﴿ فَرَآهُ فِي سَوَآءِ ﴾ [ الصافات : 55 ] ﴿ فَلَمَّا رَآهَا ﴾ [ النمل : 10 ] ﴿ وَإِذَا رَآكَ الذين ﴾ [ الأنبياء : 36 ] ، فابن ذكوان عنه وجهان ، والباقون على أصولهم

المتقدمة.

وأما "رأى" إذا حذفت ألفه فهو على قسمين: قسم لا تعود فيه ألبتة لا وَصْلاً ولا وَقْفاً، نحو: ﴿ رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ ﴾ [الفرقان: 12] ﴿ رَأَوُاْ العذاب ﴾ [يونس: 54] فلا إمالة في شيء منه، وكذا ما انقلبت ألفه ياءً نحو: ﴿ رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ ﴾ [الإنسان: 20].

(316/237)

---

وقِسْمٌ حُذِفَتْ ألفه لالتِقَاءِ السَّاكنين وصْلاً، وتعود وَقْفاً نحو: ﴿ رَأَى القمر ﴾ [الأنعام: 77] ﴿ رَأَى الشمس ﴾ [الأنعام: 78] ﴿ وَرَأَى المجرمون النار ﴾ [الكهف: 53] ﴿ وَإِذَا رَأَى الذين ظَلَمُواْ ﴾ [النحل: 85] فهذا فيه خلاف أيضاً بين أهل الإمالة اعتباراً باللفظ تارة، وبالأصل أخرى، فأمال الراء وحدها من غير خلاف حمزة وأبو بكر عن عَاصِمٍ والسُّوسي بخلاف عنه وحده، وأما الهمزة فأمَالَهَا مع الراء أبو بكر والسُّوسي بخلاف عنهما، هذا كله إذا وصلت، أما إذا وقفت فإن الألف تَرْجِعُ لعدم المُقْتَضِي لِحَذْفِهَا، وحكم هذا الفعل حينئذ حكم ما لم يَتَّصِلْ به سَاكِنٌ فيعود فيه التَّفْصِيلُ المُتقدِّم، كما إذا وقفت على "رأى" من نحو: ﴿ رَأَى القمر ﴾ [الأنعام: 77].

فأمَّا إمالة الرَّاء من " رأى " فلإتباعها لإمالة الهمزة ، هكذا عبارتهم ، وفي الحقيقة الإمالة إنما هي الألف لانْقِلابها عن الياء ، والإمالة أن تنحي بالألف نحو الياء وبالفتحة قبلها نحو الكسرة ، فمن ثمَّ أن يقال : أميلت الراء لإمالة الهمزة ، وأما تفصيل ابن ذَكْوَانَ بالنسبة إلى اتّصالِهِ بالضمير وعدمه ، فوَجْهُهُ أن الفعل لما اتَّصَلَ بالضمير بعدت ألفه عن الطَّرْفِ ، فمل تُمَلْ .

ووجه من أمال الهمزة في " رَأى القَمَرَ " مُرَاعَاة للألف وإن كانت محذوفة ، إذ حذفها عَارِضٌ ، ثم منهم من اقْتَصَرَ على إمالة الهمزة ؛ لأن اعتبار وُجُودهَا ضعيفٌ ، ومنهم من لم يَقْتَصِرْ أعطى لها حكم الموجودة حَقِيقَةً ، فأتبع الراء للهمزة في ذلك .

والكوكب : النجم ، ويقال فيه كَوْكَبَةٌ .

وقال الراغب : " لا يقال فيه أي في النجم : كوكب إلا عند ظُهُوره " .

وفي اشتقاقه ثلاثة أوجه :

*(317/237)*

---

أحدها : أنه من مادة " وَكَبَ " فتكون الكَافُ زائدةً ، وهذا القول قاله الشيخ رضي الدين الصَّغاني قال رحمه الله تعالى : " حق كَوْكَب أن يُذكَرَ في مادة " وَكَبَ " عن حُذَّاق النحويين

، فإنها وردَتْ بكاف زائدةٍ عندهم ، إلا أنَّ الجوهري أوردها في تركيب "كوك بـ" ولعلَّه تبع في ذلك اللَّيْثَ ، فإنه ذكره في الرباعي ذاهباً إلى أن الواو أصْلِيَّةٌ" .

فهذا تصريح من الصَّغَاني بزيادة الكافن وزيادة الكاف عند النحويين لا يجوز ، وحروف الزيادة مَحْصُورةٌ في تلك العشرة ، فأما قولهم : "هِنْدِيٌّ وهِنْدِكيّ" بمعنى واحدٍ ، وهو المنسوب إلى "الهند" ، وقول الشاعر : [ الطويل ]

2213 - ومُقْرَبَةٍ دُهْمٍ وكُمْتٍ كأنَّهَا . . .

طَمَاطِمُ مِنْ فَوْقِ الوِفَازِ هَنَادِكُ

فظاهر زيادة الكاف ، ولكن خَرَّجَهَا النحويون على أنه من باب "سبط وسبطر" أي : مما جاء فيه لَفْظَان ، أحدهما أطول من الآخر ، وليس بأصْلٍ له ، فكما لا يُقَالُ : الراء زائدة باتِّفاقٍ ، كذلك هذه الكاف ، وكذلك قال أبو حيَّان : "وليت عشري ، من حُذَّاق النحويين الذين يَرَوْنَ زيادتها لا سيَّما أول الكلمة" .

والثاني : أن الكلمة كلُّهَا أصُولٌ رباعية مما كُرِّرَتْ فيها الفاء ، فوزنها فَعْفَل كـ "فَوْفَل" وهو بناء قليل .

والثالث : ساق الرَّاغب أنه من مادة : كَبَّ وكَبْكَبَ ، فإنه قال : والكَبْكَبَةُ تَدَهْوُرُ الشيء في هُوَّة ، يقل : كَبَّ وكَبْكَبَ ، نحو : كَفَّ وكَفْكَفَ ، وصرَّ الريح وصَرْصَرَ .

والكواكب النجوم البادية ، فظاهر السِّياقِ أن الواو زائدة ، والكاف بَدَلٌ من إحدى الياءين

وهذا غريب جداً .

قوله : " قال هذا ربي " في " قال " ثلاثة أوجه :

أظهرها : أنه استئناف أخبر بذلك القول ، أو استفهم عنه على حسب الخلاف .

(318/237)

---

والثاني : أنه نعت لـ " كَوْكَباً " فيكون في محلِّ نصب ، وكيف يكون نعتاً لـ " كوكباً " ولا يساعد من حَيْثُ الصِّناعةِ ، ولا من حيث المعنى ؟ أما الصِّناعةُ فلعدم الضمير العائد من الجملة الواقعة صِفَةً إلى موصوفها ، ولا يقال : إن الرابط حَصَلَ باسم الإشارة ؛ لأن من الجملة الواقعة صِفَةً إلى موصوفها ، ولا يقال : إن الرابط حَصَلَ باسم الإشارة ؛ لأن ذلك خَاصٌّ بباب المبتدأ والخبر ، ولذلك يكثر حَذْفُ العائد من الصِّفة ، ويقلُّ من الخبر ، فلا يَلْزَمُ من جوازِ شيء في هذا جوازُهُ في شيء ، وادِّعاء حذف ضمير بعيد ، أي قال فيه : هذا رَبِّي ، وأمَّا المعنى فلا يُؤدِّي إلى أن التَّقدير : رأى كوكباً مُتَّصِفاً بهذا القَوْلِ ، فقيل : هو خبر مَحْضٌ بتأويل ذكره أهْلُ التفسير .

وقيل : بل هو على حَذْفِ همزة الاستفهام ، أي : أهذا ربي ، وأنشدوا : [ الطويل ]

2214 - لَعَمْرُكَ مَا أدْرِي وَإنْ كُنْتُ دَارِياً . . .

بِسَبْعٍ رَمَيْنَ الجَمْرَ أَمْ بِثَمَانِ

وقوله : [ المنسرح ]

2215 - أَفْرَحُ أَرْزَأُ الكِرَامَ وَأَنْ . . .

أُورَثَ ذَوْداً شَصَائِصاً نَبَلاَ

وقوله : [ الطويل ]

2216 - طَرِبْتُ وَمَا شَوْقاً إلى البِيضِ أَطْرَبُ . . .

وَلاَ لِعِباً مِنّي وذُو الشَّيْبِ يَلْعَبُ

وقوله : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ ﴾ [ الشعراء : 22 ] قالوا : تقديره أبسبع ؟ وأأفرح ؟ وأذو ؟ وأتلك ؟

قال ابنُ الأَنْبَارِيّ : " وهذا لا يجوز إلا حَيْثُ يكون ثمَّ فاصلٌ بين الخبر والاستفهام ، إن دلَّ دليل لفظي كوجود " أم " في البيت الأول ، بخلاف ما بعده " .

والأُفُولُ : الغَيْبَةُ والذَّهَابُ ؛ يقال : أَفَلَ يأْفُلُ أُفُولاً .

قال ذو الرمة : [ الطويل ]

2217 - مَصَابِيحُ لَيْسَتْ باللَّوَاتِي تَقُودُهَا . . .

نُجُومٌ ولا بالآفلاتِ شُمُوسُهَا

والإِفَالُ : صِغَارُ الغَنَم .

والأفيلُ : الفَصِيلُ الضَّئِيلُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 239 .

243 ﴾

(319/237)

---

قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بصرهم قصور صغير الكواكب ، رقي النظر إلى أكبر منه ، فسبب عن الإعراض عن الكواكب لقصوره قولَه : ﴿ فلما رأى القمر بازغاً ﴾ أي طالعاً أول طلوعه ؛ قال الأزهري : كأنه مأخوذ من البزغ الذي هو الشق ، كأنه بنوره يشق الظلمة شقاً ﴿ قال هذا ربي ﴾ دأبَه في الأولى .

ولما كان تأمل أن الكوكب محل الحوادث بالأفول قد طرق أسماعهم فخالج صدورهم ، قال : ﴿ فلما أفل قال ﴾ مؤكداً غاية التأكيد ﴿ لئن لم يهدني ربي ﴾ أي الذي قدر على الإحسان إليّ بالإيجاد والتربية لكونه لا يتغير ولا شريك له بخلق الهداية في قلبي ، فدل ذلك

على أن الهداية ليست إلى غيره ، ولا تحمل على نصب الأدلة ، لأنها منصوبة قبل ذلك ، ولا على معرفة الاستدلال فإنه عارف به ﴿ لأكونن ﴾ أي بعبادة غيره ﴿ من القوم الضالين ﴾ فكانت هذه أشد من الأولى وأقرب إلى التصريح بنفي الربوبية عن الكواكب وإثبات أن الرب غيرها ، مع الملاطفة وإبعاد الخصم عما يوجب عناده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 660 ﴾

فصل

قال الفخر :

يقال : بزغ القمر إذا ابتدأ في الطلوع ، وبزغت الشمس إذا بدأ منها طلوع .

ونجوم بوازغ .

قال الأزهري : كأنه مأخوذ في البزغ وهو الشق كأنه بنوره يشق الظلمة شقاً ، ومعنى الآية أنه اعتبر في القمر مثل ما اعتبر في الكوكب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 46 ﴾

فصل

قال الفخر :

دل قوله : ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ القوم الضالين ﴾ على أن الهداية ليست إلا من الله تعالى .

ولا يمكن حمل لفظ الهداية على التمكن وإزاحة الأعذار ونصب الدلائل .

لأن كل ذلك كان حاصلاً ، فالهداية التي كان يطلبها بعد حصول تلك الأشياء لا بد وأن تكون زائدة عليها .

واعلم أن كون إبراهيم عليه السلام على مذهبنا أظهر من أن يشتبه على العاقل لأنه في هذه الآية أضاف الهداية إلى الله تعالى ، وكذا في قوله : ﴿ الذى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ وكذا في قوله : ﴿ واجنبنى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ الأصنام ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 46 ﴾

*(320/237)*

---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فلما رأى القمر ﴾ قال ابن قتيبة : سمي القمر قمراً لبياضه ؛ والأقمر : الأبيض ؛ وليلة قمراء ، أي : مضيئة .

فأما البازغ ، فهو الطالع .

ومعنى ﴿ لئن لم يهدني ﴾ لئن لم يثبّتني على الهدى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي ﴾

لم يأت في الكواكب رأى كوكباً بازغاً لأنه أولاً ما ارتقب حتى بزغ الكوكب لأنه بإظلام الليل تظهر الكواكب بخلاف حاله مع القمر والشمس فإنه لما أوضح لهم أن هذا النير وهو الكوكب الذي رآه لا يصلح أن يكون رباً ارتقب ما هو أنور منه وأضوأ على سبيل إلحاقه بالكوكب ، والاستدلال على أنه لا يصلح للعبادة فرآه أول طلوعه وهو البزوغ ، ثم عمل كذلك في الشمس ارتقبها إذ كانت أنور من القمر وأضوأ وأكبر جرماً وأهم نفعاً ومنها يستمد القمر على ما قيل فقال ذلك على سبيل الاحتجاج عليهم وبين أنها مساوية للقمر والكواكب في صفة الحدوث .

﴿ فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ﴾ القوم الضالون هنا عبدة المخلوقات كالأصنام وغيرها واستدل بهذا من زعم أن قوله : ﴿ هذا ربي ﴾ على ظاهره وأن النازلة كانت في حال الصغر ، وقال الزمخشري ﴿ لئن لم يهدني ربي ﴾ تنبيه لقومه على أن من اتخذ القمر إلهاً وهو نظير الكوكب في الأفول فهو ضال فإن الهداية إلى الحق بتوفيق الله ولطفه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(321/237)

وقال الآلوسى :

﴿ فَلَمَّا رَأَى القمر بَازِغاً ﴾ أي مبتدأ في الطلوع منتشر الضوء ، ولعله كما قال الأزهري مأخوذ من البزغ وهو الشق كأنه بنوره يشق الظلمة شقا ويقال .

بزغ الناب إذا ظهر وبزغ البيطار الدابة إذا أسال دمها .

ويقال : بزغ الدم أي سال ، وعلى هذا فيمكن أن يكون بزوغ القمر مشبهاً بما ذكر وكلام الراغب صريح فيه ، وظاهر الآية أن هذه الرؤية بعد غروب الكوكب .

وقوله سبحانه : ﴿ قَالَ هذا رَبِّى ﴾ جواب لما وهو على طرز الكلام السابق ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ ﴾ كما أفل الكوكب ﴿ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى ﴾ إلى جنابه الحق الذي لا محيد عنه ﴿ لأَكُونَنَّ مِنَ القوم الضالين ﴾ فإن شيئاً مما رأيته لا يصلح للربوبية ، وهذا مبالغة منه عليه السلام في النصفة ، "وفيه كما قال الزمخشري تنبيه لقومه على أن من اتخذ القمر إلهاً وهو نظير الكواكب في الأفول فهو ضال" ، "والتعريض بضلالهم هنا كما قال ابن المنير أصرح وأقوى من قوله أولا ﴿ لا أُحِبُّ الآفلين ﴾ [ الأنعام : 76 ] وإنما ترقى عليه السلام إلى ذلك لأن الخصوم قد أقامت عليهم بالاستدلال الأول حجة فأنسوا بالقدح في معتقدهم ولو قيل هذا في الأول فلعلهم كانوا ينفرون ولا يصغون إلى الاستدلال ، فما عرض لهم عليه السلام بأنهم على ضلالة إلا بعد أن وثق بإصغائهم إلى تمام المقصود واستماعهم له إلى

آخره .

والدليل على ذلك أنه صلى الله عليه وسلم ترقى في النوبة الثالثة إلى التصريح بالبراءة منهم ( والتصريح ) بأنهم على شرك حين تم قيام الحجة عليهم وتبلج الحق وبلغ من الظهور غايته .

*(322/237)*

---

وفي هذه الجملة دليل من غير وجه على أن استدلاله عليه السلام ليس لنفسه بل كان محاجة لقومه .

وكذا ما سيأتي .

وحمل هذا على أنه عليه الصلاة والسلام استعجز نفسه فاستعان بربه عز وجل في درك الحق وما سيأتي على أنه إشارة إلى حصول اليقين من الدليل خلاف الظاهر جداً ، على أنه قيل : إن حصول اليقين من الدليل لا ينافي المحاجة مع القوم ، ثم الظاهر على ما قال شيخ الإسلام أنه عليه السلام كان إذ ذاك في موضع كان في جانبه الغربي جبل شامخ يستتر به الكوكب والقمر وقت الظهر من النهار أو بعده بقليل وكان الكوكب قريباً منه وأفقه الشرقي مكشوف أولاً وإلا فطلوع القمر بعد أفول الكوكب ثم أفوله قبل طلوع الشمس كما ينبىء

عنه قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشمس بَازِغَةً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

(323/237)

---

وقال القاسمى :

﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً ﴾

أي : طالعاً منتشر الضوء : ﴿ قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ على الأسلوب المتقدم : ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ فإن ما رأيته لا يليق بالإلهية لدناءته بمحوه .

قال الزمخشري : وفيه تنبيه لقومه على أن من اتخذ القمر إلهاً ، وهو نظير الكواكب في الأفول ، فهو ضال . وأن الهداية إلى الحق بتوفيق الله تعالى ولطفه .

وفي " الانتصاف " : التعريض بضلالهم ثانياً أصرح وأقوى من قوله أولاً : ﴿ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾ وإنما ترقى إلى ذلك ، لأن الخصوم قد أقامت عليه ، بالاستدلال الأول ، حجة فأنسوا بالقدح في معتقدهم ، ولو قيل هذا في الأول فلعلهم كانوا ينفرون ، ولا يصغون إلى الاستدلال . فما عرّض صلوات الله عليه بأنهم في ضلالة ، إلا بعد أن وثق بإصغائهم إلى تمام المقصود ، واستماعهم إلى آخره . والدليل على ذلك أنه ترقى في النوبة الثالثة إلى

التصريح بالبراءة منهم ، والتقريع بأنهم على شرك حين تم قيام الحجة ، وتبلج الحق ، وبلغ من الظهور غاية المقصود . كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 410 ﴾

*(324/237)*

---

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ فلمّا رأى القمر بازغاً ﴾ الخ عطف على جملة محذوفة دلّ عليها الكلام .

والتقدير : فطلع القمر فلَّما رآه بازغاً ، فحذفت الجملة للإيجاز وهو يقتضي أنّ القمر طلع بعد أفول الكوكب ، ولعلّه اختار لمحاجّة قومه الوقت الذي يغرب فيه الكوكب ويطلع القمر بقرب ذلك ، وأنَّه كان آخر اللَّيل ليعقبهما طلوع الشمس .

وأظْهِر اسمُ ﴿ القمر ﴾ لأنَّه حذف معاد الضمير .

والبازغ : الشارق في ابتداء شروقه ، والبُزُوغ ابتداء الشروق .

وقوله ﴿ هذا ربِّي ﴾ أفاد بتعريف الجزأين أنَّه أكثر ضوءاً من الكوكب فإذا كان استحقاق الإلهية بسبب النّور فالذي هو أشدّ نوراً أولى بها من الأضعف .

واسم الإشارة مستعمل في معناه الكنائي خاصّة وهو كون المشار إليه مطلوباً مبحوثاً عنه

كما تقدّم آنفاً .

وقوله : ﴿ فلَّما أفل قال لَئن لم يهدني ربِّي لأكونَنّ من القوم الضالِّين ﴾ قصد به تنبيه قومه للنظر في معرفة الربّ الحقّ وأنَّه واحد ، وأنّ الكوكب والقمر كليهما لا يستحقَّان ذلك مع أنَّه عَرّض في كلامه بأنّ له ربّا يهديه وهم لا ينكرون عليه ذلك لأنَّهم قائلون بعدّة أرباب .

وفي هذا تهيئة لنفوس قومه لما عزم عليه من التصريح بأنّ له ربّاً غير الكواكب .

ثم عَرّض بقومه أنَّهم ضالّون وهيّأهم قبل المصارحة للعلم بأنَّهم ضالّون ، لأنّ قوله : ﴿ لأكونَنّ من القوم الضالّين ﴾ يُدخِل على نفوسهم الشكّ في معتقدهم أن يكون ضلالاً ، ولأجل هذا التعريض لم يقل : لأكونَنّ ضالاّ ، وقال ﴿ لأكونَنّ من القوم الضالّين ﴾ ليشير إلى أنّ في النَّاس قوماً ضالّين ، يعني قومه .

وإنَّما ترَيَّث إلى أفول القمر فاستدلّ به على انتفاء إلهيته ولم ينفها عنه بمجرّد رؤيته بازغاً مع أنّ أفوله محقّق بحسب المعتاد لأنَّه أراد أن يقيم الاستدلال على أساس المشاهدة على ما هو المعروف في العقول لأنّ المشاهدة أقوى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(325/237)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) ﴾

وهنا قال إبراهيم عليه السلام : هذا ربي ، ووقف العلماء هنا وتساءلوا : كيف يقول إبراهيم هذا ربي ، وهي جملة خبرية من إبراهيم ، وكيف يجري إبراهيم على نفسه لفظ الشرك ، وأراد العلماء أن يخلصوا إبراهيم من هذه المسألة . ونقول لهؤلاء العلماء : جزاكم الله كل خير ، وكان يجب أن تؤخذ هذه المسألة من باب قصير جداً ؛ لأن الذي قال : إن إبراهيم قال : هذا ربي ، هو الذي قال في إبراهيم : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [ البقرة : 124 ]

إذن فقوله ﴿ هذا رَبِّي ﴾ لا تخدش في وفائه الإيماني ، ولا بد أن لها وجهاً . ونعلم أن القوم كانوا يعبدون الكواكب ، ويريد إبراهيم أن يلفتهم إلى فساد هذه العقيدة ، فلو أن إبراهيم من أول الأمر قال لهم : يا كذابون ، يا أهل الضلال ، وظل يوجه لهم السباب لما اهتموا به ولا سمعوا له . لكن إبراهيم استخدم ما يسمي في الجدل ب " مجاراة الخصم " ؛ ليستميل آذانهم ويأخذ قلوبهم معه ، وليعلموا أنه غير متحامل عليهم من أول الأمر ، فيأخذ بأيديهم معه .

مثال ذلك في حياتنا ، تجد رجلاً له ابنة وجاء لها خطيب ، وهذا الخطيب قصير جداً ، بينما البنت – ما شاء الله – طويلة ، وحين جاء الخطيب ليراها وتراه تقول لأمها : هذا خطيبي ؟ ! وهذا القول يعني أنها تنكر أن يكون هذا القصير عنها هو خطيبها ، وحين قال إبراهيم : ﴿ هذا رَبِّي ﴾ معناه إنكار أن يكون مثل هذا الكوكب أو ذلك القمر أو تلك الشمس هي الرب .

*(326/237)*

---

ونلحظ أنه يحدد لهم مصير من يعبد تلك الكواكب ، فقال : ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ القوم الضالين ﴾ ، وفي هذا معرفة بمن على هدى أو على ضلال ، ويكون قوله : ﴿ هذا رَبِّي ﴾ لونا من التهكم ؛ لأنهم قالوا بما جاء به القرآن على لسانهم : ﴿ أهذا الذي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ .

فكأنه قال : سلمنا جدلاً أنه ربكم ، لكنه يأفل ويغيب عنكم ، وقوله : ﴿ لا أُحِبُّ الآفلين ﴾ يعني أنه غير متعصب ضدهم .

وكذلك حين يقول الحق : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشمس بَازِغَةً . . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

" بَازِغاً " حالٌ من " القمر " والبزوغ : الطُّلُوع ، يقال : بَزَغَ بفتح الزاي : يَبْزُغ بضمها بزوغاً ، والبُزُوغُ : الابتداء في الطلوع .

قال الأزهري : كأنه مأخوذ من البَزْغ وهو الشَّقّ كأنه بنُورِهِ يشُقُّ الظُّلْمَةَ شَقاً ، ويستعمل قاصراً ومتعدياً ، يقال : بَزَغَ البَيْطَارُ الدَّابَّةَ ، أي : أسال دَمَها ، فبزغ هو ، أي : سال ، هذا هو الأصل .

ثم قيل لكل طلوع : بزوغ ، ومنه بَزَغَ نَابُ الصبي والبغير تَشْبيهاً بذلك .

والقمر معروف سُمِّيَ بذلك لِبَيَاضِهِ ، وانشار ضَوْئِهِ ، والأَقْمَرُ : الحمار الذي على لون الليلة القمراء ، والقَمرَاءُ ضوء القمر .

وقيل سُمِّيَ القمر قمراً ؛ لأنه يقمر ضوء الكواكب ويفوز به ، واللَّيَالي القُمْرُ : ليالي تَدَوُّرِ القمر ، وهي الليالي البِيضُ ؛ لأن ضوء القمر يستمر فيها إلى الصباح .

قيل : ولا يقال له قمراً إلا بعد امتلائه في ثالث ليلة وقبلها هِلالٌ على خلاف بين أهل اللغة

تقدم في البقرة عند قوله : ﴿ عَنِ الأهلة ﴾ [ البقرة : 189 ] فإذا بلغ بعد العشر ثالث ليلة ، قيل له : " بدر " إلى خامس عشر .

ويقال : قمرت فلاناً ، أي : خدعته عنه ، وكأنه مأخوذ من قَمِرَت القِرْبَةُ : فَسَدَت بالقَمْراء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 249 ﴾

*(328/237)*

---

قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان قد نفي عن الأجرام السماوية ما ربما يضل به الخصم قال : ﴿ فلما رأى ﴾ أي بعينه ﴿ الشمس بازغة ﴾ أي عند طلوع النهار وإشراق النور الذي ادعوا فيه ما ادعوا ﴿ قال ﴾ مبيناً لقصور ما هو أكبر من النور وهو ما عنه النور ﴿ هذا ﴾ مذكراً إشارته لوجود المسوغ ، وهو تذكير الخبر إظهاراً لتعظيمها إبعاداً عن التهمة ، وتنبيهاً من أول الأمر على أن المؤنث لا يصلح للربوبية ﴿ ربي ﴾ كما قال فيما مضى ؛ ثم علل ذلك بياناً للوجه

الذي فارق فيه ما مضى فأورث شبهة ، فقال : ﴿ هذا أكبر ﴾ أي مما تقدم ﴿ فلما أفلت ﴾ أي غربت فخفي ظهورها وغلب نورها وهزمه جيش الظلام بقدرة الملك العلام ﴿ قال يا قوم ﴾ فصرح بأن الكلام لهم أجمعين ، ونادى على رؤوس الأشهاد .

ولما كانت القلوب قد فرغت بما ألقي من هذا الكلام المعجب للحجة ، وتهيأت لقبول الحق ، ختم الآية بقوله : ﴿ إني بريء مما تشركون ﴾ أي من هذا وغيره من باب الأولى ، فصرح بالمقصود لأنه لم يبق في المحسوس من العالم العلوي كوكب أكبر من الشمس ولا أنور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 660 ﴾

فائدة

قال الفخر :

إنما قال في الشمس هذا مع أنها مؤنثة ، ولم يقل هذه لوجوه : أحدها : أن الشمس بمعنى الضياء والنور ، فحمل اللفظ على التأويل فذكر .

وثانيها : أن الشمس لم يحصل فيها علامة التأنيث ، فلما أشبه لفظها لفظ المذكر وكان تأويلها تأويل النور صلح التذكير من هاتين الجهتين ، وثالثها : أراد هذا الطالع أو هذا الذي أراه ، ورابعها : المقصود منه رعاية الأدب ، وهو ترك التأنيث عند ذكر اللفظ الدال على الربوبية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 47 ﴾

(329/237)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشمس بَازِغَةً ﴾ نصب على الحال ؛ لأن هذا من رؤية العين .

بَزَغَ يَبْزُغ بزوغاً إذا طلع .

وأفل يأفِل أُفولاً إذا غاب .

وقال : "هذا" والشمس مؤنثة ؛ لقوله : ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَتْ ﴾ .

فقيل : إن تأنيث الشمس لتفخيمها وعِظمها ؛ فهو كقولهم : رجل نَسّابة وعلاّمة .

وإنما قال : "هَذَا رَبِّي" على معنى : هذا الطالِعُ رَبِّي ؛ قاله الكسائِيّ والأخفش .

وقال غيرهما : أي هذا الضوء .

قال أبو الحسن عليّ بن سليمان : أي هذا الشخص ؛ كما قال الأعشى :

قامت تبكّيه على قبرِهِ . . .

مَن لِيَ مِن بعدِك يا عامِرُ

تركتَنِي في الدار ذا غُرْبةٍ . . .

قد ذَلّ من ليس له ناصرُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ فَلَمَّا رَأَى القمر بَازِغاً ﴾ أي مبتدئاً في الطلوعِ إثرَ غروبِ الكوكب ﴿ قَالَ هذا رَبِّى

﴿ على الأسلوب السابق ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ ﴾ كما أفل النجم ﴿ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي ﴾ إلى جَنابه الذي هو الحقُّ الذي لا محيدَ عنه ﴿ لَأَكُونَنَّ مِنَ القوم الضالين ﴾ فإن شيئاً مما رأيته لا يليق بالربوبية ، وهذا مبالغةٌ منه عليه السلام في إظهار النَّصَفة ، ولعله عليه السلام كان إذ ذاك في موضعٍ كان في جانبه الغربيّ جبلٌ شامخ يستتر به الكوكب والقمر وقت الظهر من النهار أو بعده بقليل ، وكان الكوكب قريباً منه وأُفقُه الشرقيُّ مكشوفٌ أولاً وإلا فطلوعُ القمر بعد أفولِ الكوكب ثم أفولُه قبل طلوع الشمس كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشمس بَازِغَةً ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(330/237)

---

وقال الآلوسي :

﴿ فَلَمَّا رَأَى الشمس بَازِغَةً ﴾ أي مبتدأة في الطلوع مما لا يكاد يتصور ، وقال آخر : إن القمر لم يكن حين رآه في ابتداء الطلوع بل كان وراء جبل ثم طلع منه أو في جانب آخر لا يراه وإلا فلا احتمال لأن يطلع القمر من مطلعه بعد أفول الكوكب ثم يغرب قبل طلوع الشمس انتهى .

وأنت تعلم أن القول بوجود جبل في المغرب أو المشرق خلاف الظاهر لا سيما على قول

شيخ الإسلام لأن هذا الاحتجاج كان في نواحي بابل على ما يشير إليه كلام المؤرخين وأهل الأثر وليس هناك اليوم جبل مرتفع بحيث يستتر به الكوكب وقت الظهر من النهار أو بعده بقليل ، واحتمال كونه كان إذ ذاك ولم يبق بتتالي الأعوام بعيد ، وكذا يقال على القول المشهور عند الناس اليوم : إن واقعة إبراهيم عليه السلام كانت قريباً من حلب لأنه أيضاً ليس هناك جبل شامخ كما يقوله الشيخ على أن المتبادر من البزوغ والأفول البزوغ من الأفق الحقيقي لذلك الموضع والأفول عنه لا مطلق البزوغ والأفول .

وقال الشهاب : إن الذي ألجاهم إلى ما ذكر التعقيب بالفاء ويمكن أن يكون تعقيباً عرفياً مثل تزوج فولد له إشارة إلى أنه لم تمض أيام وليال بين ذلك سواء كان استدلالاً أو وضعاً واستدراجاً لا أنه مخصوص بالثاني كما توهم على أنا لا نسلم ما ذكر إذا كان كوكباً مخصوصاً وإنما يرد لو أريد جملة الكواكب أو واحد لا على التعيين فتأمل انتهى .

*(331/237)*

---

ولا يخفى أن القول بالتعقيب العرفي والتزام أن هذا الاستدلال لم يكن في ليلة واحدة وصبيحتها هو الذي يميل إليه القلب ، ودعوى إمكان طلوع القمر بعد أفول الكوكب حقيقة وقبل طلوع الشمس وأفوله قبل طلوعها لا يدعيها عارف بالهيئة في هذه الآفاق التي نحن

فيها لأن امتناع ذلك عادة ولو أريد كوكب مخصوص أمر ظاهر لا سيما على ما جاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من أن رؤية القمر كانت في ءاخر الشهر .

نعم قد يمكن ذلك في بعض البروج في عروض مخصوصة لكن بيننا وبينها مهامه فيح ، ولعله لذلك أمر بالتأمل فتأمل .

﴿ قَالَ ﴾ أي على المنوال السابق ﴿ هذا رَبِّى ﴾ إشارة إلى الجرم المشاهد من حيث هو لا من حيث هو مسمى باسم من الأسامي فضلاً عن حيثية تسميته بالشمس ولذا ذكر اسم الإشارة .

وقال أبو حيان "يمكن أن يقال : إن أكثر لغة العجم لا تفرق في الضمائر ولا في الإشارة بين المذكر والمؤنث ولا علامة عندهم للتأنيث بل المؤنث والمذكر عندهم سواء فأشير في الآية إلى المؤنث بما يشار به إلى المذكر حين حكى كلام إبراهيم عليه السلام وحين أخبر سبحانه عن المؤنث ببازغة وأفلت أنث على مقتضى العربية إذ ليس ذلك بحكاية .

وتعقب بأن هذا إنما يظهر لو حكى كلامهم بعينه في لغتهم أما إذا عبر عنه بلغة العرب فالمعتبر حكم لغة العرب ، وقد صرح غير واحد بأن العبرة في التذكير والتأنيث بالحكاية لا المحكي ألا ترى أنه لو قال أحد : الكوكب النهاري طلع فحكيته بمعناه وقلت : الشمس طلعت لم يكن لك ترك التأنيث بغير تأويل لما وقع في عبارته ، وإذا تتبعت ما وقع في النظم الكريم رأيته إنما يراعي فيه الحكاية على أن القول بأن محاورة إبراهيم عليه السلام كانت

بالعجمية دون العربية مبني على أن إسماعيل عليه السلام أول من تكلم بالعربية والصحيح خلافه .

(332/237)

---

وقيل : التذكير لتذكير الخبر وقد صرحوا في الضمير واسم الإشارة مثله أن رعاية الخبر فيه أولى من رعاية المرجع لأنه مناط الفائدة في الكلام وما مضى فات ، وفي "الكشاف" "بعد جعل التذكير لتذكير الخبر وكان اختيار هذه الطريقة واجباً لصيانة الرب عن شبهة التأنيث ألا تراهم قالوا في صفة الله تعالى : علام ولم يقولوا علامة وإن كان العلامة أبلغ احترازاً من علامة التأنيث" واعترض عليه بأن هذا في الرب الحقيقي مسلم وما هنا ليس كذلك . وأجيب بأن ذلك على تقدير أن يكون مسترشداً ظاهر ، والمراد على المسلك الآخر إظهار صون الرب ليستدرجهم إذ لو حقر بوجه ما كان سبباً لعدم إصغائهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ فلمَّا رأى الشمس بازغة ﴾ أي في الصباح بعد أن أفل القمر ، وذلك في إحدى الليالي التي يغرب فيها القمر قبيل طلوع الشمس لأنّ الظاهر أنّ هذا الاستدلال كلّه وقع في

مجلس واحد .

وقوله للشمس ﴿ هذا ربِّي ﴾ باسم إشارة المذكّر مع أنّ الشمس تجري مجرى المؤنّث لأنّه اعتبرها ربّاً ، فروعي في الإشارة معنى الخبر ، فكأنَّه قال : هذا الجرْم الذي تدعونه الشمس تبيّن أنَّه هو ربِّي .

وجملة ﴿ هذا ربي ﴾ جارية مجرى العلَّة لجملة ﴿ هذا ربِّي ﴾ المقتضية نقض ربوبية الكوكب والقمر وحصر الرّبوبيّة في الشمس ونفيها عن الكوكب والقمر ، ولذلك حذف المُفضّل عليه لظهوره ، أي هو أكبر منهما ، يعني أن الأكبر الأكثر إضاءة أولى باستحقاق الإلهية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(333/237)

---

سؤال : فإن قيل : فَلِمَ كان أفولها دليلاً على أنه لا يجوز عبادتها وقد عبدها مع العلم بأفولها خلق من العقلاء ؟

قيل : لأن تغيرها بالأفول دليل على أنها مُدبَّرة محدثة ، وما كان بهذه الصفة استحال أن يكون إلهاً معبوداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

سؤال : فإن قيل : لم قال في الشمس : هذا ، ولم يقل : هذه ؟ فعنه أربعة أجوبه .

أحدها : أنه رأى ضوء الشمس لا عينها ، قاله محمد بن مقاتل .

والثاني : أنه أراد هذا الطالع ربي ، قاله الأخفش .

والثالث : أن الشمس بمعنى الضياء والنور ، فحمل الكلام على المعنى .

والرابع : أن الشمس ليس في لفظها علامة من علامات التأنيث ، وإنما يشبه لفظها لفظ المذكَّر ، فجاز تذكيرها .

ذكره والذي قبله ابن الأنباري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

(334/237)

---

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ هذا أَكْبَرُ ﴾ المراد منه أكبر الكواكب جرماً وأقواها قوة ، فكان أولى بالآلهية .

فإن قيل : لما كان الأفول حاصلاً في الشمس والأفول يمنع من صفة الربوبية ، وإذا ثبت امتناع صفة الربوبية للشمس كان امتناع حصولها للقمر ولسائر الكواكب أولى .

وبهذا الطريق يظهر أن ذكر هذا الكلام في الشمس يغني عن ذكره في القمر والكواكب .

فلم لم يقتصر على ذكر الشمس رعاية للإيجاز والاختصار ؟

قلنا : إن الأخذ من الأدون فالأدون ، مترقياً إلى الأعلى فالأعلى ، له نوع تأثير في التقرير والبيان والتأكيد لا يحصل من غيره ، فكان ذكره على هذا الوجه أولى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 47 ﴾

وقال الآلوسى :

وقوله تعالى : ﴿ هذا أَكْبَرُ ﴾ تأكيد لما رامه عليه الصلاة والسلام من إظهار النصفة مع إشارة خفية كما قيل إلى فساد دينهم من جهة أخرى ببيان أن الأكبر أحق بالربوبية من الأصغر ، وكون الشمس أكبر مما قبلها مما لا خفاء فيه ، والآثار في مقدار جرمها مختلفة . والذي عليه محققو أهل الهيئة أنها مائة وستة وستون مثلاً وربع وثمن مثل الأرض وست آلاف وستمائة وأربعة وأربعون مثلاً وثلثا مثل للقمر ، وذكروا أن الأرض تسعة وثلاثون مثلاً وخمس وعشر مثل للقمر ، وتحقيق ذلك في "شرح مختصر الهيئة" للبرجندي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾

فصل

قال الفخر :

المعنى أنه لما ثبت بالدليل أن هذه الكواكب لا تصلح للربوبية والإلهية ، لا جرم تبرأ من الشرك .

ولقائل أن يقول : هب أنه ثبت بالدليل أن الكواكب والشمس والقمر لا تصلح للربوبية والإلهية لكن لا يلزم من هذا القدر نفي الشريك مطلقاً وإثبات التوحيد ، فلم فرع على قيام الدليل على كون هذه الكواكب غير صالحة للربوبية الجزم بإثبات التوحيد مطلقاً .

والجواب : أن القوم كانوا مساعدين على نفي سائر الشركاء وإنما نازعوا في هذه الصورة المعينة فلما ثبت بالدليل أن هذه الأشياء ليست أرباباً ولا آلهة ، وثبت بالاتفاق نفي غيرها لا جرم حصل الجزم بنفي الشركاء على الإطلاق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 47 ﴾

وقال الآلوسى :

*(335/237)*

---

﴿ قَالَ يا قوم إِنِّى بَرِىء مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ أي من إشراككم أو من الذي تشركونه من الأجرام المحدثة المتغيرة من حال إلى أخرى المسخرة لمحدثها ، وإنما احتج عليه السلام بالأفول دون البزوغ مع أنه أيضاً انتقال قيل لتعدد دلالته لأنه انتقال مع احتجاب والأول : حركة وهي حادثة فيلزم حدوث محلها ، والثاني : اختفاء يستتبع إمكان موصوفه ولا كذلك البزوغ لأنه وإن كان انتقالاً مع البروز لكن ليس للثاني مدخل في الاستدلال .

واعترض بأن البزوغ أيضاً انتقال مع احتجاب لأن الاحتجاب في الأول لاحق وفي الثاني : سابق ، وكونه عليه السلام رأى الكوكب الذي يعبدونه في وسط السماء كما قيل ولم يشاهد بزوغه فإنما يصير نكتة في الكوكب دون القمر والشمس إلا أن يقال بترجح الأفول بعمومه بخلاف البزوغ .

والأولى : ما قيل : "إن ترتيب هذا الحكم ونظيريه على الأفول دون البزوغ والظهور من ضروريات سوق الاحتجاج على هذا المساق الحكيم فإن كلاً منهما وإن كان في نفسه انتقالاً منافياً لاستحقاق معروضه للربوبية قطعاً لكن لما كان الأول حالة موجبة لظهور الآثار والأحكام ملائمة لتوهم الاستحقاق في الجملة رتب عليه الحكم الأول أعني ﴿ هذا ربّى ﴾ على الطريق المذكورة ، وحيث كان الثاني حالة مقتضية لانطماس الآثار وبطلان الأحكام المنافيين للاستحقاق المذكور منافاة بينة يكاد يعترف بها كل مكابر عنيد رتب عليها ما رتب انتهى2 .

(336/237)

---

وبمعنى هذا ما قاله الإمام في وجه الاستدلال بالأفول من "أن دلالته على المقصود ظاهرة يعرفها كل أحد ، فإن الآفل يزول سلطانه وقت الأفول ، ونقل عن بعض المحققين أن الهوى في

( حضيض ) الإمكان أفول ؛ وأحسن الكلام ما يحصل فيه حصة الخواص وحصة الأوساط وحصة العوام فالخواص يفهمون من الأفول الإمكان وكل ممكن محتاج والمحتاج لا يكون ( مقطعاً للحاجة ) فلا بد من الانتهاء إلى ما يكون منزهاً عن الإمكان حتى تنقطع الحاجات بسبب وجوده كما قال سبحانه : ﴿ وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ المنتهى ﴾ [ النجم : 42 ] وأما الأوساط فهم يفهمون من الأفول مطلق الحركة وكل متحرك محدث وكل محدث فهو محتاج إلى القديم القادر فلا يكون الآفل إلهاً بل الإله هو الذي احتاج إليه ذلك الآفل ، وأما العوام فإنهم يفهمون من الأفول الغروب وهم يشاهدون أن كل كوكب يقرب من الأفول والغروب فإنه يزول نوره وينتقص ضوؤه ويذهب سلطانه ويصير كالمعزول ومن كان كذلك لم يصلح للإلهية ثم قال : فكلمة ﴿ لا أُحِبُّ الآفلين ﴾ مشتملة على نصيب المقربين وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال فكانت أكمل الدلائل وأفضل البراهين .

وهناك أيضاً دقيقة أخرى وهو أنه عليه السلام إنما كان يناظرهم وهم كانوا منجمين ومذهب أهل النجوم أن الكوكب إذا كان في الربع الشرقي وكان صاعداً إلى وسط السماء كان قوياً عظيم التأثير أما إذا كان غريباً وقريباً من الأفول فإنه يكون ضعيف الأثر قليل القوة فنبه بهذه الدقيقة على أن الإله هو الذي لا تتغير قدرته إلى العجز وكماله إلى النقصان ، ومذهبكم أن الكوكب حال كونه في الربع الغربي يكون ضعيف القوة ناقص التأثير عاجزاً

عن التدبير وذلك يدل على القدح في إلهيته .

ويظهر من هذا أن للأفول على قول المنجمين مزيد خاصية في كونه موجباً للقدح في إلهيته .

(337/237)

---

ولا يخفى أن فهم الهوى في حضيض الإمكان من ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ ﴾ [ الأنعام : 77 ] في هذه الآية مما لا يكاد يسلم ، وكون المراد فلما تحقق إمكانه لظهور أمارات ذلك من الجسمية والتحيز مثلاً قال الخ لا يخفى ما فيه ، نعم فهم هذا المعنى من

﴿ لا أُحِبُّ الآفلين ﴾ [ الأنعام : 76 ] ربما يحتمل على بعد ، ونقل عن حجة الإسلام الغزالي أنه "حمل الكوكب على النفس الحيوانية التي لكل كوكب والقمر على النفس الناطقة التي لكل فلك ، والشمس على العقل المجرد الذي لكل فلك ، وعن بعضهم أنه حمل الكوكب على الحس ، والقمر على الخيال والوهم والشمس على العقل ، والمراد أن هذه القوى المدركة قاصرة متناهية القوة ومدبر العالم مستولي عليها قاهر لها" وهو خلاف الظاهر أيضاً ، وسيأتي إن شاء الله تعالى في باب الإشارة نظير ذلك ، وإنما لم يقتصر عليه السلام في الاحتجاج على قومه بأفول الشمس مع أنه يلزم من امتناع صفة الربوبية فيها لذلك امتناعها في غيرها من باب أولى .

وفيه أيضاً رعاية الإيجاز والاختصار ترقياً من الأدون إلى الأعلى مبالغة في التقرير والبيان على ما هو اللائق بذلك المقام ولم يحتج عليهم بالجسمية والتحيز ونحوهما مما يدركه الرائي عند الرؤية في أمارات الحدوث والإمكان اختياراً لما هو أوضح من ذلك في الدلالة وأتم ، ثم إنه عليه السلام لما تبرأ مما تبرأ منه توجه إلى مبدع هذه المصنوعات وموجودها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ قال يا قوم إِنِّي بريء مِمَّا تشركون ﴾ ، إقناع لهم بأنْ لا يحاولوا موافقته إيَّاهم على ضلالهم لأنَّه لما انتفى استحقاق الإلهية عن أعظم الكواكب التي عبدوها فقد انتفى عمَّا دونها بالأحرى .

والبريء فعيل بمعنى فَاعِل من بَرِىءَ بكسر الرّاء لا غير يَبرَأ بفتح الرّاء لا غير بمعنى تفصّى وتنزّه ونفَى المخالطة بينه وبين المجرور بـ ( مِن ) .

*(338/237)*

---

ومنه ﴿ أن الله بريء من المشركين ﴾ [ التوبة : 3 ] ، ﴿ فبرّأهُ الله مِمَّا قالُوا ﴾ [ الأحزاب : 69 ] ، ﴿ وما أبرّىء نفسي ﴾ [ يوسف : 53 ] .

فمعنى قوله ﴿ بريء ﴾ هنا أنَّه لا صلة بينه وبين ما يشركون .

والصلة في هذا المقام هي العبادة إن كان ما يشركون مراداً به الأصنام ، أو هي التلبّس والاتِّباع إن كان ما يشركون بمعنى الشرك .

والأظهر أنّ ( ما ) في قوله ﴿ ما تشركون ﴾ موصولة وأنّ العائد محذوف لأجل الفاصلة ، أي ما تشركون به ، كما سيأتي في قوله : ﴿ ولا أخاف ما تشركون به ﴾ [ الأنعام : 80 ] لأنّ الغالب في فعل البراءة أن يتعلَّق بالذوات ، ولئلاّ يتكرّر مع قوله بعده ﴿ وما أنا من المشركين ﴾ .

ويجوز أن تكون ( ما ) مصدرية ، أي من إشراككم ، أي لا أتقلَّده .

وتسميته عبادتهم الأصنام إشراكاً لأنّ قومه كانوا يعترفون بالله ويشركون معه في الإلهية غيره كما كان إشراك العرب وهو ظاهر أي القرآن حيث ورد فيها الاحتجاج عليهم بخالق السماوات والأرض ، وهو المناسب لضرب المثل لمشركي العرب بشأن إبراهيم وقومه ، ولقوله الآتي ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ [ الأنعام : 82 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

*(339/237)*

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ﴾

المشهور في الشمس أنها مؤنثة .

وقيل : تذكر وتؤنث فأنثت أولاً على المشهور وذكرت في الإشارة على اللغة القليلة مراعاة ومناسبة للخبر ، فرجحت لغة التذكير التي هي أقل على لغة التأنيث وأما من لم ير فيها إلا التأنيث .

فقال ابن عطية : ذكر أي هذا المرئي أو النير وقدره الأخفش ، هذا الطالع ، وقيل : الشمس بمعنى الضياء قال تعالى : ﴿ جعل الشمس ضياء ﴾ فأشار إلى الضياء والضياء مذكر ، وقال الزمخشري : جعل المبتدأ مثل الخبر لكونهما عبارة عن شيء واحد كقولهم : ما جاءت حاجتك وما كانت أمك ، ولم تكن فتنتهم إلا أن قالوا وكان اختيار هذه الطريقة واجباً لصيانة الرب عن شبهة التأنيث ألا تراهم قالوا في صفة الله : علام ولم يقولوا علامة ، وإن كان علامة أبلغ احترازاً من علامة التأنيث انتهى ، ويمكن أن أكثر لغة الأعاجم لا يفرقون في الضمائر ولا في الإشارة بين المذكر والمؤنث ، ولا علامة عندهم للتأنيث بل المذكر والمؤنث سواء في ذلك عندهم فلذلك أشار إلى المؤنث عندنا حين حكى كلام ابراهيم بما يشار به إلى المذكر ، بل لو كان المؤنّث بفرج لم يكن لهم علامة تدل عليه في كلامهم

وحين أخبر تعالى عنها بقوله ﴿ بازغة ﴾ و ﴿ أفلت ﴾ أنث على مقتضى العربية إذ ليس ذلك بحكاية .

﴿ فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون ﴾ أي من الأجرام التي تجعلونها شركاء لخالقها ، ولما أفلت الشمس لم يبق لهم شيء يمثل لهم به وظهرت حجته وقوي بذلك على منابذتهم تبرأ من إشراكهم ، وقال الماتريدي : الاختيار أن يقال : استدل على عدم صلاحيتها للإلهية لغلبة نور القمر نور الزهرة ونور الشمس لنوره وقهرتيك بذاك وهذا بتلك ، والرب لا يقهر والظلام غلب نور الشمس وقهره انتهى ملخصاً .

*(340/237)*

---

قال ابن أبي الفضل : ما جاء الظلام إلا بعد ذهاب الشمس فلم يجتمع معها حتى يقال قهرها وقهر نورها انتهى ، وقال غيره من المفسرين : إنه استدل بما ظهر عليها من شأن الحدوث والانتقال من حال إلى حال وذلك من صفات الأجسام فكأنه يقول : إذا بان في هذه النيرات الرفيعة أنها لا تصلح للربوبية فأصنامكم التي من خشب وحجارة أحرى أن يتبين ذلك فيها ومثل لهم بهذه النيرات لأنهم كانوا أصحاب نظر في الأفلاك وتعلق بالنجوم وأجمع المفسرون على أن رؤية هذه النيرات كانت في ليلة واحدة ، رأى الكوكب الزهرة أو المشتري على

الخلاف السابق جانحاً للغروب فلما أفل بزغ القمر فهو أول طلوعه فسرى الليل أجمع فلما بزغت الشمس زال ضوء القمر قبلها لانتشار الصباح وخفى نوره ودنا أيضاً من مغربه ، فسمي ذلك أفولاً لقربه من الأفول التام على تجوز في التسمية ثم بزغت الشمس على ذلك ، قال ابن عطية : وهذا الترتيب يستقيم في الليلة الخامسة عشر من الشهر إلى ليلة عشرين ، وليس يترتب في ليلة واحدة كما أجمع أهل التفسير إلا في هذه الليالي وبذلك التجوز في أفول القمر ؛ انتهى ، والظاهر والذي عليه المفسرون أن المراد من الكوكب والقمر والشمس هو ما وضعته له العرب من إطلاقها على هذه النيرات ، وحكي عن بعض العرب ولعله لا يصح عنه أن الرؤية رؤية قلب ، وعبر بالكوكب عن النفس الحيوانية التي لكل كوكب وبالقمر عن النفس الناطقة التي لكل فلك ، وبالشمس عن العقل المجرد الذي لكل فلك وكان ابن سينا يفسر الأفول بالإمكان فزعم الغزالي أن المراد بأفولها إمكانها لذاتها ، وكل ممكن فلا بد له من مؤثر ولا بد له من الانتهاء إلى واجب الوجود ، ومن الناس من حمل الكوكب على الحس والقمر على الخيال والوهم والشمس على العقل ، والمراد أن هذه القوى المدركة الثلاثة قاصرة متناهية القوة ، ومدبر العالم مستول عليها قاهر لها ؛ انتهى ، وهذان التفسيران شبيهان بتفسير الباطنية لعنهم الله إذ هما لغز

(341/237)

ورمز ينزه كتاب الله عنهما ولولا أن أبا عبد الله الرازي وغيره قد نقلهما في التفسير ، لأضربت عن نقلهما صفحاً إذ هما مما نجزم ببطلانه ومن تفسير الباطنية الإمامية ونسبوه إلى عليّ أن الكوكب هو المأذون ، وهو الداعي والقمر اللاحق وهو فوق المأذون بمنزلة الوزير من الإمام والشمس الإمام وابراهيم في درجة المستجيب ، فقال للمأذون : هذا ربي عنى رب التربية للعلم فإنه يربي المستجيب بالعلم ويدعوه إليه ، فلما أفل فنى ما عند المأذون من العلم رغب عنه ولزم اللاحق فلما فنى ما عنده رغب عنه وتوجه إلى التالي وهو الصامت الذي يقبل العلم من الرسول الذي يسمى الناطق لأنه ينطق بجميع ما ينطق به الرسول فلما فنى ما عنده ارتقى إلى الناطق وهو الرسول وهو المصور للشرائع عندهم ؛ انتهى هذا التخليط ، واللغز الذي لا تدل عليه الآية بوجه من وجوه الدلالات والتفسير أن قبل هذا شبيهان بهذا التفسير المستحيل وللمنسوبين إلى الصوف في تفسير كتاب الله تعالى أنواع من هذه التفاسير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

*(342/237)*

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78) ﴾

وهكذا يثبت له أن كل كوكب – حتى الشمس – مصيره إلى أفول ، فكأنه قد وصل بهم بالمنطق إلى أن عبادة الكواكب لا تصلح ، واستخدم المنطق الذي يحقق نيته في أن ينكر هذه الربوبية ، ويستأنس به آذان من يسمعه . وهناك أشياء يجعلها الحق سبباً مبرراً لارتكاب أشياء كثيرة ، إلا أننا نعقد مقارنة بين بعضهم البعض مثلما قال الحق : ﴿ ولكن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً ﴾ [ النحل : 106 ]

وقد جاءت بعد قوله سبحانه : ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾ [ النحل : 106 ]

فإذا كان الله قد أباح إجراء كلمة الكفر على لسان المؤمن المطمئن لينجي حياته وهو فرد ، أفلا يصح لإبراهيم أن يقول لهم : ﴿ هذا رَبِّي ﴾ بما تحتمل من أساليب حتى ينجي أمة بأسرها من أن تعبد الأصنام ؟ .

إذن فيقول إبراهيم ﴿ هذا رَبِّي ﴾ يؤخذ على محملين : ألم يقل الله سبحانه وتعالى بنفسه عن نفسه : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآئِي ﴾ [ فصلت : 47 ]

وسبحانه يعلم أنّه لا شركاء له ، ولكن الشركاء هم مِن زعْم المشركين .

" ورسول الله صلى الله عليه وسلم حينما كان ينادي في بعض القوم : يا إله الآلهة لأنه يعلم أن قوماً قد ألهوا ظواهر طبيعية في الكون لما يرون من الخير فيها ، فأراد أن ينبههم إلى أن هناك إلهاً حقّاً " .

ويوضح القرآن عدم جدوى الشرك حين يقول : ﴿ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [ المؤمنون : 91 ]

ويقول سبحانه : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَّابْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴾ [ الإسراء : 42 ]

*(343/237)*

---

والحق سبحانه وتعالى يقول للكافر الذي كان يعتز بجاهه في دنياه : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [ الدخان : 49 ]

فهل هذا القول اعتراف بأن الكفر عزيز كريم أو هو قول تهكمي ؟ . إنه تهكم ؛ لأن الكافر لو كان عزيزاً كريماً عند نفسه لما كفر ولما استقر في الجحيم .

وكان المنطق في اللغة أن يقول : فلما رأى الشمس بازغة قال هذه ربي ؛ لأن الشمس مؤنثة ،

ولكنه قال : ﴿ هذا رَبِّي ﴾ كما قال في القمر وفي غيره من الكواكب ، فجعل الأمر على سياق أو حالة واحدة ، أو هو بهذا القول يريد أن ينزه كلمة الرب تنزيها مطلقا عن أن تلحق بها علامة التأنيث ؛ لأن علامة التأنيث فرع التذكير ، وأيضاً لأن الشمس ليست مؤنثاً حقيقياً ، بل هي مؤنث مجازي ، ولذلك يفطن العلماء إلى هذه المسألة فيقولون : إنك إذا أعطيت واحداً صفة العلم ، وقلت : فلان عالم ، أما إذا صار علمه ملكة عنده فنقول : " فلان عليم " ؛ ولذلك يقول الحق : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [ يوسف : 76 ]

وإذا كان العالم متمكناً من علمه بشكل غير مسبوق نقول عنه : " علاَّم " . والحق سبحانه يصف نفسه فيقول : ﴿ عَلاَّمُ الغيوب ﴾ [ المائدة : 116 ]

ولم يقل العلماء في وصف الله علامة ، وإن كان هذا الوصف أبلغ احترازا من أن تلحق علامة التأنيث صفة من صفات الله – عز وجل – .

وحين تأفل الشمس يقول سيدنا إبراهيم : ﴿ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [ الأنعام : 78 ]

وجاء الأمر صريحاً لأنه سبق المسألة بالترقيات الجدلية التي قالها ، وحين يسمعها أي عاقل فلا بد أن يعلن اتفاقه في هذا الأمر ، ولذلك قال : ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ . ولأنه كإنسان مؤمن لن يغش نفسه ، وبالتالي لن يغش قومه ، وهذا ما ينبه العقل حين يعطيه الله هبة الهداية .

والبراءة من الشرك تخلية عن المفسد ، والتخلية تعني أن تنفك أو تنقطع عن العمل المفسد ، وبعد ذلك تدخل في العمل المصلح . . العمل الإيجابي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(344/237)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾

قال ابن عادل :

إنما ذكر اسم الإشارة مذكراً والمشار إليه مؤنث لأحد وجوه :

إما ذهاباً بها مذهب الكواكب ، وإما ذهاباً بها مذهب الضوء والنور ، وإما بتأويل الطَّالع أو الشخص ؛ كما قال الأعشى : [ السريع ]

2218 - قَامَتْ تُبَكِّيهِ عَلَى قَبْرِهِ . . .

مَنْ لِي بَعْدَكَ يَا عَامِرُ

تَرَكْتَنِي فِي الدَّارِ ذَا غُرْبَةٍ . . .

قَدْ ذَلَّ مَنْ لَيْسَ لَهُ نَاصِرُ

أو الشيء ، أو لأنه لما أخبر عنها بمذكَّرٍ أعْطِيَتْ حُكْمَه ؛ تقول : هند ذاك الإسنان وتيك الإنسان ؛ قال : [ البسيط ]

2219 - تَبيتُ نُعْمَى عَلَى الهِجْرَانِ غَائِبَةً . . .

سَقْياً ورعْياً لِذاكَ الغَائِبِ الزَّاري

فأشار إلى " نعمى " وهي مؤنث إشارة المُذكرِ بوصف الذكورن أو لأن فيها لُغَتَيْنِ : التذكير والتأنيث ، وإن كان الأكثر التأنيث ، فقد جمع بينهما في الآية الكريمة فأنَّث في قوله : " بازغة " ، وذكَّرَ في قوله : " هذا " .

وقال الزمخشري : " جعل المبتدأ مثل الخبر لكونهما عبارةً عن شيء واحد ؛ كقولهم : ما جاءت حاجتك ، ومن كانت أمك ، و﴿ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا ﴾ [ الأنعام : 23 ] وكان اختيار هذه الطريقة واجباً لصيانة الرَّبِّ عن شُبْهَةِ التأنيث ، إلا تَرَاهُمْ قالوا في صفة الله : علاَّم ، ولم يقولوا : عَلاَّمة ، وإن كان أَبْلَغَ ، احترازاً من علامة التأنيث " .

قلت : وهذا قريبٌ مِمَّا تقدَّم في أن المؤنث إذا أخبر عنه بمذكَّرٍ عومل معاملة المُذكَّرِ ، نحو : " هند ذاك الإنسان " .

وقيل : لأنها بمعنى : هذا النَّيِّر ، أو المرئي .

قال أبو حيَّان : " ويمكن أن يقال : إن أكثر لغة الأعاجم لا يفرقون في الضمائر ، ولا في الإشارة بين المُذَكَّرِ والمؤنث سواء ، فلذلك اشار إلى المؤَنَّثِ عندنا حين حكى كلام إبراهيم

بما يشار به إلى المذكر ، بل لو كان المؤنث بِفَرْجٍ لم يكن له علامة تَدُلُّ عليه في كلامهم ، وحين أخبر – تعالى – عنها بقوله : "بَازِغَةً" و"افَلَتْ" أتت على مقتضى العربية ، إذ ليس ذلك بحكاية" انتهى .

وهذا إنما يظهر أن لو حكى كلامهم بِعَيْنِهِ في لغتهم ، أما شيء يعبر عنه بلغة العرب ، ويعطى حكمه في لغة العَجَمِ ، فهو مَحَلُّ نَظَرٍ .

فصل في بيان سبب تسمية العبرية والسريانية .

قال الطبري : إن إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – إنما نطق بالعبرانية حين عَبَرَ النَّهْرَ فاراً من النَّمْرُودِ حيث قال للذين أرسلهم في طلبه : إذا وجدتم من يتكلم بالسريانية فأْتُونِي به ، فلما أدْرَكُوا اسْتَنْطَقُوهُ ، فَحوَّلَ اللهُ نُطْقَهُ لساناً عربياً ، وذلك حين عبر النَّهْرَ ، فسميت العبرانية لذلك .

*(345/237)*

---

وأما السُّرْيَانِيَّةُ فذكر ابن سلام أنها سميت بذلك ؛ لأن الله – سبحانه وتعالى – حين علم آدم الأسماءَ علَّمهُ سِرّاً من الملائكة ، وأنطقه بها حنيئذ ، فَسُمِّيتِ السريانية لذلك ، والله أعلم .

قوله : " هَذَا أَكْبَرُ " أي : أكبر الكواكب جِرْماً ، وقواها قولة ، فكان أَوْلَى بالإلهية ، قوله : ﴿ إِنِّي بريء مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ " ما " مصدرية ، أي : بريء من إشراككم ، أو موصولة أي : من الذين يشركونه مع الله في عبادته ، فحذف العائد ن ويجوز أن تكون الموصوفة والعائد محذوف أيضاً ن إلا أنَّ حَذْفَ عائد الصِّفَةِ أقل من حَذْفِ عائد الصِّلة ، فالجملة بعدها لا محلَّ لها على القولين الأوَّلَيْنِ ، ومحلها الجر على الثالث ، ومعنى الكلام أنه لما ثبت بالدليل أن هذه الكواكب لا تصلح للرُّبُوبيَّةِ والإلهية ، لا جَرَمَ تبرَّأ من الشِّرْكِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 249 . 251 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيات

قال عليه الرحمة :

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78) ﴾

يعني أحاطت به ( سجوف ) الطلب ، ولم يتجل له بعد صباح الوجود ، فطلع نجم العقول فشاهد الحق بسره بنور البرهان ، فقال : هذا ربي ثم يزيد في ضيائه فطلع له قمر العلم فطالعه بشرط البيان ، فقال : ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ .

ثم أسفر الصبح ومتع النهار فطلعت شموس العرفان من برج شرفها فلم يبقَ للطلب مكان ، ولا للتجويز حكم ، ولا للتهمة قرار فقال : ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ إذ ليس بعد العيان ريب ، ولا عَقِبَ الظهور ستر .

ويقال قوله – عند شهود الكواكب والشمس والقمر – ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ إنه كان يلاحظ الآثار والأغيار بالله ، ثم كان يرى الأشياء لله ومن الله ، ثم طالع الأغيار محواً في الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 485 ﴾

*(346/237)*

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والثلاثون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

*(3/238)*

---

الجزء الثامن والثلاثون بعد المائتين

من الآية ﴿ 79 ﴾ من سورة الأنعام

وحتى الآية ﴿ 82 ﴾ من نفس السورة

*(4/238)*

---

قوله تعالى ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

فلما أبطل بذلك جميع مذهبهم أظهر التوجه إلى الإله الحق ، وأنه قد انكشف له الصواب بهذا النظر ، والمراد هم ، ولكن سوقه على هذا الوجه أدعى لقبولهم إياه ، فقال مستنتجاً عما دل عليه الدليل العقلي في الملكوت : ﴿ إني وجهت وجهي ﴾ أي أخلصت قصدي غير معرج على شيء أصلاً ، فعبر بذلك عن الانقياد التام ، لأن من انقاد لشيء أقبل عليه بوجهه ، ودل على كماله وتفرده بالكمال مبدعاتُه ، وعبر باللام دون إلى لئلا يوهم الحيز ، فقال : ﴿ للذي فطر ﴾ أي لأجل عبودية من شق وأخرج ﴿ السماوات والأرض ﴾ فختم الدليل بما افتتحت به السورة من قوله " الذي خلق السماوات والأرض " وأدل دليل على ما تقدم – أني فسرت الحنف به من أنه الميل مع الدليل سهولة ولطافة على ما هو دأب الفطرة الأولى التي فطر الله الناس عليها – قولُه بعد نصب هذا الدليل : ﴿ حنيفاً ﴾ أي سهلاً هيناً ليناً لطيفاً ميالاً مع الدليل غير كزّ جاف جامد على التقليد دأب الغليظ البليد ، وأكد البراءة منهم بقوله : ﴿ وما أنا من المشركين ﴾ أي منكم ، ولكنه أظهر الوصف المقتضي للبراءة والتعميم ، أي لا أعد في عدادكم بشيء أقاربكم به . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 660 . 661 ﴾

فصل

قال الفخر :

هذا الكلام لا يمكن حمله على ظاهره .

بل المراد وجهت عبادتي وطاعتي ، وسبب جواز هذا المجاز أن من كان مطيعاً لغيره منقاداً لأمره ، فإنه يتوجه بوجهه إليه ، فجعل توجيه الوجه إليه كناية عن الطاعة .

وأما قوله : ﴿ لِلَّذِى فَطَرَ السموات والأرض ﴾ ففيه دقيقة : وهي أنه لم يقل وجهت وجهي إلى الذي فطر السموات والأرض .

بل ترك هذا اللفظ وذكر قوله : ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى ﴾ والمعنى : أن توجيه وجه القلب ليس إليه ، لأنه متعال عن الحيز والجهة ، بل توجيه وجه القلب إلى خدمته وطاعته لأجل عبوديته ، فترك كلمة "إلى" هنا والاكتفاء بحرف اللام دليل ظاهر على كون المعبود متعالياً عن الحيز والجهة ، ومعنى فطر أخرجهما إلى الوجود ، وأصله من الشق ، يقال : تفطر الشجر بالورق والورد إذا أظهرهما ، وأما الحنيف فهو المائل قال أبو العالية : الحنيف الذي يستقبل البيت في صلاته ، وقيل إنه العادل عن كل معبود دون الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 47 . 48 ﴾

---

وقال أبو حيان :

﴿ إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً ﴾

أي أقبلت بقصدي وعبادتي وتوحيدي وإيماني وغير ذلك مما يعمه المعنى المعبر عنه بوجهي للذي ابتدع العالم محل هذه النيرات المحدثات وغيرها ، واكتفى بالظرف عن المظروف لعمومه إذ هذه النيرات مظروف السموات ولما كانت الأصنام التي يعبدها قومه النيرات ومن خشب وحجارة وذكر ظرف النيرات عطف عليه الأرض التي هي ظرف الخشب والحجارة ، و﴿ حنيفاً ﴾ مائلاً عن كل دين إلى دين الحق وهو عبادة الله تعالى مسلماً أي منقاداً إليه مستسلماً له .

﴿ وما أنا من المشركين ﴾ ولما أنكر على أبيه عبادة الأصنام وضلله وقومه ، ثم استدل على ضلالهم بقضايا العقول إذ لا يذعنون للدليل السمعي لتوقفه في الثبوت على مقدمات كثيرة وأبدى تلك القضايا منوطة بالحس الصادق تبرأ من عبادتهم وأكد ذلك بأن ثم أخبر أنه وجه عبادته لمبدع العالم التي هذه النيرات المستدل بها ، بعضه ثم نفى عن نفسه أن يكون من المشركين مبالغة في التبريء منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

---

وقال الآلوسى :

﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ﴾ أي أوجد وأنشأ ﴿ السموات ﴾ التي هذه الأجرام من أجزائها ﴿ والأرض ﴾ التي تلك الأصنام من أجزائها ﴿ حَنِيفاً ﴾ أي مائلاً عن الأديان الباطلة والعقائد الزائغة كلها ﴿ وَمَا أَنَاْ مِنَ المشركين ﴾ أصلاً في شيء من الأقوال والأفعال ، والمراد من توجيه الوجه للذي فطر الخ قصده سبحانه بالعبادة .

وقال الإمام : "المراد وجهت عبادتي وطاعتي ، وسبب جواز هذا المجاز أن من كان مطيعاً لغيره منقاداً لأمره فإنه يتوجه بوجهه إليه فجعل توجه الوجه إليه كناية عن الطاعة" والظاهر أن اللام صلة وجه .

وفي "الصحاح" "وجهت وجهي لله وتوجهت نحوك وإليك" ، ظاهره التفرقة بين وجه وتوجه باستعمال الأول باللام والثاني بإلى ، وعليه وجه اللام هنا دون إلى ظاهر ، وليس في "القاموس" تعرض لهذا الفرق .

وادعى "الإمام أنه حيث كان المعنى توجيه وجه القلب إلى خدمته تعالى وطاعته لأجل عبوديته لا توجه القلب إليه جل شأنه لأنه متعالٍ عن الحيز والجهة تركت إلى واكتفى باللام

فتركها .

والاكتفاء باللام ههنا دليل ظاهر على كون المعبود متعالياً عن الحيز والجهة" وفي القلب من ذلك شيء .

فإن قيل : إن قصارى ما يدل عليه الدليل أن الكوكب والشمس والقمر لا يصلح شيء منها للربوبية والألوهية ولا يلزم من هذا القدر نفي الشرك مطلقاً وإثبات التوحيد فلم جزم عليه السلام بإثبات التوحيد ونفي الشرك بعد إقامة ذلك الدليل ؟ فالجواب بأن القوم كانوا مساعدين على نفي سائر الشركاء وإنما نازعوا في هذه الصورة المعينة فلما ثبت بالدليل على أن هذه الأشياء ليست أرباباً ولا آلهة وثبت بالاتفاق نفي غيرها لا جرم حصل الجزم بنفي الشركاء على الإطلاق .

ثم إن المشهور أن هذا الاستدلال من أول ضروب الشكل الثاني .

والشخصية عندهم في حكم الكلية كأنه قيل : هذا أو القمر أو هذه أفل أو أفلت ولا شيء من الإله بآفل أو ربي ليس بآفل ينتج هذا أو القمر أو هذه ليس بإله أو ليس بربي .

أما الصغرى فهي كالمصرح بها في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ ﴾ [ الأنعام : 76 ، 77 ] في الموضعين ، وقوله سبحانه : ﴿ فَلَمَّا أَفَلَتْ ﴾ [ الأنعام : 78 ] في الأخير ، وأما الكبرى فمأخوذة من قوله تعالى : ﴿ لا أُحِبُّ الآفلين ﴾ [ الأنعام : 76 ] لأنه يشير إلى قياس وهو كل آفل لا يستحق العبودية .

وكل من لا يستحق العبودية فليس بإله ينتج من الأول كل آفل ليس بإله ، ويستلزم لا شيء من الآفل بإله لاستلزام الموجبة المعدولة السالبة المحصلة .

ويصح جعل الكبرى ابتداء سالبة فينتج ما ذكر وينعكس إلى لا شيء من الإله بآفل ، وهي إحدى الكبريين .

ويعلم من هذا بأدنى التفات كيفية أخذ الكبرى الثانية .

*(8/238)*

---

وقال الملوي : الأحسن أن يقال إن قوله تعالى : ﴿ لا أُحِبُّ الآفلين ﴾ يتضمن قضية وهي لا شيء من الآفل يستحق العبودية فتجعل كبرى لصغرى ضرورية وهي الإله المستحق للعبودية ينتج لا شيء من الإله بآفل وإذا ضمت هذه النتيجة إلى القضية السابقة وهي هذا آفل ونحوه أنتج من الثاني هذا ليس بإله أو لا شيء من القمر بإله ، وإن ضممت عكسها المستوي إليها أنتج من الأول المطلوب بعينه فلا يتعين الثاني في الآية بل الأول مأخوذ منها أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ .

فتأمل فيه ولا تغفل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وجملة ﴿ إنّي وجّهْت وَجْهِي ﴾ بمنزلة بدل الاشتمال من جملة ﴿ إنِّي بريء ممّا تشركون ﴾ ، لأنّ البراءة من الإشراك تشتمل على توجيه الوجه إلى الله ، وهو إفراده بالعبادة .

والوجه في قوله : ﴿ وجهي ﴾ .

و ﴿ وجّهت ﴾ مشتقّ من الجهة والوجهة ، أي صرفته إلى جهة ، أي جعلت كذا جهة له يقصدها .

يقال : وجَّهه فتوجّه إلى كذا إذا ذهب إليه .

ويقال للمكان المقصود وجهة بكسر الواو ، وكأنَّهم صاغوه على زنة الهيئة من الوَجه لأنّ القاصد إلى مكان يقصده من نحو وجهه ، وفعلوه على زنة الفعلة بكسر الفاء لأنّ قاصد المكان بوجهه تَحْصُل هيئة في وجهه وهي هيئة العزم وتحديقُ النظر .

فمعنى ﴿ وجَّهت وجهي ﴾ صرفتُه وأدرته .

وهذا تمثيل : شبّهت حالة إعراضه عن الأصنام وقصده إلى إفراد الله تعالى بالعبادة بمن استقبل بوجهه شيئاً وقصده وانصرف عن غيره .

وأتي بالموصول في قوله : ﴿ للذي فطر السماوات والأرض ﴾ ليومىء إلى علّة توجّهه إلى عبادته ، لأنّ الكواكب من موجودات السماء ، والأصنامَ من موجودات الأرض فهي مفطورة لله تعالى .

وفعل ( وجَّه ) يتعدّى إلى المكان المقصود بإلى ، وقد يتعدّى باللام إذا أريد أنَّه انصرف لأجل ذلك الشيء ، فيحسن ذلك إذا كان الشيء المقصود مراعى إرضاؤه وطاعته كما تقول : توجّهت للحبيب ، ولذلك اختير تعدّيه هنا باللام ، لأنّ في هذا التوجّه إرضاء وطاعة .

وفَطَر : خلَق ، وأصل الفَطْر الشقّ .

يقال فطر فطوراً إذا شقّ قال تعالى ﴿ فارجع البصر هل تَرى من فُطُور ﴾ [ الملك : 3 ] أي اختلال ، شُبّه الخَلْق بصناعة الجلد ونحوه ، فإنّ الصانع يشقّ الشيء قبل أن يصنعه ، وهذا كما يقال : الفَتق والفَلْق ، فأطلق الفَطر على إيجاد الشيء وإبداعه على هيئة توّهّل للفعل .

و﴿ حنيفاً ﴾ حال من ضمير المتكلّم في ﴿ وجهتُ ﴾ .

وتقدّم بيان ذلك عند قوله تعالى : ﴿ قل بل ملّة إبراهيم حنيفاً ﴾ في سورة [ البقرة : 135 ] .

وجملة : وما أنا من المشركين ﴾ عطف على الحال ، نفَى عن نفسه أن يكون متَّصلاً بالمشركين وفي عدادهم .

فلما تبرّأ من أصنامهم تبرّأ من القوم ، وقد جمعهما أيضاً في سورة [ الممتحنة : 4 ] إذ قال

﴿ إنّا بُرَآء منكم وممّا تعبدون من دون الله ﴾

وأفادت جملة ﴿ وما أنا من المشركين ﴾ تأكيداً لجملة ﴿ إنّي وجّهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً ﴾ ، وإنَّما عطفت لأنَّها قصد منها التبرّىء من أن يكون من المشركين .

وهذا قد جرينا فيه على أنّ قول إبراهيم لمّا رأى النيّرات ﴿ هذا ربِّي ﴾ هو مناظرة لقومه واستدراج لهم ، وأنّه كان موقناً بنفي إلهيتها ، وهو المناسب لصفة النبوءة أن يكون أوحى إليه ببطلان الإشراك وبالحجج التي احتجّ بها على قومه .

*(10/238)*

---

ومن المفسّرين من قال : إنّ كلامه ذلك كان نظراً واستدلالاً في نفسه لقوله : ﴿ لئن لم يهدني ربِّي ﴾ ، فإنَّه يُشعر بأنّه في ضلال لأنَّه طلب هداية بصيغة الاستقبال أي لأجل أداة الشرط ، وليس هذا بمتعيّن لأنَّه قد يقوله لتنبيه قومه إلى أنّ لهم ربًّا بيده الهداية ، كما بيّنّاه في موضعه ، فيكون كلامه مستعملاً في التعريض .

على أنَّه قد يكون أيضاً مراداً به الدوام على الهداية والزيادة فيها ، على أنَّه قد يكون أراد الهداية إلى إقامة الحجّة حتَّى لا يتغلّب عليه قومه .

فإذا بنينا على أنّ ذلك كان استدلالاً في نفسه قبل الجزم بالتوحيد فإنّ ذلك كان بإلهام من الله تعالى ، فيكون قوله : ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ﴾ [ الأنعام : 75 ] معناه نريه ما فيها من الدلائل على وجود الصانع ووحدانيته قبل أن نُوحي إليه ، ويكون قوله : ﴿ رأى كوكباً ﴾ بمعنى نظر في السماء فرأى هذا الكوكب ولم يكن نظر في ذلك من قبل ، ويكون قوله : ﴿ قال هذا ربِّي ﴾ قولاً في نفسه على نحو ما يتحدّث به المفكِّر في نفسه ، وهو حديث النفس ، كقول النابغة في كلب صيد :

قالتْ له النفس إنِّي لا أرى طمعاً

وإنّ مولاك لم يسلَمْ ولم يَصد . . .

وقول العَجّاج في ثور وحشي:

ثم انثنى وقال في التفكير . . .

إنّ الحياة اليوم في الكُرور

وقوله : ﴿ هذا ربِّي ﴾ وقوله : ﴿ لا أحبّ الآفلين ، ﴾ وقوله : ﴿ لئِن لم يهدني ربِّي ﴾ كلّ ذلك مستعمل في حقائقه من الاعتقاد الحقيقي .

وقوله : ﴿ قال يا قوم ﴾ هو ابتداء خطابه لقومه بعد أن ظهر الحقّ له فأعلن بمخالفته قومه حينئذٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [ 79 ]

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ ﴾ أي : وجهت قلبي وروحي في المحبة والعبادة ، بل جعلته مسلماً : ﴿ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً ﴾ أي : مائلاً عن الأديان الباطلة ، والعقائد الزائغة ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

وفي هذا المقام :

مباحث :

الأول – توسع المفسرون هنا في قوله : ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ .

فمن قائل بأن المتكلم بهذا آزر ، وأنه لما قال ذلك ، قال إبراهيم : ﴿ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾ .

وقيل : إنه إبراهيم . وكان ذلك في حال الطفولية ، قبل استحكام النظر في معرفة الله تعالى لقوله : ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي ﴾ . . . الخ .

وقيل : بعد بلوغه وتكريمه بالرسالة . إلا أنه أراد الاستفهام الإنكاريّ ، توبيخاً لقومه ، فحذف الهمزة ، ومثله كثير .

وقيل : على إضمار القول أي : يقولون هذا ربي ، وإضمار القول كثير .

وقيل : المعنى في زعمكم واعتقادكم . وقيل : الإخبار على سبيل الاستهزاء . . . إلى أقوال أخر .

والقصد في ذلك تنزيه مقامه عليه الصلاة والسلام عن الشك والحيرة ، واعتقاد ربوبية ذلك ، لمنافاته للعصمة .

وأقول : هذا مسلم بلا ريب ، ولكنّ الأوجَه من جميع ذلك كله ما أسلفناه أولا من أن قوله : ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ من باب استعمال النصفة مع الخصوم ، على سبيل الوضع ، وهو سوق مقدمة في الدليل لا يعتقدها ، لكونها مسلمة عند غيره ، لأجل إلزامه بها . وهو مصطلح أهل الجدل . وقد اقتصر الزمخشريّ على هذا الوجه الفريد .

(12/238)

---

قال الناصر في " الانتصاف " : وذلك متعين . وقد ورد في الحديث الوارد في الشفاعة أنهم يأتون إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، فيلتمسون منه الشفاعة ، فيقول : نفسي ! نفسي ! ويذكر كذباته الثلاث ، ويقول لست لها ، يريد قوله لسارة هي أختي ، وإنما عنى : في الإسلام ، وقوله إنه سقيم ، وإنما عنى همّه بقومه وبشركهم والمؤمن يسقمه ذلك – وقوله :

﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ ﴾ ، وقد ذكرت فيه وجوه من التعريض . فإذا عدّ صلوات الله عليه وسلامه على نفسه هذه الكلمات ، مع العلم بأنه غير مؤاخذ بها ، دلّ ذلك على أنه أعظم ما صدر منه . فلو كان الأمر على ما يقال ، من أن هذا الكلام محكيّ عنه على أنه نظره لنفسه ، لكان أولى أن يعده ، وأعظم ، مما ذكرناه . لأنه حينئذ يكون شكاً ، بل جزماً . على أن الصحيح أن الأنبياء قبل النبوة معصومون من ذلك ، انتهى .

*(13/238)*

---

وقال الحافظ ابن كثير : اختلف المفسرون في هذا المقام ، هل هو مقام نظر أو مناظرة ؟ فروى ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ما يقتضي أنهم مقام نظر . واختاره ابن جرير مستدلاً عليه بقوله : ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي ﴾ الآية . وقال محمد بن إسحاق قال ذلك حين خرج من السرب الذي ولدته فيه أمه ، حين تخوفت عليه من نمروذ بن كنعان ، لما كان قد أخبر بوجود مولود يكون ذهاب ملكه على يديه ، فأمر بقتل الغلمان عامئذ . فلما حملت أم إبراهيم به ، وحان وضعها ، ذهبت إلى سربٍ ، ظاهر البلدة ، فولدت فيه إبراهيم ، وتركته هناك . وذكر أشياء من خوارق العادات ، كما ذكرها غيره من المفسرين . ثم قال ابن كثير : والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام

مناظراً لقومه ، مبيّناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام ، فبين ، في المقام الأول مع أبيه ، خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية ، التي هي على صورة الملائكة السماوية ليشفعوا له إلى الخالق العظيم الذي هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه ، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ، ليشفعوا لهم عنده في الرزق ، وغير ذلك مما يحتاجون إليه ، وبيّن في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل ، وهي الكواكب السيارة السبعة . وأشدُّهن إضاءة وأشرفهن عندهم ، الشمس ثم القمر ثم الزهرة . فبين أولاً صلوات الله وسلامه عليه أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية ، فإنها مسخرة مقدرة بسير معين ، لا تزيغ عنه ، ولا تملك لنفسها تصرفاً ، بل هي جرم من الأجرام ، خلقها الله منيرة ، لما له في ذلك من الحكم العظيمة ، وهي تطلع من المشرق ، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب ، حتى تغيب عن الأبصار فيه ، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال . وهذه لا تصلح للإلهية . ثم بين في القمر ما بين في النجم ، ثم الشمس كذلك . فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة ، التي هي أنور ما تقع

*(14/238)*

عليه الأبصار ، وتحقق ذلك بالدليل القاطع ، تبرأ من عبادتهن وموالاتهن ، وأخبر بأنه يعبد خالقهن ومسخرهن .

ثم قال ابن كثير : وكيف يجوز أن يكون ناظراً في هذا المقام ، وهو الذي قال الله في حقه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ [ الأنبياء : 51 - 52 ] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [ النحل : 120 - 121 ] .

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : < كل مولود يولد على الفطرة > .

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : < قال الله تعالى : إني خلقت عبادي حنفاء > . وقال تعالى : ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ [ الأعراف : 172 ] . ومعناه ، على أحد القولين ، كقوله : ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ فإذا كان هذا في حق سائر الخليقة ، فكيف يكون إبراهيم الخليل الذي جعله الله : ﴿ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ناظراً في هذا المقام ؟ بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة ، والسجية

المستقيمة ، بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بلا شك ولا ريب .

ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظراً لقومه فيما كانوا فيه من الشرك ، لا ناظراً ، قوله تعالى : ﴿ وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ ﴾ الآية الآتية . انتهى .

*(15/238)*

---

وممن جوّد هذا المبحث الجليل ، وبيّن أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان مناظراً لقومه ، العلامة الشهرستانيُّ في كتابه " الملل والنحل " ، ونحن نسوقه عنه تأييداً لهذا البحث المهم ، وتعرّفاً بمعتقد قومه ، وما دفعهم إليه ، لما فيه من الفوائد .

قال رحمه الله تحت ترجمة " أصحاب الهياكل والأشخاص " : هؤلاء من فرق الصابئة ( وهم المتعصبون الروحانيين ) ، وقد أدرجنا مقالتهم في المناظرات جملة ، ونذكرها ههنا تفصيلاً :

اعلم أن أصحاب الروحانيات ، لما عرفوا أن لا بد للإنسان من متوسط ، ولا بد للمتوسط من أن يُرى فيتوجه إليه للتقرب به ، ويستفاد منه ، فزعوا إلى الهياكل التي هي السيارات السبع ، فتعرفوا أولاً بيوتها ومنازلها ، وثانياً مطالعها ومغاربها ، وثالثاً اتصالاتها على أشكال الموافقة والمخالفة ، مرتبة على طبائعها ، ورابعاً تقسيم الأيام والليالي والساعات

عليها ، وخامساً تقدير الصور والأشخاص والأقاليم والأمصار عليها ، فعملوا الخواتيم ، وتعلموا العزائم والدعوات ، وعينوا ليوم زحل مثلاً يوم السبت ، وراعوا فيه ساعته الأولى ، وتختموا بخاتمه المعمول على صورته وصفته ، ولبسوا اللباس الخاص به ، وبخروا ببخوره الخاص ، ودعوا بدعواته الخاصة ، وسألوا حاجاتهم منه ، الحاجة التي تستدعى من زحل من أفعاله وآثاره الخاصة به .

*(16/238)*

---

وكذاك رفع الحاجة التي تختص بالمشتري في يومه وساعته ، وجميع الإضافات التي ذكرنا إليه . وكذلك سائر الحاجات إلى الكواكب . وكانوا يسمونها : أرباباً آلهة ، والله تعالى هو رب الأرباب ، وإله الآلهة . ومنهم من جعل الشمس إله الآلهة ورب الأرباب ، فكانوا يتقربون إلى الهياكل ، تقرباً إلى الروحانيات -يعني الملائكة- ويتقربون إلى الروحانيات ، تقرباً إلى البارئ تعالى ، لاعتقادهم بأن لكل روحاني هيكلاً ، ولكل هيكل فلكاً ، فالهياكل أبدان الروحانيات ، ونسبتها إلى الروحانيات نسبة أجسادنا إلى أرواحنا فهم الأحياء الناطقون بحياة الروحانيات ، وهي أربابها ومدبراتها ، تتصرف في أبدانها تدبيراً وتصريفاً وتحريكاً ، كما يتصرف في أبداننا . ولا شك أن من تقرب إلى شخص فقد تقرب

إلى روحه . ثم استخرجوا من عجائب الحيل المرتبة على عمل الكواكب ما كان يقضي منهم العجب . وهذه الطلسمات المذكورة في الكتب والسحر والكهانة والتختيم والتعزيم والخواتيم والصور ، كلها من علومهم . وأما أصحاب الأشخاص فقالوا : إذا كان لا بد من متوسط يتوسل به ، وشفيع يتشفع إليه ، والروحانيات وإن كانت هي الوسائل ، لكنا إذا لم نرها بالأبصار ، ولم نخاطبها بالألسن ، لم يتحقق القرب إليها إلا بهياكلها ، ولكن الهياكل قد ترى في وقت ، ولا ترى في وقت ، لأن لها طلوعاً وأفولاً ، وظهوراً بالليل ، وخفاء بالنهار ، فلم يصف لنا التقرب بها ، والتوجه إليها ، فلا بد لنا من صور وأشخاص موجودة قائمة منصوبة نصب أعيننا ، فنعكف عليها ، ونتوسل بها إلى الهياكل ، فنتقرب بها إلى الروحانيات ، ونتقرب بالروحانيات إلى الله تعالى ، فنعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ، فاتخذوا أصناماً أشخاصاً على مثال الهياكل السبعة ، كل شخص في مقابلة هيكل ، وراعوا في ذلك جوهر الهيكل ، أعني الجوهر الخاص به من الحديد وغيره ، وصوروه بصورته على الهيئة التي تصدر أفعاله عنه ، وراعوا في ذلك الزمانَ والوقتَ

والساعة والدرجة والدقيقة وجميع الإضافات النجومية ، من اتصال محمود يؤثر في نجاح المطالب التي تستدعي منه ، فتقربوا إليه في يومه وساعته ، وتبخّروا بالبخور الخاص به وتختموا بخاتمه ، ولبسوا ثيابه ، وتضرعوا بدعائه ، وعزموا بعزائمه ، وسألوا حاجتهم منه ، فيقولون كان تقضى حوائجهم بعد رعاية هذه الإضافات كلها ، وذلك هو الذي أخبر التنزيل عنه أنهم عَبْدة الكواكب والأوثان ، فأصحاب الهياكل هم عَبْدة الكواكب ، إذ قالوا بإلهيتها – كما شرحنا – وأصحاب الأشخاص هم عَبْدة الأوثان ، إذ سموها آلهة في مقابل آلهة أولئك السماوية ، وقالوا : ﴿ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّه ﴾ [ يونس : 18 ] .

وقد ناظر الخليل عليه الصلاة والسلام هذين الفريقين ، فابتدأ بكسر مذهب أصحاب الأشخاص ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ . وتلك الحجة أن كسرهم قولاً بقوله : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ . ولما كان أبوه آزر هو أعلم القوم . بعمل الأشخاص والأصنام ورعاية الإضافات النجومية فيها حق الرعاية ، ولهذا كانوا يشترون منه الأصنام ، لا من غيره ، كان أكثر الحجج معه ، وأقوى الإلزامات عليه : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ وقال : ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً ﴾ [ مريم : 42 ] . لأنك جهدت كل الجهد ، واستعملت كل العلم ، حتى عملت أصناماً في مقابلة الأجرام السماوية فما بلغت

قوتك العلمية والعملية إلى أن تحدث فيها سمعاً وبصراً ، وأن تغني عنك وتضر وتنفع ، وإنك بفطرتك وخلقتك أشرف درجة منها ، لأنك خلقت سميعاً بصيراً ضاراً

*(18/238)*

---

نافعاً ، والآثار السماوية فيك أظهر منها في هذا المتخذ تكلفاً ، والمعمول تصنعاً ، فيا لها من حيرة ، إذ صار المصنوع بيديك معبوداً لك ، والصانع أشرف من المصنوع ﴿ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ ﴾ : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ [ مريم 44 - 46 ] . لم يقبل حجته القولية . فعدل عليه الصلاة والسلام إلى الكسر بالفعل ، فجعلهم جذاذاً ، إلا كبيراً لهم : ﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [ الأنبياء : 59 ] ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ [ الأنبياء : 63 - 65 ] . فأفحمهم بالفعل حيث أحال الفعل على كبيرهم ، كما أفحمهم بالقول ، حيث أحال الفعل منهم ، وكل ذلك على طريق الإلزام عليهم ، وإلا فما كان الخليل كاذباً قط ، ثم عدل إلى كسر مذاهب أصحاب الهياكل كما أراه الله تعالى الحجة على قومه ، قال : ﴿

وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ فأطلعه على ملكوت الكونين والعالمين تشريفاً له على الروحانيات وهياكلها ، وترجيحاً لمذهب الحنفاء على مذهب الصابئة ، وتقريراً أن الكمال في الرجال ، فأقبل على إبطال مذهب أصحاب الهياكل : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ على ميزان إلزامه على أصحاب الأصنام : ﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾ وإلا فما كان الخليل كاذباً في هذا القول ، ولا مشركاً في تلك الإشارة ، ثم استدل بالأفول والزوال

(19/238)

---

والتغير والانتقال ، بأنه لا يصلح أن يكون ربّاً إلهاً ، فإن الإله القديم لا يتغير ، وإذا تغير فاحتاج إلى مغير ، وهذا لو اعتقدتموه ربّاً قديماً وإلهاً أزلياً ، ولو اعتقدتموه واسطة وقبلة وشفيعاً ووسيلة ، فالأفول والزوال أيضاً ، يخرجه عن الكمال . وعن هذا ما استدل عليه بالطلوع ، وإن كان الطلوع أقرب إلى الحدوث من الأفول ، فإنهم إنما انتقلوا إلى الأشخاص ، لما عراهم من التحير بالأفول ، فأتاهم الخليل عليه الصلاة والسلام من حيث تحيرهم ، فاستدل عليهم بما اعترفوا بصحته ، وذلك أبلغ في الاحتجاج . ثم : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ . فيا عجباً

! من لا يعرف رباً كيف يقول : ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ ؟ رؤية الهداية من الرب تعالى غاية التوحيد ، ونهاية المعرفة ، والواصل إلى الغاية والنهاية ، كيف يكون في مدارج البداية ؟ دع هذا كله خلف قاف ، وارجع بنا إلى ما هو شاف كاف .

فإن الموافقة في العبارة على طريق الإلزام على الخصم من أبلغ الحجج ، وأوضح المناهج .

وعن هذا قال : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ ﴾ لاعتقاد القوم أن الشمس ملك الفلك ، وهو رب الأرباب الذي يقتبسون منه الأنوار ، ويقبلون منه الآثار : ﴿ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ، قرر مذهب الحنفاء ، وأبطل مذهب الصابئة ، وبين أن الفطرة هي الحنيفية ، وأن الطهارة فيها ، وأن الشهادة بالتوحيد مقصورة عليها ، وأن الأنبياء والرسل مبعوثة لتقريرها وتقديرها ، وأن الفاتحة والخاتمة ، والمبدأ والكمال ، منوطة

*(20/238)*

---

بتلخيصها وتحريرها . ذلك الدين القيم ، والصراط المستقيم ، والمنهج الواضح ، والمسلك اللائح . انتهى كلام الشهرستاني رحمه الله تعالى . وإنما نقلت كلامه برمته ، لأنه كما قيل :

~وما محاسن شيء كلُّهُ حَسَنُ

وقد قدّم رحمه الله الكلام على أصحاب الروحانيات الصابئة ، وأتبعها بمناظرة بديعة جرت بينهم وبين الحنفاء ، بما تفيد مراجعته فائدة كبرى . فجزاه الله خيراً .

الثاني – تبين مما ذكره الشهرستاني أن سر احتجاج الخليل عليه الصلاة والسلام بالأفول دون البزوغ ، مع كون كل منهما منافياً لاستحقاق معروضه للربوبية – هو إتيانهم من حيث تحيرهم ، إلزاماً لهم بما يعترفون بصحته .

وقال أبو السعود : لما كان البزوغ حالة موجبة لظهور الآثار والأحكام ، ملائمة لتوهم الاستحقاق في الجملة –عدل عنه إلى الأفول ، لأنه حالة مقتضية لانطماس الآثار ، وبطلان الأحكام المنافيَيْن للاستحقاق المذكور منافاة بينة ، يكاد يعترف بها كل مكابر عنيد . انتهى . وهو لطيف إلا أن الأول أسدّ .

الثالث – لو قيل : إن الأفول ، لما كان يمنع من استحقاق معروضه لصفة الربوبية على ما ذكرنا ، وقد ثبت ذكر في أكبر الكواكب – ( أعني الشمس ) –فلزم ثبوته فيما دونها بالأولى – فهلا اقتصر على أفول الشمس رعاية للإيجاز والاختصار ؟ أجيب : بأن الأخذ من الأدنى فالأدنى ، إلى الأعلى ، له نوع تأثير في التقرير والبيان والتأكيد ، لا يحصل من غيره ، فكان سوق الاستدلال على هذا الوجه أولى –أفاده الرازي – .

الرابع –قال الرازي : تدل هذه الآية على أن الدين يجب أن يكون مبنيّاً على الدليل ، لا على

التقليد ، وإلا لم يكن لهذا الاستدلال فائدة ألبتة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 411.418 ﴾

(21/238)

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79) ﴾

والسموات والأرض هما المظهر الأول للكون الذي طرأ عليه الإنسان ؛ لأن الكون طرأ عليه الإنسان – الخليفة في الأرض – ووجد كل الخيرات والمسخرات ، ولذلك يوضح الحق سبحانه وتعالى : إياكم أن تقولوا إني خلقتكم فقط ، بل خلقت لكم الكون . ﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ [ غافر : 57 ]

ويقدم سيدنا إبراهيم برهانه لقومه ، إنه يعبد الله وحده الذي خلق السموات والأرض ، رافضاً كل فساد في الكون ، ويتمثل هذا في قوله : ﴿ حَنِيفاً ﴾ ، و" الحنف " في اللغة هو ميل القدمين ، ونجد القدم مقوسة إلى الخارج . وهذا يعني أنه لا يسير على طريق الفساد الموجود في الكون ؛ لأن السماء تتدخل بالرسالات حين يطم الفساد في الأرض ، وحين يأتي

الرسول مائلاً عن الفساد فهو يسير معتدلاً ؛ لأن الميل عن الفساد اعتدال واستقامة . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(22/238)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ﴾ قال : الشمس والقمر والنجوم .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ﴾ قال : كشف ما بين السموات والأرض حتى نظر إليهن على

صخرة ، والصخرة على حوت ، وهو الحوت الذي منه طعام الناس ، والحوت في سلسلة والسلسلة في خاتم العزة .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ ملكوت السماوات والأرض ﴾ قال : ملك السموات والأرض قال : سلطانهما .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ﴾ قال : إنما هو ملك السموات والأرض ، ولكنه بلسان النبطية ملكوثا .

وأخرج آدم بن أبي اياس وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في الأسماء والصفات عن مجاهد في قوله ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ﴾ قال : آيات فرجت له السموات السبع ، فنظر إلى ما فيهن حتى انتهى بصره إلى العرش ، وفرجت له الأرضون السبع فنظر إلى ما فيهن .

*(23/238)*

---

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ﴾ قال : قام على صخرة ففرجت له السموات السبع

حتى ننظر إلى العرش وإلى منزله من الجنة ، ثم فرجت له الأرضون السبع حتى نظر إلى الصخرة التي عليها الأرضون ، كذلك قوله ﴿ وآتيناه أجره في الدنيا ﴾ [ العنكبوت : 27 ] .

وأخرج أحمد وابن جرير وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن عبد الرحمن بن عائش الحضرمي عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : رأيت ربي في أحسن صورة فقال : فيم يختصم الملأ الأعلى يا محمد ؟ قال : قلت أنت أعلم أي رب . . . ! قال : فوضع يده بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي . قال : فعلمت ما في السموات والأرض ، ثم تلا هذه الآية ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين ﴾ ثم قال : يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قال : قلت : في الدرجات والكفارات قال : وما الكفارات ؟ قلت : نقل الأقدام إلى الجماعات ، والمجالس في المساجد خلاف الصلوات ، وإبلاغ الوضوء أماكنه في المكروه ، فمن يفعل ذلك يعش بخير ويمت بخير ، ويكن من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمه ، وأما الدرجات فبذل السلام ، وإطعام الطعام ، والصلاة بالليل والناس نيام ، قال : قل اللهم إني أسألك الطيبات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وأن تغفر لي وترحمني ، وإذا أردت فتنة في قوم فتوفني غير مفتون . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تعلموهن فإنهن حق

" .

وأخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(24/238)

---

" لما رأى إبراهيم ملكوت السموات والأرض أشرف على رجل على معصية من معاصي الله فدعا عليه فهلك ، ثم أشرف على آخر على معصية من معاصي الله فدعا فهلك ، ثم أشرف على آخر فذهب يدعو عليه ، فأوحى الله إليه : أن يا إبراهيم أنك رجل مستجاب الدعوة فلا تدع على عبادي ، فإنهم مني على ثلاث : إما أن يتوب فأتوب عليه ، وإما أن أخرج من صلبه نسمة تملأ الأرض بالتسبيح ، وإما أن أقبضه إلي فإن شئت عفوت وإن شئت عاقبت " .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن عطاء قال : لما رفع إبراهيم إلى ملكوت السموات أشرف على عبد يزني فدعا عليه فأهلك ، ثم رفع أيضاً فأشرف على عبد يزني فدعا عليه فأهلك ، ثم رفع أيضاً فأشرف على عبد يزني ، فأراد أن يدعو عليه فقال له ربه : على رسلك يا إبراهيم ، فإنك عبد مستجاب لك ، وإني من عبدي على إحدى ثلاث خلال : إما أن يتوب إلي فأتوب عليه ، وإما أن أخرج منه ذرية طيبة ، وإما أن يتمادى فيما

هو فيه فأنا من ورائه .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن شهر بن حوشب في قوله ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ﴾ قال : رفع إبراهيم إلى السماء فنظر أسفل منه ، فرأى رجلاً على فاحشة فدعا فخسف به حتى دعا على سبعة كلهم يخسف به ، فنودي يا إبراهيم رفه عن عبادي ثلاث مرار إني من عبدي بين ثلاث ، اما أن يتوب فأتوب عليه ، وإما أن استخرج من صلبه ذرية مؤمنة ، وإما أن يكفر فحسبه جهنم .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الشعب من طريق شهر بن حوشب عن معاذ بن جبل عن النبي صلى الله وعليه وسلم قال " لما رأى إبراهيم ملكوت السموات والأرض أبصر عبداً على خطيئة فدعا عليه ، ثم أبصر عبداً على خطيئة فدعا عليه ، فأوحى الله إليه : يا إبراهيم إنك عبد مستجاب الدعوة فلا تدع على أحد فإني من عبدي على ثلاث : إما أن أخرج من صلبه ذرية تعبدني ، وإما أن يتوب في آخر عمره فأتوب عليه ، وإما أن يتولى فإن جهنم من ورائه " .

*(25/238)*

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وأبو الشيخ عن سلمان الفارسي قال : لما رأى إبراهيم ملكوت السموات والأرض رأى رجلاً على فاحشة فدعا عليه فهلك ، ثم رأى آخر على فاحشة فدعا عليه فهلك ، ثم رأى آخر على فاحشة فدعا عليه ، فأوحى الله إليه : أن يا إبراهيم مهلاً فإنك رجل مستجاب لك ، وإني من عبدي على ثلاث خصال : إما أن يتوب قبل الموت فأتوب عليه ، وإما أن أخرج من صلبه ذرية يذكروني ، وإما أن يتولى فجهنم من ورائه .

وأخرج البيهقي في الشعب عن عطاء قال : لما رفع إبراهيم في ملكوت السموات رأى رجلاً يزني فدعا عليه فهلك ، ثم رفع فرأى رجلاً يزني فدعا عليه فهلك ، ثم رفع فرأى رجلاً يزني فدعا فهلك ، ثم رأى رجلاً يزني فدعا فهلك . فقيل : على رسلك يا إبراهيم إنك عبد مستجاب لك ، وإني من عبدي على ثلاث : إما أن يتوب إلي فأتوب عليه ، وإما أن أخرج منه ذرية طيبة تعبدني ، وإما أن يتمادى فيما هو فيه فإن جهنم من ورائه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ﴾ قال : يعني خلق السموات والأرض ﴿ وليكون من الموقنين ﴾ فإنه جلا له الأمر سره وعلانيته ، فلم يخف عليه شيء من أعمال الخلائق ، فلما جعل يلعن أصحاب الذنوب قال الله : إنك لا تستطيع هذا ، فرده الله كما كان قبل ذلك .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في الآية قال : ذكر لنا أن إبراهيم عليه السلام فر به من جبار مترف ، فجعل في سرب وجعل زرقه في أطرافه ، فجعل لا يمص أصبعاً من أصابعه إلا جعل الله له فيها رزقاً ، فلما خرج من ذلك السرب أراه الله ملكوت السموات والأرض ، وأراه شمساً وقمراً ونجوماً وسحاباً وخلقاً عظيماً ، وأراه ملكوت الأرض فرأى جبالاً وبحوراً وأنهاراً وشجراً ومن كل الدواب وخلقاً عظيماً ﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكباً ﴾ ذكر لنا أن الكوكب الذي رأى الزهرة طلعت عشاء ﴿ قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين ﴾ علم أن ربه دائم لا يزول ﴿ فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي ﴾ رأى خلقاً أكبر من الخلق الأوّل ﴿ فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الظالمين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ﴾ أي أكبر خلقاً من الخلقين الأوّلين . وأبهى وأنور .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : كان من شأن إبراهيم عليه السلام أن أول ملك ملك في الأرض شرقها وغربها نمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح ، وكانت الملوك الذين ملكوا الأرض كلها أربعة : بن كنعان وسليمان بن داود ، وذو القرنين ، وبختنصر . مسلمين وكافرين ، وإنه طلع كوكب على نمورد ، ذهب بضوء الشمس والقمر ففزع من ذلك ، فدعا السحرة والكهنة والقافة والحازة فسألهم عن ذلك ! فقالوا : يخرج من ملكك رجل يكون

على وجهه هلاكك وهلاك ملكك ، وكان مسكنه ببابل الكوفة فخرج من قريته إلى قرية أخرى ، وأخرج الرجال وترك النساء ، وأمر أن لا يولد مولود ذكر إلا ذبحه فذبح أولادهم . ثم إنه بدت له حاجة في المدينة لم يأمن عليها إلا آزر أبا إبراهيم ، فدعاه فأرسله فقال له : أنظر لا تواقع أهلك .

*(27/238)*

---

فقال له آزر أنا أضنُّ بديني من ذلك ، فلما دخل القرية نظر إلى أهله فلم يملك نفسه إن وقع عليها ، ففر بها إلى قرية بين الكوفة والبصرة يقال لها ادر فجعلها في سرب ، فكان يتعهدها بالطعام وما يصلحها ، وإن الملك لما طال عليه الأمر قال : قول سحرة كذابين ارجعوا إلى بلدكم ، فرجعوا وولد إبراهيم فكان في كل يوم يمر به كأنه جمعة والجمعة كالشهر من سرعة شبابه ، ونسي الملك ذاك وكبر إبراهيم ولا يرى أن أحداً من الخلق غيره وغير أبيه وأمه ، فقال أبو إبراهيم لأصحابه : إن لي ابناً وقد خبأته فتخافون عليه الملك ان أنا جئت به ؟ قالوا : لا فائت به . فانطلق فأخرجه ، فلما خرج الغلام من السرب نظر إلى الدواب والبهائم والخلق ، فجعل يسأل أباه فيقول : ما هذا ؟ فيخبره عن البعير أنه بعير ، وعن البقرة أنها بقرة ، وعن الفرس أنها فرس ، وعن الشاة أنها شاة . فقال : ما لهؤلاء بد من أن يكون لهم رب .

وكان خروجه حين خرج من السرب بعد غروب الشمس ، فرفع رأسه إلى السماء فإذا هو بالكوكب وهو المشتري ، فقال : هذا ربي . فلم يلبث أن غاب قال : لا أحب رباً يغيب . قال ابن عباس : وخرج في آخر الشهر فلذلك لم ير القمر قبل الكوكب ، فلما كان آخر الليل رأى القمر بازغاً قد طلع قال : هذا ربي . فلما أفل يقول غاب ﴿ قال : لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ﴾ فلما أصبح رأى الشمس بازغة ﴿ قال : هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون ﴾ قال الله له : اسلم . قال : أسلمت لرب العالمين .

*(28/238)*

---

فجعل إبراهيم يدعو قومه وينذرهم ، وكان أبوه يصنع الأصنام فيعطيها أولاده فيبيعونها ، وكان يعطيه فينادي من يشتري ما يضره ولا ينفعه ، فيرجع إخوته وقد باعوا أصنامهم ، ويرجع إبراهيم بأصنامه كما هي ، ثم دعا أباه فقال ﴿ يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ﴾ [ مريم : 42 ] ثم رجع إبراهيم إلى بيت الآلهة فإذا هن في بهو عظيم مستقبل باب البهو صنم عظيم ، إلى جنبه أصغر منه بعضها إلى جنب بعض ، كل صنم يليه أصغر منه حتى بلغوا باب البهو ، وإذا هم قد جعلوا طعاماً بين يدي الآلهة وقالوا

: إذا كان حين نرجع رجعنا وقد برحت الآلهة من طعامنا فأكلنا ، فلما نظر إليهم إبراهيم وإلى ما بين أيديهم من الطعام قال : ألا تأكلون ؟ فلما لم تجبه قال : ما لكم لا تنطقون ؟ ثم إن إبراهيم أتى قومه فدعاهم ، فجعل يدعو قومه وينذرهم ، فحبسوه في بيت وجمعوا له الحطب حتى أن المرأة لتمرض فتقول : لئن عافاني الله لأجمعن لإبراهيم حطباً ، فلما جمعوا له وأكثروا من الحطب ، حتى إن كان الطير ليمر بها فيحترق من شدة وهجها وحرها ، فعمدوا إليه فرفعوه إلى رأس البنيان ، فرفع إبراهيم رأسه إلى السماء فقالت السماء والأرض والجبال والملائكة : ربنا إبراهيم يحرق فيك .

*(29/238)*

---

قال أنا أعلم به ، فإن دعاكم فأغيثوه . وقال إبراهيم حين رفع رأسه إلى السماء : اللهم أنت الواحد في السماء وأنا الواحد في الأرض ، ليس أحد يعبدك غيري ، حسبي الله ونعم الوكيل . فقذفوه في النار ، فناداها فقال ﴿ يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾ [ الأنبياء : 69 ] وكان جبريل هو الذي ناداها . فقال ابن عباس : لو لم يتبع برداً سلاماً لمات إبراهيم من بردها ، ولم يبق يومئذ في الأرض نار إلا طفئت ظنت أنها هي تعنى ، فلما طفئت النار نظروا إلى إبراهيم ، فإذا هو ورجل آخر معه ورأس إبراهيم في حجره يمسح

عن وجهه العرق ، وذكر أن ذلك الرجل ملك الظل ، فأنزل الله ناراً فانتفع بها بنو آدم ، وأخرجوا إبراهيم فأدخلوه على الملك ولم يكن قبل ذلك دخل عليه فكلمه .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن السدي في قوله ﴿ رأى كوكباً ﴾ قال : هو المشتري ، وهو الذي يطلع نحو القبلة عن المغرب .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن زيد بن علي في قوله ﴿ رأى كوكباً ﴾ قال : الزهرة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ فلما أفل ﴾ أي ذهب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ قال : الزائلين .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله ﴿ فلما أفلت ﴾ قال : فلما زالت الشمس عن كبد السماء . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت كعب بن مالك الأنصاري وهو يرثي النبي صلى الله عليه وسلم ويقول :

فتغير القمر المنير لفقده . . . والشمس قد كسفت وكادت تأفل

قال : أخبرني عن قوله عز وجل ﴿ حنيفاً ﴾ قال : ديناً مخلصاً . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت حمزة بن عبد المطلب وهو يقول :

حمدت الله حين هدى فؤادي . . . إلى الإسلام والدين الحنيف

وقال : أيضاً رجل من العرب يذكر بني عبد المطلب وفضلهم :

أقيموا لنا دينا حنيفاً فانتمو . . . لنا غاية قد نهتدي بالذوائب

(30/238)

---

وأخرج أبو الشيخ عن عطاء في قوله ﴿ حنيفاً ﴾ قال : مخلصاً .

وأخرج مسلم والنسائي وابن مردويه عن عياض بن حمار المجاشعي " أنه شهد خطبة النبي صلى الله عليه وسلم فسمعه يقول : إن الله أمرني أن أعلمكم ما جهلتم من دينكم مما علمني يومي هذا ، إن كل مال نحلته عبداً فهو له حلال ، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنه أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً " .

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن مردويه والبيهقي في سننه عن علي " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا استفتح الصلاة كبر ثم قال : وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين " .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

---

لطيفة

قال فى البحر المديد :

الإشارة : لَمَّا كوشف إبراهيم بعالم الملكوت ، رأى الله في الأشياء كلها ، كما ورد في بعض الأثر : ( ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله فيه ) . وإنما قال : ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ ؛ حذرًا من الوقوف مع الحس دون شهود المعنى ، إذ بحر المعاني متصل دائم ليس فيه تغيير ولا انتقال . وإنما تتغير الأواني دون المعاني ، فشمس المعاني مشرقة على الدوام ليس لها مغيب ولا تغير ولا انتقال ، ولذلك قيل :

طَلَعت شَمسُ مَن أُحِبُ بلَيلٍ . . . واستَنَارَت فمَا تَلاها غُرُوبُ

إنَّ شَمسَ النَّهَارِ تَغرُبُ باللَّيلِ . . . وشَمسُ القُلوبِ ليس لهَا مَغِيبُ

أي : طلعت شمس نهار عرفانهم على ليل وجودهم ، فامتحت ظلمة وجودهم في شهود محبوبهم ، وفي الحِكَم : " أنا الظواهر بأنوار آثاره ، وأنار السرائر بأنوار أوصافه ، لأجل ذلك أفَلَت أنوار الظواهر ، ولم تأفل أنوار القلوب والسرائر " .

قال الجَوزِي : لما بدا لإبراهيم نجم العلم ، وطلع قمر التوحيد ، وأشرقت شمس المعرفة قال

: ﴿ إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي . . . ﴾ الآية . انتهى انتهى . ا هـ قيل : لما نظر إبراهيم عليه السلام بعيون رأسه إلى نور النجم والشمس والقمر الحسي ، نودي في سره : يا إبراهيم ، لا تنظر ببصرك إلى الجهة الحسية ، وانظر ببصيرتك إلى الحقيقة المعنوية ؛ لأن الوجود كله عين الأحدية ، فافهم معاني الأسماء ، ولا تقف مع جرم الأرض والسماء ، فإن الوقوف مع الحس حجاب عن المعنى . فقال إبراهيم : ﴿ إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ وفي ذلك يقول التستري أيضاً :

لا تنظُر إلَى الأوَاني . . . وَخُض بَحرَ المعَانِي . . . لَعَّلَكَ تَرَانِي . . . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المديد حـ 2 صـ 137 ﴾

(32/238)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

فتح الباء من وجهي نافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم ، والباقون تركوا هذا الفتح .

قوله : " لِلَّذي فَطَرَ " قدروا قبله مُضافاً ؛ أي : وجهت وَجْهِي لعبادته كما تقدم و " حنيفاً "

حال من فاعل " وجَّهْتُ " .

وقد تقدَّم تفسير هذه الألفاظ ، و" ما " يحتمل أن تكون الحجازية ، وأن تكون التميمية .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 251 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79) ﴾

أفردتُ قصدي لله ، وطهَّرت عقدي عن غير الله ، وحفظت عهدي في الله لله ، وخلصت وجدي بالله ، فإني لله وبالله ، بل محو في الله والله لله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 485 ﴾

*(33/238)*

---

فصل

قال العلامة الشهرستانى فى الملل والنحل عند ترجمته لأصحاب الهياكل والأشخاص :

وهؤلاء من فرق الصابئة . وقد أدرجنا مقالتهم المناظرات جملة . ونذكرها ههنا تفصيلاً .

أصحاب الهياكل أعلم أن أصحاب الروحانيات لما عرفوا أن لا بد للإنسان من متوسط ، ولا بد للمتوسط من أن يرى ؛ فيتوجه إليه ، ويتقرب به ، ويستفاد منه . . . فزعوا إلى الهياكل التي هي السيارات السبع ؛ فتعرفوا أولاً بيوتها ومنازلها ، وثانياً مطالعها ومغاربها ، وثالثاً اتصالاتها على أشكال الموافقة والمخالفة مرتبة على طبائعها ، ورابعاً تقسيم الأيام والليالي والساعات عليها ، وخامساً تقدير الصور والأشخاص والأقاليم والأمصار عليها .

*(34/238)*

---

فعملوا الخواتيم ، وتعلموا العزائم والدعوات ، وعينوا ليوم زحل مثلاً: يوم السبت ، وراعوا فيه ساعته الأولى وتختموا بخاتمة المعمول على صورته وهيئته وصنعته ، ولبسوا اللباس الخاص به ، وتبخروا ببخوره الخاص ، ودعوا بدعواته الخاصة به ، وسألوا حاجتهم منه: الحاجة التي تستدعي من زحل: من أفعاله وآثاره الخاصة به ؛ فكان يقضي حاجتهم ، ويحصل في الأكثر مرامهم . وكذلك رفع الحاجة التي تختص بالمشتري في يومه وساعته وجميع الإضافات التي ذكرنا إليه . وكذلك سائر الحاجات إلى الكواكب . وكانوا يسمونها : أربابا آلهة ، والله تعالى هو رب الأرباب ، وإله الآلهة . ومنهم من جعل الشمس: إله الآلهة ،

ورب الأرباب . وكانوا يتقربون إلى الهياكل تقرباً إلى الروحانيات ، ويتقربون إلى الروحانيات تقرباً إلى الباري تعالى ؛ لاعتقادهم بأن الهيام أبدان الروحانيات ، ونسبتها إلى الروحانيات نسبة أجسادنا إلى أرواحنا ، فهم الأحياء الناطقون بحياة الروحانيات ، وهي تتصرف في أبدانها : تدبيراً ، وتصريفاً ، وتحريكاً ؛ كما تتصرف في أبداننا . ولاشك أن من تقرب إلى شخص فقد تقرب إلى روحه . ثم استخرجوا من عجائب الحيل المرتبة على عمل الكواكب ما كان يقضي منهم العجب . وهذه الطلسمات المذكورة في الكتب ؛ والسحر ، والكهانة ، والتنجيم ، والتعزيم ، والخواتيم ، والصور . . . كلها من علومهم .

أصحاب الأشخاص

*(35/238)*

---

وأما أصحاب الأشخاص فقالوا : إذا كان لا بد من متوسط يتوسل به ، وشفيع يتشفع إليه ؛ والروحانيات وإن كانت هي الوسائل ، لكنا إذا لم نرها بالأبصار ، ولم نخاطبها بالألسن : لم يتحقق التقرب إليها بهياكلها . ولكن الهياكل قد ترى في وقت ، ولا ترى في وقت ؛ لأن لها طلوعاً وأفولاً ، وظهوراً بالليل وخفاءً بالنهار ؛ فلم يصف لنا التقرب بها ، والتوجه إليها . . . فلا بد لنا من صور وأشخاص موجودة قائمة منصوبة نصب أعيننا ؛ نعكف

عليها ، ونتوسل بها إلى الهياكل ؛ فنتقرب بها إلى الروحانيات ، ونتقرب بالروحانيات إلى الله سبحانه وتعالى ؛ فنعبدهم: ليقربونا إلى الله زلفى . فاتخذوا أصناماً أشخاصاً على مثال الهياكل السبعة: كل شخص في مقابلة هيكل ، وراعوا في ذلك جوهر الهيكل ؛ اعني الجوهر الخاص به ، من الحديد وغيره ، وصوروه بصورته على الهيئة التي تصدر أفعاله عنه ، وراعوا في ذلك: الزمان ، والوقت ، والساعة ، والدرجة ، والدقيقة ، وجميع الإضافات النجومية ؛ من اتصال محمود يؤثر في نجاح المطالب التي تستدعي منه . فتقربوا إليه في يومه وساعته ، وتبخروا بالبخور الخاص به ، وتختموا بخاتمه ، ولبسوا لباسه ، وتضرعوا بدعائه ، وعزموا بعزائمه ، وسألوا حاجتهم منه ؛ فيقولون: إنه كان يقضي حوائجهم بعد رعاية الإضافات كلها . وذلك هو الذي أخبر التنزيل عنهم: أنهم عبدة الكواكب والأوثان . فأصحاب الهياكل: هم عبدة الكواكب ؛ إذ قالوا بإلهيتها كما شرحنا . وأصحاب الأشخاص هم عبدة الأوثان ؛ إذ سموها آلهة في مقابلة الآلهة السماوية ، وقالوا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله .

مناظرات إبراهيم الخليل لأصحاب الهياكل وأصحاب الأشخاص ، وكسره مذاهبهما

وقد ناظر الخليل عليه السلام هؤلاء الفريقين .

(36/238)

فابتدأ بكسر مذاهب أصحاب الأشخاص وذلك قوله تعالى: " وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم " ، وتلك الحجة: أن كسرهم قولاً بقوله: " أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون " ! ولما كان أبوه آزر هو أعلم القوم بعمل الأشخاص والأصنام ، ورعاية الإضافات النجومية فيها حق الرعاية ؛ ولهذا كانوا يشترون منه الأصنام لا من غيره: كان أكثر الحجج معه ، وأقوى الإلزامات عليه ؛ إذ قال عليه السلام لأبيه آزر: أتتخذ أصناماً آلهة ؟ إني أراك وقومك في ضلال مبين ، وقال: يا أبت ! لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ؟ ؛ لأنك جهدت كل الجهد ، واستعملت كل العلم حتى عملت أصناماً في مقابلة الأجرام السماوية ، فما بلغت قوتك العلمية والعملية إلى أن تحدث فيها سمعاً وبصراً ، وأن تغني عنك ، وتضر وتنفع . وأنت بفطرتك وخلقتك أشرف درجة منها ؛ لأنك خلقت: سميعاً ، بصيراً ، نافعاً ، ضاراً ؛ والآثار السماوية فيك أظهر منها في هذا المتخذ تكلفاً والمعمول تصنعاً ، فيالها من حيرة ! إذ صار المصنوع ! : يا أبت ! لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً : يا أبت ! إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن . . . ثم دعاه إلى الحيفية الحقة ؛ قال: يا أبت ! إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك ، فاتبعني أهدك صراطاً سوياً . . . قال: أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم ؟ ! . . . فلم تقبل حجته القوية . فعدل عليه السلام عن القول إلى الكسر

للأصنام بالفعل ، فجعلهم جذاذاً غلا كبيراً لهم ؛ فقالوا : من فعل هذا بآلهتنا ؟ . . قال: بل فعله كبيرهم هذا ، فاسألوهم إن كانوا ينطقون ، فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا : إنكم أنتم الظالمون ، ثم نكثوا عن رؤوسهم ، لقد علمت ما هؤلاء ينطقون . فافحمهم بالفعل ؛ حيث أحال الفعل على كبيرهم ، كما أفحمهم بالقول ؛ حيث أحال الفعل منهم . وكل ذلك على طريق الإلزام عليهم ؛ وإلا فما كان الخليل كاذباً قط . ثم عدل إلى كسر مذاهب أصحاب

(37/238)

---

الهياكل ؛ وكما أراه الله تعالى الحجة على قومه ، قال: وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ، وليكون من الموقنين فأطلعه على ملكوت الكونين والعالمين: تشريفاً له على الروحانيات وهياكلها . وترجيحاً لمذهب الحنفاء على مذهب الصابئة ، وتقريراً : أن الكمال في الرجال ؛ فأقبل على إبطال مذهب أصحاب الهياكل: فلما جن عليه الليل رأى كوكباً ، قال: هذا ربي ، على ميزان إلزامه على أصحاب الأصنام: بل فعله كبيرهم هذا ؛ وإلا فما كان الخليل عليه السلام كاذباً في هذا القول ، ولا مشركاً في تلك الإشارة . ثم استدل بالأفول الزرال ، والتغير ، والانتقال على أنه لا يصلح أن يكون رباً إلهاً ؛ فإن الإله القديم لا يتغير ، وإذا تغير احتاج إلى مغير . . . هذا لو اعتقدتموه: رباً قديماً ، وإلهاً أزلياً ؛

ولو اعتقدتموه: واسطة ، وقبلة ، وشفيعاً ، ووسيلة ؛ فإن الأفول الزوال يخرجه أيضاً عن حد الكمال . وعن هذا ما استدل عليه بالطلوع وإن كان الطلوع أقرب إلى الحدوث من الأفول ؛ فإنهم إنما انتقلوا إلى عمل الأشخاص لما عراهم من التحير بالأفول ، فأتاهم الخليل عليه السلام من حيث تحيرهم ؛ فاستدل عليهم بما اعترفوا بصحته ، وذلك أبلغ في الاحتجاج . ثم لما رأى القمر بازغاً قال: هذا ربي ، فلما أفل قال: لأن لم يهدني ربي لأكون متن القوم الضالين ؛ فيا عجباً مما لا يعرف رباً كيف يقول: لأن لم يهدني ربي لأكون من القوم الضالين ؟ ! . . رؤية الهداية من الرب تعالى: غاية التوحيد ، ونهاية المعرفة ؛ والواصل إلى الغاية والنهاية ، كيف يكون في مدارج البداية ؟ ! .

*(38/238)*

---

دع هذا كله خلف قاف ، وارجع بنا إلى ما هو شاف كاف ؛ فإن الموافقة في العبارة على طريق الإلزام على الخصم: من أبلغ الحجج ، وأوضح المناهج ؛ وعن هذا قال لما رأى الشمس بازغة قال: هذا ربي هذا أكبر ؛ لاعتقاد القوم أن الشمس ملك الفلك ، وهو رب الأرباب: الذي يقتبسون منه الأنوار ، ويقبلون منه الآثار ؛ فلما أفلت قال: يا قوم إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً ، وما أنا من

المشركين . قرر مذهب الحنفاء ، وأبطل مذهب الصابئة ، وبين أن الفطرة هي الحنيفية ، وأن الطهارة فيها ، وأن الشهادة بالتوحيد مقصورة عليها وأن النجاة والخلاص متعلقة بها ، وأن الشرائع والأحكام مشارع ومناهج إليها ، وأن الأنبياء والرسل مبعوثون لتقريرها وتقديرها ، وأن الفاتحة والخاتمة والمبدأ والكمال منوطة بتحصيلها وتحريرها . . . ذلك: الدين القيم ، والصراط المستقيم ، والمنهج الواضح ، والمسلك اللائح ؛ قال الله تعالى لنبيه المصطفى صلى الله عليه سلم: " فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ؛ ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين: من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الملل والنحل حـ 2 صـ 49 . 54 ﴾

وعقد رحمه الله تعالى مناظرة بين الحنفاء والصابئة نذكرها كاملة لما حوته من الفوائد والفرائد واللطائف

وهذا نصها :

*(39/238)*

وقد جري مناظرات ومحاورات بين الصابئة والحنفاء في المفاضلة بين الروحاني المحض وبين البشرية النبوية . ونحن أردنا أن نوردها على شكل سؤال وجواب . وفيها فوائد لا تحصى : قالت الصابئة الروحانيات أبدعت إبداعاً ، لا من شيء : لا مادة ؛ ولا هيولى ، وهي كلها جوهر واحد ؛ على صنف واحد وجواهرها أنوار محضة لا ظلام فيها ، وهي من شدة ضيائها : لا يدركها الحس ؛ ولا ينالها البصر ، ومن غاية لطافتها : يحار فيها العقل ، ولا يجول فيها الخيال . ونوع الإنسان : مركب من العناصر الأربعة ؛ مؤلف من مادة وصورة ، والعناصر متضادة ومزدوجة بطباعها : اثنان منها مزدوجان ، واثنان مكنها متضادان . ومن التضاد يصدر الاختلاف والهرج ، ومن الازدواج يحصل الفساد والمرج . فما هو مبدع لا من شيء ؛ لا يكون كمخترع منشئ . والمادة والهيولى سنخ الشر ، ومنبع الفساد ؛ فالمركب منها ومن الصورة : كيف يكون كمحض الصورة ؟ ، والظلام : كيف يساوي النور ؟ والمحتاج إلى الازدواج ؛ والمضطر في هوة الاختلاف : كيف يرقي إلى درجة المستغني عنهما ؟ ! أجابت الحنفاء بأن قالت : بم عرفتم معاشرة الصابئة وجود هذه الروحانيات ؛ والحس ما دلكم عليه ؛ والدليل ما أرشدكم إليه ؟ . قالوا : عرفنا وجودها ، وتعرفنا أحوالها من عاذيمون ، وهرمس : شيث ، وإدريس عليهما السلام . قالت الحنفاء : لقد ناقضتم وضع مذهبكم : فإن غرضكم في ترجيح الروحاني على الجسماني نفي متوسط البشري ؛ فصار نفيكم إثباتاً . وعاد إنكاركم إقراراً . ثم من الذي يسلم أن

المبدع لا من شيء اشرف من المخترع من شيء ! ؟ بل وجانب الروحاني أمر واحد .

وجانب الجسماني أمران : أحدهما نفسه وروحه ، والثاني حسه وجسده ؛ فهو من حيث الروح مبدع بأمر الله تعالى ومن حيث الجسد مخترع بخلقه ؛ ففيه أثران : أمري وخلقي : قولي . وفعلي . . . فساوى الروحاني بجهة ، وفضله بجهة ؛ خصوصاً إذا كانت جهته الخلقية ما نقصت الجهة الأخرى : بل كملت وطهرت . وإنما الخطأ عرض

(40/238)

---

لكم من وجهين : أحدهما : أنكم فاضلتم بين الروحاني المجرد والجسماني المجرد ، فحكمتم بأن الفضل للروحاني ، وصدقتم . لكن المفاضلة بين الروحاني المجرد . والجسماني والروحاني المجتمع ؛ ولا يحكم عاقل بأن الفضل للروحاني المجرد : فإنه بطرف ساواه ، وبطرف سبقه ، والفرض فيما إذا لم يدنس بالمادة ولوازمها ، ولم تؤثر فيه أحكام التضاد والازدواج ؛ بل كان مستخدماً لها بحيث لا تنازعه في شيء يريده ويرضاه ، بل صارت معينات له على الغرض الذي لأجله : حصل التركيب ، وعطلت الوحدة والبساطة ؛ وذلك تخليص النفوس التي تدنست بالمادة ولوزمها ، وصارت العلائق عوائق . وليت شعري ! ماذا يشين اللباس الحسن الشخص الجميل ؟ ، وكيف يزري اللفظ الرائق

بالمعنى المستقيم؟ ونعم ما قيل:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه . . . فكل رداء يرتديه جميل

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها . . . فليس إلى حسن الثناء سبيل

*(41/238)*

---

هذا كمن خاير بين اللفظ المجرد والمعنى المجرد: اختار المعنى؛ قيل له: لا، بل خاير بين المعنى المجرد والعبارة والمعنى؛ حتى لا يشكل؛ إذ المعنى اللطيف في العبارة الرشيقة، أشرف من المعنى المجرد. والوجه الثاني: أنكم ما تصورتم من النبوة إلا كمالاً وتماماً فحسب، ولم يقع بصركم على أنها كمال هو مكمل غيره؛ ففاضلتم بين كمالين مطلقاً ن وما حكمتم إلا بالتساوي وترجيح جانب الروحاني! ونحن نقول: ما قولكم في كمالين: أحدهما كامل، والثاني كامل ومكمل عالماً: أيهما أفضل؟ قالت الصابئة نوع الإنسان ليس يخلو من قوتي الشهوة والغضب، وهما ينزعان إلى البهيمية والسبعية، وينازعان النفس الإنسانية إلى طباعها؛ فيثور من الشهوية: الحرص والأمل، ومن الغضبية: الكبر والحسد . . . إلى غيرهما من الأخلاق الذميمة. فكيف يماثل من هذه صفته نوع الملائكة المطهرين عنهما وعن لوازمهما ولواحقهما: صافية أوضاعهم عن النوازع الحيوانية كلها،

خالية طباعهم عن القواطع البشرية بأسرها ؛ لم يحملهم الغضب على حب الجاه ، ولا حملتهم الشهوة على حب الماء ؛ بل طباعهم مجبولة على المحبة والموافقة ، وجواهرهم مفطورة على الألفة والاتحاد ؟ ! أجابت الحنفاء بأن هذه المغالطة مثل الأولى حذو النعل بالنعل : فإن في طرف البشرية نفسين : نفس حيوانية لها قوتان : قوة الغضب ؛ وقوة الشهوة ، ونفس إنسانية لها قوتان : قوة علمية ؛ وقوة عملية . وبتينك القوتين لها أن تجمع وتمنع ، وبهاتين القوتين لها أن تقسم الأمور وتفصل الأحوال ، ثم تعرض الأقسام والأحوال على العقل . فيختار العقل الذي هو كالبصر النافذ له : من العقائد : الحق دون الباطل ، ومن الأقوال : الصدق دون الكذب ، ومن الأفعال : الخير دون الشر ؛ ويختار بقوته العملية من لوازم القوى الغضبية : الشدة ، الشجاعة ، والحمية ؛ دون الذلة ، والجبن ، والنذالة ؛ ويختار بها أيضاً من لوازم القوة الشهوية : التآلف ،

(42/238)

---

والتودد ، والبذاذة ؛ دون الشرة ، والمهانة ، والخساسة . . . فيكون من أشد الناس حمية على خصمه وعدوه ، ومن أرحم الناس تذللاً وتواضعاً لوليه وصديقه . وإذا بلغ هذا الكمال ، فقد استخدم القوتين واستعملهما في جانب الخير ، ثم يترقى منه إلى إرشاد

الخلائق في تزكية النفوس عن العلائق ، وإطلاقها عن قيد الشهوة والغضب ، وإبلاغها إلى حد الكمال . ومن المعلوم أن كل نفس شريفة عالية زكية هذه حالها ؛ لا تكون كنفس لا تنازعها قوة أخرى على خلاف طباعها ، وحكم العنين العاجز في امتناعه عن تنفيذ الشهوة ؛ لا يكون كحكم المتصوم الزاهد المتورع في إمساكه عن قضاء الوطر مع القدرة عليه ؛ فإن الأول : مضطر عاجز ، والثاني : مختار ، قادر ، حسن الاختيار . جميل التصرف . وليس الكمال والشرف في فقدان القوتين ؛ وإنما الكمال كله في استخدام القوتين . فنفس النبي عليه السلام كنفوس الروحانيين : فطرة ، ووضعاً ؛ وبذلك الوجه وقعت الشركة . وفضلها وتقدمها : باستخدام القوتين التي دونها ؛ فلم تستخدمه ، واستعمالهما : في جانب الخير والنظام ؛ فلم تستعمله ، وهو الكمال .

(43/238)

---

قالت الصابئة : الروحانيات صور مجردة عن المواد . وإن قدر لها أشخاص تتعلق بها : تصرفاً ، وتدبيراً ؛ لا ممازجة ؛ ولا مخالطة ؛ فأشخاصها نورانية أو هياكل كما ذكرنا والفرض أنها إذا كانت صوراً مجردة كانت موجودات بالفعل لا بالقوة : كاملة لا ناقصة ؛ والمتوسط يجب أن يكون كاملاً حتى يكمل غيره . وأما الموجودات البشرية فصور في مواد

، وإن قدر لها نفوس ؛ فنفوسها : إما مزاجية ، وإما خارجة عن المزاج . والفرض أنها إذا كانت صوراً في مواد ، كانت موجودات بالقوة لا بالفعل ، ناقصة لا كاملة ، والمخرج من القوة إلى الفعل يجب أن يكون أمراً بالفعل ، ويجب أن يكون غير ذات ما يحتاج إلى الخروج ؛ فإن ما بالقوة لا يخرج بذاته من القوة إلى الفعل ؛ بل بغيره . والروحانيات هي المحتاج إليها حتى تخرج الجسمانيات إلى الفعل ، والمحتاج إليه كيف يساوي المحتاج ؟ !

*(44/238)*

---

أجابت الحنفاء هذا الحكم الذي ذكرتموه – وهو كون الروحانيات موجودات بالفعل غير مسلم على الإطلاق ؛ لأن من الروحانيات ما يكون وجوده بالقوة ، أو ما هو فيه : وجود بالقوة ، ويحتاج إلى ما وجوده بالفعل ؛ حتى يخرجه من القوة إلى الفعل ؛ فإن النفس لها استعداد القبول من العقل عندكم ، والعقل له إعداد لكل شيء ، وفيض على كل شيء ، وأحدهما بالقوة والآخر بالفعل ؛ وهذا لضرورة الترتب في الموجودات العلوية ، فإن من لم يثبت الترتب فيها لم تتمشى له قاعدة عقلية أصلاً ؛ وإذا ثبت الترتب فقد ثبت الكمال في جانب ، والنقصان في جانب ؛ فليس كل روحاني كاملاً من كل وجه ، ولا كل جسماني ناقصاً من كل وجه . فمن الجسمانيات أيضاً ما وجوده كامل بالفعل ، وسائر النفوس أيضاً

محتاجة إليه ، وذلك أيضاً لضرورة الترتب في الموجودات السفلية . وإن من لم يثبت الترتب لم تستمر له قاعدة عقلية أصلاً ؛ وإذا ثبت الترتب ، فقد ثبت الكمال في جانب ، والنقصان في جانب ، فليس كل جسماني ناقصاً من كل وجه . قالت : وإذا سلمتم لنا أن هذا العالم الجسماني في مقابلة ذلك العالم الروحانين وإنما يختلفان من حيث أن ما في هذا العالم من الأعيان فهو آثار ذلك العالم وما في ذلك العالم من الصور فهو مثل هذا العالم ، والعالمان متقابلان كالشخص والظل ؛ وإذا أثبتم في ذلك العالم موجوداً ما بالفعل كاملاً تاماً ؛ حتى تصدر عنه سائر الموجودات : وجوداً ، ووصولاً إلى الكمال . . . فيجب أن تثبتوا في هذا العالم أيضاً موجوداً ما بالفعل كاملاً تاماً ؛ حتى تصدر عنه سائر الموجودات : تعلماً ، ووصولاً إلى الكمال . قالوا : وإنما طريقنا إلى التعصب للرجال ونيابة الرسل في الصورة البشرية ؛ طريقكم في إثبات الأرباب عندكم وهي الروحانيات السماوية ، وذلك احتياج كل مربوب إلى رب يدبره ، ثم احتياج الأرباب إلى رب الأرباب . ومن العجب أن عند الصابئة أكثر الروحانيات قابلة منفعلة ، وإنما الفاعل الكامل

*(45/238)*

واحد ؛ وعن هذا صار بعضهم إلى أن الملائكة إناث ، وقد اخبر التنزيل عنهم بذلك : وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمان إناثاً .

وإذا كان الفاعل الكامل المطلق واحداً ؛ فما سواه : قابل ، محتاج إلى مخرج يخرج ما فيه بالقوة إلى الفعل . . . فكذلك نقول في الموجودات السفلية : النفوس البشرية كلها قابلة للوصول إلى الكمال بالعلم والعمل ، فتحتاج إلى مخرج يخرج ما فيها بالقوة إلى الفعل ، والمخرج هو النبي والرسول . وما هو مخرج الشيء من القوة إلى الفعل لا يجوز أن يكون أمراً بالقوة ، محتاجاً ؛ فإن لم يتحقق بالفعل وجوداً : لا يخرج غيره من القول إلى الفعل ؛ فالبيض لا يخرج البيض من القوة إلى صورة الطير ، بل الطير يخرج البيضة .

وهذا الجواب يماثل الجواب الأول من وجه وفيه فائدة أخرى من وجه آخر : وهي : أن عند الحنفاء : المعقول لا يكون معقولاً حتى يثبت له مثال في المحسوس ؛ وإلا : كان متخيلاً موهوماً ، والمحسوس لا يكون محسوساً حتى يثبت له مثال في المعقول ؛ وإلا : كان سراباً معدوماً . وإذا ثبتت هذه القاعدة ؛ فمن أثبت عالماً روحانياً ، وأثبت فيه مدبراً كاملاً من جنسه : وجوده بالفعل ، وفعله إخراج الموجودات من القوة إلى الفعل بفيض الصور عليها على قدر الاستحقاق ، فيلزمه ضرورة أن يثبت عالماً جسمانياً ، ويثبت فيه مدبراً كاملاً من جنسه : وجوده بالفعل ، وفعله إخراج الموجودات من القوة إلى الفعل بفيض الصور عليها على قدر الاستحقاق . ويسمى المدبر في ذلك العالم الروح الأول على مذهب

الصابئة ، والمدبر في هذا العالم الرسول على مذهب الحنفاء . ثم يكون بين الرسول والروح مناسبة ، وملاقاة عقلية ؛ فيكون الروح الأول مصدراً ، والرسول مظهراً . ويكون بين الرسول وسائر الشر مناسبة وملاقاة حسية ؛ فيكون الرسول مؤدياً ، والبشر قابل .

*(46/238)*

---

قال الصابئة : الجسمانيات مركبة من مادة وصورة ، والمادة لها طبيعة عدمية . وإذا بحثنا عن أسباب : الشر ، والفساد ، والسفه ، والجهل : لم نجد لها سبباً سوى المادة والعدم ؛ وهما منبعا الشر . والروحانيات غير مركبة من المادة والصورة ، بل هي صور مجردة ، والصورة لها طبيعة وجودية . وإذا بحثنا عن أسباب : الخير ، والصلاح ، والحكمة ، والعلم : لم نجد لها سبباً سوى الصورة ؛ وهي منبع الخير . فنقول : ما فيه أصل الخير أو ما هو أصل الخير كيف يماثل ما فيه أصل الشر ؟ !

أجابت الحنفاء : بأن ما ذكرتم في المادة أنها سبب الشر فغير مسلم ؛ فإن من المواد ما هو سبب الصور كلها عند قوم ، وذلك هو الهيولى الأولى والعنصر الأول ؛ حتى صار كثير من قدماء الفلاسفة إلى أن وجودها قبل وجود العقل . ثم إن سلم ؛ في المركب من المادة والصورة كالمركب من الوجوب والجواز عندكم ؛ فإن الجواز له طبيعة عدمية ، وما من

وجود سوى وجود الباري تعالى إلا وجوده جائز بذاته واجب بغيره ، فيجب أن يلازمه أصل الشر .

قالوا : وإن سلم لكم أيضاً تلك المقدمة ؛ فعندنا صور النفوس البشرية وخصوصاً صور النفوس النبوية كانت موجودة قبل وجود المواد ، وهي المبادئ الأولى حتى صار كثير من الحكماء إلى إثبات أناس سرمديين ، وهي الصور المجردة التي كانت موجودة قبل العقل كالظلال حول العرش : يسبحون بحمد ربهم ، وكانت هي أصل الخير ومبدأ الوجود ؛ ولكن لما ألبست الصور البشرية لباس المادة : تشبثت بالطبيعة ، وصارت المادة شبكة لها ؛ فساح عليها الواهب الأول فبعث إليها واحداً من عالمه ، وألبسه لباس المادة ؛ ليخلص الصور عن الشبكة ، لا ليكون هو المتشبث بها ، المنغمس فيها ، المتوسخ بأوضارها ، المتدنس بآثارها . وإلى هذا المعنى أشار حكماء الهند رمزاً بالحمامة المطوقة ، والحمامات الواقعة في الشبكة .

*(47/238)*

---

ثم قالوا : معاشر الصابئة ! أبداً تشنعون علينا بالمادة ولوازمها ، وما لم نفصل القول فيها : لم ننج من تشنيعكم . فنقول : النفوس البشرية وخصوصاً النبوية من حيث أنها نفوس ، فهي

مفارقة للمادة ، مشاركة لتلك النفوس الروحانية : إما مشاركة في النوع ؛ بحيث يكون التمييز بالأعراض والأمور العرضية ، وأما مشاركة في الجنس ؛ بحيث يكون الفصل بالأمور الذاتية ، ثم زادت على تلك النفوس باقترانها بالجسد أو بالمادة . والجسد لم ينتقص منها ؛ بل كملت هي لوازم الجسد ، وكملت بها ؛ حيث استفادت من الأمور الجسدانية ما تجسدت بها في ذلك العالم : من العوم الجزئية ، والأعمال الخلقية . والروحانيات فقدت هذه الأبدان لفقدان هذا الاقتران ؛ فكان الاقتران : خيراً لا شر فيه ، وصلاحاً لا فساد معه ، ونظاماً لا فسخ له . . . فكيف يلزمنا ما ذكرتموه ؟ .

قالت الصابئة : الروحانيات : نورانية ، علوية ، لطيفة ؛ والجسمانيات : ظلمانية ، سفلية ، كثيفة ؛ فكيف يتساويان والاعتبار في الشرف والفضيلة بذوات الأشياء ، وصفاتها ، ومراكزها ، ومحالها ؟ . فعالم الروحانيات : العل لغاية النور واللطافة ، وعالم الجسمانيات : السفل لغاية الكثافة والظلمة . العالمان متقابلان ، والكمال للعلوي لا للسفلي . والصفتان متقابلتان ، والفضيلة للنور لا للظلمة .

*(48/238)*

أجابت الحنفاء : قالوا : لسنا نوافقكم أولاً : على أن الروحانيات كلها نورانية ، ولا نساعدكم ثانياً : أن الشرف للعلو ، ولا نساهلكم أصلاً : أن الاعتبار في الشرف بذوات الأشياء . وعلينا بيان هذه المقدمات الثلاث ؛ فإن فيها فوائد كثيرة : أما الأولى : فقالوا : حكمتم على الروحانيات حكم التساوي ، وما اعتبرتم فيها التضاد والترتب ، وإذا كانت الموجودات كلها روحانيها وجسمانيها على قضية التضاد والترتب ، فلما أغفلتم الحكمين ههنا ؟ ! وذلك أن من قال : الروحاني هو ما ليس بجسماني ؛ فقد أدخل جواهر الشياطين والأبالسة والأراكنة في جملة الروحانيات ، وكذلك من أثبت الجن أثبتها روحانية لا جسمانية ؛ ثم من الجن من هو مسلم ، ومنها من هو ظالم . ومن قال الروحاني هو المخلوق روحاً ، فمن الأرواح ما هو خير ، ومنها ما هو شرير ، والأرواح الخبيثة أضداد الأرواح الطيبة ؛ فلا بد إذن من إثبات تضاد بين الجنسين ، وتنافر بين الطرفين . فلم نسلم دعواكم : أنها كلها نورانية .

بلى ! وعندنا معاشر الحنفاء الروح : هو الحاصل بأمر الباري تعالى الباقي على مقتضى أمره : فمن كان لأمره تعالى أطوع ، وبرسالات رسله أصدق : كانت الروحانية فيه أكثر ، والروح عليه أغلب ؛ ومن كان لأمره تعالى أنكر ، وبشرائعه أكذب : كانت الشيطنة عليه أغلب .

هذه قاعدتنا في الروحانيات ، فلا روحاني أبلغ في الروحانية ، من ذوات الأنبياء والرسل

عليهم السلام .

وأما قولكم : إن الشرف للعلو : إن عنيتم به علو الجهة فلا شرف فيه ؛ فكم من عال جهة : سافل رتبة ، وعلماً ، وذاتاً ، وطبيعة ؛ وكم من سافل جهة : عال على الأشياء كلها رتبة ، وفضيلة ، وذاتاً ، وطبيعة .

*(49/238)*

---

وأما قولكم : إن الاعتبار في الشرف بذوات الأشياء ، وصفاتها ، ومحالها ، ومراكزها ؛ فليس بحق ، وهو مذهب اللعين الأول ؛ حيث نظر إلى ذاته ، وذات آدم عليه السلام ، ففضل ذاته ؛ إذ هي مخلوقة من النار ، وهي علوية نورانية ، على ذات آدم وهو مخلوق من الطين ، وهو سفلي ظلمائي .

بل عندنا الاعتبار في الشرف : بالأمر ، وقبوله : فمن كان أقبل لأمره ، وأطوع لحكمه ، وأرضى بقدره : فهو أشرف ؛ ومن كان على خلاف ذلك : فهو أبعد ، وأخس ، وأخبث . فأمر الباري تعالى هو الذي يعطي الروح : قل : الروح من أمر ربي ؛ وبالروح يحيا الإنسان الحياة الحقيقية ، وبالحياة يستعد للعقل الغريزي ، وبالعقل يكتسب الفضائل ويجتنب الرذائل . ومن لم يقبل أمر الباري تعالى : فلا روح له ، ولا حياة له ، ولا عقل له ، ولا

فضيلة له ، ولا شرف عنده .

قالت الصابئة : الروحانيات فضلت الجسمانيات بقوتي : العلم ، والعمل . أما العلم فلا ينكر إحاطتهم بمغيبات الأمور عنا ، وإطلاعها على مستقبل الأحوال الجارية عليه ؛ ولأن علومها كلية ، وعلوم الجسمانيات جزئية ؛ وعلومهم فعلية ، وعلوم الجسمانيات انفعالية ؛ وعلومهم فطرية ، وعلوم الجسمانيات كسبية . . . فمن هذه الوجوه : تحقق لها الشرف على الجسمانيات .

وأما العمل فلا ينكر أيضاً عكوفهم على العبادة ، ودوامهم على الطاعة : يسبحون الليل والنهار لا يفترقون لا يلحقهم كلال ولا سآمة ، ولا يرهقهم ملال ولا ندامة . فتحقق لها الشرف أيضاً بهذا الطرف ، وكان أمر الجسمانيات بالخلاف من ذلك .

أجابت الحنفاء : عن هذا بجوابين : أحدهما : التسوية بين الطرفين ، وإثبات زيادة في جانب الأنبياء عليهم السلام . والثاني ؛ بيان ثبوت الشرف في غير العلم والعمل .

*(50/238)*

---

أما الأول : فإنهم قالوا : علوم الأنبياء عليهم السلام كلية وجزئية ، وفعلية وانفعالية ، وفطرية وكسبية ؛ فمن حيث تلاحظ عقولهم عالم الغيب منصرفة عن عالم الشهادة تحصل

لهم العلوم الكلية : فطرة ودفعة واحدة ، ثم إذا لاحظوا عالم الشهادة حصلت لهم العلوم الجزئية : اكتساباً بالحواس على ترتيب وتدريج ؛ فكما أن للإنسان علوماً نظرية هي المعقولات ، وعلوماً حاصلة بالحواس عن المحسوسات ؛ فعالم المعقولات بالنسبة إلى الأنبياء كعالم المحسوسات بالنسبة إلى سائر الناس ؛ فنظرياتنا فطرية لهم ، ونظرياتهم لا نصل إليها قط ؛ بل ومحسوساتنا مكتسبة لهم ، ولنا بكواسب الجوارح : جوارح الحواس . فأمزجه الأنبياء عليهم السلام أمزجة نفسانية ، ونفوسهم نفوس عقلية ، وعقولهم عقول أمرية فطرية . ولو وقع حجاب في بعض الأوقات فذاك لموافقتنا ومشاركتنا ؛ كي تزكي هذه العقول وتصفي هذه الأذهان والنفوس ؛ وإلا فدرجاتهم وراء ما يقدر .

وأما الثاني ؛ فإنهم قالوا : من العجب أنهم لا يعجبون بهذه العلوم ؛ بل ويؤثرون التسليم على البصيرة ، والعجز على القدرة ، والتبرؤ من الحول والقوة على الاستقلال ، والفطرة على الاكتساب . . . وما أدرى ما يفعل به ولا بكم على إنما ما أوتيته على علم عندي .

ويعلمون أن الملائكة والروحانيات بأسرها وإن علمت إلى غاية قوة نظرها وإدراكها ما أحاطت بما أحاط به علم الباري تعالى ؛ بل لكل منهم : مطرح نظر ، ومسرح فكر ، ومجال العقل ، ومنتهى أمل ، ومطار وهم وخيال . . . وإنهم إلى الحد الذي انتهى نظرهم إليه مستبصرون ، ومن ذلك الحد إلى ما وراءه ما لا يتناهى مسلمون مصدقون ، وإنما كمالهم في التسليم لما لا يعلمون ، والتصديق لما يجهلون ؛ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ليس كمال

حالهم ؛ بل سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا هو الكمال .

فمن أين لكم معاشر الصابئة أن الكمال والشرف في العلم والعمل لا في التسليم والتوكل ؟ .

*(51/238)*

---

وإذا كانت غاية العلوم هذه الدرجة ؛ فجعلت نهاية أقدام الملائكة والروحانيين : بداية أقدام السالين من الأنبياء والمرسلين : قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ، فعالم الروحانيات بالنسبة إليهم شهادة ، وبالنسبة إلينا غيب ، وعالم البشر الجسمانيات بالنسبة إلينا شهادة ، وبالنسبة إليهم غيب . والله تعالى : هو الذي يعلم السر وأخفى . قالت الحنفاء : من علم أنه لا يعلم ؛ فقد أحاط بكل العلم ، ومن اعترف بالعجز عن أداء الشكر ؛ فقد أدى كل الشكر . قالت الصابئة الروحانيات : لهم قوة تصريف الأجسام ، وتقليب الأجرام ، والقوة التي لهم ليست من جنس القوى المزاجية حتى يعرض لها كلال ولغوب فتنحسر ، ولكن القوى الروحانية بالخواص الجسمانية أشبه ، وإنك لترى الخامة اللطيفة من النبات في بدء نموها تفتق الحجر ، وتشق الصخر ؛ وما ذاك إلا لقوة نباتية فاضت عليها من القوة السماوية ، ولو كانت هي قوى مزاجية : لما بلغت إلى هذا المنتهى . فالروحانيات هي التي تتصرف في الأجسام تقليباً وتصريفاً لا يثقلهم حمل الثقيل ، ولا

يستخفهم تحريك الخفيف : فالرياح تهب بتحريكها ، والسحاب يعرض ويزول بتصريفها ، وكذلك الزلازل تقع في الجبال بسبب من جهتها . . . وكل هذه وإن استندت إلى أسباب جزئية . فإنها تستند في الآخرة إلى أسباب من جهتها . ومثل هذه القوة : عديم الوجود في الجسمانيات .

أجابت الحنفاء : وقالوا : منا يقتبس : تفصيل القوى وتجنيسها . فإن القوى تنقسم إلى : قوى معدنية ، وقوى نباتية ، وقوى حيوانية ، وقوى إنسانية ، وقوى ملكية ، وقوى روحانية ، وقوى نبوية ربانية . والإنسان : مجمع القوى بجملتها ، والإنسانية النبوية : تفضلها بقوى ربانية ومعان إلهية .

فنذكر أولاً : وجه تركيب الإنسان ووجه ترتيب القوى فيه ، ثم نذكر : تركيب البشرية النبوية ؛ وترتيب القوى فيها ، ثم نخاير بين الوضعين : الروحاني منهما ؛ والجسماني ، وإليك الاختيار .

*(52/238)*

---

أما شخص الإنسان فمركب من الأركان الأربعة : التراب ، والماء ، والهواء ، والنار ؛ التي لها الطبائع الأربعة : اليبوسة ، والرطوبة ، والحرارة ، والبرودة ، ثم مركب فيه نفوس ثلاثة :

إحداها : نفس نباتية : تنمو ؛ وتتغذى ؛ وتولد المثل ، والثانية : نفس حيوانية : تحس ؛ وتتحرك بالإرادة ، والثالثة : نفس إنسانية : بها يميز ؛ ويفكر ؛ ويعبر عما يفكر . ووجود النفس الأولى : من الأركان وطباعها ؛ وبقاءها بها ؛ واستمدادها منها ، ووجود النفس الثانية : من الأفلاك وحركاتها ؛ وبقاؤها بها ؛ واستمدادها منها ، ووجود النفس الثالثة : من العقول البحتة والروحانيات الصرفة ؛ وبقاؤها بها ؛ واستمدادها منها . ثم إن النباتية تطلب الغذاء طبعاً ، والحيوانية تطلب الغذاء حساً ، والإنسانية تطلب الغذاء اختياراً وعقلاً . ولكل نفس منها محل ؛ فمحل النباتية : الكبد ، ومنه مبدأ النمو والنشوء ؛ وعن هذا جعل فيه عروق دقاق ينفذ فيها الغذاء إلى الأطراف . ومحل الحيوانية : القلب ، ومنه مبدأ تدبير الحس والحركة ؛ وعن هذا فتح منه عروق إلى الدماغ ، فيصعد إلى الدماغ من حرارته ما يعدل تلك البرودة وينزل منه من آثاره ما يدبر به الحركة . ومحل الإنسانية تصريفاً وتدبيراً : الدماغ ؛ ومنه مبدأ الفكر ، والتعبير عن الفكر ؛ وعن هذا فتحت إليه أبواب الحواس مما يلي هذا العالم ، وفتحت إليه أبواب المشاعر مما يلي ذلك العالم . وههنا ثلاثة أعضاء ممدات لا بد منها : المعدة التي تمد الكبد بالغذاء ، والرئة التي تمد القلب بترويح الهواء ، والعروق التي تمد الدماغ بالحرارة . فإن : التركيب الإنساني أشرف التراكيب ؛ فهو مجمع آثار الكونين والعالمين ؛ فكل ما هو في العالم منتشر ففيه مجتمع ، وكل ما هو فيه من خواص الاجتماع فليس للعالم البتة ؛ لأن للاجتماع والتركيب خاصية لا توجد في حال

الافتراق والانحلال . واعتبر فيه حالة السكر والخل ، وحال السكنجبين ، وكذلك الحكم في كل مزاج .

(53/238)

---

هذا وجه تركيب البدن ، وترتيب القوى الخاصة به .

وأما وجه اتصال النفس به ، وترتيب القوى الخاصة بها مما يلي هذا العالم ، ومما يلي ذلك العالم ؛ فاعلم أن النفس الإنسانية جوهر هو أصل القوى : المحركة ؛ والمدركة ؛ والحافظة للمزاج : تحرك الشخص بالإرادة ؛ لا في جهات ميله الطبيعي ، وتتصرف في أجزائه ؛ ثم في جملته ، وتحفظ مزاجه عن الانحلال ، وتدرك بالمشاعر المركوزة فيه : وهي الحواس الخمسة ؛ فبالقوة الباصرة تدرك الألوان والأشكال ، وبالقوة السامعة تدرك الأصوات والكلمات ، وبالقوة الشامة تدرك الروائح ، وبالقوة الذائقة تدرك المطعومات ، وبالقوة اللامسة تدرك الملموسات وله فروع من قوى منبثة في أعضاء البدن ؛ حتى إذا أحس بشيء من أعضائه ، أو تخيل ، أو توهم ، أو اشتهى ، أو غضب . . . ألفى العلاقة التي بينه وبين تلك الفروع هيئة فيه ، حتى يفعل ؛ وله إدراك وقوة تحريك .

أما الإدراك فهو أن يكون مثال حقيقة المدرك : متمثلاً ، مرتسماً في ذات المدرك ، غير

مباين له . ثم المثال : قد يكون مثال صورة الشيء ، وقد يرتسم في القوة الباصرة وقد غشيته غواش غريبة عن ماهيته ، لو أزيلت عنه لم تؤثر في كنه ماهيته ؛ مثل : أين ، وكيف ، ووضع ، وكم . . . معينة ، لو توهم بدلها غيرها لم يؤثر في ماهية ذلك المدرك ؛ والحس يناله من حيث هو مغمور في هذه العوارض التي تلحقه بسبب المادة : لا يجردها عنه ، ولا يناله إلا بعلاقة وضعية بين حسه ومادته .

ثم الخيال الباطن يتخيله مع تلك العوارض التي لا يقدر على تجريده المطلق عنها ، لكنه يجرده عن تلك العوائق الوضعية التي تعلق بها الحس ، فهو يتمثل صورة مع غيبوبة حاملها ، وعنده مثال العوارض ، لا نفس العوارض ، ثم الفكر العقلي يجرده عن تلك العوارض ؛ فيعرض ماهيته وحقيقته على العقل ، فيرتسم فيه مثال حقيقته ؛ حتى كأنه عمل بالمحسوس عملاً جعله معقولاً .

*(54/238)*

---

وأما ما هو بريء في ذاته عن الشوائب المادية منزه عن العوارض الغريبة ؛ فهو معقول لذاته ، ليس يحتاج إلى عمل يعمل فيه ؛ فيعقله ما من شأنه أن يعقله ؛ فلا مثال له يتمثل في العقل ، ولا ماهية له فيجرد له ، ولا وصول إليه بالإحاطة والفطرة ؛ إلا أن البرهان يدلنا عليه ويرشدنا

إليه .

وكثيراً ما يلاحظ العقل الإنساني عالم العقل الفعال فيرتسم فيه من الصور المجردة المعقولة ارتساماً بريئاً عن العوائق المادية والعوارض الغريبة ، فيبتدر الخيال إلى تمثله ، فيمثله في صورة خيالية مما يناسب عالم الحس ، فينحدر إلى الحس المشترك ذلك المثال ، فيبصره كأنه يراه معايناً مشاهداً يناجيه ويشاهده ، حتى كأن العقل عمل بالمعقول عملاً جعله محسوساً ؛ وذلك إنما يكون عند اشتغال الحواس كلها عن أشغالها ، وسكون المشاعر عن حركاتها : في النوم لجماعة . وفي اليقظة للأبرار .

يا عجباً كل العجب من تركيب على هذا النمط ! ! ومن أين لغيره مثله ؟ ؟ ونعود إلى ترتيب القوى وتعيين محالها ؛ أما القوى المتعلقة بالبدن التي ذكرناها آلات ومشاعر للجوهر الإنساني : فالأولى منها : الحس المشترك المعروف ببنطاسيا الذي هو مجمع الحواس ، ومورد المحسوسات ، وآلتها الروح المصبوب في مبادئ عصب الحس ؛ لا سيما في مقدم الدماغ .

والثانية : الخيال والمصورة . وآلتها الروح المصبوب في البطن والمقدم من الدماغ ؛ لا سيما في الجانب الأخير .

والثالثة : الوهم الذي هو لكثير من الحيوان ، وهو ما به تدرك الشاة معنى في الذئب فتنفر

منه ، وبه تدرك معنى في النوع فتنفر إليه وتزدوج به ؛ وآلته الدماغ كله ؛ لكن الأخص منه به هو التجويف الأوسط .

(55/238)

---

والرابعة : المفكرة وهي قوة لها أن تركب وتفصل ما يليها من الصور المأخوذة عن الحس المشترك والمعاني الوهمية المدركة بالوهم ؛ فتارة تجمع ، وتارة تفصل ، وتارة تلاحظ العقل فتعرض عليه ، وتارة تلاحظ الحس فتأخذ منه ؛ وسلطانها في الجزء الأول من وسط الدماغ ، وكأنها قوة ما للوهم ؛ وتتوسط بين الوهم والعقل .

والخامسة : القوة الحافظة وهي التي كالخزانة لهذه المدركات : الحسية ، والوهمية ، والخيالية دون العقلية الصرفة ؛ فإن المعقول البحت لا يرتسم في جسم ولا في قوة في جسم ، والحافظة قوة في جسم ؛ وآلتها الروح المصبوب في أول البطن المؤخر من الدماغ .

والسادسة : القوة الذاكرة ، وهي التي تستعرض ما في الخزانة على جانب العقل أو على الخيال والوهم ؛ وآلتها الروح المصبوب في آخر البطن المؤخر من الدماغ .

وأما المعقول الصرف المبرأ عن الشوائب المادية ؛ فلا يحل في قوة جسمانية وقوة جسدانية ، حتى يقال : ينقسم بانقسامها ، ويتحقق لها وضع ومثال ؛ ولهذا لم تكن القوة الحافظة ،

خزانة لها ، بل المصدر الأول الذي أفاض عليها تلك الصورة ار خازناً لها ؛ فحيثما طالعته النفس الإنسانية بقوتها العقلية المناسبة لواهب الصور نوعاً من المناسبة ، فاضت منه عليها تلك الصور المستحفظة له ؛ حتى كأنه ذكرها بعدما نسيت ، ووجدها بعدما ضلت عنه . وغريزة النفس الصافية تنزع إلى جانب القدس في تذكار الأمور الغائبة عن حضرة العقل نزاعاً طبيعياً ، فتستحضر ما غاب عنها ؛ ولهذا السر أخبر الكتاب الإلهي : " واذكر ربك إذا نسيت ، وقل عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشداً " . . . . حتى صار كثير من الحكماء إلى أن العلوم كلها تذكار ؛ وذلك أن النفوس كانت في البدء الأول في عالم التذكار ثم هبطت إلى عالم النسيان فاحتاجت إلى مذكرات لما قد نسيت ، معيدات إلى ما كانت قد ابتدأت : : وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين " ، وذكرهم بأيام الله .

*(56/238)*

---

ثم للنفس الإنسانية : قوى عقلية ، لا جسمانية ؛ وكمالات نفسانية روحانية ، لا جسدانية : فمن قواها ما لها بحسب حاجتها إلى تدبير البدن ، وهي القوة التي تختص باسم العقل العملي ؛ وذلك أن تستنبط الواجب فيما يجب أن يفعل ولا يفعل . ومن قواها ما لها بحسب حاجتها إلى تكميل جوهرها عقلاً بالفعل ، وإنما يخرج من القوة إلى الفعل بمخرج

غير ذاتها لا محالة ، فيجب أن يكون لها قوة استعدادية تسمى عقلاً هيولانياً ؛ حتى يقبل من غيرها ما به يخرجها من الاستعداد إلى الكمال . فأول خروج لها إلى الفعل حصول قوة أخرى من واهب الصور يحصل لها عند استحضار المعقولات الأول ؛ فيتهيأ بها لاكتساب الثواني : إما بالفكر أو الحدس ، فيتدرج قليلاً قليلاً إلى أن يحصل لها ما قدر لها من المعقولات ، ولكل نفس استعداد إلى حد ما لا يتعداه ؛ ولكل عقل حد ما لا يتخطاه ، فيبلغ إلى كماله المقدر له ، ويقتصر على قوته المركوزة فيه . . . ولا يتبين ههنا : وجود التضاد بين النفوس والعقول ، ووجوب الترتب فيها .

وإنما يعرف مقادير العقول ومراتب النفوس : الأنبياء والمرسلون الذين اطلعوا على الموجودات كلها : روحانياتها وجسمانياتها ، معقولاتها ومحسوساتها ، كلياتها وجزئياتها ، علوياتها وسفلياتها . . . فعرفوا مقاديرها وعينوا موازينها ومعاييرها .

وكل ما ذكرناه من القوى الإنسانية فهي حاصلة لهم ، مركبة فيهم ، منصرفة كلها عن جانب الغرور إلى جانب القدس ، مستديمة الشروق بنور الحق فيها ؛ حتى كأن كل قوة من القوى الجسدانية والنفسانية ملك روحاني : موكل بحفظ ما وجه إليه ، واستتمام ما رشح له . بل ومجموع جسده ونفسه : مجمع آثار العالمين من الروحانيات والجسمانيات ، وزيادة أمرين :

أحدهما : ما حصل له من فائدة التركيب والترتيب كما بينا من مثال السكر والخل .

والثاني : ما أشرق عليه من الأنوار القدسية : وحياً وإهاماً ، ومناجاة ، وإكراماً .

فأين للروحاني هذه الدرجة الرفيعة ، والمقام المحمود ، والكمال الموجود ؟ بل ومن أين للروحانيات كلها هذا التركيب الذي خص نوع الإنسان به ؟ وما تعلقوا به من القوة البالغة على تحريك الأجسام ، وتصريف الأجرام : فليس يقتضي شرفاً ؛ فإن ما يثبت لشيء ويثبت لضده مثله لم يتضمن شرفاً . ومن المعلوم أن الجن والشياطين قد ثبت لهم من القوة البالغة والقدرة الشاملة ما يعجز كثير من الموجودات عن ذلك ؛ وليس ذلك مما يوجب شرفاً وكمالاً . وإنما الشرف في استعمال كل قوة فيما خلقت له ، وأمرت به ، وقدرت عليه .

قالت الصابئة الروحانيات لها اختيارات صادرة من الأمر . متوجهة إلى الخير ، مقصورة على نظام العالم ، وقوام الكل ؛ لا يشوبها البتة شائبة الشر ، وشائبة الفساد ؛ بخلاف اختيار البشر ؛ فإنه متردد بين طرفي الخير والشر لولا رحمة الله في حق البعض ؛ وإلا : فوضع اختيارهم كان ينزع إلى جانب الشر والفساد ، إذا كانت الشهوة والغضب المركوزتان فيهم يجرانهم إلى جانبهما . وأما الروحانيات فلا ينازع اختيارهم إلا التوجه إلى وجه الله تعالى ، وطلب رضاه ، وامتثال أمره ؛ فلا جرم ! : كل اختيار هذا حاله لا يتعذر

عليه ما يختاره ، فكما أراد ، واختار : وجد المراد ، وحصل المختار .

وكل اختيار ذلك حاله تعذر عليه ما يختاره ؛ فلا يوجد المراد ، ولا يحصل المختار .

أجابت الحنفاء بجوابين : أحدهما نيابة عن جنس البشر ، والثاني نيابة عن الأنبياء عليهم السلام .

*(58/238)*

---

أما الأول : فنقول : اختيار الروحانيات إذا كان مقصوراً على أحد الطرفين ، محصوراً : كان في وضعه مجبوراً ، ولا شرف في الجبر . واختيار البشر تردد بين طرفي الخير والشر ؛ فمن جانب يرى آيات الرحمن ، ومن طرف يسمع وساوس الشيطان ؛ فتميل به تارة دعوة الحق إلى امتثال الأمر ، وتميل به طوراً داعية الشهوة إلى أتباع الهوى ؛ فإذا أقر طوعاً وطبعاً بوحدانية الله تعالى ، واختار من غير جبر وإكراه طاعته ، وصير اختياره المتردد بين الطرفين مجبوراً تحت أمره تعالى باختيار من جهته من غير إجبار : صار هذا الاختيار أفضل وأشرف من الاختيار المجبور فطرة . . . كالمكره فعله : كسباً ، الممنوع عما لا يجب : جبراً ؛ ومن لا شهوة له ؛ فلا يميل إلى المشتهى ؛ كيف يمدح عليه ؟ وإنما المدح كل المدح

لمن زين له المشتهى ؛ فنهى النفس عن الهوى . . . فتبين أن اختيار البشر أفضل من اختيار الروحانيات .

(59/238)

---

وأما الثاني : فنقول إن اختيار الأنبياء عليهم السلام مع ما أنه ليس من جنس اختيار البشر من وجه ؛ فهو متوجه إلى الخير ، مقصور على الصلاح الذي به نظام العالم وقوام الكل ، صادر عن الأمر ، صائر إلى الأمر ، لا يتطرق إلى اختيارهم ميل إلى الفساد ، بل ودرجتهم فوق ما يبتدر إلى الأوهام ؛ فإن العالي لا يريد أمراً لأجل سافل من حيث هو سافل بل إنما يختار ما يختار لنظام كلي ، وأمر أعلى من الجزئي ، ثم يتضمن ذلك حصول نظام في الجزئي تبعاً لا مقصوداً ، وهذا الاختيار والإرادة على جهة سنة الله تعالى في اختياره ومشيئته للكائنات ؛ لأن مشيئته تعالى كلية متعلقة بنظام الكل ، غير معللة بعلة ، حتى لا يقال : إنما اختار هذا لكذا ، وإنما فعل هذا لكذا ؛ فلكل شيء علة : ولا علة لصنعه تعالى ، بل لا يريد إلا كما علم ؛ وذلك أيضاً ليس بتعليل ؛ لكنه بيان أن إرادته أعلى من أن تتعلق بشيء لعلة دونها ؛ وإلا لكان ذلك الشيء حاملاً له على ما يريد . وخالق العلل والمعلولات لا يكون محمولاً على شيء ؛ فاختياره لا يكون معللاً بشيء . واختيار الرسول المبعوث من

جهته ينوب عن اختياره ، كما أن أمره ينوب عن أمره ؛ فيسلك سبل ربه ذللاً ، ثم يخرج من قضية اختياره نظام حال وقوام أمر مختلف ألوانه ، فيه شفاء للناس . فمن أين للروحانيات هذه المنزلة ؟ وكيف يصلون إلى هذه الدرجة ؟ كيف ! وكل ما يذكرونه ؛ فموهوم ، وكل ما يذكره النبي ؛ فمحقق : مشاهدة ، وعيان . بل وكل ما يحكى عن الروحانيات : من كمال علمهم ، وقدرتهم ، ونفوذ اختيارهم ، واستطاعتهم ؛ فإنما أخبرنا بذلك الأنبياء والمرسلون عليهم السلام . وإلا فأي دليل أرشدنا إلى ذلك ونحن لم نشاهدهم ، ولم نستدل بفعل من أفعالهم على صفاتهم وأحوالهم ؟ ؟ قالت الصابئة الروحانيون متخصصون بالهياكل العلوية ؛ مثل زحل ، والمشتري ، والمريخ ، والشمس ، والزهرة ، وعطارد ، والقمر ؛ وهذه السيارات كالأبدان والأشخاص بالنسبة إليها ،

*(60/238)*

---

وكل ما يحدث من الموجودات ، ويعرض من الحوادث ؛ فكلها مسببات هذه الأسباب ، وآثار هذه العلويات ، فيفيض على هذه العلويات من الروحانيات تصريفات وتحريكات إلى جهات الخير والنظام ، ويحصل من حركاتها واتصالاتها تركيبات وتأليفات في هذا العالم ، ويحدث في المركبات أحوال ومناسبات . . . فهم الأسباب الأول ، والكل مسبباتها ،

والمسبب لا يساوي السبب والجسمانيون متشخصون بالأشخاص السفلية ، والمتشخص كيف يماثل غير المتشخص ؟ .

وإنما يجب على الأشخاص في أفعالهم وحركاتهم اقتفاء آثار الروحانيات في أفعالها وحركاتها ؛ حتى يراعى أحوال الهياكل وحركات أفلاكها : زماناً ، ومكاناً ، وجوهراً ، وهيئة ، ولباساً ، وبخوراً ، وتعزيماً . وتنجيماً ، ودعاءً ، وحاجة . . . خاصة بكل هيكل ؛ فيكون : تقرباً إلى الهيكل تقرباً إلى الروحاني الخاص به ؛ فيكون تقرباً إلى رب الأرباب ومسبب الأسباب ؛ حتى يقضي حاجته ، ويتم مسألته .

وسيأتي تفصيل ما أجملوه من أمر الهياكل عند ذكر أصحابها إن شاء الله تعالى .

أجابت الحنفاء بأن قالوا : الآن : نزلتم عن نيابة الروحانيات الصرفة إلى نيابة هياكلها ، وتركتم مذهب الصبوة الصرفة ؛ فإن الهياكل : أشخاص الروحانيين ، والأشخاص : هياكل الربانيين ؛ غير أنكم أثبتم لكل روحاني هيكلاً خاصاً ، له فعل خاص لا يشاركه فيه غيره .

ونحن نثبت أشخاصاً رسلاً كراماً ، تقع أوضاعهم وأشخاصهم في مقابلة كل الكون : الروحاني منهم : في مقابلة الروحاني منها ، والأشخاص منهم : في مقابلة الهياكل منها ، وحركاتهم : في مقابلة حركات جميع الكواكب والأفلاك ، وشرائعهم مراعاة حركات استندت إلى تأييد إلهي ، ووحي سماوي : موزونة بميزان العدل ، مقدرة على مقادير

الكتاب الأول ؛ ليقوم الناس بالقسط ، ليست مستخرجة بالآراء المظلمة ، ولا مستنبطة بالظنون الكاذبة : إن طابقتها على المعقولات : تطابقتا ، وإن وافقتها بالمحسوسات : توافقتا .

*(61/238)*

---

كيف ونحن ندعي : أن الدين الإلهي هو الموجود الأول ، والكائنات تقدرت عليه ؛ وأن المناهج التقديرية هي الأقدم ؛ ثم المسالك الخلقية والسنن الطبيعية توجهت إليها . ولله تعالى سنتان في خلقه وأمره ، والسنة الأمرية اقدم وأسبق من السنة الخلقية ؛ وقد أطلع خواص عباده من البشر على السنتين : ولن تجد لسنة الله تحويلاً : هذا من جهة الخلق ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً : هذا من جهة الأمر .

فالأنبياء عليهم السلام : متوسطون في تقرير سنة الأمر ، والملائكة : متوسطون في تقرير سنة الخلق . والأمر أشرف من الخلق ؛ فمتوسط الأمر أشرف من متوسط الخلق ؛

فالأنبياء عليهم السلام : أفضل من الملائكة . وهذا عجب : حيث صارت الروحانيات الأمرية متوسطات في الخلق ، وصارت الأشخاص الخلقية متوسطين في الأمر . . . ؛ ليعلم : إن الشرف والكمال في التركيب لا في البساطة ، واليد للجسمائي لا للروحاني ، والتوجه

إلى التراب أولى من التوجه إلى السماء ، والسجود لآدم عليه السلام أفضل من التسبيح والتحميد والتقديس .

وليعلم : أن الكمال في إثبات الرجال ؛ لا في تعيين الهياكل والظلال ، وانهم هم الآخرون وجوداً ، السابقون فضلاً ، وأن آخر العمل أول الفكرة ، وأن الفطرة لمن له الحجة . وأن المخلوق بيديه لا يكون كالمكون بحرفيه ؛ قال عز وجل : " فوعزتي وجلالي ، لا أجعل من خلقته بيدي ، كمن قلت له : كن ، فكان " .

*(62/238)*

---

قالت الصابئة الروحانيات : مبادئ الموجودات وعالمها : معاد الأرواح . والمبادئ أشرف ذاتاً ، وأسبق وجوداً ، وأعلى رتبة ودرجة من سائر الموجودات التي حصلت بتوسطها . وكذلك عالمها ؛ عالم ، المعاد ؛ والمعاد كمال ؛ فعالمها عالم الكمال . فالمبدأ منها ، والمعاد إليها ، والمصدر عنها ، والمرجع إليها بخلاف الجسمانيات . وأيضاً ؛ فإن الأرواح إنما نزلت من عالمها حتى اتصلت بالأبدان ، فتوسخت بأوضار الأجسام ، ثم تطهرت عنها : بالأخلاق الزكية ، والأعمال المرضية ؛ حتى انفصلا عنها ، فصعدت إلى عالمها الأول . والنزول هو النشأة الأولى ، والصعود هو النشأة الآخرة . فعرف أنهم أصحاب الكمال ، لا

أشخاص الرجال .

أجابت الحنفاء قالوا : من أين تسلمتم هذا التسليم : أن المبادئ هي : الروحانيات ؟ وأي برهان أقمتم ؟ ؛ وقد نقل عن كثير من قدماء الحكماء : إن المبادئ هي : الجسمانيات ، على اختلاف منهم في الأول منها : أنه نار ، أو هواء ، أو ماء ، أو أرض ؟ واختلاف آخر : أنه مركب ، أو بسيط ؟ واختلاف آخر : أنه إنسان ، أو غيره ؟ ؛ . . حتى صارت جماعة إلى إثبات أناس سرمديين .

ثم منهم من يقول : أنهم كانوا كالظلال حول العرش ، ومنهم من يقول : إن الآخر وجوداً من حيث الشخص في هذا العالم : هو الأول وجوداً من حيث الروح في ذلك العالم . وعليه : خرج أن أول الموجودات نور محمد عليه السلام ؛ فإذا كان شخصه هو الآخر من جملة الأشخاص النبوية ، فروحه هو الأول من جملة الأرواح الربانية ، وإنما حضر هذا العالم ليخلص الأرواح المدنسة بالأوضار الطبيعية ، فيعيدها إلى مبدئها ؛ وإذا كان هو المبدأ ، فهو المعاد أيضاً . فهو النعمة وهو النعيم ، وهو الرحمة وهو الرحيم .

*(63/238)*

قالوا : ونحن إذا أثبتنا إن الكمال في التركيب ، لا في البساطة والتحليل ؛ فيجب أن يكون المعاد بالأشخاص والأجساد ، لا بالنفوس والأرواح ؛ والمعاد كمال لا محالة . غير أن الفرق بين المبدأ والمعاد هو أن الأرواح في المبدأ مستورة بالأجساد ، وأحكام الأجساد غالبة ، وأحوالها ظاهرة للحس ؛ والأجساد في المعاد مغمورة بالأرواح ، وأحكام النفوس غالبة ، وأحوالها ظاهرة للعقل ؛ وإلا : فلو كانت الأجساد تبطل رأساً ، وتضمحل أصلاً ، وتعود الأرواح إلى مبدئها الأول : ما كان الاتصال بالأبدان والعمل بالمشاركة فائدة ؛ ولبطل تقدير الثواب والعقاب على فعل العباد . ومن الدليل القاطع على ذلك : أن النفوس الإنسانية في حال اتصالها بالبدن اكتسبت أخلاقاً نفسانية صارت هيئات متمكنة فيها تمكن الملكات ، حتى قيل : أنها نزلت منزلة الفصول اللازمة التي تميزها عن غيرها ، ولولاها لبطل التمييز . وتلك الهيئات إنما حصلت بمشاركات من القوى الجسمانية ، بحيث لن يتصور وجودها إلا مع تلك المشاركة ، وتلك القوى لن تتصور إلا في أجسام مزاجية ، فإذا كانت النفوس لن تتصور إلا معها وهي المعينة المخصصة وتلك لن تتصور إلا مع الأجسام ؛ فلا بد من حشر الأجسام ، والمعاد بالأجسام .

قالت الصابئة : طريقنا في التوسل إلى حضرة القدس ظاهر ، وشرعنا معقول ؛ فإن قدماءنا من الزمان الأول لما أرادوا الوسيلة عملوا أشخاصاً في مقابلة الهياكل العلوية على نسب وإضافات ؛ راعوا فيها : جوهراً وصورة ، وعلى أوقات وأحوال وهيئات ؛ أوجبوا

على من يتقرب بها إلى ما يقابلها من العلويات : تختماً ولباساً ، وتبخراً ، ودعاء ، وتعزيماً ؛ فتقربوا إلى الروحانيات ، فتقربوا إلى رب الأرباب ومسبب الأسباب . وهو طريق متبع ، وشرع ممهد : لا يختلف بالأمصار والمدن ، ولا ينتسخ بالأدوار والأكوار . ونحن تلقينا مبدأه من عاذيمون وهرمس العظيمين ؛ فعكفنا على ذلك دائمين .

*(64/238)*

---

وأنتم معاشر الحنفاء تعصبتم للرجال ، وقلتم بأن الوحي والرسالة ينزلوا عليهم من عند الله تعالى بواسطة ، أو بغير واسطة . فما الوحي أولاً ؟ وهل يجوز أن يكلم الله بشراً ؟ وهل يكون كلامه من جنس كلامنا ؟ وكيف ينزل ملك من السماء وهو ليس بجسماني : ابصورته أم بصورة البشر ؟ وما معنى تصوره بصورة الغير : أفيخلع صورته ويلبس لباساً آخر ، أم يتبدل وضعه وحقيقته ؟ . ثم ما لبرهان أولاً على جواز انبعاث الرسل في صورة البشر ؟ وما دليل كل مدع منهم ؟ : أفنأخذ بمجرد دعواه ، أم لا بد من دليل خارق للعادة ؟ وإن أظهر ذلك : أفهو من خواص النفوس ؟ أم من خواص الأجسام ؟ أم من فعل الباري تعالى ؟ . ثم ما الكتاب الذي جاء به : أفهو كلام الباري تعالى ، وكيف يتصور في حقه كلام ؟ أم هو كلام الروحاني ؟ . ثم هذه الحدود والأحكام أكثرها غير معقولة ، فكيف

يسمح عقل الإنسان بقبول أمر لا يعقله ؟ وكيف تطاوعه نفسه بتقليد شخصه مثله ؟ أبأن يريد أن يتفضل عليه ؟ " ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين " .

أجابت الحنفاء بأن المتكلمين منا يكفوننا جواب هذا الفصل بطريقتين : أحدهما الإلزام : تعرضاً لإبطال مذهبنا . والثاني الحجة : تعرضاً لإثبات مذهبنا .

أما الإلزام ؛ فقالوا : إنكم ناقضتم مذهبكم ؛ حيث قلتم بتوسط عاذيمون وهرمس ، وأخذتم طريقتكم منهما . ومن أثبت المتوسط في إنكار المتوسط ؛ فقد تناقض كلامه ، وتخلف مرامه .

*(65/238)*

---

وزادوا هذا تقريراً : بأنكم معاشر الصابئة أيضاً متوسطون ، يحتاج إليكم في التزام مذهبكم ؛ إذ من المعلوم أن كل من دب ودرج منكم ليس يعرف طريقتكم ، ولا يقف على صنعتكم : من علم ، وعمل . أما العلم فالإحاطة بحركات الكواكب والأفلاك ، وكيفية تصرف الروحانيات فيها . وأما العمل فصنعة الأشخاص في مقابلة الهياكل على النسب بل قوم مخصوصون أو واحد في كل زمان : يحيط بذلك علماً ، ويتيسر له عملاً ؛ فقد أثبتم متوسطاً عالماً من جنس البشر ، وقد ناقض آخر كلامكم أوله .

وزادوا هذا تقريراً آخر بإلزام الشرك عليهم : إما الشرك في أفعال الباري تعالى ، وإما الشرك في أوامره .

(66/238)

---

أما الشرك في الأفعال فهو إثبات تأثيرات الهياكل والأفلاك ؛ فإن عندهم : الإبداع الخاص بالرب تعالى هو اختراع الروحانيات ثم تفويض أمور العالم العلوي إليها ، والفعل الخاص بالروحانيات هو تحريك الهياكل ثم تفويض أمور العالم السفلي إليها ؛ كمن يبني معملة ، وينصب أركاناً للعمل من : الفاعل ، والمادة ، والآلة ، والصورة ، ويفوض العمل إلى التلامذة . فهؤلاء اعتقدوا أن الروحانيات آلهة ، والهياكل أرباب ، والأصنام في مقابلة الهياكل باتخاذ وتصنع من كسبهم وفعلهم . فألزم أصحاب الأصنام : أنكم تكلفتم كل التكلف حتى توقعوا حجراً جماداً في مقابلة هيكل ، وما بلغت صنعتكم إلى إحداث : حياة فيه ، وسمع ، وبصر ، ونطق ، وكلام : " أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم ولا يضركم ؛ أف لكم ولما تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون " ؟ أو ليست النسب أوضاعكم الفطرية ، وأشخاصكم العقلية : أفضل منها وأشرف ؟ أو ليست النسب والإضافات النجومية المرعية في خلقكم : أشرف وأكمل مما راعيتموها في صنعكم ؟ : " أتعبدون ما

تنحتون ، والله خلقكم وما تعملون ؟ ! . أو لستم تحتاجون إلى المتوسط المعمول لقضاء حاجة ؟ : إما جلب نفع ، أو دفع ضر ؟ ؛ فهذا العامل الصانع أقدر ؛ إذ فيه من القوة العلمية والعملية ما يستعمل به الهياكل العلوية ويستخدم الأشخاص الروحانية ؛ فهلا ادعى لنفسه ما يثبت بفعله من جماد ؟ ! ولهذا الإلزام تفطن اللعين فرعون حيث ادعى الإلهية والربوبية لنفسه وكان في الأصل على مذهب الصابئة فصبا عن ذلك ودعا إلى نفسه ، فقال : أنا ربكم الأعلى ، ما علمت لكم من إله غيري ؛ إذ رأى في نفسه قوة الاستعمال والاستخدام ، واستظهر بوزيره هامان ، وكان صاحب الصنعة ؛ فقال : ياهامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات ، فأطلع إلى إله موسى . وكان يريد أن يبني صرحاً مثل الرصد فيبلغ به إلى حركات الأفلاك والكواكب ، وكيفية تركيبها ، وهيئآتها ، وكمية أدوارها وأكوارها

*(67/238)*

---

؛ فلربما يطلع على سر التقدير في الصنعة ، ومآل الأمر في الخلقة والفطرة . . . ومن أين له هذه القوة والبصيرة ؟ ! ولكن : اعتزاز بنوع فطنة وكياسة في جبلته ، واغترار بضرب إهمال في مهله ؛ فما تمت لهم الصنعة حتى أغرقوا فأدخلوا ناراً .

فحدث بعده السامري وقد نسج على منواله في الصنعة ، حتى أخذ قبضة من أثر الروحاني ، وأراد أن يرقى الشخص الجمادي عن درجته إلى درجة الحيواني ؛ فاخرج لهم عجلاً جسداً له خوار ، وما أمكنه أن يحدث فيه ما هو أخص أوصاف المتوسط من الكلام والهداية : ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ؟ فانحسر في الطريق . . . حتى كان من الأمر ما كان ، وقيل : لنحرقنه ، ثم لننسفنه في اليم نسفاً .

ويا عجباً من هذا السر ! ! حيث : أغرق فرعون فأدخل النار ؛ مكافئة على دعوة الإلهية لنفسه ، وأحرق العجل ثم نسف في اليم ؛ مكافئة على إثبات الإلهية له . وما كان للنار والماء على الحنفاء يد للاستيلاء : قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ؛ فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك . . . .

هذه مراتب الشرك في الفعل ، والخلق .

ويشبه أن يكون دعوى اللعينين : نمرود ، وفرعون : أنهما إلهان أرضيان كالآلهة السماوية الروحانية : دعوى الإلهية من حيث الأمر لا من حيث الفعل ، والخلق ؛ وإلا ففي زمان كل واحد منهما من هو أكبر منه سناً ، وأقدم في الوجود عليه . . . فلما ظهر من دعواهما أن الأمر كله لهما ، فقد ادعيا الإلهية لنفسها . وهذا هو الشرك الذي ألزمه المتكلم على الصابئ ؛ فإنه لما ادعى أنه أثبت في الأشخاص ما يقضي به حاجة الخلق ، فقد عاد بالتقدير إلى صنعته ، ووقف بالتدبير على معاملته ؛ فكان الأمر بأن هذا الفعل واجب

الإقدام عليه ، وهذا واجب الإحجام عنه أمراً في مقابلة أمر الباري تعالى ، والمتوسط فيه متوسط الأمر ؛ وكان شركاً ؛ إذ لم ينزل الله به سلطاناً ، ولا أقام عليه حجة وبرهاناً .

(68/238)

---

كيف ، وما يتمسك به من الأحكام مرتبة على هيئات فلكية : لم تبلغ قوة البشر قط إلى مراعاتها ؟ ولا يشك أن الفلك كله يتغير لحظة فلحظة بتغير جزء من أجزاءه تغير الوضع والهيئة ؛ بحيث لم يكن على تلك الهيئة فيما سبق ، ولا يرجع إلى تلك فيما يستقبل . ومتى يقف الحاكم على تغيرات الأوضاع حتى تكون صنعته في الأشخاص والأصنام مستقيمة ؟ ! وإذا لم تستقم الصنعة فكيف تكون الحاجة مقضية ؟ ! . . . ومن رفع الحاجة إلى من لا ترفع الحوائج إليه فقد أشرك كل الشرك .

وأما الطريق الثاني : فإقامة الحجة على إثبات المذهبين ولمتكلمي الحنفاء فيه مسلكان أحدهما أن يسلك الطريق نزولاً من أمر الباري تعالى إلى سد حاجات الخلق ، والثاني : أن يسلك الطريق صعوداً من حاجات الخلق إلى إثبات أمر الباري تعالى ؛ ثم تخرج الإشكالات عليهما .

أما الأول ؛ فقال المتكلم الحنيف : قد قامت الحجة على أن الباري تعالى : خالق الخلائق ،

ورازق العباد وأنه المالك الذي له الملك والملك . والمالك هو أن يكون له على عباده : أمر ، وتصريف ؛ وذلك أن حركات العباد قد انقسمت إلى اختيارية ، وغير اختيارية ؛ فما كان منها باختيار من جهتهم ، فيجب أن يكون له فيها : تصريف ، وتقدير . ومن المعلوم : أن ليس كل أحد يعرف حكم الباري تعالى ، وأمره ؛ فلا بد إذن من واحد يستأثره بتعريف حكمه وأمره في عباده ، وذلك الواحد يجب أن يكون من جنس البشر ، حتى يعرفهم أحكامه وأوامره ؛ ويجب أن يكون مخصوصاً من عند الله عز وجل بآيات خلقية هي حركات تصريفية وتقديرية ، يجريها الله على يده عند التحدي بما يدعيه ؛ تدل تلك الآيات على صدقه ، نازلة منزلة التصديق بالقول . ثن إذا ثبت صدقه وجب أتباعه في جميع ما يقول ويفعل ، وليس يجب الوقوف على كل ما يأمر به وينهى عنه ؛ إذ ليس كل علم تبلغ إليه قوة البشر .

*(69/238)*

---

ثم الوحي من عند العزيز يمد حركاته الفكرية ، والقولية ، والعملية : بالحق في الأفكار ، والصدق في الأقوال ، والخير في الأفعال . فبطرف يماثل البشر ؛ وهو طرف الصورة ، وبطرف يوحى إليه ؛ وهو طرف المعنى والحقيقة : " قل سبحان ربي ! هل كنت بشراً

رسولاً " ؟ فبطرف يشابه نوع الإنسان ، وبطرف يماثل نوع الملائكة ، وبمجموعهما يفضل النوعين ؛ حتى تكون بشريته فوق بشرية النوع : مزاجاً ؛ واستعداداً ، وملكيته فوق ملكية النوع الآخر : قبولاً ؛ وأداء ، فلا يضل ولا يغوي بطرف البشرية ، ولا يزيغ ولا يطغى بطرف الروحانية ؛ فيقرر أن أمر الباري تعالى واحد : لا كثرة فيه ، ولا انقسام له : " وما أمرنا إلا بواحدة " غير أنه يلبس تارة عبارة العربية ، وتارة عبارة العبرية ، والمصدر يكون واحداً ، والمظهر متعدداً .

والوحي : إلقاء الشيء بسرعة ، فيلقى الروح الأمر إليه دفعة واحدة ، بلا زمان : كلمح بالبصر ؛ فيتصور في نفسه الصافية صورة الملقى ، كما يتمثل في المرآة المجلوة صورة المقابل ؛ فيعبر عنه : غما بعبارة قد اقترنت بنفس التصور ، وذلك هو آيات الكتب ؛ أو بعبارة نفسه ، وذلك هو أخبار النبوة . . . وهذا كله بطرفه الروحاني .

وقد يتمثل الملك الروحاني له بمثال صورة البشر تمثل المعنى الواحد بالعبارات المختلفة ، أو تمثل الصورة الواحدة في المرايا المتعددة ، أو الظلال المتكثرة للشخص الواحد ؛ فيكالمه مكالمة حسية ، ويشاهده مشاهدة عينية . . . ويكون ذلك بطرفه الجسماني . وإن انقطع الوحي عنه لم ينقطع عنه التأييد والعصمة : حتى يقومه في أفكاره ، ويسدده في أقواله ، ويوفقه في أفعاله .

ولا تستبعدوا معاشر الصابئة تلقي الوحي على الوجه المذكور ، ونزول الملك على النسق المعقود ؛ وعندكم أن هرمس العظيم صعد إلى العالم الروحاني ، فانخرط في سلكهم . فإذا تصور صعود البشر ؛ فلم لا يتصور بزلل الملك ؟ ، وإذا تحقق أنه خلع لباس البشرية ؛ فلم لا يجوز أن يلبس الملك لباس البشرية ؟ . فالحنيفية : إثبات الكمال في هذا اللباس ، أعني لباس الناس . والصبوة : إثبات الكمال في خلع كل لباس . ثم لا يتطرق ذلك لهم حتى يثبتوا لباس الهياكل أولاً ، ثم لباس الأشخاص والأوثان ثانياً . ولقد قال لهم راس الحنفاء متبرئا عن الهياكل والأشخاص : إني بريء مما تشركون . غني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين .

وأما الثاني ؛ فهو الصعود من حاجة الناس إلى إثبات أمر الباري تعالى ؛ قال المتكلم الحنيف : لما كان نوع الإنسان محتاجاً إلى اجتماع على نظام . وذلك الاجتماع لن يتحقق إلا بحدود وأحكام في حركاته ومعاملاته ، يقف كل منهم عند حده المقدر له لا يتعداه ؛ وجب أن يكون بين الناس شرع يفرضه شارع يبين فيه : أحكام الله تعالى في الحركات ، وحدوده في المعاملات ؛ فيرتفع به الاختلاف والفرقة ، ويحصل به الاجتماع والألفة . وهذا الاحتياج لما كان لازماً لنوع الإنسان ضرورة ، يجب أن يكون المحتاج إليه قائماً ضرورة ؛ بحيث تكون نسبته إليه نسبة : الغني والفقير ، والمعطي والسائل ، والملك والرعية ؛ فإن الناس لو كانوا

كلهم ملوكاً لم يكن ملك أصلاً ؛ كما لو كانوا كلهم رعايا لم تكن رعية أصلاً . ثم لا يبقى ذلك الشخص ببقاء الزمان وعمره لا يساوي عمر العالم ؛ فينوب منا به علماء أمته ، ويرث علمه أمناء شريعته ؛ فتبقى سنته ومنهاجه ، ويضيء على البرية مدى الدهر سراجه . والعلم بالتوارث ؛ وليست النبوة بالتوارث . والشريعة تركة الأنبياء ، والعلماء ورثة الأنبياء .

*(71/238)*

---

قال الصابئة الناس متماثلة في حقيقة الإنسانية والبشرية ، ويشملهم حد واحد ، وهو : الحيوان الناطق المائت . والنفوس والعقول متساوية في الجوهرية ؛ فحد النفس بالمعنى الذي يشترك فيه الإنسان والحيوان والنبات : أنه كمال جسم طبيعي آلي ذي حياة بالقوة ، وبالمعنى الذي يشترك فيه الإنسان والملك : أنه جوهر غير جسم هو كمال الجسم محرك له بالاختيار عن مبدأ نطقي أي عقلي بالفعل أو بالقوة ؛ فالذي بالفعل هو خاصة النفس الملكية ، والذي بالقوة هو فصل النفس الإنسانية . وأما العقل فقوة أو هيئة لهذه النفس مستعدة لقبول ماهيات الأشياء مجردة عن المواد ، والناس في ذلك على استواء من القدم ؛ وإنما الاختلاف يرجع إلى أحد أمرين : أحدهما اضطراري ؛ وذلك من حيث المزاج المستعد لقبول النفس ؛ والثاني اختياري ؛ وذلك من حيث الاجتهاد المؤثر في رفع الحجب

المادية ، وتصقيل النفس عن الصدأة المانعة لارتسام الصور المعقولة . . . حتى لو بلغ الاجتهاد إلى غاية الكمال : تساوت الأقدام ، وتشابهت الأحكام ؛ فلا يتفضل بشر على بشر بالنبوة ، ولا يتحكم أحد على أحد بالإستتباع .

*(72/238)*

---

أجابت الحنفاء بأن التماثل والتشابه في الصور البشرية والإنسانية مسلم لا مرية فيه ؛ وإنما التنازع بيننا في النفس والعقل قائم ؛ فإن عندنا : النفوس والعقول على التضاد والترتب ، وعلينا بيان ذلك ، على مساق حدودكم ، ومذاق أصولنا : فقولكم : إن النفس جوهر ، غير جسم : هو كمال الجسم ، محرك له بالاختيار ؛ وذلك إذا أطلق النفس على الإنسان والملك ، وهو كمال جسم كبيعي آلي ذي حياة بالقوة ؛ إذا أطلق على الإنسان والحيوان ؛ فقد جعلتم لفظ النفس من الأسماء المشتركة ، وميزتم بين النفس الحيواني ، والنفس الإنساني ، والنفس الملكي ؛ فهل زدتم فيه قسماً ثالثاً وهو : النفس النبوي حتى يتميز عن الملكي ، كما تميز الملكي عن الإنساني ؟ فإن عندكم : المبدأ النطقي للإنسان بالقوة ، والمبدأ العقلي للملك بالفعل ، فقد تغايرا من هذا الوجه ؛ ومن حيث إن الموت الطبيعي يطرأ على الإنسان ولا يطرأ على الملك ، وذلك تمييز آخر ؛ فليكن في النفس النبوي مثل

هذا الترتب . وأما الكمال الذي تعرضتم له ، فإنما يكون كمالاً للجسم إذا كان اختيار المحرك محموداً ؛ فأما إذا كان اختياره مذموماً من كل وجه صار الكمال نقصاناً ؛ وحينئذ يقع التضاد بين النفس الخيرة والنفس الشريرة ، حتى تكون إحداهما في جانب الملكية ، والثانية في جانب الشيطانية ؛ فيحصل التضاد المذكور ، كما حصل الترتب المذكور ؛ فإن الاختلاف بالقوة والفعل اختلاف بالترتب ، والاختلاف بالكمال والنقص والخير والشر : اختلاف بالتضاد ؛ فبطل التماثل .

(73/238)

---

ولا تظنن أن الاختلاف بين النفسين الخيرة والشريرة اختلاف بالعوارض ؛ فإن الاختلاف بين النفس الملكية والشيطانية بالنوع ، كما أن الاختلاف بين النفس الإنسانية والملكية بالنوع ؛ وكيف لا يكون كذلك ! والاختلاف ههنا بالقوة والفعل ، والاختلاف ثم بالخير والشر ؟ وهذا لسر : وهو أن الخير غريزة هي هيئة متمكنة في النفس بأصل الفطرة ، وكذلك الشر طبيعة غريزية . لست أقول : فعل الخير ، وفعل الشر ؛ فإن الغريزة غير الفعل المترتب عليها . فتحقق أن ههنا نفساً محركة للبدن اختياراً نحو الخير عن مبدأ عقلي : إما بالقوة أو بالفعل ، وهو كمال للجسم وليس بجسم ، وههنا نفساً محركة للبدن اختياراً نحو

الشر عن مبدأ نطقي : إما بالقوة أو بالفعل ، وهو نقص للجسم وليس بجسم . ولا ينبون طبعك عن أمثال ما يورد عليك المتكلم الحنيف ، فإنما يغترفه من بحر ، وليس ينحته من صخر ؛ فلربما لا يساعدك على أن الإنسان نوع الأنواع ، وأن الاختلاف فيه يقع في العوارض واللوازم ؛ بل يثبت في النفوس الإنسانية اختلافاً جوهرياً ، فيفصل بعضها على بعض بالفصول الذاتية ، لا باللوازم العرضية . فكما أن الاختلاف بالقوة والفعل في النفس الإنسانية والملكية : اختلاف جوهري ، أوجب اختلاف النوع والنوع ؛ وإن شملهما اسم النفس الناطقة ؛ والفصل الذاتي هو القوة والفعل . . . كذلك نقول في نفس لها قوة علم خاص ، وقوة عمل خاص ، وقوة خير ، وقوة شر ؛ وكمال مطلق ، هو أصل الخير ؛ ونقص مطلق ، هو أصل الشر . وأما ما ذكره المتكلم الصابي من حد العقل : أنه قوة أو هيئة للنفس مستعدة لقبول ماهيات الأشياء مجردة عن المواد ؛ فغير شامل لجميع العقول عنده ، ولا عند الحنيف ؛ بل هو تعرض للعقل الهيولاني فقط . فأين العقل النظري ؟ وحده : أنه قوة للنفس تقبل ماهيات الأمور الكلية من جهة ما هي كلية . وأين العقل العملي ؟ وحده : أنه قوة للنفس هي مبدأ لتحريك القوة الشوقية إلى ما يختار من الجزئيات ، لأجل غاية

مظنونة . وأين العقل بالملكة ؟ وهو استكمال القوة الهيولانية ، حتى تصير قريبة من الفعل . وأين العقل بالفعل ؟ وهو استكمال النفس بصورة ما أو صورة معقولة ، حتى متى ما شاء عقلها وأحضرها بالفعل . وأين العقل المستفاد ؟ وهو ماهية مجردة عن المادة . مرتسمة في النفس على سبيل الحصول من خارج . وأين العقول المفارقة ؟ فإنها : ماهيات مجردة عن المادة . وأين العقل الفعال ؟ ؛ فإنه من جهة ما هو عقل ؛ فإنه جوهر صوري ، ذاته ماهية مجردة في ذاتها لا بتجريد غيرها عن المادة وعن علائق المادة ، وهي ماهية كل موجود ؛ ومن جهة ما هو فعال ؛ فإنه جوهر بالصفة المذكورة ، من شأنه أن يخرج العقل الهيولاني من القوة إلى الفعل بإشراقه عليه ؟ . فقد تعرض لنوع واحد من العقول . ولا خلاف أن هذه العقول قد اختلفت حدودها ، وتباينت فصولها كما سمعت . فأخبرني أيها المتكلم الحكيم : من أي عقل تعد عقلك أولاً ؟ وهل ترضى أن يقال لك : تساوت الأقدام في العقول ؟ حتى يكون عقلك بالفعل والإفادة كعقل غيرك بالقوة والاستعداد ؟ بل واستعداد عقلك لقبول المعقولات كاستعداد عقل غبي غوي : لا يرد عليه الفكر براده ، ولا ينفك الخيال عن عقله ، كما لا ينفك الحس عن خياله ؟ ؛ وإذا كانت الأقدام متساوية ، فما هذا الترتب في الأقسام ؟ ؛ وإذا أثبت ترتباً في العقول ، فبالضرورة أن ترتقي في الصعود إلى درجة الاستقلال والإفادة ، وتنزل في الهبوط إلى درجة الاستعداد والاستفادة . ثم : هل في نوعه ما هو عديم الاستعداد أصلاً حتى يشبه أن يكون عقلاً ، وليس عقلاً ؟ وما النوع

الذي تثبته للشياطين ؟ ؛ أو هو من عداد ما ذكرنا ، أم خارج عن ذلك ؟ ؛ فإنك إذا ذكرت حد الملك ، وأنه جوهر بسيط ذو حياة ونطق عقلي ، غير مائت ، هو واسطة بين الباري تعالى والأجسام السماوية والأرضية ؛ وعددت أقسامه : أن منه ما هو عقلي ، ومنه ما هو نفسي . ومنه ما هو حسي . . . فيلزمك من حيث التضاد ، أ ، تذكر حد الشيطان على الضد مما ذكرته

*(75/238)*

---

من حد الملك ، وتعد أقسامه أيضاً . . . ؛ ويلزمك من حيث الترتب ، أن تذكر حد الإنسان على الضد مما ذكرته من حد الملك وتعد أقسامه وأنواعه كذلك ؛ حتى يكون من الإنسان : ما هو محسوس فقط ؛ ومنه : ما هو مع كونه محسوساً روحاني ، نفساني ، عقلي ؛ وذلك هو درجة النبوة . فمن عقل عمل من حس ، ومن حس عمل من عقل ، ومن نفس مزاجي ، ومن مزاج نفسي ، ومن روح جسماني ، ومن جسم روحاني . . . دع عنك كلام لعامة ، ولا

تظنن هذه طامة . ظنن هذه طامة .

قالت الصابئة لقد حصرتمونا : بإبطال تساوي العقول والنفوس ، وإثبات الترتب والتضاد

فيهما ؛ ولا شك أن من سلم الترتب فقد لزمه الإتباع ؛ فأخبرونا : ما رتبة الأنبياء بالنسبة إلى نوع الإنسان ؟ وما رتبتهم بالإضافة إلى الملك والجن وسائر الموجودات ؟ ثم ما رتبة النبي عند الباري تعالى ؟ . فإن عندنا : الروحانيات أعلى مرتبة من جميع الموجودات ، وهم المقربون في الحضرة الإلهية ، والمكرمون لديه ؛ ونراكم تارة تقولون : إن النبي يتعلم من الروحاني ، ونراكم تارة تقولون : إن الروحاني يتعلم من النبي .

أجابت الحنفاء بأن الكلام في المراتب صعب ، ومن لم يصل إلى رتبة من المراتب كيف يمكنه أن يستوفي بيانها ؟ . لكنا نعرف أن رتبته بالنسبة إلينا : رتبتنا بالنسبة إلى من هو دوننا في الجنس من الحيوان ، فكما أنا نعرف أسامي الموجودات ولا يعرفها الحيوان ؛ كذلك هم : يعرفون خواص الأشياء وحقائقها ، ومنافعها ، ومضارها ، ووجوه المصالح في الحركات ، وحدودها ، وأقسامها . . . ونحن لا نعرفها .

*(76/238)*

---

وكما أن نوع الإنسان ملك الحيوان بالتسخير ، فالأنبياء عليهم السلام ملوك الناس بالتدبير ، وكما أن حركات الناس معجزات الحيوان ، كذلك حركات الأنبياء معجزات الناس ؛ لأن الحيوانات لا يمكنها أن تبلغ إلى الحركات الفكرية حتى تميز الحق من الباطل ، ولا أن تبلغ إلى

الحركات القولية حتى تميز الصدق من الكذب ، ولا أن تبلغ إلى الحركات الفعلية حتى تميز الخير من الشر ؛ فلا التمييز العقلي لها بالوجود ، ولا مثل هذه الحركات لها بالفعل . وكذلك حركات الأنبياء ؛ لان منتهى فكرهم لا غاية له ، وحركات أفكارهم في مجالي القدس مما تعجز عنها قوة البشر ؛ حتى يسلم لهم : لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل ، وكذلك حركاتهم القولية والفعلية لا تبلغ إلى غاية انتظامها وجريانها على سنن الفطرة حركة كل البشر .

وهم في الرتبة العليا ، والدرجة الأولى من درجات الموجودات كلها ؛ فقد أحاطوا علماً بما أطلعهم الرب تعالى على ذلك دون غيرهم من الملائكة والروحانيين ؛ ففي الأول تكون حاله حال التعلم : علمه الشديد القوي ، وفي الأخير : حاله حال التعليم ، وذلك في حق آدم عليه السلام : أنبأهم بأسمائهم حين كان الأمر على بدء الظهور والكشف ؛ فانظر ؛ كيف تكون الحال في نهاية الظهور .

وأما إضافتهم جناب القدس ؛ فالعبودية الخاصة : قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ، قولوا : إن عباد مربوبون ، وقولوا في فضلنا ما شئتم . أحق الأسماء لهم ، وأخص الأحوال بهم : عبده ورسوله ؛ لا جرم كان أخص التعريفات لجلاله تعالى بأشخاصهم : إله إبراهيم : إله إسماعيل وإسحاق : إله موسى وهرون : إله عيسى : إله محمد عليهم السلام . فكما أن من العبودية ما هو عام الإضافة ، ومنها ما هو خاص الإضافة : كذلك التعريف إلى

الخلق بالإلهية والربوبية ، والتجلي للعباد بالخصوصية : منه ما له عموم رب العالمين ومنه ما له خصوص رب موسى وهارون .

(77/238)

---

فهذه نهاية مذهبي الصابئة والحنفاء . وفي الفصول التي جرت بين الفريقين فوائد لا تحصى . وكان في الخاطر بعد زوايا : نريد نمليها ، وفي القلم خفايا : أكاد أخفيها ؛ فعدلت عنها إلى ذكر حكم هرمس العظيم لأعلى أنه من جملة فرق الصابئة ؛ حاشاه ؛ بل على أن حكمه مما تدل على تقرير مذهب الحنفاء ، في إثبات الكمال في الأشخاص البشرية ، وإيجاب القول بإتباع النواميس الإلهية ؛ على خلاف مذاهب الصابئة .

حكم هرمس العظيم المحمودة آثاره ، المرضية أقواله وأفعاله ، الذي يعد من الأنبياء الكبار ، ؛ ويقال : هو إدريس النبي عليه السلام . وهو الذي وضع أسامي البروج والكواكب السيارة ، ورتبها في بيوتها ، وأثبت لها : الشرف والوبال ، والأوج والحضيض ، والمناظر بالتثليث والتسديس والتربيع ، والمقابلة والمقارنة ، والرجعة والاستقامة ؛ وبين : تعديل الكواكب ، وتقويمها ، وأما الأحكام المنسوبة إلى هذه الاتصالات ، فغير مبرهن عليها عند الجميع .

وللهند وللعرب طريقة أخرى في الأحكام ؛ أخذوها من خواص الكواكب لا من طبائعها ، ورتبوها على الثوابت ؛ لا على السيارات .

ويقال : إن عاذيمون وهرمس هما : شيث وإدريس عليهما السلام .

ونقلت الفلاسفة عن عاذيمون أنه قال المبادئ الأول خمسة : الباري تعالى ، والعقل ، والنفس ، والمكان ، والخلاء ؛ وبعدها وجود المركبات . ولم ينقل هذا عن هرمس . ومن حكم هرمس :

(78/238)

---

قوله : أول ما يجب على المرء الفاضل بطباعه ، المحمود بسنخه ، المرضي في عادته ، المرجو في عاقبته : تعظيم الله عز وجل ، وشكره على معرفته ؛ وبعد ذلك ؛ فللناموس عليه حق الطاعة له ؛ والاعتراف بمنزلته ، وللسلطان عليه حق المناصحة والانقياد ، ولنفسه عليه حق الاجتهاد ؛ والدأب في فتح باب السعادة ، ولخلصائه عليه حق التحلي لهم بالود ؛ والتسارع إليهم بالبذل . فإذا أحكم هذه الأسس لم يبق عليه إلا كف الأذى عن العامة ، وحسن المعاشرة ، وسهولة الخلق . انظروا معاشر الصابئة كيف عظم أمر الرسالة ؛ حتى قرن طاعة الرسول الذي عبر عنه بالناموس بمعرفة الله تعالى . ولم يذكر ههنا تعظيم

الروحانيات ، ولا تعرض لها ؛ وإن كانت هي من الواجبات . وسئل : بماذا يحسن رأي الناس في الإنسان ؟ قال : بأن يكون لقاؤه لهم لقاءً جميلًا ، ومعاملته إياهم معاملة حسنة .

وقال : ومدة الإخوان أن لا تكون لرجاء منفعة ، أو لدفع مضرة ؛ ولكن لصلاح فيه ، وطباع له .

وقال : أفضل ما في الإنسان من الخير العقل ، وأجدر الأشياء أن لا يندم عليه صاحبه ، العمل الصالح ، وأضل ما يحتاج إليه في تدبير الأمور الاجتهاد ، وأظلم الظلمات الجهل ، وأوثق الإسار الحرص .

وقال : من أفضل البر ثلاثة : الصدق في الغضب ، والجود في العسرة ، والعفو عند المقدرة .

وقال : من لم يعرف عيب نفسه ؛ فلا قدر لنفسه عنده .

وقال : الفصل بين العاقل والجاهل : أن العاقل منطقه له ، والجاهل منطقه عليه . وقال : لا ينبغي للعاقل أن يستخف بثلاثة أقوام : السلطان ، والعلماء ، والإخوان ؛ فإن من استخف بالسلطان أفسد عليه عيشه ، ومن استخف بالعلماء أفسد عليه دينه ، ومن استخف بالإخوان أفسد عليه مروءته . .

*(79/238)*

وقال : الاستخفاف بالموت أحد فضائل النفس . وقال : المرء حقيق له أن يطلب الحكمة ويثبتها في نفسه أولاً ؛ بان لا يجزع من المصائب التي تعم الأخيار ، ولا يأخذه الكبر فيما يبلغه من الشرف ، ولا يعير أحداً بما هو فيه ، ولا يغيره الغنى والسلطان ، وأن يعدل بين نيته وقوله حتى لا يتفاوت ، وتكون سنته ما لا عيب فيه ، ودينه ما لا يختلف فيه ، وحجته ما لا ينتقض .

وقال : أنفع الأمور للناس القناعة والرضى ، وأضرها الشره والسخط ؛ وإنما يكون كل السرور بالقناعة ر ، وكل الحزن بالشره والسخط .

ويحكى عنه فيما كتبه : أن أصل الضلال والهلكة لأهله أن يعد ما في العالم من الخير من عطية الله عز وجل ومواهبه ؛ ولا يعد ما فيه من الشر والفساد من عمل الشيطان ومكايده ، ومن افترى على أخيه فرية لم يخلص من تبعتها حتى يجازى بها ؛ فكيف يخلص من أعظم الفرية على الله عز وجل : أن يجعله سبباً للشرور وهو معدن الخير ؟ .

وقال : الخير والشر أصلان إلى أهلهما لا محالة ؛ فطوبى لمن جرى وصول الخير إليه وعلى يديه ، والويل لمن جرى وصول الشر إليه وعلى يديه .

وقال : الإخاء الدائم الذي لا يقطعه شيء اثنان : أحدهما محبة المرء نفسه في أمر معاده ، وتهذيبه إياها في العلم الصحيح والعمل الصالح ؛ والآخر مودته لأخيه في دين الحق ؛ فإن ذلك مصاحب أخاه في الدنيا بجسده ، وفي الآخرة بروحه .

وقال : الغضب سلطان الفظاظة ، والحرص سلطان الفاقة ؛ وهما منشئا كل سيئة ، ومفسدا كل جسد ، ومهلكا كل روح .

وقال : كل شيء يطاق تغييره إلا الطباع ، وكل شيء يقدر على إصلاحه غير الخلق السوء ، وكل شيء يستطاع دفعه إلا القضاء .

وقال : الجهل والحمق للنفس بمنزلة الجوع والعطش للبدن ؛ لأن هذين خلاء النفس ، وهذين خلاء البدن .

وقال : أحمد الأشياء عند أهل السماء والأرض لسان صادق ناطق بالعدل والحكمة والحق في الجماعة . وقال : أدحض الناس حجة من شهد على نفسه بدحوض حجته .

وقال : من كان دينه السلامة والرحمة والكف عن الأذى فدينه دين الله عز وجل ؛ وخصمه شاهد له بفلج الحجة ، ومن كان دينه الإهلاك والفظاظة والأذى فدينه دين الشيطان ؛ وهو بدحوض حجته شاهد على نفسه .

وقال : الملوك تحتمل الأشياء كلها إلا ثلاثة : قدح في الملك ، وإفشاء للسر ، والتعرض للحرمة . وقال : لا تكن أيها الإنسان كالصبي : إذا جاع ضغا ولا كالعبد : إذا شبع طغى ، ولا كالجاهل : إذا ملك بغى .

وقال : لا تشيرون على عدو ولا صديق إلا بالنصيحة ؛ فأما الصديق فتقضي بذلك من واجبه حقه ، وأما العدو فإنه إذا عرف نصيحتك إياه هابك وحسدك ، وإن صح عقله

استحى منك وراجعك .

وقال : يدل على غريزة الجود السماحة عند العسرة ، وعلى غريزة الورع الصدق عند الشرة ، وعلى غريزة الحلم العفو عند الغضب .

وقال : من سره مودة الناس له ، ومعونتهم إياه ، وحسن القول منهم فيه : حقيق بأن يكون على مثل ذلك لهم .

وقال : لا يستطيع أحد أن يحوز الخير والحكمة ، ولا أن يخلص نفسه من المعايب : إلا أن يكون له ثلاثة أشياء : وزير ، وولي ، وصديق ؛ فوزيره عقله ، ووليه عفته ، وصديقه عمله الصالح . وقال : كل إنسان موكل بإصلاح قدر باع من الأرض ؛ فإنه إذا أصلح قدر ذلك الباع صلحت له أموره كلها ، وإذا أضاعه أضاع الجميع ؛ وقدر ذلك نفسه .

وقال : لا يمدح بكمال العقل من لا تكمل عفته ، ولا بكمال العلم من لا يكمل عقله . وقال : من افضل أعمال العلماء ثلاثة أشياء : أن يبدلوا العدو صديقاً ، والجاهل عالماً ، والفاجر براً .

وقال : الصالح من خيره خير لكل أحد ، ومن يعد خير كل أحد لنفسه خيراً .

وقال : ليس بحكمة ما لم يعاد الجهل ، ولا بنور ما لم يمحق الظلم ، ولا بطيب ما لم يدفع النتن ، ولا بصدق ما لم يدحض الكذب ، ولا بصالح ما لم يخالف الطالح . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الملل والنحل حـ 2 صـ 9 . 48 ﴾

---

بحث بعنوان :

** إبراهيم ـ عليه السلام ـ والكواكب **

للشيخ محمود غريب

واصل إبراهيم الخليل صلّ يا ربّ عليه وآله وبارك وسلّم رحلته في الدعوة ورسم منهجه لتسامي الفكر البشري . ونجح في انتزاع الاعتراف من قومه بأنّ الأصنام لا تنطق . فهي لا تستحق العبادة .

بعد ذلك بدأ رحلته الثانية مع الكواكب في السّماء .

والآن مع الرحلة الثانية

. . . . . .

. . . . . .

(( فلمّا جنّ عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين )) – 76 – الأنعام .

لما انتهى إبراهيم صلّ يا ربّ عليه وآله وبارك وسلّم من الذين يعبدون الأصنام تفرغ للذين

يعبدون الكواكب .

فلما ستره الليل بظلامه وسطع فيه كوكب لامع سأل إبراهيم الذين يعبدون الكواكب . . .

هذا ربي ! ! ! ! ! ! ! ! ! !

(( فلما أفل قال لا أحب الآفلين )) .

وكلمة لا أحب ألآفلين : –

تبين طبيعة ألإيمان في نفس إبراهيم صلّ يا ربّ عليه وآله وبارك وسلّم

إن العلاقة بين العبد وربه هي الحب فإذا انتفى الحب انتفت حلاوة العبادة .

لأن العبادة ظلال للحب في قلوب العارفين . . . .

(( فلّما رأى القمر بازغا قال هذا ربي )) .

كرر التجربة مع القمر ليتسامى بالعقل البشري إلى ما هو أكبر – في نظرهم – وأوضح في حياتهم .

(( فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين )) – 77 – الأنعام . وحتى لانخطيء فهم القرآن أحب أن أوضح معنى الهداية التي يطلبها إبراهيم صلّ يا ربّ عليه وآله وبارك وسلّم في هذه ألآية : – إنها العون من الله على فعل الخير ومواصلة الطريق

والهداية لها معنيان : –

أولا : – الإرشاد إلى الخير والدلالة عليه .

وهذه قد منّ الله بها على إبراهيم فعرّفه به قبل أن يجند حياته لدعوة الناس إلى الله تعالى .

ثانيا :- هداية التوفيق والعون من الله .

وهذه هي الهداية التي طلبها إبراهيم من ربه وهو في وسط الطريق .

(( فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما افلت قال يا قوم إني بريء ممّا تشركون )) - 78 - الأنعام

هنا نهاية الطريق أمامهم . فهم لا يعرفون أكبر من الشمس في الكواكب فإذا أفلت كغيرها فليس بين الكواكب ما يستحق العبادة .

إنه منهج الخليل في الحوار .

لم يعبد غير ربه لحظة واحدة .

ولكنّه كتم عقيدته حتى يترفق بالناس . . . .

وأؤكد هذا الفهم بالأدلة الآتية :-

أولا :- إن الحديث عن الكواكب جاء بعد الحديث عن الأصنام

قال تعالى (( وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين )) . - 74 - الأنعام .

ومعلوم أن الحديث عن ألأصنام يدل على معرفة كاملة بالله تعالى . . . .

ثانيا :- الحديث عن النجوم جاء بعد أن أطلع الله تعالى إبراهيم على ملكوت السماوات

والأرض . . . .

قال تعالى في الآية – 75 – من سورة الأنعام (( وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين )) . .

فكيف يتصور من إبراهيم عليه السلام الشك ؟ ؟

وقد رأى – بعين اليقين – ملكوت السموات والأرض

(( إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين )) – 79 – الإنعام .

أجل :– إن إبراهيم ليس مشركا لكنه معلّم .

فهو يذكر عقيدة الخصم ثم يرتب عليها المستحيل ليثبت بطلانها وهذه الطريقة من أرقى طرق الجدل الحديث .

إن إبراهيم ليس مشركا ولا شاكا في الله لأنه أجرى حواره على أمثلة ثلاثة فقط هي :

الكوكب . . . . . .

القمر . . . . .

الشمس . . . .

ثم اصدر حكما عاما ينطبق على كل شيء في الوجود فقال :–

(( إني وجهت وجهيّ للذي فطر السموات والأرض حنيفا )) .

فكيف يبني حكما عاما على استقراء ناقص .

الحق إن إبراهيم قصد بهذا الحوار العظيم تعليم بطلان عبادة النجوم مع علمه السابق بعظمة الله رب العالمين . . .

وبعد : –

إن بقايا عبادة النجوم لم تزل في قلوب بعض الناس

فما زلنا نرى من الناس – حتى من المسلمين – من يحسب النجم ليطمئن على مستقبله ومن يدرس النجوم ليتعرف على المغيبات . . .

ولمّا كان ذلك من بقايا عبادة النجوم وهي شرك حرمّها الإسلام وبشدة وسفّه عقول من يعتقد بها

فلا الكواكب والنجوم

ولا العقول العشرة التي آمن بها الفلاسفة

ولا الصالحون من البشر

تغني عني من الله شيئا لأن الله وحده فعّال لما يريد قال تعالى :

(( وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو . وإن يردك بخير فلا راد لفضله . يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم )) –107 – يونس .

فراقب قلبك

فإذا شعرت

بأن غير الله ينفع أو يضر

فقلبك يحتاج إلى علاج

أقول ذلك : ـــــــــــــــــــــــــ

. . . . . حتى لا نخطئ فهم القرآن . . . . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ سلسلة : حتى لا نخطئ فهم القرآن للشيخ محمود غريب ﴾

*(81/238)*

---

قوله تعالى ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (80) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أبدى هذه الأدلة في إبطال الضلال بالكواكب والشمس التي هي أوضح من الشمس ، عطف عليها الإخبار بأنهم لم يرجعوا إليه بل حاجوه ، فقال : ﴿ وحاجه قومه ﴾ بأنهم لا ينفكون عن عبادتها لأنهم وجدوا آباءهم كذلك ، وأنه إن لم يرجع عن الكلام فيها أصابته

ببعض النوازل ، وذلك من أعظم التسلية لهذا النبي العربي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم .

ولما كان من المعلوم أن محاجتهم – بعد هذه الأدلة الواضحة في غاية من السقوط – سفلت عن الحضيض ، نزه المقام عن ذكرها ، إشارة إلى أنها بحيث لا يستحق الذكر ، وبين جوابه لما فيه من الفوائد الجمة بقوله : ﴿ قال ﴾ أي بقول منكراً عليهم موبخاً لهم :

﴿ أتحاجوني ﴾ وصرح باسم الرب العلم الأعظم في قوله : ﴿ في الله ﴾ أي شيء مما يختص به المستجمع لصفات الكمال لا سيما التوحيد ﴿ وقد ﴾ أي والحال أنه قد ﴿ هدان ﴾ أي أرشدني بالدليل القطعي إلى معرفة كل ما يثبت له وينفى عنه ، أي لأنه قادر ، فبين أنه تعالى قد أحسن إليه ، فهو يرجوه لمثل ذلك الإحسان ، ويخافه من عواقب العصيان ، لأن من رُجي خيره خيف ضيره ، ومن كان بيده النفع والضر والهداية والإضلال فهو من وضوح الأمر وظهور الشأن بحيث لا توجه نحوه المحاجة ، وأتبعه بيان أن معبوداتهم مسلوب عنها ما يوجه إليه الهمم ، فقال عاطفاً على ما تقديره : فأنا أرجوه وأخافه لأنه قادر : ﴿ ولا أخاف ما تشركون به ﴾ ولا أرجوه لهداية ولا إضلال ولا غيرهما لأنه عاجز ، فأثبت لله القدرة بالهداية لأنها أشرف ، وطوى الإضلال لدلالتها ودلالة ما نفي في جانب الشركاء عليه ، وأثبت لآلهتهم العجز بنفي الخوف المستلزم لنفي القدرة على الضر .

وذلك دال على أن الله تعالى أهل لأن يخاف منه .

كل ذلك تلويحاً لهم بأن العاقل لا ينبغي له أن يخالف إلاّ من يأمن ضره ، فهم في مخالفتهم لله في غاية من الخطر ، لا يرتكبها عاقل ، والآية من الاحتباك .

(82/238)

---

ولما نفى عن نفسه خوف آلهتهم أبداً في الحال والاستقبال ، وكان من الأمر البين في الدين الحق أنه لا يصبح الإيمان إلاّ مع الإقرار بخفاء العواقب على العباد وإثبات العلم بها لله تسليماً لمفاتيح الغيب إليه ، وقصرها عليه ؛ قال مستثنياً من سبب النفي ، وهو أنها لا تقدر على شيء : ﴿ إلا أن يشاء ربي ﴾ المحسن إليّ في حال الضر كما هو محسن في حال النفع ﴿ شيئاً ﴾ أي من تسليطها بأنفسها أو باتباعها ، لأنه قادر على ما يريد ، فإن أراد أنطق الجماد وأقدره ، وأخرس الناطق الفصيح وأعجزه ، فأنا لا أخاف في الحقيقة غيره .

ولما كان هذا في صورة التعليق ، وكان التعليق وما شابهه من شأنه أن لا يصدر إلاّ من متردد ، فيكون موضع إطماع للخصم فيه ، علله بما أزال هذا الخيال فقال : ﴿ وسع ربي كل شيء علماً ﴾ أي فأحاط بكل شيء قدرة ، فهو إذا أراد إقدار العاجز أزال عنه كل مانع من القدرة ، وأثبت له كل مقتض لها ، وذلك ثمرة شمول العلم – كما سيأتي برهانه إن

شاء الله تعالى في سورة طه ، فالمراد أني ما تركت الجزم لشك عندي ، وإنما تركته لعدم علمي بالعواقب إعلاماً بأن تلك رتبة لا تصلح إلاّ لله الذي وسع علمه كل شيء ، وأدل دليل على هذا اتباعه له بإنكاره عليهم عدمَ الإبلاغ في التذكر بقوله مظهراً تاء التفعل إشارة إلى أن في جبلاتهم أصل التذكر الصاد عن الشرك : ﴿ أفلا تتذكرون ﴾ أي يقع منكم تذكر ، فتميزوا بين الحق والباطل بأن تذكروا مالكم من أنفسكم بأن من غاب عن مربوبه فسد أو كاد ، وأن هذه الجمادات لا تنفع ولا تضر ، وأنها مصنوعكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 661.662 ﴾

*(83/238)*

---

فصل

قال الفخر :

اعلم أن إبراهيم عليه السلام لما أورد عليهم الحجة المذكورة ، فالقوم أوردوا عليه حججاً على صحة أقوالهم ، منها أنهم تمسكوا بالتقليد كقولهم : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَآءَنَا على أُمَّةٍ ﴾ [ الزخرف : 23 ] وكقولهم للرسول عليه السلام : ﴿ أَجَعَلَ الأَلهة إلها واحدا إِنَّ هذا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ ص : 5 ] ومنها : أنهم خوفوه بأنك لما طعنت في إلهية هذه الأصنام

وقعت من جهة هذه الأصنام في الآفات والبليّات ، ونظيره ما حكاه الله تعالى في قصة قوم هود : ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعتراك بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ [ هود : 54 ] فذكروا هذا الجنس من الكلام مع إبراهيم عليه السلام .

فأجاب الله عن حجتهم بقوله : ﴿ قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللهِ وَقَدْ هَدَانِى ﴾ ، يعني لما ثبت بالدليل الموجب للهداية واليقين صحة قولي ، فكيف يلتفت إلى حجتكم العليلة ، وكلماتكم الباطلة .

وأجاب عن حجتهم الثانية وهي : أنهم خوفوه بالأصنام بقوله : ﴿ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ﴾ لأن الخوف إنما يحصل ممن يقدر على النفع والضر ، والأصنام جمادات لا تقدر ولا قدرة لها على النفع والضر ، فكيف يحصل الخوف منها ؟

فإن قيل : لا شك أن للطلسمات آثاراً مخصوصة ، فلم لا يجوز أن يحصل الخوف منها من هذه الجهة ؟

قلنا : الطلسم يرجع حاصله إلى تأثيرات الكواكب ، وقد دللنا على أن قوى الكواكب على التأثيرات إنما يحصل من خلق الله تعالى فيكون الرجاء والخوف في الحقيقة ليس إلا من الله تعالى .

وأما قوله : ﴿ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّى ﴾ ففيه وجوه : أحدها : إلا أن أذنب فيشاء إنزال العقوبة

بي .

وثانيها : إلا أن يشاء أن يبتليني بمحن الدنيا فيقطع عني بعض عادات نعمه .

(84/238)

---

وثالثها : إلا أن يشاء ربي فأخاف ما تشركون به بأن يحييها ويمكنها من ضري ونفعي ويقدرها على إيصال الخير والشر إلي ، واللفظ يحتمل كل هذه الوجوه ، وحاصل الأمر أنه لا يبعد أن يحدث للإنسان في مستقبل عمره شيء من المكاره ، والحمقى من الناس يحملون ذلك على أنه إنما حدث ذلك المكروه بسبب أنه طعن في إلهية الأصنام ، فذكر إبراهيم عليه السلام ذلك حتى لو أنه حدث به شيء من المكاره لم يحمل على هذا السبب .

ثم قال عليه السلام : ﴿ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً ﴾ يعني أنه علام الغيوب فلا يفعل إلا الصلاح والخير والحكمة ، فبتقدير : أن يحدث من مكاره الدنيا فذاك ، لأنه تعالى عرف وجه الصلاح والخير فيه لا لأجل أنه عقوبة على الطعن في إلهية الأصنام .

ثم قال : ﴿ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ والمعنى : أفلا تتذكرون أن نفي الشركاء والأضداد والأنداد عن الله تعالى لا يوجب حلول العقاب ونزول العذاب ، والسعي في إثبات التوحيد والتنزيه لا

يوجب استحقاق العقاب . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 49.48 ﴾

(85/238)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ ﴾ دليلٌ على الحِجَاج والجدال ؟ حاجُّوه في توحيد الله .

﴿ قَالَ أَتحاجوني فِي الله ﴾ قرأ نافع بتخفيف النون ، وشدّد النون الباقون .

وفيه عن ابن عامر من رواية هشام عنه خلاف ؛ فمن شدّد قال : الأصل فيه نونان ، الأولى علامة الرفع والثانية فاصلة بين الفعل والياء ؛ فلما اجتمع مِثلان في فعل وذلك ثقيل أدغم النون في الأخرى فوقع التشديد ولا بدّ من مدّ الواو لئلا يلتَقِي الساكنان ، الواو وأوّلُ المشدّد ؛ فصارت المدّةُ فاصلةً بين الساكنين .

ومن خفّف حذف النونَ الثانية استخفافاً لاجتماع المِثْلين ، ولم تُحذف الأولى لأنها علامةُ الرفع ؛ فلو حُذفت لاشتبه المرفوع بالمجزوم والمنصوب .

وحُكي عن أبي عمرو بن العَلاَء أن هذه القراءة لَحْنٌ .

وأجاز سيبويه ذلك فقال : استثقلوا التضعيف .

وأنشد :

تراه كالثَّغَامِ يُعَلُّ مِسْكاً . . .

يَسوء الفالِياتِ إذا فَلَيْنِي

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ﴾ أي لأنه لا ينفع ولا يضر وكانوا خوّفوه بكثرة آلهتهم إلا أن يُحييَه الله ويُقدِره فيخاف ضرره حينئذٍ ؛ وهو معنى قوله : ﴿ إِلاَّ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْئاً ﴾ أي إلا أن يشاء أن يلحقني شيء من المكروه بذنب عمِلتُه فتتمّ مشيئته .

وهذا استثناء ليس من الأوّل .

والهاء في "بِهِ" يحتمل أن تكون لِلَّهِ عز وجل ، ويجوز أن تكون للمعبود .

وقال : "إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي" يعني أن الله تعالى لا يشاء أن أخافهم .

ثم قال : ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ أي وسع علمه كل شيء .

وقد تقدّم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

*(86/238)*

---

وقال أبو حيان :

﴿ وحاجَّه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ﴾

المحاجة مفاعلة من اثنين مختلفين في حكمين يدلي كل منهما بحجته على صحة دعواه ، والمعنى وحاجه قومه في توحيد الله ونفى الشركاء عنه منكرين لذلك ومحاجة مثل هؤلاء إنما هي بالتمسك باقتفاء آبائهم تقليداً وبالتخويف من ما يعبدونه من الأصنام كقول : قوم هود ﴿ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ فأجابهم بأن الله قد هداه بالبرهان القاطع على توحيده ورفض ما سواه وأنه لا يخاف من آلهتهم ، وقرأ نافع وابن عامر بخلاف عن هشام ﴿ أتحاجوني ﴾ بتخفيف النون وأصله بنونين الأولى علامة الرفع والثانية نون الوقاية والخلاف في المحذوف منهما مذكور في علم النحو ، وقد لحن بعض النحويين من قرأ بالتخفيف وأخطأ في ذلك ، وقال مكي : الحذف بعيد في العربية قبيح مكروه وإنما يجوز في الشعر للوزن والقرآن لا يحتمل ذلك فيه إذ لا ضرورة تدعو إليه وقول مكي ليس بالمرتضى ، وقيل : التخفيف لغة لغطفان ، وقرأ باقي السبعة بتشديد النون أصله أتحاجونني فأدغم هروباً من استثقال المثلين متحركين فخفف بالإدغام ولم يقرأ هناك بالفك وإن كان هو الأصل ويجوز في الكلام ، و ﴿ في الله ﴾ متعلق بأتحاجوني لا بقوله ﴿ وحاجه قومه ﴾ والمسألة من باب الإعمال إعمال الثاني فلو كان متعلقاً بالأول لأضمر في الثاني ونظير ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة ﴾ والجملة من قوله ﴿ وقد هدان ﴾ حالية أنكر عليهم أن تقع منهم محاجة له وقد حصلت من الله له الهداية لتوحيده فمحاجتهم لا تجدي لأنها داحضة .

﴿ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً ﴾ حكي أن الكفار قالوا لإبراهيم عليه السلام : أما خفت أن تصيبك آلهتنا ببرص أو داء لإذايتك لها وتنقيصك فقال لهم : لست أخاف الذي تشركون به لأنه لا قدرة له ولا غنى عنده و ﴿ ما ﴾ بمعنى الذي والضمير في ﴿ به ﴾ عائد عليه أي الذي تشركونه بالله في الربوبية ﴿ وإلا أن يشاء ربي ﴾ قال ابن عطية استثناء ليس من الأول ولما كانت قوة الكلام أنه لا يخاف ضراً استثنى مشيئة ربه تعالى في أن يريد بضر انتهى ، فيكون استثناءً منقطعاً وبه قال الحوفي فيصير المعنى لكن مشيئة الله إياي بضر أخاف وقال الزمخشري ﴿ إلا أن يشاء ربي ﴾ إلا وقت مشيئة ربي شيئاً يخاف فحذف الوقت يعني لا أخاف معبوداتكم في وقت قط لأنها لا تقدر ولا على منفعة ولا على مضرة إلا أن يشاء ربي أن يصيبني بمخوف من جهتها إن أصبت ذنباً أستوجب به إنزال المكروه مثل أن يرجمني بكوكب أو بشقة من الشمس والقمر ، أو يجعلها قادرة على مضرتي انتهى ، فيكون استثناءً متصلاً من عموم الأزمان الذي تضمنه النفي وجوز أبو البقاء أن يكون متصلاً ومنقطعاً إلا أنه جعله متصلاً مستثنى من الأحوال وقدره إلا في حال مشيئة ربي أي لا أخافها في كل حال إلا في هذه الحال ، وانتصب

شيئاً على المصدر أي مشيئة أو على المفعول به .

﴿ وسع ربي كل شيء علماً ﴾ ذكر عقيب الاستثناء سعة علم الله في تعلقه بجميع الكوائن فقد لا يستبعد أن يتعلق علمه بإنزال المخوف بي إما من جهتها إن كان استثناءً متصلاً أو مطلقاً إن كان منقطعاً وانتصب علماً على التمييز المحول من الفاعل ، أصله وسع علم ربي كل شيء .

﴿ أفلا تتذكرون ﴾ تنبيه لهم على غفلتهم حيث عبدوا ما لا يضر ولا ينفع ، وأشركوا بالله وعلى ما حاجهم به من إظهار الدلائل التي أقامها على عدم صلاحية هذه الأصنام للربوبية .

*(88/238)*

---

وقال الزمخشري : ﴿ أفلا تتذكرون ﴾ فتميزوا بين الصحيح والفاسد والقادر والعاجز ، وقيل : أفلا تتعظون بما أقول لكم ، وقال عبد الله الرازي : ﴿ أفلا تتذكرون ﴾ أن نفي الشركاء والأضداد والأنداد عن الله لا يوجب حلول العذاب ونزول العقاب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ﴾ أي شرَعوا في مغالبته في أمر التوحيد .

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ وقع جواباً عن سؤال نشأ من حكاية مُحاجَّتهم ، كأنه قيل : فماذا قال عليه السلام حين حاجّوه ؟ فقيل : قال منكِراً لما اجترأوا عليه من مُحاجَّته مع قصورهم عن تلك الرُتبة وعِزّة المطلب وقوةِ الخصم ﴿ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللهِ ﴾ بإدغام نونِ الجمعِ في نون الوقاية ، وقرىء بحذف الأولى وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ هَدَانِ ﴾ حال من ضمير المتكلم مؤكّدة للإنكار ، فإن كونه عليه السلام

(89/238)

---

مَهدِياً من جهة الله تعالى ومؤيَّداً من عنده مما يوجب استحالةَ مُحاجَّتِه عليه السلام أي أتجادلونني في شأنه تعالى ووحدانيّته والحال أنه تعالى هداني إلى الحق بعد ما سلكت طريقتَكم بالفرض والتقدير وتبيَّن بُطلانُها تبيناً تاماً كما شاهدتموه ، وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ﴾ جوابٌ عما خوّفوه عليه السلام في أثناء المُحاجّة من إصابة مكروهٍ من جهة أصنامِهم كما قال لهودٍ عليه السلام قومُه : ﴿ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعتراك بَعْضُ ءالِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ ولعلهم فعلوا ذلك حين فعل عليه السلامُ بآلهتهم ما فعل ، و( ما ) موصولةٌ اسميةٌ حُذف عائدُها ، وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّى شَيْئاً ﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعمِّ

الأوقات ، أي لا أخاف ما تشركونه به سبحانه من معبوداتكم في وقتٍ من الأوقات إلا في وقتِ مشيئتِه تعالى شيئاً من إصابة مكروهٍ بي من جهتها ، وذلك إنما هو من جهته تعالى من غير دَخْلٍ لآلهتكم فيه أصلاً ، وفي التعرُّض لعُنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرِه عليه السلام إظهارٌ منه لانقيادِه لحُكمه سبحانه وتعالى ، واستسلامِه لأمره واعترافِه بكَوْنه تحتَ ملَكوتِه ورُبوبيتِه . وقوله تعالى : ﴿ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً ﴾ كأنه تعليلٌ للاستثناء ، أي أحاط بكل شيءٍ علماً فلا يبعُد أن يكونَ في علمه تعالى أن يَحيقَ بي مكروهٌ مِنْ قِبَلها بسببٍ من الأسباب ، وفي الإظهار في موضع الإضمارِ

(90/238)

---

تأكيدٌ للمعنى المذكور ، واستلذاذٌ بذكره تعالى ﴿ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي أتُعرضون عن التأمل في أن آلهتَكم جماداتٌ غيرُ قادرةٍ على شيء ما مِنْ نفع ولا ضرر ؟ فلا تتذكرون أنها غيرُ قادرة على إضراري ، وفي إيراد التذكّرِ دون التفكر ونظائرِه إشارةٌ إلى أن أمرَ أصنامِهم مركوزٌ في العقول لا يتوقفُ إلا على التذكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(91/238)

وقال الآلوسى :

﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ﴾ أي خاصموه كما قال الربيع أو شرعوا في مغالبته في أمر التوحيد تارة بإيراد أدلة فاسدة واقعة في حضيض التقليد وأخرى بالتخويف والتهديد ﴿ قَالَ ﴾ منكراً عليهم محاجتهم له عليه السلام مع قصورهم عن تلك المرتبة وعزة المطلب وقوة الخصم ووضوح الحق ﴿ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللهِ ﴾ أي في شأنه تعالى ووحدانيته سبحانه .

وقرأ نافع وابن عامر في رواية ابن ذكوان بتخفيف النون ففيه حذف إحدى النونين .

واختلف في أيهما المحذوفة فقيل : نون الرفع وهو مذهب سيبويه ورجح بأن الحاجة دعت إلى نون مكسورة من أجل الياء ونون الرفع لا تكسر .

وبأنه جاء حذفها كما في قوله

: كل له نية في بغض صاحبه . . .

بنعمة الله نقليكم وتقولنا

أراذ تقلوننا والنون الثانية هنا ليست وقاية بل هي من الضمير وحذف بعض الضمير لا يجوز وبأنها نائبة عن الضمة وهي قد تحذف تخفيفاً كما في قراءة أبي عمرو ( ينصركم ) و( يشعركم ) ( ويأمركم ) .

وقيل نون الوقاية وهو مذهب الأخفش ، ورجح بأنها الزائدة التي حصل بها الثقل .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ هَدَانِ ﴾ في موضع الحال من ضمير المتكلم مؤكدة للإنكار فإن كونه عليه الصلاة والسلام مهدياً من جهة الله تعالى ومؤيداً من عنده سبحانه مما يوجب الكف عن محاجته صلى الله عليه وسلم وعدم المبالاة بها والالتفات إليها إذا وقعت .

قيل : والمراد وقد هدان إلى إقامة الدليل عليكم بوحدانيته عز شأنه ، وقيل : هدان إلى الحق بعد ما سلكت طريقتكم بالفرض والتقدير وتبين بطلانها تبييناً تاماً كما شاهدتموه ، وعلى القولين لا يقتضي سبق ضلال له عليه الصلاة والسلام وجهل بمعرفة ربه جل وعلا و﴿ هدان ﴾ يرسم كما قال الأجهوري بلا ياء .

﴿ هَدَانِى وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ﴾ جواب كما روى عن ابن جريج عما خوفوه عليه السلام من إصابة مكروه من جهة معبودهم الباطل كما قال لهود عليه السلام قومه ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعتراك بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ [ هود : 54 ] وهذا التخويف قيل : كان على ترك عبادة ما يعبدونه ، وقيل : بل على الاستخفاف به واحتقاره بنحو الكسر والتنقيص .

قيل : ولعل ذلك حين فعل بآلهتهم ما فعل مما قص الله تعالى علينا ، وفي بعض الآثار أنه عليه السلام لما شب وكبر جعل آزر يصنع الأصنام فيعطيها له ليبيعها فيذهب وينادي من يشتري ما يضره ولا ينفعه فلا يشتريها أحد فإذا بارت ذهب بها إلى نهر وضرب فيه رؤوسها وقال لها اشربي استهزاء بقومه حتى فشا فيهم استهزاؤه فجادلوه حينئذ وخوفوه .

و( ما ) موصولة اسمية حذف عائدها ، والضمير المجرور لله تعالى أي لا أخاف الذي تشركونه به سبحانه ، وجوز أن يكون عائداً إلى الموصول والباء سببية أي : الذي تشركون بسببه ، وأن تكون نكرة موصوفة وأن تكون مصدرية .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّى شَيْئاً ﴾ بتقدير الوقت عند غير واحد مستثنى من أعم الأوقات استثناء مفرغاً .

وقال بعضهم : إن المصدر منصوب على الظرفية من غير تقدير وقت ، ومنع ذلك ابن الأنباري مفرقاً بين المصدر الصريح فيجوز نصبه على الظرفية وغير الصريح فلا يجوز فيه ذلك .

وابن جني لا يفرق بين الصريح وغيره ويجوز ذلك فيهما على السواء ، والاستثناء متصل في رأي .

و﴿ شَيْئاً ﴾ مفعول به أو مفعول مطلق أي لا أخاف ما تشركون به في وقت من الأوقات إلا في وقت مشيئته تعالى شيئاً من إصابة مكروه لي من جهتها أو شيئاً من مشيئته تعالى إصابة مكروه لي من جهتها وذلك إنما هو من جهته تعالى من غير دخل لآلهتكم في إيجاده

وإحداثه .

وجوز بعضهم أن يكون الاستثناء منقطعاً على معنى ولكن أخاف أن يشاء ربي خوفي ما أشركتم به ، وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام إشارة إلى أن مشيئته تلك إن وقعت غير خالية عن مصلحة تعود إليه بالتربية أو إظهار منه عليه الصلاة والسلام لانقياده لحكمه سبحانه وتعالى واستسلام لأمره واعتراف بكونه تحت ملكوته وربوبيته تعالى .

﴿ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً ﴾ كأنه تعليل للاستثناء أي أحاط بكل شيء علماً فلا يبعد أن يكون في علمه سبحانه إنزال المكروه بي من جهتها بسبب من الأسباب ، ونصب ﴿ عِلْمًا ﴾ على التمييز المحول عن الفاعل ، وجوز أن يكون نصباً على المصدرية لوسع من غير لفظه ، وفي الإظهار في موضع الإضمار تأكيد للمعنى المذكور واستلذاذ بذكره تعالى .

*(93/238)*

---

﴿ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي أتعرضون بعد ما أوضحته لكم عن التأمل في أن آلهتكم بمعزل عن القدرة على شيء ما من النفع أو الضر فلا تتذكرون أنها غير قادرة على إضراري .

وفي إيراد التذكر دون التفكر ونحوه إشارة إلى أن أمر آلهتكم مركوز في العقول لا يتوقف إلا

على التذكير. انتهى انتهى. اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

لّما أعلن إبراهيم عليه السلام معتَقَده لقومه أخذوا في محاجّته ، فجملة ﴿ وحاجَّة ﴾ عطف على جملة ﴿ إنِّي وجَّهْتُ وجهِي للذي فطر السماوات والأرض ﴾ [ الأنعام : 79 ] .

وعطفت الجملة بالواو دون الفاء لتكون مستقلَّة بالإخبار بمضمونها مع أنّ تفرّع مضمونها على ما قبلها معلوم من سياق الكلام .

والمحاجَّة مفاعلة متصرّفة من الحُجَّة ، وهي الدّليل المؤيّد للدعوى .

ولا يعرف لهذه المفاعلة فعْل مجرّد بمعنى استدلّ بحجّة ، وإنَّما المعروف فِعْل حَجّ إذا غَلب في الحُجَّة ، فإن كانت احتجاجاً من الجانبين فهي حقيقة وهو الأصل ، وإن كانت من جانب واحد باعتبار أنّ محاول الغَلَب في الحجَّة لا بدّ أن يتلقَّى من خصمه ما يرُدّ احتجاجه فتحصل المحاولة من الجانبين ، فبذلك الاعتبار أطلق على الاحتجاج محاجَّة ، أو المفاعلة فيه للمبالغة .

والأوْلى حملها هنا على الحقيقة بأن يكون المعنى حصول محاجَّة بينهم وبين إبراهيم .

وذكر الشيخ ابن عرفة في درس تفسيره : أنّ صيغة المفاعلة تقتضي أنّ المجعول فيها فاعلاً هو البادىء بالمحاجَّة ، وأنّ بعض العلماء استشكل قوله تعالى في سورة [ البقرة : 258 ]

﴿ ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيمَ في ربّه ﴾ حيث قال : ﴿ إذ قال إبراهيم ربّي الذي يحيي ويميت ﴾ [ البقرة : 258 ] .

فبدأ بكلام إبراهيم وهو مفعول الفعل وأجاب بأنّ إبراهيم بدأ بالمقاولة ونمروذ بدأ المحاجَّة .

ولم يذكر أئمَّة اللّغة هذا القيد في استعمال صيغة المفاعلة .

*(94/238)*

---

ويجوز أن يكون المراد هنا أنَّهم سلكوا معه طريق الحجَّة على صحَّة دينهم أو على إبطال معتقده وهو يسمع ، فجعل سماعه كلامهم بمنزلة جواب منه فأطلق على ذلك كلمة المحاجَّة .

وأبهم احتجاجهم هنا إذ لا يتعلَّق به غرض لأنّ الغرض هو الاعتبار بثبات إبراهيم على الحقّ .

وحذف متعلّق ﴿ حاجّة ﴾ لدلالة المقام ، ودلالة ما بعده عليه من قوله : ﴿ أتحاجّوني في الله ﴾ الآيات .

وقد ذكرت حججهم في مواضع في القرآن ، منها قوله في سورة [ الأنبياء : 52 56 ] ﴿ إذ

قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين إلى قوله وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾ ، وقوله في سورة [ الشعراء : 72 ، 73 ] ﴿ قال هل يَسْمعونكم إذْ تدعون أو ينفعونكم أو يضرّون الآيات ﴾ وفي سورة [ الصافات : 85 98 ] ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون أئفكا آلهة دون الله تريدون إلى قوله فجعلناهم الأسفلين ﴾ وكلّها محاجَّة حقيقيّة ، ويدخل في المحاجّة ما ليس بحجَّة ولكنّه ممّا يرونه حججاً بأن خوّفُوه غضب آلهتهم ، كما يدلّ عليه قوله : ولا أخاف ما تشركون به ﴾ الآية .

والتقدير : وحاجّه قومه فقالوا : كيت وكيت .

وجملة ﴿ قال أتحاجّوني في الله ﴾ جوابُ محاجَّتهم ، ولذلك فصلت ، على طريقة المحاورات كما قدّمناه في قوله تعالى : ﴿ وإذ قال ربّك للملائكة إنِّي جاعل في الأرض خليفة ﴾ في سورة [ البقرة : 30 ] ، فإن كانت المحاجَّة على حقيقة المفاعلة فقوله أتحاجّوني ﴾ غلق لباب المجادلة وخَتْم لها ، وإن كانت المحاجّة مستعملة في الاحتجاج فقوله : ﴿ أتحاجّوني ﴾ جواب لمحاجّتهم ، فيكون كقوله تعالى: ﴿ فإن حاجّوك فقل أسلمتُ وجهي لله ﴾ [ آل عمران : 20 ] .

والاستفهام إنكار عليهم وتأييس من رجوعه إلى معتقدهم .

و ﴿ في ﴾ للظرفية المجازية متعلّقة بـ ﴿ تحاجّوني ﴾ ودخولها على اسم الجلالة على تقدير مضاف ، لأنّ المحاجَّة لا تكون في الذّوات ، فتعيّن تقدير ما يصلح له المقام وهو صفات الله الدّالَّة على أنَّه واحد ، أي في توحيد الله وهذا كقوله تعالى : ﴿ يُجَادلُنا في قوم لُوط ﴾ [ هود : 74 ] أي في استئصالهم .

وجملة ﴿ وقد هدانِ ﴾ حال مؤكَّدة للإنكار ، أي لا جدوى لمحاجَّتكم إيّاي بعد أن هداني الله إلى الحقّ ، وشأن الحال المؤكّدة للإنكار أن يكون اتّصاف صاحبها بها معروفاً عند المخاطب .

فالظاهر أنّ إبراهيم نزّلهم في خطابه منزلةَ من يعلم أنّ الله هَداه كناية على ظهور دلائل الهداية .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو جعفر ﴿ أتحاجّوني ﴾ بنون واحدة خفيفة وأصله أتحاجّونني بنونين فحذفت إحداهما للتخفيف ، والمحذوفة هي الثانية التي هي نون الوقاية على مختار أبي علي الفارسي .

قال : لأنّ الأولى نون الإعراب وأمّا الثّانية فهي موطّئة لياء المتكلّم فيجوز حذفها تخفيفاً ، كما قالوا : ليْتِي في لَيْتَنِي .

وذهب سيبويه أنّ المحذوفة هي الأولى لأنّ الثانية جلبت لتحْمِل الكسرة المناسبة للياء

ونون الرفع لا تكون مكسورة ، وأيّاً ما كان فهذا الحذف مستعمل لقصد التخفيف .

وعن أبي عمرو بن العلاء : أنّ هذه القراءة لحن ، فإن صحّ ذلك عنه فهو مخطىء في زعمه ، أو أخْطَأ من عزاه إليه .

وقرأه البقية بتشديد النّون لإدغام نون الرفع في نون الوقاية لقصد التخفيف أيضاً ، ولذلك تمدّ الواو لتكون المدّة فاصلة بين التقاء الساكنين ، لأنّ المدّة خفّة وهذا الالتقاءُ هو الذي يدعونه التقاء الساكنين على حَدّه .

وحذفت ياء المتكلّم في قوله ﴿ وقد هدانِ ﴾ للتخفيف وصلاً ووقفاً في قراءة نافع من رواية قالون ، وفي الوقف فقط في قراءة بعض العشرة .

وقد تقدّم في قوله تعالى : ﴿ أجيب دعوة الداعي إذا دَعَانِ ﴾ [ البقرة : 186 ] .

*(96/238)*

---

وقوله : ﴿ ولا أخاف ما تشركون به ﴾ معطوف على ﴿ أتحاجّوني ﴾ فتكون إخباراً ، أو على جملة ﴿ وقد هَدَانِ ﴾ فتكون تأكيداً للإنكار .

وتأكيدُ الإنكار بها أظهر منه لقوله ﴿ وقد هدانِ ﴾ لأنّ عدم خوفه من آلهتهم قد ظهرت دلائله عليه .

فقومُه إمَّا عالمون به أو منزّلون منزلة العالم ، كما تقدّم في قوله : ﴿ وقد هدَانِ ﴾ وهو يؤذن بأنَّهم حاجّوه في التّوحيد وخوّفوه بطش آلهتهم ومسَّهم إيَّاه بسوء ، إذ لا مناسبة بين إنكار محاجَّتهم إيَّاه وبين نفي خوفه من آلهتهم ، ولا بين هدى الله إيّاه وبين نفي خوفه آلهتهم ، فتعيَّن أنّهم خوّفوه مكر آلهتهم .

ونظير ذلك ما حكاه الله عن قوم هود ﴿ إنْ نقول إلاّ اعتراك بعضُ آلهتنا بسوء ﴾ [ هود : 54 ] .

و( ما ) من قوله : ﴿ ما تشركون به ﴾ موصولة ماصْدقها آلهتهم التي جعلوها شركاء لله في الإلهيّة .

والضمير في قوله ﴿ به ﴾ يجوز أن يكون عائداً على اسم الجلالة فتكون الباء لتعدية فعل ﴿ تشركون ﴾ ، وأن يكون عائداً إلى ( ما ) الموصولة فتكون الباء سببية ، أي الأصنام التي بسببها أشركتم .

وقوله : ﴿ إلاّ أن يشاء ربِّي شيئاً ﴾ استثناء ممّا قبله وقد جعله ابن عطية استثناء منقطعاً بمعنى لكنْ .

وهو ظاهر كلام الطبري ، وهو الأظهر فإنَّه لمّا نفى أن يكون يخاف إضرار آلهتهم وكان ذلك قد يتوهَّم منه السّامعون أنَّه لا يخاف شيئاً استدرك عليه بما دلّ عليه الاستثناءُ المنقطع ، أي لكن أخاف مشيئة ربِّي شيئاً ممَّا أخافه ، فذلك أخافُه .

وفي هذا الاستدراك زيادة نكاية لقومه إذ كان لا يخاف آلهتهم في حين أنَّه يخشى ربَّه المستحقّ للخشية إن كان قومه لا يعترفون بربّ غير آلهتهم على أحد الاحتمالين المتقدّمين .

(97/238)

---

وجعل الزمخشري ومتابعوه الاستثناء متّصلاً مفرّغاً عن مستثنى منه محذوف دلّ عليه الكلام ، فقدّره الزمخشري من أوقات ، أي لا أخاف ما تشركون به أبداً ، لأنّ الفعل المضارع المنفي يتعلّق بالمستقبل على وجه عموم الأزمنة لأنَّه كالنّكرة المنفية ، أي إلاّ وقت مشيئة ربِّي شيئاً أخافه من شركائكم ، أي بأنْ يسلّط ربِّي بعضها عليّ فذلك من قدرة ربِّي بواسطتها لا من قدرتها عليّ .

وجوّز أبو البقاء أن يكون المستثنى منه أحوالاً عامّة ، أي إلاّ حالَ مشيئة ربِّي شيئاً أخافه منها .

وجملة : ﴿ وسع ربِّي كلّ شيء علما ﴾ استئناف بياني لأنَّه قد يختلج في نفوسهم : كيف يشاء ربّك شيئاً تخافه وأنت تزعم أنَّك قائم بمرضاته ومؤيد لدينه فما هذا إلاّ شكّ في أمرك ، فلذلك فُصلت ، أي إنَّما لم آمن إرادة الله بي ضُرّا وإن كنت عبده وناصر دينه لأنَّه أعلم

بحكمة إلحاق الضرّ .

أو النفع بمن يشاء من عباده .

وهذا مقام أدب مع الله تعالى ﴿ فلا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون ﴾ [ الأعراف : 99 ] .

وجملة ﴿ أفلا تتذكَّرون ﴾ معطوفة على جملة ﴿ أتحاجّوني في الله وقد هَدانِ ﴾ .

وقُدّمت همزة الاستفهام على فاء العطف .

والاستفهام إنكار لعدم تذّكرهم مع وضوح دلائل التذكّر .

والمراد التذكّر في صفات آلهتهم المنافية لمقام الإلهية ، وفي صفات الإله الحقّ التي دلَّت عليها مصنوعاته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :



---

إن إبراهيم عليه السلام حاجهم في الله وهو قوله : ﴿ لا أُحِبُّ الآفلين ﴾ والقوم أيضاً حاجوه في الله ، وهو قوله تعالى خبراً عنهم : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللَّهِ ﴾

فحصل لنا من هذه الآية أن المحاجة في الله تارة تكون موجبة للمدح العظيم والثناء البالغ ، وهي المحاجة التي ذكرها إبراهيم عليه السلام ، وذلك المدح والثناء هو قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءاتينا ها إبراهيم على قَوْمِهِ ﴾ وتارة تكون موجبة للذم وهو قوله : ﴿ قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللهِ ﴾ ولا فرق بين هذين البابين إلا أن المحاجة في تقرير الدين الحق توجب أعظم أنواع المدح والثناء ، والمحاجة في تقرير الدين الباطل توجب أعظم أنواع الذم والزجر .

وإذا ثبت هذا الأصل صار هذا قانوناً معتبراً ، فكل موضع جاء في القرآن والأخبار يدل على تهجين أمر المحاجة والمناظرة فهو محمول على تقرير الدين الباطل ، وكل موضع جاء يدل على مدحه فهو محمول على تقرير الدين الحق والمذهب الصدق . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 49 ﴾

*(99/238)*

---

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ﴾

أي : جادلوه ، وأرادوا مغالبته بالحجة ، فيما ذهب إليه من توحيد الله ، ونفي الشركاء عنه ، تارة بأدلة فاسدة واقفة في حضيض التقليد ، وأخرى بالتخويف ، وقد أشير إلى جواب كل منهما ﴿ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ﴾ أي : أتجادلونني في توحيده ، وقد هداني لإقامة الحجج ، ورفع الشبه على نفي إلهية ما سواه ، وقد ثبت أنها ناقصة في ذواتها ، فكمالاتها من غيرها ، ولا إلهية للناقص بالذات ، لأن كماله لا يكون مطلقاً ، و ( تحاجوني ) بإدغام نون الجمع في نون الوقاية ، وقرئ بحذف الأولى .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ﴾ أي : لا أخاف معبوداتكم ، لأنها جمادات لا تضر بنفسها ولا تنفع ، وهو جواب عما خوفوه عليه الصلاة والسلام في أثناء المحاجة من إصابة مكروه من جهة أصنامهم ، كما قال لهود عليه السلام قومه : ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ [ هود : 54 ] . وتخويفهم ، وإن لم يسبق له ذكر فهم من قوله : ﴿ وَلَا أَخَافُ ﴾ .

وقال ابن كثير : أي : ومن الدليل على بطلان قولكم ؛ إن هذه المعبودات لا تؤثر شيئاً ، وأنا لا أخافها ولا أباليها ، فإن كان لها كيد فكيدوني بها ولا تُنظرون . انتهى .

﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً ﴾ أي : من إصابة مكروه بي من جهتها ، وذلك إنما هو من جهته تعالى ، من غير دخل لمعبوداتكم فيه أصلاً .

وفي " الانتصاف " : غاية خوف إبراهيم منها . المعلق على مشيئة الله تعالى لذلك ، خوف الضرر عندها بقدرة الله تعالى ، لا بها ، وكأنه في الحقيقة لم يخف إلا من الله ، لأن الخوف الذي أثبته منها معلق بمشيئة الله وقدرته ، وهو كالخوف منها – والله أعلم – .

وقوله تعالى : ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ كأنه علة الاستثناء ، أي : أحاط بكل شيء علماً . فلا يبعد أن يكون في علمه إنزال المخوف بي من جهتها ، أي : كرجمه بالنجوم لأنه إذا أحيل شيء إلى علم الله ، أشعر بجواز وقوعه . وفي الإظهار في موضع الإضمار ، مع التعرض لعنوان الربوبية ، إظهار منه عليه الصلاة والسلام لانقياده لحكمه سبحانه وتعالى ، واستسلام لأمره ، واعتراف بكونه تحت ملكوته وربوبيته .

هذا وجعل المهايمي ذلك علة لاستدراك محذوف ، لعلمه من المقام ، حيث قال في الآية : ولا أخاف الضرر على نفسي من تأثير ما تشركون به ، إلا أن يشاء ربي أن يجعل لهم شيئاً من التأثير ، لكنه لا يشاء في شأني لأنه : ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ فعلم أنه لو أوجد التأثير فيهم بما يضرون به من بعثه لتوحيده ، صار محجوباً انتهى –والأول أقرب – .

﴿ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي : تعتبرون بأن هذه المعبودات جمادات ، لا تضر ولا تنفع ، وأن النافع الضار هو الذي خلق السماوات والأرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 418.419 ﴾

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ﴾

وحاجّه أي حاججه بإدغام الجيمين في بعضهما . أي أن كل طرف يقول حجة والطرف الآخر يرد عليه بالحجة ، فإذا كنت في نقاش وكل واحد يدلي بحجته ، فهذا اسمه الحجاج ، أو الجدل المبطل ، أي أنك تبطل كلامه وهو يبطل كلامك .

﴿ وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتحاجواني فِي الله وَقَدْ هَدَانِ ﴾ [ الأنعام : 80 ]

وإذا كان إبراهيم قد جادلهم بمجاراة أفكارهم وأثبت بطلانها ، فكيف يجادلونه إذن ؟ .

كأن الغرض من الحِجاج صرف إبراهيم عن دينه الحنيف الذي ارتآه في قوله سبحانه : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السماوات والأرض حَنِيفاً وَمَآ أَنَاْ مِنَ المشركين ﴾ [ الأنعام : 79 ] .

ويرد عليهم : ﴿ أَتحاجواني فِي الله وَقَدْ هَدَانِ ﴾ [ الأنعام : 80 ] .

أي أن مسألة الإيمان قد حُسمت . فقد آمن إبراهيم بالله ويعلن للقوم ﴿ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْئاً ﴾ وهذا القول يدل على أنهم قد هددوه ؛ لأن كلمة "

الخوف " جاءت ونفاها عن نفسه . ويعلنها إبراهيم قوية : ﴿ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ﴾ أي لا أخاف من الكواكب التي تأفل سواء أكانت نجماً أم قمراً أم شمساً أم تلك الأصنام التي تعبدونها فليس لها نفع ولا ضر ، والضر والنفع هما من صنع الله فقط .

ولذلك تتجلى الدقة في الأداء العقدي فيقول الحق على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [ الأنعام : 80 ] .

*(102/238)*

---

فإن شاء الحق أن يُنزل على عبدٍ كوكباً يصعقه أو يحرقه فهذا موضع آخر لا دخل لمن يعبد الكواكب به ، ولا دخل للكواكب فيه أيضا ؛ لأن النافع والضار هو الله ، فحين يشاء الله الضر ، يأتي الضر وحين يشاء النفع يأتي النفع .

﴿ إِلاَّ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْئاً ﴾ [ الأنعام : 80 ]

أي اذكروا جيداً ، وافرقوا بين فعل يقع من فاعل ، وفعل يقع من آلة فاعلها غير تلك الآلة ، فحين يشاء الله أن يوقع على إنسان كوكباً ، أو صخرة فليست الصخرة هي التي صنعت وقوعها ، ولا الكوكب هو الذي أسقط نفسه ، إنما الفاعل هو الله : ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ

عِلْماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [ الأنعام : 80 ]

وقوله ﴿ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ يدل على أن قضايا العقائد مأخوذة بالفطرة ، وإقبال النفس على الشهوات هو ما يطمس آثار هذه الفطرة ، فليس المطلوب منك أيها الإنسان إنشاء فكرة عقدية بل المطلوب منك أن تتذكر فقط ، والتذكر أمر فطري طبيعي ؛ لأن الإنسان الخليفة في الأرض هو الذي تناسل من آدم إلى أن وصل إلينا ؛ فقد جاء آدم إلى الأرض ومعه منهج سماوي ينظم به حركة الحياة ، ولقن آدم المنهج لأولاده ، وكذلك فعل أبناء آدم مع أولادهم ، ولكن المناهج تنطمس ؛ لأن المناهج تتدخل في أهواء الناس وتثنيهم عن شهواتهم وتصدهم عن المفاسد فيعرضون عنها أو يتجاهلونها ، إذن فهي عرضة أن تُنسى ، والرسالات إنما تذكر بالمنهج الأصلي الذي أخذناه عن الحق سبحانه وتعالى ، لذلك يعلنها إبراهيم : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(103/238)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قرأ نافع ، وابن ذكوان ، وهشام بخلاف عنه بنون خفيفة ، والباقون بنون ثقيلة ، والتثقيل هو الأصل ؛ لأن النون الأولى نون الرفع في الأمثلة الخمسة ، والثانية نون الوقاية ، استثقل اجتماعهما ، وفيهما لغات ثلاث : الفَكُّ وتركهما على حالهما ، والإدغام ، والحذف ، وقد قرئ بهذه اللغات كلها في قوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ تأمرونيا ﴾ [ الزمر : 64 ] وهنام لم تقرأ إلا بالحذف أو الإدغام ، ونافع بالحذف ، والباقون يفتحون النون ، لأنها عندهم نون رفعن وفي سورة النحل : ﴿ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ﴾ [ آية : 27 ] بفتح النون عند الجمهور ، لأنها نون رفع ، وثرؤه نافع بنون مكسورة خفيفة على الحذف ، فنافع حذف إحدى النونين في جميع المواضع المذكورة فإنه يقرأ في الزُّمر أيضاً بحذف أحدهما :

وقوله تعالى : ﴿ أتعدانني ﴾ في الأحقاف [ آية : 17 ] قرأه هشام بالإدغام ، والباقون بالإظهار دون الحذف .

واختلف النحاة في أيّتهما المحذوفة ؛ فمذهب سيبويه ومن تبعه أن المحذوفة هي الأولى واستدلَّ سيبويه على ذلك بأن نون الرفع قد عُهِدَ حذفها دون مُلاقاةِ مِثْلِ رفعاً ؛ وأنشد : [ الطويل ]

2220 - فإنْ يَكُ قَوءمٌ سَرَّهُمْ مَا صَنَعْتُمُ . . .

سَتَحْتَلِبُوهَا لاقِحاً غَيْرَ باهِلِ

أي : فَسَتَحْتَلِبُونَهَا ، لا يقال : إن النون قد حذفت جَزْماً في جواب الشرط ؛ لأن الفاء هنا

واجبة الدخول لعدم صلاحية الجملة الجزائية شرطاً ن وإذا تقرر وجوب الفاء ن وإنما حذفت ضَرُورةً ثبت أن نون الرفع كان من حقها الثبوت ، إلا أنها حذفت ضرورة ، وأنشدوا أيضاً قوله : [ الرجز ]

2221 - أبيتُ أسْرِي وتَبِيتِي تَدْلُكِي . . .

وَجْهَكِ بالعَنْبَرِ والْمِسْكِ الذّكِي

أي : تبيتين وتدلكين .

وفي الحديث : " والَّذِي نَفْسِي بَيدِهِ لا تَدْخُلُوا الجَنَّة حَتَّى تُؤمِنُوا ولا تُمِنُوا ولا تُؤمنُوا حتَّى تَحَابُّوا " ف " لا " الدّاخلة على " تدخلوا " و " تؤمنوا " نافية لا ناهية لفساد المعنى عليه ، وإذا ثبت حَذْفُهَا دون مُلاقاة مِثْلٍ رفعاً فلأن تحذف مع ملاقاة مِثلٍ في فَصيح الكلام ؛ كقراءة أبي عمرو ﴿ يَنصُرْكُم ﴾ [ آل عمران : 160 ] و ﴿ يُشْعِرْكُمْ ﴾ [ الأنعام : 109 ] ﴿ يَأْمُرْكُمْ ﴾ [ البقرة : 67 ] وبابه بسكون آخر الفعل ، وقوله الشاعر : [ السريع ]

2222 - فَاليْومَ أشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ . . .

إثْماً مِنْ اللَّهِ ولَا وَاغِلِ

وإذا ثبت حذف الأصْلِ ، فليثبت حذف الفَرْعِ لئلا يلزم تَفْضِيل فَرْعٍ على أصله ، وأيضاً فإنَّ ادّعاءَ حذف نوع الرفع لا يُحْوِجُ على حَذْفٍ آخرن وحذف نون الوقاية قد يُحْوِجُ إلى ذلكن وبيانه بأنه إذا دَخَلَ نَاصِبٌ أو جازم على أحد هذه الأمثلة ، فلو كان المحذوف نُونَ الوقاية لكان ينبغي أن تُحْذَفَ هذه النون ، وهي تسقط للناصب والجازم ، بخلاف ادّعاءِ حذف نون الرفع ، فإنه لا يحوج إلى ذلك ؛ لأنه لا عمل له في الَّتِي للوقاية .

ولقائل أن يقول : لا يلزم من جوازِ حذفت الأصل حَذْفُ الفرع ؛ لأن في الأصل قوة تقتضي جوازَ حذفه ، بخلاف نون الوقاية ، ودخول الجازم والناصب لم نجد له شيئاً يحذفه ؛ لأن النون حذفت لعارضٍ آخر .

واستدلُّوا لسيبويه بأن نون الوقاية مَكْسُورةٌ ، فبقاؤها على حالها لا يلزم منه تغيير ، بخلاف ما لو ادَّعَيْنَا حذفها ، فإنَّا يلزمنا تغيير نون الرفع من فتح إلى كسر ، وتعليل العمل أوْلى ، واستدلوا أيضاً بأنها قد حذفت مع مثلها ، وإن لم تكن نون وقاية ؛ كقوله : [ البسيط ]

2223 - كُلُّ نِيَّةٌ فِي بُغْضِ صَاحبِهِ . . .

بِنعْمَةِ اللَّهِ نَقْلِيكُمْ وَتَقْلُونَا

أي : وتَقْلُونَنَا ، فاملحذوف نون الرفع لا نون " ن " ؛ لأنها ضميرن وعورض هذا بأن نون الرفع أيضا لها قوة لدلالتها على الإعرابن فحذفها أيضاً لا يجوز ، وجعل سيبويه المحذوفة من

قول الشاعر : [ الوافر ]

2224 - تَرَاهُ كالثَّغَامِ يُعَلُّ مِسْكاً . . .

يَسُوءُ الفَالِيَاتِ إذَا فَلَيْنِي

نون الفاعل لا نون الوقاية ، واستدلَّ الأخفش بأن الثقل إنما حصل بالثانية ؛ ولأنه قد استُغْنِيَ عنها ، فإنه إنما أتى بها لِتَقِيَ الفعل من الكسر ، وهو مَأْمُونٌ لوقوع الكسْرِ على نون الرفع ، ولأنها لا تَدُلُّ على معنى ، بخلاف نون الرفع ، وأيضاً فإنها تُحْذَفُ في نحو ليتنين فيقال : ليتي ؛ كقوله : [ الوافر ]

2225 - كَمُنْيَةِ جَابِرٍ إذْ قَالَ : لَيْتِي . . .

*(105/238)*

---

أُصَادِفُهُ وأَتْلِفُ بَعْضَ مَالِي

واعلم أن حَذْفَ النون في هذا النحو جائز فصيح ، ولا يلتفت إلى قَوْلِ مَنْ مَنَعَ من ذلك إلاَّ في ضرورة أو قليل من الكلام ، ولهذا عيبَ على مكي بن ابي طالب حيث قال : " الحذف بِعِيدٌ في العربية فبيح مكروه ، وإنما يجوز في الشعر لِلْوَزْنِ ، والقرآن لا يحتمل ذلك فيهح إذ لا ضرورة تدعو إليه " .

وتَجَاسَرَ القولان مَرْدُودَانِ عليهما ؛ لتواتر ذلك ، وقد تقدم الدليل على صِحَّته لغة .

وأيضاً فإن الثّقات بت " أتُحَاجُّونِّي " لا بـ " حَاجَّهُ " ، والمسألة من باب التَّنَازُعِ ، وأعْمِلَ الثاني ؛ لأنه لمَّا أضمر في الأول حذف ، ولو أعمل الأول لأضمر في الثاني من غير حَذْفٍ ، ومثله : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكلالة ﴾ [ النساء : 176 ] كذا قال أبو حيَّان ، وفيه نظر من حيث إن المعنى ليس على تَسَلُّطِ " وَحَاجَّهُ " على قوله : " في اللَّه " ؛ إذ الظاهر انْقِطَاعُ الجملة القولية عما قبلها .

وقوله : " فِي اللَّهِ " أي : في شأنه ، ووحدانيته .

قوله " وَقَدْ هَدَانِي " أي : للتوحيد والحق ، وهذه الجملة في مَحَلِّ نصب على الحال ، وفي صاحبها وجهان :

أظهرهما : أَنَّهُ الياء في " أتحاجونني " ، أي : أتجادلونني فيه حال كوني مهدياً من عنده .

والثاني : أَنَّهُ حالٌ من " الله " أي : أتخاصمون فيه حال كونه هادياً لي ، فحجتكم لا تُجْدِي شيئاً ؛ لأنها دَاحِضَةٌ .

قوله : " ولا أخَافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ " هذه الجملة يجوز أن تكون مستأنفةً ، أخبر عليه الصلاة والسلام بأنه لا يخاف ما يشركون به ، وإنما ثِقَتُهُ بربِّه ، وكانوا قد خَوَّفُوهُ من ضَرَرٍ يحل لَهُ بسبب سَبِّ آلهتهم .

ويحتمل أن تكون في مَحَلِّ نصب على الحال باعتبارين :

أحدهما : أن تكون ثانيةً عَطْفاً على الأولى فتكون الحالان من الياء في " أُتحَاجُّونِّي " .

(106/238)

---

والثاني : أنها حالٌ من " الياء " في " هداني " ، فتكون جملةً حاليةً من بعض جملة حاليةٍ ، فهي قريبة من الحال المتداخلة ، إلاَّ أنه لا بُدَّ من إضمارِ مبتدأ على هذا الوجه قبل الفعل المضارع ، لما تقدَّم من أنَّ الفعل المضارع المنفي بت " لا " حُكْمُهُ حُكْمُ المثبت من حيث إنه لآ تُبَاشِرُهُ الواو .

و " ما " يجوز فيها الأوجه الثلاثة : أن تكون مصدريَّة ، وعلى هذا فالهاء في " به " لا تعود على " ما " عند الجمهور ، بل تَعُودُ على اللَّهِ تعالى ، والتقديرُ : ولا أخَافُ إشراككم باللَّهِ ، والمفعول محذوف ؛ أي : ما تشركون غير اللَّهِ به ، وأن تكون بمعنى " الذي " ، وأن تكون نَكِرَةً موصوفةً ، والهاء في " به " على هَذَيْنِ الوجهين تعود على " ما " ، والمعنى : ولا أخاف الذين تشركون الله به ، فحذف المعفول أيضاً ، كما حذفه في الوجه الأوَّلِ .

وقدَّرَ أبو البقاءِ قبل الضمير مُضَافاً ، فقا : ويجوز أن تكون الهاء عائدجة على " ما " أي : ولا أخافُ الذي تشركون به ، ولا حاجةَ إلى ذلك .

قوله : " إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً " في هذا الاستثناء قولان :

أظهرهما : أنه متَّصِلٌ .

والثاني : أنه منقطع ، والقائلون بالاتِّصالِ اختلفوا في المستثنى منه ، فجعله الزمخشري زماناً ، فقال : " إلاَّ وقت مشيئة ربِّي شيئاً يخاف ، فحذف الوقت ، يعني : لا أخافُ معبوداتكم في وقتٍ قَطُّ ؛ لأنها لا تَقْدِرُ على منفعة ولا مضرَّة ، إلاَّ إذا شاء ربِّي " .

وجعله أبو البقاء حالاً ، فقال : تقديره إلاَّ في حال مشيئة ربِّين أيْ : لا أخافها في كُلِّ حالٍ إلاَّ في هذه الحالِ .

وممن ذهب إلى انْقِطَاعِهِ ابن عطية ، والحوفي ، وأبو القفاء في أحَدِ الوجهين .

فقال الحوفي : تقديره : " ولكنْ مشيئة اللَّهِ أيَّاي بضُرِّ أخاف " .

وقال غيره : معناه : ولكن إن شاء ربِّي شيئاً ، أي سواء فيكون ما شاء .

*(107/238)*

---

وقال ابن عطية : استثناءً ليس من الأوَّلِ ، ولما كانت قوة الكلام أنه لا يخاف ضُرّاً ، استثنى مشيئة ربَّه في أن يريده بِضُرٍّ .

قوله : " شيئاً " يجوز فيه وجهان :

أظهرهما : أنه مَنْصُوبٌ على المصدر تقديره : إلاَّ أن يشاء ربي شيئاً من المَشِيئَةِ .

والثاني : أَنَّهُ مفعول به لـ " شيئاً " ، وإنما كان الأوَّل أُظْهَرَ لوجهين :

أحدهما : أن الكلام المؤكّد أقوى وأثبت في النَّفْس من غير المؤكّد .

والثانهي : أَنَّهُ قد تقدَّمَ أن مفعول المشيئة والإرادة لا يذكران إلاَّ إذا كان فيهما غرابة كقوله :

[ الطويل ]

2226 - وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دَماً لَبَكَيْتُهُ . . . . . .

قوله : " علماً " فيه وجهان :

أظهرهما : أنه منصوب على التمييز ، وهو مُحَوَّلٌ عن الفاعلِ ، تقديره : " وسع علم ربّي كُلَّ شيء " كقوله : ﴿ واشتعل الرأس شَيْباً ﴾ [ مريم : 4 ] أي : شيب الرأس .

والثاني : أنه مَنصُوبٌ على المفعولِ المطلق ، لأن معنى وَسِعَ : عَلِمَ .

قال أبو البقاء : " لأنَّ الشَّيْءَ فَقَدْ أَحَاطَ به ، والعالم بالشيء مُحيطٌ بعلمه " .

قال شهابُ الدّين : وهذا الَّذِي ادَّعَاهُ من المجاز بعيدٌ .

و " كل شيء " مفعول لت " وسع " على التقديرين .

و " أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ " جملة تقرير وتوبيخ ، ولا مَحَلَّ لها لاستئنافها ، والمعنى : أفلا تتذكرون أن نَفْيَ الشركاء والأضداد والأنداد عن اللَّهِ لا يوجبُ حلول العذاب ونزول العقاب ،

والسَّعْي في إثبات التوحيد والتنزيه لا يوجب استحقاق العذاب والعقاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 252 . 257 ﴾ . باختصار .

(108/238)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (80) ﴾

يعني قال لهم أترومون سَتْرَ الشموسِ بإسبال أكمامكم عليها أو تريدون أن تجروا ذيولكم وأن تُسْدِلوا سجوفَكم على ضياء النهار وقد تعالى سلطانُه وتوالى بيانُه ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 485 ﴾

(109/238)

---

قوله تعالى ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

وتعجب منهم في ظنهم خوفه من معبوداتهم بقوله منكراً : ﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ﴾ أي من دون الله من الأصنام وغيرها مع أنها لا تقدر على شيء ﴿ ولا ﴾ أي والحال أنكم أنتم لا ﴿ تخافون أنكم أشركتم بالله ﴾ أي المستجمع لصفات العظمة والقدرة على العذاب والنقمة .

ولما كان له سبحانه أن يفعل ما يشاء قال : ﴿ ما لم ينزل به ﴾ أي بإشراكه ؛ ولما كان المقام صعباً لأنه أصل الدين ، أثبت الجار والمجرور وقدمه فقال : ﴿ عليكم سلطاناً ﴾ أي حجة تكون مانعة من إنزاله الغضبَ بكم ، والحاصل أنه عليه السلام أوقع الأمن في موضعه وهم أوقعوه في موضع الخوف ، فعجب منهم لذلك فبان أن هذا وقول شعيب عليه السلام في الأعراف ﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها إلاّ أن يشاء الله ربنا ﴾ [ الأعراف : 89 ] - الآية ، وقوله تعالى في الكهف ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلاّ أن يشاء الله ﴾ [ الكهف : 24 ] من مشكاة واحدة ؛ ولما كان المحذور المنفي هنا إنما هو خوف الضرر من آلهتهم ، وكان حصول الضرر لمخالفها بواسطة أتباعها أو غيرهم من سنن الله الجارية في

عباده ، اقتصر الخليل عليه السلام على صفة الربوبية المقتضية للرأفة والرحمة والكفاية والحماية ، وقد وقع في قصته الأمران : إمكانهم من أسباب ضرره بإيقاد النار وإلقائهم له فيها ، ورحمته بجعلها عليه برداً وسلاماً ؛ ولما كان المحذور في قصة شعيب عليه السلام العود في ملتهم ، زاد الإتيان بالاسم الأعظم الجامع لجميع الكمالات المنزه عن جميع النقائص المقتضي لاستحضار الجلال والعظمة والتفرد والكبر المانع من دنو ساحات الكفر – والله الموفق .

ولما بان كالشمس بما أقام من الدليل أنه أحق بالأمن منهم ، قال مسبباً عما مضى تقريراً لهم : ﴿ فأيّ الفريقين ﴾ أي حزب الله وحزب ما أشركتم به ، ولم يقل : فأيّنا ، تعميماً للمعنى ﴿ أحق بالأمن ﴾ وألزمهم بالجواب حتماً بقوله : ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ أي إن كان لكم علم فأخبروني عما سألتكم عنه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 662 .

663 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذا من بقية الجواب عن الكلام الأول ، والتقدير : وكيف أخاف الأصنام التي لا قدرة لها على النفع والضر ، وأنتم لا تخافون من الشرك الذي هو أعظم الذنوب .

وقوله : ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سلطانا ﴾ فيه وجهان : الأول : أن قوله : ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سلطانا ﴾ كناية عن امتناع وجود الحجة والسلطان في مثل هذه القصة .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللهِ إلها ءَاخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ﴾ [ المؤمنون : 117 ]

والمراد منه امتناع حصول البرهان فيه ، والثاني : أنه لا يمتنع عقلاً أن يؤمر باتخاذ تلك التماثيل والصور قبلة للدعاء والصلاة فقوله : ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سلطانا ﴾ معناه : عدم ورود الأمر به .

وحاصل هذا الكلام : مالكم تنكرون على الأمن في موضع الأمن ، ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف ؟ ولم يقل : فأينا أحق بالأمن أنا أم أنتم ؟ احترازاً من تزكية نفسه فعدل عنه إلى قوله : ﴿ فَأَىُّ الفريقين ﴾ يعني فريقي المشركين والموحدين .

ثم استأنف الجواب عن السؤال بقوله : ﴿ الذين ءامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إيمانهم بِظُلْمٍ ﴾ وهذا من تمام كلام إبراهيم في المحاجة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 49 .

50 ﴾

*(111/238)*

وقال أبو حيان :

﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون إنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ﴾ استفهام معناه التعجب والإنكار كأنه تعجب من فساد عقولهم حيث خوفوه خشباً وحجارة لا تضر ولا تنفع ، وهم لا يخافون عقبى شركهم بالله وهو الذي بيده النفع والضر والأمر كله ﴿ ولا تخافون ﴾ معطوف على ﴿ أخاف ﴾ فهو داخل في التعجب والإنكار واختلف متعلق الخوف فبالنسبة إلى إبراهيم علق الخوف بالأصنام وبالنسبة إليهم علقه بإشراكهم بالله تعالى تركاً للمقابلة ، ولئلا يكون الله عديل أصنامهم لو كان التركيب ولا تخافون الله تعالى وأتى بلفظ ﴿ ما ﴾ الموضوعة لما لا يعقل لأن الأصنام لا تعقل إذ هي حجارة وخشب وكواكب ، والسلطان الحجة والإشراك لا يصح أن يكون عليه حجة وكأنه لما أقام الدليل العقلي على بطلان الشركاء وربوبيتهم ، نفى أيضاً أن يكون على ذلك دليل سمعي فالمعنى أن ذلك ممتنع عقلاً وسمعاً فوجب اطراحه ، وقرىء ﴿ سلطاناً ﴾ بضم اللام والخلاف هل ذلك لغة فيثبت به بناء فعلان بضم الفاء والعين أو هو اتباع فلا يثبت به .

﴿ فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ﴾ لما خوفوه في مكان الأمن ولم يخافوا في مكان الخوف أبرز الاستفهام في صورة الاحتمال وإن كان قد علم قطعاً أنه هو الآمن لا هم كما قال الشاعر :

فلئن لقيتك خاليين لتعلمن . . .

أني وايك فارس الأحزاب

أي أينا ومعلوم عنده أنه هو فارس الأحزاب لا المخاطب وأضاف أيا إلى الفريقين ، ويعني فريق المشركين وفريق الموحدين وعدل عن أينا أحق بالأمن أنا أم أنتم احترازاً من تجريد نفسه فيكون ذلك تزكية لها ، وجواب الشرط محذوف أي إن كنتم من ذوي العلم والاستبصار فأخبروني أي هذين الفريقين أحق بالأمن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

*(112/238)*

---

وقال أبو السعود :

وقوله تعالى : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ﴾

استئنافٌ مَسوقٌ لنفي الخوفِ عنه عليه السلام بحسَب زعمِ الكفَرةِ بالطريق الإلزاميِّ كما سيأتي بعد نفيه عنه بحسب الواقع ونفسِ الأمر ، والاستفهامُ لإنكار الوقوعِ ونفيِه بالكلية ، كما في قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ ﴾ الآية ، لا لإنكار الواقعِ واستبعادِه مع وقوعه ، كما في قوله : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾ الخ ، وفي توجيه الإنكارِ إلى

كيفية الخوفِ من المبالغة ما ليس في توجيهه إلى نفسه بأن يقال أأخافُ لما أن كلَّ موجود يجب أن يكونَ وجودُه على حال من الأحوال وكيفيةٍ من الكيفيات قطعاً ، فإذا انتفى جميعُ أحواله وكيفياتِه فقد انتفى وجودُه من جميع الجهات بالطريق البرهاني ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ ﴾ حال من ضمير ( أخاف ) بتقدير مبتدأ والواوُ كافيةٌ في الربط من غير حاجة إلى الضمير العائد إلى ذي الحال ، وهو مقرِّرٌ لإنكار الخوفِ ونفيه عنه عليه السلام ومُفيدٌ لاعترافهم بذلك ، فإنهم حيث لم يخافوا في محلِّ الخوف فلأَنْ لا يَخافُ عليه السلام في محل الأمنِ أولى وأحرى ، أي كيف أخافُ أنا ما ليس في حيز الخوفِ أصلاً وأنتم لا تخافون غائلةَ ما هو أعظمُ المخلوقات وأهولُها ، وهو إشراكُكم بالله الذي ليس كمثله شيءٌ في الأرض ولا في السماء ما هو من جملة مخلوقاته ، وإنما عبّر عنه بقوله تعالى : ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ ﴾ أي بإشراكه ﴿ عَلَيْكُمْ سلطانا ﴾ على طريقة التهكّم مع الإيذان بأن الأمورَ الدينية لا يُعوَّل فيها إلا على الحُجة المنزلةِ من عند الله تعالى ، وفي تعليق الخوفِ الثاني بإشراكهم من المبالغةِ ومراعاةِ حسنِ الأدب ما لا يخفى .

*(113/238)*

هذا ، وأما ما قيل من أن قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَخَافُونَ ﴾ الخ ، معطوفٌ على أخاف داخل معه في حكم الإنكار والتعجيب فمما لا سبيلَ إليه أصلاً ، لإفضائه إلى فساد المعنى قطعاً ، كيف لا وقد عرّفتُك أن الإنكارَ بمعنى النفي بالكلية فيؤول المعنى إلى نفي الخوفِ عنه عليه الصلاة والسلام ، ونفي نفيه عنهم ، وأنه بيّنُ الفساد ، وحملُ الإنكارِ في الأول على معنى نفي الوقوعِ وفي الثاني على استبعاد الواقع مما لا مَساغَ له ، على أن قوله تعالى : ﴿ فَأَيُّ الفريقين أَحَقُّ بالأمن ﴾ ناطقٌ ببُطلانه حتماً ، فإنه كلام مرتَّبٌ على إنكار خوفِه عليه الصلاة والسلام في محل الخوف ، مَسوقٌ لإلجائهم إلى الاعتراف باستحقاقه عليه الصلاة والسلام لما هو عليه من الأمن ، وبعدم استحقاقِهم لما هم عليه ، وإنما جيءَ بصيغة التفضيلِ المُشعِرَة باستحقاقهم له في الجملة لاستنزالهم عن رُتبة المكابرة والاعتسافِ بسَوْق الكلام على سَنن الإنصاف ، والمرادُ بالفريقين الفريقُ الآمنُ في محل الأمن والفريقُ الآمنُ في محلِّ الخوف ، فإيثارُ ما عليه النظمُ الكريم على أن يُقال فأيُّنا أحقُّ بالأمن أنا أم أنتم ؟ لتأكيد الإلجاءِ إلى الجواب الحقِّ بالتنبيه على علّة الحُكم ، والتفادي عن التصريح بتخطئتهم لا لمجردِ الاحترازِ عن تزكية النفس ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ المفعولُ إما محذوفٌ تعويلاً على ظهوره بمعونه المقام ، أي إن كنتم تعلمون من أحقُّ بذلك ، أو قصداً إلى التعميم أي إن كنتم تعلمون شيئاً ، وإما متروكٌ بالمرة ، أي إن كنتم مِنْ أُولي العلم ، وجوابُ الشرط محذوفٌ أي فأخبروني . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ﴾ استئناف كما قال شيخ الإسلام مسوق لنفي الخوف عنه عليه السلام بحسب زعم الكفرة بالطريق الإلزامي بعد نفيه عنه بحسب الواقع ونفس الأمر ؛ والاستفهام لإنكار الوقوع ونفيه بالكلية ؛ وفي توجه الانكار إلى كيفية الخوف من المبالغة ما ليس في توجيهه إلى نفسه بأن يقال : أأخاف لما أن كل موجود لا يخلو عن كيفية فإذا انتفى جميع كيفياته فقد انتفى وجوده من جميع الجهات بالطريق البرهاني ، و﴿ كَيْفَ ﴾ حال والعوامل فيها ﴿ أَخَافُ ﴾ و( ما ) موصولة أو نكرة موصوفة والعائد محذوف ، وجوز أن تكون مصدرية .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ أَخَافُ ﴾ بتقدير مبتدأ لمكان الواو .

وقيل : لا حاجة إلى التقدير لأن المضارع المنفي قد يقرن بالفاء ، ولا حاجة هنا إلى ضمير عائد إلى ذي الحال لأن الواو كافية في الربط وهو مقرر لإنكار الخوف ونفيه عنه عليه السلام ومفيد لاعترافهم بذلك فإنهم حيث لم يخافوا في محل الخوف فلأن لا يخاف عليه السلام في

محل الأمن أولى وأحرى أي كيف أخاف أنا ما ليس في حيز الخوف أصلاً وأنتم لا تخافون غائلة ما هو أعظم المخوفات وأهولها وهو إشراككم بالله تعالى الذي ( فطر السموات والأرض ) ما هو من جملة مخلوقاته ، وعبر عنه بقوله سبحانه : ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سلطانا ﴾ أي حجة على طريق التهكم قيل مع الإيذان بأن الأمور الدينية لا يعول فيها إلا على الحجة المنزلة من عند الله تعالى .

وضمير ﴿ بِهِ ﴾ عائد على الموصول والكلام على حذف مضاف أي بإشراكه .

وجوز أن يكون راجعاً إلى الإشراك المقيد بتعلقه بالموصول ولا حاجة إلى العائد ، وهو على ما قيل مبني على مذهب الأخفش في الاكتفاء في الربط برجوع العائد إلى ما يتلبس بصاحبه .

وذكر متعلق الإشراك وهو الاسم الجليل في الجملة الحالية دون الجملة الأولى قيل لأن المراد في الجملة الحالية تهويل الأمر وذكر المشرك به أدخل في ذلك .

وقال بعض المحققين : الظاهر أن يقال في وجه الذكر في الثانية والترك في الأولى أنه لما قيل قبيل هذا ﴿ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ﴾ [ الأنعام : 80 ] كان ( ما ) هنا كالتكرار له فناسب الاختصار وأنه عليه السلام حذفه إشارة إلى بعد وحدانيته تعالى عن الشرك فلا ينبغي عنده نسبته إلى الله تعالى ولا ذكر معه .

ولما ذكر حال المشركين الذين لا ينزهونه سبحانه عن ذلك صرح به ، وقيل : إن ذكر الاسم الجليل في الجملة الثانية ليعود إليه الضمير في ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ ﴾ وليس بشيء لأنه يكفي سبق ذكره في الجملة ، وقيل : لأن المقصود إنكاره عليه السلام عدم خوفهم من إشراكهم بالله تعالى لأنه المنكر المستبعد عند العقل السليم لا مطلق الإنكار ولا كذلك في الجملة الأولى فإن المقصود فيها إنكار أن يخاف عليه السلام غير الله تعالى سواء كان مما يشركه الكفار أو لا ؛ وليس بشيء أيضاً لأن الجملة الثانية ليست داخلة مع الأولى في حكم الإنكار إلا عند مدعي العطف وهو مما لا سبيل إليه أصلاً لإفضائه إلى فساد المعنى قطعاً لما تقدم أن الإنكار بمعنى النفي بالكلية فيؤول المعنى إلى نفي الخوف عنه عليه السلام ونفي نفيه عنهم وإنه بين الفساد ، وأيضاً إن ﴿ مَا أَشْرَكْتُمْ ﴾ كيف يدل على ما سوى الله تعالى غير الشريك ؟ إن هذا إلا شيء عجاب ثم إن الآية نص في أن الشرك مما لم ينزل به سلطان . وهل يمتنع عقلاً حصول السلطان في ذلك أم لا ؟ ظاهر كلام بعضهم .

وفي أصول الفقه ما يؤيده في الجملة الثاني والذي اختاره الأول ، وقول الإمام : "إنه لا يمتنع عقلاً أن يؤمر باتخاذ تلك التماثيل والصور قبلة للدعاء" ليس من محل الخلاف كما لا يخفى على الناظر فانظر .

﴿ فَأَيُّ الفريقين أَحَقُّ بالامن ﴾ كلام مرتب على إنكار خوفه عليه السلام في محل الأمن مع تحقق عدم خوفهم في محل الخوف مسوق لإلجائهم إلى الاعتراف باستحقاقه عليه السلام لما هو عليه من الأمن وبعدم استحقاقهم لما هم عليه ، وبهذا يعلم ما في دعوى أن الانكار في الجملة الأولى لنفي الوقوع وفي الثانية لاستبعاد الواقع ، وإنما جيء بصيغة التفضيل المشعرة باستحقاقهم له في الجملة لاستنزالهم عن رتبة المكابرة والاعتساف بسوق الكلام على سنن الانصاف ، والمراد بالفريقين الفريق الآمن في محل الأمن والآمن في محل الخوف ، فإيثار ما في النظم الكريم كما قيل على أن يقال : فأينا أحق بالأمن أنا أم أنتم ؟ لتأكيد الإلجاء إلى الجواب ( الحق ) بالتنبيه على علة الحكم والتفادي عن التصريح بتخطئتهم التي ربا تدعو إلى اللجاج والعناد مع الإشارة بما في النظم إلى أن أحقية الأمن لا تخصه عليه السلام بل تشمل كل موحد ترغيباً لهم في التوحيد .

﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي من هو أحق بذلك أو شيء من الأشياء أو إن كنتم من أولي العلم فأخبروني بذلك .

وقرىء ﴿ سلطانا ﴾ بضم اللام ، وهي لغة اتبع فيها الضم الضم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعاني حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ﴾

عُطفت جملة ﴿ وكيف أخاف ﴾ على جملة : ﴿ ولا أخاف ما تشركون به ﴾ [ الأنعام : 80 ] ليبيّن لهم أنّ عدم خوفه من آلهتهم أقلّ عجباً من عدم خوفهم من الله تعالى ، وهذا يؤذن بأنّ قومه كانوا يعرفون الله وأنَّهم أشركوا معه في الإلهية غيره فلذلك احتجّ عليهم بأنّهم أشركوا بربّهم المعتَرف به دون أن يُنَزّل عليهم سلطاناً بذلك .

و﴿ كيف ﴾ استفهام إنكاري ، لأنَّهم دعَوه إلى أن يخاف بأس الآلهة فأنكر هو عليهم ذلك وقلب عليهم الحجَّة ، فأنكر عليهم أنَّهم لم يخافوا الله حين أشركوا به غيره بدون دليل نصبه لهم فجَمَعَت ( كيف ) الإنكارَ على الأمرين .

*(117/238)*

---

قالوا وفي قوله : ﴿ ولا تخافون أنَّكم أشركتم ﴾ يجوز أن تكون عاطفة على جملة : ﴿ أخاف ما أشركتم ﴾ فيدخل كلتاهما في حكم الإنكار ، فخوفُه من آلهتهم مُنكر ، وعدم خوفهم من الله منكر .

ويجوز أن تكون الواو للحال فيكون محلّ الإنكار هو دعوتَهم إيّاه إلى الخوف من آلهتهم في حال إعراضهم عن الخوف ممَّن هو أعظم سلطاناً وأشدّ بطشاً ، فتفيد ( كيف ) مع الإنكار معنى التعجيب على نحو قوله تعالى : ﴿ أتأمرون النّاس بالبرّ وتنسون أنفسكم ﴾ [ البقرة : 44 ] .

ولا يقتضي ذلك أنّ تخويفهم إيَّاه من أصنامهم لا ينكَر عليهم إلاّ في حال إعراضهم عن الخوف من الله لأنّ المقصود على هذا إنكار تحميق ومقابلة حال بحال ، لا بيان ما هو منكر وما ليس بمنكر ، بقرينة قوله في آخره ﴿ فأي الفريقين أحقّ بالأمن ﴾ .

وهذا الوجه أبلغ .

و ﴿ ومَا أشركتُم ﴾ موصولة والعائد محذوف ، أي ما أشركتُم به .

حذف لدلالة قوله : ﴿ ولا أخاف ما تشركون به ﴾ [ الأنعام : ] عليه ، والموصول في محلّ المفعول ( به ) ، ل ﴿ ما أشركتم ﴾ .

وفي قوله : ﴿ أنَّكم أشركتم ﴾ حُذفت ( من ) المتعلّقة بـ ﴿ تخافون ﴾ لاطِّراد حذف الجارّ مع ( أنّ ) ، أي من إشراككم ، ولم يقل : ولا تخافون الله ، لأنّ القوم كانوا يعرفون الله ويخافونه ولكنَّهم لم يخافوا الإشراك به .

﴿ وما لم ينزّل به عليكم سلطاناً ﴾ موصول مع صلته مفعول ﴿ أنَّكم أشركتم ﴾ .

ومعنى ﴿ لم يُنزّل به عليكم ﴾ لم يخبركم بإلهية الأصنام التي عبدتموها ولم يأمركم بعبادتها

خبَراً تعلمون أنَّه من عنده فلذلك استعار لذلك الخبر التنزيل تشبيهاً لعظم قدره بالرفعة ، ولبلوغه إلى من هم دون المخبر ، بنزول الشيء العالي إلى أسفلَ منه .

والسلطان : الحجّة لأنَّها تتسلَّط على نفس المخاصم ، أي لم يأتكم خبر منه تجعلونه حجَّة على صحَّة عبادتكم الأصنام .

(118/238)

---

والفاء في قوله : ﴿ فأي الفريقين ﴾ تفريع على الإنكار ، والتعجيب فَرع عليهما استفهاماً ملجئاً إلى الاعتراف بأنَّهم أوْلى بالخوف من الله من إبراهيم من آلهتهم .

والاستفهام بـ ﴿ أيّ ﴾ للتقرير بأنّ فريقه هو وحده أحقّ بالأمن .

والفريق : الطائفة الكثيرة من النّاس المتميّزة عن غيرها بشيء يجمعها من نسب أو مكان أو غيرهما ، مشتقّ من فَرَق إذا ميّز .

والفِرْقَة أقلّ من الفريق ، وأراد بالفريقين هنا قومه ونفسه ، فأطلق على نفسه الفريق تغليباً ، أو أراد نفسه ومن تبعه إن كان له أتباع ساعتئذٍ ، قال تعالى : ﴿ فآمن له لوط ﴾ [ العنكبوت : 26 ] ، أو أراد من سيوجد من أتباع ملَّته ، كما يناسب قوله ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ [ الأنعام : 82 ] .

والتعريف في ﴿ الأمن ﴾ للجنس ، وهو ضدّ الخوف ، وجملة ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ مستأنفة ابتدائية ، وجواب شرطها محذوف دلّ عليه الاستفهام ، تقديره : فأجيبوني ، وفيه استحثاث على الجواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(119/238)

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ﴾

يقول لهم سيدنا إبراهيم : أنا لا أخاف إلا الله ، ولا أخاف ما أشركتم أنتم به مما لا يضر ولا ينفع . و" كيف " هنا تأتي للتعجيب ؛ لأن المنطق أن نخاف من الله وحده الذي يضر وينفع . وحين تدور مجادلة تستيقظ في كل طرف ذاتية المجادل ، وهناك من يستنكفون من الحق ، ليس لأنه حق لكن لخوفهم أن ينهزموا أمام واحد مثيل لهم ، ومن يريد أن يصل إلى الحقيقة بدون استعلاء لا يعطي الحكم بما يحرك الذاتية في الخصم المجادل ؛ لذلك لم يقل سيدنا إبراهيم : أنا أم أنتم أحق بالأمن ؟ بل قال : ﴿ فَأَيُّ الفريقين أَحَقُّ بالأمن ﴾ مثلما علم ربنا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ

مُّبِينٍ ﴾ [ سبأ : 24 ] .

وهذا منتهى الحيدة في الجدل ، فلم يصرح بأن منهجهم هو الضلال وأن منهجه هو الصواب المستقيم ثقة منه أنهم حين يستعرضون منهجه ويستعرضون منهجهم سيحكمون بأنه صلى الله عليه وسلم على هدى وأنهم على ضلال . وهذا هو الجدل الارتقائي ، مثلما يعلم الحق رسوله ليقول لخصومه : ﴿ قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [ سبأ : 25 ] .

هل يفعل الرسول جرائم ؟ حاشا لله أن يفعل ذلك فهو المعصوم .

*(120/238)*

---

وكأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لهم : اسألوا عني إن كنت أجرّمت ؛ ولم يقل لهم وصفا لأعمالهم : " ولا نسأل عما تجرمون " بل قال " ﴿ وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ . فلم يأت بمسألة الإجرام بالنسبة لهم ؛ وجاء بها بالنسبة له ، لأنه واثق أنهم إن أعادوا دراسة القضية فكرياً وعقدياً وعاطفياً فسينتهون إلى الإيمان بمنهجه . وهذا منتهى اللطف في الجدل .

ويتجلى اللطف في الجدل في قوله الحق : ﴿ فَأَيُّ الفريقين أَحَقُّ بالأمن إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [

الأنعام : 81 ] .

والعِلْمُ هو أن تأخذ قضية تعتقدها ولها واقع وتستطيع أن تدلل عليها ، وإن اختل شرط فيها فهذا خروج عن العلم ، ومثال ذلك ألفاظ اللغة ؛ كل لفظ وضع لمعنى ، وساعة تسمع اللفظ وأنت تعرف اللغة تفهم المعنى ؛ فحين أقول : الشمس . تتصور أنت الشمس في ذهنك ، وكذلك الأرض والماء والجبل . فأنت عرفت مدلول هذه الألفاظ بدون أن تكون هناك نسبة . ونعلم أن هناك فرقاً بين معنى اللفظ مفرداً ، وما يعطيه ويفيده اللفظ إذا جاء في نسبة .

فإذا جاء اللفظ في نسبة فلا بد أن توجد قضية ، فإذا قلنا الشمس محجوبة بالغيم فهذه قضية ، أو قلنا : الشمس تغيب فهذه قضية أخرى وهنا نسبنا شيئاً لشيء ، ولكننا قبل أن نأتي بالقضايا النسبية لا بد أن يكون للفظ معنى في ذاته ، وهذه اسمها معاني اللغة ، وتضم من خلالها لفظا إلى لفظ فتنشأ نسبة أو قضية شريطة أن نعرف معنى مفرداتها ، وبعد ذلك نعرف النسب ، وهي ما نقول عنه : مبتدأ وخبر ، موضوع ومحمول ، مسند ومسند إليه ، فعل وفاعل أي أمر منسوب إلى أمر .

*(121/238)*

والعلم – كما قلنا – هو قضية واقعية ، تعتقدها وتستطيع أن تدلل عليها . وإن اختل أمر من هذا لا يكون علماً ، فإن كنت تعتقد في قضية إلا أنها غير واقعية ، فهذا كذب .

وعندما أقول : إن هناك من يعتقدون أن الأرض كروية فهل الواقع كذلك أولا ؟ . وإن كنت تعتقد شيئاً وهو واقع ، ولم تستطع أن تدلل عليه فهذا تقليد ، وإن لم يكن الشيء متيقنا وقد تساوى فيه الطرفان فهذا هو الشك . وإن كان هناك طرف راجح عن طرف آخر فهو الظن . والطرف المرجوح هو ما يسمّى بالوهم . وكل قضايا نسبية لا تخرج عن هذه .

وقول إبراهيم : ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي تتيقنون من قضية نسبية واقعة معتقدة تستطيعون أن تدللوا عليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(122/238)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (80) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ

تَعْلَمُونَ (81) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس في قوله ﴿ وحاجه قومه ﴾ يقول : خاصموه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ أتحاجوني ﴾ قال : أتخاصمونني .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ أتحاجوني ﴾ مشددة النون .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج في قوله ﴿ وحاجه قومه ﴾ قال : دعوا مع الله إلهاً ﴿ أتحاجوني في الله وقد هدان ﴾ وقد عرفت ربي ، خوّفوه بآلهتهم أن يصيبه منها خبل فقال ﴿ ولا أخاف ما تشركون به ﴾ ثم قال ﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون ﴾ أيها المشركون ﴿ أنكم أشركتم ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ فأي الفريقين أحق بالأمن ﴾ قال : قول إبراهيم حين سألهم أي الفريقين أحق بالأمن ، ومن حجة إبراهيم ! .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد في قوله ﴿ فأي الفريقين أحق بالأمن ﴾ أمن خاف غير الله ولم يخفه ، أم من خاف الله ولم يخف غيره ؟ فقال الله ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ [ الأنعام : 82 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

فصل فى رد شبه فى قصة الخليل عليه السلام

قال الإمام فخر الدين الرازى :

[ قصة إبراهيم عليه السلام ]

تمسكوا بها من وجوه تسعة *

[ الأولى ] قوله تعالى حاكيا عن إبراهيم عليه السلام (قال هذا ربي) فلا يخلو إما أن يقال : إنه قال هذا الكلام في النظر والاستدلال ، أو بعده . فإن كان الأول كان قطعه بذلك مع تجويزه أن يكون الأمر بخلافه إخبارا عما يجوز المخبر كونه كاذبا فيه . وذلك غير جائز . وإن كان الثاني كان ذلك كذبا قطعا ، بل كفرا قطعا *

[ والجواب ] قيل : إنه من كلام ابراهيم قبل البلوغ . فانه لما خطر بباله قبيل بلوغه حد التكليف إثبات الصانع فتفكر فرأى النجوم ، فقال (هذا ربى) فلما شاهد حركتها قال : لابد أن تكون ربا . وكذا الشمس والقمر فبلغه الله تعالى في أثناء ذلك حد التكليف ، فقال (إنى برئ مما تشركون) وإنما بلغ ذلك في النجوم والشمس والقمر لما فيه من العلو والنور *

---

أنكره الحافظ ابن الملقن ابن الملقن في تخريج أحاديث البيضاوى . وقال الزركشي لا يعرف بهذا اللفظ . وقد اطال العجلونى الكلام على هذا الحديث فارجع إليه ان شئت (*)

ومنهم من سلم أنه كان كلام ابراهيم بعد البلوغ ثم اختلفوا فمنهم من قال : يجوز أن يكون ذلك كلامه حال اشتغاله بالنظر والاستدلال ثم إنه لم يقل (هذا ربى) على سبيل الإخبار بل على سبيل الفرض كما أن الواحد منا إذا نظر في حدوث الأجسام فيقول : الجسم قديم ؟ لالان مراده الاخبار عن قدم الاجسام ، بل لأنه يفرضها قديمة ليظهر ما يؤدى ذلك الفرض إليه من الفساد . فكذا هاهنا فرض ثم عقبه بما يدل على فساده وهو قوله (لا أحب الآفلين) * ومنهم من قال : تكلم بذلك بعد فراغه من النظر وصيرورته موقنا بالله ، ثم اختلفوا فيه على وجوه خمسة فقيل : تكلم بذلك على معنى أن الأمر كذلك عندهم كما يقول أحدنا للمشبه على سبيل الانكار إن إلهه جسم متغير . وقال تعالى : (فانظر إلى إلهك) أي في زعمك وقيل : المراد منه الاستفهام ، إلا أنه أسقط حرف الاستفهام استغناء عنه ، وقيل : في الآية اختصار ، وتقديره يقولون هذا ربى ونظيره (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا ) أي ويقولان وقيل : أراد إبراهيم أن يبطل قولهم بتعظيم الكواكب . فأوهم من نفسه أنه يعظمها ، ثم عقبه بذكر الاستدلال على بطلانه ، وقيل : انهم دعوه إلى عبادة النجوم فقال مبينا لهم خطأهم (هذا ربى) الذى تدعونني إلى عبادته

* والأصح من هذه الأقوال أن ذلك على وجه الاعتبار والاستدلال لا على وجه الاخبار ولذلك فان الله تعالى لم يذم إبراهيم عليه السلام على ذلك بل ذكره بالمدح والتعظيم وأنه أراه ذلك كي يكون من الموقنين ، هذا هو البحث المشهور في الآية * وفيها ابحاث أخر من حيث أن بعض الملاحدة قال : إن إبراهيم استدل على الشئ بما لا يدل عليه . وذكر أشياء لا تصح ، فكان الطعن متوجها ، ونحن نذكر كل واحد من تلك الاسئلة الاربعة عشرة مع جوابه *

*(125/238)*

---

[ السؤال الأول ] قوله تعالى : (فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ) دلت الآية على أنه نظر في حال الكواكب أولا ، ثم القمر ثانيا ، وفى حال الشمس ثالثا ، ولا شك أن تلك الليلة مسبوقة بنهار ، وأنه كانت الشمس طالعة ، فلم لم ينظر في النهار السابق على تلك الليلة في حال الشمس ، بل كان ذلك أولى لان الشمس أعظم من القمر والكواكب ومتى ثبت أن الاعظم لا يصلح للآلهية فالاضعف أولى ؟ [ جوابه ] أن أم إبراهيم لخوفها عليه وضعته في كهف مظلم فلما تثبت وعقل دنا من الباب فرأى الكوكب ، فقد خطر بباله إثبات الصانع فقال ما قال (1) وقيل : إنه كان لا يشار له إلى معبود ثم أشير إلى الكواكب فعند ذلك قال

ما قال اعتبارا *

---

(1) قال أبو محمد بن حزم : وأما قول إبراهيم إذ راى الشمس والقمر (هذا ربى) فقال قوم إن إبراهيم قال ذلك محققا أول خروجه من الغار وهذا خرافة موضوعة مكذوبة ظاهرة الافتعال ، ومن المحال الممتنع أن يبلغ أحد حد التمييز والتكليف بمثل هذا وهو لم ير قط شمسا ولا قمرا ولا كوكبا .

*(126/238)*

---

[ السؤال الثاني ]

حدوث الكوكب معلوم بحركته ، فانه لما تحرك ثبت أنه لا ينفك عن الحوادث ، فيكون محدثا فكان ينبغى أن يحتج عند طلوعه على حدوثه ، وأن لا يتوقف على أفوله *

[ جوابه ] المراد بالافول الهوى في حظيرة الامكان ، فان حركته تدل على كونه ممكنا لذاته ، والممكن لذاته معدوم لذاته موجود لغيره ، وذلك هو الافول الحقيقي ، وأيضا فلانه وإن كان لا يختلف الحال بين الطلوع والغروب في الحقيقة إلا أن الغروب أدل على عدم الالهية عند العوام فلعله عدل إلى الافول لهذا الغرض *

---

[ السؤال الثالث ] أنه لما علم أن حركة الكوكب منتهية إلى الافول وعلم أن الافول يدل على الحدوث ثم رأى الشمس والقمر متحركين ، فكان ينبغي أن يقطع عليهما بالحدوث قبل أفولهما ، فلم وقت الأمر فيهما أيضا على الافول ؟ [ جوابه ] أما إن حملنا الافول على الهوى في مغرب الإمكان أكذب الله هذا الظن الكاذب بقوله الصادق (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين) – إلى أن قال – والصحيح من ذلك أنه إنما قال ذلك موبخا لقومه كما قال لهم نحو ذلك في الكبير من الاصنام ولا فرق – إلى أن قال : وبرهان قولنا هذا أن الله تعالى لم يعاتبه على شيء مما ذكر ولا عنفه على ذلك بل صدقه تعالى بقوله : (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء) فصح أن هذا بخلاف ما وقع لآدم وغيره بل وافق مراد الله (*)

فقد اندفع الإشكال ، وإن حملناه على رعاية ما هو أظهر للعوام فكذلك *

[ السؤال الرابع ] كيف قطع بغيبة الكوكب على حركته ، مع أن المحتمل أن يقال السماء واقفة والأرض متحركة ؟ [ جوابه ] غيبة الكوكب تقتضي حركة جسم ما فيلزم حدوث ذلك الجسم فيلزم حدوث كل جسم لان الأجسام كلها متماثلة *

[ السؤال الخامس ] هب أنه استدل بحركة الكوكب على حدوثه فكان ينبغى أن يقول عقيب فراغه من النظر : إنى قضيت بحدوثه لكنه لم يفعل ذلك ، بل جعله نتيجة دليل إثبات الصانع ، فأين إحدى المسألتين من الاخرى ؟ [ جوابه ] هذا تنبيه على أن العلم باحتياج المحدث إلى المحدث ضروري ، فلما كانت هذه المقدمة ضرورية لاجرم حذفها ، واستدل بالدليل الدال على حدوث العالم على ثبوت الصانع ولو لم تكن تلك المقدمة بديهية لكان هذا الاستدلال خطأ قطعا *

*(128/238)*

---

[ السؤال السادس ] هب أنه ثبت لابراهيم عليه السلام بالدلالة التى ذكرها حدوث الأجسام وثبوت الصانع ، ولكن كيف استنتج منها فساد قوله : (هذا ربى) فان من المحتمل أن الكواكب والسموات محدثة مخلوقة لله تعالى ، ثم إنها تكون محدثة للبشر ، ولما في هذا العالم على ما يذهب إليه المعللون بالوسائط . فإن قلت : كان غرضه من هذا الاستدلال معرفته مقطع الحاجات ، فلما عرف أن السموات محدثة عرف أنها ليست مقطع الحاجات . قلت : ليس الأمر كذلك ، لأن أول الاستدلال في قوله : (هذا ربى) فكان مطلوبه أن الكوكب هل هو الشئ الذى يربينى ويخلقني ؟ فكان المطلوب هذا لا ما ذكرته ،

وأيضا بتقدير أن يكون الأمر كذلك ، فلم قال : (إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض) فان بتقدير أن يكون خالقه هو السماء وجب عليه الاشتغال بشكره والاقبال على طاعته *

[ جوابه ] أن إبراهيم عليه السلام كان على مذهبنا في مسألة خلق الافعال ، فانه لما عرف أنها محدثة عرف أنها ممكنة وكان من المعلوم أن المصحح لمقدورية الله تعالى هو الامكان ، فعرف أن كل ممكن مقدور لله تعالى فانه لا يقع بقدرة غيره فعرف أن كل ممكن خرج من العدم إلى الوجود فلم يخرج إلا به فعلم أن خالقه ومربيه ليس الفلك ولا الملك بل هو الله الواحد القهار *

[ السؤال السابع ] كيف عرف انه فطر السموات فان بقي ههنا احتمال آخر وهو أن الجسم وإن كان محدثا إلا أن هيولاه قديمة . وعلى هذا التقدير لا يكون هو تعالى فاطرها . ودليل الحركة لا يفيد إلا حدوث الجسم من حيث أنه جسم فأما حدوث الهيولى التي هي جزء ماهية الجسم فلا *

(129/238)

[ وجوابه ] لما عرف حدوث الجسم عرف لا محالة حدوث هيولاه لان هيولاه لو كانت قديمة لكانت في الازل قابلة للصورة ، لان قابليتها لها لازمة لماهيتها ، ولو حصلت القابلية في الازل لكان المقبول صحيح الوجود ، لان القابلية نسبية وإمكان النسب متوقف على إمكان المنتسبين لكن المقبول لما كان ممتنع الوجود في الازل فكانت القابلية كذلك فكان القابل كذلك فكان الكل كذلك * * (السؤال الثامن) * كلمة (الذى) موضوعة لتعريف المفرد بقضية معلومة فيما قبل وكونه فاطر السموات والأرض لم يكن معلوما قبل ذلك إنما صار معلوما له في تلك الحالة فكيف قال (للذى فطر السموات) * * (جوابه) * أنه لما عرف أن العالم محدث انضمت إليه مقدمة أخرى ضرورية وهى أن كل محدث له محدث ، فتولد منهما بأن العالم له صانع فصار علمه بافتقار العالم إلى الصانع علما جليا خاليا عن الشبهات ثم لما عرف وجود الصانع عرف أنه لابد من القيام بشكره والاشتغال بطاعته ، فقال بعد ذلك (وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض) فكان المعنى : وجهت وجهى إلى ذلك الشئ (1) الذى ظهر في عقلي كونه فاطر السموات والأرض * [ السؤال التاسع ] انه لم يحتج الا بحركة الكوكب على حدوثه فمن أين حكم بذلك على السموات والأرض بالحدوث والحاجة إلى المحدث ؟

---

(1) التعبير بالشئ هنا في غاية الجفاء والسماجة ، وماذا كان عليه لو قال – إلى الله الذى – والذى جره إلى هذا التعبير : انسياقه في هذا البحث الفارغ الذى لا قيمة له في اثبات

عقيدة ولا لزوم له في تنزيه ابراهيم عليه السلام وكم جرت هذه البحوث المتكلفة إلى فساد في التفكير وأبعدت عن هدى أصدق المؤمنين رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه وتابعيهم (*)

(130/238)

---

[ جوابه ] لما ثبت أن جسما ما محدث فكل جسم محدث لان الأجسام كلها متماثلة ، وحكم الشئ حكم مثله ، وفى هذا الموضع تنبيه على أنه تعالى ليس بجسم من وجهين [ الأول ] أنه لما ثبت حدوث جسم فرع على تلك الدلالة حدوث جسم آخر ، وذلك إنما يصح إذا كانت الأجسام كلها متماثلة وذلك ينفى كونه تعالى جسما [ الثاني ] أنه تعالى لو كان جسما لقال وجهت وجهى إلى الذى ، فلما قال (للذى) ولم يقل إلى الذى ، دل ذلك على أنه تعالى ليس بجسم *

[ السؤال العاشر ] لم قال (وما أنا من المشركين) وأى دلالة في حدوث الأجسام على نفى الشرك ، والظاهر أنه لا يجوز أن يرتب على الدليل ما لا يكون لازما منه *

[ جوابه ] لما عرف حدوث الأجسام عرف أن محدثه قادر وعرف أنه إنما صح منه أن يقدر على مقدور لكون ذلك المقدور ممكنا ، فعرف أن الامكان هو المصحح للمقدورية

فعرف أنه لو وجد لها آلهان لقدر كل واحد منهما على عين مقدور الآخر لكنه محال ، لما أنه يقتضى وقوع مقدور من قادرين من جهة واحدة وهو محال ، لأنه يلزم استغناؤه بكل واحد منهما عن كل واحد منهما ، ولما كان ذلك باطلا كان القول بحدوث الأجسام نافيا للشرك من هذا الوجه وهذه هي الأدلة الدالة على التوحيد المطلق ونفى الاضداد والانداد في الذات والصفات والافعال وهو الله تعالى واحد في ذاته لا شريك له وواحد في صفاته لا نظير له وواحد في الخلق والايجاد لا شبيه له

* (السؤال الحادى عشر) * لما جن عليه الليل ابتدأ أولا بالنظر في الكواكب ، فلم لم يبتدئ بالنظر في نفسه ثم في أحوال هذا العالم من العناصر ؟ * (جوابه) * الدليل الدال على حدوث الكواكب دال على حدوث العناصر ولا ينعكس فكان الاشتغال بالاعم اهم *

(131/238)

---

[ السؤال الثاني عشر ] هب أنه عرف أن للعالم صانعا ، ولكن لم اشتغل بعبادته في الحال فقال : (إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض) *

[ جوابه) من قال شكر المنعم واجب عقلا فلا إشكال عليه ومن لم يقل به حمل الآية على

العلم دون العمل . وفيه اشكال لان العلم أيضا عمل فقبل السمع أو لم يجز العمل لما جاز لابراهيم هذا العمل *

[ السؤال الثالث عشر ] لم قال : (وجهت وجهى للذى) ولم يقل وجهت قلبى ، مع أنه أولى *

[ جوابه ] هذا يدل على أن الاعتقاد لابد معه في تزكية الروح من العمل لان الاعتقاد أرواح والاعمال قوالب ، والكمال لا يحصل إلا باجتماعهما وبالله التوفيق *

[ السؤال الرابع عشر ] لم قدم السموات على الأرض ؟ [ جوابه ] أن الاستدلال كان أولا على الكواكب والمجانسة بينها وبين الافلاك أشد ثم بينها وبين العناصر ، فلذلك قدم السموات لأنها أشرف وأقوى وأعظم فأشكالها أشرف الإشكال وهو المستدير وألوانها أحسن الالوان وهو المستنير فأجسامها أصلب الأجسام فانها السبع الشداد ، وهى محل البركات . ومنها تنزل الخيرات فلما فاقت السفليات في هذه الصفات قدمها في الذكر *

[ الشبهة الثانية ] تمسكوا بقول الله تعالى مخبرا عن إبراهيم لما قال له قومه : (أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ قال : بل فعله كبيرهم هذا) وإنما عنى بالكبير الصنم وهذا كذب لان ابراهيم عليه الصلاة والسلام هو الذى كسر الاصنام فاضافة كسرها إلى غيره لا يكون الا كذبا * * (الجواب) * من وجوه [ الأول ] أنه كناية عن غير مذكور أي فعله من فعله .

و(كبيرهم هذا) ابتداء كلام . وروى عن الكسائي انه كان يقف عند قوله تعالى (بل فعله) ثم يبتدئ (كبيرهم هذا) *

(132/238)

---

[ الثاني ] أنه يجوز ان يكون فيه وقف عند قوله تعالى (كبيرهم هذا فاسألوهم) والمعنى بل فعله كبيرهم وعنى نفسه لان الانسان اكبر من كل صنم [ الثالث ] ان يكون في الكلام تقديم وتأخير كأنه قال : بل كبيرهم هذا ان كانوا ينطقون فاسألوهم فيكون إضافة الفعل إلى كبيرهم مشروطة بكونهم ناطقين ، فلما لما يكونوا ناطقين امتنع أن يكونوا فاعلين *

[ الرابع ] أنه ذكر إلزاما على قولهم ، لأنه لما كان هو الاله الاكبر فكسر خدمه المقربين لديه لا يصدر إلا عنه *

[ الخامس ] قرأ بعضهم (فعله كبيرهم هذا) أي فلعله ، وعلى هذا لا يكون كذبا لدخول حرف الشك (1) *

[ الشبهة الثالثة ] قوله تعالى مخبرا عن إبراهيم (فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم) والاستدلال من وجهين : [ الأول ] تمسك بعلم النجوم وهو غير لازم [ الثاني ] قوله (إني سقيم) وهو كذب *

[ الجواب ] قيل : أراد بنظره في النجوم والقمر والشمس حال كونه طالبا لمعرفة الله تعالى . وقوله : (إني سقيم) أي لست على يقين من الامر . ثم لما استدل بأفولها وغروبها على حدوثها وعرف الله تعالى زال ذلك الشك . وهذا ضعيف لان الله تعالى قال : (وإن من شيعته لابراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم إذ قال لابيه وقومه ماذا تعبدون) فدل ظاهر الآية على سلامة قلبه من الشك ، ثم ذكر أنه عاتب قومه على عبادة الاصنام . فقال (ماذا تعبدون) وسمى عبادتهم بأنها إفك وباطل . قال (ما ظنكم برب العالمين) وهذا قول عارف بالله تعالى . فالمعتمد أن يقول في الجواب عن الوجه الاول : لا نسلم أن النظر في النجوم حرام ، وذلك لان من اعتقد أن الله تعالى أجرى العادة

---

(1) قال الإمام أبو محمد بن حزم : إنما هو تقريع لهم وتوبيخ ، كما قال تعالى : (ذق إنك أنت العزيز الكريم) وهو في الحقيقة مهان ذليل معذب في النار فكلا القولين توبيخ ظن قيلا له على ظنهم أن الاصنام تفعل الخير والشر وعلى ظن المعذب في نفسه في الدنيا أنه كريم عزيز . ولم يقل إبراهيم هذا على أنه محقق لان كبيرهم فعله . إذ الكذب إنما هو الإخبار عن الشئ بخلاف ما هو عليه قصدا إلى تحقيق ذلك

أنه مهما حدث فيما بينهما اتصال مخصوص خلق في هذا العالم حادثا مخصوصا واعتقد ان الله تعالى خلق فيها قوى وجعلها أسبابا لحدوث الحوادث في هذا العالم فعلى هذا التقدير لا نسلم ان النظر في النجوم حرام سلمنا كونه حراما ، ولكن لعل الله أخبر إبراهيم عليه السلام بأنه مهما طلع النجم الفلاني فانك تمرض . فنظر في النجوم فلما مر به قال إنى سقيم . سلمنا أن ذلك أيضا لم يكن ، لكن من المحتمل أنه حين نظر في النجوم تشبها بأهل زمانه في الظاهر وحكم أنه سقيم إيهاما على قومه أنه استدل على ذلك بالنجوم وإن كان الأمر في نفسه ليس كذلك * * (وأما الوجه الثاني) * فالجواب عنه لا نسلم أنه ما كان سقيما في تلك الساعة الآتية : كما إذا علمت انك ستصير محموما وقت الظهر ثم إن واحدا يدعوك إلى الضيافة بحيث تعلم أنه لابد من الجلوس مع القوم وقت الظهر فتقول إنى محموم ، وتعنى به أنى أكون محموما في ذلك الوقت وأيضا لعله لما كان مشرفا على السقم سمى نفسه سقيما كما في قوله تعالى (إنك ميت وإنهم ميتون) وأيضا أراد إنى سقيم القلب والمراد ما في قلبه من الحزن والغم بسبب كفرهم وعنادهم * فإن قلت : روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما كذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات ، قوله : إنى سقيم ، وقوله : بل فعله كبيرهم هذا ، وقوله لسارة : إنها أختى " (1) قلت : هذا من

---

(1) الحديث رواه البخاري ومسلم والامام أحمد وأبو داود والترمذي عن أبى هريرة (*)

---

أخبار الآحاد فلا يعارض الدليل القطعي الذى ذكرناه ، ثم إن صح حمل على ما يكون ظاهره الكذب . فأما قوله لسارة : " إنها أختى " فمعناه أنها أختى في الدين ، أو نظرا إلى انتسابهما إلى آدم أو إلى سائر الأجداد *

[ الشبهة الرابعة ] تمسكوا بقوله تعالى : (ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم) الآية انتقل من دليل إلى دليل . وهذا يدل على عجزه عن نصرة دليله الاول . وأيضا فكان من الواجب عليه دفع ذلك السؤال وإزالة تلك الشبهة فكان الاعراض عنه ذنبا عظيما *

[ والجواب ] أن الدليل واحد لم ينتقل إلى غيره ، ولكن انتقل من مثال إلى مثال آخر لعلمه بقصور فهم المخاطب عن إدراكه المقصود من المثال الاول . وذلك لان إبراهيم عليه السلام استدل بحدوث حادث يعلم كل أحد عاقل بالضرورة عجز البشر عنه ، وذلك يفيد العلم بوجود الاله تعالى . وهذه القضية الكلية لها جزئيات منها الاحياء والاماتة ، ثم إن نمروذ دعا برجلين . فقتل أحدهما ولم يقتل الآخر . فقال عند ذلك : (أنا أحيى وأميت) وكان إبراهيم قادرا على أن يقول : لست أعنى به الاحياء والاماتة بهذا التفسير ، وإنما المراد منه شئ آخر لعلم كل أحد بالضرورة عجز البشر عنه ، إلا أنه عليه السلام مبالغة في

الايضاح عدل عن ذلك المثال إلى آخر وهو طلوع الشمس وغروبها فظهر أنه لم يحصل منه الانتقال من الاستدلال إلى الاستدلال بل من المثال إلى مثال آخر . ثم ها هنا بحث وهو أن

(135/238)

---

الغرض من هذا الاستدلال إما إثبات الاله للعالم ونفى كون نمرود إلها ، أو نفى كونه شريكا لله تعالى . فان كان الأول وهو قوله : (إن الله يأتي بالشمس من المشرق) فان ذلك عين المطلوب ، وله أن يقول : إن الشمس تطلع إما لذاتها أولا لمؤثر أصلا قما الدليل على أن الأمر ليس كذلك ؟ فان البحث ما وقع إلا فيه . وإن كان الغرض هو الثاني وهو أن نمروذ ليس بخالق للعالم فهذا غير جائز لان نمروذ إن جوز ذلك لم يكن كامل العقل ، لان العلم بأن هذا الشخص البشرى الذى ما وجد الا في هذه الايام ليس هو الموجد للسموات السبع التى كانت موجودة قبله بألوف ألوف سنين ، وأن العلم بأن هذا الشخص العاجز عن التصرف في هذه السموات والكواكب والبر والبحر ليس هو الموجد لها علم ضروري ، فمن شك فيها كان مختل العقل ، والمناظرة مع هذا الانسان عبث ، وبعثة الأنبياء إليه أيضا عبث . وإن كان الغرض هو الثالث ، وهو نفى كونه شريكا لله تعالى ، فان كان المراد من الشركة في خالقية السموات والأرض كان أيضا معلوم الفساد بالضرورة فكانت المناظرة فيها عبثا .

وإن كان المراد من الشركة الطاعة بمعنى أن نمروذ كان يدعى أنه يجب عليهم طاعته كما يجب طاعة الله . فهذا مما لا يبطل بالحجة التى ذكرها إبراهيم عليه السلام *

[ سؤال آخر ] وهو ان ابراهيم عليه السلام لما قال (ان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) فلو قال الخصم : بل أنا آتى بالشمس من المشرق فقل لالهك جئ بها من المغرب كيف يكون جوابه ؟

[ الجواب ] عن البحث الأول أن الخصم كان دهريا منكرا للصانع فاحتج ابراهيم عليه السلام بهذه الحجة في إثبات الصانع وذلك لان طلوع الشمس بعد عدمها حادث فلابد من محدث والمحدث ليس احدا من البشر فلابد لهذه الأجسام من اله *

*(136/238)*

---

[ واعلم ] أنه إنما انتقل عن الاحياء والاماتة إلى طلوع الشمس وغروبها لان أشرف ما في العالم السفلى هو الانسان وأشرف ما في العالم العلوى هو الشمس ، فذكر من دلائل الآفاق أحوال الشمس ، ومن دلائل الانفس احوال الحياة والموت *

[ والجواب ] عن البحث الثاني أن الخصم لو طالبه بذلك لكان من الواجب في حكم الله تعالى أن يأتي بالشمس من المغرب تقريرا لحجة ابراهيم عليه السلام * ولقائل أن يقول :

هذا غير واجب . لان لابراهيم عليه السلام أن يقول : طلوع الشمس حادث ، فلابد له من محدث . وذلك المحدث ليس من البشر ، فلابد من آله . فثبت أن طلوع الشمس إنما حدث بقدرة الله تعالى . ومن المعلوم بالضرورة أن القادر على تحريك الشمس من اليمين إلى الشمال قادر على تحريكها من الشمال إلى اليمين . فلما كان الله تعالى قادرا على أن يأتي بالشمس من المشرق كان قادرا على أن يأتي بها أيضا من المغرب . فثبت أن الهى قادر على الكل . وأما أنت فلو كنت إلها لكنت أيضا قادرا على الكل فلما عجزت عن الكل ثبت أنك لست بآله . ومتى اندفعت معارضة الخصم بهذه الأدلة العقلية لم يلزم من عدم اتيان الله تعالى بالشمس من المغرب القدح في دليل ابراهيم عليه السلام *

[ الشبهة الخامسة ] تمسكوا بقوله تعالى (إذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى) الآية وهذا يدل على أنه لم يكن موقنا بقدرة الله على إحياء الاموات *

*(137/238)*

---

[ والجواب ] من وجوه (الأول) يحتمل أن يقال : وقع ذلك قبل النبوة . وقبلها لما وجب عليه الاستدلال في معرفة الله تعالى وجب عليه الاستدلال ايضا في أمر المعاد . فإن قلت : أليس إنه لا يتم علمه بالمبدأ إلا إذا عرفه قادرا على كل المقدورات حصل العلم بكونه عالما بكل

المعلومات ، ومتى عرفه كذلك عرفه قادرا على إحياء الموتى ؟ قلت : لا يلزم من مجرد العلم بكونه تعالى عالما بكل المعلومات قادرا على كل المقدورات حصول العلم بكونه تعالى قادرا على الاحياء لاحتمال أن يقال : هذه الاجزاء انما تقبل التركيب الحيوانى والحياة بطريق خاص وهو التولد . فأما بغير ذلك الطريق فهو ممتنع لذاته . فلا يلزم من عدم القدرة عليه قدح في قولنا انه قادر على كل الممكنات * فإن قلت : لو كان حصول الحياة في ذلك الجسم ممتنعا لما حصل فيه البتة ، فلما حصل ثبت أنه ممكن لذاته فيندرج تحت قدرة الله تعالى *

[ قلت ] لعل الخصم يقول : إنه ممكن بطريق واحد ، وفيما عدا ذلك ممتنع ، وأيضا فهب أن الدليل الذى ذكرت يصح في بيان كون الاجزاء قابلة للحياة إلا أن ابراهيم عليه السلام ما أراد إثبات هذه المقدمة بهذه الدلالة العقلية بل أراد اثباتها بالمشاهدة ، فانه لا يجب على المستدل أن يستدل بدليل معين ، كيف وفى الرجوع إلى المشاهدة هاهنا مزيد فائدة لان الحسى أقوى في ذلك من الاستدلال [ الثاني ] يحتمل أن يقال : وقع ذلك عند وصول الوحى إليه ، فإن القوم كما يحتاجون إلى المعجزة في معرفة رسالته ، فالرسول لابد له أيضا من معجز ليعرف به نبوة نفسه ، فقوله (أو لم تؤمن) معناه أو لم تؤمن بأنك رسول الله ؟ (قال بلى ولكن ليطمئن قلبى) على كونى رسولا من قبلك لا من قبل الشيطان *

[ الثالث ] يحتمل أن يقال : وقع ذلك بعد النبوة ولكنه من الله تعالى لمعرفة شئ آخر ، كما يحكى أن الله تعالى أوحى إليه " إنى اتخذت عبدا من عبادي خليلا وعلامته أنه لو طلب منى إحياء الميت فانى أفعله إكراما له " فأراد إبراهيم عليه السلام أن يتعرف أن ذلك الخليل هل هو هو ؟ فسأل عن ذلك ، وكان المعنى ولكن ليطمئن قلبى على كونى خليلا لك ومخصوصا من عندك بهذا الشرف *

[ الرابع ] أن يكون المراد ليطمئن قلبى على قربك على الاحياء بالمشاهدة ، فان البرهان إذا تأيد بالمشاهدة صار أقوى وأعم *

[ الخامس ] أنه عليه السلام لما أمر بذبح الولد ضعف قلبه ، فكأنه قال الهى أمرتنى بإماتة الحى وهو على شاق ، فان أكرمتني باحياء الميت قوى قلبى فأقدر حينئذ على ذلك التكليف ، فقوله : (ولكن ليطمئن قلبى) المراد ليطمئن قلبى على قربى منك واختصاصي بك ، فأقوى بوجدان ذلك الاكرام على امتثال ذلك الالتزام * * (السادس) * أن الخصم لما قال لابراهيم عليه السلام : أنت تزعم أن ربك يحيى ويميت فاسأله أن يحيى لنا ميتا وإلا قتلتك فقال إبراهيم عليه السلام : (أرنى كيف تحيى الموتى) ويكون معنى قوله : (ولكن ليطمئن قلبى) زوال الخوف والامن من القتل * * (السابع) * أن الخصم لما قال : (أنا أحيى وأميت) لم يشتغل إبراهيم عليه السلام بالكشف عن فساد ما قاله ، ولكن انتقل إلى

وجه آخر ثم بعد الفراغ عن ذلك المقصود عاد إلى شرح فساد ما قاله الخصم : فقال : (رب أرنى كيف تحيى الموتى) ليعرف بهذا الكافر أن الاحياء والاماتة اللذين استدللت بهما على وجود الاله كيف يكون ؟ فمعنى قوله : (ليطمئن) أي يطمئن قلبى على صحة الدليل واندفاع تلك المعارضة *

*(139/238)*

---

[ الثامن ] وهو على لسان أهل الإشارة : أن حياة القلب بالاشتغال بذكر الله وموته بالاشتغال بغير الله تعالى . فقال : (رب أرنى كيف تحيى الموتى) أي القلوب الميتة (قال أو لم تؤمن قال بلى) ولكن ليحصل الذوق بتحصيل الاستقرار والطمأنينة . فقال (فخذ أربعة من الطير) فأمر بقطع العلاقة عن هذه الهيئة المركبة من هذه الطبائع الاربعة تنبيها على أن الحياة التامة الروحانية لا تحصل إلا بعد مقارنة هذا الجسد * * (التاسع) * أن المراد منه طلب الرؤية في الدنيا ، وهو الذى سأل موسى عليه السلام بقوله : (أرنى أنظر إليك) وسأله محمد أرنا الاشياء كما هو (1) الا أنه راعى الادب فعبر بالمسبب عن السبب فان سبب حياة القلب ليس إلا الرؤية التى هي الكشف التام ، فكان طلب الاثر طلبا للمؤثر * * (العاشر) * أنه عليه السلام كان أب هذه الامة والوالد يكون مشفقا على الولد ،

والمشفق بسوء الظن مولع . فلما علم أن كثرة بنيه عاصيا خطر بباله : إنى ان كنت شفيعا للعصاة فهل تقبل شفاعتي يوم القيامة ، فسأل عن إحياء الميت في الدنيا فقيل : أولم تؤمن بقدرتنا عليه ؟ فقال : بلى ولكن ليطمئن قلبى على كونى مقبول الشفاعة في حق أمة محمد عليه الصلاة والسلام وإذا كان هو كذلك كان محمد عليه الصلاة والسلام اولى به ، فلذلك قال : " شفاعتي لاهل الكبائر من امتى " (2) وهذا الجواب تذكيرى [ الحادى عشر ] لعله عليه السلام أمر بتبليغ الرسالة ففكر فقال : لعل الخصوم يطالبونني بمعجزات غريبة فسأل الله تعالى عن هذه الغريبة . فقال (أو لم تؤمن قال بلى ولكن

---

(1) الظاهر أنه ساقه على أنه حديث . وقد بحثت عنه كثيرا أو سألت من أعرف استحضاره للاحاديث فلم أعثر عليه لا في الضعيف ولا الموضوع ، ويظهر لى والله أعلم انه ليس بحديث ، وليس عليه طلاوة كلام النبوة

(2) هذا الحديث رواه الإمام احمد وابو داود الترمذي والنسائي عن انس وعن ابن عباس . (*)

ليطمئن قلبى) على أنك تجيبني في كل ما أطلب . وبالجملة قوله (ولكن ليطمئن قلبى) غير متعلق في الآية على شئ معين فلك أن تصرفه إلى أي شئ شئت سوى الايمان *

[ الشبهة السادسة ] قالوا : إن ابراهيم عليه السلام استغفر لابيه . وأبوه كان كافرا والاستغفار للكافر غير جائز . فثبت أن ابراهيم عليه السلام فعل ما لا يجوز فعله انما قلنا : انما استغفر لابيه لقوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام (سلام عليك سأستغفر لك ربى) وقوله (واغفر لابي انه كان من الضالين) وأما إن أباه كان كافرا فذلك بنص القرآن وبالاجماع . وأما ان الاستغفار للكافر لا يجوز لوجهين [ الأول ] قوله تعالى (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ، فثبت بهذه المقدمات أن ابراهيم عليه السلام فعل ما لا يجوز [ الثاني ] قوله تعالى في سورة الممتحنة (قد كانت لكم اسوة حسنة في ابراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم انا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول ابراهيم لابيه لاستغفرن لك) فأمر بالتأسي به إلا في هذا الفعل فوجب أن يكون ذلك معصية منه *

[ والجواب ] لا نزاع الا في قولكم الاستغفار لا يجوز . والكلام عليه من وجوه [ الأول ] أن القطع عليه ان الله تعالى يعذب الكافر لا يعرف إلا بالسمع ، فلعل ابراهيم عليه السلام لم يجد في شرعه ما يدل على القطع بعذاب الله تعالى الكافر . فلا جرم استغفر لابيه *

[ الثاني ] ان الاستغفار قد يكون بمعنى الاستبطاء كما في قوله تعالى (قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون ايام الله) (1) *

[ الثالث ] انه عليه السلام إنما استغفر لابيه لأنه كان يرجو منه الايمان ، فلما أيس من ذلك ترك الاستغفار . ويدل عليه قوله تعالى (فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه) واما قوله (ما كان للنبى والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين) فليس في لفظ النبي عموم ، لما ثبت في أصول الفقه أن الاسم المفرد المحلى بالالف واللام لا يقتضى العموم فإذا حملنا النبي على رسولنا عليه الصلاة والسلام لم يلزم ان يتناول إبراهيم عليه السلام ، واما الآية الثانية فهى على أنه لا يجوز التأسي به في ذلك الاستغفار ، فلم يدل على أن الاستغفار لم يكن جائزا له . ولكنا نحمل الاستغفار الذى أتى به على استبطاء العقاب ، أو تخفيفه ، أو على أنه ما كان عالما بكيفية الاحوال *

[ فائدة ] اختلف المفسرون في الموعدة المذكورة في قوله تعالى (إلا عن موعدة وعدها إياه) فقيل : وعد الاب ابنه بالايمان ، وقيل : وعدا لابن أباه بالاستغفار . والاول أولى على قولنا إنه لا يجوز الاستغفار للكافر ، لان وعدا لابن أباه بالاستغفار لو عد الاب ابنه بالايمان وإذا كان وجود هذا الوعد واجبا ووجود الوعد الثاني غير واجب كان حمل اللفظ على الوعد الأول أولى *

(1) راجعت كتب اللغة وكتب التفسير ومنها تفسير الفخر الرازي . فلم اجد هذا المعنى للاستغفار أصلا ، بل كل معنى الاستغفار يدور على التغطية والعفو والصفح خصوصا في آية الجاثية (قل للذين آمنوا يغفروا - 241) (*)

*(142/238)*

---

[ الشبهة السابعة ] تمسكوا بقوله تعالى (ربنا واجعلنا مسلمين لك) والدعاء طلب وطلب الحاصل ممتنع لقوله تعالى (واجنبني وبنى أن نعبد الاصنام) ولولا جواز ذلك عليه لما طلب من الله ذلك ولقوله تعالى (والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتي يوم الدين) والاستدلال فيه أن الآية مشعرة بأنه غير قاطع بكونه مغفورا له ، وهى تصريح بوقوع الخطيئة منه *

[ والجواب ] لا نزاع بين الامة انه لا يجوز الكفر على الأنبياء بعد نبوتهم الا عند شرذمة من الخوارج (1) فلا اعتبار بخلافهم ، فكانت هذه الآيات مؤولة باجماع الامة ، فوجب حملها على هضم النفس وكسرها وإظهار الانابة والابتهال *

[ الشبهة الثامنة ] قالوا : إنه طلب من الله أن يجنب أولاده عن عبادة الاصنام ، وما أجيب إليه . فكان كسرا من منصبه *

[ الجواب ] أن المفسرين حملوا هذا الدعاء على من اعلمه الله انه يؤمن ولا يعبد الاصنام

وتخصيص العام غير بعيد *

[ الشبهة التاسعة ] تمسكوا بقوله تعالى : (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ) * والبحث في الآية من وجوه : [ الأول أنه قدم الطعام إلى الملائكة مع علمه أنهم لا يأكلون *

[ الثاني ] لهم خافهم مع علمه بكونهم معصومين ؟ فإن قلت : السبب

---

---

(1) وكذا لا يجوز الكفر قبل نبوتهم أيضا كما لا يخفى فليتأمل (*)

في هذين أنه ما كان عالما بكونهم من الملائكة ، قلت : فلم صدقهم في ادعاء الملائكة من غير دليل ؟ * (الثالث) * أنه تعالى وصفه بالمجادلة . فقال : (يجادلنا في قوم لوط) ثم قال : (يا إبراهيم أعرض عن هذا) وهذا يدل على أن مجادلته مع الملائكة غير جائزة *

*(143/238)*

---

[ والجواب ] أن ذلك لو كان ذنبا لعوتب عليه ولاستغفر إبراهيم على السلام منه كيف وقد مدحه الله تعالى على ذلك فقال : (إن إبراهيم لحليم أواه منيب) فوصفه بهذه الصفات التى

ليست وراءها منزلة في باب الرفعة . فكيف يجوز تخطئته فيما جعله الله تعالى سببا للمدح العظيم ؟ وأما قوله : كيف صدقهم في ادعاء الملائكة من غير دليل فنقول ليس في الآية أنه صدق من غير دليل ، وإذا كان كذلك كان الدليل المذكور على عصمة إبراهيم عليه السلام دليلا على أنه إنما صدقهم في تلك الدعوى بالدليل . ويقال انهم دعوا الله باحياء العجل الذى كان ذبحه وشواه فعاد حيا ، وأما المجادلة فانها غير مقصودة على المخاصمة فقد تكون بمعنى المسألة قال الله تعالى (قد سمع الله قول التى تجادلك في زوجها ) يعنى تسألك فكأن إبراهيم عليه السلام أخذ يبحث كيفية العذاب وأنه عام لهم أو خاص بالبعض ، فسمى ذلك جدالا لما كان فيه من المراجعة ، وقيل : معنى (تجادلنا ) تسألنا عن قوم لوط أن يؤخر عذابهم رجاء أن يؤمنوا فأخبره الله تعالى بأن المصلحة في إهلاكهم وأن كلمة العذاب حقت عليهم *

لا يقال : اما أن يقال انه كان مأذونا أو غير مأذون ، فان كان الثاني كان اقدامه عليه ذنبا لانا نقول لعله لم يكن مأذونا فيه شرعا إلا أنه بحكم أن الاصل في الاشياء الاباحة اعتقد جواز تلك المجادلة فانه لما نهى عنه سكت عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ عصمة الأنبياء صـ 28 .

﴿51

(144/238)

" فوائد لغوية وإعرابية "

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ﴾

قال ابن عادل :

قد تقدَّم الكلامُ على "كيف" في أوَّل البقرة [ آية 28 ] ، و" ما " يجوز فيها ثلاثة أوجهٍ ، في حيِّز التَّعْجُّبِ والإنكار ، وأن تكون حاليةً ، أي : وكيف أخاف الذي تشركون حال كونكم أنتم غير خائفين إشراككم ، ولا بُدَّ من إضْمَارِ مبتدأ قبل المضراع المنفي بـ " لا " لما تقدَّم غير مرَّةٍ ، أى : كيف أخاف الذي تشركون ، أو عاقبة إشارككم حال كونكم آمنين من مَكْرِ اللَّهِ الذي أشركتم به غيره ، وهذه الجملة وإن لم يكن فيها رَابِطٌ يعود على ذِي الحالِ لا يَضُرُّ ذلك ، لأن الواو بنفسها رابطة .

وانظر إلى حُسْنِ هذا النَّظْمِ السَّوِيِّن حيث جعل متعلّق الخَوْفِ الواقع منه الأصنام ، ومتعلق الخوف الواقع منهم إشاركهم باللَّهِ غيره تَرْكاً لأن يعادل الباري – تعالى – لأصنامهم لو أبْرَزَ التركيب على هذا ، فقال : " ولا تخافون اللَّه " مُقَابَلَةً لقوله : " وكيف أخافُ معبوداتكم " .

وأتى بـ " ما " في قوله : " ما أشركتم " وفي قوله : ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً ﴾ إلاَّ أنهم غير عقلاء ؛ إذ هي جماد وأحْجَارٌ وخشبٌ كانوا يَنْحِتُونَهَا ويعبدونها .

وقوله : " مَا لَمْ يُنَزِّلْ " مفعول لت " أشركتكم " ، وهي موصولة اسميَّة أو نكرة ، ولا تكون مَصْدريَّةً لفساد المعنى ، و" به " و" عليكم " ، متعلقان بـ "يُنَزِّلْ " ويجوز في " عَلَيْكُمْ " وجه آخر ، وهو أن يكون حالاً ، من " سُلْطَاناً " ؛ لأنَّهُ تأخَّر عنه لجاز أن يكون صِفَةً .

وقرا الجمهور : " سُلْطَاناً " ساكن اللام حيث وقع ، وقُرِئَ بِضَمِّهَا ، وهل هي لغة مُسْتَقِلَّةٌ ، فيثبت فيها بناء فعل بضم الفاء والعين ، أو هي إتباع حركةٍ لأخرى .

ومعنى الآية : وكيف أخَافُ الأصنام التي لا قُدْرَةَ لها على النَّفْعِ والضُّرِّ ولا تُبْصرُ ولا تَسْمَعُن وأنتم لا تخافون من الشِّرْكِ الذي هو أعظم الذنوب ، وليس لكن حُجَّةٌ على ذلك .

وقوله : ﴿ فَأَيُّ الفريقين أَحَقُّ بالأمن ﴾

أي : ما لكم تنكرون عَلَيَّ الأمْنَ في موضع الأمن ، ولا تنكرون على أنفسكم الأمْنَ في موضع الخوفِ فقال : " فَأَيُّ الفريقَيْنِ أحَقُّ " ولم يَقُل : " فأيُّنَا أحَقُّ نَحْنُ أم أنتم " إلزاماً لِخَصْمِهِ بما يدَّعيهِ عليهن وأحترازاً من تَزْكِيَة نفسه ، فعدل عنه إلى قوله : " فأيُّ الفَرِيقَيْنِ أحَقُّ بالأمْنِ " ، يعني : فريق المشركين أم الموحدين ؟ وهذا بخلاف قول الآخر : [ الكامل ]

2227 - فَلَئِنْ لَقِيتُكَ خَالِيَيْنِ لَتَعلَمَنْ . . .

أَيِي أُمُّكَ فَارِسُ الأحْزَابِ

فَلِلّهِ فَصَاحَةَ القُرْآن وآدابه .

وقوله : " إنْ كُنْتُمْ " جوابه محذوف ، أي : فأخبروني ، ومعلّق العلم محذوف ، ويجوز ألاَّ يُرَادَ له مفعول ؛ أي : إن كنتم من ذوي العلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 257.258 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) ﴾

يعني وأي خوفٍ يقع على قلبي ظِله ولم أُلِمْ بشِرْكٍ ولم أَجْنَحْ قطُّ إلى جحد ؟ وأنتم ما شممتم رائحة التوحيد في طول عمركم ، ولا ذقتم طعم الإيمان في سالف دهركم ! ثم بسوء ظنّكم تجاسرتم وما ارعويتم ، وخسرتم وما باليتم . فأيُّنا أَوْلى أن يُعْلِن بسرّه ما هو بصدده من سوءِ مَكْرِه وعاقبةِ أَمْرِه ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 486 ﴾

قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ثم وصل بذلك دلالة على أنه لا علم لهم أصلاً ليخبروا عما سئلوا عنه قولَه مستأنفاً :

﴿ الذين آمنوا ﴾ أي أوجدوا هذا الفعل ﴿ ولم ﴾ أي وصدقوا دعواهم بأنهم لم

﴿ يلبسوا إيمانهم ﴾ أي يخالطوه ويشوبوه ﴿ بظلم ﴾ .

ولما كان المعنى : أحق بالأمن ، عدل عنه إلى قوله مشيراً إليهم بأداة البعد تنبيهاً على علو رتبتهم : ﴿ أولئك لهم ﴾ أي خاصة ﴿ الأمن ﴾ أي لما تقدم من وصفهم ﴿ وهم مهتدون ﴾ أي وأنتم ضالون ، فأنتم هالكون لإشرافكم على المهالك " وتفسيرُ النبي صلى الله عليه وسلم فيما أخرج الشيخان والترمذي والنسائي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لهذا الظلم المطلق في قوله تعالى ﴿ بظلم ﴾ بالشرك " الذي هو ظلم موصوف بالعظم في قوله تعالى ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [ لقمان : 13 ] تنبيه للصحابة رضوان الله عليهم على أن هذا التنوين للتعظيم ، ولأنهم أهل اللسان المطبوعون فيه صفوا بذلك واطمأنوا إليه ، ولا شك أن السياق كله في التنفير عن الشرك ، وأنه دال على الحث على التبريء عن قليل الشرك وكثيره ، فآل الأمر إلى أن المراد : ولم يلبسوا إيمانهم بشيء من الشرك ، فالتنوين حينئذٍ للتحقير كما هو للتعظيم ، فهو من استعمال الشيء في حقيقته

ومجازه أو في معنيه المشترك فيهما لفظه معاً – والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 663 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ الذين ءامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إيمانهم بِظُلْمٍ ﴾

هذا من تمام كلام إبراهيم في المحاجة ، والمعنى : أن الذين حصل لهم الأمن المطلق هم الذين يكونون مستجمعين لهذين الوصفين : أولهما : الإيمان وهو كمال القوة النظرية .

وثانيهما : ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إيمانهم بِظُلْمٍ ﴾ وهو كمال القوة العملية .

ثم قال : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأمن وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ اعلم أن أصحابنا يتمسكون بهذه الآية من وجه والمعتزلة يتمسكون بها من وجه آخر .

*(147/238)*

---

أما وجه تمسك أصحابنا فهو أن نقول إنه تعالى شرط في الإيمان الموجب للأمن عدم الظلم ، ولو كان ترك الظلم أحد أجزاء مسمى الإيمان لكان هذا التقييد عبثاً ، فثبت أن الفاسق مؤمن وبطل به قول المعتزلة ، وأما وجه تمسك المعتزلة بها فهو أنه تعالى شرط في حصول

الأمن حصول الأمرين ، الإيمان وعدم الظلم ، فوجب أن لا يحصل الأمن للفاسق وذلك يوجب حصول الوعيد له .

وأجاب أصحابنا عنه من وجهين :

الوجه الأول : أن قوله : ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمانهم بِظُلْمٍ ﴾ المراد من الظلم الشرك ، لقوله تعالى حكاية عن لقمان إذ قال لابنه : ﴿ يا بنى لاَ تُشْرِكْ بالله إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [ لقمان : 13 ] فالمراد ههنا الذين آمنوا بالله ولم يثبتوا لله شريكاً في المعبودية .

والدليل على أن هذا هو المراد أن هذه القصة من أولها إلى آخرها إنما وردت في نفي الشركاء والأضداد والأنداد ، وليس فيها ذكر الطاعات والعبادات ، فوجب حمل الظلم ههنا على ذلك .

الوجه الثاني : في الجواب : أن وعيد الفاسق من أهل الصلاة يحتمل أن يعذبه الله ، ويحتمل أن يعفو عنه ، وعلى كلا التقديرين : فالأمن زائل والخوف حاصل ، فلم يلزم من عدم الأمن القطع بحصول العذاب ؟ والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 50 ﴾

*(148/238)*

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾

في الظلم ها هنا قولان :

أحدهما : أنه الشرك ، قاله ابن مسعود ، وأُبَيّ بن كعب ، روى ابن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية شق على المسلمين فقالوا : ما منَّا من أحد إلا وهو يظلم نفسه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَيسَ كَمَا تَظُنُّونَ ، وَإِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لابْنِه" ﴿ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [ لقمان : 13 ] .

والثاني : أنه سائر أنواع الظلم .

ومن قال بهذا اختلفوا في عمومها وخصوصها على قولين :

أحدهما : أنها عامة .

والثاني : أنها خاصة .

واختلف من قال بتخصيصها فيمن نزلت على قولين :

أحدهما : أن هذه الآية نزلت في إبراهيم خاصة وليس لهذه الأمة منها شيء ، قاله علي كرّم الله وجهه .

والثاني : أنها فيمن هاجر إلى المدينة ، قاله عكرمة .

واختلفوا فيمن كانت هذه الآية جواباً منه على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه جواب من الله تعالى فصل به بين إبراهيم ومن حَاجّه من قومه ، قاله ابن زيد ، وابن إسحاق .

والثاني : أنه جواب قومه لما سألهم ﴿ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ ﴾ ؟ فأجابوا بما فيه الحجة عليهم ، قاله ابن جريج .

والثالث : أنه جواب إبراهيم كما يسأل العالم نفسه فيجيبها ، حكاه الزجاج . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(149/238)

---

وقال أبو حيان :

﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾

الظاهر أنه من كلام إبراهيم لما استفهمهم استفهام عالم بمن هو الآمن وأبرزه في صورة السائل الذي لا يعلم استأنف الجواب عن السؤال ، وصرح بذلك المحتمل فقال : الفريق الذي هو أحق بالأمن هم الذين آمنوا ، وقيل : هو من كلام قوم إبراهيم أجابوا بما هو حجة عليهم ، وقيل : هو من كلام الله أمر إبراهيم أن يقوله لقومه أو قاله على جهة فصل القضاء بين خلقه وبين من حاجه قومه ، واللبس الخلط و ﴿ الذين آمنوا ﴾ : ابراهيم وأصحابه وليست في

هذه الأمة قاله علي وعنه ابراهيم خاصة أو من هاجر إلى المدينة ، قاله عكرمة أو عامة قاله بعضهم وهو الظاهر ، والظلم هنا الشرك قاله ابن مسعود وأبيّ ، وعن جماعة من الصحابة أنه لما نزلت أشفق الصحابة وقالوا : أينا لم يظلم نفسه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما ذلك كما قال لقمان : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ " ولما قرأها عمر عظمت عليه فسأل أبياً فقال : إنه الشرك يا أمير المؤمنين فسرى عنه وجرى لزيد بن صوحان مع سلمان نحو مما جرى لعمر مع أبيّ ، وقرأ مجاهد : ﴿ ولم يلبسوا إيمانهم ﴾ بشرك ولعل ذلك تفسير معنى إذ هي قراءة تخالف السواد ، وقال الزمخشري : أي لم يخلطوا إيمانهم بمعصية تفسقهم وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس انتهى ، وهذه دفينة اعتزال أي إن الفاسق ، ليس له الأمن إذا مات مصراً على الكبيرة ، وقوله : وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس هذا رد على من فسر الظلم بالكفر ، والشرك وهم الجمهور وقد فسره الرسول صلى الله عليه وسلم بالشرك فوجب قبوله ولعل الزمخشري لم يصح له ذلك عن الرسول ، وإنما جعله يأباه لفظ اللبس لأن اللبس هو الخلط فيمكن أن يكون الشخص في وقت واحد مؤمناً عاصياً معصية تفسقه ، ولا يمكن أن يكون مؤمناً مشركاً في وقت واحد ﴿ ولم يلبسوا ﴾ يحتمل أن يكون معطوفاً على الصلة ويحتمل أن يكون حالاً دخلت واو الحال على الجملة المنفية بلم كقوله تعالى : ﴿ أنى يكون لي غلام ولم

يمسسني بشر ﴾ وما ذهب إليه ابن عصفور من أن وقوع الجملة المنفية بلم قليل جداً وابن خروف من وجوب الواو فيها وإن كان فيها ضمير يعود على ذي الحال خطأ بل ذلك قليل وبغير الواو كثير على ذلك لسان العرب ، وكلام الله ، وقرأ عكرمة : ﴿ ولم يلبسوا ﴾ بضم الياء ويجوز في ﴿ الذين ﴾ أن يكون خبر مبتدأ محذوف وأن يكون خبره المبتدأ والخبر الذي هو ﴿ أولئك لهم الأمن ﴾ وأبعد من جعل لهم الأمن خبر الذين وجعل ﴿ أولئك ﴾ فاصلة وهو النحاس والحوفي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

*(151/238)*

---

فصل

قال ابن كثير :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ أي : هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك ، له ، ولم يشركوا به شيئا هم الآمنون يوم القيامة ، المهتدون في الدنيا والآخرة .

قال البخاري : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا ابن أبي عَدِيّ ، عن شعبة ، عن سليمان ،

عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله قال : لما نزلت ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ قال أصحابه : وأينا لم يظلم نفسه ؟ فنزلت : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13] (1)

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن إبراهيم ، عن عَلْقَمَة ، عن عبد الله قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ شق ذلك على الناس وقالوا : يا رسول الله ، فأينا لا يظلم نفسه ؟ قال : "إنه ليس الذي تعنون ! ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ إنما هو الشرك" (2)

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا وكيع وابن إدريس ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله قال : لما نزلت : ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : وأينا لم يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ليس كما تظنون ، إنما قال [لقمان] لابنه : ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (3)

---

(1) صحيح البخاري برقم (4629) .

(2) المسند (378/1) .

(3) ورواه البخاري في صحيحه برقم (6937) من طريق وكيع بنحوه .

(152/238)

---

وحدثنا عمر بن شَبَّةَ النمري ، حدثنا أبو أحمد ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ قال : "بشرك" .

قال : ورُوي عن أبي بكر الصديق ، وعمر ، وأُبيّ بن كعب ، وسلمان ، وحذيفة ، وابن عباس ، وابن عمر ، وعمرو بن شرحبيل ، وأبي عبد الرحمن السُّلَمِي ، ومجاهد ، وعِكْرِمة ، والنَّخَعِي ، والضحاك ، وقتادة ، والسُّدّي نحو ذلك .

وقال ابن مَرْدُوَيه : حدثنا الشافعي ، حدثنا محمد بن شَدَّاد المِسْمَعِيّ ، حدثنا أبو عاصم ، حدثنا سفيان الثوري ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله قال :

(153/238)

---

لما نزلت : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قيل لي : أنت منهم" (1)

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن يوسف ، حدثنا أبو جَناب ، عن زاذان ، عن جرير بن عبد الله قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلما برزنا من المدينة ، إذا راكب يوضع نحونا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كأن هذا الراكب إياكم يريد" . فانتهى إلينا الرجل ، فسلم فرددنا عليه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : "من أين أقبلت ؟" قال : من أهلي وولدي وعشيرتي . قال : "فأين تريد ؟" ، قال : أريدُ رسول الله . قال : "فقد أصبته" . قال : يا رسول الله ، علمني ما الإيمان ؟ قال : "تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت" . قال : قد أقررت . قال : ثم إن بعيره دخلت يده في جحر جُرْذَان ، فهوى بعيره وهوى الرجل ، فوقع على هامته فمات ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "علي بالرجل" . فوثب إليه عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان فأقعداه ، فقالا يا رسول الله ، قبض الرجل ! قال : فأعرض عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما رأيتما إعراضي عن الرجل ، فإني رأيت ملكين يدسان في فيه من ثمار الجنة ، فعلمت أنه مات جائعا" ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هذا من الذين قال الله ، عَزَّ وجل : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ ثم قال : "دونكم أخاكم" . قال : فاحتملناه إلى الماء فغسلناه وحنطناه وكفناه ، وحملناه إلى القبر ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جلس على شَفِير القبر فقال : "الحدوا ولا تشقوا ،

فإن اللحد لنا والشق لغيرنا" (2)

ثم رواه أحمد عن أسود بن عامر ، عن عبد الحميد بن جعفر الفراء ، عن ثابت ، عن زاذان ، عن جرير بن عبد الله ، فذكر نحوه ، وقال فيه : "هذا ممن عَمل قليلا وأجر كثيرًا" (3)

---

(1) وفي إسناده محمد بن شداد المسمعي ، قال الدارقطني : لا يكتب حديثه ، وقال مرة : ضعيف ، وضعفه البرقاني .

(2) المسند (359/4) وقال الهيثمي في المجمع (42/1) : "في إسناده أبو جناب وهو مدلس وقد عنعنه" .

(3) المسند (359/4) وقد تابع ثابت أبا جناب ، لكنه اختلف عليه فيه ، فرواه الطبراني في المعجم الكبير (319/2) من طريق عبيد الله ابن موسى عن ثابت عن أبي البقظان عن زاذان عن جرير به .

*(154/238)*

---

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا يوسف بن موسى القطان ، حدثنا مِهْران بن أبي عمر ،

حدثنا علي بن عبد الأعلى عن أبيه ، عن سعيد بن جُبَيْر ، عن ابن عباس قال : كنا مع

رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير ساره ، إذ عرض له أعرابي فقال : يا رسول الله ، والذي بعثك بالحق ، لقد خرجت من بلادي وتلادي وما لي لأهتدي بهداك ، وآخذ من قولك ، وما بلغتك حتى ما لي طعام إلا من خَضِرِ الأرض ، فاعْرِضْ عَلَيّ . فعرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقبل فازدحمنا حوله ، فدخل خف بَكْره في بيت جُرْذَان ، فتردى الأعرابي ، فانكسرت عنقه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : صدق والذي بعثني بالحق ، لقد خرج من بلاده وتلاده وماله ليهتدي بهداي ويأخذ من قولي ، وما بلغني حتى ما له طعام إلا من خضر الأرض ، أسمعتم بالذي عمل قليلا وأجر كثيرا هذا منهم ! أسمعتم بالذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ؟ فإن هذا منهم" (1) [وروى ابن مَرْدُوَيه من حديث محمد ابن معلى – وكان نزل الري – حدثنا زياد بن خيثمة عن أبي داود عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من أعطي فشكر ومنع فصبر وظلم فاستغفر وظلم فغفر" وسكت ، قالوا : يا رسول الله ما له ؟ قال" : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ ] انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 294 . 296 ﴾

---

(1) ورواه الحكيم الترمذي كما في الدر المنثور (309/3) .

وقال أبو السعود :

﴿ الذين آمَنُواْ ﴾ استئنافٌ من جهته تعالى مبينٌ للجواب الحقِّ الذي لا محيدَ عنه أي الفريقُ الذين آمنوا ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إيمانهم ﴾ ذلك أي لم يخلِطوه ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ أي بشركٍ كما يفعلُه الفريقُ المشركون حيث يزعُمون أنهم يؤمنون بالله عز وجل وأن عبادتَهم للأصنام من تتماتِ إيمانهم وأحكامِه لكونها لأجْل التقريبِ والشفاعة كما قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ وهذا معنى الخَلْطِ ﴿ أولئك ﴾ إشارةٌ إلى الموصول من حيث اتصافُه بما في حيز الصلة ، وفي الإشارة إليه بعدَ وصْفِه بما ذُكر إيذانٌ بأنهم تميَّزوا بذلك عن غيرهم ، وانتظموا في سلك الأمورِ المشاهَدة ، وما فيه من معنى البُعد للإشعار بعُلوِّ درجتِهم وبُعدِ منزلتهم في الشرف ، وهو مبتدأ ثانٍ ، وقولُه تعالى : ﴿ لَهُمُ الأمن ﴾ جملة من خبرٍ مقدمٍ ومبتدأ مؤخَّرٍ وقعت خبراً لأولئك ، وهو مع خبره خبرٌ للمبتدأ الأول الذي هو الموصول ، ويجوز أن يكونَ ( أولئك ) بدلاً من الموصول أو عطفَ بيانٍ له ، ولهم خبراً للموصول ، والأمنُ فاعلاً للظرف لاعتماده على المبتدأ ، ويجوز أن يكون لهم خبراً مقدماً ، والأمنُ مبتدأً والجملةُ خبراً للموصول ، ويجوز أن يكون أولئك مبتدأً ثانياً ( لهم ) خبره والأمن فاعلاً له ، والجملة خبراً للموصول ، أي أولئك الموصوفون بما ذُكر من الإيمان الخالصِ عن شَوْب الشرك لهم الأمنُ فقط ﴿ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ إلى الحق ، ومَنْ عداهم في ضلال

مبين . روي أنه لما نزلت الآيةُ شقَّ ذلك على الصحابة رضوانُ الله عليهم وقالوا : أينا لم يظْلِمْ نفسه ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : " ليس ما تظنون ، إنما هو ما قال لقمانُ لابنه : يا بني لا تُشرِكْ بالله إن الشرْكَ لظُلم عظيم " وليس الإيمانُ به أن يُصَدّقَ بوجود الصانعِ الحكيم ويخلِطَ بهذا التصديق الإشراكَ به ، وليس من قضية الخلطِ بقاءُ الأصلِ بعد الخلطِ حقيقةً ، وقيل :

المرادُ بالظلم المعصيةُ التي تُفسِّق صاحبَها ، والظاهرُ هو الأولُ لوروده موردَ الجواب عن حال الفريقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

*(156/238)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ الذين ءامَنُواْ ﴾ استئناف يحتمل أن يكون من جهته تعالى مبين للجواب الحق الذي لا محيد عنه .

وروي ذلك عن محمد بن إسحاق وابن زيد والجبائي ، ويحتمل أن يكون من جهة إبراهيم عليه السلام وروي ذلك عن علي كرم الله تعالى وجهه ، واستشكل كونه استئنافاً بأنه لا يمكن جعله بيانياً لأنه ما كان جواب سؤال مقدر ، وهذا جواب سؤال محقق ولا نحوياً لما

قال ابن هشام : إن الاستئناف النحوي ما كان في ابتداء الكلام ومنقطعاً عما قبله وهذا مرتبط بما قبله لارتباط الجواب والسؤال ضرورة وليس عندنا غيرهما .

وأجيب باختيار كونه نحوياً ، ومعنى كونه منقطعاً عما قبله أن لا يعطف عليه ولا يتعلق به من جهة الإعراب وإن ارتبط بوجه آخر ، وقيل : المراد بابتداء الكلام ابتداؤه تحقيقاً أو تقديراً أي الفريق الذين آمنوا بما يجب الإيمان به .

﴿ وَلَمْ يَلْبِسُواْ ﴾ أي لم يخلطوا ﴿ أيمانهم ﴾ ذلك ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ أي شرك كما يفعله الفريق المشركون حيث يزعمون أنهم مؤمنون بالله تعالى وأن عبادتهم لغيره سبحانه معه من تتمات إيمانهم وأحكامه لكونها لأجل التقريب والشفاعة كما ينبىء عنه قوله : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ [ الزمر : 3 ] وإلى تفسير الظلم بالشرك هنا ذهب ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وابن المسيب وقتادة ومجاهد وأكثر المفسرين ، ويؤيد ذلك أن الآية واردة مورد الجواب عن حال الفريقين .

ويدل عليه ما أخرجه الشيخان وأحمد والترمذي عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أن الآية لما نزلت شق ذلك على الصحابة رضي الله تعالى عنهم وقالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : ليس ما تظنون إنما هو ما قال لقمان عليه السلام لابنه ﴿ يَعِظُهُ يا بنى لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [ لقمان : 13 ] ولا يقال : إنه لا يلزم من قوله : ﴿ إِنَّ الشرك ﴾ الخ أن غير الشرك لا يكون ظلماً لأنهم قالوا : إن التنوين في ﴿ بِظُلْمٍ ﴾

للتعظيم فكأنه قيل : لم يلبسوا إيمانهم بظلم عظيم ، ولما تبين أن الشرك ظلم عظيم علم أن المراد لم يلبسوا إيمانهم بشرك أو أن المتبادر من المطلق أكمل أفراده .

وقيل : المراد به المعصية وحكي ذلك عن الجبائي والبلخي وارتضاه الزمخشري تبعاً لجمهور المعتزلة .

*(157/238)*

---

واستدلوا بالآية على أن صاحب الكبيرة لا أمن له ولا نجاة من العذاب حيث دلت بتقديم لهم الآتي على اختصاص الأمن بمن لم يخلط إيمانه بظلم أي بفسق وادعوا أن تفسيره بالشرك يأباه ذكر اللبس أي الخلط إذ هو لا يجامع الإيمان للضدية وإنما يجامع المعاصي ، والحديث خبر واحد فلا يعمل به في مقابلة الدليل القطعي ، والقول بأن الفسق أيضاً لا يجامع الإيمان عندهم أيضاً فلا يتم لهم الاستدلال لكونه اسماً لفعل الطاعات واجتناب السيئآت حتى أن الفاسق ليس بمؤمن كما أنه ليس بكافر مدفوع كما قيل بأنه كثيراً ما يطلق الإيمان على نفس التصديق بل لا يكاد يفهم منه بلفظ الفعل غير هذا حتى أنه يعطف عليه عمل الصالحات كما جاء في غير ما آية .

وأجيب بأنه أريد بالإيمان تصديق القلب وهو قد يجامع الشرك كأن يصدق بوجود الصانع

دون وحدانيته كما أشرنا إليه آنفاً ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴾ [ يوسف : 106 ] .

وكذا إذا أريد به مطلق التصديق سواء كان باللسان أو غيره بل المجامعة على هذا أظهر كما في المنافق ولو أريد به التصديق بجميع ما يجب التصديق به بحيث يخرج عن الكفر يقال : إنه لا يلزم من لبس الإيمان بالشرك الجمع بينهما بحيث يصدق عليه أنه مؤمن ومشرك بل تغطيته بالكفر وجعله مغلوباً مضمحلاً أو اتصافه بالإيمان ثم الكفر ثم الإيمان ثم الكفر مراراً ، وبعد تسليم جميع ما ذكر نقول :

إن قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأمن ﴾ إنما يدل على اختصاص الأمن بغير العصاة وهو لا يوجب كون العصاة معذبين ألبتة بل خائفين ذلك موقعين للاحتمال ورجحان جانب الوقوع .

*(158/238)*

---

وقيل المراد من الأمن الأمن من خلود العذاب لا الأمن من العذاب مطلقاً ، والموصول مبتدأ واسم الإشارة مبتدأ ثان والإشارة إلى الموصول من حيث اتصافه بما في حيز الصلة وفي الإشارة إليه بما فيه معنى البعد بعد وصفه بما ذكر ما يلاخفى ، وجملة ﴿ لَهُمُ الأمن ﴾

من الخبر المقدم والمبتدأ المؤخر خبر المبتدأ الثاني والجملة خبر الأول ، وجوز أن يكون ﴿ أولئك ﴾ بدلاً من الموصول أو عطف بيان له و ﴿ لَهُمْ ﴾ هو الخبر و ﴿ الأمن ﴾ فاعلاً للظرف لاعتماده على المبتدأ ، وأن يكون ﴿ لَهُمْ ﴾ خبراً مقدماً و ﴿ الأمن ﴾ مبتدأ مؤخراً والجملة خبر الموصول ، وجوز أبو البقاء كون الموصول خبر مبتدأ محذوف وقال : التقدير هم الذين ولا يخلو عن بعد والأكثرون على الأول ﴿ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ إلى الحق ومن عداهم في ضلال مبين ، وقدر بعضهم إلى طريق توجب الأمن من خلود العذاب .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾

هذه الجملة من حكاية كلام إبراهيم على ما ذهب إليه جمهور المفسِّرين فيكون جواباً منه عن قوله : ﴿ فأيّ الفريقين أحقّ بالأمن ﴾ [ الأنعام : 81 ] .

تولّى جوابَ استفهامه بنفسه ولم ينتظر جوابهم لكون الجواب ممَّا لا يسع المسؤول إلاّ أن يجيب بمثله ، وهو تبكيت لهم .

قال ابن عبَّاس : كما يسأل العالم ويُجيبُ نفسه بنفسه ، أي بقوله : "فإن قلتَ قلتُ" .

وقد تقدّمت نظائره في هذه السورة .

وقيل : ليس ذلك من حكاية كلام إبراهيم ، وقد انتهى قول إبراهيم عند قوله ﴿ إن كنتم

تعلمون ﴾ [الأنعام: 81] بل هو كلام مستأنف من الله تعالى لابتداء حكم، فتكون الجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً تصديقاً لقول إبراهيم.

وقيل: هو حكاية لكلام صدر من قوم إبراهيم جواباً عن سؤال إبراهيم ﴿ فأيّ الفريقين أحقّ بالأمن ﴾ [الأنعام: 81].

*(159/238)*

---

ولا يصحّ لأنّ الشأن في ذلك أن يقال: قال الذين آمنوا الخ، ولأنَّه لو كان من قول قومه لما استمرّ بهم الضلال والمكابرة إلى حدّ أن ألقَوا إبراهيم في النّار.

وحذف متعلّق فعل ﴿ آمنوا ﴾ لظهوره من الكلام السابق.

والتقدير: الذين آمنوا بالله.

وحقيقة ﴿ يلبسوا ﴾ يخلطوا، وهو هنا مجاز في العمل بشيئين متشابهين في وقت واحد. شبّه بخلط الأجسام كما في قوله: ﴿ ولا تلبسوا الحقّ بالباطل ﴾ [البقرة: 42].

والظّلم: الاعتداء على حقّ صاحب حقّ، والمراد به هنا إشراك غير الله مع الله في اعتقاد الإلهية وفي العبادة، قال تعالى: ﴿ إنّ الشّرك لظلم عظيم ﴾ [لقمان: 13] لأنَّه أكبر الاعتداء، إذ هو اعتداء على المستحقّ المطلق العظيم، لأنّ من حقّه أن يفرد بالعبادة

اعتقاداً وعملاً وقولاً لأنّ ذلك حقّه على مخلوقاته .

ففي الحديث " حقّ العباد على الله أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئاً " وقد ورد تفسير الظلم في هذه الآية بالشرك .

في الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود " لمّا نزلت ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ شَقّ ذلك على المسلمين وقالوا : أيّنا لم يظلم نفسه " فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم " ليس كما تَظُنّون إنَّما هو كما قال لقمان لابنه : ﴿ إنّ الشرك لظلم عظيم ﴾ [ لقمان : 13 ] أهـ .

" وذلك أنّ الشرك جمع بين الاعتراف لله بالإلهية والاعتراف لغيره بالربوبيّة أيضاً .

ولَمَّا كان الاعتراف لغيره ظلماً كان إيمانهم بالله مخلوطاً بظلم وهو إيمانهم بغيره ، وحَمله على هذا المعنى هو الملائم لاستعارة اسم الخَلط لهذا المعنى لأنّ الإيمان بالله وإشراكَ غيره في ذلك كلاهما من جنس واحد وهو اعتقاد الربوبيّة فهما متماثلان ، وذلك أظهر في وجه الشبه ، لأنّ شأن الأجسام المتماثلة أن يكون اختلاطها أشدّ فإنّ التَّشابُه أقوى أحوال التّشبيه عند أهل البيان .

(160/238)

والمعنى الذين آمنوا بالله ولم يشركوا به غيره في العبادة .

وحَمَل الزمخشري الظلم على ما يشمل المعاصي ، لأنّ المعصية ظلم للنّفس كما في قوله تعالى : ﴿ فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم ﴾ [ التوبة : 36 ] تأويلاً للآية على أصول الاعتزال لأنّ العاصي غير آمن من الخلود في النّار فهو مساو للكافر في ذلك عندهم ، مع أنَّه جَعَل قوله : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا ﴾ إلى آخره من كلام إبراهيم ، وهو إن كان محكيّاً من كلام إبراهيم لا يصحّ تفسير الظلم منه بالمعصية إذ لم يكن إبراهيم حينئذٍ داعياً إلاّ للتَّوحيد ولم تكن له بعدُ شريعة ، وإن كان غير محكي من كلامه فلا يناسب تفسيره فيه بالمعصية ، لأنّ تعقيب كلام إبراهيم به مقصود منه تأييد قوله وتبيينُه ، فالحقّ أنّ الآية غير محتاجة للتّأويل على أصولهم نظراً لهذا الذي ذكرناه .

والإشارة بقوله : ﴿ أولئك لهم الأمن ﴾ للتنبيه على أنّ المسند إليه جدير بالمسند من أجل ما تقدّم من أوصاف المسند إليه وهذا كقوله ﴿ أولئك على هدى من ربّهم ﴾ [ البقرة : 5 ] .

وقوله ﴿ لهم الأمْن ﴾ أشارت اللاّم إلى أنّ الأمن مختصّ بهم وثابت ، وهو أبلغ من أن يُقال : آمنون .

والمراد الأمن من عذاب الدنيا بالاستئصال ونحوه وما عُذّبت به الأمم الجاحدة ، ومِن عذاب الآخرة إذ لم يكن مطلوباً منهم حينئذٍ إلاّ التوّحيد .

والتّعريف في ﴿ الأمن ﴾ تعريف الجنس ، وهو الأمن المتقدّم ذكره ، لأنَّه جنس واحد ، وليس التّعريف تعريف العهد حتَّى يجيء فيه قولهم : إنّ المعرفة إذا أعيدت معرفة فالثّانية عين الأولى إذ لا يحتمل هنا غير ذلك .

وقوله : ﴿ وهم مهتدون ﴾ معطوف على قوله : ﴿ لهم الأمن ﴾ عطفَ جزء جملة على الجملة التي هي في حكم المفرد ، فيكون ﴿ مهتدون ﴾ خبراً ثانياً عن اسم الإشارة عُطف عليه بالواو على إحدى الطريقتين في الأخبار المتكرّرة .

*(161/238)*

---

والضمير للفصل ليفيد قصر المسند على المسند إليه ، أي الاهتداء مقصور على الذين آمنوا ولم يلبِسوا إيمانهم بظلم دون غيرهم ، أي أنّ غيرهم ليسوا بمهتدين ، على طريقة قوله تعالى : ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ [ البقرة : 55 ] وقوله : ﴿ ألم يعلموا أنّ الله هو يقبل التّوبة عن عباده ﴾ [ التوبة : 104 ] .

وفيه إشارة إلى أنّ المخبَر عنهم لمَّا نَبذوا الشّرك فقد اهتدوا .

ويجوز أن يكون قوله : ﴿ وهم مهتدون ﴾ جملة ، بأنْ يكونَ ضمير الجمع مبتدأ و ﴿ مهتدون ﴾ خبره ، والجملة معطوفة على جملة ﴿ أولئك لهم الأمن ﴾ ، فيكون خبراً

ثانياً عن اسم الموصول ، ويكون ذكر ضمير الجمع لأجل حُسن العطف لأنَّه لمّا كان المعطوف عليه جملة اسميّة لم يحسن أن يعطف عليه مفرد في معنى الفعل ، إذ لا يحسن أن يقال : أولئك لهم الأمن ومهتدون ؛ فصيغ المعطوف في صورة الجملة .

وحينئذٍ فالضمير لا يفيد اختصاصاً إذ لم يؤت به للفصل ، وهذا النظم نظير قوله تعالى : ﴿ له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير ﴾ [ التغابن : 1 ] وقوله : تعالى : ﴿ له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وهو على كلّ شيء قدير ﴾ [ الحديد : 2 ] على اعتبار ﴿ وهو على كلّ شيء قدير ﴾ عطفاً على ﴿ له مُلك السماوات والأرض ﴾ وما بينهما حال ، وهذا من محسّنات الوصل كما عُرف في البلاغة ، وهو من بدائع نظم الكلام العربي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

*(162/238)*

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82) ﴾

حينما سمع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية اشفقوا على أنفسهم ؛ لأنهم استعرضوا حركة أعمالهم فوجدوها لا تخلو من ظلم ، وخافوا أن يكونوا من غير الداخلين

في ﴿ أولئك لَهُمُ الأمن ﴾ . وشق عليهم ذلك ، فرفعوا أمرهم إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأوضح لهم صلى الله عليه وسلم مُطَمْئِناً : إن ذلك الظلم هو الذي قال الله فيه : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [ لقمان : 13 ] .

والآية تدل بمعطياتها على أن ذلك الظلم هو المتعلق بالإيمان لا بالعمل ؛ لأننا نعلم أن التقاء الإنسان بربه مشروط أولاً بعقيدة القمة ، وهي أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن تشهد أن محمداً رسول الله ؛ ومعناها ؛ لا معبود بحق إلا الله ، أولا أمر لأحد في خلق الله إلا لله ، ولا فعل لأحد من خلق الله إلا من الله ، ولا استمداد لأحد قدرة وعلماً وحكمة وقبضاً وبسطاً إلا من الله ، تلك هي دائرة الإيمان العقدية .

ويقول الحق : ﴿ وَلَمْ يلبسوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ فكأن هذه المسألة هي منطقة الظلم ، أما العمل فسبحانه فصَّل لنا بين إيمان ينفجر عنه العمل وعمل تنفجر عنه الطاقات فقال سبحانه : ﴿ والعصر * إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات . . . ﴾ [ العصر : 1-3 ]

*(163/238)*

والعطف في قوله : ﴿ إِلَّا الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ يقتضي المغايرة ، فالإيمان شيء وعمل الصالحات شيء آخر ، إذن فالإيمان عمل ينبوعي في القلب ، ولكن العمل ناشئ عن الالتزام الذي شرعه الإيمان فيه ، وعلى المؤمن أن يتنبه إلى أن الله واحد في ذاته ، وواحد في صفاته ، وواحد في أفعاله ، لا ندّ له ولا شريك معه ، فإن وجدت صفة في الله ووجدت صفة مثلها فيك فاعلم أن الصفة في الله في دائرة ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ . فى قدرة كقدرته ، ولا ذات كذاته ، ولا فعل كفعله . فإن اختل شئ من ذلك في اليقين فهذا ظلم واقع في الإيمان .

فمثلاً : أنت تقبل على الأشياء بالطاقات المخلوقة لك من الحق سبحانه وتعالى ، وقبل أن تفعل أي فعل لا بد أن يمر على بالك نسبة ذهنية ، قبل أن تكون نسبة قولية أو فعلية . هذا هو العمل المنوط بك والمطلوب منك ، أما العمل الذي لا يمر ببالك فلست مسئولا عنه ، مثال ذلك : هب أنك سائر في الطريق ، ثم وجدت حفرة تكاد تسقط فيها ، فهناك أمر غريزي لحفظ الإنسان فيبعد رجله ، وهو لا يستطيع في هذه المسألة أن يمررها بباله . وتلك أعمال نسميها الأعمال الاضطرارية أو الغريزية أو القسرية . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

"كل أمر ذي بال لا يبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم أقطع " " حديث شريف "

وقال صلى الله عليه وسلم : "كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله أقطع " " حديث شريف "

*(164/238)*

---

و " ذي بال " أي كل أمر تفعله بعد أن يمر ببالك أن تفعله يجب أن تذكر فيه اسم الله .

ويغفل أناس كثيرون عن هذه المسألة فنقول لهم : منطقياً لا بد أن تضعوا هذا الأمر في بالكم لأن الفعل الذي لا يمر ببالك هو فعل أعطى الله غريزتك – بدون أمر – أن تفعله . ومثال ذلك إذا أكل الإنسان ثم نزل شيء في قصبته الهوائية غير الهواء ؛ نجده يسعل بلا شعور حتى يخرج هذا الشيء ، لأنها عملية قسرية . أما الأمر ذو البال فهو الذي تمر ببالك نسبته الذهنية ثم يمر بالفعل ، إن كان قولاً تقوله ، وإن كان فعلاً تفعله ؛ فمطلوب منك فيه ابتداء أن تسمّى الله ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يطلب منا ألا تشغلنا الأسباب عن المسبب لها . فأنت مثلاً حين تزرع الأرض تحرثها ، ثم تضع البذرة وتغطيها ، ثم ترويها وبعد ذلك ينبت الزرع . ألك في ذلك شيء ؟ . إنه ليس لك إلاّ تجميع فعل ؛ فالبذرة مخلوقة لله ، والتربة التي وضعت فيها البذرة مخلوقة لله ، والعناصر الموجودة في الأرض لتغذي النبات مخلوقة لله ، والخاصية الموجودة في البذرة لتمتص شيئاً ينّمي جذيرها ثم تنفلق الحبة ، كل هذه أسباب

ليس لك فيها شيء أبداً . ولكن الله احترم فعلك فقط فقال سبحانه : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ [ الواقعة : 63 ]

ثم قال سبحانه : ﴿ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزارعون ﴾ [ الواقعة : 64 ]

ومن مخصصات الإيمان أنك حين تقبل على أي شيء ذي بال ألا تنسى من سخر لك هذا ، فليس في قدرتك أن تفعل لنفسك وبنفسك أي شيء إلا بإرادة الله ، وإذا ما فعلت ذلك وتذكرت من سخر لك هذا تكون قد نسبت الأمر كله له سبحانه .

*(165/238)*

---

ونحن في قوانيننا الوضعية ساعة يجلس القاضي ليحكم بين الناس حُكماً وهناك سلطة تنفذ هذا الحكم فهو يقول : " باسم الشعب " أو " باسم القانون " ، إذن الشعب أو القانون هو الذي أعطاه الصلاحية لأن يحكم هذا الحكم ، فما هي القدرة التي جعلتك تحكم على الأشياء أن تنفعل لك ؟ لا بد أن تقول إذن : باسم الله الذي سخر لي هذا ، فإذا أقبلت على عمل بغير ذلك ، تكون مفتاتا ومختلقا ومدعياً أمراً لا تستطيعه ؛ لأنه ليس في سلطتك ولا في قدرتك أن تسخر الكائنات لك .

إن الحق سبحانه وتعالى هو الذي سخر لك الكائنات ، فعليك أن تذكر اسم الحق لتنفعل

لك تلك الكائنات ، ومن يغفل عن ذلك فقد لبَس وخلط إيمانه بظلم . وإذا ما رأيت ثمرة من ثمارك إياك أن تقول كما قال قارون : ﴿ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عندي ﴾ بل اذكر وقل : " ما شاء الله " ؛ لأنك إن قلت : ﴿ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ ﴾ فالحق قد قال في شأن قارون :

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض ﴾ [ القصص : 81 ]

أين ذهب علم قارون الذي جاء به ؟ .

إذن فكل أمر من الأمور يجب أن تنسبه لله ، فإن اختل شيء فيك من هذه المسألة فاعلم أنك لبَست وخلطت إيمانك بظلم ، والحق سبحانه وتعالى منا ذلك حتى تكون النعمة مباركة إقبالاً عليها أو انتفاعاً بها ، ولا ينشأ من العمل الذي تعمله مبتدئاً ب " بسم الله " إلا ما يعينك على طاعته ، ويعينك على بر ، ويعينك على خير ، ولا تصرفه إلا في عافية . وبعد ذلك يؤهلك مجموع هذه الأشياء في كل حركاتك وأعمالك إلى أن تأخذ أمناً آخر أجمع وأتم وأكمل من أمن الدنيا ؛ إنّك تأخذ أمن الآخرة بأن تدخل الجنة .

*(166/238)*

---

إذن ﴿ أولئك لَهُمُ الأمن ﴾ أي الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم ، والحق سبحانه وتعالى يريد منا أن نتصل دائماً بمنهجه ؛ لأن إمدادات الله سبحانه وتعالى مستمرة ، ورحماته وتجلياته

لا تنقطع عن خلقه أبداً ؛ لأنه قيوم أي إنه بطلاقة قدرته وشمول قيوميته يقوم سبحانه باقتدار وحكمة على كل أسباب مخلوقاته ، فكن دائماً في صحبة القيوم ؛ ليتجلى عليك بصفات حفظه ، وصفات قدرته ، وصفات علمه ، وصفات حكمته فرسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبلال : " يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام فإني سمعت دفَّ نعليك بين يديّ في الجنة . قال : ما عملت عملا أرجى عندي من أنّي لم أتطهر طهورا في ساعة من ليل أو نهار إلاّ صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي "

ويقول – صلى الله عليه وسلم – : " إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجههُ خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليه بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطرة الماء حتى يخرج نقيًا من الذنوب "

إذن الحق سبحانه وتعالى يريد منا أن نتصل بمنهجه اتصالاً وثيقا ؛ ليعطينا ، لا ليأخذ منا ؛ لأن الفرق بين عبودية البشر للبشر والعبودية الخالصة لله أن البشر يأخذ خير عبده ، ولكن عبوديتنا لله تعطينا خيره من خزائن لا تنفد ، نأخذ منه كلما ازددنا له عبودية ، إذن الحق دائماً يريد أن يصلنا به .

﴿ أولئك لَهُمُ الأمن ﴾ الأمن في الدنيا ؛ والأمن بمجموع ما كان في الدنيا مع الأمن في الآخرة

.

ولقائل أن يقول : هناك اناس لا يسمون باسم الله ، ولا يخطر الله على بالهم ، ويتحركون في طاقات الأرض ومادتها ، وينعمون بها ويسعدون ، وقد يسعدون بابتكارات سواهم .

*(167/238)*

---

ونقول : نعم هذا صحيح ؛ لأن فيه فرقاً بين عطاء الفعل ، والبركة في عطاء الفعل . إذا زرع الكافر فالأرض تعطى له ، وإذا قام بأي عمل يأخذ نتيجته ، لكن لا يأخذ البركة في العطاء

.

وما هي البركة في العطاء ؟ البركة في العطاء أن يكون ما أخذته من هذا العطاء لا يعينك على معصية ، بل دائماً يعينك على طاعة . ونحن نرى كثيراً من الناس يصدق عليهم قوله سبحانه : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدنيا واستمتعتم بِهَا ﴾ فإياك أن تغالط وتقول : إنهم لا يقولون : ﴿ بسم الله الرحمن الرَّحِيمِ ﴾ ومع ذلك فهم قد أخذوا طيبات الحياة الدنيا ، إنك حين تنظر إليهم تجد كل مرتقيات حضارتهم ، وطموحات بحوثهم واكتشافاتهم تتجه دائماً إلى الشر ، لم يأت لهم ابتكار إلا استعملوه في الشر إلى أن يأذن الله فيشغلهم عن أشيائهم بما يصب عليهم من العذاب والنكبات ولهم في الآخرة العقاب على شركهم وكفرهم .

إذن ﴿ أولئك لَهُمُ الأمن ﴾ أي إنّ هؤلاء الذين لم يخلطوا إيمانهم بشرك لهم الأمن في جزيئات أعمالهم والأمن المتجمع من جزيئات أعمالهم يعطي لهم الأمن في الجنة . ﴿ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ والهداية هي الطريق الذي يوصل إلى الغاية . ولا يقال إنك موفق في الحركة إلا إذا أدت بك هذه الحركة إلى غاية مرسومة في ذهنك من نجاح بعد المذاكرة والاجتهاد . ولا مخلوق ولا مصنوع يحدد غايته ، فاترك لله تحديد مهمتك ، فسبحانه هو الذي خلقك ، وفي عرف البشر ، لا توجد صنعة تحدد مهمتها أبداً ، بل إن الصانع هو الذي يحدد لها الغاية منها ؛ فالغاية توجد أولاً قبل الصنعة ، وما دامت الغاية موجودة قبل الصنعة فمن الذي يشقى بالتجارب إذن ؟ .

*(168/238)*

---

في الابتكارات العلمية المعملية المادية التي تنشأ من التفاعل مع المادة نجد أن الذي يشقى بالتجربة أولاً هو العالم ، وأنت لا تعلم التجربة إلا بعد ما تظهر نتائجها الطيبة ، والمسائل النظرية التي تتعب العالم يأتي التعب منها لأنها ليست مربوطة أولاً بالماديات المقننة وبمعرفة الغاية ، ولا بمعرفة الوسيلة لهذه الغاية . فمن المهتدي إذن ؟

إن المهتدي هو من يعرف الغاية التي يسعى إليها ، والوسيلة التي توّهله إلى هذه الغاية . وإذا

حدث له عطب في ملكات نفسه ، يستعين في إصلاح العطب ويلجأ إلى من صنع هذه الملكات ، وهو الله سبحانه ، كما يرد الإنسان الآلة التي تتعطل لصانعها . ونجد كثيراً من الشعراء يسرحون في خيالهم فيقول الواحد منهم :

ألا من يريني غايتي قبل مذهبي . . . ومن أين للغايات بعد المذاهب ؟

ونقول له : من خلقك أوضح لك الغاية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(169/238)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82) ﴾

أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والدارقطني في الافراد وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبد الله بن مسعود قال : " لما نزلت هذه الآية ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ شق ذلك على الناس فقالوا : يا رسول الله وأينا لا يظلم نفسه ؟ قال " إنه ليس الذي تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [ لقمان : 13 ] إنما هو الشرك " .

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي بكر الصديق . أنه سئل عن هذه الآية ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ قال : ما تقولون ؟ قالوا : لم يظلموا . قال : حملتم الأمر على أشده ، بظلم : بشرك ، ألم تسمع إلى قول الله ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ ؟ .

وأخرج أبو الشيخ عن عمر بن الخطاب ﴿ ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ قال : بشرك .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن أبي شيبة وأبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن حذيفة ﴿ ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ قال : بشرك .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن سلمان الفارسي . أنه سئل عن هذه الآية ﴿ ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ قال : إنما عنى به الشرك ، ألم تسمع الله يقول ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ ؟ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ من طرق عن أبي بن كعب في قوله ﴿ ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ قال : ذاك الشرك .

*(170/238)*

وأخرج ابن المنذر والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس . أن عمر بن الخطاب كان إذا دخل بيته نشر المصحف يقرأه ، فدخل ذات يوم فقرأ سورة الأنعام ، فأتى على هذه الآية ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ إلى آخر الآية ، فانتقل وأخذ رداءه ثم أتى أبي بن كعب ، فقال : يا أبا المنذر أتيت على هذه الآيه ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ وقد نرى أنا نظلم ونفعل ونفعل ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ان هذا ليس بذاك . يقول الله ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [ لقمان : 13 ] إنما ذلك الشرك .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ من طرق عن ابن عباس ﴿ ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ قال : بشرك .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ قال : بعبادة الأوثان .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ يقول : لم يخلصوا إيمانهم بشرك .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه عن علي بن أبي طالب في قوله ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ قال : نزلت هذه الآية في إبراهيم وأصحابه خاصة ، ليس في هذه الأمة .

وأخرج أحمد والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن جرير بن عبد الله قال : " خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما برزنا من المدينة إذا راكب يوضع نحونا ، فانتهى إلينا فسلم ، فقال له النبي صلى الله وعليه وسلم " من أين أقبلت ؟ فقال : من أهلي وولدي وعشيرتي أريد رسول الله . قال : أصبته . قال : علمني ما الإِيمان ؟ قال : تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت . قال : قد أقررت . ثم إن بعيره دخلت يده في شبكة جردان فهوى ووقع الرجل على هامته فمات . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا من الذين عملوا قليلاً وأجروا كثيراً ، هذا من الذين قال الله ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ إني رأيت حور العين يدخلن في فيه من ثمار الجنة ، فعلمت أن الرجل مات جائعا " " .

وأخرج الحكيم الترمذي وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : "كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسير ساره ، إذ عرض له أعرابي فقال : والذي بعثك بالحق لقد خرجت من بلادي وتلادي لأهتدي بهداك وآخذ من قولك فاعرض علي ، فأعرض عليه الإِسلام فقبل ، فازدحمنا حوله فدخل خف بكره في ثقب جردان ، فتردى الأعرابي فانكسرت عنقه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أسمعتم بالذي عمل قليلاً وأجر كثيراً هذا

منهم ؟ أسمعتم بالذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم هذا منهم ؟ " .

وأخرج أبن أبي حاتم عن بكر بن سوادة قال : حمل رجل من العدوّ على المسلمين فقتل رجلاً ، ثم حمل فقتل آخر ، ثم حمل فقتل آخر ، ثم قال : أينفعني الإِسلام بعد هذا ؟ قالوا : ما ندري ، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : نعم . فضرب فرسه فدخل فيهم ، ثم حمل على أصحابه فقتل رجلاً ، ثم آخر ، ثم قتل . قال : فيرون أن هذه الآية نزلت فيه ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ الآية .

*(172/238)*

---

وأخرج عبد بن حميد عن إبراهيم التيمي " أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم فسكت حتى جاء رجل فأسلم ، فلم يلبث إلا قليلاً حتى قاتل فاستشهد ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هذا منهم من الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلمم " .

وأخرج البغوي في معجمه وابن حاتم وابن قانع والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن سخبرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من ابتلي فصبر ، وأعطي فشكر ، وظلم فغفر ، وظلم فاستغفر ، ثم سكت النبي صلى الله عليه وسلم فقيل : يا رسول الله ما

له؟ قال ﴿ أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(173/238)

---

لطيفة

قال فى البحر المديد :

الإشارة : العارف بالله ، المتحقق بوحدانية الله ، لا يسكن خوفُ الخلق في قلبه ، ولا ينظر إلا إلى ما يبرُز من عند ربه ، فإن وعدَه بالعصمة أو الحفظ لم يترك بذلك التضرعَ والالتجاء إلى ربه ؛ لسعة علمه تعالى ، وقد يكون ذلك متوقفًا على أسباب وشروط ، أخفاها الحق تعالى إظهارًا لقهريته ، ولذلك قال الخليل عليه السلام : ﴿ ولا أخاف ما تُشركون به إلا أن يشاء ربي شيئًا وسع ربي كل شيء علمًا ﴾ . وقال سيدنا شعيب عليه السلام : ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [ الأعراف : 89 ] . فالعارف لا يزول اضطرارهُ ، ولا يكون مع غير الله قراره ، وأما الأمن من التحويل والانقلاب ، فاختلف فيه ؛ فقال بعضهم : يحصُل للوليّ الأمنُ ، إذا تحقق بمقام القُرب ، وحصل له الفناء والبقاء ، متمسكًا بقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ

أُولَئِكَ لَهُمُ الأمن ﴾ . وقال بعضهم : لا يحصل الأمن إلا للأنبياء عليهم السلام ؛ للعصمة . قال الورتجبي : مقام الأمن لا يحصل لأحد ، ما دام هو بوصف الحدثية ، وكيف يكون آمنًا منه وهو في رِقِّ العبودية ويعرف نفسه بها ، ويعرف الحق بوصف القدم والبقاء وقهر الجبروت ؟ وقال تعالى : ﴿ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [ الأعراف : 99 ] .

فإذا رأى الله تعالى بوصف المحبة والعشق والشوق ، وذاق طعم الدنو ، واتّصف بصفات الحق ، بدا له أوائل الأمن ، لأن في صفة القدم لا يكون علة الخوف والرجاء ، لأن هناك جنة القرب والوصال ، وهم فيها آمنون من طوارق القهر ، وهم مهتدون ما داموا متصفين بصفاته ، وإن كانوا في تسامح من مناقشة الله بدقائق خفايا مكره . أ ه .

*(174/238)*

---

فظاهر كلامه ، أن المتحقق بمقام الفناء والبقاء ، يحصل له الأمن من الشقاء ، وكذلك قال أبو المواهب : من رجع إلى البقاء أَمِنَ من الشقاء . وقال في نوادر الأصول : مَن حَظُّه من أهل التقريب : الجلال والجمال ، وقد أقيم في الهيبة والأنس ، قد غاب عن خوف العقوبة ، ولكنه يخاف التحويل والهُوِي والسقوط ، لِما رُكب في نفوس بني آدم من الشهوات ، فهن أبدًا

يُهوِين بصاحبهن عن الله إلى الإخلاد والبُطء ، وإنما يسكن خوف التحول إذا خلَص إلى الفردانية وتعلَّق بالوحدانية ؛ لتلاشِي الهوى منه والشهوة ؛ بكشف الغطاء ، ولا يذهب خوف ذلك بالكُلِّية عنه ، وإن سكن ؛ لبقاء خيال ذلك في حق غير الأنبياء . وأما هُم فلم يبقَ لهم ظِلُّ الهوى ، فبُشِّروا بالنجاة ؛ فلَم تغُرهم البُشرى ؛ لأنهم لم يبق لهم نفوس ، فتستبدّ وتجور إذا أمِنَت السقوط ، ومَن بعَدَهم بَقِي لهم في نفوسهم شيء فمُنعوا البشرى ، وأُبهم عليهم الأمر ؛ صنعًا بهم ؛ ونظرًا لهم ، لتكون نفوسهم منقمعة بخوف الزوال . انتهى انتهى . اهـ هذا هو الأصل فافهمه . أهـ

وحاصل كلامه : أن غير الأنبياء لا ينقطع عنه خوفُ التحويل ، بل يسكن خوفه فقط ، ولا يُبَشّر بالأمن إلا الأنبياء ، وهو الصواب ، لبقاء قهر الربوبية فوق ضعف العبودية ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [ الأنعام : 18 ] . والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ البحر المديد جـ 2 صـ 139 . 140 ﴾

*(175/238)*

---

ومن فوائد السمرقندى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ قَالَ إبراهيم لأَبِيهِ ءازَرَ ﴾

وكان اسم أبيه تارح بن ناحور بلغة قومه ، وبلغة غيرهم كان آزر .

وقال السدي : كان اسم أبيه آزر .

وهكذا قال الكلبي .

وقال بعضهم : لم يكن آزر اسم أبيه ، ولكن كان اسم كبير أصنامهم .

فقال أبوه لإبراهيم : ربي آزر .

فقال إبراهيم على وجه التعجب : آزر .

﴿ وَإِذْ قَالَ إبراهيم ﴾ وقال مجاهد : آزر ليس اسم أبيه ، وإنما هو اسم صنم .

وقال الضحاك عن ابن عباس : إن في هذه الآية تقديماً فكأنه قال : أتتخذ آزر أصناما آلهة يعني : أتتخذ الصنم إلهاً .

ويقال : آزر بلغتهم المخطىء الضال .

ومعناه : ﴿ وَإِذْ قَالَ إبراهيم لأَبِيهِ ﴾ يا آزر المخطىء أتتخذ أصناما آلهة .

وقرأ الحسن ويعقوب الحضرمي : ﴿ ءازَرَ ﴾ بالضم ويكون معناه : وإذ قال إبراهيم لأبيه : يا آزر .

والقراءة المعروفة بالنصب لأنه على ميزان أفعل .

ينصرف فصار نصباً .

وهو بموضع الخفض .

ولأنه اسم أعجمي فلا ينصرف .

ثم قال ﴿ إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ يعني : في خطأ وجهل بَيِّنٍ بعبادتكم الأصنام .

ثم قال ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِى إبراهيم مَلَكُوتَ ﴾ والملكوت والملك بمعنى واحد .

إلا أن الملكوت أبلغ مثل : رَهَبُوت وَرَحَمُوت كما يقال في المثل : رَهَبُوت خير من رَحَمُوت يعني : لأن ترهب خير من أن ترحم .

يعني : لما أن إبراهيم برىء من دين أبيه أراه الله ملكوت ﴿ السموات والأرض ﴾ يعني : عجائب السموات والأرض ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ الموقنين ﴾ يعني : لكي يكون من الموقنين .

والواو زيادة كقوله : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ اتبعوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خطاياكم وَمَا هُمْ بحاملين مِنْ خطاياهم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لكاذبون ﴾ [ العنكبوت : 12 ] يعني : لكي نحمل ، وكذلك ها هنا ﴿ لِيَكُونَ مِنَ الموقنين ﴾ يعني : حتى يثبت على اليقين .

قال بعضهم : صارت فرجة في السماء حتى رأى إلى سبع سماوات .

وصارت فرجة في الأرض حتى رأى إلى تحت الصخرة .

ويقال : حين عرج به إلى السماء ، فنظر إلى عجائب السموات .

وروي عن عطاء أنه قال : لما رفع إبراهيم في ملكوت السماوات ، أشرف على عبد يزني

فدعا عليه ، فهلك .

ثم أشرف على آخر يزني فدعا عليه ، فهلك .

*(176/238)*

---

ثم رأى آخر فأراد أن يدعو عليه ، فقال له ربه عز وجل : على رِسْلِك يا إبراهيم ، فإنك مستجاب لك ، وإني من عبدي على إحدى ثلاث خلال : إما أن يتوب فأتوب عليه ، وإما أن أُخرِج منه ذرية طيبة ، وإما أن يتمادى فيما هو فيه ، فأنا من ورائه أي أنا قادر عليه .

وروي عن سلمان الفارسي أنه قال : لما رأى إبراهيم ملكوت السموات ، رأى عَبْداً على فاحشة ، فدعا عليه فهلك ، ثم رأى آخر على فاحشة ، فدعا عليه فهلك ، ثم رأى آخر على فاحشة فدعا عليه ، قال الله تعالى : أَنْزِلوا عبدي كي لا يهلك عبادي .

ويقال : إنه كان يقول : أنا أرحم الخلق .

فلما رأى المعصية فدعا عليهم ، قال الله تعالى : أنا أرحم بعبادي منك ، اهبط لعلّهم يرجعون .

ويقال إن نمرود بن كنعان قالت له كهنته : يولد في هذه السنة غلام ينازعك في ملكك ، فأمر بذبح كل غلام يولد في تلك السنة .

ويقال : رأى في المنام ، أن كبشاً دخل عليه ، فنطح سريره بقرنه ، فسأل المعبِّرين فأخبروه ، أنه يولد غلام ينازعك في ملكك .

فأمر بذبح كل غلام يولد .

فحملت أم إبراهيم بإبراهيم ، ولم يتبيّن حملها ، ولم يعرف أحد أنها حامل ، حتى أخذها الطَّلْق فخرَّت إلى جبل من الجبال ، ودخلت في غار فولدت إبراهيم .

وخرجت ووضعت صخرة على باب الغار .

فجاءه جبريل عليه السلام ووضع إبهامه في فمه ، وكان يمصه ويخرج منه اللبن ، وكان يجعل سبّابته في فمه فيمصها ، ويخرج منها العسل .

حتى كبر وأدرك في أيام قليلة .

ويقال : إن أمه كانت تختلف إليه وترضعه حتى أرضعته سنتين ، وتحمل إليه الطعام حتى أدرك في المدة التي يدرك فيها الصبيان فخرج من الغار فنظر إلى السماء ، وإلى الأرض ، وإلى الجبال ، فتفكَر في نفسه ثم قال : إن لهذه الأشياء خالقاً خلقها .

*(177/238)*

والذي خلق هذه الأشياء هو الذي خلقني فذلك قوله ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِى إبراهيم مَلَكُوتَ السماوات والأرض وَلِيَكُونَ مِنَ الموقنين ﴾ وكان في ذلك التفكير إذا نظر إلى نجم يضيء وهو المشتري ، فرآه أضوأ الكواكب .

وقد علم أن الله تعالى أعلى الأشياء ولا يشبهه شيء من خلقه .

ورأى الكواكب أعلى الأشياء وكان أحسنها .

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الليل رَأَى كَوْكَباً قَالَ هذا رَبِّى ﴾ وقال : هذا بغير فكرة .

فكان ذلك منه زلة .

ويقال : إنما قال ذلك على سبيل الاستفهام أهذا ربي ؟ ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ ﴾ يعني : غاب الكوكب ﴿ قَالَ لا أُحِبُّ الآفلين ﴾ يعني : لا أحب ربنا يتغير عن حاله ويزول ﴿ فَلَمَّا رَأَى القمر بَازِغاً ﴾ يعني : طالعاً .

ويقال : إن ذلك كان في وقت السحر ، وكان ذلك في آخر الشهر .

فرأى كوكباً يعني : الزهرة ، حين طلعت ، وكان من أضوء الكواكب .

فلما ارتفع وطلع الفجر نقص ضوءه ﴿ قَالَ لا أُحِبُّ الآفلين ﴾ يعني : لا أحب ربنا يتغير .

فلما رأى القمر فرأى ضوءه أكثر ﴿ قَالَ هذا رَبِّى ﴾ على سبيل الاستفهام ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ ﴾ يعني : نقص ضوءه حين أسفر الصبح ﴿ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لأَكُونَنَّ مِنَ القوم الضالين ﴾ يعني : لئن لم يحفظ ربي قلبي .

لقد كنت اتخذت إلها ما لم يكن إلهاً ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشمس بَازِغَةً ﴾ يعني : طالعة قد ملأت كل شيء ضوءاً ف ﴿ قَالَ هذا رَبِّى هذا أَكْبَرُ ﴾ يعني : أعظم وأكثر نوراً ﴿ فَلَمَّا أَفَلَتْ ﴾ يعني : غربت .

علم أنه ليس بإله .

فجاءته أمه فقال لها : من ربي ؟ قالت : أنا .

قال : ومن ربك ؟ قالت : أبوك .

قال : ومن رب أبي ؟ قالت : نمرود بن كنعان .

قال : ومن ربه ؟ قالت له : اسكت .

فقال لها : كيف هو ؟ هل يأكل ويشرب وينام ؟ قالت : نعم .

قال : هذا لا يصلح أن يكون ربًّا وإلها .

فرجعت الأم إلى أب إبراهيم ، فأخبرته بالقصة فخرج إليه فسأله مثل ذلك .

*(178/238)*

---

ثم قال له في آخره : تعال حتى تعبد الذي خلقني وخلقك وخلق نمرود .

فغضب أبوه ، فرجع عنه ، ثم دخلت عليه رأفة الوالد لولده ، فرجع إليه .

وقال له : ادخل المِصْر لتكون معنا ، فدخل فرأى القوم يعبدون الأصنام .

فدعوه إلى عبادة الأصنام ف ﴿ قَالَ ﴾ لهم حينئذٍ : ﴿ قَالَ يا قوم إِنِّى بَرِىء مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ فقيل له من تَعْبُد أنت يا إبراهيم ؟ فقال أعبد الله الذي خلقني وخلق السموات والأرض .

فذلك قوله : ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ ﴾ يعني : أخلصت ديني وعملي ﴿ لِلَّذِى فَطَرَ السموات ﴾ يعني : خلق السموات ﴿ والأرض حَنِيفاً ﴾ يقول : إني وجهت وجهي مخلصاً مستقيماً ﴿ وَمَا أَنَاْ مِنَ المشركين ﴾ على دينكم .

ويقال : إن قوله ﴿ هذا رَبِّى ﴾ قال ذلك لقومه على جهة الاستهزاء بهم .

كما قال : ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُواْ يِنْطِقُونَ ﴾ [ الأنبياء : 63 ]

ويقال : أراد بهذا أن يستدرجهم فيظهر قبيح فعلهم ، وخطأ مذهبهم وجهلهم .

لأنهم كانوا يعبدون النجوم والشمس ، والقمر .

فلما رأى الكوكب قال لهم : ﴿ هذا رَبِّى ﴾ .

وأظهر لهم أنه يعبد ما يعبدون .

فلما غاب الكوكب قال لهم : ﴿ لا أُحِبُّ الآفلين ﴾ فأخبرهم بأن الآفل لا يصلح أن يكون إلها .

ثم قال في الشمس والقمر هكذا .

كما روي عن عيسى عليه السلام أنه بعث رسولاً إلى ملك أرض .

فلما انتهى إليهم ، جعل يسجد ويصلي عند الصنم ويريهم أنه يعبد الصنم ، وهو يريد عبادة الله تعالى .

ثم إن الملك ظهر له عدو .

فقالوا لهذا الرسول : أشر علينا بشيء في هذا الأمر .

فقال : نتشفع إلى هذا الذي نعبده .

فجعلوا يسجدون له ويتشفعون إليه ، فلا يسمعون منه جواباً .

فقالوا : إنه لا ينفعنا شيئاً .

قال لهم : لم تعبدون من لا يدفع عنا ضراً ؟ ارجعوا حتى نعبد من ينفعنا .

فقالوا لمن نعبد ؟ قال : لرب السماء .

فجعل يدعو ويدعون حتى فرّج ، الله عنهم .

فآمن به بعضهم .

*(179/238)*

وكذلك ها هنا أراد إبراهيم عليه السلام أن يريهم قبح ما يعبدون من دون الله ، لعلهم يرجعون فلما لم يرجعوا قال ﴿ قَالَ يا قوم إِنِّى بَرِىء مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿ رَأَى كَوْكَباً ﴾ بكسر الراء والألف ، وهي لغة لبعض العرب والنصب أفصح .

قوله تعالى : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ﴾ معناه : وحاجّه قومه في دين الله يعني خاصموه ف ﴿ قَالَ ﴾ لهم إبراهيم ﴿ أَتُحَاجُّونِّى فِى الله ﴾ يعني : أتخاصموني في دين الله ﴿ وَقَدْ هَدَانَا ﴾ الله لدينه .

قرأ نافع وابن عامر في رواية ابن ذكوان ﴿ أَتُحَاجُّونِّى ﴾ بتشديد الجيم وتخفيف النون .

وقرأ الباقون بتشديد النون .

لأن أصله ﴿ أتحاجونني ﴾ بنونين فأدغم أحدهما في الآخر .

فقال : ﴿ قَالَ أَتُحَاجُّونِّى ﴾ يعني : أتجادلوني في دين الله ﴿ وَقَدْ هَدَانِى ﴾ يعني : بيّن لي الطريق .

وكانت خصومتهم أنهم حين سمعوه عاب آلهتهم فقالوا له : أما تخاف تخبلك فتهلك ؟ فقال : إني لا أخاف ما لا يسمع ولا يبصر .

وقال الكلبي ومقاتل : لما خوّفوه بذلك قال لهم : إنما تخافون أنتم إذ سوّيتم بين الذكر والأنثى ، والصغير والكبير .

أما تخافون من الكبير إذ سويتموه بالصغير ؟ وهذا قوله : ﴿ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ

﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّى شَيْئاً ﴾ فيضلني ، فأخاف منهم .

ويقال : إلا أن يشاء ربي شيئاً يعني : ملأ علم ربي كل شيء علماً .

يعني : يعلم السر والعلانية .

ثم قال : ﴿ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ يعني : أفلا تتعظون فتؤمنون به ؟ قوله تعالى : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ﴾ يعني : من الأصنام ﴿ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سلطانا ﴾ يقول : كتاباً وعذراً وحجة لكم فيه ﴿ فَأَىُّ الفريقين أَحَقُّ بالامن ﴾ من العذاب ؟ الموحّد أم المشرك ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك .

(180/238)

---

ثم قال : ﴿ الذين ءامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمانهم بِظُلْمٍ ﴾ قال بعضهم : هذا قول الله تعالى لما حكى قول إبراهيم للنبي صلى الله عليه وسلم قال : على أثر ذلك ﴿ الذين ءامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمانهم بِظُلْمٍ ﴾ يعني : لم يخالطوا تصديقهم بالشرك ولم يعبدوا غيره .

﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأمن وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ من الضلالة .

وقال بعضهم : هذا كله قول إبراهيم لقومه .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَنِ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ وَأُعْطِيَ فَشَكَرَ وَظَلَمَ فَاسْتَغْفَرَ وَظُلِمَ فَغَفَرَ " قيل له : ما لهم يا رسول الله ؟ قال : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأمن وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ .

قال الفقيه : حدّثنا الخليل بن أحمد .

قال : حدّثنا الماسرجي .

قال : حدّثنا أبو كريب .

قال : حدّثنا ابن إدريس عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله بن مسعود .

قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ الذين ءامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمانهم بِظُلْمٍ ﴾ شقّ ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله وأينا لم يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا ترون إلى قول لقمان لابنه ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لاِبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يا بنى لاَ تُشْرِكْ بالله إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [ لقمان : 13 ] " يعني : إن الظلم أراد به الشرك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

*(181/238)*

ومن فوائد الثعلبى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ ﴾ .

قال محمد بن إسحاق والضحاك والكلبي : وآزر أبو إبراهيم وهو تارخ مثل إسرائيل ويعقوب وكان من أهل كوثى قرية من سواد الكوفة .

وقال مقاتل بن حيان : لأب إبراهيم .

وقال سليمان ( التيمي ) : هو سب وعيب . ومعناه في كلامهم المعوج وقيل : معناه الشيخ [ الهنم ] بالفارسية وهو على هذه الأقاويل في محل الخفض على البدل أو الصفحة ولكنه نصب لأنه لا ينصرف .

وقال سعيد بن المسيب ، ومجاهد ، ويمان : آزر اسم صنم وهو على هذا التأويل في محل نصب .

وفي الكلام تقديم وتأخير تقديره أتتخذ آزر أصناماً آلهة .

وقرأ الحسن وأبو يزيد المدني ويعقوب الحضرمي : آزر بالرفع على النداء بالمفرد يعني يا آزر ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً ﴾ من دون الله إلى قوله ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السماوات والأرض ﴾ يعني كما أريناه البصيرة في دينه والحق في خلاف قومه نريه ملكوت السماوات والأرض أي ملكهما والملكوت الملك وبدت فيه وجدت التاء للتأنيث في

الجبروت والرهبوت والرحموت .

وحكي عن العرب سراعاً له ملكوت اليمن والعراق .

وقال الكسائي : زيدت فيه التاء للمبالغة . وأنشد :

وشر الرجال الخالب الخلبوت . . . وقال عكرمة : هو الملك غير إنها بالنبطية ملكوتاً .

وقرأها بالياء المعجمة مليّاً .

وقال ابن عباس : يعني خلق السماوات والأرض .

مجاهد وسعيد بن جبير : يعني آيات السماوات والأرض ، وذلك إنه أقيم على صخرة وكشفت له عن السماوات والأرض حتى العرش وأسفل الأرض ونظر إلى مكانه في الجنة . وذلك قوله ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدنيا ﴾ [ العنكبوت : 27 ] يعني أريناه مكانه في الجنة . قال قتادة : إن إبراهيم ( عليه السلام ) حدث نفسه إنه أرحم الخلق . فرفعه اللّه عز وجل حتى أشرف على أهل الأرض وأبصر أعمالهم فلما رآهم يعملون بالمعاصي قال لله : دمرّ عليهم ، وجعل يلعنهم . فقال له ربه : أنا أرحم بعبادي منك ، إهبط فلعلّهم يتوبوا .

*(182/238)*

قيس بن أبي حازم عن علي كرم اللّه وجهه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لما أرى اللّه تعالى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض أشرف على رجل على معصية من معاصي اللّه فدعا اللّه عليه فهلك ، ثم أشرف على آخر فدعا اللّه عليه فهلك ، ثم أشرف على آخر فلما أراد أن يدعو عليه أوحى اللّه عز وجل إليه أن يا إبراهيم إنك رجل مستجاب الدعوة فلا تدعونّ على عبادي فإنهم مني على ثلاث خصال : إما أن يتوب إليّ فأتوب عليه ، وإما أن أُخرج منه نسمة تسبّح ، وإما أن ( يعود ) إلي فإن شئت عفوت عنه وإن شئت عاقبته " .

وقال الضحاك : ملكوت السماوات والأرض الشمس والقمر والنجوم . وقال قتادة : خبيء إبراهيم ( عليه السلام ) من جبار من الجبابرة فحول له رزق في أصابعه فإذا مص إصبعاً من أصابعه وجد فيها رزقاً فلما خرج أراه اللّه ملكوت السماوات والأرض وكان ملكوت السماوات الشمس والقمر والنجوم ، وملكوت الأرض الجبال والشجر والبحار .

﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ الموقنين * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الليل رَأَى كَوْكَباً ﴾ إلى آخر الآية .

قال المفسرون : إن إبراهيم ( عليه السلام ) ولد في زمن نمرود بن كيفان وكان نمرود أول من وضع التاج على رأسه وقلد التاج عليه ودعاء الناس [ . . . . ] وكان له كهان ومنجمون . وقالوا : إنه يولد في بلدك هذه السنة غلام يغير دين أهل الأرض ويكون هلاكك وزوال ملكك على يديه . ويقال إنهم وجدوا ذلك في كتب الأنبياء عليهم السلام .

---

وقال السدي : رأى نمرود في منامه كأن كوكباً اطلع فذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء ففزع من ذلك فزعاً شديداً ودعا السحرة والكهنة والجازة والقافة فسألهم عن ذلك فقالوا : مولود يولد في ناحيتك في هذه السنة يكون هلاك ملكك وأهل بيتك على يديه . قالوا : فأمر بذبح كل غلام يولد في ناحيته تلك السنة وأمر بعزل الرجال عن النساء وجعل على كل عشر رجلاً ، فإذا حاضت إمرأة خليت بينها وبينه ، فإذا طهرت عزل بينها ، فرجع آزر أبو إبراهيم فوجد امرأته قد طهرت من الحيض فوقع عليها في طهرها فلقفت فحملت إبراهيم ( عليه السلام ) .

قال محمد بن إسحاق : بعث النمرود إلى كل امرأة حبلى بقريته فحبسها عنده ، إلاّ ما كان من أم إبراهيم فإنه لم يعلم بحبلها وذلك إنها كانت جارية حديثة السن لم تعرف الحمل في بطنها .

قال السدي : خرج نمرود بالرجال إلى المعسكر ونحاهم عن النساء خوفاً من ذلك المولود أن يكون فمكث بذلك ما شاء اللّه ثم بدت له حاجة إلى المدينة فلم يأمن عليها أحداً من قومه إلاّ آزر فبعث إليه ودعاه . فقال : إن لي إليك حاجة أحبّ أن أوصيك بها ولا أبعثك

إلاّ لثقتي بك بما أقسمت عليك أن لا تدنو من أهلك ولا تواقعها ، فقال آزر : أنا أشحّ على ديني من ذلك ، فأوصاه بحاجته ثم بعثه فدخل المدينة وقضى حاجته ، ثم قال : قد دخلت على أهلي ونظرت إليه فلما نظر إلى أم إبراهيم لم يتمالك حتى وقع عليها فحملت بإبراهيم .

*(184/238)*

---

قال ابن عباس : لما حملت أم إبراهيم ، قالت الكهان لنمرود : إن الغلام الذي أخبرناك به قد حملته أمه الليلة ، فأمر نمرود بذبح الغلمان فلما دنت ولادت أم إبراهيم وأخذها المخاض خرجت هاربة مخافة أن يطلع عليها فيقتل ولدها فوضعته في نهر يابس ، ثم لفته في خرقة فوضعته في حلفاء فرجعت فأخبرت بأنها ولدت وإن الولد في موضع كذا فانطلق أزر يأخذه من ذلك المكان وحفر له سرباً عند نهر فواراه فيه وسدّ عليه بابه بصخرة مخافة السباع ، وكانت أمه تختلف إليه فترضعه .

وقال السدي : لما أعظم بطن أم إبراهيم خشي آزر أن يذبح فانطلق بها إلى أرض بين الكوفة والبصرة يقال لها أورمة فأنزلها في سرب من الأرض وجعل عندها ماء يصلهما وجعل يتعمدها ويكتم ذلك من أصحابه فولدت في ذلك السرب وشب وكان وهو ابن سنة كابن

ثلاث سنين وصار من الشباب مخافة أن [ يسقط في ] طمع الذباحين ثم ذكر آزر لأصحابه أن لي إبناً كبيراً فانطلق به إليهم .

وقال ابن إسحاق : لما وجدت أم إبراهيم الطلق خرجت ليلاً إلى مغارة كانت قريباً منها فولدت فيها إبراهيم فأصلحت من شأنه ما يصنع من المولود ثم سدت عليه المغارة ورجعت إلى بيتها ثم كانت تطالعه في المغارة لتنظر ما فعل فتجده حيّاً يمص إبهامه .

وقال أبو روق : كانت أم إبراهيم كلما دخلت على إبراهيم وجدته يمص أصابعه ، فقالت ذات يوم : لأنظرن إلى أصابعه فوجدته يمص من إصبع ماء ومن إصبع عسلاً ومن إصبع لبناً ومن إصبع تمراً ومن إصبع سمناً .

*(185/238)*

---

قال محمد بن إسحاق : وكان آزر قد سأل أم إبراهيم عن حملها ما فعل . فقالت : ولدت غلاماً فمات ، فصدقها فسكت عنها وكان اليوم على إبراهيم في الشباب كالشهر ، والشهر كالسنة فلم يمكث إبراهيم في المغارة إلاّ خمسة عشر شهراً ثم رجع إلى أبيه آزر فأخبره إنه إبنه . وخبرته أم إبراهيم إنه إبنه وأخبرته بما كانت صنعت في غيابه فسر بذلك آزر وفرح فرحاً شديداً ، قالوا : فإنما شب إبراهيم وهو في السرب بعد ما قال لأمه : من

ربي ؟

قالت : أنا ، قال : فمن ربك ؟ قالت : أبوك ، قال : فمن ربّ أبي ؟ قالت له : أسكت ، فسكت ، فلما رجعت إلى زوجها قالت : أرأيت الغلام الذي كنّا نتحدّث إنه بغير دين أهل الأرض فإنه إبنك ثم أخبرته بما قال لها ، فأتاه أبوه آزر فقال له إبراهيم : يا أبتاه من ربي ؟ قال : أمك ، قال : فمن رب أمي ؟ قال : أنا ، قال : من ربك أنت ؟ قال نمرود ، قال : فمن رب نمرود ؟ فلطمه لطمة وقال : أسكت وقم ، قال لأبويه : أخرجاني ، فأخرجاه من السرب وانطلقا به حين غابت الشمس فنظر إبراهيم إلى الإبل ، والخيل ، والغنم ، فقال : أباه ما هذه ؟ قال : إبل وخيل وغنم ، فقال : ما لهذه بدّ من أن يكون لها رب وخالق ثم نظر وتفكر في خلق السماوات والأرض . فقال : إن الذي خلقني ورزقني وأطعمني وسقاني ربي ما لي إله غيره . ثم نظر فإذا المشتري قد طلع ويقال الزهرة وكانت تلك الليلة في آخر الشهر فرأى الكوكب قبل القمر . فقال : هذا ربي فذلك قوله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الليل ﴾ أي دخل يقال : جن الليل وأجن وجنه الليل وأجنه وجن عليه الليل يجن جنوناً وجناناً إذا أظلم ومضى كلّ شيء ، وإنما سميت الجن لاجتنانها فلا ترى .

قال أبو عبيدة : جنون الليل سواده ، وأنشد :

فلولا جنان الليل أدرك ركضنا . . . بذي الرمث والأرطي عياض بن ناشب

ورأى كوكباً ف ﴿ قَالَ هذا رَبِّي ﴾ اختلفا فيه فأجراه بعضهم على الظاهر . وقالوا : ما كان إبراهيم ( عليه السلام ) مسترشداً متحيراً طالباً من التوفيق حتى وفقه اللّه تعالى ، وآتاه رشده ، فإنما كان هذا منه في حال طفولته ، وقبل قيام الحجّة عليه وفي تلك يقول : لا يكون كفر ولا إيمان .

يدل عليه ما روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : لما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فعبده حتى غاب فلما غاب ﴿ قَالَ لا أُحِبُّ الآفلين * فَلَمَّا رَأَى القمر بَازِغاً قَالَ هذا رَبِّي ﴾ فعبده حتى غاب فلما غاب ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ القوم الضالين * فَلَمَّا رَأَى الشمس بَازِغَةً قَالَ هذا رَبِّي هذا أَكْبَرُ ﴾ فعبدها حتى غابت الشمس فلما غابت ﴿ قَالَ يا قوم إِنِّي بريء مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ .

وأنكر الآخرون هذا القول ، وقالوا : غير جائز أن يكون للّه عز وجل رسول يأتي عليه وقت من الأوقات وهو غير موحد وعارف ومن كلّ معبود سواه بريء .

قالوا : وكيف قومهم هذا على عصمة اللّه وطهره في مستقره ومستودعه وآتاه رشده من قبل ، وأراه ملكوته فقال : ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [ الصافات : 84 ] وقال ﴿ وَكَذَلِكَ نري إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السماوات والأرض وَلِيَكُونَ مِنَ الموقنين ﴾ [ الأنعام : 75 ] رأى كوكباً فقال ﴿ هذا رَبِّي ﴾ على الاعتقاد والحقيقة هذا ما لا يكون أبداً .

ثم قيل فيه أربعة أوجه من التأويل : الوجه الأول : أن إبراهيم ( عليه السلام ) أراد أن يستدرجهم بهذا القول ويعرفهم خطأهم وجهلهم في تعظيم ما عظموا ويقيم عليهم الحجة ويريهم أنه معظم ما يعظموه ويلتمس الهدى من حيث التمسوا فلما أفل رأيهم النقص الداخل في النجوم ليتبينوا خطأ ما يدعون وكانوا يعظمون النجوم ويعبدونها ويحكمونها .

*(187/238)*

---

قالوا : ومثل هذا مثل الحواري الذي ورد على قوم يعبدون بدّاً لهم وهو الصنم وأظهر فعظمه فأراهم الإجتهاد [ . . . ] كرموا وصدوا في كثير من الأمور عن رأيه إلى أن ذمهم عدو لهم خافه الملك على ملكه فشاور الحواري في أمره .

فقالوا الرأي : أن تدعوا إلهنا حتى يكشف ما قد أضلنا فإنا لمثل هذا اليوم مجتمعون فاجتمعوا حوله يجأرون ويتضرعون وأمر عدوهم يستعجل ويتوكل فلما تبين لهم أن ربّهم لا ينفع ولا يرفع فقال لهم على جهة الإستفهام والتوبيخ لفعلهم ﴿ هذا رَبِّي ﴾ ومثل هذا يكون ربّاً ؟ أي ليس هذا ربي كقول الله تعالى ﴿ تَكُونَا مِنَ الخالدين ﴾ [ الأعراف : 20 ] يعني أنهم الخالدون .

وكقول موسى ( عليه السلام ) لفرعون : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ ﴾ [ الشعراء : 22 ]

يعني أو تلك نعمة نعمتها .

قال الهذلي :

رفعوني وقالوا يا خويلد لا ترع . . . فقلت وأنكرت الوجوه هم هم

وقال آخر :

لعمرك ما أدري وإن كنت داريا . . . شعيث بن سهم أم شعيث بن منقر

والوجه الثالث : أن إبراهيم ( عليه السلام ) قال هذا على وجه الاحتجاج على قومه لا على معنى الشك في ربه كأنه قال : هذا ربي عندكم فلمّا أفل قال : وكان الهلال قال : هذا أكبر منه فنظر إلى الذي عكفت عليه ها هنا يعني عندك وقوله : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ [ الدخان : 49 ] بقوله حزنه في النار لأبي جهل يعني إنك كذا عند نفسك وأما عندنا فلا عزيزاً ولا كريماً ، في الآية إختصار وإضمار ومعناها قال : يقولون هذا ربي كقوله ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القواعد مِنَ البيت وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا ﴾ [ البقرة : 127 ] أي يقولون ربنا تقبل منا . فلما أفل غاب وزال قال : لا أحب الآفلين رباً ، لا يدوم ، فلما رأى القمر بازغاً طالعاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين عن الهدى فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي .

قال محمد بن مقاتل الرازي : إنما قال هذا ولم يقل هذه لأنه رأى ضوء الشمس ولم ير عين الشمس . فرده إلى الشعاع .

وقال الأخفش : أراد هذا الطالع ربي أو هذا الآتي أراه ربي هذا أكبر لأنه رآه أضوأ وأعظم فلما غربت قال : يا قوم إني بريء مما تشركون ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ ﴾ الآية . وكان آزر يصنع الأصنام فلما ضم إبراهيم إلى نفسه جعل يصنع الأصنام ويعطيها إبراهيم ليصرفها فيذهب بها إبراهيم فينادي : من يشتري ما يضره ولا ينفعه فلا يشتريها أحد ، فإذا زادت عليه ذهب بها إلى نهر فصوّب فيها رؤسها وقال : إشربي إستهزاءً بقومه وبما هم عليه من الضلالة حتى فشى عيبه إياها واستهزاؤه بها في قومه وأهل قريته ﴿ وَحَآجَّهُ ﴾ أي خاصمه ﴿ قَوْمُهُ ﴾ في دينه ﴿ قَالَ ﴾ لهم ﴿ أَتحاجواني فِي الله وَقَدْ هَدَانِ ﴾ عرّفني التوحيد والحق ﴿ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ﴾ وذلك إنهم قالوا له : أما تخاف أن تمسك آلهتنا بسوء من برص أو خبل لعيبك إيّاها ؟ فقال لهم : ولا أخاف ما تشركون به من الأصنام ﴿ إِلاَّ أَن يَشَآءَ رَبِّي ﴾ سواء فيكون بما شاء ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ يعني أحاط علمه بكل شيء ﴿ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ ﴾ يعني الأصنام وهي لا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع ﴿ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بالله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً ﴾ حجة وبرهاناً وهو القاهر القادر على كل شيء ثم قال ﴿ فَأَيُّ

الفريقين أَحَقُّ بالأمن ﴾ أولى بالأمن [ أنحن ومن اتّبع ديني ] ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فقال اللّه عز وجل قاضياً وحاكماً بينهما ﴿ الذين آمَنُواْ وَلَمْ يلبسوا إِيمَانَهُمْ ﴾ ولم يخلطوا إيمانهم بشرك ﴿ أولئك لَهُمُ الأمن وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ .

قال عبد اللّه بن مسعود : لما نزلت هذه الآية طبق ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا : " إننا لم نظلم نفسه ، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم " ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه " ﴿ يا بني لاَ تُشْرِكْ بالله إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [ لقمان : 13 ] " ( إنما هو الشرك ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(189/238)

---

من فوائد الإمام الجصاص

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ قِيلَ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ : أَحَدُهَا : أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ فِي أَوَّلِ حَالِ نَظَرِهِ وَاسْتِدْلَالِهِ عَلَى مَا سَبَقَ إلَى وَهْمِهِ وَغَلَبَ فِي ظَنِّهِ ؛ لِأَنَّ قَوْمَهُ قَدْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ عَلَى أَسْمَاءِ الْكَوَاكِبِ فَيَقُولُونَ هَذَا صَنَمُ زُحَلَ وَصَنَمُ الشَّمْسِ وَصَنَمُ الْمُشْتَرِي ، وَنَحْوُ ذَلِكَ .

وَالثَّانِي : أَنَّهُ قَالَ قَبْلَ بُلُوغِهِ وَقَبْلَ ، إِكْمَالِ اللَّهِ تَعَالَى عَقْلَهُ الَّذِي بِهِ يَصِحُّ التَّكْلِيفُ ، فَقَالَ ذَلِكَ وَقَدْ خَطَرَتْ بِقَلْبِهِ الْأُمُورُ وَحَرَّكَتْهُ الْخَوَاطِرُ وَالدَّوَاعِي عَلَى الْفِكْرِ فِيمَا شَاهَدَهُ مِنْ الْحَوَادِثِ الدَّالَّةِ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى وَرُوِيَ فِي الْخَبَرِ أَنَّ أُمَّهُ كَانَتْ وَلَدَتْهُ فِي مَغَارٍ خَوْفًا مِنْ نُمْرُودٍ لِأَنَّهُ كَانَ يَقْتُلُ الْأَطْفَالَ الْمَوْلُودِينَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ الْمَغَارِ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ حِينَ شَاهَدَ الْكَوَاكِبَ .

وَالثَّالِثُ : أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الْإِنْكَارِ عَلَى قَوْمِهِ ، وَحَذَفَ الْأَلِفَ وَأَرَادَ : أَهَذَا رَبِّي قَالَ الشَّاعِرُ : كَذَبَتْك عَيْنُك أَمْ رَأَيْت بِوَاسِطٍ غَلَسَ الظَّلَامِ مِنْ الرَّبَابِ خَيَالَا وَمَعْنَاهُ : أَكَذَبَتْك .

(190/238)

---

وَقَالَ آخَرُ : رَقَوْنِي وَقَالُوا يَا خُوَيْلِدُ لَا تُرَعْ فَقُلْت وَأَنْكَرْتُ الْوُجُوهَ هُمْ هُمْ مَعْنَاهُ : أَهُمْ هُمْ وَمَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ إخْبَارٌ بِأَنَّهُ لَيْسَ بِرَبٍّ وَلَوْ كَانَ رَبًّا لَأَحْبَبْته وَعَظَّمْته تَعْظِيمَ الرَّبِّ وَهَذَا الِاسْتِدْلَالُ الَّذِي سَلَكَ إبْرَاهِيمُ طَرِيقَهُ مِنْ أَصَحِّ مَا يَكُونُ مِنْ الِاسْتِدْلَالِ وَأَوْضَحِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا رَأَى الْكَوْكَبَ فِي عُلُوِّهِ وَضِيَائِهِ قَرَّرَ نَفْسَهُ عَلَى مَا يَنْقَسِمُ إلَيْهِ حُكْمُهُ مِنْ كَوْنِهِ رَبًّا خَالِقًا أَوْ مَخْلُوقًا مَرْبُوبًا ، فَلَمَّا رَآهُ طَالِعًا آفِلًا وَمُتَحَرِّكًا زَائِلًا قَضَى بِأَنَّهُ مُحْدَثٌ لِمُقَارَنَتِهِ لِدَلَالَاتِ الْحَدَثِ وَأَنَّهُ لَيْسَ بِرَبٍّ ؛ لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّ الْمُحْدَثَ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى

إحْدَاثِ الْأَجْسَامِ وَأَنَّ ذَلِكَ مُسْتَحِيلٌ فِيهِ كَمَا اسْتَحَالَ ذَلِكَ مِنْهُ إذْ كَانَ مُحْدَثًا ، فَحَكَمَ بِمُسَاوَاتِهِ لَهُ فِي جِهَةِ الْحُدُوثِ وَامْتِنَاعِ كَوْنِهِ خَالِقًا رَبًّا ثُمَّ لَمَّا طَلَعَ الْقَمَرُ فَوَجَدَهُ مِنْ الْعِظَمِ وَالْإِشْرَاقِ وَانْبِسَاطِ النُّورِ عَلَى خِلَافِ الْكَوْكَبِ قَرَّرَ أَيْضًا نَفْسَهُ عَلَى حُكْمِهِ فَقَالَ : هَذَا رَبِّي ، فَلَمَّا رَاعَاهُ وَتَأَمَّلَ وَجَدَهُ فِي مَعْنَاهُ فِي بَابِ مُقَارَنَتِهِ لِلْحَوَادِثِ مِنْ الطُّلُوعِ وَالْأُفُولِ وَالِانْتِقَالِ وَالزَّوَالِ حَكَمَ لَهُ بِحُكْمِهِ وَإِنْ كَانَ أَكْبَرَ وَأَضْوَأَ مِنْهُ ، وَلَمْ يَمْنَعْهُ مَا شَاهَدَ مِنْ اخْتِلَافِهِمَا مِنْ الْعِظَمِ وَالضِّيَاءِ مِنْ أَنْ يَقْضِيَ بِهِ بِالْحُدُوثِ لِوُجُودِ دَلَالَاتِ الْحَدَثِ فِيهِ ثُمَّ لَمَّا أَصْبَحَ رَأَى الشَّمْسَ طَالِعَةً فِي عِظَمِهَا

(191/238)

---

وَإِشْرَاقِهَا وَتَكَامُلِ ضِيَائِهَا قَالَ : هَذَا رَبِّي ؛ لِأَنَّهَا بِخِلَافِ الْكَوْكَبِ وَالْقَمَرِ فِي هَذِهِ الْأَوْصَافِ ، ثُمَّ لَمَّا رَآهَا آفِلَةً مُنْتَقِلَةً حَكَمَ لَهَا بِالْحُدُوثِ أَيْضًا وَأَنَّهَا فِي حُكْمِ الْكَوْكَبِ وَالْقَمَرِ لِشُمُولِ دَلَالَةِ الْحَدَثِ لِلْجَمِيعِ .

وَفِيمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ عَنْ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْلُهُ عَقِيبَ ذَلِكَ : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾ أَوْضَحُ دَلَالَةٍ عَلَى وُجُوبِ الِاسْتِدْلَالِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَعَلَى بُطْلَانِ قَوْلِ الْحَشْوِ الْقَائِلِينَ بِالتَّقْلِيدِ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ جَازَ لِأَحَدٍ أَنْ يَكْتَفِيَ بِالتَّقْلِيدِ لَكَانَ أَوْلَاهُمْ بِهِ

إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَمَّا اسْتَدَلَّ إبْرَاهِيمُ عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَاحْتَجَّ بِهِ عَلَى قَوْمِهِ ثَبَتَ بِذَلِكَ أَنَّ عَلَيْنَا مِثْلَهُ ؛ وَقَدْ قَالَ فِي نَسَقِ التِّلَاوَةِ عِنْدَ ذِكْرِهِ إيَّاهُ مَعَ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهِ ﴾ فَأَمَرَنَا اللَّهُ تَعَالَى بِالِاقْتِدَاءِ بِهِ فِي الِاسْتِدْلَالِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالِاحْتِجَاجِ بِهِ عَلَى الْكُفَّارِ وَمِنْ حَيْثُ دَلَّتْ أَحْوَالُ هَذِهِ الْكَوَاكِبِ عَلَى أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ غَيْرُ خَالِقَةٍ وَمَرْبُوبَةٌ غَيْرُ رَبٍّ فَهِيَ دَالَّةٌ أَيْضًا عَلَى أَنَّ مَنْ كَانَ فِي مِثْلِ حَالِهَا فِي الِانْتِقَالِ وَالزَّوَالِ وَالْمَجِيءِ وَالذَّهَابِ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ رَبًّا خَالِقًا وَأَنَّهُ يَكُونُ مَرْبُوبًا ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الِانْتِقَالُ وَلَا الزَّوَالُ وَلَا الْمَجِيءُ وَلَا الذَّهَابُ ، لِقَضِيَّةِ اسْتِدْلَالِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنَّ مَنْ كَانَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ فَهُوَ مُحْدَثٌ ، وَثَبَتَ بِذَلِكَ أَنَّ مَنْ عَبَدَ مَا هَذِهِ صِفَتُهُ فَهُوَ غَيْرُ عَالِمٍ بِاللَّهِ تَعَالَى وَأَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ مَنْ عَبَدَ كَوْكَبًا أَوْ بَعْضَ الْأَشْيَاءِ الْمَخْلُوقَةِ وَفِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى

(192/238)

---

أَنَّ مَعْرِفَةَ اللَّهِ تَعَالَى تَجِبُ بِكَمَالِ الْعَقْلِ قَبْلَ إرْسَالِ الرُّسُلِ ؛ لِأَنَّ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اسْتَدَلَّ عَلَيْهَا قَبْلَ أَنْ يَسْمَعَ بِحُجَجِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾ .

يَعْنِي وَاَللَّهُ أَعْلَمُ مَا ذُكِرَ مِنْ الِاسْتِدْلَالِ عَلَى حُدُوثِ الْكَوْكَبِ وَالْقَمَرِ

وَالشَّمْسِ ، وَأَنَّ مَنْ كَانَ فِي مِثْلِ حَالِهَا مِنْ مُقَارَنَةِ الْحَوَادِثِ لَهُ لَا يَكُونُ إلَهًا .

وَلَمَّا قُرِّرَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ قَالَ : ﴿ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ﴾ أَمَّنْ يَعْبُدُ إلَهًا وَاحِدًا أَحَقُّ أَمْ مَنْ يَعْبُدُ آلِهَةً شَتَّى ؟ قَالُوا : مَنْ يَعْبُدُ إلَهًا وَاحِدًا ، فَأَقَرُّوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَصَارُوا مَحْجُوجِينَ .

وَقِيلَ إنَّهُمْ لَمَّا قَالُوا لَهُ أَمَا تَخَافُ أَنْ يَخْبِلَك آلِهَتُنَا ؟ قَالَ لَهُمْ : أَمَا تَخَافُونَ أَنْ تَخْبِلَكُمْ بِجَمْعِكُمْ الصَّغِيرِ مَعَ الْكَبِيرِ فِي الْعِبَادَةِ ؟ فَأَبْطَلَ ذَلِكَ حِجَاجُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ رَجَعَ عَلَيْهِمْ مَا أَرَادُوا إلْزَامَهُ إيَّاهُ فَأَلْزَمَهُمْ مِثْلَهُ عَلَى أَصْلِهِمْ وَأَبْطَلَ قَوْلَهُمْ بِقَوْلِهِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

*(193/238)*

---

ومن فوائد البيضاوى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ قَالَ إبراهيم لأَبِيهِ ءازَرَ ﴾ هو عطف بيان لأبيه ، وفي كتب التواريخ أن اسمه تارح فقيل هما علمان له كإسرائيل ويعقوب ، وقيل العلم تارح وآزر وصف معناه الشيخ أو المعوج ، ولعل منع صرفه لأنه أعجمي حمل على موازنه أو نعت مشتق من الآزر أو الوزر ،

والأقرب أنه علم أعجمي على فاعل كعابر وشالخ ، وقيل اسم صنم يعبده فلقب به للزوم عبادته ، أو أطلق عليه بحذف المضاف . وقيل المراد به الصنم ونصبه بفعل مضمر يفسره ما بعده أي أتعبد آزر ثم قال : ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً ﴾ تفسيراً وتقريراً . ويدل عليه أنه قرىء "أزراً" ، تتخذ أصناماً بفتح همزة آزر وكسرها وهو اسم صنم . وقرأ يعقوب بالضم على النداء وهو يدل على أنه علم . ﴿ إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضلال ﴾ عن الحق . ﴿ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر الضلالة .

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِى إبراهيم ﴾ ومثل هذا التبصير نبصره ، وهو حكاية حال ماضية . وقرىء : "ترى" بالتاء ورفع الملكوت ومعناه تبصره دلائل الربوبية . ﴿ مَلَكُوتَ السموات والأرض ﴾ ربوبيتها وملكها . وقيل عجائبها وبدائعها والملكوت أعظم الملك والتاء فيه للمبالغة . ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ الموقنين ﴾ أي ليستدل وليكون ، أو وفعلنا ذلك ليكون .

*(194/238)*

---

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اليل رَأَى كَوْكَباً قَالَ هذا رَبِّى ﴾ تفصيل وبيان لذلك . وقيل عطف على قال إبراهيم وكذلك نري اعتراض فإن أباه وقومه كانوا يعبدون الأصنام والكواكب ، فأراد أن ينبههم على ضلالتهم ويرشدهم إلى الحق من طريق النظر والاستدلال ، وجن

عليه الليل ستره بظلامه والكواكب كان الزهرة أو المشتري وقوله : ﴿ هذا ربّى ﴾ على سبيل الوضع فإن المستدل على فساد قول يحكيه على ما يقوله الخصم ثم يكر عليه بالإفساد ، أو على وجه النظر والاستدلال ، وإنما قاله زمان مراهقته أو أول أوان بلوغه .

﴿ فَلَمَّا أَفَلَ ﴾ أي غاب . ﴿ قَالَ لا أُحِبُّ الآفلين ﴾ فضلاً عن عبادتهم فإن الانتقال والاحتجاب بالأستار يقتضي الأمان والحدوث وينافي الألوهية .

﴿ فَلَمَّا رَأَى القمر بَازِغاً ﴾ مبتدئاً في الطلوع . ﴿ قَالَ هذا ربّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى ربّى لأَكُونَنَّ مِنَ القوم الضالين ﴾ استعجز نفسه واستعان بربه في درك الحق ، فإنه لا يهتدي إليه إلا بتوفيقه إرشاداً لقومه وتنبيهاً لهم على أن القمر أيضاً لتغير حاله لا يصلح للألوهية ، وأن من اتخذه إلهاً فهو ضال .

﴿ فَلَمَّا رَأَى الشمس بَازِغَةً قَالَ هذا ربّى ﴾ ذكر اسم الإشارة لتذكير الخبر وصيانة للرب عن شبهة التأنيث . ﴿ هذا أَكْبَرُ ﴾ كبره استدلالاً أو إظهاراً لشبهة الخصم . ﴿ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يا قوم إِنِّى بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ من الأجرام المحدثة المحتاجة إلى محدث يحدثها ومخصص يخصصها بما تختص به ، ثم لما تبرأ منها توجه إلى موجدها ومبدعها الذي دلت هذه الممكنات عليه فقال :

﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السموات والأرض حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ المشركين ﴾ وإنما

احتج بالأفول دون البزوغ مع أنه أيضاً انتقال لتعدد دلالته ، ولأنه رأى الكوكب الذي يعبدونه في وسط السماء حين حاول الاستدلال .

(195/238)

---

﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ﴾ وخاصموه في التوحيد . ﴿ قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللهِ ﴾ في وحدانيته سبحانه وتعالى . وقرأ نافع وابن عامر بخلاف عن هشام بتخفيف النون . ﴿ وَقَدْ هَدَانِ ﴾ إلى توحيده . ﴿ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ﴾ أي لا أخاف معبوداتكم في وقت لأنها لا تضر بنفسها ولا تنفع . ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّى شَيْئاً ﴾ أن يصيبني بمكروه من جهتها ، ولعله جواب لتخويفهم إياه من آلهتهم وتهديد لهم بعذاب الله . ﴿ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً ﴾ كأنه علة الاستثناء ، أي أحاط به علماً فلا يبعد أن يكون في علمه أن يحيق بي مكروه من جهتها . ﴿ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ فتميزوا بين الصحيح والفاسد والقادر والعاجز .

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ﴾ ولا يتعلق به ضر . ﴿ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللهِ ﴾ وهو حقيق بأن يخاف منه كل الخوف لأنه إشراك للمصنوع بالصانع ، وتسوية بين المقدور العاجز بالقادر الضار النافع . ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سلطانا ﴾ ما لم ينزل

بإشراكه كتاباً ، أو لم ينصب عليه دليلاً . ﴿ فَأَيُّ الفريقين أَحَقُّ بالأمن ﴾ أي الموحدون أو المشركون ، وإنما لم يقل أينا أنا أم أنتم احترازاً من تزكية نفسه . ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ما يحق أن يخاف منه .

﴿ الذين ءامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إيمانهم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأمن وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ استئناف منه أو من الله بالجواب عما استفهم عنه ، والمراد بالظلم ها هنا الشرك لما روي أن الآية لما نزلت شق ذلك على الصحابة وقالوا : أينا لم يظلم نفسه فقال عليه الصلاة والسلام " ليس ما تظنون إنما هو ما قال لقمان لابنه ﴿ يا بنى لاَ تُشْرِكْ بالله إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ " وليس الإِيمان به أن يصدق بوجود الصانع الحكيم ويخلط بهذا التصديق الإِشراك به . وقيل المعصية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 422.426 ﴾

*(196/238)*

---

ومن فوائد الخطيب الشربينى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر ﴾

اختلف العلماء في لفظة آزر فقال مجاهد : آزر اسم أبي إبراهيم وهو تارح ضبطه بعضهم

بالحاء المهملة وبعضهم بالخاء المعجمة ، وقال البخاريّ في تاريخه الكبير : إبراهيم بن آزر وهو في التوراة تارخ فعلى هذا يكون لأبي إبراهيم اسمان : آزر وتارخ مثل يعقوب وإسرائيل اسمان لرجل واحد فيحتمل أن يكون اسمه آزر وتارخ لقب له وبالعكس ، فالله سماه آزر وإن كان عند النسابين والمؤرّخين اسمه تارح ليعرف بذلك وكان آزر أبو إبراهيم من كوثى وهي قرية من سواد الكوفة وقال سعيد بن المسيب ومجاهد : آزر اسم صنم كان والد إبراهيم يعبده وإنما سماه بهذا الاسم لأنّ من عبد شيئاً أو أحبه جعل اسم ذلك المعبود أو المحبوب اسماً له فهو كقوله تعالى : ﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم ﴾ (الإسراء ، ) وقيل : معناه وإذا قال إبراهيم لأبيه : يا عابد آزر فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه والأوّل أصح لأن آزر اسم أبي إبراهيم لأنّ الله تعالى سماه به وأخرج البخاري في أفراده أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "يلقى إبراهيم عليه الصلاة والسلام أباه آزر يوم القيامة على وجهه" أي : آزر فترة وغبرة الحديث سماه النبيّ صلى الله عليه وسلم آزر أيضاً ولم يقل أباه تارح كما نقل عن النسابين والمؤرخين فثبت بهذا أنّ اسمه الأصلي آزر لا تارح وكان أهل تلك البلاد وهم الكنعانيون يعتقدون إلهية النجوم في السماء والأصنام في الأرض فيجعلون لكل نجم صنماً فإذا أرادوا التقرب إلى ذلك النجم عبدوا ذلك الصنم ليشفع لهم عند ذلك النجم فقال إبراهيم منكراً عليهم منبهاً لهم على ظهور فساد ما هو مرتكبه ﴿ أتتخذ ﴾ أي : أتكلف نفسك إلى خلاف ما تدعو إليه الفطرة الأولى بأن تجعل

﴿ أصناما آلهة ﴾ أي : تعبدها وتخضع لها ولا نفع فيها ولا ضر ﴿ إني أراك وقومك ﴾ أي : في إتفاقكم على هذا ﴿ في ضلال ﴾ أي : بعد عن الصراط المستقيم ﴿ مبين ﴾ أي : ظاهر جداً ببديهة العقل مع مخالفته لكل نبيّ نباه الله

*(197/238)*

---

تعالى من آدم عليه السلام فمن بعده ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بالسكون .

﴿ وكذلك ﴾ أي : ومثل هذا التبصير العظيم الشأن ﴿ نري إبراهيم ﴾ أي : نبصر وهي حكاية حال ماضية ﴿ ملكوت السموات والأرض ﴾ أي : عجائبهما وبدائعهما والملكوت أعظم الملك والتاء فيه للمبالغة كالرهبوت والرغبوت والرحموت من الرغبة والرهبة والرحمة ، وقال ابن عباس : خلق السموات والأرض ، وقال مجاهد وسعيد بن جبير : يعني آيات السموات والأرض وذلك إنه أقيم على صخرة وكشف له عن السموات حتى رأى العرش والكرسي وما في السموات من العجائب وحتى رأى مكانه في الجنة فذلك قوله تعالى : ﴿ وآتيناه أجره في الدنيا ﴾ (العنكبوت ، )

معناه : أريناه مكانه في الجنة وكشف له عن الأرض حتى نظر أسفل الأرضين ورأى ما فيها

من العجائب .

وروي عن سلمان ورفعه بعضهم عن علي قال : "لما رأى إبراهيم ملكوت السموات والأرض أبصر رجلاً على فاحشة فدعا عليه فهلك ثم أبصر آخر فأراد أن يدعو عليه فقال الرب تبارك وتعالى : يا إبراهيم إنك رجل مجاب الدعوة فلا تدعو على عبادي فإنما أنا من عبدي على ثلاث خلال : إمّا أن يتوب إليّ فأتوب عليه وإمّا أن أخرج منه نسمة تعبدني وإمّا أن يبعث إليّ فإن شئت عفوت عنه وإن شئت عاقبته" وفي رواية : "فإن تولى فإنّ جهنم من ورائه" .

*(198/238)*

---

وقال قتادة : ملكوت السموات الشمس والقمر والنجوم وملكوت الأرض الجبال والشجر والبحار . وقيل : إنّ هذه الرؤية كانت بعين البصيرة لأنّ ذلك لا يدرك إلا بالعقل فأريناه ذلك ليستدل به على توحيدنا ﴿ وليكون من الموقنين ﴾ : واليقين عبارة عن علم يحصل بسبب التأمّل بعد زوال الشبهة لأنّ الإنسان في أوّل الحال لا ينفك عن شبهة فإذا كثرت الدلائل وتوافقت صارت سبباً لحصول اليقين والطمأنينة في القلب وزالت الشبهة عند ذلك قال ابن عباس في وليكون من الموقنين ﴾ : جلي له الأمر سرّه وعلانيته فلم يخف عليه شيء من

أعمال الخلائق فلما جعل يلعن أصحاب الذنوب قال الله تعالى إنك لا تستطيع هذا فردّه الله تعالى كما كان قبل ذلك .

فلما جنّ عليه الليل ﴾ أي : دخل فيه ﴿ رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل ﴾ أي : غاب ﴿ قال لا أحب الآفلين ﴾ وذلك إنّ إبراهيم صلى الله عليه وسلم ولد في زمن نمروذ بن كنعان وكان النمروذ أول من وضع التاج على رأسه ودعا الناس إلى عبادته وكان له كهان ومنجمون فقالوا له : إنه يولد في بلدك هذه السنة غلام يغير دين أهل الأرض ويكون هلاكك وزوال ملكك على يديه ، ويقال : إنهم وجدوا ذلك في كتب الأنبياء ، وقال السدي : إنّ النمروذ رأى في منامه كأنّ كوكباً طلع فذهب بضوأي الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء ففزع من ذلك فزعاً شديداً ودعا السحرة والكهنة فسألهم فقالوا : هو مولود يولد في ناحيتك في هذه السنة فيكون هلاكك وهلاك ملكك وأهل بيتك على يديه فأمر بذبح كل غلام يولد في ناحيته في تلك السنة وأمر بعزل الرجال عن النساء وجعل على كل عشرة رجلاً فإذا حاضت المرأة خلى بينها وبين زوجها لأنهم كانوا لا يجامعون في الحيض فإذا طهرت حيل بينهما فرجع آزر فوجد امرأته قد طهرت فواقعها فحملت بإبراهيم .

*(199/238)*

قال محمد بن إسحاق : بعث نمروذ إلى كل امرأة حبلى بقربه يحسبها عنده إلا ما كان من أم إبراهيم فإنه لم يعلم بحبلها لأنها كانت صغيرة لم يعرف الحبل ببطنها ، وقال السدي : خرج نمروذ بالرجال إلى العسكر ونحاهم عن النساء خوفاً من ذلك ثم بدت له حاجة إلى المدينة ولم يأمن عليها أحداً من قومه إلا آزر فبعث إليه وأقسم عليه أن لا يدنو من أهله فقال آزر : أنا أشح على ديني من ذلك فأوصاه بحاجته فدخل المدينة وقضى حاجته ثم قال : لو دخلت على أهلي فنظرت إليهم فلما نظر إلى أم إبراهيم لم يتمالك حتى واقعها فحملت إبراهيم ، قال ابن عباس : لما حملت أم إبراهيم به قال الكهان لنمروذ : إن الغلام الذي أخبرناك عنه قد حملته أمّه الليلة فأمر نمروذ بذبح الغلمان .

قال محمد بن إسحاق : لما وجدت أم إبراهيم الطلق خرجت ليلاً إلى مغارة وكانت قريبة منها فولدت فيها إبراهيم عليه الصلاة والسلام وأصلحت من شأنه ما يصنع بالمولود ثم سدّت عليه المغارة ورجعت إلى بيتها وكانت تختلف إليه فتنظر ما فعل فتجده يمص من إصبع ماء ومن إصبع لبناً ومن إصبع عسلاً ومن إصبع تمراً ومن إصبع سمناً ، وقال محمد بن إسحاق : كان آزر قد سأل أمّ إبراهيم عن حملها فقالت : ولدت غلاماً فمات فصدقها وكان اليوم على إبراهيم في الشباب كالشهر والشهر كالسنة فلم يمكث إبراهيم في المغارة إلا خمسة عشر شهراً حتى قال لأمّه : أخرجيني ، فأخرجته عشاء فنظر وتفكر في خلق السموات والأرض وقال : إنّ الذي خلقني ورزقني وأطعمني وسقاني لربي ما لي إله غيره ،

ثم نظر في السماء فرأى كوكباً فقال : هذا ربي ثم أتبعه بصره ينظر إليه حتى غاب فلما أفل قال : لا أحب الآفلين .

(200/238)

---

﴿ فلما رأى القمر بازغاً ﴾ أي : مبتدئاً في الطلوع ﴿ قال هذا ربي ﴾ فأتبعه بصره ﴿ فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ﴾ ، وقيل : إنه كان في السرب سبع سنين ، وقيل : ثلاث عشرة سنة ، وقيل : سبع عشرة سنة ، قال بعض أهل التفسير : فلما شبّ إبراهيم وهو في السرب قال لأمّه : من ربي ؟ قالت : أنا ، قال : فمن ربك ؟ قالت : أبوك قال : فمن رب أبي ؟ قالت : اسكت ، فسكت ثم رجعت إلى زوجها فقالت : الغلام الذي كنا نحدّث أنه يغير دين أهل الأرض فإنه ابنك ، ثم أخبرته بما قال فأتاه أبوه فقال له إبراهيم : يا أبتاه من ربي ؟ قال : أمّك ، قال : فمن رب أمّي ؟ قال : أنا ، قال : فمن ربك ؟ قال : نمروذ قال : فمن رب نمروذ ؟ فلطمه وقال : اسكت ، فلما أخرج من السرب وجنّ عليه الليل رأى المشتري قد طلع ـ وقيل : الزهرة ـ وكانت تلك الليلة في آخر الشهر فتأخر القمر فيها فرأى الكوكب فقال ذلك .

وهل ذلك جار على ظاهره أو مؤوّل جرى بعضهم على الأوّل ، وقال : كان إبراهيم

مسترشداً طالباً للتوحيد حتى وفقه الله تعالى فلم يضره ذلك وأيضاً كان ذلك في طفوليته قبل قيام الحجة عليه فلم يكن كفراً والأصح الثاني إذ لا يجوز أن يكون لله تعالى رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلا وهو لله تعالى موحد وبه عارف ومن كل معبود سواه بريء ، ثم قال : في تأويله أوجه : أحدها ـ وهو الأصح : أن إبراهيم ذكر ذلك على وجه الاحتجاج عليهم بقوله : هذا ربي أي : في زعمكم فلما غاب قال : لو كان إلهاً لما غاب كما قال تعالى : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ (الدخان ، )

أي : عند نفسك وبزعمك وكما أخبر عن موسى أنه قال : ﴿ وانظر إلى إلهك ﴾ (طه ، )

(201/238)

---

أي : في زعمك فلما أفل قال : لا أحبّ الآفلين فضلاً عن عبادتهم فإنّ الانتقال والاحتجاج يقتضي الإمكان والحدوث وينافي الألوهية فلم ينجح فيهم ذلك ﴿ فلما رأى القمر بازغاً ﴾ قال لهم : هذا ربي فلما أفل أي : غاب قال : ﴿ لئن لم يهدني ربي ﴾ أي : يثبتني على الهدى لا إنه لم يكن مهتدياً والأنبياء لم يزالوا يسألون الله تعالى الثبات على الإيمان وكان إبراهيم عليه السلام يقول : واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام .

﴿ فلما رأى الشمس بازغة ﴾ أي : عند طلوع النهار ﴿ قال ﴾ لهم ﴿ هذا ربي هذا

أكبر ﴾ أي : من الكواكب والقمر ولم يقل هذه مع أنّ الشمس مؤنثة لأنه أراد هذا الطالع أو رده إلى المعنى وهو الضياء والنور لأنه رآه أضوأ من النجم والقمر أو ذكره لتذكير خبره ﴿ فلما أفلت ﴾ أي : غربت وقويت عليهم الحجة فلم يرجعوا ﴿ قال يا قوم إني بريء مما تشركون ﴾ أي : بالله من الأصنام والأجرام المحدثة المحتاجة إلى محدث التي تجعلونها شركاء لخالقها ، والوجه الثاني : من التأويل أنه قال ذلك على وجه الاستفهام تقديره : أهذا ربي ؟ كقوله تعالى : ﴿ أفائن مت فهم الخالدون ﴾ (الأنبياء ، )

أي : أفهم الخالدون وذكره على وجه التوبيخ منكراً لفعلهم ، والوجه الثالث : إنه أراد أن يستدرجهم بهذا القول ويعرّفهم خطأهم وجهلهم ومثل هذا مثل من ورد على قوم يعبدون صنماً فأظهر تعظيمه فأكرموه حتى صدروا في كثير من الأمور عن رأيه إلى أن دهمهم عدوّ فشاوروه في أمره فقال : الرأي أن ندعو هذا الصنم حتى ينكشف عنا ما أصابنا فاجتمعوا حوله يتضرعون فلما تبين لهم أنه لا ينفع ولا يدفع دعاهم إلى أن يدعوا الله تعالى فدعوه فصرف عنهم ما كانوا يجدون فأسلموا .

فإن قيل : لم احتج عليهم بالأفول دون البزوغ وكلاهما انتقال من حال إلى حال ؟

أجيب : بأنّ الاحتجاج بالأفول أظهر لأنه انتقال مع خفاء واحتجاب ولما ظهر خلاف قومه واستمرّوا في شركهم وقالوا له : من تعبد أنت ؟ أظهر لهم ما هو عليه من الحق بقوله:

﴿ إني وجهت وجهي ﴾ أي : أخلصت قصدي وصرفت عبادتي ﴿ للذي فطر السموات والأرض ﴾ أي : خلقهما وابتدعهما وهو الله تعالى ﴿ حنيفاً ﴾ أي : مائلاً إلى الدين القويم عن كل دين يخالفه وأصل الحنيف الميل وهو عن طريق الضلال إلى طريق الاستقامة ، وقيل : الحنيف هو الذي يستقبل الكعبة بصلاته ﴿ وما أنا من المشركين ﴾ تبرأ من الشرك الذي كان عليه قومه أي : وما أنا منكم ولا أعدّ في عدادكم بشيء أقاربكم به .

﴿ وحاجه قومه ﴾ أي : خاصموه في التوحيد وهددوه بالأصنام أن تصيبه بسوء إن لم يرجع عن الكلام فيها ﴿ قال ﴾ لهم ﴿ أتحاجوني ﴾ أي : أتجادلونني ﴿ في الله ﴾ أي : في وحدانيته ، وقرأ نافع وابن عامر بتخفيف النون وهي نون الرفع عند النحاة ونون الوقاية عند الفراء ، والباقون بالتشديد ﴿ وقد ﴾ أي : والحال إنه قد ﴿ هداني ﴾ إلى توحيده ومعرفته ﴿ ولا أخاف ما تشركون به ﴾ شيئاً وذلك إن إبراهيم لما رجع إلى أبيه وصار من الشباب بحالة سقط عنه طمع الذباحين أي : ذباحي نمروذ وضمه آزر إلى نفسه وجعل آزر يصنع الأصنام ويعطيها لإبراهيم ليبيعها فيذهب بها إبراهيم وينادي من يشتري ما يضره ولا ينفعه ؟ فلا يشتريها أحد فإذا بارت عليه ذهب بها إلى نهر فصوب رؤوسها وقال : اشربي استهزاء بقومه وما هم عليه حتى فشا استهزاؤه بها في قومه وأهل قريته فقالوا له :

احذر الأصنام فإنا نخاف أن تمسك بخبل أو جنون بعيبك إياها فقال : إنما يكون الخوف ممن يقدر على النفع والضر وهو قوله تعالى : ﴿ إلا أن يشاء ربي شيئاً ﴾ وهذا استثناء منقطع معناه لكن إن شاء ربي شيئاً من المكروه يصيبني فيكون لأنه قادر على النفع والضر وإنما قال إبراهيم ذلك لاحتمال إنّ الإنسان قد يصيبه في بعض حالاته وأيام عمره وما يكرهه فلو أصابه مكروه نسبوه إلى الأصنام فنفى هذه الشبهة بذلك ﴿ وسع ربي كل شيء علماً ﴾ أي : أحاط علمه بكل شيء من معلومه ﴿ أفلا تتذكرون ﴾ أي : يقع منكم تذكر فتميزوا بين الحق والباطل والقادر والعاجز .

*(203/238)*

---

﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ﴾ به أي : الأصنام وهي لا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع ﴿ ولا تخافون ﴾ أنتم ﴿ أنكم أشركتم با ﴾ وهو تعالى حقيق بأن يخاف منه كل الخوف لأنه إشراك للمصنوع مع الصانع وتسوية بين المقدور العاجز والقادر الضارّ النافع ﴿ ما لم ينزل به ﴾ أي : بعبادته ﴿ عليكم سلطاناً ﴾ أي : حجة وبرهاناً وهو القادر على كلّ شيء ﴿ فأيّ الفريقين ﴾ أي : حزب الله وحزب ما أشركتم ولم يقل فأينا تعميمها للمغنيّ ﴿ أحق بالأمن ﴾ أهم الموحدون أو المشركون ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ من الأحق أي : إن

كان لكم علم فأخبروني عما سألتكم عنه والأحق بذلك هم الموحدون فاتبعوهم قال تعالى قاضياً بينهما :

﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ أي : لم يخلطوا إيمانهم بشرك .

روي أنه لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين فقالوا : "يا رسول الله فأينا لم يظلم نفسه فقال : "ليس ذلك إنما هو الشرك ألم تسمعوا إلى ما قال لقمان لابنه : ﴿ يا بني لا تشرك بالله إنّ الشرك لظلم عظيم ﴾ (لقمان ، )

" ﴿ أولئك ﴾ أي : الموصوفون بما ذكر ﴿ لهم الأمن ﴾ أي : من العذاب المؤبد ﴿ وهم مهتدون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 2 صـ 126.132 ﴾

*(204/238)*

---

ومن فوائد الشوكانى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (74) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82) ﴾

قوله : ﴿ لِأَبِيهِ ءازَرَ ﴾ قال الجوهري : آزر اسم أعجمي ، وهو مشتق من آزر فلان فلاناً : إذا عاونه ، فهو مؤازر قومه على عبادة الأصنام .

وقال ابن فارس : إنه مشتق من القوّة .

قال الجويني في النكت من التفسير له : ليس بين الناس اختلاف في أن اسم والد إبراهيم تارخ ، والذي في القرآن يدل على أن اسمه آزر .

وقد تعقب في دعوى الاتفاق بما روي عن ابن إسحاق ، والضحاك ، والكلبي أنه كان له اسمان : آزر وتارخ .

وقال مقاتل : آزر لقب ، وتارخ اسم ، وقال سليمان التيمي : إن آزر سب وعتب ، ومعناه في كلامهم المعوج .

وقال الضحاك معنى آزر : الشيخ الهرم بالفارسية .

وقال الفراء : هي صفة ذم بلغتهم كأنه قال : يا مخطىء .

وروي مثله عن الزجاج .

وقال مجاهد : هو اسم صنم .

وعلى هذا إطلاق اسم الصنم على أبيه : إما للتعيير له لكونه معبوده ، أو على حذف مضاف ، أي قال لأبيه عابد آزر ، أو أتعبد آزر على حذف الفعل .

وقرأ ابن عباس "أإزر" بهمزتين الأولى مفتوحة والثانية مكسورة ، وروي عنه أنه قرأ بهمزتين مفتوحتين ، ومحل ﴿ إِذْ قَالَ ﴾ النصب على تقدير : واذكر إذ قال إبراهيم ، ويكون هذا المقدر معطوفاً على ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ الله ﴾ وقيل : هو معطوف على ﴿ وذكر به أن تبسل ﴾ وآزر عطف بيان .

(205/238)

---

قوله : ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاما آلِهَة ﴾ الاستفهام للإنكار ، أي أتجعلها آلهة لك تعبدها ﴿ إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ ﴾ المتبعين لك في عبادة الأصنام ﴿ فِى ضلال ﴾ عن طريق الحق ﴿ مُّبِينٌ ﴾ واضح ، ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إبراهيم ﴾ أي ومثل تلك الإراءة نري إبراهيم ، والجملة معترضة ، و ﴿ مَلَكُوتَ السموات والأرض ﴾ ملكهما ، وزيدت التاء والواو للمبالغة في الصفة .

ومثله الرغبوت والرهبوت مبالغة في الرغبة والرهبة .

قيل : أراد بملكوت السموات والأرض ما فيهما من الخلق .

وقيل : كشف الله له عن ذلك حتى رأى إلى العرش وإلى أسفل الأرضين .

وقيل : رأى من ملكوت السموات والأرض ما قصه الله في هذه الآية .

وقيل : المراد بملكوتهما الربوبية والإلهية ، أي نريه ذلك ونوفقه لمعرفته بطريق الاستدلال التي سلكها .

ومعنى ﴿ نُرِى ﴾ أريناه ، حكاية حال ماضية .

قوله : ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ الموقنين ﴾ متعلق بمقدّر ، أي أريناه ذلك ﴿ لِيَكُونَ مِنَ الموقنين ﴾ وقد كان آزر وقومه يعبدون الأصنام والكواكب والشمس والقمر ، فأراد أن ينبههم على الخطأ .

وقيل : إنه ولد في سرب ، وجعل رزقه في أطراف أصابعه ، فكان يمصها .

وسبب جعله في السرب ، أن النمروذ رأى رؤيا أن ملكه يذهب على يد مولود فأمر بقتل كل مولود ، والله أعلم .

قوله : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اليل ﴾ أي ستره بظلمته ، ومنه الجنة والمجنّ والجن كله من الستر ، قال الشاعر :

ولولا جنان الليل أدرك ركضنا . . . بذي الرمث والأرطي عياض بن ثابت

والفاء للعطف على ﴿ قال إبراهيم ﴾ أي واذكر إذ قال ، وإذ جنّ عليه الليل ، فهو قصة أخرى غير قصة عرض الملكوت عليه ، وجواب لما ﴿ رَأَى كَوْكَباً ﴾ قيل : رآه من شق الصخرة الموضوعة على رأس السرب الذي كان فيه .

وقيل رآه لما أخرجه أبوه من السرب وكان وقت غيبوبة الشمس ، قيل : رأى المشتري ، وقيل الزهرة .

(206/238)

---

قوله : ﴿ هذا ربّى ﴾ جملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر ، كأنه قيل : فماذا قال عند رؤية الكوكب ؟ قيل : وكان هذا منه عند قصور النظر ؛ لأنه في زمن الطفولية .

وقيل : أراد قيام الحجة على قومه كالحاكي لما هو عندهم ، وما يعتقدونه ، لأجل إلزامهم ، وبالثاني قال الزجاج .

وقيل : هو على حذف حرف الاستفهام ، أي أهذا ربي ؟ ومعناه : إنكار أن يكون مثل هذا رباً ، ومثله قوله تعالى : ﴿ أَفَإِنْ مِّتَّ فَهُمُ الخالدون ﴾ [ الأنبياء : 34 ] أي أفهم الخالدون ، ومثله قول الهذلي :

رقوني وقالوا يا خويلد لم ترع . . . فقلت وأنكرت الوجوه هم هم

أي أهم هم ؟ وقول الآخر :

لعمرك ما أدري وإن كنت داريا . . . بسبع رمين الجمر أم بثمانيا

أي أبسبع ، وقيل المعنى : وأنتم تقولون هذا ربي فأضمر القول ، وقيل المعنى على حذف

مضاف ، أي هذا دليل ربي ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ ﴾ أي غرب ﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم ﴿ لا أُحِبُّ الآفلين ﴾ أي الآلهة التي تغرب ، فإن الغروب تغير من حال إلى حال ، وهو دليل الحدوث ﴿ فَلَمَّا رَأَى القمر بَازِغاً ﴾ أي طالعاً ، يقال : بزغ القمر إذا ابتدأ في الطلوع ، والبزغ : الشق كأنه يشق بنوره الظلمة ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى ﴾ أي لئن لم يثبتني على الهداية ، ويوفقني للحجة ﴿ لأَكُونَنَّ مِنَ القوم الضالين ﴾ الذين لا يهتدون للحق فيظلمون أنفسهم ، ويحرمونها حظها من الخير ، ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشمس بَازِغَةً ﴾ بازغاً وبازغة منصوبان على الحال ، لأن الرؤية بصرية ، وإنما ﴿ قَالَ هذا رَبِّى ﴾ مع كون الشمس مؤنثة ، لأن مراده هذا الطالع ، قاله : الكسائي والأخفش .

وقيل : هذا الضوء .

(207/238)

---

وقيل : الشخص ﴿ هذا أَكْبَرُ ﴾ أي بما تقدّمه من الكوكب والقمر ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ أي من الأشياء التي تجعلونها شركاء لله وتعبدونها ، وما موصولة أو مصدرية ، قال بهذا لما ظهر له أن هذه الأشياء مخلوقة لا تنفع ولا تضرّ ، مستدلاً على ذلك بأفولها الذي هو دليل حدوثها ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ ﴾ أي قصدت بعبادتي وتوحيدي

الله عزّ وجلّ .

وذكر الوجه لأنه العضو الذي يعرف به الشخص ، أو لأنه يطلق على الشخص كله كما تقدّم .

وقد تقدّم معنى ﴿ فَطَرَ السموات والأرض حَنِيفاً ﴾ مائلاً إلى الدين الحق .

قوله : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ﴾ أي وقعت منهم المحاججة له في التوحيد بما يدل على ما يدّعونه من أن ما يشركون به ويعبدونه من الأصنام آلهة ، فأجاب إبراهيم عليه السلام بما حكاه الله عنه أنه قال : ﴿ أَتُحَاجُّونِّى فِى الله ﴾ أي في كونه لا شريك له ولا ندّ ولا ضدّ .

وقرأ نافع بتخفيف نون أتحاجوني .

وقرأ الباقون بتشديدها بإدغام نون الجمع في نون الوقاية ، ونافع خفف فحذف إحدى النونين ، وقد أجاز ذلك سيبويه .

وحكى عن أبي عمرو بن العلاء أن قراءة نافع لحن ، وجملة ﴿ وَقَدْ هَدَانِى ﴾ في محل نصب على الحال ، أي هداني إلى توحيده وأنتم تريدون أن أكون مثلكم في الضلالة والجهالة وعدم الهداية .

قوله : ﴿ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ﴾ قال هذا لما خوّفوه من آلهتهم بأنها ستغضب عليه وتصيبه بمكروه ، أي إني لا أخاف ما هو مخلوق من مخلوقات الله لا يضرّ ولا ينفع ، والضمير في " به " يجوز رجوعه إلى الله وإلى معبوداتهم المدلول عليها بما في ﴿ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن

يَشَاء رَبِّى شَيْئاً ﴾ أي إلا وقت مشيئته ربي بأن يلحقني شيئاً من الضرر بذنب عملته فالأمر إليه ، وذلك منه لا من معبوداتكم الباطلة التي لا تضرّ ولا تنفع .

*(208/238)*

---

والمعنى : على نفي حصول ضرر من معبوداتهم على كل حال ، وإثبات الضرر والنفع لله سبحانه ، وصدورهما حسب مشيئته ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً ﴾ أي إن علمه محيط بكل شيء ، فإذا شاء الخير كان حسب مشيئته ، وإذا شاء إنزال شرّ بي كان ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

ثم قال لهم مكملاً للحجة عليهم ، ودافعاً لما خوّفوه به ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سلطانا ﴾ أي كيف أخاف ما لا يضرّ ولا ينفع ولا يخلق ولا يرزق ، والحال أنكم لا تخافون ما صدر منكم من الشرك بالله ، وهو الضارّ النافع الخالق الرازق ، والاستفهام للإنكار عليهم والتقريع لهم .

و" مَا " في ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سلطانا ﴾ مفعول أشركتم ، أي ولا تخافون أنكم جعلتم الأشياء التي لم ينزل بها عليكم سلطاناً شركاء لله ، أو المعنى : أن الله سبحانه لم يأذن بجعلها شركاء له ، ولا نزل عليهم بإشراكها حجة يحتجون بها ، فكيف عبدوها

واتخذوها آلهة ، وجعلوها شركاء لله سبحانه ؟

قوله : ﴿ فَأَيُّ الفريقين أَحَقُّ بالأمن ﴾ المراد بالفريقين : فريق المؤمنين وفريق المشركين ، أي إذا كان الأمر على ما تقدم من أن معبودي هو الله المتصف بتلك الصفات ، ومعبودكم هي تلك المخلوقات ، فكيف تخوّفوني بها ، وكيف أخافها ؟ وهي بهذه المنزلة ، ولا تخافون من إشراككم بالله سبحانه ، وبعد هذا فأخبروني أي الفريقين أحق بالأمن وعدم الخوف ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ بحقيقة الحال ، وتعرفون البراهين الصحيحة وتميزونها عن الشبه الباطلة ؟ ثم قال الله سبحانه قاضياً بينهم ومبيناً لهم ﴿ الذين ءامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إيمانهم بِظُلْمٍ ﴾ أي هم الأحق بالأمن من الذين أشركوا .

وقيل : هو من تمام قول إبراهيم ، وقيل : هو من قول قوم إبراهيم .

*(209/238)*

---

ومعنى ﴿ لَمْ يَلْبِسُواْ إيمانهم بِظُلْمٍ ﴾ : لم يخلطوه بظلم .

والمراد بالظلم الشرك ، لما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية شقّ ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليس هو كما تظنون ، إنما هو كما

قال لقمان : " ﴿ يا بنى لاَ تُشْرِكْ بالله إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [ لقمان : 13 ] " ،

والعجب من صاحب الكشاف حيث يقول في تفسير هذه الآية : وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس ، وهو لا يدري أن الصادق المصدوق قد فسرها بهذا ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل ، والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى الموصول المتصف بما سبق .

و ﴿ لَهُمُ الأمن ﴾ جملة وقعت خبراً عن اسم الإشارة .

هذا أوضح ما قيل مع احتمال غيره من الوجوه .

﴿ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ إلى الحق ثابتون عليه ، وغيرهم على ضلال وجهل .

والإشارة بقوله : ﴿ تِلْكَ حُجَّتُنَا ﴾ إلى ما تقدّم من الحجج التي أوردها إبراهيم عليهم ، أي تلك البراهين التي أوردها إبراهيم عليهم من قوله : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اليل ﴾ إلى قوله : ﴿ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ ﴿ تِلكَ حُجَّتُنَا ءاتيناها إبراهيم ﴾ أي أعطيناه إياها وأرشدناه إليها ، وجملة ﴿ آتَيْنَاهَآ إبراهيم ﴾ في محل نصب على الحال ، أو في محل رفع على أنها خبر ثان لاسم الإشارة ﴿ على قَوْمِهِ ﴾ أي حجة على قومه ﴿ نَرْفَعُ درجات مَّن نَّشَاء ﴾ بالهداية والإرشاد إلى الحق وتلقين الحجة ، أو بما هو أعم من ذلك ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ أي حكيم في كل ما يصدر عنه عليم بحال عباده ، وأن منهم من يستحق الرفع ومنهم من لا يستحقه .

وقد أخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس قال في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إبراهيم لأَبِيهِ ءازَرَ ﴾ قال الآزر الضم ، وأبو إبراهيم اسمه يازر ، وأمه اسمها مثلي ، وامرأته اسمها سارة ، وسريته أم إسماعيل اسمها هاجر .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : آزر لم يكن بأبيه ولكنه اسم صنم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السديّ قال : اسم أبيه تارخ ، واسم الصنم آزر .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن سليمان التيمي ، أنه قرأ ﴿ وَإِذْ قَالَ إبراهيم لأَبِيهِ ءازَرَ ﴾ قال : بلغني أنها أعوج وأنها أشدّ كلمة قالها إبراهيم لأبيه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس أنه قال : إن والد إبراهيم لم يكن اسمه آزر ، وإنما اسمه تارخ .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، عنه في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِى إبراهيم مَلَكُوتَ السموات والأرض ﴾ قال : الشمس والقمر والنجوم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عنه قال في الآية : كشف ما بين السموات حتى نظر

إليهنّ على صخرة ، والصخرة على حوت ، وهو الحوت الذي منه طعام الناس ، والحوت في سلسلة ، والسلسلة في خاتم العزّة .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، عن مجاهد في الآية : قال سلطانهما .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الربيع بن أنس ، في قوله : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ﴾ يقول : خاصموه ، وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَتُحَاجُّونِّى ﴾ قال : أتخاصموني .

وأخرج ابن أبي شيبة ، والحكيم الترمذي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن أبي بكر الصديق أنه فسر ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمانهم بِظُلْمٍ ﴾ بالشرك .

وكذلك أخرج أبو الشيخ عن عمر بن الخطاب .

*(211/238)*

---

وكذلك أخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، عن حذيفة بن اليمان .

وكذلك أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، عن سلمان الفارسي .

وكذلك أخرجا أيضاً عن أبيّ بن كعب .

وكذلك أخرج ابن المنذر ، وابن مردويه ، عن ابن عباس .

وأخرج عنه من طريق أخرى عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر وأبو الشيخ مثله ، وقد روي عن جماعة من التابعين مثل ذلك ، ويغني عن الجميع ما قدّمنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تفسير الآية كما هو ثابت في الصحيحين وغيرهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

*(212/238)*

---

ومن فوائد السعدى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ . إلى آخر القصة .

يقول تعالى: واذكر قصة إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، مثنيا عليه ومعظما في حال دعوته إلى التوحيد ، ونهيه عن الشرك ، وإذ قال لأبيه ﴿ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ﴾ أي: لا تنفع ولا تضر وليس لها من الأمر شيء ، ﴿ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ حيث

عبدتم من لا يستحق من العبادة شيئا ، وتركتم عبادة خالقكم ، ورازقكم ، ومدبركم .

﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ حين وفقناه للتوحيد والدعوة إليه ﴿ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي: ليرى ببصيرته ، ما اشتملت عليه من الأدلة القاطعة ، والبراهين الساطعة ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ فإنه بحسب قيام الأدلة ، يحصل له الإيقان والعلم التام بجميع المطالب .

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ﴾ أي: أظلم ﴿ رَأَى كَوْكَبًا ﴾ لعله من الكواكب المضيئة ، لأن تخصيصه بالذكر ، يدل على زيادته عن غيره ، ولهذا –والله أعلم– قال من قال: إنه الزهرة .

﴿ قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ أي: على وجه التنزل مع الخصم أي: هذا ربي ، فهلم ننظر ، هل يستحق الربوبية ؟ وهل يقوم لنا دليل على ذلك ؟ فإنه لا ينبغي لعاقل أن يتخذ إلهه هواه ، بغير حجة ولا برهان .

﴿ فَلَمَّا أَفَلَ ﴾ أي: غاب ذلك الكوكب ﴿ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴾ أي: الذي يغيب ويختفي عمن عبده ، فإن المعبود لا بد أن يكون قائما بمصالح من عبده ، ومدبرا له في جميع شئونه ، فأما الذي يمضي وقت كثير وهو غائب ، فمن أين يستحق العبادة ؟ ! وهل اتخاذه إلها إلا من أسفه السفه ، وأبطل الباطل ؟ !

﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا ﴾ أي: طالعا ، رأى زيادته على نور الكواكب ومخالفته لها ﴿ قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ تنزلا . ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ فافتقر غاية الافتقار إلى هداية ربه ، وعلم أنه إن لم يهده الله فلا هادي له ، وإن لم يعنه على طاعته ، فلا معين له .

﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ ﴾ من الكوكب ومن القمر . ﴿ فَلَمَّا أَفَلَتْ ﴾ تقرر حينئذ الهدى ، واضمحل الردى فـ ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ حيث قام البرهان الصادق الواضح ، على بطلانه .

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ﴾ أي: لله وحده ، مقبلا عليه ، معرضا عن من سواه .

﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ فتبرأ من الشرك ، وأذعن بالتوحيد ، وأقام على ذلك البرهان [وهذا الذي ذكرنا في تفسير هذه الآيات ، هو الصواب ، وهو أن المقام مقام مناظرة ، من إبراهيم لقومه ، وبيان بطلان إلهية هذه الأجرام العلوية وغيرها . وأما من قال: إنه مقام نظر في حال طفوليته ، فليس عليه دليل] .

﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ﴾ أيُّ فائدة لمحاجة من لم يتبين له الهدى ؟ فأما من هداه الله ، ووصل إلى أعلى درجات اليقين ، فإنه –هو بنفسه– يدعو

الناس إلى ما هو عليه .

﴿ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ﴾ فإنها لن تضرني ، ولن تمنع عني من النفع شيئا . ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ فتعلمون أنه وحده المعبود المستحق للعبودية .

*(214/238)*

---

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ﴾ وحالها حال العجز ، وعدم النفع ، ﴿ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ﴾ أي: إلا بمجرد اتباع الهوى . ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

قال الله تعالى فاصلا بين الفريقين ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ﴾ أي: يخلطوا ﴿ إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ الأمن من المخاوفِ والعذاب والشقاء ، والهدايةُ إلى الصراط المستقيم ، فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقا ، لا بشرك ، ولا بمعاص ، حصل لهم الأمن التام ، والهداية التامة . وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده ، ولكنهم يعملون السيئات ، حصل لهم أصل الهداية ، وأصل الأمن ، وإن لم يحصل لهم كمالها . ومفهوم الآية

الكريمة ، أن الذين لم يحصل لهم الأمران ، لم يحصل لهم هداية ، ولا أمن ، بل حظهم الضلال والشقاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير السعدى صـ 262. 263 ﴾

*(215/238)*

---

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (74) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82) ﴾

هذا الدرس بطوله لحمة واحدة ؛ يتناول موضوعاً متصل الفقرات . . إنه يعالج الموضوع الأساسي في السورة – وهو بناء العقيدة على قاعدة من التعريف الشامل بحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، وما بينهما من ارتباطات – ولكنه يعالجه في أسلوب آخر غير ما جرى به السياق منذ أول السورة . . يعالجه في أسلوب القصص والتعقيب عليه . . مع استصحاب المؤثرات الموحية التي تزخر بها السورة ؛ ومنها مشهد الاحتضار الكامل السمات ؛ وذلك كله في نفس طويل رتيب يتوسط الموجات المتلاحقة التي تحدثنا عنها في تقديم السورة . .

والدرس – في جملته – يعرض موكب الإيمان الموصول منذ نوح – عليه السلام ، إلى محمد – صلى الله عليه وسلم – وفي مطلع هذا الموكب يستعرض حقيقة الألوهية – كما تتجلى في فطرة عبد من عباد الله الصالحين – إبراهيم عليه السلام – ويرسم مشهداً رائعاً حقاً للفطرة السليمة ، وهي تبحث عن إلهها الحق ، الذي تجده في أعماقها ، بينما هي تصطدم في الخارج بانحرافات الجاهلية وتصوراتها . إلى أن يخلص لها تصور حق ، يطابق ما ارتسم في أعماقها عن إلهها الحق . ويقوم على ما تجده في أطوائها من برهان داخلي هو أقوى وأثبت من المشهود المحسوس ! ذلك حين يحكي السياق عن إبراهيم عليه السلام بعد اهتدائه إلى ربه الحق ، واطمئنانه إلى ما وجده في قلبه منه : ﴿ وحاجه قومه . قال : أتحاجوني في الله وقد هدان ؟ ولا أخاف ما تشركون به ، إلا أن يشاء ربي شيئاً ، وسع ربي كل شيء علماً ، أفلا تتذكرون ؟ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ؟ فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟ ﴾ .

ثم يمضي السياق مع موكب الإيمان الموصول ؛ يقوده الرهط الكريم من رسل الله على توالي العصور ؛ حيث يبدو شرك المشركين وتكذيب المكذبين لغواً لا وزن له ، يتناثر على جانبي

الموكب الجليل ، الماضي في طريقه الموصول . وحيث يلتحم آخره مع أوله ؛ فيؤلف الأمة الواحدة ، يقتدي آخرها بالهدى الذي اهتدى به أولها ، دون اعتبار لزمان أو مكان ؛ ودون اعتبار لجنس أو قوم ، ودون اعتبار لنسب أو لون . . فالحبل الموصول بين الجميع هو هذا الدين الواحد الذي يحمله ذلك الرهط الكريم .

*(217/238)*

---

إنه مشهد رائع كذلك ؛ يبدو من خلال قول الله تعالى لرسوله الكريم بعد استعراض الموكب العظيم : ﴿ ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون . أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة . فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين . أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده . قل : لا أسألكم عليه أجراً ، إن هو إلا ذكرى للعالمين ﴾ .

وبعد استعراض هذا الموكب الجليل يجيء التنديد بمن يزعمون أن الله لم يرسل رسلاً ، ولم ينزل على بشر كتاباً . . إنهم لم يقدروا الله حق قدره . فما قدر الله حق قدره من يقول : إنه – سبحانه – تارك الناس لأنفسهم وعقولهم وما يتعاورها من الأهواء والشهوات والضعف والقصور . فما يليق هذا بألوهية الله وربوبيته ، وعلمه وحكمته وعدله ورحمته . . إنما

اقتضت رحمة الله وعلمه ورحمته وعدله أن يرسل إلى عباده رسلاً ، وأن ينزل على بعض الرسل كتباً ، ليحاولوا جميعاً هداية البشرية إلى بارئها ، واستنقاذ فطرتها من الركام الذي يرين عليها ، ويغلق منافذها ، ويعطل أجهزة الالتقاط والاستجابة فيها . . ويضرب مثلاً الكتاب الذي أنزل على موسى . وهذا الكتاب الذي يصدق ما بين يديه من الكتب جميعاً . .

وينتهي الدرس الطويل المتلاحم الفقرات باستنكار الافتراء ممن يفتري على الله ، وادعاء من يزعم أنه يوحى إليه من الله ، وادعاء القدرة على تنزيل مثل ما أنزل الله . . وهي الدعاوى التي كان يدعيها بعض من يواجهون الدعوة الإسلامية ، وفيهم من ادعى الوحي وفيهم من ادعى النبوة .

وفي الختام يجيء مشهد الاحتضار المكروب للمشركين :

*(218/238)*

---

﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت ، والملائكة باسطو أيديهم : أخرجوا أنفسكم ، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون . ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى

معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ! لقد تقطع بينكم ، وضل عنكم ما كنتم تزعمون ! ﴾ . .

وهو مشهد كئيب مكروب رعيب ؛ يجلله الهوان ويصاحبه التنديد والتأنيب . جزاء الاستكبار والإعراض والافتراء والتكذيب . .

﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر : أتتخذ أصناماً آلهة ؟ إني أراك وقومك في ضلال مبين . . وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ، وليكون من الموقنين . . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً . قال : هذا ربي ، فلما أفل قال : لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال : هذا ربي ، فلما أفل قال : لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربي ، هذا أكبر ، فلما أفلت قال : يا قوم إني بريء مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً ، وما أنا من المشركين ﴾ . .

إنه مشهد رائع باهر هذا الذي يرسمه السياق القرآني في هذه الآيات . . مشهد الفطرة وهي – للوهلة الأولى – تنكر تصورات الجاهلية في الأصنام وتستنكرها . وهي تنطلق بعد إذ نفضت عنها هذه الخرافة في شوق عميق دافق تبحث عن إلهها الحق ، الذي تجده في ضميرها ، ولكنها لا تتبينه في وعيها وإدراكها . وهي تتعلق في لهفتها المكنونة بكل ما يلوح أنه يمكن أن يكون هو هذا الإله ! حتى إذا اختبرته وجدته زائفاً ، ولم تجد فيه المطابقة لما هو مكنون فيها من حقيقة الإله وصفته .

. ثم وهي تجد الحقيقة تشرق فيها وتتجلى لها . وهي تنطلق بالفرحة الكبرى ، والامتلاء الجياش ، بهذه الحقيقة ، وهي تعلن في جيشان اللقيا عن يقينها الذي وجدته من مطابقة الحقيقة التي انتهت إليها بوعيها للحقيقة التي كانت كامنة من قبل فيها ! . . إنه مشهد رائع باهر هذا الذي يتجلى في قلب إبراهيم – عليه السلام – والسياق يعرض التجربة الكبرى التي اجتازها في هذه الآيات القصار . . إنها قصة الفطرة مع الحق والباطل . وقصة العقيدة كذلك يصدع بها المؤمن ولا يخشى فيها لومة لائم ؛ ولا يجامل على حسابها أباً ولا أسرة ولا عشيرة ولا قوماً . . كما وقف إبراهيم من أبيه وقومه هذه الوقفة الصلبة الحاسمة الصريحة :

﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر : أتتخذ أصناما آلهة ؟ أني أراك وقومك في ضلال مبين ﴾ . .

إنها الفطرة تنطق على لسان إبراهيم . إنه لم يهتد بعد بوعيه وإدراكه – إلى إلهه – ولكن فطرته السليمة تنكر ابتداء أن تكون هذه الأصنام التي يعبدها قومه آلهة – وقوم إبراهيم من الكلدانيين بالعراق كانوا يعبدون الأصنام كما كانوا يعبدون الكواكب والنجوم – فالإله الذي يعبد ، والذي يتوجه إليه العباد في السراء والضراء ، والذي خلق الناس

والأحياء . . هذا الإله في فطرة إبراهيم لا يمكن أن يكون صنماً من حجر ، أو وثناً من خشب . . وإذا لم تكن هذه الأصنام هي التي تخلق وترزق وتسمع وتستجيب – وهذا ظاهر من حالها للعيان – فما هي بالتي تستحق أن تعبد ؛ وما هي بالتي تتخذ آلهة حتى على سبيل أن تتخذ واسطة بين الإله الحق والعباد !

وإذن فهو الضلال البين تحسه فطرة إبراهيم – عليه السلام – للوهلة الأولى . وهي النموذج الكامل للفطرة التي فطر الله الناس عليها . . ثم هي النموذج الكامل للفطرة وهي تواجه الضلال البين ، فتنكره وتستنكره ، وتجهر بكلمة الحق وتصدع ، حينما يكون الأمر هو أمر العقيدة :

﴿ أتتخذ أصناما آلهة ؟ إني أراك وقومك في ضلال مبين ﴾ . .

*(220/238)*

---

كلمة يقولها إبراهيم – عليه السلام – لأبيه . وهو الأواه الحليم الرضي الخلق السمح اللين . كما ترد أوصافه في القرآن الكريم . ولكنها العقيدة هنا . والعقيدة فوق روابط الأبوة والبنوة ، وفوق مشاعر الحلم والسماحة . وإبراهيم هو القدوة التي أمر الله المسلمين من بنيه أن يتأسوا بها . والقصة تعرض لتكون أسوة ومثالاً . .

وكذلك استحق إبراهيم – عليه السلام – بصفاء فطرته وخلوصها للحق أن يكشف الله لبصيرته عن الأسرار الكامنة في الكون ، والدلائل الموحية بالهدى في الوجود :

﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ، وليكون من الموقنين ﴾ . .

بمثل هذه الفطرة السليمة ، وهذه البصيرة المفتوحة ؛ وعلى هذا النحو من الخلوص للحق ، ومن إنكار الباطل في قوة . . نري إبراهيم حقيقة هذا الملك . . ملك السماوات والأرض . . ونطلعه على الأسرار المكنونة في صميم الكون ، ونكشف له عن الآيات المبثوثة في صحائف الوجود ، ونصل بين قلبه وفطرته وموحيات الإيمان ودلائل الهدى في هذا الكون العجيب .

لينتقل من درجة الإنكار على عبادة الآلهة الزائفة ، إلى درجة اليقين الواعي بالإله الحق . . وهذا هو طريق الفطرة البديهي العميق . . وعي لا يطمسه الركام . وبصر يلحظ ما في الكون من عجائب صنع الله . وتدبر يتبع المشاهد حتى تنطق له بسرها المكنون . . وهداية من الله جزاء على الجهاد فيه . .

وكذلك سار إبراهيم – عليه السلام – وفي هذا الطريق وجد الله . . وجده في إدراكه ووعيه ، بعد أن كان يجده فحسب في فطرته وضميره . . ووجد حقيقة الألوهية في الوعي والإدراك مطابقة لما استكن منها في الفطرة والضمير .

فلنتابع الرحلة الشائقة مع فطرة إبراهيم الصادقة . . إنها رحلة هائلة وإن كانت تبدو هينة ميسرة ! رحلة من نقطة الإيمان الفطري إلى نقطة الإيمان الوعي ! الإيمان الذي يقوم عليه التكليف بالفرائض والشرائع ؛ والذي لا يكل الله – سبحانه – جمهرة الناس فيه إلى عقولهم وحدها ، فيبينه لهم في رسالات الرسل ، ويجعل الرسالة – لا الفطرة ولا العقل البشري – هي حجته عليهم ، وهي مناط الحساب والجزاء ، عدلاً منه ورحمة ، وخبرة بحقيقة الإنسان وعلماً . .

فأما إبراهيم – عليه السلام – فهو إبراهيم ! خليل الرحمن وأبو المسلمين . .

﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكباً . قال : هذا ربي ، فلما أفل قال : لا أحب الآفلين ﴾ . .

إنها صورة لنفس إبراهيم ، وقد ساورها الشك – بل الإنكار الجازم – لما يعبد أبوه وقومه من الأصنام . وقد باتت قضية العقيدة هي التي تشغل باله ، وتزحم عالمه . . صورة يزيدها التعبير شخوصا بقوله : ﴿ فلما جن عليه الليل ﴾ . . كأنما الليل يحتويه وحده ، وكأنما يعزله عن الناس حوله ، ليعيش مع نفسه وخواطره وتأملاته ، ومع همه الجديد الذي يشغل باله ويزحم خاطره :

﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكباً ، قال : هذا ربي ﴾ . .

وكان قومه يعبدون الكواكب والنجوم – كما أسلفنا – فلما أن يئس من أن يكون إلهه الحق – الذي يجده في فطرته في صورة غير مدركة ولا واعية – صنماً من تلك الأصنام ، فلعله رجا أن يجده في شيء مما يتوجه إليه قومه بالعبادة !

وما كانت هذه أول مرة يعرف فيها إبراهيم أن قومه يتجهون بالعبادة إلى الكواكب والنجوم .

وما كانت هذه أول مرة يرى فيها إبراهيم كوكباً . . ولكن الكوكب – الليلة – ينطق له بما لم ينطق من قبل ، ويوحي إلى خاطره بما يتفق مع الهم الذي يشغل باله ، ويزحم عليه عالمه :

﴿ قال : هذا ربي ﴾ . .

فهو بنوره وبزوغه وارتفاعه أقرب – من الأصنام – إلى أن يكون رباً ! . . ولكن لا ! إنه يكذب ظنه : ﴿ فلما أفل قال : لا أحب الآفلين ﴾ . .

*(222/238)*

---

إنه يغيب . . يغيب عن هذه الخلائق .

فمن ذا يرعاها إذن ومن ذا يدبر أمرها . . إذا كان الرب يغيب ؟ ! لا ، إنه ليس رباً ، فالرب لا يغيب !

إنه منطق الفطرة البديهي القريب . . لا يستثير القضايا المنطقية والفروض الجدلية ، إنما

ينطلق مباشرة في يسر وجزم . لأن الكينونة البشرية كلها تنطق به في يقين عميق . .

﴿ لا أحب الآفلين ﴾ . .

فالصلة بين الفطرة وإلهها هي صلة الحب ؛ والآصرة هي آصرة القلب . . وفطرة إبراهيم " لا تحب " الآفلين ، ولا تتخذ منهم إلهاً . إن الإله الذي تحبه الفطرة . . لا يغيب . . !

﴿ فلما رأى القمر بازغاً قال : هذا ربي . فلما أفل قال : لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ﴾ . .

إن التجربة تتكرر . وكأن إبراهيم لم ير القمر قط ؛ ولم يعرف أن أهله وقومه يعبدونه ! فهو الليلة في نظره جديد :

﴿ قال : هذا ربي ﴾ . .

بنوره الذي ينسكب في الوجود ؛ وتفرده في السماء بنوره الحبيب . . ولكنه يغيب ! . .

والرب – كما يعرفه إبراهيم بفطرته وقلبه – لا يغيب !

هنا يحس إبراهيم أنه في حاجة إلى العون من ربه الحق الذي يجده في ضميره وفطرته ، ربه الذي يحبه ، ولكنه بعد لم يجده في إدراكه ووعيه . . ويحس أنه ضال مضيع إن لم يدركه ربه بهدايته . إن لم يمد إليه يده . ويكشف له عن طريقه :

﴿ قال : لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ﴾ . .

﴿ فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربي . هذا أكبر . فلما أفلت قال : يا قوم إني بريء

مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً ، وما أنا من المشركين ﴾ .

إنها التجربة الثالثة مع أضخم الأجرام المنظورة وأشدها ضوءاً وحرارة . . الشمس . . والشمس تطلع كل يوم وتغيب . ولكنها اليوم تبدو لعيني إبراهيم كأنها خلق جديد . إنه اليوم يرى الأشياء بكيانه المتطلع إلى إله يطمئن به ويطمئن إليه ؛ ويستقر على قرار ثابت بعد الحيرة المقلقة والجهد الطويل :

﴿ قال : هذا ربي . هذا أكبر ﴾ .

ولكنها كذلك تغيب . .

(223/238)

---

هنا يقع التماس ، وتنطلق الشرارة ، ويتم الاتصال بين الفطرة الصادقة والله الحق ، ويغمر النور القلب ويفيض على الكون الظاهر وعلى العقل والوعي . . هنا يجد إبراهيم إلهه . . يجده في وعيه وإدراكه كما هو في فطرته وضميره . . هنا يقع التطابق بين الإحساس الفطري المكنون والتصور العقلي الواضح . .

وهنا يجد إبراهيم إلهه . ولكنه لا يجده في كوكب يلمع ، ولا في قمر يطلع ، ولا في شمس

تسطع . . ولا يجده فيما تبصر العين ، ولا فيما يحسه الحس . . إنه يجده في قلبه وفطرته ، وفي عقله ووعيه ، وفي الوجود كله من حوله . . إنه يجده خالقاً لكل ما تراه العين ، ويحسه الحس ، وتدركه العقول .

وعندئذ يجد في نفسه المفاصلة الكاملة بينه وبين قومه في كل ما يعبدون من آلهة زائفة ؛ ويبرأ في حسم لا مواربة فيه من وجهتهم ومنهجهم وما هم عليه من الشرك – وهم لم يكونوا يجحدون الله البتة ، ولكنهم كانوا يشركون هذه الأرباب الزائفة – وإبراهيم يتجه إلى الله وحده بلا شريك :

﴿ قال : يا قوم إني بريء مما تشركون .

إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ . .

فهو الاتجاه إلى فاطر السماوات والأرض . الاتجاه الحنيف الذي لا ينحرف إلى الشرك .

وهي الكلمة الفاصلة ، واليقين الجازم ، والاتجاه الأخير . . فلا تردد بعد ذلك ولا حيرة فيما تجلى للعقل من تصور مطابق للحقيقة التي في الضمير . .

ومرة أخرى نشهد ذلك المشهد الرائع الباهر . . مشهد العقيدة وقد استعلنت في النفس ، واستولت على القلب ، بعد ما وضحت وضوحها الكامل وانجلى عنها الغبش . .

نشهدها وقد ملأت الكيان الإنساني ، فلم يعد وراءها شيء . وقد سكبت فيه الطمأنينة

الواثقة بربه الذي وجده في قلبه وعقله وفي الوجود من حوله . . وهو مشهد يتجلى بكل روعته وبهائه في الفقرة التالية في السياق .

*(224/238)*

---

لقد انتهى إبراهيم إلى رؤية الله – سبحانه – في ضميره وعقله وفي الوجود من حوله . وقد اطمأن قلبه واستراح باله . وقد أحس بيد الله تأخذ بيده وتقود خطاه في الطريق . . والآن يجيء قومه ليجادلوه فيما انتهى إليه من يقين ؛ وفيما انشرح له صدره من توحيد ؛ وليخوفوه آلهتهم التي تنكر لها أن تنزل به سوءاً . . وهو يواجههم في يقينه الجازم ؛ وفي إيمانه الراسخ ؛ وفي رؤيته الباطنة والظاهرة لربه الحق الذي هداه :

﴿ وحاجه قومه ، قال : أتحاجوني في الله وقد هدان ؟ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً ، وسع ربي كل شيء علماً . أفلا تتذكرون ؟ وكيف أخاف ما أشركتم ، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ؟ فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟ ﴾ . .

إن الفطرة حين تنحرف تضل ؛ ثم تتمادى في ضلالها ، وتتسع الزاوية ويبعد الخط عن نقطة الابتداء ، حتى ليصعب عليها أن تثوب . . وهؤلاء قوم إبراهيم – عليه السلام – يعبدون

أصناماً وكواكب ونجوماً . فلا يتفكرون ولا يتدبرون هذه الرحلة الهائلة التي تمت في نفس إبراهيم . ولم يكن هذا داعياً لهم لمجرد التفكر والتدبر . بل جاءوا يجادلونه ويحاجونه . وهم على هذا الوهن الظاهر في تصوراتهم وفي ضلال مبين .

ولكن إبراهيم المؤمن الذي وجد الله في قلبه وعقله وفي الوجود كله من حوله ، يواجههم مستنكراً في طمأنينة ويقين :

﴿ قال : أتحاجوني في الله وقد هدانِ ؟ ﴾ . .

أتجادلونني في الله وقد وجدته يأخذ بيدي ، ويفتح بصيرتي ، ويهديني إليه ، ويعرفني به . . لقد أخذ بيدي وقادني فهو موجود – وهذا هو في نفسي دليل الوجود – لقد رأيته في ضميري وفي وعيي ، كما رأيته في الكون من حولي . فما جدالكم في أمر أنا أجده في نفسي ولا أطلب عليه الدليل . فهدايته لي إليه هي الدليل ؟ !

﴿ ولا أخاف ما تشركون به ﴾ .

وكيف يخاف من وجد الله ؟ وماذا يخاف ومن ذا يخاف ؟ وكل قوة – غير قوة الله – هزيلة وكل سلطان – غير سلطان الله – لا يُخاف ؟ !

ولكن إبراهيم في عمق إيمانه ، واستسلام وجدانه ، لا يريد أن يجزم بشيء إلا مرتكناً إلى مشيئة الله الطليقة ، وإلى علم الله الشامل :

﴿ إلا أن يشاء ربي شيئاً . وسع ربي كل شيء علماً ﴾ .

فهو يكل إلى مشيئة الله حمايته ورعايته ؛ ويعلن أنه لا يخاف من آلهتهم شيئاً ، لأنه يركن إلى حماية الله ورعايته . ويعلم أنه لا يصيبه إلا ما شاءه الله ، ووسعه علمه الذي يسع كل شيء . .

﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ؟ فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟ ﴾ .

إنه منطق المؤمن الواثق المدرك لحقائق هذا الوجود . إنه إن كان أحد قميناً بالخوف فليس هو إبراهيم – وليس هو المؤمن الذي يضع يده في يد الله ويمضي في الطريق – وكيف يخاف آلهة عاجزة – كائنة ما كانت هذه الآلهة ، والتي تتبدى أحياناً في صورة جبارين في الأرض بطاشين ؛ وهم أمام قدرة الله مهزولون مضعوفون ! – كيف يخاف إبراهيم هذه الآلهة الزائفة العاجزة ، ولا يخافون هم أنهم أشركوا بالله ما لم يجعل له سلطاناً ولا قوة من الأشياء والأحياء ؟ وأي الفريقين أحق بالأمن ؟ الذي يؤمن به ويكفر بالشركاء ؟ أم الذي يشرك بالله ما لا سلطان له ولا قوة ؟ أي الفريقين أحق بالأمن ، لو كان لهم شيء من العلم والفهم ؟ !

هنا يتنزل الجواب من الملأ الأعلى ؛ ويقضي الله بحكمه في هذه القضية :

﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ . .

الذين آمنوا وأخلصوا أنفسهم لله ، لا يخلطون بهذا الإيمان شركاً في عبادة ولا طاعة ولا اتجاه . هؤلاء لهم الأمن ، وهؤلاء هم المهتدون . .

﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء . . ﴾

(226/238)

---

ولقد كانت هذه هي الحجة التي ألهمها الله إبراهيم ليدحض بها حجتهم التي جاءوا بها يجادلونه . ولقد كشف لهم عن وهن ما هم عليه من تصورهم أن هذه الآلهة تملك أن تسيء إليه . . وواضح أنهم ما كانوا يجحدون وجود الله ؛ ولا أنه هو صاحب القوة والسلطان في الكون ، ولكنهم كانوا يشركون به هذه الآلهة . فلما واجههم إبراهيم ، بأن من كان يخلص نفسه لله لا يخاف من دونه ، فأما من يشرك بالله فهو أحق بالمخافة . . لما واجههم بهذه الحجة التي آتاها الله له وألهمه إياها ، سقطت حجتهم ، وعلت حجته ، وارتفع إبراهيم على قومه عقيدة وحجة ومنزلة . . وهكذا يرفع الله من يشاء درجات . متصرفاً في هذا بحكمته وعلمه :

﴿ إن ربك حكيم عليم ﴾ . .

وقبل أن نغادر هذه الفقرة نحب أن نستمتع بنفحة من نفحات الحياة في عصر صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهذا القرآن يتنزل عليهم غضاً ؛ وتشربه نفوسهم ؛ وتعيش به وله ؛ وتتعامل به وتتعايش بمدلولاته وإيحاءاته ومقتضياته ، في جد وفي وعي وفي التزام عجيب ، تأخذنا روعته وتبهرنا جديته ؛ وندرك منه كيف كان هذا الرهط الفريد من الناس ، وكيف صنع الله بهذا الرهط ما صنع من الخوارق ، في ربع قرن من الزمان :

روى ابن جرير – بإسناده –

" عن عبد الله بن إدريس ، قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ ، شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم – وقالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟ قال : فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ليس كما تظنون . وإنما هو ما قال لقمان لابنه : ﴿ لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم "

*(227/238)*

---

وروى كذلك – بإسناده – عن ابن المسيب ، أن عمر بن الخطاب قرأ : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ فلما قرأها فزع . فأتى أبيّ بن كعب . فقال : يا أبا المنذر ، قرأت آية

من كتاب الله . من يَسلم ؟ فقال : ما هي ؟ . . فقرأها عليه . . فأينا لا يظلم نفسه ؟ فقال : غفر الله لك ! أما سمعت الله تعالى ذكره يقول : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ إنما هو : ولم يلبسوا إيمانهم بشرك .

وروى – بإسناده – عن أبي الأشعر العبدي عن أبيه ، أن زيد بن صوحان سأل سلمان ، فقال : يا أبا عبد الله ، آية من كتاب الله قد بلغت مني كل مبلغ : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ ! فقال سلمان : هو الشرك بالله تعالى ذكره . فقال زيد : ما يسرني بها أني لم أسمعها منك ، وأن لي مثل كل شيء أمسيت أملكه .

فهذه الآثار الثلاثة تصور لنا كيف كان حس هذا الرهط الكريم بهذا القرآن الكريم . كيف كانت جدية وقعه في نفوسهم . كيف كانوا يتلقونه وهم يشعرون أنه أوامر مباشرة للتنفيذ وتقريرات حاسمة للطاعة ، وأحكام نهائية للنفاذ . وكيف كانوا يفزعون حين يظنون أن هناك مفارقة بين طاقتهم المحدودة ومستوى التكليف المطلوب . وكيف كانوا يجزعون أن يؤاخذوا بأي درجة من درجات التقصير ، والتفاوت بين عملهم وبين مستوى التكليف . حتى يأتيهم من الله ورسوله التيسير .

إنه مشهد كذلك رائع باهر . . مشهد هذه النفوس التي حملت هذا الدين . . وكانت ستاراً لقدر الله ؛ ومنفذاً لمشيئته في واقع الحياة . .

بعد ذلك يعرض السياق موكب الإيمان الجليل ، يقوده ذلك الرهط الكريم من الرسل : من

نوح إلى إبراهيم إلى خاتم النبيين – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – يعرض السياق هذا الموكب ممتداً موصولاً – وبخاصة منذ إبراهيم وبنيه من النبيين – ولا يراعي التسلسل التاريخي في هذا العرض – كما يلاحظ في مواضع أخرى – لأن المقصود هنا هو الموكب بجملته ، لا تسلسله التاريخي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 2 صـ 1137 .

1143 ﴾

*(228/238)*

---

وقال الشيخ الصابونى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاما آلِهَةً ﴾ أي واذكر يا محمد لقومك عبدة الاوثان وقت قول إبراهيم – الذي يدّعون أنهم على ملّته – لأبيه آزر منكراً عليه أتتخذ أصناما آلهة تعبدها وتجعلها رباً دون الله الذي خلقك فسوّاك ورزقك ؟ ﴿ إِنِي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ أي فأنت وقومك في ضلال عن الحق مبين واضح لا شك فيه ﴿ وَكَذَلِكَ نري إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السماوات والأرض ﴾ أي نُرى إبراهيم المُلْك العظيم والسلطان الباهر ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ الموقنين ﴾ أي وليكون من الراسخين في اليقين أريناه تلك الآيات الباهرة قال مجاهد : فُرجت له السماوات والأرض فرأى ببصره الملكوت الأعلى

والملكوت الأسفل ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الليل رَأَى كَوْكَباً ﴾ أي فلما ستر الليلُ بظلمته كل ضياء رأى كوكباً مضيئاً في السماء هو الزهرة أو المشتري ﴿ قَالَ هذا رَبِّي ﴾ أي على زعمكم قاله على سبيل الرد عليهم والتوبيخ لهم واستدراجاً لهم لأجل أن يعرفهم جهلهم وخطأهم في عبادة غير الله قال الزمخشري : كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والكواكب فأراد أن ينبههم على ضلالتهم ويرشدهم إلى الحق من طريق النظر والاستدلال ، ويعرّفهم أن النظر الصحيح مؤدٍّ إلى ألا يكون شيء منها إلهاً وأن وراءها محدثاً أحدثها ، ومدبراً دبّر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وقوله ﴿ هذا رَبِّي ﴾ قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطلٌ ، فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه لأن ذلك أدعى إلى الحق ثم يكرُّ عليه فيبطله بالحجة ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفلين ﴾ أي فلما غاب الكوكب قال لا أحب عبادة من كان كذلك ، لأن الرب لا يجوز عليه التغيّر والانتقال لأن ذلك من صفات الأجرام ﴿ فَلَمَّآ رَأَى القمر بَازِغاً قَالَ هذا رَبِّي ﴾ أي فلما رأى القمر طالعاً منتشر الضوء قال هذا ربي على الأسلوب المتقدم لفتاً لأنظار قومه إلى

(229/238)

فساد ما يعبدونه وتسفيهاً لأحلامهم ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ القوم الضالين ﴾ أي فلما غاب القمر قال إبراهيم لئن لم يثبتني ربي هلى الهدى لأكونن من القوم الضالين ، وفيه تعريضٌ لقومه بأنهم على ضلال ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشمس بَازِغَةً قَالَ هذا رَبِّي هاذآ أَكْبَرُ ﴾ أي هذا أكبر من الكوكب والقمر ﴿ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يا قوم إِنِّي بريء مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ أي فلما غابت الشمس قال أنا بريء من إشراككم وأصنامكم قال أبو حيان : لما أوضح لهم أن هذا الكوكب الذي رآه لا يصلح أن يكون رباً ارتقب ما هو أنور منه وأضوأ فرأى القمر أول طلوعه ، ثم لما غاب ارتقب الشمس إذ كانت أنور من القمر وأضوأ ، وأكبر جرماً وأعم نفعاً ، فقال ذلك على سبيل الاحتجاج عليهم وبيّن أنها مساوية للنجم في صفة الحدوث وقال ابن كثير : والحق أن إبراهيم عليه السلام كان في هذا المقام مناظراً لقومه مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الأصنام والكواكب السيارة وأشدهن إضاءة الشمس ثم القمر ثم الزهرة فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار وتحقق ذلك بالدليل القاطع ﴿ قَالَ يا قوم إِنِّي بريء مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ ﴾ أي قصدت بعبادتي وتوحيدي ﴿ لِلَّذِي فَطَرَ السماوات والأرض ﴾ أي الله الذي ابتدع العالم وخلق السماوات والأرض ﴿ حَنِيفاً ﴾ أي مائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق ﴿ وَمَآ أَنَاْ مِنَ المشركين ﴾ أي لست ممن يعبد مع الله غيره ﴿ وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ ﴾ أي جادلوه وناظروه في شأن التوحيد قال ابن عباس : جادلوه في آلهتهم

وخوّفوه بها فأجابهم منكراً عليهم ﴿ قَالَ أَتحاجواني فِي الله ﴾ أي أتجادلونني في وجود الله ووحدانيته ﴿ وَقَدْ هَدَانِ ﴾ أي وقد بصّرني وهداني إلى الحق ﴿ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ﴾ أي لا أخاف

(230/238)

---

هذه الآلهة المزعومة التي تعبدونها من دون الله لأنها لا تضر ولا تنفع ، ولا تُبصر ولا تسمع وليست قادرة على شيء مما تزعمون ﴿ إِلاَّ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْئاً ﴾ أي إلا إذا أراد ربي أن يصيبني شيءٌ من المكروه فيكون ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ أي أحاط علمه بجميع الأشياء ﴿ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ استفهام للتوبيخ أي أفلا تعتبرون وتتعظون ؟ وفي هذا تنبيهٌ لهم على غفلتهم التامة حيث عبدوا ما لا يضر ولا ينفع وأشركوا مع ظهور الدلائل الساطعة على وحدانيته سبحانه ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ ﴾ أي كيف أخاف آلهتكم التي أشركتموها مع الله في العبادة ! ﴿ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً ﴾ أي وأنتم لا تخافون الله القادر على كل شيء الذي أشركتم به بدون حجة ولا برهان ﴿ فَأَيُّ الفريقين أَحَقُّ بالأمن إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي أينا أحقُّ بالأمن أنحن وقد عرفنا الله بأدلة وخصصناه بالعبادة أم أنتم وقد أشركتم معه الأصنام وكفرتم بالواحد

الديان ؟ ﴿ الذين آمَنُواْ وَلَمْ يلبسوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ أي لم يخلطوا إيمانهم بشرك ﴿ أولئك لَهُمُ الأمن وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ أي لهم الأمن من العذاب وهم على هداية ورشاد ، روي أن هذه الآية لما نزلة أشفق منها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : وأيُّنا لم يظلم نفسه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : " ليس كما تظنون وإنما هو كما قال لقمان لابنه ﴿ يا بني لاَ تُشْرِكْ بالله إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [ لقمان : 13 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 401.403 ﴾

*(231/238)*

---

وقال صاحب الميزان :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (74) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82) ﴾

( بيان ) عشر آيات ذكر الله سبحان فيها ما آتاه النبي العظيم إبراهيم عليه السلام من الحجة على المشركين بما هداه إلى توحيده وتنزيهه ثم ذكر هدايته أنبياءه بتطهير سرهم من الشرك

، وقد سمى بينهم نوحا عليه السلام وهو قبل إبراهيم عليه السلام وستة عشر نبيا من ذرية نوح عليه السلام .

والآيات في الحقيقة بيان لمصداق كامل من القيام بدين الفطرة والانتهاض لنشر عقيدة التوحيد والتنزيه عن شرك الوثنية وهو الذى انتهض له إبراهيم عليه السلام وحاج له على الوثنية حينما أطبقت الدنيا على الوثنية ظاهرا ، ونسوا ما سنه نوح عليه السلام والتابعون له من ذريته الأنبياء من طريقة التوحيد فالآيات بما تشتمل عليه من تلقين الحجة والهداية إلى دين الفطرة كالتبصر لما تقدمها من الحجج التى لقنها الله : سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله في هذه السورة بقوله : قل كذا وقل كذا فقد كررت لفظة ( قل ) في هذه السورة الكريمة أربعين مرة نيف وعشرون منها قبل هذه الآيات فكأنه قيل : واذكر فيما تقوله لقومك وتحاجهم به من أدلة التوحيد ونفى الشريك بتلقيننا إياك ما قاله إبراهيم لأبيه وقومه مما آتيناه من حجتنا على قومه بما كنا نريه من ملكوت السماوات والأرض فقد كان يحاجهم عن إفاضة إلهية عليه بالعلم والحكمة وإراءة منه تعالى لملكوته مبنية على اليقين لا عن فكرة تصنيعية لا تعدو حد التخيل والتصور ، ولا تخلو عن التكلف والتعسف الذى لا تهتف به الفطرة الصافية .

ولحن كلام إبراهيم عليه السلام فيما حكاه الله سبحانه في هذه الآيات إن تدبرنا فيها بأذهان

خالية عن التفاصيل الواردة في الروايات والاثار على اختلافها الفاحش ، غير مشوبة بالمشاجرات التى وقعت للباحثين من أهل التفسير على خلطهم تفسير الآيات بمضامين الروايات ومحتويات التواريخ وما اشتملت عليه التوراة وأخرى تشابعها من الاسرائيليات إلى غير ذلك ، وبالجملة لحن كلامه عليه السلام في ما حكى عنه في هذه الآيات يشعر إشعارا واضحا بأنه كلام صادر عن ذهن صاف غير مملوء بزخارف الافكار والاوهام المتنوعة أفرغته في قالب اللفظ فطرته الصافية بما عندها من أوائل التعقل والتفكير ولطائف الشعور والاحساس .

فالواقف في موقف النصفة من التدبر في هذه الآيات لا يشك أن كلامه المحكى عنه مع قومه أشبه شئ بكلام إنسان أولى فرضى عاش في سرب من أسراب الأرض أو كهف من كهوف الجبال لم يعاشر إلا بعض من يقوم بواجب غذائه ولباسه لم يشاهد سماء بزواهر نجومها وكواكبها ، والبازغ من قمرها وشمسها ، ولم يمكث في مجتمع إنساني بأفراده الجمة وبلاده الوسيعة ، واختلاف أفكاره ، وتشتت مقاصده ومآربه ، وأنواع أديانه ومذاهبه ، ثم ساقه الاتفاق أن دخل في واحد من المجتمعات العظيمة ، وشاهد أمورا عجيبة لا عهد له بها من

أجرام سماوية ، وأقطار أرضية ، وجماعات من الناس عاكفين على مشاغلهم كادحين نحو مأربهم ، ومقاصدهم لا يصرفهم عن ذلك صارف بين متحرك وساكن ، وعامل ومعمول له ، وخادم ، ومخدوم ، وآمر ومأمور ، ورئيس ومرؤوس منكب على الكسب والعمل ، ومتزهد متعبد يعبد الإله .

*(233/238)*

---

فبهته عجيب ما يراه واستغرقه غريب ما يشاهده فصار يسأل من أنس به عن شأن الواحد بعد الواحد مما اجتذبت إليه نفسه ، ووقع عليه بصره ، وكثر منه إعجابه نظير ما نراه من حال الصبى إذا نظر إلى جو السماء الوسيعة بمصابيحها المضيئة وزواهرها اللامعة ، وعقود كواكبها المنثورة في حالة مطمئنة نراه يسأل أمة : ما هذه التى اشاهدها وأمتلئ من حبها والاعجاب بها ؟ من الذى علقها هناك من الذى نورها ؟ من الذى صنعها ؟ .

غير أن الذى لا نرتاب فيه أن هذا الإنسان إنما يبدا في سؤاله من حقائق الأشياء التى يشاهدها ويتعجب منها بالذى يقرب مما كان يعرفها في حال التوحش والانعزال عن المجتمع وإنما يسأل عن المقاصد والغايات التى لا يقع عليها الحواس .

وذلك لأن الإنسان إنما يستعلم حال المجهولات بما عنده من مواد العلم الاولية فلا ينتقل من

المجهولات إلا إلى ما يناسب بعض ما عنده من المعلومات ، وهذا أمر ظاهر محسوس من حال بعض بسائط العقول كالصبيان وأهل البدو إذا صادفوا أمورا ليس لهم بها عهد فإنهم يبدءون باستعلام حال ما يستأنسون بأمره بعد الاستيناس فيسألون عن حقيقته وعن أسبابه وغاياته .

*(234/238)*

---

والإنسان المفروض وهو الإنسان الفطري الأولى تقريبا لما لم يشتغل إلا بأبسط أسباب المعيشة لم يشغل ذهنه ما يشغل ذهن الإنسان المدنى الحضرى الذى أحاطت به هذه الاشغال الكثيرة الطبيعية الخارجة عن الحد والحصر التى لا فراغ له عنها ولو لحظة ، ولذلك كان الإنسان المفروض في فراغ من الفكر وخلاء من الذهن ، والحوادث الجمة السماوية والارضية الكونية محيطة به من غير أن يعرف أسبابها الطبيعية فلذلك كان ذهنه أشد استعدادا للانتقال إلى سببها الذى هو اعلى من الأسباب الطبيعية وهو الذى يتنبه له الإنسان الحضرى بعد الفراغ عن إحصاء الأسباب الطبيعية لحوادث الكون فوق هذه الأسباب لو وجد فراغا ، ولذا كان الاسبق إلى ذهن هذا الإنسان المفروض هو الانتقال إلى هذا السبب الأعلى لو شاهد من الناس الحضريين الاشتغال به والتنسك والعبادة له .

ومن الشواهد على هذا الذى ذكرنا ما نجد أن الاشتغال بالمراسم الدينية والبحث عن اللاهوت في آسيا أكثر رواجا وأغلى قدرا منه في أوروبا ، وفي القرى والبلاد الصغيرة أحكم موقعا منه في البلاد العظيمة وعلى هذه النسبة في البلاد العظيمة والسواد الأعظم لما أن المجتمع كلما اتسع نطاقه زادت فيه الحوائج الحيوية ، وكثرت وتراكمت الاشغال الإنسانية فلم تدع للإنسان فراغا تستريح فيه نفسه إلى معنوياتها وتتوجه إلى البحث عن مبدئها ومعادها .

وبالجملة إذا راجعنا قصة إبراهيم عليه السلام المودعة في هذه الآيات وما يناظرها من آيات سورة مريم والانبياء والصافات وغيرها وجدنا حاله عليه السلام فيما يحاج به أباه وقومه أشبه شئ بحال الإنسان البسيط المفروض نجده يسأل عن الأصنام ويباحث القوم في شأنها ويتكلم في أمر الكوكب والقمر والشمس سؤاله من لا عهد له بما يصنعه الناس وخاصة قومه الوثنيون في الأصنام يقول لأبيه وقومه : ( ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ) ( الأنبياء : 52 ) ويقول لأبيه وقومه : ( ما تعبدون .

قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين .

قال هل يسمعونكم إذ تدعون .

أو ينفعونكم أو يضرون .

قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون :ا ) ( شعراء : 74 ) .

فهذا كلام من لم ير صنما ولم يشاهد وثنيا يعبد صنما وقد كان عليه السلام في مهد الوثنية وهو بابل كلدان ، وقد عاش بينهم برهة من الزمان فهل كان مثل هذا التعبير منه عليه السلام : ( ما هذه التماثيل ) تحقيرا للأصنام وإيماء إلى أنه لا يضعها الموضع الذى يضعها عليه الناس ولا يقر لها بما أقروا به من القداسة والفضل كأنه لا يعرفها كقول فرعون لموسى عليه السلام .

( وما رب العالمين ) ( الشعراء : 23 ) وقول كفار مكة للنبى صلى الله عليه وآله فيما حكى الله تعالى : ( وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون ) ( الأنبياء : 36 ) .

لكن يبعده أن إبراهيم عليه السلام ما كان يستعمل في خطاب أبيه آزر إلا جميل الأدب حتى إذا طرده أبوه وهدده بالرجم قال له إبراهيم : ( سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا ) ( مريم : 47 ) .

فمن المستبعد أن يلقى إليه أول ما يواجهه من الكلام ما يتضمن تحقير شأن آلهته المقدسة

عنده في لحن التشويه والإهانة فيثير به عصبيته ونزعته الوثنية ، وقد نهى الله سبحانه في هذا الملة التى هي ملة إبراهيم حنيفا عن سب آلهة المشركين لئلا يثير ذلك منهم ميواجهون المسلمين بمثله قال تعالى : ( ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ) ( الأنعام : 108 ) .

*(236/238)*

---

ثم إنه عليه السلام بعد الفراغ مما حاج به أباه آزر وقومه في أمر الأصنام يشتغل بأربابها وهى الكوكب والقمر والشمس فيقول لما رأى كوكبا : ( هذا ربى ) ثم يقول لما رأى القمر بازغا : ( هذا ربى ) ثم يقول لما رأى الشمس بازغة : ( هذا ربى هذا أكبر ) وهذه التعبيرات أيضا تعبير من كأنه لم ير كوكبا ولا قمرا ولا شمسا ، وأوضح التعبيرات دلالة على هذا المعنى قوله عليه السلام في الشمس : هذا ربى هذا أكبر فإن هذا كلام من لا يعرف ما هي الشمس وما هما القمر والكوكب غير أنه يجد الناس يخضعون لها ويعبدونها ويقربون لها القرابين كما يرويه التاريخ عن أهل بابل ، وهذا كما إذا رأيت شبح إنسان لا تدرى أرجل هو أو امراة تسأل وتقول : من هذا ؟ تريد الشخص لانك لا تعلم منه أزيد من أنه شخص إنسان فيقال : امرأة فلان أو هو فلان وإذا رأيت شبحا لا تدرى إنسان هو أو حيوان أو جماد تقول ما

هذا ؟ تريد الشبح أو المشار إليه إذ لا

علم لك من حاله إلا بأنه شئ جسماني أيا ما كان فيقال لك هذا زيد أو هذه امرأة فلان أو هو شاخص كذا ففى جميع ذلك تراعى – وأنت جاهل بالأمر – من شأن أولى العقل وغيره والذكورية والانوثية مقدار ما لك به علم ، وأما المجيب العالم بحقيقة الحال فعليه أن يراعى الحقيقة .

*(237/238)*

---

فظاهر قوله عليه السلام : هذا ربى وقوله : ( هذا ربى هذا أكبر ) أنه ما كان يعرف من حال الشمس إلا أنه شئ طالع أكبر من القمر والكوكب يقصده الناس بالعبادة والنسك والإشارة إلى مثل هذا المعلوم إنما هو بلفظة ( هذا ) بلا ريب ، وأما أنها شمس أي جرم أو صفحة نورانية تدبر العالم الارضى بضوئها وترسم الليل والنهار بسيرها بحسب ظاهر الحس أو أنه قمر أو كوكب يطلع كل ليلة من أفق الشرق ويغيب فيما يقابله من الغرب فلم يكن يعرف ذلك على ما يشعر به هذا الكلام ، ولو كان يعرف ذلك لقال في الشمس : هذه ربى هذه أكبر أو قال : إنها ربى إنها أكبر كما راعى هذه النكتة بعد ذلك فيما حاج الملك نمرود وقد كان يعرفها اليوم : ( فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ) (

البقرة : 258 ) فلم يقل : فأت به من المغرب .

وكما قال لأبيه وقومه على ما حكى الله : ( ما تعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ) ( الشعراء : 74 ) فبدأ يسأل عن معبودهم بلفظة ( ما ) إذ لا علم له عندئذ بشئ من حاله إلا أنه شئ ثم لما ذكروا الأصنام وهم لا يعتقدون لها شيئا من الشعور والإرادة قالوا : ( فنظل لها ) بالتأنيث ، ثم لما سمع الوهيتها منهم ومن الواجب أن يتصف الإله بالنفع والضرر والسمع لدعوة من يدعوه عبر عنها تعبيرا اولى العقل ، ثم لما ذكروا له في قصة كسر الأصنام : ( لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ) حذاء قوله : ( فسألوهم إن كانوا ينطقون ) سلب عنها شأن اولى العقل فقال : ( أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ) ( الأنبياء : 67 ) .

*(238/238)*

---

ولا يسعنا أن نتعسف فنقول إنه عليه السلام أراد بقوله : ( هذا ربى هذا أكبر ) الجرم أو المشار إليه أو انه روعى في ذلك حال لغته التى تكلم بها وهى السريانية ليس يراعى فيها التأنيث كاغلب اللغات العجمية فإن ذلك تحكم ، على انه عليه السلام قال للملك في

خصوص الشمس بعينها : ( فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ) ( البقره : 258 ) فلم يحك القرآن ما لهج به بالوصف الذى في لغته فما بال هذا المورد ( هذا ربى هذا اكبر ) اختص بهذه الحكاية .

بيان ونظير السؤال آت في قوله يسأل قومه عن شان الأصنام : ( ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ) ( الأنبياء : 52 ) وكذا قوله في دعائه : ( واجنبني وبنى أن نعبد الأصنام رب إنهن أضللن كثيرا من الناس : ( إبراهيم : 36 ) .

وكذا لا يسعنا القول بأنه عليه السلام في تذكيره الإشارة إلى الشمس صان الإله عن وصمة الأنوثية تعظيما أو أن الكلام من باب إتباع المبتدأ للخبر الذى هو مذكر أعنى قوله : ربى ، وقوله : ( أكبر ) فكل ذلك تحكم لا دليل عليه ، وسيجئ تفصيل البحث فيها .

*(239/238)*

---

والحاصل أن الذى حكاه الله تعالى في هذه الآيات وما يناظرها من قول إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه في توحيده تعالى ونفى الشريك عنه كلام يدل بسياقه على أنه عليه السلام إنما عاش قبل ذلك في معزل من الجو الذى كان يعيش فيه أبوه وقومه ولم يكن يعرف ما يعرفه معاشر المجتمعين من تفاصيل شئون أجزاء الكون والسنن الاجتماعية الدائرة بين الناس

المجتمعين ، وأنه كان إذ ذاك في أوائل زمن رشده وتمييزه ترك معزله ولحق بأبيه ، ووجد عنده أصناما فسأله عن شأنها فلما أوقفه على ذلك شاجره في الوهيتها وألزمه الحجة ، ثم حاج قومه في أمر الأصنام فبكتهم ، ثم رجع إلى عبادتهم لارباب الأصنام من الكوكب والقمر والشمس فجاراهم في افتراض ربوبيتها الواحد ، منها بعد الواحد ولم يزل يراقب أمرها ، وكلما غرب واحد منها رفضه وأبطل ربوبيته وافترض ربوبية غيره مما يعبدونه حتى أتى في يومه وليلته على آخرها على ما هو ظاهر الآيات ، ثم عاد إلى التوحيد الخالص بقوله : ( إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ) وكأنه تم له ذلك في يومين وليلة بينهما تقريبا على ما سنبين إن شاء الله تعالى .

وكان عليه السلام على بصيرة من أن للعالم خالقا فاطرا للسماوات والأرض هو الله وحده لا شريك له في ذلك ، وإنما يبحث عن أنه هل للناس ومنهم إبراهيم نفسه رب غير الله هو بعض خلقه كشمس أو قمر أو غيرها يربهم ويدبر أمرهم ويشارك الله في أمره أو أنه لا رب لهم غير الله سبحانه وحده لا شريك له .

*(240/238)*

وفي جميع هذه المراحل التى طواها كان الله سبحانه يمده ويسدده بإراءته ملكوت السماوات والأرض وعطف نفسه الشريفة إلى الجهة التى ينتسب منها الأشياء إلى الله سبحانه خلقا وتدبيرا فكان إذا رأى شيئا رآى انتسابه إلى الله وتكوينه وتدبيره بأمره قبل أن يرى نفسيته وآثار نفسيته كما هو ظاهر سياق : ( قوله وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ) الآية ، وقوله في ذيل الآيات : ( وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ) الآية ، وقوله : ( ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ) ( الأنبياء : 51 ) .

وقول إبراهيم لأبيه فيما حكى الله تعالى : ( يا أبت إنى قد جاءني من العلم ما يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا ) ( مريم : 43 ) إلى غير ذلك من الآيات .

ثم حاج الملك نمرود في دعواه الربوبية على ما كان ذلك من دأب كثير من جبابرة السلف ومن نظائر ذلك نشأت الوثنية وكانت لقومه آلهة كثيرة لها أصنام يعبدونها ، وفيهم من كان يعبد أرباب الأصنام كالشمس والقمر والكوكب الذى ذكره القرآن الكريم ولعله الزهرة .

هذا ملخص ما يستفاد من الآيات الكريمة وسنبحث عن مضامينها تفصيلا بحسب ما نستطيعه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ( وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر ) القراءات السبع في آزر بالفتح فيكون عطف بيان أو بدلا من أبيه وفي بعض القراءات ( آزر ) بالضم وظاهره أنه منادى مرفوع بالنداء ،

والتقدير : يا آزر أتتخذ أصناما آلهة ، وقد عد من القراءات ( أأزرا ) تتخذ مفتتحا بهمزه الاستفهام ، وبعده ( أزرا ) بالنصب مصدر أزر يأزر بمعنى قوى والمعنى : وإذ قال إبراهيم لأبيه أتتخذ أصناما للتقوى والاعتضاد .

وقد اختلف المفسرون على القراءة الأولى المشهورة والثانية الشاذة في ( آزر ) أنه اسم علم لأبيه أو لقب أريد بمعناه المدح أو الذم بمعنى المعتضد أو بمعنى الاعرج أو المعوج

*(241/238)*

---

أو غير ذلك ومنشا ذلك ما ورد في عدة روايات أن اسم أبيه ( تارح ) بالحاء المهملة أو المعجمة ويؤيده ما ضبطه التاريخ من اسم أبيه ، وما وقع في التوراة الموجودة أنه عليه السلام ابن تارخ .

كما اختلفوا أن المراد بالأب هو الوالد أو العم أو الجد الأمي أو الكبير المطاع ومنشأ ذلك أيضا اختلاف الروايات فمنها ما يتضمن أنه كان والده وأن إبراهيم عليه السلام سيشفع له يوم القيامة ولكن لا يشفع بل يمسخه الله ضبعا منتنا فيتبرا منه إبراهيم ، ومنها ما يدل على أنه لم يكن والده ، وأن والده كان موحدا غير مشرك ، وما يدل على أن آباء النبي صلى الله عليه وآله كانوا جميعا موحدين غير مشركين إلى غير ذلك من الروايات ، وقد اختلفت في

سائر ما قص من أمر إبراهيم اختلافا عجيبا حتى اشتمل بعضها على نظائر ما ينبسه إليه العهد العتيق مما تنزهه عنه الخلة الإلهية والنبوة والرسالة .

وقد أطالوا هذا النمط من البحث حتى انجر إلى غايات بعيدة تغيب عندها رسوم البحث التفسيرى الذى يستنطق الآيات الكريمة عن مقاصدها عن نظر الباحث ، وعلى من يريد الاطلاع على ذلك ان يراجع مفصلات التفاسير وكتب التفسير بالمأثور .

*(242/238)*

---

والذى يهدى إليه التدبر في الآيات المتعرضة لقصصه عليه السلام أنه عليه السلام في أول ما عاشر قومه بدأ بشأن رجل يذكر القرآن أنه كان أباه آزر ، وقد أصر عليه ان يرفض الأصنام ويتبعه في دين التوحيد فيهديه حتى طرده أبوه عن نفسه وأمره ان يهجره قال تعالى : ( واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا ، إذ قال لأبيه يا ابت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ، يا أبت إنى قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا – إلى أن قال – قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لارجمنك واهجرني مليا ) ( مريم : 46 ) فسلم عليه إبراهيم ووعده أن يستغفر له ، ولعله كان طمعا منه في إيمانه وتطميعا له في السعادة والهدى قال تعالى : ( قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى

حفيا ، واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوا ربى عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا ) ( مريم : 48 ) والآية الثانية احسن قرينة على أنه عليه السلام إنما وعده أن يستغفر له في الدنيا لا ان يشفع له يوم القيامة وإن بقى كافرا أو بشرط ان لا يعلم بكفره .

ثم حكى الله سبحانه إنجازه عليه السلام لوعده هذا واستغفاره لأبيه في قوله : ( رب هب لى حكما وألحقني بالصالحين واجعل لى لسان صدق في الاخرين واجعلني من ورثة جنة النعيم واغفر لابي إنه كان من الضالين ولا تخزني يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ) ( الشعراء : 89 ) وقوله : ( إنه كان من الضالين ) يدل على أنه عليه السلام إنما دعا بهذا الدعاء لأبيه بعد موته أو بعد مفارقته أياه وهجره له لمكان قوله : ( كان ) وذيل كلامه المحكى في الآيات يدل على أنه كان صورة دعاء أتى بها للخروج عن عهدة ما وعده وتعهد له فإنه عليه السلام يقول : اغفر لهذا الضال يوم القيامة ثم يصف يوم القيامة بأنه لا ينفع فيه شئ إلا القلب السليم .

*(243/238)*

---

وقد كشف الله سبحانه عن هذه الحقيقة بقوله – وهو في صورة الاعتذار – : ( ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا اولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم

أصحاب الجحيم ، وما كان استغفار إبراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ) ( التوبة : 114 ) والآية بسياقها تشهد على أن هذا الدعاء إنما صدر منه عليه السلام في الدنيا وكذلك التبرى منه لا أنه سيدعو له ثم يتبرا منه يوم القيامة فإن السياق سياق التكليف التحريمي العام وقد استثنى منه دعاء إبراهيم ، وبين أنه كان في الحقيقة وفاء منه عليه السلام بما وعده ، ولا معنى لاستثناء ما سيقع مثلا يوم القيامة عن حكم تكليفي مشروع في الدنيا ثم ذكر التبرى يوم القيامة .

وبالجملة هو سبحانه يبين دعاء إبراهيم عليه السلام لأبيه ثم تبريه منه ، وكل ذلك في أوائل عهد إبراهيم ولما يهاجر إلى الأرض المقدسة بدليل سؤاله الحق واللحوق بالصالحين وأولادا صالحين كما يستفاد من قوله في الآيات السابقة : رب هب لى حكما وألحقني بالصالحين ) الآية وقوله تعالى – ويتضمن التبرى عن أبيه وقومه واستثناء الاستغفار أيضا – ( قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لاستغفرن لك وما أملك لك من الله من شئ ) ( الممتحنه : 4 ) .

ثم يذكر الله تعالى عزمه عليه السلام على المهاجرة إلى الأرض المقدسة وسؤاله أولادا صالحين بقوله : ( فأرادوا به كيدا فجعلناهم الاسفلين ، وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين ، رب هب لى من الصالحين ) ( الصافات : 100 ) .

ثم يذكر تعالى ذهابه إلى الأرض المقدسة ورزقه صالح الاولاد بقوله : ( وأرادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين ، ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ، ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافله وكلا جعلنا ( صالحين ) ( الأنبياء : 72 ) وقوله : ( فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ) ( مريم : 49 ) .

ثم يذكر تعالى آخر دعائه بمكة وقد وقع في آخر عهده عليه السلام بعد ما هاجر إلى الأرض المقدسة وولد له الاولاد وأسكن إسماعيل مكة وعمرت البلدة وبنيت الكعبة ، وهو آخر ما حكى من كلامه في القرآن الكريم : ( وإذ قال براهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبنى أن نعبد الأصنام – إلى أن قال – ربنا إنى أسكنت من ذريتي بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة – إلى أن قال – الحمد الله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء – إلى أن قال – ربنا اغفر لى ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ( إبراهيم : 41 ) .

والآية بما لها من السياق وبما احتف بها من القرائن أحسن شاهد على أن والده الذى دعا له فيها غير الذي يذكره سبحانه بقوله : ( لأبيه آزر ) فإن الآيات كما ترى تنص على أن

إبراهيم عليه السلام استغفر له وفاء بوعده ثم تبرأ منه لما تبين له أنه عدو لله ، ولا معنى ، لاعادته عليه السلام الدعاء لمن تبرأ منه ولاذ إلى ربه من أن يمسه فأبوه آزر غير والده الصلبى الذى دعا له ولامه معا في آخر دعائه .

*(245/238)*

---

ومن لطيف الدلالة في هذا الدعاء أعنى دعاءه الاخير ما في قوله : ( ولوالدي ) حيث عبر بالوالد والوالد لا يطلق إلا على الأب الصلبى وهو الذى يلد ويولد الإنسان مع مافى دعائه الاخر : ( واغفر لابي إنه كان من الضالين ) والآيات الاخر المشتملة على ذكر أبيه آزر فإنها تعبر عنه بالاب والاب ربما تطلق على الجد والعم وغيرهما ، وقد اشتمل القرآن الكريم على هذا الإطلاق بعينه في قوله تعالى : ( أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون ) ( البقرة : 133 ) فإبراهيم جد

يعقوب وإسماعيل عمه وقد إطلق على كل منهما الأب ، وقوله تعالى فيما يحكى من كلام يوسف عليه السلام : ( واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ) ( يوسف : 38 ) فإسحاق جد يوسف وإبراهيم عليه السلام جد ابيه وقد أطلق على كل منهما الأب .

فقد تحصل أن آزر الذى تذكره الآية ليس أبا لإبراهيم حقيقة وإنما كان معنونا ببعض الأوصاف والعناوين التى تصحح إطلاق الأب عليه ، وان يخاطبه إبراهيم عليه السلام بيا أبت ، واللغة تسوغ إطلاق الأب على الجد والعم وزوج أم الإنسان بعد ابيه وكل من يتولى امور الشخص وكل كبير مطاع ، وليس هذا التوسع من خصائص اللغة العربية بل يشاركها فيه وفي أمثاله سائر اللغات كالتوسع في إطلاق الأم والعم والاخ والاخت والرأس والعين والفم واليد والعضد والأصبع وغير ذلك مما يهدى إليه ذوق التلطف والتفنن في التفهيم والتفهم .

فقد تبين أولا أن لا موجب للاشتغال بما تقدمت الإشارة إليه من الابحاث الروائية والتاريخية والأدبية في أبيه ولفظة آزر وانه هل هو اسم علم أو لقب مدح أو ذم أو اسم صنم فلا حاجة إلى شئ من ذلك في الحصول على مراد الآية .

على أن غالب ما أوردوه في هذا الباب تحكم لا دليل عليه مع ما فيه من إفساد ظاهر الآية وإخلال أمر السياق باعتبار التراكيب العجيبة التى ذكروها للجملة ( آزر أتتخذ أصنا ما آلهة ) من تقديم وتأخير وحذف وتقدير .

وثانيا : أن والده الحقيقي غير آزر لكن القرآن لم يصرح باسمه ، وإنما وقع في الروايات ويؤيده ما يوجد في التوراة أن اسمه ( تارخ ) . (1)

---

(1) هذا عدول عن الظاهر بغير دليل ، وهو كما ترى يؤيد مذهبه الشيعى فى عصمة آباء وأجداد النبى (صلى الله عليه وسلم) فتأمل .

(246/238)

---

ومن عجيب الوهم ما ذكره بعض الباحثين أن القرآن الكريم كثيرا ما يهمل فيما يذكره من تاريخ الأنبياء والأمم ويقصه من قصص الماضين أمورا مهمة هي من جوهريات القصص كذكر تاريخ الوقوع ومحله والأوضاع الطبيعية والاجتماعية والسياسية وغيرها المؤثرة في تكون الحوادث الدخيلة في تركب الوقائع ومنها ما في مورد البحث فإن من العوامل المقومة لمعرفة حقيقة هذه القصة معرفة اسم أبى إبراهيم ونسبه وتاريخ زمن نشوئه ونهضته ودعوته ومهاجرته .

وليس ذلك إلا لأن القرآن سلك في قصصه المسلك الجيد الذى يهدى إليه فن القصص الحقيقي وهو ان يختار القاص في قصته كل طريق ممكن موصل إلى غايته ومقصده إيصالا حسنا ، ويمثل المطلوب تمثيلا تاما بالغا من غير ان يبالغ في تمييز صحيح ما يقصه من سقيمه ، ويحصى جميع ما هو من جوهريات القصة كتاريخ الوقوع ومكانه وسائر نعوته

(247/238)

اللازمة فمن الجائز ان يأخذ القرآن الكريم في سبيل النيل إلى مقصده وهو الهداية إلى السعادة الإنسانية قصصا دائرة بين الناس أو بين اهل الكتاب في عصر الدعوة وإن لم يوثق بصحتها أو لم يتبين فيما بأيديهم من القصة جميع جهاتها الجوهرية حتى لو كانت قصة تخييلية كما قيل بذلك في قصة موسى وفتاه وفي قصة الملا الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت وغير ذلك فالفن القصصى لا يمنع شيئا من ذلك بعد ما ميز القاص ان القصة أبلغ وسيلة واسهل طريقة إلى النيل بمقصده .

وهذا خطأ فان ما ذكره من أمر الفن القصصى حق غير ان ذلك غير منطبق على مورد القرآن الكريم فليس القرآن كتاب تاريخ ولا صحيفة من صحف القصص التخييلية وإنما هو كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وقد نص على انه كلام الله سبحانه ، وانه لا يقول إلا الحق ، وان ليس بعد الحق إلا الضلال ، وانه لا يستعين للحق بباطل ، ولا يستمد للهدى بضلال ، وأنه كتاب يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، وان ما فيه حجة لمن اخذ به وعلى من تركه في آيات جمة لا حاجة إلى إيرادها فكيف يسع لباحث يبحث عن مقاصد القرآن ان يجوز اشتماله على رأى باطل أو قصة كاذبة باطلة أو خرافة أو تخييل .

لست أريد ان مقتضى الإيمان بالله ورسوله وبما جاء به رسوله ان ينفى عن القرآن ان

يشتمل على باطل أو كذب أو خرافة وإن كان ذلك ، ولا ان الواجب على كل انسان سليم العقل صحيح الفكر مستقيم الأمر أن تخضع نفسه للقرآن بتصديقة ونفى كل خطأ وزلة عنه في وسائل من المعارف توسل بها إلى مقاصده ، وفي نفس تلك المقاصد وإن كان كذلك .

*(248/238)*

---

وإنما أقول : إنه كتاب يدعى لنفسه أنه كلام إلهى موضوع لهداية الناس إلى حقيقه سعادتهم يهدى بالحق ويهدى إلى الحق ومن الواجب على من يفسر كتابا هذا شأنه ويستنطقه في مقاصده ومطالبه ان يفترضه صادقا في حديثه مقتصرا على ما هو الحق الصريح في خبره وكل ما يسوقه من بيان أو يقيمه من برها ن على مقاصده وأغراضه هاديا إلى الصراط الذى لا يتخلله باطل موصلا إلى غاية لا يشوبها شئ من غير جنس الحق ولا يداخلها أي وهن وفتور .

وكيف يكون مقصد من المقاصد حقا على الإطلاق وقد تسرب باطل ما إلى طريقه الذى يدعو إليه المقصد ولا يدعو – على ما يراه – إلا إلى حق ؟ وكيف يكون قضية من القضايا قولا فصلا ما هو بالهزل وقد تسرب إلى البيان المنتج لها شئ من المسامحة والمساهلة ؟ وكيف يمكن ان يكون حديث أو نبأ كلاما لله الذى يعلم غيب السماوات

والأرض وقد دب فيه جهل أو خبط أو خطاء ؟ وهل ينتج النور ظلمة أو الجهل معرفة ؟

.

فهذا هو المسلك الوحيد الذى لا يحل تعديه في استنطاق القرآن الكريم في مضامين آياته وهو يرى انه كلام حق لا يشوبه باطل في غرضه وطريق غرضه .

وأما البحث عن انه هل هو صادق فيما يدعيه لنفسه : أنه كلام الله ، وانه محض الحق في طريقه وغايته ؟ وأنه ما ذا يقضى به الكتب المقدسة الاخرى كالعهدين وأوستا وغيرها في قضايا قضى بها القرآن ؟ وأنه ما ذا تهدى إليه الابحاث العلمية الاخر التاريخية أو الطبيعية أو الرياضية أو الفلسفية أو الاجتماعية أو غيرها ؟ فإنما هذه وأمثالها أبحاث خارجة عن وظيفة التفسير ليس من الجائز ان تخلط به أو يقام بها مقامه .

*(249/238)*

---

نعم قوله تعالى : ( أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ) ( النساء : 82 ) ينطق بأن هناك شبهات عارضة وأوهاما متسابقة إلى الاذهان تسول لها أن في القرآن اختلافا كان يتراءى من آية أنها تخالف آية ، أو ان يستشكل في آية انها بمضمونها تخالف الحق والحقيقه وإذ كان القرآن ينص على انه يهدى إلى الحق فيختلف

الايتانبالآخرة ، هذه تدل على ان كل ما تنبئ عنه آية فهو حق وهذه بمضمونها تنبئ نبأ غير حق لكن الآية أعنى قوله : ( أفلا يتدبرون القرآن ) الخ ، تصريحا لقول بأن القرآن تكفى بعض آياته لدفع المشكلة عن بعضها الاخر ويكشف جزء منه عما اشتبه على بعض الافهام من حال جزء آخر فعلى الباحث عن مراده ومقصده ان يستعين بالبعض على البعض ، ويستشهد بالبعض على البعض ، ويستنطق البعض في البعض والقرآن الكريم كتاب دعوة وهداية لا يتخطى عن صراطه ولو خطوة وليس كتاب تاريخ ولا قصة وليست مهمته مهمة الدراسة التاريخية ولا مسلك الفن القصصى ، وليس فيه هوى ذكر الانساب ولا مقدرات الزمان والمكان ، ولا مشخصات أخر لا غنى للدرس التاريخي أو القصة التخييلية عن احصائها وتمثيلها .

فأى فائدة دينية في ان ينسب إبراهيم أنه إبراهيم بن تارخ بن ناخور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن ارفكشاذ بن سام بن نوح ؟ أو أن يقال : انه ولد في أور الكلدانيين حدود سنة ألفين تقريبا قبل الميلاد في عهد فلان الملك الذى ولد في كذا وملك كذا مدة ومات سنة كذا .

وسنجمع في ذيل البحث عن آيات القصة جملا من قصة إبراهيم عليه السلام منثورة في القرآن ثم نتبعها بما في التوراة وغيرها من تاريخ حياته وشخصيته فلينظر الباحث المتدبر بعين النصفة ثم ليقض فيما اختاره القرآن منها وحققه ما هو قاض .

والقرآن الكريم مع ذلك لم يهمل الواجب في حق العلوم النافعة ، ولم يحرم البحث عن العالم وأجزائه السماوية والارضية ، ولا منع من استطلاع اخبار الأمم الماضية وسنن المجتمعات والقرون الخالية ، والاستعانة بها على واجب المعرفة ولازم العلم والآيات تمدح العلم أبلغ المدح ، وتندب إلى التفكر والتفقه والتذكر كثرة لا حاجة معها إلى إيرادها هاهنا .

قوله تعالى : ( أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين ) قال الراغب في المفردات : الصنم جثة متخذة من فضة أو نحاس أو خشب كانوا يعبدونها متقربين به إلى الله تعالى وجمعه أصنام قال الله تعالى : أتتخذ أصناما آلهة ، لأكيدن أصنامكم ، انتهى ، وما ذكره من اتخاذه من فضه أو نحاس أو خشب إنما هو من باب المثال لا ينحصر فيه اتخاذها بل كان يتخذ من كل ما يمكن أن يمثل به تمثال من أقسام الفلزات والحجارة وغيرها وقد روى أن بني حنيفة من اليمامة كانوا قد اتخذوا صنما من أقط ، وربما كانوا يتخذونه من الطين وربما كان صورة مصورة .

وكيف كان فقد كانت الأصنام ربما يمثل بها موضوع اعتقادي غير محسوس كإله السماء والأرض وإله العدل ، وربما يمثل بها موضوع محسوس كصنم الشمس وصنم القمر ، وقد

كانت من النوعين جميعا أصنام لقوم إبراهيم عليه السلام على ما تؤيده الآثار المكشوفة منهم في خرائب بابل وقد كانوا يعبدونها تقربا بها إلى أربابها ، وبأربابها إلى الله سبحانه ، وهذا انموذج بارز من سفه أحلام البشر أن يخضع أعلى حد الخضوع - وهو خضوع العبد للرب - لمثال مثل به موضوعا يستعظم أمره ويعظمه ، وحقيقته منتهى درجة خضوع المصنوع المربوب لصانعه من صانع لمصنوع نفسه كان الواحد منهم يأخذ خشبة فينحت بيده منه صنما ثم ينصبه فيعبده ويتذلل له ويخضع ولذلك جئ بلفظة الأصنام في قوله المحكى : ( أتتخذ أصناما آلهة ) نكرة ليدل على هوان أمرها وحقارته من جهة أنها مصنوعة

*(251/238)*

---

لهم مخلوقة بأيديهم كم يشير إليه قوله عليه السلام لقومه فيما حكى الله : ( أتعبدون ما تنحتون ) ( الصافات : 95 ) ومن جهة أنها فاقدة لاظهر صفات الربوبية وهو العلم والقدرة كما في قوله لأبيه : ( إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ) ( مريم : 42 ) .

فقوله : ( أتخذ أصناما ) الخ ، معناه : ( أتخذ اصناما لاخطر في أمرها آلهة والاله هو الذى

في أمره خطر عظيم إنى أراك وقومك في ضلال مبين ، وكيف لا يظهر هذا الضلال وهو عبادة وتذلل عبودي من صانع فيه آثار العلم والقدرة لمصنوعه الذى يفقد العلم والقدرة .

والذى تشتمل عليه الآية أعنى قوله : ( أتتخذ أصناما آلهة ) الخ ، من الحجاج وإن كان بمنزلة التلخيص لعدة احتجاجات واجه بها إبراهيم عليه السلام أباه وقومه على ما حكى تفصيلها في عدة مواضع من القرآن الكريم إلا أنه أول ما حاج به أباه وقومه فإن الذى حكاه الله سبحانه من محاجته هو حجاجه أباه وحجاجه قومه في أمر الأصنام وحجاجهم في ربوبية الكوكب والقمر والشمس وحجاجه الملك .

أما حجاجه في ربوبية الكوكب والقمر والشمس فالآيات دالة على كونه بعد الحجاج في أمر الأصنام ، والاعتبار والتدبر يعطى أن يكون حجاجه الملك بعد ما ظهر أمره وشاع مخالفته لدين الوثنية والصابئة وكسر الأصنام ، وأن يكون مبدء أمره مخالفته أباه في دينه وهو معه وعنده قبل أن يواجه الناس ويخالفهم في نحلتهم فقد كان أول ما حاج به في التوحيد هو ما حاج به أباه وقومه في أمر الأصنام .

قوله تعالى : ( وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ) الخ ، ظاهر السياق أن تكون الإشارة بقوله : ( كذلك ) إلى ما تضمنته الآية السابقة : ( وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك ) الخ ، أنه عليه السلام ارى الحق في ذلك ، فالمعنى : على هذا المثال من الاراءة نرى إبراهيم ملك السماوات والأرض .

وبمعونة هذه الإشارة ودلالة قوله في الآية التالية : ( فلما جن عليه الليل ) الدالة على ارتباط ما بعده بما قبله يظهر أن قوله : ( نرى ) لحكاية الحال الماضية كقوله تعالى : ( ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ) ( القصص : 5 ) .

فالمعنى : أنا أرينا إبراهيم ملكوت السماوات والأرض فبعثه ذلك أن حاج أباه وقومه في أمر الأصنام وكشف له ضلالهم ، وكنا نمده بهذه العناية والموهبة وهي إراءة الملكوت وكان على هذه الحال حتى جن عليه الليل وراى كوكبا .

وبذلك يظهر أن ما يتراءى من بعضهم : أن قوله : ( وكذلك نرى ) الخ ، كالمعترضة لا يرتبط بما قبله ولا بما بعده ، وكذا قول بعضهم : إن إراءة الملكوت أول ما ظهر من أمرها في إبراهيم عليه السلام أنه لما جن عليه الليل راى كوكبا الخ ، فاسد لا ينبغي أن يصار إليه .

وأما ملكوت السماوات والأرض فالملكوت هو الملك مصدر كالطاغوت والجبروت وإن كان آكد من حيث المعنى بالنسبة إلى الملك كالطاغوت والجبروت بالنسبة إلى الطغيان والجبر أو الجبران .

والمعنى الذي يستعمله فيه القرآن هو المعنى اللغوي بعينه من غير تفاوت كسائر الالفاظ

المستعملة في كلامه تعالى غير أن المصداق غير المصداق وذلك ان الملك والملكوت وهو نوع من السلطنة إنما هو فيما عندنا معنى افتراضى اعتباري بعثنا إلى اعتباره الحاجة الاجتماعية إلى نظم الأعمال والافراد نظما يؤدى إلى الأمن والعدل والقوه الاجتماعيات وهو في نفسه يقبل النقل والهبة والغصب والتغلب كما لا نزال نشاهد ذلك في المجتمعات الإنسانية .

*(253/238)*

---

وهذا المعنى على أنه وضعي اعتباري وإن أمكن تصويره في مورده تعالى من جهة أن الحكم الحق في المجتمع البشرى لله سبحانه كما قال تعالى : ( إن الحكم إلا لله ) ( الانعام : 57 ) وقال : ( له الحمد في الأولى والاخرة وله الحكم ) ( القصص : 70 ) لكن تحليل معنى هذا الملك الوضعي يكشف عن ثبوت ذلك في الحقائق ثبوتا غير قابل للزوال والانتقال كما أن الواحد منا يملك نفسه بمعنى أنه هو الحاكم المسلط المتصرف في سمعه وبصره وسائر قواه وأفعاله بحيث إن سمعه إنما يسمع وبصره إنما يبصر بتبع إرادته وحكمه لا بتبع إرارده غيره من الاناسى وحكمه وهذا معنى حقيقي لا نشك في تحققه فينا مثلا تحققا لا يقبل الزوال والانتقال كما عرفت فالانسان يملك قوى نفسه وأفعال نفسه وهى جميعا تبعات وجوده

قائمة به غير مستقلة عنه ولا مستغنية عنه فالعين إنما تبصر

بإذن من الإنسان الذى يبصر بها وكذا السمع يسمع بإذن منه ، ولولا الإنسان لم يكن بصر ولا إبصار ولا سمع ولا استماع كما أن الفرد من المجتمع إنما يتصرف فيما يتصرف فيه بإذن من الملك أو ولى الأمر ، ولو لم تكن هذه القوإ المدبرإ التى تتوحد عندها أزمة المجتمع لم يكن اجتماع ، ولو منع عن تصرف من التصرفات الفردية لم يكن له أن يتصرف ولا نفذ منه ذلك ، ولا شك أن هذا المعنى بعينه موجود لله سبحانه الذى إليه تكوين الاعيان وتدبير النظام فلا غنى لمخلوق عن الخالق عز اسمه لا في نفسه ولا في توابع نفسه من قوى وأفعال ، ولا استقلال له لا منفردا ولا في حال اجتماعه مع سائر أجزاء الكون وارتباط قوى العالم وامتزاج بعضها ببعض امتزاجا يكون هذا النظام العام المشاهد .

*(254/238)*

---

قال تعالى : ( قل اللهم مالك الملك ) ( آل عمران : 26 ) وقال تعالى ( لله ملك السماوات والأرض ) ( المائدة : 120 ) وقال تعالى : ( تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شئ قدير ، الذى خلق الموت والحياة – إلى أن قال – الذى خلق سبع سماوات طباقا ) ( الملك : 3 ) والآيات – كما ترى – تعلل الملك بالخلق فكون وجود الأشياء منه وانتساب الأشياء

بوجودها وواقعيتها إليه تعالى هو الملاك في تحقق ملكه وهو بمعنى ملكه الذى لا يشاركه فيه غيره ولا يزول عنه إلى غيره ولا يقبل نقلا ولا تفويضا يغنى عنه تعالى وينصب غيره مقامه .

وهذا هو الذى يفسر به معنى الملكوت في قوله : إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شئ ) ( يس : 83 ) فالآية الثانية ) تبين أن ملكوت كل شئ هو كلمة كن الذى يقوله الحق سبحانه له ، وقوله فعله ، وهو إيجاده له .

فقد تبين أن الملكوت هو وجود الأشياء من جهة انتسابها إلى الله سبحانه وقيامها به ، وهذا أمر لا يقبل الشركة ويختص به سبحانه وحده ، فالربوبية التى هي الملك والتدبير لا تقبل تفويضا ولا تمليكا انتقاليا .

ولذلك كان النظر في ملكوت الأشياء يهدى الإنسان إلى التوحيد هداية قطعية كما قال تعالى : ( أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شئ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون ) ( الاعراف : 185 )

والآية – كما ترى – تحاذى أول سورة الملك المنقول آنفا .

*(255/238)*

فقد بان أن المراد بإراءة إبراهيم ملكوت السماوات والأرض على ما يعطيه التدبر في سائر الآيات المربوطة بها هو توجيهه تعالى نفسه الشريفة إلى مشاهدة الأشياء من جهة استناد وجودها إليه ، وإذ كان استنادا لا يقبل الشركة لم يلبث دون أن حكم عليها أن ليس لشئ منها أن يرب غيره ويتولى تدبير النظام وإداء الأمور فالاصنام تماثيل عملها الإنسان وسماها اسماء لم ينزل الله عليها من سلطان ، وما هذا شأنه لا يرب الإنسان ولا يملكه وقد عملته يد الإنسان ، والاجرام العلوية كالكوكب والقمر والشمس تتحول عليها الحال فتغيب عن الإنسان بعد حضورها ، وما هذا شأنه لا يكون له الملك وتولى التدبير تكوينا كما سيجئ بيانه .

قوله تعالى : ( وليكون من الموقنين ) اللام للتعليل ، والجملة معطوفة على أخرى محذوفة والتقدير : ليكون كذا وكذا وليكون من الموقنين .

واليقين هو العلم الذى لا يشوبه شك بوجه من الوجوه ، ولعل المراد به ان يكون على يقين بآيات الله على حد ما في قوله : ( وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ) ( السجدة : 24 ) وينتج ذلك اليقين بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا .

وفي معنى ذلك ما أنزله في خصوص النبي صلى الله عليه وآله قال : ( سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا ) ( الاسراء : 1 ) وقال : ( ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى ) ( النجم :

18 ) وأما اليقين بذاته المتعالية فالقرآن يجله تعالى ان يتعلق به شك أو يحيط به علم وإنما يسلمه تسليما .

*(256/238)*

---

وقد ذكر في كلامه تعالى من خواص العلم اليقيني بآياته تعالى إنكشاف ما وراء ستر الحس من حقائق الكون على ما يشاء الله تعالى كما في قوله : ( كلا لو تعلمون علم اليقين ، لترون الجحيم ) ( التكاثر : 6 ) وقوله : ( كلا إن كتاب الابرار لفى عليين ، وما أدراك ما عليون ، كتاب مرقوم ، يشهده المقربون ) ( المطففين : 21 ) .

قوله تعالى : ( فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى ) إلى آخر الآية قال الراغب في المفردات : أصل الجن ( بفتح الجيم ) ستر الشئ عن الحاسة يقال : جنه الليل وأجنه وجن عليه : فجنه ستره ، وأجنه جعل له ما يجنه كقولك : قبرته وأقبرته وسقيته وأسقيته ، وجن عليه كذا ستر عليه قال عزوجل : فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ، انتهى فجن الليل إسداله الظلام لا مجرد ما يحصل بغروب الشمس .

وقوله : ( فلما جن عليه الليل ) تفريع على ما تقدم من نفيه ألوهية الأصنام بما يرتبطان بقوله : ( وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ) ومحصل المعنى على ذلك أنا كنا نريه

الملكوت ما الاشياء فأبطل الوهية الأصنام إذ ذاك ، ودامت عليه الحال فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال كذا وكذا .

وقوله : ( رأى كوكبا ) كأن تنكير الكوكب إنما هو لنكتة راجعة إلى مرحلة الاخبار والتحدث فلا غرض في الكلام يتعلق بتعيين هذا الكوكب وأنه أي كوكب كان من السيارات أو الثوابت لأن الذى أخذه في الحجاج يجرى في أي كوكب من الكواكب يطلع ويغرب لا أن إبراهيم عليه السلام أشار إلى كوكب ما من الكواكب من غير ان يمتاز بأى مميز مفروض : أما أولا فلان اللفظ لا يساعده فلا يقال لمن أشار إلى كوكب بين كواكب لا تحصى كثره فقال : ( هذا ربى : إنه رأى كوكبا قال هذا ربى ، وأما ثانيا فلان ظاهر الآيات أنه كان هناك قوم يعبدون الكوكب الذى أشار إليه وقال فيه ما قال ، والصابئون ما كانوا يعبدون أي كوكب ولا يحترمون إلا السيارات .

*(257/238)*

---

والذى يؤيده الاعتبار أنه كان كوكب الزهرة ، وذلك لأن الصابئين ما كانوا يحترمون وينسبون حوادث العالم الارضى إلا إلى سبعة من الاجرام العلوية التى كانوا يسمونها بالسيارات السبع : القمر ، وعطارد ، والزهرة ، والشمس ، والمريخ ، والمشترى ، وزحل وإنما كان

اهل الهند هم الذين يحترمون النجوم الثوابت وينسبون الحوادث إليها ، ونظيرهم في ذلك بعض أرباب الطلسمات ووثنية العرب وغيرهم .

فالظاهر ان الكوكب كان أحد السبعة والقمر والشمس مذكوران بعد ، وعطارد مما لا يرى إلا شاذا لضيق مداره فقد كان احد الاربعة : الزهرة ، والمريخ والمشترى ، وزحل ، والزهرة من بينها هي الكوكبة الوحيدة التى يمنعها ضيق مدارها ان تبتعد من الشمس أكثر من سبع واربعين درجة ، ولذلك كانت كالتابعة الملازمة للشمس فأحيانا تتقدمها فتطلع قبيل طلوعها وتسمى عند العامة حينئذ نجمة الصباح ثم تغيب بعد

طلوعها ، واحيانا تتبعها فتظهر بعد غروب الشمس في أفق المغرب ثم لا تلبث إلا قليلا في أول الليل دون ان تغيب ، وإذا كانت على هذا الوضع والليلة من ليالى النصف الاخير من الشهر القمرى كليلة ثمانى عشرة وتسع عشرة والعشرين فإنها تجامع بغروبها طلوع القمر فترى أن الشمس تغرب فتظهر الزهرة في الافق الغربي ثم تغرب بعد ساعة أو ساعتين مضتا من غروب الشمس ثم يطلع القمر عند ذلك أو بعد ذلك بيسير .

وهذه الخصوصية من بينها إنما هي للزهرة بحسب نظام سيرها وفي غيرها كالمشترى والمريخ وزحل أمر اتفاقى ربما يقع في أوضاع خاصه لا يسبق إلى الذهن فيشبه من هنا ان الكوكب كان هو الزهرة .

على ان الزهرة أجمل الكواكب الدرية وأبهجها وأضواها أول ما يجلب نظر الناظر إلى السماء بعد جن الليل وعكوف الظلام على الافاق يجلب إليها .

*(258/238)*

---

وهذا أحسن ما يمكن ان تنطبق عليه الآية بحسب ما يتسابق إلى الذهن من قوله : فلما جن عليه الليل راى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل – إلى ان قال – فلما رأى القمر بازغا (الخ) حيث وصل ظاهرا بين أفول الكوكب وبزوغ القمر .

ويتأيد هذا الذى ذكرناه بما ورد في بعض الروايات عن أئمة اهل البيت عليه السلام ان الكوكب كان هو الزهرة .

وعلى هذا فقد كان عليه السلام رأى الزهرة والقوم يتنسكون بواجب عبادتها من خضوع وصلاة وقربان ، كانت الزهرة وقتئذ تتلو الشمس في غروبها ، والليلة من ليالى النصف الاخير من الشهر القمرى جن عليه الليل فرأى الزهرة في الافق الغربي حتى أفلت فرأى القمر بازغا بعده .

وقوله تعالى : (قال هذا ربى) المراد بالرب هو مالك الأشياء المربوبين ، المدبر لامرهم لا الذى فطر السماوات والأرض وأوجد كل شئ بعد ما لم يكن موجودا فإنه الله سبحانه

الذى ليس بجسم ولا جسماني ولا يحويه مكان ولا يقع عليه إشارة ، والذى يظهر مما حكى من كلام إبراهيم مع قومه في أمر الأصنام ظهورا لا شك فيه أنه كان على بينة من ربه وله من العلم بالله وآياته ما لا يخفى عليه معه أن الله سبحانه أنزه ساحة من التجسم والتمثل والمحدودية ، قال تعالى حكاية عنه في محاورة له مع أبيه : ( يا أبت إنى قد جاءني من

*(259/238)*

---

العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا ) إلى آخر الآيات ( مريم : 43 ) على ان الوثنيين والصابئين لا يثبتون لله سبحانه شريكا في الايجاد يكافئ بوجوده وجوده تعالى بل إنما يثبتون الشريك بمعنى بعض من هو مخلوق لله مصنوع له ولا أقل مفتقر الوجود إليه فوض إليه بعد تدبير الخليقة كإلهة الحسن وإله العدل وإله الخصب أو تدبير بعض الخليقة كاله الإنسان أو إله القبيله أو إله يخص بعض الملوك والاشراف وقد دلت على ذلك آثارهم المستخرجة وأخبارهم المروية ، والموجودون منهم اليوم على هذه الطريقة فقوله عليه السلام بالإشارة إلى الكوكب : ( هذا ربى ) أراد به إثبات أنه رب يدبر الأمر لا إله فاطر مبدع .

وعليه يدل ما حكى عنه في آخر الآيات المبحوث عنها : ( قال يا قوم إنى برئ مما تشركون ،

إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ) فإن ظاهره أنه ينصرف عن فرض الشريك إلى إثبات أن لا شريك له لا أنه يثبت وجوده تعالى .

فالذي يعطيه ظاهر الآيات أنه عليه السلام سلم أن لجميع الأشياء إلها فاطرا واحدا لا شريك له في الفطر والايجاد وهو الله تعالى ، وأن للإنسان ربا يدبر أمره لا محالة ، وإنما يبحث عن أن هذا الرب المدبر للامر أهو الله سبحانه وإليه يرجع التدبير كما إليه يرجع الايجاد أم أنه بعض خلقه أخذه شريكا لنفسه وفوض إليه أمر التدبير .

وفي إثر ذلك ما كان منه عليه السلام من افتراض الكوكب الذي كانوا يعبدونه ثم القمر ثم الشمس والنظر في أمر كل منها هل يصلح لأن يتولى أمر التدبير وإدارة شئون الناس ؟ .

*(260/238)*

---

وهذا الافتراض والنظر وإن كان بحسب طبعه قبل العلم اليقيني بالنتيجة فإن النتيجة فرع يتأخر طبعا عن الحجة النظرية لكنه لا يضر به عليه السلام فإن الآيات كما استفدناه فيما تقديم تقص أول أمر إبراهيم والإنسان في أول زمن يأخذ بالتمييز ويصلح لتعلق التكليف الإلهي بالنظر في أمر التوحيد وسائر المعارف الاصلية كاللوح الخالي عن النقش والكتابة غير مشغول بنقش مخالف فإذا أخذ في الطلب وشرع يثبت شيئا وينفي شيئا لغاية

الحصول على الاعتقاد الحق والإيمان الصحيح فهو بعد في سبيل الحق لا بأس عليه في زمن يمر عليه بين الانتزاع من قصور التمييز وبين الاعتصام بالمعرفة الكاملة والعلم التام بالحق .

ومن ضروريات حياة الإنسان أن يمر عليه لحظه هي أول لحظه ينتقل فيها من قصور الجهل بواجب الاعتقاد إلى بلوغ العلم بحيث يتعلق به التكليف العقلي بالانتهاض إلى الطلب والنظر ، وهذه سنة عامة في الحياة الإنسانية المتدرجة من النقض إلى الكمال لا يختلف فيها انسان وانسان ، وإن أمكن أن يظهر من بعض الافراد بعض ما يخالف ذلك من أمارات الفهم والعلم قبل المتعارف من سن التمييز والبلوغ كما يحكيه القرآن عن المسيح ويحيى عليه السلام فإنما ذلك من خوارق العادة الجارية وما كل انسان على هذا النعت ولا كل نبى فعل به ذلك .

*(261/238)*

---

وبالجملة ليس الإنسان من أول ما ينفخ فيه الروح الإنساني واجدا لشرائط التكليف بالاعتقاد الحق أو العمل الصالح ، وإنما يستعد لذلك على سبيل التدريج حتى يستتم الشرائط فيكلف بالطلب والنظر فزمن حياته منقسم لا محالة إلى قسمين هما قبل التمييز

والبلوغ وبعد التمييز والبلوغ وهو الزمان الذى يصلح لأن يشغله الاعتقاد كما أن ما يقابله يقابله فيه ، وبين الزمانين الصالح لاشغاله بالاعتقاد وغير الصالح له لا محالة زمان متخلل يتوجه إليه فيه التكليف بالطلب والنظر ، وهو الفصل الذى يبحث فيه عن واجب الاعتقاد بما تهدى إليه فطرته من طريق الاستدلال فيفرض نفسه أو العالم مثلا بلا صانع مرة ومع الصانع أخرى ، ويفرض الصانع وحده مرة ومع الشريك أخرى وهكذا ثم ينظر ما ذا تؤيده الاثار المشهودة في العالم من كل فرض فرضه أو لا تؤيده ؟ فيأخذ بذاك ويترك هذا . فهو ما لم يتم له الاستدلال غير قاطع بشئ ولا بان على شئ وإنما هو مفترض ومقدر لما افترضه وقدره .

وعلى هذا فقول إبراهيم عليه السلام في الكوكب : ( هذا ربى ) وكذا قوله الاتى في القمر والشمس ليس من القطع والبناء اللذين يعدان من الشرك ، وإنما هو افتراض أمر للنظر إلى الاثار التى تثبته وتؤيده ، ومن الدليل على ذلك ما في الآيات من الظهور في أنه عليه السلام كان على حاله الترقب والانتظار ، فهذا وجه .

ولكن الذى يتأيد بما حكاه الله عنه في سورة مريم في محاجته أباه : يا أبت إنى

قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا ، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا ، يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا ، قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لارجمنك واهجرني مليا ، قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا ) ( مريم : 47 ) أنه عليه السلام كان على علم بحقيقة الأمر وأن الذى يتولى تدبير أمره ويحفى عليه ويبالغ في إكرامه هو الله سبحاه دون غيره .

وعلى هذا فقوله : ( هذا ربى ) جار مجرى التسليم والمجاراة بعد نفسه كأحدهم ومجاراتهم وتسليم ما سلموه ثم بيان ما يظهر به فساد رأيهم وبطلان قولهم ، وهذا الطريق من الاحتجاج أجلب لانصاف الخصم ، وأمنع لثوران عصبيته وحميته ، واصلح لاسماع الحجة .

قوله تعالى : ( فلما أفل قال لا أحب الآفلين ) الافول الغروب وفيه أبطال ربوبية الكوكب بعروض صفة الافول له فإن الكوكب الغارب ينقطع بغروبه ممن طلع عليه ولا يستقيم تدبير كونى مع الانقطاع .

على ان الربوبية والمربوبية بارتباط حقيقي بين الرب والمربوب وهو يؤدى إلى حب المربوب لربه لانجذابه التكويني إليه وتبعيته له ، ولا معنى لحب ما يفنى ويتغير عن جماله الذى كان الحب لاجله ، وما يشاهد من ان الإنسان يحب كثيرا الجمال المعجل والزينة الداثرة فإنما هو

لاستغراقه فيه من غير ان يلتفت إلى فنائه وزواله فمن الواجب أن يكون الرب ثابت الوجود غير متغير الأحوال كهذه الزخارف المزوقه التى تحيا وتموت وتثبت وتزول وتطلع وتغرب وتظهر وتخفى وتشب وتشيب وتنضر وتشين ، وهذا وجه برهانى وان كان ربما يتخيل انه بيان خطابي أو شعرى فافهم ذلك .

*(263/238)*

---

وعلى أي حال فهو عليه السلام أبطل ربوبية الكوكب بعروض الافول له إما بال 0 تكنية عن البطلان بأنه لا يحبه لافوله لأن المربوبية والعبودية متقومة بالحب فليس يسع من لا يحب شيئا أن يعبده وقد ورد في المروى عن الصادق عليه السلام : ( هل الدين إلا الحب ؟ ) وقد بينا ذلك فيما تقدم .

وإما لكون الحجة متقومة بعدم الحب وإنما ذكر الافول ليوجه به عدم حبه له المنافى للربوبية لأن الربوبية والالوهية تلازمان المحبوبية فما لا يتعلق به الحب الغريزى

الفطري لفقدانه الجمال الباقي الثابت لا يستحق الربوبية ، وهذا الوجه هو الظاهر يتكئ عليه سياق الاحتجاج في الآية .

ففى الكلام أولا إشارة إلى التلازم بين الحب والعبودية أو المعبودية .

وثانيا أنه أخذ في إبطال ربوبية الكوكب وصفا مشتركا بينه وبين القمر والشمس ثم ساق الاحتجاج وكرر ما احتج به في الكوكب في القمر والشمس أيضا ، وذلك إما لكونه عليه السلام لم يكن مسبوق الذهن من أمر القمر والشمس وأنهما يطلعان ويغربان كالكوكب كما تقدمت الإشارة إليه ، وإما لكون القوم المخاطبين في كل من المراحل الثلاث غير الاخرين .

وثالثا أنه اختار للنفي وصف أولى العقل حيث قال : ( لا أحب الآفلين ) وكأنه للإشارة إلى أن غير أولى الشعور والعقل لا يستحق الربوبية من رأس كما يومى إليه في قوله المحكى : ( يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ) ( مريم : 42 ) وقوله الاخر : ( إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ، قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين ، قال هل يسمعونكم إذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون ، قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ) ( الشعراء : 74 ) فسألهم أولا عن معبودهم كأنه لا يعلم من أمرها شيئا فأجابوه بما يشعر بأنها أجساد وهياكل غير عاقلة ولا شاعرة فسألهم ثانيا عن علمها وقدرتها وهو يعبر بلفظ أولى العقل للدلالة على أن المعبود يجب أن يكون على هذه الصفة صفه العقل .

*(264/238)*

قوله تعالى : ( فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ) إلى آخر الآية ، البزوغ هو الطلوع تقدم الكلام في دلالة قوله : ( فلما رأى ) الخ ، على اتصال القضية بما قبلها ، وقوله : ( هذا ربى ) على سبيل الافتراض أو المجاراة والمماشاة والتسليم نظير ما تقدم في الآية السابقة .

وأما قوله بعد أفول القمر : ( لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ) فهو موضوع وضع الكناية فهو عليه السلام أبطل ربوبية الكوكب بما يعم كل غارب ولما غرب القمر ظهر عندئذ رأيه في أمر ربوبيته بما كان قد قاله قبل ذلك في الكوكب : ( لا احب الآفلين ) فقوله : ( لئن لم يهدنى ربى ) الخ ، إشارة إلى ان الوضع الذى ذكره في القمر بقوله : ( هذا ربى ) كان ضلالا لو دام وأصر عليه كان أحد اولئك الضالين القائلين بربوبيته والوجه في كونه ضلالا ما قاله في الكوكب حيث عبر بوصف لا يختص به بل يصدق في

مورده وكل مورد يشابهه .

وفي الكلام إشارة أولا إلى أنه كان هناك قوم قائلون بربوبية القمر كالكوكب كما أن قوله في الآية التالية بعد ذكر أمر الشمس : ( يا قوم إنى برئ مما تشركون ) لا يخلو عن الدلالة على مثله .

وثانيا : أنه عليه السلام كان وقتئذ في مسير الطلب راجيا للهداية الإلهية مترقبا لما يفيض ربه عليه من النظر الصحيح والرأى اليقيني سواء كان ذلك بحسب الحقيقة كما لو حملنا الكلام على الافتراض لتحصيل الاعتقاد ، أو بحسب الظاهر كما لو حملناه على الوضع

والتسليم لبيان الفساد ، وقد تقدم الوجهان آنفا .

وثالثا : أنه عليه السلام كان على يقين بأن له ربا إليه تدبير هدايته وسائر اموره ، وإنما كان يبحث واقعا أو ظاهرا ليعرفه : أهو الذى فطر السماوات والأرض بعينه أو بعض من خلقه ، وإذ بان له ان الكوكب والقمر لا يصلحان الربوبية لا فولها توقع أن يهديه ربه إلى نفسه ويخلصه من ضلال الضالين .

*(265/238)*

---

قوله تعالى : ( فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ) الكلام في دلالة اللفظ على الاتصال بما قبله لمكان قوله : ( فلما ) وكون قوله : ( هذا ربى ) مسوقا للافتراض أو التسليم كما تقدم في الآية السابقة .

وقد كان تكرر قوله : ( هذا ربى ) في القمر لما رآه بازغا بعد ما رأى الكوكب ، ولذلك ضم قوله : ( هذا أكبر ) إلى قوله ( هذا ربى ) في الشمس في المرة الثالثة ليكون بمنزلة الاعتذار للعود إلى فرض الربوبية لها مع تبين خطاء افتراضه مرة بعد مرة .

وقد تقدمت الإشارة إلى أن إشارته إلى الشمس بلفظة ( هذا ) تشعر بأنه عليه السلام ما كان يعرف من الشمس ما يعرفه أحدنا أنه جرم سماوي يطلع ويغرب بحسب ظاهر الحس

في كل يوم وليلة ، وإليها تستند النهار والليل والفصول الاربعة السنوية إلى غير ذلك من نعوتها

.

فإن الاتيان في الإشارة بلفظ المذكر هو الذى يستريح إليه من لا يميز المشار إليه في نوعه كما تقول فيمن لاح لك شبحه وأنت لا تدرى أرجل أم امرأة : من هذا ؟ ونظيره ما يقال في شبح لا يدرى أمن أولى العقل هو أولا : ما هذا ؟ فلعله إنما كان ذلك من إبراهيم عليه السلام أول ما خرج من مختفى أخفى فيه إلى أبيه ، وقومه ولم يكن عهد مشاهد الدنيا الخارجة والمجتمع البشرى فرأى جرما هو كوكب وجرما هو القمر وجرما هو الشمس ، وكلما شاهد واحدا منها – ولم يكن يشاهد إلا جرما مضيئا لامعا – قال : هذا ربى ، على سبيل عدم المعرفة بحاله معرفة تامة كما سمعت .

*(266/238)*

---

ويؤيده بعض التأييد قوله : ( فلما أفل قال لا احب الآفلين ) فإن فيه إشعارا بأنه عليه السلام مكث بانيا على كون الكوكب ربا حتى شاهد غروبه فحكم بأن الفرض باطل وأنه ليس برب ، ولو كان عالما بأنه سيغرب أبطل ربوبيته مقارنا لفرض ربوبيته كما فعل ذلك في أمر الأصنام على ما يدل عليه قوله لأبيه : ( أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك في ضلال مبين

) وقوله أيضا : ( يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ) .

وإن أمكن أن يقال : إنه أراد بتأخير قوله : ( لا احب الآفلين ) إلى أن يافل أن يحاجهم بما وقع عليه الحس كما أراد بما فعل بالاصنام حيث جعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم أن يريهم عجز الأصنام وكونها أجسادا ميتة لا تدفع عن أنفسها الضر والشر .

وللمفسرين في تذكير الإشارة في قوله : ( هذا ربى هذا أكبر ) مسالك من التوجية مختلفه :

فمنهم من قال : تذكير الإشارة إنما هو بتأويل المشار إليه أو الجرم النير السماوي أي هذا المشار إليه أو هذا الجرم النير ربى وهو أكبر .

وفيه أنه لا ريب في صحة الاستعمال بهذا التأويل لكن الشأن في النكتة التى تصحح هذا التأويل ، ولا يجوز ذلك من غير نكتة مسوغة ، ولو جاز ذلك في اللغة من غير اعتماد على نكته لجاز تذكير كل مؤنث قياسي وسماعى في إرجاع الضمير والاشارة إليه بتأويل الشخص ونحوه وفي ذلك نسخ اللغة قطعا .

ومنهم من قال : إنه من قبيل إتباع المبتدء للخبر في تذكيره فإن الرب وأكبر مذكران فاتبع اسم الإشارة للخبر المذكر كما عكس في قوله تعالى : ( ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا ) الآية فاتبع المذكر للمؤنث .

وفيه أنهم كانوا يرون من الالهة إناثا كما يثبتون ذكورا ويسمون الانثى من الالهة إلهة وربة وبنت الله وزوجة الرب فكان من الواجب أن يطلق على الشمس ربة لمكان التأنيث ، وأن يقال : هذه ربتى أو إلهتى ، فالكلام في تذكير الخبر في قوله : ( هذا ربى ) كالكلام في تذكير المبتدء ولا معنى حينئذ لحديث الاتباع .

وكذا قوله : ( هذا أكبر ) الخبر فيه من صيغ التفضيل وحكم صيغة التفضيل إذا وقعت خبرا أن يجاء بأفعل ويستوى فيه المذكر والمؤنث يقال زيد أفضل من عمر وليلى أجمل من سلمى ، وما هذا شأنه لا نسلم أنه من صيغ المذكر الذى يجرى فيه الاتباع .

ومنهم من قال : إن تذكير الإشارة إنما هو لتعظيم الشمس حيث نسب إليها الربوبية صونا للاله عن وصمة التأنث .

وفيه : أنهم كانوا يعدون الانوثية من النواقص التى يجب أن ينزه عنها الإله وقد كان لاهل بابل أنفسهم آلهة أنثى كالالهة ( نينو ) إلهة الامهات الخالفة ، والالهة ( نين كاراشا ) ابنة الإله ( آنو ) والالهة ( مالكات ) زوجة الإله ( شاماش ) والالهة ( زاربانيت ) إلهة الرضاع ، والالهة ( آنوناكى ) .

وكانت طائفة من مشركي العرب تعبد الملائكة وتعدهم بنات الله ، وقد رووا في تفسير قوله تعالى : ( إن يدعون من دونه إلا إناثا ) ( النساء : 117 ) أنهم كانوا يسمون آلهتهم

إناثا ، وكانوا يقولون : أنثى بنى فلان يعنون به الصنم الذى يعبدونه .

ومنهم من قال : إن قوم إبراهيم عليه السلام كانوا يعدون الشمس من الذكور وقد أثبتوا لها زوجة يسمونها ( انونيت ) فاحتفظ في الكلام على ظاهر عقيدتهم .

وفيه : أن اعتقادهم بكون الشمس ذكرا لا يصحح تبديل تأنيث لفظها تذكيرا .

على أن قوله عليه السلام للملك : ( فأت بها من المغرب ) ( البقرة : 258 ) وهو يريد الشمس ينافى ذلك .

*(268/238)*

---

ومنهم من قال : إن إبراهيم عليه السلام كان يتكلم باللغة السريانية وهى لغة قومه ، ولا يفرق فيها في الضمائر وأسماء الإشارة بالتذكير والتأنيث بل الجميع على صفة التذكير ، وقد احتفظ القرآن الكريم في حكاية قوله على ما أتى به من التذكير .

وفيه : منع جواز ذلك فإنه أمر راجع إلى أحكام الالفاظ المختلفة باختلاف اللغات بل إنما يجوز ذلك فيما يرجع إلى المعنى الذى لا يؤثر في الخصوصية اللفظية ، على أنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام احتجاجات كثيرة وأدعية وافرة في القرآن وفيها موارد كثيرة اعتبر فيها التأنيث فما بال هذا المورد اختص من بينها بإلغاء جهة التأنيث ؟ حتى أن قوله فيما

يحاج به ملك بابل : ( إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر ) ( البقرة : 258 ) ويتضمن ذكر الشمس وتأنيث الضمير العائد إليها .

*(269/238)*

---

ومن عجيب ما أورد على هذا الوجه ما ذكره بعض المفسرين وأصر عليه : أن إبراهيم عليه السلام وكذا إسماعيل وهاجر كانوا يتكلمون باللغة ا 0 لعربية القديمة ، وأنها كانت لغة قومه ، قال ما ملخصه : أنه ثبت عند علماء الاثار القديمة ، أن عرب الجزيرة قد استعمروا منذ فجر التاريخ بلاد الكلدان ومصر وغلبت لغتهم فيهما ، وصرح بعضهم بأن الملك حموربى الذى كان معاصرا لابراهيم عليه السلام عربي وحموربى هذا ملك البر والسلام ووصف في العهد العتيق بأنه كاهن الله العلى ، وذكر فيه أنه بارك إبراهيم وأن إبراهيم أعطاه العشرة من كل شئ ، قال : ومن المعروف في كتب الحديث والتاريخ العربي أن إبراهيم أسكن إسماعيل ابنه عليهما السلام مع أمه هاجر المصرية في الواد الذى بنيت فيه مكة بعد ذلك ، وأن الله سخر لهما جماعة من جرهم سكنوا معهما هنالك ، وأن إبراهيم عليه السلام كان يزورهما ، وأنه هو وولده إسماعيل بنيا بيت الله الحرام ونشرا دين

الإسلام في البلاد العربية ، وفي الحديث : أن إبراهيم عليه السلام جاء مكة ليزور ابنه وقد خرج إلى الصيد فكلم زوجته وكانت جرهمية فلم يرتض أمرها ثم جاءها بعد مدة ليزوره فلم يجده فكلم زوجته الاخرى فدعته إلى النزول وغسل رأسه فارتضى أمرها ودعا لها ، وكل ذلك يدل على أنه كان يتكلم بالعربية ، هذا ملخص ما ذكره .

وفيه : أن مجاورة عرب الجزيرة مصر وكلدان واختلاطهم بهم أو استعمارهم واستيلاؤهم عليهم لا يوجب تبدل لغاتهم إلى العربية ، وقد كانت لغة مصر قبطية ولغة كلدان والاشوريين سريانية ، نعم ربما أوجب ذلك دخول أسماء وألفاظ من لغة بعضهم في لغة بعض كما يوجد في القرآن الكريم أمثال القسطاس والاستبرق وغيرهما وهى من الدخيل .

*(270/238)*

---

وأما ما ذكره من أمر حمورابى ومعاصرته لابراهيم عليه السلام فلا يطابق ما هو الصحيح من تاريخه ويؤيده الاثار المكشوفة من خرائب بابل والنصب المستخرجة التى كتبت فيها شريعته التى وضعها وأجراها في مملكته وهى أقدم القوانين المدونة في العالم على ما بلغنا ، وقد ذكر بعضهم أن أيام ملكه كانت بين ( 1728 ) ق م و( 1686 ) ق م ، وذكر آخرون : أنه تملك بابل سنة ( 2232 2287 ) ق م ( 1 ) وكان إبراهيم عليه

السلام يعيش في حدود سنة ( 2000 ) ق م ، وحمورابى هذا وثنى ، وقد استمد فيما وجد من كلامه المنقوش في ذيل شريعته المنقوشة على النصب بعدة من الالهة لبقاء شريعته وعمل الناس بها وتدمير من أراد نسخها أو مخالفتها ( 2 ) .

وأما ما ذكره من حديث إسكانه ابنه وأم ولده بتهامة وبناء بيت الله الحرام ونشر دين الله وتفاهمه مع العرب فشئ من ذلك لا يدل على كونه عليه السلام متكلما باللغة العربية وهو ظاهر .

*(271/238)*

---

ولنرجع إلى ما كنا فيه فنقول : قوله : ( فلما رأى الشمس بازغه ) الخ – كما سمعت – يدل على اتصال ما بعد ( فلما ) بما قبله وهو قوله : ( فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ) فهو يدل على أن القمر قد كان غرب حينما رأى عليه السلام الشمس بازغه ، وهذا إنما يكون في الخريف أو الشتاء في العرض الشمالي الذى كانت فيه بلاد كلدان حين يطول الليالى وخاصة إذا كان القمر في شئ من البروج الجنوبية كالقوس والجدى فعند ذلك يجيز الوضع السماوي أن يغرب القمر في النصف الاخير من الشهر القمرى قبل طلوع الشمس ، وقد تقدم سابقا في قوله تعالى : ( فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى

فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ) أن ظاهر الكلام المؤيد بالاعتبار يدل على أن الليلة كانت من ليالى النصف الاخير من الشهر القمرى ، وكان الكوكب هي الزهرة شاهدها أولا في المغرب حال الانحطاط ثم شاهد غروبها وطلوع القمر من ناحية المشرق .

فيتحصل من الآيات أن إبراهيم عليه السلام حاج قومه في أمر الأصنام يوم حاجهم واشتغل بهم يومه ذلك حتى جن عليه الليل فلما جن عليه الليل رأى الزهرة وقوم يعبدونها فجاراهم في ربوبيتها وأخذ ينتظر ما يحل بها من حال حتى أفلت بعد سويعات فحاجهم

*(272/238)*

---

به وتبرأ من ربوبيتها ، ثم رأى القمر بازغا وهناك قوم يعبدونه فجاراهم في ربوبيته بقوله : ( هذا ربى ) وأخذ يراقب ما يحدث به حتى أفل ، وكانت الليلة من الليالى الطوال في النصف الثاني من الشهر القمرى ولعل القمر كان يسير في قوس قصير من أقواس المدارات الجنوبية فلما أفل تبرأ من ربوبيته ، وأخذ يستهدى ربه ويستعيذ به من الضلال حتى طلعت الشمس فرآها بازغة وأكبر بالنسبة إلى ما تقدمها من الكوكب والقمر فعاد كذلك إلى مجاراتهم في ربوبيتها مع ما لاح له من بطلان ربوبية الكوكب والقمر وهما مثلها في كونها جرما

سماويا نيرا لكنه اتخذ كونها أكبر منها عذرا يعتذر به فيما يفترضه أو يسلمه من ربوبيتها فقال : ( هذا ربى هذا أكبر ) وأخذ ينتظر مستقبل الأمر حتى أفلت فتبرأ من ربوبيتها وشرك قومه فقال : ( يا قوم إنى برئ مما تشركون ) ثم أثبت الربوبية لله سبحانه كما كان يثبت الالوهية بمعنى إيجاد السماوات والأرض وفطرها له تعالى فقال : ( إنى وجهت وجهى – وهو العبودية قبال الربوبية – للذى فطر السماوات والأرض حنيفا – غير منحرف من حاق الوسط إلى يمين أو يسار – وما أنا من المشركين – بإشراك شئ من خلقه ومفطوراته له تعالى في العبادة والإسلام – ) .

وقد تقدم أن قوله تعالى في ضمن الآيات محفوفا بها : ( وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين ) يدل على أنه عليه السلام إنما كان يأخذ ما يلقيه من الحجة على أبيه وقومه مما كان يشاهده من ملكوت السماوات والأرض ، وقد أفاض الله سبحانه اليقين الذى ذكره غاية لاراءته الملكوت على قلبه بهذه المشاهدة والرؤية .

وهذا أوضح شاهد على أن الذى ذكره عليه السلام من الحجة كانت حجة برهانية ترتضع من ثدى اليقين ، وقد أورد في ذلك قوله : ( لا أحب الآفلين ) وتقدمت الإشارة إلى تقريره .

*(273/238)*

فتبين من جميع ما تقدم : أولا : أن قوله عليه السلام : ( لا أحب الآفلين ) حجة برهانية يقينية بنى الكلام فيه على عدم حبه للافلين ، ومنافاة الافول للربوبية ، ويظهر من كلام بعضهم أنه يأخذه حجة عامية غير برهانية إذ يقول : والصواب أن الكلام كان تعريضا خفيا لا برهانا نظريا جليا يعرض فيه بجهل قومه في عبادة الكواكب أنهم يعبدون ما يتحجب عنهم ، ولا

يدرى شيئًا من أمر عبادتهم ، وهذا هو السبب في جعله الافول منافيا للربوبية دون البزوغ والظهور بل بنى عليه القول بها فإن من صفات الرب أن يكون ظاهرا وإن لم يكن ظهوره كظهور غيره من خلقه ، هذا .

وقد خفى عليه أولا : أن وضع قوله : ( وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين ) بين الآيات المتضمنة لحججه عليه السلام أدل دليل على كون حججه مأخوذه من مشهوداته الملكوتية التى هي ملاك يقينه بالله وآياته وكيف يتصور مع ذلك كونها حجة عامية غير برهانية .

وخفى عليه ثانيا أن الحجة بنيت على الحب وعدمه لا على الافول مضافا إلى أن البناء على الافول أيضا لا يخرجها عن كونها برهانية فهو عليه السلام إنما ذكر سبب براءته من ربوبيتها أنه وجدها آفلة غاربه وهو لا يحب الآفلين فلا يعبدها ، ومن المعلوم أن عبادة الإنسان لربه إنما هي لأنه رب أي لأنه يدبر أمر الإنسان فيفيض عليه الحياة والرزق والصحة

والخصب والامن والقدرة والعلم إلى غير ذلك مما يحتاج إليه في بقائه فهو متعلق الوجود بربه من كل جهة ، ومن فطريات الإنسان أن يحب ما يسعده مما يحتاج إليه وأن يحب من يسعده بذلك لا يرتاب فيه ذو ريب البتة فإنما يعبد الرب لأن الإنسان يحبه لجلبه المنافع إليه أو لدفعه المضار عنه أو لهما جميعا .

*(274/238)*

---

ومن فطريات الإنسان أيضا أنه لا تتعلق نفسه بما لا بقاء له إلا أن يحول حرص أو شبق أو نحوهما نظره إلى جهة اللذة ويصرفه عن التأمل والامعان في جهة فنائه وزواله ، وقد استعمل القرآن الكريم هذه الطريقة كثيرا في ذم الدنيا ، وردع الناس عن التعلق المفرط بزينتها والانهماك في شهواتها كقوله : ( إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس ) ( يونس : 24 ) وقوله ما : ( عندكم ينفد وما عند الله باق ) ( النحل : 96 ) وقوله : ( وما عند الله خير وأبقى ) ( الشورى : 36 ) .

فهو عليه السلام يفيد بقوله : ( لا أحب الآفلين ) أن الذى من شأنه أن يفقده الإنسان ويغيب

عنه ولا يبقى ولا يثبت له لا يستحق أن يحبه الإنسان وتتعلق به نفسه ، والرب الذى يعبده الإنسان يجب أن يحبه فيجب أن لا يكون من شأنه أن يأفل عنه ويفقد فهذه الاجرام الافلة لا تستحق اسم الربوبية ، وهذه – كما ترى – حجة يعرفها العامة والخاصة .

وقد خلط ثالثا بين البزوغ والظهور فحكم أنه غير مناف للربوبية بل القول مبنى عليه فأن من صفات الرب أن يكون ظاهرا إلى آخر ما قال فإن الذى ذكر في الآية – ولم يبن الحجة عليه – هو البزوغ وهو الطلوع والظهور بعد خفاء المنافى للربوبية فيبقى السؤال : لم بنى الكلام على الافول دون البزوغ ؟ على حاله .

وثانيا أن أخذ الافول في الحجة دون البزوغ إنما هو لأن البزوغ لا يستوجب عدم الحب الذى بنى الحجة عليه بخلاف الافول ، وبذلك يظهر ما في قول الكشاف في وجه العدول ، قال : ( فإن قلت : لم احتج عليهم بالافول دون البزوغ وكلاهما انتقال من حال إلى حال ؟ قلت : الاحتجاج بالافول أظهر لأنه انتقال مع خفاء واحتجاب ) انتهى .

*(275/238)*

فإن الاحتجاج كما عرفت إنما هو بعدم تعلق الحب لا بالافول حتى يوجه العدول إليه من البزوغ بما ذكره .

وثالثا : أن الاحتجاج إنما أريد به نفى ربوبية الاجرام الثلاثة بمعنى تدبيرها للعالم الارضى أو العالم الإنساني لا الربوبية بمعنى المقام الذى ينتهى إليه الايجاد والتدبير فإن الوثنية وعبدة الكواكب لا ينكرون أن آلهتهم ليست أربابا بهذا المعنى ، وأنه الله الواحد لا شريك له .

ومن هنا يظهر ما في قول بعضهم : إن الافول إنما أخذ مبدا للبرهان لأنه يستلزم الامكان ، وكل ممكن محتاج يجب أن يقف سلسلة حاجته عند موجود واجب الوجود ، وكذا ما في قول آخرين : إن الافول إنما ينفى الربوبية عن المتصف به لأنه حركة ، ولا بد لكل حركة من محرك ، وينتهى لا محالة إلى محرك غير متحرك وثابت غير متغير بذاته وهو الله عز اسمه .

وذلك أنهما وإن كانا حجتين برهانيتين غير أنهما تنفيان عن الممكنات وعن المتحركات الربوبية بمعنى العلية الأولى التى ينتهى إليها جميع العلل ، وسببية الايجاد والتدبير التى يقف عندها جميع الأسباب ، وعبدة الكواكب من الصابئين وغيرهم وإن

ذهبوا إلى أن كل جرم سماوي قديم زماني غير قابل للكون والفساد متحرك بحركة دائمة غير أنهم لا ينكرون أن جميعها معلوله لامكانها غير مستغنية لا في وجودها ولا في آثار وجودها عن الواجب عز اسمه .

فالحجتان نما هما قائمتان على منكري وجود الصانع من الطبيعيين لا الصابئين وعبدة

أرباب الانواع وغيرهم من الوثنيين ، وإبراهيم عليه السلام انما كان يحاج هؤلاء دون أولئك

.

على أنك عرفت ان الحجة لم تركب من جهة الافول بل من جهة عدم تعلق الحب بشئ من شأنه الافول والغروب .

وأما من دفع ما ذكروه من تقرير الحجة من جهة الامكان أو الحركة بأن تفسير الافول بذلك تفسير للشئ بما يبانه فإن العرب لا يعرفون الافول بمعنى لامكان أو الحدوث وكذلك تفسير الافول بالتغير والحركة غلط كسابقه .

*(276/238)*

---

فقد خفى عليه أن هؤلاء لا يقولون : إن الافول في الآية بمعنى الإمكان أو بمعنى الحركة ، وانما يقولون : إن الأفول انما احتج به لاستلزامه الامكان أو الحركة والتغير ، وأما الافول بمعنى الغيبة بعد الحضور والخفاء بعد الظهور مع قطع النظر عن إستلزامه الامكان أو التغير غير اللائقين بساحة الواجب جل ثناؤه فليس ينافى الربوبية كما اعترف به هذا المورد نفسه .

وذلك أن الواجب تعالى أيضا غائب عن مشاعرنا من غير أن يتحول عليه الحال ويطرأ عليه التغير بالغيبة بعد الحضور والخفاء بعد الظهور ، ولا ينفع القول بأن الغيبة والخفاء فيه تعالى

من جهتنا لا من جهته ولاشتغالنا بما يصرفنا عنه لا لمحدودية وجوده وقصور استيلائه فإن غيبة هذه الاجرام السماوية وخاصة الشمس بالحركة اليومية أيضا من قبلنا حيث إنا أجزاء من الأرض التى تتحرك بحركتها اليومية فتحولنا بها من مسامته هذه الاجرام ومواجهتها إلى خلاف ذلك فنغرب عنها في الحقيقة بعد طلوعنا عليها وان كان الخطأ الحسى يخيل لنا غيره .

وقد أراد الرازي أن يجمع بين الوجوه جميعا فقال في تفسيره ما نصه الافول عبارة عن غيبوبة الشئ بعد ظهوره وإذا عرفت هذا فلسائل أن يسأل فيقول : الافول انما يدل على الحدوث من حيث انه حركة ، وعلى هذا التقدير فيكون الطلوع أيضا دليلا على الحدوث فلم ترك إبراهيم عليه السلام الاستدلال على حدوثها بالطوع وعول في اثبات هذا المطلوب على الافول ؟ .

*(277/238)*

---

والجواب : لا شك ان الطلوع والغروب يشتركان في الدلالة على الحدوث إلا أن الدليل الذى يحتج به الأنبياء في معرض دعوة الخلق كلهم إلى الله لا بد وأن يكون ظاهرا جليا بحيث يشترك في فهمه الذكى والغبى والعاقل ، ودلالة الحركة على الحدوث وإن كانت يقينية إلا

أنها دقيقة لا يعرفها إلا الافاضل من الخلق ، أما دلالة الافول فإنها دلالة ظاهرة يعرفها كل أحد فإن الكوكب يزول سلطانه وقت الافول فكانت دلالة الافول على هذا المقصود أتم .

وأيضا قال بعض المحققين : الهوى في خطرة الامكان افول وأحسن الكلام ما تحصل فيه حصة الخواص وحصة الاوساط وحصة العوام : فالخواص يفهمون من الافول الامكان وكل ممكن محتاج لا يكون مقطوع الحاجة فلا بد من الانتهاء إلى من يكون منزها عن الامكان حتى تنقطع الحاجات بسبب وجوده كما قال : وأن إلى ربك المنتهى .

وأما الاوساط فإنهم يفهمون من الافول مطلق الحركة فكل متحرك محدث ، وكل محدث فهو محتاج إلى القديم القادر فلا يكون الافل إلها بل الإله هو الذى يحتاج إليه ذلك الافل .

وأما العوام فإنهم يفهمون من الافول الغروب ، وهم يشاهدون أن كل كوكب يقرب من الافول والغروب فإنه يزول نوره ، وينتقص ضوءه ، ويذهب سلطانه ، ويكون كالمعزول ، ومن يكون كذلك لا يصلح للالهية ، فهذه الكلمة الواحدة أعنى قوله ( لا احب الآفلين ) كلمة مشتملة على نصيب المقربين وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال فكانت أكمل الدلائل وأفضل البراهين .

وفيه دقيقة أخرى ، وهو أنه عليه السلام إنما كان يناظرهم وهم كانوا منجمين ، ومذهب أصحاب النجوم أن الكوكب إذا كان في الربع الشرقي ويكون صاعدا إلى وسط السماء كان قويا عظيم التأثير ، أما إذا كان غربيا وقريبا من الافول فإنه يكون ضعيف التأثير قليل

القوة فنبه بهذه الدقيقة على أن الإله هو الذى لا تتغير قدرته إلى العجز وكماله إلى النقصان ، ومذهبكم ان الكوكب حال كونه في الربع الغربي يكون ضعيف القوة ناقص

(278/238)

---

التأثير عاجز عن التدبير ، وذلك يدل على القدح في إلهيته فظهر على قول المنجمين ان للافول مزيد خاصية في كونه موجبا للقدح في إلهيته ) انتهى موضع الحاجة من كلامه على طوله .

وأنت بالتأمل في ما تقدم تقف على أن ما تفنن به من تقسيم البرهان إلى حصص مختلفة باختلاف النفوس ، وتقريره بوجوه شتى لا لفظ الآية يدل عليه ، ولا شبة الصابئين وأصحاب النجوم تندفع به فإنهم لا يرون الجرم السماوي إلها واجب الوجود غير متناهى القدرة ذا قوة مطلقة ، وأنما يرونه ممكنا معلولا ذا حركة دائمة يدبر بحركته ما دونه من العالم الارضى ، وشئ مما ذكره من الوجوه لا يدفع هذه النظرية ، وكأنه تنبه لهذا الاشكال بعد كلامه المنقول آنفا فبسط في الكلام وأطنب في الخروج من العويصة بما لا يجدى شيئا .

على أن الحجة الثانية على ما قرره حجه غير تامة فإن الحركة إنما تدل على حدوث المتحرك من حيث وصفه وهو التحرك لا من حيث ذاته ، وتمام الكلام في ذلك موكول إلى

محله ، والمصير إلى ما قدمناه في تقرير الحجة من جهة الحركة .

ورابعا أن إبراهيم عليه السلام إنما ساق هذه الحجج بحسب ما كان الله سبحانه يريه ملكوت السماوات والأرض ، وبحسب ما يسمح له جريان محاجته أباه وقومه آخذا بالمحسوس المعاين إما لأنه لم يكن رأى تفصيل الحوادث السماوية والارضية اليومية كما تقدمت الإشارة إليه أو لأنه أراد أن يحاجهم بما تحت حسهم فأورد قوله ( هذا ربى ) لما شاهد شيئا من الاجرام الثلاثة لامعا بازغا ، وأورد قوله ( لا أحب الآفلين ) أو ما في معناه لما شاهد افولها .

وبذلك يظهر الجواب عما يمكن أن يقال : إن قوله : ( فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ) يدل على أنه عليه السلام كان في النهار المتصل بذلك الليل شاهد قومه فما باله لم يذكر الشمس لينفى ربوبيتها .

*(279/238)*

---

فإن من المحتمل أن يكون قد خرج إلى قومه للمحاجة والوقت لا يسع أزيد مما حاج به أباه وقومه في أمر الأصنام فكان يحاجهم طول النهار أو مدة ما أدركه من النهار عند قومه حتى إذا تمم الحجاج لم يلبث دون أن جن عليه الليل ، وهناك محتملات أخر

كغيم في الهواء أو حضور قومه للصلوات والقرابين في أول الطلوع فحسب وقد كان يريد أن يواجههم فيما يلقيه إليهم .

وخامساً : أن الآيات كما قيل تدل على أن الهداية من الله سبحانه وأما الإضلال فلم ينسب إليه تعالى في هذه الآيات بل دل قوله : ( لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ) بعض الدلالة على أن من شأن الإنسان بحسب ما يقتضيه نقص نفسه أن يتصف بالضلال لو لم يهده ربه ، وهو الذي يستفاد من قوله تعالى : ( ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منها من أحد أبدا ) ( والنور : 21 ) وقوله : ( إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ) ( القصص : 56 ) إلى غير ذلك من الآيات .

نعم هناك آيات تنسب إليه تعالى الإضلال لكن أمثال قوله : ( وما يضل به إلا الفاسقين ) ( البقرة : 26 ) تبين أن الضلال المنسوب إليه تعالى هو الإضلال الواقع بحسب المجازاة دون الإضلال الابتدائي ، وقد تقدم البحث في تفسير الآية في الجزء الأول من هذا الكتاب .

*(280/238)*

---

وسادسا : أنه عليه السلام أخذ في حجته لابطال ربوبية الاجرام الثلاثة أنه لا يحب الافل لافوله وهو أن يفقده الإنسان بعد أن يجده فهو الوصف الذي لا يتعلق به الحب المسوغ

للعبادة ، وإذ كان ذلك وصفا مطردا في جميع الجسمانيات التى تسير إلى الزوال والفوت والهلاك والبيد كانت الحجة قاطعة على كل شرك ووثنية حتى على ما يظهر من بعض الوثنيين من القول بالوهية أرباب الانواع والموجودات النورية التى يذعنون بوجودها وأنها فوق المادة والطبيعة متعالية عن الجسمية والحركة فإنهم يصرحون بأنها على ما لها من صفاء الجوهر وشرف الوجود مستهلكة تجاه النور القيومى ، مستذلة تحت القهر الاحدى ، وإذ كان هذه صفة ما يدعونه فلو توجه تلقاءها حب لم يتعلق إلا بمن يدبر أمرها ويصلح شأنها لا بها .

قوله تعالى : ( إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض ) إلى آخر الآية .

ذكر الراغب في المفردات : أن أصل الفطر الشق طولا يقال : فطر فلان كذا فطرا وأفطر هو فطورا وانفطر انفطار قال : هل ترى من فطور أي اختلال ووهى فيه ، وذلك قد يكون على سبيل الفساد ، وقد يكون على سبيل الصلاح قال : السماء منفطر به كان وعده مفعولا . وفطرت الشاة حلبتها باصبيعين ، وفطرت العجين إذا عجنته فخبزته من وقته ، ومنه الفطرة ، وفطر الله الخلق وهو إيجاده الشئ وإبداعه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال فقوله : فطرة الله التى فطر الناس عليها إشارة منه تعالى إلى ما فطر أي أبدع وركز في الناس من معرفته تعالى ، وفطرة الله هي ما ركز فيه من قوته على معرفة الإيمان وهو المشار إليه بقوله : ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ، انتهى .

---

وذكر أيضا : أن الحنف هو ميل عن الضلال إلى الاستقامة والجنف ميل عن الاستقامة إلى الضلال قال : وسمت العرب كل من حج أو اختتن حنيفا تنبيها على أنه على دين إبراهيم عليه السلام والاحنف من في رجله ميل ، قيل : سمى بذلك على التفاؤل وقيل : بل استعير للميل المجرد ، انتهى .

لما تبرأ عليه السلام من شركهم وشركائهم بقوله : ( يا قوم إنى برئ ) الخ ، وقد سلك إليه تدريجا بإظهار عدم تعلق قلبه بالشريك حيث قال : ( لا أحب الآفلين ) ثم الايماء إلى كون عبادة الشريك ضلالا حيث قال : ( لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ) ثم التبرى الصريح من ذلك بقوله : ( يا قوم إنى برئ مما تشركون ) رجع إلى توحيده التام في الربوبية ، وهو إثبات الربوبية والمعبودية للذى فطر السماوات والأرض ، ونفى الشرك عن نفسه فقال : ( إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا ) .

فتوجيه الوجه كناية عن الاقبال إلى الله سبحانه بالعبادة فإن لازم العبودية والمربوبية أن يتعلق العبد المربوب بربه في قوته وإرادته ، ويدعوه ويرجع إليه في جمع أعماله ، ولا يكون دعاء ولا رجوع إلا بتوجيه الوجه والاقبال إليه فكنى بتوجيه الوجه عن العبادة التى هي

دعاء ورجوع وذكر ربه وهو الله سبحانه الذى وجه وجهه إليه ، بنعته الذى يخصه بلا نزاع فيه وهو فطر السماوات والأرض ، وجاء بالموصول والصلة ليدل على العهد فلا يشتبه الأمر على أحد منهم فقال : للذى فطر السماوات والأرض أي إنى أقبلت بعبادتي على من ينتهى إليه إيجاد كل شئ وإبداعه ، وهو الذى يثبته ويثبتونه فوق الجميع .

ثم نفى غيره مما يدعونه شريكا بقوله : ( حنيفا ) أي مائلا إليه عن غيره نافيا للشريك عنه ، وأكده بقوله : ( وما أنا من المشركين ) فأفاد مجموع قوله : ( وإنى وجهت ) الخ ، إثبات المعبودية لله تعالى ونفى الشريك عنه قريبا مما تفيده الكلمة الطيبة : لا إله الا الله .

*(282/238)*

---

واللام في قوله : ( للذى ) للغاية وتفيد معنى إلى ، وكثيرا ما تستعمل في الغاية اللام كما تستعمل ( إلى ) قال : ( أسلم وجهه لله ) ( البقرة : 112 ) ( ومن يسلم وجهه إلى الله ) ( لقمان : 22 ) .

وفي تخصيص فطر السماوات والأرض من بين صفاته تعالى الخاصة وكذا من بين الالفاظ الدالة على الخلقة كالباري والخالق والبديع إشارة إلى ما يؤثره إبراهيم عليه السلام من دين الفطرة وقد كرر توصيف هذا الدين في القرآن الكريم بأنه دين إبراهيم الحنيف ودين الفطرة

أي الدين الذى بنيت معارفه وشرائعه على خلقة الإنسان ونوع وجوده الذى لا يقبل التبدل والتغير فإن الدين هو الطريقة المسلوكة التى يقصد بها الوصول إلى السعادة الحقيقية والسعادة الحقيقية هي الغاية المطلوبة التى يطلبها الشئ حسب تركب وجوده وتجهزه بوسائل الكمال طلبا خارجيا ، واقعيا وحاشا أن يسعد الإنسان أو أي شئ آخر من الخليقة بأمر ولم يتهيأ بحسب خلقته له أو هيئ لخلافه كأن يسعد بترك التغذى أو النكاح أو ترك المعاشرة والاجتماع وقد جهز بخلافها ، أو يسعد بالطيران كالطير أو بالحياة في قعر البحار كالسمك ولم يجهز بما يوافقه .

فالدين الحق هو الذى يوافق بنواميسه الفطرة وحاشا ساحة الربوبية أن يهدى الإنسان أو أي مخلوق آخر مكلف بالدين – ان كان – إلى غاية سعيدة مسعدة ولا يوافق الخلقة أو لم يجهز بما يسلك به إليها فإنما الدين عند الله الإسلام وهو الخضوع لله بحسب ما يهدى إليه ويدل عليه صنعه وإيجاده .

قوله تعالى : ( وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ) .

قسم تعالى حججه عليه السلام إلى قسمين : أحدهما ما بدأ به هو فحاج الناس ، وثانيهما ما بدأ به الناس فكلموه به بعد ما تبرأ من آلهتهم ، وهذا الذى تعرض له في الآية وما بعده هو القسم الثاني .

لم يذكر تعالى ما أوردوه عليه من الحجة لكنه لوح إليه بقوله حكاية عن إبراهيم عليه السلام : ( ولا أخاف ما تشركون به ) فهو الاحتجاج لوجوب عبادة آلهتهم من جهة الخوف وقد تقدم وسيجئ أن الذى بعثهم إلى اتخاذ الالهة وعبادتها أحد أمرين : الخوف من سخطها وقهرها بما لها من السلطة على حوادث العالم الارضى ، أو رجاء البركة والسعادة منها ، وأشد الأمرين تأثيرا في نفوسهم هو الأمر الأول أعنى الخوف وذلك أن الناس بحسب الطباع يرون ما بأيديهم من النعمة والسعادة المادية ملك أنفسهم إما مرهون جهدهم في سلوك سبيل المعاش في اقتناء الاموال واكتساب المقام والجاه أو مما ملكهم إياه الجد الرفيع أو البخت السعيد كمن ورث مالا من مورثه أو صادف كنزا فتملكه أو ساد قومه برئاسة أبيه .

فطريق الرجاء قليل التأثير في وجوب العبودية حتى أن المسلمين مع ما بأيديهم من التعليم الكامل الإلهى يتأثرون من الوعد والبشارة أقل مما يتأثرون من الوعيد والإنذار ، ولذلك بعينه نرى أن القرآن يذكر الإنذار من وظائف الأنبياء أكثر من ذكر التبشير ، وكلا الامرين من وظائفهم والطرق التى يستعملونها في الدعوة الدينية .

وبالجملة اختار قوم إبراهيم عليه السلام في محاجتهم إياه عند ما كلموه في أمر الالهة سبيل الخوف فأرهبوه من قهر الالهة وسخطها ووعظوه بسلوك سبيلهم ولزوم طريقهم في التقرب

بالالهة ورفض القول بربوبية الله سبحانه ، وإثباته في المقام الذى أثبتوه فيه وهو أنه الذى ينتهى إليه الكل فحسب .

ولما وجد عليه السلام كلامهم ينحل إلى جزأين : الردع عن القول بربوبية الله سبحانه والتحريض على القول بربوبية آلهتهم احتج عليهم من الجهتين جميعا لكن لا غنى للجهة الأولى عن الثانية كما سيجئ .

*(284/238)*

---

وما أورده في الاحتجاج على حجاجهم في الله سبحانه هو قوله : ( أتحاجوني في الله وقد هدان ) أي إنى واقع في أمر مفروغ عنه ومهتد بهداية ربى حيث آتانى العلم بما أرانى من ملكوت السماوات والأرض وألهمنى بذلك حجة أنفى بها ربوبية غيره من الأصنام والكواكب ، وأنى لا أستغنى عن رب يدبر أمرى فأنتج لى أنه هو الرب وحده لا شريك له ، وإذ هداني إليه فأنا في غنى عن الاصغاء إلى حجتكم والبحث عن الربوبية ثانيا فإن البحث إنما ينفع الطالب ولا طلب بعد الوصول إلى الغاية .

هذا ما يعطيه ظاهر الآية بالتبادر إلى الذهن لكن هناك معنى أدق من ذلك يظهر بالتدبر وهو أن قوله : ( وقد هدان ) استدلال بنفس الهداية لا استغناء بالهداية عن

الاستدلال وتقريره : أن الله هداني بما علمني من الحجة على نفى ربوبية غيره وإثبات ربوبيتة ، ونفس هدايته دليل على أنه رب ولا رب غيره فإن الهداية إلى الرب من جملة التدبير فهى شأن من هو رب ، ولو لم يكن الله سبحانه هو ربى لم يكن ليهدينى ولا قام بها إلى الذى هو الرب لكن الله هو هداني فهو ربى .

ولم يكن لهم أن يقولوا : إن الذى علمك ما علمت وألهمك الحجة هو بعض آلهتنا لأن الشئ لا يهدى إلى ما يضره ويميت ذكره ويفسد أمره فاهتداؤه عليه السلام إلى نفى ربوبيتها لا يصح أن ينسب إليها ، هذا .

*(285/238)*

---

ولكن كان لهم أن يقولوا أو أنهم قالوا : إن ذلك من فعل بعض آلهتنا فعل بك ذلك قهرا وسخطا أبعدك عن القول بربوبيتها ولقنك هذه الحجج لما وجد من فساد رأيك وعلة نفسك نظير ما شافهت به عاد هودا عليه السلام لما دعاهم إلى توحيد الله سبحانه واحتج عليهم بأن الله هو الذى يجب أن يرجى ويخاف ، وأن آلهتهم لا تنفع ولا تضر فردوا عليه بأن بعض آلهتنا اعتراك بسوء قال تعالى في قصتهم حكاية عن هود عليه السلام : ( ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم ولا

تتولوا مجرمين ، قالوا يا هود – إلى أن قال – إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله وأشهدوا إنى برئ مما تشركون ، من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون – ( هود : 55 ) .

فقوله عليه السلام : ( ولا أخاف ما تشركون به ) الخ ، ينفى هذه الشبهة وكما أنه ينفى هذه الشبهة فإنه حجة تامة تنفى ربوبية شركائهم .

ومحصله : أنكم تدعونني إلى القول بربوبية شركائكم ورفض القول بربوبية ربى بما تخافوننى من ان تمسني شركاؤكم بسوء ، وترهبوننى بإلقاء الشبهة فيما اهتديت به ، وإنى لا أخاف ما تشركون به لانها جميعا مخلوقات مدبرة لا تملك نفعا ولا ضرا وإذ لم اخفها سقطت حجتكم وارتفعت شبهتكم .

ولو كنت خفتها لم يكن الخوف الحاصل في نفسي من صنع شركائكم لانها لا تقدر على شئ بل كان من صنع ربى وكان هو الذى شاء ان اخاف شركاءكم فخفتها فكان هذا الخوف دليلا آخر على ربوبيته وآية أخرى من آيات توحيده يوجب إخلاص العبادة له لا دليلا على ربوبية شركائكم وحجة توجب عبادتها .

والدليل على ان ذلك من ربى أنه وسع كل شئ علما فهو يعلم كل ما يحدث ويجرى من خير وشر في مملكته التى أوجدها لغايات صحيحة متقنة ، وكيف يمكن ان يعلم في ملكه بشئ ينفع أو يضر فيسكت ولا يستقبله بأحد امرين : إما المنع أو الإذن ؟ .

---

فلو حصل في نفسي شئ من الخوف لكان بمشية من الله وإذن على ما يليق بساحة قدسه ، وكان ذلك من التدبير الدال على ربوبيته ونفى ربوبية غيره أفلا تتذكرون وترجعون إلى ما تدركونه بعقولكم وتهدى إليه فطرتكم .

فهذا وجه في تقرير الحجة المودعة في قوله : ( ولا اخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى وسع ربى كل شئ علما أفلا تتذكرون ) وعلى ذلك فقوله : ( ولا أخاف ما تشركون به ) كالمتمم للحجة في قوله : ( أتحاجوني في الله وقد هدان ) وهو مع ذلك حجة تامة في نفسه لابطال ربوبية شركائهم بعدم الخوف منها ، وقوله : ( إلا أن يشاء ربى شيئا ) كالكلام في الحجة على تقدير التسليم أي تحتجون على وجوب عبادتها بالخوف ولا خوف في نفسي ، ولو فرض خوف لكان دليلا على ربوبية ربى لا على ربوبية شركائكم فإنه عن مشية من ربى ، قوله : ( وسع ربى كل شئ علما ) وتعليل لكون الخوف المفروض مستندا إلى مشية ربه فإن فاطر السماوات والأرض لا يجهل ما يقع في ملكه فلا يقع إلا بإذن منه فهو الذى يدبر امره ويقوم بربوبيته ، وقوله : ( أفلا تتذكرون ) استفهام توبيخي وإشارة إلى أن الحجة فطرية ، هذا .

وللمفسرين في الآية أقوال : أما قوله تعالى : ( قال أتحاجوني في الله وقد هدان ) فقد أورد اكثرهم فيه الوجه الأول من الوجهين اللذين قدمناهما ، ومحصله أنه يرد اعتراضهم على توحيده بأنه غنى عن المحاجة في ذلك فإن الله هداه ولا حاجة معها إلى المحاجة لكن ظاهر السياق أنه في مقام المحاجة ولازمه ان كلامه احتجاج للتوحيد الاستغناء عن الاحتجاج .

وأما قوله تعالى : ( لا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا ) فقد ذكروا في الصدر قريبا مما قدمناه ، وأما الاستثناء فقيل : معناه إلا ان يغلب ربى هذه الأصنام التى تخوفونني بها فيحييها ويقدرها فتضر وتنفع فيكون ضررها ونفعها إذ ذاك دليلا

(287/238)

---

على حدوثها وعلى توحيد الله سبحانه ، وبعبارة أخرى : المعنى أنى لا أخافها في حال من الحالات إلا أن يشاء ربى أن تحيا هؤلاء الشركاء فتضر وتنفع فأخافها واذ ذاك كانت الربوبية لله وتبين حدوث شركائكم .

وهذا الوجه وإن كان قريبا مما قدمناه بوجه لكن نسبة النفع والضر إلى الشركاء لو كانت أحياء – مع ان بعضها احياء عندهم كالملائكة وأرباب الأنواع وبعضها يضر وينفع بحسب ظاهر النسبة كالشمس – تخالف التعليم الإلهى في كتابه فإن القرآن يصرح أن لا يملك نفعا

ولا ضررا إلا الله سبحانه .

وكذلك ما ذكر من دلالة ذلك على حدوث شركائهم أمر لا يضر اهل الاوثان فإنهم كما عرفت لا ينكرون كون الأصنام ولا أربابها معلولة لله مخلوقة له ، والقول بالقدم الزمانى في بعضها لا ينافى إمكانها ولا معلوليتها عندهم .

وقيل : إن معنى الاستثناء انى لا اخاف شركاءكم واستثنى من عموم الخوف في الاوقات أن يشاء ربى ان يعذبنى ببعض ذنوبي أو يصيبني بمكروه ابتداء ، وبعبارة أخرى الجملة استثناء من معنى أعم مما يدل عليه الجملة السابقة فقد دل قوله : ( ولا أخاف ) الخ ، على نفى الخوف من شركائهم ، وقوله : ( إلا ان يشاء ) الخ ، استثناء من كل خوف فالتقدير : لا أخاف ما تشركون به ولا شيئا آخر إلا من ان يشاء ربى شيئا اكرهه ابتداء أو جزاء فإنى اخافه ، ووجه التعسف في هذا المعنى لا يحتاج إلى بيان .

وأما قوله : ( وسع ربى كل شئ علما ) فقد قيل .

إنه ثناء منه عليه السلام لربه بعد إتمام الحجة .

وقيل : إنه تعريض بأصنامهم حيث إنها لا تعلم شيئا ولا تشعر ، ويرد عليه أن التعريض بمثل القدرة أقرب إلى اقتضاء المقام من التعريض بالعلم فما وجه العدول عن القدرة إلى ؟ العلم والاشكال جار في الوجه السابق .

وقيل : إنه لما استثنى ما يشاؤه ربه مما يقع عليه من المكاره بين بقوله : ( وسع ربى كل شئ علما ) أنه تعالى علام الغيوب فلا يفعل إلا الصلاح والخير والحكمة .

*(288/238)*

---

وفيه أن الانسب حينئذ أن يذكر الحكمة مكان العلم ولا أقل من أن يذكر الحكمة مع العلم كما في أغلب الموارد .

وقيل : إنه كالتعليل للاستثناء بجواز أن يكون قد سبق في علمه تعالى إصابته بسوء تكون سببه الأصنام كأن يشاء أن يسقط صنم عليه فيشجه أو تؤثر فيه حرارة الشمس فتمرضه أو تقتله ، وفيه أن التمسك بالقدرة أو الحكمة أنسب للتعليل من العلم .

وقيل : معناه أن علم ربى وسع كل شئ وأحاط به ومشيئته مرتبطة بعلمه المحيط القديم وقدرته منفذة لمشيئته فلا يمكن ان يكون لشئ من المخلوقات التى تعبدونها ولا لغيرها تأثير ما في صفاته ، ولا في أفعاله الصادرة عنها لا بشفاعة ولا غيرها وإنما يكون ذلك لو كان علم الله تعالى غير محيط بكل شئ فيعلمه الشفعاء والوسطاء من وجوه مرجحات الفعل أو الترك بالشفاعة أو غيرها ما لم يكن يعلم فيكون ذلك هو الحامل له على الضر أو النفع أو العطاء أو المنع .

قال هذا القائل : اخذنا هذا المعنى لهذه الجملة من حجج الله تعالى على نفى الشفاعة الشركية بمثل قوله : ( من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء ) .

قال : وهذا أرجح الوجوه ، وهو من قبيل تفسير القرآن بالقرآن ، انتهى ملخصا .

ومحصله ان قوله : ( وسع ربى كل شئ علما ) بيان وتعليل لعموم نفى الخوف من الالهة وغيرها كأنه قال : لا اخاف ضر شئ من آلهتكم وغيرها من المخلوقات فإن ربى يعلم كل شئ فيتمه بمشيئته وينفذه بقدرته فلا يحتاج إلى شفيع يعلمه ما جهل حتى يكون لها تأثير في افعاله تعالى وشفاعة .

وأنت تعلم أن نفى هذا التأثير كما يحتاج إلى سعة علمه تعالى كذلك يحتاج إلى إطلاق القدرة والمشيئة – والمشيئة مع ذلك صفة فعل لا ذات كما يفرضه القائل – فما ذا تنفع سعة العلم لو لم يكن لقدرته ومشيئته إطلاق ، والشاهد عليه نفس كلامه الذى قرر فيه الوجه بالعلم والمشيئة والقدرة جميعا .

*(289/238)*

وبالجملة هذا الوجه لا يتم بسعة العلم وحدها وإنما يتم بها وباطلاق القدرة والمشيئة ، وقد ذكرت في الآية سعة العلم وحدها .

وأما ما ذكره من دلالة آيات الشفاعة على ذلك فالآيات المذكورة مسوقة لاثبات الشفاعة بمعنى التوسط في السببية بإذن من الله سبحانه لا أنها تنفيها كما خيل إليه فزعم إنه يفسر القرآن بالقرآن ، وكيف لا ؟ والطمع في إرتفاع الأسباب عن العالم المشهود طمع فيما لا مطمع فيه ، والقرآن الكريم من أوله إلى آخره يتكلم عن السببية ويبنى على أصل العلية والمعلولية العام ، وقد تقدم الكلام في هذه المعاني كرارا في الاجزاء السابقة من الكتاب .

قوله تعالى : ( وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ) الخ ، ثم كر عليه السلام عليهم بحجه أخرى تثبت المناقضة بين قولهم وفعلهم وبعبارة أخرى : حالهم يكذب مقالهم ومحصله أنكم تأمرونني أن أخاف ما لا يجب أن يخاف منه ، وأنتم أنفسكم لا تخافون من يجب ان يخاف منه فأنا أولى بالأمن منكم إن عصيتكم ولم أئتمر بأمركم .

أما كون ما تأمرونني بخوفه لا يجب أن يخاف منه فلان الأصنام و3 أربابها لا دليل على كونها مستقلة بالضر والنفع حتى توجب الخوف منها ، وأما كونكم لا تخافون من يجب أن يخاف منه فإنكم انفسكم أثبتم لله سبحانه شركاء في الربوبية ولم ينزل الله في ذلك عليكم برهانا يمكن أن يعتمد عليه فان الصنع والايجاد لله سبحانه فله الملك وله الحكم فلو كان

اتخذ بعض مخلوقاته شريكا لنفسه يوجب لنا بذلك عبادة شريكه كان إليه لا إلى غيره أن يبين لنا ذلك ويكشف عن وجه الحقيقة فيه ، والطريق فيه أن يقارنه بعلائم وآيات تدل على أن له شركة في كذا وكذا ، وذلك إما وحى أو برهان يتكئ على آثار خارجية ، وشئ من ذلك غير موجود .

*(290/238)*

---

وعلى هذا التقرير فقوله تعالى : ( ما أشركتم ) مقيد بحسب ما يستفاد من المقام بما قيد به قوله : ( أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ) وإنما ذكر هذا القيد عند ذكر عدم خوفهم من شركهم لأن الحجة إلى ذكره هناك أحوج وهو ظاهر .

وقوله : ( فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ) من تتمة الحجة ، والمجموع برهان على مناقضتهم أنفسهم في دعوته عليها السلام إلى أن يخاف آلهتهم فإنهم يأمرونه بالخوف فيما لا يجب وهم أنفسهم لا يخافون فيما يجب .

وبالبيان السابق يظهر ان وصف شركائهم بأن الله لم ينزل بها عليهم سلطانا افتراض استدعاه نوع الحجة التى وضعت في الكلام لا مفهوم له يثبت إمكان ان يأمر الله باتخاذ الشركاء آلهة يعبدون فهو بمنزلة قولنا : لا دليل لكم على ما ادعيتم ، في جواب من يخوفنا

من موضوع خرافي يدعى أنه ربما ينفع ويضر ، ولنا ان نبدل قولنا ذلك لو اردنا التكلم بلسان التوحيد بقولنا : ما أنزل الله على ذلك دليلا ، والكلام بحسب التحليل المنطقي يؤول إلى قياس استثنائي استثنى فيها نقيض المقدم في الشرطية لانتاج نقيض التالى نحوا من قولنا : لو كان الله نزل بها عليكم سلطانا يدل على قدرتهم على الضر لكان اتخاذكم الشركاء خوفا منها في محله لكنه لم ينزل سلطانا فليس اتخاذكم الشركاء في محله ، ومن المعلوم أن لا مفهوم في هذا القياس فلا حاجة إلى القول بأن التقييد بقوله : ( لم ينزل به عليكم سلطانا ) للتهكم ، أو للاشارة إلى ان هذا وصف لازم لشركائهم على حد قوله تعالى : ( ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به ( المؤمنون : 117 ) إلى غير ذلك من التحملات .

*(291/238)*

---

والباء في قوله : ( لم ينزل به ) للمعية أو السببية وقد كنى عليه السلام عنهم وعن نفسه بالفريقين ولم يقل : أنا وانتم أو ما يشابه ذلك ليكون أبعد من تحريك الحمية وتهييج العصبية كما قيل ، وليدل على تفرقهما وشقاق بينهما من جهة الاختلاف في أصل الاصول وأم المعارف الحقيقية بحيث لا يا تلفان بعد ذلك في شئ .

قوله تعالى : ( الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ) سألهم في

الآية السابقة في ضمن ما أقامه من الحجة عمن هو أحق بالأمن حيث قال : ( فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ) ثم اجابهم عما سألهم لكون الجواب واضحا لا يختلف فيه الفريقان المتخاصمان والجواب الذى هذا شأنه لا باس بأن يبادر السائل إلى إيراده من غير ان ينتظر المسؤول فإن المسؤول لا يخالف السائل في ذلك حتى يخاف منه الرد ، وقد حكى الله تعالى اعترافهم بذلك في قصة كسر الأصنام : ( قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون ، فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا انكم انتم الظالمون ، ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ) ( الأنبياء : 65 ) .

هذا ما يقتضيه سياق الكلام ان تكون الآية من كلام إبراهيم عليه السلام ومقولة لقوله ، وأما كونها من كلام قومه وجوابا محكيا عنهم وكذا كونها من الله سبحانه من باب القضاء بين الطرفين المتخاصمين فمما لا يساعد عليه السياق البتة .

وكيف كان فالكلام متضمن تأكيدا قويا من جهة اسنادات متعددة في جمل اسمية وهى ما في قوله : ( لهم الأمن ) جملة اسمية هي خبر لقوله : ( أولئك ) والمجموع جملة اسمية هي خبر لقوله : ( الذين آمنوا ) الخ ، والمجموع جملة اسمية ، وكذلك ما عطف على قوله : ( لهم الأمن ) من قوله : ( وهم مهتدون ) فينتج أنه لا شك في اختصاص الذين آمنوا ولم يستروا إيمانهم بظلم بالأمن والاهتداء ولا ريب .

ولا ريب ان الآية تدل على أن خاصة الأمن والاهتداء من آثار الإيمان مشروطا بان لا يلبس بظلم ، واللبس الستر كما ذكر الراغب في المفردات : أصل اللبس – بفتح اللام – الستر ، فهو استعارة قصد فيها الإشارة إلى أن هذا الظلم لا يبطل أصل الإيمان فإنه فطرى لا يقبل البطلان من رأس ، وانما يغطى عليه ويفسد أثره ولا يدعه يؤثر أثره الصحيح .

والظلم وهو الخروج عن وسط العدل وإن كان في الآية نكرة واقعة في سياق النفى ولازمه العموم وعدم اقتران الإيمان بشئ مما يصدق عليه الظلم على الإطلاق لكن السياق حيث دل على كون الظلم مانعا من ظهور الإيمان وبروزه باثاره الحسنة المطلوبة كان ذلك قرينة على أن المراد بالظلم هو نوع الظلم الذى يؤثر أثرا سيئا في الإيمان دون الظلم الذى لا اثر له فيه .

وذلك ان الظلم وان كان المظنون ان أول ما انتقل إليه الناس من معناه هو الظلم الاجتماعي وهو التعدي إلى حق اجتماعي بسلب الأمن من نفس أحد من أفراد المجتمع أو عرضه أو ماله من غير حق مسوغ لكن الناس توسعوا بعد ذلك فسموا كل مخالفة لقانون أو سنة جارية ظلما بل كل ذنب ومعصية لخطاب مولوى ظلما من المذنب بالنسبة إلى نفسه بل المعصية لله سبحانه لما له من حق الطاعة المشروع بل مخالفة التكليف ظلما وإن كان عن سهو أو نسيان أو جهل وإن لم يبنوا على مؤاخذة هذا المخالف وعقابه على ما أتى به بل يعدون من

خالف النصيحة والأمر الارشادي ولو اشتبه عليه الأمر وأخطا في مخالفته من غير تعمد ظالما لنفسه حتى أن من سامح في مراعاة الدساتير الصحية الطبية أو خالف شيئا من العوامل المؤثرة في صحة مزاجه ولو من غير عمد عد ظالما لنفسه وإن كان ظلما من غير شعور ، والملاك في جميع ذلك التوسع في معنى الظلم من جهة تحليله .

*(293/238)*

---

وبالجملة للظلم عرض عريض – كما عرفت – لكن ما كل فرد من أفراده بمؤثر أثرا سيئا في الإيمان فإن أصنافه التى لا تتضمن ذنبا ومعصية ولا مخالفة مولوية كما إذا كان صدوره عن سهو أو نسيان أو جهل أو لم يشعر بوقوعه مثلا فتلك كلها مما لا يؤثر في الإيمان الذى شأنه التقريب من السعادة والفلاح الحقيقي والفوز برضى الرب سبحانه وهو ظاهر فتأثير الإيمان أثره لا يشترط بعدم شئ من ذلك .

فقوله : ( الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن ) معناه اشتراط الإيمان في إعطائه الأمن من كل ذنب ومعصية يفسد أثره بعدم الظلم غير أن ها هنا دقيقة وهى ان الذنب الاختياري – كما استوفينا البحث عنه في آخر الجزء السادس من الكتاب – أمر ذو مراتب مختلفة باختلاف الأفهام فمن الظلم ما هو معصية اختيارية بالنسبة إلى قوم

وليس بها عند آخرين .

فالواقف في منشعب طريقي الشرك والتوحيد مثلا وهو الذى يرى أن للعالم صانعا هو الذى فطر أجزائها وشق أرجائها وأمسك أرضها وسمائها ، ويرى أنه نفسه وغيره مخلوقون مربوبون ، مدبرون وان الحياة الإنسانية الحقيقية إنما تسعد بالإيمان به والخضوع له فالظلم اللائح لهذا الإنسان هو الشرك بالله والإيمان بغيره بالربوبية كالاصنام والكواكب وغيرها على ما يثبته إبراهيم عليه السلام بقوله : ( وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم اشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ) فالايمان الذى يؤثر أثره بالنسبة إلى هذا الإنسان انما يشترط في إعطاءه الأمن من الشقاء بأن لا يلبسه ظلم الشرك ومعصيته .

*(294/238)*

---

ومن طوى هذه المرحلة فآمن بالله وحده فإنه يواجه من الظلم الكبائر من المعاصي كعقوق الوالدين وأكل مال اليتيم وقتل النفس المحترمة والزنا وشرب الخمر فإيمانه في تأثيره آثاره الحسنة يشترط باجتناب هذا النوع من الظلم ، وقد وعده الله ان يكفر عنه السيئات والمعاصي الصغيرة إن اجتنب كبائر ما ينهى عنه ، قال تعالى : ( إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ) ( النساء : 31 ) وفساد أثر هذا

الإيمان هو الشقاء بعذاب هذه المعاصي وإن لم يكن عذابا خالدا غير منقطع الاخر كعذاب الشرك بل منقطعا إما بحلول أجله وإما بشفاعة ونحوها .

ومن تزود هذا الزاد من التقوى وحصل شيئا من المعرفة بمقام ربه كان مسؤولا باصناف من الظلم تبدو له بحسب درجة معرفته بربه كإتيان المكروهات وترك المستحبات والتوغل في المباحات ، وفوق ذلك المعاصي في مستوى الأخلاق الكريمة والملكات الربانية ووراء ذلك الذنوب التى تعترض سبيل الحب ، وتحف بساط القرب ، فالايمان في كل من هذه المراتب إنما يؤمن المتلبس به ويدفع عنه الشقاء إذا عرى عن ملابسة الظلم المناسب لتلك المرتبة .

فلقوله تعالى : ( الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ) إطلاق من حيث الظلم لكنه إطلاق يختلف باختلاف مراتب الإيمان وإذ كان المقام مقام محاجة المشركين انطبق الظلم المنفى على ظلم الشرك فحسب والامن الذى يعطيه هذا الإيمان هو الأمن مما يخاف منه من الشقاء المؤبد والعذاب المخلد ، والآية مع ذلك آية مستقلة من حيث البيان مع قطع النظر عن خصوصية المورد تفيد أن الأمن والاهتداء إنما يترتب على الإيمان بشرط انتفاء جميع انحاء الظلم الذى يلبسه ويستر أثره بالمعنى الذى تقدم بيانه .

*(295/238)*

وأما الإيمان المذكور في الآية ففيه إطلاق والمراد به الإيمان بالربوبية الصالح للتقيد بما يصلحه أو يفسده ثم إذا قيد بقوله : ( ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ) أفاد الإيمان بربوبية الله سبحانه ورفض غيره من شركائهم فإن إبراهيم عليه السلام ذكر فيما تحكى عنه الآية السابقة أن قولهم بربوبية شركائهم وإيمانهم بها مع كونها من خلق الله قول بما لا دليل لهم عليه من جانب الله ولا سلطان وأنهم بإيمانهم بشركائهم يتوقون شرا ويستأمنون شقاء ليس لها أن تدفعها لانها لا تضر ولا تنفع ، وأما هو عليه السلام فقد خاف وآمن بمن هو فاطره وهو المتصرف بالهداية والمدبر الذى له في كل أمر إرادة ومشية لسعة علمه ، ثم سألهم : أي الفريقين أحق بالأمن والناجح بالإيمان بالرب ، ولكل من الفريقين إيمان بالرب ، وإن اختلفا من جهة الرب ، والذى آمنوا به بين مؤمن برب على ربوبيته دليل ، ومؤمن برب لا دليل على ربوبيته بل الدليل على خلافه .

ومن هنا يظهر أن المراد بالإيمان في قوله : ( الذين آمنوا ) مطلق الإيمان بالربوبية ثم بتقيده بقوله : ( ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ) يتعين في الإيمان بالله سبحانه الذى هو حق الإيمان فافهم .

فقد اتضح بما تقدم أولا : أن المراد بالإيمان هو الإيمان بالربوبية دون الإيمان بوجود صانع العالم خلافا لمنكري وجوده .

وثانيا : أن الظلم في الآية مطلق ما يضر الايمان ويفسده من المعاصي ، وكذا المراد بالأمن مطلق الأمن من شقاء المعاصي والذنوب ، وبالاهتداء مطلق التخلص من ضلالها وإن

انطبق بحسب المورد على معصية الشرك خاصة .

وثالثا : أن إطلاق الظلم يختلف بحسب اختلاف مراتب الإيمان .

*(296/238)*

---

قال بعض المفسرين في معنى عموم الظلم في الآية : إن الأمن في الآية مقصور على الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم فإذا حمل العموم فيها على إطلاقه وعدم مراعاة موضوع الإيمان يكون المعنى : الذين آمنوا ولم يخلطوا إيمانهم بظلم ما لأنفسهم لا في إيمانهم ولا في أعمالهم البدنية والنفسية من دينية أو دنيوية ولا لغيرهم من المخلوقات من العقلاء والعجماوات اولئك لهم الأمن من عقاب الله تعالى الديني على ارتكاب المعاصي والمنكرات ، وعقابه الدنيوي على عدم مراعاة سببه في ربط الأسباب بالمسببات كالفقر والاسقام والامراض دون غيرهم ممن ظلموا أنفسهم أو غيرهم فإن الظالمين لا أمان لهم بل كل ظالم عرضة للعقاب وإن كان الله تعالى لسعة رحمته لا يعاقب كل ظالم على كل ظلم بل يعفو عن كثير من ذنوب الدنيا ، ويعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء في الاخرة ما دون الشرك به .

قال : وهذا المعنى في تفسير الآية صحيح في نفسه ، ويترتب عليه أن الأمن المطلق من الخوف من عقاب الله الديني والدنيوى أو الشرعي والقدري جميعا لا يصح لاحد من

المكلفين دع خوف الهيبة والاجلال الذى يمتاز به اهل الكمال .

قال : وأما معنى الآية على فرض عدم الإطلاق فهو أن الذين آمنوا ولم يخلطوا إيمانهم بظلم عظيم وهو الشرك بالله اولئك لهم الأمن دون غيرهم من العقاب الدينى المتعلق بأصل الدين وهو الخلود في دار العذاب وهم فيما دون ذلك بين الخوف والرجاء .

قال : وظاهر الآية هو العموم واستدل عليه بفهم الصحابة على ما روى : أن الآية لما نزلت شق ذلك على الناس وقالوا : يا رسول الله أينا لم يظلم نفسه ؟ فأخبرهم صلى الله عليه وآله : أن المراد به الشرك ، وربما أشعر بذلك السياق وكون الموضوع هو الإيمان ، انتهى ملخصا .

وفيه مواقع للاشكال فأولا : أن ما استدل عليه من العموم بفهم الصحابة هو غير ما قرره من معنى العموم فإن الذى فهموه من الظلم هو ما يساوى المعصية والذى قرره هو أعم من ذلك .

*(297/238)*

---

وثانيا : أن ما قرره من عموم الظلم حتى بالنسبة إلى أفراد من الظلم ليست من المعصية في شئ ثم حكم بصحة تفسير الآية به أجنبي عن مدلول الآية فإن الآية في مقام بيان أن الأمن

والاهتداء من آثار الإيمان ولكن بشرط أن لا يقارن ظلما يستره ويفسد أثره ، وهذا الظلم إنما هو المعصية بوجه ، وأما ما لا يعد معصية كأكل الغذاء المضر بصحة البدن خطاء فمن المعلوم انه لا يفسد اثر الإيمان من الأمن والاهتداء ، وليس المراد بالآية بيان آثار الظلم أيا ما كانت ولو مع قطع النظر عن الإيمان فإنه تعالى قال : ( الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ) فجعل الإيمان هو الموضوع وقيده بعدم الظلم وجعل اثره الأمن والاهتداء ، ولم يجعل الظلم هو الموضوع حتى تكون الآية مسرودة لبيان آثاره .

فالاية سيقت لبيان الآثار التى تترتب على الإيمان الصحيح ، وأما الظلم بما له من العرض العريض وما له من الاثر المترتب عليه فالآية غير متعرضة لذلك البتة ، فقوله : ( وهذا المعنى في تفسير الآية صحيح في نفسه ) فاسد البتة .

وثالثا : أن قوله : ( ويترتب عليه أن الأمن المطلق لا يصح لاحد من المكلفين ) صريح في أن الآية لا مصداق لها بالنظر إلى الإطلاق الذى قرره ، ولازمه سقوط الكلام عن الفائدة ، وأى فائدة في أن يوضع في الحجة قول لا مصداق له أصلا ؟ .

ورابعا أن الذى اختاره في معنى الآية أن المراد به هو الظلم الخاص وهو الشرك ليس بمستقيم فإن الآية من جهة عموم لفظها وإن دلت على وجوب كون الإيمان غير مقارن للشرك حتى يؤثر اثره لكن ذلك من باب انطباق اللفظ العام على مورده الخاص ، وأما راده المعنى الخاص

من اللفظ العام من غير قرينة حالية أو مقالية متصلة أو منفصلة فمما لا ترتضيه صناعة البلاغة وهو ظاهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الميزان حـ 7 صـ 154 . 204 ﴾

*(298/238)*

---

فصل

قال فى الميزان :

( كلام في قصة إبراهيم عليه السلام وشخصيته ) وفيه أبحاث مختلفة قرآنية وأخرى علمية وتاريخية وغير ذلك .

1 – قصة إبراهيم عليه السلام في القرآن : كان إبراهيم عليه السلام في طفوليته إلى أوائل تمييزه يعيش في معزل من مجتمع قومه ثم خرج إليهم ولحق بأبيه فوجده وقومه يعبدون الأصنام فلم يرتض منه ومنهم ذلك وقد كانت فطرته طاهرة زاكية مؤيدة من الله سبحانه بالشهود الحق وإراءة ملكوت كل شئ وبالجملة وبالقول الحق والعمل الصالح .

فأخذ يحاج أباه في عبادته الأصنام ويدعوه إلى رفضها وتوحيد الله سبحانه واتباعه حتى يهديه إلى مستقيم الصراط ويبعده من ولاية الشيطان ، ولم يزل يحاجه ويلح عليه حتى زبره وطرده عن نفسه وأوعده أن يرجمه إن لم ينته عن ذكر آلهته بسوء والرغبة عنها .

فتلطف إبراهيم عليه السلام إرفاقا به وحنانا عليه وقد كان ذا خلق كريم وقول مرضى فسلم عليه ووعده أن يستغفر له ويعتزله وقومه وما يعبدون من دون الله ( مريم : 41 ، 48 ) وقد كان من جانب آخر يحاج القوم في أمر الأصنام ( الأنبياء : 51 - 56 ، الشعراء : 69 - 77 ، الصافات : 83 - 87 ) ويحاج أقواما آخرين منهم يعبدون الشمس والقمر والكوكب في أمرها حتى ألزمهم الحق وشاع خبره في الانحراف عن الأصنام والالهة ( الانعام : 74 82 ) حتى خرج القوم ذات يوم إلى عبادة جامعة خارج البلد واعتل هو بالسقم فلم يخرج معهم وتخلف عنهم فدخل بيت الأصنام فراغ على آلهتهم ضربا باليمين فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون فلما تراجعوا وعلموا بما حدث بالهتهم وفتشوا عمن ارتكب ذلك قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم .

*(299/238)*

---

فأحضروه إلى مجمعهم فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون فاستنطقوه فقالوا أأنت فعلت هذا بالهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فأسالوهم إن كانوا ينطقون ، وقد كان أبقى كبير الأصنام ولم يجذه ووضع الفاس على عاتقه أو ما يقرب من ذلك ليشهد الحال على أنه هو الذى كسر سائر الأصنام .

وإنما قال عليه السلام ذلك وهو يعلم أنهم لا يصدقونه على ذلك وهم يعلمون أنه جماد لا يقدر على ذلك لكنه قال ما قال ليعقبه بقوله : فاسألوهم إن كانوا ينطقون حتى يعترفوا بصريح القول بأنهم جمادات لا حياة لهم ولا شعور ، ولذلك لما سمعوا قوله رجعوا إلى أنفسهم فقالوا : إنكم إنتم الظالمون ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال : أفتعبدون من دون الله ما لا يضركم ولا ينفعكم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون .

قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم فبنوا له بنيانا وأسعروا فيه جحيما من النار وقد تشارك في أمره الناس جميعا وألقوه في الجحيم فجعله الله بردا عليه وسلاما وأبطل كيدهم ( الأنبياء : 57 – 70 ، الصافات : 88 – 98 ) وقد أدخل في خلال هذه الأحوال على الملك ، وكان يعبده القوم ويتخذونه ربا فحاج إبراهيم في ربه فقال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت فغالطه الملك وقال : أنا أحيى وأميت كقتل الاسير واطلاقه فحاجه إبراهيم بأصرح ما يقطع مغالطته فقال : إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر ( البقرة : 258 ) .

ثم لما أنجاه الله من النار أخذ يدعو إلى الدين الحنيف دين التوحيد فآمن له شرذمة قليلة وقد سمى الله تعالى منهم لوطا ومنهم زوجته التى هاجر بها وقد كان تزوج بها قبل الخروج

من الأرض إلى الأرض المقدسة ( 1 ) .

ثم تبرا هو عليه السلام من معه من المؤمنين من قومهم وتبرأ هو من آزر الذى كان

(300/238)

---

( 1 ) الدليل على ايمان جمع من قومه به قوله تعالى : ( قد كان لكم اسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالو لقومهم انا براء منكم ) ( الممتحنة : 4 ) ولدليل على قبل الخروج إلى الأرض المقدسة سواله الوله الصالح من ربه في قوله : ( وقال انى ذاهب إلى ربى سيهدين رب هب لى من الصالحين : 100 ) .

يدعوه أبا ولم يكن بوالده الحقيقي ( 1 ) وهاجر ومعه زوجته ولوط إلى الأرض المقدسة ليدعو الله سبحانه من غير معارض يعارضه من قومه الجفاة الظالمين ( الممتحنة : 4 الأنبياء : 71 ) وبشره الله سبحانه هناك بإسماعيل وباسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب وقد شاخ وبلغه كبر السن فولد له اسماعيل ثم ولد له إسحاق وبارك الله سبحانه فيه وفي ولديه وأولادهما .

ثم إنه عليه السلام بأمر من ربه ذهب إلى أرض مكة وهى واد غير ذى زرع فأسكن فيه ولده اسماعيل وهو صبى ورجع إلى الأرض المقدسة فنشأ إسماعيل هناك واجتمع عليه

قوم من العرب القاطنين هناك وبنيت بذلك بلدة مكة .

وكان عليه السلام ربما يزور إسماعيل في إرض مكة قبل بناء مكة والبيت وبعد ذلك ( البقرة : 126 ، إبراهيم : 35 - 41 ) ثم بنى بها الكعبة البيت الحرام بمشاركة من إسماعيل وهى أول بيت وضع للناس من جانب الله مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ( البقرة : 127 - 129 ، آل عمران : 96 - 97 ) وأذن في الناس بالحج وشرع نسك الحج ( الحج 26 : 30 ) .

ثم أمره الله بذبح ولده إسماعيل عليهما السلام فخرج معه للنسك فلما بلغ معه السعي قال يا بنى إنى أرى في المنام أنى أذبحك قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين نودى أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا وفداه الله سبحانه بذبح عظيم ( الصافات : 101 - 107 ) .

*(301/238)*

---

وآخر ما قص القرآن الكريم من قصصه عليه السلام أدعيته في بعض أيام حضوره بمكة المنقولة في سورة أبراهيم ( آية 35 - 41 ) وآخر ما ذكر فيها قوله عليه السلام : ( ربنا اغفر لى ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ) .

منزلة إبراهيم عند الله سبحانه وموقفه العبودي : أثنى الله تعالى على إبراهيم عليه السلام في كلامه أجمل ثناء وحمد محنته في جنبه أبلغ الحمد ، وكرر ذكره باسمه في نيف وستين موضعا من كتابه وذكر من مواهبه ونعمه عليه شيئا كثيرا .

وهاك جملا من ذلك : أتاه الله رشده من قبل ( الأنبياء : 51 ) واصطفاه في الدنيا وإنه في الاخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ( البقرة : 130 - 131 ) وهو الذى وجه وجهه إلى ربه

حنيفا وما كان من المشركين ( الانعام : 79 ) وهو الذى اطمأن قلبه بالله وأيقن به بما أراه الله من ملكوت السماوات والأرض ( البقرة : 260 ، الأنعام : 75 ) .

واتخذه الله خليلا ( النساء : 125 ) وجعل رحمته وبركاته عليه وعلى أهل بيته ووصفه بالتوفية ( النجم : 37 ) ومدحه بأنه حليم أواه منيب ( هود : 73 - 75 ) ومدحه أنه كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لانعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم وآتاه في الدنيا حسنة وإنه في الاخرة لمن الصالحين النحل : 120 - 122 ) .

وكان صديقا نبيا ( مريم : 41 ) وعده الله من عباده المؤمنين ومن المحسنين وسلم عليه ( الصافات : 83 - 111 ) وهو من الذين وصفهم بأنهم أولوا الايدى والابصار وأنه أخلصهم بخالصة ذكرى الدار ( ص : 45 - 46 ) .

وقد جعله الله للناس إماما ( البقرة : 124 ) وجعله أحد الخمسة أولى العزم الذين آتاهم الكتاب والشريعة ( الأحزاب : 7 ، الشورى : 13 ، الأعلى : 18 – 19 ) وآتاه الله العلم والحكمة والكتاب والملك والهداية وجعلها كلمة باقية في عقبه ( النساء : 54 ، الأنعام : 74 – 90 ) الزخرف : 28 ) وجعل في ذريته النبوة والكتاب ( الحديد : 26 ) وجعل له لسان صدق في الاخرين ( الشعراء : 84 ، مريم : 50 ) فهذه جمل ما منحه الله سبحانه من المناصب الإلهية ومقامات العبودية ولم يفصل القرآن الكريم في نعوت أحد من الأنبياء والرسل المكرمين وكراماتهم ما فصل من نعوته وكراماته عليه السلام .

وليراجع في تفسير كل من مقاماته المذكورة إلى ما شرحناه في الموضع المختص به فيما تقدم أو سنشرحه إن شاء الله تعالى فالاشتغال به ههنا يخرجنا عن الغرض المعقود له هذه الابحاث .

وقد حفظ الله سبحانه حياته الكريمة وشخصيته الدينية بما سمى هذا الدين القويم بالإسلام كما سماه عليه السلام ونسبه إليه قال تعالى : ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل ) ( الحج : 78 ) وقال : ( قل انني هداني ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ) ( الانعام : 161 ) .

وجعل الكعبة البيت الحرام الذى بناها قبلة للعالمين وشرع مناسك الحج وهى في حقيقة

أعمال ممثلة لقصه إسكانه ابنه وام ولده وتضحية ابنه إسماعيل وما سعى به إلى ربه والتوجه له وتحمل الاذى والمحنة في ذاته كما تقدمت الإشارة إليه في تفسير قوله تعالى : ( وإذ جعلنا البيت مثابة للناس ) الآية ( البقرة : 125 ) في الجزء الأول من الكتاب .

*(303/238)*

---

3 - أثره المبارك في المجتمع البشرى : ومن مننه عليه السلام السابغة أن دين التوحيد ينتهى إليه أينما كان وعند من كان فإن الدين المنعوت بالتوحيد اليوم هو دين اليهود ، وينتهى إلى الكليم موسى بن عمران عليه السلام وينتهى نسبه إلى إسرائيل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام ، ودين النصرانية وينتهى إلى المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام وهو من ذرية إبراهيم عليه السلام ، ودين الإسلام والصادع به هو محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وينتهى نسبه إلى إسماعيل الذبيح بن إبراهيم الخليل عليهما السلام ، فدين التوحيد في الدنيا أثره الطيب المبارك ، ويشاهد في الإسلام من شرائعه الصلاة والزكاة والحج وإباحة لحوم الأنعام والتبرئ من أعداء الله ، والسلام ، والطهارات العشر الحنيفية البيضاء خمس ( 1 ) منها في الرأس وخمس منها في البدن : أما التى في الرأس فأخذ الشارب وإعفاء اللحى وطم الشعر والسواك والخلال وأما التى في البدن فحلق الشعر من

البدن والختان وتقليم الأظفار والغسل من الجنابة والطهور بالماء .

والبحث المستوفى يؤيد أن السنن الصالحة من الاعتقاد والعمل في المجتمع البشرى كائنة ما كانت من آثار النبوة الحسنة كما تكررت الإشارة إليه في المباحث المتقدمة ، فلابراهيم عليه السلام الايادي الجميلة على جميع البشر اليوم علموا بذلك أو جهلوا .

*(304/238)*

---

4 – ما تقصه التوراة الموجودة في إبراهيم : قالت التوراة : ( وعاش تارح ( أبو إبراهيم ) سبعين سنة وولد أبرام وناحور وهاران ، وهذه مواليد تارح : ولد تارح أبرام وناحور وهاران ، وولد هاران لوطا ، ومات هاران قبل أبيه في أرض ميلاده في ( أور ) الكلدانيين واتخذ أبرام وناحور لانفسهما امرأتين اسم امرأة أبرام ( ساراى ) واسم امرأة ناحور ملكه بنت هاران أبى ملكة وأبى بسكة ، وكانت ساراى عاقرا ليس لها ولد وأخذ تارح أبرام ابنه ولوطا بن هاران ابن ابنه ، وساراى كنته امرأة أبرام ابنه فخرجوا معا من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك ، وكانت أيام تارح مائتين وخمس سنين ، ومات تارح في حاران .

قالت التوراة : وقال الرب لإبرام : اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت

أبيك إلى الأرض التى أريك فأجعلك أمة عظيمة وابارك واعظم اسمك وتكون بركة وابارك مباركيك ، ولاعنك ألعنه ، ويتبارك فيك جميع قبائل الأرض ، فذهب أبرام كما قال له الرب ، وذهب معه لوط ، وكان أبرام ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران فأخذ أبرام سارای امرأته ولوطا ابن أخيه وكل مقتنياتهما التى اقتنيا والنفوس التى امتلكا في حاران ، وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان فأتوا إلى أرض كنعان .

واجتاز أبرام في أرض إلى مكان ( شكيم ) إلى ( بلوطه مورة ) وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض ، وظهر الرب لابرام وقال : لنسلك اعطى هذه الأرض فبنى هناك مذبحا للرب الذى ظهر له ، ثم نقل من هناك إلى الجبل شرقي ( بيت إيل ) ونصبت خيمته وله ( بيت إيل ) من المغرب و( عاى ) من المشرق فبنى هناك مذبحا للرب ودعا باسم الرب ، ثم ارتحل أبرام ارتحالا متواليا نحو الجنوب .

*(305/238)*

---

وحدث جوع في الأرض فانحدر أبرام إلى مصر ليغرب هناك – لأن الجوع في الأرض كان شديدا ، وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لسارای امرأته : إنى قد علمت أنك أمراة حسنة المنظر فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلوننى ويستبقونك ، قولى

: إنك اختى ليكون لى خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك ، فحدث لما دخل أبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جدا ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون فاخذت المرأة إلى بيت فرعون فصنع إلى أبرام خيرا بسببها وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء واتن وجمال .

فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب سارای امرأة أبرام فدعا فرعون أبرام وقال : ما هذا الذى صنعت لى ؟ لما ذا لم تخبرني أنها امرأتك ؟ لما ذا قلت : هي اختى أخذتها لتكون زوجتى ؟ والان هوذا امرأتك خذها واذهب ، فأوصى عليه رجالا فشيعوه وامرأته وكل ما كان له .

ثم ذكرت التورات : أن أبرام خرج من مصر ومعه سارى ولوط ومعهم الاغنام والخدم والاموال العظيمه ووردوا ( بيت أيل ) و( عاى ) ثم بعد حين تفرق هوو لوط لأن الأرض ما كانت تسعهما فسكن أبرام كنعان ، وكان الكنعانيون والفرزيون ساكنون هناك ، ونزل لوط أرض سدوم .

ثم ذكرت : أنه في تلك الايام نشبت حرب في أرض سدوم بين ( أمرافل ) ملك شنعار ومعه انهزاما فاحشا وهربوا من الأرض بعد ما قتل من قتل منهم ونهبت أموالهم وسبيت نسائهم وزررايهم ، وكان فيمن أسر لوط وجميع أهله ونهبت أمواله قالت التوراة : فأتى من نجى وأخبر أبرام العبراني وكان ساكنا عند ( بلوطات ممري ) الاموری أخاه سى جر غلمانه

المترنين والدان بيته ثلاث مائة وثمانية عشر وتبعهم إلى ( دان ) وانقسم عليهم هو وعبيده فكسرهم وتبعهم إلى ( حوبة ) التى عن شمال دمشق واسترجع كل الاموال واسترجع لوطا أخاه أيضا وأملاكه والنساء أيضا والشعب .

*(306/238)*

---

فخرج ملك سدوم لاستقباله بعد رجوعه من كسرة ( كدر لعومر ) والملوك الذين معه الى عمق ( شوى ) الذي هو عمق الملك ، وملكي ( 1 ) ( شاليم ) أخرج خبزا وخمرا وكان كاهنا لله العلى وباركه وقال : مبارك أبرام من الله العلى مالك السماوات والأرض ومبارك الله العلى الذى أسلم أعداءك في يدك فأعطاه عشرا من كل شئ .

وقال ملك سدوم لابرام : أعطني النفوس ، وأما ألاملاك فخذها لنفسك فقال أبرام لملك سدوم : رفعت يدى إلى الرب الإله العلى ملك السماء والأرض لا آخذن لا خيطا ولا شراك نعل ولا من كل ما هو لك فلا تقول : أنا أغنيت أبرام ليس لى غير الذى أكله الغلمان وأما نصيب الرجال الذين ذهبوا معى ( عابر ) و( أسلول ) و( ممرا ) فهم يأخذون نصيبهم

.

إلى أن قالت : وأما سارای فلم تلد له وكانت لها جارية مصرية اسمها هاجر فقالت سارای

لابرام : هو ذا الرب قد امسكني عن الولادة ادخل على جاريتي لعلى ارزق منها بنين فسمع أبرام لقول ساراى فأخذت ساراى امرأة أبرام هاجر المصرية جاريتها من بعد عشر سنين لاقامة أبرام في أرض كنعان وأعطتها لابرام رجلها زوجة له فدخل على هاجر فحبلت .

ثم ذكرت : أن هاجر لما حبلت حقرت ساراى واستكبرت عليها فشكت ساراى ذلك إلى أبرام ففوض أبرام أمرها إليها فهربت هاجر منها فلقيها ملك فأمرها بالرجوع إلى سيدتها وأخبرها أنها ستلد ولدا ذكرا وتدعو اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتها ، وأنه يكون إنسانا وحشيا يضاد الناس ويضادونه ، وولدت هاجر لابرام ولدا وسماه أبرام إسماعيل وكان أبرام ابن ست وسبعين سنة لمات ولدت هاجر اسماعيل لابرام .

*(307/238)*

---

قالت التوراة : ولما كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لابرام وقال له : أنا الله القدير سر أمامى وكن كاملا فأجعل عهدي بينى وبينك وأكثرك كثيرا جدا فسقط أبرام على وجهه وتكلم الله معه قائلا أما أنا فهو ذا عهدي معك وتكون أبا لجمهور من الأمم ، فلا يدعى اسمك بعد أبرام بل يكون اسمك إبراهيم لانى أجعلك أبا لجمهور من الأمم وأثمرك كثيرا جدا وأجعلك امما وملوك منك يخرجون ، واقيم عهدي بينى وبينك وبين نسلك من

بعدك في أجيالهم عهدا أبديا لأكون إلها لك ولنسلك من بعدك وأعطى لك ولنسلك من بعد أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا واكون إلههم .

ثم ذكرت : أن الرب جعل في ذلك عهدا بينه وبين إبراهيم ونسله أن يختتن هو وكل من معه ويختنوا أولادهم اليوم الثامن من الولادة فختن إبراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة وختن ابنه إسماعيل وهو ابن ثلاث عشرة سنة وسائر الذكور من بنيه وعبيده قالت التوراة : وقال الله لابراهيم : سارای إمرأتك لا تدعو اسمها سارای بل اسمها سارة وأباركها وأعطيت أيضا منها ابنا ، وأباركها فتكون أمما وملوك شعوب منها يكونون ، فسقط إبراهيم على وجهه وضحك وقال في قلبه : وهل يولد لابن مائة سنة ؟ هل تلد سارة وهى بنت تسعين سنة ؟

.

وقال إبراهيم لله : ليت اسماعيل يعيش أمامك فقال الله : بل سارة إمرأتك تلد لك ابنا وتدعو اسمه إسحاق ، وأقيم عهدي معه عهدا أبديا لنسله من بعده وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا ، أثنا عشر رئيسا يلد وأجعله أمة كبيرة ، ولكن عهدي اقيمه مع إسحاق الذى تلده سارة في هذا الوقت في السنة الاتية ، فلما فرغ من الكلام معه صعد الله عن إبراهيم .

ثم ذكرت قصة نزول الرب مع الملكين لاهلاك أهل سدوم قوم لوط وأنهم وردوا على إبراهيم فضافهم وأكلوا من الطعام الذى عمله لهم من عجل قتله والزبد واللبن اللذين

قدمهما إليهم ثم بشروه وبشروا سارة بإسحاق وذكروا أمر قوم لوط فجادلهم إبراهيم في هلاكهم فأقنعوه وكان بعده هلاك قوم لوط .

ثم ذكرت أن إبراهيم انتقل إلى أرض ( حرار ) وتغرب فيها وأظهر لملكه ( أبى مالك ) أن سارة اخته فأخذها الملك منه فعاتبها الرب في المنام فأحضر إبراهيم وعاتبه على قوله أنها اختى فاعتذر أنه إنما قال ذلك خوفا من القتل واعترف أنه في الحقيقة اخته من أبيه دون امه تزوج بها فرد إليه سارة وأعطاهما مالا جزيلا ( نظير ما قص في فرعون ) .

قالت التورات : وافتقد الرب سارة كما قال وفعل الرب لسارة كما تكلم فحبلت سارة وولدت لابراهيم ابنا في شيخوخته في الوقت الذى تكلم الله عنه ودعا إبراهيم اسم ابنه الذى ولدته له سارة إسحاق ، وختن إبراهيم إسحاق ابنه وهو ابن ثمانية أيام كما أمره الله ، وكان إبراهيم ابن مائة سنة حين ولد له إسحاق ابنه ، وقالت سارة : فقد صنع إلى الله ضحكا كل من يسمع يضحك لى ، وقالت من قال لابراهيم : سارة ترضع بنين حتى ولدت ابنا في شيخوخته فكبر الولد وفطم وصنع إبراهيم وليمة عظيمة يوم فطام إسحاق .

ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذى ولدته لابراهيم يمزح فقالت لابراهيم : اطرد هذه

الجارية وابنها لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني اسحاق فقبح الكلام جدا في عينى إبراهيم لسبب ابنه فقال الله لابراهيم : لا يقبح في عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك في كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها لأنه بإسحاق يدعى لك نسل وابن الجارية أيضا سأجعله أمة لأنه نسلك .

*(309/238)*

---

فبكر إبراهيم صباحا وأخذ خبزا وقربة ماء وأعطاهما لهاجر واضعا أياهما على كتفها والولد – وصرفها فمضت وتاهت في برية بئر سبع ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الاشجار ومضت وجلست مقابله بعيدا نحو رمية قوس لانها قالت : لا أنظر موت الولد فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت فسمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الله هاجر من السماء ، وقال لها : ما لك يا هاجر ؟ لا تخافى لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو قومي واحملي الغلام وشدي يدك به لانى سأجعله امة عظيمة ، وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملات القربة ماء وسقت الغلام ، وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في

البرية ، وكان ينمو رامى قوس ، وسكن في برية فاران ، وأخذت له امه زوجة من أرض

مصر ( 1 ) .

قالت التوراة : وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم فقال له : يا إبراهيم فقال : ها أنا ذا فقال : خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحاق واذهب إلى أرض المريا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك ، فبكر إبراهيم صباحا وشد على حماره وأخذ اثنين من غلمانه معه وإسحاق معه وشقق حطبا لمحرقة وقام وذهب إلى الموضع الذى قال له الله ، وفي اليوم الثالث رفع إبراهيم عينيه وأبصر الموضع من بعيد فقال إبراهيم لغلاميه : إجلسا أنتما هينها مع الحمار ، أما أنا والغلام فنذهب إلى هناك ونسجد ونرجع إليكما ، فأخذ إبراهيم حطب المحرقة ووضعه على إسحاق ابنه وأخذ بيده النار والسكين فذهبا كلاهما معا ، وكلم إسحاق أباه إبراهيم وقال له : يا أبى فقال : ها أنا ذا يا ابني فقال : هو ذا النار والحطب ولكن أين الخروف للمحرقة ؟ فقال إبراهيم : الله يرى له الخروف للمحرقة يا ابني فذهبا كلاهما معا .

*(310/238)*

---

فلما أتيا إلى الموضع الذى قال له الله بنى هنالك إبراهيم المذبح ورتب الحطب وربط إسحاق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين لذبح ابنه

فناداه ملاك الرب من السماء وقال : إبراهيم إبراهيم ! فقال : ها أنا ذا ، فقال : لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئا لانى الان علمت أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عنى فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا كبش وراءه ممسكا في الغابة بقرنيه فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضا عن ابنه فدعا إبراهيم اسم ذلك الموضع ( يهوه برأه ) حتى أنه يقال اليوم في جبل الرب ( برى ) ، ونادى ملاك الرب إبراهيم ثانية من السماء وقال : بذاتى أقسمت يقول الرب : إنى من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيرا – كنجوم السماء وكالرمل الذى على شاطئ البحر ويرث نسلك باب أعدائه ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض من أجل أنك سمعت لقولي ثم رجع إبراهيم إلى غلاميه فقاموا وذهبوا معا إلى بئر سبع وسكن إبراهيم في بئر سبع .

ثم ذكرت تزويجه إسحاق من عشيرته بكلدان ، ثم موت سارة وهى بنت مائة وسبع وعشرين في حبرون ، ثم ازدواج إبراهيم بعدها بقطورة وإيلادها عدة من البنين ، ثم موت إبراهيم وهو ابن مائة وخمس وسبعين سنة ، ودفن ابنيه اسحاق وإسماعيل إياه في غار ( مكفيلة ) وهو مشهد الخليل اليوم .

فهذه خلاصة قصص إبراهيم عليه السلام وتاريخ حياته المورد في التوراة ( سفر التكوين الاصحاح الحادى عشر – الاصحاح الخامس والعشرون ) وعلى الباحث الناقد أن يطبق ما ورد منه فيها على ما قصه القرآن الكريم ثم يرى رأيه .

5 – الذى تشتمل عليه من القصة المسرودة على ما فيها من التدافع بين جملها والتناقض بين أطرافها مما يصدق القرآن الكريم فيما ادعاه أن هذا الكتاب المقدس لعبت به أيدى التحريف .

*(311/238)*

---

فمن عمدة ما فيها من المغمض أنها أهملت ذكر مجاهداته في أول أمره وحجاجاته قومه وما قاساه منهم من المحن والاذايا ، وهى طلائع بارقة لماعة من تاريخه عليه السلام .

ومن ذلك إهمالها ذكر بنائه الكعبة المشرفة وجعله حرما آمنا وتشريعه الحج ، ولا يرتاب أي باحث دينى ولا ناقد اجتماعي أن هذا البيت العتيق الذى لا يزال قائما على قواعده منذ أربعه آلاف سنة من أعظم الآيات الإلهية التى تذكر أهل الدنيا بالله سبحانه وآياته ، وتستحفظ كلمة الحق دهرا طويلا ، وهو أول بيت لله تعالى وضع للناس مباركا وهدى للعالمين .

وليس إهمال ذكره إلا لنزعة إسرائيلية من كتاب التوراة ومؤلفيها دعتهم إلى الصفح عن ذكر الكعبة ؟ وإحصاء ما بناه من المذابح ومذبح بناه بأرض شكيم ، وآخر بشرقي بيت إيل و ، آخر بجبل الرب .

ثم الذى وصفوا به النبي الكريم اسماعيل : أنه كان غلاما وحشيا يضاد الناس ويضادونه ، ولم يكن له من الكرامة إلا أنه كان مطرودا من حضره أبيه نما رامى قوس ! يريدون ليطفئوا نور الله بافواههم والله متم نوره .

ومن ذلك : ما نسبته إليه مما لا يلائم مقام النبوة ولا روح التقوى والفتوة

كقولها : إن ملكى صادق ملك ( شاليم ) اخرج إليه خبزا وخمرا وكان كاهنا لله العلى وباركه ( 1 ) .

ومن ذلك قولها : أن إبراهيم أخبر تارة رؤساء فرعون مصر أن سارة اخته ووصى سارة أن تصدقه في ذلك إذ قال لها : قولى : إنك اختى ليكون لى خير بسببك ، وتحيا نفسي من أجلك ، وأظهر تارة أخرى لابي مالك ملك حرار أنها اخته ، فأخذها للزوجية فرعون تارة ، وأبى مالك أخرى ، ثم ذكرت التوراة تأول إبراهيم في قوله : ( إنها اختى ) مرة بأنها اختى في الدين ، واخرى أنها ابنة أبى من غير امى فصارت لى زوجة .

*(312/238)*

---

وأيسر ما في هذا الكلام أن يكون إبراهيم ( وحاشا مقام الخليل ) يعرض زوجته سارة لامثال فرعون وأبى مالك مستغلا بها حتى يأخذاها زوجة وهى ذات بعل وينال هو بذلك

جزيل العطاء ويستدرهما بما عندهما من الخير ! .

على أن كلام التوراة صريح في أن سارة كانت عندئذ وخاصة حينما أخذها أبى مالك عجوزا قد عمرت سبعين أو اكثر ، والعادة تقضى أن المرأة تفتقد في سن العجائز نضارة شبابها ووضاءة جمالها ، والملوك والجبابرة المترفون لا يميلون إلى غير الفتيات البديعة جمالا الطرية حسنا .

وربما وجد ما يشاكل هذا المعنى في بعض الروايات ففى صحيحي البخاري ومسلم عن أبى هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله قال : لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات

وأوضح ما ينافى هذا الحدث أن الذين اكتشفوا من النصب في خرائب بابل وعليها شريعة حمورابي تشتمل على ذكر عدة من آلهة البابليين ، ويدل على كون حمورابي من الوثنيين ، ولا يستقيم عليه ان يكون كاهنا للرب .

*(313/238)*

---

اثنتين في ذات الله : قوله ( إنى سقيم ) وقوله ( بل فعله كبيرهم هذا ) وواحدة في شأن سارة فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس فقال لها : إن هذا الجبار إن يعلم

أنك امرأتي يغلبنى عليك فإن سألك فاخبريه أنك أختى فإنك اختى في الإسلام فإنى لا أعلم في الأرض مسلما غيرك وغيري ، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار فأتاه فقال له : لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغى لها ان تكون إلا لك فأرسل إليها فاتى بها فقام إبراهيم إلى الصلاة فلما دخلت عليه لم يتمالك ان بسط يده إليها فقبضت يده قبضة شديدة فقال لها : ادعى الله ان يطلق يدى ولا أضرك ففعلت فعاد فقبضت اشد من القبضتين ( 1 ) الاوليين فقال : ادعى الله ان يطلق يدى فلك الله ان لا أضرك ففعلت فاطلقت يده ودعا الذى جاء بها فقال له إنك إنما اتيتني بشيطان ولم تأتني بإنسان فأخرجها من ارضى واعطها هاجر . قال فأقبلت تمشى فلما رآها إبراهيم عليه السلام انصرف وقال لها : مهيم فقالت : خيرا كف الله يد الفاجر واخدم خادما .

قال أبو هريرة : فتلك امكم يا بنى ماء السماء .

*(314/238)*

---

وفي صحيح البخاري بطرق كثيرة عن انس وأبى هريرة ، وفي صحيح مسلم عن أبى هريرة وحذيفة ، وفي مسند احمد عن انس وابن عباس واخرجه الحاكم عن ابن مسعود والطبراني عن عبادة بن الصامت وابن أبى شيبة عن سلمان ، والترمذي عن أبى هريرة ،

وابو عوانة عن حذيفة عن أبى بكر حديث شفاعة النبي صلى الله عليه وآله يوم القيامة ، وهو حديث طويل فيه ان اهل الموقف يأتون الأنبياء واحدا بعد واحد يسألونهم الشفاعة عند الله ، وكلما اتوا نبيا وسألوه الشفاعة ، ردهم إلى من بعده واعتذر بشئ من عثراته حتى ينتهوا إلى خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وآله فيجيبهم إلى مسألتهم وفي الحديث : انهم يأتون إبراهيم عليه السلام يطلبون منه ان يشفع لهم عند الله فيقول لهم : لست هناكم إنى كذبت ثلاث كذبات : قوله ( انى سقيم ) وقوله ( بل فعله كبيرهم هذا ) وقوله لامرأته ( اخبريه انى اخوك ) .

والاعتبار الصحيح لا يوافق مضمون الحديثين كما ذكره بعض الباحثين إذ لو كان المراد بهما ان الأقاويل الثلاث التى وصفت فيهما أنها كذبات ليست كذبات حقيقية بل من قبيل التوريات والمعاريض البديعة كما ربما يلوح من بعض ألفاظ الحديث كالذى ورد في بعض طرقه من قول النبي صلى الله عليه وآله : ( لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات كلها في ذات الله ) وكذا قوله صلى الله عليه وآله : ( ما منها كذبة إلا ما حل ( 1 ) بها عن دين الله ) فما بال إبراهيم في حديث القيامة يعدها ذنوبا لنفسه ومانعة عن القيام بأمر الشفاعة ويعتذر بها عنها ؟ فإنها على هذا التقدير كانت من محنه في ذات الله وحسناته في الدين لو جاز لنبى من الأنبياء أن يكذب لمصلحة الدين لكنك قد عرفت في ما تقدم من مباحث

النبوة في الجزء الثاني من هذا الكتاب أن ذلك مما لا يجوز على الأنبياء عليهم السلام قطعا لاستيجابه سلب الوثوق عن إخباراتهم وأحاديثهم من أصلها .

*(315/238)*

---

على أن هذا النوع من الاخبار لو جاز عده كذبا ومنعه عن الشفاعة عند الله سبحانه كان قوله عليه السلام لما رأى كوكبا والقمر والشمس : هذا ربى وهذا ربى أولى بأن يعد كذبا مانعا عن الشفاعة المنبئة عن القرب من الله تعالى .

على أن قوله عليه السلام على ما حكاه الله تعالى بقوله : ( فنظر نظرة في النجوم فقال إنى سقيم ) لا يظهر بشئ من قرائن الكلام كونه كذبا غير مطابق للواقع فلعله عليه السلام كان سقيما بنوع من السقم لا يحجزه عما هم به من كسر الأصنام .

وكذا قوله عليه السلام للقوم إذ سألوه عن أمر الأصنام المكسورة بقولهم : ( ءأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ) فأجابهم وهم يعلمون أن أصنامهم من الجماد الذى لا شعور فيه ولا إرادة له : ( بل فعله كبيرهم هذا ) ثم أردفه بقوله : ( فاسألوهم إن كانوا ينطقون ) لا سبيل إلى عده كذبا فإنه كلام موضوع مكان التبكيت مسوق لالزام الخصم على الاعتراف ببطلان مذهبه ، ولذا لم يجد القوم بدا دون أن اعترفوا بذلك فقالوا : ( لقد علمت ما هؤلاء ينطقون

قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم اف لكم ولما تعبدون من دون الله ) ( الأنبياء : 67 ) .

ولو كان المراد أن الأقاويل الثلاث كذبات حقيقية كان ذلك من المخالفة الصريحة لكتاب الله تعالى ، ونحيل ذلك إلى فهم الباحث الناقد فليراجع ما تقدم في الفصل الثانى من الكلام في منزلة إبراهيم عليه السلام عند الله تعالى وموقفه العبودي مما أثنى الله عليه بأجمل الثناء وحمد مقامه أبلغ الحمد .

وليت شعرى كيف ترضى نفس باحث ناقد أو تجوز أن ينطبق مثل قوله تعالى : ( واذكر الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا ) ( مريم 41 ) على رجل كذاب يستريح إلى كذب القول كلما ضاقت عليه المذاهب ؟ أو كيف يمدح الله بتلك المدائح الكريمة رجلا لا يراقب الله سبحانه في حق أو صدق ( حاشا ساحة خليل الله عن ذلك ) .

*(316/238)*

---

وأما الاخبار المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام فإنها تصدق التوراة في أصل القصة غير أنها تجل إبراهيم عليه السلام عما نسب إليه من الكذب وسائر ما لا يلائم قدس ساحته ، ومن أجمع ما يتضمن قصة الخليل عليه السلام ما في الكافي عن على عن أبيه

وعدة من أصحابنا عن سهل جميعا عن ابن محبوب عن إبراهيم بن زيد الكرخي قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : إن إبراهيم عليه السلام كان مولده بكوثار وكان أبوه من أهلها ، وكانت ام إبراهيم وام لوط عليهما السلام وسارة وورقة – وفي نسخة رقبة – اختين وهما ابنتان للاحج ، وكان لاحج نبيا منذرا ولم يكن رسولا .

وكان إبراهيم عليه السلام في شبيبته على الفطرة التى فطر الله عزوجل الخلق عليها حتى هداه الله تبارك وتعالى إلى دينه واجتباه ، وأنه تزوج سارة ابنة لاحج وهى ابنة خالته وكانت سارة صاحبة ماشية كثيرة وأرض واسعة وحال حسنة ، وكانت قد ملكت إبراهيم جميع ما كانت تملكه فقام فيه وأصلحه وكثرت الماشية والزرع – حتى لم يكن بأرض كوثاريا رجل أحسن حالا منه .

وإن إبراهيم عليه السلام لما كسر أصنام نمروذ وأمر به نمروذ فأوثق وعمل له حيرا وجمع له فيه الحطب وألهب فيه النار ثم قذف إبراهيم عليه السلام في النار لتحرقه ثم اعتزلوها حتى خمدت النار ثم أشرفوا على الحير فإذا هم بإبراهيم عليه السلام سليما مطلقا من وثاقه فأخبر نمروذ خبره فأمرهم أن ينفوا إبراهيم عليه السلام من بلاده ، وأن يمنعوه من الخروج بماشيته وماله فحاجهم إبراهيم عليه السلام عند ذلك فقال : إن أخذتم ماشيتي ومالى فإن حقى عليكم أن تردوا على ما ذهب من عمرى في بلادكم ، واختصموا إلى قاضى نمروذ فقضى على إبراهيم عليه السلام أن يسلم إليهم جميع ما أصاب في بلادهم ،

وقضى على أصحاب نمروذ أن يردوا على إبراهيم عليه السلام ما ذهب من عمره في بلادهم ، وأخبر بذلك نمرود

(317/238)

---

فأمرهم أن يخلوا سبيله وسبيل ماشيته وماله وأن يخرجوه ، وقال : إنه إن بقى في بلادكم أفسد دينكم وأضر بآلهتكم فأخرجوا إبراهيم ولوطا عليهما السلام معه من بلادهم إلى الشام .

فخرج إبراهيم ومعه لوط لا يفارقه وسارة ، وقال لهم : إنى ذاهب إلى ربى سيهدين يعنى إلى بيت المقدس فتحمل إبراهيم بماشيته وماله وعمل تابوتا وجعل فيه سارة وشد عليها الاغلاق غيرة منه عليها ومضى حتى خرج من سلطان نمرود ، وسار إلى سلطان رجل من القبط يقال له ( عزارة ) فمر بعاشر له فاعترضه العاشر ليعشر ما معه – فلما انتهى إلى العاشر ومعه التابوت قال العاشر لابراهيم عليه السلام : افتح هذا التابوت لنعشر ما فيه فقال له إبراهيم عليه السلام : قل ما شئت فيه من ذهب أو فضة حتى نعطى عشرة ولا نفتحة .

قال : فأبى العاشر إلا فتحه قال : وغضب ( 1 ) إبراهيم عليه السلام : على فتحه فلما

بدت له سارة وكانت موصوفة بالحسن والجمال قال له العاشر : ما هذه المرأة منك ؟ قال إبراهيم عليه السلام : هي حرمتي وابنة خالتي ، فقال له العاشر فما دعاك إلى أن خبيتها في هذا التابوت ؟ فقال إبراهيم عليه السلام الغيرة عليها أن يراها أحد فقال له العاشر : لست ادعك تبرح حتى أعلم الملك حالها وحالك .

قال : فبعث رسولا إلى الملك فأعلمه فبعث الملك رسولا من قبله ليأتوه بالتابوت فأتوا ليذهبوا به فقال لهم إبراهيم عليه السلام : إني لست أفارق التابوت حتى يفارق روحي جسدي فأخبروا الملك بذلك فأرسل الملك أن احملوه والتابوت معه فحملوا إبراهيم عليه السلام والتابوت وجميع ما كان معه حتى أدخل على الملك فقال له الملك : افتح التابوت فقال له إبراهيم عليه السلام : أيها الملك إن فيه حرمتي وابنة خالتي وأنا مفتد فتحه بجميع ما معى .

*(318/238)*

---

قال : فغضب الملك إبراهيم عليه السلام على فتحة فلما رأى سارة لم سملك حلمه سفهه أن مد يده إليها فأعرض إبراهيم عليه السلام وجهه عنها وعنه غيرة منه وقال : اللهم : إن إلهك هو الذى فعل بى هذا ؟ فقال له : معم إن إلهى غيور يكره الحرام ، هو الذى ما إردته

من الحرام فقال له له الملك : فدع إلك يرد على يدى فإن أجابك فلم أعرض لها فقال إبراهيم عليه السلام : إلهى رد إليه يده لكيف عن حرمتي .

قال : فرد الله عزوجل إليه يده فأقبل الملك نحوها ببصره ثم عاد بيده نحوها فأعرض إبراهيم عنه بوجهه غيرة

منه ، وقال : اللهم احبس يده ولم تصل إليها .

فقال الملك لابراهيم عليه السلام : إن إلهك لغيور وإنك لغيور فدع إلهك يرد إلى يدى فإنه إن فعل لم أعد فقال إبراهيم عليه السلام : أسأله ذالك على إنك إن عدت لم تسألني أن أسأله فقال له الملك : نعم فقال إبراهيم عليه السلام : اللهم إن كان صادقا فرد يده عليه فرجعت إليه يده .

فلما رأى ذلك من الغيرة ما رأى الآية في يده عظم إبراهيم عليه السلام وهاب وأكرمه واتقاه ، وقال له : قد أمنت من أن أعرض لها أو لشيء مما معك فانطلق حيث شئت ولكن لى إليك حاجة فقال إبراهيم عليه السلام : ما هي ؟ فقال له : أحب أن تأذن لى أن اخدمها قبطية عندي جميلة عاقلة تكون لها خادما قال : فأذن إبراهيم عليه السلام فدعا بها فوهبها لسارة وهى هاجر م اسماعيل عليه السلام .

*(319/238)*

فسار إبراهيم عليه السلام بجميع ما معه ، وخرج الملك معه يمشى خلف أبراهيم عليه السلام إعظاما لابراهيم وهيبة له فأوحى الله تبارك وتعالى إلى إبراهيم عليه السلام أن قف ولا تمش قدام الجبار المتسلط ويمشى وهو خلفك ، ولكن اجعله أمامك وامش خلفه وعظمه وهبه فإنه مسلط ولا بد من إمرة في الأرض برة أو فاجرة فوقف إبراهيم عليه السلام قال للملك : امض فإن إلهى أوحى إلى الساعة أن أعظمك وأهابك ، وأن اقدمك أمامى وأمشى خلفك إجلالا لك فقال له الملك : أوحى إليك بهذا ؟ فقال إبراهيم عليه السلام نعم فقال له الملك : أشهد أن إلهك لرفيق حليم كريم وأنك ترغبني في دينك .

قال : وودعه الملك فسار إبراهيم عليه السلام حتى نزل بأعلى الشامات ، وخلف لوطا عليه السلام في أدنى الشامات .

ثم أن إبراهيم عليه السلام لما أبطأ عليا لولد قال لسارة : لو شئت لبعتني هاجر لعل الله أن يرزقنا منها ولدا فيكون لنا خلفا ، فابتاع إبراهيم عليه السلام هاجر من سارة فوقع عليها فولدت اسماعيل عليه السلام .

ومن ذلك ما ذكرته أعنى التوراة في قصة الذبح أن الذبيح هو إسحاق دون إسماعيل عليهما السلام مع أن قصة إسكانه بأرض تهامة وبنائه الكعبة المشرفة وتشريع عمل الحج الحاكى لما جرى عليه وعلى امه من المحنة والمشقة في ذات الله ، وقد اشتمل على الطواف والسعى

والتضحية كل ذلك تؤيد كون الذبيح هو إسماعيل دون إسحاق عليهما السلام .

وقد وقع في إنجيل برنابا أن المسيح لام اليهود ووبخهم على قولهم بأن الذبيح هو إسحاق دون إسماعيل قال في الفصل 44 : فكلم الله إبراهيم قائلا : خذ ابنك بكرك إسماعيل واصعد الجبل لتقدمه ذبيحة فكيف يكون إسحاق البكر وهو لما ولد كان اسماعيل ابن سبع سنين الفصل 44 آية 11 - 12 .

*(320/238)*

---

وأما القرآن فإن آياته كالصريحة في كون الذبيح هو إسماعيل عليه السلام قال تعالى بعد ما ذكر قصة كسر الأصنام وإلقائه في النار وجعلها بردا وسلاما : ( فأرادوا به كيدا فجعلناهم الاسفلين وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين رب هب لي من الصالحين فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ما ذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه في الاخرين سلام على إبراهيم كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم

لنفسه مبين ) ( الصافات : 113 ) .

والمتدبر في الآيات الكريمة لا يجد مناصا دون أن يعترف ان الذبيح هو الذى ذكر الله سبحانه البشارة به في قوله : ( فبشرناه بغلام حليم ) وأن البشارة الاخرى التى ذكرها أخيرا بقوله ( وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ) غير البشارة الأولى ، والذى بشر به في الثانية وهو إسحاق عليه السلام غير الذى بشر به في الأولى وأردفها بذكر قصة التضحية به .

وأما الروايات فالتى وردت منها من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام تذكر أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام ، والتى رويت من طرق أهل السنة والجماعة مختلفة : فصنف يذكر إسماعيل وصنف يذكر إسحاق عليهما السلام غير أنك عرفت أن الصنف الأولى هو الذى يوافق الكتاب .

قال الطبري في تاريخه : اختلف السلف من علماء امة نبينا محمد صلى الله عليه وآله في الذى أمر إبراهيم بذبحه من ابنيه فقال بعضهم : هو إسحاق بن إبراهيم ، وقال بعضهم : هو اسماعيل ابن إبراهيم .

*(321/238)*

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله كلا القولين لو كان فيهما صحيح لم نعده إلى غيره غير أن الدليل من القرآن على صحة الرواية التى رويت عنه صلى الله عليه وآله أنه قال : هو إسحاق أوضح وأبين منه على صحة الأخرى .

إلى أن قال : وأما الدلالة من القرآن التى قلنا : إنها على أن ذلك إسحاق أصح فقوله تعالى مخبرا عن دعاء خليله إبراهيم حين فارق قومه مهاجرا إلى ربه إلى الشام مع زوجته سارة قال : ( إنى ذاهب إلى ربى سيهدين رب هب لى من الصالحين ) وذلك قبل أن يعرف هاجر ، وقبل أن تصير له ام اسماعيل ثم أتبع ذلك ربنا عزوجل الخبر عن إجابة دعائه وتبشيره إياه بغلام حليم ثم عن رؤيا إبراهيم أنه يذبح ذلك الغلام حين بلغ معه السعي .

ولا نعلم في كتاب الله عزوجل تبشيرا لابراهيم بولد ذكر إلا بإسحاق وذلك قوله : ( وأمراته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ) وقوله : فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم ) .

ثم ذلك كذلك في كل موضع ذكر فيه تبشير إبراهيم بغلام فإنما ذكر تبشير الله إياه به من زوجته سارة فالواجب أن يكون ذلك في قوله : ( فبشرناه بغلام حليم ) نظير ما في سائر سور القرآن من تبشيره إياه من زوجته سارة .

وأما اعتلال من اعتل بأن الله لم يأمر بذبح إسحاق وقد أتته البشارة من الله قبل ولادته

بولادته وولادة يعقوب منه من بعده فإنها علة غير موجبة صحة ما قال ، وذلك أن الله تعالى إنما أمر إبراهيم بذبح إسحاق بعد إدراك إسحاق السعي وجائز أن يكون يعقوب ولد له قبل أن يؤمر أبوه بذبحه .

وكذلك لا وجه لاعتلال من اعتل في ذلك بقرن الكبش أنه رآه معلقا بالكعبة وذلك أنه غير مستحيل أن يكون حمل من الشام إلى الكعبة فعلق هنالك ، انتهى كلامه .

*(322/238)*

---

وليت شعرى كيف خفى عليه أن إبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد عند مهاجرته إلى الشام وعنده سارة ولا خبر عن هاجر يومئذ سأل ذلك بقوله : ( رب هب لى من الصالحين ) فسأل ربه الولد ، ولم يسأل أن يرزقه ذلك من سارة حتى تحمل البشارة المذكورة عقيبه على البشارة بإسحاق فإنما قال : ( رب هب لى ) ولم يقل : رب هب لى من سارة .

وأما ما ذكره أن المعروف من سائر مواضع كتاب الله هو البشرى بإسحاق فيجب أن نحمل البشرى في هذا الموضع عليه أيضا .

فمع ما سيجئ من الكلام عليه في سائر الموارد التى أشار إليها هو في نفسه قياس لا دليل عليه بل الدليل على خلافه فإن الله سبحانه في هذه الآيات لما ذكر البشارة بغلام حليم ثم

ذكر قصة الذبح استأنف ثانيا ذكر البشارة بإسحاق ولا يرتاب المتدبر في هذا السياق أن المبشر به ثانيا غير المبشر به أولا فقد بشر إبراهيم عليه السلام قبل اسحاق بولد له آخر وليس إلا اسماعيل ، وقد اتفق الرواة والنقلة وأهل التاريخ أن اسماعيل ولد لابراهيم قبل اسحاق عليهم السلام جميعا .

ومن ذلك التدافع البين فيما تذكره التوراة من أمر اسماعيل فإنها تصرح أن اسماعيل ولد لابراهيم عليهم السلام قبل أن يولد له اسحاق بما يقرب من أربعة عشر عاما وان إبراهيم عليه السلام طرده وامه هاجر بعد تولد اسحاق لما استهزأ بسارة ثم تسرد قصة إسكانهما الوادي ونفاد الماء الذى حملته هاجر وعطش اسماعيل ثم إراءة الملك إياها الماء ، ولا يرتاب الناظر المتدبر في القصة ان اسماعيل كان عندئذ صبيا مرضعا فعليك بالرجوع إليها والتأمل فيها ، وهذا هو الذى يوافق المأثور من أخبارنا .

*(323/238)*

---

6 – القرآن الكريم يعتنى أبلغ الاعتناء بقصة إبراهيم عليه السلام من جهة نفسه ومن جهة ابنيه الكريمين إسماعيل وإسحاق وذريتهما معا بخلاف ما يتعرض له في التوراة فإنها تقصر الخبر عنه بما يتعلق بإسحاق وشعب إسرائيل ، ولا يلتفت إلى اسماعيل إلا ببعض ما يهون

أمره ويحقر شأنه ، ومع ذلك لا يخلو يسير ما تخبر عنه عن التدافع فتارة تذكر خطاب الله سبحانه لابراهيم عليه السلام أن نسلك الباقي هومن إسحاق ، وتارة أخرى خطابه أن الله بارك لنسلك من عقب اسماعيل وسيجعله امة كبيرة ، وتارة تعرفه إنسانا وحشيا يضاد الناس ويضاده الناس قد نشأ رامى قوس مطرودا عن بيت ابيه ، وتاره تذكر ان الله معه .

وبالتأمل فيما تقدم من قصته عليه السلام في القرآن يظهر الجواب عن إشكالين أشكل بهما على الكتاب العزيز .

الإشكال الأول ما ذكره بعض المستشرقين أن القرآن في سوره المكية لا يتعرض لشأن إبراهيم واسماعيل عليهما السلام إلا كما يتعرض لشأن سائر الرسل من أنهم كانوا على دين التوحيد ينذرون الناس ويدعونهم إلى الله سبحانه من غير أن يذكر بناءه الكعبة وصلته بإسماعيل وكونهما داعيين للعرب إلى دين الفطرة والملة الحنيفية .

لكن السور المدينة كالبقرة والحج وغيرهما تذكر إبراهيم وإسماعيل متصلين اتصال الابوة والبنوة وأبوين للعرب مشرعين لها دين الإسلام بانيين للكعبة البيت الحرام .

وسر هذا الاختلاف أن محمدا كان قد اعتمد على اليهود في مكة فما لبثوا أن اتخذوا حياله خطة عداء فلم يكن له بد أن التمس غيرهم ناصرا .

هناك هداه ذكاء مسدد إلى شأن جديد لابي العرب إبراهيم وبذلك استطاع أن يخلص من

يهودية عصره ليصل حبله بيهودية إبراهيم فعده أبا للعرب مشيدا لدينهم الإسلام بانيا لبيتهم المقدس الذى في مكه لما أن هذه المدينة كانت تشغل جل تفكيره .

انتهى ملخصا .

*(324/238)*

---

وقد أزرى المستشكل على نفسه بهذه الفرية التى نسبها إلى الكتاب العزيز الذى له شهرته العالمية التى لا يتحجب معها على شرقي ولا غربي فكل باحث متدبر يشاهد ان القرآن الكريم لم يداهن مشركا ولا يهوديا ولا نصرانيا ولا غيرهم في سورة مكية ولا مدنية ولم يختلف لحن قوله في تخطئة اليهود ولا غيرهم بحسب مكية السور ومدنيتها .

غير أن الآيات القرآنية لما نزلت نجوما بحسب وقوع الحوادث المرتبطة بالدعوة الدينيه ، وكان الابتلاء بأمر اليهود بعد الهجرة كان التعرض لشؤونهم والابانة عن التشديد في قهم لا محالة في الآيات النازلة في تضاعيف السور المدينة كتفاصيل الأحكام المشرعة التى أنزلت فيها حسب مسيس الحاجة بحدوث الحوادث .

وأما ما ذكراه من اختصاص حديث اتصال اسماعيل بإبراهيم عليهما السلام وبناء الكعبة وتأسيس الدين الحنيف بالسور المدنية فيكذبه قوله تعالى في سورة إبراهيم وهى مكية

فيما حكاه من دعاء إبراهيم عليه السلام : ( وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبنى أن نعبد الأصنام – إلى أن قال – ربنا إنى أسكنت من ذريتي بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئده من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون – إلى ان قال – الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء ) ( إبراهيم : 39 ) .

وقد مر نظيره في الآيات المنقولة من سورة الصافات آنفا المنبئة عن قصة الذبيح .

وأما ما ذكراه من يهودية إبراهيم عليه السلام فإن القرآن يرده بقوله تعالى : ( يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل إلا من بعده أفلا تعقلون – إلى ان قال – ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ( آل عمران 67 ) .

*(325/238)*

---

الاشكال الثاني : أن الصابئين وهم عبدة الكواكب الذين يذكر القرآن تعرض إبراهيم عليه السلام لالهتهم بقوله : ( ( فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى ) إلى آخر الآيات إنما كانوا بمدينة حران التى هاجر إليها إبراهيم عليه السلام من بابل أو من ( اور ) ولازمه ان

يكون حجاجه عبدة الكواكب بعد مدة من حجاجه عبدة الأصنام وكسره الأصنام ودخوله النار ، ولا يلائم ذلك ما هو ظاهر الآيات أن قصة الحجاج مع عبدة الأصنام والكواكب وقعت جميعا في يومين عند أول شخوصه إلى أبيه وقومه كما تقدم بيانه .

أقول : وهذا في الحقيقة إشكال على التفسير الذى تقدم إيراده في بيان الآيات لا على أصل الكتاب .

ومع ذلك ففيه غفلة عما يثبته التاريخ ويعطيه الاعتبار الصحيح أما الاعتبار فإن المملكة التى ينتحل في بعض بلاده العظيمة بدين من الاديان الشائعة المعروفة كالصابئية التى كانت يؤمئذ من الاديان المعروفة في الدنيا لا يخلو من شيوع في سائر بلادها ووجود جماعة من منتحليه منتشرة في أقطارها .

وأما التاريخ فقد ذكر شيوعه كشيوع الوثنية ببابل ووجود معابد كثيرة فيها بنيت على اسماء الكواكب وأصنام لها منصوبة فيها فقد جاء في تاريخ ارض بابل وما والاها ذكر بناء معبد إله الشمس وإله القمر في حدود سنة ثلاثة آلاف ومائتين قبل المسيح ، وفي نصب شريعة حمورابي ذكر إله الشمس وإله القمر وهو مما يقرب زمن الخليل إبراهيم عليه السلام .

وقد تقدم فيما نقلناه من كتاب الاثار الباقية لابي ريحان البيرونى : أن يوذاسف ظهر عند مضى سنة من ملك طهمورث بأرض الهند ، وأتى بالكتابة الفارسية ، ودعا إلى ملة الصابئين فأتبعه خلق كثير ، وكانت الملوك البيشدادية وبعض الكيانية ممن كان يستوطن

بلخ يعظمون النيرين والكواكب وكليات العناصر إلى وقت ظهور زراتشت عند مضى ثلاثين سنة من ملك بشتاسف .

*(326/238)*

---

وساق الكلام إلى أن قال : وينسبون التدبير إلى الفلك وأجرامه ويقولون بحياتها ونطقها وسمعها وبصرها ، ويعظمون الانوار ، ومن آثارهم القبة التى فوق المحراب عند المقصورة من جامع دمشق كان مصلاهم ، وكان اليونانيون والروم على دينهم ، ثم صارت في أيدى اليهود فعملوها كنيستهم ، ثم تغلب عليها النصارى فصيروها بيعة إلى أن جاء الإسلام وأهله فاتخذوها مسجدا .

وكانت لهم هياكل وأصنام بأسماء الشمس معلومة الاشكال كما ذكرها أبو معشر البلخى في كتابه في بيوت العبادات مثل هيكل بعلبك كان لصنم الشمس ، وقران فإنها منسوبة إلى القمر وبناؤها على صورته كالطيلسان ، وبقربها قرية تسمى سلمسين واسمها القديم : صنم سين أي صنم القمر : وقرية أخرى تسمى ترع عوز أي باب الزهرة .

ويذكرون أن الكعبة وأصنامها كانت لهم ، وعبدتها كانوا من جملتهم وأن اللات كان باسم زحل ، والعزى باسم الزهرة ، انتهى .

وذكر المسعودي أن مذهب الصابئة كان نوعا من التحول والتكامل في دين الوثنية وأن الصبوة ربما كانت تتحول إلى الوثنية لتقارب مأخذيهما ، وأن الوثنية ربما كانوا يعبدون أصنام الشمس والقمر والزهرة وسائر الكواكب تقربا بها إلى آلهتها ثم إلى إله الالهة .

قال في مروج الذهب : كان كثير من أهل الهند والصين وغيرهم من الطوائف يعتقدون أن الله عزوجل جسم ، وأن الملائكة أجسام لها أقدار وأن الله تعالى وملائكته احتجبوا بالسماء ، فدعاهم ذلك إلى ان اتخذوا تماثيل وأصناما على صورة الباري عزوجل وبعضها على صورة الملائكة مختلفة القدود والاشكال ، ومنها على صورة الإنسان وعلى خلافها من الصور يعبدونها ، وقربوا لها القرابين ، ونذروا لها النذور لشبهها عندهم بالبارى تعالى وقربها منه .

فأقاموا على ذلك برهة من الزمان وجملة من الاعصار حتى نبههم بعض حكمائهم على أن الافلاك والكواكب أقرب الاجسام المرئية إلى الله تعالى وأنها حية ناطقة ، وأن

(327/238)

---

الملائكة تختلف فيهما بينها وبين الله ، وأن كل ما يحدث في هذا العالم فإنما هو على قدر ما تجرى به الكواكب عن أمر الله فعظموها وقربوا لها القرابين لتنفعهم فمكثوا على ذلك دهرا

.

فلما رأوا الكواكب تخفى بالنهار وفي بعض أوقات الليل لما يعرض في الجو من السواتر أمرهم بعض من كان فيهم من حكمائهم أن يجعلوا لها أصناما وتماثيل على صورها وأشكالها فجعلوا لها أصناما وتماثيل بعدد الكواكب الكبار المشهورة ، وكل صنف منهم يعظم كوكبا منها ، ويقرب لها نوعا من القربان خلاف ما للاخر على أنهم إذا عظموا ما صوروا من الأصنام تحركت لهم الاجسام العلوية من السبعة بكل ما يريدون ، وبنوا لكل صنم بيتا وهيكلا مفردا ، وسموا تلك الهياكل بأسماء تلك الكواكب .

وقد ذهب قوم إلى أن البيت الحرام هو بيت زحل ، وإنما طال عندهم بقاء هذا البيت على مرور الدهور معظما في سائر الاعصار لأنه بيت زحل ، وأن زحل تولاه لأن زحل من شأنه البقاء والثبوت ، فما كان له فغير زائل ولا داثر ، وعن التعظيم غير حائل وذكروا امورا أعرضنا عن ذكرها لشناعة وصفها .

ولما طال عليهم العهد عبدوا الأصنام على أنها تقربهم إلى الله وألغوا عبادة الكواكب فلم يزالوا على ذلك حتى ظهر يوذاسف بأرض الهند وكان هنديا ، وكان يوذاسف خرج من أرض الهند إلى السند ثم سار إلى بلاد سجستان وبلاد زابلستان وهى بلاد فيروز بن كبك ثم دخل السند ثم إلى كرمان .

فتنبأ وزعم أنه رسول الله ، وأنه واسطة بين الله وبين خلقه ، وأتى أرض فارس ، وذلك في

أوائل ملك طهمورث ملك فارس ، وقيل : ذلك في ملك جم ، وهو أول من أظهر مذاهب الصابئة على حسب ما قدمنا آنفا فيما سلف من هذا الكتاب .

(328/238)

---

وقد كان يوذاسف أمر الناس بالزهد في هذا العالم ، والاشتغال بما علا من العوالم ، إذ كان من هناك بدء النفوس وإليها يقع الصدر من هذا العالم ، وجدد يوذاسف عند الناس عبادة الأصنام والسجود لها لشبه ذكرها ، وقرب لعقولهم عبادتها بضروب من الحيل والخدع .

وذكر ذووا الخبرة بشأن هذا العالم وأخبار ملوكهم : أن جم الملك أول من عظم النار ودعا الناس إلى تعظيمها ، وقال إنها تشبه ضوء الشمس والكواكب لأن النور عنده أفضل من الظلمة ، وجعل للنور مراتب .

ثم تنازع هؤلاء بعده فعظم كل فريق منهم ما يرون تعظيمه من الأشياء تقربا إلى الله بذلك .

ثم ذكر المسعودي البيوت المعظمة عندهم وهى سبعة الكعبة البيت الحرام باسم زحل ، وبيت على جبل مارس بإصفهان ، وبيت مندوسان ببلاد الهند ، وبيت نوبهار بمدينة بلخ على اسم القمر ، وبيت غمدان بمدينة صنعاء من بلاد اليمن على اسم الزهرة ، وبيت كاوسان بمدينة فرغانة على اسم الشمس ، وبيت بأعالى بلاد الصين على اسم العلة الأولى

.

واليونان والروم القديم والصقالبة بيوت معظمة بعضهما مبنية على اسم الكواكب كالبيت الذى بتونس للروم الذى على اسم الزهرة ثم ذكر المسعودي أن للصابئين من الحرانيين ( 1 ) هياكل على أسماء الجواهر العقلية والكواكب فمن ذلك هيكل العلة الأولى وهيكل العقل .

قال : ومن هياكل الصابئة هيكل السلسلة ، وهيكل الصورة وهيكل النفس وهذه مدورات الشكل ، وهيكل زحل مسدس ، وهيكل المشترى مثلث ، وهيكل المريخ مربع مستطيل ، وهيكل الشمس مربع ، وهيكل عطارد مثلث الشكل ، وهيكل الزهر . مثلث في جوف مربع مستطيل ، وهيكل القمر مثمن الشكل ، وللصابئة فيما ذكرنا رموز وأسرار يخفونها ، انتهى .

وقريب منه ما في الملل والنحل للشهرستاني .

*(329/238)*

---

وقد تبين مما نقلناه أولا : أن الوثنية كما كانت تعبد أصناما للالهة وأرباب الانواع كذلك كانت تعبد أصنام الكواكب والشمس والقمر ، وكانت عندهم هياكل على أسمائها ، ومن الممكن أن يكون حجاج إبراهيم عليه السلام في أمر الكواكب والقمر والشمس ، مع الوثنية

العابدين لها المتقربين بها دون الصابئة كما يمكن أن يكون مع بعض الصابئين في مدينة بابل أو بلدة اور أو كوثاريا على ما في بعض الروايات المنقولة سالفا .

على أن ظاهر ما يقصه القرآن الكريم : أن إبراهيم عليه السلام حاج أباه وقومه وتحمل أذاهم في الله حتى اعتزلهم وهجرهم بالمهاجرة من أرضهم إلى الأرض المقدسة من غير أن يتغرب من أرضهم إلى حران أولا ثم من حران إلى الأرض المقدسة ، والذى ضبطه كتب التاريخ من مهاجرته إلى حران أولا ثم من حران إلى الأرض المقدسة لا مأخذ له غير التوراة أو أخبار غير سليمة من نفثة إسرائيلية كما هو ظاهر لمن تدبر تاريخ الطبري وغيره .

على ان بعضهم ذكروا أن حران المذكور في التوراة كان بلدا قرب بابل بين الفرات وخابور ، وهو غير حران الواقع قرب دمشق الموجود اليوم .

نعم ذكر المسعودي ان الذى بقى من هياكلهم – الصابئة – المعظمة في هذا الوقت – وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة – بيت لهم بمدينة حران في باب الرقة يعرف ( بمغليتيا ) وهو هيكل آزر أبى إبراهيم الخليل عليه السلام عندهم ، وللقوم في آزر وابنة إبراهيم كلام كثير ، انتهى .

ولا حجة في قولهم على شئ .

*(330/238)*

وثانيا : أنه كما اأ الوثنية ربما كانت تعبد الشمس والقمر والكواكب كذلك الصابئة كانت تبنى بيوتا وهياكل لعبادة غير الكواكب والقمر والشمس كالعلة الأولى والعقل والنفس وغيرها كالوثنية وتتقرب إليها مثلهم وقد ذكر هيرودوتوس في تاريخه في ما يصف معبد بابل أنه كان مشتملا على ثمانية أبراج بعضها مبنية على بعض وأن آخر الابراج وهو أعلاها كان مشتملا على قبة وسيعة ما فيها غير عرش عظيم حياله طاولة من ذهب ، وليس في القبة شئ من التماثيل والاصنام ، ولا يبيت فيها أحد إلا امرأة يزعم الناس أن الله هو اختارها للخدمة ووظفها للملازمة .

انتهى .

ولعله كان للعلة الأولى المنزهة عن الهيئات والاشكال وإن كانوا ربما يصورونه بما يتوهمونه من الصور كما ذكره المسعودي .

وقد ثبت أن فلاسفتهم كانوا ينزهون الله تعالى عن الهيئات الجسمانية والاشكال والاوضاع المادية ويصفونة بما يليق به من الصفات غير أنهم كانوا يتقون العامة أن يظهروا ما يعتقدونه فيه سبحانه إما لعدم استعداد أفهامهم لتلقى ذلك ، أو لمقاصد وأغراض سياسية توجب كتمان الحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الميزان حـ 7 صـ 215 . 240 ﴾

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " الَّذِينَ آمَنُوا " هل هو من كلام إبراهيم ، أو من كلامه قومه ، أو من كلام اللَّهِ تعالى ؟ ثلاثة أقوالٍ ، وعليها يَتَرَتَّبُ الإعرابُ .

فإن قلنا : إنها من كلام إبراهيم كانت جواباً عن السؤال في قوله " فأيُّ الفَرِيقَيْنِ " .

وكذا إن قلنا : إنها كلام قومه ، وأنهم أجابوا بما هو حُجَّة عليهم كأن الموصول خب مبتدأ محذوف ؛ أي : هم الذين آمنا ، وإن جعلناه من كلام اللَّهِ تعالى ، وأَنَّهُ أَمَرَ نَبِيَّهُ بأن يجيب به السُّؤال المتقدم ، فكذلك أيضاً .

وإن جعلناهِ لِمُجَرَّدِ الإخبار من الباري - تعالى - كان الموصول مبتدأ ، وفي خبره أوجه :

أحدهما : أنه الجملة بعده ، فإن " أولئك " ، و " أولئك " مبتدأ ثانٍ ، و " الأمن " مبتدأ ثالث ، و " لهم " خبره ، والجملةُ خَبَرُ " أولئك " ، و " أولئك " وخبره خبر الأوَّلِ .

الثاني : أن يكون " أولئك " بَدَلاً أو عطف بَيَان ، و " لهم " خبر الموصول ، و " الأمن فاعلٌ به لاعتماده .

الثالث : كذلك ، إلا أنَّ " لهم " خبرٌ مقدَّم ، و " الأمن " مبتدأ مؤخر ، والجُمْلَةُ خبر الموصُول .

الرابع : أن يكون " أولئك " مبتدأ ثانياً ، و " لهم " خبره ، و " الأمن " فاعل به ، والجملةُ خبر الموصول .

الخامس : وإليه ذهب أبو جَعْفَرٍ النحاسُ ، والحوفي أن " لهم الأمن " خبر الموصول ، وأن " أولئك " فَاصِلَةٌ ، وهو غريب ؛ لأن الفَصْلَ من شأنِ الضمائر لا من شَأنِ أسماء الإشارة .

وأمَّا على قولنا بأن " الذين " خبر مبتدأ محذوف ، فيكون " أولئك " مبتدأ فقط ، وخبره الجملة بعده ، أو الجار وَحْدَهُ ، و " الأمْن " فاعل به ، والجملة الأولى على هذا مَنْصُوبةٌ بقولٍ مُضْمَرٍ ، أي : قُلْ لهم الذين آمنوا إن كانت من كلام الخليل ، أو قالوا هم الذين إن كانت من كلام قومه .

قوله : " وَلَمْ يَلْبِسُوا " يجوز فيه وجهان :

أحدهما : أنها مَعْطُوفَةٌ على الصِّلَةِ ، فلا مَحضلِّ لها حينئذٍ .

(332/238)

والثاني : أن تكون الواو للحال ، الجملة بعدها في محلِّ نصبٍ على الحال ، أي : آمنوا غير مُلْبسينَ بِظُلْم .

وهو كقوله تعالى : ﴿ أنى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ [ مريم : 20 ] ، ولا يُلْتَفَتُ إلى قول ابن عصفور ، حيث جعل وقوع الجُمْلَةِ المنفية حالاً قليلاً ، ولا إلى قَوْلِ ابن خَرُوفٍ ، حيث جعل الواو واجِبَة الدخول على هذه الجملة ، وإن كان فيها ضَمِيرٌ يعود على الحالِ .

والجمهور على "يَلْبِسُوا " بفتح الياء بمعنى " يخلطونه " .

وقرأ عكرمةُ بضمها من الإلْبَاسِ .

" وهُمْ مُهْتَدُونَ " يجوز اسْتِئْنَافُهَا وحاليتها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 258 . 259 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82) ﴾

أي الذين أشاروا إلى الله ثم لم يرجعوا إلى غير الله ؛ فإن من قال " الله " ثم رجع بالتفضيل – عند حاجاته أو مطالباته أو شيءٍ من حالاته إلى غير الله فخِصْمُه – في الدنيا والعقبى – اللهُ .

والظلمُ – في التحقيق – وضعُ الشيء في غير موضعه ، وأصعبه حسبان أن من الحدثان ما

لم يكن وكان ؛ فإنَّ المنشئَ اللهُ ، والمُجْرِيَ اللهُ ، ولا إله إلا الله ، وسقط ما سوى الله . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 486 ﴾

*(333/238)*

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والثلاثون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/239)

---

الجزء التاسع والثلاثون بعد المائتين

من الآية ﴿ 83 ﴾ من سورة الأنعام

وحتى الآية ﴿ 83 ﴾ نفس الآية

(4/239)

---

قوله تعالى ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان إبراهيم عليه السلام قد انتصب لإظهار حجة الله في التوحيد والذب عنها ، وكان التقدير تنبيهاً للسامع على حسن ما مضى ندباً لتدبره : هذه مقاولة إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه ، عطف عليه قوله معدداً وجوه نعمه عليه وإحسانه إليه ، دالاً على إثبات

النبوة بعد إثبات الوحدانية : ﴿ وتلك ﴾ أي وهذه الحجة العظيمة الشأن التي تلوناها عليكم ، وهي ما حاج إبراهيم عليه السلام به قومه ، وعظمه بتعظيمها فقال :

﴿ حجتنا ﴾ أي التي يحق لها بما فيها من الدلالة أن تضاف إلينا ، لأنها من أشرف النعم وأجل العطايا ﴿ آتيناها ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ إبراهيم ﴾ وأوقفناه على حقيقتها وبصرناه بها ، ونبه على ارتفاع شأنها بأداة الاستعلاء مضمناً لآتينا وأقمنا ، فقال :

﴿ على قومه ﴾ أي مستعلياً عليهم غالباً لهم قائمة عليهم الحجة التي نصبها ، ثم زاد في الإعلام بفضله بقوله مستأنفاً : ﴿ نرفع ﴾ أي بعظمتنا ﴿ درجات من نشاء ﴾ بما لنا من القدرة على ذلك كما رفعنا درجة إبراهيم عليه السلام على جميع أهل ذلك العصر .

*(5/239)*

---

ولما كانت محاجته لهم على قانون الحكمة بالعالم العلوي الذي نسبوا الخلق والتدبير بالنور والظلمة إليه ، وكان في ختام محاجته لهم أن الجاري على قانون الحكمة أن الملك الحق لا يهين جنده فلا خوف عليهم ، وكان قبل ذلك في الاستدلال على البعث الذي هو محط الحكمة ؛ كان الأنسب أن يقدم في ختم الآية وصف الحكمة فقال : ﴿ إن ربك ﴾ أي خاصاً لنبيه صلى الله عليه وسلم بالمخاطبة باسم الإحسان تنبيهاً على أن حَجبَه الدليل عمن يشاء

لِحِكَم أرادها سبحانه ، ففيه تسلية له صلى الله عليه وسلم ﴿ حكيم ﴾ أي فلا يفعل بحزبه إلاّ ما ظنه به خليله صلى الله عليه وسلم مما يقر أعينهم ، إما في الدنيا وإما في الآخرة وإما فيهما ﴿ عليم ﴾ فلا يلتبس عليه أحد من غيرهم ، فيفعل به ما يحل بالحكمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 664 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ وَتِلْكَ ﴾ إشارة إلى كلام تقدم وفيه وجوه :

الأول : أنه إشارة إلى قوله : ﴿ لا أُحِبُّ الأفلين ﴾

والثاني : أنه إشارة إلى أن القوم قالوا له : أما تخاف أن تخبلك آلهتنا لأجل أنك شتمتهم . فقال لهم : أفلا تخافون أنتم حيث أقدمتهم على الشرك بالله وسويتم في العبادة بين خالق العالم ومدبره وبين الخشب المنحوت والصنم المعمول ؟

والثالث : أن المراد هو الكل .

إذا عرفت هذا فنقول : قوله : ﴿ وَتِلْكَ ﴾ مبتدأ وقوله : ﴿ حُجَّتُنَا ﴾ خبره وقوله : ﴿ ءاتيناها إبراهيم ﴾ صفة لذلك الخبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 51.50 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءاتيناها إبراهيم ﴾ يدل على أن تلك الحجة إنما حصلت في عقل إبراهيم عليه السلام بإيتاء الله وبإظهاره تلك الحجة في عقله ، وذلك يدل على أن الإيمان والكفر لا يحصلان إلا بخلق الله تعالى .

ويتأكد هذا أيضاً بقوله : ﴿ نَرْفَعُ درجات مَّن نَّشَاء ﴾ فإن المراد أنه تعالى رفع درجات إبراهيم بسبب أنه تعالى آتاه تلك الحجة ، ولو كان حصول العلم بتلك الحجة إنما كان من قبل إبراهيم لا من قبل الله تعالى لكان إبراهيم عليه السلام هو الذي رفع درجات نفسه وحينئذ كان قوله : ﴿ نَرْفَعُ درجات مَّن نَّشَاء ﴾ باطلاً .

فثبت أن هذا صريح قولنا في مسألة الهدى والضلال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 51 ﴾

*(6/239)*

---

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَاهَآ إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾

وفي هذه الحجة التي أوتيها ثلاثة أقاويل :

أحدها : قوله لهم : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًا وَلاَ نَفْعاً ﴾ أم تعبدون من يملك الضر والنفع ؟ فقالوا : مالك الضر والنفع أحق .

والثاني : أنه لما قال : ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ ﴾ عبادة إله واحد أم آلهة شتى ؟ فقالوا : عبادة إله واحد فأقروا على أنفسهم .

والثالث : أنهم لما قالوا لإبراهيم ألا تخاف أن تخبلك آلهتنا ؟ فقال : أما تخافون أن تخبلكم آلهتكم بجمعكم للصغير مع الكبير في العبادة .

واختلفوا في سبب ظهور الحجَّة لإبراهيم على قولين :

أحدهما : أن الله تعالى أخطرها بباله حتى استخرجها بفكره .

والثاني : أنه أمره بها ولقنه إياها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وتلك ﴾ إشارة إلى هذه الحدة المتقدمة وهي رفع بالابتداء و ﴿ حجتنا ﴾ خبره و ﴿ آتيناها ﴾ في موضع الحال ، ويجوز أن تكون ﴿ حجتنا ﴾ بدلاً من تلك وآتيناها خبر " تلك " " وإبراهيم " مفعول ب " آتيناها " والضمير مفعول أيضاً ب ﴿ آتيناها ﴾ مقدم و ﴿ على ﴾ متعلقة بقوله ﴿ حجتنا ﴾ وفي ذلك فصل كثير ، ويجوز أن تتعلق على ب " آتيناها " على المعنى إذ أظهرناها لإبراهيم على قومه ونحو هذا ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر " نرفع درجاتِ من نشاء " بإضافة الدرجات إلى ﴿ من ﴾ ،

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي " نرفع درجاتٍ من نشاء " .

قال القاضي أبو محمد : وهما مأخذان من الكلام ، والمعنى المقصود بهما واحد . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وتلك حجتنا ﴾ يعني : ما جرى بينه وبين قومه من الاستدلال على حدوث الكوكب والقمر والشمس ، وعيبهم ، إذ سووا بين الصغير والكبير ، وعبدوا من لا ينطق ، وإلزامه إياهم الحجة .

(7/239)

---

﴿ آتيناها ابراهيم ﴾ أرشدناه إليها بالإلهام .

وقال مجاهد : الحجة قول ابراهيم ﴿ فأي الفريقين أحق بالأمن ﴾ ؟ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ ﴾ تلك إشارة إلى جميع احتجاجاته حتى خاصمهم وغلبهم بالحجة .

وقال مجاهد : هي قوله : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ .

وقيل : حجته عليهم أنهم لما قالوا له : أما تخاف أن تَخْبِلك آلهتنا لسَبّك إياها ؟ قال لهم : أفلا تخافون أنتم منها إذ سوّيتم بين الصغير والكبير في العبادة والتعظيم ؛ فيغضب الكبير فيخبِلكم ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾

الإشارة بتلك إلى ما وقع به الاحتجاج من قوله ﴿ فلما جن عليه الليل ﴾ إلى قوله ﴿ وهم مهتدون ﴾ وهذا الظاهر ، وأضافها إليه تعالى على سبيل التشريف وكان المضاف إليه بنون العظمة لإيتاء المتكلم و ﴿ آتيناها ﴾ أي أحضرناها بباله وخلقناها في نفسه إذ هي من الحجج العقلية ، أو ﴿ آتيناها ﴾ بوحي منا ولقناه إياها وإن أعربت ﴿ وتلك ﴾ مبتدأ و ﴿ حجتنا ﴾ بدلاً ﴿ وآتيناها ﴾ خبر لتلك ، لم يخبر أن يتعلق ﴿ على قومه ﴾ بحجتنا وكذا إن أعربت ﴿ وتلك حجتنا ﴾ مبتدأ وخبر و ﴿ آتيناها ﴾ حال العامل فيها اسم الإشارة لأن الحجة ليست مصدراً وإنما هو الكلام المؤلف للاستدلال على الشيء ولو جعلناه مصدراً مجازاً لم يجز ذلك أيضاً لأنه لا يفصل بالخبر ولا بمثل هذه الحال بين المصدر ومطلوبه ، وأجاز الحوفي أن يكون ﴿ آتيناها ﴾ في موضع النعت لحجتنا والنية فيها الانفصال والتقدير : وتلك حجة لنا آتيناها انتهى ، وهذا بعيد جداً .

وقال الحوفي : وهاء مفعول أول وإبراهيم مفعول ثان وهذا قد قدمنا أنه مذهب السهيلي ، وأما مذهب الجمهور فالهاء مفعول ثان وابراهيم مفعول أول ، وقال الحوفي وابن عطية ﴿ على قومه ﴾ متعلق ب ﴿ آتيناها ﴾ .

(8/239)

---

قال ابن عطية أظهرناها لإبراهيم على قومه ، وقال أبو البقاء : بمحذوف تقديره حجة على قومه ودليلاً ، وقال الزمخشري : ﴿ آتيناها ابراهيم ﴾ أرشدناه إليها ووفقناه لها وهذا تفسير معنى ، ويجوز أن يكون في موضع الحال وحذف مضاف أي ﴿ آتيناها ابراهيم ﴾ مستعلية على حجج قومه قاهرة لها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ يعني ما جرى بين إبراهيم وبين قومه واستدل على حدوث الكوكب والقمر والشمس بالأفول وقيل لما قالوا لإبراهيم إنّا نخاف عليك من آلهتنا لسبك إياها قال أفلا تخافون أنتم منها إذ سويتم بين الصغير والكبير في العبادة أن يغضب الكبير عليكم ؟ وقيل : إنه خاصم قومه المشركين فمالوا أي الفريقين أحق بالأمن من يعبد إلهاً واحداً مخلصاً له الدين والعبادة أم من يعبد أرباباً كثيرة فدلوا من

يعبد إلهاً واحداً فقضوا على أنفسهم فكانت هذه حجة إبراهيم عليه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(9/239)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَتِلْكَ ﴾ إشارةٌ إلى ما احتج به إبراهيمُ عليه السلام من قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ ﴾ وقيل : من قوله : ﴿ أَتُحَاجُّونِّى ﴾ إلى قوله : ﴿ مُّهْتَدُونَ ﴾ وما في اسمِ الإشارةِ من معنى البُعد لتفخيم شأن المُشار إليه والإشعارِ بعلو طبقته وسموِّ منزلتِه في الفضل ، وهو مبتدأ ، وقوله تعالى : ﴿ حُجَّتُنَا ﴾ خبرُه ، وفي إضافتها إلى نون العظمة من التفخيم ما لا يخفى ، وقوله تعالى : ﴿ آتَيْنَاهَا إبراهيم ﴾ أي أرشدناه إليها أو علّمناه إياها في محل النصب على أنه حال من ( حجتُنا ) ، والعاملُ فيها معنى الإشارة كما في قوله تعالى : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُواْ ﴾ أو في محل الرفع على خبر ثان ، أو هو الخبر و( حجتُنا ) بدل أو ( عطفُ ) بيانٍ للمبتدأ ، و( إبراهيمَ ) مفعولٌ أولٌ لآتينا قُدِّم عليه الثاني لكونه ضميراً ، وقوله تعالى : ﴿ على قَوْمِهِ ﴾ متعلّقٌ بحجتُنا إن جُعل خبراً ( لتلك ) ، أو

بمحذوفٍ إن جُعل بدلاً ، أي آتينا إبراهيمَ حجةً على قومه ، وقيل : بقوله : آتينا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(10/239)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَتِلْكَ ﴾ إشارة إلى ما احتج به إبراهيم عليه السلام من قوله سبحانه : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اليل ﴾ [ الأنعام : 76 ] الخ ، وقيل : من قوله سبحانه : ﴿ أَتُحَاجُّونِّى ﴾ إلى ﴿ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ [ الأنعام : 80 82 ] وتركيب حجة اصطلاحية منه يحتاج إلى تأمل وما في اسم الإشارة من معنى البعد لتفخيم شأن المشار إليه ، وهو مبتدأ وقوله عز شأنه : ﴿ حُجَّتُنَا ﴾ خبره ، وفي إضافته إلى نون العظمة من التفخيم ما لا يخفى ، وقوله تعالى : ﴿ ءاتيناها إبراهيم ﴾ أي أرشدناه إليها أو علمناه إياها في موضع الحال من حجة والعامل فيه معنى الإشارة أو في محل الرفع على أنه خبر ثان أو هو الخبر و ﴿ حُجَّتُنَا ﴾ بدل أو بيان للمبتدأ ، وجوز أن تكون جملة ﴿ ءاتَيْنَا ﴾ الخ معترضة أو تفسيرية ولا يخفى بعده ، و ﴿ إِبْرَاهِيمَ ﴾ مفعول أول لآتينا قدم على الثاني لكونه ضميراً .

وقوله سبحانه : ﴿ على قَوْمِهِ ﴾ متعلق بحجتنا أن جعل خبراً لتلك أو بمحذوف إن جعل

بدلاً لئلا يلزم الفصل بين أجزاء البدل بأجنبي أي آتيناها إبراهيم حجة على قومه ، ولم يجوز أبو البقاء تعلقه بحجتنا أصلاً للمصدرية والفصل ، ولعل المجوز لا يرى المصدرية مانعة عن تعلق الظرف ويجعل الفصل مغتفراً ، وقيل : يصح تعلقه بآتيناه لتضمنه معنى الغلبة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

*(11/239)*

---

وقال ابن عاشور :

و﴿ تلك ﴾ إشارة إلى جميع ما تكلّم به إبراهيم في محاجَّة قومه ، وأتي باسم إشارة المؤنّث لأنّ المشار إليه حجّة فأخبر عنه بحجّة فلمَّا لم يكن ثمَّة مشار إليه محسوس تعيّن أن يعتبر في الإشارة لفظ الخبر لا غير ، كقوله تعالى : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ﴾ [ البقرة : 253 ] .

وإضافة الحجّة إلى اسم الجلالة للتّنويه بشأنها وصحَّتها .

و﴿ آتيناها ﴾ في موضع الحال من اسم الإشارة أو من الخبر .

وحقيقة الإيتاء الإعطاء ، فحقَّه أن يتعدّى إلى الذّوات ، ويكون بمناولة اليد إلى اليد .

قال تعالى : ﴿ وآتى المال على حبّه ذوي القربى ﴾ [ البقرة : 177 ] ، ولذلك يقال :

اليدُ العليا هي المعطية واليد السّفلى هي المعطاة.

ويستعمل مجازاً شائعاً في تعليم العلوم وإفادة الآداب الصالحة وتخويلها وتعيينها لأحد دون مناولة يد سواء كانت الأمور الممنوحة ذواتاً أم معانيَ.

يقال: آتاه الله مالاً، ويقال: آتاه الخليفة إمارة و﴿ آتاه الله المُلك ﴾ [البقرة: 258]، ﴿ وآتيناه الحكمة ﴾ [ص: 20].

فإيتاء الحجّة إلهامُه إيّاها وإلقاءُ ما يعبّر عنها في نفسه.

وهو فضل من الله على إبراهيم إذ نصره على مناظريه.

و﴿ على ﴾ للاستعلاء المجازي، وهو تشبيه الغالب بالمستعلي المتمكّن من المغلوب، وهي متعلّقة ﴿ بحجّتنا ﴾ خلافاً لمن منعه.

يقال: هذا حجّة عليك وشاهد عليك، أي تلك حجّتنا على قومه أقحمناهم بها بواسطة إبراهيم، ويجوز أن يتعلَّق بـ ﴿ آتيناها ﴾ لمّا يتضمّنه الإيتاء من معنى النصر.

انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(12/239)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ ﴾ الآية .

قال مجاهد وغيره هي قوله تعالى : ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الفريقين أَحَقُّ بالأمن ﴾ [ الأنعام : 81 ] الآية ، وقد صدقه الله ، وحكم له بالأمن والهداية ، فقال : ﴿ الذين آمَنُواْ وَلَمْ يلبسوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أولئك لَهُمُ الأمن وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ [ الأنعام : 82 ] .

والظاهر شمولها لجميع احتجاجاته عليهم ، كما في قوله : ﴿ لا أُحِبُّ الآفلين ﴾ [ الأنعام : 76 ] ، لأن الأفول الواقع في الكوكب والشمس والقمر أكبر دليل وأوضح حجة على انتفاء الربوبية عنها ، وقد استدل إبراهيم عليه ، وعلى نبينا الصلاة والسلام بالأفول على انتفاء الربوبية في قوله : ﴿ لا أُحِبُّ الآفلين ﴾ فعدم إدخال هذه الحجة في قوله : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ﴾ [ الأنعام : 83 ] غير ظاهر ، وبما ذكرنا من شمول الحجة لجميع احتجاجاته المذكورة صدر القرطبي ، والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 1 صـ ﴾

(13/239)

فصل

قال الفخر :

هذه الآية من أدل الدلائل على فساد قول الحشوية في الطعن في النظر وتقرير الحجة وذكر الدليل .

لأنه تعالى أثبت لإبراهيم عليه السلام حصول الرفعة والفوز بالدرجات العالية ، لأجل أنه ذكر الحجة في التوحيد وقررها وذب عنها وذلك يدل على أنه لا مرتبة بعد النبوة والرسالة أعلى وأشرف من هذه المرتبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 51 ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿ درجات ﴾ بالتنوين من غير إضافة والباقون بالإضافة ، فالقراءة الأولى معناها : نرفع من نشاء درجات كثيرة ، فيكون "من" في موضع النصب .

قال ابن مقسم : هذه القراءة أدل على تفضيل بعضهم على بعض في المنزلة والرفعة .

وقال أبو عمرو : الإضافة تدل على الدرجة الواحدة وعلى الدرجات الكثيرة والتنوين لا يدل إلا على الدرجات الكثيرة .

واختلفوا في تلك الدرجات .

قيل : درجات أعماله في الآخرة ، وقيل : تلك الحجج درجات رفيعة ، لأنها توجب الثواب العظيم .

وقيل : نرفع من نشاء في الدنيا بالنبوة والحكمة ، وفي الآخرة بالجنة والثواب .

وقيل : نرفع درجات من نشاء بالعلم .

واعلم أن هذه الآية من أدل الدلائل على أن كمال السعادة في الصفات الروحانية وفي البعد عن الصفات الجسمانية .

والدليل عليه : أنه تعالى قال : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءاتيناها إبراهيم على قَوْمِهِ ﴾ .

ثم قال بعده : ﴿ نَرْفَعُ درجات مَّن نَّشَاء ﴾ وذلك يدل على أن الموجب لحصول هذه الرفعة هو إيتاء تلك الحجة ، وهذا يقتضي أن وقوف النفس على حقيقة تلك الحجة وإطلاعها على إشراقها اقتضت ارتفاع الروح من حضيض العالم الجسماني ، إلى أعالي العالم الروحاني ، وذلك يدل على أنه لا رفعة ولا سعادة إلا في الروحانيات . والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

المعنى أنه إنما يرفع درجات من يشاء بمقتضى الحكمة والعلم ، لا بموجب الشهوة والمجازفة . فإن أفعال الله منزهة عن العبث والفساد والباطل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 51 ﴾ . بتصرف يسير .

وقال الماوردى :

﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَشَاءُ ﴾

فيه أربعة أوجه :

أحدها : عند الله بالوصول لمعرفته .

والثاني : على الخلق بالاصطفاء لرسالته .

والثالث : بالسخاء .

والرابع : بحسن الخلق .

وفيه تقديم وتأخير ، وتقديره : نرفع من نشاء درجات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

و ﴿ درجات ﴾ على قراءة من نون نصب على الظرف ، و ﴿ عليم حكيم ﴾ صفتان تليق بهذا الموضع إذ هو موضع مشيئة واختيار فيحتاج ذلك إلى العلم والإحكام ، والدرجات أصلها في الأجسام ثم تستعمل في المراتب والمنازل المعنوية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عمرو ، وابن عامر : ﴿ درجاتِ من نشاء ﴾ ، مضافا .

وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي ، ﴿ درجاتٍ ﴾ ، منونا ، وكذلك قرؤوا في ( يوسف ) [ يوسف : 76 ] ثم في المعنى قولان .

أحدهما : أن الرفع بالعلم والفهم والمعرفة .

والثاني : بالاصطفاء للرسالة .

قوله تعالى : ﴿ إن ربك حكيم ﴾ قال ابن جرير : حكيم في سياسة خلقه ، وتلقينه أنبياءه الحج على أممهم المكذبة ﴿ عليم ﴾ بما يؤول إليه أمر الكل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ أي بالعلم والفهم والإمامة والملك .

وقرأ الكوفيون "درجاتٍ" بالتنوين .

ومثله في "يوسف" أوقعوا الفعل على "مَن" لأنه المرفوع في الحقيقة ، التقدير : ونرفع من نشاء إلى درجات .

ثم حذفت إلى .

وقرأ أهل الحَرَمين وأبو عمرو بغير تنوين على الإضافة ، والفعل واقع على الدرجات ، وإذا

رُفعت فقد رُفع صاحبها .

يقوّي هذه القراءة قوله تعالى : ﴿ رَفِيعُ الدرجات ﴾ [ غافر : 15 ] وقوله عليه السلام : " اللَّهُمَّ ارفع درجته " فأضاف الرفع إلى الدرجات .

وهو لا إله إلا هو الرفيع المتعالي في شرفه وفضله .

*(15/239)*

---

فالقراءتان متقاربتان ؛ لأن من رُفعت درجاته فقد رُفع ، ومن رُفع فقد رفعت درجاته ، فاعلم .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ يضع كل شيء موضعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ أي مراتب ومنزلة من نشاء وأصل الدرجات في المكان ورفعها بالمعرفة أو بالرسالة أو بحسن الخلق أو بخلوص العمل في الآخرة أو بالنبوة والحكمة في الدنيا أو بالثواب والجنة في الآخرة ، أو بالحجة والبيان ، أقوال أقربها الأخير لسياق الآية ونوّن درجات الكوفيون وأضافها الباقون ونصبوا المنون على الظرف أو على أنه مفعول ثان

، ويحتاج هذا القول إلى تضمين نرفع معنى ما يعدّي إلى اثنين أي نعطي من نشاء درجات .

﴿ إن ربك حكيم عليم ﴾ أي ﴿ حكيم ﴾ في تدبير عباده ﴿ عليم ﴾ بأفعالهم أو ﴿ حكيم ﴾ في تقسيم عباده إلى عابد صنم وعابد الله ﴿ عليم ﴾ بما يصدر بينهم من الاحتجاج ، ويحتمل أن يكون الخطاب في ﴿ إن ربك ﴾ للرسول ويحتمل أن يكون المراد به إبراهيم فيكون من باب الالتفات والخروج من ضمير الغيبة إلى ضمير الخطاب على سبيل التشريف بالخطاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ يعني بالعلم والفهم والعدل والفضيلة كما رفعنا درجات إبراهيم حتى اهتدى إلى محاجَّة قومه .

وقيل : نرفع درجات من نشاء في الدنيا بالنبوة والعلم والحكمة وفي الآخرة بالثواب على الأعمال الصالحة ﴿ إن ربك حكيم عليم ﴾ يعني أنه تعالى حكيم في جميع أفعاله عليم بجميع أحوال خلقه لا يفعل شيء إلا بحكمة وعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

*(16/239)*

وقال أبو السعود :

﴿ نَرْفَعُ ﴾ بنون العظمةِ ، وقرىء بالياء على طريقة الالتفات وكذا الفعل الآتي ﴿ درجات ﴾ أي رتباً عظيمةً عالية من العلم ، وانتصابُها على المصدرية أو الظرفية أو على نزع الخافض ، أي إلى درجات أو على التمييز ، والمفعولُ قولُه تعالى : ﴿ مَّن نَّشَاء ﴾ وتأخيرُه على الوجوه الثلاثة الأخيرةِ لما مر من الاعتناء بالمقدَّم والتشويقِ إلى المؤخَّر ، ومفعولُ المشيئة محذوفٌ ، أي من نشاء رفعَه حسْبما تقتضيه الحِكمةُ وتستدعيه المصلحةُ ، وإيثارُ صيغةِ الاستقبالِ للدلالة على أن ذلك سُنةٌ مستمرَّةٌ جاريةٌ فيما بين المُصطَفَيْنَ الأخيارِ غيرُ مختصةٍ بإبراهيمَ عليه السلام ، وقرىء بالإضافة إلى ( من ) ، والجملةُ مستأنَفة مقرِّرةٌ لما قبلها لا محل لها من الإعراب ، وقيل : هي في محل النصب على أنها حالٌ من فاعل ( آتينا ) أي حال كوننا رافعين الخ .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ ﴾ في كل ما فعل من رفْعٍ وخفضٍ ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بحال من يرفعُه واستعدادِه له على مراتبَ متفاوتة ، والجملةُ تعليلٌ لما قبلها ، وفي وضع الرب مضافاً إلى ضميره عليه السلام موضِعَ نونِ العظمةِ بطريق الالتفاتِ في تضاعيف بيانِ أحوالِ إبراهيمَ عليه السلام إظهارٌ لمزيد لُطفٍ وعنايةٍ به عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

وقوله عز شأنه : ﴿ نَرْفَعُ درجات ﴾ أي رتباً عظيمة عالية من العلم والحكمة مستأنف لا محل له من الإعراب مقرر لما قبله ، وجوز أبو البقاء أن يكون في محل نصب على أنه حال من فاعل ﴿ ءاتَيْنَا ﴾ أي حال كوننا رافعين ، ونصب ﴿ درجات ﴾ إما على المصدرية بتأويل رفعات أو على الظرفية أو على نزع الخافض أي إلى درجات أو على التمييز ومفعول ﴿ نَرْفَعُ ﴾ قوله تعالى : ﴿ مَّن نَّشَاء ﴾ وتأخيره على الأوجه الثلاثة الأخيرة لما مر غير مرة من الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ، ومفعول المشيئة محذوف أي من نشاء رفعه حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة ، وإيثار صيغة المضارع للدلالة على أن ذلك سنة مستمرة فيما بين المصطفين الأخيار غير مختصة بإبراهيم عليه السلام .

وقرىء ﴿ يَرْفَعُ ﴾ بالياء على طريقة الالتفات وكذا ﴿ نَشَاء ﴾ وقرأ غير واحد من السبعة ﴿ درجات مَّن ﴾ بالإضافة على أنه مفعول ﴿ نَرْفَعُ ﴾ ورفع درجات الإنسان رفع له ، وجوز بعضهم جعله مفعولاً أيضاً على قراءة التنوين وجعل من بتقدير لمن وهو بعيد .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ ﴾ أي في كل ما يفعل من رفع وخفض ﴿ عَلِيمٌ ﴾ أي بحال من يرفعه واستعداده له على مراتب متفاوتة ، وإن شئت عممت ويدخل حينئذ ما

ذكر دخولاً أولياً تعليل لما قبله ، وفي وضع الرب مضافاً إلى ضميره عليه الصلاة والسلام موضع نون العظمة بطريق الالتفات في تضاعيف بيان حال إبراهيم عليه السلام ما لا يخفى من إظهار مزيد اللطف والعناية به صلى الله عليه وسلم .

*(18/239)*

---

هذا وقد ذكر الإمام في هذه الآيات الإبراهيمية عدة أحكام ، الأول : "أن قوله سبحانه : ﴿ لا أُحِبُّ الآفلين ﴾ [ الأنعام : 76 ] يدل على أنه عز وجل ليس بجسم إذ لو كان جسماً لكان غائباً عنا ( أبداً ) فيكون آفلاً ( أبداً ) " والأفول ينافي الربوبية ، ولا يخفى أن عد تلك الغيبة المفروضة أفولاً لا يخلو عن شيء لأن الأفول احتجاب مع انتقال وتلك الغيبة المفروضة لم تكن كذلك بل هي مجرد احتجاب فيما يظهر نعم إنه ينافي الربوبية أيضاً لكن الكلام في كونه أفولاً ليتم الاحتجاج بالآية ، لا يقال قد جاء في حديث الإسراء ذكر الحجاب فكيف يصح القول بأن الاحتجاب مناف للربوبية لأنا نقول : الحجاب الوارد كما قال القاضي عياض إنما هو في حق العباد لا في حقه تعالى فهم المحجوبون والباري جل اسمه منزه عما يحجبه إذ الحجاب إنما يحيط بمقدر محسوس ، ونص غير واحد أن ذكر الحجاب له تعالى تمثيل لمنعه الخلق عن رؤيته .

وقال السيد النقيب في "الدرر والغرر" العرب تستعمل الحجاب بمعنى الخفاء وعدم الظهور فيقول أحدهم لغيره إذا استبعد فهمه بيني وبينك حجاب ويقولون لما يستصعب طريقه : بيني وبينه كذا حجب وموانع وسواتر وما جرى مجرى ذلك .

والظاهر على هذا أن فيما ذكر مجاز في المفرد فتدبر .

الثاني : "أن هذه الآية تدل على أنه يمتنع أن يكون تعالى بحيث ينزل من العرش إلى السماء تارة ويصعد من السماء إلى العرش أخرى وإلا لحصل معنى الأفول .

وأنت تعلم أن الواصفين ربهم عز شأنه بصفة النزول حيث سمعوا حديثه الصحيح عن رسولهم صلى الله عليه وسلم لا يقولون : إنه حركة وانتقال كما هو كذلك في الأجسام بل يفوضون تعيين المراد منه إلى الله تعالى بعد تنزيهه سبحانه عن مشابهة المخلوقين وحينئذ لا يرد عليه أنه في معنى الأفول الممتنع على الرب جل جلاله .

*(19/239)*

---

الثالث : "أنها تدل على أنه جل شأنه ليس محلاً للصفات المحدثة كما تقول الكرامية وإلا لكان متغيراً وحينئذ يحصل معنى الأفول" ( وهو ظاهر ) .

الرابع : "إن ما ذكر يدل على أن الدين يجب أن يكون مبنياً على الدليل لا على التقليد وإلا لم

يكن للاستدلال فائدة ألبتة" .

الخامس : "أنه يدل على أن معارف الأنبياء بربهم استدلالية لا ضرورية وإلا لما احتاج إبراهيم عليه السلام إلى الاستدلال" .

السادس : "أنه يدل على أنه لا طريق إلى تحصيل معرفة الله تعالى إلا بالنظر والاستدلال في أحوال مخلوقاته إذ لو أمكن تحصيلها بطريق آخر لما عدل عليه السلام إلى هذه الطريقة" ، ولا يخفى عليك ما في هذين الأخيرين .

السابع : أن قوله سبحانه : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ﴾ الخ يدل على أن تلك الحجة إنما حصلت في عقل إبراهيم عليه السلام بإيتاء الله تعالى وإظهارها في عقله وذلك يدل على أن الإيمان والكفر لا يحصلان إلا بخلق الله تعالى ؛ ويتأكد ذلك بقوله سبحانه : ﴿ نَرْفَعُ درجات ﴾ الخ .

الثامن : "أن قوله سبحانه ﴿ نَرْفَعُ ﴾ الخ .

يدل على فساد طعن الحشوية في النظر وتقرير الحجة وذكر الدليل" ، وفيها أحكام أخر لا تخفى على من يتدبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وجملة : ﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ حال من ضمير الرفع في ﴿ آتيناها ﴾ أو مستأنفة لبيان أنّ مثل هذا الإيتاء تفضيل للمؤتَى وتكرمة له .

ورفع الدّرجات تمثيل لتفضيل الشأن ، شبّهت حالة المفضّل على غيره بحال المرتقي في سُلَّم إذا ارتفع من درجة إلى درجة ، وفي جميعها رفع ، وكلّ أجزاء هذا التمثيل صالح لاعتبار تفريق التّشبيه ، فالتّفضيل يُشبه الرّفع ، والفضائل المتفاوتة تشبه الدّرجات ، ووجه الشّبه عِزّة حصول ذلك لغالب النّاس .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو جعفر ، بإضافة ﴿ درجات ﴾ إلى ﴿ مَنْ ﴾ .

*(20/239)*

---

فإضافة الدرجات إلى اسم الموصول باعتبار ملابسة المرتقي في الدرجة لها لأنّها إنّما تضاف إليه إذا كان مرتقياً عليها ، والإتيان بصيغة الجمع في ﴿ درجات ﴾ باعتبار صلاحيّة ﴿ من نشاء ﴾ لأفراد كثيرين متفاوتين في الرفعة ، ودلّ فعل المشيئة على أنّ التفاضل بينهم بكثرة موجبات التّفضيل ، أو الجمعُ باعتبار أنّ المفضّل الواحد يتفاوت حاله في تزايد موجبات فضله .

وقرأه البقية بتنوين ﴿ درجات ﴾ ، فيكون تمييزاً لنسبة الرفع باعتبار كون الرفع مجازاً في التفضيل .

والدرجات مجازاً في الفضائل المتفاوتة .

ودلّ قوله ﴿ مَن نشاء ﴾ على أنّ هذا التّكريم لا يكون لكلّ أحد لأنّه لو كان حاصلاً لكلّ النّاس لم يحصل الرفع ولا التفضيل .

وجملة : ﴿ إنّ ربّك حكيم عليم ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً ، لأنّ قوله : ﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ يثير سؤالاً ، يقول : لماذا يرفع بعض النّاس دون بعض ، فأجيب بأنّ الله يعلم مستحقّ ذلك ومقدار استحقاقه ويخلق ذلك على حسب تعلّق علمه .

فحكيم بمعنى محكم ، أي متّقن للخلق والتّقدير .

وقدم ﴿ حكيم ﴾ على ﴿ عليم ﴾ لأنّ هذا التّفضيل مَظهر للحكمة ثمّ عقّب بـ ﴿ عليم ﴾ ليشير إلى أنّ ذلك الإحكام جار على وفق العلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

*(21/239)*

---

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) .

بَدَأَ اللهُ سُبْحَانَهُ هَذِهِ السُّورَةَ بَعْدَ حَمْدِ نَفْسِهِ بِبَيَانِ أُصُولِ الدِّينِ وَمُحَاجَّةِ الْمُشْرِكِينَ ، فَبَيَّنَ اسْتِحْقَاقَهُ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ ، وَإِشْرَاكَهُمْ بِهِ ، وَتَكْذِيبَهُمْ بِالْآيَاتِ الَّتِي أَيَّدَ بِهَا رَسُولَهُ وَرَدَّ مَا لَهُمْ مِنَ الشُّبْهَةِ عَلَى الرِّسَالَةِ ، ثُمَّ لَقَّنَ رَسُولَهُ طَوَائِفَ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ فِي إِثْبَاتِ التَّوْحِيدِ وَالرِّسَالَةِ وَالْبَعْثِ مَبْدُوءَةً بِقَوْلِهِ لَهُ (قُلْ . قُلْ) ثُمَّ أَمَرَهُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ بِالتَّذْكِيرِ بِدَعْوَةِ أَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - إِلَى مِثْلِ مَا دَعَا ، وَمَا اسْتَنْبَطَهُ هُوَ مِنْهُ مِنْ آيَاتِ التَّوْحِيدِ وَبُطْلَانِ الشِّرْكِ ، وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَى أَهْلِهِ تَأْيِيدًا لِمِصْدَاقِ دَعْوَتِهِ فِي سُلَالَةِ وَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالتَّسْلِيمُ ، وَلِإِبْرَاهِيمَ الْمَكَانَةُ الْعُلْيَا مِنْ إِجْلَالِ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ ، كَمَا أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مُتَّفِقُونَ عَلَى إِجْلَالِهِ . وَإِنَّنَا نُقَدِّمُ لِتَفْسِيرِ الْآيَةِ مُقَدِّمَةً فِي أَصْلِ إِبْرَاهِيمَ وَمَسْأَلَةِ كُفْرِ أَبِيهِ آزَرَ وَحِكْمَةِ اللهِ تَعَالَى فِيمَا قَصَّهُ عَنْهُ ، فَنَقُولُ :

(مُقَدِّمَةٌ فِي أَصْلِ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَمَسْأَلَةِ كُفْرِ أَبِيهِ) .

*(22/239)*

---

(إِبْرَاهِيمُ) هُوَ الِاسْمُ الْعَلَمُ لِخَلِيلِ الرَّحْمَنِ ، أَبِي الْأَنْبِيَاءِ الْأَكْبَرِ مِنْ نُوحٍ ، عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَيُؤْخَذُ مِنْ سِفْرِ التَّكْوِينِ - وَهُوَ السِّفْرُ الْأَوَّلُ مِنْ أَسْفَارِ الْعَهْدِ الْعَتِيقِ - أَنَّهُ الْعَاشِرُ مِنْ أَوْلَادِ سَامِ بْنِ نُوحٍ ، وَأَنَّهُ وُلِدَ فِي (أُورِ الْكَلْدَانِيِّينَ) وَهِيَ بَلْدَةٌ مِنْ بِلَادِ الْكَلْدَانِ . وَ" أُورُ

" بِضَمِّ الْهَمْزَةِ وَسُكُونِ الْوَاوِ ، وَمَعْنَاهَا فِي الْكَلْدَانِيَّةِ النُّورُ أَوِ النَّارُ كَمَا قَالُوا . قِيلَ : هِيَ الْبَلْدَةُ الْمَعْرُوفَةُ الْآنَ بِاسْمِ (أُورُفَا) فِي وِلَايَةِ حَلَبَ كَمَا رَجَّحَ بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ ، وَقِيلَ : غَيْرُهَا مِنَ الْبِلَادِ الْوَاقِعَةِ فِي جَزِيرَةِ الْعِرَاقِ - بَيْنَ النَّهْرَيْنِ - وَفِي أَقْطَارِ الْعَالَمِ الْقَدِيمِ بِلَادٌ وَمَوَاقِعُ كَثِيرَةٌ مَبْدُوءَةٌ أَسْمَاؤُهَا بِكَلِمَةِ (أُورُ) وَاقِعَةٌ مَعَ مَا بَعْدَهَا مَوْقِعَ الْمُضَافِ مِنَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ ، وَأَشْهَرُهَا (أُورَشْلِيمُ) لِمَدِينَةِ الْقُدْسِ ، قَالُوا : إِنَّ مَعْنَاهَا مُلْكُ السَّلَامِ ، أَوْ إِرْثُ السَّلَامِ ، فَـ " شَلِيمُ " بِالْعِبْرِيَّةِ هِيَ السَّلَامُ بِالْعَرَبِيَّةِ . وَفِي بَعْضِ التَّوَارِيخِ الْعَرَبِيَّةِ أَنَّهُ مِنْ قَرْيَةٍ اسْمُهَا (كُوثَى) مِنْ سَوَادِ الْكُوفَةِ . وَكَانَ اسْمُ إِبْرَاهِيمَ (أَبْرَامُ) بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ ، وَقَالُوا : إِنْ مَعْنَاهُ (أَبُو الْعَلَاءِ) فَهُوَ مُرَكَّبٌ مِنْ كَلِمَةِ " أَب " الْعَرَبِيَّةِ السَّامِيَّةِ مُضَافَةً إِلَى مَا بَعْدَهَا . وَفِي سِفْرِ التَّكْوِينِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ظَهَرَ لَهُ فِي سِنِّ التَّاسِعَةِ وَالتِّسْعِينَ مِنْ عُمْرِهِ وَكَلَّمَهُ ، وَجَدَّدَ عَهْدَهُ لَهُ

(23/239)

---

بِأَنْ يُكَثِّرَ نَسْلَهُ وَيُعْطِيَهُ أَرْضَ كَنْعَانَ (فِلَسْطِينُ) مُلْكًا أَبَدِيًّا ، وَسَمَّاهُ لِذُرِّيَّتِهِ (إِبْرَاهِيمُ) بَدَلَ (أَبْرَامُ) وَقَالُوا : إِنَّ مَعْنَى إِبْرَاهِيمَ (أَبُو الْجُمْهُورِ) الْعَظِيمُ أَيْ أَبُو الْأُمَّةِ . وَهُوَ بِمَعْنَى تَبْشِيرِ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاهُ بِتَكْثِيرِ نَسْلِهِ مِنْ إِسْمَاعِيلَ وَمِنْ إِسْحَاقَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ

كَسْرَ هَمْزَتِهِ ، فَقَدْ عُلِمَ أَنَّ أَصْلَهَا الْفَتْحُ ، وَأَنَّ " إِبْ " الْمَكْسُورَةَ فِي إِبْرَاهِيمَ هِيَ أَبٌ الْمَفْتُوحَةُ فِي أَبْرَامَ . فَالْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْهُ عَرَبِيٌّ ، وَالثَّانِي كَلْدَانِيٌّ أَوْ مِنْ لُغَةٍ أُخْرَى مِنْ فُرُوعِ السَّامِيَّةِ أَخَوَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُهَا وَأَوْسَعُهَا ، حَتَّى جَعَلَهَا بَعْضُ عُلَمَاءِ اللُّغَاتِ هِيَ الْأَصْلَ وَالْأُمَّ لِسَائِرِ تِلْكَ الْفُرُوعِ السَّامِيَّةِ كَالْعِبْرِيَّةِ وَالسُّرْيَانِيَّةِ . وَذَكَرَ رُوَاةُ الْعَرَبِيَّةِ فِي هَذَا الِاسْمِ سَبْعَ لُغَاتٍ عَنِ الْعَرَبِ وَهِيَ إِبْرَاهِيمُ

وَإِبْرَاهَامُ وَإِبْرَاهُومُ وَإِبْرَاهِيمُ مُثَلَّثَةَ الْهَاءِ وَأَبْرَهَمُ بِفَتْحِ الْهَاءِ بِلَا أَلِفٍ . وَصَرَّحَ بَعْضُهُمْ بِأَنَّهُ سُرْيَانِيُّ الْأَصْلِ ثُمَّ نُقِلَ ، وَبَعْضُهُمْ بِأَنَّ مَعْنَاهُ أَبٌ رَاحِمٌ أَوْ رَحِيمٌ ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ جُزْآهُ عَرَبِيَّيْنِ بِقَلْبِ حَائِهِ هَاءً كَمَا يَقْلِبُهَا جَمِيعُ الْأَعَاجِمِ الَّذِينَ

(24/239)

---

لَا يَنْطِقُونَ بِالْحَاءِ الْمُهْمَلَةِ كَالْإِفْرِنْجِ ، وَتَرْكِيبُهُ مَزْجِيٌّ . وَفِي " الْقَامُوسِ الْمُحِيطِ " كَغَيْرِهِ " أَنَّ تَصْغِيرَهُ بُرَيْهٌ أَوْ أُبَيْرِهٌ وَبُرَيْهِيمٌ " قَالَ شَارِحُهُ عِنْدَ الْأَوَّلِ : قَالَ شَيْخُنَا : وَكَأَنَّهُمْ جَعَلُوهُ عَرَبِيًّا وَتَصَرَّفُوا فِيهِ بِالتَّصْغِيرِ ، وَإِلَّا فَالْأَعْجَمِيَّةُ لَا يَدْخُلُهَا شَيْءٌ مِنَ التَّصْرِيفِ بِالْكُلِّيَّةِ .

(25/239)

وَقَدْ ثَبَتَ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْعَادِيَّاتِ وَالْآثَارِ الْقَدِيمَةِ أَنَّ عَرَبَ الْجَزِيرَةِ قَدِ اسْتَعْمَرُوا مُنْذُ فَجْرِ التَّارِيخِ بِلَادَ الْكَلْدَانِ وَمِصْرَ ، وَغَلَبَتْ لُغَتُهُمْ فِيهِمَا ، وَصَرَّحَ بَعْضُهُمْ بِأَنَّ الْمَلِكَ حَمُورَابِي الَّذِي كَانَ مُعَاصِرًا لِإِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - عَرَبِيٌّ ، وَحَمُورَابِي هَذَا هُوَ مُلْكِي صَادِقٌ مَلِكُ الْبِرِّ وَالسَّلَامِ ، وَوُصِفَ فِي الْعَهْدِ الْعَتِيقِ بِأَنَّهُ كَاهِنُ اللهِ الْعَلِيِّ ، وَذُكِرَ فِيهِ أَنَّهُ بَارَكَ إِبْرَاهِيمَ ، وَأَنَّ إِبْرَاهِيمَ أَعْطَاهُ الْعُشْرَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ . وَمِنَ الْمَعْرُوفِ فِي كُتُبِ الْحَدِيثِ وَالتَّارِيخِ الْعَرَبِيِّ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ أَسْكَنَ ابْنَهُ إِسْمَاعِيلَ مَعَ أُمِّهِ هَاجَرَ الْمِصْرِيَّةِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - فِي الْوَادِي الَّذِي بُنِيَتْ فِيهِ مَكَّةُ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى سَخَّرَ لَهُمَا جَمَاعَةً مِنْ جُرْهُمٍ سَكَنُوا مَعَهُمَا هُنَالِكَ ، وَأَنَّ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - كَانَ يَزُورُهُمَا ، وَأَنَّهُ هُوَ وَوَلَدُهُ إِسْمَاعِيلُ بَنَيَا بَيْتَ اللهِ الْمُحَرَّمَ ، وَنَشَرَا دِينَ الْإِسْلَامِ فِي الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ ، فَيَظْهَرُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبِيَّةَ الْقَدِيمَةَ هِيَ لُغَةُ إِبْرَاهِيمَ وَهَاجَرَ ، وَلُغَةُ حَمُورَابِي وَقَوْمِهِ ، وَلُغَةُ قُدَمَاءِ الْمِصْرِيِّينَ أَوِ اللُّغَةُ الْغَالِبَةُ فِي ذَيْنِكَ الْقُطْرَيْنِ ، وَأَنَّهَا عَلَى مَا كَانَ فِيهَا مِنَ الدَّخِيلِ الْكَلْدَانِيِّ وَالْمِصْرِيِّ كَانَتْ قَرِيبَةً جِدًّا مِنَ الْعَرَبِيَّةِ الْجُرْهُمِيَّةِ ، وَلِذَلِكَ كَانَ الَّذِينَ سَاكَنُوا هَاجَرَ مِنْ جُرْهُمٍ يَفْهَمُونَ مِنْهَا

وَتَفْهَمُ مِنْهُمْ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ زَارَ إِسْمَاعِيلَ مَرَّةً فَلَمْ يَجِدْهُ ، وَتَكَلَّمَ مَعَ امْرَأَتِهِ الْجُرْهُمِيَّةِ وَلَمْ تُعْجِبْهُ ، ثُمَّ زَارَهُ مَرَّةً أُخْرَى فَلَمْ يَجِدْهُ ، وَكَانَتْ عِنْدَهُ امْرَأَةٌ أُخْرَى فَتَكَلَّمَ مَعَهَا فَأَعْجَبَتْهُ . وَقَدْ وَرَدَ أَيْضًا أَنَّ لُغَةَ إِسْمَاعِيلَ كَانَتْ أَفْصَحَ مِنْ لُغَةِ جُرْهُمٍ ، فَهِيَ أُمُّ اللُّغَةِ الْمُضَرِيَّةِ الَّتِي فَاقَتْ بِفَصَاحَتِهَا وَبَلَاغَتِهَا سَائِرَ اللُّغَاتِ أَوِ اللَّهَجَاتِ الْعَرَبِيَّةِ ، ثُمَّ ارْتَقَتْ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ بِمَا كَانُوا يُقِيمُونَهُ لَهَا مِنْ أَسْوَاقِ الْمُفَاخَرَةِ فِي مَوْسِمِ الْحَجِّ ، ثُمَّ كَمُلَتْ بَلَاغَتُهَا وَفَصَاحَتُهَا بِنُزُولِ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ الْمُعْجِزِ لِلْخَلْقِ بِهَا .

وَأَمَّا أَبُو إِبْرَاهِيمَ فَقَدْ سَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُولَى مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ (آزَرَ) وَفِي سِفْرِ التَّكْوِينِ أَنَّ اسْمَهُ (تَارَحُ) بِفَتْحٍ وَحَاءٍ مُهْمَلَةٍ ، وَقَالُوا : إِنَّ مَعْنَاهُ (مُتَكَاسِلٌ) وَمِنَ الْغَرِيبِ أَنْ نَرَى أَكْثَرَ الْمُفَسِّرِينَ وَالْمُؤَرِّخِينَ اللُّغَوِيِّينَ مِنَّا يَقُولُونَ : إِنَّ اسْمَهُ " تَارَخُ " بِالْخَاءِ الْمُعْجَمَةِ أَوِ الْمُهْمَلَةِ ، وَإِنَّ آزَرَ لَقَبُهُ أَوِ اسْمُ أَخِيهِ أَوْ أَبِيهِ أَوْ صَنَمِهِ ، وَنُقِلَ عَنِ الزَّجَّاجِ

وَالْفَرَّاءِ أَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ النَّسَّابِينَ وَالْمُؤَرِّخِينَ اخْتِلَافٌ فِي كَوْنِ اسْمِهِ تَارَخَ أَوْ تَارَحَ . وَلَا نَعْرِفُ لِهَذِهِ الْأَقْوَالِ أَصْلًا مَرْفُوعًا إلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَا مَنْقُولًا عَنْ الْعَرَبِ الْأَوَّلِينَ ، وَإِنَّمَا هُوَ مَنْقُولٌ

(28/239)

---

فِيمَا يَظْهَرُ عَمَّنْ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، كَوَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ ، وَكَعْبِ الْأَحْبَارِ اللَّذَيْنِ أَدْخَلَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ كَثِيرًا مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ ، فَتَلَقَّوْهَا بِالْقَبُولِ عَلَى عِلَّاتِهَا . وَعَنْ مُقَاتِلِ بْنِ سُلَيْمَانَ الْمَجْرُوحِ بِالْكَذِبِ الَّذِي قَالَ ابْنُ حِبَّانَ فِيهِ : كَانَ يَأْخُذُ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مِنْ عِلْمِ الْقُرْآنِ الَّذِي يُوَافِقُ كُتُبَهُمْ . فَفِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : آزَرُ لَمْ يَكُنْ بِأَبِيهِ ، وَلَكِنَّهُ اسْمُ صَنَمٍ . وَعَنِ السُّدِّيِّ اسْمُ أَبِيهِ تَارَحُ ، وَاسْمُ الصَّنَمِ آزَرُ . وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي إحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنْهُ قَالَ : آزَرُ الصَّنَمُ ، وَأَبُو إبْرَاهِيمَ اسْمُهُ يَازَرَ ، وَفِي الْأُخْرَى أَنَّ أَبَا إبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ اسْمُهُ آزَرَ ، وَإِنَّمَا اسْمُهُ تَارَحَ . رَوَاهُمَا عَنْهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَأَبُو الشَّيْخِ ، وَعَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ أَنَّ اسْمَهُ تَيْرَحُ . وَجَزَمَ الضَّحَّاكُ بِأَنَّ اسْمَهُ آزَرَ ، وَاعْتَمَدَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ أَيْضًا . وَقَالَ الْبُخَارِيُّ فِي " التَّارِيخِ الْكَبِيرِ " : إبْرَاهِيمُ بْنُ آزَرَ ، وَهُوَ فِي التَّوْرَاةِ تَارَحُ ، وَاللَّهُ سَمَّاهُ آزَرَ ، وَإِنْ كَانَ عِنْدَ النَّسَّابِينَ وَالْمُؤَرِّخِينَ اسْمُهُ تَارَخُ لِيُعْرَفَ بِذَلِكَ

. اهـ . فَقَدِ اعْتَمَدَ أَنَّ آزَرَ هُوَ اسْمُهُ عِنْدَ اللهِ - أَيْ فِي كِتَابِهِ - فَإِنْ أَمْكَنَ الْجَمْعُ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ فَبِهَا وَإِلَّا رَدَدْنَا قَوْلَ الْمُؤَرِّخِينَ ، وَسِفْرَ التَّكْوِينِ لِأَنَّهُ لَيْسَ حُجَّةً عِنْدَنَا حَتَّى نَعْتَدَّ بِالتَّعَارُضِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ظَوَاهِرِ

(29/239)

---

الْقُرْآنِ ، بَلِ الْقُرْآنُ هُوَ الْمُهَيْمِنُ عَلَى مَا قَبْلَهُ ، نُصَدِّقُ مَا صَدَّقَهُ ، وَنُكَذِّبُ مَا كَذَّبَهُ ، وَنَلْزَمُ الْوَقْفَ فِيمَا سَكَتَ عَنْهُ حَتَّى يَدُلَّ عَلَيْهِ صَحِيحٌ . وَأَضْعَفُ مَا قَالُوهُ فِي الْجَمْعِ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ أَنَّ آزَرَ اسْمُ عَمِّهِ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْعَرَبَ تُسَمِّي الْعَمَّ أَبًا مَجَازًا ، وَهَذِهِ الدَّعْوَى لَا تَصِحُّ عَلَى إطْلَاقِهَا ، وَإِنَّمَا يَصِحُّ ذَلِكَ حَيْثُ تُوجَدُ قَرِينَةٌ يُعْلَمُ مِنْهَا الْمُرَادُ ، وَلَا قَرِينَةَ هُنَا وَلَا فِي سَائِرِ الْآيَاتِ الَّتِي ذُكِرَ فِيهَا مِنْ غَيْرِ تَسْمِيَةٍ ، وَيَلِيهِ فِي الضَّعْفِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ : إنَّهُ كَانَ خَادِمُ الصَّنَمِ الْمُسَمَّى بِآزَرَ ، فَأُطْلِقَ عَلَيْهِ مِنْ بَابِ حَذْفِ الْمُضَافِ وَإِقَامَةِ الْمُضَافِ إلَيْهِ مَكَانَهُ . وَأَقْوَاهُ أَنَّ لَهُ اسْمَيْنِ ؛ أَحَدُهُمَا عَلَمٌ وَالْآخَرُ لَقَبٌ : وَالظَّاهِرُ حِينَئِذٍ أَنْ يَكُونَ تَارَحُ هُوَ اللَّقَبُ ؛ لِأَنَّ مَعْنَاهُ الْمُتَكَاسِلُ ، وَهُوَ لَقَبٌ قَبِيحٌ قَلَّمَا يُطْلِقُهُ أَحَدٌ ابْتِدَاءً عَلَى وَلَدِهِ ، وَإِنَّمَا يُطْلَقُ مِثْلُهُ عَلَى الْمَرْءِ بَعْدَ ظُهُورِ مَعْنَاهُ فِيهِ أَوْ رَمْيِهِ بِهِ ، إلَّا أَنْ يَصِحَّ مَا زَعَمَهُ مِنْ عَكْسٍ ، فَجُعِلَ آزَرُ هُوَ اللَّقَبُ بِنَاءً عَلَى أَنَّ مَعْنَاهُ فِي لُغَتِهِمْ الْمُخْطِئُ أَوِ الْمُعْوَجُّ أَوِ الْأَعْوَجُ أَوِ الْأَعْرَجِ - وَلَعَلَّهُ تَحْرِيفٌ

عَمَّا قَبْلَهُ – وَقِيلَ : إِنَّهُ الشَّيْخُ الْهَرِمُ بِالْخُوَارَزْمِيَّةِ .

بَعْدَ كِتَابَةِ مَا تَقَدَّمَ رَاجَعْتُ (رُوحَ الْمَعَانِي) لِلْأُلُوسِيِّ ، وَالتَّفْسِيرَ الْكَبِيرَ (مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ) لِلرَّازِيِّ ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَنْقُلَ عَنْهُمَا مَا يَأْتِي :

(30/239)

---

قَالَ الْأُلُوسِيُّ : وَعَلَى الْقَوْلِ بِالْوَصْفِيَّةِ يَكُونُ مَنْعُ صَرْفِهِ لِلْحَمْلِ عَلَى مُوَازِنِهِ وَهُوَ فَاعِلٌ الْمَفْتُوحُ الْعَيْنِ ، فَإِنَّهُ يَغْلِبُ مَنْعَ صَرْفِهِ لِكَثْرَتِهِ فِي الْأَعْلَامِ الْأَعْجَمِيَّةِ ، وَقِيلَ : الْأَوْلَى أَنْ يُقَالَ : إِنَّهُ غَلَبَ عَلَيْهِ فَأُلْحِقَ بِالْعَلَمِ . وَبَعْضُهُمْ يَجْعَلُهُ نَعْتًا مُشْتَقًّا مِنَ الْأَزْرِ بِمَعْنَى الْقُوَّةِ ، أَوِ الْوِزْرِ بِمَعْنَى الْإِثْمِ ، وَمَنْعُ صَرْفِهِ حِينَئِذٍ لِلْوَصْفِيَّةِ وَوَزْنِ الْفِعْلِ ؛ لِأَنَّهُ عَلَى وَزْنِ أَفْعَلَ .

وَقَالَ الرَّازِيُّ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ قَوْلَ الزَّجَّاجِ بِاتِّفَاقِ عُلَمَاءِ النَّسَبِ عَلَى أَنَّ اسْمَ أَبِي إِبْرَاهِيمَ تَارَحُ ، وَمِنَ الْمُلْحِدَةِ مَنْ جَعَلَ هَذَا طَعْنًا فِي الْقُرْآنِ ، وَقَالَ فِي هَذَا النَّسَبِ خَطَأٌ وَلَيْسَ بِصَوَابٍ . ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ لِلْعُلَمَاءِ هَاهُنَا مَقَامَيْنِ ؛ أَحَدُهُمَا رَدُّ الِاسْتِدْلَالِ بِإِجْمَاعِ النَّسَّابِينَ عَلَى أَنَّ اسْمَهُ كَانَ تَارَحَ ، قَالَ : لِأَنَّ ذَلِكَ الْإِجْمَاعَ إِنَّمَا حَصَلَ لِأَنَّ بَعْضَهُمْ يُقَلِّدُ بَعْضًا ، وَبِالْآخِرَةِ يَرْجِعُ ذَلِكَ الْإِجْمَاعُ إِلَى قَوْلِ الْوَاحِدِ وَالِاثْنَيْنِ ، مِثْلَ قَوْلِ وَهْبٍ وَكَعْبٍ وَأَمْثَالِهِمَا ، وَرُبَّمَا تَعَلَّقُوا بِمَا يَجِدُونَهُ مِنْ أَخْبَارِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، وَلَا عِبْرَةَ بِذَلِكَ فِي مُقَابَلَةِ صَرِيحِ الْقُرْآنِ . انْتَهَى .

وَقَدْ بَيَّنَّا لَكَ مَأْخَذَهُ ، وَأَنَّهُ لَا إجْمَاعَ فِي الْمَسْأَلَةِ . ثُمَّ ذَكَرَ الْمَقَامَ الثَّانِي ، وَهُوَ تَسْلِيمُ قَوْلِهِمْ ، وَالْجَمْعُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَصِّ الْقُرْآنِ بِمَا نَقَلْنَاهُ عَنْهُمْ آنِفًا وَبَيَّنَّا قَوِيَّهُ مِنْ ضَعِيفِهِ .

(31/239)

---

وَمِنَ النَّاسِ مَنِ اسْتَدَلَّ عَلَى أَنَّ آزَرَ لَمْ يَكُنْ وَالِدَ إبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - بَلْ عَمَّهُ بِالْجَزْمِ ؛ لِأَنَّ آبَاءَ الْأَنْبِيَاءِ كَافَّةً أَوْ نَبِيِّنَا خَاصَّةً لَمْ يَكُونُوا كُفَّارًا ، وَبِأَنَّ إبْرَاهِيمَ خَاطَبَ آزَرَ بِالْغِلْظَةِ وَالْجَفَاءِ ، وَلَا يَجُوزُ ذَلِكَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ . وَقَدْ عَزَا الرَّازِيُّ هَذَا الْقَوْلَ إلَى الشِّيعَةِ ، وَأَطَالَ فِي بَيَانِهِ ، وَاخْتَصَّ فِي بَيَانِ (زَعْمِ أَصْحَابِهِ - أَيِ الْأَشَاعِرَةِ أَوْ أَهْلِ السُّنَّةِ كَافَّةً - أَنَّ آزَرَ كَانَ وَالِدَ إبْرَاهِيمَ وَكَانَ كَافِرًا وَفِي رَدِّهِمْ قَوْلَ الشِّيعَةِ . وَقَالَ الْأَلُوسِيُّ : وَالَّذِي عَوَّلَ عَلَيْهِ الْجَمُّ الْغَفِيرُ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ آزَرَ لَمْ يَكُنْ وَالِدَ إبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَادَّعَوْا أَنَّهُ لَيْسَ فِي آبَاءِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَافِرٌ أَصْلًا ؛ لِقَوْلِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - : " لَمْ أَزَلْ أُنْقَلُ مِنْ أَصْلَابِ الطَّاهِرِينَ إلَى أَرْحَامِ الطَّاهِرَاتِ " وَالْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ، وَتَخْصِيصُ الطَّهَارَةِ بِالطَّهَارَةِ مِنَ السِّفَاحِ لَا دَلِيلَ لَهُ يُعَوَّلُ عَلَيْهِ ، وَالْعِبْرَةُ لِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا لِخُصُوصِ السَّبَبِ ، وَقَدْ أَلَّفُوا فِي هَذَا الْمَطْلَبِ الرَّسَائِلَ ، وَاسْتَدَلُّوا لَهُ بِمَا اسْتَدَلُّوا .

وَالْقَوْلُ بِأَنَّ ذَلِكَ قَوْلُ الشِّيعَةِ كَمَا ادَّعَاهُ الْإِمَامُ الرَّازِيُّ نَاشِئٌ مِنْ قِلَّةِ التَّتَبُّعِ . وَأَكْثَرُ هَؤُلَاءِ عَلَى أَنَّ آزَرَ اسْمٌ لِعَمِّ إِبْرَاهِيمَ

(32/239)

---

- عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَجَاءَ إِطْلَاقُ الْأَبِ عَلَى الْجَدِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ) (2 : 133) وَفِيهِ إِطْلَاقُ الْأَبِ عَلَى الْجَدِّ أَيْضًا . وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ أَنَّهُ قَالَ : الْخَالُ وَالِدٌ وَالْعَمُّ وَالِدٌ ، وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ .

ثُمَّ ذَكَرَ السَّيِّدُ الْأَلُوسِيُّ آثَارًا اسْتَدَلُّوا بِهَا عَلَى مَا ذُكِرَ ، أَخْذَهَا فِيمَا يَظْهَرُ مِنْ بَعْضِ رَسَائِلِ السُّيُوطِيِّ الَّتِي أَلَّفَهَا فِي نَجَاةِ الْأَبَوَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ ، وَجَمَعَ فِيهَا الذَّرَّةَ وَأُذُنَ الْجَرَّةِ - كَمَا يُقَالُ - وَرَجَّحَ الْآثَارَ الْوَاهِيَةَ وَالْمُنْكَرَةَ عَلَى الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الْمُؤَيَّدَةِ بِالْآيَاتِ الصَّرِيحَةِ ، وَهِيَ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا الْأَلُوسِيُّ بِقَوْلِهِ : وَأَلَّفُوا فِي هَذَا الْمَطْلَبِ الرَّسَائِلَ . . إِلَخْ ، وَاعْتَمَدَ عَلَيْهَا فِيمَا ادَّعَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي عَوَّلَ عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ ، وَمِنَ الْغَرِيبِ وُقُوعُ هَذِهِ الْهَفْوَةِ مِنْ مِثْلِ هَذَا النَّقَّادِ ، وَإِنَّمَا أَوْقَعَهُ فِيهَا هَوًى صَادَفَتْهُ فِي الْفُؤَادِ ، وَهُوَ الْمَيْلُ إِلَى مَا يَدُلُّ عَلَى نَجَاةِ جَمِيعِ

أُولَئِكَ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ الَّذِينَ أَنْجَبُوا أَفْضَلَ الْأَبْنَاءِ وَالْأَحْفَادِ ، مُحَمَّدًا وَإِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَيْنِ عَلَيْهِمَا وَعَلَى آلِهِمَا

(33/239)

---

أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ، فَإِنَّ مِنْ حُبِّهِمَا – وَهُوَ مِنْ آيَاتِ الْإِيمَانِ بِهِمَا – أَنْ يُحِبَّ الْمُؤْمِنُ نَجَاةَ أُصُولِهِمَا ، وَلَكِنْ إِذَا ثَبَتَ أَنَّ بَعْضَهُمْ أَصَرَّ عَلَى الْكُفْرِ ، وَقَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ أَنْ يُبَيِّنَهُ لَنَا فِي مُحْكَمِ الذِّكْرِ ، وَأَنْ يَطَّلِعَ رَسُولُهُ عَلَى عَاقِبَتِهِ فِي النَّارِ ، فَيُخْبِرُ أُمَّتَهُ بِهِ لِكَمَالِ التَّوْحِيدِ وَالِاعْتِبَارِ ، أَفَيَكُونُ مُقْتَضَى حُبِّ اللهِ وَرَسُولِهِ هُوَ الْإِيمَانُ بِذَلِكَ وَبَيَانُهُ كَمَا بَيَّنَّاهُ ؟ أَمْ يَكُونُ حُبُّهُمَا تَحْرِيفَهُ وَتَأْوِيلَهُ مُبَالَغَةً فِي تَعْظِيمِ نَسَبِ الرُّسُلِ ، وَاسْتِعْظَامًا لِهَلَاكِ أَقْرَبِ النَّاسِ مِنْهُمْ نَسَبًا مَعَ كَرَامَتِهِمْ عِنْدَ اللهِ ، وَتَأَثُّرًا بِأَقْوَالِ أَهْلِ الْمِلَلِ الَّذِينَ جَعَلُوا نَجَاةَ الْخَلْقِ وَسَعَادَتَهُمْ فِي الْآخِرَةِ بِجَاهِ أَنْبِيَائِهِمْ وَتَأْثِيرِهِمُ الشَّخْصِيِّ عِنْدَ اللهِ لَا بِاتِّبَاعِهِمْ وَالِاهْتِدَاءِ بِمَا جَاءُوا بِهِ مِنْ أُصُولِ الْإِيمَانِ وَفَضَائِلِ الْأَعْمَالِ (رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) (3 : 53) .

(34/239)

نَعَمْ ، إِنَّ مِمَّا يُصْدِعُ الْفُؤَادَ ، وَيَكَادُ يُفَتِّتُ أَصْلَبَ الْجَمَادِ ، أَنْ يَرَى الْمُؤْمِنُ وَالِدَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ قَدْ أُثْبِتَ عَلَيْهِ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ ، وَأَطْلَعَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ عَلَى أَنَّ مَآلَهُ أَنْ يُمْسَخَ حَيَوَانًا مُنْتِنًا وَيُلْقَى فِي سَعِيرِ النِّيرَانِ ، كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي "كِتَابِ أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ " وَ "كِتَابِ التَّفْسِيرِ " مِنْ صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : "يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ

(35/239)

---

قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ : أَلَمْ أَقُلْ لَكَ " لَا تَعْصِنِي " فَيَقُولُ أَبُوهُ : فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ : يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَلَّا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ ؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى " إِنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ " ثُمَّ يُقَالُ : يَا إِبْرَاهِيمُ انْظُرْ مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ ؟ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُتَلَطِّخٍ ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ " قَالَ الْحَافِظُ بْنُ حَجَرٍ فِي شَرْحِهِ . وَفِي رِوَايَةِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ طَهْمَانَ : فَيُؤْخَذُ مِنْهُ ، فَيَقُولُ : يَا إِبْرَاهِيمُ ، أَيْنَ أَبُوكَ ؟ قَالَ : أَنْتَ أَخَذْتَهُ مِنِّي ، قَالَ : انْظُرْ أَسْفَلَ ، فَيَنْظُرُ فَإِذَا ذِيخٌ يَتَمَرَّغُ فِي نَتْنِهِ . وَفِي رِوَايَةِ أَيُّوبَ : فَيَمْسَخُ اللهُ أَبَاهُ ضَبْعًا فَيَأْخُذُ بِأَنْفِهِ (أَيْ يَأْخُذُ إِبْرَاهِيمُ أَنْفَهُ بِأَصَابِعِهِ كَرَاهَةً

لِرَائِحَةٍ نَتْنِهِ ، فَيَقُولُ : يَا عَبْدِي ، أَبُوكَ هُوَ ؟ فَيَقُولُ : لَا وَعَزَّتِكَ . وَفِي حَدِيثِ سَعِيدٍ : فَيُحَوَّلُ فِي صُورَةٍ قَبِيحَةٍ وَرِيحٍ مُنْتِنَةٍ فِي صُورَةِ ضَبْعَانٍ . زَادَ ابْنُ الْمُنْذِرِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ : فَإِذَا رَآهُ كَذَا تَبَرَّأَ مِنْهُ وَقَالَ : لَسْتَ أَبِي . وَالذِّيخُ - بِكَسْرِ الذَّالِ الْمُعْجَمَةِ بَعْدَهَا تَحْتَانِيَّةٌ سَاكِنَةٌ ثُمَّ خَاءٌ مُعْجَمَةٌ - ذَكَرُ الضِّبَاعِ ، وَلَا يُقَالُ : ذِيخٌ إلَّا إذَا كَانَ كَثِيرَ الشَّعْرِ . وَالضِّبْعَانُ لُغَةٌ فِي الضَّبُعِ . اهـ .

(36/239)

---

أَقُولُ : الضِّبْعَانُ - بِالْكَسْرِ - ذَكَرُ الضِّبَاعِ ، وَهُوَ مُفْرَدٌ ، وَالضَّبُعُ - بِضَمِّ الْبَاءِ وَسُكُونِهَا - هِيَ الْأُنْثَى فَلَا يُقَالُ : ضَبْعَةٌ ، وَقَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ : يُطْلَقُ عَلَى الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى . وَهُوَ وَحْشٌ خَبِيثُ الرَّائِحَةِ ، فَنَاسَبَ ذَلِكَ خُبْثَ الشِّرْكِ .

وَقَالَ الْحَافِظُ : قِيلَ : الْحِكْمَةُ فِي مَسْخِهِ لِتَنْفُرَ نَفْسُ إبْرَاهِيمَ مِنْهُ ، وَلِئَلَّا يَبْقَى فِي النَّارِ عَلَى صُورَتِهِ فَيَكُونُ غَضَاضَةً عَلَى إبْرَاهِيمَ . وَقِيلَ : الْحِكْمَةُ فِي مَسْخِهِ ضَبْعًا أَنَّ الضَّبُعَ مِنْ أَحْمَقِ

الْحَيَوَانِ ، وَآزَرُ كَانَ مِنْ أَحْمَقِ الْبَشَرِ ؛ لِأَنَّهُ بَعْدَ أَنْ ظَهَرَ لَهُ مِنْ وَلَدِهِ مَا ظَهَرَ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ أَصَرَّ عَلَى الْكُفْرِ حَتَّى مَاتَ . . إلَخْ .

ثُمَّ ذَكَرَ الْحَافِظُ أَنَّ الْإِسْمَاعِيلِيَّ اسْتَشْكَلَ مَتْنَ هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ أَصْلِهِ ، وَطَعَنَ فِي صِحَّتِهِ مِنْ جِهَةِ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلِمَ أَنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ، فَكَيْفَ يَجْعَلُ مَا صَارَ لِأَبِيهِ خِزْيًا مَعَ عِلْمِهِ بِذَلِكَ ؟ قَالَ الْحَافِظُ : وَقَالَ غَيْرُهُ : هَذَا الْحَدِيثُ مُخَالِفٌ لِظَاهِرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ) (9 : 114) وَأَجَابَ عَنِ الثَّانِي بِأَنَّ أَهْلَ التَّفْسِيرِ اخْتَلَفُوا فِي الْوَقْتِ الَّذِي تَبَرَّأَ فِيهِ إِبْرَاهِيمُ مِنْ أَبِيهِ ، فَقِيلَ : كَانَ ذَلِكَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَمَّا مَاتَ آزَرُ مُشْرِكًا . وَذَكَرَ أَنَّ الطَّبَرِيَّ

(37/239)

---

رَوَاهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ طُرُقٍ قَالَ فِي بَعْضِهَا : اسْتَغْفَرَ لَهُ مَا كَانَ حَيًّا ، فَلَمَّا مَاتَ أَمْسَكَ . وَقِيلَ : إِنَّمَا تَبَرَّأَ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمَّا يَئِسَ حِينَ مُسِخَ عَلَى مَا صَرَّحَ بِهِ فِي رِوَايَةِ ابْنِ الْمُنْذِرِ الَّتِي أَشَرْتُ إِلَيْهَا . وَهَذَا الَّذِي أَخْرَجَهُ الطَّبَرِيُّ أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ أَبِي سُلَيْمَانَ ، سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ يَقُولُ : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : رَبِّ وَالِدِي ، رَبِّ وَالِدِي ، فَإِذَا كَانَ الثَّالِثَةُ أُخِذَ بِيَدِهِ ، فَيَلْتَفِتُ إِلَيْهِ وَهُوَ ضِبْعَانٌ ، فَيَتَبَرَّأُ مِنْهُ . . . (ثُمَّ قَالَ الْحَافِظُ) : وَيُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ بِأَنَّهُ تَبَرَّأَ مِنْهُ لَمَّا مَاتَ مُشْرِكًا ، فَتَرَكَ الِاسْتِغْفَارَ لَهُ ، لَكِنْ لَمَّا رَآهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَدْرَكَتْهُ الرَّأْفَةُ وَالرِّقَّةُ ، فَسَأَلَ فِيهِ ، فَلَمَّا رَآهُ مُسِخَ يَئِسَ مِنْهُ حِينَئِذٍ ، فَتَبَرَّأَ مِنْهُ

تَبَرُّءًا أَبَدِيًّا . وَقِيلَ : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَتَيَقَّنْ مَوْتَهُ عَلَى الْكُفْرِ لِجَوَازِ أَنْ يَكُونَ آمَنَ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يَطَّلِعْ إِبْرَاهِيمُ عَلَى ذَلِكَ ، وَيَكُونَ تَبَرُّؤُهُ مِنْهُ بَعْدَ الْحَالِ الَّتِي وَقَعَتْ مِنْهُ فِي الْحَدِيثِ . انْتَهَى . وَفِيهِ التَّعْبِيرُ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ بِصِيغَةِ الْمَاضِي ، وَهُوَ كَثِيرٌ فِي أَخْبَارِ الْقِيَامَةِ .

(38/239)

---

ثُمَّ نَقَلَ الْحَافِظُ عَنِ الْكِرْمَانِيِّ إِيرَادًا بِمَعْنَى إِشْكَالِ الْإِسْمَاعِيلِيِّ مُوَضَّحًا . وَالْجَوَابُ عَنْهُ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ إِذَا مُسِخَ وَأُلْقِيَ فِي النَّارِ لَمْ تَبْقَ الصُّورَةُ الَّتِي هِيَ سَبَبُ الْخِزْيِ ، فَهُوَ عَمَلٌ بِالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ مَعًا ، وَثَانِيهِمَا أَنَّ الْوَعْدَ كَانَ مَشْرُوطًا بِالْإِيمَانِ ، وَإِنَّمَا اسْتَغْفَرَ لَهُ وَفَاءً بِمَا وَعَدَهُ ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ .

وَأَقُولُ : إِنَّ مَا فِي الْحَدِيثِ مِنْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَعَدَ إِبْرَاهِيمَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بِأَلَّا يُخْزِيَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُشِيرُ إِلَى دُعَائِهِ الَّذِي حَكَاهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ ، وَمِنْهُ (وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) (26 : 86 - 89) وَأَمَّا وَعْدُ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاهُ بِذَلِكَ فَلَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنَ الْحَدِيثِ ، فَهُوَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَيْهِ بِأَنَّهُ اسْتَجَابَ لَهُ هَذَا الدُّعَاءَ بِشَرْطِهِ الْمَعْلُومِ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَغْفِرُ لِمَنْ يُشْرِكُ بِهِ . وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي خَاتِمَةِ

الدُّعَاءِ : (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) فَهُوَ مِنْ دَقَائِقِ الرَّقَائِقِ .
وَأَمَّا اسْتِدْلَالُ الْأُلُوسِيِّ تَبَعًا لِغَيْرِهِ بِحَدِيثِ " لَمْ أَزَلْ أُنْقَلُ مِنْ أَصْلَابِ الطَّاهِرِينَ إِلَى أَرْحَامِ

(39/239)

---

الطَّاهِرَاتِ " عَلَى إِيمَانِ آبَاءِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - مِنْ عَبْدِ اللَّهِ (أَوَّلِهِمْ) إِلَى آدَمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَهُوَ مُعَارَضَةٌ لِظَاهِرِ الْقُرْآنِ وَالْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ

(40/239)

---

بِحَدِيثٍ وَاهٍ رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ فِي الدَّلَائِلِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ بِلَفْظِ " لَمْ يَلْتَقِ أَبَوَيَّ فِي سِفَاحٍ ، لَمْ يَزَلِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَنْقُلُنِي مِنْ أَصْلَابٍ طَيِّبَةٍ ، إِلَى أَرْحَامٍ طَاهِرَةٍ ، صَافِيًا مُهَذَّبًا لَا تَنْشَعِبُ شُعْبَتَانِ إِلَّا كُنْتُ فِي خَيْرِهِمَا " هَكَذَا فِي نُسْخَةِ الدَّلَائِلِ الَّتِي بِأَيْدِينَا . وَذَكَرَهُ السُّيُوطِيُّ عَنْهُ بِلَفْظِ " مِنَ الْأَصْلَابِ الطَّيِّبَةِ إِلَى الْأَرْحَامِ الطَّاهِرَةِ " بِالتَّعْرِيفِ ، وَلَا نَعْرِفُهُ بِاللَّفْظِ الَّذِي ذَكَرَهُ الْأُلُوسِيُّ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ ، وَإِنَّمَا يَذْكُرُهُ بِهَذَا اللَّفْظِ مَنْ لَا يَتَحَرَّوْنَ نَقْلَ الْأَحَادِيثِ بِضَبْطِ مُخْرِجِيهَا ، بَلْ يَتَسَاهَلُونَ بِنَقْلِهَا حَيْثُ وَجَدُوهَا كَكَثِيرٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَالْمُتَكَلِّمِينَ .

وَقَدْ سَبَقَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ الْأُلُوسِيَّ إِلَى ذِكْرِهِ بِهَذَا اللَّفْظِ مِنْ غَيْرِ عِزْوٍ وَلَا ذِكْرٍ لِاسْمِ الصَّحَابِيِّ الَّذِي رَفَعَهُ كَعَادَتِهِ . وَاللَّفْظُ الْمَرْوِيُّ لَا مَعْنًى لَهُ إِلَّا كَوْنَ آبَائِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وُلِدُوا مِنْ نِكَاحٍ لَا مِنْ سِفَاحٍ ، وَهُوَ مَعْنًى صَحِيحٌ وَرَدَتْ فِيهِ أَحَادِيثُ أُخْرَى ، وَلَوْ فَرَضْنَا أَنَّهُ رُوِيَ بِاللَّفْظِ الَّذِي ذَكَرَاهُ لَاحْتَمَلَ هَذَا الْمَعْنَى أَيْضًا ، وَكَانَ حَمْلُهُ عَلَيْهِ جَمْعًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقُرْآنِ ، وَالْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ أَوْلَى مِنْ جَعْلِهِ أَصْلًا وَإِرْجَاعِهَا إِلَيْهِ بِالتَّأْوِيلِ وَالتَّكَلُّفِ . وَالَّذِي خَرَّجَهُ إِنَّمَا جَعَلَهُ فِي دَلَائِلِ طَهَارَةِ نَسَبِهِ لَا إِيمَانِ أُصُولِهِ .

*(41/239)*

---

وَمِمَّا ذَكَرَ السُّيُوطِيُّ مِنَ الدَّلَائِلِ فِي مَعْنَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ) (26 : 219) لِقَوْلِ بَعْضِهِمْ : إِنَّ مَعْنَاهُ فِي أَصْلَابِ الطَّاهِرِينَ أَيِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَرَوَى أَبُو نُعَيْمٍ أَنَّهُمُ الْأَنْبِيَاءُ ، وَيُبْطِلُ ذَلِكَ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْمُعَارَضَةِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى قَبْلَ الْآيَةِ : (الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ) (26 : 218) أَيْ : وَيَرَى تَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ، فَهُوَ لَا يَحْتَمِلُ الْمَاضِيَ ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ : الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ فِي الصَّلَاةِ ، وَيَرَى تَقَلُّبَكَ فِي الْمُصَلِّينَ أَيْ مَعَهُمْ وَبَيْنَهُمْ . وَمَا رُوِيَ عَنْهُ مِنْ أَنَّ الْمَعْنَى تَقَلُّبُهُ مِنْ صُلْبِ نَبِيٍّ إِلَى

صُلْبِ نَبِيٍّ حَتَّى أَخْرَجَهُ نَبِيًّا - لَا يَصِحُّ سَنَدًا وَلَا مَتْنًا وَلَا لُغَةً . وَتَفْصِيلُ ذَلِكَ سَيَأْتِي فِي مَحِلِّهِ .

(42/239)

---

وَأَمَّا الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ الْمُعَارَضَةُ لِحَدِيثِ أَبِي نُعَيْمٍ الَّتِي أَشَرْنَا إلَيْهَا فِي سِيَاقِ الْكَلَامِ غَيْرَ حَدِيثِ الْبُخَارِيِّ فِي مَسْخِ آزَرَ فَأَهَمُّهَا مَا وَرَدَ فِي أَبَوَيِ الرَّسُولِ الطَّاهِرَيْنِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَيْنَ أَبِي ؟ قَالَ : " فِي النَّارِ " قَالَ : فَلَمَّا قَفَّا الرَّجُلُ دَعَاهُ فَقَالَ : " إنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ " قَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِهِ : فِيهِ أَنَّ مَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ فَهُوَ فِي النَّارِ ، وَلَا تَنْفَعُهُ قَرَابَةُ الْمُقَرَّبِينَ ، وَفِيهِ أَنَّ مَنْ مَاتَ فِي الْفَتْرَةِ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ الْعَرَبُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَلَيْسَ هَذَا مُؤَاخَذَةً قَبْلَ بُلُوغِ الدَّعْوَةِ ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ كَانَتْ قَدْ بَلَغَتْهُمْ دَعْوَةُ إبْرَاهِيمَ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ ، وَقَوْلُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - " إنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ " هُوَ مِنْ حُسْنِ الْعِشْرَةِ لِلتَّسْلِيَةِ بِالِاشْتِرَاكِ فِي الْمُصِيبَةِ . وَمَعْنَى " قَفَّا " وَلَّى قَفَاهُ مُنْصَرِفًا . انْتَهَى . وَوَرَدَ حَدِيثٌ مِثْلُهُ فِي أُمِّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ .

(43/239)

---

وَرَوَى مُسْلِمٌ أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ مَرْوَانَ بْنِ مُعَاوِيَةَ ، عَنْ زَيْدِ بْنِ كَيْسَانَ ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي ، وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي " وَرَوَاهُ مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ عُبَيْدٍ بِلَفْظِ : " زَارَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَبْرَ أُمِّهِ ، فَبَكَى وَأَبْكَى مَنْ حَوْلَهُ ، فَقَالَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا ، فَلَمْ يَأْذَنْ لِي ، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي فَزُورُوا الْقُبُورَ ، فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمُ الْمَوْتَ " وَذَكَرَ النَّوَوِيُّ أَنَّ هَذِهِ الرِّوَايَةَ وُجِدَتْ فِي نُسَخِ الْمَغَارِبَةِ دُونَ الْمَشَارِقَةِ ، وَلَكِنَّهَا تُوجَدُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأُصُولِ فِي آخِرِ كِتَابِ الْجَنَائِزِ وَيُضَبَّبُ عَلَيْهَا ، وَرُبَّمَا كُتِبَتْ فِي الْحَاشِيَةِ . وَذَكَرَ أَنَّ الْحَدِيثَ رَوَاهُ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقِ أَبُو دَاوُدَ ، وَالنَّسَائِيُّ ، وَابْنُ مَاجَهْ ، وَرِجَالُهُ عِنْدَهُمْ كُلُّهُمْ ثِقَاتٌ ، قَالَ : فَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ بِلَا شَكٍّ .

(44/239)

---

وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ : فِيهِ جَوَازُ زِيَارَةِ الْمُشْرِكِينَ فِي الْحَيَاةِ وَقُبُورِهِمْ بَعْدَ الْوَفَاةِ ؛ لِأَنَّهُ إذَا جَازَتْ زِيَارَتُهُمْ بَعْدَ الْوَفَاةِ فَفِي الْحَيَاةِ أَوْلَى ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : (وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا) (31 : 15) وَفِيهِ النَّهْيُ عَنْ الِاسْتِغْفَارِ لِلْكُفَّارِ . قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ رَحِمَهُ اللَّهُ : سَبَبُ زِيَارَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَبْرَهَا أَنَّهُ قَصْدُ الْمَوْعِظَةِ وَالذِّكْرَى بِمُشَاهَدَةِ قَبْرِهَا ، وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي آخِرِ الْحَدِيثِ : " فَزُورُوا الْقُبُورَ ؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمْ الْمَوْتَ " انْتَهَى . فَهَذَا كَلَامُ أَهْلِ السُّنَّةِ .

*(45/239)*

---

وَقَدْ وَرَدَ فِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِمَا مِنْ عِدَّةِ طُرُقٍ ، أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ : (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) (9 : 113 ، 114) نَزَلَتْ فِي هَذِهِ الْوَاقِعَةِ . وَلَكِنْ رَوَى الشَّيْخَانِ وَغَيْرُهُمَا أَنَّهَا نَزَلَتْ لَمَّا عَرَضَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى أَبِي طَالِبٍ عِنْدَ مَوْتِهِ أَنْ يَقُولَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لِيُحَاجَّ لَهُ بِهَا أَوْ يُجَادِلَ عَنْهُ أَوْ يَشْفَعَ لَهُ بِهَا ، وَكَانَ عِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ ، فَجَعَلَ يَقُولُ لَهُ : أَتَرْغَبُ

عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ؟ فَقَالَ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ إِنَّهُ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَهَا ، فَحِينَئِذٍ قَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " وَاللَّهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ " فَأَنْزَلَ اللَّهُ : (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ) (9 : 113) إِلَخْ . وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) (28 : 56) قِيلَ فِي تَفْسِيرِ " مَنْ أَحْبَبْتَ " مَنْ أَحْبَبْتَ هِدَايَتَهُ . وَقِيلَ : مَنْ أَحْبَبْتَهُ بِقَرَابَةٍ وَنَحْوِهَا .

*(46/239)*

---

قَالَ الْحَافِظُ عِنْدَ شَرْحِ هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ كِتَابِ التَّفْسِيرِ فِي الْبُخَارِيِّ حِينَ ذَكَرَهُ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْقَصَصِ : وَفِيهِ إِشْكَالٌ ؛ لِأَنَّ وَفَاةَ أَبِي طَالِبٍ كَانَتْ بِمَكَّةَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ اتِّفَاقًا ، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَتَى قَبْرَ أُمِّهِ لَمَّا اعْتَمَرَ . فَاسْتَأْذَنَ رَبَّهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهَا ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، وَالْأَصْلُ عَدَمُ تَكَرُّرِ النُّزُولِ ، ثُمَّ ذَكَرَ الرِّوَايَاتِ فِي ذَلِكَ عَنِ الْحَاكِمِ ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ ، وَالطَّبَرِيِّ ، وَالطَّبَرَانِيِّ ، ثُمَّ قَالَ : وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ نُزُولُ الْآيَةِ تَأَخَّرَ وَإِنْ كَانَ سَبَبُهَا تَقَدَّمَ ، وَيَكُونُ لِنُزُولِهَا سَبَبَانِ : مُتَقَدِّمٌ وَهُوَ أَمْرُ أَبِي طَالِبٍ ، وَمُتَأَخِّرٌ وَهُوَ أَمْرُ آمِنَةَ . وَيُؤَيِّدُ تَأْخِيرَ النُّزُولِ مَا سَيَأْتِي فِي تَفْسِيرِ بَرَاءَةَ (9 : 80) مِنِ اسْتِغْفَارِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ - لِلْمُنَافِقِينَ حَتَّى نَزَلَ النَّهْيُ عَنْ ذَلِكَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَقْتَضِي تَأْخِيرَ النُّزُولِ وَإِنْ تَقَدَّمَ السَّبَبُ ، وَيُشِيرُ إِلَى ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ فِي حَدِيثِ الْبَابِ : وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي أَبِي طَالِبٍ : (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) (28 : 56) لِأَنَّهُ يُشْعِرُ بِأَنَّ الْآيَةَ الْأُولَى نَزَلَتْ فِي أَبِي طَالِبٍ وَفِي غَيْرِهِ ، وَالثَّانِيَةُ نَزَلَتْ فِيهِ وَحْدَهُ . انْتَهَى . ثُمَّ أَيَّدَ الْحَافِظُ تَعَدُّدَ النُّزُولِ بِرِوَايَاتٍ أُخْرَى فِيمَنِ اسْتَغْفَرَ لِوَالِدَيْهِ الْمُشْرِكَيْنِ وَمَنِ اسْتَأْذَنَ فِي ذَلِكَ ، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الصَّحَابَةَ كَانُوا يَقُولُونَ فِي الْآيَةِ الدَّالَّةِ عَلَى

*(47/239)*

---

حُكْمٍ وَقَعَ لَهُ عِدَّةُ أَسْبَابٍ : إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي تِلْكَ الْأَسْبَابِ ، أَيْ نَزَلَتْ مُبَيِّنَةً لِحُكْمِ اللَّهِ فِيهَا وَإِنْ تَأَخَّرَتْ عَنْهَا ، وَسَيَأْتِي تَحْقِيقُ هَذِهِ الْمَسَائِلِ فِي مَحَلِّهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَمِنْ غَرِيبِ التَّعَصُّبِ لِلرَّأْيِ أَنَّ السُّيُوطِيَّ حَاوَلَ فِي بَعْضِ رَسَائِلِهِ إِعْلَالَ أَحَادِيثِ الزِّيَارَةِ ، فَزَعَمَ أَنَّهُ لَمْ يَرْوِهَا أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ الصِّحَاحِ وَلَا السُّنَنِ ، وَحَصَرَ رِوَايَتَهَا فِي الْحَاكِمِ وَأَحْمَدَ وَسَائِرِ مَنْ ذَكَرَ شَيْخُهُ الْحَافِظُ بْنُ حَجَرٍ فِي شَرْحِ الْبُخَارِيِّ وَأَشَرْنَا إِلَيْهِ آنِفًا ، كَأَنَّهُ ظَنَّ أَنَّهَا لَوْ كَانَتْ فِي الصِّحَاحِ أَوِ السُّنَنِ لَمَا اقْتَصَرَ الْحَافِظُ عَلَى مَنْ ذَكَرَ مِنْ مُخْرِجِيهَا مَعَ مَا عُرِفَ مِنْ عَادَتِهِ أَنَّهُ يَذْكُرُ جَمِيعَ طُرُقِ الْحَدِيثِ أَوْ أَقْوَاهَا ، وَفَاتَهُ أَنَّهُ إِنَّمَا

أَرَادَ هُنَا ذِكْرَ مَا ثَبَتَ فِي سَبَبِ نُزُولِ الْآيَةِ مِنْ أَحَادِيثِ الزِّيَارَةِ ، وَمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ فِيهَا لَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ نُزُولِ الْآيَةِ فِي ذَلِكَ ، وَلَكِنْ أَيْنَ حِفْظُ السُّيُوطِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ؟ أَلَيْسَ أَهْوَنُ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ هَذَا الْإِنْكَارُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ حَافِظًا لِلصِّحَاحِ وَالسُّنَنِ حِفْظًا ، وَإِنَّمَا كَانَ يُرَاجِعُ الْكُتُبَ عِنْدَ الْحَاجَةِ وَيَنْقُلُ مِنْهَا نَقْلًا ؟ .

*(48/239)*

---

وَمِمَّا ذَكَرَ السُّيُوطِيُّ فِي التَّقَصِّي مِنْ حَدِيثِ " إنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ " أَنَّ الْمُرَادَ بِأَبِيهِ فِيهِ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ ، وَفِي حَدِيثِ عَرْضِ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ عَلَى أَبِي طَالِبٍ مَا يُبْطِلُ دَعْوَاهُ إيمَانَ جَمِيعِ آبَاءِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ أَنَّ آخِرَ مَا قَالَهُ أَبُو طَالِبٍ أَنَّهُ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ . فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مِلَّةَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ تُنَافِي كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ الَّتِي هِيَ عُنْوَانُ الْإِسْلَامِ . (وَمِنْهُ) زَعْمُهُ أَنَّ الْحَدِيثَ قَدْ نُسِخَ ، وَلَعَلَّهُ نَسِيَ قَوْلَ الْأُصُولِيِّينَ أَنَّ الْأَخْبَارَ لَا تُنْسَخُ ، وَلَا نَقُولُ : إنَّهُ جَهِلَهُ ، فَقَدْ قَرَّرَهُ فِي الْإِتْقَانِ تَقْرِيرًا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ إطْلَاقَ كَلِمَةِ الْأَبِ عَلَى الْعَمِّ مَجَازٌ لَا يَصِحُّ

فِي اللُّغَةِ إلَّا بِقَرِينَةٍ مَانِعَةٍ مِنْ إرَادَةِ الْمَعْنَى الْحَقِيقِيِّ ، وَسِيَاقُ الْحَدِيثِ يُعَيِّنُ الْمَعْنَى

الْحَقِيقِيَّ ، فَإِذَا جَازَ أَنْ يَكُونَ السَّائِلُ عَنْ أَبِيهِ أَرَادَ عَمَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى الْحَدِيثِ " إِنَّ عَمِّي وَعَمَّكَ فِي النَّارِ " .

*(49/239)*

---

وَلَعُمْرِي إِنَّ مَنْ يَقُولُ هَذِهِ الْأَقْوَالَ لَا يُرَدُّ عَلَيْهِ ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يُحْكَى قَوْلُهُ إِلَّا فِي مَقَامِ التَّعَجُّبِ أَوْ مَقَامِ الِاعْتِبَارِ وَالرَّدِّ ، عَلَى أَنَّ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ رَدُّوا عَلَيْهِ ، وَمَعَ ذَلِكَ اغْتَرَّ كَثِيرُونَ بِمَا أَوْرَدَهُ فِي نَجَاةِ الْأَبَوَيْنِ وَمِنْ حَدِيثِ إحْيَائِهِمَا وَإِيمَانِهِمَا الَّذِي قَالَ بَعْضُ الْحُفَّاظِ بِوَضْعِهِ ، وَغَايَةُ مَا قَرَّرَهُ هُوَ أَنَّهُ ضَعِيفٌ لَا مَوْضُوعٌ ، وَهُوَ مُعَارَضٌ بِالْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ . (وَمِنْهُ) أَنَّهُمَا مِنْ أَهْلِ الْفَتْرَةِ ، وَجُمْهُورُ الْأَشَاعِرَةِ عَلَى الْقَوْلِ بِنَجَاتِهِمْ ، وَلَكِنَّهُمْ اسْتَثْنَوْا مَنْ وَرَدَ النَّصُّ بِأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَأَقْوَى مَا قَالَهُ هُوَ وَغَيْرُهُ ، وَأَرْجَاهُ مَا وَرَدَ مِنَ الْأَحَادِيثِ فِي امْتِحَانِ اللَّهِ تَعَالَى لِأَهْلِ الْفَتْرَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَنَجَاةِ بَعْضِهِمْ بِهِ ، هَذَا إذَا لَمْ يَصِحَّ مَا نَقَلْنَاهُ عَنِ النَّوَوِيِّ مِنْ جَزْمِهِ بِأَنَّ مُشْرِكِي الْعَرَبِ قَدْ بَلَغَتْهُمْ دَعْوَةُ إِبْرَاهِيمَ وَغَيْرِهِ ، وَفِيهِ بَحْثٌ سَيَأْتِي فِي مَوْضِعِهِ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَإِذَا حَقَّ نَجَاةُ الْأَبَوَيْنِ الطَّاهِرَيْنِ بِالِامْتِحَانِ يَكُونُ مَا وَرَدَ فِيهِمَا خَاصًّا بِمَا قَبْلَ الِامْتِحَانِ .

(حِكْمَةُ النُّصُوصِ فِي كُفْرِ بَعْضِ أَرْحَامِ الرُّسُلِ الْأَقْرَبِينَ) .

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا اسْتِنْبَاطَهُمُ الْبَعِيدَ مِنَ الرِّوَايَاتِ الضَّعِيفَةِ وَالْمُنْكَرَةِ أَصْلًا فِي إِثْبَاتِ إِيمَانِ آبَاءِ الرَّسُولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَيُؤَوِّلُونَ لِأَجْلِهِ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةَ وَالْأَحَادِيثَ الصَّحِيحَةَ الصَّرِيحَةَ – قَدْ غَفَلُوا عَنْ أَمْرٍ عَظِيمٍ ، وَهُوَ الْحِكْمَةُ وَالْفَائِدَةُ فِي الْإِكْثَارِ مِنَ التَّصْرِيحِ بِكُفْرِ وَالِدِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْقُرْآنِ ، وَمَا فِي مَعْنَاهُ كَقِصَّةِ ابْنِ نُوحٍ الَّذِي أَصَرَّ عَلَى كُفْرِهِ ، وَلَمْ يَرْضَ أَنْ يَرْكَبَ السَّفِينَةَ مَعَ وَالِدِهِ وَأَهْلِهِ ، وَفِي تَصْرِيحِ الرَّسُولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِمَا يَكُونُ مِنْ أَمْرِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ مَعَ وَالِدِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَتَصْرِيحِهِ أَيْضًا بِأَنَّ أَبَاهُ فِي النَّارِ ، وَبِعَدَمِ إِذْنِ اللهِ تَعَالَى لَهُ فِي الِاسْتِغْفَارِ لِأُمِّهِ وَلَا لِعَمِّهِ الَّذِي رَبَّاهُ وَلَهُ عَلَيْهِ أَعْظَمُ الْحُقُوقِ .

وَمِثْلُ ذَلِكَ – فِيمَا يَظْهَرُ – إِنْزَالُ سُورَةٍ فِي سُوءِ حَالِ أَبِي لَهَبٍ وَمَصِيرِهِ إِلَى النَّارِ وَهُوَ عَمُّ الرَّسُولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

إِنَّ الْحِكْمَةَ الْبَالِغَةَ وَالْفَائِدَةَ الظَّاهِرَةَ مِنْ هَذِهِ النُّصُوصِ هِيَ تَقْرِيرُ أَصْلِ التَّوْحِيدِ الْهَادِمِ لِقَاعِدَةِ الْوَثَنِيَّةِ بِالْفَصْلِ بَيْنَ مَا هُوَ لِلَّهِ وَمَا هُوَ لِرُسُلِهِ ، وَهُوَ أَنَّ الرُّسُلَ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - لَمْ يُرْسَلُوا إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، مَا عَلَيْهِمْ إِلَّا تَبْلِيغُ دِينِ اللَّهِ وَإِقَامَتُهُ ، وَلَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ، وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَحَدٍ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ، وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ هُدَى أَحَدٍ وَلَا رُشْدُهُ بِالْفِعْلِ ، وَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ هِدَايَةُ التَّعْلِيمِ وَالْحُجَّةِ ، فَلَا يَهْدُونَ مَنْ أَحَبُّوا ، وَلَا يُغْنُونَ عَنْهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ أَقْرَبَ النَّاسِ وَأَحَبَّهُ إِلَيْهِمْ فِي النَّسَبِ وَالْمُعَامَلَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ . وَأَمَّا قَاعِدَةُ وَثَنِيَّةِ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ فَهِيَ اتِّخَاذُ

(52/239)

---

أَوْلِيَاءَ مِنَ الْعِبَادِ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ وُسَطَاءُ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ عِبَادِهِ فِي شُئُونِ الْخَلْقِ وَالْإِيجَادِ ، وَالْإِشْقَاءِ وَالْإِسْعَادِ ، وَالسَّلْبِ وَالْإِمْدَادِ ، لَا فِي مُجَرَّدِ التَّبْلِيغِ وَالْإِرْشَادِ قِيَاسًا عَلَى مَا يَعْهَدُونَ مِنَ الْأَقْرَبِينَ وَالْمُقَرَّبِينَ عِنْدَ الْمُلُوكِ الْمُسْتَبِدِّينَ ، فَهُمْ لِذَلِكَ يَدْعُونَهُمْ مَعَ اللَّهِ أَوْ مِنْ دُونِ اللَّهِ (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ) (10 : 18) وَكَانُوا يُعَبِّرُونَ عَنْهُمْ بِالْأَوْلِيَاءِ وَالشُّرَكَاءِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) (39 : 3) الْآيَةَ . وَكَانُوا يَقُولُونَ فِي

طَوَافِهِمْ : لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ ، إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ .

وَأَصْلُ عِبَادَةِ أَصْنَامِهِمْ وَأَوْثَانِهِمُ الْغُلُوُّ فِي تَعْظِيمِ الصَّالِحِينَ ، فَهِيَ مَأْخُوذَةٌ عَنْ قَوْمِ نُوحٍ ؛

(53/239)

---

كَانَ فِيهِمْ رِجَالٌ صَالِحُونَ هَلَكُوا ، فَأَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمْ أَنْصَابًا ، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ ، فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَنُسِخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ (رَاجِعْ سُورَةَ نُوحٍ مِنْ كِتَابِ التَّفْسِيرِ فِي " صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ " وَقَدْ هَدَمَ الْقُرْآنُ جَمِيعَ قَوَاعِدِ شِرْكِ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْوَثَنِيِّينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ جَعَلُوا مَدَارَ السَّعَادَةِ وَالنَّجَاةِ عَلَى شَفَاعَةِ أَنْبِيَائِهِمْ وَأَوْلِيَائِهِمْ ، لَا عَلَى اتِّبَاعِهِمْ فِي الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ وَفَضْلِ اللهِ تَعَالَى ، وَلَمَّا كَانَ إِبْرَاهِيمُ أَعْلَى الْبَشَرِ مَقَامًا فِي أَنْفُسِ الْعَرَبِ – وَمَقَامُهُ الْأَعْلَى فِي الرُّسُلِ عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَقَامُهُ – كَرَّرَ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ ذِكْرَ كُفْرِ وَالِدِهِ وَاجْتِهَادِهِ هُوَ فِي هِدَايَتِهِ وَعِنَايَتِهِ بِالِاسْتِغْفَارِ لَهُ ، وَأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ لَمْ يُفِدْهُ شَيْئًا ، وَزَادَ الرَّسُولُ الْأَعْظَمُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَبَيَّنَ لَنَا مَا أَطْلَعَهُ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ عَاقِبَتِهِ السُّوأَى فِي الْآخِرَةِ . وَذُكِرَ أَيْضًا عَنْ أَبَوَيْهِ مَا عَلِمْتَ مِنْ رِوَايَاتِ الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا لِيَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّ مَدَارَ النَّجَاةِ فِي الْآخِرَةِ عَلَى الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ الْإِذْعَانِيِّ الْمُسْتَلْزِمِ لِلْعَمَلِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، لَا بِأَشْخَاصِ

الرُّسُلِ وَتَأْثِيرِهِمُ الشَّخْصِيِّ عِنْدَ اللهِ ، كَتَأْثِيرِ الْأَقْرَبِينَ وَالْمُقَرَّبِينَ عِنْدَ الْمُلُوكِ الْمُسْتَبِدِّينَ ، إِذْ يَحْمِلُونَهُمْ بِالشَّفَاعَةِ أَوِ

(54/239)

---

الْإِقْنَاعِ عَلَى عَفْوٍ عَنْ مُذْنِبٍ أَوْ إِحْسَانٍ إِلَى غَيْرِ مُسْتَحِقٍّ ، وَهَذِهِ هِيَ نَظَرِيَّةُ الْوَثَنِيِّينَ فِي الشَّفَاعَةِ الَّتِي نَفَاهَا الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ ، وَأَثْبَتَ أَنَّ الشَّفَاعَةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ، لَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ لِلشَّافِعِ وَرِضَاهُ عَنِ الْمَشْفُوعِ لَهُ . وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْصِيلُ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَفِي غَيْرِهَا .

وَلَا يُرَدُّ عَلَى حَصْرِ وَظِيفَةِ الرُّسُلِ فِي التَّبْلِيغِ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ مَا يُؤَيِّدُهُمُ اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الْآيَاتِ ، فَإِنَّهَا وَإِنْ كَانَ بَعْضُهَا يَحْصُلُ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ مِنْهُمْ لَا يَصِحُّ أَنْ تُعَدَّ مِنْ جُمْلَةِ كَسْبِهِمْ وَتَصَرُّفِهِمْ ، وَلَا أَنْ يَتَرَتَّبَ عَلَى ذَلِكَ أَنْ يُدْعَوْا أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا لِفِعْلِهَا ، كَإِبْرَاءِ الْأَكْمَهِ ، وَإِحْيَاءِ الْمَيِّتِ ، بَلْ هِيَ مِنْ تَصَرُّفِ اللهِ تَعَالَى وَحْدَهُ ، سَوَاءٌ مِنْهَا مَا لَا دَخْلَ لَهُمْ فِيهِ بِقَوْلٍ وَلَا فِعْلٍ كَإِعْجَازِ الْقُرْآنِ ، وَمَا يَجْرِي عَقِبَ قَوْلٍ كَقَوْلِ الرَّسُولِ لِلْمَيِّتِ : " قُمْ بِإِذْنِ اللهِ " ، أَوْ فِعْلٍ كَإِلْقَاءِ مُوسَى لِعَصَاهُ أَوْ ضَرْبِهِ الْبَحْرَ بِهَا ،

(55/239)

قَالَ تَعَالَى : (وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ) (29 : 50) وَهَذِهِ الْآيَةُ نَصٌّ فِي الْمَوْضُوعِ ، وَفِي مَعْنَاهَا آيَاتٌ تَقَدَّمَ بَعْضُهَا فِيمَا فُسِّرَتَا مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ (الْأَنْعَامِ) وَسَيَأْتِي فِي آخِرِ هَذَا الْجُزْءِ مِنْهَا (قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ) (109) وَمِمَّا هُوَ بِمَعْنَاهَا قَوْلُهُ تَعَالَى بَعْدَ حِكَايَةِ

مَا اقْتَرَحَهُ كُفَّارُ مَكَّةَ عَلَى الرَّسُولِ فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ (قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا) (17 : 93) أَيْ فَأَنَا لَا أَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ بِصِفَتِي الْبَشَرِيَّةِ ؛ لِأَنِّي مِثْلُكُمْ فِيهَا ، وَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ الرَّسُولِ ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ هُوَ رَسُولٌ مُبَلِّغٌ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى .

*(56/239)*

---

لَوْلَا تَقْرِيرُ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ لَمَا ظَهَرَتْ حِكْمَةُ تِلْكَ الْعِنَايَةِ بِتَكْرَارِ ذِكْرِ كُفْرِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ فِي الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ، كَالْآيَاتِ الَّتِي فِي سُورَةِ مَرْيَمَ (19 : 41 – 48) وَكَذِكْرِ أَبِيهِ قَبْلَ قَوْمِهِ فِي خَبَرِ بَعْثَتِهِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ (الْأَنْعَامِ) وَفِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ (21 : 52) إِلَخْ . وَسُورَةُ الشُّعَرَاءِ (26 : 70) إِلَخْ . وَسُورَةُ الصَّافَّاتِ (37 : 85 . إِلَخْ . وَسُورَةُ الزُّخْرُفِ (43 : 26) فَمَنْ تَأَمَّلَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا كَآيَةِ الِاسْتِغْفَارِ لَهُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةَ (9 :

114) - وَتَقَدَّمَتْ آنِفًا - وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْمُمْتَحِنَةِ : (لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) (60 : 3 ، 4) مَنْ تَأَمَّلَ ذَلِكَ كُلَّهُ جَزَمَ بِمَا قُلْنَاهُ .

وَأَجْدَرُ بِنَا - وَقَدْ وَفَّقَنَا اللَّهُ تَعَالَى إِلَى إِظْهَارِ الْحَقِّ بِهَذِهِ الشَّوَاهِدِ وَالْبَيِّنَاتِ - أَنْ نَدْعُوَ اللَّهَ تَعَالَى بِالدُّعَاءِ الْمُتَمِّمِ لِهَذِهِ الْآيَاتِ ، فَنَقُولُ : (رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا

*(57/239)*

---

رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (60 : 4 ، 5) .

هَذَا وَإِنَّ كَلَامَ بَعْضِ الَّذِينَ حَاوَلُوا إِثْبَاتَ إِيمَانِ جَمِيعِ آبَاءِ الْخَلِيلَيْنِ ، أَوْ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَإِيمَانِ أَبِي طَالِبٍ يَدُورُ عَلَى مَا يُقَابِلُ هَذَا الْأَصْلَ ، وَهُوَ الْغُلُوُّ فِيهِمْ بِدَعْوَى أَنَّ كَرَامَتَهُمْ تَنْفَعُ أُولِي الْقُرْبَى مِنْهُمْ ، فَتَكُونُ سَبَبًا لِهِدَايَتِهِمْ إِلَى الْإِيمَانِ وَلَا سِيَّمَا مَنْ يَسُوءُهُمْ وَيُؤْذِيهِمْ بَقَاؤُهُ عَلَى الْكُفْرِ ، وَمَنْ يَدْعُوهُمْ أَوْ يَدْعُو بَعْضَ الصَّالِحِينَ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ لِجَلْبِ النَّفْعِ أَوْ لِكَشْفِ الضُّرِّ ،

يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يَنَالُونَ سَعَادَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِالتَّوَسُّلِ بِذَوَاتِهِمْ ، لَا بِمَا أَمَرَ اللهُ مِنِ اتِّبَاعِهِمْ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُمْ يَخْرُجُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ ، وَيَقْضُونَ الْحَوَائِجَ الَّتِي تُطْلَبُ مِنْهُمْ بِأَشْخَاصِهِمْ ، وَذَلِكَ مُصَادِمٌ لِتِلْكَ النُّصُوصِ كُلِّهَا وَلِمَا فِي مَعْنَاهَا مِنْ قَوَاعِدِ التَّوْحِيدِ ، وَكَوْنِ الدُّعَاءِ عِبَادَةً لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) (17 : 56 ، 57) .

(58/239)

---

وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ لَمْ تَسْلَمْ مِنْ وُجُودِ أُنَاسٍ قَدِ اتَّبَعُوا سُنَنَ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي الْغُلُوِّ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ مَعَ هَذِهِ النُّصُوصِ الْكَثِيرَةِ الصَّرِيحَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَمَعَ تَحْذِيرِ النَّبِيِّ لِلْأُمَّةِ مِنِ اتِّبَاعِ سَنَنِهِمْ ، فَكَيْفَ لَوْ لَمْ تُوجَدْ هَذِهِ النُّصُوصُ بِهَذِهِ الصَّرَاحَةِ وَهَذَا التَّحْذِيرِ ؟ .

(59/239)

---

نَعَمْ إِنَّ مِنَ النَّاسِ الرَّاسِخِينَ فِي التَّوْحِيدِ مَنْ يَحْمِلُهُ حُبُّ الرَّسُولِ – عَلَيْهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ – عَلَى تَقْوِيَةِ كُلِّ قَوْلٍ يُمْكِنُ أَنْ يُسْتَنْبَطَ مِنْهُ نَجَاةُ أَبَوَيْهِ الطَّاهِرَيْنِ أَوْ جَمِيعِ أُصُولِهِ ، وَإِنَّمَا يَحْسُنُ هَذَا بِشَرْطِ أَلَّا يَكُونَ فِي ذَلِكَ تَحْرِيفٌ لِكَلَامِهِ أَوْ كَلَامِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وَلَا إِخْلَالٌ بِمَقَاصِدِ الرِّسَالَةِ وَأُصُولِ الدِّينِ ، فَإِنَّ الْحُبَّ الصَّحِيحَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الَّذِي هُوَ آيَةُ الْإِيمَانِ إِنَّمَا يَثْبُتُ وَيَتَحَقَّقُ بِالِاتِّبَاعِ وَإِقَامَةِ الدِّينِ ، وَمَنْ يُرَجِّحُ قَرَابَةَ الرَّسُولِ عَلَى رِسَالَتِهِ فَإِنَّمَا حُبُّهُ لَهُ وَلَهُمْ حُبُّ هَوًى لِلْعَصَبِيَّةِ وَالنَّسَبِ ، لَا حُبُّ هُدًى بِاتِّبَاعِ مَا أَوْجَبَ اللهُ عَلَى لِسَانِهِ أَوِ اسْتَحَبَّ ، وَقَدْ كَانَ أَبُو طَالِبٍ أَشَدَّ النَّاسِ حُبًّا لِرَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَصَبِيَّةً لِقَرَابَتِهِ ، لَا اتِّبَاعًا لِرِسَالَتِهِ ، وَكُلُّ مُؤْمِنٍ يَتَمَنَّى لَوْ كَانَ آمَنَ بِهِ ، كَمَا رُوِيَ عَنِ الصِّدِّيقِ مِنْ تَفْضِيلِ إِيمَانِهِ عَلَى إِيمَانِ وَالِدِهِ ، وَلَكِنْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَنَّهُ بَعْدَ أَنْ كَانَ أَعْظَمَ وَأَقْوَى ظَهِيرٍ وَمَانِعٍ لِلرَّسُولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنْ أَعْدَائِهِ لِقَرَابَتِهِ ، قَدْ أَبَى أَنْ يُقِرَّ عَيْنَهُ عِنْدَ الْوَفَاةِ بِالنُّطْقِ بِكَلِمَةِ " لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ " .

*(60/239)*

---

وَلَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ بَعْضَ الْغُلَاةِ مِنَ الْقَوْلِ بِإِسْلَامِهِ ، وَلَا مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَخِيهِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَالَ لِلنَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : " مَا

أَغْنَيْتَ عَنْ عَمِّكَ فَوَاللَّهِ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ ؟ قَالَ : هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ " . وَرَوَيَا مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَذُكِرَ عِنْدَهُ عَمُّهُ ، فَقَالَ : " لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ ، يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ " فَهَذَا رَجَاءٌ وَالَّذِي قَبْلَهُ خَبَرٌ ، وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ الْإِشْكَالِ أَنَّهُ مُعَارَضٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) (74 : 48) وَمَا فِي مَعْنَاهَا مِنَ الْآيَاتِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْمَلَائِكَةِ وَالْمَسِيحِ : (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى) (21 : 28) أَيْ لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ كَمَا رُوِيَ عَنْ مُفَسِّرِي السَّلَفِ ، وَبِحَدِيثِ عَدَمِ نَفْعِ شَفَاعَةِ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ - إِنْ صَحَّ أَنْ يُسَمَّى ذَلِكَ شَفَاعَةً - وَأَحَادِيثَ أُخْرَى .

*(61/239)*

---

وَقَدْ يُجَابُ عَنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ عَلَى طَرِيقَةِ الْعُلَمَاءِ فِي مِثْلِهِ بِأَنَّ هَذَا الرَّجَاءَ لَيْسَ اعْتِقَادًا جَازِمًا وَلَا خَبَرًا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ وَقَعَ مِنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَبْلَ إِعْلَامِ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاهُ بِمَا ذُكِرَ فِي الْآيَاتِ ، وَلَيْسَ فِي حَدِيثِ الْعَبَّاسِ ذِكْرُ الشَّفَاعَةِ ، وَلَكِنَّهُ بِمَعْنَاهَا . وَيُشِيرُ كَلَامُ الْحَافِظِ بْنِ حَجَرٍ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ فِي بَابِ قِصَّةِ أَبِي طَالِبٍ

مِنَ الْفَتْحِ إِلَى أَنَّ ذَلِكَ خُصُوصِيَّةٌ لَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَمْ يُصَرِّحْ بِالْإِشْكَالِ .

وَيُمْكِنُ أَنْ يُجَابَ بِأَنَّ الشَّفَاعَةَ الْمَنْفِيَّةَ هِيَ مَا كَانَ يَعْتَقِدُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ تَأْثِيرِ الشُّفَعَاءِ فِي إِرَادَةِ الْبَارِي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَتَأْثِيرِ الشُّفَعَاءِ عِنْدَ الْمُلُوكِ وَعُظَمَاءِ الدُّنْيَا ، وَبِأَنَّ الشَّفَاعَةَ لَا تَنْفَعُ الْكَافِرَ بِإِنْقَاذِهِ

(62/239)

---

مِنَ النَّارِ وَجَعْلِهِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، كَمَا أَنَّ أَعْمَالَهُ الصَّالِحَةَ فِي الدُّنْيَا لَا تَنْفَعُهُ هَذَا النَّوْعَ مِنَ النَّفْعِ ؛ لِأَنَّ تَأْثِيرَ الْكُفْرِ يَغْلِبُ تَأْثِيرَهَا ، وَلَكِنَّهَا قَدْ تَنْفَعُ بِجَعْلِ عَذَابِ الْمَشْفُوعِ لَهُ بِفَضِيلَةٍ فِيهِ وَعَمَلٍ صَالِحٍ لَهُ أَخَفَّ مِنْ عَذَابِ الْكَافِرِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ فَضَائِلُ وَلَا أَعْمَالٌ صَالِحَةٌ مِثْلُهَا ، كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ مَا وَرَدَ فِي تَفَاوُتِ عَذَابِ أَهْلِ النَّارِ . وَمَا أَجْدَرَ أَبَا طَالِبٍ بِأَنْ يَكُونَ أَخَفَّ الْكُفَّارِ عَذَابًا بِأَعْمَالِهِ الصَّالِحَةِ الَّتِي أَجَلُّهَا كَفَالَةُ الرَّسُولِ وَحِفْظِهِ وَحِيَاطَتِهِ ، بَلْ رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ مُصَدِّقًا لَهُ وَلَكِنَّهُ أَصَرَّ عَلَى الشِّرْكِ اسْتِكْبَارًا وَحَمِيَّةً لِمَا كَانَ عَلَيْهِ أَبُوهُ وَقَوْمُهُ ، وَقَدْ أَثَارَ هَذِهِ الْحَمِيَّةَ فِيهِ أَبُو جَهْلٍ - لَعَنَهُ اللَّهُ - وَكَذَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ فَقَدْ آمَنَ بَعْدَ ذَلِكَ - إِذْ كَانَا لَدَيْهِ فِي وَقْتِ تِلْكَ الدَّعْوَةِ كَمَا تَقَدَّمَ . وَرَوَى أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : لَوْلَا أَنْ تُعَيِّرَنِي قُرَيْشٌ يَقُولُونَ مَا

حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا جَزَعُ الْمَوْتِ لَأَقْرَرْتُ بِهَا عَيْنَكَ . فَكَانَ جُلُّ كُفْرِهِ غَلَبَةَ الْحَمِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَتَعْظِيمَ الْآبَاءِ بِتَقْلِيدِهِمْ وَإِيثَارِ ذَلِكَ عَلَى الشَّهَادَةِ بِالْحَقِّ ، فَأَيْنَ هُوَ مِنْ كُفْرِ الْمُعَانِدِينَ الَّذِينَ آذَوُا الرَّسُولَ وَالْمُؤْمِنِينَ بِكُلِّ مَا اسْتَطَاعُوا مِنْ أَنْوَاعِ الْأَذَى ، وَأَخْرَجُوهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ

(63/239)

---

وَأَمْوَالِهِمْ ، وَمَا زَالُوا يُحَارِبُونَهُمْ وَيُحَرِّضُونَ النَّاسَ عَلَيْهِمْ إِلَى أَنْ خَذَلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَنَصَرَ رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ ؟ وَلَكِنْ يَرِدُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ مَنْ كَانَ مُسْتَحِقًّا لِأَخَفِّ الْعَذَابِ وَجُوزِيَ بِهِ لَا يَكُونُ مُنْتَفِعًا بِالشَّفَاعَةِ ، وَالتَّخْفِيفُ بِسَبَبِهَا بَعْدَ الِاسْتِحْقَاقِ مُعَارَضٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا) (35 : 36) وَبِنُصُوصٍ أُخْرَى ، فَلَا يَظْهَرُ مَعْنًى لِلشَّفَاعَةِ إِلَّا عَلَى قَوْلِ مَنْ يَقُولُ : إِنَّ كُلَّ الشَّفَاعَاتِ تَكْرِيمٌ صُورِيٌّ لِلشُّفَعَاءِ بِمَا يَجْزِيهِ اللَّهُ تَعَالَى عَقِبَ شَفَاعَتِهِمْ لَا بِهَا ، كَمَا يَقُولُ الْأَشْعَرِيَّةُ فِي جَمِيعِ الْأَسْبَابِ .

بَعْدَ كِتَابَةِ مَا تَقَدَّمَ وَجَمْعِهِ لِلطَّبْعِ رَاجَعْتُ شَرْحَ الْحَافِظِ لِلْحَدِيثِ فِي كِتَابِ الرِّقَاقِ مِنَ الْبُخَارِيِّ ، فَإِذَا هُوَ قَدْ ذَكَرَ الْإِشْكَالَ وَأَجْوِبَةً عَنْهُ بِمَعْنَى مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْخُصُوصِيَّةِ وَتَخْصِيصِ الْعُمُومِ ، وَكَوْنِ التَّخْفِيفِ مِنْ عَذَابِ الْمَعَاصِي دُونَ الْكُفْرِ ، وَالتَّجَوُّزِ فِي لَفْظِ الشَّفَاعَةِ . فَنَقَلَ عَنْ (الْمُفْهِمِ شَرْحِ صَحِيحِ مُسْلِمٍ) لِلْقُرْطُبِيِّ أَنَّ أَبَا طَالِبٍ لَمَّا بَالَغَ فِي إِكْرَامِ

النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَالذَّبِّ عَنْهُ جُوزِيَ عَلَى ذَلِكَ بِالتَّخْفِيفِ ، فَأُطْلِقَ عَلَى ذَلِكَ شَفَاعَةٌ لِكَوْنِهَا بِسَبَبِهِ . اهـ .

(64/239)

---

هَذَا وَإِنَّ فِي الْمَسْأَلَةِ مَبَاحِثَ نُرْجِئُ الْقَوْلَ فِيهَا إِلَى تَفْسِيرِ آيَاتِ السُّوَرِ الْأُخْرَى الَّتِي أَشَرْنَا إِلَيْهَا فِي سِيَاقِ هَذَا الْكَلَامِ ، وَنَخْتِمُ الْكَلَامَ هُنَا بِمَسْأَلَتَيْنِ مِنْ مُتَعَلِّقَاتِهِ :

(الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : حَظْرُ إِيذَاءِ الرَّسُولِ أَوْ آلِهِ بِذِكْرِ أَبَوَيْهِ أَوْ عَمِّهِ بِسُوءٍ .

إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ حِكْمَةَ بَيَانِ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى وَحَدِيثِ رَسُولِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِكُفْرِ مَنْ ذُكِرَ وَعَذَابِهِمْ فِي النَّارِ هِيَ تَقْرِيرُ أَسَاسِ الدِّينِ وَهُوَ التَّوْحِيدُ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهٍ ، فَاعْلَمْ أَنَّ الَّذِي يُطْلَبُ شَرْعًا هُوَ أَنْ يُذْكَرَ ذَلِكَ فِي مَقَامِ التَّعْلِيمِ ، وَهُوَ يَشْمَلُ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ وَتَفْسِيرَهُ ، وَرِوَايَةَ الْحَدِيثِ وَشَرْحَهُ – وَمِنْهُ أَوْ مِثْلُهُ السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ وَتَارِيخُ الْإِسْلَامِ – وَبَيَانَ عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَمَنْ

(65/239)

---

وَافَقَهُمْ مِنَ الْفِرَقِ وَالرَّدَّ عَلَى مَنْ خَالَفَهُمْ . وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُتَجَاوَزَ ذَلِكَ إِلَى مَا يُخِلُّ بِالْأَدَبِ ، وَيُؤْذِي الرَّسُولَ أَوْ آلَهِ بِحَسَبٍ أَوْ نَسَبٍ ، وَنَاهِيكَ بِالْأُمِّ وَالْأَبِ ، وَبِأَبِي طَالِبٍ دُونَ أَبِي لَهَبٍ ، بَلْ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُذْكَرَ أَبُو لَهَبٍ بِسُوءٍ مَوْصُوفًا بِكَوْنِهِ عَمَّ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَّا فِي مَقَامِ التَّعْلِيمِ وَالْبَيَانِ الَّذِي تَقَدَّمَ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ قَالَتْ : " اسْتَأْذَنَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي هِجَاءِ الْمُشْرِكِينَ ، قَالَ : كَيْفَ بِنَسَبِي فِيهِمْ ؟ فَقَالَ حَسَّانُ : لَأَسُلَّنَّكَ مِنْهُمْ كَمَا تُسَلُّ الشَّعْرَةُ مِنَ الْعَجِينِ " أَيْ : لَأُخَلِّصَنَّ نَسَبَكَ مِنْ أَنْسَابِهِمْ حَتَّى لَا يُصِيبَهُ مِنَ الْهَجْوِ شَيْءٌ ، وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ اسْتَأْذَنَهُ فِي هَجْوِ أَبِي سُفْيَانَ ، فَقَالَ : " كَيْفَ بِقَرَابَتِي مِنْهُ ؟ فَأَجَابَ حَسَّانُ بِنَحْوِ مَا تَقَدَّمَ ، وَقَدْ كَانَ أَبُو سُفْيَانَ يَوْمَئِذٍ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَمِنْ هَدْيِ عُلَمَاءِ السَّلَفِ فِي ذَلِكَ وَاقِعَتَانِ ، رُوِيَتَا عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَنَاهِيكَ بِعِلْمِهِ وَهَدْيِهِ . (إِحْدَاهُمَا) أَنَّهُ أُتِيَ بِكَاتِبٍ يَخُطُّ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَكَانَ أَبُوهُ كَافِرًا ،

فَقَالَ لِلَّذِي جَاءَ بِهِ : لَوْ كُنْتَ جِئْتَ بِهِ مِنْ أَوْلَادِ الْمُهَاجِرِينَ ، فَقَالَ الْكَاتِبُ : مَا ضَرَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كُفْرُ أَبِيهِ . فَقَالَ عُمَرُ : قَدْ جَعَلْتَهُ مَثَلًا ! لَا تَخُطَّ بَيْنَ يَدَيَّ بِقَلَمٍ أَبَدًا . (ثَانِيَتُهُمَا) أَنَّهُ قَالَ لِسُلَيْمَانَ بْنِ سَعْدٍ : بَلَغَنِي أَنَّ أَبَا عَامِلِنَا بِمَكَانِ كَذَا وَكَذَا زِنْدِيقٌ . قَالَ : وَمَا يَضُرُّهُ ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَدْ كَانَ أَبُو النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَافِرًا فَمَا ضَرَّهُ . فَغَضِبَ عُمَرُ غَضَبًا شَدِيدًا وَقَالَ : مَا وَجَدْتَ لَهُ مَثَلًا غَيْرَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ فَعَزَلَهُ عَنِ الدَّوَاوِينِ . وَمِنْهُ أَنَّ الشَّافِعِيَّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : وَقَطَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امْرَأَةً - أَيْ يَدَهَا - لَهَا شَرَفٌ فَكُلِّمَ فِيهَا ، فَقَالَ " لَوْ سَرَقَتْ فُلَانَةُ - لِامْرَأَةٍ شَرِيفَةٍ - لَقَطَعْتُ يَدَهَا " وَإِنَّمَا قَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - " لَوْ سَرَقَتْ فَاطِمَةُ " فَكَنَّى الشَّافِعِيُّ عَنْ فَاطِمَةَ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - وَلَمْ يَذْكُرِ اسْمَهَا مُبَالَغَةً فِي الْأَدَبِ ، مَعَ أَنَّ إِسْنَادَ السَّرِقَةِ إِلَيْهَا فِي الْحَدِيثِ مَفْرُوضٌ فَرْضًا لَا وَاقِعًا ، وَهُوَ يَذْكُرُهُ فِي سِيَاقِ الِاسْتِنْبَاطِ مِنَ السُّنَّةِ الَّذِي يَجُوزُ فِيهِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ . وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ : مَا فَعَلَهُ أَبُو دَاوُدَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي حَدِيثِ تَعْزِيَةِ فَاطِمَةَ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - فِي مَيِّتٍ وَقَوْلِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَهَا :

" فَلَعَلَّكِ بَلَغْتِ مَعَهُمُ الْكُدَى " أَيِ الْمَقَابِرَ ، قَالَتْ : مَعَاذَ اللهِ وَقَدْ سَمِعْتُكَ تَذْكُرُ فِيهَا مَا تَذْكُرُ ، فَقَالَ لَهَا كَمَا فِي سُنَنِ النَّسَائِيِّ : " لَوْ بَلَغْتِهَا مَعَهُمْ مَا رَأَيْتِ الْجَنَّةَ حَتَّى يَرَاهَا جَدُّ أَبِيكِ " وَأَمَّا أَبُو دَاوُدَ فَرَوَاهُ هَكَذَا : قَالَ : " لَوْ بَلَغْتِ مَعَهُمُ الْكُدَى " فَذَكَرَ تَشْدِيدًا عَظِيمًا . اهـ . وَقَالُوا : إِنَّهُ تَرَكَ التَّصْرِيحَ بِآخِرِ الْحَدِيثِ مِنْ بَابِ الْأَدَبِ .

فَإِنْ قِيلَ : أَيُّ الْمُحَدِّثِينَ خَيْرٌ عَمَلًا فِي هَذَا الْحَدِيثِ ؟ النَّسَائِيُّ الَّذِي رَوَاهُ بِلَفْظِهِ ، وَعَمِلَ بِأَمْرِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يُبَلِّغَ الْقَوْلَ عَنْهُ كَمَا سَمِعَ كَمَا فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ عِنْدَ أَحْمَدَ وَالتِّرْمِذِيِّ ، وَمَا فِي مَعْنَاهُ مِنَ الْأَمْرِ بِتَبْلِيغِ الشَّاهِدِ الْغَائِبَ فِي خُطْبَةِ حِجَّةِ الْوَدَاعِ كَمَا فِي

(68/239)

---

الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا ، أَمْ أَبُو دَاوُدَ الَّذِي رَاعَى الْأَدَبَ بِحَذْفِ مَا حَذَفَ ؟ فَالْجَوَابُ أَنَّ الَّذِي جَرَى عَلَيْهِ حَمَلَةُ السُّنَّةِ وَمُبَلِّغُوهَا لِلْأُمَّةِ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ ، وَهُوَ وُجُوبُ تَبْلِيغِ النَّصِّ بِلَفْظِهِ عَلَى مَنْ حَفِظَهُ ، أَوْ بِمَعْنَاهُ إِذَا وَعَاهُ وَوَثِقَ بِقُدْرَتِهِ عَلَى أَدَائِهِ ، وَلِهَؤُلَاءِ الْأَعْلَامِ أَعْظَمُ مِنَّةٍ فِي عُنُقِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِنَقْلِ السُّنَّةِ إِلَيْهَا كَمَا رَوَوْهَا ، وَضَبْطِ مُتُونِهَا ، وَوَزْنِ أَسَانِيدِهَا بِمِيزَانِ الْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَالشَّافِعِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ رَحِمَهُمَا اللهُ تَعَالَى مِنْ

أَئِمَّتِهِمْ . وَإِنَّمَا يُحْسِنُ مِثْلُ مَا رُوِيَ عَنْهُمَا مِنَ الْأَدَبِ الْعَالِي مَعَ بِضْعَةِ الرَّسُولِ سَيِّدَةِ النِّسَاءِ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - إِذَا كَانَ لَا يَضِيعُ بِهِ شَيْءٌ مِنَ الْحَدِيثِ ، كَذِكْرِهِ لِمَنْ يَعْلَمُ الْأَصْلَ الْمَرْوِيَّ أَوْ لِمَنْ لَا مَصْلَحَةَ لَهُ فِي الْعِلْمِ بِنَصِّهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ ، وَلَوْ كَانَ أَئِمَّةُ الْحَدِيثِ يَسْتَبِيحُونَ حَذْفَ شَيْءٍ مِنْهَا لَمَّا وَثِقْنَا بِنَقْلِهِمْ ، وَلَكِنْ عُلِمَ ضِدُّ ذَلِكَ مِنْ سِيرَتِهِمْ وَمِنْ رِوَايَتِهِمْ لِلْأَحَادِيثِ الْمُشْكِلَةِ كَغَيْرِهَا ، وَمِنْ جَرْحِهِمْ لِمَنْ غَيَّرَ أَوْ بَدَّلَ ، أَوْ حَذَفَ أَوْ زَادَ أَوْ نَقَّصَ ، أَوْ خَالَفَ الثِّقَاتِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْمُتُونِ وَإِنْ كَانَ غَرَضُهُ التَّعْظِيمَ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الشَّافِعِيَّ وَأَبَا دَاوُدَ قَالَا مَا قَالَا عَالِمَيْنِ بِأَنَّهُ لَا يُضَيِّعُ مِنَ الْحَدِيثِ شَيْئًا ؛ لِأَنَّهُ مَحْفُوظٌ مَشْهُورٌ

.

(الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : مَا مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ)

*(69/239)*

---

قَدْ عَلِمْتَ أَنَّ السَّيِّدَ الْأُلُوسِيَّ عَزَا الْقَوْلَ بِإِيمَانِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - إِلَى الْجَمِّ الْغَفِيرِ مِنْ أَئِمَّةِ أَهْلِ السُّنَّةِ ، وَأَنَّ هَذِهِ هَفْوَةٌ مِنْهُ - عَفَا اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - وَلَا يَخْفَى عَلَى مِثْلِهِ أَنَّ هَذَا اللَّفْظَ لَا يَصِحُّ أَنْ يُطْلَقَ عَلَى رَأْيِ كُلِّ مَنْ صَنَّفَ رِسَالَةً أَوْ كِتَابًا مِنَ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى مَذَاهِبِ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي الْأُصُولِ أَوِ الْفُرُوعِ . وَإِنَّمَا مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ

وَالْجَمَاعَةِ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَعُلَمَاءِ التَّابِعِينَ ، وَأَئِمَّةِ الْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ مِمَّنْ تَبِعَهُمْ فِي الِاعْتِصَامِ بِنُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ . وَمِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَكَلُّفٍ لِإِرْجَاعِ ظَوَاهِرِهَا إِلَى مَا ابْتُدِعَ مِنَ الْبِدَعِ وَالْآرَاءِ الَّتِي أَحْدَثَهَا أَهْلُ الْأَهْوَاءِ ، وَمِنْهُمْ فُقَهَاءُ الْأَمْصَارِ الْمَشْهُورُونَ ، كَأَبِي حَنِيفَةَ ، وَمَالِكٍ ، وَالشَّافِعِيِّ ، وَأَحْمَدَ ، وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ ، وَالْأَوْزَاعِيِّ ، وَدَاوُدَ ، وَغَيْرِهِمْ . وَقَدِ انْتَسَبَ إِلَى بَعْضِ مَذَاهِبِ هَؤُلَاءِ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ فَخَالَفُوهُمْ فِي بَعْضِ الْأُصُولِ كَبَعْضِ الْمُعْتَزِلَةِ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ ، وَكَثِيرٍ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَالْمُرْجِئَةِ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ ، وَأَقْرَبُ الْمُتَكَلِّمِينَ إِلَيْهِمُ الْأَشَاعِرَةُ ، وَأَكْثَرُهُمْ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَالْمَاتُرِيدِيَّةُ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ ، وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ قَدِ اضْطُرُّوا إِلَى الْخَوْضِ فِي مَسَائِلَ مِنَ الْكَلَامِ لَمْ تُؤْثَرْ عَنْ أَئِمَّتِهِمْ فِي الْفِقْهِ ،

(70/239)

---

وَلَا عَنْ غَيْرِهِمْ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ ، وَاخْتَلَفَ الْأَشْعَرِيَّةُ وَالْمَاتُرِيدِيَّةُ فِي كَثِيرٍ مِنْهَا كَمَا اخْتَلَفَ الْأَوَّلُونَ مِنْهُمْ فِي عِدَّةِ مَسَائِلَ خَالَفَ بَعْضُهُمْ فِيهَا الْأَشْعَرِيَّ ، أَوْ خَالَفَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، فَهُمْ عَلَى انْتِسَابِهِمْ كُلِّهِمْ إِلَى السُّنَّةِ لَا يَصِحُّ أَنْ يُجْعَلَ كُلُّ مَا قَرَّرَهُ وَاحِدٌ أَوْ آحَادٌ مِنْهُمْ مَذْهَبًا لِأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ، وَإِنْ تَقَلَّدَ ذَلِكَ الْكَثِيرُونَ مِنَ النَّاسِ ، وَإِنَّمَا الْقَاعِدُ فِي كُلِّ مَا

حَدَثَ بَعْدَ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْآرَاءِ ، وَتَنَازَعَ فِيهِ الْعُلَمَاءُ فَلَمْ يُجْمِعُوا فِيهِ عَلَى قَوْلٍ أَنْ يُرَدَّ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، فَيُؤْخَذُ

مَا وَافَقَهُمَا وَيُرَدُّ مَا خَالَفَهُمَا عَمَلًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)

(4 : 59) الْآيَةَ . وَقَدْ بَيَّنَّا نُصُوصَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ فِي مَسْأَلَةِ آبَاءِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَكَلَامِ بَعْضِ عُلَمَاءِ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ فِي الْأَخْذِ بِهَا مِنْ غَيْرِ تَأْوِيلٍ فَكُلُّ مَا خَالَفَهَا فَهُوَ مَرْدُودٌ ، وَلَيْسَ مِنْ مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي شَيْءٍ .

*(71/239)*

---

هَذَا وَإِنِّي بَعْدَ كِتَابَةِ مَا تَقَدَّمَ وَجَمْعِهِ لِلطَّبْعِ عَثَرْتُ بِالْمُصَادَفَةِ عَلَى مَا كَتَبَهُ الْأُلُوسِيُّ فِي مَسْأَلَةِ اسْتِغْفَارِ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ مِنْ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُمْتَحِنَةِ ، فَإِذَا هُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى رُجُوعِهِ عَنْ هَفْوَتِهِ الَّتِي نَقَلْنَاهَا عَنْهُ وَانْتَقَدْنَاهَا عَلَيْهِ ، وَحَمَلْنَا ذَلِكَ عَلَى مُرَاجَعَةِ مَا كَتَبَهُ فِي الْمَسْأَلَةِ مِنْ تَفْسِيرِ سُورَةِ التَّوْبَةِ ، فَإِذَا هُوَ مِثْلُ الَّذِي فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُمْتَحِنَةِ فِي بِنَائِهِ عَلَى أَنَّ آزَرَ أَبُو إِبْرَاهِيمَ ، وَأَنَّهُ مَاتَ مُشْرِكًا ، وَهَذَا هُوَ اللَّائِقُ بِعِلْمِهِ وَاسْتِقْلَالِهِ فِي الْفَهْمِ ، وَهَذَا شَأْنُ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ ؛ إِذَا قَالَ أَحَدُهُمْ قَوْلًا ثُمَّ كَانَ الدَّلِيلُ مِنْ أَحَدِهِمَا أَوْ كِلَيْهِمَا ، وَهُوَ مِنَ الْخَطَأِ

الَّذِي يَغْفِرُهُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُخْلِصِينَ الْأَوَّابِينَ ، بَلْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ الْحَاكِمَ إِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ ، أَيْ أَجْرُ الِاجْتِهَادِ ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَصَابَ كَانَ لَهُ أَجْرَانِ ، أَيْ أَجْرُ الِاجْتِهَادِ وَأَجْرُ الْإِصَابَةِ ، وَهَذَا مِمَّا يُؤَكِّدُ اتِّقَاءَ الِاغْتِرَارِ بِقَوْلِ أَيِّ عَالِمٍ خَالَفَ النَّصَّ أَوْ مَا اشْتَهَرَ عَنِ السَّلَفِ الصَّالِحِ - رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ ، وَوَفَّقَنَا لِلِاقْتِدَاءِ بِهِمْ .

(تَفْسِيرُ الْآيَاتِ)

(72/239)

---

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً) هَذِهِ الْجُمْلَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى الْجُمْلَةِ (قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ) وَمَا فِي حَيِّزِهَا - وَهُوَ آخِرُ حِجَاجِ الْمُشْرِكِينَ فِي الْعَقَائِدِ مَبْدُوءٌ بِالْأَمْرِ الْقَوْلِيِّ ، وَسَيُعَادُ هَذَا الْأُسْلُوبُ فِي السُّورَةِ حِجَاجًا فِي الْأَحْكَامِ الْعَمَلِيَّةِ أَيْضًا - وَالظَّرْفُ فِيهَا مُتَعَلِّقٌ بِفِعْلٍ عُهِدَ حَذْفُهُ ، تَقْدِيرُهُ " اذْكُرْ " أَيْ : وَاذْكُرْ أَيُّهَا الرَّسُولُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَقَّنَّاكَ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْحُجَجِ عَلَى بُطْلَانِ شِرْكِهِمْ وَضَلَالِهِمْ فِي عِبَادَةِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَمِنْ بَيَانِ هَدْيِ اللهِ تَعَالَى وَالْإِسْلَامِ لَهُ - اذْكُرْ لَهُمْ عَقِبَ هَذَا - قِصَّةَ إِبْرَاهِيمَ جَدِّهِمُ الَّذِي يَجْعَلُونَ وَيَدَّعُونَ اتِّبَاعَ مِلَّتِهِ ، حِينَ قَالَ لِأَبِيهِ آزَرَ مُنْكِرًا عَلَيْهِ وَعَلَى قَوْمِهِ شِرْكَهُمْ : أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً تَعْبُدُهَا مِنْ دُونِ اللهِ الَّذِي خَلَقَكَ وَخَلَقَهَا ، وَهُوَ

الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ مِنْ دُونِهَا ! (إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) الضَّلَالُ الْعُدُولُ عَنِ الطَّرِيقِ الْمُوَصِّلِ إِلَى الْغَايَةِ الَّتِي يَطْلُبُهَا الْعَاقِلُ مِنْ سَيْرِهِ الْحِسِّيِّ

(73/239)

---

أَوِ الْمَعْنَوِيِّ ، وَغَايَةُ الدِّينِ تَزْكِيَةُ النَّفْسِ بِمَعْرِفَةِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ ، وَمَا شَرَعَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْآدَابِ لِلْفَوْزِ بِسَعَادَةِ الدَّارَيْنِ . وَأَمَّا عِبَادَةُ غَيْرِ اللهِ تَعَالَى – وَلَوْ بِقَصْدِ التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ – فَهُوَ مُدِسٌّ لِلنَّفْسِ مُفْسِدٌ لَهَا ، فَلَا يُوصِلُهَا إِلَّا إِلَى الْهَلَاكِ الْأَبَدِيِّ . وَالتَّعْبِيرُ عَنْهَا بِالضَّلَالِ لَيْسَ فِيهِ سَبٌّ وَلَا جَفَاءٌ وَلَا غِلْظَةٌ كَمَا زَعَمَ مَنِ اسْتَشْكَلَهُ مِنَ الْوَلَدِ لِلْوَالِدِ ، وَقَابَلَهُ بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى لِمُوسَى وَهَارُونَ أَنْ يَقُولَا لِفِرْعَوْنَ قَوْلًا لَيِّنًا ، وَأَجَابَ عَنْهُ بِأَنَّهُ حَسَنٌ لِلْمَصْلَحَةِ ، كَالشِّدَّةِ فِي تَرْبِيَةِ الْأَوْلَادِ

(74/239)

---

أَحْيَانًا ، وَمَنِ اسْتَدَلَّ بِهِ عَلَى أَنَّ آزَرَ كَانَ عَمَّ إِبْرَاهِيمَ لَا وَالِدَهُ ، فَالصَّوَابُ أَنَّ التَّعْبِيرَ بِالضَّلَالِ الْبَيِّنِ هُنَا بَيَانٌ لِلْوَاقِعِ بِاللَّفْظِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ لُغَةً ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى)

(93 : 7) وَكَقَوْلِكَ لِمَنْ تَرَاهُ مُنْحَرِفًا عَنِ الطَّرِيقِ الْحِسِّيِّ : إِنَّ الطَّرِيقَ مِنْ هُنَا ، فَأَنْتَ حَائِدٌ أَوْ ضَالٌّ عَنْهُ ، وَمَعْنَى قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ : إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ هَذِهِ الْأَصْنَامَ مِثْلَكَ فِي ضَلَالٍ - عَنْ صِرَاطِ الْحَقِّ الْمُسْتَقِيمِ - بَيِّنٌ ظَاهِرٌ لَا شُبْهَةَ لِلْهُدَى فِيهِ ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ الَّتِي اتَّخَذْتُمُوهَا آلِهَةً لَكُمْ لَمْ تَكُنْ آلِهَةً فِي أَنْفُسِهَا ، بَلْ بِاتِّخَاذِكُمْ وَجَعْلِكُمْ ، وَلَسْتُمْ مِنْ خَلْقِهَا وَلَا مِنْ صُنْعِهَا ، بَلْ هِيَ مِنْ صُنْعِكُمْ ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَى نَفْعِكُمْ وَلَا ضَرِّكُمْ ، وَذَلِكَ أَنَّهَا تَمَاثِيلُ تَنْحِتُونَهَا مِنَ الْحِجَارَةِ ، أَوْ تَقْتَطِعُونَهَا مِنَ الْخَشَبِ ، أَوْ تَصُوغُونَهَا مِنَ الْمَعْدِنِ ، فَأَنْتُمْ أَفْضَلُ مِنْهَا ، وَمُسَاوُونَ فِي أَصْلِ الْخِلْقَةِ لِمَنْ جُعِلَتْ مُمَثَّلَةً لَهُمْ مِنَ النَّاسِ ، أَوْ لِمَا صُنِعَتْ مُذَكِّرَةً بِهِ مِنَ النَّيِّرَاتِ ، وَلَا يَلِيقُ بِالْإِنْسَانِ أَنْ يَعْبُدَ مَا هُوَ دُونَهُ ، وَلَا مَا هُوَ مُسَاوٍ لَهُ فِي كَوْنِهِ مَخْلُوقًا مَقْهُورًا بِتَصَرُّفِ الْخَالِقِ ، وَمَرْبُوبًا فَقِيرًا مُحْتَاجًا إِلَى الرَّبِّ الْغَنِيِّ الْقَادِرِ ، وَقَدْ دَلَّتْ آثَارُ أُولَئِكَ الْقَوْمِ الَّتِي اكْتُشِفَتْ فِي الْعِرَاقِ عَلَى صِحَّةِ مَا عُرِفَ فِي التَّارِيخِ مِنْ عِبَادَتِهِمْ لِلْأَصْنَامِ

*(75/239)*

---

الْكَثِيرَةِ ، حَتَّى كَانَ يَكُونُ لِكُلٍّ مِنْهُمْ صَنَمٌ خَاصٌّ بِهِ ، سَوَاءٌ الْمُلُوكُ وَالسُّوقَةُ فِي ذَلِكَ ، وَكَانُوا يَعْبُدُونَ الْفَلَكَ وَنَيِّرَاتِهِ عَامَّةً ، وَالدَّرَارِيَ السَّبْعَ خَاصَّةً ، كَمَا يُعْلَمُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى :

(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أَيْ وَكَمَا أَرَيْنَا إِبْرَاهِيمَ الْحَقَّ فِي أَمْرِ أَبِيهِ وَقَوْمِهِ ، وَهُوَ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى ضَلَالٍ بَيِّنٍ فِي عِبَادَتِهِمْ لِلْأَصْنَامِ ، كُنَّا نُرِيهِ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي يَعْرِفُ بِهَا الْحَقَّ ، فَهِيَ رُؤْيَةٌ بَصَرِيَّةٌ ، تَتْبَعُهَا رُؤْيَةُ الْبَصِيرَةِ الْعَقْلِيَّةِ ، وَإِنَّمَا قَالَ : " نُرِيهِ " دُونَ أَرَيْنَاهُ ؛ لِاسْتِحْضَارِ صُورَةِ الْحَالِ الْمَاضِيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَتَجَدَّدُ وَتَتَكَرَّرُ بِتَجَدُّدِ رُؤْيَةِ آيَاتِهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ

(76/239)

---

الْمَلَكُوتِ الْعَظِيمِ كَمَا يُعْلَمُ مِنَ التَّعْلِيلِ الْآتِي ، وَالتَّفْصِيلِ الْمُتَرَتِّبِ عَلَى هَذَا الْإِجْمَالِ فِي الْآيَاتِ ، وَالْمَلَكُوتُ : الْمَمْلَكَةُ أَوِ الْمُلْكُ الْعَظِيمُ وَالْعِزُّ وَالسُّلْطَانُ ، وَإِطْلَاقُ الصُّوفِيَّةِ إِيَّاهُ عَلَى عَالَمِ الْغَيْبِ اصْطِلَاحٌ . قَالَ فِي اللِّسَانِ : وَمُلْكُ اللَّهِ تَعَالَى وَمَلَكُوتُهُ : سُلْطَانُهُ وَعَظْمَتُهُ ، وَلِفُلَانٍ مَلَكُوتُ الْعِرَاقِ ، أَيْ عِزُّهُ وَسُلْطَانُهُ وَمُلْكُهُ ، وَعَنِ اللِّحْيَانِيِّ : وَالْمَلَكُوتُ مِنَ الْمُلْكِ كَالرَّهَبُوتِ مِنَ الرَّهْبَةِ ، وَيُقَالُ لِلْمَلَكُوتِ مَلْكُوَةٌ (كَتَرْقُوَةٍ) . انْتَهَى . وَقَالَ الرَّاغِبُ : وَالْمَلَكُوتُ مُخْتَصٌّ بِمُلْكِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَهُوَ مَصْدَرُ مَلَكَ أُدْخِلَتْ فِيهِ التَّاءُ نَحْوَ رَحَمُوتٍ وَرَهَبُوتٍ . انْتَهَى . وَصَرَّحَ بَعْضُهُمْ بِأَنَّ هَذِهِ التَّاءَ لِلْمُبَالَغَةِ عَلَى قَاعِدَةِ زِيَادَةِ الْمَبْنَى لِزِيَادَةِ الْمَعْنَى . فَالْمَلَكُوتُ : الْمُلْكُ الْعَظِيمُ ، وَالرَّحَمُوتُ : الرَّحْمَةُ الْوَاسِعَةُ ، وَالرَّهَبُوتُ : الرَّهْبَةُ

الشَّدِيدَةُ .

وَرُوِيَ عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّ كَلِمَةَ مَلَكُوتٍ نَبَطِيَّةٌ ، وَأَصْلُهَا بِلِسَانِهِمْ " مَلَكُوتَا " ، وَفِي كُتُبِ اللُّغَةِ أَنَّ النَّبَطَ وَالْأَنْبَاطَ جِيلٌ مِنَ النَّاسِ يَسْكُنُونَ الْبَطَائِحَ وَغَيْرِهَا مِنْ سَوَادِ الْعِرَاقِ ، فَهُمْ بَقَايَا قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ فِي وَطَنِهِ الْأَصْلِيِّ إِذَا كَانَتْ سِلْسِلَةُ نَسَبِهِمْ مَحْفُوظَةً ، وَيَقُولُ الْمُؤَرِّخُونَ : إِنَّهُمْ

(77/239)

---

مِنْ بَقَايَا الْعَمَالِقَةِ ، وَأَنَّهُمْ هَاجَرُوا مِنَ الْعِرَاقِ بَعْدَ سُقُوطِ دَوْلَةِ الْحَمُورَابِيِّينَ ، وَتَفَرَّقُوا فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، ثُمَّ أَنْشَئُوا دَوْلَةً فِي الشَّمَالِ مِنْهَا . وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ وَابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا قَالَ : إِنَّنَا نَبَطٌ مِنْ كُوثَى ، وَكُوثَى بَلَدُ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - كَمَا يُحْفَظُ عَنِ الْعَرَبِ . وَمُرَادُ الْحَبْرَيْنِ أَنَّ بَنِي هَاشِمٍ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ ، وَأَنَّ النَّبَطَ مِنْ قَوْمِهِ ، وَفِيهِ إِنْكَارُ احْتِقَارِهِمْ لِنَسَبِهِمْ أَوْ ضَعْفِ لُغَتِهِمْ ، وَقِيلَ : إِنَّ مُرَادَهُمَا بِهِ التَّوَاضُعُ وَذَمُّ التَّفَاخُرِ بِالْأَنْسَابِ ، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الْمُرَادَ بِمَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ خَلْقُهُمَا ، أَيْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ) (7 : 185) وَعَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهُ آيَاتُهُمَا ، وَعَنْهُمَا وَعَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْبِحَارُ ، وَعَنْ مُجَاهِدٍ ، وَقَتَادَةَ ، وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ، وَالسُّدِّيِّ أَنَّ اللَّهَ

تَعَالَى أَرَاهُ مَا وَرَاءَ مَسَارِحِ الْأَبْصَارِ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ حَتَّى انْتَهَى بَصَرُهُ إِلَى الْعَرْشِ ، وَزَادَ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ أَرَاهُ خَفَايَا أَعْمَالِ الْعِبَادِ وَمَعَاصِيهِمْ ، وَلَيْسَ لِهَذِهِ الْأَقْوَالِ الْأَخِيرَةِ حُجَّةٌ مِنَ الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ ، وَإِنَّمَا اسْتَنْبَطُوهَا فِيمَا يَظْهَرُ مِنْ إِسْنَادِ الْإِرَاءَةِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى عِنَايَةٍ خَاصَّةٍ ،

*(78/239)*

---

وَاخْتَارَ ابْنُ جَرِيرٍ مِمَّا رَوَاهُ مِنْ تِلْكَ الْأَقْوَالِ أَنَّهُ تَعَالَى أَرَاهُ مِنْ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَا فِيهِمَا مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالشَّجَرِ

وَالدَّوَابِّ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ عَظِيمِ سُلْطَانِهِ فِيهِمَا ، وَجَلَّى لَهُ بَوَاطِنَ الْأُمُورِ وَظَوَاهِرَهَا ، وَيَتَحَقَّقُ ذَلِكَ بِهِدَايَتِهِ إِيَّاهُ إِلَى وُجُوهِ الْحُجَّةِ فِيهَا عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ ، وَفَضْلِهِ وَرَحِمَتِهِ ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ تَعْلِيلُ الْإِرَاءَةِ ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مِنْ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ .

*(79/239)*

---

أَمَّا التَّعْلِيلُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى : (وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) قِيلَ : إِنَّ الْمَعْنَى : وَلِأَجْلِ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْيَقِينِ الرَّاسِخِينَ فِيهِ أَرَيْنَاهُ مَا أَرَيْنَا ، وَبَصَّرْنَاهُ مِنْ أَسْرَارِ الْمَلَكُوتِ مَا بَصَّرْنَا ، وَقِيلَ : إِنَّ هَذَا عَطْفٌ عَلَى تَعْلِيلٍ حَذْفٍ ؛ لِتَغُوصَ الْأَذْهَانُ عَلَى اسْتِخْرَاجِهِ مِنْ قَرَائِنِ الْحَالِ ، وَأُسْلُوبِ الْمَقَالِ ، أَيْ نُرِيهُ ذَلِكَ لِيَعْرِفَ سُنَنَنَا فِي خَلْقِنَا ، وَحُكْمَنَا فِي تَدْبِيرِ مُلْكِنَا ، وَآيَاتِنَا الدَّالَّةَ عَلَى رُبُوبِيَّتِنَا وَأُلُوهِيَّتِنَا ؛ لِيُقِيمَ بِهَا الْحُجَّةَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الضَّالِّينَ ، وَلِيَكُونَ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ مِنَ الْوَاقِفِينَ عَلَى عَيْنِ الْيَقِينِ ، وَهُوَ مِنَ الْإِيجَازِ الْبَدِيعِ . وَالْيَقِينُ فِي اللُّغَةِ : الِاعْتِقَادُ الْجَازِمُ الْمَبْنِيُّ عَلَى الْأَمَارَاتِ ، وَالدَّلَائِلِ ، وَالِاسْتِنْبَاطِ - دُونَ الْحِسِّ وَالضَّرُورَةِ . وَقَالَ الرَّاغِبُ : هُوَ سُكُونُ الْفَهْمِ مَعَ ثَبَاتِ الْحُكْمِ ، وَأَنَّهُ مِنْ صِفَةِ الْعِلْمِ فَوْقَ الْمَعْرِفَةِ وَالدِّرَايَةِ ، وَبِذَلِكَ جَمَعَ إِبْرَاهِيمُ بَيْنَ الْعِلْمِ النَّظَرِيِّ وَالْعِلْمِ اللَّدُنِّيِّ .

(80/239)

---

وَأَمَّا مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الِاهْتِدَاءِ إِلَى وَجْهِ الْحُجَّةِ وَالِاسْتِدْلَالِ ، فَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا) إِلَخْ . قَالَ الرَّاغِبُ : أَصْلُ الْجَنِّ سَتْرُ الشَّيْءِ عَنِ الْحَاسَّةِ ، يُقَالُ : جَنَّهُ اللَّيْلُ ، وَأَجَنَّهُ ، وَأَجَنَّ عَلَيْهِ . فَجَنَّهُ : سَتَرَهُ ، وَأَجَنَّهُ : جَعَلَ لَهُ مَا يَجِنُّهُ ، كَقَوْلِكَ : قَبَرْتُهُ ، وَأَقْبَرْتُهُ ، وَسَقَيْتُهُ ، وَأَسْقَيْتُهُ ، وَجَنَّ عَلَيْهِ كَذَا سَتَرَ عَلَيْهِ . انْتَهَى . وَمِنْهُ

الْجِنُّ وَالْجِنَّةُ - بِالْكَسْرِ - وَالْجُنَّةِ بِالضَّمِّ

وَهِيَ التُّرْسُ يُسْتَرُ بِهِ مَا يُحَاوِلُ الْعَدُوُّ ضَرْبُهُ مِنَ الْوَجْهِ وَالرَّأْسِ وَغَيْرِهَا ، وَالْجَنَّةُ - بِالْفَتْحِ - وَهِيَ الْبُسْتَانُ الَّذِي يَسْتُرُ الشَّجَرَ أَرْضَهُ مِنَ الشَّمْسِ . وَالْكَوْكَبُ وَالْكَوْكَبَةُ وَاحِدُ الْكَوَاكِبِ ، وَهِيَ النُّجُومُ . وَالْفَلَكِيُّونَ يُطْلِقُونَ الْمُؤَنَّثَ عَلَى الْمَجْمُوعَةِ الْمُعَيَّنَةِ مِنْهَا ، وَالْعَرَبُ تُطْلِقُهُ عَلَى الزُّهَرَةِ ، كَمَا غَلَبَ إِطْلَاقُ النَّجْمِ مُعَرَّفًا عَلَى الثُّرَيَّا ، وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَيْنَا تَأْنِيثُ النَّجْمِ ، وَالْعَامَّةُ تَقُولُ نَجْمَةٌ .

(81/239)

---

وَالْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا بَدَأَ يُرِيهِ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ تِلْكَ الْإِرَاءَةِ الَّتِي عَلَّلَهَا بِمَا تَقَدَّمَ آنِفًا ، كَانَ مِنْ أَوَّلِ أَمْرِهِ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا أَظْلَمَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ، وَسَتَرَهُ أَوْ سَتَرَ عَنْهُ مَا حَوْلَهُ مِنْ عَالَمِ الْأَرْضِ نَظَرَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاءِ ، فَرَأَى كَوْكَبًا عَظِيمًا مُمْتَازًا عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ بِإِشْرَاقِهِ وَجَذْبِ النَّظَرِ إِلَيْهِ - يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ تَنْكِيرُ الْكَوْكَبِ - وَقَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ

(82/239)

---

أَنَّهُ الْمُشْتَرَى الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ آلِهَةِ بَعْضِ عُبَّادِ الْكَوَاكِبِ مِنْ قُدَمَاءِ الْيُونَانِ وَالرُّومِ ، وَكَانَ قَوْمُ إِبْرَاهِيمَ سَلَفُهُمْ وَأَئِمَّتُهُمْ فِي هَذِهِ الْعِبَادَةِ ، وَعَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ الزُّهَرَةُ . فَمَاذَا قَالَ لَمَّا رَآهُ ؟ (قَالَ هَذَا رَبِّي) أَيْ مَوْلَايَ وَمُدَبِّرُ أَمْرِي ، قِيلَ : إِنَّهُ قَالَ ذَلِكَ فِي ذَلِكَ فِي مَقَامِ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ لِنَفْسِهِ ، وَقِيلَ : فِي مَقَامِ الْمُنَاظِرَةِ وَالْحِجَاجِ لِقَوْمِهِ ، وَاعْتَمَدَ مَنْ قَالَ بِالْأَوَّلِ عَلَى مَا رُوِيَ فِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ مِنْ عِبَادَتِهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - لِهَذِهِ الْكَوَاكِبِ فِي صِغَرِهِ اتِّبَاعًا لِقَوْمِهِ ، حَتَّى أَرَاهُ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ كَمَالِ التَّمْيِيزِ حُجَّتَهُ عَلَى بُطْلَانِ عِبَادَتِهَا ، وَالِاسْتِدْلَالِ بِأُفُولِهَا وَتَعَدُّدِهَا وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِهَا عَلَى تَوْحِيدِ خَالِقِهَا ، وَأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ كَانَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ وَدَعْوَتِهَا . وَمِنْهُ قِصَّةٌ طَوِيلَةٌ مَرْوِيَّةٌ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَقَ فِيهَا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَلَدَتْهُ أُمُّهُ فِي مَغَارَةٍ أَخْفَتْهُ فِيهَا خَوْفًا عَلَيْهِ مِنْ مَلِكِهِمْ نَمْرُودَ بْنِ كَنْعَانَ أَنْ يَقْتُلَهُ ، إِذْ كَانَ أَخْبَرَهُ الْمُنَجِّمُونَ بِأَنْ سَيُولَدُ فِي قَرْيَتِهِ غُلَامٌ يُفَارِقُ دِينَهُمْ ، وَيُكَسِّرُ أَصْنَامَهُمْ ، فَشَرَعَ يَذْبَحُ كُلَّ غُلَامٍ وُلِدَ فِي الشَّهْرِ الَّذِي وَصَفَ أَصْحَابُ النُّجُومِ مِنَ السَّنَةِ الَّتِي عَيَّنُوا ، وَفِيهَا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ يَشِبُّ فِي الْيَوْمِ كَمَا يَشِبُّ غَيْرُهُ فِي شَهْرٍ ، وَفِي الشَّهْرِ كَمَا يَشِبُّ غَيْرُهُ فِي

سَنَةٍ ، وَأَنَّهُ طُلِبَ مِنْ أُمِّهِ بَعْدَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا مِنْ وِلَادَتِهِ أَنْ تُخْرِجَهُ مِنَ الْمَغَارَةِ ، فَأَخْرَجَتْهُ عِشَاءً ، فَنَظَرَ وَتَفَكَّرَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ – وَذَكَرَ رُؤْيَتَهُ لِلْكَوَاكِبِ ، فَالْقَمَرِ ، فَالشَّمْسِ . . . وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ مَوْضُوعَةٌ لِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، وَأَنَّ ابْنَ إِسْحَاقَ أَخَذَهَا عَنْ بَعْضِ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا يُلَقِّنُونَ الْمُسْلِمِينَ أَمْثَالَ هَذِهِ الْقِصَصِ لِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ، فَتَبْطُلُ ثِقَةُ يَهُودَ وَغَيْرِهِمْ بِهِمْ . وَرَوَى نَحْوَهُ أَبُو حَاتِمٍ عَنِ السُّدِّيِّ . وَالسُّدِّيُّ الْمُفَسِّرُ كَذَّابٌ مَعْرُوفٌ كَمَا قَالَ عُلَمَاءُ الْحَدِيثِ ، وَاسْمُهُ مُحَمَّدُ بْنُ مَرْوَانَ . وَأَمَّا مَا أَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ تَفْسِيرِ " هَذَا رَبِّي " بِالْعِبَادَةِ فَلَا يَصِحُّ ، وَهُوَ مِنْ مَرَاسِيلِ عَلِيِّ بْنِ طَلْحَةَ مَوْلَى بَنِي الْعَبَّاسِ ، وَقَدْ رَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ تَفْسِيرًا كَثِيرًا وَلَمْ يَرَهُ ، وَقَالَ فِيهِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ : لَهُ أَشْيَاءُ مُنْكَرَاتٍ . وَقَالَ الْحَافِظُ فِي تَهْذِيبِ التَّهْذِيبِ : صَدُوقٌ يُخْطِئُ ، وَمُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي صَالِحٍ الرَّاوِي عَنْهُ مِنْ رِجَالِ مُسْلِمٍ ، وَقَدْ لَيَّنَهُ ابْنُ مَعِينٍ ، وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ : لَا يُحْتَجُّ بِهِ ، وَلَمْ يَرْضَهُ الْبُخَارِيُّ ، وَلَا ابْنُ الْقَطَّانِ ، فَكَيْفَ يُؤْخَذُ بِرِوَايَتِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ كَانَ فِي صِغَرِهِ مُشْرِكًا ؟ وَهَذَا إِذَا فَرَضْنَا أَنَّ السَّنَدَ إِلَيْهِ صَحِيحٌ ! .

*(84/239)*

وَمِنَ الْعَجِيبِ أَنَّ ابْنَ جَرِيرٍ اخْتَارَ هَذَا الْقَوْلَ مَعَ تَقْرِيرِهِ الْقَوْلَ الْمُقَابِلَ لَهُ عَلَى أَحْسَنِ وَجْهٍ ، وَهُوَ الَّذِي جَزَمَ بِهِ الْجُمْهُورُ مَعَ أَنَّهُ كَانَ مُنَاظِرًا لِقَوْمِهِ ، فَقَالَ مَا قَالَ تَمْهِيدًا لِلْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ ، فَحَكَى مَقَالَتَهُمْ أَوَّلًا حِكَايَةً اسْتَدْرَجَهُمْ بِهَا إِلَى سَمَاعِ حُجَّتِهِ عَلَى بُطْلَانِهَا ، إِذْ أَوْهَمَهُمْ أَنَّهُ مُوَافِقٌ لَهُمْ عَلَى زَعْمِهِمْ ، ثُمَّ كَرَّ عَلَيْهِ بِالنَّقْضِ ، بَانِيًا دَلِيلَهُ عَلَى قَاعِدَةِ الْحِسِّ وَنَظَرِ الْعَقْلِ ، وَقِيلَ : إِنَّهُ اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ أَوْ تَهَكُّمٍ وَاسْتِهْزَاءٍ حُذِفَتْ أَدَاتُهُ ، أَيْ : أَهَذَا رَبِّي الَّذِي يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَعْبُدَهُ ؟ وَقِيلَ أَرَادَ : هَذَا رَبِّي بِزَعْمِكُمْ ، أَوْ إِنَّكُمْ تَقُولُونَ هَذَا رَبِّي ، وَذَلِكَ مِمَّا لَا يَلْتَئِمُ مَعَ مَا يَأْتِي فِي الشَّمْسِ ، وَلَا يَقْبَلُهُ الذَّوْقُ .

*(85/239)*

---

أَمَّا ابْنُ جَرِيرٍ فَاحْتَجَّ أَوَّلًا بِالرِّوَايَةِ ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهَا لَا تَصْلُحُ حُجَّةً عَلَى دَعْوَى شِرْكِ الْخَلِيلِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَلَوْ فِي الصِّغَرِ عَلَى أَنَّهَا مُطْلَقَةٌ - وَثَانِيًا بِالْعِبَارَةِ الَّتِي قَالَهَا بَعْدَ أُفُولِ الْقَمَرِ ، وَسَتَرَى حُسْنَ تَوْجِيهِهَا عَلَى الْوَجْهِ الْآخَرِ . وَأَمَّا الْجُمْهُورُ فَاحْتَجُّوا بِحُجَجٍ كَثِيرَةٍ أَطَالَ الْإِمَامُ الرَّازِيُّ فِي تَعْدَادِهَا ، وَفِي أَكْثَرِ مَا أَوْرَدَهُ نَظَرٌ ظَاهِرٌ . وَأَقْوَى حُجَّتِهِمُ السِّيَاقُ مِنْ حَيْثُ تَشْبِيهِ إِرَاءَةِ اللهِ تَعَالَى إِيَّاهُ هَذَا الْمَلَكُوتَ وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ إِبْطَالِ رُبُوبِيَّةِ الْكَوَاكِبِ بِإِرَاءَتِهِ ضَلَالَ أَبِيهِ وَقَوْمِهِ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ، وَمِنْ إِسْنَادِ هَذِهِ الْإِرَاءَةِ إِلَى

اللهِ تَعَالَى الدَّالِّ عَلَى تَمْيِيزِ مَا رَأَى بِهَا عَلَى مَا كَانَ يَرَى قَبْلَهَا ، وَمِنْ تَعْلِيلِ الْإِرَاءَةِ بِمَا تَقَدَّمَ ، وَمِنَ التَّعْقِيبِ عَلَى ذَلِكَ بِمُحَاجَّةِ قَوْمِهِ ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى إِنَّهُ آتَاهُ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ .

*(86/239)*

---

(فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ) أَيْ فَلَمَّا غَرَبَ هَذَا الْكَوْكَبُ وَاحْتَجَبَ ، قَالَ : لَا أُحِبُّ مَنْ يَغِيبُ وَيَحْتَجِبُ ، وَيَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُحِبِّهِ الْأُفُقُ أَوْ غَيْرُهُ مِنَ الْحُجُبِ ، وَأَشَارَ بِقَوْلِهِ " الْآفِلِينَ " إِلَى أَنَّ هَذَا الْكَوْكَبَ فَرْدٌ مِنْ أَفْرَادِ جِنْسٍ كُلُّهُ يَغِيبُ وَيَأْفُلُ ، وَالْعَاقِلُ السَّلِيمُ الْفِطْرَةِ وَالذَّوْقِ لَا يَخْتَارُ لِنَفْسِهِ حُبَّ شَيْءٍ يَغِيبُ عَنْهُ وَيُوحِشُهُ فَقْدُ جَمَالِهِ وَكَمَالِهِ ، حَتَّى فِي الْحُبِّ الَّذِي هُوَ دُونَ حُبِّ الْعِبَادَةِ ، فَإِنْ أَحَبَّ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ بِجَاذِبِ الشَّهْوَةِ دُونَ الِاخْتِيَارِ فَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَسْلُوَ عَنْهُ بِنُزُوحِ الدَّارِ وَالِاحْتِجَابِ عَنِ الْأَبْصَارِ ، إِلَّا أَنْ يَصِيرَ حُبُّهُ مِنْ هَوَسِ الْخَيَالِ ، وَفُنُونِ الْجُنُونِ وَالْخَبَالِ ، وَأَمَّا حُبُّ الْعِبَادَةِ الَّذِي هُوَ أَعْلَى الْحُبِّ وَأَكْمَلُهُ - لِأَنَّهُ مِنْ مُقْتَضَى الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ وَالْعَقْلِ الصَّحِيحِ - فَلَا يَجُوزُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لِلرَّبِّ الْحَاضِرِ الْقَرِيبِ ، السَّمِيعِ الْبَصِيرِ الرَّقِيبِ ، الَّذِي لَا يَغِيبُ وَلَا يَأْفُلُ ، وَلَا يَنْسَى وَلَا يَذْهَلُ ، الظَّاهِرِ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِآيَاتِهِ وَتَجَلِّيهِ ، الْبَاطِنِ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِحِكْمَتِهِ وَلُطْفِهِ الْخَفِيِّ فِيهِ (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (6 : 103) وَلَكِنْ تُشَاهِدُهُ الْبَصَائِرُ بِآثَارِ

صِفَاتِهِ فِي الْخَلْقِ وَالتَّقْدِيرِ ، وَسُلْطَانِهِ فِي التَّصَرُّفِ وَالتَّدْبِيرِ ، وَمَا كَانَ لِيَخْفَى عَلَى الْخَلِيلِ الْأَوَّلِ مَا قَالَهُ الْخَلِيلُ الثَّانِي فِي مَقَامِ الْإِحْسَانِ ،

(87/239)

---

وَمَا مِلَّتُهُ إِلَّا عَيْنُ مِلَّتِهِ فِي الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ ، وَهُوَ " أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ " فَكَيْفَ يَعْبُدُ هَذِهِ الْكَوَاكِبَ الَّتِي تَأْفُلُ وَتُحْجَبُ عَنْ عَابِدِيهَا ، وَيَخْفَى حَالُهُمْ عَلَيْهَا ؟ ! .

(88/239)

---

وَقَدْ فَسَّرَ بَعْضُ النُّظَّارِ وَعُلَمَاءِ الْكَلَامِ الْأُفُولَ بِالِانْتِقَالِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ ، وَجَعَلُوا هَذَا هُوَ الْمُنَافِي لِلرُّبُوبِيَّةِ ؛ لِدَلَالَتِهِ عَلَى الْحُدُوثِ أَوِ الْإِمْكَانِ ، وَهُوَ تَفْسِيرُ الشَّيْءِ بِمَا قَدْ يُبَايِنُهُ ، فَإِنَّ الْمَحْفُوظَ عَنِ الْعَرَبِ أَنَّهَا اسْتَعْمَلَتِ الْأُفُولَ فِي غُرُوبِ الْقَمَرَيْنِ وَالنُّجُومِ ، وَفِي اسْتِقْرَارِ الْحَمْلِ ، وَكَذَا اللَّقَاحُ فِي الرَّحِمِ ، فَعُلِمَ أَنَّ مُرَادَهَا مِنَ الْأَوَّلِ عَيْنُ مُرَادِهَا مِنَ الثَّانِي ، وَهُوَ الْغُيُوبُ وَالْخَفَاءُ . وَقَدْ يَتَحَوَّلُ الشَّيْءُ وَيَنْتَقِلُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ وَهُوَ ظَاهِرٌ غَيْرُ مُحْتَجَبٍ

، وَفَسَّرَهُ بَعْضُهُمْ بِالتَّغَيُّرِ لِيَجْعَلُوهُ عِلَّةَ الْحُدُوثِ الْمُنَافِي لِلرُّبُوبِيَّةِ أَيْضًا ، وَهُوَ غَلَطٌ كَسَابِقِهِ ، فَإِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ لَا تَتَغَيَّرُ بِأُفُولِهَا ، وَمَذْهَبُ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ عُلَمَاءِ الْفَلَكِ - وَهُوَ الصَّحِيحُ - أَنَّ أُفُولَهَا إنَّمَا يَكُونُ بِسَبَبِ حَرَكَةِ الْأَرْضِ لَا بِحَرَكَتِهَا هِيَ ، وَأَنَّ حَرَكَتَهَا عَلَى مَحَاوِرِهَا وَحَرَكَةَ السَّيَّارَاتِ مِنَ الْمَغْرِبِ إلَى الْمَشْرِقِ لَيْسَ مِنْ سَبَبِ أُفُولِهَا الْمُشَاهَدِ فِي شَيْءٍ ، وَفِي الْكَلَامِ تَعْرِيضٌ لَطِيفٌ بِجَهْلِ قَوْمِهِ فِي عِبَادَةِ الْكَوَاكِبِ بِأَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ مَا يَحْتَجِبُ عَنْهُمْ ، وَلَا يَدْرِي شَيْئًا مِنْ أَمْرِ عِبَادَتِهِمْ ، وَهُوَ يَقْرُبُ مِنْ قَوْلِهِ لِأَبِيهِ بَعْدَ ذَلِكَ : (لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا) (19 : 42) وَلَا يَظْهَرُ هَذَا التَّعْرِيضُ عَلَى قَوْلِ النُّظَّارِ فِي تَفْسِيرِ الْأُفُولِ ;

*(89/239)*

---

فَإِنَّ قَوْمَ إبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُونُوا عَلَى شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ النَّظَرِيَّاتِ الْكَلَامِيَّةِ ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْأَفْلَاكَ قَائِلِينَ بِرُبُوبِيَّتِهَا ، وَبِقِدَمِهَا مَعَ حَرَكَتِهَا ، وَمَا زَالَ الْفَلَاسِفَةُ وَالْفَلَكِيُّونَ يَقُولُونَ بِقِدَمِ الْحَرَكَةِ وَأَزَلِيَّتِهَا ، وَعُلَمَاءُ الْكَوْنِ فِي هَذَا الْعَصْرِ يَعُدُّونَ الْحَرَكَةَ مَبْدَأَ وُجُودِ كُلِّ شَيْءٍ . وَأَنَّهَا مُلَازِمَةٌ لِلْوُجُودِ الْمُطْلَقِ مِنَ الْأَزَلِ إلَى الْأَبَدِ .

وَقَدْ كَانَ الزَّمَخْشَرِيُّ مِنْ أُولَئِكَ النُّظَّارِ ، وَقَدْ قَالَ بَعْدَ مَا يَأْتِي فِي الْقَمَرِ وَالشَّمْسِ : (فَإِنْ

قُلْتَ) : لِمَ احْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِالْأُفُولِ دُونَ الْبُزُوغِ وَكِلَاهُمَا انْتِقَالٌ مِنْ حَالٍ إلَى حَالٍ ؟

(قُلْتُ) : الِاحْتِجَاجُ بِالْأُفُولِ أَظْهَرُ ؛ لِأَنَّهُ انْتِقَالٌ مَعَ خَفَاءٍ وَاحْتِجَابٍ . انْتَهَى . وَقَالَ ابْنُ الْمُنِيرِ : إنَّهُ مِنْ عُيُونِ نُكَتِهِ وَوُجُوهِ حَسَنَاتِهِ . انْتَهَى . وَالصَّوَابُ أَنَّ الْكَلَامَ كَانَ تَعْرِيضًا خَفِيًّا ، لَا بُرْهَانًا نَظَرِيًّا جَلِيًّا ، وَأَنَّ وَجْهَ مُنَافَاةِ الرُّبُوبِيَّةِ فِيهِ هُوَ الْخَفَاءُ وَالِاحْتِجَابُ وَالتَّعَدُّدُ ، وَأَنَّ الْبُزُوغَ وَالظُّهُورَ لَمْ يُجْعَلْ فِيهِ مِمَّا يُنَافِي الرُّبُوبِيَّةَ ، بَلْ يُبْنَى عَلَيْهِ الْقَوْلُ بِهَا ، فَإِنَّ مِنْ صِفَاتِ الرَّبِّ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرًا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ظُهُورًا كَظُهُورِ غَيْرِهِ مِنْ خَلْقِهِ كَمَا عُلِمَ مِمَّا تَقَدَّمَ آنِفًا .

(90/239)

---

(فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي) أَيْ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ طَالِعًا مِنْ وَرَاءِ الْأُفُقِ أَوَّلَ طُلُوعِهِ قَالَ : هَذَا رَبِّي – عَلَى طَرِيقِ الْحِكَايَةِ لِمَا كَانُوا يَقُولُونَ تَمْهِيدًا لِإِبْطَالِهِ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَقَدِ اسْتَعْمَلَتِ الْعَرَبُ هَذَا الْحَرْفَ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ ابْتِدَاءِ طُلُوعِ النَّيِّرَاتِ وَأَوَّلِ طُلُوعِ الثِّيَابِ . وَفِي بَزْغِ الْبَيْطَارِ وَالْحَاجِمِ لِلْجِلْدِ ، وَهُوَ تَشْرِيطُهُ بِالْمِبْزَغِ ; وَلِذَلِكَ قَالُوا : إنَّ مَعْنَى الْبَزْغِ الشَّقُّ ،

(91/239)

فَالنَّيِّرَاتُ تَشُقُّ الظَّلَامَ بِطُلُوعِهَا ، وَجَعَلَهُ بَعْضُهُمْ تَشْبِيهًا بِشَقِّ النَّابِ وَالسِّنِّ لِلثَّةِ ، وَشَقِّ الْبَيْطَارِ وَالْحَجَّامِ لِلْجِلْدِ . وَالظَّاهِرُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - رَأَى الْكَوْكَبَ فِي لَيْلَةٍ ، وَرَأَى الْقَمَرَ فِي اللَّيْلَةِ التَّالِيَةِ لَهَا كَمَا يُؤْخَذُ مِنَ الْعَطْفِ بِالْفَاءِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا فَاصِلَ بَيْنَ لَيْلَةٍ وَأُخْرَى إِلَّا النَّهَارَ ، وَهُوَ لَيْسَ بِمُظْهِرٍ لِلْكَوَاكِبِ وَالْقَمَرِ ؛ فَكَأَنَّهُ غَيْرُ فَاصِلٍ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ قَدْ رَأَى الْكَوْكَبَ وَالْقَمَرَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ اللَّيْلَةُ هِيَ الَّتِي رَأَى الشَّمْسَ فِي أَوَّلِ نَهَارِهَا - وَهُوَ الْمُتَبَادِرُ - وَجَبَ أَنْ يَكُونَ رَأَى الْكَوْكَبَ فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ هَاوِيًا لِلْغُرُوبِ ، وَبَعْدَ أُفُولِهِ بِقَلِيلٍ بَزَغَ الْقَمَرُ ، وَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي وَسَطِ الشَّهْرِ ، وَأَنَّهُ سَهِرَ مَعَ بَعْضِ قَوْمِهِ اللَّيْلَ كُلَّهُ حَتَّى أَفَلَ الْقَمَرُ فِي آخِرِهِ ، وَكَثِيرًا مَا يَفْعَلُ النَّاسُ هَذَا ، وَلَا سِيَّمَا فِي اللَّيَالِي الْبِيضِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ غَرَضٌ دِينِيٌّ أَوْ عِلْمِيٌّ مِنْهُ ، وَقَدْ يُتَصَوَّرُ وُقُوعُ ذَلِكَ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي الْقَلِيلَةِ مِنَ السَّنَةِ كَاللَّيْلَةِ الْخَامِسَةِ عَشْرَةَ مِنْ شَهْرِ رَجَبٍ مِنْ سَنَتِنَا هَذِهِ (سَنَةُ 1336 هـ) فَإِنَّ الشَّمْسَ تَغْرُبُ فِيهَا عَنْ أُفُقِ مِصْرَ السَّاعَةَ 6 وَالدَّقِيقَةَ 28 وَيَطْلُعُ الْقَمَرُ بَعْدَ غُرُوبِهَا بِعِشْرِينَ دَقِيقَةً ، وَفِي هَذِهِ الْمُدَّةِ يُحْتَمَلُ أَنْ يَرَى بَعْضَ السَّيَّارَاتِ أَوْ نَحْوِهَا مِنَ النُّجُومِ الْمُشْرِقَةِ الْمُمْتَازَةِ -

كَالشِّعْرَى – هَاوِيًا لِلْغُرُوبِ ، وَيَغْرُبُ بَعْدَهَا بِرُبْعِ سَاعَةٍ ، وَيَغْرُبُ الْقَمَرُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ بَعْدَ انْتِهَاءِ السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ بِدَقِيقَتَيْنِ مِنْ صَبِيحَتِهَا ، وَتُشْرِقُ الشَّمْسُ بَعْدَ غُرُوبِهِ بِأَرْبَعَ عَشْرَةَ دَقِيقَةً ، وَلَكِنْ يُعَكِّرُ عَلَى هَذَا أَنَّهُ لَا يَظْهَرُ فِيهِ جَنُّ اللَّيْلِ ، وَهُوَ إِظْلَامُهُ . وَإِنَّمَا يَتَعَيَّنُ تَصْوِيرُ وُقُوعِ مَا ذُكِرَ

(93/239)

---

فِي مِثْلِ هَذِهِ اللَّيْلَةِ مِنَ الشَّهْرِ وَالْقَمَرُ بَدْرٌ وَالشَّمْسُ فِي الدَّرَجَةِ الْخَامِسَةِ مِنْ بُرْجِ الثَّوْرِ ، إِذَا تَعَيَّنَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ وَصْفُ الْقَمَرِ وَالشَّمْسِ بِالْبُزُوغِ إِلَّا فِي أَوَّلِ طُلُوعِهِمَا مِنْ وَرَاءِ أُفُقِ الْقُطْرِ كُلِّهِ ، وَقَدْ يُقَالُ : إِنَّ هَذَا غَيْرُ مُتَعَيِّنٍ بِالْوَصْفِ ، وَأَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ : رَأَيْتُ الْقَمَرَ بَازِغًا وَلَوْ بَعْدَ طُلُوعِهِ بِسَاعَاتٍ ، كَمَا يُقَالُ : رَأَيْتُ نَابَ الْبَعِيرِ بَازِغًا بَعْدَ طُلُوعِهِ بِأَيَّامٍ . ثُمَّ إِنَّ الْبُزُوغَ وَالْغُرُوبَ مِنْهُمَا مَا هُوَ حَقِيقِيٌّ عُرْفًا وَمَا هُوَ نِسْبِيٌّ ، فَمَنْ كَانَ فِي مَكَانٍ مُطْمَئِنٍّ أَوْ مُحَاطٍ بِالْبُنْيَانِ وَالشَّجَرِ ، يَبْزُغُ عَلَيْهِ الْقَمَرُ وَالشَّمْسُ بَعْدَ بُزُوغِهِمَا فِي أُفُقِ قُطْرِهِ ، وَيَغْرُبَانِ عَنْهُ قَبْلَ غُرُوبِهِمَا عَنْ ذَلِكَ الْأُفُقِ ، وَقَدْ يَكُونُ فِي مَكَانٍ يَحْجُبُ مَشْرِقَهُ مَا ذُكِرَ دُونَ مَغْرِبِهِ وَبِالْعَكْسِ – فَيَخْتَلِفُ الْبُزُوغُ وَالْغُرُوبُ بِاخْتِلَافِ ذَلِكَ . وَبِهَذَا يَتَّسِعُ مَجَالُ احْتِمَالِ وُقُوعِ

مَا ذُكِرَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ وَصَبِيحَتِهَا بِغَيْرِ تَكَلُّفٍ . وَالْكَلَامُ فِي الْآيَاتِ مُرَتَّبٌ عَلَى رُؤْيَةِ الْكَوْكَبِ رُؤْيَةً غَيْرَ مُقَيَّدَةٍ بِحَالٍ وَلَا وَصْفٍ ، وَعَلَى رُؤْيَةِ الْقَمَرِ وَالشَّمْسِ بَازِغَيْنِ لَا عَلَى بُزُوغِهَا ، فَالْأَوَّلُ يَصْدُقُ بِرُؤْيَتِهِ قُبَيْلَ الْغُرُوبِ فِي أَوَّلِ جُنُونِ اللَّيْلِ ، وَالْآخَرَانِ يُصَدَّقَانِ بِالرُّؤْيَةِ فِي حَالِ الْبُزُوغِ النِّسْبِيِّ ، وَقَدْ غَفَلَ عَنْ هَذِهِ الدِّقَّةِ فِي تَعْبِيرِ التَّنْزِيلِ مَنْ زَعَمَ أَنَّ رُؤْيَةَ مَا ذُكِرَ لَا يُتَصَوَّرُ وُقُوعُهُ فِي

(94/239)

---

لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ وَصَبِيحَتِهَا ، وَمَنْ فَرَضَ لِذَلِكَ وُجُودَ حَالٍ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ الْخَالِي مِنَ الْجِبَالِ

.

(فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ) أَيْ : فَلَمَّا أَفَلَ الْقَمَرُ كَالْكَوْكَبِ ، وَهُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ مَنْظَرًا وَأَبْهَى نُورًا مِنَ الْأَرْضِ ، قَالَ مُسْمِعًا مَنْ حَوْلَهُ مِنْ قَوْمِهِ : لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي الَّذِي خَلَقَنِي إِلَى الْعِبَادَةِ الَّتِي تُرْضِيهِ بِإِعْلَامٍ خَاصٍّ مِنْ لَدُنْهُ لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ عَمَّا يَجِبُ أَنْ يُعْبَدَ بِهِ ، فَيَتَّبِعُونَ فِيهِ أَهْوَاءَهُمْ أَوِ اجْتِهَادَهُمْ ، فَلَا يَكُونُونَ عَابِدِينَ لَهُ بِمَا يُرْضِيهِ ، وَلَا يَقْتَضِي أَنَّ كُلَّ ضَالٍّ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ أَوِ الْكَوَاكِبَ ، بَلْ هَذَا تَعْرِيضٌ آخَرُ بِضَلَالِ قَوْمِهِ يُقْرُبُ مِنَ التَّصْرِيحِ ، وَإِرْشَادٌ إِلَى تَوَقُّفِ هِدَايَةِ الدِّينِ عَلَى الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ .

قَالَ ابْنُ الْمُنِيرِ فِي " الِانْتِصَافِ " : وَالتَّعْرِيضُ بِضَلَالِهِمْ ثَانِيًا أَصْرَحُ وَأَقْوَى مِنْ قَوْلِهِ : " لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ " وَإِنَّمَا تَرَقَّى فِي ذَلِكَ لِأَنَّ الْخُصُومَ قَدْ قَامَتْ عَلَيْهِمْ بِالِاسْتِدْلَالِ الْأَوَّلِ حُجَّةٌ فَأَنِسُوا بِالْقَدْحِ فِي مُعْتَقَدِهِمْ ، وَلَوْ قِيلَ هَذَا فِي الْأَوَّلِ فَلَعَلَّهُمْ كَانُوا يَنْفِرُونَ وَلَا يَصْغُونَ إِلَى الِاسْتِدْلَالِ ، فَمَا عَرَّضَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - بِأَنَّهُمْ فِي ضَلَالَةٍ إِلَّا بَعْدَ أَنْ وَثِقَ بِإِصْغَائِهِمْ إِلَى إِتْمَامِ الْمَقْصُودِ وَاسْتِمَاعِهِ إِلَى آخِرِهِ ، وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ تَرَقَّى

(95/239)

---

النَّوْبَةَ الثَّالِثَةَ إِلَى التَّصْرِيحِ بِالْبَرَاءَةِ مِنْهُمْ ، وَالتَّقْرِيعِ بِأَنَّهُمْ عَلَى شِرْكٍ بَيِّنٍ ، ثُمَّ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ ، وَتَبَلُّجِ الْحَقِّ ، وَبَلَغَ مِنَ الظُّهُورِ غَايَةَ الْمَقْصُودِ . انْتَهَى . وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : (فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي) أَيْ قَالَ مُشِيرًا إِلَيْهَا عَلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي بَيَّنَّاهَا فِيمَا قَبْلَهُ : هَذَا الَّذِي أَرَى الْآنَ أَوِ الَّذِي أُشِيرُ إِلَيْهِ رَبِّي . قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : جَعَلَ الْمُبْتَدَأَ مِثْلَ الْخَبَرِ بِكَوْنِهِمَا عِبَارَةً عَنْ شَيْءٍ وَاحِدٍ ، كَقَوْلِهِمْ : مَا جَاءَتْ حَاجَتُكَ ، وَمَنْ كَانَتْ أُمُّكَ . (ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا) وَكَانَ اخْتِيَارُ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ وَاجِبًا لِصِيَانَةِ الرَّبِّ عَنْ شُبْهَةِ التَّأْنِيثِ ، أَلَا تَرَاهُمْ قَالُوا فِي صِفَةِ اللَّهِ : عَلَّامٌ ، وَلَمْ يَقُولُوا عَلَّامَةٌ - وَإِنْ كَانَ الْعَلَّامَةُ أَبْلَغَ - احْتِرَازًا مِنْ عَلَامَةِ التَّأْنِيثِ . انْتَهَى . وَجَوَّزَ أَبُو حَيَّانَ أَنْ يَكُونَ تَذْكِيرُ الْإِشَارَةِ إِلَى الشَّمْسِ

حِكَايَةً لِمَا قِيلَ بِلُغَةِ الْعَجَمِ ، وَأَكْثَرُ لُغَاتِهِمْ لَا تُمَيِّزُ بَيْنَ الْمُذَكَّرِ وَالْمُؤَنَّثِ فِي الْإِشَارَةِ وَلَا فِي الضَّمَائِرِ . وَنُوقِشَ فِي كَوْنِ ذَلِكَ مُقْتَضَى الْحِكَايَةِ ، وَفِي دَعْوَى كَوْنِ لُغَةِ إِبْرَاهِيمَ مِنْ تِلْكَ الْأَعْجَمِيَّةِ ، وَقَدْ سَبَقَ لَنَا الْقَوْلُ بِأَنَّهَا عَرَبِيَّةٌ مَمْزُوجَةٌ ، عَلَى أَنَّ بَعْضَ الْأَعَاجِمِ يُذَكِّرُونَ الشَّمْسَ وَيُؤَنِّثُونَ الْقَمَرَ . وَسَيَأْتِي فِيمَا نَذْكُرُ مِنْ عَقَائِدِ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ أَنَّ لِلشَّمْسِ زَوْجَةً .

(96/239)

---

وَأَمَّا قَوْلُهُ – صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ – : (هَذَا أَكْبَرُ) فَهُوَ تَأْكِيدٌ لِإِظْهَارِ التَّصَفَةِ لِلْقَوْمِ ، وَمُبَالَغَةٌ فِي تِلْكَ الْمُجَارَاةِ الظَّاهِرَةِ لَهُمْ ، وَتَمْهِيدٌ قَوِيٌّ لِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ الْبَالِغَةِ عَلَيْهِمْ ، وَاسْتِدْرَاجٍ لَهُمْ إِلَى التَّمَادِي فِي الِاسْتِمَاعِ بَعْدَ ذَلِكَ التَّعْرِيضِ الَّذِي كَانَ يَخْشَى أَنْ يَصُدَّهُمْ عَنْهُ . وَمَعْنَاهُ أَنَّ هَذَا أَكْبَرُ مِنَ الْقَمَرِ وَالْكَوَاكِبِ قَدْرًا ، وَأَعْظَمُ ضِيَاءً وَنُورًا ، فَهُوَ إِذًا أَجْدَرُ مِنْهُمَا بِالرُّبُوبِيَّةِ ، إِنْ كَانَ الْمَدَارُ فِيهَا عَلَى التَّفَاضُلِ وَالْخُصُوصِيَّةِ .

(فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) أَيْ فَلَمَّا أَفَلَتْ كَمَا أَفَلَ غَيْرُهَا ، وَاحْتَجَبَ ضَوْؤُهَا الْمَشْرِقُ وَذَهَبَ سُلْطَانُهَا ، وَكَانَتِ الْوَحْشَةُ بِذَلِكَ أَشَدَّ مِنَ الْوَحْشَةِ بِاحْتِجَابِ الْكَوْكَبِ وَالْقَمَرِ – صَرَّحَ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – بِالنَّتِيجَةِ الْمُرَادَةِ مِنْ ذَلِكَ التَّعْرِيضِ ، فَتَبَرَّأَ مِنْ شِرْكِ قَوْمِهِ الَّذِي أَظْهَرَ مُجَارَاتَهُمْ عَلَيْهِ فِي لَيْلَتِهِ وَيَوْمِهِ . وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشَّيْءِ :

التَّفَصِّي مِنْهُ وَالتَّنَحِّي عَنْهُ لِاسْتِقْبَاحِهِ ، فَهُوَ كَالْبُرْءِ مِنَ الْمَرَضِ ، وَهُوَ السَّلَامَةُ مِنْ أَلَمِهِ وَضَرَرِهِ ، وَ " مَا " مَصْدَرِيَّةٌ أَوْ مَوْصُولَةٌ ، أَيْ : إِنِّي بَرِيءٌ مِنْ شِرْكِكُمْ بِاللَّهِ تَعَالَى أَوْ مِنْ هَذِهِ الْمَعْبُودَاتِ الَّتِي جَعَلْتُمُوهَا أَرْبَابًا وَآلِهَةً مَعَ اللَّهِ تَعَالَى . فَيَشْمَلُ الْكَوَاكِبَ ، وَالْأَصْنَامَ ، وَكُلَّ مَا عَبَدُوهُ وَهُوَ كَثِيرٌ .

(97/239)

---

(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) تَبَرَّأَ مِنْ شِرْكِهِمْ وَقَفَّى عَلَى تِلْكَ الْبَرَاءَةِ بِبَيَانِ عَقِيدَتِهِ الْحَقِّ ، وَهِيَ التَّوْحِيدُ الْخَالِصُ ، فَقَالَ : إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ وَقَصْدِيَ ، وَجَعَلْتُ تَوَجُّهِي فِي عِبَادَتِي لِلرَّبِّ الْخَالِقِ الَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، أَيِ : ابْتَدَأَ خَلْقَهُمَا بِمَا فَتَقَ مِنْ رَتْقِ مَادَّتِهِمَا وَهِيَ دُخَانٌ ، وَأَكْمَلَ خَلْقَهُنَّ أَطْوَارًا فِي سِتَّةِ أَزْمَانٍ ، فَهُوَ خَالِقُ هَذِهِ الْكَوَاكِبِ النَّيِّرَاتِ ، وَخَالِقُكُمْ وَمَا تَصْنَعُونَ مِنْهُ هَذِهِ الْأَصْنَامَ مِنْ مَعْدِنٍ وَنَبَاتٍ ، وَتَوْجِيهُ الْوَجْهِ هُنَا بِمَعْنَى إِسْلَامِهِ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا) (40 : 125) وَقَوْلُهُ : (وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ) (31 : 22) الْآيَةَ . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ الْأُولَى أَنَّ إِسْلَامَ الْوَجْهِ لَهُ تَعَالَى عِبَارَةٌ عَنْ تَوَجُّهِ الْقَلْبِ ، فَإِنَّ الْوَجْهَ أَعْظَمُ مَظْهَرٍ

لِمَا فِي النَّفْسِ مِنَ الْإِقْبَالِ ، وَالْإِعْرَاضِ ، وَالْخُشُوعِ ، وَالسُّرُورِ ، وَالْكَآبَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَأَنَّ الْمُرَادَ بِإِسْلَامِهِ وَبِتَوْجِيهِهِ لِلَّهِ تَعَالَى : تَرْكُهُ لَهُ يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ وَحْدَهُ فِي طَلَبِ حَاجَتِهِ ، وَإِخْلَاصِ عُبُودِيَّتِهِ ، فَهُوَ وَحْدُهُ الرَّبُّ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ ، الْقَادِرُ عَلَى الْأَجْرِ وَالْإِثَابَةِ . وَمِنَ الشَّوَاهِدِ عَلَى اسْتِعْمَالِ الْوَجْهِ بِمَعْنَى الْقَلْبِ حَدِيثُ " لَتُسَوُّنَّ

(98/239)

---

صُفُوفَكُمْ أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللَّهُ بَيْنَ وُجُوهِكُمْ " وَفِي رِوَايَةٍ " قُلُوبِكُمْ " رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَصْحَابُ السُّنَنِ . وَ " وَجَّهَ " يَتَعَدَّى بِاللَّامِ وَإِلَى كَأَسْلَمَ ، وَتَقَدَّمَ شَاهِدُ " أَسْلَمَ " آنِفًا ، وَلَمْ يَتَكَرَّرْ " وَجْهٌ " فِي الْقُرْآنِ بِهَذَا الْمَعْنَى ، وَإِلَّا فَاللَّامُ هُنَا بِمَعْنَى " إِلَى " كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا) (99 : 5) وَقَوْلُهُ : (لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ) (6 : 28) وَاخْتَرَعَ الرَّازِيُّ لِلَّامِ هُنَا نُكْتَةً سَمَّاهَا دَقِيقَةً ، فَقَالَ : الْمَعْنَى أَنَّ تَوْجِيهَ وَجْهِ الْقَلْبِ لَيْسَ إِلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ مُتَعَالٍ عَنِ الْحَيِّزِ وَالْجِهَةِ ، بَلْ إِلَى خِدْمَتِهِ وَطَاعَتِهِ لِأَجْلِ عُبُودِيَّتِهِ إلخ . فَجَعَلَ اللَّامَ " دَلِيلًا ظَاهِرًا " عَلَى كَوْنِ الْمَعْبُودِ مُتَعَالِيًا عَنِ الْحَيِّزِ وَالْجِهَةِ . وَهَذَا تَحَكُّمٌ مَرْدُودٌ لَا تَقْبَلُهُ اللُّغَةُ وَلَا يَقْتَضِيهِ الْعَقْلُ ، وَلَا يَتَّفِقُ مَعَ مَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ فِي مَعْنَى تَوْجِيهِ الْوَجْهِ . أَمَّا إِبَاءُ اللُّغَةِ لَهُ فَلِأَنَّ اللَّامَ لَوْ كَانَتْ لِلتَّعْلِيلِ مَعَ حَذْفِ مُضَافٍ لَكَانَتِ الْآيَةُ خَالِيَةً مِنَ الْمَقْصُودِ مِنْهَا بِالذَّاتِ ، وَهُوَ كَوْنُ تَوْجِيهِ

الْقَلْب بِالْعِبَادَةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ; إِذِ التَّعْلِيلُ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ التَّكَلُّفِ يَصْدُقُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى غَيْرِهِ تَعَالَى تَوَسُّلًا إِلَيْهِ ، كَالتَّوَجُّهِ إِلَى الْكَوْكَبِ وَغَيْرِهِ ، لِأَجْلِ خَالِقِهِ لَا لِأَجْلِهِ بِاعْتِقَادِ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُقَرِّبُ إِلَيْهِ زُلْفَى ، أَوْ يَشْفَعُ عِنْدَهُ . وَأَمَّا الْعَقْلُ فَإِنَّهُ يُدْرِكُ أَنَّ

(99/239)

---

تَوَجُّهَ الْقَلْب

لَا يَنْحَصِرُ فِي كَوْنِهِ إِلَى الْحَيِّزِ وَالْجِهَةِ الْمَحْصُورَةِ ، وَأَمَّا الْقُرْآنُ فَقَدْ عَدَّى إِسْلَامَ الْوَجْهِ بِـ (إِلَى) فِي سُورَةِ لُقْمَانَ وَبِاللَّامِ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ ، وَهِيَ بِمَعْنَى تَوْجِيهِهِ كَمَا تَقَدَّمَ آنِفًا .

هَذَا وَإِنَّ التَّعْبِيرَ بِفَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ هُوَ وَجْهُ الْحُجَّةِ فِي الْآيَةِ ، فَإِنَّ مَا فُتِنَ بِهِ الْقَوْمُ مِنْ تَأْثِيرِ النَّيِّرَاتِ فِي الْأَرْضِ - إِنْ صَحَّ - لَمْ يَعْدُ أَنْ يَكُونَ خَاصِّيَّةً لِبَعْضِ أَجْرَامِ السَّمَاءِ ، وَهِيَ لَمْ تُوجِدْ نَفْسَهَا وَلَا صِفَاتِهَا وَخَوَاصَّهَا ، فَالْوَاجِبُ أَنْ يُنْظَرَ فِي أَمْرِهَا مِنْ حَيْثُ هِيَ جُزْءٌ أَوْ أَجْزَاءٌ مِنْ مَجْمُوعِ الْعَالَمِ ، وَحِينَئِذٍ يَرَاهَا النَّاظِرُ الْمُتَفَكِّرُ خَاضِعَةً لِتَدْبِيرِ مَنْ فَطَرَ الْعَالَمَ الْكَبِيرَ الَّتِي هِيَ بَعْضُهُ ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ هُوَ الْحَقِيقُ بِالْعِبَادَةِ مِنْ دُونِهَا ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الرَّبُّ الْحَقُّ الْمُدَبِّرُ لَهَا وَلِغَيْرِهَا ، وَإِنَّمَا يَتَجَلَّى الِاسْتِدْلَالُ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْإِلَهِيَّةِ بِالنَّظَرِ فِي

جُمْلَةِ الْعَالَمِ ، وَكَوْنِهِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَالِقٌ مُدَبِّرٌ وَاحِدٌ ; إِذْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَقِيمَ نِظَامُ الْمُتَعَدِّدِ إِلَّا إِذَا كَانَ لَهُ جِهَةٌ وَاحِدَةٌ كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ ، وَسَيُعَادُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى فِي تَفْسِيرِ : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) (21 : 22) وَأَمَّا الِاسْتِدْلَالُ بِأَجْزَاءِ الْكَوْنِ فَيَتَوَلَّدُ مِنْهُ شُبَهَاتٌ وَمُشْكِلَاتٌ كَثِيرَةٌ .

*(100/239)*

---

وَالْحَنِيفُ صِفَةٌ مِنَ الْحَنَفِ ، وَهُوَ بِالتَّحْرِيكِ الْمَيْلُ عَنِ الضَّلَالِ وَالْعِوَجِ إِلَى الِاسْتِقَامَةِ ، وَضِدُّهُ الْجَنَفُ بِالْجِيمِ . فَقَوْلُهُ حَنِيفًا حَالٌ ، أَيْ : وَجَّهْتُ وَجْهِي لَهُ حَالَ كَوْنِي مَائِلًا عَنْ مَعْبُودَاتِكُمُ الْبَاطِلَةِ وَعَنْ غَيْرِهَا ، فَتَوَجُّهِي وَإِسْلَامِي خَالِصٌ لَهُ لَا يَشُوبُهُ شِرْكٌ وَلَا رِيَاءٌ ، وَمَا أَنَا مِنَ الْقَوْمِ الْمُشْرِكِينَ بِهِ الَّذِينَ يَتَوَجَّهُونَ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ ، كَالْكَوَاكِبِ أَوِ الْمَلَائِكَةِ أَوِ الْمُلُوكِ وَالصَّالِحِينَ ، أَوْ مَا يُتَّخَذُ لَهُمْ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالتَّمَاثِيلِ . تَبَرَّأَ أَوَّلًا مِنْ شِرْكِهِمْ أَوْ شُرَكَائِهِمْ ، ثُمَّ تَبَرَّأَ مِنْهُمْ أَنْفُسِهِمْ : (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) (60 : 4) رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ زَيْدٍ أَنَّ قَوْمَ إِبْرَاهِيمَ قَالُوا حِينَ قَالَ : إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ - : مَا جِئْتَ بِشَيْءٍ وَنَحْنُ نَعْبُدُهُ وَنَتَوَجَّهُهُ . فَرَدَّ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُ حَنِيفٌ ، أَيْ مُخْلِصٌ لَهُ ، لَا يُشْرِكُ

بِهِ كَمَا يُشْرِكُونَ . انْتَهَى بِالْمَعْنَى .

وَفِي الْآيَاتِ قِرَاءَاتٌ لَا تَتَعَلَّقُ بِالْمَعْنَى : كَفَتْحِ يَاءِ " إِنِّي " وَسُكُونِهَا ، وَإِمَالَةِ " رَأَى " وَكَسْرِ الرَّاءِ وَالْهَمْزَةِ فِيهَا ، وَلَكِنَّ قِرَاءَةَ يَعْقُوبَ ضَمَّ " آزَرَ " عَلَى النِّدَاءِ ، فَهِيَ دَلِيلٌ عَلَى كَوْنِهِ اسْمًا عَلَمًا ؛ لِأَنَّ حَذْفَ حَرْفِ النِّدَاءِ خَاصٌّ بِالْعِلْمِ فِي الْفَصِيحِ ، وَغَيْرُهُ شَاذٌّ .

*(101/239)*

---

(مَسَائِلُ مُتَمِّمَةٌ لِتَفْسِيرِ الْآيَاتِ)

(الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي عَقَائِدِ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)

تَقَدَّمَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْكَوَاكِبَ وَالْأَصْنَامَ ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : إِنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ اللَّهَ تَعَالَى أَيْضًا ، وَيُشْرِكُونَ مَا ذُكِرَ بِهِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ صَحِيحٌ دَلَّتْ عَلَيْهِ آثَارُ الْكَلْدَانِيِّينَ الَّتِي اكْتُشِفَتْ فِي الْعِرَاقِ . وَقَدْ أَثْبَتَ بَيْرُوسُوسُ وَسِنِيلُوسُ أَنَّ عُلَمَاءَهُمْ وَكُهَّانَهُمْ كَانُوا يَعْرِفُونَ حَقِيقَةَ التَّوْحِيدِ . وَلَكِنْ كَانُوا يَدِينُونَ بِهَا فِي أَنْفُسِهِمْ وَلَا يُبِيحُونَهَا لِلْعَامَّةِ ، وَأَنَّ الْيُونَانَ أَخَذُوا هَذَا النِّفَاقَ عَنْهُمْ . وَلَعَلَّ الصَّوَابَ أَنَّ الَّذِينَ أَخَذُوا عَنْهُمْ أَوَّلًا هُمْ قُدَمَاءُ الْمِصْرِيِّينَ ، فَقَدْ كَانَ التَّوْحِيدُ مُنْتَهَى عِلْمِ حُكَمَائِهِمْ ، وَكَانُوا يَكْتُمُونَهُ عَنِ الْعَامَّةِ ؛ لِأَنَّ اسْتِعْبَادَ الْمُلُوكِ الَّذِينَ هُمْ أَعْوَانُهُمْ لَهَا لَا يَدُومُ إِلَّا بِالْوَثَنِيَّةِ كَمَا يُعْلَمُ مِمَّا بَيَّنَّاهُ فِي التَّفْسِيرِ وَغَيْرِهِ مِرَارًا ، وَالْيُونَانُ

اقْتَبَسُوا مِنْ قُدَمَاءِ الْمِصْرِيِّينَ . عَلَى أَنَّ هِنْرِي رُولِنْسُنْ مِنْ مُدَقِّقِي مُؤَرِّخِي أُورُبَّةَ قَالَ : إِنَّ أُمَّةً مِنْ ضِفَافِ الدَّجْلَةِ وَالْفُرَاتِ ارْتَحَلَتْ إِلَى أُورُبَّةَ بِتِلْكَ الْعَقَائِدِ مَنْقُوشَةً فِي صَفَائِحِ الْآجُرِّ .

(102/239)

---

مِنْ آلِهَةِ الْكَلْدَانِيِّينَ (إِلْ) وَهِيَ كَلِمَةٌ سَامِيَّةٌ عُرِفَتْ فِي الْعَرَبِيَّةِ وَالسُّرْيَانِيَّةِ وَالْعِبْرَانِيَّةِ ، قَالَ صَاحِبُ الْقَامُوسِ : وَالْإِلُّ الرُّبُوبِيَّةُ ، وَاسْمُ اللَّهِ تَعَالَى ، وَكُلُّ اسْمٍ آخِرُهُ " إِلْ " وَ " إِيلُ " فَمُضَافٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَقَالَ : أَلَّ الْمَرِيضُ وَالْحَزِينُ يَئِلُّ أَلًّا وَأَلَلًا : أَنَّ وَحَنَّ ، وَرَفَعَ صَوْتَهُ بِالدُّعَاءِ . وَقَالَ فِي مَادَّةِ (أ ي ل) إِيلُ - بِالْكَسْرِ - اسْمُ اللَّهِ تَعَالَى ، وَفِي لِسَانِ الْعَرَبِ بَحْثٌ فِي كَوْنِ الْإِلِّ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَكِنَّهُ نَقَلَهُ عَنِ ابْنِ سَيِّدِهِ ، ثُمَّ قَالَ : وَالْإِلُّ الرُّبُوبِيَّةُ ، وَالْأُلُّ - بِالضَّمِّ - الْأَوَّلُ فِي بَعْضِ اللُّغَاتِ ، وَلَيْسَ مِنْ لَفْظِ الْأَوَّلِ ، ثُمَّ قَالَ فِي (إِيلٌ) مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عِبْرَانِيٌّ أَوْ سُرْيَانِيٌّ . ثُمَّ نَقَلَ عَنِ ابْنِ الْكَلْبِيِّ أَنَّ جِبْرَائِيلَ وَشَرَاحِيلَ وَأَشْبَاهَهُمَا كَشُرَحْبِيلَ تُنْسَبُ إِلَى الرُّبُوبِيَّةِ " لِأَنَّ إِيلًا لُغَةٌ فِي " إِلٍّ " وَهُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، كَقَوْلِهِمْ : عَبْدُ اللَّهِ وَتَيْمُ اللَّهِ " أَقُولُ : وَنَقَلَ مِثْلَهُ فِي (إِلٍّ) وَضَعَّفَهُ بِمَنْعِ جِبْرِيلَ وَمَا أَشْبَهَهُ مِنَ الصَّرْفِ ، أَيْ دُونَ شُرَحْبِيلَ وَشِهْمِيلَ مِنْ أَسْمَاءِ الرَّبِّ ،

وَنَقَلَ عَنْ أَبِي مَنْصُورٍ أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِيلُ عُرِّبَ فَقِيلَ : إِلٌّ . ثُمَّ قَالَ فِي مَادَّةِ (ا ل هـ) وَقَدْ سَمَّتِ الْعَرَبُ الشَّمْسَ لَمَّا عَبَدُوهَا إِلَهَةً ، وَالْإِلَهَةُ الشَّمْسُ الْحَارَّةُ – حُكِيَ عَنْ ثَعْلَبٍ . وَالْأَلِيهَةُ وَالْأَلَاهَةُ (بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ) وَأُلَاهَةٌ (مَضْمُومَةُ الْهَمْزَةِ غَيْرُ مُعَرَّفَةٍ) كُلُّهُ الشَّمْسُ . . إِلَخْ . ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ : الْأَلَاهَةَ الْأُلُوهَةُ وَالْأُلُوهِيَّةُ : الْعِبَادَةُ ، وَذَكَرَ عِنْدَ تَفْسِيرِ الْإِلَهِ بِالْمَعْبُودِ فِي أَوَّلِ الْمَادَّةِ قَوْلَهُمْ : إِلَهٌ بَيْنَ الْإِلَهَةِ وَالْإِلَهِيَّةِ وَالْأُلُهِيَّةِ ، وَأَنَّ أَصْلَهُ مِنْ أَلِهَ يَأْلَهُ (مِنْ بَابِ عَلِمَ) إِذَا تَحَيَّرَ .

هَذَا وَإِنَّ دَلَالَةَ مَادَّةِ " أ ل هـ " عَلَى الْعِبَادَةِ وَالْمَعْبُودِ سَامِيَّةٌ قَدِيمَةٌ مَنْقُولَةٌ عَنِ الْكَلْدَانِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ . قَالَ الْبُسْتَانِيُّ فِي دَائِرَةِ الْمَعَارِفِ عِنْدَ تَعْرِيفِ اسْمِ (اللهِ) بِأَنَّهُ اسْمٌ لِلذَّاتِ الْوَاجِبِ الْوُجُودِ ، الْمُسْتَحِقِّ لِجَمِيعِ الْمَحَامِدِ – أَيْ كَمَا قَالَ عُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ – وَهُوَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ أُلُوهِيمُ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ تَعْظِيمًا لَا تَكْثِيرًا ، وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى غَيْرِ اللهِ ، وَ "يَهْوَهُ" أَيِ الْكَائِنُ ، وَهُوَ خَاصٌّ بِهِ تَعَالَى ، وَإِيلٌ أَيِ الْقَدِيرُ ، وَبِالسُّرْيَانِيَّةِ أُلُوهُو وَبِالْكَلْدَانِيَّةِ إِلَاهَا . انْتَهَى .

وَفِي تَوَارِيخِ الْمُتَأَخِّرِينَ الْمُؤَيِّدَةِ بِالْعَادِيَّاتِ (الْآثَارِ الْقَدِيمَةِ) أَنَّ أَعْظَمَ أَرْبَابِ الْكَلْدَانِيِّينَ وَآلِهَتِهِمْ (إِيلُ – أَوْ – إِلْ) فَهُوَ رَبُّ الْأَرْبَابِ ، وَأَصْلُ الْآلِهَةِ ، وَلَيْسَ لَهُ تِمْثَالٌ وَلَا صُورَةٌ فِي مَعَابِدِهِمْ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ مِمَّا وَرِثُوا مِنْ دِينِ نُوحٍ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – أَنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنْ

(105/239)

صِفَاتِ الْخَلْقِ وَتَخَيُّلَاتِهِمْ ، وَرَوَى دِيودورس عَنْ فِيلُو أَنَّهُ مُرَادِفٌ لِزُحَلَ ، وَلَا يَصِحُّ هَذَا إِلَّا أَنْ يُرَادَ بِزُحَلَ أَبُو الْمُشْتَرَى كَمَا قِيلَ ذَلِكَ ، وَقَدْ أَشَارُوا إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ فِي عُصُورٍ قُدَمَاءِ مُلُوكِهِمْ ، وَمِمَّا قَالُوا عَنْهُ فِي أَقْدَمِ الْخُرَافَاتِ أَنَّهُ أُولِدَ وَلَدَيْنِ (أَنَّا) وَ (بِيلُ) . وَ (أَنَّا) هَذَا هُوَ رَأْسُ (الثَّالُوثِ) الْكَلْدَانِيِّ ، وَقِيلَ : إِنَّ هَذَا الِاسْمَ بِمَعْنَى اسْمِ الْجَلَالَةِ (اللهُ) وَيَقُولُونَ : " أَنُو " – إِذَا كَانَ فَاعِلًا – وَ " أَنَّا " إِذَا كَانَ مَفْعُولًا ، وَإِنِي إِذَا كَانَ مُضَافًا إِلَيْهِ . وَمِنْ أَلْقَابِهِ عِنْدَهُمْ : الْقَدِيمُ ، وَالرَّأْسُ الْأَصْلِيُّ ، وَأَبُو الْآلِهَةِ ، وَرَبُّ الْأَرْوَاحِ وَالشَّيَاطِينِ ، وَمَلِكُ الْعَالَمِ الْأَسْفَلِ ، وَسُلْطَانُ الظَّلَامِ أَوْ رَأْسُ الْمَوْتِ . وَوُجِدَتْ آثَارُ عِبَادَتِهِ فِي مَدِينَةِ (أَرَكَ) وَهِيَ الْوَرْكَاءُ ، قَالَ يَاقُوتٌ : الْوَرْكَاءُ مَوْضِعٌ بِنَاحِيَةِ الرَّوَابِي ، وُلِدَ بِهِ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَقَدْ بَنَى أَحَدُ مُلُوكِهِمْ مَعْبَدًا لَهُ وَلِابْنِهِ (قَوَلَ) فِي أَشُورَ سَنَةَ 1830 قَبْلَ الْمَسِيحِ ، فَصَارَ

اسْمُ هَذِهِ الْمَدِينَةِ بَعْدَ ذَلِكَ (تَلَّانَ) وَأَصْلُهُ (تَلُّ أَنَا) جَاءَ ذِكْرُهُ فِي آجُرٍّ لِلْمَلِكِ (أَوْرَكَهْ) اكْتُشِفَتْ فِي أَنْقَاضِ (أُمِّ قَبْرٍ) هَذِهِ تَرْجَمَتُهُ "إِنَّ إِلَهَ الْقَمَرِ ابْنُ شَقِيقٍ (أَنُو) وَبِكْرُ (بِعَلُوسَ) قَدْ حَمَلَ عَبْدَهُ (أَوْرَكَهْ) الرَّئِيسَ التَّقِيَّ مَلِكُ (أُورُ) عَلَى بِنَاءِ هَيْكَلِ (تَسِينْ كَاثُو) مَعْبَدًا مُقَدَّسًا لَهُ" .

(106/239)

---

وَالثَّانِي مِنْ ثَالُوثِهِمْ (بُلُوسُ – أَوْ – بِيلُ وَ) لَعَلَّهُمَا مُحَرَّفَانِ عَنْ (بَعْلَ) وَ (بَعْلُوسَ) وَمِنْ أَسْمَائِهِمْ (أَنُو) وَ (إِيلُ أَنْيُو) وَمَعْنَاهُ السَّيِّدُ . وَتَلْحَقُ غَالِبًا بِلَفْظِ (نَيْبِرُو) وَمُؤَنَّثُهَا (نَيْبُرُوثَ) وَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنْ كَلِمَةِ (نَمْرُودَ) الَّتِي هِيَ فِي تَرْجَمَةِ التَّوْرَاةِ السَّبْعِينِيَّةِ (نَيْبُرُوثُ) وَكَلِمَةُ (نَيْبُرُو) مُشْتَقَّةٌ مِنْ كَلِمَةِ "بَابَارِ" السُّرْيَانِيَّةِ ، وَمَعْنَاهَا طَارَدَ . وَتَدُلُّ مَادَّةُ نَبَرَ فِي الْعَرَبِيَّةِ عَلَى الِارْتِفَاعِ ، فَنَبَرَ : رَفَعَ ، وَالنَّبْرَةُ : الشَّيْءُ الْمُرْتَفِعُ ، فَفِيهَا مَعْنَى الشَّرَفِ ، وَمَعْنَاهَا فِي الْأَشُورِيَّةِ يُقَارِبُ مَعْنَاهَا فِي السُّرْيَانِيَّةِ (فَبِيلُ نُبْرُو) بِمَعْنَى السَّيِّدِ الصَّيَّادِ ، أَوْ رَبِّ الصَّيْدِ – وَلِذَلِكَ قِيلَ : إِنَّهُ نَمْرُودُ الْمَذْكُورُ فِي الْعَهْدِ الْعَتِيقِ ، وَيَقُولُونَ : إِنَّهُ كَانَ يَصِيدُ الْوُحُوشَ . وَهُوَ بَعْلُوسُ الَّذِي ذَكَرَ مُؤَرِّخُو الْيُونَانِ أَنَّهُ يَأْتِي مَدِينَةَ (بَابِلَ) وَمِلْكُهَا الْأَوَّلُ ، وَدَلَّتِ الْآثَارُ عَلَى أَنَّ الْأَشُورِيِّينَ كَانُوا يُسَمُّونَهَا مَدِينَةَ (بَلْ نُبْرُو) وَظَلَّ الْكَلْدَانِيُّونَ يَعْبُدُونَ (نَمْرُودَ) مُدَّةَ وُجُودِ

دَوْلَتِهِمْ ، وَكَانُوا يُكَنُّونَهُ بِأَبِي الْآلِهَةِ ، وَيُكَنُّونَ زَوْجَهُ الْمُسَمَّاةَ (مُولِيتَا – أَوْ – أَنُوتَا) بِأُمِّ الْآلِهَةِ الْعِظَامِ ، وَلَكِنْ وُصِفَتْ فِي بَعْضِ الْآثَارِ بِأَنَّهَا زَوْجُ (نِينَ) وَهُوَ ابْنُهَا ، وَفِي بَعْضِهَا أَنَّهَا زَوْجُ (أَشُورَ) وَلَهَا أَلْقَابٌ عَظِيمَةٌ ، وَوُجِدَ لَهَا عِدَّةُ هَيَاكِلَ .

*(107/239)*

---

وَالثَّالِثُ مِنْ ثَالُوثِهِمْ (حُوَا – أَوْ – حَيَا) وَهُوَ حَيَوَانٌ بَعْضُهُ كَالْإِنْسَانِ وَبَعْضُهُ كَالسَّمَكِ ، زَعَمُوا أَنَّهُ خَرَجَ مِنْ خَلِيجِ فَارِسَ لِيُعَلِّمَ سُكَّانَ ضِفَافِ النَّهْرَيْنِ عِلْمَ الْفَلَكِ وَالْأَدَبَ ، وَنُسِبَ إِلَيْهِ اخْتِرَاعُ حُرُوفِ الْهِجَاءِ ، وَقَدْ وُجِدَ اسْمُهُ عَلَى صَحِيفَةٍ مِنَ الْآجُرِّ وُجِدَتْ فِي خَرَائِبِ (أُورَ) وَيَرَى بَعْضُ الْبَاحِثِينَ أَنَّ اسْمَهُ مِنْ مَادَّةِ الْحَيَاةِ الْعَرَبِيَّةِ أَوِ الْحَيَّةِ ، وَشِعَارُهُ فِي الْقَلَمِ الْكَلْدَانِيِّ الشَّكْلُ الْإِسْفِينِيُّ ، وَمِنْهُ رَسْمُ الْحَيَّةِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى مُنْتَهَى الذَّكَاءِ وَالْحِكْمَةِ ، وَالْإِشَارَةِ إِلَى الْحَيَاةِ ، وَلَهُ أَلْقَابٌ عَظِيمَةٌ .

وَكَانَ لِلْكَلْدَانِ (ثَالُوثٌ) آخِرُ أَحَدُ آلِهَتِهِ (سِينِي) وَهُوَ الْقَمَرُ ، وَهَذَا الِاسْمُ سَامِيٌّ ، فَاسْمُ الْقَمَرِ بِالسُّرْيَانِيَّةِ سِينُ ، وَكَذَا فِي السِّنْسِكْرِيتِيَّةِ ، وَمِنْ أَلْقَابِهِ زَعِيمُ الْأَرْبَابِ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ (وَبَعْلُ رُونَا) أَيْ رَبُّ الْبِنَاءِ ، وَكَانُوا يُصَوِّرُونَهُ فِي جَمِيعِ تَطَوُّرَاتِهِ مُنْذُ يَكُونُ هِلَالًا ، وَلَهُ هَيَاكِلُ كَثِيرَةٌ ، وَأَعْظَمُ مَعَابِدِهِ فِي (أُورَ) .

وَالثَّانِي (سَانُ) أَوْ (سَانْسِي) وَهُوَ الشَّمْسُ ، وَالِاسْمُ سَامِيٌّ أَيْضًا ، وَمِنْهُ السَّنَا بِالْعَرَبِيَّةِ ، وَهُوَ - بِالْقَصْرِ - الضِّيَاءُ ، وَقِيلَ : ضَوْءُ النَّارِ وَالْبَرْقِ ، وَالصَّوَابُ أَنَّهُ أَعَمُّ . قَالَ تَعَالَى : (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا) (10 : 5) وَمِنْهُ (شَانِي) بِالْعِبْرِيَّةِ ، وَمَعْنَاهَا لَامِعٌ ، وَاسْمُ الشَّمْسِ بِاللُّغَةِ السِّنْسِكْرِيتِيَّةِ (سِيُونَا) وَمِنْ أَلْقَابِ هَذَا الْإِلَهِ : رَبُّ النَّارِ ، وَنَيِّرُ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَكَانَ لَهُ هَيَاكِلُ فِي الْمُدُنِ الْكَبِيرَةِ وَأَشْهَرُهَا (بَيْتُ بَارَا) وَبَارَا أَوْ فَرَا اسْمُ الشَّمْسِ بِالْمِصْرِيَّةِ الْقَدِيمَةِ ، وَكَانَ اسْمُ (هِلْيُبُولِيسَ) عِنْدَهُمْ (سِيبَارَا) وَتُسَمَّى فِي الْآثَارِ (تِسِيبَارْ شَاشَامَاسْ) وَمَعْنَى الثَّلَاثَةِ مَدِينَةُ الشَّمْسِ ، وَلِلشَّمْسِ زَوْجَةٌ عِنْدَهُمْ يُسَمُّونَهَا (أَيْ) وَ (كُولَا) (أُنُونِيتْ) .

وَثَالِثُ الثَّلَاثَةِ (فُولُ) أَوْ (ايفَا) أَيِ الْهَوَاءُ ، وَهُوَ رَبُّ الْجَوِّ الْقَائِمُ بِتَسْخِيرِ الرِّيَاحِ وَالْعَوَاصِفِ وَالْأَعَاصِيرِ ، الْمُتَصَرِّفُ فِي الزِّرَاعَةِ وَالْمَوَاسِمِ . وَمِنْ هَيَاكِلِهِ هَيْكَلٌ بَنَاهُ الْمَلِكُ (شَمَّاسْ فُولْ) الَّذِي مَلَكَ الْكَلْدَانَ سَنَةَ 1850 قَبْلَ الْمَسِيحِ .

وَهَذِهِ الْأَخْبَارُ وَالْآثَارُ تَشْهَدُ بِصِدْقِ الْقُرْآنِ ، وَكَوْنِهِ حُجَّةً لِلَّهِ تَعَالَى عَنِ الْأَنَامِ ؛ لِأَنَّ مَنْ جَاءَ بِهِ أُمِّيٌّ لَمْ يَقْرَأْ شَيْئًا مِنْ كُتُبِ الْأَوَّلِينَ ، وَلَا رَأَى أَثَرًا مِنْ آثَارِ الْغَابِرِينَ ، فَيَعْلَمُ مِنْهَا خَبَرَ مَعْبُودَاتِهِمْ ، وَلَا يَرِدُ عَلَيْهِ مَا أُورِدَ عَلَى الْعَهْدِ الْعَتِيقِ مِنْ كَوْنِ كَاتِبِهِ (عِزْرَا الْكَاهِنِ) كَتَبَهُ بَعْدَ السَّبْيِ ، فَاقْتَبَسَ فِيهِ كَثِيرًا مِنْ تَقَالِيدِ الْبَابِلِيِّينَ .

(الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : مَعْنَى الرَّبِّ وَالْإِلَهِ وَشُبْهَةُ الشِّرْكِ وَكَوْنُهُ قِسْمَانِ)

*(110/239)*

---

ظَاهِرُ مَا حَكَاهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - أَنَّ قَوْمَهُ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْأَصْنَامَ آلِهَةً لَا أَرْبَابًا ، وَيَتَّخِذُونَ الْكَوَاكِبَ أَرْبَابًا آلِهَةً ، فَالْإِلَهُ هُوَ الْمَعْبُودُ ، فَكُلُّ مَنْ عَبَدَ شَيْئًا فَقَدِ اتَّخَذَهُ إِلَهًا ، وَالرَّبُّ : هُوَ السَّيِّدُ الْمَالِكُ وَالْمُرَبِّي وَالْمُدَبِّرُ الْمُتَصَرِّفُ ، وَلَيْسَ لِلْخَلْقِ رَبٌّ وَلَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي خَلَقَهُمْ ، فَهُوَ الْمَالِكُ لِكُلِّ شَيْءٍ فِي كُلِّ زَمَنٍ وَكُلِّ حَالٍ ، وَمُلْكُهُ حَقِيقِيٌّ تَامٌّ ، وَمُلْكُ غَيْرِهِ عُرْفِيٌّ نَاقِصٌ مَوْقُوتٌ ، لَهُ أَجَلٌ مَحْدُودٌ ، وَهُوَ الْمَعْبُودُ بِحَقٍّ ، إِذِ الْعِبَادَةُ الْحَقُّ لَا تَكُونُ إِلَّا لِلرَّبِّ ؛ فَإِنَّ الْعِبَادَةَ هِيَ التَّوَجُّهُ بِالدُّعَاءِ وَكُلِّ تَعْظِيمٍ قَوْلِيٍّ أَوْ عَمَلِيٍّ إِلَى ذِي السُّلْطَانِ الْأَعْلَى عَلَى عَالَمِ الْأَسْبَابِ ، وَمَا فَوْقَ الْأَسْبَابِ ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْمُوجِدُ لَهَا وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهَا ، فَهِيَ خَاضِعَةٌ لِسُلْطَانِهِ ، وَكُلُّ مَا عَدَاهُ فَهُوَ خَاضِعٌ لِسُلْطَانِهَا

بَلْ سُلْطَانُهُ فِيهَا . وَالْأَصْلُ فِي اخْتِرَاعِ كُلِّ عِبَادَةٍ لِغَيْرِهِ تَعَالَى أَمْرَانِ :

(أَحَدُهُمَا أَنَّ بَعْضَ ضُعَفَاءِ الْعُقُولِ رَأَوْا بَعْضَ مَظَاهِرِ قُدْرَتِهِ تَعَالَى فِي بَعْضِ خَلْقِهِ ، فَتَوَهَّمُوا

(111/239)

---

أَنَّ ذَلِكَ ذَاتِيٌّ لِهَذَا الْمَخْلُوقِ لَيْسَ خَاضِعًا لِسُنَنِ اللهِ فِي الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ ؛ لِقِصَرِ إِدْرَاكِهِمْ عَنِ الْوُصُولِ إِلَى كَوْنِ الْقُدْرَةِ الذَّاتِيَّةِ خَاصَّةً بِخَالِقِ كُلِّ شَيْءٍ الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَمَا امْتَازَ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ ، وَكَوْنِ خَفَاءِ سَبَبِ الْخُصُوصِيَّةِ لَا يَقْتَضِي عَدَمَ خُضُوعِ صَاحِبِهَا لِسُنَنِ الْخَالِقِ فِيهَا وَفِي غَيْرِهَا مِنْ شُئُونِهِ (أَيْ شُئُونِ صَاحِبِ الْخُصُوصِيَّةِ) وَوَثَنِيَّةُ هَؤُلَاءِ هِيَ الْوَثَنِيَّةُ السَّافِلَةُ .

(ثَانِيهِمَا) اتِّخَاذُ بَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ ذَاتِ الْخُصُوصِيَّةِ فِي مَظَاهِرِ النَّفْعِ وَالضُّرِّ وَسِيلَةً إِلَى الرَّبِّ الْإِلَهِ الْحَقِّ ، تَشْفَعُ عِنْدَهُ ، وَتُقَرِّبُ إِلَيْهِ كُلَّ مَنْ تَوَجَّهَ إِلَيْهَا ، أَوِ التَّمَاثِيلِ وَالْأَصْنَامِ وَالْقُبُورِ وَغَيْرِهَا مِمَّا يُمَثِّلُهَا أَوْ يُذَكِّرُ بِهَا ، فَيَتَوَسَّلُ ذُو الْحَاجَةِ بِدُعَائِهَا وَتَعْظِيمِهَا بِالْقَوْلِ أَوِ الْفِعْلِ لِأَجْلِ حَمْلِهِ تَعَالَى - بِتَأْثِيرِهَا عِنْدَهُ - عَلَى قَبُولِهِ وَإِعْطَائِهِ سُؤْلَهُ ، وَهَذَا التَّوَسُّلُ تَوَجُّهٌ إِلَى غَيْرِ اللهِ مَبْنِيٌّ عَلَى اعْتِقَادِ عَدَمِ انْفِرَادِ الرَّبِّ بِالِاسْتِقْلَالِ بِقَضَاءِ الْحَاجَاتِ ، وَكَوْنِهِ

يَفْعَلُ بِتَأْثِيرِ الْوَسِيلَةِ فِي إِرَادَتِهِ ، وَهَذَا شِرْكٌ فِي الْعِبَادَةِ يُنَافِي الْحَنِيفِيَّةَ . وَهَذِهِ هِيَ الْوَثَنِيَّةُ الرَّاقِيَةُ الَّتِي كَانَتِ الْعَرَبُ عَلَيْهَا فِي زَمَنِ الْبَعْثَةِ ; وَلِذَلِكَ كَانُوا يَقُولُونَ فِي طَوَافِهِمْ : لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ ، إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ .

(112/239)

---

وَكَانَ بَعْضُ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – قَدِ ارْتَقَوْا فِي وَثَنِيَّتِهِمْ إِلَى هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ فِي الْجُمْلَةِ أَوْ أَوْشَكُوا ، إِذْ إِنَّهُمْ عَقَلُوا أَنَّ الْأَصْنَامَ لَا تَسْمَعُ دُعَاءَهُمْ وَلَا تُبْصِرُ عِبَادَتَهُمْ ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَى نَفْعِهِمْ وَلَا ضُرِّهِمْ ، وَإِنَّمَا قَلَّدُوا بِعِبَادَتِهَا آبَاءَهُمْ ، كَمَا يُعْلَمُ مِنْ مُحَاجَّتِهِ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – لَهُمْ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ (26 : 69) إِلَخْ . وَلِذَلِكَ اتَّخَذُوهَا آلِهَةً مَعْبُودِينَ ، لَا أَرْبَابًا مُدَبِّرِينَ ، وَلَكِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الْكَوَاكِبَ أَرْبَابًا لِمَا لَهَا مِنَ التَّأْثِيرِ السَّبَبِيِّ أَوِ الْوَهْمِيِّ فِي الْأَرْضِ ، وَتَوَسَّعُوا فِي إِسْنَادِ التَّأْثِيرِ إِلَيْهَا حَتَّى اخْتَرَعُوا مِنْ ذَلِكَ مَا لَا شُبْهَةَ لَهُ ، فَكَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الشَّمْسَ رَبُّ النَّارِ ، وَنَيِّرُ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، يُدَبِّرُ الْمُلُوكَ ، وَيُفِيضُ عَلَيْهِمْ رُوحَ الشَّجَاعَةِ وَالْإِقْدَامِ ، وَيَنْصُرُ جُنْدَهُمْ ، وَيَخْذُلُ عَدُوَّهُمْ ، وَيُمَزِّقُهُ كُلَّ مُمَزَّقٍ ، وَيَعْتَقِدُونَ نَحْوَ ذَلِكَ فِي زُحَلَ وَاسْمُهُ (بِينِي) وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ (مِرْدَاخَ) وَهُوَ الْمُشْتَرَى –

شَيْخُ الْأَرْبَابِ وَرَبُّ الْعَدْلِ وَالْأَحْكَامِ ، حَافِظُ الْأَبْوَابِ الَّتِي يَدْخُلُهَا الْخُصُومُ لِفَصْلِ الْخُصُومَاتِ - وَأَنَّ (رَنْكَالَ)

(113/239)

---

وَهُوَ الْمِرِّيخُ كَمِيُّ الْأَرْبَابِ ، وَرَبُّ الصَّيْدِ ، وَسُلْطَانُ الْحَرْبِ ، فَهُوَ يَشْتَرِكُ مَعَ زُحَلَ فِي تَدْبِيرِهِ إِلَّا أَنَّ هَذَا هُوَ الْمُقَدَّمُ فِي الصَّيْدِ ، وَذَاكَ الْمُقَدَّمُ فِي الْحَرْبِ ، وَأَنْ (عِشْتَارَ - أَوْ - نَانَا) وَهِيَ الزُّهَرَةُ رَبَّةُ الْغِبْطَةِ وَالسَّعَادَةِ ، وَمُفِيضَةُ السُّرُورِ عَلَى النَّاسِ ، وَتُمَثَّلُ فِي الْآثَارِ بِامْرَأَةٍ عَارِيَةٍ ، وَأَنَّ (نَبُو) وَهُوَ عُطَارِدٌ رَبُّ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ .

وَكَانَتْ حُجَّةُ إِبْرَاهِيمَ الْبَالِغَةُ فِي حَصْرِ الْعِبَادَةِ بِالتَّوَجُّهِ فِيهَا إِلَى فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَحْدَهُ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْوَسَائِطِ وَالْوَسَائِلِ ، وَمِثْلُهَا فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ فَقَدْ قَالَ فِي تَمَاثِيلِهِمْ : (بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) (21 : 56) وَبِهَذَا كَانَ

يَحْتَجُّ جَمِيعُ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَهُوَ أَقْوَى الْحُجَجِ وَأَظْهَرُهَا ، وَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ إِبْرَاهِيمُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - مِنَ التَّعْرِيضِ قَبْلَهَا فَهُوَ تَمْهِيدٌ لَهَا .

(الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : آرَاءُ الْمُتَكَلِّمِينَ وَالْفَلَاسِفَةِ فِي حُجَّةِ إِبْرَاهِيمَ)

مَا ذَكَرَهُ الرَّازِيُّ وَغَيْرُهُ مِنْ مُفَسِّرِي الْمُتَكَلِّمِينَ فِي هَذِهِ الْمُحَاجَّةِ تَكَلُّفٌ لَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْعِبَارَةُ ، وَلَا يَقْتَضِيهِ الْعَقْلُ ، وَلَا تَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ الْحِجَّةُ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُمْ جَعَلُوا مَقُولَهُمْ فِيهَا عَلَى ذِكْرِ الْأُفُولِ ، وَكَوْنِ وَجْهِ الْحُجَّةِ فِيهِ دَلَالَتَهُ عَلَى الْإِمْكَانِ وَالْحُدُوثِ ، وَقَالُوا : إنَّ أَحْسَنَ الْكَلَامِ مَا يَحْصُلُ فِيهِ نَصِيبٌ لِكُلِّ مِنَ الْخَوَاصِّ وَالْأَوْسَاطِ وَالْعَوَامِّ ، فَالْخَوَاصُّ يَفْهَمُونَ مِنَ الْأُفُولِ الْإِمْكَانَ ، وَكُلُّ مُمْكِنٍ مُحْتَاجٌ ، وَالْمُحْتَاجُ لَا يَكُونُ مُقَطَّعُ الْحَاجَةِ ، فَلَا بُدَّ مِنَ الِانْتِهَاءِ إلَى مَنْ يَكُونُ مُنَزَّهًا عَنِ الْإِمْكَانِ حَتَّى تَنْقَطِعَ الْحَاجَاتُ بِسَبَبِ وُجُودِهِ كَمَا قَالَ : (وَأَنَّ إلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى) (53 : 42) وَأَمَّا الْأَوْسَاطُ فَإِنَّهُمْ يَفْهَمُونَ مِنَ الْأُفُولِ مُطْلَقَ الْحَرَكَةِ ، فَكُلُّ مُتَحَرِّكٍ مُحْدَثٌ ، وَكُلُّ مُحْدَثٍ فَهُوَ مُحْتَاجٌ إلَى الْقَدِيمِ الْقَادِرِ ، فَلَا يَكُونُ الْآفِلُ إلَهًا بَلِ الْإِلَهُ هُوَ الَّذِي احْتَاجَ إلَيْهِ ذَلِكَ الْآفِلُ ، وَأَمَّا الْعَوَامُّ فَإِنَّهُمْ يَفْهَمُونَ مِنَ الْأُفُولِ الْغُرُوبَ ، وَهُمْ يُشَاهِدُونَ أَنَّ كُلَّ كَوْكَبٍ يَقْرُبُ مِنَ الْأُفُولِ فَإِنَّهُ يَزُولُ نُورُهُ وَيَنْقُصُ ضَوْؤُهُ ، وَيَذْهَبُ سُلْطَانُهُ وَيَصِيرُ كَالْمَعْزُولِ ، وَمَنْ يَكُونُ كَذَلِكَ لَا يَصْلُحُ لِلْإِلَهِيَّةِ (قَالَ الرَّازِيُّ) بَعْدَ مَا تَقَدَّمَ : فَهَذِهِ الْكَلِمَةُ " لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ " مُشْتَمِلَةٌ عَلَى نَصِيبِ الْمُقَرَّبِينَ ، وَأَصْحَابِ الْيَمِينِ ، وَأَصْحَابِ الشِّمَالِ ، فَكَانَتْ أَكْمَلَ

(115/239)

---

الدَّلَائِلِ وَأَفْضَلِ الْبَرَاهِينِ . ثُمَّ ذَكَرَ الرَّازِيُّ بَعْدَ هَذَا دَقِيقَةً اسْتَنْبَطَهَا مِنْ مَذْهَبِ عُلَمَاءِ الْفَلَكِ عَلَى عَهْدِهِ ، هِيَ أَعْرَقُ فِي التَّكَلُّفِ مِنْ هَذَا التَّفْصِيلِ الَّذِي جَعَلَ فِيهِ الْوَجْهَ الصَّحِيحَ فِي الْحُجَّةِ نَصِيبَ الْعَوَامِّ الَّذِينَ سَمَّاهُمْ أَصْحَابَ الشِّمَالِ ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ أَصْحَابَ الشِّمَالِ هُمْ أَهْلُ النَّارِ (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ) .

(116/239)

---

ثُمَّ قَالَ الرَّازِيُّ : تَفَلْسَفَ الْغَزَالِيُّ فِي بَعْضِ كُتُبِهِ ، وَحَمَلَ الْكَوْكَبَ عَلَى النَّفْسِ النَّاطِقَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ الَّتِي لِكُلِّ كَوْكَبٍ ، وَالْقَمَرَ عَلَى النَّفْسِ النَّاطِقَةِ الَّتِي لِكُلِّ فَلَكٍ ، وَالشَّمْسَ عَلَى الْعَقْلِ الْمُجَرَّدِ الَّذِي لِكُلِّ ذَلِكَ . وَكَانَ أَبُو عَلِيِّ بْنُ سِينَا يُفَسِّرُ الْأُفُولَ بِالْإِمْكَانِ (أَيْ فَهُوَ عِنْدَ الرَّازِيِّ إِمَامُ الْمُقَرَّبِينَ !) فَزَعَمَ الْغَزَالِيُّ أَنَّ الْمُرَادَ بِأُفُولِهَا إِمْكَانُهَا فِي نَفْسِهَا ، وَزَعَمَ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ قَوْلِهِ : (لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ) أَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ بِأَسْرِهَا مُمْكِنَةُ الْوُجُودِ لِذَوَاتِهَا ، وَكُلُّ مُمْكِنٍ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُؤَثِّرٍ ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الِانْتِهَاءِ إِلَى وَاجِبِ الْوُجُودِ . وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ لَا بَأْسَ

بِهِ إلَّا أَنَّهُ يَبْعُدُ حَمْلُ لَفْظِ الْآيَةِ عَلَيْهِ . وَمِنَ النَّاسِ مَنْ حَمَلَ الْكَوْكَبَ عَلَى الْحِسِّ ، وَالْقَمَرَ عَلَى الْخَيَالِ وَالْوَهْمِ ، وَالشَّمْسَ عَلَى الْعَقْلِ ، وَالْمُرَادُ أَنَّ هَذِهِ الْقُوَى الْمُدْرِكَةَ الثَّلَاثَ قَاصِرَةٌ مُتَنَاهِيَةٌ ، وَمُدَبِّرُ الْعَالَمِ مُسْتَوْلٍ عَلَيْهَا قَاهِرٌ لَهَا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . انْتَهَى كَلَامُ الرَّازِيِّ ، وَلَيْسَ مَا اسْتَحْسَنَهُ مِنْ قَبْلُ - بَلْ سَمَّاهُ أَحْسَنَ الْكَلَامِ - إلَّا مِثْلُ مَا اسْتَبْعَدَ حَمْلَ الْآيَةِ عَلَيْهِ مِنْ بَعْدُ أَوْ هُوَ أَبْعَدُ وَأَجْدَرُ بِالْمَلَامِ .

(الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : إشَارَاتُ الصُّوفِيَّةِ فِي الْآيَاتِ) .

*(117/239)*

---

أَوْرَدَ نِظَامُ الدِّينِ الْحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ النَّيْسَابُورِيُّ فِي تَأْوِيلَاتِ تَفْسِيرِهِ عِبَارَتَيْنِ فِي الْآيَاتِ ، قَالَ فِي الْأُولَى : إنَّ إبْرَاهِيمَ رَأَى نُورَ الرُّشْدِ فِي صُورَةِ الْكَوْكَبِ ، وَنُورَ الرُّبُوبِيَّةِ فِي صُورَةِ الْقَمَرِ ، وَنُورَ الْهِدَايَةِ فِي صُورَةِ الشَّمْسِ ، وَسَبَّكَ ذَلِكَ بِعِبَارَةٍ شِعْرِيَّةٍ مُتَكَلِّفَةٍ . وَأَمَّا الْعِبَارَةُ الثَّانِيَةُ فَزَعَمَ أَنَّهَا دَارَتْ فِي خَلَدِهِ ، وَمَا هِيَ إلَّا مَا نَقَلَهُ الرَّازِيُّ (الَّذِي لَخَّصَ هُوَ تَفْسِيرَهُ وَزَادَ عَلَيْهِ هَذِهِ التَّأْوِيلَاتِ) عَنِ الْغَزَالِيِّ - وَذَكَرْنَاهُ آنِفًا - إلَّا أَنَّهُ تَصَرَّفَ فِيهِ فَجَعَلَهُ أَقْرَبَ إلَى التَّصَوُّفِ . وَقَدْ نَقَلَ الْأُلُوسِيُّ هَذِهِ الْعِبَارَةَ الْأَخِيرَةَ عَنِ النَّيْسَابُورِيِّ فِي إشَارَاتِهِ ، وَذَكَرَ قَبْلَهَا إشَارَةً جَعَلَ فِيهَا الْكَوَاكِبَ إشَارَةً إلَى النَّفْسِ الَّتِي هِيَ الرُّوحُ الْحَيَوَانِيَّةُ ، وَالْقَمَرَ إشَارَةً

إِلَى الْقَلْبِ ، وَالشَّمْسَ إِشَارَةً إِلَى الرُّوحِ ، وَأَنَّهَا أَفَلَتْ بَعْدَ تَجَلِّيهَا بِتَجَلِّي أَنْوَارِ الْحَقِّ ، وَهُوَ أَقَلُّ تَكَلُّفًا مِمَّا قَبْلَهُ ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا مِثْلَهُ .

وَأَمْثَلُ مَا قِيلَ فِي بَابِ الْإِشَارَةِ مَا شَرَحَهُ الْغَزَالِيُّ فِي بَحْثِ فِرَقِ الْمَغْرُورِينَ مِنَ الصُّوفِيَّةِ فِي كِتَابِ الْغُرُورِ مِنَ الْإِحْيَاءِ ، فَإِنَّهُ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ الَّذِينَ اغْتَرُّوا بِأَوَّلِ مَا انْفَتَحَ لَهُمْ مِنْ أَبْوَابِ الْمَعْرِفَةِ وَمَا شَمُّوا مِنْ رَائِحَتِهَا فَوَقَفُوا عِنْدَهُ ، قَالَ :

*(118/239)*

---

(وَفِرْقَةٌ أُخْرَى) جَاوَزُوا هَؤُلَاءِ ، وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى مَا يَفِيضُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَنْوَارِ فِي الطَّرِيقِ ، وَلَا إِلَى مَا تَيَسَّرَ لَهُمْ مِنَ الْعَطَايَا الْجَزِيلَةِ ، وَلَمْ يُعَرِّجُوا عَلَى الْفَرَحِ بِهَا وَالِالْتِفَاتِ إِلَيْهَا ، جَادِّينَ فِي السَّيْرِ حَتَّى قَارَبُوا فَوَصَلُوا إِلَى حَدِّ الْقُرْبَةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى ، فَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ وَصَلُوا إِلَى اللهِ فَوَقَفُوا وَغَلِطُوا ; فَإِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى سَبْعِينَ حِجَابًا مِنْ نُورٍ ، لَا يَصِلُ السَّالِكُ إِلَى حِجَابٍ مِنْ تِلْكَ الْحُجُبِ فِي الطَّرِيقِ إِلَّا يَظُنُّ أَنَّهُ قَدْ وَصَلَ . وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، إِذْ قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْهُ : (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي) (6 : 76) وَلَيْسَ الْمَعْنِيُّ بِهِ هَذِهِ الْأَجْسَامَ الْمُضِيئَةَ ; فَإِنَّهُ كَانَ يَرَاهَا فِي الصِّغَرِ وَيَعْلَمُ أَنَّهَا لَيْسَتْ آلِهَةً ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ وَلَيْسَتْ وَاحِدًا ، وَالْجُهَّالُ يَعْلَمُونَ أَنَّ الْكَوْكَبَ لَيْسَ بِإِلَهٍ ، فَمِثْلُ إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ

السَّلَامُ – لَا يَغُرُّهُ الْكَوْكَبُ الَّذِي لَا يَغُرُّ السَّوَادِيَّةَ ، وَلَكِنَّ الْمُرَادَ بِهِ أَنَّهُ نُورٌ مِنَ الْأَنْوَارِ الَّتِي هِيَ مِنْ حُجُبِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَهِيَ عَلَى طَرِيقِ السَّالِكِينَ ، وَلَا يُتَصَوَّرُ الْوُصُولُ إِلَى اللهِ تَعَالَى إِلَّا بِالْوُصُولِ إِلَى هَذِهِ الْحُجُبِ ، وَهِيَ حُجُبٌ مِنْ نُورٍ بَعْضُهَا أَكْبَرُ مِنْ بَعْضٍ ، وَأَصْغَرُ النَّيِّرَاتِ الْكَوْكَبُ ، فَاسْتُعِيرَ لَهُ لَفْظُهُ ، وَأَعْظَمُهَا الشَّمْسُ ، وَبَيْنَهُمَا رُتْبَةُ الْقَمَرِ ، فَلَمْ يَزَلْ إِبْرَاهِيمُ – عَلَيْهِ

(119/239)

---

السَّلَامُ – لَمَّا رَأَى مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ حَيْثُ قَالَ اللهُ تَعَالَى :

(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) يَصِلُ إِلَى نُورٍ بَعْدَ نُورٍ ، وَيَتَخَيَّلُ إِلَيْهِ فِي أَوَّلِ مَا كَانَ يَلْقَاهُ أَنَّهُ قَدْ وَصَلَ ، ثُمَّ كَانَ يُكْشَفُ لَهُ أَنَّ وَرَاءَهُ أَمْرًا فَيَتَرَقَّى إِلَيْهِ وَيَقُولُ قَدْ وَصَلْتُ ، فَيُكْشَفُ لَهُ مَا وَرَاءَهُ حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْحِجَابِ الْأَقْرَبِ الَّذِي لَا وُصُولَ إِلَّا بَعْدَهُ ، فَقَالَ : (هَذَا أَكْبَرُ) فَلَمَّا ظَهَرَ لَهُ أَنَّهُ مَعَ عِظَمِهِ غَيْرُ خَالٍ عَنِ الْهَوَى فِي حَضِيضِ النَّقْصِ وَالِانْحِطَاطِ عَنْ ذِرْوَةِ الْكَمَالِ (قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ . . . . إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي

(120/239)

فَطَرَ السَّمَاوَاتِ) . وَسَالِكُ هَذِهِ الطَّرِيقِ قَدْ يَغْتَرُّ فِي الْوُقُوفِ عَلَى بَعْضِ هَذِهِ الْحُجُبِ ، وَقَدْ يَغْتَرُّ بِالْحِجَابِ الْأَوَّلِ ، وَأَوَّلُ الْحَجْبِ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ الْعَبْدِ هُوَ نَفْسُهُ ، فَإِنَّهُ أَيْضًا أَمْرٌ رَبَّانِيٌّ ، وَهُوَ نُورٌ مِنْ أَنْوَارِ اللهِ تَعَالَى ، أَعْنِي سِرَّ الْقَلْبِ الَّذِي تَتَجَلَّى فِيهِ حَقِيقَةُ الْحَقِّ كُلِّهِ حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَّسِعُ لِجُمْلَةِ الْعَالِمِ وَيُحِيطُ بِهِ ، وَتَتَجَلَّى فِيهِ صُورَةُ الْكُلِّ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يُشْرِقُ نُورُهُ إِشْرَاقًا عَظِيمًا ، إِذْ يَظْهَرُ فِيهِ الْوُجُودُ كُلُّهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ ، وَهُوَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ مَحْجُوبٌ بِمِشْكَاةٍ هِيَ كَالسَّاتِرِ لَهُ ، فَإِذَا تَجَلَّى نُورُهُ وَانْكَشَفَ جَمَالُ الْقَلْبِ بَعْدَ إِشْرَاقِ نُورِ اللهِ رُبَّمَا الْتَفَتَ صَاحِبُ الْقَلْبِ إِلَى الْقَلْبِ فَيَرَى مِنْ جَمَالِهِ الْفَائِقِ مَا يُدْهِشُهُ ، وَرُبَّمَا يَسْبِقُ لِسَانُهُ فِي هَذِهِ الدَّهْشَةِ فَيَقُولُ : أَنَا الْحَقُّ ، فَإِنْ لَمْ يَتَّضِحْ لَهُ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ اغْتَرَّ بِهِ ، وَوَقَفَ عَلَيْهِ وَهَلَكَ ، وَكَانَ قَدِ اغْتَرَّ بِكَوْكَبٍ صَغِيرٍ مِنْ أَنْوَارِ الْحَضْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَلَمْ يَصِلْ بَعْدُ إِلَى الْقَمَرِ فَضْلًا عَنِ الشَّمْسِ فَهُوَ مَغْرُورٌ . وَهَذَا مَحَلُّ الِالْتِبَاسِ ، إِذِ الْمُتَجَلِّي يَلْتَبِسُ بِالْمُتَجَلَّى فِيهِ كَمَا يَلْتَبِسُ لَوْنُ مَا يَتَرَاءَى فِي الْمِرْآةِ بِالْمِرْآةِ ، فَيُظَنُّ أَنَّهُ لَوْنُ الْمِرْآةِ ، وَكَمَا يَلْتَبِسُ مَا فِي الزُّجَاجِ بِالزُّجَاجِ كَمَا قِيلَ :

رَقَّ الزُّجَاجُ وَرَاقَتِ الْخَمْرُ . . . فَتَشَابَهَا فَتَشَاكَلَ الْأَمْرُ

فَكَأَنَّمَا خَمْرٌ وَلَا قَدَحٌ . . . وَكَأَنَّمَا قَدَحٌ وَلَا خَمْرٌ .

وَبِهَذِهِ الْعَيْنِ نَظَرَ النَّصَارَى إلَى الْمَسِيحِ ، فَرَأَوْا إشْرَاقَ نُورِ اللَّهِ قَدْ تَلَأْلَأَ فِيهِ فَغَلِطُوا فِيهِ ، كَمَنْ رَأَى كَوْكَبًا فِي مِرْآةٍ أَوْ فِي مَاءٍ فَيَظُنُّ أَنَّ الْكَوْكَبَ فِي الْمِرْآةِ أَوْ فِي الْمَاءِ ، فَيَمُدُّ يَدَهُ إلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ وَهُوَ مَغْرُورٌ " . اهـ .

(وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) .

*(122/239)*

---

الْمُحَاجَّةُ : الْمُجَادَلَةُ وَالْمُغَالَبَةُ فِي إقَامَةِ الْحُجَّةِ ، وَالْحُجَّةُ الدَّالَّةُ الْمُبَيِّنَةُ لِلْمَحَجَّةِ ، أَيِ الْمَقْصِدِ الْمُسْتَقِيمِ كَمَا قَالَ الرَّاغِبُ . وَأَصْلُ الْمَحَجَّةِ وَسَطُ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَتُطْلَقُ الْحُجَّةُ عَلَى كُلِّ مَا يُدْلِي بِهِ أَحَدُ الْخَصْمَيْنِ فِي إثْبَاتِ دَعْوَاهُ أَوْ رَدِّ دَعْوَى خَصْمِهِ ، فَتَنْقَسِمُ

إِلَى حُجَّةٍ نَاهِضَةٍ يَثْبُتُ بِهَا الْحَقُّ ، وَحُجَّةٍ دَاحِضَةٍ يُمَوِّهُ بِهَا الْبَاطِلُ ، وَإِنَّمَا يُسَمَّى مَا لَا يَثْبُتُ بِهِ الْحَقُّ حُجَّةً عَلَى سَبِيلِ ادِّعَاءِ الْخَصْمِ - حِكَايَةً لِقَوْلِهِ - وَاصْطَلَحُوا عَلَى تَسْمِيَتِهَا شُبْهَةً .

*(123/239)*

---

وَلَمَّا حَاجَّ إِبْرَاهِيمُ قَوْمَهُ بِبَيَانِ بُطْلَانِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَرُبُوبِيَّةِ الْكَوْكَبِ ، وَإِثْبَاتِ وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَوُجُوبِ عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ - وَهِيَ الْحَنِيفِيَّةُ - حَاجُّوهُ بِبَيَانِ أَوْهَامِهِمْ فِي شِرْكِهِمْ ، وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَتَيِ الْأَنْبِيَاءِ وَالشُّعَرَاءِ أَنَّهُمُ اعْتَذَرُوا لَهُ عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ بِتَقْلِيدِ آبَائِهِمْ ، وَلَيْسَ لِلْمُقَلِّدِ أَنْ يَحْتَجَّ ، وَلَكِنَّهُ يُجَادِلُ مَعَ كَوْنِهِ لَا يَخْضَعُ لِلْحُجَّةِ إِذَا قَامَتْ عَلَيْهِ ، وَيُؤْخَذُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ أَنَّهُمْ لَمَّا لَمْ يَجِدُوا حُجَّةً عَقْلِيَّةً عَلَى شِرْكِهِمْ بِاللَّهِ خَوَّفُوهُ أَنْ تَمَسَّهُ آلِهَتُهُمْ بِسُوءٍ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا كَانَ قَبْلَ مَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ وَعَنْهُمْ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ ، بِقَوْلِهِ : (قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) (26 : 72 - 74) وَقَبْلَ وَاقِعَةِ تَكْسِيرِهِ لِأَصْنَامِهِمُ الَّتِي قَالَ اللَّهُ فِيهَا مِنْ سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ إِنَّهُمْ

رَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَاعْتَرَفُوا بِظُلْمِهِمْ ، ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ مُصِرِّينَ عَلَى شِرْكِهِمْ

(124/239)

---

وَكَثِيرًا مَا يَضْطَرِبُ الْمُقَلِّدُ لِسَمَاعِ الْحُجَّةِ إذْ يُومِضُ فِي قَلْبِهِ بَرْقُهَا ، وَيَهُزُّ شُعُورَهُ رَعْدُهَا . وَيَكَادُ يُحْيِيهِ وَدَقُهَا ، ثُمَّ يَنْكُسُ عَلَى رَأْسِهِ ، وَيَعُودُ إلَى سَابِقِ وَهْمِهِ ، خَائِفًا مِنْ غَيْرِ مُخَوِّفٍ ، رَاجِيًا غَيْرَ مَرْجُوٍّ ، كَمَا نَرَاهُ فِي عُبَّادِ أَصْحَابِ الْقُبُورِ الَّذِينَ يَتَوَهَّمُونَ أَنَّ قُبُورَهُمْ وَغَيْرَهَا مِنْ آثَارِهِمْ تَدْفَعُ عَمَّنْ زَارَهَا أَوْ تَمْسَحُ بِهَا الضُّرَّ ، وَتَكْشِفُ السُّوءَ وَتُدِرُّ الرِّزْقَ ، وَتُخْزِي الْعَدُوَّ ، إمَّا بِتَصَرُّفِهِمْ فِي الْخَلْقِ ، وَإِمَّا لِأَنَّهُمْ قُرْبَانٌ عِنْدَ الرَّبِّ ، وَلَا يَرَوْنَ ذَلِكَ نَاقِضًا لِلْإِيمَانِ الصَّحِيحِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) (12 : 106) قَالَ تَعَالَى :

(125/239)

---

(وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ) أَيْ : وَجَادَلَهُ قَوْمُهُ بَعْدَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَمْرِهِ مَعَهُمْ ، وَخَاصَمُوهُ فِي أَمْرِ التَّوْحِيدِ الَّذِي قَرَّرَهُ لَهُمْ ، كَأَنْ زَعَمُوا - كَمَا رُوِيَ وَسُمِعَ مِنْ أَمْثَالِهِمْ - أَنَّ اتِّخَاذَ الْآلِهَةِ لَا يُنَافِي الْإِيمَانَ بِاللَّهِ الْفَاطِرِ سُبْحَانَهُ ؛ لِأَنَّهُمْ وُسَطَاءُ وَشُفَعَاءُ عِنْدَهُ ، وَمُتَّخَذُونَ لِأَجْلِهِ ، وَذَلِكَ مَا تَقَدَّمَ

قَرِيبًا عَنِ ابْنِ زَيْدٍ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ : (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا) وَخَوَّفُوهُ بَطْشَهُمْ بِهِ . فَمَاذَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؟ (قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ) أَيْ أَتُجَادِلُونَنِي مُجَادَلَةَ صَاحِبِ الْحُجَّةِ فِي شَأْنِ اللهِ تَعَالَى وَمَا يَجِبُ فِي الْإِيمَانِ بِهِ - وَالْحَالُ أَنَّهُ قَدْ فَضَّلَنِي عَلَيْكُمْ بِمَا هَدَانِي إِلَى التَّوْحِيدِ الْخَالِصِ وَالْحَنِيفِيَّةِ الَّتِي أَقَمْتُ بِهَا الْحُجَّةَ عَلَيْكُمْ ، وَأَنْتُمْ ضَالُّونَ بِإِصْرَارِكُمْ عَلَى شِرْكِكُمْ ، وَتَقْلِيدِكُمْ بِهِ مَنْ قَبْلَكُمْ ؟ وَقَدْ خَفَّفَ نُونَ (تُحَاجُّونِّي) نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ فِي رِوَايَةِ ابْنِ ذَكْوَانَ ، وَذَلِكَ بِحَذْفِ إِحْدَى النُّونَيْنِ ، وَشَدَّدَهَا سَائِرُ الْقُرَّاءِ ، وَهُمَا لُغَتَانِ لِلْعَرَبِ فِي مِثْلِهَا ، وَحُذِفَتِ الْيَاءُ مِنْ هَدَانِي فِي الرَّسْمِ ؛ لِأَنَّهَا لَا تَظْهَرُ فِي النُّطْقِ (وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ) مِنَ الْكَوَاكِبِ وَالْأَصْنَامِ أَنْ تُصِيبَنِي بِسُوءٍ ، فَإِنِّي أَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّهَا لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ، وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَسْمَعُ ، وَلَا تُقَرِّبُ وَلَا تَشْفَعُ (إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا) - أَيْ

(126/239)

---

لَكِنِ اسْتَثْنَى مِنْ عُمُومِ الْخَوْفِ فِي عُمُومِ الْأَوْقَاتِ - مِنْ جِهَةِ آلِهَتِكُمْ كَغَيْرِهَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ ، أَنْ يَشَاءَ رَبِّيَ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وُقُوعَ مَكْرُوهٍ بِي ، فَإِنَّهُ يَقَعُ لَا مَحَالَةَ كَمَا شَاءَ رَبِّي ، فَإِنْ فَرَضَ أَنَّهُ شَاءَ أَنْ يَسْقُطَ عَلَيَّ صَنَمٌ يَشُجُّنِي ، أَوْ كِسَفًا مِنْ شُهُبِ الْكَوَاكِبِ يَقْتُلُنِي -

فَإِنَّ ذَلِكَ يَقَعُ بِقُدْرَةِ رَبِّي وَمَشِيئَتِهِ ، لَا بِمَشِيئَةِ الصَّنَمِ أَوِ الْكَوْكَبِ وَلَا بِقُدْرَتِهِ ، وَلَا بِتَأْثِيرِهِ فِي قُدْرَتِهِ تَعَالَى وَإِرَادَتِهِ ، وَلَا بِجَاهِهِ عِنْدَهُ وَشَفَاعَتِهِ ; إِذْ لَا تَأْثِيرَ لِشَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ فِي مَشِيئَةِ الْخَالِقِ الْأَزَلِيَّةِ الْجَارِيَةِ بِمَا ثَبَتَ فِي عِلْمِهِ (وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا) أَيْ أَنَّ عِلْمَ رَبِّي وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَأَحَاطَ بِهِ وَمَشِيئَتُهُ مُرْتَبِطَةٌ بِعِلْمِهِ الْمُحِيطِ الْقَدِيمِ ، وَقُدْرَتُهُ مُنَفِّذَةٌ لِمَشِيئَتِهِ ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لِشَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا وَلَا لِغَيْرِهَا تَأْثِيرٌ مَا فِي صِفَاتِهِ ، وَلَا فِي أَفْعَالِهِ الصَّادِرَةِ عَنْهَا ، لَا بِشَفَاعَةٍ وَلَا غَيْرِهَا ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ لَوْ كَانَ عِلْمُ اللهِ تَعَالَى غَيْرَ مُحِيطٍ بِكُلِّ شَيْءٍ ، فَيَعْلَمُهُ الشُّفَعَاءُ وَالْوُسَطَاءُ مِنْ وُجُوهِ مُرَجِّحَاتِ الْفِعْلِ أَوِ التَّرْكِ بِالشَّفَاعَةِ أَوْ غَيْرِهَا مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ هُوَ الْحَامِلَ لَهُ

*(127/239)*

---

عَلَى الضُّرِّ أَوِ النَّفْعِ ، أَوِ الْعَطَاءِ أَوِ الْمَنْعِ ، أَخَذْنَا هَذَا الْمَعْنَى لِهَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنْ حُجَجِ اللهِ تَعَالَى عَلَى نَفْيِ الشَّفَاعَةِ الشِّرْكِيَّةِ بِمِثْلِ قَوْلِهِ : (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ) (2 : 255) فَرَاجِعْ تَفْسِيرَهُ (فِي جُزْءِ التَّفْسِيرِ الثَّالِثِ) وَجَعَلَ الْجُمْلَةَ بَعْضُهُمْ كَالتَّعْلِيلِ لِلِاسْتِثْنَاءِ ، بِجَوَازِ أَنْ يَكُونَ قَدْ

سَبَقَ فِي عِلْمِهِ تَعَالَى إِصَابَتُهُ بِسُوءٍ يَكُونُ سَبَبُهُ الْأَصْنَامُ ، أَوْ لِبَيَانِ أَنَّهُ لِإِحَاطَةِ عِلْمِهِ لَا يَفْعَلُ إِلَّا مَا فِيهِ الْخَيْرُ وَالصَّلَاحُ ، وَجَعَلَهَا بَعْضُهُمْ تَعْرِيضًا بِجَهْلِ مَعْبُودَاتِهِمْ مِنَ الْكَوَاكِبِ وَالْأَوْثَانِ ، وَمَا قُلْنَاهُ أَرْجَحُ ، وَهُوَ مِنْ قَبِيلِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ (أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ) أَيُّهَا الْغَافِلُونَ أَنَّ هَذَا هُوَ شَأْنُ الرَّبِّ الْفَاطِرِ ، وَأَنَّهُ يُنَافِي مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشِّرْكِ الظَّاهِرِ ، وَمِنْهُ اعْتِقَادُ وُقُوعِ الضُّرِّ بِي أَوِ النَّفْعِ لَكُمْ بِالتَّصَرُّفِ الَّذِي تَزْعُمُونَهُ فِي مَعْبُودَاتِكُمْ ؟ وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُمْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لِلْعَالَمِ كُلِّهِ رَبًّا خَالِقًا غَيْرَ هَذِهِ الْآلِهَةِ وَالْأَرْبَابِ الْمُتَّخَذَةِ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ اتِّخَاذًا ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْقِلُونَ بِأَنْفُسِهِمْ أَنَّ نِسْبَةَ جَمِيعِ الْخَلْقِ إِلَى الْخَالِقِ وَاحِدَةٌ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ هُوَ الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ، فَسَخَّرَ مَا شَاءَ بِسُنَنِ الْأَقْدَارِ ، وَنِظَامِ

(128/239)

---

الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ ، ثُمَّ هَدَى الْعُقَلَاءَ لِتِلْكَ الْأَسْبَابِ ، لِيَطْلُبُوا الْمَنَافِعَ وَيَتَّقُوا الْمَضَارَّ ، وَقَدْ ظَهَرَ بِالدَّلَائِلِ وَالتَّجَارِبِ أَنَّهَا مُسَخَّرَةٌ عَلَى سَوَاءٍ ، فَالسُّلْطَةُ الْغَيْبِيَّةُ الْعُلْيَا لَهُ وَحْدَهُ ، لَيْسَ لِغَيْرِهِ تَأْثِيرٌ فِيهَا مَعَهُ وَلَا تَدْبِيرٌ ، فَإِذَا جَعَلَ بَعْضَ الْأَجْنَاسِ أَوِ الْأَشْخَاصِ سَبَبًا لِلنَّفْعِ أَوِ الضُّرِّ بِإِرَادَةِ خَلْقِهَا لَهَا كَالْحَيَوَانَاتِ ، أَوْ بِغَيْرِ إِرَادَةٍ كَالْجَمَادَاتِ – فَلَا يَقْتَضِي ذَلِكَ أَنْ تُرْفَعَ رُتْبَةَ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَتُجْعَلَ أَرْبَابًا

وَمَعْبُودَاتٍ ، وَكَانَ يَجِبُ أَنْ يَفْطِنَ الْعَاقِلُ لِذَلِكَ وَيَتَذَكَّرَهُ بِالتَّذْكِيرِ بِهِ ؛ لِأَنَّهُ تَذْكِيرٌ بِمَا يُدْرِكُهُ الْعَقْلُ بِالْبُرْهَانِ ، وَتَعْرِفُهُ الْفِطْرَةُ بِالْوِجْدَانِ ، فَكَأَنَّهُ مِمَّا غَفَلَ عَنْهُ لَا مِمَّا جَهِلَهُ ، لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ لَهُ بِالْقُوَّةِ ، وَفَسَّرَ ابْنُ جَرِيرٍ التَّذَكُّرَ هُنَا بِالِاعْتِبَارِ وَالِاتِّعَاظِ وَهُوَ أَحَدُ مَعَانِيهِ : (فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى) (87 : 9 ، 10) .

*(129/239)*

---

وَمِنَ الْعِبْرَةِ فِي الْآيَةِ أَنَّ هَذَا الضَّرْبَ مِنَ الشِّرْكِ الَّذِي رَدَّهُ إِمَامُ الْمُوَحِّدِينَ إِبْرَاهِيمُ – صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ – لَا يَزَالُ فَاشِيًا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمُنْتَمِينَ فِي التَّوْحِيدِ إِلَى مِلَّتِهِ ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْقِلُوا مَا تَقَدَّمَ مِنْ حُجَّتِهِ ، فَهُمْ يَنْسُبُونَ إِلَى مَنْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ لَهُمْ تَصَرُّفًا غَيْبِيًّا فِي الْمَخْلُوقَاتِ ، سَوَاءٌ كَانُوا مِنَ الْأَحْيَاءِ أَوِ الْأَمْوَاتِ ، مَا يَقَعُ عَقِبَ زِيَارَتِهِ لَهُمْ ، أَوْ تَوَسُّلِهِمْ بِهِمْ ، مِنْ زَوَالِ أَلَمٍ ، أَوْ خَيْرٍ أَلَمَّ ، أَوْ نَفْعٍ أَصَابَ حَبِيبًا دَعَوْا لَهُ ، أَوْ ضُرٍّ أَصَابَ عَدُوًّا دَعَوْا عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا يَقَعُ مَا يَقَعُ مِنْ ذَلِكَ بِسَبَبٍ حَقِيقِيٍّ جَلِيٍّ ، أَوْ وَهْمِيٍّ خَفِيٍّ ، وَكُلٌّ بِتَقْدِيرِ اللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ .

وَبَعْدَ أَنْ بَيَّنَ لَهُمْ – عَلَيْهِ السَّلَامُ – أَنَّهُ لَا يَخَافُ شُرَكَاءَهُمْ بَلْ يَخَافُ اللهَ وَحْدَهُ مِنْ نَاحِيَةِ الْأَسْبَابِ وَمِنْ غَيْرِ نَاحِيَتِهَا قَالَ :

(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا)

أَيْ وَكَيْفَ أَخَافَ مَا أَشْرَكْتُمُوهُ بِرَبِّكُمْ مِنْ خَلْقِهِ فَجَعَلْتُمُوهُ نِدًّا لَهُ وَهُوَ لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ ، وَلَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ ، وَلَا تَخَافُونَ أَنْتُمْ إِشْرَاكَكُمْ بِاللهِ خَالِقَكُمْ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ حُجَّةً بَيِّنَةً بِالْوَحْيِ ، وَلَا بِنَظَرِ الْعَقْلِ ، تُثْبِتُ لَكُمْ جَعْلَهُ شَرِيكًا لَهُ فِي الْخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ ، أَوْ فِي الْوَسَاطَةِ وَالشَّفَاعَةِ وَالتَّأْثِيرِ ، فَافْتِيَاتُكُمْ عَلَى خَالِقِكُمُ الَّذِي بِيَدِهِ الضُّرُّ وَالنَّفْعُ بِهَذِهِ الْمُوبِقَةِ الْفَظِيعَةِ هُوَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُخَافَ وَيُتَّقَى ، فَالِاسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ التَّعَجُّبِيِّ مِنْ تَخْوِيفِهِمْ إِيَّاهُ مَا لَا يُخِيفُ ، فِي حَالِ كَوْنِهِمْ لَا يَخَافُونَ أَخْوَفَ مَا يُخَافُ ، وَقَدْ قِيلَ إِنَّ هَذَا الِاسْتِفْهَامَ عَنْ كَيْفِيَّةِ الْخَوْفِ لَا عَنِ الْخَوْفِ نَفْسِهِ وَبَحَثُوا عَنْ نُكْتَتِهِ ، وَالْمُرَادُ نُكْتَةُ الْعُدُولِ عَنِ الِاسْتِفْهَامِ بِالْهَمْزَةِ إِلَى الِاسْتِفْهَامِ بِكَيْفَ ، وَهِيَ أَيِ النُّكْتَةُ تُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِ أَهْلِ اللُّغَةِ فِي مَعْنَى "كَيْفَ" مِنْ كَوْنِهَا سُؤَالًا عَنِ الْأَحْوَالِ – لَا مِمَّا تَكَلَّفَهُ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ – وَالْمَعْنَى أَنَّ كُلَّ صِفَةٍ وَحَالٍ يُمْكِنُ أَنْ تُدْعَى لِصِحَّةِ هَذَا الْخَوْفِ فَهِيَ بَاطِلَةٌ ، وَأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ

يَجِدْ لِهَذَا الْخَوْفِ حَالًا وَلَا وَجْهًا ، فَلَا هُوَ يَخَافُ هَؤُلَاءِ الشُّرَكَاءَ لِذَوَاتِهِمْ ، وَلَا لِمَا يَزْعُمُونَهُ مِنْ وَسَاطَتِهِمْ عِنْدَ اللهِ وَشَفَاعَتِهِمْ ، وَلَا لِقُدْرَةٍ عَلَى الضُّرِّ وَالنَّفْعِ قَدْ تُدَّعَى - وَلَوْ جَعَلَ اللهُ - لَهُمْ وَلَا لِثُبُوتِ جَعْلِهِمْ أَسْبَابًا لِلضَّرَرِ بِغَيْرِ إِرَادَةٍ وَلَا اخْتِيَارٍ مِنْهُمْ ، فَالْمُرَادُ أَنَّ جَمِيعَ وُجُوهِ الْخَوْفِ وَأَحْوَالِهِ الْحَقِيقِيَّةِ وَالْمَجَازِ مُنْتَفِيَةٌ ، وَإِلَّا فَعَلَيْهِمْ بَيَانُ كَيْفَ يَخَافُونَ .

*(132/239)*

---

وَقَدْ حُذِفَ مُتَعَلِّقُ الشِّرْكِ فِي مَقَامِ إِنْكَارِ خَوْفِهِ مِنْ شُرَكَائِهِمْ ، وَذَكَرَهُ بَعْدَهُ فِي مَقَامِ إِنْكَارِ عَدَمِ خَوْفِهِمْ مِنْ شِرْكِهِمْ ، وَهُوَ قَوْلُهُ (مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا) لِأَنَّ الْحَاجَةَ إِلَى بَيَانِ عَدَمِ وُجُودِ السُّلْطَانِ - أَيِ الدَّلِيلِ - عَلَى هَذَا الشِّرْكِ إِنَّمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي مَقَامِ إِسْنَادِهِ إِلَيْهِمْ وَالتَّعَجُّبِ مِنْ عَدَمِ خَوْفِهِمْ سُوءَ عَاقِبَتِهِ ، مَا لَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي مَقَامِ إِنْكَارِهِ هُوَ كُلَّ حَالٍ يُمْكِنُ أَنْ تُدَّعَى لِخَوْفِهِ مِنْ شُرَكَائِهِمْ ، فَهُوَ يُثْبِتُ بِذَلِكَ الْإِطْلَاقِ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُوجَدَ حَالٌ وَلَا صِفَةٌ لِلْخَوْفِ مِمَّا أَشْرَكُوهُ ، فَلَوْ عَدَلَ عَنْهُ إِلَى تَقْيِيدِ إِنْكَارِهِ بِمَا ذَكَرْتَ لَفَاتَ بِهَذَا الْقَيْدِ ذَلِكَ الْعُمُومُ الْبَلِيغُ ، وَذَهَبَ ذِهْنُ السَّامِعِينَ إِلَى أَنَّهُ سَيَخَافُ إِذَا ظَهَرَ لَهُ دَلِيلٌ عَلَى صِحَّةِ دَعْوَاهُمْ ، وَهُمْ قَوْمٌ مُقَلِّدُونَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ وُجُودِ أَدِلَّةٍ تُثْبِتُ صِحَّةَ اعْتِقَادِهِمْ ، وَإِنْ لَمْ يَعْرِفُوهَا أَوْ يَقْدِرُوا عَلَى بَيَانِهَا لِخَصْمِهِمْ ، وَأَمَّا ذِكْرُ هَذَا الْمُتَعَلِّقِ فِي مَقَامِ الْإِنْكَارِ التَّعَجُّبِيِّ

مِنْ عَدَمِ خَوْفِهِمْ فَهُوَ ضَرُورِيٌّ ، لِأَنَّهُ تَذْكِيرٌ لَهُمْ عِنْدَ ذِكْرِ عَقِيدَتِهِمْ بِأَنَّهُمْ لَا عُذْرَ لَهُمْ بِالْجَهْلِ بِبُطْلَانِهَا لِأَنَّهُ لَا دَلِيلَ لَهُمْ عَلَيْهَا .

*(133/239)*

---

وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ إنَّ قَوْلَهُ : (مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا) قَدْ ذُكِرَ عَلَى طَرِيقِ التَّهَكُّمِ مَعَ الْإِعْلَامِ بِأَنَّ الدِّينَ لَا يُقْبَلُ إلَّا بِالْحُجَّةِ الْمُنَزَّلَةِ أَوْ مُطْلَقِ الْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ ، وَأَنَّ التَّقْلِيدَ لَيْسَ بِعُذْرٍ وَلَا سِيَّمَا تَقْلِيدُ مَنْ لَيْسَ عَلَى هِدَايَةٍ وَلَا عِلْمٍ وَلَا بَصِيرَةٍ وَلَا عَقْلٍ ، وَذَكَرَ الرَّازِيُّ فِي الْعِبَارَةِ وَجْهَيْنِ . أَحَدُهُمَا : أَنَّهَا كِنَايَةٌ عَنِ امْتِنَاعِ وُجُودِ الْحُجَّةِ وَالسُّلْطَانِ عَلَى الشِّرْكِ ، وَالْمَعْنَى مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانَهُ لِأَنَّهُ بَاطِلٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَقُومَ عَلَيْهِ بُرْهَانٌ ، فَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ) 23 : 117 أَيْ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ يَعْلَمُهُ وَلَا بُرْهَانَ يَجْهَلُهُ لِاسْتِحَالَةِ

الْبُرْهَانِ عَلَى الْبَاطِلِ . ثَانِيهِمَا : أَنَّهُ لَا يَمْتَنِعُ عَقْلًا أَنْ يُؤْمَرَ بِاتِّخَاذِ تِلْكَ التَّمَاثِيلِ وَالصُّوَرِ قِبْلَةً لِلدُّعَاءِ وَالصَّلَاةِ . وَأَقُولُ : إنَّ هَذَا الْوَجْهَ لَا مَحَلَّ لَهُ لِأَنَّ جَعْلَهَا قِبْلَةً غَيْرُ جَعْلِهَا شُرَكَاءَ يُخَافُ ضُرُّهَا وَيُرْجَى نَفْعُهَا لِذَاتِهَا أَوْ لِوَسَاطَتِهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَالْقِبْلَةُ لَا تَأْثِيرَ لَهَا فِي نَفْعٍ وَلَا ضُرٍّ لَا بِالذَّاتِ وَلَا بِالشَّفَاعَةِ كَمَا

يَعْتَقِدُونَ فِي الشُّرَكَاءِ ، وَإِنَّمَا يُتَوَجَّهُ إِلَيْهَا امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللهِ ، وَمِثْلُ ذَلِكَ اسْتِلَامُ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ فِي الطَّوَافِ ، فَالِانْتِفَاعُ مَحْصُورٌ فِي طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى بِذَلِكَ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُزَكِّي النَّفْسَ .

*(134/239)*

---

ثُمَّ رَتَّبَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ عَلَى هَذَا الْإِنْكَارِ التَّعَجُّبِيِّ مَا هُوَ نَتِيجَةٌ لَهُ بِقَوْلِهِ : (فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) الْمُرَادُ بِالْفَرِيقَيْنِ فَرِيقُ الْمُوَحِّدِينَ الْحُنَفَاءِ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ اللهَ وَحْدَهُ ، وَيَخَافُونَ وَيَرْجُونَهُ وَلَا يَخَافُونَ وَلَا يَرْجُونَ غَيْرَهُ مِنْ دُونِهِ ، وَإِنَّمَا يُعَارِضُونَ الْأَسْبَابَ بِالْأَسْبَابِ ، وَيُدَافِعُونَ الْأَقْدَارَ بِالْأَقْدَارِ ، كَاتِّقَاءِ أَسْبَابِ الْأَمْرَاضِ قَبْلَ وُقُوعِهَا ، وَمُدَافَعَتِهَا بِالْأَدْوِيَةِ بَعْدَ الِابْتِلَاءِ بِهَا ، وَفَرِيقُ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا تَأْثِيرَ بَعْضِ الْأَسْبَابِ ، فَاتَّخَذُوا مِنْهَا مَا اتَّخَذُوا مِنَ الْآلِهَةِ وَالْأَرْبَابِ ، بَلْ نَسَبُوا إِلَى بَعْضِهَا النَّفْعَ وَالضُّرَّ بِخِدَاعِ الْمُصَادَفَاتِ وَاخْتِرَاعِ الْأَوْهَامِ ، فَهُوَ يَقُولُ لَهُمْ : أَيُّ هَذَيْنِ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ وَأَجْدَرُ بِالْأَمْنِ عَلَى نَفْسِهِ ، مِنْ عَاقِبَةِ عَقِيدَتِهِ وَعِبَادَتِهِ ؟ وَنُكْتَةُ عُدُولِهِ عَنْ قَوْلِ : فَأَيُّنَا أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ، إِلَى قَوْلِهِ : (فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ) هِيَ بَيَانُ أَنَّ هَذِهِ الْمُقَابَلَةَ عَامَّةٌ لِكُلِّ مُوَحِّدٍ وَمُشْرِكٍ ، مِنْ حَيْثُ أَنَّ أَحَدَ الْفَرِيقَيْنِ مُوَحِّدٌ وَالْآخَرَ مُشْرِكٌ ، لَا خَاصَّةَ بِهِ وَبِهِمْ ، فَهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ لِعِلَّةِ الْأَمْنِ . وَقِيلَ : إِنْ نُكْتَتَهُ

الِاحْتِرَازُ عَنْ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ ، وَاسْمُ التَّفْضِيلِ عَلَى غَيْرِ بَابِهِ ، فَالْمُرَادُ أَيُّنَا الْحَقِيقُ بِالْأَمْنِ ، وَلَكِنَّهُ عَبَّرَ بِاسْمِ التَّفْضِيلِ نَاطِقًا فِي اسْتِنْزَالِهِمْ عَنْ مُنْتَهَى الْبَاطِلِ - وَهُوَ

(135/239)

---

ادِّعَاؤُهُمْ أَنَّهُمْ هُمُ الْحَقِيقُونَ بِالْأَمْنِ ، وَأَنَّهُ هُوَ الْحَقِيقُ بِالْخَوْفِ - إلَى الْوَسَطِ النَّظَرِيِّ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ ، وَهُوَ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ ، وَاحْتِرَازًا عَنْ تَنْفِيرِهِمْ مِنَ الْإِصْغَاءِ إلَى قَوْلِهِ كُلِّهِ ثُمَّ قَالَ : (إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) أَيْ أَيُّهُمَا أَحَقُّ بِالْأَمْنِ - أَوْ إنْ كُنْتُمْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْبَصِيرَةِ فِي هَذَا الْأَمْرِ - فَأَخْبِرُونِي بِذَلِكَ ، وَبَيِّنُوهُ بِالدَّلَائِلِ وَهَذَا إلْجَاءٌ إلَى الِاعْتِرَافِ بِالْحَقِّ أَوِ السُّكُوتِ عَلَى الْحَمَاقَةِ وَالْجَهْلِ : وَأَمَّا الْجَوَابُ فَهُوَ قَوْلُهُ الْحَقُّ : (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) فِي هَذَا الْجَوَابِ احْتِمَالَاتٌ (أَحَدُهَا) أَنَّهُ مِنْ قَوْمِ إبْرَاهِيمَ : أَيْ تَذَكَّرُوا لَمَّا ذَكَّرَهُمْ وَرَاجَعُوا عُقُولَهُمْ وَفِطْرَتَهُمْ ، فَاعْتَرَفُوا بِالْحَقِّ كَمَا اعْتَرَفُوا حِينَ كَسَّرَ أَصْنَامَهُمْ مِنْ بَعْدُ ، إذْ قَالَ لَهُمْ : (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ) 21 : 63 - 65 وَقَدْ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ هَذَا الِاحْتِمَالَ

(136/239)

عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ . (الثَّانِي) أَنَّهُ مِنْ قِبَلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ صَرَّحَ بِهِ إِذْ سَكَتُوا عَنِ الْجَوَابِ مُفْحَمِينَ مُبَالَغَةً فِي تَبْكِيتِهِمْ ، وَقَدْ قَالَ الْآلُوسِيُّ : إِنَّ هَذَا رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ وَلَمْ أَرَهُ فِي تَفْسِيرِ ابْنِ جَرِيرٍ وَلَا ابْنِ كَثِيرٍ وَلَا الدُّرِّ الْمَنْثُورِ ، وَلَعَلَّهُ نَقَلَهُ عَنْ بَعْضِ تَفَاسِيرِ الشِّيعَةِ . (الثَّالِثُ) أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَصَلَ بِهِ الْقَضَاءَ بَيْنَ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ حَاجَّهُ مِنْ قَوْمِهِ – رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ إِسْحَاقَ وَابْنِ زَيْدٍ وَاخْتَارَهُ وَقَالَ إِنَّهُ أَوْلَى الْقَوْلَيْنِ بِالصَّوَابِ وَقَدْ يُرَجِّحُهُ فِي اللَّفْظِ عَطْفُ الْآيَةِ التَّالِيَةِ عَلَى هَذِهِ .

*(137/239)*

---

وَالَّذِي نَرَاهُ : أَنَّ الْأَمْنَ فِي هَذَا الْكَلَامِ يُقَابِلُ الْخَوْفَ فِيهِ ، وَهُوَ الْأَمْنُ مِنْ عَذَابِ الرَّبِّ الْمَعْبُودِ لِمَنْ لَا يَرْضَى إِيمَانَهُ وَعِبَادَتَهُ ، فَإِنَّهُمْ خَوَّفُوا إِبْرَاهِيمَ أَنْ تَمَسَّهُ آلِهَتُهُمْ وَأَرْبَابُهُمْ بِسُوءٍ لِجَحْدِهِ إِيَّاهُمْ وَعَدَاوَتِهِ لَهُمْ ، فَأَجَابَ بِأَنَّهُ إِنَّمَا يَخَافُ اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا يَخَافُهُمْ ، وَالظُّلْمُ الَّذِي يُلْبَسُ بِهِ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَيُخَالِطُهُ ، فَيُنْقِصُ مِنْهُ أَوْ يَنْقُضُهُ ، هُوَ الشِّرْكُ فِي الْعَقِيدَةِ أَوِ الْعِبَادَةِ ، كَاتِّخَاذِ وَلِيٍّ مِنْ دُونِ اللَّهِ يُدْعَى مَعَهُ أَوْ مِنْ دُونِهِ وَلَوْ لِأَجْلِ التَّقْرِيبِ إِلَيْهِ وَالشَّفَاعَةِ عِنْدَهُ . وَيُحَبُّ كَحُبِّهِ ، وَيُعَظَّمُ مِنْ جِنْسِ تَعْظِيمِهِ ، لِاعْتِقَادِ أَنَّ لَهُ سُلْطَانًا مِنْ وَرَاءِ الْأَسْبَابِ يَنْفَعُ بِهِ وَيَضُرُّ

بِذَاتِهِ ، أَوْ بِتَأْثِيرِهِ فِي مَشِيئَةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ ، وَلَا يَدْخُلُ فِيهِ الظُّلْمُ الَّذِي لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُلَابِسَ الْإِيمَانَ ، كَظُلْمِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ بِإِتْيَانِ بَعْضِ الْمَضَارِّ ، أَوْ تَرْكِ بَعْضِ الْمَنَافِعِ عَنْ جَهْلٍ أَوْ إِهْمَالٍ أَوْ ظُلْمِ غَيْرِهِ بِبَعْضِ الْأَحْكَامِ أَوِ الْأَعْمَالِ ، وَهَذَا التَّفْسِيرُ لِلظُّلْمِ يُبَيَّنُ بِهِ مَا وَرَدَ تَفْسِيرُهُ بِهِ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ الَّذِي سَنَذْكُرُهُ .

*(138/239)*

---

(فَإِنْ قِيلَ) : إِنَّ الظُّلْمَ فِي الْآيَةِ نَكِرَةٌ فِي حَيِّزِ النَّفْيِ فَهِيَ لِلْعُمُومِ وَالشُّمُولِ ، (قُلْنَا) : إِنْ عُمُومَ كُلِّ شَيْءٍ بِحَسَبِهِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى : (إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) عَامٌّ فِي كُلِّ شَيْءٍ مُمْكِنٍ ، وَلَا يَدْخُلُ فِي عُمُومِهِ ذَاتُ اللهِ تَعَالَى وَصِفَاتُهُ الْوَاجِبَةُ لَهُ فَلَا يُقَالُ إِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِعْدَامِهَا وَلَا عَلَى إِيجَادِهَا وَلَا أَنَّهُ غَيْرُ قَادِرٍ ، وَقَوْلُهُ فِي مَلِكَةِ سَبَأٍ : (وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) 27 : 23 عَامٌّ فِي كُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُلُوكُ ، لَا كُلِّ شَيْءٍ فِي الْوُجُودِ ، فَمَنْ لَمْ يَقْبَلْ جَعْلَ مِثْلِ هَذَا مِنَ الْعَامِّ بِإِطْلَاقٍ ، فَلْيَجْعَلْهُ مِنَ الْعَامِّ الَّذِي أُرِيدَ بِهِ الْخَاصُّ ، وَقَدْ ذُهِلَ الزَّمَخْشَرِيُّ عَنْ كَوْنِ الْإِيمَانِ هُنَا هُوَ الْإِيمَانُ الْمُطْلَقُ الَّذِي أَثْبَتَهُ الْقُرْآنُ لِلْمُشْرِكِينَ لَا الْإِيمَانُ الصَّحِيحُ الْكَامِلُ الَّذِي جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ ، وَلِهَذَا الذُّهُولِ جَزَمَ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِالظُّلْمِ هُنَا الْمَعَاصِي دُونَ الشِّرْكِ لِأَنَّ الشِّرْكَ لَا يُخَالِطُ الْإِيمَانَ الصَّحِيحَ لِأَنَّهُ ضِدُّهُ وَنَقِيضُهُ ، نَقُولُ : نَعَمْ وَلَكِنَّهُ يُخَالِطُ مُطْلَقَ الْإِيمَانِ بِاللهِ

تَعَالَى

وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْمُشْرِكِينَ : (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) 12 : 106

.

(139/239)

---

ثُمَّ لَا يَخْفَى أَنَّ الْأَمْنَ فِي الْآيَةِ مَقْصُورٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ، فَإِذَا حُمِلَ الْعُمُومُ فِيهَا عَلَى إِطْلَاقِهِ وَعَدَمِ مُرَاعَاةِ مَوْضُوعِ الْإِيمَانِ يَكُونُ الْمَعْنَى : الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَخْلِطُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ مَا لِأَنْفُسِهِمْ - لَا فِي إِيمَانِهِمْ وَلَا فِي أَعْمَالِهِمُ الْبَدَنِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ مِنْ دِينِيَّةٍ وَدُنْيَوِيَّةٍ ، وَلَا بِغَيْرِهِمْ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ ، مِنَ الْعُقَلَاءِ وَالْعَجْمَاوَاتِ - أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ تَعَالَى الدِّينِيِّ عَلَى ارْتِكَابِ الْمَعَاصِي وَالْمُنْكَرَاتِ ، وَعِقَابِهِ الدُّنْيَوِيِّ عَلَى عَدَمِ مُرَاعَاةِ سُنَنِهِ فِي رَبْطِ الْأَسْبَابِ بِالْمُسَبَّبَاتِ ، كَالْفَقْرِ وَالْأَسْقَامِ وَالْأَمْرَاضِ ، دُونَ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ أَوْ غَيْرَهُمْ فَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَا أَمَانَ لَهُمْ ، بَلْ كُلُّ ظَالِمٍ عُرْضَةٌ لِلْعِقَابِ وَإِنْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى لِسِعَةِ رَحْمَتِهِ لَا يُعَاقِبُ كُلَّ

(140/239)

ظَالِمٍ عَلَى كُلِّ ظُلْمٍ ، بَلْ يَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ مِنْ ذُنُوبِ الدُّنْيَا ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ فِي الْآخِرَةِ مَا دُونَ الشِّرْكِ بِهِ ، وَهَذَا الْمَعْنَى فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ صَحِيحٌ فِي نَفْسِهِ ، وَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ أَنَّ الْأَمْنَ الْمُطْلَقَ مِنَ الْخَوْفِ مِنْ عِقَابِ اللهِ الدِّينِيِّ وَالدُّنْيَوِيِّ أَوِ الشَّرْعِيِّ وَالْقَدَرِيِّ جَمِيعًا لَا يَصِحُّ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُكَلَّفِينَ ، دَعْ خَوْفَ الْهَيْبَةِ وَالْإِجْلَالِ ، الَّذِي يَمْتَازُ بِهِ أَهْلُ الْكَمَالِ ، وَقَدْ صَحَّ إِسْنَادُ الْخَوْفِ إِلَى الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ) 16 : 5 (وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ) 17 : 57 (وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) 21 : 28 وَهَذَا التَّفْسِيرُ يُؤَيِّدُ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا) عَلَى مَا تَقَدَّمَ ، وَأَمَّا الْأَمْنُ مِنْ عِقَابِ الْآخِرَةِ بِالْفِعْلِ – وَهُوَ النَّجَاةُ مِنْهُ – فَهُوَ ثَابِتٌ لِلْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَلِكَثِيرٍ مِمَّنْ دُونَهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ، وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا كُلٌّ مِنْهُمْ لِيَبْقَى جَامِعًا بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ . وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُؤْمِنُ فَيَمُوتُ قَبْلَ أَنْ يَظْلِمَ أَحَدًا ، وَقَدْ وَرَدَ حَدِيثٌ فِي إِدْخَالِ مِثْلِ هَذَا فِي مَفْهُومِ الْآيَةِ .

*(141/239)*

وَأَمَّا مَعْنَى الْآيَةِ عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ فَهُوَ : الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ تَعَالَى وَلَمْ يَخْلِطُوا إيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ عَظِيمٍ - وَهُوَ الشِّرْكُ بِهِ سُبْحَانَهُ - أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْعِقَابِ الدِّينِيِّ الْمُتَعَلِّقِ بِأَصْلِ الدِّينِ وَهُوَ الْخُلُودُ فِي دَارِ الْعَذَابِ ، وَهُمْ فِيمَا دُونَ ذَلِكَ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ .

وَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ أَنَّهُ قَالَ : نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي إبْرَاهِيمَ وَقَوْمِهِ خَاصَّةً لَيْسَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ . وَلَعَلَّ مُرَادَهُ أَنَّ اللَّهَ خَصَّ إبْرَاهِيمَ وَقَوْمَهُ بِأَمْنٍ مُوَحِّدِهِمْ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ مُطْلَقًا لَا أَمْنَ الْخُلُودِ فِيهِ فَقَطْ ، وَلَعَلَّ سَبَبَ هَذَا إنْ صَحَّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُكَلِّفْ قَوْمَ إبْرَاهِيمَ شَيْئًا غَيْرَ التَّوْحِيدِ اكْتِفَاءً بِتَرْبِيَةِ شَرَائِعِهِمُ الْمَدَنِيَّةِ الشَّدِيدَةِ لَهُمْ فِي الْأَحْوَالِ الشَّخْصِيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ وَغَيْرِهَا . وَقَدْ عَثَرَ الْبَاحِثُونَ عَلَى شَرِيعَةِ حَمُورَابِي الْمَلِكِ الصَّالِحِ الَّذِي كَانَ فِي عَهْدِ إبْرَاهِيمَ - وَقَدْ بَارَكَهُ وَأَخَذَ مِنْهُ الْعُشُورَ كَمَا فِي سِفْرِ التَّكْوِينِ - فَإِذَا هِيَ كَالتَّوْرَاةِ فِي أَكْثَرِ أَحْكَامِهَا ، وَأَمَّا فَرْضُ اللَّهِ الْحَجَّ عَلَى لِسَانِ إبْرَاهِيمَ فَقَدْ كَانَ فِي قَوْمِ وَلَدِهِ إسْمَاعِيلَ لَا فِي قَوْمِهِ الْكَلْدَانِيِّينَ ، وَأَمَّا هَذِهِ الْأُمَّةُ فَإِنَّ مِنْ مُوَحِّدِيهَا مَنْ يُعَذَّبُونَ بِالْمَعَاصِي عَلَى قَدْرِهَا ؛ لِأَنَّهُمْ خُوطِبُوا بِشَرِيعَةٍ كَامِلَةٍ يُحَاسَبُونَ عَلَى إقَامَتِهَا .

*(142/239)*

هَذَا - وَأَمَّا حَصْرُ الْأَمْنِ فِيمَنْ ذُكِرَ عَلَى الْوَجْهَيْنِ فَيُؤْخَذُ مِنْ تَكْرَارِ الْإِسْنَادِ ثَلَاثًا وَتَقْدِيمِ الْمُسْنَدِ عَلَى الْمُسْنَدِ إلَيْهِ الثَّالِثِ ، وَلَوْلَا إرَادَةُ الِاخْتِصَاصِ لَكَانَ الْكَلَامُ هَكَذَا : الْأَمْنُ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ، وَلَوْ قِيلَ : لِلَّذِينَ آمَنُوا الْأَمْنُ لَكَانَ آكَدُ ، وَآكَدُ مِنْهُ أَنْ يُقَالَ : الَّذِينَ آمَنُوا . . . لَهُمُ الْأَمْنُ ، وَآكَدُ مِنْ هَذَا نَصُّ الْآيَةِ ، وَأَمَّا كَوْنُ الْمُرَادِ بِالظُّلْمِ هُنَا الظُّلْمُ الْعَظِيمُ مِنْهُ فَقَدْ يَدُلُّ عَلَيْهِ تَنْكِيرُهُ ; وَأَمَّا جَعْلُ هَذَا الظُّلْمِ الْعَظِيمِ خَاصًّا بِالشِّرْكِ بِاللَّهِ تَعَالَى فَلَا يُعْلَمُ مِنْ نَصِّ الْآيَةِ ، وَلَكِنَّ السِّيَاقَ وَمَوْضُوعَ الْإِيمَانِ قَدْ يَدُلُّ عَلَيْهِ دَلَالَةً غَيْرَ قَطْعِيَّةٍ لُغَةً كَمَا عُلِمَ مِمَّا تَقَدَّمَ ; وَلِذَلِكَ فَهِمَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مِنْهُ الْعُمُومَ الْمُطْلَقَ وَهُمْ مِنْ أَهْلِ اللِّسَانِ ، فَأَخْبَرَهُمُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِمُرَادِ مَنْ أُنْزِلَهُ عَلَيْهِ - بِمَعْنَاهُ الدَّالِّ عَلَى أَنَّهُ مِنَ الْعَامِّ الَّذِي أُرِيدَ بِهِ الْخَاصُّ ، رَوَى أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُمْ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ الْآيَةَ لَمَّا نَزَلَتْ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ وَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ؟ فَقَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " إنَّهُ لَيْسَ الَّذِي تَعْنُونَ أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ (إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) 31 : 13 إنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ "

*(143/239)*

وَرُوِيَ تَفْسِيرُ الظُّلْمِ هُنَا بِالشِّرْكِ عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ وَحُذَيْفَةَ وَسَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ .

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ) قِيلَ : إِنَّ الْإِشَارَةَ إِلَى كُلِّ مَا تَقَدَّمَ فِي هَذَا السِّيَاقِ ، وَقِيلَ : إِلَى الْآيَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْهُ ، وَالْأَوَّلُ أَقْوَى وَأَظْهَرُ وَأَعَمُّ وَأَشْمَلُ ، وَالْمُرَادُ بِالْحُجَّةِ جِنْسُهَا ، لَا فَرْدٌ مِنْ أَفْرَادِهَا ، أَيْ وَتِلْكَ الْحُجَّةُ الَّتِي تَضَمَّنَهَا مَا تَقَدَّمَ

(144/239)

---

مِنَ الْمَقَالِ ، الْبَعِيدَةُ الْمَرْمَى فِي إِثْبَاتِ الْحَقِّ وَتَزْيِيفِ الضَّلَالِ ، هِيَ حِجَّتُنَا الْبَالِغَةُ ، الَّتِي لَا تُنَالُ إِلَّا بِهِدَايَتِنَا السَّابِغَةِ ، أَعْطَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ حُجَّةً عَلَى قَوْمِهِ مُسْتَعْلِيَةً عَلَيْهِمْ ، قَاطِعَةً لِأَلْسِنَتِهِمْ (نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ) الدَّرَجَاتُ فِي الْأَصْلِ مَرَاقِي السُّلَّمِ وَتُوسِّعَ فِيهَا فَصَارَتْ تُطْلَقُ عَلَى الْمَرَاتِبِ الْمَعْنَوِيَّةِ فِي الْخَيْرِ وَالْجَاهِ وَالْعِلْمِ وَالسِّيَادَةِ وَالرِّزْقِ ، وَقَدْ قَرَأَ الْكُوفِيُّونَ دَرَجَاتٍ بِالتَّنْوِينِ ، وَقَرَأَهَا الْبَاقُونَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى مَنْ نَشَاءُ ، وَمَعْنَى الْأَوَّلِ نَرْفَعُ مَنْ شِئْنَا مِنْ عِبَادِنَا دَرَجَاتٍ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى دَرَجَةٍ مِنْهَا ، وَمَعْنَى الثَّانِيَةِ نَرْفَعُ دَرَجَاتِ مَنْ شِئْنَا مِنْ أَصْحَابِ الدَّرَجَاتِ حَتَّى تَكُونَ دَرَجَتُهُ فِي كُلِّ فَضِيلَةٍ وَمَنْقَبَةٍ أَرْفَعَ مِنْ دَرَجَةِ غَيْرِهِ فِيهَا ، وَحِكْمَةُ الْقِرَاءَتَيْنِ ، إِثْبَاتُ الْمَعْنَيَيْنِ ، فَالْعِلْمُ النَّظَرِيُّ دَرَجَةُ كَمَالٍ ، وَالْحِكْمَةُ الْعِلْمِيَّةُ

وَالْعَمَلِيَّةُ دَرَجَتَا كَمَالٍ ، وَفَصْلُ الْخِطَابِ وَقُوَّةُ الْعَارِضَةِ فِي الْحِجَاجِ مِنْ دَرَجَاتِ الْكَمَالِ ، وَالسِّيَادَةِ وَالْحُكْمُ بِالْحَقِّ دَرَجَةُ كَمَالٍ ، وَالنُّبُوَّةُ وَالرِّسَالَةُ أَعْلَى مِنْ كُلِّ هَذِهِ الدَّرَجَاتِ ; لِأَنَّهَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهَا وَتَزِيدُ عَنْهَا ، وَكُلُّ ذَلِكَ مُتَفَاوِتٌ بِفَضْلِ اللَّهِ فَضَّلَ بَعْضَ أَهْلِهِ عَلَى بَعْضٍ ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ يُؤْتِي الدَّرَجَاتِ ابْتِدَاءً بِإِعْدَادِهِ وَبِتَوْفِيقِهِ مَنْ يَشَاءُ لِلْكَسْبِيِّ مِنْهَا ، وَاخْتِصَاصِهِ مَنْ

(145/239)

---

يَشَاءُ بِالْوَهْبِيِّ مِنْهَا ، ثُمَّ هُوَ الَّذِي يَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ يُؤْتِيهِمْ ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ صَاحِبِ الدَّرَجَةِ الْكَسْبِيَّةِ إلَى مَا تَرْتَقِي بِهِ دَرَجَتُهُ ، وَبِصَرْفِ مَوَانِعِ هَذَا الِارْتِقَاءِ عَنْهُ ، وَبِإِيتَاءِ ذِي الدَّرَجَةِ الْوَهْبِيَّةِ (النُّبُوَّةِ) مَا لَمْ يُؤْتَ غَيْرُهُ مِنْ أَهْلِهَا مِنَ الْمَنَاقِبِ وَالْآيَاتِ الْمُنَزَّلِيَّةِ وَالتَّكْوِينِيَّةِ وَكَثْرَةِ إهْدَاءِ الْخَلْقِ بِهَا (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ) 2 : 253 وَجُمْلَةُ (نَرْفَعُ) اسْتِئْنَافِيَّةٌ مَبْنِيَّةٌ أَنَّ مَا آتَى اللَّهُ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنَ الْحُجَّةِ كَانَ بِاخْتِصَاصِهِ بِأَعْلَى دَرَجَاتِ النُّبُوَّةِ الْوَهْبِيَّةِ ، وَمَا تَرَتَّبَ عَلَيْهَا مِنْ دَرَجَاتِ الدَّعْوَةِ الْكَسْبِيَّةِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى بَعْدَ هَذَا : (إنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) تَذْيِيلٌ مُقَرِّرٌ لِمَضْمُونِ مَا قَبْلَهُ مُبَيِّنٌ لِمُنْشِئِهِ وَمُتَعَلِّقِهِ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَقَدْ وَضَعَ فِيهِ اسْمَ الرَّبِّ

مُضَافًا إِلَى ضَمِيرِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، مَوْضِعَ نُونِ الْعَظَمَةِ عَلَى طَرِيقِ الِالْتِفَاتِ ، تَذْكِيرًا مِنْهُ تَعَالَى لِخَاتَمِ رُسُلِهِ بِفَضْلِهِ عَلَيْهِ وَتَفْضِيلِهِ إِيَّاهُ ، بِرَفْعِهِ دَرَجَاتٍ عَلَى جَمِيعِ رُسُلِ اللَّهِ ، فَهُوَ يَقُولُ لَهُ إِنَّ رَبَّكَ الَّذِي رَبَّاكَ وَآوَاكَ ، وَعَلَّمَكَ وَهَدَاكَ ، وَرَفَعَ ذِكْرَكَ بِجُودِهِ وَكَرَمِهِ ، وَجَعَلَكَ خَاتَمَ رُسُلِهِ لِجَمِيعِ خَلْقِهِ ، حَكِيمٌ فِي فِعْلِهِ

(146/239)

---

وَصُنْعِهِ ، عَلِيمٌ بِشُؤُونِ خَلْقِهِ وَسِيَاسَةِ عِبَادِهِ ، وَسَيُرِيكَ شَاهِدَ ذَلِكَ عِيَانًا فِي سِيرَتِكَ مَعَ قَوْمِكَ ، كَمَا أَرَاكَهُ بَيَانًا فِيمَا كَانَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ مَعَ قَوْمِهِ .

(147/239)

---

وَقَدْ زَعَمَ الرَّازِيُّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَعَارِفَ الْأَنْبِيَاءِ بِرَبِّهِمْ اسْتِدْلَالِيَّةٌ لَا ضَرُورِيَّةٌ ، وَإِلَّا لَمَا احْتَاجَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى الِاسْتِدْلَالِ ، وَعَلَى أَنَّهُ لَا طَرِيقَ إِلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا النَّظَرَ وَالِاسْتِدْلَالَ بِأَحْوَالِ الْمَخْلُوقَاتِ ؛ إِذْ لَوْ أَمْكَنَ تَحْصِيلُهَا بِغَيْرِ ذَلِكَ لَمَا عَدَلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ . وَقَدْ عُلِمَ مِمَّا فَسَّرْنَا بِهِ الْآيَاتِ بُطْلَانُ الْحَصْرِ فِي هَذَيْنِ الزَّعْمَيْنِ

وَبُطْلَانُ غَيْرِهِ مِنْ مَزَاعِمِهِ النَّظَرِيَّةِ فِي هَذَا الْمَقَامِ . وَالْحَقُّ أَنَّ مَعْرِفَةَ اللهِ تَعَالَى لَا تَحْصُلُ عَلَى الْوَجْهِ الصَّحِيحِ إِلَّا بِتَعْلِيمِ الْوَحْيِ وَعِلْمُ الْأَنْبِيَاءِ بِهِ ضَرُورِيٌّ لَا نَظَرِيٌّ ، فَقَدْ عَلَّمَهُمْ بِهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ بِنَظَرِهِمْ مِنَ الْمَسَائِلِ ، وَعَلَّمَهُمْ مَا يُثْبِتُونَهَا بِهِ مِنَ الْحُجَجِ الْعَقْلِيَّةِ وَالدَّلَائِلِ ، وَلَكِنْ مِنْ طُرُقِ دَعْوَتِهِمْ إِلَى مَا هَدَاهُمْ إِلَيْهِ ، وَمِنِ اسْتِدْلَالِهِمْ عَلَيْهِ بَعْدَ إِعْلَامِهِمْ بِهِ ، مَا هُوَ كَسْبِيٌّ لَهُمْ يُؤَدُّونَهُ بِنَظَرِهِمْ وَاسْتِدْلَالِهِمْ ، وَقَدِ اطَّلَعْنَا عَلَى نَظَرِيَّاتِ فَلَاسِفَةِ الْيُونَانِ ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْفَلَاسِفَةِ وَعُلَمَاءِ الْكَلَامِ ، فَوَجَدْنَا أَكْثَرَهَا فِي بَابِ الْإِلَهِيَّاتِ أَوْهَامًا ، وَقَدِ اعْتَرَفَ الرَّازِيُّ نَفْسُهُ بِذَلِكَ فِي آخِرِ عُمُرِهِ ، وَنَدِمَ عَلَى مَا فَرَّطَ فِيهِ ، وَلَنَا بَيْتَانِ فِي هَذَا الْمَقَامِ ، قُلْنَاهُمَا فِي أَيَّامِ تَحْصِيلِ عِلْمِ الْكَلَامِ :

(148/239)

---

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الَّذِي هُوَ . . . جَاهِدٌ فِي الْفَلْسَفَهْ .

مَاذَا يَرُوقُكَ مِنْ تَعَلُّـ . . . ـمِهَا وَأَكْثَرُهَا سَفَهْ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 7 صـ 486.444 ﴾

(149/239)

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾

والحجة هي البرهان القائم لإثبات القضية المطلوب إثباتها . وكأن الحق سبحانه وتعالى يريد منا حين نحاجج أن تكون لنا غاية في الحجاج ، ونحن نعلم أن الغاية في الحجاج إن تعدت موضوع الحجاج نفياً أو إثباتاً فهي تهريج ، وينحصر الأمر في أنك تريد الانتصار على خصمك وأن يحاول خصمك الانتصار عليك ، لكن عليك إذا ما دخلت الحجاج أن تجعل الغاية الأصلية هي الأساس ، وكما يقولون تحديد وبيان محل النزاع ؛ لأن الحق لا بد أن يكون أعزّ منك ومن خصمك عندك ، ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى يوضح : إياكم أن تتناظروا في قضية تناظراً جماهيرياً ، لماذا ؟ لأن الصوت الجماهيري يلتبس فيه الحق مع الباطل ، والله سبحانه وتعالى يريد من كل صوت أن يكون محسوباً على صاحبه ، ومثال ذلك عندما يقوم تظاهر كبير ويهتف فيه بسقوط أحد لا يتعرف أحد على من بدأ الهتاف .

والذي جعل العرب يخسرون أنهم حين استقبلوا الدعوة كانوا يعقدون اجتماعات جماهيرية ، ينقدون فيها أقوال رسول الله فتاهت منهم القدرة على الحكم الموضوعي .

ولذلك يقول ربنا : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مثنى وفرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ ﴾ [ سبأ : 46 ] .

أي أن تجتمعوا وفي وجهتكم الله ، ومن عنده قوة فليناقش بالحجة أقوال رسول الله موضوعاً ، وتاريخاً ، ومنطقاً . ولا يمكن أن يجتمع اثنان ليبحثا مسألة وفي بالهما الله فقط - إلا وينتهيان فيها إلى رأي موحد . ولذلك جاء التفاوض السري في العصر الحديث مستمداً من تلك القاعدة الإيمانية .

*(150/239)*

---

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ على قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [ الأنعام : 83 ] .

وأول قوم إبراهيم أبوه آزر ، إنه حاجّهم في الكواكب والقمر والشمس والتماثيل ، وبعد ذلك انتصر بالحجة على كبيرهم وهو الملك أو السلطان ، وهو النمروذ حين أراد أن يناظره في قوة الإحياء والإماتة .

ويريد الحق أن نتعلم من حكمة سيدنا إبراهيم ، إنك إذا رأيت خصمك يدخل فيما لا يمكن أن ينتهي فيه الجدل فانقله إلى المستوى الذي لا يستطيع منه خلاصا ولا فكاكا ، فلا يغلبك

؛ فالملك النمروذ قال له : ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ [ البقرة : 258 ] .

وكان باستطاعة سيدنا إبراهيم أن يقول : أنت لا تميت بل تقتل ، والقتل غير الموت ؛ لأنك تنقض البنية ، لكنه لم يرد أن يطيل الجدل ، وأراد أن يكون الجدل مقتضباً ، ويسقطه على الحجة ويلزمه بها من أقصر طريق ، فقال الله : ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ [ البقرة : 258 ] .

فماذا كانت نتيجة الجدل ؟ يقول الله سبحانه : ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ [ البقرة : 258 ]

.

وكل هذه حجج يوضحها قول الله سبحانه : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [ الأنعام : 83 ]

لقد أعطى الله سبحانه إبراهيم الحجة على قومه ، أي كانت له عليهم درجات وسمو وارتفاع ؛ لأن إقامة الحجة على الغير انتصار ، والانتصار رفع لدرجة موضوعك ، ورفع أيضا لموضوع عملك .

*(151/239)*

وسبحانه لا يشاء إلا عن حكمة ، ولا يشاء إلا عن علم ؛ لأنه إن أطلقنا المشيئة لواحد من البشر فقد يفعل الفعل بدون حكمة وبدون علم ، أما الحق فينبئنا بأن مشيئته هي عن حكمة وعلم لصالح الخلق ؛ لأن مشيئته مبنية لا على هوى ، ولا على نفع من أحد ، فالله سبحانه له كل صفات الكمال والجلال والجمال قبل أن يخلق الخلق .

إن خَلْق الخلق وإيمانهم لا يزيد في ملك الله ، وإن عصوا لا ينقص من ملك الله شيء ، ولكن الحكمة قد تفوت عن بعض الخلق فلا يهتدون إليها ، وسبحانه حين يجري أمراً على خلقه ثم يقبلونه وإن لم يعلموا علته يريهم جل وعلا الحكمة في الفعل الذي كان غير مقبول لهم ؛ لأنه سبحانه خلق الخلق ويعلم أزلاً أن للخلق أهواء ومرادات ، ولو أعطى كل مخلوق مراده لأعطاء على حساب غيره ، والحق سبحانه عادل فلا ينفع واحداً ويتعب الآخر .

والحق بحكمته يعلم ما يصلح أمر خلقه ، فلا يستجيب لدعوة حمقاء من عبد ، فبسحانه يعلم أنه ليس في صالح العبد أن يلبي له هذا الطلب . ولذلك يقول الحق : ﴿ وَيَدْعُ الإنسان بالشر دُعَآءَهُ بالخير وَكَانَ الإنسان عَجُولاً ﴾ [ الإسراء : 11 ] .

إن العبد يقول : يا رب اصنع لي كذا ، يسّر لي هذا الأمر ، وهو خير في عرفه ، وقد يكون هو الشر ؛ لأن الإنسان عجول . لذلك يقول سبحانه : ﴿ سَأُوْرِيكُمْ آيَاتِي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [ الأنبياء : 37 ] .

إن الحق جل وعلا يضبط مرادات الخلق ؛ فالصالح يجريه عليهم .

﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ وكلمة " رب " حينما ترد لا بد أن نفهم منها معنى الخلق والتربية ، وساعة تأتي كلمة " الألوهية " فلنعلم أنها للتكليف ؛ لأن الله هو المعبود المطاع إن أمر أو نهى ، ولكن الرب هو من خلق وربَّى ، وتعهد ، وأعطاك مقومات حياتك . إذن عطاء الربوبية شيء ، وعطاء الألوهية شيء آخر ، وعطاء الربوبية يأخذه المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي ؛ لأن الله هو الذي استدعاهم للوجود ، وجعل الكون مسخراً لهم ، لكن عطاء الألوهية يتمثل في " افعل كذا " و" لا تفعل كذا " ، وهذا يدخل في منطقة الاختيار . فالذي يكفر بالله ويحسن الأخذ بالأسباب يأخذ نتائجها ، ومن يؤمن بالله ولا يحسن الأخذ بالأسباب لا يأخذ النتائج ؛ لأن الاستنباط في الكون من عطاء الربوبية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

ومن فوائد الشيخ المراغى فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (74) ﴾

تفسير المفردات

إبراهيم اسم خليل الرحمن أبي الأنبياء الأكبر من بعد نوح ، وهو العاشر من أولاد سام كما فى سفر التكوين ، ولد فى بلدة (أور) أي النور من بلاد الكلدان ، وهى المعروفة الآن باسم (أورفا) فى ولاية حلب كما يرجح ذلك بعض المؤرخين .

وفى سفر التكوين – إن اللّه تعالى ظهر له فى سن التاسعة والتسعين من عمره وكلمه وجدد عهده له بأن يكثر نسله ويعطيه أرض كنعان (فلسطين) ملكا له وسماه لذريته ا ه .

ومعنى إبراهيم أبو الجمهور العظيم : أي أبو الأمة وهو تبشير من اللّه له بتكثير نسله من ولديه إسماعيل وإسحاق عليهما السلام .

وقد أثبت علماء الآثار أن عرب الجزيرة استعمروا منذ فجر التاريخ بلاد الكلدان ومصر وغلبت لغتهم فيهما .

ونقل بعض المؤرخين أن الملك حمورابى الذي كان معاصر الإبراهيم عليه السلام عربى .

وقد أسكن إبراهيم ابنه إسماعيل مع أمه هاجر المصرية فى الوادي الذي بنيت فيه مكة وأن اللّه سخر لهما جماعة من جرهم سكنوا معهما هناك .

---

وأبو إبراهيم سماه اللّه آزر ، وفى سفر التكوين اسمه تارح ، ومعناه متكاسل ، وقال البخاري فى تاريخه إبراهيم بن آزر وهو فى التوراة تارح واللّه سماه آزر ا ه .

وجزم الضحاك وابن جرير أن اسمه آزر ، والضلال : العدول عن الطريق الموصل إلى الغاية التي يطلبها العاقل من سيره الحسى والمعنوي ، وملك اللّه وملكوته : سلطانه وعظمته ، وجنه الليل وأجنه ستره ، والكوكب والكوكبة : واحد الكواكب ، وهى النجوم ، ربى أي مولاى ومدبر أمرى ، الأفول : غيبوبة الشيء بعد ظهوره ، وبزوغ القمر ابتداء طلوعه ، وتوجيه الوجه للّه تعالى تركه يتوجه إليه وحده فى طلب حاجته وإخلاص عبوديته ، وفطر السموات والأرض : أخرجهما إلى الوجود لا على مثال سابق ، والحنيف : المائل عن الضلال .

الإيضاح

(وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً ؟ ) أي واذكر أيها الرسول لهؤلاء المشركين الذين لقناك فيما سبق الحجج على بطلان شركهم وضلالهم إذ عبدوا ما لا ينفعهم ولا يضرهم - قصص جدهم إبراهيم الذي يبجلونه ويدّعون اتباع ملته حين جادل قومه

وراجعهم فى باطل ما كانوا يعملون ، إذ قال لأبيه آزر منكرا عليه وعلى قومه شركهم وعائبا عليه عبادته الأصنام دون بارئه وخالقه ، يا آزر أ تتخذ أصناما آلهة تعبدها من دون اللّه الذي خلقك وخلقها ؟ فهو المستحق للعبادة دونها .

(إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) أي إنى أراك وقومك الذين يعبدون هذه الأصنام مثلك ، فى ضلال عن الصراط المستقيم ، مبين لا شبهة فيه للهدى ، فإن هذه الأصنام تماثيل تنحتونها من الحجارة أو تقطعونها من الخشب ، أو تصنعونها من المعادن ، فأنتم أرفع منها قدرا وأعز جانبا ، ولم تكن آلهة بذاتها بل باتخاذكم إياها ولا يليق

*(155/239)*

---

بالعاقل أن يعبد ما هو مساو له فى الخلق ، ولا ما هو مقهور بتصرف الخالق فيه ، ومحتاج إلى الغنى القادر ، ولا يقدر على نفع ولا ضر ، ولا إعطاء ولا منع .

والتعبير بالضلال البين بيان لما حدث منهم بما تدل عليه اللغة كقوله تعالى لخاتم أنبيائه : « وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى » وقولك لمن تراه منحرفا عن الطريق الذي يسلكه :

إن الطريق من هنا فأنت حائد أو ضالّ عنه .

وقد دلت آثار الكشف الحديث فى العراق على صدق ما عرف فى التاريخ من عبادة

أولئك القوم للأصنام الكثيرة حتى كان لكل منهم صم للعبادة خاص به ، سواء فى ذلك الملوك والسّوقة ، وكانوا يعبدون الفلك والنّيّرات من الكواكب عامة والدراري السبع خاصة .

(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ) أي وكما أرينا إبراهيم الحق فى أمر أبيه وقومه ، وهو أنهم كانوا فى ضلال مبين فى عبادتهم للأصنام والأوثان .

كذلك أريناه مرة بعد مرة ملكوت السموات والأرض . أي خلقهما بما فيهما من بديع النظام وغريب الصنع ، فأريناه تلك الكواكب التي تدور فى أفلاكها على وضع لا تعدوه ، وأريناه الأرض وما فى طبقاتها المختلفة من أصناف المعادن النافعة للإنسان فى معاشه إذا هو استخدمها على الوجه الصحيح الذي أرشدناه إليه ، وجلّينا له بواطن أمورها وظواهرها ، وهذه إلى وجوه الحجة فيها مما يدل على وحدانيتنا وعظيم قدرتنا وإحاطة علمنا بكل شىء (وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) أي نريه ذلك ليعرف سنننا فى خلقنا ، وحكمنا فى تدبير ملكنا ، وآياتنا الدالة على ربوبيتنا ، ليقيم بها الحجة على المشركين الضالين ، وليكون فى خاصة نفسه من زمرة الراسخين فى الإيقان البالغين عين اليقين .

ثم فصل سبحانه ما أجمله من رؤية ملكوت السموات والأرض فقال :

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً ) أي إنه تعالى لما بدأ يريه ملكوت السموات والأرض ، كان من أول أمره فى ذلك أنه لما أظلم عليه الليل وستر عنه ما حوله من عالم الأرض نظر فى ملكوت السموات فرأى كوكبا عظيما ممتازا عن سائر الكواكب بإشراقه وبريقه ولمعانه ، وهو : (كوكب المشترى) الذي هو أعظم آلهة بعض عبّاد الكواكب من قدماء اليونان والرومان ، وكان قوم إبراهيم أئمتهم فى هذه العبادة وهم لهم مقتدون – فلما رآه .

(قالَ هذا رَبِّي) أي قال هذا فى مقام المناظرة والحجاج لقومه تمهيدا للإنكار عليهم فحكى مقالتهم أوّلا ليستدرجهم إلى سماع حجته على بطلانها ، فأوهمهم أولا أنه موافق لهم على زعمهم ، ثم كرّ عليه بالنقض بانيا دليله على الحس والعقل .

(فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ) أي فلما غرب هذا الكوكب واحتجب قال لا أحب ما يغيب ويحتجب ، إذ من كان سليم الفطرة لا يختار لنفسه حب شىء يغيب عنه ويوحشه فقده فما بالك بحب العبادة الذي هو أعلى أنواع الحب وأكمله ، لأنه قد هدت إليه الفطرة وأرشد إليه العقل السليم ، فلا ينبغى أن يكون إلا للرب الحاضر القريب ، السميع البصير الرقيب ، الذي لا يغيب ولا يغفل ، ولا ينسى ولا يذهل ، الظاهر فى كل شىء بآياته : وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحد

والباطن فى كل شىء بحكمته ولطفه الخفي : « لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وَهُوَ

اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ »

وقد جاء فى الحديث فى وصف الإحسان « أن تعبد اللّه كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

والخلاصة – إن فى هذا تعريضا بجهل قومه فى عبادة الكواكب ، إذ يعبدون ما يحتجب عنهم ولا يدرى شيئا من أمر عبادتهم وهذا قريب من قوله لأبيه :

« لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً » .

*(157/239)*

---

وقد احتج إبراهيم بالأفول دون البزوغ وكلاهما انتقال من حال إلى حال ، لأن الأفول انتقال مع خفاء واحتجاب وهو مما ينافى الربوبية .

(فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي) أي فلما رأى القمر طالعا من وراء الأفق أول طلوعه قال هذا ربى على طريق الحكاية لما كانوا يقولون تمهيدا لإبطاله كما علمت فيما سلف .

والمتبادر من سياق الكلام أن إبراهيم رأى الكوكب فى ليلة ورأى القمر فى الليلة التالية .

(فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ) أي فلما أفل القمر كما أفل الكوكب وهو أكبر منه منظرا وأسطع نورا وأقوى منه ضياء قال مسمعا من حوله من قومه : لئن لم

يهدنى ربي ويوفقنى لإصابة الحق فى توحيده لأكونن من القوم الضالين الذين أخطئوا الحق فى ذلك فلم يصيبوا الهدى وعبدوا غير الله واتبعوا أهواءهم ولم يعملوا بما يرضيه سبحانه .

وفى هذا تعريض يقرب من التصريح بضلال قومه ، وإرشاد إلى توقف هداية الدين على الوحى الإلهى ، وقد ترقى فى هذا التعريض ، لأن الخصوم قامت عليهم الحجة بالاستدلال الأول فأنسوا بالقدح فى معتقدهم ، فما عرّض صلوات الله عليه بضلالهم إلا بعد أن وثق بإصغائهم إلى إتمام المقصود واستماعه إلى آخره ، وقد انتقل فى المرة الثالثة من التعريض إلى التصريح بالبراءة منهم والتصريح بأنهم على شرك بيّن بعد أن تبلّج الحق وظهر غاية الظهور ، وذلك قوله :

(فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي) أي قال مشيرا إليها : هذا الذي أرى الآن هو ربى (هَذَا أَكْبَرُ) أي من الكواكب والقمر ، وفى هذا مبالغة فى المجاراة لهم وتمهيد لإقامة الحجة عليهم واستدراج لهم إلى التمادي فى الاستماع بعد ذلك التعريض الذي كان يخشى أن يصدّهم عنه .

والخلاصة – أن هذا الطالع أكبر من الكواكب والقمر قدرا وأعظم ضياء ونورا فهو أجدر منهما بالربوبية .

(فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) أي فلما أفلت كما أفل غيرها واحتجب ضوء المشرق وكانت الوحشة بذلك أشد من الوحشة باحتجاب الكوكب والقمر صرّح بما أراد بعد ذلك التعريض الذي تقدم متبرئا من شرك قومه وتنحّى عنه لقبحه بعد أن جاراهم عليه أولا استمالة لهم وإصغاء إلى ما يقول .

والخلاصة – إنه حاور وداور ، وتلطف فى القول ، وأرخى لخصمه العنان ، حتى وصل إلى ما أراد بألطف وجه وأحسن طريق ، متبرئا من تلك المعبودات التي جعلوها أربابا وآلهة مع اللّه .

وبعد أن تبرّأ من شركهم قفّى تلك البراءة ببيان عقيدته عقيدة التوحيد الخالص فقال : (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) أي إنى جعلت توجهى فى عبادتى لمن خلق السموات والأرض وأكمل خلقهن أطوارا فى ستة أيام ، فهو خالق هذه الكواكب النيرات وخالقكم وما تصنعون منه هذه الأصنام من معدن ونبات .

وفى معنى الآية قوله : « وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً » وقوله « وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ

الْوُثْقى » .

وإسلام الوجه له تعالى توجّه القلب إليه وعبر عنه به لأن الوجه أعظم مظهر لما فى النفس من الإقبال أو الإعراض ، والسرور أو الكآبة ، إلى نحو أولئك . وتوجيهه له جعله يتوجه إليه وحده ، فى طلب حاجته وإخلاص عبوديته ، إذ هو المستحق للعبادة ، القادر على الأجر والثواب .

والخلاصة – إن إبراهيم تبرأ أولا من شركهم أو شركائهم ثم تبرأ منهم أنفسهم .

*(159/239)*

---

ونحو الآية قوله تعالى : « قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ » .

روى ابن جرير عن ابن زيد أن قوم إبراهيم قالوا حين قال إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض : ما جئت بشىء ونحن نعبده ونتوجه إليه ، فرد عليهم بأنه حنيف أي مخلص له لا يشرك به كما يشركون ا ه .

يريد أنه مائل عن معبوداتهم الباطلة وعن غيرها ، فتوجهه وإسلامه خالص ، لا يشوبه شرك ولا رياء ، وما هو من المشركين به الذين يتوجهون إلى غيره من المخلوقات كالكواكب

أو الملائكة أو الملوك أو الصالحين أو ما يتخذ لهم من الأصنام والتماثيل .

وظاهر ما حكاه اللّه عن إبراهيم صلى اللّه عليه وسلم أن قومه كانوا يتخذون الأصنام آلهة لا أربابا ويتخذون الكواكب أربابا آلهة ، والإله هو المعبود وكل من عبد شيئا فقد اتخذه إلها ، والرب : هو السيد المالك المربّى المدبر المتصرف ، وليس للخلق رب ولا إله إلا اللّه الذي خلقهم ، فهو المالك لكل شيء وفى كل زمن وعلى كل حال ، وملك غيره ناقص موقوت فهو المعبود بحق ، والعبادة : هى التوجه بالدعاء والتعظيم القولى أو العملي إلى ذى السلطان الأعلى خالق الخلق والموجد له والمتصرف فيه .

والأصل فى اختراع عبادة غير اللّه من حجر أو شجر أو شمس أو قمر أمران :

(1) إن بعض ضعاف الأحلام رأوا بعض مظاهر قدرته تعالى فى بعض خلقه ، فتوهموا أن ذلك ذاتى لهذا المخلوق ليس خاضعا لسنن اللّه فى الأسباب والمسببات .

(2) اتخاذ بعض المخلوقات ذات الخصوصية فى مظاهر النفع والضر وسيلة إلى الإله الحق تشفع عنده وتقرب إليه كل من توجه إليها ، فيتوسل ذو الحاجة إليها بدعائها وتعظيمها بالقول أو الفعل لحمله تعالى بتأثيرها على قبوله وإعطائه سؤله .

*(160/239)*

وقد أقاموا مقام هذه المخلوقات : التماثيل والأصنام والقبور وغيرها مما يذكّر بها ، وهذه هى الوثنية الراقية التي كانت عليها العرب زمن البعثة ، ومن ثم كانوا يقولون فى طوافهم بالبيت الحرام : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك .

وكان قوم إبراهيم صلى اللّه عليه وسلم قد ارتقوا فى وثنيتهم إلى هذه المرتبة ، إذ أنهم عقلوا أن الأصنام لا تسمع دعاءهم ولا تبصر عبادتهم ولا تقدر على نفعهم وضرهم ، وإنما قلدوا فيها آباءهم كما سيأتى فى حججهم فى سورة الشعراء ، ومن ثم اتخذوا الأصنام آلهة معبودين لا أربابا مدبرين ، لكنهم اتخذوا الكواكب أربابا لما لها من التأثير السببى فى الأرض ، فكانوا يعتقدون أن الشمس رب الناس ، والقمر يدبّر الملوك ويفيض عليهم روح الشجاعة والإقدام وينصر جندهم ويخذل عدوهم ، ويعتقدون أن (مرداخ) وهو المشترى شيخ الأرباب ورب العدل والأحكام وحافظ الأبواب التي يدخلها الخصوم لفصل الخصومات ، وأن (رنكال) وهو المريخ رب الصيد وسلطان الحرب ، وأن (عشتار) وهى الزّهرة ربة الغبطة والسرور والسعادة وتمثل بصورة امرأة عارية ، وأن (نيو) وهو عطارد رب العلم والحكمة .

وجاء إبراهيم بحجته البالغة ، فحصر العبادة فى فاطر السموات والأرض وحده دون غيره من الوسائل فقال فى تماثيلهم : « بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا

عَلى ذِلكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ» .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 80 الى 83]

(161/239)

---

وَحاجَّهُ قَوْمُهُ قالَ أَتُحاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدانِ وَلا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (80) وَكَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82) وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83)

تفسير المفردات

المحاجة : المجادلة والمغالبة فى إقامة الحجة ، والحجة تطلق تارة على الدلالة المبينة للمقصد ، وتارة على ما يدلى به أحد الخصمين فى إثبات دعواه أو رد دعوى خصمه ، وهى بهذا الاعتبار تنقسم إلى حجة دامغة يثبت بها الحق ، وإلى حجة داحضة يموّه بها الباطل ، وقد اصطلحوا على تسمية مثل هذه شبهة ، والسلطان : الحجة والبرهان ، لم

يلبسوا : لم يخلطوا ، والظلم هنا هو الشرك فى العقيدة أو العبادة كاتخاذ ولى من دون اللّه يدعى معه أو من دونه .

الإيضاح

(162/239)

---

(وَحاجَّهُ قَوْمُهُ) أي وجادله قومه فى أمر التوحيد ، فهو حين أبان لهم بطلان عبادة الأصنام وربوبية الكواكب ، وأثبت لهم وحدانية اللّه تعالى ووجوب عبادته وحده ، حاجوه ببيان أوهامهم فى شركهم ، إذ قالوا إن اتخاذ الآلهة لا ينافى الإيمان باللّه الفاطر للسموات والأرض ، لأنهم شفعاء عنده ، ولما لم يجد ذلك معه خوّفوه أن تمسه آلهتهم بسوء ، وانتهت بهم خاتمة المطاف أن قالوا : إنهم ساروا على ما وجدوا عليه آباءهم ، وليس للمقلد أن يحتج ولكنه يجادل ويحاج مع كونه لا يخضع للحجة إذا قامت عليه ، وكثيرا ما يضطرب المقلد لسماع الحجة ، إذ يومض فى قلبه نورها ثم يعود إلى سابق وهمه خائفا مما لا يخيف ، راجيا ما لا يرجى ، كما يشاهد لدى زائرى قبور الصالحين والأولياء الذين يتوهمون أن هذه القبور تدفع عن زائرها الضر وتكشف عنه السوء وتدرّ عليه الرزق وتكبت العدو ، إما بتصرفهم فى الخلق وإما لأنهم قربان عند الرب ولا يرون شيئا من هذا ناقضا للإيمان

الصحيح ، وفى مثلهم يقول اللّه عز اسمه « وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ » .

(قالَ أَتُحاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدانِ ؟ ) أي أتجادلونني فى شأن اللّه وما يجب فى الإيمان به ، قد فضلنى عليكم بما هدانى إلى التوحيد الخالص وبما بصّرنى به من الحجة التي أقمتها عليكم ، وأنتم الضالون بإصراركم على شرككم وتقليدكم فيه من قبلكم ؟ .

(وَلا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ) أي ولا أرهب من آلهتكم التي تدعونها من دون اللّه سوءا ينالنى فى نفسى ، ذلك أنى أعتقد أنها لا تضر ولا تنفع ، ولا تبصر ولا تسمع ، ولا تقرّب ولا تشفع .

*(163/239)*

---

(إِلَّا أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً)

أي لا أخاف ما تشركون به فى وقت من الأوقات إلا وقت مشيئته تعالى إصابة مكروه لى من جهتها ، فإنه يقع لا محالة كما شاء ربى ، فإن شاء أن يسقط علىّ صنم يشجّنى ، أو كسف من شهب الكواكب يقتلنى ، فإن ذلك يقع بقدرة ربى ومشيئته لا بمشيئة الصنم أو الكواكب ولا بقدرته ولا بتأثيره فى قدرته تعالى وإرادته ولا بجاهه عنده وشفاعته ، إذ لا تأثير لشىء من المخلوقات فى مشيئة اللّه الجارية إلا بما يثبت فى علمه الأزلى .

ثم أتى بما هو كالعلة لما قبله فقال :

(وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً) أي أحاط بكل شيء علما ، فلا يبعد أن يكون فى علمه سبحانه إنزال المكروه بي من جهتها بسبب من الأسباب .

(أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ؟ ) أي أ تعرضون بعد ما أوضحته لكم عن التأمل فى أن آلهتكم ليس بيدها نفع ولا ضر ، فلا تتذكرون أيها الغافلون أنها غير قادرة على ضرّى ولا على إيصال النفع إليكم ، فالسلطة العليا له وحده ليس لغيره تأثير فيها ولا تدبير ، فإذا أعطى بعض المخلوقات شيئا من النفع أو الضر فلا يكون ذلك داعيا لرفعها عن رتبة المخلوقات ، وجعلها أربابا ومعبودات .

وكان يجب أن يفطن لذلك العقلاء ويتذكروه ، لأنه تذكير بما يدركه العقل بالبرهان ، ويهدى إليه الوجدان .

ومما يجب أن يتنبه له كثير من الذين ينتمون إلى ملة التوحيد أن هذا الضرب من الشرك الذي نعاه إبراهيم على قومه – لا يزال فاشيا بينهم فهم يعتقدون فى بعض المخلوقات من أحياء وأموات أن لهم تصرفا غيبيا ، فما يقع عقب زيارتهم لهم من زوال مكروه أو نفع يصل إلى محبوب إنما كان بدعائهم ، والواقع أن ذلك بتقدير السميع العليم ، وليس لغيره فى ذلك تأثير لا جلىّ ولا خفىّ .

وبعد أن أبان لهم أنه لا يخاف شركاءهم بل يخاف اللّه وحده ، تعجب من تخويفهم إياه ما لا يخيف ، وعدم خوفهم مما يجب أن يخاف منه قال :

(164/239)

---

(وَكَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً) أي وكيف أخاف ما أشركتموه بربكم من خلقه فجعلتموه ندّا له ينفع ويضر - ولا تخافون إشراككم باللّه خالقكم ما لم ينزل به حجة بيّنة بوحي ولا نظر عقل تثبت لكم جعله شريكا فى الخلق والتدبير أو فى الوساطة والشفاعة ، فافتياتكم على خالقكم بهذه الدعوى هو الذي يجب أن يخاف ويتقى .

والخلاصة - إن ما يدّعى لصحة هذا الخوف باطل ، وأنه عليه السلام لم يجد هذا الخوف وجها ، فلا يخاف الشركاء لذواتهم ، ولا لما يزعمون من وساطتهم عند اللّه وشفاعتهم ، ولا لقدرة على الضر والنفع قد تدّعى لهم .

وقوله ما لم ينزل به عليكم سلطانا - مذكور على طريق التهكم ، مع الإعلام بأن الدين لا يقبل إلا بالحجة والبرهان ، والتقليد ليس بعذر ولا سيما تقليد من ليس على هداية ولا علم ولا بصيرة واللّه لم ينزل بما ادعيتموه سلطانا لأنه باطل فلا سلطان عليه ولا دليل .

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ) الفريقان : فريق الموحدين الذين يعبدون اللّه وحده ويخافونه ويرجونه دون غيره ، وفريق المشركين الذين استكبروا تأثير بعض الأسباب فاتخذوا ما اتخذوا من الآلهة والأرباب ، ونسبوا إلى بعضها النفع والضر كالشمس والقمر والملائكة – أي فأى هذين الفريقين أحق وأجدر بالأمن على نفسه من عاقبة عقيدته وعبادته .

ونكتة التعبير (بأى الفريقين) دون أن يقول فأينا أحق بالأمن – الإشارة إلى أن هذه المقابلة عامة لكل موحد ومشرك لا خاصة به وبهم ، والبعد عن التصريح بخطئهم الذي ربما يدعو إلى اللجاج والعناد ، والاحتراس من تنفيرهم من الإصغاء إلى قوله :

*(165/239)*

---

(إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) أي إن كنتم من أهل العلم والبصيرة فى هذا الأمر فأخبرونى بذاك وبينوه بالأدلة – وفى هذا إلجاء لهم إلى الاعتراف بالحق أو السكوت على الحمق والجهل .

ثم بين سبحانه الحقيق بالأمن على سبيل التفصيل فقال :

(الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) المراد بالظلم الذي يلبس به المرء إيمانه باللّه ويخلطه به فينقص منه أو ينقصه هو الشرك فى العقيدة أو العبادة كاتخاذ ولى من دون اللّه يدعى معه أو من دونه ، فيعظّم كتعظيمه ويحبّ كحبه ، للاعتقاد أن له

نفعا أو ضرا بذاته أو بتأثيره فى مشيئة اللّه وقدرته ، لا ظلم الإنسان نفسه بفعل بعض المضارّ أو ترك بعض المنافع عن جهل أو إهمال ، ولا ظلمه لغيره ببعض التصرفات والأحكام ، يدل على هذا التفسير ما

رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وغيرهم من حديث ابن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية شق ذلك على الناس وقالوا يا رسول اللّه وأينا لا يظلم نفسه ؟ فقال صلى اللّه عليه وسلم : إنه ليس الذي تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح « يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ »

إنما هو الشرك . والمراد بالأمن الأمن من عذاب اللّه الذي يحل بمن لا يرضى إيمانه ولا عبادته .

أي إن الذين آمنوا باللّه تعالى ولم يخلطوا إيمانهم بظلم عظيم وهو الشرك به سبحانه وتعالى ، أولئك لهم الأمن دون غيرهم من الخلود فى دار العذاب ، وهم فيما وراء ذلك بين الخوف والرجاء .

وهذا جواب من اللّه به فصل القضاء بين إبراهيم ومن حاجّه من قومه كما اختاره بن جرير ونقله عن ابن إسحاق وابن زيد من المفسرين .

(وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ) أي وتلك الحجة الدامغة التي تضمنها البيان السالف ، المثبتة للحق ، المزيّفة للباطل ، هى الحجة التي أرشدنا إليها إبراهيم وأعطيناها إياه ليلزم قومه ويقنعهم بها .

(نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ) أي إننا نرفع من شئنا من عبادنا درجات بعد أن لم يكونوا على درجة منها ، فالعلم درجة كمال ، والحكمة درجة كمال ، وقوة العارضة فى الحجاج درجة كمال ، والسيادة والحكم بالحق كذلك ، والنبوة والرسالة أعلى كل هذه الدرجات ، لأنها تشتمل عليها وتزيد .

واللّه يرفع درجات من يؤتيهم ذلك بتوفيق صاحب الدرجة الكسبية إلى ما به ترتقى درجته ، ويصرف موانع هذا الارتقاء عنه ، ويؤتى ذا الدرجة الوهبية (النبوة) ما لم يؤت غيره من أهل المناقب والآيات « تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ » .

(إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) أي إن ربك الذي رباك وعلمك وهداك وجعلك خاتم رسله لجميع خلقه ، حكيم فى قوله ، عليم بشئونهم ، وسيريك ذلك عيانا فى سيرتك مع قومك كما أراكه بيانا فيما حدّث عن إبراهيم مع قومه وتأسّ فى نفسك وقومك المكذبين بأبيك واصبر على ما ينوبك منهم كما صبر .

واعلم أن معرفة اللّه تعالى لا تحصل على الوجه الصحيح إلا بتعميم الوحى ، وعلم الأنبياء به ضرورى لا نظرى فقد علّمهم به ما لم يكونوا يعلمون من الحجج العقلية والدلائل النقلية إلى نحو ذلك مما هداهم إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 7 صـ 167 .

179 ﴾

*(167/239)*

---

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (74) ﴾

التفسير : فى هذه الآيات أمور :

أولا : صلتها بالآيات التي قبلها .

فهنا قضية ، يعرض فيها موقف الإنسان من الإيمان باللّه ، وأن النّاس ليسوا سواء فى الانتفاع بما أودع الخالق فيهم من قوى العقل والإدراك ، للتهدّى إلى الخالق والبحث عنه ، والإيمان به . .

وهناك فى الآيات السابقة مواقف للمشركين من الدعوة الإسلامية ، وتأبّيهم عليها ،

وإعراضهم عنها ، بعد أن جاءتهم بآياتها المشرقة ، وأقامت بين أيديهم شواهد ناطقة تشهد بوجود اللّه ، وتوقظ قلوبهم النائمة ، وتنبه عقولهم الغافلة ، إلى النظر إليه فى ضوء تلك الآيات البينات . .

فما أبعد الشّقة بين الموقفين ، وما أشد التباين بين الحالين ! وهنا إبراهيم ، الذي هو الأب الأكبر لهؤلاء المشركين من قريش ، والذين يدّعون - كذبا - أنهم على دينه ، يطوفون بالبيت الذي طاف به ، ويعبدون الإله عبده أبوهم الأول ، إبراهيم عليه السلام .

*(168/239)*

---

وهناك هؤلاء المشركون من أبناء إبراهيم ، وتلك أصنامهم التي شوّهوا بها معالم البيت العتيق ، وأفسدوا بها الدّين الحنيف ، الذي عبد اللّه عليه فى هذا البيت ، الذي لا يزال قائما يشهد هذا السفه الذي هم فيه .

وهنا داع يدعو إلى اللّه ، هو إبراهيم عليه السلام ، ويقف من الأصنام وعبّادها هذا الموقف الذي تتهاوى فيه الأصنام ، حين يفضحها بمنطقه ، قولا ، وعملا .

وهناك داع يدعو إلى اللّه ، بدعوة إبراهيم ، هو محمد ، صلوات اللّه وسلامه عليه ، ويقف من تلك الأصنام وقفة إبراهيم ، فيفضحها ويكشف ضعفها وعجزها ، ثم يدعها لتدفن

فى غياهب الضّياع.

ثانيا : «آزر» . . ومن يكون هذا الإنسان ؟ .

القرآن الكريم يقول : « وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ » .

ولكن المفسّرين يذهبون فى هذا الأب مذاهب شتّى .

*(169/239)*

---

فمن قائل : إن اسمه « تارح» ومن قائل : إن آزر اسم جدّه ، أو عمّه ، والعمّ والجدّ يسميان أبا مجازا ! ! وذهب بعضهم أن «آزر» اسم صنم ، وهذا القول ينسب إلى ابن عباس ، وقد فسّره الزمخشري : أتعبد آزر ! منكرا عليه ذلك ! (أي أن إبراهيم ينكر على أبيه أن يعبد هذا الصنم آزر) .

وذهب آخرون إلى أنه وصف فى لغة قومه ، ومعناه المخطئ ، وقيل بل معناه : الأعوج.

وقيل معنى «آزر» الشيخ الهرم.

ويقول الزجاج : ليس بين النسّابين اختلاف أن اسم أبى إبراهيم « تارح» ! والذي دعا المفسرين إلى تلك المقولات ، هو ما جاء فى التوراة من نسبة إبراهيم إلى أبيه الذي تسميه التوراة « تارحا » وقد اعتمد المفسرون هذه النسبة وأخذوا بها ، وتأولوا لها ما جاء فى

القرآن . . ولم تحدثهم أنفسهم بأن يتأولوا هذه النسبة التي جاءت فى التوراة كما تأولوها فى القرآن . . ولم تحدثهم أنفسهم بأن فى التوراة تحريفا وتبديلا تناول كل شىء ، حتى العقيدة . . !

والذي ينبغى أن يكون عليه الأمر فى هذا الموقف ، هو الوقوف عند ما جاء به القرآن الكريم ، الذي يقول اللّه سبحانه وتعالى فيه : « وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ » (48 المائدة) فالقرآن هو الذي يهيمن على ما سبقه من كتب ، ولا تهيمن عليه ، ويقضى عليها ، ولا تقضى عليه . .

وقد جاء القرآن الكريم فى الحديث عن إبراهيم منسوبا إلى أبيه ، باسم هذا الأب ، وهو « آزر » : هكذا : « وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ » . فكيف يجوز لقائل أن يقول فى هذه النسبة ، وفى مسمى هذا الاسم قولا ؟ إنه أبو إبراهيم بلا شك ، وإنّ اسمه « آزر » بلا ريب . . هكذا قال القرآن ، وهكذا يجب أن نقول .

*(170/239)*

---

وليس هذا فحسب ، فإن القرآن قد ذكر مواقف بين إبراهيم وأبيه هذا ، فقال تعالى : « وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَلا

يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً » (41.42 مريم) .

وقال سبحان على لسان إبراهيم : « وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ » وقال جلّ شأنه : « وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ » (114 : التوبة) فالجدل والحوار كان دائما بين إبراهيم وأبيه ، وفى مواجهته ، وليس مع جده ، أو مع صنم ! وقد أثرنا هذه المسألة ، لأنها تمس الصميم من القرآن الكريم ، وتنبىء عن مدى صدقه ، وأنه تنزيل من العالمين ، كما يقول هو عن نفسه ، أو أنه من عمل « محمد » ومن تلقياته التي أخذها من أهل الكتاب وغيرهم ، كما يتخرص المتخرصون .

وهنا اختبار عملى لهذه القضية ، ومقطع من مقاطع القول فيها . .

فإما أن يكون آرز هو الاسم المعروف به أبو إبراهيم ، وفى ذلك حكم قاطع بأن القرآن هو كلام اللّه ، يقول الحق ، ويأتى بأنباء الغيب ، وإما ألا يكون « آزر » على غير هذا الوصف ، فيكون القرآن كما يقول فيه المكذبون به ، والكائدون له . .

وهذا أمر يمكن أن يحقّق تاريخيا . . ولا أحسب أن اليهود تركوا هذه المسألة دون أن يحققوها ، ولا أن المتربصين بالقرآن غفلوا عن هذا الخلاف الذي بينه وبين التوراة . . ولو أنهم وجدوا فى هذا مطعنا على القرآن لكان ذلك من أقوى حججهم عليه . وطعناتهم له ، الأمر الذي لم يقله اليهود ، الذين لم يتركوا قولا يقولونه فيه . ويفترونه عليه ، ولم يقله أحد من

غير اليهود ، الذين رصدوا للقرآن ، وجعلوا يتصيدون كل سانحة من وهم أو خيال تسنح لهم فيه . .

*(171/239)*

---

ثالثا : الطريق سلكه إبراهيم فى التعرف على اللّه . .

وهو الطريق الاستدلالي بالنظر فى ملكوت السموات والأرض . . وهو نفس الطريق الذي جاءت الرسالة الإسلامية به ، فى دعوتها إلى التعرف على اللّه والإيمان به . .

وقد سلك القرآن المنهج نفسه ، الذي تعرف به إبراهيم على اللّه ، فى دعوة المشركين إلى التعرف عليه . .

فكان أول ما لفت القرآن نظر المشركين إليه ، هو النظر إلى آلهتهم تلك التي يعبدونها ، من أصنام وأوثان ، وأن يعيدوا النظر إليها مرة بعد مرة ، ليروا إن كانت تدفع عن نفسها ضرا ، أو إن كانت تسمع أو تعقل ما يناجيها به العابدون لها ، أو تستجيب لما يرجى منها من دفع ضر أو جلب خير . . !

وفى هذا يقول اللّه تعالى على لسان نبيه الكريم مخاطبا المشركين : « وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً وَلا يَسْتَطِيعُونَ » (73 : النحل) ويقول

سبحانه : « وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً » (22 : العنكبوت) ويقول سبحانه على لسان المشركين : « ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى » (3 : الزمر)

وهكذا يلقاهم القرآن فى كل سبيل مع هذه الآلهة ، حتى ينفضح أمرها لهم ، وتزول مشاعر الهيبة والتوقير لها فى نفوسهم . . وهذا ما فعله إبراهيم إذ يقول لأبيه : « أَتَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً ؟ إِنِّي أَراكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ » وإذ يقول :

« يا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ » .

*(172/239)*

---

فإذا وهت هذه المشاعر ، وتقطعت تلك الأسباب التي بين المشركين وبين آلهتهم تلك - جاء القرآن إلى هؤلاء المشركين ليجيب على هذا السؤال الذي فرضه هذا الفراغ الذي أصبحت فيه قلوبهم ، بعد أن تبخرت منها سحب الأصنام التي كانت مخيمة عليها . .

وكان السّؤال المفروض هو : وأين الإله الذي نعبده إذن ، إذا كانت أصنامنا هذه ليست آلهة أو شبه آلهة ؟ . .

ويجىء الجواب من القرآن الكريم بأن اللّه قريب منهم ، وما عليهم لكى - يروه - إلا أن ينظروا

فى هذا الوجود ، وفيما فيه من مبدعات تدلّ على قدرة الخالق ، وتحدّث عن سعة علمه ، وبسطة سلطانه ، وروعة حكمته .

والقرآن المكىّ يكاد يكون كلّه معرضا لآيات اللّه ، ودعوة مثيرة للعقول ، مغرية لها بالنظر فى ملكوت السموات والأرض . . ولا نستشهد لهذا حيث آيات القرآن أكثر من أن تحصى فى هذا الأمر . . وفى سورة الأنعام هذه التي نحن بين يديها ، عشرات الآيات .

وقد كانت نظرة إبراهيم إلى اللّه قائمة على هذا الوجه الاستدلالىّ ، للتعرف على ربّه ، والإيمان به .

« وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ » أي نفتح نظره ، وعقله ، وقلبه ، على هذا الوجود ، ليتعرف إلى اللّه . . والملكوت ، هو الملك الخاضع لسلطان اللّه .

وقد وجّه إبراهيم نظره ، وعقله وقلبه ، إلى ملكوت السموات والأرض . .

*(173/239)*

---

فماذا رأى ؟ « فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً » أي كوكبا من تلك الكواكب السيارة ، كالزهرة مثلا . . وقد رصد إبراهيم هذا الكوكب منذ أطلّ على هذا العالم من الأفق

الشرقي ، وتبعه فى مسيره ، وكان كلما علا فى السماء وازداد ألقا وإشراقا ، ازداد إبراهيم به تعلقا وشغفا ، إذ حسبه أنه الكائن الأعلى ، القائم على هذا الوجود . . فلمّا هوى إلى الأفق الغربي خفق قلب إبراهيم خفقة الخوف على هذا الذي تصوّره إلها ، أن يهوى وراء هذا الأفق ، فلمّا هوى أخلى إبراهيم بصره ، وعقله ، وقلبه منه ، ونفض يديه من هذا الإله ، كما ينفض الحيّ يديه من ميت عزيز ، أودعه القبر ، وهال عليه التراب . . وقال : « لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ » . . ! « فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً قالَ هذا رَبِّي » . . وتبعه فى مسيرته من الأفق إلى الأفق . . حتى إذا هوى إلى المغيب ، ودفن وراء الأفق الغربي ، كاد يؤرقه اليأس من أن يعثر على الإله المنشود ، وقال : « لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ » .

والسؤال هنا : كيف يطلب إبراهيم الهداية من ربّه ، وهو يبحث عنه ؟

والجواب : أن إبراهيم كان على يقين بأن لهذا الوجود ربّا ، وأن لتلك المصنوعات صانعا ، قادرا ، مدبّرا . . ولكن من هو ؟ وأين هو ؟ وكيف هو ؟ هذا ما يبحث عنه إبراهيم . . وهذا ما أشار إليه قوله تعالى : « وَكَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ » فهو يؤمن بحدسه ومشاعره أن لهذا الوجود إلها ، وهو فى بحثه هنا إنما ليعرف هذا الإله ، ويستيقنه . . وذلك قبل أن يختاره اللّه لرسالته . .

وسؤال آخر :

لماذا كان أوّل ما نظر إليه إبراهيم من ملكوت اللّه ، هو الكوكب ، أي النجم ، ثم القمر ، ثم الشمس ؟ ولم لم يتجه نظره أولا إلى الشمس إذ كانت أعظم ما يواجه الإنسان من هذه المخلوقات ؟

*(174/239)*

---

والجواب . . أن وحشة الليل ، ورهبة ظلامه ، تجعل لأى لمعة من لمعات الأنوار ، وقعا على النفس ، وتأثيرا على المشاعر ، وليست كذلك النظرة إلى الشمس التي تكاد سطوة أضوائها ، تذهب بكل إحساس بوجودها ! وهذا ما نراه فى نظر إبراهيم إلى هذا الكوكب أولا ، ثم إلى القمر ثانيا . .

ذلك أن هذا الكوكب ، وهو نجم من تلك النجوم التي يتلألأ ضوؤها كلّما اشتدّ ظلام الليل ، وأطبقت حلكته ، هو فى تلك الحال أفعل فى النفس ، وأكثر إلفاتا للنظر من القمر ، الذي يغمر نوره ما احتواه الليل كله . .

وإذ لم ير إبراهيم فى ملكوت الليل وما يبزغ فيه من نجم أو قمر - إذ لم ير فى هذا الملكوت إلهه الذي ينشده ، شخص ببصره إلى ملكوت النهار ، فرأى الشمس تبسط سلطانها عليه ، فعلق بها نظره ، واحتواها عقله وقلبه ، وقال :

« هذا ربى . . هذا أكبر ! ! » . . ولكن الرّب الكبير لم يكن إلّا خدعة خدع لها إبراهيم ، حتى إذا أفلت ودّعها غير آسف ، وأشرق قلبه بنور الإله الحق ، الإله الذي يسيّر هذه الكائنات ويصرّفها كيف شاءت إرادته ، واقتضت حكمته . . « فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . . إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

وهكذا عرف إبراهيم ربّه ، وهكذا يعرف كل ذى عقل ربّه ، إذا هو نظر ، وفكّر ، وعقل . . !

*(175/239)*

---

الآيات : (80.82) [سورة الأنعام (6) : الآيات 80 الى 82]

﴿ وَحاجَّهُ قَوْمُهُ قالَ أَتُحاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدانِ وَلا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (80) ﴾

التفسير : وإذ يعرف إبراهيم ربّه ، ويملأ قلبه من الإيمان به ، يقف من قومه مسفّها أحلامهم ، زاريا عليهم عبادتهم لهذه الأحجار التي ينحتونها بأيديهم ، ثم يعبدونها ، ويذلّون بين يديها . . « أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ ؟ » (95 : الصافات) .

«وَحاجَّهُ قَوْمُهُ» أي جادلوه فيما يقول فى شأن آلهتهم ، وفى الإله الذي يدعوهم إليه . . هو يريدهم على أن يدعوا هذه الأصنام ، ويعبدوا ربّ السموات والأرض ، وهم يريدونه على أن يعبد آلهتهم ، ويدع الإله الذي يعبده ، ويحذّرونه أن يتخذ غير هذه المعبودات معبودا ، وإلّا مسّه منها ضرّ ، وأصابه سوء . . فكان جوابه : «أَتُحاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدانِ ؟» . إنه قد عرف الحق واستيقنه ، فكيف تقوم لهم حجة عنده ، تصرفه عن هذا الإله ، الذي شهد آياته ، وعرف ما عرف ، من علمه ، وقدرته وحكمته . . ؟ ثم كيف يخاف هذه الأحجار الصّماء أن تصيبه بسوء . . إنها لا تملك شيئا ، وإن شرّا لن يصيبه منها ، إلّا أن يكون ما يصيبه هو مما أراد اللّه له ، وما أراد اللّه له فكلّه خير . . وكيف يخاف إبراهيم أحجارا صمّاء ، على حين أنهم لا يخافون إلها خالقا رازقا ، له ملك السماوات والأرض ؟ «وَكَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً ؟ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟»

ويجىء قول الحق جلّ وعلا بالحكم الفصل فى هذه القضية . . «الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ» .

ولبس الإيمان بالظلم، هو خلطه به . . والظلم هو الشرك بالله، كما يقول سبحانه: «إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ»: فالإيمان المصفّى من الشرك، هو الإيمان الذي يقبله الله من أهله، ويجزيهم عليه الجزاء الأوفى، ويجعلهم فى أمن وسلام، يوم يكون الكافرون فى فزع وكرب وبلاء . .

الآيات: (83. 87) [سورة الأنعام (6): الآيات 83 الى 87]

*(177/239)*

---

قوله تعالى «وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ» . . الإشارة هنا إلى الحجة، أي هذه حجتنا، والمراد بالحجة ما ملأ الله به قلب إبراهيم من إيمان، بما أراه - سبحانه - فى ملكوت السموات والأرض، من دلائل القدرة الإلهية، وسلطانها القوىّ الممسك بكل ذرة فى هذا الوجود . . وبهذا الإيمان وقف إبراهيم وحده، فى وجه هذا الكفر الذي طوى تحت جناحيه مجتمعه كلّه الذي يعيش فيه . . ومع هذا فإنه بالحق الذي يملأ كيانه، قد أخرس كل ناطق، وأفحم كل منطيق، وسقطت بين يدى حجته الدامغة كل مقولة لملحد، وكل حجة لمشرك، وبهذا استحق إبراهيم أن يلقى من ربّه هذا التكريم، وأن ينعته هذا النعت العظيم بقوله سبحانه: «إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»

(120 : النحل) .

فهو أمة وحده ، ومجتمعه أشبه بفرد واحد إزاء هذه الأمة العظيمة ، أو هو الأمة ، وقومه لا شيء ، إذ كان هو الإنسان الوحيد فيها ، الذي يحمل عقل الإنسان وينتفع به .

*(178/239)*

---

وقوله تعالى : « نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ » هو تنبيه إلى أن هذا الذي كان عليه إبراهيم من قوة الإيمان ، ووثاقة اليقين ، هو من فضل اللّه ، يضعه حيث يشاء .

وفى قوله سبحانه : « إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ » التفات من رب كريم إلى النبىّ الكريم ، وقد نازعته نفسه ، وهفت به أشواقه إلى فضل اللّه وإحسانه ، الذي رأى آثاره فى إبراهيم عليه السلام . . فجاء قوله سبحانه : « إِنَّ رَبَّكَ » ليشعر النبي أنه فى ضيافة ربه ، وكفى ما يلقاه الضيف الذي ينزل فى ضيافة ربّ العالمين . . « الحكيم » فى تقدير الأمور « العليم » بعباده ، وبمن هم أهل لمزيد فضله ، وعظيم إحسانه .

ومن فضل اللّه على إبراهيم - عليه السلام - أن بارك عليه فى ذريته ، وجعل من نسله الأنبياء والمرسلين . . انتهى . اهـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 4 صـ 219 .

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

يجوز في " حُجَّتنا " وجهان :

أحدهما : أن يكون خبر المبتدأ ، وفي " آتَيْنَاهَا " حينئذٍ وجهان :

أحدهما : أنه في مَحَلِّ نَصْبٍ على الحالِ ، والعامِلُ فيها معنى الإشارة ، ويَدُلُّ على ذلك التَّصْرِيحُ بوقوع الحال في نظيرتها .

كقوله تعالى : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً ﴾ [ النمل : 52 ] .

والثاني : أَنَّهُ في مَحَلِّ رَفْعٍ على أنه خَبَرٌ ثانٍ أخبر عنها بِخَبَرَيْنِ ، أحدهما مفرد ، والآخر جملة .

والثَّاني : أَنَّهُ في مَحَلِّ رَفْعٍ على أنه خَبَرٌ ثانٍ أخبر عنها بِخَبَرَيْنِ ، أحدهما مفرد ، والآخر جملة .

والثَّاني من الوَجْهَيْنِ الأوَّلين : أن تكون " حُجَّتُنَا " بدلاً أو بَيَاناً لـ " تلك " ، والخبر الجملة الفعلية .

وقال الحوفي : " إن الجملة مِنْ " آتَيْنَاها " في مَوْضِعِ النعت لـ " حُجَّتُنَا " على نِيَّةِ الانْفِصَالِ ؛ إذ التقدير : حُجّة لنا " يعني الانفصال من الإضافة لِيَحْصُلَ التنكيرُ المُسَوِّغُ لوقوع الجُمْلَةِ صِفَةً لـ " حُجتنا " وهذا لا ينبغي أن يقال .

وقال أيضاً : إنَّ " إبراهيم " مفعول ثانٍ لـ " آتَيْنَاهَا " ، والمفعول الأول هو " هاء " ، وقد تقدَّم في أوَّلِ البقرةِ ، فإنَّ هذا مَذْهب السُّهَيْلِيْ عند قوله : ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب ﴾ [ البقرة : 53 ] .

وأنَّ مذهب الجمهور أن تجعل الأول ما كان عَاقِلاً ، والثاني غيره ، ولا يبالى بتقديم ولا تأخير .

قوله : " عَلَى قَوْمِهِ " فيه وجهان :

أحدهما : أنه مُتَعَلَّقٌ بـ " آياتنا " قاله ابن عطيَّة والحوفي ، أي : أظهرناها لإراهيم على قَوْمِهِ .

والثاني : أنها مُتعلِّقَةٌ بمحذوف ؛ على أنها حالٌ ، أي : آتيناها إبراهيم حُجَّةً على قومه ، أو دَلِيلاً على قومه ، كذا قدَّرَهُ أبو البقاء ، ويلزم من هذا التَّقديرِ أن تكون حالاً مُؤكّدة ؛ إذ التَّقديرُ : وتلك حُجَّتَنَا آتَيْنَاهَا له حُجَّةً .

وقدَّره أبو حيَّان على حَذْفِ مُضَافٍ ، فقال : أي : آتيناها إبراهيم مُسْتَعْلِيَةً على حُجَجِ قَوْمِهِ قَاهِرةً لها وهذا أحسن .

ومنع أبو البقاء أن تكون مُتعلِّقَةً بـ " حجتنا " قال : لأنها مَصْدَرٌ و " آتَيْنَاهَا " خَبَرٌ أو حالٌ ،

وكلاهما لا يفصل به بين المَوْصُولِ وصِلَتِهِ .

ومنع أبو حيَّان ذلك أيضاً ، ولكن لكون الحُجَّةِ لَيْسَتْ مَصْدَراً .

قال : إنما هو الكلامُ المُؤَلَّفُ للاستلال على الشيء ، ثم قال : ولو جعلناها مَصْدَراً لم يَجُزْ ذلك أيضاً ؛ لأنه لا يُفْصَلُ بالخبرِ ، ولا بمثل هذه الحال بين المصدرِ ومطلوبه .

(180/239)

---

وفي مَنْعِهِ ومَنْع أبي البقاء نظرٌ ؛ لأنَّ الحالَ وإن كانت جُمْلَةً لَيْسَتْ أجْنَبِيَّةً حتَّى يُمْنَعُ الفَصْلُ بها ؛ لأنها من جملة مَطْلُوباتِ المصدر ، وقد تقدَّم نَظِيرُ ذلك بأشبع من هذا .

قوله : " نرفع " فيه وجهان :

الظاهر منهما : أنها مُسْتَأْنَفَةٌ لا مَحَلَّ لها من الإعراب .

الثاني : جوَّزَهُ أبو البقاءِ ، وبدأ به – أنها في مَوْضَعِ الحالِ من " آتيناها " يعني من فاعل " آتَيْنَاهَا " ، أي : في حال كوننا رَافِعِينَ ، ولا تكون حالاً من المفعولِ ؛ إذ لا ضمير فيها يَعُودُ إليه .

ويُقْرأ " نَرْفَعُ " بنون العَظَمَةِ ، وبياء الغَيْبَةِ ، وكذلك " نَشَاء " وقرأ أهل الكُوفة : " دَرَجَاتٍ " بالتَّنْوين ، وكذلك التي في يوسف [ آية 76 ] والباقون بالإضافة فيهما ، فقرءاة الكوفيين

يُحْتَمَلُ نَصْبُ " درجات " فيها من خمسة أوجه :

أحدها : أنها مَنْصُوبَةٌ على الظَّرْفِ ، و" مَنْ " مفعول " نرفع " ؛ أي : نرفع من نَشَاءُ مراتب ومنازل .

والثاني : أن يَنْتَصِبَ على انه مفعولٌ ثانٍ قُدِّم على الأوَّلِ ، وذلك يحتاج إلى تَضْمين " نرفع " معنى فعل يتعدَّى لاثنين ، وهو " نُعطي " مثلاً ، أي : نعطي بالرفع من نشاءُ درجاتٍ ، أي : رُتَباً ، فالدَّرجاتُ هي المرفوعة لقوله : ﴿ رَفِيعُ الدرجات ﴾ [ غافر : 15 ] .

وفي الحديث : " اللَّهُمَّ ارفَعْ درجَتَهُ في عِلِّيِّينَ " وإذا رُفِعت الدرجة فقد رُفِعَ صَاحِبُهَا .

والثالث : يَنْتَصِبُ على حَذْفِ حرف الجرّ ؛ أي : إلى منازل ، أو إلى درجات .

الرابع : أن يَنْتَصِبَ على التَّمييزِ ، ويكن مُحَوَّلاً مِنَ المَفْعُولِيَّةِ ، فتؤول إلى قراءة الجماعة ؛ إذ الأصل : " نرفع درجاتِ من نشاءُ " بالإضافة ، ثُمَّ حُوِّل كقوله : ﴿ وَفَجَّرْنَا الأرض عُيُوناً ﴾ [ القمر : 12 ] ، أي : عيون الأرض .

الخامس : أنها مُنْتَصِبَةٌ على الحالِ ، وذلك على حَذْفِ مُضَافٍ ، أي : ذوي درجات ، ويشهد لهذه القِراءةِ قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ [ الأنعام : 165 ] ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ ﴾ [ الزخرف : 32 ] ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ﴾ [ البقرة : 253 ] .

وأما قراءة الجماعة : ف " درجات " مفعول " نرفع " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 260 . 262 ﴾ . باختصار .

*(181/239)*

---

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (74) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (80) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

(81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) ﴾

*(182/239)*

---

التفسير : إنه سبحانه كثيراً ما يحتج على مشركي العرب بأحوال إبراهيم صلوات الرحمن عليه لأنه يعرف بالفضل والتقدم عند جميع الطوائف ، وذلك أنه سلم قلبه للرحمن ولسانه للبرهان وبدنه للنيران وولده للقربان وماله للضيفان . ثم إن بظاهر الآية يدل على أن اسم والد ابراهيم هو آزر ، ومنهم من قال : اسمه تارح . قال الزجاج : لا خلاف بين النسابين أن اسمه تارح ، فمن الملحدة من طعن في هذا النسب لهذا السبب . والجواب أن إجماع النسابة لا عبرة به لأن ذلك ينتهي إلى قول الواحد أو الأثنين – مثل وهب وكعب – أو غيرهما . سلمنا أن اسمه كان " تارح " لكنه من المحتمل أن يكون أحدهما لقباً والآخر اسماً أصلياً ، أو يكون آزر صفة مخصوصة في لغتهم كالمخطىء والمخذول . وقيل : إن آزر هو الشيخ الهرم بالخوارزمية وهذا عند من يجوز اشتمال القرآن على ألفاظ قليلة من غير لغة العرب .

وقيل : إن آزر اسم صنم يجوز أن ينبز به للزومه عبادته ، فإن من بالغ في محبة واحد فقد

يجعل اسم المحبوب اسماً للمحب قال تعالى ﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم ﴾ [ الإسراء : 71 ] وقال الشاعر :

أدعى بأسماء نبزاً في قبائلها . . . كأن أسماء أضحت بعض أسمائي .

*(183/239)*

---

أو أريد عابد آزر فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . وقيل : إن والد إبراهيم كان تارح وكان آزر عماً له والعم قد يطلق عليه اسم الأب بدليل قوله ﴿ نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق ﴾ [ البقرة : 133 ] ومعلوم أن إسماعيل كان عماً ليعقوب . ومما يدل على صحة ظاهر الآية أن اليهود والنصارى والمشركين كانوا حراصاً متهالكين على تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم وإظهار نقصه ، فلو كان النسب كذباً لامتنع في العادة سكوتهم عن تكذيبه ، وحيث لم يكذبوه علمنا أن النسب صحيح ، قالت المعتزلة ومن يجري مجراهم : إن أحداً من آباء الرسول صلى الله عليه وسلم ما كان كافراً وفسروا قوله ﴿ وتقلبك في الساجدين ﴾ [ الشعراء : 219 ] بانتقاله من ساجد إلى ساجد وأكدوه بما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال : " لم أزل أنتقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات " وإن آزر كان عم إبراهيم وما كان والداً له لأن إبراهيم شافهه

بالغلظة والجفاء في قوله : ﴿ إني أراك وقومك في ضلال مبين ﴾ وقد قال تعالى ﴿ ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما ﴾ [ الإسراء : 23 ] ولأنه ناداه بالاسم في قراءة من قرأ " آزر " بالضم . والنداء بالاسم دليل الاستخفاف ولهذا لم يقرأ بالضم في قوله ﴿ وقال موسى لأخيه هارون اخلفني ﴾ [ الأعراف : 142 ] وأجيب بأن قوله ﴿ وتقلبك في الساجدين ﴾ [ الشعراء : 219 ] يحتمل وجوهاً أخرى سوف يجيء ذكرها ، وبأن قوله " لم أزل أنتقل " محمول على أنه لم يقع في نسبه ما كان سفاحاً . والتغليظ من إبراهيم إنما كان لأجل إصرار أبيه على الكفر كما قال ﴿ فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾ [ التوبة : 114 ] لا لأجل السفه والجفاء لقوله ﴿ إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب ﴾ [ هود : 75 ] ثم إن إبراهيم احتج على فساد اعتقاد عبدة الأصنام بقوله منكراً على آزر وقومه ﴿ أتتخذ أصناماً آلهة ﴾ أي معبودين . وذلك أن الأصنام لو كان لها قدرة على الخير والشر لكان الصنم

*(184/239)*

---

الواحد كافياً فلما لم يكن الواحد كافياً دل ذلك على عجزها وإن كثرت ، واحتج بعضهم بالآية على وجوب معرفة الله تعالى ، وعلى أن وجوب الاشتغال بشكره معلوم بالعقل لا

بالسمع لأن إبراهيم حكم عليهم بالضلال من حيث النظر والاستدلال ، وأجيب بأنه لعله عرف ضلالهم بحكم شرع الأنبياء المتقدمين عليه ﴿ وكذلك ﴾ أي مثل ما أريناه من قبح عبادة الأصنام والاشتغال بغير الله ﴿ نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾ والنكتة فيه أن التخلي عن غير الله يوجب رفع الحجاب وبقدر ذلك يكون حصول التجلي والتحلي بالله وإنما لم يقل " أريناه " بلفظ الماضي لأنه أراد الحكاية كأنه قيل : كيف بلغ إبراهيم هذا المبلغ في قوة الدين والذب عنه ؟ فأجيب أنا كنا نريه الملكوت وقت طفوليته لأجل أن يصير من الموقنين زمان بلوغه ، أو المقصود بيان ارتفاعه في معارج الكمال وازدياده في ذلك على سبيل الدوام والاستمرار فإن مخلوقاته تعالى وإن كانت متناهية في الذات وفي الصفات إلا أن جهات دلالاتها على ذاته وصفاته سبحانه غير متناهية كما قال إمام الحرمين : معلومات الله غير متناهية ، ومعلوماته في تلك المعلومات أيضاً غير متناهية .

*(185/239)*

---

فإن الجوهر الفرد يمكن وقوعه في أحياز لا نهاية لها على البدل ، ويمكن اتصافه بصفات لا نهاية لها على البدل ، فكل تلك الأحوال التقديرية معلومة لله تعالى ، وكل تلك الأحوال دالة على حكمة الله تعالى وعظمة قدرته ، وإذا كان الجوهر الفرد كذلك فكيف كل الملكوت !

ولهذا قيل : السفر إلى الله تعالى له نهاية ، فأما السفر في الله سبحانه فإنه بلا نهاية .

والملكوت هو الملك والتاء للمبالغة كالرغبوت من الرغبة والرهبوت ومن الرهبة . قال بعضهم : إنه سبحانه أراه الملكوت بالعين . قالوا : شق له تحت السموات حتى رأى العرش والكرسي إلى منتهى الأجرام العلوية ، وشق له الأرض إلى ما تحت الثرى فرأى ما فيها من البدائع والعجائب . عن ابن عباس أنه قال : لما أري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وأري ما فيها وما في الأرض من العجائب رأى عبداً على فاحشة فدعا عليه وعلى آخر بالهلاك ، فقال الله تعالى له : كف عن عبادي فهم بين خلال ثلاث : إما أن أجعل منهم ذرية طيبة ، أو يتوبون فأغفر لهم ، أو النار من ورائهم . وقال الأكثرون : إن هذه الإراءة كانت بعين البصيرة ، لأن ملك السموات والأرض لا يرى وإنما يعرف بالعقل ولو أريد نفس السموات والأرض صار لفظ الملكوت ضائعاً . وأيضاً قوله ﴿ فلما جن عليه الليل ﴾ جارٍ مجرى الشرع والتفسير لتلك الإراءة فثبت أنه استدل بتغير الأجرام وإمكانها وحدوثها على وجود الإله الواجب الحكيم . ثم قال بالآخرة ﴿ وتلك حجتنا ﴾ والرؤية بالعين لا تصير حجة على قومه . وأيضاً الإراءة بالعين تفيد العلم الضروري بالإله القادر ومثل هذه المعرفة لا توجب المدح والثواب كما للكفار في الأخرة . وأيضاً اليقين عبارة عن تحصيل علم بالتأمل إذا كان مسبوقاً بالشك ، فالمراد نري إبراهيم ليستدل بها وليكون من

الموقنين ، أو ليكون من الموقنين نريه ، أو فعلنا ذلك وذلك أن الإراءة قد تصير سبباً للجحود لا الإيقان كما في حق فرعون ﴿ ولقد أريناه آياتنا

(186/239)

---

كلها فكذب وأبى ﴾ [ طه : 56 ] وأيضاً الإنسان لا يمكنه أن يرى بالعين أشياء كثيرة دفعة واحدة على سبيل الكمال ، وبتقدير الإمكان لا يكون لها دوام وبقاء ، وبتقدير البقاء تكون شاغلة للرائي عن الله .

(187/239)

---

أما إذا نظر بعين البصيرة في المخلوقات وعرف حدوثها وإمكانها ، وعرف أن كل ممكن يحتاج إلى الصانع الحق الواجب فكأنه بهاتين المقدمتين قد طالع صفحة الملكوت بعين عقله وسمع بأذن قلبه شهادتها بالاحتياج والانقياد لله ، وهذه الرؤية باقية غير زائلة ولا شاغلة عن الله بل هي شاغلة للقلب والروح بالله . وهذه الرؤية وإن كانت حاصلة لجميع الموحدين لقوله ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ﴾ [ فصلت : 53 ] إلا أن الاطلاع

على تفاصيل آثار حكمة الله تعالى في كل واحد من مخلوقات هذه العوالم بحسب أجناسها وأنواعها وأصنافها وأشخاصها وعوارضها ولواحقها كما هي ، لا تحصل إلا لأكابر الأنبياء ولهذا قال صلى الله عليه وسلم في دعائه " أرني الأشياء كما هي " ثم إن الإنسان في أول استدلاله لا ينفك قلبه عن اختلاج شبهة فيه ، فإذا كثرت الدلائل وتوافقت وتطابقت كان لكل واحد منها نوع تأثير وقوة ، ويكون جارياً مجرى تكرار الدرس الواحد وتزداد النفس بكل منها نوراً وإشراقاً وانبساطاً إلى أن يحصل الجزم ويكمل الإيقان وتطلع شمس العلم والعرفان إلى حيث أتيح لها من الارتقاء والتصاعد وذلك قوله ﴿ فلما جن عليه الليل ﴾ قال في الكشاف : إنه معطوف على قوله ﴿ وإذ قال إبراهيم ﴾ وقوله ﴿ وكذلك نرى ﴾ جملة وقعت اعتراضاً بين المعطوف والمعطوف عليه . يقال : جن عليه الليل وأجنه الليل . والتركيب يدور على الستر ومنه الجنة والجن والمجنون والجنين . وقيل : جن عليه الليل أي أظلم عليه ولأجل هذا التضمين عدي ب " على " . وأما " أجنة " فمعناه ستره من غير تضمين معنى أظلم . واعلم أن كثيراً من المفسرين ذكروا أن ملك ذلك الزمان رأى رؤيا وعبرها المعبرون بأنه يولد غلام ينازعه في ملكه . فأمر بذبح كل غلام يولد فحملت أم إبراهيم عليه السلام به وما أظهرت حملها للناس ، فلما جاءها الطلق ذهبت إلى كهف في بجبل ووضعت إبراهيم وسدت الباب بحجر فجاء جبريل عليه السلام فوضع أصبعه

(188/239)

---

في فيه فمصه فخرج منه رزقه ، وكان يتعهده جبريل عليه السلام وكانت الأم تأتيه أحياناً وترضعه . وبقي في الغار حتى كبر وعرف أن له رباً فسأل الأم فقال لها : من ربي ؟ فقالت : أنا . فقال : من ربك ؟ فقالت : أبوك . فقال لأبيه : من ربك ؟ فقال : ملك البلد . فعرف إبراهيم جهلهما بربهما . فنظر من باب ذلك الغار ليرى ما يستدل به على وجود الرب سبحانه فرأى النجم الذي كان أصغر النجوم في السماء فقال : هذا ربي إلى آخر القصة . ثم منهم من قال : كان هذا بعد البلوغ وأوان التكليف ، ومنهم من قال : كان هذا قبل البلوغ . وأكثر المحققين على فساد هذا القول لوجوه منها : أن القول بربوبية النجم كفر بالإجماع والكفر لا يجوز على الأنبياء بالاتفاق .

(189/239)

---

ومنها أن إبراهيم كان قد عرف ربه قبل هذه الواقعة لأن الله تعالى أخبر عنه أنه دعا أباه إلى التوحيد بالرفق مراراً بقوله ﴿ يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ﴾ [ مريم : 42 ]

الآيات . وفي هذا الموضع دعا أباه إلى التوحيد بالكلام الخشن ، والدعوة بالرفق مقدمة على الدعوة بالخشونة والغلظة . ومنها أن هذه الواقعة كانت بعد أن أراه ملكوت السموات والأرض بدليل فاء التعقيب في قوله ﴿ فلما جن ﴾ ومنها أنه تعالى وصفه بقوله ﴿ إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾ [ الصافات : 84 ] ومدحه بقوله ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل ﴾ [ الأنبياء : 5 ] أي من أول زمان الفطرة . ومنها قوله عقيب هذه القصة ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ ولم يقل " على نفسه " . ومنها أنه قال بعد القصة ﴿ يا قوم إني بريء مما تشركون ﴾ مع أنه ما كان في الغار لا قوم ولا صنم . ومنها قوله ﴿ وحاجة قومه ﴾ وفيه دليل على أنه إنما اشتغل بالنظر في الكواكب بعد أن خالط قومه ورآهم يعبدون الأصنام ودعوه إلى عبادتها فقال ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ رداً وتنبيهاً على فساد قولهم ، ويؤكده قوله ﴿ كيف أخاف ما أشركتم ﴾ لأنه يدل على أنهم كانوا قد خوفوه بالأصنام كما في قصة هود ﴿ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ [ هود : 54 ] ومنها أن تلك الليلة كانت مسبوقة بالنهار ، وكان ينبغي أن يستدل أوّلاً بغروب الشمس على عدم إلهيتها ثم يبطل إلهية القمر وسائر الكواكب بالطريق الأولى ، ولما لم يكن كذلك علمنا أن المقصود إلزام القوم وإفحامهم . والابتداء بأفول الكوكب لأنه اتفقت مكالمته مع القوم حال طلوع ذلك النجم ، ثم امتدت المناظرة إلى أن طلعت الشمس . ثم ههنا احتمالان : الأول أن يقال إن هذا كلام إبراهيم بعد البلوغ ولكنه ذكره بلفظهم حتى

يرجع إليه فيبطله ، مثاله : أن يقول في مناظرة من يزعم قدم الجسم : الجسم قديم فإن كان كذلك فلم نشاهده ونراه متركباً متغيراً . فقولك " الجسم قديم " إعادة

(190/239)

---

لكلام الخصم لإلزام الحجة عليه ، أو المراد هذا ربي في زعمكم واعتقادكم كقول الموحد للجسم : الإله جسم محدود أي في زعمه واعتقاده . قال تعالى ﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائي ﴾ [ القصص : 62 ] وقال ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ [ الدخان : 49 ] أي عند نفسك . وكان صلى الله عليه وسلم يقول : " يا إله الآلهة في زعمهم " أو المراد منه لاستفهام على سبيل الإنكار إلا أنه أسقط حرف الاستفهام لدلالة الكلام ، أو أضمر القول أي يقولون هذا ربي وإضمار القول كثير ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا ﴾ [ البقرة : 127 ] أي يقولان ربنا ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم ﴾ [ الزمر : 3 ] أي يقولون : ما نعبدهم ﴿ إلا ليقربونا ﴾ [ الزمر : 3 ] أو ذكر هذا الكلام على سبيل الاستهزاء ، أو أنه عليه السلام قد عرف من تقليدهم لأسلافهم وبعد طباعهم عن قبول الدلائل أنه لو صرح بالدعوة لم يقبلوا قوله فمال إلى الاستدراج وذكر

كلاماً يوهم كونه مساعداً لهم مع أن إبراهيم كان مطمئناً بالإيمان فكان بمنزلة المكره على كلمة الكفر حيث لم يجد إلى الدعوة المأمور بها طريقاً سوى ذلك .

(191/239)

---

وإذا جاز ذكر كلمة الكفر لمصلحة تعود إلى شخص واحد لقوله تعالى ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ [ النحل : 106 ] فلأن يجوز ذكرها لتخليص جم غفير من الكفر والعقاب الأبدي أولى . قالت العلماء : إن المكره على ترك الصلاة لو صلى حتى قتل استحق الأجر . ثم إذا جاء وقت القتال مع الكفار وعلم أنه لو اشتغل بالصلاة انهزم عسكر الإسلام فههنا يجب عليه ترك الصلاة والاشتغال بالقتال حتى لو صلى وترك القتال أثم . وإن من كان في الصلاة فرأى طفلاً أو أعمى أشرف على غرق أو حرق وجب عليه قطع الصلاة لإنقاذهما ومثل هذه الواقعة قوله ﴿ فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم ﴾ [ الصافات : 88 ] وذلك أنهم كانوا يستدلون بعلم النجوم على الحوادث المستقبلة فوافقهم إبراهيم على هذا الطريق في الظاهر مع إنه كان بريئاً عنه في الباطن ليتوصل بذلك إلى كسر الأصنام قال المتكلمون : إنه يصح من الله تعالى إظهار خوارق العادات على يد من يدعي الإلهية ، لأن صورة هذا المدعي وشكله يدل على كذبه فلا يروج التلبيس ولكنه لا يجوز

إظهارها على يد من يدعي النبوّة كاذباً لأن التلبيس يروج حينئذ فكذا ههنا قوله ﴿ هذا ربي ﴾ لا يوجب الضلال لأن دلائل بطلانه جلية وفي ذلك استدراج لهم لقبول الدليل فكان جائزاً . الاحتمال الثاني : أنه ذكر ذلك قبل البلوغ فلعله خطر بباله لشدة ذكائه قبل بلوغه إثبات الصانع سبحانه فتفكر فرأى النجم فقال ﴿ هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين ﴾ ثم إنه تعالى أكمل بلوغه في أثناء هذا الفكر فقال عند أفول الشمس ﴿ إني بريء مما تشركون ﴾ واعلم أن القصة التي ذكرناها من أن إبراهيم عليه السلام ولد في الغار وتركته أمه وكان جبريل يربيه محتملة في الجملة ، لأن الإرهاص – وهو تقديم المعجز على وقت الدعوى – جائز عندنا . ولم يجوّزه القاضي إلا إذا حضر في ذلك الزمان رسول من الله تعالى فتكون تلك الخوارق معجزة لذلك الرسول . قال في الكشاف : فإن قلت : لم



---

احتج عليهم بالأفول دون البزوغ وكلاهما انتقال من حال إلى حال ؟ قلت الاحتجاج بالأفول أظهر لأنه انتقال مع خفاء واحتجاب . وأنا أقول : الاحتجاج بالبزوغ في الآية لا يصح لأنه تعالى بين أنه نظر إلى الكوكب وقت كونه طالعاً لا حين بزوغه ليلزم مشاهدة التغير والانتقال ، وكذا إلى القمر وإلى الشمس دليله أنه لم يقل رأى القمر يبزغ بل بازغاً .

ولو سلم فإن أحسن الكلام ما يحصل فيه حصة الخواص والأوساط والعوام ، فالخواص يفهمون من الأفول الإمكان فكل ممكن محتاج والمحتاج لا يجوز أن يكون منقطع الحاجات فلا بد من الانتهاء إلى الواجب بالذات . وأما الأوساط فإنهم يفهمون من الأفول مطلق الحركة ، فكل متحرك محدث وكل محدث فهو محتاج إلى القديم . وأما العوام فإنهم يفهمون من الأفول الغروب ، فكل كوكب يغرب فإنه يزول نوره ويذهب سلطانه ويصير كالمعزول ومن كان كذلك فإنه لا يصلح للإلهية ، أقصى ما في الباب أن يقال : إن لها تأثيرات في أحوال العالم السفلى ، ولكن تلك التأثيرات لما لم تكن لها بذاتها لزم استناد الكل إلى الواجب سبحانه وهو الإله الأعظم القادر على خلق السموات والنجوم النيرات ، فيجب أن يكون قادراً على خلق البشر وعلى تدبير السفليات بالطريق الأولى فلا يلزم من وضع الواسطة رفع المبدإ بحال ، ويعلم من قوله ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ أنه تعالى ليس بجسم وإلا كان غائباً عنا فكان آفلاً ، وإنه لا يصح عليه المجيء والذهاب والنزول والصعود ولا الصفات المحدثة . وفيه أن معارف الأنبياء استدلالية لا ضرورية وأنه لا سبيل إلى معرفته تعالى إلى النظر والاستدلال . أما قوله ﴿ فلما رأى القمر بازغاً ﴾ يقال بزغ القمر أو الشمس إذا ابتدأ

بالطلوع . وأصل البزغ الشق كأنه بنوره يشق الظلمة شقاً قاله الأزهري . وفي قوله ﴿ إن لم يهدني ربي ﴾ إشارة إلى أن الهداية ليست إلا من الله تعالى . والمعتزلة حملوها على التمكين وإزاحة الأعذار ونصب الدلائل ، وزيف بأن كل ذلك كان حاصلاً فالهداية التي كان يطلبها بعد ذلك لا بد أن تكون زائدة عليها ﴿ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي ﴾ أراد هذا الطالع أو هذا المرئي ، أو ذكر بتأويل الضياء والنور ، أو باعتبار الخبر وهو رب مع رعاية الأدب وهو ترك التأنيث عند اللفظ الدال على الربوبية كما لم يقولوا في صفة الله علامة وإن كانت بتاء مبالغة ﴿ هذا أكبر ﴾ أي

*(194/239)*

---

أكبر الكواكب جرماً ونوراً ، وقد برهن في الهيئة على أنها مائة وستة وستون مثلاً لكرة الأرض كلها . وإنما لم يقتصر على ذكر الشمس أوّلاً مع أنه يلزم منه عدم ربوبية ما دونها من القمر والكواكب ، لأنه أراد الأخذ من الأدون إلى الأعلى لمزيد التقرير والتصوير ﴿ يا قوم إني بريء مما تشركون ﴾ قيل : لا يلزم من نفي ربوبية النجوم نفي الشريك مطلقاً . والجواب أن القوم لم ينازعوه إلا في الصور المذكورة ، فلما أثبت أنها ليست أرباباً ثبت بالاتفاق نفي الشركاء على الإطلاق . ومعنى ﴿ وجهت وجهي للذي فطر ﴾ وجهت عبادتي لأجله

فإن من كان مطيعاً لغيره منقاداً لأمره فإنه يوجه وجهه إليه ، فجعل توجيه الوجه إليه كناية عن الطاعة . وأصل الفطر الشق يقال : تفطر الشجر بالورق والورد إذا أظهرهما ، والحنيف المائل عن كل معبود سوى الله تعالى .

قال أبو العالية : الذي يستقبل البيت في صلاته .

*(195/239)*

---

ثم إن قومه حاجوه متمسكين بالتقليد تارة كقولهم ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ [ الزخرف : 22 ] وكقولهم للرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾ [ ص : 5 ] ومخوّفين إياه بالأصنام أخرى فأجابهم بقوله ﴿ أتحاجوني في الله وقد هدان ﴾ أي لما ثبت بالدليل الموجب للهداية صحة قولي فكيف ألتفت إلى حجتكم الواهية ؟ ﴿ ولا أخاف ما تشركون به ﴾ لأن الخوف إنما يحصل ممن يقدر على النفع والضر ﴿ إلا أن يشاء ﴾ إلا وقت مشيئة ﴿ ربي ﴾ شيئاً يخاف . فحذف المضاف أي إلا إن أذنبت فيشاء إنزال العقوبة بي ، أو إلا أن يريد ابتلائي بمحنة ، أو إلا أن يمكن بعض تلك الأصنام من ضري مثل أن يرجمني بكوكب ، أو كان قد أودع فيها طلسم فيصيبني مكروه من جهته بإذن الله تعالى ، وفائدة الاستثناء أنه لو حدث به شيء

من المكاره في الأيام المستقبلة لم يحمله الحمقى والجهلة على قدرة الأصنام ﴿ وسع ربي كل شيء علماً ﴾ فلا يفعل إلا الخير والصلاح ﴿ أفلا تتذكرون ﴾ أن نفي الأنداد عن رب الأرباب لا يوجد حلول العقاب ونزول العذاب ، وأن الصحيح لا يساوي الفاسد ، والعاجز لا يساوي القادر ؟ ثم أكد ذلك بقوله ﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ﴾ إذ لا سلطان فينزل . وقيل : إنه لا يمتنع عقلاً أن يؤمر باتخاذ تلك التماثيل والصور قبلة للصلاة والدعاء ، ولكنه لم يؤمر به . والمعنى ما لكم تنكرون على الأمن في موضع الأمن ولا تنكرون على أنفسكم إلا من في موضع الخوف ؟ ثم قال ﴿ فأي الفريقين ﴾ يعني فريقي المشركين والموحدين . ولم يقل " فأينا أحق بالأمن أنا أم أنتم " اجتناباً عن تزكية نفسه . والغرض إني أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ثم استأنف الجواب عن السؤال بقوله ﴿ الذين آمنوا ﴾ الآية ، والمعنى أن الذي حصل لهم الأمن المطلق هم المستجمعون لكمال القوة النظرية وسنامه الإيمان ، ولكمال القوة العلمية وهو وضع

*(196/239)*

الأشياء في موضعها وإليه الإشارة بقوله ﴿ ولم يلبسوا ﴾ أي لم يخلطوا إيمانهم ﴿ بظلم ﴾ . قالت الأشاعرة : شرط في الإيمان الموجب للأمن عدم الظلم ، ولو كان ترك الظلم داخلاً في الإيمان لم يكن لهذا التقييد فائدة فثبت أن الفاسق مؤمن . وقالت المعتزلة : شرط في حصول الأمن حصول الأمرين : الإيمان وعدم الظلم . فوجب أن لا يحصل إلا من للفاسق وذلك يوجب حصول الوعيد له أبداً . وأجيب بأن الظلم ههنا الشرك لقوله ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [ لقمان : 13 ] واجتماعه مع الإقرار بالصانع ممكن وحينئذ يصح إطلاق اللبس بمعنى الخلط ويكون المراد : الذين آمنوا بالله ولم يثبتوا له شريكاً في المعبودية ، ويؤيده أن القصة وردت في نفس الأضداد والأنداد .

وأيضاً لا يلزم من عدم الأمن المطلق حصول القطع بالعذاب الأبدي . واعلم أن المحاجة في الله تارة تكون موجبة للذم والإنكار كمحاجة قوم إبراهيم ، وتارة تكون موجبة للمدح وذلك إذا كان الغرض تقريراً لدين الحق والمذهب الصدق كمحاجة إبراهيم من قوله ﴿ فلما جن عليه الليل ﴾ إلى ههنا وإليها الإشارة بقوله ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم ﴾ أرشدناه إليها ووفقناه لها ﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ من قرأ بالإضافة فظاهر لأنه رفع يتعدى إلى واحد ، ومن قرأ بالتنوين فيكون كقوله ﴿ ورفع بعضهم درجات ﴾ [ البقرة : 253 ] وقد تقدم في البقرة ، واختلف في تلك الدرجات فقيل : أعماله في الآخرة ، وقيل : تلك الحجج درجات رفيعة لأنها تقتضي ارتفاع الروح من حضيض العالم الجسماني إلى

أعلى العالم الروحاني ، وقيل : نرفع من نشاء في الدنيا بالنبوة والحكمة ، وفي الآخرة بالجنة والثواب . أو نرفع درجات من نشاء بالحكمة والعلم ﴿ إن ربك حكيم عليم ﴾ فيرفع الدرجات بمقتضى الحكمة والعلم لا لموجب التشهي والشهوة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 103.110 ﴾

(197/239)

---

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : رأى إبراهيم ملكوت الأشياء أي بواطنها ليكون من الموقنين عند كشفها كما كان موقناً عند كشف الضلال المودع في آزر وقومه ﴿ فلما جن عليه ﴾ ظلمة ليل البشرية أمطر سحاب العناية غيث الهداية على أرض قلبه فأنبت بذر الخلة المودعة في ملكوت قلبه ، فرأى نور الرشد في صورة الكوكب طالعاً من أفق سماء روحانيته فقال : ﴿ هذا ربي ﴾ أراد به سره المكوكب لا الكوكب وإن لم يشعر به نفسه كما قيل :

هوى فؤادي ولم يعلم به بدني . . . فالجسم في غربة والروح في وطن

(198/239)

فإن كذبت النفس فيما قالت للكواكب " هذا ربي " ما كذب الفؤاد ما رأى من الكوكب .

فقال ﴿ هذا ربي ﴾ فلما احتجب كوكب نور الرشد بغلبات صفات الخلقية عند رجوعه إلى أوصافه ووافقه كوكب السماء بالغروب قال سره ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ فلما تسع انفتاح روزنة القلب إلى الملكوت بقدر القمر تجلى له نور الربوبية في مرآة القمر ﴿ قال هذا ربي فلما أفل ﴾ عند رجوعه إلى أوصافه ازداد الشوق قال إن ﴿ لم يهدني ربي ﴾ برفع حجب الأوصاف ويبقني على وجود الخليقة ﴿ لأكونن من القوم الضالين ﴾ عن الحق كآزر وقومه . فلما انخرقت حجب الأوصاف وخرجت شمس الهداية من غيم البشرية ، وأشرقت أرض القلب بنور ربها ﴿ قال هذا ربي فلما أفلت ﴾ شمس الهداية تعززاً وتعظماً ليغرب إبراهيم عليه السلام عن شرك الأنانية .

إن شمس النهار تغرب بالليل . . . وشمس القلوب ليست تغيب .

تبرأ عن الأضداد والأنداد ونزعته همة الخلة عن الجهات وخلصه تجلي صفة الجمال عن شبكة الوهم والخيال . فقال ﴿ يا قوم إني بريء مما تشركون ﴾ وقد يدور في الخلد أن إبراهيم صلوات الله الرحمن عليه جن عليه ظلمة الشهبة فنظر أولاً في عالم الأجسام فوجدها آفلة في أفق التغير فلم يرها تصلح للإلهية ، فارتقى منها إلى عالم النفوس المدبرة

للأجسام فرآها آفلة في أفق الاستكمال فكان حكمها حكم ما دونها فصعد منها إلى عالم العقول المجردة ، فصادفها آفلة في أفق الإمكان فلم يبقَ إلا الواجب الحق .

(199/239)

---

ومن الناس من حمل الكوكب على الحس ، والقمر على الخيال ، والشمس على الوهم والعقل ، ومراده أن هذه القوى المدركة الثلاثة قاصرة متناهية القوة ، ومدبر العالم قاهر لها مستولٍ عليها ﴿ وحاجة قومه ﴾ ليسبلوا ستور شبههم على شموس عرفانه ، وقد هداني إليه بالعيان بعد توالي البرهان ﴿ إلا أن يشاء ربي شيئاً ﴾ من الخذلان وهذا محال لأنه ﴿ وسع ربي كل شيء علماً ﴾ فهو أعلم بأهل العرفان وبأصحاب الخذلان ﴿ ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ بشرك الالتفات إلى غيره من الأكوان حتى قال لجبريل : أما إليك فلا ﴿ وتلك ﴾ يعني إراءة الملكوت وشواهد الربوبية في مرآة الكواكب وصدق التوجه إلى الحق والتبري عما سواه والخلاص عن شرك الأنانية والإيمان الحقيقي بالعيان حتى ارتقى من الأفعال إلى الصفات ثم إلى الذات ﴿ آتيناها إبراهيم ﴾ بذاتنا من غير واسطة حتى جعلها حجة على قومه ﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ بجذبات الألوهية عن حضيض الأنانية الله حسبي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 110 . 111 ﴾

---

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة ﴿ وَإِذْ قَالَ إبراهيم لأَبِيهِ ءازَرَ ﴾ حين رآه محتجباً بظواهر عالم الملك عن حقائق الملكوت وربوبيته تعالى للأشياء معتقداً تأثير الأكوان والأجرام ذاهلاً عن الملكوت جل شأنه ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً ﴾ أي أشباحاً خالية بذواتها عن الحياة ﴿ ءالِهَةً ﴾ فتعتقد تأثيرها ﴿ إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضلال مُّبِينٍ ﴾ [ الأنعام : 74 ] ظاهر عند من كشف عن عينه الغين ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِى إبراهيم مَلَكُوتَ السموات والأرض ﴾ أي نوقفه على القوى الروحانية التي ندبر بها أمر العالم العلوي والسفلي أو نوقفه على حقيقتها ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ الموقنين ﴾ [ الأنعام : 75 ] أي أهل الإيقان العالمين أن لا تأثير إلا لله تعالى يدبر الأمر بأسمائه سبحانه ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اليل ﴾ أي أظلم عليه ليل عالم الطبيعة الجسمانية ، وذلك عند الصوفية في صباه وأول شبابه ﴿ رَأَى كَوْكَباً ﴾ وهو كوكب النفس المسماة روحاً حيوانية الظاهر في ملكوت الهيكل الإنساني فقال حين رأى فيضه وحياته وتربيته من ذلك بلسان الحال ﴿ هذا رَبِّى ﴾ وكان الله تعالى يربيه في ذلك الحين باسمه المحيي ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ ﴾ بطلوع نور القلب ﴿ قَالَ لا أُحِبُّ الآفلين ﴾ [ الأنعام : 76 ] ﴿ فَلَمَّا رَأَى

القمر ﴾ أي قمر القلب ﴿ بَازِغاً ﴾ من أفق النفس ووجد فيضه بمكاشفات الحقائق والمعارف وتربيته منه ﴿ قَالَ هذا رَبِّى ﴾ وكان الله تعالى يريه إذ ذاك باسمه العالم والحكيم ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى ﴾ إلى نور وجهه ﴿ لأَكُونَنَّ مِنَ القوم الضالين ﴾ [ الأنعام : 77 ] المحتجبين بالبواطن عنه سبحانه : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشمس ﴾ أي شمس الروح ﴿ بَازِغَةً ﴾ متجلية عليه ﴿ قَالَ ﴾ إذ وجد فيضه وشهوده وتربيته منها ﴿ هذا رَبِّى ﴾ وكان سبحانه يريه حينئذ باسمه الشهيد والعلي العظيم ﴿ هذا أَكْبَرُ ﴾ من الأولين ﴿ فَلَمَّا أَفَلَتْ ﴾ بتجلي أنوار

*(201/239)*

---

الحق وتشعشع سبحات الوجه ﴿ قَالَ يَاءادَمُ قَوْمٌ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [ الأنعام : 78 ] إذ لا وجود لغيره سبحانه ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ ﴾ أي أسلمت ذاتي ووجودي ﴿ لِلَّذِى فَطَرَ ﴾ أوجد ﴿ السموات والأرض ﴾ أي سموات الأرواح وأرض النفس ﴿ حَنِيفاً ﴾ مائلاً عن كل ما سواه حتى عن وجودي وميلي بالفناء فيه جل جلاله ﴿ وَمَا أَنَاْ مِنَ المشركين ﴾ [ الأنعام : 79 ] في شيء ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ﴾ في ترك السوى ﴿ قَالَ أَتُحَاجُّونِّى فِى الله وَقَدْ هَدَانِ ﴾ [ الأنعام : 80 ] إلى وجوده الحق وتوحيده ﴿ الذين

كَفَرُواْ ﴾ الايمان الحقيقي ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمانهم بِظُلْمٍ ﴾ من ظهور نفس أو قلب أو وجود بقية ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأمن ﴾ الحقيقي ﴿ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ [ الأنعام : 82 ] حقيقة إلى الحق .

وقال النيسابوري : قد يدور في الخلد أن إبراهيم عليه السلام جن عليه ليل الشبهة وظلمتها فنظر أولاً : في عالم الأجسام فوجدها آفلة في أفق التغيير فلم يرها تصلح للإلهية فارتقى منها إلى عالم النفوس المدبرة للأجسام فرآها آفلة في أفق الاستكمال فكان حكمها حكم ما دونها فصعد منها إلى عالم العقول المجرد فصادفها آفلة في أفق الإمكان فلم يبق إلا الواجب ، وقيل : غير ذلك ، وما ذكره مبني على أن الاحتجاج كان مع نفسه عليه السلام وهو الذي ذهب إليه البعض من المفسرين ورووا في ذلك خبراً طويلاً وهو مذكور في كثير من الكتب مشهور بين العامة ، والمختار عندي ما علمت والله تعالى يقول الحق وهو يهدي السبيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 7 صـ ﴾

*(202/239)*

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الأربعون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

*(3/240)*

---

الجزء الأربعون بعد المائتين

من الآية ﴿ 84 ﴾ من سورة الأنعام

وحتى الآية ﴿ 89 ﴾ من نفس السورة

*(4/240)*

قوله تعالى ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أشار إلى رفعته بأنه بصّره بالحجة حتى كان على بصيرة من أمره ، وأنه علا على المخالفين برفع الدرجات ، أتبع ذلك ما دل عليها وعلى حكمته بعلمه بالعواقب ، فقال معلماً بأنه جعله عزيزاً في الدنيا لأن أشرف الناس الأنبياء والرسل ، وهم من نسله وذريته ، ورفع ذكره أبداً لأجل قيامه بالذب عن توحيده : ﴿ ووهبنا له ﴾ أي لخليلنا عليه السلام بما لنا من العظمة ﴿ إسحاق ﴾ ولداً له على الكبر حيث لا يولد لمثله ولا لمثل زوجته ﴿ ويعقوب ﴾ أي ولد ولد ، وابتدأ سبحانه بهما لأن السياق للامتنان على الخليل عليه السلام ، وهو أشد سروراً بابنه الذي متع به ولم يؤمر بفراقه وابن ابنه الذي أكثر الأنبياء الداعين إلى الله من نسله ومن خواصه ، وهو الموجب الأعظم للبداءة أن أبناءه طهروا الأرض المقدسة التي هي مهاجر إبراهيم عليه السلام ومختاره للسكنى بنفسه ونسله ، بل مختار الله له ولهم بعده بمدد طهورها من الشرك وعبادة الأوثان ، ودعوا إلى الله ونوروا الأرض بعبادته .

ولما كانت النعمة لا تتم إلاّ بالهداية ، قال مستأنفاً مقدماً للمفعول ليشمل الكلام إياهما : ﴿ كلاًّ ﴾ أي منهما ومن أبيهما ﴿ هدينا ﴾ ثم أتبع ذلك المهتدين قديماً وحديثاً تأكيداً لأن هذا المذهب لم يزل خلص العباد دعاة إليه في قديم الزمان وجديده ، فكأنه يقول : إن كنتم تلزمون دينكم لأنه عندكم حق ، فقد تبين لكم بطلانه ، وأن الحق إنما هو التوحيد ، وإن كنتم تلزمونه لِقِدَمِه فهذا الدين – الذي – دعاكم إليه رسولي مع وضوح الدلالة على حقيته – هو القديم الذي دعاكم إليه نوح ومن تلاه من خلص ذريته إلى إبراهيم أبيكم الأعظم ومن بعده من خلص ذريته إلى عيسى ، ثم إلى هذا الرسول الذي هو دعوة إبراهيم وبشارة عيسى – على الكل أبلغ الصلاة وأتم التسليم ، فهو أحق بالاتباع من جهة الحقية والأقدمية ، وإن كنتم تلزمونه لمجرد اتباع الآباء فليس في أبائكم مثل إبراهيم عليه السلام ، وقد تلوت عليكم في كلامي الذي أقمت الدليل القطعي بعجزكم عنه على صحة نسبته إلى ما حاج به أباه وقومه في إبطال الأوثان التي أضلتكم ، فهو أولى آبائكم أن تعتدوا به – والله الموفق .

ولما كان ربما وقع في وهم أن هداية كل من إسحاق وابنه بتربية أبيه ، ذكر العاشر من آباء الخليل وهو نوح عليهما السلام لدفع ذلك ، ولأن السياق لإنكار الأوثان ، وهو أول من نهى

عن عبادتها ، وهو أجلّ آباء الخليل عليه السلام فقال : ﴿ ونوحاً هدينا ﴾ أي بما لنا من العظمة من بين ذلك الجيل الأعوج .

(6/240)

---

ولما كانت لم تتجاوز منه ، وكان زمنه بعض الزمن المتقدم ، أثبت الجار وقطعه عن الإضافة لتراخي زمانهم كثيراً عن زمانه فقال : ﴿ من قبل ﴾ أي ولم تكن هدايته إلاّ بنا في زمان كان أهله من شدة الضلال ولزوم الظلم في مثل استقبال الليل ، كلما امتد احلولك ظلامه واشتد ، وطالما دعاهم إلى الله وربّاهم فلم يرجع منهم كثيراً أحد حتى لقد خالفه زوجه وبعض ولده ، ولمثل ذلك فصل بين إسماعيل وأبيه ويوسف وأبيه عليهم السلام إشارة إلى فراق كل منهما لأبيه في الحياة ، وأنه ما حفظ كلاًّ منهما على سنن الهدى طول المدى إلاّ الله ؛ ثم ابتدأ المذكورين بعدُ بمن بنى على يده ويد ابنه مسجداً هو بعد المسجد الذي بناه إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام فقال : ﴿ ومن ذريته ﴾ .

ولما كان السياق كله لمدح الخليل ، وكان المذكورون – إلا لوطاً – من نسله ، وكان التغليب مستعملاً شائعاً في لسان العرب ، لا سيما ولوط ابن أخيه ومثل ولده ؛ حكم بأن الضمير لإبراهيم عليه السلام ، وقولُ من قال : إن يونس عليه السلام ليس من نسله ، غير صحيح ،

بل هو من بني إسرائيل ، وهو أحد من ذكر في سفر الأنبياء ، وسيأتي خبره من السفر المذكور في سورة ﴿ والصافات ﴾ إن شاء الله تعالى ، وقد صرح أبو الحسن محمد بن عبد الله الكسائي في قصص الأنبياء أنه من ذرية إبراهيم ، واقتضى كلامه أنه من بني إسرائيل ، كما اقتضى ذلك كلام البغوي في سورة الأنبياء عليهم السلام ، وأما أيوب فروى ؛ من نسل عيص بن إسحاق عليهم السلام ﴿ داود ﴾ أي هديناه ﴿ وسليمان ﴾ أي اللذين بنيا بيت المقدس بأمر الله : داود بخطه وتأسيسه ، وسليمان بإكماله وتشييده .

*(7/240)*

---

وما كان مع ذلك ملكين ، تلاهما بمن شابههما في الملك أو الحكم على الملوك فقال : ﴿ وأيوب ﴾ وقدمه لمناسبة ما بينه وبين سليمان في أن كلاًّ منهما ابتلى بأخذ كل ما في يده ثم ردّ الله إليه ﴿ ويوسف ﴾ وكل من هؤلاء الأربعة ابتلى فصبر ، واغتنى فشكر ، وأيوب إن لم يكن ملكاً فقد كانت ثروته غير مقصرة عن ثروة الملوك ، على أن بعض الطلبة أخبرني عن تفسير الهكاري – فيما أظن – أنه صرح بأنه ملك ، وأيضاً فالاثنان الأولان كانا سبب إصلاح بني إسرائيل بعد الفساد واستنقاذهم من ذل الفلسطين ، والاثنان الباقيان كل منهما ابتلى بفراق أهله ثم ردوا عليه : أيوب بعد أن ماتوا ، ويوسف قبل الموت ، وأيضاً

فداود عليه السلام شارك إبراهيم عليه السلام في أنه كان سبب سلامته من ملك زمانه الاختفاءُ في غار ، وذلك أن نمرود بن الكنعان كان ادعى الإلهية وأطمع فيها ، وقال له منجموه : يولد في بلدك هذا العام غلام يغير دين أهل الأرض ، ويكون هلاكك على يده ، فأمر بذبح كل غلام في ناحيته في تلك السنة ، وأمر بعزل الرجال عن النساء ، وحملت أم إبراهيم عليه السلام به في تلك السنة ، فلما وجدت الطلق خرجت ليلاً إلى غار قريب منها فولدت فيه إبراهيم وأصلحت من شأنه ، ثم سدت فم الغار ورجعت ، ثم كانت تطالعه فتجده يمتص إبهامه ، وكان يشب في اليوم كالشهر وفي الشهر كالسنة ؛ وأما داود عليه السلام فإنه لما قتل جالوت وزوَّجَه طالوتُ ابنته ، وناصفه ملكه – على ما كان شرط لمن قتل جالوت – مال إليه الناس وأحبوه ، فحسده فأراد قتله ، فطلبه فهرب منه ، فدخل غاراً فنسجت عليه العنكبوت ، فقال طالوت : لو دخل هنا لخرق بناء العنكبوت ، فأنجاه الله منه ؛ وتلاه بسليمان لأنه مع كونه من أهل الملك والبلاء شارك إبراهيم عليهما السلام في إبطال عبادة الشمس في قصة بلقيس رضي الله عنها ؛ وقصة يوسف عليه السلام في إبطال عبادة الأوثان شهيرة في قوله تعالى ﴿يا صاحبي السجن ءأرباب متفرقون خير أم

الله الواحد القهار ﴾ [ يوسف : 39 ] .

ولما كان يوسف عليه السلام ممن أعلى الله كلمته على كلمة ملك مصر وأعز ملكها وأهلها وأحياهم به ، أتبعه من أعلى الله كلمتهما على كلمة ملك مصر وأهلها وأهلكهم بهما ، فكأن بعض قصصهم وفاق ، وبعضها تقابل وطباق ، فقال : ﴿ وموسى وهارون ﴾ ولما كان التقدير : هديناهم جزاء لإحسانهم باهتدائهم في أنفسهم ودعائهم لغيرهم إلى الهدى ، لم يشغل أحداً منهم منحةُ السراء ولا محنة الضراء ، عطف عليه قوله : ﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل ما جزيناهم ﴿ نجزي المحسنين ﴾ أي كلهم ، ففي ذلك إشارة إلى علو مقامهم من هذه الجهة ، وهي أنهم من أهل السراء المطفئة والضراء المسنية ، ومع ذلك فقد أحسنوا ولم يفتروا ولم ينوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 664. 667 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ واليسع ﴾ بتشديد اللام : حمزة وعلي وخلف . الباقون : بالتخفيف ، ﴿ اقتده ﴾ بإشباع الهاء : ابن عامر الحلواني عن هشام مختلسة ، وبحذف الهاء في الوصل : سهل ويعقوب وحمزة وعلي وخلف . الباقون : بسكون هاء السكت على الأصل .

الوقوف : ﴿ ويعقوب ﴾ ط ﴿ كلاً هدينا ﴾ ج لأن ﴿ ونوحاً ﴾ مفعول ما بعده ، ولو

وصل التبس بأنه مفعول ما قبله مع اتفاق الجملتين ﴿ وهارون ﴾ ط ﴿ المحسنين ﴾ ه لا للعطف ﴿ وإلياس ﴾ ط ﴿ من الصالحين ﴾ ه لا للعطف ﴿ ولوطا ﴾ ط ﴿ العالمين ﴾ ه لا للعطف . ﴿ وإخوانهم ﴾ ج لبيان أن قوله ﴿ واجتبيناهم ﴾ يعود إلى قوله ﴿ كلاً هدينا ﴾ كقوله ﴿ وممن هدينا واجتبينا ﴾ [ مريم : 58 ] ولاحتمال الواو الحال أي وقد اجتبيناهم وذكر هديناهم بعده ﴿ مستقيم ﴾ ه ﴿ من عباده ﴾ ط ﴿ يعملون ﴾ ه ﴿ والنبوّة ﴾ ج ﴿ بكافرين ﴾ ه ﴿ اقتده ﴾ ط ﴿ أجراً ﴾ ط ﴿ للعالمين ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 111.112 ﴾

(9/240)

---

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه أظهر حجة الله تعالى في التوحيد ونصرها وذب عنها عدد وجوه نعمه وإحسانه عليه .

فأولها : قوله : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءاتيناها إبراهيم ﴾ والمراد إنا نحن آتيناه تلك الحجة وهديناه إليها وأوقفنا عقله على حقيقتها .

وذكر نفسه باللفظ الدال على العظمة وهو كناية الجمع على وفق ما يقوله عظماء الملوك .

فعلنا ، وقلنا ، وذكرنا .

ولما ذكر نفسه تعالى ههنا باللفظ الدال على العظمة وجب أن تكون تلك العظمة عظمة كاملة رفيعة شريفة ، وذلك يدل على أن إيتاء الله تعالى إبراهيم عليه السلام تلك الحجة من أشرف النعم ، ومن أجل مراتب العطايا والمواهب .

وثانيها : أنه تعالى خصه بالرفعة والاتصال إلى الدرجات العالية الرفيعة .

وهي قوله : ﴿ نَرْفَعُ درجات مَّن نَّشَاء ﴾ وثالثها : أنه جعله عزيزاً في الدنيا ، وذلك لأنه تعالى جعل أشرف الناس وهم الأنبياء والرسل من نسله ، ومن ذريته وأبقى هذه الكرامة في نسله إلى يوم القيامة ، لأن من أعظم أنواع السرور علم المرء بأنه يكون من عقبه الأنبياء والملوك ، والمقصود من هذه الآيات تعديد أنواع نعم الله على إبراهيم عليه السلام جزاء على قيامه بالذب عن دلائل التوحيد ، فقال : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إسحاق ﴾ لصلبه ﴿ وَيَعْقُوبَ ﴾ بعده من إسحاق .

فإن قالوا : لم لم يذكر إسمعيل عليه السلام مع إسحق ، بل أخر ذكره عنه بدرجات ؟ قلنا : لأن المقصود بالذكر ههنا أنبياء بني إسرائيل ، وهم بأسرهم أولاد إسحق ويعقوب .

وأما إسماعيل فإنه ما خرج من صلبه أحد من الأنبياء إلا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا يجوز ذكر محمد عليه الصلاة والسلام في هذا المقام ، لأنه تعالى أمر محمداً عليه الصلاة والسلام أن يحتج على العرب في نفي الشرك بالله بأن إبراهيم لما ترك الشرك وأصر على التوحيد رزقه الله النعم العظيمة في الدين والدنيا ، ومن النعم العظيمة في الدنيا أن آتاه الله أولاداً كانوا أنبياء وملوكاً ، فإذا كان المحتج بهذه الحجة هو محمد عليه الصلاة والسلام امتنع أن يذكر نفسه في هذا المعرض ، فلهذا السبب لم يذكر إسمعيل مع إسحاق .

وأما قوله : ﴿ وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ فالمراد أنه سبحانه جعل إبراهيم في أشرف الأنساب ، وذلك لأنه رزقه أولاداً مثل إسحق ، ويعقوب .

وجعل أنبياء بني إسرائيل من نسلهما ، وأخرجه من أصلاب آباء طاهرين مثل نوح .

وإدريس ، وشيث .

فالمقصود بيان كرامة إبراهيم عليه السلام بحسب الأولاد وبحسب الآباء .

أما قوله : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وسليمان ﴾ فقيل المراد ومن ذرية نوح ، ويدل عليه وجوه :

الأول : أن نوحاً أقرب المذكورين وعود الضمير إلى الأقرب واجب .

الثاني : أنه تعالى ذكر في جملتهم لوطاً وهو كان ابن أخ إبراهيم وما كان من ذريته ، بل كان من ذرية نوح عليه السلام ، وكان رسولاً في زمان إبراهيم .

الثالث : أن ولد الإنسان لا يقال أنه ذريته ، فعلى هذا إسمعيل عليه السلام ما كان من ذرية إبراهيم ، بل هو من ذرية نوح عليه السلام .

الرابع : قيل إن يونس عليه السلام ما كان من ذرية إبراهيم عليه السلام ، وكان من ذرية نوح عليه السلام .

والقول الثاني : أن الضمير عائد إلى إبراهيم عليه السلام ، والتقدير : ومن ذرية إبراهيم داود وسليمان .

واحتج القائلون بهذا القول : بأن إبراهيم هو المقصود بالذكر في هذه الآيات وإنما ذكر الله تعالى نوحاً لأن كون إبراهيم عليه السلام من أولاده أحد موجبات رفعة إبراهيم .

*(11/240)*

---

واعلم أنه تعالى ذكر أولاً أربعة من الأنبياء ، وهم : نوح ، وإبراهيم ، وإسحق ، ويعقوب . ثم ذكر من ذريتهم أربعة عشر من الأنبياء : داود ، وسليمان ، وأيوب ، ويوسف ، وموسى ، وهرون ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، وإلياس ، وإسمعيل ، واليسع ، ويونس ، ولوطاً ، والمجموع ثمانية عشر .

فإن قيل : رعاية الترتيب واجبة ، والترتيب إما أن يعتبر بحسب الفضل والدرجة وإما أن

يعتبر بحسب الزمان والمدة ، والترتيب بحسب هذين النوعين غير معتبر في هذه الآية فما السبب فيه ؟

قلنا : الحق أن حرف الواو لا يوجب الترتيب ، وأحد الدلائل على صحة هذا المطلوب هذه الآية فإن حرف الواو حاصل ههنا مع أنه لا يفيد الترتيب ألبتة ، لا بحسب الشرف ولا بحسب الزمان وأقول عندي فيه وجه من وجوه الترتيب ، وذلك لأنه تعالى خص كل طائفة من طوائف الأنبياء بنوع من الإكرام والفضل .

فمن المراتب المعتبرة عند جمهور الخلق : الملك والسلطان والقدرة ، والله تعالى قد أعطى داود وسليمان من هذا الباب نصيباً عظيماً .

والمرتبة الثانية : البلاء الشديد والمحنة العظيمة ، وقد خص الله أيوب بهذه المرتبة والخاصية .

والمرتبة الثالثة : من كان مستجمعاً لهاتين الحالتين ، وهو يوسف عليه السلام ، فإنه نال البلاء الشديد الكثير في أول الأمر ، ثم وصل إلى الملك في آخر الأمر .

والمرتبة الرابعة : من فضائل الأنبياء عليهم السلام وخواصهم قوة المعجزات وكثرة البراهين والمهابة العظيمة والصولة الشديدة وتخصيص الله تعالى إياهم بالتقريب العظيم والتكريم التام ، وذلك كان في حق موسى وهرون .

والمرتبة الخامسة : الزهد الشديد والإعراض عن الدنيا ، وترك مخالطة الخلق ، وذلك كما

في حق زكريا ويحيى وعيسى وإلياس ، ولهذا السبب وصفهم الله بأنهم من الصالحين .

والمرتبة السادسة : الأنبياء الذين لم يبق لهم فيما بين الخلق أتباع وأشياع ، وهم إسماعيل ، واليسع ، ويونس ، ولوط .

*(12/240)*

---

فإذا اعتبرنا هذا الوجه الذي راعيناه ظهر أن الترتيب حاصل في ذكر هؤلاء الأنبياء عليهم السلام بحسب هذا الوجه الذي شرحناه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 54.52 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسحاق وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا ﴾

اختلفوا في أنه تعالى إلى ماذا هداهم ؟ وكذا الكلام في قوله : ﴿ وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ وكذا قوله في آخر الآية : ﴿ ذلك هُدَى الله يَهْدِى بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ .

قال بعض المحققين : المراد من هذه الهداية الثواب العظيم ، وهي الهداية إلى طريق الجنة ، وذلك لأنه تعالى لما ذكر هذه الهداية قال بعدها : ﴿ وكَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ وذلك يدل

على أن تلك الهداية كانت جزاء المحسنين على إحسانهم وجزاء المحسن على إحسانه لا يكون إلا الثواب ، فثبت أن المراد من هذه الهداية هو الهداية إلى الجنة .

فأما الإرشاد إلى الدين وتحصيل المعرفة في قلبه ، فإنه لا يكون جزاء له على عمله ، وأيضاً لا يبعد أن يقال : المراد من هذه الهداية هو الهداية إلى الدين والمعرفة ، وإنما ذلك كان جزاء على الإحسان الصادر منهم ، لأنهم اجتهدوا في طلب الحق ، فالله تعالى جازاهم على حسن طلبهم بإيصالهم إلى الحق ، كما قال : ﴿ والذين جاهدوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ ﴾ [ العنكبوت : 69 ] .

والقول الثالث : أن المراد من هذه الهداية : الإرشاد إلى النبوة والرسالة ، لأن الهداية المخصوصة بالأنبياء ليست إلا ذلك .

فإن قالوا : لو كان الأمر كذلك لكان قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ يقتضي أن تكون الرسالة جزاء على عمل ، وذلك عندكم باطل .

قلنا : يحمل قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ على الجزاء الذي هو الثواب والكرامة ، فيزول الإشكال . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 54 ﴾

*(13/240)*

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب ﴾

لما أظهر إبراهيم عليه السلام دينه وغلب خصمه بالحجج القاطعة والبراهين القوية والدلائل الصحيحة التي فهمه الله تعالى إياه وهداه إليها عدد الله نعمه عليه وإحسانه إليه بأن رفع درجته في عليين وأبقى النبوة في ذريته إلى يوم الدين فقال تعالى : ﴿ ووهبنا له ﴾ يعني لإبراهيم إسحاق يعني ابنا لصلبه ويعقوب يعني ابن إسحاق وهو ولد الولد ﴿ كلاًّ هدينا ﴾ يعني هدينا جميعهم إلى سبيل الرشاد ووفقناهم إلى طريق الحق والصواب ﴿ ونوحاً هدينا من قبل ﴾ يعني من قبل إبراهيم أرشدنا نوحاً ووفقناه للحق والصواب ومنَنّا عليه بالهداية ﴿ ومن ذريته ﴾ اختلفوا في الضمير إلى من يرجع فقيل يرجع إلى إبراهيم يعني ومن ذرية إبراهيم ﴿ داود وسلميان ﴾ وقيل : يرجع إلى نوح وهو اختيار جمهور المفسرين ، لأن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور ولأن الله ذكر في جملة هذه الذرية لوطاً وهو ابن أخي إبراهيم ولم يكن من ذريته فثبت بهذا أن هاء الكناية ترجع إلى نوح وقال الزجاج : كلا القولين جائز لأن ذكرهما جميعاً قد جرى .

وداود هو ابن بيشا وكان ممن آتاه الله الملك والنبوة وكذلك سليمان بن داود ﴿ وأيوب ﴾ هو أيوب بن أموص بن رازح بن روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم ﴿ ويوسف ﴾ هو ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﴿ وموسى ﴾ هو ابن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى

بن يعقوب ﴿ وهارون ﴾ هو أخو موسى وكان أكبر منه بسنة ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ يعني : وكما جزينا إبراهيم على توحيده وصبره على أذى قومه كذلك نجزي المحسنين على إحسانهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

*(14/240)*

---

﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب ﴾ ﴿ إسحاق ﴾ ابنه لصلبه من سارة و﴿ يعقوب ﴾ ابن إسحاق كما قال تعالى : ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ وعدد تعالى نعمه على إبراهيم فذكر إيتاءه الحجة على قومه ، وأشار إلى رفع درجاته وذكر ما منّ به عليه من هبته له هذا النبي الذي تفرعت منه أنبياء بني إسرائيل ، ومن أعظم المنن أن يكون من نسل الرجل الأنبياء والرسل ولم يذكر إسماعيل مع إسحاق .

قيل : لأن المقصود بالذكر هنا أنبياء بني إسرائيل وهم بأسرهم أولاد إسحاق ويعقوب ولم يخرج من صلب إسماعيل نبي إلا محمد صلى الله عليه وسلم ولم يذكره في هذا المقام لأنه أمره عليه السلام أن يحتج على العرب في نفي الشرك بالله بأن جدّهم إبراهيم لما كان موحداً لله متبرئاً من الشرك رزقه الله أولاً ملوكاً وأنبياء ، والجملة من قوله : ﴿ ووهبنا ﴾

معطوفة على قوله : ﴿ وتلك حجتنا ﴾ عطف فعلية على اسمية ، وقال ابن عطية : ﴿ ووهبنا ﴾ عطف على ﴿ آتيناها ﴾ انتهى .

ولا يصح هذا لأن ﴿ آتيناها ﴾ لها موضع من الإعراب إما خبر .

وإما حال ولا يصح في ﴿ ووهبنا ﴾ شيء منهما .

﴿ كلاًّ هدينا ﴾ أي كل واحد من إسحاق ويعقوب هدينا .

﴿ ونوحاً هدينا من قبل ﴾ لما ذكر شرف أبناء إبراهيم ذكر شرف آبائه فذكر نوحاً الذي هو آدم الثاني وقال : ﴿ من قبل ﴾ تشبيهاً على قدمه وفي ذكره لطيفة وهي أن نوحاً عليه السلام عبدت الأصنام في زمانه ، وقومه أول قوم عبدوا الأصنام ووحد هو الله تعالى ودعا إلى عبادته ورفض تلك الأصنام وحكى الله عنه مناجاته لربه في قومه حيث قالوا : ﴿ لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودًّا ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً ﴾ وكان إبراهيم عبدت الأصنام في زمانه ووحد هو الله تعالى ودعا إلى رفضها فذكر الله تعالى نوحاً وأنه هداه كما هدى إبراهيم .

*(15/240)*

﴿ ومن ذريته داود وسليمان ﴾ قيل : ومن ذرية نوح عاد الضمير عليه لأنه أقرب مذكور ولأن في جملتهم لوطاً وهو ابن أخي ابراهيم فهو من ذرية نوح لا من ذرية ابراهيم ، وقيل : ومن ذرية ابراهيم عاد الضمير عليه لأنه المقصود بالذكر ، قال ابن عباس : هؤلاء الأنبياء كلهم مضافون إلى ذرية ابراهيم وإن كان فيهم من لا يلحقه بولادة من قبل أم ولا أب ، لأن لوطاً ابن أخي إبراهيم والعرب تجعل العمّ أباً ، وقال أبو سليمان الدمشقي : ووهبنا له لوطاً في المعاضدة والنصرة انتهى .

قالوا : والمعنى وهدينا أو ووهبنا ﴿ من ذريته داود وسليمان ﴾ وقرنهما لأنهما أب وابن ولأنهما ملكان نبيان وقدم داود لتقدمه في الزمان ولكونه صاحب كتاب ولكونه أصلاً لسليمان وهو فرعه .

﴿ وأيوب ويوسف ﴾ قرنهما لاشتراكهما في الامتحان أيوب بالبلاء في جسده ونبذ قومه له ويوسف بالبلاء بالسجن ولغربته عن أهله ، وفي مآلهما بالسلامة والعافية ، وقدم أيوب لأنه أعظم في الامتحان .

﴿ وموسى وهارون ﴾ قرونهما لاشتراكهما في الأخوة وقدّم موسى لأنه كليم الله .

﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ أي مثل ذلك الجزاء من إيتاء الحجة وهبة الأولاد الخيرين نجزي من كان محسناً في عبادتنا مراقباً في أعماله لنا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إسحاق وَيَعْقُوبَ ﴾ عطفٌ على قوله ( تعالى ) : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ﴾ الخ ، فإن عطفَ كلٍ من الجملة الفعلية والاسميةِ على الأخرى مما لا نزاعَ في جوازه ولا مَساغ لعطفه على ( آتيناها ) ، لأن له محلاً من الإعراب نصْباً ورفعاً حسبما بُيّن من قبلُ ، فلو عُطف هذا عليه لكان في حُكمه من الحالية والخبرية المستدعيتين للرابط ولا سبيلَ إليه هاهنا ﴿ كَلاًّ ﴾ مفعولٌ لِمَا بعده ، وتقديمُه عليه للقصر ، لكن لا بالنسبة إلى غيرهما مطلقاً ، بل بالنسبة إلى أحدهما أي كلُّ واحدٍ منهما ﴿ هَدَيْنَا ﴾ لا أحدَهما دون الآخَر ، وتركُ ذكر المهدى إليه لظهور أنه الذي أوتيَ إبراهيمُ وأنهما مقتدِيان به ﴿ وَنُوحاً ﴾ منصوبٌ بمضمر يفسّره ﴿ هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبلِ إبراهيمَ عليه السلام ، عَدَّ هُداه نعمةً على إبراهيمَ عليه السلام لأن شرفَ الوالدِ سارٍ إلى الولد ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ ﴾ الضمير لإبراهيمَ ، لأن مَساقَ النظمِ الكريم لبيانِ شؤونه العظيمةِ من إيتاءِ الحجةِ ورفعِ الدرجاتِ وهبةِ الأولادِ الأنبياءِ وإبقاءِ هذه الكرامةِ في نسله إلى يوم القيامة ، كلُّ ذلك لإلزام مَنْ ينتمي إلى ملتِه عليه السلامُ من المشركين واليهود ، وقيل : لنوحٍ ، لأنه أقربُ ، ولأن يونُسَ ولوطاً

ليسا من ذرّيةِ إبراهيمَ ، فلو كان الضميرُ له لاختصَّ بالمعدودين في هذه الآية والتي بعدها ، وأما المذكورون في الآية الثالثةِ فعطفٌ على ( نوحاً ) وروي عن ابن عباس أن هؤلاءِ الأنبياءَ كلَّهم مُضافون إلى ذرّيةِ إبراهيمَ وإن كان منهم من لم يلْحَقه بولادةٍ من قِبَلِ أمَ ولا أب ، لأن لوطاً ابنُ أخي إبراهيم ، والعربُ تجعل العمَّ أباً ، كما أخبر الله تعالى عن أبناءِ يعقوبَ أنهم قالوا : ﴿ نَعْبُدُ إلهك وإله آبَائِكَ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ﴾ مع أن إسماعيل عمُّ يعقوب .

*(17/240)*

---

﴿ دَاوُودَ وسليمان ﴾ منصوبان بمُضمرٍ مفهومٍ مما سبق وكذا ما عُطف عليهما ، وبه يتعلق ( من ذريته ) وتقديمه على المفعول الصريح للاهتمام بشأنه مع ما في المفاعيلِ من نَوْع طولٍ ربما يُخلُّ تأخيرُه بتجاوب النظم الكريم ، أي وهدينا من ذريته داودَ وسليمان ﴿ وَأَيُّوبَ ﴾ هو ابنُ أموصَ من أسباطِ عيصِ بنِ إسحاقَ ﴿ وَيُوسُفَ وموسى وهارون ﴾ أو بمحذوفٍ وقع حالاً من المذكورين أي وهدينا هم حال كونهم من ذريته ﴿ وكذلك ﴾ إشارةٌ إلى ما يُفهم من النظم الكريم من جزاءِ إبراهيمَ عليه السلام ، ومحلُّ الكاف النصبُ على أنه نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ ، وأصلُ التقدير ﴿ نَجْزِى المحسنين ﴾ جزاءً مثلَ ذلك

الجزاءِ ، والتقديمُ للقصر ، وقد مر تحقيقُه مراراً ، والمرادُ بالمحسنين الجنسُ ، وبمماثلة جزائِهم لجزائه عليه السلام مطلقُ المشابهةِ في مقابلةِ الإحسانِ بالإحسان والمكافأةِ بين الأعمال والأجْزِية من غير بخسٍ لا المماثلةُ من كل وجه ، ضرورةَ أن الجزاءَ بكثرةِ الأولاد الأنبياءِ مما اختص به إبراهيمُ عليه السلام ، والأقربُ أن لامَ المحسنين للعهد ، وذلك إشارةٌ إلى مصدر الفعل الذي بعده ، وهو عبارةٌ عما أوتيَ المذكورون من فنُون الكرامات ، وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو طبقتِه ، والكافُ لتأكيد ما أفاده اسمُ الإشارة من الفخامة ، ومحلُّها في الأصل النصبُ على أنه نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ وأصل التقدير ونجزي المحسنين المذكورين جزاء كائناً مثل ذلك الجزاء فقدم الفعل لإفادة القصر واعتبرت الكاف مُقحَمةٌ للنكتة المذكورة ، فصارَ المشارُ إليه نفسَ المصدر المؤكد لا نعتاً له ، أي وذلك الجزاءَ البديعَ نجزي المحسنين المذكورين لا جزاءً آخرَ أدنى منه ، والإظهارُ في موضع الإضمارِ للثناء عليهم بالإحسان الذي هو عبارةٌ عن الإتيان بالأعمال الحسنة على الوجه اللائق الذي هو حُسْنُها الوصفيُّ المقارنُ لحُسنها الذاتي ، وقد فسَّره عليه الصلاة والسلام بقوله : " أن تعبدَ الله كأنك تراه ، فإن لم تكنْ تراه فإنه يراك " والجملة اعتراضٌ مقرِّرٌ لما قبلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(18/240)

وقال الآلوسى :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ ﴾ أي لإبراهيم عليه السلام ﴿ إسحاق ﴾ وهو ولده من سارة عاش مائة وثمانين سنة .

وفي "نديم الفريد" أن معنى إسحاق بالعربية الضحاك ﴿ وَيَعْقُوبَ ﴾ وهو ابن إسحاق عاش مائة وسبعاً وأربعين سنة ، والجملة عطف على قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ﴾ [ الأنعام : 83 ] الخ ، وعطف الفعلية على الاسمية مما لا نزاع في جوازه ، ويجوز على بعد أن تكون عطفاً على جملة ﴿ ءاتيناها ﴾ [ الأنعام : 83 ] بناء على أنها لا محل لها من الإعراب كما هو أحد الاحتمالات .

وقوله تعالى : ﴿ كُلاًّ ﴾ مفعول لما بعده وتقديمه عليه للقصر لا بالنسبة إلى غيرهما بل بالنسبة إلى أحدهما أي كل واحد منهما ﴿ هَدَيْنَا ﴾ لا أحدهما دون الآخر ، وقيل : المراد كلا من الثلاثة ، وعليه الطبرسي .

واختار كثير من المحققين الأول لأن هداية إبراهيم عليه السلام معلومة من الكلام قطعا وترك ذكر المهدي إليه لظهور أنه الذي أوتى إبراهيم عليه السلام فإنهما ( متعبدان به .

وقال الجبائي : المراد هديناهم بنيل الثواب والكرمات .

﴿ وَنُوحاً ﴾ قال شيخ الإسلام : منصوب بمضمر يفسره ﴿ هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ ولعله إنما لم

يجعله مفعولاً مقدماً للمذكور لئلا يفصل بين العاطف والمعطوف بشيء أو يخلو التقديم عن الفائدة السابقة أعني القصر ولا يخلو ذلك عن تأمل أي من قبل إبراهيم عليه السلام ونوح كما قال الجواليقي أعجمي معرب زاد الكرماني : ومعناه بالسريانية الساكن ، وقال الحاكم في "المستدرك" : إنما سمي نوحاً لكثرة بكائه على نفسه واسمه عبد الغفار ، والأول : أثبت عندي ، وأكثر الصحابة رضي الله تعالى عنه كما قال الحاكم أنه عليه السلام كان قبل إدريس عليه السلام .

وذكر النسابون أنه ابن لمك بفتح اللام وسكون الميم بعدها كاف ابن متوشلخ بفتح الميم وتشديد المثناة المضمومة بعدها واواً ساكنة وفتح الشين المعجمة واللام والخاء المعجمة ابن أخنوخ بفتح المعجمة وضم النون الخفيفة وبعدها واو ساكنة ثم معجمة وهو إدريس فيما يقال .

*(19/240)*

---

وروى الطبراني عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال : " قلت يا رسول الله من أول الأنبياء ؟ قال : آدم عليه السلام قلت : ثم من ؟ قال نوح عليه السلام : وبينهما عشرة قرون " وهذا ظاهر في أن إدريس عليه السلام كان بعد وفاة آدم عليه السلام لم يكن قبله وذكر ابن

جرير أن مولده عليه السلام بمائة وستة وعشرين عاماً .

وذكره سبحانه هنا قيل لأنه لما ذكر سبحانه إنعامه على خليله من جهة الفرع ثنى بذكر إنعامه عليه من جهة الأصل فإن شرف الوالد سار إلى الولد ، وقيل : إنما ذكره سبحانه لأن قومه عبدوا الأصنام فذكره ليكون له به أسوة ، وأما أنه ذكر لما مر فلا إذ لا دلالة على علاقة الأبوة ليقبل ودلالة ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ على ذلك غير ظاهرة .

وقنع بعضهم بالشهرة عن ذلك .

*(20/240)*

---

﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ ﴾ الضمير عند جمع لإبراهيم عليه السلام لأن مساق النظم الجليل لبيان شؤونه وما منَّ الله تعالى به عليه من إيتاء الحجة ورفع الدرجات وهبة الأولاد الأنبياء وإبقاء هذه الكرامة في نسله كل ذلك لإلزام من ينتمي إلى ملته من المشركين واليهود ، واختار آخرون كونه لنوح عليه السلام لأنه أقرب ولأنه ذكر في الجملة لوطاً عليه السلام وليس من ذرية إبراهيم بل كان ابن أخيه كما سيأتي إن شاء الله تعالى آمن به وشخص معه مهاجراً إلى الشام فأرسله الله تعالى إلى أهل سدوم ، وكذلك يونس عليه السلام لم يكن من ذريته فيما ذكر محيي السنة فلو كان الضمير له لاختص بالمعدودين في هذه الآية والتي بعدها ،

وأما المذكورون في الآية الثالثة فعطف على ﴿ نُوحاً ﴾ ولا يجب أن يعتبر في المعطوف ما هو قيد في المعطوف عليه ، ولا يضر ذكر إسماعيل هناك وإن كان من ذرية إبراهيم عليهما السلام لأن السكوت عن إدراجه في الذرية لا يقتضي أنه ليس منهم وإنما لم يعد كما قال بعض المحققين : في موهبته كإسحاق كانت في كبره وكبر زوجته فكانت في غاية الغرابة ، وذكر يعقوب لأن إبقاء النبوة بطناً بعد بطن غاية النعمة ، ولم يعطف ﴿ كُلاًّ هَدَيْنَا ﴾ لأنه مؤكد لكونه نعمة .

ومن الناس من ادعى أن يونس عليه السلام من ذرية إبراهيم عليه السلام وصرح في "جامع الأصول" إنه كان من الأسباط في زمن شعيا ، وحينئذ يبقى لوط فقط خارجاً ولا يترك له إرجاع الضمير على إبراهيم وجعله مختصاً بالمعدودين في الآيات الثلاث لأنه لما كان ابن أخيه آمن به وهاجر معه أمكن أن يجعل من ذريته على سبيل التغليب كما قال الطيبي .

*(21/240)*

---

وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن هؤلاء الأنبياء عليهم السلام كلهم مضافون إلى ذرية إبراهيم وإن كان منهم من لم يلحقه بولادة من قبل أم ولا أب لأن لوطاً ابن أخي إبراهيم والعرب تجعل العم أباً كما أخبر الله تعالى عن أبناء يعقوب أنهم قالوا ﴿ نَعْبُدُ إلهك

وإله آبَائِكَ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ﴾ [ البقرة : 133 ] مع أن إسماعيل عم يعقوب .

والجار والمجرور متعلق بفعل مضمر مفهوم مما سبق ، وقيل : بمحذوف وقع حالاً من المذكورين في الآية واختير الأول أي وهدينا من ذريته .

﴿ دَاوُودُ ﴾ هو كما قال الجلال السيوطي ابن إيشا بكسر الهمزة وسكون الياء المثناة التحتية وبالشين المعجمة ابن عوبر بمهملة وموحدة بوزن جعفر ابن عابر بموحدة ومهملة مفتوحة ابن سلمون بن يخيثون بن عمي بن يارب بتحتية وآخره باء موحدة ابن رام بن حضرموت بمهملة ثم معجمة بن فارص بفاء وآخره مهملة بن يهوذا بن يعقوب .

قال كعب : كان أحمر الوجه سبط الرأس أبيض الجسم طويل اللحية فيها جعودة حسن الصوت والخلق وجمع له بين النبوة والملوك : ونقل النووي عن المؤرخين أنه عاش مائة سنة ومدة ملكه منها أربعون وله اثنا عشر ابناً .

﴿ وسليمان ﴾ ولده ، قال كعب : كان أبيض جسيماً وسيماً وضيئاً جميلاً خاشعاً متواضعاً كان أبوه يشاوره في كثير من أموره في صغر سنه لوفور عقله وعلمه ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه ملك الأرض ، وعن المؤرخين أنه ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة وابتدأ بناء بيت المقدس بعد ملكه بأربع سنين وتوفي وله ثلاث وخمسون سنة ، وتقديم المفعول الصريح للاهتمام بشأنه مع ما في المفاعيل من نوع طول ربما يخل تأخيره

بتجاوب النظم الكريم ﴿ وَأَيُّوبَ ﴾ قال ابن جرير : هو ابن موص بن روم بن عيص بن إسحاق .

(22/240)

---

وقيل : ابن موص بن تارخ بن روم الخ ، وحكى ابن عساكر أن أمه بنت لوط عليه السلام وأن أباه ممن آمن بإبراهيم فهو قبل موسى عليه السلام ؛ وقال ابن جرير : إنه كان بعد شعيب ، وقال ابن أبي خيثمة كان بعد سليمان ، وروى الطبراني أن مدة عمره كانت ثلاثاً وتسعين سنة ﴿ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ ﴾ وهو على الصحيح المشهور ابن يعقوب بن إبراهيم ؛ ويشهد له ما أخرجه ابن حبان في "صحيحه" من حديث أبي هريرة مرفوعاً "إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم" .

عاش مائة وعشرين سنة وفيه ست لغات تثليث السين مع الياء والهمز والصواب أنه أعجمي لا اشتقاق له .

﴿ وموسى ﴾ وهو ابن عمران ابن يصهر بن ماهيث بن لاوي بن يعقوب ولا خلاف في نسبه وهو اسم سرياني .

وأخرج أبو الشيخ من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : إنما سمي

موسى لأنه ألقي بين شجر وماء فالماء بالقبطية مو والشجر شا ، وفي الصحيح وصفه بأنه آدم طوال جعد كأنه من رجال شنوءة وعاش كما قال الثعلبي مائة وعشرين سنة ﴿ وهارون ﴾ أخوه شقيقه ، وقيل : لأمه ، وقيل : لأبيه فقط حكاهما الكرماني في "عجائبه" مات قبل موسى عليهما السلام وكان ولد قبله بسنة وفي بعض أحاديث الإسراء " صعدت إلى السماء الخامسة فإذا أنا بهارون ونصف لحيته أبيض ونصفها أسود تكاد تضرب سرته من طولها فقلت : يا جبريل من هذا ؟ قال : المحبب في قومه هارون بن عمران " وذكر بعضهم أن معنى هارون بالعبرانية المحبب .

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ قيل : أي نجزيهم مثل ما جزينا إبراهيم عليه السلام برفع درجاته وكثرة أولاده والنبوة فيهم ، والمراد مطلق المشابهة في مقابلة الإحسان بالإحسان والمكافآت بين الأعمال والأجزية من غير بخس لا المماثلة من كل وجه لأن اختصاص إبراهيم صلى الله عليه وسلم بكثرة النبوة في عقبه أمر مشهور .

واختار بعض المحققين كون التشبيه على حد ما تقدم في قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [ البقرة : 341 ] ونظائره ، وأل في ﴿ المحسنين ﴾ للعهد ، والإظهار في موضع الإضمار للثناء عليهم بالإحسان الذي هو عبارة عن الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق الذي هو حسنها الوصفي المقارن لحسنها الذاتي ، وقد فسره صلى الله عليه وسلم

بقوله : " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " والجملة اعتراض مقرر لما قبلها .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

(23/240)

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾

إننا نعرف أن إسحاق هو الابن الثاني لسيدنا إبراهيم بعد إسماعيل ، ويعقوب ابن إسحاق ، وساعة ترى الهِبَة افهم أنها ليست هي الحق ، فالهبة شيء ، و" الحق " شيء آخر . الهبة . إعطاء معطٍ لمن لا يستحق ؛ لأنك حين تعطي إنساناً ما يستحقه فليس ذلك هبة بل حقاً .

والحق سبحانه وتعالى يوضح : إياكم أن تعتقدوا أن أحداً من خلقي له حتى عندي إلا ما أجعله أنا حقاً له ، ولكن كل شيء هِبة مني . والقمة الأولى في الهبات والعطايا هي قمة السيادة الأولى في الكون للإنسان ، ثم التكاثر من نوعية الذكر والأنثى ، حيث الذرِّية من البنين والبنات . يقول سبحانه : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور ﴾ [ الشورى : 49 ] .

فهبة الأولاد لا تأتي من مجرد أنه خلق الرجل والمرأة ، وأنّ اللقاء بينهما يوجد الأولاد بل يقول سبحانه : ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً ﴾ [ الشورى : 50 ]

.

*(24/240)*

---

فلو أن المسألة مجرد إجراء ميكانيكي لجاء الأولاد ، لكن الأمر ليس كذلك ؛ فمن يفهم في الملكوت تطمئن نفسه أن ذلك حاصل عن حكمة حكيم يعرف أنها هبة من الله ، حتى العقم هو هبة أيضاً ؛ فالذي يستقبله من الله على أنه هبة ويرضاه ، ولم ينظر إلى أبناء الغير بحقد أو بحسد سيجعل الله كل من تراه أبناء لك بدون تعب في حمل أو ولادة ، وبدون عناية ورعاية منك طول عمرك . ومن يرض بهبة الله من الإناث سيجد أنهن رزق من الله ويبعث له من الذكور من يتزوج الإناث ويكونون أطوع له من أبنائه ؛ لأنه رضي . إذن لا بد أن تأخذ الهبة في العطاء ، والهبة في المنع .

والحق يوضح : أنا وهبت لإبراهيم إسحاق ، ومن وراء إسحاق يعقوب ، والإنسان منا يعرف أن الإنسان بواقع أقضية الكون ميّت لا محالة ، وحين يكبر الإنسان يرغب في ولد يصل اسمه في الحياة وكأنه ضمن ذلك ، فإن جاء حفيد يكون الجد قد ضمن نفسه جيلاً

آخر . ولكن لنعرف قول الحق : ﴿ المال والبنون زِينَةُ الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ [ الكهف : 46 ] .

وبقاء الذِّكْرِ في الدنيا لا لزوم له إن كان الله يحط من قدر الإنسان في الآخرة ! !

ونلحظ أن الحق قال في موقع آخر : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ واجعله رَبِّ رَضِيّاً ﴾ [ مريم : 5-6 ] .

وامتن الله على إبراهيم لا بإسحاق فقط بل بيعقوب أيضاً ، وفوق ذلك قال : ﴿ كُلاًّ هَدَيْنَا ﴾ أي أنهما كانا من أهل الهداية . ﴿ وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ أي أن الهداية لا تبدأ بإسحاق ويعقوب ، بل بنوح من قبل : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وموسى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(25/240)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

في " وهبنا " وجهان :

أصحهما : أنها مَعْطُوفةٌ على الجملة الاسمية من قوله : " وتِلْكَ حُجَّتُنَا " وعطف الاسْمِيَّة على الفعلية وعكسه جائز .

والثاني : أجازه ابن عطيَّة ، وهو أن يكون نَسَقاً علت " آتَيْنَاهَا " ورَدَّهُ أبو حيَّان بأن " آتَيْنَاهَا " لها مَحَلٌّ من الإعراب ، إمَّا الحال ، وهذه لا مَحَلَّ لها ؛ لأنها لو كانت مَعْطُوفَةً على الخَبَر أو الحال لاشترط فيها رابط ، و " كُلاً " مَنْصُوبٌ بـ " هَدَيْنَا " بعده .

والتقدير : وكلّ واحدٍ من هؤلاء المذكورين .

قوله : ﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْل ﴾ فالمُرَادُ أَنَّهُ - تعالى - جعل إبراهيم في أشْرَفِ الأَنْسَابِ ؛ لأنه رَزَقَهُ أوْلاداً مثل إسحاق ويعقوب ، وجعل أنبياء بني إسرائيل من نَسْلِهِمَا ، وأخرجه من أصْلابِ آباءِ طَاهِرِينَ مثل " نوح " و " شيث " و " إدريس " ، والمقصود بيانُ كرامَةِ إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - بحسب الأولاد والآباء .

قوله : " من ذُرِّيتِهِ " " الهاء " فيها وجهان :

(26/240)

---

أحدهما : أنها تعود على نُوح ؛ لأنه أقْرَبُ مذكور ، ولأنَّ إبراهيم ومن بعده من الأنبياء كلهم مَنْسُوبُون إليه ، [ ولأنه ذُكر من جملتهم لُوطاً ، وهو كان ابن أخي إبراهيم أو أخته ، ذكره

مَكِّي وغيره ، وما كان من ذُرِّيَّتِهِ ، بل كان من ذُرِّيَّةِ نُوحٍ عليه السلام ، وكان رسولاً في زمن إبراهيم .

وأيضاً : يونس – عليه الصَّلاة والسَّلام – ما كان من ذُرِّيَّةِ إبراهيم .

وأيضاً قيل : إنَّ ولد الإنسان لا يُقالُ : إنَّهُ ذُرِّيَّةٌ ، فعلى هذا إسماعيل – عليه الصلاة والسلام – ما كان من ذُرِّيَّةِ إبراهيم ] .

الوجه الثاني : أنها تعود على إبراهيم ؛ لأنه المحدث عنه والقِصَّةُ مَسُوقَةٌ إلى ذكره وخبره ، وإنما ذكر نوحاً ، لأن إبراهيم كونه من أولاده أحد موجبات رَفْعِهِ إبراهيم .

ولكن رُدَّ هذا القَوْلُ بما تقدَّم من كون لوط ليس من ذُرِّيَّتِهِ إنما هو ابن أخيه أو أخته ذكر ذلك مكي وغيره .

وقد أجيب عن ذلك فقال ابن عباس : هؤلاء الأنبياء كلهم مُضَافُونَ إلى ذُرِّيَّةِ إبراهيم ، وإن كان فيهم من لم يلحقه بولادةٍ من قبلِ أمٍّ ولا أبٍ ؛ لأن لُوطاً ابن أخي إبراهيم ، والعربُ تجعلُ العَمَّ أباً ، كما أخبر اللَّهُ – تعالى – عن ولدِ " يعقوب " أنهم قالوا : ﴿ نَعْبُدُ إلهك وإله آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ [ البقرة : 133 ]

وقال أبو سليمان الدِّمَشْقِيُّ : " ووهَبْنَا لَهُ لُوطاً " في المُعَاضَدةِ والمُناصَرَةِ ، فعلى هذا يكون " لوطاً " منصوباً بـ " وَهَبْنَا " من غير قَيْدٍ ؛ لكونه من ذُرِّيَّتِهِ .

وقوله : " داود " وما عطف عليه مَنْصُوبٌ إما بفعل الهِبَةِ ، وإما بفعل الهداية .

و" مِنْ ذُرِّيَّتِهِ " يجوز فيها وجهان :

أحدهما : أنه متعلّق بذلك الفعل المحذوف ، وتكون " مِنْ " لابتداء الغاية .

والثاني : أنها حال أي : حال كون هؤلاء الأنبياء مَنْسُوبِينَ إليه .

قوله : " وكذَلِكَ نَجْزِي " الكاف في مَحَلِّ نَصْبٍ نعتاً لمصدر محذوف ، أي : نجزيهم جَزَاءً مِثْلَ ذلك الجَزَاء ، ويجوز أن يكون في مَحَلِّ رفع ، أي الأمر كذلك ، وقد تقدَّم ذلك في قوله : " وكَذَلِكَ نُرِي إبْرَاهِيمَ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 263 . 265 ﴾ . باختصار .

(27/240)

---

قوله تعالى ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (85) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان المذكوران قبله ممن سلطهما على الملوك ، أتبعهما من سلط الملوك عليهما بالقتل فقال : ﴿ وزكريا ويحيى ﴾ ثم أتبعهما من عاندهما الملوك ولم يسلطوا عليهما وأدام الله سبحانه حياتهما إلى أن يريد سبحانه فقال : ﴿ وعيسى وإلياس ﴾ ولما كان هؤلاء

الأربعة من الصابرين ، قال مادحاً لهم على وجه يعم من قبلهم : ﴿ كل ﴾ أي من المذكورين ﴿ من الصالحين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 667 ﴾

فصل

قال أبو حيان :

﴿ وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس ﴾

قرن بينهم لاشتراكهم في الزهد الشديد والإعراض عن الدنيا وبدأ بزكريا ويحيى لسبقهما عيسى في الزمان وقدّم زكريا لأنه والد يحيى فهو أصل ، ويحيى فرع وقرن عيسى وإلياس لاشتراكهما في كونهما لم يموتا بعد وقدّم عيسى لأنه صاحب كتاب ودائرة متسعة ، وتقدّم ذكر أنساب هؤلاء الأنبياء إلا إلياس وهو إلياس بن بشير بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران ، وروي عن ابن مسعود أن ادريس هو الياس ورد ذلك بأن إدريس هو جد نوح عليهما السلام تظافرت بذلك الروايات ، وقيل : الياس هو الخضر وتقدّم خلاف القرّاء في زكريا مداً وقصراً ، وقرأ ابن عباس باختلاف عنه والحسن وقتادة بتسهيل همزة إلياس وفي ذكر عيسى هنا دليل على أن ابن البنت داخل في الذرية وبهذه الآية استدل على دخوله في الوقف على الذرية ، وسواء كان الضمير في ﴿ ومن ذريته ﴾ عائداً على نوح أو على إبراهيم فنقول : الحسن والحسين ابنا فاطمة رضي الله عنهم هما من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم وبهذه الآية استدل أبو جعفر الباقر ويحيى بن يعمر على ذلك ، وكان

الحجاج بن يوسف طلب منهما الدليل على ذلك إذ كان هو ينكر ذلك فسكت في قصتين جرتا لهما معه .

﴿ كل من الصالحين ﴾ لا يختص كل بهؤلاء الأربعة ، بل يعم جميع من سبق ذكره من الأربعة عشر نبياً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

*(28/240)*

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَزَكَرِيَّا ﴾ وهو ابنُ آذَنَ ﴿ ويحيى ﴾ ابنُه ﴿ وَعِيسَى ﴾ هو ابنُ مريم ، وفيه دليلٌ على أن الذرية تتناول أولادَ البنات ﴿ وَإِلْيَاسَ ﴾ قيل : هو إدريسُ جدُّ نوحٍ ، فيكونُ البيانُ مخصوصاً ( بمِنْ ) في الآية الأولى ، وقيل : هو من أسباطِ هارونَ أخي موسى عليهما السلام ﴿ كُلٌّ ﴾ أي كلُّ واحدٍ من أولئك المذكورين ﴿ مّنَ الصالحين ﴾ أي من الكاملين في الصلاحِ الذي هو عبارةٌ عن الإتيان بما ينبغي ، والتحرُّز عما لا ينبغي ، والجملة اعتراضٌ جيءَ به للثناءِ عليهم بالصلاح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

فصل

قال الآلوسى :

﴿ وَزَكَرِيَّا ﴾ هو ابن ازن بن بركيا كان من ذرية سليمان عليهما السلام وقتل بعد قتل ولده وكان له يوم بشر به اثنتان وتسعون ، وقيل : تسع وتسعون ، وقيل : مائة وعشرون سنة وهو اسم أعجمي وفيه خمس لغات أشهرها المد والثانية القصر وقرىء بهما في السبع وَزَكَرِيُّ بتشديد الياء وتخفيفها وزكر كقلم .

﴿ ويحيى ﴾ ابنه وهو اسم أعجمي ، وقيل : عربي ، وعلى القولين كما قال الواحدي لا ينصرف ، وسمي بذلك على القول الثاني لأنه حيي به رحم أمه ، وقيل : غير ذلك ﴿ وَعِيسَى ﴾ ابن مريم وهو اسم عبراني أو سرياني وفي "الصحيح" "أنه ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس" وفي ذكره عليه السلام دليل على أن الذرية يتناول أولاد البنات لأن انتسابه ليس إلا من جهة أمه وأورد عليه أنه ليس له أب يصرف إضافته إلى الأم إلى نفسه فلا يظهر قياس غيره عليه في كونه ذرية لجده من الأم .

*(29/240)*

---

وتعقب بأن مقتضى كونه بلا أب أن يذكر في حيز الذرية وفيه منع ظاهر والمسألة خلافية ، والذاهبون إلى دخول ابن البنت في الذرية يستدلون بهذه الآية وبها احتج موسى الكاظم رضي الله تعالى عنه على ما رواه البعض عن الرشيد .

وفي "التفسير الكبير" "أن أبا جعفر رضي الله تعالى عنه استدل بها عند الحجاج بن يوسف" وبآية المباهلة حيث دعا صلى الله عليه وسلم الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما بعد ما نزل ﴿ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ ﴾ [آل عمران : 61] .

وادعى بعضهم أن هذا من خصائصه صلى الله عليه وسلم وقد اختلف إفتاء أصحابنا في هذه المسألة ، والذي أميل إليه القول بالدخول .

﴿ وَإِلْيَاسَ ﴾ قال ابن إسحاق في "المبتدأ" : هو ابن يس بن فنحاص بن العيزار بن هارون أخي موسى بن عمران عليهم السلام .

وحكى القتبي أنه من سبط يوشع ، وقيل : من ولد إسماعيل عليه السلام .

وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه إدريس وهو على ما قال ابن إسحاق يرد بن مهلاييل بن أنوش بن قينان بن شيث بن آدم وهو جد نوح كما أشرنا إليه وروي ذلك عن وهب بن منبه ، وفي "المستدرك" عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه كان بين نوح وإدريس ألف سنة وعلى القول بأنه قبل نوح يكون البيان مختصاً بمن في الآية الأولى ، ونص الشهاب أن قوله تعالى : ﴿ وَزَكَرِيَّا ﴾ وما بعده حينئذ معطوفاً على مجموع الكلام السابق .

﴿ كُلٌّ ﴾ أي كل واحد من أولئك المذكورين ﴿ مّنَ الصالحين ﴾ أي الكاملين في الصلاح الذي هو عبارة عن الإتيان بما ينبغي والتحرز عما لا ينبغي وهو مقول بالتشكيك فيوصف

بما هو من أعلى مراتب الأنبياء عليهم السلام والجملة اعتراض جيء بها للثناء عليهم بمضمونها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

(30/240)

---

الآية تدل على أن الحسن والحسين من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن الله تعالى جعل عيسى من ذرية إبراهيم مع أنه لا ينتسب إلى إبراهيم إلا بالأم ، فكذلك الحسن والحسين من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن انتسبا إلى رسول الله بالأم وجب كونهما من ذريته ، ويقال : إن أبا جعفر الباقر استدل بهذه الآية عند الحجاج بن يوسف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ ﴾

(31/240)

---

قوله تعالى ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (86) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

ثم أتبعهم من لم يكن بينهما وبين الملوك أمر ، وهدى بهما من كان بين ظهرانيه فقال :

﴿ وإسماعيل واليسع ﴾ هذا إن كان اليسع هو ابن أخطوب ابن العجوز خليفة إلياس ، كما ذكر البغوي في سورة الصافات أن الله تعالى أرسل إلى إلياس – وهو من سبط لاوي من نسل هارون عليه السلام – فرساً من نار فركبه فرفعه الله وقطع عنه لذة المطعم والمشرب ، وكساه الريش ، فكان إنسياً ملكياً أرضياً سماوياً ، وسلط الله على آجب – يعني الملك الذي سلط على إلياس – عدواً فقتله ونَبأ الله اليسع وبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل ، وأيده فآمنت به بنو إسرائيل وكانوا يعظمونه وإن كان اليسع هو يوشع بن نون – كما قال زيد بن أسلم – فالمناسبة بينه وبين إسماعيل عليهما السلام أن كلاًّ منهما كان صادق الوعد ، لأن يوشع أحد النقيبين اللذين وفيا لموسى عليه السلام حين بعثهم يجسون بلاد بيت المقدس كما أشير إليه في قوله تعالى ﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بني إسراءيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً ﴾ [ المائدة : 12 ] وقوله ﴿ وقال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ﴾ [ المائدة : 23 ] وأيضاً فكل منهما كان سبب عمارة بلد الله الأعظم بالتوحيد ، فإسماعيل سبب عمارة مكة المشرفة ، ويوشع سبب عمارة البلدة المقدسة – كما سيأتي في سورة

يونس إن شاء الله تعالى .

ولما كان إسماعيل واليسع ممن هدى الله بهما قومهما من غير عذاب ، أتبعهما مَن هدى الله قومه بالعذاب وأنجاهم بعد إتيان مخايله فقال : ﴿ ويونس ﴾ أي هديناه ؛ ولما انقضت ذرية إبراهيم عليه السلام ، ختم بابن أخيه الذي ضل قومه فهلكوا بغتة ، فبين قصتي هذين الآخرين طباق من جهة الهلاك والنجاة ، ووفاق من حيث إن كلاًّ منهما أرسل إلى غير قومه فقال : ﴿ ولوطاً ﴾ ثم وصفهم بما يعم من قبلهم فقال : ﴿ وكلاًّ ﴾ أي ممن ذكرنا ﴿ فضلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة بتمام العلم وشمول القدرة ﴿ على العالمين ﴾ فكل هؤلاء الأنبياء ممن هداه الله بهداه وجاهد في الله حق جهاده ، وبدأهم تعالى بإبراهيم عليه السلام وختمهم بابن أخيه لوط عليه السلام على هذه المناسبة الحسنة ؛ وقيل : إن الله تعالى أهلك قوم إبراهيم – نمرود وجنوده – بعد هجرته ، فإن صح ذلك تمت المناسبة في هلاك كل من قومه وقوم ابن أخيه لوط بعد خروج نبيهم عنهم ، فيكون بينهما وفاق كما كان بين قصته وقصة يونس عليه السلام طباق .

*(32/240)*

ومن لطائف ترتيبهم هكذا أيضاً أن إسماعيل عليه السلام يوازي نوحاً عليه السلام ، فإنه رابع في العدّ لهذا العقد إذا عددته من آخره ، كما أن نوحاً عليه السلام رابعه إذا عددته من أوله ، والمناسبة بينهما أن نوحاً عليه السلام نشر الله منه الآدميين حتى كان منهم إبراهيم عليه السلام الذي جعله الله أباً للأنبياء والمرسلين ، وإسماعيل عليه السلام نشر الله منه العرب الذين هم خلاصة الخلق حتى كان منهم محمد صلى الله عليه وسلم الذي جعله الله خاتم الأنبياء والمرسلين ، فهذا كان بداية وهذا كان نهاية ، وأن المذكورين قبل ذرية إبراهيم عليه السلام وبعدها – وهما نوح ولوط عليهما السلام – أهلك الله قوم كل منهما عامة ، وغيب هؤلاء في جامد الأرض كما أغرق أولئك في مانع الماء ، وأشقى بكل منهما زوجته ، بياناً لأن الرسل كما يكونون لناس رحمة يكونون على قوم نقمة ، وأنه لا نجاة بهم ولا انتفاع إلا بحسن الاتباع ، وأن ابن عمران اشترك مع إبراهيم عليهم السلام في أن كلاًّ من ملكي زمانهم أمر بقتل الغلمان خوفاً ممن يغير دينه ويسلبه ملكه ، وكما أن الله تعالى أنجى إبراهيم عليه السلام وابن أخيه لوطاً عليه السلام من ملك زمانهما المدعي للإلهية فكذلك أنجى موسى وأخاه هارون عليهما السلام من ملك زمانهما المدعي للآلهة ، وأنجى ذرية إبراهيم بهما ، فإذا جعلت إبراهيم وابن أخيه لوطاً – لكونه تابعاً له – واحداً ، وموسى وأخاه هارون واحداً لمثل ذلك ، ونظمت أسماء جميع هذه الأنبياء في سلك النقي : لوط مع إبراهيم كموسى مع هارون ، وكان الأربعة واسطة عقدة ، فبين إبراهيم وموسى حينئذ سبعة كما

أن بين هارون ولوط سبعة ، وإذا ضممت إليهم المقصود بالذات المخاطب بهذه الآيات المأمور بقوله ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ [ الأنعام : 90 ] كان منزله في السلك بين ابن عمه لوط وأبيه إبراهيم ، ويكون من بين يديه تسعة ، ومن خلفه تسعة ، فمن إبراهيم إلى موسى تسعة ، ومن لوط إلى

هارون كذلك ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم واسط العقد ومكمل العقد ، فإنه العاشر من كل جانب ، فبه تكمل الهدى وإيجاب الردى ، وذلك طبق قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه : " مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين " وللبخاري نحوه عن جابر ، هذا مع اقترانه بأقرب أولي العزم رتبة ونسباً صاحب القصة إبراهيم عليه السلام ، وإن جعلت موسى وهارون عليهما السلام كشيء واحد كانا واسطة من الجانب الآخر ، فإن عددت من جهة إبراهيم عليه السلام كان بينه وبينهما ثمانية ، وإن عددت من جهة لوط عليه السلام كان كذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 667. 669 ﴾

(33/240)

فصل

قال أبو حيان :

﴿ وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً ﴾

المشهور أن إسماعيل هو ابن إبراهيم من هاجر وهو أكبر ولده ، وقيل : هو نبي من بني إسرائيل كان زمان طالوت وهو المعنى بقوله ﴿ إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله ﴾ واليسع قال زيد بن أسلم : هو يوشع بن نون ، وقال غيره : هو اليسع بن أخطوب بن العجوز ، وقرأ الجمهور واليسع كأن أل أدخلت على مضارع وسع ، وقرأ الأخوان والليسع على وزن فيعل نحو الضيغم واختلف فيه أهو عربي أم عجمي ، فأما على قراءة الجمهور وقول من قال : إنه عربي فقال : هو مضارع سمي به ولا ضمير فيه فأعرب ثم نكر وعرف بأل ، وقيل سمي بالفعل كيزيد ثم أدخلت فيه أل زائدة شذوذاً كاليزيد في قوله : رأيت الوليد بن اليزيد مباركاً . . .

(34/240)

ولزمت كما لزمت في الآن ، ومن قال : إنه أعجمي فقال : زيدت فيه أل ولزمت شذوذاً ، وممن نص على زيادة أل في اليسع أبو عليّ الفارسي وأما على قراءة الأخوين فزعم أبو عليّ أن أل فهي كهي في الحارث والعباس ، لأنهما من أبنية الصفات لكن دخول أل فيه شذوذ عن ما عليه الأسماء الأعجمية إذ لم يجيء فيها شيء على هذا الوزن كما لم يجيء فيها شيء فيه أل للتعريف ، وقال أبو عبد الله بن مالك الجياني ، ما قارنت أل نقله كالمسمى بالنضر أو بالنعمان أو ارتجاله كاليسع والسموأل ، فإن الأغلب ثبوت أل فيه وقد يجوز أن يحذف فعلى هذا لا تكون أل فيه لازمة واتضح من قوله : إن اليسع ليس منقولاً من فعل كما قال بعضهم ، وتقدّم أنه قال : يونس بضم النون وفتحها وكسرها وكذلك يوسف وبفتح النون وسين يوسف قرأ الحسن وطلحة ويحيى والأعمش وعيسى بن عمر في جميع القرآن وإنما جمع هؤلاء الأربعة لأنهم لم يبق لهم من الخلق أتباع ولا أشياع فهذه مراتب ست : مرتبة الملك والقدرة ذكر فيها داود وسليمان ، ومرتبة البلاء الشديد ، ذكر فيها أيوب ، ومرتبة الجمع بين البلاء والوصول إلى الملك ذكر فيها يوسف ، ومرتبة قوة البراهين والمعجزات والقتال والصولة ذكر فيها موسى وهارون ، ومرتبة الزهد الشديد والانقطاع عن الناس للعبادة ذكر فيها زكريا ويحيى وعيسى وإلياس ، ومرتبة عدم الاتباع ذكر فيها إسماعيل واليسع ويونس ولوطاً ، وهذه الأسماء أعجمية لا تجر بالكسرة ولا تنون إلا اليسع فإنه يجر بها ولا ينون وإلا لوطاً فإنه مصروف لخفة بنائه بسكون وسطه ، وكونه مذكراً وإن كان فيه

ما في إخوته من مانع الصرف وهو العلمية والعجمة الشخصية وقد تحاشى المسلمون هذا الاسم الشريف ، فقلّ من تسمى به منهم كأبي مخنف لوط بن يحيى ، ولوط النبي هو لوط بن هارون بن آزر وهو تارخ وتقدّم رفع نسبه .

*(35/240)*

---

﴿ وكلاًّ فضلنا على العالمين ﴾ فيه دلالة على أن الأنبياء أفضل من الأولياء خلافاً لبعض من ينتمي إلى الصوف في زعمهم أن الولي أفضل من النبي كمحمد بن العربي الحاتمي صاحب كتاب الفتوح المكية وعنقاء مغرب وغيرهما من كتب الضلال ، وفيه دلالة على أن الأنبياء أفضل من الملائكة لعموم العالمين وهم الموجودون سوى الله تعالى فيندرج في العموم الملائكة .

قال ابن عطية : معناه عالمي زمانهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وإسماعيل واليسع ﴾ وهو ابنُ أخطوبَ بنِ العجوز ، وقرىء واللَّيْسعَ وهو على القراءتين علم أعجميٌّ أُدخل عليه اللام ولا اشتقاق له ، ويقال : إنه يوشَعُ بن نون ، وقيل : إنه منقولٌ من مضارعِ وسِعَ واللام كما في يزيدَ في قوله من قال :

رأيتُ الوليدَ بنَ اليزيدَ مباركا . . . شديداً بأعباءِ الخِلافة كاهلُه

﴿ ويُونُسَ ﴾ وهو ابن متى ﴿ ولُوطاً ﴾ هو ابنُ هارونَ بنِ أخي إبراهيمَ عليه السلام ﴿ وكُلاًّ ﴾ أي وكلَّ واحدٍ من أولئك المذكورين ﴿ فَضَّلْنَا ﴾ بالنبوة لا بعضَهم دون بعض ﴿ عَلَى العالمين ﴾ على عالَمي عصرهم ، والجملةُ اعتراضٌ كأختَيْها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(36/240)

---

وقال الآلوسي :

﴿ وإسماعيل ﴾ هو كما قال النووي أكبر ولد إبراهيم عليه السلام ويقال كما نقل عن الجواليقي بالنون آخره قيل ومعناه : مطيع الله ﴿ واليسع ﴾ قال ابن جرير : هو ابن أخطوب بن العجوز .

وقرأ حمزة والكسائي ﴿ الليسع ﴾ بوزن ضيغم وهو أعجمي دخلت عليه اللام على خلاف القياس وقارنت النقل فجعلت علامة التعريب كما قاله التبريزي ونص على أن استعماله بدونها خطأ يغفل عنه الناس فليس كاليزيد في قوله

: رأيت الوليد بن اليزيد مباركا . . .

شديداً بأعباء الخلافة كاهله

من جميع الوجوه ، وهو على القراءة الأولى أعجمي أيضاً ، وقيل : إنه معرب يوشع وقيل : عربي منقول من يسع مضارع وسع ﴿ واليسع ويُونُسَ ﴾ وهو ابن متى بفتح الميم وتشديد التاء الفوقية مقصور كحتى ويقال متتى بالفك وهو اسم أبيه كما قاله ابن حجر وغيره من الحفاظ ، ووقع في "تفسير عبد الرزاق" أنه اسم أمه وهو مردود ولم نقف كغيرنا على اتصال نسبه عليه السلام ، وقد مر ما في "جامع الأصول" .

*(37/240)*

---

وقيل : إنه كان في زمن ملوك الطوائف من الفرس وهو مثلث النون ويهمز .

وقرأ أبو طلحة ﴿ يُونِسَ ﴾ بكسر النون قيل : أراد أن يجعله عربياً من أنس وهو شاذ ﴿ وَلُوطاً ﴾ قال ابن إسحاق : هو ابن هاران بن آزر ، وفي "المستدرك" عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه ابن أخي إبراهيم ولم يصرح باسم أبيه ﴿ وَكُلاًّ ﴾ أي كل واحد من هؤلاء المذكورين لا بعضهم دون بعض ﴿ فَضَّلْنَا ﴾ بالنبوة ﴿ عَلَى العالمين ﴾ أي عالمي عصرهم ، والجملة اعتراض كأختيها ، وفيها دليل على أن الأنبياء أفضل من الملائكة .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

احتج القائلون بأن الأنبياء عليهم السلام أفضل من الملائكة بقوله تعالى بعد ذكر هؤلاء عليهم السلام : ﴿ وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى العالمين ﴾ وذلك لأن العالم اسم لكل موجود سوى الله تعالى ، فيدخل في لفظ العالم الملائكة ، فقوله تعالى : ﴿ وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى العالمين ﴾ يقتضي كونهم أفضل من كل العالمين .

وذلك يقتضي كونهم أفضل من الملائكة ، ومن الأحكام المستنبطة من هذه الآية : أن الأنبياء عليهم السلام يجب أن يكونوا أفضل من كل الأولياء ، لأن عموم قوله تعالى : ﴿ وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى العالمين ﴾ يوجب ذلك .

قال بعضهم : ﴿ وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى العالمين ﴾ معناه فضلناه على عالمي زمانهم .

قال القاضي : ويمكن أن يقال المراد : وكلاً من الأنبياء يفضلون على كل من سواهم من العالمين .

ثم الكلام بعد ذلك في أن أي الأنبياء أفضل من بعض ، كلام واقع في نوع آخر لا تعلق به بالأول والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 54.55 ﴾

ومن فوائد السمرقندى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ ﴾ يعني : لإبراهيم ﴿ إسحاق وَيَعْقُوبَ ﴾ قال الضحاك : ولدت سارة إسحاق ولها تسعة وتسعون سنة .

ولإبراهيم مائة وعشرون سنة ثم ولد لإسحاق يعقوب ﴿ كُلاًّ هَدَيْنَا ﴾ يعني : إسحاق ويعقوب هديناهما بالنبوة والإسلام ﴿ وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ يعني : هديناه للنبوة والإسلام من قبل إبراهيم ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ ﴾ قال الكلبي : يعني من ذرية نوح .

وقال الضحاك : يعني من ذرية إبراهيم ﴿ دَاوُودَ ﴾ النبي عليه السلام ﴿ وسليمان ﴾ وهو ابن داود ﴿ وَأَيُّوبَ ﴾ وهو من ولد عيصو بن إسحاق ﴿ وَيُوسُفَ ﴾ وهو ابن يعقوب ﴿ وموسى وهارون وَكَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ يعني : نعطيهم أفضل الثواب ﴿ وَزَكَرِيَّا ﴾ يعني : من ذرية إبراهيم زكريا ﴿ ويحيى وعيسى وَإِلْيَاسَ ﴾ قال الضحاك : كان إلياس من ولد إسماعيل .

وذكر عن القتبي أنه كان من سبط يوشع بن نون ﴿ كُلٌّ مِّنَ الصالحين ﴾ يعني : من المرسلين ﴿ وإسماعيل ﴾ وهو من صلب إبراهيم عليه السلام ﴿ واليسع ﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿ واليسع ﴾ مشدداً .

وقرأ الباقون ﴿ إسماعيل واليسع ﴾ بالتخفيف .

فمن قرأ بالتشديد فالاسم منه ليسع ثم أدخلت الألف واللام للتعريف فصار الليسع .

ومن قرأ بالتخفيف فالاسم منه يسع .

ثم أدخلت الألف واللام للتعريف فصار اليسع .

وكذا هذا الاختلاف في سورة ﴿ ص ﴾ وكان اليسع تلميذ إلياس وكان خليفته من بعده .

﴿ وَيُونُسَ ﴾ ابن متى ﴿ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى العالمين ﴾ بالرسالة والنبوة في ذلك الزمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

ومن فوائد الثعلبى فى الآيات

قال رحمه الله :

*(39/240)*

---

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ ﴾ لإبراهيم ﴿ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا ﴾ وفقنا وأرشدنا ﴿ وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ إبراهيم وولده ﴿ وَنُوحاً هَدَيْنَا ﴾ يعني ومن داود ونوح لأن داود لم يكن من ذرية إبراهيم وهو داود بن أيشا ﴿ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ يعني ابنه ﴿ وَأَيُّوبَ ﴾ وهو

أيوب بن [ أموص بن رانزخ بن ] روح ابن عيصا بن إسحاق بن إبراهيم ﴿ ويُوسُفَ ﴾ وهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الذي قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : " إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم " ﴿ وموسى ﴾ وهو موسى بن عمران بن ( صهر بن فاعث بن لادي ) بن يعقوب .

وهارون وهو أخو موسى أكبر منه بسنة ﴿ وكَذَلِكَ ﴾ أي كما جزينا إبراهيم على توحيده وثباته على دينه بأن رفعنا درجته ووهبنا له أولاداً أنبياء أتقياء ﴿ نَجْزِي المحسنين ﴾ على إحسانهم ﴿ وَزَكَرِيَّا ﴾ وهو زكريا بن أزن بن بركيا ﴿ ويحيى ﴾ وهو إبنه ﴿ وعيسى ﴾ وهو ابن مريم بنت عمران بن أشيم بن أمون بن حزقيا ﴿ وَإِلْيَاسَ ﴾

.

واختلفوا فيه ، فقال عبد اللّه بن مسعود : هو إدريس مثل يعقوب وإسرائيل .

وقال غيره : هو إلياس بن بستي بن فنخاص بن العيزار بن هارون بن عمران نبي اللّه ( عليه السلام ) وهو [ النصيح ] لأن اللّه تعالى نسب في هذه الآية الناس إلى نوح وجعله من ذريته ونوح هو ابن لمك بن متوشلخ بن اخنوخ وهو إدريس ومحال أن يكون جدّ أبيه منسوباً إلى أنه من ذريته و ﴿ كُلٌّ مِّنَ الصالحين ﴾ يعني الأنبياء والمؤمنين ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ ﴾ وهو ابن إبراهيم ﴿ واليسع ﴾ وهو اليسع بن إخطوب بن العجون ﴿ ويُونُسَ ﴾ وهو يونس بن متى ﴿ ولُوطاً ﴾ وهو لوط بن هارون أو ابن أخي إبراهيم ( عليه السلام ) ﴿ وكُلاًّ

فَضَّلْنَا عَلَى العالمين ﴾ يعني عالمي زمانهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

*(40/240)*

---

﴿ ووهبنا ﴾ عطف على ﴿ آتينا ﴾ [ الأنعام : 83 ] و ﴿ إسحاق ﴾ ابنه من سارة ، ﴿ ويعقوب ﴾ هو ابن إسحاق ، و ﴿ كلاً ﴾ و ﴿ نوحاً ﴾ منصوبان على المفعول مقدمان على الفعل ، وقوله : ﴿ من قبل ﴾ لقومه صلى الله عليه وسلم ، وقوله : ﴿ ومن ذريته ﴾ المعنى وهدينا من ذريته ، والضمير في ﴿ ذريته ﴾ قال الزجّاج جائز أن يعود على إبراهيم ، ويعترض هذا بذكر " لوط " عليه السلام وهو ليس من ذرية إبراهيم بل هو ابن أخيه وقيل ابن أخته ويتخرج عند من يرى الخال أباً وقيل : يعود الضمير على نوح وهذا هو الجيد ، و ﴿ داود ﴾ يقال هو ابن إيشى ﴿ وسليمان ﴾ ابنه ، ﴿ وأيوب ﴾ هما فيما يقال أيوب بن رازح بن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم ، ﴿ ويوسف ﴾ هو ابن يعقوب بن إسحق ، ﴿ وموسى وهارون ﴾ ها ابنا عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب

، ونصب ﴿ دواد ﴾ يحتمل أن يكون ب ﴿ وهبنا ﴾ ويحتمل أن يكون ب ﴿ هدينا ﴾ وهذه الأسماء كلها فيها العجمة والتعريف ، فهي غير مصروفة ، ﴿ وموسى ﴾ عند سيبويه وزنه مفعل فعلى هذا يتصرف في النكرة ، وقيل وزنه فعلى ، فعلى هذا لا يتصرف في معرفة ولا نكرة ، ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ وعد من الله عز وجل لمن أحسن في عمله وترغيب في الإحسان ، ﴿ وزكريا ﴾ فيما يقال هو ابن آذر بن بركنا ، ﴿ وعيسى ﴾ ابن مريم بنت عمران بن ياشهم بن أمون بن حزينا ، ﴿ والياس ﴾ هو ابن نسي بن فنحاص بن العيزان بن هارون بن عمران ، وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال إدريس هو الياس ورد ذلك الطبري وغيره بأن إدريس هو جد نوح تظاهرت بذلك الروايات " وزكرياء " قرأته طائفة بالمد وقرأته طائفة بالقصر " زكريا " ، وقرأ ابن عامر باختلاف عنه ، والحسن وقتادة بتسهيل الهمزة من الياس ، وفي هذه الآية أن عيسى عليه السلام من ذرية نوح أو إبراهيم بحسب الاختلاف في عود الضمير من ذريته ، وهو ابن ابنته ، وبهذا يستدل في الأحباس على أن ولد البنت من الذرية ، وإسماعيل هو أكبر ولدي إبراهيم

*(41/240)*

عليه السلام وهو من هاجر واليسع قال زيد بن أسلم وهو يوشع بن نون ، وقال غيره : هو أليسع بن أخطوب بن العجوز ، وقرأ جمهور الناس " وأليسع " وقرأ حمزة والكسائي " والليسع " كأن الألف واللام دخلت على فيعل ، قال أبو علي الفارسي : فالألف واللام في " اليسع " زائدة لا تؤثر معنى تعريف لأنها ليست للعهد كالرجل والغلام ولا للجنس كالإنسان والبهائم ولا صفة غالبة كالعباس والحارث لأن ذلك يلزم عليه أن يكون " اليسع " فعلاً ، وحينئذ يجري صفة . وإذا كان فعلاً وجب أن يلزمه الفاعل ووجب أن يحكى إذ هي جملة ولو كان كذلك لم يجز لحاق اللام له إذ اللام لا تدخل على الفعل فلم يبق إلا أن تكون الألف واللام زائدة كما هي زائدة في قولهم الخمسة العشر درهماً ، وفي قول الشاعر : [ الرجز ]

يا ليت أمَّ العمرِ كَانَتْ صَاحبي . . . بالعين غير منقوطة ، وفي قوله : [ الطويل ]

وَجَدْنَا الوليدَ بْنَ اليزيدِ مُبَارَكاً . . . شديداً بأعباءِ الخلافةِ كاهِلُهْ

قال وأما الليسع فالألف واللام فيه بمنزلتها في الحارث والعباس لأنه من أبنية الصفات لكنها بمنزلة " اليسع " في أنه خارج عما عليه الأسماء الأعجمية إذ لم يجيء فيها شيء هو على هذا الوزن كما لم يجيء منها شيء فيه لام تعريف فهما من الأسماء الأعجمية إلا أنهما مخالفات للأسماء فيما ذكر .

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : وأما اليزيد فإنه لما سمي به أزيل منه معنى الفعل وأفردت فيه الاسمية فحصل علماً وزيدت فيه الألف واللام لا لتعريف ، وقال الطبري

دخلت الألف واللام إتباعاً للفظ الوليد ، ﴿ ويونس ﴾ هو ابن متَّى ويقال يونس ويونَس ويونُس وكذلك يوسِف ويوسَف ويوسُف وبكسر النون من يونِس والسين من يوسِف قرأ الحسن وابن مصرف وابن وثاب وعيسى بن عمر والأعمش في جميع القرآن و ﴿ العالمين ﴾ معناه عالمي زمانهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآيات

قال رحمه الله :

*(42/240)*

---

قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (85) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (86) ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ أي جزاءً له على الاحتجاج في الدِّين وبذل النفس فيه .

﴿ كُلاًّ هَدَيْنَا ﴾ أي كل واحد منهم مهتد .

و"كُلاًّ" نصب ب"هدينا" ﴿ وَنُوحاً ﴾ نصب ب"هدينا" الثاني .

﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ ﴾ أي ذرّية إبراهيم .

وقيل : من ذرية نوح ؛ قاله الفرّاء واختاره الطَّبريّ وغير واحد من المفسرين كالقُشيرِيّ وابن عطية وغيرهما .

والأوّل قاله الزجاج ، واعترض بأنه عُدّ من ( هذه ) الذرّية يونس ولوط وما كانا من ذرّية إبراهيم .

وكان لوطٌ ابن أخيه .

وقيل : ابنَ أختِه .

وقال ابن عباس : هؤلاء الأنبياء جميعاً مضافون إلى ذرّية إبراهيم ، وإن كان فيهم مَن لم تلحقه وِلادة من جهته من جهة أب ولا أمّ ؛ لأن لوطاً ابن أخي إبراهيم .

والعرب تجعل العَمَّ أباً كما أخبر الله عن ولد يعقوب أنهم قالوا : ﴿ نَعْبُدُ إِلهك وإله آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ [ البقرة : 133 ] .

وإسماعيل عمُّ يعقوب .

وعدّ عيسى من ذرّية إبراهيم وإنما هو ابن البنت .

فأولاد فاطمة رضي الله عنها ذرّية النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وبهذا تمسّك من رأى أن ولد البنات يدخلون في اسم الولد وهي :

الثانية : قال أبو حنيفة والشافعيّ : من وقَف وقفاً على ولده وولد ولده أنه يدخل فيه ولد ولده وولد بناته ما تناسلوا .

وكذلك إذا أوصى لقرابته يدخل فيه ولد البنات .

*(43/240)*

---

والقرابة عند أبي حنيفة كلُّ ذي رَحِم مَحْرم .

ويسقط عنده ابن العَمّ والعمة وابن الخال والخالة ؛ لأنهم ليسوا بمَحْرمين .

وقال الشافعيّ : القرابة كلّ ذي رحم مَحرَم وغيره .

فلم يسقط عنده ابن العمّ ولا غيره .

وقال مالك : لا يدخل في ذلك ولد البنات .

وقوله : لقرابتي وعقبي كقوله : لولدي وولد ولدي .

يدخل في ذلك ولد البنين ومن يرجع إلى عَصَبة الأب وصُلْبه ، ولا يدخل في ذلك ولد البنات .

وقد تقدّم نحو هذا عن الشافعيّ في "آل عمران" .

والحجة لهما قوله سبحانه : ﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ [ النساء : 11 ] فلم يَعقِل المسلمون من ظاهر الآية إلا ولدَ الصُّلْب وولد الابن خاصّةً .

وقال تعالى : ﴿ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القربى ﴾ [ الأنفال : 41 ] فأعطى عليه السلام القرابة منهم من أعمامه دون بني أخواله .

فكذلك ولد البنات لا ينتمون إليه بالنسب ، ولا يلتقون معه في أب .

قال ابن القصّار : وحجة من أدخل البنات في الأقارب " قولُه عليه السلام للحسن بن عليّ : "إن ابني هذا سيّد" " ولا نعلم أحداً يمتنع أن يقول في ولد البنات إنهم ولد لأبي أمّهم .

والمعنى يقتضي ذلك ؛ لأن الولد مشتق من التولُّد وهم متولدون عن أبي أمّهم لا محالة ؛ والتولّد من جهة الأمّ كالتولّد من جهة الأب .

وقد دلّ القرآن على ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ إلى قوله : ﴿ مِّنَ الصالحين ﴾ فجعل عيسى من ذرّيته وهو ابن ابنته .

الثالثة : قد تقدّم في "النساء" بيان ما لا ينصرف من هذه الأسماء .

ولم ينصرف داود لأنه اسم أعجمِيّ ، ولمّا كان على فاعول لا يحسُن فيه الألف واللام لم ينصرف .

وإلياس أعجمِيّ .

قال الضحاك : كان إلياس من ولد إسماعيل .

وذكر القُتَبي قال : كان من سِبط يُوشع بن نون .

وقرأ الأعرج والحسن وقَتادة "والياس" بوصل الألف .

وقرأ أهل الحَرَمين وأبو عمرو وعاصم "والْيَسَع" بلام مخففة .

*(44/240)*

---

وقرأ الكوفيون إلا عاصماً "واللَّيْسع" .

وكذا قرأ الكسائِيّ ، وردّ قراءة من قرأ "والْيَسع" قال : لأنه لا يقال اليَفْعَل مثل الْيَحْيَى .

قال النحاس : وهذا الردّ لا يلزم ، والعرب تقول : الْيَعْمَل والْيحْمَد ، ولو نكّرت يحيى لقلت اليحيى .

وردّ أبو حاتم على من قرأ "اللَّيْسع" وقال : لا يوجد لَيْسع .

وقال النحاس : وهذا الرّد لا يلزم ، فقد جاء في كلام العرب حَيْدَر وزَيْنَب ، والحَقُّ في هذا أنه اسم أعجمِيّ ، والعُجْمة لا تؤخذ بالقياس إنما تؤخذ سماعاً والعرب تغيّرها كثيراً ، فلا يُنكر أن يأتي الإسم بلغتين .

قال مَكِّيّ : من قرأ بلامين فأصل الاسم لَيْسع ، ثم دخلت الألف واللام للتعريف .

ولو كان أصله يسع ما دخلته الألف واللام ؛ إذ لا يدخلان على يزيد ويشكر : اسمين لرجلين

؛ لأنهما معرفتان علَمان .

فأما "ليسع" نكرة فتدخله الألف واللام للتعريف ، والقراءة بلام واحدة أحبّ إليّ ؛ لأن أكثر القراء عليه .

وقال المَهْدَوِيّ : من قرأ "اليسع" بلام واحدة فالاسم يسع ، ودخلت الألف واللام زائدتين ، كزيادتهما في نحو الخمسة عشر ، وفي نحو قوله :

وَجَدْنا اليَزِيدَ بنَ الوليد مباركاً . . .

شديداً بأعباء الخلافة كاهِلُه

وقد زادوها في الفعل المضارع نحو قوله : . . .

فيستخرج اليَرْبُوع من نافِقَائه

ومن بيته بالشّيخة الْيَتَقَصّعُ . . .

يريد الذي يتقصّع .

قال القُشَيْرِيّ : قرىء بتخفيف اللام والتشديد .

والمعنى واحد في أنه اسم لنبيّ معروف ؛ مثل إسماعيل وإبراهيم ، ولكن خرج عما عليه الأسماء الأعجمية بإدخال الألف واللام .

وتوهّم قوم أن اليسع هو إلياس ، وليس كذلك ؛ لأن الله تعالى أفرد كل واحد بالذِّكر .

وقال وهب : اليسع هو صاحب إلياس ، وكانا قبل زكرياء ويحيى وعيسى .

وقيل : إلياس هو إدريس وهذا غير صحيح لأن إدريس جدّ نوح وإلياس من ذرّيته .

وقيل : إلياس هو الخضر .

وقيل : لا ، بل اليَسع هو الخضر .

"ولوطاً" اسم أعجميّ انصرف لخفّته .

وسيأتي اشتقاقه في "الأعراف" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(45/240)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قرأ الجمهور " اليَسَعَ " بلام واحدة وفتح الياء بعدها .

وقرأ الأخوان : اللَّيْسَع بلام مشددة وياء ساكنة بعدها ، فقراءة الجمهور فيها تأويلان :

أحدهما : أنه منقُولٌ من فعل مضارع ، والأصل : "يَوْسَع "كـ "يَوْعِد " ، فَوَقَعَتِ الواو بين ياء وكسرة تقديرية ؛ لأن الفَتْحَةَ جيء بها لأجْلِ حرف الحَلْقِ ، فحُذِفَتْ لحذفها في " يضع " و " يدع " و " يهب " وبابه ، ثم سمي به مُجَرَّداً عن ضمير ، وزيدت فيه الألف واللام على حَدِّ زيادتها في قوله : [ الطويل ]

2228 - رأيتُ الوَلِيدَ بْنَ اليَزِيدِ مُبَارَكاً . . .

شَدِيداً بِأَعْبَاءِ الخِلافَةِ كَاهِلُهُ

وكقوله : [ الرجز ]

2229 - بَاعَدَ أَمَّ العَمْرِ مِنْ أَسِيرِهَا . . .

حُرَّاسُ أَبْوابٍ عَلَى قُصُورِهَا

وقيل الألف واللام فيه للتعريف كأنّه قدّر تنكيره .

والثاني : أنه اسم أَعْجَمِيٌّ لا اشتقاق له ؛ لأن " اليسع " يقال : إنه يوشع بن نون فَتَى موسى ، فالألف واللام فيه زائدتان ، أو معرفتان كما تقدم .

وهل " أل " لازمة له على تقدير زيادتها ؟

فقال الفَارِسيُّ : إنها لازِمَةٌ شُذُوذاً ، كلزومها في " الآن " .

وقال مالك : " ما قَارَنَتِ الأَدَاةُ نَقْلَهُ كالنَّضْرِ والنُّعْمضانِ ، أو ارتِجَالَهُ كاليسع والسموءل ، فإنَّ الأَغْلَبَ ثُبُوتُ أل فيه وقد تحذف " .

وأما قراءة الأخوين ، فأصله لَيْسَع ، كـ " ضَيْغَم وصَيْرَف " وهو اسم أَعْجَمِيٌّ ، ودخول الألف واللام فيه على الوَجْهَيْنِ المتقدمين .

واختار أبو عبيدة قراءة التخفيف ، فقال : " سمعنا هذا الشيء في جميع الأحاديث : اليسع ولم يُسَمِّهِ أحدٌ منهم اليَسع " ، وهذا حُجَّةٌ فيه ؛ لأنه روى اللفظ بأحد لُغَتَيْه ، وإنما

آثَرَ هذه اللفظةِ لخِفَّتِهَا لا لعدم صِحَّةِ الأخرى .

وقال الفراء في قراءة التشديد : " هي أشبهُ بأسماء العجمِ " .

قوله " يونس " هو يونس بن متى ، وقد تقم أن فيه ثلاث لغات [ النساء : 163 ] وكذلك في سين " يُوسف " وقوله : " ولوطاً " وهو لوط بن هارون ابن أخي إبراهيم .

قوله : " وكلاًّ فَضَّلْنَا " كقوله : " كُلاًّ هَدَيْنَا " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 267.268 ﴾

(46/240)

---

" فصل نفيس فى التعريف بالأنبياء ( صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ) الذين ذكرتهم الآيات السابقة " (1)

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

( بصيرة فى ذكر نوح عليه السلام )

ونُوحٌ اسمٌ أَعجمىٌّ ، والمشهور صُرْفُه لسُكُونِ وسطِه ، وقيل : يجوزُ صرْفُه وتَرْكُ صرْفِه ، قال الله تعالى : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ .

وقيل : عَرَبِىٌّ واشتقاقُه من النَّوْح ، ناحَ يَنُوحُ نَوْحاً ونُوَاحاً ونِيَاحاً ونِياحَةً ، فقيل له نُوحٌ لأَنَّه

أَقْبَلَ على نَفْسه باللَّوم وناح عليها ، واختلفوا فى سبب ذلك ، فقِيل : سببه أَنَّه عابَ على صورةِ كَلْبٍ وقَبَّحه ، فأوحى إليه هل تَعِيبُ الصُّورَةَ أَو المُصَوّر ؟ فعرف أَنَّه قد أَخْطأَ ، واشتغل بلَوْمِ نفسه ، وقيل : لأَنَّه دَعا على قومِه بقوله : ﴿ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً ﴾ ، وقيل : بل لأَنَّه كان يَنُوح على قومه ويتأَسَّفُ كلونهم غَرِقُوا بلا تَوْبَةٍ ورُجوعٍ إلى الله ، وقيل غير ذلك .

وفى الحديث : "إذا أَرادَ اللهُ بعَبْد خَيْراً أَقامَ فى قَلْبِه نائحَة" .

قال :

*سِرْ فى بلاد الله سَيّاحا * وكُنْ على نفسك نوّاحَا *

*وامْشِ بنُورِ فى أَرْضِه * كَفَى بنُور الله مِصْباحَا *

وفى الحديث : "النِّياحَةُ من عَمَلِ الجاهليّة" وفيه : "مَنْ نِيحَ [عليه] يُعَذَّب بما نِيحَ عَلَيْه" يعنى إذا أَوصَى به .

قال :

*وفَتًى كأَنَّ جَبِينَه قَمرُ الضُّحَى * قامت عليه نَوائِحٌ ورَواجسُ*

*غرسَ الفَسيل مؤمّلاً لِثماره * فما الفَسِيلُ ومات [قَبْلُ] الغارِسُ*

وقد ذكر اللهُ تعالى نُوحاً فى القرآن العظيم وسمّاه بثلاثين اسماً ، فسمّاه : مُرْسَلاً بقوله : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، ورَسُولاً : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ ونَذِيراً ومُبِينا :

﴿ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

---

(1) تقدمت الإشارة إلى ذكر بعضهم كإبراهيم وعيسى - عليهما السلام - وسيأتى - إن شاء الله تعالى - ذكر باقيهم كهود وصالح وموسى - عليهم السلام - كل فى موضعه . بعون الله وتوفيقه .

*(47/240)*

---

، ومُسَلَّماً : ﴿ سَلاَمٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ ، ومُبارَكاً : ﴿ وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ ﴾ ، ومُحْسِناً : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، ومُؤْمِناً : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، ومُنَجًّى : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ ، ومُنادِى : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ﴾ ، ومُسْتَجاب الدَّعْوَة : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ ، وداعِياً ، ﴿ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً ﴾ ، ومُنْذِراً : ﴿ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ ﴾ ، ومَنْصوراً : ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ ، وصانِعَ الفُلْكِ : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ ، وحامِداً : ﴿ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا ﴾ ، ومَحْمُولاً : ﴿ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ ، ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ ، وبَشَراً : ﴿ مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ ، ورَجُلاً : ﴿ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ ، وخائفاً : ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ، وعَبْداً : ﴿ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴾ ، وشَكُوراً :

﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً ﴾ ، ومَغْلوباً : ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ ، وناصِحاً : ﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾ ، ومُجادِلاً : ﴿ يانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا ﴾ ولابِثاً : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً ﴾ ، وهابِطاً : ﴿ يانُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا ﴾ ، ومُعْلِناً ومُسِرًّا : ﴿ أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً ﴾ ، وقَوْمُهُ سَمَّوْهُ مَجْنوناً .

*(48/240)*

---

وذكره الله تعالى باسمه فى ستة وثلاثين موضعا من القرآن : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ ﴾ ، ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَى نُوحٍ ﴾ ، ﴿ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا ﴾ ، ﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ ﴾ ، ﴿ خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ ، ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ ، ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ ، ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ ، ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ ﴾ ، ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ ﴾ ، ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ ، ﴿ يانُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ ، ﴿ وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ ، ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى ءَادَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا

نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ ﴾ ، ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّيْنَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ ﴾ ، ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً ﴾ ، ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ ، ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ ، ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ ، ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ ﴾ ، ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي ﴾ ، ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً ﴾ .

قال الثعلبيُّ : هو نوح بن لامكْ أَو لَمكْ بن متوشَلْح بن أَخْنوخَ بن يرْد بن مهْلائيل بن أَنوشِ بن قَيْنان بن شِيث بن آدم .

أَرسله الله إِلى ولَدِ قابيل ومن تابعُهم من ولَد شيث .

*(49/240)*

---

قال ابن عبّاسٍ وكان بطْنان ولدِ آدم أَحدُهما يسْكن السّهل والآخر يسكن الجَبَلَ ، وكان رِجال / الجبل صِباحا وفى النّساء دَمامَة ، وكانت نِساء السَّهْل صِباحا وفى الرجال دَمامةٌ ، فكثرت الفاحشة من أَوْلاد قابيلَ ، وكانوا قد كَثروا فى طولِ الأَزْمانِ وأَكْثَرُوا الفساد ، فأَرْسلَ الله تعالى إِليهم نوحا وهو ابن خَمْسِينَ سَنَة ، فلبث فيهم أَلْفَ سَنَة إِلاَّ خَمْسِين عاما يدعوهم إِلى الله تعالَى كما أَخْبر الله تعالى به فى كتابه العزيز ، ويُحذِّرهم

ويُخوّفهم فلم يَنْزَجِرُوا ولهذا قال الله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآئِي إِلاَّ فِرَاراً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ﴾ ، فلمّا طال دُعاؤه لهم وإيذاؤهم له ، وتماديهم فى غَيّهم سأَلَ اللهَ تعالَى فأَوْحَى إليه ﴿ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ ﴾ ولمّا [أَخبره] أَنَّه لم يَبْقَ فى الأَصلاب ولا الأَرْحامِ مؤمنٌ دَعا عليهم فقال : ﴿ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً ﴾ ، فأَمره الله تعالَى بإيجادِ السفينة فقال : يا رَبِّ وأَيْنَ الخَشَب ؟ فقال : اغْرِس الشَجَر .

فغرَسَ السّاجَ ، وأَتى على ذلك أَربعون سنة ، وكَفَّ عن الدعاء عليهم ، وأَعْقَم الله تعالى أَرْحامَ نسائِهم فلم يُولَدْ لهم وَلَد .

فلمّا أَدرك الشَجَر أَمر الله تعالى بقَطْعِه وتَجْفِيفه وصُنْعِهِ الفُلْكَ ، وأَعمله كيف يصنعه وجعل بابَهُ فى جنْبه .

وكان طول السَّفِينة ثمانين ذِراعا وعرْضها خَمْسِين ، وسَمْكها إلى السّماء ثلاثين ذراعا ، والذِراع من اليد إلى المَنْكِب .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أَنّ طولَها كان ستمائة ذِراعٍ وستُّون ذِراعا ، وعرْضها ثلاثمائةٍ وثلاثين ذِراعا ، وسَمْكها ثلاثةً وثلاثين ذراعا .

وأَمر الله تعالى أَن يَحْمِل فيها من كلّ جِنْسٍ من الحيوان زَوْجَيْن اثنين ، وحَشَرها الله تعالى إِليه من البَرّ والبَحْر .

قال مجاهد وغيره : كان التَّنّور الذى ابتدأَ فَوَران الماء منه فى الكوفَةِ ، ومنها رَكِب نوحٌ السّفينة .

وقال مُقاتلٌ : هو بالشام فى قَرْيةٍ يقال لها عَيْن الوركة قريبٌ من بَعْلَبَكّ .

وعن ابن عَبّاسٍ أَنَّه بالهِنْد .

قالوا : وأَوّل ما حُمِلَ فى السّفينة الذرَّة وآخِرُه الحِمارُ ، وجعل السّباع والدوّابَّ فى الطَّبَقة السُّفْلَى ، والوُحوشَ فى الطبقة الثانية ، والذرَّ والآدميين فى الطَّبَقَة العُلْيا .

قيل : كان الآدَمِيّون فى السّفينة سَبْعَةً : نوحٌ وبنو نُوحٍ : سَامٌ ، وحامٌ ، ويافِثٌ ، وأَزْواج بَنِيه .

وقيل ثمانية ، وقيل عَشَرة ، وقيل اثنان وسَبْعُون ، وقيل : ثَمانون من الرِجّال والنّساء ، حكاه ابن عبّاس .

وعن ابن عبّاس أَيضا أَنّ الماء ارْتَفَع حين صارت السّفِينَة أَعْلَى من أَطْوَل جَبَل فى الأَرضِ خمسةَ عَشَر ذِراعا .

قالوا : وطافت السّفينة بأَهْلها الأَرض كلَّها فى ستَّة أَشْهُر ، ثمّ استقرّت على الجُودىّ – جَبَلٌ بالمَوْصل – وكان رُكوبُهم السَّفينة لعَشْرٍ خَلَوْنَ من رَجَب ، ونَزَلوا منها يوم عاشوراء من المُحَرّم .

وبَنَى هو من مَعَه فى السفينة ، حين نَزَلوا ، قرى فى أَرض الجَزِيرة .

ولَمّا حَضَرَتْه الوفاة وَصّى إلى ابْنِه ، وكان سام قد وُلِدَ قبلَ الطُوفان بثمانٍ وتسعين سنة ، ويقال إنَّه كان بِكْرَهُ .

وكان نوحٌ أَطولَ الأَنبياء عُمْرا حتى قال بعضهم كان عُمْرُه أَلفا وثلثمائة سنة .

ولمّا نزل الوَحْىُ عليه كان عمره ثلثَمائة وخمسين سنة ، فلبث أَلف سَنَةٍ / إلا خمسين عاما يَدْعُوهم .

وقالوا ما أَسْلَمَ من الشياطين إلاَّ شيطانان ، شيطان نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وسلَّم .

وشَيْطان نوح عليه السّلام .

(51/240)

---

وقال إبْليسُ لنوحٍ عليه السّلام : خذْ مِنىّ خَمْسا ، فقال لا أُصَدّقك ، فأُوحِىَ إليه أَنْ صَدّقْه فى الخَمْس .

قال : قلْ .

قال : إيّاك والكِبْرَ فإنّى وقعت فيما وقعت بالكِبْرِ .

وإيّاكَ والحَسَدَ ، فإنَّ قابيل قَتَلَ هابيل أَخاه بالحَسَد .

وإيّاكَ والطَّمَعَ ، فإنّ آدم أَوْرَثَه ما أَورثَه بالطَّمع ، وإيَّاكَ والحِرْص فإنّ حوّاء وقعت فيما وقعت بالحِرْص ، وإيَّاكَ وطولَ الأَمل فإنَّهما وقَعا فيما وقعا بطولِ الأَمل .

*مُر النَّاس بالمعْرُوفِ واغْدُ صَبُوحَا * وحافِظْ

عليهم رَوْحةً وصَبُوحا * *عِظْ بعضهم وارْفُق وأَعْرِضْ ولا تَخَفْ * بصَبْرٍ ومِمَّنْ

تَسْتَمِيل جُموحا *

*أَلَمْ تَرَ نُوحاً أَلفَ عامٍ دعاهُمُ * تأوّب أَبْواباً لهم وسُطوحا *

*يُلاطِفهُم قَوْلاً ويَدْعُوهُم إلى * مَواعِيدِ صِدْقٍ فالْتَقَوه كُلُوحا *

*يهدّونه صرْحا ويرْمُونَه حصىً * وعِنْد الدُّعا زادوا أَذًى وجُموحا *

*فدمَّرهُم طُوفان أَمْر عُقُوبةً * مِنَ اللهِ للإِنْذار أَرْسلَ نوحا *

( بصيرة فى ذكر اسماعيل بن ابراهيم الخليل )

وهو اسمٌ أَعْجَمىّ كسائرِ أَسماء الأَعْلام الأَعْجَميّة ، وهو أَوّل من يُسَمَّى بهذا الاسم من بنى آدَمَ ، واحْتَرَزْنا بهذا القَيْد عن الملائكة فإنّ فيهم إسماعيل وهو أَمين الملائكة .

وتَكَلَّف بعضُ النَّاس وجعل له اشتقاقاً من سَمِعَ ، وتركيباً منه ومن إيل ، وهو اسمُ اللهِ عزَّ

وجَلَّ ، قال : فإنْ كان وَزْنه إفْعاليل فمعناه : أَسْمَعَه الله أَمَرَه فقامَ به .

والَّذى قال : وَزْنه فُعاليل لأَنّ أَصله سُماعيل قال : معناه سمع من الله قولَه فأَطاعه .

(52/240)

---

وكان له عليه السّلام عَشْرُ خَصائصَ : الأَوّل أَنّ لغتَه كانت لُغَة العَرَب ، وإليه يرجع أَنْسابُهم ، وكان مَرْكَزَ نُورِ النَّبىِّ المصطفَى ، ووَلَدَ الخَليلِ ، وجَدَّ الحَبيب ، وشَرِيكَ إبراهيمَ فى بناء الكَعْبَة ، ومُسْتَسْلماً مُنْقاداً للذَّبْح عند امتحان إبراهيم به .

واختصّ بخِلْعَة ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ .

ومن مفاخر قول النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم : أَنا ابْنُ الذَّبيحَيْن ، والثانى عَبْدُ الله بن عَبْدِ المُطَّلِب .

وقد دعاه الله فى القرآن باثْنَىْ عَشَرَ اسْماً : غُلامٌ ، وعَليمٌ ، وحَليمٌ ، ومُسْلَمٌ ، ومُسْتَسْلِمٌ ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ ، آمرٌ ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ ﴾ ، وصابرٌ ﴿ إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ ، مَرْضِىٌّ ﴿ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً ﴾ ، صادقُ الوَعْد ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾ رَسُولٌ نَبِىٌّ ﴿ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً ﴾ ، مَذْكُورٌ ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ

إِسْمَاعِيلَ ﴾ .

وذكره الله تعالى باسمه فى عشرة مواضع فى القرآن :

(53/240)

---

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ ﴾ ، ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ ، ﴿ نَعْبُدُ الهكَ وَاله آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ﴾ ، ﴿ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ﴾ ، ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ إلى قوله ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ، ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ، ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴾ ، ﴿ الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ ﴾ ، ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ﴾ ، وفى صحيح البخارى : "كان النَبِىُّ يُعوّذ الحسنَ والحُسيْنَ رضى الله عنهما ؛ أُعِيذُكُما بكَلِماتِ الله التامَّةِ من كُلِّ شَيْطانٍ وهامَّة ، ومِنْ كُلِ عيْنٍ / لامَّةٍ ، ويقول : إنّ أَباكُما كان يُعوّذ بها إسماعيل وإسحاق" ، فقال : "ارْمُوا بنِى إسماعيل فإنَّ أَباكُم كان رامِيا" .

وكان أَكْبر من إسْحاقَ ، واخْتُلِف فى الذَّبيح منهما ، والأَكْثَرون على أَنَّه إسْماعِيل .

وفى الصّحيح : "إن الله اصطفَى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصْطفى من ولَدِ إسماعِيل

بنى كنانة ، واصْطَفَى من بِنِى كِنانَة قريشا ، واصْطَفَى من قُرَيْشٍ بِنِى هاشِم ، واصْطفانِى من بِنِى هاشم" .

وقصّة إِسماعيل وأُمِّه وزَمْزَم ذكرها فى موْضعه من غير هذا الكتاب .

قال :

*لا نَسْتَطيعُ لما قَضاهُ ربُّنا * مِمَّا عَلَيْنا أَوْ لَنَا تَبْدِيلاَ*

*لِقَضائه نَبْكى ونَحْزَنُ والبُكا * ء وحُزْنُنا لا يُغْنيانِ فَتِيلاَ*

*أَبْصِرْ خَلِيلَ اللهِ جاءَ مُشاوِراً * فى أَمْرِ رُؤْيا الذِّبْحِ إِسْماعِيلاَ*

فاسْتَعْصَما واسْتَسْلَمَا لِقَضائه * وَعلَى المُهَيْمِن عَوَّلاَ تَعْوِيلاَ*

(54/240)

---

طِبْ يا بُنَىَّ فلا مَرَدَّ لِحُكْمه * واصْبِرْ عليه واتَّخِذْه وَكِيلاً*

( بصيرة فى ذكر اسحاق عليه السلام )

هو اسمٌ أَعجمىٌّ غير منصرف للعُجْمَة والعَلَمِيَّة ، وهى سُرْيانيَّة ، وقيل : مشتقٌّ من السَّحْق .

والإِسْحاقُ : الإِبعاد ، والسَّحْقُ : البُعْد ومَكانٌ سَحيقٌ : بَعيدٌ .

والسَّحْقُ بالفتح : السَّهْل ، أَو هو الدَقُّ ، ومسْكٌ سَحيقٌ : مَسْحوقٌ .

وقد ذكره الله تعالى فى مواضعَ من التَّنْزِيل فقال : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ ﴾ ، وقال : ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ ﴾ ، ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ ﴾ ، ﴿ عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ ، ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ ، ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ ، ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا ﴾ ، ﴿ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ ، وعلى قول من قال هو الذَّبيح ، يكون مُبَشّرٌ ، وغُلامٌ ، وعَلِيمٌ ، وحَليمٌ ، وصابِرٌ ، وآمِرٌ ، ومُسْلَمٌ ، من أَسمائه عليه السّلام .

عاش مائة وثمانين سنة ، وقبرُه عند قبر أَبيه ، ووُلد قبل إِسْماعيل بأَربعة عَشَر سنةً .

قال :

*اللهُ [ربى] كافل الأَرزاقِ * وهو الحَسيبُ لِقِسْمة الأَخْلاقِ*

*قَسَمَ السّوائل والمآكل بَيْنَنَا * فأَتى الخَلائقَ كُلَّهم بخَلاقِ*

*فالخَلْقُ من حَسَناته والرِّزْقُ منْ * بَرَكاته والكُلُّ باسْتحْقاقِ*

*عَجّل وقسّم إِنْ تَشَأْ تصديقَها * فاقْرأَ : وبارَكْنَا عَلَى إِسْحاقِ*

( بصيرة فى ذكر يعقوب عليه السلام )

وكان اسمه إِسرائيل ، وكلاَ الاسمين أَعْجَمىٌّ غير مُنْصَرِف للعُجْمة والعلمية ، هذا هو الَّذى عليه الأَكثرون .

وتكلَّف بعضُهم فى القول باشتقاقهما ، فقال فى إِسْرائيل إِسْر بالسّريانية : الصَّفىّ والخاصَّة ، وإِيل بلغتهم : اللهُ ، فمعناه صَفىُّ الله وخاصَّتُه .

(55/240)

---

وقيل : أَسْرا مَعناه : الأُسْرَة ، وإِيل بمعنى الآل ، أَى هو نَبِىٌّ وآلُهُ وأَقارِبُه أَنْبياءُ .

وقيل : أَسْر من الأَسْر ، وإِيل اسم شَيْطانٍ .

وسُمِّىَ به لأَنَّه عليه السّلام كان خادماً للمَسْجد الأَقْصَى والمَسْجد الحرام على اختلافِ القولَيْن ، وكان يُوقِدُ فيه السُّرُجَ للعابدين والمُصَلِّين ، وكان الشيطان المسمّى إِيل مُسَلَّطاً عليها يأتيها ويُطْفِئُها ، فلمّا اطَّلع على ذلك يعقوبُ تَرَصَّد له وأَسَره ورَبَطه إِلى ساريَةٍ حتى رآه الناسُ عَياناً ، فقالوا أَسَرَ إِيل أَى أَسَرَ الشيطان ، فخفَّفوه وقالوا أَسْر إِيل .

وأَمّا يعقوبُ فإِنَّه سُمِّىَ به لأَنه كان يعقب أَوامَر الله تعالى ونَواهيَه من كتابه فيَعْمَل بها .

وقيل : سُمِّىَ يعقوبَ لأَنَّه عاقَبَ شَيْطانَه المتقدّم ذِكْرُه .

وقيل : لأَنَّه يَعْقُبُه / ذُرِّيَّتُهُ .

وقيل : لأَنَّه خرجَ من بَطْنِ أُمِّه متعلّقا بعَقب أَخيه عيصو ، وسُمِّىَ أَخوه عيصُو لأَنَّه عَصَى بالتَّقَدُّم عَلَيْه .

وفى بعض الآثار القُدْسيّة أَنَّ الله تعالَى قال : لَوْ عَلمْتُ شيئاً أَبْلَغَ فى عُلُوّ دَرَجَةٍ من الهَمّ والحُزْنِ لأبتَلَيْتُه .

وأَوْحَى الله إليه لمّا أَكْثَر من البُكاءِ على فراقِ يوسف ، يا يَعْقُوبُ من الهَمّ والحُزْنِ لأبتَلَيْتُه .

وأَوْحَى الله إليه لمّا أَكْثَر من البُكاءِ على فراقِ يوسف ، يا يَعْقُوبُ هذا بُكاؤك على فِراقِ الوَلَدِ ، فكيف بكاؤك على فِراقِ الوَاحِدِ الأَحَد ! وقِيلَ لَمَّا قَدِمَ البشيرُ على يَعْقُوبَ يُبَشّرُه ببَقاءِ يُوسُفَ ولِقائه قال يَعْقُوب : على أَيّ دِين تَرَكْتَه ؟

قال عَلَى الإِسْلام .

فقال : الآن تَمَّتِ النّعْمة .

وكان يَعْقوبُ حَفِيدَ الخَلِيل ، ووَلَدَ الذَّبِيحِ ، ووالِد الصدّيق ، ومُقَدَّمَ الأَسْباط وشَيْخَهم ، وجَدَّ أَنْبياءِ بنى إِسْرائيلَ ، وابن أَخى إِسماعيل ، ووارِثَ جَمالِه .

(56/240)

---

واعتكف فى بيت الأَحْزان أَرْبَعِينَ سَنَةً ، وقيل : سَبْعِين سنةً .

واسْتَنْشَقَ رِيحَ ثَوْب يوسفَ من مسافةِ ثمانين فَرْسَخاً .

وقد ذكره الله تعالَى فى مواضِعَ من القرآن المجيد : الأَوّل فى وَصِيَّةِ الذرِّيَّة بمُحافَظَتِهم على

المِلَّة ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ .

الثَّانى : فى الخَبَرِ من الحال وَقْت الترحال : ﴿ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ﴾ .

الثالث : فى موافقة الدَّعْةِ مع أَبْناءِ النُّبُوَّة : ﴿ وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ .

الرّابع : نسبة الأَسباطِ إليه للشَّرَف والمَنْزلة ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ ﴾ إلى قوله ﴿ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ ﴾ .

الخامس : البِشَارة بوجُودِه قَبْلَ مَوْلودِه : ﴿ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ .

السّادِسُ : المِنَّة على إبراهيمَ به وبكَوْنه نافِلَةً ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ .

السّابع : إِخْلاصُه فى طَريق الدّيانَة .

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ .

الثامِنُ : فى وَعْدِ يُوسُفَ بتَمام النّعْمة عليه ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ ﴾ .

التَّاسع : فى حُصُول المَقْصُود وقَضاءِ الحاجَة : ﴿ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾ .

قيل ثمانِيَةُ أَنْفُس ابْتُلُوا بفراق ثمانِيَةٍ فوقعُوا بإِثْرها فى مِنْحَة أَو مِحْنَة : ابْتُلِيَ آدمُ بفراق الجَنَّة فوقع على إِثْرها فى مِحَنِ الدُّنْيا ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ ﴾ .

وابْتُلِيَ نوحٌ بفراق كَنْعان فوقَع فى أَثره فى المَلامَة

بسَبب شَفاعَته فيه : ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

وابْتُلِيَ يُونُس بفراقِ القَوْمِ فوقَع فى أَثَرِه فى ظُلْمَة البَحْرِ وظُلْمَة بَطْن الحُوت ﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ اله إِلاَّ أَنتَ ﴾ .

وابْتُلِيَ سُلَيْمان بِفراق المُلْكِ فوقَع على أَثَرِه فى الأبْتلاءِ والمَلاَمة ، لقوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ﴾ .

وابْتُلِيَ مُوسَى بِفراقِ أُمِّه فوقع على أَثَره فى قَبْض فِرْعَوْنَ لقوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ ﴾ .

وابْتُلِيَ صَلَّى الله عليه وسلَّم بفراقِ مكَّة فصار على أَثَره فى دار الهِجْرة والمُهاجَرَة : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ .

وابْتُلِيَ يُوسُفُ بِفراقِ أَبِيه فوقع على أَثَرِه فى بِئْر الوَحْشَة وحَبْس البَلِيَّة : ﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ﴾ .

وابْتُلِيَ يَعْقوب بفراق يُوسُفَ فوقَع فى بَيْت الأَحْزانِ وزَاوِيَة الهُموم وتوظَّفَتْه الآلام والغُموم : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ ، ثم انتقل من زاوِيَة المِحْنة إلى بَسْط المِنْحَة وعالَم البُشْرَى والمَسرَّة .

قال :

*وَرَدَ البَشِيرُ مُبَشّراً بقُدُومِهِ * فمُلِئْتُ من قَوْلِ البَشِيرِ سُرُورا*

*/واللهِ لَوْ قَنِعَ البَشِيرُ بمُهْجَتِى * أَعْطَيْتُه ورَأَيْتُ ذاكَ يَسِيرا*

*لَوْ قالَ هَبْ لِي ناظِرَيْكَ لَقُلْتُهَا * خُذْ ناظِرَيَّ فما سَأَلْتَ كَثِيرَا*

*وكَأَنَّنِى يَعْقُوبُ مِن فَرَحِى بِهِ * إِذْ عادَ من شَمِّ القَمِيصِ بَصِيرا*

( بصيرة فى ذكر يوسف عليه السلام )

ويُثَلَّثُ سِينُه ، وهو اسمٌ أَعْجَمِيٌّ غَيْرُ مُنْصَرِفٍ للعِلَّتَيْن .

وقيل : مُشْتَقّ من الأَسَف ، فيُوسف بكسر السِّين يُفْعِل من آسَفَ يُوسفُ إذا أَحْزَنَ وأَهَمَّ وأَغْضَبَ ، لأَنَّه آسَفَ أَباهُ بِفِراقه .

ويُوسَف بفتح السِّين لأَن إِخْوته حَزَّنوه بفراق أَبِيه .

(58/240)

---

قويل : أَصله يَأْسَفُ بفتح الياء والسِّين ، يَفْعَل من الأَسَف ، لأَنه أَسِفَ فى الغُرْبة والمِلْكة .

وفى بعض الآثار : لمّا أَخْرَجَ اللهُ الذُرِّيَّة من ظَهْرِ آدَمَ وعَرَضَ عليه أَمْثال الذر ، أَراه فى الطبقة السّادسة شخصاً مَهيباً من الرِّجال ، على وَجْهِه بَهْجَةُ الجمال ، قد تُوِّج بتاج الوَقار

، وهو مُرْتَدٍ برداءِ الكَرامَة ، مُتَّزِرٌ بإزار الشَرَف ، عليه قميصُ البَهاءِ ، وفى يَدِه قضيبُ المُلْكِ ، وعلى يَمِينه سبعون أَلْفَ مَلك ، وعلى يساره هكذا ، وخَلْفَه أُمَمُ الأَنْبياءِ ، لهم زَجَلٌ بالتسبيح ، وبين يَدَيْه شَجَر السَّعادة يَدُور معه حَيْثما دارَ .

فقال آدمُ يا ربّ مَنْ هذا الَّذى أَبَحْت له بحبوحَةَ الكَرامة ، وأَنْزَلْته هذه الدّرجةَ العالية ؟

قال الله تعالى : هذا ابْنك المَحْسُود من إخْوَته ؛ يا آدَمُ انْحَلْهُ وسَمّه ، فنَحَلَه ثُلُثَىْ جَمالِ أَوْلاده ، وضَمَّه إلى صَدْره ، وقَبَّل ما بَيْن عَيْنَيْه وقال : يا بنىّ لا تَأْسَف [فأَنت يوسف] ، فأَوّل من سَمّاه بهذا الاسْم آدَمُ .

وقيل إنَّ يُوسُفَ ورث الجَمالَ من إسحاقَ ، وإسحاقَ وَرِثَهُ من أُمّه سَارة ، وسارة وَرِثَتْ من أُمّها حَوّاء .

وقال كَعْبٌ .

قُسّم الجمالُ عَشَرَةَ أَجْزاء ، تسعةٌ منها ليُوسُف وواحدٌ لجميع أَولاد آدم .

وقال النبىّ صلَّى الله عليه وسلم : "رَأَيْت يُوسف لَيْلَةَ أُسْرِىَ بى فى السَّماءِ الرّابعَة ، فقيل : كيف رَأَيْتَه يا رسولَ الله ؟ فقال : كالقَمَرِ لَيْلَةَ البَدْر" ، وقال : أُعْطِىَ يُوسُف وأُمُّهُ شَطْرَ الحُسْنِ .

وقالك جاءنى جِبْريلُ وقال : "يا مُحَمّد إنَّ الله تعالَى أَلْبَس يُوسُفَ الجَمالَ من نورِ الكُرْسىِّ وأَلْبَسَكَ جَمالَك من نور العَرْش" .

(59/240)

---

ولَمَّا قرأَ صلَّى الله عليه وسلَّم قوله : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْه ﴾ قال : "رَحم الله أَخي يُوسُفَ هَلاّ سَأَلَ الله العَفْوَ والعافيَة" ، ولمّا قرأَ قوله ﴿ فَاسْأَلْهُ ما بالُ النِّسْوَة اللاّتي ﴾ قال : "رحم الله يُوسُفَ لَوْ كُنْتُ أَنَا لبادَرْتُ البابَ" .

قال :

*إذا ما أَتاكَ الدَّهْرُ يَوْماً بنَكْبَةٍ * وأَصْبَحْتَ منها في حُزونٍ من الحُزْنِ*

*فلا تَيْأَسَنْ فالله مَلَّك يُوسُفاً * خَزائنَه بعد الخَلاص من السِّجْنِ*

(60/240)

---

فرّقت قصص الأَنبياء في القرآن ، وجَمَعَ قصّتَه جميعها في سورة واحدة ، وسمّاه في هذه السّورة بثلاثةٍ وثلاثين اسْماً : المُجْتَبَى : ﴿ يَجْتَبيكَ رَبُّكَ ﴾ ، والمُعَلَّم : ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ ، غلامٌ : ﴿ يا بُشْرَى هذا غُلامٌ ﴾ ، مُكرَمٌ : ﴿ أَكْرِمي مَثْوَاهُ ﴾ ، نافعٌ : ﴿ عَسَى أَن يَنفَعَنَا ﴾ ، وَلَد : ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ ، مُخْلَصٌ : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا

الْمُخْلَصِينَ ﴾ ، مُحْسِنٌ : ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، راءٍ : ﴿ لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ ، فَتًى : ﴿ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ ، أَحَبّ : ﴿ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا ﴾ ، مَلَكٌ كَرِيمٌ : ﴿ إِنْ هَاذَآ / إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ ، مُسْتَعْصِمٌ : ﴿ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ ، صِدِّيقٌ : ﴿ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا ﴾ ، مُسْتَخْلَص ﴿ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ ، حَفِيظٌ وعَلِيمٌ : ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ ، أَمِينٌ ومَكِينٌ : ﴿ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ ﴾ ، مُمَكَّنٌ : ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ ﴾ ، مُرْسَلٌ : ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً ﴾ ، رَسُولٌ : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ رَسُولاً ﴾ ، أَخٌ : ﴿ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ ﴾ ، زَعِيمٌ : ﴿ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾ ، عَلِيمٌ : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ ، رَفِيعٌ : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ ، رافِعٌ : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ ، عَزِيزٌ : ﴿ يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ ﴾ ، مُتَصَدِّقٌ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ ، تَقِيٌّ وصابِرٌ : ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ﴾ ، صالِحٌ ومُسْلِمٌ : ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ .

وذكره تعالى باسْمِه فى خمسةٍ وعشرين موضعاً من التَّنْزِيل :

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ ﴾ ، ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ ﴾ ، ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا ﴾ ، ﴿ اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ ﴾ ، ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ ﴾ ، ﴿ مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ﴾ ، ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ ، ﴿ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً ﴾ ، إلى قوله : ﴿ وَيُوسُفَ ﴾ ، ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا ﴾ ، ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا ﴾ ، ﴿ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ﴾ ، ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ ﴾ ، ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴾ ، ﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ ﴾ ، ﴿ كَذلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ ، ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا ﴾ ، ﴿ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ ﴾ ، ﴿ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ ﴾ ، ﴿ تَاللّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ ، ﴿ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ ﴾ ، ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ ، ﴿ قَالُواْ أَإِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ ﴾ ، ﴿ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ .

مَحَنَهُ الله تعالى بعَشْرِ مِحَنٍ ، وكافأه بعَشْرِ مِنَحٍ : الأَوَّل بفراقِ أَبيهِ ، وختم بمَسَرَّة : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ ، وابْتُلِيَ بجَفاءِ الإِخْوة وخَتم

بمَسرَّة : ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ ، وابْتُلِيَ بوَحْشَةِ الجُبّ ، وجُوزِيَ بفَرْحَة : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا ﴾ ، وابْتُلِيَ بمَلكَة عَزِيزِ مصْرَ وكُوفِئ بمَلِكَة أَهْلِ مِصْرَ قاطِبَة : ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ ﴾ ، وابتُلِيَ بقَصْدِ زليخا ، ونجا بشهادة طِفْلٍ لم يَنْطق بعدُ : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾ ، وابْتُلِيَ بحيلَةِ نساءِ مِصْرَ ، وخُتِمَ ببراءتِه وقَوْلهنّ : ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ ، وابْتُلِيَ بدَعْوة الشَّيْطان ، وصِينَ بعصْمَة الرّحْمان : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَآءَ ﴾ ، وابْتُلِيَ بالسّجن والحَبْسِ ، وكُوفِئ بالمُلْكِ والسَّلْطَنَة : ﴿ يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ ﴾ ، وابْتُلِيَ بالزُّورِ والبُهْتان وصار ذلك أَظْهَر من كلّ عَيان : ﴿ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾ ، وابْتُلِيَ بالمالِ والمُلْكِ واتّساع الدّنيا ، وأُبْعِد عنه ضَرُّها بولاية المَوْلَى فى الآخِرَة والأُولَى : ﴿ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ .

قال :

*كَمْ نِعْمَةٍ مَسْتُورَة فى الظَّلام * كَمْ نِعْمَةٍ مغمورَة فى الكَلامْ*

*آدَمُ فى الجَنَّة نالَ النَّوَى * ونالَ فى الطُّوفان نُوحٌ سَلامْ*

*يَعْقُوبُ قد عُوقِبَ فى هَجْره * بَيْتَ أَحزان رَهِين اغْتام*

*ثم ابنه قد صُرّ من بئره * فقيل يا بُشْرَى هذا غلام*

( بصيرة فى ذكر ادريس عليه السلام )

واسمه بالسّريانية خنوخ ويُقال أَخْنوخ ، ومعناه كثير العِبادة – وأَمّا إِدريس فاسمٌ أَعجمىٌّ

غير مُنْصَرِف .

وقيل : مشتق من الدّرْس والدّراسة بمعنى القِراءة ، سمّى به لكثرة ما دَرَس من كُتُب الله عزَّ وجلّ ، فإنَّه كان يحفظ صُحُفَ آدم وصُحُفَ شِيثٍ / على ظَهْرِ قَلْبه ، وكانت صحفُ آدَمَ واحداً وخمسين صحيفةً ، وصحفُ شيثٍ عِشْرِينَ ، وصحفهُ خاصّة ثلاثين ، وكان يفحظ الجميع ويُدَرِّسه .

*(63/240)*

---

قال النَّبِيُّ صلَّى الله عليه وسلم : "ما اجْتَمَعَ قَوْمٌ فى مَسْجِدٍ من مَساجِدِ اللهِ يَتْلُون كتابَ اللهِ ويَتدارَسُونَه إلاَّ نَزَلَتْ عليهم السَّكِينَة وغَشِيَتْهُم الرَّحْمَة ، وذَكَرَهُم اللهُ فِيمَن عِنْدَه" .

قال :

*العِلْمُ أَنْفَسُ عِلْقٍ أَنْتَ ذاخِرُهُ * مَنْ يَدْرُس العِلْم لم تَدْرُس مَفاخِرُهُ*

*فاجْهَدْ لِتَعْلَمَ ما أَصْبَحْتَ تَجْهَلُه * فأَوَّلُ العِلْمِ إقْبالٌ وآخِرُهُ*

وكان إدْرِيسُ أَوَّلَ من خَطَّ ، وأَوّلَ من خاطَ ، وأَوّلَ من أَخْبَرَ عن عِلْم الهَيْئَة والحِساب وأَحْكام النُّجُوم وتأْثِير الكواكب بالتَّأْيِيد السَّماوىّ والمدد الرّبّانىّ ، رفع الله عنه بدُعائه إحساسَ حَرارَةِ الشمْسِ ، وعَبَدَ الله حتَّى تمنَّت الملائكةُ المقرَّبون صُحْبته .

ودعاه الله فى التَّنْزيل باثْنَىْ عَشَر اسْما : السَّاجِدُ ، والباكِى ﴿ خَرُّواْ سُجَّداً وَبُكِيّاً ﴾ مُجْتَبَى ومَهْدِىٌّ ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَآ ﴾ ، رفيعُ الشَّأْن عَلِىُّ المكان ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ﴾ .

صالحُ ﴿ وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾ ، صابرٌ ﴿ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴾ ، صِدّيقٌ ونَبىٌّ ﴿ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً ﴾ ، مَذْكُور وإِدْرِيسُ ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ﴾ .

وذكره باسمه فى موضعين :

﴿ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴾ ، ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ﴾ .

أَنْشَدنا

بعضهم :

*اصْدُق ولا تأْتِ قَطُّ تَلْبِيسا * ولا يَرَى اللهُ مِنْكَ تَدْلِيسا *

*إِدْرِيس فى عِلْمِه وحِكْمَتِه * بالأَنْجُمِ الزُّهْرِ كان نِقْرِيسَا *

*مَكانُه عزَّ مِنْ مَكانَتِهِ * أَنْزَلَه صِدْقُه الفَرادِيسا *

*وآيةُ إِجْلالِه وعِزَّتِهِ * فى "واذْكُرْ فى الكتاب إِدْرِيسَا" *

( بصيرة فى ذكر يونس عليه السلام )

وفيه ثلاثُ لُغاتٍ : ضَمُّ نُونِه وفَتْحهُ وكَسْرُه ، وهو اسمُ علمٍ أَعجمىّ ممتنع من الصَّرْف ، وقيل : مُشْتَقٌ وزنُه يُفعِل من آنَس يُؤْنِسُ إِيناساً بمعنى أَبْصَر ، قال الله تعالى : ﴿ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً ﴾ ، وقيلَ من الأُنسِ ضدّ الوَحْشة ، سُمّىَ به لأُنسِهِ بطاعةِ الله ، أَو لأَنه أَبصر رُشْدَه فى العبادة .

قيل : أَوْحَى الله تعالى إلى يُونُسَ أَنْ قُلْ لأُمَّتِكَ قولُوا لا إله إلاَّ الله ثم اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ .

وقال النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم : "لا تُفَضِّلُونى على يُونُسَ بنِ مَتّى" وقال : مَنْ قال أَنا خَيْرٌ من يُونُسَ بنِ مَتّى فَقَدْ كَذَب" .

ودعاه الله تعالَى فى القُرْآن بأَحَدَ عشر لَقباً : ذوُ النُّون ومُغاضِبٌ فقال ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً ﴾ ، ومُنادِى الحَقّ ﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ ، ومُسْتَجابُ الدَّعْوة ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ والمُنَجَّى ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ﴾ ، والمُرْسَل ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ والآبِقُ إلى الحَقّ ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ ، والمُدْحَضُ ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ ، مُلِيمٌ ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ ، مُسَبِّحٌ ﴿ فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ ﴾ ، صاحِبُ الحُوت ﴿ وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ ، مَكْظُومٌ ﴿ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ ، مُجْتَبَى وصالِح ﴿ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

وذكره الله تعالى باسمه فى مواضع من التَّنْزيل : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

﴿ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ ﴾ ، ﴿ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ .

(65/240)

---

وَيُرْوَى أَنَّه لَمَّا الْتَهَمَهُ الحُوتُ جعل يُسَبِّح الله تعالى فى بَطْنِه فقالت ملائكة السَّماءِ يا رَبَّنا إِنَّا نَسْمَع صوتَ بعدِ معروفٍ من

مكانٍ مَجْهول ، فقال الله تعالَى : ذاك صوتُ عَبْدِى يونُس قَنَّط عبادى / من رَحْمَتِى فأَوْقَعْتُه فى ظُلْمة البحر وبَطْن الحوت .

وكان يُونُس يَنُوحُ على نفسه فى جَوْف الحوت ويقول : إلهِى من الجبال انْزَلْتَنِى ، ومن بين العِباد أَخْرَجْتَنِى ، وفى البحار صَيَّرْتَنِى ، وفى بَطْنِ الحُوتِ حَبَسْتَنِى ، وبشُؤْم الزَّلَّةِ ابْتَلَيْتَنِى ، فلو نَجَّيْتَنِى من سِجْنِك لأَعْبُدَنَّك عِبادةً لم يَعْبُدْك أَحَدٌ من العالمين ، ﴿ لاَّ اله إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

قال :

*آثَرَ اللهُ فارْضَ بالقُوتِ * لا تَسَخَّطْ قَضاءَ مَوْقُوتِ*

*إِنَّما الصَّبْرُ والرِّضَا عَقدا * عِقْدَيْن من لُؤْلُؤٍ ويَاقُوتِ*

أَخُور الرِّضا صائرٌ إلى مِقَةٍ * وصاحِبُ السُّخْط شَرٌّ مَمْقُوتِ*

*قيل لصَدْر الأَنامِ ارْضَ ولا * تكُنْ جَزُوعا كصاحِب الحُوتِ*

( بصيرة فى ذكر لوط عليه السلام )

وهو اسم أَعجمىّ مقال نُوح يجوز صرْفُه ، وهو أَوّل من سُمّى بهذا الاسم ، وهو لُوط ابن هارون بن تارَح ويقال تِيرَح ، وهو ابن أَخى إبراهيمَ الخليل عليه السّلام .

وقد ذكره الله فى القرآن بعَشَرَة أَسماءِ : النّاجى ﴿ نَجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴾ ، الشّاكر ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴾ ، نَذِيرٌ ﴿ فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴾ ، مُنْذِرٌ ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا ﴾ مُرْسَل ﴿ وَإِنَّ لُوطاً لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، الأَخُ ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ ﴾ ، رَسُولٌ ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ ، مُتَطَهِّر ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ .

(66/240)

---

ودعاه باسمه فى عَشَرة مَواضِعَ من القرآن : ﴿ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا ﴾ ، ﴿ وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ ، ﴿ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ ، ﴿ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ ، ﴿ جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ ﴾ ، ﴿ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾ ، ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ ﴾ ، ﴿ إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴾ .

خرج لوطٌ من أَرض عراق مع عمّه إبراهيم تابعاً له على دِينه مهاجراً إلى الشّام ، ومعهما سارة امرأةُ إبراهيم ، وخرج معها آزَرُ أَبو إبراهيم مخالِفاً لإبراهِيم فى دينه ، مُقِيما على كُفْره ، حتَّى وصلوا حَرَّانَ ، فمات آزرُ ومضى إبراهيم ولُوطٌ وسارة إلى الشّام ، ثمّ مَضَوْا إلى مِصرَ ثمّ رجعوا إلى الشّام ، فنزل إبراهيم فلسطين ، ونزل لوطٌ الأُرْدُنَّ ، فأَرسله الله تعالى إلى أَهْلِ سَدُومَ وما بينهما ، وكانوا كُفَّاراً يَأْتونَ الفَواحِشَ ، ومنها إتْيانُ الذُكْرانِ ما سَبَقَهم بها من أَحَدٍ من العالَمِين ، ويَتضارَطُون فى مجالسهم ، فلمّا طال تمادِيهم فى غَيّهم ولم يَنْزَجِروا دعَا عليهم لُوطٌ وقال : ﴿ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ فأَجاب الله دُعاءَه وبعث

جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيل عليهم السّلام لإهلاكهم وبشارَةِ إبْراهيم بالوَلَد ، فأَقبلوا فى صورة رِجالٍ مُرْدٍ حِسانٍ ، فنزلوا على إبراهيم ضيفاناً وبَشَّروه بإسحاق ويعقوب .

(67/240)

---

ولمّا جاء آلَ لُوطٍ العذاب فى السَّحر اقتلع جبريل قُرَياتِ لُوطٍ الأَربع ، فى كلّ قرية مائة أَلف ، ورفعهنَّ على جَناحه بين السَّماءِ والأَرض حتى سمع أَهلُ الدّنيا نُباحَ كِلابهم وصِياحَ دِيكَتِهِنَ ثمّ قَلَبَهُنَّ فجعل عالِيَها سافِلَها وذلك قوله تعالى : ﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا

عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ﴾ .

وهلكت امرأَة لوط مع الهالِكين .

قال أَبو بكر بن عَيّاش : استَغْنَتْ رِجالُهم بِرجالهم ، ونِساؤهم بِنسائهم ، فكان عليهم من العذاب ما كان .

قال بعضهم :

*طَهِّرْ فُؤادكَ واحْتَضِنْه مَحُوطَا * لا تَمْنَحَنْه قَساوةً وقُنوطَا *

*/إِنَّ الَّذِين اسْتَبْدَلوا مِن ء طَيِّب * خُبْثاً رَأَوْا فى إِثْر ذاكَ حُبُوطَا *

*بِحجارة مَنْظُودَة مَوْسُومَة * اللهُ أَمْطَرَها فشَدَّ سُقُوطَا *

*جُعِلَتْ أَعالى دراهمْ كأَسافِلٍ * وأَبادَ خَضْراهُم ونَجَّى لُوطَا *

( بصيرة فى ذكر شعيب عليه السلام )

وهو شُعَيْبُ بن يَصْهُر ، قال عطاءٌ وغيره : هو شُعَيْبُ بن ميكيل بن يَشْجُر بن مدْين ابن إِبْراهِيم الخليل .

وكان يُقال لشُعَيْبٍ خَطِيب الأَنْبياء ، وكان رسولاً إِلى أَهل مَدْين أَصحاب الأَيكَة ، وكان كثير الصّلاة والعِبادة ، وكان عذاب قَوْمه بالنّار ، وكان عصى مُوسى تَذْكِرَةً منه إِلَيْه .

وقد ذكره الله تعالى فى مواضع من التَّنْزيل ، ودعاه بأَربعة عشَر اسْما : مُرْسَلٌ ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، أَخٌ ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ﴾ ، رسُولٌ : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ ، أَبٌ وشَيخٌ كبيرٌ ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ ، صادِقٌ ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، صالِحٌ ﴿ إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ، خائفٌ ﴿ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ ، حلِيمٌ ورشِيدٌ : ﴿ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ ، مُتَوَكِّل ومُنِيبٌ ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ .

وذكره باسمه فى مواضع : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ﴾ ؛ ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ ﴾ ﴿ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ ﴾ ، ﴿ يا شُعَيْبُ أَصَلاَوتُكَ تَأْمُرُكَ ﴾ ، ﴿ يا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ ﴾ ، ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً ﴾ .

ولم يكن فى الأَنبياء بعد نبيّنا محمّد صلَّى الله عليه وسلم أَفصح ولا أَبْلَغ من شعيب .

قرأَ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قِصَّته فى سورة وما كان مِنْه ومن قومه وتأَمّل فى أَلفاظ تَذْكِيرِه لِقَوْمه فقال : "رحِم الله أَخِى شعيْباً ، ذاك خَطِيب الأَنْبياء ، كان يُحْسِن مراجعة قَوْمه" .

قال بعضهم :

*أَصاحِ انَّ الفَصاحةَ خَيْر خِلٍّ * تُكُلِّفَ حَوْلَها سَيْفٌ وسَيْبُ*

*فما فِى مُبْتَداهُ عُمْرُ وَعْىٍ * وما فى المنْتَهَى شَكٌّ وريْبُ*

*حديثٌ جاءنا حسنٌ صحِيحٌ

* رَواه عن الرَّسولِ لنا خُبَيْبُ*

*فقال لقَوْله لَمَّا تَلاهُ * خَطِيبُ الأَنْبياء أَخِى شُعَيْبُ*

( بصيرة فى ذكر أيوب عليه السلام )

*(69/240)*

---

وأَيوبُ اسمٌ أَعجمىّ غير منصرف كسائر نظائره ، وقيل : عربىٌّ معناه الرّجاع إلى الحقّ فى جميع أَحواله من المِحْنَة والبلاء ، والمِنْحة والرَّخاء ، مِنْ آبَ يَؤُوبُ أَوْباً وإِيابا ، فهو آيِبٌ وأَوَّابٌ .

وقيل : هو فى اللّغة العبرية معناه أَيضا الرَّجّاع إلى الله فى كُلِّ حال .

وروينا فى الصّحيحين عن النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال : "بيْنَا أَيُّوبُ يَغْتَسِل عُرْياناً خَرَّ عليه رِجْلُ جَرادٍ من ذَهب ، فجعل يَحْثِى فى ثَوْبه ، فناداه ربُّه : يا أَيوبُ أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتك عمّا تَرى ؟ قال بلَى يا ربّ ولكن لا غِنَى لى عن بركَتك" : ويُرْوى أَنَّ أَيوب ناجَى ربَّه وقال : إلاهى ما رأَيتَ عُرْياناً إلاَّ أَلْبَسْتَه ، ولا جائعاً [إلا] أَشْبعْتَه ، فَلِمَ ابْتَلَيْتَنى ؟ فنُودِىَ صدقْتَ

، ولكنّك لو أَصْبحْتَ أسيراً فى يدِ عبْدٍ من عبيدى يُحكِّم فيك ما يُرِيد لأَصْبحْتَ فى بلاءٍ أَشَدَّ مِنْ هذا ، ولكنّك أَصبحت فى يدِى وأَنا أَرحمُ الرّاحمين .

وقيل : لمّا اشتدّ البلاءُ بأَيوب قِيل له لَوْ دعوْتَ الله حتَّى يَشْفِيك ! فقال : قد أَتَى علَىّ فى الرّخاء سبعون ، لأَصْبِرنَّ إلى أَنْ يأتِىَ علىّ فى البلاء سبْعون ، فإن زاد البلاءُ على الرّخاء ، فحينئذ أَدْعُو ربّى .

وقيل : لَمَّا قَدّم أَيوبُ فى البلاء جِسْمه قَدَّم الله فى الثَّناءِ اسْمه ، إشارة إلى أَنّ أَسماء جمِيع الأَنبياء فى / أَثناء قِصصِهم واسْمُ أَيوب فى صدْرِ قِصّته .

وقد دعاه الله تعالى فى القرآن بأسماء : صابرٌ ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ الْعَبْدُ ﴾ ، أَوّابٌ : ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ مُنادى : ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾ ، وهو أَوّلُ من دعا الله بأُرْحَمِ الرّاحِمِين .

*(70/240)*

---

وذكره الله تعالى باسمه فى كتابه العزيز قال تعالى : ﴿ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَيُّوبَ ﴾ ، ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾ ، ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ ﴾ ، ويُرْوَى أَنَّ الله تعالى أَوْحى إلى أَيوب بأَنَّ هذا البلاء قد اختاره سبعون نبيًّا قَبْلَك ، فما اخترتُه إلاَّ لك ، فلمّا

أَراد الله كَشْفَه قال : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ﴾ حتَّى زال عنه ما اختاره الله له .

قال بعضهم :

*اسْتَصْحِبِ الصَّبْر يوْماً ظَلَّ منْكوبا * إنْ كنتَ ذا قدْرةٍ أَو كنْت مغْلوباً *

*الصَّبْرُ للْفَرجِ المَرْجُوِّ مُنْعَرَجٌ * الصَّبْرُ صَبْرٌ أَمَرّ المُرِّ مَقْلوبَا *

*يَعْقوبُ فى أَسَفٍ يَرْثِى لِصاحِبه * فالصَّبْر جاء به أَعْطاه يَعْقوبَا *

*أَيُّوب فى صَبْرِه يَشْكو مَضَرَّتَهُ * أَشْفَى عليه الشفا فانْتاب أَيُّوبَا *

وكان أَيُّوبُ ببلاد حَوْران من الشَّام ، وقبره فى قرية بقرْب نَوَى ، عليه مَشْهَدٌ ومَسْجِد وقريةٌ موقوفةٌ على مصالحه ، وعينٌ جارية فيها قَدَمٌ فى حَجَرٍ يقولون إِنَّه أَثَرُ قَدَمه ، والناس يغتسلون من العَيْن ويشربون متبرّكين ، ويقولن إِنَّها المذكورة فى القرآن ، وهناك صخرة عليها مَشْهَدٌ يقولون إِنَّه كان يستند إِليها .

( بصيرة فى ذكر موسى عليه السلام )

موسى اسمٌ مُعَرَّبٌ أَصله مُوشا ، ومُو بالعِبْرِيَّة الماء ، وشا الشَّجَر ، سمّى به لأَنَّه وجد فى الماء والشجر الذى كان حول قصر فرعون فى عين الشمس ، وهى موضع معروفٌ بمصر لا يَنْبُت شجر البَلَسان إِلاَّ فيه .

قيل : سُئِل النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم ما بَال الله أَكْثَرَ ذِكْرَ موسى فى القرآن ؟ فقال : لأَنَّ الله يُحِبُّه ، ومنْ أَحبَّ شَيْئاً أَكثر ذِكْرَه .

قال كعبٌ : سَمِع موسى كلام الله يوم الطُّور غير ما سمِعه قبل ذلك ، فقال موسى : يا ربّ وكيف هذا ؟ قال الله تعالى : إنما كلَّمتك على قَدْر طاقَتِك ، ولو كلَّمتك أَشدَّ من هذا لَذُبْتَ .

(71/240)

---

وقد دعاه الله تعالى فى القرآن بخمسين اسْما تصريحاً وتعريضاً ، هادِى : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ ، دَاعِى : ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ ، نَاجِى : ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ ﴾ ، ساقى : ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى ﴾ ، نَاسِى : ﴿ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾ ، صادقٌ : ﴿ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ ، صاعِقٌ : ﴿ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً ﴾ ، مُصْطَفَى : ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ ﴾ ، شاكِرٌ : ﴿ وَكُنْ مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ ، صَابِرٌ : ﴿ إِن شَآءَ اللَّهُ صَابِراً ﴾ ، آمِرٌ : ﴿ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾ ، غَضْبانُ وأَسِفٌ : ﴿ إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً ﴾ ، مَذْكُور : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى ﴾ ، مُخْلَص : ﴿ إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصاً ﴾ ، رَسُولٌ ونَبِيٌّ : ﴿ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً ﴾ ، مُنادى : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ ﴾ ، مُقَرَّبٌ ونَجِيٌّ : ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ ، مُختارٌ : ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ ﴾ ، مُسْتَمِع : ﴿ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾ ، مُسَبِّح : ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً ﴾

مَحْبُوبٌ : ﴿ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ ، مُصْطَنَع الحقّ : ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ ، قُرَّةُ عين : ﴿ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ ، ﴿ كَيْ تَقَرَّ

(72/240)

---

عَيْنُهَا ﴾ ، أَعْلَى : ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى ﴾ ، كَبِيرٌ : ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ﴾ ، مُسْتَعْجِل : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ ، رَسُولٌ كَرِيمٌ : ﴿ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ ، مُرْسَلٌ : ﴿ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ، وَلِيدٌ : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً ﴾ ، لابِثٌ : ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ ، مُبَرَّأٌ : ﴿ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا / قَالُواْ ﴾ ، مُبارَكٌ : ﴿ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ ﴾ ، وَجِيهٌ : ﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾ ، بالِغٌ : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ ، ظَهِيرٌ : ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ ، خائِفٌ : ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفاً ﴾ ، فَقِيرٌ : ﴿ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ ، قَوِيٌّ وأَمِينٌ : ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾ ، أَجِير : ﴿ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ﴾ ، قاضِى : ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ ﴾ ، مُقْبِل : ﴿ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ﴾ ، آمِنٌ : ﴿ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ ﴾ ، مَنْصُورٌ : ﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ ﴾ ، غالِبٌ : ﴿ فَكَانُواْ هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ ، مَهْدِيٌّ : ﴿ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ

الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، مُحْسِنٌ : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، مُؤْمِنٌ : ﴿ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، رَجُلٌ : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً ﴾ .

(73/240)

---

وذكره الله تعالى في القرآن باسْمه في مائة وثلاثين موضعاً ، منها : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى ﴾ ، ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ ، ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِمْ مُّوسَى ﴾ ، ﴿ وَقَالَ مُوسَى يا فِرْعَوْنُ ﴾ ، ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ ، ﴿ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ ، ﴿ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ ﴾ ، ﴿ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ ﴾ ، ﴿ يا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ ، ﴿ يا مُوسَى اجْعَل لَّنَا آلِهاً ﴾ ، ﴿ وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ

(74/240)

---

اخْلُفْنِي ﴾ ، ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا ﴾ ، ﴿ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً ﴾ ، ﴿ يا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ ﴾ ، ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى ﴾ إلى قوله : ﴿ جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ ﴾ ، ﴿ رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ ﴾ ، ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ ﴾ ، ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى

قَوْمَهُ ﴾ ، ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ﴾ ، ﴿ قَالَ لَهُمْ مُّوسَى أَلْقُوا ﴾ ، ﴿ فَمَآ آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ ﴾ ، ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَآ إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ ﴾ إلى قوله : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ ﴾ ، ﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ ، ﴿ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ ﴾ ، ﴿ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً ﴾ ، ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ ﴾ ، ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ ، ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى ﴾ ، ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ ، ﴿ نُودِيَ يَا مُوسَى ﴾ ، ﴿ أَلْقِهَا يَا مُوسَى ﴾ ، ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ ، ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ ، ﴿ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾ ، ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ ، ﴿ قَالَ لَهُمْ مُّوسَى ﴾ ، ﴿ يَا مُوسَى إِمَّآ أَن تُلْقِيَ ﴾ ، ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى ﴾ ، ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ ، ﴿ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴾ ، ﴿ هَاذَآ الهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى ﴾ ، ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَى ﴾ ، ﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى ﴾ ، ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَى أُمِّ مُوسَى ﴾ ، ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى ﴾ ، ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾ ، ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى ﴾ ، ﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾ ، ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ ﴾ ، ﴿ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ ﴾ ، ﴿ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلاَ

تَخَفْ ﴾ ، ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّيْنَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ ، ﴿ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ ، ﴿ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً ﴾ ، ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ ، ﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ ، ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴾ .

قيل لمّا سأَل موسى الرّؤية أَتاه من كلّ سماءٍ سبعون أَلف مَلَكٍ ، وبيد كلّ واحد شعلة نار ، ويقولون يا ابن النّساء الحُيَّض ، أَتطمع فى رؤية ربّ العزّة ؟ ! وقال السُّدّىُّ لمّا قال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ أَحفّ الله الطور نيراناً ، وأَحفَّ النيران ملائكةً ، وأَحفَّ الملائكة بالبرْق ، والبرْقَ بالظُّلْمة ، والظُّلمة بالزَّلْزلَة ، ونُودِى لَنْ تَرانى .

وقال وهبٌ وابن إسحاق : لمّا سأَل موسى الرّؤية أَرسل الله تعالى الضَّباب / والصّواعق والظُّلمة والرَّعْد والبَرْقَ وأَحاطَتْ بالجبل الذى عليه موسى أَربعة فراسخ من كلّ جانبٍ ، وأَمر الله تعالَى ملائكة السَّماوات أَن يُعْرَضوا عليه ، فمرّت به ملائكة السّماء الدّنيا كثيران البقر تتابع أَفواههم التسبيح والتَّقديس بأَصوات عظيمة كصوت الرّعد الشديد ، ثم أَمر الله تعالى ملائكة السّماء الثانية أَن اهبطوا على مُوسى فاعترضوا عليه ، فهَبطُوا عليه أَمْثال الأُسُودِ لهم لَجَبٌ بالتَّسبيح والتَّقديس ، ففَزِع العبْدُ الضَّعِيفُ مِمّا رأَى وسمِع ، واقشعرّت

كلّ شعرة فى رأْسِه وجسده ، ثم قال : لقد نَدِمْت على مسْألَتِى ، فهل يُنْجِينى من مكانى الَّذى أَنا فيه شئ ؟ فقال له خير الملائكة ورئيسهم : يا موسى اصْبِرْ لما سأَلت ، فقليلٌ من كثير ما رأَيت .

(76/240)

---

ثمّ أَمر الله تعالى ملائكة السّماء الثَّالثة ، أَن اهبطوا على مُوسى واعترضوا عليه فَهَبطُوا أَمثال

التُّسورِ لهم قَصْف ورجْفٌ ولَجبٌ شَدِيدٌ ، وأَفواههم تتابُع التسبيح والتقديس كلَجَبِ الجيْش العظيم ، أَلوانهم كلَهَب النَّار ، ففزع موسى واشتدَّ نَفَسُه وأَيِس من الحياة ، فقال له خير الملائكة : مكانَك يا ابْنَ عِمْرانَ حتى ترى ما لا تَصْبِرُ عليه .

ثمّ أَمر الله تعالى ملائكة السّماء الرّابعة أَن اهْبِطوا على موسى فاعْتَرِضوا عليه ، فهبطوا وكان لا يشبههم شئ من الذين مرّوا به قبلهم ، أَلوانهم كلهب النار وسائر خلقهم كالثَّلْجِ الأَبيض ، أَصواتُهم عالية بالتسبيح والتَّقْديس ، لا يُقاربهم شئ من أَصوات الَّذين مرُّوا به قبلهم ، فاصطكت رُكْبتاه وأُرْعِد قلبُه ، واشتدّ بُكاؤه ، فقال له خير الملائكة ورأسهم : يا بْنَ عِمْران اصبر لما سأَلت ، فقليل من كثير ما رأَيت .

ثمّ أَمر الله تعالى ملائكة السّماءِ الخامسة أَنِ اهبطوا فاعترضوا على موسى ، فهَبطوا عليه لهم سبعةُ أَلوان فلم يستطع موسى أَن يُتْبِعهم بصره ، لم ير مثلَهم ولم يسمع مثل أَصواتهم ، فامتلأَ جوفُه خوفا ، واشتدّ حزنه وكثر بكاؤه ، فقال له خير الملائكة ورأسهم : يا بن عِمْران اصبر حتى تَرى بعض مالا تصبر عليه ، فهبطوا عليه فى يد كلّ ملَكٍ منهم مثل النَّخلة الطَّويلة نارا أَشدّ ضوءًا من الشمس ولِباسُهم كلَهَبِ النار ، إذا سبحوا وقدّسوا جاوبهم من مكان قبلهم من ملائكة السّماوات كلّهم يقولون بشدّة أَصواتهم سبّوح قُدُّوسٌ ربُّ الملائكة والرُّوح ، ربُّ العِزَّة أَبدا لا يمُوت ، فى رأس كلّ ملَكٍ منهم أَربعة أُوْجُه .

*(77/240)*

---

فلمّا رآهم موسى ، رفع صوته يسبّح معهم حين سبّحوا وهو يبْكى ويقول : ربّ اذكُرْنى ولا تَنْس عبْدك ، لا أَدرى أُنْفِلتُ مِمّا فيه أَم لا ؟ إن خَرَجْت احْتَرقْت ، وإن مكَثْت مِتُّ ! فقال له خير الملائكة ورأسهم : اسكت يا بنَ عِمْران : [أَوْشك] أَنْ يشتدّ خَوْفُك وينخلع قَلْبُك فاصبر للذى سأَلت .

ثم أَمر الله تعالى أَن يحمل عرشه فى ملائكة السَّماء

السّابعة ، فلمّا بدا نورُ العِزَّة انفرج الجبل من عظمة الرّب تعالَى ، ورفعت ملائكة السماوات

أَصواتَهم جميعاً يقولون : سبحان المِلك القُدُّوسُ ربُّ العِزَّة أَبداً لا يَمُوت ، بشدّة أَصواتهم ، فارتجَّ الجبل ، وانْدَكَّ .

كُلّ شجرة كانت فيه / وخَرَّ العبد الضَّعيف موسى صعِقاً على وجْهِه وليس معه رُوحه ، فأَرسل الله تعالى برحْمَته الرُّوح فتَغَشّاه ، وقَلَب عليه الحجر الَّذى كان عليه موسى وجعله كَهَيْئة القُبَّة لئلاّ يحْتَرِق موسى ، فأَقامه الرُّوح مثل الأُمّ ، فقام موسى يسبّحُ الله تعالى ويقول : بكَ آمنت ربّى وصدَّقْتُ أَنَّه لا يراك أَحدٌ فيَحْيا ، ومن نظر إلى ملائكتك انْخَلَع قلبُه ، فما أَعظَمكَ وأَعْظَم ملائكتك ، أَنت ربُّ الأَرْباب وإله الآلهة ، ومَلِكُ المُلوك ، لا يعْدِلُك شئٌ ، ولا يقُوم لك شئٌ ، ربِّ تُبْتُ إليك ، الحمدُ لَكَ لا شريك لَكَ ، ما أَعْظَمك وما أَجلَّك ربُّ العالمين .

أَنشد بعض الأَدباء :

*لِلْحُبّ نورٌ مُنَوّرْ * فى عَرْصة الجِنانِ*

*للَّذِكر حُسْنُ أُنْسٍ * يُنْسِى جَنَى الجِنان*

*الحُبُّ فى كَمالٍ * والحُبُّ فى جمالٍ*

*أَضحى أَخا كَلالٍ * عن وصفهِ لسانى*

*الشَّوْق فى الْتِهابِ * والدَّمْع فى انْسِكابِ*

*السِرُّ فى اضْطراب * يَنْبُو عن البَيان*

*فيهم لَقِيتُ كَرْبا * حتىّ انْتَشَيْت شرباً*

*ثمّ اشْتَهَيْت قرْباً * من سُكْرٍ اعْترانِى*

*نادَيْت يا حَبيبِى * ارحَمْ عَلا نحيبى*

*اسْمَع من الغَرِيب * انْظرْ إلى المُهانِ*

(78/240)

---

*بادِرْ إلَىَّ عَطْفاً * اصْبُبْ لَدَىّ لطْفاً*

*وامْننْ عَلَىّ كَشْفاً * فى مَجْلس التَّدانى*

*نُودِيتُ يا ابْن آدَمْ * نسيتَ عِلْمَ عالِمْ*

*يا سيّدى إلى كَمْ * من قَهْر لَنْ تَرانى*

( بصيرة فى ذكر هارون عليه السلام )

وهارُونُ اسمٌ أَعجميٌّ غير منصرف ، وقيل : مُعَرَّب أَرُون ، والأَرَنُ : النَّشاطُ ، سُمِّىَ به لِنَشاطه بالطَّاعة ، ثم قيل : هارون ، كما قالوا فى إِيّاك هِيّاك ، وفى إِبْرِيّة هِبْرِيّة .

وقد سمّاه الله تعالى فى التنزيل بعشرة أَسماء تَصريحاً وتعريضاً : وَزِيرٌ ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ ﴾ ، أَخٌ : ﴿ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي ﴾ ، رَسُولٌ : ﴿ إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ ﴾

مُرْسَلٌ : ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴾ ، نَبِيٌّ : ﴿ أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً ﴾ ، رِدْءٌ : ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً ﴾ ، أَفْصحُ : ﴿ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً ﴾ ، مُصَدِّقٌ : ﴿ يُصَدِّقُنِي ﴾ ، خَلِيفَةٌ : ﴿ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي ﴾ .

وهارُون اسْمُه العَلَم ، وقد ذكره الله تعالى بهذا الاسم فى مواضع من التنزيل : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ ﴾ ، ﴿ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ ، ﴿ لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي ﴾ ، ﴿ هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً ﴾ ، ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴾ ، ﴿ أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً ﴾ ، ﴿ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً ﴾ ، وقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم لعلِيٍّ رضى الله عنه "يا عَلِيُّ أَنتَ مِنِّى بمنزلة هارُونَ من مُوسَى" .

وقال الثَّعْلَبِيّ : كان هارُون فصيحَ اللِّسان بَيِّنَ الكلام ، وكان أَطولَ من مُوسَى وتُوفِّيَ قَبْلَ مُوسَى .

وقد ورد عن رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم أَنَّ مُوسَى دَفَنَ أَخاه هارونَ عليهما السّلام فى شِعْبِ أُحُدٍ .

أَخرجه الإِمام ابن عَساكر .

وفى حديث الإِسراء من تاريخ دمشق عن أَبى سَعِيدٍ الخُدْرِىّ عن النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم : "ثم صعدت إِلى

السّماء الخامِسة فإِذا أَنَا بهارون ونِصْف لِحْيَته أَبيض ونِصْفُها أَسْوَدُ ، تكاد لِحْيَتُه تَضْرِب سُرَّتَه من طُولِها ، قلت يا جِبْرائيل من هذا ؟ قال : هذا المَحُبَّبُ فى قَوْمِهِ ، هذا هارُون بنُ عِمْران" .

وفى الصّحيحين : "فإِذا بِهارُون فرَحَّب ودَعا لى بخير" .

( بصيرة فى ذكر إلياس عليه السلام )

وإِلياس اسم أَعجمىّ كسائر أَشكاله ، لا مجال للعربية فيه ، وإِلْياسِين المذكور فى التَّنزيل إِشارة إِلى إِلْياس وأَتباعه ، والَّذى يقرأُ آل ياسين المُراد إِلْياس وأَتْباعه أَيضاً لأَن نسبه : إِلْياس بن ياسِين بن فِنْحاص بن عيْزار بن هارُون بن عِمْران ، وقيل : آل ياسِين المراد به آلُ المصطفى صلَّى الله عليه وسلَّم ، ولكن فيه ضعف من حيث المعنى ، فإِنَّه لا مناسبة بينه وبين ما قبله .

وكان إِلْياسُ من أَنبياء بنى إِسرائيل ، أرسل إِلى قوم كانوا ببعْلَبَكَّ ، وكانوا يعبدون صنماً سمَّوْه بَعْلاً .

وبلغ قومُه فى إِيذائه وجفائه الغايةَ ، وعاقبهم الله تعالى أَنواعاً من العقوبة ، وكانوا يلْجؤون إِلى إِلْياس ، فكان يسأَلُ الله لهم العفْو فيأتيهم الفَرجُ بدُعائه إِلى أَن ملّ إِلياسُ من أَذاهُمْ

ونَقْضِ عهْدِهم ، فتضرّع إلى الله تعالى وسأَله الخلاص من مُقاساتهم فأَذِنَ له فى مفارقَتِهم ، وسلبه شهوةَ الطَّعام والشراب حتى يطَّبع كطَبْع المَلَك ، فصار إنسيّاً مَلَكِيّاً أَرْضِيّاً سماوِيّاً ، شرقيّاً غَرْبِيّاً ، برّياً ، مثل أَخيه الخَضِر .

وقد دعاه الله تعالى فى القرآن بخمسة أَسماءٍ : مُؤْمِنٌ ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، مُحْسِنٌ ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، إِلْياسِين ﴿ سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ ﴾ ، إِلْياسُ ومُرْسَلٌ ، ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

قال :

(80/240)

---

*يا منْ تنزّه عن صِفاتِ النّاسِ * يا منْ بلذَّةِ ذِكْرِه اسْتَئْناسِى*

*ما كُنْتُ للذِّكرَى زماناً ناسِى * فى ذِكْرِكم قد مِلْتُ نحو الْياسِ*

( بصيرة فى ذكر اليسع عليه السلام )

وهو اسمٌ أَعجمىٌّ ممنوعٌ من الصّرف ، وقيل عربىّ وزنه لفع وكان فى الأَصل يسْعى ، وقيل : وزنه يَعَلُ وكان فى الأَصل يوْسع ، وقيل : وزنه فَعَل والياء من أَصل الكلمة .

وقيل له يَسَعُ لسَعَةِ عِلمه ، أَو لسعْيه فى طلب الحقّ وطاعته .

ويَسَعُ كان خليفة إلْياس .

ولمّا خرج إلْياس من بين الناس وركب المركب الَّذى بعثه الله تعالى له كان يَسَعُ معه ، فلمّا رأَى المركب ارتفع فى الهواء علم أَنَّه آخر عهده به ، فقال : يا إلْياس بِمَ تأَمرنى ؟ وكان معه كساء فطرحه إليه ، فعلم أَنَّه جعله ولىَّ عهده ، فاشتغل بدعوة قوم / إلْياس .

وقام بشرائط شرعه .

وذكر الله تعالى الْيسَعَ فى التنزيل مع جملة الأَنْبياء : ﴿ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ ﴾ .

( بصيرة فى ذكر داود عليه السلام )

ودَاوُدُ اسمٌ أَعجمىٌّ ممنوع من الصّرف ، وقيل : داوُدُ معناه قصير العمر ، وكان داود أَقصر الأَنبياء عُمْراً ، وقيل : معناه داوى جُرحَه بوْدّ .

وقيل : إنّما سُمّىَ داود لأَنَّه داوَى الذُّنوب بوُدّه الودود ، وقيل داوَى ذنْبَه ووَدَّ ربَّه .

وهو أَبو سُلَيْمان / داوُد ابن إيْشا بهمزة مكسورة ومثنّاة تحتيّة ساكنة بعدها شين معجمة وأَلف .

(81/240)

وقد تظاهرت الآيات والأَحاديث الصّحيحة على عِظَم فضل الله تعالى عليه ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالاَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ ﴾ الآيات ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ * يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ الآيات ، وقال تعالى : ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً ﴾ ، ﴿ كُلاًّ هَدَيْنَا ﴾ إلى قوله ﴿ دَاوُودَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾ ، ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ ﴾ ، ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ .

وفى الأثر "إنّ داود كان يقول فى مُناجاته : إلهى أَتَيْت أَطباء عبادِك لِيُداوُونى وكلُّهم عَلَيْك دَلَّونى" .

وفى الصّحيحين : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم : "أَحَبُّ الصّيام إلى الله صِيامُ داوُدَ ، كان يصوم يوما ويُفْطِرُ يوما ، وأَحبُّ الصّلاة إلى الله صَلاةُ داوُدَ ، كان يَنام نصفَ اللَّيْل ويَقُوم ثُلُثَه ، ويَنام سُدُسَه" ، وقال صلَّى الله عليه وسلَّم لأَبى مُوسَى الأَشعرىّ : "لو رَأَيْتَنِى وأَنا أَسْتَمِع قِراءتَك البارِحَة لَقَدْ أُوتيتَ مِزْماراً من مَزامِير آل داوُدَ" .

وعند البخارىّ قال صَلَّى الله عليه وسلَّم : "خُفِّف على داوُدَ القرآن فكان يأْمُرُ بدوابِّهِ أَن تُسْرَج فيَقْرَأَه قبل أَن تُسْرَج دَوَابُّهُ ، وكان لا يأْكل إلاَّ عن عَمَل يَدَيْه" ، المُراد بالقرآن الزَّبور .

وعن أَبى الدَّرْداء يرفعه : "كان من دُعاءِ داودَ اللَّهم إنىّ أَسأَلُكَ حُبَّكَ وحُبَّ مَنْ يُحبّك ، والعَمَلَ الَّذى يُبَلِّغنى حُبَّك ، اللَّهُمّ اجعل حُبَّكَ أَحَبَّ إلىّ من نَفْسى وأَهْلِى ومن الماء البارِد" .

وكان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم إذا ذَكَر داودَ قال : "كان أَعْبَدَ البَشَر" حسّنه الترمذىّ .

وعن الفُضَيْلِ بن عِياض قال : قال داود : إلهى كنْ لأبنِى سُلَيْمان كما كُنتَ لى ، يكن لك كما كنت لك .

قال العلماء : لمّا استُشْهِد طالوتُ أَعطت بنو إسرائيل داودَ خزائنَ طالوت ومَلَّكوه على أنفسهم ، وذلك بعد قتل جالوتَ بسبع سِنين ، ولم يجتمِع بنو إسرائيل [بعد يوشعَ ابن نون]

على مِلك إلاَّ داوُدَ .

قال كعبُ بنُ مُنَبّه .

كان داودُ أَحْمَرَ الوَجْه سَبْطَ الرَأْسِ ، أَبيضَ الجِسْم ، طويل اللّحية ، فيها جعودة ، حَسَنَ الصَوت والخَلْق ، طاهر القلب .

وقال : وممّا أُعْطِيَ من الفضائل والخصائص الزَّبُورُ وحُسْنُ الصّوت ، فلم يُعْطَ أَحدٌ مثل صَوْته .

*(83/240)*

---

وحكى من آثارِ صوتِه أَشياء عجيبة حتَّى إنّ وحوش الصّحراءِ وطُيُور الهواء وسُكّان الأَرض والسّماء كانوا يَطْرَبُون لسماع صَوْته / ويَتَلَذَّذُون بِحُسْنِ أَلْحانِهِ ؛ ومنها تَسْخِير الجِبال والطَّير للتَّسبيح معه ، ومنها الحِكْمَةُ وفَصْلُ الخطاب ، قيل : معرفة الأَحكام وإِتقانُها وتسهيلها ، وقيل : بيانُ الكلام ، وقيل : قوله أمّا بعد ، وقيل : الشُّهودُ والأَيْمان ؛ ومنها السّلسلة المشهورة ؛ ومنها القُوَّة فى العِبادة والمُجاهَدَة ؛ ومنها قوّةُ المُلْكِ وتمكينه ؛ ومنها قُوّة بَدَنِه وشجاعةُ قلبه ؛ ومنها إِلانَةُ الحديد ، ومنها صَنْعَةُ اللُّبُوس الباقى إلى يوم القيامة تُجاهِدُون بِهِ الغُزاة فى سبيل الله .

قال أَهل التاريخ : كان عُمْرُ داودَ مائةَ سنة ، مُدّة ملكه منها أَربعون سنة .

صلوات الله على نبيّنا وعليه .

قال بعضهم :

*الله رازقُنا بالفَضْلِ والجُودِ * فاسْتَغْنِ فى جُودِهِ عن كلّ مَوْجُودِ*

*نحن العبيد سِراعٌ فى عِبادَتِه * بلا اعْتِراض على تقْدِير مَعْبُودِ*

*فاطلب مَبَرَّتَه وامْدُدْ مَوَدَّتَه * وانْظُرِ إلى عَبْده ذِى الأَيدِ دَاوُد*

( بصيرة فى ذكر سليمان عليه السلام )

وسليمانُ اسمٌ أَعجمىّ غير منصرف ، وقيل مشتقٌّ من السَّلامة ، سمّى به لاستسلام أَعدائه له ، ولسلامته من غوائلهم .

وفى بعض الأَخبار أَنَّ النمل قال : أَتدرى لِمَ سُمّيت سليمان ؟ قال : لا .

قال : معناه يا سُلَيْم آنَ لَكَ أَنْ تَتُوبَ .

وكان فى الأَصل يا سليم فَخُفِّفَ .

(84/240)

ودعاه الله عزّ وجلّ فى التنزيل بأحد عَشَر اسماً تصريحاً وتعريضاً : مُفَضَّلٌ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا ﴾ ، مُعَلّم ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾ ، ضاحِكٌ ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً ﴾ ، شاكِرٌ ﴿ أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ ، صالح ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ ، ناظِر ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ ﴾ ، مَلِك ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً ﴾ ، مُتَفَقّد ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ ﴾ ، حاكِمٌ ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ ، فَهِيمٌ ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ ، عَبْدٌ وأَوّابٌ ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ، مُنِيبٌ ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ ، مَوْهوبٌ وسُلَيْمان ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ﴾ .

وذكره الله تعالى فى التَّنْزيل فى خمسةَ عَشَر موضعا باسمه ، غير المكرّر : ﴿ كُلاًّ هَدَيْنَا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَسُلَيْمَانَ ﴾ ، ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ ﴾ ، ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ ، ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً ﴾ ، ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾ ، ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ ﴾ ، ﴿ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ﴾ ، ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ ﴾ ، ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَانَ ﴾ ، ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ ﴾ ، ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ﴾ ، ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ ،

﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ .

قال الثَّعْلبىّ وورث سليمانُ داودَ أَى نُبُوَّتَه وعِلْمَه وحكمته دون سائر أَولاد داود .

قال : وكان لداود اثنَا عشرَ ابنا .

وكان سليمان ملك الشام إِلى اصْطَخْر ، وقيل : ملك الأَرض .

(85/240)

---

وقد رُوِى عن ابن عبّاس رضى الله عنهما قال : مَلَكَ الأَرضَ مُؤْمنان سليمانُ وذو القَرْنَيْن ، وكافران نُمْروذ وبُخْتَنَصَّر .

وقال كعبٌ وابن منبّه : كان سليكان أَبيضَ جسيما وسيما وَضَّاءً جميلا خاشعاً متواضعاً ، يلبس الثيابَ البيض ، ويُجالِس المساكينَ ويقول : مِسْكِينٌ جالسَ مِسْكِيناً ، وكان أَبوه يشاورُه فى كثير من أُموره مع صِغَرِ سِنَّهِ لوفور عَقْله وعلمه .

ولمّا ملك سليمان / كان كثير الغَزْو والجِهاد لا يكاد يتركه ، فتَحْمِلُه الريحُ هو وعسكره ودوابّهم حيث أَراد ، وتَمُرّ به وبعسكره الريح على المزرعة فلا يتحرّكُ الزرعُ .

قال محمّد بن كعب القرظىّ : بلغنا أَنّ معسكر سليمان كان مائة فرسخ ، خمسة وعشرون للإِنس ، ومثلها للجنّ ، ومثلها للطَّير ، ومثلها للوحش .

قال : وقال أَهل التاريخ وكان عمر سليمان ثلاثا وخمسين سنة ؛ وملك وهو ابن ثلاث

عشرة سنة .

وابتدأَ بناء بيت المقدس بعد ابتداء ملكه بأَربع سنين .

قال بعضهم :

*أعْطَى سُلَيْمَانَ فى دُنْياه مَمْلَكَةً * لَمْ يُعْطِ قَطُّ كما أَعْطاه إِنْسانا *

*طَيْرٌ بأَجنحةٍ ظلَّت مِظَلَّته * رِيحٌ رُخاءٌ أَتَتْه حَيْثُ ما كانَا *

*آتاه من كلّ شئ ما يُلائمه * حَتَّى لِمَنْطِق طيرٍ زادَ تِبيانا *

*فصار يَنْصُره يوماً ويَذْكُره * لَيْلاً ويَشْكُره قَلْباً وقُرْبانا *

*أَفْدِيه من مَلِك أَقواله حِكَمٌ * والله قال : "فَفَهَّمْنا سُلَيْمانا" *

( بصيرة فى ذكر زكريا عليه السلام )

وزَكَرِيّا اسمٌ أَعجمىٌّ يُقْصَر ويُمدّ وقرئَ بهما فى السَّبْع .

ويقال زَكَرِيا بتخفيف الياء وتشديدها ، وزَكَرٌ كَقَلَمٍ ، خمس لغات .

أَرسله الله تعالى إِلى بنى إِسرائيل ، وكان عالماً بالتوراة والإِنجيل ، وكان إِمامَ علماء بيت المقدس ومُقدّمهم ، وكان فى تلاميذه أَربعة آلاف عالم قارئ التوراة ، وقد استجاب الله دعاءه فى حصول ولده يحيى بعد أَن كان زكريا عقيماً وزوجته آيساً عاقراً .

ودعاه الله فى التَّنزيل بأحدَ عَشَر اسْماً : كَفِيلٌ ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ ، داعٍ ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ ، منادِى ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾ ، مُنادَى ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ ﴾ ، قائم ومُصَلّى ﴿ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي ﴾ ، مُبَشَّر ﴿ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى ﴾ ، مُسْتجابُ الدّعوة ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ ، مُسارِعٌ فى الخَيْر ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ ، راغبٌ وراهبٌ ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ، خاشِعٌ ﴿ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ ، ذاكِرٌ ﴿ وَاذْكُر رَبَّكَ كَثِيراً ﴾ ، مُسَبّح ﴿ وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾ ، عَبْدٌ وزكريّا ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّآ ﴾ .

وذكره باسمه فقال : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ ، ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ﴾ ، ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا ﴾ ، ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى ﴾ إلى قوله : ﴿ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ، ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾ ، ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّآ ﴾ ، ﴿ يَا زَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴾ .

وثبت فى صحيح مسلم أَنّ النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال : "كان زكريّا نَجّاراً" وهذه من الفضائل لقوله صلَّى الله عليه وسلَّم : "أَفْضَلُ ما أَكَلَ الرَّجلُ مِنْ عَمَلِ يَدِه" .

/وذكر المؤرخون أَنّ زكريّا كان من ذرّية سلمان بن داود عليهم السّلام ، وقُتِلَ زكريّا ، بعد قتل ابنه يحْيى صلواتُ الله وسلامه عليهما .

قال [بعضهم] :

*قال النبيُّ المُسْتجاب دُعاؤه * ما كُنْتُ رَبّي بالدُّعاء شَقِيّا *

*هب لِي بفَضْلك وارِثاً متَعبّداً * واجْعَلْه يا ربَّ العِباد رَضِيّا *

*فأَجاب دَعْوَتَه وأَنْجزَ وَعْدَه * بفَتاهُ أَعْنِي عَبْدَهُ زكَرِيّا *

( بصيرة فى ذكر يحيى عليه السلام )

*(87/240)*

---

ويَحْيَ اسمٌ على زنة يَفْعل مشتق من الحَياة ، وأُطلق عليه هذا الاسم لأَنه [جاء] فى حال شيخوخة الوالدين ، وغالبا لا يطول عمر من كان كذلك ، فوهبه الله هذا الاسم اطمئناناً لقلبها وشرحاً لصدرهما أَنَّه يَحْيَا كبيراً ، وأَنَّه وُلِدَ حَيَّ القلب بالمَحَبَّة ، حيَّ الجسم بالطاعة ، حَيَّ اللِّسان بالذِّكْر ، حيّ السِرّ بالمعرفة ، معصوماً من الزَّلَّة .

وقد دعاه الله تعالى بخمسة عشر اسْماً فى التنزيل ، طيّب : ﴿ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ ، مُصَدِّقٌ ﴿ مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ ، وسيّد وحَصورٌ ونَبِيٌّ وصالِحٌ قال ، ﴿ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ هِبَةُ الله ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى ﴾ ، وَلِيٌّ ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً ﴾ ، وارثٌ ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ ، رَضِيٌّ ﴿ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً ﴾ غُلام ﴿ نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ ﴾ ، زَكِيٌّ ﴿ وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ﴾ ، تَقِيٌّ ﴿ وَكَانَ تَقِيّاً ﴾ قويٌّ

﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ ، حَكَمٌ صَبِيٌّ ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً ﴾ ، بارٌّ ﴿ وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ ﴾ .

وذكره باسمه يَحْيَى فى مواضع منها : ﴿ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى ﴾ ، ﴿ نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى ﴾ ، ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى ﴾ ، ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى ﴾ ، ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ .

قال المفسّرون أَوّل من آمَن بعيسى يَحْيَى .

وقُتِل يَحْيَى قبل أَبيه زكرّيا ، وثبت فى الصّحيحين أَنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال : "ثم عُرِجَ بى إلى السَّماءِ الثانية فاستَفْتَح جبريلُ ففُتِح لنا ، وإذا أَنا بابْنَى الخالَة عِيسَى بن مَرْيَم ويَحْيَى بن زكرّيا ، فرحَّبا ودَعَوا لى بخير" .

*(88/240)*

---

وفى مسند أَبى يَعْلَى الموصلىّ بسند عن ابن عبّاس أَنّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال : "ما أَحدٌ من وَلَدِ آدَمَ إلاَّ قد أَخطأَ أَوْ هَمَّ بخطيئة ، ليس يَحْيَى بن زكريا" فى سنده علىّ بن زيد بن جُدْعان وهو ضعيف ، ويوسف بن مهران وهو مُخْتَلَفٌ فيه .

قال الثعلبىّ كان مولد يحيى قبل مولد عيسى بستَّة أَشهر .

وقال الكلبىّ : كان زكرّيا يوم بُشِّرَ بالوَلَد ابن ثنتين وتسعين سنة ، وقيل تسع وتسعين سنة ،

وعن ابن عبّاس : كان ابن عشرين ومائة ، وكانت امرأته بنتَ ثمانٍ وتسعين سنة .

قال كعب الأَحْبار : وكان يحيى حَسَنَ الصورة والوَجْه ، لَيِّن الجَناحِ ، قليل الشَّعَر ، قصير الأَصابع ، طويلَ الأَنف ، مقرون الحاجبين ، رقيق الصّوت ، كثير العبادة ، قويّاً فى طاعة الله تعالى ، وساد النّاس فى عبادة الله تعالى وطاعته .

وقالوا فى قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً ﴾ قيل إِنَّ يحيى قال له أَتْرَابُهُ من الصبيان اذهب بنا نلعب ، فقال : مَا لِلَّعِبِ خُلِقْتُ .

وقيل إِنَّه نُبِّئَ صغيراً ، وكان يعظ الناسَ ويقف لهم فى أَعْيادهم ومجامعهم ويدعوهم إِلى الله تعالى ، ثمّ ساح يدعو الناسَ .

واتفقوا على أَنَّه / قُتِل ظُلْما شهيداً .

وغضب الله على قاتليه وسَلَّط عليهم بختنصر وجيوشَه ، وكان وعد الله مَفْعولاً .

قال بعضهم :

*أَلاّ طَهِّرْ فؤادكَ واقضِ سَعياً * وعارضْ بالنُّهى أَمراً ونَهْياً *

*طَوَى كَشْحاً عن الكَوْنَينِ طُرّاً * نَبِىُّ الله فى مَوْتٍ ومَحْيَا *

*حياةٌ كله حَيّاً ومَيْتاً * لِذاكَ اللهُ سَمّاهُ بيَحْيَى *

أهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 6 صـ 26 ـ 95 ﴾ . بتصرف يسير .

---

وهذا فصل نفيس جامع للإمام ابن الجوزى

قال رحمه الله :

المجلس الرابع في ذكر نوح عليه الصلاة والسلام

الحمد لله تسبحه البحار الطوافح والسحب السوافح والأبصار اللوامح والأفكار والقرائح العزيز في سلطانة الكريم في امتنانه ساتر المذنب في عصيانه رازق الصالح والطالح تقدس عن مثل وشبيه وتنزه عن نقص يعتريه يعلم خافية الصدر وما فيه من سر أضمرته الجوانح لا يشغله شاغل ولا يبرمه سائل ولا ينقصه نائل تعالى عن الند المماثل والضد المكادح يسمع تغريد الورقاء على الغصن وما شاء كان وما لم يشا لم يكن ويتكلم فكلامه مكتوب في اللوح مسموع بالأذن بغير آلات ولا أدوات ولا جوارح أنزل القطر بقدرته وصبغ لون النبات بحكمته وخالف بين الطعوم بمشيئته وأرسل الرياح لواقح موصوف بالسمع والبصر يرى في الجنة كما يرى القمر من شبهه أو كيفه فقد كفر هذا مذهب أهل السنة والأثر ودليلهم جلي واضح ينجي من شاء كما شاء ويهلك فهو المسلم للمسلم والمسلم للمهلك لم ينتفع كنعان بالنسب يوم الغرق لأنه مشرك قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح أحمده على

تسهيل المصالح وأشكره على ستر القبائح وأصلى على رسوله محمد أفضل غاد وخير رائح وعلى صاحبه أبي بكر ذي الفضل الراجح وعلى عمر العادل فلم يراقب ولم يسامح وعلى عثمان الذي بايع عنه الرسول فيالها صفقة رابح وعلى على البحر الخضم الطافح وعلى عمه العباس الذي أخذ البيعة له ليلة العقبة وكل الأهل نازح اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وهب طالحنا لصالحنا وسامحنا فأنت الحليم المسامح واغفر لنا ذنوبنا قبل أن تشهد علينا الجوارح ونبهنا من رقدات الغفلات

*(90/240)*

---

قبل أن يصيح الصائح وانفعني بما أقول والحاضرين بمنك فمنك الفضل والمنائح قال الله تعالى وقال اركبوا فيها ولد نوح عليه السلام بعد وفاة آدم بمائة وست وعشرين سنة وهو نوح بن لمك ابن متوشلخ بن إدريس ولما تم له خمسون سنة بعثه الله عز وجل وقيل إنه بعث بعد أربعمائة سنة من عمره وكان الكفر قد عم فكان يدعو قومه فيضربونه حتى يغشى عليه فأمره الله تعالى أن يصنع سفينة فغرس الساج فتكامل في أربعين سنة ثم قطعه فصنعها وأعانه أولاده وفجر الله له عين القار تغلي غليانا حتى طلاها وجعل لها ثلاث بطون فحمل في البطن الأسفل الوحوش والسباع والهوام وفي الأوسط الدواب والأنعام وركب هو ومن

معه في البطن الأعلى قال ابن عباس رضي الله عنهما كل طولها ستمائة ذراع وعرضها ثلاثمائة وثلاثين ذراعا وفي رواية عنه قال كان طولها ألفا ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراعا ثم ابتدأ الماء بجنبات الأرض فدار حولها كالإكليل فجعلت الوحوش تطلب وسط الأرض هربا من الماء حتى اجتمعت عند السفينة فحمل فيها من كل زوجين اثنين وقيل له إذا فار التنور فاركب وفي المراد بالتنور أربعة أقوال أحدها أنه اسم لوجه الأرض قال ابن عباس قيل له إذا رأيت الماء قد علا على وجه الأرض فاركب والثاني تنور الصبح قاله علي عليه السلام

*(91/240)*

---

والثالث طلوع الشمس روى عن علي أيضاً والرابع تنور أهله انبجس منه الماء قاله مجاهد وفي المكان الذي فار منه التنور ثلاثة أقوال أحدها مسجد الكوفة روى عن علي وقال زر بن حبيش فار التنور من زاوية مسجد الكوفة الأيمن والثاني بالهند قاله ابن عباس والثالث بالشام من عين وردة وهي منزل نوح قاله مقاتل وفي الذين حملهم في السفينة ثمانية أقوال أحدها كانوا ثمانين رجلاً معهم أهلوهم والثاني كانوا ثمانين وبنيه الثلاثة وثلاثة نسوة لبنيه وامرأة نوح والثالث كلهم كاوا ثمانين قال مقاتل كانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة والرابع ثلاثين

رجلاً والأقوال الأربعة عن ابن عباس والخامس كانوا ثمانية نوح وامرأته وثلاثة بنين له ونسوانهم وهذا قول الحكم بن عتيبة والقرظي وابن جريج والسادس كانوا سبعة نوح وبنيه وثلاث كنائن له قاله الأعمش والسابع كانوا ثلاثة عشر نوح وبنوه ونساؤهم وستة ممن آمن به قاله ابن إسحاق والثامن كانوا عشرة سوى نسائهم روى عن إسحاق أيضاً فركبوا لعشر مضين من رجب وخرجوا يوم عاشوراء قوله تعالى ( بسم الله مجريها ومرساها ) قال الزجاج أمرهم أن يسموا في وقت جريها ووقت استقرارها

(92/240)

---

قوله تعالى ( في موج كالجبال ) قيل إن الماء ارتفع على أطول جبل في الأرض أربعين ذراعاً ونادى نوح ابنه واسمه كنعان ويقال يام وكان في معزل أي في مكان منقطع وقيل في معزل من دين أبيه وكان ينافقه بإظهار الإيمان فدعاه إلى الركوب ظناً أنه مؤمن فقال ( سآوي إلى جبل يعصمني ) أي يمنعني من الماء ( قال لا عاصم ) أي لا معصوم كقوله ( من ماء دافق ) أي مدفوق إلا من رحم الله فإنه معصوم ( وحال بينهما الموج ) فيه قولان أحدهما بين كنعان والجبل الذي زعم أنه يعصمه قاله ابن عباس والثاني بين نوح وابنه قاله مقاتل قوله تعالى ( وقيل يا أرض ابلعي ماءك ) قال ابن عباس ابتلعت ما ظهر منها وبقي ماء السماء بحاراً

وأنهاراً ن ( ويا سماء أقلعي ) أي أمسكي عن إنزال الماء ( وغيض الماء ) نقص ( وقضى الأمر ) بغرق القوم ( واستوت ) يعني السفينة ( على الجودي ) وهو جبل بالموصل وإنما قال نوح ( رب إن ابني من أهلي ) لأن الله تعالى وعده نجاة أهله فقيل له ( إنه ليس من أهلك ) أي من أهل دينك وإنما قال تعالى في وعده ( وأهلك إلا من سبق عليه القول ) قوله تعالى ( إنه عمل غير صالح ) يعني السؤال فيه وقرأ الكسائي ( عمل ) بكسر الميم يشير إلى أنه مشرك أخبرنا المحمدان بابن ناصر وابن عبد الباقي قالا أنبأنا أحمد بن أحمد حدثنا أبو نعيم أحمد بن عبد الله حدثنا أبو بكر بن مالك حدثنا عبد الله بن أحمد حدثني أبي حدثنا عبد الرزاق حدثنا وهيب بن الورد قال لما عاتب الله تعالى نوحاً في

(93/240)

---

ابنه وأنزل عليه ( إني أعظك أن تكون من الجاهلين ) بكى ثمانمائة عام حتى صار تحت عينيه مثل الجدول من البكاء قال علماء السير لما خرجوا من السفينة بنوا قرية سموها ثمانين بعددهم ثم ماتوا ولم يبق لهم نسل وإنما الناس كلهم من أولاد نوح وكانوا ثلاثة سام وحام ويافث فمن أولاد سام فارس وطسم وعمليق وهو أبو العماليق كلهم وإرم وأرفخشذ ومن أولاد أرفحشذ الأنبياء والرسل والعرب كلها والفراعنة بمصر ومن أولاد إرم عابر وعوص

ومن ولد عابر ثمود وجديس وكانوا عرباً وولد عوص عاداً وكانت طسم وعمليق وجاسم يتكلمون بالعربية وكانت العرب تقول لهم العرب العاربة لأنه كان لسانهم الذي جبلوا عليه وتقول لبني إسماعيل العرب المتعربة لأنهم تكلموا بلسان الأمم الذين سكنوا بين أظهرهم وولد لعابر فالغ ومعناه بالعربية قاسم لأنه قسم الأرض بين بني نوح وولد لفالغ أرغو ولأرغو ساروغ ولساروغ ناحور ولناحور تارخ أبو إبراهيم الخليل عليه السلام وولد لعابر أيضاً قحطان وقحطان أول من ملك اليمن وأول من سلم عليه بأبيت اللعن ومن أولاد حام كوش وولد لكوش نمرود الجبار ومن أولاد نمرود هذا نمرود الذي ابتلي به الخليل ومن أولاد حام السودان والبربر والقبط ومن أولاد يافث الترك ويأجوج ومأجوج والصقالبة ولما كثر أولاد نوح اقتسموا الأرض فنزل بنو سام سرة الأرض فجعل

فيهم النبوة والكتاب والجمال – ونزل بنو حام مجرى الجنوب والدبور ونزل بنو يافث مجرى الشمال والصبا فاشتد بردهم ولما قصت قصة نوح على نبينا ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ قيل له ( فاصبر إن العاقبة للمتقين ) والمعنى اصبر كما صبر نوح فإن الظفر والتمكين لمن اتقى والمراد ليحصل لك كما حصل لنوح عليه السلام والمؤمنين

الكلام على البسملة

( عجبا لعيني كيف يطرقها الكرى

ولحيلتي وقد انجلى عني المرا

(ألهو وأعلم أنه قد فوقت

نحوى سهام الحتف أم حيني كرى

(وإذا هممت بتوبة وإنابة

عرضت لي الدنيا فعدت القهقرى

*(94/240)*

---

(كم قد سمعت وقد رأيت مواعظا

لو كنت أعقل حين أسمع أو أرى

(أين الذين طغوا وجاروا واعتدوا

وعتوا وطالوا واستخفوا بالورى

(أو ليس أعطتهم مقاليد العلا

حتى لقد خضعت لهم أسد الشرى

(وتمسكوا بحبالها لكنها

فصمت لهم منها وثيقات العرى

(ما أخلدتهم بعد سالف رفعة

بل أنزلتهم من شماريخ الذرى

( وإلى البلى قد نقلوا وتشوهت

تلك المحاسن تحت أطباق الثرى

( لو أخبروك بحالهم وما آلهم

أبكاك دهرك ما عليهم قد جرى

( أفناهم من ليس يفنى ملكه

ذو البطشة الكبرى إذا أخذ القرى

( فاصرف عن الدنيا طماعك إنما

ميعادها أبداً حديث يفترى

( وصل السرى عنها فما ينجيك من

آفاتها إلا مواصلة السرى

يا حاملا من الدنيا أثقالا ثقالا يا مطمئناً لا بد أن تنتقل انتقالا يا مرسلا عنان لهوه في ميدان زهوه إرسالا كأنك بجفنيك حين عرض الكتاب عليك قد سألا أين المعترف بما جناه أين المعتذر إلى مولاه أين التائب من خطاياه أين الآيب من سفر هواه نيران الإعتراف تأكل خطايا الاقتراف مجانيق الزفرات تهدم حصون السيئات مياه الحسرات تغسل أنجاس الخطيئات يا طالب النجاة دم على قرع الباب وزاحم أهل التقى أولي الألباب ولا تبرح وإن لم يفتح فرب

نجاح بعد الياس ورب غنى بعد الإفلاس ( صبرا فما يظفر إلا من صبر

إن الليالي واعدات بالظفر

( وربما ينهض جد من عثر

ورب عظم هيض حينا وانجبر

إذا تبت من ذنوبك فاندم على عيوبك وامح بدموعك قبيح مكتوبك والبس جلباب الفرق

وتضرع على باب القلق وقل بلسان المحترق ( قد فعلت القبيح وهو شبيهي

خطأ فافعل الجميل بعفوك

( وفدت رغبتي إليك وما زلت

تحيي بالنجح أوجه وفدك

قف وقوف المنكسرين وتبتل تبتل المعتذرين واستشعر الخضوع واستجلب الدموع واحتل

واحذر سهم الغضب أن يصيب المقتل ( يا سيدي ما هفوتي بغريبة

مني ولا غفرانها بطريف

( فإن تقبل العبد الضعيف تطولا

فإن رجائي فيك غير ضعيف

كم أتيت ذنبا فسترت وكم جنيت جناية فنظرت فبالحلم والكرم إلا غفرت ( فقد طالما

أنقذتني يداك

وقد قلقلتني حبال الردى

( فوالله لا شمت غيثا سواك

فإما نداك وإما الصدى

إخواني إنما مرض القلوب من الذنوب وأصل العافية أن تتوب دوام التخليط بوقع في صعاب

العلل أسمعت يا مربض الشره كم رأيت صريعا للهوى اقرع باب الطبيب يصف لمرضك

نسخة قبل أن تسري سكتة التفريط إلى موت الهلاك تلاوة القرآن تعمل في أمراض الفؤاد ما

يعمله العسل في علل الأجساد مواعظ القرآن لأمراض القلوب شافية وأدلة القرآن لطلب

الهدى كافية أين السالكون طريق السلامة والعافية ما لي أرى السبل من القوم عافية

إن السعيد لمدرك دركاً

وأخو الشقاوة فهو في الدرك

( وإلى الخمول مآل ذي لعب

وإلى السكون مصير ذي حرك

( طار الحمام وغاص مقتدرا

فأمات حتى الطير والسمك

( إن الزمان إذا غدا وعدا

قتل الملوك بكل معترك

( والعين تبصر أين حبتها

لكنها تعمى عن الشرك

( أنكرت هذا الموت ما ارتبكت

نفسي هناك أشد مرتبك

( ما ضر ذاكره وناظره

أن لا ينام على سوى الحسك

سجع على قوله تعالى

( يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا

يا من بين يديه يوم لا شك فيه ولا مرا يقع فيه الفراق وتنفصم العرى تدبر أمرك قبل أن تحضر فترى وانظر لنفسك نظر من قد فهم ما جرى قبل أن يغضب الحاكم والحاكم رب الورى ( يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ) يوم تشيب فيه الأطفال يوم تسير فيه الجبال يوم تظهر فيه الوبال يوم تنطق فيه الأعضاء بالخصال يوم لا تقال فيه الأعثار وكم من أعذار تقال فترى من قد افترى يقدم قدما ويؤخر أخرى ( يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا )

فينصب الصراط فناج وواقع ويوضع الميزان فتكثر الفظائع وتنشر الكتب وتسيل المدامع وتظهر القبائح بين تلك المجامع ويؤلم العقاب وتملى المسامع ويخسر العاصي ويربح الطائع فكم غني قد عاد من الخير مفتقرا ( يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ) أخبرنا هبة الله بن محمد أنبأنا الحسن بن علي حدثنا أحمد بن جعفر حدثنا عبيد الله ابن أحمد حدثني أبي حدثنا سليمان بن حيان حدثنا ابن عون عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ قال يوم يقوم الناس لرب العالمين يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه قال أحمد وحدثنا وكيع قال حدثنا الأعمش عن خيثمة عن عدي بن حاتم قال قال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه عز وجل ليس بينه وبينه ترجمان فينظر عن أيمن منه فلا يرى شيئاً قدامه وينظر عن أشأم منه فلا يرى شيئا قدامه وينظر أمامه فتستقبله النار فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق ثمرة فليفعل هذان الحديثان في الصحيحين روى عتبة بن عبيد عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال لو أن رجلاً يجر على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هرما في مرضاة الله لحقره يوم القيامة يا له من يوم يقتص للمظلوم من الظالم وتحيط بالظالم المظالم وتصعد القلوب إلى الغلاصم وليس لمن

لا يرحمه الإله عاصم قال عليه السلام لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجماء من الشاة القرناء

وقال ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ يحبس المؤمنون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة

كم من وعيد يخرق الآذانا

كأنما يعنى به سوانا

أصمنا الإهمال بل أعمانا

يا كثير السيئات غدا ترى عملك يا هاتك الحرمات إلى متى تديم زللك ( تيقظ فإنك في غفلة

يميد بك السكر فيمن يميد

( وأي منيع يفوت البلى

إذا كان يبلى الصفا والحديد

( إذا الموت دبت له حيلة

فتلك التي كنت منها تحيد

( أراك تؤمل والشيب قد

أتاك بنعيك منه بريد

( وتنقص في كل تنفيسة

وعندك أنك فيها تزيد

أما تعلم أن الموت يسعى في تبديد شملك أما تخاف أن تؤخذ على قبيح فعلك واعجباً لك

من راحل تركت الزاد في غير رحلك أين فطنتك ويقظتك وتدبير عقلك أما بارزت بالقبيح

فأين الحزن أما علمت أن الحق يعلم السر والعلن ستعرف خبرك يوم ترحل عن الوطن

وستنتبه من رقادك ويزول هذا الوسن ( إلى الله تب قبل انقضاء من العمر

أخي ولا تأمن مساورة الدهر

( فقد حدثتك الحادثات نزولها

ونادتك إلا أن سمعك ذو وقر

( تنوح وتبكي للأحبة إن مضوا

ونفسك لا تبكي وأنت على الإثر

الكلام على قوله تعالى

( ويحذركم الله نفسه ) يا مبارزا بالذنوب خذ حذرك وتوق عقابه بالتقى فقد أنذرك وخل

الهوى فإنه كما ترى صيرك قبل أن يغضب الإله ويضيق حبسه ( ويحذركم الله نفسه )

اجتهد في تقوية يقينك قبل خسر موازينك وقم بتضرعك وخيفتك قبل نشر دواوينك

وابذل قواك في ضعفك ولينك قبل أن يدنو العذاب فتجد مسه ( ويحذركم الله نفسه ) لما

سمع المتيقظون هذا التحذير فتحوا أبواب القلوب لنزول الخوف فأحزن الأبدان وقلقل

الأرواح فعاشت اليقظة بموت الهوى وارتفعت الغفلة بحلول الهيبة وانهزم الكسل بجيش

الحذر فتهذبت الجوارح من الزلل والعزائم من الخلل فلا سكون للخائف ولا قرار للعارف

كلما ذكر العارف تقصيره ندم على مصابه وإذا تصور مصيره حذر مما في كتابه وإذا خطر

العتاب بفنائه فالموت من عتابه فهو رهين القلق بمجموع أسبابه كان داود عليه السلام إذا

خرج يوم نياحته على ذنبه أقلع مجلسه عن ألوف قد ماتوا من الخوف عند ذكر ربه وكان

عمر بن الخطاب رضي الله عنه يمر بالآية في ورده فيبكي حتى يسقط ويبقى في البيت

مريضاً يعاد وقرأ الحسن ليلة عند إفطاره ( إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة )

فبقي ثلاثة أيام لا يطعم حقيق بمن علم ما بين يديه وتيقن أن العمل يحصى عليه وأنه لا بد من

الرحيل

*(98/240)*

عمل لديه إلى موقف صعب يساق إليه يتجافى عن مضطجع البطالة بجنبيه قال حاتم الأصم من خلا قلبه من ذكر أخطار أربعة فهو مغتر فلا يأمن الشقاء الأول خطر يوم الميثاق حين قال الله تعالى هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي ولا يعلم في أي الفريقين كان والثاني حين خلق في ظلمات ثلاث فنودي الملك بالشقاء والسعادة ولا يدري أمن الأشقياء هم أم من السعداء والثالث ذكر هول المطلع ولا يدري أيبشر برضا الله تعالى أو بسخطه والرابع يوم يصدر الناس أشتاتا ولا يدري أي الطريقين يسلك به فمحقوق لصاحب هذه الأخطار أن لا يفارق الحزن قلبه بكى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ليلة فأطال فسئل عن بكائه فقال ذكرت مصير القوم بين يدي الله عز وجل فريق في الجنة وفريق في السعير ثم صرخ وغشي عليه (كم ذا أغالط أمري

كأنني لست أدري

(أغفلت ذا الذي كان

في مقدم عمري

(ولم أزل أتمادى

حتى تصرم دهري

(من لي إذا صرت رهناً

بالذنب في رمس قبري

( بأي عذر ألاقي

ربي ليقبل عذري

( فليت شعري متى أدرك

المنى ليت شعري

يا من قد وهى شبابه وامتلأ بالزلل كتابه أما بلغك أن الجلود إذا استشهدت نطقت أما علمت أن النار للعصاة خلقت إنها لتحرق كل ما يلقى فيها فيصعب على خزنتها كثرة تلاقيها التوبة تحجب عنها والدمعة تطفيها قال ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾

*(99/240)*

---

لو أن قطرة من الزقوم قطرت في الأرض لأمرت على أهل الدنيا معيشتهم فكيف بمن هو طعامه لا طعام له غيره أسفاً لأهل النار قد هلكوا وشقوا لا يقدر الواصف أن يصف ما قد لقوا كلما عطشوا جيء بالحميم فسقوا وهذا جزاؤهم إذ خرجوا عن الطاعة وفسقوا قطعوا والله بالعذاب ومزقوا وأفرد كل منهم عن فريقه وفرقوا فلو رأيتهم قد كلبوا في السلاسل وأوثقوا واشتد زفيرهم وتضرع أسيرهم وقلقوا وتمنوا أن لم يكونوا وتأسفوا كيف خلقوا وندموا إذا أعرضوا عن النصح وقد صدقوا فلا اعتذارهم يسمع ولا بكاؤهم ينفع

ولا أعتقوا ( لو أبصرت عيناك أهل الشقا

في النار قد غلوا وقد طوقوا

( تقول أولاهم لأخراهم

في لجج المهل وقد أغرقوا

( قد كنتم حذرتم حرها

لكن من النيران لم تفرقوا

( وجيء بالنيران مزمومة

شرارها من حولها محدق

( وقيل للنيران أن احرقي

وقيل للخزان أن أطبقوا

( وأولياء الله في جنة

قد توجوا فيها وقد منطقوا

( تدبروا كم بينهم إخوتي

ثم أجيلوا فكركم وانتقوا

*(100/240)*

المجلس التاسع في ذكر إسحاق وقصة الذبح (1)

الحمد لله الذي أنشأ وبنا وخلق الماء والثرى وأبدع كل شيء ذرا لا يغيب عن بصره دبيب النمل في الليل إذا سرى ولا يعزب عن علمه ما عن وما طرا اصطفى آدم ثم عفا عما جرى وابتعث نوحاً فبنى الفلك وسرى ونجى الخليل من النار فصار حرها ثرى ثم ابتلاه بذبح الولد فأدهش بصبره الورى (يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى) أحمده ما قطع نهار بسير وليل بسرى وأصلي على رسوله محمد المبعوث في أم القرى وعلى أبي بكر صاحبه في الدار والغار بلا مرا وعلى عمر المحدث عن سره فهو بنور الله يرى وعلى عثمان زوج ابنته ما كان حديثا يفترى وعلى علي بحر العلوم وأسد الشرى وعلى عمه العباس الرفيع القدر الشامخ الذرى قال الله (فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى) المراد بالسعي مشيه معه وتصرفه وكان حينئذ ابن ثلاث عشرة سنة وهذا الزمان أحب ما يكون الولد إلى والده لأنه وقت يستغنى فيه عن مشقة الحضانة والتربية ولم يبلغ به وقت الأذى والعقوق فكانت البلوى أشد وللعلماء في الذبيح قولان أحدهما أنه إسماعيل قاله ابن عمر وعبد الله بن سلام والحسن البصري وسعيد بن المسيب والشعبي ومجاهد ويوسف بن مهران والقرظي في آخرين والثاني أنه إسحاق أخبرنا علي بن عبيد الله وأحمد بن الحسين وعبد الرحمن بن محمد قالوا أنبأنا

(1) الراجح عند المحققين من العلماء أن الذبيح هو إسماعيل ـ عليه السلام ـ ولا يلتفت إلى خلاف البعض الذين تابعوا التوراة (المحرفة) فى اختصاص قصة الذبح بإسحاق ـ عليه السلام ـ لسلب أى شرف ومزية لإسماعيل جد نبينا (صلى الله عليه وسلم) وسيأتى توضيح ذلك ـ إن شاء الله تعالى ـ فى سورة الصافات عند قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102) ﴾ .

*(101/240)*

---

عبد الصمد المأمون أنبأنا علي بن عمر الحربي حدثنا أحمد بن كعب حدثنا عبد الله ابن عبد المؤمن حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث عن المبارك بن فضالة عن الحسن عن الأحنف بن قيس عن العباس بن عبد المطلب عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ قال الذبيح إسحاق وهذا قول عمر وعلي والعباس وابن مسعود وأبي موسى وأبي هريرة وأنس وكعب ووهب ومسروق في خلق كثير وهو الصحيح أخبرنا الحسين أنبأنا أبو طالب بن غيلان أنبأنا أبو بكر الشافعي حدثنا الهيثم ابن خلف حدثنا أبو كريت حدثنا زيد بن الحباب عن الحسن بن دينار عن علي ابن زيد بن جدعان عن الحسن عن الأحنف بن قيس

عن العباس قال قال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ سأل داود عليه السلام ربه فقال إلهي أسمع الناس يقولون إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب فاجعلني رابعاً فقال لست هناك إن إبراهيم لم يعدل بي شيئاً إلا اختارني عليه وإن إسحاق جاد لي بنفسه وإن يعقوب في طول ما كان لم ييأس من يوسف وأما سبب أمره بذبحه فروى السدى عن أشياخه أن جبريل لما بشر سارة بإسحاق قالت ما آية ذلك قال فأخذ عوداً يابساً في يده فلواه بين أصابعه فاهتز خضرا فقال إبراهيم هو لله إذا ذبيح فلما كبر إسحاق أتي إبراهيم في النوم

*(102/240)*

---

فقيل له أوف بنذرك فقال لإسحاق انطلق نقرب قرباناً إلى الله وأخذ سكيناً وحبلاً ثم انطلق معه حتى إذا ذهب بين الجبال فقال له الغلام يا أبت أين قربانك قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فقال إسحاق اشدد رباطي كي لا أضطرب واكفف ثيابي لا ينتضح عليها من دمي فتراه سارة فتحزن وأسرع مر السكين على حلقي ليكون أهون للموت علي وإذا أتيت سارة فاقرأ عليها السلام مني فأقبل عليه إبراهيم يقبله ويبكي وربطه وجر السكين على حلقه فلم تذبح السكين وقال غيره انقلبت فنودي يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا فإذا بكبش فأخذه وخلى عن ابنه وأكب عليه يقبله ويقول يا بني اليوم وهبت لي

ورجع إلى سارة فأخبرها الخبر فقالت أردت أن تذبح ابني ولا تعلمني قال شعيب الجبائي لما علمت بذلك ماتت في اليوم الثالث وإنما قال فانظر ماذا ترى أي ما عندك من الرأي ولم يقل ذلك على وجه المؤامرة في أمر الله سبحانه قال يا أبت افعل ما تؤمر أي ما أمرت فلما أسلما أي استسلما لأمر الله سبحانه ورضيا وفي جواب هذا قولان أحدهما أن جوابه ناديناه والواو زائدة قاله الفراء والثاني أنه محذوف تقديره سعد وأثيب قوله تعالى ( وتله للجبين ) قال ابن قتيبة صرعه على جبينه فصار على أحد جبينيه على الأرض وهما جبينان والجبهة بينهما ( وناديناه ) قال المفسرون نودي من الجبل ( يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ) وفيه قولان أحدهما قد عملت بما أمرت به وذلك أنه قصد الذبح بما أمكنه فطاوعه الابن بالتمكين من الذبح إلا أن الله صرف ذلك كما شاء فصار كأنه ذبح وإن لم يقع الذبح والثاني أنه رأى في المنام معالجة الذبح

*(103/240)*

---

ولم ير إراقة الدم فلما فعل في اليقظة ما رأى في المنام قيل له قد صدقت الرؤيا وقرأ أبو المتوكل وأبو الجوزاء وأبو عمران والجحدري قد صدقت الرؤيا بتخفيف الدال ( إنا كذلك ) أي كما ذكرنا من العفو عن ذبح ولده كذلك ( نجزي المحسنين ) ( إن هذا لهو البلاء المبين ) وفيه

قولان أحدهما النعمة البينة وهو العفو عن الذبح والثاني الاختبار العظيم وهو امتحانه بالذبح ( وفديناه بذبح ) وهو بكسر الذال اسم ما ذبح وبفتحها مصدر ذبحت والمعنى خلصناه من الذبح بأن جعلنا الذبح فداء له وفي هذا الذبح ثلاثة أقوال أحدها أنه كان كبشاً أقرن قد رعى في الجنة قبل ذلك أربعين عاماً قاله ابن عباس في رواية مجاهد وقال في رواية سعيد بن جبير هو الكبش الذي قربه ابن آدم فتقبل منه كان في الجنة حتى فدي به والثاني أن إبراهيم فدى ابنه بكبشين أبيضين أعينين أقرنين رواه الطفيل عن ابن عباس والثالث أنه كان ذكراً من الأروى أهبط عليه من ثبير قاله الحسن وفي قوله ( عظيم ) قولان أحدهما لأنه قد رعى في الجنة قاله ابن عباس والثاني أنه متقبل قاله مجاهد قال وهب بن منبه كان ذلك بإيلياء من أرض الشام سبحان المفاوت بين الخلق يقال للخليل اذبح ولدك فيأخذ المدية ويضجعه للذبح ويقال لقوم موسى ( اذبحوا بقرة ) فذبحوها وما كادوا يفعلون ويخرج أبو بكر من جميع ماله ويبخل ثعلبة بالزكاة ويجود حاتم بقوته ويبخل بضوء ناره الحُباحِب

(104/240)

وكذلك فاوت بين الفهوم فسحبان أنطق متكلم وباقل أقبح من أخرس وفاوت بين الأماكن فزرود تشكو العطش والبطائح تصيح الغرق قال علماء السير لم يمت إبراهيم حتى نبىء إسحاق وبعث إلى أرض الشام وكان إبراهيم قد زوج إسحاق أروقة بنت بتاويل فولدت له العيص ويعقوب وهو ابن ستين سنة فأما العيص فتزوج بنت عمه إسماعيل فولدت له الروم فكل بني الأصفر من ولده وكثر أولاده حتى غلبوا الكنعانيين بالشام وصاروا إلى البحر والسواحل وصار الملوك من ولده وهم اليونانية وأما يعقوب فتزوج ليا فولدت أكثر أولاده ثم تزوج راحيل فولدت له يوسف وبنيامين وعاش إسحاق مائة وستين سنة وتوفي بفلسطين ودفن عند أبيه إبراهيم إخواني تأملوا عواقب الصبر وتخايلوا في البلاء نور الأجر فمن تصور زوال المحن وبقاء الثناء هان الابتلاء عليه ومن تفكر في زوال اللذات وبقاء العار هان تركها عنده وما يلاحظ العواقب إلا بصر ثاقب

الكلام على البسملة

( فراك من الأيام ناب ومخلب

وخانك لون الرأس والرأس أشيب

( فحتام لا تنفك جامح همة

بعيد مرامي النفس والموت أقرب

( تسر بعيش أنت فيه منغص

وتستعذب الدنيا وأنت معذب

( تغذيك والأوقات جسمك تغتدي

وتسقيك والساعات روحك تشرب

( وتعجب من آفاتها متلفتا

إليها لعمر الله فعلك أعجب

( وتحسبها بالبشر تبطن خلة

فيظهر منها غير ما تتحسب

( إذا رضيت أعمتك عن طرق الهدى

فما ظن ذي لب بها حين تغضب

( وفي سلبها ثوب الشباب دلالة

على أنها تعطي خداعاً وتسلب

( أترضى بأن ينهاك شيبك والحجا

وأنت مع الأيام تلهو وتلعب

( أجدك لا تسمع لدنياك موعدا

ولا تترج الري والبرق خلب

( ودونك درياق الترجي من الورى

فكل على التجريب صل وعقرب

*(105/240)*

---

إخواني الأيام لكم مطايا فأين العدة قبل المنايا أين الأنفة من دار الأذايا أين العزائم أترضون الدنايا إن بلية الهوى لا تشبه البلايا وإن خطيئة الإصرار لا كالخطايا وسرية الموت لا تشبه السرايا وقضية الأيام لا كالقضايا راعي السلامة يقتل الرعايا رامي التلف يصمي الرمايا ملك الموت لا يقبل الهدايا يا مستورين ستظهر الخبايا استغفروا الله خجلاً من العثرات ثم اسكبوا حزناً لها العبرات عجباً لمؤثر الفانية على الباقية ولبائع البحر الخضم بساقية ولمختار دار الكدر على الصافية ولمقدم حب الأمراض على العافية أيها المستوطن بيت غروره تأهب لإزعاجك أيها المسرور بقصوره تهيأ لإخراجك خذ عدتك وقم في قضاء حاجتك قبل فراق أولادك وأزواجك ما الدنيا دار مقامك بل حلبة إدلاجك ( أيها الناكب عن نهج الهدى

وهو باد واضح للسالكين

( إله عن ذكر التصابي إنه

سرف بعد بلوغ الأربعين

( واجعل التقوى معاذاً تحتمي

بحماه إنه حصن حصين

( واسأل الله تعالى عفوه

واستعنه إنه خير معين

أتأمن بطش ذي البطش وتبارزه عالماً برؤيته ولم تخش يا من إذا وزن طفف وإذا باع غش

أنسيت النزول في بيداء الدبيب والوحش أنسيت الحلول في لحد خشن الفرش يا مغتراً

بزخرف الهوى قد ألهاه النقش إذا جنيت على نفسك فعلى من الأرش يا من إذا جاء

الفرض التوى وإذا حان اللهو هش يا من لا يصبر للقضاء ولو على خدش كن مستيقظاً فإنك

بعين ذي العرش ( تعلل بالآمال والموت أسرع

وتغتر بالأيام والوعظ أنفع

( وما المرء إما لم يمت فهو ذائق

فراق الأخلاء الذي هو أوجع

( فودع خليل النفس قبل فراقه

فما الناس إلا ظاعن أو مودع

يا حزيناً على فراق موتاه كئيباً لمطلوب ما واتاه كأنه بالموت قد أتاه فألحقه ما أباه أباه ووافاه

ما أطيق فاه فما فاه ( يا كثير الحرص مشغولاً

بدنيا ليس تبقى

( ما رأينا الحرص أدنى

من حريص قط رزقا

( لا ولكن في قضاء الله

أن نعنى ونشقى

( قد رأينا الموت أفنى

قبلنا خلقا فخلقا

*(106/240)*

---

( درجوا قرناً فقرنا

وبقي من ليس يبقى

قدم على محمد بن واسع ابن عم له فقال له من أين أقبلت فقال من طلب الدنيا فقال هل

أدركتها قال لا قال واعجبا أنت تطلب شيئاً لم تدركه فكيف تدرك شيئاً لم تطلبه

يا هذا عليك بالجد والإجتهاد وخل هذا الكسل والرقاد فطريقك لا بد لها من زاد ( انهض

إلى المعالي

واقبل ولا تبالي

( وخذ من الزمان

حظا فأنت فاني

( الهمم العلية

والمهج الأبية

( تقرب المنية

منك أو الأمنية

( المجد بالمخاطرة

والنصر بالمصابرة

( كم راحة في العزلة

وعمل في العطلة

( ليس يدوم حال

شحم المنى هزال

( ما للورى في غفلة

قد خدعوا بالمهلة

(ألا لبيب يعقل

ألا جهول يسأل

(أأنتم في ريبة

ما أعظم المصيبة

(دنياكم حبيبة

لحسنها والطيبة

(لكنها غدارة

خداعة غرارة

(ليس لها حبيب

زوالها قريب

(كالمومس البغي

تلبس كل زي

(خلوبة خوانة

ليس لها أمانة

(عزيزها ذليل

كثيرها قليل

( تفرق الأحبابا

تشتت الأترابا

( حرب لمن سالمها

تمل من لازمها

( لقاؤها فراق

وعرسها طلاق

وصالها صدود

ووعدها وعيد

( وصالها عنا

صدودها بلا

( عقودها منقوضة

عهودها مرفوضة

( شرابها سراب

نعيمها عذاب

( إن أقبلت ففتنة

أو أدبرت فمحنة

(أخلاقها مذمومة

لذاتها مسمومة

(يحظى بها الجهال

وينعم الأنذال

(يشقى بها اللبيب

ويتعب الأريب

(فحل عنها يا فتى

إلى متى إلى متى

الكلام على قوله تعالى

(ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءًا يجز به

*(107/240)*

---

في سبب نزولها ثلاثة أقوال أحدها أن أهل الأديان اختصموا فقال أهل التوراة كتابنا خير الكتب ونبينا خير الأنبياء وقال أهل الإنجيل مثل ذلك وقال المسلمون كتابنا نسخ كل كتاب ونبينا خاتم الأنبياء فنزلت هذه الآية رواه العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما والثاني أن

العرب قالت لا نبعث ولا نحاسب ولا نعذب فنزلت قاله مجاهد والثالث أن اليهود والنصارى قالوا لا يدخل الجنة غيرنا وقالت قريش لا نبعث فنزلت هذه الآية قاله عكرمة وقال الزجاج اسم ليس مضمر والمعنى ليس ثواب الله بأمانيكم وقد جاء ما يدل على الثواب وهو قوله تعالى ( سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار ) وانسوا المعاصي والجزاء واقع بالعاصي

*(108/240)*

---

أخبرنا ابن الحصين قال أنبأنا ابن المذهب أنبأنا أبو بكر بن جعفر حدثنا عبد الله بن أحمد حدثني أبي حدثنا وكيع حدثنا ابن أبي خالد عن أبي بكر بن زهير الثقفي قال لما نزلت ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجزبيه قال أبو بكر يا رسول الله إنا لنجازي بكل سوء نعمله فقال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ يرحمك الله ألست تنصب ألست تحزن أليس تصيبك اللأواء فهذا ما تجزون به وأخرج مسلم في أفراده من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال لما نزلت ( من يعمل سوءا يجر به ) بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً فقال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ قاربوا وسددوا ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها والشوكة يشاكها واعلم أن المؤمن إذا جوزي

بذنب عجل له جزاؤه في الدنيا أخبرنا محمد بن عبد الله ابن نصر أنبأنا طراد أخبرنا علي بن عبد الله بن إبراهيم الهاشمي أخبرنا محمد بن عمر أخبرنا أحمد بن ملاعب حدثنا عفان عن حماد بن سلمة حدثنا يونس عن الحسن عن عبد الله بن مغفل أن رجلاً أتى امرأة كانت في الجاهلية بغيا فجعل يلاعبها حتى بسط يده إليها فقالت المرأة مه إن الله تعالى ذهب بالشرك وجاء بالإسلام فولى الرجل فأصاب وجهه جدار فأدماه فأتى النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ فأخبره فقال أنت عبد أراد الله بك خيراً إن الله إذا أراد بعبد خيراً عجل له عقوبة ذنبه وإذا أراد بعبد شرا أمسك عنه حتى يوافي به يوم القيامة كأنه بعير واعلم أن من تفكر في ذنبه وجد الزمان الذي عصى فيه قد خلا عن طاعة وامتلأ بخطيئة ثم يحتاج إلى زمان يتشاغل فيه بالتوبة ثم يتأسف على ما سبق ويكفي هذا وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال

*(109/240)*

---

قال ربكم عز وجل لو أن عبادي أطاعوني لأسقيتهم المطر بالليل وأطلعت عليهم الشمس بالنهار ولما أسمعتهم صوت الرعد أنبأنا أحمد بن علي المحلى أنبأنا أبو بكر الخطيب أنبأنا الحسين بن بشران أنبأنا أبو علي البردعي حدثنا أبو بكر القرشي حدثنا الزبير بن أبي بكر

حدثني أبو ضمرة عن نافع بن عبد الله عن فروة بن قيس عن عطاء عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ قال ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى أعلنوها إلا ابتلوا بالطواعين والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا ولا نقصوا المكيال والميزان إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان وما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ولا خفر قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم من غيرهم فأخذ بعض ما في أيديهم قال القرشي وحدثني إبراهيم بن سعيد قال حدثنا إبراهيم بن مهدي قال حدثنا أبو حفص الأبار عن أشعث بن سوار عن كردوس التغلبي قال حدثني رجل من أهل المسجد مسجد الكوفة وكان أبوه ممن شهد بدراً قال مررت على قرية تتزلزل فوقفت قريباً أنظر فخرج علي رجل فقلت ما وراءك فقال تركتها تتزلزل وإن الحائطان ليصطكان ويرمى بعضها ببعض فقلت وما كانوا يعملون قال كانوا يأكلون الربا وقال رجل للحسن أعياني قيام الليل قال قيدتك خطاياك أنبأنا محمد بن أبي منصور عن عبد القادر بن محمد الجوهري أنبأنا أبو الفضل لزهري حدثنا عبد الرحمن بن الحسن الذهبي حدثنا أحمد بن منصور الرمادي حدثنا أحمد بن المثنى حدثنا عبد القدوس الحواري عن هشام قال اغتم ابن سيرين مرة فقيل له يا أبا بكر ما هذا الغم قال هذا بذنب أصبته منذ أربعين سنة

أخبرنا أبو بكر بن حبيب قال حدثنا أبو سعيد بن أبي صادق قال أنبأنا أبو عبد الله الشيرازي قال سمعت محمد بن فارس يقول أنبأنا علي بن قرين قال سمعت الجنيد يقول من هم بذنب لم يعمله عوقب بذنب لم يعرفه أخبرنا عبد الرحمن بن محمد أنبأنا أبو الغنائم الدجاجي أنبأنا علي بن معروف حدثنا محمد بن الهيثم حدثنا إبراهيم بن سعد الجوهري حدثنا هاشم بن القاسم عن صالح المري عن أبي عمران الجوني قال مكتوب في الإنجيل تعملون الخطايا وتنكرون العقوبة يا من معاصيه جمة مشهورة ونفسه بما يجني عليها مسرورة أفي العين كمه أم عشي أإليك الأمر كما تشاء أعلى القلب حجاب أم غشا يا كثير المعاصي قعد أو مشى عظمت ذنوبك فمتى تقضي يا مقيما وهو في المعنى يمضي أفنيت الزمان في الخطايا ضياعاً وساكنت غروراً من الامل وأطماعاً وصرت في تحصيل الدنيا محترفاً صناعا تصبح جامعاً وتمسي مناعا فتش على قلبك ولبك قد ضاعا تفكر في عمرك مضى نهباً مشاعا لا في الشباب أصلحت ولا في الكهولة أفلحت كم حملت أزرك وزراً ثقيلاً واجترحت يا بعد صلاح ما جرحت يا سيء السريرة كم عليك جريرة ويحك أتنسى الحفيرة أم هي عندك حقيرة أيام عمرك قصيرة وتضيعها على بصيرة لقد قطع الأجل مسيره ولكن على أقبح سيرة ذنوبك جمة كثيرة وعينك به قريرة ما تظلم بها مقدار شعيرة قال محمد بن كعب القرظي إنما الدنيا سوق خرج الناس منها بما يضرهم وبما ينفعهم وكم اغتر

ناس فخرجوا ملومين واقتسم ما جمعوا من لم يحمدهم وصاروا إلى من لا يعذرهم فيحق لنا

أن ننظر إلى ما نغبطهم به من الأعمال فنعملها وإلى ما نتخوف فنجتنبها

وقال يحيى بن معاذ المغبون من عطل أيامه بالبطالات وسلط جوارحه على الهلكات

ومات قبل إفاقته من الجنايات

بدت دهياء تنذر بالخطوب

نلاحظها بأبصار القلوب

( وقد دل المجيء على ذهاب

كما دل الطلوع على الغروب

*(111/240)*

---

يا هذا الطالب حييت فبادر والفضائل معرضة فثابر اترك الهوى محموداً قبل أن يتركك

مذموماً إن فاتتك قصبات السبق في الولاية فلا تفوتنك ساعات الندم في الإنابة آه للسان

نطق بإثم كيف غفل عن قوله تعالى ( اليوم نختم على أفواههم

آه ليد امتدت للحرام كيف نسيت ( وتكلمنا أيديهم ) آه لقدم سعت في الآثام كيف لم تتدبر (

وتشهد أرجلهم ) آه لجسد ربا على الربا أما سمع منادي التحذير على ربى ( فلا يربو عند

الله ) آه لذي فم فغره لتفريغ كأس الخمر أما بلغه زجر ( فاجتنبوه ) ( قد كان عمرك ميلاً

فأصبح الميل شبرا

( وأصبح الشبر عقداً

فاحفر لنفسك قبرا

يا من راح في المعاصي وغدا ويقول سأتوب اليوم أو غدا كيف تجمع قلباً قد صار في الهوى

مبددا كيف تلينه وقد أمسى بالجهل جلمدا كيف تحثه وقد راح بالشهوات مقيداً لقد

ضاع قلبك فاطلب له ناشدا تفكر بأي وجه تتلقى اردى تذكر ليلة تبيت في القبر منفرداً (

أيها المشغوف بالدنيا

صبوا وغراما

( أبدا هي أبدا تبطن

في الشهد سماما

( تخضع الراضع بالدرر

وتنسيه الفطاما

فإذا هز بوعظ

صم عنه وتعامى

( فهو كالشاكي الذي يزداد

بالطب سقاما

( وكمثل الطفل في المهد إذا حرك ناما

سجع على قوله تعالى

( من يعمل سوءاً يجز به

*(112/240)*

---

يا معرضاً عن الهدى لا يسعى في طلبه يا مشغولاً بلهوه مفتوناً بلعبه يا من قد صاح به الموت عند أخذ صاحبه ( من يعمل سوءاً يجز به ) جز على قبر الصديق وتلمح آثار الرفيق يخبرك عن حسنه الأنيق أنه استلب بكف التمزيق هذا لحده وأنت غدا به ( من يعمل سوءاً يجز به ) كم نهى عن الخطايا وما انتهى وكم زجرته الدنيا وهو يسعى لها هذا ركنه القويم قد وهى وها أنت في سلبه ( من يعمل سوءاً يجز به ) أين من عتا وظلم ولقي الناس منه الألم اقتطعه الردى اقتطاع الجلم فما نفعه ما جمعه لا والله ولم يدفع عنه عز منصبه ( من يعمل سوءاً يجز به ) بات في لحده أسيراً لا يملك من الدنيا نقيراً بل عاد بوزر ذنبه عقيراً وأصبح من ماله فقيراً على عز نسبه وكثرة نشبه ( من يعمل سوءاً يجز به ) اللذات تفنى عن قليل وتمر وآخر الهوى الحلو مر وليس في الدنيا شيء يسر إلا يغر ويضر ثم يخلو ذو الزلل بمكتسبه

( من يعمل سوءاً يجز به ) الكتاب يحوي حتى النظرة والحساب يأتي على الذرة وخاتمة كأس اللذات

مرة والأمر جلي للفهوم ما يشتبه ( من يعمل سوءاً يجز به ) تقوم في حشرك ذليلاً وتبكي على الذنوب طويلاً وتحمل على ظهرك وزراً ثقيلاً والويل للعاصي من قبيح منقلبه ( من يعمل سوءاً يجز به ) يجمع الناس كلهم في صعيد وينقسمون إلى شقي وسعيد فقوم قد حل بهم الوعيد وقوم قيامتهم نزهة وعيد وكل عامل يغترف من مشربه ( من يعمل سوءاً يجز به ) إنما يقع الجزاء على أعمالك وإنما تلقى غداً غب أفعالك وقد قصدنا إصلاح حالك فإن كنت متيقظاً فاعمل لذلك وإن كنت نائماً فانتبه ( من يعمل سوءاً يجز به )

*(113/240)*

---

المجلس العاشر في قصة لوط عليه السلام

الحمد لله الذي أحكم الأشياء كلها صنعا وتصرف كما شاء إعطاء ومنعاً أنشأ الآدمي من قطرة فإذا هو يسعى وخلق له عينين ليبصر المسعى ووالى لديه النعم وترا وشفعاً وضم إليه زوجة تدبر أمر البيت وترعى وأباحه محل الحرث وقد فهم مقصود المرعى فتعدى قوم إلى الفاحشة الشنعا وعدوا ستا سبعاً فرجموا بالحجارة فلو رأيتهم صرعى ( ولما جاءت

رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً ) أحمده ما أرسل سحاباً وأنبت زرعاً وأصلي على رسوله محمد أفضل نبي علم أمته شرعاً وعلى أبي بكر الذي كانت نفقته للإسلام نفعاً وعلى عمر ضيف الإسلام بدعوة الرسول المستدعي وعلى عثمان الذي ارتكب منه الفجار بدعا وعلى علي الذي يحبه أهل السنة طبعاً وعلى العباس أبي الخلفاء أئمة المسلمين قطعاً قال الله عز وجل ( ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً ) هو لوط بن هاران بن تارخ هو ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام وقد آمن به وهاجر معه إلى الشام بعد نجاته من النار واختتن لوط مع إبراهيم وهو ابن ثلاث وخمسين سنة فنزل إبراهيم فلسطين ونزل لوط الأردن فأرسل الله تعالى لوطاً إلى أهل سدوم وكانوا مع كفرهم بالله عز وجل يرتكبون الفاحشة فدعاهم إلى عبادة الله ونهاهم عن الفاحشة لم يزدهم ذلك إلا عتواً فدعا الله أن ينصره عليهم فبعث الله عز وجل جبريل وميكائيل وإسرافيل فأقبلوا مشاة في صورة رجال شباب فنزلوا على إبراهيم فقام يخدمهم وقدم إليهم الطعام فلم يأكلوا فقالوا لا نأكل طعاماً إلى بثمنه قال فإن له ثمناً قالوا ما هو قال تذكرون اسم الله تعالى

على أوله وتحمدونه على آخره فنظر جبريل إلى ميكائيل وقال حق لهذا أن يتخذه الله خليلاً فلما رأى امتناعهم خاف أن يكونوا لصوصاً فقالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط فضحكت سارة تعجباً وقالت نخدمهم بأنفسنا ولا يأكلون طعامنا فقال جبريل أيتها الضاحكة أبشري بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب وكانت بنت تسعين سنة وإبراهيم ابن مائة وعشرين سنة فلما سكن روع إبراهيم وعلم أنهم ملائكة أخذ يناظرهم فقال أتهلكون قرية فيها أربعمائة مؤمن قالوا لا قال ثلاثمائة قالوا لا قال مائتان قالوا لا قال أربعون قالوا لا قال أربعة عشر قالوا لا وكان يعدهم أربعة عشر مع امرأة لوط فقال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها فسكت واطمأنت نفسه ثم خرجوا من عنده فجاءوا إلى لوط وهو في أرض له يعمل فقالوا إنا متضيفون الليلة بك فانطلق بهم والتفت إليهم في بعض الطريق فقال أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية والله ما أعلم على ظهر الأرض أخبث منهم فلما دخلوا منزله انطلقت امرأته فأخبرت قومها قوله تعالى ( سيء بهم ) أي ساءه مجيء الرسل لأنه لم يعرفهم وخاف عليهم من قومه ( وضاق بهم ذرعاً ) قال الزجاج يقال ضاق بفلان أمره ذرعاً إذا لم يجد من المكروه مخلصاً وقال ابن الأنباري ضاق بهم وسعه فناب الذرع عن الوسع ( وقال هذا يوم عصيب ) يقال هذا يوم عصيب وعصبصب إذا كان شديداً ( وجاءه قومه يهرعون إليه ) قال الكسائي والفراء لا يكون الإهراع إلا إسراعاً مع رعدة قال ابن الأنباري الإهراع فعل واقع بالقوم وهو لهم في المعنى

---

كما قالت العرب قد أولع الرجل بالأمر فجعلوه مفعولاً وهو صاحب الفعل ومثله أرعد زيد وسهى عمرو من السهو كل واحد من هذه الأفاعيل خرج الاسم معه مقدراً تقدير المفعول وهو صاحب الفعل لا يعرف له فاعل غيره قوله تعالى ( ومن قبل ) أي مجيء الأضياف ( كانوا يعملون السيئات ) فقال لوط ( هؤلاء بناتي ) يعني النساء ولكونهن من أمته صار كالأب لهن ( أطهر لكم ) أي أحل ( فاتقوا الله ) أي احذروا عقوبته ( ولا تخزون في ضيفي ) أي لا تفعلوا بهم فعلاً يوجب حيائي ( أليس منكم رجل رشيد ) فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ( قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق ) أي من حاجة ( وإنك لتعلم ما نريد ) أي إنما نريد الرجال لا النساء قال ( لو أن لي بكم قوة ) أي جماعة أقوى بهم عليكم ( أو آوي إلى ركن شديد ) أي إلى عشيرة منيعة وإنما قال هذا لأنه كان قد أغلق بابه وهم يعالجون الباب ويرومون تسور الجدار فلما رأت الملائكة ما يلقى من الكرب ( قالوا يا لوط إنا رسل ربك ) فافتح الباب ودعنا وإياهم ففتح الباب ودخلوا واستأذن جبريل ربه عز وجل في عقوبتهم فأذن لهم فضرب بجناحه وجوههم فأعماهم فانصرفوا يقولون النجاء النجاء إن في دار لوط أسحر قوم في الأرض وجعلوا يقولون يا لوط كما أنت حتى تصبح يوعدونه فقال لهم

لوط متى موعد هلاكهم قالوا لصبح قال لو أهلكتموهم الآن فقالوا أليس الصبح بقريب ثم قالت له الملائكة فأسر بأهلك فخرج بامرأته وابنتيه وأهله وبقره وغنمه ( بقطع من الليل ) أي ببقية تبقى من آخره وأوحى الله تعالى إلى جبريل تول هلاكهم فلما طلع الفجر غدا عليهم جبريل عليه السلام فاحتمل بلادهم على جناحه وكان خمس قرى أعظمها سدوم في كل قرية مائة ألف فلم ينكسر في وقت رفعهم إناء ثم صعد بهم

*(116/240)*

---

حتى خرج الطير في الهواء لا يدري أين يذهب وسمعت الملائكة نباح كلابهم ثم كفاها عليهم وسمعوا وجبة شديدة فالتفتت امرأة لوط فرماها جبريل بحجر فقتلها ثم صعد حتى أشرف على الأرض ثم جعل يتبع مسافرهم ورعاتهم ومن تحول عن القرية فرماهم بالحجارة حتى قتلهم وكانت الحجارة من سجيل قال أبو عبيدة هو الشديد الصلب من الحجارة مسومة أي معلمة قال ابن عباس كان الحجر أسود وفيه نقطة بيضاء وقال الربيع كان على كل حجر منها اسم صاحبه وحكى عن من رآها قال كانت مثل رءوس الإبل ومثل قبضة الرجل ( وما هي من الظالمين ببعيد ) تخويف للمخالفين أخبرنا ابن الحصين أنبأنا ابن المذهب أنبأنا أحمد بن جعفر حدثنا عبد الله ابن أحمد حدثني أبي حدثنا محمد بن

سلمة عن محمد بن إسحاق عن عمرو بن أبي عمرو عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ ملعون من عمل عمل قوم لوط وروى أنس عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ قال من مات من أمتي يعمل عمل قوم لوط نقله الله إليهم حتى يحشره معهم فلتحذر مغبة الخطايا والذنوب فإنها بصاحبها إلى الغضب تؤوب

الحذر الحذر من علام الغيوب

الكلام على البسملة

( يا عامراً لخراب الدهر مجتهداً

تالله ما لخراب الدهر عمران

( وكل وجدان حظ لا ثبات له

فإن معناه في التحقيق فقدان

( صن الفؤاد عن الدنيا وزخرفها

فصفوها كدر والوصل هجران

يا هذا الأيام ثلاثة أمس قد مضى بما فيه وغداً لعلك لا تدركه وإنما هو يومك هذا فاجتهد فيه لله در من تنبه لنفسه وتزود لرسمه واستدرك ما مضى من أمسه قبل طول حبسه ( فيا جامع الدنيا لغير بلاغة

ستتركها فانظر لمن أنت جامع

(لو أن ذوي الأبصار يوعون كل ما

يرون لما جفت لعين مدامع

(ومن كانت الدنيا مناه وهمه

سباه المنى واستعبدته المطامع

*(117/240)*

---

يا نائماً في لهوه وما نام الحافظ لاحظ نور الهدى فلاحظ إلا للملاحظ وحافظ على التقى فقد فاز المحافظ وخذ حذرك فقد أنذرك العاتبان الغلائظ ولا تغتر ببرد العيش فزمان الحساب قائظ وتذكر وقت الرحلة حمل الثقيل الباهظ ولا تلتفت إلى المادح فكم قد ضر مدح قارظ وتيقظ للخلاص فما ينجو إلا متياقظ يا مدبراً أمر دنياه ونسي أخراه فخفف النداء اللافظ عجائب الدهر تغني عن وعظ كل واعظ (أللعمر في الدنيا تجد وتعمر

وأنت غداً فيها تموت وتقبر

(تلقع آماً وترجو نتاجها

وعمرك مما قد ترجيه أقصر

(وهذا صباح اليوم ينعاك ضوؤه

وليلته تنعاك إن كنت تشعر

( تحوم على إدراك ما قد كفيته

وتقبل بالآمال فيه وتدبر

( ورزقك لا يعدوك إما معجل

على حاله يوماً وإما مؤخر

( فلا تأمن الدنيا إذا هي أقبلت

عليك فما زالت تخون وتغدر

( فما تم فيها الصفو يوماً لأهله

ولا الرفق إلا ريثما يتغير

( تذكر وفكر في الذي أنت صائر

إليه غداً إن كنت ممن يفكر

( فلا بد يوماً ان تصير لحفرة

بأثنائها تطوى إلى يوم تحشر

إخواني تدبروا الأمور تدبر ناظر وأصغوا إلى ناصحكم والقلب حاضر واحذروا غضب الحليم وهتك الساتر وتأهبوا للحِمام فسيوفه بواتر وهاجروا إلى دار الإنابة بهجران الجرائر وصابروا عدوكم مصابرة صابر وتهيأوا للرحيل إلى عسكر المقابر قبل أن يبل وابل الدموع

ثرى المحاجر ويندم العاصي ويخسر الفاجر ويتكاثف العرق وتقوى الهواجر وتصعد القلوب إلى أعلى الحناجر ويعز الأمن ويعرض الناصر ويفرح الكامل ويحزن القاصر ويفوت اكتساب الفضائل وتحصيل المفاخر فتأملوا عواقب مصيركم فاللبيب يرى الآخر ( وقائلة لو كنت تلتمس الغنى

رشدت وما أوصت بما كان راشدا

( أبى الناس إلا حب دنيا ذميمة

تقضى ويأبى الموت إلا التزودا

( فقلت سلي عن ذي الثراء تخبري

وذي الملك بعد الملك ماذا توسدا

( يمرون أرسالاً ونضحي كأننا

لما نالهم بالأمس لم نك شهدا

( فهل ينفعنا ما نرى أو يروعنا

*(118/240)*

وهل نذكرن اليوم منزلنا غدا

أخبرنا يحيى بن علي حدثنا القاضي أبو الحسين السمناني حدثنا أبو الحسن ابن الصامت حدثنا القاضي أبو عبد الله المحاملي حدثنا يوسف بن موسى حدثنا محمد بن بشر حدثنا الجنيد بن أبي العلاء عن محمد بن سعيد عن إسماعيل بن عبيد الله عن أم الدرداء عن علي الدقاق عن أبي الدرداء قال قال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ تفرغوا من الدنيا ما استطعتم فإنه من كانت الدنيا أكبر همه أفشى الله ضيعته وجعل فقره بين عينيه ومن كانت الآخرة أكبر همه جمع الله له أموره وجعل غناه في قلبه وما أقبل عبد بقلبه إلى الله عز وجل إلا جعل الله قلوب المؤمنين تقبل إليه بالود والرحمة وكان الله عز وجل إليه بكل خير أسرع أخبرنا إسماعيل بن أحمد أنبأنا رزق الله أنبأنا ابن شاذان أنبأنا أبو جعفر ابن يزيد أنبأنا أبو بكر القرشي أنبأنا يعقوب بن عبيد الله حدثنا يزيد بن هارون حدثنا سفيان الثوري عن زيد الشامي عن مهاجر العامري قال قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه إن أخوف ما أخاف عليكم اثنتان اتباع الهوى وطول الأمل فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق وأما طول الأمل فينسي الآخرة ألا وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة ألا وإن الدنيا قد ولت مدبرة ولكل واحدة منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فإن اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل

يا صحاح الأجساد كيف بطلتم

لا لعذر عن صالح الأعمال

( لو علمتم أن البطالة تجدي

حسرة في معادكم والمآل

( لتبادرتم إلى ما يقيكم

من جحيم في بعثكم ونكال

( إنما هذه الحياة غرور

أبداً تطمع الورى في المحال

( كيف يهنيكم القرار وأنتم

بعد تمهيدكم على الارتحال

( الهدى واضح فلا تعدلوا عنه

ولا تسلكوا سبيل الضلال

( وأنيبوا قبل الممات وتوبوا

تسلموا في غد من الأهوال

الكلام على قوله تعالى

( قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم

اعلموا أن إطلاق البصر سبب لأعظم الفتن وهذا القرآن يأمرك باستعمال الحمية عن ما هو سبب الضرر فإذا تعرضت بالتخليط فوقعت إذاً في أذى فلم تضج من أليم الألم أخبرنا إسماعيل ابن أحمد المقري وعبيد الله بن محمد القاضي ويحيى ابن علي المدبر قالوا أنبأنا أبو الحسين بن النقور أنبأنا ابن حبابة حدثنا البغوي حدثنا هدبة

حدثنا حماد بن سلمة عن محمد بن إسحاق عن محمد بن إبراهيم التيمي عن سلمة ابن أبي الطفيل عن علي عليه السلام أن رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ قال يا علي إن لك في الجنة كنزاً وإنك ذو قرنيها فلا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليست لك الآخرة في هذا الحديث إشكال من أربعة وجوه أحدها من حيث إسناده فربما خيل إلى السامع أنه قد سقط منه رجل لأنه إذا سمع سلمة بن أبي الطفيل عن علي وقد عرف أن أبا الطفيل يروي عن علي يظن ذلك بل هو صحيح وسلمة يروي عن علي أيضاً والثاني الكناية في قوله وإنك ذو قرنيها وفيه وجهان أحدهما أنها كناية عن هذه الأمة كنى عنها من غير ذكر تقدم لها كما قال الله عز وجل ( حتى توارت بالحجاب ) يعني الشمس ولم يتقدم لها ذكر والثاني عن الجنة والثالث يعني تسميته بذي القرنين وفيه وجهان أحدهما إن قلنا إن الكناية عن الأمة فإن عليا عليه السلام ضرب على رأسه في الله عز وجل ضربتين الأولى ضربة عمرو بن ود والثانية ابن ملجم كما ضرب ذو القرنين على رأسه ضربة بعد ضربة وإن قلنا الكناية

عن الجنة فقرناها جانباها ذكره ابن الأنباري والرابع قوله فلا تتبع النظرة النظرة ربما تخايل أحد جواز القصد للأولى وليس كذلك وإنما الأولى التي لم تقصد وفي أفراد مسلم من حديث جرير بن عبد الله قال سألت رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ عن نظرة الفجأة فقال اصرف بصرك

*(120/240)*

---

وهذا لأن النظرة الأولى لم يحضرها القلب فلا يتأمل بها المحاسن ولا يقع الالتذاذ فمتى استدامها بمقدار حضور الذهن كانت كالثانية في الإثم وفي حديث النعمان بن سعد عن علي عليه السلام قال قال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ يا علي اتق النظرة بعد النظرة فإنها سهم مسموم تورث شهوة في القلب وروى أنس عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال نظر الرجل إلى محاسن المرأة سهم مسموم من سهام إبليس من تركه ابتغاء وجه الله أعطاه الله عز وجل عبادة يجد طعم لذتها وكان عيسى عليه السلام يقول النظرة تزرع في القلب الشهوة وكفى بها خطيئة وقال ابن مسعود رضي الله عنه ما كان من نظرة فإن للشيطان فيها مطمعاً والإثم خراز القلوب وقال من أطلق طرفه كان كثيراً أسفه وقد كان السلف رضي الله تعالى عنهم يبالغون في الاحتراز من النظر وكان في دار مجاهد علية

قد بنيت فبقي ثلاثين سنة ولم يشعر بها وخرج حسان بن أبي سنان يوم عيد فلما عاد قالت له امرأته كم من امراة حسناء قد رأيت فقال والله ما نظرت إلا في إبهامي منذ خرجت من عندك إلى أن رجعت إليك وإنما بالغ السلف في الغض حذراً من فتنة النظر وخوفاً من عقوبته فاما فتنته فكم من عابد خرج عن صومعته بسبب نظرة وكم استغاث من وقع في تلك الفتنة

قال إبراهيم بن صول ( من كان يؤتى من عدو وحاسد

فإني من عيني أتيت ومن قلبي

( هما اعتوراني نظرة بعد نظرة

فما أبقيا لي من رقاد ولا لب

وقال آخر ( وأنا الذي اجتلب المنية طرفه

فمن المطالب والقتيل القاتل

وقال آخر ( عاتبت قلبي لما

رأيت جسمي نحيلا

( أجاب قلبي طرفي

وقال كنت الرسولا

( فألزم القلب طرفي

بل كنت أنت الدليلا

( فقلت كفا جميعاً

تركتماني قتيلا

وقال آخر ( يا من يرى سقمي يزيد

وعلتي تعيي طبيبي

( لا تعجبن فهكذا

تجني العيون على القلوب

وقال آخر ( لواحظنا تجني ولا علم عندها

وأنفسنا مأخوذة بالجرائر

( ولم أر أغبى من نفوس عفائف

تصدق أخبار العيون الفواجر

*(121/240)*

---

( ومن كانت الأجفان حجاب قلبه

أذن على أحشائه بالفواقر

وقال آخر ( إذا انت لم ترع البروق اللوامحا

ونمت جرى من تحتك الماء سائحا

( غرست الهوى باللحظ حتى احتقرته

فأمهلته مستأنسا متسامحا

( ولم تدر حتى أينعت شجراته

وهبت رياح الهجر فيه لواقحا

( وأمسيت تستدعي من الصبر عازبا

عليك وتستدني من النوم نازحا

وقال آخر ( والمرء ما دام ذا عين يقلبها

في أعين العين موقوف على الخطر

( يسر مقلته ما ضر مهجته

لا مرحباً بسرور جاء بالضرر

وقال آخر ( لأعذبن العين غير مفكر

فيها جرت بالدمع أو فاضت دما

( ولأهجرن من الرقاد لذيذه

حتى يصير على الجفون محرما

( سفكت دمي فلأسفكن دموعها

وهي التي بدأت فكانت أظلما

( هي أوقعتني في حبائل فتنة

لو لم تكن نظرت لكنت مسلماً

وقال آخر ( وسهام اللحظ يستحلين في وقت الوقوع

( ثم يصرفن فلا يقلعن إلا عن صريع

وقال آخر ( إن كان طرفي أصل سقمي في الهوى

لا أذاق الله عيني الوسنا

( لو تحرى في مرامي لحظه

يوم سلع ما عناني ما عنا

غيره ( يا عين أنت قتلتني

وجعلت ذنبك من ذنوبي

( وأراك تهوين الدموع

كأنها ريق الحبيب

( تالله أحلف صادقاً

والصدق من شيم الأريب

( لو ميزت نوب الزمان

من البعيد إلى القريب

( ما كن إلا دون ما

جنت العيون على القلوب

*(122/240)*

---

وأما عقوبة النظر فقد روى ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً جاء إلى النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ يتشلشل دماً فقال له مالك فقال مرت بي امرأة فنظرت إليها فلم أزل أتبعها بصري فاستقبلني جدار فضربني فصنع بي ما ترى فقال إن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيرا عجل له عقوبته في الدنيا أخبرنا أبو بكر بن حبيب أنبأنا أبو سعيد الحبيري أنبأنا ابن باكوية أنبأنا أبو عبد الله الرازي عن أبي يعقوب النهرجوري قال رأيت في الطواف رجلاً بفرد عين وهو يقول في طوافه أعوذ بك منك فقلت له ما هذا الدعاء فقال إني كنت مجاوراً منذ خمسين سنة فنظرت إلى شخص يوماً فاستحسنته فإذا بلطمة وقعت على عيني فسالت على خدي فقلت آه فوقعت أخرى وقائل يقول لو زدت لزدناك أخبرنا عبد الرحمن بن محمد القزاز أنبأنا أحمد بن علي الحافظ قال كتب لي أبو حاتم أحمد بن الحسين الرازي

يذكر أنه سمع محمد بن أحمد بن عبد الوهاب الحافظ يقول قال أبو سعيد أحمد بن محمد الصوفي حدثنا عبد الرحمن بن أحمد بن عيسى عن أبي الأديان قال كنت مع أستاذي أبي بكر الدقاق فمر حدث فنظرت إليه فرآني أستاذي وأنا أنظر إليه فقال يا بني لتجدن غبها ولو بعد حين فبقيت عشرين سنة وأنا أراعي الغب فنمت ليلة وأنا متفكر فيه فأصبحت وقد نسيت القرآن كله أخبرنا أبو بكر الصوفي أنبأنا أبو سعد بن أبي صادق حدثنا أبو عبد الله الشيرازي

*(123/240)*

---

أنبأنا محمد بن أحمد النجار أخبرني أبو بكر الكتاني قال رأيت بعض أصحابي في المنام فقلت له ما فعل الله بك فقال عرض علي سيئاتي وقال فعلت كذا وكذا فقلت نعم قال وفعلت كذا فقلت نعم قال وفعلت كذا وكذا فاستحييت أن أقر فقلت له ما كان ذلك الذنب فقال مر بي غلام حسن الوجه فنظرت إليه وقد روى عن أبي عبد الله الزراد أنه رئى في المنام فقيل له ما فعل الله بك قال غفر لي كل ذنب أقررت به إلا واحداً استحييت أن أقر به فأوقفني في العرق حتى سقط لحم وجهي قيل ما كان الذنب قال نظرت إلى شخص جميل وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال كل

عين باكية يوم القيامة إلا عين غضت عن محارم الله وعين سهرت في سبيل الله وعين يخرج منها مثل رأس الذباب – يعني الدموع – من خشية الله إخواني تذكروا مصير الصور وتفكروا في نزول بيت المدر وتلمحوا بعين لفكر في حال الصفا والكدر واعلموا أنكم في دار البلاء فالحذر الحذر أخبرنا أحمد بن أحمد الهاشمي حدثنا أبو بكر الخطيب حدثنا عبد الرحمن بن محمد النيسابوري أنبأنا محمد بن عبد الله بن شاذان قال سمعت أبا عبد الله القرشي يقول كان لي جار شاب وكان أديباً وكان يهوى غلاماً أديباً فنظر يوماً إلى طاقات شعر بيض في عارضيه فوقع له شيء من الفكر فهجر الغلام فكتب إليه الغلام ( مالي جفيت وكنت لا أجفى

ودلائل الهجران لا تخفى

( وأراك تمزجني وتشربني

ولقد عهدتك شاربي صرفاً

فقلب الرقعة وكتب في ظهرها

التصابي مع الشمط

سمتني خطة شطط

( لا تلمني على جفاي

فحسبي الذي فرط

(أنا رهن بما جنيت

فذرني من الغلط

(قد رأينا أبا الخلائق

في زلة هبط

*(124/240)*

---

إخواني الدنيا سموم قاتلة والنفوس عن مكائدها غافلة كم من نظرة تحلو في العاجلة مرارتها لا تطاق في الآجلة يا بن آدم قلبك قلب ضعيف ورأيك في إطلاق الطرف رأي سخيف يا طفل الهوى متى يؤنس منك رشد عينك مطلقة في الحرام ولسانك مهمل في الآثام وجسدك يتعب في كسب الحطام كم نظرة محتقرة زلت بها الأقدام (فتبصر ولا تشم كل برق

رب برق فيه صواعق حين

(واغضض الطرف تسترح من غرام

تكتسي فيه ثوب ذل وشين

(فبلاء الهوى موافقة النفس

وبدء الهوى طموح العين

سجع على قوله تعالى

( قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم

يا عجباً للمشغولين بأوطارهم عن ذكر أخطارهم لو تفكروا في حال صفائهم في أكدارهم

لما سلكوا طريق اغترارهم ما يكفي في وعظهم وازدجارهم ( قل للمؤمنين يغضوا من

أبصارهم ) الدنيا دار الآفات والفتن كم غرت غرا وما فطن أرته ظاهرها والظاهر حسن

*(125/240)*

---

فلما فتح عين الفكر من الوسن قال رب ارجعون ولن ويح المقتولين بسيف اغترارهم والشرع

ينهاهم عن أوزارهم ( قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ) أين أرباب الهوى والشهوات

ذهبت والله اللذات دون التبعات وندموا إذ قدموا على ما فات وتمنوا بعد يبس العود العود

وهيهات فتلمح في الآثار سوء أذكارهم ( قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ) نازلهم الموت

على الذنوب فأسروا في قيود الجهل والعيوب فرحلت لذات خلت عن الأفواه والقلوب

وحزنوا على الفائت ولا حزن يعقوب حين خرجوا من ديارهم في ثياب إدبارهم وعصى

التوبيخ في أدبارهم ( قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ) قل للناظرين إلى المشتهى في ديارهم

هذا أنموذج من دار قرارهم فإن استعجل أطفال الهوى فدارهم وعدهم قرب الرحيل إلى

دارهم ( قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ) احذروا نظرة تفسد القلوب وتجني عليكم الذم والعيوب تسخط مولاكم عالم الغيوب لقد وصف الطبيب حمية للمطبوب فلو استعملوا الحمية لم تتعرض الحمى بأبشارهم ( قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ) وفقنا الله وإياكم للهدى وعصمنا من أسباب الجهل والردى وسلمنا من شر النفوس فإنها شر العدى وجعلنا من المنتفعين بوعظ أخيارهم ( قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ) وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

*(126/240)*

---

المجلس الثاني عشر في قصة يوسف عليه السلام

الحمد لله أحسن الخالقين وأكرم الرازقين مكرم الموفقين ومعظم الصادقين ومجل المتقين ومذل المنافقين حفظ يوسف لعلمه بعلم اليقين فألبسه عند الهم دروعا يقين وملكه إذ ملك عنان الهوى ميدان السابقين فذل له إخوته يوم وما كنا سارقين ( قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ) أحمده حمد الشاكرين وأصلي على رسوله محمد أشرف الذاكرين وعلى أبي بكر سابق المبكرين وعلى عمر سيد الآمرين بالمعروف والمنكرين وعلى عثمان الشهيد بأيدي الماكرين وعلى علي إمام العباد المتفكرين وعلى عمه العباس أبي الخلفاء الراشدين

قال الله عز وجل ( تالله لقد آثرك الله علينا ) كان يعقوب قد ولد في زمن إبراهيم ونبيء في زمانه أيضا وكان هو والعيص توأمين فاختصما فخرج هاربا إلى خاله لأبان فزوجه ابنته ليا فولدت له روبيل ثم شمعون ولاوى ويشجب ويهوذا وزبالون ثم توفيت فتزوج أختها راحيل فولدت له يوسف وبنيامين ومعناه ابن الوجع لأنها ماتت في نفاسه وولد له من غيرها أربعة فكان أولاده اثني عشر وهم الأسباط وكان أحب الخلق إليه يوسف فحسده إخوته فاحتالوا عليه فقالوا يا يوسف أما تشتاق أن تخرج معنا فتلعب وتتصيد فقال بلى قالوا فسل أباك أن يرسلك معنا فاستأذنه فأذن له فلما أصحروا أظهروا له ما في أنفسهم من العداوة فجعل كلما التجأ إلى شخص منهم آذاه وضربه فلما فطن لما عزموا عليه قال يا أبتاه يا يعقوب لو رأيت يوسف وما نزل به من إخوته لأحزنك ذلك وأبكاك يا أبتاه ما أسرع ما نسوا عهدك وضيعوا وصيتك فأخذه روبيل فضرب به الأرض وجثم على صدره ليقتله وقال

*(127/240)*

---

يا بن راحيل قل لرؤياك تخلصك وكان قد رأى وهو ابن سبع سنين الشمس والقمر والنجوم ساجدين له فصاح يا يهوذا حل بيني وبين من يريد قتلي فقال يهوذا ألقوه في غيابة الجب

فنزعوا قميصه لإلقائه فقال ردوه علي أستر به عورتي ويكون كفنا لي في مماتي فلما ألقوه أخرج الله له حجرا مرتفعا من الماء فاستقرت عليه قدماه وكان يعقوب عليه السلام قد أدرج قميص إبراهيم عليه السلام الذي كسيه يوم ألقي في النار في قصبة وجعلها في عنق يوسف فبعث الله عز وجل ملكا فاستخرج القميص فألبسه إياه وأضاء له الجب وعذب ماؤه وجاءه جبريل يؤنسه فلما أمسى نهض جبريل ليذهب فقال له يوسف إنك إذا خرجتَ عني استوحشتُ فقال إذا رهبت شيئاً فقل يا صريخ المستصرخين ويا غياث المستغيثين ويا مفرج كرب المكروبين قد ترى مكاني وتعلم حالي ولا يخفى عليك شيء من أمري فلما قالها حفت به الملائكة فاستأنس بهم وذبح إخوته جدياً فلطخوا به القميص وقالوا أكله الذئب ومكث في الجب ثلاثة أيام وإخوته يرعون حوله ويهوذا يأتيه بالقوت فلما جاءت السيارة تسقي من الجب تعلق بالحبل فأخرجوه فجاء إخوة يوسف فقالوا هذا عبد أبق منا فباعوه منهم بعشرين درهما وحلة ونعلين فحملوه إلى مصر فوقفوه للبيع فتزايد الناس في ثمنه حتى بلغ وزنه مسكا ووزنه ورقا ووزنه حريرا واشتراه بذلك قطفير وكان أمين ملكهم وخازنه وقال لامرأته زليخا أكرمي مثواه فراودته فعصم منها فسجنته إذ لم يوافقها فبقي مسجوناً إلى حين منام الملك فلما أخرجه من السجن فوض إليه أمر مصر فجمع الأقوات في زمن الرخاء وباع في زمن القحط فروى أنه باع مكوك بر بمكوك در وباع أهل

مصر بأموالهم وحليهم ومواشيهم وعقارهم وعبيدهم ثم بأولادهم ثم برقابهم ثم قال إني قد أعتقهم ورددت عليهم أموالهم

*(128/240)*

---

وكان يوسف عليه السلام لا يشبع في تلك الأيام ويقول أخاف أن أنسى الجائع وبلغ القحط إلى كنعان فأرسل يعقوب ولده للميرة وقال يا بني قد بلغني أن بمصر ملكاً صالحاً فانطلقوا إليه فأقرئوه مني السلام فمضوا فدخلوا عليه فعرفهم وأنكروه فقال من أين أتيتم فقالوا من أرض كنعان ولنا شيخ يقال له يعقوب وهو يقرئك السلام فبكى وعصر عينيه وقال لعلكم جواسيس فقالوا لا والله قال فكم أنتم قالوا أحد عشر وكنا اثني عشر فأكل أحدنا الذئب فقال ائتوني بأخيكم الذي من أبيكم ثم درج بضاعتهم في رحالهم فعادوا إلى أبيهم فقالوا إنا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل فقال يعقوب هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ثم حمله احتياجه إلى الطعام إلى أن أرسله معهم فلما دخلوا على يوسف أجلس كل اثنين على مائدة فبقي بنيامين وحيداً يبكي وقال لو كان أخي حياً لأجلسني معه فضمه يوسف إليه وقال أتحب أن أكون أخاك فقال أيها الملك ومن يجد أخاً مثلك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف وقام إليه فاعتنقه وقال أنا أخوك ثم احتال عليه

فوضع الصاع في رحله فلما لم يقدروا على خلاصه أقام يهوذا ورجعوا إلى يعقوب يقولون إن ابنك سرق فتلقاهم بصبر جميل وانفرد بحزنه قال الحسن ما فارقه الحزن ثمانين سنة وما جفّت عيناه وما أحد أكرم على الله منه ثم إن ملك الموت لقي يعقوب فسأله هل قبضت روح يوسف قال لا فأصبح يقول لبنيه ( اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ) فلما عادوا إليه ببضاعة مزجاة وهي القليلة وقفوا موقف الذل وقالوا تصدق علينا فقال ( هل علمتم ما فعلتم بيوسف ) وكشف الحجاب عن نفسه فعرفوه فقالوا ( أئنك لأنت يوسف ) فحينئذ قالوا ( تالله لقد آثرك الله علينا ) قال الزجاج تالله بمعنى والله إلا أن التاء لا يقسم بها إلا في الله عز وجل ولا يجوز تالرحمن ولا تربي والتاء تبدل

*(129/240)*

---

من الواو كما قالوا في وراث تراث وقالوا يتزن وأصله يوتزن من الوزن ومعنى آثرك الله اختارك وفضلك وكان قد فُضِّل عليهم بالحسن والعقل والحلم والصبر وغير ذلك ( وإن كنا لخاطئين ) أي لمذنبين آثمين في أمرك ( قال لا تثريب عليكم اليوم ) أي لا أعيركم بما صنعتم ثم سألهم عن أبيه فقالوا ذهبت عيناه فأعطاهم قميصه وقال ( اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا ) وهو قميص الخليل الذي كان في عنق يوسف وكان من الجنة

فلما خرجوا من مصر حمل القميص يهوذا وقال أنا حملت قميص الدم وها أنا أحمل قميص البشارة فخرج حافياً حاسراً يعدو ومعه سبعة أرغفة لم يستوف أكلها فقال يعقوب لمن حضر من أهله وولد ولده ( إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ) أي تنكرون علي لأخبرتكم أنه حي ( فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا ) ثم خرج في نحو من سبعين من أهله وخرج يوسف لتلقيه فلما التقيا قال يعقوب السلام عليك يا مذهب الأحزان فقال يوسف بكيت يا أبتي حتى ذهب بصرك أما علمت أن القيامة تجمعني وإياك فقال يا بني خشيت أن يستلب دينك فلا نجتمع وكان يوسف عليه السلام يركب في كل شهر ركبة في ثمانمائة ألف ومعه ألف لواء وألفا سيف فيدور في عمله فينصف المظلوم من الظالم وكانت زليخا تلبس جبة صوف وتشد وسطها بحبل من ليف وتقف على قارعة الطريق فتناديه فلا يسمع فنادته يوماً أيها العزيز سبحان من جعل العبيد بالطاعة ملوكاً وجعل الملوك بالمعصية عبيداً فسمعها فبكى وقال لفتاه انطلق بهذه العجوز إلى الدار واقض لها كل حاجة فقال لها الغلام ما حاجاتك يا عجوز فقالت حاجتي محرمة أن يقضيها غير يوسف فلما جاء يوسف قال من أنت يا عجوز فقالت أنا زليخا قال ما فعل حسنك وجمالك قالت ذهب به الذي أذهب ذلك ومسكنتك فقال يا زليخا عندي قضاء ثلاث حوائج فسلي فوحق شيبة إبراهيم لأقضينها فقالت حاجتي الأولى

أن تدعوا الله لي أن يرد علي بصري وشبابي فدعا لها فرد الله عليها بصرها وشبابها ثم قالت ادع الله أن يرد علي حسني كما كان فدعا لها فرد عليها حسنها وزيد فيه فصارت كأنها بنت ثمانية عشرة سنة وكان لها من العمر مائة وعشرون سنة فقالت وحاجتي الثانية أن تسأل الله تعالى أن يغفر لي ما كان مني وحاجتي الثالثة أن تتزوج بي فتزوج بها فأصابها بكراً وأولدها اثني عشر ولداً ذكر هذا أبو الحسين بن المنادى وغيره عن وهب وأقام يعقوب عند يوسف أربعاً وعشرين سنة في أهنأ عيش فلما حضرته الوفاة أوصى إلى يوسف أن يحمله إلى الشام حتى يدفنه عند أبيه إسحاق ففعل ثم إن يوسف عليه السلام رأى أن أمره قد تم فقال ( توفني مسلما ) وأوصى إلى يهوذا فتلمحوا علو قدر يعقوب ببلائه وعز يوسف في صبره وليكن حظكم من هذه القصة ( إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ) وليتفكر العاصي في لذات فنيت وتبعات بقيت وليتدبر الصابر لذة مديحه ثبتت ومرارة مصابرة خلت والأمر بآخره وللعواقب يعمل المتيقظ رزقنا الله وإياكم صبرا يزيننا وعصمة من هوى يشيننا إنه إن فعل سلمت دنيانا وديننا إنه قريب مجيب

الكلام على البسملة

( إلى أي حين أنت في صبوة لاهي

أمالك من شيء وعظت به ناهي

( ويا مذنباً يرجو من الله عفوه

أترضى بسبق المتقين إلى الله

(131/240)

---

يا مبارزاً بالعظائم كيف أمنت فنمت يا مصرا على الجرائم عجباً إن سلمت يا مبذراً منذراً كأنه ما يسمع إن فاجأك العذاب فماذا تصنع تدبر عقبى أبي الآباء إلى ما آب وتفكر في حال المذنبين فبئس المآب بيناهم في أمن قد فرق بينهم ونعق بينهم للبين غراب فتراكم ركام الهوام عليهم في الهواء واللعاب ومر مرير الريق فمشى في المشارع العذاب وامتد ساعد البلاء إلى إغلاق باب العتاب وسئلوا عن جورهم فقوى قلق الجوى في الجواب وذاقوا بعد حلاوة الخلاف من أخلاف الأوصاب الصاب وانتقى الانتقام نقي لذاتهم فخلت مما لذ أو طاب ونشبت في شيبهم وشبابهم شبا سيوف الذم وعتا العتاب ودخلوا إلى نار تهاب أوصافها قبل أن ينتهى إلى الالتهاب فلما سالت العيون دماً قرعوا بالأنامل ندماً لما ناب الناب وحط من ربا منهم على الربا فاستبدل صوت الأسى عن الرباب فاحذروا أن يصيبكم من نصيبكم مثل حصصهم فلقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ( ولقد رأيت معاشراً جمحت بهم

تلك الطبيعة نحو كل تيار

( تهوى نفوسهم هوى أجسامهم

شغلاً بكل دناءة وصغار

( تبعوا الهوى فهوى بهم وكذا الهوى

منه الهوان بأهله فحذار

( فانظر بعين الحق لا عين الهوى

فالحق للعين الجلية عار

( قاد الهوى الفجار فانقادوا له

وأبت عليه مقادة الأبرار

إخواني من فعل ما يحب لقي ما يكره ومن صبر على ما يكره نال ما يحب لا تقطع مشاورة العقل قبل مشاورة الهوى فإن المستبد برأيه واقف على مداحض الزلل لم تزل أكف العقل ضابطة أعنة النفوس غير أن العزم ينقلب ركوب الأخطار يسوق الأقدار من قرأ والناس نيام تكلم والناس سكوت وهب بعض الملوك جارية يحبها فقال الموهوب له لا أفرق بينك وبين من

تهواه فقال خذها وإن كنت أحبها ليعلم هواي أني غير طائع له وقيل للمرتعش إن فلاناً يمشي على الماء فقال إن من مكنه الله عز وجل من مخالفة هواه أعظم من المشي على الماء

( فإن المر حين يسر حلو

وإن الحلو حين يضر مر

( فخذ مرا تصادف منه نفعا

*(132/240)*

---

ولا تعدل إلى حلو يضر

صابر ليل البلا فقد دنا الفجر واثبت لعمل نهار العمر تستوف الأجر واحبس نفسك عن هواها فسينفعك الحجر وارجز لها فإن لم تسر بالرجز فبالزجر ما نال من نال ما نال إلا بالصبر وبه علا ذكر كل عابد وحبر وهو وإن مرت مذاقته بانت حلاوته في القبر أيها النائم وهو منتبه المتحير في أمر لا يشتبه يا من قد صاح به الموت في سلب صاحبه وهو مغرور بجهله مفتون بلعبه يا واقفاً مع الهوى والطبع أأمنت شين القلب بالختم والطبع يا عظيم الشقاق يا قليل الوفاق يا مرير المذاق يا قبيح الأخلاق يا كثير التواني قد سار الرفاق يا شديد التمادي قد صعب اللحاق إخلاصك معدوم وما للنفاق نفاق ومعاصيك في ازدياد والعمر في انمحاق وساعي أجلك مجد كأنه في سباق لا الوعظ ينذرك ولا الموت يزجرك ما

تطاق ( اترك الشر ولا تأنس بشر

وتواضع إنما أنت بشر

( هذه الأجسام ترب هامد

فمن الجهل افتخار وأشر

( جسد من أربع تلحظها

سبعة من فوقها في اثني عشر

( فعجيب فرح النفس إذا

شاع في الأرض ثناها وانتشر

( مستشار خائن في نصحه

وأمين ناصح لم يستشر

( فافعل الخير وأمل غبه

فهو الدخر إذا الله حشر

أضمر الخيفة وأظهر ندما

قل ما أحرز الطرف المدى حين ضمر

( وهي الدنيا إذاها أبدا

زمراً واردة بعد زمر

( في حياة كخيال طارق

شغل الفكر وخلاك ومر

الكلام على قوله تعالى

( وقضى ربك ألا تعبدو إلا إياه

*(133/240)*

---

أصل القضاء الحتم وهو في القرآن على ثلاثة عشر وجها أحدها الفراغ ( فإذا قضيت الصلاة ) والثاني الفعل ( فاقض ما أنت قاض ) والثالث الإعلام ( وقضينا إلى بني إسرائيل ) والرابع الموت ( ليقض علينا ربك ) والخامس وجوب العذاب ( وقضي الأمر ) والسادس التمام ( من قبل أن يقضى إليك وحيه ) والسابع الفصل ( وقضى بينهم بالحق ) والثامن الخلق ( فقضاهن سبع سماوات ) والتاسع الحتم ( وكان أمراً مقضيا ) والعاشر ذبح الموت ( إذا قضي الأمر ) والحادي عشر إغلاق أبواب جهنم ( وقال الشيطان لما قضي الأمر ) والثاني عشر الحكم ( حرجا مما قضيت ) والثالث عشر الأمر ( وقضى ربك ألا تعبدو إلا إياه ) قوله تعالى ( وبالوالدين إحسانا ) وهو البر والإكرام ( إما يبلغن ) قال الفراء جعلت يبلغن فعلا لأحدهما وكرر عليه ( كلاهما ) وقرأ حمزة والكسائي ( يبلغان ) على التثنية

لأنهما قد ذكرا قبل ذلك ثم قال ( أحدهما أو كلاهما ) على الاستئناف كقوله ( فعموا وصموا ) ثم استأنف فقال ( كثير منهم ) ( فلا تقل لهما أف ) أي لا تقل لهما كلاماً تتبرم فيه بهما إذا كبرا قال أبو منصور

*(134/240)*

---

اللغوي أصل أف نفخك الشيء يسقط عليك من تراب أو نحوه وللمكان تريد إماطة الأذى عنه فقيلت لكل مستقل قوله تعالى ( ولا تنهرهما ) أي لا تكلمهما ضجراً صائحاً في وجوههما قال عطاء بن أبي رباح لا تنفض يدك عليهما قال العلماء إنما نهى عن الأذى لهما في حالة الكبر وإن كان منهياً عنه في كل حال لأن حال الكبر يظهر فيها منهما ما يضجر ويؤذي وتكثر خدمتهما ( وقل لهما قولاً كريما ) أي لينا لطيفا أحسن ما تجد وقال سعيد بن المسيب قول العبد المتذلل للسيد الفظ ( واخفض لهما جناح الذل ) أي ألن لهما جانبك متذللاً لهما من رحمتك إياهما وخفض الجناح عبارة عن السكون وترك التصعب والإيذاء ( وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ) أي مثل رحمتهما إياي في صغري حين ربياني أخبرنا هبة الله بن محمد أنبأنا الحسن بن علي أنبأنا أبو بكر بن مالك أنبأنا عبد الله بن أحمد حدثني أبي حدثنا وكيع حدثنا مسعر وسفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي العباس المكي عن

عبد الله بن عمر قال جاء رجل يستأذن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ في الجهاد فقال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أحي والدك قال نعم قال ففيهما فجاهد أخرجاه في الصحيحين وبالإسناد حدثنا وكيع قال حدثنا سفيان عن سهيل بن أبي صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ لا يجزي ولد والده إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه أخبرنا علي بن عبد الله بن أحمد بن الحسن وعبد الرحمن بن محمد قالوا حدثنا عبد الصمد بن المأمون أنبأنا علي بن عمر السكري حدثنا محمد بن علي بن حرب

*(135/240)*

---

حدثنا سليمان بن عمر حدثنا عيسى بن يونس ح وأنبأنا علي بن عبد الله ومحمد ابن عبد الباقي أنبأنا أبو محمد الصريفيني أنبأنا أبو حفص الكناني أنبأنا أبو عبد الله ابن مخلد حدثنا يونس بن يعقوب حدثنا علي بن عاصم ح وأنبأنا محمد بن عبد الباقي أنبأنا أبو إسحاق البرمكي حدثنا أبو محمد بن ماسي أنبأنا أبو مسلم الكجي حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري عن بهز بن حكيم بن معونة بن حيدة القشيري عن أبيه عن جده قال قلت يا رسول الله من أبر قال أمك قلت ثم من قال أمك قلت ثم من قال أمك ثم أباك ثم الأقرب فالأقرب أخبرنا عمر بن ظفر أنبأنا أبو غالب الباقلاوي أخبرنا القاضي أبو العلاء الواسطي

أنبأنا أبو نصر النيازكي أنبأنا أبو الخير الكرماني حدثنا البخاري حدثنا سعيد بن أبي مريم أنبأنا محمد بن أبي جعفر بن أبي كثير أخبرني زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه أتاه رجل فقال إني خطبت امرأة فأبت أن تنكحني وخطبها غيري فأحبت أن تنكحه فغرت عليها فقتلتها فهل من توبة قال أمك حية قال لا قال تب إلى الله عز وجل وتقرب إليه ما استطعت فسألت ابن عباس لم سألته عن حياة أمه قال إني لا أعلم عملاً أقرب إلى الله عز وجل من بر الوالدة وكان أبو هريرة رضي الله عنه إذا أراد أن يخرج من بيته وقف على باب أمه فقال السلام عليك يا أماه ورحمة الله وبركاته فتقول وعليك السلام ورحمة الله وبركاته فيقول رحمك الله كما ربيتيني صغيراً فتقول رحمك الله كما بررتني كبيراً وإذا أراد أن يدخل صنع مثل ذلك وقالت عائشة رضي الله عنها كان رجلان من أصحاب رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أبر من كان في هذه الأمة بأمهما عثمان بن عفان وحارثة بن النعمان رضي الله عنهما أما عثمان فإنه قال ما قدرت أتأمل وجه أمي منذ أسلمت وأما حارثة فكان يطعمها

*(136/240)*

بيده ولم يستفهمها كلاماً قط تأمره به حتى يسأل من عندها بعد أن يخرج ماذا قالت أمي وكان حجر بن عدي بن الأدبر يلتمس فراش أمه بيده فيتهم غلظ يده فينقلب عليه على ظهره فإذا أمن أن يكون عليه شيء أضجعها وكان ظبيان بن علي من أبر الناس بأمه فباتت ليلة وفي صدرها عليه شيء فقام على رجليه قائماً يكره أن يوقظها ويكره أن يقعد حتى إذا ضعف جاء غلامان من غلمانه فما زال معتمداً عليهما حتى استيقظت من قبل نفسها وكان محمد بن سيرين لا يكلم أمه بلسانه كلمة تخشعاً لها وكان محمد بن المنكدر يضع خده على الأرض ثم يقول لأمه ضعي قدمك عليه وقال ابن المنكدر بت أغمز رجل أمي وبات أخي عمر يصلي وما يسرني أن ليلتي بليلته وروينا عن ابن عون أن أمه نادته فأجابها فعلا صوته على صوتها فأعتق رقبتين وقال بشر الحافي الولد يقرب من أمه بحيث يسمع أمه أفضل من الذي يضرب بسيفه في سبيل الله والنظر إليها أفضل من كل شيء وفي الصحيحين من حديث أنس عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه ذكر في الكبائر عقوق الوالدين وفيهما من حديث جبير بن مطعم عنه ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال لا يدخل الجنة قاطع قال سفيان قاطع رحم وفي حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال لا يدخل الجنة عاق وقال محمد بن محيريز من مشى بين يدي أبيه فقد عقه إلا أن يمشي فيميط الأذى عن طريقه ومن دعا أباه باسمه أبو بكنيته فقد عقه إلا أن يقول يا أبت

وفي حديث أبي أسيد أن رجلاً قال يا رسول الله هل بقي من بر أبوي شيء بعد موتهما قال نعم خصال أربع الدعاء والإستغفار لهما وإيفاء عهدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما وروى ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ قال أبر البر صلة المرء أهل ود أبيه بعد أن توفي أخبرنا ابن الحصين أنبأنا ابن المذهب أنبأنا أبو بكر بن مالك أنبأنا عبد الله ابن أحمد حدثني أبي حدثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشدين عن زبان عن سهل ابن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال إن الله تعالى عبادا لا يكلمهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم قيل له من أولئك يا رسول الله قال متبرئ من والديه راغب عنهما ومتبرئ من ولده ورجل أنعم عليه قوم فكفر نعمتهم وتبرأ منهم وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه قيل يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه قال يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه

سجع على قوله تعالى

( وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ) الويل كل الويل لعاق والديه والخزي كل الخزي لمن ماتا غضابا عليه أف له هل جزاء المحسن إلا الإحسان إليه أتبع الآن تفريطك في حقهما أنيناً وزفيراً ( وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً )

*(138/240)*

---

كم آثرك بالشهوات على النفس ولو غبت ساعة صارا في حبس حياتهما عندك بقايا شمس لقد راعياك طويلاً فارعهما قصيراً ( وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ) كم ليلة سهرا معك إلى الفجر يداريانك مداراة العاشق في الهجر فإن مرضت أجريا دمعاً لم يجر تالله لم يرضيا لتربيتك غير الكف والحجر سريراً ( وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ) يعالجان أنجاسك ويحبان بقاءك ولو لقيت منهما أذى شكوت شقاءك ما تشتاق لهما إذا غابا ويشتقاقان لقاءك كم جرعاك حلوا وجرعتهما مريراً ( وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ) أتحسن الإساءة في مقابلة الإحسان أو ما تأنف الإنسانية للإنسان كيف تعارض حسن فضلهما بقبح العصيان ثم ترفع عليهما صوتاً جهيراً ( وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ) تحب أولادك طبعاً فأحبب والديك شرعاً وارع أصلاً أثمر لك فرعاً واذكر لطفهما بك وطيب المرعى أولاً وأخيراً ( وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ) تصدق

عنهما إن كانا ميتين وصل لهما واقض عنهما الدين واستغفر لهما واستدم هاتين الكلمتين وما تكلف إلا أمراً يسيراً ( وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً )

المجلس الثالث عشر في قصة أيوب عليه السلام

*(139/240)*

---

الحمد لله الذي ابتعث بلطفه السحاب فروى الأودية والهضاب وأنبت الحدائق وأخرج الأعناب وألبس الأرض نباتاً أحسن من ثياب العناب يبتلي ليدعى وإذا دعي أجاب قضى على آدم بالذنب ثم قضى أن تاب ورفع إدريس بلطفه إلى أكرم جناب وأرسل الطوفان وكانت السفينة من العجاب ونجى الخليل من نار شديدة الإلتهاب وكان سلامة يوسف عبرة لأولي الألباب وشدد البلاء على أيوب ففارقه الأهل والأصحاب وعضه البلاء إلى أن كل الظفر والناب فنادى مستغيثاً بالمولى فجاء الجواب ( اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ) أحمده حمد من أخلص وأناب وأصلي على رسوله أفضل نبي نزل عليه أفضل كتاب وعلى صاحبه أبي بكر مقدم الأصحاب وعلى الفاروق عمر بن الخطاب وعلى عثمان شهيد الدار وقتيل المحراب وعلى علي المهيب وما سل سيفاً بعد من قراب وعلى عمه العباس المقدم نسبه على الأنساب قال الله عز وجل ( واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه

أني مسني الشيطان بنصب وعذاب ) أيوب اسم أعجمي وهو أيوب بن أموص بن رزاح بن العيص ابن إسحاق بن إبراهيم وأبوه ممن آمن بالخليل يوم أحرق وأمه بنت لوط النبي عليه السلام وكان أيوب في زمن يعقوب عليه السلام فتزوج ابنة يعقوب وكان غزير المال كثير الضيافة وكان إبليس لا يحجب يومئذ من السموات فسمع تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب فحسده فقال يا رب لو صدمت أيوب بالبلاء لكفر فسلطني عليه فقالت قد سلطتك على ماله وولده فجمع إبليس جنوده فأرسل بعضهم إلى دوابه وبعضهم إلى زرعه وبعضهم إلى أولاده وكان له ثلاثة عشر ولداً وقال إبليس لأصحابه

*(140/240)*

---

تابعوه المصائب بعضها إثر بعض فجاء صاحب الزرع فقال يا أيوب ألم تر إلى ربك أرسل إلى زرعك ناراً فأحرقته وقال راعي الإبل ألم تر إلى ربك أرسل غددا فذهبت الإبل وقال كذلك صاحب البقر والغنم فقال الحمد لله الذي رزقني وقبله مني وتفرد إبليس لبنيه فجمع أركان البيت فهدمه عليهم وجاء فقال يا أيوب إن البيت وقع على بنيك فلو رأيت كيف اختلطت دماؤهم ولحومهم بطعامهم وشرابهم فقال لو كان فيك خير لقبضك معهم فانصرف خائباً فقال يا رب سلطني على جسده فسلط فنفخ تحت قدميه نفخة فقرح بدنه

قال مجاهد أول من أصابه الجدري أيوب وقال وهب كان يخرج عليه مثل ثدايا النساء ثم يتفقأ قال العلماء لم يبق منه إلا اللسان للذكر والقلب للمعرفة وكان يرى معاه وعروقه وعظامه ووقعت به حكة لا يملكها فحك بأظفاره فسقطت ثم بالمسوح ثم بالحجارة وأنتن جسمه وتقطع وأخرجه أهل القرية فجعلوا له عريشاً على كناسة ورفضه الخلق سوى زوجته رحمة بنت أفرايم بن يوسف ابن يعقوب فكانت تختلف إليه بما يصلحه وفي مدة لبثه في البلاء أربعة أقوال أحدها ثماني عشرة سنة رواه أنس عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ والثاني سبع سنين قاله ابن عباس وكعب والثالث سبع سنين وأشهر قاله الحسن والرابع ثلاث سنين قاله وهب وفي سبب سؤاله العافية ستة أقوال أحدها أنه اشتهى أدماً فلم تصبه امرأته حتى باعت قرنا من شعرها فلما علم ذلك قال مسني الضر رواه الضحاك عن ابن عباس والثاني أن الله تعالى أنساه الدعاء مع كثرة ذكره الله تعالى فلما انتهى زمان البلاء ألهمه الله تعالى الدعاء رواه العوفي عن ابن عباس والثالث أن نفراً من بني إسرائيل مروا به فقال بعضهم ما أصابه هذا إلا بذنب عظيم فعندها دعا قاله نوف البكالي وقال عبد الله بن عبيد بن عمر كان له أخوان فأتياه يوماً فوجدا ريحاً فقالا لو كان الله علم منه خيرا ما بلغ به هذا فما سمع شيئاً أشد عليه من ذلك فقال اللهم إن كنت تعلم أني

لم أبت ليلة شبعان وأنا أعلم مكان جائع فصدقني فصدق وهما يسمعان ثم قال اللهم إن كنت تعلم أني لم ألبس قميصاً وأنا أعلم مكان عار فصدقني فصدق وهما يسمعان فخر ساجداً ثم قال اللهم لا أرفع رأسي حتى تكشف ما بي فكشف ما به والرابع أن إبليس جاء إلى زوجته بسخلة فقال ليذبح أيوب هذه لي وقد برأ فجاءت فأخبرته فقال إن شفاني الله لأجلدنك مائة جلدة أمرتني أن أذبح لغير الله ثم طردها عنه فذهبت فلما رأى أنه لا طعام ولا شراب ولا صديق خر ساجداً وقال مسني الضر قاله الحسن والخامس أن الله أوحى إليه في عنفوان شبابه إني مبتليك فقال يا رب وأين يكون قلبي قال عندي فصب عليه من البلاء حتى إذا بلغ البلاء منتهاه أوحى الله إني معافيك قال يا رب وأين يكون قلبي قال عندك قال مسني الضر قاله إبراهيم ابن شيبان والسادس أن الوحي انقطع عنه أربعين يوماً فخاف هجران ربه فقال مسني الضر ذكره الماوردي ومعنى ( نادى ربه ) دعا وإنما أضاف الأمر إلى الشيطان لأن الشيطان سلط عليه قوله تعالى ( بنصب ) قرأ الحسن ( بنصب ) بفتح النون والصاد قال الفراء هما كالرشد والرشد وقال أبو عبيدة النصب بتسكين الصاد الشر وبتحريكها الإعياء والمراد بالعذاب الأليم قوله تعالى ( اركض برجلك ) قال المفسرون جاءه جبريل فأخذه بيده فقال قم فقام فقال اركض برجلك فركض فنبعث عين فقال اغتسل فاغتسل ثم نحاه قال اركض برجلك فركض فنبعث عين فقال اشرب

فشرب قال ( هذا مغتسل ) قال ابن قتيبة المغتسل الماء وهو المغسول أيضاً ثم ألبسه جبريل حلة من الجنة وجاءت امرأته فقالت يا عبد الله أين المبتلى الذي كان ها هنا لعل الذئاب ذهبت به فقال ويحك أنا أيوب فقالت اتق الله ولا تسخر بي قال ابن مسعود رد الله عليه أهله بأعيانهم وآتاه مثلهم معهم في الدنيا قال ابن عباس كانت قد ولدت له سبع بنين وسبع بنات فنشروا له وولدت

*(142/240)*

---

له تسعة بنين وسبع بنات وقال مجاهد آتاه الله أجور أهله في الآخرة وآتاه مثلهم في الدنيا قوله تعالى ( وخذ بيدك ضغثاً ) كان قد حلف ليجلدن زوجته مائة جلدة وفي سبب هذه اليمين ثلاثة أقوال أحدها حديث السخلة الذي سبق والثاني أن إبليس جلس في طريق زوجته كأنه طبيب فقالت له عبد الله ها هنا رجل مبتلى فهل لك أن تداويه قال نعم إني شافيه على أن يقول لي إذا برأ أنت شفيتني جاءت فأخبرته فقال ذاك الشيطان لله علي إن شفاني الله أن أجلدك مائة قاله ابن عباس والثالث أن إبليس لقيها فقال أنا الذي فعلت بزوجك وأنا إله الأرض وما أخذته منه فهو بيدي فانطلقي فأريك فمشى غير بعيد ثم سحر بصرها فأراها وادياً عميقاً فيه أهلها ومالها وولدها فأتت أيوب عليه السلام

فأخبرته فقال ذاك الشيطان ويحك كيف وعى سمعك قوله والله لئن شفاني الله لأجلدنك مائة جلدة قاله وهب وأما الضغث فقال ابن قتيبة هو الحزمة من الخلال والعيدان قال المفسرون جزى الله زوجته بحسن صبرها أن أفتاه في ضربها فسهل الأمر فجمع لها مائة عود وقيل مائة سنبلة وقيل كانت أسلا وقيل كانت شماريخ فضربها ضربة واحدة وهل ذلك خاص له أم عام فيه مذهبان أحدهما أنه عام قاله ابن عباس وعطاء والثاني خاص له قاله مجاهد وقد اختلف الفقهاء فيمن حلف أن يضرب عبده عشرة أسواط فجمعها وضربه بها ضربة واحدة فقال مالك والليث بن سعد لا يبر وهو قول أصحابنا وقال أبو حنيفة والشافعي إذا أصابه في الضربة الواحدة كل واحد منها فقد بر واحتجوا بعموم قصة أيوب قوله تعالى ( إنا وجدناه صابراً ) قال مجاهد يجاء بالمريض يوم القيامة فيقال ما منعك أن تعبدني فيقول يا رب ابتليتني فيجاء بأيوب في ضره فيقول أنت كنت أشد ضراً أم هذا فيقول بل هذا فيقول هذا لم يمنعه ذلك أن عبدني ما ضر أيوب ما جرى كأنه سنة كرى ثم شاعت مدائحه بين الورى وإنما يصير من فهم العواقب ودرى

الكلام على البسملة

( منافسة الهوى فيما يزول

على نقصان همته دليل

( ومختار القليل أقل منه

وكل فوائد الدنيا قليل

يا قليل الصبر عن اللهو والعبث يا من كلما عاهد غدر ونكث يا مغترا بساحر الهوى كما نفث تالله لقد بولغ في توبيخه وما اكترث وبعث إليه النذير ولا يدري من العبث من بعث سيندم من للقبيح حرث سيبكي زمان الهوى حين الظمأ عند اللهث سيعرف خبره العاصي إذا حل الحدث سيرى سيره إذا ناقش المسائل وبحث سيقرع سن الندم إذا نادى ولم يعث عجباً لجاهل باع تعذيب النفوس براحات الجثث كان الشبلي يقول لا تغترر بدار لا بد من الرحيل عنها ولا تخرب داراً لا بد من الخلود فيها أخبرنا أحمد بن أحمد الهاشمي أنبأنا أبو بكر الخطيب أنبأنا الحسن بن أحمد الدورقي حدثنا جعفر بن محمد بن أحمد المؤدب حدثنا محمد بن يونس حدثنا شداد بن علي الهرابي حدثنا عبد الواحد بن زيد قال مررت براهب فناديته يا راهب من تعبد قال الذي خلقني وخلقك قلت عظيم هو قال قد جاوزت عظمته كل شيء قلت فمتى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله قال إذا صفا الود وخلصت المعاملة قلت فمتى يصفو الود قال إذا اجتمع الهم في الطاعة قلت فمتى تخلص المعاملة قال إذا كان الهم هماً واحداً قلت فكيف تخليت بالوحدة قال لو ذقت حلاوة

الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك قلت فما أكثر ما يجد العبد من الوحدة قال الراحة من مداركة الناس والسلامة من شرهم قلت بماذا يستعان على قلة المطعم قال بالتحري في المكسب قلت زدني خلالاً قال كل حلالا وارقد حيث شئت قلت فأين طريق الراحة قال خلاف الهوى قلت لم تعلقت في هذه الصومعة قال من مشى على

*(144/240)*

---

الأرض عثر فتحصنت بمن في السماء من فتنة أهل الأرض لأنهم سراق العقول وذلك أن القلب إذا صفا ضاقت عليه الأرض فأحب قرب السماء قلت يا راهب من أين تأكل قال من زرع لم أبذره قلت من يأتيك به قال الذي نصب الرحا يأتيها بالطحين قلت كيف ترى حالك قال كيف يكون حال من أراد سفراً بلا أهبة ويسكن قبراً بلا مؤنس ويقف بين يدي حكم عدل ثم أرسل عينه وبكى قلت ما يبكيك قال ذكرت أياماً مضت من أجلي لم أحقق فيها عملي وفكرت في قلة الزاد وفي عقبة هبوط إلى الجنة أو إلى النار قلت يا راهب بم يستجلب الحزن قال بطول الغربة وليس الغريب من مشى من بلد إلى بلد ولكن الغريب صالح بين فساق ثم قال إن سرعة الإستغفار توبة الكذابين لو علم اللسان مما يستغفر لجف في الحنك إن الدنيا منذ ساكنها الموت ما قرت بها عين كلما تزوجت الدنيا زوجا طلقه

الموت فمثلها كمثل الحية لين مسها والسم في جوفها ثم قال عند تصحيح الضمائر يغفر الله الكبائر وإذا عزم العبد على ترك الآثام أتته من السماء الفتوح والدعاء المستجاب الذي تحركه الأحزان قلت فأكون معك يا راهب قال ما أصنع بك ومعي معطي الأرزاق وقابض الأرواح يسوق إلي الرزق في كل وقت لم يكلفني جمعه ولم يقدر على ذلك أحد غيره اسمع يا خائن الذمم يا مضيع الحرم يا من على التوبة عزم زعم غير أنه كلما بنى أن يلوذ بنا هدم يسعى إلى الهدى فإذا رأى جيفة الهوى جثم ويحك إطلاق البصر في سور الحذر ثلم عجباً لأمنك وأنت بين فكي جلم كأنك بك تتمنى العدم وتبكي

على تفريطك بندم إلى كم هذا التواني كم كم وكم وإياك والدنيا فما تشفى من قرم لمن تحدث

لقد نفخنا من غير ضرم

كم أسير لشهوة وقتيل

أف لمشتر خلاف الجميل

( شهوات الإنسان تورثه الذل وتلقيه في البلاء الطويل

يا حائراً لم يؤثر إلا خلافا يا واعداً بالتوبة ولم نر إلا إخلافاً متى ستعمل عدلاً وتورث إنصافاً

أتصافي الهوى من اليوم إذا صافى أما ترى الناس بهذه الدار أضيافا أتوقن بالحساب وترمي

الفعل جزافا أتنسى الموت وكم قد أقام سيافا أما بقي القليل ثم تلحق أسلافا متى تعاملنا

باليسير فنضاعفه أضعافا ( إذا كثرت منك الذنوب فداوها

برفع يد في الليل والليل مظلم

( ولا تقنطن من رحمة الله إنما

قنوطك منها من خطاياك أعظم

( فرحمته للمحسنين كرامة

ورحمة للمسرفين تكرم

قال بنان دخلت على ابن العرجي وهو في بيت مملوء كتباً فقلت له اختصر لي من هذه

الكتب كلمتين أنتفع بهما قال ليكن همك مجموعاً فيما يرضي الله عز وجل فإن اعترض

عليك شيء فتب من وقتك

الكلام على قوله تعالى

( إني جزيتهم اليوم بما صبروا

كان كفار قريش كأبي جهل وعتبة والوليد قد اتخذوا فقراء الصحابة كعمار وبلال وخباب

وصهيب سخرياً يستهزءون بهم ويضحكون منهم فإذا كان يوم القيامة قيل لهم ( إني جزيتهم اليوم بما صبروا ) على أذاكم واستهزائكم

(146/240)

---

أما علم الصالحون أن الدنيا دار رحلة دافعوا زمان البلاء وأدلجوا في ليل الصبر علماً منهم بقرب فجر الأجر فما كانت إلا رقدة حتى صبحوا منزل السلامة نفذت أبصار بصائرهم بنور الغيب إلى مشاهدة موصوف الوعد فتعلقت يد الآمال بما عاينت بواطن القلوب وأخمصوا عن الحرام البطون وغضوا عن الآثام الجفون وسكبوا في ظلام الليل الدموع وتململوا تململ الملسوع استقاد قلوبهم زمان التطلف ثم جثها سائق التعسف فكلما ألاح لهم الرجاء نور الوصال طبق ظلام الخوف سماء الأعمال فهم في بيداء التحير يسرحون ومن باب التضرع لا يبرحون وحزنهم أولى مما يفرحون فإذا عمهم الغم فبالذكر يتروحون رفضوا الدنيا فسلموا وطلبوا الأخرى فما ندموا يا بشراهم إذا قدموا وغنموا أخبرنا أبو بكر الصوفي أنبأنا أبو سعد الحيري أنبأنا أبو عبد الله الشيرازي حدثنا أبو زرعة الطبري حدثني يحيى بن عبد الله بن الحارث حدثنا محمد بن يزيد بن عبد الصمد حدثنا سعيد بن نصر حدثني محمد بن يحيى بن عبد الكريم عن الوليد ابن مسلم عن الأوزاعي قال حدثني حكيم من الحكماء

قال مرت بعريش مصر وأنا أريد الرباط فإذا أنا برجل في مظلة قد ذهبت عيناه ويداه ورجلاه وبه أنواع البلاء وهو يقول الحمد لله حمداً يوافي شكرك بما أنعمت علي وفضلتني على كثير من خلقك تفضيلاً فقلت لأنظرن أشيء علمه أو ألهمه إلهاماً فقلت على أي نعمة تحمده فوالله ما أرى شيئاً من البلاء إلا وهو بك فقال ألا ترى ما قد صنع بي فوالله لو أرسل السماء علي ناراً فأحرقتني وأمر الجبال فدكتني وأمر البحار فغرقتني ما ازددت له إلا حمدا وشكراً ولكن لي إليك حاجة بنية لي كانت تخدمني وتتعاهدني عند إفطاري فانظر هل تحس بها فقلت والله إني لأرجو أن يكون لي في قضاء حاجة هذا العبد الصالح قربة إلى الله عز وجل فخرجت أطلبها بين تلك الرمال فإذا السبع قد أكلها فقلت إنا لله وإنا إليه راجعون من أين آتى هذا العبد الصالح فأخبره بموت ابنته فأتيته

*(147/240)*

---

فقلت أنت أعظم عند الله منزلة أم أيوب ابتلاه الله تعالى في ماله وأهله وولده وبدنه حتى صار غرضاً للناس فقال لا بل أيوب فقلت إن ابنتك التي أمرتني أن أطلبها أصبتها فإذا السبع قد أكلها فقال الحمد لله الذي لم يخرجني من الدنيا وفي قلبي شيء ثم شهق شهقة فمات فصليت عليه أنا وجماعة معي ثم دفنته ثم بت ليلتي حتى إذا مضى من الليل قدر

ثلثه وإذا به في روضة خضراء وإذا عليه حلتان خضراوان وهو قائم يتلو القرآن فقلت

ألست صاحبي بالأمس فقال بلى فقلت ما صيرك إلى ما أرى فلقد زدت على العابدين

درجة لم ينالوها قال بالصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء أخبرنا محمد بن أبي منصور

أنبأنا أبو طالب اليوسفي أنبأنا يوسف بن محمد المهراني أنبأنا أحمد بن محمد بن حسنون

حدثنا جعفر الخواص حدثنا ابن مسروق حدثنا محمد بن الحسين حدثني يحيى بن بسطام

الأصغر حدثني حريث بن طرفة قال كان حسان بن أبي سنان يصوم الدهر ويفطر على

قرص ويتسحر بآخر فنحل وسقم جسمه حتى صار كهيئة الخيال فلما مات وأدخل

مغتسله ليغسل كشف الثوب عنه فإذا هو كالخيط الأسود قال وأصحابه يبكون حوله قال

حريث فحدثني يحيى البكاء وإبراهيم ابن محمد العرني قالا لما نظرنا إلى حسان على

مغتسله وما قد أبلاه الدءوب استدمع أهل البيت وعلت أصواتهم فسمعنا قائلاً يقول من

ناحية البيت ( تجوع للإله لكي يراه

نحيل الجسم من طول الصيام

فوالله ما رأينا في البيت إلا باكياً ونظرنا فلم نر أحداً قال حريث فكانوا يرون أن بعض الجن

قد بكاه قال بعض أصحاب بشر بن الحارث جئت إلى بابه فإذا هو في الدهليز وبين يديه

بطيخة وهو يقول لنفسه أكلتيها فكان ماذا فطرقت عليه الباب ودخلت وقلت أي شيء

هذه تعاتب نفسك فيها فقال

( صبرت على الأيام حتى تولت

وألزمت نفس صبرها فاستمرت

( وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى

فإن أطمعت تاقت وإلا تسلت

ثم رمى بالبطيخة إلي وأنشأ يقول ( وإن كدي لشبع بطني

يبيع ديني بلا محال

*(148/240)*

---

( من نال دنيا بغير دين

بال وبالاً على وبال

أخبرنا يحيى بن علي أنبأنا أبو بكر الخياط أنبأنا الحسن بن الحسين بن حمكان حدثنا أبو بكر النقاش عن محمد بن إسحاق السراج قال سمعت أحمد بن الفتح يقول رأيت بشر بن الحارث في منامي وهو قاعد في بستان وبين يديه مائدة وهو يأكل منها فقلت له يا أبا نصر ما فعل الله بك قال رحمني وغفر لي وأباحني الجنة بأسرها وقال لي كل من جميع ثمارها واشرب من أنهارها وتمتع بجميع ما فيها كما كنت تحرم على نفسك الشهوات في دار الدنيا أخبرنا عبد

الوهاب الحافظ أنبأنا أبو الحسين بن عبد الجبار أنبأنا الحسين بن علي الطناجيري أنبأنا عبيد الله بن عثمان أخبرنا علي بن محمد العنبري أخبرنا عبد الرحمن ابن معاوية القرشي حدثنا محمد بن الفرج الصدفي حدثنا جعر بن هرون عن مسلمة ابن جعفر عن الحسن قال إن لله تعالى عباداً كمن رأى أهل الجنة في الجنة مخلدين وكمن رأى أهل النار في النار معذبين قلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة وأنفسهم عفيفة وحوائجهم خفيفة صبروا أياماً قصارا تعقب راحة طويلة أما الليل فصافة أقدامهم تسيل دموعهم على خدودهم يجأرون إلى ربهم عز وجل ربنا ربنا وأما النهار فعلماء حلماء بررة أتقياء ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى أو قد خولطوا وما بهم مرض ولكن خالط القوم أمر عظيم

*(149/240)*

---

أخبرنا أبو بكر الصوفي أنبأنا أبو سعد الحيري حدثنا أبو عبد الله الشيرازي حدثنا محمد بن الحسين الزنجاني حدثنا عيسى بن هرون حدثنا إبراهيم بن الجنيد حدثني محمد بن صالح بن يحيى عن شعيب بن حرب قال كان قوم من الحواريين على شاطئ البحر يتحدثون في ملكوت السماء وفي خدعة الدنيا لمن فيها فسمعوا هاتفاً من البحر يقول إن لله عباداً أخلصتهم الخشية وأذابهم الحزن فلم تجف دمعتهم ولم يشغلهم عن ربهم شاغل تفرغوا له

ونصبوه بين أعينهم أولئك على كراسي من نور عند قائمة العرش يضحك الله إليهم ويضحكون إليه فصعقوا وسقط بعضهم في البحر ومات باقيهم أخبرنا ابن ناصر أنبأنا محمد بن علي القرشي حدثنا أبو عبد الله محمد بن علي الحسيني حدثنا أبو حازم محمد بن علي الوشاء حدثنا زيد بن محمد بن جعر حدثنا داود بن يحيى الدهقان حدثنا محمد بن حماد بن عمرو حدثنا حسين بن حسين بن محمد ابن بكر عن أبي الجارود عن عطية عن أبي سعيد قال قال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ إنه ليبلغ من كرامة العبد على الله عز وجل يوم القيامة أنه ليكون له في الجنة ألف باب ما منها باب إلا عليه خدم من خدمه فتقبل الملائكة حتى ينتهوا إلى تلك الأبواب فيقولون هل على سيدكم من إذن فيقولون ما ندري فيأتونه فيقولون إن ملائكة من ملائكة الله على الأبواب يقولون هل على سيدكم من إذن فيقولون نعم فيدخلون عليه بالتحية يا قليل الصبر إنما هي مراحل فصابر لجة البلاء فالموت ساحل تأمل تحت سجف ليل الصبر صبح الأجر واحبس لسانك عن الشكوى في سجن الصبر واقطع نهار اللأواء بحديث الفكر وأوقد في دياجي الآلام مصباح الشكر وقلب قلبك بين

ذكر النواب وتمحيص الوزر وتعلم أن البلاء يمزق ركام الذنوب تمزيق الشباك ويرفع درجات الفضائل إلى كاهل السماك ومن تفكر في سر ( إن الله مع الصابرين ) أنس بجليسه ومن تذكر

( إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ) فرح بامتلاء كيسه ( إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى

*(150/240)*

---

ولاقيت بعد الموت من قد تزودا

( ندمت على أن لا تكون كمثله

وأنك لم ترصد كما كان أرصدا

سجع على قوله تعالى

( إني جزيتهم اليوم بما صبروا ) لله أقوام امتثلوا ما أمروا وزجروا عن الزلل فانزجروا فإذا لاحت الدنيا غابوا وإذا بانت الأخرى حضروا فلو رأيتهم في القيامة إذا حشروا ( إني جزيتهم اليوم بما صبروا ) جن عليهم الليل فسهروا وطالعوا صحف الذنوب فانكسروا وطرقوا باب المحبوب واعتذروا وبالغوا في المطلوب ثم حذروا فانظر بماذا وعدوا في الذكر وذكروا ( إني جزيتهم اليوم بما صبروا ) ربحوا والله وما خسروا وعاهدوا على الزهد فما غدروا واحتالوا على نفوسهم فملكوا وأسروا وتفقدوا أنه المولى فاعترفوا وشكروا ( إني جزيتهم اليوم بما صبروا ) بيوتهم في خلوها كالصوامع وعيونهم تنظر بالتقى من طرف

خاشع والأجفان قد سحت سحب المدامع تسقى بذر الفكر الذي بذروا ( إني جزيتهم اليوم بما صبروا ) استوحشوا من كل جليس شغلاً بالمعنى النفيس وزموا مطايا الجد فسارت العيس وبادروا الفرصة ففاتوا إبليس لا وقفوا ولا فتروا ( إني جزيتهم اليوم بما صبروا )

*(151/240)*

---

قلوب في الخدمة حضرت أسرار بالصدق عمرت كم شهوة في صدورهم انكسرت أخبارهم تحيي القلوب إذا نشرت ويقال عن القوم إذا نشروا ( إني جزيتهم اليوم بما صبروا ) جدوا فليس فيهم من يلعب ورفضوا الدنيا فتركوها تخرب وأذابوا قلوبهم بقلة المطعم والمشرب فغدا يقال كل يا من لم يأكل واشرب يا من لم يشرب أذكارهم في الحياة وإن كانوا قبروا ( إني جزيتهم اليوم بما صبروا ) علموا أن الدنيا لعب ولهو وزينة وأن من وافق مرادها فارق دينه فحذروا من غرور يجدي غبينة فركبوا من التقى في سفينة أشحنوها بالزاد وعبروا ( إني جزيتهم اليوم بما صبروا ) طوبى لهم والأملاك تتلقاهم كشف الحجاب عن عيونهم فأراهم هذا أقصى آمالهم وقد ظفروا ( إني جزيتهم اليوم بما صبروا ) بلغنا الله

ذلك المبلغ وأسمعنا زجر الناصح فقد أبلغ وسترنا من العقاب فإنه إن عفا أسبغ ولولا عونه ما قدروا ( إني جزيتهم اليوم بما صبروا )

*(152/240)*

---

المجلس التاسع عشر في قصة داود عليه السلام

الحمد لله رب الأرباب ومسبب الأسباب ومنزل الكتاب حفظ الأرض بالجبال من الاضطراب وقهر الجبارين وأذل الصعاب وسمع خفي النطق ومهموس الخطاب وأبصر فلم يستر نظره حجاب أنزل القرآن يحث فيه على اكتساب الثواب وزجر عن أسباب العقاب ( كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكروا أولوا الألباب ) ابتلى المصطفين بالذنوب ليعلم أنه تواب أما سمعت بزلة آدم وما جرى من عتاب ( وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ) أحمده على رفع الشك والارتياب وأشكره على ستر الخطايا والعاب وأقر له بالتوحيد إقراراً نافعاً يوم الحساب وأعترف لنبيه محمد أنه لباب اللباب ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ وعلى صاحبه أبي بكر خير الأصحاب وعلى عمر الذي إذا ذكر في مجلس طاب وعلى عثمان المقتول ظلما وما تعدى الصواب وعلى علي البدر يوم بدر والصدر يوم الأحزاب وعلى عمه العباس الذي نسبه أشرف الأنساب اللهم يا من ذلت جميع الرقاب

وجرت بأمره عزالى السحاب احفظنا في الحال والمآب وألهمنا التزود قبل حلول التراب وارزقنا الاعتبار بسالفي الأتراب وأرشدنا عند السؤال إلى صحيح الجواب وهب لشيبنا معاصي الشباب وارزقني والحارضين عمارة القلوب الخراب برحمتك يا كريم يا وهاب قال الله عز وجل ( وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ) المعنى قد أتاك فاستمع له نقصصه عليك والخصم يصلح للواحد والاثنين والجماعة والذكر والأنثى ( تسوروا ) يدل على علو والمحراب ها هنا كالغرفة قال الشاعر

ربة محراب إذا جئتها

لم ألقها أو أرتقي سلماً

( إذ دخلوا على داود

*(153/240)*

---

وهو داود بن إيشا بن عويد من نسل يهوذا بن يعقوب وكان مبدأ أمره أن الله تعالى لما بعث طالوت ملكا خرج من بني إسرائل معه ثمانون ألفاً لقتال جالوت فقالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده فلم يثبت معه غير ثلاثمائة وثلاثة عشر وكان فيهم أبو داود وثلاثة عشر ابنا له وداود أصغرهم وإنه مر بثلاثة أحجار فكلمنه وقلن يا داود خذنا معك تقتل بنا

جالوت فأخذهن ومشى إلى جالوت فوضعهن في قذافته فصارت حجراً واحداً ثم أرسله فصك به بين عيني جالوت فقتله ثم هلك طالوت فملك داود وجعله الله نبياً وأنزل عليه الزبور وعلمه صنعة الحديد وألانه له وأمر الجبال والطير أن يسبحن معه وكان إذا قرأ الزبور خضع له الوحش حتى تؤخذ بأعناقها وكان كثير التعبد فتذاكر بنو إسرائيل يوماً عنده هل يأتي على الإنسان يوم لا يصيب فيه ذنباً فأضمر أنه يطيق ذلك فابتلي يوم عبادته بالنظر وذلك أنه رأى طائراً في محرابه فمد يده إليه فتنحى فأتبعه بصره فإذا بامرأة فخطبها مع علمه أن أوريا قد خطبها فتزوجها فاغتم أوريا فعوتب إذ لم يتركها لخاطبها الأول هذا أجود ما قيل في فتنته ويدل عليه قوله تعالى ( وعزني في الخطاب ) فأما ما ينقل أن زوجها بعث في الغزوات حتى قتل فلا يجوز أن يكون صحيحاً فجاءه الملكان فتسورا عليه من سور داره ففزع منهم لأنهما أتياه على غير صفة مجيء الخصوم وفي غير وقت الحكومة وتسوروا من غير إذن و( خصمان ) مرفوع بإضمار نحن

وهذا مثل ضرباه له والتقدير ما تقول إن جاءك خصمان وقال ابن الأنباري نحن كخصمين ومثل خصمين فسقطت الكاف وقام الخصمان مقامهما تقول العرب عبد الله القمر حسناً أي مثل القمر قالت هند بنت عتبة

من حس لي الأخوين كالغصنين

أو من راهما

( أسدين في غيل يحيد

القوم عن عرواهما

( صقرين لا يتذللان

ولا يباح حماهما

( رمحين خطيين في

كبد السماء تراهما

أرادت مثل أسدين ومثل صقرين ثم صرف الله النون والألف في ( بعضنا

*(154/240)*

---

إلى نحن المضمر كما تقول العرب نحن قوم شرف أبونا ونحن قوم شرف أبوهم والمعنى واحد قوله تعالى ( ولا تشطط ) أي لا تجر يقال شط وأشط ذا جار ( واهدنا إلى سواء الصراط ) أي إلى قصد الطريق والمعنى احملنا إلى الحق فقال داود تكلما فقال أحدهما ( إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة ) قال الزجاج كنى عن المرأة بالنعجة قال المفسرون إنما ذكر هذا العدد لأنه عدد نساء داود ( فقال أكفلنيها ) أي انزل أنت عنها واجعلني أنا أكفلها ( وعزني في الخطاب ) أي غلبني في القول وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وابن

أبي عبلة ( وعازني ) أي غالبني قال ابن عباس إن دعا ودعوت كان أكثر مني وإن بطش وبطشت كان أشد مني ( قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ) فإن قيل كيف حكم ولم يسمع كلام الآخر فالجواب أن الآخر اعترف فحكم عليه باعترافه وحذف ذكر ذلك اكتفاء بفهم السامع والعرب تقول أمرتك بالتجارة فكسبت الأموال أي فتجرت فكسبت

*(155/240)*

---

والخلطاء الشركاء وظن أي أيقن وعلم ( أنما فتناه ) أي ابتليناه بما جرى له في حق المرأة وفي سبب تنبهه لذلك ثلاثة أقوال أحدها أن الملكين أفصحا له بذلك قال السدى قال داود للخصم الآخر ما تقول قال نعم أريد أن آخذها منه وأكمل بها نعاجي وهو كاره قال إذاً لا ندعك وإن رمت هذا ضربنا منك هذا وهذا يشير إلى أنفه وجبهته فقال له أنت يا داود أحق أن يضرب هذا منك حيث لك تسع وتسعون امرأة ولم يكن لأوريا إلا واحدة فنظر داود فلم ير أحداً فعرف ما وقع والثاني أنهما عرجا وهما يقولان قضى الرجل على نفسه فعلم أنه عني بذلك قاله وهب والثالث أنه لما حكم بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه وهو يضحك ثم صعد إلى السماء وهو ينظر فعلم أن الله ابتلاه بذلك قاله مقاتل قوله تعالى ( وخر راكعاً ) قال ابن عباس أي ساجداً فعبر بالركوع عن السجود لأنه بمعنى الانحناء قال

المفسرون بقي في سجوده أربعين ليلة لا يرفع رأسه إلا لوقت صلاة مكتوبة أو حاجة لا بد منها ولا يأكل ولا يشرب فأكلت الأرض من جبهته ونبت العشب من دموعه وهو يقول في سجوده رب زل داود زلة أبعد ما بين المشرق والمغرب أخبرنا علي بن عبيد الله أنبأنا ابن النقور أنبأنا عمر بن إبراهيم الكناني حدثنا البغوي حدثنا داود بن رشيد حدثنا أبو حفص الأبار عن ليث عن مجاهد قال كانت خطيئته في كفة مكتوبة قال فسجد حتى نبت من البقل ما وارى أذنيه أو قال رأسه ثم نادى أي رب قرح الجبين وجمدت العين وداود لم يرجع إليه من ذنبه شيء قال فنودي أجائع فتطعم أم عار فتكسي أم مظلوم فينتصر لك فلما رأى أنه

*(156/240)*

---

لم يرجع إليه في ذنبه شيء نحب نحبة فهاج ما ثم أخبرنا عبد الوهاب أنبأنا ابن المبارك أنبأنا أبو الحسين بن عبد الجبار أنبأنا أبو بكر الخياط أنبأنا أبو عبد الله أحمد بن يوسف العلاف حدثنا أبو علي بن صفوان حدثنا أبو بكر القرشي حدثني محمد بن الحسين حدثنا عمرو بن جرير حدثنا عامر بن يساف عن يحيى بن أبي كثير قال بلغنا أنه كان داود مكث قبيل ذلك سبعا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يقرب النساء فإذا كان قبل ذلك بيوم أخرج

له منبرا إلى البرية وأمر سليمان مناديا يستقرىء البلاد وما حولها من الغياض والآكام والجبال والبراري والديارات والصوامع والبيع فينادي فيها ألا من أحب أن يسمع نوح داود فليأت فتأتي الوحوش من البراري والآكام وتأتي السباع من الغياض وتأتي الهوام من الجبال وتأتي الطير من الأوكار وتأتي الرهبان من الصوامع والديارات وتأتي العذارى من خدورها ويجتمع الناس لذلك اليوم ويأتي داود عليه السلام حتى يرقى على المنبر ويحيط به بنو إسرائيل كل صف على حدته قال وسليمان قائم على رأسه قال فيأخذ في الثناء على ربه فيضجون بالبكاء والصراخ ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار فيموت طائفة من الناس وطائفة من السباع والهوام والوحوش وطائفة من الرهبان والعذارى المتعبدات ثم يأخذ في ذكر الموت وأهوال القيامة ثم يأخذ في النياحة فيموت من كل صنف طائفة فإذا رأى سليمان ما قد كثر من الموت ناداه يا أبتاه قد مزقت المستمعين كل ممزق وماتت طوائف من بني إسرائيل ومن الرهبان ومن الوحوش فيقطع النياحة ويأخذ في الدعاء ويغشى عليه فيحمل على سرير فإذا أفاق قال سليمان ما فعل فلان وفلان فيقول ماتوا فيقوم فيدخل بيت عبادته ويغلق عليه بابه وينادي أغضبان أنت على داود إله داود أم كيف قصرت به أن يموت خوفا منك قال علماء السير كان داود عليه السلام قد اتخذ سبع حشايا من شعر وحشاهن بالرماد ثم بكى حتى أنفذها دموعا ولم يشرب شرابا إلا ممزوجا بدموع

عينيه وكان

له جاريتان قد أعدهما فكان إذا أتاه الخوف سقط واضطرب فقعدتا على صدره

ورجليه مخافة أن تتفرق أعضاؤه وكان قد نقش خطيئته في كفه لئلا ينساها وكان إذا رآها

اضطربت يداه ويقال لو وزنت دموعه عدلت دموع الخلائق ولم يرفع رأسه إلى السماء حتى

مات حياء إخواني تأملوا عواقب الذنوب تفنى اللذة وتبقى العيوب احذروا المعاصي

فبئس المطلوب ما أقبح آثارها في الوجوه والقلوب

الكلام على البسملة

( ابك من جرمك خوفا

فحقيق بك تبكي

( كم ركبت الذنب مغرورا

وكم أسرعت في الفتك

( وتبرجت بعصيانك قد غرك إمهالي وتركي

( من إذا ألبستك الذل

يراعيك ويشكي

( من ترى يسترك اليوم

إذا عمك هتكي

(كم تجردت لعصياني

وكم خالفت نسكي

(أترى تجهل عزي

أم ترى تصغر ملكي

يا ابن آدم فرح الخطيئة اليوم قليل وحزنها في غد طويل ما دام المؤمن في نور التقوى فهو يبصر طريق الهدى فإذا طبق ظلام الهوى عدم النور كان داود يسجد ويقول في سجوده سبحان خالق النور إلهي خليت بيني وبين عدوي إبليس فلم أقم لفتنته إذ نزلت بي سبحان خالق النور إلهي

*(158/240)*

---

يغسل الثوب فيذهب درنه ووسخه والخطيئة لازمة لي لا تذهب عني سبحان خالق النور إلهي تبكي الثكلى على ولدها إذا فقدته وداود يبكي على خطيئته سبحان خالق النور إلهي الويل لداود إذا كشف عنه الغطاء قيل هذا داود الخاطىء سبحان خالق النور إلهي بأي عين أنظر إليك يوم القيامة وإنما ينظر الظالمون من طرف خفي سبحان خالق النور إلهي

بأي قدم أقوم ببابك يوم تزل أقدام الخاطئين سبحان خالق النور إلهي من أين يطلب العبد المغفرة إلا من عند سيده سبحان خالق النور إلهي أنا الذي لا أطيق صوت الرعد فكيف أطيق صوت جهنم سبحان خالق النور إلهي كيف يستقر الخاطئون بخطاياهم دونك وأنت شاهدهم حيث كانوا سبحان خالق النور إلهي قرح الجبين وجمدت العينان من مخافة الحريق على جسدي سبحان خالق النور إلهي أنت المغيث وأنا المستغيث فمن يدعو المستغيث إلا المغيث سبحان خالق النور إلهي فررت إليك بذنوبي فاعترفت بخطيئتي فلا تجعلني من القانطين ولا تخزني يوم الدين سبحان خالق النور إلهي إذا ذكرت ذنوبي أيست من كل خير وإذا ذكرت رحمتك رجوتها سبحان خالق النور إلهي أمدد عيني بالدموع وقلبي بالخشية وضعفي بالقوة حتى أبلغ رضاك عني سبحان خالق النور يا سكران الهوى متى تصحو يا كثير الذنوب متى تمحو إلى كم تهفو وتغفو وتتكدر ونعمنا تصفو ابك لما بك واندب في شيبتك على شبابك وتأهب لسيف المنون فقد علق الشباب بك انتبه الحسن ليلة فبكى فضج أهل الدار بالبكاء فسألوه عن حاله فقال ذكرت ذنباً لي فبكيت يا مريض الذنوب مالك دواء كالبكاء روى ابن عباس عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ قال عينان لا تمسهما النار عين

بكت في جوف الليل من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله وروى عنه أبو أمامة أنه قال ليس شيء أحب إلى الله عز وجل من قطرة دمع من خشية الله تعالى وقطرة دم تهراق

في سبيل الله

لا تحبسن ماء الجفون فإنه

لك يا لديغ هواهم درياق

( شنوا الإغارة في القلوب بأسهم

*(159/240)*

---

لا يرتجى لأسيرها إطلاق

( واستعذبوا ماء الجفون فعذبوا الأسراء

حتى درت الآماق

قال محمد بن علي الحسين ما اغرورقت عين بمائها إلا حرم الله وجه صاحبها على النار

فإن سالت على الخدين لم يرهق وجهه قتر ولا ذلة يوم القيامة يا من أفعاله حتى الخطى خطا

يا حاملا على الأزر الوزر أتعبت المطا يا من إذا قدر ظلم وإذا خاصم شطا يا مسرعا في

الشر فإذا لاح الخير جا البطا ( جزت الثلاثين خطا

فاعذر مشيبا وخطا

( وابك زمانا لم تزل

لله فيه مسخطا

( واندب على آثاره

مستدركا ذا الغلطا

( واعدد صواب العيش ما

فارقه التقوى خطا

يا كثير الذنوب متى تفضي يا مقيما وهو في المعنى يمضي أفنيت الزمان في الهوى ضياعاً

وساكنت غرورا من الأمل وأطماعا وصرت في طلب الدنيا خبيرا صناعا تصبح جامعا

وتمسي مناعا فتش على قلبك ولبك فقد ضاعا تفكر في عمرك فقد ذهب نهبا مشاعا

اترك الهوى محمودا قبل أن يتركك مذموما إن فاتتك قصبات السبق في الزهد فلا تفوتنك

ساعات الندم في التوبة

الكلام على قوله تعالى

( أيحسب الإنسان أن يترك سدى

عباد الله من استحضر قلبه أخبره أنه مسئول عن فعله وأمره بالتزود ليوم

رحيله ومن وافق الهوى هوى إلى محل الإضاعة وأصبح من الخاسرين قال بعض المعتبرين لما خلوت بالعقل في بيت الفكر علمت أني مخلوق للتكليف معاقب على التحريف لست بمهمل فأسهو ولا بمتروك فألهو يحصى علي قليل العمل وكثيره ويكر علي الزمان فيبين لي تأثيره ورأيت الليل والنهار يقودانى إلى قبري ويفنيان في سيرهما عمري ويريانى من العبر ما يصلح به طريق الهدى فيبين سلب الكبير والصغير والرفيق والقرين فعلمت أن الهلاك آخر السلامة وأن عاقبة التفريط الندامة وأن وهن البدن أبين دليل على الموت وأقوى علامة وعرفت بدليل السمع الجزاء يوم القيامة فلما تيقنت أني مكلف محاسب ومحفوظ علي عملي مراقب مثاب على الفعل ومعاقب مأخوذ بالتفريط ومطالب هممت أن أنهض نهضة عازم صدوق إلى أداء التكليف وقضاء الحقوق فقيدتني نفسي بقيود الهوى وأفسدت من حالي ما استقام واستوى فبقيت أتفكر فيما جرى وأمسح عيني من سنة الكرى وأقول ماذا منعني من مقصودي وأي شغل شغلني عن معبودي ومالي أقصر في سيري وكيف سبقني إلى الفضائل غيري فتعجبت مما نابني وحزنت لما أصابني ولم أزل أنظر في الموانع حتى فهمتها وأتدبر طريق الهدى حتى علمتها وذلك أن الله تعالى جبل النفس على حب الشهوة وجعلها في حبس الغفلة وخلق لها من رائق مقصودها ما يشغلها وجوده عن وجودها فهي تميل إلى مشتهاها وإن أدى إلى المهالك لما وضع في طبعها من حب ذلك وتنهمك على تحصيل غرضها وإن أعقبها طول مرضها فينسيها عاجل ما يسر آجل ما يضر فلما وضعها

الحق على هذا وألفها خاطبها بمخالفة هواها وكلفها وبين لها طريق الهدى وعرفها ولطف بها في أحوالها وتألفها وذكرها من النعم ما سلفها وأقامها على

(161/240)

---

محجة التعليم ووقفها وحذرها من الزلل وخوفها وضمن لها أنها إن جاهدت أسعفها وإن تركت أغراضها أخلفها وما وعدها وعداً قط فأخلفها وأوضح لها عيوب العاجلة وكشفها ورغبها في لذة جنة وصفها فذكر لها منزلها وغرفها وأنهارها وطرفها وحذرها جهنم وأسفها وغيظها على العصاة ولهفها وأعلمها أن لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ولقد أنصفها فعذلتها وقرعتها وأوعدتها وأسمعتها فلم ترتدع عن هواها ولم تنزع عما آذاها ورأت مصارع القرناء وما كفاها ولم تأنف من ذنوبها وذل المعاصي قد علاها وكأن الخطاب الذي أتي ممن سواها إلى سواها فعلمت حينئذ أنها تحتاج إلى من يحاسبها وتفتقر إلى من يطالبها ولا تستغني عن موبخ يعاتبها ولا بد من رائض إن ونت يعاقبها فالعجب ممن عرف نفسه كيف أهملها والله لقد ضرها وقتلها أخبرنا محمد بن الملك أنبأنا أحمد بن الحسين ابن خيرون أنبأنا أحمد بن عبد الله المحاملي أنبأنا أبو بكر ابن عبدوية حدثنا الحسين بن داود البلخي حدثنا شقيق ابن إبراهيم حدثني أبو هاشم الأيلي عن أنس بن

مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ يا ابن آدم لا تزول قدماك يوم القيامة من بين يدي الله عز وجل حتى تسأل عن أربع عمرك فيما أفنيته وجسدك فيما أبليته ومالك من أين اكتسبته وأين أنفقته أخبرنا ابن أبي منصور أنبأنا علي بن محمد العلاف أنبأنا أبو الحسين الحمامي أنبأنا جعفر بن محمد الخواص حدثني إبراهيم بن نصر قال حدثني إبراهيم بن يسار قال حدثني يوسف بن أسباط قال كتب إلي محمد بن سمرة السائح يا أخي إياك وتأمير

*(162/240)*

---

التسويف على نفسك وإمكانه من قلبك فإنه محل الكلال وموئل التلف وبه تقطع الآمال وفيه تنقطع الآجال فإنك إن فعلت ذلك أدلته من عزمك فاجتمع وهواك عليك فغلبا واسترجعا من بدنك من السلامة ما قد ولى عليك فعند مراجعته إياك لا تنتفع نفسك من بدنك بنافعة وبادر يا أخي فإنه مبادر بك وأسرع فإنه مسرع بك وجد فإن الأمر جد وتيقظ من رقدتك وانتبه من غفلتك وتذكر ما أسلفت وقصرت وفرطت وجنيت فإنه مثبت محصى وكأنك بالأمر قد بغتك فاغتبطت بما قدمت وندمت على ما فرطت فعليك بالحياء والمراقبة والعزلة فإن السلامة في ذلك موجودة وفقنا الله وإياك لأرشد الأمور ولا قوة

بنا وبك إلا بالله (إن عمر الفتا مرارة دهر

راشفاها الغدو والآصال

(فتذكر كم قد صحبت عزيزا

ثم أمسى وأرضه صلصال

(غفل الناس والقريب بعيد

من ردى الموت واليقين محال

(كم لبيب يهدي سواه لرشد

وهو في عيش نفسه ليس يالو

(يطلب المرء أن ينال رضاه

ورضاه في غاية لا تنال

(كلما زاده الزمان ثراء

أحرمته لذة الآمال

إخواني الأيام سفر ومراحل وما يحس بسيرها الراحل حتى يبلغ البلد أو الساحل فليبادر المستدرك وما أظنه يدرك ما هذه الغفلة والفتور أما المآل إلى اللحود والقبور أما علمتم منتهى السرور أما الأجداث المنازل إلى النشور أيها الشاب ضيعت الشباب في جهلك أيها الكهل بعض فعلك يهلك أيها الشيخ آن الرحيل عن أهلك أيها المغتر بالأمل قد نقضت كف

الأجل مجدول حبلك أيها الغافل أما أنذرك من كان من قبلك ( مات الأب الأعلى وتابعه

أبناؤه ففنوا ونحن نسق

( في الترب من أبنائنا رمم

كانوا لنا سلفا ونحن لحق

*(163/240)*

---

لقد نطقت العبر فأين سامعها واستنارت طريق الهدى فأين تابعها وتجلت الحقائق فأين مطالعها أما المنية قد دنت واقتربت فما بال النفوس قد غفلت ولعبت أمن المفرط أن يؤخذ بكظمه ويجازى من تفريطه على أعظمه ويأتيه الموت فيذهله بعظمه ويفاجئه بغتة بشتات منتظمه يا من على ما يضره قد استمريا من أعلن المعاصي وأسريا مؤثرا ما شان وما ضر يا محبا ما قبل قتل غيره وغريا من إذا دعي إلى نفعه تولى وفر أما تعتبر بمن رحل من القرناء ومر أما تعلم أن من حالف الذنوب استضر أما تعلم أن الموت إذا أتى حمل وكر كأني بك إذا برق البصر تطلب المفر إلى متى تؤثر الفساد على السداد وتسرع في جواد الهوى أسرع من الجواد متى يتيقظ القلب ويصحو الفؤاد كيف بك إذا حشرت فخسرت يوم المعاد

يسرك أن تكون رفيق قوم

لهم زاد وأنت بغير زاد

أسمع قولا بلا عمل وأرى خللا خلالها الخلل إذا دعيت إلى الخير جاء الكسل وقلت لو شاء أن يوفقني فعل وإذا لاحت المعاصي كر البطل ويقول خلق الإنسان من عجل ويحك هذا الشيب قد نزل يخبرك بقرب الأجل خلت الديار وناح الطلل أيحتاج المهم إلى اعتدل يا قبيح الخصال إلى كم زلل ما لكبير في العذل لا ناقة ولا جمل ( عليك بما يفيدك في المعاد

وما تنجو به يوم التناد

( فمالك ليس ينفع فيك وعظ

ولا زجر كأنك من جماد

( ستندم إن رحلت بغير زاد

وتشقى إذ يناديك المنادي

( فلا تفرح بمال تقتنيه

فإنك فيه معكوس المراد

( وتب مما جنيت وأنت حي

وكن متنبها من ذا الرقاد

سجع

أيها الضال عن طريق الهدى أما تسمع صوت الحادي وقد حدا من لك إذا ظهر الجزاء وبدا وربما كان فيه أن تشقى أبدا (أيحسب الإنسان أن يترك سدى

(164/240)

---

يا من تكتب لحظاته وتجمع لفظاته وتعلم عزماته وتحسب عليه حركاته إن راح أو غدا ( أيحسب الإنسان أن يترك سدى ) ويحك إن الرقيب حاضر يرعى عليك اللسان والناظر وهو إلى جميع أفعالك ناظر إنما الدنيا مراحل إلى المقابر وسينقضي هذا المدى (أيحسب الإنسان أن يترك سدى ) مالي أراك في الذنوب تعجل وإذا زجرت عنها لا تقبل ويحك انتبه لقبح ما تفعل لأن الأيام في الآجال تعمل مثل عمل المدى (أيحسب الإنسان أن يترك سدى ) سترحل عن دنياك فقيرا لا تملك مما جمعت نقيرا بلى قد صرت بالذنوب عقيرا بعد أن رداك التلف رداء الردى (أيحسب الإنسان أن يترك سدى ) كأنك بالموت قد قطع وبت وبدد الشمل المجتمع وأشت وأثر فيك الندم حينئذ وفت انتبه لنفسك فقد أشمتّ والله العدا ( أيحسب الإنسان أن يترك سدى ) كأنك ببساط العمر قد انطوى وبعود الصحة قد ذوى وبسلك الإمهال قد قطع فهوى اسمع يا من قتله الهوى وما ودى (أيحسب الإنسان أن يترك سدى ) تالله ما تقال وما تعذر فإن كنت عاقلاً فانتبه واحذر كم وعظك أخذ غيرك وكم

أعذر ومن أنذر قبل مجيئه فما اعتدى ( أيحسب الإنسان أن يترك سدى ) فبادر نفسك واحذر قبل الفوت وأصخ للزواجر فقد رفعت الصوت وتنبه فطال ما قد سهوت واعلم قطعاً ويقيناً أن الموت لا يقبل الفدا ( أيحسب الإنسان أن يترك سدى ) انهض إلى التقوى بقريحة وابك الذنوب بعين قريحة وأزعج للجد أعضاءك المستريحة تالله لئن لم تقبل هذه النصيحة لتندمن غدا ( أيحسب الإنسان أن يترك سدى )

المجلس العشرون في قصة سليمان عليه السلام

*(165/240)*

---

الحمد لله المتعالى عن الأنداد المقدس عن الأضداد المنزه عن الأولاد الباقي على الآباد رافع السبع الشداد عالية بغير عماد مزينة بكل كوكب منير وقاد وواضع الأرض للمهاد مثبتة بالراسيات الأطواد خالق المائع والجماد ومبتدع المطلوب المراد المطلع على سر القلب وضمير الفؤاد مقدر ما كان وما يكون من الضلال والرشاد والصلاح والفساد والغي والإرشاد والوفاق والعناد والبغض والوداد في بحار لطفه تجري مراكب العباد وعلى عتبة بابه مناخ العبّاد وفي ميدان حبه تجول خيل الزهاد وعنده مبتغى الطالبين وآمال القصاد وبعينه ما يتحملون من ثقل الاجتهاد رأى حتى دبيب النمل السود في السواد وسمع صوت

المدنف المجهود غاية الإجهاد وعلم ما في سويداء السر وباطن الاعتقاد وجاد على الآملين فزادهم من الزاد وأعطى فلم يخف من العوز والنفاد وألف الأجساد وليس يشبه الأجساد وخلق من كل شيء زوجين وتوحد بالانفراد وعاد بالإتلاف على الموجودات ثم أعاد يباهي بهاجر الوساد إذا نام في السجود أو ماد ابتلى بالغفلة أهل اليقظة والاجتهاد لينكسروا بالزلل وانكسار العبد هو المراد بسط لسليمان بساط النيل فوقع الميل إلى الخيل عن بعض الأوراد ( إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد ) أحمده حمداً يفوت الأعداد وأشهد أنه الواحد لا كالآحاد وأصلي على رسوله المبعوث إلى جميع الخلق في كل البلاد وعلى صاحبه أبي بكر الذي بذل نفسه وماله وجاد وعلى الفاروق الذي بالغ في نصر الإسلام وأجاد وعلى عثمان الشهيد فيا فخره يوم يقوم الأشهاد وعلى علي الذي يفنى البحر وما لعلومه الزواخر نفاد وعلى عمه العباس أبي الخلفاء الأمجاد

*(166/240)*

---

قال الله تعالى ( ووهبنا لداود سليمان ) داود اسم أعجمي وسليمان اسم عبراني وكان لسليمان من الفطنة ما بان بها الصواب في حكمه دون حكم أبيه في قصة الحرث وغيره قال الله عز وجر ( ففهمناها سليمان ) فلما مات داود ملك سليمان وله من العمر ثلاث عشرة

سنة فزاده الله تعالى على ملك داود وسخر له الجن والإنس والطير وكان عسكره مائة فرسخ خمسة وعشرون للإنس وخمسة وعشرون للجن وخمسة وعشرون للوحش وخمسة وعشرون للطير وكان له ألف بيت من قوارير فيها ثلاثمائة امرأة وسبعمائة سرية ولا يتكلم أحد بشيء إلا جاءت به الريح إلى سمعه وكان إذا جلس على البساط جلس أشراف الإنس مما يليه وأشراف الجن وراءهم ثم يدعو الطير فتظلهم ثم يدعو الريح فتحملهم والطباخون في أعمالهم لا يتغير عليهم عمل فيسير في الغداة الواحدة مسيرة شهر وكان يطعم كل يوم مائة ألف فإن أقل أطعم ستين ألفاً وكان يذبح كل يوم مائة ألف شاة وثلاثين ألف بقرة ويطعم الناس النقي ويطعم أهله الخشكار ويأكل هو الشعير وروى سيار عن جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار قال خرج نبي الله سليمان والجن والإنس على يمينه ويساره فأمر الريح فحملتهم حتى سمعوا زجل الملائكة في السموات بالتقديس ثم أمرها فخفضتهم حتى مست أقدامهم البحر فسمعوا صوتاً من السماء يقول لو كان في قلب صاحبكم من الكبر مثقال ذرة لخسفت به أبعد مما رفعت قوله تعالى ( نعم العبد إنه أواب ) هذا نهاية في المدح ( أواب ) أي رجاع بالتوبة إلى الله مما يقع من سهو وغفلة ( إذ عرض عليه بالعشي ) وهو ما بعد الزوال ( الصافنات ) وهي الخيل وفيها قولان أحدهما القائمة على ثلاثة قوائم وقد أقامت الأخرى على طرف الحافر من يد أو رجل وهذا قول مجاهد وابن زيد واختاره الزجاج واحتج بقول الشاعر

ألف الصفون فما يزال كأنه

مما يقوم على الثلاث كسيراً

(167/240)

---

والثاني أنها القائمة سواء كانت على ثلاث أو غير ثلاث قال الفراء على هذا رأيت العرب وأشعارهم تدل على أنها القائم خاصة واحتج ابن قتيبة لهذا بقول النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ من سره أن يقوم له الرجال صفونا فليتبوأ مقعده من النار وأما الجياد فهي السراع في الجري وفي سبب عرضها عليه أربعة أقوال أحدها أنه عرضها لأنه أراد جهاد عدو قاله علي بن أبي طالب والثاني أنها أخرجت له من البحر قال الحسن خرجت من البحر وكانت لها أجنحة والثالث أنها كانت لأبيه فعرضت عليه قاله ابن السائب وفي عددها أربعة أقوال أحدها ثلاثة عشر ألفاً قاله وهب والثاني ألف فرس قاله ابن السائب والثالث عشرون ألفاً قاله سعيد بن جبير ومسروق والرابع عشرون قاله إبراهيم التيمي قال المفسرون لم تزل تعرض عليه إلى أن غابت الشمس ففاتته صلاة العصر ولم يذكروه لأنه كان مهيباً لا يبتدئه أحد بشيء فلما غابت ذكر فقال إني أحببت حب الخير يعني الخيل والمعنى آثرت ذلك على ذكر ربي قال الزجاج عن بمعنى على ( حتى توارت

يعني الشمس قال وأهل اللغة يقولون لم يجر للشمس ذكر ولا أحسبهم أعطوا في هذا الفكر حقه لأنه في الآية دليل على الشمس وهو قوله ( بالعشي ) والمعنى عرض عليه بعد زوال الشمس ولا يجوز الإضمار إلا أن يجري ذكر أو دليل ذكر قوله تعالى ( ردوها علي ) أي أعيدوا الخيل ( فطفق ) أي أقبل ( مسحاً بالسوق ) وهي جمع ساق وفي المراد بالمسح قولان أحدهما أنه ضربها بالسيف رواه أبي بن كعب عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ وقال ابن عباس مسح أعناقها

*(168/240)*

---

وسوقها بالسيف وهو اختيار الجمهور والثاني أنه كوى سوقها وأعناقها وحبسها في سبيل الله حكاه الثعلبي والعلماء على الأول فإن قيل كيف نختار القول الأول وهي عقوبة لمن لم يذنب على وجه التشفي وهذا بفعل الجبارين أشبه منه بفعل الأنبياء فالجواب أنه نبي معصوم فلم يكن ليفعل إلا ما قد أجيز له فعله وجائز أن يباح له ما يمنع منه في شرعنا على أنه إذا ذبحها كان قرباناً وأكل لحمها جائز فما وقع تفريط قال وهب لما فعل ذلك شكر الله تعالى له فعله فسخر له الريح مكانها قوله تعالى ( ولقد فتنا سليمان ) أي ابتليناه بسلب ملكه ( وألقينا على كرسيه ) أي على سريره ( جسداً ) وهو شيطان يقال له صخر ولم يكن ممن

سخر له ( ثم أناب ) أي رجع عن ذنبه وقيل إلى ملكه وفي سبب ابتلائه ثلاثة أقوال أحدها أنه كانت له امرأة وكانت بين بعض أهلها وبين قوم خصومة فقضى بينهم بالحق إلا أنه ود أن لو كان الحق لأهلها فعوقب إذ لم يكن هواه فيهم واحداً قاله ابن عباس والثاني أن هذه الزوجة كانت آثر النساء عنده فقالت له يوماً إن بين أخي وبين فلانة خصومة وإني أحب أن تقضي له فقال نعم ولم يفعل فابتلي لأجل ما قال نعم قاله السدي والثالث أن هذه الزوجة كانت قد سباها فأسلمت وكانت تبكي الليل والنهار وتقول أذكر أبي وما كنت فيه فلو أمرت الشياطين أن يصوروا صورته في داري أتسلى بها ففعل وكان إذا خرج تسجد له هي وولائدها فلما علم سليمان كسر تلك

*(169/240)*

---

الصورة وعاقب المرأة وولائدها واستغفر فسلط الشيطان عليه بذلك هذا قول وهب وفي كيفية ذهاب الخاتم قولان أحدهما أنه كان جالساً على شاطئ البحر فوقع منه قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه والثاني أن شيطاناً أخذه ثم في كيفية أخذه له أربعة أقوال أحدها أنه وضعه تحت فراشه ودخل الحمام فأخذه الشيطان فألقاه في البحر قاله سعيد بن المسيب والثاني أن سليمان قال للشيطان كيف تفتنون الناس قال أرني خاتمك أخبرك

فأعطاه إياه فنبذه في البحر قاله مجاهد والثالث أنه وضعه عند أوثق نسائه في نفسه فتمثل لها الشيطان في صورته فأخذه منها قاله سعيد بن جبير والرابع أنه سلمه إلى الشيطان فألقاه في البحر قاله قتادة وأما الشيطان فإنه ألقى عليه شبه سليمان فجلس على كرسيه وحكم في سلطانه إلا أنه كان لا يقدر على نسائه وكان يحكم بما لا يجوز فأنكره بنو إسرائيل فأحدقوا به ونشروا له التوراة فقرأوا فطار من بين أيديهم حتى ذهب إلى البحر وأما سليمان لما ذهب ملكه انطلق هارباً في الأرض فكان يستطعم فلا يطعم فيقول لو عرفتموني أطعمتموني فيطردونه حتى إذا أعطته امرأة حوتاً شقه فوجد الخاتم في بطن الحوت بعد أربعين ليلة في قول الحسن وقال سعيد بن جبير بعد خمسين ليلة فلما لبسه رد الله عليه ملكه وبهاءه وأظله الطير فأقبل لا يستقبله إنسي ولا جنى ولا طائر ولا حجر ولا شجر إلا سجد له حتى انتهى إلى منزله ثم أرسل إلى الشيطان فجيء به فجعله في صندوق من حديد وأقفل عليه وختم عليه بخاتمه ثم أمر

*(170/240)*

---

به فألقي في البحر فهو فيه إلى أن تقوم الساعة قوله تعالى ( لا ينبغي لأحد من بعدي ) إنما طلب هذا الملك ليعلم أنه قد غفر له ويعرف منزلته بإجابة دعائه ولم يكن حينئذ في ملكه

الريح ولا الشياطين ( والرخاء ) اللينة مأخوذة من الرخاوة و( أصاب ) بمعنى قصد فإن قيل قد وصفت في سورة الأنبياء بأنها عاصفة فالجواب أنها كانت تشتد إذا أراد وتلين إذا أراد وكانت الشياطين تغوص في البحر فتستخرج له الدر وتعمل له الصور والجفان القصع الكبار يجتمع على القصعة الواحدة ألف رجل يأكلون منها ويأكل من كل قدر ألف رجل وكانت لا تنزل من مكانها فتأملوا إخواني هذا السلطان العظيم كيف تزلزل بالزلل واختلت أموره إذ دخل عليه الخلل فخطؤه أوجب خروجه من المملكة ولقمة آدم كادت توقعه في المهلكة فعليكم بالتقوى فإنها سبيل السلامة فمن أخطأها أخطأته الكرامة

الكلام على البسملة

( عمر ينقضي وذنب يزيد

ورقيب يحصى على شهيد

( واقتراب من الحمام وتأميل

لطول البقاء عندي جديد

( أنا لاه وللمنية حتم

حيث يممت منهل مورود

( كل يوم يميت مني جزءاً

وحياتي تنفس معدود

(كم أخ قد رزئته فهو وإن أضحى

قريب المحل مني بعيد

(خلسته المنون مني فما لي

خلف منه في الورى موجود

(هل لنفسي بواعظات الجديدين

عن منزل سيبيد

(171/240)

---

ألا متيقظ لما بين يديه ألا متأهب للقادم عليه ألا عامر للقبر قبل الوصول إليه يا واقفاً مع هواه وأغراضه يا معرضاً عن ذكر عوارضه إلى أعراضه يا غافلاً عن حكم الموت وقد بت بمقراضه سيعرف خبره إذا اشتد أشد أمراضه وأورده حوضاً مريراً من أصعب حياضه ونزل به ما يمنعه من اغتماضه واستبدل بانبساط كفه كفه عن انقباضه وأخذت يد التلف بعد إحكامه في انتقاضه وأخرج عن خضر الربى وروضه وغياضه وألقي في لحد وعر يخلو برضراضه وعلم أنه باع عمره بأرداً أعواضه يا من الهوى كلامه وحديثه يا من في المعاصي قديمه وحديثه يا من عمره في المعاصي خفيفه وأثيثه من له إذا لم يجد في كربه من

يغيثه آه من قهر لا يرفق بطاشه ومن حريق لا يرحم عطاشه ومن نزول لحد لا يرفع خشاشه عمل المقبول فيه لحافه وفراشه آه من سحاب عقاب رذاذه يردى ورشاشه من يخلصه اليوم من هوى قد أشربه مشاشه كأنكم بالسماء قد انشقت وأذنت لربها وحقت وبأقدام الصالحين قد ترقت وبأيمانهم للصحائف قد تلقت صبر القوم على حصر الحبس فخرجوا إلى روح السعة قال أحمد بن أبي الحوارى قلت لزوجتي رابعة أصائمة أنت اليوم فقالت ومثلي من يفطر في الدنيا وكانت إذا طبخت قدراً قالت كلها يا سيدي فما نضجت إلا بالتسبيح والتقديس

وكانت تقول ما سمعت الأذان إلا ذكرت منادي القيامة ولا رأيت الثلج إلا تذكرت تطاير الصحف ولا رأيت جراداً إلا ذكرت الحشر وربما رأيت الجن يذهبون ويجيئون وربما رأيت الحور يستترن مني بأكمامهن قال ودعوتها مرة فلم تجبني فلما كان بعد ساعة أجابتني وقالت إن قلبي كان قد امتلأ فرحاً بالله فلم أقدر أن أجيبك قال وكانت لها أحوال شتى فمرة يغلب عليها الحب فتقول ( حبيب ليس يعدله حبيب

ولا لسواه في قلبي نصيب

( حبيب غاب عن بصري وسمعي

ولكن عن فؤادي ما يغيب

وتارة يغلب عليها الأنس فتقول ( ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي

وأبحت جسمي من أراد جلوسي

( فالجسم مني للجليس مؤانس

وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

(172/240)

---

وتارة يغلب عليها الخوف فتقول ( وزادى قليل ما أراه مبلغي

أللزاد أبكي أم لطول مسافتي

( أتحرقني بالنار يا غاية المنى

فأين رجائي فيك أين محبتي

ويح قلبك ما هذه القسوة أتغلبك وأنت رجل نسوة كانت أم هارون من العابدات تقول إني لأغتم بالنهار حتى يجيء الليل فإذا جاء الليل قمت فإذا جاء السحر دخل الروح قلبي وخرجت إلى بيت المقدس فعارضها سبع فقالت تعال إن كان لك رزق فكل فأقعى السبع ثم عاد وكانت ثويبة بنت بهلول تقول قرة عيني ما طابت الدنيا والآخرة إلا بك فلا تجمع على فقدك والعذاب

(173/240)

قال خشيش الموصلي جاءني كتاب من حمادة العابدة فإذا فيه أبلغ كل محزون بالشام عني السلام أخبرنا عمر بن ظفر أنبأنا جعفر بن أحمد أنبأنا عبد العزيز بن علي بن أنبأنا علي ابن عبد الله بن جهضم حدثنا محمد بن داود الدينوري عن أبي زكريا الشيرازي قال تهت في البادية بالعراق أياماً كثيرة ولم أجد شيئاً أرتفق به فلما كان بعد ثلاثة أيام رأيت في الفلاة خباء شعر مضروباً فقصدته فإذا فيه بيت وعليه ستر مسبل فسلمت فردت علي عجوز من داخل الخباء وقالت يا إنسان من أين أقبلت قلت من مكة قالت وأين تريد قلت الشام قالت أرى شبحك شبح إنسان بطال هلا لزمت زاوية تجلس فيها إلى أن يأتيك اليقين ثم تنظر هذه الكسرة من أين تأكلها ثم قالت تقرأ شيئاً من القرآن قلت نعم فقالت اقرأ علي آخر سورة الفرقان فقرأتها فشهقت وأغمي عليها فلما أفاقت قرأت هي الآيات فأخذت مني قراءتها أخذاً شديداً ثم قالت يا إنسان اقرأها ثانية فقرأتها فلحقها مثل ما لحقها في الأول فصبرت أكثر من ذلك فلم تفق فقلت كيف أستكشف حالها هل ماتت أم لا فتركت البيت على حاله ومشيت أقل من نصف ميل فأشرفت على واد فيه أعراب فأقبل إلي غلامان معهما جارية فقال أحد الغلامين يا إنسان أتيت البيت في الفلاة قلت نعم قال وتقرأ القرآن قلت نعم قال قتلت العجوز ورب الكعبة فمشيت مع الغلامين والجارية حتى أتينا البيت فدخلت الجارية فكشفت عن وجهها فإذا هي ميتة فأعجبني خاطر الغلام فقلت

للجارية من هذان الغلامان فقالت هذه أختهم منذ ثلاثين سنة لم تأنس بكلام الناس وإذا نزلنا بواد توارى بيتها بالفلاة لئلا تسمع كلام أحد وكانت تأكل في كل ثلاثة أيام أكلة وتشرب شربة ( ثورها الحادي على فرط الرجا

تأمل مع ضوء الصباح الفرجا

تقطع في البيد سبيلاً حرجاً

باسطة عقالها جنح الدجا

غيره ( حدث عليها في السرى حاديها

فلا تقل فشوقها يكفيها

غيره ( يا سائقها على وحاها مهلاً

ارتد لمسيرها طريقاً سهلاً

*(174/240)*

---

( وانشد قلبي إن جزت باب المعلى

ما بين قبور العاشقين القتلى

غيره ( يا ساكني بطن وجرة من نجد

هل عندكم لسائل ما يجدي

( مقتول هوى به رسيس الوجد

ما حال عن العهد لطول العهد

الكلام على قوله تعالى

( القارعة ما القارعة

القارعة القيامة سميت قارعة لأنها تقرع بالأهوال وقوله ( ما القارعة ) استفهام معناه التفخيم لشأنها كما تقول زيد ما زيد ( وما أدراك ما القارعة ) أي لأنك لم تعاينها ولم تر ما فيها لشدة الأهوال ( يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ) قال الفراء الفراش غوغاء الجراد وهو صغاره وقال ابن قتيبة ما تهافت في النار من البعوض شبه الناس بذلك لأنهم إذا بعثوا ماج بعضهم في بعض والمبثوث المنتشر المتفرق ( وتكون الجبال كالعهن ) أي كالصوف شبهها في ضعفها ولينها بالصوف

*(175/240)*

---

وقيل شبهها في خفتها وسيرها وقال ابن قتيبة العهن الصوف المصبوغ والمنفوش المندوف فإذا رأيت الجبل قلت هذا جبل فإذا مسسته لم تر شيئاً وذلك من شدة الهول يا من عمله

بالنفاق مغشوش تتزين للناس كما يزين المنقوش إنما ينظر إلى الباطن لا إلى النقوش إذا هممت بالمعاصي فاذكر يوم النعوش وكيف تحمل إلى قبر بالجندل مفروش من لك إذا جمع الإنس والجن والوحوش وقام العاصي من قبره حيران مدهوش وجيء بالجبار العظيم وهو مغلول مخشوش فحينئذ يتضاءل المتكبر وتذل الرءوس ويومئذ يبصر الأكمه ويسمع الأطروش وينصب الصراط فكم واقع وكم مخدوش ليس بجادة يقطعها قصل ولا مرعوش ولا تقبل في ذلك اليوم فدية ولا تؤخذ الأروش والمتعوس حينئذ ليس بمنعوش وينقلب أهل النار في الأقذار والريح كالحشوش لحافهم جمر وكذلك الفروش ( وتكون الجبال كالعهن المنفوش ) قوله تعالى ( فأما من ثقلت موازينه ) أي رجحت بالحسنات قال الفراء والمراد بموازينه وزنه والعرب تقول هل لك في درهم بميزان درهمك ووزن درهمك وأراد بالموازين الوزنات ( فهو في عيشة راضية ) أي مرضية ( وأما من خفت موازينه فأمه هاوية ) فيه قولان أحدهما أنه يهوي في النار على أم رأسه هاوية والمعنى أنه هاو في النار على رأسه قاله عكرمة والثاني معناه فمسكنه النار فالنار له كالأم لأنه يأوي إليها قاله ابن زيد والفراء وابن قتيبة أنبأنا محمد بن عبد الملك بن خيرون قال أنبأنا إسماعيل بن مسعدة قال أنبأنا

عمرو بن يوسف قال أنبأنا أبو أحمد بن عدي حدثنا أحمد بن عمير بن يوسف حدثنا إسماعيل بن إسرائيل قال حدثنا أسد بن موسى قال حدثنا سلام التميمي عن ثور ابن زيد عن خالد بن معدان عن أبي رهم عن أبي أيوب الأنصاري قال قال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ إن المؤمن إذا مات تلقته البشرى من الملائكة ومن عباد الله كما يتلقى البشرى في دار الدنيا فيقبلون عليه ويسألونه فيقول بعضهم لبعض روحوه ساعة فقد خرج من كرب عظيم ثم يقبلون عليه فيسألونه فيقولون ما فعل فلان ما فعل فلان هل تزوجت فلانة فإن سألوه عن إنسان قد مات قال هيهات مات ذاك قبلي فيقولون إنا لله وإنا إليه راجعون سلك به إلى أمه الهاوية فبئست الأم وبئست المربية قال وتعرض على الموتى أعمالكم فإن رأوا خيراً استبشروا وقالوا اللهم إن هذه نعمتك فأتمها على عبدك وإن رأوا سيئة قالوا اللهم راجع بعبدك فلا تحزنوا موتاكم بأعمال السوء فإن أعمالكم تعرض عليهم وقد روى هذا الحديث موقوفاً على أبي أيوب وقد روى من كلام عبيد بن عمير والموقوف أصح ألك عمل إذا وضع في الميزان زان عملك قشر لا لب واللب يثقل الكفة لا القشر

سجع

يا من أغصان إخلاصه ذاوية وصحيفته من الطاعات خاوية لكنها لكبار الذنوب حاوية يا من همته أن يملأ الحاوية كم بينك وبين البطون الطاوية كم بين طائفة الهدى

والغاوية اعلم أن أعضاءك في التراب ثاوية لعلها تتفرد بالجد في زاوية قبل أن تعجز عند الموت القوة المقاوية وترى عنق الميزان لقلة الخير لاوية ( وأما من خفت موازينه فأمه هاوية ) ذكر الحساب أطار عن أعين المتقين النعاس ولتثقيل الميزان فرغت أكياس الكياس قالت مولاة أبي أمامة كان أبو أمامة لا يرد سائلاً ولو بتمرة فأتاه سائل ذات يوم وليس عنده إلا ثلاثة دنانير فأعطاه ديناراً ثم أتاه سائل فأعطاه ديناراً ثم أتاه سائل فأعطاه ديناراً قالت فغضبت وقلت لم تترك لنا شيئاً فوضع رأسه للقائلة فلما نودي للظهر أيقظته فتوضأ ثم راح إلى المسجد قالت فرققت عليه وكان صائماً فاقترضت ما جعلت له عشاء وأسرجت له سراجا وجئت إلى فراشه لأمهده له فإذا صرة ذهب فعددتها فإذا هي ثلاثمائة دينار فقلت رحمك الله ما صنع الذي صنع إلا وقد وثق بما عنده فأقبل بعد العشاء فلما رأى المائدة والسراج تبسم وقال هذا خير من غيره فقمت على رأسه حتى تعشى فقلت رحمك الله خلفت هذه النفقة في سبيل الله مضيعة ولم تخبرني فأدفعها قال وأي نفقة ما خلفت شيئا قالت فرفعت الفراش فلما رآه فرح واشتد تعجبه قالت فقمت فقطت زناري وأسلمت على يده وكانت تعلم النساء القرآن والفرائض والسنن انظروا ثمرة المعاملات هذا نقد فكيف الوعد أخبرنا ابن ناصر وعبد الله بن علي قالا أنبأنا طراد قالا أنبأنا أبو الحسين ابن بشران أنبأنا ابن صفوان حدثنا أبو بكر عن محمد بن الحسين قال حدثني أحمد ابن

سهيل قال حدثني خالد بن الغور قال كان حيوة بن شريح من البكائين وكان ضيق الحال جداً فجلست إليه يوماً وهو وحده فقلت له لو دعوت الله يوسع عليك

(178/240)

---

فالتفت يميناً وشمالاً فلم ير أحداً فأخذ حصاة من الأرض فقال اللهم اجعلها ذهبا فإذا هي والله تبرة في كفه ما رأيت أحسن منها فرمى بها إلي فقلت ما أصنع بها قال استنفقها فهبته والله أن أرده أخبرنا ابن ناصر أنبأنا الحسين بن أحمد أنبأنا هلال بن محمد أنبأنا جعفر الخلدي حدثنا ابن مسروق حدثنا محمد بن الحسين عن محمد بن عبد العزيز بن سليمان قال سمعت دهثماً وكان من العابدين يقول اليوم الذي لا آتي فيه عبد العزيز كنت مغبوناً فأبطأت عليه يوما أتيته فقال ما الذي أبطأ بك قلت خير قال على أي حال قلت شغلنا العيال كنت ألتمس لهم شيئاً قال فوجدته قلت لا قال فهلم فلندع فدعا وأمّنت ودعوت وأمّن ثم نهضنا لنقوم فإذا والله الدراهم والدنانير تتناثر في حجورنا فقال دونكها ومضى ما خسر معنا معامل ولا قاطعنا مواصل قوله تعالى ( وما أدراك ما هيه ) يعني الهاوية ( نار حامية ) أي حارة قد انتهى حرها كان عطاء السلمي إذا عوتب في كثرة بكائه يقول إني إذا ذكرت أهل النار مثلت نفسي بينهم فكيف بنفس تغل وتسحب أن لا تبكي رحم الله

أعظماً نصبت في الطاعة وانتصبت جن عليها الليل فلما تمكن وثبت كلما ذكرت جهنم رهبت وهربت وكلما تصورت ذنوبها ناحت عليها وندبت كان ابن مسعود يبكي حتى أخذ بكفيه من دموعه فرمى بها وكان عبد الله بن عمر

يبكي حتى نشفت دموعه وقلصت عيناه وبكى هشام الدستوائي حتى فسدت عينه وكانت مفتوحة لا يبصر لها وكان الفضيل قد ألف البكاء فربما بكى في نومه فيسمعه أهل الدار ( بكى الباكون للرحمن ليلا

وباتوا دمعهم لا يسأمونا

( بقاع الأرض من شوق إليهم

تحن متى عليها يسجدونا

إذا لانت القلوب للخوف ورقت رفعت دموعها إلى العين ورقت فأعتقت رقاباً للخطايا ورقت يا قاسي القلب ابك على قسوتك يا ذاهل الفهم بالهوى نح على غفلتك يا دائم المعاصي خف غب معصيتك أما علمت أن النار أعدت لعقوبتك ( ومجلسنا مأتم للذنوب فابكوا فقد حان منا البكا

( ويوم القيامة ميعادنا

لكشف الستور وهتك الغطا

جاءت امرأة في ليلة مطيرة إلى راهب وقصدت أن تفتنه فقالت هذا المطر ولا مأوى لي فآوني ففتح لها الباب فدخلت واضطجعت وجعلت تريه محاسنها فدعته نفسه إليها فقال لنفسه لا حتى أنظر صبرك على النار فأتى المصباح فوضع إصبعه فيه حتى احترقت ثم عاد إلى صلاته فعاودته نفسه فأتى المصباح فوضع إصبعه فيه فاحترقت ثم أتى صلاته فعاودته نفسه فلم يزل كذلك حتى احترقت الأصابع الخمس فلما رأت المرأة فعله بنفسه ذلك صعقت فماتت وكان الأحنف بن قيس يقدم إصبعه إلى المصباح فإذا وجد حرارة النار قال لنفسه ما حملك علي ما صنعت يوم كذا قال بعض السلف دخلت على عابد وقد أوقد ناراً بين يديه وهو يعاتب نفسه وينظر إلى النار فلم يزل كذلك حتى خر ميتاً دخل ابن وهب إلى الحمام فسمع قارئاً يقرأ ( وإذ يتحاجون في النار ) فسقط مغشياً عليه فحمل

سجع

يا من أركان إخلاصه واهية أما لك من عقلك ناهية إلى متى نفسك ساهية معجبة بالدنيا زاهية مفاخرة للإخوان مضاهية النار بين يديك وتكفي داهية ( وما أدراك ما هي نار حامية ) تقوم من قبرك ضعيف الجأش وقد جأر قلبك في بدنك وجاش ووابل الدمع يسبق الرشاش أتدري ما يلاقي العطاش الظامئة ( نار حامية ) أين من عتى وتجبر أين من علا وتكبر أين من للدول بالظلم دبر ماذا أعد للحضرة السامية نار حامية لو رأيت العاصي وقد شقي يصيح في الموقف واقلقي اشتد عطشه وما سقي وشرر النار إليه يرتقي فمن يتقي تلك الرامية ( نار حامية ) لو رأيته يقاسي حرها ويعاني ضرها جحيمها وقرها والله لا يدفع اليوم شرها إلا عين هامية ( نار حامية ) يفر الولد من أبيه والأخ من أخيه وكل قريب من ذويه أسمعت يا من معاصيه ناميه ( نار حامية ) لهذا كان المتقون يقلقون ويخافون ربهم ويشفقون وكم جرت من عيون القوم عيون كانت جفونهم دائمة دامية من خوفهم من نار حامية أجارنا الله بكرمه منها ووفقنا لما ينجي عنها وجعلنا بفضله ممن قام بما يؤمر واجتنب ما عنه ينهى فكم له من نعم سامية ( نار حامية )

*(181/240)*

المجلس الثالث والعشرون في قصة يونس عليه السلام

الحمد لله الواحد الماجد العظيم الدائم العالم القائم القديم القدير البصير النصير الحليم القوي العلي الغني الحكيم قضى فأسقم الصحيح وعافى السقيم وقدر فأعان الضعيف وأوهى القويم وقسم عباده قسمين طائع وأثيم وجعل مآلهم إلى دارين دار النعيم ودار الجحيم فمنهم من عصمه من الخطايا كأنه في حريم ومنهم من قضى له أن يبقى على الذنوب ويقيم ومنهم من يتردد بين الأمرين والعمل بالخواتيم خرج موسى راعياً وهو الكليم وذهب ذو النون مغاضباً فالتقمه الحوت وهو مليم وكان محمد ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ يتيماً فكان الكون لذلك اليتيم وعصى آدم وإبليس فهذا مرحوم وهذا رجيم فإذا سمعت بنيل الممالك أو رأيت وقوع المهالك فقل ( ذلك تقدير العزيز العليم ) أنعم علينا بالفضل الوافر العميم وهدانا بمنه إلى الصراط المستقيم وحذرنا بلطفه من العذاب الأليم ومن علينا بالكتاب العزيز القديم فهو مستحق الحمد ومستوجب التعظيم أحمده وكيف لا يحمد وأشهد أنه لم يلد ولم يولد وأن محمداً عبده الأمجد ورسوله الأوحد أخذ له الميثاق على أقرب الأنبياء والأبعد وأقام عيسى يقول ( ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ) وتوسل به آدم وقد أسجد له من أسجد من ملك كريم ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ ما سلك الطريق القويم وعلى صاحبه أبي بكر الصديق السابق إلى الإيمان والتصديق المحب الشفيق والرفيق الرقيق حين يسافر وحين يقيم وعلى عمر الذي عمر من الدين ما عمر ودفع الكفر فدبر

بأحسن تدبير وأكمل تقويم وعلى عثمان الشريف قدره الكثيف ستره الذي احتسب عند الله صبره على ما ضيم وعلى علي مدار العلماء وقطبهم ومقدم الشجعان في حربهم والمؤمنون

*(182/240)*

---

من كربهم في مقعد مقيم وعلى العباس عمه وصنو أبيه أقرب الخلق إليه نسباً يليه قال الله تعالى ( وإن يونس لمن المرسلين ) يونس اسم أعجمي وفيه ست لغات ضم النون وفتحها وكسرها والهمز مع اللغات الثلاث وكان يونس من ولد يعقوب وكان عابداً من عباد بني إسرائيل فرأى ما هم فيه من الكفر فخاف أن تنزل بهم عقوبة فخرج هارباً بنفسه وذريته وكانوا بنينوى قرية من أرض الموصل فبعثه الله رسولاً إليهم فدعاهم إلى الله تعالى وأمرهم بترك عبادة الأوثان وكان رجلاً فيه حدة فلما لم يقبلوا أخبرهم أن العذاب مصبحهم بعد ثلاث فأقبل العذاب قال ابن عباس رضي الله عنهما لم يبق بين العذاب وبينهم إلا قدر ثلثي ميل ووجدوا حره على أكتافهم وقال سعيد بن جبير غشيهم العذاب كما يغشى الثوب الضفر وقال غيره غامت السماء غيماً أسود يظهر دخاناً شديداً فغشي مدينتهم فاسودت أسطحتهم فلما أيقنوا بالهلاك لبسوا المسوح وحثوا على رءوسهم الرماد وفرقوا بين كل

والدة وولدها من الناس والأنعام وعجوا إلى الله تعالى بالتوبة الصادقة وقالوا آمنا بما جاء به يونس فكشف عنهم العذاب فقيل ليونس ارجع إليهم فقال كيف أرجع إليهم فيجدون كاذباً وكان من يكذب فيهم يقتل فركب السفينة مغاضباً فإن قيل فلمن غاضب فالجواب أنه غاضب قومه قبل التوبة واشتهى أن ينزل بهم العذاب لما عانى من تكذيبهم فعوتب على كراهية العفو عنهم فلما ركب السفينة وقفت فقال ما لسفينتكم قالوا لا ندري قال لكني أدري فيها عبد أبق من ربه وإنها والله لا تسير حتى تلقوه قالوا أما أنت والله يا نبي الله لا نلقيك قال فاقترعوا فقرع يونس وهو معنى قوله تعالى ( فساهم ) فألقى نفسه في الماء ( فالتقمه الحوت

*(183/240)*

---

وهو مليم ) أي مذنب ( فلولا أنه كان من المسبحين ) أي من المصلين قبل التقام الحوت وقيل بل في بطن الحوت وفي قدر مكثه في بطن الحوت خمسة أقوال أحدها أربعون يوماً قاله أنس وكعب وابن جريج والثاني سبعة أيام قاله سعيد بن جبير والثالث ثلاثة أيام قاله مجاهد وقتادة والرابع عشرون يوماً قاله الضحاك والخامس بعض يوم قال الشعبي ما مكث إلا أقل من يوم التقمه الحوت ضحى فلما كان بعد العصر وقاربت الشمس الغروب تثاءب الحوت

فرأى يونس ضوء الشمس فقال ( لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ) ( فنبذناه بالعراء ) وهي الأرض التي لا يتوارى فيها بشجر ولا غبرة ( وهو سقيم ) أي مريض قال ابن مسعود كهيئة الفرخ الممعوط الذي ليس له ريش ( وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ) وهي الدباء وإنما أنبتت عليه دون غيرها ليغطيه ورقها ويمنع الذباب عنه فإنه لا يسقط على ورقه ذبابة وقيض الله تعالى أروية من الوحش تروح عليه بكرة وعشية فيشرب من لبنها وقال وهب بن منبه أنبت الله عليه الدباء فأظلته ورأى خضرتها فأعجبته ثم نام فاستيقظ وقد يبست فحزن عليها فقيل له أنت لم تخلق ولم تسق ولم تنبت تحزن عليها وأنا الذي خلقت مائة ألف من الناس أو يزيدون ثم رحمتهم فشق عليك قوله تعالى ( وأرسلناه إلى مائة ألف ) المعنى ( وكنا أرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ) المعنى بل يزيدون قاله ابن عباس والثاني أنها بمعنى الواو تقديره ويزيدون قاله ابن قتيبة وفي زيادتهم أربعة أقوال أحدها عشرون ألفاً رواه أبي ابن كعب عن رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ والثاني ثلاثون ألفاً والثالث بضعة

*(184/240)*

وثلاثون ألفاً والقولان عن ابن عباس والرابع سبعون ألفاً قاله سعيد بن جبير فإن قيل كيف قبلت توبتهم ولم يقبل إيمان فرعون فالجواب من ثلاثة أوجه أحدها أن ذلك كان خاصاً لهم كما في الآية والثاني أن فرعون باشره العذاب وهؤلاء لم يباشرهم ذكره الزجاج والثالث أن الله تعالى علم منهم صدق النيات بخلاف غيرهم ذكره ابن الأنباري فانظروا إخواني إلى التوبة النصوح الصادقة كيف أثرت وقاومت العذاب فدفعت ونفعت فليلجأ العاصي إلى حرم الإنابة وليطرق بالأسحار باب الإجابة فما صدق صادق فرد ولا أتى الباب مخلص فصد وكيف يرد من قد استدعي فقيل لهم ( توبوا ) إنما الشأن في صدق التوبة وليست التوبة نطق اللسان إنما هي ندم القلب وعزمه أن لا يعود ومن شرط صحتها أن تكون قبل معاينة أمور الآخرة فمن باشره العذاب أو عاينه فقد فات موسم القبول فاستدركوا قبل المفاجأة بالفوات الذي لا يؤمن نسأل الله يقظة تحركنا إلى البدار قبل أن يقع الفوت والخسار

الكلام على البسملة

( يأتي على الناس إصباح وإمساء

وكلنا لصروف الدهر نساء

( يثوى الملوك ومصر في تغيرهم

مصر على العهد والأحساء أحساء

( خسست يا دار دنيانا فأف لمن

يرضى الخسيسة أو ناس أخساء

( لقد نطقت بأصناف العظات لنا

وأنت فيما يظن الناس خرساء

( إذا تعطفت يوماً كنت قاسية

وإن نظرت بعين فهي شوساء

( أين الملوك وأبناء الملوك ومن

كانت لهم عزة في الملك قعساء

( نالوا يسيراً من اللذات وارتحلوا

برغمهم فإذا النعماء بأساء

الدنيا دار كدر بذلك جرى القدر فإن صفا عيش لحظة ندر ثم عاد التخليط فبدر الورود فيها كالصدر ودم قتيلها هدر بلاؤها متتابع متواصل وسيفها إذا ضربت سيف فاصل وحرصها على الحقيقة مفاصل وخيرها مظنون وشرها حاصل ( نوائب إن حلت تخلت سريعة

وإما تولت في الزمان توالت

( ودنياك إن قلت أقلت وإن قلت

فمن قلة في الدين نجت وعلت

(غلت وأغالت ثم غالت وأوحشت

وحشت وحاشت واستمالت وملت

(185/240)

---

(وصلت بنيران وصلت سيوفها

وسلت حساماً من أذاة وسلت

(أزالت وزلت بالفتى عن مقامه

وحلت فلما أحكم العقد حلت

أين أرباب البيض والسمر والمراكب الصفر والحمر والقباب والقب الضمر ما زالوا يفعلون

أفعال الغمر إلى أن تقضى جميع العمر لو رأيت مرتفعهم بعد النصب قد جر إلى بيت لا يدرى

فيه الحر والقر وعليه ثوب لا خيط ولا زر المحنة أنه ما انتقل بما يسر تالله لقد حال حلوهم

إلى المر وصار ما كان ينفع يضر باعوا بمخشاب الهوى ثمين الدر ولا يمكن أن يقال البائع غر

لأنه باع وهو يدري أنه حر (المشيدات التي رفعت

أربع من أهلها درس

(أقام للأيام في أذني

واعظ من شأنه الخرس

(مهجتي ضد تحاربني

أنا مني كيف أحترس

(إنما دنياك غانية

لم يهنأ زوجها العرش

(فالقها بالزهد مدرعاً

في يديك السيف والترس

(ليس يبقى فرع نائبة

أصلها في الموت مفترس

*(186/240)*

---

إخواني حاسبوا أنفسكم قبل الحساب وأعدوا للسؤال صحيح الجواب واحفظوا بالتقوى هذه الأيام واغسلوا عن الأجرام هذه الأجرام قبل ندم النفوس في حين سياقها قبل طمس شمس الحياة بعد إشراقها قبل ذوق كأس مرة في مذاقها قبل أن تدور السلامة في أفلاك محاقها قبل أن تجذب النفوس إلى القبور بأطواقها وتفترش في اللحود أخلاق أخلاقها

وتنفصل المفاصل بعد حسن اتساقها وتشتد شدائد الحسرة حاسرة عن ساقها وتظهر مخبآت الدموع بسرعة اندفاقها وتتقلب القلوب في ضنك ضيق خناقها ويطول جوع من كان في الدنيا فاكهاً وتبكي النفوس في أسرها على زمان إطلاقها إخواني الأيام مطايا بيدها أزمة ركبانها تنزل بهم حيث شاءت فبينا هم على غواربها ألقتهم فوطئتهم بمناسمها قال الحسن يعرض على العبد يوم القيامة ساعات عمره فكل ساعة لم يحدث فيها خيرا تتقطع نفسه عليها حسرات وكان يونس بن عبيد جالساً مع أصحابه يحدثهم فنظر في وجوههم وقال لقد ذهب من أجلي وأجلكم ساعة وكتب الأوزاعي إلى أخ له أما بعد فقد أحيط بك من كل جانب واعلم أنه يسار بك في كل يوم وليلة مرحلة فاحذر الله تعالى والمقام بين يديه وأن يكون آخر عهدك به والسلام

خل الذنوب صغيرها

وكبيرها فهو التقى

(كن مثل ماش فوق أرض

الشوك يحذر ما يرى

(لا تحقرن صغيرة

إن الجبال من الحصى

قال أعرابي لا تأمن من جعل في ثلاثة دراهم قطع خير عضو منك أن يكون عقابه غداً

هكذا قال رجل لبعض الحكماء أوصني فقال إياك أن تسيء إلى من تحب قال وهل يسيء أحد من يحب قال نعم تعصي فتعذب فتكون مسيئاً إلى نفسك (أعطيت سيفاً لك بعض العدا

وليس في كفك غير القراب

(فاهرب من الغي وأشياعه

وحن للنسك حنين الضراب

(تزجر هذي النفس عن طبعها

والأسد لا تترك قصد الرواب

الكلام على قوله تعالى

(أفرأيت إن متعناهم سنين

*(187/240)*

---

اعلم أن الآدمي ابن وقته لأن ما مضى لا لذة له لا تغترر بمد المهل ولا تنس قرب الأجل فالأيام راحل وستصل الرواحل تأهب لحوض سترده يا خاسراً رأس المال وما يفتقده يا طالباً طول البقاء وما يجده (دهر يشيع سبته أحده

متتابع ما ينقضي أمده

(يوم يبكينا وآونة

يوم يبكينا عليه غده

(نبكي على زمن ومن زمن

فبكاؤنا موصولة مدده

(ونرى مكارهنا مخلدة

والعمر يذهب فائتاً عدده

(لا خير في عيش تخوننا

أوقاته وتغولنا مدده

(من أقرض الأيام أتلفها

وقضى جميع قروضها جسده

(حتى يغيب في مطمطمة

لا أهله فيها ولا ولده

تدبروا أموكم تدبر ناظر أين السلطان الكبير القاهر كم جمع في مملكته من عساكر وكم بنى من حصون ودساكر وكم تمتع بحلل وأساور وكم علا على المنابر ثم آخر الأمر إلى المقابر العاقل من ينظر فيما سيأتي ويقهر بعزمه شر الهوى العاتي وإذا قالت النفس حظي قال

حظي نجاتي ( عجبت لما تتوق النفس جهلاً

إليه وقد تصرم لانبتات

( وعصياني العذول وقد دعاني

إلى رشدي وما فيه نجاتي

( أؤمل أن أعيش وكل يوم

بسمعي رنة من معولات

( وأيدي الحافرين تكل مما

تسوي من مساكن موحشات

( نراع إذا الجنائز قابلتنا

ونسكن حين تخفى ذاهبات

( كروعة قلة لظهور ذيب

فلما غاب عادت راتعات

( فإن أملت أن تبقى فسائل

بما أفنى القرون الخاليات

( فكم من ذي مصانع قد بناها

وشيدها قليل الخوف عاتي

( قليل الهم ذو بال رخي

أصم عن النصائح والعظات

( فبات وما تروع من زوال

صحيحاً ثم أصبح ذا شكات

( فباكره الطبيب فريع لما

رآه لا يجيز إلى الدعاة

( فلو أن المفرط وهو حي

توخى الباقيات الصالحات

( لفاز بغبطة وأصاب حظا

ولم يغش الأمور الموبقات

( فيا لك عندها عظة لحي

ويا لك من قلوب قاسيات

( وكل أخي ثراء سوف يمسي

عديماً والجميع إلى شتات

( كأن لم يلف شيئاً ما تقضى

وليس بفائت ما سوف يأتي

كأنك بك وقد مل الناعت وحل بمحلك المستلب الباغت وردك من مقام ناطق إلى حال صامت وبقيت متحيراً كالأسير الباهت وإنما هي نفس تخرج ونفس هافت وقد مضى فمن يرد الفائت وصرت في حالة يرثى لها الشامت يا عجباً كيف يفرح هالك فائت عباد الله النظر النظر إلى العواقب فإن اللبيب لها يراقب أين تعب من صام الهواجر وأين لذة العاصي الفاجر رحلت اللذة من الأفواه إلى الصحائف وذهب نصب الصالحين بجزع الخائف فكأن لم يتعب من صابر اللذات وكأن لم يلتذ من نال الشهوات أخبرنا هبة الله بن محمد أنبأنا أبو الحسين بن علي أنبأنا أبو بكر بن مالك حدثنا عبد الله بن أحمد حدثني أبي حدثنا يزيد حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس قال قال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار فيصبغ في النار صبغة ثم يقال له يا بن آدم هل رأيت خيراً قط هل مر بك نعيم قط فيقول لا والله يا رب ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ في الجنة صبغة ثم يقال له يا بن آدم هل رأيت بؤساً قط هل مر بك شدة قط فيقول لا والله يا رب ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط انفرد بإخراجه مسلم وقيل حبس بعض السلاطين رجلاً زماناً طويلاً ثم أخرجه فقال له كيف وجدت

محبسك قال ما مضى من نعيمك يوم إلا ومضى من بؤسي يوم حتى يجمعنا يوم وروينا أن

داود عليه السلام رأى راهباً في قلة جبل فصاح به يا راهب من أنيسك فقال اصعد تره

فصعد داود فإذا ميت مسجى قال من هذا قال قصته مكتوبة عند رأسه فدنا داود عليه

السلام فإذا عند رأسه لوح عليه مكتوب فقرأه فإذا فيه أنا فلان ابن فلان ملك الأملاك

عشت ألف عام وبنيت ألف مدينة وهزمت ألف عسكر وأحصنت ألف امرأة

وافتضضت ألف عذراء فبينما أنا في ملكي أتاني ملك الموت فأخرجني مما أنا فيه أنذا

التراب فراشي والدود جيراني قال فخر داود مغشياً عليه (حصلوا بأنواع من الأحداث

من كل ما عمروا على الأجداث

(فإذا الذي جمعوه طول حياتهم

*(189/240)*

---

نهب العدى وقسيمة الوراث

(حالت منازلهم على طول المدى

ووجوههم في الأرض بعد ثلاث

(يا من يسر ببيته وأثاثه

لك في الثرى بيت بغير أثاث

أخبرنا أبو القاسم الحريري أنبأنا أبو بكر الخياط حدثنا أبو عبيد الله بن روسب حدثنا ابن صفوان حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا الحسن بن جمهور حدثنا الهيثم بن عدي عن عبد الله بن عباس وابن حصين بن عبد الرحمن وغيره عن عمرو بن ميمون عن جرير بن عبد الله قال افتتحنا بفارس مدينة فدللنا على مغارة ذكر لنا أن فيها أموالاً فدخلناها ومعنا من يقرأ بالفارسية فأصبنا في تلك المغارة من السلاح والأموال شيئاً كثيراً ثم صرنا إلى بيت يشبه الأزج عليه صخرة عظيمة فقلبناها وإذا في الأزج سرير من ذهب عليه رجل وعليه حلل قد تمزقت وعند رأسه لوح فيه مكتوب فقرئ لنا فإذا فيه أيها العبد المملوك لا تتجبر على خالقك ولا تعد قدرك التي جعل الله لك واعلم أن الموت غايتك وإن طال عمرك وأن الحساب أمامك وأنك

*(190/240)*

---

إلى مدة معلومة تترك ثم تؤخذ بغتة أحب ما كانت الدنيا إليك فقدم لنفسك خيراً تجده محضراً وتزود لنفسك من متاع الغرور ليوم فاقتك أيها العبد الضعيف اعتبر بي فإن في معتبراً أنا بهرام بن بهرام ملك فارس كنت من أعلاهم بطشاً وأقساهم قلباً وأطولهم أملاً

وأرغبهم في اللذة وأحرصهم على جمع الدنيا قد جبيت البلاد النائية وقتلت الملوك الساطية وهزمت الجيوش العظام وعشت خمسمائة عام وجمعت من الدنيا ما لم يجمعه أحد قبلي فلم أستطع أن أفتدي نفسي من الموت إذ نزل بي وقال محمد بن سيرين أخذت معاوية قرة أي من البرد فاتخذ أغشية خفافا فكانت تلقى عليه فلا يلبث أن ينادى ادفعوها فإذا أخذت عنه سأل أن ترد عليه فقال قبحك الله من دار مكثت فيك عشرين سنة أميراً وعشرين سنة خليفة ثم صرت إلى ما أرى وكان عبد الملك بن مروان يقول عند موته والله وددت أني عبد لرجل من تهامة أرعى غنيمات في جبالها ولم أكن ألي من هذا الأمر شيئاً (

كل حي لاقى الحمام فمودي

ما لحي مؤمل من خلود

(لا تهاب المنون شيئاً ولا تبقى على والد ولا مولود

(يقدح الدهر في شماريخ رضوى

ويحط الصخور من هبود

(ولقد تترك الحوادث والأيام

وهياً في الصخرة الصيخود

(وأرانا كالزرع يحصده الدهر

فمن بين قائم وحصيد

( وكأنا للموت ركب مخبون

سراعاً لمنهل مورود

( أيها الجاهل الذي أمن الدهر

وفي الدهر عاقرات الخدود

أين عاد وتبع وأبو ساسان

كسرى وأين صحب ثمود

( أين رب الحصن الحصين بسوراء

بناه وشاده بالشيد

( شد أركانه وصاغ له العقيان

باباً وحفه بالجنود

( كان يجبى إليه ما بين صنعاء

ومصر إلى قرى بيرود

( وترى حوله زرافات خيل

حافلات تعدو بمثل الأسود

( فرمى شخصه فأقصده الدهر

بسهم من المنايا شديد

( ثم لم ينجه من الموت حصن

دونه خندق وباب حديد

( وملوك من قبله عمروا الدنيا أعينوا بالنصر والتأييد

( بينما ذاك مرت الطير تجري

لهم بالنحوس لا بالسعود

( وصروف الأيام أسهلن بالحين

*(191/240)*

---

إليه من المحط الكؤود

( ما وقاهم ما حاولوا لوعة الدهر

وما أكدوا من التأكيد

( وكذاك العصران لا يلبثان المرء

أن يأتياه بالموعود

( وبعيد ما ليس يأتي وما يدنيه

منك العصران غير بعيد

سجع على قوله تعالى

( ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون

أين الذين كانوا في اللذات يتقلبون ويتجبرون على الخلق ولا يغلبون مزجت لهم كؤوس المنايا فباتوا يتجرعون ( ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ) مدوا أيديهم إلى الحرام وأكثروا من الزلل والآثام وكم وعظوا بمنثور ومنظوم

من الكلام لو أنهم يسمعون ( ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ) حمل كل منهم في كفن إلى بيت البلى والعفن وما صحبهم غيره من الوطن من كل ما كانوا يجمعون ( ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ) ضمهم والله التراب وسد عليهم في ثراهم الباب وتقطعت بهم الأسباب

والأحباب يرجعون ( ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ) أين أموالهم والذخائر أين أصحابهم والعشائر دارت على القوم الدوائر ففيم أنتم تطمعون ( ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون )

شغلوا عن الأهل والأولاد وافتقروا إلى يسير من الزاد وباتوا من الندم على أخس مهاد وإنما هذا من حصاد ما كانوا يزرعون ( ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ) أين الجنود والخدم أين الحرم والحرم أين النعم والنعم بعد ما كانوا يربعون فيما يرتعون ( ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ) لو رأيتهم في حلل الندامة إذا برزوا يوم القيامة وعليهم للعقاب علامة يساقون بالذل لا بالكرامة إلى النار فهم يوزعون ( ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ) يا معشر العاصين قد بقي

القليل والأيام تنادي قد دنا الرحيل وقد صاح بكم إلى الهدى الدليل إن كنتم تسمعون ( ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون )

*(192/240)*

---

المجلس الرابع والعشرون في قصة زكريا ويحيى عليهما السلام

الحمد لله الذي لم يزل عظيماً علياً يخذل عدوا وينصر ولياً أنشأ الآدمي خلقا سوياً ثم قسمهم قسمين رشيداً وغوياً رفع السماء سقفاً مبنياً وسطح المهاد بساطاً مدحياً ورزق الخلائق بحرياً وبرياً كم أجرى لعباده سرياً أخرج منه لحماً طرياً كم أعطى ضعيفاً ما لم يعط قوياً فبلغه على الضعف ضعف المراد ووهب له على الكبر الأولاد ( كهيعص ذكر رحمة ربك عبده زكريا ) أحمده إذ فضل وأعطى شبعا وريا وأصلي على رسوله محمد أفضل من امتطى تبريا وعلى أبي بكر الذي أنفق وما قلل حتى تخلل ويكفي زياً وعلى عمر الذي كان مقدماً في الجد جرياً وعلى عثمان الذي لم يزل عفيفاً حيياً وعلى علي أشجع من حمل خطيا وعلى عمه العباس المستسقى بشيبته فانتقعت الأرض ريا قال الله تعالى ( كهيعص ) للعلماء في تفسيرها قولان أحدهما أنه من المتشابه الذي انفرد الله تعالى بعلمه والثاني أنها حروف من أسماء الله عز وجل فالكاف من الكافي والهاء من الهادي والياء من حكيم

والعين من عليم والصاد من صادق قوله تعالى ( ذكر رحمة ربك ) المعنى هذا الذي نتلو عليك ذكر رحمة ربك ( عبده زكريا ) وفيه ثلاثة لغات أهل الحجاز يقولون هذا زكريا قد جاء مقصوراً وزكريا ممدوداً وأهل نجد يقولون زكري فيجرونه ويلقون الألف قوله تعالى ( إذ نادى ربه نداء خفياً ) والمراد بالنداء الدعاء وإنما أخفاه لئلا يقول

*(193/240)*

---

الناس انظروا إلى هذا الشيخ يسأل الولد على الكبر ( قال رب إني وهن العظم مني ) أي ضعف وإنما خص العظم لأنه الأصل في التركيب وقال مجاهد وقتادة شكا ذهاب أضراسه ( واشتعل الرأس شيبا ) أي انتشر الشيب فيه كما ينتشر شعاع النار في الحطب والمراد بدعائك أي بدعائي إياك ( رب شقيا ) أي لم أكن أتعب بالدعاء ثم أخيب لأنك قد عودتني الإجابة ( وإني خفت الموالي ) يعني الذين يلونه في النسب وهم بنو العم والعصبة فخاف أن يتولوا ماله وإن لم يكن على جهة الميراث وأحب أن يتولاه ولده وقرأ عثمان وسعد بن أبي وقاص وابن جبير وابن أبي سريج عن الكسائي خفت الموالي بفتح الخاء وتشديد الفاء على معنى قلت فعلى هذا إنما يكون خاف على علمه ونبوته ألا يورثا فيموت العلم قوله تعالى ( وكانت امرأتي عاقرا ) والعاقر من الرجال والنساء الذي لا يأتيه الولد وإنما قال

عاقرا ولم يقل عاقرة لأن الأصل في هذا الوصف للمؤنث والمذكر كالمستعار فأجرى مجرى طالق وحائض قال ابن عباس وكان سنه يومئذ مائة وعشرين سنة وامرأته ثمان وتسعين سنة ( فهب لي من لدنك ) من عندك ( وليا ) أي ولدا صالحا يتولاني وسبب سؤاله أنه لما رأى الفاكهة تأتي مريم لا في حينها طمع في الولد على الكبر فسأل قوله تعالى ( يرثني ويرث من آل يعقوب ) المراد البنوة من الكل ( واجعله رب رضيا ) أي مرضيا فصرف عن مفعول إلى فعيل كما قالوا مقتول وقتيل ( يا زكريا إنا نبشرك ) أي نسرك ونفرحك قال ابن عباس لم يسم يحيى قبله فشرف بأن سماه الله تعالى ولم يكل تسميته إلى أبويه ( قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا ) وإنما قال هذا ليعلم أيأتيه الولد على هذه الحال أم يرد هو وزوجته إلى حالة الشباب

*(194/240)*

---

قوله تعالى ( وقد بلغت من الكبر عتيا ) وهو نحول العظم ويبسه ( قال كذلك ) أي الأمر كما قيل لك من هبة الولد على الكبر ( قال ربك هو علي هين ) أي خلق يحيى علي سهل ( وقد خلقتك ) أي أوجدتك ( من قبل ولم تك شيئا ) ( قال رب اجعل لي آية ) أي علامة على وجود الحمل وأراد أن يستعجل السرور ويبادر بالشكر ( قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث

ليال سويا ) والمعنى تمنع من الكلام وأنت سوي سليم من غير خرس ( فخرج على قومه )
وهذا في صبيحة الليلة التي حملت فيها امرأته ( من المحراب ) أي مصلاه ( فأوحى إليهم )
وفيه قولان أحدهما كتب إليهم في كتاب قاله ابن عباس والثاني أومأ برأسه ويديه قاله
مجاهد ( أن سبحوا ) أي صلوا قوله تعالى ( يا يحيى ) المعنى وهبنا له يحيى وقلنا له يا يحيى
( خذ الكتاب ) وهو التوراة ( بقوة ) أي بجد واجتهاد في العمل بما فيها ( وآتيناه الحكم )
وهو الفهم ( صبيا ) وفي سنه يومئذ قولان أحدهما سبع سنين رواه ابن عباس عن النبي
﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ والثاني ثلاث سنين قاله قتادة ومقاتل قوله تعالى ( وحنانا ) أي
آتيناه حنانا أي رحمة ( من لدنا وزكاة ) أي عملا صالحاً ( وكان تقيا ) فلم يفعل ذنبا ( وبرا
بوالديه ) أي جعلناه برا بوالديه قوله تعالى ( وسلام عليه ) أي سلامة له ( يوم ولد ويوم يموت
ويوم يبعث حيا ) قال سفيان ابن عيينة أوحش ما يكون ابن آدم في ثلاث مواطن يوم يولد
فيخرج إلى دار هم وليلة يموت مع الموتى فيجاور جيرانا لم ير مثلهم ويوم يبعث فيشهد
مشهداً لم ير مثله قط فسلمه في هذه المواطن كلها قال علماء السير لما حملت مريم اتهمت
اليهود زكريا وقالوا هذا منه فطلبوه ليقتلوه فهرب حتى انتهى إلى شجرة عظيمة فتجوفت له
فدخل فيها فجاءوا يطوفون بالشجرة

فرأوا هدبة ثوبه فقطعوا الشجرة حتى خلصوا إليه فقتلوه ونبيء يحيى وهو صغير في زمن أبيه وكان كثير البكاء فساح في الأرض يدعو الناس إلى الله تعالى وكان طعامه الجراد وقلوب الشجر أخبرنا المحمدان ابن ناصر وابن عبد الباقي قالا حدثنا أحمد بن أحمد أخبرنا أبو نعيم الأصفهاني حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا أحمد بن الحسين حدثني سعيد ابن شرحبيل حدثنا سعيد بن عطارد عن وهيب بن الورد قال كان يحيى بن زكريا له خطان في خديه من البكاء فقال له أبوه زكريا إني إنما سألت الله عز وجل ولدا تقر به عيني فقال يا أبت إن جبريل عليه السلام أخبرني أن بين الجنة والنار مفازة لا يقطعها إلا كل بكاء واختلفوا في سبب قتل يحيى فروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال بعث عيسى يحيى بن زكريا في جماعة من الحواريين يعلمون الناس فكان فيما نهاهم عنه نكاح ابنة الأخ وكان لملكهم ابنة أخ تعجبه فأراد أن يتزوجها وكان لها في كل يوم حاجة مقضية فبلغ ذلك أمها فقالت إذا سألك الملك حاجتك فقولي حاجتي أن تذبح يحيى فقالت له فقال سلي غير هذا قالت ما أسألك غيره فدعا يحيى فذبحه فبدرت قطرة من دمه على الأرض فلم تزل تغلي حتى بعث الله تعالى بخت نصر فقتل على ذلك الدم سبعين ألفا منهم حتى سكن وقال الربيع بن أنس كانت للملك بنت شابة وكانت تأتيه فيسألها حاجتها فيقضيها لها وإن أمها رأت يحيى وكان جميلاً فأرادته على نفسها فأبى فقالت

لابنتها إذا أتيت أباك فقولي له حاجتي رأس يحيى فجاءت فسألته ذلك فردها فرجعت فقال سلي حاجتك فقالت رأس يحيى فقال ذلك لك فأخبرت أمها فبعثت إلى يحيى إن لم تأت حاجتي قتلتك فأبى فذبحته ثم ندمت وجعلت تقول ويل لها ويل لها حتى ماتت فهي أول من يدخل جهنم

وفي حديث آخر أن اسمها ربه وقيل أزميل وقد قتلت قبله سبعين نبيا وهي مكتوبة في التوراة مقتلة الأنبياء وأنها على منبر من النار يسمع صراخها أقصى أهل النار

الكلام على البسملة

*(196/240)*

---

(أين من كان قبلنا أين أينا

من رجال كانوا جمالا وزينا

(إن دهرا أتى عليهم فأفنى

عددا منهم سيأتي علينا

(خدعتنا الآمال حتى جمعنا

وطلبنا لغيرنا وسعينا

(وابتنينا وما نفكر في الدهر

وفي صرفه غداة ابتنينا

(وابتغينا من المعاش فضولا

لو قنعنا بدونها لاكتفينا

(ولعمري لنرحلن ولا نمضي

بشيء منها إذا ما مضينا

(اختلفنا في المقدرات وسوى الله

بالموت بيننا فاستوينا

(كم رأينا من ميت كان حيا

ووشيكا يرى بنا ما رأينا

(ما لنا نأمن المنون كأنا

لا نراهن يهتدين إلينا

(عجبا لامرىء تيقن أن الموت

حق فقربا بالعيش عينا

إخواني ما الدنيا لولا الشقاء المكتوب كل طلابها قتلت فبئس المطلوب إلى متى مع الدنيا

أين الذين اشتروا سلع الشك بسلع اليقين يا مستور الحال غدا تبين إذا حشرجت في الصدر

وجاء الأنين وبرزت كماة الموت من الكمين وصرت بعد التجبر أذل مسكين وذبحت

وشيكا بغير سكين ونقلت إلى لحد

أنت فيه رهين انظر لنفسك أيها المتقاعد تدبر عملك قبل عرضه على الناقد وتأهب فكم

بين يديك شدائد لا لا ينفعك فيه ولد ولا والد ( سبيل الخلق كلهم الفناء

فما أحد يدوم له البقاء

( يقربنا الصباح إلى المنايا

ويدنينا إليهن المساء

( فلا تركب هواك وكن معدا

فليس مقدرا لك ما تشاء

( أتأمل أن تعيش وأي غصن

على الأيام طال له النماء

( تراه أخضر العيدان غضا

فيصبح وهو مسود غثاء

( وجدنا هذه الدنيا غرورا

متى ما تعط يرتجع العطاء

( فلا تركن إليها مطمئنا

فليس بدائم منها الصفاء

*(197/240)*

---

عباد الله على نية النقض وضع البنيان وعلى شرط الرحيل الأرواح في الأبدان وإنما الدنيا معبر إلى دار الحيوان وليس للإقامة فالعجب لاغترار الإنسان أين العقل والنظر إلام الجهل والبطر كم من منزل دثر كم ساع عثر وأنت في الأثر إلام هذا الأشر وقد علمت مآل البشر أين العقول والفكر كم وارد ما صدر البلايا مثل المطر وإنك لعلى خطر كم حضرت لدى محتضر ودمع المآقي قد انهمر لقلة الزاد وطول السفر ويحك إلى متى تختار الضرر لقد بعت الدر بالبعر إن العاقل ليختار الأجود وإن الحازم لا يرضى أن يستعبد يا من كلما جمعناه تبدد يا من كلما زجرناه مد اليد يا من إذا دعوناه لم يسدد كيف يختار الضلال من يعرف الطريق الأرشد كيف يؤثر النزول من يقال له اصعد إن اللبيب ليرى بعين الفكر ما في غد لو سمعت الحجارة وعظنا لانفطر الجلمد كم نصبنا لك شركاً وإلى الآن لم نصطد

( حتى متى لا تزال معتذرا

من زلة منك لا تزال راكبها

( تعقبها مثلها وتعقبك الحسرة

من مثلها عواقبها

( لتركك الذنب لا تقاربه

أيسر من توبة تطالبها

*(198/240)*

---

أيها المعرض عن شكر الإفضال والنعم زاحمت على حوض الغفلة النعم تمد يد الجهل بالإنعام إلى أخذه واقتباسه وتنسى عقوبة ما قد جنيته في وقت باسه أين الهرب بخطاك عجبا منك وعيني تراك تراك تستحي من غيري ومني لا تراك من الذي ستر على القبيح فيما مضى من الذي لطف بك في دين دينه إذا اقتضى يا هذا إن وجدت من يصلح لك غيرنا فاذهب وإن رأيت مشربا يلذ غير حلمنا فاشرب لو أعلمت أباك ما نعلم منك أباك ولو أريت أخاك ما أريتنا جفاك نعمنا عليك قديمة كم نبعث لك ديمة لطف بعد ديمة أتراك تحن إلى ودنا أو تراعي عهد عهدنا يا هذا جبلت القلوب على حب من أحسن إليها فواعجبا ممن لم ير محسنا سوى الله عز وجل كيف لا يميل بكليته إليه يا منعما عليه بالعافية بئس ما أنفقت فيه رأس المال كم ذنب لك فعله غيرك فهتك ذاك وسترت ويحك احذر نفار

النعم فما كل شارد بمردود إذا وصلت إليك أطرافها فلا تنفر أقصاها بقلة الشكر ( لك

نفس يسرها

كل شيء يضرها

( هي تفنى على الزمان

ويزداد شرها

*(199/240)*

---

قوله تعالى ( يوم يبعثهم الله جميعا ) البعث إخراج أهل القبور أحياء عند النفخة الثانية في الصور وذلك أن الله تعالى ينزل من السماء ماء فتنبت الأجساد في القبور فتعود كما كانت ثم ينفخ إسرافيل في الصور فتنشق القبور فيقومون جميعاً إلى العرض والحساب ( فينبئهم بما عملوا ) من المعاصي وتضييع الفرائض ( أحصاه الله ) أي حفظه ( ونسوه ) أخبرنا ابن الحصين أنبأنا ابن المذهب أنبأنا أحمد بن جعفر حدثنا عبد الله بن أحمد حدثني أبي حدثنا عفان حدثنا همام حدثنا قتادة عن صفوان بن محرز عن ابن عمر قال سمعت رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ يقول إن الله عز وجل يدني المؤمن ويضع عليه كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له أتعرف ذنب كذا أتعر ذنب كذا أتعرف ذنب كذا حتى إذا

قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال فإني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم أخرجاه في الصحيحين وبالإسناد حدثنا أحمد قال حدثنا وكيع قال حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر قال قال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال اعرضوا عليه صغار ذنوبه فتعرض عليه ويخبأ عنه كبارها فيقال عملت كذا وكذا وهو مقر لا ينكر ولا مشفق من كبارها فيقال أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة قال فيقول إن لي ذنوباً ما أراها قال أبو ذر فلقد رأيت رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ يضحك حتى بدت نواجذه انفرد بإخراجه مسلم

*(200/240)*

---

وفي أفراده من حديث الشعبي عن أنس قال كنا عند رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ فضحك وقال هل تدرون مم أضحك قال فقلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه عز وجل يقول يا رب ألم تجرني من الظلم قال يقول بلى قال فيقول إني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً وبالكرام الكاتبين شهوداً قال فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقي قال فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل إخواني ما من الموت بد باب البقاء في الدنيا قد سد

كم قد في القبر قد قد كم خد في الأخد ود قد خد يا من ذنوبه لا تحصى إن شككت عد يا من أتى باب الإنابة كاذباً فرد يا شدة الوجل عند حضور الأجل يا قلة الحيل إذا حل الموت ونزل يا قوة الأسى إذا نوقش من أسا يا خجل العاصين يا حسرة المفرطين يا أسف المقصرين يا سوء مصير الظالمين كيف يصنع من بضائعه القبائح كيف يفعل من شهوده الجوارح عدموا والله الوسيلة وأظلمت في وجوههم وجوه الحيلة أصبحوا جثياً على ركبهم مأسورين بما في كتبهم لا يدرون ما يراد بهم قد جمعوا في صعيد ينتظرون حلول الوعيد والأرض بالخلق كلهم تميد والعبرات على العثرات تزيد إن بطش ربك لشديد زفرت والله الحطمة في وجوه الظلمة فذلوا بعد العظمة وخرسوا عن كلمة إخواني أيام أعماركم قصيرة وقد ضاعت على بصيرة وآخر الأمر حفيرة فيها أهوال كثيرة يا مشاهداً حاله بحال الحيرة ألك عدة أم لك ذخيرة هذا الملك يحصي عملك حرفاً حرفاً ويملي فيملأ بالخطايا صحفاً يا من جمرات حرصه على الهوى ما تطفى وقد أشفى به مرض ما أراه يشفى إلام هذا التعليل كم نقومك وتميل متى يبرأ هذا العليل يا مقابلاً جميلنا بغير الجميل آن رحيلاً فأعد الزاد آن معاداً فاذكر المعاد ألا يهلك العمر وإن تمادى

(201/240)

أيها المعرض عنا تذكر عرضك أيها الراقد في غفلته اذكر غمضك أيها الذليل بالمعاصي اذكر عرضك كم عتاب ما أمرضك ولا أمضك ويحك استصغر أملاً يمنعه الفوت استقصر أجلاً يقطعه الموت أقبل على العقل مستشيراً فكفى به نصيحاً ونذيراً إنه ليحل نقاب الشبه بأنامل البيان أولا يعلم العاصي أنه قد غرس لنفسه شجرة يتساقط عليه كل حين منها ثمرة ندم من غير هز فإذ اقام في القيامة شاهد أغصان ما غرس قد تعاظمت حتى أخذت بر البر فإن غفر له لم يذل حبيباً مما جنى وإن عوقب ذاق مر الجنى وهذا الأسى الطويل إنما جره جر جرة الهوى ولو قنع بالطاق التي تسمع بها عين المباح لارتوى من غير أذى (المرء في تأخير مدته

كالثوب يخلق بعد جدته

(ومصيره من بعد معرفة

للناس ظلمة بيت وحدته

(من مات مال ذوو مودته

عنه وحالوا عن مودته

(عجباً لمنتبه يضيع ما

يحتاج فيه ليوم رقدته

(أزف الرحيل ونحن في لعب

ما نستعد له بعدته

قال عتبة الغلام رأيت الحسن عند الموت وقد قهقه وما رأيته قط تبسم فقلت يا أبا سعيد من أي شيء تضحك فما كلمني لثقل حاله فلما مات رأيته في المنام فقلت يا معلم الخير من أي شيء ضحكت قال من أمر ملك الموت إنه نودي وأنا أسمع شدد عليه فإنه بقي عليه خطيئة فضحكت لذلك فقلت ما كانت فلم يجبني

*(202/240)*

---

وأسفا هذا حال الحسن وما عرف منه إلا الحسن فكيف يكون حالنا إذن مع ما لنا من محن يا من قد لعب الهوى بفهمه وسودت شهواته وجه عزمه يا مبنيا عن عزم الباني على هدمه يا محمولاً إلى البلى لتمزيق لحمه أما يكفيه منذراً وهن عظمه كم نقربك وأنت متباعد كم ننهضك إلى العلا يا قاعد كم نحرضك وما تساعد ساعد كم نوقظك وأنت في اللهو راقد يا أعمى البصيرة وما له قائد يا قتيل الأمل لست بخالد يا مفرق الهموم والمقصود واحد إن لاحت الدنيا فشيطان مارد تقاتل عليها فتكر وتطارد فإذا جاءت الصلاة فقلب غائب وجسم شاهد وتقول قد صليت أتبهرج على الناقد ما تعرفنا إلا في أوقات الشدائد أما ذنوبك كثيرة فما للطرف جامد ملكك الهوى ونحن نضرب في حديد بارد ( وربما

غوفص ذو غفلة

أصح ما كان ولم يستقم

( يا واضع الميت في قبره

خاطبك القبر فلم تفهم

كم ليلة سهرتها في الذنوب كم خطيئة أمليتها في المكتوب كم صلاة تركتها مهملاً للوجوب كم أسبلت ستراً على عتبة عيوب يا أعمى القلب بين القلوب ستدري دمع من يجري ويذوب ستعرف خبرك عند الحساب والمحسوب أين الفرار وفي كف الطالب المطلوب تنبه للخلاص أيها المسكين أعتق نفسك من الرق يا رهين اقلع أصل الهوى فعرق الهوى مكين احذر غرور الدنيا فما للدنيا يمين يا دائم المعاصي سجن الغفلة سجين تثب على الخطايا ولا وثبة تنين كأنك بالموت قد برز من كمين وآن الأمر فوقعت في الأنين واستبنت أنك في أحوال عنين كيف ترى حالك إذا عبثت

الشمال باليمين ثم نقلت ولقبت بالميت الدفين وا أسفا لعظم حيرتك ساعة التلقين يا مستورا على الذنوب غداً تنجلى وتبين متى هذا القلب القاسي يرعوي ويلين عجبا لقسوته وهو مخلوق من طين

وقبل شخوص المرء يجمع زاده

وتملأ من قبل الرماء الكنائن

(حصادك يوماً ما زرعت وإنما

يدان المرء يوماً بما هو دائن

*(203/240)*

---

ساعات السلامة بين يديك مبذولة سابق سيوف الآفات فإنها مسلولة وبادر ما دامت المعاذير مقبولة واقرأ علوم النجاة فهي منقوطة مشكولة وافتح عينيك فإلى كم بالنوم مكحولة وغير قبائحك القباح المرذولة يا لها نصيحة غير أن النفس على الخلائق مجبولة

سجع

ويح العصاة لقد عجلوا لو تأملوا العواقب ما فعلوا أين ما شربوا أين ما أكلوا بماذا يجيبون إذا أحضروا وسئلوا (فينبئهم بما عملوا

آه لهم في أي حزن من الحزن نزلوا لقد جد بهم الوعظ غير أنهم هزلوا ما نفعهم ما اقتنوا من الدنيا وعزلوا إنما كانت ولاية الحياة يسيراً ثم عزلوا وانفردوا في زاوية الأسى واعتزلوا فإذا شاهدوا ذنوبهم مكتوبة ذهلوا (فينبئهم بما عملوا) ما نفعتهم لذاتهم إذ خرجت ذواتهم لقد جمعت زلاتهم فحوتها مكتوباتهم فلما عاينوا أفعالهم خجلوا (فينبئهم بما عملوا) ذهبت من أفواههم الحلاوة وبقيت آثار الشقاوة وحطوا إلى الحضيض من أعلى رباوة

وحملوا عدلي الموت والفوت والحسرة علاوة فأعجزهم والله ما حملوا ( فينبئهم بما عملوا )

سجع على قوله تعالى

( أحصاه الله ونسوه ) اجتمعت كلمة إلى نظرة إلى خاطر قبيح وفكرة في كتاب يحصى حتى الذرة والعصاة عن المعاصي في سكرة فجنوا من جنى ما جنوا ثمار ما غرسوه ( أحصاه الله ونسوه ) كم تنعم بمال المظلوم الظالم وبات لا يبالي بالمظالم والمسلوب يبكي ويبكي الحمائم وما كفاهم أخذ ماله حتى حبسوه ( أحصاه الله ونسوه ) أين ما كانوا جمعوه كم ليموا وما سمعوه كم قيل لهم لو قبلوه ذهب العرض غير أن العرض دنسوه ( أحصاه الله ونسوه ) كم كاسب للمال من حرامه وحلاله كان يحاسب شريكه على عود خلاله ولا ينفق منه شيئا في تقويم خلاله فلما وقع صريعا بين أشباله اشتغلوا عنه بانتهاب ماله ثم في اللحد نكسوه ( أحصاه الله ونسوه ) جعلنا الله وإياكم من الذين عرفوا الحق فاتبعوه وزجروا الهوى عنهم وردعوه إنه قريب مجيب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التبصرة / لابن الجوزى حـ 1 صـ 64 . 351 ﴾ . بتصرف يسير

*(204/240)*

قوله تعالى ﴿ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (87) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما نص سبحانه على هؤلاء ، وختم بتفضيل كل على العالمين ، أتبعه على سبيل الإجمال أن غيرهم كان مهدياً ، وأن فضل هؤلاء علة النص لهم على أسمائهم ، فقال ترغيباً في سلوك هذا السبيل بكثرة سالكيه وحثاً على منافستهم في حسن الاستقامة عليه والسلوك فيه : ﴿ ومن ﴾ أي وهدينا أو وفضلنا من ﴿ آبائهم ﴾ أي أصولهم ﴿ وذرياتهم ﴾ أي من فروعهم من الرجال والنساء ﴿ وإخوانهم ﴾ أي فروع أصولهم ، وعطف على العامل المقدر قوله : ﴿ واجتبيناهم ﴾ أي واخترناهم ، ثم عطف عليه بيان ما هدوا إليه حثاً لنا على شكره على ما زادنا من فضله فقال : ﴿ وهديناهم ﴾ أي بما تقدم من الهداية ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ وأما الصراط المستقيم فخصصناكم به وأقمناكم عليه ، فاعرفوا نعمتنا عليكم واذكروا تفضيلنا لكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 669 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَابَائِهِمْ وذرياتهم وإخوانهم ﴾ يفيد أحكاماً كثيرة :

الأول : أنه تعالى ذكر الآباء والذريات والإخوان ، فالآباء هم الأصول ، والذريات هم الفروع ، والإخوان فروع الأصول ، وذلك يدل على أنه تعالى خص كل من تعلق بهؤلاء الأنبياء بنوع من الشرف والكرامة ،

والثاني : أنه تعالى قال : ﴿ وَمِنْ ءَابَائِهِمْ ﴾ وكلمة "من" للتبعيض .

فإن قلنا : المراد من تلك الهداية الهداية إلى الثواب والجنة والهداية إلى الإيمان والمعرفة ، فهذه الكلمة تدل على أنه قد كان في آباء هؤلاء الأنبياء من كان غير مؤمن ولا واصل إلى الجنة .

أما لو قلنا : المراد بهذه الهداية النبوة لم يفد ذلك .

الثالث : أنا إذا فسرنا هذه الهداية بالنبوة كان قوله : ﴿ وَمِنْ ءَابَائِهِمْ وذرياتهم وإخوانهم ﴾ كالدلالة على أن شرط كون الإنسان رسولاً من عند الله أن يكون رجلاً ، وأن المرأة لا يجوز أن تكون رسولاً من عند الله تعالى ، وقوله تعالى بعد ذلك : ﴿ واجتبيناهم ﴾ يفيد النبوة ، لأن الاجتباء إذا ذكر في حق الأنبياء عليهم السلام لا يليق به إلا الحمل على النبوة والرسالة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 55 ﴾

*(205/240)*

وقال السمرقندى :

ثم ذكر آباءهم فقال : ﴿ وَمِنْ ءَابَائِهِمْ وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم ﴾ يعني : وقد اصطفيناهم بالنبوة يعني : آدم ونوحاً وإدريس وهوداً وصالحاً عليهم السلام ﴿ وهديناهم إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وهو دين الإسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ والمعنى وهدينا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم جماعات ، ف ﴿ من ﴾ للتبيعض ؛ والمراد من آمن منهم نبياً كان أو غير نبي ، ويدخل عيسى عليه السلام في ضمير قوله : ﴿ ومن آبائهم ﴾ ، ولهذا قال محمد بن كعب الخال أب والخالة أم ، ﴿ واجتبيناهم ﴾ معناه تخيرناهم وأرشدناهم وضممناهم إلى خاصتنا وأرشدناهم إلى الإيمان والفوز برضى الله تعالى . قال مجاهد معناه أخلصناهم ، و" الذرية " الأبناء وينطلق على جميع البشر ذرية لأنهم أبناء ، وقال قوم : إن الذرية تقع على الآباء لقوله تعالى : ﴿ وآية لهم أنّا حملنا ذريتهم في الفلك ﴾ [ يس : 41 ] يراد به نوع البشر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ "من" للتبعيض ؛ أي هدينا بعض آبائهم وذرّياتهم وإخوانهم .

﴿ واجتبيناهم ﴾ قال مجاهد : خلّصناهم ، وهو عند أهل اللغة بمعنى اخترناهم ؛

مشتق من جبيت الماء في الحوض أي جمعته .

فالاجتباء ضم الذي تجتبيه إلى خاصتك .

قال الكسائي : وجبيت الماء في الحوض جَباً ، مقصور .

والجابية الحوض .

قال :

كجَابِيَة الشَّيخ العِرَاقِيّ تَفْهَق . . .

وقد تقدّم معنى الاصطفاء والهداية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(206/240)

---

وقال أبو حيان :

﴿ ومن آبائهم وذرّياتهم وإخوانهم ﴾

المجرور في موضع نصب .

فقال الزمخشري : عطفاً على ﴿ كلاًّ ﴾ بمعنى وفضلنا بعض آبائهم ، وقال ابن عطية :

وهدينا ﴿ من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ﴾ جماعات فمن للتبعيض والمراد من آمن نبياً

كان أو غير نبي ويدخل عيسى في ضمير قوله : ﴿ ومن آبائهم ﴾ ولهذا قال محمد بن كعب : الخال والخالة انتهى ، ﴿ ومن آبائهم ﴾ كآدم وإدريس ونوح وهود وصالح ﴿ وذرياتهم ﴾ كذرية نوح عليه السلام المؤمنين ﴿ وإخوانهم ﴾ كإخوة يوسف ذكر الأصول والفروع والحواشي .

﴿ واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم ﴾ الظاهر عطف ﴿ واجتبيناهم ﴾ على ﴿ فضلنا ﴾ أي اصطفيناهم وكرر الهداية على سبيل التوضيح للهداية السابقة ، وأنها هداية إلى طريق الحق المستقيم القويم الذي لا عوج فيه وهو توحيد الله تعالى وتنزيهه عن الشرك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

*(207/240)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَمِنْ ءَابَائِهِمْ وذرياتهم وإخوانهم ﴾ يحتمل كما قيل أن يتعلق بما تعلق به ﴿ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ﴾ [ الأنعام : 84 ] و( من ) ابتدائية والمفعول محذوف أي وهدينا من آبائهم وأبنائهم وإخوانهم جماعات كثيرة أو معطوف على ﴿ كُلاًّ فَضَّلْنَا ﴾ [ الأنعام : 86 ] و( من ) تبعيضية أي فضلنا بعض ءابائهم الخ وجعله بعضهم عطفاً على ﴿ نُوحاً ﴾ [ الأنعام :

84 ] ، و( من ) واقعة موقع المفعول به مؤولاً ببعض .

واعتبار البعضية لما أن منهم من لم يكن نبياً ولا مهدياً قيل .

وهذا في غير الآباء لأن آباء الأنبياء كلهم مهديون موحدون ، وأنت تعلم أن هذا مختلف فيه نظراً إلى ءاباء نبينا صلى الله عليه وسلم وكثير من الناس من وراء المنع فما ظنك بآباء غيره من الأنبياء عليهم السلام .

ولا يخفى أن إضافة الآباء والأبناء والأخوان إلى ضميرهم لا يقتضي أن يكون لكل منهم أب أو ابن أو أخ فلا تغفل .

*(208/240)*

---

﴿ واجتبيناهم ﴾ عطف على ﴿ فَضَّلْنَا ﴾ [ الأنعام : 86 ] أي اصطفيناهم ﴿ وهديناهم إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ تكرير للتأكيد وتمهيد لبيان ما هدوا إليه ولم يظهر لي السر في ذكر هؤلاء الأنبياء العظام عليهم من الله تعالى أفضل الصلاة وأكمل السلام على هذا الأسلوب المشتمل على تقديم فاضل على أفضل ومتأخر بالزمان على متقدم به وكذا السر في التقرير أولاً بقوله تعالى : ﴿ وكذلك نَجْزِى ﴾ [ الأنعام : 84 ] الخ وثانياً بقوله سبحانه : ﴿ كُلٌّ مّنَ الصالحين ﴾ [ الأنعام : 85 ] والله تعالى أعلم بأسرار كلامه . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

ومن فوائد الإمام ابن عاشور فى الآيات السابقة

قال عليه رحمة الله :

جملة ﴿ ووهبنا ﴾ عطف على جملة ﴿ آتيناها ﴾ [ الأنعام : 83 ] لأنّ مضمونها تكرمة وتفضيل .

وموقع هذه الجملة وإن كانت معطوفة هو موقع التذييل للجمل المقصود منها إبطال الشرك وإقامةُ الحجج على فساده وعلى أنّ الصالحين كلّهم كانوا على خلافه .

والوَهْب والهِبة : إعطاء شيء بلا عوض ، وهو هنا مجاز في التّفضّل والتّيسير .

ومعنى هبة يعقوب لإبراهيم أنّه وُلد لابنه إسحاق في حياة إبراهيم وكبر وتزوّج في حياته فكان قرّة عين لإبراهيم .

وقد مضت ترجمة إبراهيم عليه السلام عند قوله تعالى : ﴿ وإذْ ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات ﴾ [ البقرة : 124 ] .

وترجمةُ إسحاق ، ويعقوب ، عند قوله تعالى : ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب ﴾ [ البقرة : 132 ] وقوله : ﴿ وإله آبائك إبراهيمَ وإسماعيل وإسحاق ﴾ [ البقرة : 133 ] كلّ ذلك في سورة البقرة .

وقوله : ﴿ كلاّ هدينا ﴾ اعتراض ، أي كلّ هؤلاء هديناهم يعني إبراهيم وإسحاق

ويعقوب ، فحذف المضاف إليه لظهوره وعوض عنه التّنوين في "كلّ" تنوينَ عوض عن المضاف إليه كما هو المختار .

(209/240)

---

وفائدة ذكر هديهما التّنويه بإسحاق ويعقوب ، وأنّهما نبيئان نالا هدى الله كهَدْيه إبراهيم ، وفيه أيضاً إبطال للشرك ، ودمغ ، لقريش ومشركي العرب ، وتسفيه لهم بإثبات أنّ الصالحين المشهورين كانوا على ضدّ معتقدهم كما سيصرّح به في قوله : ﴿ ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾ (الأعراف : 88 . )

وجملة : ﴿ ونوحاً هدينا من قبل ﴾ عطف على الاعتراض ، أي وهدينا نوحاً من قبلهم . وهذا استطراد بذكر بعض من أنعم الله عليهم بالهدى ، وإشارة إلى أنّ الهدى هو الأصل ، ومن أعظم الهدى التّوحيد كما علمت .

وانتصب ﴿ نوحاً ﴾ على أنّه مفعول مقدّم على ﴿ هدينا ﴾ للاهتمام ، و ﴿ من قبل ﴾ حال من ﴿ نوحا ﴾ .

وفائدة ذكر هذا الحال التّنبيه على أنّ الهداية متأصّلة في أصول إبراهيم وإسحاق

ويعقوب .

وبُني ﴿ قبل ﴾ على الضمّ ، على ما هو المعروف في ( قبلُ ) وأخواتِ غيرٍ من حذف ما يضاف إليه قبلُ وينوى معناه دون لفظه .

وتقدمت ترجمة نوح عند قوله تعالى : ﴿ إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً ﴾ في سورة آل عمران ( 33 .

( وقوله : ﴿ من ذرّيته ﴾ حال من داوود ، و ﴿ داود ﴾ مفعول ( هدينا ) محذوفاً .

وفائدة هذا الحال التّنويه بهؤلاء المعدودين بشرف أصلهم وبأصل فضلهم ، والتّنويه بإبراهيم أو بنوح بفضائل ذرّيته .

والضمير المضاف إليه عائد إلى نوح لا إلى إبراهيم لأنّ نوحاً أقرب مذكور ، ولأنّ لوطاً من ذرّية نوح ، وليس من ذرية إبراهيم حسبما جاء في كتاب التّوراة .

ويجوز أن يكون لوط عومل معاملة ذرّية إبراهيم لشدّة اتّصاله به .

كما يجوز أن يجعل ذكر اسمه بعد انتهاء أسماء من هم من ذرّية إبراهيم منصوباً على المدح بتقدير فعلٍ لا على العَطف .

وداود تقدّم شيء من ترجمته عند قوله تعالى : ﴿ وقَتل داودُ جالوتَ ﴾ في سورة البقرة ( 251 ) .

ونكمّلها هنا بأنّه داود بن يِسيّ من سبط يهوذا من بني إسرائيل .

---

ولد بقرية بيت لحم سنة1085 قبل المسيح ، وتوفّي في أورشليم سنة 1015 .

وكان في شبابه راعياً لغنم أبيه .

وله معرفة النغَم والعزف والرمي بالمقلاع .

فأوحى الله إلى ( شمويل ) نبيء بني إسرائيل أنْ يبارك داودَ بن يسيّ ، ويمسحه بالزيت المقدّس ليكون ملكاً على بني إسرائيل ، على حسب تقاليد بني إسرائيل إنباء بأنّه سيصير ملكاً على إسرائيل بعد موت ( شاول ) الذي غضب الله عليه .

فلمّا مسحه ( شمويل ) في قرية بيت لحم دُون أن يعلم أحد خطر لشاول ، وكان مريضاً ، أن يتّخذ من يضرب له بالعود عندما يعتاده المرض ، فصادف أن اختاروا له داود فألحقه بأهل مجلسه ليسمع أنغامه .

ولما حارب جنُدُ ( شاول ) الكنعانيين كما تقدّم في سورة البقرة ، كان النصر للإسرائيليين بسبب داود إذ رمى البطل الفلسطيني ( جالوت ) بمقلاعه بين عينيه فصرعه وقطع رأسه ، فلذلك صاهره ( شاولُ ) بابنته ( ميكال ) ، ثم أن ( شاول ) تغيّر على داود ، فخرج داود إلى بلاد الفلسطينيين وجمع جماعة تحت قيادته ، ولما قُتل ( شاول ) سنة1055 بايعت

طائفة من الجند الإسرائيلي في فلسطين داودَ ملكاً عليهم .

وجعل مقرّ ملكه ( حَبْرُون ) ، وبعد سبع سنين قُتل ملك إسرائيل الذي خلف شاولَ فبايعت الإسرائيليون كلّهم داود ملكاً عليهم ، ورجع إلى أورشليم ، وآتاه الله النّبوءة وأمره بكتابة الزبور المسمّى عند اليهود بالمزامير .

وسليمان تقدّمت ترجمته عند قوله تعالى : ﴿ واتّبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان ﴾ في سورة البقرة ( 102 .

( وأيوب نبيء أثبت القرآنُ نبوءته .

وله قصّة مفصّلة في الكتاب المعروف بكتاب أيوب ، من جملة كتب اليهود .

ويظُنّ بعض المؤرّخين أنّ أيوب من ذرّية ( ناحور ) أخي إبراهيم .

*(211/240)*

---

وبعضهم ظنّ أنّه ابن حفيد عيسو بنِ إسحاق بنِ إبراهيم ، وفي كتابه أنّ أيوب كان ساكناً بأرض عُوص ( وهي أرض حَوران بالشّام ، وهي منازل بني عوص بن إرَم بن سام بن نوح ، وهم أصول عاد ) وكانت مجاورة لحدود بلاد الكلدان ، وقد ورد ذكر الكلدان في كتاب أيوب وبعض المحقّقين يظنّ أنّه من صنف عَربي وأنّه من عُوص ، كما يدلّ عليه عدم التّعرض

لنسبته في كتابه ، والاقتصار على أنّه كان بأرض عوص ( الذين هم من العرب العاربة ) .

وزعموا أنّ كلامه المسطور في كتابه كان بلغة عربيّة ، وأنّ موسى عليه السلام نقله إلى العبرانيّة .

وبعضهم يظنّ أنّ الكلام المنسوب إليه كان شِعراً ترجمه موسى في كتابه وأنّه أوّل شعر عرف باللّغة العربيّة الأصليّة .

وبعضهم يقول : هو أوّل شعر عرفه التّاريخ ، ذلك لأنّ كلامه وكلام أصحابه الثّلاثة الّذين عَزّوه على مصائبه جَارٍ على طريقة شعريّة لا محالة .

ويوسف هو ابن يعقوب ويأتي تفصيل ترجمته في سورة يوسف .

وموسى وهارون وزكرياء تقدّمت تراجمهم في سورة البقرة .

وترجمة عيسى تقدّمت في سورة البقرة وفي سورة آل عمران .

ويحيى تقدّمت ترجمته في آل عمران .

وقوله : وكذلك نجزي المحسنين ﴾ اعتراض بين المتعاطفات ، والواو للحال ، أي وكذلك الوهْب الّذي وهبنا لإبراهيم والهدي الّذي هدينا ذرّيته نجزي المحسنين مثله ، أو وكذلك الهدي الّذي هدينا ذرّية نوح نجزي المحسنين مثل نوح ، فعلم أنّ نوحاً أو إبراهيم من المحسنين بطريق الكناية ، فأمّا إحسان نوح فيكون مستفاداً من هذا الاعتراض ، وأمّا إحسان إبراهيم فهو مستفاد ممّا أخبر الله به عنه من دعوته قومه وبذله كلّ الوسع لإقلاعهم عن

ضلالهم .

ويجوز أن تكون الإشارة هنا إلى الهدي المأخوذ من قوله : ﴿ هدينا ﴾ الأول والثّاني ، أي وكذلك الهدي العظيم نجزي المحسنين ، أي بمثله ، فيكون المراد بالمحسنين أولئك المهدّيين من ذرّية نوح أو من ذرّية إبراهيم .

*(212/240)*

---

فالمعنى أنّهم أحسنوا فكان جزاء إحسانهم أن جعلناهم أنبياء .

وأمّا إلياس فهو المعروف في كتب الإسرائيليّين باسم إيليا ، ويسمّى في بلاد العرب باسم إلياس أو ( مَار إلياس ) وهو إلياس التشبي .

وذكر المفسّرون أنّه إلياس بن فنحاص بن إلعاز ، أو ابن هارون أخي موسى فيكون من سبط لاوي .

كان موجوداً في زمن الملك ( آخاب ) ملك إسرائيل في حدود سنة ثمان عشرة وتسعمائة قبل المسيح .

وهو إسرائيلي من سكان ( جِلْعاد ) بكسر الجيم وسكون اللاّم صقع جبلي في شرق الأرْدُن ومنه بَعْلبك .

وكان إلياس من سبط روبين أو من سبط جَاد .

وهذان السّبطان هما سكّان صقع جِلْعاد ، ويقال لإلياس في كتب اليهود التشبي ، وقد أرسله الله تعالى إلى بني إسرائيل لمّا عبدوا الأوثان في زمن الملك ( آخاب ) وعبدوا ( بَعْل ) صنم الكنعانيّين .

وقد وعظهم إلياس وله أخبار معهم .

أمره الله أن يجعل اليسع خليفة له في النّبوءة ، ثمّ رفع الله إلياس في عاصفة إلى السّماء فلم يُر له أثر بعدُ ، وخلفه اليسع في النّبوءة في زمن الملك ( تهورام ) بن ( آخاب ) ملك إسرائيل .

وقوله : ﴿ كلّ من الصّالحين ﴾ اعتراض .

والتّنوين في كلّ عوض عن المضاف إليه ، أي كلّ هؤلاء المعدودين وهو يشمل جميع المذكورين إسحَاقَ ومن بعده .

وأمّا إسماعيل فقد تقدّمت ترجمته في سورة البقرة .

واليسع اسمه بالعبرانيّة إليشع بهمزة قطع مكسورة ولام بعدها تحتيّة ثمّ شين معجمة وعين وتعريبه في العربيّة اليسع بهزة وصل ولام ساكنة في أوّله بعدها تحتيّة مفتوحة في قراءة الجمهور .

وقرأه حمزة ، والكسائي ، وخلف "اللَّيْسَع" بهمزة وصل وفتح اللاّم مشدّدة بعدها تحتيّة ساكنة بوزن ضَيْغَم ، فهما لغتان فيه .

وهو ابن ( شافاط ) من أهل ( آبل محولة ) .

كان فلاّحاً فاصطفاه الله للنّبوءة على يد الرّسول إلياس في مدّة ( آخاب ) وصحب إلياسَ .

ولمّا رفع إلياس لازم سيرة إلياس وظهرت له معجزات لبني إسرائيل في ( أريحا ) وغيرها .

*(213/240)*

---

وتوفّي في مدّة الملك ( يُوءَاش ) ملك إسرائيل وكانت وفاته سنة أربعين وثمانمائة 840 قبل المسيح ودفن بالسّامرة .

والألف واللاّم في اليسع من أصل الكلمة ، ولكن الهمزة عوملت معاملة همزة الوصل للتّخفيف فأشبه الاسم الّذي تدخل عليه اللاّم الّتي للمْححِ الأصللِ مثل العبّاس ، وما هي منها .

وأمّا يونس فهو ابن متَّى ، واسمه في العبرانيّة ( يونان بن أمِتَّاي ) ، وهو من سبط ( زَبولُون ) .

ويجوز في نونه في العربيّة الضمّ والفتح والكسر .

ولد في بلدة ( غاث ايفر ) من فلسطين ، أرسله الله إلى أهْل ( نَيْنوَى ) من بلاد أشور .

وكان أهلها يومئذٍ خليطاً من الأشوريين واليهود الّذين في أسر الأشوريّين ، ولمّا دعاهم إلى

الإيمان فأبوا توعّدهم بعذاب فتأخّر العذاب فخرج مغاضِباً وذهب إلى ( يافا ) فركب سفينة للفنيقيّين لتذهب به إلى ترشيش ( مدينة غربي فلسطين إلى غربي صور وهي على البحر ولعلّها من مراسي الوجه البحري من مصر أو من مراسي برقة لأنّه وصف في كتب اليهود أنّ سليمان كان يجلب إليه الذهب والفضّة والقرود والطواويس من ترشيش ، فتعيّن أن تكون لترشيش تجارة مع الحبشة أو السّودان ، ومنها تصدر هذه المحصولات .

وقيل هي طرطوشة من مراسي الأندلس .

وقيل ( قرطاجنّة ) مرسى إفريقيّة قرب تونس .

وقد قيل في تواريخنا أنّ تونس كان اسمها قبل الفتح الإسلامي ترشيش .

وهذا قريب لأنّ تجارتها مع السّودان قد تكون أقرب ) فهال البحر على السّفينة وثقلت وخيف غرقها ، فاقترعوا فكان يونس ممّن خاب في القرعة فرُمي في البحر والتقمه حوت عظيم فنادى في جوفه : ﴿ لا إله إلاّ أنت سبحانك إنّي كنت من الظّالمين ﴾ [ الأنبياء : 87 ] ، فاستجاب الله له ، وقذفه الحوت على الشاطىء .

وأرسله الله ثانياً إلى أهل نينوى وآمنوا وكانوا يزيدون على مائة ألف .

وكانت مدّته في أوّل القرن الثامن قبل الميلاد .

ولم نقف على ضبط وفاته .

وذكر ابن العربي في "الأحكام" في سورة الصافات أنّ قبره بقرية جلجون بين القدس وبلد الخليل ، وأنّه وقف عليه في رحلته .

وستأتي أخبار يونس في سورة يونس وسورة الأنبياء وسورة الصافات .

وأمّا لوط فهو ابن هَارَان بن تارح ، فهو ابن أخي إبراهيم .

ولد في ( أور الكلدانيين ) .

ومات أبوه قبل تارح ، فاتّخذ تارحُ لوطاً في كفالته .

ولمّا مات تارح كان لوط مع إبراهيم ساكنيْن في أرض حاران ( حوران ) بعد أن خرج تارحُ أبو إبراهيم من أور الكلدانيّين قاصدين أرض كنعان .

وهاجر إبراهيم مع لوط إلى مصر لقحط أصاب بلاد كنعان ، ثمّ رجعا إلى بلاد كنعان ، وافترق إبراهيم ولوط بسبب خصام وقع بين رُعاتهما ، فارتحل لوط إلى ( سَدُوم ) ، وهي من شَرق الأرْدُن إلى أن أوحي إليه بالخروج منها حين قدّر الله خسفها عقاباً لأهلها فخرج إلى ( صوغر ) مع ابنته ونسله هناك ، وهم ( المؤابيون ) و( بنو عمون ) .

وقوله : ﴿ وكلاّ فضّلنا على العالمين ﴾ جملة معترضة ، والواو اعتراضيّة ، والتّنوين عوض عن المضاف إليه ، أي كلّ أولئك المذكورين من إسحاق إلى هنا .

و( كلّ ) يقتضي استغراق ما أضيف إليه .

وحكم الاستغراق أن يثبت الحكم لكلّ فرد فرد لا للمجموع .

والمراد تفضيل كلّ واحد منهم على العالمين من أهل عصره عدا من كان أفضلَ منه أو مساوياً له ، فاللاّم في ﴿ العالمين ﴾ للاستغراق العرفي ، فقد كان لوط في عصر إبراهيم وإبراهيم أفضلُ منه .

وكان من غيرهما من كانوا في عصر واحد ولا يعرف فضل أحدهم على الآخر .

وقال عبد الجبّار : يمكن أن يقال : المراد وكلّ من الأنبياء يُفضّلون على كلّ مَن سواهم من العالمين .

ثمّ الكلام بعد ذلك في أنّ أي الأنبياء أفضل من الآخر كلام في غرض آخر لا تعلّق له بالأوّل أ هـ .

ولا يستقيم لأنّ مقتضى حكم الاستغراق الحكم على كلّ فردٍ فردٍ .

وتتعلّق بهذه الآية مسألة مهمّة من مسائِل أصول الدّين .

*(215/240)*

---

وهي ثبوت نبوءة الّذين جرى ذكر أسمائهم فيها ، وما يترتّب على ثبوت ذلك من أحكام في الإيمان وحقّ النّبوءة .

وقد أعرض عن ذكرها المفسّرون وكان ينبغي التّعرّض لها لأنَّها تتفرّع إلى مسائل تهمّ طالب العلوم الإسلاميّة مَعرفتُها ، وأحقّ مظِنّة بذكرها هو هذه الآية وما هو بمعنى بعضها .

فأمّا ثبوت نبوءة الّذين ذُكرت أسماؤهم فيها فلأنّ الله تعالى قال بعد أن عدّ أسماءهم ﴿ أولئك الّذين آتيناهم الكِتاب والحُكم والنّبوءة ﴾ .

فثبوت النّبوءة لهم أمر متقرّر لأنّ اسم إشارة ﴿ أولئك ﴾ قريب من النصّ في عوده إلى جميع المسمَّيْنَ قبله مع ما يعضّده ويكمّله من النصّ بنبوءة بعضهم في آيات تماثِل هذه الآية ، مثل آية سورة النّساء ( 163 ) ﴿ إنَّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح ﴾ الآيات ، ومثل الآيات من سورة مريم ( 41 ) واذكر في الكتاب إبراهيم الآيات .

وللنّبوءة أحكام كثيرة تتعلّق بموصوفها وبمعاملة المسلمين لمن يتّصف بها .

منها معنى النّبيء والرّسولِ ، ومعنى المعجزة الّتي هي دليل تُحقّق النّبوءة أو الرّسالة لمن أتى بها ، وما يترتّب على ذلك من وجوب الإيمان بما يبلّغه عن الله تعالى من شرع وآداب ، ومَسائل كُثيرة من ذلك مبسوطة في علم الكلام فليرجع إليها .

إنّما الّذي يهمّنا من ذلك في هذا التّفسير هو ما أومأ به قوله تعالى في آخرها ﴿ فإنْ يكفر بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ﴾ [ الأنعام : 89 ] .

فمن علم هذه الآيات في هذه السّورة وكان عالماً بمعناها وجب عليه الإيمان بنبوءة من جَرت أسماؤهم فيها .

---

وقد ذكر علماؤنا أنّ الإيمان بأنّ الله أرْسَلَ رسلاً وَنَبّأ أنبياء لإرشاد النّاس واجب على الجملة ، أيْ إيماناً بإرسال أفرادٍ غير معيّنين ، أو بنبوءة أفراد غير معيّنين دون تعيين شخص معيَّن باسمه ولا غير ذلك ممّا يميّزه عن غيره إلاّ محمّداً صلى الله عليه وسلم قال الشيخ أبو محمّد بن أبي زيد في "الرسالة" "الباعثِ ( صفة لله تعالى ) الرسلِ إليهم لإقامة الحجّة عليهم" .

فإرسال الرسل جائز في حقّ الله غير واجب ، وهو واقع على الإجمال دون تعيين شخص معيّن .

وقد ذكر صاحب "المقاصد" أنّ إرسال الرّسل محتاج إليه ، وهو لطف من الله بخلقه وليس واجباً عليه .

وقالت المعتزلة وجمع من المتكلمين ( أي من أهل السنّة ) ممّا وراء النّهر بوجوب إرسال الرّسل عليه تعالى .

ولم يذكر أحد من أيمّتنا وجوب الإيمان بنبيء معيّن غير محمدّ صلى الله عليه وسلم رسولاً إلى الخلق كافّة .

قال أبو محمّد بن أبي زيد : "ثُمّ ختَم أي اللّهُ الرّسالةَ والنّذارةَ والنّبوءةَ بمحمّد نبيئه صلى الله عليه وسلم إلخ" ، لأنّ النّبيء صلى الله عليه وسلم قال في الحديث الّذي رواه عمر بن الخطّاب من سؤال جبريلَ النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال : " أن تُؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله " إلخ .

فلم يعيّن رسلاً مخصوصين .

وقال في جواب سؤاله عن الإسلام "الإسلام أن تشهد أنّ لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله" .

فمن علم هذه الآيات وفهم معناها وجب عليه الاعتقاد بنبوءة المذكورين فيها .

ولعلّ كثيراً لا يقرأونها وكثيراً ممّن يقرأونها لا يفهمون مدلولاتها حقّ الفهم فلا يطالبون بتطلّب فهمها واعتقاد ما دلّت عليه إذ ليس ذلك من أصول الإيمان والإسلام ولكنّه من التّفقّه في الدّين .

*(217/240)*

---

قال القاضي عياض في فصلٍ ( سابعٍ ) من فصول الباب الثّالث من القسم الرّابع من كتاب "الشّفاء" "وهذا كلّه ( أي ما ذكره من إلزام الكفر أو الجُرم الموجبِ للعقوبة لمن جاء في

حقّهم بما ينافي ما يجب لهم ) فيمن تكلّم فيهم ( أي الأنبياء أو الملائكة ) بما قلناه على جملة الملائكة والنّبيئين ( أي على مجموعهم لا على جميعهم قاله الخفاجي يريد بالجميع كلّ فرد فرد ) مِمّن حقّقنا كونَه منهم ممّن نصّ الله عليه في كتابه أو حقّقنا عِلمه بالخبر المتواتر والإجماع القاطع والخبرِ المشتهر المتّفق عليه ( الواو في هذا التّقسيم بمعنى أو ) .

فأمّا من لم يثبت الإخبار بتعيينه ولا وقَع الإجماع على كونه من الأنبياء كالخِضِر ، ولقمانَ ، وذي القرنين ، ومريم ، وآسية ( امرأة فرعون ) وخالدٍ بن سنان المذكورِ أنّه نبيء أهل الرسّ ، فليس الحكم في سابّهم والكافر بهم كالحكم فيما قدّمناه" أ هـ .

فإذا علمت هذا علمت أنّ ما وقع في أبيات ثلاثةٍ نظمها البعض ، ( ذكرها الشّيخ إبراهيم البيجوري في مبحث الإيمان من شرحه على "جوهرة التَّوحيد" :

حَتم على كلّ ذي التكليف معرفة . . .

بأنبياءٍ على التفصيل قد علموا

في "تلك حُجّتنا" منهم ثمانية . . .

من بعد عَشر ويبقَى سبعة وهمُ

إدريس .

هود .

شعيب ، صالح وكذا . . .

ذو الكِفْل ، آدم ، بالمختار قد ختموا

لا يستقيم إلاّ بتكلّف ، لأنّ كون معرفة ذلك حتماً يقتضي ظاهره الاصطلاحيّ أنّه واجب ، وهذا لا قائل به فإنْ أراد بالحتم الأمرَ الّذي لا ينبغي إهماله كان مُتأكّداً لقوله : على كلّ ذي التّكليف .

فلو عوّضه بكلّ ذي التّعليم .

ولعلّه أراد بالحتم أنّه يتحتّم على من علم ذلك عدمُ إنكار كونِ هؤلاء أنبياءَ بالتّعيين ، ولكن شاء بين وجوب معرفة شيء وبين منع إنكاره بعد أن يُعرف .

فأمّا رسالة هود وصالح وشعيب فقد تكرّر ذكرها في آيات كثيرة .

*(218/240)*

---

وأمّا معرفة نبوءة ذي الكفل ففيها نظر إذ لم يصرّح في سورة الأنبياء بأكثر من كونه من الصّابرين والصّالحين .

واختلف المفسّرون في عدّه من الأنبياء ، ونسب إلى الجمهور القول بأنّه نبيء .

وعن أبي موسى الأشعري ومجاهد : أنّ ذا الكفل لم يكن نبيئاً .

وسيأتي ذكر ذلك في سورة الأنبياء .

وأمّا آدم فإنّه نبيء منذ كونه في الجنّة فقد كلّمه الله غيرَ مرّة .

وقال ﴿ ثمّ اجتباه ربّه فتاب عليه وهدى ﴾ [ طه : 122 ] فهو قد أهبط إلى الأرض مشرّفاً بصفة النّبوءة .

وقصّة ابني آدم في سورة المائدة دالّة على أنّ آدم بلّغ لأبنائه شَرعاً لقوله تعالى فيها ﴿ إذ قرّبا قرباناً فتُقبّل من أحدهما ولم يُتقبّل من الآخر قال لأقتلنّك قال إنّما يتقبّل الله من المتّقين لئن بسطتّ إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إنّي أخاف الله ربّ العالمين إنّي أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النّار وذلك جزاء الظّالمين ﴾ ( المائدة : 27 29 .

( فالّذي نعتمده أنّ الّذي ينكر نبوءة معيَّن ممّن سمّي في القرآن في عداد الأنبياء في سورة النّساء وسورة هود وسورة الأنعام وسورة مريم ، وكان المنكر محقّقاً علمُه بالآية الّتي وصف فيها بأنّه نبيء ووقف على دليل صحّة ما أنكره وروجع فصمّم على إنكاره ، إنّ ذلك الإنكار يكون كفراً لأنّه أنكر معلوماً بالضّرورة بعد التّنبيه عليه لئلاّ يعتذر بجهلٍ أو تأويلٍ مقبول .

واعلَمْ أنّي تطلّبت كشف القناع عن وجه الاقتصار على تسمية هؤلاء الأنبياء من بين سائر الأنبياء من ذرّيّة إبراهيم أو ذرّيّة نوح ، ( على الوجهين في معاد ضمير ﴿ ذرّيّته ﴾ ) .

فلم يتّضح لي وتطلّبت وجه ترتيب أسمائهم هذا التّرتيبَ ، وموالاة بعض هذه الأسماء لبعض في العطف فلم يَبْدُ لي ، وغالب ظنّي أنّ من هذه الوجوه كون هؤلاء معروفون لأهل الكتاب وللمشركين الّذين يقتبسون معرفة الأنبياء من أهل الكتاب ، وأنّ المناسبة في ترتيبهم لا تخلو من أن تكون ناشئة عن الابتداء بذكر أنّ إسحاق ويعقوب موهبة لإبراهيم وهما أب وابنه ، فنشأ الانتقال من واحد إلى آخر بمناسبة للانتقال ، وأنّ توزيع أسمائهم على فواصل ثلاث لا يخلو عن مناسبة تجمع بين أصحاب تلك الأسماء في الفاصلة الشّاملة لأسمائهم .

ويجوز أنّ خفّة أسماء هؤلاء في تعريبها إلى العربيّة حُروفاً ووزناً لها أثر في إيثارها بالذّكر دون غيرها من الأسماء نحو ( شَمعون وشمويل وحزقيال ونحميا ) ، وأنّ المعدودين في هذه الآيات الثّلاث توزّعوا الفضائل إذ منهم الرّسل والأنبياء والملوك وأهل الأخلاق الجليلة العزيزة من الصّبر وجهاد النّفس والجهاد في سبيل الله والمصابرة لتبليغ التّوحيد والشّريعة ومكارم الأخلاق ، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى في آخر الآيات

﴿ أولئك الّذين آتيناهم الكتاب والحكم والنّبوءة ﴾ [ الأعراف : 89 ] ومن بينهم أصلاً الأمّتين العربيّة والإسرائيليّة .

فلمّا ذكر إسحاق ويعقوب أردف ذكرُهما بذكر نبيئَيْن من ذرّيّة إسحاق ويعقوب ، وهما أب وابنه من الأنبياء هما داوود وسليمان مبتدءاً بهما على بقيّة ذرّيّة إسحاق ويعقوب ، لأنّهما

نالا مَجْدَين عظيمين مجدِ الآخرة بالنّبوءة ومجد الدنيا بالملك .

ثمّ أردف بذكر نبيئين تماثلاً في أنّ الضرّ أصاب كليهما وأنّ انفراج الكرب عنهما بصبرهما .

وهما أيّوب ويوسف .

ثمّ بذكر رسولين أخوين هما موسى وهارون ، وقد أصاب موسى مثلُ ما أصاب يوسفَ من الكيد له لقتله ومن نجاته من ذلك وكفالته في بيت المُلك ، فهؤلاء الستّة شملتهم الفاصلة الأولى المنتهية بقوله تعالى : ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ .

*(220/240)*

---

ثمّ بذكر نبيئين أب وابنه وهما زكرياء ويحيى .

فناسبَ أن يذكر بعدهما رسولان لا ذرّية لهما ، وهما عيسى وإلياس ، وهما متماثلان في أنّهما رفعا إلى السّماء .

فأمّا عيسى فرفْعه مذكور في القرآن ، وأمّا إلياس فرفعه مذكور في كتب الإسرائيليين ولم يذكره المفسّرون من السلف .

وقد قيل : إنّ إلياس هو إدريس وعليه فرفعه مذكور في قوله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب إدريس إنّه كان صديقاً نبيئاً ورفعناه مكاناً علياً ﴾ في سورة مريم ( 56 ، 57 ) .

وابتدىء بعيسى عطفاً على يحيى لأنّهما قريبان ابنا خالة ، ولأنّ عيسى رسول وإلياس نبيء غير رسول .

وهؤلاء الأربعة تضمّنتهم الفاصلة الثّانية المنتهية بقوله تعالى : كلّ من الصّالحين ﴾ .

وعُطف اليسع لأنّه خليفة إلياس وتلميذه ، وأدمج بينه وبين إلياس إسماعيل تنهية بذكر النّبيء الّذي إليه ينتهي نسب العرب من ذرّيّة إبراهيم .

وخُتوا بيونس ولوط لأنّ كلاً منهما أرسل إلى أمّة صغيرة .

وهؤلاء الأربعة تضمّنتهم الفاصلة الثّالثة المنتهية بقوله : ﴿ وكلاً فضّلنا على العالمين ﴾ .

وقوله : ﴿ ومن آبائهم ﴾ عطف على قوله : ﴿ كُلاً ﴾ .

فالتَّقدير : وهدينا من آبائهم وذرّيّاتهم وإخوانهم .

وجعل صاحب "الكشاف" ( مِن ) اسما بمعنى بعض ، أي وهدينا بعض آبائهم على طريقته في قوله تعالى : ﴿ من الَّذين هادوا يحرّفون ﴾ [ النساء : 46 ] .

وقدّر ابنُ عطيّة ومن تبعه المعطوف محذوفاً تقديره : ومن آبائهم جمعاً كثيراً أو مهديين كثيرين ، فتكون ( مِن ) تبعيضية متعلّقة بـ ﴿ هدينا ﴾ .

والذرّيَات جمع ذرّيَة ، وهي مَن تناسل من الآدمي من أبناء أدْنَيْن وأبنائهم فيشمل أولاد البنين وأولاد البنات .

ووجه جمعه إرادة أنّ الهدى تعلّق بذرّيّة كلّ من له ذرّيّة من المذكورين للتنبيه على أنّ في

هدي بعض الذرّية كرامة للجدّ ، فكلّ واحد من هؤلاء مراد وقوعُ الهدي في ذرّيّته .

وإنْ كانت ذرّياتهم راجعين إلى جدّ واحد وهو نوح عليه السّلام .

ثمّ إن كان المراد بالهدى المقدّر الهُدَى المماثل للهُدى المصرّح به ، وهو هُدى النّبوءة ،

فالآباء يشمل مثل آدم وإدريس عليهم السلام فإنّهم آباء نوح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(221/240)

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (85) ﴾

ولم يأت الحق بالثمانية عشر نبياً متتابعين بل قسمهم بحكمة ، فيقول :

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ واليسع وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى العالمين ﴾

ولا يقتصر الأمر على هؤلاء بل يقول سبحانه :

﴿ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ واجتبيناهم وَهَدَيْنَاهُمْ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

وأنت إن نظرت إلى هؤلاء الثمانية عشر نبياً المذكورين هنا ، ستجد أنهم من الخمسة

والعشرين رسولاً الذين أمرنا بالإيمان بهم تفصيلا . وقد جمعوا في قول الناظم :

في تلك حجتنا منهم ثمانية . . . من بعد عشر ويبقى سبعة وهمو

إدريس هود شعيب صالح وكذا . . . ذو الكفل آدم بالمختار وقد ختموا

والحق سبحانه وتعالى لم يجعل من الأنبياء ملوكا إلا اثنين : داود وسليمان حتى يعطينا فكرة أن الله إذا أراد أن يقهر خلقاً على شيء لا يقدر عليه أحد يبعث مَلِكاً رسولاً ؛ لأن المَلِك لا يقدر عليه عبد لأنَّ القدرة معه ، والمجتمع آنذاك كان في حاجة إلى ملك يدير أمره ويضبط شأنه ، وسبحانه لا يريد الإيمان بالقوة والخوف والرهبوت إنما يريده بالاختيار ، ولذلك جعل أغلب الأنبياء ليسوا ملوكاً .

وفي الحديث " أفملكا نبيا يجعلك أو عبداً رسولاً " فاختار أن يكون عبدا رسولا ؛ لأن الملك يأتي بسلطانه وبماله ، وقد يطغى .

*(222/240)*

---

وأراد الحق أن يكون سليمان وداود من الأنبياء وهما ملكان ، وتتمثل فيهما القدرة وسعة الملك والسلطان . أمّا أيوب فقد أخذ زاوية أخرى من الزوايا وهي الابتلاء والصبر مع النبوة ، وكل نبي فيه قدر مشترك من النبوة ، وفيه تميّز شخصي . وكذلك يوسف أخذ

الابتلاء أولاً ، ثم أخذ الملك والسلطان في النهاية . وموسى وهارون أخذ شهرة الاتْبَاع ، ونكاد لا نعرف من الأديان إلا اليهودية والنصرانية ، أما زكريا ويحيى وعيسى وإلياس فقد أخذوا ملكة الزهد .

وأما إسماعيل واليسع ويونس ولوطاً فقد أخذوا ما زخرت به حياتهم من عظيم الفعال وكريم الخصال والسلوك القويم والقدوة الطيبة وبقي لهم الذكر الحسن .

إذن فهناك زوايا متعددة للأنبياء .

وعندما وقف العلماء عند " عيسى " هل يدخل في ذريتهم ، وجدوا من يستنبط ويقول : من ذريتهم من ناحية الأم .

وإنما أمهات القوم أوعية . . . مستحدثات وللأحساب آباء .

والعنصر البشري في عيسى هو الأم . وبمثل هذا احتج أبو جعفر محمد الباقر أمام الحجاج حين قال له : أنتم تدعون أنكم من آل رسول الله ومن نسله ، مع أن رسول الله ليس له ذرية !

قال له الإمام الباقر رضي الله عنه : كأنك لم تقرأ القرآن .

قال له : وأي شيء في القرآن ؟

قال اقرأ : " ومن ذريته . . . . . " إلى أن تقرأ : " وعيسى " فعيسى من ذرية نوح ، من أب أَم من أُمّ ؟ .

قال له : من أُمّ . فقال له : نحن كذلك من ذرية محمد صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(223/240)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " ومِنْ آبائِهِمْ " " آبائهم " : فيه وجهان :

أحدهما : أنه مُتعلِّقٌ بذلك الفعل المقدر ، أي : وهدينا من آبائهم ، أو فضَّلنا من آبائهم ، و " مِنْ " تَبْعِيضيَّةٌ قال ابن عطية : " وهَدَيْنَا مِنْ آبَائِهِمْ وذرِّيَاتهم وإخوانهم جماعات " ، ف " مِنْ " للتبعيض ، والمفعول محذوف .

الثاني : أنه معطوف على " كُلاًّ " ، أي : وفضَّلنا بعض آبائهم .

وقدَّر أبو البقاء هذا الوجه بقوله : " وفضلنا كلاًّ من آبائهم ، وهدينا كُلاًّ من آبائهم " .

وإذا كان للتَّبْعِيضِ دلَّت على أن آباء بعضهم كانوا مشركين .

وقوله : " وذُرِّيَّاتهم " ، أي : وذرِّيَّة بعضهم ، لأن " عيسى " و " يحيى " لم يكن لهما وَلَدٌ ، وكان في ذرية بعضهم من كان كَافِراً .

وقوله : " وإخوانهم " و" اجْتَبَيْنَاهُمْ " يجوز أن يعطف على " فضَّلنا " ، ويجوز أن يكون مُسْتأنفاً وكرر لفظ الهداية توكيداً ، ولأن الهِدايةَ أصْلُ كل خير ، والمعنى : اصْطَفَيْنَاهُمْ ، وأرشدناهم إلى صراط مستقيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 268 ﴾

*(224/240)*

---

قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (88) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان ربما أوهم تنكيرُه نقصاً فيه ، قال مستأنفاً بياناً لكماله وتعظيماً لفضله وإفضاله : ﴿ ذلك ﴾ أي الهدى العظيم الرتبة ﴿ هدى الله ﴾ أي المستجمع لصفات الكمال ﴿ يهدي ﴾ أي يخلق الهداية ﴿ به ﴾ أي بواسطة الإقامة عليه ﴿ من يشاء من عباده ﴾ أي سواء كان له أب يعمله أو كان له من يحمله على الضلال أولا ؛ ولما بين فضل الهدى ونص على رؤوس أهله ، تهدد من تركه كائناً من كان ، فقال مظهراً لعز الإلهية بالغنى المطلق

منزهاً نفسه عما لوحظ فيه غيره ولو بأدنى لحظ : ﴿ ولو أشركوا ﴾ أي هؤلاء الذين ذكرنا من مدحهم ما سمعتَ وبينّا من اختصاصنا لهم ما علمت – شيئاً من شرك وقد أعاذهم الله من ذلك ، وأقام بهم معوج المسالك ، وأنار بهم ظلام الأرض بطولها والعرض ﴿ لحبط عنهم ﴾ أي فسد وسقط ﴿ ما كانوا يعملون ﴾ أي وإن كان في غاية الإتقان بقوانين العلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 670 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه يجب أن يكون المراد من هذا الهدى هو معرفة التوحيد وتنزيه الله تعالى عن الشرك ، لأنه قال بعده : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [ الأنعام : 88 ] وذلك يدل على أن المراد من ذلك الهدي ما يكون جارياً مجرى الأمر المضاد للشرك .

وإذا ثبت أن المراد بهذا الهدى معرفة الله بوحدانيته .

ثم إنه تعالى صرح بأن ذلك الهدى من الله تعالى ، ثبت أن الإيمان لا يحصل إلا بخلق الله تعالى ، ثم إنه تعالى ختم هذه الآية بنفي الشرك فقال : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا ﴾ والمعنى أن هؤلاء الأنبياء لو أشركوا لحبط عنهم طاعاتهم وعباداتهم .

والمقصود منه تقرير التوحيد وإبطال طريقة الشرك .

وأما الكلام في حقيقة الإحباط فقد ذكرناه على سبيل الاستقصاء في سورة البقرة فلا حاجة إلى الإعادة . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 55 ﴾

(225/240)

---

وقال أبو حيان :

﴿ ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ﴾

أي ذلك الهدى إلى الطريق المستقيم هو هدى الله ، وقال ابن عطية : ذلك إشارة إلى النعمة في قوله ﴿ واجتبيناهم ﴾ انتهى ، وفي الآية دليل على أن الهدى بمشيئة الله تعالى .

﴿ ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾ أي ﴿ ولو أشركوا ﴾ مع فضلهم وتقدّمهم وما رفع لهم من الدرجات لكانوا كغيرهم في حبوط أعمالهم كما قال تعالى : ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ وفي قوله : ﴿ ولو أشركوا ﴾ دلالة على أن الهدى السابق هو التوحيد ونفي الشرك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى ما يُفهم من النظم الكريم من مصادرِ الأفعال المذكورة وقيل : ما دانوا به ، وما في ذلك من معنى البُعد لما مر مراراً ﴿ هُدَى الله ﴾ الإضافة للتشريف ﴿ يَهْدِى

بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ وهم المستعدّون للهداية والإرشاد ، وفيه إشارةٌ إلى أنه تعالى متفضّلٌ بالهداية ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُواْ ﴾ أي هؤلاءِ المذكورون ﴿ لَحَبِطَ عَنْهُمْ ﴾ مع فضلهم وعلوّ طبقاتِهم ﴿ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ من الأعمال المَرْضيّة الصالحة ، فكيف بمَنْ عداهم وهُم هُم وأعمالُهم أعمالُهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(226/240)

---

وقال الآلوسى :

﴿ ذلك ﴾ أي الهدى إلى الطريق المستقيم أو ما يفهم من النظم الكريم من مصادر الأفعال المذكورة أو ما دانوا به ، وما في ذلك من معنى البعد لما مر مراراً ﴿ هُدَى الله ﴾ الإضافة للتشريف ﴿ يَهْدِى بِهِ مَن يَشَاء ﴾ هدايته ﴿ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ وهم المستعدون لذلك ، وفي تعليق الهداية بالموصول إشارة إلى علية مضمون الصلة ويفيد ذلك أنه تعالى متفضل بالهداية ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُواْ ﴾ أي أولئك المذكورون ﴿ لَحَبِطَ ﴾ أي لبطل وسقط ﴿ عَنْهُمْ ﴾ مع فضلهم وعلو شأنهم ﴿ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي ثواب أعمالهم الصالحة فكيف بمن عداهم وهم هم وأعمالهم أعمالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾

استئناف بياني ، أي لا تعجبوا من هديهم وضلال غيرهم .

والإشارة إلى الهُدى الّذي هو مصدر مأخوذ من أفعال الهداية الثلاثة المذكورة في الآية قبلها ، وخصوصاً المذكور آخراً بقوله ﴿ وهديناهم إلى صراط مستقيم ﴾ [ الأنعام : 87 ] .

وقد زاد اسمُ الإشارة اهتماماً بشأن الهدي إذ جعل كالشيء المشاهد فزيد باسم الإشارة كمال تُمييز ، وأخبِر عن الهدي بأنّه هدى الله لتشريف أمره وبيان عصمته من الخطأ والضلال ، وفيه تعريض بما عليه المشركون ممّا يزعمونه هدى ويتلقّونه عن كبرائهم ، أمثالِ عَمْرو بن لُحَيّ الذي وضع لهم عبادة الأصنام ، ومثلِ الكهّان وأضرابهم .

وقد جاء هذا الكلام على طريقة الفذلكة لأحوال الهداية الّتي تكرّر ذكرها كأبيات حاتم الطائي :

وللّهِ صُعلوكٌ يُساوِر هَمَّهُ

ويمضي على الأحداث والدهرِ مُقدماً . . .

إلى أن قال بعد أبيات سبعة في محامد ذلك الصّعلوك :

فذَلك إنْ يهلِكْ فحسنى ثَناؤه

وإن عاش لم يقْعد ضعيفاً مذمَّماً . . .

وقوله تعالى : ﴿ يهدي به من يشاء من عباده ﴾ جملة في موضع الحال من ﴿ هُدى الله ﴾ .

(227/240)

---

والمراد بـ ﴿ من يشاء ﴾ الّذين اصطفاهم الله واجتباهم وهو أعلم بهم وباستعدادهم لهديه ونبذهم المكابرة وإقبالهم على طلب الخير وتطلّعهم إليه وتدرّجهم فيه إلى أن يبلغوا مرتبة إفاضة الله عليهم الوحيَ أو التّوفيق والإلهام الصادق .

ففي قوله : ﴿ من يشاء ﴾ من الإبهام ما يبعث النّفوس على تطلّب هُدى الله تعالى والتّعرّض لنفحاته ، وفيه تعريض بالمشركين الّذين أنكروا نبوءة محمّد صلى الله عليه وسلم حسداً ، ولذلك أعقبه بقوله ﴿ ولو أشركوا لحَبِط عنهم ما كانوا يعملون ﴾ تفظيعاً لأمر الشرك وأنّه لا يغتفر لأحد ولو بلغ من فضائل الأعمال مبلغاً عظيماً مثل هؤلاء المعدودين المنوّه بهم .

والواو للحال .

و"حبط" معناه تلف ، أي بطل ثوابه .

وقد تقدّم في قوله تعالى : ﴿ ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت

أعمالهم ﴾ في سورة [ البقرة : 217 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(228/240)

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾

" ذلك " إشارة إلى شيء تقدم ، والمقصود به الهدى الذي هدينا به القوم ، وهو هدى الله .

ونجد كلمة " هدى " تدل على الغاية المرسوم لها طريق قصير يوصل إليها ، وربنا هو الذي خلق ، وهو الذي يضع الغاية ، ويضع ويوضح ويبيِّن الطريق إلى الغاية ، وحين يضاف الهدى إلى الله فهو دلالة على المنبع والمصدر أي هدى من الله . وكلمة " هدى " مرة تضاف إلى الواهب وهو الحق ، وتضاف إلى الأنبياء . يقول الحق : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ .

وذلك إشارة إلى المنهج الذي أنزله الله على الرسل .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يهدي الناس جميعاً بدلالتهم على الخير ، والذي يقبل على هذه الدلالة احتراماً لإيمانه يعينه الله ، ويزيده هدى ، وسبحانه يريد أن يثبت للإنسان أنه جعله مختاراً ، فإن اخترت أي شيء فأنت لم تختره غصباً عن ربنا ، إنما اخترته بمن خلقك مختاراً

. ولا يوجد فعل في الكون يحدث على غير مراد الله ، ولو أراد الله الناس جميعاً مهديين لما استطاع واحد أن يعصي ، إنما أرادهم مختارين ، وكل فعل يفعله أي واحد منهم ، فهو مراد من الله لكنّه قد يكون مرادًا غير محبوب ، ولذلك قال العلماء : إن هناك مراداً كوناً ، ومراداً شرعاً . وما دام الشيء في ملك الله فهو مراد الله ، والمراد الشرعي هو المأمور به ، وما يختلف عن ذلك فهو مراد كوني ، جاء من باب أنه خلقك مختاراً .

*(229/240)*

---

ومثال ذلك – ولله المثل الأعلى – أنت تعطي ابنك جنيهاً ، والجنية قوة شرائية . فأخذ الجنيه ونزل السوق وهو حر ليتصرف به ، وتقول له : اسمع . إن اشتريت به مصحفاً أو كتاباً جميلاً أو بعضاً من الحلوى وأكلتها أنت وإخوتك فسأكون مسروراً منك وسأكافئك مكافأة طيبة ، وإن اشتريت "كوتشينة" ، أو صرفت الجنيه فيما لا أرضى عنه فسوف أغضب منك ولن أعطيك نقوداً .

أنت بهذا القول أعطيت ابنك الحرية . وساعة ينزل السوق ويشتري "كوتشينة" فهو لم يفعل ذلك قهراً عنك لأنك أنت الذي أعطيته الاختيار ، لكنك قلت له : إنك تطلب منه أن يحسن الاختيار ، وسبحانه وتعالى قد جعل الإنسان مختاراً ، فإن اختار الهداية أجزل له

العطاء ، وإن اختار الضلال عاقبه عليه .

وبالنسبة للأنبياء جاءت لهم الهداية من الله دلالة لهم وأقبلوا على مرادات الحق فأعطاهم هداية أخرى ؛ وذلك بأن يعشّقهم في العمل ويحبب إليهم فعل الخير ، وبعد ذلك يوضح سبحانه : إياكم أن تظنوا أن هناك من يفلت مني ؛ لأنهم لو أشركوا لأحبطت أعمالهم .

إذن فالحق لم يخلق الخلق مرغمين على عمل الطاعة بل خلقهم مختارين في التكاليف ، حتى ينالوا لذة اختيار منهج الله ولو أشركوا لحبط عملهم و" لو " حرف امتناع لامتناع ، وهذا دليل على أنهم لم يشركوا ولذلك لم يحبط عملهم ، و" الحبط " هو الإبطال للعمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(230/240)*

---

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

ذكر تعالى أن هؤلاء الأنبياء المذكورين نفي هذه السورة الكريمة لو أشركوا بالله لحبط جميع أعمالهم .

وصرح في موضع آخر بأنه أوحي هذا إلى نبينا ، والأنبياء قبله عليهم كلهم صلوات الله وسلامه ، وهو قوله : ﴿ وَلَقَدْ أُوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [ الزمر : 65 ] الآية ، وهذا شرط ، والشرط لا يقتضي جواز الوقوع ، كقوله : ﴿ قُلْ إِن كَانَ للرحمن وَلَدٌ ﴾ [ الزخرف : 81 ] الآية على القول بأن " إِنْ " شرطية وقوله : ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً ﴾ [ الأنبياء : 17 ] الآية ، وقوله ﴿ لَّوْ أَرَادَ الله أَن يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾ [ الزمر : 4 ] الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 1 صـ ﴾

*(231/240)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ " المشار إليه هو المَصْدَرُ المفهوم من الفعل قبله ؛ إما الاجْتِبَاءُ ، وإما الهداية ؛ أي : ذلك الاجتباء هو هُدَى ، أو ذلك الهدى إلى الطريق المستقيم هدى الله ، ويجوز أن يكون " هدى الله " خبراً ، وأن يكون بدلاً من " ذلكط والخبر " يهدي به " ، وعلى الأول " يهدي " حالاً ، والعامل فيه اسم الإشارة ويجوز أن يكون خبراً ثانياً ، و " مِنْ عِبَادِهِط تَبْيِينٌ أو حال ؛ إما مِنْ " مَنْ " وإما من عَائِدِهِ المحذوف . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 268 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيات

قال عليه الرحمة :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (85) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (86) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (87) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (88) ﴾

ذَكَرَ عظيم المِنَّة على كَافَّتِهم – صلوات الله عليهم ، وبَيَّنَ أنه لولا تخصيصه إياهم بالتعريف ، وتفضيله لهم على سواهم بغاية التشريف ، وإلا لم يكن لهم استيجاب ولا استحقاق .

ثم قال : ﴿ ذَلِكَ هُدَى اللهِ . . . . . يَعْمَلُونَ ﴾ يعني لو لاحظوا غيراً ، أَو شاهدوا – من دوننا – شيئاً ، أو نسبوا شظية من الحدثان – إلى غير قدرتنا – في الظهور لتلاشى ما أسلفوه من عرفانهم وإحسانهم ، فإن الله – سبحانه – لا يغفر الشِرْكَ بحالٍ ، وإن كان ( يغفر ) ما دونه لِمنْ أراد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 487 ﴾

قوله تعالى ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (89) ﴾

" فصل "

قال البقاعى :

وزاد في الترهيب من التواني في السير والزيغ عن سوء القصد بقوله : ﴿ أولئك ﴾ أي العالو الرتبة الذين قدمنا ذكرهم وأخبرنا أنهم لو أشركوا سقطت أعمالهم ﴿ الذين آتيناهم ﴾ أي بعظمتنا ﴿ الكتاب ﴾ أي الجامع لكل خير ، فمن ملك ما فيه من العلوم والمعارف حكم على البواطن ، وذلك لأن الناس يحبونه فينقادون له ببواطنهم ﴿ والحكم ﴾ أي العمل المتقن بالعلم ، ومنه نفوذ الكلمة على الظواهر بالسلطنة وإن كرهت البواطن ﴿ والنبوة ﴾ أي العلم المزين بالحكم وهي وضع كل شيء في أحق مواضعه ، فهي جامعة للمرتبتين الماضيتين ، فلذلك كان الأنبياء يحكمون على البواطن بما عندهم من العلم ، وعلى الظواهر بما يظهر من المعجزات ؛ ثم سبب عن تعظيمها بذلك تعظيمَها بأنها لا تبور ، فقال تسلية عن المصيبة بطعن الطاعنين فيها وإعراض الجاهلين عنها وترجية عندما يوجب اليأس من نفرة اكثر المدعوين : ﴿ فإن يكفر بها ﴾ أي هذه الأشياء العظيمة ﴿ هؤلاء ﴾ أي أهل مكة الذين أنت بين أظهرهم ، وقد حبوناهم بها على أتم وجه وأكمله

وأعلاه وأجمله ، وأنت تدعوهم إلى أن يكونوا سعداء بما اشتملت عليه من الهدى وهم عنه معرضون ، ولعل الإشارة على هذا الوجه لتحقيرهم ﴿ فقد وكلنا ﴾ أي لما لنا من العظمة في الماضي والحال والاستقبال ﴿ بها قوماً ﴾ أي ذوي قوة على القيام بالأمور بالإيمان بها والحفظ لحقوقها ﴿ ليسوا ﴾ وقدم الجار اهتماماً فقال : ﴿ بها بكافرين ﴾ أي بساترين الشيء مما ظهر من شموس أدلتها ، وهم الأنبياء ومن تبعهم ، وقد صدق الله – ومن أصدق من الله حديثاً ! فقد جاء في هذه الأمة من العلماء الأخيار والراسخين الأحبار من لا يحصيهم إلا الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 670 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن قوله : ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى الذين مضى ذكرهم قبل ذلك وهم الأنبياء الثمانية عشر الذين ذكرهم الله تعالى قبل ذلك ، ثم ذكر تعالى أنه آتاهم الكتاب والحكم والنبوة .

*(233/240)*

---

واعلم أن العطف يوجب المغايرة ، فهذه الألفاظ الثلاثة لا بد وأن تدل على أمور ثلاثة متغايرة .

واعلم أن الحكام على الخلق ثلاث طوائف : أحدها : الذين يحكمون على بواطن الناس وعلى أرواحهم ، وهم العلماء .

وثانيها : الذين يحكمون على ظواهر الخلق ، وهم السلاطين يحكمون على الناس بالقهر والسلطنة ، وثالثها : الأنبياء ، وهم الذين أعطاهم الله تعالى من العلوم والمعارف ما لأجله بها يقدرون على التصرف في بواطن الخلق وأرواحهم ، وأيضاً أعطاهم من القدرة والمكنة ما لأجله يقدرون على التصرف في ظواهر الخلق ، ولما استجمعوا هذين الوصفين لا جرم كانوا هم الحكام على الإطلاق .

إذا عرفت هذه المقدمة فقوله : ﴿ آتيناهم الكتاب ﴾ إشارة إلى أنه تعالى أعطاهم العلم الكثير وقوله : ﴿ والحكم ﴾ إشارة إلى أنه تعالى جعلهم حكاماً على الناس نافذي الحكم فيهم بحسب الظاهر .

وقوله : ﴿ والنبوة ﴾ إشارة إلى المرتبة الثالثة ، وهي الدرجة العالية الرفيعة الشريفة التي يتفرع على حصولها حصول المرتبتين المقدمتين المذكورتين ، وللناس في هذه الألفاظ الثلاثة تفسيرات كثيرة ، والمختار عندنا ما ذكرناه .

واعلم أن قوله : ﴿ آتيناهم الكتاب ﴾ يحتمل أن يكون المراد من هذا الإيتاء الابتداء بالوحي والتنزيل عليه كما في صحف إبراهيم وتوراة موسى ، وإنجيل عيسى عليه السلام ، وقرآن محمد صلى الله عليه وسلم .

ويحتمل أن يكون المراد منه أن يؤتيه الله تعالى فهماً تاماً لما في الكتاب وعلماً محيطاً بحقائقه وأسراره ، وهذا هو الأولى .

لأن الأنبياء الثمانية عشر المذكورين ما أنزل الله تعالى على كل واحد منهم كتاباً إلهياً على التعيين والتخصيص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 56 ﴾

*(234/240)*

---

وقال أبو حيان :

﴿ أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ﴾

لما ذكر أنه تعالى فضلهم واجتباهم وهداهم ذكر ما فضلوا به ، والكتاب : جنس للكتب الإلهية كصحف إبراهيم والتوراة والزبور والإنجيل ، والحكم : الحكمة أو الحكم بين الخصوم أو ما شرعوه أو فهم الكتاب أو الفقه في دين الله أقوال ، وقال أبو عبد الله الرازي : ﴿ آتيناهم الكتاب ﴾ هي رتبة العلم يحكمون بها على بواطن الناس وأرواحهم و ﴿ الحكم ﴾ مرتبة نفوذ الحكم بحسب الظاهر و ﴿ النبوة ﴾ المرتبة الثالثة وهي التي يتفرع على حصولها حصول المرتبتين فالحكام على الخلق ثلاث طوائف . انتهى ملخصاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

---

وقال الآلوسى :

﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المذكورين من الأنبياء الثمانية عشر والمعطوفين عليهم عليهم السلام باعتبار اتصافهم بما ذكر من الهداية وغيرها من النعوت الجليلة كما قيل .

واقتصر الإمام على المذكورين من الأنبياء ، وعن ابن بشير قال : سمعت رجلاً سأل الحسن عن أولئك فقال له : من في صدر الآية وهو مبتدأ خبره قوله سبحانه : ﴿ الذين ءاتيناهم الكتاب ﴾ أي جنسه .

والمراد بإيتائه التفهيم التام لما فيه من الحقائق والتمكين من الإحاطة بالجلائل والدقائق أعم من أن يكون ذلك بالإنزال ابتداء وبالإيراث بقاء فإن ممن ذكر من لم ينزل عليه كتاب معين .

﴿ والحكم ﴾ أي فصل الأمر بين الناس بالحق أو الحكمة وهي معرفة حقائق الأشياء ﴿ والنبوة ﴾ فسرها بعضهم بالرسالة وعلل بأن المذكورين هنا رسل لكن في "المحاكمات" لمولانا أحمد بن حيدر الصفوي أن داود عليه السلام ليس برسول وإن كان له كتاب ولم أجد في ذلك نصاً .

وذهب بعضهم إلى أن يوسف بن يعقوب عليه السلام ليس برسول أيضاً .

ويوسف في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بالبينات ﴾ [ غافر : 34 ] ليس هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام وإنما هو يوسف بن إفراثيم بن يوسف بن يعقوب وهو غريب .

وأغرب منه القول بأنه كان من الجن رسولاً إليهم .

وقال الشهاب : قد يقال إنما ذكر الأعم في النظم الكريم لأن بعض من دخل في عموم آبائهم وذرياتهم ليسوا برسل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾

استئناف ابتدائي للتّنويه بهم ، فهي فذلكة ثانية ، لأنّ الفذلكة الأولى راجعة إلى ما في الجمل السابقة من الهدى وهذه راجعة إلى ما فيها من المهدّيين .

واسم الإشارة لزيادة الاعتناء بتمييزهم وإخطار سيرتهم في الأذهان .

والمشار إليهم هم المعيَّنون بأسمائهم والمذكورون إجمالاً في قوله : ﴿ ومن آبائهم وذرّياتهم وإخوانهم ﴾ [ الأنعام : 87 ] .

و ﴿ الّذين آتيناهم الكتاب ﴾ خبر عن اسم الإشارة .

والمراد بالكتاب الجنس : أي الكتب .

وإيتاء الكتاب يكون بإنزال ما يكتب ، كما أنزل على الرسل وبعضِ الأنبياء ، وما أنزل عليهم يعتبر كتاباً ، لأنّ شأنه أن يكتب سواء كتب أم لم يكتب .

وقد نصّ القرآن على أنّ إبراهيم كانت له صُحُف بقوله : ﴿ صحف إبراهيم وموسى ﴾ [ الأعلى : 19 ] وكان لعيسى كلامه الذي كتب في الإنجيل .

ولداوود الكلام الصادر منه تبليغاً عن الله تعالى ، وكان نبيئاً ولم يكن رسولاً ، ولسليمان الأمثال ، والجامعة ، والنشيد المنسوب في ثلاثتها أحكامٌ أمر الله بها .

ويقال : إنّ إدريس كتب الحكمة في صحف وهو الّذي يُسمّيه الإسرائيليون ( أخنوخ ) ويدعوه القبط ( توت ) ويدعوه الحكماء ( هُرْمس ) .

ويكون إيتاء الكتاب بإيتاء النّبيء فهْم ونبيِنَ الكتب المنزّلة قبله ، كما أوتي أنبياء بني إسرائيل من بعد موسى أمثال يحيى فقد قال تعالى له ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوّة ﴾ [ مريم : 12 ] .

والحُكم هو الحكمة ، أي العلم بطرق الخير ودفع الشرّ .

قال تعالى في شأن يحيى ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ [ مريم : 12 ] ، ولم يكن يحيى حاكماً أي قاضياً ، وقد يفسّر الحكم بالقضاء بالحقّ كما في قوله تعالى في شأن داوود وسليمان ﴿ وكلاًّ آتينا حُكماً وعلماً ﴾ [ الأنبياء : 79 ] .

وإيتاء هذه الثلاث على التّوزيع ، فمنهم من أوتي جميعها وهم الرسل منهم والأنبياء الّذين حكموا بين النّاس مثل داوود وسليمان ، ومنهم من أوتي بعضَها وهم الأنبياء غير الرّسل والصّالحون منهم غير الأنبياء ، وهذا باعتبار شمول اسم الإشارة لآبائهم وذرّياتهم وإخوانهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

*(237/240)*

---

قوله تعالى ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هؤلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بكافرين ﴾

فصل

قال الفخر :

المراد فإن يكفر بهذا التوحيد والطعن في الشرك كفار قريش ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بكافرين ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اختلفوا في أن ذلك القوم من هم ؟ على وجوه ، فقيل : هم أهل المدينة وهم الأنصار ، وقيل : المهاجرون والأنصار ، وقال الحسن : هم الأنبياء الثمانية عشر الذين تقدم ذكرهم وهو اختيار الزجاج .

قال الزجاج: والدليل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية: ﴿أولئك الذين هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقتده﴾ وقال أبو رجاء: يعني الملائكة وهو بعيد لأن اسم القوم قلما يقع على غير بني آدم، وقال مجاهد هم الفرس، وقال ابن زيد: كل من لم يكفر فهو منهم سواء كان ملكاً أو نبياً أو من الصحابة أو من التابعين.

المسألة الثانية:

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بكافرين﴾ يدل على أنه إنما خلقهم للإيمان. وأما غيرهم فهو تعالى ما خلقهم للإيمان، لأنه تعالى لو خلق الكل للإيمان كان البيان والتمكين وفعل الألطاف مشتركاً فيه بين المؤمن وغير المؤمن، وحينئذ لا يبقى لقوله: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بكافرين﴾ معنى.

وأجاب الكعبي عنه من وجهين:

الأول: أنه تعالى زاد المؤمنين عند إيمانهم وبعده من ألطافه وفوائده وشريف أحكامه ما لا يحصيه إلا الله، وذكر في الجواب وجهاً ثانياً، فقال: وبتقدير: أن يسوى لكان بعضهم إذا قصر ولم ينتفع صح أن يقال بحسب الظاهر أن لم يحصل له نعم الله كالوالد الذي يسوي بين الولدين في العطية، فإنه يصح أن يقال: إنه أعطى أحدهما دون الآخر إذا كان ذلك الآخر ضيعه وأفسده.

واعلم أن الجواب الأول ضعيف، لأن الألطاف الداعية إلى الإيمان مشتركة فيما بين الكافر

والمؤمن ؛ والتخصيص عند المعتزلة غير جائز ، والثاني : أيضاً فاسد .

لأن الوالد لما سوى بين الولدين في العطية ، ثم إن أحدهما ضيع نصيبه ، فأي عاقل يجوز أن يقال أن الأب ما أنعم عليه ، وما أعطاه شيئاً .

المسألة الثالثة :

دلت هذه الآية على أنه تعالى سينصر نبيه ويقوي دينه ، ويجعله مستعلياً على كل من عاداه ، قاهراً لكل من نازعه ، وقد وقع هذا الذي أخبر الله تعالى عنه في هذا الموضع ، فكان هذا جارياً مجرى الأخبار عن الغيب ، فيكون معجزاً . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 56. 57 ﴾

*(238/240)*

---

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ فيهم خمسة أقاويل :

أحدها : فإن تكفر بها قريش فقد وكلنا بها الأنصار ، قاله الضحاك .

والثاني : فإن يكفر بها أهل مكة فقد وكلنا بها أهل المدينة ، قاله ابن عباس .

والثالث : فإن تكفر بها قريش فقد وكلنا بها الملائكة ، قاله أبو رجاء .

والرابع : أنهم الأنبياء الثمانية عشر الذين ذكرهم الله تعالى من قبل بقوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ ، قاله الحسن ، وقتادة .

والخامس : أنهم كل المؤمنين ، قاله بعض المتأخرين .

ومعنى قوله : ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا ﴾ أي أقمنا بحفظها ونصرتها ، يعني : كتب الله وشريعة دينه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

*(239/240)*

---

وقال أبو السعود :

﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا ﴾ أي بهذه الثلاثة أو بالنبوة الجامعة للباقين ﴿ هَؤُلاء ﴾ أي كفارُ قريشٍ فإنهم بكفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وما أنزل عليه من القرآن كافرون بما يصدّقه جميعاً ، وتقديمُ الجارّ والمجرور على الفاعل لما مر مراراً من الاهتمام بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخّر ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا ﴾ أي أمَرْنا بمراعاتها ووفَّقْنا للإيمان بها والقيامِ بحقوقها ﴿ قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بكافرين ﴾ أي في وقت من الأوقات ، بل مستمرون على الإيمان بها ، فإن الجملةَ الاسميةَ الإيجابية كما تفيد دوامَ الثبوت كذلك السلبيةُ تُفيدُ دوامَ النفي بمعونةِ المقام ، لا نفيَ

الدوام كما حُقِّق في مقامه ، قال ابنُ عباس ومجاهدٌ رضي الله تعالى عنهما : هم الأنصارُ وأهلُ المدينة ، وقيل : أصحابُ النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل : كل مؤمن من بني آدم ، وقيل : الفرس ، فإن كلاًّ من هؤلاء الطوائف موَفّقون للإيمان بالأنبياء وبالكتب المُنْزَلة إليهم ، عاملون بما فيها من أصول الشرائعِ وفروعِها الباقية في شريعتنا ، وبه يتحقق الخروجُ عن عُهدة التوكيل والتكليفِ دون المنسوخة منها ، فإنها بانتساخها خارجة عن كونها من أحكامها ، وقد مر تحقيقُه في تفسير سورة المائدة .

*(240/240)*

---

وقيل : هو الأنبياءُ المذكورون ، فالمرادُ بالتوكيل الأمرُ بما هو أعمُّ من إجراء أحكامِها كما هو شأنُها في حق كتابهم ومِن اعتقاد حقّيتِها كما هو شأنُها في حق سائرِ الكتبِ التي من جملتها القرآنُ الكريم ، وقيل : هم الملائكةُ فالتوكيل هو الأمرُ بإنزالها وحفظِها واعتقادِ أحقّيتها ، وأياً ما كان فتنكيرُ ( قوماً ) للتفخيم . والباء الأولى صلة وكلنا على مفعوله الصريح ، فِلما ذكر آنفاً من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر ، ولأن فيه نوعَ طولٍ ربما يؤدّي تقديمُه إلى الإخلال بتجاوب النظم الكريم ، أو إلى الفصلِ بين الصفةِ والموصوف ، وجوابُ الشرط محذوفٌ يدل عليه المذكور ، أي فإن يكفُرْ بها هؤلاءِ فلا اعتدادَ به أصلاً ،

فقد وفّقنا للإيمان بها قوماً فِخاماً ليسوا بكافرين بها قطعاً ، بل مستمرون على الإيمان بها ، والعملِ بما فيها ، ففي إيمانهم بها مندوحةٌ عن إيمان هؤلاء ، ومن هذا تبيّن أن الوجه أن يكونَ المرادُ بالقوم إحدى الطوائفِ المذكورة ، إذْ بإيمانهم بالقرآن والعملِ بأحكامه تتحقّقُ الغُنية عن إيمان الكَفَرة به والعملِ بأحكامه وأما الأنبياءُ والملائكةُ عليهم السلام فإيمانُهم به ليس من قبيل إيمانِ آحادِ الأمةِ كما أشير إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

*(241/240)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا ﴾ أي بهذه الثلاثة أو بالنبوة الجامعة للباقين ﴿ هَؤُلاء ﴾ أي أهل مكة كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقتادة مع دلالة الإشارة والمقام على ما قيل .

وقيل : المراد بهم الكفار الذين جحدوا بنبوته صلى الله عليه وسلم مطلقاً ، وأياً ما كان فكفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وما أنزل عليه من القرآن يستلزم كفرهم بما يصدقه جميعاً .

وتقديم الجار والمجرور على الفاعل لما مر غير مرة .

﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا ﴾ أي أمرنا برعايتها ووفقنا للإيمان بها والقيام بحقوقها ﴿ قَوْماً ﴾ فخاماً ﴿ لَّيْسُواْ بِهَا بكافرين ﴾ في وقت من الأوقات بل مستمرون على الإيمان بها ، والمراد بهم على ما أخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وعبد بن حميد عن سعيد بن المسيب أهل المدينة من الأنصار .

وقيل : أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مطلقاً ، وقيل : كل مؤمن من بني آدم عليه السلام .

وقيل : الفرس فإن كلاً من هؤلاء الطوائف موفقون للإيمان بالأنبياء وبالكتب المنزلة إليهم عاملون بما فيها من أصول الشرائع وفروعها الباقية في شريعتنا .

وعن قتادة أنهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المذكورون وعليه يكون المراد بالتوكيل الأمر بما هو أعم من إجراء أحكامها كما هو شأنهم في حق كتابهم ومن اعتقاد حقيتها كما هو شأنهم في حق سائر الكتب التي ( نور فرقها ) القرآن ، ورجح واختار هذا الزجاج ورجحه الزمخشري بوجهين ، الأول : أن الآية التي بعد إشارة إلى الأنبياء المذكورين عليهم السلام فإن لم يكن الموكلون هم لزم الفصل بالأجنبي .

الثاني : أنه مرتب بالفاء على ما قبله فيقتضي ذلك ، واستبعده بعضهم فإن الظاهر كون مصدق النبوة ومنكرها مغايراً لمن أوتيها .

وأخرج ابن حميد وغيره عن أبي رجاء العطاري أنهم الملائكة فالتوكيل حينئذ هو الأمر بإنزالها وحفظها واعتقاد حقيتها ، واستبعده الإمام لأن القوم قلما يقع على غير بني آدم ، وأياً ما كان فتنوين ﴿ قَوْماً ﴾ للتفخيم كما أشرنا إليه .

وهو مفعول ﴿ وَكَّلْنَا ﴾ و ﴿ بِهَا ﴾ قبله متعلق بما عنده ، وتقديمه على المفعول الصريح لما مر ولأن فيه طولاً ربما يؤدي تقديمه إلى الإخلال بتجاوب النظم الكريم أو إلى الفصل بين الصفة والموصوف ، والباء التي بعد صلة لكافرين قدمت محافظة على الفواصل والتي بعدها لتأكيد النفي .

وجواب الشرط محذوف يدل عليه جملة ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا ﴾ الخ أي فإن يكفر بها هؤلاء فلا اعتداد به أصلاً فقد وفقنا للإيمان قوماً مستمرين على الإيمان بها والعمل بما فيها ففي إيمانهم مندوحة عن إيمان هؤلاء ، ومن هذا يعلم أن الأرجح كما قال شيخ الإسلام تفسير القوم بإحدى الطوائف ممن عدا الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام إذ بإيمانهم بالقرآن والعمل بأحكامه يتحقق الغنية عن إيمان الكفرة به والعمل بأحكامه ولا كذلك إيمان الأنبياء والملائكة عليهم السلام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

والفاء في قوله : ﴿ فإن يكفر ﴾ عاطفة جملة الشّرط على جملة ﴿ أولئك الّذين آتيناهم الكتاب ﴾ عقّبت بجملة الشّرط وفرّعت عليها لأنّ الغرض من الجمل السابقة من قوله ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر ﴾ [ الأنعام : 74 ] هو تشويه أمر الشرك بالاستدلال على فساده بنبذ أهل الفضل والخير إيّاه ، فكان للفاء العاطفة عقب ذلك موقع بديع من أحكام نظم الكلام .

وضمير ﴿ بها ﴾ عائد إلى المذكورات : الكتاب والحكم والنّبوءة .

*(243/240)*

---

والإشارة في قوله : ﴿ هؤلاء ﴾ إلى المشركين من أهل مكّة ، وهي إشارة إلى حاضر في أذهان السّامعين ، كما ورد في حديث سؤال القبر " فيقال له ما علمك بهذا الرجل " ( يعني النّبيء صلى الله عليه وسلم .

وفي "البخاري" قال الأحنف بن قيس : ذهبتُ لأنصر هذا الرجل ( يعني عليّ بن أبي طالب ) .

وقد تقصيت مواقع آي القرآن فوجدته يعبّر عن مشركي قريش كثيراً بكلمة ( هؤلاء ) ،

كقوله ﴿ بل متّعت هؤلاء وآباءهم ﴾ [ الزخرف : 29 ] ولم أر من نبّه عليه من قبل .

وكُفر المشركين بنبوءة أولئك الأنبياء تابع لكفرهم بمحمّد صلى الله عليه وسلم ولذلك حكى الله عنهم بعْدُ أنّهم ﴿ قالوا ما أنزل الله على بشر مِن شيء ﴾ [ الأنعام : 91 ] .

ومعنى : ﴿ وكّلْنا بها ﴾ وفّقْنا للإيمان بها ومراعاتها والقيام بحقّها .

فالتّوكيل هنا استعارة ، لأنّ حقيقة التّوكيل إسناد صاحب الشيء تدبيرَ شيئه إلى من يتولّى تدبيره ويكفيه كلفةَ حفظه ورعاية ما به بقاؤُه وصلاحُه ونماؤُه .

يقال : وكّلته على الشيء ووكّلته بالشيء فيتعدّى بعلى وبالباء .

وقد استعير في هذه الآية للتّوفيق إلى الإيمان بالنّبوءة والكتاب والحكم والنّظر في ما تدعو إليه ورعايته تشبيهاً لتلك الرّعاية برعاية الوكيل ، وتشبيهاً للتّوفيق إليها بإسناد النّظر إلى الوكيل ، لأنّ الوكالة تقتضي وُجود الشيء الموكّل بيد الوكيل مع حفظه ورعايته ، فكانت استعارةُ ﴿ وكّلنا ﴾ لهذا المعنى إيجازاً بديعاً يقابل ما يتضمّنه معنى الكفر بها من إنكارها الّذي فيه إضاعة حدودها .

والقوم هم المؤمنون الّذين آمنوا برسالة محمّد صلى الله عليه وسلم والقرآن وبمَن قبله من الرّسل وما جاءهم من الكتب والحكم والنّبوءة .

والمقصود الأوّل منهم المؤمنون الّذين كانوا بمكّة ومن آمن من الأنصار بالمدينة إذ كانت هذه السّورة قد نزلت قُبيل الهجرة .

---

وقد فسّر في "الكشاف" القوم بالأنبياء المتقدّم ذكرُهم وادّعى أنّ نظم الآية حمله عليه ، وهو تكلّف لا حامل إليه .

ووصفُ القوم بأنّهم ﴿ ليسوا بها بكافرين ﴾ للدّلالة على أنّهم سارعوا إلى الإيمان بها بمجرّد دعوتهم إلى ذلك فلذلك جيء في وصفهم بالجملة الإسميّة المؤلّفة من اسم ( ليس ) وخبرها لأنّ ليس بمنزلة حرف نفي إذ هي فعل غير متصرّف فجملتها تدلّ على دوام نفي الكفر عنهم ، وأدخلت الباء في خبر ( ليس ) لتأكيد ذلك النّفي فصار دوامَ نفي مؤكّداً .

والمعنى إنْ يكفر المشركون بنبوءتك ونبوءةِ مَن قبلك فلا يضرّك كفرهم لأنّا قد وفّقنا قوماً مؤمنين للإيمان بك وبهم ، فهذا تسلية للرّسول صلى الله عليه وسلم على إعراض بعض قومه عن دعوته .

وتقديم المجرور على عامله في قوله ﴿ ليسوا بها بكافرين ﴾ لرعاية الفاصلة مع الاهتمام بمعاد الضمير : الكتاب والحكم والنّبوءة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾

والكتاب هو المنهج ، والحكم وهو ما أعطاه الله لبعضهم من السيطرة والغلبة ، والنبوة ؛ أي أنّه جعلهم نماذج سلوكية للبشر .

﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هؤلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ وسبحانه وتعالى أعطانا نماذج من المهديين في الرسل ، والأنبياء ؛ وفيمن اجتباهم من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ؛ فهؤلاء القوم الذي جئت لتأخذ بيدهم من الظلمات إلى النور ، فإن امتنع بعض الناس عن الهداية فسيوكل الله قوماً آخرين ليحملوا المناهج ليكونوا عنصر الخير الباقي إلى أن تقوم الساعة .

ومَنْ القوم ؟ . قال بعضهم المشار إليه هم قريش ، والمقصود من قوله : ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ هم أهل المدينة أي الأنصار . أو المقصود من النص الكريم كل ممتنع وكافر وكذلك كل مقبل على الله وطائع له أي إن يكفر بها طائفة يوكل الله من يقوم بها ويدافع عنها ويحميها ؛ لأن الله لا ينزل قضية الخير في الخلق وبعد ذلك يطمسها بل لا بد أن يبقيها كحجة على الخلق .

(246/240)

---

﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هؤلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً ﴾ وهذا يدل على أن أهل الخير دائما وكلاء عن الله ؛ لأن الذي يمد يده بالمعونة لضعيف من خلق الله ؛ هذا الضعيف قد استدعاه الله إلى الوجود ، ومن يمد يده بالمعونة فقد جعل من نفسه وكيلاً لربنا ؛ لأنه يقوم بالمطلوب له – سبحانه – وجعل من نفسه سبباً له ؛ لأن الله رب الجميع ، ومربي الجميع ، وراعي الجميع ، ورزّاق الجميع ، وليثق من يقوم بالخير ويجعل من نفسه وكيلاً عن الله في أن يشيع الخير في خلق الله ، ليثق أن الله سيكرمه أضعاف أضعاف ما أعطى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(247/240)

---

ومن فوائد الثعلبى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ واجتبيناهم ﴾ اخترناهم واصطفيناهم ﴾

وَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ سددناهم وأرشدناهم ، ﴿ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * ذلك هُدَى الله يَهْدِي بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ ﴾ يعني ولو أشرك هؤلاء الأنبياء الذين سميناهم بربهم تعالى ذكره فعبدوا معه غيره ﴿ لَحَبِطَ عَنْهُمْ ﴾ بطل عنهم وذهب عنهم ﴿ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * أولئك الذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب ﴾ يعني تلك الكتب ﴿ والحكم والنبوة فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هؤلاء ﴾ يعني قريشاً ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ يعني الأنصار وأهل المدينة .

وقال قتادة : يعني الأنبياء الثمانية عشر الذين قال الله عز وجل ﴿ أولئك الذين هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ بسنّتهم وسيرتهم اقتده الهاء فيه هاء الوقف ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ جعلا ورزقاً ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ ما هو يعني محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ إِلاَّ ذكرى ﴾ عظة ﴿ لِلْعَالَمِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(248/240)

---

ومن فوائد ابن كثير فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ

وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (85) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (86) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (87) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (88) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (89) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ (90) ﴾

يخبر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق ، بعد أن طَعَن في السن ، وأيس هو وامرأته "سارة" من الولد ، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط ، فبشروهما بإسحاق ، فتعجبت المرأة من ذلك

*(249/240)*

---

، وقالت : ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ [هود : 72 ، 73] ، وبشروه مع وجوده بنبوته ، وبأن له نسلا وعَقِبا ، كما قال : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ

بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الصافات : 112] ، وهذا أكمل في البشارة ، وأعظم في النعمة ، وقال : ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود : 71] أي : ويولد لهذا المولود ولد في حياتكما ، فتقر أعينكما به كما قرت بوالده ، فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل والعقب ، ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يَعْقب لضعفه ، وقعت البشارة به وبولده باسم "يعقوب" ، الذي فيه اشتقاق العقب والذرية ، وكان هذا مجازاة لإبراهيم ، عليه السلام ، حين اعتزل قومه وتركهم ، ونزح عنهم وهاجر من بلادهم ذاهبا إلى عبادة الله في الأرض ، فعوضه الله ، عَزَّ وجل ، عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه ، لتقر بهم عينه ، كما قال [تعالى] ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ [مريم : 49] ، وقال هاهنا : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًا هَدَيْنَا ﴾

*(250/240)*

---

وقوله : ﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ أي : من قبله ، هديناه كما هديناه ، ووهبنا له ذرية صالحة ، وكل منهما له خصوصية عظيمة ، أما نوح ، عليه السلام ، فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به – وهم الذين صحبوه في السفينة – جعل الله ذريته هم الباقين ،

فالناس كلهم من ذرية نوح، وكذلك الخليل إبراهيم، عليه السلام، لم يبعث الله، عَزَّ وجل، بعده نبيا إلا من ذريته، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ الآية [العنكبوت: 27]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ [الحديد: 26]، وقال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [مريم: 58].

*(251/240)*

---

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ ﴾ أي: وهدينا من ذريته ﴿ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ الآية، وعود الضمير إلى "نوح"؛ لأنه أقرب المذكورين، ظاهر. وهو اختيار ابن جرير، ولا إشكال عليه. وعوده إلى "إبراهيم"؛ لأنه الذي سبق الكلام من أجله حسن، لكن يشكل على ذلك "لوط"، فإنه ليس من ذرية "إبراهيم"، بل هو ابن أخيه ماذان بن آزر؛ اللهم إلا أن يقال: إنه دخل في الذرية تغليبًا، كما في قوله تعالى: ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: 133]، فإسماعيل عمه

، ودخل في آبائه تغليبا .

[وكما قال في قوله : ﴿ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلا إِبْلِيسَ ﴾ [الحجر : 30 ، 31] فدخل إبليس في أمر الملائكة بالسجود ، وذم على المخالفة ؛ لأنه كان قد تشبه بهم ، فعومل معاملتهم ، ودخل معهم تغليبا ، وكان من الجن وطبيعتهم النار والملائكة من النور]

وفي ذكر "عيسى" ، عليه السلام ، في ذرية "إبراهيم" أو "نوح" ، على القول الآخر دلالة على دخول ولد البنات في ذرية الرجال ؛ لأن "عيسى" ، عليه السلام ، إنما ينسب إلى "إبراهيم" ، عليه السلام ، بأمه "مريم" عليها السلام ، فإنه لا أب له .

*(252/240)*

---

قال ابن أبي حاتم : حدثنا سهل بن يحيى العسكري ، حدثنا عبد الرحمن بن صالح ، حدثنا علي ابن عابس عن عبد الله بن عطاء المكي ، عن أبي حرب بن أبي الأسود قال : أرسل الحجاج إلى يحيى بن يَعْمُر فقال : بَلَغَني أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبي صلى الله عليه وسلم ، تجده في كتاب الله ، وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده ؟ قال : أليس تقرأ سورة الأنعام : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ حتى بلغ ﴿ وَيَحْيَى وَعِيسَى ﴾ ؟ قال : بلى ، قال : أليس عيسى من ذرية إبراهيم ، وليس له أب ؟ قال : صدقت .

فلهذا إذا أوصى الرجل لذريته ، أو وقف على ذريته أو وهبهم ، دخل أولاد البنات فيهم ، فأما إذا أعطى الرجل بنيه أو وقف عليهم ، فإنه يختص بذلك بنوه لصلبه وبنو بنيه ، واحتجوا بقول الشاعر العربي :

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا . . . بنوهن أبناء الرجال الأجانب (1)

وقال آخرون : ويدخل بنو البنات فيه أيضا ، لما ثبت في صحيح البخاري ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للحسن بن علي : "إن ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين" (2) فسماه ابنا ، فدل على دخوله في الأبناء .

وقال آخرون : هذا تجوز .

وقوله : ﴿ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ﴾ ذكر أصولهم وفروعهم . وذوي طبقتهم ، وأن الهداية والاجتباء شملهم كلهم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

---

(1) ذكره ابن عقيل في شواهده على ألفية ابن مالك برقم (51) . وعنده "الأباعد" بدل "الأجانب" .

(2) صحيح البخاري برقم (2704) من حديث أبي بكرة ، رضي الله عنه .

ثم قال: ﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أي: إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهدايته إياهم، ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ تشديد لأمر الشرك، وتغليظ لشأنه، وتعظيم لملابسته، كما قال [تعالى] ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ الآية [الزمر: 65]، وهذا شرط، والشرط لا يقتضي جواز الوقوع، كقوله [تعالى] ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ [الزخرف: 81]، وكقوله ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: 17] وكقوله ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [الزمر: 4].

وقوله: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ أي: أنعمنا عليهم بذلك رحمة للعباد بهم، ولطفا منا بالخليقة، ﴿ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا ﴾ أي: بالنبوة. ويحتمل أن يكون الضمير عائدا على هذه الأشياء الثلاثة: الكتاب، والحكم، والنبوة.

وقوله: ﴿ هَؤُلَاءِ ﴾ يعني: أهل مكة. قاله ابن عباس، وسعيد بن المُسَيَّب، والضحاك، وقتادة، والسُّدِّي. ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ أي: إن يكفر بهذه النعم من كفر بها من قريش وغيرهم من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، وملبين وكتابيين، فقد وكلنا بها قوما ﴿ آخَرِينَ ﴾ يعني: المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم

القيامة ، ﴿ لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ أي : لا يجحدون شيئا منها ، ولا يردون منها حرفًا واحدًا ، بل يؤمنون بجميعها محكمها ومتشابهها ، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه وإحسانه .

*(254/240)*

---

ثم قال تعالى مخاطبا عبده ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم : ﴿ أُولَئِكَ ﴾ يعني : الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والإخوان وهم الأشباه ﴿ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ أي : هم أهل الهداية لا غيرهم ، ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ ﴾ أي : اقتد واتبع . وإذا كان هذا أمرا للرسول صلى الله عليه وسلم ، فأمته تبع له فيما يشرعه [لهم] ويأمرهم به .

قال البخاري عند هذه الآية : حدثنا إبراهيم بن موسى ، أخبرنا هشام ، أن ابن جريج أخبرهم قال : أخبرني سليمان الأحول ، أن مجاهدا أخبره ، أنه سأل ابن عباس : أفي (ص) سجدة ؟ فقال : نعم ، ثم تلا ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ ﴾ ثم قال : هو منهم – زاد يزيد بن هارون ، ومحمد بن عبيد ، وسهل بن يوسف ، عن العوام ، عن مجاهد قال : قلت لابن عباس ، فقال : نبيكم صلى الله عليه وسلم ممن أُمِرَ أن يَقْتَدي بهم (1)

وقوله : ﴿ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ أي : لا أطلب منكم على إبلاغي إياكم هذا القرآن ﴿ أَجْرًا ﴾ أي : أجرة ، ولا أريد منكم شيئًا ، ﴿ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴾ أي : يتذكرون به فَيُرْشَدُوا من العمى إلى الهدى ، ومن الغي إلى الرشاد ، ومن الكفر إلى الإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 297 . 299 ﴾

---

(1) صحيح البخاري برقم (4632) .

*(255/240)*

---

ومن فوائد البيضاوى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إسحاق وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا ﴾ أي كلا منهما . ﴿ وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ من قبل إبراهيم ، عد هداه نعمة على إبراهيم من حيث إنه أبوه وشرف الوالد يتعدى إلى الولد . ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ ﴾ الضمير لإبراهيم عليه الصلاة والسلام إذ الكلام فيه . وقيل لنوح عليه السلام لأنه أقرب ولأن يونس ولوطاً ليسا من ذرية إبراهيم ، فلو كان لإبراهيم اختص البيان بالمعدودين في تلك الآية والتي بعدها والمذكورون في الآية الثالثة عطف على نوحاً .

﴿ دَاوُودُ وسليمان وَأَيُّوبَ ﴾ أيوب بن أموص من أسباط عيص بن إسحاق . ﴿

ويُوسُفَ وموسى وهارون وكَذَلِكَ نَجْزِى المحسنين ﴾ أي ونجزي المسحنين جزاء مثل ما جزينا إبراهيم برفع درجاته وكثر أولاده والنبوة فيهم .

﴿ وَزَكَرِيَّا ويحيى وعيسى ﴾ هو ابن مريم وفي ذكره دليل على أن الذرية تتناول أولاد البنت . ﴿ وَإِلْيَاسَ ﴾ قيل هو إدريس جد نوح فيكون البيان مخصوصاً بمن في الآية الأولى . وقيل هو من أسباط هارون أخي موسى . ﴿ كُلٌّ مّنَ الصالحين ﴾ الكاملين في الصلاح وهو الإِتيان بما ينبغي والتحرز عما لا ينبغي .

﴿ وإسماعيل واليسع ﴾ هو الليسع بن أخطوب . وقرأ حمزة والكسائي "والليسع" وعلى القراءتين هو علم أعجمي أدخل عليه اللام كما أدخل على اليزيد في قوله :

رَأَيتُ الوَلِيْدَ بن اليزيد مُبَارَكا . . . شَدِيداً بِأَعْبَاءِ الخِلاَفَةِ كَاهِلُهُ

﴿ ويُونُسَ ﴾ هو يونس بن متى . ﴿ ولُوطاً ﴾ هو ابن هاران أخي إبراهيم . ﴿ وكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى العالمين ﴾ بالنبوة ، وفيه دليل على فضلهم على من عداهم من الخلق .

*(256/240)*

---

﴿ وَمِنْ ءابَائِهِمْ وذرياتهم وإخوانهم ﴾ عطف على ﴿ كَلاًّ ﴾ أو ﴿ نُوحاً ﴾ أي فضلنا كلاً منهم ، أو هدينا هؤلاء وبعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم فإن منهم من لم يكن نبياً

ولا مهدياً . ﴿ واجتبيناهم ﴾ عطف على ﴿ فَضَّلْنَا ﴾ أو ﴿ هَدَيْنَا ﴾ . ﴿ وهديناهم إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ تكرير لبيان ما هدوا إليه .

﴿ ذلك هُدَى الله ﴾ إشارة إلى ما دانوا به . ﴿ يَهْدِى بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ دليل على أنه متفضل عليهم بالهداية . ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُواْ ﴾ أي ولو أشرك هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع فضلهم وعلو شأنهم . ﴿ لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ لكانوا كغيرهم في حبوط أعمالهم بسقوط ثوابها .

﴿ أولئك الذين ءاتيناهم الكتاب ﴾ يريد به الجنس . ﴿ والحكم ﴾ الحكمة أو فصل الأمر على ما يقتضيه الحق . ﴿ والنبوة ﴾ والرسالة . ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا ﴾ أي بهذه الثلاثة . ﴿ هَؤُلاء ﴾ يعني قريشاً . ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا ﴾ أي بمراعاتها . ﴿ قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بكافرين ﴾ وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المذكورون ومتابعوهم . وقيل هم الأنصار أو أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، أو كل من آمن به أو الفرس . وقيل الملائكة .

*(257/240)*

﴿ أُوْلَئِكَ الذين هَدَى الله ﴾ يريد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام المتقدم ذكرهم . ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ فاختص طريقهم بالاقتداء والمراد بهداهم ما توافقوا عليه من التوحيد وأصول الدين دون الفروع المختلف فيها ، فإنها ليست هدى مضافاً إلى الكل ولا يمكن التأسي بهم جميعاً . فليس فيه دليل على أنه عليه الصلاة والسلام متعبد بشرع من قبله ، والهاء في ﴿ اقتده ﴾ للوقف ومن أثبتها في الدرج ساكنة كابن كثير ونافع وأبي عمرو وعاصم أجرى الوصل مجرى الوقف ، ويحذف الهاء في الوصل خاصة حمزة والكسائي وأشبعها بالكسر ابن عامر برواية ابن ذكوان على أنها كناية المصدر وكسرها بغير إشباع برواية هشام . ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على التبليغ أو القرآن . ﴿ أَجْراً ﴾ جعلاً من جهتكم كما لم يسأل من قبلي من النبيين ، وهذا من جملة ما أمر بالاقتداء بهم فيه . ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي التبليغ أو القرآن أو الغرض . ﴿ إِلاَّ ذكرى للعالمين ﴾ إلا تذكيراً وموعظة لهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 426 . 428 ﴾

ومن فوائد الشوكانى فى الآيات

قال رحمه الله :

قوله : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ ﴾ معطوف على جملة ﴿ وتلك حجتنا ﴾ عطف جملة فعلية على جملة اسمية .

وقيل : معطوف على ﴿ آتيناها ﴾ والأوّل أولى .

والمعنى : ووهبنا له ذلك جزاء له على الاحتجاج في الدين وبذل النفس فيه ، و ﴿ كُلاًّ هَدَيْنَا ﴾ انتصاب ﴿ كلاً ﴾ على أنه مفعول لما بعده مقدّم عليه للقصر ، أي كل واحد منهما هديناه ، وكذلك نوحاً منصوب بهدينا الثاني ، أو بفعل مضمر يفسره ما بعده ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ ﴾ أي من ذرية إبراهيم ، وقال الفراء : من ذرية نوح.

*(258/240)*

---

واختاره ابن جرير الطبري ، والقشيري ، وابن عطية ، واختار الأوّل الزجاج ، واعترض عليه بأنه عدّ من هذه الذرية يونس ولوطاً ، وما كان من ذرية إبراهيم ، فإن لوطاً هو ابن أخي إبراهيم ، وانتصب ﴿ دَاوُودُ وسليمان ﴾ بفعل مضمر ، أي وهدينا من ذرية داود وسليمان ، وكذلك ما بعدها ، وإنما عدّ الله سبحانه هداية هؤلاء الأنبياء من النعم التي عدّدها على إبراهيم ، لأن شرف الأبناء متصل بالآباء .

ومعنى ﴿ من قبل ﴾ في قوله : ﴿ وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل إبراهيم ، والإشارة بقوله : ﴿ وكذلك ﴾ إلى مصدر الفعل المتأخر ، أي ومثل ذلك الجزاء ﴿ نَجْزِى المحسنين ﴾ .

﴿ وَإِلْيَاسَ ﴾ قال الضحاك : هو من ولد إسماعيل ، وقال القتيبي : هو من سبط يوشع ابن

نون ، وقرأ الأعرج والحسن ، وقتادة " وَإِلْيَاسَ " بوصل الهمزة ، وقرأ أهل الحرمين وأبو عمرو وعاصم "واليسع" مخففاً .

وقرأ الكوفيون إلا عاصماً بلامين ، وكذلك قرأ الكسائي ، ورد القراءة الأولى ، ولا وجه للردّ فهو اسم أعجمي ، والعجمة لا تؤخذ بالقياس ، بل تؤدي على حسب السماع ، ولا يمتنع أن يكون في الاسم لغتان للعجم ، أو تغيره العرب تغييرين .

قال المهدوي : من قرأ بلام واحدة فالاسم يسع والألف واللام مزيدتان ، كما في قول الشاعر :

رأيت الوليد بن اليزيد مباركا . . . شديداً بأعباء الخلافة كاهله

ومن قرأ بلامين فالاسم ليسع ، وقد توهم قوم أن اليسع هو إلياس وهو وهم ، فإن الله أفرد كل واحد منهما ، وقال وهب : اليسع صاحب إلياس ، وكانوا قبل يحيى وعيسى وزكريا .

وقيل : إلياس هو إدريس ، وهذا غير صحيح ، لأن إدريس جدّ نوح وإلياس من ذريته .

وقيل : إلياس هو الخضر وقيل : لا بل اليسع هو الخضر ﴿ وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى العالمين ﴾ أي كل واحد فضلناه بالنبوّة على عالمي زمانه ، والجملة معترضة .

قوله : ﴿ وَمِنْ ءَابَائِهِمْ وذرياتهم وإخوانهم ﴾ أي هدينا ، و"من" للتبعيض ، أي هدينا بعض آبائهم وذرياتهم وأزواجهم ﴿ واجتبيناهم ﴾ معطوف على فضلنا .

والاجتباء : الاصطفاء أو التخليص أو الاختيار ، مشتق من جبيت الماء في الحوض جمعته ، فالاجتباء : ضم الذي تجتبيه إلى خاصتك .

قال الكسائي : جبيت الماء في الحوض جباً مقصورة ، والجابية الحوض ، قال الشاعر : كجابية الشيخ العراقي تفهق . . . والإشارة بقوله : ﴿ ذلك هُدَى الله ﴾ إلى الهداية والتفضيل والاجتباء المفهومة من الأفعال السابقة ﴿ يَهْدِى بِهِ ﴾ الله ﴿ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ وهم الذين وفقهم للخير واتباع الحق ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُواْ ﴾ أي هؤلاء المذكورون بعبادة غير الله ﴿ لَحَبِطَ عَنْهُمْ ﴾ من حسناتهم ﴿ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ والحبوط البطلان .

وقد تقدّم تحقيقه في البقرة .

والإشارة بقوله : ﴿ أولئك الذين ءاتيناهم الكتاب ﴾ إلى الأنبياء المذكورين سابقاً ، أي جنس الكتاب ، ليصدق على كل ما أنزل على هؤلاء المذكورين : ﴿ والحكم ﴾ العلم ﴿ والنبوة ﴾ الرسالة ، أي ما هو أعمّ من ذلك ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء ﴾ الضمير في بها للحكم والنبوّة والكتاب ، أو للنبوّة فقط ، والإشارة بهؤلاء إلى كفار قريش المعاندين لرسول

الله صلى الله عليه وسلم ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً ﴾ هذا جواب الشرط ، أي ألزمنا بالإيمان بها قوماً ﴿ لَّيْسُواْ بِهَا بكافرين ﴾ وهم المهاجرون والأنصار أو الأنبياء المذكورون سابقاً ، وهذا أولى لقوله فيما بعد : ﴿ أُوْلَئِكَ الذين هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ فإن الإشارة إلى الأنبياء المذكورين لا إلى المهاجرين والأنصار ، إذ لا يصح أن يؤمر النبي صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بهداهم ، وتقديم بهداهم على الفعل يفيد تخصيص هداهم بالاقتداء .

والاقتداء طلب موافقة الغير في فعله .

وقيل المعنى : اصبر كما صبروا .

*(260/240)*

---

وقيل : اقتد بهم في التوحيد ، وإن كانت جزئيات الشرائع مختلفة ، وفيها دلالة على أنه صلى الله عليه وسلم مأمور بالاقتداء بمن قبله من الأنبياء فيما لم يرد عليه فيه نصّ .

قوله : ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ أمره الله بأن يخبرهم بأنه لا يسألهم أجراً على القرآن ، وأن يقول لهم ما ﴿ هُوَ إِلاَّ ذكرى ﴾ يعني القرآن ﴿ للعالمين ﴾ أي موعظة وتذكير للخلق كافة ، الموجودين عند نزوله ، ومن سيوجد من بعد .

وقد أخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن محمد بن كعب قال : الخال والد والعم والد ، نسب الله عيسى إلى أخواله فقال : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ ﴾ حتى بلغ إلى قوله : ﴿ وَزَكَرِيَّا ويحيى وعيسى ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ ، والحاكم ، والبيهقي عن عبد الملك بن عمير قال : دخل يحيى بن يعمر على الحجاج فذكر الحسين ، فقال الحجاج : لم يكن من ذرية النبي ، فقال يحيى : كذبت ، فقال : لتأتيني على ما قلت ببينة ، فتلا : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَعِيسَى ﴾ فأخبر الله أن عيسى من ذرية آدم بأمه ، فقال : صدقت .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي حرب بن أبي الأسود قال : أرسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر فقال : بلغني أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبي تجده في كتاب الله ؟ وقد قرأته من أوّله إلى آخره فلم أجده ، فذكر يحيى بن يعمر نحو ما تقدم .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد في قوله : ﴿ واجتبيناهم ﴾ قال : أخلصناهم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن زيد في قوله : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ قال : يريد هؤلاء الذين هديناهم وفعلنا بهم .

وأخرج أبو الشيخ ، عن مجاهد قال : الحكم : اللب .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء ﴾ يعني أهل مكة .

(261/240)

---

يقول : إن يكفروا بالقرآن ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بكافرين ﴾ يعني أهل المدينة والأنصار .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً ﴾ قال : هم الأنبياء الثمانية عشر الذين قال الله فيهم ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن أبي رجاء العطاردي قال في الآية : هم الملائكة .

وأخرج البخاري ، والنسائي وغيرهما ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقتدي بهداهم وكان يسجد في ص ، ولفظ ابن أبي حاتم عن مجاهد : سألت ابن عباس عن السجدة التي في ص ، فقال هذه الآية ، وقال : أمر نبيكم أن يقتدي بداود عليه السلام .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ قال : قل

لهم يا محمد : لا أسألكم على ما أدعوكم إليه عرضاً من عروض الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(262/240)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله ﴿ فإنْ يَكْفُرْ بِهَا ﴾ هذه " الهاء " تعود على الثلاثة الأشياء ، وهي : الكتاب والحكم والنبوة ، وهو قول الزمخشري .

وقيل : يعود على " النبوة " فقط ، لأنها أقرب مذكور ، والباء في قوله : " لَيْسُوا بِهَا " مُتَعَلِّقَةٌ بخبر " ليس " ، وقدم على عاملها ، والباء في " بكافرين " زائدة توكيداً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 269 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (89) ﴾

يعني إنْ أعرض قومُك – يا محمد – فليس كلٌّ من ( . . . . ) على الجحود أظهرناهم ، بل كثير من عبادنا نزَّهنا – عن الجحود – قلوبَهم ، وعَجَنَّا بماء السعادة طينتهم وهم لا يحيدون عن التوحيد لحظةً ، ولا يزيغون عن التحصيل شمَّة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 488 ﴾

*(263/240)*

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والأربعون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/241)

---

الجزء الحادى والأربعون بعد المائتين

من الآية ﴿ 90 ﴾ من سورة الأنعام

وحتى الآية ﴿ 91 ﴾ من نفس السورة

(4/241)

---

قوله تعالى ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ (90) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان المراد بسوقهم هكذا - والله أعلم - أن كلاًّ منهم بادر بعد الهداية إلى الدعاء إلى

الله والغيرة على جلاله من الإشراك ، لم يُشْغِل أحداً منهم عن ذلك سراء ولا ضراء بملك ولا غيره من ملك أو غيره بل لازموا الهدى الدعاء إليه على كل حال ؛ قال مستأنفاً لتكرار أمداحهم بما يحمل على التحلي بأوصافهم ، مؤكداً لإثبات الرسالة : ﴿ أولئك ﴾ أي العالو المراتب ﴿ الذين هدى الله ﴾ أي الملك الحائز لرتب الكمال ، الهدى الكامل ، ولذلك سبب عن مدحهم قوله : ﴿ فبهداهم ﴾ أي خاصة في واجبات الإرسال وغيرها ﴿ اقتده ﴾ وأشار بهاء السكت التي هي أمارة الوقوف – وهي ثابتة في جميع المصاحف – إلى أن الاقتداء بهم كان غير محتاج إلى شيء ؛ ثم فسر الهدى بمعظم أسبابه فقال : ﴿ قل ﴾ أي لمن تدعوهم كما كانوا يقولون مما ينفي التهمة ويمحص النصيحة فيوجب الاتباع إلا من شقى ﴿ لا أسئلكم ﴾ أي أيها المدعوون ﴿ عليه ﴾ أي على الدعاء ﴿ أجراً ﴾ فإن الدواعي تتوفر بسبب ذلك على الإقبال إلى الداعي والاستجابة للمرشد ؛ ثم استأنف قوله : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ هو ﴾ أي هذا الدعاء الذي أدعوكم به ﴿ إلا ذكرى ﴾ أي تذكير بليغ من كل ما يحتاج إليه في المعاش والمعاد ﴿ للعالمين ﴾ أي الجن والإنس والملائكة دائماً ، لا ينقضي دعاؤه ولا ينقطع نداؤه ، وفي التعبير بالاقتداء إيماء إلى تبكيت كفار العرب حيث اقتدوا بمن لا يصلح للقدوة من آبائهم ، وتركوا من يجب الاقتداء به . انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 670. 671 ﴾

فصل

قال الفخر :

(5/241)

---

لا شبهة في أن قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ الذين هَدَى الله ﴾ هم الذين تقدم ذكرهم من الأنبياء ، ولا شك في أن قوله : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ أمر لمحمد عليه الصلاة والسلام ، وإنما الكلام في تعيين الشيء الذي أمر الله محمداً أن يقتدي فيه بهم ، فمن الناس من قال : المراد أنه يقتدي بهم في الأمر الذي أجمعوا عليه ، وهو القول بالتوحيد والتنزيه عن كل ما لا يليق به في الذات والصفات والأفعال وسائر العقليات ، وقال آخرون : المراد الاقتداء بهم في جميع الأخلاق الحميدة والصفات الرفيعة الكاملة من الصبر على أذى السفهاء والعفو عنهم ، وقال آخرون : المراد الاقتداء بهم في شرائعهم إلا ما خصه الدليل ، وبهذا التقدير كانت هذه الآية دليلاً على أن شرع من قبلنا يلزمنا ، وقال آخرون : إنه تعالى إنما ذكر الأنبياء في الآية المتقدمة ليبين أنهم كانوا محترزين عن الشرك مجاهدين بإبطاله بدليل أنه ختم الآية بقوله : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [ الأنعام : 88 ] ثم أكد إصرارهم على التوحيد وإنكارهم للشرك بقوله : ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بكافرين

﴾ .

ثم قال في هذه الآية : ﴿ أُوْلَئِكَ الذين هَدَى الله ﴾ أي هداهم إلى إبطال الشرك وإثبات التوحيد ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ أي اقتد بهم في نفي الشرك وإثبات التوحيد وتحمل سفاهات الجهال في هذا الباب .

وقال آخرون : اللفظ مطلق فهو محمول على الكل إلا ما خصه الدليل المنفصل .

قال القاضي : يبعد حمل هذه الآية على أمر الرسول بمتابعة الأنبياء عليهم السلام المتقدمين في شرائعهم لوجوه : أحدها : أن شرائعهم مختلفة متناقضة فلا يصح مع تناقضها أن يكون مأموراً بالاقتداء بهم في تلك الأحكام المتناقضة .

وثانيها : أن الهدى عبارة عن الدليل دون نفس العمل .

*(6/241)*

---

وإذا ثبت هذا فنقول : دليل ثبات شرعهم كان مخصوصاً بتلك الأوقات لا في غير تلك الأوقات .

فكان الاقتداء بهم في ذلك الهدى هو أن يعلم وجوب تلك الأفعال في تلك الأوقات فقط ، وكيف يستدل بذلك على اتباعهم في شرائعهم في كل الأوقات ؟ وثالثها : أن كونه عليه

الصلاة والسلام متبعاً لهم في شرائعهم يوجب أن يكون منصبه أقل من منصبهم وذلك باطل بالإجماع ، فثبت بهذه الوجوه أنه لا يمكن حمل هذه الآية على وجوب الاقتداء بهم في شرائعهم .

والجواب عن الأول : أن قوله : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ يتناول الكل .

فأما ما ذكرتم من كون بعض الأحكام متناقضة بحسب شرائعهم .

فنقول : ذلك العام يجب تخصيصه في هذه الصورة فيبقى فيما عداها حجة .

وعن الثاني : أنه عليه الصلاة والسلام لو كان مأموراً بأن يستدل بالدليل الذي استدل به الأنبياء المتقدمون لم يكن ذلك متابعة ، لأن المسلمين لما استدلوا بحدوث العالم على وجود الصانع لا يقال : إنهم متبعون لليهود والنصارى في هذا الباب ، وذلك لأن المستدل بالدليل يكون أصيلاً في ذلك الحكم ، ولا تعلق له بمن قبله ألبتة ، والاقتداء والاتباع لا يحصل إلا إذا كان فعل الأول سبباً لوجوب الفعل على الثاني ، وبهذا التقرير يسقط السؤال .

وعن الثالث : أنه تعالى أمر الرسول بالاقتداء بجميعهم في جميع الصفات الحميدة والأخلاق الشريفة ، وذلك لا يوجب كونه أقل مرتبة منهم ، بل يوجب كونه أعلى مرتبة من الكل على ما سيجيء تقريره بعد ذلك إن شاء الله تعالى ، فثبت بما ذكرنا دلالة هذه الآية على أن شرع من قبلنا يلزمنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 57 . 58 ﴾

فصل

قال الفخر :

(7/241)

---

احتج العلماء بهذه الآية على أن رسولنا صلى الله عليه وسلم أفضل من جميع الأنبياء عليهم السلام ، وتقريره : هو أنا بينا أن خصال الكمال ، وصفات الشرف كانت مفرقة فيهم بأجمعهم ، فداود وسليمان كانا من أصحاب الشكر على النعمة ، وأيوب كان من أصحاب الصبر على البلاء ويوسف كان مستجمعاً لهاتين الحالتين .

وموسى عليه السلام كان صاحب الشريعة القوية القاهرة والمعجزات الظاهرة ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، وإلياس ، كانوا أصحاب الزهد ، وإسماعيل كان صاحب الصدق ، ويونس صاحب التضرع ، فثبت إنه تعالى إنما ذكر كل واحد من هؤلاء الأنبياء لأن الغالب عليه كان خصلة معينة من خصال المدح والشرف ، ثم أنه تعالى لما ذكر الكل أمر محمداً عليه الصلاة والسلام بأن يقتدي بهم بأسرهم ، فكان التقدير كأنه تعالى أمر محمداً صلى الله عليه وسلم أن يجمع من خصال العبودية والطاعة كل الصفات التي كانت مفرقة فيهم بأجمعهم ولما أمره الله تعالى بذلك ، امتنع أن يقال : إنه قصر في تحصيلها ، فثبت أنه حصلها

، ومتى كان الأمر كذلك ، ثبت أنه اجتمع فيه من خصال الخير ما كان متفرقاً فيهم بإسرهم ، ومتى كان الأمر كذلك ، وجب أن يقال : إنه أفضل منهم بكليتهم . والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 58 ﴾

وقال الآلوسى :

(8/241)

---

﴿ أولئك ﴾ أي الأنبياء المذكورون كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما والسدي وابن زيد ، وقيل : الإشارة إلى المؤمنين الموكلين وروى ذلك عن الحسن وقتادة ولا يخفى ما فيه ، وهو مبتدأ خبره قوله سبحانه : ﴿ الذين هَدَى الله ﴾ أي هديناهم إلى الحق والصراط المستقيم ، والالتفات إلى الاسم الجليل للإشعار بعلة الهداية وحفظ المهدي إليه اعتماداً على غاية ظهوره ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ أي اجعل هداهم منفرداً بالاقتداء واجعل الاقتداء مقصوراً عليه ، والمراد بهداهم عند جمع طريقهم في الإيمان بالله تعالى وتوحيده وأصول الدين دون الشرائع القابلة للنسخ فإنها بعد النسخ لا تبقى هدى وهم أيضاً مختلفون فيها فلا يمكن التأسي بهم جميعاً ، ومعنى أمره صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بذلك الأخذ به لا من حيث إنه طريق أولئك الفخام بل من حيث إنه طريق العقل

والشرع ففي ذلك تعظيم لهم وتنبيه على أن طريقهم هو الحق الموافق لدليل العقل والسمع ، وبهذا أجاب العلامة الثاني عما أورده سؤالاً من أن الواجب في الاعتقادات وأصول الدين هو اتباع الدليل من العقل والسمع فلا يجوز سيما للنبي صلى الله عليه وسلم أن يقلد غيره فما معنى أمره عليه الصلاة والسلام بالاقتداء .

وأورد عليه أن اعتقاده عليه الصلاة والسلام حينئذ ليس لأجل اعتقادهم بل لأجل الدليل فلا معنى لأمره بالاقتداء بذلك .

واعترض أيضاً بأن الأخذ بأصول الدين حاصل له قبل نزول الآية فلا معنى للأمر بأخذ ما قد أخذ قبل اللهم إلا أن يحمل على الأمر بالثبات عليه .

*(9/241)*

---

وحقق القطب الرازي في "حواشيه على الكشاف" أنه يتعين أن الاقتداء المأمور به ليس إلا في الأخلاق الفاضلة والصفات الكاملة كالحلم والصبر والزهد وكثرة الشكر والتضرع ونحوها ويكون في الآية دليل على أنه صلى الله عليه وسلم أفضل منهم قطعاً لتضمنها أن الله تعالى هدى أولئك الأنبياء عليهم السلام إلى فضائل الأخلاق وصفات الكمال وحيث أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقتدي بهداهم جميعاً امتنع للعصمة أن يقال : إنه لم يمتثل

فلا بد أن يقال : إنه عليه الصلاة والسلام قد امتثل وأتى بجميع ذلك وحصل تلك الأخلاق الفاضلة التي في جميعهم فاجتمع فيه من خصال الكمال ما كان متفرقاً فيهم وحينئذ يكون أفضل من جميعهم قطعاً كما أنه أفضل من كل واحد منهم وهو استنباط حسن .

واستدل بعضهم بها على أنه صلى الله عليه وسلم متعبد بشرع من قبله وليس بشيء ، وفي أمره عليه الصلاة والسلام بالاقتداء بهداهم دون الاقتداء بهم ما لا يخفى من الإشارة إلى علو مقامه صلى الله عليه وسلم عند أرباب الذوق .

والهاء في ﴿ اقتده ﴾ هاء السكت التي تزاد في الوقف ساكنة ، وقد تثبت في الدرج ساكنة أيضاً إجراء للوصل مجرى الوقف ، وبذلك قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم ويحذف الهاء في الوصل خاصة حمزة والكسائي وقرأ ابن عامر ﴿ اقتده ﴾ بكسر الهاء من غير إشباع وهو الذي تسميه القراء اختلاساً وهي رواية هشام عنه وروى غيره إشباعها وهو كسرها ووصلها بياء ، وزعم أبو بكر بن مجاهد أن قراءة ابن عامر غلط معللاً ذلك بأن الهاء هاء الوقف فلا تحرك في حال من الأحوال وإنما تذكر ليظهر بها حركة ما قبلها .

وتعقبه أبو علي الفارسي بأن الهاء ضمير المصدر وليست هاء السكت أي اقتد الاقتداء ومثله كما قال أبو البقاء قوله

: هذا سراقة للقرآن يدرسه . . .

والمرء عند الوشا إن يلقها ذيب

فإن الهاء فيه ضمير الدرس لا مفعول لأن يدرس قد تعدى إلى القرآن .

*(10/241)*

---

وقال بعضهم : إن هاء السكت قد تحرك تشبيهاً لها بهاء الضمير ، والعرب كثيراً ما تعطي الشيء حكم ما يشبهه وتحمله عليه ، وقد روى قول أبي الطيب

: واحر قلباه مما قلبه شبم . . .

بضم الهاء وكسرها على أنها هاء السكت شبهت بهاء الضمير فحركت .

واستحسن صاحب "الدر المصون" جعل الكسر لالتقاء الساكنين لا لشبه الضمير لأن هاءه لا تكسر بعد الألف فكيف ما يشبهها .

وزعم الإمام أن إثبات الهاء في الوصل للاقتداء بالإمام ولا يقتدى به في ذلك لأنه يقتضي أن القراءة بغير نقل تقليداً للخط وهو وهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور ولله دره :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ ﴾

جملة ابتدائية قصد من استئنافها استقلالها للاهتمام بمضمونها ، ولأنّها وقعت موقع

التّكرير لمضمون الجملتين اللّتين قبلها : جملة ﴿ وهديناهم إلى صراط مستقيم ﴾ [ الأنعام : 87 ] وجملة ﴿ أولئك الذّين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوءة ﴾ [ الأنعام : 89 ] .

وحقّ التكرير أن يكون مفصولاً ، وليبنى عليها التّفريع في قوله : ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ .

والمشار إليهم باسم الإشارة هم المشار إليهم بقوله ﴿ أولئك الّذين آتيناهم الكتاب والحكم والنّبوءة ﴾ [ الأنعام : 89 ] فإنّهم الّذين أمر نبيّنا صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بهداهم .

وتكرير اسم الإشارة لتأكيد تمييز المشار إليه ولما يقتضيه التكرير من الاهتمام بالخبر .

وأفاد تعريف المسند والمسند إليه قصر جنس الّذين هداهم الله على المذكورين تفصيلاً وإجمالاً ، لأنّ المهديين من البشر لا يعدون أن يكونوا أولئك المسمّين ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ، فإنّ من آبائهم آدم وهو الأب الجامع للبشر كلّهم ، فأريد بالهدى هدى البشر ، أي الصرف عن الضلالة ، فالقصر حقيقي .

ولا نظر لصلاح الملائكة لأنّه صلاح جبليّ .

وعدل عن ضمير المتكلّم إلى اسم الجلالة الظاهر لقَرْن هذا الخبر بالمهابة والجلالة .

وقوله : ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ تفريع على كمال ذلك الهُدَى ، وتخلُّص إلى ذكر حظّ محمدّ صلى الله عليه وسلم من هُدى الله بعد أن قُدّم قبله مُسْهَبُ ذكر الأنبياء وهديهم إشارة إلى علوّ منزلة محمّد صلى الله عليه وسلم وأنّها منزلة جديدة بالتّخصيص بالذكر حيث لم يذكر مع الأنبياء المتقدّمين ، وأنّه جمَعَ هُدى الأوّلين ، وأكملت له الفضائل ، وجُمع له ما تفرّق من الخصائص والمزايا العظيمة .

وفي إفراده بالذكر وترك عدّه مع الأوّلين رمز بديع إلى فذاذته وتفرّد مقداره ، ورَعْي بديع لحال مجيء رسالته بعد مرور تلك العصور المتباعدة أو المتجاورة ، ولذلك قُدّم المجرور وهو ﴿ بهداهم ﴾ على عامله ، للاهتمام بذلك الهدى لأنّه هو منزلتك الجامعة للفضائل والمزايا ، فلا يليق به الاقتداء بهُدى هو دون هُداهم .

ولأجل هذا لم يسبق للنّبيء صلى الله عليه وسلم اقتداء بأحد ممّن تحنّفوا في الجاهليّة أو تنصَّروا أو تهوّدوا .

فقد لقي النّبيء صلى الله عليه وسلم زيدَ بن عَمْرو بن نُفَيْلٍ قبل النّبوءة في بَلْدَ ، وعَرض عليه أن يأكل معه من سُفْرته ، فقال زيد " ﴿ إنّي لا آكل ممّا تذبحون على أنصابكم توهّماً منه أنّ النبي يدين بدين الجاهليّة ، وألهم الله محمّداً السكوت عن إجابته إلهاماً لحفظ السِرّ المدَّخر فلم يقل له إنّي لا أذبح على نُصُب .

ولقي ورقةَ بن نوفل غير مرّة بمكّة .

ولَقِي بَحيرا الرّاهبَ .

ولم يقتد بأحد من أولئك وبقي على الفطرة إلى أن جاءته الرّسالة .

والاقتداء افتعال من القُدوةَ بضمّ القاف وكسرها وقياسه على الإسوة يقتضي أنّ الكسر فيه أشهر .

وقال في المصباح ﴾ : الضمّ أكثر .

ووقع في "المقامات" للحريري "وقدوة الشحّاذين" فضُبط بالضمّ .

وذكره الواسطي في إشرح ألفاظ المقامات" في القاف المضمومة ، وروى فيه فتح القاف أيضاً ، وهو نادر .

والقدوة هو الّذي يَعمل غيرُه مثل عمله ، ولا يعرف له في اللّغة فعل مجرّد فلم يسمع إلاّ اقتدى .

*(12/241)*

---

وكأنّهم اعتبروا القدوة اسماً جامداً واشتقّوا منه الافتعال للدّلالة على التّكلّف كما اشتقّوا من اسم الخريف اخترف ، ومن الأسوة ائْتسى ، وكما اشتقّوا من اسم النمر تَنَمَّر ، ومن الحجَر تحجَّر .

وقد تستعمل القدوة اسم مصدر لاقتدى .

يقال : لي في فلان قُدوة كما في قوله تعالى : ﴿ لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة ﴾ [ الممتحنة : 6 ] .

وفي قوله : ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ تعريض للمشركين بأنّ محمّداً صلى الله عليه وسلم ما جاء إلاّ على سنّة الرّسل كلّهم وأنّه ما كان بدعاً من الرّسل .

وأمْرُ النّبيء صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بهُداهم يؤذن بأنّ الله زوى إليه كلّ فضيلة من فضائلهم الّتي اختصّ كلّ واحد بها سواء ما اتّفق منه واتّحد ، أو اختلف وافترق ، فإنّما يقتدي بما أطلعه الله عليه من فضائل الرّسل وسيرهم ، وهو الخُلُق الموصوف بالعظيم في قوله تعالى : ﴿ وإنّك لعلى خلق عظيم ﴾ [ القلم : 4 ] .

ويشمل هداهم ما كان منه راجعاً إلى أصول الشّرائع ، وما كان منه راجعاً إلى زكاء النّفس وحسن الخُلق .

وأمّا مَا كان منه تفاريع عن ذلك وأحكاماً جزئيّة من كلّ ما أبلغه الله إيّاه بالوحي ولم يأمره باتّباعه في الإسلام ولا بيّن له نسخه ، فقد اختلف علماؤنا في أنّ الشّرائع الإلهيّة السّابقة هل تعتبر أحكامها من شريعة الإسلام إذا أبلغها الله إلى الرّسول صلى الله عليه وسلم ولم يجعل في شريعته ما ينسخها .

وأرى أنّ أصل الاستدلال لهذا أنّ الله تعالى إذا ذكر في كتابه أو أوحى إلى رسوله عليه الصلاة والسلام حكاية حكم من الشرائع السابقة في مقام التّنويه بذلك والامتنان ولم يقارنه ما يدلّ على أنّه شُرِع للتّشديد على أصحابه عقوبة لهم ، ولا ما يدلّ على عدم العمل به ، فإنّ ذلك يدلّ على أنّ الله تعالى يريد من المسلمين العمل بمثله إذا لم يكن من أحكام الإسلام ما يخالفه ولا من أصوله ما يأباه ، مثل أصل التّيسير ولا يقتضي القياسُ على حكم إسلامي ما يناقض حكماً من شرائع مَن قَبلنا .

ولا حجّة في الآيات الّتي فيها أمرُ النّبيء صلى الله عليه وسلم باتّباع مَن قبله مثل هذه الآية ، ومثل قوله تعالى : ﴿ ثمّ أوحينا إليك أن اتّبِعْ ملّة إبراهيم حنيفاً ﴾ [ النحل : 123 ] ومثل قوله تعالى : ﴿ شرَع لكم من الدّين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى ﴾ [ الشورى : 13 ] ، لأنّ المقصود من ذلك أصول الدّيانة وأسس التّشريع الّتي لا تختلف فيها الشّرائع ، فمن استدلّ بقوله تعالى : ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ فاستدلاله ضعيف .

قال الغزالي في "المستصفى" "أراد بالهُدى التّوحيد ودلالةَ الأدلّة العقليّة على الوحدانيّة والصّفات لأنّه تعالى أمره بالاقتداء بهداهم فلو كان المراد بالهدى شرائعهم لكان أمراً بشرائع مختلفة وناسخة ومنسوخة فدلّ أنّه أراد الهدى المشترك بين جميعهم" أ هـ .

ومعنى هذا أنّ الآية لا تقوم حجّة على المخالف فلا مانع من أن يكون فيها استئناس لمن رأى حجّيّة شرع من قبلنا على الصّفات الّتي ذكرتُها آنفاً .

*(14/241)*

---

وفي "صحيح البخاري" في تفسير سورة (ص) عن العَوّام قال : سألت مجاهداً عن سجدة ص فقال : سألت ابن عبّاس من أين سجدتَ (أي من أيّ دليل أخذت أن تسجد في هذه الآية ، يريد أنّها حكاية عن سجود داوود وليس فيها صيغة أمر بالسجود ) فقال : "أوَمَا تقرأ ﴿ أولئك الّذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ فكان داوود ممّن أمر نبيُّكم أن يقتدِي به فسجدها داوود فسجدها رسول الله" .

والمذاهب في هذه المسألة أربعة : المذهب الأوّل : مذهب مالك فيما حكاه ابن بكير وعبدُ الوهّاب والقرافي ونسبوه إلى أكثر أصحاب مالك : أنّ شرائع من قبلنا تكون أحكاماً لنا ، لأنّ الله أبلغها إلينا .

والحجّة على ذلك ما ثبت في الصحاح من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في قضية الرُّبَيْعِ بنتِ النضر حين كسَرَتْ ثنيّة جاريةٍ عمداً أنْ تُكْسر ثنيّتها فراجعتْه أمّها وقالت : واللّهِ لا تُكْسَر ثنيّةُ الرّبيع فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم "كتابُ الله القصاص" ،

وليس في كتاب الله حكم القصاص في السنّ إلاّ ما حكاه عن شرع التّوراة بقوله ﴿ وكتبنا عليهم فيها أنّ النّفس بالنّفس إلى قوله والسنّ بالسنّ ﴾ [المائدة: 45].

وما في "الموطأ" أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من نسي الصلاة فليصلّها إذا ذكرها فإنّ الله تعالى يقول في كتابه: ﴿ أَقِمْ الصّلاة لذِكْري ﴾ [طه: 14] وإنّما قاله الله حكاية عن خِطابه لموسى عليه السلام، وبظاهر هذه الآية لأنّ الهدى مصدر مضاف فظاهره العموم، ولا يُسلّم كونُ السياق مخصّصاً له كما ذهب إليه الغزالي.

ونقل علماء المالكية عن أصحاب أبي حنيفة مثلَ هذا.

وكذلك نقل عنهم ابنُ حزم في كتابه "الإعراب في الحيرَة والالتباس الواقعين في مذاهب أهل الرأي والقياس".

وفي "توضيح" صدر الشريعة حكايتُه عن جماعة من أصحابهم ولم يُعيّنه.

ونقله القرطبي عن كثير من أصحاب الشافعي.

وهو منقول في كتب الحنفيّة عن عامّة أصحاب الشّافعي.

*(15/241)*

المذهب الثّاني : ذهب أكثر الشّافعيّة والظاهرية : أنّ شرع من قبلنا ليس شرعاً لنا .

واحتجّوا بقوله تعالى : ﴿ لكلٍ جعلنا منكم شِرْعَةً ومنهاجاً ﴾ [ المائدة : 48 ] .

ونسب القرطبي هذا القول للكثير من أصحاب مالك وأصحاب الشّافعي .

وفي "توضيح" صدر الشّريعة نسبة مثل هذا القول لجماعة من أصحابهم .

الثالث : إنّما يلزم الاقتداء بشرع إبراهيم عليه السلام لقوله تعالى : ﴿ ثمّ أوحينا إليك أن اتَّبِعْ ملّة إبراهيم حَنيفاً ﴾ [ النحل : 123 ] .

ولم أقف على تعيين من نسب إليه هذا القول .

الرّابع : لا يلزم إلاّ اتّباع شريعة عيسى لأنّها آخر الشّرائع نَسخت ما قبلها .

ولم أقف على تعيين صاحب هذا القول .

قال ابن رشد في "المقدّمات" : وهذا أضعف الأقوال .

والهاء في قوله : ﴿ اقتده ﴾ ساكنة عند جمهور القرّاء ، فهي هاء السكت الّتي تُجلب عند الوقف على الفعل المعتلّ اللاّم إذا حذفت لامَه للجازم ، وهي تثبت في الوقف وتحذف في الوصل ، وقد ثبتت في المصحف لأنّهم كانوا يكتبون أواخر الكلم على مراعاة حال الوقف .

وقد أثبتها جمهور القرّاء في الوصل ، وذلك من إجراء الوصل مجرى الوقف وهو وارد في الكلام الفصيح .

والأحسن للقارىء أن يقف عليها جرياً على الأفصح ، فجمهور القرّاء أثبتوها ساكنة ما عدا رواية هشام عن ابن عامر فقد حرّكها بالكسر ، ووجّه أبو عليّ الفارسي هذه القراءة بأنّها تجعل الهاء ضمير مصدر "اقْتد" ، أي اقتد الاقتداء ، وليست هاء السكت ، فهي كالهاء في قوله تعالى : ﴿ عذاباً لا أعذّبُه أحداً من العالمين ﴾ [المائدة : 115] أي لا أعذّب ذلك العذاب أحداً .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخَلف ، بحذف الهاء في حالة الوصل على القياس الغالب .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فائدة

قال الفخر :

(16/241)

---

قال الواحدي : قوله : ﴿ هدَى الله ﴾ دليل على أنهم مخصوصون بالهدى ، لأنه لو هدى جميع المكلفين لم يكن لقوله : ﴿ أُوْلَئِكَ الذين هَدَى الله ﴾ فائدة تخصيص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 58 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال الواحدي : قرأ ابن عامر ﴿ اقتده ﴾ بكسر الدال وبشم الهاء للكسر من غير بلوغ ياء ، والباقون ﴿ اقتده ﴾ ساكنة الهاء ، غير أن حمزة والكسائي يحذفانها في الوصل ويثبتانها في الوقف ، والباقون يثبتونها في الوصل والوقف .

والحاصل : أنه حصل الإجماع على إثباتها في الوقف .

قال الواحدي : الوجه الإثبات في الوقف والحذف في الوصل ، لأن هذه الهاء هاء وقعت في السكت بمنزلة همزة الوصل في الابتداء ، وذلك لأن الهاء للوقف ، كما أن همزة الوصل للابتداء بالساكن ، فكما لا تثبت الهمزة حال الوصل ، كذلك ينبغي أن لا تثبت الهاء إلا أن هؤلاء الذين أثبتوا راموا موافقة المصحف ، فإن الهاء ثابتة في الخط فكرهوا مخالفة الخط في حالتي الوقف والوصل فأثبتوا .

وأما قراءة ابن عامر : فقال أبو بكر ومجاهد : هذا غلط ، لأن هذه الهاء هاء وقف ، فلا تعرب في حال من الأحوال ، وإنما تذكر ليظهر بها حركة ما قبلها .

قال أبو علي الفارسي : ليس بغلط ، ووجهها أن تجعل الهاء كناية عن المصدر ، والتقدير : فبهداهم اقتد الاقتداء ، فيضمر الاقتداء لدلالة الفعل عليه ، وقياسه إذا وقف أن تسكن الهاء ، لأن هاء الضمير تسكن في الوقف ، كما تقول : اشتره . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 59 ﴾

قوله تعالى ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾

قال الفخر :

المراد به أنه تعالى لما أمره بالاقتداء بهدى الأنبياء عليهم السلام المتقدمين ، وكان من جملة هداهم ترك طلب الأجر في إيصال الدين وإبلاغ الشريعة .

*(17/241)*

---

لا جرم اقتدى بهم في ذلك ، فقال : ﴿ لاَّ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ ولا أطلب منكم مالاً ولا جعلاً ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ يعني القرإن ﴿ إِلاَّ ذكرى للعالمين ﴾ يريد كونه مشتملاً على كل ما يحتاجون إليه في معاشهم ومعادهم وقوله : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذكرى للعالمين ﴾ يدل على أنه صلى الله عليه وسلم مبعوث إلى كل أهل الدنيا لا إلى قوم دون قوم . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 59 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ ﴾ أي لا أطلب منكم ﴿ عَلَيْهِ ﴾ أي على القرآن أو على التبليغ فإن مساق الكلام يدل عليهما وإن لم يجر ذكرهما ﴿ أَجْراً ﴾ أي جعلاً قلَّ أو كثر كما لم يسأله من قبلي من الأنبياء عليهم السلام أممهم قيل : وهذا من جملة ما أمرنا بالاقتداء به من

هداهم عليهم السلام ، وهو ظاهر على ما قاله القطب لأن الكف عن أخذ أجر في مقابلة الإحسان من مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال ، وأما على قول من خص الهدى السابق بالأصول فقد قيل : إن بين القول به والقول بذلك الاختصاص تنافياً .

وأجيب بأن استفادة الاقتداء بالأصول من الأمر الأول لا ينافي أن يؤمر عليه الصلاة والسلام بالاقتداء بأمر آخر كالتبليغ .

وتقديم المتعلق هناك إنما هو لنفي اتباع طريقة غيرهم في شيء آخر .

واستدل بالآية على أنه يحل أخذ الأجر للتعليم وتبليغ الأحكام .

وفيه كلام للفقهاء على طوله مشهور غني عن البيان .

﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي ما القرآن ﴿ إِلاَّ ذكرى ﴾ أي تذكير فهو مصدر ، وحمله على ضمير القرآن للمبالغة ولا حاجة لتأويله بمذكر ﴿ للعالمين ﴾ كافة فلا يختص به قوم دون ءاخرين .

واستدل بالآية على عموم بعثته صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذكرى للعالمين ﴾ .

استئناف عُقّب به ذلك البيانُ العظيم الجامع لأحوال كثير من الأمم .

والإيماءُ إلى نبوءة جمع من الأنبياء والصّالحين ، وبيان طريقة الجدل في تأييد الدّين ، وأنّه ما جاء إلاّ كما جاءت مِلل تلك الرّسل ، فلذلك ذيّله الله بأمر رسوله أن يُذكّر قومه بأنّه يذكّرُهم .

كما ذكّرتْ الرّسلُ أقوامهم ، وأنّه ما جاء إلاّ بالنّصح لهم كما جاءت الرّسل .

وافتتح الكلام بفعل ﴿ قل ﴾ للتّنبيه على أهميّته كما تقدّم في هذه السّورة غير مرّة .

وقُدّم ذلك بقوله : ﴿ لا أسألكم عليه أجراً ﴾ أي لست طالبَ نفع لنفسي على إبلاغ القرآن ، ليكون ذلك تنبيهاً للاستدلال على صدقه لأنّه لو كان يريد لنفسه نفعاً لصانعهم ووافقهم .

قال في "الكشاف" في سورة هود ( 51 ) عند قوله تعالى حكاية من هود ﴿ يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إنْ أجريَ إلاّ على الّذي فطَرنيَ أفَلا تعقلون ﴾ ما من رسول إلاّ واجه قومه بهذا القول لأنّ شأنهم النّصيحة والنّصيحة لا يمحّصها ولا يمحِّضُها إلاّ حَسم المطامع وما دام يتوهّم شيء منها لم تنفع ولم تنجع أ هـ .

قلت : وحكى الله عن نوح مثل هذا في قوله في سورة [ هود : 29 ] ﴿ ويَا قوم لا أسألكم

عليه مَالاً إنْ أجريَ إلاّ على الله ﴾ وقال لرسوله أيضاً في سورة [ الشّورى : 23 ] ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربى .

فليس المقصود من قوله : لا أسألكم عليه أجراً ﴾ ردّ اعتقاد معتقد أو نفي تهمة قيلت ولكن المقصود به الاعتبار ولفت النّظر إلى محض نصح الرّسول صلى الله عليه وسلم في رسالته وأنّها لنفع النّاس لا يجرّ منها نفعاً إلى نفسه .

والضمير في قوله : ﴿ عليه ﴾ وقوله : ﴿ إن هو ﴾ راجع إلى معروف في الأذهان ؛ فإنّ معرفة المقصود من الضمير مغنية عن ذكر المعاد مثل قوله تعالى : ﴿ حتّى توارتْ بالحجاب ﴾ [ ص : 32 ] ، وكما في حديث عُمر في خبر إيلاء النّبيء صلى الله عليه وسلم " فنزل صاحبي الأنصاري يوم نوبته فضرب بأبي ضرباً شديداً فقال : أثمّ هو " ألخ .

والتّقدير : لا أسألكم على التّبليغ أو الدّعاء أجراً وما دعائي وتبليغي إلاّ ذِكْرى بالقرآن وغيره من الأقوال .

والذّكرى اسم مصدر الذِكر بالكسر ، وهو ضدّ النّسيان ، وتقدّم آنفاً .

والمُراد بها هنا ذكر التّوحيد والبعث والثّواب والعقاب .

وجَعَل الدّعوة ذكرى للعالمين ، لأنّ دعوته صلى الله عليه وسلم عامّة لسائر النّاس .

وقد أشعر هذا بأنّ انتفاء سؤال الأجر عليه لسببين : أحدهما : أنّه ذِكرى لهم ونصح

لنفعهم فليس محتاجاً لجزاءٍ منهم ، ثانيهما : أنّه ذكرى لغيرهم من النّاس وليس خاصّاً بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

*(19/241)*

---

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : "إن هو إلا ذكرى للعالمين " وفى سورة التكوير : "إن هو إلا ذكر للعالمين " للسائل أن يسأل عن وجه ورود الخبر بلفظ التأنيث فى الأولى والتذكير فى الثانية مع تذكير المبتدأ فيهما ؟

والجواب عنه والله أعلم أن آية التكوير لما تقدمها القسم على القرآن بقوله تعالى : "فلا أقسم بالخنس " إلى ما وقع القسم به ثم ورد ضمير المقسم عليه فى قوله : "إنه لقول رسول كريم " أى أن القرآن لقول رسول كريم ، والمراد به جبريل عليه السلام ثم اتبع بوصفه إلى قوله "ثم أمين " ثم قيل "وما صاحبكم بمجنون " والاشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم فنزهه تعالى عن قول أعدائه ونسبتهم إياه إلى الجنون ثم وصفه تعالى بأنه على الغيب الموحى به والمأمون على تبليغه غير متهم ولا بخيل على القراءتين فقال : "وما هو على الغيب بضنين "

ثم أعقب بقوله تعالى : "وما هو " أى وما القرآن "بقول شيطان رجيم " فجرت هذه الضمائر على التذكير على ما يجب ثم اتبع بقطع تعلقهم فقيل : "فأين تذهبون " أى إن كل ما رمتم من رميه عليه الصلاة والسلام به من السحر والجنون والتقول لا يقوم شئ من ذلك على ساق ولا يتوهم ذلك ذو عقل سليم ثم قال : "إن هو إلا ذكر للعالمين " والضمير للقرآن ولا يمكن وروده خلاف هذا لمنافرة التناسب ومباعدة التلاؤم .

وأما آية الأنعام فتقدمها قوله تعالى : "أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين " فنوسب بين قوله : "إن هو إلا ذكرى " وبين ما تقدم فكأن التقدير إن هو أى الأمر أو المراد المقصود أو ما ذكر من الكتاب والحكم والنبوة إلا ذكر فناسبه ذكرى هنا لما تقدم بيانه ولم يتقدم هنا ما يستدعى لفظ التذكير ويناسبه فجاء كل على ما يجب والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 162 . 163 ﴾

*(20/241)*

---

لطيفة

قال فى البحر المديد :

الإشارة : فُضِّل هؤلاء السادات على أهل زمانهم بما هداهم إليه من أنوار التوحيد وأسرار التفريد ، وبما خصهم به من كمال العبودية والآداب مع عظمة الربوبية . وفي قوله لحبيبه : ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ فتح لباب اكتساب التفضيل ، فكلَّ مَن اقتدَى بهم فيما ذُكر شُرِّف على أهل زمانه ، وقد جمع في حبيبه صلى الله عليه وسلم ما افترق فيهم ، وزاد عليهم بالمحبة ورفع الدرجات ، فكان هو سيد الأولين والآخرين ، فكل من اقتدى به في أفعاله وأقواله وأخلاقه نال من السيادة بقدر اقتدائه ، وأمرُه سبحانه له بالاقتداء بهم ، إنما هو في الآداب ، وكان ذلك قبل أن يتَرقَّى عنهم إلى مقامه الذي خصَّه الله به . للأنبياء سيرًا وتَرَقِّيًا يليق بهم . كما للأولياء سيرٌ وتَرَقٍّ يليق بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 2 صـ 142 ﴾

*(21/241)*

---

ومن فوائد السمرقندى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ أُوْلَئِكَ الذين هَدَى الله ﴾ يعني الأنبياء ﴿ فَبِهُدَاهُمُ ﴾ يعني : بسنتهم وتوحيدهم ﴿ اقتده ﴾ على دينهم استقم واعمل به .

وفي هذه الآية دليل أن شرائع المتقدمين واجبة علينا ما لم يظهر نسخها إذا ثبت ذلك في الكتاب ، أو على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم لأن الله تعالى أمرنا بأن نقتدي بهداهم ، واسم الهدى يقع على التوحيد والشرائع .

مثل قوله : ﴿ الم ذلك الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [ البقرة : 1 ، 2 ] والكتاب يشتمل على الشرائع وغيرها .

قرأ حمزة والكسائي : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ بالهاء في الوقف والوصل جميعاً وقرأ الباقون : بالهاء في الوصل والوقف جميعاً لأنها هاء الوقف .

مثل قوله : ﴿ كتابيه ﴾ و ﴿ حِسَابِيَهْ ﴾ ثم قال : ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ يعني : قل للمشركين لا أسألكم على الإيمان والقرآن جَعْلاً ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ يعني : ما هو وهو القرآن ﴿ إِلاَّ ذكرى للعالمين ﴾ يعني : موعظة للعالمين الإنس والجن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين هدى الله ﴾ الآية ، الظاهر في الإشارة ب ﴿ أولئك ﴾ أنها إلى المذكورين قبل من الأنبياء ومن معهم من المؤمنين المهديين ومعنى الاقتداء اتباع الأثر في القول والفعل والسيرة ، وإنما يصح اقتداؤه بجميعهم في العقود والإيمان والتوحيد الذي ليس

بينهم فيه اختلاف وأما أعمال الشرائع فمختلفة ، وقد قال عز وجل : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ [ المائدة : 48 ] ويحتمل أن تكون الإشارة ب ﴿ أولئك ﴾ إلى قوله ﴿ قوماً ﴾ .

*(22/241)*

---

قال القاضي أبو محمد : وذلك يترتب على بعض التأويلات في المراد بالقوم ويقلق بعضها ، قال القاضي ابن الباقلاني : واختلف الناس هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه متعبداً بشرع من كان قبله ، فقالت طائفة كان متعبداً ، واختلف بشرع من ؟ فقالت فرقة بشرع إبراهيم ، وفرقة بشرع موسى ، وفرقة بشرع عيسى ، وقالت طائفة بالوقف في ذلك ، وقالت طائفة لم يكن متعبداً بشرع من كان قبله وهو الذي يترجح .

*(23/241)*

---

قال القاضي أبو محمد : ولا يحمل كلام القاضي على أنه لم يكن متعبداً بشرع من كان قبله في توحيد ولا معتقد لأنَّا نجد شرعنا ينبىء أن الكفار الذين كانوا قبل النبي عليه السلام كأبويه

وغيرهما في النار ولا يدخل الله تعالى أحداً النار إلا بترك ما كلف ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ [ الإسراء : 15 ] وغير ذلك وقاعدة المتكلمين أن العقل لا يوجب ولا يكلف وإنما يوجب الشرع ، فالوجه في هذا أن يقال إن آدم عليه السلام فمن بعده دعا إلى توحيد الله دعاء عاماً واستمر ذلك على العالم ، فواجب على الآدمي البالغ أن يبحث على الشرع الآمر بتوحيد الله تعالى وينظر في الأدلة المنصوبة على ذلك بحسب إيجاب الشرع النظر فيها ، ويؤمن ولا يعبد غير الله ، فمن فرضناه لم يجد سبيلاً إلى العلم بشرع آمر بتوحيد الله وهو مع ذلك لم يكفر ولا عبد صنماً بل تخلى فأولئك أهل الفترات الذين أطلق عليهم أهل العلم أنهم في الجنة وهم بمنزلة الأطفال والمجانين ، ومن قصر في النظر والبحث فعبد صنماً وكفر فهذا تارك للواجب عليه مستوجب العقاب بالنار ، فالنبي صلى الله عليه وسلم قبل المبعث ومن كان معه من الناس وقبله مخاطبون على ألسنة الأنبياء قبل بتوحيد الله عز وجل ، وغير مخاطبين بفروع شرائعهم إذ هي مختلفة وإذ لم يدعهم إليها نبي ، وأما بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم فهل هو وأمته مخاطبون بشرع من تقدم فقالت فرقة لسنا مخاطبين بشيء من ذلك وقالت فرقة نحن مخاطبون بشرع من قبلنا .

*(24/241)*

قال القاضي أبو محمد : ومن قال من هذه الطائفة إن محمداً عليه السلام وأمته مخاطبون بكل شرائع من تقدم على الإطلاق فقد أحال لأن أحكام الشرائع تأتي مختلفة وإنما يتحدق قول من قال منها إنَّا متعبدون بما صح نقله من شرائع من قبلنا ولم تختلف فيه الشرائع وبالآخر مما اختلفت فيه لأنه الناسخ المتقدم ويرتبط في صحة نقل ذلك إلى ما وقع في القرآن في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من حكاية أحكام سالفة كقوله تعالى : ﴿ وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ﴾ [ ص : 44 ] وكقوله : ﴿ أقم الصلاة لذكري ﴾ [ طه : 14 ] وكحكاية تزويج شعيب ابنته بموسى عليهما السلام ، وكحديث النبي عليه السلام في قضية سليمان بين المرأتين في الولد ونحو ذلك ، ولا يقتضي قولهم أكثر من جواز أن يتعبد بذلك وأما وجوب أن تعبد فغير لازم ، ولا يتعلق عندي أشبه في ذلك من أن يقال إن النبي عليه السلام شرع لأمته أن يصلي الناس صلاته إذا ذكرها ، ثم مثل في ذلك لا على طريق التعليل بقوله عز وجل لموسى ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾ [ طه : 14 ] فننقل نحن هذا إلى غير ذلك من النوازل ونقول إنه كما شرع عندنا المثال في نسيان الصلاة كذلك نشرع هذه الأمثلة كلها .

قال القاضي أبو محمد : وهذا قياس ضعيف ، ولو ذكر النبي عليه السلام قوله تعالى : ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾ [ طه : 14 ] على جهة التعليل لكانت الحجة به قوية ، ولا يصح أن يقال يصح عندنا نقل ما في الشرائع من جهة من أسلم منهم كعبد الله بن سلام وغيره صحة ننقلها ، وكذلك ما شرعه الحواريون لا سبيل إلى صحة شرع عيسى عليه السلام له ، وقرأ ابن كثير وأهل مكة ونافع وأبو عمرو وأهل المدينة وعاصم " اقتده " بهاء السكت ثابتة في الوقف والوصل ، وقرأ حمزة والكسائي " اقتد " قال بحذف الهاء في الوصل وإثباتها في الوقف ، وهذا هو القياس ، وهي تشبه ألف الوصل في أنها تقطع في الابتداء وتوصل غير مبتدأ بها ، فكذلك هذه تثبت في الوقف وتحذف في الوصل ، وقرأ ابن عامر " اقتدِهِ " بكسر الهاء دون بلوغ الياء ، قال ابن مجاهد وهذا غلط لأنها هاء وقف لا تعرب على حال ، قال أبو علي ووجه ذلك أن تكون ضمير المصدر كأنه قال اقتد الاقتداء ، وقرأ ابن ذكوان على هذه " اقتدِهِ " بإشباع الياء بعد الهاء ، وقالت فرقة إن كسر الهاء إنما هو في هاء السكت كما قد تسكن هاء الضمير أحياناً .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف ، ولا تجوز عليه القراءة بإشباع الياء ، وقوله تعالى : ﴿ قل لا أسألكم ﴾ الآية ، المعنى قل يا محمد لهؤلاء الكفرة المعاندين لا أسألكم على دعائي إياكم بالقرآن إلى عبادة الله وتوحيده أستكثر بها وأختص بدنياها ، إن القرآن إلا

موعظة ، وذكرى ودعاء لجميع العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ الاقتداء طلب موافقة الغير في فعله .

فقيل : المعنى اصبر كما صبروا .

وقيل : معنى ﴿ فَبِهُدَاهُم اقتده ﴾ التوحيد والشرائع مختلفة .

(26/241)

---

وقد احتجّ بعض العلماء بهذه الآية على وجوب اتباع شرائع الأنبياء فيما عدم فيه النص ؛ كما في صحيح مُسْلم وغيره : " أن أخت الرُّبَيِّع أمّ حارثة جرحت إنساناً فاختصموا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "القصاصَ القصاصَ" فقالت أمّ الرَّبيع : يا رسول الله أيقتصّ من فلانة ؟! والله لا يقتصّ منها .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سبحان الله يا أمّ الرَّبيع القصاصُ كتاب الله" .

قالت : والله لا يقتص منها أبداً .

قال : فما زالت حتى قَبلوا الدِّية .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن مِن عباد الله مَن لو أقسم على الله لأَبَرّه" "

فأحال رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوله : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النفس بالنفس ﴾ [ المائدة : 45 ] الآية .

وليس في كتاب الله تعالى نصّ على القصاص في السِّنّ إلا في هذه الآية ؛ وهي خبر عن شرع التوراة ومع ذلك فحكم بها وأحال عليها .

وإلى هذا ذهب مُعْظَم أصحاب مالك وأصحاب الشافعيّ ، وأنه يجب العمل بما وجد منها .

قال ابن بكير : وهو الذي تقتضيه أصول مالك وخالف في ذلك كثير من أصحاب مالك وأصحاب الشافعيّ والمعتزلة ؛ لقوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ [ المائدة : 48 ] .

وهذا لا حجّة فيه ؛ لأنه يحتمل التقييد : إلا فيما قصّ عليكم من الأخبار عنهم مما لم يأت في كتابكم .

وفي "صحيح البخاريّ" عن العوّام قال : سألت مجاهداً عن سجدة ﴿ ص ﴾ فقال : سألت ابن عباس عن سجدة ﴿ ص ﴾ فقال : أوَ تقرأ ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ﴾

إلى قوله : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ ؟ وكان داود عليه السلام ممن أُمر نبيّكم صلى الله عليه وسلم بالاقتداء به .

الثانية : قرأ حمزة والكسائِيّ ﴿ اقتد قل ﴾ بغير هاء في الوصل .

وقرأ ابن عامر ﴿ اقْتَدِهِي قُلْ ﴾ .

(27/241)

---

قال النحاس : وهذا لَحْنٌ ؛ لأن الهاء لبيان الحركة في الوقف وليست بهاء إضمار ولا بعدها واو ولا ياء ، وكذلك أيضاً لا يجوز ﴿ فبهداهم اقتد قل ﴾ .

ومن اجتنب اللّحن واتبع السَّواد قرأ "فبهداهم اقتده" فوقف ولم يصل ؛ لأنه إن وصل بالهاء لحن وإن حذفها خالف السّواد .

وقرأ الجمهور بالهاء في الوصل على نية الوقف وعلى نية الإدراج اتباعا لثباتها في الخطّ .

وقرأ ابن عيّاش وهشام ﴿ اقْتَدِهِ قُلْ ﴾ بكسر الهاء ، وهو غلط لا يجوز في العربية .

قوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ أي جُعْلاً على القرآن .

﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي القرآن .

﴿ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴾ أي هو موعظة للخلق .

وأضاف الهداية إليهم فقال : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ لوقوع الهداية بهم .

وقال : ﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ ﴾ لأنه الخالق للهداية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾

الإشارة بأولئك إلى المشار إليهم بأولئك الأولى وهم الأنبياء السابق ذكرهم وأمره تعالى أن يقتدى بهداهم ، والهداية السابقة هي توحيد الله تعالى وتقديسه عن الشريك ، فالمعنى فبطريقتهم في الإيمان بالله تعالى وتوحيده وأصول الدين دون الشرائع ، فإنها مختلفة فلا يمكن أن يؤمر بالاقتداء بالمختلفة وهي هدى ما لم تنسخ فإذا نسخت لم تبق هدى بخلاف أصول الدين فإنها كلها هدى أبداً .

*(28/241)*

---

وقال تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ وقال ابن عطية : ويحتمل أن تكون الإشارة بأولئك إلى ﴿ قوماً ﴾ وذلك يترتب على بعض التأويلات في المراد بالقوم على

بعضها انتهى ، ويعني أنه إذا فسر القوم بالأنبياء المذكورين أو بالملائكة فيمكن أن تكون الإشارة إلى قوم وإن فسروا بغير ذلك فلا يصح ، وقيل : الاقتداء في الصبر كما صبر من قبله ، وقيل : يحمل على كل هداهم إلا ما خصه الدليل ، وقيل : في الأخلاق الحميدة من الصبر على الأذى والعفو ، وقال : في ريّ الظمآن أمر الله تعالى نبيه في هذه الآية بمكارم الأخلاق فأمر بتوبة آدم وشكر نوح ووفاء إبراهيم وصدق وعد إسماعيل وحلم إسحاق وحسن ظنّ يعقوب ؟ واحتمال يوسف وصبر أيوب وإثابة داود وتواضع سليمان وإخلاص موسى وعبادة زكريا وعصمة يحيى وزهد عيسى ، وهذه المكارم التي في جميع الأنبياء اجتمعت في الرسول صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين ولذلك وصفه تعالى بقوله : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ وقال الزمخشري : ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ فاختص هداهم بالاقتداء ولا يقتدى إلا بهم ، وهذا بمعنى تقديم المفعول وهذا على طريقته في أن تقديم المفعول يوجب الاختصاص وقد رددنا عليه ذلك في الكلام على ﴿ إياك نعبد ﴾ وقرأ الحرميان وأهل حرميهما وأبو عمرو ﴿ اقتده ﴾ بالهاء ساكنة وصلاً ووقفاً وهي هاء السكت أجروها وصلاً مجراها وقفاً ، وقرأ الأخوان بحذفها وصلاً وإثباتها وقفاً وهذا هو القياس ، وقرأ هشام ﴿ اقتده ﴾ باختلاس الكسرة في الهاء وصلاً وسكونها وقفاً ، وقرأ ابن ذكوان بكسرها ووصلها بياء وصلاً وسكونها وقفاً ويؤول على أنها ضمير المصدر لا هاء السكت ، وتغليط ابن مجاهد قراءة الكسر غلط منه وتأويلها على أنها هاء السكت

ضعيف .

﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين ﴾ أي على الدعاء إلى القرآن وهو الهدى والصراط المستقيم .

(29/241)

---

﴿ أجراً ﴾ أي أجرة أتكثر بها وأخص بها إن القرآن ﴿ إلا ذكرى ﴾ موعظة لجميع العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

ومن فوائد الخازن فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين هدى الله ﴾ يعني النبيين الذين تقدم ذكرهم لأنهم هو المخصوصون بالهداية ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ إشارة إلى النبي صلى الله عليه وسلم يعني فبشرائعهم وسننهم اعمل وأصل الاقتداء في اللغة طلب موافقة الثاني للأول في فعله .

وقيل أمره أن يقتدي بهم في أمر الدين الذي أمرهم أن يجمعوا عليه وهو توحيد الله تعالى وتنزيهه عن جميع النقائص التي لا تليق بجلاله في الأسماء والصفات والأفعال .

وقيل : أمره الله أن يقتدي بهم في جميع الأخلاق الحميدة والأفعال المرضية والصفات

الرفيعة الكاملة مثل : الصبر على أذى السفهاء ، والعفو عنهم .

وقيل : أمره أن يقتدي بشرائعهم إلا ما خصه دليل آخر فعلى هذا القول يكون في الآية دليل على أن شرع من قبلنا شرع لنا .

( فصل )

احتج العلماء بهذه الآية على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

*(30/241)*

---

بيانه أن جميع خصال الكمال وصفات الشرف وكانت متفرقة فيهم فكان نوح صاحب احتمال على أذى قومه ، وكان إبراهيم صاحب كرم وبذل مجاهدة في الله عز وجل ، وكان إسحاق ويعقوب من أصحاب الصبر على البلاء والمحن ، وكان داود عليه السلام وسليمان من أصحاب الشكر على النعمة ، قال الله فيهم : ﴿ اعملوا آل داود شكراً ﴾ وكان أيوب صاحب صبر على البلاء ، قال الله فيه ﴿ إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب ﴾ وكان يوسف قد جمع بين الحالتين ، يعني : الصبر والشكر ، وكان موسى صاحب الشريعة الظاهرة والمعجزات الباهرة ، وكان زكريا ويحيى وعيسى وإلياس من أصحاب

الزهد في الدنيا ، وكان إسماعيل صاحب صدق وكان يونس صاحب تضرع وإخبات ثم إن الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقتدي بهم وجمع له جميع الخصال المحمودة المتفرقة فيهم فثبت بهذا البيان أنه صلى الله عليه وسلم كان أفضل الأنبياء لما اجتمع فيه من هذه الخصال التي كانت متفرقة في جميعهم والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً ﴾ يعني : قل يا محمد لا أطلب على تبليغ الرسالة جعلاً قيل لما أمره الله تعالى بالاقتداء بالنبيين وكان من جملة هداهم عدم طلب الأجر على إيصال الدين وإبلاغ الشريعة لا جرم اقتدى بهم فقال : لا أسألكم عليه أجراً ﴿ إن هو ﴾ يعني ما هو يعني القرآن ﴿ إلا ذكرى للعالمين ﴾ يعني أن القرآن موعظة وذكرى لجميع العالم من الجن والإنس وفيه دليل على أنه صلى الله عليه وسلم كان مبعوثاً إلى جميع الخلق من الجن والإنس وإن دعوته عمَّت جميع الخلائق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

*(31/241)*

---

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴾ [90]

﴿ أُولَئِكَ ﴾ إشارة إلى الأنبياء المذكورين : ﴿ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ أي : إلى الصراط المستقيم : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ أي : بطريقتهم في الإيمان بالله وتوحيده ، والأخلاق الحميدة ، والأفعال المرضية ، والصفات الرفيعة ، اعمل .

تنبيهات :

الأول – استدل بهذه الآية من قال : إن شرع من قبلنا شرع لنا ، ما لم يرد ناسخ .

*(32/241)*

---

الثاني – استدل بها ابن عباس رضي الله عنه على استحباب السجدة في (ص) ، لأن داود عليه السلام سجدها ، رواه البخاري وغيره – ولفظ البخاري : عن العوّام ، قال سألت مجاهداً عن سجدة (ص) ، فقال : سألت ابن عباس : من أين سجدت ؟ فقال : أو ما تقرأ : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ فكان داود ممن أمر نبيكم صلى الله عليه وسلم أن يقتدي به ، فسجدها داود عليه السلام فسجدها رسول الله صلى الله عليه وسلم . الثالث – قال الرازي : احتج العلماء بهذه

الآية على أن رسولنا صلى الله عليه وسلم أفضل من جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وتقريره : أنا بيّنا أن خصال الكمال ، وصفة الشرف ، كانت مفرقة فيهم بأجمعهم ، فداود وسليمان كانا من أصحاب الشكر على النعمة ، وأيوب كان من أصحاب الصبر على البلاء ، ويوسف كان مستجمعاً لهاتين الحالتين ، وموسى عليه السلام كان صاحب الشريعة القوية القاهرة ، والمعجزات الظاهرة ، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كانوا أصحاب الزهد ، وإسماعيل كان صاحب الصدق ، ويونس كان صاحب التضرع ، فثبت أنه تعالى إنما ذكر كل واحد من هؤلاء الأنبياء ، لأن الغالب عليه خصلة معينة من خصال المدح والشرف . ثم إنه تعالى لما ذكر الكل ، أمر نبينا صلى الله عليه وسلم بأن يقتدي بهم بأسرهم ، فكأنه أمر بأن يجمع من خصال العبودية والطاعة كل الصفات التي كانت مفرقة فيهم بأجمعهم ، وهو معصوم عن مخالفة ما أمر به ، فثبت أنه اجتمع فيه جميع ما تفرق فيهم من الكمال ، وثبت أنه أفضلهم . وهو استنباط حسن .

الرابع - : ﴿ اقْتَدِهْ ﴾ يُقرأ بسكون الهاء وإثباتها في الوقف دون الوصل ، وهي على هذا هاء السكت . ومنهم من يثبتها في الوصل أيضاً لشبهها بهاء الإضمار . ومنهم من يكسرها وفيه وجهان :

أحدهما هي هاء السكت أيضاً ، شبهت بهاء الضمير ، وليس بشيء .

الثاني هي هاء الضمير والمصدر أي : اقتد الاقتداء . ومثله :

~هذا سُرَاقَةُ للقرآن يدرُسُهُ والمرء عند الرُّشا ، إنْ يَلقَهَا ذيبُ

( فالهاء ) ضمير ( الدرس ) لا مفعول ، لأن ( يدرس ) قد تعدى إلى ( القرآن ) . وقيل : مَنْ سكن الهاء جعلها هاء الضمير ، وأجرى الوصل مجرى الوقف – أفاده أبو البقاء – .

وأما قول الواحدي : الذين أثبتوا الهاء راموا موافقة المصحف ، فإن الهاء ثابتة في الخط ، فكرهوا مخالفة الخط في حالتي الوقف والوصل ، لأثبتوا – فقد قال الخفاجي : إنه مما لا ينبغي ذكره ، لأنه يقتضي أن القراءة بغير نقل تقليداً للخط . فمن قاله فقد وهم .

﴿ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ أي : على القرآن أو التبليغ . فإن مساق الكلام يدل عليهما ، وإن لم يجر ذكرهما ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴾ أي : عظة وتذكير لهم ليرشدوا من العمى إلى الهدى .

تنبيهان :

الأول – فيه دليل على أنه صلى الله عليه وسلم كان مبعوثاً إلى جميع الخلق ، من الجن والإنس . وأن دعوته قد عمت جميع الخلائق .

الثاني –قال الخفاجي : قيل الآية تدل على أنه يحلّ أخذ الأجر للتعليم وتبليغ الأحكام . قال : وللفقهاء فيه كلام . انتهى .

وعكس بعض مفسري الزيدية حيث قال : في هذا إشارة إلى أنه لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم العلوم ، لأن ذلك جرى مجرى تبليغ الرسالة . انتهى .

أقول : إن الآية على نفي سؤاله صلى الله عليه وسلم منهم أجراً ، كي لا يثقل عليهم الامتثال . وأما ما استفاده الحل والتحريم منها ، ففيه خفاء . والقائل بالأول يقول : المعنى لا أسألكم جعلاً تعففاً . أي : وإن حلّ لي أخذه . وبالثاني : لا أسألكم عليه أجراً لأني حظرت من ذلك .

*(34/241)*

---

قال ابن القيمّ : أما الهدية للمفتي ، ففيها تفصيل : فإن كانت بغير سبب الفتوى ، كمن عادته يهاديه أو من لا يعرف أنه مفت ، فلا بأس بقبولها ، والأولى أن يكافأ عليها . وإن كانت بسبب الفتوى ، فإن كانت سبباً إلى أن يفتيه بما لا يفتي به غيره ممن لا يهدي له ، لم يجز له قبول هديته . لأنها تشبه المعاوضة على الإفتاء . وأما أخذ الرزق من بيت المال ، فإن كان محتاجاً إليه ، جاز له ذلك . وإن كان غنيّاً عنه ، ففيه وجهان : وهذا فرع متردد بين عامل الزكاة ، وعامل اليتيم . فمن ألحقه بعامل الزكاة قال : النفع فيه عام ، فله الأخذ . ومن ألحقه بعامل اليتيم منعه من الأخذ . وحكم القاضي في ذلك حكم المفتي ، بل القاضي أولى بالمنع

. وأما أخذ الأجرة فلا يجوز ، لأن الفتيا منصب تبليغ عن الله ورسوله ، فلا يجوز المعاوضة عليه ، كما لو قال : لا أعلمك الإسلام والوضوء والصلاة إلا بأجرة . أو سئل عن حلال أو حرام ؟ فقال للسائل : لا أجيبك عنه إلا بأجرة ، فهذا حرام قطعاً ، ويلزمه ردّ العوض ، ولا يملكه ، انتهى .

وفي حديث عبد الرحمن بن شِبْل عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : < اقرؤوا القرآن ، ولا تغلوا فيه ، ولا تجفوا عنه ، ولا تأكلوا به ، ولا تستكثروا به > -أخرجه الإمام أحمد برجال الصحيح . وأخرجه أيضاً البزار وله شواهد - .

وأخرج أحمد والترمذي -وحسّنه- عن عِمْرَان بن حصين أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : < من قرأ القرآن فليسأل الله تبارك وتعالى به ، فإنه سيجيء قوم يقرؤون القرآن يسألون الناس به > . وأخرج ابن ماجة والبيهقي عن أبيّ بن كعب قال : علّمت رجلاً القرآن فأهدى لي قوساً ، فذكرت ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : إن أخذتها أخذت قوساً من نار .

وهناك أحاديث أخر ، ومنها استدل على حظر أخذ الأجرة على التعليم .

*(35/241)*

وأما أخذ الأجرة على التلاوة ، ففي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود في قصة اللديغ من قوله صلى الله عليه وسلم : < إن أحق ما أخذتم عليه أجراً ، كتاب الله ، أصبتم اقتسموا ، واضربوا لي معكم سهماً > .

قال العلامة الشوكاني : حديث ( أحق ما أخذتم عليه أجراً ) عامٌّ يصدق على التعليم ، وأخذ الأجرة على التلاوة . لمن طلب من القارئ ذلك ، وأخذ الأجرة على الرقية ، وأخذ ما يدفع إلى القارئ من العطاء ، لأجل كونه قارئاً ، ونحو ذلك . فيخص من هذا العموم تعليم المكلف ، ويبقى ما عداه داخلاً تحت العموم . وبعض أفراد العامّ فيه ، أدلة خاصة تدل على جوازه ، كما دل العامّ على ذلك . فمن تلك الأفراد أخذ الأجرة على الرقية ، وتعليم المرأة في مقابلة مهرها . قال : هكذا ينبغي تحرير الكلام في المقام ، والمصير إلى الترجيح من ضيق العطن . أي : لأنه يُصار إليه عند تعذر الجمع ، وقد أمكن ، فكان الأحق – والله الموفق – . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 429 . 433 ﴾

*(36/241)*

---

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ) .

بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ لِهَذِهِ بَعْضَ مَا رَفَعَ مِنْ دَرَجَاتِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامِ ، ثُمَّ بَيَّنَ فِي هَذِهِ فَضْلَهُ وَنِعَمَهُ عَلَيْهِ فِي حَسَبِهِ وَنَسَبِهِ ، وَأَعْلَاهَا جَعَلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فِي ذُرِّيَّتِهِ ، فَقَالَ : (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا) أَيْ وَوَهَبْنَا لِإِبْرَاهِيمَ بِآيَةٍ مِنَّا إِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ، وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ وَلَدَهُ يَعْقُوبَ نَبِيًّا نَجِيبًا مُنْجِبًا لِلْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ ، وَهَدَيْنَا كُلًّا مِنْهُمَا كَمَا هَدَيْنَا إِبْرَاهِيمَ بِمَا آتَيْنَاهُمَا مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْحِكْمَةِ وَقُوَّةِ الْحُجَّةِ . وَتَقْدِيمُ "كُلًّا" عَلَى "هَدَيْنَا" لِإِفَادَةِ اخْتِصَاصِ كُلٍّ مِنْهُمَا بِمَا ذُكِرَ مِنَ الْهِدَايَةِ عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِقْلَالِ لَا التَّبَعِ ; لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا كَانَ نَبِيًّا ، هَادِيًا مَهْدِيًّا ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ إِسْحَاقَ مِنْ وَلَدَيْ إِبْرَاهِيمَ دُونَ

*(37/241)*

---

إِسْمَاعِيلَ ، لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي وَهَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ بِآيَةٍ مِنْهُ بَعْدَ كِبَرِ سِنِّهِ وَيَأْسِ امْرَأَتِهِ سَارَّةَ عَلَى عُقْمِهَا جَزَاءً لِإِيمَانِهِ وَإِحْسَانِهِ ، وَكَمَالِ إِسْلَامِهِ لِرَبِّهِ وَإِخْلَاصِهِ ، بَعْدَ ابْتِلَائِهِ بِذَبْحِ وَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ وَاسْتِسْلَامِهِ لِأَمْرِ رَبِّهِ فِي الرُّؤْيَا مِنْ غَيْرِ تَأْوِيلٍ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ سِوَاهُ عَلَى كِبَرِ سِنِّهِ ، وَقَدْ وُلِدَ لَهُ مِنْ سُرِّيَّةٍ شَابَّةٍ ; وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ قِصَّةِ الذَّبْحِ مِنْ سُورَةِ الصَّافَّاتِ :

(وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ) 37 : 112 وَسَنُبَيِّنُ حِكْمَةَ تَأْخِيرِ ذِكْرِ إِسْمَاعِيلَ وَذِكْرِهِ مَعَ مَنْ ذَكَرَ مِنَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَقَالَ الْمُفَسِّرُونَ وَالْمُؤَرِّخُونَ أَنَّ كَلِمَةَ (إِسْحَاقَ) مَعْنَاهَا (الضَّحَّاكُ) وَقِيلَ : إِنَّ مَعْنَاهَا الْحَرْفِيَّ (يُضْحِكُ) وَقَالُوا : إِنَّهُ وُلِدَ وَلِأَبِيهِ مِائَةٌ وَاثْنَتَا عَشْرَةَ سَنَةً ، وَلِأُمِّهِ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ سَنَةً ، وَأَنَّهُ عَاشَ مِائَةً وَثَمَانِينَ سَنَةً وَقَالَ بَعْضُ عُلَمَائِهِمْ : إِنَّ مَعْنَى كَلِمَةِ (يَعْقُوبَ) الْحَرْفِيَّ " أَخَذَ الْعَقِبَ " وَالْمُرَادُ يَخْتَلِسُ مَا يَأْخُذُهُ .

*(38/241)*

---

(وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ) أَيْ وَهَدَيْنَا جَدَّهُ نُوحًا – هَدَيْنَاهُ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ إِلَى مِثْلِ مَا هَدَيْنَا لَهُ إِبْرَاهِيمَ وَذُرِّيَّتَهُ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْحِكْمَةَ ، وَإِرْشَادِ الْخَلْقِ وَتَلْقِينِ الْحُجَّةِ . قِيلَ : إِنَّ اسْمَ (نُوحٍ) مِنْ مَادَّةِ النَّوْحِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْمَشْهُورُ أَنَّهُ أَعْجَمِيٌّ ، قَالَ الْكِرْمَانِيُّ : مَعْنَاهُ بِالْعَرَبِيَّةِ (السَّاكِنُ) وَقَالَ مُؤَرِّخُو أَهْلِ الْكِتَابِ : إِنَّ مَعْنَاهُ (رَاحَةٌ) وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ) فَهُوَ عَطْفٌ عَلَى " وَنُوحًا هَدَيْنَا " أَيْ وَهَدَيْنَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِلَخْ . وَقَدْ جَزَمَ ابْنُ جَرِيرٍ شَيْخُ الْمُفَسِّرِينَ بِأَنَّ الضَّمِيرَ فِي ذُرِّيَّتِهِ لِنُوحٍ ، وَتَابَعَهُ عَلَى ذَلِكَ بَعْضُ

الْمُفَسِّرِينَ وَاحْتَجُّوا بِأَنَّهُ أَقْرَبُ فِي الذِّكْرِ ، وَبِأَنَّ لُوطًا وَيُونُسَ لَيْسَا مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ ، وَزَادَ بَعْضُهُمْ أَنَّ وَلَدَ الْمَرْءِ لَا يُعَدُّ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ، فَلَا يُقَالُ إِنَّ إِسْمَاعِيلَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ ، وَهَذَا الْقَوْلُ لَا يَصِحُّ لِتَصْرِيحِ أَهْلِ اللُّغَةِ بِأَنَّ الذُّرِّيَّةَ النَّسْلُ مُطْلَقًا . وَأَخَذَ بَعْضُهُمْ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ) 36 : 41 أَنَّ الذُّرِّيَّةَ تُطْلَقُ عَلَى الْأُصُولِ كَمَا تُطْلَقُ عَلَى الْفُرُوعِ

*(39/241)*

---

وَذَلِكَ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْفُلْكِ الْمَشْحُونِ سَفِينَةُ نُوحٍ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ الذُّرِّيَّةَ هُنَا لِلْفُرُوعِ الْمُقَدَّرَةِ فِي أَصْلَابِ الْأُصُولِ ، وَالْقَوْلُ الْآخَرُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ، أَنَّهُ سَفِينُ التِّجَارَةِ الَّتِي كَانَ الْمُخَاطَبُونَ يُرْسِلُونَ فِيهَا أَوْلَادَهُمْ يَتَّجِرُونَ .

وَذَهَبَ سَائِرُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ الضَّمِيرَ عَائِدٌ إِلَى إِبْرَاهِيمَ لِأَنَّ الْكَلَامَ فِي شَأْنِهِ ، وَمَا أَتَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ فَضْلِهِ ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ نُوحًا لِأَنَّهُ جَدُّهُ ، فَهُوَ لِبَيَانِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي أَفْضَلِ أُصُولِهِ ، تَمْهِيدًا لِبَيَانِ نِعَمِهِ عَلَيْهِ فِي الْكَثِيرِ مِنْ فُرُوعِهِ ، وَيُزَادُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ الْكِتَابَ وَالنُّبُوَّةَ فِي نَسْلِهِمَا مَعًا . مُنْفَرِدًا وَمُجْتَمِعًا كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ) 57 : 26 وَقَالَ بَعْضُ هَؤُلَاءِ : إِنَّ يُونُسَ مِنْ

ذُرِّيَّةِ

إِبْرَاهِيمَ ، وَإِنَّ لُوطًا ابْنُ أَخِيهِ وَقَدْ هَاجَرَ مَعَهُ فَهُوَ يَدْخُلُ فِي ذُرِّيَّتِهِ بِطَرِيقِ التَّغْلِيبِ ، وَيُعَدُّ مِنْهَا بِطَرِيقِ التَّجَوُّزِ الَّذِي يُسَمُّونَ بِهِ الْعَمَّ أَبًا ، وَتَقَدَّمَ بَيَانُ هَذَا التَّجَوُّزِ فِي الْكَلَامِ عَلَى أَبِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي فَاتِحَةِ تَفْسِيرِ هَذَا السِّيَاقِ .

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ نَبِيًّا لَمْ يُرَتِّبْهُمْ عَلَى حَسَبِ

(40/241)

---

تَارِيخِهِمْ وَأَزْمَانِهِمْ لِأَنَّهُ أَنْزَلَ كِتَابَهُ هُدًى وَمَوْعِظَةً لَا تَارِيخًا - وَلَا عَلَى حَسَبِ فَضْلِهِمْ وَمَنَاقِبِهِمْ لِأَنَّ كِتَابَهُ لَيْسَ كِتَابَ مَنَاقِبَ وَمَدَائِحَ ، وَإِنَّمَا هُوَ كِتَابُ تَذْكِرَةٍ وَعِبْرَةٍ ، وَقَدْ جَعَلَهُمْ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ لِمَعَانٍ فِي ذَلِكَ جَامِعَةٍ بَيْنَ كُلِّ قِسْمٍ مِنْهُمْ .

(41/241)

---

فَالْقِسْمُ الْأَوَّلُ : دَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ وَأَيُّوبُ وَيُوسُفُ وَمُوسَى وَهَارُونُ ، وَالْمَعْنَى الْجَامِعُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى آتَاهُمُ الْمُلْكَ وَالْإِمَارَةَ ، وَالْحُكْمَ وَالسِّيَادَةَ ، مَعَ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ ، وَقَدْ

قَدَّمَ ذِكْرَ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَكَانَا مَلِكَيْنِ غَنِيَّيْنِ مُنَعَّمَيْنِ ، وَذَكَرَ بَعْدَهُمَا أَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَكَانَ الْأَوَّلُ أَمِيرًا غَنِيًّا عَظِيمًا مُحْسِنًا ، وَالثَّانِي وَزِيرًا عَظِيمًا وَحَاكِمًا مُتَصَرِّفًا ، وَلَكِنْ كُلًّا مِنْهُمَا قَدِ ابْتُلِيَ بِالضَّرَّاءِ فَصَبَرَ كَمَا ابْتُلِيَ بِالسَّرَّاءِ فَشَكَرَ ، وَأَمَّا مُوسَى وَهَارُونُ فَكَانَا حَاكِمَيْنِ ، وَلَكِنَّهُمَا لَمْ يَكُونَا مَلِكَيْنِ ، فَكُلُّ زَوْجَيْنِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَزْوَاجِ الثَّلَاثَةِ مُمْتَازٌ بِمَزِيَّةٍ ، وَالتَّرْتِيبُ بَيْنَ الْأَزْوَاجِ عَلَى طَرِيقِ التَّدَلِّي فِي نِعَمِ الدُّنْيَا ، وَقَدْ يَكُونُ عَلَى طَرِيقِ التَّرَقِّي فِي الدِّينِ فَدَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ كَانَا أَكْثَرَ تَمَتُّعًا بِنِعَمِ الدُّنْيَا ، وَدُونَهُمَا أَيُّوبُ وَيُوسُفُ ، وَدُونَهُمَا مُوسَى وَهَارُونُ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ مُوسَى وَهَارُونَ أَفْضَلُ فِي هِدَايَةِ الدِّينِ وَأَعْبَاءِ النُّبُوَّةِ مِنْ أَيُّوبَ وَيُوسُفَ ، وَأَنَّ هَذَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ بِجَمْعِهِمَا بَيْنَ الشُّكْرِ فِي السَّرَّاءِ وَالصَّبْرِ فِي الضَّرَّاءِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ هَؤُلَاءِ : (وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) أَيْ بِالْجَمْعِ بَيْنَ نِعَمِ الدُّنْيَا وَرِيَاسَتِهَا بِالْحَقِّ ، وَهِدَايَةِ الدِّينِ وَإِرْشَادِ الْخَلْقِ ، وَهَذَا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَحَدِهِمْ يُوسُفَ : (وَلَمَّا

*(42/241)*

---

بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) 12 : 122 فَهُوَ جَزَاءٌ خَاصٌّ بَعْضُهُ مُعَجَّلٌ فِي الدُّنْيَا ، أَيْ وَمِثْلُ هَذَا الْجَزَاءِ فِي جِنْسِهِ يَجْزِي اللَّهُ بَعْضَ الْمُحْسِنِينَ

بِحَسَبِ إِحْسَانِهِ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُرْجِئُ جَزَاءَهُ إِلَى الْآخِرَةِ .

وَالْقِسْمُ الثَّانِي : زَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسُ ، وَهَؤُلَاءِ قَدِ امْتَازُوا فِي الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بِشِدَّةِ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا وَالْإِعْرَاضِ عَنْ لَذَّاتِهَا ، وَالرَّغْبَةِ عَنْ زِينَتِهَا وَجَاهِهَا وَسُلْطَانِهَا ; وَلِذَلِكَ خَصَّهُمْ هُنَا بِوَصْفِ الصَّالِحِينَ ، وَهُوَ أَلْيَقُ بِهِمْ عِنْدَ مُقَابَلَتِهِمْ بِغَيْرِهِمْ ، وَإِنْ كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ صَالِحًا وَمُحْسِنًا عَلَى الْإِطْلَاقِ

وَالْقِسْمُ الثَّالِثُ : إِسْمَاعِيلُ وَالْيَسَعُ وَيُونُسُ وَلُوطٌ ، وَأَخَّرَ ذِكْرَهُمْ لِعَدَمِ الْخُصُوصِيَّةِ إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ مُلْكِ الدُّنْيَا أَوْ سُلْطَانِهَا مَا كَانَ لِلْقِسْمِ الْأَوَّلِ ، وَلَا مِنَ الْمُبَالَغَةِ فِي

(43/241)

---

الْإِعْرَاضِ عَنِ الدُّنْيَا مَا كَانَ لِلْقِسْمِ الثَّانِي ، وَقَدْ قَفَّى عَلَى ذِكْرِهِمْ بِالتَّفْضِيلِ عَلَى الْعَالَمِينَ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِكُلِّ نَبِيٍّ عَلَى عَالَمِي زَمَانِهِ ، فَمَنْ كَانَ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْهُمْ مُنْفَرِدًا فِي عَالَمٍ أَوْ قَوْمٍ كَانَ أَفْضَلَهُمْ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَمَا وُجِدَ مِنْ نَبِيَّيْنِ فَأَكْثَرَ فِي عَالَمٍ أَوْ قَوْمٍ فَقَدْ يَكُونُونَ مَعَ تَفْضِيلِهِمْ عَلَى غَيْرِهِمْ مُتَفَاضِلِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ ، فَلَا شَكَّ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ أَفْضَلُ مِنْ لُوطٍ الْمُعَاصِرِ لَهُ ، وَأَنَّ مُوسَى أَفْضَلُ مِنْ أَخِيهِ هَارُونَ الَّذِي كَانَ وَزِيرَهُ ، وَأَنَّ عِيسَى أَفْضَلُ مِنِ ابْنِ خَالَتِهِ يَحْيَى ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ، وَسَيَأْتِي ذِكْرُ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضِ السُّوَرِ

مُفَصَّلًا وَفِي بَعْضِهَا مُخْتَصَرًا ; وَلِذَلِكَ نُرْجِئُ الْكَلَامَ عَلَى كُلٍّ مِنْهُمْ إلَى تَفْسِيرِ تِلْكَ السُّورَةِ ، وَاللَّهُ الْمَسْئُولُ أَنْ يُوَفِّقَنَا لِتَفْسِيرِهَا وَإِتْمَامِ تَفْسِيرِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ عَلَى مَا يُحِبُّ وَيَرْضَى عَزَّ وَجَلَّ .

(44/241)

---

وَهَذَا الْبَيَانُ لِتَرْتِيبِ هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ وَنُكْتَةُ مَا ذُيِّلَ بِهِ كُلُّ قِسْمٍ مِنْهُمْ هُوَ مِمَّا فَتَحَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْنَا لَمْ نَعْلَمْ أَنَّ أَحَدًا سَبَقَنَا إلَيْهِ ، وَلَكِنْ حَوَّمَ بَعْضُهُمْ حَوْلَهُ فَلَمْ يَقَعْ عَلَيْهِ ، وَقَدْ قَالَ صَاحِبُ " رُوحِ الْمَعَانِي " وَهُوَ أَفْضَلُ الْمُفَسِّرِينَ الْمُتَأَخِّرِينَ ، وَنَاهِيكَ بِسِعَةِ اطِّلَاعِهِ عَلَى أَقْوَالِهِمْ وَأَقْوَالِ الْمُتَقَدِّمِينَ : " وَلَمْ يَظْهَرْ لِي السِّرُّ فِي ذِكْرِ هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ الْعِظَامِ عَلَيْهِمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَكْمَلُ السَّلَامِ ، عَلَى هَذَا الْأُسْلُوبِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى تَقْدِيمِ فَاضِلٍ عَلَى أَفْضَلَ ، وَمُتَأَخِّرٍ بِالزَّمَانِ عَلَى مُتَقَدِّمٍ بِهِ ، وَكَذَا السِّرُّ فِي التَّقْرِيرِ أَوَّلًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَكَذَلِكَ نَجْزِي) إلَخْ . وَثَانِيًا بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : (كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ) وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِأَسْرَارِ كَلَامِهِ " انْتَهَى .

وَلِلَّهِ الْحَمْدُ الَّذِي يَخْتَصُّ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَقَدْ يُؤْتَى مَفْضُولًا مَا لَا يُؤْتَى أَفْضَلُ الْفُضَلَاءِ .

(45/241)

وَنَذْكُرُ هُنَا مِنْ مَبَاحِثِ اللَّفْظِ وَالْقِرَاءَاتِ أَنَّ الْقُرَّاءَ اخْتَلَفُوا فِي قِرَاءَةِ اسْمِ (الْيَسَعَ) فَقَرَأَهُ الْجُمْهُورُ بِلَامٍ وَاحِدَةٍ مُحَرَّكًا بِوَزْنِ (الْيَمَنِ) الْقُطْرِ الْمَعْرُوفِ ، وَقَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ بِلَامَيْنِ أُدْغِمَتْ إِحْدَاهُمَا فِي الْأُخْرَى بِوَزْنِ (الضَّيْغَمِ) قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ : إِنَّ الْيَسَعَ مُعْرَبُ الِاسْمِ الْعِبْرَانِيِّ يُوشَعَ فَهُوَ اسْمٌ أَعْجَمِيٌّ دَخَلَتْ عَلَيْهِ لَامُ التَّعْرِيفِ عَلَى خِلَافِ الْقِيَاسِ وَقَارَنَتِ النَّقْلَ فَجُعِلَتْ عَلَامَةُ التَّعْرِيبِ فَلَا يَجُوزُ مُفَارَقَتُهَا لَهُ كَالْيَزِيدِ الَّذِي دَخَلَتْ عَلَيْهِ فِي الشِّعْرِ ، وَقِيلَ : إِنَّهُ اسْمٌ عَرَبِيٌّ مَنْقُولٌ مِنْ (يَسَعُ) مُضَارِعِ (وَسِعَ) وَأَقُولُ : الْأَقْرَبُ أَنَّهُ تَعْرِيبُ (الْيَشَعِ) وَهُوَ أَحَدُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَانَ الْخَلِيفَةَ (إِلْيَاسَ)

(46/241)

(إِيلِيَا) وَمِنَ الْمَعْهُودِ فِي نَقْلِ الْعِبْرِيِّ إِلَى الْعَرَبِيِّ إِبْدَالُ الشِّينِ الْمُعْجَمَةِ بِالْمُهْمَلَةِ ، وَقَدِ اسْتَدَلَّ بَعْضُهُمْ بِذِكْرِ عِيسَى فِي ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ أَوْ نُوحٍ عَلَى أَنَّ لَفْظَ الذُّرِّيَّةِ يَشْمَلُ أَوْلَادَ الْبَنَاتِ ، وَذَكَرَ الرَّازِيُّ أَنَّ الْآيَةَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ مِنْ ذُرِّيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : وَيُقَالُ إِنَّ أَبَا جَعْفَرٍ الْبَاقِرَ اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ عِنْدَ الْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ ذَكَرَ ذَلِكَ الْآلُوسِيُّ وَقَالَ : وَأَوْرَدَ عَلَيْهِ أَنَّهُ (أَيْ عِيسَى) لَيْسَ لَهُ أَبٌ يَصْرِفُ إِضَافَتَهُ إِلَى الْأُمِّ إِلَى نَفْسِهِ فَلَا يَظْهَرُ

قِيَاسٌ غَيْرُهُ عَلَيْهِ فِي كَوْنِهِ ذُرِّيَّةً لِجَدِّهِ مِنَ الْأُمِّ ، وَتُعُقِّبَ بِأَنَّ مُقْتَضَى كَوْنِهِ بِلَا أَبٍ أَنْ يُذْكَرَ فِي حَيِّزِ الذُّرِّيَّةِ وَفِيهِ مَنْعٌ ظَاهِرٌ وَالْمَسْأَلَةُ خِلَافِيَّةٌ ، ذُكِرَ أَنَّ مُوسَى الْكَاظِمَ (رَض) احْتَجَّ بِالْآيَةِ عَلَى الرَّشِيدِ ثُمَّ ذَكَرَ نَقْلًا عَنِ الرَّازِيِّ اسْتِدْلَالَ الْبَاقِرِ بِهَا وَبِآيَةِ الْمُبَاهَلَةِ قَالَ : وَادَّعَى بَعْضُهُمْ أَنَّ هَذَا مِنْ خَصَائِصِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَقَدِ اخْتَلَفَ إِفْتَاءُ أَصْحَابِنَا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَالَّذِي أَمِيلُ إِلَيْهِ الْقَوْلُ بِالدُّخُولِ . اهـ .

*(47/241)*

---

وَأَقُولُ فِي الْبَابِ حَدِيثُ أَبِي بَكْرَةَ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ مَرْفُوعًا : " إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ " يَعْنِي الْحَسَنَ ، وَلَفْظُ ابْنٍ لَا يَجْرِي عِنْدَ الْعَرَبِ عَلَى أَوْلَادِ الْبَنَاتِ ، وَحَدِيثُ عُمَرَ فِي كِتَابِ مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ لِأَبِي نُعَيْمٍ مَرْفُوعًا " وَكُلُّ وَلَدِ آدَمَ فَإِنَّ عَصَبَتَهُمْ لِأَبِيهِمْ خَلَا وَلَدَ فَاطِمَةَ فَإِنِّي أَنَا أَبُوهُمْ وَعَصَبَتُهُمْ " وَقَدْ جَرَى النَّاسُ عَلَى هَذَا فَيَقُولُونَ فِي أَوْلَادِ فَاطِمَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - أَوْلَادُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَبْنَاؤُهُ وَعِتْرَتُهُ وَأَهْلُ بَيْتِهِ .

وَاسْتَدَلُّوا بِتَفْضِيلِ مَنْ ذُكِرَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى الْعَالَمِينَ ، عَلَى تَفْضِيلِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ، بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْعَالَمَ اسْمٌ لِمَا سِوَى اللَّهِ تَعَالَى وَفِيهِ نَظَرٌ ، فَإِنَّ الْعَالَمِينَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْآيَةِ لَا يُفْهَمُ مِنْهُ إِلَّا النَّاسُ أَوِ الْأَقْوَامُ مِنَ النَّاسِ ، فَهِيَ كَالْآيَاتِ النَّاطِقَةِ بِتَفْضِيلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى الْعَالَمِينَ

وَلَمْ يَخْطُرْ فِي بَالِ أَحَدٍ قَرَأَهَا أَوْ فَسَرَّهَا أَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى تَفْضِيلِهِمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ، وَمِثْلُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ قَوْمِ لُوطٍ : (أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ) 15 : 70 وَقَوْلُهُ فِي إِبْرَاهِيمَ : (وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ) 21 : 71 وَهِيَ أَرْضُ الشَّامِ بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا لِمَنْ يَسْكُنُهَا مِنَ النَّاسِ لَا لِلْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ .

*(48/241)*

---

(وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ) أَيْ وَهَدَيْنَا مِنْ آبَاءِ مَنْ ذُكِرَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، أَيْ بَعْضِ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ بَعْضَ هَؤُلَاءِ الْأَقْرَبِينَ لَمْ يَهْتَدِ بِهَدْيِ ابْنِهِ أَوْ أَبِيهِ أَوْ أَخِيهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ كَأَبِي إِبْرَاهِيمَ وَابْنِ نُوحٍ . قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) 57 : 26 وَقِيلَ : إِنَّ الْعَطْفَ هُنَا عَلَى مَا قَبْلَهُ مُبَاشَرَةً ، أَيْ وَفَضَّلْنَا بَعْضَ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ - وَهُمُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا بِهَدْيِهِمْ - عَلَى غَيْرِهِمْ مِنْ عَالَمِي زَمَانِهِمُ الَّذِينَ لَمْ يَهْتَدُوا مِثْلَهُمْ (وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) وَهَذَا عَطْفٌ عَلَى (فَضَّلْنَا أَيْ وَفَضَّلْنَاهُمْ وَاخْتَرْنَاهُمْ وَاصْطَفَيْنَاهُمْ بِالِاجْتِبَاءِ ، وَهُوَ افْتِعَالٌ مِنْ جَبَيْتَ الْمَالَ وَالْمَاءَ فِي الْحَوْضِ ، وَالثَّمَرَاتِ النَّاضِجَةِ فِي الْوِعَاءِ - إِذَا - جَمَعْتَ مَا تَخْتَارُهُ مِنْهَا

; وَلِذَلِكَ قَالَ الرَّاغِبُ : الِاجْتِبَاءُ الْجَمْعُ عَلَى طَرِيقِ الِاصْطِفَاءِ . (ثُمَّ قَالَ : وَاجْتِبَاءُ اللَّهِ الْعَبْدَ تَخْصِيصُهُ إِيَّاهُ بِفَيْضٍ إِلَهِيٍّ يَتَحَصَّلُ لَهُ مِنْهُ أَنْوَاعٌ مِنَ النِّعَمِ بِلَا سَعْيٍ مِنَ الْعَبْدِ ، وَذَلِكَ لِلْأَنْبِيَاءِ وَبَعْضِ مَنْ يُقَارِبُهُمْ مِنَ الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ ، ثُمَّ أَوْرَدَ الْآيَاتِ فِي ذَلِكَ

(49/241)

---

ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (88) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (89)

وَمِنْهَا الْآيَةُ الَّتِي نُفَسِّرُهَا ، وَقَدْ أُعِيدَ ذِكْرُ الْهِدَايَةِ لِبَيَانِ مُتَعَلِّقِهَا - وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ - عَلَى مَا فِيهِ مِنَ التَّأْكِيدِ ، وَلِيَتَرَتَّبَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ :

(50/241)

---

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) أَيْ ذَلِكَ الْهُدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَهُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ أُولَئِكَ الْأَخْيَارُ مِمَّا ذُكِرَ مِنَ الدِّينِ الْقَوِيمِ ، وَالْفَضْلِ الْعَظِيمِ هُوَ هُدَى اللَّهِ الْخَاصِّ

الَّذِي هُوَ وَرَاءَ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْهُدَى الْعَامِّ ، كَهُدَى الْحَوَاسِّ وَالْعَقْلِ وَالْوِجْدَانِ ؛ لِأَنَّهُ عِبَارَةٌ عَنِ الْإِيصَالِ بِالْفِعْلِ إلَى الْحَقِّ وَالْخَيْرِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُؤَدِّي إلَى السَّعَادَةِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ شَرْحُ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ . وَقَوْلُهُ : (يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) يَقَعُ عَلَى دَرَجَتَيْنِ : ذَلِكَ

فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ . وَقَوْلُهُ : (يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) يَقَعُ عَلَى دَرَجَتَيْنِ :

هِدَايَةٌ لَيْسَ لِصَاحِبِهَا سَعْيٌ لَهَا وَلَا هِيَ مِمَّا يُنَالُ بِكَسْبِهِ وَهِيَ النُّبُوَّةُ الْمُشَارُ إلَيْهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى) 93 : 7 وَهِدَايَةٌ قَدْ تُنَالُ بِالْكَسْبِ وَالِاسْتِعْدَادِ مَعَ اللُّطْفِ الْإِلَهِيِّ وَالتَّوْفِيقِ لِنَيْلِ الْمُرَادِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ كَلَامٌ بِهَذَا الْمَعْنَى فِي هَذَا السِّيَاقِ (وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أَيْ وَلَوْ فُرِضَ أَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ أُولَئِكَ الْمَهْدِيُّونَ الْمُجْتَبَوْنَ ، لَحَبِطَ - أَيْ بَطَلَ - وَسَقَطَ عَنْهُمْ ثَوَابُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ بِزَوَالِ أَفْضَلِ آثَارِ أَعْمَالِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمُ الَّذِي هُوَ الْأَسَاسُ لِمَا رُفِعَ مِنْ دَرَجَاتِهِمْ ؛ لِأَنَّ تَوْحِيدَ اللَّهِ تَعَالَى لَمَّا كَانَ مُنْتَهَى الْكَمَالِ الْمُزَكِّي لِلْأَنْفُسِ ، كَانَ ضِدُّهُ وَهُوَ الشِّرْكُ

*(51/241)*

---

مُنْتَهَى النَّقْصِ وَالْفَسَادِ الْمُدَسِّي لَهَا ، وَالْمُفْسِدِ لِفِطْرَتِهَا ، فَلَا يَبْقَى مَعَهُ تَأْثِيرٌ نَافِعٌ لِعَمَلٍ آخَرَ فِيهَا - يُمْكِنُ أَنْ يَتَرَتَّبَ عَلَيْهِ نَجَاتُهَا وَفَلَاحُهَا .

(أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ) ذَهَبَ ابْنُ جَرِيرٍ وَالرَّازِيُّ إِلَى أَنَّ الْإِشَارَةَ فِي "أُولَئِكَ" إِلَى مَنْ ذُكِرَ فِي الْآيَاتِ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَرُسُلِهِ ، وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى شُمُولِهَا مَنْ ذُكِرَ بَعْدَهُمْ إِجْمَالًا مِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : إِنَّ الْمُرَادَ بِالْكِتَابِ مَا ذُكِرَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَزَبُورِ دَاوُدَ وَإِنْجِيلِ عِيسَى ، وَأَنَّ الْمُرَادَ بِالْحُكْمِ الْفَهْمُ بِالْكِتَابِ وَمَعْرِفَةِ مَا فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ ، وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّ الْحُكْمَ هُوَ اللُّبُّ . (قَالَ) وَعَنَى بِذَلِكَ مُجَاهِدٌ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - مَا قُلْتُ ; لِأَنَّ اللُّبَّ هُوَ الْعَقْلُ فَكَأَنَّهُ أَرَادَ أَنَّ اللَّهَ آتَاهُمُ الْعَقْلَ بِالْكِتَابِ وَهُوَ بِمَعْنَى مَا قُلْنَا مِنْ أَنَّهُ الْفَهْمُ بِهِ انْتَهَى . وَلَمْ يُرْوَ عَنِ السَّلَفِ فِي تَفْسِيرِ الْحُكْمِ غَيْرُ هَذَا الْقَوْلِ عَنْ مُجَاهِدٍ . وَالْحُكْمُ يُطْلَقُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ عَلَى حُكْمِ الْعَقْلِ بِإِثْبَاتِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ أَوْ نَفْيِهِ عَنْهُ قَطْعًا ، وَهُوَ الْعِلْمُ الْيَقِينِيُّ بِالْمَعْنَى اللُّغَوِيِّ الَّذِي بَيَّنَّاهُ مِنْ قَبْلُ ، وَهُوَ يَسْتَلْزِمُ فِقْهَ الْمَعْلُومِ وَفَهْمَ سِرِّهِ وَحِكْمَتِهِ فَهُوَ بِمَعْنَى الْحِكْمَةِ وَالْفَلْسَفَةِ ، وَيُطْلَقُ عَلَى الْقَضَاءِ لِخَصْمٍ عَلَى خَصْمٍ بِأَنَّ هَذَا حَقُّهُ أَوْ لَيْسَ بِحَقِّهِ ، وَقَالَ الرَّاغِبُ : وَالْحُكْمُ بِالشَّيْءِ أَنْ تَقْضِيَ بِأَنَّهُ كَذَا سَوَاءٌ أَلْزَمْتَ ذَلِكَ غَيْرَكَ أَوْ لَمْ تُلْزِمْهُ وَقَالَ صَاحِبُ اللِّسَانِ : وَالْحُكْمُ الْعِلْمُ

وَالْفِقْهُ وَالْقَضَاءُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ مَصْدَرُ حَكَمَ يَحْكُمُ كَ (نَصَرَ) يَنْصُرُ ثُمَّ نَقَلَ عَنِ ابْنِ سِيدَهْ أَنَّ الْحُكْمَ الْقَضَاءُ وَجَمْعُهُ أَحْكَامٌ وَلَمْ يُقَيِّدْهُ بِالْعَدْلِ ، وَعَنْ الْأَزْهَرِيِّ أَنَّهُ الْقَضَاءُ بِالْعَدْلِ .

وَقَوْلُ ابْنِ سِيدَهْ هُوَ الظَّاهِرُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) 4 : 58 وَالْمَعْنَى الْأَصْلِيُّ لِهَذِهِ الْمَادَّةِ الْمَنْعُ . قَالَ فِي اللِّسَانِ : وَالْعَرَبُ تَقُولُ حَكَمْتُ وَأَحْكَمْتُ وَحَكَّمْتُ – بِالتَّشْدِيدِ – بِمَعْنَى مَنَعْتُ وَرَدَدْتُ ، وَمِنْ هَذَا قِيلَ لِلْحَاكِمِ بَيْنَ النَّاسِ : حَاكِمٌ ؛ لِأَنَّهُ يَمْنَعُ الظَّالِمَ مِنَ الظُّلْمِ ، وَذَكَرَ كَغَيْرِهِ مِنْ ذَلِكَ " حَكَمَةَ " اللِّجَامِ – بِالتَّحْرِيكِ – وَهِيَ حَدِيدَةُ اللِّجَامِ الَّتِي تُوضَعُ فِي حَنَكِ الدَّابَّةِ لِأَنَّهَا تَرُدُّهَا وَتَكْبَحُهَا .

وَأَقُولُ : إِنَّ الْحُكْمَ بِمَعْنَى الْعِلْمِ الْجَزْمِ وَفِقْهُ الْأُمُورِ – وَهُوَ حِكْمَتُهَا – فِيهِ مَعْنَى الْمَنْعِ أَيْضًا وَهُوَ مَنْعُ الِاحْتِمَالَاتِ وَالظُّنُونِ ، فَمَنْ لَيْسَ لَهُ حُكْمٌ جَازِمٌ فِي الْمَسْأَلَةِ لَا يَكُونُ عَالِمًا بِهَا . وَمَا يُقَالُ فِي الْمَسْأَلَةِ الْوَاحِدَةِ يُقَالُ فِي كُلِّ عِلْمٍ وَفَنٍّ ، وَكَذَا مَنْعُ الْعَالِمِ الْحَكِيمِ مِنْ مُخَالَفَةِ مُقْتَضَى الْعِلْمِ ، وَمِنَ الْوَاضِحِ الْجَلِيِّ أَنَّ كُلَّ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَدْ آتَاهُ اللَّهُ الْحُكْمَ بِهَذَا

الْمَعْنَى - أَيِ الْعِلْمَ الصَّحِيحَ وَالْفِقْهَ فِي أُمُورِ الدِّينِ وَشُئُونِ الْإِصْلَاحِ ، وَفَهْمِ الْكِتَابِ الَّذِي تَعَبَّدَهُ بِهِ ، سَوَاءٌ أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ أَمْ أَنْزَلَهُ عَلَى غَيْرِهِ . وَإِنَّمَا اخْتَصَّ بَعْضَهُمْ بِإِيتَائِهِ الْحُكْمَ صَبِيًّا لِيَحْيَى وَعِيسَى ، وَلَعَلَّ الْمُرَادَ بِهِ مَلَكَةُ الْحُكْمِ الصَّحِيحِ فِي الْأُمُورِ ، وَأَمَّا الْحُكْمُ بِمَعْنَى الْقَضَاءِ وَالْفَصْلِ فِي الْخُصُومَاتِ فَلَمْ يُؤْتَهُ إِلَّا بَعْضُ الْأَنْبِيَاءِ ، فَإِذَا كَانَ الْمُشَارُ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ : (أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ) مَنْ ذُكِرَتْ أَسْمَاؤُهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فِيمَا قَبْلَهُ مِنَ الْآيَاتِ ، فَالْأَظْهَرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْحُكْمِ فِيهَا الْفَصْلُ فِي الْخُصُومَاتِ وَالْقَضَاءِ بَيْنَ النَّاسِ ; لِأَنَّهُ أَخَصُّ وَيَسْتَلْزِمُ الْعِلْمَ وَالْفِقْهَ - وَكَذَلِكَ النُّبُوَّةُ - وَتَكُونُ هَذِهِ الْعَطَايَا الثَّلَاثُ مُرَتَّبَةً عَلَى حَسَبِ دَرَجَاتِ الْخُصُوصِيَّةِ ، فَإِنَّ الثَّابِتَ وَالْأَمْرَ الْوَاقِعَ أَنَّ بَعْضَ أُولَئِكَ النَّبِيِّينَ أُوتِيَ الثَّلَاثَ كَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى وَدَاوُدَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أُوتِيَ الْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ كَالْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَحْكُمُونَ بِالتَّوْرَاةِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُؤْتَ إِلَّا النُّبُوَّةَ فَقَطْ . فَإِذَا جَعَلْنَا الْحُكْمَ بِمَعْنَى الْفَهْمِ وَالْعِلْمِ ، كَانَتِ الْآيَةُ غَيْرَ مَبْنِيَّةٍ لِهَذِهِ الْعَطِيَّةِ الْعَظِيمَةِ ، وَمِنْ شَوَاهِدِ الْقُرْآنِ عَلَى اسْتِعْمَالِ الْحُكْمِ بِمَعْنَى الْقَضَاءِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ

بِالْحَقِّ) 38 : 26 وَقَوْلُهُ فِي دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ مَعًا : (وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا) 21 : 79 وَقَوْلُهُ فِي يُوسُفَ : (آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) 12 : 22 أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ مُوسَى : (فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ) 26 : 21 فَهُوَ أَظْهَرُ فِي هَذَا الْمَعْنَى وَإِنَّ تَأَخُّرَ الْقِيَامِ بِهِ عَنِ الْقِيَامِ بِأَمْرِ الرِّسَالَةِ الَّتِي تَأَخَّرَ الْقِيَامُ بِهَا عَنْ جَعْلِهِ رَسُولًا ، فَإِنَّ كُلًّا مِنْهُمَا وَقَعَ فِي وَقْتِهِ الْمُنَاسِبِ لَهُ . وَتَفْسِيرُ بَعْضِهِمْ لِلْحُكْمِ هُنَا بِالنُّبُوَّةِ ضَعِيفٌ لِلِاسْتِغْنَاءِ عَنْهُ بِذِكْرِ الرِّسَالَةِ . وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ إِبْرَاهِيمَ : (رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا) 26 : 83 فَإِنَّهُ دَعَا هَذَا الدُّعَاءَ وَهُوَ رَسُولٌ عَلَيْهِمْ بَعْدَ مُحَاجَّةِ قَوْمِهِ ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنَّهُ طَلَبُ الْحُكْمِ بِمَعْنَى الْحُكُومَةِ وَالسُّلْطَةِ . وَمِنَ الشَّوَاهِدِ ، عَلَى اسْتِعْمَالِ الْحُكْمِ بِمَعْنَى الْعِلْمِ وَفِقْهِ الْقَلْبِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي يَحْيَى : (وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا) 19 : 12 وَقَوْلُهُ فِي شَأْنِ التَّوْرَاةِ : (يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا) 5 : 44 وَهَذِهِ الثَّلَاثُ مَرْتَبَةٌ

*(56/241)*

---

عَلَى حَسَبِ خُصُوصِيَّتِهَا ، فَكُلُّ مَنْ أُوتِيَ الْكِتَابَ أُوتِيَ الْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ، وَكُلُّ مَنْ أُوتِيَ الْحُكْمَ مِمَّنْ ذُكِرَ كَانَ نَبِيًّا وَمَا كُلُّ نَبِيٍّ مِنْهُمْ كَانَ حَاكِمًا وَلَا صَاحِبَ كِتَابٍ مُنَزَّلٍ ، وَهَذِهِ مَرَاتِبُ الْفَضْلِ بَيْنَهُمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ ، وَإِذَا اسْتَعْمَلْنَا الْحُكْمَ بِمَعْنَيَيْهِ عَلَى

مَذْهَبِ مَنْ يُجِيزُ ذَلِكَ

فِي الْمُشْتَرَكِ كَانَ عَلَى التَّوْزِيعِ فَإِنَّ كُلَّ نَبِيٍّ أُوتِيَ الْحُكْمَ بِمَعْنَى الْعِلْمِ وَالْفِقْهِ وَالْفَهْمِ ، وَمَا أُوتِيَهُ إِلَّا بَعْضُهُمْ بِمَعْنَى الْقَضَاءِ بَيْنَ النَّاسِ كَمَا تَقَرَّرَ وَتَكَرَّرَ .

(57/241)

---

وَأَمَّا إِذَا جَرَيْنَا عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ الْمُشَارَ إِلَيْهِمْ فِي الْآيَةِ هُمْ أُولَئِكَ النَّبِيُّونَ وَمَنْ ذُكِرَ مِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ فَالْحَاجَةُ إِلَى اسْتِعْمَالِ الْمُشْتَرَكِ فِي مَعْنَيَيْهِ أَقْوَى ، فَإِنَّ بَعْضَهُمْ كَانَ نَبِيًّا غَيْرَ حَاكِمٍ ، وَبَعْضَهُمْ كَانَ عَالِمًا حَاكِمًا غَيْرَ نَبِيٍّ ، وَبَعْضَهُمْ عَالِمًا حَكِيمًا غَيْرَ حَاكِمٍ وَلَا نَبِيٍّ ، وَيَكُونُ إِيتَاءُ الْكِتَابِ أَعَمَّ مِنْ إِيحَائِهِ ، فَإِنَّ أُمَّةَ الرَّسُولِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ بِإِيحَائِهِ إِلَيْهِ يُقَالُ إِنَّهَا قَدْ أُعْطِيَتِ الْكِتَابَ ، وَآيَاتُ الْقُرْآنِ نَاطِقَةٌ بِذَلِكَ ، بَلْ يُقَالُ أَيْضًا : إِنَّ الْكِتَابَ أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ وَعَلَيْهِمْ كَمَا نَصَّ فِي سُورَتَيِ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ - فَالْإِنْزَالُ عَلَى الرُّسُلِ عِبَارَةٌ عَنِ الْوَحْيِ إِلَيْهِمْ ، وَالْإِنْزَالُ عَلَى الْأُمَمِ عِبَارَةٌ عَنْ مُخَاطَبَتِهِمْ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى رُسُلِهِمْ لِهِدَايَتِهِمْ .

وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْوَجْهَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ) 45 : 16 الْآيَةَ .

(58/241)

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُبَيِّنًا وَجْهَ الْعِبْرَةِ بِمَا ذَكَرَ لِلْمُخَاطَبِينَ بِالْقُرْآنِ (فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ) أَيْ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَذِهِ الثَّلَاثِ - الْكِتَابِ وَالْحُكْمِ وَالنُّبُوَّةِ - هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ، وَقَدْ خُصُّوا بِدَعْوَتِهِمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِهَا قَبْلَ غَيْرِهِمْ ، إِذْ أُوتِيَهَا عَلَى الْوَجْهِ الْأَكْمَلِ رَسُولٌ مِنْهُمْ ، فَقَدْ وَكَّلْنَا بِأَمْرِ رِعَايَتِهَا ، وَوَفَّقْنَا لِلْإِيمَانِ بِهَا وَتَوَلِّي نَصْرَ الدَّاعِي إِلَيْهَا ، قَوْمًا كِرَامًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ، بَلْ مِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ سَيُؤْمِنُ عِنْدَمَا يُدْعَى ، أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : (فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ) يَعْنِي أَهْلَ مَكَّةَ . يَقُولُ : إِنْ يَكْفُرُوا بِالْقُرْآنِ - أَيِ الْجَامِعِ لِمَا ذُكِرَ كُلِّهِ لِرَسُولِ اللَّهِ - (فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ) يَعْنِي أَهْلَ الْمَدِينَةِ وَالْأَنْصَارَ انْتَهَى . وَرَوَى مِثْلَهُ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ . وَرُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ تَفْسِيرُ مَنْ يَكْفُرُ بِهَا بِأَهْلِ مَكَّةَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ ، وَتَفْسِيرُ الْمُوَكَّلِينَ بِهَا بِالْأَنْبِيَاءِ الثَّمَانِيَةَ عَشَرَ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى هُنَا . وَعَنْ أَبِي رَجَاءٍ الْعُطَارِدِيِّ تَفْسِيرُ الْمُوَكَّلِينَ بِهَا بِالْمَلَائِكَةِ . هَذَا هُوَ الْمَأْثُورُ ، الَّذِي اقْتَصَرَ عَلَيْهِ فِي الدُّرِّ الْمَنْثُورِ . وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ نَحْوَ قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ الضَّحَّاكِ وَالسُّدِّيِّ وَابْنِ

جُرَيْجٍ ، وَذَهَبَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ إلَى

أَنَّ الْمُوَكَّلِينَ بِهَا هُمْ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُطْلَقًا وَقِيلَ : كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ، وَقِيلَ : الْفُرْسُ . وَالْمُخْتَارُ عِنْدَنَا أَنَّهُمْ جَمِيعُ الصَّحَابَةِ ، فَإِنَّ الْمُهَاجِرِينَ قَدْ كَانُوا أَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهَا ، وَصَبَرَ عَلَى بَلَائِهَا وَكَانُوا بَعْدَ الْهِجْرَةِ فِي مُقَدِّمَةِ الْأَنْصَارِ ، فِي كُلِّ عَمَلٍ وَكُلِّ جِهَادٍ ، وَلَكِنَّ الْأَنْصَارَ مَقْصُودُونَ

(60/241)

---

بِالذَّاتِ ; لِأَنَّ الْقُوَّةَ وَالْمَنْعَةَ لَمْ تَكُنْ إلَّا بِهِمْ ; وَلِذَلِكَ قَالَ : (لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ) فَإِنَّ الْأَنْصَارَ لَمْ يَكُونُوا عِنْدَ نُزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ مُؤْمِنِينَ - أَمَّا تَفْسِيرُ الْقَوْمِ الْمُوَكَّلِينَ بِهَا بِمَنْ ذُكِرَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَقَدِ اخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَاحْتَجَّ بِأَنَّ الْكَلَامَ السَّابِقَ وَاللَّاحِقَ فِيهِمْ فَالْكَلَامُ فِي الْأَثْنَاءِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِيهِمْ كَذَلِكَ ، وَتَبِعَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ قَضِيَّةً وَحُجَّةً ، وَنَقَلَهُ الرَّازِيُّ عَنِ الْحَسَنِ ، وَاخْتِيَارُ الزَّجَّاجِ . وَالْمَعْنَى أَنَّهُ تَعَالَى وَكَّلَ بِهَا مَنْ ذُكِرَ فِي أَزْمِنَتِهِمْ وَلَعَلَّ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُرِيدُ بِتَوْكِيلِ أُولَئِكَ النَّبِيِّينَ الْمُرْسَلِينَ بِهَا مَا أَخَذَهُ اللَّهُ مِنَ الْعَهْدِ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ : (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ) 3 : 81 الْآيَةَ . وَلَمْ يُصَرِّحُوا بِذَلِكَ . وَأَمَّا تَفْسِيرُ الْقَوْمِ بِالْمَلَائِكَةِ فَقَدِ اسْتَبْعَدَهُ الرَّازِيُّ مُعَلِّلًا ذَلِكَ بِأَنَّ اسْمَ الْقَوْمِ قَلَّمَا يَقَعُ عَلَى غَيْرِ بَنِي آدَمَ .

وَنَقُولُ : إنَّ السِّيَاقَ هُنَا يَدُلُّ عَلَى قَوْمٍ كِرَامٍ مِنْ بَنِي آدَمَ بِدَلِيلِ التَّنْكِيرِ وَإِنْ أُطْلِقَ لَفْظُ الْقَوْمِ عَلَى الْجِنِّ فِي التَّنْزِيلِ ، وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ وُقُوعُهُ فِي سِيَاقِ الْكَلَامِ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ ، فَإِنَّ قِصَصَ الْأَنْبِيَاءِ لَمْ تُذْكَرْ إلَّا لِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ بِهَا عَلَى الْكَافِرِينَ ، وَالْهِدَايَةِ وَالْعِبْرَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَوَصْفُهُمْ بِأَنَّهُمْ لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ، وَصْفٌ لِقَوْمٍ حَاضِرِينَ مِنْهُمْ

(61/241)

---

الْمُؤْمِنُ بِالْقُوَّةِ بِالْفِعْلِ ، وَوَصْفُ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ بِذَلِكَ لَا يَظْهَرُ لَهُ وَجْهٌ .

(رُؤْيَا مُبَشِّرَةٌ لَا مُغَرِّرَةٌ) .

بَعْدَ كِتَابَةِ مَا تَقَدَّمَ بِزُهَاءِ شَهْرٍ رَأَيْتُ فِي الرُّؤْيَا نَفَرًا مِنْ أَهْلِ بَلَدِنَا (طَرَابُلُسَ الشَّامِ) مُقْبِلِينَ فِي عَمَائِمَ وَأَقْبِيَةٍ مِنَ الْحَرِيرِ النَّفِيسِ ، وَأَنَا جَالِسٌ مَعَ أُنَاسٍ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ : هَذَا فُلَانٌ وَذَكَرَ اسْمَ رَجُلٍ كَانَ زَعِيمًا لِطَائِفَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الرِّجَالِ الْمَعْرُوفِينَ بِالشَّجَاعَةِ وَالنَّجْدَةِ ، فَقُمْنَا لَهُ وَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى مَنْ مَعَهُ ، فَفَاجَئُونَا بِنَبَأٍ عَظِيمٍ مَوْضُوعُهُ أَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ مِصْدَاقُ قَوْلِهِ تَعَالَى : (فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ) قَالُوا : أَلَمْ تَعْلَمُوا بِذَلِكَ ؟ قُلْنَا : لَا ، قَالُوا : إنَّ هَذِهِ مَسْأَلَةٌ عَظِيمَةٌ قَدْ عُرِفَتْ . فِي أُورُبَّةَ وَذُكِرَتْ فِي

بَعْضِ جَرَائِدِهَا – وَظَنَنْتُ أَنَّهُ كَانَ مَعَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الْجَرَائِدِ – وَقَدِ اهْتَمَّ لَهَا فُلَانْ بَاشَا – وَذَكَرَ رَئِيسَ وُزَرَاءِ الدَّوْلَةِ الْعُثْمَانِيَّةِ – وَسَافَرَ لِأَجْلِهَا .

(62/241)

---

فَصِرْتُ أُفَكِّرُ فِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ الْأَخِيرَةِ وَالْمُرَادِ مِنْهَا . قُلْتُ فِي نَفْسِي : لَيْتَ شِعْرِي هَلْ سَخَّرَ اللهُ لِلْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ قَوْمًا يَنْصُرُونَهَا غَيْرَ الْمُدَّعِينَ لِذَلِكَ ؟ وَمَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ الَّذِينَ لَمْ نَعْلَمْ مِنْ خَبَرِهِمْ هَذَا شَيْئًا ؟ وَمَا مَعْنَى اهْتِمَامِ الْوَزِيرِ وَسَفَرِهِ مِنَ الْعَاصِمَةِ لِأَجْلِهَا ؟ وَإِلَى أَيْنَ سَافَرَ ؟ وَهَلْ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ مَعَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ وَحْدَهُ أَوْ مَعَ أَحَدٍ مِنْ شِيعَتِهِ كَمَا تَقْتَضِيهِ السِّيَاسَةُ أَمْ فَرَّ مِنْهُمْ ؟ وَقَدِ اتَّسَعَتْ خَوَاطِرِي فِي ذَلِكَ بِمَا لَا حَاجَةَ إِلَى ذِكْرِهِ ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَسْأَلَ الْجَمَاعَةَ الْمُخْبِرِينَ عَنْ ذَلِكَ فَاسْتَيْقَظْتُ قَبْلَ أَنْ أَفْعَلَ . وَكَانَ ذَلِكَ فِي وَقْتِ السَّحَرِ ، وَقَدْ تَذَكَّرْتُ قُرْبَ عَهْدِي بِتَفْسِيرِ الْآيَةِ عِنْدَمَا قَصَصْتُ رُؤْيَايَ فَحَسِبْتُهَا مِنَ الْمُبَشِّرَاتِ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ يُسَخِّرُ لِلْإِسْلَامِ مِنْ غَيْرِ الْكَافِرِينَ مَنْ يَنْصُرُهُ

(63/241)

---

وَيُصْلِحُ مَا أَفْسَدَ فِيهِ أَهْلُهُ وَغَيْرُ أَهْلِهِ ، وَيُعِيدُونَ بِنَاءَ مَا هُدِمَ مِنْ شَرْعِهِ ، وَرَفْعَ عِمَادِ مَائِلٍ مِنْ عَرْشِهِ ، وَلَوْ بِإِزَالَةِ الْعِلَلِ وَالْمَوَانِعِ وَتَمْهِيدِ السَّبِيلِ لِذَلِكَ . وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ عَلَى وَجْهٍ غَيْرِ مَا يَنْتَظِرُهُ الْجَمَاهِيرُ مِنْ ظُهُورِ الْمَهْدِيِّ بَعْدَ أَنْ خَابَتِ الْآمَالُ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَدْعِيَاءِ الْمَهْدِيَّةِ .

وَإِذَا كَانَ اللهُ قَدْ أَرَانَا فِي تَارِيخِنَا مِصْدَاقَ قَوْلِ رَسُولِهِ " إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ " وَقَوْلِهِ : " إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَيُؤَيِّدُ الْإِسْلَامَ بِرِجَالٍ مَا هُمْ مِنْ أَهْلِهِ " أَفَيَضِيقُ عَلَى فَضْلِهِ أَنْ يَكُونَ مَضْمُونُ هَذِهِ الْآيَةِ عَامًا مُكَرَّرًا وَيُؤَيِّدُ اللهُ الْإِسْلَامَ بِقَوْمٍ لَيْسُوا بِكَافِرِينَ كَمَلَاحِدَةِ هَذَا الْعَصْرِ الْمَعْرُوفِينَ ، وَلَا كَالصَّحَابَةِ مُؤْمِنِينَ كَامِلِينَ ، بَلْ بَيْنَ ذَلِكَ كَخِيَارِ هَذَا الْعَصْرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ؟ وَبِهَذَا يَظْهَرُ مِنَ السِّرِّ فِي وَصْفِ الْقَوْمِ فِي الْآيَةِ بَعْدَ الْكُفْرِ مَا هُوَ أَعَمُّ مِمَّا ذُكِرَ مِنْ قَبْلُ ! فَافْهَمْ .

*(64/241)*

---

(أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ) الْهُدَى ضِدُّ الضَّلَالِ ، وَهُوَ يُطْلَقُ فِي مَقَامِ الدِّينِ عَلَى الطَّرِيقِ الْمُوصِلِ إِلَى الْحَقِّ ، وَهُوَ الطَّرِيقُ الْمُسْتَقِيمُ نَطْلُبُهُ فِي صَلَاتِنَا ، وَعَلَى سُلُوكِ ذَلِكَ الطَّرِيقِ وَالِاسْتِقَامَةِ فِي السَّيْرِ عَلَيْهِ ، وَقَالَ الرَّاغِبُ : الْهُدَى وَالْهِدَايَةُ فِي مَوْضُوعِ اللُّغَةِ وَاحِدٌ ، وَلَكِنْ قَدْ خَصَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَفْظَةَ الْهُدَى بِمَا تَوَلَّاهُ وَأَعْطَاهُ وَاخْتَصَّ هُوَ بِهِ دُونَ مَا

هُوَ إِلَى الْإِنْسَانِ انْتَهَى . وَهُوَ لَا يَصِحُّ مُطَّرِدًا . وَالِاقْتِدَاءُ فِي اللُّغَةِ السَّيْرُ عَلَى سُنَنِ مَنْ يُتَّخَذُ قُدْوَةً أَيْ مِثَالًا يُتَّبَعُ . وَهُوَ لَا يَصِحُّ مُطَّرِدًا . قَالَ فِي

(65/241)

---

اللِّسَانِ : يُقَالُ قُدْوَةٌ وَقِدْوَةٌ لِمَا يُقْتَدَى بِهِ ، ابْنُ سِيدَهْ : الْقُدْوَةُ وَالْقِدْوَةُ مَا تَسَنَّنْتَ بِهِ ثُمَّ قَالَ : وَقَدِ اقْتَدَى بِهِ وَالْقُدْوَةُ الْأُسْوَةُ . اهـ . وَالصَّوَابُ أَنَّهَا بِتَثْلِيثِ الْقَافِ . بَعْدَ هَذَا يَنْبَغِي أَنْ نَعْلَمَ مَا يَكُونُ بِهِ الِاقْتِدَاءُ وَمَا لَا يَكُونُ وَلَا سِيَّمَا اقْتِدَاءُ النَّبِيِّ - الْمُرْسَلِ بِالشَّرْعِ الْأَكْمَلِ - بِغَيْرِهِ مِمَّنْ لَوْ كَانَ حَيًّا لَمَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعُهُ ، فَأَمَّا الْعِلْمُ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ وَتَنْزِيهِهِ وَإِثْبَاتِ صِفَاتِ الْكَمَالِ لَهُ وَبِسَائِرِ أُصُولِ الدِّينِ وَعَقَائِدِهِ كَالْإِيمَانِ بِالْمَلَائِكَةِ وَأَمْرِ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ ، فَكُلُّ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَاهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى رَسُولِهِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهٍ فَكَانَ عِلْمًا ضَرُورِيًّا وَبُرْهَانِيًّا لَهُ كَمَا تَقَدَّمَ تَقْرِيرُهُ مِنْ عَهْدٍ قَرِيبٍ ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُؤْمَرَ بِالِاقْتِدَاءِ فِيهِ بِمَنْ قَبْلَهُ وَلَا هُوَ مِمَّا يَقَعُ فِيهِ الِاقْتِدَاءُ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى لَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) 16 : 123 مَعْنَاهُ أَنَّ الْمِلَّةَ الَّتِي أَوْحَاهَا إِلَيْهِ وَأَمَرَهُ بِاتِّبَاعِهَا - وَهِيَ الْعَقِيدَةُ وَأَصْلُ الدِّينِ - هِيَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ ، وَإِنَّمَا يَتْبَعُهَا لِأَمْرِ اللَّهِ لَا لِأَنَّهَا مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ ، إِذْ

لَيْسَتْ مِمَّا عَلِمَهُ مِنْ إبْرَاهِيمَ بِالتَّلَقِّي عَنْهُ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي عَصْرِهِ ، وَلَا بِالنَّقْلِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نَاقِلًا ذَلِكَ عَنِ الْعَرَبِ ، وَإِنْ

(66/241)

---

كَانَ مِنَ الْمَشْهُورِ الْمُتَوَاتِرِ عِنْدَ الْعَرَبِ أَنَّ إبْرَاهِيمَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ مُوَحِّدًا حَنِيفًا . وَأَمَّا الشَّرَائِعُ الْعَمَلِيَّةُ فَلَا يَقْتَدِي فِيهَا الرَّسُولُ بِأَحَدٍ أَيْضًا ، وَإِنَّمَا يَتَّبِعُهَا لِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُ بِاتِّبَاعِهَا - ذَلِكَ بِأَنَّ الرَّسُولَ لَا يَتْبَعُ فِي الدِّينِ إلَّا مَا أُوحِيَ إلَيْهِ مِنْ حَيْثُ أَنَّهُ أُوحِيَ إلَيْهِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ مِمَّا فَسَّرْنَا مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ فِيهِ قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ رَسُولِهِ بِأَمْرِهِ (إنْ أَتَّبِعُ إلَّا مَا يُوحَى إلَيَّ) 6 : 50 وَمِثْلُهُ فِي أَوَاخِرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (7 : 203) وَقَالَ تَعَالَى : (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا) 45 : 18 الْآيَةَ . وَمُوَافَقَةُ رَسُولٍ لِمَنْ قَبْلَهُ فِي أُصُولِ الدِّينِ وَبَعْضِ فُرُوعِهِ لَا يُسَمَّى اقْتِدَاءً وَلَا تَأَسِّيًا ، وَإِنَّمَا يَكُونُ التَّأَسِّي بِهِ فِي طَرِيقَتِهِ الَّتِي سَلَكَهَا فِي الدَّعْوَةِ إلَى الدِّينِ وَإِقَامَتِهِ . وَمِنَ الشَّوَاهِدِ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى : (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) 60 : 4 الْآيَةَ - فَإِنَّهُ تَعَالَى أَرْشَدَ الْمُؤْمِنِينَ إلَى التَّأَسِّي بِإِبْرَاهِيمَ وَمَنْ

آمَنَ مَعَهُ وَجَعَلَهُمْ قُدْوَةً لَهُمْ فِي سِيرَتِهِمُ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ مِنْ هَدْيِ اللهِ تَعَالَى لَهُمْ ، وَهِيَ الْبَرَاءَةُ مِنْ مَعْبُودَاتِ قَوْمِهِمْ وَمِنْهُمْ مَا دَامُوا عَابِدِينَ لَهَا .

(67/241)

---

وَلَمَّا كَانَ وَعْدُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ بِالِاسْتِغْفَارِ لَهُ وَهُوَ مُشْرِكٌ لَيْسَ مِنْ هَذَا الْهُدَى ، بَلْ كَانَ مَسْأَلَةً شَاذَّةً لَهَا سَبَبٌ خَاصٌّ اسْتَثْنَاهَا تَعَالَى مِنَ التَّأَسِّي بِهِ فَقَالَ : (إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ) إِلَخْ .

(68/241)

---

فَمَعْنَى الْجُمْلَةِ عَلَى هَذَا : أُولَئِكَ الْأَنْبِيَاءُ الثَّمَانِيَةَ عَشَرَ الَّذِينَ ذُكِرَتْ أَسْمَاؤُهُمْ فِي الْآيَاتِ الْمَتْلُوَّةِ آنِفًا ، وَالْمَوْصُوفُونَ فِي الْآيَةِ الْأَخِيرَةِ بِإِيتَاءِ اللهِ إِيَّاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ، هُمُ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ تَعَالَى الْهِدَايَةَ الْكَامِلَةَ ، فَبِهُدَاهُمْ دُونَ مَا يُغَايِرُهُ وَيُخَالِفُهُ مِنْ أَعْمَالِ غَيْرِهِمْ وَهَفَوَاتِ بَعْضِهِمُ اقْتَدِ أَيُّهَا الرَّسُولُ فِيمَا يَتَنَاوَلُهُ كَسْبُكَ وَعَمَلُكَ مِمَّا بُعِثْتَ بِهِ مِنْ تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ وَالصَّبْرِ عَلَى التَّكْذِيبِ وَالْجُحُودِ ، وَإِيذَاءِ أَهْلِ الْعِنَادِ وَالْجُمُودِ ،

وَمُقَلِّدَةِ الْآبَاءِ وَالْجُدُودِ وَإِعْطَاءِ كُلِّ حَالٍ حَقَّهَا مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَأَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ ، كَالصَّبْرِ وَالشُّكْرِ ، وَالشَّجَاعَةِ وَالْحِلْمِ ، وَالْإِيثَارِ وَالزُّهْدِ ، وَالسَّخَاءِ ، وَالْبَذْلِ ، وَالْحُكْمِ بِالْعَدْلِ ، إلَخْ . (وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ) 11 : 120 (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ) 6 : 34 (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ 46 : 35) فَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى لَهُ فِي آخِرِ سُورَةِ " ن " (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ 68 : 48) - وَصَاحِبُ الْحُوتِ هُوَ يُونُسُ أَحَدُ هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ الثَّمَانِيَةَ عَشَرَ - فَالنَّهْيُ فِيهِ مِمَّا دَلَّ عَلَيْهِ

*(69/241)*

---

الْحَصْرُ بِتَقْدِيمِ " فَبِهُدَاهُمْ " عَلَى " اقْتَدِهْ " كَمَا تَقَدَّمَ ، فَإِنَّ هَذِهِ الْحَالَةَ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْهُدَى الَّذِي هَدَى اللَّهُ يُونُسَ إلَيْهِ ، بَلْ هَفْوَةٌ عَاقَبَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِ ، وَلَا يَحُطُّ هَذَا مِنْ قَدْرِ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَلِإِزَالَةِ تَوَهُّمِ ذَلِكَ قَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى " وَقَالَ : " لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى " أَيْ فِي أَصْلِ النُّبُوَّةِ لَا أَجْلِ هَفْوَتِهِ ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ " لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ " وَفِيهِ " وَلَا أَقُولُ إنَّ أَحَدًا

أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى " وَكُلُّ ذَلِكَ فِي الصِّحَاحِ ، وَالْمُرَادُ مِنْهُ عَدَمُ التَّفْرِيقِ بَيْنَ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ لَا مَنْعُ مُطْلَقِ التَّفْضِيلِ ، فَعُلِمَ بِهَذَا أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْمُرْ خَاتَمَ رُسُلِهِ بِالِاقْتِدَاءِ بِكُلِّ فَرْدٍ مِنْ أُولَئِكَ الْأَنْبِيَاءِ فِي كُلِّ عَمَلٍ ، وَإِنَّمَا أَمَرَهُ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهُدَاهُمْ إِلَيْهِ فِي سِيرَتِهِمْ ، سَوَاءٌ مَا كَانَ مِنْهُ مُشْتَرَكًا بَيْنَهُمْ ، وَمَا امْتَازَ فِي الْكَمَالِ فِيهِ بَعْضُهُمْ ، كَمَا امْتَازَ نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَآلُ دَاوُدَ بِالشُّكْرِ ، وَيُوسُفُ وَأَيُّوبُ وَإِسْمَاعِيلُ بِالصَّبْرِ ، وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسُ بِالْقَنَاعَةِ وَالزُّهْدِ ، وَمُوسَى وَهَارُونُ بِالشَّجَاعَةِ ، وَشِدَّةِ الْعَزِيمَةِ فِي النُّهُوضِ بِالْحَقِّ . فَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ هَدَى كُلَّ

(70/241)

---

نَبِيٍّ رَفَعَهُ دَرَجَاتٍ فِي الْكَمَالِ ، وَجَعَلَ دَرَجَاتِ بَعْضِهِمْ فَوْقَ بَعْضٍ ، ثُمَّ أَوْحَى إِلَى خَاتَمِ رُسُلِهِ خُلَاصَةَ سِيَرِ أَشْهَرِهِمْ وَأَفْضَلِهِمْ وَهُمُ الْمَذْكُورُونَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ وَفِي سَائِرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهُدَاهُمْ ذَاكَ ، وَهَذِهِ هِيَ الْحِكْمَةُ الْعُلْيَا لِذِكْرِ قَصَصِهِمْ فِي الْقُرْآنِ . وَقَدْ شَهِدَ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ ، فَعُلِمَ بِهَذَا أَنَّهُ كَانَ مُهْتَدِيًا بِهُدَاهُمْ كُلِّهِمْ ، وَبِهَذَا كَانَتْ فَضَائِلُهُ وَمَنَاقِبُهُ الْكَسْبِيَّةُ أَعْلَى مِنْ جَمِيعِ مَنَاقِبِهِمْ وَفَضَائِلِهِمْ ؛ لِأَنَّهُ اقْتَدَى بِهَا كُلِّهَا فَاجْتَمَعَ لَهُ مِنَ الْكَمَالِ مَا كَانَ مُتَفَرِّقًا فِيهِمْ ،

إِلَى مَا هُوَ خَاصٌّ بِهِ دُونَهُمْ ; وَلِذَلِكَ شَهِدَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ بِمَا لَمْ يَشْهَدْ بِهِ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ فَقَالَ : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) 68 : 4 وَأَمَّا فَضَائِلُهُ وَخَصَائِصُهُ الْوَهْبِيَّةُ فَأَمْرُ تَفْضِيلِهِ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَظْهَرُ ، وَأَعْظَمُهَا عُمُومُ الْبَعْثَةِ ، وَخَتْمُ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ ، وَإِنَّمَا كَمَالُ الْأَشْيَاءِ فِي خَوَاتِيمِهَا ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ . وَالْهَاءُ فِي قَوْلِهِ : (اقْتَدِهْ) لِلسَّكْتِ أَثْبَتَهَا فِي الْوَقْفِ وَالْوَصْلِ جُمْهُورُ الْقُرَّاءِ ، وَحَذَفَهَا فِي الْوَصْلِ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ ، وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ بِكَسْرِ الْهَاءِ مِنْ غَيْرِ إِشْبَاعٍ ، وَهُوَ مَا يُسَمُّونَهُ الِاخْتِلَاسَ ، وَلَهُمْ فِي تَخْرِيجِهَا وُجُوهٌ .

(71/241)

---

بَعْدَ كِتَابَةِ مَا تَقَدَّمَ رَاجَعْتُ أَقْوَالَ الْمُفَسِّرِينَ فِي تَفْسِيرِ مَا بِهِ الِاقْتِدَاءُ فَرَأَيْتُ الرَّازِيَّ لَخَصَّهَا بِقَوْلِهِ : فَمِنَ النَّاسِ مَنْ قَالَ الْمُرَادُ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ فِي الْأَمْرِ الَّذِي أَجْمَعُوا عَلَيْهِ وَهُوَ الْقَوْلُ بِالتَّوْحِيدِ وَالتَّنْزِيهِ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ - أَيْ بِاللَّهِ تَعَالَى - فِي الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ وَسَائِرِ الْعَقْلِيَّاتِ ، وَقَالَ آخَرُونَ : الْمُرَادُ الِاقْتِدَاءُ بِهِمْ فِي جَمِيعِ الْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ وَالصِّفَاتِ الرَّفِيعَةِ الْكَامِلَةِ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى أَذَى السُّفَهَاءِ وَالْعَفْوِ عَنْهُمْ . وَقَالَ آخَرُونَ : الْمُرَادُ الِاقْتِدَاءِ بِهِمْ فِي شَرَائِعِهِمْ إِلَّا مَا خَصَّهُ الدَّلِيلُ . وَبِهَذَا التَّقْدِيرِ كَانَتِ الْآيَةُ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ شَرْعَ مَنْ قَبْلَنَا يَلْزَمُنَا - ثُمَّ ذَكَرَ بَعْدَ مُقَدِّمَةٍ وَجِيزَةٍ أَنَّ الْمُرَادَ : اقْتَدِ بِهِمْ فِي نَفْيِ الشِّرْكِ وَإِثْبَاتِ التَّوْحِيدِ

وَتَحَمُّلِ سَفَاهَاتِ الْجُهَّالِ فِي هَذَا الْبَابِ (قَالَ) : وَقَالَ آخَرُونَ اللَّفْظُ مُطْلَقٌ ، فَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى الْكُلِّ إلَّا مَا خَصَّهُ الدَّلِيلُ الْمُنْفَصِلُ اهـ .

وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ مُتَدَاخِلَةٌ ، وَأَقْرَبُهَا إلَى الصَّوَابِ ثَانِيهَا مِنْ حَيْثُ إنَّهُ مُفَصَّلٌ وَآخِرُهَا الْمُجْمَلُ الَّذِي لَا يُعْلَمُ الْمُرَادُ مِنْهُ .

وَقَدْ نَظَّمَ الرَّازِيُّ هُنَا جَمِيعَ الْعَقْلِيَّاتِ فِي سِلْكِ أُصُولِ الدِّينِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالتَّنْزِيهِ وَإِثْبَاتِ الصِّفَاتِ ، وَجَمِيعُ ذَلِكَ عِنْدَهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَعْرِفَهُ الْأَنْبِيَاءُ وَلَا غَيْرُهُمْ إلَّا بِنَظَرِ

(72/241)

---

الْعَقْلِ كَمَا نَقَلْنَاهُ عَنْهُ فِي هَذَا السِّيَاقِ مَرْدُودًا عَلَيْهِ ، وَالِاقْتِدَاءُ فِي النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ لَا يَظْهَرُ لَهُ مَعْنًى وَجِيهٌ فَإِنَّ غَايَتَهُ أَنْ يَسْتَدِلَّ بِمَا اسْتَدَلَّ بِهِ مَجْمُوعُهُمْ أَوْ كُلُّ فَرْدٍ مِنْهُمْ وَهُوَ لَا يَصِحُّ وَلَمْ يَقُلْ بِهِ أَحَدٌ ، أَوْ أَنْ يَسْتَدِلَّ كَمَا اسْتَدَلُّوا وَلَيْسَ هَذَا اقْتِدَاءً وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مُرَادًا . وَقَدْ أَوْرَدَ الرَّازِيُّ عَنِ الْقَاضِي فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ اعْتِرَاضًا وَضَعَهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ وَأَجَابَ عَنْهُ بِمَا هُوَ حُجَّةٌ عَلَيْهِ لَا لَهُ . وَأَوْرَدَ السَّعْدُ عَلَى الْمَسْأَلَةِ أَنَّ الْوَاجِبَ فِي الِاعْتِقَادَاتِ وَأُصُولِ الدِّينِ هُوَ اتِّبَاعُ الدَّلِيلِ مِنَ الْعَقْلِ وَالسَّمْعِ فَلَا يَجُوزُ سِيَّمَا لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يُقَلِّدَ غَيْرَهُ فِيهِ ، فَمَا مَعْنَى أَمْرِهِ بِالِاقْتِدَاءِ فِيهِ ؟ وَأَجَابَ بِأَنَّ اعْتِقَادَهُ

عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَئِذٍ لَيْسَ لِأَجْلِ اعْتِقَادِهِمْ بَلْ لِأَجْلِ التَّدْلِيلِ بِلَا مَعْنَى لِأَمْرِهِ بِذَلِكَ . وَجَعَلَ غَيْرُهُ مَعْنَاهُ : تَعْظِيمُ أُولَئِكَ الرُّسُلِ وَالْأَعْلَامِ بِأَنَّ طَرِيقَهُمْ هُوَ الْحَقُّ الْمُوَافِقُ لِلدَّلِيلِ ، وَهُوَ تَكَلُّفٌ لَا يَقْبَلُهُ التَّنْزِيلُ .

(73/241)

---

وَأَمَّا الْقَوْلُ بِأَنَّ الْمُرَادَ الِاقْتِدَاءُ بِهِمْ فِي فُرُوعِ شَرَائِعِهِمْ فَهُوَ أَضْعَفُ الْأَقْوَالِ وَأَبْعَدُهَا عَنِ الصَّوَابِ ، لِمَا قِيلَ مِنِ اخْتِلَافِهَا وَتَنَاقُضِهَا وَقَبُولِهَا النَّسْخَ وَكَوْنِ الْمَنْسُوخِ لَمْ يَبْقَ هُدًى . بَلِ الْأَمْرُ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ : إنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا خَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ وَأَكْمَلَ لَنَا عَلَى لِسَانِهِ دِينَهُ الْمُبِينَ ، وَأَرْسَلَهُ رَحْمَةً لِجَمِيعِ الْعَالَمِينَ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ فِي أَوَاخِرِ مَا أَنْزَلَهُ بَعْدَ ذِكْرِ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَأَهْلِ الْكِتَابِ : (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) 5 : 48 فَهَذِهِ الْآيَةُ نَاطِقَةٌ صَرَاحَةً بِأَنَّ كِتَابَ هَذَا الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُهَيْمِنٌ وَرَقِيبٌ وَحَاكِمٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ لَا تَابِعٌ لِشَيْءٍ مِنْهَا - وَبِأَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أُمِرَ بِأَنْ يَحْكُمَ بَيْنَ أَهْلِ الْكِتَابِ بِمَا جَاءَهُ مِنَ الْحَقِّ لَا بِمَا فِي كُتُبِهِمْ ، وَلَا يَتَّبِعَ أَهْوَاءَهُمْ إذْ يَوَدُّ كُلُّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ أَنْ يَحْكُمَ لَهُ بِمَا يُوَافِقُ كُتُبَهُ وَمَذْهَبَهُ ، وَكُلُّ

ذِي دَعْوَى أَنْ يَحْكُمَ لَهُ بِمَا يُوَافِقُ مَصْلَحَتَهُ ، عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ لِنَبِيٍّ مِنْ أُولَئِكَ الثَّمَانِيَةَ عَشَرَ شَرِيعَةٌ مُفَصَّلَةٌ إِلَّا لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهُ تَعَالَى

(74/241)

---

لِرَسُولِهِ مِنْ تِلْكَ الشَّرِيعَةِ إِلَّا أَحْكَامًا قَلِيلَةً اقْتَضَتْ ذِكْرَهَا إِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَى الْيَهُودِ ، وَذَلِكَ بَعْدَ نُزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ الْمَكِّيَّةِ بِسِنِينَ ، وَقَدْ شَهِدَ الْقُرْآنُ عَلَى الْيَهُودِ بِأَنَّهُمْ حَرَّفُوا وَبَدَّلُوا وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ شَهِدَ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ

،

وَقَدْ أَمَرَنَا الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَمَا فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ بِأَلَّا نُصَدِّقَ الْيَهُودَ فِيمَا يَرْوُونَهُ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلَا نُكَذِّبَهُمْ ، فَهَلْ يُمْكِنُ مَعَ هَذَا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : " فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ " : اقْتَدِ أَيُّهَا الرَّسُولُ - الْخَاتَمُ لِلنَّبِيِّينَ ، الَّذِي أُكْمِلُ عَلَى لِسَانِهِ الدِّينَ - بِالْأَحْكَامِ

الْقَلِيلَةِ الَّتِي نُوحِيهَا إِلَيْكَ مِنْ أَحْكَامِ التَّوْرَاةِ بَعْدَ سِنِينَ ؟ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَرَعُوا هَذَا الْقَوْلَ فِي الْآيَةِ إِنَّمَا جَعَلُوهُ حُجَّةً جَدَلِيَّةً لِقَوْلٍ اتَّخَذُوهُ مَذْهَبًا ، وَهُوَ أَنْ شَرْعَ مَنْ قَبْلَنَا شَرْعٌ لَنَا . وَقَدْ فَصَّلْنَا الْقَوْلَ بِبُطْلَانِهِ وَبُطْلَانِ الِاحْتِجَاجِ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَيْهِ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْمَائِدَةِ الْمَذْكُورَةِ آنِفًا

(5 : 48) فَيُرَاجَعُ فِي جُزْءِ التَّفْسِيرِ السَّادِسِ وَبَقِيَّةُ تِلْكَ الْأَقْوَالِ الَّتِي أَوْرَدَهَا الرَّازِيُّ دَاخِلَةٌ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْهَا ، فَعُلِمَ بِهَذَا أَنَّ مَا قَرَّرْنَاهُ أَوَّلًا هُوَ الْوَجْهُ الصَّحِيحُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ الْعَزِيزُ ، بِمَا ذَكَرْنَا مِنْ شَوَاهِدِ آيَاتِهِ فِي هَذَا التَّقْرِيرِ .

*(75/241)*

---

وَلَمْ يَرِدْ فِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ إلَّا مَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَبَعْضُ رُوَاةِ التَّفْسِيرِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ اسْتَدَلَّ بِالْآيَةِ عَلَى سُجُودِ التِّلَاوَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ دَاوُدَ فِي سُورَةِ " ص " : (فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ 38) : 24 وَقَالَ : فَكَانَ دَاوُدُ مِمَّنْ أُمِرَ نَبِيُّكُمْ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يَقْتَدِيَ بِهِ فَسَجَدَهَا دَاوُدُ فَسَجَدَهَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ وَفِي النَّسَائِيِّ مِنْ طَرِيقِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا " سَجَدَهَا دَاوُدُ تَوْبَةً وَنَحْنُ نَسْجُدُهَا شُكْرًا " فَاسْتَدَلَّ الشَّافِعِيُّ بِقَوْلِهِ شُكْرًا عَلَى أَنَّهُ لَا يَسْجُدُ فِيهَا فِي الصَّلَاةِ ; لِأَنَّ سُجُودَ الشَّاكِرِ لَا يُشْرَعُ دَاخِلَ الصَّلَاةِ . وَلِأَبِي دَاوُدَ وَابْنِ خُزَيْمَةَ وَالْحَاكِمِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَرَأَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ " ص " فَلَمَّا بَلَغَ السَّجْدَةَ نَزَلَ فَسَجَدَ وَسَجَدَ النَّاسُ مَعَهُ ، ثُمَّ قَرَأَهَا فِي يَوْمٍ آخَرَ فَتَهَيَّأَ النَّاسُ لِلسُّجُودِ فَقَالَ " إنَّمَا هِيَ تَوْبَةُ نَبِيٍّ وَلَكِنِّي

رَأَيْتُكُمْ تَهَيَّأْتُمْ " فَنَزَلَ وَسَجَدَ وَسَجَدُوا مَعَهُ . فَهَذَا السِّيَاقُ يُشْعِرُ بِأَنَّ السُّجُودَ فِيهَا لَمْ يُؤَكَّدْ كَمَا أُكِّدَ فِي غَيْرِهَا انْتَهَى . وَإِنَّمَا ذَكَرَ الْحَافِظُ هَذَا فِي شَرْحِ بَابِ سَجْدَةِ " ص " مِنَ الْبُخَارِيِّ ، وَفِيهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ سَجْدَةَ " ص " لَيْسَتْ مِنْ عَزَائِمِ السُّجُودِ ،

(76/241)

---

وَنَحْنُ نَسْتَدِلُّ بِمَا ذُكِرَ عَنْ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمْ يَكُنْ يَلْتَزِمُ سُجُودَهَا ، وَظَاهِرُ قَوْلِهِ " نَسْجُدُهَا شُكْرًا " يُخَالِفُ اسْتِنْبَاطَ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ كَانَ يَسْجُدُهَا اقْتِدَاءً بِدَاوُدَ ، وَإِنَّمَا يَظْهَرُ الِاقْتِدَاءُ لَوْ سَجَدَهَا مِثْلَهُ تَوْبَةً ، وَالْحَبْرُ هُوَ الْحَبْرُ وَلَكِنَّهُ غَيْرُ مَعْصُومٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(تَحْقِيقُ مَسْأَلَةِ الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ إجْمَالًا وَتَفْصِيلًا) .

وَعَدَدُ الرُّسُلِ الْمَذْكُورِينَ فِي الْقُرْآنِ .

مِنْ أُصُولِ الْعَقَائِدِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْسَلَ فِي كُلِّ الْأُمَمِ رُسُلًا ، مِنْهُمْ مَنْ قَصَّ عَلَى رَسُولِنَا وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَقْصُصْ عَلَيْهِ ، وَأَنَّهُ يَجِبُ الْإِيمَانُ بِمَنْ ذَكَرَ مِنْهُمْ فِي الْقُرْآنِ إيمَانًا تَفْصِيلِيًّا ، أَيْ تَجِبُ مَعْرِفَتُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، وَصَرَّحَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ بِأَنَّ إنْكَارَ رِسَالَةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ كُفْرٌ ، وَظَاهِرُ كَلَامِهِمْ هَذَا أَنَّ مَعْرِفَتَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ مِنَ الْمُجْمَعِ عَلَيْهِ الْمَعْلُومِ مِنَ الدِّينِ

بِالضَّرُورَةِ ، فَلَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهْلِهِ إِلَّا مَنْ كَانَ حَدِيثَ الْعَهْدِ بِالْإِسْلَامِ وَمَنْ نَشَأَ بَعِيدًا عَنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ ،

(77/241)

---

فَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ " الْيَسَعَ " رَسُولُ اللَّهِ - مَثَلًا - كَانَ كَافِرًا . وَلَكِنَّنَا نَعْلَمُ بِالِاخْتِبَارِ الصَّحِيحِ أَنَّ أَكْثَرَ عَوَامِّ الْمُسْلِمِينَ فِي عَصْرِنَا - وَمِثْلِهِ مَا قَبْلَهُ مِنَ الْأَعْصَارِ الْمُشَابِهَةِ لَهُ - لَا يَعْرِفُونَ أَسْمَاءَ كُلِّ مَنْ ذُكِرَ فِي الْقُرْآنِ مِنْهُمْ ، إِذْ لَا يُلَقِّنُهُمْ أَحَدٌ ذَلِكَ . بَلْ نَعْلَمُ بِالِاخْتِبَارِ الصَّحِيحِ أَيْضًا أَنَّ أَكْثَرَ عَوَامِّ الْأَقْطَارِ الَّتِي عَرَفْنَاهَا لَا يُلَقِّنُهُمْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ عَقَائِدَ الْإِسْلَامِ ، فَكُلُّ مَا يَعْلَمُونَ مِنْهَا هُوَ مَا يَسْمَعُهُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْهُ . وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنَ الْمَعْلُومِ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ ، فَالَّذِي يَتَّجِهُ أَلَّا نُكَفِّرَ مُوَحِّدًا بِجَهْلِ بَعْضِ هَؤُلَاءِ الرُّسُلِ إِذَا كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ إِجْمَالًا ، وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِالْقَدَرِ وَبِأَرْكَانِ الْإِسْلَامِ الْعَمَلِيَّةِ وَتَحْرِيمِ الْفَوَاحِشِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَسَائِرِ مَا لَا يَزَالُ مَعْلُومًا مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ ، كَمَا أَنَّنَا لَا نُكَفِّرُ مَنْ ذُكِرَ بِجَهْلِ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَخْفَى عَلَى الْعَوَامِّ مِنْ أَخْبَارِ الْقُرْآنِ وَأَحْكَامِهِ وَآدَابِهِ كَخَبَرِ أَهْلِ سَبَأٍ وَحُكْمِ إِرْثِ الْكَلَالَةِ وَأَدَبِ الِاسْتِئْذَانِ وَالسَّلَامِ لِدُخُولِ بُيُوتِ النَّاسِ ،

وَأَمَّا مَنْ جَحَدَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ بَعْدَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ مَنْصُوصٌ فِي الْقُرْآنِ غَيْرَ مُتَأَوِّلٍ فَيَكْفُرُ لِأَنَّهُ كَذَّبَ كَلَامَ اللهِ تَعَالَى ، وَمَدَارُ الْكُفْرِ بِكُلِّ أَنْوَاعِهِ عَلَى تَكْذِيبِ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ

(78/241)

---

الدِّينِ عُلِمَ قَطْعًا أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - جَاءَ بِهِ عَنِ اللهِ تَعَالَى كَمَّا أَنَّ مَدَارَ الْإِيمَانِ كُلِّهِ عَلَى تَصْدِيقِ الرَّسُولِ فِي كُلِّ مَا عُلِمَ قَطْعًا أَنَّهُ جَاءَ بِهِ عَنِ اللهِ تَعَالَى تَصْدِيقَ قَبُولٍ وَإِذْعَانٍ ، وَتَقَدَّمَ تَفْصِيلُ ذَلِكَ فِي التَّفْسِيرِ . وَالْمُرَادُ بِالْعِلْمِ الْقَطْعِيِّ أَنْ يَكُونَ قَطْعِيَّ الرِّوَايَةِ كَالْقُرْآنِ وَبَعْضِ السُّنَّةِ وَقَطْعِيَّ الدَّلَالَةِ كَالنُّصُوصِ الَّتِي لَا تَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ فَمَا كَانَ غَيْرَ قَطْعِيِّ الرِّوَايَةِ احْتَمَلَ أَنْ يُكَذِّبَهُ مُكَذِّبٌ

لِلْجَهْلِ بِالرِّوَايَةِ أَوْ لِعَدَمِ تَصْدِيقِهِ بَعْضَ رُوَاتِهِ ، وَمَا كَانَ غَيْرَ قَطْعِيِّ الدَّلَالَةِ احْتَمَلَ أَنْ يُكَذِّبَ مُكَذِّبٌ بِبَعْضِ مَعَانِيهِ لِاعْتِقَادِهِ أَنَّ هَذَا الْمَعْنَى غَيْرُ مُرَادٍ ، فَهَذَا مَا يَخْرُجُ بِغَيْرِ الْعِلْمِ الْقَطْعِيِّ ، وَلِذَلِكَ يَشْتَرِطُ الْعُلَمَاءُ فِي ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ مَجْمَعًا عَلَيْهِ مَعْلُومًا مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ ، وَيَشْتَرِطُونَ أَنْ يَكُونَ الْمُكَذِّبُ غَيْرَ مُتَأَوِّلٍ إِذْ لَا يَتَأَوَّلُ أَحَدٌ إِلَّا مَا كَانَ غَيْرَ قَطْعِيِّ الدَّلَالَةِ عِنْدَهُ ، وَلِهَذَا لَمْ يُكَفِّرْ سَلَفُ الْأُمَّةِ مَنْ خَالَفَهُمْ فِي فَهْمِ آيَاتِ الصِّفَاتِ وَغَيْرِهَا مِنْ فِرَقِ الْمُبْتَدِعَةِ مُتَأَوِّلًا ، وَلَكِنَّ السَّلَفَ وَالْخَلَفَ يُكَفِّرُونَ مَنْ يُكَذِّبُ الرَّسُولَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ - بِشَيْءٍ يَعْتَقِدُ هُوَ أَنَّهُ جَاءَ بِهِ عَنِ اللهِ تَعَالَى وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْوَاقِعِ قَطْعِيَّ الرِّوَايَةِ وَالدَّلَالَةِ إِذْ مَدَارُ الْكُفْرِ عَلَى التَّكْذِيبِ .

*(79/241)*

---

وَقَدْ ذَكَرُوا فِي بَعْضِ كُتُبِ الْعَقَائِدِ وَغَيْرِهَا أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ الْمُرْسَلِينَ الَّذِينَ ذُكِرُوا فِي الْقُرْآنِ وَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِمْ تَفْصِيلًا خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ ، هُمُ الثَّمَانِيَةَ عَشَرَ الَّذِينَ ذُكِرَتْ أَسْمَاؤُهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي لَا زَالَ بِصَدَدِ تَفْسِيرِهَا ، وَالسَّبْعَةُ الْآخَرُونَ آدَمُ أَبُو الْبَشَرِ وَإِدْرِيسُ وَلُوطٌ وَأَنْبِيَاءُ الْعَرَبِ هُودٌ وَصَالِحٌ وَشُعَيْبٌ وَخَاتَمُ الْجَمِيعِ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَزَادَ بَعْضُهُمْ ذُو الْكِفْلِ لِذِكْرِهِ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ فِي سُورَةِ " ص " وَلَكِنِ اخْتُلِفَ فِي نُبُوَّتِهِ لِعَدَمِ التَّصْرِيحِ بِهَا ، وَإِنَّمَا وُصِفَ مَعَ مَنْ ذُكِرَ مَعَهُمْ بِأَنَّهُمْ مِنَ الْأَخْيَارِ .

*(80/241)*

---

وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ نَصٌّ قَطْعِيٌّ صَرِيحٌ فِي رِسَالَةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَلْ مَفْهُومُ قَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ) 4 : 163 أَنَّ نُوحًا أَوَّلُ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ

أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ رِسَالَتَهُ وَشَرْعَهُ . وَيُؤَيِّدُهُ فِي الْجُمْلَةِ هَذِهِ الْآيَاتُ الَّتِي نُفَسِّرُهَا وَمَا فِي مَعْنَاهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ) 57 : 26 وَعَدَمُ ذِكْرِهِ فِي السُّورَةِ الَّتِي سَرَدَ فِيهَا ذِكْرَ الرُّسُلِ الْمَشْهُورِينَ كَهُودٍ وَمَرْيَمَ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالشُّعَرَاءِ وَالصَّافَّاتِ وَص وَالْقَمَرِ . وَيُؤَيِّدُهُ بِالنَّصِّ الصَّرِيحِ حَدِيثُ الشَّفَاعَةِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَالْأَوَّلُ أَصْرَحُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - "يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَهْتَمُّونَ لِذَلِكَ فَيَقُولُونَ : لَوِ اسْتَشْفَعْنَا عَلَى رَبِّنَا فَأَرَاحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا ! فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ : يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا . . فَيَقُولُ لَهُمْ آدَمُ : لَسْتُ هُنَاكُمْ - وَيَذْكُرُ ذَنْبَهُ الَّذِي أَصَابَهُ فَيَسْتَحِي مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ -

*(81/241)*

---

وَلَكِنِ ائْتُوا نُوحًا أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى الْأَرْضِ ، فَيَأْتُونَ نُوحًا " إِلَخْ وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ لَهُ "يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ " الْحَدِيثَ وَهُوَ مَعْرُوفٌ مَشْهُورٌ ، وَفِيهِ أَنَّ كُلَّ رَسُولٍ مِنْ أُولِي الْعَزْمِ - وَهُمْ عَلَى الرَّاجِحِ الْمَشْهُورِ نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى

وَعِيسَى وَمُحَمَّدٌ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ كَانَ يَدْفَعُهُمْ إِلَى مَنْ بَعْدَهُ حَتَّى إِذَا انْتَهَوْا إِلَى الْخَاتَمِ كَانَ هُوَ الشَّافِعُ الْمُشَفَّعُ .

*(82/241)*

---

وَقَدِ اضْطَرَبَتْ أَقْوَالُ الْعُلَمَاءِ فِي آيَةِ (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) وَحَدِيثِ الشَّفَاعَةِ . قَالَ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ : (الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ) قَالُوا إِنَّمَا بَدَأَ اللهُ بِذِكْرِ نُوحٍ لِأَنَّهُ أَوَّلُ نَبِيٍّ شَرَعَ اللهُ عَلَى لِسَانِهِ الْأَحْكَامَ وَالْحَلَالَ وَالْحَرَامَ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : (وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ) ثُمَّ خَصَّ بَعْضَ النَّبِيِّينَ بِالذِّكْرِ لِكَوْنِهِمْ أَفْضَلَ مِنْ غَيْرِهِمْ ، انْتَهَى وَتَبِعَهُ فِيهِ النَّيْسَابُورِيُّ وَأَبُو السُّعُودِ وَالْخَازِنُ وَغَيْرُهُمْ وَزَادُوا عَلَى ذَلِكَ خَصَائِصَ نُوحٍ . قَالَ الْخَازِنُ مَا نَصُّهُ : قَالَ الْمُفَسِّرُونَ : وَإِنَّمَا بَدَأَ اللهُ بِذِكْرِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَنَّهُ أَوَّلُ نَبِيٍّ بُعِثَ بِشَرِيعَةٍ وَأَوَّلُ نَذِيرٍ عَلَى الشِّرْكِ ، وَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ عَشْرَ صَحَائِفَ ، وَكَانَ أَوَّلَ نَبِيٍّ عُذِّبَتْ أُمَّتُهُ لِرَدِّهِمْ دَعْوَتَهُ ، وَكَانَ أَبَا الْبَشَرِ كَآدَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ . انْتَهَى الْمُرَادُ مِنْهُ ، وَمِثْلُهُ فِي فَتْحِ الْبَيَانِ فِي مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ ، وَذَكَرَ الْآلُوسِيُّ أَنَّ تَعْلِيلَ الْبَدْءِ بِذِكْرِهِ بِكَوْنِهِ أَوَّلَ مَنْ شَرَعَ اللهُ عَلَى لِسَانِهِ الْأَحْكَامَ قَدْ تُعُقِّبَ بِالْمَنْعِ ، وَلَمْ يَذْكُرْ لِهَذَا الْمَنْعِ سَنَدًا ، وَلَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ) حِكْمَةً وَلَا نُكْتَةً . وَقَدْ سَكَتَ

عَنْ ذَلِكَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ الَّذِينَ اطَّلَعْنَا عَلَى كُتُبِهِمْ . فَمَفْهُومُ تَصْرِيحِ هَؤُلَاءِ الْمُفَسِّرِينَ النَّاقِلِينَ عَنْ غَيْرِهِمْ

(83/241)

---

مِنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ آدَمَ لَمْ يَكُنْ رَسُولًا لِأَنَّ الْآيَةَ تَدُلُّ عِنْدَهُمْ عَلَى أَنَّ أَوَّلَ رَسُولٍ شَرَعَ اللَّهُ عَلَى لِسَانِهِ الْأَحْكَامَ ، هُوَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

وَأَمَّا حَدِيثُ الشَّفَاعَةِ فَقَدْ تَكَلَّمَ فِيهِ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ مِنْ شَرْحِ الْبُخَارِيِّ : قَالَ فِي شَرْحِ حَدِيثِ جَابِرٍ مِنْ كِتَابِ التَّيَمُّمِ " أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي - إلَى قَوْلِهِ - وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إلَى النَّاسِ عَامَّةً " : وَأَمَّا قَوْلُ أَهْلِ الْمَوْقِفِ لِنُوحٍ كَمَا صَحَّ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ : أَنْتَ أَوَّلُ رَسُولٍ إلَى أَهْلِ الْأَرْضِ - فَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ عُمُومَ بَعْثَتِهِ بَلْ إثْبَاتُ أَوَّلِيَّةِ إرْسَالِهِ انْتَهَى . وَهَذَا اعْتِرَافٌ بِأَنَّهُ أَوَّلُ الرُّسُلِ . ثُمَّ قَالَ فِي شَرْحِ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ مِنْ كِتَابِ أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ : فَأَمَّا كَوْنُهُ أَوَّلَ الرُّسُلِ فَقَدِ اسْتُشْكِلَ بِأَنَّ آدَمَ كَانَ نَبِيًّا وَبِالضَّرُورَةِ

(84/241)

نَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْعِبَادَةِ وَأَنَّ أَوْلَادَهُ أَخَذُوا ذَلِكَ عَنْهُ ، فَعَلَى هَذَا فَهُوَ رَسُولٌ إِلَيْهِمْ فَيَكُونُ أَوَّلَ رَسُولٍ ، فَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ الْأَوَّلِيَّةُ فِي قَوْلِ أَهْلِ الْمَوْقِفِ لِنُوحٍ مُقَيَّدَةً بِقَوْلِهِمْ " إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ " لِأَنَّهُ فِي زَمَنِ آدَمَ لَمْ يَكُنْ لِلْأَرْضِ أَهْلٌ ، أَوْ لِأَنَّ رِسَالَةَ آدَمَ إِلَى بَنِيهِ كَانَتْ كَالتَّرْبِيَةِ لِلْأَوْلَادِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّهُ - أَيْ نُوحًا - أَوَّلُ رَسُولٍ أُرْسِلَ إِلَى بَنِيهِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ تَفَرُّقِهِمْ فِي عِدَّةِ بِلَادٍ وَآدَمُ إِنَّمَا أُرْسِلَ إِلَى بَنِيهِ وَكَانُوا مُجْتَمِعِينَ فِي بَلْدَةٍ وَاحِدَةٍ . وَاسْتَشْكَلَهُ بَعْضُهُمْ بِإِدْرِيسَ وَلَا يَرِدُ لِأَنَّهُ اخْتُلِفَ فِي كَوْنِهِ جَدَّ نُوحٍ كَمَا تَقَدَّمَ انْتَهَى . أَقُولُ : وَيَلِي شَرْحَهُ لِهَذَا الْحَدِيثِ شَرْحُهُ لِمَا أَوْرَدَهُ الْبُخَارِيُّ فِي إِلْيَاسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَفِيهِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ إِلْيَاسَ هُوَ إِدْرِيسُ ، وَقَالَ الْحَافِظُ عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى تَرْجَمَةِ الْبَابِ : وَكَانَ الْمُصَنِّفُ - أَيِ الْبُخَارِيُّ - رَجَحَ عِنْدَهُ كَوْنُ إِدْرِيسَ لَيْسَ مِنْ أَجْدَادِ نُوحٍ فَلِذَا ذَكَرَهُ بَعْدَهُ اهـ . وَإِنَّمَا ذَكَرَهُ بَعْدَ إِلْيَاسَ .

*(85/241)*

---

ثُمَّ قَالَ فِي شَرْحِ حَدِيثِ أَنَسٍ مِنْ كِتَابِ الرِّقَاقِ - بَعْدَ ذِكْرِ الِاسْتِشْكَالِ بِآدَمَ وَشِيثَ وَإِدْرِيسَ - وَمُجْمَلُ الْأَجْوِبَةِ عَنِ الْإِشْكَالِ الْمَذْكُورِ أَنَّ الْأَوَّلِيَّةَ مُقَيَّدَةٌ بِقَوْلِهِمْ : " إِلَى أَهْلِ

الْأَرْضِ " لِأَنَّ آدَمَ وَمَنْ ذُكِرَ مَعَهُ لَمْ يُرْسِلُوا إلَى أَهْلِ الْأَرْضِ . ثُمَّ ذَكَرَ الْإِشْكَالَ بِحَدِيثِ جَابِرٍ وَالْجَوَابَ عَنْهُ بِأَنَّ قَوْمَ نُوحٍ كَانُوا هُمْ أَهْلَ الْأَرْضِ ، وَبَعْثَةُ نَبِيِّنَا لِقَوْمِهِ وَلِغَيْرِ قَوْمِهِ ، ثُمَّ قَالَ : أَوِ الْأَوَّلِيَّةُ مُقَيَّدَةٌ بِكَوْنِهِ أَهْلَكَ قَوْمَهُ ، أَوْ أَنَّ الثَّلَاثَةَ كَانُوا أَنْبِيَاءَ وَلَمْ يَكُونُوا رُسُلًا . وَإِلَى هَذَا جَنَحَ ابْنُ بَطَّالٍ فِي حَقِّ آدَمَ ، وَتَعَقَّبَهُ عِيَاضٌ بِمَا صَحَّحَهُ ابْنُ حِبَّانَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ فَإِنَّهُ كَالصَّرِيحِ فِي أَنَّهُ كَانَ نَبِيًّا مُرْسَلًا ، وَفِيهِ التَّصْرِيحُ بِإِنْزَالِ الصُّحُفِ عَلَى شِيثَ وَهُوَ مِنْ عَلَامَاتِ الْإِرْسَالِ وَأَمَّا إدْرِيسُ فَذَهَبَتْ طَائِفَةٌ إلَى أَنَّهُ كَانَ فِي بَنِي إسْرَائِيلَ وَهُوَ إلْيَاسُ وَقَدْ ذُكِرَ ذَلِكَ فِي أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ . وَمِنَ الْأَجْوِبَةِ أَنَّ رِسَالَةَ آدَمَ كَانَتْ إلَى بَنِيهِ وَهُمْ مُوَحِّدُونَ لِيُعَلِّمَهُمْ شَرِيعَتَهُ ، وَنُوحٌ كَانَتْ رِسَالَتُهُ إلَى قَوْمٍ كُفَّارٍ يَدْعُوهُمْ إلَى التَّوْحِيدِ اهـ .

وَظَاهِرٌ أَنَّ جَوَابَ ابْنِ بَطَّالٍ وَهُوَ أَحَدُ شُرَّاحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ فُقَهَاءِ الْمَالِكِيَّةِ الْأَنْدَلُسِيِّينَ أَبْعَدُ

(86/241)

---

الْأَجْوِبَةِ الْمَذْكُورَةِ عَنِ التَّكَلُّفِ ، وَأَوَّلُهَا بَاطِلٌ لِأَنَّ أَوْلَادَ آدَمَ وَأَحْفَادَهُ كَانُوا أَهْلَ الْأَرْضِ لَا السَّمَاءِ ، وَبَاقِيهَا لَا يُزِيلُ الْإِشْكَالَ . وَتَعَقُّبُ الْقَاضِي عِيَاضٍ لَهُ بِحَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ عَجِيبٌ مِنْهُ ، وَأَعْجَبُ مِنْهُ سُكُوتُ الْحَافِظِ عَلَيْهِ ، فَالْحَدِيثُ اخْتَلَفَ الْحُفَّاظُ فِيهِ فَجَزَمَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ بِأَنَّهُ مَوْضُوعٌ ، وَحَقَّقَ السُّيُوطِيُّ فِي مُخْتَصَرِ الْمَوْضُوعَاتِ

أَنَّهُ ضَعِيفٌ وَذَكَرَ ذَلِكَ فِي الدُّرِّ الْمَنْثُورِ ، وَاتَّفَقُوا عَلَى انْتِقَادِ ابْنِ حِبَّانَ لِذِكْرِهِ إِيَّاهُ فِي صَحِيحِهِ كَمَا صَرَّحَ بِذَلِكَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ ، وَقَدْ قَدَّمَ الْقَسْطَلَانِيُّ جَوَابَ ابْنِ بَطَّالٍ غَيْرَ مَعْزُوٍّ إِلَيْهِ عَلَى غَيْرِهِ مِمَّا ذَكَرَ مِنْ تِلْكَ الْأَجْوِبَةِ فِي شَرْحِهِ لِحَدِيثِ أَنَسٍ مِنْ كِتَابِ الرِّقَاقِ فِي الْبُخَارِيِّ فَقَالَ عِنْدَ قَوْلِ آدَمَ " ائْتُوا نُوحًا أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ " : أَيْ آدَمُ وَشِيثُ وَإِدْرِيسُ أَوِ الثَّلَاثَةُ كَانُوا أَنْبِيَاءَ وَلَمْ يَكُونُوا رُسُلًا . إِلَخْ . فَالْقَسْطَلَانِيُّ يُعَدُّ الْقَوْلَ بِعَدَمِ رِسَالَةِ آدَمَ جَوَابًا مَقْبُولًا .

(87/241)

---

وَقَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ حَدِيثِ أَنَسٍ مِنْ صَحِيحِ مُسْلِمٍ : قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمَازِرِيُّ قَدْ ذَكَرَ الْمُؤَرِّخُونَ أَنَّ إِدْرِيسَ جَدُّ نُوحٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، فَإِنْ قَامَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ إِدْرِيسَ أُرْسِلَ أَيْضًا لَمْ يَصِحَّ قَوْلُ النَّسَّابِينَ أَنَّهُ قَبْلَ نُوحٍ لِإِخْبَارِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنْ آدَمَ أَنَّ نُوحًا أَوَّلُ رَسُولٍ بُعِثَ ، وَإِنْ لَمْ يَقُمْ دَلِيلٌ جَازَ مَا قَالُوهُ وَصَحَّ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى أَنَّ إِدْرِيسَ كَانَ نَبِيًّا غَيْرَ مُرْسَلٍ . قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ : وَقَدْ قِيلَ إِنَّ إِدْرِيسَ هُوَ إِلْيَاسُ وَأَنَّهُ كَانَ نَبِيًّا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ مَعَ يُوشَعَ بْنِ نُونَ فَإِنْ كَانَ هَكَذَا سَقَطَ الِاعْتِرَاضُ ، قَالَ الْقَاضِي : وَبِمِثْلِ هَذَا يَسْقُطُ الِاعْتِرَاضُ بِآدَمَ وَشِيثَ وَرِسَالَتِهِمَا إِلَى مَنْ مَعَهُمَا وَإِنْ كَانَا

رَسُولَيْنِ فَإِنَّ آدَمَ إِنَّمَا أَرْسَلَ لِبَنِيهِ وَلَمْ يَكُونُوا كُفَّارًا ، بَلْ أَمَرَ بِتَعْلِيمِهِمُ الْإِيمَانَ وَطَاعَةَ اللهِ تَعَالَى ، وَكَذَلِكَ خَلَفَهُ شِيثُ بَعْدَهُ فِيهِمْ ، بِخِلَافِ رِسَالَةِ نُوحٍ إِلَى كُفَّارِ أَهْلِ الْأَرْضِ . قَالَ الْقَاضِي : وَقَدْ رَأَيْتُ أَبَا الْحَسَنِ ابْنَ بَطَّالٍ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ آدَمَ لَيْسَ بِرَسُولٍ لِيَسْلَمَ مِنْ هَذَا الِاعْتِرَاضِ ، وَحَدِيثُ أَبِي ذَرٍّ الطَّوِيلُ يَنُصُّ عَلَى أَنَّ آدَمَ وَإِدْرِيسَ رَسُولَانِ . هَذَا آخِرُ كَلَامِ الْقَاضِي وَاللهُ أَعْلَمُ اهـ .

*(88/241)*

---

فَجُمْلَةُ هَذِهِ النُّقُولِ عَنْ كِبَارِ الْمُفَسِّرِينَ وَالْمُحَدِّثِينَ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ وَالْفُقَهَاءِ أَنَّ آدَمَ مُخْتَلَفٌ فِي رِسَالَتِهِ ، وَأَنَّ إِدْرِيسَ مُخْتَلَفٌ مِنْ رِسَالَتِهِ وَفِي كَوْنِهِ هُوَ إِلْيَاسَ الْمَذْكُورَ فِي آيَاتِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ الَّتِي نُفَسِّرُهَا أَوْ غَيْرَهَ . فَيَكُونُ عَدَدُ الرُّسُلِ الْمُجْمَعِ عَلَى وُجُوبِ الْإِيمَانِ بِرِسَالَتِهِمْ لِأَنَّ نَصَّ الْقُرْآنِ فِيهَا قَطْعِيٌّ – ثَلَاثَةً وَعِشْرِينَ فَقَطْ ، وَأَمَّا الْأَحَادِيثُ فَلَيْسَ فِيهَا نَصٌّ قَطْعِيُّ الرِّوَايَةِ وَالدَّلَالَةِ عَلَى رِسَالَةِ آدَمَ ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ حَدِيثَ أَبِي ذَرٍّ الَّذِي نَصَّ عَلَى ذَلِكَ فِي سِيَاقِ عَدَدِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ لَا يُحْتَجُّ بِهِ فِي الْأَحْكَامِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي يُكْتَفَى فِيهَا بِالدَّلِيلِ الظَّنِّيِّ بَلْهَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ الِاعْتِقَادِيَّةُ الَّتِي يُطْلَبُ فِيهَا الْيَقِينُ ، لِأَنَّ أَهْوَنَ مَا قِيلَ فِيهِ : إِنَّهُ ضَعِيفٌ ، وَقِيلَ : إِنَّهُ مَوْضُوعٌ . وَلَوْ وَجَدُوا حَدِيثًا صَحِيحًا أَوْ

حَسَنًا فِي إِثْبَاتِ رِسَالَةِ آدَمَ لَمَا لَجَأُوا إِلَى ذِكْرِهِ .

وَأَمَّا مَسْأَلَةُ نُبُوَّتِهِ وَهُوَ كَوْنُهُ مُوحًى إِلَيْهِ مِنَ اللهِ تَعَالَى فَفِيهَا حَدِيثٌ آحَادِيٌّ رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ إِنَّ رَجُلًا قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ : أَنَبِيًّا كَانَ آدَمُ ؟ قَالَ " نَعَمْ مُعَلَّمٌ مُكَلَّمٌ "

(89/241)

---

وَقَدْ فُسِّرَ الْمُعَلَّمُ فِي كُتُبِ غَرِيبِ الْحَدِيثِ بِالْمُلْهَمِ لِلْخَيْرِ وَالصَّوَابِ ، وَرُوِيَ " نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ " وَالتَّكْلِيمُ أَنْوَاعٌ أُصُولُهَا ثَلَاثَةٌ بَيَّنَهَا اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ) 42 : 51 وَمِنْهَا وَحْيُ الرِّسَالَةِ وَمَا دُونَهُ ، وَمِنْهَا الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ كَمَا وَرَدَ فِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ ، وَأَمَّا حُجَّتُهُ مِنَ الْقُرْآنِ فَيُمْكِنُ أَنْ تُؤْخَذَ مِنْ قِصَّةِ خَلْقِهِ وَمَعْصِيَتِهِ وَتَوْبَتِهِ ، إِذْ فِيهَا أَنَّ اللهَ عَلَّمَهُ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ، وَأَنَّهُ تَلَقَّى مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَاهُ ، وَلَكِنَّ دَلَالَةَ مَا ذُكِرَ عَلَى نُبُوَّتِهِ غَيْرُ قَطْعِيَّةٍ فَإِنَّ الْجُمْهُورَ لَا يَجْعَلُونَ كُلَّ وَحْيٍ نُبُوَّةً ، لَا مَا كَانَ بِخِطَابِ الْمَلَكِ وَلَا مَا كَانَ بِالْإِبْهَامِ وَالنَّفْثِ فِي الرَّوْعِ ; وَلِذَلِكَ لَا يَقُولُونَ بِنُبُوَّةِ مَرْيَمَ وَأُمِّ مُوسَى ، وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ قَالَ بِنُبُوَّتِهِمَا . ثُمَّ إِنَّهُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ خِطَابُ آدَمَ فِي قِصَّةِ خَلْقِهِ مِنْ خِطَابِ التَّكْوِينِ لَا التَّكْلِيفِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)

41 : 11 وَقَدْ قَالَ الشَّاذِلِيُّ مِنْ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ وَالصُّوفِيَّةِ " وَهَبْ لَنَا التَّلَقِّي مِنْكَ كَتَلَقِّي آدَمَ مِنْكَ الْكَلِمَاتِ لِيَكُونَ قُدْوَةً لِوَلَدِهِ فِي التَّوْبَةِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ " وَلَوْ كَانَ هَذَا التَّلَقِّي

(90/241)

---

نَصًّا قَطْعِيًّا فِي نُبُوَّتِهِ لَمَا طَلَبَهُ هَذَا الْعَالِمُ الْعَارِفُ بِاللُّغَةِ وَأَسَالِيبِهَا .

وَقَدِ ادَّعَى الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ أَنَّ دَلِيلَ رِسَالَتِهِ أَنَّا نَعْلَمُ بِالضَّرُورَةِ أَنَّهُ كَانَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْعِبَادَةِ ، وَأَنَّ أَوْلَادَهُ أَخَذُوا ذَلِكَ عَنْهُ ، فَعَلَى هَذَا فَهُوَ رَسُولٌ إِلَيْهِمْ فَيَكُونُ هُوَ أَوَّلَ رَسُولٍ ، وَقَدْ يُقَالُ إِنَّ أَخْذَ أَوْلَادِهِ عَنْهُ لَا يَقْتَضِي عَقْلًا أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَدْ بَعَثَهُ رَسُولًا إِلَيْهِمْ يُبَلِّغُهُمْ عَنْهُ وُجُوبَ الْإِيمَانِ بِهَذِهِ الرِّسَالَةِ وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مِنَ الْإِنْذَارِ وَالتَّبْشِيرِ ، حَتَّى يَكُونَ ذَلِكَ مُعَارِضًا لِحَدِيثِ الشَّفَاعَةِ ، إِذْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَدْ رَبَّاهُمْ مِنَ الصِّغَرِ عَلَى مَا هَدَاهُ اللَّهُ إِلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ كَمَا تَقَدَّمَ عَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ ، وَنَزِيدُ عَلَيْهِ أَنَّ فِي الْقُرْآنِ نَصًّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يُعَلِّمُهُمُ الْعِبَادَةَ وَأَحْكَامَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَمَا يَتَرَتَّبُ

(91/241)

---

عَلَيْهِمَا مِنَ الْجزَاءِ ، وَهُوَ نَبَأُ ابْنَيْ آدَمَ الْمُفَصَّلُ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ فَمِنَ الْعِبَادَةِ فِيهِ تَقْرِيبُ الْقُرْبَانِ ، وَمِنْ خَبَرِ الْجزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ قَوْلُ الْمُعْتَدَى عَلَيْهِ لِلْمُعْتَدِي : (إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ) 5 : 29 وَمِنَ الْعَجِيبِ أَنْ يَغْفُلَ أُولَئِكَ الْحُفَّاظُ عَنْ هَذِهِ الْآيَاتِ ، وَيَكْتَفُوا مِنَ النَّقْلِ بِحَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ الْمَوْضُوعِ أَوِ الضَّعِيفِ وَبِدَعْوَى الضَّرُورَةِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي ادَّعَاهَا الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ ، هَذَا إِنْ كَانُوا يَفْهَمُونَ مِنْهَا أَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى رِسَالَةِ آدَمَ دَلَالَةً قَطْعِيَّةً ، وَإِذَا كَانُوا لَا يَفْهَمُونَ ذَلِكَ فَبِمَ يَسْتَدِلُّونَ ؟ .

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ الثَّابِتَ قَطْعًا فِي الْمَسْأَلَةِ هُوَ أَنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ عَلَى هُدًى مِنَ اللهِ يَعْمَلُ بِهِ وَيُرَبِّي عَلَيْهِ أَوْلَادَهُ ، وَأَنَّهُ مِنْهُ عِبَادَاتٌ وَقُرُبَاتٌ يُرَغِّبُ فِيهَا مُبَشِّرًا بِأَنَّ فَاعِلَهَا يُثَابُ عَلَيْهَا ، وَمُحَرَّمَاتٌ يَنْهَى عَنْهَا مُنْذِرًا بِأَنَّ فَاعِلَهَا يُعَاقَبُ عَلَيْهَا ، وَهَذَا الْهِدَايَةُ هِيَ مِنْ جِنْسِ هِدَايَةِ اللهِ لِلنَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ الَّتِي بَلَّغُوهَا أَقْوَامَهُمْ ، وَلَا نَدْرِي كَيْفَ هَدَى اللهُ تَعَالَى آدَمَ إِلَيْهَا فَإِنَّ طُرُقَ

(92/241)

---

الْهِدَايَةِ وَالتَّبْلِيغِ الْإِلَهِيِّ مُتَعَدِّدَةٌ . وَكَانَ الظَّاهِرُ الْمُتَبَادَرُ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ بِوَحْيِ الرِّسَالَةِ لَوْلَا مَا عَارَضَهُ مِنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ وَآيَةِ (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) وَمَا يُؤَيِّدُهَا مِمَّا تَقَدَّمَ ، وَمِنِ احْتِمَالِ

أَنَّ ذَلِكَ مِنْ هِدَايَةِ الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ الَّتِي فَطَرَ آدَمَ عَلَيْهَا وَنَشَأَتْ عَلَيْهَا ذُرِّيَّتُهُ إلَى زَمَنِ نُوحٍ ، إذْ اخْتَلَفَ النَّاسُ وَحَدَثَتْ فِيهِمُ الْوَثَنِيَّةُ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ ، وَجَعَلَ مِنْهُمُ الرُّسُلَ الْمُبَلِّغِينَ عَنْهُ بِإِذْنِهِ الْمُؤَيَّدِينَ مِنْهُ بِالْآيَاتِ لِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَى الْكَافِرِينَ . وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ) 2 : 213 الْآيَةَ . فَقَدْ صَحَّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ فَسَّرَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَفِي رِوَايَةٍ مُفَصَّلَةٍ عَنْهُ قَالَ : كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَشَرَةُ قُرُونٍ كُلُّهُمْ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْحَقِّ فَاخْتَلَفُوا فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ ، قَالَ الرُّوَاةُ وَكَذَلِكَ هِيَ فِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ (أَيِ ابْنِ مَسْعُودٍ) "كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا " إلَخْ . وَرَوَوْا عَنْ أُبَيٍّ أَنَّهُ كَانَ يَقْرَؤُهَا كَذَلِكَ أَيْضًا ، وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ فِي الْمَعْنَى آيَاتٌ أُخْرَى . وَرَوَوْا عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ قَالَ : ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَشَرَةُ قُرُونٍ كُلُّهُمْ عَلَى الْهُدَى وَعَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْحَقِّ

*(93/241)*

---

ثُمَّ اخْتَلَفُوا بَعْدَ ذَلِكَ فَبَعَثَ اللَّهُ نُوحًا وَكَانَ أَوَّلَ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ اللَّهُ إلَى الْأَرْضِ ، وَبُعِثَ عِنْدَ الِاخْتِلَافِ مِنَ النَّاسِ فَبَعَثَ إلَيْهِمْ ؟ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ كِتَابَهُ يَحْتَجُّ بِهِ عَلَى خَلْقِهِ اهـ . مِنَ الدُّرِّ الْمَنْثُورِ ، وَمِنْهُ يَعْلَمُ الْمُخَرِّجُونَ

لِهَذِهِ الرِّوَايَاتِ . فَهَذَا قَتَادَةُ مِنْ كِبَارِ عُلَمَاءِ التَّابِعِينَ يَقُولُ بِأَنَّ نُوحًا أَوَّلُ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ . وَيُؤَيِّدُ الرِّوَايَةَ عَنْهُ مَا تَقَدَّمَ مَا وَرَدَ مِنَ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) 30 : 30 الْآيَةَ - كَحَدِيثِ الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا النَّاطِقِ بِأَنَّ كُلَّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ . وَفِي بَعْضِ رِوَايَاتِهِ يُولَدُ عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ ، وَفِي بَعْضِهَا عَلَى الْمِلَّةِ . وَمِنْهَا حَدِيثُ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ الْمَرْفُوعِ عِنْدَ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ الَّذِي ذَكَرَ فِيهِ آدَمَ فَقَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ وَبَنِيهِ حُنَفَاءَ مُسْلِمِينَ وَأَعْطَاهُمُ الْمَالَ حَلَالًا لَا حَرَامَ فِيهِ فَجَعَلُوا مَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ حَرَامًا وَحَلَالًا " وَفِي مَعْنَاهُ آثَارٌ . وَالْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ فِي مَسْأَلَتِنَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَطَرَ آدَمَ عَلَى مَعْرِفَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ وَشُكْرِهِ وَعِبَادَتِهِ ، وَزَادَهُ هُدًى بِمَا كَانَ يُلْهِمُهُ إِيَّاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ ، وَبِمَا يَصِلُ إِلَيْهِ اجْتِهَادُهُ كَمَا قِيلَ فِي عِبَادَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْغَارِ قَبْلَ الْبَعْثِ . وَقَدْ يُزَادُ عَلَى ذَلِكَ إِرْشَادُ الْمَلَائِكَةِ لَهُ وَلِأَوْلَادِهِ ، فَقَدْ كَانُوا بِطَهَارَةِ فِطْرَتِهِمْ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ كَمَا وَرَدَ فِي تَعْلِيمِهِمْ إِيَّاهُمْ تَجْهِيزَ أَبِيهِمْ وَدَفْنِهِ حِينَ تُوُفِّيَ ، وَلَسْنَا بِصَدَدِ

تَمْحِيصِ أَمْثَالِ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ ، وَلَكِنَّ
مَجْمُوعَهَا يُؤَيِّدُ الْحَدَثَ الْمُصَرِّحَ بِنُبُوَّةِ آدَمَ ، وَإِلَّا كَانَ مِنَ الْهِدَايَةِ وَالتَّعْلِيمِ الْإِلَهِيِّ مَا هُوَ أَعْلَى
مِنَ النُّبُوَّةِ أَوْ مَا هُوَ مُسَاوٍ لَهَا ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ لَمْ يُؤْتَ مِنْ ذَلِكَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ آدَمُ .
وَالْأَنْبِيَاءُ أَفْضَلُ الْبَشَرِ بِالْإِجْمَاعِ .
فَبِهَذَا التَّفْصِيلِ يُعْلَمُ وَجْهُ مَا اشْتُهِرَ عَلَى أَلْسِنَةِ الْعُلَمَاءِ مِنَ الْقَوْلِ بِنُبُوَّةِ آدَمَ وَرِسَالَتِهِ مَعَ عَدَمِ
وُجُودِ النَّصِّ الْقَاطِعِ ، بَلْ مَعَ وُجُودِ النَّصِّ الْمُعَارِضِ ، فَإِنَّ هِدَايَتَهُ لِذُرِّيَّتِهِ مِنْ نَوْعِ هِدَايَةِ
الرُّسُلِ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ كَمَا بَيَّنَّاهُ آنِفًا مِنْ مَعْنَى الْآيَاتِ فِيهِ ; وَلِذَلِكَ جَعَلَهُ الْحَافِظُ مِنْ
قَبِيلِ الضَّرُورِيِّ وَلَكِنَّهُ لَمْ يُبَيِّنْ وَجْهَ الضَّرُورَةِ ، وَلَمْ يَهْتَدِ إِلَى الْجَمْعِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُعَارِضِ لَهُ .
وَالَّذِي يَتَّجِهُ فِي الْجَمْعِ بِغَيْرِ تَكَلُّفٍ هُوَ التَّفْرِقَةُ بَيْنَ هِدَايَةِ مَنْ وُلِدُوا

عَلَى الْفِطْرَةِ وَبَيْنَ بَعْثَةِ نُوحٍ وَمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الرُّسُلِ إِلَى مَنْ فَسَدَتْ فِطْرَتُهُمْ وَاخْتَلَفُوا فِي الدِّينِ الْفِطْرِيِّ وَفِي الْكِتَابِ الْإِلَهِيِّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالضَّالِّينَ مِنْ أَتْبَاعِ نَبِيٍّ سَابِقٍ فَأَعْرَضُوا عَمَّا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ ، بِأَنْ تُجْعَلَ هَذِهِ الْهِدَايَةُ الْأَخِيرَةُ هِيَ الرِّسَالَةُ الشَّرْعِيَّةُ الَّتِي يُسَمَّى مَنْ جَاءُوا بِهَا رُسُلًا دُونَ الْأُولَى ، وَبِهَذَا يُجْمَعُ بَيْنَ عِدَّةِ أَجْوِبَةٍ مِمَّا نُقِلَ عَنِ الْعُلَمَاءِ فِي رَفْعِ التَّعَارُضِ بِتَوْضِيحٍ قَلِيلٍ كَقَوْلِ مَنْ قَالَ : إِنَّمَا كَانَتْ رِسَالَةُ آدَمَ إِلَى بَنِيهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَرِسَالَةِ نُوحٍ وَمَنْ بَعْدَهُ إِلَى الْكَافِرِينَ ، وَمَنْ قَالَ : إِنَّمَا كَانَتْ رِسَالَةُ آدَمَ إِلَى بَنِيهِ مِنْ قَبِيلِ تَرْبِيَةِ الْوَالِدِ لِأَوْلَادِهِ .

وَفِيهِمَا أَنَّ تَسْمِيَتَهَا رِسَالَةً شَرْعِيَّةً بِالْمَعْنَى الْمُرَادِ مِنَ الْآيَاتِ هُوَ الَّذِي يُحَقِّقُ التَّعَارُضَ فَكَيْفَ يُجْعَلُ دَافِعًا لَهُ ؟ وَأَمَّا إِذَا أَثْبَتْنَا بِالْمَعْنَى الْمُرَادِ مِنَ الْآيَاتِ هُوَ الَّذِي يُحَقِّقُ التَّعَارُضَ فَكَيْفَ يُجْعَلُ دَافِعًا لَهُ ؟ وَأَمَّا إِذَا أَثْبَتْنَا مَا ذُكِرَ لِآدَمَ وَلَمْ نُسَمِّهِ رِسَالَةً بِالْمَعْنَى الشَّرْعِيِّ الْمَذْكُورِ فَإِنَّ التَّعَارُضَ يَنْدَفِعُ بِغَيْرِ تَكَلُّفٍ كَمَا قُلْنَا وَتَصِحُّ الْأَقْوَالُ كُلُّهَا وَيَكُونُ الْخِلَافُ أَشْبَهَ بِاللَّفْظِيِّ ، فَهُوَ رَسُولٌ بِالْمَعْنَى الْمَشْهُورِ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِينَ دُونَ الْمَعْنَى الْمُتَبَادِرِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ .

*(97/241)*

ثُمَّ خَتَمَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا السِّيَاقَ بِقَوْلِهِ لِرَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - (لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا) أَيْ قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ لِمَنْ بُعِثْتَ إلَيْهِمْ أَوَّلًا : لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَى هَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي أُمِرْتُ أَنْ أَدْعُوَكُمْ إلَيْهِ وَأُذَكِّرَكُمْ بِهِ أَوْ عَلَى التَّبْلِيغِ (وَكِلَاهُمَا) مَفْهُومٌ مِنَ السِّيَاقِ وَإِنْ لَمْ يُذْكَرَا ، وَالْمُخْتَارُ الْأَوَّلُ ، أَجْرًا مَنْ مَالٍ وَلَا غَيْرِهِ مِنَ الْمَنَافِعِ ، أَيْ كَمَا أَنَّ جَمِيعَ مَنْ قَبْلِي مِنَ الرُّسُلِ لَمْ يَسْأَلُوا أَقْوَامَهُمْ أَجْرًا عَلَى التَّبْلِيغِ وَالْهُدَى - وَذَلِكَ مُصَرَّحٌ بِهِ فِي قِصَصِهِمْ مِنْ سُورَةِ هُودٍ وَسُورَةِ الشُّعَرَاءِ وَغَيْرِهِمَا ، وَقَدْ قِيلَ إنَّ هَذَا مِمَّا أُمِرَ أَنْ يُقْتَدَى بِهِمْ فِيهِ ، وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ اسْتِقْلَالًا لَا يَدْخُلُ فِيمَا أُمِرَ بِفِعْلِهِ اقْتِدَاءً كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ ، وَقَدْ تَكَرَّرَ هَذَا الْأَمْرُ لَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي عِدَّةِ سُوَرٍ ، وَهُوَ عَلَى عُمُومِهِ ، وَالِاسْتِثْنَاءُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) 42 : 23 مُنْقَطِعٌ وَمَعْنَاهُ عَلَى مَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالشَّيْخَانِ وَالتِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُمْ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : إلَّا أَنْ تَصِلُوا مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنَ الْقَرَابَةِ ، وَيُوَضِّحُهُ قَوْلُهُ فِي رِوَايَةٍ لِابْنِ جَرِيرٍ وَابْنِ الْمُنْذِرِ وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ وَالطَّبَرَانِيِّ عَنْهُ قَالَ : كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَرَابَةٌ مِنْ جَمِيعِ قُرَيْشٍ ، فَلَمَّا كَذَّبُوهُ وَأَبَوْا أَنْ يُبَايِعُوهُ قَالَ "يَا قَوْمِ إِذَا أَبَيْتُمْ أَنْ تُبَايِعُونِي فَاحْفَظُوا قَرَابَتِي فِيكُمْ وَلَا يَكُونُ غَيْرُكُمْ مِنَ الْعَرَبِ أَوْلَى بِحِفْظِي وَنُصْرَتِي مِنْكُمْ" وَفِي هَذَا الْمَعْنَى رِوَايَاتٌ أُخْرَى ، وَالْمَعْنَى : إِنِّي لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَى مَا جِئْتُكُمْ

(99/241)

---

بِهِ مِنْ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ جُعْلًا مِنْكُمْ ، وَلَكِنْ مَوَدَّةَ الْقَرَابَةِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِمَّا يَجِبُ أَنْ يُحْفَظَ ، وَهِيَ دُونُ مَا جَرَيْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ عَصَبِيَّةِ النَّسَبِ وَلَوْ بِالْبَاطِلِ ، فَإِنَّ مِنْ تِلْكَ الْعَصَبِيَّةِ أَنْ يَحْمِيَ الْقَرِيبُ قَرَابَتَهُ وَأَهْلَ نَسَبِهِ وَيُقَاتِلَ مَنْ عَادَاهُمْ ، وَإِنِّي أَكْتَفِي مِنْكُمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَقَلُّهَا أَنْ لَا تُعَادُونِي وَلَا تُؤْذُونِي ، وَأَعْلَاهَا أَنْ تَمْنَعُونِي وَتَحْمُونِي مِمَّنْ يُؤْذِينِي . وَلَيْسَ هَذَا مِنَ الْأَجْرِ عَلَى التَّبْلِيغِ فِي شَيْءٍ ، فَإِنَّمَا يُعْطَى الْأَجْرُ عَلَى الشَّيْءِ مَنْ يَقْبَلُهُ وَيَنْتَفِعُ بِهِ فَيُكَافِئُ صَاحِبَهُ بِمَنْفَعَةٍ تُوَازِيهِ أَوْ لَا تُوَازِيهِ ، وَقَدْ صَرَّحَ ابْنُ عَبَّاسٍ بِمَا ذَكَرْنَا مِنْ أَقَلِّ الْمَوَدَّةِ فِي رِوَايَةِ ابْنِ مَرْدَوَيْهِ عَنْهُ مِنْ طَرِيقِ عِكْرِمَةَ ، وَقِيلَ الْآيَةُ غَيْرُ ذَلِكَ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ إِلَّا أَنْ تَوَدُّوا الْأَقَارِبَ وَتَصِلُوا الْأَرْحَامَ بَيْنَكُمْ ، وَقَوْلِ بَعْضِهِمْ : إِنَّهَا فِي الْأَنْصَارِ . وَقَوْلِ آخَرِينَ : إِنَّهَا فِي آلِ الْبَيْتِ النَّبَوِيِّ تُوجِبُ مَوَدَّتَهُمْ وَمُوَالَاتَهُمْ وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ حُبَّهُمْ وَوُدَّهُمْ وَوَلَاءَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ ، وَأَنَّ بُغْضَهُمْ مِنَ الْكُفْرِ أَوِ النِّفَاقِ ، وَلَكِنَّ الرَّسُولَ لَمْ يَطْلُبْ مِنَ الْأُمَّةِ بِأَمْرِ اللَّهِ أَنْ تَجْعَلَ هَذَا أَجْرًا

لَهُ عَلَى تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ وَالْقِيَامِ بِأَعْبَاءِ الرِّسَالَةِ ، بَلْ أَجْرُهُ فِي ذَلِكَ عَلَى اللهِ تَعَالَى وَحْدَهُ كَغَيْرِهِ مِنْ إِخْوَانِهِ الرُّسُلِ كَمَا هُوَ مُصَرَّحٌ فِي آيَاتٍ أُخْرَى ، وَسَيَأْتِي تَفْصِيلُ ذَلِكَ إِنْ

(100/241)

---

شَاءَ اللهُ تَعَالَى فِي تَفْسِيرِ الشُّعَرَاءِ وَغَيْرِهَا .

(إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ) الضَّمِيرُ رَاجِعٌ إِلَى الْقُرْآنِ كَمَا رَجَعْنَا ، أَيْ مَا هُوَ إِلَّا تَذْكِيرٌ وَمَوْعِظَةٌ لِإِرْشَادِ الْعَالَمِينَ كَافَّةً ، لَا لَكُمْ خَاصَّةً ، وَهُوَ نَصٌّ فِي عُمُومِ الْبَعْثَةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 7 صـ 487.508 ﴾

(101/241)

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ ﴾

و" هدى الله " هنا أيضا هو هداية دلالة ، وهداية معونة ؛ بدليل أنه قال : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ

اقتده ﴾ والخطاب لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن " أولاء " أي المشار إليهم هم المتقدمون ، و" الكاف " خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم .

﴿ أولئك الذين هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ وحين نقرأ هذا القول الكريم نقول " اقتد " ولا نقول " اقتده " ولا تنطق الهاء إلا في الوقف ويسمونها " هاء السّكت " ، لكن إذا جاءت في الوصل لا ينطق بها ، وكل واحد من هؤلاء الرسل السابق ذِكْرهم له خصلة تميز بها ، وفيه قدر مشترك بين الجميع وهو إخلاص العبودية لله والإيمان بالله وأنّه واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله ، وكلهم مشتركون في هذه الأصول ، وتميّز كل منهم بخصلة في الخير ؛ فسيدنا سليمان وداود أخذا القدرة والسلطان والملك ، وأيوب أخذ القدرة في الصبر على البلاء ، ويوسف أخذ القدرة في الصبر والتفوق في الحُكم ، وسيدنا يونس أخذ القدرة كضارع إلى الله وهو في بطن الحوت ، وإسماعيل كان صادق الوعد .

والمطلوب إذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون مُقتدياً بهم جميعاً ، أي أن يكون كسليمان وكداود وكإسحاق وكيعقوب وكأيوب وكيوسف وكيونس . وأن يأخذ خصلة التميز من كل واحد فيهم وأن يشترك معهم في القضية العامة وهي التوحيد لله .

وبذلك يجتمع كل التميز الذي في جميع الأنبياء في سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإذا أُمِرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمراً من ربه فلا بد أن نعتقد أنه صلى الله عليه

وسلم قد نفذ الأمر ، وما دام أنه صلى الله عليه وسلم قد اجتمعت فيه مزايا الأنبياء فحق له أن يكون خاتم النبيين والمرسلين .

*(102/241)*

---

﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴾ [ الأنعام : 90 ] .

ولماذا يُطْلَب الأجر ؟ أنت لا تطلب أجراً ممن فعلت أمامه أو له عملاً إلا إذا كان العمل الذي فعلته يعطيه منفعة تستحق أن تُعطي وتُمنح عليه أجراً ، فكأن ما يؤديه صلى الله عليه وسلم إلى الأمة كان يستحق عليه أجراً ، لكنه صلى الله عليه وسلم يبلغ عن ربّه : قل لهم : إنك نزلت عن هذا الأجر .

وقارنوا بين مَن يقدم لأي واحد منكم منفعة قد لا تأخذ من وقته نصف ساعة في جزئية من جزئيات الحياة ، ومن يقوم بعمل ينفعكم في مدًى يتعدى الدنيا إلى أن يصل إلى الآخرة ثم يقول : أنا لا أريد منكم أجراً .

وعدم طلب الأجر حصل من كل الرسل إلا رسولين اثنين ؛ فلم يرد في القرآن أن قالاها ، وإذا ما جئت لسورة الشعراء مثلاً تجد أن الحق تكلم عن موسى ، وتكلم عن إبراهيم ، ثم تكلم بعد ذلك عن بقية الرسل ولم تأت كلمة الأجر في قصة إبراهيم وكذلك في قصة موسى

عليهما السلام .

لكن جاء ذكر الأجر في غيرهما ، يقول سبحانه : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا على رَبِّ العالمين ﴾ [ الشعراء : 106-109 ] .

وقال جل شأنه : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا على رَبِّ العالمين ﴾ [ الشعراء : 177-180 ] .

وعندما تستقرئ سورة الشعراء تجد الأنبياء كلهم ، وتجد مع قول كل منهم ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ ، إلا سيدنا موسى ، وسيدنا إبراهيم . لماذا ؟ ونقول : إن من ينزل عن الأجر ، هو من يقدم لهم منفعة .

*(103/241)*

---

وفي موسى عليه السلام نجد أنّه قد وجهت وقدمت وسيقت له المنفعة من فرعون الذي قام بتربيته ، كأنه قد أخذ الأجر مقدماً ، لذلك لم يقل موسى لفرعون " لا أسألك أجراً ؛ لأن القرآن جاء بقول فرعون : ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً ﴾ [ الشعراء : 18 ] .

وكذلك لم تأت مسألة الأجر في قصة سيدنا إبراهيم لأنه خاطب أباه آزر ، ولم يكن من المقبول أن يقول له : " لا أسألك أجرا " . وهكذا انطمست مسألة الأجر في قصة سيدنا إبراهيم وقصة سيدنا موسى ، وبقيت فيما عداهما ، مما يدل على أن القرآن موضوع بأدق تفاصيله بحكمة ؛ لأن من يتكلم هو ربنا . ويمتاز سيدنا رسول الله أيضا ويقول : " لا أسألكم أجراً " إلا آية واحدة استثنى فيها هذا النفي : ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِي القربى ﴾ [ الشورى : 23 ] .

والمودة هي فعل الخير الناشئ عن محبة قلب ، أما فعل الخير الذي لا ينبع من محبة في القلب فهو فعل معروف ؛ لأن المعروف يضعه الإنسان مع من يُحب ومن لا يُحب . ولذلك قال ربنا : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ على أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدنيا مَعْرُوفاً ﴾ [ لقمان : 15 ] .

المعروف – إذن – هو عمل امتداده خير سطحي . والرسول حين يطلب المودة في القربى فهل هي قُرباه صلى الله عليه وسلم أو المودة في قُرباكم ؟ هي القُربى على إطلاقها ، وهي القُربى أيضا للمتكلم وهو الرسول الذي يبلغ عن الله .

وإن صُنِّفت على أنها " إلا المودة في القُربى " أي القربى للمتكلم وهو سيدنا رسول الله لما استطعنا أن نُوفيه أجراً . أما حين يتحمل كل واحد منا مجالاً من الخير والمعروف في قومه ، هنا تتلاحم دوائر الخير في الناس جميعاً .

(104/241)

---

ويذيل الحق الآية بقوله : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴾ وهي ما تعطينا اجتماع الدوائر ويصير كل واحد مُهْتَماً بأقاربه ويتنازع الناس ويتنافسون في مودة القُربى ، وكل منهم يحرص على أن يوسع دائرة القربى . هنا يعم الخير ويدوم الود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(105/241)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ ﴾ " أولئك " مفعول مُقدَّمٌ لـ " هدى الله " ويَضْعُفُ جعله مبتدأ على حذف العائد ، أي : هداهم الله كقوله : ﴿ أَفَحُكْمَ الجاهلية يَبْغُونَ ﴾ [ المائدة ] برفع " حُكْمُ " [ والإشارة بـ " أولئك " إلى الأنبياء المتقدم ذكرهم ] .

قوله : " فَبِهُدَاهِمُ أَقْتَدِه " قرا الأخوان بحذف الهاء في الوَصْلِ والباقون أثبتوها وَصْلاً ووَقْفاً

، إلا أن ابن عامر بكسرها ، ونقل ابن ذكوان عنه وجهين :

أحدهما : الكَسْر من غير وَصْلٍ بمدة ، والباقون بسكونها .

أما في الوقف فإن القراء اتَّفَقُوا على إثباتها سَاكِنةً واختلفوا في " مَالِيَه " و " سُلْطَانِيَه " في " الحاقَّة " وفي " مَاهِيَهْ " في " القارعة " بالنسبة إلى الحذف والإثبات ، واتفقوا على إثباتها في " كِتَابِيَهْ " و " حِسَابِيَهْ " فأما قراءة الأخوين ، فالهاء عندهما للسَّكْتِ ، فلذلك حَذَفَاهَا وصْلاً ؛ إذ محلها الوَقْفُ ، وأثبتاها وقفاً إتْبَاعاً لِرَسْمِ المصحف وأما من أثبتها ساكنة ، فيحتمل عنده وجهين :

أحدهما : هي هاء سَكْتٍ ، ولكنها ثبت وَصْلاً إجْرَاءً للوصْلِ مجرى الوَقْفِ ، كقوله : ﴿ لَمْ يَتَسَنَّهْ وانظر ﴾ [ البقرة : 259 ] في أحد الأقوال كما تقدم .

*(106/241)*

---

والثاني : أنها ضمير المصدر سُكِّنَتْ وَصْلاً إجْرَاءً للوَصْلِ مجرى الوَقْفِ ، نحو : ﴿ نُؤْتِهِ ﴾ [ آل عمران : 145 ] ﴿ فَأَلْقِهْ ﴾ [ النمل : 28 ] و ﴿ أَرْجِهْ ﴾ [ الأعراف : 111 ] ، ﴿ نُوَلِّهِ ﴾ [ النساء : 115 ] ﴿ وَنُصْلِهِ ﴾ [ النساء : 115 ] .

واختلف في المصدر الذي تعُودُ عليه هذه " الهاء " ، فقيل : الهدى ، أي اقتدى الهدى ،

والمعنى اقْتداء الهدى ، ويجوز أن يكون الهدى مفعولاً لأجله ؛ أي : فبهداهم اقتد لأجل الهدى .

وقيل : الاقتداء ؛ أي : اقتد الاقتداء ، ومن إضمار المصدر قول الشاعر : [ البسيط ]

2230 - هَذَا سُرَاقَةُ لِلْقُرآنِ يَدْرُسُهُ . . .

والمَرْءُ عِنْدَ الرُّشَا إنْ يَلْقَها ذِيبُ

أي : يَدْرُسُ الدَّرْسَ ، ولا يجوز أن يتكون " الهاء " ضمير القرآن ؛ لأن الفعل قد تعدَّى له ، وإنما زيدت " اللام " تَقْوِيَةً له ، حيث تقدَّم معموله ، وكذلك جعل النُّحَاةُ نَصْب " زيداً " من " زيداً ضَرَبْتُهُ " بفعل مُقدَّرٍ ، خلافاً للفراء .

قال ابن الأَنْبَارِيّ : " إنها ضمير المصدر المؤكد النائب عن الفعل ، وإن الأصل : اقتد اقتد ، ثم جعل المَصْدَرُ بَدَلاً من الفعل الثاني ، ثم أُضْمِرَ فاتَّصَلَ بالأول " .

وأما قراءة ابن عامر فالظَّاهِرُ فيها أنها ضمير ، وحُرِّكَتْ بالكَسْرِ من غير وَصْلٍ وهو الذي يسميه القُرَّاء الاخْتِلاَس تَارَةً ، وبالصلة وهو المُسَمَّى إشْبَاعاً أخرى كمنا قرئ : ﴿ أَرْجِهْ ﴾ [ الأعراف : 111 ] ونحوه .

وإذا تقرَّرَ هذا فقول ابن مُجَاهِدٍ عن ابن عامر " يُشِمُّ " الهاء من غير بُلُوغِ ياء " وهذا غلط ؛ لأن هذه " الهاء " هاء وَقْفٍ لا تعرب في حالٍ من الأحوال ، أي : لا تحرك وإنما تدخل

ليتبيَّنَ بها حركةُ ما قبلها ليس بِجَيِّدٍ لما تقرر من أنها ضَمِيرُ المَصْدَرِ ، وقد رَدَّ الفَارِسيُّ قول ابن مجاهد بما تقدم .

*(107/241)*

---

والوجه الثاني : أنها هاء سَكْتٍ أجْرِيَتْ مُجْرَى الضمير ، كما أجريت هاء الضمير مُجْرَاهَا في السكُونِ ، وهذا ليس بِجَيِّدٍ ، ويروى قول المتنبي : [ البسيط ]

2231 - واحَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِمُ . . . . . .

بضم " الهاء " وكسرها على أنها " هاء " السَّكْتِ ، شُبِّهَتْ بهاء الضمير فحركت ، والأحسن أن تجعل الكسر لالتقاء الساكنين لا لشبهها بالضمير ؛ لأن " هاء " الضمير لا تكسر بعد الألف ، فكيف بما يشبهها ؟

والاقتداءُ في الأصْلِ طَلَبُ المُوافَقَةِ قاله اللَّيْث .

ويقال : قدوة وقدو وأصله من القدو وهو أصل البِنَاءِ الذي يتشعب منه تصريف الاقِتِدَاءُ .

قال الواحِديُّ : الاقِتِدَاءُ في اللغة : الإتيان بِمِثْلِ فِعْل الأول لأجل أنه فعله و " بِهُداهِمِ " متعلق بـ " اقْتَدِهْ " .

وجعل الزمخشري تقديمه مُفيداً للاختصاص على قاعدته .

" قُلْ لا أسْألُكُمْ عليْهِ أجْراً " [ و" الهاء " في " عليه " ] تعود على القرآن والتبليغ أضمرا وإن لمَيَجْرِ لهما ذِكْرٌ لدلالة السّياق عليهما ، و" أن " نافية ولا عمل لها على المَشْهُور ، ولو كانت عَامِلةً لبطل عملها بـ " إلاَّ " في قوله : " إنْ هُوَ إلاَّ ذِكْرَى " أن يذكره ويعظه .

" وللعالمين " متعلق بـ " ذكرى " و" اللام " معدية أي : إن القرآن العظيم إلاَّ تذكير للعالمين ، ويجوز أن تكون متعلّقَةً بمحذوف على أنها صِفَةٌ للذِّكْرَى ، وهذه الآية تَدُلُّ على أنه صلى الله عليه وسلم مَبْعُوثٌ إلى كل أهْلِ الدنيا لا إلى قَوْمٍ دون قَوْمٍ .

أهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 270 . 273 ﴾ . باختصار .

*(108/241)*

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ (90) ﴾

أولئك الذين طهّر اللهُ عن الجحد أسرارَهم ، ورَفَعَ على الكافة أقدارَهم ، فاقْتَفِ – يا

محمد – هداهم ، فإنّ مَنْ سلك الجادّةَ أَمِن من العناء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 488 ﴾

(109/241)

---

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (85) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (86) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (87) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (88) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (89) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ (90) ﴾

(110/241)

التفسير : لما حكى حجج إبراهيم صلوات الرحمن عليه في التوحد والذب عن الدين الحنيفي عدّد وجوه نعمه وإحسانه عليه بعد نعمة إيتاء الحجة ورفع الدرجة فقال ﴿ ووهبنا له ﴾ باللفظ الدال على العظمة كما يقوله عظماء الملوك ليدل بذلك على عظم العطية ، وذلك أنه جعل أشرف الناس وهم الأنبياء والرسل من نسله وعقبه . قيل : وإنما لم يذكر إسماعيل مع إسحق وإن كان هو أيضاً ابنه لصلبه ، لأن المقصود بالذكر ههنا أنبياء بني إسرائيل وهم بأسرهم أولاد إسحق ويعقوب ، وأما إسماعيل فإنه ما خرج من صلبه أحد من الأنبياء إلا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا يجوز ذكر محمد صلى الله عليه وسلم في هذا المقام لأنه أمر محمداً أن يحتج على العرب بأن إبراهيم لما ترك الشرك وأصر على التوحيد شرفه الله بالنعم الجسام في الدين والدنيا ، ومن جملة ذلك أن آتاه أولاداً كانوا ملوكاً وأنبياء ، فإذا كان المحتج بهذه الحجة هو محمد امتنع أن يذكر نفسه في هذا المعرض ، فلهذا السبب لم يذكر إسماعيل مع إسحق . أما قوله ﴿ ونوحاً هدينا من قبل ﴾ فالمقصود منه بيان كرامة إبراهيم بحسب الآباء أيضاً مثل نوح وإدريس وشيث ، وأما الضمير في قوله ﴿ ومن ذريته ﴾ فقد قيل : إنه يعود إلى " نوح " لأنه أقرب ولأنه تعالى ذكر في جملتهم لوطاً وهو كان ابن أخي إبراهيم وما كان من ذريته ، بل كان من ذرية نوح ، ولأن ولد الإنسان لا يقال إنه ذريته فعلى هذا إسماعيل ما كان من ذرية إبراهيم وكان من ذرية نوح ، ولأن يونس عليه

السلام لم يكن من ذرية إبراهيم على قول بعضهم . وقيل : الضمير عائد إلى إبراهيم لأنه هو المقصود بالذكر هو هذا المقام . واعلم أن الله تعالى ذكر أربعة من الأنبياء وهم : نوح وإبراهيم وإسحق ويعقوب . ثم ذكر من ذريتهم أربعة عشر نبياً : داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى والياس وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً .

(111/241)

---

فالمجموع ثمانية عشر . وأنه لم يراع الترتيب بينهم في الآية لا بحسب الفضل والشرف ولا بحسب الزمان والمدة ، فاستدل العلماء بذلك على أن الواو لا تفيد الترتيب . وقال في التفسير الكبير : إن وجه الترتيب أنه تعالى خص كل طائفة من طوائف الأنبياء بنوع من الكرامة . فمن المراتب المعتبرة عند الجمهور الملك والسلطنة وقد أعطى داود وسليمان من ذلك نصيباً عظيماً ، والمرتبة الثانية البلاء والمحنة وقد خص أيوب بذلك ، والثالثة استجماع الحالتين وذلك في حق يوسف فإنه ابتلي أوّلاً ثم أوتي الملك ثانياً . الرابعة قوّة المعجزات وكثرة البراهين والبينات وذلك حال موسى وهارون الخامسة الزهد الكامل كما في حق زكريا ويحيى وعيسى وإلياس ولهذا وصفهم بأنهم من الصالحين . السادسة

الأنبياء الذين ليس لهم في الخلق أتباع ولا أشياع وهم إسماعيل واليسع ويونس ولوط . وأما المراد بقوله ﴿ كلاً هدينا ونوحاً هدينا ﴾ قيل : المراد الهداية إلى طريق الجنة بدليل قوله ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ فإن جزاء المحسن على إحسانه لا يكون إلا الثواب . وقيل : لا يبعد أن يقال : المراد الهداية إلى الدين والمعرفة لأنهم اجتهدوا في طلب الحق فجازاهم الله بالوصال والوصول كما قال ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ [ العنكبوت : 69 ] وقيل : إنها الإرشاد إلى النبوّة والرسالة لأن الهداية المخصوصة بالأنبياء ليست إلا ذلك ، وهذا إنما يصح عند من جوز أن تكون الرسالة جزاء على عمل . واستدل بعضهم بقوله ﴿ وكلاً فضلنا على العالمين ﴾ على أن الأنبياء أفضل من الملائكة ، وذلك أن العالم اسم لكل موجود سوى الله تعالى فيدخل فيه الملائكة وكذا الأولياء . وقيل : فضلناهم على عالمي زمانهم فلا يتم الاستدلال . قال القاضي : ويمكن أن يقال : المراد وكل من الأنبياء يفضلون على كل من سواهم من العالمين . ثم الكلام في أن أي الأنبياء أفضل من بعض كلام آخر لا تعلق له بالأول . ثم قال ﴿ ومن

آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ﴾ معطوف على ﴿ كلاً ﴾ أي فضلنا بعض آبائهم . فالآباء هم الأصول ، والذريات هم الفروع ، والإخوان فروع الأصول . وفيه دليل على أنه تعالى خص كل من تعلق بهؤلاء بنوع من الشرف والكرامة . ثم إن قلنا المراد من الهداية الهداية إلى الثواب والجنة فقوله ﴿ من آبائهم ﴾ وكلمة " من " للتبعيض يدل على أنه قد كان في آباء هؤلاء الأنبياء من كان غير مؤمن ولا واصل إلى الجنة ، وإن فسرنا الهداية بالنبوة لم يفد ذلك إلا أنه يفيد أن لا تكون المرأة رسولاً ولا نبياً ﴿ واجتبيناهم ﴾ أي اصطفيناهم من جبيت الماء في الحوض وجبوته في جمعته ، ﴿ ذلك هدى الله ﴾ إشارة إلى معرفة التوحيد والتنزيه بدليل قوله ﴿ ولو أشركوا لحبط ﴾ وفيه دليل على أن الهداية من الله تعالى وليس للعبد فيها اختيار .

*(113/241)*

---

وفيه تهديد عظيم كقوله ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ [ الزمر : 65 ] والغرض من ذلك زجر الأمة . ﴿ أولئك ﴾ يعني الأنبياء الثمانية عشر . ﴿ الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ﴾ ولا بد بحكم العطف من تغاير الأمور الثلاثة . ووجه بأن الحكام على الخلق ثلاث طوائف : الحكام على بواطن الناس وهم العلماء ، والحكام على ظواهر الخلق

وهم السلاطين ، والجامعون بين الأمرين وهم الأنبياء . فالأمور الثلاثة إشارة إلى هذه الأصناف الثلاثة . ومعنى إيتاء الكتاب الفهم التام بما في هذا الجنس والعلم المحيط بحقائقه وأسراره . ولو قيل : المراد بالإيتاء الابتداء بالوحي والتنزيل كصحف إبراهيم وتوراة موسى وإنجيل عيسى لم يشمل كل المذكورين لأنه تعالى ما أنزل على كل واحد منهم كتاباً على التعيين . ﴿ فإن يكفر بها ﴾ أي بالأمور الثلاثة أو بالنبوة ﴿ هؤلاء ﴾ يعني أهل مكة ﴿ فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ﴾ أي ليسوا كافرين بها ومن توكيلهم بها أنهم وفقوا للإيمان بها والقيام بحقوقها كما يوكل الرجل بالشيء ليقوم به ويتعهده ويحافظ عليه . ومن القوم ؟ قيل : كل مؤمن وقيل : أهل المدينة وهم الأنصار . وقيل : هم المهاجرون . وقال الحسن : هم الأنبياء الذين تقدم ذكرهم واختاره الزجاج لقوله عقيب ذلك ﴿ أولئك الذين هدى الله ﴾ وقال أبو رجاء : يعني الملائكة وضعف بأن اسم القوم قلما يقع على غير بني آدم . وفي الآية دلالة على أنه تعالى سينصر نبيه ويظاهر دين الإسلام على كل الأديان وقد وقع ما وعد وكان إخباراً بالغيب فصح إعجاز القرآن . وفيها استدلال للأشاعرة على أنه تعالى خلق قوماً للإيمان ولو كان خلق الكل للإيمان والبيان والتمكين وفعل الألطاف مشتركاً بين الكل لم يصح هذا التخصيص . أجاب الكعبي بأنه زاد المؤمنين من الألطاف ما لا يحصيه إلا الله ، وبتقدير أن يستوي فإذا لم ينتفع به الكافر صح بحسب الظاهر أن يقال إنه لم يحصل له تلك الألطاف . ورد بأن

الألطاف الداعية إلى الإيمان مشترك فيها بين الكافر والمؤمن ، وبأن الوالد لما سوّى بين الولدين في العطية ثم إن أحدهما ضيع نصيبه فأي عاقل يجوّز أن يقول أحد إن الأب ما أنعم عليه وما أعطاه شيئاً ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ من حذف الهاء في الوصل فعلى الأصل ، ومن أثبتها في الوصل كما في الوقف أراد موافقة المصحف فإن الهاء ثابتة في الخط فكره مخالفة الخط في الحالين . وأما قراءة ابن عامر بكسر الهاء بغير إشباع فقال أبو بكر بن مجاهد : إنها غلط . وقال أبو علي الفارسي : ليست بغلط ووجهها أن يجعل الهاء كناية عن المصدر الدال عليه الفعل . والتقدير : فبهداهم اقتد الاقتداء . وتقديم المفعول للاختصاص أي لا تقتد إلا بهم . ولا خلاف في أنه أمر لمحمد صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بالأنبياء المذكورين . إنما الكلام في تفسير الهدى .

فمن الناس من قال : المراد الذي أجمعوا عليه وهو القول بالتوحيد والتنزيه عن كل ما لا يليق به في الذات والصفات والأفعال . وقال آخرون : المراد به الاقتداء بهم في شرائعهم إلا ما خصه الدليل ، وعلى هذا فيلزمنا شرع من قبلنا ، وقيل : اللفظ مطلق فيحمل على الكل إلا ما خصه الدليل المفصل . وقال القاضي : هذا بعيد لأن شرائعهم مختلفة متناقضة ولا يمكن الإتيان بالأمور المتناقضة معاً ، ولأن الهدى عبارة عن الدليل دون نفس العمل ، ودليل إثبات شرعهم كان مخصوصاً بتلك الأوقات ، ولأن منصبهم يلزم أن يكون أجل من منصبه وأنه باطل بالإجماع ، وأجيب بأن العام يجب تخصيصه في الصورة المتناقضة فيبقى فيما عداها حجة ، وبأن المستدل بالدليل فصل في ذلك الحكم فلا معنى للاقتداء بالدليل إلا إذا كان فعل الأول سبباً لوجوب الفعل على الثاني ، وبأنه يلزم أن يكون منصبه أجل من منصبهم لأنه أمر باستجماع خصال الكمال وصفات الشرف التي كانت متفرقة فيها كالشكر في داود وسليمان ، والصبر في أيوب ، والزهد في زكريا ويحيى وعيسى ، والصدق في إسماعيل ، والتضرع في يونس ، والمعجزات الباهرة في موسى وهارون ، ولهذا قال " لو كان موسى حياً لما وسعه إلا اتباعي " .

ولما أمره بالاقتداء بالأنبياء وكان من جملة هداهم أن لا يطلبوا الأجر أي المال والجعل في ايصال الدين وإبلاغ الشريعة قيل له : ﴿ قل لا أسألكم ﴾ أيها الأمة ﴿ عليه ﴾ على البلاغ ﴿ أجراً إن هو ﴾ يعني القرآن ﴿ إلا ذكرى للعالمين ﴾ يريد كونه مشتملاً على كل

ما يحتاجون إليه في المعاش والمعاد . وفيه دليل على أنه صلى الله عليه وسلم كان مبعوثاً إلى الناس كافة لا إلى قوم دون قوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 112 . 115 ﴾

(116/241)

---

قوله تعالى ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (91) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما حصر الدعاء في الذكرى ، وكان ذلك نفعاً لهم ورفقاً بهم ، لا تزيد طاعتهم في ملك الله شيئاً ولا ينقص إعراضُهم من عظمته شيئاً ، لأن كل ذلك بإرادته ؛ بني حالاً منهم ، فقال تأكيداً لأمر الرسالة بالإنكار على من جحدها وإلزاماً لهم بما هم معترفون به ، أما أهل الكتاب فعلماً قطعياً ، وأما العرب فتقليداً لهم ولأنهم سلموا لهم العلمَ وجعلوهم محط سؤالهم عن محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وما ﴾ أي فقلنا ذلك لهم خاصة والحال أنهم

ما ﴿ قدروا ﴾ أي عظموا ﴿ الله ﴾ أي المستجمع لصفات الكمال ﴿ حق قدره ﴾ أي تعظيمه في جحدهم لذكراهم وصدهم عن بشراهم ومقابلتهم للشكر عليه بالكفر له ؛ قال الواحدي : يقال قدر الشيء – إذا سبره وحزره وأراد أن يعلم مقداره – يقدره – بالضم – قدراً ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " فإن غم عليكم فاقدروا له " ، أي فاطلبوا أن تعرفوه – هذا أصله في اللغة ، ثم قيل لمن عرف شيئاً : هو يقدر قدره ، وإذا لم يعرفه بصفاته : إنه لا يقدر قدره ﴿ إذ ﴾ أي حين ﴿ قالوا ﴾ أي اليهود ، والآية مدنية وقريش في قبولهم لقولهم ، ويمكن أن تكون مكية ، ويكون قولهم هذا حين أرسلت إليهم قريش تسألهم عنه صلى الله عليه وسلم في أمر رسالته واحتجاجه عليهم بإرسال موسى عليه السلام وإنزال التوراة عليه ﴿ ما أنزل الله ﴾ أي ناسين ما له من صفات الكمال ﴿ على بشر من شيء ﴾ لأن من نسب مَلِكاً تام الملك إلى أنه لم يُثبِت أوامره في رعيته بما يرضيه ليفعلوه وما يسخطه ليجتنبوه ، فقد نسبه إلى نقص عظيم ، فكيف إذا كانت تلك النسبة كذباً ! وهذا وإن كان ما قاله إلا بعض العالمين بل بعض أهل الكتاب الذين هم بعض العالمين ، أسند إلى الكل ، لأنهم لم يردوا على قائله ولم يعاجلوه بالأخذ تفظيعاً للشأن وتهويلاً للأمر ، وبياناً لأنه يجب على كل من سمع بآية من آيات الله أن يسعى إليها ويتعرف أمرها ، فإذا تحققه فمن طعن فيها أخذ على يده بما يصل إليه قدرته ، كما أنه كذلك كان

يفعل لو كان ذلك ناشئاً عن أبيه أو أحد ممن يكون فخره به من أبناء الدنيا ، وفي ذلك أتم إشارة إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عماد الأمور كلها ، من فرّط فيه هلك وأهلك ؛ روى الواحدي في أسباب النزول بغير سند عن ابن عباس رضي الله عنهما ومحمد بن كعب القرظي أن اليهود قالوا : ما أنزل الله على بشر من شيء ، فأنزل الله تعالى - يعني هذه الآية ، فقال مشيراً إلى أن اليهود قائلو ذلك ، وملزماً بالاعتراف بالكذب أو المساواة للأميين في التمسك بالهوى دون كتاب ، موبخاً لهم ناعياً عليهم سوء جهلهم وعظيم بهتهم وشدة وقاحتهم وعدم حيائهم : ﴿ قل ﴾ أي لهؤلاء السفهاء الذين تجرؤوا على هذه المقالة غير ناظرين في عاقبتها وما يلزم منها توبيخاً لهم وتوقيفاً على موضع جهلهم ﴿ من أنزل الكتاب ﴾ أي الجامع للأحكام والمواعظ وخيري الدنيا والآخرة ﴿ الذي جاء به موسى ﴾ أي الذي أنتم تزعمون التمسك بشرعه ، حال كون ذلك الكتاب ﴿ نوراً ﴾ أي ذا نور يمكن الأخذ به من وضع الشيء في حاقّ موضعه ﴿ وهدى للناس ﴾ أي ذا هدى لهم كلهم ، أما في ذلك الزمان فبالتقيد به ، وأما عند إنزال الإنجيل فبالأخذ بما أرشد إليه من اتباعه ، وكذا عند إنزال القرآن ، فقد بان أنه هدى في كل زمان تارة بالدعاء إلى ما فيه وتارة بالدعاء إلى غيره ؛ ثم بين أنهم اخفوا منه ما هو نص وصريح في الدعاء إلى غيره اتباعاً منهم للهوى ولزوماً للعمى فقال : ﴿ تجعلونه ﴾ أي أيها اليهود ﴿ قراطيس ﴾ اي

أوراقاً مفرقة لتتمكنوا بها من إخفاء ما أردتم ﴿ تبدونها ﴾ أي تظهرونها للناس ﴿ وتخفون كثيراً ﴾ أي منها ما تريدون به تبديل الدين – هذا على قراءة الجماعة بالفوقانية ، وعلى قراءة ابن كثير وأبي عمرو بالغيبة هو التفات مؤذن بشدة الغضب مشير إلى أن ما قالوه حقيق بأن يستحيى من ذكره فكيف بفعله ! ثم التفت إليهم للزيادة في تبكيتهم إعلاماً بأنهم متساوون لبقية الإنسان في أصل الفطرة ، بل العرب أزكى منهم وأصح أفهاماً ،

*(118/241)*

---

فلولا ما أتاهم به موسى عليه السلام ما فاقوهم بفهم ، ولا زادوا عليهم في علم ، فقال : ﴿ وعلمتم ﴾ أي أيها اليهود بالكتاب الذي أنزل على موسى ﴿ ما لم تعلموا أنتم ﴾ أي أيها اليهود من أهل هذا الزمان ﴿ ولا آباؤكم ﴾ أي الأقدمون الذين كانوا أعلم منكم .

ولما كانوا قد وصلوا في هذه المقالة إلى حد من الجهل عظيم ، قال مشيراً إلى عنادهم : ﴿ قل ﴾ أي أنت في الجواب عن هذا السؤال غير منتظر لجوابهم فإنهم أجلف الناس وأعتاهم ﴿ الله ﴾ أي الذي أنزل ذلك الكتاب ﴿ ثم ﴾ بعد أن تقول ذلك لا تسمع لهم شيئاً بل ﴿ ذرهم في خوضهم ﴾ أي قولهم وفعلهم المثبتين على الجهل المبنيين على أنهم في

ظلام الضلال كالخائض في الماء يعملون ما لا يعلمون ﴿ يلعبون ﴾ أي يفعلون فعل اللاعب ، وهو ما لا يجر لهم نفعاً ولا يدفع عنهم ضراً مع تضييع الزمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 671.673 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أنا ذكرنا في هذا الكتاب أن مدار أمر القرآن على إثبات التوحيد والنبوة والمعاد . وأنه تعالى لما حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه ذكر دليل التوحيد ، وإبطال الشرك ، وقرر تعالى ذلك الدليل بالوجوه الواضحة شرع بعده في تقرير أمر النبوة ، فقال : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ حيث أنكروا النبوة والرسالة ، فهذا بيان وجه نظم هذه الآيات وأنه في غاية الحسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 59 ﴾

*(119/241)*

---

فصل

قال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾

في سبب نزولها سبعة اقوال .

أحدها : " أن مالك بن الصيف رأس اليهود ، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى ، أتجد فيها أن الله يبغض الحبر السمين ؟ قال : نعم .

قال : فأنت الحبر السمين فغضب ثم قال : ﴿ ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ فنزلت هذه الآية " ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ؛ وكذلك قال سعيد بن جبير ، وعكرمة : نزلت في مالك بن الصيف .

والثاني : أن اليهود قالوا يا محمد ، أنزل الله عليك كتاباً ؟ قال : "نعم" .

قالوا والله ما أنزل الله من السماء كتاباً ، فنزلت هذه الآية ، رواه الوالبي عن ابن عباس .

والثالث : أن اليهود قالوا يا محمد ، إن موسى جاء بألواح يحملها من عند الله ، فائتنا بآية كما جاء موسى ، فنزل ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزِّل عليهم كتاباً من السماء ﴾ [ النساء : 153 ] إلى قوله ﴿ عظيماً ﴾ [ النساء : 156 ] .

فلما حدَّثهم بأعمالهم الخبيثة ، قالوا : والله ما أنزل الله عليك ولا على موسى وعيسى ، ولا على بشر ، من شيء ، فنزلت هذه الآية ، قاله محمد بن كعب .

والرابع : أنها نزلت في اليهود والنصارى ، آتاهم الله علما فلم ينتفعوا به ، قاله قتادة .

والخامس : أنها نزلت في فنحاص اليهودي ، وهو الذي قال : ﴿ ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ قاله السدي .

والسادس : أنها نزلت في مشركي قريش ، قالوا : والله ما أنزل الله على بشر من شيء ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد .

والسابع : أن أولها إلى قوله ﴿ من شيء ﴾ في مشركي قريش ، وقوله : ﴿ من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى ﴾ في اليهود ، رواه ابن كثير عن مجاهد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

*(120/241)*

---

فصل

قال الفخر :

في تفسير قوله تعالى : ﴿ مَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ وجوه : قال ابن عباس : ما عظموا الله حق تعظيمه .

وروي عنه أيضاً أنه قال معناه : ما آمنوا إن الله على كل شيء قدير .

وقال أبو العالية : ما وصفوه حق صفته .

وقال الأخفش : ما عرفوه حق معرفته ، وحقق الواحدي رحمه الله ذلك ، فقال يقال : قدر الشيء إذا سبره وحرره ، وأراد أن يعلم مقداره يقدره بالضم قدراً ومنه قوله عليه السلام :

" وإن غم عليكم فاقدروا له " أي فاطلبوا أن تعرفوه هذا أصله في اللغة ، ثم قال يقال لمن عرف شيئاً هو يقدر قدره ، وإذا لم يعرفه بصفاته أنه لا يقدر قدره ، فقوله : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ صحيح في كل المعاني المذكورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 60 ﴾

فصل

قال الفخر :

إنه تعالى لما حكى عنهم أَنَّهُمْ ﴿ ما قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ بين السبب فيه ، وذلك هو قولهم ما أنزل الله علي بشر من شيء .

واعلم أن كل من أنكر النبوة والرسالة فهو في الحقيقة ما عرف الله حق معرفته ، وتقريره من وجوه : الأول : أن منكر البعثة والرسالة إما أن يقول : إنه تعالى ما كلف أحداً من الخلق تكليفاً أصلاً ، أو يقول : إنه تعالى كلفهم التكاليف ، والأول باطل ، لأن ذلك يقتضي أنه تعالى أباح لهم جميع المنكرات والقبائح نحو شتم الله ، ووصفه بما لا يليق به ، والاستخفاف بالأنبياء والرسل وأهل الدين ، والإعراض عن شكر النعم ، ومقابلة الإنعام بالإساءة .

ومعلوم أن كل ذلك باطل .

وإما أن يسلم أنه تعالى كلف الخلق بالأوامر والنواهي ، فههنا لا بد من مبلغ وشارع ومبين ، وما ذاك إلا الرسول .

فإن قيل : لم لا يجوز أن يقال : العقل كاف في إيجاب الواجبات واجتناب المقبحات ؟

قلنا : هب أن الأمر كما قلتم .

إلا أنه لا يمتنع تأكيد التعريف العقلي بالتعريفات المشروعة على ألسنة الأنبياء والرسل عليهم السلام .

فثبت أن كل من منع البعثة والرسالة فقد طعن في حكمة الله تعالى .

وكان ذلك جهلاً بصفة الإلهية ، وحينئذ يصدق في حقه قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ .

*(121/241)*

---

الوجه الثاني : في تقرير هذا المعنى أن من الناس من يقول إنه يمتنع بعثة الأنبياء والرسل ، لأنه يمتنع إظهار المعجزة على وفق دعواه تصديقاً له ، والقائلون بهذا القول لهم مقامان :

المقام الأول : أن يقولوا إنه ليس في الإمكان خرق العادات ولا إيجاد شيء على خلاف ما جرت به العادة .

والمقام الثاني : الذين يسلمون إمكان ذلك .

إلا أنهم يقولون إن بتقدير حصول هذه الأفعال الخارقة للعادات لا دلالة لها على صدق

مدعي الرسالة ، وكلا الوجهين يوجب القدح في كمال قدرة الله تعالى .

أما المقام الأول : فهو أنه ثبت أن الأجسام متماثلة .

وثبت أن ما يحتمله الشيء وجب أن يحتمله مثله ، وإذا كان كذلك كان جرم الشمس والقمر قابلاً للتمزق والتفرق .

فإن قلنا : إن الإله غير قادر عليه كان ذلك وصفاً له بالعجز ونقصان القدرة ، وحينئذ يصدق في حق هذا القائل : أنه ما قدر الله حق قدره .

وإن قلنا : إنه تعالى قادر عليه ، فحينئذ لا يمتنع عقلاً انشقاق القمر ، ولا حصول سائر المعجزات .

وأما المقام الثاني : وهو أن حدوث هذه الأفعال الخارقة للعادة عند دعوى مدعي النبوة تدل على صدقهم ، فهذا أيضاً ظاهر على ما هو مقرر في كتب الأصول .

فثبت أن كل من أنكر إمكان البعثة والرسالة ، فقد وصف الله بالعجز ونقصان القدرة ، وكل من قال ذلك فهو ما قدر الله حق قدره .

*(122/241)*

والوجه الثالث : أنه لما ثبت حدوث العالم ، فنقول : حدوثه يدل على أن إله العالم قادر عالم حكيم ، وأن الخلق كلهم عبيده وهو مالك لهم على الإطلاق ، وملك لهم على الإطلاق ، والملك المطاع يجب أن يكون له أمر ونهي وتكليف على عباده ، وأن يكون له وعد على الطاعة ، ووعيد على المعصية ، وذلك لا يتم ولا يكمل إلا بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، فكل من أنكر ذلك فقد طعن في كونه تعالى ملكاً مطاعاً ، ومن اعتقد ذلك فهو ما قدر الله حق قدره ، فثبت أن كل من قال ما أنزل الله علي بشر من شيء فهو ما قدر الله حق قدره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 60 . 61 ﴾

فصل

قال الفخر :

في هذه الآية بحث صعب ، وهو أن يقال : هؤلاء الذين حكى الله عنهم أنهم قالوا : ﴿ ما أَنزَلَ الله علَى بَشَرٍ مّن شَىْءٍ ﴾ إما أن يقال : إنهم كفار قريش أو يقال إنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، فإن كان الأول ، فكيف يمكن إبطال قولهم بقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الكتاب الذى جَاء بِهِ موسى ﴾ وذلك لأن كفار قريش والبراهمة كما ينكرون رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فكذلك ينكرون رسالة سائر الأنبياء ، فكيف يحسن إيراد هذا الإلزام عليهم ، وأما إن كان الثاني وهو أن قائل هذا القول قوم من اليهود والنصارى ، فهذا أيضاً صعب مشكل ، لأنهم لا يقولون هذا القول ، وكيف يقولونه مع أن مذهبهم أن التوراة

كتاب أنزله الله على موسى ، والإنجيل : كتاب أنزله الله على عيسى ؛ وأيضاً فهذه السورة مكية ، والمناظرات التي وقعت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبين اليهود والنصارى كلها مدنية ، فكيف يمكن حمل هذه الآية عليها ، فهذا تقرير الإشكال القائم في هذه الآية .

واعلم أن الناس اختلفوا فيه على قولين :

فالقول الأول : إن هذه الآية نزلت في حق اليهود وهو القول المشهور عند الجمهور .

*(123/241)*

---

قال ابن عباس : إن مالك بن الصيف كان من أحبار اليهود ورؤسائهم ، وكان رجلاً سميناً فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنشدك الله الذي أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها إن الله يبغض الحبر السمين وأنت الحبر السمين وقد سمنت من الأشياء التي تطعمك اليهود " فضحك القوم ، فغضب مالك بن الصيف ، ثم التفت إلى عمر فقال : ما أنزل الله على بشر من شيء .

فقال له قومه : ويلك ما هذا الذي بلغنا عنك ؟ فقال : إنه أغضبني ، ثم إن اليهود لأجل هذا الكلام عزلوه عن رياستهم ، وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف ، فهذا هو الرواية

المشهورة في سبب نزول هذه الآية ، وفيها سؤالات :

السؤال الأول : اللفظ وإن كان مطلقاً بحسب أصل اللغة إلا أنه قد يتقيد بحسب العرف .

ألا ترى أن المرأة إذا أرادت أن تخرج من الدار فغضب الزوج ، وقال : إن خرجت من الدار فأنت طالق ، فإن كثيراً من الفقهاء .

قالوا : اللفظ وإن كان مطلقاً إلا أنه بحسب العرف يتقيد لتلك المرة فكذا ههنا قوله : ﴿ مَا أَنزَلَ اللهُ على بَشَرٍ مّن شَىْءٍ ﴾ وإن كان مطلقاً بحسب أصل اللغة ، إلا أنه بحسب العرف يتقيد بتلك الواقعة فكان قوله : ﴿ مَا أَنزَلَ اللهُ على بَشَرٍ مّن شَىْءٍ ﴾ مراده منه أنه ما أنزل الله على بشر من شيء في أنه يبغض الحبر السمين ، وإذا صار هذا المطلق محمولاً على هذا المقيد لم يكن قوله : ﴿ مَنْ أَنزَلَ الكتاب الذى جَاء بِهِ موسى ﴾ مبطلاً لكلامه ، فهذا أحد السؤالات :

السؤال الثاني : أن مالك بن الصيف كان مفتخراً بكونه يهودياً متظاهراً بذلك ومع هذا المذهب ألبتة أن يقول : ما أنزل الله على بشر من شيء إلا على سبيل الغضب المدهش للعقل أو على سبيل لا يمكنه طغيان اللسان ، ومثل هذا الكلام لا يليق بالله سبحانه وتعالى إنزال القرآن الباقي على وجه الدهر في إبطاله .

والسؤال الثالث : أن الأكثرين اتفقوا على أن هذه السورة مكية وأنها أنزلت دفعة واحدة ، ومناظرات اليهود مع الرسول عليه الصلاة والسلام كانت مدنية ، فكيف يمكن حمل هذه الآية على تلك المناظرة ؟ وأيضاً لما نزلت السورة دفعة واحدة ، فكيف يمكن أن يقال : هذه الآية المعينة إنما نزلت في الواقعة الفلانية ؟ فهذه هي السؤالات الواردة على هذا القول ، والأقرب عندي أن يقال : لعل مالك بن الصيف لما تأذى من هذا الكلام طعن في نبوة الرسول عليه الصلاة والسلام وقال : ما أنزل الله عليك شيئاً ألبتة ، ولست رسولاً من قبل الله ألبتة ، فعند هذا الكلام نزلت هذه الآية ، والمقصود منها أنك لما سلمت أن الله تعالى أنزل التوراة على موسى عليه السلام ، فعند هذا لا يمكنك الإصرار على أنه تعالى ما أنزل علي شيئاً لأني بشر وموسى بشر أيضاً ، فلما سلمت أن الله تعالى أنزل الوحي والتنزيل على بشر امتنع عليك أن تقطع وتجزم بأنه ما أنزل الله علي شيئاً ، فكان المقصود من هذه الآية بيان أن الذي ادعاه محمد عليه الصلاة والسلام ليس من قبيل الممتنعات ، وأنه ليس للخصم اليهودي أن يصر على إنكاره ، بل أقصى ما في الباب أن يطالبه بالمعجز فإن أتى به فهو المقصود ، وإلا فلا فإما أن يصر اليهودي على أنه تعالى ما أنزل على محمد شيئاً ألبتة مع أنه معترف بأن الله تعالى أنزل الكتاب على موسى ، فذاك محض الجهالة والتقليد ، وبهذا التقدير يظهر الجواب عن السؤالين الأولين .

فأما السؤال الثالث : وهو قوله : هذه السورة مكية ونزلت دفعة واحدة وكل واحد من هذين الوجهين يمنع من القول بأن سبب نزول هذه الآية مناظرة اليهودي .

قلنا : القائلون بهذا القول قالوا : السورة كلها مكية ونزلت دفعة واحدة إلا هذه الآية ، فإنها نزلت بالمدينة في هذه الواقعة ، فهذا منتهى الكلام في تقرير هذا الوجه .

*(125/241)*

---

والقول الثاني : أن قائل هذا القول أعني ما أنزل الله على بشر من شيء قوم من كفار قريش فهذا القول قد ذكره بعضهم .

بقي أن يقال : كفار قريش ينكرون نبوة جميع الأنبياء عليهم السلام ، فكيف يمكن إلزام نبوة موسى عليهم ؟ وأيضاً فما بعد هذه الآية لا يليق بكفار قريش ، وإنما يليق باليهود وهو قوله : ﴿ تَجْعَلُونَهُ قراطيس تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ ءابَاؤُكُمْ ﴾ [ الأنعام : 91 ] فمن المعلوم بالضرورة أن هذه الأحوال لا تليق إلا باليهود ، وهو قول من يقول : إن أول الآية خطاب مع الكفار ، وآخرها خطاب مع اليهود فاسد ، لأنه يوجب تفكيك نظم الآية وفساد تركيبها ، وذلك لا يليق بأحسن الكلام فضلاً عن كلام رب العالمين ، فهذا تقرير الإشكال على هذا القول .

أما السؤال الأول : فيمكن دفعه بأن كفار قريش كانوا مختلطين باليهود والنصارى وكانوا قد سمعوا من الفريقين على سبيل التواتر ظهور المعجزات القاهرة على يد موسى عليه السلام مثل انقلاب العصا ثعباناً ، وفلق البحر وإظلال الجبل وغيرها والكفار كانوا يطعنون في نبوة محمد عليه الصلاة والسلام بسبب أنهم كانوا يطلبون منه أمثال هذه المعجزات وكانوا يقولون لو جئتنا بأمثال هذه المعجزات لآمنا بك ، فكان مجموع هذه الكلمات جارياً مجرى ما يوجب عليهم الاعتراف بنبوة موسى عليه السلام ، وإذا كان الأمر كذلك لم يبعد إيراد نبوة موسى عليه السلام إلزاماً عليهم في قولهم : ﴿ مَا أَنزَلَ اللهُ على بَشَرٍ مّن شَىْءٍ ﴾ .

وأما السؤال الثاني : فجوابه : أن كفار قريش واليهود والنصارى ، لما كانوا متشاركين في إنكار نبوة محمد عليه الصلاة والسلام لم يبعد أن يكون الكلام الواحد وارداً على سبيل أن يكون بعضه خطاباً مع كفار مكة وبقيته يكون خطاباً مع اليهود والنصارى ، فهذا ما يحضرنا في هذا البحث الصعب ، وبالله التوفيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 61.63 ﴾

*(126/241)*

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾

أي فيما وجب له واستحال عليه وجاز .

قال ابن عباس : ما آمنوا أنه على كل شيء قدير .

وقال الحسن : ما عظّموه حقَّ عظمته .

وهذا يكون من قولهم : لفلان قَدر .

وشرحُ هذا أنهم لما قالوا : ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾ نَسَبُوا الله عز وجل إلى أنه لا يقيم الحجة على عباده ، ولا يأمرهم بما لهم فيه الصلاح ؛ فلم يعظِّموه حقَّ عظمته ولا عرفوه حقَّ معرفته .

وقال أبو عبيدة : أي ما عرفوا الله حقّ معرفته .

قال النحاس : وهذا معنى حسن ؛ لأن معنى قدرت الشيء وقدّرته عرفت مقداره .

ويدلّ عليه قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي لم يعرفوه حق معرفته ؛ إذ أنكروا أن يرسل رسولا .

والمعنيان متقاربان .

وقد قيل : وما قدروا نِعم الله حق تقديرها .

وقرأ أبو حَيْوَة : ﴿ وما قدروا الله حق قدَره ﴾ بفتح الدال ، وهي لغة .

﴿ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ اللّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ قال ابن عباس وغيره : يعني مشركي قريش .

وقال الحسن وسعيد بن جبير : الذي قاله أحد اليهود ، قال : لم يُنزل الله كتاباً من السماء .

قال السُّدِّي : اسمه فنحاص .

وعن سعيد بن جُبير أيضاً قال : هو " مالك بن الصَّيف ، جاء يخاصم النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أَنْشُدُك بالذي أنزل التوراة على موسى أما تجد في التوراة أن الله يبغض الحَبْر السّمِين" ؟ وكان حبراً سميناً .

فغضب وقال : والله ما أنزل الله على بشرٍ من شيء .

فقال له أصحابه الذين معه : ويحكا ولا على موسى ؟ فقال : والله ما أنزل الله على بَشَرٍ من شيء ؛ فنزلت الآية " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(127/241)

---

فصل

قال الفخر :

مذهب كثير من المحققين أن عقول الخلق لا تصل إلى كنه معرفة الله تعالى ألبتة ، ثم إن الكثير

من أهل هذا المذهب يحتجون على صحته بقوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أي وما عرفوا الله حق معرفته ، وهذا الاستدلال بعيد ، لأنه تعالى ذكر هذه اللفظة في القرآن في ثلاثة مواضع ، وكلها وردت في حق الكفار فههنا ورد في حق اليهود أو كفار مكة ، وكذا القول في الموضعين الآخرين ، وحينئذ لا يبقى في هذا الاستدلال فائدة . والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 63 ﴾

فصل

قال الفخر :

في هذه الآية أحكام .

الحكم الأول

أن النكرة في موضع النفي تفيد العموم ، والدليل عليه هذه الآية فإن قوله : ﴿ مَا أَنزَلَ اللهُ على بَشَرٍ مّن شَىْءٍ ﴾ نكرة في موضع النفي ، فلو لم تفد العموم لما كان قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الكتاب الذى جَاء بِهِ موسى ﴾ إبطالاً له ، ونقضاً عليه ، ولو لم يكن كذلك لفسد هذا الاستدلال ، ولما كان ذلك باطلاً ، ثبت أن النكرة في موضع النفي تعم . والله أعلم .

الحكم الثاني

النقض يقدح في صحة الكلام ، وذلك لأنه تعالى نقض قولهم : ﴿ مَا أَنزَلَ اللهُ على بَشَرٍ مّن شَىْءٍ ﴾ بقوله : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الكتاب الذى جَاء بِهِ موسى ﴾ فلو لم يدل النقض على

فساد الكلام لما كانت حجة الله مفيدة لهذا المطلوب .

واعلم أن قول من يقول : إبداء الفارق بين الصورتين يمنع من كون النقص مبطلاً ضعيف ، إذ لو كان الأمر كذلك لسقطت حجة الله في هذه الآية لأن اليهودي كان يقول معجزات موسى أظهر ، وأبهر من معجزاتك ، فلم يلزم من إثبات النبوة هناك إثباتها هنا ، ولو كان الفرق مقبولاً لسقطت هذه الحجة ، وحيث لا يجوز القول بسقوطها علمنا أن النقض على الإطلاق مبطل والله أعلم .

*(128/241)*

---

الحكم الثالث

تفلسف الغزالي فزعم أن هذه الآية مبنية على الشكل الثاني من الأشكال المنطقية ، وذلك لأن حاصله يرجع إلى أن موسى أنزل الله تعالى عليه شيئاً وأحد من البشر ما أنزل الله عليه شيئاً ينتج من الشكل الثاني : أن موسى ما كان من البشر ، وهذا خلف محال ، وليست هذه الاستحالة بحسب شكل القياس ، ولا بحسب صحة المقدمة الأولى ، فلم يبق إلا أنه لزم من فرض صحة المقدمة الثانية ، وهي قولهم : ما أنزل الله على بشر من شيء ، فوجب القول بكونها كاذبة ، فثبت أن دلالة هذه الآية على المطلوب ، إنما تصح عند الاعتراف

بصحة الشكل الثاني من الأشكال المنطقية ، وعند الاعتراف بصحة قياس الخلف . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 63.64 ﴾

قوله تعالى ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما قال : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الكتاب الذى جَاء بِهِ موسى ﴾ وصف بعده كتاب موسى بالصفات .

فالصفة الأولى : كونه نوراً وهدى للناس .

واعلم أنه تعالى سماه نوراً تشبيهاً له بالنور الذي به يبين الطريق .

فإن قالوا : فعلى هذا التفسير لا يبقى بين كونه نوراً وبين كونه هدى للناس فرق ، وعطف أحدهما على الآخر يوجب التغاير .

قلنا : النور له صفتان : إحداهما : كونه في نفسه ظاهراً جلياً ، والثانية : كونه بحيث يكون سبباً لظهور غيره ، فالمراد من كونه نوراً وهدى هذان الأمران .

واعلم أنه تعالى وصف القرآن أيضاً بهذين الوصفين في آية أخرى ، فقال : ﴿ ولكن جعلناه

نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 64 ﴾

(129/241)

---

فصل

قال الفخر :

قرأ أبو عمرو وابن كثير ﴿ يجعلونه ﴾ على لفظ الغيبة ، وكذلك يبدونها ويخفون لأجل أنهم غائبون ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللهُ على بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ فلما وردت هذه الألفاظ على لفظ المغايبة ، فكذلك القول في البواقي ، ومن قرأ بالتاء على الخطاب ، فالتقدير : قل لهم تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ وَعُلِّمْتُمْ مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ ﴾ فجاء على الخطاب ، فكذلك ماقبله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 64 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال أبو علي الفارسي : قوله : ﴿ تَجْعَلُونَهُ قراطيس ﴾ أي يجعلونه ذات قراطيس .

أي يودعونه إياها .

فإن قيل : إن كل كتاب فلا بد وأن يودع في القراطيس ، فإذا كان الأمر كذلك في كل الكتب ، فما السبب ، في أن حكى الله تعالى هذا المعنى في معرض الذم لهم .

قلنا : الذم لم يقع على هذا المعنى فقط ، بل المراد أنهم لما جعلوه قراطيس ، وفرقوه وبعضوه ، لا جرم قدروا على إبداء البعض ، وإخفاء البعض ، وهو الذي فيه صفة محمد عليه الصلاة والسلام .

فإن قيل : كيف يقدرون على ذلك مع أن التوراة كتاب وصل إلى أهل المشرق والمغرب ، وعرفه أكثر أهل العلم وحفظوه ، ومثل هذا الكتاب لا يمكن إدخال الزيادة والنقصان فيه ، والدليل عليه أن الرجل في هذا الزمان لو أراد إدخال الزيادة والنقصان في القرآن لم يقدر عليه ، فكذا القول في التوراة .

قلنا : قد ذكرنا في سورة البقرة أن المراد من التحريف تفسير آيات التوراة بالوجوه الباطلة الفاسدة كما يفعله المبطلون في زماننا هذا بآيات القرآن .

فإن قيل : هب أنه حصل في التوراة آيات دالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام . إلا أنها قليلة ، والقوم ما كانوا يخفون من التوراة إلا تلك الآيات ، فلم قال : ويخفون كثيراً .

قلنا : القوم كما يخفون الآيات الدالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، فكذلك يخفون الآيات المشتملة على الأحكام ، ألا ترى أنهم حاولوا على إخفاء الآية المشتملة على رجم الزاني المحصن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 64.65 ﴾

وقال القرطبى :

﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ ﴾ أي في قراطيس ﴿ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً ﴾ هذا لليهود الذين أخفَوْا صفة النبيّ صلى الله عليه وسلم وغيرها من الأحكام .

وقال مجاهد : قوله تعالى "قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى" خطاب للمشركين ، وقوله : "يجعلونه قراطيس" لليهود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَعُلِّمْتُمْ مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ ءَابَاؤُكُمْ ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما وصف التوراة بهذه الصفات الثلاث ، قال : ﴿ قُلِ الله ﴾ والمعنى أنه تعالى قال في أول الآية : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الكتاب ﴾ الذي صفته كذا وكذا فقال بعده : ﴿ قُلِ الله ﴾ والمعنى أن العقل السليم والطبع المستقيم يشهد بأن الكتاب الموصوف بالصفات المذكورة المؤيد قول صاحبه بالمعجزات القاهرة الباهرة مثل معجزات موسى عليه السلام

لا يكون إلا من الله تعالى ، فلما صار هذا المعنى ظاهراً بسبب ظهور الحجة القاطعة ، لا جرم قال تعالى لمحمد قل المنزل لهذا الكتاب هو الله تعالى ، ونظيره قوله : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شهادة قُلِ الله ﴾ وأيضاً أن الرجل الذي حاول إقامة الدلالة على وجود الصانع يقول من الذي أحدث الحياة بعد عدمها ، ومن الذي أحدث العقل بعد الجهالة ، ومن الذي أودع في الحدقة القوة الباصرة ، وفي الصماخ القوة السامعة ، ثم إن ذلك القائل نفسه يقول ﴿ الله ﴾ والمقصود أنه بلغت هذه الدلالة والبينة إلى حيث يجب على كل عاقل أن يعترف بها فسواء أقر الخصم به أو لم يقر فالمقصود حاصل فكذا ههنا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 65 ﴾

*(131/241)*

---

وقال القرطبى :

وقوله ﴿ وَعُلِّمْتُمْ مَّا لَمْ تعلموا أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ ﴾ للمسلمين .

وهذا يصحّ على قراءة من قرأ "يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون" بالياء .

والوجه على قراءة التاء أن يكون كله لليهود ، ويكون معنى "وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا" أي وعلّمتم ما لم تكونوا تعلمونه أنتم ولا آباؤكم ، على وجه المَنّ عليهم بإنزال التوراة .

وجعلت التوراة صُحُفاً فلذلك قال "قراطيس تبدونها" أي تبدون القراطيس .

وهذا ذَمّ لهم ؛ ولذلك كره العلماء كتب القرآن أجزاء .

﴿ قُلِ الله ﴾ أي قل يا محمد الله الذي أنزل ذلك الكتاب على موسى وهذا الكتاب عليّ .

أو قل الله علمكم الكتاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾

قال الفخر :

المعنى أنك إذا أقمت الحجة عليهم وبلغت في الأعذار والأنذار وهذا المبلغ العظيم فحينئذ لم يبق عليك من أمرهم شيء ألبتة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ البلاغ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 65 ﴾

*(132/241)*

---

وقال القرطبى :

﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أي لاعبين ، ولو كان جواباً للأمر لقال يلعبوا .

ومعنى الكلام التهديد .

وقيل : هو من المنسوخ بالقتال ؛ ثم قيل : "يجعلونه" في موضع الصفة لقوله "نُوراً وَهُدًى" فيكون في الصلة .

ويحتمل أن يكون مستأنفاً ، والتقدير : يجعلونه ذا قراطيس .

وقوله : "يُبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيراً" يحتمل أن يكون صفة لقراطيس ؛ لأن النكرة توصف بالجُمل .

ويحتمل أن يكون مستأنفاً حسبما تقدّم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

قال بعضهم هذه الآية منسوخة بآية السيف وهذا بعيد لأن قوله ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ مذكور لأجل التهديد ، وذلك لا ينافي حصول المقاتلة ، فلم يكن ورود الآية الدالة على وجوب المقاتلة ، رافعاً لشيء من مدلولات هذه الآية ، فلم يحصل النسخ فيه . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 65 ﴾

*(133/241)*

فائدة

قال فى البحر المديد :

الإشارة : يُفهَم من الآية أنَّ من أقرَّ بإنزال الكتب وآمن بجميع الرسل ، فقد قَدَر الله حق قدره وعظَّمه حق تعظيمه . وهذا باعتبار ضعف العبد وعجزه وجهله ؛ وإلاَّ فتعظيم الحق حق تعظيمه ، ومعرفته حق معرفته ، لا يمكن انتهاؤها ، ولا الوصول إلى عشر العشر منها .

قال تعالى ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [ طه : 110 ] ، وقال : ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ [ عَبَسَ : 23 ] فلو بقي العبد يترقى في المعرفة أبدًا سرمدًا ، ما عرف الله حق معرفته ، حتى ينتهي إلى غايتها ، ولو بقي يعبد أبد الأبد ما قام بواجب حقه .

وقوله تعالى : ﴿ قل الله ﴾ استشهد به الصوفيةُ ، في طريق الإشارة ، على الانفراد والانقطاع إلى الله ، وعدم الالفتات إلى ما عليه الناس من الخوض والاشتغال بالأغيار والأكدار ، والخروج عنهم إلى مقام الصفا ، وهو شهود الفردانية ، والعكوف في أسرار الوحدانية . قال ابن عطاء الله لما تكلم على أهل الشهود قال : ( لأنهم لله لا لشيء دونه ، ﴿ قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ ) . وقد يُنكِر عليهم من لم يفهم إشارتهم ، تجمدًا ووقوفًا مع الظاهر ، وللقرآن ظاهر وباطن لا يعرفه إلا الربانيون . نفعنا الله بهم ، آمين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المديد حـ 2 صـ 144 ﴾

---

فائدة

قال فى روح البيان :

وفي الآيات أمور :

الأول : أن المخلوق لا يَقْدِر قَدْرَ الخالق ولا يدركه باعتبار كنه ذاته وتجرده عن التعينات الأسمائية والصفاتية .

فكل من عرف الله بآلة مخلوقة فهو على الحقيقة غير عارف ومن عرفه بآلة قديمة كما قال بعضهم عرفت ربي بربي فقد عرف الله ، ولكن على قدر استعداده في قبول فيض نور الربوبية الذي به عرف الله على قدره ؛ لأنها بنيت ذاته وصفاته فالذي يقدر الله حق قدره هو الله تعالى لا غيره .

ما للترات ورب الأرباب .

والثاني : ذم السمن كما عرف في سبب النزول

قال ابن الملك : السمن المذموم ما يكون مكتسباً بالتوسع في المأكل لا ما يكون خلقة وفي الحديث "ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة واقرؤوا إن

شئتم ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ .

قال العلماء : معنى هذا الحديث إنه لا ثواب لهم وأعمالهم مقابلة بالعذاب فلا حسنة لهم توزن في موازين القيامة ومن لا حسنة له فهو في النار .

قال القرطبي في "تذكرته" : وفيه من الفقه ذم السمن لمن تكلفه لما في ذلك من تكلف المطاعم والاشتغال بها عن المكارم بل يدل على تحريم كثرة الأكل الزائد على قدر الكفاية المبتغى به الترفه والسمن انتهى .

وفي الفروع : إن الأكل فرض إن كان لدفع هلاك نفسه ، ومأجور عليه إن كان لتمكينه من صومه وصلاته قائماً ، ومباح إلى الشبع ليزيد قوته ، وحرام فوق الشبع إلا لقصد قوة صوم الغد ولئلا يستحيي ضيفه .

قال الإمام السخاوي في "المقاصد الحسنة" في الحديث : "إن الله يكره الحبر السمين" وفي التوراة "إن الله ليبغض الحبر السمين" وفي رواية "إن الله يبغض القارىء السمين" .

*(135/241)*

---

قال الشافعي رحمه الله : ما أفلح سمين قط إلا أن يكون محمد بن الحسن ، فقيل له : ولِمَ ؟ قال لأنه لا يفكر والعاقل لا يخلو من إحدى حالتين إما أن يهمّ لآخرته ومعاده أو لدنياه

ومعاشه والشحم مع الهمّ لا ينعقد فإذا خلا من المعنيين صار في حد البهائم بعقد الشحم .

ثم قال الشافعي : كان ملك في الزمان الأول كثير اللحم جداً فجمع المتطببين وقال احتالوا حيلة تخف عني لحمي هذا قليلاً فما قدروا فنقبوا له رجلاً عاقلاً أديباً متطبباً وبعثوه فأشخص إليه بصره وقال أيعالجني ذلك الفتى قال أصلح الله الملك أنا رجل متطبب منجم دعني أنظر الليلة في طالعك أي دواء يوافق فأشفيك فهدأ عليه فقال : أيها الملك الأمان قال لك الأمان قال : رأيت طالعك يدل على أن عمرك شهر فمتى أعالجك وإن أردت بيان ذلك فاحبسني عندك فإن كان لقولي حقيقة فخل عني وإلا فاقتص مني قال فحبسه ثم رفع الملك الملاهي واحتجب عن الناس وخلا وحده مغتماً ما يرفع رأسه يعد الأيام كلما انسلخ يوم ازداد غمّاً حتى هزل وخف لحمه ومضى لذلك ثمانية وعشرون يوماً فبعث إليه فأخرجه فقال ما ترى فقال أعزّ الله الملك أنا أهون على الله من أن أعلم الغيب والله ما أعرف عمري فكيف أعرف عمرك إنه لم يكن عندي دواء إلا الهمّ فم أقدر أجلب إليك الهمّ إلا بهذه العلة فأذابت شحم الكلى فأجازه وأحسن إليه .

والثالث : ما في قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ من لطائف العبارات من أهل الإشارات .

فالآية بإشارتها تدل على أن من أراد الوصول إلى الله تعالى فلينقطع عما سواه فإنه لعب ولهو واللاهي واللاعب ليس على شيء نسأل الله سبحانه أن يحفظنا من اشتغال بما سواه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 3 صـ 84 . 85 ﴾

---

ومن فوائد السمرقندى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾

يعني : ما عظّموا الله حق عظمته ، وما عرفوه حق معرفته .

نزلت في مالك بن الضيف خاصمه عمر في النبي صلى الله عليه وسلم أنه مكتوب في التوراة .

فغضب وقال : ﴿ مَا أَنزَلَ اللهُ على بَشَرٍ مّن شَىْءٍ ﴾ وكان رئيس اليهود .

فعزلته اليهود عن الرئاسة بهذه الكلمة .

قال مقاتل : نزلت هذه الآية بالمدينة ، وسائر السور بمكة .

ويقال : إن هذه السورة كلها مكية .

وكان مالك بن الصيف خرج مع نفر إلى مكة معاندين ليسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن أشياء ، وقد كان اشتغل بالنعم ، وترك العبادة ، وسمن .

فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بمكة .

فقال له رسول الله : " أَنْشدكَ الله أَتَجِدُ فِي التَّوْراةِ أَنَّ الله يُبْغِضُ الحَبْرَ السَّمِين " ؟ قال : نَعَمْ قال : " فَأَنْتَ الحَبْرُ السَّمِينُ فَقَدْ سَمِنْتَ مِنْ مَأْكَلَتِكَ " فضحك به القوم فخجل مالك بن الصيف وقال : ما أنزل الله على بشر من شيء فبلغ ذلك اليهود فأنكروا عليه .

فقال : إنه قد أغضبني .

فقالوا : كلما غضبت قلت بغير حق وتركت دينك ؟ فأخذوا الرياسة منه وجعلوها إلى كعب بن الأشرف فنزلت هذه الآية ﴿ وَمَا قَدَرُواْ الله حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ حيث جحدوا تنزيله ﴿ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ الله على بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ يعني : على رسول من كتاب .

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ مَنْ أَنزَلَ الكتاب الذى جَاء بِهِ موسى ﴾ وهو التوراة ﴿ نُوراً ﴾ يعني : ضياء ﴿ وهدى ﴾ يعني : بياناً ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ من الضلالة ﴿ تَجْعَلُونَهُ قراطيس ﴾ يقول : تكتبونه في الصحف ﴿ تُبْدُونَهَا ﴾ يقول : تظهرونها في الصحف ﴿ وَتُخْفُونَ كَثِيراً ﴾ يعني : تكتمون ما فيه صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته وآية الرجم ، وتحريم الخمر .

*(137/241)*

﴿ وَعُلِّمْتُمْ مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ ءابَاؤُكُمْ ﴾ يعني : علمتم أنتم وآباؤكم في التوراة ما لم تعلموا .

ويقال : علمتم على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم فإن أجابوك وإلا ف ﴿ قُلِ الله ﴾ أنزله على موسى ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾ إن لم يصدقوك ﴿ فِى خَوْضِهِمْ ﴾ يعني : في باطلهم ﴿ يَلْعَبُونَ ﴾ يعني : يلهون ويفترون قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ وَيَجْعَلَ اللهِ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ﴾ كل ذلك بالياء على لفظ المغايبة .

وقرأ الباقون : بالتاء على معنى المخاطبة لأن ابتداء الكلام على المخاطبة . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

ومن فوائد الماوردى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : وما عظموه حق عظمته ، قاله الحسن ، والفراء ، والزجاج .

والثاني : وما عرفوه حق معرفته ، قاله أبو عبيدة .

والثالث : وما وصفوه حق صفته ، قاله الخليل .

والرابع : وما آمنوا بأن الله على كل شيء قدير ، قاله ابن عباس .

﴿ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِن شَيْءٍ ﴾ يعني من كتاب من السماء .

وفي هذا الكتاب الذي أنكروا نزوله قولان :

أحدهما : أنه التوراة ، أنكر حبر اليهود فيما أنزل منها ما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى هذا الحبر اليهودي سميناً ، فقال له : " أَمَا تَقْرَءُونَ فِي التَّورَاةِ : أَنَّ اللَّهَ يَبْغَضُ الحَبْرَ السَّمِينَ " فغضب من ذلك وقال : ما أنزل الله على بشر من شيء ، فتبرأت منه اليهود ولعنته ، حكاه ابن بحر .

والقول الثاني : أنه القرآن أنكروه رداً لأن يكون القرآن مُنَزَّلاً .

وفي قائل ذلك قولان :

أحدهما : قريش .

والثاني : اليهود .

فرد الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَآءَ بِهِ مُوسَى ﴾ يعني التوراة لاعترافهم بنزولها .

*(138/241)*

---

ثم قال : ﴿ نُوراً وَهُدىً لِّلنَّاسِ ﴾ لأن المنزل من السماء لا يكون إلا نوراً وهدىً .

ثم قال : ﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً ﴾ يعني أنهم يخفون ما في كتابهم من

بنوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وصفته وصحة رسالته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

الضمير في ﴿ قدروا ﴾ و ﴿ قالوا ﴾ قيل يراد به العرب قاله مجاهد وغيره ، وقيل يراد به بنو إسرائيل ، قاله ابن عباس ، وقيل رجل مخصوص منهم يقال له مالك بن الصيف قاله سعيد بن جبير ، وقيل في فنحاص قاله السدي ، ﴿ قدروا ﴾ هو من توفية القدر والمنزلة فهي عامة يدخل تحتها من لم يعرف ومن لم يعظم وغير ذلك ، غير أن تعليله بقولهم ﴿ ما أنزل الله ﴾ يقضي بأنهم جهلوا ولم يعرفوا الله حق معرفته إذ أحالوا عليه بعثه الرسل و ﴿ حق ﴾ نصب على المصدر ، ومن قال إن المراد كفار العرب فيجيء الاحتجاج عليهم بقوله : ﴿ من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى ﴾ احتجاجاً بأمر مشهور منقول بكافة قوم لم تكن العرب مكذبة لهم ، ومن قال إن المراد بني إسرائيل فيجيء الاحتْجاج عليهم مستقيماً لأنهم يلتزمون صحة نزول الكتاب على موسى عليه السلام ، وروي أن مالك بن الصيف كان سميناً فجاء يخاصم النبي صلى الله عليه وسلم بزعمه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم " أنشدك الله ألست تقرأ فيما أنزل على موسى أن الله يبغض الحبر السمين " فغضب وقال والله ﴿ ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ والآية على قول من قال

نزلت في قول بني إسرائيل تلزم أن تكون مدنية ، وكذلك حكى النقاش أنها مدنية ، وقرأ الحسن وعيسى الثقفي وغيرهما " وما قدّروا " بتشديد الدال " الله حق قدره " بفتح الدال ، وقرأ الجمهور في الأول بالتخفيف وفي الثاني بإسكانه .

وقوله تعالى :

*(139/241)*

---

﴿ قل من أنزل الكتاب ﴾ الآية ، أمره الله تعالى أن يستفهم على جهة التقرير على موضع الحجة ، والمراد ب ﴿ الكتاب ﴾ التوراة ، و ﴿ نوراً وهدى ﴾ اسمان في موضع الحال بمعنى نيراً وهادياً ، فإن جعلناه حالاً من ﴿ الكتاب ﴾ فالعامل فيه ﴿ أنزل ﴾ ، وإن جعلناه حالاً من الضمير في ﴿ به ﴾ فالعامل فيه ﴿ جاء ﴾ ، وقرأ جمهور الناس " تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون " بالتاء من فوق في الأفعال الثلاثة ، فمن رأى أن الاحتجاج على بني إسرائيل استقامت له هذه القراءة وتناسقت مع قوله : ﴿ وعلمتم ما لم تعلموا ﴾ ومن رأي أن الاحتجاج إنما هو على كفار العرب فيضطر في هذه القراءة إذا لا يمكن دفعها إلى أن يقول إنه خرج من مخاطبة قريش في استفهامهم وتقريرهم إبى مخاطبة بني إسرائيل بتوبيخهم وتوبيخ أفعالهم .

قال القاضي أبو محمد : وهذا مع بعده أسهل من دفع القراءة ، فكأنه على هذا التأويل قال لقريش من أنزل الكتاب على موسى ، ثم اعترض على بني إسرائيل فقال لهم خلال الكلام تجعلونه أنتم يا بني إسرائيل قراطيس ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو " يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً " بالياء في الأفعال الثلاثة ، فمن رأى الاحتجاج على قريش رآه إخباراً من الله عز جل بما فعلته اليهود من الكتاب ، ويحتمل أن يكون الإخبار بذلك لقريش أو للنبي صلى الله عليه وسلم وحده ، وما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن فأمته متلقية ذلك ، و ﴿ قراطيس ﴾ جمع قرطاس أي بطائق وأوراقاً والمعنى يجعلونه ذا قراطيس من حيث يكتب فيها ، وتوبيخهم بالإبداء والإخفاء هو على إخفائهم آيات محمد عليه السلام والإخبار بنبوته وجميع ما عليهم فيه حجة وقوله : ﴿ وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ﴾ قال مجاهد وغيره هي مخاطبة للعرب ، فالمعنى على هذا قصد ذكر منة الله عليهم بذلك أي علمتم يا معشر العرب من الهدايات والتحيد والإرشاد إلى الحق ما لم تكونوا عالمين به ولا آباؤكم .

*(140/241)*

قال القاضي أبو محمد : وقوله : ﴿ وعلمتم ما لم تعلموا ﴾ يصلح على هذا المعنى لمخاطبة من انتفع بالتعليم ومن لم ينتفع به ، ويصح الامتنان بتعليم الصنفين ، وليس من شرط من علم أن يعلم ولا بد ، اما أن التعليم الكامل هو الذي يقع معه التعلم ، وقالت فرقة بل هي مخاطبة لبني إسرائيل ، والمعنى على هذا يترتب على وجهين ، أحدهما أن يقصد به الامتنان عليهم وعلى آبائهم بأن علموا من دين الله وهداياته ما لم يكونوا عالمين به ، لأن آباء المخاطبين من بني إسرائيل كانوا علموا أيضاً وعلم بعضهم ، وليس ذلك في آباء العرب ، والوجه الآخر أن يكون المقصود منهم أي وعلمتم أنتم وآباؤكم ما لم تعلموه بعد التعليم ولا انتفعتم به لإعراضكم وضلالكم ثم أمره تعالى بالمبادرة إلى موضع الحجة أي قل : الله هو الذي أنزل الكتاب على موسى ويحتمل أن يكون المعنى فإن جهلوا أو تحيروا أو سألوا أو نحو هذا فقل الله ثم أمره بترك من كفر وأعرض ، وهذه آية منسوخة بآية القتال إن تأولت موادعة ، وقد يحتمل أن لا يدخلها نسخ إذا جعلت تتضمن تهديداً ووعيداً مجرداً من موادعة ، و" الخوض " الذهاب فيما لا تسبر حقائقه ، وأصله في الماء ثم يستعمل في المعاني المشكلة الملتبسة ، و ﴿ يلعبون ﴾ في موضع الحال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد ابن جزى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾

أي ما عرفوه حق معرفته ، في اللطف بعباده والرحمة لهم ؛ إذ أنكروا بعثه للرسل وإنزاله للكتب ، والقائلون هم : اليهود بدليل ما بعده ، وإنما قالوا ذلك مبالغة في إنكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وروي أن الذي قالها منهم مالك بن الصيف ، فرد الله عليهم بأن ألزمهم ما لا بد لهم من الإقرار به وهو إنزال التوراة على موسى ، وقيل : القائلون قريش ، ولزموا ذلك لأنهم كانوا مقرين بالتوراة ﴿ وَعُلِّمْتُمْ مَّا لَمْ تعلموا ﴾ الخطاب لليهود أو لقريش على وجه إقامة الحجة والرد عليهم في قولهم : ما أنزل الله على بشر من شيء ، فإن كان لليهود ، فالذي علموه التوراة ، وإن كان لقريش فالذي علموه ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ قُلِ الله ﴾ جواب من أنزل واسم الله مرفوع بفعل مضمر تقديره أنزله الله أو مرفوع بالابتداء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 2 صـ 15 ﴾

*(142/241)*

ومن فوائد الخازن فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله عز وجل : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾

قال ابن عباس : لما عظموا الله حق عظمته وعنه أن معناه ما آمنوا أن الله على شيء قدير .

وقال أبو العالية : ما وصفوا الله حق وصفه .

وقال الأخفش : ما عرفوا الله حق معرفته .

يقال : قدر الشيء إذا حزره وسبره وأراد ان يعلم مقداره يقال قدره يقدره بالضم قدراً ثم يقال لمن عرف شيئاً هو يقدره قدره وإذا لم يعرفه بصفاته يقال فيه إنه لا يقدر قدره فقوله ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ يصح فيه جميع الوجوه المذكورة في معناه ﴿ إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ يعني الذين قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ما قدروا الله حق قدره ولا عرفوه حق معرفته إذ لو عرفوه حق معرفته لما قالوا هذه المقالة ، ثم اختلف العلماء فيمن نزلت هذه الآية على قولين :

أحدهما : أنها نزلت في كفار قريش وهذا على قول من يقول إن جميع السورة مكية وهو قول السدي .

ويروي ذلك عن مجاهد وصححه الطبري قال : لأن من أول السورة إلى هذا الموضع هو

خبر عن المشركين من عبدة الأصنام وكان قوله ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ موصولاً بذلك غير مفصول عنه فلا يكون قوله إذ قالوا : ﴿ ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ خبراً عن غيرهم وأورد فخر الدين الرازي على هذا القول إشكالاً وهو أن كفار قريش ينكرون نبوة جميع الأنبياء فكيف يمكن إلزامهم بنبوة موسى وأيضاً فما بعد هذه الآية لا يليق بكفار قريش إنما يليق بحال اليهود وأجاب عنه بأن كفار قريش كانوا مختلطين باليهود وقد سمعوا منهم أن موسى جاءهم بالتوراة وبالمعجزات الباهرات وإنما أنكر كفار قريش نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فيمكن إلزامهم بقوله ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى ﴾ وأجاب عن كون سياق الآية لا يليق إلا بحال اليهود بأن كفار قريش واليهود لما كانوا مشتركين في إنكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فلا يبعد أن بعض الآية يكون خطاباً لكفار قريش وبعضها خطاباً لليهود .

والقول الثاني : في سبب نزول هذه الآية وهو قول جمهور المفسرين أنها نزلت في اليهود وهذا على قول من يقول : إن هذه الآية نزلت بالمدينة وأنها من الآيات المدنيات التي في السور المكية .

*(143/241)*

قال ابن عباس : نزلت سورة الأنعام بمكة إلا ست آيات منها قوله : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ فإنها نزلت بالمدينة ثم اختلف القائلون بهذا القول في اسم من نزلت هذه الآية فيه فقال سعيد بن جبير : جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف يخاصم النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أنشدك الله الذي أنزل التوراة على موسى أما تجدون في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين وكان حبراً سميناً فغضب .

وقال : والله ما أنزل الله على بشر من شيء فقال أصحابه الذين معه ويحك ولا على موسى فقال والله ما أنزل الله على بشر من شيء فأنزل الله ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ ﴿ إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى ﴾ نوراً وهدى للناس الآية .

قال البغوي : وفي القصة أن مالك بن الصيف لما سمعت اليهود منه تلك المقالة عتبوا عليه وقالوا : أليس الله أنزل التوراة على موسى فلمَ قلت ما أنزل الله على بشر من شيء ؟ فقال مالك بن الصيف : أغضبني محمد فقلت ذلك .

فقالوا له : وأنت إذا غضبت تقول على الله غير الحق ؟ فنزعوه عن الحبرية وجعلوا مكانه كعب الأشرف .

وقال السدي : لما نزلت هذه الآية في فنحاص بن عازوراء اليهودي وهو القائل هذه المقالة .

وقال ابن عباس : قالت اليهود يا محمد أنزل الله عليك كتاباً ؟ قال : نعم فقالوا : والله ما أنزل الله من السماء كتاباً فأنزل الله : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ ﴿ إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى ﴾ الآية وقال محمد بن كعب القرظي : جاء ناس من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو محتب ؟ فقالوا يا أبا القاسم ألا تأتينا بكتاب من السماء كما جاء به موسى ألواحاً يحملونها من عند الله فأنزل الله ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء ﴾ الآية التي في سورة النساء فلما حدثهم بأعمالهم الخبيثة جثا رجل منهم وقال : ما أنزل الله عليك ولا على موسى ولا على عيسى ولا على أحد شيئاً فانزل الله : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء وأورد الرازي على هذا القول إشكالاً أيضاً وهو أنه قال : إن اليهود مقرون بإنزال التوراة على موسى فكيف يقولون ما أنزل الله على بشر من شيء مع اعترافهم بإنزال التوراة ولم يجب عن هذا الإشكال بشيء وأجيب عنه بأن مراد اليهود إنكار إنزال القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم فقط ولهذا ألزموا بملا لا بد لهم من الإقرار به من إنزال التوراة على موسى فقال تعالى : ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى ﴾ أي : قل يا محمد لهؤلاء اليهود الذين أنكروا إنزال القرآن عليك بقولهم ما أنزل الله على بشر من شيء من أنزل التوراة على موسى وفيه هذا الإلزام توبيخ اليهود بسوء جهلهم

وإقدامهم على إنكار الحق الذي لا ينكر ﴿ نوراً وهدى للناس ﴾ يعني التوراة ضياء من ظلمة الضلالة وبياناً يفرق بين الحق والباطل من دينهم وذلك قبل أن تبدل وتغير ﴿ تجعلونه قراطيس ﴾ يكتبونه في قراطيس مقطعة ﴿ تبدونها ﴾ يعني القراطيس المكتوبة ﴿ وتخفون كثيراً ﴾ يعني ويخفون كثيراً مما كتبوه في القراطيس وهو ما عندهم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته في التوراة ومما

*(145/241)*

---

اخفوه أيضاً آية الرجم وكانت مكتوبة عندهم في التوراة ﴿ وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ﴾ أكثر المفسرين على أن هذا خطاب لليهود ومعناه : أنكم علمتم على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم من قبل .

قال الحسن : جعل لهم علم ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فضيعوه ولم ينتفعوا به .

وقال مجاهد : هذا خطاب للمسلمين يذكرهم النعمة فيما علمهم على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ قل الله ﴾ هذا راجع إلى قوله : ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى ﴾ فإن أجابوك يا محمد وإلا فقل أنت الله الذي أنزله : ﴿ ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ يعني : دعهم يا محمد فيما هم فيه يخوضون من باطلهم وكفرهم بالله .

ومعنى يلعبون : يستهزؤون ويسخرون .

وقيل : معناه يا محمد إنك إذا أقمت الحجة عليهم وبلغت في الأعذار والإنذار هذا المبلغ العظيم فحينئذ لم يبق عليك من أمرهم شيء فذرهم فيما هم فيه من الخوض واللعب وفيه وعيد وتهديد للمشركين .

وقال بعضهم : هذا منسوخ بآية السيف وفيه بُعد لأنه مذكور لأجل التهديد والوعيد .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾

نزلت في اليهود قاله ابن عباس ومحمد بن كعب ، أو في مالك بن الصيف اليهودي إذ قال له الرسول :

" أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أتجد فيها أن الله يبغض الحبر السمين " ؟ قال : نعم .

قال : " فأنت الحبر السمين " فغضب ثم قال : ما أنزل الله على بشر من شيء قاله ابن عباس وابن جبير وعكرمة ، أو في فنحاص بن عازورا منهم قاله السدي ، أو في اليهود والنصارى قاله قتادة ، أو في مشركي العرب قاله مجاهد ، وغيره ، وبعضهم خصه عنه

بمشركي قريش وهي رواية ابن أبي نجيح عنه ، وفي رواية ابن كثير عن مجاهد أن من أولها إلى ﴿ من شيء ﴾ في مشركي قريش وقوله : ﴿ أنزل الكتاب ﴾ في اليهود

(146/241)

---

ولما ذكر تعالى عن إبراهيم دليل التوحيد وتسفيه ، رأى أهل الشرك وذكر تعالى ما منّ به على إبراهيم من جعل النبوّة في بنيه وأن نوحاً عليه السلام جدّه الأعلى كأن الله تعالى قد هداه وكان مرسلاً إلى قومه وأمر تعالى الرسول بالاقتداء بهدى الأنبياء أخذ في تقرير النبوّة والردّ على منكريّ الوحي فقال تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ وأصل القدر معرفة الكمية يقال : قدر الشيء إذا حزره وسبره وأراد أن يعلم مقدار يقدره بالضم قدراً وقدراً ومنه " فإن غم عليكم فاقدروا له " أي فاطلبوا أن تعرفوه ، ثم توسع فيه حتى قيل : لكل من عرف شيئاً هو يقدر قدره ولا يقدر قدره إذا لم يعرفه بصفاته ، قال ابن عباس والحسن واختاره الفراء وثعلب والزُّجاج معناه ما عظموا الله حق تعظيمه ، وقال أبو عبيدة والأخفش : ما عرفوه حق معرفته ، قال الماتريدي : ومن الذي يعظم الله حق عظمته أو يعرفه حق معرفته ؟ قالت الملائكة : ما عبدناك حق عبادتك والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : " لا أحصي ثناءً عليك " وينفصل عن هذا أن يكون المعنى : ما

عظموه العظمة التي في وسعهم وفي مقدورهم وما عرفوه كذلك ، وقال أبو العالية : واختاره الخليل بن أحمد معناه : ما وصفوه حق صفته فيما وجب له واستحال عليه وجاز ، وقال ابن عباس أيضاً : ما آمنوا بالله حق إيمانه وعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وقال أبو عبيدة أيضاً : ما عبدوه حق عبادته ، وقيل : ما أجلُّوه حق إجلاله حكاه ابن أبي الفضل في ريّ الظمآن وهو بمعنى التعظيم ، وقال ابن عطية : من توفية القدر فهي عامّة يدخل تحتها من لم يعرف ومن لم يعظم وغير ذلك غير أن تعليله بقولهم : ﴿ ما أنزل الله ﴾ يقضي بأنهم جهلوا ولم يعرفوا الله حق معرفته إذ أحالوا عليه بعثة الرسل ، وقال الزمخشري : ما عرفوا الله حق معرفته في الرحمة على عباده واللطف بهم حين أنكروا بعثة الرسل والوحي إليهم ، وذلك من أعظم رحمته وأجلّ نعمته

*(147/241)*

---

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ أو ما عرفوه حق معرفته في سخطه على الكافرين وشدة بطشه بهم ولم يخافوه حين جسروا على تلك المقالة العظيمة من إنكار النبوّة ، والقائلون هم اليهود بدليل قراءة من قرأ ﴿ تجعلونه ﴾ بالتاء وكذلك ﴿ تبدونها ﴾ و ﴿ تخفون ﴾ وإنما قالوا ذلك مبالغة في إنكار إنزال القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم

فألزموا ما لا بد لهم من الإقرار به من إنزال التوراة على موسى .

انتهى ، والضمير في ﴿ وما قدروا ﴾ عائد على من أنزلت الآية بسببه على الخلاف السابق ويلزم من قال : إنها في بني إسرائيل أن تكون مدنية ولذا حكى النقاش أنها مدنية ، وقرأ الحسن وعيسى الثقفي ﴿ وما قدروا ﴾ بالتشديد ﴿ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ بفتح الدال وانتصب ﴿ حق قدره ﴾ بفتح الدال وانتصب ﴿ حق قدره ﴾ على المصدر وهو في الأصل وصف أي قدره الحق ووصف المصدر إذا أضيف إليه انتصب نصب المصدر ، والعامل في إذ قدروا وفي كلام ابن عطية ما يشعر أن إذ تعليلاً .

*(148/241)*

---

﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس ﴾ إن كان المنكرون بني إسرائيل فالاحتجاج عليهم واضح لأنهم ملتزمون نزول الكتاب على موسى وإن كانوا العرب فوجه الاحتجاج عليهم أن إنزال الكتاب على موسى أمر مشهور منقول ، نقل قوم لم تكن العرب مكذبة لهم وكانوا يقولون : لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ، وقال أبو حامد الغزالي : هذه الآية مبنية على الشكل الثاني من الأشكال المنطقية وذلك لأن حاصله يرجع إلى أن موسى عليه السلام أنزل عليه شيء واحد من البشر ما أنزل الله عليه

شيئاً ينتج من الشكل الثاني أن موسى ما كان من البشر ، وهذا خلف محال وليست هذه الاستحالة بحسب شكل القياس ولا بحسب صحة المقدمة ، فلم يبق إلا أنه لزم من فرض صحة المقدمة وهي قولهم : ﴿ ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ فوجب القول بكونها كاذبة فتمت أن دلالة هذه الآية على المطلوب إنما تصح عند الاعتراف بصحة الشكل الثاني من الأشكال المنطقية وعند الاعتراف بصحة قياس الخلف ، انتهى كلامه .

وفي الآية دليل على أن النقض يقدح في صحة الكلام وذلك أنه نقض قولهم : ﴿ ما أنزل الله ﴾ بقوله : ﴿ قل من أنزل الكتاب ﴾ فلو لم يكن النقض دليلاً على فساد الكلام لما كانت حجة مفيدة لهذا المطلوب ، والكتاب هنا التوراة وانتصب ﴿ نوراً وهدى ﴾ على الحال والعامل ﴿ أنزل ﴾ أو جاء .

*(149/241)*

---

﴿ تجعلونها قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً ﴾ التاء قراءة الجمهور في الثلاثة ، وظاهره أنه لبني إسرائيل والمعنى : ﴿ تجعلونها ﴾ ذا ﴿ قراطيس ﴾ ، أي أوراقاً وبطائق ، ﴿ وتخفون كثيراً ﴾ كإخفائهم الآيات الدالة على بعثة الرسول وغير ذلك من الآيات التي أخفوها ، وأدرج تعالى تحت الإلزام توبيخهم وإن نعى عليهم سوء حملهم لكتابهم وتحريفهم

وإبداء بعض وإخفاء بعض ، فقيل : جاء به موسى وهو نور وهدى للناس فغيرتموه وجعلتموه قراطيس وورقات لتستمكنوا مما رمتم من الإبداء والإخفاء ، وتتناسق قراءة التاء مع قوله : ﴿ علمتم ﴾ ومن قال : إن المنكرين العرب أو كفار قريش لم يمكن جعل الخطاب لهم ، بل يكون قد اعترض بني إسرائيل فقال : خلال السؤال والجواب : تجعلونه أنتم يا بني إسرائيل قراطيس ومثل هذا يبعد وقوعه لأن فيه تفكيكاً لنظم الآية وتركيبها ، حيث جعل الكلام أولاً خطاباً مع الكفار وآخراً خطاباً مع اليهود وقد أجيب بأن الجميع لما اشتركوا في إنكار نبوة الرسول ، جاء بعض الكلام خطاباً للعرب وبعضه خطاباً لبني إسرائيل ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء على الغيبة في الثلاثة .

*(150/241)*

---

﴿ وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ﴾ ظاهره أنه خطاب لبني إسرائيل مقصود به الامتنان عليهم وعلى آبائهم ، بأن علموا من دين الله وهداياته ما لم يكونوا عالمين به لأن آباءهم كانوا علموا أيضاً وعلم بعضهم وليس كذلك آباء العرب ، أو مقصود به ذمهم حيث لم ينتفعوا به لإعراضهم وضلالهم ، وقيل : الخطاب للعرب ، قاله مجاهد ذكر الله منته عليهم أي علمتم يا معشر العرب من الهدايات والتوحيد والإرشاد إلى الحق ما لم تكونوا عالمين ﴾

ولا آباؤكم ﴾ وقيل : الخطاب لمن آمن من اليهود ، وقيل : لمن آمن من قريش وتفسير ﴿ ما لم تعلموا ﴾ يتخرج على حسب المخاطبين التوراة أو دين الإسلام وشرائعه أو هما أو القرآن ، قال الزمخشري : الخطاب لليهود أي علمتم على لسان محمد صلى الله عليه وسلم مما أوحي إليه ﴿ ما لم تعلموا أنتم ﴾ وأنتم حملة التوراة ولم يعلمه آباؤكم الأقدمون الذين كانوا أعلم منكم أن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون ، وقيل : الخطاب لمن آمن من قريش ﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم ﴾ انتهى .

﴿ قل الله ﴾ أمره بالمبادرة إلى الجواب أي قل الله أنزله فإنهم لا يقدرون أن يناكروك ، لأن الكتاب الموصوف بالنور والهدى الآتي به من أيد بالمعجزات بلغت دلالته من الوضوح إلى حيث يجب أن يعترف بأن منزله هو الله سواء أقرّ الخصم بها أم لم يقر ، ونظيره : ﴿ قل أي شيء أكبر شهادة قل الله ﴾ قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون المعنى فإن جهلوا أو تحيروا أو سألوا ونحو هذا فقل الله انتهى ، ولا يحتاج إلى هذا التقدير لأن الكلام مستغن عنه .

*(151/241)*

---

﴿ ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ أي في باطلهم الذي يخوضون فيه ويقال لمن كان في عمل لا يجدي عليه إنما أنت لاعب و ﴿ يلعبون ﴾ حال من مفعول ذرهم أي من ضمير ﴿

خوضهم ﴾ و﴿ في خوضهم ﴾ متعلق ب ﴿ ذرهم ﴾ أو ب ﴿ يلعبون ﴾ أو حال من ﴿ يلعبون ﴾ وظاهر الأمر أنه موادعة فيكون منسوخاً بآيات القتال وإن جعل تهديداً أو وعيداً خالياً من موادعة فلا نسخ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ ﴾ لما بيَّن شأنَ القرآنِ العظيم وأنه نعمةٌ جليلةٌ منه تعالى على كافة الأمم حسبما نطَقَ به قولُه تعالى : ﴿ وَمَا أرسلناكَ إلاَّ رَحْمَةً للعالمين ﴾ عقّب ذلك ببيان غمْطِهم إياها ، وكفرِهم بها على وجْهٍ سرَى ذلك إلى الكفر بجميع الكتب الإلهية ، وأصلُ القدْر السبْرُ والحزْرُ ، يقال : قدَر الشيء يقدرُه بالضم قدْراً إذا سبَره وحزَره ليعرِف مقداره ثم استُعمل في معرفة الشيء في مقداره وأحوالِه وأوصافِه .

*(152/241)*

---

وقوله تعالى : ﴿ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ نُصب على المصدرية ، وهو في الأصل صفةٌ للمصدر أي قدْرَه الحقَّ ، فلما أضيف إلى موصوفه انتصبَ على ما كان ينتصبُ عليه موصوفُه ، أي ما عرفوه تعالى حقَّ معرفتِه في اللُطف بعباده والرحمةِ عليهم ، ولم يُراعوا حقوقَه تعالى في ذلك ،

بل أخلّوا بها إخلالاً ﴿ إِذْ قَالُواْ ﴾ منكرين لبعثة الرسلِ وإنزالِ الكتُب كافرين بنعمته الجليلةِ فيهما ﴿ مَا أَنزَلَ اللهُ على بَشَرٍ مّن شَىْءٍ ﴾ فنفى معرفتَهم لقَدْره سبحانه كناية عن حطِّهم لقدرِه الجليل ووصفهم له تعالى بنقيضِ نعتِه الجميل كما أن نفيَ المحبةِ في مثل ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الكافرين ﴾ كنايةٌ عن البغض والسُخط ، وإلا فنفيُ معرفةِ قدرِه تعالى يتحقق مع عدم التعرُّض لحطِه ، بل مع السعْي في تحصيل المعرفةِ كما في قول مَن يناجي مستقصِراً لمعرفته وعبادته : سبحانك ما عرَفناك حقَّ معرفتِك ، وما عبدناك حقَّ عبادتك . أو ما عرفوه حقَّ معرفتِه في السُخط على الكفار وشدّةِ بطشِه تعالى بهم حسْبما نطقَ به القرآنُ حين اجترأوا على التفوّه بهذه العظيمةِ الشنعاءِ ، فالنفيُ بمعناه الحقيقي والقائلون هم اليهودُ وقد قالوه مبالغةً في إنكار إنزالِ القرآنِ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأُلزِموا بما لا سبيلَ إلى إنكاره أصلاً حيث قيل :

*(153/241)*

---

﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الكتاب الذى جَاء بِهِ موسى ﴾ أي قل لهم ذلك على طريقة التبكيت وإلقامِ الحجر ، وروي أن مالكَ بنَ الصيف من أحبار اليهودِ ورؤسائِهم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنشُدُك الله الذي أنزل التوراةَ على موسى هل تجدُ فيها اللهَ يُبغض

الحِبرَ السمين ؟ فأنت الحِبرُ السمين ، قد سمِنْتَ من مالك الذي تُطعمُك اليهود " فضحك القومُ فغضبَ ثم التفت إلى عمرَ رضي الله عنه فقال : ما أنزل الله على بشر من شيء فنزعوه وجعلوا مكانه كعبَ بنَ الأشرف ، وقيل : هم المشركون وإلزامُهم إنزالُ التوراة لما أنه كان عندهم من المشاهير الذائعةِ ، ولذلك كانوا يقولون : ﴿ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الكتاب لَكُنَّا أهدى مِنْهُمْ ﴾ ووصفُ الكتاب بالوصول إليهم لزيادة التقريعِ وتشديدِ التبكيت ، وكذا تقييدُه بقوله تعالى : ﴿ نُوراً وَهُدًى ﴾ فإن كونَه بيّناً بنفسه ومبيّناً لغيره مما يؤكد الإلزامَ أيَّ تأكيدٍ ، وانتصابُهما على الحالية من الكتاب ، والعامل ( أنزل ) أو من الضمير في ( به ) ، والعامل ( جاء ) واللام في قوله تعالى : ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ إما متعلقٌ بهدىً ، أو بمحذوفٍ هو صفة له ، أي هدى كائناً للناس وليس المرادُ بهذا مجردَ إلزامِهم بالاعتراف بإنزال التوراةِ فقط بل إنزالِ القرآنِ أيضاً ، فإن الاعترافَ بإنزالها مستلزِمٌ للاعتراف بإنزاله قطعاً ، لما فيها من الشواهد الناطقةِ به ، وقد نعى عليهم ما فعلوا بها من التحريف والتغييرِ حيث قيل : ﴿ تَجْعَلُونَهُ قراطيس ﴾ أي تضعونه في قراطيسَ مقطَّعةٍ ، وورَقاتٍ مفرَّقة ، بحذف الجارِّ بناءً على تشبيه القراطيس بالظرف المُبْهم ، أو تجعلونه نفسَ القراطيس المقطعة ، وفيه زيادةُ توبيخٍ لهم بسوء صنيعِهم كأنهم أخرجوه من جنس الكتاب ونزّلوه منزلةَ القراطيسِ الخاليةِ عن الكتابة ، والجملة حالٌ كما سبق وقوله تعالى : ﴿ تُبْدُونَهَا ﴾ صفةٌ لقراطيسَ ، وقوله تعالى : ﴿

(154/241)

---

وَتُخْفُونَ كَثِيراً ﴾ معطوفٌ عليه ، والعائدُ إلى الموصول محذوفٌ ، أي كثيراً منها ، وقيل : كلامٌ مبتدأ لا محل له من الإعراب ، والمرادُ بالكثير نعوتُ النبي عليه الصلاة والسلام وسائرُ ما كتموه من أحكام التوراة ، وقرىء الأفعالُ الثلاثة بالياء حملاً على قالوا وما قدروا .

(155/241)

---

وقوله تعالى : ﴿ وَعُلِّمْتُمْ مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ ءابَاؤُكُمْ ﴾ قيل : هو حالٌ من فاعل تجعلونه بإضمار قد ، أو بدونه على اختلاف الرأيين . قلت : فينبغي أن يجعل ( ما ) عبارةً عما أخذوه من الكتاب من العلوم والشرائعِ ليكون التقييدُ بالحال مفيداً لتأكيد التوبيخِ وتشديدِ التشنيع ، فإن ما فعلوه بالكتاب من التفريق والتقطيعِ لما ذُكر من الإبداءِ والإخفاءِ شناعةٌ عظيمة في نفسها ، ومع ملاحظة كونه مأخذاً لعلومهم ومعارفِهم أشنعَ وأعظمَ ، لا عما تلقَّوْه من جهة النبي صلى الله عليه وسلم زيادةً على ما في التوراة وبياناً لما التَبَس عليهم وعلى آبائهم من مشكلاتها حسْبما ينطِقُ به قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا القرءان يَقُصُّ على بَنِى

إسراءيل أَكْثَرَ الذى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ كما قالوا لأنّ تلقّيَهم لذلك من القرآن الكريم ليس مما يزجُرهم عما صنعوا بالتوراة أما ما ورد فيه زيادةً على ما فيها فلأنه لا تعلّقَ له بها نفياً ولا إثباتاً ، وأما ما ورد بطريق البيانِ فلأن مدارَ ما فعلوا بالتوراة من التبديل والتحريفِ ليس ما وقع فيها من التباس الأمرِ واشتباهِ الحال حتى يُقلِعوا عن ذلك بإيضاحه وبيانِه فتكونَ الجملةُ حينئذ خاليةً عن تأكيد التوبيخ ، فلا تستحق أن تقعَ موقع الحال بل الوجهُ حينئذٍ أن تكون استئنافاً مقرِّراً لما قبلها من مجيءِ الكتابِ بطريق التكملةِ والاستطراد والتمهيدِ لما يعقُبه من مجيءِ القرآن ، ولا سبيلَ إلى جعل ( ما ) عبارةً عما كتموه من أحكام التوراةِ كما يفصح عنه قوله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكتاب ﴾ فإن ظهورَه وإن كان مزْجَرةً لهم عن الكتم مخافةَ الافتضاح ومصحّحاً لوقوعِ الجملة في موقع الحالِ لكن ذلك مما يعلمه الكاتمون حتماً . هذا ، وقد قيل : الخطابُ لمن آمن من قريش كما في قوله تعالى : ﴿ لِتُنذِرَ قَوْماً

(156/241)

---

مَّا أُنذِرَ ءابَاؤُهُمْ ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ قُلِ الله ﴾ أمرٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يُجيبَ عنهم إشعاراً بتعيّن الجواب بحيث لا محيدَ عنه وإيذاناً بأنهم أُفحموا ولم يقدِروا على

التكلم أصلاً ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ ﴾ في باطلهم الذي يخوضون فيه ولا عليك بعد إلزامِ الحجة وإلقامِ الحجر ﴿ يَلْعَبُونَ ﴾ حال من الضمير الأول ، والظرفُ صلة للفعل المقدّم أو المؤخر أو متعلقٌ بمحذوفٍ هو حال من مفعولِ الأولِ أو من فاعل الثاني أو من الضمير الثاني لأنه فاعلٌ في الحقيقة والظرفُ متَّصل بالأول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

ومن فوائد الشوكانى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ قدرت الشيء وقدّرته : عرفت مقداره ، وأصله : الستر ، ثم استعمل في معرفة الشيء ، أي لم يعرفوه حق معرفته ، حيث أنكروا إرساله للرسل ، وإنزاله للكتب .

وقيل المعنى : وما قدروا نعم الله حق تقديرها .

وقرأ أبو حيوة : " وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ " بفتح الدال : وهي لغة ، ولما وقع منهم هذا الإنكار وهم من اليهود ، أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يورد عليهم حجة لا يطيقون دفعها ، فقال : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الكتاب الذى جَاء بِهِ موسى ﴾ وهم يعترفون بذلك ويذعنون له ، فكان في هذا من التبكيت لهم والتقريع ما لا يقادر قدره ، مع إلجائهم إلى الاعتراف بما أنكروه ، من وقوع إنزال الله على البشر ، وهم الأنبياء عليهم السلام ، فبطل

جحدهم وتبين فساد إنكارهم وقيل : إن القائلين بهذه المقالة هم كفار قريش ، فيكون إلزامهم بإنزال الله الكتاب على موسى من جهة أنهم يعترفون بذلك ، ويعلمونه بالأخبار من اليهود ، وقد كانوا يصدقونهم ، و﴿ نُوراً وَهُدًى ﴾ منتصبان على الحال ، و﴿ لِلنَّاسِ ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لهدى ، أي كائناً للناس .

*(157/241)*

---

قوله : ﴿ تَجْعَلُونَهُ قراطيس ﴾ أي تجعلون الكتاب الذي جاء به موسى في قراطيس تضعونه فيها ليتمّ لكم ما تريدونه من التحريف والتبديل ، وكتم صفة النبي صلى الله عليه وسلم المذكورة فيه ، وهذا ذمّ لهم ، والضمير في ﴿ تُبْدُونَهَا ﴾ راجع إلى القراطيس ، وفي ﴿ تَجْعَلُونَهُ ﴾ راجع إلى الكتاب ، وجملة ﴿ تجعلونه ﴾ في محل نصب على الحال ، وجملة ﴿ تبدونها ﴾ صفة لقراطيس ﴿ وَتُخْفُونَ كَثِيراً ﴾ معطوف على ﴿ تبدونها ﴾ أي وتخفون كثيراً منها ، والخطاب في ﴿ وَعُلِّمْتُمْ مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ ءابَاؤُكُمْ ﴾ لليهود ، أي والحال أنكم قد علمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ، ويحتمل أن تكون هذه الجملة استئنافية مقرّرة لما قبلها ، والذي علموه هو الذي أخبرهم به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من الأمور التي أوحى الله إليه بها ، فإنها اشتملت على ما لم يعلموه من كتبهم ، ولا

على لسان أنبيائهم ، ولا علمه آباؤهم ، ويجوز أن يكون " ما " في ﴿ ما لم تعلموا ﴾ عبارة عما علموه من التوراة ، فيكون ذلك على وجه المنّ عليهم بإنزال التوراة .

وقيل : الخطاب للمشركين من قريش وغيرهم ، فتكون "ما" عبارة عما علموه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أمره الله رسوله بأن يجيب عن ذلك الإلزام الذي ألزمهم به حيث قال : ﴿ مَنْ أَنزَلَ الكتاب الذى جَاء بِهِ موسى ﴾ فقال : ﴿ قُلِ الله ﴾ أي : أنزله الله ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أي ذرهم في باطلهم حال كونهم يلعبون ، أي يصنعون صنع الصبيان الذين يلعبون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(158/241)

---

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمَا قَدَرُواْ الله ﴾ لما حكى سبحانه عن إبراهيم عليه السلام أنه ذكر دليل التوحيد وإبطال الشرك ، وقرر جل شأنه ذلك الدليل بأوضح وجه شرع سبحانه بعد في تقرير أمر النبوة لأن مدار أمر القرآن على إثبات التوحيد والنبوة والمعاد وبهذا ترتبط الآية بما قبلها كما قال الإمام وأولى منه ما قيل : إنه سبحانه ( لما بين ) شأن القرءان العظيم وأنه نعمة

جليلة منه تعالى على كافة الأمم حسبما نطق به قوله عز وجل : ﴿ وَمَا أرسلناك إِلاَّ رَحْمَةً للعالمين ﴾ [ الأنبياء : 107 ] عقب ذلك ببيان غمطهم إياها وكفرهم بها على وجه سرى ذلك إلى الكفر بجميع الكتب الإلهية ، وأصل القدر معرفة المقدار بالسبر ثم استعمل في معرفة الشيء على أتم الوجوه حتى صار حقيقة فيه ، وقال الواحدي : يقال قدر الشيء إذا سبره وأراد أن يعلم مقداره يقدره بالضم قدراً ، وقال صلى الله عليه وسلم : " إن غم عليكم فاقدروا له " أي فاطلبوا أن تعرفوه ، ثم قيل : لمن عرف شيئاً هو يقدر قدره وإذا لم يعرفه بصفاته إنه لا يقدر قدره .

واختلف التفسير هنا فعن الأخفش أن المعنى ما عرفوا الله تعالى ﴿ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أي حق معرفته .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ما عظموا الله تعالى حق تعظيمه .

وقال أبو العالية : ما وصفوه حتى صفته والكل محتمل .

*(159/241)*

---

واختار بعض المحققين ما عليه الأخفش لأنه الأوفق بالمقام أي ما عرفوه سبحانه معرفته الحق في اللطف بعباده والرحمة عليهم ولم يراعوا حقوقه تعالى في ذلك بل أخلوا بها إخلالاً

عظيماً ﴿ إِذْ قَالُواْ ﴾ منكرين لبعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام وإنزال الكتب كافرين بنعمه الجليلة فيهما أو ما عرفوه جل شأنه حق معرفته في السخط على الكفار وشدة بطشه بهم حين اجترؤا على إنكار ذلك بقولهم : ﴿ مَا أَنزَلَ الله على بَشَرٍ مّن شَىْءٍ ﴾ أي شيئاً من الأشياء فمن للتأكيد ونصب ﴿ حَقّ ﴾ على المصدرية وهو كما قال أبو البقاء في الأصل صفة للمصدر أي قدره الحق فلما أضيف إلى موصوفه انتصب على ما كان ينتصب عليه .

و ﴿ إِذْ ﴾ ظرف للزمان الزمان وهل فيها معنى العلة هنا أم لا ؟ احتمالان ، وأبو البقاء يعلقها بقدروا وليس بالمتعين .

وقرىء ﴿ قَدْرِهِ ﴾ بفتح الدال .

واختلف في قائلي ذلك القول الشنيع ، فأخرج أبو الشيخ عن مجاهد أنهم مشركو قريش .

*(160/241)*

---

والجمهور على أنهم اليهود ومرادهم من ذلك الطعن في رسالته صلى الله عليه وسلم على سبيل المبالغة فقيل لهم على سبيل الالزام ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الكتاب الذى جَاء بِهِ موسى ﴾ فإن المراد أنه تعالى قد أنزل التوراة على موسى عليه السلام ولا سبيل لكم إلى إنكار ذلك

فلم لا تجوزون إنزال القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم وبهذا ينحل استشكال ما عليه الجمهور بأن اليهود يقولون إن التوراة كتاب الله تعالى أنزله على موسى عليه السلام فكيف يقولون : ﴿ مَا أَنزَلَ اللهُ على بَشَرٍ مّن شَىْءٍ ﴾ وحاصل ذلك أنهم أبرزوا إنزال القرآن عليه عليه الصلاة والسلام في صورة الممتنعات حتى بالغوا في إنكاره فألزموا بتجويزه ، وقيل : إن صدور هذا القول كان عن غضب وذهول عن حقيقته ، فقد أخرج ابن جرير والطبراني عن سعيد بن جبير أن مالك بن الصيف من أحبار اليهود قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أنشدك الله تعالى الذي أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها أن الله تعالى يبغض الحبر السمين ؟ فأنت الحبر السمين قد سمنت من مالك الذي يطعمك اليهود فضحك القوم فغضب فالتفت إلى عمر رضي الله تعالى عنه فقال : ما أنزل الله على بشر من شيء فقال له قومه : ما هذا الذي بلغنا عنك ؟ قال : إنه أغضبني فنزعوه وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف فأنزل الله تعالى هذه الآية ، واعترض بأن هذا لا يلائم الإلزام بإنزال التوراة على موسى عليه السلام فقد اعترف القائل بأنه إنما صدر ذلك عنه من الغضب فليفهم .

ولا يرد أن هذه السورة مكية والمناظرات التي وقعت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين اليهود كلها مدنية فلا يتأتى القول بأن الآية نزلت في اليهود لما أخرج أبو الشيخ عن سفيان والكلبي أن هذه الآية مدنية ، واستشكل أيضاً قول مجاهد بأن مشركي قريش كما

ينكرون رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ينكرون رسالة سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فكيف يحسن إيراد هذا الإلزام عليهم .

*(161/241)*

---

ودفع بأن ذلك لما أنه كان إنزال التوراة من المشاهير الذائعة ولذلك كانوا يقولون : ﴿ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الكتاب لَكُنَّا أهدى مِنْهُمْ ﴾ [ الأنعام : 157 ] حسن إلزامهم بما ذكر ، ومع هذا ما ذهب إليه الجمهور أحرى بالقبول .

ومن الناس من ادعى أن في الآية حجة من الشكل الثالث وهي أن موسى بشر وموسى أنزل عليه كتاب ينتج أن بعض البشر أنزل عليه كتاب وتؤخذ الصغرى من قوة الآية والكبرى من صريحها والنتيجة موجبة جزئية تكذب السالبة الكلية التي ادعتها اليهود وهي لا شيء من البشر أنزل عليه كتاب المأخوذة من قولهم ﴿ مَا أَنزَلَ الله على بَشَرٍ مّن شَىْءٍ ﴾ وإنما نتجت هاتان الشخصيتان مع أن شرط الشكل الثالث كلية إحدى المقدمتين لأن الشخصية عندهم في حكم الكلية .

وقال الإمام : "تفلسف حجة الإسلام الغزالي عليه الرحمة [ فقال : ] إن هذه الآية مبنية على الشكل الثاني من الأشكال المنطقية ، وذلك لأن حاصلها يرجع إلى أن موسى أنزل الله

تعالى عليه شيئاً و( واحد ) من البشر ما أنزل الله تعالى عليه شيئاً ينتج ( من الشكل الثاني ) أن موسى ما كان من البشر وهذا خلف محال ، وهذه الاستحالة ليست بحسب شكل القياس ولا بحسب صحة المقدمة الأولى فلم يبق إلا أنه لزم من فرض صحة المقدمة الثانية وهي قولهم : ﴿ أَنزَلَ الله وَلاَ ﴾ الخ فوجب القول بانها كاذبة" وفي ذلك تأمل فليتأمل .

*(162/241)*

---

ثم إن وصف الكتاب بالوصول إليهم لزيادة التقريع وتشديد التبكيت ، وكذا تقييده بقوله سبحانه : ﴿ نُوراً وَهُدًى ﴾ فإن كونه بينا بنفسه ومبيناً لغيره مما يؤكد الإلزام أي توكيد ، وانتصابهما على الحالية من الكتاب والعامل ﴿ أَنزَلَ ﴾ أو من ضمير ﴿ بِهِ ﴾ والعامل جاء ، والظاهر تعلق الظرف بجاء ، وجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف وقع حالاً من الفاعل ، واللام في قوله سبحانه : ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ إما متعلق بهدى أو بمحذوف وقع صفة له أي هدى كائناً للناس ، والمراد بهم بنو إسرائيل ، وقيل : هم ومن عداهم ، ومعنى كونه هدى لهم أنه يرشد من وقف عليه بالواسطة أو بدونها إلى ما ينجيه من الإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى : ﴿ تَجْعَلُونَهُ قراطيس ﴾ استئناف لا موضع له من الإعراب مسوق لنعي ما

فعلوه من التحريف والتغيير عليهم .

وجوز أن يكون في موضع نصب على الحال كما تقدم أي تضعونه في قراطيس مقطعة وأوراق مفرقة بحذف الجار بناء على تشبيه القراطيس بالظرف المبهم كما قيل .

وقال أبو علي الفارسي : المراد تجعلونه ذا قراطيس ، وجوز غير واحد عدم التقدير على معنى تجعلونه نفس القراطيس ، وفيه زيادة توبيخ لهم بسوء صنيعهم كأنهم أخرجوه من جنس الكتاب ونزلوه منزلة القراطيس الخالية عن الكتابة ، وليس المراد على الأول توبيخهم بمجرد وضعهم له في قراطيس إذ كل كتاب لا بد وأن يودع في القراطيس بل المراد التوبيخ على الجعل في قراطيس موصوفة بقوله سبحانه : ﴿ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً ﴾ فالجملة المعطوفة والمعطوف عليها في موضع الصفة لقراطيس ، والعائد على الموصوف من المعطوفة محذوف أي كثيراً منها ، والمراد من الكثير نعوت النبي صلى الله عليه وسلم وسائر ما كتموه من أحكام التوراة كرجم الزاني المحصن .

*(163/241)*

---

وهذا خطاب لليهود بلا مرية وكانوا يفعلون ذلك مع عوامهم متواطئين عليه ، وهو ظاهر على تقدير أن يكون الجواب السابق لهم لأن مشافهتهم به يقتضي خطابهم ، ومن جعل ما

تقدم للمشركين حمل هذا على الإلتفات لخطاب اليهود حيث جرى ذكرهم .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو الأفعال الثلاثة بياء الغيبة .

(164/241)

---

وضمير الجمع لليهود أيضاً إلا أنه التفت عن خطابهم تبعيداً لهم بسبب ارتكابهم القبيح عن ساحة الخطاب ولذا خاطبهم حيث نسب إليهم الحسن في قوله سبحانه : ﴿ وَعُلِّمْتُمْ مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ ءابَاؤُكُمْ ﴾ وهذا أحسن كما قيل من الإلتفات على القول الأول لأن فيه نقلاً من الكلام مع جماعة هم المشركون إلى الكلام مع جماعة أخرى هم اليهود قبل إتمام الكلام الأول لأن إتمامه بقوله سبحانه : ﴿ قُلِ الله ﴾ الخ بخلاف الإلتفات على القول الثاني ، والجملة على ما قال أبو البقاء في موضع الحال من فاعل ﴿ تَجْعَلُونَهُ ﴾ بإضمار قد أو بدونه على اختلاف الرأيين ، وعليه كما قال شيخ الإسلام " فينبغي أن يجعل ما عبارة عما أخذوه من الكتاب من العلوم والشرائع ليكون التقييد بالحال مفيداً لتأكيد التوبيخ وتشديد التشنيع لا على ما تلقوه من جهة النبي صلى الله عليه وسلم زيادة على ما في التوراة وبياناً لما التبس عليهم وعلى آبائهم من مشكلاتها حسبما ينطق به قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هذا القرءان يَقُصُّ على بَنِى إسرائيل أَكْثَرَ الذى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [ النمل : 76 ] لأن تلقيهم ذلك

ليس مما يزجرهم عما صنعوا بالتوراة فتكون الجملة حينئذ خالية عن تأكيد التوبيخ فلا تستحق أن تقع موقع الحال بل الوجه حينئذ أن يكون استئنافاً مقرراً لما قبله من مجيء الكتاب بطريق التكملة والاستطراد والتمهيد لما يعقبه من مجيء القرآن ، ولا سبيل كما قال إلى جعل ما عبارة عما كتموه من أحكام التوراة كما يفصح عنه قوله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكتاب ﴾ [ المائدة : 15 ] فإن ظهوره وإن كان مزجرة لهم عن الكتم مخافة الإفتضاح ومصححاً لوقوع الجملة في موقع الحال لكن ذلك مما يعلمه الكاتمون حتماً " .

*(165/241)*

---

وجوز أن تكون الجملة معطوفة على ﴿ مَنْ أَنزَلَ الكتاب ﴾ من حيث المعنى أي قل من أنزل الكتاب ومن علمكم ما لم تعلموا وفيه بعد .

وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد أن هذا خطاب للمسلمين .

وروي عنه أنه قرأ ( وعلمتم معشر العرب ما لم ) الخ وهو عند قوم اعتراض للإمتنان على النبي صلى الله عليه وسلم واتباعه بهدايتهم للمجادلة بالتي هي أحسن .

وقال بعضهم : إن الناس فيما تقدم عام يدخل فيهم المسلمون واليهود ، و ﴿ عَلِمْتُمُ ﴾

عطف على ﴿ تَجْعَلُونَهُ ﴾ والخطاب فيه للناس باعتبار اليهود وفي ﴿ عَلِمْتُمُ ﴾ لهم باعتبار المسلمين ولا يخفى أنه تكلف .

وقوله سبحانه : ﴿ قُلِ اللهُ ﴾ أمر لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن يجيب السؤال السابق عنهم إشارة إلى أنهم ينكرون الحق مكابرة منهم ، وإشعاراً بتعين الجواب وإيذاناً بأنهم أفحموا ، ولم يقدروا على التكلم أصلاً ، والاسم الجليل إما فاعل فعل مقدر أو مبتدأ خبره جملة مقدرة أي أنزل الله أو الله تعالى أنزله ، والخلاف في الأرجح من الوجهين مشهور ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾ أي دعهم ﴿ فِى خَوْضِهِمْ ﴾ أي باطلهم فلا عليك بعد إلزام الحجة وإلقام الحجر ﴿ يَلْعَبُونَ ﴾ في موضع الحال من هم الأول ، والظرف صلة ﴿ ذَرْهُمْ ﴾ أو ﴿ يَلْعَبُونَ ﴾ أو حال من مفعول ﴿ ذَرْهُمْ ﴾ أو من فاعل ﴿ يَلْعَبُونَ ﴾ وجوز أن يكون في موضع الحال من هم الثاني ، وهو في المعنى فاعل المصدر المضاف إليه ، والظرف متصل بما قبله إما على أنه لغو أو حال من هم ولا يجوز حينئذ جعله متصلاً بيلعبون على الحالية أو اللغوية لأنه يكون معمولاً له متأخراً عنه رتبة ومعنى مع أنه متقدم عليه رتبة أيضاً لأن العامل في الحال عامل في صاحبها فيكون فيه دور وفساد في المعنى .

*(166/241)*

والآية عند بعض منسوخة بآية السيف ، واختار الإمام عدم النسخ لأنها واردة مورد التهديد وهو لا ينافي حصول المقاتلة فلم يكن ورود الآية الدالة على وجوبها رافعاً للمدلول فلم يحصل النسخ فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾

وجود واو العطف في صدر هذه الجملة ينادي على أنّها نزلت متناسقة مع الجمل الّتي قبلها ، وأنّها وإيّاها واردتان في غرض واحد هو إبطال مزاعم المشركين ، فهذا عطف على جملة ﴿ فإن يكفر بها هؤلاء ﴾ [ الأنعام : 89 ] ، وأنّها ليست ابتدائيّة في غرض آخر .

فواو الضّمير في قوله ﴿ قدروا ﴾ عائد على ما عاد إليه اسم الإشارة في قوله : ﴿ هؤلاء ﴾ [ الأنعام : 89 ] كما علمت آنفاً .

ذلك أنّ المشركين لمّا استشعروا نهوض الحجّة عليهم في نزول القرآن بأنّه ليس بدعاً ممّا نزل على الرّسل ، ودحضَ قولهم : ﴿ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ﴾ [ الفرقان : 7 ] توغّلوا في المكابرة والجحود فقالوا ﴿ ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ وتجاهلوا ما كانوا يقولونه عن إبراهيم عليه السّلام وما يعلمونه من رسالة موسى عليه السلام وكتابه .

فروى الطبري عن ابن عبّاس ومجاهد : أنّ قائل ذلك هم المشركون من قريش .

وقد جاءت هذه الآية في هذا الموقع كالنتيجة لما قبلها من ذكر الأنبياء وما جاءوا به من الهدى والشّرائع والكتب ، فلا جرم أنّ الّذين قالوا : ما أنزل الله على بشر من شيء ، قد جاءوا إفكاً وزوراً وأنكروا ما هو معلوم في أجيال البشر بالتّواتر .

وهذه الجملة مثل ما حكاه الله عنهم في قوله : ﴿ وقال الّذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالّذي بين يديه ﴾ [ سبأ : 31 ] .

*(167/241)*

---

ومن أئمّة التّفسير من جعل هذا حكاية لقول بعض اليهود ، واختلفوا في أنّه معيّن أو غير معيّن ، فعن ابن عبّاس أيضاً ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، والسديّ : أنّ قائل ﴿ ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ بعض اليهود وروي عن سعيد بن جبير وعكرمة أنّ قائل ذلك مالك بن الصيف القُرظي وكان من أحبار اليهود بالمدينة ، وكان سميناً وأنّه جاء يخاصم النّبيء صلى الله عليه وسلم فقال له النّبيء " أنشدك بالّذي أنزل التّوراة على موسى أمَا تجد في التّوراة أنّ الله يبغض الحَبر السمين " فغضب وقال : والله ما أنزل الله على بشر من شيء .

وعن السُدّي : أنّ قائله فِنْحاص اليهودي .

ومحمل ذلك كلّه على أنّ قائل ذلك منهم قاله جهلاً بما في كتبهم فهو من عامّتهم ، أو قاله لجاجاً وعِناداً .

وأحسب أنّ هذه الرّوايات هي الّتي ألجأت رواتها إلى ادّعاء أنّ هذه الآيات نزلت بالمدينة ، كما تقدّم في الكلام على أوّل هذه السورة .

وعليه يكون وقع هذه الآيات في هذا الموقع لمناسبة قوله : ﴿ أولئك الّذين آتيناهم الكتاب ﴾ [ الأنعام : 89 ] الآية ، وتكون الجملة كالمعترضة في خلال إبطال حجاج المشركين .

وحقيقة ﴿ قدروا ﴾ عيَّنوا القَدْر وضَبطوه أي ، عَلّموه عِلماً عن تحقّق .

والقَدْر بفتح فسكون مقياسُ الشيء وضابطه ، ويستعمل مجازاً في عِلم الأمر بكُنهه وفي تدبير الأمر .

يقال : قَدَر القومُ أمرهم يقدُرونه بضمّ الدّال في المضارع ، أي ضبطوه ودبَّروه .

وفي الحديث قول عائشة : " فاقدُروا قدْرَ الجاريةِ الحديثة السنّ " وهو هنا مجاز في العلم الصّحيح ، أي ما عرفوا الله حقّ معرفته وما علموا شأنه وتصرّفاته حقّ العلم بها ، فانتصب ﴿ حقّ ﴾ على النّيابة عن المفعول المطلق لإضافته إلى المصدر وهو ﴿ قَدْرِه ﴾ ، والإضافة هنا من إضافة الصّفة إلى الموصوف .

والأصل : ما قدروا الله قَدْرَه الحَقّ .

و ﴿ إذ قالوا ﴾ ظرف ، أي ما قدروه حين قالوا ﴿ ما أنزل الله ﴾ لأنّهم لمّا نفوا شأناً عظيماً من شؤون الله ، وهو شأن هديه النّاس وإبلاغهم مرادَه بواسطة الرّسل ، قد جهلوا ما يفضي إلى الجهل بصفة من صفات الله تعالى الّتي هي صفة الكلام ، وجهلوا رحمته للنّاس ولطفه بهم .

ومقالهم هذا يعمّ جميعَ البشر لوقوع النكرة في سياق النّفي لنفي الجنس ، ويَعمّ جميعَ ما أنزل باقترانه بـ ﴿ منْ ﴾ في حيز النّفي للدّلالة على استغراق الجنس أيضاً ، ويعمّ إنزالَ الله تعالى الوحيَ على البشر بنفي المتعلِّق بهذين العمومين .

والمراد بـ ﴿ شيء ﴾ هنا شيء من الوحي ، ولذلك أمر الله نبيّه بأن يُفْحمهم باستفهامِ تقريرٍ وإلجاءٍ بقوله : ﴿ مَن أنزل الكتاب الّذي جاء به موسى ﴾ فذكَّرهم بأمر لا يستطيعون جحده لتواتره في بلاد العرب ، وهو رسالة موسى ومجيئه بالتّوراة وهي تدرس بين اليهود في البلد المجاور مكّة ، واليهودُ يتردّدون على مكّة في التّجارة وغيرها ، وأهل مكّة يتردّدون على يثرب وما حولها وفيها اليهود وأحبارهم ، وبهذا لم يذكِّرهم الله برسالة إبراهيم عليه السّلام لأنّهم كانوا يجهلون أنّ الله أنزل عليه صُحفاً فكان قد يتطرّقه اختلاف في كيفية رسالته ونبوءته .

وإذا كان ذلك لا يسع إنكاره كما اقتضاه الجواب آخِرَ الآية بقوله : ﴿ قل الله ﴾ فقد ثبت

أنّ الله أنزل على أحدٍ من البشر كتاباً فانتقض قولهم : ﴿ ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ على حسب قاعدة نقض السالبة الكليّة بموجبة جزئيّة .

وافتتح بالأمر بالقول للاهتمام بهذا الإفحام ، وإلاّ فإنّ القرآن كلّه مأمور النّبيء صلى الله عليه وسلم بأن يقوله .

والنّور : استعارة للوضوح والحقّ ، فإنّ الحقّ يشبّه بالنّور ، كما يشبّه الباطل بالظلمة .

قال أبو القاسم عليّ التّنوخي :

وكأنّ النّجومَ بين دُجاها

سُنَن لاَحَ بينهنّ ابتِدَاعُ . . .

ولذلك عطف عليه ﴿ هدى ﴾ .

(169/241)

---

ونظيره قوله في سورة المائدة ( 44 ) ﴿ إنّا أنزلنا التّوراة فيها هُدَى ونور .

ولو أطلق النّور على سبب الهدى لصحّ لولا هذا العطف ، كما قال تعالى عن القرآن ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾ [ الشورى : 52 ] .

وقد انتصب ﴿ نوراً ﴾ على الحال .

والمراد بالنّاس اليهود ، أي ليهديهم ، فالتّعريف فيه للاستغراق ، إلاّ أنّه استغراق عرفي ، أي النّاس الّذين هم قومه بنو إسرائيل .

وقوله : ﴿ تجعلونه قراطيس ﴾ يجوز أن يكون صفة سببيّة للكتاب ، ويجوز أن يكون مُعترضاً بين المتعاطفات .

قرأ ﴿ تجعلونه وتبدون وتخفون ﴾ بتاء الخطاب مَن عدا ابنَ كثير ، وأبَا عمرو ، ويعقوب ، من العشرة ، فإمّا أن يكون الخطاب لغير المشركين إذ الظاهر أن ليس لهم عمل في الكتاب الذي أنزل على موسى ولا باشروا إبداء بعضه وإخفاء بعضه فتعيّن أن يكون خطاباً لليهود على طريقة الإدماج ( أي الخروج من خطاب إلى غيره ) تعريضاً باليهود وإسماعاً لهم وإن لم يكونوا حاضرين من باب إياكَ أعنِي واسمَعي يا جارة ، أو هو التفات من طريق الغيبة الّذي هو مقتضى المقام إلى طريق الخطاب .

وحقّه أن يقال يجعلونه بياء المضارع للغائب كما قرأ غير هؤلاء الثّلاثة القرّاء .

وإمّا أن يكون خطاباً للمشركين .

ومعنى كونهم يجعلون كتابَ موسى قراطيس يبدون بعضها ويخفون بعضها أنّهم سألوا اليهود عن نبوءة محمّد صلى الله عليه وسلم فقرأوا لهم ما في التّوراة من التمسّك بالسبتِ ، أي دين اليهود ، وكتموا ذكر الرّسول صلى الله عليه وسلم الّذي يأتي من بعدُ ، فأسند الإخفاء والإبداءُ إلى المشركين مجازاً لأنّهم كانوا مظهراً من مظاهر ذلك الإخفاء والإبداء .

ولعلّ ذلك صدر من اليهود بعد أن دخل الإسلام المدينة وأسلم مَن أسلم من الأوس والخزرج، فعلم اليهود وبال عاقبة ذلك عليهم فأغروا المشركين بما يزيدهم تصميماً على المعارضة.

*(170/241)*

---

وقد قدّمتُ ما يرجّح أنّ سورة الأنعام نزلت في آخر مدّة إقامة رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكّة، وذلك يوجب ظننّا بأنّ هذه المدّة كانت مبدأ مداخلة اليهود لقريش في مقاومة الدّعوة الإسلاميّة بمكّة حين بلغت إلى المدينة.

قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب ﴿ يجعلونه، ويُبدونها، ويخفون ﴾ بالتحتيّة فتكون ضمائرُ الغيبة عائدة إلى معروف عند المتكلّم، وهم يهود الزّمان الّذين عُرفوا بذلك.

والقراطيس جمع قرطاس.

وقد تقدّم عند قوله تعالى: ﴿ ولو نزّلنا عليك كتاباً في قرطاس ﴾ في هذه السّورة [ 7 ].

وهو الصحيفة من أي شيء كانت من رَقّ أو كاغِد أو خرقة.

أي تجعلون الكتاب الّذي أنزل على موسى أوراقاً متفرّقة قصداً لإظهار بعضها وإخفاء بعض آخر.

وقوله : تبدونها وتخفون كثيراً ﴾ صفة لقراطيس ، أي تبدون بعضها وتخفون كثيراً منها ، ففهم أنّ المعنى تجعلونه قراطيس لغرض إبداء بعض وإخفاء بعض .

وهذه الصّفة في محلّ الذمّ فإنّ الله أنزل كتبه للهُدى ، والهدى بها متوقّف على إظهارها وإعلانها ، فمن فرّقها ليظهر بعضاً ويخفي بعضاً فقد خالف مراد الله منها .

فأمّا لو جعلوه قراطيس لغير هذا المقصد لما كان فعلهم مذموماً ، كما كتب المسلمون القرآن في أجزاء منفصلة لقصد الاستعانة على القراءة ، وكذلك كتابة الألواح في الكتاتيب لمصلحة .

وفي "جامع العُتبية" في سماع ابن القاسم عن مالك ﴾ سُئل مالك رحمه الله عن القرآن يُكتب أسداساً وأسباعاً في المصاحف ، فكره ذلك كراهيةً شديدة وعابها وقال لا يفرّق القرآن وقد جمعه الله وهؤلاء يفرّقونه ولا أرى ذلك أ هـ .

قال ابن رشد في البيان والتّحصيل ﴾ : القرآن أنزل إلى النّبيء صلى الله عليه وسلم شيئاً بعد شيء حتّى كَمُل واجتمع جملة واحدة فوجب أن يحافظ على كونه مجموعاً ، فهذا وجه كراهيّة مالك لتفريقه أ هـ .

*(171/241)*

قلْت : ولعلّه إنّما كره ذلك خشية أن يكون ذلك ذريعة إلى تفرّق أجزاء المصحف الواحد فيقع بعضها في يد بعض المسلمين فيظنّ أنّ ذلك الجزء هو القرآن كلّه ، ومعنى قول مالك : وقد جمعه الله ، أنّ الله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بجمعه بعد أن نزل منجّماً ، فدلّ ذلك على أنّ الله أراد جمعه فلا يفرّق أجزاء .

وقد أجاز فقهاء المذهب تجْزئة القرآن للتعلّم ومسّ جزئه على غير وضوء ، ومنه كتابته في الألواح.

وقوله : ﴿ وعُلّمتم ما لم تعلموا ﴾ في موضع الحال من كلام مقدّر دلّ عليه قوّة الاستفهام لأنّه في قوّة أخبروني ، فإنّ الاستفهام يتضمّن معنى الفعل .

ووقوع الاستفهام بالاسم الدّال على طلب تعيين فاعل الإنزال يقوّي معنى الفعل في الاستفهام إذ تضمّن اسم الاستفهام فعلاً وفاعلاً مستفهماً عنهما ، أي أخبروني عن ذلك وقَد علّمكم الله بالقرآن الّذي أنكرتم كونه من عند الله ، احتججتم على إنكار ذلك بنفي أن ينزل الله على بشر شيئاً ، ولو أنصفتم لوجدتم وإمارة نزوله من عند الله ثابتة فيه غير محتاج معها للاستدلال عليه .

وهذا الخطاب أشدّ انطباقاً على المشركين لأنّهم لم يكونوا عالمين بأخبار الأنبياء وأحوال التّشريع ونظامه فلمّا جاءهم محمّد عليه الصّلاة والسّلام عَلم ذلك من آمَن علماً راسخاً ، وعلم ذلك من بقي على كفره بما يحصل لهم من سماع القرآن عند الدّعوة ومن مخالطيهم من

المسلمين ، وقد وصفهم الله بمثل هذا في آيات أخرى ، كقوله تعالى : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحِيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴾ [ هود : 49 ] .

ويجوز أن تكون جملة : ﴿ وعُلّمتم ﴾ عطفاً على جملة : ﴿ أُنْزَل الكتاب ﴾ على اعتبار المعنى كأنّه قيل : وعلّمكم ما لم تعلموا .

ووجه بناء فعل ﴿ عُلّمتم ﴾ للمجهول ظهور الفاعل ، ولأنّه سيقول ﴿ قُل الله ﴾ .

*(172/241)*

---

فإذا تأوّلنا الآية بما روي من قصّة مالك بن الصّيف المتقدّمة فالاستفهام بقوله ﴿ مَن أنزل الكتاب ﴾ تقريري ، إمّا لإبطال ظاهر كلامهم من جحد تنزيل كتاب على بشر ، على طريقة إفحام المناظر بإبداء ما في كلامه من لوازم الفساد ، مثل فساد اطّراد التّعريف أو انعكاسه ، وإمّا لإبطال مقصودهم من إنكار رسالة محمّد صلى الله عليه وسلم بطريقة الإلزام لأنّهم أظهروا أنّ رسالة محمّد عليه الصلاة والسلام كالشيء المحال فقيل لهم على سبيل التّقرير ﴿ من أنزل الكتاب الّذي جاء به موسى ﴾ ولا يسعهم إلاّ أن يقولوا : الله ، فإذا اعترفوا بذلك فالّذي أنزل على موسى كتاباً لم لا ينزل على محمّد مِثله ، كما قال تعالى : ﴿ أم يحسدون النّاس على ما آتاهم الله من فضله ﴾ [ النساء : 54 ] الآية .

ثمّ على هذا القول تكون قراءة : ﴿ تجعلونه قراطيس ﴾ بالفوقيّة جارية على الظاهر ، وقراءتُه بالتّحتيّة من قبيل الالتفات .

ونكتته أنّهم لمّا أخبر عنهم بهذا الفعل الشّنيع جُعلوا كالغائبين عن مقام الخطاب .

والمخاطب بقوله : ﴿ وعُلّمتم ﴾ على هذا الوجه هم اليهود ، فتكون الجملة حالاً من ضمير ﴿ تجعلونه ﴾ ، أي تجعلونه قراطيس تخفون بعضها في حال أنّ الله علّمكم على لسان محمّد ما لم تكونوا تعلمون ، ويكون ذلك من تمام الكلام المعترض به .

ويجيء على قراءة ﴿ يجعلونه قراطيس ﴾ بالتّحتيّة أن يكون الرّجوع إلى الخطاب بعد الغيبة التفاتاً أيضاً .

وحسّنه أنّه لمّا أخبر عنهم بشيء حَسن عَادَ إلى مقام الخطاب ، أو لأنّ مقام الخطاب أنسب بالامتنان .

واعلم أنّ نظم الآية صالح للردّ على كلا الفريقين مراعاة لمقتضى الروايتين .

*(173/241)*

---

فعلى الرّواية الأولى فواو الجماعة في "قدروا وقالوا" عائدة إلى ما عاد إليه إشارة هؤلاء ، وعلى الرّواية الثّانية فالواو واو الجماعة مستعملة في واحد معيّن على طريقة التّعريض

بشخص من باب " مَا بالُ أقوام يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله " ، وذلك من قبيل عود الضّمير على غير مذكور اعتماداً على أنّه مستحضر في ذهن السامع .

وقوله : ﴿ قل الله ﴾ جواب الاستفهام التّقريري .

وقد تولّى السائل الجواب لنفسه بنفسه لأنّ المسؤول لا يسعه إلاّ أن يجيب بذلك لأنّه لا يقدر أن يكابر ، على ما قرّرتُه في تفسير قوله تعالى : ﴿ قل لمن ما في السّماوات والأرض قل لله ﴾ في هذه السّورة [ 12 ] .

والمعنى قل الله أنزل الكتاب على موسى .

وإذا كان وعُلّمتم ما لم تعلموا ﴾ معطوفاً على جملة ﴿ أنزل ﴾ كان الجواب شاملاً له ، أي الله علّمكم ما لم تعلموا فيكون جواباً عن الفعل المسند إلى المجهول بفعل مسند إلى المعلوم على حدّ قول ضرار بن نهشل أو الحارث النهشلي يرثي أخاه يزيد :

لِيُبْكَ يزيد ضارع لخصومة

ومختبط مِمّا تُطيح الطَّوائح . . .

كأنّه سئل من يَبكيه فقال : ضارع .

وعطف ﴿ ثمّ ذرّهم في خوضهم يلعبون ﴾ بثمّ للدّلالة على التّرتيب الرتبي ، أي أنّهم لا تنجع فيهم الحجج والأدلّة فتَرْكُهم وخَوْضهم بعد التّبليغ هو الأولى ولكن الاحتجاج عليهم لتبكيتهم وقطع معاذيرهم .

وقوله : ﴿ في خوضهم ﴾ متعلّق بـ ﴿ ذرهم ﴾ .

وجملة ﴿ يلعبون ﴾ حال من ضمير الجمع .

وتقدّم القول في "ذر" في قوله تعالى : ﴿ وذر الّذين اتّخذوا دينهم ﴾ [ الأنعام : 70 ] .

والخوض تقدّم في قوله تعالى : ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم ﴾ [ الأنعام : 68 ] .

واللّعب تقدّم في ﴿ وذر الّذين اتّخذوا دينهم لعباً ﴾ في هذه السّورة [ 70 ] . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

*(174/241)*

---

ومن فوائد الثعلبى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أي ما عظموا اللّه حق عظمته . وما وصفوا اللّه حق صفته ﴿ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ على بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ .

قال سعيد بن جبير : " جاء رجل من يهود الأنصار يقال له مالك بن الصيف يخاصم النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي : أتشرك باللّه الذي أنزل التوراة على موسى ؟ ما تجد في

التوراة إن اللّه يبغض الحبر السمين وكان حبراً سميناً فغضب وقال : ما أنزل اللّه على بشر من شيء ، فقال لأصحابه الذين معه ويحك ولا موسى ؟ فقال : [ واللّه ] ما أنزل اللّه على بشر من شيء . فأنزل اللّه عز وجل هذه الآية " .

وقال السدي : إنها نزلت في فحاص بن عازورا ، وهو قائل بهذه المقالة .

محمد بن كعب القرضي : " جاء ناس من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو محتب وقالوا : يا أبا القاسم ألا تأتينا بكتاب من السماء كما جاء به موسى ( عليه السلام ) ألواحاً يحملها من عند اللّه ؟ فأنزل اللّه عز وجل ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الكتاب أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السمآء فَقَدْ سَأَلُواْ موسى أَكْبَرَ مِن ذلك ﴾ الآية [ النساء : 153 ] .

فجاء رجل من اليهود فقال : ما أنزل اللّه عليك ولا على موسى ولا على عيسى ولا على أحد شيئاً . فأنزل اللّه هذه الآية " .

وقال ابن عباس : " قالت اليهود : يا محمد أنزل اللّه عليك كتاباً ؟ قال : نعم . قالوا : واللّه ما أنزل اللّه من السماء كتاباً فأنزل اللّه ﴿ وَمَا قَدَرُواْ الله حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [ الأنعام : 91 ] "

.

معلى بن أبي طلحة عن ابن عباس : نزلت في الكفار أنكروا قدرة اللّه تعالى عليهم فمن أقرّ أن اللّه على كل شيء قدير فقد قدر اللّه حق قدره . ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر اللّه حق

قدره .

وقال مجاهد : نزلت في بشر من قريش . قالوا : ما أنزل اللّه على بشر من شيء .

(175/241)

---

وقوله ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الكتاب الذي جَآءَ بِهِ موسى ﴾ إلى قوله ﴿ وَتُخْفُونَ كَثِيراً ﴾ قال : هم اليهود .

وقوله ﴿ وَعُلِّمْتُمْ مَّا لَمْ تعلموا أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قال هذه المسلمين وهكذا .

روى أيوب عنه إنه قرأ ﴿ وَعُلِّمْتُمْ ﴾ معشر العرب ﴿ مَّا لَمْ تعلموا أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ ﴾

وقوله ﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ ﴾ أي دفاتر كتبنا جمع قرطاس أي تفرقونها وتكتبونها في دفاتر مقطعة حتى لا تكون مجموعة لتخفوا منها ما شئتم ولا يشعر بها العوام ، تبدونها وتخفون كثيراً من ذكر محمد وآية الرجم ونحوها مما كتبوها .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بن العلاء : يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً كلها بالياء على الإخبار عنهم .

وقرأها الباقون : بالتاء على الخطاب ، ودليلهم قوله تعالى ممّا قبله من الخطاب . قل من أنزل الكتاب .

وقرأ بعده ﴿ وَعُلِّمْتُمْ مَّا لَمْ تعلموا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ﴾ فإن أجابوك وقالوا : الله ، وإلاّ ف ﴿ قُلِ الله ﴾ فعل ذلك ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ حال وليس بجواب تقديره ذرهم في خوضهم لاعبين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

*(176/241)*

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾

الكلام عن الذين رفضوا وتأبوا عن الإيمان بالله . فيأتي الأمر للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يوضح لهم بأنهم لم يعطوا الله حق قدره ، ومعنى القدْر معرفة المقدار ، وحق قدره سبحانه لا نقدر عليه نحن البشر ، لذلك نقدره على قدر طاقتنا أو على قدر ما طلب منا ، وكما قال رسول الله : " سبحانك لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك " والإنسان منا حين يثني على واحد فهذا دليل أنه قد قيّم قدره بقيمة الثناء ، وحين نقيّم قدر الله فعلينا أن نعرف أن صفات الكمال كلها فيه وهي لا تتناهى ولا يمكن أن تحصى . ومن رحمة الحق سبحانه وتعالى أنه تحمّل عنا صيغة الثناء عليه : كي لا يوقعنا في حرج ، فليس

لبشر من قُدرة أن يحيط بجمال الله أو بجلاله حتى يثني عليه بما يستحقه ، وإن أحاط عبد بذلك – ولن يحيط – فمن أين له العبارة التي تؤدي هذا الثناء ؟ ولا يوجد بليغ أو أديب يستطيع أن ينمق العبارات التي تكفي لتقدير هذا الثناء على الله ، فأوضح لنا الحق من خلال رسوله : أنا حملت عنكم هذه المسألة حتى تكونوا كلكم سواسية ، قال رسول الله : " سبحانك لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك "

*(177/241)*

---

وفي كلمة " الحمد لله " وحدها يتساوى الناس جميعاً . ومن رحمته سبحانه أن سوّى بين الناس في معرفة صيغة الثناء عليه . ويأتي الحق هنا بالزاوية التي نفى فيها أنهم ما قدروا الله حق قدره . لماذا يا ربَّ لم يقدروك حق قدرك ؟ وتأتي الإجابة : ﴿ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ اللّهُ على بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ [ الأنعام : 91 ] .

أي أنهم أنكروا أن يكون الله قد اختار من بعض خلقه مَن يجعلهم أهلاً لتلقِّي منهجه لإبلاغه إلى خلقه . ويأتي الرد من الحق لرسوله رداً عليهم : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الكتاب الذي جَآءَ بِهِ موسى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [ الأنعام : 91 ] .

إذن لا بد أن يكون القائلون هذا يؤمنون بأن موسى نُزِّل عليه كتاب لتكون الحُجَّة في موضعها

. وكُفار مكة كانوا غير مؤمنين بأي رسول ، لكنهم يعلمون أن هناك من هم أهل كتاب ، بدليل أنهم قالوا : ﴿ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الكتاب لَكُنَّآ أهدى مِنْهُمْ ﴾ [ الأنعام : 157 ] .

ونقول : لو دققت النظر في السورة فقد ينطبق الأمر على واحد مخصوص من الذين غلبتهم الحُجّة . " وفي تاريخ السيرة نجد واحداً من الأحبار كان دائب الخوض في الإسلام ، وكان اسمه " مالك بن الصيف " فلقيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . والحَبْر هو عالم اليهود والمفترض فيه أن يكون من الزهاد فيهم منقطعاً للعلم إلا أنه كان سميناً على الرغم من أن من عادة المنقطعين للعبادة وإلى العلم أنهم لا يأخذون من الزاد إلا ما يقيت ، ويقُيم الأود لأنه قد جاء في التوراة : " إن الله يبغض الحَبْر السّمين " .

فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مالك بن الصيف – وهو من أحبار اليهود – يخوض كثيراً في الإسلام قال له : أفي توراتكم : " إن الله يبغض الحَبْر السّمين " فبهت الرجل ، وقال : " ما أنزل الله على بشر من شيء "

*(178/241)*

---

يعني ما أنزل الله على بشر من شيء من الذي أنت تقوله ، وهكذا نعلم أن مثل هذا القول قد يأتي من أهل كتاب ، وحين قال مالك هذه القولة قام عليه رجال من اليهود وقالوا له : كيف

تقول : " ما أنزل الله على بشرٍ من شيء " فقال لهم : أغضبني محمد ، فرددت على الغضب بباطل .

وهنا قال من سمعه من اليهود : إذن أنت لا تصلح أن تكون حبْراً لأنك فضحتنا . وعزلوه ، وجاءوا بكعب بن الأشرف وولّوه مكانه .

﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الكتاب الذي جَآءَ بِهِ موسى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَّا لَمْ تعلموا أَنتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ الله ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [ الأنعام : 91 ] .

الكتاب إذن هنا هو الكتاب الذي أنزله الله على موسى وهو التوراة وقد جعلوه قراطيس ، أو جعلوه أوراقاً منفصلة يظهرون منها ما يُريدون ، ويخفون منها ما لا يُريدون مثلما فعلوا في مسألة الرّجم كعقاب للزّنا . إذن فقد سبق لهم كتمان ما أنزل الله عليهم ، وبيّن الحق ذلك في آيات متعددة : ﴿ فَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ ﴾ [ المائدة : 14 ]

والذي لم ينسوه كَتَموا بعضه وأظهروا بعضه ، والذي لم يكتموه حرّفوا ولووا به ألسنتهم ، إذن فهناك نسيان ، وكتمان ، وتحريف . وليتهم اقتصروا على هذا ووقفوا عنده بل جاءوا بأشياء من عندهم وقالوا هي من عند الله : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكتاب بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ الله لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ [ البقرة : 79 ]

ويتابع الحق سبحانه : ﴿ وَعُلِّمْتُمْ مَّا لَمْ تعلموا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام : 91] .

(179/241)

---

فإن كلام الكلام في كُفار مكة فقد جاءهم القرآن بما لم يعلموا لا هم ولا آبائهم ؛ لأن الإسلام جاء على فترة من الرسل . وإن كان في أهل الكتاب فهو قول صدق ؛ لأنهم لما كتموا أشياء فضح القرآن ما كتموه وما حرفوه . وجاء القرآن فعدل لهم ، فكأنهم عُلِّموا الحق ، لينسخوا به الباطل الذي غيّروه وحرفوه ، وقوله الحق : ﴿ قُلِ اللهُ ﴾ أي أن الذي أنزل الكتاب هو الله .

وساعة يأتي الحق سبحانه وتعالى بصيغة الاستفهام نعلم أن الاستفهام الحقيقي بالنسبة لله مُحَال ، لأنه يعلم كل شيء ، وإنما يجيء باستفهام يقال له : " الاستفهام الإنكاري " أو " الاستفهام التقريري " وهو يأتي بهذه الصيغة لأنه يريد جواباً فيه الإقرار من المعاندين ، فإن لم يقولوا واحتاروا أو خجلوا أن يقولوا فقل أنت لهم يا محمد : ﴿ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام : 91] .

و " الخوض " هو الدخول في الماء الكثير ، الذي لا تستبين العين فيه موضع القدم ، وربما نزل

في هوّة ، ثم استعمل واستعير للخوض في الباطل .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أي أن هذا لعب منهم ولن يستطيع الصمود أمام الدعوة ، فالدعوة سائرة في طريقها ، ولن يتمكنوا منها أبداً ، فكل الذي يصنعونه هو خوض في باطل ولعب لا جدوى منه ولا صلة له بالجد . ولكن هل معنى هذا أن يتركهم محمد ؟ لا ؛ لأنه حين يجد آذانا منهم ينبههم ويذكّرهم ، ثم بعد أن ينفتح الأمر للإسلام ، فالذي يقيم في جزيرة العرب لا يقبل منه إلا الإسلام أو السيف ؛ لأن المعجزة جاءت مباشرة بقرآن يعلم الكل إعجازه ، وسبحانه قد أنزل التوراة من قبل وأنزل القرآن مباركا ، فالحق يقول بعد ذلك : ﴿ وهذا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(180/241)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا

لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (91) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ قال : هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم ، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره ، ومن لم يؤمن بذلك فلم يؤمن بالله حق قدره ﴿ إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ يعني من بني إسرائيل ، قالت اليهود يا محمد أنزل الله عليك كتاباً ؟ قال : نعم . قالوا : والله ما أنزل الله من السماء كتاباً فأنزل الله قل يا محمد ﴿ من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس ﴾ إلى قوله ﴿ ولا آباؤكم قل الله ﴾ أنزله .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب في قوله ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ قال : وما علموا كيف هو حيث كذبوه .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق السدي عن أبي مالك في قوله ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ قال : ما عظموه حق عظمته .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ قال : قالها مشركو قريش .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ قال : قال فنحاص اليهودي : ما أنزل الله على محمد من شيء .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة في قوله ﴿ إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ قال : نزلت في مالك بن الصيف .

(181/241)

---

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف ، فخاصم النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي " أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى هل تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين ؟ وكان حبراً سميناً ، فغضب وقال : والله ما أنزل الله على بشر من شيء . فقال له أصحابه : ويحك . . . ! ولا على موسى ؟ قال : ما أنزل الله على بشر من شيء ، فأنزل الله ﴿ وما قدروا الله حق قدره . . . ﴾ الآية " .

وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال : جاء ناس من يهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو محتب فقالوا : يا أبا القاسم ألا تأتينا بكتاب من السماء كما جاء به موسى ألواحاً ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ يسئلك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء ﴾ [ النساء : 153 ] الآية . فجثا رجل من اليهود فقال : ما أنزل الله عليك . ولا على موسى ، ولا على عيسى ، ولا على أحد شيئاً ، فأنزل الله ﴿ وما قدروا الله حق قدره .

. . ﴾ الآية .

وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظي قال : أمر الله محمداً أن يسأل أهل الكتاب عن أمره وكيف يجدونه في كتبهم ، فحملهم حسدهم أن يكفروا بكتاب الله ورسله فقالوا ﴿ ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ فأنزل الله ﴿ وما قدروا الله حق قدره . . . ﴾ الآية . ثم قال : يا محمد هلم لك إلى الخبير ، ثم أنزل ﴿ الرحمن فاسأل به خبيراً ﴾ [ الفرقان : 59 ] ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ [ فاطر : 14 ] .

وأخرج البيهقي عن الشعب عن كعب قال : إن الله يبغض أهل البيت اللحمين والحبر السمين .

وأخرج البيهقي عن جعدة الجشمي قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم ورجل يقص عليه رؤيا ، فرأى رجلاً سميناً فجعل بطنه بشيء في يده ، ويقول " لو كان بعض هذا في غير هذا لكان خير الملك " .

*(182/241)*

---

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً ﴾ قال : هم اليهود ﴿ وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ﴾ قال : هذه للمسلمين .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً ﴾ في يهود فيما أظهروا من التوراة وأخفوا من محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي شيبة وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد أنه قرأ ﴿ تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً ﴾ وعلمتم معشر العرب ﴿ ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ﴾ قال : هم اليهود ، آتاهم الله علماً فلم يقتدوا به ولم يأخذوا به ولم يعملوا به ، فذمهم الله في عملهم ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

*(183/241)*

---

ومن فوائد صاحب الميزان فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ( وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شئ )

قدر الشئ وقدره بالتحريك كميته من عظم أو صغر ونحوهما يقال : قدرت الشئ قدرا وقدرته بالتشديد تقديرا إذا بينت كمية الشئ وهندسته المحسوسة ثم توسع فيه فاستعمل

في المعاني غير المحسوسة فقيل : قدر فلان عند الناس وفي المجتمع أي عظمته في أعين الناس ووزنه في مجتمعهم وقيمته الاجتماعية .

وإذ كان تقدير الشئ وتحديده بحدود لا ينفك غالبا عن وصفه بأوصافه المبينة لحاله المستتبعة لعرفانه أطلق القدر والتقدير على الوصف وعلى المعرفة بحال الشئ – على نحو الاستعارة .

– فيقال قدر الشئ وقدره أي وصفه ، ويقال : قدر الشئ وقدره أي عرفه ، فاللغة تبيح هذه الاستعمالات جميعا .

ولما كان الله سبحانه لا يحيط بذاته المتعالية حس ولا وهم ولا عقل وإنما يعرف معرفة ما بما يليق بساحة قدسه من الاوصاف وينال من عظمته ما دلت عليه آياته وأفعاله صح استعمال القدر فيه تعالى بكل من المعاني السابقة فيقال : ما قدروا الله حق قدره أي ما عظموه بما يليق بساحته من العظمة أو ما وصفوه حق وصفه أو ما عرفوه حق معرفته .

فالاية بحسب نفسها تحتمل كلا من المعاني الثلاثة أو جميعها بطريق الالتزام لكن الانسب بالنظر إلى الآيات السابقة الواصفة لهدايته تعالى أنبياءه المستعقبة لايتائهم الكتاب والحكم والنبوة ، وعنايته الكاملة بحفظ كلمة الحق ونعمة الهداية بين الناس زمانا بعد زمان وجيلا بعد جيل أن تحمل على المعنى الأول فإن في إنكار إنزال الوحى حطا لقدره تعالى وإخراجا له من منزلة الربوبية المعتنية بشؤون عباده وهدايتهم إلى هدفهم من السعادة والفلاح .

ويؤيد ذلك ما ورد من نظير اللفظ في قوله تعالى : ( وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ) ( الزمر : 67 ) .

*(184/241)*

---

وقوله تعالى : ( إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز ) ( الحج : 74 ) أي وقوته وعزته وضعف غيره وذلته تقتضيان أن لا يحط قدره ولا يسوى هو وما يدعون من دونه بتسمية الجميع آلهة وأربابا فالانسب بالآية هو المعنى الأول وإن لم يمتنع المعنيان الاخران ، وأما تفسير ( ما قدروا الله حق قدره ) بأن المراد : ما أعطوه من القدرة ما هو حقها كما فسره بعضهم فأبعد المعاني المحتملة من مساق الآية .

ولما قيد قوله تعالى : ( وما قدروا الله حق قدره ) بالظرف الذى في قوله : ( إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شئ ) أفاد ذلك أن اجتراءهم على الله سبحانه وعدم تقديرهم حق قدره إنما هو من حيث إنهم نفوا إنزال الوحى والكتاب منه تعالى على بشر فدل ذلك على أن من لوازم الألوهية وخصائص الربوبية أن ينزل الوحى والكتاب لغرض هداية الناس إلى

مستقيم الصراط والفوز بسعادة الدنيا والاخرة فهى الدعوى .

وقد أشار تعالى إلى إثبات هذه الدعوى والحجاج له بقوله : ( قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى ) الخ ، وبقوله : ( وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ) والأول من القولين احتجاج بكتاب من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء عليهم السلام الثابتة نبوتهم بالمعجزات الباهرة التى أتوا بها ففيه تمسك بوجود الهداية الإلهية المتصلة المحفوظة بين الناس بالانبياء عليهم السلام نوح ومن بعده ، وهى التى وصفها الله تعالى في الآيات السابقة من قوله : ( وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر – إلى قوله – إن هو إلا ذكرى للعالمين ) .

*(185/241)*

---

والثانى من القولين احتجاج بوجود معارف وإحكام إلهية بين الناس ليس من شأنها أن تترشح من الإنسان الاجتماعي من حيث مجتمعه بما له من العواطف والافكار التى تهديه إلى ما يصلح حياته من الغذاء والمسكن واللباس والنكاح وجلب المنافع ودفع المضار والمكاره فهذه الأمور التى في مجرى التمتع بالماديات هي التى يتوخاها الإنسان بحسب طبعه الحيوانى ، وأما المعارف الإلهية والاخلاق الفاضلة الطيبة والشرائع الحافظة بالعمل بها لهما فليست من الأمور التى ينالها الإنسان الاجتماعي بشعوره الاجتماعي وأنى

للشعور الاجتماعي ذلك ؟ وهو إنما يبعث الإنسان إلى استخدام جميع الوسائل التى يمكنه أن يتوسل بها إلى مآربه في الحياة الارضية ، ومقاصده في المأكل والمشرب والمنكح والملبس والمسكن وما يتعلق بها ثم يدعوه إلى أن يكسر مقاومة كل ما يقاومه في طريق تمتعه إن قدر على ذلك أو يصطلحه على التعاضد والاشتراك في المنافع ورعاية العدل في توزيعها إن لم يقدر عليه ، وهو سر كون الإنسان اجتماعيا مدنيا كما تبين في أبحاث النبوة في البحث عن قوله تعالى : ( كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين ) الآية ( البقرة : 213 ) في الجزء الثاني من الكتاب ، وسنزيده وضوحا إن شاء الله .

وبالجملة فالآية أعنى قوله تعالى : ( وما قدروا الله حق قدره ) تدل بما لها من الضمائم على أن من لوازم الألوهية أن تهدى الإنسان إلى مستقيم الصراط ومنزل السعادة بإنزال الكتاب والوحى على بعض أفراده ، وتستدل على ذلك بوجود بعض الكتب المنزلة من الله في طريق الهداية أولا ، وبوجود ما يدل على تعاليم إلهية بينهم لا ينالها الإنسان بما عنده من العقل الاجتماعي ثانيا .

*(186/241)*

قوله تعالى : ( قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا ) القراءة الدائرة تجعلونه بصيغة الخطاب والمخاطبون به اليهود لا محالة ، وقرئ ( يجعلونه ) بصيغة الغيبة ، والمخاطب المسؤول عنه بقوله : ( من أنزل الكتاب الخ ) ، حينئذ اليهود أو مشركوا العرب على ما قيل ، والمراد يجعل الكتاب قراطيس وهى جمع قرطاس إما جعله في قراطيس بالكتابة فيها ، وإما جعله نفس القراطيس بما فيها من الكتابة فالصحائف والقراطيس تسمى كتابا كما تسمى الألفاظ المدلول عليها بالكتابة كتابا .

وقوله : ( قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى ) الخ .

جواب عن قولهم المحكى بقوله تعالى : ( إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شئ ) والآية وإن لم تعين القائلين بهذا القول من هم ؟ إلا أن الجواب بما فيه من الخصوصية لا يدع ريبا في أن المخاطبين بهذا الجواب هم اليهود فالقائلون : ( ما أنزل الله على بشر من شئ ) هم اليهود أيضا ، وذلك أن الآية تحتج على هؤلاء القائلين بكتاب موسى عليه السلام والمشركون لا يعترفون به ولا يقولون بنزوله من عند الله ، وإنما القائلون به أهل الكتاب ، وأيضا الآية تذمهم بأنهم يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيرا ، وهذا أيضا من خصائص اليهود على ما نسبه القرآن إليهم دون المشركين .

على أن قوله بعد ذلك : ( وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ) على ظاهر معناه الساذج لا

يصلح أن يخاطب به غير اليهود من المشركين أو المسلمين كما تقدم وسيجئ إن شاء الله تعالى .

*(187/241)*

---

وأما أن اليهود كانوا مؤمنين بنبوة الأنبياء موسى ومن قبله عليهم السلام وبنزول كتب سماوية كالتوراة وغيرها فلم يك يتأتى لهم أن يقولوا : ما أنزل الله على بشر من شئ لمخالفته أصول معتقداتهم فيدفعه : أن أكون ذلك مخالفا للأصل الذى عندهم لا يمنع أن يتفوه به بعضهم تعصبا على الإسلام أو تهييجا للمشركين على المسلمين أو يقول ذلك عن مسألة سألها المشركون عن حال كتاب كان النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) يدعى نزوله عليه من جانب الله سبحانه ، وقد قالوا في تأييد وثنية مشركي العرب على أهل التوحيد من المسلمين : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ، فرجحوا قذارة الشرك على طهارة التوحيد وأساس دينهم التوحيد حتى أنزل الله : ( ألم تر إلى الذين اوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ) ( النساء : 51 ) .

وقولهم – وهو أبين سفها من سابقه – اغتياظا على النصارى : أن إبراهيم عليه السلام

كان يهوديا حتى نزل فيهم قوله تعالى : ( يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل إلا من بعده أفلا تعقلون – إلى أن قال – ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ) ( آل عمران : 67 ) إلى غير ذلك من أقوالهم المناقضة لاصولهم الثابتة المحكية في القرآن الكريم .

ومن كان هذا شأنه لم يبعد أن ينفى نزول كتاب سماوي على بشر لداع من الدواعى الفاسدة الباعثة له على إنكار ما يستضر بثبوته أو تلقين الغير باطلا يعلم ببطلانه لينتفع به في بعض مقاصده الباطلة .

*(188/241)*

---

وأما قول من قال : إن القرآن لم يعتن بأمر أهل الكتاب في آياته النازلة بمكة وإنما كانت الدعوة بمكة قبل الهجرة إلى المشركين للابتلاء بجماعتهم والدار دارهم ، ففيه أن ذلك لا يوجب السكوت عنهم من رأس والدين عام ودعوته شاملة لجميع الناس والقرآن ذكر للعالمين وهم والمشركون جيران يمس بعضهم بعضا دائما وقد جاء ذكر أهل الكتاب في بعض السور المكية من غير دليل ظاهر على كون الآية مدنية كقوله تعالى : ( ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم ) ( العنكبوت : 46 ) وقوله : ( وعلى الذين هادوا

حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون ) ( النحل : 118 ) وقد ذكر في سورة الأعراف كثير من مظالم بنى إسرائيل مع كون السورة مكية .

ومن المستبعد أن تدوم الدعوة الإسلامية سنين قبل الهجرة وفي داخل الجزيرة طوائف من اليهود والنصارى فلا يصل خبرها إليهم أو يصل إليهم فيسكتوا عنها ولا يقولوا شيئا لها أو عليها وقد هاجر جماعة من المسلمين إلى الحبشة وقرأوا سورة مريم المكية عليهم وفيها قصة عيسى ونبوته .

وأما قول من قال : إن السورة – يعنى سورة الأنعام – إنما نزلت في الاحتجاج على المشركين في توحيد الله سبحانه وعامة الخطابات الواردة فيها متوجهة إليهم فلا مسوغ لارجاع الضمير في قوله : ( إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شئ ) إلى اليهود بل المتعين إرجاعه إلى مشركي العرب لأن الكلام في سياق الخبر عنهم ، ولم يجر لليهود ذكر في هذه السورة فلا يجوز أن تصرف الآية عما يقتضيه سياقها من أولها إلى هذا الموضع بل إلى آخرها بغير حجة من خبر صحيح أو عقل فالارجح قراءة ( يجعلونه ) الخ ، بياء الغيبة على معنى أن اليهود يجعلونه فهو حكاية عنهم ذكرت في خطاب مشركي العرب .

*(189/241)*

وأما مشكلة أن المشركين ما كانوا يذعنون بكون التوراة كتابا سماويا فكيف يحاجون بها فقد أجاب عنه بعضهم : أن المشركين كانوا يعلمون أن اليهود أصحاب التوراة المنزلة على موسى عليه السلام فمن الممكن أن يحاجوا من هذه الجهة .

ففيه : أن سياق السورة فيما تقدم من الآيات وإن كان لمحاجة المشركين لكن لا لانهم هم بأعيانهم فالبيان القرآني لا يعتنى بشخص أو أشخاص لانفسهم بل لانهم يستكبرون عن الخضوع للحق وينكرون أصول الدعوة التى هي التوحيد والنبوة والمعاد فالمنكرون لهذه الحقائق أو لبعضها هم المعنيون بالاحتجاجات الموردة فيها فما المانع من أن يذكر فيها بعض هفوات اليهود لو استلزم إنكار النبوة ونزول الكتاب لدخوله في غرض السورة ، ووقوعه في صف هفوات المشركين في إنكار أصول الدين الإلهى وإن كان كان القائل به من غير المشركين وعبدة الأصنام ، ولعله مما لقنوه بعض المشركين ابتغاء للفتنة فقد ورد في بعض الاثار أن المشركين ربما سألوهم عن حال النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وربما بعثوا إليهم الوفود لذلك .

على أن قوله : ( وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ) كما سيأتي لا يصح أن يخاطب به غير اليهود كما لا يصح أن يخاطب غير اليهود بقوله تعالى : قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس ) والقول بأن مشركي العرب كانوا يعلمون أن اليهود هم أصحاب توراة موسى غير مقنع قطعا فإن العلم بأن اليهود أصحاب التوراة لا يصحح الاحتجاج

بنزول التوراة من عند الله سبحانه وخاصة مع وصفها بأنها نور وهدى للناس فالاعتقاد بالنزول من عند الله غير العلم بأن اليهود تدعى ذلك والمصحح للخطاب هو الأول دون الثاني .

وأما قراءة ( يجعلونه ) الخ ، فالوجه أن تحمل على الالتفات مع إبقاء الخطاب في قوله ( من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى ) ، وقوله : ( وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ) لليهود .

*(190/241)*

---

وقد حاول بعضهم دفع الاشكالات الواردة على جعل الخطاب في الآية للمشركين مع تصحيح القراءتين جميعا فقال ما ملخصه : أن الآية نزلت في ضمن السورة بمكة كما قرأها ابن كثير وأبو عمرو – يجعلونه قراطيس بصيغة الغيبة – محتجة على مشركي مكة الذين أنكروا الوحى استبعادا لأن يخاطب الله البشر بشئ ، وقد اعترفوا بكتاب موسى وأرسلوا الوفد إلى أحبار اليهود مذعنين بانهم أهل الكتاب الأول العالمون بأخبار الأنبياء . فهو تعالى يقول لنبيه ( صلى الله عليه وآله وسلم ) : قل لهؤلاء الذين ما قدروا الله حق إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شئ كقولهم : أبعث الله بشرا رسولا : ( من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا ) انقشعت به ظلمات الكفر والشرك الذى ورثته بنو إسرائيل عن

المصريين ( وهدى الناس ) أي الذين أنزل عليهم بما علمهم من الأحكام والشرائع الإلهية فكانوا على النور والهدى إلى أن اختلفوا فيه ونسوا حظا مما ذكروا به فصاروا باتباع الاهواء ( يجعلونه قراطيس يبدونها ) فيما وافق ( ويخفون كثيرا ) مما لا يوافق أهواءهم .

قال : والظاهر أن الآية كانت تقرا هكذا بمكة وكذا بالمدينة إلى أن أخفى أحبار اليهود حكم الرجم وكتموا بشارة النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) وإلى أن قال بعضهم : ما أنزل الله على بشر من شئ كما قال المشركون من قبلهم - إن صحت الروايات بذلك - فعند ذلك كان غير مستبعد ولا مخل بالسياق أن يلقن الله تعالى رسوله أن يقرأ هذه الجمل بالمدينة على مسمع اليهود وغيرهم بالخطاب لليهود فيقول : ( تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا ) مع عدم نسخ القراءة الأولى .

قال : وبهذا الاحتمال المؤيد بما ذكر من الوقائع يتجه تفسير القراءتين بغير تكلف ما ، ويزول كل إشكال عرض للمفسرين في تفسيرهما ، انتهى كلامه ملخصا .

*(191/241)*

---

وأنت خبير بأن إشكال خطاب المشركين بما لا يعترفون به باق على حاله وكذا إشكال خطاب غير اليهود بقوله : ( وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ) على ما أشرنا إليه ، وكذا

تخصيصه قوله تعالى : ( نورا وهدى للناس ) باليهود فقط وكذا قوله إن اليهود قالوا في المدينة : ( ما أنزل الله على بشر من شئ ) كر على ما فر منه .

على أن قوله : إن الله لقن رسوله أن يقرا الآية عليهم ويخاطبهم بقوله : ( تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا ) مما لا دليل عليه فإن أراد بهذا التلقين وحيا جديدا بالخطاب كالوحي الأول بالغيبة كانت الآية نازلة مرتين مرة في ضمن السورة وهى إحدى آياته ومرة في المدينة غير داخلة في آيات السورة ولا جزء منها ، وإن أراد بالتلقين غير الوحى بنزول جبرئيل بها لم تكن الآية آية ولا القراءة قراءة وأن اريد به أن الله فهم رسوله نوعا من التفهيم أن لفظ ( تجعلونه قراطيس ) الخ ، النازل عليه في ضمن سورة الأنعام بمكة يسع الخطاب والغيبة جميعا وأن القراءتين جميعا صحيحتان مقصودتان كما ربما يقوله من ينهى القراءات المختلفة إلى قراءة النبي ( صلى الله عليه وآله وسلم ) أو القراءة عليه ونحوهما ففيه الالتزام بورود جميع الاشكال السابقة كما هو ظاهر .

واعلم أن هذه الابحاث إنما تتأتى على تقدير كون الآية نازلة بمكة ، وأما على ما وقع في بعض الروايات من أن الآية نزلت بالمدينة فلا محل لأكثرها .

قوله تعالى : ( وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ) المراد بهذا العلم الذى علموه ولم يكونوا يعلمونه هم ولا آباؤهم ليس هو العلم العادى بالنافع والضار في الحياة مما جهز الإنسان بالوسائل المؤدية إليه من حس وخيال وعقل فإن الكلام واقع في سياق الاحتجاج مربوط به

ولا رابطة بين حصول العلوم العادية للإنسان من الطرق المودعة فيه وبين المدعى وهو أن من لوازم الألوهية أن تهدى الإنسان إلى سعادته وتنزل على بعض أفراده الوحى والكتاب .

*(192/241)*

---

وليس المراد بها أن الله أفاض عليكم العلم بأشياء ما كان لكم من أنفسكم أن تعلموا كما يفيده قوله تعالى : و( جعل لكم السمع والابصار والافئدة ) ( النحل : 78 ) وقوله : ( الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ) ( العلق : 5 ) ، فإن السياق كما عرفت ينافى ذلك . فالمراد بالآية تعليم ما ليس في وسع الإنسان بحسب الطرق المألوفة عنده التى جهز بها أن ينال علمه .

وليس إلا ما أوحاه الله سبحانه إلى أنبيائه وحملة وحيه بكتاب أو بغير كتاب من المعارف الإلهية والاحكام والشرائع فإنها هي التى لا تسع الوسائل العادية التى عند عامة الإنسان أن تنالها .

ومن هنا يظهر أن المخاطبين بهذا الكلام أعنى قوله : ( وعلمتم ما لم تعلموا ) الخ ، ليسوا هم المشركين إذا لم يكن عندهم من معارف النبوة والشرائع الإلهية شئ بين يعرفونه ويعترفون به والذى كانوا ورثوه من بقايا آثار النبوة من أسلاف أجيالهم ما كانوا ليعترفوا به حتى يصح

الاحتجاج به عليهم من غير بيان كاف وقد وصفهم الله بالجهل في أمثال قوله : ( وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله ) ( البقرة : 118 ) .

فالخطاب متوجه إلى غير المشركين ، وليس بموجه إلى المسلمين أما أولا : فلان السياق سياق الاحتجاج ، ولو كان الخطاب متوجها إليهم لكان اعتراضا في سياق الاحتجاج من غير نكتة ظاهرة .

وأما ثانيا : فلما فيه من تغيير مورد الخطاب ، والعدول من خطاب المخاطبين بقوله : ( من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى ) الخ ، إلى خطاب غيرهم بقوله : ( وعلمتم ) الخ ، من غير قرينة ظاهرة مع وقوع اللبس فالخطاب لغير المشركين والمسلمين وهم اليهود المخاطبون بصدر الآية .

*(193/241)*

---

فقد احتج الله سبحانه على اليهود القائلين : ( ما أنزل الله على بشر من شئ ) عنادا وابتغاء للفتنة من طريقين : أحدهما طريق المناقضة وهو أنهم مؤمنون بالتوراة وأنها كتاب جاء به موسى عليه السلام نورا وهدى للناس ويناقضه قولهم : ( ما أنزل الله على بشر من شئ ) ثم ذمهم على تقطيعها بقطعات يظهرون بعضها ويخفون كثيرا .

وثانيهما : أنكم علمتم ما لم يكن في وسعكم أن تعلموه أنتم من عند أنفسكم بالاكتساب ولا في وسع آبائكم أن يعلموه فيورثوكم علمه وذلك كالمعارف الإلهية والاخلاق الفاضلة والشرائع والقوانين الناظمة للاجتماع والمعدلة له أحسن نظم وتعديل الحاسمة لاعراق الاختلافات البشرية الاجتماعية فإنها وخاصة المواد التشريعية من بينها ليست مما ينال بالاكتساب ، والتى تنال منها من طريق الاكتساب العقلي كالمعارف الكلية الإلهية من التوحيد والنبوة والمعاد والاخلاق الفاضلة في الجملة لا يكفى مجرد ذلك في استقرارها في المجتمع الإنساني ، فمجرد العلم بشئ غير دخوله في مرحلة العمل واستقراره في المستوى العام الاجتماعي ، فحب التمتع من لذائذ المادة وغريزة استخدام كل شئ في طريق التوصل إلى الاستعلاء على مشتهيات النفس والتسلط التام على ما تدعو إليه أهواؤها لا يدع مجالا للإنسان يبحث فيه عن كنوز المعارف والحقائق المدفونة في فطرته ثم يبنى ويدوم عليها وفي مسير حياته وخاصة إذا استولت هذه المادية على المجتمع واستقرت في المستوى فإنها تكون لهم ظرفا يحصرهم في التمتعات المادية لا ينفذ في شئ من أقطاره شئ من الفضائل الإنسانية ولا يزال ينسى فيه ما بقى من إثاره الفضائل المعنوية الموروثة واحدا بعد واحد حتى يعود مجتمعهم مجتمعا حيوانيا ساذجا كما نشاهده في الظروف الراقية اليوم أنهم توغلوا في المادية واستسلموا للتمتعات الحسية فشغلهم ذلك في أوقاتهم بثوانيها وصرفهم عن الاخرة إلى الدنيا صرفا سلبهم الاشتغال

بالمعنويات ومنعهم أي تفكير في ما يسعدهم في حياتهم الحقيقية الخالدة .

ولم يضبط التاريخ فيما ضبطه من أخبار الأمم والملل رجلا من رجال السياسة والحكومة كان يدعو إلى فضائل الاخلاق الإنسانية والمعارف الطاهرة الإلهية وطريق التقوى والعبودية بل أقصى ما كانت تدعو إليه الحكومات الفردية الاستبدادية – هو أن يتمهد الأمر لبقاء سلطتها واستقامة الأمر لها ، وغاية ما كانت تدعو إليه الحكومات الاجتماعية – الديمقراطية وما يشابهها – أن ينظم أمر المجتمع على حسب ما يقترحه هوى أكثرية الافراد أيا ما اقترحه فضيلة أو رذيلة وافق السعادة الحقيقية العقلية أو خالفها غير أنهم إذا خالفوا شيئا من الفضائل المعنوية والكمالات والمقاصد العالية الإنسانية التى بقيت أسماؤها عندهم وألجاتهم الفطرة إلى إعظامها والاحترام لها كالعدل والعفة والصدق وحب الخير ونصح النوع الإنساني والرأفة بالضعيف وغير ذلك فسروها بما يوافق جارى عملهم والدائر من سنتهم كما هو نصب أعيننا اليوم .

وبالجملة فالعقل الاجتماعي والشعور المادى الحاكم في المجتمعات ليس مما يوصل الإنسان إلى هذه المعارف الإلهية والفضائل المعنوية التى لا تزال المجتمعات الإنسانية على تنوعها

وتطورها تتضمن أسماء كثيرة منها واحترام معانيها وأين الاخلاد إلى الأرض من الترفع عن المادة والماديات .

فليست إلا آثارا وبقايا من الدعوة الدينية المنتهية إلى نهضات الأنبياء ومجاهداتهم في نشر كلمة الحق وبث دين التوحيد وهداية النوع الإنساني إلى سعادته الحقيقية في حياته الدنيوية والاخروية جميعا فهى منتهية إلى تعليم إلهى من طريق الوحى وإنزال الكتب السماوية .

*(195/241)*

---

فقوله تعالى : ( وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ) احتجاج على اليهود في رد قول القائل منهم : ( ما أنزل الله على بشر من شئ ) بأن عندكم من العلم النافع ما لم تنالوه من أنفسكم ولا ناله ولا ورثه آباؤكم بل إنما علمتم به من غير هذا الطريق وهو طريق إنزال الكتاب والوحى من قبل الله على بعض البشر فقد أنزل الله على بعض البشر ما علمه وهو المعارف الحقة وشرائع الدين ، وقد كان عند اليهود من هذا القبيل شئ كثير ورثوه من أنبيائهم وبثه فيهم كتاب موسى .

وقد ظهر مما تقدم أن المراد بقوله : ( وعلمتم ما لم تعلموا ) مطلق ما ينتهى من المعارف والشرائع إلى الوحى والكتاب لا خصوص ما جاء منه في كتاب موسى عليه السلام وإن كان

الذى منه عند اليهود هو معارف التوراة وشرائعه خلافا لبعض المفسرين .

وذلك أن لفظ الآية لا يلائم التخصيص فقد قيل : ( وعلمتم ما لم تعلموا ) الخ ، ولم يقل وعلمتم به أو وعلمكم الله به .

وقد قيل : ( وعلمتم ) الخ ، من غير فاعل التعليم لأن ذلك هو الانسب بسياق الاستدلال لأن ذكر الفاعل في هذا السياق أشبه بالمصادرة بالمطلوب فكأنه قيل : إن فيما عندكم علوما لا ينتهى إلى اكتسابكم أو اكتساب آبائكم فمن الذى علمكم ذلك ؟ ثم أجيب عن مجموع السؤالين بقوله : الله عز اسمه .

قوله تعالى : ( قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ) لما كان الجواب واضحا بينا لا يداخله ريب ، والجواب الذى هذا شأنه يسوغ للمستدل السائل أن يتكلفه ولا ينتظر المسؤول المحتج عليه ، أمر تعالى نبيه ( صلى الله عليه وآله وسلم ) أن يتصدى هو الجواب فقال : ( قل الله ) أي الذى أنزل الكتاب الذى جاء به موسى والذى علمكم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم هو الله .

*(196/241)*

ولما كان القول بأن الله لم ينزل على بشر شيئا من لغو القول وهزله الذى لا يتفوه به إلا خائض لاعب بالحقائق وخاصة إذا كان القائل به من اليهود المعترفين بتوراة موسى والمباهين بالعلم والكتاب أمره بأن يدعهم وشأنهم فقال : ( ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الميزان حـ 7 صـ 268 . 278 ﴾

*(197/241)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

" حَقّ قَدْرِهِ " منصوب على المَصْدَرِ ، وهو في الأصل صِفَةٌ للمصدر ، فلما أضيف الوصف إلى موصوفه انْتَصَبَ على مَا كَانَ يَنْتَصِبُ عليه مَوْصُوفُهُ ، والأصل قدره الحقّ كقولهم : " جَرْد قَطِيفَة وسحق عمامة " .

وقرأ الحسنُ البَصْرِيُّ " ، وعيسى الثقفي : " قَدَّروا " بتشديد الدَّال " قدَره " بتحريكها ، وقد تقدَّم أنهما لُغَتَانِ .

قوله : " إذْ قَالُوا " مَنْصُوبٌ بـ " قدروا " ، وجعله ابن عطية منصوباً بـ " قدره " [ وفي كلام ابن عطية ما يشعر بأنها ] للتعليل ، و " من شيء " مفعول به زيدت فيه " من " لوجود شَرْطَي

الزيادة.

قوله: ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الكتاب الذي جَآءَ بِهِ موسى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاس ﴾

وصف الكتاب بصفتين:

أحدهما: قوله: "نوراً" وهو مَنْصُوبٌ على الحال، وفي صاحبها وجهان:

أحدهما: أنه "الهاء" في "به"، فالعامل فيها "جاء".

والثاني: أنه "الكتاب"، فالعامل فيه "أنزل"، و"للناس" صِفَةٌ لـ"هدى" وسمَّاه "نوراً" تشبيهاً له بالنُّورِ الذي يبين به الطريق.

فإن قيل: فعلى هذا لا يَبْقَى بَيْنَ كونه نوراً، وبين كونه هُدًى للناس فَرْقٌ، فعطف أحدهما على الآخر يوجب التَّغَايُرَ.

فالجواب: أن للنور صفتان:

أحدهما: كونه في نَفْسِه ظَاهراً جَلِيًّا.

والثانية: كونه بحيث يكون سَبَباً لظهور غيره، فالمراد من كونه "نوراً وهدى" هذان الأمران وقد وُصِفَ القرآن أيضاً بهذين الوصفْينِ، فقال: ﴿ ولكن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: 52].

قوله: "تَجْعَلُونَهُ" قرا ابن كثير وابن عمرو بياء الغَيْبَةِ، وكذلك "يُبْدُونَهَا ويُخفُون كَثِيراً"

والباقون بتاء الخطاب في الثلاثة الأفعال ، فأما الغَيْبَةُ فِللحَمْلِ على ما تقدم من الغَيْبةِ في قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا ﴾ إلى آخره .

(198/241)

---

وعلى هذا فيكون في قوله : " وعُلِّمْتُمْ " تأويلان :

أحدهما : أنه خطاب لهم أيضاً وإنما جاء به على طريق الالْتِفَاتِ .

والثاني : أنه خطابٌ إلى المؤمنين اعترض به بين الأمر بقوله : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الكتاب ﴾ وبين قوله : " قل الله " .

وأما القراءة بتاء الخطاب ففيها مناسبة لقوله : " وعلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ " ورَجَّحَهَا مكي وجماعة كذلك قال مكي : " وذلك حَسَنٌ في المُشَاكَلَةِ والمُطَابَقَةِ ، واتِّصالِ بعض الكلام ببعض ، وهو الاختيار لذلك ، ولأن أكثر القراء عليه " .

قال أبو حيَّان : " ومن قال : إن المكرين العرب ، أو كفار قريش لم يكن جَعْلُ الخطاب لهم ، بل يكون قد اعترض بني إسرائيل فقال خلال السُّؤال والجواب : تجعلونه قراطيس [ يبدونها ] ، ومثل هذا يَبْعُدُ وُقُوعُهُ ؛ لأن فيه تَفْكِيكاً للنَّظْمِ ، حيث جعل أول الكلام خِطَاباً لكفار قريش ، وآخره خطاباً لليهود " .

قال : " وقد أجيب بالجميع لما اشتركوا في إنكار نُبُوَّةِ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بَعْضُ الكلام خِطَاباً للعرب وبعضه خطاباً لبني إسرائيل " .

قوله : " تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ " : يجوز أن تكون " جعل " بمعنى " صَيَّرَ " وأن تكون بمعنى " ألقى " أي : يضعونه في كَاغدٍ .

وهذه الجملة في محلِّ نصب على الحال ، إما من " الكتاب " وإما من " الهاء " في " به " كما تقدم في " نوراً " .

قوله : " قَرَاطِيس " فيه ثلاثة أوجه :

والثاني : أنه على حذف مضاف ، أي : يجعلونه ذَا قَرَاطِيسَ .

والثالث : أنهم نَزَّلوه مَنْزِلَةَ القراطيس ، وقد تقدم تفسير القراطيس .

والجملة من قوله : " تبدونها " في محل نصب صِفَةً لـ " قراطيس " وأما " تخفون " فقال أبو البقاء : إنها صفة أيضاً لها ، وقدر ضميراً محذوفاً ، أي : تخفون منها كثيراً .

وأما مكي فقال : " وتخفون " متبدأ لا مَوْضِعَ له من الإعراب . انتهى .

*(199/241)*

كأنه لما رأى خُلُوَّ الجملة من ضمير يَعُودُ على " قراطيس " منع كونه صِفَةً ، وقد تقدم أنه مُقَدَّرٌ ، وهو أولى ، وقد جوَّز الواحدي في " تبدون " أن يكون حالاً من ضمير " الكتاب " من قوله : " تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيس " على أنه يجعل الكتاب القراطيس في معنى ؛ لأنه مُكْتَتَبٌ فيها .

انتهى .

قوله : " عَلَى أَنْ تَجْعَلَ " اعْتِذَارٌ عن مجيء خبره مُؤَنَّثاً ، وفي الجملة فهو بعيد أو ممتنع .

قوله : " وعُلِّمْتُمْ " يجوز أن يكون على قراءة الغيبة في " يَجْعَلُونه " ، وما عطف مُسْتَأنفٌ ، وأن يكون حالاً ، وإنما أتى به مُخَاطباً لأجل الالْتفاتِ ، وأما على قراءة تاء الخطاب فهو حالٌ ، ومن اشترط " قد " في الماضي الواقع حالاً أضمرها هنا ، أي : وقد علمتم ما لم تعلموا .

قوله : ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ يجوز أن يكون " فِي خَوْضِهِمْ " متعلقاً بـ " ذرهم " ، وأن يتعلق بـ " يلعبون " ، وأن يكون حالاً من مفعول " ذَرْهُمْ " وأن يكون حالاً من فاعل " يلعبون " [ فهذه أربعة أوجه ] وأما " يلعبون " فيجوز أن يكون حالاً من مفعول " ذرهم " .

ومن منع أن تتعدَّد الحال لواحد لم يُجزِء حينئذ أن يكون " في خوضهم " حالاً من مفعول " ذرهم " ، بل يجعله إما متعلقاً بـ " ذرهم " ، كما تقدَّم أو بـ " يلعبون " ، أو حالاً من فاعله .

ويجوز أن يكون " يلعبون " حالاً من ضمير " خوضهم " وجاز ذلك أنه في قُوَّةِ الفاعل ؛ لأن

المصدر مُضاف لفاعله ؛ لأن التقدير : " ذرهم يخوضون لاَعِبينَ " وأن يكون حالاً من الضمير في " خوضهم " إذا جعلناه حالاً ؛ لأنه يتضَمَّنُ معنى الاسْتِقْرارِ ، فتكون حالاً متدخلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 274.282 ﴾ .

باختصار .

(200/241)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (91) ﴾

مَنْ توهَّم أَنْ العلومَ تحيط بجلاله فالإحاطة غير سائغة في نعته ، كما أنَّ الإدراك غير جائزٍ في وصفه ، وكما أن الإشراف مُحالٌ على ذاته .

ثم قال : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا ﴾ أي سَلْهم عن الأحوال ، وخاطِبْهم في معاني أحكام الرسول والأطلال ، فَإِنْ بقوا في ظلمة ( الحيرة ) فَقُلْ : الله تعالى

، ثم ذَرْهُم . يعني صَرِّح بالإخبار عن التوحيد ، ولا يهولنَّك تماديهم في الباطل ، فإنَّ تمويهاتِ الباطلِ لا تأثير لها في الحقائق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 488 ﴾

(201/241)

---

" فصل في ذكر العزلة "

قال ابن الجوزى :

المجلس الثامن في ذكر العزلة

الحمد لله الواحد القديم الجبار القادر العظيم القهار والمتعالي عن درك الخواطر والأفكار المنفرد بالعز والقهر والاقتدار الذي وسم كل مخلوق بسمة الافتقار فأظهر آثار قدرته بتصرف الليل والنهار سميع يسمع لا كالأسماع بصير يبصر لا كالأبصار قادر مريد حكيم عليم بالأسرار يبصر دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على القار ويسمع أنين المدنف يشكو ما به من أضرار كلم موسى كفاحاً لما قضى الأجل وسار ورآه نبينا ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ دل على ذلك القرآن والأخبار ويراه المؤمنون إذا نزلوا دار القرار صفاته كذاته والمشبهة كفار نقر وغر وأرباب البحث في خسار هذا سيف السنة فتناوله باليمين لا باليسار واضرب به كف كيف ورأس لم وعنق ثم وخذ للتنزيه من التشبيه بالثار ( أمن

أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار )

أحمده في الإعلان والإسرار وأشهد بوحدانيته بأصح إقرار وأصلي على رسوله محمد سيد الأنبياء الأطهار وعلى أبي بكر رفيقه في الدار والغار وعلى عمر قامع الكفار وعلى عثمان شهيد الدار وعلى علي قسيم النار وعلى عمه العباس آخذ البيعة ليلة العقبة على الأنصار

*(202/241)*

---

أخبرنا عبد الأول بسنده عن عطاء بن يزيد عن أبي سعيد الخدري قيل يا رسول الله أي الناس خير قال رجل يجاهد بنفسه وماله ورجل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره أخرجاه في الصحيحين أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد البزار قال أنبأنا رزق الله بن عبد الوهاب بسنده عن عبد العزيز أبي حازم عن أبيه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ إن من خير معايش الناس لهم رجل ممسك بعنان فرسه يطير على متنه كلما سمع هيعة أو قرعة طار على متن فرسه يلتمس الموت والقتل مكانه ورجل في رأس شعفة من الشعاف أو بطن واد من هذه الأودية يقيم الصلاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ليس من الناس إلا في سبيل خير قال أبو عبيدة الهيعة الصوت قال الطرماح ( أنا

ابن حماة المجد من آل مالك

إذا جعلت خور الرجال تهيع

والخور جمع خوار وهو الضعيف والشعفة واحدة الشعاف وهي رؤوس الجبال وهي الشماريخ والشناخيب واحدها شنخوبة وروي عن عقبة بن عامر قال قلت يا رسول الله ما النجاة قال املك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك

*(203/241)*

---

قال الشيخ وهذه الأحاديث تدل على فضل العزلة وقد كان السلف يؤثرونها ويمدحونها فقال عمر بن الخطاب خذوا بحظكم من العزلة وقال سعد بن أبي وقاص والله لوددت أن بيني وبين الناس باباً من حديد لا يكلمني أحد ولا أكلمه حتى ألحق بالله تعالى وقال ابن مسعود لأصحابه كونوا ينابيع العلم مصابيح الليل أحلاس البيوت جدد القلوب خلقان الثياب تعرفون في أهل السماء وتخفون على أهل الأرض وقال أبو الدرداء نعم صومعة الرجل بيته يكف فيها بصره ولسانه وإياكم والسوق فإنها تلهي وتلغي وقال ابن عباس لولا مخافة الوسواس لرحلت إلى بلاد لا أنيس بها وهل يفسد الناس إلا الناس كان أبو جهم الأنصاري بدرياً وكان لا يجالس الناس وكان يعتزل في بيته فقالوا له لو جالست الناس

وجالسوك فقال وجدت مقاربة الناس شراً وقال أبو حذيفة والله لوددت أن لي إنساناً يكون في مالي ثم أغلق علي باباً فلا يدخل علي أحد حتى ألحق بالله عز وجل وقال الحسن صوامع المؤمنين بيوتهم وقال سعيد بن المسيب وابن سيرين العزلة عبادة وقال عمر بن عبد العزيز إذا رأيتم الرجل يطيل الصمت ويهرب من الناس فاقربوا منه فإنه يلقى الحكمة

*(204/241)*

---

وكان عثمان بن أبي دهرش إذا رأى الفجر أقبل عليه بثه وقال الآن أصير مع الناس فلا أدري ما أجني على نفسي وقال داود الطائي فر من الناس كما تفر من الأسد وأوصى سفيان الثوري بعض أصحابه فقال إن استطعت أن لا تخالط في زمانك هذا أحدا فافعل وليكن همك مرمة جهازك وكان يقول هذا زمان السكوت ولزوم البيوت وجاء رجل إلى الفضيل فجلس إليه فقال ما أجلسك إلي فقال رأيتك وحدك فقال إما أن تقوم عني وإما أن أقوم عنك فقال أنا أقوم أوصني فقال أخف مكانك واحفظ لسانك وجاء رجل إلى شعيب بن حرب فقال ما جاء بك فقال جئت أونسك فقال أنا أعالج الوحدة منذ أربعين سنة وقال مالك بن أنس كان الناس الذين مضوا يحبون العزلة والانفراد من الناس وقال بشر الحافي من عامل الله بالصدق استوحش من الناس وقد كان أحمد بن حنبل يحب العزلة وإبراهيم بن

أدهم وسليمان الخواص ويوسف بن أسباط وحذيفة المرعشي في خلق كثير واعلم أن العزلة لا ينبغي أن تقطع عن العلم والجماعات ومجالس الذكر والاحتراف للعائلة وإنما ينبغي أن يعتزل الإنسان ما يؤذي وقد يخاف من المخالطة المباحة أذى فيجتهد الإنسان في ترك ما يخاف عواقبه

ويبعد حضور القلب مع المخالطة للناس إلا أن يكون لمعنى وقد قال شعيب بن حرب الناس ثلاثة رجل تعلمه فيقبل منك ورجل تتعلم منه واهرب من الثالث وقد كان الثوري يقول أقل من معرفة الناس وقال إبراهيم بن أدهم لا تتعرف إلى من لا تعرف وأنكر من تعرف

( إني نظرت إلى الزمان

وأهله نظرا كفاني

( فعرفته وعرفتهم

وعرفت عزي من هواني

( فحملت نفسي بالقناعة

عنهم وعن الزمان

( وتركتها بعفافها

والزهد في أعلى مكان

( فلذاك أجتنب الصديق

فلا أراه ولا يراني

( فتعجبوا لمغالت

وهب الأقاصي والأداني

( وانسل من بين الزحام

فما له في الخلق ثاني

*(205/241)*

---

وفصل الخطاب في هذا أن الناس على ضربين عالم وعابد فالعالم لا ينبغي له أن ينقطع عن نفع الناس فإنه خلف الأنبياء وليعلم أن هداية الخلق أفضل من كل عبادة وفي الصحيحين أن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ قال لعلي عليه السلام والله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم فمتى ما جاء الشيطان فحسن للعالم الانقطاع عن الخلق في الجملة فذاك خديعة منه ولقد حسن لكثير من السلف

دفن كتبهم ومحو علمهم وهذا من الخطأ العجيب بل ينبغي للعالم أن يعتزل عن شر من يؤذي ويبرز لمن يستفيد فظهوره أفضل من إخفائه فأما إن كان عابدا فالعابد لا ينافس في هذا فإن من القوم من شغلته العبادة كما روي أن الحسن رأى رجلا متعبدا فأتاه فقال يا عبد الله ما

يمنعك من مجالسة الناس قال ما أشغلني عن الناس قال فما منعك أن تأتي الحسن فقال ما أشغلني عن الحسن قال فما الذي شغلك عن الحسن قال إني أمسي وأصبح بين ذنب ونعمة فرأيت أن أشغل نفسي بالاستغفار للذنب والشكر لله تعالى على النعمة فقال له أنت عندي أفقه من الحسن وقال رجل لعامر بن قيس قف فكلمني فقال أمسك الشمس ومن القوم من استغرقته محبة الله تعالى والأنس به فاستوحش من الخلق قيل لغزوان الزاهد لو جالست إخوانك فقال إني أصيب راحة قلبي في مجالسة من عنده حاجتي ( تعبي راحتي

وأنسى انفرادي

وشفائي الضنا ونومى سهادي

( لست أشكو بعاد من صد عني

أي بعد وقد ثوى في فؤادي

( هو يختال بين قلبي وعيني

هو ذاك الذي يرى في السواد

*(206/241)*

فهؤلاء عزلتهم أصلح لهم بل لا ينبغي أن تشغلهم العزلة عن الجماعات ومجالسة العلماء فإن فعلوا كان ذلك من الشيطان وإنما نأمر العوام باعتزال الشر فحسب فإنه الجهاد في حقهم واعلم أن السمع يوصل إلى القلب خبر المسموعات والبصر خبر المنظورات ورب نظرة نقشت في القلب صورة فبعد محوها فإن الإنسان ليمشي في الأسواق فيتغير قلبه والعزلة توجب السلامة من ذلك وقد كان في الصالحين من إذا خرج للسوق فكسب ما يكفيه قام إلى المسجد فالبدار البدار إلى حفظ القلوب بالعزلة عن كل ما يؤذي

الكلام على البسملة

(ما عذر من جر عاصيا رسنه

ما عذره بعد أربعين سنة

(أكلما طالت الحياة به

أطال عن أخذ حذره وسنه

(قل لي إذا مت كيف تنقص من

سيئة أو تزيد في حسنه

يا مريضا ما يعرف أوجاعه يا مضيع العمر بالساعة والساعة يا كثير الغفلة وقد دنت الساعة يا ناسياً ذكر النار إنها لنزاعة كأنه وملك الموت قد أزعجه وأراعه وصاح بالنفس صيحة فقالت سمعاً وطاعة ونهضت تعرض كاسد التوبة وهيهات غلق الباعة يا سيئ

النظر لنفسه في وجه شمس فهمك غيم بين دائك ودوائك حجاب لو أهمتك نفسك سعيت

لها في الخلاص لو رضيت بالبلغة ما استرهن قلبك كسب الحطام لو قنعت كلاب الصيد

بالمنبوذ ما كانت السواجير في حلوقها ( طلبتك يا دنيا فأعددت في الطلب

فما نلت إلا الهم والغم والنصب

( فلما بدا لي أنني لست واصلاً

إلى لذة إلا بأضعافها تعب

( وأسرعت في ذنبي ولم أقض شهوتي

هربت بديني منك إن نفع الهرب

( تسربلت أخلاقي قنوعا وعفة

فعندي بأخلاقي كنوز من الذهب

( ولم أر حظا كالقنوع لأهله

وأن يجمل الإنسان ما عاش في الطلب

يا من قد مال بالآمال إلى جمع المال كأنك به إلى غيرك قد مال واعجبا بالحرص تجمعونه

وبالأمل تحفظونه وبالغفلة تأكلونه وفي الهوى تصرفونه المال نعمة فمن أنفق بعضه في الخير أقام

للباقي حارسا إذا سمعت النعمة نغمة الشكر ألبت ولبت

بالمزيد واذا لم تشكر وقد وفرت نفرت وما كل شارد بمردود واعجباه ممن فرح بلذة يعلم سرعة زاولها وأعجب من ذلك الحساب عليها ( أشد الغم عندي في سرور

تيقن عنه صاحبه زوالا

أين من لبس الحرير والقز وحرك الجواد تحته وهز وتعاظم على أبناء جنسه وعز وقهر وغلب وسلب وبز ذبحه سيف المنون وما قطع ولا حز فتسلب الحبيب بعد فراقه وجز وأكله الدود وقد كان يستزري الأوز بينا هو قد ركض في أغراضه وكر خر فقيل كيف بات قيل مر فألبسه الغاسل ثوبا لا كفه ولا زر فرحل عن داره التي بها اغتر واستعمل الحفار لتمهيد لحده المر واستلبه جذباً عنيفاً وجر ورجع أهله لا يقدرون له على نفع ولا ضر وندم حين سكن البر إذ ما اتقى ولا بر وطولب بما أعلن من عمل وأسر ووجد الله وقد أحصى عليه الذر وبقي مكانه أسيراً لا يرى إلا الشر ( هذي منازلهم وقد رحلوا

وعلى الكراهة غيرها نزلوا

( رحلوا وأبقوها لغيرهم

إن المنازل والغنى دول

( شادوا مبانيها وما سكنوا

إلا نزول الضيف وانتقلوا

( وتفرقت عنهم أقاربهم

وجنودهم وخلوا بما عملوا

( يا آمل الدنيا وقد عصفت

بالناس قبلك خانك الأمل

( أتروم جهلا أن تقيم بها

ووراءك الأيام والأجل

يا هذا إذا أسلمك الأتراب تسلمك التراب كيف يفرح بحياته من يعلم أنها مطية مماته يا من هجم الشيطان عليه وهو في بادية المخالفة فسباه فباعه فاشتراه الهوى بثمن بخس تالله لو كنت في حصن التقى ما قدر عليك إلى كم يستخدمك الهوى وأنت حر طال تشبهك في التشبط بزحل فانهض بحركة عطارد في الهرب مما يؤذي تعرض لجياد المجاهدين لعل بعضهم يستصحبك أما بلغك لطف هل من سائل أما سمعت عفو هل من تائب (

وتذنبون فنأتيكم فنعتذر

لا تيأس فباب الرجاء مفتوح لا تلق بيدك فعلم القبول يلوح ( عسى وعسى من بعد طول التفرق

على كل ما نرجو من العيش نلتقي

( ولو ظفرت عيني برؤياك ساعة

لكنت على عيني من العين أتقي

(208/241)

---

إخواني ليس كل من قال أنا تائب كان تائبا إنما التائب من صبر على فقد الأغراض صبر السحرة على الصلب واعتذر من جناياته اعتذار النابغة إلى النعمان وخضع خضوع الجرب للطالي وتضرع تضرع الصبي إلى المؤدب لا تنأ وإن طردت ولا تبرح وإن زجرت ( إذا

هجروا عزا وصلنا تذللا

وإن بعدوا يأسا قربنا تعللا

( وإن أغلقوا بالهجر أبواب وصلهم

وقالوا ابعدوا عنا طلبنا التوصلا

وإن منعونا أن نجوز بأرضهم

ولم يسمعوا الشكوى وردوا التوسلا

( أشرنا بتسليم وإن بعد المدى

إليهم وكلفنا الرياح لتحملا

الكلام على قوله تعالى ( تتجافى جنوبهم عن المضاجع

تتجافى أي ترتفع والآية في قوام الليل أخبرنا هبة الله بن محمد بسنده عن معاذ بن جبل عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ ( تتجافى جنوبهم عن المضاجع ) قال قيام العبد من الليل قال أحمد وحدثنا علي بن عبد الله بسنده عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ ثلاثة يضحك الله إليهم رجل يقوم من الليل والقوم قد صفوا للصلاة والقوم إذا صفوا للقتال قال أحمد وحدثنا روح وعفان قال أنبأنا حماد بن سلمة قال أخبرنا عطاء ابن السائب عن مرة عن ابن مسعود عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال عجب ربنا من رجلين رجل ثار عن وطائه ولحافه من بين حبه وأهله إلى صلاته فيقول ربنا يا ملائكتي انظروا إلى عبدي ثار من فراشه ولحافه من بين حبه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندي وشفقه مما عندي ورجل غزا في سبيل الله عز وجل فانهزم فعلم ما عليه في الفرار وماله الرجوع فرجع حتى أهريق دمه فيقول الله عز وجل انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي ورهبة مما عندي حتى أهريق دمه وروى أبو أمامة رضي الله عنه عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال عليكم بقيام الليل فإن دأب الصالحين قبلكم وهو قربة إلى ربكم ومغفرة للسيئات ومنهاة عن الإثم

وقال الحسن البصري لم أجد من العبادة شيئا أشد من الصلاة في جوف هذا الليل وقال أنس بن مالك رضي الله عنه فينا نزلت معاشر الأنصار ( تتجافى جنوبهم عن المضاجع ) كنا نصلي المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلي العشاء مع النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ واعلم أن السلف كانوا في قيام الليل على سبع طبقات الطبقة الأولى كانوا يحيون كل الليل وفيهم من كان يصلي الصبح بوضوء العشاء وكان ابن عمر يحيي الليل ومن القوم سعيد بن المسيب وصفوان بن سليم المدنيان وفضيل بن عياض ووهيب ابن الورد المكيان وطاووس ووهب ابن منبه اليمنيان والربيع بن خثيم والحكم الكوفيان وأبو سليمان الداراني وعلي ابن بكار الشاميان وأبو عبيد الله الخواص وأبو عاصم البغداديان ومنصور ابن زاذان وهشيم الواسطيان وحبيب أوب محمد وأبو جابر السلماني الفارسيان ومالك ابن دينار وسليمان التيمي ويزيد الرقاشي وحبيب بن أبي ثابت ويحيى البكاء البصريون الطبقة الثانية كانوا يقومون شطر الليل منهم عبد الله بن عباس قال ابن أبي مليكة صحبته وكان يقوم شطر الليل يكثر في ذلك والله التسبيح الطبقة الثالثة كانوا يقومون ثلث الليل وفي الصحيحين من حديث عبد الله ابن عمر عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال أحب الصلاة إلى الله عز وجل صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه

وفي حديث عمرو بن عبسة عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله عز وجل في تلك الساعة فكن وروي أن داود عليه السلام قال يا رب أي ساعة أقوم لك فأوحى الله عز وجل إليه لا تقم أول الليل ولا آخره ولكن قم في وسط الليل حتى تخلو بي وأخلو بك وارفع إلي حوائجك وسأل داود عليه السلام جبريل عليه السلام أي الليل أفضل فقال ما أدري إلا أن العرش يهتز في السحر الطبقة الرابعة كانوا يقومون سدس الليل أو خمسه الطبقة الخامسة كانوا لا يراعون التقدير وإنما كان أحدهم يقوم إلى أن يغلبه النوم فينام فإذا انتبه قام قال سفيان الثوري إنما هي أول نومة فإذا انتبهت فلا أقيلها الطبقة السادسة قوم كانوا يصلون من الليل أربع ركعات أو ركعتين وقد روينا عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال صلوا من الليل ولو أربعا صلوا ولو ركعتين وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا جميعا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات الطبقة السابعة قوم يحيون ما بين العشاءين ويصلون في السحر فيجمعون بين الطرفين

---

وفي أفراد مسلم من حديث جابر رضي الله عنه عن النبي ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أنه قال إن في الليل لساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيرا إلا آتاه إياه وذلك كل ليلة ومن أراد قيام الليل فلا يكثر من الأكل والشرب ولا يتعب أعضاءه في النهار بالكد ولا يعمل معصية وليستعن بالقيلولة وأما آداب الباطن فأن يكون القلب سليما للمسلمين ولا بد له من خوف مقلق أو شوق مزعج كان شداد بن أوس إذا أوى إلى فراشه كأنه حبة على مقلى ثم يقول اللهم إن جهنم لا تدعني أنام فيقوم إلى مصلاه وكان طاووس يفرش فراشه ثم يضطجع فيتقلى كما تتقلى الحبة على المقلى ثم يثب فيتطهر ويستقبل القبلة حتى الصباح ويقول طير ذكر جهنم نوم العابدين وقالت بنت الربيع بن خثيم له يا أبت مالي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام فقال يا بنية إن أباك يخاف البيات وقالت أم عمر بن المنكدر يا بني أشتهي أن أراك نائما فقال يا أماه والله إن الليل ليرد علي فيهولني فينقضي عني وما قضيت منه أربي وكان زمعة العابد يقوم فيصلي ليلا طويلا فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته يا أيها الركب المعرسون أكل هذا الليل ترقدون ألا تقومون فترحلون فيسمع من ها هنا باك ومن ها هنا

داع ومن ههنا متوضىء فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته يقول عند الصباح يحمد القوم السرى

(212/241)

---

أخبرنا أبو بكر بن حبيب بسنده عن أحمد بن أبي الحواري قال دخلت على أبي سليمان وهو يبكي فقلت له ما يبكيك فقال لي يا أحمد ولم لا أبكي وإذا جن الليل ونامت العيون وخلا كل حبيب بحبيبه وافترش أهل المحبة أقدامهم وجرت دموعهم على خدودهم وقطرت في محاريبهم أشرف الجليل سبحانه وتعالى فنادى جبريل بعيني من تلذذ بكلامي فلم لا تنادي فيهم ما هذا البكاء هل رأيتم حبيبا يعذب أحبابه أم كيف يجمل بي أن أعذب قوما إذا جنهم الليل تملقوني فبي حلفت إذا وردوا علي في القيامة لأكشفن لهم عن وجهي الكريم حتى ينظروا إلى وأنظر إليهم وقال أحمد بن أبي الحواري أيضا سمعت أبا سليمان يقول بينا أنا ساجد ذهب بي النوم فإذا أنا بحوراء قد ركضتني برجلها وقالت حبيبي أترقد والملك يقظان ينظر في المتهجدين في تهجدهم بؤسا لعين آثرت لذة نومة على لذة مناجاة العزيز قم فقد دنا الفراغ ولقي المحبون بعضهم بعضا فما هذا الرقاد حبيبي وقرة عيني أترقد عيناك وأنا أربي لك في الخدور فوثبت فزعا وقد عرقت استحياء من توبيخها إياي وإن

حلاوة منطقها لفي سمعي وقلبي وكان أبو بكر رضي الله عنه لقصر أمله يوتر أول الليل وعمر لتأميل الخدمة يؤخره إلى آخر الليل وعثمان يتهجد في آناء الليل وعلي يستغفر في أواخر الليل قام القوم على أقدام ( قم الليل ) فبان في القوم سر ( وتقلبك في الساجدين ) لولا قيام تلك الأقدام ما كان يؤدي حق هل من سائل يا غافلين عما نالوا لقد ملتم عن التقى وما مالوا قاموا في غفلات الراقدين فقوبلوا بجزاء لم يطلع عليه الغير غيرة لهم

*(213/241)*

---

ما أطيب أملهم في المناجاة ما أقربهم من طريق النجاة ما أقل ما تعبوا وما أيسر ما نصبوا وما كان إلا القليل ثم نالوا ما طلبوا لو ذاق الغافل شراب أنسهم في الظلام أو سمع الجاهل صوت حنينهم في القيام وقد نصبوا لما انتصبوا له الأقدام وترنموا بأشرف الذكر وأحلى الكلام وضربوا على شواطىء أنهار الصدق الخيام وركزوا على باب اليقين بالحق الأعلام وزموا مطايا الشوق إلى دار السلام وسارت جنود حبهم والناس في الغفلة نيام وشكوا في الأسحار ما يلقون من وقع الغرام ووجدوا من لذة الليل ما لا يخطر على الأوهام وإذا أسفر النهار تلقوه بالصيام وصابروا الهواجر بهجر الشراب وترك الطعام وتدرعوا دروع التقى خوفا من الزلل والآثام فنورهم يخجل شمس الضحى ويزري بدر التمام فلأجلهم تنبت

الأرض ومن جراهم يجري الغمام وبهم يسامح الخطاؤون ويصفح عن أهل الإجرام فإذا نازلهم الموت طاب لهم كأس الحمام وإذا دفنوا في الأرض فخرت بحفظها تلك العظام فعلى الدنيا إذا ماتوا من بعدهم السلام ( تتجافى جنوبهم

عن لذيذ المضاجع

( كلهم بين خائف

مستجير وطامع

( تركوا لذة الكرى

للعيون الهواجع

( ورعوا أنجم الدجى

طالعا بعد طالع

( واستهلت دموعهم

بانصباب المدامع

( فأجيبوا إجابة

لم تقع في المسامع

( ليس ما تصنعونه

أو ليأتي بضائع

( تاجروني بطاعتي

تربحوا في البضائع

وابذلوا لي نفوسكم

إنها في ودائعي

لو رأيت رياح الأسحار تحرك أشجار القلوب فتقع ثمار المحبة يا لذة خلوتهم بالحبيب يا وفور نصيبهم من ذلك النصيب ( هبت رياح وصالهم سحرا

لحدائق الأشواق في قلبي

( واهتز عود الوصل من طرب

وتساقطت ثمر من الحب

( ومضت خيول الهجر سادرة

مطرودة بعساكر القرب

( وبدت شموس الوصل خارقة

بشعاعها لسرادق الحجب

( وصفا لنا وقت أضاء به

وجه الرضا عن ظلمة العتب

( وبقيت ما شيء أشاهده

إلا ظننت بأنه حبي

السجع على قوله تعالى ( تتجافى جنوبهم عن المضاجع

(214/241)

---

لو رأيتهم بين ساجد وراكع وذليل مخمول متواضع ومنكسر الطرف من الخوف خاشع فإذا جن الليل حن الجازع ( تتجافى جنوبهم عن المضاجع ) نفوسهم بالمحبة علقت وقلوبهم بالأشواق فلقت وأبدانهم للخدمة خلقت يقومون إذا انطبقت أجفان الهاجع ( تتجافى جنوبهم عن المضاجع ) يبادرون بالعمل الأجل ويجتهدون في سد الخلل ويعتذرون من ماضي الزلل والدمع لهم شافع ( تتجافى جنوبهم عن المضاجع ) سبق والله القوم بكثرة الصلاة والصوم فإذا أقبل الليل حاربوا النوم والعزم في الطوالع ( تتجافى جنوبهم عن المضاجع )

ينادي منادي تائبهم لا أعود والمنعم ينعم بالقبول ويجود هم والله من الكون المقصود فما حيلة المطرود والمعطي مانع ( تتجافى جنوبهم عن المضاجع ) كن يا هذا رفيقهم ولج وإن شق مضيقهم واسلك ولو يوما طريقهم فالطريق واسع ( تتجافى جنوبهم عن المضاجع )

اهجر بالنهار طيب الطعام ودع في الدجى لذيذ المنام وقل لأغراض النفس سلام والله يدعو

إلى دار السلام فما يقعد السامع ( تتجافى جنوبهم عن المضاجع ) يا من يرجو مقام الصالحين وهو مقيم مع الغافلين ويأمل منازل المقربين وهو ينزل مع المذنبين دع هذا الواقع الصدق الصدق فيه تسلم الجد الجد فيه تغنم البدار البدار قبل أن تندم هذا هو الدواء النافع ( تتجافى جنوبهم عن المضاجع ) والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التبصرة / لابن الجوزى حـ 2 صـ 310.326 ﴾

*(215/241)*

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والأربعون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

*(3/242)*

---

الجزء الثانى والأربعون بعد المائتين

من الآية ﴿ 92 ﴾ من سورة الأنعام

وحتى الآية ﴿ 94 ﴾ من نفس السورة

*(4/242)*

---

قوله تعالى ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (92) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أثبت سبحانه أنه الذي أنزل التوراة والإنجيل تكميلاً لإثبات الرسالة بدليل علم اليهود دون من لا كتاب لهم ، عطف على ذلك قوله تأكيداً لإثباتها وتقريراً : ﴿ وهذا ﴾ أي القرآن الذي هو حاضر الآن في جميع الأذهان ﴿ كتاب ﴾ أي جامع لخيري الدارين ، وكان السياق لأن يقال : أنزل الله ، ولكنه أتى بنون العظمة ، لأنها أدل على تعظيمه فقال : ﴿ أنزلناه ﴾ أي وليس من عند محمد صلى الله عليه وسلم من نفسه ، وإنما هو بإنزالنا إياه إليه وإرسالنا له به ﴿ مبارك ﴾ أي كثير الخير ثابت الأمر ، لا يقدر أحد من الخلق على إنكاره لإعجازه ، لتعلم أهل الكتاب خصوصاً حقيقته بتصديقه لكتابهم لأنه ﴿ مصدق الذي بين يديه ﴾ أي كله من كتبهم وغيرها ، فيكون أجدر لإيمانهم به ، وتعلم جميع أهل الأرض عموماً ذلك بذلك وبإعجازه ﴿ ولتنذر ﴾ أي به ﴿ أم القرى ﴾ أي مكة لأنها أعظم المدن بما لها من الفضائل ﴿ ومن حولها ﴾ ممن لا يؤمن بالآخرة فهو لا يؤمن به من أهل الأرض كلها من جميع البلدان والقرى ، لأنها أم الكل ، وهم في ضلالتهم مفرطون ﴿ والذين يؤمنون بالآخرة ﴾ أي فيهم قابلية الإيمان بها على ما هي عليه ، من أهل أم القرى ومن حولها بكل خير ينشرون ﴿ يؤمنون به ﴾ أي بالكتاب بالفعل لأن الإيمان بها داع إلى كل خير بالخوف والرجاء ، والكفر بها حامل على كل بشر .

ولما تكرر وصف المنافقين بالتكاسل عن الصلاة جعل المحافظة عليها علماً على الإيمان فقال : ﴿ وهم على صلاتهم يحافظون ﴾ أي يحفظونها غاية الحفظ ، فالآية من عجيب

فن الاحتباك : ذكر الإنذار والأم أولاً دالاً على حذفهما ثانياً ، وإثبات الإيمان والصلاة ثانياً دليل على نفيهما أولاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 673 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما أبطل بالدليل قول من قال : ما أنزل الله على بشر من شيء ، ذكر بعده أن القرآن كتاب الله ، أنزله الله تعالى على محمد عليه الصلاة والسلام .

*(5/242)*

---

واعلم أن قوله : ﴿ وهذا ﴾ إشارة إلى القرآن وأخبر عنه بأنه كتاب وتفسير الكتاب قد تقدم في أول سورة البقرة ثم وصفه بصفات كثيرة .

الصفة الأولى : قوله : ﴿ أنزلناه ﴾ والمقصود أن يعلم أنه من عند الله تعالى لا من عند الرسول لأنه لا يبعد أن يخص الله محمداً عليه الصلاة والسلام بعلوم كثيرة يتمكن بسببها من تركيب ألفاظ القرآن على هذه الصفة من الفصاحة فبين تعالى أنه ليس الأمر على هذه الصفة ، وأنه تعالى هو الذي تولى إنزاله بالوحي على لسان جبريل عليه السلام .

الصفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ مُّبَارَكٌ ﴾ قال أهل المعاني كتاب مبارك أي كثير خيره دائم

بركته ومنفعته ، يبشر بالثواب والمغفرة ويزجر عن القبيح والمعصية ، وأقول : العلوم إما نظرية ، وإما عملية أما العلوم النظرية ، فأشرفها وأكملها معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وأحكامه وأسمائه ، ولا ترى هذه العلوم أكمل ولا أشرف مما تجده في هذا الكتاب وأما العلوم العملية ، فالمطلوب ، إما أعمال الجوارح وإما أعمال القلوب ، وهو المسمى بطهارة الأخلاق وتزكية النفس ولا تجد هذين العلمين مثل ما تجده في هذا الكتاب ، ثم قد جرت سنة الله تعالى بأن الباحث عنه والمتمسك به يحصل له عز الدنيا وسعادة الآخرة .

يقول مصنف هذا الكتاب محمد بن عمر الرازي : وأنا قد نقلت أنواعاً من العلوم النقلية والعقلية ، فلم يحصل لي بسبب شيء من العلوم من أنواع السعادات في الدين والدنيا مثل ما حصل بسبب خدمة هذا العلم .

الصفة الثالثة : قوله : ﴿ مُّصَدِّقُ الذى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ فالمراد كونه مصدقاً لما قبله من الكتب والأمر في الحقيقة كذلك ، لأن الموجود في سائر الكتب الإلهية إما علم الأصول ، وإما علم الفروع .

أما علوم الأصول : فيمتنع وقوع التفاوت فيه بسبب اختلاف الأزمنة والأمكنة ، فوجب القطع بأن المذكور في القرآن موافق ومطابق لما في التوراة والزبور والإنجيل وسائر الكتب الإلهية .

وأما علم الفروع : فقد كانت الكتب الإلهية المتقدمة على القرآن مشتملة على البشارة

بمقدم محمد عليه الصلاة والسلام ، وإذا كان الأمر كذلك فقد حصل في تلك الكتب أن التكاليف الموجودة فيها ، إنما تبقى إلى وقت ظهور محمد عليه الصلاة والسلام ، وأما بعد ظهور شرعه فإنها تصير منسوخة ، فثبت أن تلك الكتب دلت على ثبوت تلك الأحكام على هذا الوجه ، والقرآن مطابق لهذا المعنى وموافق ، فثبت كون القرآن مصدقاً لكل الكتب الإلهية في جملة علم الأصول والفروع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 66.67 ﴾

*(6/242)*

---

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ هذا ﴾ إشارة إلى القرآن ، و ﴿ مبارك ﴾ صفة له ، و ﴿ مصدق ﴾ كذلك وحذف التنوين من ﴿ مصدق ﴾ للإضافة وهي إضافة غير محضة لم يتعرف بها مصدق ولذلك ساغ أن يكون وصفاً لنكرة ، و ﴿ الذي ﴾ في موضع المفعول ، والعامل فيه مصدر ، ولا يصلح أن يكون ﴿ مصدق ﴾ مع حذف التنوين منه يتسلط على ﴿ الذي ﴾ ، ويقدر حذف التنوين للالتقاء وإنما جاء ذلك شاذاً في الشعر في قوله : [ المتقارب ]

فَأَلْفَيْتُهُ غَيْرَ مُسْتَعْتِبٍ . . . ولا ذَاكِرِ اللهِ إلاَّ قَلِيلا

ولا يقاس عليه ، و﴿ بين يديه ﴾ هي حال التوراة والإنجيل لأن ما تقدم فهو بين يدي ما تأخر ، وقالت فرقة ﴿ الذي بين يديه ﴾ القيامة .

قال القاضي أو محمد رضي الله عنه : وهذا غير صحيح لأن القرآن هو بين يدي القيامة انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وهذا كِتَابٌ ﴾ يعني القرآن ﴿ أَنزَلْنَاهُ ﴾ صفة ﴿ مُبَارَكٌ ﴾ أي بُورك فيه ، والبركة الزيادة .

ويجوز نصبه في غير القرآن على الحال .

وكذا ﴿ مُّصَدِّقُ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي من الكتب المنزلة قبله ، فإنه يوافقها في نفي الشرك وإثبات التوحيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

*(7/242)*

---

وقال أبو حيان :

﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك ﴾ أي وهذا القرآن لما ذكر وقرر أن إنكار من أنكر أن يكون الله أنزل على بشر شيئاً وحاجهم بما لا يقدرون على إنكاره أخبر أن هذا الكتاب الذي

أنزل على الرسول مبارك كثير النفع والفائدة ، ولما كان الإنكار إنما وقع على الإنزال فقالوا : ﴿ ما أنزل الله ﴾ ، وقيل : ﴿ قل من أنزل الكتاب ﴾ كان تقديم وصفه بالإنزال آكد من وصفه بكونه مباركاً ولأن ما أنزل الله تعالى فهو مبارك قطعاً فصارت الصفة بكونه مباركاً ، كأنها صفة مؤكدة إذ تضمنها ما قبلها ، فأما قوله : ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه ﴾ فلم يرد في معرض إنكار أن ينزل الله شيئاً بل جاء عقب قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرى للمتقين ﴾ ذكر أن الذي آتاه الرسول هو ذكر مبارك ولما كان الإنزال يتجدد عبر بالوصف الذي هو فعل ، ولما كان وصفه بالبركة وصفاً لا يفارق عبر بالاسم الدال على الثبوت .

﴿ مصدق الذي بين يديه ﴾ أي من كتب الله المنزلة ، وقيل التوراة ، وقيل البعث ، قال ابن عطية : وهذا غير صحيح لأن القرآن هو بين يدي القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وهذا كتاب أنزلناه ﴾ تحقيقٌ لنزول القرآن الكريم بعد إنزال ما بَشَّر به من التوراة ، وتكذيبٌ لهم في كلمتهم الشنعاءِ إثرَ تكذيبٍ ﴿ مُّبَارَكٌ ﴾ أي كثيرُ الفوائد وجمُّ المنافع ﴿ مُّصَدّقُ الذى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من التوراة لنزوله حسبما وُصِف فيها أو الكتُبِ التي قبله

فإنه مصدِّقٌ للكل في إثبات التوحيد والأمرِ به ونفي الشرْك والنهي عنه وفي سائر أصولِ الشرائعِ التي لا تُنسخ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(8/242)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وهذا كتاب أنزلناه ﴾ تحقيق لإنزال القرآن الكريم بعد تقرير إنزال ما بشر به من التوراة وتكذيب لكلمتهم الشنعاء إثر تكذيب ، وتنكير ﴿ كِتَابٌ ﴾ للتفخيم ، وجملة ﴿ أنزلناه ﴾ في موضع الرفع صفة له وقوله سبحانه : ﴿ مُّبَارَكٌ ﴾ أي كثير الفائدة والنفع لاشتماله على منافع الدارين وعلوم الأولين والآخرين صفة بعد صفة .

قال الإمام : "جرت سنة الله تعالى بأن الباحث عن هذا الكتاب المتمسك به يحصل به عز الدنيا وسعادة الآخرة" ولقد شاهدنا والحمد لله عز وجل ثمرة خدمتنا له في الدنيا فنسأله أن لا يحرمنا سعادة الآخرة إنه البر الرحيم .

وقوله جل وعلا : ﴿ مُّصَدِّقُ الذى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ صفة أخرى ، والإضافة على ما نص عليه أبو البقاء غير محضة ، والمراد بالموصول إما التوراة لأنها أعظم كتاب نزل قبل ولأن الخطاب مع اليهود ، وأما ما يعمها وغيرها من الكتب السماوية وروي ذلك عن الحسن ،

وتذكير الموصول باعتبار الكتاب أو المنزل أو نحو ذلك ، ومعنى كونها بين يديه أنها متقدمة عليه فإن كل ما كان بين اليدين كذلك وتصديقه للكل في إثبات التوحيد والأمر به ونفي الشرك والنهي عنه وفي سائر أصول الشرائع التي لا تنسخ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

(9/242)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ وهذا كتاب ﴾ عطف على جملة ﴿ قل الله ﴾ [ الأنعام : 91 ] ، أي وقل لهم الله أنزل الكتاب على موسى وهذا كتاب أنزلناه .

والإشارة إلى القرآن لأنّ المحاولة في شأنه من ادّعائهم نفي نزوله من عند الله ، ومن تبكيتهم بإنزال التّوراة ، يجعل القرآن كالحاضر المشاهد ، فأتي باسم الإشارة لزيادة تمييزه تقوية لحضوره في الأذهان .

وافتتاح الكلام باسم الإشارة المفيد تمييز الكتاب أكمل تمييز ، وبناءُ فعل ﴿ أنزلنا ﴾ على خبر اسم الإشارة ، وهو ﴿ كتاب ﴾ الّذي هو عينه في المعنى ، لإفادة التّقوية ، كأنّه قيل : وهَذا أنزلناه .

وجَعْل ﴿ كتاب ﴾ الّذي حقّه أن يكون مفعول ﴿ أنزلنا ﴾ مسنداً إليه ، ونصب فعل ﴿ أنزلنا ﴾ لضميره ، لإفادة تحقيق إنزاله بالتّعبير عنه مرّتين ، وذلك كلّه للتّنويه بشأن هذا الكتاب .

وجملة : ﴿ أنزلناه ﴾ يجوز أن تكون حالاً من اسم الإشارة ، أو معترضة بينه وبين خبره .

و ﴿ مبارك ﴾ خبر ثان .

والمبارك اسم مفعول من بَاركه ، وبارك عليه ، وبارك فيه ، وبارك له ، إذا جعل له البركة .

والبركة كثرة الخير ونماؤه يقال : باركه .

قال تعالى : ﴿ أن بُورك من في النّار ومن حولها ﴾ [ النمل : 8 ] ، ويقال : بارك فيه ، قال تعالى : ﴿ وبارك فيها ﴾ [ فصلت : 10 ] .

ولعلّ قولهم ( بارك فيه ) إنّما يتعلّق به ما كانت البركة حاصلة للغير في زمنه أو مكانه ، وأمّا ( باركه ) فيتعلّق به ما كانت البركة صفة له ، و( بَارك عليه ) جعل البركة متمكّنة منه ، ( وبارك له ) جعل أشياء مباركة لأجله ، أي بارك فيما له .

والقرآن مبارَك لأنّه يدلّ على الخير العظيم ، فالبركة كائنة به ، فكأنّ البركة جعلت في ألفاظه ، ولأنّ الله تعالى قد أودع فيه بركة لقارئه المشتغل به بركة في الدّنيا وفي الآخرة ، ولأنّه مشتمل على ما في العمل به كمال النّفس وطهارتها بالمعارف النّظريّة ثمّ العمليّة .

فكانت البركة ملازمة لقراءته وفهمه .

---

قال فخر الدّين "قد جرت سنّة الله تعالى بأنّ الباحث عنه (أي عن هذا الكتاب) المتمسّك به يحصل له عزّ الدّنيا وسعادة الآخرة.

وأنا قد نقلت أنواعاً من العلوم النّقليّة والعقليّة فلم يَحْصُل لي بسبب شيء من العلوم من أنواع السّعادات في الدّنيا مثلُ ما حصل لي بسبب خدمة هذا العلم (يعني التّفسير).

و﴿ مصدّق ﴾ خبر عن ﴿ كتاب ﴾ بدون عطف.

والمُصدّق تقدّم عند قوله تعالى: ﴿ مُصدّقاً لما بين يَديه ﴾ في سورة [البقرة: 97]، وقوله ﴿ ومصدّقاً لما بين يدي ﴾ وفي سورة [آل عمران: 50].

والّذي ﴾ من قوله: ﴿ الّذي بين يديه ﴾ اسم موصول مراد به معنى جَمع.

وإذ قد كان جمع الّذي وهو لا يستعمل في كلام العرب إلاّ إذا أريد به العَاقل وشِبهه، نحو ﴿ إنّ الّذين تدعون من دون الله عبادٌ أمثالكم ﴾ [الأعراف: 194] لتنزيل الأصنام منزلة العاقل في استعمال الكلام عرفاً.

فلا يستعمل في جمع غير العاقل إلاّ الّذي المفرد، نحو قوله تعالى: ﴿ والّذي جاء بالصّدق وصدّق به أولئك هم المتّقون ﴾ [الزمر: 33].

والمراد بـ ﴿ الّذي بين يديه ﴾ ما تقدّمه من كتب الأنبياء ، وأخصّها التّوراة والإنجيل والزّبور ، لأنّها آخر ما تداوله النّاس من الكتب المنزّلة على الأنبياء ، وهو مصدّق الكتب النّازلة قبل هذه الثّلاثة وهي صحف إبراهيم وموسى .

ومعنى كون القرآن مصدّقها من وجهين ، أحدهما : أنّ في هذه الكتب الوعد بمجيء الرّسول المقفّى على نبوءة أصحاب تلك الكتب ، فمجيء القرآن قد أظهر صدق ما وعدت به تلك الكتب ودلّ على أنّها من عند الله .

وثانيهما : أنّ القرآن مصدّق أنبيائها وصدّقها وذكر نورها وهداها ، وجاء بما جاءت به من أصول الدّين والشّريعة .

ثم إنّ ما جاء به من الأحكام الّتي لم تكن ثابتة فيها لا يخالفها .

*(11/242)*

---

وأمّا ما جاء به من الأحكام المخالفة للأحكام المذكورة فيها من فروع الشّريعة فذلك قد يبيّن فيه أنّه لأجل اختلاف المصالح ، أو لأنّ الله أراد التّيسير بهذه الأمّة .

ومعنى : ﴿ بين يديه ﴾ ما سبقه ، وقد تقدّم بيانه عند قوله تعالى : ﴿ فإنّه نزّله على قلبك بإذن الله مصدّقاً لما بين يديه ﴾ في سورة [ البقرة : 97 ] ، وعند قوله : ﴿

ومصّدقاً لما بين يديّ من التّوراة ﴾ في سورة [ آل عمران : 50 ] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ القرى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ القرى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾

ههنا أبحاث :

البحث الأول : اتفقوا على أن ههنا محذوفاً ، والتقدير : ولتنذر أهل أم القرى .

واتفقوا على أن أم القرى هي مكة ، واختلفوا في السبب الذي لأجله سميت مكة بهذا الاسم .

فقال ابن عباس : سميت بذلك ، لأن الأرضين دحيت من تحتها ومن حولها ، وقال أبو بكر الأصم : سميت بذلك لأنها قبل أهل الدنيا ، فصارت هي كالأصل وسائر البلاد والقرى تابعة لها ، وأيضاً من أصول عبادات أهل الدنيا الحج ، وهو إنما يحصل في تلك البلدة ، فلهذا السبب يجتمع الخلق إليها كما يجتمع الأولاد إلى الأم ، وأيضاً فلما كان أهل الدنيا يجتمعون هناك بسبب الحج ، لا جرم يحصل هناك أنواع من التجارات والمنافع ما لا يحصل في سائر البلاد ، ولا شك أن الكسب والتجارة من أصول المعيشة ، فلهذا السبب سميت مكة أم

القرى .

وقيل : إنما سميت مكة أم القرى لأن الكعبة أول بيت وضع للناس ، وقيل أيضاً : إن مكة أول بلدة سكنت في الأرض .

إذا عرفت هذا فنقول : قوله : ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ دخل فيه سائر البلدان والقرى .

والبحث الثاني : زعمت طائفة من اليهود أن محمداً عليه الصلاة والسلام كان رسولاً إلى العرب فقط .

*(12/242)*

---

واحتجوا على صحة قولهم بهذه الآية وقالوا إنه تعالى بين أنه إنما أنزل عليه هذا القرآن ليبلغه إلى أهل مكة وإلى القرى المحيطة بها ، والمراد منها جزيرة العرب ، ولو كان مبعوثاً إلى كل العالمين لكان التقييد بقوله : ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ القرى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ باطلاً .

والجواب : أن تخصيص هذه المواضع بالذكر لا يدل على انتفاء الحكم فيما سواها إلا بدلالة المفهوم وهي ضعيفة ، لا سيما وقد ثبت بالتواتر الظاهر ، المقطوع به من دين محمد عليه الصلاة والسلام أنه كان يدّعي كونه رسولاً إلى كل العالمين ، وأيضاً قوله : ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ يتناول جميع البلاد والقرى المحيطة بها ، وبهذا التقدير : فيدخل فيه جمع بلاد العالم ، والله

أعلم.

البحث الثالث: قرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿لِّيُنذِرَ﴾ بالياء جعل الكتاب هو المنذر، لأن فيه إنذاراً، ألا ترى أنه قال: ﴿لينذروا به﴾ أي بالكتاب، وقال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾ وقال: ﴿إِنَّمَا أُنذِرُكُم بالوحى﴾ فلا يمتنع إسناد الإنذار إليه على سبيل الاتساع، وأما الباقون: فإنهم قرؤا ﴿وَلِتُنذِرَ﴾ بالتاء خطاباً للنبي صلى الله عليه وسلم، لأن المأمور والموصوف بالإنذار هو.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ﴾ وقال: ﴿وَأَنذِرِ الذين يَخَافُونَ﴾. انتهى انتهى. اهـ

﴿مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 67﴾

(13/242)

---

وقال ابن عطية:

وقرأ الجمهور "ولتنذر أم القرى" أي أنت يا محمد، وقرأ أبو بكر عن عاصم "ولينذر" أي القرآن بمواعظة وأوامره، واللام في ﴿لتنذر﴾ متعلقة بفعل متأخر تقديره ولتنذر أم القرى أو من حولها أنزلناه، و﴿أم القرى﴾ مكة سميت بذلك لوجوه أربعة، منها أنها منشأ الدين والشرع ومنها ما روي أن الأرض منها دحية ومنها أنها وسط الأرض وكالنقطة

للقرى ، ومنه ما لحق عن الشرع من أنها قبلة كل قرية فهي لهذا كله أم وسائر القرى بنات ، وتقدير الآية لتنذر أهل أم القرى ، ﴿ ومن حولها ﴾ يريد أهل سائر الأرض ، و ﴿ حولها ﴾ ظرف العامل فيه فعل مضمر تقديره من استقر حولها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(14/242)

---

وقال أبو حيان :

﴿ ولتنذر أم القرى ومن حولها ﴾ ﴿ أم القرى ﴾ مكة وسميت بذلك لأنها منشأ الدين ودحو الأرض منها ولأنها وسط الأرض ولكونها قبلة وموضع الحج ومكان أول بيت وضع للناس ، والمعنى : ﴿ ولتنذر ﴾ أهل ﴿ أم القرى ومن حولها ﴾ وهم سائر أهل الأرض قاله ابن عباس ، وقيل : العرب وقد استدل بقوله : ﴿ أم القرى ومن حولها ﴾ طائفة من اليهود زعموا أنه رسول إلى العرب فقط ، قالوا : ﴿ ومن حولها ﴾ هي القرى المحيطة بها وهي جزيرة العرب ، وأجيب بأن ﴿ ومن حولها ﴾ عام في جميع الأرض ولو فرضنا الخصوص لم يكن في ذكر جزيرة العرب دليل على انتفاء الحكم عن ما سواها إلا بالمفهوم وهو ضعيف ، وحذف أهل الدلالة المعنى عليه لأن الأبنية لا تنذر كقوله : ﴿ واسأل القرية

﴿ لأن القرية لا تسأل ولم تحذف من فيعطف ﴿ حولها ﴾ على ﴿ أم القرى ﴾ وإن كان من حيث المعنى كان يصح لأن حول ظرف لا يتصرف فلو عطف على أم القرى لزم أن يكون مفعولاً به لعطفه على المفعول به وذلك لا يجوز لأن في استعماله مفعولاً به خروجاً عن الظرفية وذلك لا يجوز فيه لأنه كما قلنا لم تستعمله العرب إلاّ لازم الظرفية غير متصرف فيه بغيرها ، وقرأ أبو بكر لينذر أي القرآن بمواعظه وأوامره ، وقرأ الجمهور ﴿ ولتنذر ﴾ خطاباً للرسول والمعنى ﴿ ولتنذر ﴾ به أنزلناه فاللام تتعلق بمتأخر محذوف دل عليه ما قبله ، وقال الزمخشري : ﴿ ولتنذر ﴾ معطوف على ما دل عليه صفة الكتاب كأنه قيل : أنزلنا للبركات وتصديق ما تقدمه من الكتب والإنذار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

*(15/242)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ القرى ﴾ قيل : عطف على ما دل عليه صفة الكتاب كأنه قيل : أنزلناه للبركات وتصديق ما تقدمه والإنذار .

واختار العلامة الثاني كونه عطفاً على صريح الوصف أي كتاب مبارك وكائن للإنذار ،

وادعى أنه لاحاجة مع هذا إلى ذلك التكلف فإن عطف الظرف على المفرد في باب الخبر والصفة كثير ، ودعوى أن الداعي إليه عرو تلك الصفات السابقة عن حرف العطف واقتران هذا به تستدعي القول بأن الصفات إذا تعددت ولم يعطف أولها يمتنع العطف أو يقبح والواقع خلافه ، والأولى ما يقال : إن الداعي أن اللفظ والمعنى يقتضيانه ، أما المعنى فلأن الإنذار علة لإنزاله كما يدل عليه ﴿ وأوحى الي هذا القرآن لأنذركم به ﴾ [ الأنعام : 19 ] ولو عطف لكان على أول الصفات على الراجح في العطف عند التعدد ، ولا يحسن عطف التعليل على المعلل به ولا الجار والمجرور على الجملة الفعلية .

فإنه نظير هذا رجل قام عندي وليخدمني وهو كما ترى .

ومنه يعلم الداعي اللفظي وجوز أن يكون علة لمحذوف يقدر مؤخراً أو مقدماً أي ولتنذر أنزلناه أو وأنزلناه لتنذر ، وتقديم الجار للاهتمام أو للحصر الإضافي ، وأن يكون عطفاً على مقدر أي لتبشر ولتنذر ، وأياً ما كان ففي الكلام مضاف محذوف أي أهل أم القرى ، والمراد بها مكة المكرمة ، وسميت بذلك لأنها قبلة أهل القرى وحجهم وهم يتجمعون عندها تجمع الأولاد عند الأم المشفقة ويعظمونها أيضاً تعظيم الأم ، ونقل ذلك عن الزجاج والجبائي ، ولأنها أعظم القرى شأناً فغيرها تبع لها كما يتبع الفرع الأصل .

وقيل لأن الأرض دحيت من تحتها فكأنها خرجت من تحتها كما تخرج الأولاد من تحت الأم أو لأنها مكان أول بيت وضع للناس .

ونقل ذلك عن السدي وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿ لِّيُنذِرَ ﴾ بالياء التحتية على الإسناد المجازي للكتاب لأنه منذر به .

(16/242)

---

﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ من أهل المدر والوبر في المشارق والمغارب لعموم بعثه صلى الله عليه وسلم الصادع بها القرآن في غير آية ، واللفظ لا يأبى هذا الحمل فلا متمسك بالآية لطائفة من اليهود زعموا أنه صلى الله عليه وسلم مرسل للعرب خاصة ، على أنه يمكن أن يقال : خص أولئك بالذكر لأنهم أحق بإنذاره عليه الصلاة والسلام كقوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الاقربين ﴾ [ الشعراء : 214 ] ولذا أنزل كتاب كل رسول بلسان قومه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وأمّا جملة ﴿ ولتنذر أمّ القرى ﴾ فوجود واو العطف في أوّلها مانع من تعليق ﴿ لتنذر ﴾ بفعل ﴿ أنزلناه ﴾ ، ومِن جعْل المجرور خبراً عن ﴿ كتاب ﴾ خلافاً للتفتزاني ، إذ الخبر إذا كان مجروراً لا يقترن بواو العطف ولا نظير لذاك في الاستعمال ، فوجود لام التّعليل مع الواو مانع من جعلها خبراً آخر ل ﴿ كتاب ﴾ ، فلا محيص عند توجيه انتظامها مع ما قبلها

من تقدير محذوف أو تأويل بعض ألفاظها ، والوجه عندي أنّه معطوف على مقدّر ينبىء عنه السّياق .

والتّقدير : ليُؤمن أهل الكتاب بتصديقه ولتنذر المشركين .

ومثل هذا التّقدير يطّرد في نظائر هذه الآية بحسب ما يناسب أن يقدّر .

وهذا من أفانين الاستعمال الفصيح .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ هذا بلاغ للنّاس ولِينْذروا به وليعلموا أنّما هو إله واحد وليذّكّر أولوا الألباب ﴾ في سورة [ إبراهيم : 52 ] .

ووقع في الكشاف ﴿ أنّ ﴿ ولتنذر ﴾ معطوف على ما دلّت عليه صفة الكتاب ، كأنّه قيل : أنزلناه للبركات وتصديقِ ما تقدّمَه والإنذارِ أ هـ .

وهذا وإن استتبّ في هذه الآية فهو لا يحسن في آية سورة إبراهيم ، لأنّ لفظ "بلاغ" اسم ليس فيه ما يشعر بالتّعليل ، و"للنّاس" متعلّق به واللاّم فيه للتّبليغ لا للتّعليل ، فتعيّن تقدير شيء بعده نحو لينتبهوا أو لئلاّ يؤخذوا على غفلة ولِيُنْذَروا به .

والإنذار : الإخبار بما فيه توقّع ضرّ ، وضدّه البشارة .

(17/242)

وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ إنّا أرسلناك بالحقّ بشيراً ونذيراً ﴾ في سورة [ البقرة : 119 ] .

واقتُصر عليه لأنّ المقصود تخويف المشركين إذ قالوا : ﴿ ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ [ الأنعام : 91 ] .

وأمّ القرى : مَكّة ، وأمّ الشيء استعارة شائعة في الأمر الّذي يُرجع إليه ويلتفّ حوله ، وحقيقة الأمّ الأنثى الّتي تلد الطفل فيرجع الولد إليها ويلازمها ، وشاعت استعارة الأمّ للأصل والمرجع حتّى صارت حقيقة ، ومنه سمّيت الراية أمّاً ، وسُمّي أعلى الرأس أمّ الرأس ، والفاتحة أمّ القرآن .

وقد تقدّم ذلك في تسمية الفاتحة .

وإنّما سمّيت مكّة أمّ القرى لأنّها أقدم القرى وأشهرها وما تقرّت القرى في بلاد العرب إلاّ بعدها ، فسمّاها العرب أمّ القرى ، وكان عرب الحجاز قبلها سكّان خيام .

وإنذار أمّ القرى بإنذار أهلِها ، وهذا من مجاز الحذف كقوله تعالى : ﴿ واسأل القرية ﴾ [ يوسف : 82 ] ، وقد دلّ عليه قوله ﴿ ومن حولها ﴾ ، أي القبائل القاطنة حول مكّة مثل خُزاعة ، وسعد بن بَكْر ، وهوازن ، وثقيف ، وكنانة .

ووجه الاقتصار على أهل مكّة ومن حولها في هذه الآية أنّهم الّذين جرى الكلام والجدال معهم من قوله : ﴿ وكذّب به قومك وهو الحقّ ﴾ [ الأنعام : 66 ] ، إذ السّورة مكّية

وليس في التّعليل ما يقتضي حصر الإنذار بالقرآن فيهم حتّى تتكلّف الادّعاء أنّ ﴿ من حولها ﴾ مراد به جميع أهل الأرض .

وقرأ الجمهور ﴿ ولتنذر أمّ القرى ﴾ بالخطاب ، وقرأه أبو بكر وحده عن عاصم ﴿ ولينذر ﴾ بياء الغائب على أن يكون الضّمير عائداً إلى ﴿ كتاب ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

*(18/242)*

---

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ ، يتوهم منه الجاهل أن إنذاره صلى الله عليه وسلم مخصوص بأم القرى وما يقرب منها دون الأقطار النائية عنها لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ , ونظيره قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ .

وقد جاءت آيات أخر تصرّح بعموم إنذاره صلى الله عليه وسلم لجميع الناس كقوله تعالى:

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ ، وقوله: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ ، وقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ ﴾ ، والجواب من وجهين:

الأول: أن المراد بقوله: ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ شامل لجميع الأرض كما رواه ابن جرير وغيره عن ابن عباس .

الوجه الثاني: أنا لو سلمنا تسليما جدليا أن قوله: ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ لا يتناول إلا القريب من مكة المكرمة – حرسها الله – كجزيرة العرب مثلا فإن الآيات الأخر نصت على العموم كقوله: ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ وذكر بعض أفراد العام بحكم العام لا يخصصه عند عامة العلماء ولم يخالف فيه إلا أبو ثور, وقد قدمنا ذلك واضحا بأدلته في سورة المائدة ، فالآية على هذا القول كقوله: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ , فإنه لا يدل على عدم إنذار غيرهم كما هو واضح والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 1 صـ ﴾

*(19/242)*

---

قوله تعالى ﴿ والذين يُؤْمِنُونَ بالآخرة يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾

فصل

قال الفخر :

ظاهر هذا يقتضي أن الإيمان بالآخرة جار مجرى السبب للإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم .

والعلماء ذكروا في تقرير هذه السببية وجوهاً : الأول : أن الذي يؤمن بالآخرة هو الذي يؤمن بالوعد والوعيد والثواب والعقاب ، ومن كان كذلك فإنه يعظم رغبته في تحصيل الثواب ، ورهبته عن حلول العقاب ، ويبالغ في النظر والتأمل في دلائل التوحيد والنبوة ، فيصل إلى العلم والإيمان .

والثاني : أن دين محمد عليه الصلاة والسلام مبني على الإيمان بالبعث والقيامة ، وليس لأحد من الأنبياء مبالغة في تقرير هذه القاعدة مثل ما في شريعة محمد عليه الصلاة والسلام ، فلهذا السبب كان الإيمان بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام وبصحة الآخرة أمرين متلازمين ، والثالث : يحتمل أن يكون المراد من هذا الكلام التنبيه على إخراج أهل مكة من قبول هذا الدين ، لأن الحامل على تحمل مشقة النظر والاستدلال ، وترك رياسة الدنيا ، وترك الحقد والحسد ليس إلا الرغبة في الثواب ، والرهبة عن العقاب .

وكفار مكة لما لم يعتقدوا في البعث والقيامة ، امتنع منهم ترك الحسد وترك الرياسة ، فلا جرم يبعد قبولهم لهذا الدين واعترافهم بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 67. 68 ﴾

---

وقال القرطبى :

﴿ والذين يُؤْمِنُونَ بالآخرة يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ يريد أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ؛ بدليل قوله : ﴿ وَهُمْ على صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ وإيمان من آمن بالآخرة ولم يؤمن بالنبيّ عليه السلام ولا بكتابه غير معتدٍّ به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ﴾ الظاهر أن الضمير في ﴿ به ﴾ عائد على الكتاب أي الذين يصدقون بأن لهم حشراً ونشراً وجزاءً تؤمنون بهذا الكتاب لما انطوى عليه من ذكر الوعد والوعيد والتبشير والتهديد ، إذ ليس فيه كتاب من الكتب الإلهية ولا في شريعة من الشرائع ما في هذا الكتاب ولا ما في هذه الشريعة من تقدير يوم القيامة والبعث ، والمعنى : يؤمنون به الإيمان المعتضد بالحجة الصحيحة وإلا فأهل الكتاب يؤمنون بالبعث ولا يؤمنون بالقرآن واكتفى بذكر الإيمان بالبعث وهو أحد الأركان الستة التي هي واجب الوجود والملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر لأن الإيمان به يستلزم الإيمان بباقيها ولإسماع كفار العرب وغيرهم ممن لا يؤمن بالبعث ، أن من آمن بالبعث آمن بهذا الكتاب

وأصل الدين خوف العاقبة فمن خالفها لم يزل به الخوف حتى يؤمن ، وقيل : يعود الضمير على رسول الله صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ والذين يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ وبما فيها من أفانين العذاب ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أي بالكتاب لأنهم يخافون العاقبةَ ولا يزال الخوف يحمِلُهم على النظر والتأمُّل حتى يؤمنوا به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

*(21/242)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ والذين يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ وبما فيها من الثواب والعقاب ، ومن اقتصر على الثاني في البيان لاحظ سبق الإنذار ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أي بالكتاب ، قيل : أو بمحمد صلى الله عليه وسلم لأنهم يرهبون من العذاب ويرغبون في الثواب ولا يزال ذلك يحملهم على النظر والتأمل حتى يؤمنوا به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ والّذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ﴾ احتراس من شمول الإنذار للمؤمنين الّذين

هم يومئذٍ بمكّة وحولها المعروفون بهذه الصّلة دون غيرهم من أهل مكّة ، ولذلك عبّر عنهم بهذا الموصول لكونه كاللّقب لهم ، وهو مميّز هم عن أهل الشّرك لأنّ أهل الشّرك أنكروا الآخرة .

وليس في هذا الموصول إيذان بالتّعليل ، فإنّ اليهود والنّصارى يؤمنون بالآخرة ولم يؤمنوا بالقرآن ولكنّهم لم يكونوا من أهل مكّة يومئذٍ .

وأخبر عن المؤمنين بأنّهم يؤمنون بالقرآن تعريضاً بأنّهم غير مقصودين بالإنذار فيعلم أنّهم أحقّاء بضدّه وهو البشارة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

*(22/242)*

---

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله سبحانه : "والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون " لم يقرأ هنا بغير هذا اللفظ وكذا فى المعارج وفى سورة المؤمنون فى قراءة الجماعة إلا الشيخين "على صلواتهم " بالجمع فللسائل أن يسأل عن وجه ذلك ؟

والجواب عنه والله أعلم : أن ذلك مناسب لما اكتنف هذا الوصف فى آية سورة المؤمنون

لما كان ذكر محافظتهم على صلاتهم قد اكتنفه ما تقدمه وما تأخر عنه من تفخيم الوصف في المتقدم وتفخيم الجزاء في المتأخر ناسب ذلك تفخيم العبارة عن فعلهم فورد بلفظ الجمع في قراءة الأكثرين فقيل : "والذين هم على صلواتهم " أما تفخيم الوصف المتقدم فذكرهم بالفلاح وهو الظفر بالمراد والبقاء في الخير وذكرهم بالخشوع في صلاتهم وإعراضهم عن اللغو ولم يقع متقدم وصفهم في سورة المعارج ما يوازن هذه الأوصاف .

وأما آية الأنعام فلم يتقدم فيها غير ذكرهم بالإيمان فقط وأما نعتهم الوارد في جزائهم فوصفهم بأنهم الوارثون ثم تخصيصهم بأنهم الوارثون ثم تخصيصهم بإرث الفردوس وهو أعلى الجنة ومنه تنفجر أنهار الجنة ، ووصفهم بالخلود فيها ، ولا يوازن هذا بقوله عقب آية المعارج : "أولئك في جنات مكرمون " .

وأما آية الأنعام فلم يرد فيها ذكر جزائهم بالجمع كما في آية سورة المؤمنون وإن لم يقرأ بذلك في الأخريين وظهرت مناسبة ذلك والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 164.163 ﴾

*(23/242)*

قوله تعالى ﴿ وَهُمْ على صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾

قال الفخر :

المراد أن الإيمان بالآخرة كما يحمل الرجل على الإيمان بالنبوة ، فكذلك يحمله على المحافظة على الصلوات ، وليس لقائل أن يقول : الإيمان بالآخرة يحمل على كل الطاعات ، فما الفائدة في تخصيص الصلاة بالذكر ؟ لأنا نقول : المقصود منه التنبيه على أن الصلاة أشرف العبادات بعد الإيمان بالله وأعظمها خطراً ، ألا ترى أنه لم يقع اسم الإيمان على شيء من العبادات الظاهرة إلا على الصلاة كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللهِ لِيُضِيعَ إِيمانكم ﴾ [ البقرة : 143 ] أي صلاتكم ، ولم يقع اسم الكفر على شيء من المعاصي إلا على ترك الصلاة . قال عليه الصلاة والسلام : " من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر " فلما اختصت الصلاة بهذا النوع من التشريف ، لا جرم خصها الله بالذكر في هذا المقام . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 68 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وهم على صلاتهم يحافظون ﴾ خص الصلاة لأنها عماد الدين ومن حافظ عليها كان محافظاً على أخواتها ومعنى المحافظة المواظبة على أدائها في أوقاتها على أحسن ما توقع عليه والصلاة أشرف العبادات بعد الإيمان بالله ولذلك لم يوقع اسم الإيمان على شيء من العبادات إلا عليها قال تعالى : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ أي صلاتكم ولم يقع الكفر

على شيء من المعاصي إلا على تركها .

روي : " من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر " وقرأ الجمهور ﴿ على صلاتهم ﴾ بالتوحيد والمراد به الجنس وروى خلف عن يحيى عن أبي بكر صلواتهم بالجمع ذكر ذلك أبو علي الحسن بن محمد بن إبراهيم البغدادي في كتاب الروضة من تأليفه وقال تفرد بذلك عن جميع الناس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَهُمْ على صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ تخصيصُ محافظتِهم على الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات التي لا بد للمؤمنين من أدائها للإيذان بإنافتِها من بين سائر الطاعات وكونِها أشرفَ العباداتِ بعد الإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

*(24/242)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَهُمْ على صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ يحتمل أن يراد بالصلاة مطلق الطاعة مجازاً أو اكتفى ببعضها الذي هو عماد الدين وعلم الإيمان ولذا أطلق على ذلك الإيمان مجازاً كقوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمانكم ﴾ [ البقرة : 341 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ

7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وزادهم ثناء بقوله : ﴿ وهم على صلاتهم يحافظون ﴾ إيذاناً بكمال إيمانهم وصدقه ، إذ كانت الصّلاة هي العمل المختصّ بالمسلمين ، فإنّ الحجّ كان يفعله المسلمون والمشركون ، وهذا كقوله : ﴿ هدى للمتّقين الّذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصّلاة ﴾ [ البقرة : 2 ، 3 ] ولم يكن الحجّ مشروعاً للمسلمين في مدّة نزول هذه السّورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

*(25/242)*

---

" فصل "

قال الثعالبى :

إذا انضافت الصلاةُ إلى ضميرٍ ، لم تكتب إلا بالأَلِفِ ، ولا تكتبُ في المُصْحَف بواوٍ إلا إذا لم تُضَفْ إلى ضمير .

وقد جاءت آثار صحيحةٌ في ثواب مَنْ حافظ على صلاته ، وفي فَضْل المشْيِ إليها ؛ ففي "سنن أبي داود" ، عن بُرَيْدة ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : " بشِّرِ المَشَّائِينَ فِي

الظُّلَمِ إِلَى المَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ القِيَامَةِ " ، وروى أبو داود أيضاً بسنده ، عن سعيدِ بْنِ المُسَيَّبِ ، قال : حضر رجلاً من الأنصار المَوْتُ ، فقال : إني محدّثكم حديثاً ما أحدثكموه إلا احتسابا ، سمعتُ رسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ : " إِذَا تَوَضَّأَ أَحَدُكُمْ ، فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الصَّلاَةِ ، لَمْ يَرْفَعْ قَدَمَهُ اليمنى إِلاَّ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ حَسَنَةً ، وَلَمْ يَضَعْ قَدَمَهُ اليسرى إِلاَّ حَطَّ اللَّهُ عَنْهُ سَيِّئَةً ، فَلْيَقْرُبْ أَوْ لِيُبْعِدْ ، فَإِنْ أَتَى المَسْجِدِ ، فصلى فِي جَمَاعَةٍ ، غُفِرَ لَهُ ، فَإِنْ أَتَى المَسْجِدَ ، وَقَدْ صَلَّوْا بَعْضاً ، وَبَقِيَ بَعْضٌ ، صلى مَا أَدْرَكَ وَأَتَمَّ مَا بَقِيَ كَانَ كَذَلِكَ فَإِنْ أَتَى المَسْجِدَ ، وَقَدْ صَلَّوْا ، فَأَتَمَّ الصَّلاَةَ ، كَانَ كَذَلِكَ " ، وأخرج أبو داود ، عن أبي هريرة ، قال : قال رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : " مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ وُضُوءَهُ ، ثُمَّ رَاحَ فَوَجَدَ النَّاسَ قَدْ صَلَّوْا ، أَعْطَاهُ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ مِثْلَ أَجْرِ مَنْ صَلاَّهَا أَوْ حَضَرَهَا ، لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ " انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 1 صـ ﴾

*(26/242)*

---

لطيفة

قال فى البحر المديد :

الإشارة : مفتاح القلوب هو كتاب الله ، وهو عُنوان السير ، فمن فُتح له في فهم كتاب الله ، عند سماعه والتدبر في معانيه ، فهو علامة فتح قلبه ، فلا يزال يزداد في حلاوة الكلام ، حتى يُشرف على حلاوة شهود المتكلم من غير واسطة ؛ وذلك غاية السير ، وابتداء الترقي في أنوار التوحيد وأسرار التفريد ، التي لا نهاية لها . والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 2 صـ 145 ﴾

*(27/242)*

---

ومن فوائد السمرقندى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وهذا كتاب أنزلناه ﴾ يعني : القرآن أنزلناه على محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ مُّبَارَكٌ ﴾ لمن عمل به لأن فيه مغفرة للذنوب .

وقال الضحاك ﴿ مُّبَارَكٌ ﴾ يعني : القرآن لا يتلى على ذي عاهة إلا برىء ، ولا يتلى في بيت إلا وخرج منه الشيطان .

﴿ مُّصَدِّقُ الذى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ يعني : هو مصدق الذي بين يديه من الكتب ﴿ وَلِيُنْذِرَ ﴾ قرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿ ولينذر ﴾ بالياء يعني : الكتاب .

يعني : أنزلناه للإنذار والبركة .

وقرأ الباقون : بالتاء يعني : لتنذر به يا محمد ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ القرى ﴾ يعني : أهل مكة وهي أصل القرى .

وإنما سميت أم القرى لأن الأرض كلها دُحِيَتْ من تحت الكعبة .

ويقال : لأنها مثلث قبلة للناس جميعاً .

أي : يؤمونها .

ويقال : سميت أم القرى لأنها أعظم القرى شأناً ومنزلة .

﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ يعني : قرى الأرض كلها .

ثم قال : ﴿ والذين يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ يعني : بالبعث ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أي : بالقرآن ومن هم في علم الله أنه سيؤمن ﴿ وَهُمْ على صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ بوضوئها وركوعها وسجودها ومواقيتها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

ومن فوائد الماوردى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله عز وجل : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ يعني القرآن ، وفي ﴿ مُبارَكٌ ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه العظيم البركة لما فيه من الاستشهاد به .

والثاني : لما فيه من زيادة البيان لأن البركة هي الزيادة .

والثالث : أن المبارك الثابت .

﴿ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : الكتب التي قبله من التوراة ، والإنجيل ، وغيرهما ، قاله الحسن البصري .

والثاني : النشأة الثانية ، قاله علي بن عيسى .

﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى ﴾ يعني أهل أم القرى ، فحذف ذكر الأهل إيجازاً كما قال : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ [ يوسف : 82 ] .

(28/242)

---

و ﴿ أُمَّ الْقُرَى ﴾ مكة وفي تسميتها بذلك أربعة أقاويل : -

أحدها : لأنها مجتمع القرى ، كما يجتمع الأولاد إلى الأم .

والثاني : لأن أول بيت وضع بها ، فكأن القرى نشأت عنها ، قاله السدي .

والثالث : لأنها معظمة كتعظيم الأم ، قاله الزجاج .

والرابع : لأن الناس يؤمونها من كل جانب ، أي يقصدونها .

ثم قال : ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ قال ابن عباس : هم أهل الأرض كلها .

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ وفيما ترجع إليه هذه الكناية قولان :

أحدهما : إلى الكتاب ، وتقديره : والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون بهذا الكتاب ، قاله الكلبي .

والثاني : إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وتقديره : والذين يؤمنون بالآخرة ، يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم لِمَا قد أظهر الله تعالى من معجزته وأَبَانَه الله من صدقه ، قاله الفراء .

فإن قيل : فيمن يؤمن بالآخرة من أهل الكتاب لا يؤمنون به ؟

قيل : لا اعتبار لإِيمانهم بها لتقصيرهم في حقها ، فصاروا بمثابة من لم يؤمن بها . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد الخازن فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله تعالى : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك ﴾ يعني : وهذا القرآن كتاب أنزلناه من عندنا عليك يا محمد كثير الخير والبركة دائم النفع يبشر المؤمنين بالثواب والمغفرة ويزجر عن القبيح والمعصية .

وأصل البركة : النماء والزيادة وثبوت الخير ﴿ مصدق الذي بين يديه ﴾ يعني من الكتب الإلهية المنزلة من السماء على الأنبياء عين أنه موافق لما في التوراة والإنجيل وسائر الكتب ،

لأنها اشتملت جميعها على التوحيد والتنزيه لله من كل عيب ونقيصه وتدل على البشارة والنذارة فثبت بذلك كون القرآن مصدقاً لجميع الكتب المنزلة ﴿ ولتنذر ﴾ قرئ بالتاء يعني ولتنذر يا محمد وبالياء ومعناه ولينذر الكتاب ﴿ أم القرى ﴾ يعني مكة وفيه حذف تقديره ولتنذر أهل القرى وسميت مكة أم القرى لأن الأرض دحيت من تحتها .

(29/242)

---

قاله ابن عباس : وقيل : لأنها أقدم القرى وأعظمها بركة .

وقيل : لأنها قبلة أهل الأرض ﴿ ومن حولها ﴾ يعني جميع البلاد والقرى التي حولها شرقاً وغرباً ﴿ والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ﴾ يعني : والذين يصدقون بقيام الساعة وبالمعاد والبعث بعد الموت يصدقون بها الكتاب وأنه منزل من عند الله عز وجل وقيل ببعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك أن الذي يؤمن بالآخرة يؤمن بالوعد والوعيد والثواب والعقاب ومن كان كذلك فإنه يرغب في تحصيل الثواب ورد العقاب عنه وذلك لا يحصل إلا بالنظر التام فإذا نظر وتفكر علم بالضرورة أن دين محمد أشرف الأديان وشريعته أعظم الشرائع ﴿ وهم على صلواتهم يحافظون ﴾ يعني يداومون عليها في أوقاتها .

والمعنى : أن الإيمان بالآخرة يحمل على الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وذلك يحمل على المحافظة على الصلاة ، وفائدة تخصيص الصلاة بالذكر دون سائر العبادات ، التنبيه على أنها أشرف العبادات بعد الإيمان بالله تعالى ، فإذا حافظ العبد عليها يكون محافظاً على جميع العبادات والطاعات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(30/242)

---

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيتين :

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ) .

خَتَمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ سِيَاقَ قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ مَعَ قَوْمِهِ بِذِكْرِ هِدَايَةِ بَعْضِ الرُّسُلِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَذُرِّيَّتِهِ ، تَمْهِيدًا بِذَلِكَ إِلَى بَيَانِ كَوْنِ رِسَالَةِ خَاتَمِهِمْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ جِنْسِ رِسَالَتِهِمْ ، وَكَوْنِ هِدَايَتِهِ مُتَمِّمَةً وَمُكَمِّلَةً لِهِدَايَتِهِمْ ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَسْأَلُ عَلَى تَبْلِيغِ هَذَا الْقُرْآنِ أَجْرًا ، لَا يَرْجُو مِنْ غَيْرِ اللَّهِ عَلَيْهِ فَائِدَةً وَلَا نَفْعًا ، وَقَفَّى عَلَى ذَلِكَ بِالرَّدِّ عَلَى مُنْكِرِي الْوَحْيِ ، وَبَيَانِ أَنَّهُمْ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ الْقَدْرِ ، وَتَفْنِيدِ مَا عَرَضَ لَهُمْ مِنَ الشُّبْهَةِ ، وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ الْوَاضِحَةِ الْمُحِجَّةِ ، قَالَ :

(31/242)

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ) ، قَدْرُ الشَّيْءِ - بِسُكُونِ الدَّالِ وَفَتْحِهَا - وَمِقْدَارُهُ : مِقْيَاسُهُ الَّذِي يُعْرَفُ بِهِ وَمَبْلَغُهُ ، يُقَالُ قَدَرَهُ يَقْدُرُهُ وَقَدَّرَهُ إِذَا قَاسَهُ ، وَقَادَرْتُ الرَّجُلَ مُقَادَرَةً قَايَسْتُهُ وَفَعَلْتُهُ مِثْلَ فِعْلِهِ ، وَالْقَدَرُ وَالْقُدْرَةُ وَالْمِقْدَارُ الْقُوَّةُ . وَمِنْهُ الْقَدْرُ بِمَعْنَى الْغِنَى وَالْيَسَارِ - وَكَذَا الشَّرَفُ - لِأَنَّ كُلَّهُ قُوَّةٌ كَمَا قَالَ صَاحِبُ اللِّسَانِ ، وَكُلُّ مَا تَقَدَّمَ مُخْتَصَرٌ مِنْهُ . (قَالَ) وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) أَيْ مَا عَظَّمُوهُ حَقَّ تَعْظِيمِهِ . وَقَالَ اللَّيْثُ : مَا وَصَفُوهُ حَقَّ صِفَتِهِ ، وَالْقَدَرُ وَالْقَدْرُ هُنَا بِمَعْنًى وَاحِدٍ انْتَهَى . وَعَزَى الْأَوَّلَ إلَى ابْنِ عَبَّاسٍ وَرُوِيَ عَنْهُ أَيْضًا أَنَّ الْقَدْرَ هُنَا بِمَعْنَى الْقُدْرَةِ ، وَاحِدٌ انْتَهَى . قَالَ : إنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْكُفَّارِ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِقُدْرَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، فَمَنْ آمَنَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فَقَدْ قَدَرَ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ . وَعَنِ الْأَخْفَشِ أَنَّ الْمَعْنَى مَا عَرَفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ . وَعَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ : مَا وَصَفُوهُ حَقَّ صِفَتِهِ . وَتَفْسِيرُهُ بِالْمَعْرِفَةِ أَقْوَى ، لِأَنَّهُ بِالْمَعْنَى الِاشْتِقَاقِيِّ أَلْصَقُ ، وَتَعَلُّقُ الظَّرْفِ " إِذْ قَالُوا " بِفِعْلِهِ أَوْ مَعْنَى نَفْيِهِ أَظْهَرُ ، سَوَاءٌ تَضَمَّنَ مَعْنَى الْعِلَّةِ أَمْ لَمْ يَتَضَمَّنْ ، وَالْعِبَارَةُ مُحْتَمِلَةُ الْأَمْرَيْنِ ، فَمُنْكِرُو الْوَحْيِ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِرُسُلِ اللَّهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ

يَفْرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ ، مَا عَرَفُوا اللهَ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ ، وَلَا عَظَّمُوهُ حَقَّ تَعْظِيمِهِ وَلَا وَصَفُوهُ حَقَّ صِفَتِهِ ، وَلَا آمَنُوا بِهَذَا النَّوْعِ مِنْ قُدْرَتِهِ ، وَهُوَ إِفَاضَةُ مَا شَاءَ مِنْ عِلْمِهِ بِمَا يَصْلُحُ بِهِ أَمْرُ النَّاسِ مِنَ الْهُدَى وَالشَّرْعِ عَلَى مَنْ شَاءَ مِنَ الْبَشَرِ بِوَاسِطَةِ الْمَلَائِكَةِ ، أَوْ بِتَكْلِيمِهِ إِيَّاهُمْ بِدُونِ وَاسِطَةٍ ، أَوْ قُدْرَتِهِ عَلَى مَا يُتْبِعُ الرِّسَالَةَ مِنْ تَأْيِيدِ الرُّسُلِ بِالْآيَاتِ ، وَبِهَذَا الِاعْتِبَارِ يَكُونُ تَفْسِيرُ الْقَدْرِ بِالْقُدْرَةِ أَظْهَرُ ، وَمَنْ يُجِيزُ اسْتِعْمَالَ الْمُشْتَرَكِ فِي كُلِّ مَعَانِيهِ وَالْجَمْعِ بَيْنَ حَقِيقَتِهِ وَمَجَازِهِ مَعَ أَمْنِ

اللَّبْسِ يُجِيزُ إِرَادَةَ كُلِّ مَا ذُكِرَ مِنْ مَعَانِي الْقَدْرِ هُنَا . عَلَى أَنَّ الْمَعْنَى الْمُخْتَارَ يَتَضَمَّنُ سَائِرَ هَذِهِ الْمَعَانِي ، فَمَنْ عَرَفَ اللهَ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ وَصَفَهُ حَقَّ وَصْفِهِ وَآمَنَ بِقُدْرَتِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَعَظَّمَهُ حَقَّ تَعْظِيمِهِ .

نَطَقَتِ الْآيَةُ بِأَنَّ مُنْكِرِي الْوَحْيِ مَا عَرَفُوا اللهَ تَعَالَى حَقَّ مَعْرِفَتِهِ ، وَلَا وَصَفُوهُ بِمَا يَجِبُ وَصْفُهُ بِهِ ، وَلَا عَرَفُوا كُنْهَ فَضْلِهِ عَلَى الْبَشَرِ ، إِذْ قَالُوا إِنَّهُ مَا أَنْزَلَ شَيْئًا عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ ، فَهِيَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ إِرْسَالَ الرُّسُلِ وَإِنْزَالَ الْكُتُبِ مِنْ شُئُونِهِ سُبْحَانَهُ وَمُتَعَلِّقُ صِفَاتِهِ فِي النَّوْعِ

الْبَشَرِيّ ، فَإِنَّهَا مِنْ مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ ، وَأَجَلِّ آثَارِ الرَّحْمَةِ . فَمَنْ عَرَفَهُ تَعَالَى بِصِفَاتِ الْكَمَالِ ، الَّتِي هِيَ مُتَعَلَّقُ أَحَاسِنِ الْأَفْعَالِ ، وَمَصْدَرُ النِّظَامِ التَّامِّ ، فِي عَالَمِ الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَامِ ، كَالْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ ، وَالرَّحْمَةِ السَّابِغَةِ ، وَالْعِلْمِ الْمُحِيطِ ، وَالْقِيَامِ بِالْقِسْطِ ، وَنَظَرَ فِي الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ فِي أَنْفُسِ الْبَشَرِ وَالْآفَاقِ ، فَعَلِمَ مِنْهَا أَنَّهُ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، وَأَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ صَنَعَهُ ، وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ، مُسْتَعِدًّا لِلْعُرُوجِ إِلَى أَعْلَى عِلِّيِّينَ ، وَالْهُبُوطِ إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ ، وَجَعَلَ كَمَالَهُ الَّذِي تُرَقِّيهِ إِلَيْهِ مَوَاهِبُ رُوحِهِ الْمَلَكِيَّةِ ، وَنَقْصَهُ الَّذِي تُدَسِّيهِ فِيهِ مَطَالِبُ جَسَدِهِ الْحَيَوَانِيَّةِ ، أَثَرًا لِعُلُومِهِ وَأَعْمَالِهِ الْكَسْبِيَّةِ ، الَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ حَيَاتَيْهِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْأُخْرَوِيَّةِ . ثُمَّ عَلِمَ مَنْ تَدَبَّرَ أَحْوَالَهُ فِي حَيَاتِهِ الْحَاضِرَةِ ، وَمَنْ دَرَسَ طِبَاعَهُ وَتَارِيخَ أَجْيَالِهِ الْغَابِرَةِ ، أَنْ لَمْ يَكَدْ يُوجَدُ فَرْدٌ مِنْ أَفْرَادِهِ أَحَاطَ عِلْمًا بِمَصَالِحِ شَخْصِهِ ، فَلَمْ يَجْنِ عَلَى جَسَدِهِ وَلَا عَلَى نَفْسِهِ ، وَلَمْ يُوجَدْ جِيلٌ مِنْ أَجْيَالِهِ ، وَلَا شَعْبٌ مِنْ شُعُوبِهِ ، ارْتَقَتْ بِهِ عُلُومُهُ الْكَسْبِيَّةُ ، وَقَوَانِينُهُ الْوَضْعِيَّةُ ، إِلَى نَيْلِ السَّعَادَةِ الْمَنْزِلِيَّةِ وَالْقَوْمِيَّةِ ، وَالْكَمَالِ الَّذِي يُؤَهِّلُهُ لِلسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ ، إِلَّا مَنِ اهْتَدَى بِهِدَايَةِ الْمُرْسَلِينَ ، وَهُمْ فِي كُلِّ مِلَّةٍ ثُلَّةٌ مِنَ

(34/242)

الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ – مَنْ عَرَفَ اللهَ بِمَا ذَكَرْنَا مِنَ الصِّفَاتِ ، وَعَرَفَ الْبَشَرَ بِمَا أَجْمَلْنَا مِنَ الْأَحْوَالِ وَالْمُمَيِّزَاتِ ، عَلِمَ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ إِرْسَالَ الرُّسُلِ وَإِنْزَالَ الْكُتُبِ مِنْ آثَارِ تِلْكَ الصِّفَاتِ الَّتِي هِيَ مَصَادِرُ النِّظَامِ وَمَظَاهِرُ الْكَمَالِ ، قَدْ تَوَقَّفَ عَلَيْهِ إِكْمَالُ اسْتِعْدَادِ الْبَشَرِ لِلْعُرُوجِ الَّذِي أَشَرْنَا إِلَيْهِ ، وَتَوَقِّي الْهُبُوطِ الَّذِي ذَكَّرْنَا بِهِ ، فَكَانَ إِرْشَادُ الْوَحْيِ سَبَبًا لِكُلِّ ارْتِقَاءٍ إِنْسَانِيٍّ ، فِي رُكْنَيْ وُجُودِهِ الْجُسْمَانِيِّ وَالرُّوحَانِيِّ ، وَقَدْ فُتِنَ فِي هَذَا الْعَصْرِ خَلْقٌ كَثِيرٌ بِتَرَقِّي النِّظَامِ الِاجْتِمَاعِيِّ ، وَسَعَةِ التَّمَتُّعِ الشَّهْوَانِيِّ فِي شُعُوبٍ كَانَتْ قَدِ اسْتَفَادَتْ كَثِيرًا مِنْ هِدَايَةِ الْوَحْيِ ، ثُمَّ نَسِيَتْ

(35/242)

---

ذَلِكَ الْأَصْلَ الَّذِي هُوَ مَصْدَرُ كُلِّ الْخَيْرِ ، فَعَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ بِهِمْ وَحْدَهُمْ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ بِهِمْ وَبِهِ ، وَادَّعَوْا أَنَّهُمْ قَدِ اسْتَغْنَوْا بِعُقُولِهِمْ عَنْ تِلْكَ الْهِدَايَةِ ، بَلْ وَصَمُوهَا بِمَا وَسَمُوهَا بِهِ مِنْ سِمَاتِ الْغَوَايَةِ ، حَتَّى إِذَا مَا بَرِحَ الْخَفَاءُ ، وَفُضِحَ الرِّيَاءُ ، وَانْكَشَفَ الْغِطَاءُ ، ظَهَرَ أَنَّ تِلْكَ الْمَدَنِيَّةَ ، هِيَ أَفْظَعُ الْوَحْشِيَّةِ وَالْهَمَجِيَّةِ ، فَأَيُّهُمْ أَوْسَعُ فِيهَا عُلُومًا وَفُنُونًا وَأَدَقُّ نِظَامًا وَقَانُونًا ، هُمْ أَشَدُّ فَتْكًا بِالْإِنْسَانِ وَتَخْرِيبًا لِلْعُمْرَانِ ، وَأَنَّ غَايَةَ هَذَا التَّرَقِّي اسْتِعْبَادُ الْأَقْوِيَاءِ لِلضُّعَفَاءِ بِتَسْخِيرِهِمْ لِخِدْمَتِهِمْ وَاسْتِخْرَاجِ خَيْرَاتِ الْأَرْضِ لَهُمْ

، اسْتِمْتَاعًا بِالشَّهَوَاتِ الْحَيَوَانِيَّةِ السُّفْلَى ، وَإِسْرَافًا فِي زِينَةِ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .

وَقَدْ بَيَّنَ شَيْخُنَا الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي (رِسَالَةِ التَّوْحِيدِ) وَجْهَ حَاجَةِ الْبَشَرِ إِلَى الرُّسُلِ مِنْ طَرِيقَيْنِ أَوْ مَسْلَكَيْنِ :

(الْمَسْلَكُ الْأَوَّلُ) مَبْنِيٌّ عَلَى عَقِيدَةِ بَقَاءِ النَّفْسِ وَاسْتِعْدَادِ الْبَشَرِ لِحَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ فِي عَالَمٍ غَيْبِيٍّ ، وَحَاجَتِهِمْ إِلَى إِرْشَادٍ إِلَهِيٍّ يَعْلَمُونَ بِهِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ لِلسَّعَادَةِ فِي تِلْكَ الْحَيَاةِ ،

*(36/242)*

---

وَكَوْنِ إِيتَاءِ اللهِ تَعَالَى إِيَّاهُمْ ذَلِكَ مِنْ آثَارِ إِحْسَانِهِ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، وَإِتْقَانِهِ كُلَّ شَيْءٍ صَنَعَهُ إِذِ اخْتَصَّ بَعْضَ أَفْرَادِ هَذَا النَّوْعِ بِفِطْرَةٍ عَالِيَةٍ ، وَأَعَدَّ أَرْوَاحَهُمْ لِلْإِشْرَافِ عَلَى عَالَمِ الْغَيْبِ وَتَلَقِّي عِلْمَ الْهِدَايَةِ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِوَاسِطَةِ الرُّوحِ الْأَمِينِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَوْ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ ؛ وَبِذَلِكَ كَانُوا نِهَايَةَ الشَّاهِدِ ، وَبِدَايَةَ الْغَائِبِ ، فِي هَذَا النَّوْعِ الَّذِي جَعَلَ اللهُ مِنَ التَّفَاوُتِ بَيْنَ أَفْرَادِهِ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ مَا لَا يُعْهَدُ مِثْلُهُ وَلَا مَا يُقَارِبُهُ فِي نَوْعٍ آخَرَ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَحْيَاءِ ، حَتَّى إِنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ لَيَنْهَضُ بِأُمَّةٍ أَوْ أُمَمٍ فَيَرْفَعُ شَأْنَهَا ، وَأُلُوفُ الْأُلُوفِ يَكُونُونَ كَالْأَنْعَامِ يُسَخِّرُهُمْ لِخِدْمَتِهِ رَجُلٌ وَاحِدٌ أَوْ آحَادٌ مِنْهُمْ أَوْ مِنْ غَيْرِهِمْ .

(37/242)

---

(الْمَسْلَكُ الثَّانِي) مَبْنِيٌّ عَلَى مَا عُلِمَ مِنْ فِطْرَةِ الْإِنْسَانِ مِنْ كَوْنِهِ خُلِقَ لِيَعِيشَ مُجْتَمِعًا مُتَعَاوِنًا ، يَقُومُ أَفْرَادٌ مُتَفَرِّقُونَ وَجَمَاعَاتٌ مُتَعَاوِنُونَ بِكُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَحْتَاجُ إلَيْهَا فِي حِفْظِ حَيَاتَيْهِ الشَّخْصِيَّةِ وَالنَّوْعِيَّةِ ، وَيَظْهَرُ بِهِ اسْتِعْدَادُهُ لِتَسْخِيرِ جَمِيعِ مَا فِي عَالَمِهِ لِمَنَافِعِهِ ، وَكَوْنِهِ يَعْمَلُ أَعْمَالَهُ بِحَسَبِ عِلْمِهِ وَشُعُورِهِ وَتَخَيُّلِهِ ، وَكَوْنِ أَفْرَادِهِ يَخْتَلِفُونَ فِي ذَلِكَ اخْتِلَافًا يَقْتَضِي التَّنَازُعَ وَالشِّقَاقَ ، الَّذِي يُفْضِي إلَى التَّخَاذُلِ وَالتَّقَاتُلِ إذَا لَمْ يَتَدَارَكْهُ اللَّهُ بِهِدَايَةٍ تُزِيلُ الْخِلَافَ وَتُوَحِّدُ الْآرَاءَ وَالْأَهْوَاءَ ، وَهَذِهِ الْهِدَايَةُ هِيَ هِدَايَةُ الْوَحْيِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ الرُّسُلَ ، وَإِنَّمَا تُزِيلُ الْخِلَافَ لِأَنَّ اللَّهَ أَوْدَعَ فِي فِطْرَةِ

(38/242)

---

الْإِنْسَانِ فَوْقَ كُلِّ مَا ذَكَرَ غَرِيزَةً هِيَ أَقْوَى غَرَائِزِهِ وَأَعْلَاهَا ، وَهِيَ غَرِيزَةُ الشُّعُورِ بِوُجُودِ قُوَّةٍ غَيْبِيَّةٍ هِيَ فَوْقَ قُوَّتِهِ وَقُوَى جَمِيعِ عَالَمِ الشَّهَادَةِ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ وَالْخُضُوعُ لِكُلِّ مَا يَأْتِيهِ مِنْ جَانِبِ ذَلِكَ السُّلْطَانِ الْأَعْلَى ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ الرُّسُلَ بِالْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى تَأْيِيدِهِمْ مِنْ قِبَلِ تِلْكَ

الْقُوَّةِ الْعَالِيَةِ ، وَالسُّلْطَةِ الْغَالِبَةِ ، وَكَوْنِهِمْ يَتَكَلَّمُونَ عَنْ قَيُّومِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِمَا جَاءُوا بِهِ مِنَ الْكِتَابِ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِالْقِسْطِ . فَزَالَ مِنْ بَيْنِ الْمُؤْمِنِينَ لَهُمْ كُلُّ خِلَافٍ ، وَتَمَهَّدَ لَهُمْ طَرِيقُ السَّيْرِ إِلَى الْكَمَالِ ، فَكَانَ الْعَامِلُونَ بِالْكِتَابِ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ خِيَارَهَا وَعُدُولَهَا . وَلَوْلَا الْبَغْيُ الَّذِي حَمَلَ آخَرِينَ عَلَى الْخِلَافِ فِي الْكِتَابِ الْمُزِيلِ لِلْخِلَافِ ، لَبَلَغَتْ بِهِ مُنْتَهَى مَا هِيَ مُسْتَعِدَّةٌ لَهُ مِنَ السَّعَادَةِ وَالْكَمَالِ .

مَنْ غَصَّ دَاوَى بِشُرْبِ الْمَاءِ غُصَّتَهُ . . . فَكَيْفَ يَفْعَلُ مَنْ قَدْ غَصَّ بِالْمَاءِ ؟ .

*(39/242)*

---

وَمَنْ شَاءَ أَنْ يَقِفَ عَلَى هَذَا الْبَحْثِ بِالتَّفْصِيلِ ، وَرَدِّ مَا يَرِدُ مِنَ الِاعْتِرَاضِ عَلَيْهِ بِالدَّلِيلِ ، فَلْيَقْرَأْهُ بِالْإِمْعَانِ وَالتَّدَبُّرِ فِي رِسَالَةِ التَّوْحِيدِ ، وَلْيُرَاجِعْ فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ ، مَا نَقَلْنَاهُ عَنِ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ) 2 : 213 وَقَدْ بَذَّ الْأُسْتَاذُ – أَثَابَهُ اللَّهُ تَعَالَى – فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ جَمِيعَ الْعُلَمَاءِ وَالْحُكَمَاءِ الَّذِينَ كَتَبُوا فِي بَيَانِ حِكْمَةِ بَعْثَةِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَلَوْلَا أَنْ طَالَ هَذَا الْجُزْءُ وَتَجَاوَزَ كُلَّ تَقْدِيرٍ لَنَقَلْنَا عِبَارَةَ رِسَالَةِ

التَّوْحِيدِ بِرُمَّتِهَا هُنَا ، وَلَعَلَّنَا نُجِدُّ لَهَا مُنَاسَبَةً فِي جُزْءٍ آخَرَ وَإِنْ كَانَتْ أَضْعَفَ مِنْ مُنَاسَبَةِ هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْبَحْثُ تَفْسِيرًا لَهَا .

(40/242)

---

(قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا) هَذَا رَدٌّ عَلَى مُنْكِرِي الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ لَقَّنَهُ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي إِثْرِ بَيَانِ كَوْنِ ذَلِكَ مِنْ شُؤُونِهِ تَعَالَى وَمُقْتَضَى صِفَاتِهِ فِي تَدْبِيرِ أَمْرِ الْبَشَرِ كَمَا تَقَدَّمَ آنِفًا . قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو " تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ " بِالْمُثَنَّاةِ التَّحْتِيَّةِ عَلَى أَنَّهَا إِخْبَارٌ عَنِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ، وَقَرَأَهَا الْآخَرُونَ " تَجْعَلُونَهُ " إِلَخْ بِالْمُثَنَّاةِ الْفَوْقِيَّةِ عَلَى الْخِطَابِ . وَبِذَلِكَ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْآيَةِ وَعَدَّهَا بَعْضُهُمْ مِنْ مُشْكِلَاتِ الْقُرْآنِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى نُزُولِ السُّورَةِ فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِهَا أَنَّ بَعْضَهُمْ عَدَّ هَذِهِ الْآيَةَ مِمَّا اسْتُثْنِيَ مِنْ نُزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ كُلِّهَا

(41/242)

---

دُفْعَةً وَاحِدَةً بِمَكَّةَ ، وَزَعَمُوا أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي شَأْنِ بَعْضِ الْيَهُودِ فِي الْمَدِينَةِ ، وَأَنَّ ظَاهِرَ مَعْنَى الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ لِأَنَّ هَذَا الِاحْتِجَاجَ إِنَّمَا يَقُومُ عَلَى الْيَهُودِ دُونَ مُشْرِكِي الْعَرَبِ الَّذِينَ خُوطِبُوا بِسَائِرِ السُّورَةِ ، وَقَدْ وَرَدَ فِي أَسْبَابِ نُزُولِهَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : قَالَتِ الْيَهُودُ يَا مُحَمَّدُ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ كِتَابًا ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالُوا : وَاللَّهِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ كِتَابًا . وَعَنِ السُّدِّيِّ قَالَ : قَالَ فِنْحَاصُ الْيَهُودِيُّ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ مِنْ شَيْءٍ - وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ قَالَ : أَمَرَ اللَّهُ مُحَمَّدًا أَنْ يَسْأَلَ أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ أَمْرِهِ وَكَيْفَ يَجِدُونَهُ فِي كُتُبِهِمْ فَحَمَلَهُمْ حَسَدُهُمْ عَلَى أَنْ يَكْفُرُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ . فَقَالُوا : مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ - فَأَنْزَلَ اللَّهُ " وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ " الْآيَةَ . وَرُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ وَكَذَا عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ وَلَمْ يَذْكُرَا اسْمًا وَلَا قِصَّةً ، وَعَنْ عِكْرِمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي مَالِكِ بْنِ الصَّيْفِ الْيَهُودِيِّ قَالَ الْكَلِمَةَ فِي قِصَّةٍ سَيَأْتِي ذِكْرُهَا . وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ مُجَاهِدٍ أَنَّهَا فِي الْعَرَبِ وَرَجَّحَهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، فَإِنَّهُ بَعْدَ ذِكْرِ الْخِلَافِ صَوَّبَ قَوْلَ مَنْ قَالَ إِنَّ الْآيَةَ فِي مُشْرِكِي قُرَيْشٍ بِأَنَّ الْكَلَامَ فِي سِيَاقِ الْخَبَرِ عَنْهُ وَلَمْ يَجْرِ لِلْيَهُودِ ذِكْرٌ فِي هَذِهِ السُّورَةِ ، وَبِأَنَّهُ لَمْ يَصِحَّ مِنَ الرِّوَايَةِ عَنْ

نُزُولِهَا فِيهِمْ خَبَرٌ مُتَّصِلُ الْإِسْنَادِ ، وَبِأَنَّ الْمَعْرُوفَ مِنْ دِينِ الْيَهُودِ أَنَّهُمْ لَا يُنْكِرُونَ الْوَحْيَ بَلْ يُقِرُّونَ بِنُزُولِهِ عَلَى إبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَدَاوُدَ .

(قَالَ) : فَلَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَصْرِفَ الْآيَةَ عَمَّا يَقْتَضِيهِ سِيَاقُهَا مِنْ أَوَّلِهَا إلَى هَذَا الْمَوْضِعِ بَلْ إلَى آخِرِهَا بِغَيْرِ حُجَّةٍ مِنْ خَبَرٍ صَحِيحٍ أَوْ عَقْلٍ . وَذَكَرَ أَنَّهُ يَظُنُّ أَنَّ مَنْ قَالَ إنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ تَأَوَّلُوا بِذَلِكَ قِرَاءَةَ الْأَفْعَالِ فِيهَا بِالْخِطَابِ " تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ " إلَخْ وَقَالَ إنَّ الْأَصْوَبَ قِرَاءَةُ "يَجْعَلُونَهُ " إلَخْ . عَلَى مَعْنَى أَنَّ الْيَهُودَ يَجْعَلُونَهُ فَهُوَ حِكَايَةٌ عَنْهُمْ ذُكِرَتْ فِي خِطَابِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ ، وَرَجَّحَ أَنَّ هَذَا مُرَادُ مُجَاهِدٍ . وَلَكِنَّهُ لَمْ يُبَيِّنْ وَجْهَ الِاحْتِجَاجِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَلَا وَجْهَ تَخْرِيجِ قِرَاءَةِ الْخِطَابِ الَّتِي قَرَأَ بِهَا أَكْثَرُ

الْقُرَّاءِ بَلِ اكْتَفَى بِتَرْجِيحِ الْقِرَاءَةِ الْأُخْرَى ، فَكُلٌّ مِنَ الْقِرَاءَتَيْنِ مُشْكِلٌ مِنْ وَجْهٍ ، وَقَدْ أَجَابَ بَعْضُهُمْ عَنِ الْإِشْكَالِ الْأَوَّلِ مِمَّا يَرِدُ عَلَيْهِ بِأَنَّ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْيَهُودَ أَصْحَابُ التَّوْرَاةِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَسَيَأْتِي الدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ .

وَأَمَّا جُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ الَّذِينَ قَالُوا إنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ ، فَيُجِيبُونَ عَنْ إشْكَالِ

ابْنِ جَرِيرٍ الْأَوَّلِ - وَهُوَ نُزُولُ السُّورَةِ فِي مَكَّةَ وَكَوْنِ السِّيَاقِ قَبْلَهَا وَبَعْدَهَا فِي مُحَاجَّةِ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ - بِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مُسْتَثْنَاةٌ مِنْ ذَلِكَ كَمَا تَقَدَّمَ ، فَإِنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْمَدِينَةِ ، وَأُدْخِلَتْ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ لِتَكُونَ مُقَدِّمَةً لِلْكَلَامِ فِي بَحْثِ الرِّسَالَةِ بَعْدَ بَحْثِ التَّوْحِيدِ ، وَفِيهِ - كَمَا قَالَ : إِنَّهُ لَيْسَ فِي سَابِقِ الْكَلَامِ ذِكْرٌ لِلْيَهُودِ لِيَعُودَ الضَّمِيرُ إِلَيْهِمْ بِغَيْرِ تَكَلُّفٍ ، وَأَجَابُوا عَنْ إِشْكَالِهِ الثَّانِي وَهُوَ كَوْنُ الْيَهُودِ يُقِرُّونَ بِالْوَحْيِ وَلَا يُنْكِرُونَهُ مِنْ وُجُوهٍ :

(أَحَدُهَا) أَنَّ هَذَا إِنْكَارٌ مُطْلَقٌ أُرِيدَ بِهِ الْمُقَيَّدُ ، وَقَدْ بَنَى الرَّازِيُّ هَذَا الْجَوَابَ عَلَى قِصَّةِ مَالِكِ بْنِ الصَّيْفِ الَّتِي رُوِيَتْ فِي الْمَأْثُورِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ - وَعَزَاهَا الرَّازِيُّ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ - وَهِيَ أَنَّهُ كَانَ سَمِينًا وَهُوَ مِنْ أَحْبَارِهِمْ فَسَأَلَهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَاسْتَحْلَفَهُ " هَلْ يَجِدُ فِي التَّوْرَاةِ أَنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ الْحَبْرَ السَّمِينَ ؟ " فَقَالَ الْكَلِمَةَ . قَالَ الرَّازِيُّ وَمُرَادُهُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ فِي أَنَّهُ يُبْغِضُ الْحَبْرَ السَّمِينَ . (ثَانِيهَا) أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ فِي حَالَةِ الْغَضَبِ مُبَالَغَةً ، وَذَكَرُوا أَنَّ الْيَهُودَ سَأَلُوهُ عَنْ قَوْلِهِ هَذَا فَاعْتَذَرَ بِأَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَغْضَبَهُ فَقَالَ ذَلِكَ ، أَيْ فِي حَالَةِ الْغَضَبِ الْمُدْهِشِ لِلْعَقْلِ أَوْ عَلَى سَبِيلِ طُغْيَانِ اللِّسَانِ . (ثَالِثُهَا) أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ

الْمُرَادُ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ ، أَيْ سِفْرًا مَخْطُوطًا - كَمَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - وَهُوَ مِنْ تَحْرِيفِهِمْ ، فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ الْوَحْيَ الَّذِي يُنْزِلُهُ اللهُ لِيُكْتَبَ يُسَمَّى كِتَابًا قَبْلَ كِتَابَتِهِ تَجَوُّزًا وَبَعْدَهَا حَقِيقَةً . (رَابِعُهَا) أَنَّ مُرَادَهُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ مِنْ شَيْءٍ - كَمَا رُوِيَ عَنِ السُّدِّيِّ - فَذَكَرَ الْعَامَّ وَأَوْرَدَ الْخَاصَّ . وَأَمَّا قِرَاءَةُ "يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ" إلَخْ . فَلَا تُشْكِلُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ مِنَ التَّفْسِيرِ فَيُحْتَاجَ إلَى الْجَوَابِ عَنْهَا كَمَا تُشْكِلُ قِرَاءَةُ "تَجْعَلُونَهُ" عَلَى الْوَجْهِ الْآخَرِ .

*(45/242)*

---

هَذَا مَا اطَّلَعْنَا عَلَيْهِ فِي تَوْجِيهِ الْقِرَاءَتَيْنِ وَفِيهِ مِنَ التَّكَلُّفِ مَا لَا يَخْفَى . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ سِيَاقِ مِثْلِ هَذَا مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ أَوَّلَهُ (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ) 20 أَنَّ قُرَيْشًا أَرْسَلُوا إلَى الْمَدِينَةِ مَنْ يَسْأَلُ الْيَهُودَ عَنْ رِسَالَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَنْكَرُوا مَعْرِفَتَهُ ، وَسَيَأْتِي فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْكَهْفِ أَنَّ قُرَيْشًا بَعَثَتِ النَّضْرَ بْنَ الْحَارِثِ وَعُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ إلَى أَحْبَارِ يَهُودِ الْمَدِينَةِ - وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُمْ أَرْسَلُوا وَفْدًا مِنْهُمْ هَذَانِ الزَّعِيمَانِ لِلْكُفْرِ - فَقَالُوا لَهُمْ : سَلُوهُمْ عَنْ مُحَمَّدٍ وَصِفُوا لَهُمْ صِفَتَهُ وَأَخْبِرُوهُمْ بِقَوْلِهِ فَإِنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ وَعِنْدَهُمْ عِلْمُ مَا لَيْسَ عِنْدَنَا مِنْ عِلْمِ الْأَنْبِيَاءِ ، فَخَرَجَا حَتَّى أَتَيَا الْمَدِينَةَ

فَسَأَلَا أَحْبَارَ يَهُودَ عَنْ رَسُولِ اللهِ -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَوَصَفَا لَهُمْ

(46/242)

---

أَمْرَهُ وَبَعْضَ قَوْلِهِ وَقَالَا : إنَّكُمْ أَهْلُ التَّوْرَاةِ وَقَدْ جِئْنَاكُمْ لِتُخْبِرُونَا عَنْ صَاحِبِنَا هَذَا إلَخْ .
فَهَذِهِ الرِّوَايَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنْ كَوْنَ التَّوْرَاةِ كِتَابًا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِلْيَهُودِ خَاصَّةً كَانَ مَعْرُوفًا عِنْدَ
مُشْرِكِي قُرَيْشٍ ، وَأَنَّهُمْ لِهَذَا أَرْسَلُوا وَفْدًا . إلَى أَحْبَارِ الْيَهُودِ فَسَأَلُوهُمْ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَبِذَلِكَ يَكُونُ الِاحْتِجَاجُ عَلَيْهِمْ بِالتَّوْرَاةِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الَّتِي أُنْزِلَتْ فِي
مُحَاجَّتِهِمْ فِي جَمِيعِ أُصُولِ الدِّينِ احْتِجَاجًا وَجِيهًا وَلَا يَصِحُّ مَا قَالَهُ الرَّازِيُّ مِنْ أَنَّ
الْمُشْرِكِينَ بَلَغَتْهُمْ مُعْجِزَاتُ مُوسَى الدَّالَّةُ عَلَى نُبُوَّتِهِ وَكِتَابِهِ بِالتَّوَاتُرِ وَأَنَّهُمْ كَذَّبُوا الرَّسُولَ
بِسَبَبِ طَلَبِ مِثْلِهَا . وَالَّذِي يَتَّجِهُ عَلَى قَوْلِنَا أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي ضِمْنِ السُّورَةِ بِمَكَّةَ - كَمَا
قَرَأَهَا ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو مُحْتَجَّةً عَلَى مُشْرِكِي مَكَّةَ الَّذِينَ أَنْكَرُوا الْوَحْيَ اسْتِبْعَادًا
لِخِطَابِ اللهِ لِلْبَشَرِ بِاعْتِرَافِهِمْ بِكِتَابِ مُوسَى ، وَإِرْسَالِهِمُ الْوَفْدَ إلَى أَحْبَارِ الْيَهُودِ وَاعْتِرَافِهِمْ
بِأَنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ الْعَالِمِينَ بِأَخْبَارِ الْأَنْبِيَاءِ ، فَهُوَ تَعَالَى يَقُولُ لِرَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ - : (قُلْ) لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ مِنْ قَوْمِكَ إذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى

بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ - كَقَوْلِهِمْ " أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا " : (مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا) انْقَشَعَتْ بِهِ ظُلُمَاتُ

(47/242)

---

الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ الَّذِي وَرِثَهُ بَنُو إسْرَائِيلَ عَنْ الْمِصْرِيِّينَ (وَهُدًى لِلنَّاسِ) أَيِ الَّذِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ أُخْرِجُوا مِنَ الضَّلَالِ بِمَا فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالشَّرَائِعِ الَّتِي أَنْشَأَتْهُمْ خَلْقًا جَدِيدًا ، فَكَانُوا مُعْتَصِمِينَ بِالْحَقِّ مُقِيمِينَ لِلْعَدْلِ إلَى أَنِ اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَصَارُوا بِاتِّبَاعِ الْأَهْوَاءِ (يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبْدُونَهَا) عِنْدَ الْحَاجَةِ : إذَا اسْتُفْتِيَ الْحَبْرُ مِنْ أَحْبَارِهِمْ فِي مَسْأَلَةٍ لَهُ هَوًى فِي إظْهَارِ حُكْمِ اللَّهِ فِيهَا كَتَبَ ذَلِكَ الْحُكْمَ فِي قِرْطَاسٍ - وَهُوَ مَا يُكْتَبُ فِيهِ مِنْ وَرَقٍ أَوْ جِلْدٍ أَوْ غَيْرِهَا - فَأَظْهَرَهُ لِلْمُسْتَفْتِي وَلِخُصُومِهِ " وَيُخْفُونَ كَثِيرًا " مِنْ أَحْكَامِ الْكِتَابِ وَأَخْبَارِهِ إذَا كَانَ لَهُمْ هَوًى فِي إخْفَائِهَا ; وَذَلِكَ أَنَّ الْكِتَابَ كَانَ بِأَيْدِيهِمْ وَلَمْ يَكُنْ فِي أَيْدِي الْعَامَّةِ مِنْ نُسَخِهِ شَيْءٌ . وَهَذَا الْإِخْفَاءُ لِلنُّصُوصِ فِي الْوَقَائِعِ غَيْرُ مَا نَسِيَهُ مُتَقَدِّمُو الْيَهُودِ مِنَ الْكِتَابِ بِضَيَاعِهِ عِنْدَ تَخْرِيبِ الْقُدْسِ وَإِجْلَائِهِمْ إلَى الْعِرَاقِ الْمُشَارِ إلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ) 5 : 13 خِلَافًا لِمَا تَوَهَّمَهُ الرَّازِيُّ وَغَيْرُهُ .

وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْآيَةَ كَانَتْ تُقْرَأُ هَكَذَا بِمَكَّةَ وَكَذَا بِالْمَدِينَةِ إلَى أَنْ أَخْفَى أَحْبَارُ الْيَهُودِ

حُكْمَ الرَّجْمِ بِالْمَدِينَةِ ، وَأَخْفَوْا مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ الْبِشَارَةُ بِالنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَكِتْمَانُ صِفَاتِهِ عَنِ الْعَامَّةِ وَتَحْرِيفُهَا إلَى مَعَانٍ أُخْرَى لِلْخَاصَّةِ ، وَإِلَى أَنْ قَالَ بَعْضُهُمْ : مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ كَمَا قَالَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ قَبْلِهِمْ (إِنْ صَحَّتِ الرِّوَايَاتُ فِي ذَلِكَ) فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ ، كَانَ غَيْرُ مُسْتَبْعَدٍ وَلَا مُخِلٍّ بِالسِّيَاقِ أَنْ يُلَقِّنَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ أَنْ يَقْرَأَ هَذِهِ الْجُمَلَ فِي الْمَدِينَةِ عَلَى مَسْمَعِ الْيَهُودِ وَغَيْرِهِمْ بِالْخِطَابِ لَهُمْ فَيَقُولُ : (تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا)

مَعَ عَدَمِ نَسْخِ الْقِرَاءَةِ الْأُولَى ، وَبِهَذَا الِاحْتِمَالِ الْمُؤَيَّدِ بِمَا ذُكِرَ مِنَ الْوَقَائِعِ يَتَّجِهُ تَفْسِيرُ الْقِرَاءَتَيْنِ بِغَيْرِ تَكَلُّفٍ مَا ، وَيَزُولُ كُلُّ إِشْكَالٍ عَرَضَ لِلْمُفَسِّرِينَ فِي تَفْسِيرِهِمَا .

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ) فَقَالَ قَتَادَةُ : الْيَهُودُ آتَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عِلْمًا فَلَمْ يَهْتَدُوا بِهِ وَلَمْ يَأْخُذُوا بِهِ وَلَمْ يَعْمَلُوا بِهِ فَذَمَّهُمُ اللَّهُ فِي عَمَلِهِمْ ذَلِكَ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ هَذِهِ لِلْعَرَبِ ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ لِلْمُسْلِمِينَ وَمُؤَدَّاهُمَا وَاحِدٌ . فَإِنَّ مَا عَلِمَهُ الْعَرَبُ مِنْ عُلُومِ الْقُرْآنِ وَحِكَمِهِ وَهِدَايَتِهِ قَدْ أَدَّوْهُ إِلَى سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ غَيْرِهِمْ فَكَانَتْ فَائِدَتُهُ عَامَّةً .

وَفِي الْجُمْلَةِ امْتِنَانٌ مِنْهُ سُبْحَانَهُ عَلَى الرَّسُولِ وَقَوْمِهِ وَسَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ بِإِيتَائِهِمْ هَذَا الْكِتَابَ الْحَكِيمَ الْمُبِينَ ، وَالْمَعْنَى عِنْدَنَا عَلَى تَقْدِيرِ جَعْلِ الْخِطَابِ لِلْيَهُودِ : وَعَلِمْتُمْ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى خَاتَمِ النَّبِيِّينَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمُ الَّذِينَ كَانُوا أَعْلَمَ وَأَهْدَى مِنْكُمْ ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا أَفَادَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) 27 : 76 وَسَيَأْتِي بَيَانُهُ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَمِنْهُ مَا انْفَرَدَ بِهِ الْإِسْلَامُ - وَهُوَ مَا أَكْمَلَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ دِينَهُ - مِنْ بَسْطِ أُصُولِ الْعَقَائِدِ مُوَضَّحَةً بِالْأَمْثِلَةِ مُؤَيَّدَةً بِالدَّلَائِلِ ، وَمِنْ إِتْمَامِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَعَقَائِلِ الْفَضَائِلِ وَالْآدَابِ بِجَعْلِهَا وَسَطًا بَيْنَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ هُمْ وَالنَّصَارَى مِنَ التَّفْرِيطِ وَالْإِفْرَاطِ ، وَمِنْ جَعْلِ أَحْكَامِ الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ مُصْلِحَةً لِأَنْفُسِ الْأَفْرَادِ وَمُوَافِقَةً لِمَصَالِحِ الْجَمَاعَاتِ ، وَمِنْ جَعْلِ الْحُكُومَةِ شُورَى بَيْنَ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ ، وَالشَّرِيعَةِ مُسَاوِيَةً بَيْنَ الْأَجْنَاسِ وَالْمِلَلِ وَالْأَفْرَادِ فِي مِيزَانِ الْعَدْلِ ، لَا يُمَيِّزُ فِيهَا إِسْرَائِيلِيٌّ لِنَسَبِهِ وَلَا عَرَبِيٌّ لِحَسَبِهِ ، وَلَا يُحَابَى مُسْلِمٌ بِإِسْلَامِهِ وَلَا يُظْلَمُ كَافِرٌ بِكُفْرِهِ - كَمَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ) 4 : 135 وَتَفْسِيرِ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ

بِالْقِسْطِ) 5 : 8 وَغَيْرِهِمَا ، فَكَانَ الْمَعْقُولُ أَنْ يَكُونَ عُلَمَاءُ الْيَهُودِ –

وَكَذَا النَّصَارَى – بَعْدَ مَجِيءِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِهَذِهِ الْأُصُولِ الْكَامِلَةِ فِي هِدَايَةِ الْبَشَرِ ، الَّتِي أَكْمَلَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا دِينَهُ الْمُطْلَقَ الَّذِي أَرْسَلَ بِهِ جَمِيعَ رُسُلِهِ ، أَنْ يَكُونُوا أَسْبَقَ النَّاسِ إلَى الْإِيمَانِ بِهِ كَمَا هُوَ الْمَعْهُودُ مِنْ كُلِّ ذِي عِلْمٍ وَفَنٍّ حَرِيصٍ عَلَى الْكَمَالِ فِيهِ إذَا جَاءَهُ مَنْ يَفُوقُهُ فِي الْعِلْمِ بِهِ ، أَوْ رَأَى كِتَابًا فِيهِ يَفْضُلُ كُلَّ مَا عَرَفَ مِنْ كُتُبِهِ ، وَلَكِنَّ الْحَسَدَ وَالْعَصَبِيَّةَ وَحُبَّ الرِّيَاسَةِ الْقَوْمِيَّةِ ، هِيَ الَّتِي صَدَّتْ عَنِ الْإِيمَانِ مَنْ صَدَّتْ مِنْ عُلَمَائِهِمُ الْمُسْتَقِلِّينَ ، وَلَا تَسَلْ عَنْ حَالِ الْمُقَلِّدِينَ ، وَقَدِ اعْتَرَفَ بِذَلِكَ مَنْ آمَنَ مِنْ فُضَلَاءِ الْمُعْتَدِلِينَ . وَجُمْلَةُ " وَعُلِّمْتُمْ " إلَخْ . حَالِيَّةٌ ، وَقِيلَ : اسْتِئْنَافِيَّةٌ .

بَيَّنَ سُبْحَانَهُ إنْكَارَ الْمُنْكِرِينَ لِلْوَحْيِ بِعِبَارَةٍ تَدُلُّ عَلَى جَهْلِهِمْ وَتُرْشِدُ إلَى الْبُرْهَانِ الْمُفَنِّدِ لِزَعْمِهِمْ ، وَشَفَعَهُ بِأَمْرِ الرَّسُولِ أَنْ يَسْأَلَهُمْ ذَلِكَ السُّؤَالَ الْمُلْجِمَ لَهُمْ ، ثُمَّ لَقَّنَهُ الْجَوَابَ الَّذِي كَانَ

يَجِبُ أَنْ يُجِيبُوا بِهِ لَوْ أَنْصَفُوا ، وَأَقَرُّوا بِالْحَقِّ وَاعْتَرَفُوا ، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَامَلُوا بِهِ وَهُمْ جَاحِدُونَ ، لَا يَنْطِقُونَ بِالْحَقِّ وَلَا يُذْعِنُونَ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ : (قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ) أَيْ قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ : اللَّهُ أَنْزَلَهُ - أَيْ كِتَابَ مُوسَى - ثُمَّ دَعْهُمْ بَعْدَ بَيَانِ الْحَقِّ مُؤَيَّدًا بِالْحُجَجِ وَالدَّلَائِلِ ، فِيمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْخَوْضِ فِي الْبَاطِلِ ، حَالَ كَوْنِهِمْ يَلْعَبُونَ كَمَا يَلْعَبُ الصِّبْيَانُ ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَالْبَيَانُ ، وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ وَالْجَزَاءُ . وَفِي أَمْرِ الرَّسُولِ بِالْجَوَابِ عَمَّا سُئِلُوا عَنْهُ إِيذَانٌ بِأَنَّهُمْ لَا يُنْكِرُونَهُ وَلَا يَقُولُونَهُ ، لِمَا فِي الْإِنْكَارِ مِنْ مُكَابَرَةِ النَّفْسِ . وَمَا فِي الِاعْتِرَافِ مِنْ خِزْيِ الْغَلَبِ وَالْإِقْرَارِ بِمَا يَجْحَدُونَ مِنَ الْحَقِّ . وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ الْأَمْرَ بِتَرْكِهِمْ مَنْسُوخٌ بِآيَةِ الْقِتَالِ ، وَرَدَّهُ الْجُمْهُورُ بِأَنَّهُ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُمَا . وَمِنَ الْجَهْلِ بِاللُّغَةِ وَالشَّرْعِ احْتِجَاجُ بَعْضِ الْمُتَصَوِّفَةِ بِالْآيَةِ عَلَى شَرْعِيَّةِ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْأَسْمَاءِ الْمُفْرَدَةِ كَتَكْرَارِ لَفْظِ (اللَّهْ ، اللَّهْ) وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى ، وَهُمْ يُكَرِّرُونَ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ سَاكِنَةً لِأَنَّهَا لَيْسَتْ كَلَامًا مُفِيدًا وَالِاسْمُ الْكَرِيمُ فِي الْآيَةِ مَرْفُوعٌ بِإِجْمَاعِ الْقُرَّاءِ لِأَنَّهُ جُمْلَةٌ حُذِفَ أَحَدُ جُزْأَيْهَا لِقَرِينَةِ السُّؤَالِ الَّتِي هِيَ جَوَابُهُ كَمَا عَلِمْتَ .

*(52/242)*

(وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) أَيْ ذَلِكَ مَا لَزِمَكُمْ مِنْ أَنَّ التَّوْرَاةَ كِتَابٌ أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، أَيْ أَوْحَاهُ إِلَيْهِ لِيُكْتَبَ وَيُهْتَدَى بِهِ إِلَى أَنْ يَنْزِلَ بِتَرْقِيَتِهِ تَعَالَى لِاسْتِعْدَادِ جُمْلَةِ الْبَشَرِ - مَا يَنْسَخُهُ ، (وَهَذَا) " أَيِ الْقُرْآنُ " (كِتَابٌ عَظِيمُ الْقَدْرِ) ، فَتَنْكِيرُهُ لِلتَّفْخِيمِ (أَنْزَلْنَاهُ عَلَى خَاتَمِ رُسُلِنَا مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَمَا أَنْزَلْنَا

(53/242)

---

التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى مِنْ قَبْلُ (مُبَارَكٌ) بَارَكَهُ اللَّهُ أَوْ بَارَكَ فِيهِ بِمَا فَضَلَ بِهِ مَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ فِي النَّظْمِ وَالْمَعْنَى ، وَبِمَا يَكُونُ مِنْ ثَبَاتِهِ وَبَقَائِهِ إِلَى آخِرِ عُمُرِ الْبَشَرِ فِي الدُّنْيَا ، هُوَ مِنَ " الْبَرَكَةِ " وَهِيَ - بِالتَّحْرِيكِ - النَّمَاءُ وَالزِّيَادَةُ وَالسَّعَةُ النَّافِعَةُ كَبَرْكَةِ الْمَاءِ . وَمِنْ مَعَانِي الْمَادَّةِ الثَّبَاتُ وَالِاسْتِقْرَارُ كَبَرْكِ الْبَعِيرِ . (مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) وَهُوَ مَا تَقَدَّمَهُ مِنْ كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ ، أَيْ مُصَدِّقٌ لِإِنْزَالِ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاهَا فِي الْجُمْلَةِ ، لَا لِكُلِّ مَا يُعْزَى إِلَيْهَا بِالتَّفْصِيلِ وَقَدْ ذُكِرَ فِيهِ بَعْضُ الْكُتُبِ بِأَسْمَائِهَا وَالصُّحُفِ مُضَافَةً إِلَى أَصْحَابِهَا ، وَذَكَرَ بَعْضَ قَوَاعِدِهَا وَأَحْكَامِهَا ، عَلَى أَنَّهُ أُنْزِلَ مُهَيْمِنًا عَلَيْهَا ، نَاعِيًا عَلَى بَعْضِ أَهْلِهَا تَحْرِيفَهُمْ لَهَا ، وَنِسْيَانَهُمْ لِحَظٍّ عَظِيمٍ مِنْهَا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ شَرْحُ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمَائِدَةِ وَمَا قَبْلَهَا . وَنَقَلَ الرَّازِيُّ فِي تَفْسِيرِ " مُبَارَكٍ " عَنْ أَهْلِ الْمَعَانِي أَنَّ مَعْنَاهُ كَثِيرٌ خَيْرُهُ ، دَائِمٌ بَرَكَتُهُ وَمَنْفَعَتُهُ ، يُبَشِّرُ

بِالثَّوَابِ وَالْمَغْفِرَةِ وَيَزْجُرُ عَنِ الْقَبِيحِ وَالْمَعْصِيَةِ . ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ هُوَ بِأَنَّ مَا فِيهِ مِنَ الْعُلُومِ النَّظَرِيَّةِ فَهُوَ أَشْرَفُهَا وَأَكْمَلُهَا وَهُوَ الْعِلْمُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ ، وَأَفْعَالِهِ وَأَحْكَامِهِ وَأَسْمَائِهِ ، وَمَا فِيهِ مِنَ الْعُلُومِ الْعَمَلِيَّةِ لَا تُوجَدُ فِي غَيْرِ مِثْلِهِ سَوَاءٌ كَانَتْ أَعْمَالَ الْجَوَارِحِ أَوْ أَعْمَالَ الْقُلُوبِ .

(54/242)

---

ثُمَّ قَالَ : وَأَنَا قَدْ نَقَلْتُ أَنْوَاعًا مِنَ الْعُلُومِ النَّقْلِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ فَلَمْ يَحْصُلْ لِي بِسَبَبِ شَيْءٍ مِنَ الْعُلُومِ مِنْ أَنْوَاعِ السَّعَادَةِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا مِثْلُ مَا حَصَلَ بِسَبَبِ خِدْمَةِ هَذَا الْعِلْمِ انْتَهَى . أَيْ عِلْمِ الْقُرْآنِ بِتَفْسِيرِهِ فَلْيَعْتَبِرْ بِهَذَا مَنْ يَضَعُونَ جُلَّ أَوْقَاتِهِمْ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ الدِّينِيِّ بِعُلُومِ الْكَلَامِ وَغَيْرِهَا ، مِمَّا يَعُدُّونَ الرَّازِيَّ الْإِمَامَ الْمُطْلَقَ فِيهَا ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَيَهْتَدُونَ بِهِ ، وَيَطْلُبُونَ السَّعَادَةَ مِنْ فَيْضِهِ دُونَ غَيْرِهِ ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُوَفِّقَنَا لِإِتْمَامِ تَفْسِيرِهِ ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ حُجَّةً لَنَا لَا عَلَيْنَا بِكَمَالِ التَّخَلُّقِ بِهِ .

(55/242)

---

(وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا) قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : إِنَّ هَذَا عَطْفٌ عَلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ صِفَةُ الْكِتَابِ كَأَنَّهُ قَالَ : أَنْزَلْنَاهُ لِلْبَرَكَاتِ وَتَصْدِيقِ مَا تَقَدَّمَهُ وَلِلْإِنْذَارِ ، وَاخْتَارَ السَّعْدُ التَّفْتَازَانِيُّ كَوْنَهُ عَطْفًا عَلَى صَرِيحِ الْوَصْفِ أَيْ كِتَابٌ مُبَارَكٌ وَكَائِنٌ لِلْإِنْذَارِ لِأَنَّ عَطْفَ الظَّرْفِ عَلَى الْمُفْرَدِ كَثِيرٌ فِي بَابَيِ الْخَبَرِ وَالصِّفَةِ ، وَفِيهِ بَحْثٌ . وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَطْفًا عَلَى مُقَدَّرٍ حُذِفَ لِدَلَالَةِ الْقَرِينَةِ عَلَيْهِ كَفِعْلِ التَّبْشِيرِ الَّذِي يُقَابِلُ الْإِنْذَارَ ، وَقَدْ جُمِعَ بَيْنَهُمَا فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ وَآخِرِ سُورَةِ مَرْيَمَ ، وَجَرَى الْبَيْضَاوِيُّ عَلَى أَنَّ التَّعْلِيلَ الْمَحْذُوفَ دَلَّ عَلَيْهِ الْمَذْكُورُ أَيْ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى أَنْزَلْنَاهُ . وَقَرَأَ أَبُو بَكْرٍ عَنْ عَاصِمٍ " وَلِيُنْذِرَ "

*(56/242)*

---

بِالْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ إِلَى الْكِتَابِ ، وَأُمُّ الْقُرَى مَكَّةُ وَالْمُرَادُ أَهْلُهَا بِالِاتِّفَاقِ ، كُنِّيَتْ بِهَذِهِ الْكُنْيَةِ لِأَنَّهَا قِبْلَةُ أَهْلِ الْقُرَى ، أَيِ الْبِلَادِ الَّتِي يَجْتَمِعُ فِيهَا النَّاسُ كَبِيرَةً كَانَتْ أَوْ صَغِيرَةً ، أَوْ لِأَنَّ فِيهَا أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ، أَوْ لِأَنَّهَا حَجُّهُمْ وَمُجْتَمَعُهُمْ ، أَوْ لِأَنَّهَا أَعْظَمُ الْقُرَى شَأْنًا فِي الدِّينِ ، أَوْ لِأَنَّهُمْ يُعَظِّمُونَهَا كَالْأُمِّ ، أَوْ لِأَنَّ الْأَرْضَ دُحِيَتْ مِنْ تَحْتِهَا كَمَا رُوِيَ عَنْ بَعْضِ مُفَسِّرِي السَّلَفِ . وَالْمُرَادُ بِالْأَخِيرِ أَنَّهَا أَوَّلُ مَا ظَهَرَ مِنَ الْأَرْضِ الْيَابِسَةِ فِي الْمَاءِ ، وَلَا يُعْرَفُ مِثْلُ هَذَا إِلَّا بِوَحْيٍ صَرِيحٍ ، وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَمَنْ حَوْلَهَا) أَهْلُ الْأَرْضِ كَافَّةً كَمَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ

عَبَّاسٍ ، وَيُقَوِّيهِ تَسْمِيَتُهَا بِأُمِّ الْقُرَى وَنَحْنُ نَعْلَمُ الْآنَ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّ النَّاسَ يُصَلُّونَ مُتَوَجِّهِينَ إلَى بَيْتِ اللَّهِ فِيهَا ، فِي جَمِيعِ أَقْطَارِ الْأَرْضِ الْقَرِيبَةِ مِنْهَا وَالْبَعِيدَةِ عَنْهَا فَهَذَا مِصْدَاقُ كَوْنِهِمْ حَوْلَهَا ، وَزَعَمَ بَعْضُ الْيَهُودِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَغَيْرُهُمْ أَنَّ الْمُرَادَ بِمَنْ حَوْلَهَا بِلَادُ الْعَرَبِ فَخَصَّهُ بِمَنْ قَرُبَ مِنْهَا عُرْفًا ، وَاسْتَدَلُّوا بِهِ عَلَى أَنَّ بَعْثَةَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَاصَّةٌ بِقَوْمِهِ الْعَرَبِ ، وَالِاسْتِدْلَالُ بَاطِلٌ وَإِنْ سَلِمَ التَّخْصِيصُ الْمَذْكُورُ ، فَإِنَّ إرْسَالَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلَى قَوْمِهِ لَا يُنَافِي إرْسَالَهُ إلَى غَيْرِهِمْ ، وَقَدْ ثَبَتَ عُمُومُ بَعْثَتِهِ فِي

(57/242)

---

آيَاتٍ أُخْرَى كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ : (وَأُوحِيَ إلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) 18 أَيْ وَكُلُّ مَنْ بَلَغَهُ وَوَصَلَتْ إلَيْهِ هِدَايَتُهُ وَقَدْ تَقَدَّمَ ، وَقَوْلُهُ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْفُرْقَانِ : (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) وَقَوْلُهُ فِي سُورَةِ سَبَأٍ (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) 34 : 28 .

(وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ) أَيْ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَوْ الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْجَزَاءِ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ إيمَانًا إذْعَانِيًّا صَحِيحًا أَوْ اسْتِعْدَادِيًّا قَوِيًّا سَوَاءٌ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَوْ مِنْ غَيْرِهِمْ ، يُؤْمِنُونَ بِهَذَا الْكِتَابِ الْمُبَارَكِ إذَا بَلَغَهُمْ أَوْ إذَا بَلَغَهُمْ دَعْوَتُهُ ؛ لِأَنَّهُمْ

يَجِدُونَ فِيهِ أَكْمَلَ الْهِدَايَةِ إِلَى السَّعَادَةِ الْعُظْمَى فِي تِلْكَ الدَّارِ ، فَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفْرٍ ضَلُّوا فِي مَفَازَةٍ مِنْ مَجَاهِلِ الْأَرْضِ ، حَتَّى إِذَا كَادُوا يَهْلِكُونَ جَاءَهُمْ رَجُلٌ بِكِتَابٍ فِي عِلْمِ خَرْتِ الْأَرْضِ وَتَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ ، فِيهِ بَيَانُ مَكَانِهِمْ وَبَيَانُ أَقْرَبِ السُّبُلِ لِمَنْجَاتِهِمْ ، فَإِنَّهُمْ لَا يَتَلَبَّثُونَ بِقَبُولِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ ، وَأَمَّا الْمُنْكِرُونَ لِلْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ فَلَا يَشْعُرُونَ بِشِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَى هِدَايَتِهِ . وَفِي هَذَا تَعْرِيضٌ أَوْ تَصْرِيحٌ بِسَبَبِ إِعْرَاضِ جُمْهُورِ أَهْلِ مَكَّةَ الْأَعْظَمِ عَنْ هَذَا الْكِتَابِ الَّذِي فِيهِ سَعَادَتُهُمْ .

(58/242)

---

وَبَالَغَ الرَّازِيُّ فِي قَوْلِهِ : يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ التَّنْبِيهَ عَلَى إِخْرَاجِ أَهْلِ مَكَّةَ مِنْ قَبُولِ هَذَا الدِّينِ ، لِأَنَّ الْحَامِلَ عَلَى تَحَمُّلِ مَشَقَّةِ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ وَتَرْكِ رِيَاسَةِ الدُّنْيَا وَتَرْكِ الْحِقْدِ وَالْحَسَدِ لَيْسَ إِلَّا الرَّغْبَةَ فِي الثَّوَابِ وَالرَّهْبَةَ مِنَ الْعِقَابِ ، وَكُفَّارُ مَكَّةَ لَمَّا لَمْ يَعْتَقِدُوا فِي الْبَعْثِ وَالْقِيَامَةِ امْتَنَعَ مِنْهُمْ تَرْكُ الْحَسَدِ وَتَرْكُ الرِّيَاسَةِ فَلَا جَرَمَ يَبْعُدُ قَبُولُهُمْ لِهَذَا الدِّينِ وَاعْتِرَافُهُمْ بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اهـ . وَيُعْلَمُ وَجْهُ الْمُبَالَغَةِ مِمَّا فَسَّرْنَا بِهِ الْجُمْلَةَ الشَّرِيفَةَ (وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) يُؤَدُّونَهَا فِي أَوْقَاتِهَا ، مُقِيمِينَ لِأَرْكَانِهَا وَآدَابِهَا ; فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِالْبَعْثِ وَبِالْقُرْآنِ يَقْتَضِي ذَلِكَ حَتْمًا ، وَخُصَّتِ الصَّلَاةُ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ

فُرِضَ عِنْدَ نُزُولِ السُّورَةِ مِنْ أَرْكَانِ الْعِبَادَاتِ غَيْرِهَا ، عَلَى أَنَّهُ لَمَّا كَانَتِ الصَّلَاةُ عِمَادَ الدِّينِ وَرَأْسَ الْعِبَادَاتِ وَمُمِدَّةَ الْإِيمَانِ بِالتَّقْوِيَةِ وَكَمَالِ الْإِذْعَانِ ، كَانَتِ الْمُحَافَظَةُ عَلَيْهَا دَاعِيَةً إِلَى الْقِيَامِ بِسَائِرِ الْعِبَادَاتِ الْمَفْرُوضَةِ وَتَرْكِ جَمِيعِ الْمُحَرَّمَاتِ الْمَنْصُوصَةِ ، وَمُحَاسَبَةِ النَّفْسِ عَلَى الشُّبُهَاتِ وَالْأَفْعَالِ الْمَكْرُوهَةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 7 صـ 509. 518 ﴾

*(59/242)*

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾

وكلمة " أنزلنا " الأصل فيها نون وزاي ولام ، وتستعمل بالنسبة للقرآن استعمالات متعددة ؛ فمرة يقول سبحانه : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر ﴾ [ القدر : 1 ] .

ومرة يقول عز وجل : ﴿ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾ [ الإسراء : 106 ] .

ومرة يسند النزول للقرآن : ﴿ وبالحق أَنْزَلْنَاهُ وبالحق نَزَلَ ﴾ [ الإسراء : 105 ] .

ومرة يسند إلى من جاء به : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين ﴾ [ الشعراء : 193 ] .

هذه إذن تعابير متعددة ، وما دواعي هذا الاشتقاق ونحن نعلم أن القرآن لم ينزل جملة واحدة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما نزل جملة واحدة إلى السماء الدنيا من اللوح المحفوظ ليباشر القرآن مهمته في الوجود الجديد ، وكان ينزل كل نجم من النجوم حسب الأحداث . و" أنزل " هنا للتعدية أي نقل من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ليباشر مهمته ، ولذلك يقول سبحانه : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر ﴾

*(60/242)*

---

ونعلم أن القرآن نزل في ليلة القدر وفي غير ليلة القدر ، ولكنه نزل في ليلة القدر جميعه إلى سماء الدنيا ، ثم نزل منجماً ومفصّلا في بقية أيام الثلاث والعشرين سنة التي عاشها صلى الله عليه وسلم بعد نزول الوحي ، فإذا ما أراد أنه أنزله من اللوح المحفوظ يأتي ب " همزة التعدية " وإذا أراد النزول والموالاة يقول : " نزّل " لأن فيها التتابع ، وإذا نسبة لمن نزل به يأتي ب " نَزَل " لأن القرآن لم ينزل وحده بل نَزَل به الروح الأمين ، إذن فكلها مُلتقية في أن القرآن نَزَل أو أنزِل ، أو نُزِّل . وكلمة " نَزَل " تعطينا لمحة ، وهو أنه جاء من أعلى ، ويستقبله الأدنى . وساعة يطلب الحق منا أن ننصت لإنزال حكم يقول لنا عز وجل : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ [ الأنعام : 151 ] .

ومعنى " تَعالَوّا " أي ارتفعوا ؛ لأننا نعيش على الأرض ، وإياكم أن تشرّع الأرض لكم ؛ لأن تشريع الأرض إذا لم يكن في ضوء منهج الله فهو حضيض . والله يريد تشريعاً عالياً . ، ولا بد لكم من أن تتلقوا من السماء أحكامكم ؛ حتى لا تتيهوا ولا تضلوا في باطل تشريعات لا تدور في إطار منهج الله .

*(61/242)*

---

والحق يقول هنا : ﴿ وهذا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ وهو قول صادق يصدق على القرآن فقط برغم أن كل الكتب السماوية السابقة كانت كتب منهج ، وكانت المعجزة منفصلة عن المنهج ؛ فمعجزة موسى عليه السلام – كما نعرف – هي العصا ، ومنهجه التوراة ، وعيسى عليه السلام معجزته إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ومنهجه الإنجيل . لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم تميّز بأن معجزته عين منهجه ، لأن كل دين من الأديان السابقة كان لزمن محدود ، في مكان محدود . وجاء صلى الله عليه وسلم بالدين الجامع المانع ، لذلك جاءت المعجزة هي المنهج ، فلو أن معجزته صلى الله عليه وسلم كانت من جنس معجزات الأنبياء السابقين إلا لأن القرآن قالها وصارت خبراً ، وكل منها تليق بالزمن المحدود والمكان المحدود .

لكن الإسلام جاء ليعم كل الأزمنة وكل الأمكنة ، ولذلك لزم أن تكون المعجزة مستصحبة للمنهج ؛ حتى يستطيع من يأتي بعد عصر النبوة إلى قيام الساعة أن يقول : مُحمد رسول الله وتلك معجزته .

والقرآن مُبارك ، ونحن في أعرافنا حين نتكلم بالعامية نأتي بالكلمة التي هي من نفْح ونضح الاستعمالات الفصيحة التي سمعناها ، فنجد من يقول : والله هذا الأكل فيه بركة ؛ فهو مصنوع لاثنين وأكل منه أربعة وفاض وزاد " . إذن ، " البركة " أن يعطي الشيء أكبر من حجمه المنظور .

وبركة القرآن غالبة ومهيمنة ، ولو قاس كل إنسان حجم القرآن بحجم الكتب الأخرى لوجد حجم القرآن أقل ، ومع ذلك فيه من الخير والبر والبركات والتشريعات والمعجزات والأسرار ما تضيق به الكتب ، ونجد من يؤلف ويفسر في أجزاء متعددة ، ومع ذلك ما استطاع واحد أن يصل إلى حقيقة المراد من الله ؛ لأن القرآن لو جاء وأفرغ عطاءه في القرن الذي عاش فيه الرسول فقل لي بالله : كيف تستقبله القرون الأخرى ؟ ! إنه يكون استقبالا خاليا من العناية به لأنه سيكون كلاماً مكرراً .

*(62/242)*

إذن فقد بيّن فيه كل شيء ومنه أخذ كل إنسان وزمان قدر ذهنه ، ولو أن القرآن يراد تفسيره لما فسّره أحد غير من انفعل له نزولاً عليه وهو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أيستطيع واحد بعد ذلك أن يقول شيئًا في التفسير ؟ ! إذن لو فسره الرسول صلى الله عليه وسلم لجمّده لأنه لا يجرؤ أحد أن يأتي بتفسير بعد الرسول .

وقد علم الرسول صلى الله عليه وسلم أن عطاءات القرآن لا تتناهى ، لذلك لم يفسّره . بل أوضح بما تطيقه العقول المعاصرة حتى لا ينصرفوا عنه . ولو كان القرآن قال : إن الأرض كرة وتدور حول الشمس ، أكان يصدقه أحد ؟ إن هناك حتى الآن من ينكر ذلك . ونجد القرآن يشير ويلمح إليها إلماحا خفيفاً إلى أن تتسع العقول لها . فيقول الحق : ﴿ يُكَوِّرُ الليل عَلَى النهار ويُكَوِّرُ النهار عَلَى الليل ﴾ [ الزمر : 5 ] .

وما دام الليل يأتي وراء النهار ، والنهار يأتي وراء الليل في شبه كرة ؛ فالذي يأتي عليه الليل والنهار شكل الكرة . فكأن كلاً من الليل والنهار دائر وراء الآخر حول كرة ، إذن فالحق يعطي اللمحة بميزان حتى تتسع العقول للفهم . ويقول القرآن : ﴿ قُل للَّهِ المشرق والمغرب ﴾ [ البقرة : 142 ] .

وهذا قول واضح ؛ لأن كل واحد منا يعرف المشرق والمغرب . لكن حين يقول الحق : ﴿ رَبُّ المشرقين وَرَبُّ المغربين ﴾ [ الرحمن : 17 ] .

أكان يفهمها المعاصر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ نعم ، لأنه ساعة ما يقول : إن

الشمس أشرقت من المكان الفلاني ، وغابت عن مكان آخر ، فساعة شروقها عندك تغرب عندي ، وساعة تغرب عندك تشرق عندي ، وهكذا يصير كل مشرق معه مغرب ، إذن فقد صدق قول الله ﴿ رَبُّ المشرقين وَرَبُّ المغربين ﴾ .

*(63/242)*

---

ونعلم أن الشمس لها مشرق كل يوم ، ومن زار في الصعيد المعبد الذي توجد به 365 طاقة – فتحة –– وتطلع الشمس في كل يوم من طاقة معينة ولا تطلع من الطاقات الأخرى يتأكد من أن الشمس لها في كل يوم مشرق . إذن هناك مشارق ومغارب ، وصدق الله القائل : رب المشارق والمغارب .

إن القرآن يخاطبنا بأسلوب يحتمله العقل المعاصر ، وإذا ما جدّ جديد نجد الأمر مكنوزاً في القرآن ، ونجد تأويلا جديداً لا ينسخ التأويل الآخر ولكنه يرتقي به .

إذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشأ أن يفسر القرآن التفسير الكامل ؛ لأنه كان لا بد أن يفسّره بما تطيقه العقول المعاصرة له ، وإن فسّره بما تطيقه العقول المعاصرة له فمعنى ذلك أنه لن يعطي العقول التي تأتي بعد غذاء من القرآن ؛ لذلك ترك صلى الله عليه وسلم القرآن دون تفسير إلا في النزر اليسير . وتجد ذلك في آيات الكون ، أما في الأحكام فالأمر محدد .

لكن في الأشياء التي يتجدد فيها العلم فقد تركها . ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام عن القرآن : " لا تنقضي عجائبه " وكأنه يلفتنا إلى أن عجائبه لا تنقضي ولا تنتهي ، وكل يوم يعطي عجائب جديدة . إذن فالقرآن مُبارك بحكم ما هو مكنوز فيه إلى قيام الساعة .

وأنت تلتفت إلى الناس فتجدهم يتعبون في اكتشاف أسرار الكون ، وتجد القرآن قد مسّ ما يبحثون عنه مسّاً خفيفاً .

﴿ وهذا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [ الأنعام : 92 ] .

وساعة تقول : " بين يدي الشيء " أي الشيء الذي يسبق ، والكتب السابقة هي التي نزلت بين يدي القرآن أي قبله ، والمقصود بها الكتب المعروفة المشهورة وهي التوراة والإنجيل إذ هما الكتابان الباقيان إلى الآن .

*(64/242)*

---

والقرآن يصدق الذي بين يديه ولا يعني ذلك تصديق المحرّف بل تصديق " الأصيل " .

ولذلك نجد عبد الله بن سلام وغيره حينما جاءوا للإسلام اعترفوا بذلك ، ويقول عبد الله بن سلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم : انشرح صدري للإسلام ، ولكني أعلم أن اليهود قوم بهت – أي أنهم مكابرون – فأنا أريد أن تسألهم عني قبل أن أسلم ، فقال رسول الله لهم

: ما تقولون في عبد الله بن سَلاَم ؟ قالوا : حِبْرنا وابن حِبْرنا وشيخنا ورئيسنا . . . إلخ .

فقال الرجل : أشهد أن لا إله إلا الله وأن مُحمداً رسول الله . هنا بدأوا في كيل السباب لسيدنا عبد الله بن سَلاَم فقال : ألم أقل لك يا رسول الله إنهم قوم بهت ؟

وقوله الحق : ﴿ مُّصَدِّقُ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي أنك إذا ما أردت أن تعرف صدق هذه القضية فهات ما لا حاجة لهم فيه إلى تكذيبه ، وستجد القرآن قد جاء موافقاً له .

مثال ذلك حين جاء القرآن بالرِّجْم . هم حاولوا أن يخففوا حكم الرَّجْم ؛ لأن امرأة زنت وأرادوا أن يجاملوها . فرفعوا أمرها للنبي وقال بعضهم لبعض : إن حَكَم بعدم الرِّجم فهذا خير لنا ولها ، ومن العجيب أنهم غير مؤمنين بمحمد بينما يريدون الحُكم منه ، فيقول لهم الرسول عليه الصلاة والسلام : هاتوا الكتاب ، ويأتون بالصحف الموجودة عندهم ، فوجدوا آية الرَّجْم ؛ إذن فالقرآن مُصدق الذي بين يديه من غير المكتوم ، ولا المُحرَّف ، ولا المُؤَوَّل .

وإذا ما نظرت إلى القضايا التي يلتفتون إليها ، ولكنها تكر أمامهم خاطفة ، تجد أنت هذه القضايا وسيلة يريد الله بها أن يكشف الفساد والكذب والتجبر ، حتى لا يطمس أهل الباطل معالم الحق . ومثل هذه القضايا تحتاج إلى المُحقق اللّبق . ونجده سبحانه جاء في التوراة بمثل للأمة المحمدية ، ويكرر هذا المثل في القرآن حين يقول سبحانه : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله والذين مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [ الفتح : 29 ] .

وحين ننظر إلى كلمة " أشدّاء " ، وكلمة " رُحماء " ، نجد في ظاهر الأمر تناقضا في الطباع ، أما المدقق المحقق فيعلم من هذا القول أن الإسلام لا يطبع المسلم على لون واحد ؛ لأنه يريد منه كل الألوان ، فلو خلقه شديداً لفقدته مواطن الرحمة ، ولو فطره وخلقه رحيماً لفقدته مواطن الشدة . والإسلام يطلب من المسلم الالتزام بالقيم الروحية والمادية لتحرس كل منهما الأخرى ؛ لأن المسلمين لو راحوا للمادة فقط لصارات حضارتهم شرسة ، ولو راحوا للقيم لما استطاعوا أن يقيموا حضارة تبقى وتدوم ، والحق يريد حضارة تجمع بين الاثنين ؛ الروح والمادة ، لذلك يجمع الإسلام بين الاثنين ؛ الروح والمادة ؛ لأن اليهود في فهمهم لما افتقدت الروح ، والنصرانية في فهمهم لها غرقت في الروحانيات وافتقدت المادة ، وجاء القرآن مُصدقاً لما بين يديه ، وهكذا جاءت الآية بالبلاغ عن أهل الكتاب .

ويتابع البلاغ لأهل قريش قاطني مكة فيقول : ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ القرى ﴾ ، ونعرف أن أم القرى تعني مكة ، وقد حاول البعض أن يتخذ من هذه الآية حُجّة ليقول : إن القرآن قد نزل لجماعة العرب فقط ، ولهؤلاء نقول : أنتم لم تحسنوا الفهم لمعطيات اللفظ ، ولنسأل : ما الحَول أولاً ؟ . الحول هو المحيط الذي حول النقطة ، أيّ نقطة وكل نقطة ، وحول كل نقطة

قُطْر وقد يكون القطر 20 كيلومترا ، وقد يكون مائة كيلومتر ، وكلما بعدت المساحة فهي حول هذه النقطة ، إذن فكلمة الحول تشمل كل ما حوله ، وحول كل مكان يشمل كل مكان

.

ولماذا سميت أم القرى ؟ ؛ إما لأن " هاجر " لما نزلت بابنها الرضيع بوادٍ غير ذي زرع ، وبعد ذلك تكاثر الناس فصارت هي أم القرى ، أو لأن فيها الكعبة ، وكل الناس يؤمّونها ، أو لأن الحاجّ يأتيها من كل صوب كما يهب ويسرع الأبناء ويلوذون بأمهم : ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ القرى وَمَنْ حَوْلَهَا والذين يُؤْمِنُونَ بالآخرة يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [ الأنعام : 92 ] .

*(66/242)*

---

من – إذن – الذي يؤمن بهذا الكتاب الذي أنزل مصدقاً لما بين يديه لينذر به أم القرى ومن حولها ، ومن هم الذين يؤمنون بالآخرة ؟ ولماذا جاء الربط بين أم القرى وما حولها وبين الذين يؤمنون بالآخرة ؟ . لأن أحداً لن يذهب لتعاليم القرآن ليأخذها وينفذها إلا من يؤمن بأن هناك يوماً نذهب فيه جميعاً إلى الآخرة .

لذلك يخاف فيهرب من المعاصي ، ويرغب في الطاعة ؛ لأن هناك ثواباً وعقاباً ، أما الذي لا يؤمن بالآخرة فلا يسمعك ولا ينصاع ولا ينقاد لك حين تأمره بالعفة ؛ لأنه لا يرى ثواباً أو

عقاباً ولا ينتهي عن السرقة أو الكبر أو الموبقات جميعاً ؛ لأنه لا يخاف من الآخرة ؟ .

إذا فالذي يملكنا جميعاً هو الآخرة والخوف منها ، ومن لا يؤمن بالآخرة يقول أنا غير مُلزم بشيء ، ولا شيء يقيّد حريتي . ثم لماذا أقيّد حريتي ؟ !

وهنا نقول : أنت تأخذ الأمر بسطحية ، فعلى فرض أن في قوانين السماء ما يقيد حريتك ، لكنه لا يقيد حريتك وحدك ، إنه يقيد حرية الكل ، فإن قيد حريتك بالنسبة للناس ، فهذه القوانين السماوية تقيد حرية الناس بالنسبة لك ، فحين ينهاك الدين عن السرقة ، وعن النظر إلى محارم الغير فهو يقول للناس كلها : لا تسرقوا من فلان ولا تنظروا إلى محارم فلان ، وبذلك تأخذ حقك كاملاً ، وبهذا تعيش في نظام متساوٍ لا تتعب فيه ؛ لأن الجاري والمطبق عليك جارٍ على غيرك مع جريانه عليك .

لكن من يؤمنون بالآخرة هم كل واحد يريد أن ينجي نفسه من العقاب ، ومن الوعيد . ويدخل نفسه في الوعد وفي الثواب . فمثلاً – ولله المثل الأعلى – حين نقول للولد : اذهب لتلقى العلم ، قد يرد : أنا لا أريد شهادة ، فيجبره والده في البداية أن يستذكر ، ثم نجد الشاب بعد مشوار المذاكرة يخاف من الرسوب وأن عليه أن يجتهد وأن ينجح . أما إن لم يوجد امتحان في آخر العام فالمذاكرة وعدمها سواء لديه . فمن أقرب – إذن – إلى الاستجابة لنداء العدل والخير ؟ إنه من يؤمن بالآخرة .

﴿ والذين يُؤْمِنُونَ بالآخرة يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ على صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [ الأنعام : 92 ] .

ولماذا جاء بالحفاظ على الصلاة هنا ؟ . نحن نعلم أن الصلاة ، هي عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، وحين نحلل الأمر تحليلاً طبيعياً نجد أن الناس تنفر من الطاعات لأنها تأخذ زمناً يحبون أن يقضوه في اللعب ، وحين نقول لواحد مثلاً : اترك عملك وصل . قد يرد : لا ؛ لأني حين أترك عملي يضيع عليّ كذا . ولو كان طبيباً لذكر عددا من مرضى سيكشف عليهم ، ولو كان عاملاً لقال : إن توقف الآلة في أثناء الصلاة يجعلني أخسر كثيراً .

وهنا نقول : يا أخي تعال إلى الطاعة ، والبركة تعوض لك ما تظن أنك تخسره ، وإذا نظرت إلى أركان الإسلام تجدها بالنسبة لانشغال الزمن بها لا تأخذ الكثير من الوقت ؛ فشهادة أن لا إله إلا الله مُحمد رسول الله لا تحتاج منك إلا إلى أن تقولها مرة واحدة ، وهذا ركن لم يستغرق زمناً طويلاً بالنسبة لأدائه ، والزكاة لا تأخذ منك إلا ما تعطيه يوم الحصاد ، وهذا يستغرق وقتا قليلا ، وكذلك زكاة المال آخر العام ، والصوم شهر في السنة ، وإذا كان زمن الصوم أوسع قليلاً إلا أنه وقت لا يمر إلا كل عام . والحج مرة في العمر إن كنت مستطيعاً . إذن أنت تجد التكاليف الركنية في الإسلام بالنسبة للأزمان وقتها يسير وقليل لمن يحرص عليها ، لكن الصلاة تؤدي في كل يوم خمس مرات ، ورقعتها بالنسبة للزمن أوسع . وأداؤها

يحتاج إلى طهارة من حدث أو جنابة وكذلك طهارة المكان ؛ لذلك جاءت الصلاة ركناً أصيلاً في الإسلام . وأنت لا تعرف الإنسان إن كان مسلماً إلا إذا سمع الأذان وقام يصلي . لذلك هي الفارقة بين المسلم وغير المسلم ؛ لأن الأركان الأخرى أزمانها محصورة ، ومع أنها كذلك إلا أنها أخذت من التشريع حظها من الركنية الأصيلة .

*(68/242)*

---

إنّ كل تشريعات الإسلام أركاناً وفروعاً جاءت بالوحي إلا الصلاة ؛ فقد جاءت بالمباشرة ؛ لأن الصلاة دعاء الخالق خلقه لحضرته ؛ لذلك كان لا بد أن يكون تشريعها بهذه الصورة الفريدة ، تشريعاً جاء بالحضرة الإلهية .

وشيء آخر : ما دامت الصلاة هي العمدة في الدين فكأن الصلاة تقول للأركان الأخرى : أنا أجمعكم وأضمكم وأشملكم جميعا ؛ فالمسلم في أثناء الصلاة يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . والمسلم يصوم في أثناء الصلاة عن شهوتي البطن والفرج بل وتكون الصلاة صوماً لا عن الأكل والشرب ، وشهوة الفرج فقط بل هي إمساك عن كل حركة ، وفي الصلاة زكاة ؛ لأن الزكاة تعني أن تخرج بعضاً من مالك ، والمال فرع العمل ، والعمل فرع الوقت . وأنت حين تصلي إنما تزكي بالأصل وهو وقت العمل ، وأنت في

الصلاة تتوجه إلى الكعبة كما يتجه الحاج والمعتمر ، إذن ففي الصلاة كل أركان الإسلام مجتمعة .

إذن فأهمية الصلاة أنها قد اندمج فيها كل ركان الإسلام ، وبها يتحقق الاستطراق الاجتماعي للخلافة في الأرض ؛ لأن الخلافة في الأرض تقتضي مواهب متعددة ، وطاقات متعددة ، ولا يمكن لخليفة واحد في الأرض أن يكون مجمع هذه المواهب بل لا بد أن تتفرق المواهب في المتفرق والشتيت من الناس ، فلا يمكن أن يكون الإنسان الواحد مهندساً وطبيباً ومحامياً وصانعاً وحارثاً وزارعاً وتاجراً . ولذلك وزع الله سبحانه وتعالى مقتضيات الخلافة في الأرض على الخلفاء في الأرض توزيعاً يجعل الالتقاء ضرورياً وليس تَفَضُّلياً ، بحيث تكون أنت في حاجة إلى مواهب ليست عندك فتذهب لصاحبها . وصاحبها أيضا يحتاج إلى مواهب عندك ليست عنده فيأتي إليك .

*(69/242)*

---

وانظروا إذا شاء واحد أن يستغني في بعض الأشياء التي يقوم بها الغير كم يتعب ؟ ، فإذا ما أتعبه السباكون وآلموه في الأجور . وحاول تعلم السباكة ، ولا بد له أن يتعلمها من سباك . وكذلك حياكة الملابس . ومعنى ذلك أن الله أبقى المواهب متفرقة مشتتة في الخلق ليحتاج

كل خلق إلى كل الخلق . والناس لا تنظر إلى جهة التميّز إلا إلى شيء واحد هو : الغِنى .

ونقول الغِنى المالي أو العقاري هو نوع فقط من المواهب ؛ لأنك مثلاً إذا نظرت إلى العَالِم الذي يظل عشرين عاماً يستوعب العلم ، ثم يقابله من يستفتيه في فتوى فيقولها له مجاناً ، ولو علم هذا السائل ماذا تكلف الأستاذ الذي أفتاه طوال عشرين سنة بحثاً في الكتب وسماعاً من الأساتذة واستنباطاً من الأحكام لدفع مكافأة لهذه الفتوى ؛ لأن العالِم كان مُسخراً لمدة عشرين عاماً لتأخذ أنت الفتوى في نضجها النهائي في يسر وسهولة وتنتفع بها .

وحين نرى من يمسح الحذاء ، ونجد صاحب الحذاء وهو يمد وهو يمد رجله والاخر يمسح الحذاء تقول لنفسك : لماذا كل هذا الزهو لصاحب الحذاء ، ولماذا هذا الانكسار لماسح الأحذية ؟ . وأقول : أنت رأيت صاحب الحذاء وقت راحته ، ورأيت ماسح الأحذية وهو في وقت عمله . ولو عرفت كيف جاء صاحب الحذاء بالنقود التي سيدفعها لماسح الأحذية لعلمت أنه كان مسخراً له ساعة كان يعمل ليحصل على النقود ليعطي مها ماسح الأحذية ، ولذلك قال الحق : ﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾ [ الزخرف : 32 ]

(70/242)

والناس لا تنظر في التسخير إلا للغني والفقير ، وتقول : خذوا التسخير على أن كل واحد في الكون مُسخّر في الموهبة التي عنده ، ومُسخّر له في المواهب التي ليست عنده . وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يربط الناس بهذا ربطاً قسرياً وليس تفضّلياً ؛ لأن من عنده أولاد يريدون أن يأكلوا وامرأة تحتاج إلى أن تَطْعَم ولا يملك نقوداً ، وليس أمامه من عمل سوى نزح المجاري ، فيأتي بأدوات نزح المجاري ، ويؤدي العمل ليعول من يعولهم ، ولولا ارتباطه بضرورة الحياة له ولمن يعول لما عمل في مثل هذا العمل ، إذن فهو مربوط ربطاً ضرورياً ليؤدي خدمة في الكون . ولو كان كل البشر يعيشون في رغد العيش أكان هناك من يتطوع لينزح المجاري ؟ لا يحدث ذلك أبداً ، لأنه عمل لا يأتي بالتفضل بل بالاحتياج .

وهكذا نرى أن الخلافة في الأرض تقتضي استطراقاً ، وهذا الاستطراق لا يدوم كثيراً ؛ فمرة تكون القوة لإنسان ثم تذهب منه ، ومرة يكون الثراء لإنسان ثم ينحسر عنه هذا الغِنى ، ولذلك أخبرنا الحق أنه جعل الأيام دُوَلاً بين الناس ليستقيم العالم بارتباط الضرورة في بعض الأعمال ، وإن بدا لنا أن هناك مواهب تميز بين الناس في شكلهم ، وفي هندامهم ، وفي مطيتهم ، تجد الطبيب يعمل في أكثر من مكان ، وإن سار على رجليه لتعب ، لذلك يشتري سيارة ، ويظن من يراها أن السيارة امتياز لا مثيل له ، متناسياً أن هذه السيارة تقضي مصالح الرجل ليخدم الآخرين .

مثال آخر : أنت إن نظرت إلى كوب الشاي الذي تشربه بمزاج وليس لضرورة حيوية ، وإن جاءك من يقدم لك الشاي ليقول : إن الشاي قد نفد من المقهى ، فتعطيه جنيهاً وتقول : هات كيساً من الشاي من عند البقال ، ويذهب الغلام ليحضر علبة الشاي فيجد البقال وكأنه قد جهزها له ، وأنت لا تعرف أن علبة الشاي هذه قد أخذت وقتا وعملا من اثنين أو ثلاثة لتصل إليك ؛ لأن الحق قد كلف أناساً ليزرعوا الشاي في بعض البلاد ، وأناساً آخرين يستوردونه ، ثم تأتيك علبة الشاي لتصنع منها كوباً لتشربه .

إذن فمسألة كلها تسخيرات ؛ لذلك توجد الفوارق الاجتماعية التي تقتضيها أعمالنا ، ويذيب الحق هذه الفوارق بأن جعل في الصلاة استطراقاً للجميع ، وتلتفت ساعة يقول المؤذن : ( الله أكبر ) أن الكل قد جاء ، الغني قبل الفقير ، والخفير مع الأمير ، ويخلع الجميع أقدارهم خارج المسجد مع نعالهم ليتساوَوْا في الصلاة ، ومن له رئيس يتكبر عليه يراه وهو ساجد مثله لله ، فتريحه لحظة استطراق العبودية .

ولنفرض أن كلاً منا سيصلي بمفرده في الصلاة اليومية ، لكن عندما يؤذن المؤذن لصلاة الجمعة ، يأمرنا الحق أن نَذَر ونترك كل شيء لنؤدي صلاة الجمعة معاً . ويرى الضعيف عظيماً يتضرع مثله إلى الله ، ويرى القوي نفسه بجانب الضعيف ، وحين يعود كل منا إلى عمله تسقط أقنعة القوة والزهو ؛ لأننا جميعاً نقف أمام خالق واحد وكلنا سواء .

إن هذا هو الاستطراق الاجتماعي ؛ لأننا حين نرقب بعضنا في أثناء الصلاة نجد أنفسنا في حضرة الرَّب الذي أعد لنا الكون ، وسخّره لنا ، وأعطانا الطاقات ، وأعطانا المواهب ، وإذا تأملنا واحداً له وظيفة كبيرة جداً ، فأنت حين ترغب في لقائه تكتب التماساً ، ويُنْظَر في الالتماس ، فإمّا أن يوافقوا وإمّا لا يوافقوا على لقائك به . وإن وافقوا يسألوك : في أي أمر ستتكلم ؟ وسيُحدد لك الوقت الذي ستجلس فيه معه وليكن ثلاث دقائق مثلا ، وحين تجلس إليه وتنسى نفسك يقوم هو ليدلك على أن المقابلة انتهت ، لكن ربنا يقول لنا : تعالوْا لي في أي وقت ، وكلموني في أي شيء ، وأنا لا أملّ حتى تملُّوا ، وأنتم يا عبيدي مَنْ تنهون المقابلة ، وهذا عطاء كثير جداً . يغدقه المولى عزوجل على عباده .

فهل هناك ربوبية أفضل من هذه ؟ .

إذن فالصلاة إذا نظرت إليها وجدت أنها : جماع كل فضائل الدين وفيها كل الفضائل للمجتمع " ؛ لذلك جعلها الله عماد الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (92) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك ﴾ قال : هو القرآن الذي أنزله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ مصدق الذي بين يديه ﴾ أي من الكتب التي قد خلت قبله .

وأخرج أبن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله ﴿ ولتنذر أم القرى ﴾ قال : مكة ومن حولها . قال : يعني ما حولها من القرى إلى المشرق والمغرب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء وعمرو بن دينار قالا : بعث الله رياحاً فشققت الماء فأبرزت موضع البيت على حشفة بيضاء ، فمد الله الأرض منها ، فذلك هي أم القرى .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ أم القرى ﴾ قال : مكة ، وإنما سميت أم القرى لأنها أول بيت وضع بها .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ ولتنذر أم القرى ﴾

قال : هي مكة . قال : وبلغني أن الأرض دحيت من مكة .

وأخرج ابن مردويه عن بريدة قال : قال رسول الله صلى عليه وسلم " أم القرى مكة " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(74/242)

---

ومن فوائد النسفى فى الآيات

قال عليه الرحمة :

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ﴾ إشارة إلى جميع ما احتج به إبراهيم عليه السلام على قومه من قوله ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اليل ﴾ إلى قوله ﴿ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ ﴿ ءاتيناها إبراهيم على قَوْمِهِ ﴾ وهو خبر بعد خبر ﴿ نَرْفَعُ درجات مَّن نَّشَاءُ ﴾ في العلم والحكمة وبالتنوين كوفي وفيه نقض قول المعتزلة في الأصلح ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ ﴾ بالرفع ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بالأهل .

(75/242)

---

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ ﴾ لإبراهيم ﴿ إسحاق وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا ﴾ أي كلهم وانتصب ﴿ كَلاًّ ﴾ ب ﴿ هَدَيْنَا ﴾ ﴿ وَنُوحاً هَدَيْنَا ﴾ أي وهدينا نوحاً ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ من قبل إبراهيم ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ ﴾ الضمير لنوح أو لإبراهيم ، والأوّل أظهر لأن يونس ولوطاً لم يكونا من ذرية إبراهيم ﴿ دَاوُدَ وسليمان وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وموسى وهارون ﴾ والتقدير : وهدينا من ذريته هؤلاء ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين ﴾ ونجزي المحسنين جزاء مثل ذلك ، فالكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف ﴿ وَزَكَرِيَّا ويحيى وعيسى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ ﴾ أي كلهم ﴿ مِّنَ الصالحين ﴾ وذكر عيسى معهم دليل على أن النسب يثبت من قبل الأم أيضاً لأنه جعله من ذرية نوح عليه السلام وهو لا يتصل به إلا بالأم ، وبذا أجيب الحجاج حين أنكر أن يكون بنو فاطمة أولاد النبي عليه السلام ﴿ وإسماعيل واليسع ﴾ ﴿ والليسع ﴾ حيث كان بلامين : حمزة وعلي ﴿ واليسع وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى العالمين ﴾ بالنبوة والرسالة ﴿ وَمِنْ ءَابَائِهِمْ ﴾ في موضع النصب عطفاً على ﴿ كُلاًّ ﴾ أي وفضلنا بعض آبائهم ﴿ وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ * ذلك ﴾ أي ما دان به هؤلاء المذكورون ﴿ هُدَى الله ﴾ دين الله ﴿ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ فيه نقض قول المعتزلة لأنهم يقولون إن الله شاء هداية الخلق كلهم لكنهم لم يهتدوا ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُواْ ﴾ مع فضلهم وتقدمهم وما رفع لهم من الدرجات العلى ﴿

لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ لبطلت أعمالهم كما قال ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ [ الزمر : 65 ]

*(76/242)*

---

أولئك الذين ءاتيناهم الكتاب ﴾ يريد الجنس ﴿ والحكم ﴾ والحكمة أو فهم الكتاب ﴿ والنبوة ﴾ وهي أعلى مراتب البشر ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا ﴾ بالكتاب والحكم والنبوة أو بآيات القرآن ﴿ هؤلاء ﴾ أي أهل مكة ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً ﴾ هم الأنبياء المذكورون ومن تابعهم بدليل قوله : ﴿ أولئك الذين هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ أو أصحاب النبي عليه السلام ، أو كل من آمن به أو العجم .

ومعنى توكيلهم بها أنهم وفقوا للإيمان بها والقيام بحقوقها كما يوكل الرجل بالشيء ليقوم به ويتعهده ويحافظ عليه .

والباء في ﴿ لَّيْسُواْ بِهَا ﴾ صلة ﴿ كافرين ﴾ وفي ﴿ بكافرين ﴾ لتأكيد النفي ﴿ أولئك الذين هَدَى الله ﴾ أي الأنبياء الذين مر ذكرهم ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ فاختص هداهم بالاقتداء ولا تقتد إلا بهم ، وهذا معنى تقديم المفعول .

والمراد بهداهم طريقتهم في الإيمان بالله وتوحيده وأصول الدين دون الشرائع فهي مختلفة ،

والهاء في ﴿ اقتده ﴾ للوقف تسقط في الوصل ، واستحسن إيثار الوقف لثبات الهاء في المصحف ويحذفها حمزة .

وعلى في الوصل ويختلسها : شامي .

﴿ قُل لاَّ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ على الوحي أو على تبليغ الرسالة والدعاء إلى التوحيد ﴿ أَجْراً ﴾ جعلاً .

وفيه دليل على أن أخذ الأجر على تعليم القرآن ورواية الحديث لا يجوز ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذكرى للعالمين ﴾ ما القرآن إلا عظة للجن والإنس ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللهُ على بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ أي ما عرفوه حق معرفته في الرحمة على عباده حين أنكروا بعثة الرسل والوحي إليهم ، وذلك من أعظم رحمته ﴿ وَمَا أرسلناك إِلاَّ رَحْمَةً للعالمين ﴾ [ الأنبياء : 107 ] رُوي أن جماعة من اليهود منهم مالك بن الصيف كانوا يجادلون النبي عليه السلام فقال النبي عليه السلام له " أليس في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين " قال : نعم .

قال : " فأنت الحبر السمين " فغضب وقال : ما أنزل الله على بشر من شيء .

و ﴿ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ منصوب نصب المصدر .

﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الكتاب الذى جَاء بِهِ موسى نُوراً ﴾ حال من الضمير في ﴿ بِهِ ﴾ أو ﴿ مِّنَ الكتاب ﴾ ﴿ وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قراطيس تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً ﴾ مما فيه نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي بعضوه وجعلوه قراطيس مقطعة وورقات مفرقة ليتمكنوا مما راموا من الإبداء والإخفاء .

وبالياء في الثلاثة : مكي وأبو عمرو ﴿ وَعُلِّمْتُمْ ﴾ يا أهل الكتاب بالكتاب ﴿ مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ ءَابَاؤُكُمْ ﴾ من أمور دينكم ودنياكم ﴿ قُلِ الله ﴾ جواب أي أنزله الله فإنهم لا يقدرون أن يناكروك ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ ﴾ في باطلهم الذي يخوضون فيه ﴿ يَلْعَبُونَ ﴾ حال من ﴿ ذَرْهُمْ ﴾ أو ﴿ مِنْ خَوْضِهِمْ ﴾ ﴿ وهذا كتاب أنزلناه ﴾ على نبينا عليه السلام ﴿ مُّبَارَكٌ ﴾ كثير المنافع والفوائد ﴿ مُّصَدِّقُ الذى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من الكتب ﴿ وَلِتُنذِرَ ﴾ وبالياء : أبو بكر ، أي الكتاب وهو معطوف على ما دل عليه صفة الكتاب كأنه قيل : أنزلناه للبركات وتصديق ما تقدمه من الكتب والإنذار ﴿ أُمَّ القرى ﴾ مكة ، وسميت أم القرى لأنها سرة الأرض وقبلة أهل القرى وأعظمها شأناً ولأن الناس يؤمونها ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أهل الشرق والغرب ﴿ والذين يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ يصدقون بالعاقبة ويخافونها ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ بهذا الكتاب فأصل الدين خوف العاقبة فمن خافها لم

يزل به الخوف حتى يؤمن ﴿ وَهُمْ على صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ خصت الصلاة بالذكر لأنها علم الإيمان وعماد الدين فمن حافظ عليها يحافظ على أخواتها ظاهراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 21.23 ﴾

*(78/242)*

---

ومن فوائد الخطيب الشربينى فى الآيات

قال رحمه الله :

وقوله تعالى : ﴿ وتلك ﴾ مبتدأ ويبدل منه ﴿ حجتنا ﴾ وهي ما احتج به إبراهيم على قومه من قوله تعالى : ﴿ فلما جنّ عليه الليل ﴾ إلى قوله : ﴿ وهم مهتدون ﴾ أو من قوله تعالى : ﴿ أتحاجوني ﴾ إليه والخبر ﴿ آتيناها إبراهيم ﴾ أي : أرشدناه لها حجة ﴿ على قومه ﴾ ثم إنه سبحانه وتعالى لما تفضل على خليله صلى الله عليه وسلم برفعه على قومه قال تعالى : ﴿ نرفع درجات من نشاء ﴾ في العلم والحكمة ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بتنوين التاء ، والباقون بغير تنوين ﴿ إنّ ربك حكيم ﴾ في صنعه فيرفع من يشاء ويخفض من يشاء ﴿ عليم ﴾ بخلقه فهو الفعال لما يريد .

﴿ ووهبنا له ﴾ أي : إبراهيم ﴿ إسحق ﴾ أي : ابناً له ﴿ ويعقوب ﴾ أي : ابناً

لإسحاق فهو ابن ابنه ﴿ كلاً ﴾ منهما ومن أبيهما ﴿ هدينا ﴾ إلى سبيل الرشاد ووفقناه إلى طريق الحق والصواب ﴿ ونوحاً هدينا ﴾ ﴿ من قبل ﴾ أي : قبل إبراهيم ﴿ ومن ذريته ﴾ أي : نوح لا إبراهيم لأنه تعالى ذكر في جملتهم يونس ولوطاً ولم يكونا من ذرّية إبراهيم ، وقيل : الضمير لإبراهيم ويكون ذلك من باب التغليب فإنّ التغليب سائغ شائع في انتساب العرب ﴿ داود ﴾ وهو ابن إيشا هديناه وكان ممن آتاه الله الملك والنبوّة ﴿ وسليمان ﴾ هو ابن داود وهما اللذان بنيا بيت المقدس بأمر الله تعالى داود بخطه وتأسيسه وسليمان بإكماله وتشييده ﴿ وأيوب ﴾ هو ابن أموص بن رزاح بن روم بن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم ﴿ ويوسف ﴾ هو ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم .

فإن قيل : لم قدم أيوب على يوسف مع أنّ يوسف أقرب منه ؟

*(79/242)*

---

أجيب : بأنه قدمه للمناسبة بينه وبين سليمان لأنّ كلاً منهما ابتلي بأخذ كل ما في يده ثم ردّه الله تعالى إليه ﴿ وموسى ﴾ هو ابن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب ﴿ وهارون ﴾ هو أخو موسى أكبر منه بسنة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ﴿ وكذلك ﴾ كما جزينا إبراهيم على توحيده وصبره على أذى قومه بأن رفعنا درجته

ووهبنا له أولاداً أنبياء ﴿ نجزي المحسنين ﴾ على إحسانهم .

﴿ وزكريا ﴾ هو ابن أدن بن بركيا ، وقرأ حفص وحمزة والكسائي بغير همز ، والباقون بالهمز ﴿ ويحيى ﴾ هو ابن زكريا ﴿ وعيسى ﴾ هو ابن مريم بنت عمران ﴿ وإلياس ﴾ قال ابن مسعود : هو إدريس وله اسمان مثل يعقوب وإسرائيل قال البغويّ : والصحيح أنه غيره لأنّ الله تعالى ذكره في ولد نوح وإدريس جدّ أبي نوح وهو إلياس بن ياسين بن فنحاس بن العيزار بن هارون بن عمران ﴿ كلّ ﴾ منهم ﴿ من الصالحين ﴾ أي : الكاملين في الصلاح وهو الإتيان بما ينبغي والتحرّز عما لا ينبغي ﴿ وإسمعيل ﴾ هو ابن إبراهيم وإنما أخر ذكره إلى هنا لأنه ذكر إسحاق وذكر أولاده من بعده على نسق واحد فلهذا السبب أخر ذكر إسماعيل إلى هنا ﴿ واليسع ﴾ هو أخطوب بن العجوز ، وقرأ حمزة والكسائي بتشديد اللام وسكون الياء والباقون بسكون اللام وفتح الياء ﴿ ويونس ﴾ هو ابن متى ﴿ ولوطاً ﴾ هو ابن هاران أخي إبراهيم ﴿ وكلاً ﴾ منهم ﴿ فضلنا على العالمين ﴾ أي : بالنبوّة وفيه دليل على فضلهم على من عداهم من الخلق من أنس وملك ويستدلّ بهذه الآية من يقول إنّ الأنبياء أفضل من الملائكة وقوله تعالى:

﴿ ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ﴾ عطف على كلاً أو نوحاً ومن للتبعيض أي : وفضلنا بعض آبائهم وبعض ذرّياتهم وإخوانهم لأنّ آباء بعضهم كانوا مشركين وعيسى ويحيى لم يكن لهما ولد وكان في ذرّية بعضهم من كان كافراً كابن نوح وقوله تعالى : ﴿ واجتبيناهم ﴾ أي :

اخترناهم ، عطف على فضلنا أو هدينا ﴿ وهديناهم ﴾ أي : وأرشدناهم ﴿ إلى صراط مستقيم ﴾ هو الدين الحق .

(80/242)

---

﴿ ذلك ﴾ أي : الذي هدوا إليه ﴿ هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ﴾ سواء كان له أب يعلمه أو كان له من يحمله على الضلال أم لا فهو سبحانه وتعالى هو المتفضل بالهداية ﴿ ولو أشركوا ﴾ أي : ولو فرض إشراك هؤلاء الأنبياء بعد علوّ درجتهم وفضلهم ﴿ لحبط عنهم ﴾ أي : لفسد وسقط ﴿ ما كانوا يعملون ﴾ أي : لكانوا كغيرهم في حبوط أعمالهم بسقوط ثوابها .

﴿ أولئك الذين آتيناهم الكتاب ﴾ أي : أولئك الذين سميناهم من الأنبياء وهم ثمانية عشر نبياً أعطيناهم الكتاب فالمراد بالكتاب الجنس ﴿ والحكم ﴾ أي : العمل المتقن بالعلم ﴿ والنبوّة ﴾ أي : وشرّفناهم بالنبوّة والرسالة ﴿ فإن يكفر بها ﴾ أي : بهذه الثلاثة ﴿ هؤلاء ﴾ أي : أهل مكة الذين أنت بين أظهرهم ﴿ فقد وكلنا بها ﴾ أي : وفقنا للإيمان بها والقيام بحقوقها ﴿ قوماً ليسوا بها بكافرين ﴾ كما يوكل الرجل بالشيء ليقوم به ويتعهده ويحافظ عليه ، واختلف في ذلك القوم فقال ابن عباس : هم الأنصار وأهل المدينة

، وقال الحسن وقتادة : هم الأنبياء الثمانية عشر الذين تقدّم ذكرهم واختاره الزجاج ، قال : والدليل عليه قوله تعالى:

(81/242)

---

﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ ، وقال عطاء العطاردي : هم الملائكة ونظر فيه لأنّ اسم القوم لا يطلق إلا على بني آدم ، وقيل : الفرس ، وقيل : هم المهاجرون والأنصار ، واستظهر وقال ابن زيد : كل من لم يكفر فهو منهم سواء أكان ملكاً أم نبياً أم صحابياً أم تابعياً ، والمراد بهداهم ما توافقوا عليه من التوحيد وأصول الدين دون الفروع المختلف فيها فإنها ليست هدى مضافاً إلى الكل ولا يمكن التأسي بهم جميعاً فليس فيه دليل على أنه صلى الله عليه وسلم متعبد بشرع من قبله ، واستدلّ بعض العلماء بهذه الآية على أنه صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قال : وبيانه أنّ جميع الخصال وصفات الشرف كانت متفرّقة فيهم فكان نوح صاحب احتمال على أذى قومه وكان إبراهيم صاحب كرم وبذل مجاهدة في الله عز وجلّ وكان إسحاق ويعقوب من أصحاب الصبر على البلاء والمحن وكان داود وسليمان من أصحاب الشكر على النعمة كما قال تعالى : ﴿ اعملوا آل داود شكراً ﴾ (سبأ ، )

وكان أيوب صاحب صبر على البلاء كما قال تعالى : ﴿ إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنّه أواب ﴾ (ص ، )

وكان يوسف قد جمع بين الحالتين أي : الصبر والشكر وكان موسى صاحب الشريعة الظاهرة والمعجزات الباهرة وكان زكريا ويحيى وعيسى وإلياس من أصحاب الزهد في الدنيا وكان إسماعيل صاحب صدق وكان يونس صاحب تضرّع وإحسان ثم إن الله تعالى أمر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يقتدي بهم وجمع له جميع الخصال المحمودة والمتفرّقة فثبت بهذا البيان أنه صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء لما اجتمع فيه من الخصال التي كانت متفرّقة في جميعهم ، اه .

*(82/242)*

---

وقرأ حمزة والكسائيّ بحذف الهاء في الوصل وحرّك الهاء بحركة مختلسة ابن عامر ومدّ على الهاء ابن ذكوان بخلاف عنه وسكن الهاء الباقون في الوصل وأما في الوقف فجميع القراء يثبتون الهاء ويسكنونها ﴿ قل ﴾ يا محمد لأهل مكة ﴿ لا أسألكم عليه ﴾ أي : القرآن أو التبليغ ﴿ أجراً ﴾ أي : لا أطلب على ذلك جعلاً ﴿ إن هو ﴾ أي : القرآن أو التبليغ ﴿ إلا ذكرى ﴾ أي : عظة ﴿ للعالمين ﴾ أي الإنس والجنّ .

﴿ وما قدروا ﴾ أي : اليهود ﴿ الله حق قدره ﴾ أي : ما عرفوه حق معرفته أو ما عظموه حق عظمته ﴿ إذ قالوا ﴾ للنبيّ صلى الله عليه وسلم وقد خاصموه في القرآن ﴿ ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ قال سعيد بن جبير جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف من أحبار اليهود ورؤسائهم يخاصم النبيّ صلى الله عليه وسلم بمكة فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم "أنشدك الله الذي أنزل التوراة على موسى أما تجد في التوراة أنّ الله تعالى يبغض الحبر السمين وكان حبراً سميناً" . والحبر بالفتح والكسر وهو أفصح العالم بتحبير الكلام والعلم وتحسينه ، قاله الجوهريّ . فغضب فقال : والله ما أنزل الله على بشر من شيء ، فقال له قومه : ويلك ما هذا الذي بلغنا عنك ، فقال : إنه أغضبني ، فنزعوه وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف . وقال السدّي : نزلت في فنحاص بن عازوراء وهو قائل هذه المقالة ، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : قالت اليهود : يا محمد أنزل الله تعالى عليك كتاباً ، قال : نعم ، قالوا : والله ما أنزل الله من السماء كتاباً . قال الله تعالى : ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ من أنزل الكتاب ﴾ أي : التوراة ﴿ الذي جاء به موسى ﴾ أي : الذي أنتم تزعمون التمسك بشرعه حال كون الكتاب ﴿ نوراً ﴾ أي : ذا نور أي : ضياء من

ظلمة الضلالة ﴿ وهدى ﴾ أي : ذا هدى ﴿ للناس ﴾ أي : يفرق بين الحق والباطل من دينهم وذلك قبل أن يبدّل ويغير ﴿ يجعلونه قراطيس ﴾ أي : يكتبونه في دفاتر مقطعة ﴿ يبدونها ﴾ أي : يظهرون ما يحبون إظهاره منها ﴿ ويخفون كثيراً ﴾ أي : مما كتبوه في القراطيس وهو ما عندهم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم ومما أخفوه أيضاً آية الرجم وكانت مكتوبة عندهم في التوراة . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالياء في المواضع الثلاثة على الغيبة حملاً على قالوا وما قدروا ، والباقون بالتاء على الخطاب وتضمن ذلك توبيخهم على سوء جهلهم للتوراة وذمّهم على تجزئتها بإبداء بعض انتخبوه وكتبوه في ورقات متفرّقة وإخفاء بعض لا يشتهونه .

*(84/242)*

---

وقوله تعالى : ﴿ وعلمتم ﴾ أي : على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ﴾ خطاب لليهود أي : علمتم زيادة على ما في التوراة وبياناً لما التبس عليكم وعلى آبائكم الذين كانوا أعلم منكم ، ونظيره أنّ هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون يذكرهم النعمة فيما عليهم على لسان محمد صلى الله عليه وسلم وقيل : الخطاب لمن آمن من قريش . وقوله تعالى : ﴿ قل الله ﴾ أنزله راجع إلى قوله تعالى :

﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى ﴾ أي : فإن أجابوك بأنّ الله أنزله فذاك وإلا فقل أنت الله أنزله إذ لا جواب غيره ﴿ ثم ذرهم ﴾ أي : اتركهم ﴿ في خوضهم ﴾ أي : باطلهم ﴿ يلعبون ﴾ أي : يستهزؤن ويسخرون ، وفيه وعيد تهديد للمشركين وقال بعضهم : هذا منسوخ بآية السيف

﴿

وهذا ﴾ أي : القرآن ﴿ كتاب أنزلناه مبارك ﴾ أي : كثير الخير والبركة دائم النفع يبشر المؤمنين بالثواب والمغفرة ويزجر عن القبيح والمعصية ، وأصل البركة النماء والزيادة وثبوت الخير ﴿ مصدّق الذي بين يديه ﴾ أي : قبله من الكتب الإلهية المنزلة من السماء على الأنبياء لأنها مشتملة على التوحيد والتنزيه لله تعالى وعلى البشارة والنذارة فثبت بذلك كون القرآن مصدقاً لجميع الكتب المنزلة ، وقوله تعالى : ﴿ ولينذر ﴾ قرأه شعبة بالياء على الغيبة أي : لينذر الكتاب ، والباقون بالتاء على الخطاب أي : ولتنذر يا محمد ﴿ أمّ القرى ﴾ أي : أهل مكة وسميت أمّ القرى لأنها قبلة أهل القرى ومحجهم ومجتمعهم وأعظم القرى شأناً ولبعض المجاورين:

*فمن يلق في بعض القريات رحله ** فأمّ القرى ملقى رحالي ومنتابي*

وقيل : لأنّ الأرض دحيت من تحتها أو لأنها مكان أوّل بيت وضع للناس ﴿ ومن حولها ﴾ أي : جميع البلاد والقرى التي حولها شرقاً وغرباً ﴿ والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ﴾ لأن من صدق بالآخرة خاف العاقبة ولا يزال الخوف يحمله على النظر والتدبر حتى يؤمن بالنبيّ والكتاب والضمير يحتملهما ويحافظ على الطاعة ، وتخصيص الصلاة في قوله تعالى ﴿ وهم على صلاتهم يحافظون ﴾ لأنها عماد الدين وعلم الإيمان ومن حافظ عليها كانت لطفاً له في المحافظة على أخواتها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 2 صـ 132 . 136 ﴾

*(86/242)*

---

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس . . كل من الصالحين . وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا . . وكلاً فضلنا على

العالمين . . ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم . . واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم . . ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون . أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة . فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين . أولئك الذين هدى الله ، فبهداهم اقتده ، قل : لا أسألكم عليه أجراً . إن هو إلا ذكرى للعالمين ﴾ . .

وفي الآيات ذكر لسبعة عشر نبياً رسولاً - غير نوح وإبراهيم - وإشارة إلى آخرين من ﴿ آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ﴾ . . والتعقيبات على هذا الموكب : ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ . . ﴿ وكلاً فضلنا على العالمين ﴾ . . ﴿ واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم ﴾ . . وكلها تعقيبات تقرر إحسان هذا الرهط الكريم واصطفاءه من الله ، وهدايته إلى الطريق المستقيم .

وذكر هذا الرهط على هذا النحو ، واستعراض هذا الموكب في هذه الصورة ، كله تمهيد للتقريرات التي تليه :

﴿ ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾ . .

وهذا تقرير لينابيع الهدى في هذه الأرض . فهدى الله للبشر يتمثل فيما جاءت به الرسل . وينحصر المستيقن منه ، والذي يجب اتباعه ، في هذا المصدر الواحد ، الذي يقرر الله – سبحانه – أنه هو هدى الله ؛ وأنه هو الذي يهدي إليه من يختار من عباده . . ولو أن هؤلاء العباد المهديين حادوا عن توحيد الله ، وتوحيد المصدر الذي يستمدون منه هداه ، وأشركوا بالله في الاعتقاد أو العبادة أو التلقي ، فإن مصيرهم أن يحبط عنهم عملهم : أي ان يذهب ضياعاً ، ويهلك كما تهلك الدابة التي ترعى نبتاً مسموماً فتنتفخ ثم تموت . . وهذا هو الأصل اللغوي للحبوط !

﴿ أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة . فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ﴾ . .

وهذا هو التقرير الثاني . . فقرر في الأول مصدر الهدى ، وقصره على هدى الله الذي جاءت به الرسل . وقرر في الثاني أن الرسل الذين ذكرهم والذين أشار إليهم ، هم الذين آتاهم الله الكتاب والحكمة والسلطان والنبوة – " والحكم " يجيء بمعنى الحكمة كما يجيء بمعنى السلطان كذلك – وكلا المعنيين محتمل في الآية . فهؤلاء الرسل أنزل الله على بعضهم الكتاب كالتوراة مع موسى ، والزبور مع داود ، والإنجيل مع عيسى . وبعضهم آتاه الله

الحكم كداود وسليمان - وكلهم أوتي السلطان على معنى أن ما معه من الدين هو حكم الله ، وأن الدين الذي جاءوا به يحمل سلطان الله على النفوس وعلى الأمور .

*(88/242)*

---

فما أرسل الله الرسل إلا ليطاعوا ، وما أنزل الكتاب إلا ليحكم بين الناس بالقسط ، كما جاء في الآيات الأخرى . وكلهم أوتي الحكمة وأوتي النبوة . . وأولئك هم الذين وكلهم الله بدينه ، يحملونه إلى الناس ، ويقومون عليه ، ويؤمنون به ويحفظونه . . فإذا كفر بالكتاب والحكم والنبوة مشركو العرب : ﴿ هؤلاء ﴾ فإن دين الله غني عنهم ؛ وهؤلاء الرهط الكرام والمؤمنون بهم هم حسب هذا الدين ! . . إنها حقيقة قديمة امتدت شجرتها ، وموكب موصول تماسكت حلقاته ؛ ودعوة واحدة حملها رسول بعد رسول ؛ وآمن بها ويؤمن من يقسم الله له الهداية ؛ بما يعلمه من استحقاقه للهداية ! . . وهو تقرير يسكب الطمأنينة في قلب المؤمن ، وفي قلوب العصبة المسلمة - أياً كان عددها - إن هذه العصبة ليست وحدها . ليست مقطوعة من شجرة ! إنها فرع منبثق من شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وحلقة في موكب جليل موصول ، موصولة أسبابه بالله وهداه . . إن المؤمن الفرد ، في أي أرض وفي أي جيل ، قوي قوي ، وكبير كبير ، إنه من تلك الشجرة المتينة

السامقة الضاربة الجذور في أعماق الفطرة البشرية وفي أعماق التاريخ الإنساني ، وعضو من ذلك الموكب الكريم الموصول بالله وهداه منذ أقدم العصور .

﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده . قل : لا أسألكم عليه أجراً . إن هو إلا ذكرى للعالمين ﴾ . .

وهو التقرير الثالث . . فهؤلاء الرهط الكرام الذين يقودون موكب الإيمان ، هم الذين هداهم الله . وهداهم الذي جاءهم من الله فيه القدوة لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومن آمن به . فهذا الهدى وحده هو الذي يسير عليه . وهذا الهدى وحده هو الذي يحتكم إليه ، وهذا الهدى وحده هو الذي يدعو إليه ويبشر به . . قائلاً لمن يدعوهم :

﴿ لا أسألكم عليه أجراً ﴾ . . ﴿ إن هو إلا ذكرى للعالمين ﴾ . . للعالمين . . لا يختص به قوم ولا جنس ولا قريب ولا بعيد . . إنه هدى الله لتذكير البشر كافة . ومن ثم فلا أجر عليه يتقاضاه . وإنما أجره على الله !

*(89/242)*

---

ثم يمضي السياق يندد بمنكري النبوات والرسالات ، ويصمهم بأنهم لا يقدرون الله قدره ، ولا يعرفون حكمة الله ورحمته وعدله . ويقرر أن الرسالة الأخيرة إنما تجري على سنة

الرسالات قبلها ؛ وأن الكتاب الأخير مصدق لما بين يديه من الكتب . . مما يتفق مع ظل الموكب الذي سبق عرضه ويتناسق :

﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا : ما أنزل الله على بشر من شيء . قل : من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس - تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً - وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ؟ قل : الله . ثم ذرهم في خوضهم يلعبون . وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ، ولتنذر أم القرى ومن حولها ، والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ، وهم على صلاتهم يحافظون ﴾ .

لقد كان المشركون في معرض العناد واللجاج يقولون : إن الله لم يرسل رسولاً من البشر ؛ ولم ينزل كتاباً يوحي به إلى بشر . بينما كان إلى جوارهم في الجزيرة أهل الكتاب من اليهود ؛ ولم يكونوا ينكرون عليهم أنهم أهل كتاب ، ولا أن الله أنزل التوارة على موسى - عليه السلام - إنما هم كانوا يقولون ذلك القول في زحمة العناد واللجاج ، ليكذبوا برسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - لذلك يواجههم القرآن الكريم بالتنديد بقولتهم : ما أنزل الله على بشر من شيء ؛ كما يواجههم بالكتاب الذي جاء به موسى من قبل :

﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا : ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ . .

وهذا القول الذي كان يقوله مشركو مكة في جاهليتهم ، يقوله أمثالهم في كل زمان ؛ ومنهم الذين يقولونه الآن ؛ ممن يزعمون أن الأديان من صنع البشر ؛ وأنها تطورت وترقت بتطور البشر وترقيهم . لا يفرقون في هذا بين ديانات هي من تصورات البشر أنفسهم ، كالوثنيات كلها قديماً وحديثاً ، ترتقي وتنحط بارتقاء أصحابها وانحطاطهم ، ولكنها تظل خارج دين الله كله . وبين ديانات جاء بها الرسل من عند الله ، وهي ثابتة على أصولها الأولى ؛ جاء بها كل رسول ؛ فتقبلتها فئة وعتت عنها فئة ؛ ثم وقع الانحراف عنها والتحريف فيها ، فعاد الناس إلى جاهليتهم في انتظار رسول جديد ، بذات الدين الواحد الموصول .

وهذا القول يقوله – قديماً أو حديثاً – من لا يقدر الله حق قدره ؛ ومن لا يعرف كرم الله وفضله ، ورحمته وعدله . . إنهم يقولون : إن الله لا يرسل من البشر رسولا ولو شاء لأنزل ملائكة ! كما كان العرب يقولون . أو يقولون : إن خالق هذا الكون الهائل لا يمكن أن يعني بالإنسان " الضئيل " في هذه الذرة الفلكية التي اسمها الأرض ! بحيث يرسل له الرسل ؛ وينزل على الرسل الكتب لهداية هذا المخلوق الصغير في هذا الكوكب الصغير ! وذلك كما يقول بعض الفلاسفة في القديم والحديث ! أو يقولون : إنه ليس هناك من إله ولا من وحي ولا من رسل . . إنما هي أوهام الناس أو خداع بعضهم لبعض باسم الدين ! كما يقول الماديون الملحدون !

(91/242)

---

وكله جهل بقدر الله – سبحانه – فالله الكريم العظيم العادل الرحيم ، العليم الحكيم . . . لا يدع هذا الكائن الإنساني وحده ، وهو خلقه ، وهو يعلم سره وجهره ، وطاقاته وقواه ، ونقصه وضعفه ، وحاجته إلى الموازين القسط التي يرجع إليها بتصوراته وأفكاره ، وأقواله وأعماله ، وأوضاعه ونظامه ، ليرى إن كانت صواباً وصلاحاً ، أو كانت خطأً وفساداً . . ويعلم – سبحانه – أن العقل الذي أعطاه له ، يتعرض لضغوط كثيرة من شهواته ونزواته ومطامعه ورغباته ، فضلاً على أنه موكل بطاقات الأرض التي له عليها سلطان بسبب تسخيرها له من الله ، وليس موكلاً بتصور الوجود تصوراً مطلقاً ، ولا بصياغة الأسس الثابتة للحياة .

(92/242)

---

فهذا مجال العقيدة التي تأتي له من الله ؛ فتنشىء له تصوراً سليماً للوجود والحياة . . ومن ثم لا يكله الله إلى هذا العقل وحده ، ولا يكله كذلك إلى ما أودع فطرته من معرفة لدنية

بربها الحق ، وشوق إليه ، ولياذ به في الشدائد . . فهذه الفطرة قد تفسد كذلك بسبب ما يقع عليها من ضغوط داخلية وخارجية ، وبسبب الإغواء والاستهواء الذي يقوم به شياطين الجن والإنس ، بكل ما يملكون من أجهزة التوجيه والتأثير . . إنما يكل الله الناس إلى وحيه ورسله وهداه وكتبه ، ليرد فطرتهم إلى استقامتها وصفائها ، وليرد عقولهم إلى صحتها وسلامتها ، وليجلو عنهم غاشية التضليل من داخل أنفسهم ومن خارجها . . وهذا هو الذي يليق بكرم الله وفضله ، ورحمته وعدله ، وحكمته وعلمه . . فما كان ليخلق البشر ، ثم يتركهم سدى . . ثم يحاسبهم يوم القيامة ولم يبعث فيهم رسولاً : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ فتقدير الله حق قدره يقتضي الاعتقاد بأنه أرسل إلى عباده رسلا يستنقذون فطرتهم من الركام ، ويساعدون عقولهم على الخلاص من الضغوط ، والانطلاق للنظر الخالص والتدبر العميق . وأنه أوحى إلى هؤلاء الرسل منهج الدعوة إلى الله ، وأنزل على بعضهم كتباً تبقى بعدهم في قومهم إلى حين – ككتب موسى وداود وعيسى – أو تبقى إلى آخر الزمان كهذا القرآن .

ولما كانت رسالة موسى معروفة بين العرب في الجزيرة ، وكان أهل الكتاب معروفين هناك ، فقد أمر الله رسوله أن يواجه المشركين المنكرين لأصل الرسالة والوحي ؛ بتلك الحقيقة :

﴿ قل : من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس – تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً – وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ﴾ . .

وقد عرضنا في تقديم السورة للقول بأن هذه الآية مدنية ، وأن المخاطبين بها هم اليهود . ثم ذكرنا هناك ما اختاره ابن جرير الطبري من القراءة الأخرى ﴿ يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً ﴾ . . وأن المخاطبين بها هم المشركون ، وهذا خبر عن اليهود بما كان واقعاً منهم من جعل التوراة في صحائف يتلاعبون بها ، فيبدون منها للناس ما يتفق مع خطتهم في التضليل والخداع ، والتلاعب بالأحكام والفرائض ؛ ويخفون ما لا يتفق مع هذه الخطة من صحائف التوراة ! مما كان العرب يعلمون بعضه وما أخبرهم الله به في هذا القرآن من فعل اليهود . . فهذا خبر عن اليهود معترض في سياق الآية لا خطاباً لهم . . والآية على هذا مكية لا مدنية . . ونحن نختار ما اختاره ابن جرير .

فقل لهم يا محمد : من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس ، مما يجعله اليهود صحائف يخفون بعضها ويظهرون بعضها قضاء للباناتهم من وراء هذا التلاعب الكريه ! كذلك واجههم بأن الله علمهم بما يقص عليهم من الحقائق والأخبار ما لم يكونوا يعلمون ؛ فكان حقاً عليهم أن يشكروا فضل الله ؛ ولا ينكروا أصله بإنكار أن الله نزل هذا العلم على رسوله وأوحى به إليه .

ولم يترك لهم أن يجيبوا على ذلك السؤال . إنما أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يحسم القول معهم في هذا الشأن ؛ وألا يجعله مجالاً لجدل لا يثيره إلا اللجاج :

﴿ قل : الله . ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ . .

قل : الله أنزله . . ثم لا تحفل جدالهم ولجاجهم ومراءهم ، ودعهم يخوضون لاهين لاعبين .

وفي هذا من التهديد ، قدر ما فيه من الاستهانة ، قدر ما فيه من الحق والجد ؛ فحين يبلغ العبث أن يقول الناس مثل ذلك الكلام ، يحسن احترام القول وحسم الجدل وتوفير الكلام !

ويمضي السياق يحكي شيئاً عن الكتاب الجديد ، الذي ينكر الجاحدون أن يكون الله نزله . فإذا هو حلقة مسبوقة جاءت قبلها حلقات ، فليس بدعاً من الكتب التي ينزلها الله على من يشاء من رسله الكرام :

*(94/242)*

---

﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ، ولتنذر أم القرى ومن حولها . والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ، وهم على صلاتهم يحافظون ﴾ . .

إنها سنة من سنن الله أن يرسل الرسل ، وأن ينزل الله عليهم الكتب . وهذا الكتاب الجديد ، الذي ينكرون تنزيله ، هو كتاب مبارك . . وصدق الله . . فإنه والله لمبارك . .

مبارك بكل معاني البركة . . إنه مبارك في أصله . باركه الله وهو ينزله من عنده . ومبارك في محله الذي علم الله أنه له أهل . . قلب محمد الطاهر الكريم الكبير . . ومبارك في حجمه ومحتواه . فإن هو إلا صفحات قلائل بالنسبة لضخام الكتب التي يكتبها البشر ؛ ولكنه يحوي من المدلولات والإيحاءات والمؤثرات والتوجيهات في كل فقرة منه ما لا تحتويه عشرات من هذه الكتب الضخام ، في أضعاف أضعاف حيزه وحجمه ! وإن الذي مارس فن القول عند نفسه وعند غيره من بني البشر ؛ وعالج قضية التعبير بالألفاظ عن المدلولات ، ليدرك أكثر مما يدرك الذين لا يزاولون فن القول ولا يعالجون قضايا التعبير ، أن هذا النسق القرآني مبارك من هذه الناحية . وأن هنالك استحالة في أن يعبر البشر في مثل هذا الحيز – ولا في أضعاف أضعافه – عن كل ما يحمله التعبير القرآني من مدلولات ومفهومات وموحيات ومؤثرات ! وأن الآية الواحدة تؤدي من المعاني وتقرر من الحقائق ما يجعل الاستشهاد بها على فنون شتى من أوجه التقرير والتوجيه شيئاً متفرداً لا نظير له في كلام البشر . . وإنه لمبارك في أثره . وهو يخاطب الفطرة والكينونة البشرية بجملتها خطاباً مباشراً عجيباً لطيف المدخل ؛ ويواجهها من كل منفذ وكل درب وكل ركن ؛ فيفعل فيها ما لا يفعله قول قائل . ذلك أن به من الله سلطاناً . وليس في قول القائلين من سلطان !

ولا نملك أن نمضي أكثر من هذا في تصوير بركة هذا الكتاب .

وما نحن ببالغين لو مضينا شيئاً أكثر من شهادة الله له بأنه " مبارك " ففيها فصل الخطاب !

﴿ مصدق الذي بين يديه ﴾ . .

(95/242)

---

فهو يصدّق ما بين يديه من الكتب التي نزلت من عند الله – في صورتها التي لم تحرف لا فيما حرفته المجامع وقالت : إنه من عند الله – هو يصدقها لأنها جاءت بالحق الذي جاء به في أصول العقيدة . أما الشرائع فقد جعل لكل أمة شرعة ومنهاجاً ، في حدود العقيدة الكبرى في الله .

والذين يكتبون عن الإسلام فيقولون : إنه أول دين جاء بالعقيدة الكاملة في توحيد الله ؛ أو جاء بالعقيدة الكاملة في حقيقة الرسالة والرسول ؛ أو جاء بالعقيدة الكاملة في الآخرة والحساب والجزاء . . وهم يقصدون الثناء على الإسلام ! . . هؤلاء لا يقرآون القرآن ! ولو قرأوه لسمعوا الله تعالى يقرر أن جميع رسله – صلوات الله عليهم وسلامه – جاءوا بالتوحيد المطلق الخالص الذي لا ظل فيه للشرك في صورة من صوره . . وأنهم جميعاً أخبروا الناس بحقيقة الرسول ، وبشريته وأنه لا يملك لهم ولا لنفسه ضراً ولا نفعاً ، ولا يعلم غيباً ، ولا يبسط أو يقبض رزقاً . . وأنهم جميعاً أنذروا قومهم بالآخرة وما فيها من

حساب وجزاء . . وأن سائر حقائق العقيدة الإسلامية الأساسية جاء بها كل رسول . . وصدق الكتاب الأخير ما جاءت به الكتب قبله . . إنما تلك الأقوال أثر من آثار الثقافة الأوربية . التي تزعم أن أصول العقيدة – بما فيها العقائد السماوية – قد تطورت وترقت ، بتطور الأقوام وترقيها ! وما يمكن أن يدافع عن الإسلام بهدم أصوله التي يقررها القرآن ! فليحذر الكتاب والقارئون هذا المزلق الخطير ! ! !

فأما حكمة إنزال هذا الكتاب ، فلكي ينذر به الرسول – صلى الله عليه وسلم – أهل مكة – أم القرى – وما حولها :

﴿ ولتنذر أم القرى ومن حولها ﴾ . .

وسميت مكة أم القرى ، لأنها تضم بيت الله الذي هو أول بيت وضع للناس ليعبدوا الله فيه وحده بلا شريك ؛ وجعله مثابة أمن للناس وللأحياء جميعاً ؛ ومنه خرجت الدعوة العامة لأهل الأرض ؛ ولم تكن دعوة عامة من قبل ؛ وإليه يحج المؤمنون بهذه الدعوة ، ليعودوا إلى البيت الذي خرجت منه الدعوة !

وليس المقصود ، كما يتصيد أعداء الإسلام من المستشرقين ، أن تقصر الدعوة على أهل مكة ومن حولها . فهم يقتطعون هذه الآية من القرآن كله ، ليزعموا أن محمداً – صلى الله عليه وسلم – ما كان يقصد في أول الأمر أن يوجه دعوته إلا إلى أهل مكة وبعض المدن حولها . وأنه إنما تحول من هذا المجال الضيق الذي ما كان خياله يطمح في أول الأمر إلى أوسع منه ؛ فتوسع في الجزيرة كلها ، ثم همَّ أن يتخطاها . . لمصادفات لم يكن في أول الأمر على علم بها ! وذلك بعد هجرته إلى المدينة ، وقيام دولته بها ! . . وكذبوا . . ففي القرآن المكي ، وفي أوائل الدعوة ، قال الله سبحانه لرسوله – صلى الله عليه وسلم – ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ [ الأنبياء : 107 ] . . ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾ [ سبأ : 28 ] ولعل الدعوة يومذاك كانت محصورة في شعاب مكة يحيط بها الكرب والابتلاء !

﴿ والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ، وهم على صلاتهم يحافظون ﴾ . .

فالذين يؤمنون بأن هناك آخرة وحساباً وجزاء ، يؤمنون بأن الله لا بد مرسل للناس رسولاً يوحي إليه ؛ ولا يجدون في نفوسهم مشقة في التصديق به ؛ بل إنهم ليجدون داعياً يدعوهم إلى هذا التصديق . كما أنهم لإيمانهم بالآخرة وبهذا الكتاب يحافظون على صلاتهم ، ليكونوا على صلة دائمة وثيقة بالله ؛ وليقوموا بطاعته ممثلة في الصلاة . . فهي طبيعة نفس . . متى صدقت بالآخرة واستيقنتها ، صدقت بهذا الكتاب وتنزيله ، وحرصت

على الصلة بالله وطاعته . . وملاحظة نماذج النفوس البشرية تصدق في الواقع هذا الكلام الصادق بذاته .

(97/242)

---

ويختم هذه الجولة المتلاحقة الأشواط بمشهد حي شاخص متحرك مكروب رعيب . . مشهد الظالمين . . ( أي المشركين ) الذين يفترون على الله الكذب ، أو يدعون أنهم أوحي إليهم ادعاء لا حقيقة له . أو يزعمون أنهم مستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرآن . . مشهد هؤلاء الظالمين – الذين لا يقاس إلى ظلمهم هذا ظلم – وهم في غمرات الموت ، والملائكة باسطو أيديهم إليهم بالعذاب ، ويطلبون أرواحهم . والتأنيب يجبه وجوههم ، وقد تركوا كل شيء وراءهم وضل عنهم شركاؤهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 2 صـ 1143 . 1148 ﴾

(98/242)

---

وقال الشيخ الصابونى فى الآيات السابقة :

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ على قَوْمِهِ ﴾

الإشارة إلى ما تقدم من الحجج الباهرة التي أيد الله بها خليله عليه السلام أي هذا الذي احتج به إبراهيم على وحدانية الله من أفول الكواكب والشمس والقمر من أدلتنا التي أرشدناه لها لتكون له الحجة الدامغة على قومه ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ﴾ أي بالعلم والفهم والنبوّة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ أي حكيم يضع الشيء في محله عليم لا يخفى عليه شيء ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ أي وهبنا لإبراهيم ولداً وولد ولد لتقر عينه ببقاء العقب ﴿ كُلاًّ هَدَيْنَا ﴾ أي كلاً منهما أرشدناه إلى سبيل السعادة وآتيناه النبوة والحكمة قال ابن كثير : يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحق بعد أن طعن في السنّ وأيس من الولد ، وبُشّر بنبوته وبأن له نسلاً وعقباً وهذا أكمل في البشارة وأعظم في النعمة ، وكان هذا مجازاةً لإبراهيم حين اعتزل قومه وهاجر من بلادهم لعبادة الله ، فعوّضه الله عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه لتقرّ بهم عينه ﴿ وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل إبراهيم ، وذكر تعالى نوحاً لأنه أب البشر الثاني فذكر شرف أبناء إبراهيم ثم ذكر شرف آبائه ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ أي ومن ذرية إبراهيم هؤلاء الأنبياء الكرام ، وبدأ تعالى بذكر داود وسليمان لأنهما جمعا الملك مع النبوة وسليمان بن داود فذكر الأب والإبن ﴿ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ ﴾ قرنهما لاشتراكهما في الامتحان والبلاء ﴿ وموسى وَهَارُونَ ﴾

قرنهما لاشتراكهما في الأخوّة وقدّم موسى لأنه كليم الله ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي المحسنين ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الكريم لإبراهيم نجزي من كان محسناً في عمله صادقاً في إيمانه ﴿ وَزَكَرِيَّا ويحيى وعيسى وَإِلْيَاسَ ﴾ قرن بينهم لاشتراكهم في الزهد الشديد والإعراض عن الدنيا ﴿ كُلٌّ مِّنَ الصالحين ﴾ أي الكاملين في الصلاح ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ واليسع وَيُونُسَ وَلُوطاً ﴾

(99/242)

---

إسماعيل هو ابن إبراهيم ، ويونس بن متّى ، ولوط بن هاران وهو ابن أخ إبراهيم ﴿ وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى العالمين ﴾ أي كلاً من هؤلاء المذكورين في هذه الآية فضلناه بالنبوة على عالمي عصرهم ﴿ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ﴾ أي وهدينا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم جماعاتٍ كثيرة ﴿ واجتبيناهم وَهَدَيْنَاهُمْ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي اصطفيناهم وهديناهم إلى الطريق الحق المستقيم الذي لا عوج فيه قال ابن عباس : هؤلاء الأنبياء كلهم مضافون إلى ذرية إبراهيم وإن كان فيهم من لا يلحقه بولادةٍ من قبل أمٍ ولا أب ﴿ ذلك هُدَى الله يَهْدِي بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أي ذلك الهدى إلى الطريق المستقيم هو هدى الله يهدي به من أراد من خلقه ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي لو أشرك هؤلاء الأنبياء مع فضلهم وعلو قدرهم لبطل عملهم فكيف بغيرهم ؟ ﴿ أولئك الذين آتَيْنَاهُمُ

الكتاب والحكم والنبوة ﴾ أي أنعمنا عليهم بإنزال الكتب السماوية والحكمة الربانية والنبوة والرسالة ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هؤلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ أي فإن يكفر بآياتنا كفار عصرك يا محمد فقد استحفظناها واسترعيناها رسلنا وأنبياءنا ﴿ أولئك الذين هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ أي هؤلاء الرسل المتقدم ذكرهم هم الهداة المهديّون فتأس واقتد بسيرتهم العطرة ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ أي قل يا محمد لقومك لا أسألكم على تبليغ القرآن شيئاً من الأجر والمال ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴾ أي ما هذا القرآن إلا عظةٌ وتذكير لجميع الخلق ﴿ وَمَا قَدَرُواْ الله حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أي ما عرفوا الله حق معرفته ولا عظّموه حقّ تعظيمه ﴿ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ الله على بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ أي حين أنكروا الوحي وبعثة الرسل ،

*(100/242)*

---

والقائلون هم اليهود للعناء تفوهوا بهذه العظيمة الشنْعاء مبالغة في إنكار نزول القرآن على محمد عليه السلام ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الكتاب الذي جَآءَ بِهِ موسى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المعاندين من أنزل التوراة على موسى نوراً يستضاء به وهداية لبني إسرائيل ؟ ﴿ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً ﴾ أي تكتبونه في قراطيس

مقطعة وورقات مفرقة تبدون منها ما تشاءون وتخفون ما تشاءون قال الطبري : ومما كانوا يكتمونه إياهم ما فيها من أمر محمد صلى الله عليه وسلم ونبوته ﴿ وَعُلِّمْتُمْ مَّا لَمْ تعلموا أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ ﴾ أي عُلّمتم يا معشر اليهود من دين الله وهدايته في هذا القرآن ما لم تعلموا به من قبل لا أنتم ولا آباؤكم ﴿ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ أي قل لهم في الجواب : الله أنزل هذا القرآن ثم اتركهم في باطلهم الذي يخوضون فيه يهزءون ويلعبون ، وهذا وعيدٌ لهم وتهديد على إجرامهم ﴿ وهذا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ ﴾ أي وهذا القرآن الذي أُنزل على محمد صلى الله عليه وسلم مبارك كثير النفع والفائدة ﴿ مُّصَدِّقُ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي يصدّق كتب الله المنزّلة كالتوراة والإنجيل ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ القرى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أي لتنذر به يا محمد أهل مكة ومن حولها سائر أهل الأرض قاله ابن عباس ﴿ والذين يُؤْمِنُونَ بالآخرة يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أي والذين يصدّقون بالحشر والنشر يؤمنون بهذا الكتاب ما انطوى عليه من ذكر الوعد والوعيد والتبشير والتهديد ﴿ وَهُمْ على صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ أي يؤدون الصلاة على الوجه الأكمل في أوقاتها قال الصاوي : خصّ الصلاة بالذكر لأنها أشرف العبادات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 403.405 ﴾

*(101/242)*

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله " هذا " إشارة إلى القرآن ، أي : القرآن كتاب مبارك " أنزلناه مصدق الذي بين يديه " .

وفيه دليل على تَقْدِيمِ الصِّفةِ غير الصريحة على الصريحة ، وأجيب عنه بأن " مُبَارَكٌ " خبر مبتدأ مضمرن وقد تقدم تحقيق هذا في قوله ﴿ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ ﴾ [ المائدة : 54 ] .

وقال الواحدي : " مبارك " : خبر الابتداء فصل بينهما بالجملة ، والتقدير : هذا [ كتاب ] مبارك أنزلناه ، كقوله : ﴿ وهذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاه ﴾ [ الأنبياء : 50 ] .

قال شهاب الدين : وهذا الذي ذكره لا يَتَمَشَّى إلا على أن قوله : " مبارك " خبر ثانٍ لـ " هذا " وهذا بعيد جداً وإذا سلّم له ذلك ، فيكون " أنزلناه " عنده اعتراضاً على ظاهر عبارته ، ولكن لا يحتاج إلى ذلك ، بل يجعل " أنزلناه " صفة لـ " كتاب " ولا محذور حينئذ على هذا التقدير ، وفي الجملة فالوَجْهُ ما تقدَّمَ فيه من الإعراب .

وقدَّم وَصْفَهُ بالإنزال على وَصْفُهُ بالبركة ، بخلاف قوله تعالى : ﴿ وهذا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاه ﴾ [ الأنبياء : 50 ]

قالوا [ لأن الأهم ] هنا وَصْفُهُ بالإنزال إذا جاء عقيب إنكارهم أن يُنْزِلَ الله على بَشَرٍ شيء ، بخلاف هناك ، ووقعت الصفة الأولى جُمْلَةً فعلية ؛ لأن الإنزال يَتَجَدَّدُ وقْتاً فوقْتاً

والثانية اسماً صريحاً ؛ لأن الاسم يَدُلُّ على الثبوت والاسْتِقْرارِ ، وهو مقصود هنا أي : [ ركته ] ثابتةٌ مستقرة .

(102/242)

---

قال القرطبي رحمه الله : " ويجوز نصب " مبارك " في غير القرآن العظيم على الحال ، وكذا : مصدق الذي بين يديه " .

قوله : " مُصَدّق " صِفَةٌ أيضاً ، أو خبر بعد خبر على القول بأن " مبارك " خبر لمبتدأ مضمر وقع صِفَةً لنكرة ؛ لأنه في نِيَّةِ الانفصال ، كقوله تعالى : ﴿ هذا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ [ الأحقاف : 24 ] وكقول القائل في ذلك : [ البسيط ]

2232 - يَا رُبَّ غَابِطنَا لَوْ كَانَ يَعْرِفُكُمْ . . . . . .

وقال مكي : " مُصَدّق الذي " نعت لـ " الكتاب " على حذف التنوين لالتقاء الساكنين و " الذي " في موضع نصب وإن لم يقدر حذف التنوين كان " مصدق " خبراً و " الذي في موضع خفض ، وهذا الذي قاله غَلَطٌ فاحش ؛ لأن حَذْفَ التنوين إنما هو الإضافة اللفظية ، وإن كان اسم الفاعل في نِيَّةِ الانفصال ، وحذف التنوين لالتقاء الساكنين إنما كان في ضرورة أو نُدُورٍ ؛ كقوله : [ المتقارب ]

2233 - . . . . . .

وَلاَ ذَاكِرِ اللَّهِ إلاَّ قَلِيلا

والنحوين كلهم يقولون في " هذا ضارب الرجل " : إن حَذْفَ التنوين للإضفاة تَخْفِيفاً ؛ ولا يقول أحد منهم في مثل هذا : إنه حذف التنوين لالتقاء الساكنين .

قوله : " ولتنذر " قرأ الجمهور بتاء الخطاب للرَّسول عليه الصلاة والسلام ، وأبو بكر عن عصام بياء الغَيْبَةِ ، والضمير للقرآن الكريم ، وهو ظاهر أي : ينذر بمَواعِظِهِ وَزَواجِرِهِ ويجوز أن يعود على الرسول - عليه الصلاة والسلام - للعلم به .

وهذه " اللام " فيها وجهان :

أحدهما : هي متعلّقة بـ " أنزلنا " عطف على مُقدَّرٍ قدَّرَهُ أبو البقاء : " ليؤمنوا ولتنذر " ، وقدَّرهَا الزمخشري ، فقال : " ولتنذرَ معطوف على ما دَلَّ عليه صفة الكتاب ، كمنا قيل : أنزلناه للبركات وليصدق ما تقدَّمَهُ من الكتب والإنذار .

والثاني : أنها متعلِّقة بمحذوف متأخّر ، أي ولتنذر أنزلناه .

*(103/242)*

قوله : " أمّ القُرَى " يجوز أن يكون من باب الحَذْفِ ، أي : أهل أم القُرَى ، وأن يكون من باب المَجَازِ أطلق لِلْحَمْلِ إلى المحلِّ على الحال ، وإنهما أولى أعني المجاز والضمير في المسألة ثلاثة أقوال ، تقدم بَيَانُهَا ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ واسأل القرية ﴾ [ يوسف : 82 ] وهناك وَجْهٌ لا يمكن هنا ، وهو أنه يمكن أن يكون السؤال للقرية حَقِيقَةً ، ويكون ذلك مُعْجِزَةً للنبي ، وهنا لا يأتي ذلك وإن كانت القرية أيضاً نفسها هنا تَتَكَلَّمُ إلا أن الإنْذارَ لا يقعُ لعدَمِ فائدته .

وقوله : " ومَنْ حَوْلَهَا " عطف على " أهل " المحذوف ، أي : ولتنذر مَنْ حول أمِّ القرى ، ولا يجوز أن يعطف على " أم القرى " ، إذ يلزم أن يكون معنى " ولتنذر " أهل من حولها ولا حَاجَةَ تدعو إلى ذلك ؛ لأن " من حولها " يقبلون الإنذار .

قال أبو حيان : ولم يحذف " من " ، فيعطف حول على " أم القرى " ، وإنّه لا يصح من حيث المعنى ؛ لأن " حول " ظَرْفٌ لا ينصرف ، فلو عطف على " أم القرى " لصار مفعولاً به لعطفه على المعفول به ، وذلك لا يجوز ؛ لأن العرب لا تستعمله إلاَّ ظرفاً .

قوله : " والذين يؤمنون بالآخرة " يجوز فيه وجهان :

أحدهما : أنه مرفوع بالابتداء ، وخبره " يؤمنون " ولم يتّحد المبتدأ ولا خبر لِتَغَايُرِ متعلقيهما ، فلذلك جاز أن يقع الخبر بلفظ المبتدأ ، وإلا فيمتنع أن تقول : " الذي يقوم يقوم " ، و" الذين يؤمنون يؤمنون " ، وعلى هذا فذكر الفضلة هنا واجب ، ولم يتعرَّضِ النحويون لذلك ،

ولكن تعرضوا لِنَظَائِرِه .

والثاني : أنه مَنْصُوبٌ عَطْفاً على " أم القرى " أي : لينذر الذين أمنوا ، فيكون " يؤمون " حالاً من الموصول ، وليست حالاً مؤكدة ؛ لما تقدم من تَسْوِيغ وقوعه خبراً ، وهو اختلاف المُتَعَلّق ، و" الهاء " في " به تعود عنلى القرآن ، أو على الرسول .

(104/242)

---

قوله : ﴿ وَهُمْ على صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ حال ، وقدّم " على صلاتهم " لأجْلِ الفاصلة ، وذكر أبو علي في " الروضة " ، أنَّ أبا بكر قرأ " على صَلَواتِهِمْ " جمعاً والمراد بالمُحَافَظَةُ على الصلوات الخمس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 282 .

286 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (92) ﴾

كتابُ الأحبابِ عزيزُ الخَطَرِ جليلُ الأَثَرِ ، فيه سلوة عند غلبات الوجد ، ومن بقي عن

الوصول تذلَّل للرسول ، وقيل :

وكُتُبُك حولي لا تفارق مضجعي . . . وفيها شفاءٌ للذي أنا كاتِمُ

كأني ملحوظٌ من الجِنّ نظرةً . . . ومِنْ حواليَّ الرُّقى والتمائمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 489 ﴾

*(105/242)*

---

فصل فى الإعجاز العلمى فى الآية الكريمة

قال الدكتور / زغلول النجار :

من أقوال المفسرين في تفسير قوله ( تعالي )

وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القري ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم علي صلاتهم يحافظون ( الأنعام :92)

* ذكر ابن كثير ( يرحمه الله ) ما نصه :( وهذا كتاب ) يعني القرآن ( أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القري ) يعني مكة ( ومن حولها ) من أحياء العرب ومن سائر طوائف بني آدم من عرب وعجم , كما قال في الآية الأخري :( قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا ) , وقال :( لأنذركم به ومن بلغ ) , وقال :( ومن يكفر به من الأحزاب فالنار

موعده ) , وقال :( تبارك الذي نزل الفرقان علي عبده ليكون للعالمين نذيرا ) , وثبت في الصحيحين أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال :( أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي ) وذكر منهن :( وكان النبي يبعث إلي قومه خاصة وبعثت إلي الناس عامة ) , ولهذا قال ( ربنا تبارك وتعالي ) :( والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ) أي كل من آمن بالله واليوم الآخر يؤمن بهذا الكتاب المبارك الذي أنزلناه إليك يا محمد وهو القرآن ,( وهم علي صلاتهم يحافظون ) أي يقيمون بما فرض عليهم من أداء الصلوات في أوقاتها ) .

* وجاء في تفسير الجلالين ( رحم الله كاتبيه ) ما نصه :( وهذا ) القرآن ( كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ) قبله من الكتب ( ولتنذر ) بالتاء والياء , عطف علي معني ما قبله , أي : أنزلناه للبركة والتصديق ولتنذر به ( أم القري ومن حولها ) أي : أهل مكة وسائر الناس والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم علي صلاتهم يحافظون خوفا من عقابها أي خوفا من عقاب تاركها , وخص الصلاة بالذكر لأنها أشرف العبادات وأفضلها بعد الإيمان .

*(106/242)*

* وجاء في الظلال ( رحم الله كاتبها برحمته الواسعة ) ما نصه : . . . إنها سنة من سنن الله أن يرسل الرسل , وأن ينزل الله عليهم الكتب , وهذا الكتاب الجديد , الذي ينكرون تنزيله , هو كتاب مبارك . . وصدق الله . . فإنه والله لمبارك . . . ( مصدق الذي بين يديه ) فهو يصدق ما بين يديه من الكتب التي نزلت من عند الله - في صورتها التي لم تحرف , لا فيما حرفته المجامع وقالت , إنه من عند الله - . . . . .

فأما حكمة إنزال هذا الكتاب , فلكي ينذر به الرسول - صلي الله عليه وسلم - أهل مكة - أم القري - وما حولها ( ولتنذر أم القري ومن حولها ) . . وسميت مكة أم القري لأنها تضم بيت الله الذي هو أول بيت وضع للناس ليعبدوا الله فيه وحده بلا شريك , وجعله مثابة أمن للناس وللأحياء جميعا , ومنه خرجت الدعوة العامة لأهل الأرض , ولم تكن دعوة عامة من قبل ; . . . .

* وذكر صاحب صفوة البيان لمعاني القرآن ( رحمه الله ) ما نصه : ( مبارك ) القرآن , ( أم القري ) مكة والمراد أهلها ; وسميت بذلك لأنها قبلة أهل القري ومحجهم . ( ومن حولها ) من أهل المشارق والمغارب ; لعموم بعثته صلي الله عليه وسلم للناس كافة .

* وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ( جزاهم الله خيرا ) ما نصه : وهذا القرآن كتاب أنزلناه - كما أنزلنا التوراة - كثير الخير , باق إلي يوم القيامة , مصدق لما تقدمه من الكتب المنزلة , مخبر عن نزولها , لتبشر به المؤمنين , وتخوف الكفار من أهل مكة ومن

حولها في جميع أنحاء الأرض من غضب الله , إذا لم يذعنوا له , والذين يصدقون بيوم الجزاء يحملهم رجاء الثواب والخوف من العقاب علي الإيمان به , وهم لذلك يحافظون علي أداء صلاتهم كاملة مستوفاة .

*(107/242)*

---

* وجاء في صفوة التفاسير ( جزي الله كاتبه خيرا ) ما نصه : . . . أي وهذا القرآن الذي أنزل علي محمد صلي الله عليه وسلم مبارك كثير النفع والفائدة ( مصدق الذي بين يديه ) أي يصدق أصول كتب الله المنزلة كالتوراة والإنجيل .في أصولهما الصحيحة . ( ولتنذر أم القري ومن حولها ) أي لتنذر به يا محمد أهل مكة ومن حولها وهم سائر أهل الأرض قاله ابن عباس ;( والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ) أي والذين يصدقون بالحشر والنشر يؤمنون بهذا الكتاب لما انطوي عليه من ذكر الوعد والوعيد والتبشير والتهديد ( وهم علي صلاتهم يحافظون ) أي يؤدون الصلاة علي الوجه الأكمل في أوقاتها , قال الصاوي : خص الصلاة بالذكر لأنها أشرف العبادات . . . .

توسط مكة المكرمة للياسة يفسر دلالة النص القرآني أم القري ومن حولها .

كانت حركة الاستشراق في جذورها حركة استخبارية , تجسسية حقيرة , معادية

للإسلام والمسلمين , حريصة علي تصيد كل فرصة لمهاجمة دين الله الخاتم بدون وجه حق , ومن القضايا التي أثاروها زورا اقتطاع هذا النص الكريم الذي نحن بصدده ولتنذر أم القري ومن حولها من القرآن كله وقصره علي أهل مكة وبعض القري من حولها , واعتباره معارضا للعديد من النصوص القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي تؤكد عالمية الرسالة الخاتمة من مثل قول الحق ( تبارك وتعالي ) مخاطبا خاتم أنبيائه ورسله ( صلي الله عليه وسلم ) : وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ( الأنبياء : 107 ) وقوله ( عز من قائل ) : وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ( سبأ : 28 ) . وقول المصطفي ( صلي الله عليه وسلم ) : أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي . . . وذكر منهن : . . . وكان النبي يبعث إلي قومه خاصة وبعثت إلي الناس عامة .

*(108/242)*

---

وفي محاولة علمية جادة لتحديد الاتجاهات الدقيقة إلي القبلة ( أي إلي الكعبة المشرفة ) من المدن الرئيسية في العالم باستخدام الحاسوب ( الكمبيوتر ) ذكر الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين رحمه الله برحمته الواسعة , ( الذي شغل درجة الأستاذية لمادة المساحة بكلية الهندسة في عدد من الجامعات والمعاهد العليا مثل جامعات القاهرة , وأسيوط ,

والرياض , وبغداد , والأزهر الشريف , والمعهد العالي للمساحة بالقاهرة ) أنه لاحظ تمركز مكة

المكرمة في قلب دائرة تمر بأطراف جميع القارات , أي أن اليابسة علي سطح الكرة

الأرضية موزعة حول مكة المكرمة توزيعا منتظما , وأن هذه المدينة المقدسة تعتبر مركزا

لليابسة , وصدق الله العظيم إذ يقول :

وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القري ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه

فريق في الجنة وفريق في السعير

( الشوري : 7 ) .

وقد ثبت علميا أن القارات السبع التي تكون اليابسة علي أرضنا في هذه الأيام كانت في

الأصل قارة واحدة ثم تفتتت بفعل الصدوع والخسوف الأرضية إلي تلك القارات السبع

التي أخذت في التباعد عن بعضها البعض ولا تزال تتباعد , وبمتابعة جهود الأستاذ الدكتور

حسين كمال الدين رحمه الله برحمته الواسعة وجدت أنه في كل الحالات واليابسة قطعة

واحدة , وبعد تفتتها إلي القارات السبع مع قربها من بعضها البعض وفي كل مراحل زحف

هذه القارات ببطء شديد متباعدة عن بعضها البعض حتي وصلت الي اوضاعها الحالية ,

في كل هذه الحالات كانت مكة المكرمة دائما في وسط اليابسة .

وقد ثبت علميا أيضا ان أرضنا في مرحلة من مراحلها الابتدائية كانت مغمورة غمرا كاملا بالماء , ثم فجر الله ( تعالي ) قاع هذا المحيط الغامر بثورة بركانية عارمة عن طريق تصدع وخسف هذا القاع , وأخذت الثورة البركانية تلقي بحممها فوق قاع هذا المحيط لتبني سلسلة من سلاسل جبال أواسط المحيطات , ومع ارتفاع أعلي قمة في تلك السلسلة فوق مستوي سطح ماء هذا المحيط الغامر تكونت أول مساحة من اليابسة علي هيئة جزيرة بركانية تشبه العديد من الجزر البركانية المتكونة في أواسط محيطات اليوم كجزر اليابان , الفلبين , أندونيسيا , هاواي , وغيرها .

ويروي عن رسول الله ( صلي الله عليه وسلم ) قوله الشريف : كانت الكعبة خشعة علي الماء فدحيت منها الأرض ; وهذا الحديث ذكره الهروي في غريب الحديث (3/362) وذكره الزمخشري في الفائق في غريب الحديث (1/371) ,

وذلك لأن مدلوله العلمي سابق لزمانه بألف وأربعمائة سنة ; والخشعة هي الأكمة المتواضعة ; فهل يمكن أن تكون أرض الكعبة المشرفة أول جزء من اليابسة ظهر فوق سطح المحيط الذي غمر الأرض في مراحلها الأولي ؟ هذا سؤال لم تكتمل الإجابه عليه بعد .

خصوصية انتفاء الانحراف المغناطيسي عند خط طول مكة المكرمة

---

أضاف الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين ( رحمه الله رحمة واسعة ) في بحثه القيم المعنون إسقاط الكرة الأرضية بالنسبة لمكة المكرمة والمنشور في العدد الثاني من المجلد الأول لمجلة البحوث الاسلامية الصادرة بالرياض سنة 1395/1396 هـ ( الموافق 1975/1976 م ) أن الأماكن التي تشترك مع مكة المكرمة في نفس خط الطول (39,817 شرقا ) , تقع جميعها في هذا الاسقاط علي خط مستقيم , هو خط الشمال الجنوب الجغرافي المار بها أي ان المدن التي تشترك مع مدينة مكة المكرمة في خط الطول يكون اتجاه الصلاة فيها الي الشمال او الجنوب الجغرافي تماما والمدن التي تتجه في الصلاة الي الجنوب الجغرافي تبدأ من القطب الشمالي للأرض إلي خط عرض مكة المكرمة (437 و21 شمالا ) واما المدن التي تقع علي خطوط العرض الممتدة من جنوب مكة المكرمة الي القطب الجنوبي فان اتجاه القبلة فيها يكون ناحية الشمال الجغرافي تماما .

وكذلك الحال علي خط الطول المقابل لخط طول مكة المكرمة , وهو خط الطول المرقم (183 و140 درجة غربا ) فان المدن الواقعة عليه تصح الصلاة فيها نحو الشمال الجغرافي أو الجنوب الجغرافي تماما حسب موقع خط عرض كل منها بالنسبة الي خط عرض

مكة المكرمة . فالمدن الواقعة الي الجنوب من خط العرض المقابل لخط عرض أم القري أي من خط عرض 21,437 جنوبا إلي القطب الجنوبي تتجه في صلاتها الي الجنوب الجغرافي تماما , والمدن الواقعة شمالا من خط العرض ذلك الي القطب الشمالي تتجه في صلاتها الي الشمال الجغرافي تماما .

أما المدينة الواقعة علي خط الطول

المقابل لمكة المكرمة تماما وعلي خط عرضها تماما فإن الصلاة تجوز فيها نحو أي من الشمال أو الجنوب الجغرافيين تماما , كما تجوز في كل الاتجاهات الأخري شرقا وغربا , وذلك لوقوع تلك المدينة علي إمتداد قطر الكرة الارضية المار بمكة المكرمة .

معني هذا الكلام أنه لايوجد انحراف مغناطيسي عند خط طول مكة المكرمة .

*(111/242)*

---

وعند جميع الخطوط الموازية له , باستثناء حالة واحدة .

والسبب في ذلك ان قطبي الأرض المغناطيسيين في تجوال مستمر حتي يتم انقلابهما فيصبح القطب الشمالي جنوبا والقطب الجنوبي شمالا , وعند ذلك يحدث الكثير من الكوارث الطبيعية واندثارات الحياة , وقد ثبت حدوث مثل هذه الانقلابات المغناطيسية في تاريخ

الارض عدة مرات .

وتعلل المغناطيسية الارضية بوجود مغناطيسي كبير يمر بمركز الأرض , ويميل محوره حاليا بمقدار 11,5 درجة بالنسبة للمحور القطبي الجغرافي للكرة الأرضية , ويعتقد بأن هذا المجال المغناطيسي ناتج عن حركة لب الارض المائع مع دوران كوكبنا حول محوره .

وعلي ذلك فان الاتجاه المغناطيسي الذي يحدد بالبوصلة أو بغيرها من الاجهزة المساحية التي تستخدم الابرة الممغنطة تختلف عن الاتجاه الحقيقي بزاوية تعرف باسم زاوية الانحراف المغناطيسي , وهي تحدد علي جميع انواع الخرائط لكي يحسب الاتجاه الحقيقي بمعرفة كل من الاتجاه المغناطيسي وزاوية الانحراف المغناطيسي .

ومن الثابت تاريخيا ان خط طول جرنيتش قد فرضته بريطانيا بالقوة ابان هيمنتها علي العالم في سنة 1884 م أثناء مؤتمر عقد في واشنجطن / كولومبيا لتحديد خط طول الاساس وكان اختبارا سيئا فرضته الهيمنة البريطانية الغاشمة في العقود المتأخرة من القرن التاسع عشر الميلادي لأن زاوية الإنحراف المغناطيسي في الجزر البريطانية كما قيست في سنة 1972 كانت في حدود 8,5 درجة الي الغرب من الشمال وهذه القيمة تتناقص بمعدل نصف درجة تقريبا كل اربع سنوات اذا بقيت تلك

المعدلات ثابتة . يظهر ذلك خصوصية خط طول مكة المكرمة با نطباق الشمال المغناطيسي علي الشمال الحقيقي , ومن هنا كان اختيار الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين رحمه الله لخط طول مكة المكرمة كخط طول أساسي للكرة الأرضية واعادة اسقاط خطوط طول الكرة الارضية بدءا منه اي بالنسبة الي مكة المكرمة لتماثل خطوط الطول حول خط طول تلك المدينة المقدسة تماثلا مذهلا وتذكر المراجع العلمية ان هناك خطا من خطوط الطول يمر بمدينة سنسنائي اوهايو تتضاءل عنده زاوية الانحراف المعناطيسي الي قرابة الصفر ويعرف باسم خط انعدام زاوية الانحراف المغناطيسي (TheAgonicline) وعلاقة هذا الخط بخط طول مكة المكرمة لم تدرس بعد .

مكة المكرمة مركز الكون

استقراء لآيات القرآن الكريم ولاحاديث خاتم الانبياء والمرسلين صلي الله عليه وسلم يتضح بجلاء توسط مكة المكرمة بين السماوات السبع والارضين السبع وهي حقيقة دينية لا يمكن للعلم الكسبي ان يصل اليها وذلك لأن الانسان لا يستطيع ان يري من فوق سطح الارض الا شريحة صغيرة من السماء الدنيا ووسيلته في ذلك هي النجوم التي تزين السماء الدنيا وحدها لقول الحق ( تبارك وتعالي ) :

ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح . . .

(الملك :5)

ومن مبررات ذلك ما يلي :

(1) ورود ذكر الأرض في مقابلة السماء في عشرات الآيات القرآنية علي ضآلة حجم الارض اذا ما قورنت بالسماء مما يشير الي تميز موقع الارض بالنسبة الي السماء .

(2) اشارة القرآن الكريم الي البينية الفاصلة للسماء او السماوات عن الارض , في عشرين اية صريحة , وهذه البينية لا يمكن ان تتم مع تناهي الارض في الضآلة وتناهي السماوات في الضخامة الا اذا كانت الارض في المركز بين السماوات السبع والارضين السبع .

(3) اشارة القرآن الكريم في سورة الرحمن الي اقطار السماوات والأرض وقطر اي شكل هندسي هو الخط الواصل بين طرفين من أطرافه مرورا بمركزه , واذا كانت



---

أقطار السموات والأرض واحدة فلابد وأن تكون ارضنا في المركز من السماوات السبع .

(4) حديث رسول الله صلي الله عليه وسلم الذي يرويه مجاهد ( رحمه الله ) عنه بقوله إن الحرم حرم مناء من السماوات السبع والأرضين السبع ولفظة ( مناء ) معناها القصد في الاتجاه والاستقامة مع كل من السماوات السبع والارضين السبع اي التواجد بينهما , وعلي

استقامة مراكزها وتأكد ذلك بإثبات توسط الكعبة المشرفة للأرض الأولي اي اليابسة .

(5) حديث رسول الله صلي الله عليه وسلم المروي عنه بقوله : البيت المعمور منا مكة ووصف ذلك البيت المعمور في حديث آخر يروي عنه ( صلي الله عليه وسلم ) بقوله هو بيت في السماء السابعة علي حيال الكعبة تماما حتي لو خر لخر فوقها .

من ذلك كله تتضح ومضة الاعجاز القرآني في قول الحق ( تبارك وتعالي ) مخاطبا خاتم أنبيائه ورسله ( صلي الله عليه وسلم ) : وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القري ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم علي صلاتهم يحافظون فتتضح وسطية أم القري ليابسة الأرض ومن هنا يكون المنذرون هم جميع اهل الارض بلا استثناء , ويتضح وضع الكعبة المشرفة في وسط الأرض الأولي وهي اليابسة ودونها ست أراضين , ويحيط بذلك كله سبع سماوات وفوق الكعبة المشرفة البيت المعمور زادها الله تشريفا وتعظيما .

والحمد لله علي نعمة الإسلام والحمد لله علي نعمة القرآن وصلي الله وسلم وبارك علي النبي الخاتم الذي تلقاه وعلي آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلي يوم الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مقال للدكتور / زغلول النجار ﴾

قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (93) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان في قولهم " ما أنزل الله على بشر من شيء " صريح الكذب وتضمن تكذيبه - وحاشاه صلى الله عليه وسلم ! أما من اليهود فبالفعل ، وأما من قريش فبالرضى ، وكان بعض الكفرة قد ادعى الإيحاء إلى نفسه إرادة للطعن في القرآن ؛ قال تعالى مهولاً لأمر الكذب لا سيما عليه لا سيما في أمر الوحي ، عاطفاً على مقول " قل من أنزل " مبطلاً للتنبؤ بعد تصحيح أمر الرسالة وإثباتها إثباتاً لا مرية فيه ، فكانت براهين إثباتها أدلة على إبطال التنبؤ وكذب مدعيه :

*(115/242)*

﴿ ومن أظلم ممن افترى ﴾ أي بالفعل كاليهود والرضى كقريش ﴿ على الله كذباً ﴾ أي أيّ كذب كان ، فضلاً عن إنكار الإنزال على البشر ﴿ أو قال أوحي إليّ ولم ﴾ أي والحال أنه لم ﴿ يوح إليه شيء ﴾ فهذا تهديد على سبيل الإجمال كعادة القرآن المجيد ، يدخل فيه كل من اتصف بشيء من ذلك كمسيلمة والأسود العنسي وغيرهما ، ثم رأيت في كتاب غاية المقصود في الرد على النصارى واليهود للسموأل بن يحيى المغربي الذي كان من أجل علمائهم في حدود سنة ستين وخمسمائة ، ثم هداه الله للإسلام ، وكانت له يد طولى في الحساب والهندسة والطب وغير ذلك من العلوم ، فأظهر بعد إسلامه فضائحَهم أن الربانيين منهم زعموا أن الله كان يوحي إلى جميعهم في كل يوم مرات ، ثم قال بعد أن قسمهم إلى قرّائين وربانيين : إن الربانيين أكثرهم عدداً ، وقال : وهم الذين يزعمون أن الله كان يخاطبهم في كل مسالة بالصواب ، قال : وهذه الطائفة أشد اليهود عداوة لغيرهم من الأمم ﴿ ومن قال سأنزل ﴾ أي بوعد لا خلف فيه ﴿ مثل ما أنزل الله ﴾ كالنضر بن الحارث ونحوه .

*(116/242)*

ولما كان الجواب قطعاً في كل منصف : لا أحد أظلم منه ، بل هم أظلم الظالمين ، كان كأنه قيل : فلو رأيتهم وقد حاق بهم جزاء هذا الظلم كرد وجوههم مسودة وهم يسحبون في السلاسل على وجوههم ، وجهنم تكاد تتميز عليهم غيظاً ، وهم قد هدّهم الندم والحسرة ، وقطع بهم الأسف والحيرة لرأيت أمراً يهول منظره ، فكيف يكون مذاقه ومخبره ! فعطف عليه ما هو أقرب منه ، فقال كالمفصل لإجمال ذلك التهديد مبرزاً بدل ضميرهم الوصف الذي أداهم إلى ذلك : ﴿ ولو ترى ﴾ أي يكون منك رؤية فيما هو دون ذلك ﴿ إذ الظالمون ﴾ أي لأجل مطلق الظلم فكيف بما ذكر منه ! واللام للجنس الداخل فيه هؤلاء دخولاً أولياً ﴿ في غمرات الموت ﴾ أي شدائده التي قد غمرتهم كما يغمر البحر الخضم من يغرق فيه ، فهو يرفعه ويخفضه ويبتلعه ويلفظه ، لا بد له منه ﴿ والملائكة ﴾ أي الذين طلبوا جهلاً منهم إنزال بعضهم على وجه الظهور لهم ، وأخبرناهم أنهم لا ينزلون إلا لفصل الأمور وإنجاز المقدور ﴿ باسطوا أيديهم ﴾ أي إليهم بالمكروه لنزع أرواحهم وسلّها وافية من أشباحهم كما يسل السفود المشعب من الحديد من الصوف المشتبك المبلول ، لا يعسر عليهم تمييزها من الجسد ، ولا يخفى عليهم شيء منها في شيء منه ، قائلين ترويعاً لهم وتصويراً للعنف والشدة في السياق والإلحاح والتشديد في الإزهاق من غير تنفيس وإمهال ، وأنهم يفعلون بهم فعل الغريم المسلط الملازم ﴿ أخرجوا أنفسكم ﴾ فكأنهم قالوا : لماذا يا رسل ربنا ؟ فقالوا : ﴿ اليوم ﴾ أي هذه الساعة ، وكأنهم عبروا به لتصوير طول العذاب

﴿ تجزون عذاب الهون ﴾ أي العذاب الجامع بين الإيلام العظيم والهوان الشديد والخزي المديد بالنزع وسكرات الموت وما بعده في البرزخ - إلى ما لا نهاية له ﴿ بما كنتم تقولون ﴾ أي تجددون القول دائماً ﴿ على الله ﴾ أي الذي له جميع العظمة ﴿ غير الحق ﴾ أي غير القول المتمكن غاية التمكن في درجات الثبات ، ولو قال بدله : باطلاً ، لم يؤد هذا المعنى ، ولو قال

(117/242)

---

: الباطل ، لقصر عن المعنى أكثر ، وقد مضى في المائدة ما ينفع هنا ، وإذا نظرت إلى أن السياق لأصول الدين ازداد المراد وضوحاً ﴿ وكنتم ﴾ أي وبما كنتم ﴾ عن آياته تستكبرون ﴾ أي تطلبون الكبر للمجاوزة عنها ، ومن استكبر عن آية واحدة كان مستكبراً عن الكل ، أي لو رأيت ذلك لرأيت أمراً فظيعاً وحالاً هائلاً شنيعاً ، وعبر بالمضارع تصويراً لحالهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 674.675 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما شرح كون القرآن كتاباً نازلاً من عند الله وبين ما فيه من صفات الجلالة والشرف والرفعة ، ذكر عقيبه ما يدل على وعيد من ادعى النبوة والرسالة على سبيل

الكذب والافتراء فقال : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 68 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى عظم وعيد من ذكر أحد الأشياء الثلاثة : فأولها : أن يفتري على الله كذباً .

قال المفسرون : نزل هذا في مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة ، وفي الأسود العنسي صاحب صنعاء ، فإنهما كانا يدعيان النبوة والرسالة من عند الله على سبيل الكذب والافتراء ، وكان مسيلمة يقول : محمد رسول قريش ، وأنا رسول بني حنيفة .

قال القاضي : الذي يفتري على الله الكذب يدخل فيه من يدعي الرسالة كذباً ، ولكن لا يقتصر عليه ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

فكل من نسب إلى الله تعالى ما هو بريء منه ، إما في الذات ، وإما في الصفات وإما في الأفعال كان داخلاً تحت هذا الوعيد .

قال : والافتراء على الله في صفاته ، كالمجسمة ، وفي عدله كالمجبرة ، لأن هؤلاء قد ظلموا أعظم أنواع الظلم بأن افتروا على الله الكذب ، وأقول : أما قوله : المجسمة قد افتروا على الله الكذب ، فهو حق .

وأما قوله : إن هذا افتراء على الله في صفاته ، فليس بصحيح .

لأن كون الذات جسماً ومتحيزاً ليس بصفة ، بل هو نفس الذات المخصوصة ، فمن زعم أن إله العالم ليس بجسم ، كان معناه أنه يقول : جميع الأجسام والمتحيزات محدثة ، ولها بأسرها خالق هو موجود ليس بمتحيز ، والمجسم ينفي هذه الذات ، فكان الخلاف بين الموحد والمجسم ليس في الصفة بل في نفس الذات ، لأن الموحد يثبت هذه الذات والمجسم ينفيها ، فثبت أن هذا الخلاف لم يقع في الصفة ، بل في الذات .

وأما قوله : المجبرة قد افتروا على الله تعالى في صفاته ، فليس بصحيح ، لأنه يقال له المجبرة ما زادوا على قولهم الممكن لا بد له من مرجح ، فإن كذبوا في هذه القضية ، فكيف يمكنهم أن يعرفوا وجود الإله ؟ وإن صدقوا في ذلك لزمهم الإقرار بتوقيف صدور الفعل على حصول الداعي بتخليق الله تعالى ، وذلك عين ما نسميه بالجبر ، فثبت أن الذي وصفه بكونه افتراء على الله باطل ، بل المفتري على الله من يقول الممكن لا يتوقف رجحان أحد طرفيه على الآخر على حصول المرجح .

فإن من قال هذا الكلام لزمه نفي الصانع بالكلية ، بل يلزمه نفي الآثار والمؤثرات بالكلية .

والنوع الثاني : من الأشياء التي وصفها الله تعالى بكونها افتراء قوله : ﴿ أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ

وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ والفرق بين هذا القول وبين ما قبله ، أن في الأول كان يدعي أنه أوحي إليه وما كان يكذب بنزول الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم ، وأما في هذا القول ، فقد أثبت الوحي لنفسه ونفاه عن محمد عليه الصلاة والسلام ، وكان هذا جمعاً بين نوعين عظيمين من الكذب ، وهو إثبات ما ليس بموجود ونفي ما هو موجود .

والنوع الثالث : قوله : ﴿ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ قال المفسرون : المراد ما قاله النضر بن الحرث وهو قوله : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾ وقوله في القرآن : إنه من أساطير الأولين ، وكل أحد يمكنه الإتيان بمثله ، وحاصله : أن هذا القائل يدعي معارضة القرآن .

وروي أيضاً أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب الوحي للرسول عليه الصلاة والسلام ، فلما نزل قوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [ المؤمنون : 12 ] أملاء الرسول عليه السلام ، فلما انتهى إلى قوله : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ﴾ عجب عبد الله منه فقال : فتبارك الله أحسن الخالقين ! فقال الرسول : " هكذا أنزلت الآية " ، فسكت عبد الله وقال : إن كان محمد صادقاً ، فقد أوحي إليّ ، وإن كان كاذباً فقد عارضته ، فهذا هو المراد من قوله : ﴿ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 68. 69 ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾

هذه الفاظ عامة فكل من واقع شيئاً مما يدخل تحت هذه الألفاظ فهو داخل في الظلم الذي قد عظمه الله تعالى بقول : ﴿ ومن أظلم ﴾ أي لا أحد أظلم وقال قتادة وغيره : المراد بهذه الآيات مسيلمة والأسود العنسي ، وذكروا برؤية النبي عليه السلام للسوارين وقال السدي : المراد بها عبد الله بن سعد بن أبي سرح الغامدي وكان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم الوحي وكان أخا عثمان بن عفان من الرضاعة فلما نزلت ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ [ المؤمنون : 14 ] فقال عبد الله بن سعد من تلقاء نفسه ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ [ المؤمنون : 23 ] فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اكتبها فهكذا أنزلت " ، فتوهم عبد الله ولحق بمكة مرتداً وقال أنا أنزل مثل ما أنزل الله ، وروي عنه أيضاً أن النبي عليه السلام ربما أملى عليه " والله غفور رحيم " فبدلها هو " والله سميع عليم " فقال النبي عليه السلام : " ذلك سواء ونحو هذا " ، وقال عكرمة : أولها في مسيلمة والأخر في عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وذكر الزهراوي والمهدوي أن الآية نزلت في النضر بن الحارث

لأنه عارض القرآن بقوله والزارعات زرعاً والخابزات خبزاً إلى غير ذلك من السخافات .

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : فخصص المتأولون في هذه الآيات ذكر قومٍ قد يمكن أن كانوا أسباب نزولها ثم هي إلى يوم القيامة تتناول من تعرض شيئاً من معانيها كطليحة الأسدي والمختار بن أبي عبيد وسواهما وقرأ الجمهور " سأنزل مثل ما أنزل " بتخفيف وقرأ أبو حيوة " سأَنَزّل " بفتح النون وتشديد الزاي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

(120/242)

---

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ ابتداء وخبر ؛ أي لا أحد أظلم .

﴿ مِمَّنِ افترى ﴾ أي اختلق .

﴿ عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ ﴾ فزعم أنه نبيّ ﴿ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ .

نزلت في رحمان اليمامة والأسود العَنْسِيّ وسَجَاح زوج مسيْلِمَة ؛ كلهم تنبأ وزعم أن الله قد أوحى إليه .

قال قتادة : بلغنا أن الله أنزل هذا في مسيْلِمة ؛ وقاله ابن عباس .

قلت : ومن هذا النَّمط من أعرض عن الفقه والسّنَن وما كان عليه السلف من السنن فيقول : وقع في خاطري كذا ، أو أخبرني قلبي بكذا ؛ فيحكمون بما يقع في قلوبهم ويغلب عليهم من خواطرهم ، ويزعمون أن ذلك لصفائها من الأكدار وخلوّها عن الأغيار ، فتتجلّى لهم العلوم الإلهية والحقائق الرّبانية ، فيقفون على أسرار الكليّات ويعلمون أحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات ، ويقولون : هذه الأحكام الشرعية العامة ، إنما يحكم بها على الأغبياء والعامة ، وأما الأولياء وأهل الخصوص ، فلا يحتاجون لتلك النصوص .

وقد جاء فيما ينقلون : استفت قلبك وإن أفتاك الْمُفْتُون ؛ ويستدلّون على هذا بالخَضْر ، وأنه استغنى بما تجلّى له من تلك العلوم ، عما كان عند موسى من تلك الفهوم .

وهذا القول زَنْدَقَةٌ وكفر ، يقتل قائله ولا يستتاب ، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب ؛ فإنه يلزم منه هدّ الأحكام وإثبات أنبياء بعد نبينا صلى الله عليه وسلم .

وسيأتي لهذا المعنى في "الكهف" مزيد بيان إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ اللهُ ﴾ "مَن" في موضع خفض ؛ أي ومن أظلم ممن قال سأنزل ، والمراد عبد الله بن أبي سَرْح الذي كان يكتب الوَحْيَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ارتد ولَحِق بالمشركين .

وسبب ذلك فيما ذكر المفسرون : أنه لما نزلت الآية التي في "المؤمنون" : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [ المؤمنون : 12 ] دعاه النبيّ صلى الله عليه وسلم فأملاها عليه ؛ فلما انتهى إلى قوله "ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ" عَجِب عبد الله في تفصيل خلق الإنسان فقال : "تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ" .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هكذا أنزلت عليّ" فشك عبد الله حينئذ وقال : لئن كان محمد صادقاً لقد أوحِيَ إليّ كما أوحِي إليه ، ولئن كان كاذباً لقد قلتُ كما قال . فارتدّ عن الإسلام ولحِق بالمشركين ؛ فذلك قوله : "وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ" رواه الكلبي عن ابن عباس .

وذكره محمد بن إسحاق قال حدّثني شَرَحْبِيل قال : " نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح "وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ" ارتد عن الإسلام ، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة أمر بقتله وقتل عبد الله بن خَطَل ومِقْيَس بن صُبَابة ولو وُجدوا تحت أستار الكعبة ؛ ففرّ عبد الله بن أبي سرح إلى عثمان رضي الله عنه ، وكان أخاه من الرضاعة ، أرضعت أمُّه عثمانَ ، فغيّبه عثمان حتى أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما اطمأن أهل مكة فاستأمنه له ؛ فصمَت رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلاً ثم قال : "نعم" .

فلما انصرف عثمان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما صَمَتُّ إلا ليقوم إليه بعضُكم فيضربَ عُنُقَه" .

فقال رجل من الأنصار : فهلاّ أوْمَأْتَ إليّ يا رسول الله ؟ فقال : "إن النبي لا ينبغي أن تكون له خائنة الأعين" "

قال أبو عمر : وأسلم عبد الله بن سعد بن أبي سرح أيامَ الفتح فحسُن إسلامه ، ولم يظهر منه ما يُنكر عليه بعد ذلك .

وهو أحد النُّجبَاء العقلاء الكرماء من قريش ، وفارسُ بني عامر بن لُؤيّ المعدودُ فيهم ، ثم ولاّه عثمان بعد ذلك مصر سنة خمس وعشرين .

*(122/242)*

---

وفتح على يديه إفرِيقِيّة سنة سبع وعشرين ، وغزا منها الأساود من أرض النُّوبَة سنة إحدى وثلاثين ، وهو هادنهم الهُدْنة الباقية إلى اليوم .

وغزا الصَّوارِي من أرض الرُّوم سنة أربع وثلاثين ؛ فلما رجع من وِفاداته منعه ابن أبي حُذيفة من دخول الفُسْطَاط ، فمضى إلى عَسْقلان ، فأقام فيها حتى قُتل عثمان رضي الله عنه .

وقيل : بل أقام بالرَّمْلة حتى مات فارًّا من الفتنة .

ودعا ربه فقال : اللَّهُمَّ اجعل خاتمة عملي صلاة الصبح ؛ فتوضأ ثم صلّى فقرأ في الركعة الأولى بأم القرآن والعاديات ، وفي الثانية بأم القرآن وسورة ، ثم سلّم عن يمينه ، ثم ذهب يسلّم عن يساره فقبض الله روحه .

ذكر ذلك كلّه يزيدُ بن أبي حبيب وغيرُه .

ولم يُبايع لعليّ ولا لمعاوية رضي الله عنهما .

وكانت وفاته قبل اجتماع الناس على معاوية .

وقيل : إنه تُوُفِّي بإفريقيّة .

والصحيح أنه تُوُفِّيَ بعَسْقلان سنة ست أو سبع وثلاثين .

وقيل : سنة ست وثلاثين .

وروى حفص بن عمر عن الحَكم بن أَبان عن عكرمة أن هذه الآية نزلت في النّضر بن الحارث ؛ لأنه عارض القرآن فقال : والطاحنات طحناً .

والعاجنات عجناً .

فالخابزات خبزاً .

فاللاقمات لقماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إليّ ولم يوحَ إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ﴾

ذكر الزهراوي والمهدوي أن الآية نزلت في النضر بن الحارث قيل : وفي المستهزئين معه لأنه عارض القرآن بقوله : والزارعات زرعاً والخابزات خبزاً والطابخات طبخاً والطاحنات طحناً واللاقمات لقماً إلى غير ذلك من السخافات ، وقال قتادة وغيره : المراد بها مسيلمة الحنفي والأسود العنسي وذكروا رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم للسوارين ، وقال الزمخشري : وهو مسيلمة الحنفي أو كذاب صنعاء الأسود العنسي .

*(123/242)*

---

وقال السدي : المراد بها عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري أخو عثمان من الرضاعة كتب آية ﴿ قد أفلح ﴾ بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم فلما أمل عليه ﴿ ثم خلقنا النطفة علقة ﴾ عجب من تفصيل خلق الإنسان فقال : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ فقال الرسول : " اكتبها فهكذا أنزلت " فتوهم عبد الله ولحق بمكة مرتداً وقال : أنا أنزل مثل ما أنزل الله ، وقال عكرمة : أولها في مسيلمة وآخرها في ابن أبي سرح وروي عنه أنه كان إذا أملي عليه ﴿ سميعاً عليماً ﴾ كتب هو عليماً حكيماً وإذا قال : عليماً حكيماً

كتب هو غفوراً رحيماً ، وقال شرحبيل بن سعد : نزلت في ابن أبي سرح ومن قال : سأنزل مثل ما أنزل الله ارتد ودخل الرسول صلى الله عليه وسلم مكة عام الفتح فغيبه عثمان وكان أخاه من الرضاعة حتى اطمأن أهل مكة ثم أتى به الرسول فاستأمن له الرسول فأمّنه .

انتهى ، وقد ولاه عثمان بن عفان في أيامه وفتحت على يديه الأمصار ففتح أفريقية سنة إحدى وثلاثين وغزا الأساود من أرض النوبة وهو الذي هادنهم الهدنة الباقية إلى اليوم وغزا الصواري من أرض الروم وكان قد حسن إسلامه ولم يظهر عليه شيء ينكر عليه وهو أحد النجباء العقلاء الكرماء من قريش وفارس بني عامر بن لؤي وأقام بعسقلان ، قيل : أو الرملة فاراً من الفتنة حين قتل عثمان ومات بها سنة ست ، قيل : أو سبع وثلاثين ودعا ربه فقال : اللهم اجعل خاتمة عملي صلاة الصبح ، فقبض آخر الصبح وقد سلم عن يمينه وذهب يسلم عن يساره وذلك قبل أن يجتمع الناس على معاوية .

*(124/242)*

---

ولما ذكر القرآن وأنه كتاب منزل من عنده مبارك أعقبه بوعيد من ادعى النبوة والرسالة على سبيل الافتراء ، وتقدم الكلام على ﴿ ومن أظلم ﴾ وفسروه بأنه استفهام معناه

النفي أي لا أحد أظلم وبدأ أولاً بالعام وهو افتراء الكذب على الله وهو أعم من أن يكون ذلك الافتراء بادعاء وحي أو غيره ثم ثانياً بالخاص وهو افتراء منسوب إلى وحي من الله تعالى ﴿ ولم يوح إليه شيء ﴾ جملة حالية أو غير موحى إليه لأن من قال أوحي إليّ وهو موحى إليه هو صادق ثم ثانياً بأخص مما قبله ، لأن الوحي قد يكون بإنزال قرآن وبغيره وقصة ابن أبي سرح هي دعواه أنه سينزل قرآناً مثل ما أنزل الله وقوله : ﴿ مثل ما أنزل الله ﴾ لبس معتقده أن الله أنزل شيئاً وإنما المعنى ﴿ مثل ما أنزل الله ﴾ على زعمكم وإعادة من تدل على تغاير مدلوله لمدلول من المتقدمة فالذي قال ﴿ سأنزل ﴾ غير من افترى أو قال : أوحى وإن كان ينطلق عليه ما قبله انطلاق العام على الخاص وقوله : ﴿ سأنزل ﴾ وعد كاذب وتسميته إنزالاً مجاز وإنما المعنى سأنظم كلاماً يماثل ما ادعيتم إن الله أنزله ، وقرأ أبو حيوة ما نزل بالتشديد وهذه الآية وإن كان سبب نزولها في مخصوصين فهي شاملة لكل من ادعى مثل دعواهم كطليحة الأسدي والمختار بن أبي عبيد الثقفي وسجاح وغيرهم ، وقد ادعى النبوة عالم كثيرون كان ممن عاصرناه ابراهيم الغازازي الفقير ادعى ذلك بمدينة مالقة وقتله السلطان أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر الخزرجي ملك الأندلس بغرناطة وصلبه ، وبارقطاش بن قسيم النيلي الشاعر تنبأ بمدينة النيل من أرض العراق وله قرآن صنعه ولم يقتل ، لأنه كان يضحك منه ويضعف في عقله . انتهى انتهى . اهـ

﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾ كالذين قالوا ﴿ مَا أَنزَلَ الله على بَشَرٍ مّن شَىْءٍ ﴾ [ الأنعام : 91 ] ﴿ أَوْ قَالَ أُوْحِىَ إِلَىَّ ﴾ من جهته تعالى ﴿ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ ﴾ أي والحال أنه لم يوح إليه ﴿ شَىْءٌ ﴾ كمسيلمة .

والأسود العنسي ﴿ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ الله ﴾ أي أنا قادر على مثل ذلك النظم كالذين قالوا : ﴿ لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هذا ﴾ [ الأنفال : 31 ] وتفسير الأول : بما ذكرناه لم نقف عليه لغيرنا ، وتفسير الثاني : ذهب إليه الزمخشري وغيره وتفسير الثالث : ذهب إليه الزجاج ومن وافقه .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن جريج أن قوله سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً أَوْ قَالَ أُوْحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ ﴾ نزلت في مسيلمة الكذاب والأخير نزل في عبد الله بن سعد بن أبي سرح وجعل بعضهم على هذا عطف ﴿ أَوْ قَالَ ﴾ الأول على ﴿ افترى ﴾ الخ من عطف التفسير .

وتعقب بأنه لا يكون بأو ، واستحسن أنه من عطف المغاير باعتبار العنوان وأو للتنويع يعني أنه تارة ادعى أن الله تعالى بعثه نبياً وأخرى أن الله تعالى أوحى إليه وإن كان يلزم النبوة في نفس الأمر الإيحاء ويلزم الإيحاء النبوة ، ويفهم من صنيع بعضهم أن أو بمعنى الواو ، وأما ابن أبي سرح فلم يدع صريحاً القدرة ولكن قد يقتضيها كلامه على ما يفهم من بعض الروايات ، وفسر بعضهم الثاني بعبد الله ودعواه ذلك على سبيل الترديد ، فقد روي أن عبد الله بن سعد كان قد تكلم بالإسلام فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فكتب له شيئاً فلما نزلت الآية في المؤمنين ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سلالة مّن طِينٍ ﴾ [ المؤمنون : 12 ] أملاها عليه فلما انتهى إلى قوله سبحانه ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة عَلَقَةً ﴾ عجب عبد الله من تفصيل خلق الإنسان فقال : ﴿ تَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين ﴾ [ المؤمنون : 14 ] فقال رسول الله : هكذا أنزلت عليَّ فشك حينئذ وقال : لئن كان محمد صادقاً لقد أوحيَ إليَّ ولئن كان كاذباً لقد قلت كما قال ، وجعل الشق الثاني في معنى دعوى القدرة على المثل فيصح تفسير الثاني والثالث به لا يصح إلا إذا اعتبر عنوان الصلة في الأخير من باب المماشاة مثلاً كما لا يخفى .

واعتبر الإمام عموم افتراء الكذب على الله تعالى وجعل المعطوف عليه نوعاً من الأشياء التي وصفت بكونها افتراء ثم قال : والفرق بين هذا القول وما قبله أن في الأول : كان يدعي

أنه أوحي إليه فيما يكذب به ولم ينكر نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم وفي الثاني : أثبت الوحي لنفسه ونفاه عنه عليه الصلاة والسلام فكان جمعاً بين أمرين عظيمين من الكذب إثبات ما ليس بموجود ونفي ما هو موجود انتهى .

*(127/242)*

---

وفيه عدول عن الظاهر حيث جعل ضمير ﴿ إِلَيْهِ ﴾ راجعاً للنبي صلى الله عليه وسلم والواو في ﴿ وَلَمْ يُوحَ ﴾ للعطف والمتعاطفان مقول القول والمنساق للذهن جعل الضمير لمن والواو للحال وما بعدها من كلامه سبحانه وتعالى ، وربما يقال لو قطع النظر عن سبب النزول : إن المراد بمن افترى على الله كذباً من أشرك بالله تعالى أحداً يحمل افتراء الكذب على أعظم أفراده ، وهو الشك وكثير من الآيات يصدح بهذا المعنى وبمن قال : ﴿ أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾ والحال لم يوح إليه مدعي النبوة كاذباً وبمن قال : ﴿ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ الطاعن في نبوة النبي عليه الصلاة والسلام فكأنه قيل : من أظلم ممن أشرك بالله عز وجل أو ادعى النبوة كاذباً أو طعن في نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد تقدم الكلام على مثل هذه الجملة الاستفهامية فتذكر وتدبر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

لمّا تقضّى إبطال ما زعموه من نفي الإرسال والإنزال والوحي ، النّاشيءُ عن مقالهم الباطل ، إذ قالوا ﴿ ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ [ الأنعام : 91 ] ، وعقّب ذلك بإثبات ما لأجله جحدوا إرسال الرّسل وإنزال الوحي على بشر ، وهو إثبات أنّ هذا الكتاب منزّل من الله ، عُقّب بعد ذلك بإبطال ما اختلقه المشركون من الشّرائع الضّالة في أحوالهم الّتي شرعها لهم عَمْرو بن لُحَيّ من عبادة الأصنام ، وزعمهم أنّهم شفعاءُ لهم عند الله ، وما يستتبع ذلك من البحيرة ، والسّائبة ، وما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح ، وغير ذلك . فهم ينفون الرّسالة تارة في حين أنّهم يزعمون أنّ الله أمرهم بأشياء فكيف بلَغهم ما أمرهم الله به في زعمهم ، وهم قد قالوا : ﴿ ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ [ الأنعام : 91 ] .

فلزمهم أنّهم قد كذَبوا على الله فيما زعموا أنّ الله أمرهم به لأنّهم عطّلوا طريق وصول مراد الله إلى خلقه وهو طريق الرّسالة فجاءوا بأعجب مقالة .

*(128/242)*

---

وذكر من استخفّوا بالقرآن فقال بعضهم : أنا أوحيَ إليّ ، وقال بعضهم : أنا أقول مثلَ قول القرآن ، فيكون المراد بقوله : ﴿ ومن أظلم ممّن افترى على الله كذباً ﴾ تسفيه عقائد أهل

الشّرك والضّلالة منهم على اختلافها واضطرابها .

ويجوز أن يكون المراد مع ذلك تنزيه النّبيء صلى الله عليه وسلم عمّا رموه به من الكذب على الله حين قالوا : ﴿ ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ [ الأنعام : 91 ] لأنّ الّذي يعلم أنّه لا ظلم أعظم من الافتراء على الله وادّعاءِ الوحي باطلاً لا يُقدم على ذلك ، فيكون من ناحية قول هرقل لأبي سفيان "وسألتُك هل كنتم تتّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فذكَرْتَ أنّ لا ، فقد أعرِفُ أنّه لم يكن ليَذَر الكذب على النّاس ويكذب على الله" .

والاستفهام إنكاري فهو في معنى النّفي ، أي لا أحد أظلم من هؤلاء أصحاب هذه الصّلات .

ومساقه هنا مساق التّعريض بأنّهم الكاذبون إبطالاً لتكذيبهم إنزال الكتاب ، وهو تكذيب دلّ عليه مفهوم قوله : ﴿ والّذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ﴾ [ الأنعام : 92 ] لاقتضائه أنّ الّذين لا يؤمنون بالآخرة وهم المشركون يكذّبون به ؛ ومنهم الذّي قال : أوحي إليّ ؛ ومنهم الّذي قال : سأنزل مثل ما أنزل الله ؛ ومنهم من افترى على الله كذباً فيما زعموا أنّ الله أمرهم بخصال جاهليتهم .

ومثل هذا التّعريض قوله تعالى في سورة [ العقود : 60 ] ﴿ قل هل أنبّئكم بشرّ من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه ﴾ الآية عقب قوله : ﴿ يا أيها الّذين آمنُوا لاَ تَتَّخذُوا الَّذين اتَّخذوا دِينكم هُزؤاً ولعباً من الَّذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفّار أولياء

﴾ [المائدة : 57 ] الآية .

وتقدّم القول في ﴿ ومَنْ أظلم ﴾ عند قوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممّن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ﴾

في سورة البقرة : 114 ] .

*(129/242)*

---

وافتراء : الاختلاق ، وتقدّم في قوله تعالى : ﴿ ولكن الّذين كفروا يفترون على الله الكذب ﴾ في سورة [ العقود : 103 ] .

ومَن ﴾ موصولة مراد به الجنس ، أي كلّ من افترى أو قال ، وليس المراد فرداً معيّناً ، فالّذين افتروا على الله كذباً هم المشركون لأنهم حلّلوا وحرّموا بهواهم وزعموا أنّ الله أمرهم بذلك ، وأثبتوا لله شفعاء عنده كذباً .

و﴿ أوْ قال أوحي إليّ ﴾ عطف على صلة ﴿ مَن ﴾ ، أي كلّ من ادّعى النّبوءة كذباً ، ولم يزل الرّسل يحذّرون النّاس من الّذين يدّعون النّبوءة كذباً كما قدّمته .

روي أنّ المقصود بهذا مسيلمة متنبّىء أهل اليمامة ، قاله ابن عبّاس وقتادة وعكرمة .

وهذا يقتضي أن يكون مسيلمة قد ادّعى النّبوءة قبل هجرة النّبيء صلى الله عليه وسلم

إلى المدينة لأنّ السّورة مكّية .

والصّواب أنّ مسيلمة لم يدع النّبوءة إلاّ بعد أن وفد على النّبيء صلى الله عليه وسلم في قومه بني حنيفة بالمدينة سنة تسع طامعاً في أن يجعل له رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمرَ بعده فلمّا رجع خائباً ادّعى النّبوءة في قومه .

وفي "تفسير" ابن عطيّة أنّ المراد بهذه الآية مع مسيلمة الأسودُ العَنْسِي المتنبّىء بصنعاء .

وهذا لم يقله غير ابن عطيّة .

وإنّما ذكرَ الطّبري الأسود تنظيراً مع مسيلمة فإنّ الأسود العنْسي ما ادّعى النّبوءة إلاّ في آخر حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم والوجه أنّ المقصود العموم ولا يضرّه انحصار ذلك في فرد أو فردين في وقت مَّا وانطباق الآية عليه .

*(130/242)*

---

وأمّا ﴿ من قال سأنزل مثل ما أنزل الله ﴾ ، فقال الواحدي في "أسباب النّزول" ، عن ابن عبّاس وعكرمة : أنّها نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري وكان قد أسلم بمكّة ، وكان يكتب الوحي للنّبيء صلى الله عليه وسلم ثمّ ارتدّ وقال : أنا أقول مثل ما أنزل الله ، استهزاء ، وهذا أيضاً لا ينثلج له الصّدر لأنّ عبد الله بن أبي سرح ارتدّ بعد الهجرة ولحق

بمكّة وهذه السّورة مكّية .

وذكر القرطبي عن عكرمة ، وابنُ عطيّة عن الزّهراوي والمهدوي أنّها : نزلت في النضر بن الحارث كان يقول : أنا أعارض القرآن .

وحفظوا له أقوالاً ، وذلك على سبيل الاستهزاء .

وقد رووا أنّ أحداً من المشركين قال : إنّما هو قول شاعر وإنّي سأنزل مثله ؛ وكان هذا قد تكرّر من المشركين كما أشار إليه القرآن ، فالوجه أنّ المراد بالموصول العموم ليشمل كلّ من صدر منه هذا القول ومن يتابعهم عليه في المستقبل .

وقولهم : ﴿ مثلَ ما أنزل الله إمّا أن يكونوا قالوا هذه العبارة سخرية كما قالوا : يا أيها الّذي نُزّلَ عليه الذّكْر إنّك لمجنون ﴾ [ الحجر : 6 ] ، وإمّا أن يكون حكاية من الله تعالى بالمعنى ، أي قال سأنزل مثل هذا الكلام ، فعبَّر الله عنه بقوله : ﴿ ما أنزل الله ﴾ كقوله: ﴿ وقولِهم إنَّا قتلْنا المسيحَ عيسى ابن مريم رسولَ الله ﴾ [ النساء : 157 ] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظالمون فِى غَمَرَاتِ الموت ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن أول الآية وهو قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾ يفيد التخويف

العظيم على سبيل الإجمال وقوله بعد ذلك : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظالمون فِى غَمَرَاتِ الموت ﴾ كالتفصيل لذلك المجمل ، والمراد بالظالمين الذين ذكرهم ، وغمرات الموت جمع غمرة وهي شدة الموت ، وغمرة كل شيء كثرته ومعظمه ، ومنه غمرة الماء ، وغمرة الحرب ، ويقال غمره الشيء إذا علاه وغطاه .

*(131/242)*

---

وقال الزجاج : يقال لكل من كان في شيء كثير قد غمره ذلك .

وغمره الدين إذا كثر عليه هذا هو الأصل ، ثم يقال للشدائد والمكاره : الغمرات ، وجواب "لو" محذوف ، أي لرأيت أمراً عظيماً ، والملائكة باسطو أيديهم قال ابن عباس : ملائكة العذاب باسطو أيديهم يضربونهم ويعذبونهم ، كما يقال بسط إليه يده بالمكروه أخرجوا أنفسكم .

ههنا محذوف ، والتقدير : يقولون أخرجوا أنفسكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 69.70 ﴾

فائدة

قال الفخر :

في الآية سؤال : وهو أنه لا قدرة لهم على إخراج أرواحهم من أجسادهم فما الفائدة في هذا الكلام ؟

فنقول : في تفسير هذه الكلمة وجوه :

الوجه الأول : ولو ترى الظالمين إذا صاروا إلى غمرات الموت في الآخرة فأدخلوا جهنم فغمرات الموت عبارة عما يصيبهم هناك من أنواع الشدائد والتعذيبات ، والملائكة باسطو أيديهم عليهم بالعذاب يبكتونهم ، ويقولون لهم أخرجوا أنفسكم من هذا العذاب الشديد إن قدرتم .

الوجه الثاني : أن يكون المعنى : ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت عند نزول الموت بهم في الدنيا والملائكة باسطو أيديهم لقبض أرواحهم يقولون لهم أخرجوا أنفسكم من هذه الشدائد وخلصوها من هذه الآفات والآلام .

والوجه الثالث : أن قوله : ﴿ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ ﴾ أي أخرجوها إلينا من أجسادكم وهذه عبارة عن العنف والتشديد في إزهاق الروح من غير تنفيس وإمهال وأنهم يفعلون بهم فعل الغريم الملازم الملح يبسط يده إلى من عليه الحق ويعنف عليه في المطالبة ولا يمهله ، ويقول له : أخرج إلي ما لي عليك الساعة ولا أبرح من مكاني حتى أنزعه من أحداقك .

والوجه الرابع : أن هذه اللفظة كناية عن شدة حالهم وأنهم بلغوا في البلاء والشدة إلى حيث تولى بنفسه إزهاق روحه .

والوجه الخامس : أن قوله : ﴿ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ ﴾ ليس بأمر ، بل هو وعيد وتقريع ، كقول القائل : امض الآن لترى ما يحل بك .

قال المفسرون : إن نفس المؤمن تنشط في الخروج للقاء ربه ونفس الكافر تكره ذلك فيشق عليها الخروج ، لأنها تصير إلى أشد العذاب ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أراد لقاء الله أراد الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه " وذلك عند نزع الروح ، فهؤلاء الكفار تكرههم الملائكة على نزع الروح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 70 ﴾

(132/242)

---

وقال ابن عطية :

قوله عز وجل : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون ﴾ الآية ، جواب ﴿ لو ﴾ محذوف تقديره لرأيت عجباً أو هولاً ونحو هذا وحذف هذا الجواب أبلغ من نصه لأن السامع إذا لم ينص له الجواب يترك مع غاية تخيله و ﴿ الظالمون ﴾ لفظ عام لمن واقع ما تقدم ذكره وغير ذلك من أنواع الظلم الذي هو كفر و " الغمرات " جمع غمرة وهي المصيبة المبهمة المذهلة ، وهي مشبهة بغمرة الماء ، ومنه قول الشاعر [ بشر بن أبي خازم ] : [ الوافر ]

وَلاَ يُنْجِي مِنَ الغَمَرَاتِ إلاّ . . . بَرَاكَاءُ القِتَالِ أوِ الْفِرَارُ

﴿ والملائكة ﴾ ملائكة قبض الروح ، و﴿ باسطو أيديهم ﴾ كناية عن مدها بالمكروه كما قال تعالى حكاية عن ابني آدم : ﴿ لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ﴾ [ المائدة : 28 ] . وهذا المكروه هو لا محالة أوائل عذاب وأماراته ، قال ابن عباس : يضربون وجوههم وأدبارهم ، وأما البسط لمجرد قبض النفس فإنه يشترك فيه الصالحون والكفرة ، وقيل إن المراد بسط الأيدي في جهنم ، والغمرات كذلك لكنهم لا يقضى عليهم فيموتوا ، وقوله ﴿ أخرجوا أنفسكم ﴾ حكاية لما تقولة الملائكة ، والتقدير يقولون أخرجوا أنفسكم ، ويحتمل قول الملائكة ذلك أن يريدوا فأخرجوا أنفسكم من هذه المصائب والمحن وخلصوها إن كان ما زعمتموه حقاً في الدنيا ، وفي ذلك توبيخ وتوقيف على سالف فعلهم القبيح ، قال الحسن : هذا التوبيخ على هذا الوجه هو في جهنم ، ويحتمل أن يكون ذلك على معنى الزجر والإهانة كما يقول الرجل لمن يقهره بنفسه على أمر ما أفعل كذا ، لذلك الأمر الذي هو يتناوله بنفسه منه على جهة الإهانة وإدخال الرعب عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ الظالمون فِي غَمَرَاتِ الموت ﴾ أي شدائده وسكراته .

والغَمْرة الشدّة ؛ وأصلها الشيء الذي يغمُر الأشياء فيُغطّيها .

ومنه غَمَرَه الماء .

ثم وُضعت في معنى الشدائد والمكاره .

ومنه غَمَرات الحرب .

(133/242)

---

قال الجوهري : والغَمْرة الشدة ، والجمع غُمَر مثل نَوبة ونُوَب .

قال القُطَامِيّ يصف سفينة نوح عليه السلام :

وحَانَ لِتَالِكَ الغُمَرِ انْحِسَارُ . . .

وغَمَراتُ الموت شدائده .

﴿ والملائكة باسطوا أَيْدِيهِمْ ﴾ ابتداء وخبر .

والأصل باسطون .

قيل : بالعذاب ومَطارق الحديد ؛ عن الحسن والضحاك .

وقيل : لقبض أرواحهم ؛ وفي التنزيل : ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ يَتَوَفَّى الذين كَفَرُواْ الملائكة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ [ الأنفال : 50 ] فجمعت هذه الآية القولين .

يقال : بسط إليه يده بالمكروه .

﴿ أخرجوا أَنْفُسَكُمُ ﴾ أي خلصوها من العذاب إن أمكنكم ، وهو توبيخ .

وقيل : أخرجوها كرهاً ؛ لأن روح المؤمن تَنْشَط للخروج للقاء ربه ، وروح الكافر تُنْتَزع انتزاعا شديداً ، ويقال : أيتها النفس الخبيثة اخرجي ساخطة مسخوطاً عليك إلى عذاب الله وَهَوانه ؛ كذا جاء في حديث أبي هريرة وغيره .

وقد أتينا عليه في كتاب "التذكرة" والحمد لله .

وقيل : هو بمنزلة قول القائل لمن يعذبه : لأذيقنّك العذاب ولأخرجنّ نفسك ؛ وذلك لأنهم لا يخرجون أنفسهم بل يقبضها مَلَك الموت وأعوانه .

وقيل : يقال هذا للكفار وهم في النار .

والجواب محذوف لعظم الأمر ؛ أي ولو رأيت الظالمين في هذه الحال لرأيت عذاباً عظيماً .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت ﴾ الظالمون عام اندرج فيه اليهود والمتنبئة وغيرهم .

وقيل : أل للعهد أي من اليهود ومن تنبأ وهم الذين تقدم ذكرهم .

﴿ والملائكة باسطو أيديهم ﴾ قال ابن عباس : بالضرب أي ملائكة قبض الروح يضربون وجوههم وأدبارهم عند قبضه وقاله الفراء وليس المراد مجرد بسط اليد لاشتراك المؤمنين

والكافرين في ذلك وهذا أوائل العذاب وأمارته ، وقال ابن عباس أيضاً يوم القيامة ، وقال الحسن والضحاك : بالعذاب ، وقال الحسن أيضاً : هذا يكون في النار .

(134/242)

---

﴿ أخرجوا أنفسكم ﴾ قال الزمخشري : يبسطون إليهم أيديهم يقولون : هاتوا أرواحكم أخرجوها إلينا من أجسادكم وهذه عبارة عن العنف في السياق والإلحاح الشديد في الإزهاق من غير تنفيس وإمهال وأنهم يفعلون بهم فعل الغريم المسلط ببسط يده إلى من عليه الحق ويعنف عليه في المطالبة ولا يمهله ويقول له أخرج إليّ ما لي عليك الساعة وإلا أديم مكاني حتى أنزعه من أصدقائك ومن قال : إن بسط الأيدي هو في النار فالمعنى أخرجوا أنفسكم من هذه المصائب والمحن وخلصوها إن كان ما زعمتموه حقاً في الدنيا وفي ذلك توقيف وتوبيخ على سالف فعلهم القبيح ، وقيل هو أمر على سبيل الإهانة والإرعاب وإنهم بمنزلة من تولى إزهاق نفسه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(135/242)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَوْ تَرَى ﴾ أي تبصر ، ومفعوله محذوف لدلالة الظرف في قوله تعالى ﴿ إِذِ الظالمون ﴾ عليه ثم لما حذف أقيم الظرف مقامه والأصل لو ترى الظالمين إذ هم ، و ﴿ إِذْ ﴾ ظرف لترى و ﴿ الظالمون ﴾ مبتدأ ، وقوله تعالى ﴿ فِى غَمَرَاتِ الموت ﴾ خبره و( إذ ) ظرف لترى ، وتقييد الرؤية بهذا الوقت ليفيد أنه ليس المراد مجرد رؤيتهم بل رؤيتهم على حال فظيعة عند كل ناظر ، وقيل : المفعول ﴿ إِذْ ﴾ والمقصود تهويل هذا الوقت لفظاعة ما فيه ، وجواب الشرط محذوف أي لرأيت أمراً فظيعاً هائلاً ، والمراد بالظالمين ما يشمل الأنواع الثلاثة من الإفتراء والقولين الأخيرين ، والغمرة كما قال الشهاب في الأصل : المرة من غمر الماء ثم استعير للشدة وشاع فيها حتى صار كالحقيقة .

ومنه قول المتنبي

: وتسعدني في غمرة بعد غمرة . . .

سبوح لها منها عليها شواهد

والمراد هنا سكرات الموت كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

﴿ والملائكة ﴾ الذين يقبضون أرواحهم وهم أعوان ملك الموت ﴿ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي بالعذاب ، وأخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنهم يضربون وجوههم وأدبارهم قائلين لهم ﴿ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ ﴾ أي خلصوها مما أنتم فيه من العذاب ، والأمر للتوبيخ والتعجيز ، وذهب بعضهم أن هذا تمثيل لفعل الملائكة في قبض أرواح الظلمة بفعل الغريم الملح يبسط يده إلى من عليه الحق ويعنف عليه في المطالبة ولا يمهله ويقول له : أخرج ما لي عليك الساعة ولا أريم مكاني حتى أنزعه من أحداقك ، وفي "الكشف" إنه كناية عن العنف في السياق والإلحاح والتشديد في الإزهاق من غير تنفيس وإمهال ولا بسط ولا قول حقيقة هناك ، واستظهر ابن المنير أنهم يفعلون معهم هذه الأمور حقيقة على الصور المحكية ، وإذا أمكن البقاء على الحقيقة فلا معدل عنها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

عُطِفت جملة : ﴿ ولو ترى إذ الظّالمون في غمرات الموت ﴾ على جملة : ﴿ ومن أظلم ممّن افترى على الله كذباً ﴾ لأنّ هذه وعيد بعقاب لأولئك الظّالمين المفترين على الله والقائلين "أوحي إلينا" والقائلين ﴿ سأنزل مثل ما أنزل الله ﴾ .

ف ﴿ الظّالمون ﴾ في قوله : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت ﴾ يشمل أولئك

ويشمل جميع الظّالمين المشركين ، ولذلك فالتّعريف في ﴿ الظّالمون ﴾ تعريفُ الجنس المفيد للاستغراق .

والخطاب في ﴿ تَرى ﴾ للرّسول صلى الله عليه وسلم أو كلّ من تتأَتَّى منه الرّؤية فلا يختصّ به مخاطب .

ثمّ الرّؤية المفروضة يجوز أن يُراد بها رؤية البصر إذا كان الحال المحكي من أحوال يوم القيامة ، وأن تكون عِلميّة إذا كانت الحالة المحكيّة من أحوال النّزع وقبض أرواحهم عند الموت .

ومفعول ﴿ ترى ﴾ محذوف دلّ عليه الظّرف المضاف .

(137/242)

---

والتّقدير : ولو ترى الظّالمين إذ هم في غمرات الموت ، أي وقْتهم في غمرات الموت ، ويجوز جعل ( إذْ ) اسماً مجرّداً عن الظرفيّة فيكون هو المفعول كما في قوله تعالى : ﴿ واذكروا إذْ كنتم قليلاً ﴾ [ الأعراف : 86 ] فيكون التّقدير ، ولو ترى زمَنَ الظّالمون في غمرات الموت .

ويتعيّن على هذا الاعتبار جعل الرّؤية عِلميّة لأنّ الزّمن لا يُرى .

والمقصود من هذا الشّرط تهويل هذا الحال ، ولذلك حذف جواب ( لو ) كما هو الشّأن في

مقام التّهويل .

ونظائرُه كثيرة في القرآن .

والتّقدير : لرأيت أمراً عظيماً .

والغمرة بفتح الغين ما يغمُر ، أي يَغُمّ من الماء فلا يترك للمغمور مخلصاً .

وشاعت استعارتها للشدّة تشبيهاً بالشدّة الحاصلة للغريق حين يغمره الوادي أو السّيل حتّى صارت الغمرة حقيقة عرفيّة في الشدّة الشّديدة .

وجَمْع الغمرات يجوز أن يكون لتعدّد الغمرات بعدد الظّالمين فتكون صيغة الجمع مستعملة في حقيقتها .

ويجوز أن يكون لقصد المبالغة في تهويل ما يصيبهم بأنّه أصناف من الشّدائد هي لتعدّد أشكالها وأحوالها لا يعبّر عنها باسم مفرد .

فيجوز أن يكون هذا وعيداً بعذاب يلقونه في الدّنيا في وقت النّزع .

ولمّا كان للموت سكرات جعلت غمرةُ الموت غمَرات .

و( في ) للظرفيّة المجازيّة للدّلالة على شدّة ملابسة الغمرات لهم حتّى كأنّها ظرف يحويهم ويحيط بهم .

فالموت على هذا الوجه مستعمل في معناه الحقيقي وغمراتُه هي آلام النّزع .

وتكون جملة : ﴿ أخرجوا أنفسكم ﴾ حكاية قول الملائكة لهم عند قبض أرواحهم .

فيكون إطلاقُ الغمرات مجازاً مفرداً ويكون الموت حقيقة .

ومعنى بسط اليد تمثيلاً للشدّة في انتزاع أرواحهم ولا بسط ولا أيديَ .

(138/242)

---

والأنفس بمعنى الأرْواح ، أي أخرجوا أرْواحكم من أجسادكم ، أي هاتوا أرواحكم ، والأمر للإهانة والإرْهاق إغلاظاً في قبض أرواحهم ولا يتركون لهم راحة ولا يعاملونهم بلين ، وفيه إشارة إلى أنّهم يجْزعون فلا يلفظون أرواحهم وهو على هذا الوجه وعيد بالآلام عند النّزع جزاءاً في الدّنيا على شركهم ، وقد كان المشركون في شكّ من البعث فتُوعِّدُوا بما لا شكّ فيه ، وهو حال قبض الأرواح بأنّ الله يسلّط عليهم ملائكة تقبض أرواحهم بشدّة وعنف وتذيقهم عذاباً في ذلك .

وذلك الوعيد يقع في نفوسهم موقعاً عظيماً لأنّهم كانوا يخافون شدائد النّزع وهو كقوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ يتوفّى الَّذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ [ الأنفال : 50 ] الآية ، وقول ﴿ أخرجوا أنفسكم ﴾ على هذا صادر من الملائكة .

ويجوز أن يكون هذا وعيداً بما يلاقيه المشركون من شدائد العذاب يوم القيامة لمناسبة قوله بعد ﴿ ولقد جئتمونا فُرادى ﴾ [ الأنعام : 94 ] ؛ فغمرات الموت تمثيل لحالهم يوم الحشر

في منازعة الشّدائد وأهوال القيامة بحال منهم في غمرات الموت وشدائد النّزع فالموت تمثيل وليس بحقيقة .

والمقصود من التّمثيل تقريب الحالة وإلاّ فإنّ أهوالهم يومئذٍ أشدّ من غمرات الموت ولكن لا يوجد في المتعارف ما هو أقصى من هذا التّمثيل دلالة على هول الألم .

وهذا كما يقال : وجدت ألَم الموت ، وقول أبي قتادة في وقعة حُنَين : "فَضمَّنِي ضَمَّة وَجَدْتُ منها ريحَ الموت" ، وقول الحارث بن هشام المخزومي :

وشَمِمْتُ رِيحَ المَوْت من تِلْقائِهم

في مَأزِقٍ والخيل لَمْ تَتَبَدّدِ . . .

وجملة : ﴿ والملائكةُ باسطوا أيديهم ﴾ حال ، أي والملائكة مَادّونَ أيديهم إلى المشركين ليقبضوا عليهم ويدفعوهم إلى الحساب على الوجه الثّاني ، أو ليقبضوا أرواحهم على الوجه الأوّل ، فيكون بسط الأيدي حقيقة بأن تتشكّل الملائكة لهم في أشكال في صورة الآدميين .

ويجوز أن يكون بسط الأيدي كناية عن المَسّ والإيلام ، كقوله : ﴿ لئن بسطتَ إليّ يدَك لتقتلني ﴾ [ المائدة : 28 ] .

وجملة : ﴿ أخرجوا أنفسكم ﴾ مقول لقولٍ محذوف .

وحذف القول في مثله شائع ، والقول على هذا من جانب الله تعالى .

والتّقدير : نقول لهم : أخرجوا أنفسكم والأنفس بمعنى الذوات .

والأمر للتعجيز ، أي أخرجوا أنفسكم من هذا العذاب إن استطعتم ، والإخراج مجاز في الإنقاذ والإنجاء لأنّ هذا الحال قبلَ دخولهم النّار .

ويجوز إبْقاء الإخراج على حقيقته إن كان هذا الحال واقعاً في حين دخولهم النّار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

الذين قالوا إن النفس الإنسانية شيء غير هذا الهيكل وغير هذا الجسد احتجوا عليه بهذه الآية ، وقالوا : لا شك أن قوله : ﴿ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ ﴾ معناه : أخرجوا أنفسكم عن أجسادكم ، وهذا يدل على أن النفس مغايرة للأجساد إلا أنا لو حملنا الآية على الوجهين الأولين من التأويلات الخمسة المذكورة ، لم يتم هذا الاستدلال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 70 ﴾

قوله تعالى ﴿ اليوم تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهون ﴾

فصل

قال الفخر :

قال الزجاج : عذاب الهون أي العذاب الذي يقع به الهوان الشديد .

قال تعالى : ﴿ أَيُمْسِكُهُ على هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِى التراب ﴾ [ النحل : 59 ] والمراد منه أنه تعالى جمع هناك بين الإيلام وبين الإهانة ، فإن الثواب شرطه أن يكون منفعة مقرونة بالتعظيم ، فكذلك العقاب شرطه أن يكون مضرة مقرونة بالإهانة .

قال بعضهم : الهون هو الهوان ، والهون هو الرفق والدعة .

قال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً ﴾ [ الفرقان : 63 ] وقوله : ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى الله غَيْرَ الحق وَكُنتُمْ عَنْ ءاياته تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [ الأنعام : 93 ] وذلك يدل أن هذا العذاب الشديد إنما حصل بسبب مجموع الأمرين الافتراء على الله ، والتكبر على آيات الله .

وأقول : هذان النوعان من الآفات والبلاء ترى أكثر المتوسمين بالعلم متوغلين فيه مواظبين عليه نعوذ بالله منه ومن آثاره ونتائجه .

وذكر الواحدي : أن المراد بقوله : ﴿ وَكُنتُمْ عَنْ ءاياته تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي لا تصلون له قال

عليه السلام : " من سجد لله سجدة بنية صادقة فقد برىء من الكبر " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 70 . 71 ﴾

*(140/242)*

---

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ اليوم تجزون عذاب الهون ﴾ الآية ، هذه حكاية عن قول الملائكة للكفرة عند قبض أرواحهم ، و ﴿ الهون ﴾ الهوان ومنه قول ذي الصبع : [ البسيط ]

إِلَيْكَ عني فما ألمى براعية . . . تَرْعَى المخَاضَ ولا أفضى على الهُونِ

وقرأ عبد الله بن مسعود وعكرمة " عذاب الهوان " بالألف .

وقوله تعالى ﴿ تقولون على الله غير الحق ﴾ لفظ جامع لكل نوع من الكفر ولكنه يظهر منه ومن قوله ﴿ وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ الإنحاء على من قرب ذكره من هؤلاء الذين ادعوا الوحي وأن ينزلوا مثل ما أنزل الله ، فإنها أفعال بين فيها " قول غير الحق على الله " وبين فيها الاستكبار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ اليوم تجزون عذاب الهون ﴾ أي الهوان ، وقرأ عبد الله وعكرمة ﴿ عذاب الهون ﴾

بالألف وفتح الهاء و﴿ اليوم ﴾ من قال : إن هذا في الدنيا كان عبارة عن وقت الإماتة والعذاب ما عذبوا به من شدة النزع أو الوقت الممتد المتطاول الذي يلحقهم فيه العذاب في البرزخ ، ومن قال : إن هذا في القيامة كان عبارة عن يوم القيامة أو عن وقت خطابهم في النار ، وأضاف العذاب إلى الهون لتمكنه فيه لأن التنكيل قد يكون على سبيل الزجر والتأديب ، ولا هوان فيه وقد يكون على سبيل الهوان .

﴿ بما كنتم تقولون على الله غير الحق ﴾ القول على الله غير الحق يشمل كل نوع من الكفر ويدخل فيه دخولاً أولوياً من تقدم ذكره من المفترين على الله الكذب .

﴿ وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ أي عن الأيمان بآياته وجواب لو محذوف تقديره لرأيت أمراً عظيماً ولرأيت عجباً وحذفه أبلغ من ذكره وترى بمعنى رأيت لعمله في الظرف الماضي وهو إذ ﴿ والملائكة باسطو ﴾ جملة حالية و﴿ أخرجوا ﴾ معمول لحال محذوفة أي قائلين أخرجوا وما في بما مصدرية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

*(141/242)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ اليوم ﴾ المراد به مطلق الزمان لا المتعارف ، وهو إما حين الموت أو ما يشمله وما بعده

﴿ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهون ﴾ أي المشتمل على الهوان والشدة والإضافة كما في رجل سوء تفيد أنه متمكن في ذلك لأن الإختصاص الذي تفيده الإضافة أقوى من اختصاص التوصيف ، وجوز أن تكون الإضافة على ظاهرها لأن العذاب قد يكون للتأديب لا للهوان والخزي .

ومن الناس من فسر غمرات الموت بشدائد العذاب في النار فإنها وإن كانت أشد من سكرات الموت في الحقيقة إلا أنها استعملت فيها تقريباً للإفهام ، وبسط الملائكة أيديهم بضربهم للظالمين في النار بمقامع من حديد والإخراج بالإخراج من النار وعذابها واليوم باليوم المعلوم .

﴿ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ ﴾ مفترين ﴿ عَلَى اللهِ غَيْرَ الحق ﴾ من نفي إنزاله على بشر شيئاً وادعاء الوحي أو من نسبة الشرك إليه ودعوى النبوة كذباً ونفيها عمن اتصف بها حقيقة أو نحو ذلك .

وفي التعبير ﴿ بِغَيْرِ الحق ﴾ عن الباطل ما لا يخفى وهو مفعول ﴿ تَقُولُونَ ﴾ ، وجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف أي قولاً غير الحق ﴿ وَكُنتُمْ عَنْ ءاياته تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي تعرضون فلا تتأملون فيها ولا تؤمنون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

والتّعريف في ﴿ اليوم ﴾ للعهد وهو يوم القيامة الّذي فيه هذا القول ، وإطلاق اليوم عليه

مشهور ، فإنْ حُمل الغمرات على النّزع عند الموت فاليوم مستعمل في الوقت ، أي وقت قبض أرواحهم .

*(142/242)*

---

وجملة : ﴿ اليوم تجزون ﴾ إلخ استئنافُ وعيد ، فُصلت للاستقلال والاهتمام ، وهي من قول الملائكة .

و ﴿ تُجْزَوْن ﴾ تعْطَوْن جزاء ، والجزاء هو عِوض العمل وما يقابَل به من أجر أو عقوبة .

قال تعالى : ﴿ جَزاء وفاقاً ﴾ [ النبأ : 26 ] ، وفي المثل : المرء مَجْزِيّ بما صَنَع إنْ خيراً فخير وإنْ شرّاً فشرّ .

يقال : جزَاه يجزيه فهو جاز .

وهو يتعدّى بنفسه إلى الشّيء المعطَى جزاء ، ويتعدّى بالباء إلى الشّيء المكافَأ عنه ، كما في هذه الآية .

ولذلك كانت الباء في قوله تعالى في سورة [ يونس : 27 ] ﴿ والَّذين كسبوا السيّئات جزاء سيّئة بمثلها ﴾ مُتؤوّلاً على معنى الإضافة البيانيّة .

أي جزاء هو سيّئة ، وأنّ مجرور الباء هو السيّئة المجزى عنها ، كما اختاره ابن جني .

وقال الأخفش : الباء فيه زائدة لقوله تعالى : ﴿ وجزاء سيئة سيّئة مثلها ﴾ [ الشورى : 40 ] .

ويقال : جازى بصيغة المفاعلة .

قال الرّاغب : ولم يجيء في القرآن : جَازى .

والهُون : الهَوَان ، وهو الذّلّ .

وفسّره الزّجاج بالهوان الشّديد ، وتبعه صاحب "الكشاف" ، ولم يقله غيرهما من علماء اللّغة .

وكلام أهل اللّغة يقتضي أنّ الهُون مرادف الهوان ، وقد قرأ ابن مسعود ﴿ اليوم تجزون عذاب الهَوَان ﴾ .

وإضافة العذاب إلى الهون لإفادة ما تقتضيه الإضافة من معنى الاختصاص والمِلك ، أي العذاب المتمكّن في الهُون المُلازم له .

والباء في قوله : ﴿ بما كنتم تقولون ﴾ باء العوض لتعديّة فعل ﴿ تُجزون ﴾ إلى المجزي عنه .

ويجوز جَعل الباء للسببيّة ، أي تجزون عذاب الهون بسبب قولكم ، ويعلم أنّ الجزاء على ذلك ، و( ما ) مصدريّة .

ثمّ إن كان هذا القول صادراً من جانب الله تعالى فذكر اسم الجلالة من الإظهار في مقام

الإضمار لقصد التّهويل .

والأصل بما كنتم تقولون عليّ .

(143/242)

---

وضُمّن ﴿ تقولون ﴾ معنى تَكْذِبون ، فعُلّق به قوله : ﴿ على الله ﴾ ، فعلم أنّ هذا القول كذب على الله كقوله تعالى : ﴿ ولو تَقوّل علينا بعض الأقاويل ﴾ [ الحاقة : 44 ] الآية ، وبذلك يصحّ تنزيل فعل ﴿ تقولون ﴾ منزلة اللازم فلا يقدّر له مفعول لأنّ المراد به أنّهم يكذبون ، ويصحّ جعل غير الحقّ مفعولاً ل ﴿ تقولون ﴾ ، وغير الحقّ هو الباطل ، ولا تكون نسبته إلى الله إلاّ كذباً .

وشمل ﴿ ما كنتم تقولون ﴾ الأقوالَ الثّلاثة المتقدّمة في قوله ﴿ ومن أظلم ممّن افترى على الله كذباً إلى قوله مثلَ ما أنزل الله ﴾ وغيرَها .

و ﴿ غير الحقّ ﴾ حال من ( ما ) الموصولة أو صفة لمفعول مطلق أو هو المفعول به ل ﴿ تقولون ﴾ .

وقوله : ﴿ وكنتم عن آياته ﴾ عطف على ﴿ كنتم تقولون ﴾ ، أي وباستكباركم عن آياته .

والاستكبار : الإعراض في قلّة اكتراث ، فبهذا المعنى يتعدّى إلى الآيات ، أو أريد من الآيات التأمّل فيها فيكون الاستكبار على حقيقته ، أي تستكبرون عن التدبّر في الآيات وترون أنفسكم أعظم من صاحب تلك الآيات .

وجواب ( لو ) محذوف لقصد التّهويل .

والمعنى : لرأيتَ أمراً مُفْظعاً .

وحَذْفُ جواب ( لو ) في مثل هذا المقام شائع في القرآن .

وتقدّم عند قوله تعالى : ﴿ ولو ترى الّذين ظلموا إذ يرون العذاب ﴾ في سورة [ البقرة : 165 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(144/242)

---

ومن فوائد السمرقندى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِبا أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ نزلت في مسيلمة الكذاب زعم أن الله تعالى أوحى إليه وهو قوله ﴿ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ الله ﴾ يعني : عبد الله بن أبي سرح كان كاتب الوحي فكان النبي صلى الله عليه

وسلم إذا أملى عليه ﴿ سَمِيعاً عَلِيماً ﴾ يكتب عليماً حكيماً .

وإذا أملى عليه عليماً حكيماً ، كتب هو سميعاً بصيراً وشكّ وقال : إن كان محمد صلى الله عليه وسلم يوحى إليه فقد أوحي إليّ ، وإن كان ينزل إليه فقد أنزل إليّ مثل ما أنزل إليه فلحق بالمشركين وكفر .

وقال الضحاك : هو مسيلمة الكذاب كان يقول : بعث محمد صلى الله عليه وسلم إلى جسيم الأمور ، وبعثت إلى محقرات الأمور .

ويقال هذا جواب لقولهم : ﴿ وَإِذَا تتلى عَلَيْهِمْ ءاياتنا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هاذآ إِنْ هاذآ إِلاَّ أساطير الأولين ﴾ [ الأنفال : 31 ] .

ثم قال : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظالمون ﴾ يعني : ولو تعلم إذ الكافرون ﴿ فِى غَمَرَاتِ الموت ﴾ أي : في نزعات الموت وسكراته .

فحذف الجواب لأن في الكلام دليلاً عليه .

ومعناه : لو رأيتهم في عذاب شديد .

ثم قال : ﴿ والملئكة بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ ﴾ بالضرب .

ويقولون : ﴿ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ ﴾ يعني : أرواحكم الخبيثة قال الفقيه أبو جعفر .

قال : حدّثنا أبو القاسم أحمد بن حسين .

قال : حدّثنا محمد بن سلمة .

قال : حدّثنا أبو أيوب عن القاسم بن الفضل الحداني عن قتادة عن أسامة بن زهير عن أبي هريرة رضي الله عنه قال .

(145/242)

---

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنَّ المُؤْمِنَ إذا حَضَرَهُ المَوْتُ أَتَتْهُ المَلائِكَةُ بحَرِيرَةٍ فيها مِسْكٌ ، ومِنْ ضَبَايِرِ الرَّيْحَانِ ، وتُسَلُّ رُوحُهُ كَمَا تُسَلُّ الشَّعْرَةُ مِنَ العَجِينِ ، ويقالُ لها : يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ومَرْضِيّاً عَنْكِ إلى رُوحِ الله وكَرَامَتِهِ ، فإذا خَرَجَتْ رُوحُهُ وُضِعَتْ عَلَى ذلك المِسْكِ والرَّيْحَانِ وطُوِيَتْ عَلَيْهِ الحَرِيرَةُ وبُعِثَ بِهَا إلى عِلِّيِّينَ وإنَّ الكافِرَ إذا حُضِرَ أَتَتْهُ المَلائِكَةُ بِمِسْحٍ فِيهِ جَمْرَةٌ ، فَتُنْتَزَعُ رُوحُهُ انْتِزَاعاً شَدِيداً . ويقالُ لَهَا : أَيَّتُها النَّفْسُ الخَبِيثَةُ اخْرُجِي سَاخِطَةً ومَسْخُوطَةً إلى هَوَانِ الله وعَذَابِهِ ، فإذا خَرَجَتْ رُوحُهُ وُضِعَتْ عَلَى تِلْكَ الجَمْرَةِ وإنَّ لَهَا نَشِيجاً ويُطْوَى عَلَيْهَا المِسْحُ ، ويُذْهَبُ بِهَا إلى سِجِّين "

ثم قال الله تعالى : ﴿ اليوم تُجْزَوْنَ ﴾ يعني إذا بعثوا يوم القيامة يقال لهم : اليوم تجزون ﴿ عَذَابَ الهون ﴾ يعني : الهوان أي الشديد ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى الله ﴾ في الدنيا ﴿ غَيْرَ الحق ﴾ بأن معه شريكاً ﴿ وَكُنتُمْ عَنْ ءاياته تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ يعني : عن الإيمان

بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن ، ولم تقرّوا به .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى ﴾ يعني : في الآخرة ﴿ فرادى ﴾ لا ولد لكم ولا مال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

*(146/242)*

---

ومن فوائد الثعلبى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ أي أخطأ قولاً وأجهل فعلاً ﴿ مِمَّنِ افترى ﴾ اختلق ﴿ عَلَى الله كَذِباً ﴾ فزعم إنه بعثه نبياً ﴿ أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ نزلت في مسيلمة الكذاب الحنفي وكان يستمع ويتكهن ويدعي النبوة ويزعم أن اللّه أوحى إليه " وكان قد أرسل إلى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم رجلين ، فقال لهما النبي صلى الله عليه وسلم " أتشهدان أنّ مسيلمة نبي ؟ فقالا : نعم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم " لولا أنّ الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما " .

وقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : " رأيت فيما يرى النائم كأنّ في يدي سوارين من ذهب فكبرا عليَّ وأهماني فأوحى اللّه إليَّ أن أنفخهما فنفختهما فطارا فأوّلتهما الكذابين

اللذين أنا بينهما كذاب اليمامة مسيلمة ، وكذاب صنعاء الأسود العبسي " .

﴿ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللهُ ﴾ " نزلت في عبد اللّه بن سعيد بن أبي سرح القرشي ، وكان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم فكان إذا قال سميعاً عليماً كتب هو عليماً حكيماً ، وإذا قال عليماً حكيماً كتب غفوراً رحيماً ، وأشباه ذلك فلما نزلت ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ الآية [ المؤمنون : 12 ] . أملاها رسول اللّه عجب عبد اللّه من تفصيل خلق الإنسان فقال تبارك اللّه أحسن الخالقين . فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم " أكتبها فهكذا نزلت " فشك عبد اللّه وقال : لئن كان محمد صادقاً لقد أوحي إليّ كما أوحي إليه ولئن كان كاذباً لقد قلت [ كما كتب ] فارتدّ عن المسلمين ولحق بالمشركين ، وقال لهما : عليكم بمحمد لقد كان يملي عليّ فأغيره وأكتب كما أُريد .

*(147/242)*

---

ووشى بعمار وجبير عبد لبني الحضرمي يأخذوهما وعذبوهما حتى أعطياهما الكفر وجذع أذن عمار يومئذ فأخبر عمار النبي صلى الله عليه وسلم بما لقي وبما أعطاهم من الكفر فأبى النبي صلى الله عليه وسلم أن يتولاّه هؤلاء فأنزل اللّه عز وجل فيه " ، وفي خبر : وابن أبي سرح ﴿ مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ ﴾ إلى قوله ﴿ بِالْكُفْرِ ﴾ [ النحل : 106 ]

.

يعني عبد اللّه بن سعيد بن أبي سرح ثم رجع إلى الإسلام قبل فتح مكة إذ نزل النبي صلى الله عليه وسلم [ بمرط هران ] ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ الظالمون ﴾ وهم الذين ذكرهم اللّه ووصفهم قبل ﴿ فِي غَمَرَاتِ الموت ﴾ سكراته وهي جمع غمرة وغمرة كل شيء كثرته ومعظمه وأصل الشيء الذي يغمر الأشياء فيغطيها ومنه غمرة الماء ثم استعملت في معنى الشدائد والمكاره ﴿ والملائكة باسطوا أَيْدِيهِمْ ﴾ بالعذاب والضرب وجوههم وأدبارهم كما يقال بسط يده بالمكروه ﴿ أخرجوا ﴾ أي يقولون أخرجوا ﴿ أَنْفُسَكُمُ ﴾ أرواحكم كرهاً لأنّ نفس المؤمن تنشط للخروج للقاء ربه ، والجواب محذوف يعني ولو تراهم في هذا الحال لرأيت عجباً . ﴿ اليوم تُجْزَوْنَ ﴾ تثابون ﴿ عَذَابَ الهون ﴾ أي الهوان ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى الله غَيْرَ الحق وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ ﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وسلم والقرآن ﴿ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ تتعظمون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

ومن فوائد الماوردى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله عز وجل : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيهِ شَيْءٌ ﴾

فيمن نزل فيه ذلك قولان :

أحدهما : أنه مسيلمة الكذاب ، قاله عكرمة .

والثاني : مسيلمة والعنسي ، قاله قتادة .

(148/242)

---

وقد روى معمر عن الزهري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ كَأَنَّ فِي يَدَيَّ سُوَارَيْنِ مِن ذَهَب ، فَكَبُرَ عليَّ ، فَأُوحِي إِلَيَّ أَنْ أَنْفُخَهُمَا فَنَفَخْتُهُمَا فَطَارَا ، فَأَوَّلْتُ ذَلِكَ كَذَّابَ الْيَمَامَةِ وَكَذَّابَ صَنْعَاءَ الْعَنَسِي

" . ﴿ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : من تقدم ذكره من مدعي الوحي والنبوة .

والثاني : أنه عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، قاله السدي ، قال الفراء : كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم فإذا قال النبي : ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ كتب ﴿ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ و ﴿ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ فيقول له النبي صلى الله عليه وسلم : " هُمَا سَوَاء " حتى أملى عليه ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِن طِينٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ خَلْقاً آخَرَ ﴾ فقال ابن أبي السرح : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ تعجباً من تفصيل خلق الإنسان ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " هَكَذَا نَزَلَتْ " فشك وارتد .

والثالث : ما حكاه الحكم عن عكرمة : أنها نزلت في النضر بن الحارث ، لأنه عارض القرآن ، لأنه قال : والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجناً ، والخابزات خبزاً ، فاللاقمات لقماً .

وفي قوله : ﴿ وَالْمَلاَئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ ﴾ قولان :

أحدهما : باسطوا أيديهم بالعذاب ، قاله الحسن ، والضحاك .

والثاني : باسطو أيديهم لقبض الأرواح من الأجساد ، قاله الفراء .

ويحتمل ثالثاً : باسطوا أيديهم بصحائف الأعمال .

﴿ أَخْرِجُواْ أَنْفُسَكُمُ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : من أجسادكم عند معاينة الموت إرهاقاً لهم وتغليظاً عليهم ، وإن كان إخراجها من فعل غيرهم .

والثاني : أخرجوا أنفسكم من العذاب إن قدرتم ، تقريعاً لهم وتوبيخاً بظلم أنفسهم ، قاله الحسن .

ويحتمل ثالثاً : أن يكون معناه خلصوا أنفسكم بالاحتجاج عنها فيما فعلتم .

*(149/242)*

﴿ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ ﴾ والهون بالضم الهوان ، قاله ذو الأصبع العدواني :

أذهب إليك أمي براعية . . . ترعى المخاض ولا أغضي على الهون

وأما الهَوْن بالفتح فهو الرفق ومنه قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوناً ﴾ يعني برفق وسكينة ، قال الراجز :

هونكما لا يرد الدهر ما فاتا . . . لا تهلكن أسى في أثر من ماتا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد ابن الجوزى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إليَّ ﴾

اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال .

أحدها : أن أولها ، إلى قوله : ﴿ ولم يوحَ إليه شيء ﴾ نزل في مُسيلمة الكذاب .

وقوله تعالى : ﴿ ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ﴾ نزل في عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، كان قد تكلم بالإسلام ، وكان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأحايين ، فإذا أُملي عليه : "عزيز حكيم" كتب : "غفور رحيم" فيقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا وذاك سواء .

فلما نزلت ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ [ المؤمنون : 12 ] أملاها عليه ،

فلما انتهى إلى قوله : ﴿ خلقا آخر ﴾ [ المؤمنون : 14 ] عجب عبد الله بن سعد ، فقال : ﴿ تبارك الله أحسن الخالقين ﴾ [ المؤمنون : 14 ] فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

" كذا أنزلت عليَّ فاكتبها " فشك حينئذ ، وقال : لئن كان محمد صادقاً ، لقد أوحي إليَّ كما أوحي إليه ، ولئن كان كاذباً ، لقد قلت كما قال ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

قال عكرمة : ثم رجع إلى الإسلام قبل فتح مكة .

والقول الثاني : أن جميع الآية في عبد الله بن سعد ، قاله السدي .

والثالث : أنها نزلت في مسيلمة ، والأسود العنْسيّ ، قاله قتادة .

فإن قيل : كيف أفرد قوله : ﴿ أو قال أُوحي إليَّ ﴾ من قوله : ﴿ ومن أظلم ممن افترى ﴾ وذاك مفترٍ أيضا ؟

فعنه جوابان .

*(150/242)*

---

أحدهما : أن الوصفين لرجل واحد ، وصف بأمر بعد أمر ليدل على جرأته .

والثاني : أنه خص بقوله : ﴿ أو قال أُوحي إليَّ ﴾ بعد أن عم بقوله : ﴿ افترى على الله

﴿ لأنه ليس كل مفترٍ على الله يدعي أنه يوحى إليه ، ذكرهما ابن الأنباري .

قوله تعالى : ﴿ سأُنزل مثل ما أنزل الله ﴾ أي : سأقول .

قال ابن عباس : يعنون الشعر ، وهم المستهزؤون .

وقيل : هو قول عبد الله بن سعد بن أبي سرح .

قال الزجاج : وهذا جواب لقولهم : ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون ﴾ فيهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم قوم كانوا مسلمين بمكة ، فأخرجهم الكفار معهم إلى قتال بدر ، فلما أبصروا قلَّة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رجعوا عن الإيمان ، فنزل فيهم هذا ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنهم الذين قالوا : ﴿ ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ قاله أبو سليمان .

والثالث : الموصوفون في هذه الآية ، وهم المفترون والمدَّعون الوحي إليهم ، ومماثلة كلام الله .

قال الزجاج : وجواب "لو" محذوف ؛ والمعنى : لو تراهم في غمرات الموت لرأيت عذاباً عظيماً .

ويقال : لكل من كان في شيء كبير : قد غمر فلاناً ذلك .

قال ابن عباس : غمرات الموت : سكراته .

قال ابن الأنباري : قال اللغويون : سميت غمرات ، لأن أهوالها يغمرن من يقعن به .

قوله تعالى : ﴿ والملائكة باسطو أيديهم ﴾

فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : بالضرب ، قاله ابن عباس .

والثاني : بالعذاب ، قاله الحسن ، والضحاك .

والثالث : باسطوها لقبض الأرواح من الأجساد ، قاله الفراء .

وفي الوقت الذي يكون هذا فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : عند الموت ، قال ابن عباس هذا عند الموت ، الملائكة يضربون وجوههم

وأدبارهم ، وملك الموت يتوفاهم .

والثاني : يوم القيامة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : في النار ، قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿ أخرجوا أنفسكم ﴾ فيه إضمار "يقولون" وفي معناه قولان .

أحدهما : استسلموا لإخراج أنفسكم .

والثاني : أخرجوا أنفسكم من العذاب إن قدرتم .

قوله تعالى : ﴿ تجزَون عذاب الهون ﴾ قال أبو عبيدة : الهون : مضموم ، وهو الهوان ، وإذا فتحوا أوله ، فهو الرِّفق والدَّعة .

قال الزجاج : والمعنى : تجزَون العذاب الذي يقع به الهوان الشديد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد الخازن فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله عز وجل : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾

يعني ومن أعظم خطأ وأجهل فعلاً ممن اختلق على الله كذباً فزعم أن الله بعثه نبياً وهو في زعمه كذاب مبطل ﴿ أو قال أوحي إليّ ولم يوح إليه شيء ﴾ قال قتادة : نزلت هذه الآية في مسيلمة الكذاب بن ثمامة .

وقيل مسيلمة بن حبيب من بني حنيفة وكان صاحب نيرجات وكهانة وسجع ادعى النبوة باليمن وزعم أن الله أوحى إليه وكان قد أرسل إلى النبي صلى الله عليه وسلم رسولين : فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم أتشهدان أن مسيلمة نبي ؟ قالا : نعم .

فقال لهما : النبي صلى الله عليه وسلم لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما ( ق ) .

عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " بينا أنا نائم إذ أوتيت خزائن

الأرض فوضع في يدي سواران من ذهب فكبرا عليّ وأهماني فأوحي إلي أن انفخهما فنفختهما فطارا فأولتهما الكذابين اللذين أنا بينهما صاحب صنعاء وصاحب اليمامة "وفي لفظ الترمذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رأيت في المنام كأن في يدي سوارين فأولتهما كذابين يخرجان من بعدي ، يقال لأحدهما : مسيلمة صاحب اليمامة والعنسي صاحب صنعاء " قوله فأوحى إليّ أن أنفخهما يروى بالخاء المهملة ومعناه الرمي والدفع من نفخت الدابة برجلها إذا دفعت ورمحت ويروى بالخاء المعجمة من النفخ يريد أنه نفخهما فطارا عنه وهو قريب من الأول فأما مسيلمة الكذاب فإنه ادعى النبوة باليمامة من اليمن وتبعه قوم من بني حنيفة وكان صاحب نيرجات فاغترّ قومه بذلك وقتل مسيلمة .

*(152/242)*

---

الكذاب في زمن خلافة أبي بكر الصديق قتله وحشي قاتل حمزة بن عبد المطلب وكان وحشي يقول : قتلت خير الناس يعني حمزة وقتلت شر الناس يعني مسيلمة وأما الأسود العنسي بالنون فهو عبهلة بن كعب وكان يقال له ذو الحمار ادعى النبة باليمن في آخر عهد النبي صلى الله عليه وسلم وقتل والنبي صلى الله عليه وسلم حي لم يمت وذلك قبل موته

بيومين وأخر أصحابه بقتله وقتله فيروز الديلمي فقال النبي صلى الله عليه وسلم فاز فيروز يعني بقتلة الأسود العنسي فمن قال إن هذه الآية يعني قوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إليّ ولم يوح إليه شيء ﴾ انزلت في مسيلمة الكذاب والأسود العنسي يقول : إن هذه الآية مدنية نزلت بالمدينة وهو قول لبعض علماء التفسير تقدم ذكره في أول السورة ومن قال إن هذه الآية مكية وقال : إنها نزلت في شأنهما يقول إنها خبر عن غيب قد ظهر ذلك فيما بعد والله أعلم .

*(153/242)*

---

وقوله تعالى : ﴿ ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ﴾ قال السدي : نزلت في عبد الله بن أبي سرح القرشي وكان قد أسلم وكان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم فكان إذا أملى عليه سمعياً بصيراً كتب عليماً حكيماً وإذا أملى عليه عليماً حكيماً كتب غفوراً رحيماً فلما نزلت ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ أملاها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فعجب عبد الله من تفصيل خلق الإنسان فقال تبارك أحسن الخالقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتبها فهكذا نزلت فشك عبد الله بن أبي سرح وقال : لئن كان محمد صادقاً فقد أوحي إلي مثل ما أوحي إليه فارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين ثم

رجع عبد الله بعد ذلك إلى الإسلام فأسلم قبل فتح مكة والنبي صلى الله عليه وسلم نازل بمر الظهران وقال ابن عباس نزل قوله ومن قال : سأنزل مثل ما أنزل الله في المستهزئين وهو جواب لقولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا قال العلماء وقد دخل في حكم هذه الآية كل من افترى على الله كذباً في ذلك الزمان وبعده لأنه لا يمنع خصوص السبب من عموم الحكم : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت ﴾ يعني ولو ترى يا محمد حال هؤلاء الظالمين إذ أنزل بهم الموت لرأيت أمراً عظيماً وغمراته شدائده وسكراته وغمرة كل شيء معظمة وأصلها الشيء الذي يغمر الأشياء فيغطيها ثم وضعت في موضع الشدائد والمكاره ﴿ والملائكة باسطوا أيديهم ﴾ يعني بالعذاب يضربون وجوههم وأدبارهم وقيل : باسطوا أيديهم لقبض أرواحهم ﴿ أخرجوا أنفسكم ﴾ يعني يقولون لهم أخرجوا أنفسكم .

فإن قلت : إنه لا قدرة لأحد على إخراج روحه من بدنه فما فائدة هذا الكلام .

*(154/242)*

---

قلت : معناه يقولون لهم أخرجوا أنفسكم كرهاً لأن المؤمن يحب لقاء الله بخلاف الكافر وقيل معناه يقولون لهم خلصوا أنفسكم من هذا العذاب أن قدرتم على ذلك فيكون هذا القول توبيخاً لهم لأنهم لا يقدرون على خلاص أنفسهم من العذاب في ذلك الوقت ﴿ اليوم

تجزون عذاب الهون ﴾ يعني الهوان ﴿ بما كنتم تقولون على الله غير الحق ﴾ يعني ذلك العذاب الذي تجزونه بسبب ما كنتم تقولون على الله غير الحق ﴿ وكنتم عن آياتنا تستكبرون ﴾ يعني وبسبب ما كنتم تتعظمون عن الإيمان بالقرآن ولا تصدقونه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

*(155/242)*

---

ومن فوائد ابن كثير فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (93) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (94) ﴾

يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أي : لا أحد أظلم ممن كذب على

الله ، فجعل له شريكا أو ولدا ، أو ادعى أن الله أرسله إلى الناس ولم يكن أرسله ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾

قال عِكْرِمة وقتادة : نزلت في مسيلمة الكذاب [لعنه الله] (1)

*(156/242)*

---

﴿ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ يعني : ومن ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحي مما يفتريه من القول ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا [إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ] (2) ﴾ [الأنفال : 31] ، قال الله : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ﴾ أي : في سكراته وغمراته وكُرُباته ، ﴿ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ ﴾ أي : بالضرب كما قال : ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي [مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ] ﴾ (3) الآية [المائدة : 28] ، وقال : ﴿ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ ﴾ الآية [الممتحنة : 2] .

وقال الضحاك ، وأبو صالح : ﴿ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ ﴾ أي : بالعذاب . وكما قال [تعالى] (4) ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ [الأنفال : 50] ؛ ولهذا قال : ﴿ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ ﴾ أي : بالضرب لهم حتى تخرج أنفسهم

من أجسادهم ؛ ولهذا يقولون لهم : ﴿ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ ﴾ وذلك أن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنّكال ، والأغلال والسلاسل ، والجحيم والحميم ، وغضب الرحمن الرحيم ، فتتفرق روحه في جسده ، وتعصى وتأبى الخروج ، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم ، قائلين لهم : ﴿ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ [وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ] ﴾ (5) أي : اليوم تهانون غاية الإهانة ، كما كنتم تكذبون على الله ، وتستكبرون عن اتباع آياته ، والانقياد لرسله .

*(157/242)*

---

وقد وردت أحاديث [متواترة] (6) في كيفية احتضار المؤمن والكافر ، وهي مقررة عند قوله تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم : 27] .

وقد ذكر ابن مَرْدُوَيه هاهنا حديثا مطولا جدا من طريق غريبة ، عن الضحاك ، عن ابن عباس مرفوعا ، فالله أعلم . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 301 . 302 ﴾

(1) ذكره السيوطي في الدر المنثور (318/3) وقال : إسناده ضعيف .

*(158/242)*

---

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾

أي : اختلق إفكاً ، فجعل له شركاء أو ولداً ، أو أحكاماً في الحل والحرمة ، كعمرو بن لحيّ وأشباهه ، ممن جعل قوله قول الله ﴿ أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ ممن ادعى النبوة كذباً ، وهذا يزيد على الافتراء في دعوى النبوة .

قال البقاعي : هذا تهديد على سبيل الإجمال ، كعادة القرآن الجميل ، يدخل فيه كل من اتصف بشيء من ذلك ، كمسيلمة والأسود العنسيّ وغيرهما ، ثم قال : رأيت في كتاب " غاية المقصود في الرد على النصارى واليهود " لابن يحيى المغربي الذي كان من علمائهم في حدود سنة 560 ثم هداه الله للإسلام فبين فضائحهم : إن الربانيين منهم زعموا أن الله يوحي إلى جميعهم في كل يوم مرات . ثم قال : إن الربانيين أكثرهم عدداً ، يزعمون أن الله يخاطبهم في كل مسألة بالصواب ، وهذه الطائفة أشد اليهود عداوة لغيرهم في الأمم . انتهى

. : ﴿ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ أي : ومن ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحي مما يفتريه من القول ، كالنضر بن الحارث . وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾ [ الأنفال : 31 ] .

(159/242)

---

قال المهايمي : أي : ومن أنكر إعجاز القرآن حتى قال : سأنزل مثل ما أنزل الله ، مع أنه قد عرف إعجازه ، فكأنه ادعى لنفسه قدرة الله ، فكأنه ادعى الإلهية لنفسه ، ولا يجترئ على هذه الوجوه من الظلم من يؤمن بالآخرة . فيعلم ما للظالمين فيها ، المبيَّن بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ﴾ . أي : شدائده وسكراته وكرباته ﴿ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ ﴾ أي : بالضرب والعذاب ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ [ الأنفال : 50 ] .

﴿ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ ﴾ أي : قائلين لهم : أخرجوا إلينا أرواحكم من أجسادكم ، تغليظاً وتوبيخاً وتعنيفاً عليهم . وقد جنح بعضهم إلى أن ما ذكر من مجاز التمثيل . أي : فشبه فعل الملائكة في قبض أرواحهم ، بفعل الغريم الذي يبسط يده إلى من عليه الحق ويعنف في استيفاء حقه من غير إمهال . وفي " الكشف " أنه كناية عن ذلك ، ولا بسط ولا قول

حقيقة . قال الناصر في " الانتصاف " : ولا حاجة إلى ذلك . والظاهر أنهم . يفعلون معهم هذه الأمور حقيقة ، على الصور المحكية . وإذا أمكن البقاء على الحقيقة ، فلا معدل عنها . انتهى .

وقال الحافظ ابن كثير : إن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم والحميم وغضب الرحمن الرحيم ، فتتفرق روحه في جسده ، وتعصى ، وتأبى الخروج ، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم ، قائلين لهم : أخرجوا أنفسكم . انتهى .

أقول : مما يؤيد الحقيقة آية : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى ﴾ المتقدمة ، فإنها صريحة ومراعاة النظائر القرآنية أعظم ما يفيد في باب التأويل .

*(160/242)*

---

قال السيوطي في " الإكليل " : في هذه الآية حال الكافر عند القبض ، وعذاب القبر . واستدل بها محمد بن قيس على أن لملك الموت أعواناً من الملائكة -أخرجه ابن أبي حاتم - .

﴿ الْيَوْمَ ﴾ أي : وقت الإماتة ، أو الوقت الممتد من الإماتة إلى ما لا نهاية له ﴿ تُجْزَوْنَ

عَذَابَ الْهُونِ ﴾ أي : الهوان الشديد ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ كالتحريف ودعوى النبوة الكاذبة . وهو جراءة على الله متضمنة للاستهانة به –قاله المهايمي – ﴿ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ حتى قال بعضكم : سأنزل مثل ما أنزل الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 439. 440 ﴾

*(161/242)*

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾

ساعة يأتي الحق بأسلوب استفهامي فليس الهدف أن يستفهم . إنه – سبحانه – لا يريد ان يأتي الخبر من عنده ، وهو يقدر أن يقول : الذي يفتري ظالم ، لكنه هنا يأتي بالاستفهام الذي يؤكد أنه لا يوجد أظلم من الذي يفتري على الله كذباً ، ويعرض الله القضية على المؤمنين وكأنه يسأل ليعوض كل مؤمن القضية على ذهنه ويستنبط الجواب . إن الذي يفتري على زميله والمثيل له كذباً نُوقِع به العقاب ، فما بالك بمن يفتري على الله ؟ وحين تسمع أنت هذا الكلام : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾ . وتستعرض الأمر فلا تجد أظلم

منه ، وهكذا يستخرج الله الحكم من فَم المقابل .

وكيف يفتري إنسان الكذب على الله ؟ كأن يبلغ الناس ويدَّعي ويقول : أنا نبي وهو ليس كذلك . هنا تكون الفرية على الله ، وإياك ان تظن أنه يكذب على الناس ، لا ، إنه يكذب على الله ؛ لأنه أبلغ أن الله قد بعثه وهو لم يبعثه .

و" الافتراء " : كذب مُتعمَّد مقصود ، وينطبق ذلك على النبوات التي ادعيت ؛ من مثل مسيلمة الكذاب ، سجاح ، طليحة الأسدي ، الأسود العنسي ؛ كل هؤلاء ادعوا النبوة ، ومع ذلك لم يسألهم أحد عن المعجزة الدالة على نُبوّتهم ؛ لأن كل واحد منهم عندما أعلن نبوته جاء بما يُخفّف عن الناس أحكام الدين .

*(162/242)*

---

فواحد قال : أنا أخفف الصلاة ، والزكاة لا داعي لها . لذلك تبعهم كل من أراد أن يتخفف من أوامر الدين ونواهيه ، موهما نفسه بأنه مُتدين ، دون أن يلتزم بالتزامات التدين ، وهذا هو السبب في أن أصحاب النبوات الكاذبة ، والادعاءات الباطلة يجدون لهم أنصاراً من المنافقين ؛ فالواحد من هؤلاء الأتباع قد يكون مثقفاً ثم يصدق نبياً دجالاً ، وتسأل التابع للدجال وتقول له : أسألت مدَّعي النبوة هذا ما معجزتك ؟ – وهذا أول شرط في النُبوَّة –

ولم نجد أحداً سأل هذا السؤال قط ، لماذا ؟

لأن التدّين فطرة في النفس ، ولكن الذي يصعّب التدين هو الالتزامات التي يفرضها التدين ، وعندما يرى التابع الضعيف النفس أن هناك من يُريح من الالتزامات الدينية ، ويفهمه أنه على دين ، ويقلل الالتزامات عليه ، لذلك يتبعه ضعاف النفوس ، وتصبح المسألة فوضى .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى اللهِ كَذِبا أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ ﴾ [ الأنعام : 93 ]

هناك من ادعى وقال : أنا نبي ، وقال : سأنزل مثل هذا القرآن ، فماذا قال هذا المدَّعي وهو " النضر بن الحارث " يقول – في أمة أذنها أذن بلاغية ، تتأثر بموسيقى اللفظ – : " والطاحنات طحنا والعاجنات عجنا والخابزات خبزا " ! ! ولماذا لم يأت بالمسألة من أولها ويقول : " والزارعات زرعا والحارثات حرثا " ثم يقول مَن ادعى أنه أوحي إليه : " والعاجنات عجنا والخابزات خبزا " ، وكان عليه أن يتبعها أيضاً : " والآكلات أكلا والهاضمات هضما " .

*(163/242)*

---

وطبعاً كان هذا الكلام لوناً من هراء فارغ ؛ لأن الحق إنما أنزل كلامه موزونا جاذباً لمعانٍ لها قيمتها في الخبر ، ولذلك نزل القول الحق : ﴿ أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ ، "

وقد جاء واحد هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي وكان أخا لسيدنا عثمان من الرضاعة وكان كاتباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقعد في حضرة النبي . فنزلت الآية : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العلقة مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المضغة عِظَاماً فَكَسَوْنَا العظام لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ ﴾ [ المؤمنون : 12-14 ] .

وانبهر بالأطوار التي خلق فيها الحق الإنسان فقال : ﴿ تبارك الله أحسن الخالقين ﴾ . فقال له رسول الله : اكتبها فقد نزلت . واغْتَرّ الرجل وقال : إن كان محمدٌ صادقاً لقد أوحى إليّ كما أوحي إليه ؛ وإن كاذباً لقد قلت كما قال : فأهدر رسول الله دمه . وقال لصحابته : من رآه فليقتله . وفي عام الفتح جاء به عثمان رضي الله عنه ، وقال : يا رسول الله ، اعف عن عبد الله ، فسكت رسول الله . قال عثمان رضي الله عنه : اعف عنه . فسكت رسول الله . وكررها ثالثا : اعف عنه يا رسول الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم .

وكان لسيدنا عثمان منزلة خاصة عند رسول الله ، وأشار الرسول لسيدنا عثمان بن عفان ، فأخذ الرجل وانصرف ، فلما انصرف قال الرسول لصحابته : ألم أقل لكم من رآه فليقتله ؟ قال سيدنا عباد بن بشر : يا رسول الله لقد جعلتُ إليك بصري – أي وجَّهت

عيني لك – لتشير عليّ بقتله ، فقال رسول الله لعباد بن بشر : " ما ينبغي لرسول أن تكون له خائنة الأعين " وأسلم ابن أبي سرح وحسن إسلامه " .

*(164/242)*

---

ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، ما هي عقوبات هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب ، ويحاولون التغرير بالناس مدّعين أن الله أنزل عليهم وحياً ؟

يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ الظالمون فِي غَمَرَاتِ الموت والملائكة باسطوا أَيْدِيهِمْ أخرجوا أَنْفُسَكُمُ اليوم تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهون بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى الله غَيْرَ الحق وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [ الأنعام : 93 ] .

وساعة تسمع " لو " هذه تعرف أنها شرطية ، وأنت تقول – مثلا – لو جاءني فلان لأكرمته . وحين تقرأ القرآن نجد كثيراً من " لو " ليس لها جواب ، لماذا ؟ لأن الإتيان بالجواب يعني حصر الجواب الذي لا يمكن للفظ أن يحصره فأنت تتركه للسامع مثلما تجد شاباً يلعب دور الفتوة في الحارة ويتعب سكانها ، ثم وقع في أيدي الشرطة وأخذوه ليعاقبوه ، فيقول واحد ممن رأوه من قبل وهو يرهق أهل الحارة : آه لو رأيتم الولد الفتوة وهو في يد الشرطة !

أين جواب الشرط هنا ؟ إنه لا يأتي ؛ لأنه يتسع لأمر عجيب يضيق الأسلوب عن أدائه .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا : ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ الظالمون فِي غَمَرَاتِ الموت ﴾ ولم يقل لي : ماذا ترى ؟ لأنك سترى عجباً لا يؤديه اللفظ . و" الغمرات " هي الشدة التي لا يستطيع الإنسان منها فكاكاً ولا تخلصاً .

ويتابع الحق : ﴿ والملائكة باسطوا أَيْدِيهِمْ أخرجوا أَنْفُسَكُمُ ﴾ فهل هم ملائكة الموت الذين يقبضون الروح ؟ أو الكلام في ملائكة العذاب ؟ إنها تشمل النوعين : ملائكة قبض الروح وملائكة العذاب .

*(165/242)*

---

﴿ والملائكة باسطوا أَيْدِيهِمْ أخرجوا أَنْفُسَكُمُ ﴾ كأن ملائكة قبض الروح تقول لهم : إن كنتم متأبين على الله في كثير من الأحكام لقد تأبيتم على الله إيماناً ، وتأبيتم على الله أحكاماً ، وتأبيتم على الله في تصديق الرسول ، فها هو ذا الحق قد أمرنا أن نقبض أرواحكم ، فهل أنتم قادرون على التمرد على مرادات الحق ؟ إن كنتم كذلك فليظهر كل منكم مهارته في التأبي على قبض روحه ، أو أن الملائكة يبالغون في النكاية بهم كأن نقول لواحد : اخنق نفسك وأخرج روحك بيديك أو : أخرجوا أنفسكم من العذاب الذي يحيق بكم .

" وعذاب الهون " هو العذاب المؤلم وفيه ذلة . وأساليب العذاب في القرآن متعددة ، فيقول

مرة : " من العذاب المهين " أو وأعد لهم " عذاباً مهيناً " أو ولهم " عذاب أليم " فمرة يكون العذاب مؤلماً لكن لا ذلة فيه ، ومرة يكون العذاب مؤلماً وفيه ذلة . وكما أن النعمة فيها تعظيم فالنقمة فيها ذلة . وأضرب هذا المثل – ولله المثل الأعلى ، فالله سبحانه منزّه عن أي تشبيه – : قد نجد حاكماً يعتقل إنساناً ويأمر بأن يجلس المعتقل في قصر فخم وله حديقة ، لكن حين يأتيه الطعام ، يقول له الحارس : خذ اتسمم ، وفي ذلك إهانة كبيرة . ولماذا يذيقهم الحق العذاب المهين ؟ تأتي الإجابة من الله : ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الحق وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ . كأن يقول واحد : أوحي إلي ولم يوح إليه شيء . وهم أيضاً يستكبرون على الآيات التي يؤمن بها العقل الطبيعي ، ويقول الحق : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً ﴾ [ النمل : 14 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(166/242)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ

سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾

أخرج الحاكم في المستدرك عن شرحبيل بن سعد قال : نزلت في عبد الله بن أبي سرح ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحيَ إلي ولم يوح إليه شيء . . . ﴾ الآية . فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فر إلى عثمان أخيه من الرضاعة ، فغيبه عنده حتى اطمأن أهل مكة ، ثم استأمن له .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي خلف الأعمى قال : كان ابن أبي سرح يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم الوحي ، فأتى أهل مكة فقالوا : يا ابن أبي سرح كيف كتبت لابن أبي كبشة القرآن ؟ قال : كنت أكتب كيف شئت ، فأنزل الله ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحيَ إلي ولم يوح إليه شيء ﴾ قال : نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي ، أسلم وكان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ، فكان إذا أملى عليه ( سميعاً عليماً ) كتب ( عليماً حكيماً ) وإذا قال ( عليماً حكيماً ) كتب ( سميعاً عليماً ) فشك وكفر وقال : إن كان محمد يوحى إليه فقد أوحى إليّ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحيَ إلي ولم يوح إليه شيء ﴾ قال : نزلت في مسيلمة الكذاب ونحوه ممن دعا

إلى مثل ما دعا إليه ، ومن قال : ﴿ سأنزل مثل ما أنزل الله ﴾ قال : نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ ومن أظلم . . . ﴾ الآية . قال : ذكر لنا أن هذه الآية نزلت في مسيلمة .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ ومن أظلم . . . ﴾ الآية . قال : ذكر لنا أن هذه الآية نزلت في مسيلمة .

*(167/242)*

---

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن عكرمة في قوله ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحيَ إلي ولم يوح إليه شيء ﴾ قال : نزلت في مسيلمة فيما كان يسجع ويتكهن به ، ومن ﴿ قال : سأنزل مثل ما أنزل الله ﴾ قال : نزلت في عبد الله بن سعد ابن أبي سرح ، كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم فكان فيما يملى ( عزيز حكيم ) فيكتب ( غفور رحيم ) فيغيره ، ثم يقرأ عليه كذا وكذا لما حوّل فيقول : نعم سواء ، فرجع عن الإسلام ولحق بقريش .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال : لما نزلت ﴿ والمرسلات عرفاً فالعاصفات عصفاً

﴾ [ المرسلات : 12 ] قال النضر وهو من بني عبد الدار : والطاحنات طحناً والعاجنات عجنا .

وقولاً كثيراً ، فأنزل الله ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحيَ إلي ولم يوح إليه شيء . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : ما من القرآن شيء إلا قد عمل به من كان قبلكم وسيعمل به من بعدكم ، حتى كنت لأمر بهذه الآية ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ﴾ ولم يعمل هذا أهل هذه القبلة حتى كان المختار بن أبي عبيدة .

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : آيتان يبشر بهما الكافر عند موته ﴿ ولو ترى إذ الظالمون ﴾ إلى قوله ﴿ تستكبرون ﴾ .

*(168/242)*

---

وأخرج ابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس قال " بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم قاعداً ، وتلا هذه الآية ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير

الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ ثم قال : والذي نفس محمد بيده ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة والنار ، ثم قال : إذا كان عند ذلك صف سماطان من الملائكة نظموا ما بين الخافقين كأن وجوههم الشمس فينظر إليهم ما يرى غيرهم ، وإن كنتم ترون أنه ينظر إليكم مع كل ملك منهم أكفان وحنوط ، فإذا كان مؤمناً بشروه بالجنة ، وقالوا : اخرجي أيتها النفس الطيبة إلى رضوان الله وجنته فقد أعد الله لك من الكرامة ما هو خير لك من الدنيا وما فيها ، فما يزالون يبشرونه ويحفون به فهم ألطف وأرأف من الوالدة بولدها ، ويسلون روحه من تحت كل ظفر ومفصل ، ويموت الأول فالأول ، ويبرد كل عضو الأول فالأول ، ويهون عليه وان كنتم ترونه شديداً حتى تبلغ ذقنه ، فلهو أشد كرامة للخروج حينئذ من الولد حين يخرج من الرحم ، فيبتدرها كل ملك منهم أيهم يقبضها ، فيتولى قبضها ملك الموت ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ [ السجدة : 11 ] قال : فيتلقاها باكفان بيض ثم يحتضنها إليه فهو أشد لها لزوماً من المرأة لولدها ، ثم يفوح لها فيهم ريح أطيب من المسك ، يتباشرون بها ويقولون : مرحبا بالريح الطيبة والروح الطب ، اللهم صل عليه روحاً وصل عليه جسداً خرجت منه فيصعدون بها ، ولله خلق في الهواء لا يعلم عدتهم إلا هو ، فيفوح لها فيهم ريح أطيب من المسك ، فيصلون عليها ويتباشرون بها ويفتح لها أبواب

السماء ، ويصلي عليها كل ملك من كل سماء تمر به حتى توقف بين يدي الملك الجبار ، فيقول الجبار عز وجل : مرحباً بالنفس الطيبة وبجسد خرجت منه ، وإذا قال الرب

(169/242)

---

عز وجل للشيء : مرحبا . رحب له كل شيء وذهب عنه كل ضيق ، ثم يقول : اذهبوا بهذه النفس الطيبة فادخلوها الجنة ، وأروها مقعدها ، واعرضوا عليها ما أعد لها من النعيم والكرامة ، ثم اهبطوا بها إلى الأرض فإني قضيت أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى ، فوالذي نفس محمد بيده هي أشد كراهة للخروج منها حين كانت تخرج من الجسد ، وتقول : اين تذهبون بي إلى ذلك الجسد الذي كنت فيه ؟ فيقولون : إنّا مأمورون بهذا فلا بد لك منه . فيهبطون به على قدر فراغهم من غسله وأكفانه ، فيدخلون ذلك الروح بين الجسد وأكفانه ، فما خلق الله تعالى كلمة تكلم بها حميم ولا غير حميم إلا وهو يسمعها ، إلا أنه لا يؤذن له في المراجعة ، فلو سمع أشد الناس له حباً ومن أعزهم كان عليه يقول : على رسلكم ما يعجلكم وأذن له في الكلام للعنه ، وإنه يسمع خفق نعالهم ونفض أيديهم إذا ولوا عنه .

(170/242)

ثم يأتيه عند ذلك ملكان فظان غليظان يسميان منكراً ونكيراً ومعهما عصا من حديد لو اجتمع عليها الجن والانس ما أقلوها وهي عليهما يسير ، فيقولان له : أقعد بإذن الله ، فإذا هو مستو قاعداً فينظر عند ذلك إلى خلق كريه فظيع ينسبه ما كان رأى عند موته . . . ! فيقولان له من ربك ؟ فيقول : الله . فيقولون : فما دينك ؟ فيقول الإِسلام ، ثم ينتهرانه عند ذلك انتهارة شديدة ، ثم يقولان : فمن نبيك ؟ فيقول : محمد صلى الله عليه وسلم ويعرق عند ذلك عرقاً يبتل ما تحته من التراب ، ويصير ذلك العرق أطيب من ريح المسك ، وينادي عند ذلك من السماء نداء خفياً صدق عبدي فلينفعه صدقه ، ثم يفسح له في قبره مد بصره ، ويبتذله فيه الريحان ، ويستر بالحرير ، فإن كان معه من القرآن شيء كفاه نوره ، وإن لم يكن معه جعل له نور مثل نور الشمس في قبره ، ويفتح له أبواب وكوى إلى الجنة فينظر إلى مقعده منها مما كان عاين حين صعد به ، ثم يقال : نم قرير العين ، فما نومه ذلك إلى يوم يقوم إلا كنومة ينامها أحدكم شهية لم يرو منها ، يقوم وهو يمسح عينيه ، فكذلك نومه فيه إلى يوم القيامة .

*(171/242)*

وإن كان غير ذلك إذا نزل به ملك الموت صف له سماطان من الملائكة نظموا ما بين الخافقين ، فيخطف بصره إليهم ما يرى غيرهم ، وإن كنتم ترون أنه ينظر إليكم ويشدد عليه ، وإن كنتم ترون أنه يهون عليه فيلعنونه ، ويقولون : أخرجي أيتها النفس الخبيثة فقد أعد الله لك من النكال والنقمة والعذاب كذا وكذا ساء ما قدمت لنفسك ، ولا يزالون يسلونها في غضب وتعب وغلظ وشدة من كل ظفر وعضو ، ويموت الأول فالأول ، وتنشط نفسه كما يصنع السفود ذو الشعب بالصوف حتى تقع الروح في ذقنه ، فلهي أشد كراهية للخروج من الولد حين يخرج من الرحم مع ما يبشرونه بأنواع النكال والعذاب حتى تبلغ ذقنه ، فليس منهم ملك إلا وهو يتحاماه كراهية له ، فيتولى قبضها ملك الموت الذي وكل بها فيتلقاها ، أحسبه قال : بقطعه من بجاد أنتن ما خلق الله وأخشنه ، فيلقى فيها ويفوح لها ريح أنتن ما خلق الله ويسد ملك الموت منخريه ويسدون آنافهم ويقولون : اللهم العنها من روح والعنه جسداً خرجت منه ، فإذا صعد بها غلقت أبواب السماء دونها ، فيرسلها ملك الموت في الهواء حتى إذا دنت من الأرض انحدر مسرعاً في أثرها ، فيقبضها بحديدة معه يفعل بها ذلك ثلاث مرات ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾ [ الحج : 31 ] والسحيق البعيد . ثم ينتهي بها فتوقف بين يدي الملك الجبار فيقول : لا مرحباً بالنفس الخبيثة ولا

بجسد خرجت منه ، ثم يقول : انطلقوا بها إلى جهنم فأروها مقعدها منها واعرضوا عليها ما أعددت لها من العذاب والنقمة والنكال .

*(172/242)*

---

ثم يقول الرب : اهبطوا بها إلى الأرض فإني قضيت أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى . فيهبطون بها على قدر فراغهم منها ، فيدخلون ذلك الروح بين جسده وأكفانه ، فما خلق الله حميماً ولا غير حميم من كلمة يتكلم بها لا وهو يسمعها إلا أنه لا يؤذن له في المراجعة ، فلو سمع أعز الناس عليه وأحبهم إليه يقول : أخرجوا به وعجلوا وأذن له في المراجعة للعنه . وود أنه ترك كما هو لا يبلغ به حفوته إلى يوم القيامة .

فإذا دخل قبره جاءه ملكان أسودان أرزقان فظان غليظان ، ومعهما مرزبة من حديد وسلاسل وأغلال ومقامع الحديد ، فيقولان له : اقعد بإذن الله . فإذا هو مستوٍ قاعد سقطت عنه أكفانه ، ويرى عند ذلك خلفاً فظيعاً ينسى به ما رأى قبل ذلك فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : أنت . فيفزعان عند ذلك فزعة . ويقبضان ويضربانه ضربة بمطرقة الحديد فلا يبقى منه عضو إلا وقع على حدة ، فيصيح عند ذلك صيحة فما خلق الله من شيء ملك أو غيره إلا يسمعها إلا الجن والإنس ، فيلعنونه عند ذلك لعنة واحدة وهو قوله

﴿ أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾ [ البقرة : 159 ] والذي نفس محمد بيده لو اجتمع على مطرقتهما الجن والإنس ما أقلوها وهي عليهما يسير ، ثم يقولان عد بإذن الله ، فإذا هو مستو قاعداً فيقولان : من ربك ؟ فيقول : لا أدري . فيقولان : فمن نبيك ؟ فيقول : سمعت الناس يقولون محمد . فيقولان : فما تقول أنت ؟ فيقول : لا أدري . فيقولان : لا دريت . ويعرق عند ذلك عرقاً يبتل ما تحته من التراب ، فلهو أنتن من الجيفة فيكم ، ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه فيقولان له : نم نومة المسهر . فلا يزال حيات وعقارب أمثال أنياب البخت من النار ينهشنه ، ثم يفتح له باب فيرى مقعده من النار ، وتهب عليه أرواحها وسمومها ، وتلفح وجهه النار غدوّاً وعشياً إلى يوم القيامة " .

*(173/242)*

---

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ غمرات الموت ﴾ قال : سكرات الموت .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ والملائكة باسطوا أيديهم ﴾ قال : هذا عند الموت . والبسط ! الضرب . يضربون وجوههم وأدبارهم .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ والملائكة باسطوا أيديهم ﴾ قال : ملك الموت عليه

السلام .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله ﴿ والملائكة باسطوا أيديهم ﴾ قال : بالعذاب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن قيس قال : إن لملك الموت أعواناً من الملائكة ، ثم تلاث هذه الآية ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن وهب قال : إن الملائكة الذين يقرنون بالناس هم الذين يتوفونهم ويكتبون لهم آجالهم ، فإذا كان يوم كذا وكذا توفته ، ثم نزع ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم ﴾ فقيل لوهب : أليس قد قال الله ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ﴾ [ السجدة : 11 ] قال : نعم ، إن الملائكة إذا توفوا نفساً دفعوها إلى ملك الموت وهو كالعاقب يعني العشار الذي يؤدي إليه من تحته .

وأخرج الطستي وابن الأنباري في الوقف والابتداء عن ابن عباس رضي الله عنهما . أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله ﴿ عذاب الهون ﴾ قال : الهوان الدائم الشديد . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم ، أما سمعت الشاعر وهو يقول :

أنا وجدنا بلاد الله واسعه . . . تنجى من الذل والمخزات والهون

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ عذاب الهون ﴾ قال :

الهوان.

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ عذاب الهون ﴾ قال: الذي يهينهم. انتهى

انتهى. اهـ ﴿الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(174/242)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل:

قوله تعالى: " ومن أظلم " مبتدأ وخبر، وقوله: "كذباً فيه أربعة أوجه:

أحدهما: أنه مفعول " افترى " أي: اختلق كذباً وافتعله.

الثاني: أنه مَصْدرٌ له على المعنى، أي: [افترى] افتراءاً، وفي هذا نظر؛ لأن المعهود في مثل ذلك إنما هو فيما كان المَصْدرُ فيه نَوعاً من الفعل، نحو: قدع القُرْفُصَاءَ أو مُرَادفاً له كـ" قعدت جلوساً " أما ما كان المصدر فيه أعم من فعله نحو: افترى كذباً، وتقرفصَ قعوداً، فهذا غير معهود، إذ لا فائدة فيه والكذب أعمُّ من الافتراء، وقد تقدَّم تحقيقه.

الثالث: أنه مفعول من أجلِهِ، أي: افترى لأجل الكذبِ.

الرابع: أنه مصدر واقع موقع الحال، أي: افترى حال كونه كاذباً، وهي حال مؤكدة.

وقوله : " أو قال " عطف على " افترى " في محلِّ رفع لقيامه مقام الفاعل ، وجوز أبو البقاء أن يكون القائم مقام الفاعل ضمير المصدر ، قال : تقديره : " أوحى إليَّ الوحي " ، أو الإيحاء .

والأوّلى أولى ؛ لأن فيه فائدةً جديدةً ، بخلاف الثاني فإن معنى المصدر مفهوم من الفعل قَبْلَهُ .

قوله : " وَلَمْ يُوحَ إِلَيْه " جملة حاليةٌ ، وحذف الفاعل هنا تعظيماً له ؛ لأن المُوحِي هو الله تعالى .

قوله : " ومَنْ قَالَ " مجرور المَحَلّ ؛ لأنه نَسَقٌ على " مَنْ " المجرور بـ " من " أي : وممن قال ، وقد تقدم نظير هذا الاستفهام في " البقرة : وهناك سؤال وجوابه .

قوله ﴿ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ اللهُ ﴾ وقرا أبو حيوة : " سأنزّل " مضعفاً وقوله : " مثل " يجوز فيه وجهان :

أحدهما : أنه مَنْصُوبٌ على المفعول به ، أي سأنزل قرآناً مِثْلَ ما أن الله ، و " ما " على هذا مَوصُولةٌ اسمية ، أن نكرة موصوفة ، أي : مثل الذي أنزله ، أو مثل شيء أنزله .

والثاني : أن يكون نعتاً لمصدر محذوف ، تقديره : سأنزل إنزالاً مثل ما أنزل الله ، و " ما " على هذا مصدرية ، أي : مثل إنزال الله .

" وَلَوْ تَرَى " يا محمد " إذ الظالمون " و " إذا " منصوب بـ " ترى " ، ومَفْعُول الرؤية محذوف ، أي : ولو ترى الكُفَّار الكذبةَ ، ويجوز ألا يقدّر لها مفعول ، أي : ولو كنت من أهل الرُّؤيةِ في هذا الوقتِ ، وجواب " لو " محذوف ، أي : لَرَأَيْتَ أمراً عظيماً .

و " الظالمون " يجوز أن تكون فيه " أل " للجنس ، وأن تكون للعهد ، والمراد بهم من تقدَّم ذكره من المشركين واليهود والكذبةِ المفترين و " في غَمَراتِ المَوْتِ " خبر المبتدأ ، والجملة في مَحَلِّ خفض بالظَّرْفِ .

و " الغَمَراتُ جمع " غَمْرة " وهي الشدة المفظعة وأصلها مِنْ غَمَرَةُ الماءُ إذا سَتَرَهُ ، وغَمْرَةُ كلِّ شيء كثرته ومعظمه ، ومنه غمرة الموت وغمرة الحرب .

ويقال : غمرت الشيء إذا علاه وغطَّاه .

قال الزَّجَّاج : يقال لكل من كان في شيء كثير : قد غَمَرَهُ ذلك وغمره الدَّيْنُ إذا كثر عليه ، ثم يقال للمَكَارِهِ والشدائد : غمرات ، كأنها تَسْتُرُ بغمرها وتنزل به قال في ذلك : [ الوافر ]

2234 - وَلاَ يُنْجِي مِنَ الْغَمَراتِ إلاَّ . . .

بَرَاكَاءُ القِتَالِ أو الفِرَاءُ

ويجمع على " غُمَرَ " كـ " عُمْرة " و " عُمَر " كقوله : [ الوافر ]

2235 - . . .

وَحَانَ لِتَالِكَ الغُمَرِ انْقِشَاعُ

ويروى " انحسار " .

وقال الرَّاغِبُ : أصل الغَمْرِ إزالةُ أثر الشيء ومنه قيل للماء الكثير الذي يزيل أثر سيله : غمر وغامر ، وأنشد غير الراغب على غامر : [ الكامل ]

2236 - نَصَفَ النَّهَارُ المَاءُ غَامِرُهُ . . .

وَرَفِيقُهُ بالغَيْبِ لا يَدْرِي

ثم قال : " والغمرة مُعْظَمُ الماءِ لِسَتْرِهَا مَقَرَّهَا ، وجعلت مثلاً للجَهَالَةِ التي تغمر صاحبها " .

*(176/242)*

---

والغَمْرُ : الذي لم يُجَرِّب الأمور ، وجمعه أغْمَار ، والغِمْرُ : - بالكسر - الحِقْدُ ، والغَمْرُ بالفتح : الماء الكثير ، والغَمَرُ بفتح الغين والميم : ما يغمر من رائحة الدَّسَم سائر الروائح ، ومنه الحديث " مَنْ بَاتَ وفي يَدَيْهِ غَمَرٌ " .

وغرم يده ، وغمر عرضه دنس ، ودخلوا في غُمَارِ الناس وخمارهم ، والغمرة ما يطلى به من الزَّعْفران ، ومنه قيل للقدح الذي يتناول به الماء : غمر ، وفلان مُغَامِرٌ إذا رمى بنفسه في الحَرْبِ ، إما لِتَوغُّلِهِ وخوضه فيه ، وإما لِتَصَوُّرِ الغمار منه .

قوله : " والملائِكَةُ بَاسِطُوا أيديهم " [ جملة في محل نَصْبٍ على الحال من الضمير ] المستكن في قوله : " في غمرات " ، و " أيديهم " خفض لفظاً ، وموضعه نصب أي : باسطو أيديهم بالعذابِ يضربون وجُوهَهُمْ وأدبارهم وقوله " أخرجوا " منصوب المحل بقول مضمر ، والقول يُضْمر كثيراً ، تقديره : يقولون : أخرجوا ، كقوله : ﴿ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ سَلاَمٌ عَلَيْكُم ﴾ [ الرعد : 23 ، 24 ] أي : يقولون : سلام عليكم ، وذلك القول المضمر في مَحَلِّ نصب على الحال من الضمير في " باسطو " .

قوله : " اليوم تُجْزَوْنَ " في هذا الظرف وجهان :

أظهرهما : انه مَنْصُوبٌ بـ " أخرجوا " بمعنى : أخروجوها من أبدانكم ، فهذا القول في الدنيا ، ويجوز أن يكون في يوم القيامةِ ، والمعنى خَلِّصُوا أنفسكمن من العذابِ ، كما تقدَّم ، فالوقف على قوله : " اليوم " ، والابتداء بقوله : " تُجْزَونَ عذابَ الهُونِ " .

والثاني : أنه منصوب بـ " تجزون " والوقف حينئذ على " أنفسكم " ، والابتداء بقوله : " اليوم " والمراد بـ " اليوم " يحتمل أن يكون وقتَ الاحتضار ، وأن يكون يوم القيامة ، و " عذاب " مفعول ثانٍ ، والأول قام مقام الفاعل .

والهُون : الهَوَان ؛ قال تعالى : ﴿ أَيُمْسِكُهُ على هُونٍ ﴾ [ النحل : 59 ] .

وقال ذو الأصبع : [ البسيط ]

2237 - إذْهَبْ إلَيْكَ فَمَا أمّي براعِيَةٍ . . .

تَرْعَى المخَاضَ ولا أغْضِي على الهُونِ

وقالت : الخَنْسَاءُ : [ المتقارب ]

2238 - يُهِينُ النُّفُوسَ وهُونُ النُّفُو . . .

سِ يَوْمَ الكَرِيهَةِ أبْقَى لَهَا

واضاف العذابَ إلى الهُونِ إيذاناً بأنه متمكنٌ فيه ، وذلك إنه ليس كل عذاب يكون فيه هُونٌ ؛ لأنه قد لا يكون فيه هُونٌ ، لأنه قد يكون على سبيل الزَّجْرِ والتأديب ويجوز أن يكون من إضافة الموصوف إلى صفته ، وذلك أن الأصْلَ العذاب الهُون وصف به مُبَالغَة ، ثم أضافه إليه على حَدِّ إضافته في قولهم : بَقْلَةُ الحمقاءِ ونحوه ، ويدل عليه أن الهُونَ بمعنى قراءة عبد الله وعكرمة كذلك .

و" الهَوْن " بفتح الهاء : الرِّفْقُ والدَّعة ؛ قال تبارك وتعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً ﴾ [ الفرقان : 63 ] .

قوله : " بِمَا كُنْتُمْ " " ما " مصدرية ، أي : بكونكم قائلين غير الحقّ ، وكونكم مستكبرين و" الباء " متعلقة بـ " تجزون " أي : بسببه ، و" غير الحق " نصبه من وجهين :

أحدهما : أنه مفعول به ، أي تذكرون غير الحق .

والثاني : أنه نَعْتُ مَصْدَرٍ محذوف ، أي : تقولون القول غير الحق .

وقوله : " وكنتم " يجوز فيه وجهان :

أظهرهما : أنه عطف على "كنتم" الأولى ، فتكون صلةً كما تقدم .

والثاني : أنها جملة مُسْتَأْنَفَة سيقت للإخبار بذلك و" عن آياته " متعلّق بخبر "كان" ، وقدم لأجل الفواصل ، والمراد بقوله : "كنتم عن آياته تَسْتَكْبِرُونَ" أي : تَتَعَظَّمُونَ عن الإيمان بالقرآن لا تُصَدّقُونَهُ .

وذكر الواحدي أي : لا تُصَلُّونَ له ، قال عليه الصلاة والسلام : " مَنْ سَجَدَ [لِلَّهِ سَجْدَةً] بنيةٍ صَادِقَةٍ فَقَدْ بَرِئَ مِنَ الكِبْرِ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 287 . 292 ﴾ . باختصار .

*(178/242)*

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾

يعني إن الذين يَنْزِلُون منزلة المُحدَّثين ، ولم تُلق إلى أسرارهم خصائصُ الخطاب – فالحقُّ – سبحانه عنهم بريء . والمتَّبعُ بما لم يَسَلْ كلابسِ ثوبي زور ، وفي معناه أنشدوا :

إذا اشتبكت دموع في خدود . . . تبيَّن مَنْ بكى ممن تباكى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 489 ﴾

*(179/242)*

---

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (94) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كانوا ينكرون أن يحس الميت شيئاً بعد الموت أو يفهم كلاماً ، وكان التقدير كما دل عليه السياق : فتتوفاهم الملائكة ، لا يقدر أحد على منعهم ، فيقول لهم : قد رأيتم ملائكتنا الذين أخبرناكم أول السورة أنهم إذا أبصروا كان القضاء الفصل والأمر البت الحتم الذي ليس فيه مهل ، عطف عليه قوله مشيراً إلى ما كان سبب استكبارهم من الاجتماع على

الضلال والتقوى بالأموال : ﴿ ولقد جئتمونا ﴾ أي لما لنا من العظمة بالموت الذي هو دال على شمول علمنا وتمام قدرتنا قطعاً ، ودل على تمام العظمة وأن المراد مجيئهم بالموت قوله : ﴿ فرادى ﴾ أي متفرقين ، ليس أحد منكم مع أحد ، ومنفردين على كل شيء صدكم عن اتباع رسلنا ﴿ كما خلقناكم ﴾ أي بتلك العَظمة التي أمتناكم بها بعينها ﴿ أول مرة ﴾ في الانفراد والضعف والفقر ، فأين جمعكم الذي كنتم به تستكبرون ! ﴿ وتركتم ما خولناكم ﴾ أي ملكناكم من المال ومكناكم من إصلاحه نعمة عليكم لتتوصلوا به إلى رضانا ، فظننتم أنه لكم بالأصالة ، وأعرضتم عنا وبدلتم ما دل عليه من عظمتنا بضد ذلك من الاستهانة بأوامرنا ﴿ وراء ظهوركم ﴾ فما أغنى عنكم ما كنتم منه تستكبرون . ولما كانوا يعدون الأصنام آلهة ، ويرجون شفاعتها ، إما استهزاء ، وإما في الدنيا ، وإما في الآخرة – على تقدير التسليم لصحة البعث ، قال تهكماً بهم واستهزاء بشأنهم : ﴿ وما نرى معكم شفعاءكم ﴾ أي التي كنتم تقولون فيها ما تقولون ﴿ الذين زعمتم ﴾ أي كذباً وجراءة وفجوراً ﴿ أنهم فيكم شركاء ﴾ أي أن لهم فيكم نصيباً مع الله حتى كنتم تعبدونهم في وقت الرخاء وتدعونه في وقت الشدة ، أروناهم لعلهم سترهم عنا ساتر أو حجبنا عنهم حاجب ؛ ثم دل على بهتهم في جواب هذا الكلام الهائل المرعب حيرة وعجزاً ودهشاً وذلاً بقوله : ﴿ لقد تقطع ﴾ أي تقطعاً كثيراً .

ولما كان ذكر البين في شيء يدل على قربه في الجملة وحضوره ولو في الذهن ، لأنه يقال : بيني وبين كذا كذا ، وكان فلان بيننا ، ونحو ذلك مما يدل على الحضور ؛ قال منبهاً على زوال ذلك حتى بالمرور بالبال والخطور في الذهن لشدة الاشتغال ﴿ بينكم ﴾ فأسند القطع المبالغ فيه إلى البين ، وإذا انقطع البين تقطّع ما كان فيه من الأسباب التي كانت تسبب الاتصال ، فلم يبق لأحد منهم اتصال بالآخر ، لأن ما بينهما صار كالخندق بانقطاع نفس البين ، فلا يتأتى معه الوصول ، هذا على قراءة الجماعة بالرفع ، وهذا المثال معنى قراءة نافع والكسائي وحفص عن عاصم بالنصب على الظرفية ؛ ولما رجع المعنى إلى تقطع الوصل ، بين سبب ذلك ، وهو زوال المستند الذي كانوا يستندون إليه فقال : ﴿ وضل عنكم ﴾ أي ذهب وبطل ﴿ ما كنتم تزعمون ﴾ أي من تلك الأباطيل كلها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 675.676 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن قوله : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى ﴾

يحتمل وجهين :

الأول : أن يكون هذا معطوفاً على قول الملائكة ﴿ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ اليوم تُجْزَوْنَ عَذَابَ

الهون بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ ﴾ فبين تعالى أنهم كما يقولون ذلك على وجه التوبيخ ، كذلك يقولون حكاية عن الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى ﴾ فيكون الكلام أجمع حكاية عنهم وأنهم يوردون ذلك على هؤلاء الكفار ، وعلى هذا التقدير ، فيحتمل أن يكون قائل هذا القول الملائكة الموكلين بقبض أرواحهم ، ويحتمل أن يكون القائل هم الملائكة الموكلون بعقابهم .

*(181/242)*

---

والقول الثاني : أن قائل هذا القول هو الله تعالى ومنشأ هذا الاختلاف إن الله تعالى هل يتكلم مع الكفار أو لا ؟ فقوله تعالى في صفة الكفار : ﴿ وَلاَ يُكَلِّمُهُمْ ﴾ يوجب أن لا يتكلم معهم وقوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ الحجر : 92 ] وقوله : ﴿ فَلَنَسْئَلَنَّ الذين أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ المرسلين ﴾ [ الأعراف : 6 ] يقتضي أن أن يكون تعالى يتكلم معهم ، فلهذا السبب وقع هذا الاختلاف ، والقول الأول أقوى ، لأن هذه الآية معطوفة على ما قبلها ، والعطف يوجب التشريك .

و ﴿ فرادى ﴾ لفظ جمع وفي واحده قولان .

قال ابن قتيبة : فرادى جمع فردان ، مثل سكارى وسكران ، وكسالى وكسلان .

وقال غيره فرادى : جمع فريد ، مثل ردافى ورديف .

وقال الفراء : فرادى جمع واحده فرد وفردة وفريد وفردان .

إذا عرفت هذا فقوله : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى ﴾ المراد منه التقريع والتوبيخ ، وذلك لأنهم صرفوا جدهم وجهدهم في الدنيا إلى تحصيل أمرين : أحدهما : تحصيل المال والجاه .

والثاني : أنهم عبدوا الأصنام لاعتقادهم أنها تكون شفعاء لهم عند الله ، ثم إنهم لما وردوا محفل القيامة لم يبق معهم شيء من تلك الأموال ولم يجدوا من تلك الأصنام شفاعة لهم عند الله تعالى فبقوا فرادى عن كل ما حصلوه في الدنيا وعولوا عليه ، بخلاف أهل الإيمان فإنهم صرفوا عمرهم إلى تحصيل المعارف الحقة والأعمال الصالحة ، وتلك المعارف والأعمال الصالحة بقيت معهم في قبورهم وحضرت معهم في مشهد القيامة ، فهم في الحقيقة ما حضروا فرادى ، بل حضروا مع الزاد ليوم المعاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 71.72 ﴾ . بتصرف يسير .

*(182/242)*

---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى ﴾

سبب نزولها : أن النضر بن الحارث قال : سوف تشفع لي اللاّت والعزى ، فنزلت هذه الآية

، قاله عكرمة .

ومعنى فرادى : وُحداناً .

وهذا إخبار من الله تعالى بما يوبِّخ به المشركين يوم القيامة .

قال أبو عبيدة : فرادى : أي فرد فرد .

وقال ابن قتيبة : فرادى : جمع فرد .

وللمفسرين في معنى "فرادى" خمسة اقوال متقاربة المعنى .

أحدها : فرادى من الأهل والمال والولد ، قاله ابن عباس .

والثاني : كل واحد على حدة ، قاله الحسن .

والثالث : ليس معكم من الدنيا شيء ، قاله مقاتل .

والرابع : كل واحد منفرد عن شريكه في الغيّ ، وشقيقه ، قاله الزجاج .

والخامس : فرادى من المعبودين ، قاله ابن كيسان .

قوله تعالى : ﴿ كما خلقناكم أول مرة ﴾ فيه ثلاثة اقوال .

أحدها : لا مال ولا أهل ولا ولد .

والثاني : حفاةً عراةً غرلاً .

والغرل : القلف .

والثالث : أحياءً .

وخولناكم : بمعنى : ملّكناكم .

﴿ وراء ظهوركم ﴾ أي : في الدنيا .

والمعنى : أن ما دأبتم في تحصيله في الدنيا فني ، وبقي الندم على سوء الاختيار .

وفي شفعائهم قولان .

أحدهما : أنها الأصنام .

قال ابن عباس : شفعاؤكم : أي : آلهتكم الذين زعمتم أنهم يشفعون لكم .

و﴿ زعمتم أنهم فيكم ﴾ أي : عندكم شركاء .

وقال ابن قتيبة : زعمتم أنهم لي في خلقكم شركاء .

والثاني : أنها الملائكة كانوا يعتقدون شفاعتها ، قاله مقاتل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى ﴾

هذه حكاية عما يقال لهم بعد قبض أرواحهم ، فإما عند خروجها من الأجساد وإما يوم القيامة كل ذلك محتمل ، و﴿ فرادى ﴾ معناه فرداً فرداً ، والألف في آخره ألف تأنيث

ومنه قول الشاعر [ ابن مقبل ] :

ترى النعرات الزرق تحت لبانه . . . فرادى ومثنى أصعقتها صواهله

وقرأ أبو حيوة " فرادىً " منوناً على وزن فعال وهي لغة تميم ، و﴿ فرادى ﴾ قيل هو جمع فرَد بفتح الراء ، وقيل جمع فرْد بإسكان الراء والمقصد في الآية توقيف الكفار على انفرادهم وقلة النصير واحتياجهم إلى الله عز وجل بفقد الخول والشفعاء ، فيكون قوله : ﴿ كما خلقناكم أول مرة ﴾ تشبيهاً بالانفراد الأول في وقت الخلقة ، ويتوجه معنى آخر وهو أن يتضمن قوله : ﴿ كما خلقناكم ﴾ زيادة معان على الانفراد كأنه قال ولقد جئتمونا فرادى وبأحوال كذا ، والإشارة على هذا بقوله كما هي إلى ما قاله النبي عليه السلام في صفة من يحشر أنهم يحشرون حفاة عراة غرلاً ، و﴿ خولناكم ﴾ معناه أعطيناكم ، وكان أبو عمرو بن العلاء ينشد بيت زهير : [ الطويل ] :

هنالك إنْ يُسْتَخْوَلُوا المالَ يُخْوِلُوا . . . وإنْ يُسْأَلوا يُعْطُوا وإنْ يُيْسِرُوا يُغْلُوا

﴿ وراء ظهوركم ﴾ إشارة إلى الدنيا لأنهم يتركون ذلك موجوداً .

وقوله تعالى : ﴿ وما نرى معكم شفعاءكم ﴾ الآية ، توقيف على الخطأ في عبادة الأصنام وتعظيمها ، قال الطبري : وروي أن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث لأنه قال سوف تشفع له اللات والعزى .

قال القاضي أبو محمد : ومن كان من العرب يعتقد أنها تشفع وتقرب إلى الله زلفى ويرى شركتها بهذا الوجه فمخاطبته بالآية ممكن وهكذا كان الأكثر ، ومن كان منهم لا يقر بإله غيرها فليس هو في هذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى ﴾ هذه عبارة عن الحشر .

و"فُرَادَى" في موضع نصب على الحال ، ولم ينصرف لأن فيه ألفَ تأنيث .

وقرأ أبو حَيْوة "فرادا" بالتنوين وهي لغة تميم ، ولا يقولون في موضع الرفع فُرَادٌ .

وحكى أحمد بن يحيى "فُرَادَ" بلا تنوين ، قال : مثل ثلاث ورباع و"فُرادى" جمع فُرْدان كسُكارى جمع سكران ، وكُسالى جمع كسلان .

وقيل : واحده "فَرْد" بجزم الراء ، "وفرِد" بكسرها ، و"فرد" بفتحها ، و"فرِيد" .

(184/242)

---

والمعنى : جئتمونا واحداً واحداً ، كل واحد منكم منفرداً بلا أهل ولا مال ولا ولد ولا ناصر ممن كان يصاحبكم في الغَيّ ، ولم ينفعكم ما عبدتم من دون الله .

وقرأ الأعرج "فَرْدَى" مثل سكرى وكسلى بغير ألف .

﴿ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي منفردين كما خُلقتم .

وقيل : عُراة كما خرجتم من بطون أمهاتكم حُفاة غُرْلاً بُهْماً ليس معهم شيء .

وقال العلماء : يُحشر العبدُ غداً وله من الأعضاء ما كان له يومَ وُلد ؛ فمن قُطع منه عضو يردّ في القيامة عليه .

وهذا معنى قوله : "غُرْلاً" أي غير مختونين ، أي يردّ عليهم ما قُطع منه عند الختان .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْتُمْ مَّا خَوَّلْنَاكُمْ ﴾ أي أعطيناكم وملّكناكم .

والخَوَل : ما أعطاه الله للإنسان من العبيد والنعم .

﴿ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ أي خلفكم .

﴿ وَمَا نرى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ ﴾ أي الذين عبدتموهم وجعلتموهم شركاء يريد الأصنام أي شركائي .

وكان المشركون يقولون : الأصنام شركاء الله وشفعاؤنا عنده . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى ﴾ يعني وحداناً لا مال معكم ولا زوج ولا ولد ولا خدم وهذا خبر من الله عز وجل عن حال الكافرين يوم القيامة وكيف يحشرون إليه ماذا يقول لهم في ذلك اليوم وفي قوله للكافرين ولقد جئتمونا فرادى تقريع وتوبيخ لهم لأنهم صرفوا

هممهم في الدنيا إلى تحصيل المال والولد والجاه وأفنوا أعمارهم في عبادة الأصنام فلم يغن عنهم كل ذلك شيئاً يوم القيامة فبقوا فرادى عن كل ما حصلوه في الدنيا ﴿ كما خلقناكم أول مرة ﴾ يعني جئتمونا حفاة عراة غرلاً يعني قلفاً كما ولدتهم أمهاتهم في أول مرة في الدنيا لا شيء عليهم ولا معهم ( ق ) .

*(185/242)*

---

عن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال : " أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً " ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين ﴾ ( ق ) عن عائشة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " تحشر الناس حفاة عراة غرلاً " قالت عائشة : فقلت الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال " الأمر أشد من أن يهمهم ذلك " روى الطبري بسنده عن عائشة أنها قرأت قول الله عز وجل ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾ فقالت : يا رسول الله واسوأتاه إن الرجال والنساء يحشرون جميعاً ينظر بعضهم إلى سوأة بعض ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لكل امرئ منهم يومئذ شيء يغنيه لا ينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال شغل بعضهم عن بعض " وقوله تعالى : ﴿ وتركتم ما خولناكم وراء

ظهوركم ﴾ يعني وتركتم الذي أعطيناكم وملكناكم من الأموال والأولاد والخدم والخول وكل ما أعطى الله العبد خوله فيه من المال والعبيد وراء ظهوركم يعني في الدنيا ﴿ وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ﴾ يعني أن المشركين زعموا أنهم إنما عبدوا هذه الأصنام " لأنها تشفع لهم عند الله يوم القيامة لأنها شركاء الله تعالى الله عن ذلك فإذا كان يوم القيامة وبخ الله المشركين وقرعهم بهذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾

*(186/242)*

---

قال عكرمة قال النضر بن الحارث : سوف تشفع في اللات والعزى فنزلت : ولما قال ﴿ اليوم تجزون عذاب الهون ﴾ وقفهم على أنهم يقدمون يوم القيامة منفردين لا ناظر لهم محتاجين إليه بعد أن كانوا ذوي خول وشفعاء في الدنيا ويظهر أن هذا الكلام هو من خطاب الملائكة الموكلين بعقابهم ، وقيل : هو كلام الله لهم وهذا مبني على أن الله تعالى يكلم الكفار ، وهو ظاهر من قوله : ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ﴾ ومن قوله : ﴿ لنسألنهم أجمعين

﴿ و ﴿ جئتمونا ﴾ من الماضي الذي أريد به المستقبل ، وقيل : هو ماض على حقيقته محكي فيقال لهم : حالة الوقوف بين يدي الله للجزاء والحساب ، قال ابن عباس : ﴿ فرادى ﴾ من الأهل والمال والولد ، وقال الحسن : كل واحد على حدته بلا أعوان ولا شفعاء ، وقال مقاتل : ليس معكم شيء من الدنيا تفتخرون به ، وقال الزّجاج : كل واحد مفرد عن شريكه وشفيعه ، وقال ابن كيسان : ﴿ فرادى ﴾ من المعبود ، وقيل : أعدناكم بلا معين ولا ناصر وهذه الأقوال متقاربة لما كانوا في الدنيا جهدوا في تحصيل الجاه والمال والشفعاء جاؤوا في الآخرة منفردين عن كل ما حصلوه في الدنيا ، وقرىء فراد غير مصروف ، وقرأ عيسى بن عمر وأبو حيوة فراداً بالتنوين وأبو عمرو ونافع في حكاية خارجة عنهما فردى مثل سكرى كقوله : ﴿ وترى الناس سكارى ﴾ وأنث على معنى الجماعة والكاف في كما في موضع نصب ، قيل : بدل من فرادى ، وقيل : نعت لمصدر محذوف أي مجيئاً ﴿ كما خلقناكم ﴾ يريد كمجيئكم يوم خلقناكم وهو شبيه بالانفراد الأول وقت الخلقة فهو تقييد لحالة الانفراد تشبيه بحالة الخلق لأن الإنسان يخلق أقشر لا مال له ولا ولد ولا حشم ، وقيل : عراة غرلاً ومن قال : على الهيئة التي ولدت عليها في الانفراد يشمل هذين القولين وانتصب أول مرة على الظرف أي أول زمان ولا يتقدر أول خلق الله لأن أول خلق يستدعي خلقاً ثانياً ولا يخلق ثانياً إنما ذلك إعادة لا خلق .

﴿ وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ﴾ أي ما تفضلنا به عليكم في الدنيا لم ينفعكم ولم تحتملوا منه نقيراً ولا قدمتموه لأنفسكم وأشار بقوله : ﴿ وراء ظهوركم ﴾ إلى الدنيا لأنهم يتركون ما خولوه موجوداً .

﴿ وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ﴾ وقفهم على الخطأ في عبادتهم الأصنام وتعظيمها وقال مقاتل : كانوا يعتقدون شفاعة الملائكة ويقولون : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ و ﴿ فيكم ﴾ متعلق بشركاء والمعنى في استعبادكم لأنهم حين دعوهم آلهة وعبدوها فقد جعلوا لله شركاء فيهم وفي استعبادهم ، وقيل : جعلوهم شركاء لله باعتبار أنهم يشفعون فيهم عنده فهم شركاء بهذا الاعتبار ويمكن أن يكون المعنى شركاء لله في تخليصكم من العذاب أن عبادتهم تنفعكم كما تنفعكم عبادته ، وقيل : ﴿ فيكم ﴾ بمعنى عندكم ، وقال ابن قتيبة إنهم لي في خلقكم شركاء ، وقيل : متحملون عنكم نصيباً من العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

*(188/242)*

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا ﴾ للحساب ﴿ فرادى ﴾ أي منفردين عن الأعوان والأوثان التي زعمتم أنها شفعاؤكم أو عن الأموال والأولاد وسائر ما آثرتموه من الدنيا .

أخرج ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن عكرمة قال : النضر بن الحرث سوف تشفع لي اللات والعزى فنزلت ، والجملة على ما ذهب إليه بعض المحققين مستأنفة من كلامه تعالى ولا ينافي قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ ﴾ [ البقرة : 174 ] لأن المراد نفي تكليمهم بما ينفعهم أو لأنه كناية عن الغضب ، وقيل : معطوفة على قول ﴿ الملائكة أَخْرِجُواْ ﴾ [ الأنعام : 93 ] الخ وهي من جملة كلامهم وفيه بعد وإن ظنه الإمام أولى وأقوى .

ونصب ﴿ فرادى ﴾ على الحال من ضمير الفاعل وهو جمع فرد على خلاف القياس كأنه جمع فردان كسكران على ما في "الصحاح" ، والألف للتأنيث ككسالى ، والراء في فرده مفتوحة عند صاحب "الدر المصون" وحكى بصيغة التمريض سكونها ، ونقل عن الراغب "أنه جمع فريد كأسير وأسارى" ، وفي "القاموس" "يقال : جاءوا فُرَاداً وفِرَاداً وفُرَادَى وفُرَادَ وفَرَادَ وفَرْدَى كسَكْرَى أي واحداً بعد واحد والوَاحِدُ فَرْدٌ وفَرِدٌ وفَرِيد وفَرْدَان ولا يجوز فَرْدٌ في هذا المعنى" ، ولعل هذا بعيد الإرادة في الآية .

وقرىء ﴿ فراداً ﴾ كرخال المضموم الراء وفراد كآحاد ورباع في كونه صفة معدولة ، ولا يرد أن مجيء هذا الوزن المعدول مخصوص بالعدد بل ببعض كلماته لما نص عليه الفراء

وغيره من عدم الاختصاص ، نعم هو شائع فيما ذكر .

وفردى كسكرى تأنيث فردان والتأنيث لجمع ذي الحال .

(189/242)

---

﴿ جِئْتُمُونَا كَمَا خلقناكم أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ بدل من ﴿ فرادى ﴾ بدل كل لأن المراد المشابهة في الانفراد المذكور ، والكاف اسم بمعنى مثل أي مثل الهيئة ، التي ولدتم عليها في الانفراد ويجوز أن يكون حالاً ثانية على رأي من يجوز تعدّد الحال من غير عطف وهو الصحيح أو حالاً من الضمير في ﴿ فرادى ﴾ فهي حال مترادفة أو متداخلة والتشبيه أيضاً في الانفراد ، ويحتمل أن يكون باعتبار ابتداء الخلقة أي مشبهين ابتداء خلقكم بمعنى شبيهة حالكم حال ابتداء خلقكم حفاة عراة غرلاً بهما ، وجوز أن يكون صفة مصدر ﴿ جِئْتُمُونَا ﴾ أي مجيئاً كخلقنا لكم .

أخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قرأت هذه الآية فقالت : " يا رسول الله واسوأتاه إن النساء والرجال سيحشرون جميعاً ينظر بعضهم إلى سوأة بعض فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ [ عبس : 37 ] لا ينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال شغل بعضهم

عن بعض " .

﴿ وَتَرَكْتُمْ مَّا خولناكم ﴾ أي ما أعطيناكم في الدنيا من المال والخدم وهو متضمن للتوبيخ أي فشغلتم به عن الآخرة ﴿ وَرَاء ظُهُورِكُمْ ﴾ ما قدمتم منه شيئاً لأنفكسم .

أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الحسن قال : يؤتى بابن آدم يوم القيامة كأنه بذخ فيقول له تبارك وتعالى : أين ما جمعت ؟ فيقول : يا رب جمعته وتركته أوفر ما كان فيقول : أين ما قدمت لنفسك ؟ فلا يراه قدم شيئاً وتلا هذه الآية ، والجملة قيل مستأنفة أو حال بتقدير قد .

﴿ وَمَا نرى ﴾ أي نبصر وهو على ما نص عليه أبو البقاء حكاية حال وبه يتعلق قوله تعالى : ﴿ مَّعَكُمْ ﴾ وليس حالاً من مفعول ﴿ نُرِى ﴾ أعني قوله سبحانه : ﴿ شُفَعَاءكُمُ ﴾ ولا مفعولاً ثانياً ، والرؤية علمية .

*(190/242)*

---

وإضافة الشفعاء إلى ضمير المخاطبين باعتبار الزعم كما يفصح عنه وصفهم بقوله عز وجل : ﴿ الذين زَعَمْتُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ أَنَّهُمْ فِيكُمْ ﴾ أي شركاء لله تعالى في ربوبيتكم واستحقاق عبادتكم ، والزعم هنا نص في الباطل وجاء استعماله في الحق كما تقدمت

الإشارة إليه ، ومن ذلك قوله :

تقول هلكنا إن هلكت وإنما . . .

على الله أرزاق العباد كما زعم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى ﴾

إن كان القول المقدّر في جملة ﴿ أخرجوا أنفسكم ﴾ [ الأنعام : 93 ] قولاً من قِبَل الله تعالى كان قوله ﴿ ولقد جئتمونا فرادى ﴾ عطفاً على جملة ﴿ أخرجوا أنفسكم ﴾ [ الأنعام : 93 ] ، أي يقال لهم حين دفعهم الملائكة إلى العذاب : أخرجوا أنفسكم ، ويقال لهم : لقد جئتمونا فرادى .

فالجملة في محلّ النّصب بالقول المحذوف .

وعلى احتمال أن يكون ﴿ غمرات الموت ﴾ [ الأنعام : 93 ] حَقيقة ، أي في حين النّزع يكون فعل ﴿ جئتمونا ﴾ من التّعبير بالماضي عن المستقبل القريب ، مثل : قد قامت الصّلاة ، فإنّهم حينئذٍ قاربوا أن يرجعوا إلى مَحض تصرّف الله فيهم .

وإن كان القول المقدّر قولَ الملائكة فجملة : ﴿ ولقد جئتمونا فُرادى ﴾ عطف على جملة : ﴿ ولو ترى إذ الظّالمون ﴾ [ الأنعام : 93 ] فانتقل الكلام من خطاب المعتبِرين بحال الظّالمين إلى خطاب الظّالمين أنفسهم بوعيدهم بما سيقول لهم يومئذٍ .

فعلى الوجه الأوّل يكون ﴿ جئتمونا ﴾ حقيقة في الماضي لأنّهم حينما يقال لهم هذا القول قد حصل منهم المجيء بين يدي الله .

و( قد ) للتّحقيق .

وعلى الوجه الثّاني يكون الماضي معبّراً به عن المستقبل تنبيهاً على تحقيق وقوعه ، وتكون ( قد ) ترشيحاً للاستعارة .

*(191/242)*

---

وإخبارهم بأنّهم جاءوا ليس المراد به ظاهر الإخبار لأنّ مجيئهم معلوم لهم ولكنّه مستعمل في تخطئتهم وتوقيفهم على صدق ما كانوا يُنذرون به على لسان الرّسول فينكرونه وهو الرّجوع إلى الحياة بعد الموت للحساب بين يدي الله .

وقد يقصد مع هذا المعنى معنى الحصول في المِكنة والمصير إلى ما كانوا يحسبون أنّهم لا يصيرون إليه ، على نحو قوله تعالى : ﴿ ووجد الله عنده ﴾ [ النور : 39 ] ، وقول الرّاجز :

قد يُصبح الله إمام السّاري

والضّمير المنصوب في ﴿ جئتمونا ﴾ ضمير الجلالة وليس ضمير الملائكة بدليل قوله : ﴿

كما خلقناكم ﴾ .

و﴿ فُرادى ﴾ حال من الضّمير المرفوع في ﴿ جئتمونا ﴾ أي منعزلين عن كلّ ما كنتم تعتزّون به في الحياة الأولى من مال وولد وأنصار ، والأظهر أنّ ( فُرادى ) جمع فَرْدَان مثل سُكارى لسَكران .

وليس فُرادى المقصورُ مرادفاً لفُرادَ المعدولِ لأنّ فُرادَ المعدول يدلّ على معنى فَرْداً فَرْداً ، مثل ثُلاث ورُباع من أسماء العدد المعدولة .

وأمّا فرادى المقصور فهو جمع فردان بمعنى المنفرد .

ووجه جمعه هنا أنّ كلّ واحد منهم جاء منفرداً عن ماله .

وقوله : ﴿ كما خلقناكم أوّل مرّة ﴾ تشبيه للمجيء أريد منه معنى الإحياء بعد الموت الّذي كانوا ينكرونه فقد رأوه رأي العين ، فالكاف لتشبيه الخلق الجديد بالخلق الأوّل فهو في موضع المفعول المطلق .

و( ما ) المجرورة بالكاف مصدريّة .

فالتّقدير : كخلْقِنا إيّاكم ، أي جئتمونا مُعَادَيْن مخلوقين كما خلقناكم أوّل مرّة ، فهذا كقوله تعالى : ﴿ أفعيينا بالخلق الأوّل بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ [ ق : 15 ] .

والتّخويل : التفضّل بالعطاء .

قيل : أصله إعطاء الخَوَل بفتحتين وهو الخدم ، أي إعطاء العبيد .

ثمّ استعمل مجازاً في إعطاء مطلق ما ينفع ، أي تركتم ما أنعمنا به عليكم من مال وغيره .

(192/242)

---

و ( ما ) موصولة ومعنى تركهم إيّاه وراء ظهورهم بعدُهم عنه تمثيلاً لحال البعيد عن الشّيء بمن بارحه سائراً ، فهو يترك من يبارحه وراءه حين مبارحته لأنّه لو سار وهو بين يديه لبلغ إليه ولذلك يمثّل القاصد للشّيء بأنّه بين يديه ، ويقال للأمر الّذي يهيّئه المرءُ لنفسه : قد قدّمه .

﴿ وتَركتم ﴾ عطف على ﴿ جئتمونا ﴾ وهو يبيّن معنى ﴿ فرادى ﴾ إلاّ أنّ في الجملة الثّانية زيادة بيان لمعنى الانفراد بذكر كيفية هذا الانفراد لأنّ كلا الخبرين مستعمل في التّخطئة والتّنديم ، إذ جاءوا إلى القيامة وكانوا ينْفون ذلك المجيء وتركوا ما كانوا فيه في الدّنيا وكان حالهم حال من ينوي الخلود .

فبهذا الاعتبار عطفت الجملة ولم تفصل .

وأبو البقاء جعل الجملة حالاً من الواو في ﴿ جئتمونا ﴾ فيصير ترك ما خوّلوه هو محلّ التّنكيل .

وكذلك القول في جملة ﴿ وما نَرى معكم شفعاءكم ﴾ أنّها معطوفة على ﴿ جئتمونا وتركتم ﴾ لأنّ هذا الخبر أيضاً مراد به التّخطئة والتّلهيف ، فالمشركون كانوا إذا اضطربت قلوبهم في أمر الإسلام علّلوا أنفسهم بأنّ آلهتهم تشفع لهم عند الله .

وقد روى بعضهم : أنّ النّضر بن الحارث قال ذلك ، ولعلّه قاله استسخاراً أو جهلاً ، وأنّ الآية نزلت ردّاً عليه ، أي أن في الآية ما هو ردّ عليه لا أنّها نزلت لإبطال قوله لأنّ هذه الآيات متّصل بعضها ببعض ، وفي قوله : ﴿ وما نرى معكم شفعاءكم ﴾ بيان أيضاً وتقرير لقوله : ﴿ فرادى ﴾ .

*(193/242)*

---

وقوله : ﴿ وما نرى معكم شفعاءكم ﴾ تهكّم بهم لأنّهم لا شفعاء لهم فسيق الخطاب إليهم مساق كلام من يترقّب ، أي يرى شيئاً فلم يره على نحو قوله في الآية الأخرى ﴿ ويقول أين شركائي الّذين كنتم تُشَاقُّون فيهم ﴾ [ النحل : 27 ] ، بناء على أنّ نفي الوصف عن شيء يدلّ غالباً على وجود ذلك الشّيء ، فكان في هذا القول إيهام أنّ شفعاءهم موجودون سوى أنّهم لم يحضروا ، ولذلك جيء بالفعل المنفي بصيغة المضارع الدالّ على الحال دون الماضي ليشير إلى أنّ انتفاء رؤية الشّفعاء حاصل إلى الآن ، ففيه إيهام أنّ رؤيتهم

محتملة الحصول بعد في المستقبل ، وذلك زيادة في التهكّم .

وأضيف الشّفعاء إلى ضمير المخاطبين لأنّه أريد شفعاء معهودون ، وهم الآلهة الّتي عبدوها وقالوا : ﴿ ما نعبدهم إلاّ ليقرّبونا إلى الله زلفى ﴾ [ الزمر : 3 ] ﴿ ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ [ يونس : 18 ] .

وقد زيد تقرير هذا المعنى بوصفهم بقوله : ﴿ الّذين زعمتم أنّهم فيكم شركاء ﴾ .

والزّعم : القول الباطل سواء كان عن تعمّد للباطل كما في قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الّذين يزعمون أنّهم آمنوا بما أنزل إليك ﴾ [ النساء : 60 ] أم كان عن سوء اعتقاد كما هنا ، وقوله : ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ثمّ نقول للّذين أشركوا أين شركاؤكم الّذين كنتم تزعمون ﴾ [ الأنعام : 22 ] ، وقد تقدّم ذلك في هاتين الآيتين في سورة النساء وفي هذه السورة .

*(194/242)*

---

وتقديم المجرور في قوله : ﴿ فيكم شركاء ﴾ للاهتمام الّذي وجهُه التَعجيب من هذا المزعوم إذ جعلوا الأصنام شركاء لله في أنفسهم وقد علموا أنّ الخالق هو الله تعالى فهو المستحقّ للعبادة وحده فمن أين كانت شركة الأصنام لله في استحقاق العبادة ، يعني لو ادّعوا للأصنام شيئاً مغيباً لا يُعرف أصل تكوينه لكان العجب أقلّ ، لكن العجب كلّ

العجب من ادّعائهم لهم الشركة في أنفسهم ، لأنّهم لمّا عبدوا الأصنام وكانت العبادة حقّاً لأجل الخالقيّة ، كان قد لزمهم من العبادة أن يزعموا أنّ الأصنام شركاء لله في أُنْفُس خلقه ، أي في خلقهم ، فلذلك عُلِّقت النّفوس بالوصف الدالّ على الشركة .

وتقدّم معنى الشّفاعة عند قوله تعالى : ﴿ ولا يُقبل منها شفاعة ﴾ في سورة [ البقرة : 48 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

*(195/242)*

---

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : "ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة" ، وفى سورة الكهف : "لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة" ومرمى الآيتين واحد ، فيسأل عن زيادة "فرادى" فى آية الأنعام ؟

والجواب والله أعلم : أن ذلك مراعى فيه فى آية الأنعام ما أعقبت به من قوله : "وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم" أى ما أعطيناكم فى الدنيا مما شغلكم عن آخرتكم ، ثم قال : "وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء" أى منفردين عما كنتم تؤملون

من أندادكم ومعبوداتكم من دونه سبحانه ، فلرعى هذا المعقب به فى آية الأنعام ما قيل فيها : "ولقد جئتمونا فرادى " .

أما آية الكهف فقبلها قوله تعالى : "ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة فحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا " ثم قال : "وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة " مجردين عن كل متعلق .

ولم يقع هنا ذكر ولا إشارة إلى ما عبد من دون الله فلهذا لم يقع هنا "فرادى " وذلك بين التناسب وعكس الوارد لم يناسب والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 164 ﴾

سؤال : فإن قيل : فقوله : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا ﴾ خبر عن ماض ، والمقصود منه الاستقبال ؟

فعن ذلك جوابان . أحدهما : أنه يقال لهم ذلك في الآخرة فهو على الظاهر إخبار .

والثاني : أنه لتحققه بمنزلة ما كان ، فجاز ، وإن كان مستقبلاً أن يعبر عنه بالماضي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

*(196/242)*

قوله تعالى ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ نافع وحفص عن عاصم والكسائي ﴿ بَيْنكُمْ ﴾ بالنصب ، والباقون بالرفع قال الزجاج : الرفع أجود ، ومعناه ، لقد تقطع وصلكم ، والنصب جائز والمعنى : لقد تقطع ما كنتم فيه من الشركة بينكم .

قال أبو علي : هذا الاسم يستعمل على ضربين : أحدهما : أن يكون اسماً منصرفاً كالافتراق ، والأجود أن يكون ظرفاً والمرفوع في قراءة من قرأ ﴿ بَيْنكُمْ ﴾ هو الذي كان ظرفاً ثم استعمل اسماً ، والدليل على جواز كونه اسماً قوله تعالى : ﴿ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [ فصلت : 5 ] و ﴿ هذا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ﴾ [ الكهف : 78 ] فلما استعمل اسماً في هذه المواضع جاز أن يسند إليه الفعل الذي هو ﴿ تُقَطَّعَ ﴾ في قول من رفع .

قال : ويدل على أن هذا المرفوع هو الذي استعمل ظرفاً أنه لا يخلو من أن يكون الذي هو ظرف اتسع فيه أو يكون الذي هو مصدر .

والقسم الثاني باطل ، وإلا لصار تقدير الآية : لقد تقطع افتراقكم وهذا ضد المراد ، لأن المراد من الآية لقد تقطع وصلكم وما كنتم سالفون عليه .

فإن قيل : كيف جاز أن يكون بمعنى الوصل مع أن أصله الافتراق والتباين ؟

قلنا : هذا اللفظ إنما يستعمل في الشيئين اللذين بينهما مشاركة ومواصلة من بعض الوجوه ، كقولهم بيني وبينه شركة ، وبيني وبينه رحم ، فلهذا السبب حسن استعمال هذا اللفظ في معنى الوصلة فقوله : ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ معناه لقد تقطع وصلكم .

أما من قرأ ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ بالنصب فوجهه أنه أضمر الفاعل والتقدير : لقد تقطع وصلكم بينكم وقال سيبويه : إنهم قالوا إذا كان غداً فأتني والتقدير : إذا كان الرجاء أو البلاء غداً فأتني ، فأضمر لدلالة الحال .

فكذا ههنا .

وقال ابن الأنباري : التقدير : لقد تقطع ما بينكم .

فحذفت لوضوح معناها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 72 ﴾

وقال ابن عطية :

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وابن عامر ، وحمزة " بينُكم " بالرفع ، وقرأ نافع والكسائى " بينَكم " بالنصب أما الرفع فعلى وجوه ، أولاها أنه الظرف استعمل اسماً وأسند إليه الفعل كما قد استعملوه ، اسماً في قوله تعالى : ﴿ من بيننا وبينك حجاب ﴾ [ فُصّلت : 5 ] وكقولهم فيما حكى سيبويه أحمر بن بين العينين ، ورجح هذا القول أبو علي الفارسي ، والوجه الآخر أن بعض المفسرين منهم الزهراوي والمهدوي وأبو الفتح وسواهم حكوا أن " البين " في اللغة يقال على الافتراق وعلى الوصل فكأنه قال لقد تقطع وصلكم .

قال القاضي أبو محمد : وفي هذا عندي اعتراض لأن ذلك لم يرو مسموعاً عن العرب وإنما انتزع من الآية ، والآية محتملة ، قال الخليل في العين " والبين " الوصل .

لقوله عز وجل : ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ فعلل سوق اللفظة بالآية ، والآية معرضة لغير ذلك ، أما إن أبا الفتح قوى أن " البين " الوصل وقال : " وقد أتقن ذلك بعض المحدثين بقوله : قد أنصف البين من البين " .

والوجه الثالث من وجوه الرفع أن يكون " البين " على أصله في الفرقة من بان يبين إذا بعد ، ويكون في قوله : ﴿ تقطع ﴾ تجوز على نحو ما يقال في الأمر البعيد في المسافة تقطعت الفجاج بين كذا وكذا عبارة عن بعد ذلك ، ويكون المقصد لقد تقطعت المسافة بينكم لطولها فعبر عن ذلك " بالبين " الذي هو الفرقة ، وأما وجه قراءة النصب فأن يكون ظرفاً

ويكون الفعل مستنداً إلى شيء محذوف وتقديره لقد تقطع الاتصال أو الارتباط بينكم أو نحو هذا .

(199/242)

---

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : وهذا وجه واضح وعليه فسره الناس : مجاهد والسدي وغيرهما ، وجه آخر يراه أبو الحسن الأخفش وهو أن يكون الفعل مسنداً إلى الظرف ويبقى الظرف على حال نصبه وهو في النية مرفوع ، ومثل هذا عنده قوله ﴿ وإنّا منا الصالحون ومنا دون ذلك ﴾ [ الجن : 11 ] وقرأ ابن مسعود ومجاهد والأعمش " تقطع ما بينكم " بزيادة ما و ﴿ ضل ﴾ معناه تلف وذهب ، و ﴿ ما كنتم تزعمون ﴾ يريد دعواهم أنها تشفع وتشارك الله في الألوهية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ قرأ نافع والكسائِيّ وحَفْص بالنصب على الظرف ، على معنى لقد تقطع وصلُكم بينكم .

ودلّ على حذف الوصل قوله "وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ" .

فدلّ هذا على التقاطع والتهاجر بينهم وبين شركائهم : إذ تبرءوا منهم ولم يكونوا معهم .

ومقاطعتهم لهم هو تركهم وصلهم لهم ؛ فحُسن إضمار الوصل بعد "تقطّع" لدلالة الكلام عليه .

وفي حرف ابن مسعود ما يدلّ على النصب فيه "لقد تقطّع ما بينكم" .

وهذا لا يجوز فيه إلا النصب ، لأنك ذكرت المتقطّع وهو "ما" .

كأنه قال : لقد تقطّع الوصل بينكم .

وقيل : المعنى لقد تقطّع الأمر بينكم .

والمعنى متقارب .

وقرأ الباقون "بَيْنُكُمْ" بالرفع على أنه اسم غير ظرف ، فأسنِد الفعل إليه فرُفع .

ويقوّي جعل "بين" اسما من جهة دخول حرف الجر عليه في قوله تعالى : ﴿ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [ فصلت : 5 ] و﴿ هذا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ [ الكهف : 78 ] .

ويجوز أن تكون قراءة النصب على معنى الرفع ، وإنما نصب لكثرة استعماله ظرفاً منصوباً وهو في موضع رفع ، وهو مذهب الأخفش ؛ فالقراءتان على هذا بمعنى واحد ، فاقرأ بأيهما شئت .

﴿ وَضَلَّ عَنكُم ﴾ أي ذهب .

﴿ مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أي تكذّبون به في الدنيا رُوي أن الآية نزلت في النضر بن الحارث .

" ورُوي أن عائشة رضي الله عنها قرأت قول الله تعالى : "وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ" فقالت : يا رسول الله ، واسوءتاها إن الرجال والنساء يحشرون جميعاً ، ينظر بعضهم إلى سَوْءة بعض ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لكل امرىء منهم يومئذ شأنٌ يُغنِيه لا ينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال شُغل بعضهم عن بعض" " وهذا حديث ثابت في الصحيح أخرجه مسلم بمعناه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾

قرأ جمهور السبعة ﴿ بينكم ﴾ بالرفع على أنه اتسع في الظرف وأسند الفعل إليه فصار اسماً كما استعملوه اسماً في قوله : ﴿ ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ وكما حكى سيبويه هو أحمر بين العينين ورجحه الفارسي أو على أنه أريد بالبين الوصل أي لقد تقطع وصلكم قاله أبو الفتح والزهراوي والمهدوي وقطع فيه ابن عطية وزعم أنه لم يسمع من العرب البين بمعنى الوصل وإنما انتزع ذلك من هذه الآية أو على أنه أريد بالبين الافتراق وذلك مجاز عن الأمر

البعيد ، والمعنى : لقد تقطعت المسافة بينكم لطولها فعبر عن ذلك بالبين ، وقرأ نافع والكسائي وحفص ﴿ بينكم ﴾ بفتح النون وخرجه الأخفش على أنه فاعل ولكنه مبني على الفتح حملاً على أكثر أحوال هذا الظرف وقد يقال لإضافته إلى مبني كقوله : ﴿ ومنا دون ذلك ﴾ وخرجه غيره على أن منصوب على الظرف وفاعل ﴿ تقطع ﴾ التقطع ، قال الزمخشري : وقع التقطع بينكم كما تقول : جمع بين الشيئين تريد أوقع الجمع بينهما على إسناد الفعل إلى مصدره بهذا التأويل انتهى .

*(201/242)*

---

وظاهره ليس بجيد وتحريره أنه أسند الفعل إلى ضمير مصدره فأضمره فيه لأنه إن أسنده إلى صريح المصدر ، فهو محذوف فلا يجوز حذف الفاعل وهو مع هذا التقدير فليس بصحيح لأن شرط الإسناد مفقود فيه وهو تغاير الحكم والمحكوم عليه ، ولذلك لا يجوز قام ولا جلس وأنت تريد قام هو أي القيام ، وقيل : الفاعل مضمر يعود على الاتصال الدال عليه قوله : ﴿ شركاء ﴾ ولا يقدر الفاعل صريح المصدر كما قاله ابن عطية قال : ويكون الفعل مستنداً إلى شيء محذوف تقديره : لقد تقطع الاتصال والارتباط بينكم أو نحو هذا وهذا وجه واضح وعليه فسره الناس مجاهد والسدّي وغيرهما انتهى ، وقوله إلى

شيء محذوف ليس بصحيح لأن الفاعل لا يحذف ، وأجاز أبو البقاء أن يكون بينكم صفة لفاعل محذوف أي لقد تقطع شيء بينكم أو وصل وليس بصحيح أيضاً لأن الفاعل لا يحذف والذي يظهر لي أن المسألة من باب الإعمال تسلط على ﴿ ما كنتم تزعمون ﴾ تقطع وضل فأعمل الثاني وهو ضل وأضمر في ﴿ تقطع ﴾ ضمير ما وهم الأصنام فالمعنى ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ ﴿ ما كنتم تزعمون ﴾ وضلوا عنكم كما قال تعالى : ﴿ وتقطعت بهم الأسباب ﴾ أي لم يبق اتصال بينكم وبين ﴿ ما كنتم تزعمون ﴾ أنهم شركاء فعبدتموهم وهذا إعراب سهل لم يتنبه له أحد ، وقرأ عبد الله ومجاهد والأعمش ﴿ ما بينكم ﴾ والمعنى تلف وذهب ما ﴿ بينكم ﴾ وبين ﴿ ما كنتم تزعمون ﴾ ومفعولاً ﴿ تزعمون ﴾ محذوفان التقدير تزعمونهم شفعاء حذفاً للدلالة عليهما كما قال الشاعر :

ترى حبهم عاراً عليّ وتحسب . . .

أي وتحسبه عاراً ، ولأبي عبد الله الرازي في هذه الآية كلام يشبه آراء الفلاسفة قال في آخره وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ والمعنى أن الوصلة الحاصلة بين النفس والجسد قد انقطعت ولا سبيل إلى تحصيلها مرة أخرى انتهى .

وليس هذا مفهوماً من الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ بنصب بين وهي قراءة عاصم والكسائي وحفص عن عاصم ، واختلف في تخريج ذلك فقيل : الكلام على إضمار الفاعل لدلالة ما قبل عليه أي تقطع الأمر أو الوصل بينكم ، وقيل : إن الفاعل ضمير المصدر ، وتعقبه أبو حيان بأنه غير صحيح لأن شرط إفادة الإسناد مفقودة فيه وهو تغاير الحكم والمحكوم عليه ولذلك لا يجوز قام ولا جلس وأنت تريد قام هو أي القيام وجلس هو أي الجلوس .

ورد بأنه سمع بدا بداء ، وقد قدروا في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيات لَيَسْجُنُنَّهُ ﴾ [ يوسف : 35 ] بدا البداء .

وقال السفاقسي : إن من جعل الفاعل ضمير المصدر قال : المراد وقع التقطع والتغاير حاصل بهذا الاعتبار ولو سلم فالتقطع المعتبر مرجعاً معرف بلام الجنس و ﴿ تُقَطَّعَ ﴾ منكر فكيف يقال اتحد الحكم والمحكوم عليه .

ولا يخفى أن القول بالتأويل متعين على هذا التقدير لأنه إذا تقطع التقطع حصل الوصل وهو ضد المقصود وقيل : إن بين هو الفاعل وبقي على حاله منصوباً حملاً له على أغلب أحواله وهو مذهب الأخفش ، وقيل : إنه بني لإضافته إلى مبنى ، وقيل غير ذلك .

واختار أبو حيان "أن الكلام من باب ( التنازع سلط ) على ما كنتم تزعمون تقطع وضل (

عنكم ) فأعمل الثاني وهو ﴿ ضَلَّ ﴾ وأضمر في ﴿ تُقَطِّعَ ﴾ ( ضميره ) .

والمراد بذلك الأصنام ، والمعنى لقد تقطع بينكم ما كنتم تزعمون وضلوا عنكم كما قال تعالى : ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الاسباب ﴾ [ البقرة : 166 ] أي لم يبق اتصال بينكم وبين ما كنتم تزعمون أنهم شركاء فعبدتموهم .

وقرأ باقي السبعة ﴿ بَيْنِكُمْ ﴾ بالرفع على الفاعلية وهو من الأضداد كالقرء يستعمل في الوصل والفصل ، والمراد به هنا الوصل أي تقطع وصلكم وتفرق جمعكم ، وطعن ابن عطية في هذا بأنه لم يسمع من العرب أن البين بمعنى الوصل وإنما انتزع من هذه الآية .

وأجيب بأنه معنى مجازي ولا يتوقف على السماع لأن بين يستعمل بين الشيئين المتلابسين نحو بيني وبينك رحم وصداقة وشركة فصار لذلك بمعنى الوصلة .

على أنه لو قيل بأنه حقيقة في ذلك لم يبعد ، فإن أبا عمر .

وأبا عبيدة وابن جني والزجاج وغيرهم من أئمة اللغة نقلوه وكفى بهم سنداً فيه ، فكونه منتزعاً من هذه الآية غير مسلم ، وعليه فيكون مصدراً لا ظرفاً .

وقيل : إن بين هنا ظرف لكنه أسند إليه الفعل على سبيل الاتساع .

وقرأ عبد الله ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ مَا بَيْنِكُمْ ﴾ وما فيه موصوفة أو موصولة ﴿ وَضَلَّ عَنكُم ﴾ ضاع وبطل ﴿ مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أنها شفعاؤكم أو أنها شركاء لله تعالى فيكم أو أن لا بعث ولا جزاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

---

وقال ابن عاشور :

وجملة : ﴿ لقد تقطّع بينَكم ﴾ استئناف بياني لجملة : ﴿ وما نرى معكم شفعاءكم ﴾ لأنّ المشركين حين يسمعون قوله : ﴿ ما نَرى معكم شفعاءكم ﴾ يعتادهم الطّمع في لقاء شفعائهم فيتشوّفون لأن يعلموا سبيلهم ، فقيل لهم : لقدْ تقطَّع بينكم تأييساً لهم بعد الإطماع التهكمي ، والضّمير المضاف إليه عائد إلى المخاطبين وشفعائهم .

وقرأ نافع ، والكسائي ، وحفص عن عاصم بفتح نون ﴿ بينَكم ﴾ .

ف ( بينَ ) على هذه القراءة ظرف مكان دالّ على مكان الاجتماع والاتّصال فيما يضاف هُو إليه .

وقرأ البقيّة بضمّ نون ﴿ بينكم ﴾ على إخراج ( بين ) عن الظّرفية فصار اسماً متصرّفاً وأسند إليه التقطّع على طريقة المجاز العقلي .

وحذف فاعل تقطّع على قراءة الفتح لأنّ المقصود حصول التقطّع ، ففاعله اسم مُبهم ممّا يصلح للتقطّع وهو الاتّصال .

فيقدّر : لقد تقطّع الحَبْل أو نحوُه .

قال تعالى : ﴿ وتقطَّعت بهم الأسباب ﴾ [ البقرة : 166 ] .

وقد صار هذا التّركيب كالمثَل بهذا الإيجاز .

وقد شاع في كلام العرب ذكر التقطّع مستعاراً للبعد وبطلان الاتّصال تبعاً لاستعارة الحبل للاتّصال ، كما قال امرؤ القيس

تَقَطَّعَ أسبابُ اللُّبانةِ والهوى . . .

عَشِيَّةَ جاوزنا حَمَاةَ وشَيْزَرا

فمن ثمّ حسن حذف الفاعل في الآية على هذه القراءة لدلالة المقام عليه فصَار كالمثل .

وقدّر الزمخشري المصدر المأخوذ من ﴿ تقطّع ﴾ فاعلاً ، أي على إسناد الفعل إلى مصدره بهذا التّأويل ، أي وقع التقطّع بينَكم .

وقال التفتازاني : "الأوْلى أنّه أسند إلى ضمير الأمْر لتقرّره في النّفوس ، أي تقطّع الأمْر بينكم" .

(204/242)

---

وقريب من هذا ما يقال : إنّ ﴿ بينكم ﴾ صفة أقيمت مقام الموصوف الّذي هو المسند إليه ، أي أمر بينكم ، وعلى هذا يكون الاستعمال من قبيل الضّمير الّذي لم يذكر مَعاده

لكونه معلوماً من الفعل كقوله : ﴿ حتّى توارت بالحجاب ﴾ [ ص : 32 ] ، لكن هذا لا يعهد في الضّمير المستتر لأنّ الضّمير المستتر ليس بموجود في الكلام وإنّما دعا إلى تقديره وجود مَعاده الدّال عليه .

فأمّا والكلام خليّ عن معاد وعن لفظ الضّمير فالمتعيّن أن نجعله من حذف الفاعل كما قرّرته لك ابتداء ، ولا يقال : إنّ ﴿ توارت بالحجاب ﴾ ليس فيه لفظ ضمير إذ التّاء علامة لإسناد الفعل إلى مؤنّث لأنّا نقول : التّحقيق أنّ التّاء في الفعل المسند إلى الضّمير هي الفاعل .

وعلى قراءة الرّفع جعل ﴿ بينكم ﴾ فاعلاً ، أي أخرج عن الظّرفية وجعل اسماً للمكان الّذي يجتمع فيه ما صُدق الضمير المضاف إليه اسم المكان ، أي انفصل المكان الّذي كان محلّ اتّصالكم فيكون كناية عن انفصال أصحاب المكان الّذي كان محلّ اجتماع .

والمكانية هنا مجازيّة مثل ﴿ لا تقدّموا بين يدي الله ورسوله ﴾ [ الحجرات : 1 ]

وقوله : ﴿ وضلّ عنكم ﴾ عطف على ﴿ تقطّع بينكم ﴾ وهو من تمام التهكّم والتأييس .

ومعنى ضلّ : ضدّ اهتدى ، أي جهل شفعاؤكم مكانكم لمّا تقطّع بينكم فلم يهتدوا إليكم ليشفعوا لكم .

و( ما ) موصولة ما صُدقها الشفعاء لاتّحاد صلتها وصلة ﴿ الّذين زعمتم أنّهم فيكم

شركاء ﴾ ، أي الّذين كنتم تزعمونهم شركاء ، فحذف مفعولا الزّعم لدلالة نظيره عليهما في قوله : ﴿ زعمتم أنّهم فيكم شركاء ﴾ ، وعُبّر عن الآلهة بـ ( ما ) الغالبة في غير العاقل لظهور عدم جدواها ، وفسّر ابن عطيّة وغيره ضَلّ بمعنى غاب وتلف وذهب ، وجعلوا ( ما ) مصدريّة ، أي ذهب زعمكم أنّها تشفع لكم .

وما ذكرناه في تفسير الآية أبلغ وأوقع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(205/242)

---

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذه الآية مشتملة على قانون شريف في معرفة أحوال القيامة فأولها : أن النفس الإنسانية إنما تعلقت بهذا الجسد آلة له في اكتساب المعارف الحقة والأخلاق الفاضلة فإذا فارقت النفس الجسد ولم يحصل هذين المطلوبين ألبتة عظمت حسراته وقويت آفاته حيث وجد مثل هذه الآلة الشريفة التي يمكن اكتساب السعادة الأبدية بها ، ثم إنه ضيعها وأبطلها ولم ينتفع بها ألبتة ، وهذا هو المراد من قوله : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى كَمَا خلقناكم أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ وثانيها : أن هذه النفس مع أنها لم تكتسب بهذه الآلة الجسدانية سعادة روحانية ،

وكمالاً روحانياً ، فقد عملت عملاً آخر أردأ من الأول ، وذلك لأنها طول العمر كانت في الرغبة في تحصيل الماء والجاه وفي تقوية العشق عليها ، وتأكيد المحبة ، وفي تحصيلها .

والإنسان في الحقيقة متوجه من العالم الجسماني إلى العالم الروحاني ، فهذا المسكين قلب القضية وعكس القضية وأخذ يتوجه من المقصد الروحاني إلى العالم الجسماني ونسي مقصده واغتر باللذات الجسمانية ، فلما مات انقلبت القضية شاء أم أبى توجه من العالم الجسماني إلى العالم الروحاني ، فبقيت الأموال التي اكتسبها وأفنى عمره في تحصيلها وراء ظهره والشيء الذي يبقى وراء ظهر الإنسان لا يمكنه أن ينتفع به ، وربما بقي منقطع المنفعة معوج الرقبة معوج الرأس بسبب التفاته إليها مع الهجز عن الانتفاع بها ، وذلك يوجب نهاية الخيبة والغم والحسرة وهو المراد من قوله : ﴿ وَتَرَكْتُمْ مَّا خولناكم وَرَاء ظُهُورِكُمْ ﴾ وهذا يدل على أن كل مال يكتسبه الإنسان ولم يصرفه في مصارف الخيرات فصفته هذه التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية ، أما إذا صرفها إلى الجهات الموجبة للتعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله فما ترك تلك الأموال وراء ظهره ولكنه قدمها تلقاء وجهه ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنْفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ ﴾ [ البقرة : 110 ]

وثالثها : أن أولئك المساكين أتعبوا أنفسهم في نصرة الأديان الباطلة ، والمذاهب الفاسدة وظنوا أنهم ينتفعون بها عند الورود في محفل القيامة ، فإذا وردوه وشاهدوا ما في تلك المذاهب من العذاب الشديد والعقاب الدائم حصلت فيه جهات كثيرة من العذاب .

منها عذاب الحسرة والندامة : وهو أنه كيف أنفق ماله في تحمل العناء الشديد والبلاء العظيم في تحصيل ما لم يحصل له منه إلا العذاب والعناء ، ومنها عذاب الخجلة : وهو أنه ظهر له أن كل ما كان يعتقده في دار الدنيا كان محض الجهالة وصريح الضلالة ، ومنها حصول اليأس الشديد مع الطمع العظيم ، ولا شك أن مجموع هذه الأحوال يوجب العذاب الشديد والآلام العظيمة الروحانية ، وهو المراد من قوله : ﴿ وَمَا نرى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الذين زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء ﴾

ورابعها : أنه لما بدا له أنه فاته الأمر الذي به يقدر على اكتساب الخيرات ، وحصل عنده الأمر الذي يوجب حصول المضرات ، فإذن بقي له رجاء في التدارك من بعض الوجوه فههنا يخف ذلك الألم ويضعف ذلك الحزن .

أما إذا حصل الجزم واليقين بأن التدارك ممتنع ، وجبر ذلك النقصان متعذر فههنا يعظم الحزن ويقوى البلاء جداً ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ والمعنى أن الوصلة الحاصلة بين النفس والجسد قد تقطعت ولا سبيل إلى تحصيلها مرة أخرى .

وعند الوقوف على حقائق هذه المراتب يظهر أنه لا بيان فوق هذا البيان في شرح أحوال هؤلاء الضالين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 72 . 73 ﴾

*(207/242)*

---

لطيفة

قال فى روح البيان :

اعلم أن للإنسان أعداء أربعة هي : المال والأهل والأولاد والأصدقاء ، وهي لا تدخل في القبر مع الميت فيبقى فريداً وحيداً منهم ، وأصدقاء أربعة هي : كلمة الشهادة والصلاة والصوم وذكر الله هي تدخل في القبر وتشفع عند الله تعالى فتصحب الميت فلا يبقى وحيداً .

فعلى العاقل أن يتفكر في تجرده وتفرده فيسعى في تحصيل لباس له هو التقوى ومصاحب هو العمل الصالح ، وفي الحديث : "إن عمل الإنسان يدفن معه في قبره ، فإن كان العمل كريماً أكرم صاحبه ، وإن كان لئيماً أسلمه ، وإن كان عملاً صالحاً آنس صاحبه وبشره ووسع عليه قبره ونوره وحماه من الشدائد والأهوال والعذاب والوبال ، وإن كان عملاً سيئاً فزع صاحبه وروّعه وأظلم عليه قبره وضيقه وعذبه وخلّى بينه وبين الشدائد والأهوال

والعذاب والوبال" .

قال اليافعي : وقد سمعت عن بعض الصالحين في بعض بلاد اليمن أنه لما دفن بعض الموتى وانصرف الناس سمع في القبر صوتاً ودقّاً عنيفاً ثم خرج من القبر كلب أسود فقال له الشيخ الصالح ويحك ايش أنت ؟ فقال : أنا عمل الميت فقال : فهذا الضرب فيك أم فيه ؟ قال : بل فيّ وجدت عنده سورة يس وأخواتها فحالت بيني وبينه وضربت وطردت فانظر إنه لما قوي عمله الصالح غلب على عمله الطالح

وطرده عنه بكرم الله تعالى ولو كان عمله القبيح أقوى لغلب عليه وأفزعه وعذب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح البيان حـ 3 صـ 90 ﴾

*(208/242)*

---

ومن فوائد السمرقندى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى ﴾ يعني : في الآخرة ﴿ فرادى ﴾ لا ولد لكم ولا مال .

الفرادى جمع فرد ، يعني : ليس معكم من دنياكم شيء .

﴿ كَمَا خلقناكم ﴾ يعني : أعطيناكم من المال والولد ﴿ وَتَرَكْتُمْ مَّا خولناكم وَرَاء ظُهُورِكُمْ ﴾ في الدنيا .

﴿ وَمَا نرى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ ﴾ يعني : آلهتكم ﴿ الذين زَعَمْتُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء ﴾ يعني : قلتم لي شريك ولكم شفعاء عند الله .

﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ قرأ نافع والكسائي وعاصم في رواية حفص ﴿ بَيْنِكُمْ ﴾ بالنصب وقرأ الباقون ﴿ بَيْنُكُمْ ﴾ بالضم فمن قرأ بالضمّ جعل البَيْن اسماً ، يعني : تقطع وصْلُكم ومودتكم .

ومن قرأ بالنصب فمعناه لقد تقطع ما كنتم فيه من الشركة بينكم ، فيصير نصباً بالظرف كما تقول : أصبحت بينكم أي فيما بينكم .

﴿ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ يعني : اشتغل عنكم ما كنتم تعبدون وتزعمون أنها شفعاؤكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

ومن فوائد الثعلبى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى ﴾ هذا خبر من اللّه تعالى أنه يقول للكفار يوم القيامة : ولقد جئتمونا فرادى وجدانا لا مال معكم ولا زوج ولا ولد ولا خدم ولا حشم .

قال الحسن : ولقد جئتمونا فرادى كل واحدة على حدة .

وقال ابن كيسان : مفردين من المعبودين ، وفرادى جمع فردان مثل سكران وسكارى ، وكسلان وكسالى . ويقال أيضاً في واحد فرد بجزم الراء وفرِد بكسرها وفرَد بالفتح وأفرد وجمعها أفراد مثل أحاد وفريد وفردان مثل قضيب وقضبان وكثيب وكثبان .

*(209/242)*

---

وقرأ الأعرج : فردى بغير ألف مثل كسرى [ وكسلى ] ﴿ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ عراة حفاة غرلاً بهم ﴿ وَتَرَكْتُمْ ﴾ وخلفتم ﴿ مَّا خَوَّلْنَاكُمْ ﴾ أعطيناكم ومكّناكم من الأموال والأولاد والخدم ﴿ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ خلف ظهوركم في الدنيا .

روى محمد بن كعب عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ينفخ نفخة البعث فتخرج الأرواح كأنها النحل قد ملئت ما بين السماء والأرض فيقول الجبار جل جلاله : [ وعزّتي ] وجلالي ليرجعن كل روح إلى جسده ، فتدخل الأرواح في الأجساد وإنما يدخل في الخياشم كما يدخل السم في اللديغ ثم يشق عليكم الأرض وأنا أول من يشق عنه الأرض فينسلون عنهم سراعاً إلى ربكم على سن ثلاثين مهطعين إلى الداعي فيوقفون في موقف منه سبعين عاماً حفاة عراة غرلاً بهم لا يناظر إليكم فلا يقضي بينكم فتبكي الخلائق حتى ينقطع الدمع ويجف العرق " .

وقال القرضي : " قرأت عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قول اللّه عز وجل ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ، فقالت : يا رسول اللّه وأسوتاه إن الرجال والنساء يحشرون جميعاً ينظر بعضهم إلى سوأة بعض ؟ فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم " لكلّ إمرىء منهم يومئذ شأن يغنيه لا ينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال شغل بعضهم عن بعض " .

﴿ وَمَا نرى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الذين زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ﴾ وذلك إن المشركين زعموا أنهم يعبدون الأصنام لأنهم شركاء اللّه وشفعاؤهم عنده ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ .

قرأ أهل المدينة ، والحسن ، ومجاهد ، وأبو رجاء ، والكسائي : بينكم نصباً .

وقرأ أهل المدينة ، والحسن ، ومجاهد : وهي قراءة أبي موسى الأشعري على معنى لقد تقطع ما بينكم وكذلك هو في قراءة عبد اللّه وقرأ الباقون : بالرفع على معنى لقد تقطع وصلكم فالبين من الأضداد يكفي وصلاً وهجراً وأنشد :

لعمرك لولا البين لا يقطع الهوى . . . ولولا الهوى ما حنّ للبين آلف . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(210/242)

ومن فوائد ابن كثير فى الآية

قال رحمه الله :

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي : يقال لهم يوم معادهم هذا ، كما قال ﴿ وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الكهف : 48] ، أي : كما بدأناكم أعدناكم ، وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه ، فهذا يوم البعث .

وقوله : ﴿ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ ﴾ أي : من النعم والأموال التي اقتنيتموها في الدار الدنيا ﴿ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ وثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "يقول ابن آدم : مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس" .

وقال الحسن البصري : يؤتى بابن آدم يوم القيامة كأنه بَذَج فيقول الله ، عَزَّ وجل ، [له] أين ما جمعت ؟ فيقول يا رب ، جمعته وتركته أوفر ما كان ، فيقول : فأين ما قدمت لنفسك ؟ فلا يراه قدم شيئا ، وتلا هذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ رواه ابن أبي حاتم .

وقوله : ﴿ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ﴾ تقريع لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا في [الدار] الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان ، ظانين أن تلك تنفعهم في معاشهم ومعادهم إن كان ثَمَّ معاد ، فإذا كان يوم القيامة تقطعت الأسباب ، وانزاح الضلال ، وضل عنهم ما كانوا يفترون ، ويناديهم الرب ، عَزَّ وجل ، على رءوس الخلائق : ﴿ أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام : 22] وقيل لهم ﴿ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ [الشعراء : 92 ، 93] ؛ ولهذا قال هاهنا : ﴿ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ﴾ أي : في العبادة ، لهم فيكم قسط في استحقاق العبادة لهم .

*(212/242)*

---

ثم قال تعالى : ﴿ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ قُرئ بالرفع ، أي شملكم ، وقُرئ بالنصب ، أي : لقد انقطع ما بينكم من الوُصُلات والأسباب والوسائل ﴿ وَضَلَّ عَنْكُمْ ﴾ أي : وذهب عنكم ﴿ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ من رجاء الأصنام ، كما قال : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ

مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [البقرة: 166، 167]، وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [المؤمنون: 101]، وقال ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: 25]، وقال ﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ الآية [القصص: 64]، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ إلى قوله: ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: 22 - 24]، والآيات في هذا كثيرة جدا. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 302. 303 ﴾

*(213/242)*

---

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيتين:

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ)

هَاتَانِ الْآيَتَانِ فِي بَيَانِ وَعِيدِ مَنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ وَادَّعَى الْوَحْيَ أَوِ الْإِتْيَانَ بِمِثْلِهِ، قَفَّى بِهِمَا عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ كَوْنِ الْوَحْيِ مِنْ شُؤُونِهِ تَعَالَى وَمُتَعَلِّقِ صِفَاتِهِ، وَمِنَ الرَّدِّ عَلَى

مُنْكِرِيهِ وَإِثْبَاتِ كَوْنِ هَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي أَنْكَرُوا إِنْزَالَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّهُ بَشَرٌ . كَالتَّوْرَاةِ الَّتِي يَعْتَرِفُونَ بِإِنْزَالِهَا عَلَى مُوسَى وَهُوَ بَشَرٌ ، عَلَى أَنَّهُ أَكْمَلُ مِنَ التَّوْرَاةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ ; وَلِذَلِكَ خُوطِبَ بِهِ جَمِيعُ النَّاسِ ، وَجُعِلَ مُكَمِّلًا وَخَاتِمًا لِلْأَدْيَانِ . وَهَذَا الْوَعِيدُ يَتَضَمَّنُ الشَّهَادَةَ بِصِدْقِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ذَلِكَ أَنَّ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ إذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ مَنْدُوحَةٌ عَنِ الْإِيمَانِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَعَنِ الِاهْتِدَاءِ بِهِ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَى الصَّلَوَاتِ وَمَا يَتْبَعُهَا وَيَسْتَلْزِمُهَا كَمَا تَقَدَّمَ آنِفًا ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ أَكْمَلُ النَّاسِ إيمَانًا بِاللَّهِ وَخَشْيَةً لَهُ ، وَإِيمَانًا بِالدَّارِ الْآخِرَةِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْجَزَاءِ - وَهُوَ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامُ - مِمَّنْ يُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِهَذَا الْجَزَاءِ ، وَهُوَ مُنْتَهَى الظُّلْمِ الَّذِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ أَشَدُّ الْوَعِيدِ ؟ قَالَ تَعَالَى :

(214/242)

---

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) افْتِرَاءُ الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ الِاخْتِلَاقُ عَلَيْهِ بِالْحِكَايَةِ عَنْهُ وَالْعَزْوِ إلَيْهِ ، أَوْ بِاتِّخَاذِ الشُّرَكَاءِ وَالْأَنْدَادِ لَهُ كَمَا يُؤْخَذُ مِنْ مَجْمُوعِ مَا وَرَدَ فِي ذَلِكَ وَهُوَ الْمُتَبَادَرُ مِنَ اللَّفْظِ ، وَقَدْ سَبَقَ مِثْلُ هَذَا الِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ فِي أَوَائِلِ هَذِهِ السُّورَةِ (الْآيَةَ 21) وَسَيَأْتِي مِثْلُهُ فِي أَوَاخِرِهَا (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ

عِلْمٍ) 144 وَهُوَ فِيمَنْ يَدَّعِي الْوَحْيَ كَذِبًا . وَمِثْلُ ذَلِكَ فِي الْأَعْرَافِ وَيُونُسَ وَهُودٍ وَالْكَهْفِ وَالْعَنْكَبُوتِ وَالصَّفِّ ، وَأَشْبَهُ مَا فِي هَذِهِ السُّوَرِ بِمَعْنَى الْآيَةِ الَّتِي نُفَسِّرُهَا آيَةُ يُونُسَ ; فَإِنَّهَا فِي سِيَاقِ الْكَلَامِ عَلَى الْقُرْآنِ . قَالَ : (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ) 10 : 15 - 17 وَقَدْ فَسَّرَ الْآلُوسِيُّ افْتِرَاءَ الْكَذِبِ هُنَا بِإِنْكَارِ الْوَحْيِ ، وَهُوَ لَا يَتَّفِقُ مَعَ مَا بَيَّنَّاهُ آنِفًا ، وَالْمَعْنَى لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا .

*(215/242)*

---

(أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ) جَعَلَ بَعْضُهُمْ " أَوْ " هُنَا بِمَعْنَى الْوَاوِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ قَوْمِ شُعَيْبٍ : (أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ) 11 : 87 وَقَوْلِ الشَّاعِرِ " عَلَيْهَا تُقَاهَا أَوْ عَلَيْهَا فُجُورُهَا "

فَيَكُونُ الْعَطْفُ فِيهِ

لِتَفْسِيرِ افْتِرَاءِ الْكَذِبِ ، وَنُعَقِّبُ بِأَنَّ التَّفْسِيرَ لَا يَأْتِي بِـ " أَوْ " وَالْمُخْتَارُ أَنَّهُ مِنْ عَطْفِ الْمُقَيَّدِ عَلَى الْمُطْلَقِ أَوِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ ، فَإِنَّ افْتِرَاءَ الْكَذِبِ عَلَى اللَّهِ يَشْمَلُ كُلَّ قَوْلٍ عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ

(216/242)

---

عِلْمٍ ، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ فِي ذَاتِهِ أَوْ صِفَاتِهِ أَوْ أَفْعَالِهِ ، فَيَدْخُلُ فِيهِ ادِّعَاءُ الْوَحْيِ ، وَمِنْهُ ادِّعَاءُ التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَحْكَامِ الشَّرْعِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَفِي هَذَا الْأَخِيرِ آيَةُ الْأَنْعَامِ (144) وَهِيَ الثَّالِثَةُ فِي هَذَا الْمَعْنَى وَسَتَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ " أَوْ " لِلتَّنْوِيعِ فِي الْمَعْنَى الْوَاحِدِ ، كَأَنْ يُرَادَ بِالِافْتِرَاءِ ادِّعَاءُ النُّبُوَّةِ مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ الْوَحْيِ ، وَبِالثَّانِي ادِّعَاءُ الْوَحْيِ مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ وَإِنْ كَانَا مُتَلَازِمَيْنِ ، وَمَا اخْتَرْنَاهُ أَظْهَرُ . قَالُوا : نَزَلَ هَذَا فِي الَّذِينَ ادَّعَوُا النُّبُوَّةَ مِنَ الْعَرَبِ ، وَرُوِيَ عَنْ عِكْرِمَةَ وَقَتَادَةَ تَخْصِيصُ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ . وَالْحَقُّ أَنَّهُ يَدْخُلُ فِي عُمُومِ حُكْمِهِ مَنْ ذُكِرَ ، وَالسُّورَةُ مَكِّيَّةٌ نَزَلَتْ قَبْلَ ادِّعَائِهِمُ النُّبُوَّةَ بِزَمَنٍ طَوِيلٍ ، فَالْمَعْرُوفُ أَنَّ مُسَيْلِمَةَ ادَّعَى النُّبُوَّةَ سَنَةَ عَشْرٍ مِنَ الْهِجْرَةِ حَتَّى قِيلَ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ بَعْدَ حِجَّةِ الْوَدَاعِ وَفِي أَثْنَاءِ مَرَضِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ ، فَلَمَّا سَمِعَ النَّاسُ بِمَرَضِهِ وَثَبَ الْأَسْوَدُ الْعَنْسِيُّ بِالْيَمَنِ ، وَمُسَيْلِمَةُ بِالْيَمَامَةِ ، وَطُلَيْحَةُ فِي

بَنِي أَسَدٍ فَادَّعَوُا النُّبُوَّةَ . ذَكَرَهُ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي تَارِيخِهِ ، وَيَكْفِي فِي صِحَّةِ الْوَعِيدِ فَرْضُ وُقُوعِ الذَّنْبِ أَوْ تَوَقُّعِهِ ، وَنَاهِيكَ بِوَعِيدِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ جَلَّ وَعَزَّ .

(217/242)

---

(وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ) أَيْ لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ أَوِ ادَّعَى الْوَحْيَ مِنْهُ ، وَمِمَّنِ ادَّعَى أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِنْزَالِ مِثْلِ مَا أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِهِ ، كَمَنْ قَالَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا) 8 : 31 وَهُوَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ ، فَقَدْ كَانَ مِمَّنْ يَقُولُ مِنْ كُفَّارِ مَكَّةَ : إِنَّ الْقُرْآنَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ وَإِنَّهُ شِعْرٌ لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَهُ . وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ عِكْرِمَةَ وَالسُّدِّيِّ أَنَّ هَذَا نَزَلَ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ أَخِي بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ أَسْلَمَ وَكَانَ يَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَكَانَ إِذَا أَمْلَى عَلَيْهِ " سَمِيعًا عَلِيمًا " كَتَبَ هُوَ " عَلِيمًا حَكِيمًا " وَالْعَكْسُ ، فَشَكَّ وَكَفَرَ وَقَالَ : إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ يُوحَى إِلَيْهِ فَقَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ ، وَإِنْ كَانَ اللَّهُ يُنْزِلُهُ فَقَدْ أُنْزِلَتْ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ . وَهَذَا تَمْثِيلُ رِوَايَةِ السُّدِّيِّ لِمَا كَانَ يُغَيِّرُهُ مِنْ عِبَارَةِ الْوَحْيِ ، وَعِبَارَةُ عِكْرِمَةَ أَنَّهُ كَانَ يُمْلِي عَلَيْهِ " عَزِيزٌ حَكِيمٌ " فَيَكْتُبُ " غَفُورٌ رَحِيمٌ " وَهَاتَانِ الرِّوَايَتَانِ بَاطِلَتَانِ ; فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنَ السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ " سَمِيعًا عَلِيمًا

(218/242)

" وَلَا " عَلِيمًا حَكِيمًا " وَلَا " عَزِيزٌ حَكِيمٌ " إِلَّا فِي سُورَةِ لُقْمَانَ ، وَالْمَرْوِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهَا نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الْأَنْعَامِ ، وَأَنَّ الْآيَةَ الَّتِي خُتِمَتْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : " عَزِيزٌ حَكِيمٌ " مِنْهَا وَثِنْتَيْنِ بَعْدَهَا مَدَنِيَّاتٌ (كَمَا فِي الْإِتْقَانِ) وَذَكَرَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ النَّبِيَّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَمْلَى عَلَيْهِ قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ فِي سُورَةِ " الْمُؤْمِنُونَ " : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ) 23 : 12 - فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ) 14 عَجِبَ عَبْدُ اللهِ مِنْ تَفْصِيلِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ فَقَالَ : (فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : " هَكَذَا أُنْزِلَتْ عَلَيَّ " فَشَكَّ حِينَئِذٍ وَقَالَ : لَئِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ صَادِقًا لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ ،

*(219/242)*

---

وَلَئِنْ كَانَ كَاذِبًا لَقَدْ قُلْتُ كَمَا قَالَ . وَلَمْ أَرَ هَذِهِ الرِّوَايَةَ فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ . وَيُقَالُ فِيهَا مِثْلُ مَا قِيلَ فِي الرِّوَايَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ مِنْ حَيْثُ التَّارِيخِ ، فَالْمَرْوِيُّ أَنَّ الْأَنْعَامَ نَزَلَتْ قَبْلَ سُورَةِ " الْمُؤْمِنُونَ " وَأَنَّ بَيْنَهُمَا 18 سُورَةً مَكِّيَّةً ، وَمَا قِيلَ مِنِ احْتِمَالِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ بِالْمَدِينَةِ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ وَالرِّوَايَةُ غَيْرُ صَحِيحَةٍ ، وَلَكِنْ ذَكَرُوا فِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ

الْخَطَّابِ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قَالَ ذَلِكَ ، فَكَانَ مِمَّا وَافَقَ فِيهِ خَاطِرُهُ الْقُرْآنَ ، وَهُوَ جَائِزٌ إنْ صَحَّتِ الرِّوَايَةُ ، وَقَدْ يَكُونُ مِنَ الْكَشْفِ الَّذِي يُعَبِّرُ عَنْهُ عُلَمَاءُ النَّفْسِ الْيَوْمَ بِقِرَاءَةِ الْخَوَاطِرِ . وَرَوَوْا مِثْلَهُ أَيْضًا عَنْ مُعَاذٍ ، وَإِنَّمَا أَسْلَمَ مُعَاذٌ فِي الْمَدِينَةِ بَعْدَ نُزُولِ السُّورَةِ . وَرُوِيَ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ سَعْدٍ لَمَّا ارْتَدَّ كَانَ يَطْعَنُ فِي الْقُرْآنِ ، وَلَعَلَّهُ قَالَ شَيْئًا مِمَّا ذُكِرَ فِي الرِّوَايَاتِ عَنْهُ كَذِبًا وَافْتِرَاءً ; فَإِنَّ السُّوَرَ الَّتِي نَزَلَتْ فِي عَهْدِ كِتَابَتِهِ لَمْ يَكُنْ فِيهَا شَيْءٌ مِمَّا رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ تَصَرَّفَ فِيهِ كَمَا عَلِمْتَ . وَقَدْ رَجَعَ إلَى الْإِسْلَامِ قَبْلَ الْفَتْحِ ، وَلَوْ تَصَرَّفَ فِي الْقُرْآنِ تَصَرُّفًا أَقَرَّهُ عَلَيْهِ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَشَكَّ فِي الْوَحْيِ لِأَجْلِهِ لَمَا رَجَعَ إلَى الْإِسْلَامِ .

*(220/242)*

---

ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى وَعِيدَ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يُعَدُّ مَنْ وُصِفُوا فِي الْآيَةِ أَشَدَّهُمْ ظُلْمًا وَأَفْحَشَهُمْ جُرْمًا فَقَالَ : (وَلَوْ تَرَى إذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ) إلَخْ . الْخِطَابُ لِلرَّسُولِ ثُمَّ لِكُلِّ مَنْ سَمِعَهُ أَوْ قَرَأَهُ ، وَجَوَابُ " لَوْ " مَحْذُوفٌ لِلتَّهْوِيلِ ، وَالْغَمَرَاتُ جَمْعُ غَمْرَةٍ . قِيلَ : هِيَ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ الْمَرَّةُ مِنْ غَمَرَهُ الْمَاءُ إذَا غَطَّاهُ ، ثُمَّ اسْتُعِيرَتْ لِلشِّدَّةِ وَعَلَيْهِ الشِّهَابُ ، وَقَالَ الرَّاغِبُ : أَصْلُ الْغَمْرِ إزَالَةُ أَثَرِ الشَّيْءِ وَمِنْهُ قِيلَ لِلْمَاءِ الْكَثِيرِ الَّذِي يُزِيلُ أَثَرَ سَيْلِهِ غَمْرٌ وَغَامِرٌ ، وَالْغَمْرَةُ مُعْظَمُ الْمَاءِ السَّاتِرَةُ لِمَقَرِّهَا وَجُعِلَ مَثَلًا لِلْجَهَالَةِ الَّتِي تَغْمُرُ صَاحِبَهَا ، وَقِيلَ : لِلشَّدَائِدِ

غَمَرَاتٌ انْتَهَى مُلَخَّصًا . وَالْمَعْنَى لَوْ تُبْصِرُ أَوْ تَعْلَمُ إِذْ يَكُونُ الظَّالِمُونَ الَّذِينَ ذُكِرُوا فِي الْآيَةِ أَوْ جِنْسُ

(221/242)

---

الظَّالِمِينَ الشَّامِلُ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ، وَهِيَ سَكَرَاتُهُ وَمَا يَتَقَدَّمُهُ مِنْ شَدَائِدِ الْآلَامِ الْبَدَنِيَّةِ أَوِ النَّفْسِيَّةِ أَوْ مَجْمُوعِهِمَا الَّتِي تُحِيطُ بِهِمْ كَمَا تُحِيطُ غَمَرَاتُ الْمَاءِ بِالْغَرْقَى (وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ) إِلَيْهِمْ بِالْعَذَابِ يَوْمَ الْبَعْثِ ، أَوْ بَاسِطُوهَا لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمُ الْخَبِيثَةِ بِالْعُنْفِ وَالضَّرْبِ ، كَمَا قَالَ : (فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ) 47 : 27 وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ . وَقَدِ اسْتُعْمِلَ بَسْطُ الْيَدِ بِمَعْنَى الْإِيذَاءِ الْمُطْلَقِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ) 5 : 11 فَإِنَّ أَكْثَرَ الْإِيذَاءِ الْعَمَلِيِّ يَكُونُ بِمَدِّ الْيَدِ ، فَإِنْ أُرِيدَ إِيذَاءٌ مُعَيَّنٌ ذُكِرَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً فِي قِصَّةِ ابْنَيْ آدَمَ : (لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي) 5 : 28 الْآيَةَ ، وَقَوْلِهِ : (أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ) حِكَايَةً لِقَوْلِ الْمَلَائِكَةِ لَهُمْ عِنْدَ بَسْطِ أَيْدِيهِمْ لِتَعْذِيبِهِمْ أَوْ لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ ، وَمَعْنَاهُ أَخْرِجُوهَا مِمَّا هِيَ فِيهِ أَيْ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ - فَهُوَ أَمْرُ تَوْبِيخٍ وَتَهَكُّمٍ ، أَوْ أَخْرِجُوهَا مِنْ أَبْدَانِكُمْ ، قَالَ صَاحِبُ الْكَشَّافِ : إِنَّ هَذَا تَمْثِيلٌ لِفِعْلِ الْمَلَائِكَةِ فِي قَبْضِ أَرْوَاحِ الظَّلَمَةِ بِفِعْلِ الْغَرِيمِ الْمُلِحِّ

بِبَسْطِ يَدِهِ إِلَى مَنْ عَلَيْهِ الْحَقُّ لِيُعَنِّفَهُ عَلَيْهِ فِي الْمُطَالَبَةِ وَلَا يُمْهِلُهُ وَيَقُولُ لَهُ : أَخْرِجْ مَا لِي عَلَيْكَ السَّاعَةَ وَلَا أُرِيمُ (أَيْ لَا أَبْرَحُ مَكَانِي حَتَّى أَنْزِعَهُ مِنْ أَحْدَاقِكَ) . وَوَافَقَهُ صَاحِبُ الْكَشْفِ فِي الْمَعْنَى وَلَكِنَّهُ جَعَلَ الْكَلَامَ كِنَايَةً عَنِ الْعُنْفِ فِي السِّيَاقِ ، وَالْإِلْحَاحِ وَالتَّشْدِيدِ فِي الْإِرْهَاقِ ، مِنْ غَيْرِ تَنْفِيسٍ وَلَا إِمْهَالٍ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ بَسْطُ يَدٍ وَلَا قَوْلُ لِسَانٍ . وَكُلٌّ مِنَ الْقَوْلَيْنِ جَائِزٌ لُغَةً لَا تَكَلُّفَ فِيهِ ، وَكَانَ يَكُونُ مُتَعَيِّنًا لَوْ كَانَ صُدُورُ مَا ذُكِرَ عَنِ الْمَلَائِكَةِ مُتَعَذِّرًا ، وَلَوْ كُشِفَ لِصَاحِبَيِ الْكَشَّافِ وَالْكَشْفِ الْحِجَابُ عَنْ تَمَثُّلِ الْمَلَائِكَةِ لِلْبَشَرِ بِمِثْلِ صُوَرِهِمْ وَمُخَاطَبَتِهِمْ بِمِثْلِ كَلَامِهِمْ ، لَرَأَيَا أَنَّهُمَا فِي مَنْدُوحَةٍ عَنِ الْعُدُولِ عَنِ الْحَقِيقَةِ إِلَى التَّمْثِيلِ أَوِ الْكِنَايَةِ . وَقَدْ تَعَقَّبَ الْأَوَّلَ ابْنُ الْمُنِيرِ بِأَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ مُمْكِنَةٌ عَلَى الْحَقِيقَةِ فَلَا مَعْدُولَ عَنْهَا .

(الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ)

هَذَا مِنْ قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ أَوْ تَتِمَّتُهُ هُنَا . وَالْيَوْمُ فِي اللُّغَةِ الزَّمَنُ الْمَحْدُودُ بِصِفَةٍ أَوْ عَمَلٍ يَقَعُ فِيهِ كَأَيَّامِ الْأُسْبُوعِ وَأَيَّامِ الْعَرَبِ الْمَعْرُوفَةِ فِي تَحْدِيدِ وَقَائِعِهَا وَحُرُوبِهَا . وَالْمُرَادُ بِهِ يَوْمُ الْقِيَامَةِ الَّذِي يُبْعَثُ النَّاسُ فِيهِ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ ، وَقِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ بِهِ وَقْتُ الْمَوْتِ بِنَاءً عَلَى الْقَوْلَيْنِ السَّابِقَيْنِ

(224/242)

---

فِي بَسْطِ الْيَدِ ، وَلَا يَصِحُّ الْقَوْلُ الْآخَرُ إِلَّا إِذَا صَحَّ جَعْلُ وَقْتِ الْمَوْتِ مَبْدَأَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُوَ خِلَافُ الظَّاهِرِ ، وَالْمَعْنَى : الْيَوْمَ تَلْقَوْنَ عَذَابَ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ . لَا ظُلْمًا مِنَ الرَّحْمَنِ ، بَلْ جَزَاءَ ظُلْمِكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ بِسَبَبِ مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ مُفْتَرِينَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ كَقَوْلِ بَعْضِكُمْ : مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ، وَزَعْمِ بَعْضٍ آخَرَ أَنَّهُ أُوحِيَ إِلَيْهِ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ، وَجَحْدِ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ لِمَا وَصَفَ اللهُ تَعَالَى بِهِ نَفْسَهُ مِنَ الصِّفَاتِ ، وَاتِّخَاذِ أَقْوَامٍ لَهُ الْبَنِينَ وَالْبَنَاتِ ، وَاسْتِكْبَارِ آخَرِينَ عَمَّا نَصَّهُ وَأَنْزَلَهُ مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ ، احْتِقَارًا مِنْ بَعْضِهِمْ لِمَنْ كَرَّمَهُ اللهُ بِإِظْهَارِهَا عَلَى يَدِهِ وَلِسَانِهِ ، وَخَشْيَةِ بَعْضٍ آخَرَ مِنْ تَعْيِيرِ عُشَرَائِهِ وَأَقْرَانِهِ ،

وَحَاصِلُ الْمَعْنَى : وَلَوْ تَرَى أَيُّهَا الْمُخَاطَبُ بِهَذَا مَا يَحِلُّ بِالظَّالِمِينَ عِنْدَ الْمَوْتِ وَيَوْمَ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ مِمَّا ذُكِرَ لَرَأَيْتَ أَمْرًا عَظِيمًا وَعَذَابًا أَلِيمًا .

(225/242)

---

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) هَذِهِ جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا مَا يَقُولُهُ لِهَؤُلَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَعْدَ بَيَانِ مَا تَقُولُهُ لَهُمْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ كَمَا جَزَمَ ابْنُ جَرِيرٍ ، لَا مَعْطُوفَةٌ عَلَى مَا قَبْلَهَا مِنْ حِكَايَةِ قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ ، كَمَا حَكَاهُ الرَّازِيُّ أَحَدَ وَجْهَيْنِ ، وَزَعَمَ أَنَّهُ أَقْوَى ، غَافِلًا عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : (خَلَقْنَاكُمْ) وَلَا يُنَافِي هَذَا الْخِطَابُ قَوْلَهُ تَعَالَى : (وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) 2 : 174 لِأَنَّ مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ كَلَامَ تَكْرِيمٍ وَرِضًا ، أَوْ هُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْغَضَبِ وَالْإِعْرَاضِ ، وَالْمَعْنَى : لَقَدْ جِئْتُمُونَا مُتَفَرِّقِينَ فَرْدًا بَعْدَ فَرْدٍ أَوْ وُحْدَانًا مُنْفَرِدِينَ عَنِ الْأَنْدَادِ وَالْأَوْثَانِ ، وَالْأَهْلِ وَالْإِخْوَانِ ، وَالْأَنْصَارِ وَالْأَعْوَانِ ، مُجَرَّدِينَ مِنَ الْخَوَلِ وَالْخَدَمِ وَالْأَمْلَاكِ وَالْأَمْوَالِ ، كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ حُفَاةً عُرَاةً غُلْفًا ،

(226/242)

---

أَكَّدَ تَعَالَى الْخَبَرَ بِمَجِيئِهِمْ بَعْدَ ذِكْرِ وُقُوعِهِ تَذْكِيرًا لَهُمْ بِمَا كَانَ مِنْ جُحُودِهِمْ إِيَّاهُ أَوِ اسْتِبْعَادِهِمْ لِوُقُوعِهِ ، كَمَا ذَكَّرَهُمْ بِمُشَابَهَةِ بَعْثِهِمْ وَإِعَادَتِهِمْ بِبَدْءِ خَلْقِهِمْ ، وَهُوَ الْمَثَلُ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ الرَّسُولُ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مِنْ رَبِّهِمْ (وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ) " أَعْطَيْنَاكُمْ ، وَأَمَّا التَّخْوِيلُ إِعْطَاءُ الْخَوَلِ كَالْعَبِيدِ وَالنَّعَمِ ، وَيُعَبَّرُ بِالتَّرْكِ وَرَاءَ الظَّهْرِ عَمَّا فَاتَ الْإِنْسَانَ التَّصَرُّفُ فِيهِ وَالِانْتِفَاعُ بِهِ ، لِفَقْدِهِ إِيَّاهُ أَوْ بُعْدِهِ عَنْهُ ، وَبِالتَّقْدِيمِ بَيْنَ الْأَيْدِي عَمَّا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، فَالْمُرَادُ هُنَا أَنَّ مَا كَانَ شَاغِلًا لَهُمْ مِنَ الْمَالِ وَالْوَلَدِ وَالْخَدَمِ وَالْحَشَمِ وَالْأَثَاثِ وَالرِّيَاشِ عَنِ الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ وَالِاهْتِدَاءِ بِمَا جَاءُوا بِهِ لَمْ يَنْفَعْهُمْ ، كَمَا كَانُوا يَتَوَهَّمُونَ أَنَّ اللَّهَ فَضَّلَهُمْ بِهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنَّهُمْ يُمْكِنُهُمُ الِافْتِدَاءُ بِهِ أَوْ بِبَعْضِهِ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ ، إِنْ صَحَّ قَوْلُ الرُّسُلِ : إِنَّ بَعْدَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا حِسَابًا وَجَزَاءً فِي حَيَاةٍ أُخْرَى ، وَإِنَّمَا كَانَ يُمْكِنُهُمُ الِانْتِفَاعُ بِهِ لَوْ آمَنُوا بِالرُّسُلِ وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ . وَلَوْلَا أَنَّ هَذَا هُوَ الْمُرَادُ لَاسْتَغْنَى عَنْ هَذِهِ الْجُمْلَةِ بِمَا قَبْلَهَا . وَمِثْلُ هَذَا يُقَالُ فِي قَوْلِهِ : (وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ) فَإِنَّ الْأَدْيَانَ الْوَثَنِيَّةَ قَائِمَةٌ عَلَى قَاعِدَتَيِ الْفِدَاءِ وَالشَّفَاعَةِ كَمَا

تَقَدَّمَ بَيَانُهُ مِرَارًا ، أَيْ وَمَا نُبْصِرُ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَخِيَارِ الْبَشَرِ وَغَيْرِهِمْ - أَوْ تَمَاثِيلَهُمْ وَقُبُورَهُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فِي الدُّنْيَا أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لِلَّهِ تَعَالَى ، تَدْعُونَهُمْ لِيَشْفَعُوا لَكُمْ عِنْدَ اللهِ وَيُقَرِّبُونَكُمْ إِلَيْهِ زُلْفَى ، بِتَأْثِيرِهِمْ فِي إِرَادَتِهِ ، وَحَمْلِهِمْ إِيَّاهُ عَلَى مَا لَمْ تَتَعَلَّقْ فِي الْأَزَلِ بِهِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ شَرْحُ هَذِهِ الْعَقِيدَةِ الْوَثَنِيَّةِ وَالتَّفْرِقَةُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَحَادِيثِ الشَّفَاعَةِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ وَغَيْرِهَا (لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمُ) الْبَيْنُ الصِّلَةُ أَوِ الْمَسَافَةُ الْحِسِّيَّةُ أَوِ الْمَعْنَوِيَّةُ الْمُمْتَدَّةُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ أَوْ أَشْيَاءَ ، فَيُضَافُ دَائِمًا إِلَى الْمُثَنَّى كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ) 49 : 10 (فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ) 49 : 9 أَوِ الْجَمْعِ لَفْظًا أَوْ مَعْنًى كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ) 4 : 114 وَلَا يُضَافُ إِلَى الِاسْمِ الْمُفْرَدِ إِلَّا إِذَا كُرِّرَ نَحْوَ (هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ) 18 : 78 (وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ) 41 : 5 وَيُسْتَعْمَلُ فِي الْغَالِبِ ظَرْفًا غَيْرَ مُتَمَكِّنٍ وَفِي الْقَلِيلِ اسْمًا ، وَقَدْ قَرَأَهُ هُنَا عَاصِمٌ وَحَفْصٌ عَنْهُ وَالْكِسَائِيُّ بِفَتْحِ النُّونِ ، أَيْ تَقَطَّعَ مَا كَانَ بَيْنَكُمْ مِنْ صِلَاتِ النَّسَبِ وَالْمُلْكِ وَالْوَلَاءِ وَالْخُلَّةِ ، وَقَدَّرَ بَعْضُهُمْ تَقَطَّعَ الْوَصْلُ

بَيْنَكُمْ ، وَقَرَأَهُ الْجُمْهُورُ بِالرَّفْعِ

عَلَى الْفَاعِلِيَّةِ قَالُوا : أَيْ تَقَطَّعَ وَصْلُكُمْ أَوْ تَوَاصُلُكُمْ (وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) أَيْ وَغَابَ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ مِنْ شَفَاعَةِ الشُّفَعَاءِ ، وَتَقْرِيبِ الْأَوْلِيَاءِ ، وَأَوْهَامِ الْفِدَاءِ ، إِذْ عَلِمْتُمْ بُطْلَانَ غُرُورِكُمْ بِهِ وَاعْتِمَادِكُمْ عَلَيْهِ ، أَوْ ضَلَّ عَنْكُمُ الشُّفَعَاءُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَشْفَعُونَ لَكُمْ ، فَفِي الْكَلَامِ نَشْرٌ عَلَى تَرْتِيبِ اللَّفِّ ، فَإِنَّ تَقَطُّعَ الْبَيْنِ رَاجِعٌ إِلَى تَرْكِ مَا خُوِّلُوا ، وَفَقْدَ الشَّفَاعَةِ أَوِ الشُّفَعَاءِ رَاجِعٌ إِلَى مَا بَعْدَهُ . وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ آمَالَهُمْ خَابَتْ فِي كُلِّ مَا كَانُوا يَزْعُمُونَ وَيَتَوَهَّمُونَ ، وَقَدْ سَبَقَ لِهَذَا نَظِيرٌ فِي الْآيَاتِ (20 - 24) مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ فَرَاجِعْ تَفْسِيرَهَا فِي هَذَا الْجُزْءِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 7 صـ 519. 524 ﴾

*(229/242)*

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾

وقوله الحق : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى ﴾ أي أن كلاًّ منكم يأتي إلى الله فرداً عما كان له في دنياه من مال أو ولد أو أتباع ، جاء كل منهم لله وليس معه الأصنام التي أدّعى أنها شركاء

لله ، واتخذهم شفعاء له . و" فرادى " جمع " فرْدَان " أو " فريد " مثل " سكارى " جمع " سكران " و" أسارى " جمع " أسير " ، إنهم يأتون إلى الله زُمرا وجماعات ، ولكن كل منهم جاء منفرداً عما كان له في الدنيا من مال وأهل وولد وأتباع ، بدليل أنه قال : ﴿ وَتَرَكْتُمْ مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ .

و" خوَّله " أي جعل له خَدَمًا من الأتباع ومن المريدين ، ومن المقَّدر والمضيَّق عليهم في الرزق ومن العائشين في نعمته ، جاء كل منهم منفردا عما له في الدنيا كما خلقكم الله أول مرة ، أي كما دخلتم في الدنيا ! ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [ الأنعام : 94 ] .

وقوله الحق : " جئتمونا " أي كأن الإنسان الذي أذنب يكاد يقدم نفسه للعذاب معترفاً أنه يستحق هذا العذاب إقراراً منه بالذنب ، فكأن الإنسان يبلغ منه الحزن على ما فعله والتوبيخ لنفسه التي انصرفت عن الحق فيقول لنفسه : أنت تستحقين العذاب .

﴿ وَتَرَكْتُمْ مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نرى مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ الذين زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَآءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ [ الأنعام : 94 ] .

و " البيْن " هو ما يفصل أو ما يصل . فعندما نجد اثنين قاعدين وبينهما " بين " فهذا البين فاصل وواصل . فإن اعتبرته واصلاً ، أقول : تقطّع هذا ، أي وقع التقطع بينكما ، وانفصمت الروابط بينكم وتشتت جمعكم ، وإن كان البين فاصلا فقد وصلوا أنفسهم بالأصنام .

وماذا كانت صلة هؤلاء بالأصنام التي يشركونها في العبادة ؟ كانوا يقدمون لها القرابين ، وغير ذلك . وهذه الأصنام وكل من جعلوه شريكا مع الله سيفر منهم يوم القيامة . وهكذا يتحقق قوله الحق : ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ .

ويواصل سبحانه : ﴿ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ ، و" ضلّ " أي تاه وغاب ، ما كنتم تبحثون عنهم فلا تجدونهم مصداقا لقوله الحق : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتبعوا مِنَ الذين اتبعوا ﴾ [ البقرة : 166 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(231/242)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى

مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (94) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة قال : قال النضر بن الحارث : سوف تشفع لي اللات والعزى ، فنزلت ﴿ ولقد جئتمونا فرادى ﴾ الآية كلها .

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن عائشة . أنها قرأت قول الله ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾ فقالت عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله واسوأتاه . . . ! إن الرجال والنساء سيحشرون جميعاً ينظر بعضهم إلى سوأة بعض ؟ ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ، لا ينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال ، شغل بعضهم عن بعض " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾ قال : كيوم ولد ، يرد كل شيء نقص منه من يوم ولد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه " سمعت رسول الله صلى عليه وسلم يقول : إذا كان يوم القيامة حشر الناس حفاة عراة غرلاً " .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ وتركتم ما خوّلناكم ﴾ قال : من المال والخدم ﴿ وراء ظهوركم ﴾ قال : في الدنيا .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه قال : يؤتى بابن آدم يوم

القيامة كأنه بذخ فيقول له تبارك وتعالى : أين ما جمعت ؟ فيقول له يا رب جمعته وتركته أوفر ما كان فيقول : فأين ما قدمت لنفسك ؟ فلا يراه قدم شيئاً ، وتلا هذه الآية ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خوّلناكم وراء ظهوركم ﴾ .

*(232/242)*

---

وأخرج الحاكم وصححه عن عبد الله بن بريدة رضي الله عنه قال : كان عند ابن زياد أبو الأسود الديلمي وجبير بن حية الثقفي ، فذكروا هذا الحرف ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ فقال أحدهما : بيني وبينك أول من يدخل علينا ، فدخل يحيى بن يعمر ، فسألوه فقال : بينكم بالرفع .

وأخرج أبو الشيخ عن الأعرج أنه قرأ ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ بالرفع يعني وصلكم .

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن رضي الله عنه أنه قرأ ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ بالنصب أي ما بينكم من المواصلة التي كانت بينكم في الدنيا .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ قال : ما كان بينهم من الوصل .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن عكرمة قال : لما تزوج عمر رضي الله عنه أم كلثوم

رضي الله عنها بنت علي اجتمع عليه أصحابه فباركوا له دعوا له ، فقال : لقد تزوجتها وما بي حاجة إلى النساء ، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " إن كل نسب وسبب ينقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي ، فاحببت أن يكون بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم نسب " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ يعني الأرحام والمنازل .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ قال : تواصلكم في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

*(233/242)*

---

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآتين السابقتين :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ

أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (93) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (94) ﴾

وقد ورد عن قتادة وابن عباس – رضي الله عنهم – أن الآية نزلت في مسيلمة الكذاب وسجاح بنت الحارث زوجته والأسود العنسي ؛ وهم الذين تنبأوا في حياة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وادعوا أن الله أوحى إليهم . أما الذي قال سأنزل مثلما أنزل الله – أو قال أوحي إلي كذلك – " ففي رواية عن ابن عباس أنه عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وكان أسلم وكتب الوحي لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأنه لما نزلت الآية التي في " المؤمنون " : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ دعاه النبي – صلى الله عليه وسلم – فأملاها عليه . فلما انتهى إلى قوله : ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ عجب عبد الله في تفصيل خلق الإنسان فقال : " تبارك الله أحسن الخالقين " . فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " هكذا أنزلت عليّ "

فشك عبد الله حينئذ وقال : لئن كان محمد صادقاً لقد أوحى إلي كما أوحى إليه ، ولئن كان كاذباً لقد قلت كما قال ! فارتد عن الإسلام ، ولحق بالمشركين . فذلك قوله : ﴿ ومن قال : سأنزل مثل ما أنزل الله ﴾ . . ( رواه الكلبي عن ابن عباس ) . .

والمشهد الذي يرسمه السياق في جزاء هؤلاء الظالمين ( أي المشركين ) مشهد مفزع مرعب مكروب مرهوب . الظالمون في غمرات الموت وسكراته – ولفظ غمرات يلقي ظله المكروب – والملائكة يبسطون إليهم أيديهم بالعذاب ، وهم يطلبون أرواحهم للخروج ! وهم يتابعونهم بالتأنيب :

﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم : أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق ، وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ . . وجزاء الاستكبار العذاب المهين ، وجزاء الكذب على الله هذا التأنيب الفاضح . . وكله مما يضفي على المشهد ظلالاً مكروبة ، تأخذ بالخناق من الهول والكآبة والضيق !

ثم في النهاية ، ذلك التوبيخ والتأنيب من الله تعالى ، الذي كذبوا عليه ، وها هم أولاء بين يديه ، يواجههم في موقف الكربة والضيق :

﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾ !

فما معكم إلا ذواتكم مجردة ؛ ومفردة كذلك . تلقون ربكم أفراداً لا جماعة . كما خلقكم أول مرة أفراداً ، ينزل أحدكم من بطن أمه فرداً عريان أجرد غلبان !

ولقد ند عنكم كل شيء ، وتفرق عنكم كل أحد ؛ وما عدتم تقدرون على شيء مما ملككم الله إياه ؛

﴿ وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ﴾ . .

تركتم كل شيء من مال وزينة ، وأولاد ومتاع ، وجاه وسلطان . . كله هناك متروك وراءكم ، ليس معكم شيء منه ، ولا تقدرون منه على قليل أو كثير !

﴿ وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ﴾ . .

*(235/242)*

---

هؤلاء الذين كنتم تزعمون أنهم يشفعون لكم في الشدائد ، وكنتم تشركونهم في حياتكم وأموالكم ، وتقولون : إنهم سيكونون عند الله شفعاءكم كالذي كانوا يقولون : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ! ﴾ سواء كانوا ناساً من البشر كهاناً أو ذوي سلطان ؛ أو كانوا تماثيل من الحجر ، أو أوثاناً ، أو جناً أو ملائكة ، أو كواكب أو غيرها مما يرمزون به إلى الآلهة الزائفة ، ويجعلون له شركاً في حياتهم وأموالهم وأولادهم كما سيجيء في السورة .

فأين ؟ أين ذهب الشركاء والشفعاء ؟

﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ . .

تقطع كل شيء . كل ما كان موصولاً . كل سبب وكل حبل !

﴿ وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ . .

وغاب عنكم كل ما كنتم تدّعونه من شتى الدعاوى . ومنها أولئك الشركاء ، وما لهم من شفاعة عند الله أو تأثير في عالم الأسباب !

إنه المشهد الذي يهز القلب البشري هزاً عنيفاً . وهو يشخص ويتحرك ؛ ويلقي ظلاله على النفس ، ويسكب إيحاءاته في القلب ، ظلاله الرعيبة المكروبة ، وإيحاءاته العنيفة المرهوبة . .

إنه القرآن . . إنه القرآن . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 2 صـ 1149 . 1150 ﴾

(236/242)

---

وقال الشيخ الصابونى :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾

استفهام معناه النفي أي لا أحد أظلم ممن كذب على الله فجعل له شركاء وأنداداً ﴿ أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ أي زعم أن الله بعثه نبياً كمسيلمة الكذاب والأسود العنسي مع أن الله لم يرسله ﴿ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ الله ﴾ أي ومن ادعى أنه

سينظم كلاماً يماثل ما أنزله الله كقوله الفجار ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هذا ﴾ [الأنفال : 31 ] قال أبو حيان : نزلت في النضر بن الحارث ومن معه من المستهزئين لأنه عارض القرآن بكلام سخيف لا يُذكر لسخفه ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ الظالمون فِي غَمَرَاتِ الموت ﴾ أي ولو ترى يا محمد هؤلاء الظلمة وهم في سكرات الموت وشدائده ، وجواب ﴿ لَوْ ﴾ محذوف للتهويل أي لرأيت أمراً عظيماً ﴿ والملائكة باسطوا أَيْدِيهِمْ أخرجوا أَنْفُسَكُمُ ﴾ أي وملائكة العذاب يضربون وجوههم وأدبارهم لتخرج أرواحهم من أجسادكم ، وهذه عبارة عن العنف في السياق والإلحاح الشديد في الإزهاق من غير تنفيس وإمهال ﴿ اليوم تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهون ﴾ أي تُجزون العذاب الذي يقع به الهوان الشديد مع الخزي الأكيد ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى الله غَيْرَ الحق ﴾ أي بافترائكم على الله ونسبتكم إليه الشريك والولد ﴿ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي تتكبرون عن الإيمان بآيات الله فلا تتأملون فيها ولا تؤمنون ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي جئتمونا للحساب منفردين عن الأهل والمال والولد حفاةً عراة غرلاً كما ورد في الحديث " أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاةً عُراةً غرلاً كما بدأنا أول خلق نعيده . . " ﴿ وَتَرَكْتُمْ مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ أي تركتم ما أعطيناكم من الأموال في الدنيا فلم تنفعكم في هذا اليوم العصيب ﴿ وَمَا نرى مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ الذين زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَآءُ ﴾

أي وما نرى معكم آلهتكم الذين زعمتم أنهم يشفعون لكم والذين اعتقدتم أنهم شركاء لله في استحقاق العبادة ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ أي تقطّع وصلكم وتشتّت جمعكم ﴿ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أي ضاع وتلاشى ما زعمتوه من الشفعاء والشركاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 405.406 ﴾

*(238/242)*

---

" فوائد بلاغية "

قال الشيخ الصابونى :

البَلاَغَة : 1 - ﴿ وَكَذَلِكَ نري إِبْرَاهِيمَ ﴾ حكاية حال ماضية أي أريناه .

2 - ﴿ لأَكُونَنَّ مِنَ القوم الضالين ﴾ فيه تعريض بضلال قومه ، وبين لفظ ﴿ الهداية والضلالة ﴾ طباقٌ وهو من المحسنات البديعية .

3 - ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ ﴾ بينهما جناس الاشتقاق .

4 - ﴿ هُدَى الله ﴾ الإِضافة للتشريف وبين ﴿ هُدَى ﴾ و ﴿ يَهْدِي ﴾ جناس الاشتقاق أيضاً .

5 - ﴿ مَا أَنزَلَ اللهُ على بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ مبالغة في إنكار نزول شيء من الوحي على أحدٍ من الرسل .

6 - ﴿ مَنْ أَنزَلَ الكتاب ﴾ استفهام للتبكيت والتوبيخ .

7 - ﴿ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ ﴾ بينهما طباق .

8 - ﴿ أُمَّ القرى ﴾ مكة المكرمة وفيه استعارة حيث شبهت بالأم لأنها أصل المدن والقرى .

9 - ﴿ فِي غَمَرَاتِ الموت ﴾ قال الشريف الرضي : هذه استعارة عجيبة حيث شبه سبحانه ما يعتورهم من كُرب الموت وغصصه بالذين تتقاذفهم غمرات الماء ولججه وسميت غمرة لأنها تغمر قلب الإنسان .

تنبيه : ذهب بعض المفسرين إلى أن ﴿ آزَرَ ﴾ عم إبراهيم وليس أباه وقال آخرون : إنه اسم للصنم ، والصحيح كما قال المحققون من المفسرين أنه اسم لوالد إبراهيم وقد دل على ذلك الكتاب والسنة ، والآية صريحة في أن آزر كان كافراً ولا يقدح ذلك في مقام إبراهيم عليه السلام وفي صحيح البخاري " يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة . . " الحديث ودعوى إيمانه مرفوضة بنص الكتاب والسنة والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 406 . 407 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

" فُرَادَى " منصوب على الحال من فاعل " جِئْتُمُونَا " ، و " جِئْتُمُونَا " فيه وجهان :

أحدهما : أنه بمعنى المستقبل ، أي : تجيئوننا ، وإنما أبرزه في ورة الماضي لِتَحَقُّقِهِ كقوله تعالى : ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ [ النحل : 1 ] ﴿ ونادى أَصْحَابُ الجنة ﴾ [ الأعراف : 44 ] .

والثاني : أنه ماضٍ ، والمراد به حكاية الحال بين يدي الله - تعالى - يوم يُقال لهم ذلك ، فذلك اليوم يكون مجيئهم ماضياً بالنسبة إلى ذلك اليَوْمِ .

واختلفوا في " فُرَادَى " هل هو جمع أم لا ، والقائلون بأنه جَمْعٌ اختلفوا في مُفْرَدِهِ : فقال الفراء : " فُرَادى " جمع " فَرْد وفَرِيد وفَرَد وفَرْدَان " فجوز أن يكون جَمْعاً لهذه الأشياء .

وقال ابن قُتَيْبَةَ : هو جمع " فَرْدانَ " كسَكْرَانَ وسُكَارَى وعَجْلان وعُجالى .

وقال قوم : هو جمع فَرِيد كَرَدِيف ورُدَافى ، وأَسِير وأَسَارى ، قال الراغب ، وقال : هو جمع " فَرَد " بفتح الراء ، وقيل بسكونها ، وعلى هذا فألفها للتأنيث كألف " سُكَارى " و " أسارى " فيمن لم يتصرف .

وقيل : هو اسم جمع ؛ لأن " فرد " لا يجمع على فُرَادى فرد أفراد ، فإذا قلت : جاء القوم

فُرَادة فمعناه واحداً واحداً .

قال الشاعر : [ الطويل ]

2239 - تَرَى النُّعَرَاتِ الزُّرْقَ تَحْتَ لِبَانِهِ . . .

فُرَادَى وَمَثْنَى أَثْقَلَتْهَا صَوَاهِلُهْ

ويقال : فَرِدَ يَفْرَدُ فُرُوداً فهو فَارِدٌ ، وأفردته أنا ، ورجل أَفْرَدُ ، وامرأة فَرْدَاءُ كأحمر وحمراء ، والجمع على هذا فُرْدٌ كحُمْر ، ويقال في فُرَادى : " فَرَاد " على زِنَةِ " فعال " ، فينصرف ، وهي لغة " تميم " وبها قرأ عيسى بن عمر ، وأبو حيوة : " وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَاداً " وقال أبو البقاء : وقرئ بالشاذ بالتنوين على أنه اسم صحيح ، فقال في الرفع فُرَادٌ مثل : " ثُوَام ودخال وهو جمع قليل " . انتهى .

ويقال أيضاً " جاء القوم فُرَادَ غير منصرف ، فهو كأَحاد ورُبَاع في كونه معدولاً صفة ، وهو قرءاة شاذّة هنا .

*(240/242)*

---

وروى خارجة عن نافع ، وأبي عمرو كليهما أنهما قرأ " فُرَادَى " مثل سُكَارَى " اعتباراً بتأنيث الجماعة ، كقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَتَرَى الناس سكارى وَمَا هُم بسكارى ﴾ [

الحج : 2 ] فهذه أربع قراءات مشهورة ، وثلاث في الشواذ فراداً كأحاد ، فَرْدَى كَسَكْرَى .

قوله : "كَمَا خَلَقْنَاكُمْ" في هذه أوجه :

أحدها : أنها مَنْصُوبَةُ المحل على الحال من فاعل "جئتمونا" فمن أجاز تَعَدُّدَ الحال أجاز من غير تأويل ، ومن منع ذلك جعل "الكاف" بدلاً من "فُرَادَى" .

الثاني : أنها في مَحَلِّ نصب نَعْتاً لمصدر محذوف ، أي : مجيئاً مثل مجيئكم يوم خلقناكم ، وقجره مكي : منفردين انفراداً مثل حالكم أول مرة ، والأوّل أحسن ؛ لأن دلالة الفعل على المَصْدَرِ أقوى من دلالة الوَصْفِ عليه .

الثالث : أن "الكاف" في مَحَلِّ نصب على الحال من الضمير المُسْتَكِنِّ في "فُرَادى" ، أي : مشبهين ابتداء خلقكم ، وكذا قَدَّرَهُ أبو البقاء ، وفيه نظر ؛ لأنهم لم يشبهوا بابتداء خلقهم ، وصوابه أن يقدر مُضَافاً أي : مشبهة حالكم حال ابتداء خلقكم .

قوله : "أَوَّلَ مَرَّةٍ" مَنْصُوبٌ على ظرف الزمان ، والعامل فيه "خلقناكم" ، و"مرة" في الأصل مصدر لـ "مَرَّ يَمُرُّ مَرَّةً" ثم اتُّسِعَ فيها ، فصارت زماناً .

قال أبو البقاء رحمه الله : "وهذا يَدُلُّ على قوة شبه الزمان بالفعل" .

وقال أبو حيان : "وانتصب "أوّل مرة" على الظرف ، أي : أول زمان ولا يتقدَّر أوّل خلق ؛ لأن أول خلق يستدعي خَلْقاً ثانياً ، إنما ذلك إعادة لا خَلْقٌ" .

يعني : أنه لا يجوز أن يكون المرَّة على بابها من المَصْدَرِيَّةِ ، ويقدر أوّل مرة من الخَلْقِ لما ذكر .

قوله : " وتَرَكْتُمْ " فيها وجهان :

أحدهما : إنها في محلِّ نصب على الحال من فاعل " جئتمونا " ، و" قد " مضمرة على رأي الكوفيين أي : وقد تركتم .

(241/242)

---

والثاني : أنها لا مَحَلَّ لها لاستئنافها ، و" ما " مفعولة بـ " ترك " ، وهي موصولة اسمية ، ويضعف جعلها نَكِرَةً موصوفة ، والعائد محذوف ، أي : ما خَولناكُمُوهُ ، و" ترك " متعدية لواحد ؛ لأنها بمعنى التخلية ولو ضمنت معنى " صيَّر " تعدَّت لاثنين ، و" خوَّل " يتعدَّى لاثنين ؛ لأنه بمعنى " أعطى وملك " ، والخول ما أعطاه الله من النِّعم .

قال أبو النجم : [ الرجز ]

2240 - كُومِ الذُّرَى مِنْ خَوَلِ المُخَوَّل . . .

فمعنى : خولته كمن أملكته الخول فيه كقولهم : خوَّلته ، أي : ملكته المال .

وقال الرَّاغب : التَّخْوِيلُ في الأصل إعطاء الخول .

وقيل : إعطاء ما يصير له خولاً وقيل : إعطاء ما يحتاج أن يتعهَّدَهُ من قولهم : " فلان خال ما وخايل مال أي حسن القيام عليه " .

وقوله : " وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ " متعلّق بـ " تركتم " ويجوز أن يضمن " ترك " هنا معنى " صيَّر " ، فيتعدى لاثنين : أولهما الموصول ، والثاني هذا الظرف متعلّق بمحذوف ، أي : وصيّرتم بالتَّرْكِ الذي خَوَّلناكموه كائناً وراء ظهوركم .

قوله تعالى : " وَمَا نَرَى " الظَّاهر أنه المُتعدّية لواحد ، فهي بصرية ، فعلى هذا يكون " معكم " متعلّق بـ " نرى " ، ويجوز أن يكون بمعنى " علم ، فيتعدى لاثنين ، ثانيهما هو الظرف ، فيتعلّق بمحذوف ، أي : ما نراهم كائنين معكم ، أي مصاحبتكم .

إلاَّ ان أبا البقاء اسْتَضْعَفَ هذا الوجه ، وهو كما قال ؛ إذ يصير المعنى : وما يعلم شُفَعَاءكم معكم ، وليس المعنى عليه قطعاً .

وقال أبو البقاء – رحمه الله – : " ولا يجوز أن يكون أي معكم حالاً من " الشفعاء " ؛ إذ المعنى يصير أن شفعاءهم معهم ولا تراهم " .

وفيما قاله نظرٌ لا يخفى ، وذلك أن النفي إذا دخل على ذاتٍ بِقَيْدٍ ، ففيه وجهان :

أحدهما : نفي تلك الذّات بقيدها .

والثاني : نفي القَيْد فقط دون نَفْي الذَّات .

فإن قلت " ما رأيت زيداً " ضاحكاً " ، فيجوز أن لم تَرَ زَيْداً أَلْبَتَّة ، ويجوز أن رأيته من غير ضِحْكٍ ، فكذا هاهنا ، إذ التقدير : وما نرى معكم شفعاءكم مصاحبيكم ، يجوز أن لم يروا الشفعاء أَلْبَتَّة ، ويجوز أن يَرَوْهُمْ دون مُصَاحبتهم لهم ، فمن أين يلزم انهم يكونون معهم ، ولا يرونهم من هذا التركيب ، وقد تقدم تَحْقِيقُ هذه القاعدة في أوائل سورة " البقرة " في قوله : ﴿ لاَ يَسْأَلُونَ الناس إِلْحَافاً ﴾ [ البقرة : 273 ] .

و " أنهم " سد مَسَدَّ المفعولين لـ " زعم " و " فيكم " متعلق بنفس شركاء ، والمعنى : الذين زعمتم أنهم شركاء الله فيكم ، أي في عبادتكم ، أو في خلقكم ، لأنكم أشركتموهم مع الله - تعالى - في عبادتكم وخلقكم .

وقيل " في " بمعنى " عند " ، ولا حاجة إليه .

وقيل : المعنى أنه يتحملون عنكم نَصِيباً من العذاب ، أي : شركاء في عذابكم إن كنت تعتقدون فيهم أنكم إذا أصابتكم نَائِبَةٌ شاركوكم فيها .

قوله " لقد تقطَّع بَيْنَكُم " قرأ نافع ، والكسائي ، وعاصم في رواية حفْص عنه " بَيْنَكُمْ " نَصْباً ، والباقون " بَيْنُكُمْ " رفعاً .

فأما القراءة الأولى ففيها سبعة أوجه :

أحدها ، وهي أحسنها : أن الفاعل مضمر يعود على الاتِّصالِ ، والاتصال وإن لم يكن

مذكوراً حتى يعود عليه ضمير ، لكنه تقدم ما يَدُلُّ عليه ، وهو لفظ " شركاء " ، فإن الشركة تشعر بالاتِّصَالِ ، والمعنى : لقد تقطع بينكم الاتصال على الظرفية .

*(243/242)*

---

الثاني : أن الفاعل هو " بينكم " ، وإنما بقي على حالِهِ منصوباً حَملاً له على أغلب أحواله ، وهو مذهب الأخفش ، وجعلوا من ذلك أيضاً قوله : ﴿ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ﴾ [ الحج : 17 ] فيمن بناه إلى المفعول ، وكذا قوله تعالى : ﴿ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ﴾ [ الجن : 11 ] [ قال الواحدي : كما رجى في كلامهم ] منصوباً ظرفاً ، تركوه على ما يكون عليه في أكثر الكلام ثم قال في قوله : ﴿ وَمِنَّا دُونَ ذَلِك ﴾ [ الجن : 11 ] ف " دُونَ " في موضع رفع عندهم ، وإن كان مصنوب اللفظ ، ألا ترى أنك تقول : منا الصالحون ، ومنا الظالمون ، إلا ان الناس لما حَكَوْا هذا المَذْهَبَ لم يتعرَّضُوا على هذا الظرف ، بل صرحوا بأنه مُعْرَبٌ ، وهو مرفوع المحل قالوا : أو إنما بقي على انْتِصَابِه اعتباراً بأغلب أحواله في كلام أبي حيان ، لما حكى مذهب الأخفش ما يصرح بأنه مَبْنِيٌّ ، فإنه قال : وخرجه الأخفشُ على أنه فاعل ، ولكنه مبي حَمْلاً على أكثر أحوال هذا الظَّرْفِ ، وفيه نظر ؛ لأن الذي لا يَصْلُحُ أن يكون عِلَّة البناء ، وعِلَل مَحْصُورةٌ ليس هذا منها .

ثم قال أبو حيان : " وقد يُقَالُ لاضافته إلى مبني كقوله ﴿ وَمِنَّا دُونَ ذَلِك ﴾ [ الجن : 11 ] وهذا ظاهرٌ في أنه جعل حَمْلهُ على أكثر أحواله عِلَّةً لبنائه كما تقدم " .

الثالث : أن الفاعلَ محذوفٌ و" بينكم " صِفَةٌ له قامت مُقامَهُ ، تقديره : لقد تقطع وصْلُ بينكم ، قاله أبو البقاء ، وردَّه أبو حيان بأن الفاعل لا يُحْذَفُ ، وهذا غير ردٍّ عليه ، فإنه يعني بالحذف عدمَ ذكره لفظاً وأن شيئاً قام مقامه ، فكأنه لم يحذف .

وقال ابن عطيَّة : " ويكون الفعل مُسْنداً إلى شيء محذوف ، أي : لقد تقطَّع الاتِّصالُ بينكم والارتباط ونحو هذا " .

وهذا وجه وَاضِحٌ ، وعليه فَسَّر الناس ، وردَّه أبو حيان لما تقدم ، ويجاب عنه بأنه عبر بالحذف عن الإضمارِ ، لأن كلاً منهما غير مَوْجُودٍ لفظاً .

(244/242)

---

الرابع : أنه " بينكم " هو الفاعل ، وإنما بني لإضافته إلى غير مُتَمكنٍ ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [ الذاريات : 23 ] بفتح " مِثْلَ " ، وهو تابع لـ " حق " المرفوع ، ولكنه بني لإضافة إلى غير متمكِّن ، وسيأتي في مكانه ، ومثله قول الآخر في ذلك : [ الرمل ]

2241 - تَدَاعَى مَنْخِرَاهُ بِدَمٍ . . .

مِثْلَ مَا أَثْمَرَ حُمَّاضُ الجَبَلْ

بفتح " مثل " مع أنها تَابِعَةٌ لـ " دم " ، ومثله قول الآخر : [ البسيط ]

2242 - لَمْ يَمْذَعِ الشُّرْبَ مِنْهَا غَيْرَ أَنْ نَطَقَتْ . . .

حَمَامَةٌ فِي غُصُونٍ ذَاتِ أَوْقَالِ

بفتح " غير " ، وهي فاعل " يمنع " ، ومثله قول النابغة : [ الطويل ]

2243 - أَتَانِي أَبَيْتَ اللَّعْنَ أَنَّكَ لُمْتَنِي . . .

وتِلْكَ الَّتِي تَسْتَكُّ مِنْهَا المَسَامِعُ

مَقَالَةَ أَنْ قَدْ قُلْتَ : سَوْفَ أَنَالُه . . .

وَذَلِكَ مِنْ تِلْقَاءِ مِثْلِكَ رَائِعُ

ف " مقالة " بدل من " أَنَّكَ لُمْتَنِي " ، وهو فاعل ، والرواية بفتح تاء " مَقَالَة " لإضافتها إلى " أن " وما في حيّزها .

الخامس : أن المَسْأَلَةَ من باب الإِعْمَالِ ، وذلك أن " تَقَطَّعَ " و " ضَلَّ " كلاهما يَتَوجَّهَان على " مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ " كل منهما يطلبه فاعلاً ، فيجوز أن تكون المَسْأَلَةُ من باب إعمال الثاني ، وأن تكون من إعمال الأوّل ، لأنه ليس هنا قرينة تُعَيِّنُ ذلك ، إلا أنه تقدم في " البقرة " أن مذهب البصريين اخْتِيَارُ إعمال الثاني ، ومذهب الكوفيين بالعكس ، فعلى اختيار

البصريين يكون " ضَلَّ " هو الرافع لـ " ما كُنْتُمْ تَزْعُمُون " واحتاج الأول لفاعل فأعطيناه ضميره فاسْتَتَر فيه ، وعلى اختيار الكوفيين يكون " تقطَّع " هو الرافع لـ " مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ " ، وفي " ضلَّ " ضمير فاعل به ، وعلى كلا القولين ف " بينكم " منصوب على الظَّرْف ، وناصبه " تَقطَّع " هو الرافع .

*(245/242)*

---

السادس : أن الظرف صِلَةٌ لموصول محذوف تقديره : تقطَّع ما بينكن ، فحذف الموصول وهو " ما " وقد تقدَّم أن ذلك رأى الكوفيين ، وتقدم ما استشهدوا به عليه من القرآن ، وأبيات العرب ، واستدلَّ القائل بذلك بقول الشاعر حيث قال في ذلك : [ الطويل ]

2244 - يُدِيرُونَنِي عَنْ سَالِمٍ وأُدِيرُهُمْ . . .

وجِلْدَةُ بَيْنَ الأَنْفِ والعَيْنِ سَالِمُ

وقول الآخر في ذلك : [ البسيط ]

2245 - مَا بَيْنَ عَوْفٍ وإِبْرَاهِيمَ مِنْ نَسَبٍ . . .

إلاَّ قَرَابَةُ بَيْنَ الزِّنْجِ والرُّومِ

تقديره : وَجِلْدَةُ ما بين ، وإلاَّ قرابة ما بَيْن ، ويدل على ذلك قراءة عبد الله ، ومجاهد ،

والأعمش : " لقد تَقطَّع ما بينكم " .

السابع : قال الزمخشري : " لَقَدْ تقطَّعَ بينكم " : لقد وقع التَّقَطُّع بينكم ، كما تقول : جمع بين الشَّيْئَيْنِ ، تريد أوقع الجمع بينهما على إسناد الفعل إلى مصدره بهذا التأويل قول حَسَنٌ ، وذلك لأن لو أضمر في " تقطّع " ضمير المصدر المفهوم منه لصار التقدير : تقطع التَّقطُّع بينكم ، وإذا تقطَّع التقطع بينهم حصل الوَصْلُ ، وهذا ضدُّ المقصود ، فاحتاج أن قال : إن الفعل أسند إلى مصدره بالتأويل المذكور ، إلا أن أبا حيَّان اعتراضه ، فقال : " فظاهره أنه ليس بِجيِّدٍ ، وتحريره أنه أسند الفِعْلَ إلى ضمير مصدره فأضمره فيه ؛ لأنه إن أسْنَدَهُ إلى صريح المصدر ، فهو محذوف ، ولا يجوز حذف الفاعل ، ومع هذا التقدير فليس بِصَحيح ؛ لأن شَرْطَ الإسناد مفقود فيه ، وهو تغاير الحكم والمحكوم عليه ؛ يعني : أنه لا يجوز أن يتَّحدَ الفعل والفاعل في لَفْظٍ واحد من غير فائدة ، لا تقول : قام القائم ، وذلك لا يجوز ، مع أنه يلزم عليه أيضاً فَسَادُ المعنى كما تقدم منه أنه يَلْزَمُ أن يحصل لهم الوَصْلُ " .

(246/242)

---

قال شهاب الدِّين : وهذا الذي أورده الشَّيْخُ لا يرد لما تقدَّم من قوله الزمخشري على إسناد الفعل إلى مصدرِهِ بهذا التأويل ، وقد تقدَّم ذلك التأويل .

وأما القراءة الثانية ففيها ثلاثة أوجه :

أحدهما : أنه اتُّسِعَ في هذا الظرف ، فأسْنِدَ الفعل إليه ، فصار اسماً كسائر الأسماء المتصرف فيها ، ويدُلُّ على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [ فصلت : 5 ] فاسْتعمَلَهُ مجروراً بـ " مِنْ " وقوله تعالى : ﴿ فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ [ الكهف : 78 ] ﴿ مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا ﴾ [ الكهف : 61 ] ﴿ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ [ المائدة : 106 ] وحكى سيبويه : " هُوَ أحْمَرُ بَيْنِ العَيْنِينِ " وقال عنترة : [ الكامل ]

2246 - وكَأَنَّمَا أقِصُ الإكَامَ عَشِيَّةً . . .

بِقَرِيبِ بَيْنِ المَنْسِمَيْنِ مُصَلَّمِ

وقال مهلهل : [ الوافر ]

2247 - كَأَنَّ رِمَاحَنَا أشْطَانُ بِئْرٍ . . .

بَعِيدَةِ بَيْنِ جَالَيْهَا جَرُورِ

فقد استعمل في هذه المواضع كلها مُضَافاً إليه متصرّفاً فيه ، فكذا هنا ، ومثله قوله : [ الطويل ]

2248 - . . . . . .

وَجِلْدَةُ بَيْنِ الأنْفِ والعَيْنِ سَالِمُ

وقوله في ذلك : [ البسيط ]

2249 - . . . . . .

إلاَّ قَرَابَةُ بَيْنِ الزَّنْجِ والرُّومِ

وقول القائل في ذلك : [ الطويل ]

2250 - ولَمْ يَتْرُكِ النَّبْلُ المُخَالِفُ بَيْنُهَا . . .

أخاً لاَحَ [ قَدْ ] يُرْجَى ومَا ثَوْرَةُ الهِنْدِ

يروى برفع " بينهما " وفتح على أنها فعل لـ " مُخَالف " ، وإنما بُنِيَ لإضافتِهِ إلى ذلك ومثله

في ذلك : " أمام " و " دون " ، كقوله : [ الكامل ]

2251 - فَغَدَتْ كِلاَ الفَرْجَيْنِ تَحْسِبُ أَنَّهُ . . .

مَوْلَى المخَافَةِ خَلْفُهَا وأَمَامُهَا

برفع " أمام " ، كقول القائل في ذلك : [ الطويل ]

2252 - أَلَمْ تَرَ أَنِّي قَدْ حَمَيْتُ حَقِيقَتِي . . .

وبَاشَرْتُ حَدَّ والمَوْتِ والمَوْتُ دُونُهَا

برفع " دون " .

الثاني : أن " بين " اسم غير ظَرْفٍ ، وإنم منعناها الوَصْل ، أي : لقد تقطَّع وصلكم .

ثم للناس بعد ذلك عبارتان تؤذن بأن "بَيْنَ" مصدر " بان يبينُ بَيْنَاً " بمعنى "بَعْدَ" ، فيكون من الأضْدَاد ، أي : إنه مشترك اشتراكاً لفظياً يستعمل للوصل والفراق كـ " الجون " للأسود ، والأبيض ، ويعزى هذا لأبي عمرو ، وابن جني ، والمهدوي ، والزهري ، وقال أبو عبيدة : وكان أبو عمرو يقول : معنى " تقطع بينكم " تقطع فصارت هنا اسماً بغير أن يكون معها " ما " .

قوال الزجاج : والرفع أجود ، ومعناه : لقد تقطع وصلكم ، فقد أطلق هؤلاء أن " بين " بمعنى الوصل ، والأصل في الإطلاق الحقيقة ، إلا ان ابن عطية طعن فيه ، وزعم أنه لم يسمع من العرب البَيْن بمعنى الوَصْل ، وإنما انتزع ذلك من هذه الآية الكريمة ، لو أنه أري بالبين الافْتِرَاقُ ، وذلك عن الأمر البعيد ، والمعنى : لقد تقطعت المسافةُ بينكن لطولها ، فعبر عن ذلك بالبين .

قال شهاب الدين : فظاهر كلام ابن عطية يُؤذِنُ بأنه فهم أنها بمعنى الوَصْل حقيقة ، ثم ردَّهُ بكونه لم يسمع من العرب ، وهذا منه غير مرضٍ ، لأن أبا عمرو وأبا عبيد وابن جني ، والزهراوي ، والمهدوي ، والزجاج أئمة يقبل قولهم .

وقوله : " وإنما انتزع من هذه الآية "ممنوع ، بل ذلك مفهوم من لُغَةِ العرب ، ولم لم يكن مَنْ نقلها إلا أبو عمرو لكفى به ، وعبارته تُؤذِنُ بأنه مجازٌ ، ووجه المجاز كما قال وصداقَةٌ " صارت

لاستعمالها في هذه المواضع بمعنى الوَصْلةِ ، وعلى خلاف الفُرْقَةِ ، فلهذا جاء : " لَقَدْ تَقَطَّع وَصْلُكُم " وإذا تَقدَّرَ هذا ، فالقول بكونه مجازاً أولى من القول بكونه مشتركاً ؛ لأنه متى تعارضَ الاشتراك والمجاز ، فالمجاز خير منه عند الجمهور .

*(248/242)*

---

وقال أبو علي أيضاً : ويُدلُّ على أن هذا المرفوع هو الذي استعمل ظرفاً أنه لا يخلو من أن يكون الذي هو مَصْدَرٌ ، فلا يجوز أن يكون هذا القِسْم ؛ لأن التَّقدير يصير : لقد تقطَّع افْتِرَاقكم ، وهذا خلاف المقصد ، والمعنى أي : ألا ترى أن المراد وَصْلُكُمْ ، وما كُنْتُم تتآلَفُون عليه .

فإن قلت : كيف جَازَ أن يكون بِمَعْنى : الوَصْلِ ، وأصله : الافْتِرَاقُ ، والتَّبَايُنُ .

قيل : إنه لما استُعمل مع الشَّيْئَيْنِ المُتلابسيْنِ في نحو : " بيْني وبيْنَك شَرِكَة " فذكر ما تقدَّم عنه من وَجْهِ المجازِ .

وأجاز أبو عُبَيْدَة ، والزَّجَّاج ، وجماعة : قراءة الرفع ، قال أبو عبيدة : وكذلك يَقْرؤُها بالرفع ؛ لأنَّا قد وَجدنا العرب تجعل " بَيْنَ " اسماً من غَيْر " مَا " ، ويُصدِّقُ ذلك قوله تعالى : ﴿ بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا ﴾ [ الكهف : 61 ] فجعل " بَيْنَ " اسماً من غير " ما " ، وكذلك

قوله - تبارك وتعالى - : ﴿ هذا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ [ الكهف : 78 ] قال : " وقد سَمِعْنَاهُ في غير موضع من أشْعارِهَا " ثمَّ ذكر ما ذركته عن ابني عمرو بن العلاء ، ثمَّ قال : " وقرأها الكسَائيُّ نصباً " وكان يعتبرها بحرف عبد الله : " لقد تقطَّع ما بينكم " .

وقال الزَّجَّاج : والرَّفْع أجودن والنَّصْب جَائِز ، والمعنى : " لقد تقطَّع ما كان من الشَّرِكة بَيْنكم " .

الثالث : أن هذا الكلام مَحْمُولٌ على مَعْنَاه ؛ إذ المعنى : لقد تَفَرَّقَ جَمْعُكُم وتشتت ، وهذا لا يَصْلُح أن يكون تفسير إعرابٍ .

(249/242)

---

قوله : " مَا كُنتُمْ " " ما " يجوز أن تكون مَوْصولةً اسميَّةً ، أو نكرة موصوفة ، أو مصدريَّة ، والعائد على الوجْهَيْن الأوَّلَيْن محذوفٌ ، بخلاف الثَّالِث فالتَّقْدِير : تزعمونَهُم شُرَكَاءَ أو شُفَعَاء ؛ فالعَائِد هو المفعُول الأوّل ، وشركاء هو الثَّاني ؛ فالمَفْعُولان مَحْذُوفان اختصاراً ؛ للدلالةِ عليهما إن قُلْنَا : إنَّ " ما " موصولة اسميَّة ، أو نكرة موصُوفَةً ، ويجُوز أن يكون الحَذْفُ اختصاراً ؛ إن قلنا : إنَّها مصدريَّة ؛ لأن المصدريَّة لا تحتاج إلى عائد ، بخلاف غيرها ، فإنَّها تَفْتَقِرُ إلى عائدٍ ، فلا بد من الالتِفَاتِ إلَيْه ، وحينئذ يَلْزَمُ تَقْدِيرُ المفعُول الثَّاني ،

ومن الحذف اختصاراً : [ الطويل ]

2253 - بأيِّ كِتَاب أمْ بأيَّةِ سُنَّةٍ . . .

تَرَى حُبَّهُمْ عَاراً عليَّ وتَحْسِبُ ؟

أي : تحسب حُبَّهُم عاراً عليَّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 292 . 301 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (94) ﴾

دَخَلْتَ الدنيا بخرقةٍ ، وخَرَجْتَ منها بخرقة ، أَلاَ وتلك الخرقة أيضاً ( . . . . ) ، وما دخلت إلا بوصف التجرد ، ولا خرجتَ إلا بحكم التفرد . ثم الأثقالُ والأوزارُ ، والأحمالُ والأوضارُ لا يأتي عليها حَصْرٌ ولا مقدار ؛ فلا ما لكم أغني عنكم ولا حالكم يَرْفُعُ منكم ، ولا لكم شفيعٌ يخاطبنا فيكم ؛ فقد تَقَطَّعَ بَيْنُكم ، وتَفرَّق وَصْلُكم ، وتبدَّد شملُكم ، وتلاشى ظنُّكم ، وخانكم - في التحقيق - وسعُكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 490 ﴾

---

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (74) ﴾

آزَرَ اسم أبى إبراهيم عليه السلام . وفي كتب التواريخ أنّ اسمه بالسريانية تارح . والأقرب أن يكون وزن آزَرَ فاعل مثل تارح وعابر وعازر وشالخ وفالغ وما أشبهها من أسمائهم ، وهو عطف بيان لأبيه . وقرئ «آزر» بالضم على النداء . وقيل «آزر» اسم صنم ، فيجوز أن ينبز به للزومه عبادته ، كما نبز ابن قيس بالرقيات اللاتي كان يشبب بهنّ ، فقيل ابن قيس الرقيات . وفي شعر بعض المحدثين :

أدعى بأسماء نبزا في قبائلها كأن أسماء أضحت بعد أسمائى «1»

أو أريد عابد آزر ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه . وقرئ ءأزر تتخذ أصناما آلهة بفتح الهمزة وكسرها بعد همزة الاستفهام وزاى ساكنة وراء منصوبة منونة ، وهو اسم صنم . ومعناه : أتعبد آزراً على الإنكار ؟ ثم قال : تتخذ أصناما آلهة تثبيتا

لذلك وتقريرا ، وهو داخل في حكم الإنكار ، لأنه كالبيان له فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ عطف على قال إبراهيم لأبيه «2»

---

(1) . يقول : ينادوننى بلفظ «أسماء» شتما لي بين قبائلها : أى قبائل المحبوبة . ففيه استخدام . كأن أسماء ، أى هذا اللفظ ، أضحت : أى صارت بعض أسمائى . وأصل أسماء عند سيبويه : وسماء ، من الوسامة وهي الحسن والجمال . قلبت واوه همزة على غير قياس . كما في أحد . وعند المبرد جمع اسم . وبين أسماء وأسمائى الجناس التام . وعلى اعتبار ياء المتكلم فهو من الناقص .

(2) . قال محمود : «قوله فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ عطف على قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ . . . الخ» قال أحمد : وفي الاعتراض بهذه الجملة تنويه بما سيأتى من استدلال إبراهيم عليه السلام وأنه تبصير له من اللّه تعالى وتسديد . [ . . . . . ]

(251/242)

---

وقوله وَكَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ جملة معترض بها بين المعطوف والمعطوف عليه . والمعنى : ومثل ذلك التعريف والتبصير نعرف إبراهيم ونبصره . ملكوت السموات والأرض : يعنى الربوبية والإلهية ونوفقه لمعرفتها ونرشده بما شرحا صدره وسدّدنا نظره وهديناه لطريق

الاستدلال.

وليكون من الموقنين: فعلنا ذلك. ونرى: حكاية حال ماضية، وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب «1»، فأراد أن ينبههم على الخطإ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤدّ إلى أن شيأ منها لا يصح أن يكون إلها، لقيام دليل الحدوث فيها، وأن وراءها محدثا أحدثها، وصانعا صنعها، ومدبراً دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها هذا رَبِّي قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل، فيحكى قوله كما هو غير متعصب لمذهبه. لأنّ ذلك أدعى إلى الحق وأنجى من الشغب، ثم يكرّ عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ لا أحب عبادة الأرباب المتغيرين عن حال إلى حال، المتنقلين من مكان إلى مكان، المحتجبين بستر، فإنّ ذلك من صفات الأجرام بازِغاً مبتدئا في الطلوع لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي تنبيه لقومه على أنّ من اتخذ القمر إلها وهو نظير الكوكب في الأفول، فهو ضال، وأنّ الهداية إلى الحق بتوفيق اللّه ولطفه هذا أَكْبَرُ من باب استعمال النصفة «2» أيضاً مع خصومه إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ من الأجرام التي تجعلونها شركاء لخالقها إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أى للذي دلت هذه المحدثات عليه وعلى أنه مبتدؤها ومبتدعها. وقيل: هذا كان نظره واستدلاله في نفسه، فحكاه اللّه.

---

(1). عاد كلامه قال: «وكان أبوه آزر وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر

والكواكب . . . الخ» قال أحمد : والتعريض بضلالهم ثانياً أصرح وأقوى من قوله أولا لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ إنما ترقى إلى ذلك لأن الخصوم قد أقامت عليه الاستدلال الأول حجة ، فأنسوا بالقدح في معتقدهم . ولو قيل هذا في الأول ، فلعلهم كانوا ينفرون ولا يصغون إلى الاستدلال ، فما عرض صلوات اللّه عليهم بأنهم في ضلالة ، إلا بعد أن وثق باصغائهم إلى تمام المقصود واستماعهم إلى آخره . والدليل على ذلك أنه ترقى في النوبة الثالثة إلى التصريح بالبراءة منهم والتقريع بأنهم على شرك ، حين قيام الحجة عليهم وتبلج الحق وبلغ من الظهور غاية المقصود ، واللّه أعلم .

(2) . عاد كلامه . قال : و«قوله هذا أَكْبَرُ من باب استعمال النصفة أيضاً مع الخصوم . . . الخ» قال أحمد :

وصدق الزمخشري ، بل ذلك متعين . وقد ورد الحديث الوارد في الشفاعة أنهم يأتون إبراهيم عليه السلام فيلتمسون منه الشفاعة ، فيقول : نفسي نفسي لا أسأل أحداً غيرى ، ويذكر كذباته الثلاث ويقول : لست لها ، يريد قوله لسارة «هي أختى» وإنما عنى في الإسلام . وقوله «إنه سقيم» وإنما عنى همه بقومه وبشركهم ، والمؤمن يبقمه ذلك . وقوله «بل فعله كبيرهم» وقد ذكرت فيه وجوه من التعريض ، فإذا عد صلوات اللّه عليه وسلامه على نفسه هذه الكلمات مع العلم بأنه غير مؤاخذ بها ، دل ذلك على أنها أعظم ما صدر منه ، فلو كان الأمر على ما يقال من أن هذا الكلام محكي عنه على أنه نظر لنفسه ، لكان

أولى أن يعده أعظم مما ذكرناه لأنه حينئذ يكون شكا بل جزما ، على أن الصحيح أن الأنبياء قبل النبوة معصومون من ذلك .

(252/242)

---

والأوّل أظهر ، لقوله لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي وقوله يا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . فإن قلت : لم احتج عليهم بالأفول دون البزوغ «1» ، وكلاهما انتقال من حال إلى حال ؟ قلت : الاحتجاج بالأفول أظهر ، لأنه انتقال مع خفاء واحتجاب . فإن قلت : ما وجه التذكير في قوله هذا رَبِّي والإشارة للشمس ؟ قلت : جعل المبتدأ مثل الخبر لكونهما عبارة عن شيء واحد ، كقولهم :

ما جاءت حاجتك ، ومن كانت أمك ، لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا وكان اختيار هذه الطريقة واجبا لصيانة الرب عن شبهة التأنيث . ألا تراهم قالوا في صفة اللّه «علام» ولم يقولوا «علامة» وإن كان العلامة أبلغ ، احترازا من علامة التأنيث . وقرئ : ترى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ، بالتاء ورفع الملكوت . ومعناه : تبصره دلائل الربوبية .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 80 إلى 90]

وَحاجَّهُ قَوْمُهُ قالَ أَتُحاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدانِ وَلا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ رَبِّي

شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (80) وَكَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخافُونَ
أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ
(81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82) وَتِلْكَ
حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83)
وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنا وَنُوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَسُلَيْمانَ
وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسى وَهارُونَ وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84)
وَزَكَرِيَّا وَيَحْيى وَعِيسى وَإِلْياسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (85) وَإِسْماعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً
وَكُلاًّ فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ (86) وَمِنْ آبائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوانِهِمْ وَاجْتَبَيْناهُمْ وَهَدَيْناهُمْ إِلى
صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (87) ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ
عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (88) أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِها
هؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ (89)
أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرى لِلْعالَمِينَ
(90)

---

(1) . عاد كلامه . قال : فان قلت : لم احتج عليهم بالأفول دون البزوغ وكلاهما انتقال
. . . الخ» قال أحمد :
وهذه أيضاً من عيون نكتة ووجوه حسناته .

وَحاجَّهُ قَوْمُهُ قالَ أَتُحاجُّونِّي فِي اللَّهِ وكانوا حاجوه في توحيد اللّه ونفى الشركاء عنه منكرين لذلك وَقَدْ هَدانِ يعنى إلى التوحيد وَلا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ وقد خوفوه أنّ معبوداتهم تصيبه بسوء إِلَّا أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً إلا وقت مشيئة ربى «1» شيئاً يخاف ، فحذف الوقت ، يعنى لا أخاف معبوداتكم في وقت قط ، لأنها لا تقدر على منفعة ولا مضرة ، إلا إذا شاء ربى أن يصيبني بمخوف من جهتها إن أصبت ذنبا أستوجب به إنزال المكروه ، مثل أن يرجمنى بكوكب أو بشقة من الشمس أو القمر ، أو يجعلها قادرة على مضرتى وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أى ليس بعجب ولا مستبعد أن يكون في علمه إنزال المخوف بى من جهتها أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ فتميزوا بين الصحيح والفاسد والقادر والعاجز وَكَيْفَ أَخافُ لتخويفكم شيئا مأمون الخوف لا يتعلق به ضرر بوجه وَأَنتم لا تَخافُونَ ما يتعلق به كل مخوف وهو إشراككم باللّه ما لم ينزل باشراكه سُلْطاناً أى حجة ، لأن الإشراك لا يصح أن يكون عليه حجة ، كأنه قال : وما لكم تنكرون علىّ الأمن «2» في موضع الأمن ، ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف . ولم يقل : فأينا أحق بالأمن أنا أم أنتم ، احترازاً من تزكيته نفسه ، فعدل عنه إلى قوله فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ يعنى فريقى المشركين

والموحدين . ثم استأنف الجواب عن السؤال

---

(1) . قال محمود : «إِلَّا أَنْ يَشاءَ معناه إلا وقت مشيئة ربى شيئاً فحذف الوقت . . . الخ» قال أحمد : هو بمعنى يجعلها قادرة ، على أن المضرة خلق قدرة يخلق بها المضرة لمن يريد ، بناء على قاعدته . وقد علمت أن عقيدة أهل السنة أن ذلك لا يجوز عقلا أن يخلق غير اللّه ولا يقدر قدرة مؤثرة في المقدور إلا هو ، وإن كان الزمخشري لم يصرح ها هنا من عقيدته ، فإنما يعنى حيث يصرح أو يكنى ما يلائمها ويتنزل عليها ، وغاية خوف إبراهيم منها المعلق على مشيئة اللّه لذلك ، خوف الضرر عندها بقدرة اللّه تعالى لأنها . وكأنه في الحقيقة لم يخف إلا من اللّه ، لأن الخوف الذي أثبته منها معلق بمشيئة اللّه وقدرته ، وهو كلامه خوف منها ، واللّه أعلم .

(2) . عاد كلامه . قال : «و معنى وكيف أخاف ما أشركتم . . . الخ» ما لكم تنكرون على الأمن . . . الخ» قال أحمد : ويحتمل أن يكون العدول إلى ذلك ليعم بالأمن كل موحد ، وبالخوف كل مشرك ، ويندرج هو في حكم الموحدين وقومه في حكم المشركين . وأحسن الجواب ما أفاد وزاد .

*(254/242)*

بقوله الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أى لم يخلطوا إيمانهم بمعصية تفسقهم «1» . وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس وَتِلْكَ إشارة إلى جميع ما احتج به إبراهيم عليه السلام على قومه من قوله فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ إلى قوله وَهُمْ مُهْتَدُونَ . ومعنى آتَيْناها أرشدناه إليها ووفقناه لها نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ يعنى في العلم والحكمة . وقرئ بالتنوين وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ الضمير لنوح أو لإبراهيم . وداوُدَ عطف على نوحا ، أى وهدينا داود وَمِنْ آبائِهِمْ في موضع النصب عطفاً على كلا ، بمعنى : وفضلنا بعض آبائهم وَلَوْ أَشْرَكُوا مع فضلهم وتقدّمهم وما رفع لهم من الدرجات . لكانوا كغيرهم في حبوط أعمالهم ، كما قال تعالى وتقدّس لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ . آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يريد الجنس فَإِنْ يَكْفُرْ بِها بالكتاب والحكمة والنبوّة . أو بالنبوّة هؤُلاءِ يعنى أهل مكة قَوْماً هم الأنبياء المذكورون ومن تابعهم ، بدليل قوله أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ وبدليل وصل قوله فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ بما قبله . وقيل :

هم أصحاب النبي صلى اللّه عليه وسلم وكل من آمن به . وقيل : كل مؤمن من بنى آدم . وقيل : الملائكة وادّعى الأنصار أنها لهم . وعن مجاهد : هم الفرس . ومعنى توكيلهم بها : أنهم وفقوا للإيمان بها والقيام بحقوقها كما يوكل الرجل بالشيء ليقوم به ويتعهده ويحافظ عليه . والباء في بِها صلة كافرين . وفي بِكافِرِينَ تأكيد النفي . فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ فاختص هداهم بالاقتداء ، ولا تقتد إلا بهم . وهذا معنى تقديم المفعول ، والمراد بهداهم طريقتهم

في الإيمان بالله وتوحيده وأصول الدين دون الشرائع ، فإنها مختلفة وهي هدى ، ما لم تنسخ . فإذا نسخت لم تبق هدى ، بخلاف أصول الدين فإنها هدى أبدا . والهاء في اقْتَدِهْ للوقف تسقط في الدرج. واستحسن إيثار الوقف لثبات الهاء في المصحف

[سورة الأنعام (6) : آية 91]

وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آباؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (91)

---

(1) . قال محمود : «و المراد بقوله وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أى لم يخلطوا إيمانهم بمعصية تفسقهم . وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس» قال أحمد : وقد وارد أن الآية لما نزلت عظمت على الصحابة ، وقالوا أينا لم يظلم نفسه .

فقال عليه الصلاة والسلام «إنما هو الظلم في قول لقمان : إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» وإنما هو يروم بذلك تنزيله على معتقده في وجوب وعيد العصاة ، وأنهم لاحظ لهم في الأمن كالكفار ، ويجعل هذه الآية تقتضي تخصيص الأمر بالجامعين الأمرين : الايمان والبراءة من المعاصي ، ونحن نسلم ذلك ، ولا يلزم أن يكون الخوف اللاحق العصاة هو الخوف اللاحق الكفار ، لأن العصاة من المؤمنين إنما يخافون العذاب المؤقت وهم آمنون من الخلود . وأما الكفار ، فغير آمنين بوجه ما ، والله الموفق .

وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وما عرفوه حق معرفته في الرحمة على عباده واللطف بهم حين أنكروا بعثة الرسل والوحى إليهم ، وذلك من أعظم رحمته وأجلّ نعمته وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ أو ما عرفوه حق معرفته في سخطه على الكافرين وشدّة بطشه بهم ، ولم يخافوه حين جسروا على تلك المقالة العظيمة من إنكار النبوّة . والقائلون هم اليهود ، بدليل قراءة من قرأ : تَجْعَلُونَهُ بالتاء . وكذلك تُبْدُونَها وَتُخْفُونَ وإنما قالوا ذلك مبالغة في إنكار إنزال القرآن على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فألزموا ما لا بدّ لهم من الإقرار به من إنزال التوراة على موسى عليه السلام ، وأدرج تحت الإلزام توبيخهم وأن نعى عليهم «1» سوء جهلهم لكتابهم وتحريفهم ، وإبداء بعض وإخفاء بعض فقيل : جاءَ بِهِ مُوسى وهو نور وهدى للناس ، حتى غيروه ونقصوه وجعاطيس مقطعة وورقات مفرقة ، ليتمكنوا مما راموا من الإبداء والإخفاء . وروى أن مالك بن الصيف من أحبار اليهود ورؤسائهم قال له رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها أنّ اللّه يبغض الحبر السمين ؟ فأنت الحبر السمين ، قد سمنت من مالك الذي يطعمك اليهود «2» . فضحك القوم ، فغضب ، ثم التفت إلى عمر فقال : ما أنزل اللّه على بشر من شيء

، فقال له قومه : ويلك ما هذا الذي بلغنا عنك ؟ قال : إنه أغضبنى ، فنزعوه وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف .

وقيل القائلون قريش «3» وقد ألزموا إنزال التوراة ، لأنهم كانوا يسماعون من اليهود بالمدينة ذكر موسى والتوراة ، وكانوا يقولون لو أنا أنزل علينا الكتاب ، لكنا أهدى منهم وَعُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آباؤُكُمْ الخطاب لليهود ، أى علمتم على لسان محمد صلى اللّه عليه وسلم مما أوحى إليه ما لم تعلموا أنتم ، وأنتم حملة التوراة ، ولم تعلمه آباؤكم الأقدمون الذين كانوا أعلم منكم إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ وقيل الخطاب لمن آمن من قريش ، كقوله تعالى : لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم . قُلِ اللَّهُ أى أنزله اللّه ، فإنهم لا يقدرون أن ينا كروك ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ فِي باطلهم الذي يخوضون فيه ، ولا عليك بعد إلزام الحجة .

ويقال لمن كان في عمل لا يجدى عليه : إنما أنت لاعب . وَيَلْعَبُونَ حال من ذرهم ، أو من خوضهم ، ويجوز أن يكون فِي خَوْضِهِمْ حالا من يلعبون ، وأن يكون صلة لهم أو لذرهم

---

(1) . قال محمود : «وأدرج تحت الإلزام توبيخهم وأن نعى عليهم . . . الخ» قال أحمد : وهذا أيضا من دقة نظره في الكتاب العزيز والتعمق في آثار معادنه ، وإبراز محاسنه .

(2) . أخرجه الواحدي في الأسباب من طريق سعيد بن جبير «أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال لمالك بن الصيف فذكره إلى قوله – فغضب ثم قال : ما أنزل اللّه على بشر من

شيء» وكذلك أخرجه الطبري من رواية جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير.

(3) . قوله «وقيل القائلون قريش» أخرجه الطبري عن مجاهد.

*(256/242)*

---

[سورة الأنعام (6) : آية 92]

وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ (92)

مُبارَكٌ كثير المنافع والفوائد والتنذير معطوف على ما دلّ عليه صفة الكتاب، كأنه قيل: أو أنزلناه للبركات، وتصديق ما تقدمه من الكتب والإنذار. وقرئ ولينذر بالياء والتاء. وسميت مكة أُمَّ الْقُرى لأنها مكان أول بيت وضع للناس، ولأنها قبلة أهل القرى كلها ومحجهم، ولأنها أعظم القرى شأناً لبعض المجاورين:

فمن يلق في بعض القرّيات رحله فأمّ القرى ملقى رحالي ومنتابى «1»

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يصدّقون بالعاقبة ويخافونها يُؤْمِنُونَ بهذا الكتاب. وذلك أنّ أصل الدين خوف العاقبة، فمن خافها لم يزل به الخوف حتى يؤمن. وخصّ الصلاة لأنها عماد الدين. ومن حافظ عليها كانت لطفاً في المحافظة على أخواتها.

[سورة الأنعام (6) : آية 93]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَراتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (93)

افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فزعم أن اللّه بعثه نبياً أَوْ قالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وهو مسيلمة الحنفي الكذاب. أو كذاب صنعاء الأسود العنسي. وعن النبىّ صلى اللّه عليه وسلم:

رأيت فيما يرى النائم كأنّ في يدىّ سوارين من ذهب فكبرا علىّ وأهمانى فأوحى اللّه إلىّ أن انفخهما، فنفختهما فطارا عنى، فأولتهما الكذابين الذين أنا بينهما: كذاب اليمامة مسيلمة، وكذاب صنعاء الأسود العنسي «2» وَمَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ هو عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح القرشي، كان يكتب لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فكان إذا أملى عليه سميعاً عليما، كتب

---

(1). للزمخشري يفتخر بمكة وسكانها. والقريات - بالتشديد -: للتصغير. ورحل الشخص مسكنه ولو من شعر، أى: فمن يلق رحله في بعض القرى الصغيرة. فلا فخر له على، فان مكة محط رحالي ومنتابى، أى محل انتيابى أى دخولى فيها توبة بعد أخرى،

وإلقاء الرحل : كناية عن الاقامة ، لأنها تلزمه عرفا . وملقى على زنة اسم المفعول اسم لمكان الإلقاء ، كمتاب لمكان الانتياب .

(2) . متفق عليه من حديث ابن عباس .

*(257/242)*

---

هو : عليما حكيما . وإذا قال عليما حكيما ، كتب : غفورا رحيما . فلما نزلت وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ إلى آخر الآية ، عجب عبد اللّه من تفصيل خلق الإنسان : فقال تبارك اللّه أحسن الخالقين . فقال عليه الصلاة والسلام اكتبها : فكذلك نزلت ، فشك عبد اللّه وقال : لئن كان محمداً صادقاً لقد أوحى إلىّ مثل ما أوحى إليه . ولئن كان كاذباً فلقد قلت كما قال ، فارتدّ عن الإسلام ولحق بمكة ، ثم رجع مسلماً قبل فتح مكة «1» . وقيل : هو النضر بن الحرث والمستهزءون وَلَوْ تَرى جوابه محذوف ، أى رأيت أمراً عظيما إِذِ الظَّالِمُونَ يريد الذين ذكرهم من اليهود والمتنبئة ، فتكون اللام للعهد . ويجوز أن تكون للجنس فيدخل فيه هؤلاء لاشتماله . وغَمَراتِ الْمَوْتِ شدائده وسكراته ، وأصل الغمرة : ما يغمر من الماء «2» فاستعيرت للشدّة الغالبة باسِطُوا أَيْدِيهِمْ يبسطون إليهم أيديهم يقولون : هاتوا أرواحكم أخرجوها إلينا من أجسادكم . وهذه عبارة عن العنف

في السياق ، والإلحاح ، والتشديد في الإرهاق ، من غير تنفيس وإمهال ، وأنهم يفعلون بهم فعل الغريم المسلط يبسط يده إلى من عليه الحق ، ويعنف عليه في المطالبة ولا يمهله ، ويقول له : أخر إلىّ مالى عليك الساعة ، ولا أريم «3» مكاني ، حتى أنزعه من أحداقك .

وقيل . معناه باسطو أيديهم عليهم بالعذاب «4» أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ خلصوها من أيدينا ، أى لا تقدرون على الخلاص الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ يجوز أن يريدوا وقت الإماتة وما يعذبون به من شدة النزع ، وأن يريدوا الوقت

---

(1) . أخرجه الواحدي عن الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس إلى قوله «فارتد عن الإسلام» وقد رواه الطبري مختصرا من رواية أسباط عن السدى من قوله تعالى وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً - الآية قال :

نزلت في عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح . أسلم وكان يكتب للنبي صلى اللّه عليه وسلم ، فكان إذا أملى عليه سميعا عليما كتب هو عليما حكيما وإذا قال عليما حكيما كتب سميعا عليما . فشك وكفر ، وقال : إن كان محمد يوحى إليه فقد أوحى إلى ، وإن كان اللّه ينزله فلقد أنزلت مثل ما أنزل اللّه . فلحق بالمشركين «تنبيه» قوله القرظي غلط بين فان ابن أبى سرح قرشي عامرى . قوله «ثم رجع مسلما قبل فتح مكة . قوله وقيل : هو النضر بن الحارث «فائدة» روى أن هذه القصة كانت لابن خطل . أخرج ابن عدى في ترجمة أصرم بن حوشب أحد المتروكين من حديث على ، قال «كان ابن خطل يكتب للنبي صلى اللّه

عليه وسلم فكان إذا نزل غفور رحيم كتب رحيم غفور - فذكر الحديث .

وفيه : ثم كفر ولحق بمكة فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : من قتل ابن خطل فله الجنة»

وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات من هذا الوجه . ونقل عن ابن معين تكذيب أصرم .

(2) . قال محمود : «أصل الغمرة ما يغمر من الماء فاستعيرت للشدة الغالبة . . . الخ» قال أحمد : هو يجعله من مجاز التمثيل ، ولا حاجة إلى ذلك . والظاهر أنهم يفعلون معهم هذه الأمور حقيقة على الصور المحكية ، وإذا أمكن البقاء على لحقيقة فلا معدل عنها .

(3) . قوله «ولا أريم مكاني» أى أبرح . وفي الصحاح : رامه يريمه أى برحه . (ع)

[ . . . . . ]

(4) . عاد كلامه . قال : «وقيل معناه باسطو أيديهم عليهم بالعذاب . . . الخ» قال أحمد : ومثله وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ .

*(258/242)*

---

الممتدّ المتطاول الذي يلحقهم فيه العذاب في البرزخ والقيامة . والهون : الهوان الشديد ، وإضافة العذاب إليه كقولك : رجل سوء يريد العراقة في الهوان والتمكن فيه عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ فلا تؤمنون بها .

[سورة الأنعام (6) : آية 94]

وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ وَما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (94)

فُرادى منفردين عن أموالكم وأولادكم وما حرصتم عليه ، وآثرتموه من دنياكم ، وعن أوثانكم التي زعمتم أنها شفعاؤكم وشركاء للّه كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ على الهيئة التي ولدتم عليها في الانفراد وَتَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ ما تفضلنا به عليكم في الدنيا فشغلتم به عن الآخرة وَراءَ ظُهُورِكُمْ لم ينفعكم ولم تحتملوا منه نقيراً ولا قدّمتموه لأنفسكم فِيكُمْ شُرَكاءُ في استعبادكم ، لأنهم حين دعوهم آلهة وعبدوها ، فقد جعلوها للّه شركاء فيهم وفي استعبادهم .

وقرئ : فرادى ، بالتنوين . وفراد ، مثل ثلاث . وفردي ، نحو سكرى : فإن قلت : كما خلقناكم ، في أى محل هو ؟ قلت : في محل النصب صفة لمصدر جئتمونا ، أى مجيئا مثل خلقنا لكم تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وقع التقطع بينكم ، كما تقول : جمع بين الشيئين ، تريد أوقع الجمع بينهما على إسناد الفعل إلى مصدره بهذا التأويل : ومن رفع فقد أسند الفعل إلى الظرف ، كما تقول : قوتل خلفكم وأمامكم . وفي قراءة عبد اللّه : لقد تقطع ما بينكم . انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشاف جـ 2 صـ 39 . 47﴾

وقال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (91) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (92) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (93) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (94) ﴾

التفسير : اعلم أن مدار القرآن على إثبات التوحيد والنبوة والمعاد . فبعد ذكر دليل التوحيد وإبطال الشرك شرع في تقرير أمر النبوة فقال ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ قال ابن عباس : أي ما عظموا الله حق تعظيمه حيث أنكروا النبوة والرسالة . وقال أيضاً في رواية : ما آمنوا بأن الله على كل شيء قدير . وقال أبو العالية : ما وصفوه حق صفته . وقال الأخفش : ما عرفوه حق معرفته أي في اللطف بأوليائه أو في القهر لأعدائه . وقال الجوهري : قدر الشيء مبلغه وقدرت الشيء أقدره وأقدره قدراً من التقدير أي حرره وعرف مقداره . ثم بيّن سبب عدم عرفانه بقوله ﴿ إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ وإنما كان منكر البعث والرسالة غير عارف بالله تعالى ، لأنه إما أن يدعي أنه تعالى ما كلف أحداً من الخلائق تكليفاً أصلاً وهو باطل لأنه فتح باب المنكرات والقبائح بأسرها ، وإما أن يسلم أنه تعالى كلف الخلق بالأوامر والنواهي ولكن لا على ألسنة الرسل وهذا أيضاً جهل .

*(261/242)*

فإن قيل : لم لا يجوز أن يكون العقل كافياً في إيجاب الواجبات وحظر المنكرات ؟ فالجواب هب أن الأمر كذلك إلا أنه لا يمتنع تأكيد التصريف العقلي بل يجب تفصيل ذلك المجمل بالتعريفات المشروحة على ألسنة الرسل ، لأن أكثر العقول قاصرة عن إدراك مدارك الأحكام الشرعية كما أن نور البصر قاصر عن إدراك المبصرات إلا إذا أعين بنور من خارج كنور الشمس أو السراج . وأيضاً تفويض مصالح العباد إلى مقتضى عقولهم يؤدي إلى التنازع والتشاجر لتصادم الأهواء وتناقض الآراء فلا بد من أن يتفقوا على واحد يصدرون عن رأيه ، وتعيين ذلك الواحد من الخلق ترجيح بلا مرجح وإشراف على الضلال لاحتمال الخطأ في اجتهادهم ، فلعل الخير في نظرهم يكون شراً في نفس الأمر فلزم أن يكون التعيين من الله سبحانه بكونه أعرف بالبواطن كقوله ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ [ الأنعام : 124 ] وإنما يعرف ذلك المعين بظهور المعجزة على وفق دعواه تصديقاً له ، ومن أنكر ذلك ولم يجوّز خرق العادة فقد وصف الله تعالى بالعجز ونقصان القدرة . وقد طعن بعض الملحدة في الآية بأن هؤلاء القائلين إن كانوا كفار قريش أو البراهمة فهم ينكرون رسالة كل الأنبياء كما ينكرون رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فكيف يمكن إبطال قولهم بقوله ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى ﴾ على أن قوله ﴿ تجعلونه قراطيس ﴾ بتاء الخطاب إنما يليق باليهود وإن كانوا أهل الكتاب فهم لا يقولون ما أنزل الله على بشر من شيء ، بل يقرّون بنزول التوراة على موسى والإنجيل على عيسى . وأيضاً الأكثرون اتفقوا على

أن السورة مكية وأنها نزلت دفعة واحدة ومناظرات اليهود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله كانت مدنية ، فكيف يمكن حمل الآية على تلك المناظرة ؟ والجواب أنهم إن كانوا كفار قريش فإنهم كانوا مختلطين بالهيود والنصارى وكانوا قد سمعوا من الفريقين على سبيل التواتر ظهور المعجزات على يد موسى كالعصا وفلق البحر وإظلال الجبل

(262/242)

---

وغيرها وكان جارياً مجرى ما يوجب عليهم الاعتراف بنبوة موسى . وعلى هذا لا يبعد إيراد نبوة موسى إلزاماً لهم في قولهم ﴿ ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ ولما كان كفار قريش مع اليهود والنصارى متشاركين في إنكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وآله لم يبعد أن يكون الكلام الواحد خطاً بالكفار قريش أوّلاً ولأهل الكتاب آخراً وأما إن كانوا أهل الكتاب – وهو المشهور عند الجمهور – فالوجه ما روي عن ابن عباس أن مالك بن الصيف من أحبار اليهود ورؤسائهم وكان رجلاً سميناً دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله :

(263/242)

" أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها أن الله يبغض الحبر السمين ؟ فأنت الحبر السمين قد سمنت من مالك الذي يطعمك اليهود " فضحك القوم فغضب ثم التفت إلى عمر فقال : ما أنزل الله على بشر من شيء . فقال له قومه : ما هذا الذي بلغنا عنك ؟ فقال : إنه أغضبني : ثم إن اليهود لأجل هذا الكلام عزلوه وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف . فلعل مالك بن الصيف لما تأذى من الكلام المذكور طعن في نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم وإنه ما أنزل عليه من شيء البته فأمر بأن يقول في جوابه ﴿ من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى ﴾ أي لما سلمت أن الله تعالى أنزل الوحي والتنزيل على بشر وهو موسى فكيف يمكنك أن تقطع بأنه ما أنزل عليّ شيئاً غاية ما في الباب أن تطالبني بالمعجز .

والحاصل أنهم قالوا ذلك مبالغة في إنكار إنزال القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فألزموا ما لا بد لهم من الإقرار به من إنزال التوراة على موسى ، وأدرج تحت الإلزام توبيخهم بالتحريف وإبداء بعض وإخفاء بعض . وقيل : اللفظ وإن كان مطلقاً بحسب اللغة إلا أنه مقيد بحسب العرف بتلك الواقعة ، فكأنه قال : ما أنزل الله على بشر من شيء في أنه يبغض الحبر السمين ، وهذا كما إذا أرادت المرأة أن تخرج من الدار فغضب الزوج وقال : إن خرجت من الدار فأنت طالق ، فإن كثيراً من الفقهاء قالوا : التعليق مقيد بتلك المرة حتى لو خرجت مرة أخرى لم تطلق . ويرد على هذا التوجيه أن قوله ﴿ من أنزل الكتاب الذي

جاء به موسى ﴾ لا يكون مبطلاً لكلام الخصم . أما قوله " إن السورة مكية والمناظرات مدينة " فأجيب عنه بأن السورة مكية إلا هذه الآية فإنه نزلت بالمدينة في هذه الواقعة والله أعلم .

(264/242)

---

ومن الأحكام المستنبطة من الآية أن قوله ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ يفيد أن عقول الخلق قاصرة عن كنه معرفة الله تعالى وإن كانوا مقرين بالنبوة والرسالة لإطلاق قوله في موضع آخر ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته ﴾ [ الزمر : 67 ] ومنها أن النكرة في سياق النفي تعم وإلا لم يكن قوله ﴿ من أنزل ﴾ مبطلاً لقوله ﴿ ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ ومنها أن النقض يقدح في صحة الكلام وإلا لم يكن في قوله ﴿ من أنزل ﴾ حجة . ويعلم منه أن قول من يقول إبداء الفارق بين الصورتين يمنع من كون النقض مبطلاً ضعيف وإلا بطلت حجة الله تعالى في هذه الآية ، فإن لليهود حينئذ أن تقول : معجزات موسى كانت أظهر وأبهر من معجزاتك فلا يلزم نبوتك .

(265/242)

ومنها أن الغزالي رحمه الله تكلف وقال : حاصل الآية يرجع إلى أن موسى أنزل الله عليه شيئاً ، وأحد من البر ما أنزل الله عليه شيئاً فينتج من الشكل الثاني أن موسى ما كان من البشر وهذا خلف محال ، وليس هذه الاستحالة بحسب شكل القياس ولا بحسب صحة المقدمة الأولى فلم يبق إلا أنه لزم من فرض صحة المقدمة الثانية وهي قولهم ﴿ ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ فوجب القول بكونها كاذبة فثبت أن دلالة هذه الآية على المطلوب إنما تصح عند الاعتراف بصحة الشكل الثاني ، وعند الاعتراف بصحة قياس الخلف . ثم اعلم أنه سبحانه وصف كتاب موسى بكونه نوراً وهدى للناس والعطف يقتضي المغايرة . فالمراد بالنور ظهوره في نفسه . وبالهدى كونه سبباً لظهور غيره كقوله في وصف القرآن ﴿ ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾ [ الشورى : 52 ] قال أبو علي الفارسي ﴿ يجعلونه قراطيس ﴾ أي ذات قراطيس أي يودعونه إياها . فإن قيل : إذا كان جميع الكتب كذلك فلم ذكر في معرض الذم ؟ قلنا : لأنهم جعلوه قراطيس مفرقة مبعضة ليتوسلوا بذلك إلى إبداء بعض وإخفاء بعض مما فيه نعت محمد صلى الله عليه وسلم ، أو شيء من الأحكام التي لا توافق هواهم كالرجم وغيره ﴿ وعلمتم ﴾ أيها اليهود على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ﴾ الأقدمون الذين كانوا أعلم منكم أن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون ، وقيل :

كانوا يقرؤن الآيات المشتملة على نعت محمد صلى الله عليه وسلم وما كانوا يفقهون معانيها إلى أن بعث الله محمداً ، فظهر أن المراد منها هو البشارة بمقدمه ، وقيل : الخطاب لمن آمن من قريش كقوله ﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم ﴾ [ يس : 6 ] ﴿ قل الله ﴾ أي أنزله الله فإنهم لا يقدرون على أن ينكروا ذلك فإن العقل السليم والطبع المستقيم يشهد بأن الكتاب الموصوف المؤيد قول صاحبه بالمعجزات الباهرة لا يكون إلا من الله سبحانه . ونظره ﴿

(266/242)

---

قل أي شيء أكبر شهادة قل الله ﴾ [ الأنعام : 19 ] والمقصود أنه بلغت هذه الدلالة إلى حيث يجب على كل عاقل أن يعترف بها ، فسواء أقر الخصم به أو لم يقر فالغرض حاصل .

﴿ ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ يقال لمن كان في عمل لا يجدي عليه إنما أنت لاعب و﴿ يلعبون ﴾ حال من ﴿ ذرهم ﴾ أو من ﴿ خوضهم ﴾ ويحتمل أن يكون ﴿ في خوضهم ﴾ حالاً من ﴿ يلعبون ﴾ وأن يكون صلة له أول ﴿ ذرهم ﴾ . والمعنى أنك إذا أقمت الحجة عليهم وبلغت في الأعذار والإنذار هذا المبلغ العظيم فقد قضيت ما عليك كقوله ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾ [ الشورى : 48 ] قيل : إنها منسوخة بآية السيف

وفيه نظر لأنه مذكور لأجل التهديد فلم يكن نزول آية القتال رافعاً لشيء من مدلولات هذه الآية .

(267/242)

---

ثم لما ذكر حال التوراة أعقبه بذكر القرآن فقال ﴿ وهذا كتاب أنزلناه ﴾ وفائدة هذا الوصف أنه كان من الممكن أن يظن أن محمداً مخصوص من الله بعلوم كثيرة يتمكن بسببها من تركيب القرآن على هذا النسق من الفصاحة ، فنفى ذلك الوهم وبين أن الله هو الذي تولى إنزاله بالوحي على لسان جبريل عليه السلام ﴿ مبارك ﴾ كثير خيره دائم نفعه باعث على الخيرات زاجر عن المنكرات لما فيه من أصول العلوم النظرية والعملية . وقد جرت سنة الله تعالى بأن الباحث عنه والمتمسك به يفوز بعز في الدنيا وسعادة في الآخرة وقد جرب فوجد كذلك . ﴿ مصدق الذي بين يديه ﴾ أي موافق لما قبله من الكتب الإلهية . أما في الأصول فلأنه يمتنع وقوع التفاوت فيها بحسب الأزمنة والأمكنة . وأما في الفروع فلأنها مشتملة على التبشير بمقدم محمد صلى الله عليه وسلم . ويحصل منه أن التكاليف الموجودة فيها إنما تبقى إلى وقت ظهوره ثم تصير منسوخة ﴿ ولتنذر ﴾ من قرأ بتاء الخطاب فظاهر ، ومن قرأ على الغيبة فلأنه أسند الإنذار إلى الكتاب مجازاً لأنه سبب

الإنذار ﴿ إنما أنذركم بالوحي ﴾ [ الأنبياء : 45 ] وهو معطوف على ما دل عليه سائر الأوصاف كأنه قيل : أنزلناه للبركة ولتصديق ما تقدمه من الكتب وللإنذار ، قال ابن عباس : سميت مكة أم القرى لأن الأرضين دحيت من تحتها . وقال أبو بكر الأصم : لأنها قبلة أهل الدنيا فصارت هي كالأصل وسائر البلاد تبعاً ، وأيضاً الناس يجتمعون إليها للحج وللتجارة كما يجتمع الأولاد إلى الأم . وقيل : لأن الكعبة أول بيت وضع للناس . وقيل : إن مكة أول بلدة في الأرض ولا بد من تقدير مضاف محذوف أي أهل أم القرى ومن حولها . قيل : المراد أهل جزيرة العرب فاستدل اليهود بذلك على أنه مبعوث إلى العرب فقط . وأجيب بأن تخصيص هذه المواضع بالذكر لا يدل على نفي ما عداها لا سيما وقد ثبت بالتواتر أنه كان يدعي أنه رسول إلى العالمين . ويحتمل أن يقال : ما حوالي مكة يتناول

(268/242)

---

جميع البلاد ﴿ والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ﴾ أي بهذا الكتاب لأن أصل الدين خوف العاقبة فمن خالفها لم يزل به الخوف حتى يؤمن . وليس لأحد من الأنبياء مبالغة في تقرير قاعدة البعث والقيامة مثل محمد صلى الله عليه وسلم ، وفيه أن كفار مكة يبعد منهم قبول هذا الدين لأنهم كانوا لا يعتقدون البعث والحشر ﴿ وهم على صلاتهم

يحافظون ﴾ يعني أن الإيمان بالآخرة كما أنه يحمل المكلف على الإيمان بالنبي وبالكتاب كذلك يحمله على محافظة الصلوات . وخص الصلاة بالذكر لأنها عماد الدين وسنام الطاعات كاد المحافظ عليها أن يأتي بأخواتها كلها ويجتنب المنكرات بأسرها .

ثم ذكر ما يدل على وعيد من ادّعى النبوّة وإنزال الكتاب عليه فرية وامتراء فقال ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ قال المفسرون : نزلت في الكذابين مسيلمة الحنفي والأسود العنسي .

*(269/242)*

---

عن النبي صلى الله عليه وسلم " رأيت فيما يرى النائم كأن في يدي سوارين من ذهب فكبرا علي وأهماني . فأوحى الله إلي أن انفخهما فنفختهما فطارا عني فأوّلتهما الكذابين اللذين أنا بينهما كذاب اليمامة مسيلمة وكذاب صنعاء الأسود العنسي " ﴿ أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ﴾ كان مسيلمة يقول : محمد صلى الله عليه وسلم وآله رسول الله في بني قريش ، وأنا رسول الله في بني حنيفة . واعلم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فكل من نسب إلى الله تعالى ما هو بريء منه إما في الذات وإما في الصفات وإما في الأفعال كان داخلاً تحت هذا الوعيد ﴿ ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ﴾ قال المفسرون : هو

النضر بن الحرث كان يدعي معارضة القرآن وهو قوله ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ [ الأنفال : 31 ] وروي أن عبد الله بن سعد أبي سرح القرشي كان يكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان إذا تلا عليه " سميعاً عليماً " كتب هو " عليماً حكيماً " وإذا قال " عليماً حكيماً " كتب " غفوراً رحيماً " فلما نزل ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ [ المؤمنون : 12 ] أملاه الرسول صلى الله عليه وسلم . فلما وصل إلى قوله ﴿ أنشأناه خلقاً آخر ﴾ عجب عبد الله من تفصيل خلق الإنسان فقال : تبارك الله أحسن الخالقين فقال النبي صلى الله عليه وسلم اكتبها فكذلك نزلت ، فشك عبد الله وقال : لئن كان محمد صلى الله عليه وسلم صادقاً لقد أوحي إلي كما أوحي إليه ، وإن كان كاذباً لقد قلت كما قال فارتد عن الإسلام ولحق بمكة . فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فر إلى عثمان – وكان أخاه من الرضاعة – فغيبه عنده حتى اطمأن أهل مكة ، ثم أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأمن له . ثم فصل ما أجمل من الوعيد فقال ﴿ ولو ترى ﴾ الآية . وجوابه محذوف أي لرأي يا إنسان أمراً عظيماً ﴿ إذ الظالمون ﴾ يعني الذين ذكرهم من اليهود والمتنبئة . فاللام للعهد ، ويحتمل أن

تكون للجنس فيندرج هؤلاء فيه . وغمرات الموت شدائده وسكراته . وأصل الغمرة ما يغمر من الماء فاستعيرت للشدة الغالبة ﴿ والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم ﴾ قيل : إنه لا قدرة لهم على إخراج أرواحهم من أجسادهم فما الفائدة في هذا الخطاب ؟ وأجيب بوجوه منها : أن المراد ولو ترى الظالمين إذا صاروا إلى غمرات الموت في الآخرة إذا ما دخلوا جهنم ، وغمرات الموت عبارة عما يصيبهم هناك من أنواع الشدائد والتعذيبات ﴿ والملائكة باسطوا أيديهم ﴾ بالعذاب يكلمونهم يقولون لهم ﴿ أخرجوا أنفسكم ﴾ من هذا العذاب الشديد إن قدرتم .

*(271/242)*

---

ومنها ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت ﴾ عند نزول الموت بهم في الدنيا ﴿ والملائكة باسطوا أيديهم ﴾ لقبض أرواحهم يقولون لهم ﴿ أخرجوا أنفسكم ﴾ من هذه الشدائد وخلصوها من هذه الآفات والآلام ، ومنها هاتوا أرواحكم وأخرجوها إلينا من أجسادكم وهذه عبارة عن العنف والتشديد في إزهاق الروح من غير تنفيس وإمهال ، وأنهم يفعلون بهم فعل الغريم الملازم الملح يبسط يده إلى من عليه الحق ويقول : أخرج إليّ ما لي عليك ولا أريم مكاني حتى أنزعه من أحداقك . ومنها أنه ليس بأمر وإنما هو وعيد

وتقريع كقوله القائل : امض الآن لترى ما يحل بك ، والتحقيق أن نفس المؤمن حال النزع تنبسط في الخروج إلى لقاء ربه ، ونفس الكافر تكره ذلك ويشق عليها الخروج ، وقطع التعلق لأنها تصير إلى العذاب وإليه الإشارة في الحديث " من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه " فهؤلاء الكفار يكرههم الملائكة على نزع الروح وعلى فراق المألوف . وفي الآية دلالة على أن النفس الإنسانية شيء غير هذا الهيكل المحسوس ، لأن المخرج يجب أن يكون مغايراً للمخرج منه ﴿ اليوم ﴾ يريد وقت الإماتة أو الوقت الممتد الذي يلحقهم فيه العذاب في البرزخ والقيامة ﴿ تجزون عذاب الهون ﴾ كقولك " رجل سوء " بالإضافة لأن العقاب شرطه أن يكون مضرة مقرونة بالإهانة كما أن الثواب شرطه أن يكون منفعة مقرونة بالتعظيم ، والتركيب يدور على قلة المبالاة بالشيء ومنه بالفتح السكينة والوقار ، وهان عليه الشيء أي حقر ، وأهانه استخف به ، والاسم الهون بالضم والهوان والمهانة . والحاصل أنه جمع لهم بين الأمرين الإيلام والإهانة ﴿ بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ يعني أن هذا العذاب الشديد إنما حصل بمجموع الأمرين : الافتراء على الله والتكبر على آيات الله وهو عدم الإيمان بها . قال الواحدي ﴿ وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ أي لا تصلون له لقوله صلى الله

عليه وسلم " من سجد لله سجدة واحدة بنية صادقة فقد برىء من الكبر " .

﴿ ولقد جئتمونا ﴾ يحتمل أن يكون معطوفاً على قول الملائكة ﴿ أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون ﴾ ثم الملائكة إما الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم ، وإما الملائكة الموكلون بعذابهم ، ويحتمل أن يكون القائل هو الله تعالى إن جوزنا أنه يتكلم مع الكفار ﴿ فرادى ﴾ جمع ينون ولا ينوّن واحده . قيل : فرد على غير قياس : فردان كسكارى وسكران قاله ابن قتيبة . وقيل : فريد كرديف وردا في وهم الحداة والأعوان لأنه إذا أعيا أحدهم خلفه الآخر ﴿ كما خلقناكم ﴾ أي على الهيئة التي ولدتم عليها في الانفراد ، أو مجيئاً مثل خلقنا لكم . ﴿ أوّل مرة ﴾ والمراد التوبيخ والتقريع لأنهم بذلوا جهدهم وصرفوا كدهم في الدنيا إلى تحصيل أمرين : أحدهما المال والجاه ، والثاني أنهم عبدوا الأصنام وجعلوها شركاء لله فيهم فقلبوا القضية وتركوا الحقيقة ، وذلك أن النفس الإنسانية إنما تعلقت بالجسد ليكون البدن آلة لها في اكتساب المعارف الحقة والأخلاق الفاضلة ، فإذا فارقت البدن ولم يحصل لها هذان المطلبان عظم خسرانها وطال حرمانها فاستحق التوبيخ بقوله ﴿ ولقد جئتمونا فرادى ﴾ أي منفردين عما يجب من الأعمال والعقائد .

ثم إنها مع ذلك اكتسبت أشياء قد علق الرجاء بها لأنه أفنى العمر في تحصيلها وأنها ليست مما يبقى معها فلا جرم استحق التقريع بقوله ﴿ وتركتم ما خوّلناكم ﴾ أي أعطينا وتفضلنا به عليكم ﴿ وراء ظهوركم ﴾ يعني أنها كالشيء الذي يبقى وراء ظهر الإنسان فلن يمكنه الانتفاع به وربما بقي معوج الرأس بسبب التفاته إليه ﴿ وما نرى معكم شفعاءكم ﴾ أي ليسوا معكم حتى يروا ، أو ليسوا معكم بالشفاعة والنصرة كما زعمتم بدليل قوله ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ الآية . من قرأ بالنصب على الظرف فمعناه وقع التقطع بينكم كقوله ﴿ وتقطعت بهم الأسباب ﴾ [ البقرة : 166 ] يقال : جمع بين الشيئين أي وقع الجمع بينهما على إسناد الفعل إلى مصدره . وقيل : المراد لقد تقطع وصلكم بينكم كقولهم إذا كان غداً فأتني أي إذا كان الرجاء أو البلاء غداً فأتني فأضمر لدلالة الحال ، ومن قرأ بالرفع فلأنه أسند الفعل إلى الظرف اتساعاً كما تقول : قوتل خلفكم وأمامكم ، أو لأن المراد بالبين الوصل وإنما حسن استعماله في معنى الوصلة مع أن أصله الافتراق والتباين لأنه يستعمل في الشيئين اللذين بينهما مشاركة ومواصلة من بعض الوجوه كقولهم : بيني وبينه مشاركة وبيني وبينه رحم . والمعنى لقد تقطع وصلكم . قلت : ويحتمل أن يكون البين بمعنى الافتراق ويفيد المبالغة كقولهم : جد جده . فإذن العاقل من يكسب الزاد ليوم المعاد حتى لا يوبخ بقوله ﴿ ولقد جئتمونا فرادى ﴾ ويصرف المال في وجوه التعظيم لأمر الله

والشفقة على خلق الله حتى لا يخاطب بقوله ﴿ وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ﴾ بل يكون من زمرة ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ﴾ [ المزمل : 20 ] كيلا تطول حسرته يوم ينقطع بين النفس والجسد وصله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 124.117 ﴾

*(274/242)*

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والأربعون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/243)

---

الجزء الثالث والأربعون بعد المائتين

من الآية ﴿ 95 ﴾ من سورة الأنعام

وحتى الآية ﴿ 99 ﴾ من نفس السورة

(4/243)

---

قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (95) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ثبتت الوحدانية والنبوة والرسالة وتقاريع من تقاريعها ، وانتهى الكلام هنا إلى ما تجلى

به مقام العظمة ، وانكشف له قناع الحكمة وتمثل نفوذ الكلمة ، فتهيأ السامع لتأمله ، وتفرع فهمه لتدبره ؛ قال دالاً عليه مشيراً إليه ، معلماً أن ما مضى أنتجه وأظهره لا بد وأبرزه ، مذكراً بآياته ﴿ والذين يؤمنون بالآخرة ﴾ وبمحاجة إبراهيم عليه السلام ، مصرفاً ما مضى أول السورة من دلائل الوحدانية على أوجه أخرى ، إعلاماً بأن دلائل الجلال تفوق عدد الرمال ، وتنبيهاً على أن القصد بالذات معرفة الله تعالى بذاته وصفاته : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال ، فهو قادر على كل ما يريد ﴿ فالق الحب ﴾ أي فاطره وشاقه عن الزروع والنبات ، وعبر بذلك لأن الشيء قبل وجوده كان معدوماً ، والعقل يتوهم ويتخيل من العدم ظلمة متصلة ، فإذا خرج من العدم المحض والفناء الصرف فكأنه بحسب التخيل والتوهم شق ذلك العدم ﴿ والنوى ﴾ أي وهو ما يكون داخل الثمار المأكولة كالتمر ، ولا يكون مقصوداً لذاته بفلقها عن الأشجار ، وفي ذلك حكم وأسرار تدق عن الأفكار ، وتدل على كمال الواحد المختار ؛ قال الإمام الرازي ما حاصله : إن النواة والحبة تكون في الأرض الرطبة مدة ، فيظهر الله فيها شقاً في أعلاها وآخر في أسفلها ، وتخرج الشجرة من الأعلى فتعلو وتهبط من الأسفل شجرة أخرى في أعماق الأرض ، هي العروق ، وتلك الحبة أو النواة سبب واصل بين الشجرتين : الصاعدة والهابطة ، فيشهد الحس والعقل بأن طبع الصاعدة والهابطة متعاكس ، وليس ذلك قطعاً بمقتضى الطبع والخاصية ، بل بالإيجاد والاختراع والتكوين والإبداع ، ولا شك أن العروق الهابطة في غاية

اللطافة والرقة بحيث لو دلكت باليد بأدنى قوة صارت كالماء ، وهي مع ذلك تقوى على النفوذ في الأرض الصلبة التي لا ينفذ فيها المسلّة والسكين الحادة إلا بإكراه عظيم ، فحصول هذا النفوذ لهذه الأجرام اللطيفة لا يكون قطعاً إلا لقوة الفاعل

*(5/243)*

---

المختار ، لا سيما إذا تأملت ظهور شجرة من نواة صغيرة ، ثم تجمع الشجرة طبائع مختلفة في قشرها ثم فيما تحته من جرم الخشبة ، وفي وسط تدوير الخشبة جرم ضعيف كالعهن المنفوش ، ثم يتولد من ساقها أغصانها ، ومن الأغصان أوراقها أولاً ثم أنوارها وأزهارها ثانياً ، ثم الفاكهة ثالثاً ، ثم قد يحصل للفاكهة أربعة أنواع من القشور ، مثل الجوز واللوز قشره الأعلى ذلك الجرم الأخضر ، وتحته القشر الذي كالخشب ، وتحته القشر الذي كالغطاء الرقيق المحيط باللبة ، وتحته اللب المشتمل على جرم كثيف هو أيضاً كالقشرة ، وعلى جرم لطيف هو الزهر ، وهو المقصود بالذات ، فتولدُ هذه الأجسام المختلفة طبعاً وصفة ولوناً وشكلاً وطعماً مع تساوي تأثيرات الطبائع والنجوم والعناصر والفصول الأربعة دال على القادر المختار بتلوه في الفرحة ، وقد تجتمع الطبائع الأربعة في الفاكهة الواحدة كالأترج قشره حار يابس ونوره حار يابس ، وكذلك العنب قشره وعجمه يابس حار رطب مع أنك تجد

أحوالها مختلفة ، بعضها لبه في داخله وقشره في خارجه كالجوز واللوز ، وبعضها يكون المطلوب منه في الخارج وخشبه في الداخل كالخوخ والمشمش ، وبعضه لا لب لنواه كالتمر ، وبعضه يكون كله مطلوباً كالتين ، واختلاف هذه الطبائع والأحوال المتضادة والخواص المتنافرة حتى في الحبة الواحدة لا يكون عن طبيعة ، بل عن الواحد المختار ، والحبوب مختلفة الألوان والأشكال والصور ، فشكل الحنطة كأنه نصف مخروط ، وشكل الشعير كأنه مخروطان اتصلا بقاعدتيهما وشكل الحمص على وجه آخر ، وأودع سبحانه في كل نوع منها خاصية ومنفعة غير ما في الآخر ، وقد تكون الثمرة غذاء لحيوان وسمّاً لحيوان آخر ، فهذا الاختلاف مع اتحاد الطبائع وتأثيرات الكواكب دالّ على أنها إنما حصلت بالفاعل المختار ، ثم إنك تجد في ورقة الشجرة خطاً في وسطها مستقيماً نسبته لتلك الورقة نسبة النخاع إلى بدن الإنسان ، ينفصل عنه خيوط مختلفة ، وعن كل



---

واحد منها خيوط أخرى أدق من الأولى ، ولا يزال على هذا النهج حتى تخرج الخيوط عن الحس والبصر ، كما أن النخاع ينفصل منه أعصاب كثيرة يمنة ويسرة في البدن ، ثم لا يزال ينفصل عن كل شعبة أخرى ، ولا يزال يستدق حتى تلطف عن الحس ، فعل سبحانه ذلك

في الورقة لتقوى القوى المذكورة في جرم تلك الورقة على جذب الأجزاء اللطيفة الأرضية في تلك المجاري الضيقة ، فهذا يعلمك أن عنايته سبحانه في اتخاذ جملة تلك الشجرة أكمل ، فعنايته في تكوين جملة النبات أكمل ، وهو إنما خلق جملة النبات لمصلحة الحيوان فعنايته في تخليق الحيوان أكمل ، والمقصود من تخليق جملة الحيوان هو الإنسان فعنايته في تخليقه أكمل ، وهو سبحانه إنما خلق الحيوان والنبات في هذا العالم ليكون غذاء ودواء للإنسان بحسب جسده ، والمقصود من جسده حفظ تركيبه لأجل المعرفة والمحبة والعبودية ، فسبيلك أن تنظر في ورقة الشجرة وتتأمل في تلك الأوتار ثم تترقى منها إلى أوج تخليق الشجرة ثم إلى ما فوقها رتبة رتبة لتعلم أن المقصود الأخير منها حصول المعرفة والمحبة في الأرواح البشرية ، وحينئذ ينفتح لك باب من المكاشفات لا آخر له ، ويظهر لك أن نعم الله في خلقك غير متناهية

﴿ وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها ﴾ [ إبراهيم : 34 ] - والله الهادي .

*(7/243)*

---

ولما كان فلقهما عن النبات من جنس الإحياء لما فيه من النمو فسر معنى الفلق وبينه إشارة إلى الاعتناء به وقتاً بعد وقت بقوله : ﴿ يخرج ﴾ أي على سبيل التجدد والاستمرار

تثبيتاً لأمر البعث ﴿ الحي ﴾ أي كالنجم والشجر والطير والدواب ﴿ من الميت ﴾ من الحب والنوى والبيض والنطف فكيف تنكرون قدرته على البعث ؛ ولما انكشف معناه وبان مغزاه بإخراج الأشياء من أضدادها لئلا يتوهم – لو كان لا يخرج عن شيء إلا مثله – أن الفاعل الطبيعة والخاصية ، عطف على ﴿ فالق ﴾ زيادة في البيان قوله معبراً باسم الفاعل الدال على الثبات لأنه لا منازعة لهم فيه ، فلم تدع حاجة إلى التعبير بالفعل الدال على التجدد : ﴿ ومخرج الميت ﴾ أي من الحب وما معه ﴿ من الحي ﴾ أي من النجم وما معه .

ولما تقررت له سبحانه هذه الأوصاف التي لا قدرة أصلاً لأحد غيره على شيء منها ، قال منبهاً لهم على غلطهم في إشراكهم ، إعلاماً بأن كل شريك ينبغي أن يساوي شريكه في شيء ما من الأمر المشرك فيه ، ولا مكافئ له سبحانه وتعالى في شيء من الأشياء فلا شريك له بوجه : ﴿ ذلكم ﴾ أي العالي المراتب المنيع المراقي هو ﴿ الله ﴾ أي المستجمع لصفات الكمال وحده فلا يحق الإلهية إلا له ؛ ولما كان هذا معنى الكلام ، سبب عنه قوله : ﴿ فأنَّى ﴾ أي فكيف ومن أيّ وجه ﴿ تؤفكون ﴾ أي تصرفون وتقلبون عما ينبغي اعتقاده . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 676. 679 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما تكلم في التوحيد ثم أردفه بتقرير أمر النبوة ، ثم تكلم في بعض تفاريع هذا

الأصل ، عاد ههنا إلى ذكر الدلائل الدالة على وجود الصانع ، وكمال علمه وحكمته وقدرته تنبيهاً على أن المقصود الأصلي من جميع المباحث العقلية والنقلية ، وكل المطالب الحكمية إنما هو معرفة الله بذاته وصفاته وأفعاله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 73 ﴾

*(8/243)*

---

اللغة :

[ فالق ] الفلق : الشق ، وانفلق الصبح انشق

[ سكنا ] السكن ما يسكن إليه الإنسان ويانس به ، والسكن : الرحمة حسبانا ] أى بحساب ، قال الزمخشري : الحسبان مصدر حسب كما أن الحسبان مصدر حسب ونظيره الكفران والشكران

[ متراكبا ] بعضه فوق بعض

[ قنوان ] جمع قنو وهو العذق أي عنقود النخلة

[ وينعه ] أى نضجه وإدراكه يقال : ينعت الشجرة وأينعت إذا نضجت

[ خرقوا ] اختلقوا كذبا وإفكا

[ بديع ] مبدع وهو الخالق على غير مثال سابق ، والإبداع الإتيان بشيء لم يسبق إليه ، ولهذا يقال لمن أتى في فن من الفنون لم يسبقه فيه غيره : إنه أبدع

[ نصرف ] التصريف : نقل الشيء من حال الى حال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 407 ﴾

*(9/243)*

---

فصل

قال الفخر :

وفي قوله : ﴿ فَالِقُ الحب والنوى ﴾ قولان :

القول الأول : وهو مروي عن ابن عباس وقول الضحاك ومقاتل : ﴿ فَالِقُ الحب والنوى ﴾ أي خالق الحب والنوى .

قال الواحدي : ذهبوا بفالق مذهب فاطر ، وأقول : الفطر هو الشق ، وكذلك الفلق ، فالشيء قبل أن دخل في الوجود كان معدوماً محضاً ونفياً صرفاً ، والعقل يتصور من العدم ظلمة متصلة لا انفراج فيها ولا انفلاق ولا انشقاق ، فإذا أخرجه المبدع الموجد من العدم إلى الوجود ، فكأنه بحسب التخيل والتوهم شق ذلك العدم وفلقه .

وأخرج ذلك المحدث من ذلك الشق .

فبهذا التأويل لا يبعد حمل الفالق على الموجد والمحدث والمبدع .

والقول الثاني : وهو قول الأكثرين : أن الفلق هو الشق ، والحب هو الذي يكون مقصوداً بذاته مثل حبة الحنطة والشعير وسائر الأنواع ، والنوى هو الشيء الموجود في داخل الثمرة مثل نوى الخوخ والتمر وغيرهما .

إذا عرفت هذا فنقول : إنه إذا وقعت الحبة أو النواة في الأرض الرطبة ، ثم مر به قدر من المدة أظهر الله تعالى في تلك الحبة والنواة من أعلاها شقاً ومن أسفلها شقاً آخر .

أما الشق الذي يظهر في أعلى الحبة والنواة فإنه يخرج منه الشجرة الصاعدة إلى الهواء ، وأما الشق الذي يظهر في أسفل تلك الحبة فإنه يخرج منه الشجرة الهابطة في الأرض وهي المسماة بعروق الشجرة ، وتصير تلك الحبة والنواة سبباً لاتصال الشجرة الصاعدة في الهواء بالشجرة الهابطة في الأرض .

ثم إن ههنا عجائب : فإحداها : أن طبيعة تلك الشجرة إن كانت تقتضي الهوى في عمق الأرض فكيف تولدت منها الشجرة الصاعدة في الهواء ؟ وإن كانت تقتضي الصعود في الهواء ، فكيف تولدت منها الشجرة الهابطة في الأرض ؟ فلما تولد منها هاتان الشجرتان مع أن الحس والعقل يشهد بكون طبيعة إحدى الشجرتين مضادة لطبيعة الشجرة الأخرى

، علمنا أن ذلك ليس بمقتضى الطبع والخاصية ، بل بمقتضى الإيجاد والإبداع والتكوين والاختراع .

*(10/243)*

---

وثانيها : أن باطن الأرض جرم كثيف صلب لا تنفذ المسلة القوية فيه ولا يغوص السكين الحاد القوي فيه ، ثم إنا نشاهد أطراف تلك العروق في غاية الدقة واللطافة بحيث لو دلكها الإنسان بأصبعه بأدنى قوة لصارت كالماء ، ثم إنها مع غاية اللطافة تقوى على النفوذ في تلك الأرض الصلبة والغوص في بواطن تلك الأجرام الكثيفة ، فحصول هذه القوى الشديدة لهذه الأجرام الضعيفة التي هي في غاية اللطافة لا بد وأن يكون بتقدير العزيز الحكيم .

وثالثها : أنه يتولد من تلك النواة شجرة ويحصل في تلك الشجرة طبائع مختلفة ، فإن قشر الخشبة له طبيعة مخصوصة ، وفي داخل ذلك القشر جرم الخشبة وفي وسط تلك الخشبة جسم رخو ضعيف يشبه العهن المنفوش ، ثم إنه يتولد من ساق الشجرة أغصانها ويتولد على الأغصان الأوراق أولاً ، ثم الأزهار والأنوار ثانياً ، ثم الفاكهة ثالثاً ، ثم قد يحصل للفاكهة أربعة أنواع من القشر : مثل الجوز ، فإن قشره الأعلى هو ذلك الأخضر ، وتحت ذلك القشر الذي يشبه الخشب ، وتحته ذلك القشر الذي هو كالغشاء الرقيق المحيط باللب

، وتحته ذلك اللب ، وذلك اللب مشتمل على جرم كثيف هو أيضاً كالقشر ، وعلى جرم لطيف وهو الدهن ، وهو المقصود الأصلي ، فتولد هذه الأجسام المختلفة في طبائعها وصفاتها وألوانها وأشكالها وطعومها مع تساوي تأثيرات الطبائع والنجوم والفصول الأربعة والطبائع الأربع ، يدل على أنها إنما حدثت بتدبير الحكيم الرحيم المختار القادر لا بتدبير الطبائع والعناصر .

ورابعها : أنك قد تجد الطبائع الأربع حاصلة في الفاكهة الواحدة ، فالأترنج قشره حار يابس ، ولحمه بارد رطب ، وحماضه بارد يابس ، وبذره حار يابس ، وكذلك العنب قشره وعجمه بارد يابس ، وماؤه ولحمه حار رطب ، فتولد هذه الطبائع المضادة والخواص المتنافرة عن الحبة الواحدة لا بد وأن يكون بإيجاد الفاعل المختار .

*(11/243)*

---

وخامسها : أنك تجد أحوال الفواكه مختلفة فبعضها يكون اللب في الداخل والقشر في الخارج كما في الجوز واللوز وبعضها يكون الفاكهة المطلوبة في الخارج ، وتكون الخشبة في الداخل كالخوخ والمشمش ، وبعضها يكون النواة لها لب كما في نوى المشمش والخوخ ، وبعضها لا لب له ، كما في نوى التمر وبعض الفواكه لا يكون له من الداخل والخارج قشر ، بل

يكون كله مطلوباً كالتين ، فهذه أحوال مختلفة في هذه الفواكه وأيضاً هذه الحبوب مختلفة في الأشكال والصور فشكل الحنطة كأنه نصف دائرة ، وشكل الشعير كأنه مخروطان اتصلا بقاعدتيهما ، وشكل العدس كأنه دائرة ، وشكل الحمص على وجه آخر ، فهذه الأشكال المختلفة ، لا بد وأن تكون لأسرار وحكم علم الخالق أن تركيبها لا يكمل إلا على ذلك الشكل ، وأيضاً فقد أودع الخالق تعالى في كل نوع من أنواع الحبوب خاصية أخرى ومنفعة أخرى وأيضاً فقد تكون الثمرة الواحدة غذاء لحيوان وسماً لحيوان آخر ، فاختلاف هذه الصفات والأشكال والأحوال مع اتحاد الطبائع وتأثيرات الكواكب يدل على أن كلها إنما حصلت بتخليق الفاعل المختار الحكيم .

وسادسها : أنك إذا أخذت ورقة واحدة من أوراق الشجرة وجدت خطاً واحداً مستقيماً في وسطها ، كأنه بالنسبة إلى تلك الورقة كالنخاع بالنسبة إلى بدن الإنسان ، وكما أنه ينفصل من النخاع أعصاب كثيرة يمنة ويسرة في بدن الإنسان .

*(12/243)*

---

ثم لا يزال ينفصل عن كل شعبة شعب أخر ، ولا تزال تستدق حتى تخرج عن الحس والأبصار بسبب الصغر ، فكذلك في تلك الورقة قد ينفصل عن ذلك الخط الكبير

الوسطاني خطوط منفصلة ، وعن كل واحد منها خطوط مختلفة أخرى أدق من الأولى ، ولا يزال يبقى على هذا المنهج حتى تخرج تلك الخطوط عن الحس والبصر والخالق تعالى إنما فعل ذلك حتى أن القوى الجاذبة المركوزة في جرم تلك الورقة تقوى على جذب الأجزاء اللطيفة الأرضية في تلك المجاري الضيقة ، فلما وقفت على عناية الخالق في إيجاد تلك الورقة الواحدة علمت أن عنايته في تخليق جملة تلك الشجرة أكمل ، وعرفت أن عنايته في تكوين جملة النبات أكمل .

ثم إذا عرفت أنه تعالى إنما خلق جملة النبات لمصلحة الحيوان علمت أن عنايته بتخليق الحيوان أكمل ، ولما علمت أن المقصود من تخليق جملة الحيوانات هو الإنسان علمت أن عنايته في تخليق الإنسان أكمل ، ثم إنه تعالى إنما خلق النبات والحيوان في هذا العالم ليكون غذاء ودواء للإنسان بحسب جسده والمقصود من تخليق الإنسان هو المعرفة والمحبة والخدمة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [ الذاريات : 56 ]

*(13/243)*

---

فانظر أيها المسكين بعين رأسك في تلك الورقة الواحدة من تلك الشجرة ، واعرف كيفية خلقة تلك العروق والأوتار فيها ، ثم انتقل من مرتبة إلى ما فوقها حتى تعرف أن المقصود

الأخير منها حصول المعرفة والمحبة في الأرواح البشرية ، فحينئذ ينفتح عليك باب من المكاشفات لا آخر لها ، ويظهر لك أن أنواع نعم الله في حقك غير متناهية ، كما قال : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ [ إبراهيم : 34 ] وكل ذلك إنما ظهر من كيفية خلقة تلك الورقة من الحبة والنواة ، فهذا كلام مختصر في تفسير قوله : ﴿ إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الحب والنوى ﴾ ومتى وقف الإنسان عليه أمكنه تفريقها وتشعيبها إلى ما لا آخر له ، ونسأل الله التوفيق والهداية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 73 . 75 ﴾

*(14/243)*

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الحب والنوى ﴾

عدّ من عجائب صنعه ما يعجز عن أدنى شيء منه آلهتهم .

والفَلْق : الشق ؛ أي يَشق النواة الميتةَ فيُخرج منها ورقاً أخضر ، وكذلك الحبة .

ويُخرج من الورق الأخضر نواة ميتة وحبّة ؛ وهذا معنى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ؛ عن الحسن وقتادة .

وقال ابن عباس والضحاك : معنى فالق خالق .

وقال مجاهد : عُني بالفلق الشقّ الذي في الحبّ وفي النّوَى .

والنّوَى جمع نواة ، ويجري في كل ما له عَجْمٌ كالمشمش والخوخ. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ إن الله فالق الحب والنوى ﴾

الظاهر أن المعنى أنه تعالى ﴿ فالق الحب ﴾ شاقه فمخرج منه ﴿ النبات والنوى ﴾ فمخرج منه الشجر ، والحب والنوى عامّان أي كل حبة وكل نواة وبه قال قتادة والضحاك والسدي وغيرهم قالوا : هذه إشارة إلى فعل الله في أن يشق جميع الحب عن جميع النبات الذي يكون منه ويشق النوى عن جميع الأشجار الكائنة عنه ؛ وقال ابن عباس والضحاك أيضاً ﴿ فالق ﴾ بمعنى خالق ؛ قيل ولا يعرف ذلك في اللغة ، وقال تاج القراء : فطر وخلق وفلق بمعنى واحد ، وقال مجاهد وأبو مالك : إشارة في الشق الذي في حبة البرّ ونواة التمر ، وقال اسماعيل الضرير : المعنى فالق ما فيه الحب من السنبل وما فيه النوى من التمر وأما أشبهه ، وقال الماتريدي وخصّهما بالذكر لأن جميع ما في الدنيا من الإبدال منهما فأضاف ذلك إلى نفسه كما أضاف خلق جميع البشر إلى نفس واحدة لأنهم منها في قوله ﴿ خلقكم من نفس واحدة ﴾ فكأنه قال : خالق الإبدال كلها انتهى ، ولما كان قد تقدم ذكر البعث نبه على قدرته تعالى الباهرة في شق النواة مع صلابتها وإخراجه منها نبتاً أخضر ليناً إلى ما

بعد ذلك مما فيه إشارة إلى القدرة التامة والبعث والنشر بعد الموت ، وقرأ عبد الله ﴿ فالق الحب ﴾ جعله فعلاً ماضياً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

*(15/243)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ اللهَ فَالِقُ الحب والنوى ﴾

شروع في تقرير بعض أفاعيله تعالى العجيبة الدالة على كمال علمه تعالى وقدرته ولطيف صنعه وحكمته إثر تقرير أدلة التوحيد ، وفي ذلك "تنبيه على أن المقصود ( الأصلي ) من جميع المباحث العقلية والنقلية وكل المطالب الحكمية إنما هو معرفة الله تعالى بذاته وصفاته وأفعاله سبحانه" .

والفالق الموجد والمبدع كما روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما والضحاك والحب معلوم .

والنوى جمع نواة التمر كما في "القاموس" وغيره يؤنث ويذكر ويجمع على أنواء ونوى بضم النون وكسرها .

وفسره الإمام بالشيء الموجود في داخل الثمرة بالمثلثة أعم من التمر بالمثناة وغيره ،

والمشهور أن النوى إذا أطلق فالمراد منه ما في "القاموس" وإذا أريد غيره قيد فيقال : نوى الخوخ ونوى الإجاص ونحو ذلك .

وأصل الفلق الشق .

وكان إطلاق الفالق على الموجد باعتبار أن العقل يتصور من العدم ظلمة متصلة لا انفراج فيها ولا انفلاق فمتى أوجد الشيء تخيل الذهن أنه شق ذلك العدم وفلقه وأخرج ذلك المبدع منه ، وعن الحسن وقتادة والسدي أن المعنى شاق الحبة اليابسة ومخرج النبات منها وشاق النواة ومخرج النخل والشجر منها وعليه أكثر المفسرين ولعله الأولى .

وفي ذلك دلالة على كمال القدرة لما فيه من العجائب التي تصدح أطيارها على أفنان الحكم وتطفح أنهارها في رياض الكرم .

وعن مجاهد وأبي مالك أن المراد بالفلق الشق الذي بالحبوب وبالنوى أي أنه سبحانه خالقهما كذلك كما في قولك : ضيق فم الركية ووسع أسفلها .

وضعف بأنه لا دلالة له على كمال القدرة كما في سابقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ﴾

استئناف ابتدائي انتُقل به من تقرير التّوحيد والبعث والرّسالة وأفانين المواعظ والبراهين

الّتي تخلّلت ذلك إلى الاستدلال والاعتبار بخلق الله تعالى وعجائب مصنوعاته المشاهدة ، على انفراده تعالى بالإلهيّة المستلزم لانتفاء الإلهيّة عمّا لا تقدر على مثل هذا الصّنع العجيب ، فلا يحقّ لها أن تعبد ولا أن تشرك مع الله تعالى في العبادة إذ لا حقّ لها في الإلهيّة ، فيكون ذلك إبطالاً لشرك المشركين من العرب ، وهو مع ذلك إبطال لمعتقَد المعطّلين من الدُهريين منهم بطريق الأوْلى ، وفي ذلك امتنان على المقصودين من الخطاب وهم المشركون بقرينة قوله : ﴿ فأَنَّى تُؤفَكُون ﴾ ، أي فتكفرون النّعمة .

وفيه عِلم ويقين للمؤمنين من المصدّقين واستزادة لمعرفتهم بربّهم وشكرهم .

*(16/243)*

---

وافتتاحُ الجملة بـ ﴿ إنْ ﴾ مع أنّه لا ينكر أحد أنّ الله هو فاعل الأفعال المذكورة هنا ، ولكنّ النّظر والاعتبار في دلالة الزّرع على قدرة الخالق على الإحياء بعد الموت كما قدر على إماتة الحي ، لمّا كان نظراً دقيقاً قد انصرف عنه المشركون فاجْترأوا على إنكار البعث ، كان حالهم كحال من أنكر أو شَكّ في أنّ الله فالقُ الحبّ والنَّوى ، فأكّد الخبر بحرف ( إنْ ) .

وجيء بالجملة الاسميّة للدّلالة على ثبات هذا الوصف دوامه لأنّه وصف ذاتي لله تعالى ،

وهو وصف الفعل أو وصف القدرة وتعلُّقاتها في مصطلح من لا يثبت صفات الأفعال ، ولمّا كان المقصود الاكتفاء بدلالة فلق الحبّ والنّوى على قدرة الله على إخراج الحيّ من الميّت ، والانتقالُ من ذلك إلى دلالته على إخراج الحيّ من الميّت في البعث ، لم يؤت في هذا الخبر بما يقتضي الحصر إذ ليس المقام مقام القصر .

والفَلْق : شَقّ وصدعُ بعض أجزاء الشّيء عن بعض ، والمقصود الفلق الّذي تنبثق منه وشائج النّبْت والشّجر وأصولها ، فهو محلّ العبرة من علم الله تعالى وقدرته وحكمته .

والحَبّ اسم جمع لما يثمره النّبت ، واحده حبّة .

والنَّوى اسم جمع نواة ، والنّواة قلب التّمرة .

ويطلق على ما في الثّمار من القلوب الّتي منها يَنبت شجرها مثل العنب والزّيتون ، وهو العَجَم بالتّحريك اسم جمع عَجَمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ يُخْرِجُ الحى مِنَ الميت وَمُخْرِجُ الميت مِنَ الحى ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الحى مِنَ الميت وَمُخْرِجُ الميت مِنَ الحى ﴾ ففيه مباحث :

الأول : أن ﴿ الحى ﴾ اسم لما يكون موصوفاً بالحياة ، و ﴿ الميت ﴾ اسم لما كان خالياً عن صفة الحياة فيه ، وعلى هذا التقدير : النبات لا يكون حياً .

إذا عرفت هذا فللناس في تفسير هذا ﴿ الحى ﴾ و ﴿ الميت ﴾ قولان : الأول : حمل هذين اللفظين على الحقيقة .

(17/243)

---

قال ابن عباس : يخرج من النطفة بشراً حياً ، ثم يخرج من البشر الحي نطفة ميتة ، وكذلك يخرج من البيضة فروجة حية ، ثم يخرج من الدجاجة بيضة ميتة ، والمقصود منه أن الحي والميت متضادان متنافيان ، فحصول المثل عن المثل يوهم أن يكون بسبب الطبيعة والخاصية .

أما حصول الضد من الضد ، فيمتنع أن يكون بسبب الطبيعة والخاصية ، بل لا بد وأن يكون بتقدير المقدر الحكيم ، والمدبر العليم .

والقول الثاني : أن يحمل ﴿ الحى ﴾ و ﴿ الميت ﴾ على ما ذكرناه ، وعلى الوجوه المجازية أيضاً ، وفيه وجوه : الأول : قال الزجاج : يخرج النبات الغض الطري الخضر من الحب اليابس ويخرج اليابس من النبات الحي النامي .

الثاني : قال ابن عباس : يخرج المؤمن من الكافر ، كما في حق إبراهيم ، والكافر من المؤمن كما في حق ولد نوح ، والعاصي من المطيع ، وبالعكس .

الثالث : قد يصير بعض ما يقطع عليه بأنه يوجب المضرة سبباً للنفع العظيم ، وبالعكس . ذكروا في الطب أن إنساناً سقوه الأفيون الكثير في الشراب لأجل أن يموت ، فلما تناوله وظن القوم أنه سيموت في الحال رفعوه من موضعه ووضعوه في بيت مظلم فخرجت حية عظيمة فلدغته فصارت تلك اللدغة سبباً لاندفاع ضرر ذلك الأفيون منه ، فإن الأفيون يقتل بقوة برده ، وسم الأفعى يقتل بقوة حره فصارت تلك اللدغة سبباً لاندفاع ضرر الأفيون ، فههنا تولد عما يعتقد فيه كونه أعظم موجبات الشر أعظم الخيرات ، وقد يكون بالعكس من ذلك ، وكل هذه الأحوال المختلفة والأفعال المتدافعة تدل على أن لهذا العالم مدبراً حكيماً ما أهمل مصالح الخلق وما تركهم سدى ، وتحت هذه المباحث مباحث عالية شريفة .

البحث الثاني : من مباحث هذه الآية قرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿ الميت ﴾ مشددة في الكلمتين والباقون بالتخفيف في الكلمتين ، وكذلك كل هذا الجنس في القرآن .

*(18/243)*

---

البحث الثالث : أن لقائل أن يقول : إنه قال أولاً : ﴿ يُخْرِجُ الحى مِنَ الميت ﴾ ثم قال : ﴿ وَمُخْرِجُ الميت مِنَ الحى ﴾ وعطف الاسم على الفعل قبيح ، فما السبب في اختيار

ذلك ؟

قلنا : قوله : ﴿ وَمُخْرِجُ الميت مِنَ الحى ﴾ معطوف على قوله : ﴿ فَالِقُ الحب والنوى ﴾ وقوله : ﴿ يُخْرِجُ الحى مِنَ الميت ﴾ كالبيان والتفسير لقوله : ﴿ فَالِقُ الحب والنوى ﴾ لأن فلق الحب والنوى بالنبات والشجر النامي من جنس إخراج الحي من الميت ، لأن النامي في حكم الحيوان .

ألا ترى إلى قوله ﴿ ويحي الأرض بعد موتها ﴾ وفيه وجه آخر ، وهو أن لفظ الفعل يدل على أن ذلك الفاعل يعتني بذلك الفعل في كل حين وأوان .

وأما لفظ الاسم فإنه لا يفيد التجدد والاعتناء به ساعة فساعة ، وضرب الشيخ عبد القاهر الجرجاني لهذا مثلاً في كتاب "دلائل الإعجاز" فقال : قوله : ﴿ هَلْ مِنْ خالق غَيْرُ الله يَرْزُقُكُمْ مّنَ السماء ﴾ إنما ذكره بلفظ الفعل وهو قوله : ﴿ يَرْزُقُكُمْ ﴾ لأن صيغة الفعل تفيد أنه تعالى يرزقهم حالاً فحالاً وساعة فساعة .

وأما الاسم فمثاله قوله تعالى : ﴿ وَكَلْبُهُمْ باسط ذِرَاعَيْهِ بالوصيد ﴾ [ الكهف : 18 ] فقوله : ﴿ باسط ﴾ يفيد البقاء على تلك الحالة الواحدة .

إذا ثبت هدا فنقول : الحي أشرف من الميت ، فوجب أن يكون الاعتناء بإخراج الحي من الميت أكثر من الاعتناء بإخراج الميت من الحي ، فلهذا المعنى وقع التعبير عن القسم الأول بصيغة الفعل ، وعن الثاني بصيغة الاسم ؛ تنبيهاً على أن الاعتناء بإيجاد الحي من الميت

أكثر وأكمل من الاعتناء بإيجاد الميت من الحي . والله أعلم بمراده . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 76 . 77 ﴾

*(19/243)*

---

وقال القرطبى :

﴿ يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت وَمُخْرِجُ الميت مِنَ الحي ﴾

يُخرج البشر الحيَّ من النُّطْفة الميتة ، والنطفةَ الميتةَ من البشر الحيّ ؛ عن ابن عباس .

وقد تقدّم قول قتادة والحسن .

وقد مضى ذلك في "آل عمران" .

وفي صحيح مسلم عن عليّ : والذي فلق الحبة وبَرأ النَّسَمة إنه لَعَهد النبيّ الأميّ صلى الله عليه وسلم إليّ أن لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ يخرج الحيّ من الميت ومخرج الميت من الحيّ ﴾

تقدم تفسير هذا في أوائل آل عمران وعطف قوله : ﴿ ومخرج الميت ﴾ على قوله : ﴿

فالق الحب ﴾ اسم فاعل على اسم فاعل ولم يعطفه على يخرج لأن قوله : ﴿ فالق الحب والنوى ﴾ من جنس إخراج الحيّ من الميت لأن النامي في حكم الحيوان ألا ترى إلى قوله : ﴿ يحيي الأرض بعد موتها ﴾ فوقع قوله : ﴿ يخرج الحيّ من الميت ﴾ من قوله : ﴿ فالق الحب والنوى ﴾ موقع الجملة المبينة فلذلك عطف اسم الفاعل لا على الفعل ولما كان هذا مفقوداً في آل عمران وتقدم قبل ذلك جملتان فعليتان وهما ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴾ كان العطف بالفعل على أنه يجوز أن يكون معطوفاً وهو اسم فاعل على المضارع لأنه في معناه كما قال الشاعر :

بات يغشيها بعضب باتر . . .

يقصد في أسوقها وجائر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(20/243)

---

وقال الآلوسى :

﴿ يُخْرِجُ الحى مِنَ الميت ﴾ أي يخرج ما ينمو من الحيوان والنبات والشجر مما لا ينمو من النطفة .

والحب والنوى ، والجملة مستأنفة مبينة لما قبلها على ما عليه الأكثر ولذلك ترك العطف

وقيل : خبر ثان ولم يعطف للإيذان باستقلاله في الدلالة على عظمة الله تعالى ﴿ وَمُخْرِجُ الميت ﴾ كالنطفة وأخويها ﴿ مِنَ الحى ﴾ كالحيوان وأخويه ، وهذا عند بعض عطف على ﴿ فَالِقُ ﴾ لا على ﴿ يُخْرِجُ الحى ﴾ الخ لأنه كما علمت بيان لما قبله وهذا لا يصلح للبيان وإن صح عطف الاسم المشتق على الفعل وعكسه .

واختار ابن المنير كونه معطوفاً على ﴿ يَخْرُجُ ﴾ قال : "وقد وردا جميعاً بصيغة المضارع كثيراً وهو دليل على أنهما توأمان مقترنان وهو يبعد القطع ، فالوجه والله تعالى أعلم أن يقال : كان الأصل أن يؤتى بصيغة اسم الفاعل أسوة أمثاله في الآية إلا أنه عدل عن ذلك إلى المضارع في هذا الوصف وحده إرادة لتصوير إخراج الحي من الميت واستحضاره في ذهن السامع وذلك إنما يتأتى بالمضارع دون اسم الفاعل والماضي ألم تر ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء فَتُصْبِحُ الأرض مُخْضَرَّةً ﴾ [ الحج : 63 ] كيف عدل فيه عن الماضي المطابق لأنزل لذلك ، وقوله

: بأني قد لقيت الغول يسعى . . .

بسهب كالصحيفة صحصحان فآخذه وأضربه فخرت

صريعاً لليدين وللجران . . .

فإنه عدل فيه إلى المضارع إرادة لتصوير شجاعته واستحضارها لذهن السامع إلى ما لا يحصى كثرة ، وهو إنما يجيء فيما تكون العناية فيه أقوى ، ولا شك أن إخراج الحي من

الميت أشهر في القدرة من عكسه وهو أيضاً أول الحالين والنظر أول ما يبدأ فيه ثم القسم الآخر ناشىء عنه فكان الأول جديراً بالتصوير والتأكيد في النفس ولذلك هو مقدم أبداً على القسم الآخر في الذكر حسب ترتبهما في الواقع ، وسهل عطف الاسم على الفعل وحسنه أن اسم الفاعل في معنى المضارع وكل منهما يقدر بالآخر فلا جناح في عطفه عليه .

*(21/243)*

---

وقال الإمام في وجه ذلك الاختلاف : "إن لفظ الفعل يدل على أن الفاعل معتن بالفعل في كل حين وأوان ، وأما لفظ الاسم فإنه لا يفيد التجدد والاعتناء به ساعة فساعة ، ويرشد إلى هذا ما ذكره الشيخ عبد القاهر في "دلائل الإعجاز" من أن قوله سبحانه : ﴿ هَلْ مِنْ خالق غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السماء ﴾ [ فاطر : 3 ] قد ذكر فيه الرزق بلفظ الفعل لأنه يفيد أنه تعالى يرزقهم حالاً فحالاً وساعة فساعة ، وقوله عز شأنه ﴿ وَكَلْبُهُمْ باسط ذِرَاعَيْهِ بالوصيد ﴾ [ الكهف : 18 ] قد ذكر فيه الاسم ليفيد البقاء على تلك الحالة ، وإذا ثبت ذلك يقال : لما كان الحي أشرف من الميت وجب أن يكون الإعتناء بإخراج الحي من الميت أكثر من الاعتناء بإخراج الميت من الحي ، فلذا وقع التعبير عن القسم الأول بصيغة الفعل

وعن الثاني بصيغة الاسم تنبيهاً على أن الإعتناء بإيجاد الحي من الميت أكثر وأكمل من الإعتناء بإيجاد الميت من الحي .

ثم العطف لاشتمال الكلام به على زيادة لا يضر بكون الجملة بياناً لما تقدم كما لا يضر شمول الحي والميت في الجملة المعطوف عليها للحيوان والنبات فيه .

وأياً ما كان فلا بد من القول بعموم المجاز أو الجمع بين المجاز والحقيقة على مذهب من يرى صحته إن قلنا : إن الحي حقيقة فيمن يكون موصوفاً بالحياة وهي صفة توجب صحة الإدراك والقدرة والميت حقيقة فيمن فارقته تلك الصفة أو نحو ذلك .

وأن إطلاقه على نحو النبات والشجر الغض والحب والنوى مجاز .

وبهذا يشعر كلام الإمام فإنه جعل ما نقل عن الزجاج أن المعنى يخرج النبات الغض الطري من الحب اليابس ويخرج الحب اليابس من النبات الحي النامي من الوجوه المجازية كالمروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من أن المعنى يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

*(22/243)*

وقال ابن عاشور :

وجملة : ﴿ يخرج الحيّ من الميّت ﴾ في محلّ خبر ثان عن اسم ( إنّ ) تتنزّل منزلة بيان المقصود من الجملة قبلها وهو الفَلْق الّذي يخرج منه نبتاً أو شجراً نامياً ذا حياة نباتيةٍ بعد أن كانت الحبّة والنّواة جسماً صلباً لا حياة فيه ولا نماءَ .

فلذلك رجّح فصل هذه الجملة عن الّتي قبلها إلاّ أنّها أعمّ منها لدلالتها على إخراج الحيوان من ماء النطفة أو من البيض ، فهي خبر آخر ولكنّه بعمومه يبيّن الخبر الأوّل ، فلذلك يحسن فصل الجملة ، أو عدمِ عطف أحد الأخبار .

وعُطف على ﴿ يخرج الحيّ من الميّت ﴾ قولُه ﴿ ومخرج الميّت من الحيّ ﴾ لأنّه إخبار بضدّ مضمون ﴿ يخرج الحيّ من الميّت ﴾ وصنع آخر عجيب دالّ على كمال القدرة وناف تصرّف الطّبيعة بالخَلْق ، لأنّ الفعل الصّادر من العالم المختار يكون على أحوال متضادة بخلاف الفعل المتولد عن سبب طبعي ، وفي هذا الخبر تكملة بيان لما أجمله قوله : ﴿ فالقُ الحبّ والنّوى ﴾ ، لأنّ فلق الحبّ عن النّبات والنّوى عن الشّجر يشمل أحوالاً مُجملة ، منها حال إثمار النّبات والشّجر : حبّاً ييبس وهو في قصب نباته فلا تكون فيه حياة ، ونوىً في باطن الثّمار يبَساً لا حياة فيه كنوى الزّيتون والتّمر ، ويزيد على ذلك البيان بإخراج البيض واللّبَن والمِسْك واللّؤلؤ وحجر ( البازهر ) من بواطن الحيوان الحيّ ، فظهر صدور الضدّين عن القدرة الإلهيّة تمام الظّهور .

وقد رَجَح عطفُ هذا الخبر لأنّه كالتكملة لقوله : ﴿ يخرج الحيّ من الميّت ﴾ أي يفعل الأمرين معاً كقوله بعده ﴿ فالقُ الإصباح وجاعلُ اللّيل سَكنا ﴾ .

(23/243)

---

وجعله في "الكشاف" عطفاً على ﴿ فالق الحبّ ﴾ بناء على أنّ مضمون قوله : ﴿ مُخرج الميّت من الحيّ ﴾ ليس فيه بيان لمضمون ﴿ فالق الحبّ ﴾ لأنّ فلق الحبّ ينشأ عنه إخراج الحيّ من الميّت لا العكس ، وهو خلاف الظّاهر لأنّ علاقة وصف ﴿ مخرج الميّت من الحيّ ﴾ بخبر ﴿ يخرج الحيّ من الميّت ﴾ أقوى من علاقته بخبر ﴿ فالق الحبّ والنّوى ﴾ .

وقد جيء بجملة : ﴿ يخرج الحيّ من الميّت ﴾ فعليّة للدّلالة على أنّ هذا الفعل يتجدّد ويتكرّر في كلّ آن ، فهو مُراد معلوم وليس على سبيل المصادفة والاتّفاق .

وجيء في قوله : ﴿ ومُخرج الميّت من الحيّ ﴾ اسماً للدّلالة على الدّوام والثّبات ، فحصل بمجموع ذلك أنّ كلا الفعلين متجدّد وثابِت ، أي كثير وذاتيّ ، وذلك لأنّ أحد الإخراجين ليس أوْلى بالحكم من قرينه فكان في الأسلوب شِبه الاحتباك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ ذلكم الله فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾

فصل

قال الفخر :

قال بعضهم معناه : ذلكم الله المدبر الخالق النافع الضار المحيي المميت ﴿ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ في إثبات القول بعبادة الأصنام ، والثاني : أن المراد أنكم لما شاهدتم أنه تعالى يخرج الحي من الميت ، ومخرج الميت من الحي ، ثم شاهدتم أنه أخرج البدن الحي من النطفة الميتة مرة واحدة ، فكيف تستبعدون أن يخرج البدن الحي من ميت التراب الرميم مرة أخرى ؟ والمقصود الإنكار على تكذيبهم بالحشر والنشر ، وأيضاً الضدان متساويان في النسبة فكما لا يمتنع الانقلاب من أحد الضدين إلى الآخر ، وجب أن لا يمتنع الانقلاب من الثاني إلى الأول ، فكما لا يمتنع حصول الموت بعد الحياة .

وجب أيضاً أن لا يمتنع حصول الحياة بعد الموت ، وعلى كلا التقديرين فيخرج منه جواز القول بالبعث والحشر والنشر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 77 ﴾

وقال القرطبى :

﴿ ذلكم الله ﴾ ابتداء وخبر .

﴿ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ فمن أين تصرفون عن الحق مع ما تَرون من قدرة الله جل وعز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ذلكم الله فأنى تؤفكون ﴾ أي ذلكم المتصف بالقدرة الباهرة فأنى تصرفون عن عبادته وتوحيده والإيمان بالبعث إلى عبادة غيره واتخاذ شريك معه وإنكار البعث . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

*(24/243)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ ذلكم ﴾ القادر العظيم الشأن الساطع البرهان هو ﴿ الله ﴾ الذات الواجب الوجود المستحق للعبادة وحده ﴿ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ فكيف تصرفون عن عبادته وتشركون به من لا يقدر على شيء لا سبيل إلى ذلك أصلاً .

"وتمسك الصاحب بن عباد بهذا على أن فعل العبد ليس مخلوقاً لله تعالى لأنه سبحانه لو خلق فيه الإفك لم يلق به عز شأنه أن يقول : ﴿ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ " وقد قدمنا الجواب على ذلك على أتم وجه فتذكر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

والإشارة بـ ﴿ ذلكم ﴾ لزيادة التّمييز وللتّعريض بغباوة المخاطبين المشركين لغفلتهم عن

هذه الدّلالة على أنّه المنفرد بالإلهيّة ، أي ذلكم الفاعل الأفعال العظيمة من الفلق وإخراج الحيّ من الميّت والميّت من الحيّ هو الّذي يعرفه الخلق باسمه العظيم الدالّ على أنّه الإله الواحد ، المقصور عليه وصف الإلهيّة فلا تعدلوا به في الإلهيّة غيره ، ولذلك عقّب بالتّفريع بالفاء قوله : ﴿ فأَنَّى تؤفكون ﴾ .

والأَفك بفتح الهمزة مصدر أفَكَه يأفكه ، من باب ضرب ، إذا صرفه عن مكان أو عن عَمل ، أي فكيف تصرفون عن توحيده .

و( أَنَّى ) بمعنى من أين .

وهو استفهام تعجيبي إنكاري ، أي لا يوجد موجب يصرفكم عن توحيده .

وبُني فعل ﴿ تؤفكون ﴾ للمجهول لعدم تعيّن صارفهم عن توحيد الله ، وهو مجموع أشياء : وسوسة الشّيطان ، وتضليل قادتهم وكبرائهم ، وهوى أنفسهم .

وجملة ( ذلكم الله ) مستأنفة مقصود منها الاعتبار ، فتكون جملة : ﴿ ذلكم الله فأنّى تؤفَكون ﴾ اعتراضاً .

و ﴿ فالق الإصباح ﴾ يجوز أن يكون خبراً رابعاً عن اسم ( إنّ ) ، ويجوز أن يكون صفة لاسم الجلالة المخبر به عن اسم الإشارة ، فيكون قوله : ﴿ فأنّى تؤفكون ﴾ اعتراضاً .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

تمسك الصاحب بن عباد بقوله : ﴿ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ على أن فعل العبد ليس مخلوقاً لله تعالى .

قال : لأنه تعالى لو خلق الأفك فيه ، فكيف يليق به أن يقول مع ذلك : ﴿ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ .

والجواب عنه : أن القدرة بالنسبة إلى الضدين على السوية ، فإن ترجح أحد الطرفين على الآخر لا لمرجح ، فحينئذ لا يكون هذا الرجحان من العبد ، بل يكون محض الاتفاق ، فكيف يحسن أن يقال له : ﴿ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ وأن توقف ذلك المرجح على حصول مرجح ، وهي الداعية الجاذبة إلى الفعل ، فحصول تلك الداعية يكون من الله تعالى ، وعند حصولها يجب الفعل ، وحينئذ يلزمكم كل ما ألزمتموه علينا . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 77 ﴾

*(25/243)*

---

فائدة

قال القاسمي :

تنبيه :

ذهب الزمخشري ومن تبعه إلى أن قوله تعالى : ﴿ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ ﴾ عطف على : ﴿ فَالِقُ ﴾ لا على : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ ﴾ . لأنه بيان لفالق الحب والنوى ، وهذا لا يصلح للبيان وإن صح عطف الاسم المشتق على الفعل وعكسه ، كقوله : ﴿ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾ [ الملك : 19 ] . والصحيح أنه معطوف على : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ واشتماله على زيادة فيه ، لا يضر ذلك بكونه بياناً . كما أن : ﴿ مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ﴾ بيان مع شموله للحيوان والنبات . وفيه من البديع التبديل ، كقوله تعالى : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ [ الحج : 61 ] .

*(26/243)*

---

قال في " الانتصاف " : وقد وردا جميعاً بصيغة الفعل كثيراً في قوله : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [ الروم : 19 ] . وقوله : ﴿ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ [ يونس : 31 ] فعطفُ أحد القسمين على الآخر ، كثيراً دليلٌ على أنهما توأمان مقترنان ، وذلك يبعد قطعه عنه في آية الأنعام هذه وردّه إلى : ﴿ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى

﴿ فالوجه –والله أعلم –أن يقال : كان الأصل وروده بصيغة اسم الفاعل أسوة أمثاله من الصفات المذكورة في هذه الآية من قوله : ﴿ فَالِقُ الْحَبِّ ﴾ و : ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ ﴾ و : ﴿ وَجَعَلَ اللَّيْلَ ﴾ و : ﴿ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ﴾ [ وفي المطبوع : مُخْرِجُ الحَيَّ نَ الْمَيِّتِ ] إلا أنه عدل عن اسم الفاعل إلى الفعل المضارع في هذا الوصف وحده ، وهو قوله : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ إرادة لتصوير إخراج الحيّ من الميت ، واستحضاره في ذهن السامع . وهذا التصوير والاستحضار إنما يتمكن في أدائها الفعلُ المضارع دون اسم الفاعل والماضي . وقد مضى تمثيل ذلك بقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ [ الحج : 63 ] فعدل عن الماضي المطابق لقوله : ﴿ أَنزَلَ ﴾ لهذا المعنى ، ومنه ما في قوله :

~بأنّي قَدْ لَقِيتُ الغُولَ تَهْوِي بسَهْبٍ كالصحيفةِ صَحْصَحَانِ

~فَأَضربُها بلا دَهَشٍ فَخَرَّتْ صَرِيعاً لليدينِ وللجرَانِ

(27/243)

---

فعدل إلى المضارع إرادة لتصوير شجاعته ، واستحضارها لذهن السامع . ومنه : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ [ ص : 18 – 19 ]

، فعدل عن ( مُسَبِّحات ) وإن كان مطابقاً لـ : ﴿ مَحْشُورَةً ﴾ لهذا السبب – والله أعلم – . ثم هذا المقصد إنما يجيء فيما يكون العناية به أقوى . ولا شك أن إخراج الحيّ من الميت أشهر في القدرة من عكسه . وهو أيضاً أول الحالين ، والنظر أول ما يبدأ فيه . ثم القسم الآخر وهو إخراج الميت من الحي بان عنه ، فكان الأول جديراً بالتصديق والتأكيد في النفس ، ولذلك هو بمقدم أبداً على القسم الآخر في الذكر ؛ حسب ترتيبهما في الواقع . وسهل عطف الاسم على الفعل وحسنه . أن اسم الفاعل في معنى الفعل المضارع ، فكل واحد منهما يقدّر بالآخر ، فلا جناح في عطفه عليه . والله أعلم . انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 446. 447 ﴾

*(28/243)*

---

ومن فوائد الخازن فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله عز وجل : ﴿ إن الله فالق الحب والنوى ﴾

لما تقدم الكلام على تقرير التوحيد وتقرير النبوة ، أردفه بذكر الدلائل على كمال قدرته وعلمه وحكمته تنبيهاً بذلك على أن المقصود الأعظم هو معرفة الله سبحانه وتعالى بجميع

صفاته وأفعاله وأنه مبدع الأشياء وخالقها ومن كان كذلك كان هو المستحق للعبادة لا هذه الأصنام التي كانوا يعبدونها وتعريقاً منه خطأ ما كانوا عليه من الإشراك الذي كانوا عليه .

والمعنى : أن الذي يستحق العبادة دون غيره هو الله الذي فلق الحب عن النبات والنواة عن النخلة .

وفي معنى فلق قولان : أحدهما : أنه بمعنى خلق ومعنى الآية على هذا القول : " أن الله خالق الحب والنوى " وهو قول ابن عباس في رواية العوفي عنه وبه .

قال الضحاك ومقاتل : قال الواحدي : ذهبوا بفالق مذهب فاطر .

وأنكر الطبري هذا القول وقال لا يعرف في كلام العرب فلق الله الشيء بمعنى خلق .

ونقل الأزهري عن الزجاج جوازه فقال : وقيل الفلق الخلق ، وإذا تأملت الخلق ، تبين لك أن أكثره عن انفلاق ومعنى هذا الكلام أن جميع الأشياء كانت قبل الوجود في العدم فلما أوجدها الله تعالى وأخرجها من العدم إلى الوجود فكأنه فلقها وأظهرها .

والقول الثاني : وهو قول الأكثرين أن الفلق هو الشق ثم اختلفوا في معناه على قولين :

أحدهما : وهو مروي عن ابن عباس قال : فلق الحبة عن السنبلة والنواة عن النخلة وهو قول الحسن والسدي وابن زيد .

قال الزجاج : بشق الحبة اليابسة فيخرج منها ورقاً أخضر .

---

والقول الثاني : وهو قول مجاهد إنه الشقان اللذان في الحب والنوى والحب هو الذي ليس له نوى كالحنطة والشعير والأرز وما أشبه ذلك والنوى جمع نواة وهي ما كان على ضد الحب كالرطب والخوخ والمشمش وما أشبه ذلك ومعنى قوله : ﴿ فالق الحب والنوى ﴾ أنه إذا وقعت الحبة أو النواة في الأرض الرطبة ثم مر على ذلك قدر من الزمان أظهر الله تبارك وتعالى من تلك الحبة ورقاً أخضر ثم يخرج من ذلك الورق سنبلة يكون فيها الحب ويظهر من النواة شجرة صاعدة في الهواء وعروقاً ضاربة في الأرض فسبحان من أوجد جميع الأشياء بقدرته وإبداعه وخلقه .

وقوله تعالى : ﴿ يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ﴾ قال ابن عباس : في رواية عنه : يخرج من النطفة بشراً حياً ويخرج النطفة الميتة من الحي وهذا قول الكلبي ومقاتل .

قال الكلبي : يخرج النسمة الحية من النطفة الميتة ويخرج الفرخة من البيضة ويخرج النطفة الميتة والبيضة الميتة من الحي .

وقال ابن عباس في رواية أخرى : يخرج المؤمن من الكافر ويخرج الكافر من المؤمن فجعل الإيمان بمنزلة الحياة والكفر بمنزلة الموت وهذا قول الحسن .

وقيل : معناه يخرج الطائع من العاصي والعاصي من الطائع .

وقال السدي : يخرج النبات من الحب والحب من النبات وهذا اختيار الطبري لأنه قال عقب قوله ﴿ إن الله فالق الحب والنوى ﴾ .

فإن قلت كيف قال ومخرج الميت من الحي بلفظ اسم الفاعل بعد قوله ﴿ يخرج الحي من الميت ﴾ وما السبب في عطف الاسم على الفعل .

*(30/243)*

---

قلت : قوله ﴿ ومخرج الميت من الحي ﴾ عطف على قوله : ﴿ فالق الحب والنوى ﴾ وقوله : ﴿ يخرج الحي من الميت ﴾ كالبيان والتفسير لقوله ﴿ فالق الحب والنوى ﴾ لأن فلق الحب والنوى واليابس وإخراج النبات والشجر منه من جنس إخراج الحي من الميت لأن النامي من النبات في حكم الحيوان وقوله ﴿ ذلكم الله ﴾ يعني ذلكم الله المدبر الخالق الصانع لهذه الأشياء المحيي المميت لها ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ يعني فأنى تصرفون عن الحق فتعبدون غير الله الذي هو خالق الأشياء كلها وفيه دليل أيضاً على صحة البعث بعد الموت لأن القادر على إخراج البدن من النطفة قادر على إخراجه من التراب للحساب .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ﴾

بعد ما تكلم الحق عن التوحيد والنبوات ، ومن كانوا يعاكسون ويعارضون وينا وئون تلك النبوات ويكذبونها وقالوا فيها الإفك أراد الله أن يلفت خلقه إلى ما أعده لهم استبقاء لحياتهم ، وكيف سخّر لهم كل الكون بما فيه . . جماداً ونباتاً وحيواناً ، وكأنه سبحانه يوضح : إن كنت لا ترى أن الخالق يستحق عبادتك فانظر إلى ما انعم عليك به من النعم ، ومادام العبد المخلوق له كل نعم الخالق الأعلى فلماذا لا يسمع كلمته سبحانه ؟ أيها المخلوق أنت تتربى على مائدة الرحمن وهو خالقك فانظر وتأمل واعرف .

﴿ إِنَّ اللهَ فَالِقُ الحب والنوى ﴾ وساعة تسمع لفظ الجلالة : أي علم واجب الوجود وهو الله ، فعليك أن تأخذ لفظ الجلالة بكل ما يدل عليه من صفات الجلال وصفات الجمال ما عرفته وما لم تعرفه ؛ لأنه سبحانه خلق الكون كله وهو قيُّوم عليه ، وهذا الخلق وتلك القيّومية فعل يقتضي صفات متعددة تقتضي قدرة ، وحكمة ، وعلماً واسعاً ورحمة ، وبسطاً وقبضاً وغير ذلك ، وبدلاً من أن يأتي لك بصفات القدرة ، وصفات الجمال ويذكرها ويعددها لك يقول سبحانه عن نفسه : " الله " ؛ لأنه الاسم الجامع لكل صفاته .

ونحن نقول في بدء كل عمل : بسم الله ، وفي ذلك إيجاز لما يحتاج إليه أي عمل ، لأن أي عمل يحتاج إلى قدرة ، فتقول : باسم القادر ، ويحتاج إلى علم فتقول : " باسم العليم " ويحتاج إلى حكمة فتقول : " باسم الحكيم " ويحتاج عزة فتقول : " باسم العزيز " وقد تحتاج إلى قهر عدوك لأنك قد تدخل معه في حرب فتقول : " باسم القاهر " إذن كل عمل يحتاج إلى حشد من صفات الكمال والجلال يخدم الفعل ، فبدلاً من أن يقول باسم القادر وباسم الحليم وباسم العليم وباسم القابض ، يوفر عليك سبحانه كل ذلك فتقول : بسم الله ، لأن اسم الجلالة وهو " الله " هو الجامع لكل صفات الكمال .

﴿ إِنَّ اللهَ فَالِقُ الحب والنوى ﴾ ، فالق أي شاقق ، جاعل الحب والنوى كل منهما فلقتين . " الحب " ما لا نواة له مثيل الشعير والقمح والأرز . وهناك ما له نوى مثل البلح والخوخ ، وتجد في قلب النواة شيئاً آخر . وهناك نوع آخر له بذور مثل البطيخ ، وفي كل بذرة تجد

فيها شيئا ، فيوضح لك الحق سبحانه وتعالى : إن عظمتي تتجلّى في أنني أخلق الحب وأخلق النوى ، وهناك حبوب مفلوقة جاهزة ، مثل حبة الفول مثلاً وحبة العدس .

وأنت إذا ما نظرت إلى هذه العملية وجدت شيئا عجباً ! !

*(33/243)*

---

فحين تأتي لنواة البلح أو حبة الشعير ، وتضعها في الأرض في بيئة استخراجها ، وبقليل من الرطوبة ، تجد الفلقتين قد خرج منها نبتة وتكاد النواة أن تنفلق ليخرج منها الزبان الضعيف بين الفلقتين ، وإن نزعت هذا الجذير تنتهي الحياة .

ولذلك وجدنا من يتعجب حين اقتحم أعشاش النمل ووجد في العش قطعاً صغيرة مفتتة بيضاء بجانب العش ، واكتشفوا أن هذه هي زبانات الحب الذي يدخله النمل للعش ، فلو أن النمل أدخل الحبوب كاملة فقد تأتي لفحة من رطوبة فتكبر هذه الحبة ، وتنمو وتصير شجرة تفتك بالعش ، فمن الذي هدى النمل إلى أن تفعل هكذا ؟ إنه الله . ونجد النمل يفلق حبة نبات " الكزبرة " إلى أربع قطع لأنه لو قطعها إلى اثنتين قد تنبت ، من الذي علمه ؟ إنه سبحانه : ﴿ الذي خَلَقَ فسوى * والذي قَدَّرَ فهدى ﴾ [ الأعلى : 2-3 ] .

والعجيب أنك حين ترى النبتة الضعيفة ساعة أن تخرج إلى الحياة وهي التي ستكون من بعد

ذلك جذراً إنها هشة وضعيفة إن أمسكتها بيدك تسحقها ، لكنها تخترق قلب الأرض الصلبة التي لو ضربتها بسكين لانكسرت السكين ، لكن الجذير الضعيف يدخل في قلب الصخر والأرض ، فأي قوة أعطته ذلك ؟ أي قوة تخرق له الأرض ؟ وهل الجذير هو الذي خرق الأرض أو خُرِقَت له ؟ لقد خرق الحق الأرض للبذرة لتستخرج منها غذاء للزرع ، إنّها قدرة الحق سبحانه ﴿ فَالِقُ الحب ﴾ الذي ادخر في فلقتين اثنتين قوتاً للنبات إذا مسته رطوبة تتغذى عليها الزريعة إلى أن تربى الجذور ، ويستمد النبات غذاءه من الفلقتين إلى أن يثبت ويتمكن في الأرض ثم تتحور الفلقتان إلى ورقتين خضراوين .

ويتابع الحق سبحانه : ﴿ يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت وَمُخْرِجُ الميت مِنَ الحي ﴾ . وحين تامل العلماء هذا القول وأرادوا أن يوضحوا لنا ما الحي ؟ وما الميت ؟

*(34/243)*

---

فات الجميع أن يعرفوا ما هي الحياة ؟ الحياة هي قيام الموجود بما يؤدي به مهمته ، فحياة الإنسان فيها حركة وحس وجري ، ثم هناك حياة ثانية في الحيوان ، وحياة ثالثة في النبات ، وحياة ذات طابع مختلف في الجماد . مثلما علمونا في المدارس حين كان المدرس يمسك بقضيب ممغنط ليجذب برادة الحديد ، حتى الحديد الصلب فيه لون معين من الحياة . وكلنا

رأينا في المدارس الأنبوية الزجاجية التي وضعوا فيها برادة الحديد وكيف تتأثر بقضيب المغناطيس . وتعتدل وتصير في مستوى واحد ، وهكذا نعرف أن الحياة هي الطاقة الموجودة في كل كائن ليؤدي مهمته حتى الأحجار تختلف فيها أشكال الحياة ، فهناك حجر يأخذ شكل الرخام ، وآخر المرمر ، وكل لون من الأحجار له شكل من أشكال الحياة .

ونقرأ في القرآن : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ ويحيى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ﴾ [ الأنفال : 42 ]

.

وجاء الحق بمقابل الهلاك وهو الحياة ؛ فالهلاك ضد الحياة والحياة ضد الهلاك ، ويقول سبحانه في آية أخرى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [ القصص : 88 ] .

إذن ما دام كل شيء هالكاً ، فكل شيء فيه حياة ، والخطأ أن تظن أن كل حياة تتشابه في الحس والحركة مع الإنسان ، لا ، إن الحياة في كل شيء بحسبه ، إلى أن تقوم القيامة ، فكل شيء حي له حياة تناسبه ، وحين نسمع :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [ الإسراء : 44 ] .

نقول : نعم كل من يسبح بحمده يقول قولا ، وإياك أن تقول إنّه تسبيح دلالة ؛ لأن بعضهم يقول : إن هذا تسبيح دلالة على الخالق ، ونقول : لو أن الذي يقصده الله تسبيح دلالة على خلق لما قال : ﴿ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ .

إذن : فلا أحد منا يفهم لغة التسبيح ، وعرفنا من قبل حين سمع سليمان عليه السلام قول النملة وتبسم لها ضاحكاً ، وكذلك ما سمعه من الهدهد ، وكذلك تسخير الجبال لتسبح مع داود عليه السلام .

﴿ إِنَّ اللهَ فَالِقُ الحب والنوى يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت وَمُخْرِجُ الميت مِنَ الحي ذلكم الله فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ [ الأنعام : 95 ] .

إن كل كلمة لها دلالتها ومعناها . فكلمة العلم تدلنا على إحاطة علمه بكل شيء في الوجود ، وكلمة الحكمة تدلنا على أن كل شيء منه يصدر عن حكمة . وكلمة الرزاق تدلنا على أن كل مرزوق في الوجود إنما أخذ من فيضه وخيره ، وهكذا إلى ما لا نهاية لكماله من صفات ذاته . وكلمة " الله " تدل على كل صفات الجلال والجمال والكمال ، فإذا قال : " الله " فهذا الاسم : يشمل القادر ، العالم ، الحكيم ، القدير ، وكل صفات الحق ما علمت منها وما لم تعلم ، ما دامت ذاته سبحانه وتعالى متصفة بكل صفات الكمال ، فالواجب أن يكون كل فعل يصدر عن ذاته المتصفة بالكمال له مطلق القدرة والجمال والكمال .

إذن فحين يقول الحق ذلك فإنما يلفتنا إلى أن كل شيء كائن في الوجود إنما هو من خلق الله ، وأن له حياة تناسب مهمته ؛ فالإنسان له حياة تناسب مهمته . والحيوان له حياة تناسب مهمته . والنبات له حياة تناسب مهمته . والجماد له حياة تناسب مهمته . وإذا نظرت إلى الأشياء كلها بهذا المعنى وجدت أن كل موجود فيه حياة ، ولكن الحياة الكاملة بكل مقوماتها وجدت في الأعلى من المخلوقات وهو الإنسان ، والله سبحانه وتعالى خلق في الإنسان الحياة حساً وحركة ، ثم أعطاه حياة أخرى هي التي تُصعّد حياته وتجعل لحياته قيمة ؛ لأن حياتنا التي نعيشها إنما يتمتع بها المؤمن والكافر ، وقصارى ما فيها أن تعطينا الحس والحركة قدر عمرنا في الحياة ، ولكن حياة الإيمان بما يبعثه الله لنا من منهج على يد الرسول . تعطينا حياة أوسع ، وأخلد ، وأرغد ، وهذه هي الحياة الحقة ، ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [ العنكبوت : 64 ]

.

وهذه هي الحياة الحقيقية وقول الحق : ﴿ إِنَّ الله فَالِقُ الحب والنوى ﴾ هو المقدمة الأولى للحياة ، ثم تكلم عن الحياة وأنه يخرج حياً من ميت ، وهو هنا قد خاطبنا على مقدار أوليات علمنا بالأشياء ؛ فالشيء إذا لم يكن له حس وحركة نعتبره ميتاً لكن لو نظرت إلى الحقيقة لوجدت كل شيء في الوجود له حياة .

مصداق ذلك قوله جلت قدرته : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ .

وما دام كل شيء هَالِكاً فكل شيء قبل أن يهلك كان فيه حياة .

*(37/243)*

---

والله سبحانه القائل : ﴿ قُلِ اللهم مَالِكَ الملك تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ الخير إِنَّكَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ الليل فِي النهار وَتُولِجُ النهار فِي الليل وَتُخْرِجُ الحي مِنَ الميت وَتُخْرِجُ الميت مِنَ الحي وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : 26-27] .

ولماذا جاء في هذه الآية ب " تخرج " وجاء في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها قوله : " ومخرج الميت من الحي " ؟ إنّ الذين بحثوا هذا البحث نظروا نظرة سطحية في المقابلة الجزئية في الآية ، وهي : ﴿ يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت ﴾ وقال : ﴿ وَمُخْرِجُ الميت مِنَ الحي ﴾ نسوا أنه سبحانه قال : إنه يخرج الحي من الميت ؛ لبيان أن الله فالق الحب والنوى ليخرج الحي من الميت أي أن الله فلق وشق الحب والنوى لأجل أن يخرج الحي من الميت .

.

ثم قال : ﴿ وَمُخْرِجُ الميت مِنَ الحي ﴾ هو مقابل لفالق فلا تأخذها مقابلة للجزئية في الآية

؛ ولأن الاسم يدل على الثبوت ، والفعل يدل على الحدوث ؛ فالحق سبحانه وتعالى له صفة في ذاته ، وصفة في متعلقات هذه الذات ؛ فهو سبحانه وتعالى رَزّاق ، قبل أن يكون له مخلوق يرزقه . وهو رزاق ، وبعد ما خلق من يرزقه هو رازق ؛ لأنه هو الخالق ، والخالق صفة للذات وإن لم يوجد المتعلق ، وهو سبحانه المحيي قبل أن يوجد من يحييه ؛ لأن صفته في ذاته أنه يحيي ، ومميت قبل أن يميت من يريد أن يميته ؛ لأن الصفة موجودة في ذاته .

وسبحانه فالق الحب والنوى أي قبل أن يوجد الحب والنوى الذي يفلقه ، ومخرج الحي من الميت هو صفة ثابتة في ذاته قبل أن يوجد متعلّقها . وله صفة – أيضاً – بعد أن يوجد المتعلق ، فإن أراد الصفة قبل أن يوجد المتعلَّق جاء بالاسم : " فالق ومخرج " . وإن كان يريد الصفة بعد أن توجد ، يقول : " يخرج " ، " يخرج " .

*(38/243)*

---

ويذيل الحق الآية : ﴿ ذلكم الله فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ [ الأنعام : 95 ] .

و " ذا " اسم إشارة لما تقدم ، وهو سبحانه فالق الحب والنوى ومن يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي وهو الله . والكاف في قوله : ﴿ ذلكم ﴾ لمن يخاطبهم وهم نحن ، أما اللام من ﴿ ذلكم ﴾ فهي للبعد والميم للجمع . فحين يريد الحق أن يخاطب رسوله ،

يقول : ﴿ ذَلِكَ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾

[ البقرة : 2 ] .

ولكنه هنا يخاطبنا فيقول : ﴿ ذلكم ﴾ إشارة إلى قول الحق سبحانه وتعالى : الله ، وفالق ، ومخرج ، والخطاب لجمهرة المخاطبين بالقرآن . فإذا كان الله بهذه الصفات فكيف ينصرفون عن الإيمان به وتوحيده ؟ وذكر لنا أول مقوم من مقومات الحياة وهو النبات وهو ما نأكله ، فإذا كان الحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق الحب وخلق النوى ليخرج الحي من الميت وهو مخرج الميت من الحي فهو أولى بأن يكون إلهاً معبوداً فكيف تصرفون عنه ؟ ! وإلى من تصرفون ؟ ! إلى من توجد فيه صفات أرقى من هذه الصفات ؟ ! ! لا يوجد من فيه صفات مثل هذه ، ولا أرقى من هذه الصفات .

وإذا سمعت كلمة : " أَنَّى " فافهم منها أنها تأتي للتعجيب ، تأتي وتطلب أن يدلنا واحد على كيفية انصرافهم عن الله وتوحيده مع وضوح الدلالات والبراهين .

ومرة يقول الحق سبحانه : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله ﴾ [ البقرة : 28 ] .

هو سبحانه يخاطب الناس ويقول لهم : كيف تكفرون بالله فالله في ذاته يستحق ألا يكفر به ، لأنه هو الذي خلق من عدم ، وأمدّ من عُدْم ، ولم يشاركه أحد أو ينازعه في هذا الأمر ، وإليه نرجع جميعاً ، فكيف تكفرون به ؟ وهذا تعجيب كبير ؛ لذلك يقول سبحانه هنا : ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ أي فكيف تصرفون عن الحق وتعدلون عنه إلى الباطل فتعبدون – مع

الله – إلها آخر بعد أن تعلموا أن هذه الصفات له – سبحانه – وليست لغيره ؟ وكل تعجيب يأتي في " أنّى " مثل قوله الحق : ﴿ أنى يُحْيِي هذه الله بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [ البقرة : 259 ] .

(39/243)

---

أي كيف يحيي هذه الله بعد موتها ؟

ويقول سيدنا زكريا لسيدتنا مريم : ﴿ أنى لَكِ هذا ﴾

إذن فالتعجب ملازم لكلمة " أنّى " فكأن الصفات التي تقدمت صفات موجبة للإيمان بالله واحداً قهاراً مريداً عالماً حكيماً نرجع إليه جميعاً ، فقولوا لنا : كيف تكفرون بهذا الإله ؟ وإلى من تذهبون إذا كان هذا الإله يُكفر به ؟ أهناك شيء ادّعى أنه خلق وأنه رزق ؟ لو أن شيئاً ادّعى أنه خلق أو رزق كنا نعذركم ، لكن لم يدّع شيء في الوجود بأنه خلق أو رزق ، والدعوة تثبت لصاحبها ما لم يقم لها معارض .

﴿ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ وكلمة " أنّى تؤفكون " تعني كيف تُصرفون انصرافاً كذباً ؛ لأن " الإفك " . معناه الكذب المتعمّد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(40/243)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (95) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فالق الحب والنوى ﴾ يقول : خلق الحب والنوى .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فالق الحب والنوى ﴾ قال : يفلق الحب والنوى عن النبات .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ فالق الحب والنوى ﴾ قال : الشقان اللذان فيهما .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن أبي مالك رضي الله عنه في قوله ﴿ فالق الحب والنوى ﴾ الشق الذي في النواة والحنطة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ فالق الحب والنوى ﴾ قال : فالق الحبة عن السنبلة ، وفالق النواة عن النخلة .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي مالك رضي الله عنه في قوله ﴿

يخرج الحي من الميت ﴾ قال : النخلة من النواة والسنبلة من الحبة ﴿ ومخرج الميت من الحي ﴾ قال : النواة من النخلة والحبة من السنبلة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ﴾ قال : الناس الأحياء من النطف والنطفة ميتة تخرج من الناس الأحياء ، ومن الأنعام والنبات كذلك أيضاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ قال : كيف تكذبون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ قال : أنى تصرفون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ قال : كيف تضل عقولكم عن هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

*(41/243)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " فَالِقُ الحَبِّ " : يجوز أن تكون الإضافة مَحْضَةً ، على أنَّها اسم فاعل بمعنى الماضي ؛ لأنَّ ذلك قد كان ، ويَدُلُّ عليه قراءة عبد الله : " فَلَقَ " فعلاً ماضياً ، ويجُوز أن تكون

الإضافةَ غير مَحْضَةٍ ، على أنه بِمَعْنى الحال والاستقبال ، وذلك على حِكَاية الحال ؛ فيكون " الحَبِّ " مجرُورَ اللَّفْظِ منصوب المحلِّ ، و" الفَلْقُ " : هو شَقٌّ للشيء ، وقيده الرَّاغب بإبَانَةِ بَعْضِه من بَعْض ، والفَلَق المُطْمِئنُّ من الأرض بَيْن الرُّبُوَتين " والفَلَق " من قوله – تعالى – : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفلق ﴾ [ الفلق : 1 ] : ما علَّمه الله لمُوسَى – عليه السَّلام – حتى فَلَق البَحْر له .

وقيل : الصُّبْح ، وقيل : هي الأَنْهَار المُشَار إليها بقوله – تعالى – : ﴿ وَجَعَلَ خِلاَلَهَآ أَنْهَاراً ﴾ [ النمل : 61 ] .

والفِلْقُ بالكَسْرِ بمعنى : المَفْلُوق كالنكث والنِّقْض ، ومنه : " سَمِعْتُه من فِلْقٍ منه " .

وقيل : الفِلْقُ العَجَبُ [ وقيل : ما يُتَعَجَّبُ منه .

قال الرَّاجز في ذلك : [ الرجز ]

2254 – وَاعَجَباً لهذه الفَلِيقَهْ . . .

هَلْ تُذْهِبَنَّ القُوَباءَ الرِّيقَهْ ]

والفالِقُ والفَلِيق : ما بين الجَبَلَيْنِ ، وما بَيْن السَّنَامَيْنِ البعير .

وفسَّر بعضهم " فالق " هنا ، بمعنى : " خَالِق " .

قيل : ولا يُعْرَفُ هذا لُغَةً ، وها لا يُلْتفَتُ إليه ؛ لأن هذا مَنْقُولٌ عن ابْن عباس ، والضَّحَّاك أيضاً ، لا يُقال ذلك على جِهَةِ التَّفْسير للتقريب ؛ لأن الفرَّاء نقل في اللُّغَة : أن " فَطَرَ وخَلَقَ وفَلَقَ " بمعنى وَاحِد .

[ و" النَّوَى " ] : اسم جِنْس ، مُفْرَد " نواة " ، على حدّ " قَمْح وقَمْحَ " ، والنَّوَى : البُعْد أيضاً .

ويُقال : نوت البُسْرَةُ وأَنْوَتْ ، فاشتدَّت نَوَاتُهَا ، ولام " النَّواة " بانقلاب عَيْنِها واواً والأكثر التَّغَاير .

قوله : " يخرج " يَجُوز فيه وجهان :

أحدهما : أنَّها جملة مُسْتَأْنَفَةٌ ، فلا محَلَّ لها .

والثاني : أنَّها في موضع رفع خَبَراً ثانياً ، لأنَّ قوله : " مُخْرِجُ " يجوز فيه وجهان :

أحدهما : انه مَعْطُوفٌ على " فَالِقِ " ، ولَمْ يذكر الزَّمَخْشَريُّ غيره ، أي : اللَّه فالِقٌ ومُخْرِجٌ ، أخبر فيه بِهَذَيْن الخَبَرَيْنِ ؛ وعلى هذا فيكون " يُخْرِجُ " على وَجْهِه ، وعلى كونه مُستَانفاً فيَكُون مُعْتَرِضاً على جِهَة البيانِ لما قَبْلَه من معنى الجملة .

والثاني : أنه يكون مَعْطُوفاً على " يُخْرِجُ " ، وهل يَجْعَل الفعل في تأويل اسْم [ ليصِحَّ عطف الاسْمِ عليه ، أو يجعل الاسمُ بتأويل الفِعْلِ ؛ ليصِحَّ عَطْفُه عَلَيْه ؟ احتمالانِ مَبْنِيَّان على ما

تقدَّمَ في "يُخْرِجُ" .

إن قلنا : إنه مُسْتأنفٌ فهو فِعْلٌ غير مُؤوَّل باسم ؛ فَيُرَدُّ الاسم إلى مَعْنَى الفِعْل ، فكأن "مُخْرِج" في قُوَّة "يُخْرِج" .

وإن قُلْنَا : إنه خبر ثان لـ "إنَّ" وهو بِتَأْوِيل اسْم ] واقع موقع خَبَر ثانٍ ؛ فلذلك عُطِفَ عليه اسمٌ صريحٌ ، ومن عَطْف الاسْمِ على الفِعْلِ لكَوْن الفِعْلِ بتأويل اسم قَوْلُ الشَّاعِرِ في ذلك : [ الطويل ]

2255 - فَأَلْفَيْتُهُ يَوْماً يُبِيرُ عَدُوَّهُ . . .

وَمُجْرٍ عَطَاءً يِسْتَخِفُّ المَعَابِرَا

*(43/243)*

---

وقول القائل في ذلك : [ الرجز ]

2256 - يَا رُبَّ بَيْضَاءَ مِنَ العَوَاهِجِ . . .

أُمِّ صِبِيٍّ قَدْ حَبَا أَوْ دَارِجِ

وقول القائل في ذلك : [ الرجز ]

2257 - بَاتَ يُغَشِّيها بَعَضْبٍ بَاتِرِ . . .

يَقْصِدُ فِي أسْوُقِهَا وَجَائِر

أي : مُبيراً ، أمِّ صِبيَّ حابٍ ، قاصِدٍ .

قوله : " الحَيّ " اسمٌ لما يكون موصوفاً بالحياة ، و" المَيّتُ " اسمٌ للخَالِي عن صفة الحياة ، وعلى هذا فالنَّبَاتُ لا يكُون حياً .

وقرأ نافع ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عصام : " الميّت " مُشدَّدَة الياء في الكَلِمَتَيْن ، والباقُون بالتخفيف فيهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 301. 306 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (95) ﴾

موجِد ما في العالَم من الأعيانِ والآثار والرسوم والأطلال يُسَلِّط العَدَمَ على ما يريد من مصنوعاته ، ويحكم بالبقاء لما يريد من مخلوقاته ، فلا لحكمه ردٌّ ، ولا لحقِّه جحدٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 490 ﴾

فصل فى الإعجاز العلمى فى الآية الكريمة

قال الدكتور / زغلول النجار :

من أقوال المفسرين

* جاء في مختصر تفسير ابن كثير ( رحمه الله ) ما نصه :

يخبر تعالي أنه فالق الحب والنوي , أي يشقه في الثري فتنبت منه الزروع علي اختلاف اصنافها من الحبوب , والثمار علي اختلاف ألوانها وأشكالها وطعومها من النوي , ولهذا فسر قوله : ( فالق الحب والنوي ) بما جاء بعدها . . . .

* وذكر صاحبا تفسير الجلالين ( رحمهما الله ) ما مختصره : ( إن الله فالق ) شاق ( الحب ) عن النبات ( والنوي ) عن النخل . . .

* وجاء في الظلال ( رحم الله كاتبها برحمته الواسعة ) ما نصه : . . . إنها المعجزة التي لايدري سرها أحد , فضلا علي أن يملك صنعها أحد ! ! معجزة الحياة نشأة وحركة . . . وفي كل لحظة تنفلق الحبة الساكنة عن نبتة نامية , وتنفلق النواة الهامدة عن شجرة صاعدة . والحياة الكامنة في الحبة والنواة , النامية في النبتة والشجرة , سر مكنون , لايعلم حقيقته إلا الله ;

ولا يعلم مصدره إلا الله . . . وتقف البشرية بعد كل ما رأت من ظواهر الحياة وأشكالها ,

وبعد كل ما درست من خصائصها وأطوارها . . . تقف أمام السر المغيب كما وقف الإنسان الأول , تدرك الوظيفة والمظهر , وتجهل المصدر والجوهر , والحياة ماضية في طريقها , والمعجزة تقع في لحظة ! ! ! .

* وذكر صاحب صفوة البيان لمعاني القرآن ( رحمه الله رحمة واسعة ) ما نصه : ( إن الله فالق الحب والنوي ) شروع في ذكر دلائل كمال القدرة والعلم والحكمة , بعد تقرير دلائل التوحيد والنبوة . و( فالق ) أي شاق , يشق الحبة اليابسة كالحنطة فيخرج منها النبات الأخضر النامي , ويشق النواة اليابسة فيخرج منها النخلة والشجرة النامية . . . .

*(45/243)*

---

* وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ( جزاهم الله خيرا ) ما نصه : إن دلائل قدرة الله علي البعث , واستحقاقه وحده للعبادة , . . . متوافرة متنوعة , فهو وحده الذي يشق الحب , ويخرج منه النبات , ويشق النوي ويخرج منه الشجر , . . . .

وجاء في تعليق الخبراء بالهامش ما يلي : من دلائل قدرة الله سبحانه وتعالي خلق الحب والنوي والجنين في كل مكان منها يشغل حيزا ضيقا , أما باقي جسم الحبة أو النواة فيتكون من مواد مكتنزة غير حية , وعندما يتنبه الجنين ويبدأ في الإنبات تتحول هذه المواد المكتنزة

إلي حالة صالحة لتغذية الجنين , ويبدأ في النمو , وتتكون الخلايا الحية حتي تنتقل الحبة النابتة من طور الإنبات إلي طور البادرة فيبدأ النبات في الاعتماد علي غذائه من الأملاح المذابة في ماء التربة التي يمتصها الجذير مع ما تكونه الأوراق الخضراء من مواد كربوايدراتية كالسكريات والنشويات في وجود ضوء الشمس , وعندما تتم دورة حياة النبات تتكون الثمار وبداخلها الحب أو النوي من جديد .

* وجاء في صفوة التفاسير ( جزي الله كاتبها خيرا ) مانصه : عاد الكلام إلي الاحتجاج علي المشركين بعجائب الصنع ولطائف

التدبير فقال سبحانه : ( إن الله فالق الحب والنوي ) أي يفلق الحب تحت الأرض لخروج النبات منها , ويفلق النوي لخروج الشجر منها وقال القرطبي : أي يشق النواة الميتة فيخرج منها ورقا أخضر وكذلك الحبة . . . .

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

*(46/243)*

---

للبذور النباتية اسمان متمايزان أولهما ( الحب ) وثانيهما ( النوي ) , ويعبر بلفظة ( الحب ) أو ( الحبوب ) عن البذور المستخدمة كمحاصيل غذائية أساسية للإنسان من مثل حبوب

القمح ( الحنطة ) والشعير , والذرة , والشوفان وكلها من بذور النباتات الوعائية , المزهرة , ذات البذور المكونة من فلقة واحدة , أما البذور ذات الفلقتين فيطلق عليها اسم ( البذور ) من مثل بذور العائلة القرنية التي منها الفول , والحمص , البازلاء , الفاصوليا , اللوبيا , العدس , الترمس , فول الصويا , الفول السوداني , الحلبة , البامية , كما قد تطلق علي البذور التي لا يأكلها الإنسان من مثل بذور البرسيم , والقطن وغيرها . أما البذور التي لها قدر من الصلابة فيطلق عليها اسم النوي ( ومفردها نواة ) كما قد تجمع علي أنواء , وذلك مثل نواة كل من البلح , والمشمش , والبرقوق , والخوخ , والزيتون وغيرها , واللفظة تذكر وتؤنث , وقد وردت في القرآن الكريم مرة واحدة . وأيا كانت طبيعة غلاف أو اغلفة البذرة رقيقة هشة , أو سميكة خشبية أو قرنية صلبة فإن الله ( تعالي ) قد اعطي للجنين الكامن بداخلها القدرة علي شقها وفلقها بمجرد توافر الشروط اللازمة لإنباته , وذلك من أجل تيسير خروج النبتة الجنينية النامية من داخل البذرة في عملية معجزة تعرف باسم عملية إنبات البذور التي تتكاثر بها معظم النباتات الراقية .

والنباتات البذرية التي منها معظم طعوم واحتياجات الناس تضم أكثر من ربع مليون نوع من أنواع النباتات الراقية علي اختلاف أوضاعها التصنيفية , ويمثل كل نوع منها بعشرة أصناف في

المتوسط علي أقل تقدير , ويمثل الصنف الواحد بأعداد لاتحصي من الأفراد , ويستمر كل فرد من هذه الأفراد في التكاثر عن طريق انتشار أو استنبات بذوره إلي ما شاء الله . وقد يطلق علي كل المحاصيل المستخدمة كمواد غذائية أساسية للانسان اسم ( الغلة ) وجمعها ( الغلال ) بمعني ما تغله الأرض , وإن كانت لم ترد هذه اللفظة في القرآن الكريم . . وأصل كلمة ( الحبة ) مستمد من قلب كل شئ أو ثمرته , فحبة القلب سويداؤه , وحبة النبات ثمرته , و( الحبة ) و( الحب ) بكسر الحاء تقال لبذور نباتات الصحراء مما ليس بقوت للإنسان من مثل بذور الأعشاب , والرياحين , والحشائش , استنادا إلي ما جاء بالحديث الشريف : . . . فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل .

وجاء ذكر كلمة ( حبة ) في القرآن الكريم ست مرات في خمس من الآيات .

ماهية البذور :

البذور في النباتات الراقية هي البويضات المخصبة , وعلي ذلك فإنها هي وسيلة التكاثر في معظم هذه النباتات لأنها تحوي أجنتها الكامنة في حالة من السكون المؤقت , والجنين يشغل حيزا ضئيلا جدا من حجم البذرة , أما باقي حجمها فيتكون من مواد غذائية غير حية مكتنزة يحتاج إليها الجنين في مراحل إنباته الأولي حتي يخرج منه المجموع الجذري متجها إلي أسفل , مخترقا التربة ( باحثا عن الماء والغذاء علي هيئة الأملاح المذابة في هذا الماء أو

من عناصر ومركبات التربة بطرائق مباشرة أو غير مباشرة ) , وحتي يندفع المجموع الخضري من الجنين إلي أعلي , باحثا عن كل من الهواء وأشعة الشمس , وبمجرد تكون الأوراق الخضراء , يبدأ النبات في تصنيع الغذاء اللازم لنموه ولبناء جميع خلاياه , وانسجته , وازهاره , وثماره بواسطة عملية التمثيل الضوئي .

*(48/243)*

---

ويغلف البذرة بما فيها من الجنين والمواد الغذائية المكتزة عدد من الأغلفة اللازمة لحمايتها من المؤثرات الخارجية , ومن أهم هذه الأغلفة مايعرف باسم ( القصرة ) وهي تتكون من أغلفة البويضة بعد عملية الإخصاب مباشرة , كما يتكون غلاف الثمرة من جدار المبيض فور إتمام عملية الإخصاب .

وعندما يتم نضج البذرة فإنها تجف , ويبقي الجنين الحي بداخلها في حالة من السكون المؤقت حتي تتهيأ له الظروف المناسبة للإنبات . ويتفاوت طول الفترة التي تمر بين نضج البذرة وصلاحيتها للإنبات تفاوتا كبيرا , ففي بعض الحالات تكون البذور صالحة للإنبات بمجرد انطلاقها من الثمرة أو إخراجها من داخلها , ومثل هذه البذور إذا تعرضت للجفاف فإن الجنين بداخلها قد يفقد شيئًا من حيويته أو يموت , وفي بعض النباتات

الأخري قد يظل الجنين محتفظا بحيويته في داخل البذرة ( أو الحبة أو النواة ) لسنوات عديدة كما هو الحال في العائلة القرنية , ونوي العديد من الثمار مثل نوي نخيل البلح .

وتتباين بذور النباتات في عدد

أغلفتها , وفي شكل وطبيعة تلك الأغلفة , وفي حجم وشكل الجنين , وفي طبيعة خزن المواد الغذائية المصاحبة للجنين , إما في نسيج خاص يعرف باسم الإندوسبرم (Endosperm) أو في فلقة واحدة أو فلقتين أو أكثر , وهذا الغذاء المختزن إما أن يكون نشويا دقيقيا أو قرنيا صلبا كما هو الحال في حبة الذرة , أو يكون سيليولوزيا صلبا كما هو الحال في نواة ثمرة نخيل البلح .

فلق الحب والنوي ( أو إنبات البذور )

*(49/243)*

---

تقوم أغلفة البذور بحمايتها من المؤثرات الخارجية , وهذه الاغلفة غالبا ما تكون مميزة وتعرف باسم القصرة , ولكنها في بعض الأحوال قد تلتحم بجدار البذرة حتي لايمكن تمييزها . وقد هيأ الخالق العظيم للجنين في داخل البذرة قدرا من الاتصال المحدود بالعالم الخارجي عن طريق ندبة دائرية دقيقة جدا تعرف باسم السرة وتمثل مكان ارتباط البذرة

بالحبل السري , ويوجد تحت السرة ثقب أدق منها كثيرا يعرف باسم النقير , وتغطي هاتان الفتحتان بنسيج اسفنجي يعرف باسم البسباسة له قدرة علي امتصاص الماء , وقد تكون هاتان الفتحتان علي هيئة شقين طوليين دقيقين فيعرفان باسم القلم والكوز . وهذه الفتحات هي مدخل الأوكسجين إلي الجنين , ومدخل معظم الماء الذي تمتصه البذرة وقت إنباتها .

والجنين الكامن في داخل البذرة يتكون من ثلاثة اجزاء رئيسية هي :

(1) الريشة وتعطي المجموع الخضري بعد نموها ,(2) الجذير ويعطي المجموع الجذري بعد نموه ,(3) السويقة وتعطي الساق بعد نموها ; ويحيط بالجنين مخزون من المواد الغذائية في نسيج خاص يعرف باسم الإندوسبرم أو في فلقة واحدة أو في فلقتين أو أكثر , وهذه المواد الغذائية المختزنة في داخل بذور النباتات تتكون من المواد الكربوهيدراتية , والبروتينية , والدهون بنسب تتفاوت بتفاوت نوع النبات . فمن النباتات مغطاة البذور ذوات الفلقة الواحدة نبات الذرة , ومن ذوات الفلقتين نبات الفول , ومن النباتات

عديدة الفلقات الصنوبر وهو من النباتات معراة البذور . وقد تبقي الفلقة أو الفلقتان أو الفلقات تحت سطح التربة , وقد ترتفع أو ترتفعان فوق سطح الأرض وتلعب أو تلعبان دور أوراق أولية تعرف باسم الأوراق الفلقية .

من شروط إنبات البذور

بعد فترة السكون التي عاشها الجنين في داخل البذرة الجافة , فإن البذرة لكي تنبت وتتحول بالتدريج إلي بادرة ثم إلي النبات الكامل فإنها تحتاج إلي توافر عدد من الشروط الداخلية والخارجية , والشروط الداخلية تتعلق بالبذرة ذاتها ومنها حيوية الجنين , ونضج البذرة وسلامتها من التسوس والعفن , ومن سمات نضج البذرة تخلصها من المواد الكابحة للنمو والمثبطة له من مثل الحمض الأبسيسي (AbscisicAcid) والذي يتخلق في بعض البذور ليساعد الجنين علي السكون والكمون في داخل البذرة , ويضمن سباته حتي تتوافر له الظروف المناسبة لإنباته . وكثير من البذور يتوقف إنباتها علي إزالة تلك المواد المثبطة للنمو , ويتم ذلك بواسطة الضوء والحرارة , أو بإفراز مواد مضادة للمواد المثبطة بواسطة الجنين ذاته في داخل البذرة , فسبحان الذي قدر ذلك بعلمه وقدرته .

ومن الشروط الداخلية توافر الإمكانية لامتصاص البذرة للقدر الكافي من كل من الماء والأكسجين عن طريق فتحات دقيقة هيأها الخالق ( سبحانه وتعالي ) في جسم البذرة من مثل السرة والنقير أو القلم والكوز , خاصة أن بعض أنواع البذور مغطاة بطبقة خارجية صلبة قد تحول دون وصول القدر الكافي من الماء والأكسجين إلي الجنين إلا بعد أن تمر تلك

الطبقة الخارجية للبذرة بسلسلة من النشاطات الطبيعية أو الكيميائية أو الميكروبية التي تعين علي تمزيقها . ومثل هذه البذور قد يصعب استنباتها إلا بعد خدش غطائها الخارجي , أو غسلها ونقعها في الماء لفترة محددة , أو تعريضها للضوء أو لدرجات الحرارة المنخفضة ( حوالي خمس درجات مئوية لمدة تتراوح بين أربعة وستة أسابيع ) , وذلك لأن كلا من الضوء والحرارة المنخفضة يعمل علي تنشيط الجنين في داخل البذرة , ومساعدته علي الإنبات

*(51/243)*

---

أما عن الشروط الخارجية فأولها توافر الماء بالمواصفات المناسبة لأنه أهم شروط الإنبات , وبالقدر الكافي لأن غمر البذور بالماء قد يؤدي إلي إفسادها لمنعه الأكسجين من الوصول إلي الجنين في داخل البذرة , وكذلك توافر القدر الكافي من الأكسجين , وتوافر درجات الحرارة والإضاءة المناسبة , وذلك لأن بعض البذور تنشط عملية إنباتها في الضوء بينما البعض الآخر يفضل الظلام .

التغيرات التي تطرأ علي البذرة في أثناء إنباتها

عند توافر كل من الشروط الداخلية والخارجية للإنبات تبدأ البذرة بامتصاص الماء

والانتفاخ لزيادة حجمها , وحينئذ تبدأ في داخل البذرة سلسلة معقدة من عمليات البناء والهدم التي تعين الجنين علي التحرك بالنمو بعد فترة السكون التام التي عاشها وهو كامن في داخل البذرة الجافة , فيبدأ بالإنبات ليعيد دورة حياة النبتة الأم من جديد . وتشمل عملية الإنبات ما يلي :

(1) امتصاص البذرة للماء , وانتفاخها بسبب الامتلاء التدريجي بهذا الماء حتي تبدأ القصرة ( غلاف البذرة ) في التمزق بسبب ازدياد الضغط عليها من داخل البذرة , وبذلك يصل الماء بالقدر الكافي إلي الجنين , وإلي كتلة الغذاء المختزنة حوله مما يساعد علي تنشيط كتلة الغذاء كيميائيا , وعلي تنشيط الجنين حيويا .

(2) بدء الجنين في إفراز عدد من الإنزيمات القادرة علي تفتيت وتحلل المواد الغذائية المختزنة حوله في داخل البذرة إما في الفلقات أو في نسيج خاص , وهي مواد معقدة التركيب وغير قابلة للذوبان في الماء , فتحللها تلك الإنزيمات إلي مواد بسيطة وقابلة للذوبان في الماء حتي يمكن للجنين امتصاصها والعيش عليها , أثناء فترات الإنبات الأولي . ومن امثلة هذه الإنزيمات ما يلي :

إنزيم الدياستيز الذي يحول النشا إلي سكر .

إنزيم البروتيز الذي يحول

البروتينات إلي أحماض أمينية .

وإنزيم الليبيز الذي يحول الدهون والزيوت إلي أحماض دهنية وجلسرين , ويؤدي ذلك إلي تضخم حجم المخزون الغذائي في داخل البذرة أضعافا كثيرة .

(3) شق التربة : من أهم عوامل شق التربة انتفاخ البذور نتيجة لامتصاصها كميات مناسبة من الماء لأن ذلك يولد قوة هائلة تعرف باسم قوة الإنبات لايكاد العقل البشري أن يتصور قدرها , لدرجة أننا إذا ملأنا زجاجة بالبذور الجافة , وأضفنا إليها قدرا مناسبا من الماء , وأحكمنا غلق الزجاجة فإن القوة الناتجة عن إنبات البذور وتضخم حجمها بامتصاص الماء تصبح كافية لتفجير الزجاجة مهما يكن سمك جدارها .

ويعين علي شق التربة تعطش المعادن المكونة لها للماء , وامتصاصه بكميات كبيرة مما يؤدي إلي زيادة حجمها , وارتفاعها إلي أعلي حتي ترق التربة رقة شديدة ثم تنشق لتفسح طريقا سهلا للسويقة الممتدة إلي أعلي من البذرة النابتة .

ويساعد علي تحرك جزيئات التربة إلي أعلي غلبة المعادن الصلصالية عليها , وهي علي هيئة رقائق صفائحية دقيقة تحتفظ بقدر من الغازات فيما بينها , فإذا تخللها الماء حل محل تلك الغازات , ودفع بها إلي خارج التربة مما يؤدي إلي انتفاض حبيبات التربة إلي أعلي

واهتزازها بعنف حتي ترق التربة وتنشق . ويعين علي ذلك ايضا ما تحمله رقائق الصلصال من شحنات كهربية تتنافر مع الشحنات المشابهة علي جزئ الماء ذي القطبية الكهربية المزدوجة الموجبة علي ذرتي الإيدروجين والسالبة علي ذرة الأوكسجين .

(4) بدء خلايا الجنين في الانقسام والنمو حتي يمتد الجذير إلي أسفل ويعمل علي تثبيت النبتة في التربة , وبذلك تتصل بمصدر غذائها الطبيعي الذي تقوم بامتصاصه علي هيئة العصارة الغذائية المكونة من الماء وما به من العناصر والمركبات المذابة أو التي يستخرجها المجموع الجذري مباشرة من مكونات التربة , وقد أعطي الخالق ( سبحانه وتعالي ) كل نبتة من النباتات

*(53/243)*

---

قدرات اختيارية عالية تختار بها ماينا سبها من عناصر ومركبات الأرض اللازمة لنموها . وبعد تكون المجموع الجذري ترتفع الريشة مخترقة شقوق التربة لتظهر فوق مستوي سطح الأرض , وبذلك تتحول ( البذرة النابتة ) إلي ما يسمي باسم ( البادرة ) التي تستطيل بالتدريج لتعطي الساق حاملا الأوراق والبراعم مكونة المجموع الخضري . وباستمرار مراحل النمو المتتالية تتحول البادرة إلي ( النبات الكامل ) فتبارك الله أحسن الخالقين .

وفي عملية الإنبات قد تبقي الفلقة أو الفلقتان تحت سطح التربة ( محاطة بالقصرة الممزقة ) حتي يستنفد ما خزن بها أو بهما من غذاء في تغذية الجنين , وذلك كما يحدث في إنبات بذور البازلاء , أو إنبات نوي نخيل البلح وفي المقابل قد تنمو السويقة إلي أعلي حاملة معها الفلقة أو الفلقتين إلي ما فوق سطح التربة , ومعهما الريشة , وتأخذ الفلقة أو الفلقتان في الاخضرار التدريجي للمشاركة في عملية التمثيل الضوئي لفترة محددة , حتي تستطيل الريشة وتظهر عليها الأوراق الخضراء مكونة المجموع الخضري للنبات الذي يقوم بعملية التمثيل الضوئي , وحينئذ تضمر الورقة الفلقية أو الورقتان الفلقيتان وتسقط أو تسقطان بعد استنفاد ما بهما من غذاء .

هذه العمليات المعقدة في فلق الحب والنوي لايقوي عليهما أحد من الخلق , ولايمكن لهما أن تتما بغير توجيه , وهداية ربانية ومن هنا نسب الحق ( تبارك وتعالي ) هاتين العمليتين لذاته العلية تشريفا لهما , وتعظيما لشأنهما لأنه بدونهما ما كانت هناك إمكانية للحياة علي الأرض ولذلك قال ( عز من قائل ) :

إن الله فالق الحب والنوي . . . ( الأنعام :95)

فالحمد لله علي نعمه المتعددة ومنها فلق الحب والنوي , وعلي رأس تلك النعم : القرآن الكريم , الذي أنزله ربنا ( تبارك وتعالي ) بعلمه علي خاتم أنبيائه ورسله ( صلي الله عليه وسلم ) وتعهد ( سبحانه وتعالي ) بحفظه في نفس لغة

(54/243)

---

وحيه , كلمة كلمة , وحرفا حرفا , ولذلك بقي القرآن الكريم محتفظا بجلال الربوبية المتلألئ بين آياته , وبالدقة العلمية الواضحة في كل اشاراته , والشاهدة علي صدق وحيه , وصدق نبوة الرسول الخاتم الذي تلقاه . فصلي الله وسلم وبارك عليه وعلي آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلي يوم الدين , والحمد الله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴾

مقال للدكتور / زغلول النجار ﴾

(55/243)

---

قوله تعالى ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (96) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما وصف سبحانه وتعالى نفسه المقدسة من فلق الجواهر بما اقتضى حتماً اتصافه

بصفات الكمال ، وقدمه لكونه من أظهر أدلة القدرة على البعث الذي هذا أسلوبه ، مع الإلف له بقربه ومعالجته ، أتبعه ما هو مثله في الدلالة على الإحياء لكنه في المعاني وهو سماوي ، شارحاً لما أشار إليه الخليل عليه السلام في محاجة قومه من إبطال إلهية كل من النور والظلمة والكواكب التي هي منشأ ذلك ، فقال ترقية من العالم السفلي إلى العالم العلوي : ﴿ فالق الإصباح ﴾ أي موجده ، وحقيقته : فالق ظلمة الليل عن الصباح ، لكنه لما كثر استعماله وأمن اللبس فيه أسند الفعل إلى الصبح ، كما يقال : انفجر الصبح ، وانفجر عنه الليل ، ويمكن أن يراد بالفلق الكشف ، لأنه يكشف من المفلوق ما كان خفياً ، فعبر عن المسبب الذي هو الإظهار بالسبب الذي هو الفلق ، وعبر عن الصباح بهذه الصيغة التي يقال المدخول في الصبح لتصلح لإرادة فلق السكون بالنور أو غيره عن التصرف بالحركة المرتبة على الدخول في الصبح ، فدلنا ذلك على وجاعل الإصباح حركة وسادل الليل ﴿ وجاعل الَّيل ﴾ بما يكون من إظلامه ﴿ سكناً ﴾ يسكن الناس فيه وإليه ويستريحون فيه ، فالآية من الاحتباك : حذف من الأول الحركة ودل عليها بالسكن ، وحذف من الثاني السدل ودل عليه بالفلق ، وهذا الفلق من أعظم الدلائل على قدرته سبحانه ، وفيه دلالتان لأن الإصباح يشمل الفجر الكاذب والصادق ، والأول أقوى دلالة لأن مركز الشمس إذا وصل إلى دائرة نصف الليل فالموضع – الذي تكون تلك الدائرة أفقاً له – تطلع الشمس من مشرقه ، فيضيء في ذلك الموضع نصف كرة الأرض ، فيحصل الضوء في الربع الشرقي

من بلد تك ، ويكون ذلك الضوء منتشراً مستطيراً في جميع الجو ، ويجب أن يقوى لحظة فلحظة ، فلو كان الأول من قرص الشمس لامتنع أن يكون خطاً مستطيلاً ، بل كان يجب أن يكون مستطيراً في الأفق منتشراً متزايداً لحظة فلحظة ، لكن ليس هو كذلك ، فإنه يبدو كالخيط

(56/243)

---

الأبيض الصاعد حتى شبهته العرب بذنب السِرحان ثم يحصل عقبه ظلمة خالصة ، ثم يكون الثاني الصادق المستطير فكان الأول أدل على القدرة ، لأنه بتخليق الله ابتداء تنبيهاً على أن الأنوار ليس لها وجود إلا بإبداعه ، والظلمات ليس لها ثبات إلا بتقديره .

ولما ذكر الضياء والظلمة ، ذكر منشأهما وضم إليه قرينه فقال عاطفاً على محل ﴿ والليل ﴾ لأن جاعلاً ليس بمعنى المضيء فقط لتكون الإضافة حقيقية ، بل المراد استمراره في الأزمنة كلها : ﴿ والشمس ﴾ أي التي ينشأ عنها كل منهما ، هذا عن غروبها وهذا عن شروقها ﴿ والقمر ﴾ أي الذي هو آية الليل ﴿ حسباناً ﴾ أي ذويّ حسبان وعَلَمَين عليه ، لأن الحساب يعلم بدورهما وسيرهما ، وبسبب ذلك نظم سبحانه مصالح العالم في الفصول الأربعة ، فيكون عن ذلك ما يحتاج إليه من نضج الثمار وحصول الغلات ،

وعبر عنهما بالمصدر المبني على هذه الصيغة البليغة إشارة إلى أن الحساب بهما أمر عظيم كبير النفع كثير الدخول ، مع ما له من الدنيا في أبواب الدين فهو جل نفعهما الذي وقع التكليف به ، فكأنه لما كان الأمر كذلك ، كان حقيقتهما التي يعبر عنهما بها ، وأما غير ذلك من منافعهما فلا مدخل للعباد فيه .

ولما كان هذا أمراً باهراً ووصفاً قاهراً ، أشار إليه بأداة البعد فقال : ﴿ ذلك ﴾ أي التقدير العظيم الذي تقدم من الفلق وما بعده ﴿ تقدير العزيز ﴾ أي الذي لا يغالب فهو الذي قهرهما على ما سيّرهما فيه ، وغلب العباد على ما دبر من أمرهم بهما ، فلو أراد أحد أن يجعل ما جعله من النوم يقظة واليقظة نوماً ، أو يجعل محل السكن للحركة أو بالعكس أو غير ذلك مما أشارت إليه الآية لأعياه ذلك ﴿ العليم ﴾ أي الذي جعل ذلك بعلمه على منهاج لا يتغير وميزان قويم لا يزيغ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 680.679 ﴾

*(57/243)*

---

فصل

قال الفخر :

اعلم أن هذا نوع آخر من دلائل وجود الصانع وعلمه وقدرته وحكمته ، فالنوع المتقدم كان مأخوذاً من دلالة أحوال النبات والحيوان ، والنوع المذكور في هذه الآية مأخوذ من الأحوال الفلكية ، وذلك لأن فلق ظلمة الليل بنور الصبح أعظم في كمال القدرة من فلق الحب والنوى بالنبات والشجر ، ولأن من المعلوم بالضرورة أن الأحوال الفلكية أعظم في القلوب وأكثر وقعاً من الأحوال الأرضية ، وتقرير الحجة من وجوه : الأول : أن نقول : الصبح صبحان .

(58/243)

---

فالصبح الأول : هو الصبح المستطيل كذنب السرحان ، ثم تعقبه ظلمة خالصة ، ثم يطلع بعده الصبح المستطير في جميع الأفق فنقول : أما الصبح الأول : وهو المستطيل الذي يحصل عقيبه ظلمة خالصة فهو من أقوى الدلائل على قدرة الله وحكمته ، وذلك لأنا نقول : إن ذلك النور إما أن يقال : إنه حصل من تأثير قرص الشمس أو ليس الأمر كذلك ، والأول باطل ، وذلك لأن مركز الشمس إذا وصل إلى دائرة نصف الليل فأهل الموضع الذي تكون تلك الدائرة أفقاً لهم قد طلعت الشمس من مشرقهم ، وفي ذلك الموضع أيضاً نصف كرة الأرض ، وذلك يقتضي أنه حصل الضوء في الربع الشرقي من بلدتنا ، وذلك الضوء يكون منتشراً مستطيراً في جميع أجزاء الجو ، ويجب أن يكون ذلك الضوء في كل ساعة إلى القوة

والزيادة والكمال ، والصبح الأول لو كان أثر قرص الشمس لامتنع كونه خطاً مستطيلاً ، بل يجب أن يكون مستطيراً في جميع الأفق منتشراً فيه بالكلية ، وأن يكون متزايداً متكاملاً بحسب كل حين ولحظة ، ولما لم يكن الأمر كذلك بل علمنا أن الصبح الأول يبدو كالخيط الأبيض الصاعد حتى تشبهه العرب بذنب السرحان ، ثم إنه يحصل عقيبه ظلمة خالصة ، ثم يحصل الصبح المستطير بعد ذلك علمنا أن ذلك الصبح المستطيل ليس من تأثير قرص الشمس ، ولا من جنس نوره ، فوجب أن يكون ذلك حاصلاً بتخليق الله تعالى ابتداء تنبيهاً على أن الأنوار ليس لها وجود إلا بتخليقه ، وإن الظلمات لا ثبات لها إلا بتقديره كما قال في أول هذه السورة ﴿ وَجَعَلَ الظلمات والنور ﴾ .

والوجه الثاني : في تقرير هذا الدليل أنا لما بحثنا وتأملنا علمنا أن الشمس والقمر وسائر الكواكب لا تقع أضواؤها إلى على الجرم المقابل لها .

فأما الذي لا يكون مقابلاً لها فيمتنع وقوع أضوائها عليه ، وهذه مقدمة متفق عليها بين الفلاسفة وبين الرياضيين الباحثين عن أحوال الضوء المضيء ، ولهم في تقريرها وجوه نفيسة .

إذا عرفت هذا نقول : الشمس عند طلوع الصبح غير مرتفعة من الأفق فلا يكون جرم الشمس مقابلاً لجزء من أجزاء وجه الأرض ، فيمتنع وقوع ضوء الشمس على وجه الأرض ، وإذا كان كذلك امتنع أن يكون ضوء الصبح من تأثير قرص الشمس ، فوجب أن يكون ذلك بتخليق الفاعل المختار .

فإن قالوا : لم لا يجوز أن يقال : الشمس حين كونها تحت الأرض توجب إضاءة ذلك الهواء المقابل له ، ثم ذلك الهواء مقابل للهواء الواقف فوق الأرض ، فيصيره ضوء الهواء الواقف تحت الأرض سبباً لضوء الهواء الواقف فوق الأرض ، ثم لا يزال يسري ذلك الضوء من هواء إلى هواء آخر ملاصق له حتى يصل إلى الهواء المحيط بنا هذا هو الوجه الذي عول عليه أبو علي بن الهيثم في تقرير هذا المعنى في كتابه الذي سماه "بالمناظر الكثة" .

والجواب : أن هذا العذر باطل من وجهين : الأول : أن الهواء جرم شفاف عديم اللون ، وما كان كذلك فإنه لا يقبل النور ، واللون في ذاته وجوهره ، وهذا متفق عليه بين الفلاسفة .

واحتجوا عليه بأنه لو استقر النور على سطحه لوقف البصر على سطحه .

ولو كان كذلك لما نفذ البصر فيما وراءه ، ولصار إبصاره مانعاً عن إبصار ما وراءه ، فحيث لم يكن كذلك علمنا أنه لم يقبل اللون والنور في ذاته وجوهره ، وما كان كذلك امتنع أن ينعكس النور منه إلى غيره ، فامتنع أن يصير ضوءه سبباً لضوء هواء آخر مقابل له .

فإن قالوا : لم لا يجوز أن يقال : إنه حصل في الأفق أجزاء كثيفة من الأبخرة والأدخنة ؟ وهي

لكثافتها تقبل النور عن قرص الشمس .

ثم إن بحصول الضوء فيها يصير سبباً لحصول الضوء في الهواء المقابل لها ، فنقول : لو كان السبب ما ذكرتم لكان كلما كانت الأبخرة والأدخنة في الأفق أكثر ، وجب أن يكون ضوء الصباح أقوى لكنه ليس الأمر كذلك ، بل على العكس منه فبطل هذا العذر .

*(60/243)*

---

الوجه الثاني : في إبطال هذا الكلام الذي ذكره ابن الهيثم أن الدائرة التي هي دائرة الأفق لنا ، فهي بعينها دائرة نصف النهار لقوم آخرين ، فإذا كان كذلك ، فالدائرة التي هي نصف النهار في بلدنا ، وجب كونها دائرة الأفق لأولئك الأقوام .

إذا ثبت هذا فنقول : إذا وصل مركز الشمس إلى دائرة نصف الليل وتجاوز عنها ، فالشمس قد طلعت على أولئك الأقوام ، واستنار نصف العام هناك ، والربع من الفلك الذي هو ربع شرقي لأهل بلدنا فهو بعينه ربع غربي بالنسبة إلى تلك البلدة وإذا كان كذلك فالشمس إذا تجاوز مركزها عن دائرة نصف الليل قد صار جرمها محاذياً لهواء الربع الشرقي لأهل بلدنا .

فلو كان الهواء يقبل كيفية النور من الشمس لوجب أن يحصل الضوء والنور في هواء الربع

الشرقي من بلدنا بعد نصف الليل .

وأن يصير هواء الربع الشرقي في غاية الإضاءة والإنارة بعد نصف الليل ، وحيث لم يكن الأمر كذلك علمنا أن الهواء لا يقبل كيفية النور في ذاته .

وإذا بطل هذا بطل العذر الذي ذكره ابن الهيثم فقد ذكرنا برهانين دقيقين عقليين محضين على أن خالق الضوء والظلمة هو الله تعالى لا قرص الشمس ، والله أعلم .

والوجه الثالث : هب أن النور الحاصل في العالم إنما كان بتأثير الشمس .

إلا أنا نقول : الأجسام متماثلة في تمام الماهية ومتى كان الأمر كذلك كان حصول هذه الخاصية لقرص الشمس يجب أن يكون بتخليق الفاعل المختار .

أما بيان المقام الأول : فهو أن الأجسام متماثلة في كونها أجساماً ومتحيزة .

فلو حصل الاختلاف بينها لكان ذلك الاختلاف واقعاً في مفهوم مغاير لمفهوم الجسمية ضرورة أن ما به المشاركة مغاير لما به المخالفة فنقول : ذلك الأمر إما أن يكون محلاً للجسمية أو حالاً فيها أو لا محلاً لها ولا حالاً فيها .

والأول : باطل لأنه يقتضي كون الجسم صفة قائمة بذات أخرى وذلك محال لأن ذلك المحل إن كان متحيزاً ومختصاً بحيز كان محل الجسم غير الجسم وهو محال ، وإن لم يكن كذلك كان الحاصل في الحيز حالاً في محل لا تعلق له بشيء من الأحياز والجهات ، وذلك مدفوع في بديهة العقل .

والثاني : أيضاً باطل لأن على هذا التقدير : الذوات هي الأجسام وما به قد حصلت المخالفة هو الصفات وكل ما يصح على الشيء صح على مثله فلما كانت الذوات متماثلة في تمام الماهية وجب أن يصح على كل واحد منها ما يصح على الآخر وهو المطلوب .

والثالث : وهو القول بأن ما به حصلت المخالفة ليس محلاً للجسم ولا حالاً فيه ، وفساد هذا القسم ظاهر .

فثبت بهذا البرهان أن الأجسام متماثلة .

وإذا ثبت هذا فنقول : كل ما يصح على أحد المثلين فإنه يصح أيضاً على المثل الثاني .

وإذا استوت الأجسام بأسرها في قبول جميع الصفات على البدل كان اختصاص جسم الشمس لهذه الإضاءة وهذه الإنارة لا بد وأن يكون بتخصيص الفاعل المختار .

وإذا ثبت هذا كان فالق الإصباح في الحقيقة هو الله تعالى ، وذلك هو المطلوب ، والله أعلم .

الوجه الرابع : في تقرير هذا المطلوب أن الظلمة شبيهة بالعدم .

بل البرهان القاطع قد دل على أنه مفهوم عدمي والنور محض الوجود .

فإذا أظلم الليل حصل الخوف والفزع في قلب الكل فاستولى النوم عليهم وصاروا كالأموات وسكنت المتحركات وتعطلت التأثيرات ورفعت التفعيلات فإذا وصل نور الصباح إلى هذا العالم فكأنه نفخ في الصور مادة الحياة وقوة الإدراك فضعف النوم وابتدأت اليقظة بالظهور .

وكلما كان نور الصباح أقوى وأكمل كان ظهور قوة الحس والحركة في الحيوانات أكمل .

ومعلوم أن أعظم نعم الله على الخلق هو قوة الحياة والحس والحركة ولما كان النور هو السبب الأصلي لحصول هذه الأحوال كان تأثير قدرة الله تعالى في تخليق النور من أعظم أقسام النعم وأجل أنواع الفضل والكرم .

إذا عرفت هذا فكونه سبحانه فالقاً للإصباح في كونه دليلاً على كمال قدرة الله تعالى أجل أقسام الدلائل ، وفي كونه فضلاً ورحمة وإحساناً من الله تعالى على الخلق أجل الأقسام وأشرف الأنواع فهذا ما حضرنا في تقرير دلالة قوله تعالى : ﴿ فَالِقُ الإصباح ﴾ على وجود الصانع القادر المختار الحكم .

والله أعلم .

ولنختم هذه الدلائل بخاتمة شريفة فنقول : إنه تعالى فالق ظلمة العدم بصباح التكوين والإيجاد وفالق ظلمة الجمادية بصباح الحياة والعقل والرشاد ، وفالق ظلمة الجهالة بصباح

العقل والإدراك ، وفالق ظلمات العالم الجسماني بتخليص النفس القدسية إلى صبحة عالم الأفلاك ، وفالق ظلمات الاشتغال بعالم الممكنات بصباح نور الاستغراق في معرفة مدبر المحدثات والمبدعات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 77.80 ﴾

*(62/243)*

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَالِقُ الإصباح ﴾ نعتٌ لاسم الله تعالى ، أي ذلكم الله ربكم فالق الإصباح .

وقيل : المعنى إن الله فالق الإصباح .

والصُّبح والصباح أوَّلُ النهار ، وكذلك الإصباح ؛ أي فالق الصبح كلّ يوم ، يريد الفجر .

والإصباح مصدر أصبح .

والمعنى : شاقّ الضياء عن الظلام وكاشفُه .

وقال الضحاك : فالق الإصباح خالقُ النهار .

وهو معرفة لا يجوز فيه التنوين عند أحد من النحويين .

وقرأ الحسن وعيسى بن عمر "فالق الأَصْبَاحِ" بفتح الهمزة ، وهو جمع صبح .

وروى الأعمش عن إبراهيم النَّخَعِيّ أنه قرأ "فلق الإصباحَ" على فَعَل ، والهمزة مكسورة والحاء منصوبة .

وقرأ الحسن وعيسى بن عمر وحمزة والكسائيّ "وجعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا" بغير ألف .

ونصب "الليل" حملاً على معنى "فالق" في الموضعين ؛ لأنه بمعنى فلق ، لأنه أمْرٌ قد كان فحُمِل على المعنى .

وأيضاً فإن بعده أفعالاً ماضية وهو قوله : "جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ" .

"أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً" .

فحمِل أوّل الكلام على آخره .

يقوّي ذلك إجماعُهم على نصب الشمس والقمر على إضمار فِعل ، ولم يحملوه على فاعل فيخفِضوه ؛ قاله مكيّ رحمه الله .

وقال النحاس : وقد قرأ يزيد بن قطيب السَّكُّوني "وجاعِلُ الليلِ سكناً والشمسِ والقمرِ حُسباناً" بالخفض عطفاً على اللفظ .

قلت : فيريد مكيّ والمَهْدَويّ وغيرهما إجماع القراء السبع .

والله أعلم .

وقرأ يعقوب في رواية رُوَيْس عنه "وجاعِلُ الليلِ ساكِناً" .

وأهل المدينة "وجاعِلُ اللَّيْلِ سَكَنا" أي محلاً للسكون .

---

وفي الموطأ عن يحيى بن سعيد أنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو فيقول : " اللَّهُمَّ فالقَ الإصباح وجاعلَ الليل سَكَنا والشمسَ والقمر حُسباناً اقض عني الدَّين واغْنِنِي من الفقر وأمْتعني بسمعي وبصرِي وقوّتي في سبيلك " فإن قيل : كيف قال "وأمتعني بسمعي وبصرِي" وفي كتاب النسائيّ والترمذيّ وغيرهما : "واجعله الوارث منّي" وذلك يفنَى مع البدن ؟ قيل له : في الكلام تجوّزٌ ، والمعنى : اللّهمّ لا تعدمه قبلي . وقد قيل : إن المراد بالسمع والبصر هنا أبو بكر وعمر ؛ لقوله عليه السلام فيهما : "هما السمع والبصر" .

وهذا تأويل بعيد ، إنما المراد بهما الجارحتان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ فالق الإصباح ﴾ مصدر سمي به الصبح ، قال الشاعر :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي . . .

بصبح وما الإصباح منك بأمثل

( فإن قلت ) : الظلمة هي التي تنفلق عن الصبح كما قال الشاعر :

تفرّي ليل عن بياض نهار . . . .

فالجواب من وجوه : أحدها : أن يكون ذلك على حذف مضاف أي فالق ظلمة الإصباح وهي الغبش الذي يلي الصبح أو يكون على ظاهره ومعناه فالقه عن بياض النهار .

وقالوا : انصدع الفجر وانشق عمود الفجر ، قال الشاعر :

فانشق عنها عمود الصبح جافلة . . .

عدو النحوص تخاف القانص اللحيا

وسموا الفجر فلقاً بمعنى مفلوق أو يكون المعنى مظهر الإصباح إلا أنه لما كان الفلق مقتضياً لذلك الإظهار أطلق على الإظهار فلقاً والمراد المسبب وهو الإظهار ، وقيل : ﴿ فالق الإصباح ﴾ خالق ، وقال مجاهد : الإصباح إضاءة الفجر ، وروى ابن أبي طلحة عن ابن عباس أن ﴿ الإصباح ﴾ ضوء الشمس بالنهار وضوء القمر بالليل ، وقال الليث والفراء والزجاج : الصبح والصباح والإصباح أول النهار قال : أفنى رياحاً وبني رياح . . .

تناسخ الإمساء والإصباح

يريد المساء والصباح ويروى بفتح الهمزة جمع مسي وصبح ، وقال ابن عباس أيضاً : معناه خالق النهار والليل ، وقال الكرماني : شاق عمود الصبح عن الظلمة وكاشفه ، وقرأ الحسن وعيسى وأبو رجاء الأصباح بفتح الهمزة جمع صبح وقرأت فرقة بنصب ﴿ الإصباح ﴾ وحذف تنوين ﴿ فالق ﴾ وسيبويه إنما يجوز هذا في الشعر نحو قوله :

ولا ذاكر اللَّه إلا قليلاً . . .

حذف التنوين لالتقاء الساكنين والمبرد يجوّزه في الكلام ، وقرأ النخعي وابن وثاب وأبو حيوة فلق الإصباح فعلاً ماضياً .

﴿ وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ﴾ لما استدل على باهر حكمته وقدرته بدلالة أحوال النبات والحيوان وذلك من الأحوال الأرضية استدل أيضاً على ذلك بالأحوال الفلكية لأن قوله فلق الصبح أعظم من فلق الحب والنوى ، لأن الأحوال الفلكية أعظم وقعاً في النفوس من الأحوال الأرضية ، والسكن فعل بمعنى مفعول أي مسكون إليه وهو من تستأنس به وتطمئن إليه ومنه قيل للنار لأنه يستأنس بها ولذلك يسمونها المؤنسة ، ومعنى أن الليل سكن لأن الإنسان يتعب نهاره ويسكن في الليل ولذلك قال تعالى : ﴿ لتسكنوا فيه ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ فالق الإصباح ﴾ أي شاق عمود الصبح عن ظلمة الليل وسواده

والإصباح مصدر سمي به الصبح .

وقال الزجاج : الإصباح والصبح واحد وهما أول النهار .

فإن قلت ظاهر الآية يدل على أنه تعالى فلق الصبح ، والظلمة هي التي تنفلق بالصبح فما معنى ذلك ؟ قلت ذكر العلماء فيه وجوهاً :

*(65/243)*

---

الأول : أن يكون المراد فالق ظلمة الصبح وذلك لأن الصبح صبحان : فالصبح الأول هو البياض المستطيل الصاعد في الأفق كذنب السرحان وهو الذئب ثم تعقبه ظلمة بعد ذلك ويسمى هذا الصبح الفجر الكاذب لأنه يبدو في الأفق الشرقي ثم يضمحل ويذهب ثم يطلع بعده الصبح الثاني ، وهو الضوء المستطير في جميع الأفق الشرقي ويسمى الفجر الصادق لأنه ليس بعده ظلمة والحاصل من هذا أن يكون المعنى : فالق ظلمة الصبح الأول بنور الصبح الثاني .

الوجه الثاني : أنه تعالى كما شق ظلمة الليل بنور الصباح فكذلك يشق نور الصبح بضياء النهار فيكون معنى قوله : ﴿ فالق الإصباح ﴾ أي فالق الصباح بنور النهار .

الوجه الثالث : أن يراد فالق ظلمة الإصباح وهي الغبش في آخر الليل الذي يلي الصبح .

الوجه الرابع : أن يكون المعنى فالق الإصباح الذي هو عمود الفجر إذا انصدع الفجر وانفلق وسمي الفجر فلقاً بمعنى مفلوق .

الوجه الخامس : الفلق بمعنى الخلق يعني خالق الإصباح .

وعلى هذا القول يزول الإشكال .

والصبح هو الضوء الذي يبدو أول النهار .

والمعنى أنه تعالى مبدي ضوء الصبح وخالقه ومنوره .

وقوله تعالى : ﴿ وجعل الليل سكناً ﴾ السكن ما سكنت إليه واسترحت به .

يريد أن الناس يسكنون في الليل سكون راحة لأن الله جعل الليل لهم كذلك .

قال ابن عباس : إن كل ذي روح يسكن فيه لأن الإنسان قد أتعب نفسه في النهار فاحتاج إلى زمان يستريح فيه ويسكن عن الحركة وذلك هو الليل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

*(66/243)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ فَالِقُ الإصباح ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أي هو فالق أو خبر آخر لإن .

والإصباح بكسر الهمزة مصدر سمي به الصبح ؛ قال امرؤ القيس

: ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي . . .

يصبح وما الإصباح منك بأمثل

وقرأ الحسن بالفتح على أنه جمع صبح كقفل وأقفال .

وأنشد قوله

: أفنى رياحاً وبنى رياح . . .

تناسخ الإمساء والإصباح

بالكسر والفتح مصدرين وجمعي مسي وصبح .

والفالق الخالق على ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقتادة والضحاك وقال

غير واحد : الشاق .

واستشكل بأن الظاهر أن الظلمة هي التي تفلق عن الصبح .

وأجيب بأن الصبح صبحان ، صادق وهو المنتشر ضوؤه معترضاً بالأفق ، وكاذب وهو

ما يبدو مستطيلاً وأعلاه أضوأ من باقيه وتعقبه ظلمة .

وعلى الأول : يراد فلقه عن بياض النهار أو يقال : في الكلام مضاف مقدر أي فالق ظلمة

الإصباح بالأصباح وذلك لأن الأفق من الجانب الغربي والجنوبي مملوء من الظلمة والنور إنما

ظهر في الجانب الشرقي فكأن الأفق كان بحراً مملوءاً من الظلمة فشق سبحانه ذلك البحر المظلم بأن أجرى جدولاً من النور فيه .

(67/243)

---

وعلى الثاني : فإيراد أنه سبحانه فالقه عن ظلمة آخر الليل وشاقه منه .

وما ذكر من تقسيم الصبح إلى صادق وكاذب مما يشهد له العيان ولا يمتري فيه إثنان إلا أن في سبب ذلك كلاماً لأهل الهيئة حاصله أن الصبح وكذا الشفق استنارة في كرة البخار لتقارب الشمس من أفق المشرق وتباعدها عن أفق المغرب .

وقد تحقق أن كرة البخار عبارة عن هواء متكاثف بما فيه من الأجزاء الأرضية والمائية المتصاعدة من كرتيهما بتسخين الشمس وغيرها إياها وأن شكل ذلك الهواء شكل كرة محيطة بالأرض على مركزها وسطح مواز لسطحها المتساوي غاية ارتفاعها عن مركز الأرض في جميع النواحي المستلزم لكرويتها وأنها مختلفة القوام لأن ما كان منها أقرب إلى الأرض فهو أكثف مما بعد لأن الألطف يتصاعد ويتباعد أكثر من الأكثف ولكن لا يبلغ في التكاثف إلى حيث يحجب ما وراءه .

وأن هذه الكرة تنتهي إلى حد لا تتجاوزه وهو من سطح الأرض أحد وخمسون ميلاً تقريباً

وأن للأرض ظلاً على هيئة مخروط قاعدته دائرة عليها تكاد تكون عظيمة وهي مواجهة للشمس ورأسه في مقابلها .

وتنقسم الأرض بهذه القاعدة إلى قسمين : أحدهما أكبر مستضيء مواجه للشمس والآخر مظلم مقابل لها ، ويتحرك الضياء والظلمة على سطح الأرض في يوم بليلته دورة واحدة كعلمين متقابلين أحدهما أبيض والآخر أسود .

وأن شعاع الشمس محيط بمخروط الظل من جميع جوانبه ومنبث في جميع الأفلاك سوى مقدار يسير من فلك القمر وفلك عطارد وقع في مخروط ظل الأرض لكن الأفلاك لكونها مشعة في الغاية ينفذ فيها الشعاع ولاينعكس عنها فلذلك لا نراها مضيئة .

وكذا الهواء الصافي المحيط بكرة البخار لا يقبل ضوءاً .

وأما كرة البخار فهي مختلفة القوام لأن ما قرب منها إلى الأرض أكثف مما بعد والأكثف أقبل للاستضاءة فالكثيف الخشن باختلاط الهيئات الكثيرة من سطح مخروط الظل قابل للضوء وأن النهار مدة كون ذلك المخروط تحت الأفق والليل مدة كونه فوقه .

*(68/243)*

وحيث تحقق كل ذلك يقال : إذا ازداد قرب الشمس من شرقي الأفق ازداد ميل المخروط إلى غربيه ولا يزال كذلك حتى يرى الشعاع المحيط به وأول ما يرى هو الأقرب إلى موضع الناظر وهو خط يخرج من بصره في سطح دائرة سمتية تمر بمركز الشمس عموداً على الخط المماس للشمس والأرض وهو الذي في سطح الفصل المشترك بين الشعاع والظل فيرى الضوء أولاً مرتفعاً عن الأفق عند موقع العمود مستطيلاً كخط مستقيم وما بينه وبين الأفق يرى مظلماً لبعده وإن كان مستنيراً في الواقع ولكثافة الهواء عند الأفق مدخل في ذلك أيضاً وهو الصبح الكاذب ، ثم إذا قربت من الأفق الشرقي رؤى الضوء معترضاً منبسطاً يزداد لحظة فلحظة وينمحي الأول بهذا الضياء القوى كما ينمحي ضياء المشاعل والكواكب في ضوء الشمس فيخيل أن الأول قد عدم وهو الصبح الصادق .

وتوضيح ما ذكر على ما في "التذكرة" و"شرح سيد المحققين" أنه يتوهم لبيان ذلك سطح يمر بمركز الشمس والأرض وبسهم المخروط ومركز قاعدته فيحدث مثلث حاد الزوايا قاعدته على الأفق وضلعاه على سطح المخروط .

أما حدوث المثلث فلما تقرر أنه إذا مر سطح مستو بسهم المخروط ومركز قاعدته أحدث فيه مثلثاً .

وأما حدة الزوايا فلأن رأس المخروط في نصف الليل يكون على دائرة نصف النهار فوق الأرض .

وحينئذ إما أن يكون المخروط قائماً على سطح الأفق .

وذلك إذا كانت الشمس على سمت القدم أو مائلاً إلى الشمال أو الجنوب مع تساوي بعده عن جهة المشرق والمغرب .

وذلك إذا لم تكن الشمس على سمت القدم .

وأياً ما كان فذلك السطح المفروض ممتد فيما بين الخافقين أما على التقدير الأول فظاهر .

وأما على التقدير الثاني فلتساوي بعد رأس المخروط عن جانبي المشرق والمغرب فيكون زوايتا قاعدة المثلث حادتين لوجوب تساويهما وامتناع وقوع قائمتين أو منفرجتين في مثلث .

*(69/243)*

---

وإذا مال رأس المخروط عن نصف النهار المغرب فوق الأرض بسبب انتقال الشمس عنه إلى جانب المشرق تحت الأرض تضايقت الزاوية الشرقية من ذلك المثلث فتصير أحد مما كانت واتسعت الزاوية الغربية حتى تصير منفرجة لكن المقصود لا يختلف .

ولا شك أن الأقرب من الضلع الذي يلي الشمس إلى الناظر يكون موقع العمود الخارج من النظر الواقع على ذلك الضلع لا موضع اتصال الضلع بالأفق .

وذلك أنه إذا خرج من البصر إلى الضلع الشرقي عمود فلا يمكن أن يقع على موضع اتصال هذا الضلع بالأفق وإلا انطبقت القائمة على بعض الحادة ولا أن يقع تحت الأفق بأن يقطع العمود قاعدة المثلث ويصل إلى الضلع المذكور بعد إخراجه تحته وإلا لزم في المثلث الحادث تحت الأفق من القدر المخرج من بعض القاعدة وبعض العمود قائمة ومنفرجة ولا أن يقع في جهة رأس المثلث على موضع اتصال أحد ضلعيه بالآخر ولا خارجاً عنه في تلك الجهة لما ذكرنا بعينه فوجب أن يقع داخل المثلث فيما بين طرفي الضلع الشرقي وقد تبين أن موضعه أقرب إلى الناظر من موضع اتصاله بالأفق .

ولا شك في أن ما وقع من هذا الضلع فيما كثف من كرة البخار يكون مستنيراً بتمامه حال قرب الشمس من أفق المشرق إلا أن ما كان أقرب منه إلى الناظر يكون أصدق رؤية .

وهو موقع العمود ومن هنا يتحقق الصادق والكاذب .

انتهى كلامهم .

والإمام الرازي أنكر كون الصبح الكاذب من أثر قرص الشمس وإنما هو بتخليق الله تعالى ابتداء قال .

لأن مركز الشمس إذا وصل إلى دائرة نصف الليل فالموضع الذي يكون فلك الدائرة أفقاً لهم قد طلعت الشمس من مشرقهم .

وفي ذلك الموضع أضاء نصف كرة الأرض .

وذلك يقتضي أنه حصل الضوء في الربع الشرقي من بلدنا وذلك الضوء يكون منتشراً مستطيراً في جمع أجزاء الجو ويجب أن يزداد لحظة فلحظة .

وحينئذ يمتنع أن يكون الصبح الأول خطاً مستطيلاً فحيث كان كذلك علم أنه ليس من تأثير قرص الشمس ولا من جنس نوره .

*(70/243)*

---

ويفهم من كلامه أيضاً أن الصبح الثاني كالصبح الأول ليس إلا بتخليق الفاعل المختار ويمتنع أن يكون من تأثير قرص الشمس ، وبين ذلك بأن من المقدمات المتفق عليها أن المضيء ، شمساً كان أو غيره لا يقع ضوؤه إلا على الجرم المقابل له دون غير المقابل والشمس عند طلوع الصبح غير مرتفعة من الأفق فلا يكون جرم الشمس مقابلاً لجزء من أجزاء وجه الأرض فيمتنع وقوع ضوء الشمس على وجه الأرض وإذا امتنع ذلك امتنع أن يكون ضوء الصبح من تأثير القرص ، ثم قال فإن قالوا : لم لا يجوز أن يقال الشمس حين كونها تحت الأرض توجب إضاءة ذلك الهواء المقابل لها وذلك الهواء مقابل للهواء الواقف فوق الأرض فيصير ضوء الهواء الواقف تحت الأرض سبباً لضوء الهواء الواقف فوق الأرض ثم لا يزال يسري ذلك الضوء من هواء آخر ملاصق له حتى يصل إلى الهواء المحيط بنا .

وعلى هذا عول أبو علي بن الهيثم في "المناظر" فالجواب : أن هذا باطل من وجهين ، الأول : أن الهواء شفاف عديم اللون فلا يقبل النور واللون في ذاته .

وما كان كذلك يمتنع أن ينعكس منه النور إلى غيره فيمتنع أن يصير ضوؤه سبباً لضوء هواء آخر مقابل له .

فإن قالوا فلم لا يجوز أن يقال إنه حصل في الأفق أجزاء كثيفة من الأبخرة والأدخنة وهي لكثافتها تقبل النور عن قرص الشمس ثم يفيض على الهواء المقابل له ؟ فنقول : لو كان كذلك لكان كلما كانت الأبخرة والأدخنة في الأفق أكثر وجب أن يكون ضوء الصباح أقوى وليس الأمر كذلك بل بالعكس ، الثاني : أن الدائرة التي هي دائرة الأفق لنا بعينها دائرة نصف النهار لقوم آخرين .

وإذا كان كذلك فالدائرة التي هي نصف النهار في بلدنا وجب كونها دائرة الأفق لأولئك الأقوام ، وإذا ثبت هذا فنقول .

إذا وصل مركز الشمس إلى دئرة نصف الليل وتجاوز عنها فالشمس قد طلعت على أولئك الأقوام واستنار نصف العالم هناك .

*(71/243)*

والربع من الفلك الذي هو ربع شرقي لأهل بلدنا فهو بعينه ربع غربي بالنسبة إلى تلك البلدة ، وإذا كان كذلك فالشمس إذا تجاوز مركزها عن دائرة نصف الليل قد صار جرمها محازياً لهواء الربع الذي هو الربع الشرقي لأهل بلدنا فلو كان الهواء يقبل كيفية النور من الشمس لوجب أن يحصل النور في هذا الربع الشرقي من بلدنا بعد نصف الليل وأن يصير هواء هذا الربع في غاية الإنارة حينئذ وحيث لم يكن كذلك علمنا أن الهواء لا يقبل كيفية النور في ذاته وإذا بطل هذا بطل العذر الذي ذكره ابن الهيثم انتهى المراد منه .

ولا أراه أتى بشيء يتبلج به صبح هذا المطلب كما لا يخفى على من أحاط خبراً بما قدمناه .

وذكر أفضل المتأخرين العلامة أحمد بن حجر الهيثمي أن لأهل الهيئة في تحقيق الصبح الكاذب كلاماً طويلاً مبنياً على الحدس المبني على قاعدة الحكماء الباطلة كمنع الخرق والالتئام على أنه لا يفي ببيان سبب كون أعلاه أضوأ مع أنه أبعد من أسفله عن مستمده وهو الشمس ولا ببيان سبب انعدامه بالكلية حتى تعقبه ظلمة كما صرح به الأئمة وقدروها بساعة .

*(72/243)*

والظاهر أن مرادهم مطلق الزمن لأنها تطول تارة وتقصر أخرى وهذا شأن الساعات الزمانية المسماة بالمعوجة ويقابلونها بالساعات المستوية المقدر كل منها دائماً بخمس عشرة درجة ، وزعم بعض أهل الهيئة عدم انعدامه وإنما يتناقص حتى ينغمر في الصادق وقد تقدم لك ذلك فيما نقلناه لك عنهم ولعله بحسب التقدير لا الحس ، وفي خبر مسلم " لا يغرنكم أذان بلال ولا هذا العارض لعمود الصبح حتى يستطير أي ينتشر ذلك العمود في نواحي الأفق " ويؤخذ من تسميته عارضاً للثاني شيئان ، أحدهما : أنه يعرض للشعاع الناشيء عنه الصبح ، الثاني : انحباس قرب ظهوره كما يشعر به التنفس في قوله سبحانه : ﴿ والصبح إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [ التكوير : 18 ] فعند ذلك الانحباس يتنفس منه شيء من شبه كوة ، والمشاهد في المنحبس إذا خرج بعضه دفعة أن يكون أوله أكثر من آخره ، وهذا لكون كلام الصادق قد يدل عليه ولانبائه عن سبب طوله وإضاءة أعلاه واختلاف زمنه وانعدامه بالكلية الموافق للحس أولى مما ذكره أهل الهيئة القاصر عن كل ذلك .

ثانيهما : أنه صلى الله عليه وسلم أشار بالعارض إلى أن المقصود بالذات هو الصادق وأن الكاذب إنما قصد بطريق العرضية لينبه الناس به لقرب ذلك فينتبهوا ليدركوا فضيلة أول الوقت لاشتغالهم بالنوم الذي لولا هذه العلامة لمنعهم إدراك أول الوقت ، فالحاصل أنه نور يبرزه الله تعالى من ذلك الشعاع أو يخلقه حينئذ علامة على قرب الصبح ومخالفاً له في الشكل ليحصل التمييز وتتضح العلامة العارضة من المعلم عليه المقصود فتأمل ذلك فإنه

غريب مهم .

وفي حديث عند أحمد " ليس الفجر الأبيض المستطيل في الأفق ولكن الفجر الأحمر المعترض " وفيه شاهد لما ذكر آخر .

ومما يؤيد ما أشير إليه من الكوة ما أخرجه غير واحد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن للشمس ثلثمائة كوة تطلع كل يوم من كوة فلا بدع أنها عند قربها من تلك الكوة ينحبس شعاعها ثم يتنفس كما مر .

وللقرافي المالكي .

*(73/243)*

---

وغيره كالأصبحي من الشافعية فيه كلام يوضحه ويبين صحة ما ذكر من الكوات ويوافق الاستشكال لكونه يظهر ثم يغيب .

وحاصله وإن كان فيه طول لمس الحاجة إليه أنه بياض يطلع قبل الفجر ثم يذهب عند أكثر الأبصار دون الراصد المجد القوي النظر .

وذكر ابن بشير المالكي أنه من نور الشمس إذا قربت من الأفق فإذا ظهرت أنست به الأبصار فيظهر له أنه غاب وليس كذلك .

ونقل الأصبحي أن بعضهم ذكر أنه يذهب بعد طلوعه ويعود مكانه ليلاً وهو كثير من الشافعية ، وإن أبا جعفر البصري بعد أن عرفه بأنه عند بقاء نحو ساعتين يطلع مستطيلاً إلى نحو ربع السماء كأنه عمود وربما لم ير إذا كان الجو نقياً شتاء وأبين ما يكون إذا كان الجو كدراً صيفاً أعلاه دقيق وأسفله واسع ولا ينافي هذا ما تقدم من أن أعلاه أضوأ لأن ذلك عند أول الطلوع وهذا عند مزيد قربه من الصادق وتحته سواد ثم بياض ثم يظهر بياض يغشى ذلك كله ثم يعترض رده بأنه رصده نحو خمسين سنة فلم يره غاب وإنما ينحدر ليلتقي مع المعترض في السواد ويصيران فجراً واحداً .

وزعم غيبته ثم عوده وهم أو رآه يختلف باختلاف الفصول فظنه يذهب ، وبعض المؤقتين يقول : هو المجرة إذا كان الفجر بالسعود ، ويلزمه أن لا يوجد إلا نحو شهرين في السنة قال القرافي : وقال آخرون هو شعاع يخرج من طباق بجبل قاف ثم أبطله بأن جبل قاف لا وجود له وبرهن عليه بما يرده ما جاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من طرق خرجها الحفاظ وجماعة منهم ممن التزموا تخريج الصحيح ، وقول الصحابي ذلك ونحوه مما لا مجال للرأي فيه حكمه حكم المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، منها

" أن وراء أرضنا بحراً محيطاً ثم جبلاً يقال له قاف ثم أرضاً ثم بحراً ثم جبلاً " وهكذا حتى عد سبعاً من كل ، وأخرج بعض أولئك عن عبد الله بن بريدة أنه جبل من ذمرد محيط بالدنيا عليه كنفا السماء ، وعن مجاهد مثله ، وكما اندفع بذلك قوله : لا وجود له اندفع قوله إثره : ولا يجوز اعتقاد ما لا دليل عليه لأنه إن أراد بالدليل مطلق الأمارة فهذا عليه أدلة أو الأمارة العقلية فهذا مما يكفي فيه الظن كما هو جلي ، ثم نقل عن القرافي عن أهل الهيئة أنه يظهر ثم يخفى دائماً ، ثم استشكله وأطال في جوابه بما لا يتضح إلا لمن أتقن علمي الهندسة والمناظر فأولى منه أن يختلف باختلاف النظر لاختلافه باختلاف الفصول والكيفيات العارضة لمحله فقد يدق في بعض ذلك حتى لا يرى أصلاً وحينئذ فهذا عذر من عبر بأنه يغيب ثم تعقبه ظلمة ، هذا ولا يخفى أن القول بحدوث ضوء الصبح بمجرد خلق الله تعالى لا عن سبب عادي كما يشير إليه كلام الإمام أهون من القول بأنه من شعاع يخرج من طباق جبل قاف .

والقول بخروج الشعاع من هذا الطباق أهون من القول بخروج الشمس التي هي على ما بين في الأجرام مائة وستة وستون مثلاً للأرض مع كسر تقدم على ما هو المشهور أو ثلاثمائة وستة وعشرون مثلاً لها على ما قاله غياث الدين جمشيد الكاشي في رسالته سلم السماء أو ما يقرب من ذلك على ما في بعض الروايات من كوة من جبل محيط بالأرض .

والخبر في ذلك إن صح وقلنا : إن له حكم المرفوع مما ينبغي تأويله وباب التأويل أوسع من

تلك الكوة فإن كثيراً من الناس قد قطعوا دائرة الأرض على مدار السرطان مراراً ولم يجدوا أثراً لهذا الجبل المحيط الشامخ .

وإثبات سبعة جبال وسبعة أبحر على الوجه السابق مما لا يخفى ما فيه أيضاً .

وكون الله تعالى لا يعجزه شيء مما لا يشك فيه إلا ملحد لكن الكلام في وقوع ما ذكر في الخارج .

والذي تميل إليه قلوب كثير من الناس في أمر الصبح ما ذكره أهل الهيئة .

*(75/243)*

---

وقد بين أرسطرخس في الشكل الثاني من "كتابه في جرم النيرين" أن الكرة إذا اقتبست الضوء من كرة أعظم منها كان المضيء منها أعظم من نصفها .

وقد بين أيضاً في الشكل الأول من ذلك الكتاب أن كل كرتين مختلفتين أمكن أن يحيط بهما مخروط مستدير رأسه يلي أصغرهما ويكون المخروط مماساً لكل منهما على محيط دائرة ، ولا شك أنه محيط بالشمس والأرض مخروط مؤلف من خطوط شعاعية رأسه يلي الأرض فيكون هذا المخروط مماساً للأرض على دائرة فاصلة بين المضيء والمظلم منها وهي دائرة صغيرة لأن الجزء المضيء من الأرض أصغر .

وقد حققوا أن المستنير من الهواء كرة البخار سوى ما دخل في ظل مخروط الأرض وهي مستنيرة أبداً لكثافتها وإحاطة أشعة الشمس بها لكنها لا ترى في الليل لبعدها عن البصر وإن سهم المخروط أبداً في مقابلة جرم الشمس كما أشرنا إليه .

ففي منتصف الليل يكون على دائرة نصف النهار وبعد ذلك يميل إلى جانب الغروب لحظة فلحظة إلى أن يرى البياض في جانب المشرق على ما تقدم تفصيله وعلى هذا لا يلزم في الصورة التي ذكرها الإمام من مجاوزة مركز الشمس دائرة نصف الليل وطلوعها على أولئك الأقوام .

واستنارة نصف العالم عندهم استنارة الربع الشرقي عندنا لاختلاف الوضع كما لا يخفى على المتأمل ، والتزام القول بالكروية والمخروط ونحو ذلك مما ذكره أهل الهيئة لا بأس به ، نعم اعتقاد صحة ما يقولونه مما علم خلافه من الدين بالضرورة أو علم بدليل قطعي كفر أو ضلال فتدبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

في تفسير ﴿ الإصباح ﴾ وجوه :

الأول : قال الليث : الصبح والصباح هما أول النهار وهو الإصباح أيضاً .

قال تعالى : ﴿ فَالِقُ الإصباح ﴾ يعني الصبح .

قال الشاعر :

أفنى رياحاً وبنى رياح . . تناسخ الإمساء والإصباح

والقول الثاني : أن ﴿ الإصباح ﴾ مصدر سمي به الصبح .

(76/243)

---

فإن قيل : ظاهر الآية يدل على أنه تعالى فلق الصبح وليس الأمر كذلك فإن الحق أنه تعالى فلق الظلمة بالصبح فكيف الوجه فيه ؟ فنقول فيه وجوه : الأول : أن يكون المراد فالق ظلمة الإصباح ، وذلك لأن الأفق من الجانب الشمالي والغربي والجنوبي مملوء من الظلمة والنور .

وإنما ظهر في الجانب الشرقي فكأن الأفق كان بحراً مملوءاً من الظلمة .

ثم إنه تعالى شق ذلك البحر المظلم بأن أجرى جدولاً من النور فيه ، والحاصل أن المراد فالق ظلمة الإصباح بنور الإصباح ولما كان المراد معلوماً حسن الحذف .

والثاني : أنه تعالى كما يشق بحر الظلمة عن نور الصبح فكذلك يشق نور الصبح عن بياض النهار فقوله : ﴿ فَالِقُ الإصباح ﴾ أي فالق الإصباح ببياض النهار .

والثالث : أن ظهور النور في الصباح أنما كان لأجل أن الله تعالى فلق تلك الظلمة فقوله :

﴿ فَالِقُ الإصباح ﴾ أي مظهر الإصباح إلا أنه لما كان المقتضى لذلك الإظهار هو ذلك الفلق لا جرم ذكر اسم السبب والمراد منه المسبب .

الرابع : قال بعضهم : الفالق هو الخالق فكان المعنى خالق الإصباح وعلى هذا التقدير فالسؤال زائل والله أعلم .

أما قوله تعالى : ﴿ وجعل الليل سكناً ﴾ فاعلم أنه تعالى ذكر في هذه الآية ثلاثة أنواع من الدلائل الفلكية على التوحيد .

فأولها : ظهور الصباح وقد فسرناه بمقدار الفهم .

وثانيها : قوله ﴿ وجعل الليل سكناً ﴾

وفيه مباحث :

المبحث الأول : قال صاحب "الكشاف" : السكن ما يسكن إليه الرجل ويطمئن إليه استئناساً به واسترواحاً إليه من زوج أو حبيب ، ومنه قيل : للنار سكن لأنه يستأنس بها ألا تراهم سموها المؤنسة .

ثم إن الليل يطمئن إليه الإنسان لأنه أتعب نفسه بالنهار واحتاج إلى زمان يستريح فيه وذلك هو الليل .

فإن قيل : أليس أن الخلق يبقون في الجنة في أهنأ عيش ، وألذ زمان مع أنه ليس هناك ليل ؟ فعلمنا أن وجود الليل والنهار ليس من ضروريات اللذة والخير في الحياة قلنا : كلامنا في أن الليل والنهار من ضروريات مصالح هذا العالم ، أما في الدار الآخرة فهذه العادات غير باقية فيه فظهر الفرق .

المبحث الثاني : قرأ عاصم والكسائي ﴿ وَجَعَلَ الليل ﴾ على صيغة الفعل ، والباقون جاعل على صيغة اسم الفاعل حجة من قرأ باسم الفاعل أن المذكور قبله اسم الفاعل ، وهو قوله : ﴿ فَالِقُ الحب * فَالِقُ الإصباح ﴾ ( الأنعام 95-96 ) وجاعل أيضاً اسم الفاعل .

ويجب كون المعطوف مشاركاً للمعطوف عليه ، وحجة من قرأ بصيغة الفعل أن قوله : ﴿ والشمس والقمر ﴾ منصوبان ولا بد لهذا النصب من عامل ، وما ذاك إلا أن يقدر قوله : ﴿ وَجَعَلَ ﴾ بمعنى وجاعل الشمس والقمر حسباناً وذلك يفيد المطلوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 80. 81 ﴾

وقال ابن عاشور :

والإصباح بكسر الهمزة في الأصل مصدر أصبح الأُفُق ، إذا صار ذا صباح ، وقد سمّي به الصباح ، وهو ضياء الفجر فيقابل اللّيلَ وهو المراد هنا .

وفلْق الإصباح استعارة لظهور الضّياء في ظلمة اللّيل ، فشبّه ذلك بفلق الظلمة عن الضّياء ، كما استعير لذلك أيضاً السّلخ في قوله تعالى : ﴿ وآية لهم اللّيل نسلخ منه النّهار ﴾ [ يس : 37 ] .

فإضافة ﴿ فالق ﴾ إلى ﴿ الإصباح ﴾ حقيقيّة وهي لأدنى ملابسة على سبيل المجاز . وسنبيّنه في الآية الآتية لأنّ اسم الفاعل له شائبة الاسميّة فيضاف إضافة حقيقيّة ، وله شائبة فعلية فيضاف إضافة لفظيّة .

وهو هنا لمّا كان دالاًّ على وصف في الماضي ضعف شبهه بالفعل لأنّه إنّما يشبه المضارع في الوزن وزمنِ الحال أو الاستقبال .

(78/243)

---

وقد يعتبر فيه المفعوليّة على التّوسّع فحُذف حرف الجرّ ، أي فالق عن الإصباح فانتصب على نزع الخافض ، ولذلك سمَّوْا الصّبح فَلَقاً بفتحتين بزنة ما بمعنى المفعول كما قالوا مسكَن ، أي مسكون إليه فتكون الإضافة على هذا لفظية بالتأويل وليست إضافته من إضافة الوصف إلى معموله إذ ليس الإصباح مفعول الفلْق والمعنى فالق عن الإصباح فيعلم أنّ المفلوق هو الليل ولذلك فسّروه فالق ظلمة الإصباح ، أي الظلمة التي يعقبها الصبح وهي

ظلمة الغَبَش ، فإنّ فلق الليل عن الصبح أبدع في مظهر القدرة وأدخل في المنّة بالنعمة ، لأنّ الظلمة عدم والنور وجود .

والإيجاد هو مظهر القدرة ولا يكون العدم ومظهراً للقدرة إلاّ إذا تسلّط على موجود وهو الإعدام ، وفلق الإصباح نعمة أيضاً على النّاس لينتفعوا بحياتهم واكتسابهم .

﴿ وجاعل اللّيل سكناً ﴾ عطف على ﴿ فالق الإصباح ﴾ .

وقرأه الجمهور بصيغة اسم الفاعل وجرّ ﴿ اللّيلِ ﴾ لمناسبة الوصفين في الاسميّة والإضافة .

وقرأه عاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وخلَف .

﴿ وجَعَل ﴾ بصيغة فعل الماضي وبنصب ﴿ اللّيل ﴾ .

وعُبّر في جانب اللّيل بمادة الجعل لأنّ الظلمة عدم فتعلّق القدرة فيها هو تعلّقها بإزالة ما يمنع تلك الظلمة من الأنوار العارضة للأفق .

والمعنى أنّ الله فلق الإصباح بقدرته نعمة منه على الموجودات ولم يجعل النّور مستمراً في الأفق فجعله عارضاً مجزءاً أوقاتاً لتعود الظّلمة إلى الأفق رحمة منه بالموجودات ليسكنوا بعد النّصَب والعمل فيستجمّوا راحتهم .

والسكَن بالتَّحريك على زنة مُرادف اسم المفعول مثل الفَلَق على اعتباره مفعولاً بالتوسّع

بحذف حرف الجرّ وهو ما يسكن إليه ، أي تسكن إليه النّفس ويطمئنّ إليه القلب ، والسّكون فيه مجاز .

(79/243)

---

وتسمّى الزّوجة سكَناً والبيتُ سكناً قال تعالى : ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ﴾ [ النحل : 80 ] ، فمعنى جَعْل اللّيل سكناً أنّه جعل لتحصل فيه راحة النّفس من تعب العمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ والشمس والقمر حُسْبَاناً ﴾

فصل

قال الفخر :

وأما قوله تعالى : ﴿ والشمس والقمر حُسْبَاناً ﴾ ففيه مباحث :

المبحث الأول : معناه أنه قدر حركة الشمس والقمر بحساب معين كما ذكره في سورة يونس في قوله : ﴿ هُوَ الذى جَعَلَ الشمس ضِيَاءً والقمر نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب ﴾ [ يونس : 5 ] وقال في سورة الرحمن : ﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ﴾ [ الرحمن : 5 ] وتحقيق الكلام فيه أنه تعالى قدر حركة الشمس مخصوصة بمقدار من

السرعة والبطء بحيث تتم الدورة في سنة ، وقدر حركة القمر بحيث يتم الدورة في شهر ، وبهذه المقادير تنتظم مصالح العالم في الفصول الأربعة ، وبسببها يحصل ما يحتاج إليه من نضج الثمار ، وحصول الغلات ، ولو قدرنا كونها أسرع أو أبطأ مما وقع ، لاختلت هذه المصالح فهذا هو المراد من قوله : ﴿ والشمس والقمر حُسْبَاناً ﴾ .

المبحث الثاني : في الحسبان قولان : الأول : وهو قول أبي الهيثم أنه جمع حساب مثل ركاب وركبان وشهاب وشهبان .

والثاني : أن الحسبان مصدر كالرجحان والنقصان .

وقال صاحب "الكشاف" : الحسبان بالضم مصدر حسب ، كما أن الحسبان بالكسر مصدر حسب ، ونظيره الكفران والغفران والشكران .

إذا عرفت هذا فنقول : معنى جعل الشمس والقمر حسباناً جعلهما على حساب .

لأن حساب الأوقات لا يعلم إلا بدورهما وسيرهما .

المبحث الثالث : قال صاحب "الكشاف" : ﴿ والشمس والقمر ﴾ قرئا بالحركات الثلاث ، فالنصب على إضمار فعل دل عليه قوله : ﴿ جَاعِلِ الليل ﴾ أي وجعل الشمس والقمر حسباناً ، والجر عطف على لفظ الليل ، والرفع على الابتداء ، والخبر محذوف تقديره ، والشمس والقمر مجعولان حسباناً : أي محسوبان .

ثم إنه تعالى ختم الآية بقوله : ﴿ ذلك تَقْدِيرُ العزيز العليم ﴾ والعزيز إشارة إلى كمال قدرته

والعليم إشارة إلى كمال علمه ، ومعناه أن تقدير إجرام الأفلاك بصفاتها المخصوصة وهيئاتها المحدودة ، وحركاتها المقدرة بالمقادير المخصوصة في البطء والسرعة لا يمكن تحصيله إلا بقدرة كاملة متعلقة بجميع الممكنات وعلم نافذ في جميع المعلومات من الكليات والجزئيات ، وذلك تصريح بأن حصول هذه الأحوال والصفات ليس بالطبع والخاصة ، وإنما هو بتخصيص الفاعل المختار . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 82.81 ﴾

*(80/243)*

---

وقال القرطبى :

ومعنى ﴿ حُسْبَاناً ﴾ أي بحساب يتعلّق به مصالح العباد .

وقال ابن عباس في قوله جل وعز : "وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً" أي بحساب .

الأخفش : حُسْبان جمع حساب ؛ مثل شِهاب وشُهبان .

وقال يعقوب : حُسبان مصدر حَسَبْت الشيء أحسُبه حُسباناً وحِساباً وحِسْبة ، والحساب الاسم .

وقال غيره : جعل الله تعالى سير الشمس والقمر بحساب لا يزيد ولا ينقص ؛ فدلّهم الله عز

وجل بذلك على قدرته ووحدانيته .

وقيل : "حُسْباناً" أي ضياء والحسبان : النار في لغة ؛ وقد قال الله تعالى : ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السمآء ﴾ [ الكهف : 40 ] .

قال ابن عباس : ناراً .

والحُسْبانة : الوِسادة الصغيرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ والشمس والقمر حسباناً ﴾ يعني أنه تعالى قدر حركة الشمس والقمر في الفلك بحسبان معين .

قال ابن عباس : يجريان إلى أجل جعل لهما يعني عدد الأيام والشهور والسنين وقال الكلبي منازلهما بحسبان لا يجاوزانه حتى ينتهيا إلى أقصى منازلهما ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره في هذه الآية من الأشياء التي خلقها بقدرته وكمال علمه وهو المراد بقوله ﴿ تقدير العزيز العليم ﴾ فالعزيز إشارة إلى كمال قدرته والعليم إشارة إلى كمال علمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

*(81/243)*

وقال ابن جزى :

﴿ حُسْبَاناً ﴾ أي يعلم بهما حساب الأزمان والليل والنهار ﴿ ذلك تَقْدِيرُ العزيز العليم ﴾ ما أحسن ذكر هذين الإسمين هنا لأن العزيز يقلب كل شيء ويقهره ، وهو قد قهر الشمس والقمر وسخرهما كيف شاء ، والعليم لما في تقدير الشمس والقمر والليل والنهار من العلوم والحكمة العظيمة وإتقان الصنعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 2 صـ 16 . 17 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَجَعَلَ الليل سَكَناً ﴾ أي يسكن إليه من يتعب بالنهار ويستأنس به لاسترواحه فيه وكل ما يسكن إليه الرجل ويطمئن استئناساً به واسترواحاً إليه من زوج أو حبيب يقال له : سكن ، ومنه قيل للنار : سكن لأنه يستأنس بها ولذا سموها مؤنسة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة أن المعنى يسكن فيه كل طير ودابة وروي نحوه عن ابن عباس ومجاهد رضي الله تعالى عنهم ، فالمراد حينئذ جعل الليل مسكوناً فيه أخذا له من السكون أي الهدوء والاستقرار كما في قوله تعالى : ﴿ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ [ يونس : 67 ]

وقرأ سائر السبعة إلا الكوفيين ﴿ جَاعِلِ ﴾ بالرفع .

وقرىء شاذاً بالنصب و﴿ الليل ﴾ فيهما مجرور بالإضافة ، ونصب ﴿ سَكَناً ﴾ عند كثير بفعل دل عليه هذا الوصف لا به لأنه يشترط في عمل اسم الفاعل كونه بمعنى الحال أو

الاستقبال وهو هنا بمعنى الماضي كما يشهد به قراءة ﴿ جَعَلَ ﴾ .

وجوز الكسائي وبعض الكوفيين عمله بمعنى الماضي مطلقاً حملاً له على الفعل الذي تضمن معناه .

وبعضهم جوز عمله كذلك إذا دخلت عليه أل .

*(82/243)*

---

وآخرون جوزوا عمله في الثاني إذا أضيف إلى الأول لشبهه بالمعرف باللام ، وعلى هذا والأول لا يحتاج إلى تقدير فعل بل يكون الناصب هو الوصف ، واختار بعضهم كونه الناصب أيضاً لكن باعتبار أن المراد به الجعل المستمر في الأزمنة المختلفة لا الزمان الماضي فقط ولا يجري على هذا مجرى الصفة المشبهة لأن ذلك كما قال بعض المحققين فيما قصد به الاستمرار مشروط باشتهار الوصف بذلك الاستعمال وشيوعه فيه ونصبه في قراءتنا على أنه مفعول ثان لجعل .

وجوز أن يكون ﴿ جَعَلَ ﴾ بمعنى أحدث المتعدي لواحد فيكون نصباً على الحال .

﴿ والشمس والقمر ﴾ معطوفان على ﴿ الليل ﴾ وعلى قراءة من جره يكون نصبهما بفعل المقدر الناصب لسكناً أو بآخر مثله ، وقيل : بالعطف على محل ﴿ الليل ﴾ المجرور

فإن إضافة الوصف إليه غير حقيقية إذا لم ينظر فيه إلى المضي .

وقرىء بالجر وهو ظاهر وبالرفع على الابتداء والخبر محذوف أي مجعولان ﴿ حُسْبَاناً ﴾ أي على أدوار مختلفة يحسب فيها الأوقات التي نيط بها العبادات والمعاملات أو محسوبان حسباناً .

والحسبان بالضم مصدر حسب بالفتح كما أن الحسبان بالكسر مصدر حسب وهذا هو الأصل المسموع في نحو ذلك وما سواه وارد على خلاف القياس كما قيل .

وعن أبي الهيثم أن ﴿ حُسْبَاناً ﴾ جمع حساب مثل ركبان وركاب وشهبان وشهاب ؛ وفي إرادته هنا بعد .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى جعلهما كذلك .

وقال الطبرسي : "إلى ما تقدم من فلق الإصابح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً" ، والجمهور على الأول وهو الظاهر ، وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو منزلة المشار إليه وبعد منزلته أي ذلك التسيير البديع الشأن ﴿ تَقْدِيرُ العزيز ﴾ أي الغالب القاهر الذي لا ( يستعصي عليه ) شيء من الأشياء التي من جملتها تسييرهما على الوجه المخصوص ﴿ العليم ﴾ المبالغ في العلم بجميع المعلومات التي من جملتها ما في ذلك التسيير من المصالح المعاشية والمعادية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وعُطف ﴿ الشمس والقمر ﴾ على ﴿ اللّيل ﴾ بالنّصب رعياً لمحلّ اللّيل لأنّه في محلّ المفعول ل ﴿ جاعل ﴾ بناء على الإضافة اللّفظيّة .

والعطف على المحلّ شائع في مواضع من كلام العرب مثل رفع المعطوف على اسم ( إنّ ) ، ونصب المعطوف على خبَر ليس المجرور بالباء .

والحسبان في الأصل مصدر حَسَب بفتح السّين كالغُفران ، والشُّكران ، والكفران ، أي جعلها حساباً ، أي علامة حسابٍ للنّاس يحسبون بحركاتها أوقات اللّيل والنّهار ، والشّهور ، والفصول ، والأعوام .

وهذه منّة على النّاس وتذكير بمظهر العلم والقدرة ، ولذلك جعل للشّمس حسبان كما جُعل للقمر ، لأنّ كثيراً من الأمم يحسبون شهورهم وأعوامهم بحساب سير الشّمس بحلولها في البروج وبتمام دورتها فيها .

والعرب يحسبون بسير القمر في منازله .

وهو الذي جاء به الإسلام ، وكان العرب في الجاهليّة يجعلون الكبس لتحويل السنة إلى فصول متماثلة ، فموقع المنّة أعمّ من الاعتبار الشّرعي في حساب الأشهر والأعوام بالقمري ، وإنّما استقام ذلك للنّاس بجعل الله حركات الشّمس والقمر على نظام واحد لا يختلف ،

وذلك من أعظم دلائل علم الله وقدرته ، وهذا بحسب ما يظهر للنّاس منه ولو اطّلعوا على أسرار ذلك النّظام البديع لكانت العبرة به أعظم .

والإخبار عنهما بالمصدر إسناد مجازي لأنّه في معنى اسم الفاعل ، أي حاسبين .

والحاسب هم النّاس بسبب الشّمس والقمر .

والإشارة بـ ﴿ ذلك ﴾ إلى الجعل المأخوذ من ﴿ جاعل ﴾ .

والتّقدير : وضع الأشياء على قدْر معلوم كقوله تعالى : ﴿ وخلق كلّ شيء فقدّره تقديراً ﴾ [ الفرقان : 2 ] .

والعزيز : الغالب ، القاهر ، والله هو العزيز حقّاً لأنّه لا تتعاصى عن قدرته الكائنات كلّها .

والعليم مبالغة في العلم ، لأنّ وضع الأشياء على النّظام البديع لا يصدر إلاّ عن عالم عظيم العلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

*(84/243)*

---

ومن فوائد ابن الجوزى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ فالق الإصباح ﴾ في معنى الفلق قولان قد سبقا .

فأما الإصباح، فقال الأخفش: هو مصدر من أصبح.

وقال الزجاج: الإصباح والصبح واحد.

وللمفسرين في الإصباح، ثلاثة أقوال.

أحدها: أنه ضوء الشمس بالنهار، وضوء القمر بالليل، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

والثاني: أنه إضاءة الفجر، قاله مجاهد.

وقال ابن زيد: فلق الإصباح من الليل.

والثالث: أنه نوَّر النهار، قاله الضحاك.

وقرأ أنس بن مالك، والحسن، وأبو مجلز، وأيوب، والجحدري: "فالق الأَصباح" بفتح الهمزة.

قال أبو عبيد: ومعناه: جمع صبح.

قوله تعالى: ﴿ وجاعل الليل سكناً ﴾ قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: "جاعل" بألف.

وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: "وجعل" بغير ألف.

"الليلَ" نصباً.

قال أبو علي: من قرأ: "جاعل" فلأجل "فالق" وهم يراعون المشاكلة.

ومن قرأ : "جعل" فلأن "فاعلاً" هاهنا بمعنى : "فعل" بدليل قوله : ﴿ والشمس والقمر حسباناً ﴾ فأما السكن : فهو ما سكنْتَ إليه .

والمعنى : أن الناس يسكنون فيه سكون راحة .

وفي الحسبان قولان .

أحدهما : أنه الحساب ، قاله الجمهور .

قال ابن قتيبة : يقال : خذ من كل شيء بحسبانه ، أي : بحسابه .

وفي المراد بهذا الحساب ، ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهما يجريان إلى أجل جُعل لهما ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني : يجريان في منازلهما بحساب ، ويرجعان إلى زيادة ونقصان ، قاله السدي .

والثالث : أن جريانهما سبب لمعرفة حساب الشهور والأعوام ، قاله مقاتل .

والقول الثاني : أن معنى الحسبان : الضياء ، قاله قتادة .

قال الماوردي ، كأنه أخذه من قوله تعالى : ﴿ ويرسل عليها حسباناً من السماء ﴾ [ الكهف : 40 ] أي : ناراً .

قال ابن جرير : وليس هذا من ذاك في شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد ابن الجوزى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ فالق الإصباح ﴾ في معنى الفلق قولان قد سبقا .

فأما الإصباح ، فقال الأخفش : هو مصدر من أصبح .

وقال الزجاج : الإصباح والصبح واحد .

وللمفسرين في الإصباح ، ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه ضوء الشمس بالنهار ، وضوء القمر بالليل ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : أنه إضاءة الفجر ، قاله مجاهد .

وقال ابن زيد : فلق الإصباح من الليل .

والثالث : أنه نوَّر النهار ، قاله الضحاك .

وقرأ أنس بن مالك ، والحسن ، وأبو مجلز ، وأيوب ، والجحدري : "فالق الأَصباح" بفتح الهمزة .

قال أبو عبيد : ومعناه : جمع صبح .

قوله تعالى : ﴿ وجاعل الليل سكناً ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر :

"جاعل" بألف .

وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : "وجعل" بغير ألف .

"الليلَ" نصباً .

قال أبو علي : من قرأ : "جاعل" فلأجل "فالق" وهم يراعون المشاكلة .

ومن قرأ : "جعل" فلأن "فاعلاً" هاهنا بمعنى : "فعل" بدليل قوله : ﴿ والشمس والقمر حسباناً ﴾ فأما السكن : فهو ما سكنْتَ إليه .

والمعنى : أن الناس يسكنون فيه سكون راحة .

وفي الحسبان قولان .

أحدهما : أنه الحساب ، قاله الجمهور .

قال ابن قتيبة : يقال : خذ من كل شيء بحسبانه ، أي : بحسابه .

وفي المراد بهذا الحساب ، ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهما يجريان إلى أجل جُعل لهما ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني : يجريان في منازلهما بحساب ، ويرجعان إلى زيادة ونقصان ، قاله السدي .

والثالث : أن جريانهما سبب لمعرفة حساب الشهور والأعوام ، قاله مقاتل .

والقول الثاني : أن معنى الحسبان : الضياء ، قاله قتادة .

قال الماوردي ، كأنه أخذه من قوله تعالى : ﴿ ويرسل عليها حسباناً من السماء ﴾ [

الكهف : 40 ] أي : ناراً .

قال ابن جرير : وليس هذا من ذاك في شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ

﴾

(86/243)

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾

وسبحانه يأتي بآية أخرى من الآيات المعجزة كما جاء بالآية الأولى في أنه هو الذي خلق لنا ما يقيم حياتنا .

﴿ فَالِقُ الإصباح وَجَعَلَ الليل سَكَناً ﴾ . ومعنى " فالق " أي جعل الشيء شقين ، وهما نعمتان متقابلتان لا تكفي واحدة عن الأخرى ، إذ لا بد أن يوجد إصباح ويوجد الليل سكناً ؛ لأن الإصباح هو زمان وضوح الأشياء أمام رؤية العين ؛ لأننا نعلم أن الظلمة تجعل الإنسان يضطرب مع الإشياء ، فإن كنت أقوى من هذه الأشياء حطمتها ، وإن كانت أقوى منك حطمتك . إن السير في الظلمات التي لا يوجد فيها نور يهدي الإنسان إلى مرائيه قد

يؤدي إلى خسارة الأشياء .

إنّنا في الصباح نعمل ونسعى في الأرض ، ونملأ الدنيا حركة . فإذا ما أصابنا الكد والتعب والنَّصب من الحركة فالمنطق الطبيعي للكائن الحي أن يستريح ويهدأ ويسكن لا بحركته فقط ولكن بسكون كل شيء حوله ؛ لأنك إن كنت ساكناً ويأتي لك ضوء فهو يؤثر في تكوينك ، ولذلك يقولون الآن : إن " الأشعة " التي يكتشفون بها أسرار ما في داخل جسد الإنسان تترك آثاراً .

إذن فالإشعاع الصادر عن الشمس يمنعه عنك الله ليلاً حتى يستريح الجسم من كل شيء ، من كل حركة ناشئة فيه ، ومن حركة وافدة عليه ، وهكذا تكون نعمة سكون الليل وظلمته مثل نعمة الصباح ، وكلاهما تتمم الأخرى ، ولذلك قلنا : إن الحق سبحانه وتعالى في أول السورة قدّم الظلمات على النور : ﴿ الحمد للَّهِ الذي خَلَقَ السماوات والأرض وَجَعَلَ الظلمات والنور ﴾ [ الأنعام : 1 ] .

*(87/243)*

---

لأنك لا تستطيع أن تنتفع بحركتك في النور إلا إذا كنت نشيطاً ومرتاحاً أثناء الليل . فإن لم ترتح كنت مرهقاً ولن تستطيع العمل بدقة في حركة النهار . إذن فالظلمة مقصودة في

الوجود . ولذلك فالحضارة الراقية هي التي تنظم حياة الإنسان ليعمل نهارا ويستريح ليلاً ، حتى لا يستأنف عمله في الصباح مكدوداً . ومن يزور ريف مصر هذه الأيام يفاجأ بأن أهل الريف قد سهروا طوال الليل مع أجهزة الترفيه ، ويقومون إلى العمل في الصباح وهم مكدودون مرهقون .

ونقول : لنأخذ الحضارة من قمتها ، ولا نأخذ الحضارة من أسفلها ؛ فحين تذهب إلى أوروبا تجد الناس تخلد وتسكن ليلاً ، ومن يسير في الشارع لا يسمع صوتاً ولا يجد من يخرج من بيته ، ولا تسمع صوت ميكروفون في الشارع ؛ حتى ينال كل إنسان قسطه من الهدوء ، ويختلف الأمر في بلادنا : فالشوارع تمتلئ بالضجيج ، والمريض لا يستطيع أن يرتاح ، ومن يذاكر لا يجد الهدوء اللازم ، ومن يتعبد تخرجه الضوضاء من جوّ العبادة ، ونجد من يصف ذلك بأنه نقلة حضارية ! !

ونقول : لتأخذ كل نعمة من نعم الله على قدر معطياتها في الوجود النافع لك ، وحين يأتي الليل عليك أن تطفئ المصباح حتى تهجع ولا تتشاغب فيك جزئياتك وتكوينك .

وسبحانه يقول : ﴿ فَالِقُ الإصباح ﴾ و ﴿ فَالِقُ ﴾ – كما قلنا – تعني شاقق ، فهل الإصباح ينفلق ؟ . وبماذا ؟ . ونقول : إن ﴿ فَالِقُ ﴾ هي اسم فاعل ، مثلما نقول : " قاتل الضربة " أي أن الضربة من يده قاتلة .

و ﴿ فَالِقُ الإصباح ﴾ معناها أن الصباح ينفلق عن الظلمة ؛ لأن الظلمة متراكمة وحين

يأتي الإصباح فكأنه فلق الظلمة وشقها ليخرج النور ، وتعني ﴿ فَالِقُ الإصباح ﴾ أيضاً أن الفلق واقع على الإصباح فيأتي من بعده الظلام ، وهذه من دقة الأداء البياني في القرآن ؛ لأن الذي يتكلم إله .

وامرؤ القيس قال :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي . . . بصبح وما الإصباح منك بأمثل

والصبح والإصباح معناهما واحد .

(88/243)

---

هل الصبح من طلوع الشمس ؟ أو الصبح من ظهور الضوء قبل أن تشرق الشمس ؟ يأتي الإصباح أولا وهو النور الهادئ ، ونجد أطباء العيون بعد إجراء جراحة ما لإنسان في عينيه يقومون بفك الأربطة التي تساعد الجرح على الالتئام ، يفكونها بالتدريج حتى لا يخطف الضوء البصر فوراً ، ومن رحمة الله أن خلق فترة الصبح بضوئها الهادئ قبل أن تطلع الشمس بضوئها كله دفعة واحدة . فكأن الصبح جاء ليفلق ظلمة الليل فلقاً هادئاً ، ثم جاءت الشمس ففلقت الصبح .

إذن الإصباح فالق مرة لأنه شقّ الظلمة وفلقها ومفلوق مرة أخرى ؛ لأن الظلمة جاءت بعده

. إذن فاسم الفاعل قد أدى مهمتين . . المهمة الأولى : فالق الإصباح . أي دخل بضوء الشمس . وإن قلنا : إصباحه فالق ، أي ظلمة الليل الأوى انفلقت . إذن فالإصباح فالق مرة ، ومفلوق مرة أخرى . وسبحانه حين يقول : ﴿ فَالِقُ الإصباح وَجَعَلَ الليل سَكَناً ﴾ يريد أن يعطي شقين اثنين ؛ لأنه هو في ذاته فالق الإصباح . فيأتي بالاسم ليعطي لها صفة الثبوت ، ثم جاء ب ﴿ وَجَعَلَ الليل سَكَناً ﴾ صفة الحدوث بعد وجود المتعلّق . فإذا أراد الصفة اللازمة له قبل أن يوجد المتعلق يأتي بالاسم . وإن أراد الصفة بعد أن وجد المتعلّق يأتي بالفعل .

ولذلك نجد القرآن الكريم يصور الثبات في قوله الحق : ﴿ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بالوصيد ﴾ [ الكهف : 18 ] .

الكلب هنا على هذه الصورة الثابتة ، وحين يريد القرآن أن يأتي بالصفة التي تتغير ، يأتي بالفعل : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَتُصْبِحُ الأرض مُخْضَرَّةً ﴾ [ الحج : 63 ]

.

وكان القياس أن يقول : فأصبحت الأرض مخضرة ؛ لأنه قال : " أنزل " لكنه يأتي بالتجدد الذي يحدث ﴿ فَتُصْبِحُ الأرض مُخْضَرَّةً ﴾ .

ويتابع الحق : ﴿ والشمس والقمر حُسْبَاناً ﴾ ونحن نعرف الشمس والقمر وجاء بعد ذلك بكلمة ﴿ حُسْبَاناً ﴾ ، على وزن فُعْلان ، وهذا ما يدل عادة على المبالغة مثلما تقول : فلان والعياذ بالله كفر كفراناً . ومثلما تدعو : غفر الله لك غفراناً . فحين تحب أن تبالغ تأتي بصيغة فُعْلان . وجاء القرآن بكلمة " حسبان " في موضعين اثنين فيما يتصل بالشمس والقمر جاء بها هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ﴿ والشمس والقمر حُسْبَاناً ﴾ ، وفي سورة الرحمن يقول الحق سبحانه :

﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ﴾ [ الرحمن : 5 ] .

وما الفرق بين التعبيرين ؟ " حسبان " هنا تعني أن تحسب الأشياء ، فنحن نحسب السنة بدورة الشمس ب 365 يوماً وربع اليوم وهي تمر بالبروج فيها خلال هذه المدة ، والقمر يبدأ بروجه كل شهر في ثمانية وعشرين يوماً وبعض اليوم ، ونحن نحسب بالشمس اليوم ، ونحسب بها العام ، ولكنا نحسب الشهر بالقمر ، وأنت لا تقدر أن تحسب الشهر بالشمس ، بل تحسب الشهر بالقمر لأنه يظهر صغيراً ثم يكبر ويكبر ويكبر . ولذلك يثبت رمضان عندنا بالقمر لا بالشمس . واليوم نثبته بالشمس .

وهكذا عرفنا أن الشمس والقمر ويعملان في حسابنا للأيام والشهور ، والاثنان حسبان : الشمس لها حساب ، والقمر له حساب وإذا ما نظرت إلى كلمة " حسبان " تفهم أن

الشمس والقمر ، كليهما مخلوق ليحسب به شيء آخر ؛ لأنهما خلقتا بحسبان ، أي أنهما قد أريد بهما الحساب الدقيق ، لأن الشمس مخلوقة بحساب ، وكذلك القمر .

*(90/243)*

---

وتعال إلى الساعة التي نستعملها ، ألا يوجد بها عقرب للساعات ، وآخر للدقائق ، وثالث للثواني ؟ . وهذا أقل ما قدرنا عليه ، وإن كان من الممكن أننا نقسم الثانية إلى أجزاء مثلما عملنا في المساحات ؛ فهناك المتر ، والسنتيمتر ، والملليمتر ، ثم بعد ذلك قلنا الميكروملليمتر . إذن ، كلما نرتقي في التقدم العلمي نحسب الحساب الأدق . ولم تكن الشمس والقمر حساباً لنا نحسب بهما الأشياء إلا إذا كانت مخلوقة بحساب .

إنك حين تنظر إلى ساعتك تدرك قفزة عقرب الثواني ولكنك لا تدرك حركة عقرب الدقائق ، وكذلك لا تدرك حكة عقرب الساعات ، وكل من العقارب الثلاثة يدور " بزمبلك " وترس معين . إن اختلت الحركة في زمبلك أو ترس ، ينعكس هذا الخلل على بقية العقارب ، والثانية محسوبة على الدقيقة ، والدقيقة محسوبة على الساعة .

وهكذا فإن لم تكن الساعة مصنوعة بهذا الحساب الدقيق فهي لن تعمل جيداً . وهكذا لا نعتبر الساعة معيارا لحساب أزماننا إلا أنها في ذاتها خلقت بحساب . والحق سبحانه

يقول : ﴿ الشمس والقمر بِحُسْبَانٍ ﴾ أي لنحسب بهما لأنهما مخلوقتان بحسبان . أي بحساب دقيق ، ولماذا لم يقل الحق حساباً وجاء بحسبان هنا ، وحسبان في آية سورة الرحمن ؟ . ذلك لأن الأمر يقتضي مبالغة في الدقة . فهذا ليس مجرد حساب ، لكنه حسبان .

(91/243)

---

ويذيل الحق الآية بقوله : ﴿ ذلك تَقْدِيرُ العزيز العليم ﴾ ، وكلمة " العزيز " تفيد الغلبة والقهر فلا يستطيع أحد أن يعلو عليه ؛ فهذه الأجرام التي تراها أقوى منك ولا تتداولها يدك ، إنّها تؤدي لك مهمة بدون أن تقرب منها ؛ فأنت لا تقترب من الشمس لتضبطها ، مثلما تفعل في الساعة التي اخترعها إنسان مثلك ، والشمس لها قوة قد أمدها الله خالقها بها ولا شيء في صنعته ولا في خلقه يتأبّى عليه . فهذا هو تقدير العزيز العليم ، وهو سبحانه يعطينا حيثيات الثقة في كونها حسبانا لنحسب عليها . فهو جل وعلا خالقها بتقدير عزيز لا يغلب ، وهو عزيز يعلم علما مطلقا لا نهاية له ولا حدود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(92/243)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (96) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ فالق الإصباح ﴾ قال : خلق الليل والنهار .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ فالق الإصباح ﴾ قال : يعني بالاصباح ضوء الشمس بالنهار وضوء القمر بالليل .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ فالق الإصباح ﴾ قال : اضاءة الفجر .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة قوله ﴿ فالق الإصباح ﴾ قال : فالق الصبح .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك في قوله ﴿ فالق الإصباح ﴾ قال : فالق النور نور النهار .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وجاعل الليل سكناً ﴾ قال : يسكن فيه كل طير ودابة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ والشمس والقمر حسباناً ﴾ يعني عدد الأيام والشهور والسنين .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ والشمس والقمر حسباناً ﴾ قال : يدوران في حساب .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة ﴿ حسباناً ﴾ قال : ضياء .

وأخرج أبو الشيخ عن الربيع في قوله ﴿ والشمس والقمر حسباناً ﴾ قال : الشمس والقمر في حساب ، فإذا خلت أيامها فذلك آخر الدهر ، وأول الفزع الأكبر .

*(93/243)*

---

وأخرج أبو الشيخ في العظمة بسند واهٍ عن ابن عباس قال : خلق الله بحراً دون السماء بمقدار ثلاث فراسخ ، فهو موج مكفوف قائم في الهواء بأمر الله لا يقطر منه قطرة ، جار في سرعة السهم تجري فيه الشمس والقمر والنجوم ، فذلك قوله ﴿ كل في فلك يسبحون ﴾ [ الأنبياء : 33 ] والفلك دوران العجلة في لجة غمر ذلك البحر ، فإذا أحب الله أن يحدث الكسوف خرت الشمس عن العجلة فتقع في غمر ذلك البحر ، فإذا أراد أن يعظم الآية وقعت كلها فلا يبقى على العجلة منها شيء ، وإذا أراد دون ذلك وقع النصف منها أو

الثلث أو الثلثان في الماء ، ويبقى سائر ذلك على عجلة ، وصارت الملائكة الموكلون بها فرقتين ، فرقة يقبلون على الشمس فيجرونها نحو العجلة ، وفرقة يقبلون إلى العجلة فيجرونها إلى الشمس ، فإذا غربت رفع بها إلى السماء السابعة في سرعة طيران الملائكة وتحبس تحت العرش فتستأذن من أين تؤمر بالطلوع ، ثم ينطلق بها ما بين السماء السابعة وبين أسفل درجات الجنان في سرعة طيران الملائكة ، فتنحدر حيال المشرق من سماء إلى سماء ، فإذا وصلت إلى هذه السماء فذلك حين ينفجر الصبح ، فإذا وصلت إلى هذا الوجه من السماء فذلك حين تطلق الشمس قال : وخلق الله عند المشرق حجاباً من الظلمة فوضعها على البحر السابع مقدار عدة الليالي في الدنيا منذ خلقها الله إلى يوم القيامة ، فإذا كان عند غروب الشمس أقبل ملك قد وكل بالليل ، فقبض قبضة من ظلمة ذلك الحجاب ثم يستقبل الغرب ، فلا يزال يرسل تلك الظلمة من خلل أصابعه قليلاً قليلاً وهو يراعي الشفق ، فإذا غاب الشفق أرسل الظلمة كلها ، ثم ينشر جناحيه فيبلغان قطري الأرض وكنفي السماء ، فتشرق ظلمة الليل بجناحيه فإذا حان الصبح ضم جناحه ، ثم يضم الظلمة كلها بعضها إلى بعض بكفيه من المشرق ، ويضعها على البحر السابع بالمغرب .

*(94/243)*

وأخرج أبو الشيخ بسند واه عن سلمان قال : الليل موكل به ملك يقال له شراهيل : فإذا حان وقت الليل أخذ خرزة سوداء فدلاها من قبل المغرب ، فإذا نظرت إليها الشمس وجبت في أسرع من طرفة العين ، وقد أمرت الشمس أن لا تغرب حتى ترى الخرزة ، فإذا غربت جاء الليل فلا تزال الخرزة معلقة حتى يجيء ملك آخر يقال له هراهيل بخرزة بيضاء فيعلقها من قبل المطلع ، فإذا رآها شراهيل مد إليه خرزته ، وترى الشمس الخرزة البيضاء فتطلع وقد أمرت أن لا تطلع حتى تراها ، فإذا طلعت جاء النهار .

وأخرج الحاكم وصححه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أحب عباد الله إلى الله الذين يراعون الشمس والقمر لذكر الله " .

وأخرج الخطيب في كتاب النجوم عن أبي هريرة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم " أحب عباد الله إلى الله رعاء الشمس والقمر ، الذين يحببون عباد الله إلى الله ويحببون الله إلى عباده " .

وأخرج ابن شاهين والطبراني والحاكم والخطيب عن عبد الله بن أبي أوفى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن خيار عباد الله الذين يراعون الشمس والقمر والنجوم والاظلة لذكر الله " .

وأخرج أحمد في الزهد والخطيب عن أبي الدرداء قال : إن أحب عباد الله إلى الله لرعاة الشمس والقمر .

وأخرج الحاكم في تاريخه والديلمي بسند ضعيف عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ثلاثة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : التاجر الامين ، والإِمام المقتصد ، وراعي الشمس والنهار " .

*(95/243)*

---

وأخرج عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد الزهد عن سلمان الفارسي قال : سبعة في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله : رجل لقي أخاه فقال : إني أحبك في الله وقال الآخر مثل ذلك ، ورجل ذكر الله ففاضت عيناه من مخافة الله ، ورجل يتصدق بيمينه يخفيها من شماله ، ورجل دعته أمراة ذات حسب وجمال إلى نفسها فقال إني أخاف الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد من حبها ، ورجل يراعي الشمس لمواقيت الصلاة ، ورجل إن تكلم تكلم بعلم وإن سكت سكت على حلم .

وأخرج ابن أبي شيبة عن مسلم بن يسار قال : كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم " اللهم فالق الأصباح ، وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ، اقضِ عني الدين ، وأغنني من الفقر ، وأمتعني بسمعي وبصري ، وقوّني في سبيلك " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

وقوله : ﴿ فَالِقُ الإصباح ﴾ نعت لاسم الله - تعالى - ، وهو كقوله : " فالق الحبِّ " فيما تقدَّم .

والجمهور على كَسْرِ همزة " الإصباح " وهو المصدر : أصبح يصبح إصباحاً .

وقال الليث والزجاج : إن الصبح والصباح والإصباح واحد ، وهما أول النهار وكذا الفراء .

وقيل : الإصباح : ضوء الشمس بالنهار ، وضوء القمر بالليل .

رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

وقيل هو إضاءة الفجر نُقِلَ ذلك عن مُجَاهد ، والظَّاهر أن " الإصباح " في الأصل مصدر كالإقبال والإدبار سُمّيَ به الصباح ، وكذا الإمساء وقال امرؤ القيس : [ الطويل ]

2258 - ألاَ أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ ألا انْجَلِ . . .

بِصُبْحٍ وَمَا الإصْبَاحُ مِنْكَ بأَمْثَلِ

وقرأ الحسن وأبو رجاء وعيى بن عمر : " الأصباح " بفتح الهمزة ، وهو جمع " صُبْح " نحو : قُفْل وأقْفَال ، وبرد وأبراد ، وينشد قوله : [ الرجز ]

2259 - أفْنَى رِيَاحاً وَبَنِي رِيَاح . . .

تَنَاسُخُ الأمْسَاءِ والأصْبَاحِ

بفتح الهمزة من " الأمساء " و" الأصباح " على أنهما جمع " مُسْي " و" صُبْح " ، وبكسرهما على أنهما مَصْدَرَان ، وقرئ " فالق الأصباح " بفتح " الأصْبَاح " على حذف التنيون لالتقاء الساكنين كقول القائل في ذلك : [ المتقارب ]

2260 - . . . . . .

وَلاَ ذَاكِرَ اللَّهَ إلاَّ قَلِيلاَ

وقرئ ﴿ والمقيمي الصلاة ﴾ [ الحج : 35 ] و﴿ لَذَآئِقُو العذاب ﴾ [ الصافات : 38 ] بالنصب حَمْلاً لنون على التنوين ، إلا أن سيبويه - رحمه الله تعالى - لا يُجيزُ حَذْفَ التنوين لالتقاء الساكنين إلا في شعر ، وقد أجازه المُبرّدُ في الشعر .

وقرأ يحيى والنخعي وأبو حيوة : " فلق " فعلاً ماضياً ، وقد تقدَّم أن عبد الله قرأ الأولى كذلك ، وهذا أدَلُّ على أن القراءة عندهم سُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ ألا ترى أن عبد الله كيف قرأ " فلق الحب " فعلاً ماضياً ، وقرأ " فالق الإصباح " والثلاثة المذكورين بعكسه .

قال الزمخشري : فإن قلت : فما معنى " فلق الصبح " ، والظلمة هي التي تنفلق عن الصُّبح ، كما قال : [ الطويل ]

2261 - . . . . . .

تَفَرّيَ لَيْلٍ عَنْ بَيَاضِ نهارِ

قلت : فيه وجهان :

أحدهما : أن يُرَادَ : فالق ظلمة الإصباح ، يعني أنه على حذف مضاف .

والثاني : أنه يُرَاد : فالق الإصباح الذي هو عمود الفَجْرِ عن بياض النهار وإسْفَارِهِ ، وقالوا : انشق عمود الفجر وانصدع ، وسمّوا الفجر فلقاً بمعنى مَفْلُوق ؛ قال الطائي : [ البسيط ]

2262 - وَأَزْرَقُ الفَجْرِ يَبْدُوا قَبْلَ أَبْيَضِهِ . . . . . .

وقرئ : " فالق " و " جاعل " بالنصب على المَدْحِ انتهى .

وأنشده غيره في ذلك : [ البسيط ]

2263 - فانْشَقَّ عَنْهَا عَمُودُ الفَجْرِ جَافِلَةً . . .

عَدْوَ النَّحُوصِ تَخَافُ القَانِصَ اللَّحِمَا

قال الليث : الصبح والصباح هما أوَّلُ النهار ، وهو الإصباح أيضاً ، قال تبارك وتعالى : " فالق الإصباح " يعني الصبح .

وقيل : إن الإصباح مصدر سُمِّيَ به الصبح كما تقدم .

قوله : " وجَاعل اللَّيْل " قرأ الكوفيون : " جَعَلَ " فعلاً ماضياً ، والباقون بصفغة اسم الفاعل والرَّسْم يحتملهما ، و " اللَّيْل " مَنْصُوبٌ عند الكوفيين بمقتضى قراءتهم ، ومجرور عند غيرهم ، وَوَجْهُ قراءتهم له فعلاً مناسبة ما بعده ، فإن بعده أفعلاً ماضية نحو : " جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ " و " هُو الذي أَنْشَأَ " إلى آخر الآيات ويكن " سَكَناً " إما مفعولاً ثانياً على أنَّ الجَعْل [ بمعنى التصيير ، وإما حالاً على أنه بمعنى ] الخلق ، وتكون الحال مُقدّرة ، وأما قراءة غيرهم ف " جاعل " يحتمل أن يكون بمعنى المضين ويؤيده قراءة الكوفيين ، والماضي عند البصريين لا يعمل إلا مع " أل " خلافاً لبعضهم في مَنْع إعمال المعرَّف بها ، وللكسائي في إعماله مُطْلَقا ، فإذا تقرَّر ذلك ف " سَكَناً " مَنْصُوبٌ بفعل مُضْمَرٍ عند البصريين ، وعلى مقتضى مذهب الكسائي ينصبه به .

*(98/243)*

---

وزعم أبو سعيد السِّيرَافِيُّ أن اسم الفاعل المتعدي إلى اثنين يجوز أن يعمل في الثَّاني ، وإن كان ماضياً .

قال : لأنه لما أضيف إلى الأوَّل تعذَّرت إضافته للثاني ، فتعين نصبه له .

وقال بعضهم : لأنه بالإضافة أشهب المعرف بـ " أل " فيستعمل مطلقاً فعلى هذا " سكناً " منصوب به أيضاً وأما إذا قلنا : إنه بمعنى الحال والاستقبال ، فَنَصْبُهُ به ، و" سكن " فعل بمعنى مَفْعُول كالقبض بمعنى مَقْبُوض ، ومعنى سَكَن ، أي ما يسكن إليه الرجل ، ويطمئن إليه استئناساً به واسترواحاً إليه من زَوْجٍ أو حبيبٍ ، ومنه قيل للنار سكن ؛ لأنه يُسْتَأْنَسُ بها ، ألا تراهَمَ كيل سمّوها المُؤنِسَة .

قوله : " والشَّمْسَ والقَمَرَ حُسْبَاناً " قرأ الجمهور بنصب " الشَّمس " والقمر " وهي واضحة على قراءة الكوفيين ، أي : بعَطفِ هذهين المنصوبين على المنصوبين بـ " جعل " و" حُسْبَاناً " فيه الوجهان في " سَكَناً " من المفعول الثاني والحال .

وأما على قراءة الجماعة فإن اعتقدنا كَوْنَهُ ماضياً فلا بُدَّ من إضمار فِعْلٍ ينصبهما ، أي : وجعل الشمس .

وإن قلنا : إنه غير ماضٍ فمذهب سيبويه أيضاً أن النَّصْبَ بإضمار فعل ، تقول : هذا ضاربٌ زيداً الآن أو غداً أو عمراً بنصب عَمْرٍو ، وبفعل مُقدَّرٍ لا على موضع المجرور [ باسم الفاعل ، وعلى رأي غيره يكون النصب ] على محل المجرور ، ونشدون قوله : [ البسيط ]

2246 - هَلْ أَنْتَ بَاعِثُ دِينارٍ لِحَاجَتِنا . . .

أَوْ عِبْدَ رَبِّ أَخَا عَوْنِ بْنِ مِخْرَاقِ

بنصب " عبد " ، وهو محتمل للوجهين على المذهبين .

وقال الزمخشري : أو يعطفان على محل " الليل " .

فإن قلت : كيف يكون لـ " الليل " محلّ ، والإضافة حقيقيّة ، لأن اسم الفاعل المُضَاف إليه في معنى المُضِيّن ولا تقول : زيد ضارب عمراً أمس .

قلت : ما هو بمعنى الماضين وإنما هو دالٌّ على فِعْلٍ مستمر في الأزمنة .

*(99/243)*

---

قال أبو حيَّان : أما قوله : إنما هو دَالٌّ على فعل مستمر في الأزمنة يعنيك فيكون عاملاً ، ويكون للمجرور إذا ذاك بعده مَوْضِعٌ فيعطف عليه " الشمس والقمر " قال : " وهذا ليس بِصَحيحٍ إذا كان لا يَتَقَيَّدُ بزمن خاصّ ، وإنما هو للاستمرار ، فلا يجوز له أن يعمل ، ولا لمجروره مَحَلّ ، وقد نَصُّوا على ذلك ، وأنشدوا عليه قول القائل في ذلك : [ البسيط ]

2265 - أَلْقَيْتَ كَاسِبَهُمْ فِي قَعْرِ مُظْلِمَةٍ . . . . . .

فليس " الكاسب " هنا مقيداً بزمان ، و " إن " تقيَّد بزمان فإما أن يكون ماضياً دون " أل " فلا يعمل عند البصريين ، أو بـ " أل " أو حالاً أو مستقبلاً ، فعلم فيضاف على ما تقرر في النحو " .

ثم قال : وعلى تقدير تسليم أن الذي للاستمرار يعمل ، فلا يجوز العَطْفُ على مَحَلِّ مجروره ، بل مذهب سيبويه – رحمه الله – في " الذي " بمعنى الحال والاستقبال ألاَّ يَجُوزُ العَطْفُ على محلِّ مجروره ، بل على النصب بفعل مقدَّرٍ لو قلت : هذا ضارب زيد وعمراً [ لم يكن نصب عمراً ] على المحل [ على الصحيح ] وهو مذهب سيبويه ؛ لأن شَرْطَ العَطْفِ على الموضع مفقود ، وهو أن يكون للموضع محرز لا يتغير ، وهذا مُوضِّحٌ في علم النحو .

قال شهاب الدين : وقد ذكر الزَّمخشري في أوّل الفاتحة في ﴿ مالك يَوْمِ الدين ﴾ [ الفاتحة : 4 ] أنه لمَّا لم يُقْصَدْ به زمانٌ صارت إضافته مَحْضَةً ، فلذلك وَقَعَ صفة للمعارف فمن لازم قوله : إنه يترعف بالإضافة ألاَّ يعمل ؛ لأن العالم في نِيَّةِ الانفصال عن الإضافة ، ومتى كان في نِيَّةِ الانفصال كان نكرة ومتى كان نكرة فلا يقع صِفَةً للمعرفة ، وهذا حَسَنٌ حيث يرد عليه بقوله : وقد تقدم تحقيق هذا في الفاتحة .

*(100/243)*

---

وقرأ أبو حيوة : " والشَّمْسِ والقَمَرِ " جَرّاً نَسَقاً على اللفظ وقرا شاذّاً " والشَّمْسُ والقَمَرُ " رَفْعاً على الابتداء ، وكان من حَقِّهِ أن يقرأ " حُسْبَانٌ " رَفْعاً على الخبر ، وإنما قرأه نَصْباً فالخبر حينئذ محذوف ، تقديره مَجْعولان حُسْبَاناً ، أو مخلوقان حُسْبَاناً .

فإن قلت : لا يمكن في هذه القراءة رَفْع " حسبان " حتى تلزم القارئ بذلك ، لأن الشَّمْسَ والقمر ليا نَفْسَ الحسبان .

فالجواب : أنهما في قراءة النصب إما مَفْعُولان أوَّلان ، و" حسبان " ثانٍ ، وإما صاحبا حال ، و" حسبان " حال ، والمفعول الثاني هو الأوَّل ، والحال لا بد وأن تكون صَادِقَةً على ذي الحال ، فمهما كان الجواب لكن كان لنا .

والجواب ظاهر مما تقدَّم .

والحُسْبَان فيه قولان :

أحدهما : انه جمعن فقيل : جمع " حِسَاب " كـ " رِكاب " و" رُكْبَان " و" شِهَاب " و" شُهْبَان " ، وهذا قول أبي عبيد والأخفش وأبي الهيثم والمبرد .

وقال أبو البقاء : هو جمع " حسبانة " وهو غَلَطٌ ؛ لأن الحسبانة : القِطْعَةُ من النار ، وليس المراد ذلك قطعاً .

وقيل : بل هو مصدر كـ " الرُّجْحضان " والنقصان و" الخُسْرَان " ، وأما الحساب فهو اسم لا مَصْدَرٌ وهذا قول ابن السِّكِّيتِ .

وقال الزمخشري : و" الحُسْبَان " بالضم مصدر حَسَبْتُ يعني بالفتح ، كما أن الحِسْبَان بالكسر مصدر حَسِبْتُ يعني بالكسر ونظيره : الكُفْرَان والشُّكْران .

وقيل : بل الحِسْبَان والحُسْبَان مصدران ، وهو ول أحمد بن يحيى ، وأنشد أبو عبيد عن

أبي زَيْدٍ في مجيء الحُسْبَان مصدراً قوله : [ الطويل ]

2266 - عَلَى اللَّهِ حُسْبَانِي إذَا النَّفْسُ أشْرَفَتْ . . .

عَلَى طَمَعٍ أوْ خَافَ شَيْئاً ضَمِيرُهَا

وقال " حُسْبَاناً " على ما تقدَّم من المفعولية أو الحالية .

*(101/243)*

---

وقال ثعلب عن الأخفش : إنه منصوب على إسْقاطِ الخافض ، والتقدير : يجريان بِحُسْبَانٍ ؛ كقوله : ﴿ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ﴾ [ الإسراء : 61 ] أي : من طين .

وقوله : " ذلك " إشارة إلى ما تقدَّم من الفلق ، أو الجعل ، أو جميع ما تقدم من الأخبار في قوله " فالق الحبّ " إلى " حُسْبَاناً " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 312.307 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (96) ﴾

وكما فَلَقَ صبحَ الكون فأشرقَتْ الأنوارُ كذلك فَلَقَ صبحَ القلوبِ فاستنارت به الأسرار ، وكما جعل الليل سَكَناً لِتَسْكُنَ فيه النفوس من كدّ التصرف عن أسباب المَعَاش كذلك جعل الليلَ سَكَناً للأحباب يَسْكُنونَ فيه إلى روح المناجاة إذا هدأت العيونُ من الأغيار . وجعل الشمس والقمر يجريان بحسبان معلوم على حد معلوم ، فالشمس بوصفها مذ خُلِقَت لم تنقص ولم تزِدْ ، والقمر لا يبقى ليلةً واحدةً على حالة واحدة فأبداً في الزيادة والنقصان ، ولا يزال ينمو حتى يصير بدراً ، ثم يتناقص حتى لا يُرى ، ثم يأخذ في الظهور ، وكذلك دأبُه دائماً إلى أَنْ تُنْقضَ عليه العادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 490. 491 ﴾

*(102/243)*

---

فصل فى الإعجاز العلمى فى الآية الكريمة

قال الدكتور / زغلول النجار :

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ( تعالي ) :

﴿ فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم

﴾ (الأنعام :96) .

* ذكر ابن كثير رحمه الله ما نصه :

( فالق الاصباح وجعل الليل سكنا ) أي خالق الضياء ( النور ) والظلام كما قال في أول السورة ( وجعل الظلمات والنور ) أي فهو سبحانه يغلق ظلام الليل عن غرة الصباح فيضئ الوجود , ويستنير الأفق , ويضمحل الظلام , ويذهب الليل بسواده وظلام رواقه , ويجئ النهار بضيائه ( بنوره ) وإشراقه , . . . . . وقوله ( والشمس والقمر حسبانا ) أي يجريان بحساب مقنن مقدر لايتغير ولايضطرب , بل لكل منهما منازل يسلكها في الصيف والشتاء , فيترتب علي ذلك اختلاف الليل والنهار طولا وقصرا كما قال :( وهو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل ) الآية , وكما قال :( لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ) , وقال :( والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ) , وقوله :( ذلك تقدير العزيز العليم ) أي الجميع جار بتقدير العزيز الذي لايمانع , ولايخالف , العليم بكل شئ فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء , وكثيرا ما إذا ذكر الله تعالي خلق الليل والنهار والشمس والقمر يختم الكلام بالعزة والعلم . . . .

* وجاء في تفسير الجلالين ( رحم الله كاتبيه ) مانصه :( فالق الاصباح ) مصدر بمعني الصبح أي شاق عمود الصبح , وهو : أول مايبدو من نور النهار عن ظلمة الليل . . . (

سكنا ) يسكن فيه الخلق من التعب ,( الشمس والقمر ) بالنصب عطفا علي محل الليل . . ( حسبانا ) حسابا للأوقات , والباء محذوفة , وهو حال من مقدر أي : يجريان بحسبان . . . ( ذلك ) المذكور ( تقدير العزيز ) في ملكه ( العليم ) بخلقه .

*(103/243)*

---

وذكر صاحب الظلال ( رحمه الله رحمة واسعة ) مانصه : إن فالق الحب والنوي هو فالق الإصباح أيضا , وهو الذي جعل الليل للسكون , وجعل الشمس والقمر محسوبة حركاتهما , مقدرة دوراتهما . . مقدرا ذلك كله بقدرته التي تهيمن علي كل شئ , وبعلمه الذي يحيط بكل شئ .

وانغلاق الاصباح من الظلام حركة تشبه في شكلها انغلاق الحبة والنواة , وانبثاق النور في تلك الحركة , كانبثاق البراعم في هذه الحركة , وبينهما من مشابه الحركة والحيوية والبهاء والجمال سمات مشتركة , ملحوظة في التعبير عن الحقائق المشتركة في طبيعتهما وحقيقتهما كذلك . . . وبين انغلاق الحب والنوي وانغلاق الإصباح , وسكون الليل صلة أخري . . . . إن الإصباح والإمساء , والحركة والسكون , في هذا الكون - أو في هذه الأرض - ذات علاقة مباشرة بالنبات والحياة .

إن كون الأرض تدور دورتها هذه حول نفسها أمام الشمس , وكون القمر بهذا الحجم , وبهذا البعد من الأرض , وكون الشمس كذلك بهذا الحجم , وهذا البعد , وهذه الدرجة من الحرارة . . . هي تقديرات من ( العزيز ) ذي السلطان القادر ( العليم ) ذي العلم الشامل . . . ولولا هذه التقديرات ما انبثقت الحياة في الأرض علي هذا النحو , ولما انبثق النبت والشجر , من الحب والنوي . . . إنه كون مقدر بحساب دقيق . ومقدر فيه حساب الحياة , ودرجة هذه الحياة , ونوع هذه الحياة . . . كون لا مجال للمصادفة العابرة فيه . . . .

*(104/243)*

---

وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ( رحم الله كاتبه برحمته الواسعة ) ما نصه :( فالق الإصباح ) الإصباح : مصدر سمي به الصبح , أي شاق ظلمة الصبح . وهو الغبش في آخر الليل الذي يلي الفجر المستطيل الكاذب . عن بياض النهار ; فيضئ الوجود ويضمحل الظلام , ويذهب الليل بسواده ويجئ النهار بضيائه ( والأصح هو بنوره ) . ( وجعل الليل سكنا ) يسكن إليه من يتعب بالنهار ويستأنس به لاسترواحه فيه . ( والشمس والقمر حسبانا ) أي يجريان في الفلك بحساب مقدر معلوم , لا يتغير ولا يضطرب حتي ينتهيا إلي

أقصي منازليهما , بحيث تتم الشمس دورتها في سنة , ويتم القمر

دورته في شهر , وبذلك تنتظم المصالح المتعلقة بالفصول الأربعة وغيرها . والحسبان :

مصدر حسبت المال حسبا ـ من باب قتل ـ أحصيته عددا .

وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ( جزاهم الله خيرا ) مانصه : وهو الذي

يشق غبش الصبح بضوء ( والصحيح هو بنور ) النهار , ليسعي الأحياء إلي تحصيل

أسباب حياتهم , وجعل الليل ذا راحة للجسم والنفس , وجعل سير الشمس والقمر بنظام

دقيق يعرف به الناس مواقيت عباداتهم , ومعاملاتهم . ذلك النظام المحكم , تدبير القادر

المسيطر علي الكون المحيط بكل شئ علما .

وجاء في صفوة التفاسير ( جزي الله كاتبه خيرا ) مانصه :

( فالق الإصباح ) أي شاق الضياء ( والصحيح هو النور ) عن الظلام وكاشفه , قال

الطبري : شق عمود الصبح عن ظلمة الليله وسواده ( وجعل الليل سكنا ) أي يسكن

الناس فيه عن الحركات ويستريحون ( والشمس والقمر حسبانا ) أي بحساب دقيق يتعلق

به مصالح العباد , ويعرف بهما حساب الأزمان والليل والنهار ( ذلك تقدير العزيز العليم )

أي ذلك التسيير بالحساب المعلوم تقدير الغالب القاهر الذي لايستعصي عليه شئ , العليم

بمصالح خلقه وتدبيرهم .

شرح الآية الكريمة في ضوء المعارف المكتسبة

---

تشير هذه الأية الكريمة إلي حقيقة كونية مؤداها أن الله جلت قدرته ) قد قدر للأرض أن تدور حول محورها أمام الشمس ( كما قدر لكل جرم من أجرام السماء أن يدور حول محوره , وأن يسبح في فلكه ) , وبذلك فإنه ( تعالي ) يفصل بالتدريج بين الأرض عن ليل السماء بطبقة نور النهار الرقيقة ( التي لايتعدي سمكها مائتي كليومتر بالنسبة إلي المسافة بين الأرض والشمس المقدرة بنحو 150 مليون كيلومتر ) , وبذلك فهو ( سبحانه ) يغلق هاتين الظلمتين المتداخلتين بالتدريج فيحل النهار محل ظلمة الأرض , ويبقي ظلمة السماء , ولذلك وصف ذاته العلية بأنه فالق الإصباح أي الصبح ولايقوي علي ذلك أحد غيره .

ثم يضيف وصفا آخر لتلك الذات العلية هي . . . . وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا . . . , ويصف تقدير ذلك بأنه : . . . . تقدير العزيز العليم .

وجاء التعبير فالق الإصباح وجعل الليل سكنا إشارة إلي تبادل كل من النهار والليل , وإلي جعل النهار لعمارة الأرض , وإقامة عدل الله فيها , وللجري وراء المعايش , وللكدح من أجل كسب الرزق الحلال , وجعل الليل للسكن والاستجمام , والراحة والاسترخاء ,

والتأمل والعبادة بعد كدح النهار ; وتبادل كل من الليل والنهار لايتم إلا بدوران الأرض حول محورها أمام الشمس .

وهذه الدورة الأرضية التي تعرف باسم الدورة المحورية , أو المغزلية , أو الدورانية تتم بسرعة تقدر بنحو الثلاثين كيلومترا في الدقيقة (465 مترا في الثانية *60=27.9 كيلومتر في الدقيقة *60=1674 كيلومترا في الساعة ) لتتم دورة كاملة في يوم مقداره 24 ساعة (23 ساعة ,56 دقيقة ,4 ثوان في المتوسط ) , يتقاسمه ليل ونهار بتفاوت قليل في طول كل منهما , وذلك بسبب ميل محور دوران الأرض علي مستوي مدار الأرض حول الشمس , مما ينتج عنه تبادل فصول السنة : الربيع , والصيف , والخريف , والشتاء .

*(106/243)*

---

ويوم الأرض ( الناتج عن دورانها دورة كاملة حول محورها ) يختلف طوله علي مدار السنة بسبب تغيير سرعة سبح الأرض في فلكها حول الشمس ( سرعة الحركة المدارسة للأرض ) تبعا لبعدها عن الشمس , وبسبب آثار ظاهرتي المد والجزر , والدوران الفعلي للغلاف الغازي المحيط بالأرض , وبسبب بعض التغيرات في لب الأرض .

وقد جددت الثانية كوحدة للزمن علي أساس أنها الفترة الزمنية المكافئة لـ

1:86.400 من متوسط طول اليوم الشمسي علي مدار السنة (24 ساعة *60 دقيقة *60 ثانية =86.40 ثانية ) .

ولتفادي ما ثبت من تناقص سرعة دوران الأرض حول محورها , وبالتالي زيادة متوسط طول اليوم الشمسي بنحو 0.001 من الثانية في القرن الواحد , فقد تم الاتفاق علي تعيين طول الثانية ذريا بأنها الفترة التي يتردد منها قفز الإليكترون من مدار إلي آخر حول نواة ذرة نظير عنصر ( السيزيوم 133 ) نحو تسعة بلايين مرة (9.192.631.770 مرة ) , كما يمكن تقسيم الثانية إلي وحدات أقل .

ومع دوران الأرض حول محورها أمام الشمس من الغرب إلي الشرق يبدو لنا هذا النجم ( الشمس ) صاعدا من جهة الشرق , وغائبا في جهة الغرب في حركة ظاهرية تحدد لنا كلا من ليل ونهار , ويوم الأرض ; وباستخدام كل من المزولة , أو البندول المعلق من سقف مرتفع , أو الساعات ( باختلاف أنواعها ودرجة دقتها حتي الساعة الذرية ) يمكن تقسيم كل من الليل والنهار إلي الساعات والدقائق والثواني , وفي بعض الحالات إلي اجزاء من الثانية .

والدورة اليومية الناشئة عن دوران الأرض حول محورها دورة كاملة في كل يوم تجعل جميع مانراه في صفحة السماء الدنيا , وكأنه يدور من حولنا , وليست الشمس وحدها ; فبالمثل يبدو القمر وكأنه يطلع علي الأرض من جهة الشرق , ويغيب عنها في جهة الغرب , وهذه دورة ظاهرية , وللقمر دورة حقيقية حول محوره المائل علي مستوي مداره أمام الأرض بسرعة متوسطة تقدر بنحو 3675 كيلومترا في الساعة , أي نحو واحد في الثانية , وهي نفس سرعة سبحه حول الأرض في مدار به دائري يقدر طوله بنحو 2.4 مليون كيلومتر لتتم هذه الدورة في أكثر قليلا من السبعة والعشرين يوما (27.3217 يوم ), ولكن نظرا لسبح الأرض حول الشمس في نفس الوقت مما يؤدي إلي تباعد نقطة البداية في كل دورة قمرية عن سابقتها فان القمر يتم دورته الشهرية فعلا في نحو 29.5 يوم (29.5309 يوم ) هي مدة الشهر القمري ; ويقدر متوسط بعد القمر عن الأرض بنحو 384 ألف كيلومتر , وبذلك يكون يوم القمر هو الشهر القمري للأرض , وهو يوم يقدر طول كل من ليله ونهاره بنحو 14.5 يوم أرضي .

*(108/243)*

ويشترك في تحديد الشهر القمري كل من الشمس , والقمر , والأرض بأوضاعها المحددة بالنسبة لبعضها البعض , وكل من حركاتها الحقيقية , والظاهرية ; فالقمر في سبحه في مداره حول الأرض , وهو يواجهها بوجه واحد يتم دورته في شهر قمري يتراوح طوله بين 30,29 يوما ( بمتوسط 29.53 يوم فيبدأ بالخروج من دور المحاق ( طور الاقتران ) , وبميلاد الهلال الجديد , ثم بزيادة مساحة الجزء المنير من سطح القمر بالتدريج يتحرك إلي التربيع الأول , ثم الأحدب الأول , ثم البدر الكامل ( طور الاستقبال ) , وبعد ذلك تبدأ مساحة الجزء المنير من سطح القمر في التناقص بالتدريج إلي الأحدب الثاني , ثم التربيع الثاني , ثم الهلال الأخير حتي يدخل في طور المحاق , فيختفي نور القمر بالكامل لمدة يوم أو يومين حسب طول الشهر القمري , ويعاود الظهور في أول الشهر القمري التالي بميلاد هلال جديد , وهكذا إلي أن يرث الله ( تعالي ) الكون بما فيه , ومن فيه .

والأرض تسبح حول الشمس في فلك محدد لها ( ومعها قمرها ) لتتم دورة كاملة في سنة شمسية يقدر طولها في زماننا الراهن بنحو (365.25 يوم ) موزعة علي إثنتي عشر شهرا بعد بروج السماء .

ونظرا لميل محور دوران الأرض فإن فصول السنة تتبادل : الربيع , والصيف والخريف , والشتاء , وذلك بتقدير العزيز الحكيم .

ولقد شاءت إرادة الله الخالق ( سبحانه وتعالي ) أن يتحدد يوم الأرض ( بليله ونهاره ) عن

طريق دوران الأرض حول محورها أمام الشمس , وأن يتحدد شهر الأرض القمري بواسطة دورة القمر الشهرية حول الأرض , ويتحدد شهرها الشمسي عن طريق بروج السماء , وأن يقسم شهرها القمري إلي أسابيع , وأيام بواسطة منازل القمر , وأطواره المتتالية في كل شهر .

*(109/243)*

---

والسنة القمرية هي الفترة الزمنية التي يتم فيها القمر اثنتي عشرة دورة كاملة حول الأرض , ويستغرق ذلك (354.37 يوم ) , وكسر اليوم يجمع ليكون يوما في كل ثلاث سنوات تقريبا , ومن هنا اعتبرت السنة القمرية البسيطة 354 يوما , والكبيسة 355 يوما ; بينما تستغرق السنة الشمسية 365.25 يوم .

ومن الناحية الشرعية فإن الشهر القمري يبدأ برؤية الهلال الجديد بعد غروب شمس اليوم التاسع والعشرين أو الثلاثين من الشهر القمري السابق , وينتهي برؤية الهلال الجديد الذي يليه بعد غروب شمس التاسع والعشرين أو الثلاثين منه ; وعلي ذلك فإن الفترة الزمنية للشهر القمري تكون عددا صحيحا من الأيام , إما تسعة وعشرين يوما , أو ثلاثين يوما .

ومن المعلوم أن الطول الفعلي للشهر القمري يتراوح بين (29 يوما ,5 ساعات ) , و(29 يوما

,19 ساعة أو أكثر قليلا ) , وعلي ذلك فإن مدته الوسيطة تقدر بنحو (29 يوما ,12 ساعة ,44 دقيقة ) , وانطلاقا من ذلك فإن الأشهر الكاملة قد تتوالي مرة أو مرتين , كما قد تتوالي الأشهر الناقصة مرة أو مرتين , وسطح الأرض منقسم إلي قسمين يفصل بينهما خط اتحاد المطالع , وجميع الأماكن التي تقع إلي الغرب من هذا الخط إذا رأت الهلال بدأ عندها الشهر القمري الجديد من اليوم التالي للرؤية , بينما جميع الأماكن الواقعة إلي الشرق من خط اتحاد المطالع فإنها لاتري الهلال إلا في اليوم التالي .

واليوم يبدأ في التقويم القمري من غروب الشمس إلي غروبها التالي , وبذلك يكون الليل سابقا للنهار ; وفي التقويم الشمسي يبدأ اليوم من منتصف الليل إلي منتصفه التالي .

وعلي ذلك فقد أصبحت حركات كل من الأرض والقمر والشمس معلومة لنا بدقة كبيرة لدرجة أن الساعات الزمنية تضبط اليوم علي حركاتها , وصدق الله العظيم الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق : فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم ( الأنعام :96) .

*(110/243)*

وصدق ربنا ( العزيز الحكيم ) الذي أنزل كذلك قوله الحق : والشمس والقمر بحسبان ( الرحمن :5) .

أي بحساب محكم دقيق يعين الإنسان علي إدراك الزمن وحسابه

والتأريخ للأحداث , وأداء العبادات , والحقوق , ولولا ذلك لتعذرت الحياة علي الأرض , وهي قضايا لم يدركها الإنسان إلا في أزمنة متأخرة بقرون طويلة بعد تنزل القرآن الكريم , مما يقطع بأنه كلام الله الخالق , ويشهد بالنبوة , والرسالة للرسول الخاتم الذي تلقاه بحق , وأبلغه بأمانة , وصدق , وجاهد في سبيله حتي أتاه اليقين , فصل الله وسلم وبارك عليه , وعلي آله وصحبه , ومن تبع هداه , ودعا بدعوته إلي يوم الدين . . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مقال للدكتور / زغلول النجار ﴾

*(111/243)*

---

قوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (97) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر ذلك ، أتبعه منفعة أخرى تعمهما مع غيرهما مبيناً ما أذن فيه من علم النجوم ومنافعها فقال : ﴿ وهو ﴾ أي لا غيره ﴿ الذي جعل ﴾ ولما كانت العناية بنا أعظم ، قدم قوله : ﴿ لكم النجوم ﴾ أي كلها سائرها وثابتها وإن كان علمكم يقصر عنها كلها كما يقصر عن الرسوخ والبلوغ في علم السير للسيارة منه ﴿ لتهتدوا ﴾ أي لتكلفوا أنفسكم علم الهداية ﴿ بها ﴾ لتعلموا القبلة وأوقات الصلوات والصيام وغير ذلك من منافعكم دنيا ودينا ً .

ولما كانت الأرض والماء ليس لهما من نفسهما إلا الظلمة ، وانضمت إلى ذلك ظلمة الليل ، قال : ﴿ في ظلمات البر ﴾ أي الذي لا عَلَم فيه ، وإن كانت له أعلام فإنها قد تخفى ﴿ والبحر ﴾ فإنه لا عَلَم به ، والإضافة إليهما للملابسة أو تشبيه الملبَّس من الطرق وغيرها بالظلمة ؛ روى الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي في جزء جمعه في النجوم من طريق أحمد بن سهل الأشناني عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : تعلموا من النجوم ما تهتدون في البر والبحر ثم انتهوا ، وتعلموا من الأنساب ما تصلون به أرحامكم وتعرفون ما يحل لكم ويحرم عليكم من النساء ثم انتهوا .

*(112/243)*

وفيه من طريق عبد الله ابن الإمام أحمد في زياداته على المسند عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا علي ! أسبغ الوضوء وإن شق عليك ، ولا تأكل الصدقة ولا تنز الحمير على الخيل ، ولا تجالس أصحاب النجوم " وفيه عن أبي ذر رضي الله عنه عن عمر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا تسألوا عن النجوم ، ولا تفسروا القرآن برأيكم ، ولا تسبوا أصحابي ، فإن ذلك الإيمان المحض " وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن النظر في النجوم – رواه من طرق كثيرة ؛ وعن عائشة رضي الله عنها مثله سواء ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا ذكر أصحابي فأمسكوا ، وإذا ذكر القدر فأمسكوا ، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا " – رواه من طرق وأسند عن قتادة قوله تعالى ﴿ وأنهاراً وسبلاً ﴾ [ النحل : 15 ] قال : طرقاً ﴿ وعلامات ﴾ [ النحل : 16 ] قال : هي النجوم ، قال : إن الله عز وجل إنما خلق هذه النجوم لثلاث خصال : جعلها زينة للسماء ، وجعلها يهتدى بها ، وجعلها رجوماً للشياطين ، فمن تعاطى فيها شيئاً غير ذلك فقد أخطأ حظه وقال رأيه وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به – في كلام طويل حسن ، وهذا الأثر الذي عن قتادة أخرجه عنه البخاري في صحيحه ، وقال صاحب كنز اليواقيت في استيعاب المواقيت في مقدمة الكتاب : واعلم أن العلم منه محمود ، ومنه مذموم لا يذم لعينه ، إنما يذم في حق العباد

لأسباب ثلاثة : أولها أن يكون مؤدياً إلى ضرر كعلم السحر والطلسمات وهو حق إذ شهد القرآن به وأنه سبب للتفرقة بين الزوجين ، وسحر النبي صلى الله عليه وسلم ومرض بسببه ، حتى أخبره جبرئيل عليه السلام وأخرج السحر من تحت حجر في قعر بئر - كما ورد في الحديث الصحيح ؛ ومعرفة ذلك من حيث إنه معرفة ليس مذموماً ، أو من حيث إنه لا يصلح إلا لإضرار بالخلق يكون مذموماً .

*(113/243)*

---

والوسيلة إلى الشر شر ؛ الثاني أن يكون مضراً بصاحبه في غالب الأمر كالقسم الثاني من علم النجوم الاحكامي المستدل به على الحوادث بالأسباب كاستدلال الطبيب بالنبض على ما يحدث من المرض ، وهو معرفة مجاري سنة الله وعادته في خلقه ، ولكنه ذمه الشرع وزجر عنه لثلاثة أوجه : أحدها أنه يضر بأكثر الناس فإنه إذا قيل : هذا الأمر لسبب سير الكواكب ، وقر في نفس الضعيف العقل أنه مؤثر ، فينمحي ذكر الله عن قلبه ، فإن الضعيف يقصر نظره على الوسائط بخلاف العالم الراسخ ، فإنه يطلع على الشمس والقمر والنجوم مسخرات ، وفرق كبير بين من يقف مع الأسباب وبين من يترقى إلى مسبب الأسباب ، ثم ذكر ما حاصله أن السبب الثاني في النهي عنه أنه تخمين لا يصل إلى القطع ؛

والثالث أنه لا فائدة فيه ، فهو خوض في فضول ، وأن السبب الثالث مما يذم به ما يذم من العلوم أنه مما لا تبلغه عقول أكثر الناس ولا يستقل به ، ولا ينكر كون العلم ضاراً لبعض الأشخاص كما يضر لحم الطير بالرضيع - انتهى .

*(114/243)*

---

وروى أبو داود وابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد " وقال صاحب كتاب الزينة في آخر كتابه بعد أن ذكر العيافة والزجر ونحوهما ، ويأتي أكثره عنه في سورة الصافات : وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إياكم والنجوم ! فإنها تدعو إلى الكهانة " ، قال : هذه الأشياء كلها لها أصل صحيح ، فمنها ما كانت من علوم الأنبياء مثل النجوم والخط وغير ذلك ، ولولا الأنبياء الذين أدركوا علم النجوم وعرفوا مجاري الكواكب في البروج وما لها من السير في استقامتها ورجوعها ، وما قد ثبت وصح من الحساب في ذلك بما لا ارتياب فيه ، لما قدر الناس على إدراكه ، وذلك كله بوحي من الله عز وجل إلى أنبيائهم عليهم السلام ، وقد روي أن إدريس عليه السلام أول من علم النجوم ، وروي في الخط أنه كان علم نبي من الأنبياء ، ولولا ذلك لما أدرك الناس هذه

اللطائف ولا عرفوها .

ولما كانت هذه الآيات قد بلغت في البيان حداً علا عن طوق الإنسان والملائكة والجان لكونها صفة الرحمن ، فكانت فخراً يتوقع فيه التنبيه عليه فقال : ﴿ قد فصلنا ﴾ أي بينا بياناً شافياً على ما لنا من العظمة ﴿ الآيات ﴾ واحدة في إثر واحدة على هذا الأسلوب المنيع والمثال الرفيع ؛ ولما كانت من الوضوح في حد لا يحتاج إلى كثير تأمل قال : ﴿ لقوم يعلمون ﴾ أي لهم قيام فيما إليهم ، ولهم قابلية العلم ليستدلوا بها بالشاهد على الغائب .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 680. 683 ﴾

فصل

قال الفخر :

هذا هو النوع الثالث من الدلائل الدالة على كمال القدرة والرحمة والحكمة ، وهو أنه تعالى خلق هذه النجوم لمنافع العباد وهي من وجوه :

الوجه الأول : أنه تعالى خلقها لتهتدي الخلق بها إلى الطرق والمسالك في ظلمات البر والبحر حيث لا يرون شمساً ولا قمراً لأن عند ذلك يهتدون بها إلى المسالك والطرق التي يريدون المرور فيها .

الوجه الثاني : وهو أن الناس يستدلون بأحوال حركة الشمس على معرفة أوقات الصلاة ، وإنما يستدلون بحركة الشمس في النهار على القبلة ، ويستدلون بأحوال الكواكب في الليالي على معرفة القبلة .

الوجه الثالث : أنه تعالى ذكر في غير هذه السورة كون هذه الكواكب زينة للسماء ، فقال ﴿ تَبَارَكَ الذى جَعَلَ فِى السماء بُرُوجاً ﴾ [ الفرقان : 61 ] وقال تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السماء الدنيا بِزِينَةٍ الكواكب ﴾ [ الصافات : 6 ] وقال : ﴿ والسماء ذَاتِ البروج ﴾ [ البروج : 1 ] .

الوجه الرابع : أنه تعالى ذكر في منافعها كونها رجوماً للشياطين .

الوجه الخامس : يمكن أن يقال : لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر أي في ظلمات التعطيل والتشبيه ، فإن المعطل ينفي كونه فاعلاً مختاراً ، والمشبه يثبت كونه تعالى جسماً مختصاً بالمكان فهو تعالى خلق هذه النجوم ليهتدى بها في هذين النوعين من الظلمات ، أما الاهتداء بها في ظلمات بر التعطيل ، فذلك لأنا نشاهد هذه الكواكب مختلفة في صفات كثيرة فبعضها سيارة وبعضها ثابتة ، والثوابت بعضها في المنطقة وبعضها في القطبين ، وأيضاً الثوابت لامعة والسيارة غير لامعة ، وأيضاً بعضها كبيرة درية عظيمة الضوء ، وبعضها صغيرة خفية قليلة الضوء ، وأيضاً قدروا مقاديرها على سبع مراتب .

إذا عرفت هذا فنقول : قد دللنا على أن الأجسام متماثلة ، وبينا أنه متى كان الأمر كذلك كان اختصاص كل واحد منها بصفة معينة دليلاً على أن ذلك ليس إلا بتقدير الفاعل المختار فهذا وجه الاهتداء بها في ظلمات بر التعطيل .

*(116/243)*

---

وأما وجه الاهتداء بها في ظلمات بحر التشبيه فلأنا نقول إنه لا عيب يقدح في إلهية هذه الكواكب إلا أنها أجسام فتكون مؤلفة من الأجزاء والأبعاض ، وأيضاً إنها متناهية ومحدودة ، وأيضاً إنها متغيرة ومتحركة ومنتقلة من حال إلى حال فهذه الأشياء إن لم تكن عيوباً في الإلهية امتنع الطعن في إلهيتها ، وإن كانت عيوباً في الإلهية وجب تنزيه الإله عنها بأسرها فوجب الجزم بأن إله العالم والسماء والأرض منزه عن الجسمية والأعضاء والأبعاض والحد والنهاية والمكان والجهة ، فهذا بيان الاهتداء بهذه الكواكب في بر التعطيل وبحر التشبيه ، وهذا وإن كان عدولاً عن حقيقة اللفظ إلى مجازه إلا أنه قريب مناسب لعظمة كتاب الله تعالى .

الوجه السادس : في منافع هذه الكواكب ما ذكره الله تعالى في قوله : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السموات والأرض رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا باطلا ﴾ [ آل عمران : 191 ] فنبه على سبيل

الإجمال على أن في وجود كل واحد منها حكمة عالية ومنفعة شريفة ، وليس كل ما لا يحيط عقلنا به على التفصيل وجب نفيه فمن أراد أن يقدر حكمة الله تعالى في ملكه وملكوته بمكيال خياله ومقياس قياسه فقد ضل ضلالاً مبيناً ، ثم إنه تعالى لما ذكر الاستدلال بأحوال هذه النجوم .

قال : ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الأيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ وفيه وجوه : الأول : المراد أن هذه النجوم كما يمكن أن يستدل بها على الطرقات في ظلمات البر والبحر ، فكذلك يمكن أن يستدل بها على معرفة الصانع الحكيم ، وكمال قدرته وعلمه .

الثاني : أن يكون المراد من العلم ههنا العقل فقوله : ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الأيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ نظير قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السموات والأرض ﴾ [ البقرة : 164 ] إلى قوله : ﴿ لأيات لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ وفي آل عمران في قوله : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لأيات لأُوْلِى الألباب ﴾ [ آل عمران : 190 ] والثالث : أن يكون المراد من قوله : ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ لقوم يتفكرون ويتأملون ويستدلون بالمحسوس على المعقول وينتقلون من الشاهد إلى الغائب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 82.83 ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ النجوم ﴾ هذه المخاطبة تعم المؤمنين والكافرين ، فالحجة بها على الكافرين قائمة والعبرة بها للمؤمنين ممكنة متعرضة ، و ﴿ جعل ﴾ هنا بمعنى خلق لدخولها على مفعول واحد ، وقد يمكن أن تكون بمعنى صير ويقدر المفعول الثاني في ﴿ لتهتدوا ﴾ لأنه يقدر وهو الذي جعل لكم النجوم هداية ، و ﴿ في ظلمات ﴾ هي ها هنا على حقيقتها في ظلمة الليل بقرينة النجوم التي لا تكون إلا بالليل ، ويصح أن تكون " الظلمات " ها هنا الشدائد في المواضع التي يتفق أن يهتدي فيها الشمس ، وذكر الله تعالى النجوم في ثلاث منافع وهي قوله : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ [ المُلك : 5 ] وقوله : ﴿ وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾ [ المُلك : 5 ] وقوله : ﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ﴾ فالواجب أن يعتقد أن ما عدا هذه الوجوه من قول أهل التأثير باطل واختلاق على الله وكفر به ، و ﴿ فصلنا ﴾ معناه بينا وقسمنا و ﴿ الآيات ﴾ الدلائل و ﴿ لقوم يعلمون ﴾ تخصيص لهم بالذكر وتنبيه منهم لتحصلهم الآية المفصلة المنصوبة ، وغيرهم تمر عليهم الآيات وهم معرضون عنها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ النجوم ﴾ بين كمال قدرته ، وفي النجوم منافع جَمّة .

ذكر في هذه الآية بعض منافعها ، وهي التي ندَب الشرع إلى معرفتها ؛ وفي التنزيل : ﴿ وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴾ [ الصافات : 7 ] .

﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ [ الملك : 5 ] .

و"جعل" هنا بمعنى خلق .

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيات ﴾ أي بيّناها مفصّلة لتكون أبلغ في الاعتبار .

﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ خصهم لأنهم المنتفعون بها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ﴾

*(118/243)*

---

نبه على أعظم فوائد خلقها وهي الهداية للطرق والمسالك والجهات التي تقصد والقبلة إذ حركات الكواكب في الليل يستدل بها على القبلة كما يستدل بحركة الشمس في النهار عليها ، والخطاب عام لكل الناس و﴿ لتهتدوا ﴾ متعلق بجعل مضمرة لأنها بدل من ﴿ لكم ﴾

أي جعل ذلك لاهتدائكم و﴿ جعل ﴾ معناها خلق فهي تتعدى إلى واحد ، قال ابن عطية : وقد يمكن أن تكون بمعنى صير ويقدر المفعول الثاني من ﴿ لتهتدوا ﴾ أي جعل لكم النجوم هداية انتهى ، وهو ضعيف لندور حذف أحد مفعولي باب ظن وأخواتها والظاهر أن الظلمات هنا على ظاهرها وأبعد من قال : يصح أن تكون الظلمات هنا الشدائد في المواضع التي يتفق أن يهتدى فيها بها ، وأضاف ﴿ الظلمات ﴾ إلى ﴿ البر والبحر ﴾ لملابستها لهما أو شبه مشتبهات الطرق بالظلمات وذكر تعالى النجوم في كتابه للزينة والرحم والهداية فما سوى ذلك اختلاق على الله وافتراء .

﴿ قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾ أي بينا وقسمنا وخص من يعلم لأنهم الذين ينتفعون بتفصيلها وأما غيرهم فمعرضون عن الآيات وعن الاستدلال بها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ﴾

*(119/243)*

جعل هنا بمعنى خلق يعني والله الذي خلق لكم هذه النجوم أدلة لتهتدوا بها إذا ضللتم الطريق وتحيرتم فيه ، فامتنّ الله على عباده بأن جعل لهم النجوم ليهتدوا بها في المسالك والطرق في البر والبحر إلى حيث يريدون ويستدلون بالنجوم أيضاً على القبلة فيستدلون على ما يريدون في النهار بحركة الشمس وفي الليل بحركة الكواكب ومن منافعها أيضاً أنه تعالى خلقها زينة للسماء ورجوماً للشياطين كما قال : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾ ﴿ قد فصلنا الآيات ﴾ يعني قد بينّ الآيات الدالة على توحيدنا وكمال قدرتنا ﴿ لقوم يعلمون ﴾ أن ذلك مما يستدل به على وجود الصانع المختار وكمال علمه وقدرته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

*(120/243)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَهُوَ الذى جَعَلَ ﴾ أي أنشأ أو صير ﴿ لَكُمْ ﴾ أي لأجلكم ﴿ النجوم ﴾ قيل : المراد بها ما عدا النيرين لأنها التي بها الإهتداء الآتي ولأن النجم يخص في العرف بما عداهما .

وجوز أن يدخلا فيها فيكون هذا بياناً لفائدتهما العامة إثر بيان فائدتهما الخاصة ،

والمنجمون يقسمون النجوم إلى ثوابت وسيارات والسيارات سبع باجماع المتقدمين وثمان بزيادة هرشل عند المنجمين اليوم .

والثوابت لايعلم عدتها إلا الله تعالى .

والمرصود كما قال عبد الرحمن الصوفي : ألف وخمسة وعشرون بإدخال الضفيرة .

ومن أخرجها قال : هي ألف واثنان وعشرون ، ورتبوا الثوابت على ست أقدار وسموها أقداراً متزائدة سدساً سدساً ، وجعلوا كل قدر على ثلاث مراتب : أعظم وأوسط وأصغر ؛ ولهم تقسيمات لها باعتبارات أخر بنوا عليها ما بنوا ولا يكاد يسلم لهم إلا ما لم يلزم منه محذور في الدين .

*(121/243)*

---

﴿ لِتَهْتَدُواْ بِهَا ﴾ بدل من ضمير ﴿ لَكُمْ ﴾ بإعادة العامل بدل اشتمال كأنه قيل : جعل النجوم لاهتدائكم ﴿ فِى ظلمات البر والبحر ﴾ أي في ظلمات الليل في البر والبحر ، وإضافتها إليهما للملابسة أو في مشتبهات الطرق وسماها ظلمات على الاستعارة ، وهذا إفراد لبعض منافعها بالذكر حسبما يقتضيه المقام وإلا فهي أجدى من تفاريق العصا ، وهي في جميع ما يترتب عليها كسائر الأسباب العادية لا تأثير لها بأنفسها ولا بأس في تعلم

علم النجوم ومعرفة البروج والمنازل والأوضاع ونحو ذلك مما يتوصل به إلى مصلحة دينية .

قال العلامة ابن حجر عليه الرحمة : والمنهي عنه من علم النجوم ما يدعيه أهلها من معرفة الحوادث الآتية في مستقبل الزمان كمجيء المطر ووقوع الثلج وهبوب الريح وتغير الأسعار ونحو ذلك يزعمون أنهم يدركون ذلك بسير الكواكب لاقترانها وافتراقها ، وهذا علم استأثر الله تعالى به لا يعلمه أحد غيره فمن ادعى علمه بذلك فهو فاسق بل ربما يؤدي به إلى الكفر ، فأما من يقول : إن الاقتران أو الافتراق الذي هو كذا جعله الله تعالى علامة بمقتضى ما اطردت به عادته الإلهية على وقوع كذا وقد يتخلف فلا إثم عليه بذلك ، وكذا الإخبار عما يدرك بطريق المشاهدة من علم النجوم الذي يعلم به الزوال وجهة القبلة وكم مضى وكم بقي من الوقت فإنه لا إثم فيه بل هو فرض كفاية ، وأما ما في حديث "الصحيحين" عن زيد بن خالد الجهني قال : " صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح في أثر ماء أي مطر كان من الليل فلما انصرف أقبل علينا فقال : أتدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم أعلم قال : أصبح من عبادي مؤمن وكافر فأما من قال : مطرنا بفضل الله تعالى فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب ومن قال : مطرنا بنوء كذا فذاك كافر بي مؤمن بالكواكب " .

(122/243)

فقد قال العلماء : إنه محمول على ما إذا قال ذلك مريداً أن النوء هو المحدث أما لو قال ذلك على معنى أن النوء علامة على نزول المطر ومنزله هو الله تعالى وحده فلا يكفر لكن يكره له قول ذلك لأنه من ألفاظ الكفر انتهى .

وأقول : قد كثرت الأخبار في النهي عن علم النجوم والنظر فيها ، فقد أخرج ابن أبي شيبة وأبو داود وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد "

وأخرج الخطيب عن ميمون بن مهران قال : " قلت لابن عباس رضي الله تعالى عنهما أوصني قال أوصيك بتقوى الله تعالى وإياك وعلم النجوم فإنه يدعو إلى الكهانة " .

وأخرج عن علي كرم الله تعالى وجهه قال : نهاني رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النظر في النجوم وعن أبي هريرة وعائشة رضي الله تعالى عنهما نحوه .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن متعلم حروف أبي جادوراء في النجوم ليس له عند الله تعالى خلاق يوم القيامة " .

وأخرج هو والخطيب عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعلموا من النجوم ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر ثم انتهوا " إلى غير ذلك

من الأخبار ، ولعل ما تفيده من النهي عن التعلم من باب سد الذرائع لأن ذلك العلم ربما يجر إلى محظور شرعاً كما يشير إليه خبر ابن مهران .

وكذا النهي عن النظر فيها محمول على النظر الذي كان تفعله الكهنة الزاعمون تأثير الكواكب بأنفسها والحاكمون بقطعية ما تدل عليه بتثليثها وتربيعها واقترانها ومقابلتها مثلاً من الأحكام بحيث لا تتخلف قطعاً على أن الوقوف على جميع ما أودع الله تعالى في كل كوكب مما يمتنع لغير علام الغيوب .

*(123/243)*

---

والوقوف على البعض أو الكل في البعض لا يجدي نفعاً ولا يفيد إلا ظناً المتمسك به كالمتمسك بحبال القمر والقابض عليه كالقابض على شعاع الشمس .

نعم إن بعض الحوادث في عالم الكون والفساد قد جرت عادة الله تعالى بإحداثه في الغالب عند طلوع كوكب أو غروبه أو مقارنته لكوكب آخر وفيما يشاهد عند غيبوبة الثريا وطلوعها وطلوع سهيل شاهد لما ذكرنا .

ولا يبعد أن يكون ذلك من الأسباب العادية وهي قد تتخلف مسبباتها عنها سواء قلنا : إن التأثير عندها كما هو المشهور عن الأشاعرة أم قلنا : إنها المؤثرة بإذن الله تعالى كما هو

المنصور عند السلف ، ويشير إليه كلام حجة الإسلام الغزالي في العلة .

فمتى أخبر المجرب عن شيء من ذلك على هذا الوجه لم يكن عليه بأس .

وما أخرجه الخطيب عن عكرمة أنه سأل رجلاً عن حساب النجوم وجعل الرجل يتحرج أن يخبره فقال عكرمة : سمعت ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يقول : علم عجز الناس عنه وددت أني علمته .

وما أخرجه الزبير بن بكار عن عبد الله بن حفص قال : خصت العرب بخصال بالكهانة والقيافة والعيافة والنجوم والحساب فهدم الإسلام الكهانة وثبت الباقي بعد ذلك ، وقول الحسن بن صالح : سمعت عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال في النجوم : ذلك علم ضيعه الناس فلعل ذلك إن صح محمول على نحو ما قلنا .

وبعد هذا كله أقول : هو علم لا ينفع والجهل به لا يضر فما شاء الله تعالى كان وما لم يشأ لم يكن .

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيات ﴾ أي بينا الآيات المتلوة المذكرة لنعمه سبحانه التي هذه النعمة من جملتها أو الآيات التكوينية الدالة على شؤونه تعالى فصلاً فصلاً ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ معاني الآيات المذكورة فيعملون بموجبها أو يتفكرون في الآيات التكوينية فيعلمون حقيقة الحال ، وتخصيص التفصيل بهم مع عمومه للكل لأنهم المنتفعون به . انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

---

وقال ابن عاشور :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾

عطف على جملة : ﴿ وجاعل اللّيل سكناً ﴾ [ الأنعام : 96 ] ، وهذا تذكير بوحدانيّة الله ، وبعظيم خلقة النّجوم ، وبالنّعمة الحاصلة من نظام سيرها إذ كانت هداية للنّاس في ظلمات البرّ والبحر يهتدون بها .

وقد كان ضبط حركات النّجوم ومطالعها ومغاربها من أقدم العلوم البشريّة ظهر بين الكلدانيّين والمصريّين القدماء .

وذلك النّظام هو الّذي أرشد العلماء إلى تدوين علم الهيئة .

والمقصود الأوّل من هذا الخبر الاستدلال على وحدانيّة الله تعالى بالإلهيّة ، فلذلك صيغ بصيغة القصر بطريق تعريف المسند والمسند إليه ، لأنّ كون خلق النّجوم من الله وكونها ممّا يهتدَى بها لا ينكره المخاطبون ولكنّهم لم يَجْرُوا على ما يقتضيه من إفراده بالعبادة .

والنّجُوم جمع نجم ، وهو الكوكب ، أي الجسم الكروي المضيء في الأفق ليْلاً الّذي يبدو للعين صغيراً ، فليس القمر بنجْم .

و﴿ جَعَل ﴾ هنا بمعنى خَلَق ، فيتعّدى إلى مفعول واحد و﴿ لكُم ﴾ .

متعلّق بـ﴿ جعل ﴾ ، والضّمير للبشر كلّهم ، فلام ﴿ لكم ﴾ للعلّة .

وقوله : ﴿ لتهتدوا بها ﴾ علّة ثانية لِ﴿ جعَل ﴾ فاللاّم للعلّة أيضاً ، وقد دلّت الأولى على قصد الامتنان ، فلذلك دخلت على ما يدلّ على الضّمير الدالّ على الذّوات ، كقوله : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ [ الشرح : 1 ] ، واللاّم الثّانية دلّت على حكمة الجعل وسبب الامتنان وهو ذلك النّفع العظيم .

ولمّا كان الاهتداء من جملة أحوال المخاطبين كان موقع قوله : ﴿ لتهتدوا ﴾ قريباً من موقع بدل الاشتمال بإعادة العامل ، وقد تقدّم ذلك عند قوله تعالى : ﴿ تكون لنا عيداً لأوّلنا وآخرنا ﴾ في سورة [ المائدة : 114 ] .

والمراد بالظلمات : الظلمة الشّديدة ، فصيغة الجمع مستعملة في القوّة .

*(125/243)*

---

وقد تقدّم أنّ الشّائع أن يقال : ظلمات ، ولا يقال : ظلمة ، عند قوله تعالى : ﴿ وتَركهم في ظلمات لا يبصرون ﴾ في سورة [ البقرة : 17 ] .

وإضافة ظلمات ﴾ إلى ﴿ البرّ والبحر ﴾ على معنى ( في ) لأنّ الظّلمات واقعة في هذين

المكانين ، أي لتهتدوا بها في السّير في الظّلمات .

ومن ينفي الإضافة على معنى ( في ) يجعلها إضافة على معنى اللاّم لأدنى ملابسة كما في "كوكب الخرقاء" .

والإضافة لأدنى ملابسة ، إمّا مجاز لغوي مبني على المشابهة ، فهو استعارة على ما هو ظاهر كلام "المفتاح" في مبحث البلاغة والفصاحة إذ جعل في قوله تعالى : ﴿ يأرض ابلعي ماءك ﴾ [ هود : 44 ] إضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز تشبيهاً لاتّصال الماء بالأرض باتّصال المِلك بالمالك أ هـ .

فاستُعمل فيه الإضافة الّتي هي على معنى لام الملك فهو استعارة تبعيّة ؛ وإمّا مجاز عقليّ على رأي التفتازاني في موضع آخر إذ قال في "كوكب الخرقاء" "حقيقة الإضافة اللاّميّة الاختصاص الكامل ، فالإضافة لأدنى ملابسة تكون مجازاً حُكمياً" .

ولعلّ التفتازاني يرى الاختلاف في المجاز باختلاف قرب الإضافة لأدنى ملابسة من معنى الاختصاص وبعدها منه كما يظهر الفرق بين المثالين ، على أنّ قولهم : لأدنى ملابسة ، يؤذن بالمجاز العقلي لأنّه إسناد الحكم أو معناه إلى ملابسٍ لما هُوَ لَهُ .

وجملة : ﴿ قد فصّلنا الآيات ﴾ مستأنفة للتّسجيل والتّبليغ وقطع معذرة من لم يؤمنوا .

واللاّم للتّعليل متعلّق بـ ﴿ فصّلنا ﴾ كقوله :

ويوم عَقرت للعذاري مطيّتي

أي فصّلنا لأجل قوم يعلمون .

وتفصيل الآيات تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ وكذلك نفصّل الآيات ﴾ في هذه السّورة [ 55 ] .

وجعل التّفصيل لقوم يعلمون تعريضاً بمَن لم ينتفعوا من هذا التّفصيل بأنّهم قوم لا يعلمون .

والتّعريف في الآيات ﴾ للاستغراق فيشمل آية خلق النّجوم وغيرها .

والْعِلم في كلام العرب إدْراك الأشياء على ما هي عليه قال السّمَوْأل أو عبد الملك الحارثي :

فليس سواء عالم وجهول

وقال النّابغة :

ولَيْسَ جاهِلُ شيءٍ مثلَ مَنْ عَلِما

والّذين يعلمون هم الّذين انتفعوا بدلائل الآيات .

وهم الّذين آمنوا بالله وحده ، كما قال تعالى : ﴿ إنّ في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ [ الأنعام : 99 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

*(126/243)*

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : "قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون " ، وبعد هذه : "قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون " ، ثم بعد هذه : "إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون " ، للسائل أن يسأل عن وجه اختلاف هذه الأوصاف التابعة فى الآى الثلاث ؟

*(127/243)*

---

والجواب : أنه لما تقدم الآية الأولى قوله جل وتعالى : "وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر " فذكر سبحانه من المعتبرات التى يتوصل بالنظر فيها إلى معرفته وحدانيته تعالى ما يحصل الاطلاع عليه تعقلا وتنقلا ويستند فى كثير منه إلى التعاون فى تعرفه والاطلاع عليه بمن تقدمت له به المعرفة فيحصل فى ذلك علم منقول فيما يتعلق بذات المتعرف المطلوب به الاستدلال أو فى أدوات موصولة إليه إذ ليس علم ذلك راجعا إلى مجرد الفكر والتفطن ألا ترى أن إدراك العلم بنجوم السماء وتفصيل ذلك بتعيين الكواكب الثابتة والسيارة المتنقلة فى أبراجها وخنوس الخمسة منها واشتراكها مع الشمس والقمر فى انتقالها فى منازلها مختلفات الحالات فى السرعة والبطء فكم بين قطع القمر

الفلك فى ثمان وعشرين ليلة وقطع زحل إياه فى ست وثلاثين سنة جارية فى أفلاكها من غرب إلى شرق وقذف الفلك الأعظم بالكل من شرق إلى غرب على العكس "ذلك تقدير العزيز العليم " وياعرف هذا القسط مما ذكرنا يتحصل للمعتبر الاهتداء بها على الكمال فى ظلمات البر والبحر والعلم بعدد السنين والحساب والقلب فى كثير من هذا الضرب مورد على البصر فيما ينهيه إليه فصر هذا الضرب من المعتبرات الدالة على الصانع تعالى كالمخبر به الحاصل بواسطة من خارج فتناسب ذلك التعبير عن المتذكر به بالعلم الذى مواده ومحصلاته الخبر القاطع مع النظر السديد فقيل فى ختام هذه الآية : "لقوم يعلمون " وقيل ما معناه أن الوارد فى قوله تعالى : "إن الله فالق الحب والنوى " إلى قوله تعالى : "وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر " آيات تنبيه على معرفة الله تعالى والعلم به وبوحدانيته وهو أشرف معلوم ، فأعقب بأشرف ما يوصف به المعتبرون فقيل : "لقوم يعلمون " وذلك أعلى من الوصف بقوله تعالى : "لقوم يفقهون " و : "لقوم يؤمنون " ولذلك ما ورد وصفه تعالى بالعلم ولا يوصف سبحانه بالفقه ولا

العقل فلما كان المعلوم أشرف

المعلومات عبر عن الآيات التى نصبت للدلالة عليه باللفظ الأشرف انتهى وهو قول حسن والتناسب فيه واضح .

أما الآية الأخرى فتقدم قبلها قوله تعالى : "وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع" ومرجع العلم بنشأة الإنسان وتقلبه من صلب إلى رحم ، وارتباط أعضائه الظاهرة والباطنة ، وجمع أجزائه وتصرف كل عضو فى ما له خلق ، واحتياج الأعضاء بعضها إلى بعضها وجرى ما وكل منها بغذاء الإنسان اجتذابا وانتحالا وطبخا وتقسيما وتجزئة على الأعضاء واتقان كل عضو منها زجرى لما يسر له ، إلى غير ذلك هذا مما يبسطه من تكلم فى التشريع ، فالعلم بهذا كله جملة وتفصيلا مما لا يحصل بالسمع والبصر وإنما يطلع بالاعتبار والتفكر من ذوى الفطن السالمة والنظر العقلى السديد والفهم المصيب ، فناسب هذا قوله تعالى "لقوم يفقهون" والفقه التفهم والتفطن وذلك من جملة ألهم إليه وأشار قوله تعالى : "وفى أنفسكم أفلا تبصرون" .

وأما الآية الثالثة فإنه سبحانه لما ذكر إنزال الماء من السماء وإخراج النبات من الأرض به فى قوله سبحانه وتعالى : "وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا منه نبات كل شئ فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان" ، فلما أورد هذا كان مذكرا بالبعث الأخراوى والنشأة الثانية

كما قال تعالى فى آية الأعرف : "كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون " وإنما يحصل العلم بذلك وسائر أمور الآخرة من قبل الرسل عليهم الصلاة والسلام والإيمان بهم وبما جاؤوا به فقال تعالى : "إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون " أى يصدقون بالبعث وأنه تعالى كما بدأهم يعودون فقد وضحت مناسبة هذه الآيات الثلاث لما أعقب بها والله سبحانه أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 164.166 ﴾

*(129/243)*

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾

وبعد أن أوضح سبحانه أنه قد خلق الشمس والقمر بحسبان لتكون حسابا بتقدير منه ، وهو العزيز العليم ، إنه – سبحانه – يصف لنا مهمة النجوم فقال : ﴿ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ البر والبحر ﴾ ، والنجوم هي الأجرام اللامعة التي نراها في السماء لنهتدي بها في ظلمات البر والبحر ؛ ومن رحمته بنا وعلمه أن بعض خلقه ستضطرهم حركة الحياة إلى الضرب في الأرض ؛ والسير ليلا في الأرض أو البحر مثل من يحرسون ويشيعون الأمن في

الدنيا ولا يمكن أن يناموا بالليل . بل لا بد أن يسهروا لحراستنا ، كل ذلك أراده الله بتقدير عزيز حكيم عليم ، ولذلك ترك لنا النجوم ليهتدي بها هؤلاء الذين يسهرون أو يضربون في الأرض أو يمشون في البحر بسفنهم ، وهم يحتاجون إلى ضوء قليل ليهديهم ، ولذلك كان العرب يهتدون بالنجوم ؛ يقول الواحد منهم للآخر : اجعل النجم الفلاني أمام عينيك ، وسر فوق الحي الفلاني . واجعل النجم الفلاني عن يسارك وامش تجد كذا ، أو اجعل النجم الفلاني خلفك وامش تجد كذا .

إذن لو طمّت الظلمة لمنّعت الحركة بالليل ، وهي حركة قد يضّطر إليها الكائن الحي ، فجعل الحق النجوم هداية لمن تجبرهم الحياة على الحركة في الليل .

*(130/243)*

---

وعلى ذلك فالنجوم ليست فقط للاهتداء في ظلمات البر والبحر ؛ لأنه لو كان القصد منها أن نهتدي بها في ظلمات البر والبحر ، لكانت كلها متساوية في الأحجام ، لكنا نرى نجماً كبيراً ، وآخر صغيراً ، وقد يكون النجم الصغير أكبر في الواقع من النجم الكبير لكنه يبعد عنا بمسافة أكبر ، وعلى ذلك لا تقتصر الحكمة من النجوم على الهداية بها في حركة الإنسان براً وبحراً ، فليست هذه هي كل الحكمة ، هذه هي الحكمة التي يدركها العقل

الفطري أولا ؛ لذلك يأتي الحق في أمر النجوم بقول كريم آخر ليوضح لنا ألا تحصر الحكمة في الهداية بها ليلاً براً وبحراً فيقول : ﴿ وَعَلامَاتٍ وبالنجم هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ فلم يقل – سبحانه – يهتدون في ظلمات البر والبحر . إذن – النجوم – لها مهمة أخرى ، إنه جلت قدرته يقول : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النجوم * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [ الواقعة : 75-76 ] .

وكل يوم يتقدم العلم يبين لنا الحق أشياء كثيرة ، فها هو ذا المذنب الذي يقولون عنه الكثير ، وها هي ذي نجوم جديدة تكتشف تأكيداً لقول الحق : ﴿ والسمآء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [ الذاريات : 47 ] .

أي أنه سبحانه قد خلق عالماً كبيراً . وأنت أيها الإنسان قد أخذت منه على قدر إدراكاتك وامتداداتك في النظر الطبيعي الذي لا تستخدم فيه آلة إبصار ، وأخذت منه بالنظر المعان الذي تستخدم فيه التليسكوب والميكروسكوب ، وغير ذلك من اقمار صناعية ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النجوم * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ وبعض العلماء يقول : إن كل إنسان يوجد في الوجود له نجم ، وترتبط حياته بهذا النجم ، وحين يأفل النجم يأفل قرينه على الأرض ، وهناك نجوم لامعة ندرك خفقانها ، ونجوم أخرى غير لامعة وبعيدة عنا ، ويقال إنها تخص أناساً لا يدري بهم أحد لقلة تأثيرهم بأعمالهم في الحياة .

ويتقدم العلم كل يوم ويربط لنا أشياء بأشياء وكأن الحق يوضح : إنني خلقت لكم الأشياء مِمّا قَدَرْتم بعقولكم أن تصلوا إلى شيء من الحكمة فيها ، ولكن لا تقولوا هذه منتهى الحكمة ، بل وراءها حِكَم أعلى ، فسبحانه هو الحكيم القادر ، إنك قد تدرك جانبا يسيرا من حكم الله ، ولكن عليك أن تعلم أن كمال الله غير متناه ، ولا يزال في ملك الله ما لا نستطيع إدراك حكمته إلى أن ينهي الله الأرض ومن عليها .

ويقول الحق سبحانه في تذييل الآية : ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ والآية هي الشيء العجيب ، وتطلق على آيات كونية : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الليل والنهار والشمس والقمر ﴾ [ فصلت : 37 ] .

وتطلق كلمة " آية " على الطائفة من القرآن التي لها فاصلة . إذن هناك آيات قرآنية ، وآيات كونية ، والآيات الكونية تعتبر مفسرة للآيات القرآنية ؛ فتفصيل الآيات في الكون ما نراه من تعددها أشكالاً وألواناً وحكماً وغايات . وتفصيل الآيات في القرآن هو ما ينبهنا إليه الحق في قرآنه وليلفت النظر إلى أن ذلك التفصيل في آيات الكون وذلك الخلق العجيب الحكيم الذي لا يمكن أن يكون إلا لإله قادر حكيم يستحق أن يكون إلهاً موحَّداً ، ويستحق أن يكون إلهاً معبوداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ وَهُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ النجوم ﴾ الظاهر أن " جعل " بمعنى " خَلَق " ، فتكون متعديةً لواحد ، و" لكم " متعلّق بـ " جعل " ، وكذا " لِتَهْتَدُوا " .

فإن قيل : كيف يتعلّق حَرْفا جَرّ متحدان في اللفظ والمعنى ؟

فالجواب : أن الثَّاني بدلٌ من الأوّل بدل اشتمال بإعَادَةِ العامل ، فإن " ليهتدوا " جَارّ ومجرور ؛ إذ اللام لام " كي " ، والفعل بعدها منصوب بإضمار " أن " عند البصريين ، وقد تقدَّم تقريره .

والتقدير : جعل لكم النجوم لاهتدائكم ، ونظيره قوله : ﴿ لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بالرحمن لِبُيُوتِهِمْ ﴾ [ الزخرف : 33 ] ف " لبيوتهم " بدل " لمن يَكْفُرُ " بإعادة العامل .

وقال ابن عطية : " وقد يمكن أن يكون بمعنى " صَيَّر " ، ويُقدَّرُ المفعول الثاني من " لتهتدوا " أي : جعل لكم النجوم هِدَايَةً " .

قال أبو حيَّان : " وهو ضعيف لندور حذف أحد مفعولي " ظَنَّ " وأخواتها " .

قال شهابُ الدين – رحمه الله – : لم يَدَّعِ ابن عطية المفعول الثاني حتى يجعله ضعيفاً ، إنما قال : إنه [ بدل ] من " لتهتدوا " ، أي : فَيُقَدَّرُ مُتعلِّقُ الجار الذي وقع مفعولاً ثانياً ، كما يُقَدَّرُ في نظائره ، والتقدير : جعل لكم النجوم مُسْتَقِرَّةً أو كائنة لاهتدائكم .

وأما قوله : " جعَل لَكُمُ النُّجُوم " هداية فلإيضاحِ المعنى وبيانه .

(133/243)

---

والنجوم مَعْرُوفَةٌ ، وهي جمع " نَجْم " ، والنَّجْمُ في الأصل مصدر ؛ يقال : نجم الكوكب ينجم نجماً ونجوماً ، فهو ناجمٌ ، ثم أُطْلِقَ على الكواكب مجازاً ، فالنجم يستعمل مرة اسماً للكوكب ومرة مصدراً ، والنجوم تُسْتَعْمل مَرَّةً للكواكب وتارة مصدراً ومنه نَجَمض النَّبْتُ ؛ أي : طلع ، ونجم قَرْنُ الشاة وغيرها ، والنجم من النبات ما لا سَاقَ له ، والشجر ما له ساق ، والتَّنْجِيمُ : التفريق ، ومنه نجوم الكتابة تشبيهاً بتفرق الكواكب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 313 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ

يَعْلَمُونَ (97) ﴾

كما أن نجوم السماء يُهتدى بها في الفلوات فكذلك نجوم القلوب يهتدى بها في معرفة ربِّ الأرضين والسموات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 491 ﴾

*(134/243)*

---

قوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (98) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر سبحانه بعض هذا الملكوت الأرضي والسماوي ، أتبعه – كما مضى في أول السورة – الخلق المفرد الجامع لجميع الملكوت ، وهو الإنسان ، دالاً على كمال القدرة على كل ما يريد ، مبطلاً بمفاوتة أول الإبداع وآخر الآجال ما اعتقدوا في النور والظلمة والشمس والقمر وغيرهما ، لأن واحداً منها لا اختيار له في شيء يصدر عنه ، بل هو مسخر ومقهور كما هو محسوس ومشهور ، فقال : ﴿ وهو ﴾ أي لا غيره ﴿ الذي أنشأكم ﴾ أي وأنتم في غاية التفاوت في الطول والقد واللون والشكل وغير ذلك من الأعراض التي دبرها سبحانه

على ما اقتضته حكمته ﴿ من نفس واحدة ﴾ ثم اقتطع منها زوجها ثم فرّعكم منهما .

ولما كان أغلب الناس في الحياة الدنيا يعمل عمل من لا يحول ولا يزول ، لا يكون على شرف الزوال ما دامت فيه بقية من حياة ، قال : ﴿ فمستقر ﴾ أي فسبب عن ذلك أنه منكم مستقر على الأرض – هذا على قراءة ابن كثير وابن عمر وبكسر القاف اسم فاعل ، والمعنى في قراءة الباقين بفتحه اسم مكان ﴿ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ [ البقرة : 26 ] .

ولما كان من في البرزخ قد كشف عنهم الغطاء فهم موقنون بالساعة غير عاملين على ضد ذلك ، وكذا من في الصلب والرحم ، عبر بما يدل على عدم الاستقرار فقال :

﴿ ومستودع ﴾ أي في الأصلاب أو الأرحام أو في بطن الأرض ، فدلت المفاوتة من كل منهما – مع أن الكل من نفس واحدة – على القادر المختار ، لا يقدر غيره أن يعكس شيئاً من ذلك ، وكل ذلك مضمون الآيتين في أول السورة ، وقدم الإصباح والليل ومتعلقهما لتقدمهما في الخلق ، ثم تلاه بخلق الإنسان على حسب ما مرّ أول السورة ، وذكر هنا أنه جعل ذلك الطين نفساً واحدة فرّع الإنس كلهم منها مع تفاوتهم فيما هناك وفي غيره .

ولما ذكر هذا المفرد الجامع ، وفصّله على هذه الوجوه المعجبة ، كان محلاً لتوقع التنبيه عليه فقال : ﴿ قد فصلنا ﴾ أي بعظمتنا ﴿ الآيات ﴾ أي أكثرنا بيانها في هذا المفرد الجامع في أطوار الخلقة وأدوار الصنعة ، تارة بأن يكون من التراب بشر ، وأخرى بأن يخرج الأنثى من

الذكر ، وتارة بأن يفرّع من الذكر والأنثى ما لا يحيط به العد ولا يجمعه الخبر من النطفة إلى الولادة إلى الكبر .

ولما كان إنشاء الناس من نفس واحدة وتصريفهم على تلك الوجوه المختلفة جداً ألطف وأدق صنعة ، فكان ذلك محتاجاً إلى تدبر واستعمال فطنة وتدقيق نظر ، قال : ﴿ لقوم يفقهون ﴾ أي لهم أهلية الفقه والفطنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 683 . 684 ﴾

*(135/243)*

---

فصل

قال الفخر :

هذا نوع رابع من دلائل وجود الإله وكمال قدرته وعلمه ، وهو الاستدلال بأحوال الإنسان فنقول لا شبهة في أن النفس الواحدة هي آدم عليه السلام وهي نفس واحدة .

وحواء مخلوقة من ضلع من أضلاعه .

فصار كل الناس من نفس واحدة وهي آدم .

فإن قيل : فما القول في عيسى ؟

قلنا : هو أيضاً مخلوق من مريم التي هي مخلوقة من أبويها .

فإن قالوا : أليس أن القرآن قد دل على أنه مخلوق من الكلمة أو من الروح المنفوخ فيها فكيف يصح ذلك ؟

قلنا : كلمة "من" تفيد ابتداء الغاية ولا نزاع أن ابتداء تكون عيسى عليه السلام كان من مريم وهذا القدر كاف في صحة هذا اللفظ .

قال القاضي : فرق بين قوله : ﴿ أَنشَأَكُمْ ﴾ وبين قوله : ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ لأن أنشأكم يفيد أنه خلقكم لا ابتداء .

ولكن على وجه النمو والشنوء لا من مظهر من الأبوين ، كما يقال : في النبات إنه تعالى أنشأه بمعنى النمو والزيادة إلى وقت الانتهاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 84.83 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَهُوَ الذى أَنشَأَكُم مّن نَّفْسٍ واحدة ﴾

أي آدم عليه السلام وهو تذكير لنعمة أخرى فإن رجوع الكثرة إلى أصل واحد أقرب إلى التواد والتعاطف .

وفيه أيضاً دلالة على عظيم قدرته سبحانه وتعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَهُوَ الذى أَنشَأَكُم مّن نَّفْسٍ واحدة ﴾

هذا تذكير بخلق الإنسان وكيف نشأ هذا العدد العظيم من نفْس واحدة كما هو معلوم لهم ، فالّذي أنشأ النّاس وخلقهم هو الحقيق بعبادتهم دون غيره ممّا أشركوا به ، والنّظر في خلقة الإنسان من الاستدلال بأعظم الآيات .

قال تعالى : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ [ الذاريات : 21 ] .

والقصر الحاصل من تعريف المسند إليه والمسند تعريض بالمشركين ، إذ أشركوا في عبادتهم مع خالقهم غيرَ من خلقهم على نحو ما قررتُه في الآية قبل هذه .

والإنشاء : الإحداث والإيجاد .

والضّمير المنصوب مراد به البشر كلّهم .

*(136/243)*

---

والنّفس الواحدة هي آدم عليه السّلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾

فصل

قال الفخر :

وأما قوله : ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ ففيه مباحث :

البحث الأول : قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ ﴾ بكسر القاف والباقون بفتحها قال أبو علي الفارسي .

قال سيبويه ، يقال : قر في مكانه واستقر فمن كسر القاف كان المستقر بمعنى القار وإذا كان كذلك وجب أن يكون خبره المضمر "منكم" أي منكم مستقر .

ومن فتح القاف فليس على أنه مفعول به لأن استقر لا يتعدى فلا يكون له مفعول به فيكون اسم مكان فالمستقر بمنزلة المقر .

وإذا كان كذلك لم يجز أن يكون خبره المضمر "منكم" بل يكون خبره "لكم" فيكون التقدير لكم مقر وأما المستودع فإن استودع فعل يتعدى إلى مفعولين تقول استودعت زيداً ألفاً وأودعت مثله ، فالمستودع يجوز أن يكون اسماً للإنسان الذي استودع ذلك المكان ويجوز أن يكون المكان نفسه .

إذا عرفت هذا فنقول : من قرأ مستقراً بفتح القاف جعل المستودع مكاناً ليكون مثل المعطوف عليه والتقدير فلكم مكان استقرار ومكان استيداع ومن قرأ ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ ﴾ بالكسر ، فالمعنى : منكم مستقر ومنكم مستودع ، والتقدير : منكم من استقر ومنكم من استودع .

والله أعلم .

المبحث الثاني : الفرق بين المستقر والمستودع أن المستقر أقرب إلى النبات من المستودع فالشيء الذي حصل في موضع ولا يكون على شرف الزوال يسمى مستقراً فيه ، وأما إذا حصل فيه وكان على شرف الزوال يسمى مستودعاً لأن المستودع في معرض أن يسترد في كل حين وأوان .

*(137/243)*

---

إذا عرفت هذا فنقول : كثر اختلاف المفسرين في تفسير هذين اللفظين على أقوال : فالأول : وهو المنقول عن ابن عباس في أكثر الروايات أن المستقر هو الأرحام والمستودع الأصلاب قال كريب : كتب جرير إلى ابن عباس يسأله عن هذه الآية فأجاب المستودع الصلب والمستقر الرحم ثم قرأ : ﴿ وَنُقِرُّ فِى الأرحام مَا نَشَاء ﴾ [ الحج : 5 ] ومما يدل أيضاً على قوة هذا القول أن النطفة الواحدة لا تبقى في صلب الأب زماناً طويلاً والجنين يبقى في رحم الأم زماناً طويلاً ، ولما كان المكث في الرحم أكثر مما في صلب الأب كان حمل الاستقرار على المكث في الرحم أولى .

والقول الثاني : أن المستقر صلب الأب والمستودع رحم الأم ، لأن النطفة حصلت في

صلب الأب لا من قبل الغير وهي حصلت في رحم الأم بفعل الغير ، فحصول تلك النطفة في الرحم من قبل الرجل مشبه بالوديعة لأن قوله ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ يقتضي كون المستقر متقدماً على المستودع وحصول النطفة في صلب الأب مقدم على حصولها في رحم الأم ، فوجب أن يكون المستقر ما في أصلاب الآباء ، والمستودع ما في أرحام الأمهات .

والقول الثالث : وهو قول الحسن المستقر حاله بعد الموت لأنه إن كان سعيداً فقد استقرت تلك السعادة ، وإن كان شقياً فقد استقرت تلك الشقاوة ولا تبديل في أحوال الإنسان بعد الموت وأما قبل الموت فالأحوال متبدلة .

فالكافر قد ينقلب مؤمناً والزنديق قد ينقلب صديقاً ، فهذه الأحوال لكونها على شرف الزوال والفناء لا يبعد تشبيهها بالوديعة التي تكون مشرفة على الزوال والذهاب .

والقول الرابع : وهو قول الأصم .

إن المستقر من خلق من النفس الأولى ودخل الدنيا واستقر فيها ، والمستودع الذي لم يخلق بعد وسيخلق .

والقول الخامس : للأصم أيضاً المستقر من استقر في قرار الدنيا والمستودع من في القبور حتى يبعث .

وعن قتادة على العكس منه فقال مستقر في القبر ومستودع في الدنيا .

القول السادس : قول أبي مسلم الأصبهاني أن التقدير هو الذي أنشأكم من نفس واحدة / فمنكم مستقر ذكر ومنكم مستودع أنثى إلا أنه تعالى عبر عن الذكر بالمستقر لأن النطفة إنما تتولد في صلبه وإنما تستقر هناك وعبر عن الأنثى بالمستودع لأن رحمها شبيهة بالمستودع لتلك النطفة . والله أعلم .

المبحث الثالث : مقصود الكلام أن الناس إنما تولدوا من شخص واحد وهو آدم عليه السلام ، ثم اختلفوا في المستقر والمستودع بحسب الوجوه المذكورة فنقول : الأشخاص الإنسانية متساوية في الجسمية ومختلفة في الصفات التي باعتبارها حصل التفاوت في المستقر والمستودع والاختلاف في تلك الصفات لا بد له من سبب ومؤثر وليس السبب هو الجسمية ولوازمها وإلا لامتنع حصول التفاوت في الصفات ، فوجب أن يكون السبب هو الفاعل المختار الحكيم ونظير هذه الآية في الدلالة قوله تعالى : ﴿ واختلاف أَلْسِنَتِكُمْ وألوانكم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 84.85 ﴾

*(139/243)*

" فصل "

قال الماوردى :

﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ فيه ستة تأويلات :

أحدها : فمستقر في الأرض ومستودع في الأصلاب ، قاله ابن عباس .

والثاني : فمستقر في الرحم ومستودع في القبر ، قاله ابن مسعود .

والثالث : فمستقر في أرحام النساء ومستودع في أصلاب الرجال ، قاله عطاء ، وقتادة .

والرابع : فمستقر في الدنيا ومستودع في الآخرة ، قاله مجاهد .

والخامس : فمستقر في الأرض ومستودع في القبر ، قاله الحسن .

والسادس : أن المستقر ما خُلِق ، والمستودع ما لم يُخلق ، وهو مروي عن ابن عباس أيضاً .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

﴿ فمستقر ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ويعقوب ، إلا رُويساً : بكسر القاف .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : بفتحها .

قال الزجاج : من كسر ، فالمعنى : "فمنكم مستقِر" .

ومن نصب ، فالمعنى : "فلكم مستقَرّ" فأما مستودع ، فبالفتح ، لا غير .

ومعناه على فتح القاف : "ولكم مستودع" وعلى كسر القاف : "منكم مستودع" .

وللمفسرين في هذا المستقر والمستودع تسعة أقوال .

أحدها : فمستقر في الأرحام ، ومستودع في الأصلاب ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعطاء ، والضحاك ، والنخعي ، وقتادة ، والسدي ، وابن زيد .

والثاني : المستقر في الأرحام ، والمستودع في القبر ، قاله ابن مسعود .

والثالث : المستقر في الأرض ، والمستودع في الأصلاب ، رواه ابن جبير عن ابن عباس .

والرابع : المستقر والمستودع في الرحم ، رواه قابوس عن أبيه عن ابن عباس .

والخامس : المستقر حيث يأوي ، والمستودع حيث يموت ، رواه مقسم عن ابن عباس .

والسادس : المستقر في الدنيا ، والمستودع في القبر .

والسابع : المستقر في القبر ، والمستودع في الدنيا ، وهو عكس الذي قبله ، رويا عن الحسن .

والثامن : المستقر في الدنيا ، والمستودع عند الله تعالى ، قاله مجاهد .

*(140/243)*

والتاسع : المستقر في الأصلاب ، والمستودع في الأرحام ، قاله ابن بحر ، وهو عكس الأول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

(141/243)

---

وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي " فمستقَر " بفتح القاف على أنه موضع استقرار ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو " فمستقِر " بكسر القاف على أنه اسم فاعل ، وأجمعوا على فتح الدال من " مستودَع " بأن يقدر موضع استيداع ، وأن يقدر أيضاً مفعولاً ولا يصح ذلك في مستقر لأن استقر لا يتعدى فيبنى منه مفعول أما أنه روى هارون الأعور عن أبي عمرو " ومستودِع " بكسر الدال ، فمن قرأ " فمستقَر ومستودِع " على أنها موضع استقرار وموضع استيداع علقها بمجرور تقديره فلكم مستقر ومستودع ، ومن قرأ " فمستقِر ومستودع " على اسم الفاعل في " مستقِر " واسم المفعول في " مستودَع " علقها بمجرور تقديره فمنكم مستقر ومستودع واضطرب المتأولون في معنى هذا الاستقرار والاستيداع ، فقال الجمهور مستقر في الرحم ومستودع في ظهور الآباء حتى يقضي الله بخروجهم ، وقال ابن عون : مشيت إلى منزل إبراهيم النخعي وهو مريض فقالو قد توفي فأخبرني بعضهم أن

عبد الرحمن بن الأسود سأله عن " مستقر ومستودع " فقال : مستقر في الرحم ومستودع في الصلب ، وقال الحسن بن أبي الحسن : مستقر في القبور ومستودع في الدنيا ، وقال ابن عباس : المستقر الأرض والمستودع عند الرحم ، وقال ابن جبير : المستودع في الصلب والمستقر في الآخرة والذي يقتضيه النظر أن ابن آدم هو مستودع في ظهر أبيه وليس بمستقر فيه استقراراً مطلقاً لأنه ينتقل لا محالة ثم ينتقل إلى الرحم ثم ينتقل إلى القبر ثم ينتقل إلى المحشر ثم ينتقل إلى الجنة أو النار فيستقر في أحدهما استقراراً مطلقاً ، وليس فيها مستودع لأنه لا نقله له بعد وهو في كل رتبة متوسطة بين هذين الظرفين " مستقر " بالإضافة إلى التي قبلها و" مستودع " بالإضافة إلى التي بعدها لأن لفظ الوديعة يقتضي فيها نقلة ولا بد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

*(142/243)*

---

﴿ فَمُسْتَقَرٌّ ﴾ قرأ ابن عباس وسعيد بن جُبير والحسن وأبو عمرو وعيسى والأعرج وشَيْبة والنَّخَعِيّ بكسر القاف ، والباقون بفتحها .

وهي في موضع رفع بالإبتداء ، إلا أن التقدير فيمن كسر القاف فمنها "مستَقِر" والفتح

بمعنى لها "مستَقَر" .

قال عبد الله بن مسعود : فلها مستقر في الرَّحِم ومستودَع في الأرض التي تموت فيها ؛ وهذا التفسير يدلّ على الفتح .

وقال الحسن : فمستقر في القبر .

وأكثر أهل التفسير يقولون : المستقرّ ما كان في الرحم ، والمستودَع ما كان في الصُّلْب ؛ رواه سعيد بن جُبير عن ابن عباس ، وقاله النَّخَعيّ .

وعن ابن عباس أيضاً : مستقرّ في الأرض ، ومستودع في الأصلاب .

قال سعيد بن جبير : قال لي ابن عباس هل تزوّجت ؟ قلت لا ؛ فقال : إن الله عز وجل يستخرج من ظهرك ما استودعه فيه .

وروي عن ابن عباس أيضاً أن المستقر مَن خُلق ، والمستوع من لم يُخلق ؛ ذكره المَاوَرْدِي .

وعن ابن عباس أيضاً : ومستودع عند الله .

قلت : وفي التنزيل "وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ" والاستيداع إشارة إلى كونهم في القبر إلى أن يُبعثوا للحساب ؛ وقد تقدّم في البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ فمستقر ومستودع ﴾ قرئ فمستقر بكسر القاف وفتحها .

يقال : قر في مكانه واستقر فمن كسَر القاف قال : المستقر بمعنى القارّ .

والمعنى : منكم مستقر يعني في الأرحام .

ومن فتح القاف جعله مكاناً فالمستقر نفسه المقر فيكون المعنى لكم مقر .

وأما المستودع فهو مثل أودع فيجوز أن يكون اسماً للإنسان الذي استودع ذلك المكان ويجوز أن يكون المكان نفسه .

*(143/243)*

---

فمن قرأ فمستقر بفتح القاف جعل المستودع مكاناً ، والمعنى : فلكم مكان استقرار ومكان استيداع ومن كسر القاف جعل المعنى منكم مستقر ومنكم مستودع يعني منكم من استقر ومنكم من استودع والفرق بين المستقر والمستودع أن المستقر أقرب إلى الثبات من المستودع ، لأن المستقر من القرار والمستودع معرض لأن يرد .

ولهذا اختلفت عبارات المفسرين في معنى هذين اللفظين فروي عن ابن عباس أنه قال المستقر في أرحام الأمهات والمستودع في أصلاب الآباء ثم قرأ ﴿ ونقر في الأرحام ما نشاء ﴾ ويؤيد هذا القول أن النطفة لا تبقى في صلب الأب زماناً طويلاً والجنين يبقى في بطن الأم زماناً طويلاً ، ولما كان المكث في بطن الأم أكثر من صلب الأب حمل المستقر على الرحم

والمستودع على الصلب .

وروي عنه أنه قال : بالعكس يعني أن المستقر صلب الأب والمستودع رحم الأم .

ووجه هذا القول ، أن النطفة حصلت في صلب الأب قبل رحم الأم فوجب حمل المستقر على الصلب والمستودع على الرحم .

وقال ابن مسعود : المستقر في الرحم إلى أن يولد والمستودع في القبر إلى أن يبعث وقال مجاهد : المستقر على ظهر الأرض في الدنيا لقوله : ﴿ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ والمستودع عند الله في الآخرة .

وقال الحسن : المستقر في القبر والمستودع في الدنيا وكان يقول يا ابن آدم أنت مستودع في أهلك إلى أن تلحق بصاحبك يعني القبر وقيل المستودع في القبر والمستقر إما في الجنة والنار ، لأن المقام فيهما يقتضي الخلود والتأبيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(144/243)

---

وقال الآلوسى :

﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ أي فلكم استقرار في الأصلاب أو فوق الأرض واستيداع في الأرحام أو في القبر أو موضع استقرار واستيداع فيما ذكر ، وجعل الصلب مقر النطفة

والرحم مستودعها لأنها تحصل في الصلب لا من قبل شخص آخر وفي الرحم من قبل الأب فأشبهت الوديعة كأن الرجل أودعها ما كان عنده ، وجعل وجه الأرض مستقراً وبطنها مستودعاً لتوطنهم في الأول واتخاذهم المنازل والبيوت فيه وعدم شيء من ذلك في الثاني ، وقيل : التعبير عن كونهم في الأصلاب أو فوق الأرض بالاستقرار لأنهما مقرهم الطبيعي كما أن التعبير عن كونهم في الأرحام أو في القبر بالاستيداع لما أن كلاً منهما ليس بمقرهم الطبيعي .

وأخرج جماعة منهم الحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن المستقر الرحم والمستودع الأصلاب ، وجاء في رواية أن ( حبر تيما ) كتب إليه يسأله رضي الله تعالى عنه عن ذلك فأجابه بما ذكر .

ويؤيد تفسير المستقر بالرحم قوله تعالى : ﴿ وَنُقِرُّ فِى الأَرحام مَا نَشَاء ﴾ [ الحج : 5 ]

وأما تفسير المستودع بالأصلاب فقال شيخ الإسلام : إنه ليس بواضح وليس كما قال ، فقد ذكر الإمام بعد أن فرق بين المستقر والمستودع "بأن المستقر أقرب إلى الثبات من المستودع ، ومما يدل على قوة هذا القول يعني المروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النطفة الواحدة لا تبقى في صلب الأب زماناً طويلاً والجنين يبقى زماناً طويلاً ، ولما كان المكث في الرحم أكثر مما في صلب الأب كان حمل الاستقرار على المكث في الرحم أولى" .

ويلزم ذلك أن حمل الاستيداع على المكث في الصلب أولى .

وأنا أقول : لعل حمل المستودع على الصلب باعتبار أن الله تعالى بعد أن أخرج من بني آدم عليه السلام من ظهورهم ذريتهم يوم الميثاق وأشهدهم على أنفسهم وكان ما كان ردهم إلى ما أخرجهم منه فكأنهم وديعة هناك تخرج حين يشاء الله تعالى ذلك ، وقد أطلق ابن عباس رضي الله تعالى عنهما اسم الوديعة على ما في الصلب صريحاً .

فقد أخرج عبد الرزاق عن سعيد بن جبير قال : قال لي ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أتزوجت ؟ قلت : لا وما ذلك في نفسي اليوم قال : إن كان في صلبك وديعة فستخرج .

وروي تفسير المستودع بالدنيا والمستقر بالقبر عن الحسن وكان يقول : يا ابن آدم أنت وديعة في أهلك ويوشك أن تلحق بصاحبك وينشد قول لبيد :

وما المال والأهلون إلا وديعة . . .

ولا بد يوماً أن ترد الودائع

وقال سليمان بن زيد العدوي في هذا المعنى :

فجع الأحبة بالأحبة قبلنا . . .

فالناس مفجوع به ومفجع

مستودع أو مستقر مدخلا . . .

فالمستقر يزوره المستودع

وعن أبي مسلم الأصفهاني أن المستقر الذكر لأن النطفة إنما تتولد في صلبه والمستودع

الأنثى لأن رحمها شبيه بالمستودع لتلك النطفة فكأنه قيل : وهو الذي خلقكم من نفس واحدة فمنكم ذكر ومنكم أنثى .

وقرأ ابن كثير .

(145/243)

---

وأبو عمرو ( فمستقر ) بكسر القاف وهو حينئذ اسم فاعل بمعنى قار ومستودع اسم مفعول والمراد فمنكم مستقر ومنكم مستودع .

ووجه كون الأول : معلوماً والثاني : مجهولاً أن الاستقرار هنا بخلاف الاستيداع والمتعاطفان على القراءة الأولى مصدران أو اسما مكان ولا يجوز أن يكون الأول اسم مفعول لأن استقر لا يتعدى وكذا الثاني ليكون كالأول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ فمستقرّ ﴾ الفاء للتّفريع عن ﴿ أنشأكم ﴾ ، وهو تفريع المشتَمَل عليه المقارن على المشتمِل .

وقرأه الجمهور ﴿ مستقَر ﴾ بفتح القاف وقرأه ابن كثير ، وأبو عمرو ، وروح عن يعقوب

"بكسر القاف" .

فعلى قراءة فتح القاف يكون مصدراً ميمياً ، و﴿ مستَودَع ﴾ كذلك ، ورفعهما على أنّه مبتدأ حُذف خبره ، تقديره : لكم أو منكم ، أو على أنّه خبر لمبتدأ محذوف تقديره : فأنتم مُستقرّ ومستودَع .

والوصف بالمصدر للمبالغة في الحاصل به ، أي فتفرّع عن إنشائكم استقرار واستيداع ، أي لكم .

وعلى قراءة كسر القاف يكون المستقرّ اسم فاعل .

والمستودَع اسم مفعول من استودعَه بمعنى أودعه ، أي فمستقِرّ منكم أقررناه فهو مستقرّ ، ومستودَع منكم ودّعناه فهو مستودَع .

والاستقرار هو القرار ، فالسّين والتّاء فيه للتّأكيد مثل استجاب .

يقال : استقرّ في المكان بمعنى قرّ .

وتقدّم عند قوله تعالى : ﴿ لكلّ نبأ مستقرّ ﴾ في هذه السورة [ 67 ] .

والاستيداع : طلب التّرك ، وأصله مشتقّ من الوَدْع ، وهو التّرك على أن يُسترجع المستوْدَعُ .

يقال : استودعه مالاً إذا جعله عنده وديعة ، فالاستيداع مؤذن بوضع موقّت ، والاستقرار مؤذن بوضع دائم أو طويل .

وقد اختلف المفسّرون في المراد بالاستقرار والاستيداع في هذه الآية مع اتّفاقهم على أنّهما متقابلان .

فعَن ابن مسعود : المستقَرّ الكون فوق الأرض ، والمستودَع الكون في القبْر .

*(146/243)*

---

وعلى هذا الوجه يكون الكلام تنبيهاً لهم بأنّ حياة النّاس في الدّنيا يعقبها الوضع في القبور وأنّ ذلك الوضع استيداع موقّت إلى البعث الّذي هو الحياة الأولى ردّاً على الّذين أنكروا البعث .

وعن ابن عبّاس : المستقرّ في الرّحم والمستودَع في صلب الرجل ، ونقل هذا عن ابن مسعود أيضاً ، وقاله مجاهد والضحّاك وعطاء وإبراهيم النخعي ، وفسّر به الزجّاج .

قال الفخر : وممّا يدلّ على قوّة هذا القول أنّ النّطفة الواحدة لا تبقى في صلب الأب زماناً طويلاً والجنين يبقى في رَحم الأمّ زماناً طويلاً .

وعن غير هؤلاء تفسيرات أخرى لا يثلج لها الصّدر أعرضنا عن التّطويل بها .

وقال الطّبري إنّ الله لم يخصّص معنى دون غيره ، ولا شكّ أنّ من بني آدم مستقرّاً في الرّحم ومستودَعاً في الصلب ، ومنهم من هو مستقرّ على ظهر الأرض أو بطنها ومستودَع في

أصلاب الرّجال ، ومنهم مستقرّ في القبر مستودَع على ظهر الأرض ، فكلّ مستقِرّ أو مستودع بمعنى من هذه المعاني داخل في عموم قوله : فمستقَرّ ومستودع ﴾ أ هـ .

وقال ابن عطيّة : الّذي يقتضيه النّظر أنّ ابن آدم هو مستودَع في ظهر أبيه وليس بمستقرّ فيه لأنّه ينتقل لا محالة ثمّ ينتقل إلى الرّحم ثمّ ينتقل إلى الدّنيا ثمّ ينتقل إلى القبر ثمّ ينتقل إلى الحشر ثمّ ينتقل إلى الجنّة أو النّار .

وهو في كلّ رتبة بين هذين الظرفين مستقِرّ بالإضافة إلى الّتي قبلها ومستودَع بالإضافة إلى الّتي بعدها أ هـ .

والأظهر أن لا يقيّد الاستيداع بالقبور بل هو استيداع من وقت الإنشاء ، لأنّ المقصود التّذكير بالحياة الثّانية ، ولأنّ الأظهر أنّ الواو ليست للتّقسيم بل الأحسن أن تكون للجمع ، أي أنشأكم فشأنكم استقرار واستيداع فأنتم في حال استقراركم في الأرض ودائع فيها ومرجعكم إلى خالقكم كما ترجع الوديعة إلى مودِعها .

وإيثار التّعبير بهذين المصدرين ما كان إلاّ لإرادة توفير هذه الجملة .

وعلى قراءة كسر القاف هو اسم فاعل .

*(147/243)*

﴿ ومستودع ﴾ اسم مفعول ، والمعنى هو هو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الأيات لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾

قال الفخر :

المراد من هذا التفصيل أنه بين هذه الدلائل على وجه الفصل للبعض عن البعض .

ألا ترى أنه تعالى تمسك أولاً بتكوين النبات والشجر من الحب والنوى ، ثم ذكر بعده التمسك بالدلائل الفلكية من ثلاثة وجوه ، ثم ذكر بعده التمسك بأحوال تكوين الإنسان فقد ميز تعالى بعض هذه الدلائل عن بعض ، وفصل بعضها عن بعض لقوم يفقهون ، وفيه أبحاث : الأول : قوله : ﴿ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ ظاهره مشعر بأنه تعالى قد يفعل الفعل لغرض وحكمة .

وجواب أهل السنة : أن اللام لام العاقبة ، أو يكون ذلك محمولاً على التشبيه بحال من يفعل الفعل لغرض .

والثاني : أن هذه الآية تدل على أنه تعالى أراد من جميع الخلق الفقه ، والفهم والإيمان .

وما أراد بأحد منهم الكفر .

وهذا قول المعتزلة .

وجواب أهل السنة : أن المراد منه كأنه تعالى يقول : إنما فصلت هذا البيان لمن عرف وفقه

وفهم ، وهم المؤمنون لا غير .

والثالث : أنه تعالى ختم الآية السابقة ، وهي الآية التي استدل فيها بأحوال النجوم بقوله : ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ وختم آخر هذه الآية بقوله : ﴿ يَفْقَهُونَ ﴾ والفرق أن إنشاء الإنس من واحدة ، وتصريفهم بين أحوال مختلفة ألطف وأدق صنعة وتدبيراً ، فكان ذكر الفقه ههنا لأجل أن الفقه يفيد مزيد فطنة وقوة وذكاء وفهم . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 85 ﴾

*(148/243)*

---

وقال الخازن :

﴿ قد فصلنا الآيات ﴾ قد بينّا الدلائل الدالة على التوحيد بالبراهين الواضحة والحجج القاطعة ﴿ لقوم يفقهون ﴾ يعني لقوم يفهمون عن الله آياته ودلائلة الدالة على توحيده لأن الفقه هو الفهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ﴾

لما كان الاهتداء بالنجوم واضحاً ختمه بقوله : ﴿ يعلمون ﴾ أي من له أدنى إدراك ينتفع

بالنظر في النجوم وفائدتها ، ولما كان الإنشاء من نفس واحدة والتصريف في أحوال كثيرة يحتاج إلى فكر وتدقيق نظر ختمه بقوله : ﴿ يفقهون ﴾ إذ الفقه هو استعمال فطنة ودقة نظر وفكر فناسب ختم كل جملة بما يناسب ما صدّر به الكلام . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

*(149/243)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيات ﴾ المبينة لتفاصيل خلق البشر ومن جملتها هذه الآية ﴿ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ معاني ذلك ، قيل : ذكر مع ذكر النجوم ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ [ الأنعام : 97 ] ومع ذكر إنشاء بني آدم ﴿ يَفْقَهُونَ ﴾ لأن الإنشاء من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوالهم المختلفة ألطف وأدق صنعة وتدبيراً فكان ذكر الفقه الذي هو استعمال فطنة وتدقيق نظر مطابقاً له ، وهو مبني على أن الفقه أبلغ من العلم ، وقيل : هما بمعنى إلا "أنه لما أريد فصل كل آية بفاصلة تنبيهاً على استقلال كل منهما بالمقصود من الحجة وكره الفصل بفاصلتين متساويتين لفظاً للتكرار عدل إلى فاصلة مخالفة تحسيناً للنظم ( وافتناناً ) في البلاغة .

وذكر ابن المنير وجهاً آخر في تخصيص الأولى بالعلم والثانية بالفقه وهو أنه لما كان المقصود

التعريض بمن لا يتدبر آيات الله تعالى ولا يعتبر بمخلوقاته وكانت الآيات المذكورة أولاً خارجة عن أنفس النظار ( ومنافية لها ) إذ النجوم والنظر فيها وعلم الحكمة الإلهية في تدبيره لها أمر خارج عن نفس الناظر ولا كذلك النظر في إنشائهم من نفس واحدة وتقليبهم في أطوار مختلفة وأحوال متغايرة فإنه نظر لا يعدو نفس الناظر ولا يتجاوزها فإذا تمهد هذا فجهل الإنسان بنفسه وأحواله وعدم النظر والتفكر فيها أبشع من جهله بالأمور الخارجة عنه كالنجوم والأفلاك ومقادير سيرها وتقلبها ، فلما كان الفقه أدنى درجات العلم إذ هو عبارة عن الفهم نفى ( بطريق التعريض عن أبشع القبيلتين ) جهلاً وهم الذين لا يتبصرون في أنفسهم ونفي الأدنى أبشع من نفي الأعلى فخص به أسوأ الفريقين حالاً و﴿ يَفْقَهُونَ ﴾ ههنا مضارع فقه الشيء بكسر القاف إذا فهمه ولو أدنى فهم ، وليس من فقه بالضم لأن تلك درجة عالية ومعناه صار فقيهاً .

*(150/243)*

---

ثم ذكر أنه إذا قيل : فلان لا يفقه شيئاً كان أذم في العرف من قولك : فلان لا يعلم شيئاً وكأن معنى قولك : لا يفقه شيئاً ليست له أهلية الفهم وإن فهم ، وأما قولك : لا يعلم شيئاً فغايته عدم حصول العلم له وقد يكون له أهلية الفهم والعلم لو تعلم .

واستدل على أن التارك للتفكر في نفسه أجهل وأسوأ حالاً من التارك للفكرة في غيره بقوله سبحانه : ﴿ وَفِى الأَرضِ ءايات لِّلْمُوقِنِينَ وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [ الذاريات : 20 ، 21 ] فخص التبصر في النفس بعد اندراجها فيما في الأرض من الآيات وأنكر على من لا يتبصر في نفسه إنكاراً مستأنفاً" والله تعالى أعلم بأسرار كلامه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ قد فصّلنا الآيات لقوم يفقهون ﴾ تقرير لنظيره المتقدّم مقصود به التّذكير والإعذار .

وعدل عن ( يعلمون ) إلى ﴿ يفقهون ﴾ لأنّ دلالة إنشائهم على هذه الأطوار من الاستقرار والاستيداع وما فيهما من الحكمة دلالة دقيقة تحتاج إلى تدبّر ، فإنّ المخاطبين كانوا معرضين عنها فعبّر عن علمها بأنّه فِقه ، بخلاف دلالة النّجوم على حكمة الاهتداء بها فهي دلالة متكرّرة ، وتعريضاً بأنّ المشركين لا يعلمون ولا يفقهون ، فإنّ العلم هو المعرفة الموافقة للحقيقة ، والفقه هو إدراك الأشياء الدّقيقة .

فحصل تفصيل الآيات للمؤمنين وانتفى الانتفاع به للمشركين ، ولذلك قال بعدَ هذا ﴿ إنّ في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ [ الأنعام : 99 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

---

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾

يعني : آدم عليه السلام : ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ قُرئ : ﴿ مُسْتَقَرٌّ ﴾ بفتح القاف وكسرها ، وأما : ﴿ مُسْتَوْدَعٌ ﴾ فبفتح الدال لا غير . وهما على الأول ، إما مصدران ، أي : فلكم استقرار واستيداع ، أو اسما مكان ، أي : موضع استقرار استيداع .

والاستقرار إما في الأصلاب ، أو فوق الأرض ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ [ البقرة : 36 ] . أو في الأرحام ، لقوله تعالى : ﴿ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ ﴾ [ الحج : 5 ] أو الاستيداع في الأرحام ، فجعل الصلب مستقرّ النطفة ، والرحم مستودعها ، لأنها تحصل في الصلب ، لا من قبل شخص آخر ، وفي الرحم من قبل الأب ، فأشبهت الوديعة ، كأن الرجل أودعها ما كان عنده ، أو في الأصلاب ، أو تحت الأرض ، أو فوقها ، فإنها عليها ، أو وضعت فيها لتخرج منها مرة أخرى كقوله :

~وما المال والأهلون إلا ودائعُ ولا بدَّ يوماً أن تردّ الودائعُ

ونقل الرازي عن الأصمّ أن المستقر من خُلِقَ من النفس الأولى ، ودخل الدنيا واستقر فيها . والمستودع الذي لم يخلق بعد وسيخلق . وجعل الأصفهاني ( المستقر ) كناية عن الذَّكَرَ ، و ( المستودع ) كناية عن الأنثى . قال : إنما عبر عن الذكر بـ ( المستقر ) لأن النطفة إنما تتولد في صلبه ، وإنما تستقر هناك . وعبر عن الأنثى بـ ( المستودع ) لأن رحمها شبيهة بالمستودع لتلك النطفة – والله أعلم – .

وعلى قراءة ( مستقر ) بكسر القاف اسم فاعل ، أي : فمنكم قارّ ، ومنكم مستودع ، ووجه كون الأول معلوماً . والثاني مجهولاً ، كون الاستقرار صادراً منّا دون الاستيداع .

*(152/243)*

---

قال الرازيّ : مقصود الآية أن الناس إنما تولدوا من شخص واحد وهو آدم عليه السلام ، ثم اختلفوا في المستقر والمستودع بحسب الوجوه المذكورة فنقول : الأشخاص الإنسانية متساوية في الجسمية ، ومختلفة في الصفات التي باعتبارها حصل التفاوت في المستقر والمستودع . والاختلاف في تلك الصفات لا بدّ له من سبب ومؤثر ، وليس السبب هو الجسمية ولوازمها ، وإلاّ لامتنع حصول التفاوت في الصفات ، فوجب أن يكون السبب هو الفاعل المختار الحكيم . ونظير هذه الآية في الدلالة قوله تعالى : ﴿ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ

وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ [ الروم : 22 ] .

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ قال الزمخشري : فإن قلت ، لم قيل ( يعلمون ) مع ذكر النجوم ، و ( يفقهون ) مع ذكر إنشاء بني آدم ؟ قلت : كان إنشاء الإنس من نفس واحدة ، وتصريفهم بين أحوال مختلفة ألطف وأدق صنعة وتدبيراً . فكان ذكر الفقه الذي هو استعمال فطنة وتدقيق نظر ، مطابقاً له . انتهى –وهذا بناء على أن الفقه شدة الفهم والفطنة ، ومن قال : إنه الفهم مطلقاً ، وليس بأبلغ من العلم – قال : إنه تفنن ، حذراً من صورة التكرير .

قال الناصر في " الانتصاف " : جواب الزمخشريّ صناعي ، وإلا فلا يتحقق هذا التفاوت ، ولا سبيل إلى الحقيقة .

*(153/243)*

---

قال : والتحقيق أنه لما أريد فصل كليهما بفاصلة تنبيهاً على استقلال كل واحدة منهما بالمقصود من الحجة كره فصلهما بفاصلتين متساويتين في اللفظ ، لما في ذلك من التكرار ، فعدل إلى فاصلة مخالفة ، تحسيناً للنظم ، واتساقاً في البلاغة ، ويحتمل وجها آخر في تخصيص الأولى بالعلم ، والثانية بالفقه ، وهو أنه لما كان المقصود التعريض بمن لا يتدبر آيات

الله ، ولا يعتبر بمخلوقاته ، وكانت الآيات المذكورة أولاً خارجة عن أنفس النظار ومنافية لها ، إذا النجوم والنظر فيها ، وعلم الحكمة الإلهية في تدبيره لها ، أمر خارج عن نفس الناظر ، ولا كذلك النظر في إنشائهم من نفس واحدة ، وتقابلتهم في أطوار مختلفة ، وأحوال متغايرة فإنه نظرٌ لا يعدو نفس الناظر ، ولا يتجاوزها . فإذا تمهد ذلك . فجهل الإنسان بنفسه وأحواله ، وعدم النظر فيها والتفكر ، أبشع من جهله بالأمور الخارجية عنه ، كالنجوم والأفلاك ، ومقادير سيرها وتقلبها . فلما كان الفقه أدنى درجات العلم ، إذ هو عبارة عن الفهم ، نفي من أبشع القبيلين جهلاً ، وهم الذين لا يتبصرون في أنفسهم ، ونفي الأدنى أبشع من نفي الأعلى درجة ، فخص به أسوأ الفريقين حالاً . و ( يفقهون ) ههنا مضارع فقه الشيء -بكسر القاف -إذا فهمه ، ولو أدنى فهم . وليس من ( فقُه ) بضم القاف ، لأن تلك درجة عالية ، ومعناه صار فقيهاً -قاله الهروي في معرض الاستدلال على أن ( فقه ) أنزل من ( علم ) - . وفي حديث سلمان أنه قال ، وقد سألته امرأة جاءته : فَقِهَتْ أي : فَهِمَتْ ، كالمتعجب من فهم المرأة عنه . وإذا قيل : فلان لا يفقه شيئاً كان أذمّ في العرف من قول : فلان لا يعلم شيئاً . وكأن معنى قولك : ( لا يفقه شيئاً ) ليست له أهلية الفهم وإن فهِم . وأما قولك ( لا يعلم شيئاً ) فغايته نفي حصول العلم له ، وقد يكون له أهلية الفهم والعلم ، لو يعلّم . والذي يدل على أن التارك للفكرة في نفسه أجهل وأسوأ حالاً من التارك

(154/243)

---

للفكرة في غيره قوله تعالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ فخص التبصر في النفس بعد اندراجها فيما في الأرض من الآيات ، وأنكر على من لا يتبصر في نفسه إنكاراً مستأنفاً . وقولنا ، في أدراج الكلام : ( إنه نفي العلم عن أحد الفريقين ، ونفي الفقه عن الآخر ) يعني : بطريق التعريض ، حيث خص العلم بالآيات المفصلة ، والتفقه فيها بقومٍ . فأشعر أن قوماً غيرهم لا علم عندهم ، ولا فقه – والله الموفق – فتأمل هذا الفصل ، وإن طال بعض الطول ، فالنظر في الحسن غير مملول . انتهى . وهذا من دقة النظر في الكتاب العزيز ، وإبراز محاسنه ولطائفه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 450.453 ﴾

(155/243)

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾

وقد تكلم سبحانه لنا – أولاً – عن الآيات المحيطة بنا والتي بها قوام حياتنا من فلق الحب والنوى ، وبعد ذلك تكلم عن الشمس والقمر ، ثم تكلم عن النجوم ، كل هذه آيات حولنا ، ثم يتكلم عن شيء في ذواتنا ليكون الدليل أقوى ، إنه – سبحانه – يأتي لك بالدليل في ذاتك وفي نفسك ؛ لأن هذا الدليل لا يحتاج منك إلى أن تمد عينيك إلى ما حولك ، بل الدليل في ذاتك ونفسك ، يقول سبحانه : ﴿ وفي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [ الذاريات : 21 ]

.

أي يكفي أن تجعل من نفسك عَالَماً ، هذا العلم موجود فيه كل ما يثبت قدرة الحق ، وأحقيته بأن يكون إلهاً واحداً ، وإلهاً معبوداً .

﴿ وَهُوَ الذي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ ينطبق على هذا القول أنه إخبار من الله ، وأنه – أيضاً – استقراء في الوجود ، الذي نسميه التنازل للماضي ؛ لأنك لو نظرت إلى عدد العالم في هذا القرن ، ثم نظرت إلى عدد العالم في القرن الذي مضى تجده نصف هذا العدد ، وإذا نظرت إليه في القرن الذي قبله ، تجده ربع تعداد السكان الحاليين . وكلما توغلت في الزمن الماضي وتذهب فيه وتبعد ، يقل العدد ويتناهى إلى أن نصل إلى ﴿ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ ، وهذا ما ذكره الله لنا ، ولقائل أن يقول : كيف تكون نفساً واحدة وهو القائل : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [ الذاريات : 49 ] .

ونقول : إن الحق سبحانه وتعالى خلق النفس الواحدة ، وأوضح أيضاً أنه خلق من النفس الواحدة زوجها ، ثم بدأ التكاثر . إذن فالاستقراء الإحصائي في الزمن الماضي يدل على صدق القضية . وكذلك كل شيء متكاثر في الوجود من نبات ومن حيوان . تجدها تواصل التكاثر وإن رجعت بالإحصاء إلى الماضي تجد أن الأعداد تقل وتقل إلى أن تنتهي إلى أصل منه التكاثر إنّه يحتاج إلى اثنين : ﴿ سُبْحَانَ الذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا ﴾ [ يس : 36 ] .

ولماذا جاء الحق هنا بقوله : ﴿ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ ولم يقل زوجين ؟ أوضح العلماء أن ذلك دليل على الالتحام الشديد ؛ لأننا حين نكون من نفس واحدة فكلنا – كل الخلق – فيها أبعاض من النفس الواحدة ، وقلنا من قبل : إننا لو أتينا بسنتيمتر مكعب من مادة ملونة حمراء مثلاً ثم وضعناها في قارورة ، ثم رججنا القارورة نجد أن السنتيمتر المكعب من المادة الحمراء قد ساح في القارورة وصار في كل قطرة من القارورة جزء من المادة الملونة ، وهب أننا أخذنا القارورة ووضعناها في برميل ، ثم رججنا البرميل جيداً سنجد أيضاً أن في كل قطرة من البرميل جزءاً من المادة الملونة ، فإذا أخذنا البرميل ورميناه في البحر

فستنساب المادة الملونة ليصير في كل قطرة من البحر ذرة متناهية من المادة الملونة .

إذن ما دام آدم هو الأصل ، وما دمنا ناشئين من آدم ، وما دام الحق قد أخذ حواء من آدم الحي فصارت حية ، إذن فحياتها موصولة بآدم وفيها من آدم ، وخرج من آدم وحواء أولاد فيهم جزء حي ، وبذلك يردنا الحق سبحانه إلى أصل واحد ؛ ليثير ويحرك فينا أصول التراحم والتواد والتعاطف .

ويقول سبحانه : ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ والمستقر له معان متعددة يشرحها الحق سبحانه وتعالى في قرآنه . وفي قصة عرش بلقيس نجد سيدنا سليمان يقول : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ﴾ [ النمل : 38 ] .

(157/243)

---

وأجاب على سيدنا سليمان عفريت من الجن ، وكذلك أجاب من عنده علم من الكتاب . ويقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ ﴾ [ النمل : 40 ] .

مستقر هنا إذن تعني حاضراً ؛ لأن العرش لم يكن موجوداً بالمجلس بل أحضر إليه . وفي مسألة الرؤية التي شاءها الحق لسيدنا موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي ولكن انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ [ الأعراف : 143

] .

ونعلم أن جبريل كان له استقرار قبل الكلام ، إذن ف " استقر " تأتي بمعنى حضر ، وتأتي مرة أخرى بمعنى ثبت .

والحق يقول : ﴿ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ [ الأعراف : 24 ] .

وذلك بلاغ عن مدة وجودنا في الدنيا ، وكذلك يقول الحق : ﴿ أَصْحَابُ الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً ﴾ [ الفرقان : 24 ] .

إذن فالجنة أيضاً مستقر ، وكذلك النار مستقر للكافرين ، يقول عنها الحق : ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ [ الفرقان : 66 ] .

إذن فمستقر تأتي بمعنى حاضر ، أو ثابت ، أو كتعبير عن مدّة وزمن الحياة في الدنيا ، والجنة أيضاً مستقر ، وكذلك النار . ولذلك اختلف العلماء ونظر كل واحد منهم إلى معنى ، منهم من يقول : " مستقر " في الأصلاب ثم استودعنا الحق في الأرحام . ومنهم من رأى أن " مستقر " مقصود به البقاء في الدنيا ثم نستودع في القبور .

ونقول : إن الاستقرار أساسه " قرار " حضور أو ثبات ، وكل شيء بحسبه ، وفيه استقرار يتلوه استقرار يتلوه استقرار إلى أن يوجد الاستقرار الأخير ، وهو ما يطمع فيه المؤمنون .

وهذا هو الاستقرار الذي ليس من بعده حركة ، أما الاستقرار الأول في الحياة فقد يكون فيه تغير من حال إلى حال ، لقد كنا مستقرين في الأصلاب ، ثم بعد ذلك استودعنا الحق في الأرحام ، وكنا مستقرين في الدنيا ثم استودعنا . في القبور . حتى نستقر في الآخرة . إن كل عالم من العلماء أخذ معنى من هذه المعاني . والشاعر يقول :

وما المال والأهلون إلا ودائع . . . ولا بد يوماً أن ترد الودائع

ونلحظ أن هناك كلمة " مُسْتَقَرّ " وكلمة " مستودع " ، و" مستودع " هو شيء أوقع غيره عليه أن يودع . ولكن " مُسْتَقَرّ " دليل على أن المسألة ليست خاضعة لإرادة الإنسان . فكل واحد منا " مُسْتَقَرّ " به .

ويقول الحق : ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ والتفصيل يعني أنه جاء بالآيات مرة مفصلة ومرة مجملة ؛ لأن الأفهام مختلفة ، وظروف الاستقبال للمعاني مختلفة ، فتفصيل الآيات أريد به أن يصادف كل تفصيل حالة من حالات النفس البشرية ؛ لذلك لم يترك الحق لأحد مجالاً في ألا يفقه ، ولم يترك لأحد مجالاً في ألا يتعلم ، ونلحظ أن تذييل الآيتين المتتابعتين مختلف ؛ فهناك يقول سبحانه :

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [ الأنعام : 97 ] .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ [ الأنعام : 98 ] .

و" الفقه " هو أن تفهم ، أي أن يكون عندك ملكة فهم تفهم بها ما يقال لك علْماً ، فالفهم أول مرحلة والعلم مرحلة تالية .

وأراد الحق بالتفصيل الأول في قوله : ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ الدعوة للنظر في آيات خارجة عن ذات الإنسان ، وهنا أي في قوله سبحانه : ﴿ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ لفت للنظر والتدبر في آيات داخلة في ذات الإنسان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(159/243)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (97) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (98) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن عباس في قوله ﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ﴾ قال : يضل الرجل وهو الظلمة والجور عن الطريق .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر والخطيب في كتاب النجوم عن عمر بن الخطاب قال :

تعلموا من النجوم ما تهتدون به في بركم وبحركم ثم امسكوا ، فإنها والله ما خلقت إلا زينة للسماء ورجوماً للشياطين وعلامات يهتدى بها ، وتعلموا من النسبة ما تصلون به أرحامكم ، وتعلموا ما يحل لكم من النساء ويحرم عليكم ثم امسكوا .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والخطيب في كتاب النجوم عن قتادة قال : إن الله إنما جعل هذه النجوم لثلاث خصال : جعلها زينة للسماء ، وجعلها يهتدي بها ، وجعلها رجوماً للشياطين ، فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال رأيه ، وأخطأ حظه ، وأضاع نصيبه ، وتكلف ما لا علم له به ، وإن ناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة ، من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ، ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود والطويل والقصير والحسن والدميم ، ولو أن أحداً علم الغيب لعلمه آدم الذي خلقه الله بيده ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه أسماء كل شيء .

وأخرج ابن مردويه والخطيب عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " تعلموا من النجوم ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر ثم انتهوا " .

*(160/243)*

وأخرج الخطيب عن مجاهد قال : لا بأس أن يتعلم الرجل من النجوم ما يتهتدي به في البر والبحر ، ويتعلم منازل القمر .

وأخرج ابن أبي حاتم والمرهبي في فضل العلم عن حميد الشامي قال : النجوم هي علم آدم عليه السلام .

وأخرج المرهبي عن الحسن بن صالح قال : سمعت عن ابن عباس أنه قال : ذلك علم ضيعه الناس النجوم .

وأخرج الخطيب عن عكرمة . أنه سأل رجلاً عن حساب النجوم وجعل الرجل يتحرج أن يخبره ؟ فقال : عكرمة : سمعت ابن عباس يقول : علم عجز الناس عنه ، وددت أني علمته ! قال الخطيب : مراده الضرب المباح الذي كانت العرب تختص به .

وأخرج الزبير بن بكار في الموفقيات عن عبد الله بن حفص قال : خصت العرب بخصال بالكهانة والقيافة والعيافة والنجوم والحساب ، فهدم الإِسلام الكهانة وثبت الباقي بعد ذلك .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن القرظي قال : والله ما لأحد من أهل الأرض في السماء من نجم ولكن يتبعون الكهنة ، ويْتخذون النجوم علة .

وأخرج أبو داود والخطيب عن سمرة بن جندب أنه خطب ، فذكر حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال " أما بعد فإن ناساً يزعمون أن كسوف الشمس ، وكسوف

هذا القمر ، وزوال هذه النجوم عن مواضعها لموت رجال عظماء من أهل الأرض ، وإنهم قد كذبوا ولكنها آيات من آيات الله يعتبر بها عباده لينظر من يحدث له منهم توبة " .

وأخرج الخطيب عن عمر بن الخطاب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " لا تسألوا عن النجوم ، ولا تفسروا القرآن برأيكم ، ولا تسبوا أحداً من أصحابي ، فإن ذلك الايمان المحض " .

وأخرج ابن مردويه والخطيب عن علي قال " نهاني رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النظر في النجوم ، وأمرني باسباغ الطهور " .

وأخرج ابن مردويه والمرهبي والخطيب عن أبي هريرة قال " نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النظر في النجوم " .

وأخرج الخطيب عن عائشة قالت " نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النظر في النجوم " .

*(161/243)*

---

وأخرج الطبراني وأبو نعيم في الحلية والخطيب عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا ذكر أصحابي فامسكوا ، وإذا ذكر القدر فامسكوا ، وإذا ذكر

النجوم فامسكوا " .

وأخرج أبو يعلى وابن مردويه والخطيب عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أخاف على أمتي خصلتين : تكذيباً بالقدر وتصديقاً بالنجوم ، وفي لفظ : وحذقا بالنجوم " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم " من اقتبس علماً من النجوم أقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد " .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف وابن أبي شيبة والخطيب عن ابن عباس قال : إن قوماً ما ينظرون في النجوم ويحسبون ابراجاً ، وما أرى الذين يفعلون ذلك من خلاق .

وأخرج الخطيب عن ميمون بن مهران قال : قلت لابن عباس أوصني . قال : أوصيك بتقوى الله وإياك وعلم النجوم فإنه يدعو إلى الكهانة ، وإياك أن تذكر أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بخير فَيُكِبُّكَ الله على وجهك في جهنم فإن الله أظهر بهم هذا الدين ، وإياك والكلام في القدر فإنه ما تكلم فيه اثنان إلا اثماً أو اثم أحدهما .

وأخرج الخطيب في كتاب النجوم بسند ضعفه عن عطاء قال : قيل لعلي بن أبي طالب : هل كان للنجوم أصل ؟ قال : نعم ، كان نبي من الأنبياء يقال له يوشع بن نون . فقال له قومه : انا لا نؤمن بك حتى تعلمنا بدء الخلق وآجاله ، فأوحى الله تعالى إلى غمامة فأمطرتهم ، واستنقع على الجبل ماء صافياً ، ثم أوحى الله إلى الشمس والقمر والنجوم أن تجري في

ذلك الماء ، ثم أوحى إلى يوشع بن نون أن يرتقي هو وقومه على الجبل ، فارتقوا الجبل فقاموا على الماء حتى عرفوا بدء الخلق وآجاله ، بمجاري الشمس والقمر والنجوم ، وساعات الليل والنهار ، فكان أحدهم يعلم متى يموت ، ومتى يمرض ، ومن ذا الذي يولد له ، ومن ذا الذي لا يولد له .

*(162/243)*

---

قال : فبقوا كذلك برهة من دهرهم ، ثم إن داود عليه السلام قاتلهم على الكفر ، فأخرجوا إلى داود في القتال من لم يحضر أجله ، ومن حضر أجله خلفوه في بيوتهم ، فكان يقتل من أصحاب داود ولا يقتل من هؤلاء أحد ، فقال داود رب ها أنا أقاتل على طاعتك ويقاتل هؤلاء على معصيتك ، فيقتل أصحابي ولا يقتل من هؤلاء أحد ؟ ! فأوحى الله إليه : أني كنت علمتهم بدء الخلق وآجاله ، وإنما أخرجوا إليك من لم يحضر أجله ، ومن حضر أجله خلفوه في بيوتهم ، فمن ثم يقتل من أصحابك ولا يقتل منهم أحد .

قال داود : يا رب على ماذا علمتهم ؟ قال : على مجاري الشمس والقمر والنجوم ، وساعات الليل والنهار ، فدعا الله فحبست الشمس عليهم ، فزاد في النهار فاختلطت الزيادة بالليل والنهار ، فلم يعرفوا قدر الزيادة فاختلط عليهم حسابهم . قال علي رضي الله

عنه : فمن ثم كره النظر في النجوم .

وأخرج المرهبي في فضل العلم عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال : لما فتح الله على نبيه صلى الله عليه وسلم خيبر دعا بقوسه واتكأ على سيتها ، وحمد الله وذكر ما فتح الله على نبيه ونصره ، ونهى عن خصال عن مهر البغي ، وعن خاتم الذهب ، وعن المياثر الحمر ، وعن لبس الثياب القسي ، وعن ثمن الكلب ، وعن أكل لحوم الحمر الأهلية ، وعن الصرف الذهب بالذهب والفضة بالفضة بينهما فضل ، وعن النظر في النجوم " .

وأخرج المرهبي عن مكحول قال : قال ابن عباس : لا تُعَلِمْ النجوم فانها تدعوا إلى الكهانة .

وأخرج ابن مردويه من طريق الحسن عن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لقد طهر الله هذه الجزيرة من الشرك ما لم تضلهم النجوم " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن متعلم حروف أبي جاد وراء في النجوم ليس له عند الله خلاق يوم القيامة " .

أما قوله تعالى : ﴿ وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة ﴾ .

*(163/243)*

أخرج ابن مردويه عن أبي أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " نصب آدم بين يديه ثم ضرب كتفه اليسرى ، فخرجت ذريته من صلبه حتى ملأوا الأرض " .

قوله تعالى : ﴿ فمستقر ومستودع ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس في قوله ﴿ فمستقر ومستودع ﴾ قال : المستقر ما كان في الرحم ، والمستودع ما استودع في أصلاب الرجال والدواب .

وفي لفظ : المستقر ما في الرحم وعلى ظهر الأرض وبطنها مما هو حي ومما قد مات . وفي لفظ : المستقر ما كان في الأرض ، والمستودع ما كان في الصلب .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن مسعود في قوله ﴿ فمستقر ومستودع ﴾ قال : مستقرها في الدنيا ومستودعها في الآخرة .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبراني عن ابن مسعود قال : المستقر الرحم ، والمستودع المكان الذي تموت فيه .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن مسعود قال : إذا كان أجل الرجل بأرض أتيحت له إليها الحاجة ، فإذا بلغ أقصى أثره قبض . فتقول الأرض يوم القيامة : هذا ما استودعتني .

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن وقتادة في قوله ﴿ فمستقر ومستودع ﴾ قالا : مستقر في

القبر ، ومستودع في الدنيا أوشك أن يلحق بصاحبة .

وأخرج أبو الشيخ عن عوف قال : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أنبئت بكل مستقر ومستودع من هذه الأمة إلى يوم القيامة كما علم آدم الأسماء كلها . "

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : من اشتكى ضرسه فليضع يده عليه وليقرأ ﴿ وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة ﴾ الآية .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم ﴿ فمستقر ﴾ بنصب القاف .

وأخرج عبد الرزاق عن سعيد بن جبير قال : قال لي ابن عباس : أتزوجت ؟ قلت لا ، وما ذاك في نفسي اليوم . قال : إن كان في صلبك وديعة فستخرج .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ قد فصلنا الآيات ﴾ يقول : بينا الأيات ﴿ لقوم يفقهون ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

*(164/243)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " فَمُسْتَقَرٌّ " قرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر القاف ، والباقون بفتحها ، وأما " مُسْتَوْدَعٌ

" فالكل قرأه مفتوح الدال ، وقد روى الأعور عن أبي عمروا بن العلاء كسرها فمن كسر القاف جعل " مُسْتَقَرّاً " اسم فاعل ، والمراد به الأشْخَاصُ ، وهو مبتدأ محذوف الخبر ؛ أي : فمنكم مُسْتَقَرٌّ ؛ إما في الأصلاب ، أو البطون ، أو البقور ، وعلى هذه القراءة تتناسقُ " ومستودع " بفتح الدال .

وجوز أبو البقاء في " مُسْتَقِرٌّ " بكسر القاف أن يكون مَكَاناً وبه بدأ .

قال : " فيكون مكاناً يستقر لكم " انتهى .

يعني : والتقدير : ولكم مكان يستقر ، وهذا لي بظاهر أَلَبَتَّة ؛ إذ المكان لا يوصف بكونه مُسْتَقِرّاً بكسر القاف ، بل بكونه مُسْتَقَراً فيه .

وأما " مستودَع " بفتحها ، فيجوز أن يكون اسم مفعول ، وأن يكون مكاناً ، وأن يكون مصدراً ، فيقدر الأوّل : فمنكم مستقر في الأصلاب ، ومستودع في الأرحام ، أو مستقر في الأرض ظاهراً ، ومستودع فيها باطناً ، ويقدر للثاني : فمنكم متسقر ، ولكن مكان تستودعون فيه ، ويقدر للثالث : فمنكم مستقر ولكم استيداع .

وأما من فَتَحَ القاف فيجوز فيه وجهان فقط : أن يكون مكاناً ، وأن يكون مصدراً ، أي : فلكم مكان تَسْتَقِرُّونَ فيه ، وهو الصُّلْب ، أو الرحم ، أو الأرض ، أو لكم استقرار فيما تقدَّم ، ويقص أن يكون اسم مفعول ، لأن فعله قاصر لا يُبْنى منه اسم مفعول به [ فيكون اسم مكان والمتسقر بمنزله المقر ؛ وإن كان كذلك لم يجز أن يكون خبر المضمر " منكم " بل

يكون خبره " لكم " فالتقدير لكم مقر بخلاف ] مستودع حيث جاز فيه الأوجه الثلاثة .

وتوجيه قرءاة أبي عمرو في رواية الأعور عنه في " مستودع " بالكسر على أن يجعل الإنسانُ كأنه مُسْتَوْدِعُ رزقه وأجله حتى إذا نَفِدَا كأنه رَدَّهُمَا وهو مجاز حَسَنٌ ، ويقوي ما قلته قول الشاعر : [ الطويل ]

2267 - وَمَا المَالُ والأَهْلُونَ إلاَّ وَدِيعَة . . .

*(165/243)*

---

وَلاَ يَوْماً أَنْ تُرَدَّ الوَدَائِعُ

والإِنْشَاءُ : الإِحْدَاثُ والتربية ، ومنه : إنشاء السحاب ، وقال تبارك وتعالى : ﴿ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الحلية ﴾ [ الزخرف : 18 ] فهذا يُرَادُ به التربية ، وأكثر ما يستعمل الإنشاء في إحْداثِ الحيوان ، وقد جاء في غيره قال تبارك وتعالى : ﴿ وَيُنْشِىءُ السحاب الثقال ﴾ [ الرعد : 12 ] .

والإِنْشَاءُ : قَسِيمُ الخَبَرِ ، وهو ما لم يكن له خَارِجٌ ، وهل هو مندرج في الطَّلَب أو بالعكس ، أو قسم برأسه ؟ خلاف .

وقيل على سبيل التقريب : هو مقارنة اللفظ لمعناه .

قال الزمخشري : " فإن قلت : فلم قيل : " يعلمون " مع ذكر النجوم ، و" يفقهون " مع ذكر إنشاء بني آدم ؟

قلت : كأن إنْشَاءَ الإنْسِ من نَفْسٍ واحدة ، وتصريفهم على أحوالهم مختلفة أَلْطَفُ وأدَقُّ صنعة وتدبيراً ، فكان ذكر الفِقْهِ الذي هو استعمال فِطْنَةٍ ، وتَدْقِيقُ نَظَرٍ مُطابقاً له " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 315.316 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (98) ﴾

ذكَّرهم وصفهم حين خَلَقَهم من آدم عليه السلام . وكما أن للنفوس والأبشار مستقراً ومستودعاً فللأسرار والضمائر مستقر ومستودع ، فَمِنْ عَبْدٍ مُسْتَقَرٌّ قلبه أوطانُ الشهواتِ والمنى ، ومن عبدٍ مستقره موقع الزهد والتُّقى ، ومن عبدٍ مستقره – حيث لا مسكن ولا مأوى – وراء الورى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 491 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (99) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر وجوه الإبداع التفريعي من هذين الكونين وأسباب البقاء له بما ينشأ عنه الفصول وغيرها ، أتبعه سببه القريب ، وهو الماء الذي جعل منه كل شيء حي ، فقال مفصلاً ما أجمله في الحب والنوى ، سائقاً له مساق الإحسان لما قبله من الدلائل ، فإن الدليل إذا كان على وجه الإحسان ومذكراً بالإنعام كان تأثيره في القلب عظيماً ، فينبغي للمشتغل بدعوة الخلق أن يسلك هذا المسلك ليكون للقلوب أملك : ﴿ وهو ﴾ أي لا غيره ﴿ الذي أنزل ﴾ أي بقدرته وعلمه وحكمته ﴿ من السماء ﴾ أي الحقيقية التي تعرفونها كما دل عليه صريح العبارة وما أشبهها من ذكور الحيوان المنبه عليه بطريق الإشارة ﴿ ماء ﴾ أي منهمراً ودافقاً .

ولما كان تفريع الخلق من الماء بمكان من العظمة لا يوصل إليه ، نبه عليه بالانتقال إلى التكلم

في مظهر العظمة فقال : ﴿ فأخرجنا ﴾ أي على ما لنا من العظمة التي لا يدانيها أحد ﴿ به ﴾ أي الماء ﴿ نبات كل شيء ﴾ مختلفة طعومه وألوانه

(167/243)

---

وروائحه وطبائعه ومنافعه وهو بماء واحد ، فالسبب واحد والمسببات كثيرة منفتة ، سواء كان ذلك النبات حقيقياً من النجم والشجر ، أو مجازياً من الأنثى والذكر ؛ ثم سبب عن الحقيقي لظهوره قوله دالاً على العظمة : ﴿ فأخرجنا منه ﴾ أي النبات ﴿ خضراً ﴾ أي شيئاً أخضر غضاً طرياً ، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة ؛ ثم زاد في بيان عظمته بقوله : ﴿ نخرج ﴾ أي حال كوننا مقدرين أن نخرج ﴿ منه ﴾ أي من ذلك الخضر ﴿ حباً متراكباً ﴾ أي في السنبل يركب بعضه بعضاً ويحرسه من أن يلتقطه الطير بعد ستره بالقشر بجسك طويل لطيف جداً كالإبر خشن ، بعد أن كان أصله حبة واحدة على صورتها ، أو منفتة في التراب بعد أن طوّره سبحانه في عدة أطوار ، إن فاعل ذلك لقادر مختار .

ولما كان نسبة الإخراج والإبداع إليه سبحانه وحده في مظهر العظمة خصوصاً وعموماً ، فعلم أن الكل منه ، وصار الحال في حد من الوضوح جدير بأن يؤمن من نسبة شيء إلى غيره

لا سيما الذي هم له معالجون ، وبالعجز عن إبداعه عالمون ، وبدأ بما بدأ به أولاً في آية الفلق من الحب ؛ ثنى بما من النوى ، فقال معبراً لذلك الأسلوب : ﴿ ومن النخل ﴾ وتقديم الحب عليه هنا وفيما قبل يدل على أن الزرع أفضل منه ، فإنه قوت في أكثر البلاد ولأغلب الحيوانات والغذاء مقدم على الفاكهة ؛ فإنها خلقت من طينة آدم ؛ ثم أبدل مما أجمل من ذلك قوله مبيناً : ﴿ من طلعها ﴾ أي النخل ، وهو أول ما يخرج منها في أكمامه ﴿ قنوان ﴾ جمع قنو ، وهو العذق بالكسر للشمراخ وهو الكباسة ، والعرجون عوده الذي يكون فيه البسر ﴿ دانية ﴾ أي قريبة التناول وإن طال أصلها بما علمكم وسهل لكم من صنعة الوصول إليها .

*(168/243)*

---

ولما لم يكن لهم من معالجة الأعناب وغيرها ما لهم من معالجة النخيل ، عطف على " نبات " منبهاً لهم على أنها – كالنخيل – هو سبحانه المتفرد بإبداعها كما تقدم – فقال : ﴿ وجنات ﴾ أي بساتين ﴿ من أعناب ﴾ وجمعها لكثرة أنواعها ، وبدأ بهاتين الشجرتين لفضلهما كما تقدم على غيرهما ، لأن ثمرهما فاكهة وقوت ، وقدم الأول لأنهم له أكثر ملابسة ، وإن كان العنب أشرف أنواع الفواكه ، فإنه ينتفع به من أول ظهوره لأنه أولاً يكون له خيوط

خضر دقيقة حامضة لذيذة ، ثم تكون الحصرم ، وهو طعام شريف للأصحاء والمرضى ، وقد يتخذ منه رُبّ الحصرم وأشربة لطيفة المذاق نافعة لأصحاب الصفراء ، ويطبخ منه ألذ الأطعمة الحامضة ، وهو عنباً ألذ الفواكه وأشهاها ، ويدخر عنباً قريباً من سنة ، ويكون زبيبه غذاء ، ويكون منه الدِبس والخل وغير ذلك ، وأحسن ما فيه عجمه ، وهو يتخذ منه جوارشات عظيمة النفع للمعدة الضعيفة الرطبة وقدم النخيل لأنها قوت للعرب ، وبينها وبين الإنسان مشابهة في خواص كثيرة لا توجد في النبات ، ولذا جاء في الحديث " أكرموا عمتكم النخلة ، فإنها خلقت من طينة آدم عليه السلام ، وليس من الشجر يلقح غيرها " – رواه أبو يعلى وأبو نعيم في الحلية وأبو الشيخ عن علي رضي الله عنه ؛ وأتبعهما ما يليهما في الفضيلة فقال : ﴿ والزيتون ﴾ وقدمه لكثرة نفعه ، وينفصل منه دهن عظيم النفع في الأكل والضياء وسائر وجوه الاستعمال ﴿ والرمان ﴾ ختم به لحسنه وعظيم نفعه ، وهو مركب من أربعة أشياء : قشره وشحمه وعجمه ومائه ، فالثلاثة الأول باردة يابسة أرضية كثيفة عفصية قائضة جداً ، والماء بضدها وهو ألذ الأشربة وألطفها وأقربها إلى الاعتدال وأشدها مناسبة للطبع المعتدل ، وفي ذلك تقوية للمزاج الضعيف ، وهو غذاء من وجه ودواء من وجه .

*(169/243)*

ولما ذكر الأقوات من الثمار والحبوب والأدهان وأشرف الفواكه وأعمها ، وكانت أشبه شيء بالآدمي في نشئه وبعثه واتفاقه واختلافه ، وكان اشتباه بعضها واختلاف بعضها – مع كونها تسقى بماء واحد وفي أرض واحدة – دالاً على القدرة والاختيار ، وكان السياق لإثبات الوحدانية ونفي الشريك بإثبات كمال القدرة التي هي منفية عن غيره ، فلا يصح أن يكون له شريك ، لأنه لا يكون إلا مشابهاً لشريكه كمال المشابهة فيما وقعت الشركة فيه ، وللبعث فكان المراد التفكر في ظواهرها وتقلباتها من العدم إلى الوجود وبعد الوجود ، ولحاجة أهل الكتاب الموسومين بالعلم المنسوبين إلى حدة الأذهان وغيرهم من الفرق ، وكان افتعل يأتي للتعريف ، وهو المبالغة في إثبات أصل الفعل والاجتهاد في تحصيله والاعتمال ، فكان حصوله إذا حصل أكمل ، قال بانياً حالاً من كل ما تقدم : ﴿ مشتبهاً ﴾ أي في غاية الشبه بعضه لبعض حتى لا يكاد يتميز ، فلو قطع ثمرتا شجرتين منه لم يتميز ثمرة هذه من ثمرة هذه ، فلا يقابله حينئذ نفي التفاعل ، فإنه لمجرد مشاركة أمرين أو أكثر في أصل الفعل ، فعلم أن التقدير : وغير مشتبه ومتشابهاً ، ثم لما كان ربما تمسك القائل بالطبائع بهذه العبارة ، نفى ما ربما ظن من أن لهذه الأشياء عملاً في اشتباه بعضها ببعض فقال : ﴿ وغير متشابه ﴾ أي غير طالب للاشتباه مع أنه لا بد من شبه ما ، فالآية من الاحتباك : أثبت الاشتباه دلالة على نفي ضده ، وهو عدم التشابه ، ولأجل أن الاشتباه

أبلغ من التشابه ، علق الأمر بالنظر الذي هو أثبت الحواس ، ودلالة على أن المراد إنما هو ظاهر ذلك ، لأنه كان في الدلالة على البعث والتوحيد الذي هذا سياقه فقال : ﴿ انظروا إلى ثمره ﴾ وهذا بخلاف الحرف الثاني ، فإنه في سياق الرد على العرب فيما يجعلون من خلقه لأصنامهم التي لا قدرة لها على شيء أصلاً ، ولذلك ختم الآية بالإذن لهم في الأكل منه للانتهاء عما كانوا يحرمونه منه على أنفسهم ،

*(170/243)*

---

وبالأمر بالتصدق على من أمر بالصدقة عليه ، وأما الباطن الذي هو الأكل فسيأتي ؛ ثم نبه على تعميم النظر في جميع حالاته بقوله : ﴿ إذا أثمر ﴾ أي حين يبدو من كمامه ضعيفاً قليل النفع أو عديمه ﴿ وينعه ﴾ أي وانظروا إلى إدراكه إذ أدرك وحان قطافه ، ويعلم من ذلك النظر فيما بين ذلك ، لأنه يلزم من مراقبة الأول والآخر ، فيعلم استحالة ألوانه ومقاديره وطعومه وأشكاله وغير ذلك من شؤونه وأحواله ، ويلزم من ذلك أيضاً النظر إلى أشجاره ليعلم تفاوت بعضها واشتباه البعض الآخر في الطول والقصر والصغر والكبر وغير ذلك من سائر الأحوال ، كما أن ذلك موجود في التمر ، فاستناد هذه التبدلات والتغيرات ليس إلا إلى الفاعل المختار ، لأن نسبته إلى الطبائع والفصول على حد سواء ، فلو استندت إليها لم

تتغير .

ولما كان اتخاذ هذه المذكورات أولاً والمخالفة بين أشكالها ومقاديرها وألوانها ثانياً دالاً على كمال القدرة المستلزم للوحدانية ، دل على عظمته بقوله مستأنفاً مشيراً بأداة البعد وميم الجمع : ﴿ إن في ذلكم ﴾ أي الأمر العظيم الشأن العالي الرتبة ﴿ لآيات ﴾ أي علامات على قدرة الصانع واختياره .

ولما كانت الآيات لا تغني عمن أريدت شقاوته قال : ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ أي حكم بأنهم - بحذقهم ونشاطهم وقوتهم على ما يحاولونه - يجددون الإيمان كلما تأملوا في مصنوعات الله سبحانه وتعالى الدالة عليه المشيرة بكل لسان إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 687.684 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أن هذا النوع الخامس من الدلائل الدالة على كمال قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته ورحمته ووجوه إحسانه إلى خلقه .

واعلم أن هذه الدلائل كما أنها دلائل فهي أيضاً نعم بالغة ، وإحسانات كاملة ، والكلام إذا كان دليلاً من بعض الوجوه ، وكان إنعاماً وأحساناً من سائر الوجوه .

كان تأثيره في القلب عظيماً ، وعند هذا يظهر أن المشتغل بدعوة الخلق إلى طريق الحق لا ينبغي أن يعدل عن هذه الطريقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 86 ﴾

فصل

قال الفخر :

ظاهر قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء ﴾ يقتضي نزول المطر من السماء ، وعند هذا اختلف الناس ، فقال أبو علي الجبائي في "تفسيره" : إنه تعالى ينزل الماء من السماء إلى السحاب ، ومن السحاب إلى الأرض .

قال لأن ظاهر النص يقتضي نزول المطر من السماء ، والعدول عن الظاهر إلى التأويل ، إنما يحتاج إليه عند قيام الدليل على أن إجراء اللفظ على ظاهره غير ممكن ، وفي هذا الموضع لم يقم دليل على امتناع نزول المطر من السماء ، فوجب إجراء اللفظ على ظاهره .

وأما قول من يقول : إن البخارات الكثيرة تجتمع في باطن الأرض .

ثم تصعد وترتفع إلى الهواء ، فينعقد الغيم منها ويتقاطر ، وذلك هو المطر ، فقد احتج الجبائي على فساده من وجوه : الأول : أن البرد قد يوجد في وقت الحر ، بل في صميم الصيف ، ونجد المطر في أبرد وقت ينزل غير جامد ، وذلك يبطل قولهم .

ولقائل أن يقول : إن القوم يجيبون عنه فيقولون : لا شك أن البخار أجزاء مائية وطبيعتها

البرد ، ففي وقت الصيف يستولي الحر على ظاهر السحاب ، فيهرب البرد إلى باطنه ، فيقوى البرد هناك بسبب الاجتماع ، فيحدث البرد ، وأما في وقت برد الهواء يستولي البرد على ظاهر السحاب ، فلا يقوى البرد في باطنه ، فلا جرم لا ينعقد جمداً بل ينزل ماء ، هذا ما قالوه .

ويمكن أن يجاب عنه بأن الطبقة العالية من الهواء باردة جداً عندكم ، فإذا كان اليوم يوماً بارداً شديد البرد في صميم الشتاء ، فتلك الطبقة باردة جداً ، والهواء المحيط بالأرض أيضاً بارد جداً ، فوجب أن يشتد البرد ، وأن لا يحدث المطر في الشتاء ألبتة ، وحيث شاهدنا أنه قد يحدث فسد قولكم ، والله أعلم .

*(172/243)*

---

الحجة الثانية : مما ذكره الجبائي أنه قال : إن البخارات إذا ارتفعت وتصاعدت تفرقت وإذا تفرقت لم يتولد منها قطرات الماء ، بل البخار إنما يجتمع إذا اتصل بسقف متصل أملس كسقوف الحمامات المزججة .

أما إذا لم يكن كذلك لم يسل منه ماء كثير ، فإذا تصاعدت البخارات في الهواء ، وليس فوقها سطح أملس متصل به تلك البخارات ، وجب أن لا يحصل منها شيء من الماء .

ولقائل أن يقول : القوم يجيبون عنه : بأن هذه البخارات إذا تصاعدت وتفرقت ، فإذا وصلت عند صعودها وتفرقها إلى الطبقة الباردة من الهواء بردت ، والبرد يوجب الثقل والنزول ، فبسبب قوة ذلك البرد عادت من الصعود إلى النزول ، والعالم كروي الشكل ، فلما رجعت من الصعود إلى النزول ، فقد رجعت من فضاء المحيط إلى ضيق المركز ، فتلك الذرات بهذا السبب تلاصقت وتواصلت ، فحصل من اتصال بعض تلك الذرات بعض قطرات الأمطار .

الحجة الثالثة : ما ذكره الجبائي قال : لو كان تولد المطر من صعود البخارات ، فالبخارات دائمة الارتفاع من البحار ، فوجب أن يدوم هناك نزول المطر ، وحيث لم يكن الأمر كذلك ، علمنا فساد قولهم .

قال : فثبت بهذه الوجوه ، أنه ليس تولد المطر من بخار الأرض ، ثم قال : والقوم إنما احتاجوا إلى هذا القول ، لأنهم اعتقدوا أن الأجسام قديمة ، وإذا كانت قديمة امتنع دخول الزيادة والنقصان فيها ، وحينئذ لا معنى لحدوث الحوادث إلا اتصاف تلك الذرات بصفة بعد أن كانت موصوفة بصفات أخرى ، فلهذا السبب احتالوا في تكوين كل شيء عن مادة معينة ، وأما المسلمون .

فلما اعتقدوا أن الأجسام محدثة ، وأن خالق العالم فاعل مختار قادر على خلق الأجسام كيف شاء وأراد ، فعند هذا لا حاجة إلى استخراج هذه التكلفات ، فثبت أن ظاهر القرآن يدل في هذه الآية على أن الماء إنما ينزل من السماء ، ولا دليل على امتناع هذا الظاهر ، فوجب القول بحمله على ظاهره ، ومما يؤكد ما قلناه : أن جميع الآيات ناطقة بنزول المطر من السماء .

قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السماء مَاء طَهُوراً ﴾ [ الفرقان : 48 ] وقال : ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السماء مَاء لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾ [ الأنفال : 11 ] وقال : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السماء مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ ﴾ [ النور : 43 ] فثبت أن الحق ، أنه تعالى ينزل المطر من السماء بمعنى أنه يخلق هذه الأجسام في السماء .

ثم ينزلها إلى السحاب .

ثم من السحاب إلى الأرض .

والقول الثاني : المراد إنزال المطر من جانب السماء ماء .

والقول الثالث : أنزل من السحاب ماء وسمى الله تعالى السحاب سماء ، لأن العرب تسمي كل ما فوقك سماء كسماء البيت ، فهذا ما قيل في هذا الباب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 86.87 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَهُوَ الذى أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء ﴾ تذكير لنعمة أخرى من نعمه سبحانه الجليلة المنبئة عن كمال قدرته عز وجل وسعة رحمته ، والمراد من الماء المطر ومن السماء السحاب أو الكلام على تقدير مضاف أي من جانب السماء .

وقيل : الكلام على ظاهره والإنزال من السماء حقيقة إلى السحاب ومنه إلى الأرض واختاره الجبائي ، واحتج على فساد قول من يقول : إن البخارات الكثيرة تجتمع في باطن الأرض ثم تصعد وترتفع إلى الهواء وينعقد السحاب منها ويتقاطر ماء وذلك هو المطر المنزل بوجوه ، أحدها : أن البرد قد يوجد في وقت الحر بل في حميم الصيف ونجد المطر في أبرد وقت ينزل غير جامد وذلك يبطل ما ذكر .

*(174/243)*

---

ثانيها : أن البخارات إذا ارتفعت وتصاعدت تفرقت وإذا تفرقت لم يتولد منها قطرات الماء بل البخار إنما يجتمع إذا اتصل بسقف أملس كما في بعض الحمامات أما إذا لم يكن كذلك لم يسل منه ماء كثير فإذا تصاعدت البخارات في الهواء وليس فوقها سطح أملس تتصل به وجب أن لا يحصل منها شيء من الماء .

ثالثها : أنه لو كان تولد المطر من صعود البخارات فهي دائمة الارتفاع من البحار فوجب أن يدوم هناك نزول المطر وحيث لم يكن كذلك علمنا فساد ذلك القول .

ثم قال : والقوم إنما احتاجوا إلى هذا القول لأنهم اعتقدوا أن الأجسام قديمة فيمتنع دخول الزيادة والنقصان فيها وحينئذ لا معنى لحدوث الحوادث إلا اتصاف تلك الذوات بصفة بعد أن كانت موصوفة بصفة أخرى .

ولهذا السبب احتاجوا في تكوين كل شيء عن مادة معينة .

وأما المسلمون فلما اعتقدوا أن الأجسام محدثة وأن خالق العالم فاعل مختار قادر على خلق الأجسام كيف شاء وأراد فعند هذا لا حاجة إلى استخراج هذه التكلفات وحيث دل ظاهر القرآن على أن الماء إنما ينزل من السماء ولا دليل على امتناع هذا الظاهر وجب القول بحمله عليه انتهى .

ولا يخفى على من راجع كتب القوم أنهم أجابوا عن جميع تلك الوجوه وأن الذي دعاهم إلى القول بذلك ليس مجرد ما ذكر بل ألقوا بامتناع الخرق والالتئام أيضاً ووجود كرة النار تحت السماء وانقطاع عالم العناصر عندها ومشاهدة من على جبل شامخ سحاباً يمطر مع عدم مشاهدة ماء نازل من السماء إليه إلى غير ذلك .

وهذا وإن كان بعضه مما قام الدليل الشرعي على بطلانه وبعضه مما لم يقم الدليل عليه ولم يشهد بصحته الشرع لكن مشاهدة من على الجبل ما ذكر ونحوها يستدعي صحة قولهم

في الجملة ولا أرى فيه بأساً ، وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : ما من قطرة تنزل إلا ومعها ملك ، وهو عند الكثير محمول على ظاهره .

(175/243)

---

والفلاسفة يحملون هذا الملك على الطبيعة الحالة في تلك الجسمية الموجبة لذلك النزول ، وقيل : هو نور مجرد عن المادة قائم بنفسه مدبر للقطر حافظ إياه ، ويثبت أفلاطون هذا النور المجرد لكل نوع من الأفلاك والكواكب والبسائط العنصرية ومركباتها على ما ذهب إليه صاحب "الإشراق" وهو أحد الأقوال في "المثل الأفلاطونية" ، ويشير إلى نحو ذلك كلام الشيخ صدر الدين القونوي في "تفسير الفاتحة" ، ونصب ﴿ مَاء ﴾ على المفعولية لأنزل ، وتقديم المفعول غير الصريح عليه لما مر مراراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

نقل الواحدي في "البسيط" عن ابن عباس : يريد بالماء ههنا المطر ولا ينزل نقطة من المطر إلا ومعها ملك ، والفلاسفة يحملون ذلك الملك على الطبيعة الحالة في تلك الجسمية الموجبة

لذلك النزول ، فأما أن يكون معه ملك من ملائكة السموات ، فالقول به مشكل والله أعلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 87 ﴾

قوله تعالى ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ فيه أبحاث :

البحث الأول : ظاهر قوله : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يدل على أنه تعالى إنما أخرج النبات بواسطة الماء ، وذلك يوجب القول بالطبع والمتكلمون ينكرونه ، وقد بالغنا في تحقيق هذه المسألة في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السماء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثمرات رِزْقاً لَّكُمْ ﴾ [ البقرة : 22 ] فلا فائدة في الإعادة .

البحث الثاني : قال الفراء : قوله : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ظاهره يقتضي أن يكون لكل شيء نبات .

وليس الأمر كذلك ، فكان المراد فأخرجنا به نبات كل شيء له نبات ، فإذا كان كذلك ، فالذي لا نبات له لا يكون داخلاً فيه .

البحث الثالث : قوله : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ بعد قوله : ﴿ أَنزَلَ ﴾ يسمى التفاتاً .

ويعد ذلك من الفصاحة .

---

واعلم أن أصحاب العربية ادعوا أن ذلك يعد من الفصاحة .

وما بينوا أنه من أي الوجوه يعد من هذا الباب ؟ وأما نحن فقد أطنبنا فيه في تفسير قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا كُنتُمْ فِى الفلك وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ [ يونس : 22 ] فلا فائدة في الإعادة .

والبحث الرابع : قوله : ﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾ صيغة الجمع .

والله واحد فرد لا شريك له ، إلا أن الملك العظيم إذا كنى عن نفسه ، فإنما يكنى بصيغة الجمع ، فكذلك ههنا .

ونظيره قوله : ﴿ إِنَّا أنزلناه ﴾ [ الدخان : 3 ] .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً ﴾ [ نوح : 1 ] .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر ﴾ [ الحجر : 9 ] .

أما قوله : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً ﴾ فقال الزجاج : معنى خضر ، كمعنى أخضر ، يقال أخضر فهو أخضر وخضر ، مثل أعور فهو أعور وعور .

وقال الليث : الخضر في كتاب الله هو الزرع وفي الكلام كل نبات من الخضر ، وأقول إنه تعالى

حصر النبت في الآية المتقدمة في قسمين : حيث قال : ﴿ إِنَّ اللهَ فَالِقُ الحب والنوى ﴾ فالذي ينبت من الحب هو الزرع ، والذي ينبت من النوى هو الشجر فاعتبر هذه القسمة أيضاً في هذه الآية فابتدأ بذكر الزرع ، وهو المراد بقوله : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً ﴾ وهو الزرع ، كما رويناه عن الليث .

وقال ابن عباس : يريد القمح والشعير والسلت والذرة والأرز ، والمراد من هذا الخضر العود الأخضر الذي يخرج أولاً ويكون السنبل في أعلاه وقوله : ﴿ نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً ﴾ يعني يخرج من ذلك الخضر حباً متراكباً بعضه على بعض في سنبلة واحدة ، وذلك لأن الأصل هو ذلك العود الأخضر وتكون السنبلة مركبة عليه من فوقه وتكون الحبات متراكبة بعضها فوق بعض ، ويحصل فوق السنبلة أجسام دقيقة حادة كأنها الأبر ، والمقصود من تخليقها أن تمنع الطيور من التقاط تلك الحبات المتراكبة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 87.88 ﴾

*(177/243)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ أي بسبب الماء ، والفاء للتعقيب وتعقيب كل شيء بحسبه .

و﴿ أَخْرَجْنَا ﴾ عطف على ﴿ أَنزَلَ ﴾ والإلتفات إلى التكلم إظهاراً لكمال العناية بشأن ما أنزل الماء لأجله ، وذكر بعضهم نكتة خاصة لهذا الإلتفات غير ما ذكر وهي أنه سبحانه لما ذكر فيما مضى ما ينبهك على أنه الخالق اقتضى ذلك التوجه إليه حتى يخاطب واختيار ضمير العظمة دون ضمير المتكلم وحده لإظهار كمال العناية أي فأخرجنا بعظمتنا بذلك الماء مع وحدته ﴿ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي كل صنف من أصناف النبات المختلفة في الكم والكيف والخواص والآثار اختلافاً متفاوتاً في مراتب الزيادة والنقصان حسبما يفصح عنه قوله سبحانه : ﴿ يسقى بِمَاء واحد وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا على بَعْضٍ فِى الأكل ﴾ [ الرعد : 4 ] "والنبات كالنبت وهو على ما قال الراغب ما يخرج من الأرض من الناميات سواء كان له ساق كالشجر أو لم يكن له ساق كالنجم لكن اختص في التعارف بما لا ساق له بل قد اختص عند العامة بما تأكله الحيوانات ، ومتى اعتبرت الحقائق فإنه يستعمل في كل نام نباتاً كان أو حيواناً أو إنساناً" .

والمراد هنا عند بعض المعنى الأول .

وجعل قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً ﴾ شروعاً في تفصيل ما أجمل من الإخراج وقد بدأ بتفصيل حال النجم وضمير ﴿ مِنْهُ ﴾ للنبات ، والخضر بمعنى الأخضر كأعور وعور ، وأكثر ما يستعمل الخضر فيما تكون خضرته خلقية ، وأصل الخضرة لون بين البياض والسواد وهو إلى السواد أقرب ولذا يسمى الأخضر أسود وبالعكس ، والمعنى

فأخرجنا من النبات الذي لا ساق له شيئاً غضاً أخضر وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة .

وجوز عود الضمير إلى الماء ومن سببية .

(178/243)

---

وجعل أبو البقاء هذا الكلام حينئذ بدلاً من ﴿ أَخْرَجْنَا ﴾ الأول ، وذكر بعض المحققين أن في الآية على تقدير عود الضمير إلى الماء معنى بديعاً حيث تضمنت الإشارة إلى أنه تعالى أخرج من الماء الحلو الأبيض في رأي العين أصنافاً من النبات والثمار مختلفة الطعوم والألوان وإلى ذلك نظر القائل يصف المطر

: يمد على الآفاق بيض خيوطه . . .

فينسج منها للثرى حلة خضرا

وقوله تعالى : ﴿ نُّخْرِجُ مِنْهُ ﴾ صفة لخضراً ، وصيغة المضارع لاستحضار الصورة بما فيها من الغرابة ، وجوز أن يكون مستأنفاً أي نخرج من ذلك الخضر ﴿ حَبّاً مُّتَرَاكِباً ﴾ أي بعضه فوق بعض كما في السنبل وقرىء ﴿ يَخْرُجُ مِنْهَا حُبَّ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَمِنَ النخل مِن طَلْعِهَا قنوان دَانِيَةٌ ﴾

فصل

قال الفخر :

ولما ذكر ما ينبت من الحب أتبعه بذكر ما ينبت من النوى ، وهو القسم الثاني فقال :

﴿ وَمِنَ النخل مِن طَلْعِهَا قنوان دَانِيَةٌ ﴾ وههنا مباحث :

البحث الأول : أنه تعالى قدم ذكر الزرع على ذكر النخل ، وهذا يدل على أن الزرع أفضل من النخل .

وهذا البحث قد أفرد الجاحظ فيه تصنيفاً مطولاً .

البحث الثاني : روى الواحدي عن أبي عبيدة أنه قال : أطلعت النخل إذا أخرجت طلعها وطلعها كيزانها قبل أن ينشق عن الأغريض ، والأغريض يسمى طلعاً أيضاً .

قال والطلع أول ما يرى من عذق النخلة ، الواحدة طلعة .

وأما ﴿ قِنْوانٌ ﴾ فقال الزجاج : القنوان جمع قنو .

مثل صنوان وصنو .

وإذا ثنيت القنو قلت قنوان بكسر النون ، فجاء هذا الجمع على لفظ الاثنين والإعراب في النون للجمع .

إذا عرفت تفسير اللفظ فنقول : قوله : ﴿ قنوان دَانِيَةٌ ﴾ قال ابن عباس : يريد العراجين التي قد تدلت من الطلع دانية ممن يجتنيها .

(179/243)

---

وروي عنه أيضاً أنه قال : قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض قال الزجاج : ولم يقل ومنها قنوان بعيدة لأن ذكر أحد القسمين يدل على الثاني كما قال : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [ النحل : 81 ] ولم يقل سرابيل تقيكم البرد ، لأن ذكر أحد الضدين يدل على الثاني ، فكذا ههنا وقيل أيضاً : ذكر الدانية في القريبة ، وترك البعيدة لأن النعمة في القريبة أكمل وأكثر .

والبحث الثالث : قال صاحب "الكشاف" ﴿ قِنْوانٌ ﴾ رفع بالابتداء ﴿ وَمِنَ النخل ﴾ خبره ﴿ وَمِنْ طَلْعِهَا ﴾ بدل منه كأنه قيل : وحاصلة من طلع النخل قنوان ، ويجوز أن يكون الخبر محذوفاً لدلالة أخرجنا عليه تقديره ، ومخرجه من طلع النخل قنوان .

ومن قرأ يخرج منه ﴿ حب متراكب ﴾ كان ﴿ قِنْوانٌ ﴾ عنده معطوفاً على قوله : ﴿ حُبَّ ﴾ وقرىء ﴿ قنوان ﴾ بضم القاف وبفتحها على أنه اسم جمع كركب لأن فعلان ليس من باب التكسير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 88 . 89 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَمِنَ النخل ﴾ جمع نخل كما قال الراغب والنخل معروف ويستعمل في الواحد والجمع" ، وهذا شروع في تفصيل حال الشجر إثر بيان حال النجم عند البعض .

فالجار والمجرور خبر مقدم .

وقوله سبحانه : ﴿ مِن طَلْعِهَا ﴾ بدل منه بدل بعض من كل بإعادة العامل .

وقوله سبحانه : ﴿ قنوان ﴾ مبتدأ ؛ وحاصلة من طلع النخيل قنوان ، وجوز أن يكون الخبر محذوفاً لدلالة ﴿ أَخْرَجْنَا ﴾ عليه وهو كون خاص وبه يتعلق الجار والتقدير ومخرجه من طلع النخل قنوان .

وعلى القراءة السابقة آنفاً يكون ﴿ قنوان ﴾ معطوفاً على ( حب ) وقيل : المعنى وأخرجنا من النخل نخلاً من طلعها قنوان ( أو ) ومن النخل شيئاً من طلعها قنوان ، وهو جمع قنو بمعنى العذق وهو للتمر بمنزلة العنقود للعنب .

وتثنيته أيضاً قنوان ولا يفرق بين المثنى والجمع إلا الإعراب ، ولم يأت مفرد يستوي مثناه وجمعه إلا ثلاثة أسماء هذا وصنو وصنوان ورئد ورئدان بمعنى مثل قاله ابن خالويه ، وحكى سيبويه شقد وشقدان .

وحش وحشان للبستان نقله الجلال السيوطي في "المزهر" .

وقرىء بضم القاف وبفتحها على أنه اسم جمع لأن فعلان ليس من زنات التكسير .

﴿ دَانِيَةٌ ﴾ أي قريبة من المتناول كما قال الزجاج .

واقتصر على ذكرها عن مقابلها لدلالتها عليه وزيادة النعمة فيها ؛ وقيل : المراد دانية من الأرض بكثرة ثمرها وثقل حملها والدنو على القولين حقيقة ، ويحتمل أن يراد به سهولة الوصول إلى ثمارها مجازاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ وجنات مّنْ أعناب والزيتون والرمان ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وجنات مّنْ أعناب والزيتون والرمان ﴾

فيه أبحاث :

البحث الأول : قرأ عاصم : ﴿ جنات ﴾ بضم التاء ، وهي قراءة علي رضي الله عنه : والباقون ﴿ جنات ﴾ بكسر التاء .

أما القراءة الأولى فلها وجهان : الأول : أن يراد ، وثم وجنات من أعناب أي مع النخل والثاني : أن يعطف على ﴿ قِنْوانٌ ﴾ على معنى وحاصلة أو ومخرجة من النخل قنوان

وجنات من أعناب وأما القراءة بالنصب فوجهها العطف على قوله : ﴿ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ والتقدير : وأخرجنا به جنات من أعناب ، وكذلك قوله : ﴿ والزيتون والرمان ﴾ [ الأنعام : 141 ] قال صاحب "الكشاف" : والأحسن أن ينتصبا على الاختصاص كقوله تعالى : ﴿ والمقيمين الصلاة ﴾ [ النساء : 162 ] لفضل هذين الصنفين .

والبحث الثاني : قال الفراء : قوله : ﴿ والزيتون والرمان ﴾ يريد شجر الزيتون ، وشجر الرمان كما قال : ﴿ واسئل القرية ﴾ [ يوسف : 82 ] يريد أهلها .

البحث الثالث : اعلم أنه تعالى ذكر ههنا أربعة أنواع من الأشجار .

*(181/243)*

---

النخل والعنب والزيتون والرمان ، وإنما قدم الزرع على الشجر لأن الزرع غذاء ، وثمار الأشجار فواكه ، والغذاء مقدم على الفاكهة ، وإنما قدم النخل على سائر الفواكه لأن التمر يجري مجرى الغذاء بالنسبة إلى العرب ولأن الحكماء بينوا أن بينه وبين الحيوان مشابهة في خواص كثيرة بحيث لا توجد تلك المشابهة في سائر أنواع النبات ، ولهذا المعنى قال عليه الصلاة والسلام : " أكرموا عمتكم النخلة ، فإنها خلقت من بقية طينة آدم " وإنما ذكر العنب عقيب النخل لأن العنب أشرف أنواع الفواكه ، وذلك لأنه من أول ما يظهر يصير

منتفعاً به إلى آخر الحال فأول ما يظهر على الشجر يظهر خيوط خضر دقيقة حامضة الطعم لذيذة المطعم ، وقد يمكن اتخاذ الطبائخ منه ، ثم بعده يظهر الحصرم ، وهو طعام شريف للأصحاء والمرضى ، وقد يتخذ الحصرم أشربة لطيفة المذاق نافعة لأصحاب الصفراء ، وقد يتخذ الطبيخ منه ، فكأنه ألذ الطبائخ الحامضة .

ثم إذا تم العنب فهو ألذ الفواكه وأشهاها ، ويمكن ادخار العنب المعلق سنة أو أقل أو أكثر ، وهو في الحقيقة ألذ الفواكه المدخرة ثم يبقى منه أربعة أنواع من المتناولات ، وهي الزبيب والدبس والخمر والخل ، ومنافع هذه الأربعة لا يمكن ذكرها إلى في المجلدات ، والخمر ، وإن كان الشرع قد حرمها ، ولكنه تعالى قال في صفتها : ﴿ ومنافع للنَّاسِ ﴾ ثم قال : ﴿ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ فأحسن ما في العنب عجمه .

والأطباء يتخذون منه جوارشنات عظيمة النفع للمعدة الضعيفة الرطبة ، فثبت أن العنب كأنه سلطان الفواكه ، وأما الزيتون فهو أيضاً كثير النفع لأنه يمكن تناوله كما هو ، وينفصل أيضاً عنه دهن كثير عظيم النفع في الأكل وفي سائر وجوه الاستعمال .

وأما الرمان فحاله عجيب جداً ، وذلك لأنه جسم مركب من أربعة أقسام : قشره وشحمه وعجمه وماؤه .

أما الأقسام الثلاثة الأول وهي : القشر والشحم والعجم ، فكلها باردة يابسة أرضية كثيفة قابضة عفصة قوية في هذه الصفات ، وأما ماء الرمان ، فبالضد من هذه الصفات .

فإنه ألذ الأشربة وألطفها وأقربها إلى الاعتدال وأشدها مناسبة للطباع المعتدلة ، وفيه تقوية للمزاج الضعيف ، وهو غذاء من وجه ودواء من وجه ، فإذا تأملت في الرمان وجدت الأقسام الثلاثة موصوفة بالكثافة التامة الأرضية ، ووجدت القسم الرابع وهو ماء الرمان موصوفاً باللطافة والاعتدال فكأنه سبحانه جمع فيه بين المتضادين المتغايرين ، فكانت دلالة القدرة والرحمة فيه أكمل وأتم .

واعلم أن أنواع النبات أكثر من أن تفي بشرحها مجلدات ، فلهذا السبب ذكر الله تعالى هذه الأقسام الأربعة التي هي أشرف أنواع النبات ، واكتفي بذكرها تنبيهاً على البواقي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 89.90 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وجنات مّنْ أعناب ﴾ عطف على ﴿ نَبَاتَ كُلّ شَىْء ﴾ أي وأخرجنا به جنات كائنة من أعناب ، وجعله الواحدي عطفاً على ﴿ خُضْرًا ﴾ .

وقال الطيبي : الأظهر أن يكون عطفاً على ﴿ حَبّاً ﴾ لأن قوله سبحانه : ﴿ نَبَاتَ كُلّ شَىْء ﴾ مفصل لاشتماله على كل صنف من أصناف النامي ، والنامي الحب والنوى

وشبههما .

وقوله سبحانه : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً ﴾ الخ تفصيل لذلك النبات ، وهو بدل من ﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾ الأول بدل اشتمال ، وقيل : وهذا مبني على أن المراد بالنبات المعنى العام وحينئذٍ لا يحسن عطفه عليه لأنه داخل فيه وإن أريد ما لا ساق له تعين عطفه عليه لأنه غير داخل فيه وتعين أن يقدر لقوله سبحانه ﴿ وَمِنَ النخل ﴾ فعل آخر كما أشير إليه فتدبر .

*(183/243)*

---

وقرأ أمير المؤمنين علي كرم الله تعالى وجهه وابن مسعود والأعمش ويحيى بن يعمر وأبو بكر عن عاصم ﴿ وجنات ﴾ بالرفع على الإبتداء أي ولكم أو ثم جنات أو نحو ذلك ، وجوز الزمخشري أن يكون على العطف على ﴿ قنوان ﴾ قال في "التقريب" وفيه نظر لأنه إن عطف على ذلك فمن أعناب حينئذ إما صفة ﴿ جنات ﴾ فيفسد المعنى إذ يصير المعنى وحاصلة من النخيل جنات حصلت من أعناب ، وإما خبر لجنات فلا يصح لأنه يكون عطفاً لها على مفرد ويكون المبتدأ نكرة فلا يصح ، وفي "الكشف" أن الثاني بعيد الفهم من لفظ الزمخشري وإن أمكن الجواب بأن العطف على المخصص مخصص كما قال

ابن مالك ، واستشهد عليه بقوله : عندي اصطبار وشكوى عند قاتلتي . . .

فهل بأعجب من هذا امرؤ سمعاً

والظاهر الأول لكنه عطف جملة على جملة ويقدر ومخرجة من الخضر أو من الكرم أو حاصلة جنات من أعناب دون صلته لأن التقييد لازم كما حقق في عطف المفرد وحده ، ولا يخفى أن هذا تكلف مستغنى عنه ، ولعل زيادة الجنات هنا كما قيل من غير اكتفاء بذكر اسم الجنس كما فيما تقدم وما تأخر لما أن الانتفاع بهذا الجنس لا يتأتى غالباً إلا عند اجتماع طائفة من أفراده .

﴿ والزيتون والرمان ﴾ نصب على الاختصاص لعزة هذين الصنفين عندهم أو على العطف على ﴿ نَبَاتُ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ متشابه ﴾

فصل

قال الفخر :

فيه مباحث : الأول : في تفسير ﴿ مُشْتَبِهاً ﴾ وجوه :

الأول : أن هذه الفواكه قد تكون متشابهة في اللون والشكل ، مع أنها تكون مختلفة في الطعم واللذة ، وقد تكون مختلفة في اللون والشكل ، مع أنها تكون متشابهة في الطعم واللذة ، فإن الأعناب والرمان قد تكون متشابهة في الصورة واللون والشكل .

ثم إنها تكون مختلفة في الحلاوة والحموضة وبالعكس .

الثاني : أن أكثر الفواكه يكون ما فيها من القشر والعجم متشابهاً في الطعم والخاصية .

(184/243)

---

وأما ما فيها من اللحم والرطوبة فإنه يكون مختلفاً في الطعم ، والثالث : قال قتادة : أوراق الأشجار تكون قريبة من التشابه .

أما ثمارها فتكون مختلفة ، ومنهم من يقول : الأشجار متشابهة والثمار مختلفة ، والرابع : أقول إنك قد تأخذ العنقود من العنب فترى جميع حباته مدركة نضيجة حلوة طيبة إلا حبات مخصوصة منها بقيت على أول حالها من الخضرة والحموضة والعفوصة .

وعلى هذا التقدير : فبعض حبات ذلك العنقود متشابهة وبعضها غير متشابه .

والبحث الثاني : يقال : اشتبه الشيآن وتشابها كقولك استويا وتساويا ، والافتعال والتفاعل يشتركان كثيراً ، وقرىء ﴿ متشابها وَغَيْرَ متشابه ﴾ .

والبحث الثالث : إنما قال مشتبهاً ولم يقل مشتبهين إما اكتفاء بوصف أحدهما ، أو على تقدير : والزيتون مشتبهاً وغير متشابه والرمان كذلك كقوله :

رماني بأمر كنت منه ووالدي . . بريا ومن أجل الطوى رماني . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 90 ﴾

وقال الآلوسى :

وقوله سبحانه : ﴿ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ متشابه ﴾ إما حال من ﴿ الزيتون ﴾ لسبقه اكتفى به عن حال ما عطف عليه والتقدير والزيتون مشتبهاً وغير متشابه والرمان كذلك ، وإما حال من ﴿ الرمان ﴾ لقربه ويقدر مثله في الأول .

وأياً ما كان ففي الكلام مضاف مقدر وهو بعض أي بعض ذلك مشتبهاً وبعضه غير متشابه في الهيئة والمقدار واللون والطعم وغير ذلك من الأوصاف الدالة على كمال قدرة صانعها وحكمة منشيها ومبدعها جل شأنه وإلا كان المعنى جميعه مشتبه وجميعه غير متشابه وهو غير صحيح .

ومن الناس من جوز كونه حالاً منهما مع التزام التأويل .

وافتعل وتفاعل هنا بمعنى كاستوى وتساوى .

وقرىء ﴿ والرمان متشابها وَغَيْرَ متشابه ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

(185/243)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : "والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه " وورد فيما بعد من هذه السورة : "والزيتون والرمان متشابها وغير زتشابه كلوا من ثمره وآتوا حقه يوم حصاده " ، فورد فى الآية الأولى "مشتبها وغير متشابه " وفى الثانية : "متشابها " ، وفى الأولى : "انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه " ، وفى الثانية : "كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده " ، يسأل عن المختلف فى الآيتين مع اتحاد مرماهما ؟

والجواب عن الأول : أن مشتبها ومتشابها لا فرق بينهما إلا ما لا يعد فارقا إذ الافتعال والتفاعل متقاربان ، أصولهما : الشين والباء والهاء من قوله أشبه هذا هذا إذا قاربه وماثله ، ورد فى أولى الآيتين على أخف البناء وفى الثانية على أثقلهما رعيا للترتيب المتقرر وقد مر نحو هذا فى قوله : "فمن تبع هداى " وقوله "فمن اتبع " فى سورة طه .

*(186/243)*

---

والجواب عن الثانى : أن قوله تعالى فى الأولى : "انظروا إلى ثمره أذا أثمر وينعه " مبنى على ما قبله مما بناه على الاعتبار ، قال تعالى : "إن الله فالق الحب والنوى . . . . " الآية ، وقال

تعالى : "فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا . . . " الآية ، وقوله : "وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها . . . " الآية ، ثم قال تعالى : "وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ وأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه " ، فلما كان مبنى هذه الآى على الاعتبار والتنبيه بما نصب تعالى من الدلائل على وحدانيته لم يكن ليناسب ذلك ويلائمه إلا الأمر بالنظر والاعتبار لا الأمر بالأكل ، أما الآية الثانية فمبنية على غير هذا وقد تقدمها قوله تعالى : "وقالوا هذه أنعام وحرث حجر " أى منع : "لا يطعمها إلا من نشاء " ، وجرى ما بعد على التناسب إلى قوله : "وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان " إلى قوله : "كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده " ثم قال بعد ذكر الأنعام : "كلوا مما رزقكم الله " ، وجرى ما بعد على هذا فى تفصيل ما أحل سبحانه لعباده ورد ما ظنت يهود تحريمه على هذه الأمة ، ثم أتبع سبحانه لعباده بذكر ما حرم أكله فقال لنبيه عليه السلام : "قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا . . . . " الآية ، ثم أتبع تعالى بما حرم على بنى إسرائيل أكله فقال : "وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر " فلم يتخلل هذه الآيات

من غير أحكام المأكولات فى التنويع والإباحة خلاف ذلك سوى الأمر بزكاة الحرث فى قوله : "وآتوا حقه يوم حصاده "فدارت هذه الآى على ما أنعم به سبحانه من ضروب ما خلقه تعالى مما أقام به حياة عباده مأكلا وملبسا ومعونة فى حركاتهم وانتقالاتهم ومباح ذلك ومحرمه ، فلم يكن ليلائم

ذلك إلا ما يناسبه ، ولم يكن ليناسب الآية المتقدمة لو قيل : كلوا ، ولا هذه الآية لو قيل : انظروا ، فجاء كل على ما يجب ويلائم ولا يناسب خلافه ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ ملاك التأويل صـ 166 . 167 ﴾

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

وقوله أيضاً : ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ , أثبت في هاتين الآيتين التشابه للزيتون والرمان ونفاه عنهما .

والجواب: ما قاله قتادة – رحمه الله – من أن المعنى متشابها ورقها , مختلفا طعمها , والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 120 ﴾

قوله تعالى ﴿ انظروا إلى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾

فصل

قال الفخر :

فيه مباحث :

البحث الأول : قرأ حمزة والكسائي ﴿ ثَمَرِهِ ﴾ بضم الثاء والميم ، وقرأ أبو عمرو ﴿ ثَمَرِهِ ﴾ بضم الثاء وسكون الميم والباقون بفتح الثاء والميم .

أما قراءة حمزة والكسائي : فلها وجهان :

الوجه الأول : وهو الأبين أن يكون جمع ثمرة على ثمر كما قالوا : خشبة وخشب .

قال تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ [ المنافقون : 4 ] وكذلك أكمة وأكم .

ثم يخففون فيقولون أكم .

قال الشاعر :

ترى الأكم فيها سجداً للحوافر . . والوجه الثاني : أن يكون جمع ثمرة على ثمار .

ثم جمع ثماراً على ثمر فيكون ثمر جمع الجمع ، وأما قراءة أبي عمرو فوجهها أن تخفيف ثمر ثمر كقولهم : رسل ورسل .

وأما قراءة الباقين فوجهها : أن الثمر جمع ثمرة ، مثل بقرة وبقر ، وشجرة وشجر ، وخرزة

وخرز .

والبحث الثاني : قال الواحدي : الينع النضج .

قال أبو عبيدة : يقال ينع يينع ، بالفتح في الماضي والكسر في المستقبل .

وقال الليث : ينعت الثمرة بالكسر ، وأينعت فهي تينع وتونع إيناعاً وينعاً بفتح الياء ، وينعاً بضم الياء ، والنعت يانع ومونع .

قال صاحب "الكشاف" : وقرىء ﴿ وَيَنْعِهِ ﴾ بضم الياء ، وقرأ ابن محيصن ﴿ ويانعه ﴾ .

والبحث الثالث : قوله : ﴿ متشابه انظروا إلى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ أمر بالنظر في حال الثمر في أول حدوثها .

وقوله : ﴿ وَيَنْعِهِ ﴾ أمر بالنظر في حالها عند تمامها وكمالها ، وهذا هو موضع الاستدلال والحجة التي هي تمام المقصود من هذه الآية .

*(189/243)*

---

ذلك لأن هذه الثمار والأزهار تتولد في أول حدوثها على صفات مخصوصة ، وعند تمامها وكمالها لا تبقى على حالاتها الأولى ، بل تنتقل إلى أحوال مضادة للأحوال السابقة ، مثل

أنها كانت موصوفة بلون الخضرة فتصير ملونة بلون السواد أو بلون الحمرة ، وكانت موصوفة بالحموضة فتصير موصوفة بالحلاوة ، وربما كانت في أول الأمر باردة بحسب الطبيعة ، فتصير في آخر الأمر حارة بحسب الطبيعة ، فحصول هذه التبدلات والتغيرات لا بد له من سبب ، وذلك السبب ليس هو تأثير الطبائع والفصول والأنجم والأفلاك ، لأن نسبة هذه الأحوال بأسرها إلى جميع هذه الأجسام المتباينة متساوية متشابهة ، والنسب المتشابهة لا يمكن أن تكون أسباباً لحدوث الحوادث المختلفة ، ولما بطل إسناد حدوث هذه الحوادث إلى الطبائع والأنجم والأفلاك وجب إسنادها إلى القادر المختار الحكيم الرحيم المدبر لهذا العالم على وفق الرحمة والمصلحة والحكمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 90 . 91 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ انظروا ﴾ نظر اعتبار واستبصار ﴿ إلى ثَمَرِه ﴾ أي ثمر ذلك أي الزيتون والرمان والمراد شجرتهما وأريد بهما فيما سبق الثمرة ففي الكلام استخدام .

وعن الفراء أن المراد في الأول : شجر الزيتون وشجر الرمان وحينئذ لا استخدام ، وأياً ما كان فالضمير راجع إليها بتأويله باسم الإشارة .

ورجوعه إلى كل واحد منهما على سبيل البدل بعيد لا نظير له في عدم تعيين مرجع الضمير .

وجوز رجوع الضمير إلى جميع ما تقدم بالتأويل المذكور ليشمل النخل وغيره مما يثمر ﴿ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ أي إذا أخرج ثمره كيف يخرجه ضئيلاً لا يكاد ينتفع به .

وقرأ حمزة والكسائي ﴿ ثَمَرِهِ ﴾ بضم الثاء وهو جمع ثمرة كخشبة وخشب أو ثمار ككتاب وكتب ﴿ وَيَنْعِهِ ﴾ أي وإلى حال نضجه أو إلى نضيجه كيف يعود ضخماً ذا نفع عظيم ولذة كاملة .

وهو في الأصل مصدر ينعت الثمرة إذا أدركت ، وقيل : جمع يانع كتاجر وتجر .

وقرىء بالضم وهي لغة فيه .

*(190/243)*

---

وقرأ ابن محيصن ﴿ ويانعه ﴾ ، ولا يخفى أن في التقييد بقوله تعالى : ﴿ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ على ما أشرنا إليه إشعاراً بأن المثمر حينئذ ضعيف غير منتفع به فيقابل حال الينع .

ويدل كمال التفاوت على كمال القدرة .

وعن الزمخشري أنه قال فإن قلت هلا قيل : إلى غض ثمره وينعه ؟ قلت : في هذا الأسلوب فائدة وهي أن الينع وقع فيه معطوفاً على الثمر على سنن الاختصاص نحو قوله سبحانه :

﴿ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ [ البقرة : 98 ] للدلالة على أن الينع أولى من الغض" وله وجه وجيه وإن خفي على بعض الناظرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

(191/243)

---

فصل

قال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي تَفْسِيرِ الْيَنْعِ : فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : الطِّيبُ وَالنُّضْجُ ؛ يُقَال : أَيْنَعَ الثَّمَرُ يُيْنِعُ وَيُونِعُ ، وَالثَّمَرُ يَانِعٌ وَمُونِعٌ ، إذَا أَدْرَكَ .

الثَّانِي : قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ : الْيَنْعُ جَمْعُ يَانِعٍ ، وَهُوَ الْمُدْرِكُ الْبَالِغُ .

الثَّالِثُ : قَالَ الْفَرَّاءُ : "يَنَعَ" أَقَلُّ مِنْ "أَيْنَعَ" وَمَعْنَاهُ احْمَرَّ ، وَمِنْهُ مَا رُوِيَ فِي حَدِيثِ الْمُلَاعَنَةِ : ﴿ إنْ وَلَدَتْهُ أَحْمَرَ مِثْلَ الْيَنَعَةِ ﴾ ، وَهِيَ : خَرَزَةٌ حَمْرَاءُ ، يُقَالُ : إنَّهُ الْعَقِيقُ ، أَوْ نَوْعٌ مِنْهُ ؛ وَهُوَ الَّذِي عَلَيْهِ يَقِفُ جَوَازُ بَيْعِ الثَّمَرِ ، وَبِهِ يَطِيبُ أَكْلُهَا ، وَيَأْمَنُ الْعَاهَةَ ، وَذَلِكَ عِنْدَ طُلُوعِ الثُّرَيَّا مَعَ الْفَجْرِ ، بِمَا أَجْرَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي ذَلِكَ مِنْ الْعَادَةِ ، وَأَحْكَمَهُ مِنْ الْعِلْمِ

وَالْقُدْرَةِ ، وَفَصَّلَهُ مِنْ الْحُكْمِ وَالشَّرِيعَةِ ؛ وَمِنْ أَلْفَاظِ الْحَدِيثِ : ﴿ نَهَى عَنْ بَيْعِ الثَّمَرِ قَبْلَ أَنْ يُشَقِّحَ ﴾ قَالَ الْأَصْمَعِيُّ : إذَا تَغَيَّرَ الْبُسْرُ إلَى الْحُمْرَةِ قِيلَ : هَذِهِ شُقْحَةٌ ، وَقَدْ أَشْقَحَتْ .

وَقَدْ قَالَ ابْنُ وَهْبٍ قَالَ مَالِكٌ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : ﴿ إلَى ثَمَرِهِ إذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ الْإِيناعُ : الطِّيبُ بِغَيْرِ فَسَادٍ وَلَا نَقْشٍ .

(192/243)

---

قَالَ مَالِكٌ : وَالنَّقْشُ أَنْ تَنْقُشَ أَسْفَلَ الْبُسْرَةِ حَتَّى تَرْطُبَ ، يُرِيدُ يَثْقُبُ فِيهَا ، بِحَيْثُ يُسْرِعُ دُخُولُ الْهَوَاءِ إلَيْهِ فَيَرْطُبُ مُعَجَّلًا ؛ فَلَيْسَ ذَلِكَ الْيَنْعُ الْمُرَادَ فِي الْقُرْآنِ ، وَلَا هُوَ الَّذِي رَبَطَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْبَيْعَ ؛ وَإِنَّمَا هُوَ مَا يَكُونُ مِنْ ذَاتِهِ بِغَيْرِ مُحَاوَلَةٍ ، وَفِي بَعْضِ بِلَادِ التِّينِ ، وَهِيَ الْبِلَادُ الْبَارِدَةُ ، لَا يَنْضَجُ حَتَّى يَدْخُلَ فِي فَمِهِ عَمُودٌ قَدْ دُهِنَ بِزَيْتٍ ، فَإِذَا طَابَ حَلَّ بَيْعُهُ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ ضَرُورَةُ الْهَوَاءِ وَعَادَةُ الْبِلَادِ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا طَابَ فِي وَقْتِ الطِّيبِ .

وَقَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ : قُلْت لِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ الْمَلِكِ بْنِ الْمَاجِشُونِ وَقَدْ رَأَيْته يَأْكُلُ الرُّطَبَ يُقَصِّعُهُ ، كَيْفَ تَفْعَلُ هَذَا ، وَقَدْ ﴿ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ تَقْصِيعِ

الرُّطَبِ ﴾ ؟ فَقَالَ : إنَّمَا نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ تَقْصِيعِ الرُّطَبِ حَيْثُ كَانَ أَكْلُهُ : يَتَشَبَّعُ بِهِ ؛ وَقَدْ جَاءَ اللَّهُ بِالرَّخَاءِ وَالْخَيْرِ ، وَالْمُرَادُ هَاهُنَا بِالتَّقْصِيعِ أَكْلُ الرُّطَبَةِ فِي لُقْمَةٍ ، وَذَلِكَ يَكُونُ مَعَ الشِّبَعِ ؛ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ غَيْرُهَا فَأَكْلُهَا فِي لُقَمٍ أَثْبَتُ لِلشِّبَعِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

*(193/243)*

---

قوله تعالى ﴿ إِنَّ فِى ذلكم لآيات لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

فصل

قال الفخر :

قال القاضي : المراد لمن يطلب الإيمان بالله تعالى ، لأنه آية لمن آمن ولمن لم يؤمن ، ويحتمل أن يكون وجه تخصيص المؤمنين بالذكر أنهم الذين انتفعوا به دون غيرهم كما تقدم تقريره في قوله ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ .

ولقائل أن يقول : بل المراد منه أن دلالة هذا الدليل على إثبات الإله القادر المختار ظاهرة قوية جلية ، فكأن قائلاً قال : لم وقع الاختلاف بين الخلق في هذه المسألة مع وجود مثل هذه الدلالة الجلية الظاهرة القوية ؟ فأجيب عنه بأن قوة الدليل لا تفيد ولا تنفع إلا إذا قدر الله

للعبد حصول الإيمان ، فكأنه قيل : هذه الدلالة على قوتها وظهورها دلالة لمن سبق قضاء الله في حقه بالإيمان ، فأما من سبق قضاء الله له بالكفر لم ينتفع بهذه الدلالة ألبتة أصلاً ، فكان المقصود من هذا التخصيص التنبيه على ما ذكرناه . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 91 ﴾

*(194/243)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ فِى ذلكم ﴾ إشارة إلى ما أمروا بالنظر إليه .

وما في اسم الإشارة من معنى البعد لما مر غير مرة ﴿ لآيَاتٍ ﴾ عظيمة أو كثيرة دالة على وجود القادر الحكيم ووحدته ﴿ لّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي يطلبون الايمان بالله تعالى كما قال القاضي أو مؤمنون بالفعل ، وتخصيصهم بالذكر لأنهم الذين انتفعوا بذلك دون غيرهم كما قيل ووجه دلالة ما ذكر على وجود القادر الحكيم ووحدته أن حدوث هاتيك الأجناس المختلفة والأنواع المتشعبة من أصل واحد وانتقالها من حال إلى حال على نمط بديع لا بد أن يكون بإحداث صانع يعلم تفاصيلها ويرجح ما تقتضيه حكمته من الوجوه الممكنة على غيره ولا يعوقه ضد يعانده أو ند يعارضه ، ثم إنه سبحانه بعد أن ذكر هذه النعمة الجليلة

الدالة على توحيده وبخ من أشرك به سبحانه ورد عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

(195/243)

---

ومن فوائد الماوردى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله عز وجل : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : معناه رزق كل شيء من الحيوان .

والثاني : نبات كل شيء من الثمار .

﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنهُ خَضِراً ﴾ يعني زرعاً رطباً بخلاف صفته عند بذره .

﴿ نُّخْرِجُ مِنهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً ﴾ يعني السنبل الذي قد تراكب حبه .

﴿ وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ القنوان جمع قنو وفيه ثلاثة تأويلات :

أحدهما : أنه الطلع ، قاله الضحاك .

والثاني : أنه الجمار .

والثالث : هي الأعذاق ، قال امرؤ القيس

أثت أعاليه وآدت أصوله . . . ومال بقنوان من البسر أحمرا

﴿ دَانِيَةٌ ﴾ فيه قولان :

(196/243)

---

أحدهما : دانية من المجتني لقصر نخلها وقرب تناولها ، قاله ابن عباس .

والثاني : دانية بعضها من بعض لتقاربها ، قاله الحسن .

﴿ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ يعني بساتين من أعناب .

﴿ مُشْتَبِهاً وَغَيرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : مشتبها ورقه مختلفاً ثمره ، قال قتادة .

والثاني : مشتبهاً لونه مختلفاً طعمه ، قاله الكلبي .

﴿ انظُرُواْ إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالضم ، وقرأ الباقون بالفتح ، وفي اختلافه بالضم والفتح قولان :

أحدهما : أن الثُّمُر بالضم جمع ثمار ، وبالفتح جمع ثمرة ، قاله علي بن عيسى .

والثاني : أن الثُّمُر بالضم : المال ، وبالفتح : ثمر النخل ، قاله مجاهد ، وأبو جعفر الطبري .

﴿ وَيَنْعِهِ ﴾ يعني نضجة وبلوغه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد ابن الجوزى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء ﴾

يعني : المطر ﴿ فأخرجنا به ﴾ أي : بالمطر .

وفي قوله تعالى : ﴿ نبات كل شيء ﴾ قولان .

أحدهما : نبات كل شيء من الثمار ، لأن كل ما ينبت فنباته بالماء .

والثاني : رزق كل شيء وغذاؤه .

وفي قوله تعالى : ﴿ فأخرجنا منه ﴾ قولان .

أحدهما : من الماء ، أي : به .

والثاني : من النبات .

قال الزجاج : الخَضِر : بمعنى الأخضر ، يقال : اخضرَّ ، فهو أخْضر ، وخَضِر ، مثل أعوَّر ، فهو أعْوَر ، وعَوِر .

قوله تعالى : ﴿ نخرج منه ﴾ أي : من الخضر ﴿ حباً متراكما ﴾ كالسنبل والشعير .

والمتراكب : الذي بعضه فوق بعض .

قوله تعالى : ﴿ ومن النخل من طلعها قنوان دانية ﴾ وروى الخفّاف عن أبي عمرو ،

"قُنوان" : بضم القاف ؛ وروى هارون عنه بفتحها .

قال الفراء : معناه : ومن النخل ما قنوانه دانية ، وأهل الحجاز يقولون : "قِنوان" بكسر القاف ؛ وقيس يضمونها ؛ وضبة ، وتميم ، يقولون : "قنيان" وأنشدني المفضّل عنهم :

فأَثَّتْ أعَالِيْهِ وآدَتْ أصُوْلُه . . .

وَمَالَ بِقِنْيانٍ من البُسْرِ أحْمَرَا

(197/243)

---

ويجتمعون جميعاً ، فيقولون : "قِنو" و"قُنو" ولا يقولون : "قِني" ولا "قُني" وكلب .

يقولون : "ومال بِقنيان" .

قال المصنف : والبيت لامرئ القيس ؛ ورواه أبو سعيد السكري : ﴿ ومال بِقنوان ﴾ مكسورة القاف مع الواو ، ففيه أربع لغات : قِنوان ، وقُنوان ، وقِنيان ، وقُنيان ﴿ وأثت ﴾ : كثرت ؛ ومنه : شعر أثيت .

﴿ وآدت ﴾ : اشتدت .

وقال ابن قتيبة : القنوان : عذوق النخل ، واحدها : قنو ، جمع على لفظ تثنية ، ومثله : صِنو وصنوان في التثنية ، وصنوان في الجمع .

وقال الزجاج : قِنوان : جمع قِنو ، وإذا ثنيته فهما قِنوان ، بكسر النون .

ودانية : أي : قريبة المتناول ، ولم يقل : ﴿ ومنها قنوان بعيدة ﴾ ، لأن في الكلام دليلاً أن البعيدة السحيقة ؛ قد كانت غير سحيقة ، فاجتُزِىء بذكر القريبة عن ذكر البعيدة ؛ كقوله تعالى : ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ [ النحل : 81 ] وقال ابن عباس : القُنوان الدانية : قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض .

قوله تعالى : ﴿ وجنات من أعناب ﴾ قال الزجاج : هو نسق على قوله : "خضراً" ﴿ والزيتون والرمان ﴾ المعنى : وأخرجنا منه شجر الزيتون والرمان ؛ وقد روى أبو زيد عن المفضل ، و"جناتٌ" بالرفع .

قوله تعالى : ﴿ مشتبهاً وغير متشابه ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : مشتبها في المنظر ، وغير متشابه في الطعم ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : مشتبهاً ورقه ، مختلفاً ثمره ، قاله قتادة ، وهو في معنى الأول .

والثالث : منه ما يشبه بعضه بعضاً ، ومنه ما يخالف .

قال الزجاج : وإنما قرن الزيتون بالرمان لأنهما شجرتان تعرف العرب أن ورقهما يشتمل على الغصن من أوله إلى آخره .

قال الشاعر :

بُورِكَ الميّت الغَريبُ كما بو . . .

رِكَ نَضْجُ الرُّمَّانِ والزَّيْتُونِ

ومعناه : أن البركة في ورقه اشتمالُه على عوده كلِّه .

(198/243)

---

قوله تعالى : ﴿ انظروا إلى ثمره ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم : ﴿ انظروا إلى ثمره ﴾ ، و﴿ كلوا من ثمره ﴾ [ الأنعام : 141 ] و﴿ ليأكلوا من ثمره ﴾ [ يس : 35 ] : بالفتح في ذلك .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف : بالضم فيهن .

قال الزجاج : يقال : ثَمرةٌ ، وثَمَرَ ، وثِمَار ، وثُمُر ؛ فمن قرأ "إلى ثُمُره" بالضم أراد جمع الجمع .

وقال أبو علي : يحتمل وجهين .

أحدهما : هذا ، وهو أن يكون الثمر جمع ثمار .

والثاني : أن تكون الثمر جمع ثمرة ، وكذلك أكمة ، وأُكُم ، وخشبة وخُشُب .

قال الفراء : يقول : انظروا إليه أول ما يَعْقِد ، وانظروا إلى ينعه ، وهو نضجه وبلوغه .

وأهل الحجاز يقولون : يَنْعَ ، بفتح الياء ، وبعض أهل نجد يضمونها .

قال ابن قتيبة : يقال : ينَعت الثمرة ، وأينعت : إذا أدركت وهو ، اليُنْع واليَنْع .

وقرأ الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، والأعمش ، وابن محيصن : ﴿ ويُنعِه ﴾ بضم الياء .

قال الزجاج : الينع : النُضج .

قال الشاعر :

فِي قِبَابٍ حَوْلَ دَسْكَرَةٍ . . .

حَوْلَهَا الزَّيْتُونُ قَدْ يَنَعا

وبيَّن الله تعالى لهم بتصريف ما خلق ، ونقله من حال إلى حال لا يقدر عليه الخلق ، أنه كذلك يبعثهم .

قوله تعالى : ﴿ إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ قال ابن عباس : يصدِّقون أن الذي أخرج هذا النبات قادر على أن يحيي الموتى .

وقال مقاتل : يصدقون بالتوحيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ﴾

﴿ السماء ﴾ في هذا الموضع السحاب ، وكل ما أظلك فهو سماء ، و﴿ ماء ﴾ أصله موه تحركت الواو وانفتح ما قبلها فجاء ماه فبدلت الهاء بالهمزة لأن الألف والهاء ضعيفان مهموسان ، وقوله : ﴿ نبات كل شيء ﴾ قال بعض المفسرين أي مما ينبت ، وحسن إطلاق العموم في ﴿ كل شيء ﴾ لأن ذكر النبات قبله قد قيد المقصد وقال الطبري والمراد ب ﴿ كل شيء ﴾ ما ينمو من جميع الحيوانات والنبات والمعادن وغير ذلك ، لأن ذلك كله يتغذى وينمو بنزول الماء من السماء ، والضمير في ﴿ منه ﴾ يعود على النبات ، وفي الثاني يعود على الخضر ، و﴿ خضراً ﴾ بمعنى أخضر ، ومنه قوله عليه السلام : " الدنيا خضرة حلوة " بمعنى خضراء .

*(200/243)*

---

قال القاضي أبو محمد : وكأن " خضراً " إنما يأتي أبداً لمعنى النضارة وليس للون فيه مدخل ، وأخضر إنما تمكنه في اللون ، وهو في النضارة تجوز ، وقوله : ﴿ حباً متراكباً ﴾ يعم جميع السنابل وما شاكلها كالصنوبر ، والرمان وغيرها من جميع النبات ، وقوله تعالى : ﴿ ومن النخل ﴾ تقديره ونخرج من النخل و﴿ من طلعها قنوان ﴾ ابتداء خبره مقدم ، والجملة

في موضع المفعول بنخرج ، و" الطلع " أول ما يخرج من النخلة في أكمامه ، و﴿ قنوان ﴾ جمع قنو وهو العِذق بكسر العين وهي الكباسة ، والعرجون عوده الذي ينتظم التمر ، قرأ الأعرج " قنوان " بفتح القاف ، وقال أبو الفتح ينبغي أن يكون اسماً للجمع غير مكسر لأن فعلان ليس من أمثلة الجمع قال المهدوي وروي عن الأعرج ضم القاف ، وكذلك أنه جمع " قُنو " بضم القاف ، قال الفراء وهي لغة قيس وأهل الحجاز ، والكسر أشهر في العرب ، وقنو يثنى قنوان منصرفة النون ، و﴿ دانية ﴾ معناه قريبة من المتناول ، قاله ابن عباس والبراء بن عازب والضحاك وقيل قريبة بعضها من بعض ، وقرأ الجمهور " وجناتٍ " بنصب جَنات عطفاً على قوله نبات ، وقرأ الأعمش ومحمد بن أبي ليلى ورويت عن أبي بكر عن عاصم " وجناتٌ " بالرفع على تقدير ولكم جنات أو نحو هذا ، وقال الطبري وهو عطف على قنوان .

*(201/243)*

---

قال القاضي أبو محمد : وقوله ضعيف و﴿ الزيتون والرمان ﴾ بالنصب إجماعاً عطفاً على قوله : ﴿ حباً ﴾ ، ﴿ ومشتبها وغير متشابه ﴾ قال قتادة : معناه تتشابه في اللون وتتباين في الثمر ، وقال الطبري : جائز أن تتشابه في الثمر وتتباين في الطعم ، ويحتمل أن يريد

تتشابه في الطعم وتتباين في المنظر ، وهذه الأحوال موجودة بالاعتبار في أنواع الثمرات ، وقوله تعالى : ﴿ انظروا ﴾ وهو نظر بصر يترتب عليه فكرة قلب ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع وابن عامر وعاصم " إلى ثَمَره " بفتح الثاء والميم وهو جمع ثمرة كبقرة وبقر وشجرة وشجر ، وقرأ يحيى بن وثاب ومجاهد " ثُمُره " بضم الثاء والميم قالا وهي أصناف المال .

قال القاضي أبو محمد : كأن المعنى انظروا إلى الأموال التي تتحصل منه ، وهي قراءة حمزة والكسائي ، قال أبو علي والأحسن فيه أن يكون جمع ثمره كخشبة وخشب وأكمة وأكم ، ومنه قول الشاعر : [ الطويل ]

تَرَى الأُكْمَ فيهِ سُجَّداً لِلْحَوافِرِ . . . نظيره في المعتل لابة ولوب وناقة ونوق وساحة وسوح . ويجوز أن يكون جمع جمع فتقول ثمرة وثمار وثمر مثل حمار وحمر ، وقرأت فرقة " إلى ثُمْره " بضم الثاء وإسكان الميم كأنها ذهبت إلى طلب الخفة في تسكين الميم ، والثمر في اللغة جنى الشجر وما يطلع ، وإن سمي الشجر ثماراً فتجوز ، وقرأ جمهور الناس و"يَنعه " بفتح الياء وهو مصدر ينع يينع إذا نضج ، يقال ينع وأينع وبالنضج فسر ابن عباس هذه الآية ومنه قول الحجاج " إني لأرى رؤوساً قد أينعت " ويستعمل ينع بمعنى استقل واخضر ناضراً ، ومنه قول الشاعر : [ المديد ]

في قبابٍ حَوْلَ دَسْكَرَة . . . حَوْلَها الزَّيْتُونُ قَدْ يَنَعَا

---

وقيل في ﴿ ينعه ﴾ إنه جمع يانع مثل في تاجر وتجر وراكب وركب ذكره الطبري ، وقرأ ابن محيصن وقتادة والضحاك " ويُنعه " بضم الياء أي نضجه ، وقرأ ابن أبي عبلة واليماني . " ويانعه " ، وقوله ﴿ إن في ذلكم لآيات ﴾ إيجاب تنبيه وتذكير وتقدم تفسير مثله . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً ﴾ أي المطر .

﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي كل صِنف من النبات .

وقيل : رزق كل حيوان .

﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً ﴾ قال الأخفش : أي أخضر ؛ كما تقول العرب : أرِينها نمرة

أرِكْها مِطرة .

والخِضر رطب البقول .

وقال ابن عباس : يريد القمح والشعير والسُّلت والذّرة والأرز وسائر الحبوب .

﴿ نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً ﴾ أي يُركّب بعضه على بعض كالسنبلة .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النخل مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ ابتداء وخبر .

وأجاز الفرّاء في غير القرآن "قِنْواناً دانيةً" على العطف على ما قبله .

قال سيبويه : ومن العرب من يقول : قُنوان .

قال الفرّاء : هذه لغة قيس ، وأهل الحجاز يقولون : قِنوان ، وتميم يقولون : قنيان ؛ ثم يجتمعون في الواحد فيقولون : قِنْوٌ وقَنْوٌ .

والطَّلْع الكُفُرَّى قبل أن ينشق عن الإغريض .

والإغريض يسمى طلعاً أيضاً .

والطلع ؛ ما يُرى من عِذْق النخلة .

والقِنوان : جمع قِنو ، وتثنيته قِنْوان كصِنو وصِنوانِ ( بكسر النون ) .

وجاء الجمع على لفظ الاثنين .

قال الجوهري وغيره : الاثنان صِنوانِ والجمع صنوانُ ( برفع النون ) .

والقِنْو : العذْق والجمع القِنوان والأقناء ؛ قال :

طويلة الأَقْناء والأثاكِلِ . . .

(203/243)

---

غيره : "أقناء" جمع القلة .

قال المهدوِيّ : قرأ ابن هُرْمز "قَنوان" بفتح القاف ، وروي عنه ضمها .

فعلى الفتح هو اسم للجمع غير مُكَسّر ، بمنزلة ركب عند سيبويه ، وبمنزلة الباقِر والْجَامِل ؛ لأن فعلان ليس من أمثلة الجمع ، وضمّ القاف على أنه جمع قِنو وهو العِذق ( بكسر العين ) وهي الكباسة ، وهي عنقود النخلة .

والعَذْق ( بفتح العين ) النخلة نفسُها .

وقيل : القِنوان الجُمّار .

﴿ دَانِيَةٌ ﴾ قريبة ، ينالها القائم والقاعد .

عن ابن عباس والبَرَاء بن عازب وغيرهما .

قال الزجاج : منها دانِية ومنها بعيدة ؛ فحذف ؛ ومثله ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [ النحل : 81 ] .

وخصّ الدانية بالذكر ، لأن من الغرض في الآية ذكر القدرة والامتنان بالنعمة ، والامتنانُ فيما يقربُ متناوَلُه أكثر .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ ﴾ أي وأخرجنا جنات .

وقرأ محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى والأعمش ، وهو الصحيح من قراءة عاصم "وجناتٌ" بالرفع .

وأنكر هذه القراءةَ أبو عبيد وأبو حاتم ، حتى قال أبو حاتم : هي محال ؛ لأن الجنات لا تكون من النخل .

قال النحاس : والقراءة جائزة ، وليس التأويل على هذا ، ولكنه رفع بالابتداء والخبرُ محذوف ؛ أي ولهم جنات .

كما قرأ جماعة من القرّاء "وَحُورٌ عِينٌ" .

وأجاز مثل هذا سيبويه والكِسائيّ والفرّاء ؛ ومثله كثير .

وعلى هذا أيضاً "وحُوراً عِيناً" حكاه سيبويه ، وأنشد :

جئْني بمثلِ بني بَدْرٍ لقومهم . . .

أو مثل أُسْرةِ مَنْظورِ بن سيّارِ

وقيل : التقدير "وجنات من أعناب" أخرجناها ؛ كقولك : أكرمت عبد الله وأخوه ، أي وأخوه أكرمت أيضاً .

فأمّا الزيتون والرمّان فليس فيه إلا النصب للإجماع على ذلك .

وقيل : "وجنّاتٌ" بالرفع عطف على "قِنوان" لفظاً ، وإن لم تكن في المعنى من جنسها .

(204/243)

---

﴿ والزيتون والرمان مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ أي متشابهاً في الأوراق ؛ أي ورق الزيتون يُشبه ورق الرمان في اشتماله على جميع الغُصْن وفي حجم الورق ، وغير متشابه في الذَّوَاق ؛ عن قتادة وغيرِه .

قال ابن جُريج : "مُتَشابِهاً" في النظر "وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ" في الطعم ؛ مثل الرمّانتين لونهما واحد وطعمهما مختلف .

وخصّ الرمان والزيتون بالذِّكر لقربهما منهم ومكانهما عندهم .

وهو كقوله : ﴿ أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإبل كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [ الغاشية : 17 ] .

ردّهم إلى الإبل لأنها أغلب ما يعرفونه .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ انظروا إلى ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ ﴾ أي نظر الاعتبار لا نظر الإبصار المجرَّد عن التفكُّر .

والثمر في اللغة جَنَى الشجر .

وقرأ حمزة والكسائيّ "ثُمُره" بضم الثاء والميم .

والباقون بالفتح فيهما جمع ثَمَرة ، مثل بَقَرة وبقر وشجرة وشجر .

قال مجاهد : الثّمَر أصناف المال ، والثَّمَر ثمر النخل .

وكأنّ المعنى على قول مجاهد : انظروا إلى الأموال التي يتحصل منه الثمر ؛ فالثُّمُر بضمتين جمع ثمار وهو المال المُثَمَّر .

وروي عن الأعمش "ثُمْره" بضم الثاء وسكون الميم ؛ حذفت الضمة لثقلها طلباً للخفة .

ويجوز أن يكون ثُمْر جمع ثَمَرة مثل بُدَنَة وبُدْن .

ويجوز أن يكون ثُمُر جمع جمع ، فتقول : ثمرة وثمار وثمر مثل حمار وحمر .

ويجوز أن يكون جمع ثمرة كخشبة وخُشُب لا جمع الجمع .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ وَيَنْعِهِ ﴾ قرأ محمد بن السَّمَيْقَع "ويانعه" .

وابن مُحَيْصِن وابن أبي إسحاق "ويُنْعِه" بضم الياء .

قال الفرّاء : هي لغة بعضِ أهل نجد ؛ يقال : يَنَعَ الثمر يَيْنَعِ ، والثمر يانع .

وأينع يونع ( والتمر مُونِع ) .

والمعنى ونُضْجِه .

يَنَع وأينع إذا نَضِج وأدرك .

وقال الحجاج في خطبته : أرى رؤوساً قد أيْنَعَتْ وحان قِطافها .

---

قال ابن الأنباريّ : اليَنْع جمع يانع ، كراكب وركْب ، وتاجر وتَجْر ، وهو المدرك البالغ .

وقال الفرّاء : أُينع أكثرُ من يَنَع ، ومعناه أحمر ؛ ومنه ما روي في حديث المُلاَعَنة : " إن ولدته أحمر مثل اليَنَعة " وهي خرزة حمراء ، يقال : إنه العقيق أو نوع منه .

فدلت الآية لمن تدبر ونظر ببصره وقلبه ، نظر من تفكّر ، أن المتغيّرات لا بدّ لها من مغيّر ؛ وذلك أنه تعالى قال : ﴿ انظروا إلى ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ .

فتراه أوّلا طَلْعا ثم إغْريضاً إذا انشق عنه الطَّلْعُ .

والإغريض يُسَمّى ضَحْكاً أيضاً ، ثم بلحاً ، ثم سَيَاباً ، ثم جَدَالاً إذا اخضر واستدار قبل أن يشتدّ ، ثم بُسْراً إذا عظم ، ثم زَهْواً إذا احمر ؛ يقال : أزهى يُزهِي ، ثم مُوَكّتاً إذا بدت فيه نقط من الإرطاب .

فإن كان ذلك من قِبَل الذَّنب فهي مُذنَّبَة ، وهو التَّذْنُوب ، فإذا لانت فهي ثَعْدة ، فإذا بلغ الإرطاب نصفها فهي مُجَزَّعة ، فإذا بلغ ثلثيها فهي حُلْقَانة ، فإذا عَمّها الإرطاب فهي مُنْسِبتة ؛ يقال : رطب مُنْسَبِت ، ثم ييبس فيصير تمراً .

فنبّه الله تعالى بانتقالها من حال إلى حال وتغيرّها ووجودها بعد أن لم تكن على وحدانيته

وكمال قدرته .

وأن لها صانعاً قادراً عالماً .

ودلّ على جواز البعث ؛ لإيجاد النبات بعد الجفاف .

قال الجَوْهَرِيّ : يَنَع الثمر يَيْنَع ويَيْنِع يَنْعاً ويُنْعاً ويُنُوعاً ، أي نَضِجَ .

السادسة : قال ابن العربيّ قال مالك : الإيناع الطِّيب بغير فساد ولا نقش .

قال مالك : والنّقش أن يَنْقُش أهلُ البصرة الثمَر حتى يُرْطب ؛ يريد يُثقب فيه بحيث يُسرع دخولُ الهواء إليه فيرطب معجّلاً .

فليس ذلك اليَنْع المراد في القرآن ، ولا هو الذي ربط به رسول الله صلى الله عليه وسلم البيع ، وإنما هو ما يكون من ذاته بغير محاولة .

(206/243)

---

وفي بعض بلاد التِّين ، وهي البلاد الباردة ، لا يَنْضُج حتى يُدخَل في فمه عُود قد دُهن زيتاً ، فإذا طاب حلّ بيعه ؛ لأن ذلك ضرورة الهواء وعادةُ البلاد ، ولولا ذلك ما طاب في وقت الطِّيب .

قلت : وهذا اليَنْع الذي يقف عليه جواز بيع التمر وبه يطيب أكلها ويأمن من العاهة ، هو

عند طلوع الثُّرَيّا بما أجرى الله سبحانه من العادة وأحكمه من العلم والقدرة .

ذكر المُعَلَّى بن أسد عن وهيب عن عِسْل بن سفيان عن عطاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا طلعت الثُّرَيَّا صباحاً رُفعت العاهة عن أهل البلد " والثريا النجم ، لا خلاف في ذلك .

وطلوعها صباحاً لاثنتي عشرة ليلة تمضي من شهر أيار ، وهو شهر مايه .

وفي البخاريّ : وأخبرني خارجة بن زيد بن ثابت أن زيد بن ثابت لم يكن يبيع ثمار أرضه حتى تطلع الثُّرَيّا فيتبين الأصفرُ من الأحمر .

السابعة : وقد استدلّ من أسقط الجوائح في الثمار بهذه الآثار ، وما كان مثلها من نهيه عليه السلام عن بيع الثمرة حتى يَبْدُوَ صلاحها ، وعن بيع الثمارَ حتى تذهب العاهة .

قال عثمان بن سُراقة : فسألت ابن عمر متى هذا ؟ فقال : طلوع الثريا .

قال الشافعيّ : لم يثبت عندي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بوَضْع الجوائح ، ولو ثبت عندي لم أعْدُه ، والأصل المجتمَع عليه أن كل من ابتاع ما يجوز بيعه وقبضه كانت المصيبة منه ، قال : ولو كنت قائلاً بوضع الجوائح لوضعتها في القليل والكثير .

وهو قول الثَّوْرِيّ والكوفيين .

وذهب مالك وأكثر أهل المدينة إلى وضعها ؛ لحديث جابر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بوضع الجوائح .

أخرجه مسلم .

وبه كان يقضي عمر بن عبد العزيز ، وهو قول أحمد بن حنبل وسائر أصحاب الحديث .

*(207/243)*

---

وأهل الظاهر وضعوها عن المبتاع في القليل والكثير على عموم الحديث ؛ إلا أن مالكاً وأصحابه اعتبروا أن تبلغ الجائحة ثلث الثمرة فصاعداً ، وما كان دون الثلث ألغوه وجعلوه تَبَعاً ، إذ لا تخلو ثمرة من أن يتعذّر القليل من طِيبها وأن يلحقها في اليسير منها فساد .

وكان أصْبَغ وأشهب لا ينظران إلى الثمرة ولكن إلى القيمة ، فإذا كانت القيمة الثلث فصاعداً وضع عنه .

والجائحة ما لا يمكن دفعه عند ابن القاسم .

وعليه فلا تكون السرقة جائحة ، وكذا في كتاب محمد .

وفي الكتاب أنه جائحة ، وروي عن ابن القاسم ، وخالفه أصحابه والناس .

وقال مُطَرِّف وابن الماجِشون : ما أصاب الثمرة من السماء من عَفَن أو برد ، أو عطش أو حرٍّ أو كسر الشجر بما ليس بصنع آدمي فهو جائحة .

واختُلف في العطش ؛ ففي رواية ابن القاسم هو جائحة .

والصحيح في البقول أنها فيها جائحة كالثمرة .

ومن باع ثمراً قبل بَدْو صلاحه بشرط التبقية فُسخ بيعه وردّ ؛ للنهي عنه ، ولأنه من أكل المال بالباطل ؛ لقوله عليه السلام : " أرأيت إن منع الله الثمرة فبِم يأخذ أحدكم مال أخيه بغير حق " ؟ هذا قول الجمهور ، وصححه أبو حنيفة وأصحابه وحملوا النهي على الكراهة .

وذهب الجمهور إلى جواز بيعها قبل بَدْو الصلاح بشرط القطع .

ومنعه الثَّوْرِيّ وابن أبي لَيْلَى تمسُّكاً بالنهي الوارد في ذلك .

وخصّصه الجمهور بالقياس الجِلِيّ ؛ لأنه مبيع معلوم يصحّ قبضه حالة العقد فصحّ بيعه كسائر المبيعات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ﴾

(208/243)

لما ذكر إنعامه تعالى بخلقنا ذكر إنعامه علينا بما يقوم به أودنا ومصالحنا والسماء هنا السحاب ، والظاهر أن المعنى بنبات كل شيء ما يسمى نباتاً في اللغة وهو ما ينمو من الحبوب والفواكه والبقول والحشائش والشجر ومعنى ﴿ كل شيء ﴾ مما ينبت وأشار إلى أن السبب واحد والمسببات كثيرة كما قال تعالى : ﴿ تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ﴾ وقال الطبري : ﴿ نبات كل شيء ﴾ جميع ما ينمو من الحيوان والنبات والمعادن وغير ذلك ، لأن ذلك كله يتغذى وينمو بنزول الماء من السماء ، وقال الفراء : معناه رزق كل شيء أي ما يصلح غذاءً لكل شيء فيكون كل شيء مخصوصاً بالمتغذي ويكون إضافة النبات إليه إضافة بيانية بالكلية ، وعلى الوجهين السابقين تكون الإضافة راجعة في المعنى إلى إضافة ما يشبه الصفة إلى الموصوف إذ يصير المعنى : فأخرجنا به كل شيء منبت وفي قوله : ﴿ فأخرجنا ﴾ التفات من غيبة إلى تكلم بنون العظمة .

﴿ فأخرجنا منه خضراً ﴾ أي من النبات غضاً ناضراً طرياً و ﴿ فأخرجنا ﴾ معطوف على ﴿ فأخرجنا ﴾ وأجاز أبو البقاء أن يكون بدلاً من ﴿ فأخرجنا ﴾ .

﴿ نخرج منه حباً متراكماً ﴾ أي من الخضر كالقمح والشعير وسائر القطاني ومن الثمار كالرمان والصنوبر وغيرهما مما تراكب حبه وركب بعضه بعضاً و ﴿ نخرج ﴾ جملة في

موضع الصفة لخضر أو يجوز أن يكون استئناف إخبار ، وقرأ الأعمش وابن محيصن يخرج منه حب متراكب على أنه مرفوع بيخرج ومتراكب صفة في نصبه ورفعه .

(209/243)

---

﴿ ومن النخل من طلعها قنوان دانية ﴾ أي قريبة من المتناول لقصرها ولصوق عروقها بالأرض قاله ابن عباس والبراء والضحاك وحسنه الزمخشري فقال : سهلة المجتنى معرضة للقاطف كالشيء الداني القريب المتناول ولأن النخلة وإن كانت صغيرة ينالها القاعد فإنها تأتي بالثمر ، وقال الحسن : قريب بعضها من بعض ، وقيل ﴿ دانية ﴾ مائلة ، قيل : وذكر الدانية دون ذكر السحوق لأن النعمة بها أظهر أو حذف السحوق لدلالة الدانية عليها كقوله : ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ أي والبرد .

وقرأ الجمهور ﴿ قنوان ﴾ بكسر القاف وقرأ الأعمش والخفاف عن أبي عمر والأعرج في رواية بضمها ورواه السلمي عن علي بن أبي طالب ، وقرأ الأعرج في رواية وهارون عن أبي عمرو ﴿ قنوان ﴾ بفتح القاف وخرجه أبو الفتح على أنه اسم جمع على فعلان لأن فعلاناً ليس من أبنية جمع التكسير ، وفي كتاب ابن عطية روي عن الأعرج ضم القاف على أنه جمع قنو بضم القاف ، وقال الفراء : وهي لغة قيس وأهل الحجاز والكسر أشهر في

العرب وقنو على ﴿ قنوان ﴾ انتهى ، وهو مخالف لما نقلناه في المفردات من أن لغة الحجاز ﴿ قنوان ﴾ بكسر القاف وهذه الجملة مبتدأ وخبر و﴿ من طلعها ﴾ بدل من ﴿ ومن النخل ﴾ والتقدير و﴿ قنوان دانية ﴾ كائنة من طلع ﴿ النخل ﴾ وأفرد ذكر القنوان وجرد من قوله : ﴿ نبات كل شيء ﴾ نخرج منه خضراً لما في تجريدها من عظيم المنة والنعمة ، إذ كانت أعظم أو من أعظم قوت العرب وأبرزت في صورة المبتدأ والخبر ليدل على الثبوت والاستقرار وأن ذلك مفروغ منه ، وقال ابن عطية : ﴿ ومن النخل ﴾ تقديره نخرج من النخل ومن طلعها ﴿ قنوان ﴾ ابتداء خبره مقدم والجملة في موضع المفعول بتخرج انتهى .

*(210/243)*

---

وهذا خطأ لأن ما يتعدى إلى مفعول واحد لا تقع الجملة في موضع مفعوله إلا إذا كان الفعل مما يعلق وكانت الجملة فيها مانع من أن يعمل في شيء من مفرداتها الفعل من الموانع المشروحة في علم النحو و﴿ نخرج ﴾ ليست مما يعلق وليس في الجملة ما يمنع من عمل الفعل في شيء من مفرداتها إذ لو كان الفعل هنا مقدّراً لتسلط على ما بعده ولكان التركيب والتقدير ونخرج ﴿ من النخل من طلعها ﴾ قنواناً دانية بالنصب ، وقال الزمخشري :

ويجوز أن يكون الخبر محذوفاً لدلالة ﴿ أخرجنا ﴾ عليه تقديره ومخرجة من طلع النخل قنوان انتهى ، ولا حاجة إلى هذا التقدير إذ الجملة مستقلة في الاخبار بدونه ، وقال أبو البقاء : ويجوز أن يكون ﴿ قنوان ﴾ مبتدأ والخبر ﴿ من طلعها ﴾ وفي ﴿ من النخل ﴾ ضمير تقديره وينبت من النخل شيء أو ثمر فيكون ﴿ من طلعها ﴾ بدلاً منه ، ويجوز أن يرتفع ﴿ قنوان ﴾ على أنه فاعل ﴿ من طلعها ﴾ فيكون في ﴿ من النخل ﴾ ضمير يفسره ﴿ قنوان ﴾ وإن رفعت ﴿ قنوان ﴾ بقوله : ﴿ من النخل ﴾ على قول من أعمل أول الفعلين جاز وكان في ﴿ من طلعها ﴾ ضمير مرفوع انتهى ، وهو إعراب فيه تخليط لا يسوغ في القرآن ومن قرأ ﴿ يخرج منه حب متراكب ﴾ جاز أن يكون قوله : ﴿ من النخل من طلعها قنوان دانية ﴾ معطوفاً عليه كما تقول يضرب في الدار زيد ، وفي السوق عمرو وجاز أن يكون مبتدأ وخبراً وهو الأوجه .

*(211/243)*

---

﴿ وجنات من أعناب ﴾ قراءة الجمهور بكسر التاء عطفاً على قوله نبات وهو من عطف الخاص على العام لشرفه ولما جرد النخل جردت ﴿ جنات ﴾ الأعناب لشرفهما ، كما قال : ﴿ أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب ﴾ وقرأ محمد بن أبي ليلى

والأعمش وأبو بكر في رواية عنه عن عاصم ﴿ وجنات ﴾ بالرفع وأنكر أبو عبيد وأبو حاتم هذه القراءة حتى قال أبو حاتم : هي محال لأن الجنات من الأعناب لا تكون من النخل ولا يسوغ إنكار هذه القراءة ولها التوجيه الجيد في العربية وجهت على أنه مبتدأ محذوف الخبر فقدره النحاس ولهم جنات وقدره ابن عطية ، ولكم جنات وقدره أبو البقاء ومن الكرم جنات وقدره ومن الكرم لقوله : ﴿ ومن النخل ﴾ وقدره الزمخشري وثم جنات أي مع النخل ونظيره قراءة من قرأ ﴿ وحور عين ﴾ بالرفع بعد قوله :

﴿ يطاف عليهم بكأس من معين ﴾ الآية وتقديره ولهم حور وأجاز مثل هذا سيبويه والكسائي والفراء ومثله كثير وقدر الخبر أيضاً مؤخراً تقديره ﴿ وجنات من أعناب ﴾ أخرجناها ودل على تقديره قوله قبل : ﴿ فأخرجنا ﴾ كما تقول : أكرمت عبد الله وأخوه التقدير وأخوه أكرمته فحذف أكرمته لدلالة أكرمت عليه ، ووجهها الطبري على أن ﴿ وجنات ﴾ عطف على ﴿ قنوان ﴾ ، قال ابن عطية : وقوله ضعيف ، وقال أبو البقاء : ولا يجوز أن يكون معطوفاً على ﴿ قنوان ﴾ لأن العنب لا يخرج من النخل ، وقال الزمخشري : وقد ذكر أن في رفعه وجهين أحدهما أن يكون مبتدأ محذوف الخبر تقديره وثم جنات وتقدّم ذكر هذا التقدير عنه ، قال : والثاني أن يعطف على ﴿ قنوان ﴾ على معنى وحاصله أو ومخرجه من النخل قنوان ﴿ وجنات من أعناب ﴾ أي من نبات أعناب انتهى ، وهذا العطف هو على أن لا يلاحظ فيه قيد من النخل فكأنه قال ﴿ من

النخل قنوان دانية ﴾ ﴿ جنات من أعناب ﴾ حاصلة كما تقول من بني تميم رجل عاقل ورجل من قريش منطلقان .

﴿ والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه ﴾ قرىء بالنصب إجماعاً .

*(212/243)*

---

قال ابن عطية : عطفاً على ﴿ حباً ﴾ .

وقيل : عطفاً على ﴿ نبات ﴾ ، وقال الزمخشري : وقرىء ﴿ وجنات ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿ نبات كل شيء ﴾ أي وأخرجنا به ﴿ جنات من أعناب ﴾ وكذلك قوله : ﴿ والزيتون والرمان ﴾ .

انتهى فظاهره أنه معطوف على نبات كما أن ﴿ وجنات ﴾ معطوف عليه ، قال الزمخشري : والأحسن أن ينتصب على الاختصاص كقوله : ﴿ والمقيمين الصلاة ﴾ لفضل هذين الصنفين انتهى ، قال قتادة : يتشابه في الورق ويتباين في الثمر وتشابه الورق في الحجم وفي اشتماله على جميع الغصن ، وقال ابن جريج : متشابهاً في النظر وغير متشابه في الطعم مثل الرمانتين لونهما واحد وطعمهما مختلف ، وقال الطبري : جائز أن يتشابه في الثمر يتباين في الطعم ويحتمل أن يريد تشابه الطعم وتباين النظر ، وهذه الأحوال موجودة في

الاعتبار في أنواع الثمرات ، وقال الزمخشري : بعضه متشابه وبعضه غير متشابه في القدر واللون والطعم وذلك دليل على أن التعمد دون الإهمال انتهى ، وقرأ الجمهور : ﴿ مشتبهاً ﴾ وقرىء شاذاً متشابهاً وهما بمعنى واحد كاختصم وتخاصم واشترك واستوى وتساوى ونحوها مما اشترك فيه باب الافتعال والتفاعل ، وانتصب ﴿ مشتبهاً ﴾ على أنه حال من ﴿ الرمان ﴾ لقربه وحذفت الحال من الأول أو حال من الأول لسبقه فالتقدير ﴿ والزيتون ﴾ مشتبهاً وغير متشابه ﴿ والرمان ﴾ كذلك هكذا قدره الزمخشري وقال كقوله : كنت منه ووالدي بريئاً . انتهى .

*(213/243)*

---

فعلى تقديره يكون تقدير البيت كنت منه بريئاً ووالدي كذلك أي بريئاً والبيت لا يتعين فيه ما ذكر لأن بريئاً على وزن فعيل كصديق ورفيق ، فيصح أن يخبر به عن المفرد والمثنى والمجموع فيحتمل أن يكون بريئاً خبر كان على اشتراك الضمير ، والظاهر المعطوف عليه فيه إذ يجوز أن يكون خبراً عنهما ولا يجوز أن يكون حالاً منهما وإن كان قد أجازه بعضهم إذ لو كان حالاً منهما لكان التركيب متشابهين وغيره متشابهين ، وقال الزجاج : قرن الزيتون بالرمان لأنهما شجرتان تعرف العرب أن ورقهما يشتمل على الغصن من أوله إلى

آخره ، قال الشاعر :

بورك الميت الغريب كما بو . . .

رك نضج الرمان والزيتون

﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾ النظر نظر رؤية العين ولذلك عداه بإلى لكن يترتب عليه الفكر والاعتبار والاستبصار والاستدلال على قدرة باهرة تنقله من حال إلى حال ، ونبه على حالين الابتداء وهو وقت ابتداء الأثمار والانتهاء وهو وقت نضجه أي كيف يخرجه ضئيلاً ضعيفاً لا يكاد ينتفع به وكيف يعود نضيجاً مشتملاً على منافع ؟ ونبه على هاتين الحالتين وإن كان بينهما أحوال يقع بها الاعتبار والاستبصار لأنهما أغرب في الوقوع وأظهر في الاستدلال ، وقرأ ابن وثاب ومجاهد وحمزة والكسائي ﴿ إلى ثمره ﴾ بضم الثاء والميم .

*(214/243)*

---

قال ابن وثاب : ومجاهد وهي أصناف الأموال يعني الأموال التي تتحصل منه ، قال أبو علي : والأحسن أن يكون جمع ثمرة كخشبة وخشب وأكمّة وأكم ونظيره في المعتل لابة ولوب وناقة ونوق وساحة وسوح وقرأت فرقة بضم الثاء وإسكان الميم طلباً للخفة كما تقول في

الكتب كتب ، وقرأ باقي السبعة ﴿ ثمره ﴾ بفتح الثاء والميم وهو اسم جنس كشجرة وشجر والثمر حتى الشجر وما يطلع وإن سمى الشجر ثمراً فمجاز والعامل في ﴿ إذا ﴾ ﴿ انظروا ﴾ وقرأ الجمهور ﴿ وينعه ﴾ بفتح الياء وسكون النون ، وقرأ قتادة والضحاك وابن محيصن بضم الياء وسكون النون ، وقرأ ابن أبي عبلة واليماني ويانعة اسم فاعل من ينع ونسبها الزمخشري إلى ابن محيصن ، وقال المروزي : ﴿ إذا أثمر ﴾ عند لا ظل له دائم فلا ينضج ولا شمس دائمة فتحرق أرسل على كل فاكهة ريحين مختلفين ريح تحرك الورق فيبدو الثمر فتقرعه الشمس وريح أخرى تحرك الورق وتظل الثمر فلا يحترق .

﴿ إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ الإشارة بذلكم إلى جميع ما سبق ذكره من فلق الحب والنوى إلى آخر ما خلق تعالى وما امتن به ، والآيات العلامات الدالة على كمال قدرته وإحكام صنعته وتفرده بالخلق دون غيره ، وظهور الآيات لا ينفع إلا لمن قدر الله له الإيمان فأما من سبق قدر الله له بالكفر فإنه لا ينتفع بهذه الآيات .

*(215/243)*

---

فنبه بتخصيص الإيمان على هذا المعنى وانظر إلى حسن مساق هذا الترتيب لما تقدم ﴿ إن الله فالق الحب والنوى ﴾ جاء الترتيب بعد ذلك تابعاً لهذا الترتيب فحين ذكر أنه

أخرج نبات كل شيء ذكر الزرع وهو المراد بقوله : ﴿ خضراً نخرج منه حباً متراكباً ﴾ وابتدأ به كما ابتدأ به في قوله : ﴿ فالق الحب ﴾ ثم ثنى بما له نوى فقال : ﴿ من النخل من طلعها قنوان دانية ﴾ إلى آخره كما ثنى به في قوله : ﴿ والنوى ﴾ وقدم الزرع على الشجر لأنه غذاء والثمر فاكهة ، والغذاء مقدم على الفاكهة ، وقدم النخل على سائر الفواكه لأنه يجري مجرى الغذاء بالنسبة إلى العرب ، وقدم العنب لأنه أشرف الفواكه وهو في جميع أطواره منتفع به حنوط ثم حصرم ثم عنب ثم إن عصر كان منه خل ودبس وإن جفف كان منه زبيب ، وقدم الزيتون لأنه كثير المنفعة في الأكل وفيما يعصر منه من الدهن العظيم النفع في الأكل والاستصباح وغيرهما ، وذكر الرمان لعجب حاله وغرابته فإنه مركب من قشر وشحم وعجم وماء ، فالثلاثة باردة يابسة أرضية كثيفة قابضة عفصة قوية في هذه الصفات ، وماؤه بالضد ألذ الأشربة وألطفها وأقربها إلى حيز الاعتدال وفيه تقوية للمزاج الضعيف غذاء من وجه ودواء من وجه ، فجمع تعالى فيه بين المتضادين المتعاندين فما أبهر قدرته وأعجب ما خلق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

ومن فوائد الخازن فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله عز وجل : ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء ﴾

يعني المطر وقيل إن الله ينزل المطر من السماء إلى السحاب ومن السحاب إلى الأرض ﴿

فأخرجنا به ﴾ يعني بالماء أنزلناه من السماء ﴿ نبات كل شيء ﴾ يعني كل شيء ينبت وينمو من جميع أصناف النبات ، وقيل معناه أخرجنا بالماء الذي أنزلناه من السماء غذاء كل شيء من : الأنعام والبهائم والطير والوحش وأرزاق بني آدم وأقواتهم مما يتغذون به فينبتون عليه وينمون ﴿ فأخرجنا منه خضراً ﴾ يريد أخضر مثل عور وأعور .

*(216/243)*

---

والأخضر هو جميع الزروع والبقول الرطبة ﴿ نخرج منه حباً متراكباً ﴾ يعني : يخرج من ذلك الأخضر سنابل فيها الحب يركب بعضها فوق بعض مثل : سنبل القمح والشعير والأرز والذرة وسائر الحبوب وفي تقديم الزرع على النخيل دليل على الأفضلية ولأن حاجة الناس إليه أكثر لأنه القوت المألوف ﴿ ومن النخل من طلعها قنوان دانية ﴾ يعني من ثمرها .

يقال : أطلعت النخلة إذا أخرجت طلعها وطلعها كفراها قبل أن ينشق عن الإغريض .

والإغريض : يسمى طلعاً أيضاً وهو ما يكون في قلب الطلع والطلع أول ما يبدو ويخرج من ثمر النخل كالكيزان يكون فيه العذق فإذا شق عنه كيزانه سمي عذقاً وهو القنو وجمعه قنوان مثل : صنو وصنون .

دانية أي قريبة التناوي ينالها القائم والقاعد وقال مجاهد : متدلية .

وقال الضحاك : قصار ملتصقة بالأرض وفيه اختصار وحذف تقديره ومن النخل ما قنوانها دانية قريبة ومنها ما هي بعيدة عالية فاكتفى بذكر القريبة عن البعيدة لشدة الاهتمام بها ولأنها أسهل تناولاً من البعيدة لأن البعيدة تحتاج إلى كلفة ﴿ وجنات من أعناب ﴾ يعني وأخرجنا من ذلك بساتين من أعناب ﴿ والزيتون والرمان ﴾ يعني وأخرجنا شجرة الزيتون وشجر الرمان ﴿ مشتبهاً ﴾ قال قتادة مشتبهاً ورقها مختلفاً ثمرها لأن ورق الزيتون يشبه ورق الرمان ﴿ وغير متشابه ﴾ يعني ومنها غير متشابه في الورق والطعم .

*(217/243)*

---

واعلم أن الله تعالى ذكر في هذه الآية أربعة أنواع من الشجرة بعد ذكر الزرع وإنما قدم الزرع على سائر الأشجار لأن الزرع غذاء وثمار أشجار فواكه والغذاء مقدم على الفواكه وإنما قدم النخلة على غيرها لأن ثمرتها تجري مجرى الغذاء ، وفيها من المنافقع والخواص ما ليس في غيرها من الأشجار وإنما ذكر العنب عقب النخلة ؛ لأنها من أشرف أنواع الفواكه ثم ذكر عقبه الزيتون لما فيه من البركة والمنافع الكثرة في الأكل وسائر وجوه الاستعمال ثم ذكر عقيبه

الرمان لما فيه من المنافع أيضاً لأنه فاكهة ودواء ثم قال تعالى : ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾ يعني ونضجه وإدراكه .

والمعنى انظروا نظر استدلال واعتبروا كيف أخرج الله تعالى هذه الثمرة الرطبة اللطيفة من هذه الشجرة الكثيفة اليابسة وهو قوله : ﴿ إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ يعني يصدقون أن الذي أخرج هذا النبات وهذه الثمار قادر على أن يحيى الموتى ويبعثهم وإنما احتج الله عليهم بتصريف ما خلق ونقله من حال إلى حال وهو ما يعلمونه قطعاً ويشاهدونه من إحياء الأرض بعد موتها وإخراج سائر أنواع النبات والثمار منها وأنه لا يقدر على ذلك أحد إلا الله تعالى ليبين أنه تعالى كذلك قادر على أن يحييهم بعد موتهم ويبعثهم يوم القيامة فاحتج عليهم بهذه الأشياء لأنهم كانوا ينكرون البعث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَهُوَ الذى أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء ﴾

تذكيرٌ لنعمةٍ أخرى من نعمه تعالى مُنَبِّئةٍ عن كمال قدرته تعالى وسعةِ رحمته أي أنزل من السحاب أو من سَمْتِ السماء ماءً خاصاً هو المطر ، وتقديمُ الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مراراً ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ التفات إلى التكلم إظهاراً لكمال العناية بشأن ما أُنزل الماءُ لأجله أي فأخرجنا بعظمتِنا بذلك الماءِ مع وِحْدته ﴿ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ من الأشياء التي من شأنها النموُّ من أصناف النجْم والشجر وأنواعِها المختلفة في الكم والكيف والخواصِّ والآثار اختلافاً متفاوتاً في مراتبِ الزيادة والنقصان حسبما يُفصح عنه قولُه تعالى : ﴿ يسقى بِمَاء واحد وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا على بَعْضٍ فِى الأكل ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً ﴾ شروعٌ في تفصيل ما أُجمل من الإخراج ، وقد بُدِىء بتفصيل حال النجم أي فأخرجنا من النبات الذي لا ساقَ له شيئاً غضّاً أخضرَ ، يقال : شيءٌ أخضرُ وخضِرٌ كأعورَ وعَورٍ ، وأكثرُ ما يُستعمل الخضِرُ فيما تكون خُضرتُه خَلْقية وهو ما تشعّب من أصل النبات الخارج من الحبة . وقوله تعالى : ﴿ نُّخْرِجُ مِنْهُ ﴾ صفةٌ لخضِراً وصيغة المضارعِ لاستحضار الصورة لما فيها من الغرابة أي نخرج من ذلك الخضِرِ ﴿ حَبّاً مُّتَرَاكِباً ﴾ هو السُنبلُ المنتظِمُ للحبوب المتراكبة بعضُها فوق بعض على هيئة مخصوصةٍ وقرىء يَخرُجُ منه حبٌّ متراكب وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النخل ﴾ شروعٌ في تفصيل حالِ الشجر إثرَ بيانِ حال النجم . فقوله تعالى : ﴿ مِنْ النخل ﴾ خبرٌ مقدم وقوله تعالى : ﴿ مِن طَلْعِهَا ﴾ بدلٌ منه بإعادة العامل كما في قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ الله

أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ ﴾ الخ ، والطَّلْعُ شيء يخرُج من النخل كأنه نعلانِ مُطبَقانِ ، والحِمْلُ بينهما منضود . وقوله تعالى : ﴿ قنوان ﴾ مبتدأ أي وحاصلةٌ من طلع النخل قنوانٌ ، ويجوز أن يكون الخبرُ

(219/243)

---

محذوفاً لدلالة أخرجنا عليه أي ومُخرِجةٌ من طلع النخل قنوانٌ ومَنْ قرأ يخرُجُ منه حبٌّ متراكبٌ كان ( قنوانٌ ) عنده معطوفاً على ( حبٌّ ) وقيل : المعنى وأخرجنا من النخل نخلاً من طلعها قنوانٌ أو ومن النخل شيءٌ من طلعها قنوان ، وهو جمع قِنْوٍ ، وهو عنقودُ النخلة كصِنْوٍ وصِنْوان ، وقرىء بضم القاف كذِئب وذؤبان وبفتحها أيضاً على أنه اسمُ جمعٍ لأن فَعلان ليس من أبنية الجمع ﴿ دَانِيَةٌ ﴾ سهلةُ المُجتَنى قريبةٌ من القاطفِ فإنها وإن كانت صغيرةً ينالها القاعدُ تأتي بالثمر لا يُنتظَرُ الطولُ ، أو ملتفةٌ متقاربة ، والاقتصارُ على ذكرها لدلالتها على مُقابلها كقوله تعالى : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ ولزيادة النعمة فيها ﴿ وجنات مّنْ أعناب ﴾ عطفٌ على ( نباتَ كل شيء ) أي وأخرجنا به جناتٍ كائنةً من أعناب ، وقرىء جناتٌ بالرفع على الابتداء أي ولكم أو ثَمةَ جناتٌ ، وقد جوّز عطفُه على ( قنوان ) كأنه قيل : وحاصلةٌ أو مخرجةٌ من النخل قنوانٌ وجناتٌ من نباتٍ

وأعناب ، ولعل زيادةَ الجنات ها هنا من غير اكتفاءٍ بذكر اسمِ الجنس كما فيما تقدم وما تأخر لما أن الانتفاعَ بهذا الجنس لا يتأتى غالباً إلا عند اجتماع طائفةٍ من أفراده ﴿ والزيتون والرمان ﴾ منصوبان على الاختصاص لعزة هذين الصنفين عندهم أو على العطف على ( نباتَ ) وقوله تعالى : ﴿ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ متشابه ﴾ حال من الزيتون اكتُفي به عن حال ما عطف عليه كما يكتفى بخبر المعطوف عليه عن خبر المعطوف في نحو قوله تعالى : ﴿ والله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ وتقديرُه والزيتونَ مشتبهاً وغيرَ متشابه والرمانَ كذلك ، وقد جُوِّز أن يكون حالاً من الرمان لقُربه ويكون المحذوفُ حالَ الأول والمعنى بعضُه متشابهاً وبعضُه غيرَ متشابه في الهيئة والمقدار واللون والطعم وغيرِ ذلك من الأوصاف الدالة على كمال قدرة صانعِها وحكمةِ مُنشِئها ومبدعِها ﴿ انظروا إلى ثَمَرِهِ

(220/243)

---

إِذَا أَثْمَرَ ﴾ أي انظروا إليه نظرَ اعتبارٍ واستبصارٍ إذا أخرج ثمرَه كيف يُخرجه ضئيلاً لا يكاد يُنتفعُ به ، وقرىء إلى ثمره ﴿ وَيَنْعِهِ ﴾ أي وإلى حال نُضجه كيف يصير إلى كماله اللائق به ويكون شيئاً جامعاً لمنافعَ جمّةٍ واليَنْعُ في الأصل مصدر يَنَعَت الثمرةُ إذا أدركت وقيل : جمعُ يانع كتاجر وتجْرٍ وقرىء بالضم وهي لغة فيه وقرىء يانِعِهِ ﴿ إِنَّ فِى ذلكم ﴾

إشارةٌ إلى ما أُمر بالنظر إليه ، وما في اسم الإشارة من معنى البعد للإيذان بعلو رتبة المشارِ إليه وبُعد منزلته ﴿ لآيات لّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي لآياتٍ عظيمةً أو كثيرةً دالةً على وجود القادر الحكيم ووَحدتِه فإن حدوثَ هاتيك الأجناسِ المختلفة والأنواع المتشعبة من أصل واحدٍ وانتقالَها من حال إلى حال على نمط بديع تحارُ في فهمه الألباب لا يكاد يكون إلا بإحداث صانعٍ يعلم تفاصيلَها ويرجّح ما تقتضيه حكمتُه من الوجوه الممكنة على غيره ولا يَعوُقه عن ذلك ضدٌّ يناوئه أو ندٌّ يُقاويه ، ولذلك عقّب بتوبيخِ من أشرك به والردِّ عليه حيث قيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(221/243)

---

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ﴾

القول في صيغة القصر من قوله : ﴿ وهو الذي أنزل ﴾ إلخ كالقول في نظيره السّابق .

و( مِن ) في قوله : ﴿ مِن السّماء ﴾ ابتدائية لأنّ ماء المطر يتكوّن في طبقات الجوّ العُليا

الزمهريرية عند تصاعد البخار الأرضي إليها فيصير البخار كثيفاً وهو السّحاب ثمّ يستحيل ماء .

فالسّماء اسم لأعلى طبقات الجوّ حيث تتكوّن الأمطار .

وتقدّم في قوله تعالى : ﴿ أو كَصيّب من السّماء في سورة البقرة .

وعُدل عن ضمير الغيبة إلى ضمير التكلّم في قوله : فأخرجْنا ﴾ على طريقة الإلتفات .

والباء للسّببيّة جَعل الله الماء سبباً لخروج النّبات ، والضّمير المجرور بالباء عائد إلى الماء .

والنّباتُ اسم لما يَنبت ، وهو اسم مصدر نَبَتَ ، سمّي به النّابت على طريقة المجاز الّذي صار حقيقة شائعة فصار النَّبات اسماً مشتركاً مع المصدر .

و﴿ شيء ﴾ مراد به صِنف من النّبات بقرينة إضافة ﴿ نباتَ ﴾ إليه .

والمعنى : فأخرجنا بالماء ما ينبت من أصناف النّبت .

فإنّ النبت جنس له أنواع كثيرة ؛ فمنه زرع وهو ما له ساق ليّنة كالقَصَب ؛ ومنه شجر وهو ما له ساق غليظة كالنّخل ، والعنب ؛ ومنه نَجْم وأبّ وهو ما ينبت لاصِقاً بالتّراب ، وهذا التّعميم يشير إلى أنّها مختلفة الصّفات والثّمرات والطبائع والخصوصيات والمذاق ، وهي كلّها نابتة من ماء السّماء الّذي هو واحد ، وذلك آية على عظم القدرة ، قال تعالى : ﴿ تُسقَى بماء واحد ونُفضّل بعضَها على بعضٍ في الأكل ﴾ [ الرعد : 4 ] وهو تنبيه للنّاس ليعتبروا بدقائق ما أودعه الله فيها من مختلف القوى الّتي سبّبتْ اختلاف أحوالها .

والفاء في قوله : ﴿ فأخرجنا به نبات كلّ شيء ﴾ فاء التّفريع .

وقوله : ﴿ فأخرجنا منه خضراً ﴾ تفصيل لمضمون جملة ﴿ فأخرجْنا به نبات كلّ شيء ﴾ ، فالفاء للتّفصيل ، و( من ) ابتدائية أو تبعيضيّة ، والضّمير المجرور بها عائد إلى النّبات ، أي فكان من النبت خضر ونَخْل وجنّات وشجر ، وهذا تقسيم الجنس إلى أنواعه .

والخَضِر : الشّيء الّذي لونه أخضر ، يقال : أخْضر وخَضِر كما يقال : أعور وعَور ، ويطلق الخضر اسماً للنّبت الرّطب الّذي ليس بشجر كالقصيل والقضب .

وفي الحديث : " وإنّ ممّا يُنبت الرّبيعُ لَمَا يَقْتُل حَبَطا أو يُلمّ إلاّ آكِلَةَ الخَضِر أكلتْ حتّى إذا امتَدّتْ خاصرتاها " الحديث .

وهذا هو المراد هنا لقوله في وصفه ﴿ نخرج منه حبّاً متراكباً ﴾ ، فإنّ الحبّ يخرج من النّبت الرّطب .

وجملة : ﴿ نخرج منه ﴾ صفة لقوله ﴿ خضرا ﴾ لأنّه صار اسماً ، و( من ) اتّصاليّة أو ابتدائيّة ، والضّمير المجرور بها عائد إلى ﴿ خَضِرا ﴾ .

والحَبّ : هو ثمر النّبات ، كالبُرّ والشّعير والزّراريع كلّها .

والمتراكب : الملتصق بعضه على بعض في السنبلة ، مثل القَمح وغيره ، والتّفاعل للمبالغة في ركوب بعضه بعضاً .

وجملة : ﴿ ومن النّخل من طلعها قنوان دانية ﴾ عطف على ﴿ فأخرجنا منه خضراً ﴾ .

ويجوز أن تكون معترضة والواو اعتراضيّة ، وقوله : ﴿ من النّخل ﴾ خبر مقدّم و ﴿ قنوان ﴾ مبتدأ مؤخّر .

والمقصود بالإخبار هنا التّعجيب من خروج القنوان من الطلع وما فيه من بهجةٍ ، وبهذا يظهر وجه تغيير أسلوب هذه الجملة عن أساليب ما قبلها وما بعدها إذ لم تعطف أجزاؤها عطف المفردات ، على أنّ موقع الجملة بين أخواتها يفيد ما أفادته أخواتها من العبرة والمنّة .

والتّعريف في ﴿ النّخل ﴾ تعريف العهد الجنسي ، وإنّما جيء بالتّعريف فيه للإشارة إلى أنّه الجنس المألوف المعهود للعرب ، فإنّ النّخل شجرهم وثَمره قُوتهم وحوائطه منبَسَط نفوسهم ، ولك أن تجعله حالاً من ﴿ النّخل ﴾ اعتداداً بالتّعريف اللّفظي كقوله ﴿ والزّيتونَ والرّمّانَ مشتبهاً ﴾ ، ويجوز أن يكون ﴿ من طلعها ﴾ بدل بعض من ﴿ النّخل ﴾ بإعادة حرف الجرّ الدّاخل على المبدل منه .

و﴿ قِنوان ﴾ بكسر القاف جمع قِنو بكسر القاف أيضاً على المشهور فيه عند العرب غيرَ لغة قيس وأهل الحجاز فإنّهم يضمّون القاف .

فقنوان بالكسر جمع تكسير .

وهذه الصّيغة نادرة ، غير جمع فُعَل ( بضمّ ففتح ) وفُعْل ( بضمّ فسكون ) وفَعْل ( بفتح فسكون ) إذا كانا واويي العين وفُعال .

والقِنو : عرجون التّمر ، كالعنقود للعنب ، ويسمّى العِذق بكسر العين ويسمّى الكِبَاسة بكسر الكاف .

والطَّلْع : وعاء عرجون التّمر الّذي يبدو في أوّل خروجه يكون كشكل الأترُجَّة العظيمة مغلقاً على العرجون ، ثمّ ينفتح كصورة نعلين فيخرج منه العنقود مجتمعاً ، ويسمّى حينئذٍ الإغريض ، ثمّ يصير قِنوا .

و﴿ دانية ﴾ قريبة .

والمراد قريبة التّناول كقوله تعالى : ﴿ قطوفها دانية ﴾ [ الحاقة : 23 ] .

(223/243)

والقنوان الدانية بعض قنوان النّخل خصّت بالذّكر هنا إدماجاً للمنّة في خلال التّذكير بإتّقان الصنعة فإنّ المنّة بالقنوان الدّانية أتمّ ، والدّانية هي الّتي تكون نخلتها قصيرة لم تتجاوز طول قامة المتناول ، ولا حاجة لذكر البعيدة التّناول لأنّ الذّكرى قد حصلت بالدّانية وزادت بالمنّة التّامّة .

و﴿ جنّاتٍ ﴾ بالنّصب عطف على ﴿ خِضرا ﴾ .

وما نسب إلى أبي بكر عن عاصم من رفْع ﴿ جنّات ﴾ لم يصحّ .

وقوله : ﴿ من أعناب ﴾ تمييز مجرور بـ ﴿ مِن ﴾ البيانيّة لأنّ الجنّات للأعناب بمنزلة المقادير كما يقال جريت تَمراً ، وبهذا الاعتبار عُدّي فعل الإخراج إلى الجنّات دون الأعناب ، فلم يقل وأعناباً في جنّات .

والأعناب جمع عِنَب ، وهو جمع عِنَبَة ، وهو في الأصل ثمر شجر الكَرْم .

ويطلق على شجرة الكرم عِنب على تقدير مضاف ، أي شجرة عنب ، وشاع ذلك فتنوسي المضاف .

قال الرّاغب : "العِنب يقال لثمرة الكرم وللكرم نفسه" أ هـ .

ولا يعرف إطلاق المفرد على شجرة الكرم ، فلم أر في كلامهم إطلاق العنبة بالإفراد على شجرة الكرم ولكن يطلق بالجمع ، يقال : عنب ، مراد به الكرم ، كما في قوله تعالى : ﴿ فأنبتنا فيها حَبّاً وعنباً ﴾ [ عبس : 27 ، 28 ] ، ويقال : أعناب كذلك ، كما هنا ،

وظاهر كلام الرّاغب أنّه يقال : عِنبة لشجرة الكرم ، فإنّه قال : "العنب يقال لثمرة الكرم وللكرم نفسه الواحدة عنبة" .

﴿ والزّيتون والرمّان ﴾ بالنّصب عطف على ﴿ جنّات ﴾ والتّعريف فيهما الجنس كالتّعريف في قوله : ﴿ ومن النّخل ﴾ .

والمراد بالزّيتون والرمّان شجرهما .

وهما في الأصل اسمان للثمرتين ثمّ أطلقا على شجرتيهما كما تقدّم في الأعناب .

وهاتان الشّجرتان وإن لم تكونا مثل النّخل في الأهميّة عند العرب إلاّ أنّهما لعزّة وجودهما في بلاد العرب ولتنافس العرب في التّفكّه بثمرهما والإعجاب باقتنائهما ذُكرا في مقام التّذكير بعجيب صنع الله تعالى ومنّته .

(224/243)

---

وكانت شجرة الزّيتون موجودة بالشّام وفي سينا ، وشجرة الرمّان موجودة بالطّائف .

وقوله : ﴿ مشتبهاً وغير متشابه ﴾ حال ومعطوف عليه ، والواو للتّقسيم بقرينة أنّ الشيء الواحد لا يكون مشتبهاً وغير متشابه ، أي بعضه مشتبه وبعضه غير متشابه .

وهما حالان من "الزّيتون والرمّان" معاً ، وإنّما أفرد ولم يجمع اعتباراً بإفراد اللّفظ .

والتّشابه والاشتباه مترادفان كالتساوي والاستواء ، وهما مشتقّان من الشبَه .

والجمع بينهما في الآية للتّفنّن كراهيّة إعادة اللّفظ ، ولأنّ اسم الفاعل من التّشابه أسعد بالوقف لما فيه من مدّ الصّوت بخلاف ﴿ مُشتبه ﴾ .

وهذا من بديع الفصاحة .

والتّشابه : التماثل في حالة مع الاختلاف في غيرها من الأحوال ، أي بعض شجره يشبه بعضاً وبعضه لا يشبه بعضاً ، أو بعض ثمره يشبه بعضاً وبعضه لا يشبه بعضاً ، فالتّشابه ممّا تقارب لونه أو طعمه أو شكله ممّا يتطلّبه النّاس من أحواله على اختلاف أميالهم ، وعدم التّشابه ما اختلف بعضه عن البعض الآخر فيما يتطلّبه النّاس من الصّفات على اختلاف شهواتهم ، فمن أعواد الشّجر غليظ ودقيق ، ومن ألوان ورقه قاتم وداكن ، ومن ألوان ثمره مختلف ومن طعمه كذلك ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ ونفضّل بعضها على بعض الأكل ﴾ [ الرعد : 4 ] .

والمقصود من التّقييد بهذه الحال التّنبيه على أنّها مخلوقة بالقصد والاختيار لا بالصدفة .

ويجوز أن تجعل هذه الحال من جميع ما تقدّم من قوله : ﴿ نخرج منه حبّاً متراكباً ﴾ ، فإنّ جميع ذلك مشتبه وغير متشابه .

وجعله الزمخشري حالاً من ﴿ الزّيتون ﴾ لأنّه المعطوف عليه وقدّر ل ﴿ الرمّان ﴾ حالاً أخرى تدلّ عليها الأولى ، بتقدير : والرمّان كذلك .

---

وإنّما دعاه إلى ذلك أنّه لا يَرى تعدّدَ صاحب الحال الواحدة ولا التّنازع في الحال ونظره بإفراد الخبر بعد مبتدأ ومعطوفٍ في قول الأزرق بن طَرفة الباهلي ، جواباً لبعض بني قشير وقد اختصما في بئر فقال القُشيري : أنتَ لِصّ ابنُ لِصّ :

رَمَاني بأمر كنتُ منه ووالدي

بَريئاً ومن أجلِ الطَّوي رَماني . . .

ولا ضير في هذا الإعراب من جهة المعنى لأنّ التّنبيه إلى ما في بعض النّبات من دلائل الاختيار يوجّه العقول إلى ما في مماثله من أمثالها .

وجملة : ﴿ انظروا إلى ثمره ﴾ بيان للجمل الّتي قبلها المقصودِ منها الوصول إلى معرفة صنع الله تعالى وقدرته ، والضّمير المضاف إليه في ﴿ ثمره ﴾ عائد إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ مشتبهاً ﴾ من تخصيص أو تعميم .

والمأمور به هو نظر الاستبصار والاعتبار بأطواره .

والثَمَر : الجَنَى الّذي يُخرجه الشّجر .

وهو بفتح الثّاء والميم في قراءة الأكثر ، جمع ثَمَرة بفتح الثّاء والميم وقرأه حمزة والكسائي

وخلَف بضمّ الثّاء والميم وهو جمع تكسير ، كما جمعت : خَشبة على خُشُب ، وناقة على نُوق .

واليَنْعُ : الطِّيبُ والنّضج .

يقال : يَنَع بفتح النّون يَيْنع بفتح النّون وكسرها ويقال : أَيْنَع يُونِع يَنْعا بفتح التّحتيّة بعدها نون ساكنة .

و﴿ إذا ﴾ ظرف لحدوث الفعل ، فهي بمعنى الوقت الّذي يبتدىء فيه مضمون الجملة المضاف إليها ، أي حين ابتداء أثماره .

وقوله : ﴿ وينعه ﴾ لم يقيّد بإذا أينع لأنّه إذا ينع فقد تمّ تطوّره وحان قطافه فلم تبق للنّظر فيه عبرة لأنّه قد انتهت أطواره .

وجملة : ﴿ إنّ في ذلكم لآيات ﴾ علّة للأمر بالنّظر .

وموقع ( إنّ ) فيه موقع لام التّعليل ، كقول بشّار :

إنّ ذاك النّجاحَ في التّبْكير

والإشارة بـ ﴿ ذلكم ﴾ إلى المذكور كلّه من قوله ﴿ وهو الّذي أنزل من السّماء ماء فأخرجنا به نبات كلّ شيء إلى قوله ويَنْعه ﴾ فتوحيد اسم الإشارة بتأويل المذكور ، كما تقدّم في قوله تعالى : ﴿ عوان بين ذلك ﴾ في سورة [ البقرة : 68 ] .

ولقوم يؤمنون ﴾ وصف للآيات .

واللاّم للتّعليل ، والمعلّل هو ما في مدلول الآيات من مضمّن معنى الدّلالة والنّفع .

وقد صرّح في هذا بأنّ الآيات إنّما تنفع المؤمنين تصريحاً بأنّهم المقصود في الآيتين الأخريين بقوله : ﴿ لقوم يعلمون ﴾ [ الأنعام : 97 ] وقوله ﴿ لقوم يفقهون ﴾ [ الأنعام : 98 ] ، وإتماماً للتّعريض بأنّ غير العالمين وغير الفاقهين هم غير المؤمنين يعني المشركين . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(227/243)

---

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى) .

هَذِهِ طَائِفَةٌ مِنْ آيَاتِ التَّنْزِيلِ ، مُبَيِّنَةٌ وَمُفَصِّلَةٌ لِطَائِفَةٍ مِنْ آيَاتِ التَّكْوِينِ ، تَدُلُّ أَوْضَحَ الدَّلَالَةِ

عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ ، وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ ، وَلُطْفِهِ وَرَحْمَتِهِ ، جَاءَتْ تَالِيَةً لِطَائِفَةٍ مِنَ الْآيَاتِ فِي أُصُولِ الْإِيمَانِ الثَّلَاثَةِ : التَّوْحِيدُ وَالْبَعْثُ وَالرِّسَالَةُ ، فَهِيَ مَزِيدُ تَأْكِيدٍ فِي إِثْبَاتِهَا ، وَكَمَالِ بَيَانٍ فِي مَعْرِفَةِ اللهِ تَعَالَى ، بِمَا فِيهَا مِنْ بَيَانِ سَنَنِهِ وَحِكَمِهِ فِي الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ وَالْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ ، وَتَقْدِيرِهِ وَتَدْبِيرِهِ لِأَمْرِ النَّيِّرَاتِ فِي السَّمَاوَاتِ ، وَأَنْوَاعِ حُجَجِهِ وَدَلَائِلِهِ فِي أَنْوَاعِ النَّبَاتِ ، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ :

(228/243)

---

(إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى) الْفَلْقُ وَالْفَرْقُ وَالْفَتْقُ جِنْسٌ وَاحِدٌ لِلشَّقِّ – وَنَحْوُهُ الْفَأْوُ وَالْفَأْيُ وَالْفَتُّ وَالْفَتْحُ وَالْفَجْرُ وَالْفَرْزُ وَالْفَرْسُ وَالْفَرْصُ وَالْفَرْضُ وَالْفَرْيُ وَالْفَصْلُ وَأَشْبَاهُهَا – وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ) 2 : 50 مَعَ قَوْلِهِ فِيهِ : (فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ) 26 : 63 وَمِنْ أَسْمَاءِ الصُّبْحِ الْفَلَقُ – بِالتَّحْرِيكِ – وَالْفَتَقُ – بِالْفَتْحِ – وَالْفَتِيقُ ، وَقَوْلُ الرَّاغِبِ : الْفَلْقُ شَقُّ الشَّيْءِ وَإِبَانَةُ بَعْضِهِ مِنْ بَعْضٍ ، وَالْفَتْقُ الْفَصْلُ بَيْنَ الْمُتَّصِلَيْنِ غَيْرُ ظَاهِرٍ ، بَلِ التَّنْزِيلُ يَدُلُّ عَلَى عَكْسِ قَوْلِهِ . إِنَّ الْفَتْقَ يُعْتَبَرُ فِيهِ الِانْشِقَاقُ وَالْفَلْقُ يُعْتَبَرُ فِيهِ الِانْفِصَالُ . وَفِيهِ أَنَّ مَوَادَّ الْفَلْقِ وَالْفَتْقِ وَالشَّقِّ وَالْفَطْرِ وَمُطَاوِعَتِهَا قَدِ اسْتُعْمِلَتْ فِي الْأَشْيَاءِ الْمَادِّيَّةِ فِي بَابِ الْخَلْقِ وَالتَّكْوِينِ وَمَا يُقَابِلُهُ مِنْ خَرَابِ الْعَالَمِ بِقِيَامِ

الْقِيَامَةِ ، وَأَنَّ الْفَرْقَ اسْتُعْمِلَ فِي الْأُمُورِ الْمَادِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ جَمِيعًا ، وَمِنَ الثَّانِي تَسْمِيَةُ الْقُرْآنِ فُرْقَانًا وَتَلْقِيبُ عُمَرَ بِالْفَارُوقِ ; فَإِنَّ الْمُرَادَ بِهِمَا الْفَرْقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ . وَالْحَبُّ بِالْفَتْحِ اسْمُ جِنْسٍ لِلْحِنْطَةِ وَغَيْرِهَا مِمَّا يَكُونُ فِي السُّنْبُلِ وَالْأَكْمَامِ ، وَالْجَمْعُ حُبُوبٌ مِثْلُ فَلْسٍ وَفُلُوسٍ وَالْوَاحِدَةُ حَبَّةٌ . وَالْحِبُّ بِالْكَسْرِ بِزْرُ مَا لَا يُقْتَاتُ مِثْلُ بُزُورِ الرَّيَاحِينِ الْوَاحِدَةُ حِبَّةٌ بِالْكَسْرِ . قَالَهُ فِي

(229/243)

---

الْمِصْبَاحِ وَنَحْوِهِ فِي مُفْرَدَاتِ الرَّاغِبِ . وَالنَّوَى جَمْعُ نَوَاةٍ وَهِيَ عَجَمَةُ التَّمْرِ وَالزَّبِيبِ وَغَيْرِهِمَا كَمَا فِي اللِّسَانِ ، وَالْعَجَمَةُ بِالتَّحْرِيكِ مَا يَكُونُ فِي دَاخِلِ التَّمْرَةِ وَالزَّبِيبَةِ وَنَحْوِهَا ، وَجَمْعُهَا عَجَمٌ وَقِيلَ : إنَّ النَّوَى إذَا أُطْلِقَ يَنْصَرِفُ إلَى عَجَمِ التَّمْرِ ، فَإِنْ أُرِيدَ غَيْرُهُ قُيِّدَ فَقِيلَ نَوَى الْخَوْخِ وَنَوَى الْمِشْمِشِ ، وَلَعَلَّ هَذَا تَابِعٌ لِلْقَرِينَةِ ، وَلَمْ أَرَ مَنْ قَالَ إنَّهُ كَذَلِكَ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ

.

وَالْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ هُوَ فَالِقُ مَا تَزْرَعُونَ مِنْ حَبِّ الْحَصِيدِ وَنَوَى الثَّمَرَاتِ ، وَشَاقَّهُ بِقُدْرَتِهِ وَتَقْدِيرِهِ الَّذِي رَبَطَ بِهِ أَسْبَابَ الْإِنْبَاتِ بِمُسَبِّبَاتِهَا . وَمِنْهَا جَعْلُ الْحَبِّ وَالنَّوَى فِي التُّرَابِ وَإِرْوَاءُ التُّرَابِ بِالْمَاءِ ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْفَلْقِ هُنَا الْخَلْقُ وَالْإِيجَادُ ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ

فِي بَيَانِ الْمُرَادِ ، وَقَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ)

أَيْ يُخْرِجُ الزَّرْعَ مِنْ نَجْمٍ وَشَجَرٍ وَهُوَ حَيٌّ - أَيْ مُتَغَذٍّ نَامٍ - مِنَ الْمَيِّتِ ، وَهُوَ مَا لَا يَتَغَذَّى وَلَا يُنَمَّى مِنَ التُّرَابِ ، وَكَذَا الْحَبُّ وَالنَّوَى وَغَيْرُهُمَا مِنَ الْبُزُورِ كَمَا يَخْرُجُ الْحَيَوَانُ مِنَ الْبَيْضَةِ وَالنُّطْفَةِ . فَإِنْ قِيلَ : إِنْ عُلَمَاءَ الْمَوَالِيدِ يَزْعُمُونَ أَنَّ فِي كُلِّ أُصُولِ الْأَحْيَاءِ حَيَاةً ، فَكُلُّ مَا يُنْبِتُ مِنْ ذَلِكَ ذُو حَيَاةٍ كَامِنَةٍ إِذَا عَقِمَ بِالصِّنَاعَةِ لَا يُنْبِتُ . قُلْنَا : إِنَّ هَذَا اصْطِلَاحٌ لَهُمْ ، يُسَمُّونَ الْقُوَّةَ أَوِ الْخَاصِّيَّةَ

(230/243)

---

الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْحَبُّ قَابِلًا لِلْإِنْبَاتِ حَيَاةً ، وَلَكِنَّ هَذَا لَا يَصِحُّ فِي اللُّغَةِ إِلَّا بِضَرْبٍ مِنَ التَّجَوُّزِ ، وَإِنَّمَا حَقِيقَةُ الْحَيَاةِ فِي اللُّغَةِ مَا يَكُونُ بِهِ الْجِسْمُ مُتَغَذِّيًا نَامِيًا بِالْفِعْلِ وَهَذَا أَدْنَى مَرَاتِبِ الْحَيَاةِ عِنْدَ الْعَرَبِ ، وَلَهَا مَرَاتِبُ أُخْرَى كَالْإِحْسَاسِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْعِلْمِ وَالْعَقْلِ وَالْحِكْمَةِ وَالنِّظَامِ ، وَهَذِهِ أَعْلَى مَرَاتِبِ الْحَيَاةِ فِي الْمَخْلُوقِ ، وَفَوْقَ ذَلِكَ حَيَاةُ الْخَالِقِ الَّتِي هِيَ مَصْدَرُ كُلِّ حَيَاةٍ وَحِكْمَةٍ وَنِظَامٍ فِي الْكَوْنِ . وَمَا قُلْنَا إِنَّهُ الْحَقِيقَةُ أَظْهَرُ مِنْ مُقَابَلِهِ ، وَهُوَ جَعْلُ إِطْلَاقِ الْمَيِّتِ عَلَى الْحَبِّ وَالنَّوَى مِنْ مَجَازِ التَّشْبِيهِ ، كَأَنَّهُ لَمَّا لَمْ تَظْهَرْ فِيهِ آيَاتُ حَيَاتِهِ الْكَامِنَةِ مِنَ النَّمَاءِ وَغَيْرِهِ سُمِّيَ مَيِّتًا ; فَإِنَّ وَاضِعِي اللُّغَةِ فِي طَوْرِ الْبَدَاوَةِ لَمْ يَكُونُوا

يَعْلَمُونَ أَنَّ فِي الْحَبِّ وَالنَّوَى صِفَةً هِيَ مَصْدَرُ النَّمَاءِ قَدْ تَزُولُ فَلَا يَبْقَى قَابِلًا لِلْإِنْبَاتِ .

وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ كُلًّا مِنَ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ هُنَا مَجَازًا ، وَيَرُدُّهُ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) 21 : 30 (وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ) كَالْحَبِّ وَالنَّوَى مِنَ النَّبَاتِ وَالْبَيْضَةِ وَالنُّطْفَةِ مِنَ الْحَيَوَانِ . وَهَذَا قِيلَ إنَّهُ عَطْفٌ عَلَى " فَالِقِ الْحَبِّ " لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْكَلَامِ الْفَصِيحِ أَنْ يُعْطَفَ الِاسْمُ عَلَى الِاسْمِ ، وَلِأَنَّ إخْرَاجَ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ لَا يَدْخُلُ فِي بَيَانِ فَلْقِ الْحَبِّ وَالنَّوَى ، وَقِيلَ إنَّهُ

(231/243)

---

عَطْفٌ عَلَى "يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ " سَوَاءٌ كَانَ بَيَانًا لِمَا قَبْلَهُ أَوْ خَبَرًا بَعْدَ خَبَرٍ ، لِأَنَّ التَّنَاسُبَ بَيْنَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ الْمُتَقَابِلَيْنِ أَقْوَى مِنَ التَّنَاسُبِ بَيْنَ الثَّانِي وَبَيْنَ فَلْقِ الْحَبِّ وَالنَّوَى ; وَلِذَلِكَ وَرَدَا بِصِيغَةِ الْفِعْلِ فِي سُورَتَيْ يُونُسَ وَالرُّومِ (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) 10 : 31 ، 30 : 19 وَقَدْ حَسُنَ عَطْفُ اسْمِ الْفَاعِلِ بِمَعْنَى فِعْلِ الْمُضَارِعِ ، فَإِنَّ مُخْرِجَ الشَّيْءِ هُوَ الَّذِي يُخْرِجُهُ فِي الْحَالِ أَوِ الِاسْتِقْبَالِ ، وَلَكِنَّ هَذَا الْفِعْلَ يَدُلُّ أَيْضًا عَلَى التَّجَدُّدِ وَالِاسْتِمْرَارِ . وَقَدْ يُرَادُ بِوَضْعِهِ مَوْضِعَ اسْمِ الْفَاعِلِ أَوْ مَوْضِعِ

الْفِعْلِ الْمَاضِي إِفَادَةُ تَجَدُّدِهِ وَاسْتِمْرَارِهِ ، أَوْ تَصَوُّرِ حُدُوثِ مُتَعَلِّقِهِ وَاسْتِحْضَارِ صُورَتِهِ .
مِثَالُ الْأَوَّلِ : الْمُقَابَلَةُ الَّتِي

(232/243)

---

أَوْرَدَهَا الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَاهِرِ فِي دَلَائِلِ الْإِعْجَازِ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى : (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ) 35 : 3 وَقَوْلُهُ : (وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ) 18 : 18 فَصِيغَةُ الْفِعْلِ فِي "يَرْزُقُكُمْ" تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَرْزُقُهُمْ حَالًا فَحَالًا وَسَاعَةً فَسَاعَةً ، وَصِيغَةُ الِاسْمِ فِي بَاسِطٍ ذِرَاعَيْهِ تُفِيدُ الْبَقَاءَ عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ ، وَمِثَالُ الثَّانِي قَوْلُهُ تَعَالَى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً) 22 : 63 جَعَلَ "فَتُصْبِحُ" مَوْضِعَ "فَأَصْبَحَتْ" لِإِفَادَةِ اسْتِحْضَارِ تِلْكَ الْهَيْئَةِ الْجَمِيلَةِ وَتَمَثُّلِهَا كَأَنَّهَا حَاضِرَةٌ مُشَاهَدَةٌ ، وَكُلٌّ مِنْ هَذَيْنِ الْمَعْنَيَيْنِ لِلْمُضَارِعِ قِيلَ بِأَنَّهُ مُرَادٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ) الْقَائِلُ بِالْأَوَّلِ هُوَ فَخْرُ الدِّينِ الرَّازِيُّ ، وَالْقَائِلُ بِالْآخَرِ هُوَ ابْنُ الْمُنِيرِ فِي الِانْتِصَافِ عَلَى الْكَشَّافِ .
وَقَالَ الرَّازِيُّ فِي تَعْلِيلِ اخْتِلَافِ التَّعْبِيرِ فِي الْمَعْنَى : إِنَّ الْعِنَايَةَ بِإِيجَادِ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ أَكْثَرُ وَأَكْمَلُ مِنَ الْعِنَايَةِ بِإِخْرَاجِ

(233/243)

الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ . وَقَالَ ابْنُ الْمُنِيرِ : إِنَّ الْأَوَّلَ أَظْهَرُ فِي الْقُدْرَةِ مِنَ الثَّانِي وَأَنَّهُ أَوَّلُ الْحَالَيْنِ وَالنَّظَرُ أَوَّلُ مَا يُبْدَأُ بِهِ ; فَلِهَذَا كَانَ جَدِيرًا بِالتَّصَوُّرِ وَالتَّأْكِيدِ فِي النَّفْسِ وَبِالتَّقْدِيمِ انْتَهَى .

وَذَهَبَ الْخَطِيبُ الْإِسْكَافِيُّ فِي " دُرَّةِ التَّنْزِيلِ " إِلَى جَعْلِ اخْتِلَافِ التَّعْبِيرِ لَفْظِيًّا مَحْضًا .

وَمُلَخَّصُ كَلَامِهِ أَنَّ مُقْتَضَى السِّيَاقِ أَنْ يُقَالَ : " وَمُخْرِجُ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ " لِمُنَاسَبَةِ " فَالِقِ الْحَبِّ " الَّتِي اجْتَمَعَ فِيهَا ثَلَاثَةٌ مِنْ حُرُوفِ الْعِلَّةِ عَدَلَ عَنْ " وَمُخْرِجُ " الْمُبْدَأِ بِحَرْفِ الْعِلَّةِ إِلَى " يُخْرِجُ " الَّتِي بِمَعْنَاهَا ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهَا " وَمُخْرِجُ " لِمُنَاسَبَةِ اسْمِ الْفَاعِلِ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ انْتَهَى . وَالْمُرَادُ أَنَّ " وَالنَّوَى " بُدِئَتْ بِالْوَاوِ الْمَفْتُوحَةِ وَخُتِمَتْ بِهَا ، فَإِذَا عَطَفَ عَلَيْهَا " وَمُخْرِجُ " تَكَرَّرَ الْوَاوُ الْمَفْتُوحَةُ تَكْرَارًا مُسْتَثْقَلًا كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ .

*(234/243)*

---

وَنَقَلَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ مَعْنَى الْجُمْلَتَيْنِ : يُخْرِجُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ وَالْكَافِرَ مِنَ الْمُؤْمِنِ . وَمِثْلُهُ إِخْرَاجُ الْبَارِّ مِنَ الْفَاجِرِ وَالصَّالِحِ مِنَ الطَّالِحِ وَالْعَالِمِ مِنَ الْجَاهِلِ ، وَعَكْسِهِ بِحَمْلِ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ عَلَى الْمَعْنَوِيِّ مِنْهُمَا عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى : (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ) 122 وَلَكِنَّ هَذَا التَّفْسِيرَ لَا

يُنَاسِبُ هَذَا السِّيَاقَ وَإِنَّمَا يُنَاسِبُ سِيَاقَ آيَتِي آلَ عِمْرَانَ " 3 : 27 " وَيُونُسَ " 10 : 31 " فَرَاجِعْ تَفْسِيرَ الْأُولَى فِي ص 226

ج 3 ط الْهَيْئَةِ .

(ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) أَيْ ذَلِكَ الْمُتَصَرِّفُ بِمَا ذُكِرَ مِنْ مُقْتَضَى الْقُدْرَةِ الْكَامِلَةِ وَالْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ هُوَ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَكَيْفَ تُصْرَفُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ ، وَتُشْرِكُونَ بِهِ مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى فَلْقِ نَوَاةٍ وَلَا حَبَّةٍ ، وَلَا إِحْدَاثِ سُنْبُلَةٍ وَلَا نَخْلَةٍ ؟ .

(فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا) جَمَعَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْمُنَزَّلَةِ بَيْنَ ثَلَاثَةِ آيَاتٍ سَمَاوِيَّةٍ ، بَعْدَ الْجَمْعِ فِيمَا قَبْلَهَا بَيْنَ ثَلَاثِ آيَاتٍ أَرْضِيَّةٍ (فَالْآيَةُ الْأُولَى) فَلْقُ الْإِصْبَاحِ ، وَالْمُرَادُ بِهِ الصُّبْحُ وَأَصْلُهُ مَصْدَرُ " أَصْبَحَ الرَّجُلُ " إِذَا دَخَلَ فِي وَقْتِ الصَّبَاحِ وَمِنَ الشَّوَاهِدِ عَلَيْهِ قَوْلُ امْرِئِ الْقَيْسِ :

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا انْجَلِي . . . بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ .

*(235/243)*

---

وَقَرَأَ الْحَسَنُ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَأَنْشَدَ قَوْلَ الشَّاعِرِ :

أَفْنَى رِيَاحًا وَبَنِي رِيَاحِ . . . تَنَاسُخُ الْإِمْسَاءِ وَالْإِصْبَاحِ .

بِالْكَسْرِ وَالْفَتْحِ - مَصْدَرَيْنِ ، وَجَمْعُ مَسَاءٍ وَصُبْحٍ ، وَفَلْقُ الْإِصْبَاحِ عِبَارَةٌ عَنْ فَلْقِ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ وَشَقِّهَا بِعَمُودِ الصُّبْحِ الَّذِي يَبْدُو فِي جِهَةِ مَطْلَعِ الشَّمْسِ مِنَ الْأُفُقِ مُسْتَطِيلًا ، فَلَا يُعِيدُ بِهِ حَتَّى يَصِيرَ مُسْتَطِيرًا ، تَتَفَرَّى الظُّلْمَةُ عَنْهُ مِنْ أَمَامِهِ وَعَنْ جَانِبَيْهِ إلَى أَنْ تَنْقَشِعَ وَتَزُولَ ; وَلِذَلِكَ سُمِّيَ فَجْرًا فَإِنَّ الْفَجْرَ بِمَعْنَى الْفَلْقِ كَمَا تَقَدَّمَ آنِفًا . وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ بِنُورِ الشَّمْسِ

(236/243)

---

الَّذِي يَتَقَدَّمُهَا ; إذْ هُوَ خَالِقُهَا وَمُقَدِّرُ مَوَاقِعِ الْأَرْضِ مِنْهَا فِي سَيْرِهَا ، كَمَا نُبَيِّنُهُ فِي الْآيَةِ الثَّالِثَةِ مِنْ آيَاتِ هَذِهِ الْآيَةِ فَإِنَّهَا مُعَلِّلَةٌ لِلْآيَتَيْنِ قَبْلَهَا ، وَالْمُرَادُ مِنَ التَّذْكِيرِ بِالْآيَةِ الْأُولَى التَّأَمُّلُ فِي صُنْعِ اللَّهِ بِفَرْيِ اللَّيْلِ إذَا عَسْعَسَ ، عَنْ صُبْحِهِ إذَا تَنَفَّسَ ، وَإِفَاضَةِ النُّورِ الَّذِي هُوَ مَظْهَرُ جَمَالِ الْوُجُودِ ، وَمَبْدَأُ زَمَنِ تَقَلُّبِ الْأَحْيَاءِ فِي الْقِيَامِ وَالْقُعُودِ ، وَالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ ، وَمُضِيِّهِمْ فِي تَجَلِّي النَّهَارِ إلَى مَا يُسِرُّوا لَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ ، وَمَا لِلَّهِ فِي ذَلِكَ مِنْ نِعَمٍ وَحِكَمٍ وَأَسْرَارٍ . وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ ذِكْرُ الْآيَةِ الثَّانِيَةِ بِفَائِدَتِهَا ، وَهِيَ آيَةُ اللَّيْلِ يَجْعَلُهُ اللَّهُ سَكَنًا ، فَهَذَا الْمَذْكُورُ يَدُلُّ عَلَى مُقَابَلَةِ الْمَحْذُوفِ ، وَهُوَ جَعْلُ النَّهَارِ وَقْتًا لِلْحَرَكَةِ بِالسَّعْيِ لِلْمَعَاشِ ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ لِلْمَعَادِ ، وَقَدْ صَرَّحَ بِنَوْعَيِ الْفَائِدَتَيْنِ فِي آيَاتٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَمِنْ رَحْمَتِهِ

جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) 28 : 73 فَهَذِهِ الْآيَةُ عَلَى إِيجَازِهَا جَامِعَةٌ لِلْفَوَائِدِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ ، وَفِيهَا

*(237/243)*

---

اللَّفُّ وَالنَّشْرُ ، أَيْ لِتَسْكُنُوا فِي اللَّيْلِ وَتَطْلُبُوا الرِّزْقَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ فِي النَّهَارِ ، وَلِيُعِدَّكُمْ لِشُكْرِ نِعَمِهِ عَلَيْكُمْ بِهِمَا ، وَبِمَنَافِعِكُمْ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا . وَمِنَ الْآيَاتِ الْمُصَرِّحَةِ بِذِكْرِهِمَا مَا قُرِنَ بِالتَّذْكِيرِ بِفَائِدَتِهِمَا الدُّنْيَوِيَّةِ فَقَطْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا) 78 : 10 ، 11 وَمِنْهَا مَا قُرِنَ بِالتَّذْكِيرِ بِفَائِدَتِهِمَا الدِّينِيَّةِ فَقَطْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا) 25 : 62 فَيَا لِلَّهِ مِنْ إِيجَازِ الْقُرْآنِ وَبَلَاغَتِهِ ، فِي اخْتِلَافِ عِبَارَتِهِ ! ! .

قَرَأَ عَاصِمٌ وَالْكِسَائِيُّ " وَجَعَلَ اللَّيْلَ " بِالْفِعْلِ الْمَاضِي ، وَقَرَأَهُ الْجُمْهُورُ بِصِيغَةِ اسْمِ الْفَاعِلِ " وَجَاعِلُ " وَرَسْمُهُمَا فِي الْمُصْحَفِ الْإِمَامِ وَاحِدٌ ، وَالْأُولَى تُقَوِّي جَانِبَ الْإِعْرَابِ ; فَإِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ الْمَعْطُوفَيْنِ عَلَى اللَّيْلِ مَنْصُوبَانِ بِإِجْمَاعِ الْقُرَّاءِ ، وَلَا يَظْهَرُ نَصْبُهُمَا عَلَى الْقِرَاءَةِ الثَّانِيَةِ إِلَّا بِتَقْدِيرِ جَعَلَ ، أَوْ جَعَلَ " جَاعِلُ " بِمَعْنَاهُ ، وَهُوَ تَكَلُّفٌ يُجْتَنَبُ فِي الْفَصِيحِ . وَالثَّانِيَةُ تُنَاسِبُ السِّيَاقَ وَالنَّسَقَ بِعَطْفِ الِاسْمِ عَلَى الِاسْمِ وَهُوَ الْأَصْلُ الَّذِي لَا يُخْرَجُ

عَنْهُ فِي الْفَصِيحِ إلَّا لِنُكْتَةٍ . فَبِالْجَمْعِ بَيْنَ الْقِرَاءَتَيْنِ زَالَ التَّكَلُّفُ وَتَمَّ التَّنَاسُبُ ، فَيَا لَلَّهِ مِنْ فَصَاحَةِ الْقُرْآنِ فِي عِبَارَتِهِ ، وَاخْتِلَافِ قِرَاءَتِهِ ! ! .

(238/243)

---

وَالسَّكَنُ - بِالتَّحْرِيكِ - السُّكُونُ وَمَا يُسْكَنُ فِيهِ مِنْ مَكَانٍ كَالْبَيْتِ وَزَمَانٍ كَاللَّيْلِ ، وَكَذَا مَا يُسْكَنُ إلَيْهِ ، وَهُوَ مَا اخْتَارَهُ الْكَشَّافُ هُنَا قَالَ : السَّكَنُ مَا يَسْكُنُ إلَيْهِ الرَّجُلُ أَيْ وَغَيْرُهُ وَيَطْمَئِنُّ اسْتِئْنَاسًا بِهِ وَاسْتِرْوَاحًا إلَيْهِ مِنْ زَوْجٍ أَوْ حَبِيبٍ ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلنَّارِ سَكَنٌ لِأَنَّهُ يُسْتَأْنَسُ بِهَا ، أَلَا تَرَاهُمْ سَمَّوْهَا الْمُؤْنِسَةَ ، وَاللَّيْلُ يَطْمَئِنُّ إلَيْهِ الْمُتْعَبُ بِالنَّهَارِ لِاسْتِرَاحَتِهِ فِيهِ وَجِمَامِهِ . وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ وَجَعَلَ اللَّيْلَ مَسْكُونًا فِيهِ مِنْ قَوْلِهِ : (لِتَسْكُنُوا فِيهِ) انْتَهَى . وَهَذَا الْأَخِيرُ الْمَرْجُوحُ عِنْدَهُ هُوَ الرَّاجِحُ الْمُخْتَارُ عِنْدَنَا إلَّا أَنَّهُ يَجُوزُ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا ، وَدَلِيلُ التَّرْجِيحِ نَصُّ (لِتَسْكُنُوا فِيهِ) وَكَوْنُ الْمَسْكُونِ فِيهِ أَعَمُّ وَأَظْهَرُ مِنَ الْمَسْكُونِ إلَيْهِ ; فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَسْتَوْحِشُونَ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَأْنَسُونَ بِهِ ، وَإِنْ كَانَ لَهُ عَلَى آخَرِينَ أَيَادٍ جَلِيَّةٌ أَوْ خَفِيَّةٌ ، تَنْقُضُ مَذْهَبَ الْمَانَوِيَّةِ ، فَيَسْتَطِيلُهُ الْمَرْضَى وَالْمَهْمُومُونَ وَالْمَهْجُورُونَ ، وَيَسْتَقْصِرُهُ الْعَابِدُونَ الْوَاصِلُونَ ، وَالْعَاشِقُونَ الْمَوْصُولُونَ ، فَذَلِكَ يَقُولُ مَا أَطْوَلَهُ وَيَطْلُبُ انْجِلَاءَهُ ،

وَهَذَا يَقُولُ مَا أَقْصَرَهُ وَيَتَمَنَّى بَقَاءَهُ :

يَوَدُّ أَنَّ سَوَادَ اللَّيْلِ دَامَ لَهُ . . . وَزِيدَ فِيهِ سَوَادُ الْقَلْبِ وَالْبَصَرِ .

(239/243)

---

وَالْمُرَادُ بِالسُّكُونِ فِيهِ مَا يَعُمُّ سُكُونَ الْجِسْمِ وَسُكُونَ النَّفْسِ . أَمَّا سُكُونُ الْجِسْمِ فَبِرَاحَتِهِ مِنْ تَعَبِ الْعَمَلِ بِالنَّهَارِ ، وَأَمَّا سُكُونُ النَّفْسِ فَبِهُدُوءِ الْخَوَاطِرِ وَالْأَفْكَارِ ، وَاللَّيْلُ زَمَنُ السُّكُونِ لِأَنَّهُ لَا يَتَيَسَّرُ فِيهِ مِنَ الْحَرَكَةِ وَأَنْوَاعِ الْأَعْمَالِ مَا يَتَيَسَّرُ فِي النَّهَارِ ، لِمَا خُصَّ بِهِ الْأَوَّلُ مِنَ الْإِظْلَامِ وَالثَّانِي مِنَ الْإِبْصَارِ (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ) 17 : 12

فَأَكْثَرُ الْأَحْيَاءِ مِنْ إِنْسَانٍ وَحَيَوَانٍ تَتْرُكُ الْعَمَلَ وَالسَّعْيَ فِي اللَّيْلِ وَتَأْوِي إِلَى مَسَاكِنِهَا ; لِلرَّاحَةِ الَّتِي لَا تَتِمُّ وَتَكْمُلُ إِلَّا بِالنَّوْمِ الَّذِي تَسْكُنُ بِهِ الْجَوَارِحُ وَالْخَوَاطِرُ بِبُطْلَانِ حَرَكَتِهَا الْإِرَادِيَّةِ ، كَمَا تَسْكُنُ بِهِ الْأَعْضَاءُ الرَّئِيسِيَّةُ سُكُونًا نِسْبِيًّا بِقِلَّةِ حَرَكَتِهَا الطَّبِيعِيَّةِ ، فَتَقِلُّ نَبَضَاتُ الْقَلْبِ بِوُقُوفِهَا بَيْنَ كُلِّ نَبْضَتَيْنِ ، وَيَقِلُّ إِفْرَازُ خَلَايَا الْجِسْمِ لِلسَّوَائِلِ وَالْعُصَارَاتِ الَّتِي تُفْرِزُهَا ، وَيُبْطِئُ التَّنَفُّسُ وَيَقِلُّ ضَغْطُ الدَّمِ فِي الشَّرَايِينِ ، وَلَا سِيَّمَا فِي أَوَّلِ النَّوْمِ إِذْ تَكُونُ الْحَاجَةُ إِلَى الرَّاحَةِ بِهِ عَلَى أَشُدِّهَا ، وَيَضْعُفُ الشُّعُورُ حَتَّى يَكَادَ يَكُونُ مَفْقُودًا ، فَيَسْتَرِيحُ

الْجِهَازُ الْعَصَبِيُّ وَلَا سِيَّمَا الدِّمَاغُ وَالْحَبْلُ الشَّوْكِيُّ ، وَتَسْتَرِيحُ جَمِيعُ الْأَعْضَاءِ بِاسْتِرَاحَتِهِ ، وَتَقِلُّ الْفَضَلَاتِ

(240/243)

---

الَّتِي تَنْحَلُّ مِنَ الْبَدَنِ وَتَكْثُرُ الدَّقَائِقُ الَّتِي تَتَكَوَّنُ مِنَ الدَّمِ لِتَحِلَّ مَحَلَّهَا . وَإِنَّمَا تَكْثُرُ الْفَضَلَاتُ وَانْحِلَالُ الذَّرَّاتِ بِكَثْرَةِ الْعَمَلِ ، فَالْعَمَلُ الْعَقْلِيُّ يُجْهِدُ الدِّمَاغَ ، وَالْعَضَلِيُّ يُجْهِدُ الْأَعْضَاءَ الْعَامِلَةَ ، فَتَزْدَادُ الْحَرَارَةُ وَيَكْثُرُ الِاحْتِرَاقُ بِحَسَبِ كَثْرَةِ الْعَمَلِ وَتَكُونُ الْحَاجَةُ إِلَى الرَّاحَةِ بِالنَّوْمِ بِقَدْرِ ذَلِكَ ، وَقَدْ عُلِّلَ النَّوْمُ تَعْلِيلَاتٍ كَثِيرَةً ، وَلَمَّا يَصِلِ الْعُلَمَاءُ إِلَى كَشْفِ سِرِّهِ وَاسْتِجْلَاءِ كُنْهِ سَبَبِهِ .

وَأَمَّا الْآيَةُ الثَّالِثَةُ الْكَوْنِيَّةُ فِي الْآيَةِ فَهِيَ جَعْلُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ حُسْبَانًا أَيْ عَلَمَيْ حِسَابٍ ، لِأَنَّ طُلُوعَهُمَا وَغُرُوبَهُمَا وَمَا يَظْهَرُ مِنْ تَحَوُّلَاتِهِمَا وَاخْتِلَافِ مَظَاهِرِهِمَا كُلُّ ذَلِكَ بِحِسَابٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى : (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) 55 : 5 فَمَا هُنَا بِمَعْنَى آيَةِ الْإِسْرَاءِ (17 : 12) الَّتِي ذَكَرْتُ آنِفًا وَآيَةِ يُونُسَ (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ) 10 : 5 فَالْحِسَابُ بِالْكَسْرِ وَالْحُسْبَانُ بِالضَّمِّ مَصْدَرَانِ لِحَسَبَ يَحْسُبُ (مِنْ بَابِ نَصَرَ) وَهُوَ اسْتِعْمَالُ الْعَدَدِ فِي الْأَشْيَاءِ وَالْأَوْقَاتِ ، وَأَمَّا

الْحِسْبَانُ بِالْكَسْرِ فَهُوَ مَصْدَرُ حَسِبَ (بِوَزْنِ عَلِمَ) وَفَضْلُ اللهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ عَظِيمٌ ; فَإِنَّ حَاجَةَ النَّاسِ إِلَى مَعْرِفَةِ حِسَابِ الْأَوْقَاتِ لِعِبَادَاتِهِمْ وَمُعَامَلَاتِهِمْ وَتَوَارِيخِهِمْ لَا تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ

*(241/243)*

---

مِنْهُمْ فِي جُمْلَتِهَا ، وَعِنْدَ خَوَاصِّ الْعُلَمَاءِ مِنْ ذَلِكَ مَا لَيْسَ عِنْدَ غَيْرِهِمْ ، وَعُلَمَاءُ الْفَلَكِ وَالتَّقَاوِيمِ مُتَّفِقُونَ فِي هَذَا الْعَصْرِ عَلَى أَنَّ لِلْأَرْضِ حَرَكَتَيْنِ ، حَرَكَةً تَتِمُّ فِي 24 سَاعَةً وَهِيَ مَدَارُ حِسَابِ الْأَيَّامِ ، وَحَرَكَةً تَتِمُّ فِي سَنَةٍ وَبِهَا يَكُونُ اخْتِلَافُ الْفُصُولِ وَعَلَيْهَا مَدَارُ حِسَابِ السِّنِينَ الشَّمْسِيَّةِ ، وَلَعَلَّنَا نَشْرَحُ هَذَا فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ يُونُسَ وَغَيْرِهَا .

(ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) أَيْ ذَلِكَ الْجَعْلُ الْعَالِي الشَّأْنِ ، الْبَعِيدُ الْمَدَى فِي الْإِبْدَاعِ وَالْإِتْقَانِ ، فَوْقَ بُعْدِ النَّيِّرَاتِ عَنِ الْإِنْسَانِ ، التَّرَتُّبُ عَلَى مَا ذُكِرَ مِنْ سَبَبِ اخْتِلَافِ الْأَيَّامِ وَالْفُصُولِ وَتَقْدِيرِ السِّنِينَ الشَّمْسِيَّةِ ، وَمِنْ تَشَكُّلَاتِ الْقَمَرِ الَّتِي نَعْرِفُ بِهَا الشُّهُورَ الْقَمَرِيَّةَ ، هُوَ تَقْدِيرُ الْخَالِقِ الْغَالِبِ عَلَى أَمْرِهِ فِي تَنْظِيمِ مُلْكِهِ ، الَّذِي وَضَعَ الْمَقَادِيرَ وَالْأَنْظِمَةَ الْفَلَكِيَّةَ وَغَيْرَهَا بِمَا اقْتَضَاهُ وَاسِعُ عِلْمِهِ ، فَهَذَا النِّظَامُ وَالْإِبْدَاعُ مِنْ آثَارِ عِزَّتِهِ وَعِلْمِهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَلَيْسَ فِي مُلْكِهِ جُزَافٌ وَلَا خَلَلٌ (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) 54 : 49 .

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) هَذَا نَوْعٌ آخَرُ مِنْ آيَاتِ التَّكْوِينِ الْعُلْوِيَّةِ مَقْرُونٌ بِفَائِدَتِهِ فِي تَعْلِيلِ جَعْلِهِ ، وَالْمُرَادُ بِالنُّجُومِ مَا عَدَا الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ مِنْ نَيِّرَاتِ السَّمَاءِ لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْمُتَبَادِرُ مِنَ السِّيَاقِ وَالْمَعْهُودُ فِي الِاهْتِدَاءِ ، ذَكَّرَنَا تَعَالَى بِبَعْضِ فَضْلِهِ فِي تَسْخِيرِ هَذِهِ النَّيِّرَاتِ الَّتِي تُرَى صَغِيرَةً بَعْدَ التَّذْكِيرِ بِبَعْضِ فَضْلِهِ فِي النَّيِّرَيْنِ الْأَكْبَرَيْنِ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ ، وَقِيلَ : إِنَّهُمَا يَدْخُلَانِ فِي عُمُومِ النُّجُومِ لِأَنَّ الْقَمَرَ مِمَّا يُهْتَدَى بِهِ فِي الظُّلُمَاتِ ، فَإِذَا اسْتَثْنَيْتَ بَعْضَ لَيَالِي الشَّهْرِ قُلْنَا : وَأَيُّ نَجْمٍ يُهْتَدَى بِهِ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ ؟ وَكَانَتِ الْعَرَبُ فِي بَدَاوَتِهَا تُؤَقِّتُ بِطُلُوعِ النَّجْمِ لِأَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَعْرِفُونَ الْحِسَابَ ، وَإِنَّمَا يَحْفَظُونَ أَوْقَاتَ السَّنَةِ بِالْأَنْوَاءِ ، وَهِيَ نُجُومُ الْقَمَرِ فِي مَطَالِعِهَا وَمَغَارِبِهَا – وَسَيَأْتِي بَيَانُ ذَلِكَ فِي مَوْضُوعٍ آخَرَ – وَقَدْ سَمَّوُا الْوَقْتَ الَّذِي يَجِبُ الْأَدَاءُ فِيهِ " نَجْمًا " تَجَوُّزًا ؛ لِأَنَّ الِاسْتِحْقَاقَ لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِهِ ، ثُمَّ سَمَّوُا الْمَالَ الَّذِي يُؤَدَّى نَجْمًا وَقَالُوا : نَجَّمَهُ إِذَا جَعَلَهُ أَقْسَاطًا . وَفِي الظُّلُمَاتِ هُنَا وَجْهَانِ ظُلُمَاتُ اللَّيْلِ بِالْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَأَضَافَهُمَا إِلَيْهَا لِمُلَابَسَتِهَا لَهُمَا ، أَوْ مُشْتَبِهَاتِ الطُّرُقِ شَبَّهَهَا بِالظُّلُمَاتِ قَالَهُ فِي الْكَشَّافِ . وَكَانَ اهْتِدَاؤُهُمْ بِالنُّجُومِ قِسْمَانِ أَحَدُهُمَا مَعْرِفَةُ

الْوَقْتِ مِنَ اللَّيْلِ أَوْ مِنَ السَّنَةِ ، وَالثَّانِي مَعْرِفَةُ الْمَسَالِكِ وَالطُّرُقِ وَالْجِهَاتِ . وَقَدْ سَبَقَ ذِكْرُ الظُّلُمَاتِ وَبَيَانِ أَنْوَاعِهَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ " 63 " مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ .

وَهَا هُنَا يَذْكُرُ الْمُفَسِّرُونَ النَّهْيَ عَنْ عِلْمِ النُّجُومِ الَّذِي يَزْعُمُ أَهْلُهُ أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ بِهِ مَا سَيَكُونُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مِنَ الْأَحْدَاثِ قَبْلَ حُدُوثِهَا . وَمِنْهُمْ مَنْ بَالَغَ فَأَطْلَقَ النَّهْيَ عَنْ عِلْمِ النُّجُومِ إِلَّا الْقَدْرَ الَّذِي يُهْتَدَى بِهِ فِي الظُّلُمَاتِ وَيُعْرَفُ بِهِ الْحِسَابُ ، وَيَحْصُلُ بِهِ الِاعْتِبَارُ بِزِينَةِ السَّمَاءِ ; لِأَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ هِيَ الَّتِي هَدَى إِلَيْهَا الْكِتَابُ . وَالصَّوَابُ أَنَّ الْمَذْمُومَ هُوَ تِلْكَ الْأَوْهَامُ الَّتِي يَزْعُمُونَ مَعْرِفَةَ الْغَيْبِ بِهَا دُونَ عِلْمِ الْهَيْئَةِ الْفَلَكِيَّةِ الَّذِي يُعْرَفُ بِهِ مِنْ آيَاتِ قُدْرَةِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ مَا لَا يُعْرَفُ مِنْ عِلْمٍ آخَرَ ، وَقَدِ اتَّسَعَ هَذَا الْعِلْمُ فِي عَصْرِنَا هَذَا بِمَا اسْتَحْدَثَ أَهْلُهُ مِنَ الْمَرَاصِدِ الْمُقَرِّبَةِ لِلْأَبْعَادِ ، وَالْآلَاتِ الْمُحَلِّلَةِ لِلنُّورِ الَّتِي يُعْرَفُ بِهَا سُرْعَةُ سَيْرِهِ ، وَأَبْعَادُ الْأَجْرَامِ السَّمَاوِيَّةِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ، وَمِسَاحَةُ الْكَوَاكِبِ وَكَثَافَتُهَا وَالْمَوَادُّ الْمُؤَلِّفَةُ مِنْهَا . وَإِنَّنَا نَقْتَبِسُ مِمَّا نُقِلَ عَنْ عُلَمَاءِ الْهَيْئَةِ كَلِمَةً فِي أَبْعَادِ بَعْضِ النُّجُومِ الثَّوَابِتِ الَّتِي هِيَ شُمُوسٌ مِنْ جِنْسِ شَمْسِنَا لِيُعْلَمَ بِهَا قَدْرُ عِلْمِ رَبِّنَا وَسِعَةِ مُلْكِهِ .

" النُّجُومُ تُعَدُّ بِالْمَلَايِينِ ، لَكِنَّ عُلَمَاءَ الْفَلَكِ لَمْ يَتَمَكَّنُوا حَتَّى الْآنَ إِلَّا مِنْ مَعْرِفَةِ إِبْعَادِ بَعْضِ الْمِئَاتِ مِنْهَا ؛ لِأَنَّ سَائِرَهَا أَبْعَدُ مِنْ أَنْ يُرَى اخْتِلَافٌ فِي مَوَاقِعِهِ ، وَالَّذِي عُرِفَ بُعْدُهُ مِنْهَا جَرَتِ الْعَادَةُ أَلَّا يُحْسَبَ بُعْدُهُ بِالْأَمْيَالِ ، بَلْ بِالْمَسَافَةِ الَّتِي يَقْطَعُهَا النُّورُ فِي سَنَةٍ مِنَ الزَّمَانِ ، فَإِنَّ النُّورَ يَسِيرُ 86000 مِيلٍ فِي الثَّانِيَةِ فَيَقْطَعُ فِي الدَّقِيقَةِ 5160000 مِيلٍ ، وَفِي السَّنَةِ نَحْوَ 6000000000000 مِيلٍ ، وَقَدْ وُجِدَ بِالرَّصْدِ أَنَّ أَقْرَبَ النُّجُومِ مِنَّا لَا يَصِلُ نُورُهُ إِلَيْنَا إِلَّا فِي أَرْبَعِ سَنَوَاتٍ وَنَحْوِ نِصْفِ سَنَةٍ ، فَيُقَالُ إِنَّ بُعْدَهُ عَنَّا أَرْبَعُ سَنَوَاتٍ وَنِصْفُ سَنَةٍ نُورِيَّةٍ . وَمِنَ النُّجُومِ مَا لَا يَصِلُ النُّورُ مِنْهُ إِلَيْنَا إِلَّا فِي أَلْفِ سَنَةٍ أَوْ أَكْثَرَ ، فَالنَّجْمُ الْمُسَمَّى النَّسْرُ الْوَاقِعُ يَصِلُ النُّورُ مِنْهُ إِلَيْنَا فِي نَحْوِ ثَلَاثِينَ سَنَةً لِأَنَّ بُعْدَهُ عَنَّا نَحْوُ 180000000000000 ، وَالنَّجْمُ الْمُسَمَّى بِالسِّمَاكِ الرَّامِحِ يَصِلُ النُّورُ مِنْهُ إِلَيْنَا فِي نَحْوِ خَمْسِينَ سَنَةً لِأَنَّ بُعْدَهُ عَنَّا 300000000000000 وَأَمَّا الشِّعْرَى الْعَبُورُ وَهُوَ أَسْطَعُ النُّجُومِ نُورًا فَبُعْدُهَا عَنَّا نَحْوُ تِسْعِ سَنَوَاتٍ نُورِيَّةٍ ، وَالْعُيُوقُ بُعْدُهُ عَنَّا نَحْوُ 32 سَنَةً نُورِيَّةً .

وَأَوَّلُ مَنْ قَاسَ أَبْعَادَ النُّجُومِ بِالضَّبْطِ الْفَلَكِيُّ (سْتُرُوفُ) فَإِنَّهُ قَاسَ بُعْدَ " النَّسْرِ الْوَاقِعِ مِنْ (سَنَةِ 1835 إِلَى سَنَةِ 1838 مِيلَادِيَّةَ) فَجَاءَتْ نَتِيجَةُ قِيَاسِهِ مُطَابِقَةً لِنَتِيجَةِ الْقِيَاسَاتِ الْحَدِيثَةِ مَعَ أَنَّ الْفَلَكِيِّينَ يَسْتَخْدِمُونَ الْآنَ مِنَ الْوَسَائِلِ مَا لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا فِي عَصْرِهِ " اهـ .

*(246/243)*

---

وَلَعَلَّ كَثْرَةَ الْآيَاتِ فِي عَالَمِ السَّمَاءِ هِيَ نُكْتَةُ تَذْيِيلِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) سَوَاءٌ أُرِيدَ بِهَا آيَاتُ التَّنْزِيلِ أَوْ آيَاتُ التَّكْوِينِ . فَإِنْ أُرِيدَ بِهَا الْمَعْنَى الْأَوَّلُ فَوَجْهُهُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ وَمَا قَبْلَهَا وَمَا فِي مَعْنَاهُمَا مِنَ الْآيَاتِ الْمُنَزَّلَةِ فِي الْحَثِّ عَلَى النَّظَرِ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاءِ كُلِّهِ تَفْصِيلٌ مُبَيِّنٌ لِطُرُقِ النَّظَرِ وَالْبَحْثِ فِي الْعَالَمِ السَّمَاوِيِّ لِلَّذِينَ يَعْلَمُونَ بِالْفِعْلِ أَوْ بِالْقُوَّةِ وَالِاسْتِعْدَادِ شَيْئًا مِنْ حُكْمِ اللهِ تَعَالَى وَعَجَائِبِ صُنْعِهِ فِيهِ ، فَيَزْدَادُونَ بِهَذَا التَّفْصِيلِ بَحْثًا وَعِلْمًا ، فَيَكُونُ عِلْمُهُمْ نَامِيًا مُسْتَمِرًّا . وَإِنْ أُرِيدَ الثَّانِي فَوَجْهُهُ أَظْهَرُ ، وَهُوَ أَنَّ الْآيَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى عِلْمِ اللهِ تَعَالَى وَحِكْمَتِهِ وَفَضْلِهِ عَلَى خَلْقِهِ ، لَا يَسْتَخْرِجُهَا مِنَ النَّظَرِ فِي النُّجُومِ إِلَّا الَّذِينَ يَعْلَمُونَ ، أَيْ أَهْلُ الْعِلْمِ بِهَذَا الشَّأْنِ ، الَّذِينَ يَقْرِنُونَ الْعِلْمَ بِالِاعْتِبَارِ ، وَلَا

يَرْضَوْنَ بِأَنْ يَكُونَ مُنْتَهَى الْحَظِّ ، مَا تَمَتَّعَ بِهِ اللَّحْظُ ، وَلَا غَايَةَ النَّظَرِ وَالْحِسَابِ ، أَنْ يُقَالَ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ .

وَمِنَ الِاعْتِبَارِ قَوْلُ صَاحِبِ الْمُقْتَطَفِ بَعْدَ مَقَالَاتٍ لَخَّصَ فِيهَا بَعْضَ " بِسَائِطِ عِلْمِ الْفَلَكِ " –

*(247/243)*

---

وَمِنْهَا الْكَلِمَةُ الْمَذْكُورَةُ آنِفًا – فَإِنَّهُ قَالَ لَمَّا انْتَهَى مِنَ الْكَلَامِ عَلَى النِّظَامِ الشَّمْسِيِّ وَرَجَّحَ أَنَّهُ لَا يَصْلُحُ شَيْءٌ مِنْ سَيَّارَاتِهِ لِحَيَاةِ الْبَشَرِ غَيْرُ الْأَرْضِ ، وَأَنَّهُ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ سَيَّارَاتُ سَائِرِ الشُّمُوسِ كَذَلِكَ ، وَكُلُّهَا أَكْبَرُ مِنْ هَذِهِ الشَّمْسِ ، قَالَ : " وَالْإِنْسَانُ أَوْسَعُ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ إِدْرَاكًا ، وَهُوَ عَلَى سَعَةِ إِدْرَاكِهِ لَا يَعْلَمُ تَرْكِيبَ جِسْمِ النَّمْلَةِ ، وَلَا كَيْفِيَّةَ تَجَمُّعِ الدَّقَائِقِ فِي حَبَّةِ الرَّمْلِ ، عِلْمٌ وَاسِعٌ وَجَهْلٌ مُطْبِقٌ . وَكِلَاهُمَا نَاطِقٌ بِأَنَّ مُبْدِعَ هَذَا الْكَوْنِ أَعْظَمُ وَأَعْلَمُ وَأَحْكَمُ مِنْ كُلِّ مَا يَتَصَوَّرُ عَقْلُ الْإِنْسَانِ ؟ " .

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ) بَعْدَ أَنْ ذَكَّرَنَا اللَّهُ تَعَالَى بِبَعْضِ آيَاتِهِ الْكَوْنِيَّةِ فِي الْأَرْضِ وَفِي السَّمَاءِ ذَكَّرَنَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِبَعْضِ آيَاتِهِ فِي أَنْفُسِنَا . الْإِنْشَاءُ إِيجَادُ الشَّيْءِ وَتَرْبِيَتُهُ أَوْ إِحْدَاثُهُ بِالتَّدْرِيجِ . وَقَدِ اسْتُعْمِلَ فِي التَّنْزِيلِ فِي خَلْقِ الْإِنْسَانِ

بِجُمْلَتِهِ وَخَلْقِ أَعْضَائِهِ وَمَشَاعِرِهِ ، وَإِيجَادِ الْأَقْوَامِ وَالْقُرُونِ مِنْ أُمَمٍ بَعْضِهَا فِي إِثْرِ بَعْضٍ ، وَفِي الْبَعْثِ ، وَفِي خَلْقِ الشَّجَرِ وَالْجَنَّاتِ ، وَفِي إِحْدَاثِ السَّحَابِ . قَالَ فِي حَقِيقَةِ الْأَسَاسِ : وَأَنْشَأَ حَدِيثًا وَشِعْرًا وَعِمَارَةً انْتَهَى . وَالنَّفْسُ مَا يَحْيَا بِهِ الْإِنْسَانُ وَذَاتُهُ فَيُطْلَقُ عَلَى الرُّوحِ وَعَلَى الْمَرْءِ الْمُرَكَّبِ مِنْ رُوحٍ وَبَدَنٍ . وَالْمُسْتَقَرُّ

(248/243)

---

(بِفَتْحِ الْقَافِ) حَيْثُ يَكُونُ الْقَرَارُ وَالْإِقَامَةُ . قَالَ تَعَالَى : (وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ) كَمَا قَالَ : (جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا) 27 : 61 قَالَ الرَّاغِبُ : قَرَّ فِي مَكَانِهِ يَقِرُّ قَرَارًا إِذَا ثَبَتَ ثُبُوتًا جَامِدًا ، وَأَصْلُهُ مِنَ الْقُرِّ وَهُوَ الْبَرْدُ وَهُوَ يَقْتَضِي السُّكُونَ ، وَالْحَرُّ يَقْتَضِي الْحَرَكَةَ انْتَهَى . وَالْمُسْتَوْدَعُ مَوْضِعُ الْوَدِيعَةِ وَهُوَ مَا يَتْرُكُهُ الْمَرْءُ عِنْدَ غَيْرِهِ مُؤَقَّتًا لِيَأْخُذَهُ بَعْدُ ، فَهِيَ فَعِيلَةٌ مِنْ وَدَعَ الشَّيْءَ إِذَا تَرَكَهُ بِمَعْنَى مَفْعُولَةٍ . وَيَكُونُ كُلٌّ مِنَ الْمُسْتَقَرِّ وَالْمُسْتَوْدَعِ مَصْدَرًا مِيمِيًّا بِمَعْنَى الِاسْتِقْرَارِ وَالِاسْتِيدَاعِ ، وَيَكُونُ الثَّانِي اسْمَ مَفْعُولٍ بِمَعْنَى الْوَدِيعَةِ ، وَلَا يَكُونُ الْأَوَّلُ كَذَلِكَ لِأَنَّ فِعْلَهُ لَازِمٌ إِلَّا مَا جَاءَ عَلَى طَرِيقَةِ الْحَذْفِ كَقَوْلِ النُّحَاةِ ظَرْفٌ مُسْتَقَرٌّ ، أَيْ مُسْتَقَرٌّ فِيهِ .

(249/243)

وَالْمَعْنَى أَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَهِيَ إِمَّا الرُّوحُ الَّتِي هِيَ الْخَلْقُ الْآخَرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ أَطْوَارِ خَلْقِ الْجَسَدِ : (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ) 23 : 14 وَإِمَّا الذَّاتُ الْمُرَكَّبَةُ مِنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ ، وَالْمُرَادُ بِهَا الْإِنْسَانُ الْأَوَّلُ الَّذِي تَسَلْسَلَ مِنْهُ سَائِرُ النَّاسِ بِالتَّوَالُدِ بَيْنَ الْأَزْوَاجِ ، وَهُوَ عِنْدَنَا وَعِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَقَدَّمَ مِثْلُ هَذَا فِي أَوَّلِ سُورَةِ النِّسَاءِ مَعَ بَحْثٍ طَوِيلٍ فِي تَفْسِيرِهِ ، وَسَيَجِيءُ شِبْهُهُ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ .

وَفِي إِنْشَاءِ جَمِيعِ الْبَشَرِ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ ، وَفِي التَّذْكِيرِ بِهِ إِرْشَادٌ إِلَى مَا يَجِبُ مِنْ شُكْرِ نِعْمَتِهِ ، وَمِنْ وُجُوبِ التَّعَارُفِ وَالتَّآلُفِ وَالتَّعَاوُنِ

بَيْنَ الْبَشَرِ ، وَعَدَمِ جَعْلِ تَفَرُّقِهِمْ إِلَى شُعُوبٍ وَقَبَائِلَ مَدْعَاةً لِلتَّعَادِي وَالتَّقَاتُلِ ، وَقَدْ فَصَّلْنَا الْقَوْلَ فِي هَذَا الْمَعْنَى فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِ آيَةِ سُورَةِ النِّسَاءِ .

*(250/243)*

---

قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو " الْمُسْتَقِرُّ " بِكَسْرِ الْقَافِ وَالْبَاقُونَ بِفَتْحِهَا ، وَاخْتُلِفَ فِي الْمُرَادِ بِالْمُسْتَقَرِّ وَالْمُسْتَوْدَعِ ، فَرَوَى جُمْهُورُ رُوَاةِ التَّفْسِيرِ وَأَبُو الشَّيْخِ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ عَنِ ابْنِ

عَبَّاسٍ قَالَ : الْمُسْتَقَرُّ - بِالْفَتْحِ - مَا كَانَ فِي الرَّحِمِ ، وَالْمُسْتَوْدَعُ مَا اسْتُودِعَ فِي أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَالدَّوَابِّ - وَفِي لَفْظٍ : الْمُسْتَقَرُّ مَا فِي الرَّحِمِ وَعَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ وَبَطْنِهَا مِمَّا هُوَ حَيٌّ وَمِمَّا هُوَ قَدْ مَاتَ - وَفِي لَفْظٍ : الْمُسْتَقَرُّ مَا كَانَ فِي الْأَرْضِ ، وَالْمُسْتَوْدَعُ مَا كَانَ فِي الصُّلْبِ ، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ فِي تَفْسِيرِ الْعِبَارَةِ : " مُسْتَقَرُّهَا " فِي الدُّنْيَا " وَمُسْتَوْدَعَهَا " فِي الْآخِرَةِ ، أَيِ النَّفْسِ . وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ : الْمُسْتَقَرُّ الرَّحِمُ ، وَالْمُسْتَوْدَعُ الْمَكَانُ الَّذِي يَمُوتُ فِيهِ . وَرُوِيَ مِثْلُهُ عَنِ الْحَسَنِ وَقَتَادَةَ ، وَأَوْرَدَ الرَّازِيُّ قَوْلَ الْحَسَنِ مُفَسِّرًا

(251/243)

---

لَهُ فَقَالَ : الْمُسْتَقَرُّ حَالُهُ بَعْدَ الْمَوْتِ ; لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ سَعِيدًا فَقَدِ اسْتَقَرَّتْ تِلْكَ السَّعَادَةُ ، وَإِنْ كَانَ شَقِيًّا فَقَدِ اسْتَقَرَّتْ تِلْكَ الشَّقَاوَةُ ، وَلَا تَبْدِيلَ فِي أَحْوَالِ الْإِنْسَانِ بَعْدَ الْمَوْتِ . وَأَمَّا قَبْلَ الْمَوْتِ فَالْأَحْوَالُ مُتَبَدِّلَةٌ ، فَالْكَافِرُ قَدْ يَنْقَلِبُ مُؤْمِنًا وَالزِّنْدِيقُ قَدْ يَنْقَلِبُ صِدِّيقًا ، فَهَذِهِ الْأَحْوَالُ لِكَوْنِهَا عَلَى شَرَفِ الزَّوَالِ وَالْفَنَاءِ لَا يَبْعُدُ تَشْبِيهُهَا بِالْوَدِيعَةِ . وَذَكَرَ لِلْأَصَمِّ قَوْلَيْنِ ، أَحَدُهُمَا : أَنَّ الْمُسْتَقَرَّ مَنْ خُلِقَ مِنَ النَّفْسِ الْأُولَى وَدَخَلَ الدُّنْيَا وَاسْتَقَرَّ فِيهَا ، وَالْمُسْتَوْدَعُ الَّذِي لَمَّا يُخْلَقْ بَعْدُ . وَثَانِيهِمَا : الْمُسْتَقَرُّ مَنِ اسْتَقَرَّ فِي قَرَارِ الدُّنْيَا ، وَالْمُسْتَوْدَعُ مَنْ فِي

الْقُبُورِ حَتَّى يُبْعَثَ . وَإِنَّمَا يَظْهَرُ وَجْهُ هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ عَلَى قِرَاءَةِ كَسْرِ الْقَافِ أَوِ الْمُسْتَقَرِّ بِفَتْحِ الْقَافِ مَصْدَرًا وَحُكِيَ عَنْ أَبِي مُسْلِمٍ الْأَصْفَهَانِيِّ أَنَّ التَّقْدِيرَ - فَمِنْكُمْ مُسْتَقَرٌّ ذَكَرٌ وَمِنْكُمْ مُسْتَوْدَعٌ أُنْثَى ، فَعَبَّرَ عَنِ الذَّكَرِ بِالْمُسْتَقَرِّ ؛ لِأَنَّ النُّطْفَةَ تَتَوَلَّدُ فِي صُلْبِهِ ، وَعَبَّرَ عَنِ الْأُنْثَى بِالْمُسْتَوْدَعِ لِأَنَّ الرَّحِمَ شِبْهَةٌ بِالْمُسْتَوْدَعِ . وَلَعَلَّهُ أَخَذَهُ مِنَ الشَّاعِرِ .

وَإِنَّمَا أُمَّهَاتُ النَّاسِ أَوْعِيَةٌ . . . مُسْتَوْدَعَاتٌ وَلِلْآبَاءِ أَبْنَاءُ .

(252/243)

---

وَأَقُولُ : لَيْسَ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ مَا نَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى تَفْسِيرِ هَذِهِ الْعِبَارَةِ - كَدَأْبِنَا فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ - إِلَّا قَوْلَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْحَجِّ : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ) 22 : 5 الْآيَةَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ هُودٍ : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) 11 : 6 قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " مُسْتَقَرُّهَا " حَيْثُ تَأْوِي ، " وَمُسْتَوْدَعُهَا " حَيْثُ تَمُوتُ . وَقَالَ : " مُسْتَقَرُّهَا " فِي الْأَرْحَامِ ، " وَمُسْتَوْدَعُهَا " حَيْثُ تَمُوتُ . فَهَذَا يُرَجِّحُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمُسْتَقَرِّ - بِفَتْحِ الْقَافِ - الرَّحِمُ ، وَالْمُسْتَوْدَعِ الْقَبْرُ ،

وَأَمَّا الْمُسْتَقِرُّ - بِكَسْرِ الْقَافِ - فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ مَنْ يَطُولُ عُمُرُهُ فِي الدُّنْيَا ، كَأَنَّهُ قَالَ : فَمِنْكُمْ مُسْتَقِرٌّ فِي الدُّنْيَا يُعَمَّرُ

(253/243)

---

عُمُرًا طَوِيلًا ، وَمِنْكُمْ مُسْتَوْدَعٌ لَا اسْتِقْرَارَ لَهُ فِيهَا بَلْ تَخْتَرِمُهُ الْمَنِيَّةُ طِفْلًا أَوْ يَافِعًا . وَيُمْكِنُ تَفْسِيرُ قِرَاءَةِ الْفَتْحِ بِهَذَا أَيْ فَمِنْهَا ذُو اسْتِقْرَارٍ وَذُو اسْتِيدَاعٍ . وَآخِرُ مَا خَطَرَ لِي بَعْدَ تَلْخِيصِ أَقْوَالِ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ الْمُسْتَقَرَّ الرُّوحُ - وَهُوَ يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ - وَالْمُسْتَوْدَعَ الْبَدَنُ . وَالْجُمْلَةُ مِمَّا يَتَّسِعُ الْمَجَالُ فِيهِ لِلتَّفْسِيرِ وَالتَّقْدِيرِ وَالْإِيجَازُ مَقْصُودٌ بِهِ .

(254/243)

---

(قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ) أَيْ قَدْ جَعَلْنَا الْآيَاتِ الْمُبَيِّنَةَ لِسُنَّتِنَا فِي خَلْقِ الْبَشَرِ مُفَصَّلَةً ، كُلُّ فَصْلٍ وَنَوْعٍ مِنْهَا يَدُلُّ عَلَى قُدْرَةِ الْخَالِقِ وَإِرَادَتِهِ ، وَعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ ، وَفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ ، فَصَّلْنَاهَا كَذَلِكَ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ مَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ ، أَيْ يَفْهَمُونَ الْمُرَادَ مِنْهُ وَمَرْمَاهُ وَيَفْطَنُونَ لِدَقَائِقِهِ وَخَفَايَاهُ ، فَالْفِقْهُ - وَإِنْ فُسِّرَ بِالْعِلْمِ وَبِالْفَهْمِ - أَخَصُّ مِنْهُمَا . قَالَ الرَّاغِبُ : الْفِقْهُ هُوَ

التَّوَصُّلُ إلَى عِلْمٍ غَائِبٍ بِعِلْمٍ شَاهِدٍ فَهُوَ أَخَصُّ مِنَ الْعِلْمِ . وَقَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي النِّهَايَةِ إنَّ اشْتِقَاقَهُ مِنَ الْفَتْحِ وَالشَّقِّ . وَأَحْسَنُ مِنْهُ قَوْلُ الْحَكِيمِ التِّرْمِذِيِّ : إنَّ فَقِهَ وَفَقَأَ وَاحِدٌ فَإِنَّ الْإِبْدَالَ بَيْنَ الْهَمْزَةِ وَالْهَاءِ كَثِيرٌ وَفَقَأَ الْبَثْرَةَ شَقَّهَا وَسَبَرَ غَوْرَهَا ، فَالْفِقْهُ مُسْتَعْمَلٌ فِي الْحِسِّيَّاتِ وَالْفِقْهُ فِي الْمَعْنَوِيَّاتِ ، وَالْجَامِعُ بَيْنَهُمَا النَّظَرُ فِي أَعْمَاقِ الشَّيْءِ وَبَاطِنِهِ . فَمَنْ لَا يَفْهَمُ إلَّا ظَوَاهِرَ الْكَلَامِ وَلَا يَفْطَنُ إلَّا لِمَظَاهِرِ الْأَشْيَاءِ لَا يُقَالُ إنَّهُ فَقِهَ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ عِلْمُ الشَّرْعِ فِقْهًا لِمَا فِيهِ مِنَ الِاسْتِنْبَاطِ . وَلَمَّا كَانَ اسْتِخْرَاجُ الْحِكَمِ وَالْعِبَرِ مِنْ خَلْقِ الْبَشَرِ يَتَوَقَّفُ عَلَى غَوْصٍ فِي أَعْمَاقِ الْآيَاتِ ، وَفِطْنَةٍ فِي اسْتِخْرَاجِ دَقَائِقِ الْحِكَمِ وَالْبَيِّنَاتِ ، عَبَّرَ عَنْهَا بِالْفِقْهِ ، وَأَمَّا الْعِلْمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَالِاهْتِدَاءُ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ فَهُوَ

(255/243)

---

مِنَ الْأُمُورِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي لَا تَتَوَقَّفُ عَلَى دِقَّةِ النَّظَرِ وَلَا غَوْصِ الْفِكْرِ ، وَكَذَلِكَ أَكْثَرُ مَظَاهِرِ عِلْمِ الْفَلَكِ ; فَلِذَلِكَ اكْتَفَى فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ لِهَذِهِ بِالتَّعْبِيرِ بِالْعِلْمِ الشَّامِلِ لِمَا لَا يُشْتَرَطُ فِيهِ دِقَّةُ الِاسْتِنْبَاطِ كَظَوَاهِرِهِ ، وَلِعِبَرِهِ كَدَقَائِقِهِ . وَقَدْ فَطَنَ لِذَلِكَ الزَّمَخْشَرِيُّ - وَمَا أَجْدَرَهُ بِهِ - فَقَالَ : (فَإِنْ قُلْتَ) لِمَ قِيلَ "يَعْلَمُونَ" مَعَ ذِكْرِ النُّجُومِ ، وَ (يَفْقَهُونَ) مَعَ ذِكْرِ إنْشَاءِ بَنِي آدَمَ ؟ (قُلْتُ) : لِأَنَّ إنْشَاءَ الْإِنْسِ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَتَصْرِيفَهُمْ بَيْنَ أَحْوَالٍ مُخْتَلِفَةٍ أَلْطَفُ وَأَدَقُّ

صَنْعَةً وَتَدْبِيرًا ، فَكَانَ ذِكْرُ الْفِقْهِ الَّذِي هُوَ اسْتِعْمَالُ فِطْنَةٍ وَتَدْقِيقُ نَظَرٍ مُطَابِقًا لَهُ انْتَهَى .

وَتَعَقَّبَهُ ابْنُ الْمُنِيرِ فَزَعَمَ أَنَّ هَذَا كَلَامٌ صِنَاعِيٌّ ، وَأَنَّ التَّحْقِيقَ أَنَّ اخْتِلَافَ التَّعْبِيرِ لِلتَّفَنُّنِ .

وَذَكَرَ وَجْهًا آخَرَ بِنَاءً عَلَى زَعْمِهِ أَنَّ الْفِقْهَ أَدْنَى دَرَجَاتِ الْعِلْمِ ؛ لِأَنَّهُ عِبَارَةٌ عَنْ مُجَرَّدِ الْفَهْمِ ، وَمَا بُنِيَ عَلَى الْفَاسِدِ فَاسِدٌ ، وَأَيْنَ هُوَ فِي فَهْمِ أَسْرَارِ اللُّغَةِ مِنَ الزَّمَخْشَرِيِّ ؟ وَأَيْنَ الْمُقَلِّدُ لِظَوَاهِرِ بَعْضِ النُّقُولِ مِنَ الْإِمَامِ اللَّوْذَعِيِّ ؟ وَأَيُّهُمَا السَّلِيقِيُّ وَالصِّنَاعِيُّ ؟ .

(وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا) هَذِهِ الْآيَةُ الْمُنَزَّلَةُ مُرْشِدَةٌ إِلَى نَوْعٍ آخَرَ مِنْ آيَاتِ التَّكْوِينِ وَهُوَ إِيجَادُ الْمَاءِ ، وَإِنْزَالُهُ

(256/243)

---

مِنَ السَّمَاءِ ، وَجَعْلُهُ سَبَبًا لِلنَّبَاتِ ، وَجَعْلُ النَّبَاتِ الْمُسَبَّبِ عَنْهُ أَنْوَاعًا كَثِيرَةً ، مُشْتَبِهَةً وَغَيْرَ مُتَشَابِهَةٍ ، وَبِذَلِكَ يَلْتَقِي آخِرُ هَذَا السِّيَاقِ بِأَوَّلِهِ . أَيْ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّحَابِ مَاءً ، فَأَخْرَجْنَا بِسَبَبِ هَذَا الْمَاءِ الْوَاحِدِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَصْنَافِ هَذَا النَّامِي الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الْأَرْضِ ، فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ أَيْ مِنَ النَّبَاتِ خَضِرًا أَيْ شَيْئًا غَضًّا أَخْضَرَ بِالْخِلْقَةِ لَا بِالصِّنَاعَةِ ، وَهُوَ مَا تَشَعَّبَ مِنْ أَصْلِ النَّبَاتِ الْخَارِجِ مِنَ الْحَبِّ كَسَاقِ النَّجْمِ وَأَغْصَانِ

الشَّجَرِ ، نُخْرِجُ مِنْهُ أَيْ مِنْ هَذَا الْأَخْضَرِ الْمُتَشَعِّبِ مِنَ النَّبَاتِ آنًا بَعْدَ آنٍ حَبًّا مُتَرَاكِبًا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ وَهُوَ السُّنْبُلُ - فَهَذَا تَفْصِيلٌ لِنَمَاءِ النَّجْمِ الَّذِي لَا سَاقَ لَهُ مِنَ النَّبَاتِ وَنِتَاجِهِ ، وَعَطَفَ عَلَيْهِ حَالَ نَظِيرِهِ مِنَ الشَّجَرِ فَقَالَ (وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ) ، النَّخْلُ الشَّجَرُ الَّذِي يُنْتِجُ التَّمْرَ ، يُسْتَعْمَلُ لَفْظُهُ فِي الْمُفْرَدِ وَالْجَمْعِ ، وَجَمْعُهُ نَخِيلٌ . وَ(مِنْ طَلْعِهَا) بَدَلٌ مِمَّا قَبْلَهُ ، وَطَلْعُهَا أَوَّلُ مَا يَطْلُعُ أَيْ يَظْهَرُ مِنْ زَهْرِهَا الَّذِي يَكُونُ مِنْهُ ثَمَرُهَا ، وَقَبْلَ أَنْ يَنْشَقَّ عَنْهُ كَافُورُهُ أَيْ وِعَاؤُهُ ، وَمَا يَنْشَقُّ عَنْهُ الْكَافُورُ مِنَ الطَّلْعِ يُسَمَّى الْغَرِيضُ وَالْإِغْرِيضُ ، وَالْقِنْوَانُ جَمْعُ قِنْوٍ - بِالْكَسْرِ - وَهُوَ الْعِذْقُ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ الثَّمَرُ ، وَمِثْلُهُ فِي وَزْنِهِ وَاسْتِوَاءِ مُثَنَّاهُ ، وَجَمْعِهِ الصِّنْوُ وَالصِّنْوَانُ وَهُوَ مَا يَخْرُجُ مِنْ

(257/243)

---

أَصْلِ الشَّجَرَةِ مِنَ الْفُرُوعِ . وَالْقِنْوَانُ مِنَ النَّخْلِ كَالْعَنَاقِيدِ مِنَ الْعِنَبِ وَالسَّنَابِلِ مِنَ الْقَمْحِ ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ طَلْعِ النَّخْلِ قِنْوَانٌ دَانِيَةُ الْقُطُوفِ سَهْلَةُ التَّنَاوُلِ ، أَوْ بَعْضُهَا دَانٍ قَرِيبٌ مِنْ بَعْضٍ لِكَثْرَةِ حَمْلِهَا .

(وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ) قَرَأَ الْجُمْهُورُ " جَنَّاتٍ " بِالنَّصْبِ وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ : وَنُخْرِجُ مِنْهُ - أَيْ مِنْ ذَلِكَ الْخَضِرِ - جَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ . وَقَرَأَهَا أَبُو بَكْرٍ عَنْ عَاصِمٍ بِالرَّفْعِ وَهُوَ الْمَرْوِيُّ عَنْ

عَلِيٍّ الْمُرْتَضَى وَابْنِ مَسْعُودٍ وَالْأَعْمَشِ وَغَيْرِهِمْ . وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ : وَلَكُمْ جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ - أَوْ - وَهُنَاكَ جَنَّاتٌ - أَوْ - وَمِنَ الْكَرْمِ جَنَّاتٌ إلَخْ . وَسَنُبَيِّنُ حِكْمَةَ اخْتِلَافِ الْإِعْرَابِ بَعْدُ

(وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ) أَيْ وَأَخُصُّ مِنْ نَبَاتِ كُلِّ شَيْءٍ الزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ حَالَ كَوْنِهِ مُشْتَبِهًا فِي بَعْضِ الصِّفَاتِ ، غَيْرَ مُتَشَابِهٍ فِي بَعْضٍ آخَرَ . قِيلَ : إنَّ هَذِهِ الْحَالَ مِنَ الرُّمَّانِ وَحْدَهُ فَإِنَّهُ أَنْوَاعٌ تَشْتَبِهُ فِي شَكْلِ الْوَرَقِ وَالثَّمَرِ وَتَخْتَلِفُ فِي لَوْنِ الثَّمَرِ وَطَعْمِهِ ، فَمِنْهُ الْحُلْوُ وَالْحَامِضُ وَالْمُزُّ . وَقِيلَ : إنَّ الْحَالَ مِنْ مَجْمُوعِ الزَّيْتُونِ وَالرُّمَّانِ ، أَيْ مُشْتَبِهًا

(258/243)

---

وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ وَذَلِكَ ظَاهِرٌ مِمَّا قَبْلَهُ . وَصَرَّحُوا بِأَنَّ الْمُشْتَبِهَ وَالْمُتَشَابِهَ هُنَا بِمَعْنًى ، إذْ يُقَالُ : اشْتَبَهَ الْأَمْرَانِ وَتَشَابَهَا كَمَا يُقَالُ اسْتَوَيَا وَتَسَاوَيَا . وَقَدْ قُرِئَ فِي الشَّوَاذِّ " مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ " وَهُوَ مَا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ فِي آيَةِ (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ) 141 إلَخْ . وَسَتَأْتِي ، وَالْحَقُّ أَنَّ بَيْنَ الصِّيغَتَيْنِ فَرْقًا فَمَعْنَى اشْتَبَهَا الْتَبَسَ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ مِنْ شِدَّةِ الشَّبَهِ بَيْنَهُمَا ، وَمَعْنَى تَشَابَهَا أَشْبَهَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ وَلَوْ فِي بَعْضِ الْوُجُوهِ وَالصِّفَاتِ ، فَهَذَا أَعَمُّ مِمَّا قَبْلَهُ . وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ بَعْضَ مَا ذُكِرَ يَتَشَابَهُ وَلَا يَشْتَبِهُ ، وَبَعْضُهُ يَتَشَابَهُ حَتَّى

يَشْتَبِهَ ، حَتَّى عَلَى الْبُسْتَانِيِّ الْمَاهِرِ ،

كَمَا شَاهَدْنَا ذَلِكَ وَاخْتَبَرْنَاهُ فِي بَعْضِ أَنْوَاعِ الرُّمَّانِ الْحُلْوِ مَعَ الْحَامِضِ ، وَهَذَا مِنْ دِقَّةِ تَعْبِيرِ التَّنْزِيلِ فِي تَحْدِيدِ الْحَقَائِقِ .

(259/243)

---

(انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ) أَيِ انْظُرُوا نَظَرَ تَأَمُّلٍ وَاعْتِبَارٍ إِلَى ثَمَرِ مَا ذُكِرَ إِذَا هُوَ تَلَبَّسَ وَاتَّصَفَ بِالْإِثْمَارِ ، وَإِلَى يَنْعِهِ عِنْدَمَا يَيْنَعُ ، أَيْ يَبْدُوَا صَلَاحُهُ وَيَنْضَجُ ، وَتَأَمَّلُوا صِفَاتِهِ فِي كُلٍّ مِنَ الْحَالَيْنِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، يَظْهَرُ لَكُمْ مِنْ لُطْفِ اللهِ وَتَدْبِيرِهِ ، وَحِكْمَتِهِ فِي تَقْدِيرِهِ ، مَا يَدُلُّ أَوْضَحَ الدَّلَالَةِ عَلَى وُجُوبِ تَوْحِيدِهِ (إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) أَيْ فِي ذَلِكُمُ الَّذِي أُمِرْتُمْ بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ ، وَالنَّظَرُ فِيهِ دَلَائِلُ عَظِيمَةٌ أَوْ كَثِيرَةٌ لِلْمُسْتَعِدِّينَ لِلِاسْتِدْلَالِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْفِعْلِ وَالْمُسْتَعِدِّينَ لِلْإِيمَانِ ، وَأَمَّا غَيْرُهُمْ فَإِنَّ نَظَرَهُمْ كَنَظَرِ الطِّفْلِ وَإِنْ كَانُوا مِنَ الْعَالِمِينَ بِأَسْرَارِ عَالَمِ النَّبَاتِ ، وَالْغَوَّاصِينَ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الْمَحَاسِنِ وَالنِّظَامِ ، لَا يَتَجَاوَزُ هَذِهِ الظَّوَاهِرَ ، وَلَا يَعْبُرُهَا إِلَى مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ مِنْ وُجُودِ الْخَالِقِ ، وَمِنْ إِثْبَاتِ صِفَاتِهِ الَّتِي تَتَجَلَّى فِيهَا ، وَوَحْدَتِهِ الَّتِي يَنْتَهِي النِّظَامُ إِلَيْهَا ، وَإِنْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ وَحْدَةَ النِّظَامِ فِي الْأَشْيَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ ، لَا يُمْكِنُ أَنْ تَصْدُرَ عَنْ إِرَادَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ .

(260/243)

---

وَمِنْ مَبَاحِثِ الْبَلَاغَةِ فِي الْآيَاتِ ، وَاخْتِلَافِ الْإِعْرَابِ وَالتَّرْتِيبِ بَيْنَ الْمُتَنَاسِبَاتِ ، أَنَّ هَذَا السِّيَاقَ بُدِئَ بِفَلْقِ الْحَبِّ وَالنَّوَى وَإِخْرَاجِ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ وَعَكْسِهِ . وَقَفَّى عَلَيْهِ بِمَا يُنَاسِبُهُ مِنْ فَلْقِ الْإِصْبَاحِ ، وَعَطَفَ عَلَى هَذَا مَا يُقَابِلُهُ مِنْ مُعَاقَبَةِ اللَّيْلِ لِلنَّهَارِ ، وَأُشِيرَ إِلَى فَوَائِدِهِمَا وَفَوَائِدِ النَّيِّرَيْنِ ، اللَّذَيْنِ هُمَا آيَتَا هَذَيْنِ الْمَلَوَيْنِ ، وَنَاسَبَ ذِكْرُ النَّيِّرَيْنِ التَّذْكِيرَ بِخَلْقِ النُّجُومِ ، وَالْمِنَّةِ بِالِاهْتِدَاءِ بِهَا وَالْإِيمَاءِ إِلَى مَا فِيهَا مِنْ آيَاتِ الْعُلُومِ ، ثُمَّ عُطِفَ عَلَى هَذَا النَّوْعِ مِنَ الْآيَاتِ إِنْشَاؤُنَا مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمِنْهَا الْمُسْتَقَرُّ

(261/243)

---

وَالْمُسْتَوْدَعُ ، وَقَفَّى عَلَيْهِ بِإِنْزَالِ الْمَاءِ ، وَجَعَلَهُ سَبَبًا لِنَبَاتِ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَحْيَاءِ ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا تَفْصِيلٌ لِقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الْأُولَى مِنَ السِّيَاقِ : (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ) وَقَدْ لَوَّنَ فِي تَفْصِيلِ خَلْقِ النَّبَاتِ الْخِطَابَ ، وَتَفَنَّنَ فِي طُرُقِ الْإِعْرَابِ ; لِلتَّنْبِيهِ إِلَى مَا فِيهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَلْوَانِ ، وَتَشَابُهِ مَا فِيهِ مِنَ الثِّمَارِ وَالْأَفْنَانِ ، فَبُدِئَتِ الْآيَةُ بِضَمِيرِ

الْوَاحِدِ الْغَائِبِ الْمُفْرَدِ تَبَعًا لِسِيَاقِ مَا قَبْلَهَا مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ ، وَعَطَفَ عَلَيْهِ ضَمِيرَ الْمُتَكَلِّمِ الْجَمْعِيِّ بِطَرِيقِ الِالْتِفَاتِ . إذْ قَالَ : (فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ بَعْدَ قَوْلِهِ : (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) فَحِكْمَةُ الِالْتِفَاتِ أَنْ تَلْتَفِتَ الْأَذْهَانُ إلَى مَا يَعْقُبُ ذَلِكَ مِنَ الْبَيَانِ ، فَتَتَنَبَّهُ إلَى أَنَّ هَذَا الْإِخْرَاجَ الْبَدِيعَ ، وَالصُّنْعَ السَّنِيعَ ، مِنْ فِعْلِ الْحَكِيمِ الْخَلَّاقِ ، لَا مِنْ فَلَتَاتِ الْمُصَادَفَةِ وَالِاتِّفَاقِ ، وَلَمَّا كَانَ الْمَاءُ وَاحِدًا وَالنَّبَاتُ جَمْعًا كَثِيرًا نَاسَبَ إفْرَادَ الْفِعْلِ الْأَوَّلِ وَجَمْعَ الْفِعْلِ الْآخِرِ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْوَاحِدَ إذَا قَالَ فَعَلْنَا أَرَادَ إفَادَةَ تَعْظِيمِ نَفْسِهِ إذَا كَانَ مَقَامُهُ أَهْلًا لِذَلِكَ كَمَا يَقُولُ الْمَلِكُ أَوِ الْأَمِيرُ – حَتَّى فِي هَذَا الْعَصْرِ – فِي أَوَّلِ مَا يُصْدِرُهُ مِنْ نَحْوِ نِظَامٍ أَوْ قَانُونٍ " أَمَرْنَا بِمَا هُوَ آتٍ " وَنُكْتَةُ الْعُدُولِ عَنِ الْمَاضِي

(262/243)

---

إلَى الْمُضَارِعِ فِي قَوْلِهِ : (نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا) تَحْصُلُ بِإِرَادَةِ اسْتِحْضَارِ صُورَتِهِ الْعَجِيبَةِ فِي حُسْنِهَا وَانْتِظَامِهَا ، وَتَنَضُّدِ سَنَابِلِهَا وَاتِّسَاقِهَا ، وَعَطَفَ عَلَيْهِ مَا يُخْرِجُهُ تَعَالَى مِنْ طَلْعِ النَّخْلِ ، مِنَ الْقِنْوَانِ الْمُشَابِهِ لِسَنَابِلِ الْقَمْحِ ، فِي تَنَضُّدِ ثَمَرِهِ وَتَرَاكُبِهَا ، وَمَنَافِعِهَا وَغَرَائِبِهَا ، فَإِنَّ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا أَفْضَلَ غِذَاءٍ لِلنَّاسِ ، وَعَلَفٍ لِلدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ ، وَذَكَرَ بَعْدَهُ جَنَّاتِ الْأَعْنَابِ ؛ لِأَنَّهَا أَشْبَهُ بِالنَّخِيلِ فِي هَذِهِ الْأَبْوَابِ ، فَالْعَنَاقِيدُ تُشْبِهُ الْعَرَاجِينَ فِي

تَكَوُّنِهَا ، وَتَرَاكُبِ حَبِّهَا وَأَلْوَانِ ثَمَرِهَا ، كَمَا تُشْبِهُهَا فِي دَرَجَاتِ تَطَوُّرِهَا ، فَالْحِصْرِمُ كَالْبُسْرِ ، وَالْعِنَبُ كَالرُّطَبِ ، وَالزَّبِيبُ كَالتَّمْرِ ، وَيَخْرُجُ مِنْ كُلٍّ مِنْهُمَا عَسَلٌ وَخَلٌّ وَخَمْرٌ ، ثُمَّ ذَكَرَ الزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مَعْطُوفًا عَلَى نَبَاتِ كُلِّ شَيْءٍ أَوْ مَنْصُوبًا عَلَى الِاخْتِصَاصِ ، لَا عَلَى مَا قَبْلَهُ مِنَ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ ؛ لِأَنَّ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ التَّشَابُهِ فِي الصُّورَةِ ، مَحْصُورٌ فِي الْوَرَقِ دُونَ الثَّمَرَةِ ، وَأَمَّا مَكَانُهُمَا مِنَ الْمَنْفَعَةِ وَالْفَائِدَةِ ، فَالْأَوَّلُ فِي الدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ وَالْآخَرُ فِي الدَّرَجَةِ الرَّابِعَةِ ، ذَلِكَ بِأَنَّ الزَّيْتُونَ وَزَيْتَهُ غِذَاءٌ فَقَطْ وَلَكِنَّهُ تَابِعٌ لِلطَّعَامِ غَيْرُ مُسْتَقِلٍّ بِالتَّغْذِيَةِ .

وَالرُّمَّانُ فَاكِهَةٌ وَشَرَابٌ فَقَطْ وَلَكِنَّهُمَا دُونَ فَوَاكِهِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ وَأَشْرِبَتِهِمَا فِي الْمَرْتَبَةِ ، فَنَاسَبَ جَعْلُهُ

(263/243)

---

بَعْدَهُمَا ، وَالْإِشَارَةُ بِاخْتِلَافِ الْإِعْرَابِ إِلَى رُتْبَةِ كُلٍّ مِنْهُمَا ، وَبِنَاءً عَلَى اخْتِلَافِ الْمَرَاتِبِ قَدَّمَ نَبَاتَ الْحَبِّ عَلَى الْجَمِيعِ ؛ لِأَنَّهُ الْغِذَاءُ الْأَعْظَمُ الْأَعَمُّ لِأَكْثَرِ النَّاسِ وَأَكْثَرِ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ الْأَهْلِيَّةِ الَّتِي تَقُومُ أَكْثَرُ مَرَافِقِهِمْ وَمَنَافِعِهِمْ بِهَا ، فَسُبْحَانَ مَنْ هَذَا كَلَامُهُ .

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ .

حَكَى اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَاتِ بَعْضَ ضُرُوبِ الشِّرْكِ الَّتِي قَالَ بِهَا بَعْضُ الْعَرَبِ ، وَرَوَى التَّارِيخُ كَثِيرًا مِنْ نَوْعِهَا عَنْ أُمَمِ الْعَجَمِ ، وَهِيَ اتِّخَاذُ شُرَكَاءِ اللَّهِ مِنْ عَالَمِ الْجِنِّ الْمُسْتَتِرِ عَنِ الْعُيُونِ ، وَاخْتِرَاعُ نَسْلٍ لَهُ مِنَ الْبَنَاتِ وَالْبَنِينَ ، حَكَى هَذَا بَعْدَ تَفْصِيلِ مَا تَقَدَّمَ فِيمَا قَبْلَهُ مِنْ أَنْوَاعِ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى تَوَحُّدِهِ بِالْخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ فِي عَوَالِمِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ ، وَتُعْقِبُهُ بِإِنْكَارِهِ وَتَنْزِيهِ الْخَالِقِ الْمُبْدِعِ عَنْهُ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ :

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 7 صـ 524.

538 ﴾

*(264/243)*

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ﴾

كان السياق يقتضي أن يقول سبحانه : أنزل من السماء ماء " فأخرج " .

لكنه هنا قال : " فأخرجنا " ؛ لأن كل شيء لا يوجد لله فيه شبهة شريك ؛ فهو من عمله فقط ، ولا يقولن أحد إنه أنزل المطر وأخرج النبات لأن الأرض أرض الله المخلوقة له والبذور خلقها الله ، والإنسان يفكر بعقل خلقه الله وبالطاقة المخلوقة له . وأنت حين تنسب الحاجات كلها إلى صانعها الأول ، فهو إذن الذي فعل ، لكنه احترم تعبك ، وهو يوضح لك : حين قال : " فأخرجنا " أي أنا وأسبابي التي منحتها لك ، أنا خلقت الأسباب ، والأسباب عملت معك . فإذا نظرت إلى مسبب الأسباب فهو الفاعل لكل شيء . وإن نظرت إلى ظاهرية التجمع والحركة فالأسباب التي باشرها الإنسان موجودة ؛ لذلك يقول : " فأخرجنا " .

وسبحانه جل وعلا قد يتكلم في بعض المواقف فيثبت للإنسان عملاً لأنه قام به بأسباب الله الممنوحة له ، ولكنه ينفي عنه عملاً آخر ليس له فيه دخل بأي صورة من الصور ؛ مثل قوله الحق : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزارعون ﴾ [ الواقعة : 63-64 ] .

سبحانه هنا ينسب لنا الحرث لأننا قمنا به ولكن بأسباب منه – سبحانه – فهو الذي أنزل لنا الحديد الذي صنعنا منه المحراث وهدانا إلى تشكيله بعد أن ألانه لنا بالنار التي خلقها لنا

، وبالطاقة التي أعطانا إياها ، أما الزراعة فليس لأحد منا فيها عمل ولذلك يقول سبحانه : ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ [ الواقعة : 65 ] .

(265/243)

---

هنا – سبحانه – أتى باللام في قوله تعالى : ( لجعلناه ) للتأكيد ؛ لأن الإنسان له في هذا الأمر عمل ، إنه حرث وتعهد ما زرعه بالريّ والكد حتى نما وأثمر ، لكن قد تصيبه آفة تقضي عليه ، فالأسباب وإن كانت قد عملت إلا أنها لا تضمن الانتفاع بثمرة الزرع ، ذلك لأن الأسباب لا تتمرد ، ولا تتأبى على الله ولا تخرج عليه ، إنها تؤدي ما يريده منها الله ، وقد يعطلها سبحانه . أما في قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الماء الذي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المزن أَمْ نَحْنُ المنزلون * لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً ﴾ ، إنه سبحانه لم يقل لجعلناه ، لأنه ليس لأحد فيه عمل لذلك لم يؤكده باللام .

ويقول سبحانه : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النار التي تُورُونَ * أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ المنشئون * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ ﴾ [ الواقعة : 71-73 ] .

إن كل شيء يذكره الحق يذكر معه أيضاً ما ينقضه ، ذلك حتى لا يُفْتَن الإنسان بوجود الأشياء ، وعليه أن يستقبل الأشياء مع إمكان إعدامها . وإذا ما كان الإنسان هو الذي

يحرث فالحق بطلاقة قدرته قد يجعل النبات حطاماً ، ومن قبل قال عن مقومات الحياة :

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخالقون ﴾

[ الواقعة : 58-59 ] .

(266/243)

---

ثم جاء سبحانه بما ينقضه فقال : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموت ﴾ . أما عن النار فلم يقل - سبحانه - إنه يقضي عليها ويخمدها ويطفئها ، إنه - جل شأنه - أبقاها ليعلمنا ويذكرنا بنار الآخرة ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ﴾ أي لا بد أن نتركها أمامكم حتى لا يغيب عنكم العذاب الآخروي ﴿ وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ ﴾ أي ونتركها - جون نقض لها وذلك لأمر آخر هو المنفعة في الدنيا للذين ينزلون أماكن خالية قفراء أو للذين خلت بطونهم وأوعيتهم ومزاودهم من الطعام لأن النار تنفعهم وتساعدهم على إعداد طعامهم استبقاء لحياتهم :

﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [ الأنعام : 99 ] .

والشيء هو ما يُخْبَر عنه ؛ الهباءة شيء ، والذرة شيء وكل حاجة اسمها شيء ، ومعنى نبات كل شيء : أن كل حاجة مثل النبات تماماً . رأينا الحجارة التي يقول عنها العلماء هذه جرانيت ، وتلك الرخام وتلك مرمر ، ولو نظرت إلى أصلها وجدتها أعماراً للحجارة ،

طال عمر حجر ما فصارا فحماً ، وطال عمر آخر فصار جرانيتاً ، وهكذا . وكل حاجة لها حياة لتثبت لنا القضية الأولى ، وهي : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [ القصص : 88 ]

أو نبات كل شيء ترون فيه نمواً وحياة ، والعقل الفطري يأخذها هكذا ، لكن العقل المستوعب يأخذ منها قضايا كثيرة ، ويتغلغل في الكون ويجد الآية سابحة معه وهو سابح معها .

ويتابع سبحانه : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً ﴾ وإذا قلت كلمة " خَضِر " فقد تعني اللون المعروف لنا وهو الأخضر ، لكن " خضر " فيها وصف زائد قليلاً عن أخضر ؛ لأن " أخضر " يخبر عن لون فقط ، واللون متعلقة العين ، لكن " خضر " يعطي اللون ، ويعطي الغضاضة ونعرفها " بالحس " . وحين تلمسه تجد النعومة .

*(267/243)*

---

إذن " خضر " فيها أشياء كثيرة ؛ " لون " متعلق العين ، و" غضاضة " نعرفها بالحس وفيها نعومة نعرفها باللمس . وهذا اللون الأخضر يكون داكناً جداً أي أن خضرته شديدة حتى أنها تضرب إلى السواد ؛ لذلك نسمع من يقول : " سواد العرق " أي الأرض الخصبة التي في

العراق ، ويسمونها سواد العرق لأنها خضراء خضرة شديدة ولذلك تكون مائلة إلى السواد ، ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ [ الرحمن : 62-64 ] .

و" مدهامة " أي مثل دهمة الليل ؛ كأنها من شدة خضرتها صارت كدهمة الليل . ويتابع الحق ﴿ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِباً ﴾ والحب هو ما ليس له نواة مثل حبة الشعير وحبة القمح وحبة العدس وحبة اللوبيا . و" متراكبا " تعني أنه حب مرصوص متساند .

﴿ وَمِنَ النخل مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ والنخل عند العرب له مكانة عالية لأنه يعطي لهم الغذاء الدائم فيذكرهم به ﴿ وَمِنَ النخل مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ .

و" الطلع " هو أول شيء يبدو من ثمر النخل ، وهو ما نسميه في الريف " الكوز الأخضر " وهو في الذكر من النخل الذي يسمى " الفحل " ويوجد أيضاً في الأنثى ، وأول ما يبدو من ثمر النخل يسمى الطلع ، ثم ينشق الطلع ويخرج منه القنو أو العزق أو العرجون ، وهو الجزء الذي توجد فيه الشماريخ التي يتعلق بها البلح .

والطلع إذن هو الثمرة الأولى للنخلة قبل أن تنشق ويطلع منها القنوان وهو " السباطة " كما نسميها في الريف .

" قنوان دانية " ويصفها الحق بأنها دانية لأنك حين تنظر طلع النخيل أول ما يطلع تجده ينشق ويحمي نفسه بشوك الجريد حتى لا تأكله الحشرات ثم يثقل وينحني ويكاد ينزل على الأرض فيكون دانياً قريبا ، فإن كانت هناك " سباطة " شاذة تجد من يجنيها يُدخل يده بين الشوك ليصل إليها . وسبحانه يترك لنا فلتات لنعرف نعمة الله في أنه جعلها تتدلى لأنها لو كانت كلها دانية . قد لا يلتفت إليها ، لذلك يترك واحدة بين الشوك ليتعب الإنسان حتى يحصل عليها لتعرف أنه سبحانه قد دنّى لك الباقي وهذه نعمة من الله .

ويُطلق الطلع مرة على الأكمام و" الكِم " هو ما توجد في قلبه الثمار ، ومرة يطلق على الثمر نفسه : ﴿ والنخل بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ [ ق : 10 ] .

وأنت ترى البلح نازلاً من " الشماريخ " ، وكل شمروخ به عدد من البلح ، ثم ترى " الشمروخ " متصلاً بالأم ، وفي ذلك ترى عظمة الهندسة العجيبة في ترتيب الثمار . وكل شيء محسوب في هذا الأمر بهندسة عجيبة وعندما ننظر إلى ما تعلمناه في حياتنا حين نصمم شبكة توصيل المياه وشبكة الصرف الصحي ، إن شبكة المياه التي تعطينا الذي نستخدمه ، وشبكة الصرف الصحي التي تأخذ الزائد من المياه والفضلات . عندما تنظر إلى هذه الشبكة أو تلك تجد هندسة كل منها دقيقة ؛ لأن أي غفلة في التصميم تسبب المتاعب . فحين تريد توصيل المياع إلى حارة ؛ فأنت تستخدم ماسورة قطرها كذا بوصة

، وفي الحارة هناك عطفات فتحضر لكل عطفة ماسورة أقل قطراً من الأولى ، ثم ماسورة أقل للبيوت ، وماسورة أقل بكثير لكل شقة ، لقد قام المهندسون بحساب دقيق لهذه المسائل .

*(269/243)*

---

فإذا كانت هذه هي هندسة البشر ، فما بالنا بهندسة الخالق ؟ أنت تجد العزق : وهو حامل الرطب يأخذ من النخلة ، وكل نخلة فيها كذا " سباطة " وفي كل " سباطة " هناك " الشماريخ " ، ثم هناك البلح وكل بلحة تأخذ شعرة لغذائها . وهكذا نجد كل شيء محسوباً بدقة بالغة . إنها هندسة كونية عجيبة مصنوعة بقول الحق : كن ، وصدق الله القائل : ﴿ الذي خَلَقَ فسوى * والذي قَدَّرَ فهدى ﴾

[ الأعلى : 2-3 ] .

﴿ وَهُوَ الذي أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً ﴾ وكلمة ﴿ وَهُوَ الذي أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً ﴾ لم نكن نعرف ما وراءها ، كنا نعرف فقط أن السماء هي كل ما علاك فأظللك ، والماء يأتي من السحاب ، وكلنا نرى السماء تمطر . وكلنا نعرف التعبير الفطري الذي يقول : غامت السماء ، ثم أمطرت ، وهناك من قال : تضحك الأرض من بكاء السماء لأنها تستقبل الماء

الذي يروي ما بها من بذور . لكن ما وراء عملية الإنزال هذه ؟

إن هناك عملية أخرى تحدث في الكون دون شعور منا ، عرفناها فقط حين تقدم العلم وحين قمنا بتقطير المياه ، فأحضرنا موقداً ووضعنا فوقه قارورة ماء ، وحين وصل إلى نقطة الغليان خرج البخار ، وسار البخار في الأنابيب ومرت الأنابيب في أوساط باردة فتكثفت المياه ونزلت ماء مقطراً ، ومثل ذلك يحدث في المطر ، وانظر كم يكلفنا كوب واحد من الماء المقطر الذي نشتريه من الصيدلية ؟ وقارن ذلك بالسماء التي تنزل بماء منهمر ، ولا ندري كيق صُنع . ولذلك يقول الحق : ﴿ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المزن أَمْ نَحْنُ المنزلون ﴾ [ الواقعة : 69 ] .

هكذا ينزل الماء من السماء ، ولم نكن نعرف كيف يحدث ذلك وسبحانه يقول هنا : ﴿ وَمِنَ النخل مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ والزيتون والرمان مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِه ﴾ [ الأنعام : 99 ] .

(270/243)

---

وحين يقول سبحانه ﴿ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِه ﴾ نصدق ، مثال حبة الخوخ ، هناك حبة من نوع نسميه " الخوخ السلطاني " ، حين تمسك بالثمرة الواحدة تنفلق لتخرج البذرة نظيفة

، وحبة أخرى نفلقها نحن فتجد البذرة فيها بعض لحم الفاكهة ونجد فيها أيضا بعضاً من الألياف . وهذه لها لون والأخرى لها لون ، هذه لها طعم وتلك لها طعم مختلف . ﴿ يسقى بِمَآءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا على بَعْضٍ فِي الأُكُلِ ﴾ [ الرعد : 4 ] .

هذا ليعرف الإنسان أن طلاقة القدرة تحقق ما يريده الخالق ، وبعد ذلك تلتفت فتجد الفصائل ، فهذا برتقال منه بسرّة ، ومنه برتقال بلدي . وبرتقال بدمّه ثم اليوسفي . ولذلك سنجد في الجنة ما يحدثنا عنه سبحانه فيقول : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هذا الذي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً ﴾ [ البقرة : 25 ] .

وحين يأكل منه ساكن الجنة يكتشف أن لفاكهة الجنة طعما مختلفا . ومن طلاقة القدرة أنه بعد التحليلات التي قام بها العلماء المعمليون – جزاهم الله عنا خيراً – ل " حبة العنب " وجدوا أن القشرة التي تغلفها لها طبيعة " البارد " و" اليابس " ، واللحم لحبة العنب طبيعته مختلفة " حار رطب " ثم البذرة " بارد يابس " ، وهذه ثلاث طبائع في الحبة الواحدة ، وهذا شيء عجيب التكوين . وكذلك " الأترجة " وهي فاكة كالنارنج تجد القشرة " حارة يابسة " ، واللحم فيها " بارد رطب " ، والسائل الذي في اللحم " بارد يابس " والبذرة " حار يابس " ، طبائع أربعة في الشيء الواحد ، كيف ؟ وبأية قدرة ؟

إن العلماء قد تعبوا حتى عرفوا تكوينها ليظهروا لنا المسألة ، وتلتفت لتجد ثمرة تأكل ظاهرها ، وباطنها بذرة ، وثمرة ثانية تأكل ما في داخلها كالجوز أو اللوز ، وتقشر القشرة

وتلقيها ، والخوخة تأكل لحمها وتترك بذرتها ، وذلك لتعرف أن المسألة ليست آلية خلق بل إبداع خالق .

*(271/243)*

---

وتجد الشيء له اللون ، واللون بلا طعم ، ثم الرائحة المميزة وكل ذلك دليل على طلاقة القدرة . وهذا هو السبب في أن الحق سبحانه وتعالى حينما يتكلم عن ثمار الجنة يأتي بثمار مثلها في الدنيا ؛ لأنه لو أحضر ثماراً ليس لها مثيل في الدنيا لقال الإنسان : هذه طبيعة الثمار ، ولو وجدت في الدنيا لكان لها طعم مماثل . لكن ها هي ذي تتشابه ، وطعومها مختلفة . . إنها طلاقة القدرة .

ويقول الحق : ﴿ انظروا إلى ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ الحق سبحانه وتعالى لا يعطي الإنسان حتى يملأ بطنه فحسب لا ، ولكنه يغذي كل الملكات في النفس الإنسانية حتى ملكات الترف ، وملكات الجمال ، وملكات الحسن ، فيوضح لك قبل أن تأكل : انظر للثمر وشكله ! لتغذي عينيك بالمنظر الجميل حين ترى الثمرة طالعة وتتبعها حتى تنضج ، إنّها مراحل عجيبة تدل على أن الصانع قيّوم ، وكل يوم لها شكل مختلف وحجم مختلف ، وإن أكلتها اليوم فستجد طعمها يختلف عما إذا أكلتها بعد ذلك بيوم ، وهذا دليل على أن

خالقها قيّوم عليها . ما دامت كل لحظة من اللحظات فيها شكل ، وفيها لون وفيها طعم وفيها رائحة جديدة .

(272/243)

---

﴿ انظروا إلى ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ ، و" ينعه " أي وصلت إلى النضج وذلك إشاعة للتمتع بنعم الكون لأن النظر إلى الثمر لا يعني أنني أملكه ، فقد أراه في حقل جاري وأنظر له وأتمتع بشكله . إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يشيع الانتفاع بنعم الله حتى عند غير واجدها ، لأن أحداً لن يمنعني من أن أنظر ، فأنبسط ، فمن ناحية الكمال الإنساني هناك غذاء لملكات النفس ؛ لأن النفس ليست ملكات جوع وعطش فقط بل هي ملكات متعددة ، وكل ملكة لها غذاؤها . ولذلك فقبل أن يقول لي : إن الخيل والبغال تحمل الأثقال . . قال سبحانه : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [ النحل : 6-7 ] . إذن فهو يعطيني فائدة حمل الأثقال ؛ لأن حمل الأثقال لمن يملكها ، إنما الذي لا يملكها فهو يرى الحصان يسير بجمال ، فيسعد برؤيته فيتمتع بما لا يملك ، هذه إشاعة لنعم الله على خلق الله .

ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

أي يؤمنون بأن الإله الذي آمنوا به يستحق بصفات الجلال والجمال فيه أن يُؤْمَن به ، وكلما رأى الإنسان خلقا جميلاً قال : الله ، إذن أنا إيماني صحيح والآيات تؤكد صدق إيماني بالإله الذي خلق كل هذا ، وكل يوم تبدو لي حاجة عجيبة تزيدني إيماناً ، وعقلي الذي وهبه الله لي هداني إلى الإيمان بهذا الإله .

*(273/243)*

---

ومن العجيب ان هناك من جعلوا لله شركاء ! ! إله له كل هذه الصفات من أول فالق الحب والنوى ، وفالق الإصباح ، وجعل الليل ساكناً ، والشمس ، والقمر ، حسابناً وبحسبان ، والنجوم نهتدي بها في ظلمات البر والبحر ، وأنزل لنا من السماء ماء ، وأخرج لنا النبات منه خضر ، كل هذه المسائل كان يجب أن تكون صارفة للناس إلى أن الله وحده هو الخالق المستحق للعبادة ، ولا تتجه أبداً بالعبادة أو بالإيمان بغيره ، لكن هناك من جعلوا لله شركاء ، وجاء بها سبحانه بعد كل ذلك حتى يحفظنا ويغضبنا عليهم لنحذرهم ونتقيهم .

وإذا أحفظنا عليهم استحمدنا أي استوجب علينا حمد إذْ أنه هدانا إلى الإيمان ، فنقول : الحمد لله الذي هدانا إلى الإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن البراء بن عازب ﴿ قنوان دانية ﴾ قال : قريبة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ قنوان دانية ﴾ قال : قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ قنوان ﴾ الكبائس ، والدانية المنصوبة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ قنوان دانية ﴾ قال : تهدل العذوق من الطلع .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله

﴿ قنوان ﴾ قال : عذوق النخل ﴿ دانية ﴾ قال : متهدلة ، يعني متدلية .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ مشتبهاً وغير متشابه ﴾ قال : مشتبهاً ورقه مختلفاً ثمره .

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب في قوله ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر ﴾ قال : رطبه وعنبه .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ انظروا إلى ثمره ﴾ بنصب الثاء والميم ﴿ وينعه ﴾ بنصب الياء .

وأخرج أبو الشيخ عن محمد مسعر قال : فرضاً على الناس إذا أخرجت الثمار أن يخرجوا وينظروا إليها . قال الله ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر ﴾ .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن البراء ﴿ وينعه ﴾ قال : نضجه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ وينعه ﴾ قال : نضجه .

وأخرج الطستي عن ابن عباس . أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله ﴿ وينعه ﴾ قال : نضجه وبلاغه . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت الشاعر وهو يقول :

إذا ما مشت وسط النساء تأوّدت . . . كما اهتز عصن ناعم أنبت يانع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(275/243)

---

ومن فوائد السمرقندى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّ اللهَ فَالِقُ الحب والنوى ﴾ يعني : يشق الحبة اليابسة ، فيخرج منها ورقاً خضراً . ويقال : فالق الحب مثل البر والشعير والذرة والحبوب كلها ، والنوى كل ثمرة فيها نوى مثل الخوخ والمشمش والغيبر والإجاص ﴿ يُخْرِجُ الحى مِنَ الميت وَمُخْرِجُ الميت مِنَ الحى ﴾ ، وقد ذكرنا تأويله ﴿ ذَلِكُمُ الله ﴾ يعني : هذا الذي يفعل بكم هو الله تعالى : ﴿ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ يعني : كيف تكفرون ومن أين تكذبون ؟ فذكر عيب آلهتهم ، ثم دلّ على وحدانيته بصنعته .

ثم قال : ﴿ فَالِقُ الإصباح ﴾ يعني : خالق الإصباح والإصباح والصبح واحد ويقال الإصباح مصدر أصبح يصبح إصباحاً ، والصبح اسم وقال : فالق الإصباح يعني خالق النهار .

﴿ وَجَعَلَ الليل سَكَناً ﴾ قرأ أهل الكوفة حمزة والكسائي وعاصم ﴿ وَجَعَلَ الليل ﴾ على معنى الخبر وقرأ الباقون ﴿ جَاعِلِ فَالِقُ الإصباح ﴾ على معنى الإضافة يعني : يسكن فيه الخلق .

ثم قال : ﴿ والشمس والقمر حُسْبَاناً ﴾ يعني : وجعل الشمس والقمر حسباً يعني : منازلها بالحساب لا يجاوزانه إذا انتهيا إلى أقصى منازلهما رجعا وهذا قول الكلبي .

وقال مقاتل ﴿ حُسْبَاناً ﴾ يعني : يُعرف بها عدد السنين والحساب .

وقال القتبي : ﴿ حُسْبَاناً ﴾ أي حساباً ، يقال : خذ كل شيء بحُسْبانه أي : بحسابه .

وقال الكلبي : ويقال للشيء المعلق : حسباناً .

﴿ ذلك تَقْدِيرُ العزيز العليم ﴾ يقول : هذا فعل العزيز في ملكه العليم بخلقه لا فعل لأصنامكم فيه .

ثم قال : ﴿ وَهُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا ﴾ يعني : لتعرفوا الطريق .

﴿ فِى ظلمات البر والبحر ﴾ يعني : لتهتدوا بالكواكب في اللَّيالي وتعرفوا بها قبلتكم .

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيات ﴾ يعني : بيَّنَا العلامات لوحدانية الله تعالى .

(276/243)

﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ وإنما أضاف إلى أهل العلم ، لأنهم هم الذين ينتفعون به ، فكأنه بيّن لهم .

ويقال لقوم يعلمون يعني : يصدقون أنه من الله تعالى .

ثم قال : ﴿ وَهُوَ الذى أَنشَأَكُم ﴾ يعني : خلقكم ﴿ مّن نَّفْسٍ واحدة ﴾ وهو آدم .

﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ يعني : في الرحم ومستودع في الصلب .

ويقال : مستقر في الصلب ومستودع في الرحم .

ويقال : مستقر في الدنيا ومستودع في القبر .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ ﴾ بكسر القاف ، وقرأ الباقون بالنصب .

فمن قرأ بالنصب فمعناه فلكم مستقر ولكم مستودع يعني : موضع قرار وموضع إيداع ومن قرأ بالكسر فعلى معنى الفاعل يقال قَرّ الشيء واستقر بمعنى واحد يعني كنتم مستقرين

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيات لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ يعني : بيّنا الآيات لمن له عقل وذهن .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء ﴾ يعني : ماء المطر ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ يعني : بالمطر ﴿ نَبَاتَ كُلّ شَىْء ﴾ يعني : معاشاً للخلق من الثمار والحبوب وغير ذلك .

﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً ﴾ خَضِرَ واخْضَرّ بمعنى واحد ، الأخضر يعني : النبات الأخضر ، وهو أول ما يخرج .

ثم قال : ﴿ نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً ﴾ يعني : السنبلة قد ركب بعضها بعضاً .

﴿ وَمِنَ النخل مِن طَلْعِهَا ﴾ يعني : أخرجنا بالماء من النخل من طلعها يعني : من عذوقها وثمرها .

﴿ قنوان دَانِيَةٌ ﴾ يعني : عُذوقاً متدانية قريبة ينالها القائم والقاعد .

﴿ وجنات مّنْ أعناب ﴾ يعني : يخرج بالماء .

قرأ الأعمش ﴿ وجنات ﴾ بالضم عطفها على قوله : ﴿ قنوان دَانِيَةٌ ﴾ ، وقرأ العامة بالكسر ومعناه وأخرجنا من أعناب .

﴿ والزيتون ﴾ يعني : أخرجنا منه شجر الزيتون .

﴿ والرمان متشابها ﴾ في المنظر ، ﴿ وَغَيْرَ متشابه ﴾ في الطعم يعني : بعضها حلو وبعضها حامض .

(277/243)

---

﴿ انظروا إلى ثَمَرِه ﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿ انظروا إلى ثُمُرِه ﴾ ، بضم الثاء والميم ، وقرأ الباقون بالنصب ، وكذلك ما بعده .

فمن قرأ بالنصب فهو اسم الثمرة ، وإنما أراد به الجنس ومن قرأ بالضم فهو جمع الثمار .

﴿ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ يعني : ونضجه يعني : انظروا إلى نضجه واعتبروا به ، واعلموا أن له

خالقاً فهو قادر على أن يحييكم بعد الموت ، كما أخرج من الأرض اليابسة النبات الأخضر ومن الشجرة الثمار .

﴿ إِنَّ فِى ذلكم لآيات ﴾ يعني : في اختلاف ألوانه لعلامات ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يعني : يصدقون ويرغبون في الحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

ومن فوائد الثعلبى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّ اللهَ فَالِقُ الحب ﴾ أي فلق الحب عن النبات ، ومخرج منها الزرع وشاق النوى عن الشجر والنخل ومخرجها منها .

وقال مجاهد : يعني الشقين الذين عناهما .

وقال الضحاك : فالق الحب والنوى ، الحب جمع الحبة وهي كل ما لم يكن لها نواة مثل البر والشعير والذرة والحبوب كلها .

﴿ والنوى ﴾ جمع النواة وهي كل ما يكون له حب مثل الخوخ والمشمش والتمر والأجاص ونحوها .

﴿ يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت وَمُخْرِجُ الميت مِنَ الحي ذلكم الله فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ تصدون عن الحق ﴿ فَالِقُ الإصباح ﴾ شاق عمود الصبح من ظلمة الليل وكاشفه .

وقال الضحاك : خالق النهار ، والأصباح مصدر كالإقبال والإدبار وهي الإضاءة .

وقرأ الحسن والقيسي : فالق الأَصباح بفتح الهمزة جعله جمع مثل قرص وأقراص .

﴿ وَجَعَلَ الليل سَكَناً ﴾ سكن فيه خلقه . وقرأ النخعي : فلق الأصباح وجعل الليل سكناً .

وقرأ أهل الكوفة : فالق الأصباح وجعل الليل سكناً على الفعل إتباعاً للمصحف .

وقرأ الباقون : كلاهما بالألف على الإسم .

﴿ والشمس والقمر حُسْبَاناً ﴾ أي جعل الشمس والقمر بحساب لا يجاوزاه حتى ينتهيا إلى أقصى منازلهما .

*(278/243)*

---

وقرأ [ يزيد بن قعنب ] : والشمس والقمر بالخفض عطفاً على اللفظ ، والحسبان مصدر كالنقصان والرحمان وقد يكون جمع حساب مثل شهاب وشهبان ، وركاب وركبان .

﴿ ذلك تَقْدِيرُ العزيز العليم * وَهُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ النجوم ﴾ أي خلقها ﴿ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ البر والبحر قَدْ فَصَّلْنَا الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَهُوَ الذي أَنشَأَكُم ﴾ خلقكم وابتدأكم ﴿ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ يعني آدم ( عليه السلام ) .

﴿ فَمُسْتَقَرٌّ ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب : فمستقر بكسر القاف على الفاعل يعني

فلكم مستقر .

وقرأ الباقون : بفتح على معنى فلكم مستقر .

واختلف المفسرون في المستقر والمستودع . فقال عبد اللّه بن مسعود : فمستقر في الرحم إلى أن يوادع مستودع في القبر إلى أن يبعث .

وقال مقسم : مستقر حيث يأوي إليه ، ومستودع حيث يموت .

وقال سعيد بن جبير : فمستقر في بطون الأمهات ، ومستودع في أصلاب الآباء .

وقال : قال لي ابن عباس ( رضي الله عنه ) أتزوجت يا بن جبير ؟ فقلت : لا وما أريد ذلك بوجه . قال : فضرب ظهري وقال : إنه مع ذلك ما كان مستودع في ظهرك فسيخرج .

عكرمة عن ابن عباس : المستقر الذي قد خلق واستقر في الرحم ، والمستودع الذي قد استودع في الصلب مما لم يخلق بعد وهو خالقه .

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : المستقر في الرحم ، والمستودع ما استودع في أصلاب الرجال والدواب .

مجاهد : فمستقر على ظهر الأرض في الدنيا . ومستودع عند اللّه تعالى في الآخرة .

وقال أبو العالية : مستقرها أيام حياتها ، ومستودعها حيث تموت وحيث يبعث .

وقال كرب : دعاني ابن عباس ( رضي الله عنه ) فقال : اكتب بسم اللّه الرحمن الرحيم من عبد اللّه بن عباس إلى فلان حبر تيماء ، أما بعد فحدثني عن مستقر ومستودع .

قال : ثم بعثني بالكتاب إلى اليهودي فأعطيته إياه ، فقال : مرحباً بكتاب خليلي من المسلمين فذهب إلى بيته ففتح أسفاطاً له كثيرة فجعل يطرح تلك الأشياء لا يلتفت إليها .

قال : قلت له : ما شأنك ؟ قال : هذه أشياء كتبها اليهود ، حتى أخرج سفر موسى فنظر إليه مرتين فقال : مستقر في الرحم ومستقر فوق الأرض ومستقر تحت الأرض ومستقر حيث يصير إلى الجنة أو إلى النار ، ثم قرأ : ﴿ وَنُقِرُّ فِي الأَرحام مَا نَشَآءُ ﴾ [ الحج : 5 ] . وقرأ : ﴿ وَلَكُمْ فِي الأَرض مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إلى حِينٍ ﴾ [ البقرة : 36 ] .

فقرأ الحسن : المستقر في القبر ، والمستودع في الدنيا ، وكان يقول : يا ابن آدم أنت وديعة في أهلك يوشك أن تلحق ، بصاحبك وأنشد قول لبيد :

وما المال والأهلون إلا وديعة . . . ولا بدّ يوماً أن تردّ الودائع

وقال سليمان بن يزيد العدوي في هذا المعنى :

فجع الأحبة بالأحبة قبلنا . . . فالناس مفجوع به ومفجع

ومستودع أو مستقر مدخلا . . . فالمستقر يزوره المستودع

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيات لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ * وَهُوَ الذي أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ من

الماء ، وقيل : من النبات ﴿ خَضِراً ﴾ يعني أخضر ، وهو رطب البقول ، يقول : هو لك خضراً مظراً أي هنيئاً مريئاً .

وقال نخلة : خضيرة : إذا كانت ترمي ببسرها أخضر قبل أن ينضج ، وقد اختضر الرجل واغتضر إذا مات شاباً مصححاً ﴿ وَمِنَ النخل مِن طَلْعِهَا ﴾ أي ثمرها [ وكثيراً منها ] وما يطلع منها ﴿ قِنْوَانٌ ﴾ جمع قنو وهو العذق مثل صنو وصنوان .

قال أبو عبيدة : [ ولا ضير بهذا الكلام ] .

وقرأ الأعرج : قنوان بضم القاف ، وهي لغة قيس ، مثل قضبان . ولغة تميم : قنيان .

وجمعه القليل أقنا مثل حنو وأحنا ، ﴿ دَانِيَةٌ ﴾ قريبة ينالها القائم والقاعد . وقال مجاهد : متدلّية .

وقال قتادة : متهدّلة .

*(280/243)*

---

وقال الضحاك قصار ملتزقة بالأرض . ومعنى الآية ومن النخل قنوانها دانية ومنها ما هي بعيدة فاكتفى بالقريبة عن البعيدة كقوله تعالى ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [ النحل : 81 ] والبرد ﴿ وَجَنَّاتٍ ﴾ يعني وأخرجنا منه جنات .

وقرأ يحيى بن يعمر والأعمش وعاصم : وجنات رفعاً نسقياً على قنوان لفظاً وإن لم يكن في المعنى من جنسها ﴿ مِّنْ أَعْنَابٍ والزيتون والرمان ﴾ يعني وشجر الزيتون والرمان ، فاكتفى بالتمر عن الشجر كقوله ﴿ وَسْئَلِ القرية ﴾ [ يوسف : 82 ] ﴿ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ قتادة : متشابه ورقه يختلف بثمره ، وقيل : مشتبهاً في المنظر غير متشابه في المطعم . وقال الحسن : الفعل منها ما يشبه بعضه بعضاً ومنها ما يخالف ، وقيل : مشتبهاً في الخلقة من منشأه من الحكمة ﴿ انظروا إلى ثَمَرِهِ ﴾ .

قرأ أهل الكوفة : بضم الثاء والميم على جمع الثمار . وقرأ الباقون بفتحهما على جمع الثمرة مثل بعر ووبر ﴿ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ نضجه وإدراكه .

وقرأ أبو رجاء ومحمد بن السميفع : ويانعه بالألف على الإسم ﴿ إِنَّ فِي ذلكم لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

ومن فوائد البيضاوى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّ الله فَالِقُ الحب والنوى ﴾ بالنبات والشجر . وقيل المراد به الشقاق الذي في الحنطة والنواة . ﴿ يُخْرِجُ الحي ﴾ يريد به ما ينمو من الحيوان والنبات ليطابق ما قبله . ﴿ مِنَ الميت ﴾ مما لا ينمو كالنطف والحب . ﴿ وَمُخْرِجُ الميت مِنَ الحي ﴾ ومخرج ذلك من الحيوان والنبات ، ذكره بلفظ يا الاسم حملاً على فالق الحب فإن قوله : يخرج الحي واقع موقع

البيان له . ﴿ ذَلِكُمُ الله ﴾ أي ذلكم المحيي المميت هو الذي يحق له العبادة . ﴿ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ تصرفون عنه إلى غيره .

(281/243)

---

﴿ فَالِقُ الإصباح ﴾ شاق عمود الصبح عن ظلمة الليل أو عن بياض النهار ، أو شاق ظلمة الإِصباح وهو الغبش الذي يليه والإِصباح في الأصل مصدر أصبح إذا دخل في الصباح سمي به الصبح . وقرىء بفتح الهمزة على الجمع وقرىء ﴿ فَالِقُ الإصباح ﴾ بالنصب على المدح . ﴿ وَجَاعِلُ اللَّيْل سَكَناً ﴾ يسكن إليه التعب بالنهار لاستراحته فيه من سكن إليه إذا اطمأن إليه استئناساً به ، أو يسكن فيه الخلق من قوله تعالى : ﴿ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ ونصبه بفعل دل عليه جاعل لا به ، فإن في معنى الماضي . ويدل عليه قراءة الكوفيين ﴿ وَجَعَلَ اليل ﴾ حملاً على معنى المعطوف عليه ، فإن فالق بمعنى فلق ولذلك قرىء به ، أو به على أن المراد منه جعل مستمر في الأزمنة المختلفة وعلى هذا يجوز أن يكون ﴿ والشمس والقمر ﴾ عطفاً على محل الليل ويشهد له قراءتهما بالجر والأحسن نصبهما بجعل مقدراً . وقرىء بالرفع على الابتداء والخبر محذوف أي مجعولان . ﴿ حُسْبَاناً ﴾ أي على أدوار مختلفة يحسب بهما الأوقات ويكونان علمي الحسبان ،

وهو مصدر حسب بالفتح كما أن الحسبان بالكسر مصدر حسب . وقيل جمع حساب كشهاب وشهبان . ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى جعلهما حسباناً أي ذلك التسيير بالحساب المعلوم . ﴿ تَقْدِيرُ العزيز ﴾ الذي قهرهما وسيرهما على الوجه المخصوص . ﴿ العليم ﴾ بتدبيرهما والأنفع من التداوير الممكنة لهما .

﴿ وَهُوَ الذى جَعَلَ لَكُمُ النجوم ﴾ خلقها لكم . ﴿ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظلمات البر والبحر ﴾ في ظلمات الليل في البر والبحر ، وإضافتها إليهما للملابسة أو في مشتبهات الطرق وسماها ظلمات على الاستعارة ، وهو إفراد لبعض منافعها بالذكر بعد ما أجملها بقوله لكم . ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيات ﴾ بيناها فصلاً فصلاً . ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ فإنهم المنتفعون به .

(282/243)

---

﴿ وَهُوَ الذى أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ واحدة ﴾ هو آدم عليه الصلاة والسلام . ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ أي فلكم استقرار في الأصلاب ، أو فوق الأرض واستيداع في الأرحام ، أو تحت الأرض أو موضع استقرار واستيداع ، وقرأ ابن كثير والبصريان بكسر القاف على أنه اسم فاعل ، والمستودع اسم مفعول أي فمنكم قار ومنكم مستودع ، لأن الاستقرار منا

دون الاستيداع . ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ ذكر مع ذكر النجوم يعلمون لأن أمرها ظاهر ، ومع ذكر تخليق بني آدم يفقهون لأن إنشاءهم من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة دقيق غامض يحتاج إلى استعمال فطنة وتدقيق نظر .

(283/243)

---

﴿ وَهُوَ الذى أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء ﴾ من السحاب أو من جانب السماء . ﴿ فَأَخْرَجْنَا ﴾ على تلوين الخطاب . ﴿ بِهِ ﴾ بالماء . ﴿ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ نبت كل صنف من النبات والمعنى : إظهار القدرة في إنبات الأنواع المختلفة المفننة المسقية بماء واحد كما في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يسقى بِمَاء واحد ﴾ ونفضل بعضها على بعض في الأكل . ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ ﴾ من النبات أو الماء . ﴿ خُضْرًا ﴾ شيئاً أخضر يقال أخضر وخضر كأعور وعور ، وهو الخارج من الحبة المتشعب . ﴿ نُّخْرِجُ مِنْهُ ﴾ من الخضر . ﴿ حَبّاً مُّتَرَاكِباً ﴾ وهو السنبل . ﴿ وَمِنَ النخل مِن طَلْعِهَا قنوان ﴾ أي وأخرجنا من النخل نخلاً من طلعها قنوان ، أو من النخل شيء من طلعها قنوان ، ويجوز أن يكون من النخل خبر قنوان ومن طلعها بدل منه والمعنى : وحاصلة من طلع النخل قنوان وهو الأعذاق جمع قنو كصنوان جمع صنو . وقرىء بضم القاف كذئب وذؤبان وبفتحها على أنه اسم جمع إذ ليس

فعلان من أبنية الجمع . ﴿ دَانِيَةٌ ﴾ قريبة من المتناول ، أو ملتفة قريب بعضها من بعض ، وإنما اقتصر على ذكرها عن مقابلها لدلالتها عليه وزيادة النعمة فيها . ﴿ وجنات مّنْ أعناب ﴾ عطف على نبات كل شيء . وقرأ نافع بالرفع على الابتداء أي ولكم أو ثم جنات أو من الكرم جنات ، ولا يجوز عطفه على ﴿ قنوان ﴾ إذ العنب لا يخرج من النخل . ﴿ والزيتون والرمان ﴾ أيضاً عطف على نبات أو نصب على الاختصاص لعزة هذين الصنفين عندهم . ﴿ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ متشابه ﴾ حال من الرمان ، أو من الجميع أي بعض ذلك متشابه وبعضه غير متشابه في الهيئة والقدر واللون والطعم . ﴿ انظروا إلى ثَمَرِهِ ﴾ أي ثمر كل واحد من ذلك . وقرأ حمزة والكسائي بضم التاء والميم ، وهو جمع ثمرة كخشبة وخشب ، أو ثمار ككتاب وكتب . ﴿ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ إذا أخرج ثمره كيف يثمر ضئيلاً لا يكاد ينتفع به . ﴿ وَيَنْعِهِ ﴾ وإلى حال نضجه أو إلى نضيجة كيف يعود ضخماً ذا

*(284/243)*

---

نفع ولذة ، وهو في الأصل مصدر ينعت الثمر إذا أدركت . وقيل جمع يانع كتاجر وتجر . وقرىء بالضم وهو لغة فيه ويانعه . ﴿ إِنَّ فِى ذلكم لآيات لّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي لآيات دالة

على وجود القادر الحكيم وتوحيده ، فإن حدوث الأجناس المختلفة والأنواع المتفننة من أصل واحد ونقلها من حال إلى حال لا يكون إلا بإحداث قادر يعلم تفاصيلها ، ويرجح ما تقتضيه حكمته مما يمكن من أحوالها ولا يعوقه عن فعله ند يعارضه أو ضد يعانده ، ولذلك عقبه بتوبيخ من أشرك به والرد عليه فقال .

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاء الجن ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 432 . 436 ﴾

ومن فوائد النسفى فى الآيات

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ الله فَالِقُ الحب والنوى ﴾ بالنبات والشجر أي فلق الحب عن السنبلة والنواة عن النخلة ، والفلق : الشق ، وعن مجاهد : أراد الشقين اللذين في النواة والحنطة ﴿ يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت ﴾ النبات الغض النامي من الحب اليابس ﴿ وَمُخْرِجُ الميت مِنَ الحي ﴾ الحب اليابس من النبات النامي ، أو الإنسان من النطفة والنطفة من الإنسان ، أو المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ، فاحتج الله عليهم بما يشاهدونه من خلقه لأنهم أنكروا البعث فأعلمهم أنه الذي خلق هذه الأشياء فهو يقدر على بعثهم .

وإنما قال ﴿ وَمُخْرِجُ الميت ﴾ بلفظ اسم الفاعل لأنه معطوف على فالق الحب لا على الفعل ﴿ وَيُخْرِجُ الحي مِنَ الميت ﴾ موقعه موقع الجملة المبينة لقوله ﴿ فَالِقُ الحب والنوى

﴿ لأن فلق الحب والنوى بالنبات والشجر الناميين من جنس إخراج الحي من الميت لأن النامي في حكم الحيوان دليله قوله : ﴿ ويحيي الأرض بعد موتها ﴾ [ الروم : 19 ] .

(285/243)

---

﴿ ذلكم الله ﴾ ذلكم المحيي والمميت هو الله الذي تحق له الربوبية لا الأصنام ﴿ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ فكيف تصرفون عنه وعن تواليه إلى غيره بعد وضوح الأمر بما ذكرنا ﴿ فَالِقُ الإصباح ﴾ هو مصدر سمي به الصبح أي شاق عمود الصبح عن سواد الليل أو خالق نور النهار ﴿ وَجَعَلَ الليل ﴾ ﴿ وَجَعَلَ الليل ﴾ كوفي لأن اسم الفاعل الذي قبله بمعنى المضي ، فلما كان فالق بمعنى فلق عطف عليه ﴿ جَعَلَ ﴾ لتوافقهما معنى ﴿ سَكَناً ﴾ مسكوناً فيه من قوله ﴿ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ [ يونس : 67 ] أي ليسكن فيه الخلق عن كد المعيشة إلى نوم الغفلة ، أو عن وحشة الخلق إلى الأنس بالحق ﴿ والشمس والقمر ﴾ انتصبا بإضمار فعل يدل عليه جاعل الليل أي وجعل الشمس والقمر ﴿ حُسْبَاناً ﴾ أي جعلهما على حسبان لأن حساب الأوقات يعلم بدورهما وسيرهما .

والحسبان بالضم مصدر حسب كما أن الحسبان بالكسر مصدر حسب ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى جعلهما حسباناً أي ذلك التسيير بالحساب المعلوم ﴿ تَقْدِيرُ العزيز ﴾ الذي

قهرهما وسخرهما ﴿ العليم ﴾ بتدبيرهما وتدويرهما ﴿ وَهُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ النجوم ﴾ خلقها ﴿ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظلمات البر والبحر ﴾ أي في ظلمات الليل بالبر وبالبحر ، وأضافها إليهما لملابستها لهما أو شبه مشتبهات الطرق بالظلمات ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ قد بينا الآيات الدالة على التوحيد لقوم يعلمون .

﴿ وَهُوَ الذي أَنشَأَكُم مّن نَّفْسٍ واحدة ﴾ هي آدم عليه السلام ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ ﴿ فَمُسْتَقَر ﴾ بالكسر : مكي وبصري .

(286/243)

---

فمن فتح القاف كان المستودع اسم مكان مثله ، ومن كسرها كان اسم فاعل والمستودع اسم مفعول يعني فلكم مستقر في الرحم ومستودع في الصلب ، أو مستقر فوق الأرض ومستودع تحتها ، أو فمنكم مستقر ومنكم مستودع ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيات لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ وإنما قيل ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ ثم ﴿ يَفْقَهُونَ ﴾ هنا لأن الدلالة ثمّ أظهر وهنا أدق ، لأن إنشاء الإنس من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة أدق فكان ذكر الفقه الدال على تدقيق النظر أوفق ﴿ وَهُوَ الذي أَنزَلَ مِنَ السماء مَاءً ﴾ من السحاب مطراً ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ بالماء ﴿ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ نبت كل صنف من أصناف النامي أي السبب وهو الماء

واحد والمسببات صنوف مختلفة ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ ﴾ من النبات ﴿ خَضِرًا ﴾ أي شيئاً غضاً أخضر .

يقال أخضر وخضر وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة ﴿ نُّخْرِجُ مِنْهُ ﴾ من الخضر ﴿ حَبّاً مُّتَرَاكِباً ﴾ وهو السنبل الذي تراكب حبه ﴿ وَمِنَ النخل مِن طَلْعِهَا قنوان ﴾ هو رفع بالابتداء ﴿ وَمِنَ النخل ﴾ خبره و﴿ مِن طَلْعِهَا ﴾ بدل منه كأنه قيل : وحاصلة من طلع النخل قنوان وهو جمع قنو وهو العذق نظيره "صنو" و"صنوان" .

*(287/243)*

---

﴿ دَانِيَةٌ ﴾ من المجتني لانحنائها بثقل حملها أو لقصر ساقها ، وفيه اكتفاء أي وغير دانية لطولها كقوله ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [ النحل : 81 ] ﴿ وجنات ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي وأخرجنا به جنات ﴿ مِّنْ أعناب ﴾ أي مع النخل وكذا ﴿ والزيتون والرمان ﴾ ﴿ وجنات ﴾ بالرفع : الأعشى أي وثم جنات من أعناب أي مع النخل ﴿ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ متشابه ﴾ يقال اشتبه الشيئان وتشابها نحو استويا وتساويا ، والافتعال والتفاعل يشتركان كثيراً وتقديره : والزيتون متشابهاً وغير متشابه ، والرمان كذلك يعني بعضه متشابه وبعضه غير متشابه في القدر واللون والطعم ﴿ انظروا إلى ثَمَرِهِ

إِذَآ أَثْمَرَ ﴾ إذا أخرج ثمره كيف يخرجه ضعيفاً لا ينتفع به ﴿ وَيَنْعِهِ ﴾ ونضجه أي انظروا إلى حال نضجه كيف يعود شيئاً جامعاً لمنافع ، نظر اعتبار واستدلال على قدرة مقدره ومدبره وناقله من حال إلى حال .

﴿ إِنَّ فِي ذلكم لآيات لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ ثَمَرِهِ ﴾ وكذا ما بعده : حمزة وعلي جمع ثمار فهو جمع الجمع يقال : ثمرة وثمر وثمار وثمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 26.24 ﴾

*(288/243)*

---

ومن فوائد الخطيب الشربينى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ إن الله فالق ﴾ أي : شاق ﴿ الحبّ ﴾ أي : عن النبات ﴿ والنوى ﴾ أي : عن النخل وقيل : المراد الشق الذي في الحنطة والنواة ، والحبّ جمع الحبة وهو اسم لجميع البزور والحبوب من البرّ والشعير والذرة وكل ما لم يكن له نوى والنوى جمع نواة وهي كل ما لم يكن حباً كالتمر والمشمس وغيرهما ، وقال الضحاك : فالق الحبّ والنوى يعني خالق الحبّ والنوى ﴿ يخرج الحيّ من الميت ﴾ أي : كالإنسان من النطفة والطائر من البيضة ﴿ ومخرج

الميت من الحيّ ﴾ كالنطفة من الإنسان والبيضة من الطائر .

تنبيه : مخرج معطوف على فالق كما قاله الزمخشريّ ويصح عطفه على يخرج لأن عطف الاسم المشابه للفعل على الفعل صحيح كعكسه وهو عطف الفعل على الاسم الشبيه بالفعل كقوله تعالى : ﴿ إن المصدّقين والمصّدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ (الحديد ، )

فأقرضوا معطوف على المصدّقين لشبهه بالفعل لكونه اسم فاعل ومخرج شبيه بالفعل لكونه اسم فاعل ، وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائيّ بتشديد الياء ، والباقون بالتخفيف ﴿ ذلكم ﴾ المحيي والمميت ، هو ﴿ ا ﴾ الذي تحق له العبادة ﴿ فأنى ﴾ أي : فكيف ﴿ تؤفكون ﴾ أي : تصرفون عن الحق فتعبدون غير الله الذي هو خالق الأشياء ، كلها ، وقوله تعالى:

*(289/243)*

---

﴿ فالق الإصباح ﴾ مصدر بمعنى الصبح أي : شاق عمود الصبح وهو أوّل ما يبدو من النهار عن ظلمة الليل أو شاق ظلمة الأصباح وهو الغبش الذي عليه في آخر الليل ﴿ وجاعل الليل سكناً ﴾ أي : يسكن فيه الخلق راحه لهم ، قال ابن عباس : إذ كل ذي

روح يسكن فيه لأنّ الإنسان قد أتعب نفسه فاحتاج إلى زمان يستريح فيه ليسكن فيه عن الحركة وذلك هو الليل ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بنصب العين واللام ولا ألف قبل العين على الماضي حملاً على معنى المعطوف عليه فإن فالق بمعنى فلق ، والباقون بكسر العين ورفع اللام وألف قبل العين وقوله تعالى : ﴿ والشمس والقمر ﴾ منصوبان بإضمار فعل دلّ عليه جاعل الليل أي : وجعل الشمس والقمر ﴿ حسباناً ﴾ أي : حساباً للأوقات أو الباء محذوفة وهو حال من مقدر أي : يجريان بحسبان كما في آية الرحمن وقوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما تقدّم ذكره في هذه الآية من الأشياء التي خلقها بقدرته وكمال علمه وهو المراد بقوله : ﴿ تقدير العزيز العليم ﴾ فالعزيز إشارة إلى كمال قدرته والعليم إشارة إلى كمال علمه ﴿ وهو الذي جعل ﴾ أي : خلق ﴿ لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البرّ والبحرّ ﴾ أي : في ظلمات الليل في البرّ والبحر وإضافتها إليهما للملابسة أو في مشتبهات الطرق وسماها ظلمات على الاستعارة وهو إفراد لبعض منافعها بالذكر بعدما أجملها بقوله : لكم ، ومن منافعها أنها زينة للسماء كما قال تعالى : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ ومنها رمي الشياطين كما قال تعالى : ﴿ وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾ (الملك ، )

﴿ قد فصلنا ﴾ أي : بينا ﴿ الآيات ﴾ أي : الدالات على قدرتنا وتوحيدنا ﴿ لقوم يعلمون ﴾ أي : يتدبرون فإنهم المنتفعون به

﴿ وهو الذي أنشأكم ﴾ أي : خلقكم ﴿ من نفس واحدة ﴾ أي : من آدم عليه الصلاة والسلام فهو أبو البشر كلهم وحوّاء مخلوقة منه وعيسى أيضاً لأنّ ابتداء خلقه من مريم وهي من بنات آدم فثبت أنّ جميع البشر من آدم عليه السلام ﴿ فمستقرّ ومستودع ﴾ أي : فمستقرّ في الرحم ومستودع في القبر إلى أن يبعث أو فمستقر في أرحام الأمّهات ومستودع في أصلاب الآباء ، قال سعيد بن جبير : قال لي ابن عباس : هل تزوّجت ؟ قلت : لا ، قال : أما إنه ما كان مستودعاً في ظهرك فسيخرجه الله عز وجلّ أو مستقرّ في الرحم ومستودع فوق الأرض قال تعالى : ﴿ ونقرّ في الأرحام ما نشاء ﴾ أو فمستقرّ على وجه الأرض ومستودع عند الله في الآخرة أو فمستقرّ في القبر ومستودع في الدنيا وكان الحسن يقول : يا ابن آدم أنت وديعة في أهلك يوشك أن تلحق بصاحبك أو فمستقرّ في القبر ومستودع في الجنة أو النار قال تعالى في صفة الجنة : حسنت مستقرّاً وفي صفة النار وساءت مستقرّاً ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر القاف على اسم الفاعل والمستودع مفعول أي : فمنكم قار ومنكم مستودع لأنّ الاستقرار من الله تعالى دون الاستيداع لأنّ الاستقرار في الأصلاب أو فوق الأرض ، لا صنع للعبد فيه بخلاف الاستيداع في الأرحام أو تحت الأرض ، والباقون

بالنصب ﴿ قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ﴾ أي : يفهمون ما يقال لهم ذكر مع ذكر النجوم يعلمون لأنّ أمرها ظاهر وذكر مع تخليقه بني آدم يفقهون لأنّ إنشاءهم من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة دقيق غامض يحتاج إلى استعمال فطنة وتدقيق نظر ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء ﴾ أي : مطراً وهو من السحاب أو من جانب السماء ، وقيل : إنّ الله تعالى ينزله من السماء إلى السحاب ثم من السحاب إلى الأرض ﴿ فأخرجنا به ﴾ أي : بالماء وفي ذلك التفات حيث لم يقل فأخرج على وفق أنزل ﴿ نبات كلّ شيء ﴾ أيّ شيء ينبت وينمو من جميع أصناف النبات فالسبب واحد وهو الماء والمسببات صنوف متفرّقة كما قال تعالى :

*(291/243)*

---

﴿ يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ﴾ (الرعد)

﴿ فأخرجنا منه ﴾ أي : من النبات أو الماء ﴿ خضراً ﴾ أي : شيئاً أخضر يقال : أخضر وخضر مثل أعور وعور والأخضر هو جميع البقول والزروع والبقول الرطبة ﴿ نخرج منه ﴾ أي : الخضر ﴿ حباً متراكباً ﴾ أي : يركب بعضه بعضاً كسنابل الحنطة والشعير والأرز والذرة وقوله تعالى : ﴿ ومن النخل ﴾ خبر مقدّم ويبدل منه ﴿ من طلعها ﴾ وهو

أوّل ما يخرج منها والمبتدأ ﴿ قنوان ﴾ أي : عراجين ﴿ دانية ﴾ أي : قريبة من التناول يتناولها النائم والقاعد أو قريب بعضها من بعض وإنما اقتصر على ذكرها عن مقابلها وهي البعيدة لدلالتها عليها كقوله تعالى ﴿ سرابيل تقيكم الحرّ ﴾ (النحل ، ) أي : والبرد واكتفى بذكر أحدهما وحكمة تخضيص دانية بالذكر زيادة النعمة فيها وقوله تعالى :

﴿ وجنات ﴾ عطف على نبات كلّ شيء أي : وأخرجنا به بساتين ﴿ من أعناب ﴾ وقوله تعالى : ﴿ والزيتون والرمّان ﴾ عطف أيضاً على نبات أي : وأخرجنا به شجر الزيتون والرمّان ﴿ مشتبهاً وغير متشابه ﴾ قال قتادة : معناه مشتبهاً ورقها مختلفاً ثمرها لأن ورق الزيتون يشتبه ورق الرمان ، وقيل : مشتبهاً في النظر مختلفاً في الطعم والله سبحانه ذكر في هذه الآية أربعة أنواع من الشجر بعد ذكر الزرع وقدّم الزرع على سائر الأشجار لأنّ الزرع غذاء وثمار الأشجار فواكه والغذاء مقدّم على الفواكه وقدم النخل على غيرها لأنّ ثمرها يجري مجرى الغذاء وفيها من المنافع والخواص ما ليس في غيرها من الأشجار قال بعضهم وليس لنا أنثى من الشجر تحتاج إلى ذكر غير النخل أي : في تطييب ثمرها وذكر العنب عقب النخل لأنه من أشرف أنواع الفواكه ثم ذكر عقبه الزيتون لما فيه من البركة والنفع ثم ذكر بعده الرمان لما فيه من المنافع أيضاً ﴿ انظروا ﴾ أيها المخاطبون نظر اعتبار ﴿ إلى ثمره ﴾ قرأ حمزة والكسائيّ بضمّ الثاء والميم ، والباقون بالنصب ، وهو جمع ثمرة

كشجرة وشجر وخشبة وخشب ﴿ إذا أثمر ﴾ أي : حين يبدو من أكمامه ضعيفاً قليل النفع أو عديمه ﴿ و ﴾ انظروا إلى ﴿ ينعه ﴾ أي :

(292/243)

---

إلى إدراكه إذا أدرك وحان قطفه كيف يصير ذا نفع ولذة والمعنى انظروا نظر استدلال واعتبروا كيف أخرج الله هذه الثمرة اللطيفة من هذه الشجرة الكثيفة اليابسة وهو قوله تعالى : ﴿ إنّ في ذلكم لآيات ﴾ أي : دلالات على قدرته تعالى على البعث وغيره فإنّ حدوث الأجناس المختلفة والأنواع المفننة من أصل واحد ونقلها من حال إلى حال لا يكون إلا بإحداث قادر يعلم تفاصيلها ويرجح ما تقتضيه حكمته مما يمكن من أحوالها ولا يعوقه عن فعله ندّ يعارضه أو ضد يعانده وخص المؤمنين بالذكر بقوله : ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ لأنهم المنتفعون بها بخلاف الكافرين ولذلك عقبه بتوبيخ من أشرك به والردّ عليه فقال تعالى : ﴿ وجعلوا شركاء الجنّ ﴾ أي : الشياطين لأنهم أطاعوهم في عبادة الأوثان فجعلوها شركاء الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير حـ 2 صـ 139 . 142 ﴾

(293/243)

ومن فوائد الشوكانى فى الآيات

قال رحمه الله :

قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ فَالِقُ الحب والنوى ﴾

هذا شروع في تعداد عجائب صنعه تعالى ، وذكر ما يعجز آلهتهم عن أدنى شيء منه ، والفلق الشق : أي هو سبحانه فالق الحبّ فيخرج منه النبات ، وفالق النوى فيخرج منه النوى فيخرج منه الشجر .

وقيل : معنى : ﴿ فَالِقُ الحب والنوى ﴾ الشق الذي فيهما من أصل الخلقة .

وقيل معنى ﴿ فَالِقُ ﴾ خالق ، والنوى : جمع نواة يطلق على كل ما فيه عجم كالتمر والمشمش والخوخ .

قوله : ﴿ يُخْرِجُ الحى مِنَ الميت ﴾ هذه الجملة خبر بعد خبر ، فهي في محل رفع .

وقيل : هي جملة مفسرة لما قبلها ، لأن معناها معناه ، والأول : أولى ، فإن معنى ﴿ يُخْرِجُ الحى مِنَ الميت ﴾ يخرج الحيوان من مثل النطفة والبيضة وهي ميتة .

ومعنى : ﴿ وَمُخْرِجُ الميت مِنَ الحى ﴾ مخرج النطفة والبيضة وهي ميتة من الحيّ ، وجملة : ﴿ وَمُخْرِجُ الميت مِنَ الحى ﴾ معطوفة على ﴿ يُخْرِجُ الحى مِنَ الميت ﴾ عطف جملة اسمية على جملة فعلية ، ولا ضير في ذلك .

وقيل : معطوفة على ( فالق ) على تقدير أن جملة ﴿ يُخْرِجُ الحى مِنَ الميت ﴾ مفسرة لما قبلها ، والأوّل أولى ، والإشارة ب ﴿ ذلكم ﴾ إلى صانع ذلك الصنع العجيب المذكور سابقاً و ﴿ الله ﴾ خبره .

والمعنى : أن صانع هذا الصنع العجيب هو المستجمع لكل كمال ، والمفضل بكل إفضال ، والمستحق لكل حمد وإجلال ﴿ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ فكيف تصرفون عن الحق مع ما ترون من بديع صنعه وكمال قدرته ؟ قوله : ﴿ فَالِقُ الإصباح ﴾ مرتفع على أنه من جملة أخبار "إنّ" في ﴿ إِنَّ الله فَالِقُ الحب والنوى ﴾ .

وقيل : هو نعت للاسم الشريف في ﴿ ذَلِكُمُ الله ﴾ ، وقرأ الحسن ، وعيسى بن عمر " فَالِقُ الأصباح " بفتح الهمزة ، وقرأ الجمهور بكسرها ، وهو على قراءة الفتح جمع صبح ، وعلى قراءة الكسر مصدر أصبح .

والصبح والصباح : أوّل النهار ، وكذا الإصباح ، وقرأ النخعي " فَالِقُ الإصباح " بفعل وهمزة مكسورة .

والمعنى في ﴿ فَالِقُ الإصباح ﴾ أنه شاق الضياء عن الظلام وكاشفه ، أو يكون المعنى على حذف مضاف ، أي فالق ظلمة الإصباح ، وهي الغبش ، أو فالق عمود الفجر عن بياض النهار ، لأنه يبدو مختلطاً بالظلمة ثم يصير أبيض خالصاً .

وقرأ الحسن وعيسى بن عمر ، وعاصم وحمزة ، والكسائي ﴿ وَجَعَلَ اليل سَكَناً ﴾

حملاً على معنى ﴿ فَالِقُ ﴾ عند حمزة والكسائي ، وأما عند الحسن وعيسى فعطفاً على " فلق " .

وقرأ الجمهور ، " وجاعل " عطفاً على ﴿ فالق ﴾ .

وقرىء " فالق وجاعل " بنصبهما على المدح.

وقرأ يعقوب "وجاعل الليل ساكناً" .

والسكن : محل السكون ، من سكن إليه : إذ اطمأنّ إليه ، لأنه يسكن فيه الناس عن الحركة في معاشهم ، ويستريحون من التعب والنصب .

*(294/243)*

---

قوله : ﴿ والشمس والقمر حُسْبَاناً ﴾ بالنصب على إضمار فعل ، أي وجعل الشمس والقمر ، وبالرفع على الابتداء ، والخبر محذوف تقديره والشمس والقمر مجعولان حسباناً ، وبالجرّ عطفاً على الليل على قراءة من قرأ " وجاعل الليل " ، قال الأخفش : والحسبان جمع حساب مثل شهبان وشهاب .

وقال يعقوب : حسبان مصدر حسبت الشيء أحسبه حساباً وحسباناً .

والحساب : الاسم .

وقيل الحسبان بالضم مصدر حسب بالفتح ، والحسبان بالكسر مصدر حسب .

والمعنى : جعلهما محل حساب تتعلق به مصالح العباد وسيرهما على تقدير لا يزيد ولا ينقص ليدلّ عباده بذلك على عظيم قدرته وبديع صنعه .

وقيل الحسبان : الضياء ، وفي لغة أن الحسبان : النار ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السماء ﴾ [ الكهف : 40 ] والإشارة ب ﴿ ذلك تَقْدِيرُ العزيز العليم ﴾ إلى الجعل المدلول عليه بجاعل ، أو يجعل على القراءتين .

والعزيز : القاهر الغالب .

والعليم : كثير العلم ، ومن جملة معلوماته تسييرهما على هذا التدبير المحكم .

قوله : ﴿ وَهُوَ الذى جَعَلَ لَكُمُ النجوم لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ البر والبحر ﴾ أي : خلقها للاهتداء بها ﴿ فِى ظلمات ﴾ الليل عند المسير في ﴿ البر والبحر ﴾ وإضافة الظلمات إلى البرّ ، لكونها ملابسة لهما ، أو المراد بالظلمات : اشتباه طرقهما التي لا يهتدى فيها إلا بالنجوم ، وهذه إحدى منافع النجوم التي خلقها الله لها ، ومنها ما ذكره الله في قوله : ﴿ وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شيطان مَّارِدٍ ﴾ [ الصافات : 7 ] .

﴿ وجعلناها رُجُوماً للشياطين ﴾ [ الملك : 5 ] ، ومنها جعلها زينة للسماء ، ومن زعم غير هذه الفوائد فقد أعظم على الله الفرية ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيات ﴾ التي بيناها بياناً

مفصلاً لتكون أبلغ في الاعتبار ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ بما في هذه الآيات من الدلالة على قدرة الله وعظمته وبديع حكمته .

(295/243)

---

قوله : ﴿ وَهُوَ الذى أَنشَأَكُم مّن نَّفْسٍ واحدة ﴾ أي آدم عليه السلام كما تقدّم .

وهذا نوع آخر من بديع خلقه الدال على كمال قدرته ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ قرأ ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وأبو عمرو وعيسى والأعرج والنخعي بكسر القاف ، والباقون بفتحها ، وهما مرفوعان على أنهما مبتدآن وخبرهما محذوف ، والتقدير : فمنكم مستقرّ أو فلكم مستقرّ ، التقدير الأوّل على القراءة الأولى ، والثاني على الثانية ، أي فمنكم مستقرّ على ظهر الأرض ، أو فلكم مستقرّ على ظهرها ، ومنكم مستودع في الرحم ، أو في باطن الأرض ، أو في الصلب .

وقيل المستقرّ في الرحم ، والمستودع في الأرض .

وقيل المستقرّ في القبر .

قال القرطبي : وأكثر أهل التفسير يقولون المستقرّ ما كان في الرحم ، والمستودع ما كان في الصلب .

وقيل المستقرّ من خلق ، والمستودع من لم يخلق .

وقيل الاستيداع إشارة إلى كونهم في القبور إلى المبعث .

ومما يدل على تفسير المستقرّ بالكون على الأرض قول الله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ومتاع إلى حِينٍ ﴾ [ البقرة : 36 ] ، وذكر سبحانه هاهنا ﴿ يَفْقَهُونَ ﴾ وفيما قبله ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ لأن في إنشاء الأنفس من نفس واحدة وجعل بعضها مستقرّاً وبعضها مستودعاً من الغموض والدقة ما ليس في خلق النجوم للاهتداء ، فناسبه ذكر الفقه لإشعاره بمزيد تدقيق وإمعان فكر .

قوله : ﴿ وَهُوَ الذى أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء ﴾ هذا نوع آخر من عجائب مخلوقاته .

والماء هو ماء المطر ، وفي ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم ، إظهاراً للعناية بشأن هذا المخلوق وما ترتب عليه ، والضمير في " بِهِ " عائد إلى الماء ، و﴿ نَبَاتَ كُلّ شَىْء ﴾ يعني كل صنف من أصناف النبات المختلفة .

وقيل : المعنى رزق كل شيء ، والتفسير الأوّل أولى .

ثم فصل هذا الإجمال فقال : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً ﴾ قال الأخفش : أي أخضر .

(296/243)

والخضر : رطب البقول ، وهو ما يتشعب من الأغصان الخارجة من الحبة .

وقيل : يريد القمح والشعير والذرة والأرز وسائر الحبوب ﴿ نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً ﴾ هذه الجملة صفة ل ﴿ خضر ﴾ أي نخرج من الأغصان الخضر حباً متراكباً أي مركباً بعضه على بعضه كما في السنابل ﴿ وَمِنَ النخل ﴾ خبر مقدّم ، و ﴿ مِن طَلْعِهَا ﴾ بدل منه ، وعلى قراءة من قرأ " يخرج منه حب " يكون ارتفاع ﴿ قنوان ﴾ على أنه معطوف على حب ، وأجاز الفراء في غير القرآن " قنواناً " عطفاً على ﴿ حباً ﴾ ، وتميم يقولون قنيان .

وقرىء بضم القاف وفتحها باعتبار اختلاف اللغتين لغة قيس ولغة أهل الحجاز .

والطلع : الكفري قبل أن ينشق عن الإغريض ، والإغريض يسمى طلعاً أيضاً .

والقنوان : جمع قنو ، والفرق بين جمعه وتثنيته أن المثنى مكسورة النون ، والجمع على ما يقتضيه الاعراب ، ومثله صنوان .

والقنو : العذق .

والمعنى : أن القنوان أصله من الطلع .

والعذق : هو عنقود النخل ، وقيل القنوان : الجمار .

والدانية : القريبة التي ينالها القائم والقاعد .

قال الزجاج : المعنى منها دانية ومنها بعيدة فحذف ، ومثله : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [ النحل : 81 ] وخصّ الدانية بالذكر ، لأن الغرض من الآية بيان القدر والامتنان ، وذلك

فيما يقرب تناوله أكثر .

قوله : ﴿ وجنات مّنْ أعناب ﴾ قرأ محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، والأعمش ، وعاصم في قراءته الصحيحة عنه برفع " جنات " ، وقرأ الباقون بالنصب .

وأنكر القراءة الأولى أبو عبيدة ، وأبو حاتم ، حتى قال أبو حاتم هي محال ، لأن الجنات لا تكون من النخل .

*(297/243)*

---

قال النحاس : ليس تأويل الرفع على هذا ، ولكنه رفع بالابتداء ، والخبر محذوف ، أي ولهم جنات كما قرأ جماعة من القراء ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ [ الواقعة : 22 ] وقد أجاز مثل هذا سيبويه والكسائي والفراء ، وأما على النصب فقيل : هو معطوف على ﴿ نَبَاتَ كُلّ شَىْء ﴾ أي وأخرجنا به جنات كائنة من أعناب ، أو النصب بفعل يقدّر متأخراً أي وجنات من أعناب أخرجناها ، وهكذا القول في انتصاب الزيتون والرمان .

وقيل : هما منصوبان على الاختصاص لكونهما عزيزين ، و ﴿ مُشْتَبِهاً ﴾ منتصب على الحال ، أي كل واحد منهما يشبه بعضه بعضاً في بعض أوصافه ، ولا يشبه بعضه بعضاً في البعض الآخر ، وقيل : إن أحدهما يشبه الآخر في الورق باعتبار اشتماله على جميع الغصن

وباعتبار حجمه ، ولا يشبه أحدهما الآخر في الطعم ، وقيل خصّ الزيتون والرمان لقرب منابتهما من العرب كما في قول الله سبحانه :

﴿ أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإبل كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [ الغاشية : 17 ] ، ثم أمرهم سبحانه بأن ينظروا نظر اعتبار إلى ثمره إذا أثمر ، وإلى ينعه إذا أينع .

والثمر في اللغة : جنى الشجر .

واليانع : الناضج الذي قد أدرك وحان قطافه .

قال ابن الأنباري : الينع جمع يانع ، كركب وراكب .

وقال الفراء : أينع احمرّ .

قرأ حمزة والكسائي "ثمره" بضم الثاء والميم ، وقرأ الباقون بفتحها ، إلا الأعمش فإنه قرأ " ثمره " بضم الثاء ، وسكون الميم تخفيفاً .

وقرأ محمد بن السميفع ، وابن محيصن ، وابن أبي إسحاق "وينعه" بضم الياء التحتية .

قال الفراء : هي لغة بعض أهل نجد .

وقرأ الباقون بفتحها ، والإشارة بقوله : ﴿ إِنَّ فِى ذلكم ﴾ إلى ما تقدّم ذكره مجملاً ومفصلاً ﴿ لآيات لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بالله استدلالاً بما يشاهدونه من عجائب مخلوقاته التي قصها عليهم .

وقد أخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللهَ فَالِقُ الحب والنوى ﴾ يقول : خلق الحب والنوى .

(298/243)

---

وأخرج عبد الرزاق ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة قال : يفلق الحبّ والنوى عن النبات .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد قال : الشقان اللذان فيهما .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، عن أبي مالك نحوه .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عنه في قوله : ﴿ يُخْرِجُ الحى مِنَ الميت ﴾ قال : النخلة من النواة والسنبلة من الحبة ﴿ وَمُخْرِجُ الميت مِنَ الحى ﴾ قال : النواة من النخلة والحبة من السنبلة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مجاهد ﴿ يُخْرِجُ الحى مِنَ الميت وَمُخْرِجُ الميت مِنَ الحى ﴾ قال : الناس الأحياء من النطف ، والنطفة ميتة تخرج من الناس الأحياء ، ومن الأنعام والنبات كذلك أيضاً .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس قال ﴿ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ أي فكيف تكذبون .

وأخرج أيضاً عن الحسن قال أنى تصرفون .

وأخرج أيضاً عن ابن عباس في ﴿ فَالِقُ الإصباح ﴾ قال : خلق الليل والنهار .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عنه قال : يعني بالإصباح ضوء الشمس بالنهار ، وضوء القمر بالليل .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن مجاهد في ﴿ فَالِقُ الإصباح ﴾ قال : إضاءة الفجر .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، عن قتادة في قوله : ﴿ فَالِقُ الإصباح ﴾ قال : فالق الصبح .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ وَجَاعِلُ الليل سَكَنا ﴾ قال : سكن فيه كل طير ودابة .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ والشمس والقمر حُسْبَاناً ﴾ يعني عدد الأيام والشهور والسنين .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَهُوَ الذى جَعَلَ لَكُمُ النجوم لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظلمات البر والبحر ﴾ قال : يضلّ الرجل ، وهو في الظلمة والجور عن الطريق .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، والخطيب في كتاب النجوم ، عن عمر بن الخطاب قال : تعلموا من النجوم ما تهتدون به في برّكم وبحركم ، ثم أمسكوا ، فإنها والله ما خلقت إلا زينة للسماء ورجوماً للشياطين ، وعلامات يهتدى بها .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة نحوه .

وأخرج ابن مردويه ، والخطيب ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تعلموا من النجوم ما تهتدون به في ظلمات البرّ والبحر ثم انتهوا " وقد ورد في استحباب مراعاة الشمس والقمر لذكر الله سبحانه لا لغير ذلك أحاديث ، منها عند الحاكم وصححه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أحبّ عباد الله إلى الله الذين يراعون الشمس والقمر لذكر الله " وأخرج ابن شاهين والطبراني ، والحاكم ، والخطيب ، عن عبد الله بن أبي أوفى قال : قال رسول الله ، فذكر نحوه .

وأخرج أحمد في الزهد ، والخطيب ، عن أبي الدرداء نحوه .

وأخرج الخطيب في كتاب النجوم ، عن أبي هريرة نحو حديثه الأوّل مرفوعاً .

وأخرج الحاكم في تاريخه ، والديلمي بسند ضعيف ، عن أبي هريرة أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاثة يظلهم الله في ظله يوم لا ظلّ إلا ظله : التاجر الأمين ،

والإمام المقتصد ، وراعي الشمس بالنهار " وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن سلمان الفارسي قال : "سبعة في ظلّ الله يوم لا ظلّ إلا ظله ، فذكر منهم الرجل الذي يراعي الشمس لمواقيت الصلاة" .

فهذه الأحاديث مقيدة بكون المراعاة لذكر الله ، والصلاة ، لا لغير ذلك .

*(300/243)*

---

وقد جعل الله انقضاء وقت صلاة الفجر طلوع الشمس ، وأوّل صلاة الظهر زوالها ، ووقت العصر ما دامت الشمس بيضاء نقية ، ووقت المغرب غروب الشمس ، وورد في صلاة العشاء : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصليها لوقت مغيب القمر ليلة ثالث الشهر ، وبها يعرف أوائل الشهور وأوساطها وأواخرها .

فمن راعى الشمس والقمر بهذه الأمور فهو الذي أراده ، ومن راعاها لغير ذلك فهو غير مراد بما ورد .

وهكذا النجوم ، وورد النهي عن النظر فيها كما أخرجه ابن مردويه ، والخطيب ، عن عليّ قال : نهاني رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النظر في النجوم .

وأخرج ابن مردويه ، والمرهبي ، والخطيب ، عن أبي هريرة قال : نهى رسول الله صلى الله

عليه وسلم عن النظر في النجوم .

وأخرج الخطيب ، عن عائشة مرفوعاً مثله .

وأخرج الطبراني ، وأبو نعيم في الحلية ، والخطيب ، عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا ذكر أصحابي فأمسكوا ، وإذا ذكر القدر فأمسكوا ، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا " وأخرج ابن أبي شيبة ، وأبو داود ، وابن مردويه ، عن ابن عباس قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد " فهذه الأحاديث محمولة على النظر فيها لما عدا الاهتداء والتفكر والاعتبار .

وما ورد في جواز النظر في النجوم فهو مقيد بالاهتداء والتفكر والاعتبار كما يدلّ عليه حديث ابن عمر السابق ، وعليه يحمل ما روي عن عكرمة فيما أخرجه الخطيب عنه : أنه سأل رجلاً عن حساب النجوم ، فجعل الرجل يتحرّج أن يخبره ، فقال عكرمة : سمعت ابن عباس يقول : علم عجز الناس عنه ووددت أني علمته .

*(301/243)*

وقد أخرج أبو داود ، والخطيب ، عن سمرة بن جندب ، أنه خطب فذكر حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أما بعد ، فإن ناساً يزعمون أن كسوف هذه الشمس وكسوف هذا القمر وزوال هذه النجوم عن مواضعها لموت رجال عظماء من أهل الأرض ، وإنهم قد كذبوا ، ولكنها آيات من آيات الله يعتبر بها عباده لينظر ما يحدث لهم من توبة " وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما في كسوف الشمس والقمر عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، ولكن يخوّف الله بهما عباده "

وأخرج ابن مردويه ، عن أبي أمامة مرفوعاً : " إن الله نصب آدم بين يديه ، ثم ضرب كتفه اليسرى فخرجت ذريته من صلبه حتى ملئوا الأرض " فهذا الحديث هو معنى ما في الآية ، ﴿ وَهُوَ الذى أَنشَأَكُم مّن نَّفْسٍ واحدة ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ قال : المستقر ما كان في الرحم ، والمستودع ما استودع في أصلاب الرجال والدواب .

وفي لفظ : المستقر ما في الرحم ، وعلى ظهر الأرض وبطنها مما هو حيّ ومما قد مات .

وفي لفظ المستقرّ ما كان في الأرض ، والمستودع ما كان في الصلب .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن ابن مسعود في الآية : قال مستقرّها

في الدنيا ومستودعها في الآخرة.

وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، عن ابن مسعود قال: المستقرّ الرحم، والمستودع المكان الذي يموت فيه.

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن وقتادة في الآية قالا: مستقرّ في القبر، ومستودع في الدنيا، أوشك أن يلحق بصاحبه.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن السديّ في قوله: ﴿ نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً ﴾ قال: هذا السنبل.

(302/243)

---

وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن البراء بن عازب ﴿ قنوان دَانِيَةٌ ﴾ قال قريبة: وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن ابن عباس ﴿ قنوان دَانِيَةٌ ﴾ قال: قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عنه قنوان الكبائس، والدانية المنصوبة.

وأخرج ابن أبي حاتم، عنه أيضاً في ﴿ قنوان دَانِيَةٌ ﴾ قال: تهدل العذوق من الطلع.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن قتادة، في قوله ﴿

مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ متشابه ﴾ قال : متشابهاً ورقه مختلفاً ثمره .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن محمد بن كعب القرظي ، في قوله : ﴿ انظروا إلى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ قال : رطبه وعنبه .

وأخرج أبو عبيد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن البراء ﴿ وَيَنْعِهِ ﴾ قال نضجه .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(303/243)

---

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (95) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (96) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (97) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (98) وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ

وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (99) ﴾

نحن في حاجة إلى أن نستحضر هنا كل ما قلناه من وصف هذه السورة عند التعريف بها . . في حاجة لأن نستحضر ما قلناه عن تدافع الموجات المتلاحقة في المجرى المتدفق ؛ وعن الروعة الباهرة ، التي يصل إليها التعبير والتصوير والإيقاع من سياقها :

" وهذه السورة تعالج موضوعها الأساسي بصورة فريدة . . إنها في كل لمحة منها ، وفي كل موقف ، وفي كل مشهد ، تمثل " الروعة الباهرة " . . الروعة التي تبده النفس ، وتشده الحس ، وتبهر النفس أيضاً ، وهو يلاحق مشاهدها وإيقاعها وموحياتها مبهوراً !

(304/243)

---

" وهي تشبه في سياقها المتدافع بهذه المشاهد والمواقف والموحيات والإيقاعات والصور والظلال ، مجرى النهر المتدافع بالأمواج المتلاحقة . لا تكاد الموجة تصل إلى قرارها ، حتى تجد الموجة التالية ملاحقة لها ، ومتشابكة معها ، في المجرى المتصل المتدفق .

" وهي في كل موجة من هذه الموجات المتدافعة المتلاحقة المتشابكة ، تبلغ حد الروعة الباهرة التي وصفنا . . مع تناسق منهج العرض في شتى المشاهد . . وتأخذ على النفس

أقطارها بالروعة الباهرة ، وبالحيوية الدافقة ، وبالإيقاع التصويري والتعبيري والموسيقي ، وبالتجمع والاحتشاد ، ومواجهة النفس من كل درب ومن كل نافذة " . .

. . . الخ . . . الخ . . .

إن هذه السمات كلها تتجلى في هذا الدرس ، على أتمها وأوفاها . . إن القارىء يحس كأنما المشاهد تنبثق انبثاقاً هي ومدلولاتها في التماع ولألاء . وهي تتدافع في انبثاقها أمام الحس ، كما تتدافع إيقاعات التعبير اللفظي عنها لتتناسق معها . والمشاهد والتعبير يتوافيان كذلك مع المدلولات التي يعبران عنها ، ويهدفان إليها !

إن كل مشهد من هذه المشاهد كأنما هو انبثاقة لامعة رائعة تجيء من المجهول ! وتتجلى للحواس والقلب والعقل في بهاء أخاذ . .

والعبارة ذاتها كأنما هي انبثاقة كذلك ! وإيقاع العبارة يتناسق في بهاء مع المشهد ومع المدلول . يتناسق معه في قوة الانبثاق ، وفي شدة اللألاء .

وتتدفق المدلولات والمشاهد والعبارات في موجات متلاحقة ، يتابعها الحس في بهر ! وما يكاد يصل مع الموجة إلى قرارها حتى يجد نفسه مندفعاً مرة أخرى مع موجة جديدة . . كالذي حاولنا أن نصف به السورة في مطالعها من قبل !

وصفحة الوجود بجملتها مفتوحة . والمشاهد تتوالى – وكدت أقول : تتواثب – من هنا ومن هناك في الصفحة الفسيحة الأرجاء . .

والجمال هو السمة البارزة هنا . . الجمال الذي يبلغ حد الروعة الباهرة . . المشاهد منتقاة وملتقطة من الزاوية الجمالية . والعبارات كذلك في بنائها اللفظي الإيقاعي ، وفي دلالتها . والمدلولات أيضاً – على كل ما تزخر به الحقيقة الأصيلة في هذه العقيدة – تتناول هذه الحقيقة من الزاوية الجمالية . . فتبدو الحقيقة ذاتها وكأنما تتلألأ في بهاء !

ومما يوحي بالسمت الجمالي السابغ ذلك التوجيه الرباني إلى تملي الجمال في ازدهار الحياة وازدهائها : ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾ .

. فهو التوجيه المباشر إلى الجمال الباهر . . للنظر والتملي والاستمتاع الواعي .

ثم ينتهي هذا الجمال إلى ذروته التي تروع وتبهر في ختام الاستعراض الكوني الحي ، حين يصل إلى ما وراء هذا الكون الجميل البهيج الرائع . . إلى بديع السماوات والأرض الذي أودع الوجود كل هذه البدائع . . فيتحدث عنه – سبحانه – حديثاً لا تنقل روعته إلا العبارة القرآنية بذاتها : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير ﴾ . .

وبعد ، فنحن – في هذا الدرس – أمام كتاب الكون المفتوح ، الذي يمر به الغافلون في كل

لحظة . فلا يقفون أمام خوارقه وآياته ، ويمر به المطموسون فلا تتفتح عيونهم على عجائبه وبدائعه . . وها هو ذا النسق القرآني العجيب يرتاد بنا هذا الوجود ، كأنما نهبط إليه اللحظة ، فيقفنا أمام معالمه العجيبة ، ويفتح أعيننا على مشاهده الباهرة ، ويثير تطلعنا إلى بدائعه التي يمر عليها الغافلون غافلين !

ها هو ذا يقفنا أمام الخارقة المعجزة التي تقع في كل لحظة من الليل والنهار . . خارقة انبثاق الحياة النابضة من هذا الموات الهامد . . لا ندري كيف انبثقت ، ولا ندري من أين جاءت - إلا أنها جاءت من عند الله وانبثقت بقدر من الله . لا يقدر بشر على إدراك كنهها بله ابتداعها !

*(306/243)*

---

وها هو ذا يقف بنا أمام دورة الفلك العجيبة . . الدورة الهائلة الدائبة الدقيقة . . وهي خارقة لا يعدلها شيء مما يطلبه الناس من الخوارق . . وهي تتم في كل يوم وليلة . بل تتم في كل ثانية ولحظة . .

وها هو ذا يقف بنا أمام نشأة الحياة البشرية . . من نفس واحدة . . وأمام تكاثرها بتلك الطريقة .

وها هو ذا يقف بنا أمام نشأة الحياة في النبات . . وأمام مشاهد الأمطار الهاطلة ، والزروع النامية ، والثمار اليانعة . وهي حشد من الحيوات والمشاهد ، ومجال للتأمل والريادة . لو نشاهدها بالحس المتوفز والقلب المتفتح .

وها هو ذا الوجود كله ، جديداً كأنما نراه أول مرة . حياً يعاطفنا ونعاطفه ، متحركاً تدب الحركة في أوصاله ، عجيباً يشده الحواس والمشاعر . ناطقاً بذاته عن خالقه . دالاً بآياته على تفرده وقدرته . .

وعندئذ يبدو الشرك بالله – والسياق يواجه الشرك والمشركين بهذا الاستعراض – غريباً غريباً على فطرة هذا الوجود وطبيعته . وشائهاً شائهاً في ضمير من يشاهد هذا الوجود الحافل بدلائل الهدى ويتأمله . وتسقط حجة الشرك والمشركين ، في مواجهة هذا الإيمان الغامر في مجالي الوجود العجيب . .

والمنهج القرآني – في خطاب الكينونة البشرية بحقيقة الألوهية ؛ وفي بيانه لموقف العبودية منها ؛ يجعل حقيقة الخلق والإنشاء للكون ، وحقيقة الخلق والإنشاء للحياة ، وحقيقة كفالة الحياة بالرزق الذي ييسره لها الله في ملكه ، وحقيقة السلطان الذي يخلق ويرزق ويتصرف في عالم الأسباب بلا شريك . . يجعل من هذه الحقائق مؤثراً موحياً . وبرهاناً قوياً على ضرورة ما يدعو إليه البشر : من العبودية لله وحده ، وإخلاص الاعتقاد والعبادة والطاعة والخضوع له وحده .

وكذلك يجيء في السياق – بعد استعراض صفحة الوجود ؛ وانكشاف حقيقة الخلق والإنشاء والرزق والكفالة والسلطان – الدعوة إلى عبادة الله وحده ، أي إلى إفراده سبحانه بالألوهية وخصائصها ، في حياة العباد كلها ؛ وجعل الحاكمية والتحاكم إليه وحده في شؤون الحياة كافة ، واستنكار ادعاء الألوهية أو إحدى خصائصها .

وكذلك نجد في هذا الدرس قوله تعالى : ﴿ ذلكم الله ربكم ، لا إله إلا هو ، خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل ﴾ . . نموذجاً للمنهج القرآني في ربط العبادة الخالصة ، بإفراد الألوهية لله وحده ، مع تقرير أنه – سبحانه – ﴿ خالق كل شيء ﴾ . . ﴿ وهو على كل شيء وكيل ﴾ . .

وفي نهاية الدرس – وبعد عرض هذه الآيات في صفحة الوجود كله – يكشف عن تفاهة طلب الخوارق ، كما يكشف عن طبيعة المكذبين المعاندة ، التي لا تتخلف عن الإيمان لنقص في الآيات والدلائل ؛ ولكن لطبع فيها مطموس ! وإلا فهذه الآيات تزحم الوجود . ﴿ إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحي من الميت ، ومخرج الميت من الحي . ذلكم الله فأنى تؤفكون ؟ ﴾ . .

إنها المعجزة التي لا يدري سرها أحد ؛ فضلاً على أن يملك صنعها أحد ! معجزة الحياة نشأة وحركة . . وفي كل لحظة تنفلق الحبة الساكنة عن نبتة نامية ، وتنفلق النواة الهامدة عن شجرة صاعدة . والحياة الكامنة في الحبة والنواة ، النامية في النبتة والشجرة ، سر مكنون ، لا يعلم حقيقته إلا الله ؛ ولا يعلم مصدره إلا الله . . وتقف البشرية بعد كل ما رأت من ظواهر الحياة وأشكالها ، وبعد كل ما درست من خصائصها وأطوارها . . تقف أمام السر المغيب كما وقف الإنسان الأول ، تدرك الوظيفة والمظهر ، وتجهل المصدر والجوهر ، والحياة ماضية في طريقها . والمعجزة تقع في كل لحظة ! ! !

*(308/243)*

---

ومنذ البدء أخرج الله الحي من الميت . فقد كان هذا الكون – أو على الأقل كانت هذه الأرض – ولم يكن هناك حياة . . ثم كانت الحياة . . أخرجها الله من الموات . . كيف ؟ لا ندري ! وهي منذ ذلك الحين تخرج من الميت ؛ فتتحول الذرات الميتة في كل لحظة – عن طريق الأحياء – إلى مواد عضوية حية تدخل في كيان الأجسام الحية ؛ وتتحول – وأصلها ذرات ميتة – إلى خلايا حية . . والعكس كذلك . . ففي كل لحظة تتحول خلايا حية إلى ذرات ميتة ؛ إلى أن يتحول الكائن الحي كله ذات يوم إلى ذرات ميتة !

﴿ يخرج الحي من الميت ، ومخرج الميت من الحي ﴾ . .

ولا يقدر إلا الله أن يصنع ذلك . . لا يقدر إلا الله أن ينشىء الحياة منذ البدء من الموات .

ولا يقدر إلا الله أن يجهز الكائن الحي بالقدرة على إحالة الذرات الميتة إلى خلايا حية . ولا يقدر إلا الله على تحويل الخلايا الحية مرة أخرى إلى ذرات ميتة .

. في دورة لم يعلم أحد يقيناً بعد متى بدأت ، ولا كيف تتم . . وإن هي إلا فروض ونظريات واحتمالات ! ! !

لقد عجزت كل محاولة لتفسير ظاهرة الحياة ، على غير أساس أنها من خلق الله . . ومنذ أن شرد الناس من الكنيسة في أوربا . . ﴿ كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ! ﴾ وهم يحاولون تفسير نشأة الكون وتفسير نشأة الحياة ، بدون التجاء إلى الاعتراف بوجود الله . . ولكن هذه المحاولات كلها فشلت جميعاً . . ولم تبق منها في القرن العشرين إلا مماحكات تدل على العناد ، ولا تدل على الإخلاص !

وأقوال بعض " علمائهم " الذين عجزوا عن تفسير وجود الحياة إلا بالاعتراف بالله ، تصور حقيقة موقف " علمهم " نفسه من هذه القضية . ونحن نسوقها لمن لا يزالون عندنا يقتاتون على فتات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من موائد الأوربيين ، عازفين عن هذا الدين ، لأنه يثبت " الغيب " وهم " علميون ! " لا " غيبيون " ! . .

ونختار لهم هؤلاء العلماء من " أمريكا " ! ! !

---

يقول " فرانك ألن " . ( ماجستير ودكتوراه من جامعة كورنل وأستاذ الطبيعة الحيوية بجامعة مانيتوبا بكندا ) في مقال : نشأة العالم هل هو مصادفة أو قصد ؟ من كتاب : " الله يتجلى في عصر العلم " . . ترجمة الدكتور : الدمرداش عبد المجيد سرحان .

. . " فإذا لم تكن الحياة قد نشأت بحكمة وتصميم سابق ، فلا بد أن تكون قد نشأت عن طريق المصادفة فما هي تلك المصادفة إذن حتى نتدبرها ونرى كيف تخلق الحياة ؟

" إن نظريات المصادفة والاحتمال لها الآن من الأسس الرياضية السليمة ما يجعلها تطبق على نطاق واسع حيثما انعدم الحكم الصحيح المطلق . وتضع هذه النظريات أمامنا الحكم الأقرب إلى الصواب – مع تقدير احتمال الخطأ في هذا الحكم – ولقد تقدمت دراسة نظرية المصادفة والاحتمال من الوجهة الرياضية تقدماً كبيراً ، حتى أصبحنا قادرين على التنبؤ بحدوث بعض الظواهر ، التي نقول : إنها تحدث بالمصادفة ، والتي لا نستطيع أن نفسر ظهورها بطريقة أخرى ( مثل قذف الزهر في لعبة النرد ) . وقد صرنا بفضل تقدم هذه الدراسات قادرين على التمييز بين ما يمكن أن يحدث بطريق المصادفة ، وما يستحيل

حدوثه بهذه الطريقة ، وأن نحسب احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر في مدى معين من الزمان . . ولننظر الآن إلى الدور الذي تستطيع أن تلعبه المصادفة في نشأة الحياة :

*(310/243)*

---

" إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية . وهي تتكون من خمسة عناصر ؛ هي : الكربون ، والأدروجين ، والنيتروجين ، والأكسجين ، والكبريت . . ويبلغ عدد الذرات في الجزيء الواحد 40 . 000 ذرة . ولما كان عدد العناصر الكيموية في الطبيعة 92 عنصراً ، موزعة كلها توزيعاً عشوائياً ، فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة ، لكي تكون جزئياً من جزيئات البروتين ، يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطاً مستمراً لكي تؤلف هذا الجزيء ؛ ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد .

" وقد قام العالم الرياضي السويسري تشارلز يوجين جاي بحساب هذه العوامل جميعاً ، فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحد ، إلا بنسبة 1 إلى 10 ، أي بنسبة 1 إلى رقم عشرة مضروباً في نفسه 160 مرة . وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات . . وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا

التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزيء واحد أكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات . . ويتطلب تكوين هذا الجزيء على سطح الأرض وحدها – عن طريق المصادفة – بلايين لا تحصى من السنوات ، قدرها العالم السويسري بأنها عشرة مضروبة في نفسها 243 مرة من السنين ( 10 سنة ) " .

" إن البروتينات تتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية . فكيف تتألف ذرات هذه الجزيئات ؟ إنها إذا تآلفت بطريقة أخرى ، غير التي تتآلف بها ، تصير غير صالحة للحياة . بل تصير في بعض الأحيان سموماً . وقد حسب العالم الانجليزي : ج . ب . سيثر J . رضي الله عن . Seather الطرق التي يمكن أن تتآلف بها الذرات في أحد الجزيئات البسيطة من البروتينات ، فوجد أن عددها يبلغ الملايين ( 10 ) . وعلى ذلك فإنه من المحال عقلاً أن تتآلف كل هذه المصادفات لكي تبني جزيئاً بروتينياً واحداً " .

*(311/243)*

---

" ولكن البروتينات ليست إلا مواد كيماوية عديمة الحياة ، ولا تدب فيها الحياة إلا عندما يحل فيها ذلك السر العجيب ، الذي لا ندري من كنهه شيئاً ، إنه العقل اللانهائي . وهو الله وحده ، الذي استطاع أن يدرك ببالغ حكمته ، أن مثل هذا الجزيء البروتيني يصلح لأن

يكون مستقراً للحياة ، فبناه وصوره ، وأغدق عليه سر الحياة " . .

ويقول إيرفنج وليام ( دكتوراه من جامعة إيوى وأخصائي في وراثة النباتات وأستاذ العلوم الطبيعية بجامعة ميتشجان ) في مقال : " المادية وحدها لا تكفي " من الكتاب نفسه :

" إن العلوم لا تستطيع أن تفسر لنا كيف نشأت تلك الدقائق الصغيرة المتناهية في صغرها والتي لا يحصيها عد ، وهي التي تتكون منها جميع المواد . كما لا تستطيع العلوم أن تفسر لنا - بالاعتماد على فكرة المصادفة وحدها كيف تتجمع هذه الدقائق الصغيرة لكي تكوّن الحياة . ولا شك أن النظرية التي تدعي أن جميع صور الحياة الراقية قد وصلت إلى حالتها الراهنة من الرقي بسبب حدوث بعض الطفرات العشوائية والتجمعات والهجائن . . نقول : إن هذه النظرية لا يمكن الأخذ بها إلا عن طريق التسليم . فهي لا تقوم على أساس المنطق والإقناع ! "

ويقول : " ألبرت ماكومب ونشستر " ( متخصص في علم الأحياء دكتوراه من جامعة تكساس .

أستاذ علم الأحياء بجامعة بايلور . . . ) في مقال : " العلوم تدعم إيماني بالله " من الكتاب نفسه :

" . . . وقد اشتغلت بدراسة علم الأحياء . وهو من الميادين العلمية الفسيحة التي تهتم بدراسة الحياة . وليس بين مخلوقات الله أروع من الأحياء التي تسكن هذا الكون " .

" انظر إلى نبات برسيم ضئيل . وقد نما على أحد جوانب الطريق . فهل تستطيع أن تجد له نظيراً في روعته بين جميع ما صنعه الإنسان من تلك العدد والآلات الرائعة ؟ إنه آله حية تقوم بصورة دائبة لا تنقطع آناء الليل وأطراف النهار ، بآلاف من التفاعلات الكيموية والطبيعية ؛ ويتم كل ذلك تحت سيطرة البروتوبلازم – وهو المادة التي تدخل في تركيب جميع الكائنات الحية " .

" فمن أين جاءت هذه الآلة الحية المعقدة ؟ إن الله لم يصنعها هكذا وحدها ، ولكنه خلق الحياة ، وجعلها قادرة على صيانة نفسها ، وعلى الاستمرار من جيل إلى جيل . مع الاحتفاظ بكل الخواص والمميزات التي تعيننا على التمييز بين نبات وآخر . . إن دراسة التكاثر في الأحياء تعتبر أروع دراسات علم الأحياء ، وأكثرها إظهاراً لقدرة الله . . إن الخلية التناسلية التي ينتج عنها النبات الجديد ، تبلغ من الصغر درجة كبرى بحيث يصعب مشاهدتها إلا باستخدام المجهر المكبر . ومن العجيب أن كل صفة من صفات النبات : كل عرق ، وكل شعيرة ، وكل فرع على ساق ، وكل جذر أو ورقة ، يتم تكوينها تحت إشراف مهندسين قد بلغوا من دقة الحجم مبلغاً كبيراً ، فاستطاعوا العيش داخل الخلية التي ينشأ

منها النبات . . تلك الفئة من المهندسين هي فئة الكروموسومات ( ناقلات الوراثة ) " .

وفي هذا القدر كفاية لنعود إلى الجمال المشرق في سياق القرآن : ﴿ ذلكم الله ﴾ . .

مبدع هذه المعجزة المتكررة المغيبة السر . . هو الله . . وهو ربكم الذي يستحق أن تدينوا له وحده . . بالعبودية والخضوع والاتباع .

﴿ فأنى تؤفكون ؟ ﴾ . .

فكيف تصرفون عن هذا الحق الواضح للعقول والقلوب والعيون !

*(313/243)*

---

إن معجزة انبثاق الحياة من الموات يجيء ذكرها كثيراً في القرآن الكريم – كما يجيء ذكر خلق الكون ابتداء – في معرض التوجيه إلى حقيقة الألوهية ، وآثارها الدالة على وحدة الخالق ، لينتهي منها إلى ضرورة وحدة المعبود ، الذي يدين له العباد ؛ بالاعتقاد في ألوهيته وحده ، والطاعة لربوبيته وحده ، والتقدم إليه وحده بالشعائر التعبدية ، والتلقي منه وحده في منهج الحياة كله ، والدينونة لشريعته كذلك وحدها . .

وهذه الدلائل لا تذكر في القرآن الكريم في صورة قضايا لاهوتية أو نظريات فلسفية ! إن هذا الدين أكثر جدية من أن ينفق طاقة البشر في قضايا لاهوتية ونظريات فلسفية . إنما يهدف

إلى تقويم تصور البشر – بإعطائهم العقيدة الصحيحة – لينتهي إلى تقويم حياة البشر الباطنة والظاهرة .

وذلك لا يكون أبداً إلا بردهم إلى عبادة الله وحده وإخراجهم من عبادة العباد .

وإلا أن تكون الدينونة في الحياة الدنيا ، وفي شئون الحياة اليومية لله وحده ، وإلا أن يخرج الناس من سلطان المتسلطين ، الذين يدعون حق الألوهية ، فيزاولون الحاكمية في حياة البشر ، ويصبحون آلهة زائفة وأرباباً كثيرة ؛ فتفسد الحياة ، حين يستعبد الناس فيها لغير الله !

ومن هنا نرى التعقيب على معجزة الحياة :

﴿ ذلكم الله فأنى تؤفكون ﴾ . .

ذلكم الله الذي يستحق الربوبية فيكم . . والرب هو المربي والموجه والسيد والحاكم . .

ومن ثم يجب ألا يكون الرب إلا الله . .

﴿ فالق الإصباح ، وجعل الليل سكناً ، والشمس والقمر حسباناً . ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ . .

إن فالق الحب والنوى هو فالق الإصباح أيضاً ، وهو الذي جعل الليل للسكون ، وجعل الشمس والقمر محسوبة حركاتهما مقدرة دوراتهما . . مقدراً ذلك كله بقدرته التي تهيمن على كل شيء ، وبعلمه الذي يحيط بكل شيء .

---

وانفلاق الإصباح من الظلام حركة تشبه في شكلها انفلاق الحبة والنواة . وانبثاق النور في تلك الحركة ، كانبثاق البرعم في هذه الحركة . . وبينهما من مشابه الحركة والحيوية والبهاء والجمال سمات مشتركة ، ملحوظة في التعبير عن الحقائق المشتركة في طبيعتهما وحقيقتهما كذلك . .

وبين انفلاق الحب والنوى وانفلاق الإصباح وسكون الليل صلة أخرى . . إن الإصباح والإمساء ، والحركة والسكون ، في هذا الكون – أو في هذه الأرض – ذات علاقة مباشرة بالنبات والحياة .

إن كون الأرض تدور دورتها هذه حول نفسها أمام الشمس ؛ وكون القمر بهذا الحجم وبهذا البعد من الأرض ؛ وكون الشمس كذلك بهذا الحجم وهذا البعد وهذه الدرجة من الحرارة . . هي تقديرات من " العزيز " ذي السلطان القادر " العليم " ذي العلم الشامل . . ولولا هذه التقديرات ما انبثقت الحياة في الأرض على هذا النحو ، ولما انبثق النبت والشجر ، من الحب والنوى . .

إنه كون مقدر بحساب دقيق . ومقدر فيه حساب الحياة ، ودرجة هذه الحياة ، ونوع هذه

الحياة . . كون لا مجال للمصادفة العابرة فيه – وحتى ما يسمونه المصادفة خاضع لقانون ومقدر بحساب . .

والذين يقولون : إن هذه الحياة فلتة عابرة في الكون . وأن الكون لا يحفلها . بل يبدو أنه يعاديها . وأن ضآلة الكوكب الذي قام عليه هذا النوع من الحياة توحي بهذا كله . بل يقول بعضهم : إن هذه الضآلة توحي بأنه لو كان للكون إله ما عنى نفسه بهذه الحياة ! . . . إلى آخر ذلك اللغو ، الذي يسمونه أحياناً " علماً " ! ويسمونه أحيانا " فلسفة " ! وهو لا يستأهل حتى مناقشته !

*(315/243)*

---

إن هؤلاء إنما يحكمون أهواء مستقرة في نفوسهم ؛ ولا يحكمون حتى نتائج علمهم التي تفرض نفسها عليهم ! ويقرأ لهم الإنسان فيجد كأنما هم هاربون من مواجهة حقيقة قرروا سلفاً ألا يواجهوها ! . . إنهم هاربون من الله الذي تواجههم دلائل وجوده ووحدانيته وقدرته المطلقة في كل اتجاه ! وكلما سلكوا طريقاً يهربون بها من مواجهة هذه الحقيقة وجدوا الله في نهايتها ، فعادوا في ذعر إلى سكة أخرى .

ليواجهوا الله – سبحانه – في نهايتها كذلك !

إنهم مساكين ! بائسون ! لقد فروا ذات يوم من الكنيسة وإلهها الذي تستذل به الرقاب . . فروا ﴿ كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ﴾ ثم ما زالوا في فرارهم التقليدي حتى أوائل هذا القرن . . دون أن يتلفتوا وراءهم ليروا إن كانت الكنيسة ما تزال تتابعهم . أم انقطعت منها – كما انقطعت منهم – الأنفاس .

إنهم مساكين بائسون لأن نتائج علومهم ذاتها تواجههم اليوم أيضاً . . فإلى أين الفرار ؟ . .

يقول " فرانك ألن " العالم الطبيعي الذي اقتطفنا فقرات من مقاله في الفقرة السابقة عن نشأة الحياة :

" إن ملاءمة الأرض للحياة تتخذ صوراً عديدة لا يمكن تفسيرها على أساس المصادفة أو العشوائية . فالأرض كرة معلقة في الفضاء تدور حول نفسها ، فيكون في ذلك تتابع الليل والنهار ، وهي تسبح حول الشمس مرة في كل عام ، فيكون في ذلك تتابع الفصول ، الذي يؤدي بدوره إلى زيادة مساحة الجزء الصالح للسكنى من سطح كوكبنا ، ويزيد من اختلاف الأنواع النباتية أكثر مما لو كانت ساكنة . ويحيط بالأرض غلاف غازي يشتمل على الغازات اللازمة للحياة ، ويمتد حولها إلى ارتفاع كبير ( يزيد على 500 ميل ) " .

*(316/243)*

" ويبلغ هذا الغلاف الغازي من الكثافة درجة تحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة يومياً إلينا ، منقضة بسرعة ثلاثين ميلاً في الثانية . والغلاف الجوي الذي يحيط بالأرض يحفظ درجة حرارتها في الحدود المناسبة للحياة ، ويحمل بخار الماء من المحيطات إلى مسافات بعيدة داخل القارات ، حيث يمكن أن يتكاثف مطر يحيي الأرض بعد موتها . والمطر مصدر الماء العذب ، ولولاه لأصبحت الأرض صحراء جرداء خالية من كل أثر للحياة . ومن هنا نرى أن الجو والمحيطات الموجودة على سطح الأرض تمثل عجلة التوازن في الطبيعة " . .

إن الأدلة " العلمية " تتكاثر في وجوههم وتتجمع لتعلن عجز المصادفة عجزاً كاملاً عن تعليل نشأة الحياة ، بما يلزم لهذه النشأة – وللنمو والبقاء والتنوع بعدها – من موافقات لا تحصى في تصميم الكون . . منها هذه الموافقات التي ذكرها العالم الطبيعي السابق ، ووراءها من نوعها كثير . فلا يبقى إلا تقدير العزيز العليم . الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . والذي خلق كل شيء فقدره تقديراً . .

﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر . قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾ . .

تتمة لمشهد الفلك الدائر بشمسه وقمره ونجومه . تتمة لعرض المشهد الكوني الهائل الرائع مرتبطاً بحياة البشر ومصالحهم واهتماماتهم :

﴿ لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ﴾ . .

ومتاهات البر والبحر ظلمات يهتدي فيها البشر بالنجوم . . كانوا كذلك وما يزالون .

*(317/243)*

---

تختلف وسائل الاهتداء بالنجوم ويتسع مداها بالكشوف العلمية والتجارب المنوعة . .

وتبقى القاعدة ثابتة : قاعدة الاهتداء بهذه الأجرام في ظلمات البر والبحر . . سواء في ذلك الظلمات الحسية أو ظلمات التصور والفكر . ويبقى النص القرآني الجامع يخاطب البشرية في مدارجها الأولى بهذه الحقيقة ، فتجد مصداقها في واقع حياتها الذي تزاوله . ويخاطبها بها وقد فتح عليها ما أراد أن يفتح من الأسرار في الأنفس والآفاق . فتجدها كذلك مصداق قوله في واقع حياتها الذي تزاوله . .

وتبقى مزية المنهج القرآني في مخاطبة الفطرة بالحقائق الكونية ، لا في صورة " نظرية " ولكن في صورة " واقعية " . . صورة تتجلى من ورائها يد المبدع ، وتقديره ، ورحمته ، وتدبيره . صورة مؤثرة في العقل والقلب ، موحية للبصيرة والوعي ، دافعة إلى التدبر والتذكر ، وإلى استخدام العلم والمعرفة للوصول إلى الحقيقة الكبرى المتناسقة . . لذلك يعقب على آية النجوم التي جعلها الله للناس ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر هذا التعقيب الموحي :

﴿ قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾ . .

فالاهتداء بالنجوم في ظلمات البر والبحر يحتاج إلى علم بمسالكها ودوراتها ومواقعها ومداراتها . . كما يحتاج إلى قوم يعلمون دلالة هذا كله على الصانع العزيز الحكيم . .

فالاهتداء – كما قلنا – هو الاهتداء في الظلمات الحسية الواقعية ، وفي ظلمات العقل والضمير . . والذين يستخدمون النجوم للاهتداء الحسي ، ثم لا يصلون ما بين دلالتها ومبدعها ، هم قوم لم يهتدوا بها تلك الهداية الكبرى ؛ وهم الذين يقطعون بين الكون وخالقه ، وبين آيات هذا الكون ودلالتها على المبدع العظيم . .

﴿ وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة ، فمستقر ومستودع . قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ﴾ . .

*(318/243)*

---

إنها اللمسة المباشرة في هذه المرة . . اللمسة في ذات النفس البشرية . النفس البشرية الواحدة الموحدة الكنه والحقيقة في الذكر والأنثى . تبدأ الحياة فيها خطوتها الأولى للتكاثر بالخلية الملقحة . فنفسٌ هي مستودع لهذه الخلية في صلب الرجل ، ونفس هي مستقر لها في رحم الأنثى . . ثم تأخذ الحياة في النمو والانتشار . فإذا أجناس وألوان ؛ وإذا شيات

ولغات ؛ وإذا شعوب وقبائل ؛ وإذا النماذج التي لا تحصى ، والأنماط التي ما تزال تتنوع ما دامت الحياة .

﴿ قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ﴾ . .

فالفقه هنا ضروري لإدراك صنع الله في هذه النفس الواحدة ، التي تنبثق منها النماذج والأنماط . ولإدراك الموافقات العجيبة الكامنة وراء اتخاذ التلاقح وسيلة للإكثار وتوفير الأعداد المناسبة دائماً من الذكور والإناث – في عالم الإنسان – لتتم عملية التزاوج التي قدر الله أن تكون هي وسيلة الإخصاب والإكثار . ووسيلة تنشئة الأطفال في ظروف تحفظ " إنسانيتهم " وتجعلهم أكفاء للحياة " الإنسانية " !

ولا نملك هنا في الظلال أن نبعد في عرض هذه المسألة بكل تفصيلاتها لجلاء هذه الموافقات – فهي في حاجة إلى بحث متخصص – ولكننا نذكر فقط كيفية نشأة النطفة ذكراً أو أنثى وكيف يتم عن طريق التوزيع الغيبي الرباني إنتاج القدر الكافي من الذكور ومن الإناث دائماً لكي تتوافر الأعداد المناسبة لبقاء الحياة وامتدادها .

.

ولقد ذكرنا من قبل عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾ أن الذي يقرر صيرورة البويضة الملقحة ذكراً أو أنثى ، هو أن يجري قدر الله بأن يكون عدد كروموسومات الحيوان المنوي الذي يلتحم بالبويضة يرجح كروموسومات التذكير على

كروموسومات التأنيث أو العكس ، وأن جريان القدر بهذا أو ذاك غيب من غيب الله . لا سلطان لأحد عليه إلا الله . .

*(319/243)*

---

هذا القدَر الذي يجريه الله في كل مرة ، فيهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ، يحافظ على توازن دائم في الأرض كلها بين عدد من يجري بهم ليكونوا إناثاً ، وعدد من يجري بهم ليكونوا ذكوراً . فلا يقع اختلال – على مستوى البشرية كلها – في هذا التوازن . الذي عن طريقه يتم الإخصاب والإكثار ، وتتم به حياة زوجية مستقرة في الوقت ذاته . . ذلك أن الإخصاب والإكثار وحده قد يتم بأقل عدد من الذكور . . ولكن الله قدر في الحياة الإنسانية أن هذا ليس هو غاية الالتقاء بين الذكر والأنثى ؛ إنما الغاية – التي تميز الإنسان من الحيوان – هي استقرار الحياة الزوجية بين ذكر وأنثى . . لما وراء هذا الاستقرار من أهداف لا تتم إلا به . وأهمها استقرار الذرية في كنف أبوين في محيط أسرة ، ليتم إعداد هذه الذرية لدورها " الإنساني " الخاص – فوق إعدادها لتحصيل القوت وحماية النفس كالحيوان – والدور " الإنساني " الخاص يحتاج إلى الاستقرار بين أبوين في أسرة فترة أطول جداً مما تحتاج إليه طفولة الحيوان !

وهذه الموازنة الدائمة تكفي وحدها لتكون آية على تدبير الخالق وحكمته وتقديره . .

ولكن لقوم يفقهون :

﴿ قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ﴾ . .

أما المطموسون المحجوبون . . وفي أولهم أصحاب " العلمية " الذين يسخرون من " الغيبية " . فإنهم يمرون على هذه الآيات كلها مطموسين محجوبين : ﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ ثم يمضي السياق إلى مشاهد الحياة المتفتحة في جنبات الأرض . تراها الأعين ، وتستجليها الحواس ، وتتدبرها القلوب . وترى فيها بدائع صنع الله . . والسياق يعرضها – كما هي في صفحة الكون – ويلفت إليها النظر في شتى أطوارها ، وشتى أشكالها ، وشتى أنواعها ؛ ويلمس الوجدان بما فيها من حياة نامية ، ودلالة على القدرة التي تبدع الحياة ؛ كما يوجه القلب إلى استجلاء جمالها والاستمتاع بهذا الجمال :

*(320/243)*

---

﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به نبات كل شيء . فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً . ومن النخل من طلعها قنوان دانية . وجنات من أعناب والزيتون والرمان ، مشتبهاً وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه .

إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ . .

والماء كثيراً ما يذكر في القرآن في صدد ذكر الحياة والإنبات .

﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ﴾ . .

ودور الماء الظاهر في إنبات كل شيء دور واضح يعلمه البدائي والمتحضر ، ويعرفه الجاهل والعالم . . ولكن دور الماء في الحقيقة أخطر وأبعد مدى من هذا الظاهر الذي يخاطب به القرآن الناس عامة . فقد شارك الماء ابتداء – بتقدير الله – في جعل تربة الأرض السطحية صالحة للإنبات ( إذا صحت النظريات التي تفترض أن سطح الأرض كان في فترة ملتهباً ، ثم صلباً لا توجد فيه التربة التي تنبت الزرع . ثم تم ذلك بتعاون الماء والعوامل الجوية على تحويلها إلى تربة لينة ) ثم ظل الماء يشارك في إخصاب هذه التربة ، وذلك بإسقاط ( النتروجين – الأزوت ) من الجو كلما أبرق فاستخلصت الشرارة الكهربائية ، التي تقع في الجو ، النتروجين الصالح للذوبان في الماء ويسقط مع المطر ، ليعيد الخصوبة إلى الأرض . . وهو السماد الذي قلد الإنسان القوانين الكونية في صنعه ، فأصبح يصنعه الآن بنفس الطريقة ! وهو المادة التي يخلو وجه الأرض من النبات لو نفدت من التربة !

﴿ فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً . ومن النخل من طلعها قنوان دانية . وجنات من أعناب . والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه ﴾ . .

وكل نبت يبدأ أخضر . واللفظ ﴿ خضراً ﴾ أرق ظلاً ، وأعمق ألفة من لفظ " أخضر " . . هذا النبت الخضر ﴿ يخرج منه حباً متراكباً ﴾ . . كالسنابل وأمثالها . ﴿ ومن النخل من طلعها قنوان دانية ﴾ . . وقنوان جمع قنو وهو الفرع الصغير . وفي النخلة هو العذق الذي يحمل الثمر . ولفظة ﴿ قنوان ﴾ ووصفها ﴿ دانية ﴾ يشتركان في إلقاء ظل لطيف أليف . وظل المشهد كله ظل وديع حبيب . . ﴿ وجنات من أعناب ﴾ . . ﴿ والزيتون والرمان ﴾ . هذا النبات كله بفصائله وسلالاته – ﴿ مشتبهاً وغير متشابه ﴾ – ﴿ انظروا إلى ثمرة إذا أثمر وينعه ﴾ . . انظروا بالحس البصير ، والقلب اليقظ . . انظروا إليه في ازدهاره ، وازدهائه ، عند كمال نضجه . انظروا إليه واستمتعوا بجماله . . لا يقول هنا ، كلوا من ثمره إذا أثمر ، ولكن يقول : ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾ لأن المجال هنا مجال جمال ومتاع ، كما أنه مجال تدبر في آيات الله ، وبدائع صنعته في مجالي الحياة .

﴿ إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ . .

فالإيمان هو الذي يفتح القلب ، وينير البصيرة ، وينبه أجهزة الاستقبال والاستجابة في

الفطرة ، ويصل الكائن الإنساني بالوجود ، ويدعو الوجدان إلى الإيمان بالله خالق الجميع . . وإلا فإن هناك قلوباً مغلقة ، وبصائر مطموسة ، وفطراً منتكسة ، تمر بهذا الإبداع كله ، وبهذه الآيات كلها ، فلا تحس بها ولا تستجيب . . ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون ﴾ ، وإنما يدرك هذه الآيات الذين يؤمنون !

وعندما يبلغ السياق إلى هذا المقطع ؛ وقد عرض على القلب البشري صفحة الوجود الحافلة بدلائل وجود الله ، ووحدانيته ، وقدرته ، وتدبيره ، وقد غمر الوجدان بتلك الظلال الكونية الموحية ، وقد وصل الضمير بقلب الوجود النابض في كل حي ، الناطق ببديع صنع الخلاق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال حـ 2 صـ 1151 . 1161 ﴾

(322/243)

---

وقال الشيخ الصابونى :

﴿ إِنَّ اللهَ فَالِقُ الحب والنوى ﴾ أي يفلق الحبَّ تحت الأرض لخروج النبات منها ويفلق النوى لخروج الشجر منها قال القرطبي : أي يشق النواة الميتة فيُخرج منها ورقاً أخضر وكذلك الحبة ﴿ يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت وَمُخْرِجُ الميت مِنَ الحي ﴾ أي يخرج النبات الغضّ الطريّ من الحبّ اليابس ، ويخرج الحبَّ اليابس من النبات الحيّ النامي عن ابن عباس :

يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، وعلى هذا فالحي والميت استعارة عن المؤمن والكافر ﴿ ذلكم الله فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ أي ذلكم الله الخالق المدبر فكيف تُصرفون عن الحق بعد هذا البيان ! ﴿ فَالِقُ الإصباح ﴾ أي شاقُّ الضياء عن الظلام وكاشفه قال الطبري : شقّ عمود الصبح عن ظلمة الليل وسواده ﴿ وَجَعَلَ الليل سَكَناً ﴾ أي يسكن الناس فيه عن الحركات ويستريحون ﴿ والشمس والقمر حُسْبَاناً ﴾ أي بحساب دقيق يتعلق به مصالح العباد ، ويُعرف بهما حساب الأزمان والليل والنهار ﴿ ذلك تَقْدِيرُ العزيز العليم ﴾ أي ذلك التسيير بالحساب المعلوم تقدير الغالب القاهر الذي لا يستعصي عليه شيء العليم بمصالح خلقه وتدبيرهم ﴿ وَهُوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ النجوم لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ البر والبحر ﴾ أي خلق لكم النجوم لتهتدوا بها في أسفاركم في ظلمات الليل في البر والبحر ، وإنما امتنّ عليهم بالنجوم لأن سالكي القفار ، وراكبي البحار إنما يهتدون في الليل لمقاصدهم بها ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أي بيّنا الدلائل على قدرتنا لقوم يتدبرون عظمة الخالق ﴿ وَهُوَ الذي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ أي خلقكم وأبدعكم من نفسٍ واحدة هي آدم عليه السلام ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ قال ابن عباس : المستقرُّ في الأرحام والمستودع في الأصلاب ، أي لكم استقرار في أرحام أمهاتكم وأصلاب آبائكم ، وقال ابن مسعود : مستقر في الرحم ومستودع في الأرض التي تموت فيها ﴿ قَدْ

فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ أبي بينا الحجج لقوم يفقهون الأسرار والدقائق قال الصاوي : عبّر هنا ب ﴿ يَفْقَهُونَ ﴾ إشارة إلى أن أطوار الإنسان وما احتوى عليه أمرٌ خفيٌّ تتحير فيه الألباب ، بخلاف النجوم فأمرها ظاهر مشاهد ، ولذا عبّر فيها ب ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ وَهُوَ الذي أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أي أنزل من السحاب المطر فأخرج به كل ما ينبتُ من الحبوب والفواكه والثمار والبقول والحشائش والشجرَ قال الطبري : أي أخرجنا به ما ينبتُ به كل شيء وينمو عليه ويصلح ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً ﴾ أي أخرجنا من النبات شيئاً غضّاً أخضر ﴿ نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً ﴾ أي نُخرج من الخضر حباً متراكباً بعضُه فوق بعض كسنابل الحنطة والشعير قال ابن عباس : يريد القمح والشعير والذرة والأرز ﴿ وَمِنَ النخل مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ أي وأخرجنا من طلع النخل – والطلعُ أول ما يخرج من التمر في أكمامه – عناقيد قريبة سهلة التناول قال ابن عباس : يريد العراجين التي قد تدلّت من الطلع دانيةً ممن يجتنيها ﴿ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ ﴾ أي وأخرجنا بالماء بساتين وحدائق من أعناب ﴿ والزيتون والرمان مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ أي وأخرجنا به أيضاً شجر الزيتون وشجر الرمان مشتبهاً في المنظر وغير متشابه في الطعم قال قتادة : مشتبهاً ورقُه مختلفاً ثمرُه ، وفي ذلك دليل قاطع على الصانع المختار العليم القدير ﴿ انظروا إلى ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ أي انظروا أيها الناس نظر اعتبار واستبصار

إلى خروج هذه الثمار من ابتداء خروجها إلى انتهاء ظهورها ونضجها كيف تنتقل من حال إلى حال في اللون والرائحة والصغر والكبر ، وتأملوا ابتداء الثمر حيث يكون بعضه مراً وبعضه مالحاً لا يُنتفع بشيء منه ، ثم إذا انتهى ونضج فإنه يعود حلواً طيباً نافعاً مستساغ المذاق !

*(324/243)*

---

فسبحان القدير الخلاّق ! ! ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي إن في خلق هذه الثمار والزروع مع اختلاف الأجناس والأشكال والألوان لدلائل باهرة على قدرة الله ووحدانيته لقوم يصدّقون بوجود الله قال ابن عباس : يصدّقون أن الذي أخرج هذا النبات قادر على أن يحيي الموتى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 407 . 409 ﴾

*(325/243)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " فَأَخْرَجْنَا " فيه التِفَاتٌ من غيبة إلى تَكَلُّم بنون العظمة والباء في " به " للسَّببية .

وقوله : " نَبَات كُلِّ شَيْءٍ " قيل : المراد كُلّ ما يسمّى نباتاً في اللغة .

قال الفراء : " رزق كل شيء ، أي : ما يصلح أن يكون غِذاءً لكل شَيءٍ ، فيكون مَخْصُوصاً بالمتغذى به " .

وقال الطَّبري : " هو جميع ما يَنْمُوا من الحيوان والنبات والمعادن ؛ لأن كل ذلك يَتَغَذَّى بالماء " .

ويترتب على ذلك صِنَاعَةٌ إعرابية وذلك أنَّا إذا قُلْنَا بقول غير الفراء كانت الإضافة رَجعَةٌ في المعنى إلى إضافة شبه الصفة لموصوفها ، إذ يصير المعنى على ذلك : فَأَخْرَجْنَا به كُلَّ مُنْبَتٍ ، فإن النبات بمعنى المُنْبَتِ ، وليس مصدراً كهو في ﴿ أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأَرض ﴾ [ نوح : 17 ] وإذا قلنا بقول الفراء : كانت الإضافة إضافة بين مُتباينين ؛ إذ يصير المعنى غذاء كل شيء أو رزقه ، ولم ينقل أبو حيان عن الفراء غير هذا القول والفرَّاء له في هذه الآية القَولانِ المُتقدِّمان ، فإن قال : " رزق كل شيء " قال : وكذا جاء في التفسير ، وهو وَجْهُ الكلام ، وقد يجوز في العربية أن تضيف النبات إلى كُلّ شيء ، وأنت تريد بكُلِّ شيء النَّبَات أيضاً ، فيكون مثل قوله : " حَقّ اليَقينِ واليقين هو الحق " .

وقوله تبارك وتعالى : " فأَخْرَجْنَا " هذه النون تمسى نون العَظَمَةِ لا نون الجمع كقوله : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحاً ﴾ [ نوح : 1 ] ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر ﴾ [ الحجر : 9 ] ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر ﴾ [ القدر : 1 ] قوله : " فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ " في الهاء وجهان :

أحدهما : أن يعود على النَّبَاتِ ، وهو الظاهر ، ولم يذكر الزمخشري غيره ، وتكون " من " على بابها من كونها لابتداء الغاية ، أو تكون " من " للتبعيض ، وليس كذلك .

والثاني : يَعودُ على الماء ، وتكون " من " سَبَبِيَّةً .

وذكر أبو البقاء – رحمه الله تعالى – الوَجْهَيْنِ ، فقال : " فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ " أي : بسببه ، ويجوز أن تكون الهاء في " منه " راجعةً على النبات ، وهو الأشبه ، وعلى الأول يكون " فأَخْرَجْنَا " بدلاً من " أَخْرَجْنَا " الأول أي : أنه يكتفي في المعنى بالإخبار بهذه الجملة الثانية ، وإلا فالبدلُ الصناعي لا يظهر ، فالظاهر أن " فأخرجنا " عطف على " فأخرجنا " الأول .

*(326/243)*

---

وقال أبو حيان : وأجاز أبو البقاء – رحمه الله تعالى – أن يكون بدلاً من " فأخرجنا " .

قلت : إنما جعله بَدَلاً بِنَاءً على عَوْدِ الضمير في " منه " على الماء فلا يَصِحُّ أن يحكى عنه

أنه جَعَلَهُ بدلاً مطلقاً ؛ لأن البدليّة لا تتصوّرُ على جعل الهاء في " منه " عائدةً على النبات ، والخَضِرُ بمعنى الأخْضَر كـ " عَوِر " و " أعور " .

قال أبو إسحاق : يقال : أخضر يخضر فهو خضر وأخضر كـ " أعور " فهو عَوِر وأعور .

والخُضْرَة أحد الألوان ، وهو بين البياض والسواد ولكنها إلى السَّوادِ أقرب ، وكذلك أطْلِقَ الأسود على الأخضر ، وبالعكس ، ومنه " سواد العراق " لِخُضْرَةِ أرضه بالشجر ، وقال تبارك وتعالى : ﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ [ الرحمن : 64 ] أي : شَديدتَا السواد لرِيِّهِمَا ، والمُخاضَرَةُ مُبايَعَةُ الخُضَرِ والثمار قبل بلوغها ، والخضيرة : نخلة ينتثر بُسْرُهَا أخضر .

وقوله عليه الصلاة والسلام : " إيَّاكُمْ وخَضْرَاءَ الدِّمَنِ " فقد فَسَّرَهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : " المَرْأَةُ الحَسْنَاءُ في المَنْبَتِ السُّوءِ " والدِّمنُ : مَطَارِحُ الزِّبَالَةِ ، وما يُسْتَقْذَرُ ، فقد يَنْبُت منها ما يَسْتَحْسِنُهُ الرائي .

قال اللَّيْثُ : الخضر في كتاب الله الزَّرْعُ والكلأ ، وكل نبت من الخضر .

قوله : " نُخْرِجُ مِنْهُ " أي : من الخضر .

والجمهور على " نخرج " مُسْنَداً إلى ضمير المعظم نفسه .

(327/243)

وقرأ ابن محيصن والأعمش : " يخرج " بياء الغيبة مبنياً للمفعول و" حَبٌّ " قائم مقام فاعله ، وعلى كلتا القراءتين تكون الجملة صفةً لـ " خَضِراً " وهذا هو الظاهر ، وجوّزوا فيها أن تكون مُسْتَأنَفَةً ، و" متراكب " رفعاً ونصباً صفة لـ " حب " بالاعتبارين ، والمعنى أن تكون الحبَّات متراكبةً بعضها فوق بعض ، مثل [ سَنَابِلِ ] البُرِّ والشعير والأرز ، وسائر الحبوب ، ويحصل فوق السُّنْبُلَةِ أجسام دقيقة حادة كأنها الإبَرُ ، والمقصود [ من تخليقها مَنْعُ الطير من التِقَاطِ تلك الحبَّاتِ المتراكبة .

قوله : ﴿ وَمِنَ النخل مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ ﴾ يجوز في هذه الجملة أوجه : ]

أحسنها : أن يكون " من النخل " خبراً مقدماً ، و" من طلعها " بدل بعض من كل بإعادة العامل ، فهو كقوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ واليوم الآخر ﴾ [ الأحزاب : 21 ] .

و" قِنْوَانٌ " مبتدأ مؤخر ، وهذه الجملة ابتدائية عطفت على الفعلية قبلها .

الثاني : أن يكون " قِنْوان " فاعلاً بالجار قبله ، وهو " من النخل " و" من طلعها " على ما تقدَّم من البدليَّة ، وذلك على رأي الأخفش .

الثالث : أن تكون المسألةُ من باب التَّنَازُعِ ، يعني أن كلاًّ من الجارَّيْنِ يطلب " قنوان " على أنه فاعل على رأي الأخفش ، فإن أعملت الثاني ، وهو مختار قول البصريين أضمرت في الأوّل ، وإن أعملت الأوّل كما هو مختار قول الكوفيين أضمرت في الثاني .

قال أبو البقاءِ : والوجه الآخر أن يرتفع " قنوان " على أنه فاعل " من طلعها " فيكون في " من النخل " ضمير يفسره " قنوان " وإن رفعت [ " قنوان " ] بقوله : " ومن النخل " على قول من أمعلم أول الفعلين جاز ، وكان في " من طلعها " ضمير مرفوع قلت : فقد أشار بقوله : على أنه فالع " من طلعها " إلى إعمال الثاني .

*(328/243)*

---

الرابع : أن يكون " قنوان " مبتدأ ، و" من طلعها " الخبر ، وفي " من النخل " ضمير ، تقديره ونبت من النخل شيء أو ثمر ، فيكون " من طلعها " بدلاً منه .

قاله أبو البقاء رحمه الله ، وهذا كلام لا يصيح ؛ لأنه بعد أن جعل " من طعلها " الخبر ، فكيف يجعله بدلاً ؟ فإن قيل : يجعله بدلاً منه ؛ لأن " من النخل " خبر للمبتدأ .

فالجواب : أن قد تقدَّم هذا الوجه ، وجعله مقابلاً لهذا ، فلا بد أن يكون هذا غيره ، فإنه قال قبل ذلك : وفي رفعه وجهان :

أحدهما : هو مبتدأ ، وفي خبره وجهان :

أحدهما : هو " من النخل " ، و" من طلعها " بدل بإعادة الجار .

قال أبو حيان : وهذا إعراب فيه تخليط .

الخامس : أن يكون مبتدأ محذوف الخبر لدلالة " أخرجنا " عليه ، تقديره : ومخرجه من طلع النخل " قنوان " .

هذا نص الزمخشري ، وهو كما قال أبو حيان لا حاجة إليه ؛ لأن الجملة مُسْتَقِلَّةٌ في الإخبار بدونه .

السادس : أن يكون " من النخل " متعلقاً بفعل مقدر ، ويكون " من طلعها قنوان " جملة ابتدائية في موضع المفعول بـ " نخرج " وإليه ذهب ابن عطية ، فإنه قال : " ومن النخل " تقديره : نخرج من النخل " ، و " من طلعها قنوان " ابتداء خبر مقدم ، والجملة موضع المفعول بـ " نخرج " .

قال الشيخ : وهذا خطأ ؛ لأن ما يتعدى إلى مفعول واحد لا تقع الجملة في موضع مفعوله إلا إذا كان الفعل مما يعلق ، وكان في الجملة مَانِعٌ من العمل في شيء من مفرداتها على ما شرح في النحو ، و " نخرج " ليس مما يعلّق ، وليس في الجملة ما يمنع من العمل في مفرداتها ؛ إذ لو سُلِّطَ الفعل على شيء من مفردات الجملة لكان التركيب : ويخرج من النخل من طلعها قنوان [ بالنصب مفعولاً به .

*(329/243)*

وقال أبو حيَّان : ومن قرأ " يخرج منه حبّ متراكب " جاز أن يكون قوله " ومن النخل من طلعها قنوان " ] معطوفاً عليه نحو : ضرب في الدار زيد وفي السوق عمرو أي : إنه يعطف " قنوان " على حب " ومن النخل " على " منه " ، ثم قال : " وجاز أن يكون مبتدأ وخبراً وهو الأوجه " .

والقنوان جمع لـ " قِنْو " ، كالصِّنْوَان جمع لـ " صِنْو " والقِنْو : العِذْق بكسر العين وهو عُنْقُودُ النخلة ، ويقال له : الكِبَاسَةُ .

قال امرؤ القيس : [ الطويل ]

2268 - وَفَرْعٍ يُغَشِّي المَتْنَ أَسْوَدَ فَاحِمٍ . . .

أَثِيثٍ كَقِنْوِ النَّخْلَةِ المُتَعَثْكِلِ

وقال الآخر [ الطويل ] :

2269 - سَوَامِقُ جَبَّارٍ أَثِيثٍ فُرُوعُهُ . . .

وعَالَيْنَ قِنْوَاناً مِنَ البُسْرِ أَحْمَرَا

والقنوان : جمع تكسير .

قال أبو علي : الكسرة التي في قنوان ليست التي في " قِنْو " ؛ لأن تلك حذفت في التكسير ، وعاقبتها كسرة أخرى كما قُدِّرَ تَغَيُّرُ كسرة " هِجَان " جمعاً عن كَسْرته مفرداً ، فكسرة " هجان " جمعاً ككسرة " ظِرَاف " .

قال الواحدي – رحمه الله – : وهذا مما تُوَضِّحُهُ الضمة في آخر " منصُور " على قول من قال " يا حارُ " يعني بالضمة ليست التي كانت فيه في قول من قال : " يا حَار " يعين بالكسر .

وفي لقات :

فَلُغَةُ " الحجاز " : قِنْوان " بكسر القاف ، وبه قراءة الجمهور وقرأ الأعمش ، والحباب عن أبي عمرو – رضي الله عنه – ، والأعرج بضمها ، ورواها السمي عن علي بن أبي طَلْحَةَ ، وهي لغة " قَيْس " .

ونقل ابن عطية عكس هذا ، فجعل الضم لغة " الحجاز " ، فإنه قال : " وروي عن اعرج ضم القاف على أنه جع " قُنْو " بضم القاف " .

قال الفراء : " وهي لغة " قيس " ، وأهل " الحجاز " ، والكسر أشهر في العرب " .

*(330/243)*

---

واللغة الثالثة " قَنْوَان " بفتح القاف ، وهي قراءة ابي عمرو – رحمه الله تعالى – في رواية هارون عنه ، وخرَّجها ابن جني على أنها اسم جمع " قنو " لا جمعاً ؛ إذ ليس في صِيَغِ الجمنع ما هو على وَزْن " فَعْلان " بفتح الفاء ، ونظَّره الزمخشري بـ " رَكْب " ، وأبو البقاء – رحمه الله بـ " الباقر " ، وتنظير أبي البقاء أوْلَى ؛ لأنه لا خلاف في " الباقر " أنه سام جمع ،

وأما " رُكْب " فيه خلاف لأبي الحسن مشهور ، ويَدُلُّ على ذلك أيضاً شيء آخر وهو أنه قد سمع في المفرد كسر القاف ، وضمها ، فجاء الجمع عليهما ، وأما الفتح فلم يَرِدْ في المفرد .

واللغة الرابعة " قنيان " بضم القاف مع الياء دون الواو .

والخامسة : " قِنْيان " بكسر القاف مع الياء أيضاً ، وهاتان لغتا " تميم " و" ربيعة " .

وأما المفرد فلا يقولونه بالياء أصلاً ، بل بالواو ، سواء كسروا القاف أو ضموها ، فلا يقولون إلا قِنْواً وقُنْواً ، ولا يقولون : قِنياً ولا قُنْياً ، فخالف الجمع مفرده في الماة ، وهو غريب ، واختلف في مدلول " القِنْو " ؛ فقيل : هو الجُمَّار ، وهذا يكاد يكون غَلَطاً ، وكيف يوصف بكونه دانياً ؛ أي : قريب الجَنَى والجُمَّارُ إنما هو في قَلْبِ النخلة ؟ والمشهور أنه العِذْق كما تقدم ذلك .

وقال ابن عباس : يريد العراجينَ التي قد تدلّت من الطلع دَانِيَةً ممن يَجْتَنيها .

وروي عنه أنه قال قصار النخل اللاصقة عُذُوقها بالأرض .

قال الزجاج ولم يقل : ومنها قنوان بعيدة ؛ لأن ذِكْرَ أحد القسمين يَدُلُّ على الثاني ، لقوله : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [ النحل : 81 ] ، ولم يقل : سرابيل تقيكم البرد .

وقيل أيضاً : ذكر الدانية القريبة ، وترك البعيدة ؛ لأن النعمة في القريبة أكثر .

قال أبو عبيد : " وإذا ثَنَّيْتَ " قِنْواً " قلت : قِنْوانِ بكسر النون ثم جاء جمعه على لفظ الاثنين مثل : صِنْو وصِنْوَان ، والإعراب على النون في الجمع [ وليس لهما في كلام العرب نظير ؛ قال الشاعر : [ الطويل ]

2270 - . . . . . .

وقال بِقنوانٍ البُسْرِ أحْمَرَا

قال شهبا الدين : إذا وقف على " قنوان " المُثَنّى رفعاً ، وعلى " قنوان " جمعاً وقع الاشتراك اللفظي ، ألا ترى أنك إذا قلت " عندي قنوان " وقفاً احتمل ما ذكرته في التثنية والجمع ، وإذا وصلت وقع الفرق ، فإنك تجعل الإعراب على النون حال جمعه كغِرْبَان وصردان ، وتكسر النون في التثنية ، ويقع الفرق أيضاً بوجوه آخر :

منها انقلاب الألف ياء نصباً وجراً في التقينة نحو رأيت قِنْويك وصنوْيكَ ، ومررت بِقنوْيك وصِنْوَيْك .

ومنها : حذف نون التثنية إضافة وثبوت النون في الجمع ] .

نحو : جاء قواك وصنواك [ ونوانك وصنوانك ] ومنها في النسب فإنك تحذف علامتي التثنية ، فتقول : قنوي وصنوي ، ولا تحذف الألف والنون إذا أردت الجمع بل تقول : قنواني وصنواني ، وهذا اللفظان في الجمع تكسراً يشبهان الجمع تصحيحاً ، وذلك أن كُلاًّ منهما

لحق آخره علامتان في حال الجمع مزيدتان ، ولم يتغير معهما بناء الواحد ، والفرق ما تقدم .

وأيضاً فإن الجمع من قِنْوان وصِنْوَان إنما فهمناه من صيغة فعلان ، ولا من الزيادتين ، بخلاف " الزيدين " فإن الجمع فهمناه منهما ، وهذا الفصل الذي من محاسن علم الإعارب والتصريف واللغة .

وقال الراغب : بعد أن ذكر أنه العِذق : والقناة تُشْبِهُ القِنْوَ في كونها غُصْنَيْنِ ، وأما القناة التي يجري فيها الماء قيل لها ذلك ؛ لأنها تشبه القناة في الخطِّ والامتداد .

وقيل : أصلة من قَنَيْتُ الشيء إذا ادّخرته ؛ لأنها مُدَّخرة للماء .

وقيل : هو من قَانَاهُ أي : خالطه .

قال امرؤ القيس : [ الطويل ]

2271 - كبِكْرِ مُقَانَاةِ البيَاضِ بِصُفْرَةٍ . . .

*(332/243)*

---

غَذَاهَا نُمَيْرٌ غَيْرَ مَحَلِّلِ

وأما " القَنَا " الذي هو الاحْدِيداب في الأَنْفِ فَيُشَبَّهُ في الهيئة بالقنا يقال : رجل أَقْنَى ، وأمرأةٌ قَنْوَاء ، كأَحْمَر وحمراء .

والطَّلْعُ : أوّل ما يخرج من النَّخْلة في أكْمامِهِ .

قال أبو عبيد : الطَّلْعُ الكُفُرَّى قبل أن تَنْشَقَّ عن الإغريض والإغْريضُ يسمى طلعاً يقال : أطلعت النخلة إذا أخرجت طلعها تطلع إطلاعاً وطلع الطلع يطلع طلوعاً ؛ ففرقوا بين الإسنادين ، وأنشد بعضهم في مراتب ام تثمره النخل قول الشاعر : [ الرجز ]

2272 - إنْ شِئْتَ أنْ تَضْبِطَ يَا خَلِيلُ . . .

أسْمَاء مَا تُثْمِرُهُ النَّخِيل

فَاسْمَعْهُ مَوْصُوفاً عَلَى مَا أذْكُرُ . . .

طَلْعٌ وبَعدَهُ خلالٌ يَظْهَرُ

وبَلَحٌ ثُمَّ يَلِيهِ بُسْرُ . . .

ورُطَبٌ تَجْنِيهِ ثُمَّ تَمْرُ

فَهَذِهِ أنْواعُهَا يَا صِاحِ . . .

مَضْبُوطَةً عَنْ صَاحِبِ الصِّحَاحِ

قوله : " وجَنَّاتٍ " الجمهور على كَسْرِ التاء من " جنات " ؛ لأنها مَنْصُوبة نَسَقاً على " نبات " أي : فأخرجنا بالماء النبات وجنات ، وهو من عَطْفِ الخاصّ على العام تشريفاً لهذين الجنسين على غيرهما كقوله تعالى : ﴿ وملائكته ورُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ [ البقرة : 98 ] وعلى هذا فقوله : ﴿ وَمِنَ النخل مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ ﴾ جملة معترضة وإنما جيئ

بهذه الجملة معترضة وأبرزت في صورة المبتدأ والخبر تعظيماً للْمنَّةِ به لأنه من أعظم قُوتِ العرب ، ولأنه جامع بين التَّفَكُّهِ والقوت .

ويجوز أن ينتصب " جنات " نسقاً على " خَضِراً " ، وجوز الزمخشري - وجعلهُ الأحسن - أن ينتصب على الاختِصَاصِ ، كقوله : ﴿ والمقيمي الصلاة ﴾ [ الحج : 35 ] .

قال : " لفضل هذين الصِّنفين " وكلامه يفهم أن القراءة الشهيرة عنده رفع " جَنَّات " والقراءة بنصبهما شاذَّة ، فإنه أوَّل ما ذكر توجيه الرَّفْع كما سياتي ، ثم قال : وقرئ " وجنات " بالرفع وفيها ثلاثة أوجه :

(333/243)

---

أحدهما : أنها مرفوعة بالابتداء ، والخبر محذوف ، واختلفت عبارة العربين في تقديره فمنهم من قدَّرَهُ متأخراً ومنهم من قدَّرَهُ متقدماً ؛ فقدَّره الزمخشري متقدماً أي : وثمَّ جنات ، وقدره أبو البقاء : ومن الكَرْمِ جنَّاتٌ ، وهذا تقدير حسن لِمُقابلةِ قوله : " ومِنَ النَّخْل " أي : من النخل كذا ، ومن الكرم كذا ، وقدَّرَهُ النَّحَّاسُ " ولَهُمْ جنَّاتٌ " ، وقدره ابن عطية : " ولكن جنَّات " .

ونظيره قوله في قراءته ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ [ الواقعة : 22 ] بعد قوله : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ

وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ ﴾ [ الواقعة : 17 ، 18 ] أي : ولهم حُورٌ عين ، ومثل هذا اتَّفَقَ على جوازه سيبويه ، والكسائي ، والفراء .

وقدره الزمخشري ، وأبو حيان متأخراً ؛ فقال : أي : وجنات من أعناب أخْرجناها قال الشيخ : ودلَّ على تقديره قوله قبل : " فأخْرَجْنَا " كما تقول : أكرمت عبد الله وأخوه ، أي : وأخوه أكرمته .

قال شهاب الدين : وهذا التَّقديرُ سَبَقَهُ إليه ابن الأَنْبَارِيّ ، فإن قال : " الجنَّات " رفعت بمضمر بعدها تأويلها : وجنات من أعناب أخرجناها ، فجرى مجرى قول العرب " أكرمت عبد الله وأخوه " تريد وأخوه أكرمته .

قال الفرزدق : [ الطويل ]

2273 - غَدَاةَ أَحَلَّتْ لابْنِ أَصْرَمَ طَعْنَةٌ . . .

حُصَيْنٍ عَبِيطاتِ السَّدائِفِ والخَمْرُ

فرفع " الخمر " وهي مفعول على معنى : والخمر أَحَلَّها الطَّعْنَة .

والوجه : الثاني : أن يرتفع عَطْفاً على " قِنْوان " تغليباً للجوار ؛ كقول الشاعر : [ الوافر ]

2274 - . . . . . .

وَزَجَّجْنَ الحَوَاجِبَ والعُيُونَا

فنسق " العيون " على " الحواجب " تَغْلِيباً للمُجَاورةِ ، والعيون لا تُزَجَّج كما أن الجنَّاتِ من

الأعناب لايكُنَّ من الطَّلْع ، هذا نص مذهب ابن الأنباري أيضاً ، فَتَحَصَّلَ له في الآية الكريمة مذهبان ، وفي الجملة فَالجواب ضَعيفٌ وقد تقدَّم أنه من خَصَائِصِ النَّعْتِ .

(334/243)

---

والثالث : أن يُعطف على " قنوان " .

قال الزمخشري : على معنى مُحَاطَةَ أو مخرجه من النخل قنوان ، وجنات من أعناب أي من نبات أعناب .

قال أبو حيان رحمه الله تعالى : وهذا العَطْفُ على ألاَّ يلحظ فيه قَيْدٌ من النخل ، فكأنه قال : ومن النخل قِنْوانق دانية ، وجنات من أعناب حَاصِلة ، كما تقول : " من بني تميم رجل عاقل ورجل من قريش مُنْطَلِقان " .

قال شهاب الدين رحمها لله : وقد ذكر الطبري أيضاً هذا الوَجْهَ أعني عَطْفَهَا على " قنوان " ، وضعَّفَهُ ابن عطية ، كأنه لم يظهر له ما ظهر لأبي القاسم من المعنى المشار إليه ، ومنع أبو البقاء عطفه على " قنوان " ، قال : " لأن العِنبَ لا يخرج من النخل " .

وأنكر أبو عبيد وأبو حاتم هذه القراءة قال أبو حاتم : " هذه القرءاة محال لأن الجنات من الأعناب لا تكون من النخل " .

قال شهاب الدين : أما جواب أبي البقاء فبما قاله الزمخشري .

وأما جواب أبي عبيد وأبي حاتم فبما تقدَّم من تَوْجيهِ الرفع ، و" ن أعاب " صفة لـ " جنات " فتكون في محلِّ رفع ونصب بحسب القراءتين ، وتتعلق بمحذوف .

قوله : " والزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ " لم يقرأهما أحد إلاَّ مَنْصُوبَيْنِ ، ونصبهما : إما عطف على " جنات " ، وإما على " نبات " وهذا ظاهر قول الزمخشري ، فإنه قال : وقرئ " وجنات " بالنصب عطفاً على " نبات كل شيء " أي : وأخرجنا به جنات من أعناب ، وكذلك قوله : " والزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ " .

ونص أبو البقاء على ذلك فقال : " وجنات " بالنصب عَطْفاً على " نبات " ومثله " الزيتون والرمان " .

وقال ابن عطية : عطفاً على " حبًّا " وقيل على " نبات " وقد تقدم أن في المعطوف الثالث فصاعداً احتمالين :

أحدهما : عطفه على ما يليه .

(335/243)

والثاني : عطفه على الأوّل نحوه مررت بزيد وعمرو وخالد ، فخالد يحتمل عطفه على زيد وعمرو ، وقد تقدم أن فائدة الخلاف تظهر في نحو : " مررت بك وبزيد وبعمرو " ، فإن جعلتهُ عطفاً على الأول لزمت الباء ، وإلاَّ جَازتْ .

و" الزَّيْتُون " وزنه " فَيْعُول " فالياء مزيدة ، والنون أصْلِيَّة لسقوط تلك في الاشتقاق ، وثبوت ذي ، قالوا : أرض زتنَةٌ ، أي : كثيرة الزيتون ، فهو نظير قَيْصُوم ، لأن فَعْلُولاً مفقود ، أو نادرٌ ولا يتوهم أن تَاءَهُ أصلية ونوه مزيدة لدلالة الزَّيْتِ ، فإنهما مادَّتانِ مُتغايرتان ، وإن كان الزيت مُعْتصراً منه ، ويقال : زاتَ طعامه ، أي : جعل في زَيْتاً ، وزاتَ رَأسَهُ أي : دَهَنَهُ به ، وزْدَاتَ : أي ادَّهَنَ أبْدلت تاء الافتعال دالاً بعد الزاي كازْدَجَرَ وازْدَانَ .

و" الرُّمَّان " وزنه فُعَّال نونه أصلية ، فهو نظير : عُنَّاب وحُمَّاض ، لقولهم : أرض رَمِنَهُ أي : كثيرَتُهُ .

قال الفراء : قوله تعالى : ﴿ والزيتون والرمان ﴾ يريد شجر الزيتون ، وشجر الرمان ؛ كقوله تعالى : ﴿ واسأل القرية ﴾ [ يوسف : 82 ] يريد أهْلَهَا .

قوله : " مُشْتَبِهاً " حالٌ ؛ إما من " الرُّمَّان " لِقُرْبِهِ ، وحذفت الحال من الأول ؛ تقديره : والرمان مشتبهاً ، ومعنى التشابه أي في اللَّوْنِ ، وعدم التشابه أي في الطعم .

وقيل : هي حال من الأول ، وحذفت حال الثاني ، وهذا كما تقدَّم في الخبر المحذوف ، نحو : ﴿ واللهُ ورَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [ التوبة : 62 ] وإلى هذا نحا الزمخشري ، فإنه قال

: تقديره : والزيتون مشتبهاً ، وغير مشتبه ، والرمان كذلك ؛ كقول القائل في ذلك : [ الطويل

]

2275 - رَمَانِي بأمْرٍ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي . . .

بَرِيئاً . . . . . .

أي : ولم يقل : مشتبهين اكتفى بوصف أحدهما أو على تقدير : " والزيتون مشتبهاً وغير متشابه ، والرُّمَّان كذلك " .

(336/243)

---

قال أبو حيان : " فعلى قوله يكون تقدير البيت : كنت منه بريئاً ، ووالدي كذلك ، أي : بريئاً ، والبيت لا يتَعيَّنُ فيه ما ذكره ؛ لأن " ريئاً " على وزن " فعيل " كصديق ورفيق ، فَصَحَّ أن يخبر به عن المفرد والمثنى والمجموع ، فيحتمل أن يكون " بريئاً " خبر " كان " على اشتراك الضمير والظاهر المعطوف عليه فيه إذ لا يجوز أن يكون خبراً عنهما ، ولا يجوز أن يكون حالاً عنهما ، إذ لو كان كذلك لكان التركيب مشتبهين وغير مشتبهين " .

وقال أبو البقاءِ : حَالٌ من " الرمان " ومن الجميع ، فإن عَنَى في المعنى فصحيح ، ويكون على الحذف ، وكما تقدم فإن أراد بالصِّناعةِ ، فليس بشيء ؛ لأنه كأنه يلزم المطابقة .

والجمهور على " مشتبهاً " .

وقرئ شاذاً " متشابهاً " وغير متشابه كالثانية ، وهما بمعنى واحِدٍ قال الزمخشري : " كقولك اشتبه الشيئان ، وتشابها كاسْتَوَيَا وتَساوَيَا والافتعال والتَّفَاعُل يشتركان كثيراً " .

انتهى وقد جمع بينهما في هذه الآية الكريمة في قوله " مشتبهاً وغير متشابه " .

قوله : " إلَى ثَمَرِهِ " متعلق بـ " انظروا " وهو بمعنى الرُّؤية ، وإنما تَعَدَّتْ بـ " إلى " لما تَتَضَمَّنُهُ من التفكر .

وقرأ الأخوان " ثُمُرِهِ " بضمتين ، والباقون : فتحتين .

وقرئ شاذاً بضم الأوّل ، وسكون الثاني .

وأما قراءة الأخوين فتحتمل أربعة أوجه :

أحدها : أن يكون اسماً مفرداً ؛ كطُنُب وعُنُق .

والثاني : أنه جمع الجمع ، فَثَمر جمع : ثمار ، وثمار جمع ثَمَرة وذلك نحو : أُكُم جمع إكَام ، وإكَام جمع أَكَمَة ، فهو نظير كُثْبَان وكُثُب .

والثالث : أنه جمع " ثَمَر " كما قالوا : أسَد وأسُد .

والرابع : أنه جمع : ثمرة .

قال الفارسي : " الأحْسَنُ أنيك ون جمع ثَمَرَة ، كخَشَبَة وخُشُب ، وأَكَمَة وأُكُم ، ونظيره في المعتل : لاَبَةٌ ولُوبٌ ، وناقةٌ ونوقٌ ، وسَاحَةٌ وسُوحٌ " .

---

وأما قراءة الجماعة ، فالثَّمَر اسم جنس ، مفرده ثمرة ، كشجر وشجرة ، وبقر وبقرة ، وجَرَز وجَرَزَة .

وأما قراءة التسكين فيه تخفيف قراءة الأخوين وقيل : بل هي جمع " ثمرة " كبُدْن جمع " بَدنة " ، ونقل بعضهم أنه يقال : ثمرة بزنة سمرة ، وقياسها على هذا ثَمُر كَسَمُر بحذف التاء إذا قصد جمعه ، وقياس تكسيره أثمار ، كعضد وأعْضَاد .

وقد قرأ عمرو الذي في سورة " الكهف " بالضم وسكون الميم ، فهذه القرءاة التي هنا فَصِيحَةٌ كان قياس أبي عمرو أن يقرأهما شيئاً واحداً لولا أن القراءة مُسْتَنَدُهَا النقل .

وقرا أبو عمرو والكسائي وقنبل " خُشْب " والباقون بالضم فهذه القراءة نظير تيك .

وهذا الخلاف أعني في " ثمره " والتوجيه بعينه جارٍ في سورة يس [ آية 35 ] وأما الذي في سورة " الكهف " ففيه ثلاث قراءات : فعاصم يقرؤه بفتحتين ، كما يقرؤه في هذه السورة ، وفي يس فاستمر على عَمَلٍ واحد ، والأخوان يقرآنه بضمتين في السور الثلاث ، فاستمر على عمل واحد ، وأما نفاع وابن كثير وأبن عامر فقراوا في " الأنعام " و " يس " فتحتين ، وقرأوا ما في " الكهف " بضمتين .

وأما أبو عمرو فقرأ ما في " الأنعام " و" يس " بفتحتين ، وما في " الكهف " بضمة وسكون ، وقد ذكروا في توجيه الضمتين في " الكهف " ما لا يمكن أن يأتي في السورتين ، وذلك أنهم قالوا في الكهف : الثُّمُر بالضم : المال ، وبالفتح المأكول .

قوله : " إِذَا أَثْمَرَ " ظرف لقوله : " انْظُرُوا " وهو يحتمل أن يكون متمحضاً للظرف ، وأن يكون شرطاً ، وجوابه محذوف أو متقدم عند من يرى ذلك أي : إذا أثمر فانظروا إليه .

قوله : " وَيَنْعِهِ " الجمهور على فتح الياء مِنْ " يَنْعِهِ " وسكون النون .

وقرأ ابن محيصن بضم الياء ، وهي قراءة قتادة والضحاك .

*(338/243)*

---

وقرأ إبراهيم بن أبي عَبْلَةَ واليماني : يانعة ، ونسبها الزمخشري لابن محيصن ، فيجوز أن يكون عنه قراءتان ، واليَنعُ بالفتح والضم مصدر يَنَعَتِ الثمرة ؛ أي : نضجت ، والفتح لغة " الحجاز " والضم لغة بعض " نجد " ، ويقال أيضاً : يُنُع بضم الياء والنون ويُنُوع بواو بعد ضمتين .

وقيل : اليَنْعُ بالفتح جمع " يانع " كتاجر وتَجْر ، وصاحب وصَحْب ، ويقال : يَنَعت الثمرة ، وأينعت ثلاثياً ورباعياً بمعنى .

وقال الحجاج : " أرى رءوساً قد أَيْنَعَتْ وحان قِطَافُهَا " ، ويانع : اسم فاعل .

وقيل : أينعت الثمرة وينعت احْمَرَّتْ قاله الفراء ، ومنه الحديث في المُلاعَنَةِ : " إنْ ولدَتْهُ أحْمَرَ مِثْلَ اليَنَعَةِ " .

ويه خَرَزَةٌ حمراء ، قيل : هي العَقيقُ ، أو نوع منه ويقال : يَنَعَتْ تَيْنِع بفتح العين في الماضي وكسرها في المستقبل ، هذا قول أبي عبيده وأنشد : [ المديد ]

2276 - فِي قِبَابٍ حَوْلَ دَسْكَرَةٍ . . .

حَوْلَهَا الزَّيْتُونُ قَدْ يَنَعَا

وقال الليث بعكس هذا ، أي بكسرها في الماضي ، وبفتحها في المستقبل وأينعت فهي تينعُ وتَوْنَعُ إيناعاً ويَنَعاً بفتح الياء ويُنعاً بضم الياء ، والنَّعت يَانِعٌ ومُونِعٌ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 317.332 ﴾ . باختصار .

*(339/243)*

---

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

( بصيرة في ينع )

يَنَعَ الثَّمَرُ يَيْنَعُ ويَيْنِع كيَعْلَم ويَضْرِبُ يَنْعاً بالفتح ، ويُنْعاً بالضمّ ويُنُوعاً ، ولم تَسْقُط الياءُ فى المستقبلِ لتقَوِّيها بأُخْتِها ، قال الله تعالى : ﴿ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ وقرأَ قَتادةُ ومُجاهدٌ وابن مُحَيْصن وابنُ أَبى إِسحاق ، وأَبو السَمَّال : "ويُنْعه" بالضَمّ ، وهما مثل النَّضج والنُّضْج ، قال :

*فى قِبابٍ حَوْلَ دَسْكَرَةٍ * حَوْلَها الزَّيْتُون/ قَدْ يَنعا *

واليَنِيعُ واليانعُ مثلُ النَّضِيج والنَّاضج ، ومنه الحديثُ : "وابْعَث راعِيها فى الدَّثْر بيانع الثَّمَر"" قال عَمْرُوا بن مَعْدِ يكرِبَ رضى الله عنه :

*كأَنَّ على عَوارِضِهِنَّ رَاحاً * يُفَضُّ عَلَيْه رُمّانٌ يَنِيعُ *

وقرأَ أَبو رجاءٍ العُطارِدِىّ وابن مُحَيْصن واليَمانِىُّ وابنُ أَبى عَبْلَة "ويانِعِه" ؛ واليانعُ : الأَحْمَرُ من كلّ شىءٍ ، ويقال : إمرأَةٌ يانِعَةُ الوَجْنَتَيْن قال رَكَّاض الدُّبَيْرِىّ :

*ونَحْراً عليه الدُّرُّ تَزْهُو كُرُومُه * تَرائِب لاشُقْراً يَنَعْنَ ولا كُهْبَا *

ويُقال : دَمٌ يانعٌ ، قال سُوَيْدُ بن كُراع العُكْلِىّ :

*وأَبْلَخ مُختال صَبَغْنا ثِيابَهُ * بأَحْمرَ مِثْلِ الأُرْجُوانىّ يانعِ *

وقال ابنُ كَيْسان : جمعُ يانع الثَمَرِ يَنْعٌ كصاحِب وصَحْب .

وأَيْنَع الثَمَرُ إِيناعاً [فهو مُوِنع ، وهِى] مُوِنعَة مثل يَنَعَ .

وفى كلام الحَجّاج أَنَّه خَطَبَ حين دَخَل العراقَ فقال فى خُطْبته : إِنِّى أَرَى رُءُوساً قد

أَينَعَتْ وحانَ قِطافُها .

يريد استحقاقَها لِلْقَطْع .

واليُنْع بالضَمّ : شجرة من جُلِّ الشَّجَر .

وبالتَّحْرِيك : ضَرْبٌ من العَقِيق معروفٌ .

وقيل : اليَنَعَة : خَرَزَةٌ حمراء .

وفى حديث المُلاعَنَة "إنْ ولَدَتْه أَحْمَرَ مِثْل اليَنَعَة فهُوَ لأَبِيه الَّذى انْتَفَى منه" . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 412.411 ﴾

*(340/243)*

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ﴾

تجانست أجزاءُ الأرض وتوافقت أقطارُ الكون ، وتباين النبات في اللون والطَّعم واختلفت الأشياء ، ودلَّ كلُّ مخلوقٍ بلسان فصيح ، وبيان صريح أنه بنفسه غير مُستَقِل . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 492 ﴾

فصل فى الإعجاز العلمى فى الآية الكريمة

قال الدكتور / زغلول النجار :

من أقوال المفسرين

في تفسير قوله ( تعالي ) : وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء

فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا

متراكبا . . * .

( الأنعام 99 ) .

* ذكر ابن جرير ( رحمه الله ) مانصه :( فأخرجنا ) يعني : من الماء ( خضرا ) هو

الأخضر الرطب من الزرع ( حبا متراكبا ) هو مافي السنبل من الحب . . . .

* وذكر ابن كثير ( رحمه الله ) مانصه :( وهو الذي أنزل من السماء ماء ) أي بقدر ,

مباركا ورزقا للعباد وإحياء وغياثا للخلائق , رحمة من الله بخلقه ,( فأخرجنا به نبات كل

شيء ) , كقوله ( وجعلنا من الماء كل شيء حي ) ,( فأخرجنا منه خضرا ) أي زرعا

وشجرا أخضر , ثم بعد ذلك نخلق فيه الحب والثمر . ولهذا قال ( تعالي ) :( نخرج منه

حبا متراكبا ) أي يركب بعضه بعضا كالسنابل ونحوها . . . .

* وجاء في تفسير الجلالين ( رحم الله صاحبيه ) مانصه :( وهو الذي أنزل من السماء ماء

فأخرجنا ) فيه التفات عن الغيبة ( به ) بالماء ( نبات كل شيء ) ينبت ( فأخرجنا منه ) أي : النبات شيئًا ( خضرا ) بمعني : أخضر ( نخرج منه ) من الخضر ( حبا متراكبا ) يركب بعضه بعضا كسنابل الحنطة ونحوها . . .

* وذكر صاحب الظلال ( رحمه الله رحمة واسعة جزاء ماقدم ) مانصه : والماء كثيرا ما يذكر في القرآن في صدد ذكر الحياة والإنبات . . ودور الماء الظاهر في إنبات كل شيء دور واضح يعلمه البدائي والمتحضر , ويعرفه الجاهل والعالم . ولكن دور الماء في الحقيقة أخطر وأبعد مدي من هذا الظاهر الذي يخاطب به القرآن الناس عامة . . . . . وكل نبت يبدأ أخضر , واللفظ ( خضر ) أرق ظلا , وأعمق ألفة من لفظ ( أخضر ) , هذا النبت الخضر ( يخرج منه حبا متراكبا ) كالسنابل وأمثالها . . . .

*(341/243)*

---

* وجاء في صفوة البيان لمعاني القرآن ( رحم الله كاتبه ) مانصه :( فأخرجنا منه خضرا ) أي أخرجنا من النبات الذي لا ساق له نباتا غضا أخضر ; وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة , وخضر بمعني أخضر , اسم فاعل . يقال : خضر الزرع ـ من باب فرح ـ واخضر

فهو خضر وأخضر ( نخرج منه حبا متراكبا ) أي سنابل فيها الحب يركب بعضه بعضا ; كما في الحنطة والشعير وسائر الحبوب . يقال : ركبه ـ كسمعه ـ ركوبا ومركبا , علاه , كارتكبه . . . .

* وذكر أصحاب المنتخب في تفسير القرآن الكريم ( جزاهم الله خيرا ) ما نصه : وهو الذي أنزل من السحاب ماء أخرج به نبات كل صنف , فأخرج من النبات شيئا غضا طريا , ونخرج منه حبا كثيرا بعضه فوق بعض . . . .

*(342/243)*

---

وجاء تعليق الخبراء بالهامش ليقول : توضح هذه الآية الكريمة في النباتات كيفية خلق تلك الثمار وكيف نشأت ونمت في أطوارها المختلفة حتي وصلت إلي طور نضجها الكامل بما تحويه من مركبات مختلفة من الزيوت , والبروتينات والمواد الكربوهيدراتية كالسكريات والنشويات , كل هذا يتكون في وجود ضوء الشمس عن طريق المادة الخضراء ( مادة اليخضور ) التي توجد عادة في المجموع الخضري للنباتات , خاصة الأوراق , فهي المصنع الذي تتكون فيه تلك المركبات , ومنها توزع علي باقي اجزاء النبات بما فيها البذور والثمار , علاوة علي أن الآية الكريمة تقطع بأن ماء المطر هو المصدر الوحيد للماء العذب

علي الأرض , وأن طاقة الشمس هي مصدر طاقات الأحياء جميعا , ولكن النباتات هي التي تستطيع اختزان طاقة الشمس بواسطة مادة اليخضور وتسلمها لكل من الإنسان والحيوان في المواد الغذائية العضوية التي كونتها , وقد كشف العلم عن حقيقة باهرة تدل علي وحدة الخالق , وهي أن مادة الهيموجلوبين اللازمة لتنفس الإنسان وتنفس كثير من أنواع الحيوان وثيقة الصلة بمادة اليخضور , فذرات الكربون والإيدروجين والأكسوجين والنيتروجين تكتنف ذرة الحديد في جزيء الهيموجلوبين , بينما هي بنفسها تكتنف ذرة المغنيسيوم في جزيء اليخضور , كما أنه قد اتضح من البحوث الطبية أن مادة اليخضور عندما يتمثلها جسم الإنسان تندمج في خلاياه فتقويها وتساعدها في القضاء علي جراثيم الأمراض فتتيح لأنسجة

الجسم فرصة الدفاع ومكافحة الأمراض .

وفي آخر الآية الكريمة قوله تعالي :( انظروا إلي ثمره إذا أثمر وينعه . . ) وفي هذه الإشارة سبق لعلم النبات الحديث فيما وصل إليه من الاعتماد في دراسته علي مشاهدة الشكل الخارجي لأعضائه كافة في أدواره المختلفة .

*(343/243)*

* وجاء في صفوة التفاسير ( جزي الله كاتبها خيرا ) مانصه :( وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ) أي أنزل من السحاب المطر فأخرج به كل ماينبت من الحبوب والفاكهة والثمار والبقول والحشائش والشجر ,( فأخرجنا منه خضرا ) أي أخرجنا من النبات شيئا غضا أخضر ( نخرج به حبا متراكبا ) أي نخرج من الخضر حبا متراكبا بعضه فوق بعض كسنا بل الحنطة والشعير , قال ابن عباس : يريد القمح والشعير والذرة والأرز .

الدلالات العلمية للنص القرآني :

أولا ـ وهو الذي أنزل من السماء ماء :

علي الرغم من فهمنا لعملية نزول المطر من السماء وما يتدخل في ذلك من تصريف الرياح وامرارها علي مصادر الماء , وتحميلها ببخاره حتي تتكون السحب بارتفاع هذه الرياح المحملة ببخار الماء إلي الأجزاء العليا من نطاق الرجع ( نطاق التغيرات المناخية ) حيث تثريها دورة الماء حول الأرض ببخار الماء المتصاعد من فوهات البراكين , ومن تبخير الماء من مسطحاته بفعل أشعة الشمس , ومن نتح النبات , وتنفس , وإفراز كل من الإنسان والحيوان , وبارتفاع بخار الماء في نطاق الرجع يزداد تكثفه لتناقص الضغط وانخفاض درجة الحرارة فتتكون المزن ( السحب الممطرة بإذن الله ) بالمزيد من تكثف بخار الماء مما يؤدي إلي زيادة حجم وكتلة قطيرات الماء في السحب المزنية حتي تسقط علي هيئة زخات

المطر أو حبات البرد أو بلورات الثلج .

وبتصريف من الله ( تعالي ) تقوم الرياح بدور مهم في هذه العملية , كما يقوم كل من درجة رطوبتها وحرارتها , وشدة اندفاعها , وكم نوي التكثف فيها ( من هباءات الغبار , ودقائق

*(344/243)*

---

الأملاح , وبلورات الثلج الدقيقة , وغيرها ) بتعظيم ذلك الدور أو تقليله حتي تصل درجة تشبع الهواء ببخار الماء عند كل درجة حرارة وضغط إلي حد معين , فإن الهواء لايستطيع حمل مزيد من هذا البخار فينزله بإذن الله ( تعالي ) مطرا بالقدر الذي يحدده الله وفي المكان الذي يختاره بعلمه وحكمته . ولذلك يقول المصطفي ( صلي الله عليه وسلم ) : . . . ولايعلم متي يأتي المطر أحد إلا الله . . . ( فتح الباري ) .

ثانيا ـ فأخرجنا به نبات كل شيء :

شاءت إرادة الخالق ( سبحانه وتعالي ) أن تنتقل البذور عند نضجها بعيدا عن النبات الأم , وذلك لتحقيق الانتشار الأفقي لتوزيع النباتات والحيلولة دون تنافسها علي مصادر حياتها من التربة , والماء , وضوء الشمس .

ويتم هذا الانتقال والتناثر إما بانفجار الثمرة أو انتقالها كاملة بواسطة الهواء أو الماء أو بواسطة الحيوانات التي تأكل الثمار , وتلفظ البذور مع روثها , أو تقوم بتخزينها في أماكن تصلح لإنباتها , أو بتعلق تلك البذور بفرائها , وقد وهب الله ( تعالي ) بعض البذور وسائط تعين علي تناثرها مثل الأجنحة أو الأهداب أو القدرة علي الطفو . وبذلك انتشرت بذور كل النباتات في تربة الأرض , وعلي سطحها انتشارا واسعا , وعندما ينزل الله ( تعالي ) الماء من السماء , ويصل هذا الماء إلي البذور المدفونة في تربة الأرض . فإنها تبدأ بالانبات . وذلك بامتصاص الماء والانتفاخ الذي يؤدي إلي انشطار غلاف البذرة وانفتاحها لتفسح طريقا سهلا لأول جذر الجذير , وأول ساق السويقة للخروج منها , ويتجه الجذير إلي أسفل ليخترق التربة ويثبت نفسه فيها , بينما تتجه السويقة إلي أعلي مخترقة التربة لتظهر فوقها . ويطلق اسم الأوراق البذرية علي أول أوراق تنمو علي السويقة , وتمتاز هذه عن الأوراق الحقيقية التي تظهر بعد ذلك بشفافيتها , ويسمي هذا النبات باسم البادرة ويعيش علي الطعام المخزون في بذرته إلي حين ظهور أوراقه الحقيقية التي أعطاها الله ( تعالي )

القدرة علي صنع الطعام لذلك النبات النامي بواسطة عملية التمثيل ( التركيب أو البناء ) الضوئي حتي ينمو ويزهر ويصبح جاهزا لاعطاء الثمار والبذور .

ويعرف الآن اكثر من ربع مليون نوع من أنواع النباتات المزهرة بالإضافة إلي اعداد كبيرة من النباتات اللازهرية أي التي لاتنتج أزهارا .

ثالثا : فأخرجنا منه خضرا

(346/243)

---

بمجرد ظهور الأوراق الحقيقية علي النبتة الناشئة ( البادرة ) يزودها خالقها ( سبحانه وتعالي ) بصبغ أخضر يعرف باسم ( اليخضور ) , وهذا الصبغ أعطاه الله ( تعالي ) القدرة علي امتصاص قدر من طاقة ضوء الشمس , وتحويله إلي طاقة كيميائية يستخدمها في تخليق الكربوهيدرات من الماء الذي تمتصه جذور النبات مع العصارة الغذائية من التربة , وثاني أكسيد الكربون الذي تمتصه أوراق النبات من الجو , ويتصاعد الأكسيجين , أما النباتات المائية خاصة المغمور منها في الماء فتحصل علي ثاني أكسيد الكربون من نسبته الذائبة في الماء , ويصل بعد ذلك إلي عضيات سيتوبلازمية دقيقة تعرف باسم البلاستيدات الخضراء علي هذه الصورة الذائبة في الماء أو مندمجا في أملاح البيكربونات ,

ويطلق علي هذه العملية أحيانا اسم : التمثيل الكربوني نظرا لما تنطوي عليه من استعمال الكربون في تصنيع المواد الكربوهيدراتية .

ويوجد ثمانية أنواع من مادة اليخضور , وهي مادة تشبه الهيموجلوبين من ناحية تركيبها الكيميائي ولكنها تختلف في بنائها الجزيئي حول ذرة من المغنيسيوم بدلا من ذرة الحديد في قلب جزيء الهيموجلوبين .

وتوجد البلاستيدات الخضراء ( جبيلات اليخضور ) في الخلايا الطويلة العمودية علي جدار أوراق النبات , وهذه البلاستيدات أعطاها الله ( تعالي ) القدرة علي التحرك داخل الخلية بحرية كاملة لاصطياد أكبر قدر من أشعة الشمس . . وتقوم أوراق النبات بامتصاص ثاني أكسيد الكربون من

*(347/243)*

---

الجو , وبالتقاط الماء الصاعد مع العصارة الغذائية من التربة بواسطة الجذور , والمرتفع بالخاصية الشعرية إلي قمة النبات , ويقوم الصبغ الأخضر ( اليخضور ) الموجود بداخل البلاستيدات بالتقاط الطاقة القادمة مع أشعة الشمس واستخدامها في تحليل الماء إلي الأكسيجين الذي ينطلق إلي الجو عبر ثغور ورقة النبات , والأيدروجين الذي يتحد مع ثاني

أكسيد الكربون لتكوين السكريات والنشويات وغيرهما من الكربوهيدرات وتتم هذه العملية علي مراحل عدة تؤدي المادة الخضراء دورا مهما فيها , وتشترك عدة انزيمات في إتمامها ويستخدم معظم الكربوهيدرات الناتجة عن عملية التمثيل الضوئي كغذاء للنبات من أجل توفير الطاقة اللازمة لنموه , وما يزيد علي حاجة النبات يتم حفظه داخل الخلايا علي هيئة مواد نشوية وسكرية تستخدم بعد ذلك من أجل بناء الثمار والحبوب والبذور .

ويستمد النبات الطاقة التي يحتاجها في نموه من غذائه في عملية معاكسة لعملية التمثيل الضوئي تعرف باسم التنفس الداخلي تتحد فيها الكربوهيدرات مع الأكسجين لإطلاق الطاقة وثاني أكسيد الكربون والماء علي النحو التالي :

عملية التمثيل الضوئي

ثاني أكسيد كربون + ماء + طاقة

كربوهيدرات + أكسيجين

عملية التنفس الداخلي

واعتمادا علي وفرة ضوء الشمس أو ندرته يزيد معدل إتمام إحدي العمليتين علي حساب الأخري , ففي ضوء الشمس الساطع يتسارع معدل التمثيل الضوئي وينتج النبات من الكربوهيدرات والأكسيجين أكثر مما يستهلكه في عملية التنفس , وفي العتمة التامة يتسارع معدل التنفس الداخلي فيستهلك النبات ما ينتجه من الكربوهيدرات ليحرقه منتجا

الطاقة اللازمة لنموه بالاضافة إلي ثاني أكسيد الكربون والماء . وعند كل من الغسق والفجر تتوازن العمليتان بمعني ان عملية التمثيل الضوئي تنتج من الكربوهيدرات والأكسيجين مايكفي لعملية التنفس الداخلي فقط كما تنتج تلك العملية من الطاقة وثاني أكسيد الكربون

*(348/243)*

---

والماء مايكفي لإتمام عملية التمثيل الضوئي , ولذلك تسمي هاتان النقطتان باسم نقطتي التكافؤ .

رابعا : خضرا نخرج منه حبا متراكبا :

تؤدي عملية إخصاب النباتات المزهرة إلي إنتاج البذور , والبذرة تحتوي علي جنين لنبتة جديدة , ومخزون من الطعام يكفي بادرة هذه النبتة حتي تتمكن من إنتاج أوراق خضراء أعطاها الله ( تعالي ) القدرة علي إنتاج الغذاء ذاتيا لتلك النبتة , وهذه البذور قد تكون هي الثمرة أو قد تحفظ في داخل الثمرة , وهذه الثمرة قد تتبعثر وتنتشر في الأرض لإنتاج نبات جديد أو قد يقتنصها أي من الإنسان أو الحيوان .

والبذرة عادة ما تكون محمية بغلاف متين يعرف باسم ( غلاف البذرة ) ويملك كل غلاف

لبذرة من البذور ( سرة ) علي سطحه تظهر الموضع الذي ارتبطت به البييضة بالمبيض , كما يمكن مشاهدة الفتحة الصغيرة التي دخلت عبرها حبة اللقاح إلي البييضة وتعرف باسم ( النقرة ) وتمثل الممر الذي يسمح بمرور الماء إلي الجنين كي ينبت , وجنين البذرة يتكون من السويقة ( السبد ) والجذير .

والحب هو ثمر جميع أنواع الحبوب من مثل القمح , والشعير , والشوفان , والذرة , والأرز وغيرها من النباتات ذوات الفلقة الواحدة والتي تنطوي في عائلة تعرف باسم العائلة النجيلية وهي من أكثر النباتات نجاحا لأنها تغطي مساحات من اليابسة أكثر من أية نباتات أخري وتشكل الغذاء الرئيسي لكل من الإنسان والحيوان آكل العشب , وتشمل نحو سبعة آلاف نوع من أنواع النباتات .

وهذه الحبوب تتكون أساسا من الكربوهيدرات التي تبنيها الصبغة الخضراء في داخل البلاستيدات الخضراء ( جبيلات اليخضور ) وهنا يندهش الإنسان لهذا النص القرآني المعجز الذي أنزله ربنا ( تبارك وتعالي ) من قبل ألف وأربعمائة سنة ليقول فيه :

وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا . .

وارتباط الإنبات بإنزال الماء ,

وارتباط حياة النباتات الزهرية ( وتمثل الغالب من النباتات ) بتلك القدرة الذاتية التي أعطاها إياها الخالق ( سبحانه وتعالي ) علي تصنيع غذائها بعملية التمثيل الضوئي والتي تقوم بها تلك الصبغة الخضراء التي وضعها الله الخالق ( سبحانه وتعالي ) في جبيلات اليخضور , وأن ما تنتجه تلك الجبيلات الخضراء من الكربوهيدرات يزيد علي احتياج النبات فيخزن في داخله حتي تنتج منه الحبوب المتراكبة , وهي حقائق لم يدركها العلم المكتسب إلا في القرن العشرين , وورودها في كتاب الله من قبل أربعة عشر قرنا بهذه الدقة والإحاطة والشمول لما يجزم بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الموحي به إلي خاتم أنبيائه ورسله , والمحفوظ بنفس لغة وحيه ( العربية ) في صفائه الرباني , واشراقاته النورانية , فالحمد الله الذي أنزل القرآن الكريم ( أنزله بعلمه ) والصلاة والسلام علي النبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقاه فأبلغه بأمانة تامة وحرص شديد فجزاه الله تعالي خير ماجزي به نبيا عن أمته ورسولا علي حسن تبليغ رسالته , وأتاه الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة التي وعده إياها إن ربي لا يخلف الميعاد . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مقال للدكتور / زغلول النجار ﴾

(350/243)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والأربعون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الرابع والأربعون بعد المائتين

من الآية ﴿ 100 ﴾ من سورة الأنعام

وحتى الآية ﴿ 103 ﴾ من نفس السورة

*(4/244)*

---

قوله تعالى ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (100) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان المشركون على أصناف : منهم عبدة أصنام ، شركوا في العبودية لا في الخلق ، ومنهم آزر الذي حاجه إبراهيم عليه السلام ومنهم عبدة الكواكب وهم فريقان : منهم من قال : هي واجبة الوجود ، ومنهم من قال : ممكنة ، خلقها الله وفوض إليها تدبير هذا العالم الأسفل ، وهم الذين حاجهم الخليل عليه السلام بالأفول ، ومنهم من قال : لهذا العالم كله إلهان : فاعل خير ، وفاعل شر ، وقالوا : إن الله وإبليس أخوان ، فالله خالق الناس والدواب والأنعام ، وإبليس خالق السباع والحيات والعقارب والشرور ، ويلقبون الزنادقة

وهم المجوس ، لأن الكتاب الذي زعم زردشت أنه نزل من عند الله سمي بالزند ، فالمنسوب إليه زندي ، ثم عرب فقيل : زنديق ، وكان هذا كله في قوله ﴿ فالق الإصباح ﴾ شرحاً لآية ﴿ إن الله فالق الحب والنوى ﴾ دلالة على تمام القدرة الدالة على الوحدانية للدلالة على البعث ؛ حسن كل الحسن العود إلى تقبيح حال المشركين بالتعجيب منهم في جملة حالية من الضمير في ﴿ فالق ﴾ أو غيره مما تقدم ، فقال تعالى شارحاً أمر هذا الصنف ، لأن أمر غيرهم تقدم ؛ وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إن هذه الآية نزلت في الزنادقة : ﴿ وجعلوا ﴾ أي هو سبحانه فعل هذا الذي لا يدع لبساً في تمام علمه وقدرته وكمال حكمته ووحدانيته والحال أن الذي فعل ذلك لأجلهم قد جعلوا وعبر بالاسم الأعظم وقدمه استعظاماً لأن يعدل به شيئاً ﴿ لله ﴾ أي الذي له جميع الأمر .

*(5/244)*

---

ولما كان الشرك في غاية الفظاعة والشناعة ، قدمه فقال : ﴿ شركاء ﴾ يعني وما كان ينبغي أن يكون له شريك مطلقاً ، لأن الصفة إذا ذكرت مجردة غير مجراة على شيء كان ما يتعلق بها من النفي عاماً في كل ما يجوز أن يكون له الصفة ، وحكم الإنكار حكم النفي .

ولما اهتز السامع من هذا التقديم لزيادة المعنى من غير زيادة اللفظ ، تشوف إلى معرفة النوع

الذي كان منه الشركاء فبينهم بقوله : ﴿ الجن ﴾ أي الذين هم أجرأ الموجودات عليهم وأعداهم لهم ، فأطاعوهم كما يطاع الإله فكان عبادة لهم وتشريكاً ، وقد رأيت ما للبيان بعد الانتهاء مما يحسن للناظرين ﴿ وخلقهم ﴾ أي والحال أنهم قد علموا أن الله خلقهم أي قدرهم بعلم وتدبير ، فلذلك كان خلقه لهم محكماً ﴿ وخرقوا ﴾ أي العابدون ﴿ له بنين ﴾ أي كعزير والمسيح ﴿ وبنات ﴾ أي من الملائكة ، فجمعوا لذلك جهالات هي غاية في الضلالات : وصف الملائكة بالأنوثة والاجتراء على مقام الربوبية بالحاجة ، تخصيصه بعد ذلك بما لا يرضونه لأنفسهم بوجه ؛ ومادة خرق تدور على النفوذ والاتساع والإطلاق والتقدير بغير علم ولا معرفة ليحدث عنه الفساد ، ولذلك قيل لمن لا يحسن العمل : خرق ؛ وللمرأة : خرقاء ، يعني أنهم كذبوا واختلفوا واتسعوا في هذا القول الكذب ، وأبعدوا به في هذه المجاوزة عن حقيقته ، اتساع من سار في خرق أي برية واسعة بهماء وسوفة جوفاء متباعدة الأرجاء إلى حيث لم يسبقه إليه بشر ، فضل عن الجادة ضلالاً لا ترجى معه هدايته إلا على بعد شديد ، فصار جديراً بالهلاك ، وإلى ذلك يرجع معنى ما قرئ في الشاذ : وحرفوا – بالمهملة والفاء .

*(6/244)*

ولما لم يكن لقولهم أصلاً حقيقة ولا شبهة ، وكان الخرق التقدير بغير علم ، دل على ذلك مصرحاً بما أفهمه محققاً له تنبيهاً على الدليل القطعي في اجتياح قولهم من أصله ، وذلك أنه قول لا حجة له ، ومسائل أصول الدين لا يصار إلى شيء منها إلا بقاطع ، وذلك بنكرة في سياق النفي فقال : ﴿ بغير علم ﴾ ثم نزه نفسه المقدسة تنبيهاً على ما يجب قوله على كل من سمع ذلك ، فقال : ﴿ سبحانه ﴾ أي أسبحه سبحاناً يليق بجلاله أن يضاف إليه ؛ ولما كان معنى التسبيح الإبعاد عن النقص ، وكان المقام يقتضي كونه في العلو ، صرح به فقال : ﴿ وتعالى ﴾ أي تباعد أمر علوه إلى حد لا حد له ولا انتهاء ﴿ عما يصفون ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 687.689 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما ذكر هذه البراهين الخمسة من دلائل العالم الأسفل والعالم الأعلى على ثبوت الإلهية ، وكمال القدرة والرحمة .

ذكر بعد ذلك أن من الناس من أثبت لله شركاء ، واعلم أن هذه المسألة قد تقدم ذكرها إلا أن المذكور ههنا غير ما تقدم ذكره وذلك لأن الذين أثبتوا الشريك لله فرق وطوائف .

فالطائفة الأولى : عبدة الأصنام فهم يقولون الأصنام شركاء لله في العبودية ، ولكنهم معترفون بأن هذه الأصنام لا قدرة لها على الخلق والإيجاد والتكوين .

والطائفة الثانية : من المشركين الذين يقولون ، مدبر هذا العالم هو الكواكب ، وهؤلاء فريقان منهم من يقول : إنها واجبة الوجود لذاتها ، ومنهم من يقول : إنها ممكنة الوجود لذواتها محدثة ، وخالقها هو الله تعالى ، إلا أنه سبحانه فوض تدبير هذا العالم الأسفل إليها وهؤلاء هم الذين حكى الله عنهم أن الخليل صلى الله عليه وسلم ناظرهم بقوله : ﴿ لا أُحِبُّ الآفلين ﴾ وشرح هذا الدليل قد مضى .

والطائفة الثالثة : من المشركين الذين قالوا لجملة هذا العالم بما فيه من السموات والأرضين إلهان : أحدهما فاعل الخير .

(7/244)

---

والثاني فاعل الشر ، والمقصود من هذه الآية حكاية مذهب هؤلاء فهذا تقرير نظم الآية والتنبيه على ما فيها من الفوائد .

فروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاء الجن ﴾ نزلت في الزنادقة الذين قالوا إن الله وإبليس أخوان فالله تعالى خالق الناس والدواب والأنعام والخيرات ، وإبليس خالق السباع والحيات والعقارب والشرور .

واعلم أن هذا القول الذي ذكره ابن عباس أحسن الوجوه المذكورة في هذه الآية وذلك لأن

بهذا الوجه يحصل لهذه الآية مزيد فائدة مغايرة لما سبق ذكره في الآيات المتقدمة ، قال ابن عباس : والذي يقوي هذا الوجه قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجنة نَسَباً ﴾ [ الصافات : 158 ] وإنما وصف بكونه من الجن لأن لفظ الجن مشتق من الاستتار ، والملائكة والروحانيون لا يرون بالعيون فصارت كأنها مستترة من العيون ، فبهذا التأويل أطلق لفظ الجن عليها ، وأقول : هذا مذهب المجوس ، وإنما قال ابن عباس هذا قول الزنادقة ، لأن المجوس يلقبون بالزنادقة ، لأن الكتاب الذي زعم زرادشت أنه نزل عليه من عند الله مسمى بالزند والمنسوب إليه يسمى زندي .

ثم عرب فقيل زنديق .

ثم جمع فقيل زنادقة .

واعلم أن المجوس قالوا : كل ما في هذا العالم من الخيرات فهو من يزدان وجميع ما فيه من الشرور فهو من أهرمن ، وهو المسمى بإبليس في شرعنا ، ثم اختلفوا فالأكثرون منهم على أن أهرمن محدث ، ولهم في كيفية حدوثه أقوال عجيبة ، والأقلون منهم قالوا : إنه قديم أزلي ، وعلى القولين فقد اتفقوا على أنه شريك لله في تدبير هذا العالم فخيرات هذا العالم من الله تعالى وشروره من إبليس فهذا شرح ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما .

فإن قيل : فعلى هذا التقدير : القوم أثبتوا لله شريكاً واحداً وهو إبليس ، فكيف حكى الله عنهم أنهم أثبتوا لله شركاء ؟

---

والجواب : أنهم يقولون عسكر الله هم الملائكة ، وعسكر إبليس هم الشياطين والملائكة فيهم كثرة عظيمة ، وهم أرواح طاهرة مقدسة وهم يلهمون تلك الأرواح البشرية بالخيرات والطاعات .

والشياطين أيضاً فيهم كثرة عظيمة وهي تلقي الوساوس الخبيثة إلى الأرواح البشرية ، والله مع عسكره من الملائكة يحاربون إبليس مع عسكره من الشياطين .

فلهذا السبب حكى الله تعالى عنهم أنهم أثبتوا لله شركاء من الجن فهذا تفصيل هذا القول .

إذا عرفت هذا فنقول : قوله : ﴿ وَخَلَقَهُمْ ﴾ إشارة إلى الدليل القاطع الدال على فساد كون إبليس شريكاً لله تعالى في ملكه ، وتقريره من وجهين : الأول : أنا نقلنا عن المجوس أن الأكثرين منهم معترفون بأن إبليس ليس بقديم بل هو محدث .

إذا ثبت هذا فنقول : إن كل محدث فله خالق وموجد ، وما ذاك إلا الله سبحانه وتعالى فهؤلاء المجوس يلزمهم القطع بأن خالق إبليس هو الله تعالى ، ولما كان إبليس أصلاً لجميع الشرور والآفات والمفاسد والقبائح ، والمجوس سلموا أن خالقه هو الله تعالى ، فحينئذ قد

سلموا أن إله العالم هو الخالق لما هو أصل الشرور والقبائح والمفاسد ، وإذا كان كذلك امتنع عليهم أن يقولوا لا بد من إلهين يكون أحدهما فاعلاً للخيرات ، والثاني يكون فاعلاً للشرور لأن بهذا الطريق ثبت أن إله الخير هو بعينه الخالق لهذا الذي هو الشر الأعظم فقوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَهُمْ ﴾ إشارة إلى أن تعالى هو الخالق لهؤلاء الشياطين على مذهب المجوس ، وإذا كان خالقاً لهم فقد اعترفوا بكون إله الخير فاعلاً لأعظم الشرور ، وإذا اعترفوا بذلك وسقط قولهم : لا بد للخيرات من إله ، وللشرور من إله آخر .

*(9/244)*

---

والوجه الثاني : في استنباط الحجة من قوله : ﴿ وَخَلَقَهُمْ ﴾ ما بينا في هذا الكتاب وفي كتاب "الأربعين في أصول الدين" أن ما سوى الواحد ممكن لذاته وكل ممكن لذاته فهو محدث ، ينتج أن ما سوى الواحد الأحد الحق فهو محدث ، فيلزم القطع بأن إبليس وجميع جنوده يكونون موصوفين بالحدوث .

وحصول الوجود بعدم العدم ، وحينئذ يعود الإلزام المذكور على ما قررناه ، فهذا تقرير المقصود الأصلي من هذه الآية وبالله التوفيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 92.93 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاء الجن ﴾ معناه : وجعلوا الجن شركاء لله .

فإن قيل : فما الفائدة في التقديم ؟

قلنا : قال سيبويه : إنهم يقدمون الأهم الذي هم بشأنه أعنى ، فالفائدة في هذا التقديم استعظام أن يتخذ لله شريك سواء كان ملكاً أو جنياً أو إنسياً أو غير ذلك .

فهذا هو السبب في تقديم اسم الله على الشركاء .

إذا عرفت هذا فنقول : قرىء ﴿ الجن ﴾ بالنصب والرفع والجر ، أما وجه النصب فالمشهور أنه بدل من قوله : ﴿ شُرَكَاء ﴾ قال بعض المحققين : هذا ضعيف لأن البدل ما يقوم مقام المبدل ، فلو قيل : وجعلوا لله الجن لم يكن كلاماً مفهوماً بل الأولى جعله عطف بيان .

أما وجه القراءة بالرفع فهو أنه لما قيل : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاء ﴾ فهذا الكلام لو وقع الاقتصار عليه لصح أن يراد به الجن والأنس والحجر والوثن فكأنه قيل ومن أولئك الشركاء ؟ فقيل : الجن .

وأما وجه القراءة بالجر فعلى الإضافة التي هي للتبيين .

واختلفوا في تفسير هذه الشركة على ثلاثة أوجه : فالأول : ما ذكرناه من أن المراد منه حكاية قول من يثبت للعالم إلهين أحدهما فاعل الخير والثاني فاعل الشر .

*(10/244)*

---

والقول الثاني : أن الكفار كانوا يقولون الملائكة بنات الله وهؤلاء يقولون المراد من الجن الملائكة ، وإنما حسن إطلاق هذا الاسم عليهم ، لأن لفظ الجن مشتق من الاستتار ، والملائكة مستترون عن الأعين ، وكان يجب على هذا القائل أن يبين أنه كيف يلزم من قولهم الملائكة بنات الله ؟ قولهم بجعل الملائكة شركاء لله حتى يتم انطباق لفظ الآية على هذا المعنى ، ولعله يقال : إن هؤلاء كانوا يقولون الملائكة مع أنها بنات الله فهي مدبرة لأحوال هذا العالم وحينئذ يحصل الشرك .

والقول الثالث : وهو قول الحسن وطائفة من المفسرين أن المراد : أن الجن دعوا الكفار إلى عبادة الأصنام ، وإلى القول بالشرك ، فقبلوا من الجن هذا القول وأطاعوهم ، فصاروا من هذا الوجه قائلين : يكون الجن شركاء لله تعالى .

وأقول : الحق هو القول الأول .

والقولان الأخيران ضعيفان جداً .

أما تفسير هذا الشرك بقول العرب الملائكة بنات الله ، فهذا باطل من وجوه :

الوجه الأول : أن هذا المذهب قد حكاه الله تعالى بقوله : ﴿ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [ الأنعام : 100 ] فالقول بإثبات البنات لله ليس إلا قول من يقول الملائكة بنات الله ، فلو فسرنا قوله : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاء الجن ﴾ بهذا المعنى يلزم منه التكرار في الموضع الواحد من غير فائدة ، وأنه لا يجوز .

الوجه الثاني : في إبطال هذا التفسير أن العرب قالوا : الملائكة بنات الله ، وإثبات الولد لله غير ، وإثبات الشريك له غير ، والدليل على الفرق بين الأمرين أنه تعالى ميز بينهما في قوله : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [ الإخلاص : 3 ، 4 ] ولو كان أحدهما عين الآخر لكان هذا التفصيل في هذه السورة عبثاً .

الوجه الثالث : أن القائلين بيزدان وأهرمن يصرحون بإثبات شريك لإله العالم في تدبير هذا العالم ، فصرف اللفظ عنه وحمله على إثبات البنات صرف للفظ عن حقيقته إلى مجازه من غير ضرورة وأنه لا يجوز .

وأما القول الثاني : وهو قول من يقول المراد من هذه الشركة : أن الكفار قبلوا قول الجن في عبادة الأصنام ، فهذا في غاية البعد لأن الداعي إلى القول بالشرك لا يجوز تسميته بكونه شريكاً لله لا بحسب حقيقة اللفظ ولا بحسب مجازه ، وأيضاً فلو حملنا هذه الآية على هذا المعنى لزم وقوع التكرير من غير فائدة ، لأن الرد على عبدة الأصنام وعلى عبدة الكواكب

قد سبق على سبيل الاستقصاء ، فثبت سقوط هذين القولين ، وظهر أن الحق هو القول الذي نصرناه وقويناه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 93.95 ﴾ .

بتصرف يسير .

*(11/244)*

---

وقال ابن عطية :

﴿ جعلوا ﴾ بمعنى صيروا ، و ﴿ الجن ﴾ مفعول و ﴿ شركاء ﴾ مفعول ثان مقدم ، ويصح أن يكون قوله ﴿ شركاء ﴾ مفعولاً أولاً و ﴿ لله ﴾ في موضع المفعول الثاني و ﴿ الجن ﴾ بدل من قوله ﴿ شركاء ﴾ وهذه الآية مشيرة إلى العادلين بالله والقائلين إن الجن تعلم الغيب العابدين للجن ، وكانت طوائف من العرب تفعل ذلك وتستجير بجن الأودية في أسفارها ونحو هذا ، أما الذين " خرقوا البنين " فاليهود في ذكر عزير والنصارى في ذكر المسيح ، وأما ذاكروا البنات فالعرب الذين قالوا للملائكة بنات الله ، فكأن الضمير في ﴿ جعلوا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم ﴾

لما ذكر تعالى ما اختص به من باهر قدرته ومتقن صنعته وامتنانه على عالم الإنسان بما أوجد له مما يحتاج إليه في قوام حياته ، وبين ذلك ﴿ آيات لقوم يعلمون ﴾ و ﴿ لقوم يفقهون ﴾ ﴿ ولقوم يؤمنون ﴾ ذكر ما عاملوا به منشئهم من العدم وموجد أرزاقهم من إشراك غيره له في عبادته ، ونسبه ما هو مستحيل عليه من وصفه بسمات الحدوث من البنين والبنات ، وقال الكلبي : نزلت في الزنادقة قالوا إن الله خالق الناس والدواب وإبليس خالق الحيات والعقارب والسباع ويقرب من هذا قول المجوس قالوا : للعالم صانعان إله قديم ، والثاني : شيطان حادث من فكرة الإله القديم ، وكذلك الحائطية من المعتزلة من أصحاب أحمد بن حائط زعموا أن للعالم صانعين الإله القديم والآخر محدث خلقه الله أولاً ثم فوض إليه تدبير العالم ، وهو الذي يحاسب الخلق في الآخرة والضمير في ﴿ وجعلوا ﴾ عائد على الكفار لأنهم مشركون وأهل كتاب ، وقيل : هو عائد على عبدة الأوثان والنصارى قالت : المسيح ابن الله واليهود قالوا : عزير ابن الله وطوائف من العرب جعلوا لله تعالى بنات الملائكة وبنو مدلج زعموا أن الله تعالى صاهر الجن فولدت له الملائكة ، وقد قيل : إن من الملائكة طائفة يسمون الجن وإبليس ومنهم وهم خدم الجنة ، وقال الحسن : هذه

الطوائف كلها أطاعوا الشيطان في عبادة الأوثان واعتقدوا الإلهية فيمن ليست له ، فجعلوهم شركاء لله في العبادة وظاهر الكلام أنهم جعلوا لله شركاء الجن أنفسهم ، وما قاله الحسن مخالف لهذا الظاهر ، إذ ظاهر كلامه أن الشركاء هي الأوثان وأنه جعلت طاعة الشيطان تشريكاً له مع الله تعالى إذ كان التشريك ناشئاً عن أمره وإغوائه وكذا قال إسماعيل الضرير : أراد بالجن إبليس أمرهم فأطاعوه ، وظاهر لفظ الجن أنهم الذين يتبادر إليهم الذهن من أنهم قسيم الإنس في قوله تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس ﴾ وأنهم ليسوا الملائكة لقوله : ﴿ ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ﴾

*(13/244)*

---

قالوا : سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن ، فالآية مشيرة إلى الذين جعلوا الجن شركاء لله في عبادتهم إياهم وأنهم يعلمون الغيب ، وكانت طوائف من العرب تفعل ذلك وتستجير بجن الأودية في أسفارها ، والجمهور على نصب ﴿ الجن ﴾ وأعربه الزمخشري وابن عطية مفعولاً أولاً بجعلوا ﴿ وجعلوا ﴾ بمعنى صيروا ﴿ وشركاء ﴾ مفعول ثان و ﴿ لله ﴾ متعلق بشركاء ، قال الزمخشري ( فإن قلت ) : فما فائدة التقديم ( قلت ) : فائدته استعظام أن يتخذ لله شريك من كان ملكاً أو جنياً أو إنسياً أو غير ذلك ،

ولذلك قدم اسم الله على الشركاء انتهى ، وأجاز الحوفي وأبو البقاء فيه أن يكون الجن بدلاً من ﴿ شركاء ﴾ و ﴿ لله ﴾ في موضع المفعول الثاني و ﴿ شركاء ﴾ هو المفعول الأول وما أجازاه لا يجوز ، لأنه يصح للبدل أن يحل محل المبدل منه فيكون الكلام منتظماً لو قلت وجعلوا لله الجن لم يصح وشرط البدل أن يكون على نية تكرار العامل على أشهر القولين أو معمولاً للعامل في المبدل منه على قول : وهذا لا يصح هنا البتة كما ذكرنا وأجاز الحوفي أن يكون شركاء المفعول الأول والجن المفعول الثاني كما هو ترتيب النظم ، وأجاز أبو البقاء أن يكون ﴿ لله شركاء ﴾ حالاً وكان لو تأخر للشركاء وأحسن مما أعربوه ما سمعت من أستاذنا العلامة أبي جعفر أحمد بن ابراهيم بن الزبير الثقفي يقول فيه قال انتصب الجن على إضمار فعل جواب سؤال مقدّر كأنه قيل من ﴿ جعلوا لله شركاء ﴾ قيل : الجن أي جعلوا الجن ويؤيد هذا المعنى قراءة أبي حيوة ويزيد بن قطيب الجن بالرفع على تقديرهم الجن جواباً لمن قال : من الذي جعلوه شريكاً فقيل له : هم الجن ويكون ذلك على سبيل الاستعظام لما فعلوه والانتقاص لمن جعلوه شريكاً لله .

*(14/244)*

وقرأ شعيب بن أبي حمزة : الجن بخفض النون ورويت هذه عن أبي حيوة وابن قطيب أيضاً ، قال الزمخشري : وقرىء على الإضافة التي للتبيين والمعنى أشركوهم في عبادته لأنهم أطاعوهم كما يطاع الله انتهى ، ولا يتضح معنى هذه القراءة إذ التقدير : وجعلوا شركاء الجن لله ، وهذا معنى لا يظهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ للَّهِ شُرَكَآءَ الجن ﴾ هذا ذِكر نوع آخر من جهالاتهم ، أي فيهم من اعتقد لله شركاء من الجِن .

قال النحاس : "الجن" مفعول أوّل ، و"شركاء" مفعول ثان ؛ مثل ﴿ وَجَعَلَكُمْ مُّلُوكاً ﴾ [ المائدة : 20 ] .

﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً ﴾ [ المدثر : 12 ] .

وهو في القرآن كثير .

والتقدير : وجعلوا لله الجن شركاء .

ويجوز أن يكون "الجن" بدلاً من شركاء ، والمفعول الثاني "لله" .

وأجاز الكِسائيّ رفع "الجن" بمعنى هم الجن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَجَعَلُواْ ﴾ في اعتقادهم ﴿ لِلَّهِ ﴾ الذي شأنه ما فصل في تضاعيف هذه الآيات ﴿ شُرَكَاء ﴾ في الألوهية أو الربوبية ﴿ الجن ﴾ أي الملائكة حيث عبدوهم وقالوا : إنهم بنات الله سبحانه ، وتسميتهم جناً مجاز لاجتنانهم واستتارهم عن الأعين كالجن .

وفي التعبير عنهم بذلك حط لشأنهم بالنسبة إلى مقام الإلهية .

وروي هذا عن قتادة والسدي ، ويفهم من كلام بعضهم أن الجن تشمل الملائكة حقيقة .

وقيل : المراد بهم الشياطين وروى عن الحسن .

ومعنى جعلهم شركاء أنهم أطاعوهم كما يطاع الله تعالى أو عبدوا الأوثان بتسويلهم وتحريضهم .

ويروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن الآية نزلت في الزنادقة الذين قالوا : إن الله تعالى خالق الناس ، والدواب ، والأنعام ، والحيوان ، وإبليس خالق السباع ، والحيات ، والعقارب والشرور .

فالمراد من الجن إبليس وأتباعه الذين يفعلون الشرور ويلقون الوساوس الخبيثة إلى الأرواح البشرية ، وهؤلاء المجوس القائلون بالنور والظلمة ولهم في هذا الباب أقوال تمجها الأسماع وتشمئز عنها النفوس .

وادعى الإمام أن هذا أحسن الوجوه المذكورة في الآية ، ومفعولا جعل قيل : لله وشركاء ، والجن إما منصوب بمحذوف وقع جواباً عن سؤال كأنه قيل : من جعلوه شركاء ؟ فقيل : الجن ، أو منصوب على البدلية من ﴿ شُرَكَاء ﴾ والمبدل منه ليس في حكم الساقط بالكلية وتقديم المفعول الثاني لأنه محز الإنكار ولأن المفعول الأول منكر يستحق التأخير . وقيل : هما شركاء والجن ، وتقديم ثانيهما على الأول لاستعظام أن يتخذ لله سبحانه شريك ما كائناً ما كان ، و﴿ لِلَّهِ ﴾ متعلق بشركاء وتقديمه عليه للنكتة المذكورة أيضاً على ما اختاره الزمخشري وقرىء ﴿ الجن ﴾ بالرفع كأنه قيل : من هم ؟ فقيل : الجن وبالجر على الإضافة التي هي للتبيين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ﴾

عطف على الجمل قبله عطف القصّة على القصّة ، فالضّمير المرفوع في ﴿ جعلوا ﴾ عائد إلى ﴿ قومُك ﴾ من قوله تعالى : ﴿ وكذّب به قومك ﴾ [ الأنعام : 66 ] .

وهذا انتقال إلى ذكر شِرك آخر من شرك العرب وهو جعلهم الجِنّ شركاءَ لله في عبادتهم

كما جعلوا الأصنام شركاء له في ذلك .

وقد كان دين العرب في الجاهليّة خليطاً من عبادة الأصنام ومن الصّابئيّة عبادة الكواكب وعبادة الشّياطين ، ومجوسيّة الفرس ، وأشياء من اليهوديّة ، والنّصرانيّة ، فإنّ العرب لجهلهم حينئذٍ كانوا يتلقّون من الأمم المجاورة لهم والّتي يرحلون إليها عقائد شتّى متقارباً بعضها ومتباعداً بعض ، فيأخذونه بدون تأمّل ولا تمحيص لفقد العلم فيهم ، فإنّ العلم الصّحيح هو الذّائد عن العقول من أنّ تعشّش فيها الأوهام والمعتقدات الباطلة ، فالعرب كان أصل دينهم في الجاهليّة عبادة الأصنام وسرت إليهم معها عقائد من اعتقاد سلطة الجنّ والشّياطين ونحو ذلك .

*(17/244)*

---

فكان العرب يثبتون الجنّ وينسبون إليهم تصرّفات ، فلأجل ذلك كانوا يتّقون الجنّ وينتسبون إليها ويتّخذون لها المَعاذات والرّقَى ويستجلبون رضاها بالقرابين وترك تسميّة الله على بعض الذبائح .

وكانوا يعتقدون أنّ الكاهن تأتيه الجنّ بالخبر من السّماء ، وأنّ الشّاعر له شيطان يوحى إليه الشّعر ، ثمّ إذ أخذوا في تعليل هذه التصرّفات وجمعوا بينها وبين معتقدهم في ألوهيّة الله

تعالى تعلّلوا لذلك بأنّ للجنّ صلة بالله تعالى فلذلك قالوا : الملائكة بنات الله مِن أمّهاتٍ سَرَوات الجنّ ، كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ وجعلوا بينه وبينَ الجِنّة نسباً ﴾ [ الصافات : 158 ] وقال ﴿ فاستفتهم ألرَبِّك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ألاَ إنّهم من إفكهم ليقولون ولد اللّهُ وإنّهم لكاذبون ﴾ [ الصافات : 149 152 ].

ومن أجل ذلك جَعَل كثير من قبائل العرب شيئاً من عبادتهم للملائكة وللجنّ .

قال تعالى : ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ثمّ نقول للملائكة أهؤلاء إيّاكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت وليّنا من دونهم بل كانوا يعبدون الجنّ أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ [ سبأ : 40 ، 41 ].

والّذين زعموا أنّ الملائكة بنات الله هم قريش وجُهينة وبنو سلمة وخزاعة وبنو مُليح .

وكان بعض العرب مجوساً عبدوا الشّيطان وزعموا أنّه إلهُ الشرّ وأنّ الله إله الخير ، وجعلوا الملائكة جند اللّهِ والجنّ جندَ الشّيطان .

وزعموا أنّ الله خلق الشّيطان من نفسه ثمّ فوّض إليه تدبير الشرّ فصار إله الشرّ .

وهم قد انتزعوا ذلك من الدّيانة المزدكيّة القائلة بإلهين إله للخير وهو ( يَزْدَانْ ) .

وإلهٍ للشرّ وهو ( أهْرُمُنْ ) وهو الشّيطان .

فقوله : ﴿ الجنّ ﴾ مفعول أوّل ﴿ جعلوا ﴾ و ﴿ شركاء ﴾ مفعوله الثّاني ، لأنّ الجنّ

المقصود من السّياق لا مطلق الشّركاء ، لأنّ جعل الشركاء لله قد تقرّر من قبل .

و﴿ لله ﴾ متعلّق بـ ﴿ شركاء ﴾ .

(18/244)

---

وقدم المفعول الثّاني على الأوّل لأنّه محلّ تعجيب وإنكار فصار لذلك أهمّ وذكره أسبق .

وتقديم المجرور على المفعول في قوله : ﴿ لله شركاء ﴾ للاهتمام والتعجيب من خطل عقولهم إذ يجعلون لله شركاء من مخلوقاته لأنّ المشركين يعترفون بأنّ الله هو خالق الجنّ ، فهذا التّقديم جرى على خلاف مقتضى الظّاهر لأجل ما اقتضى خُلافه .

وكلام "الكشاف" يَجعل تقديم المجرور في الآية للاهتمام باعتقادهم الشّريك لله اهتماماً في مقامه وهو الاستفظاع والإنكار التّوبيخي .

وتبعه في "المفتاح" إذ قال في تقديم بعض المعمولات على بعض "للعناية بتقديمه لكونه نُصْب عينك كما تَجِدُك إذا قال لك أحد : عرفتَ شركاء لله ، يَقِف شَعَرُك وتقول : للّهِ شركاء .

وعليه قوله تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء ﴾ أهـ .

فيكون تقديم المجرور جارياً على مقتضى الظّاهر .

والجِنّ بكسر الجيم اسم لموجودات من المجرّدات الّتي لا أجسام لها ذاتِ طبع ناري ، ولها

آثار خاصّة في بعض تصرّفات تؤثّر في بعض الموجودات ما لا تؤثّره القُوى العظيمة .

وهي من جنس الشّياطين لا يُدرى أمدُ وجود أفرادها ولا كيفيّة بقاء نوعها .

وقد أثبتها القرآن على الإجمال ، وكان للعرب أحاديث في تخيّلها .

فهم يتخيّلونها قادرة على التشكّل بأشكال الموجودات كلّها ويزعمون أنّها إذا مسّت الإنسان آذته وقتلته .

وأنّها تختطف بعض النّاس في الفيافي ، وأنّ لها زَجَلاً وأصْواتاً في الفيافي ، ويزعمون أنّ الصدى هو من الجنّ ، وقد تقدّم ذلك عند قوله تعالى : ﴿ كالّذي استهوته الشّياطين في الأرض ﴾ [ الأنعام : 71 ] ، وأنّها قد تقول الشّعر ، وأنّها تظهر للكهان والشّعراء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

*(19/244)*

---

قوله تعالى ﴿ وَخَلَقَهُمْ ﴾

فصل

قال الفخر :

وأما قوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَهُمْ ﴾ ففيه بحثان :

البحث الأول : اختلفوا في أن الضمير في قوله : ﴿ خَلَقَهُمْ ﴾ إلى ماذا يعود ؟ على قولين :

فالقول الأول : إنه عاد إلى ﴿ الجن ﴾ والمعنى أنهم قالوا الجن شركاء الله ، ثم إن هؤلاء القوم اعترفوا بأن إهرمن محدث ، ثم إن في المجوس من يقول إنه تعالى تفكر في مملكة نفسه واستعظمها فحصل نوع من العجب ، فتولد الشيطان عن ذلك العجب ، ومنهم من يقول شك في قدرة نفسه فتولد من شكه الشيطان ، فهؤلاء معترفون بأن إهرمن محدث ، وأن محدثه هو الله تعالى فقوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَهُمْ ﴾ إشارة إلى هذا المعنى ، ومتى ثبت أن هذا الشيطان مخلوق لله تعالى امتنع جعله شريكاً لله في تدبير العالم ، لأن الخالق أقوى وأكمل من المخلوق ، وجعل الضعيف الناقص شريكاً للقوي الكامل محال في العقول .

والقول الثاني : أن الضمير عائد إلى الجاعلين ، وهم الذين أثبتوا الشركة بين الله تعالى وبين الجن ، وهذا القول عندي ضعيف لوجهين : أحدهما : أنا إذا حملناه على ما ذكرناه صار ذلك اللفظ الواحد دليلاً قاطعاً تاماً كاملاً في إبطال ذلك المذهب ، وإذا حملناه على هذا الوجه لم يظهر منه فائدة وثانيهما : أن عود الضمير إلى أقرب المذكورات واجب ، وأقرب المذكورات في هذه الآية هو الجن ، فوجب أن يكون الضمير عائداً إليه .

البحث الثاني : قال صاحب "الكشاف" : قرىء ﴿ وَخَلَقَهُمْ ﴾ أي اختلاقهم للأفك . يعني : وجعلوا الله خلقهم حيث نسبوا ذبائحهم إلى الله في قولهم : ﴿ والله أَمَرَنَا بِهَا ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 95 ﴾ .

---

وقال القرطبى :

﴿ وَخَلَقَهُمْ ﴾ كذا قراءة الجماعة ، أي خلق الجاعلين له شركاء .

وقيل : خلق الجن الشركاء .

وقرأ ابن مسعود "وهو خلقهم" بزيادة هو .

وقرأ يحيى بن يَعْمَر "وخلْقهم" بسكون اللام ، وقال : أي وجعلوا خلقهم لله شركاء ؛ لأنهم كانوا يخلقون الشيء ثم يعبدونه .

والآية نزلت في مشركي العرب .

ومعنى إشراكهم بالجن أنهم أطاعوهم كطاعة الله عز وجل ؛ رُوي ذلك عن الحسن وغيره .

قال قَتَادة والسُّدّيّ : هم الذين قالوا الملائكةُ بنات الله .

وقال الكلبيّ : نزلت في الزنادقة ، قالوا : إن الله وإبليس أخوان ؛ فالله خالق الناس والدواب ، وإبليس خالق الجان والسباع والعقارب .

ويقرب من هذا قول المجوس ، فإنهم قالوا : للعالَم صانعان : إله قديم ، والثاني شيطان

حادث من فكرة الإله القديم ؛ وزعموا أن صانع الشر حادث .

وكذا الحائطية من المعتزلة من أصحاب أحمد بن حائط ، زعموا أن للعالَم صانعين : الإله القديم ، والآخر محدث ، خلقه الله عز وجل أوّلاً ثم فوّض إليه تدبير العالم ؛ وهو الذي يحاسب الخلق في الآخرة .

تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون عُلوًّا كبيراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

والضمير في ﴿ وخلقهم ﴾ عائد على الجاعلين إذ هم المحدث عنهم وهي جملة حالية أي وقد خلقهم وانفرد بإيجادهم دون من اتخذه شريكاً له وهم الجن فجعلوا من لم يخلقهم شريكاً لخالقهم وهذه غاية الجهالة ، وقيل الضمير يعود على الجن أي والله خلق من اتخذوه شريكاً له فهم متساوون في أن الجاعل والمجعول مخلوقون لله فكيف يناسب أن يجعل بعض المخلوق شريكاً لله تعالى ؟

(21/244)

وقرأ يحيى بن يعمر ﴿ وخلقهم ﴾ بإسكان اللام وكذا في مصحف عبد الله ، والظاهر أنه عطف على الجن أي وجعلوا خلقهم الذي ينحتونه أصناماً شركاء لله كما قال تعالى : ﴿ أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون ﴾ فالخلق هنا واقع على المعمول المصنوع بمعنى المخلوق ، قال : هنا معناه ابن عطية ، وقال الزمخشري : وقرىء ﴿ وخلقهم ﴾ أي اختلاقهم الإفك يعني وجعلوا لله خلقهم حيث نسبوا قبائحهم إلى الله في قولهم والله أمرنا بها انتهى ، فالخلق هنا مصدر بمعنى الاختلاق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(22/244)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَخَلَقَهُمْ ﴾ حال من فاعل ﴿ جَعَلُواْ ﴾ بتقدير قد أو بدونه على اختلاف الرأيين مؤكدة لما في جعلهم ذلك من الشناعة والبطلان باعتبار علمهم بمضمونها أي وقد علموا أن الله تعالى خالقهم خاصة ، وقيل : الضمير ( للجن ) أي والحال أنه تعالى خلق الجن فكيف يجعلون مخلوقه شريكاً له .

ورجح الأول بخلوه عن تشتت الضمائر ورجح الإمام الثاني بأن عود الضمير إلى أقرب

المذكورات واجب ، وبأنه إذا رجع الضمير إلى هذا الأقرب صار اللفظ الواحد دليلاً قاطعاً تاماً كاملاً في إبطال المذهب الباطل .

وقرأ يحيى بن يعمر ﴿ وَخَلَقَهُمْ ﴾ على صيغة المصدر عطفاً على ﴿ الجن ﴾ أي وما يخلقونه من الأصنام أو على ﴿ شُرَكَاء ﴾ أي وجعلوا له اختلاقهم للقبائح حيث نسبوها إليه سبحانه وقالوا : ﴿ الله أمرنا بها ﴾ [ الأعراف : 28 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وجملة ﴿ وخلقهم ﴾ في موضع الحال والواو للحال .

والضّمير المنصوب في ﴿ خلقهم ﴾ يحتمل أن يعود إلى ما عاد إليه ضمير ﴿ جعلوا ﴾ ، أي وخلق المشركين ، وموقع هذه الحال التّعجيب من أن يجعلوا لله شركاء وهو خالقهم ، من قبيل ﴿ وتجعلون رزقكم أنّكم تكذّبون ﴾ [ الواقعة : 82 ] ، وعلى هذا تكون ضمائر الجمع متناسقة والتعجيب على هذا الوجه من جعلهم ذلك مع أنّ الله خالقهم في نفس الأمر فكيف لا ينظرون في أنّ مقتضى الخلق أن يُفرد بالإلهيّة إذ لا وجه لدعواها لمن لا يَخلق كقوله تعالى : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تَذَكَّرون ﴾ [ النحل : 17 ] فالتّعجيب على هذا من جهلهم وسوء نظرهم .

ويجوز أن يكون ضمير ﴿ وخلقهم ﴾ عائداً إلى الجنّ لصحّة ذلك الضمير لهم باعتبار أنّ

لهم عقلاً ، وموقع الحال التّعجيب من ضلال المشركين أنّ يشركوا الله في العبادة بعض مخلوقاته مع علمهم بأنّهم مخلوقون لله تعالى ، فإنّ المشركين قالوا : إنّ الله خالق الجنّ ، كما تقدّم ، وأنّه لا خالق إلاّ هو ، فالتّعجيب من مخالفتهم لمقتضى علمهم .

فالتّقدير : وخلقهم كما في علمهم ، أي وخلقهم بلا نزاع .

وهذا الوجه أظهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

*(23/244)*

---

قوله تعالى ﴿ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى ﴿ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

فيه مباحث :

البحث الأول : أقول إنه تعالى حكى عن قوم أنهم أثبتوا إبليس شريكاً لله تعالى .

ثم بعد ذلك حكى عن أقوام آخرين أنهم أثبتوا لله بنين وبنات .

أما الذين أثبتوا البنين فهم النصارى وقوم من اليهود وأما الذين أثبتوا البنات فهم العرب الذين

يقولون الملائكة بنات الله وقوله : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ كالتنبيه على ما هو الدليل القاطع في فساد هذا القول وفيه وجوه .

الحجة الأولى : أن الإله يجب أن يكون واجب الوجود لذاته ، فولده إما أن يكون واجب الوجود لذاته أو لا يكون ، فإن كان واجب الوجود لذاته كان مستقلاً بنفسه قائماً بذاته لا تعلق له في وجوده بالآخر ، ومن كان كذلك لم يكن والد له ألبتة لأن الولد مشعر بالفرعية والحاجة وأما إن كان ذلك الولد ممكن الوجود لذاته فحينئذ يكون وجوده بإيجاد واجب الوجود لذاته ، ومن كان كذلك فيكون عبداً له ولا ولداً له ، فثبت أن من عرف أن الإله ما هو ، امتنع منه أن يثبت له البنات والبنين .

الحجة الثانية : أن الولد يحتاج إليه أن يقوم مقامه بعد فنائه ، وهذا إنما يعقل في حق من يفنى ، أما من تقدس عن ذلك لم يعقل الولد في حقه .

الحجة الثالثة : أن الولد مشعر بكونه متولداً عن جزء من أجزاء الوالد ، وذلك إنما يعقل في حق من يكون مركباً ويمكن انفصال بعض أجزائه عنه ، وذلك في حق الواحد الفرد الواجب لذاته محال ، فحاصل الكلام أن من علم أن الإله ما حقيقته استحال أن يقول له ولد فكان قوله : ﴿ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ إشارة إلى هذه الدقيقة .

البحث الثاني : قرأ نافع ﴿ وَخَرَّقُوا ﴾ مشددة الراء .

والباقون ﴿ خرقوا ﴾ خفيفة الراء .

قال الواحدي : الاختيار التخفيف ، لأنها أكثر والتشديد للمبالغة والتكثير .

البحث الثالث : قال الفراء : معنى ﴿ خرقوا ﴾ افتعلوا وافتروا .

قال : وخرقوا واخترقوا وخلقوا واختلقوا ، وافتروا واحد .

وقال الليث : يقال : تخرق الكذب وتخلقه ، وحكى صاحب "الكشاف" : أنه سئل الحسن عن هذه الكلمة فقال : كلمة عربية كانت تقولها .

كان الرجل إذا كذب كذبة في نادي القوم يقول له بعضهم قد خرقها ، والله أعلم .

ثم قال : ويجوز أن يكون من خرق الثوب إذا شقه .

أي شقوا له بنين وبنات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 95.96 ﴾

(24/244)

---

وقال ابن عطية :

و ﴿ خرقوا ﴾ لجميع الكفار إذ فعل بعضهم هذا ، وبنحو هذا فسر السدي وابن زيد ، وقرأ شعيب بن أبي حمزة " شركاء الجنِّ " بخفض النون ، وقرأ يزيد بن قطيب وأبو حيوة " الجن والجن " بالخفض والرفع على تقديرهم الجن ، وقرأ الجمهور " وخلَقهم " بفتح اللام على معنى وهو خلقهم ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود " وهو خلقهم " يحتمل العودة على

الجاعلين ويحتملها على المجعولين ، وقرأ يحيى بن يعمر " وخلْقهم " بسكون اللام عطفاً على الجن أي جعلوا خلقهم الذي ينحتونه أصناماً شركاء بالله ، وقرأ السبعة سوى نافع " وخرَقوا " بتخفيف للراء وهو بمعنى اختلفوا وافتروا وقرأ نافع " وخرّقوا " بتشديد الراء على المبالغة ، وقرأ ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما " وحرّفوا " مشددة الراء ، وقوله ﴿ بغير علم ﴾ نص على قبح تقحمهم الجهلة وافترائهم الباطل على عمى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ وَخَرَّقُواْ ﴾ قراءة نافع بالتشديد على التكثير ؛ لأن المشركين ادعوا أن لله بنات وهم الملائكة ، وسَمَّوهم جِنًّا لاجتنانهم .

والنصارى ادعت المسيح ابن الله .

واليهود قالت : عزير ابن الله ، فكثُر ذلك من كفرهم ؛ فشُدّد الفعل لمطابقة المعنى .

تعالى الله عما يقولون .

وقرأ الباقون بالتخفيف على التقليل .

وسئل الحسن البصريّ عن معنى "وخرّقوا له" بالتشديد فقال : إنما هو "وخَرَقوا" بالتخفيف ، كلمة عربية ، كان الرجل إذا كذب في النادي قيل : خَرَقها وربِّ الكعبة .

وقال أهل اللغة : معنى "خَرقوا" اختلقوا وافتعلوا "وخرّقوا" على التكثير .

قال مجاهد وقَتادة وابن زيد وابن جُريج : "خرقوا" كذبوا .

ويقال : إن معنى خرق واخترق واختلق سواء ؛ أي أحدث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

(25/244)

---

﴿ وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ﴾ أي اختلقوا وافتروا ، ويقال خرق الإفك وخلقه واختلقه واخترقه واقتلعه وافتراه وخرصه إذ كذب فيه قاله الفراء ، وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون من خرق الثوب إذا شقه أي اشتقوا له بنين وبنات ، وقال قتادة ومجاهد وابن زيد وابن جريج : ﴿ خرقوا ﴾ كذبوا وأشار بقوله : ﴿ بنين ﴾ إلى أهل الكتابين في المسيح وعزير ، ﴿ وبنات ﴾ إلى قريش في الملائكة ، وقرأ نافع ﴿ وخرقوا ﴾ بتشديد الراء وباقي السبعة بتخفيفها ، وقرأ ابن عمر وابن عباس وحرفوا بالحاء المهملة والفاء وشدد ابن عمر الراء وخففها ابن عباس بمعنى وزورا له أولاداً لأن المزوّر محرف مغير للحق إلى الباطل ، ومعنى ﴿ بغير علم ﴾ من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه من خطاب

وصواب ، ولكن رمياً بقول عن عمي وجهالة من غير فكر وروية وفيه نص على قبح تقحمهم المجهلة وافترائهم الباطل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(26/244)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَخَرَقُواْ لَهُ ﴾ أي افتعلوا وافتروا له سبحانه ، قال الفراء : يقال : خلق الإفك واختلقه وخرقه واخترقه بمعنى .

ونقل عن الحسن أنه سئل عن ذلك فقال : كلمة عربية كانت العرب تقولها كان الرجل إذا كذب كذبة في نادي القوم يقول له بعضهم : قد خرقها والله .

وقال الراغب "أصل الخرق قطع الشيء على سبيل الفساد من غير تفكر ولا تدبر .

ومنه قوله تعالى : ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ [ الكهف : 71 ] وهو ضد الخلق فإنه فعل الشيء بتقدير ورفق والخرق بغير تقدير قال تعالى : ﴿ وَخَرَقُواْ لَهُ ﴾ أي حكموا بذلك على سبيل الخرق وباعتبار القطع" .

وقرأ نافع ﴿ وَخَرَّقُواْ ﴾ بتشديد الراء للتكثير .

وقرأ ابن عمر وابن عباس رضي الله تعالى عنهم ﴿ وحرفوا ﴾ من التحريف أي وزوروا

له .

﴿ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ ﴾ فقالت اليهود ؛ عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله وقالت العرب الملائكة بنات الله والله سبحانه منزه عما قالواه ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ بحقيقته من خطأ أو صواب ولا فكر ولا روية فيه بل قالوه عن عمى وجهالة أو بغير علم بمرتبة ما قالوه وأنه من الشناعة بالمحل البعيد .

(27/244)

---

وأياً ما كان فالجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع حالاً من الواو أو نعت لمصدر مؤكد أي خرقوا ملتبسين بغير علم أو خرقاً كائناً بغير علم والمقصود على الوجهين ذمهم بالجهل ، وقيل : إن ذلك كناية عن نفي ما قالوا فإن ما لا أصل له لا يكون معلوماً ولا يقام عليه دليل ، ولا حاجة إليه إذ نفيه معلوم من جعله اختلاقاً وافتراء ومن قوله عز وجل : ﴿ سبحانه وتعالى عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ من أن له جل شأنه شريكاً أو ولداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وجملة : ﴿ وخرّقوا ﴾ عطف على جملة : ﴿ وجعلوا ﴾ والضّمير عائد على

المشركين .

وقرأ الجمهور ﴿ وخَرَقوا ﴾ بتخفيف الرّاء ، وقرأه نافع ، وأبو جعفر بتشديد الرّاء .

والخرق : أصله القطع والشقّ .

وقال الراغب : هو القطع والشقّ على سبيل الفساد من غير تدبّر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أخَرَقْتها لتُغْرِق أهلَها ﴾ [ الكهف : 71 ] .

وهو ضدّ الخلق ، فإنّه فعل الشّيء بتقدير ورفق ، والخرق بغير تقدير .

ولم يقيّده غيره من أئمّة اللّغة .

وأيّاً ما كان فقد استعمل الخرق مجازاً في الكذب كما استعمل فيه افترى واختلقَ من الفَرْي والخَلْق .

وفي "الكشاف" : سئل الحسن عن قوله تعالى : ﴿ وخرّقوا ﴾ فقال : كلمة عربيّة كانت العرب تقولها ، كان الرّجل إذا كذب كذبة في نادي القوم يقول بعضهم : "قد خَرَقها والله" .

وقراءة نافع تفيد المبالغة في الفعل لأنّ التّفعل يدلّ على قوّة حصول الفعل .

فمعنى ﴿ خرّقوا ﴾ كذبوا على الله على سبيل الخرق ، أي نسبوا إليه بنين وبناتٍ كذباً ، فأمّا نسبتهم البنين إلى الله فقد حكاها عنهم القرآن هنا .

والمراد أنّ المشركين نسبوا إليه بنين وبنات .

وليس المراد اليهود في قولهم : ﴿ عُزيز ابن الله ﴾ [ التوبة : 30 ] ، ولا النّصارى في قولهم

: ﴿ المسيح ابنُ الله ﴾ [ التوبة : 30 ] .

كما فسّر به جميع المفسّرين ، لأنّ ذلك لا يناسب السّياق ويشوّش عود الضّمائر ويخرم نظم الكلام .

*(28/244)*

---

فالوجه أنّ المراد أنّ بعض المشركين نسبوا لله البنين وهو الّذين تلقّنوا شيئاً من المجوسيّة لأنّهم لمّا جعلوا الشّيطان متولّداً عن الله تعالى إذ قالوا إنّ الله لمّا خلق العالم تفكّر في مملكته واستعظمها فحصل له عُجب تولّد عنه الشّيطان ، وربّما قالوا أيضاً : إنّ الله شكّ في قدرة نفسه فتولّد من شكّه الشّيطانُ ، فقد لزمهم أنّ الشّيطان متولّد عن الله تعالى عمّا يقولون ، فلزمهم نسبة الابن إلى الله تعالى .

ولعلّ بعضهم كان يقول بأنّ الجنّ أبناء الله والملائكة بنات الله ، أو أنّ في الملائكة ذكوراً وإناثاً ، ولقد ينجرّ لهم هذا الاعتقاد من اليهود فإنّهم جعلوا الملائكة أبناء الله .

فقد جاء في أوّل الإصحاح السّادس من سفر التّكوين "وحدث لَمَّا ابتدأ النّاس يكثرون على الأرض ووُلد لهم بنات أنّ أبناءَ الله رأوا بنات النّاس أنّهن حسَنات فاتَّخذوا لأنفسهم نساء من كلّ ما اختاروا وإذ دخل بنو الله على بنات النّاس ووَلَدْن لهم أولاداً هؤلاء هم

الجبابرة الّذين منذ الدّهر ذوو اسم" .

وأمّا نسبتهم البنات إلى الله فهي مشهورة في العرب إذ جعلوا الملائكة إناثاً ، وقالوا : هنّ بنات الله .

وقوله ﴿ بغير علم ﴾ متعلّق بـ ﴿ خرّقوا ﴾ ، أي اختلقوا اختلاقاً عن جهل وضلالة ، لأنّه اختلاق لا يلتئم مع العقل والعِلم فقد رموا بقولهم عن عمى وجهالة .

فالمراد بالعلم هنا العلم بمعناه الصّحيح ، وهو حُكمُ الذّهنِ المطابقُ للواقع عن ضرورةٍ أو برهانٍ .

والباء للملابسة ، أي ملابساً تخريقُهم غيرَ العلم فهو متلبّس بالجهل بدءاً وغاية ، فهم قد اختلقوا بلا داع ولا دليل ولم يجدوا لما اختلقوه ترويجاً ، وقد لزمهم به لازمُ الخَطل وفسادِ القول وعدمِ التئامه ، فهذا موقع باء الملابسة في الآية الّذي لا يفيد مُفادَه غيرُه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(29/244)

---

قوله تعالى ﴿ سبحانه وتعالى عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

قال الفخر :

قوله ﴿ سبحانه ﴾ تنزيه لله عن كل ما لا يليق به .

وأما قوله : ﴿ وتعالى ﴾ فلا شك أنه لا يفيد العلو في المكان ، لأن المقصود ههنا تنزيه الله تعالى عن هذه الأقوال الفاسدة ، والعلو في المكان لا يفيد هذا المعنى .

فثبت أن المراد ههنا التعالي عن كل اعتقاد باطل .

وقول فاسد .

فإن قالوا : فعلى هذا التقدير لا يبقى بين قوله : "سبحانه" وبين قوله : "وتعالى" فرق .

قلنا : بل يبقى بينهما فرق ظاهر ، فإن المراد بقوله سبحانه أن هذا القائل يسبحه وينزهه عما لا يليق به والمراد بقوله : ﴿ وتعالى ﴾ كونه في ذاته متعالياً متقدساً عن هذه الصفات سواء سبحه مسبح أو لم يسبحه ، فالتسبيح يرجع إلى أقوال المسبحين ، والتعالي يرجع إلى صفته الذاتية التي حصلت له لذاته لا لغيره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 96 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ سبحانه وتعالى عما يصفون ﴾ نزه ذاته عن تجويز المستحيلات عليه والتعالى هنا هو الارتفاع المجازي ومعناه أنه متقدّس في ذاته عن هذه الصفات قيل : وبين ﴿ سبحانه وتعالى ﴾ فرق من جهة أن سبحان مضاف إليه تعالى فهو من حيث المعنى منزه و ﴿ تعالى ﴾ فيه إسناد التعالي إليه على جهة الفاعلية فهو راجع إلى صفات الذات سواء سبحه

أحد أم لم يسبحه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وجملة : ﴿ سبحانه وتعالى عمّا يصفون ﴾ مستأنفة تنزيهاً عن جميع ما حكي عنهم .

ف ﴿ سبحان ﴾ مصدر منصوب على أنّه بدل من فعله .

وأصل الكلام أسبّح الله سبحاناً .

فلمّا عُوّض عن فعله صار ( سبحانَ الله ) بإضافته إلى مفعوله الأصلي ، وقد تقدّم في قوله تعالى : ﴿ قالوا سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علّمتنا ﴾ في سورة [ البقرة : 32 ] .

ومعنى : ﴿ تعالى ﴾ ارتفع ، وهو تفاعل من العلوّ .

والتّفاعل فيه للمبالغة في الاتّصاف .

والعلوّ هنا مجاز ، أي كونُه لا ينقصه ما وصفوه به ، أي لا يوصف بذلك لأنّ الاتّصاف بمثل ذلك نقص وهو لا يلحقه النّقص فشبّه التّحاشي عن النّقائص بالارتفاع ، لأنّ الشّيء المرتفع لا تلتصق به الأوساخ الّتي شأنها أن تكون مطروحة على الأرض ، فكما شبّه النّقص بالسفالة شبّه الكمالُ بالعُلوّ ، فمعنى ( تعالى عن ذلك ) أنّه لا يتطرّق إليه ذلك .

وقول : ه ﴿ عمّا يصفون ﴾ متعلّق بـ ( عَنْ ) للمجاوزة .

وقد دخلت على اسم الموصول ، أي عن الّذي يصفونه .

والوصف : الخَبر عن أحوال الشّيء وأوصافه وما يتميّز به ، فهو إخبار مبيِّن مُفصّل

للأحوال حتّى كأنّ المخبَر يصف الشّيءَ وينْعته .

واختير في الآية فعل ﴿ يصفون ﴾ لأنّ ما نسبوه إلى الله يرجع إلى توصيفه بالشّركاء والأبناء ، أي تباعد عن الاتّصاف به .

وأمّا كونهم وصفوه به فذلك أمر واقع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(30/244)

---

ومن فوائد الماوردى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله عز وجل : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ﴾

فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن المجوس نسبت الشر إلى إبليس ، وتجعله بذلك شريكاً لله .

والثاني : أن مشركي العرب جعلوا الملائكة بنات الله وشركاء له ، قاله قتادة ، والسدي ، وابن زيد كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ فَسَمَّى الملائكة لاختفائهم عن العيون جنة .

والثالث : أنه أطاعوا الشيطان في عبادة الأوثان حتى جعلوها شركاء لله في العبادة ، قاله

الحسن ، والزجاج .

﴿ وَخَلَقَهُمْ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أنه خلقهم بلا شريك [ له ] ، فَلِمَ جعلوا له في العبادة شريكاً ؟ .

والثاني : أنه خلق من جعلوه شريكاً فكيف صار في العبادة شريكاً .

وقرأ يحيى بن يعمر ﴿ وَخَلْقَهُمْ ﴾ بتسكين اللام . ومعناه أنهم جعلوا خلقهم الذي صنعوه بأيديهم من الأصنام لله شريكاً .

﴿ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ في خرقوا قراءتان بالتخفيف والتشديد ، وفيه قولان :

أحدهما : أن معنى خرقوا كذبوا ، قاله مجاهد ، وقتادة ، وابن جريج ، وابن زيد .

والثاني : معناه وخلقوا له بنين وبنات ، والخلق والخرق واحد ، قاله الفراء .

والقول الثاني : أن معنى القراءتين مختلف ، وفي اختلافهما قولان :

أحدهما : أنها بالتشديد على التكثير .

والثاني : أن معناها بالتخفيف كذبوا ، وبالتشديد اختلفوا .

والبنون قول النصارى في المسيح أنه ابن الله ، وقول اليهود أن عزيراً ابن الله .

والبنات قول مشركي العرب في الملائكة أنهم بنات الله .

﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : بغير علم منهم أن له بنين وبنات .

والثاني : بغير حجة تدلهم على أن له بنين وبنات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد ابن الجوزى فى الآية

قال رحمه الله :

*(31/244)*

---

قوله تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن ﴾ جعلوا ، بمعنى : وصفوا .

قال الزجاج : نصبُ "الجن" من وجهين .

أحدهما : أن يكون مفعولاً ، فيكون المعنى : وجعلوا لله الجنَ شركاء ؛ ويكون الجن مفعولاً ثانياً ، كقوله : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ﴾ [ الزخرف : 19 ] .

والثاني : أن يكون الجن بدلاً من شركاء ، ومفسراً للشركاء .

وقرأ ابو المتوكل ، وأبو عمران ، وأبو حيوة ، والجحدري : "شركاء الجنُ" برفع النون .

وقرأ ابن أبي عبلة ، ومعاذ القارىء : "الجنِّ" بخفض النون .

وفي معنى جعلهم الجن شركاء ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم أطاعوا الشياطين في عبادة الأوثان ، فجعلوهم شركاء لله ، قاله الحسن ، والزجاج.

والثاني : قالوا : إن الملائكة بنات الله ، فهم شركاؤه ، كقوله : ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ﴾ [ الصافات : 158 ] .

فسمى الملائكة جنّاً لاجتنانهم ، قاله قتادة ، والسدي ، وابن زيد .

والثالث : أن الزنادقة قالوا : الله خالق النور والماء والدواب والأنعام ، وإبليس : خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب ، وفيهم نزلت هذه الآية .

قاله ابن السائب .

قوله تعالى : ﴿ وخلقهم ﴾ في الكناية قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى الجاعلين له الشركاء ، فيكون المعنى : وجعلوا للذي خلقهم شركاء لا يخلقون .

والثاني : أنها ترجع إلى الجن ، فيكون المعنى : والله خلق الجن ، فكيف يكون الشريك لله مُحدِثا ؟ ذكرهما الزجاج.

قوله تعالى : ﴿ وخرقوا له بنين وبنات ﴾ وقرأ نافع : "وخرّقوا" بالتشديد ، للمبالغة والتكثير ، لأن المشركين ادَّعوا الملائكةَ بناتِ الله ، والنصارى المسيحَ ، واليهود عزيراً .

وقرأ ابن عباس ، وأبو رجاء ، وأبو الجوزاء : "وحرّفوا" بحاء غير معجمة وبتشديد الراء

وبالفاء .

وقرأ ابن السميفع ، والجحدري : "خارقوا" بألف وخاء معجمة .

(32/244)

---

قال السدي : أما ﴿ البنون ﴾ فقول اليهود : عزير ابن الله ، وقول النصارى : المسيح ابن الله ، وأما "البنات" ، فقول مشركي العرب : الملائكة بناتُ الله .

قال الفراء : خرّقوا ، واخترقوا ، وخلقوا ، واختلقوا ، بمعنى افتروا .

وقال أبو عبيدة : خرقوا : جعلوا .

قال الزجاج : ومعنى "بغير علم" : أنهم لم يذكروه من علم ، إنما ذكروه تَكذُّباً . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد الخازن فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله تعالى ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن ﴾

قال الحسن : معناه أطاعوا الجن في عبادة الأوثان .

وهو اختيار الزجاج .

قال : معناه إنهم أطاعوا الجن فيما سولت لهم من شركهم فجعلوهم شركاء لله .

وقال الكلبي : نزلت في الزنادقة أثبتوا الشرك لاثنين في الخلق فقالوا الله خالق النور والناس والدواب والأنعام وإبليس خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب ونقل هذا القول ابن الجوزي عن ابن السائب ونقله الرازي عن ابن عباس .

قال الإمام فخر الدين : وهذا مذهب المجوس .

وإنما قال ابن عباس : هذا قول الزنادقة ، لأن المجوس يلتبسون بالزندقة ، لأن الكتاب الذي زعم زرادشت أنه نزل من السماء سماه بالزند والمنسوب إليه زندي ثم عرب : فقيل : زنديق فإذا جمع ، قيل : زنادقة .

ثم إن المجوس قالوا : كل ما يكون في هذا العالم من الخير فهو من يزدان يعني النور وجميع ما في العالم من الشر فهو من الظلمة يعني إبليس ثم اختلف المجوس فالأكثرون منهم على أن إبليس محدث ولهم في كيفية حدوثه أقوال عجيبة والأقلون منهم قالوا : إنه قديم وعلى كلا القولين فقد اتفقوا على أنه شريك الله في تدبير هذا العالم فما كان من خير فمن الله وما كان من شر فمن إبليس تعالى الله عن قولهم علوّاً كبيراً .

*(33/244)*

فإن قلت فعلى هذا القول إنما أثبتوا لله شريكاً واحداً وهو إبليس فكيف حكى الله أنهم جعلوا له شركاء قلت : إن إبليس له أعوان من جنسه وحزبه وهم شياطين الجن يعملون أعماله فصح ما حكاه الله عنهم من أنهم جعلوا له شركاء الجن ومعنى الآية وجعلوا الجن شركاه لله واختلفوا في معنى هذه الشركة فمن قال إن الآية في كفار العرب قال إنهم لما أطاعوا الجن فما أمروهم به من عبادة الأصنام فقد جعلوهم شركاء لله ومن قال إنها في المجوس قال إنهم أثبتوا إلهين اثنين النور والظلمة ، وقيل إن كفار العرب قالوا الملائكة بنات الله وهم شركاؤه فعلى هذا القول فقد جعلوا الملائكة من الجن وذلك لأنهم مستورون عن الأعين .

وقوله ﴿ وخلقهم ﴾ في معنى الكناية قولان : أحدهما : أنها تعود إلى الجن فيكون المعنى : والله خلق الجن فكيف يكون شريك الله من هو محدث مخلوق .

والقول الثاني : إن الكناية تعود إلى الجاعلين لله شركاء فيكون المعنى : وجعلوا لله الذي خلقهم شركاء لا يخلقون شيئاً .

*(34/244)*

وهذا كالدليل القاطع بأن المخلوق لا يكون شريكه لله وكل ما في الكون محدث مخلوق والله تعالى هو الخالق لجميع ما في الكون فامتنع أن يكون لله شريك في ملكه ﴿ وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ﴾ أي اختلقوا وكذبوا يقال : اختلق واخترق على فلان إذا كذب عليه وذلك أن النصارى وطائفة من اليهود ادعوا أن لله ابناً ، وكفار العرب ادعوا أن الملائكة بنات الله وكذبوا على الله جميعاً فيما ادعوه وقوله ﴿ بغير علم ﴾ كالتنبيه على ما هو الدليل القاطع على فساد هذا القول لأن الولد جزء من الأب والله سبحانه وتعالى لا يتجزأ فثبت بهذا فساد قول من يدعي أن لله ولداً ثم نزه الله تعالى نفسه عن اتخاذ الولد وعن هذه الأقاويل الفاسدة فقال تعالى : ﴿ سبحانه وتعالى عما يصفون ﴾ فقوله سبحانه فيه تنزيه الله عن كل ما لا يليق بجلاله وقوله تعالى يعني هو المتعالي عن كل اعتقاد باطل وقول فاسد ، أو يكون المعنى : المتعالي عن اتخاذ الولد والتشريك وقوله ﴿ عما يصفون ﴾ يعني عما يصفونه به من الكذب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

*(35/244)*

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاء ﴾ أي جعلوا في اعتقادهم لله الذي شأنُه ما فُصّل في تضاعيفِ هذه الآية الجليلةِ شركاءَ ﴿ الجن ﴾ أي الملائكةَ حيث عبدوهم وقالوا : الملائكةُ بناتُ الله وسُمُّوا جِناً لاجتنانهم تحقيراً لشأنهم بالنسبة إلى مَقام الألوهية ، أو الشياطينَ حيث أطاعوهم كما أطاعوا الله تعالى أو عبدوا الأوثانَ بتسويلهم وتحريضِهم أو قالوا : الله خالقُ الخير وكلِّ نافعٍ ، والشيطانُ خالقُ الشرِّ وكلِّ ضارَ ، كما هو رأي الثنوية ومفعولا ( جعلوا ) قوله تعالى : ﴿ شُرَكَاء الجن ﴾ قُدِّم ثانيهما على الأول لاستعظام أن يُتَّخذَ لله سبحانه شريكٌ ما ، كائناً ما كان ، ولله متعلق بشركاء قدم عليه للنكتة المذكورة وقيل : هما لله شركاء والجنَّ بدلٌ من شركاءَ مفسِّرٌ له نَصَّ عليه الفراءُ وأبو إسحاقَ ، أو منصوبٌ بمضمرٍ وقعَ جواباً عن سؤالٍ مقدَّرٍ نشأ من قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاء ﴾ كأنه قيل : مَنْ جعلوه شركاءَ لله تعالى ؟ فقيل : الجنَّ أي جعلوا الجن ، ويؤيده قراءةُ أبي حيوة ويزيدَ بن قطيب ( الجنُّ ) بالرفع على تقدير : همُ الجنُّ في جواب من قال : مَن الذين جعلوهم شركاء لله تعالى ؟ وقد قرىء بالجر على أن الإضافة للتبيين ﴿ وَخَلَقَهُمْ ﴾ حالٌ من فاعل ( جعلوا ) بتقدير قد أو بدونه على اختلاف الرأيين ، مؤكدةٌ لما في جَعْلهم ذلك من كمال القباحة والبُطلان باعتبار علمِهم بمضمونها ، أي وقد علموا أنه تعالى خالقُهم خاصة ، وقيل : الضميرُ للشركاءِ أي والحال أنه تعالى خلق الجنَّ فكيف يجعلون مخلوقَه شريكاً له

تعالى ؟ وقرىء خَلْقَهم عطفاً على ( الجنَّ ) أي وما يخلقونه من الأصنام أو على ( شركاءَ ) أي وجعلوا له اختلاقَهم الإفكَ حيث نسبوه إليه تعالى .

*(36/244)*

---

﴿ وَخَرَقُواْ لَهُ ﴾ أي افتعلوا وافترَوْا له يقال : خلقَ الإفكَ واختلقه وخَرَقه واخترقه بمعنى وقرىء خرّقوا بالتشديد للتكثير وقرىء وحرّفوا له أي زوّروا ﴿ بَنِينَ وَبَنَاتٍ ﴾ فقالت اليهودُ : عزيرٌ ابنُ الله ، وقالت النصارى : المسيحُ ابنُ الله ، وقالت طائفة من العرب : الملائكةُ بناتُ الله ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي بحقيقة ما قالوه من خطأ أو صوابٍ رمياً بقوله عن عمىً وجهالةٍ من غير فكرٍ وروّيةٍ أو بغير علم بمرتبة ما قالوه وأنه من الشناعة والبطلان بحيث لا يقادَرُ قدرُه ، والباء متعلقةٌ بمحذوف هو حالٌ من فاعل خرقوا أو نعتٌ لمصدر مؤكِّدٍ له أي خرقوا ملتبسين بغير علم أو خرقاً كائناً بغير علم ﴿ سبحانه ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتنزيهه عز وجل عما نسَبوه إليه ، وسبحانه علمٌ للتسبيح الذي هو التبعيدُ عن السوء اعتقاداً وقولاً أي اعتقادَ البعدِ عنه والحكمَ به ، مِنْ سبَح في الأرض والماء إذا أبعدَ فيهما وأمعن ومنه فرَسٌ سَبوحٌ أي واسعُ الجرْي ، وانتصابُه على المصدرية ولا يكاد يُذكر ناصبُه أي أسبِّح سبحانه أي أنزهه عما لا يليق به عقداً أو عملاً تنزيهاً خاصاً به حقيقاً

بشأنه ، وفيه مبالغةً من جهة الاشتقاق من السَّبْح ومن جهة النقل إلى التفعيل ومن جهة العدول عن المصدر الدال على الجنس إلى الاسم الموضوع له خاصة ، لا سيما العلمُ المشيرُ إلى الحقيقة الحاضرةِ في الذهن ومن جهة إقامته مُقامَ المصدر مع الفعل وقيل : هو مصدرٌ كغُفران لأنه سُمع له فعلٌ من الثلاثي كما ذكر في القاموس أُريد به التنزُّهُ التامُّ والتباعدُ الكُلي ، ففيه مبالغةٌ من حيث إسنادُ التنزهِ إلى ذاتِه المقدسةِ أي تنزه بذاتِه تنزّهاً لائقاً به وهو الأنسبُ بقوله سبحانه : ﴿ وتعالى ﴾ فإنه معطوفٌ على الفعل المُضمر لا محالة ولِمَا في السُّبحان والتعالي من معنى التباعُد قيل : ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي تباعد عما يصفونه من أن له شريكاً أو ولداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(37/244)

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ﴾

ومادة الجن هي " الجيم " و" النون " وكلها تدل على الستر والتغطية والتغليف ، ومنها الجنون ، لأن العقل في هذه الحالة يكون مستوراً ، ونحن لا نرى الجن ، فهم مستورون ،

والملائكة كذلك ، والمادة كلها مادة " الجيم " و" النون " تدل على اللف والتغطية .

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ الجن ﴾ و" الجن " هو الخفي من كل شيء ، والجن – كما تعلمون – هم خلق من خلق الله فسبحانه خلق الإنس وخلق الجن ، خلق الجن مستوراً حتى لا نعتقد أن خلق الله لحي كائن ، يجب أن يتمثل في هذا القالب المادي ، بل سبحانه يخلق ما شاء وكما شاء ، فيخلق أشياء مستورة لا تُرى ، ولها حياة ، ولها تناسل ، ويخلق أشياء مستورة ، ولا تناسل لها : كل ذلك بطلاقة قدرة الحق سبحانه ، ليقرب لنا هذه القضية ؛ لأن عقولنا قد تقف في بعض الأشياء التي لا تدرك ولا ترى ؛ لأننا لا نعلم وجوداً لشيء إلا إذا أحسسناه .

إن الحق سبحانه يوضح ذلك . فإياك أن تظن أنك تستطيع أن تدرك كل ما خلقه الله ، فليس حسك هو الوسيلة الوحيدة للإدراك لأن حسك له قوانين تضبطه ، فأنت ترى ، ولكنك ترى بقانون ، بحيث إذا بعد المرئي عنك امتداداً فوق امتداد بصرك فلا تراه وكذلك أذنك تسمع ، فإن بعد الصوت أو مصدر الصوت عنك بحيث لا تصل الذبذبة إليك ، فلا تسمع ، كذلك عقلك ، قد تفهم أشياء ولا تفهم أشياء أخرى ، ثم ضرب لنا في وجودنا المادي أمثالاً تقرب لنا ذلك الخلق الخفي من الجن ومن الملائكة .

لقد وجدنا العقل البشري قد هداه الله الذي قدر فهدى ، إلى أن يكتشف شيئاً اسمه " الميكروب " و" الميكروب " كائن حي دقيق جداً بحيث إن البصر العادي لا يدركه ، ولكنه كان موجوداً ، وفعل الأفاعيل في الناس ودخل في أجسامهم دون أن يشعروا كيف دخل وعمل فيهم وفي صحتهم ما عمل من الهلاك والموت مثل أمراض الطاعون والكوليرا وغيرها ، ومع ذلك فالميكروب كان موجوداً ومن جنس وجودنا ، أي هو مادة وله حياة وله فعل ، وله نفوذ في الهيكل الذي يدرك وهو الإنسان .

وهكذا رأينا أن شيئاً خفياً لا يدرك ويهدد إنساناً ضخماً يدرك ، فهل معنى اكتشاف الميكروب أننا أوجدناه ؟ لا ، إن وجود الميكروب شيء ، وإدراك وجوده شيء آخر ، وإذا حللنا " الميكروب " نجد أنه مادة الإنسان ولكنه دقيق جداً حتى إن العين المجردة لا تراه ، فلما اكتشف المجهر وكبرناه عرفناه ، وهذا الكائن الحي إن كنت لا تراه ، فعدم رؤيتك له سابقاً لا تعني أنه غير موجود ، بل هو موجود ولكنك لم تدركه ، ثم اكتشفت – أيها الإنسان – آلة جعلتك تدركه ، ولنعرف أن وجود شيء لا يعني أنك من الضروري أن تدركه ، فإذا قال الله لك : لي ملائكة من خلقي ، ولي جن من خلقي ، ولكنكم لا ترونهم وهم يرونكم ، نقول : صدقت يا ربي ، لأن شيئاً من جنس مادتنا كان موجوداً ولا نراه ثم بعد ذلك رأيناه .

إذن فالأشياء التي نكتشفها الآن هي دليل على صدق البلاغ القرآني بما أخبر به من الأمور الغيبية ، الجن مستور ، والمادة كلها – كما بينا – تدل على الستر ، فالجنون غياب العقل ، وجن الليل ، أي ستر وغطى ، والجنة لأن فيها أشجاراً وغير ذلك بحيث لا يظهر الذي يسير فيها فتكون ساترة لمن يدخلها .

*(39/244)*

---

إذن المادة كلها تدل على الستر ، وهل الذي نتعجب منه أنهم جعلوا الجن شركاء ، أو أن التعجيب ليس من جعل الجن شركاء بل من اتخاذ مبدأ الشركاء ، سواء أكان جناً أم غير جن ، إن التعجيب هنا من المبدأ نفسه ، فنحن لا نعترض فقط على أن الجن شركاء ، بل نحن نعترض على المبدأ نفسه ، أن يكون لله شريك من جن أو من ملائكة أو من غير ذلك ، ولهذا قدم المجعول – وهو الشريك – على المجعول منه – وهو الجن – مع أن العادة أن يقدم المجعول منه على المجعول ، فتقول جعلت الطين إبريقاً أي : أن الطين كان موجوداً ، وأخذت منه الذي لم يكن موجوداً وهو الإبريق .

ثم هل كان الشركاء موجودين وطرأ الجن عليهم ؟ أو كان الجن موجوداً وطرأ الشركاء عليهم ؟ في هذه الحالة كان يجب القول : وجعلوا الجن لله شركاء ، إذن فالعجيبة ليس في أن

يكون الجن شركاء ، العجيبة في المبدأ نفسه ، وكيف ترد فكرة الشركاء على أذهانهم سواء أكان الشركاء من الجن أم من غير ذلك ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ﴾ وساعة تسمعها تقول : أعوذ بالله ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ﴾ ! ! ولا يهمك من هم الشركاء ؛ لأن مطلق مجيء شريك لله هو الأمر العجيب ، سواء كان من الجن أم من الملائكة وكيف جعلوا الجن شركاء ؟ ألم يقل الحق في كتابه إن إبراهيم قال : ﴿ يا أبت لا تَعْبُدِ الشيطان إِنَّ الشيطان كَانَ للرحمن عَصِيّاً ﴾ [ مريم : 44 ] .

وما هي العبادة ؟ العبادة هي أن يطيع العابد المعبود فيما يأمره به ، وما داموا يطيعون الشياطين في وسوستهم فكأنهم عبدوهم ، ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ أهؤلاء إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴾ [ سبأ : 40 ] .

فقالت الملائكة : ﴿ قَالُواْ سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الجن أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [ سبأ : 41 ] .

*(40/244)*

---

وكيف كانوا يعبدون الجن ؟ إنهم كانوا يطيعونهم فيما يأمرونهم به وينهونهم عنه ؛ لأن العبادة هي الطاعة ، وأنت أيها العباد لا تقترح العبادة بل تنظر فيما طلب منك أن تتقرب به

إلى المعبود ، إذن " افعل ولا تفعل " هي الأصل .

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ الجن ﴾ ولماذا جاءوا لله بشركاء ؟ لماذا لم يعبدوهم وحدهم ويستبعدوا الله من العبادة ؟ لأن وجود شريك دليل على الاعتراف بالله أيضاً فلماذا جعلوا له شركاء ؟ ولماذا لم يلحدوا وينكروا ويكفروا بالله وتنتهي المسألة ؟ لا . لم يفعلوا ذلك ؛ لأنهم رأوا أن الشركاء ليس لهم مطلوبات تعبدية وحين عبدوها – مثلاً – لم تقل لهم " افعلوا " و" لا تفعلوا " وليس هنام منهج لاتباعه ، لكن أحداثاً فوق أسبابهم ولا يستطيعون لها دفعاً قد تحدث فلمن يجأرون ؟ أللآهة التي يعتقدون كذبها وبهتانها وأنها لا تنفع ولا تضر ؟ لذلك احتفظوا باعترافهم بالله ليلجأوا إليه فيما لا يقدرون على دفعه لا هم ولا من اتخذوهم شركاء ، ولذلك يقول الحق : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إلى ضُرٍّ مَّسَّهُ ﴾ [ يونس : 12 ] . كأنه يريد عبادة الله للمصلحة فقط .

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ الجن ﴾ . ومن العجيب – إذن – أنهم جعلوا لله شركاء ، مع أن الله هو الذي خلق العابد والمعبود ، والتعجيب من أمرين اثنين : أن يجعلوا شركاء لله من الجن أو من الملائكة ، والعجيبة الأخرى أنه ﴿ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ وما معنى خرقوا له ؟ معناها أنهم اختلقوا ؛ لأن الخرق إيجاد فجوة في الشيء المستوى على

قانون السلامة ، ولذلك قال في السفينة : ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ﴾ [ الكهف : 71 ] .

وخرقوا له . أي عملوا خرقاً في الشيء السليم الذي تأبى الفطرة أن يكون .

*(41/244)*

---

﴿ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ ﴾ [ الأنعام : 100 ] .

أما القسم الذي ادّعى أن لله البنين فهم أهل الكتاب ؛ إنهم قالوا ذلك : ﴿ وَقَالَتِ اليهود عُزَيْرٌ ابن الله وَقَالَتْ النصارى المسيح ابن الله ﴾ [ التوبة : 30 ] .

أما من جعلوا لله البنات ، فهم بعض العرب الذين كانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله . ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بالبنين واتخذ مِنَ الملائكة إِنَاثاً ﴾ [ الإسراء : 40 ] .

وقال سبحانه : ﴿ أَصْطَفَى البنات على البنين * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [ الصافات : 153-154 ] .

وسبحانه القائل : ﴿ أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى ﴾ [ النجم : 21-22 ] .

وهناك من العرب من جعل بين الله وبين الجن صلة نسب مصداقاً لقول الحق : ﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجنة نَسَباً ﴾ [ الصافات : 158 ] .

لقد افتروا على الحق وادّعوا أن اتصالاً تم بين الله وبين الجنّة فخلقت وولدت الملائكة . ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ الجن وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [ الأنعام : 100 ] .

ولماذا يقول الحق : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ لأن العلم يؤدي إلى النقيض ، فالعلم قضية استقرائية معتقدة واقعة يقام عليها الدليل ، وهذا شيء لا واقع له ، ولا يمكن أن يوجد عليه دليل لذلك فهو قول بغير علم بل هو بجهل . هي إذن جهالة بأن يصدقوا في حاجة وأنها واقعة وهي ليست واقعة ، ولا يقام عليها دليل لأنها غير موجودة ، ولو استقام الدليل عندهم بفطرتهم المستقبلة لأدلة البيان وأدلة الكون لتبرأوا مما اعتقدوا ، ولرفضوا أن يتخذوا لله شركاء .

*(42/244)*

---

وقد عرض الحق قضية طرأت على الأفكار المشوشة وقالوا : " شركاء " فقال : " سبحانه " ، أي تنزيهاً له عن الشرك في الذات وفي الصفات ، وفي الأفعال ؛ لأن ذاته ليست ككل الذوات ، وأفعاله ليست ككل الأفعال ، وصفاته ليست ككل الصفات ، ولذلك تأتي " سبحانه " في كل أمر يناقض نواميس الكون الموجودة . وخذ كل أمر يتعلق بالإله الحق في

إطار " سبحانه " . ولذلك حينما جاء بالإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس ثم عرج به في ليلة واحدة وكان ذلك أمراً عجيباً ، أمرنا الحق أن نتقبلها في إطار قوله الحق : ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السميع البصير ﴾ [ الإسراء : 1 ] .

إن محمداً عليه الصلاة والسلام لم يقل : أنا سَرَيت من مكة إلى بيت المقدس ، إنما قال : أُسْرِي بي " ، وما دام قد أسري به فالقانون في الإسراء هو قانون الحق سبحانه . فخذها في إطار سبحانه ، وهو القائل : ﴿ سُبْحَانَ الذي خَلَقَ الأزواج كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأرض وَمِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [ يس : 36 ] .

ثم يأتي بما هو أوسع من إدراكك فيقول : ﴿ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [ يس : 36 ] .

كأننا سوف نعلم فيما بعد أشياء فيها زوجية ، وقد أزاح الكشف العلمي في القرن العشرين بعضاً من ذلك ، فعرفنا الموجب والسالب في الكهرباء والالكترونات ، وقوله : ﴿ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ يفسح المجال لقضايا الكون التي تحدث بنشاطات العقول المكتشفة .

﴿ وَجَعَلُواْ للَّهِ شُرَكَآءَ الجن وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [ الأنعام : 100 ] .

فـ ( سبحانه ) تنزيها له وتقديسا عن أن يقاس بالكائن الموجود . تعالى اسمه ، وتعالت ذاته ، وتعالت صفاته وأفعاله ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ بأوصاف لا تليق بذاته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(43/244)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (100) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم ﴾ قال : والله خلقهم ﴿ وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ﴾ قال : تخرصوا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وخرقوا له بنين وبنات ﴾ قال : عباس في قوله ﴿ وخرقوا له بنين وبنات ﴾ قال : جعلوا له بنين وبنات .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ وخرقوا ﴾ قال :

كذبوا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ وخرقوا له بنين وبنات ﴾ قال : قالت العرب : الملائكة بنات الله ، وقالت اليهود والنصارى : المسيح وعُزير ابنا الله .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وخرقوا له بنين وبنات ﴾ قال : كذبوا له ، أما اليهود والنصارى فقالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه ، وأما مشركو العرب فكانوا يعبدون اللات والعزى فيقولون العزى بنات الله ﴿ سبحانه وتعالى عما يصفون ﴾ أي عما يكذبون .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله ﴿ وخرقوا له بنين وبنات ﴾ قال : وصفوا لله بنين وبنات افتراء عليه . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت حسان بن ثابت يقول :

اخترق القول بها لاهيا . . . مستقبلاً أشعث عذب الكلام

وأخرج أبو الشيخ عن يحيى بن يعمر . أنه كان يقرأها ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم ﴾ خفيفة ، يقول جعلوا لله خلقهم .

*(44/244)*

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن . أنه قرأ ﴿ وخلقهم ﴾ مثقلة . يقول : هو خلقهم .

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن في الآية قال : خرقوا ما هو إنما خرقوا خفيفة ، كان الرجل إذا كذب الكذبة فينادي القوم قيل : خرقها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(45/244)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " شُرَكَاءَ الجنَّ " الجمهور على نصب " الجِنَّ " وفيه خمسة أوجه :

أحدها : وهو الظاهر أن الجِنَّ هن المفعول الأوَّل .

والثاني : هو " شركاء " قدم ، و " لله " متعلّق بـ " شركاء " ، والجَعْلُ هنا بمعنى التَّصْيير ، وفائدة التقديرم كما قال الزمخشري اسْتِعْظَامُ أن يتخذ لله شريك من كان ملكاً أو جنياً أو إنسيًا ، ولذلك قد مسام الله - تبارك وتعالى - على الشُّركاء انتهى .

ومعنى كونهم جعلوا الجنَّ شركاء لله هو أنهم يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ يخلقون من المضارِّ والحيَّات والسباع ، [ كما جاء في التفسير ] .

وقيل : ثمَّ طائفة من الملائكة يُسَمَّوْنَ الجن كان بعض العرب يَعْبُدُهَا .

الثاني : أن يكون " شركاء " مفعولاً أوّل ، و" لله " مُتعلِّق بمحذوف على أنه المفعول الثاني ، و" الجن " بدلٌ من " شركاء " أجاز ذلك الزمخشري ، وابن عطية ، والحوفي ، وأبو البقاء ، ومكي بن أبي طالب إلا أن مكيًّا لما ذكر هذا الوَجْهَ جعل اللام من " لله " مُتَلِّقةً بـ " جعل " فإنه قال : الجنّ مفعول أوّل لـ " جَعَلَ و" شركاء " مفعول ثانٍ مقدم ، واللام في " لله " متعلّقة بـ " شركاء " وإن شِئْتَ جَعَلْتَ " شركاء " مفعولاً أوّل ، و" الجن " بدلاً من " شركاء " و" لله " في موضع المفعول الثاني ، واللام متعلقة بـ " جعل " .

(46/244)

---

قال شهاب الدين : بعد أن جعل " لله " مفعولاً ثانياً كيف يُتَصَوَّرُ أن يجعل اللام متعلقة بالجعل ؟ هذا ما لا يجوز لأنه لما صار مفعولاً ثانياً تعيَّن تعلُّقُهُ بمحذوف عل ما عرفته غير مَرَّة .

قال أبو حيَّان : " ومَا أجَازُوهُ – يعني الزمخشري وممن معه – لا يجوز ؛ لأنه يصح ببلدل أن يحل مَحضلّ المبدل منه ، فيكون الكلام منتظماً لو قلت : وجعلوا لله الجِنَّ لم يصح ، وشرط البَدَلِ أن يكون على نِيَّةِ تَكْرَارِ العامل على أشهر القولين ، أو معمولاً للعامل في المبدل منه على قول ، وهذا لا يَصِحُّ هنا ألبتة لما ذكرنا " .

قال شهاب الدين : رحمه الله تعالى – هذا القول المنسوب للزمخشري ، ومن ذكر معه سبقهم إليه الفرَّاء وأبو إسحاق ، فإنهما أجَاظَ أن يكونا مفعولين قدم ثانيهما على الأوَّلِن وأجاز ظا أن يكون " الجنَّ " بدلاً من " الشركاء " ومفسراً للشركاء هذا نَصّ عبارتهم ، وهو معنى صحيح أعني كون البَدَل مفسراً ، فلا معنى رد هذا القول ، وأيضاً فقد رَدّ على الزمخشري عند قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعبدوا ﴾ [ المائدة : 117 ] فإنه لا يلزم في كل بدلٍ أن يحل محل المبدل منه ، قال : " ألا ترى إلى تَجْويز النحويين " زيدت مررت به أبي عبد الله " ولو قلت : " زيدت مررت بأبي عبد الله " لم يجز إلاَّ على رَأي الأخفش " ، وقد سبق هذا في " المائدة " فقد قرَّر هو أنه لا يلزمُ حُلُول البدل مَحَلّ المبدل منه ، فكيف يَرُدُّ به هنا ؟

الثالث : أن يكون " شركاء " هو المَفْعُول الأوّل ، و" الجن " هو المفعول الثاني قاله الحوفي ، وهذا لا يَصِحُّ لِمَا عَرَفْتَ أنَّ الأوَّل في هذا الباب مبتدأ في الأصل ، والثاني خبر في الأصل ، وتقرَّرَ أنه إذا اجتمع مَعْرِفَةٌ ونكرة جَعَلْتَ المعرفة مبتدأ ، والنكرة خبراً من غير عكس ، إلا في ضرورة تقدَّم التَّنْبِيهُ على الوارد منها . ؟

(47/244)

الرابع : أن يكون " شركاء الجن " مفعولين على ما تقدَّم بيانه ، و" لله " متعلق بمحذوف على أنه حالٌ من " شركاء " ؛ لأنه لو تأخَّرَ عنها لجاز أن يكون صفة لها قاله أبو البقاء ، وهذا لا يَصِحُّح ؛ لأنه يصير المعنى : جعلوهم شركاء في حال كَوْنِهم لله ، أي : مملوكين ، وهذه حالٌ لازمة لا تَنْفَكُّ ، ولا يجوز أن يقال : إنها غير منتقلة ؛ لأنها مؤكدة ؛ إذا لا تأكيد فيها هنا ، وأيضاً فإن فيه تَهْيِئَةَ العامل في معمول وقطعه عنه ، فإن " شركاء " يطلب هذا الجارّ يعلمل فيه ، والمعنى مُنْصَبٌّ على ذلك .

الخامس : أن يكون " الجنَّ " مَنْصُوباً بفعل مضمر جواب لسؤال مقدر ، كأن سائلاً سألَ ، فقال بعد قوله تعالى ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ﴾ : مَنْ جعلوا لله شركاء ؟ فقيل : الجنّ ، أي : جعلوا الجِن .

نقله أبو حيَّان عن شيخه أبي جعفر بن الزبير ، وجعله أحسن مما تقدم ؛ قال : " ويؤيد ذلك قراءة أبي حيوة ، ويزيد بن قطيب " الجنُّ " رفعاً على تقدير : هم الجنّ جواباً لمن قال : جعلوا لله شركاء ؟ فقيل : هم الجنُّ ، ويكون ذلك على سبيل الاسْتِعْظَامِ لما فعلوه ، والاسْتِنْقَاصِ بمن جعلوه شَرِيكاً لله تعالى " .

وقال مكي : " وأجاز الكِسَائِيُّ " رفع " الجنّ " على معنى هم الجنّ " .

فلم يَرْوِها عنه قراءة ، وكأنه لم يَطَّلِعْ على أن غيره قرأها كذلك .

وقرأ شعيب بن أبي حمزة ، ويزيد بن قطيب ، وأبو حيوة في رواية عنهما أيضاً " شركاء الجنِّ

" بخفض " الجنّ " .

قال الزَّمَخْشريّ : " وقرئ بالجر على الإضافة التي للتَّبْيين ، فالمعنى : أشركوهم في عبادتهم ؛ لأنهم أطَاعُوهُمْ كما أطاعوا الله " .

قال أبو حيَّان : ولا يتَّضِحُ معنى هذه القراءة ؛ إذا التقدير : وجعلوا شركاء الجن لله .

*(48/244)*

---

قال شهاب الدين : مَعْنَاها واضح بما فَسَّرَهُ الزمخشري في قوله ، والمعنى : أشْرَكوهم في عبادتهم إلى آخرن ، ولذلك سمَّاها إضافة تبيين أي أنه بين الشركاء ، كأنه قيل : الشركاء المطعيين للجن .

قوله : " وخَلَقَهُمْ " .

الجمهور على " خَلَقَهُمْ " بفتح اللام فعلاً ماضياً ، وفي هذه الجملة احتمالان :

أحدهما : أنه حالية ف " قد " مضمرة عند قوم ، وغيرم ضمرة عند آخرين .

والثاني : أنها مُسْتَانَفَةٌ لا محلَّ لها ، والضمير في " خلقهم " فيه وجهان :

أحدهما : أنه يعود على الجاعلين ، أي : جعلوا له شركاء مع أنه خلقهم وأوجدهم منفرداً بذلك من غيرم شاركة له في خَلْقِهم ، فكيف يشركون به غيره ممن لا تَأْثيرَ له من خلقهم ؟

والثاني : أنه يعود على الجنِّ ، أي : والحال أنه خلق الشركاء ، فكيف يجعلون مخلوقه شريكاً له ؟

وقرأ يحيى بن يعمر : " وخَلْقهم " بسكون اللام .

قال أبو حيان – رحمه الله – : " وكذا في مصحف عبد الله " .

قال شهاب الدين : قوله : " وكذا في مصحف عبد الله " فيه نظرٌ من حيث إن الشَّكْلَ الاصطلاحي أعني ما يدل على الحَرَكَاتِ الثلاث ، وما يَدُلُّ على السكون كالجزء منه كانت حيث مصاحب السلف منها مجردة ، والضبط الموجودة بين أيدينا اليوم أمر حادث ، يقال : إن أوَّل من أحدثه يحيى بن يَعْمُر ، فكيف يُنْسَبُ ذلك لِمُصْحَفِ عبد الله بن مسعود ؟

وفي هذه القراءة تأويلان :

أحدهما : أن يكون " خَلْقهم " مصدراً بمعنى اختلاقهم .

قال الزمخشري : أي اختلاقهم للإفْكِ ، يعني : وجعلوا لله خَلْقَهم حيث نسبوا قبائحهم إلى الله في قولهم : " واللَّهُ أمَرَنَا بِهَا " انتهى .

فيكون " لله " هو المفعول الثاني قُدِّمَ على الأول .

والتأويل الثاني : أن يكون " خَلْقهم " مَصْدراً بمعنى مخلوقهم ، فيكون عَطْفاً على " الجنّ " ومعفوله الثاني محذوف ، تقديره : وجعلوا مخلوقهم وهو ما يَنْحِتُونض من الأصنام كقوله تعالى : ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ [ الصافات : 59 ] شركاء لله تعالى .

قوله تعالى : " وخَرَقُوا " قرأ الجمهور " خَرَقُوا " بتخفيف الراء ، ونافع بتشديدها .

وقرأ ابن عباس بالحاء المهملة والفاء وتخفيف الراء ، وابن عمر كذلك أيضاً ، إلا أنه شدَّدَ الراء ، والتخفيف في قراءة الجماعة بمعنى الاخْتِلاق .

قال الفراء : يال : " خَلَقَ الإفْكَ وخَرَقَهُ واخْتَلَقَهُ وافتَرَاهُ وافتَعَلَهُ وخَرَصَهُ بمعنى كذب فيه " .

والتشديد للتكثير ، لأن القائلين بذلك خَلْقٌ كثير وجَمٌّ غفير .

وقيل : هما لغتان ، والتخفيف هو الأصل [ وحكى الزمخشري أنه سئل الحسن عن هذه الكلمة ، فقالك كملة عربية كانت العربُ تقولها كان الرجل إذا كذب كذْبَةً في نادي القوم يقُولُ له بعضهم : شقد خرقها والله أعلم ] .

وقال الزمخشري : " ويجوز أن يكون من خَرْقِ الثوب إذا شقّه ، أي : اشتقوا له بَنِينَ وبناتٍ " .

وأما قراءة الحاء المهملة فمعناها التَّزْوير ، أي : زوَّرُوا له أولاداً ؛ لأنه المُزَوِّرَ مُحَرِّفٌ ومُغَيِّرُ الحق إلى الباطل .

وقوله : " بِغَيْرِ عِلمٍ " فيه وجهان :

أحدهما : أنه نَعْتٌ لمصدر محذوف ؛ أي : خَرَقُوا له خَرْقاً بغير علمٍ قاله أبو البقاء ، وهو ضعيف المعنى .

(50/244)

---

الثاني : وهو الأحسن : أن يكون منصوباً على الحال من فاعل " خَرَقوا " أي : افتلعوا الكذب مُصَاحبين للجهل وهو عدم العلم كقول اليهود ﴿ عُزَيْرٌ ابن الله ﴾ [ التوبة : 30 ] وقول النصارى : ﴿ المسيح ابن الله ﴾ [ التوبة : 30 ] وقول كُفَّار العرب : الملائكة بَنَاتُ الله ، ثم إنه تبارك وتعالى نَزَّهَ نفسه ، فقال : " سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يَصِفُونَ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 334 . 338 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (100) ﴾

سُدَّت بصائرهم فاكتفوا بكل منقوصٍ أن يعبدوه ، وتلك عقوبةٌ لأرباب الغفلة عن الله تعالى عُجِّلَتْ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 492 ﴾

*(51/244)*

---

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (95) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (96) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (97) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (98) وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (99) وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (100) ﴾

(52/244)

---

ثم إنه سبحانه لما فرغ من تقرير التوحيد والنبوّة والمعاد عاد إلى ذكر الدلائل الدالة على وجود الصانع وكمال قدرته لتعلم أن حال المباحث العقلية والنقلية إنما هو معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله فقال ﴿ أن الله فالق الحب والنوى ﴾ أي بالنبات والشجر . وعن مجاهد أراد الشقين اللذين في الحنطة والنواة ، والفلق هو الشق . وعن ابن عباس والضحاك : الفلق هو الخلق . ووجه بأن العقل يتصور من العدم ظلمة متصلة لا انفراج فيها ولا انشقاق ، فإخراج الشيء من العدم إلى الوجود شق لذلك العدم وفلق بحسب التخيل والتعقل . واعلم أنه إذا وقعت الحبة والنواة في الأرض الرطبة ثم مر بها قدر من المدة أظهر الله في أعلاها شقاً ومن أسفلها شقاً ، أما العالي فيخرج منه الشجرة الصاعدة إلى الهواء ، وأما الساقل فإنه يخرج منه الشجرة الهابطة في الأرض وهي المسماة بعروق الشجرة ، وههنا عجائب منها : أن طبيعة الشجرة إن كانت تقتضي الهويّ في الأرض فكيف تولدت منها الشجرة الصاعدة إلى الهواء وبالعكس .

(53/244)

---

فاتصال الشجرتين على التبادل ليس بمقتضى الطبع والخاصية بل بمقتضى إرادة الموجد المختار . ومنها أن باطن الأرض جسم صلب كثيف لا تنفذ فيه المسلة ولا السكين ، ثم إنا نشاهد أطراف تلك العروق مع غاية نعومتها تقوى على النفوذ والغوص في جرم الأرض ، فحصول هذه القوّة الشديدة للجرم الضعيف ليس إلا بتقدير العزيز العليم . ومنها أنه يتولد من النواة شجرة ويحصل من الشجرة أغصان وأوراق وأزهار وأثمار ، وللثمر قشر أعلى وقشر أسفل وفيه اللب ، وفي اللب الدهن الذي هو المقصود الأصلي فتولد هذه الأجرام المختلفة في طبائعها وصفاتها وألوانها وطعومها وأشكالها مع تساوي تأثيرات النجوم والطبائع في المادة الواحدة يدل على وجود الفاعل المختار . ومنها أنك قد تجد الطبائع الأربع حاصلة في الفاكهة الواحدة ، فالأترج قشره حار يابس ولحمه بارد رطب ، وحماضه بارد يابس وبزره حار يابس ، وكذلك العنب قشره وعجمه بارد يابس وماؤه ولحمه حار رطب . ومنها أنك تجد أحوال الفواكه مختلفة ، فبعضها يكون لبه في الداخل وقشره في الخارج كالجوز واللوز ، وبعضها يكون فاكهته المطلوبة في الخارج والخشبة في الداخل كالخوخ والمشمش ، وبعضها يكون لنواها لب كالخوخ وقد لا يكون كالتمر ، وبعض الفواكه يكون كله مطلوباً كالتين . فهذه الأحوال المختلفة والأشكال المتخالفة . تتضمن حكماً وفوائد لا يعلمها إلا مبدعها . ومنها أنك إذا أخذت ورقة واحدة من أوراق الشجرة وجدت في وسطها خطاً واحداً مستقيماً يشبه النخاع في بدن الإنسان ولا يزال يستدق حتى يخرج

عن إدراك الحس ، ثم ينفصل عن ذلك الخط خطوط دقائق أصغر من الأول ، فكأنه سبحانه أوجد ذلك لتقوى به الجاذبة المركوزة في جرم تلك الورقة على جذب الأجزاء اللطيفة الأرضية في تلك المجاري الضيقة . فإذا وقفت على عناية الخالق في إيجاد تلك الورقة الواحدة علمت أن عنايته في إيجاد جملة تلك الشجرة أكثر ، وعلمت أن عنايته بتخليق الحيوان الذي خلق

(54/244)

---

النبات لأجله يكون أكمل ، وكذا عنايته بحال الإنسان الذي خلق لأجله النبات والحيوان ويصير ذلك مرقاة لك إلى وجود الصانع الخبير الحكيم القدير .

ثم بين كونه فالق الحب والنوى بقوله ﴿ يخرج الحي من الميت ﴾ لأن فلق الحب والنوى بالنبات والشجر الناميين من جنس إخراج الحي من الميت ، لأن النامي في حكم الحيوان ولهذا قال ﴿ يحيي الأرض بعد موتها ﴾ [ الحديد : 17 ] ثم عطف على قوله ﴿ فالق الحب ﴾ قوله ﴿ ومخرج الميت من الحي ﴾ قال ابن عباس : أخرج من النطفة بشراً حياً ثم يخرج من البشر الحي نطفة ، أو يخرج من البيض دجاجة ومن الدجاجة بيضاً ، أو يخرج المؤمن من الكافر كما في حق إبراهيم ، والكافر من المؤمن كنوح وابنه ، أو المطيع من

العاصي والعاصي من المطيع ، أو العالم من الجاهل والجاهل من العالم ، أو الكامل من الناقص والناقص من الكامل ، وقد يجعل الضار نافعاً وبالعكس .

(55/244)

---

يحكى أن إنساناً سقى الأفيون في الشراب ليموت فلما تناوله ظن القوم أنه سموت فرفعوه وجعلوه في بيت مظلم فلدغته حية وصارت تلك اللدغة لقوّة حرارة سم الحية سبباً لدفع ضرر برد الأفيون . ونقل عن عبد القاهر الجرجاني أن قوله ﴿ ومخرج الميت ﴾ معطوف على قوله ﴿ يخرج ﴾ وإنما حسن عطف الاسم على الفعل ههنا ، لأن لفظ الفعل يدل على اعتناء الفعل بذلك الفعل في كل وقت بخلاف لفظ الاسم ولهذا قال ﴿ هل من خالق غير الله يرزقكم ﴾ [ فاطر : 3 ] ليفيد أنه يرزقهم حالاً فحالاً وساعة فساعة إذا ثبت هذا فنقول الحي أشرف من الميت ، فذكره بلفظ الفعل فيدل على أن الاعتناء بإخراج الحي من الميت أكثر من العكس ﴿ ذلكم الله ﴾ المدبر الخالق النافع الضار المحيي المميت ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره ، أم كيف تستبعدون البعث والنشور لأن الإعادة أهون من الإبداء ؟ ثم عدل عن الأحوال الأرضية إلى الاستدلال بما فوقها وهي الأحوال الفلكية فقال ﴿ فالق الإصباح ﴾ وهو مصدر سمي به الصبح ،

المراد فالق ظلمة الإصباح وهو الغبش في آخر الليل وكأن الأفق كان بحراً مملوءاً من الظلمة . ثم إنه سبحانه شق ذلك البحر المظلم بأن أجرى فيه جدولاً من النور . فالمعنى فالق ظلمة الإصباح بنور الإصباح ، وحسن الحذف للعلم به . أو المراد فالق الإصباح ببياض النهار وإسفاره ومنه قولهم " انشق عمود الفجر وانصدع الفجر " أو المراد مظهر الإصباح بواسطة فلق الظلمة ، فذكر السبب وأراد المسبب ، أو الفالق بمعنى الخالق كما مر وقد سلف لنا تقرير الصبح في البقرة في تفسير قوله عز من قائل ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ﴾ [ البقرة : 164 ] ثم إن كون الصبح بسبب وقوع ضوء الشمس على ضلع مخروط ظل الأرض في جانبه الشرقي لا ينافي كون الله سبحانه فالق الإصباح بالحقيقة ، كما أن وجود النهار بسبب طلوع جرم الشمس عن الأفق لا ينافي ذلك ، والإمام فخر الدين الرازي

*(56/244)*

---

أراد أن يبين أن ذلك بقدرة الفاعل المختار فنفى كونه بسبب ضوء الشمس بحجج اخترعها من عنده وكلها خلاف المعقول والمنقول من علم الرياضة فلذلك أسقطناها عن درجة الاعتبار . النوع الثاني من الدلائل الفلكية الدالة على التوحيد قوله ﴿ وجاعل

الليل سكناً ﴾ حجة من قرأ باسم الفاعل أن المعطوف عليه اسم فاعل ، وحجة من قرأ بصيغة الفعل أن قوله بعد ذلك ﴿ والشمس والقمر ﴾ منصوبان ولا بد من عامل وما ذلك إلا أن يقدر " جاعل " بمعنى " جعل " .

*(57/244)*

---

والسكن ما يسكن إليه الرجل ويطمئن إليه من زوج أو حبيب ومنه قيل للنار : سكن كما سموها المؤنسة لأنها يستأنس بها ، والليل يطمئن إليه التعب بالنهار لاستراحته فيه وجمامه . ويحتمل أن يراد : وجعل الليل مسكوناً فيه كما قال ﴿ لتسكنوا فيه ﴾ [ يونس : 67 ] فالليل والنهار من ضروريات مصالح هذا العالم ، فهما نعمتان من الله تعالى وآيتان على وحدته وقدرته . النوع الثالث قوله ﴿ والشمس والقمر حسباناً ﴾ أي سببي حسبان لأن حساب الأوقات يعلم بسيرهما ودورهما . والحسبان بالضم مصدر حسب بالفتح كما أن الحسبان بالكسر مصدر حسب بالكسر . وقيل : إنه جمع حساب مثل " شهاب " وشهبان " . قال في الكشاف : الشمس والقمر قرئا بالحركات الثلاث . فالنصب على إضمار فعل دل عليه ﴿ جاعل الليل ﴾ أو يعطفان على محل الليل لأن اسم الفاعل أريد به ههنا الاستمرار كما تقول : الله عالم قادر . فلا تقصد زماناً دون زمان فتكون الإضافة

غير حقيقة ويكون لليل محل . قلت : وهذا مناقض لما ذكره في ﴿ مالك يوم الدين ﴾ [ الفاتحة : 3 ] من أنه يجوز أن يراد به زمان مستمر حتى تكون الإضافة حقيقية ، ويصح وقوعه صفة للمعرفة . وأما وجه الجر فظاهر . ووجه الرفع كونهما مبتدأين محذوفي الخبر أي والشمس والقمر مجعولان أو محسوبان حسباناً ﴿ وذلك ﴾ الجعل ﴿ تقدير العزيز ﴾ الذي قهرهما ﴿ العليم ﴾ الذي دبرهما . وذلك أن تقدير أجرام الأفلاك بصفاتها المخصوصة وهيآتها المحدودة وأوضاعها المعينة لا يتم إلا بقدرة شاملة لجميع الممكنات وعلم نافذ في الكليات والجزئيات . النوع الرابع قوله ﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم ﴾ عد ههنا من منافع النجوم كونها سبباً للاهتداء إلى الطرق والمسالك ﴿ في ظلمات البر والبحر ﴾ حيث لا يرون شمساً ولا قمراً . والتقدير في ظلمات الليل بالبر والبحر فأضافها إليهما لملابستها لهما . وقيل : المراد ظلمات بر التعطيل وبحر التشبيه فإن اختصاص كل من هذه الكواكب بحال وصفة

(58/244)

---

أخرى مع تشاركها في الجسمية دليل ظاهر على مختار قادر . وأيضاً اتصافها بالأعضاء والأبعاض والحدود والأحياء مع أنها لا تصلح للإلهية بالاتفاق دليل على تنزيه الله سبحانه

من هذه السمات ولهذا قال ﴿ قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾ فيستدلون بالمحسوس على المعقول وينتقلون من الشاهد إلى الغائب .

ثم عدل عن الآيات الآفاقية إلى آيات الأنفس فقال ﴿ وهو الذي أنشأكم ﴾ أي خلقكم بطريق النشؤ والنماء ﴿ من نفس واحدة ﴾ هي آدم وحوّاء مخلوقة من ضلع من أضلاعه ، وكذا عيسى لأنه من مريم وإن كان يتوسط كلمة "كن" أبو بالنفخ وهي من آدم ﴿ فمستقر ﴾ من قرأ بكسر القاف فالتقدير فمنكم مستقر ﴿ و ﴾ منكم ﴿ مستودع ﴾ الأول اسم فاعل والثاني اسم مفعول .

(59/244)

---

ومن قرأ بفتح القاف فالتقدير : فلكم مستقر ولكم مستودع . فيكون كلاهما اسمي مكان أو مصدراً . وذلك أن استقر لازم فلا يجيء منه المفعول به بلا واسطة فينبغي تفسير مستودع أيضاً بما يشاكله استحساناً . وعن ابن عباس : أن المستودع الصلب والمستقر الرحم لقوله ﴿ ونقر في الأرحام ما نشاء ﴾ [ الحج : 5 ] ولأن اللبث في الرحم أكثر فيكون لفظ القرار بذلك أنسب بخلاف المستودع فإنه في معرض الاسترداد ساعة فساعة ، وهذا شأن المني في الأصلاب فإنه بصدد الإراقة في كل حين وأوان . وقيل : المستقر صلب الأب

والمستودع الرحم ، لأن النطفة قد حصلت في صلب الأب أوّلاً واستقرت هناك ، ثم حصلت في الرحم على سبيل الوديعة ، ولأن هذا الترتيب يناسب تقديم المستقر على المستودع . وعن الحسن : المستقر حاله بعد الموت لأن سعادته وشقاوته تبقى وتستقر على حالة واحدة والمستودع حاله قبل الموت ، لأن الكافر قد ينقلب مؤمناً والفاسق صالحاً والوديعة على شرف الزوال والذهاب . وقال الأصم : المستقر الذي خلق من النفس الأولى وحصل في الوجود والمستودع الذي لم يخلق بعد وسيخلق . وعنه أيضاً المستقر من في قرار الدنيا ، والمستودع من في القبور إلى يوم البعث . وعن قتادة بالعكس . وعن أبي مسلم الأصفهاني : المستقر الذكر لأن النطفة إنما تستقر في صلبه ، والمستودع الأنثى لأنها تستودع النطفة . وحاصل الكلام أن الإنسان خلق من نفس واحدة ثم إنه يتقلب في الأطوار ويتردد في الأحوال ، وليس هذا بمقتضى الطبع والخاصية وإلا لتساوى الكل في الأخلاق والأمزجة فذلك إذن بتدبير فاعل قدير مختار خبير . ولهذا قال ﴿ قد فصلنا الآيات ﴾ ميزنا بعضها عن بعض ﴿ لقوم يفقهون ﴾ لأن الفائدة تعود إليهم وإن كان الإرشاد عاماً ، ولأن آيات الأنفس أقرب إلى الاعتبار وأهون لدى الاستبصار ختم هذه الآية بالفقه ، وخصص خاتمة الآية الأولى بالعلم ليعلم أن الغافل عن هذه لا فطنة له ولا ذكاء أصلاً فضلاً عن العلم

. ثم عدد ما كونه نعمة أبين فيه من كونه آية فقال ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء ﴾ قيل : أي من جانب السماء وقيل : أي من السحاب لأن العرب تسمي كل ما فوقك سماء كسماء البيت . وقال أكثر أهل الظاهر : أي من السماء نفسها لأنه تعالى فاعل مختار قادر على خلق الأجسام كيف شاء وأراد . ونحن قد حكينا في أول سورة البقرة مذهب الحكماء في هذا الباب والله تعالى أعلم . قال ابن عباس : يريد بالماء ههنا المطر ، ولا تنزل قطرة من السماء إلا ومعها ملك . والفلاسفة يحملون ذلك على الطبيعة الحالة فيها الموجبة للنزول إلى مركزها . ﴿ فأخرجنا به ﴾ أي بواسطة ذلك الماء وذلك يوجب الطبع والمتكلمون ينكرونه ﴿ نبات كل شيء ﴾ قال الفراء : أي نبات كل شيء له نبات فيخصص بنبت كل صنف من أصناف النامي ويخرج ما عدا ذلك .

*(61/244)*

---

وفي الآية التفاتان : الأول من الحكاية إلى الغيبة حيث لم يقل " نحن الذين أنزلنا " والثاني من الغيبة إلى الحكاية وأنت خبير أن نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب باب من أبواب البلاغة ، وصيغة الجمع لأجل التعظيم كما هو ديدن الملوك . ثم لما بين أن السبب وهو الماء واحد

والمسببات صنوف كثيرة فصل ذلك بعض التفصيل حسب ما ذكر في قوله ﴿ إن الله فالق الحب والنوى ﴾ فقال ﴿ فأخرجنا منه ﴾ أي من النبات ﴿ خضراً ﴾ شيئاً أخضر طرياً وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة . ﴿ نخرج منه ﴾ أي من ذلك الخضر ﴿ حباً متراكباً ﴾ بعضه على بعض . قال ابن عباس : يريد القمح والشعير والسلت والذرة ، فأصل ذلك هو العود الأخضر وتكون السنبلة راكبة عليه من فوقه والحبات متراكبة وفوق السنبلة أجسام دقيقة حادة كالإبر . والمقصود من تخليقها أن تمنع الطيور من التقاط تلك الحبات المتراكبة . ولما ذكر ما نبت من الحب أتبعه ذكر ما ينبت من النوى فقال ﴿ ومن النخل ﴾ وهو خبر وقوله ﴿ من طلعها ﴾ بدل منه كأنه قيل : وحاصلة من طلع النخل ﴿ قنوان ﴾ أو الخبر محذوف لدلالة أخرجنا عليه . والتقدير : ومخرجة من طلع النخل قنوان وهو جمع قنو كصنوان وصنو . والقنو العذق وهو من التمر بمنزلة العنقود من العنب ، والطلع أول ما يبدو من غذق النخلة . قال ابن عباس : يريد العراجين التي قد تدلت من الطلع دانية من تحتها . وعنه أيضاً أنه أراد عذوق النخلة اللاصقة بالأرض . قال الزجاج : ولم يقل ومنها قنوان بعيدة لأن أحد القسمين يغني عن الآخر كما قال ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ [ النحل : 81 ] ويحتمل أن يقال : ترك البعيدة لأن النعمة في القريبة أكمل وأتم . وقيل : أراد بكونها دانية أنها سهلة المجتنى متعرضة للقاطف كالشيء الداني القريب المتناول ، وأن النخلة وإن كانت صغيرة ينالها القاعد

فإنها بالثمر لا تنتظر الطول ﴿ وجنات من أعناب ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿ خضراً ﴾ أي وأخرجنا به جنات من

(62/244)

---

أعناب . ومن قرأ بالرفع فعلى أنها مبتدأ محذوف الخبر أي وثم جنات من أعناب ، أو وجنات من أعناب مخرجة ، ولا يجوز أن يكون عطفاً على قنوان وإن جوّزه في الكشاف ، إذا يصير المعنى وحاصلة أو مخرجة من النخل من طلعها جنات حصلت من أعناب . أما قوله ﴿ والزيتون والرمان ﴾ بالنصب فللعطف على منصوبات قبلها أو للاختصاص لفضل هذين الصنفين . قال الفراء : أراد شجر الزيتون وشجر الرمان فحذف المضاف . واعلم أنه سبحانه قدم الزرع على الأشجار لأنه غذاء وثمار الأشجار فواكه والغذاء مقدم على الفواكه ، ثم قدم النخل على سائر الفواكه لأن التمر يقوم مقام الغذاء ولا سيما للعرب . ومن فضائلها أن الحكماء بينوا أن بينه وبين الحيوانات مشابهات كثرة ولهذا قال صلى الله عليه وسلم

(63/244)

" أكرموا عمتكم النخلة فإنها خلقت من بقية طينة آدم " ثم ذكر العنب عقيب النخل لأنه أشرف أنواع الفواكه وأنه ينتفع به من أوّل ظهوره إلى آخر حاله . فأوّله خيوط دقيقة حامضة الطعم لذيذة وقد يمكن اتخاذ الطبائخ منه ، ثم يظهر الحصرم وهو طعام شريف للأصحاء وللمرضى من أصحاب الصفراء ، ثم يتم العنب فيؤكل كما هو ويدخر ويتخذ منه الزبيب والدبس والخمر والخل ومنافع كل منها لا تحصى ، إلا أن الخمر حرمها الشرع لإسكارها . وأخس ما في العنب عجمه والأطباء يتخذون منه جوارشنات نافعة للمعدة الضعيفة الرطبة . ويتلو العنب في المنفعة الزيتون لأنه يمكن تناوله كما هو ، وينفصل منه الزيت الذي يعظم غناؤه ، وأما الرمان فحاله عجيبة جداً لأنه قشر وشحم وعجم وماء . والثلاثة الأول باردة يابسة أرضية كثيفة قابضة عفصة ، وأما ماء الرمان فبالضد من هذه الصفات وأنه ألذ الأشربة وألطفها وأقربها إلى الاعتدال وأشدها مناسبة للطباع المعتدلة ، وفيه تقوية للمزاج الضعيف وهو غذاء من وجه ودواء من وجه ، وكأنه سبحانه جمع فيه بين المتضادين فيكون دلالة القدرة والرحمة والحكمة فيه أكمل وأنواع النبات أكثر من أن يفي بشرحها المجلدات فاكتفى بذكر هذه الأنواع الخمسة تنبيهاً على البواقي . وأما قوله ﴿ مشتبهاً وغير متشابه ﴾ ففي تفسيره وجوه الأوّل أن هذه الفواكه تكون متشابهة في اللون والشكل مع أنها تكون مختلفة في الطعم واللذّة ، فإن الأعناب والرمان قد تكون متشابهة في

الصورة واللون والشكل ثم إنها تكون مختلفة في الحلاوة والحموضة وبالعكس . الثاني أن أكثر الفواكه يكون ما فيها من القشر والعجم متشابهاً في الطعم والخاصية ، وأما ما فيها من اللحم والرطوبة فإنها تكون مختلفة ، ومنهم من يقول : الأشجار متشابهة والثمار مختلفة . ومنهم من قال : بعض حبات العنقود متشابهة وبعضها غير متشابه وذلك أنك قد تأخذ العنقود من العنب فترى جميع حباته مدركة نضيجة حلوة طيبة إلا حبات

(64/244)

---

مخصوصة فإنها بقيت على أوّل حالها من الخضرة والحموضة والعفوصة ، ومعنى اشتبه وتشابه واحد يقال : اشتبه الشيئان وتشابها كقولك : استويا وتساويا . وإنما قال ﴿ مشتبهاً ﴾ ولم يقل " مشتبهين " إما اكتفاء بوصف أحدهما ، أو على تقدير والزيتون مشتبهاً وغير متشابه والرمان كذلك كقوله :

رماني بأمر كنت ووالدي . . . بريئا ومن أجل الطويّ رماني

﴿ انظروا إلى ثمره ﴾ من قرأ بفتحتين فلأنه جمع ثمرة مثل : بقر وبقرة ، وشجر وشجرة . ومن قرأ بضمتين فعلى أنه جمع ثمرة أيضاً مثل : خشبة وخسب . قال تعالى ﴿ كأنهم خشب مسندة ﴾ [ المنافقون : 4 ] أو على أن ثمرة جمعت على ثمار ثم جمع ثمار على ثمر

﴿ إذا أثمر ﴾ إذا أخرج ثمره ﴿ وينعه ﴾ يقال : ينعت الثمرة ينعاً وينعاً بالفتح والضم إذا أدركت ونضجت . أمر بالنظر في حال ثمر كل شجرة أوّل حدوثها وفي آخر حالها فإنها قد تكون موصوفة بالخضرة والحموضة ثم تصير إلى السواد والحلاوة ، وربما كانت أوّل الأمر باردة بحسب الطبيعة ثم تصير حارة الطبع وقد يخرج ضيئلاً ضعيفاً لا يكاد ينتفع به ، ثم يؤل إلى كمال اللذة والمنفعة فحصول هذه الانتقالات والتغيرات لا بد له من سبب مستقل في التأثير سوى الطبائع والفصول والأفلاك والنجوم وما ذاك إلا السبب الأوّل ومبدع الكل ، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿ إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ قال القاضي : المراد لمن يطلب بالإيمان بالله لأنه آية لمن آمن ولمن لم يؤمن ، ويحتمل أن يقال : خص المؤمنين لأنهم المنتفعون بذلك دون غيرهم ، أو المراد أن هذه الدلالة على قوّتها وظهورها دلالة لمن سبق قضاء الله تعالى في حقه بالإيمان وإلا فلا ينتفع به ألبتة ويكون من زمرة من قال في حقهم ﴿ وجعلوا الله شركاء الجن ﴾ قال الكلبي : عن ابن عباس نزلت في الزنادقة قالوا إن الله تعالى وإبليس أخوان ، فالله خالق الناس والدواب والأنعام ، وإبليس خالق الحيات والسباع والعقارب .

*(65/244)*

قال في التفسير الكبير : هذا مذهب المجوس فإنما قال ابن عباس هذا قول الزنادقة لأن المجوس يلقبون بالزنادقة لأن الكتاب الذي زعم زرادشت أنه نزل عليه من عند الله يسمى بالزند والمنسوب إليه زندي ، ثم عرّب فقيل زنديق ، ثم جمع فقيل زنادقة ، ثم إنهم قالوا كل ما في هذا العالم من الخيرات فهو من يزدان ، وجميع ما فيه من الشرور فهو من أهرمن وهو المسمى بإبليس في شرعنا ، ثم اختلفوا فالأكثرون منهم على أن أهرمن محدث ولهم في كيفية حدوثه أقوال عجيبة كقولهم إنه تعالى فكر في مملكة نفسه واستعظمها ففعل نوعاً من العجب فتولد الشيطان من ذلك العجب ، وكقولهم شك في قدرة نفسه فتولد من شكه الشيطان . والأقلون منهم قالوا إنه قديم أزلي والحاصل أنهم يقولون : عسكر الله تعالى هم الملائكة ، وعسكر إبليس هم الشياطين والملائكة فيهم كثرة عظيمة وهم أرواح طاهرة مقدسة تلهم الأرواح البشرية الطاعات ، والشياطين فيهم أيضاً كثرة عظيمة يلقون الوساوس إلى الأرواح البشرية ، والله تعالى مع عسكره يحاربون إبليس مع عسكره فلهذا السبب حكى الله تعالى عنهم أنهم أثبتوا لله شركاء من الجن بلفظ الجمع وإن كان شريكه عندهم بالحقيقة واحداً وهو أهرمن . وانتصاب ﴿ الجن ﴾ على أنه بدل أو بيان لشركاء أو على أنه مفعول أول ل ﴿ جعلوا ﴾ و ﴿ شركاء ﴾ ثانيه ويكون ﴿ لله ﴾ طرفاً لغواً . وفائدة تقديم المفعول الثاني على هذا القول استعظام أن يتخذ لله شريك كائناً من كان ، ملكاً أو جنياً أو إنسياً ، ولذلك قدم اسم الله على الشركاء . وقرىء ﴿ الجن

﴾ بالرفع كأنه قيل : من هم ؟ فقيل : الجن . وبالجر على الإضافة التي للتبيين . وقيل : إن الآية نزلت في الكفار الذين جعلوا الملائكة بنات الله .

(66/244)

---

وحسن إطلاق الجن على الملائكة لاستتارهم عن العيون . ومعنى كونهم شركاء أنها مدبرة لأحوال هذا العالم ومعينة لله إعانة الولد للوالد . وعن الحسن وطائفة من المفسرين : أن المراد أن الجن دعوا الكفار إلى عبادة الأصنام وإلى القول بالشركة فأطاعوهم كما يطاع الله . أما قوله ﴾ وخلقهم ﴾ فإشارة إلى الدليل القاطع على إبطال الشريك . والضمير فيه إما أن يعود إلى الجن أو إلى الجاعلين فإن عاد إلى الجن فإن قلنا إن الآية نزلت في المجوس فتقريره أن الأكثرين منهم معترفون بأن إبليس محدث ولو لم يعترفوا بذلك والبرهان العقلي قائم على أن ما سوى الحق الواحد ممكن لذاته ، وكل ممكن لذاته فهو محدث ، فنقول حينئذ ، كل محدث مخلوق وله خالق وما ذاك إلا الله سبحانه ، وحينئذ يلزمهم نقض قولهم لأنه ثبت أن إله الخير قد فعل أعظم الشرور وهو خلق إبليس الذي هو مادة كل شر . وإن قلنا . إنها نزلت في كفار العرب القائلين الملائكة بنات الله ، فظاهر لأنهم يسلمون أن الملائكة مخلوقون وأنهم تولدوا منه تولد الولد من الوالد . وإن عاد الضمير إلى الجاعلين فالمعنى . وعلموا أن

الله خلقهم دون الجن كقوله ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ [ لقمان : 25 ] ولم يمنعهم علمهم أن يتّخذوا من لا يخلق شريكاً للخالق . والجملة في موضع الحال أي وقد خلقهم . وقرىء ﴿ وخلقهم ﴾ بسكون اللام أي اختلاقهم للإفك يعني جعلوا لله خلقهم حيث نسبوا قبائحهم إلى الله في قولهم ﴿ والله أمرنا بها ﴾ [ الأعراف : 28 ] ثم حكي عن قوم آخرين نوعاً آخر من الإشراك فقال ﴿ وخرقوا له بنين وبنات ﴾ وذلك قول أهل الكتابين في المسيح وعزير ، وقول قريش في الملائكة ، ومن هنا يعلم ضعف قول من قال ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن ﴾ نزل في كفار قريش لأنه لزم التكرار من غير فائدة ظاهرة ، يقال : خرق الإفك وخلقه واخترقه واختلقه بمعنى . قال الحسن : كلمة عربية كان الرجل ، إذا كذب كذبة في نادي

*(67/244)*

---

القوم يقول له بعضهم : قد خرقها والله أعلم . ويجوز أن يكون من خرق الثوب إذا شقه أي اشتقوا له بنين وبنات . أما قوله ﴿ بغير علم ﴾ فكالتنبيه على إبطال قولهم ، فإن من عرف الإله حق معرفته استحال أن يثبت له ولداً لأن ذلك الولد إن كان واجب الوجود لذاته كان مستقلاً بنفسه قائماً بذاته لا تعلق له في وجوده بالآخرة تعلق الفرعية ، وإن كان

ممكن الوجود لذاته كان موجوداً بإيجاد الواجب وكان عبداً له لا ولداً . وأيضاً الولد إنما يحتاج إليه ليقوم مقام الوالد بعد فنائه ومن تقدس عن الفناء لم يحتج إلى الولد . وأيضاً الولد جزء من أجزاء الوالد ومن لم يكن مركباً استحال أن ينفصل منه جزء يتولد منه الولد . ثم نزه نفسه عما لا يليق به فقال ﴿ سبحانه ﴾ وهذا على لسان المسبحين ﴿ وتعالى عما يصفون ﴾ وهذا له في نفسه سواء سبحه مسبح أم لا .

والمراد بالتعالي العلو بالشرف والرفعة بدليل قوله عما يصفون . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 124.132 ﴾

(68/244)

---

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ حين أنكروا إنزال الكتب والبعثة على أنهم لو اعترفوا بذلك أيضاً لم يعرفوه حق معرفته لأن المحاط لا يحيط بالمحيط . نعم تزداد معرفته بازدياد معرفة أوصافه ﴿ تجعلونه قراطيس ﴾ أي في القراطيس ، وما يجعلونه في قلوبهم بالتخلق بأخلاقه ﴿ وعلمتم ﴾ بتعليم محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ ما لم تعلموا أنتم ولا

آباؤكم ﴾ كقوله ﴿ ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ [ البقرة : 151 ] ومن الحكمة ما هو سره الذي يكون تعليمه بسر المتابعة سراً بسر وإضماراً بإضمار ، والذي علم النبي هو الله وعلى الخواص بأن يهديهم إلى ربهم ، وعلى خواص الخواص بأن يوصلهم إلى ربهم ويخلقهم بأخلاقه ، وفي كتاب المحبوب شفاء لما في القلوب ﴿ مصدق الذي بين يديه ﴾ لأنه يصدق حقائق جميع ما في الكتب ﴿ ولتنذر أم القرى ﴾ وهي الذرة المودعة في القلب التي هي المخاطب في الميثاق وقد دحيت جميع أرض القلب من تحتها ﴿ ومن حولها ﴾ من الجوارح والأعضاء والسمع والبصر والفؤاد والصفات والأخلاق بأن يتنوّروا بأنواره وينتفعوا بأسراره ويتخلقوا بأخلاقه . ﴿ والذين يؤمنون بالآخرة ﴾ فيستعملون الأدوات والآلات في أمور الدنيا والآخرة لا في الدنيا الفانية وشهوات النفس وهواها ﴿ يؤمنون ﴾ بالقرآن ﴿ وهم على صلاتهم ﴾ بالترقي في صفاتهم إلى التخلق بأخلاق القرآن يداومون ، فإن الصلاة معراج المؤمن ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ بإظهار المواجد والحالات رياء ومراء من غير أن يكون له منها نصيب ، ﴿ أو قال أوحي إليّ ﴾ الإشارات ولم يلهم نفسه شيئاً منها ، ومن قال متشدّقاً متفيهقاً سأتكلم بمثل كلام الله من الحقائق والأسرار فتظهر مضرة ظلمة وافترائه عند سكرات الموت ، وانقطاع تعلق الروح عن البدن ، وإخراج النفس عن القالب كرهاً لتعلقها

بالشهوات واللذات وطلب الرياسات ، ويكون شدة النزع والهوان بحسب التعلقات ﴿ ولقد جئتمونا فرادى ﴾ عن

(69/244)

---

الدنيا وما يتعلق بها ، أو فرادى عن تعلقات الكونين ﴿ كما خلقناكم أوّل مرة ﴾ في أوّل خلقة الروح قبل تعلقه بالقالب . ﴿ وتركتم ﴾ بالتجريد عن الدنيا وبالتفريد عن الدنيا والآخرة ﴿ ما خولناكم ﴾ من تعلق الكونين ﴿ وراء ظهوركم وما نرى معكم ﴾ الأعمال والأحوال التي ظننتم أنها توصلكم إلى الله ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ وبينها عند انتهاء سيركم كما انتهى سير جبريل عند سدرة المنتهى ، وحينئذ لا يصل إلى الوحدة إلا بجذبة ﴿ ارجعي إلى ربك ﴾ [ الفجر : 28 ] ولو لم تدركه الجذبة المسندة إلى العناية لانقطع عن السير في الله بالله ونفى السدرة وهو يقول ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ [ الصافات : 164 ] ﴿ إن الله فالق ﴾ حبة الذرة التي أخذ منها الميثاق المودعة في حبة القلب عن نبات المحبة ، وفالق النوى ذكر لا إله إلا الله في أرض القلب عن شجرة الإيمان ، كلمة طيبة كشجرة طيبة يخرج نبات المحبة التي هي من صفات الحي القيوم من الذرة الميتة

الإنسانية ، ومخرج الأفعال الطبيعية التي هي من صفات الكفار الموتى من المؤمن الحق في الدارين .

(70/244)

---

وأيضاً يخرج نخل الإيمان الحق من نوى الحروف الميتة في كلمة لا إله إلا الله ، ومخرج ميت النفاق من الكلمة الحية وهي لا إله إلا الله ﴿ فالق الإصباح ﴾ فالق ظلمة الجمادية بصباح العقل والحياة والرشاد ، وفالق ظلمة الجهالة بصباح الفهم والإدراك ، وفالق ظلمات العالم الجسماني بتخليص النفس القدسية إلى صحبة عالم الأفلاك ، وفالق ظلمات الاشتغال بعالم الممكنات بصباح نور الاستغراق في معرفة مدبر المحدثات والمبدعات . وبالجملة فالق أنوار الروح عن ظلمة ليل البشرية ، وجاعل ليل البشرية ستراً عن ضياء شمس الروح ليسكن فيه النفس الحيوانية والأوصاف البشرية ﴿ والشمس والقمر حسباناً ﴾ يعني تجلي شمس الروحانية وطلوع قمر القلب بالحساب لئلا يفسد أمر القلب والقالب . وأيضاً تجلى شمس الربوبية وطلوع قمر الروحانية لليل البشرية بالحساب لئلا يفسد أمر الدين والدنيا على العبد بالتفريط والإفراط ، فإن إفراط طلوع شموس المعارف والشهود آفة " أنا الحق وسبحاني " وفي تفريطه آفة أنا ربكم الأعلى وعبادة الهوى . ﴿ ذلك تقدير العزيز

﴿ الذي لا يهتدى إليه إلا به ﴾ العليم ﴾ بمن يستحق الاهتداء إليه ﴾ وهو الذي جعل لكم النجوم ﴾ نجوم أنوار الغيوب في سموات القلوب ﴾ لتهتدوا بها في ظلمات ﴾ بر البشرية وبحر الروحانية إلى عالم الربوبية . ﴾ وهو الذي أنشأ ﴾ أرواحكم من روح واحد هو روح محمد صلى الله عليه وسلم " أول ما خلق الله روحي كما خلق أجسادكم من جسد واحد هو جسد آدم أبي البشر " فمن الأرواح ما تعلق بالأجساد واستقر وما هو بعد مستودع في عالم الأرواح . وأيضاً من الأرواح ما هو مستقر فيه نور صفة الإيمان وما هو مستودع فيه جذبات الحق ، ومنها ما هو مستقر في أنانيته مع علو رتبته بالبقاء وما هو مستودع أنانيته بالفناء ، وما هو مستقر ببقاء الحق باق وما هو مستودع في بقاء البقاء عن الفناء ﴾ قد فصلنا ﴾ دلالات الوصول في الوصال ﴾ لقوم يفقهون ﴾ إشارات القلوب ﴾

(71/244)

---

وهو الذي أنزل ﴾ من سماء العناية ﴾ ماء ﴾ الهداية ﴾ فأخرجنا به نبات كل شيء ﴾ من أنواع المعارف ﴾ فأخرجنا منه خضراً ﴾ طرياً من المعاني والأسرار ﴾ يخرج به ﴾ من الحقائق ما تركب بعضها بعضها فترتب بعضها على بعض ﴾ ومن النخل ﴾ يعني

أصحاب الولايات من طلعها ﴾ من ثمرات ولايتهم ما هو متدان للطالبين أي منهم من يكون مريئاً فينتفع بثمرات ولايته ، ومنهم من يختار العزلة والانقطاع عن المريدين . ﴿ وجنات ﴾ يريد أرباب الزهد والتقوى والفتوّة الذين لم يبلغوا رتبة الولاية من أعناب الاجتهاد وزيتون الأصول ورمان الفروع ﴿ مشتبهاً ﴾ أي متفقاً في الأصول والفروع ﴿ وغير متشابه ﴾ أي مختلفاً فيما بين العلماء ﴿ انظروا ﴾ إلى ثمر الولايات كيف ينتفع به الخواص والعوام ﴿ وينعه ﴾ أي الكامل منها . ﴿ إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ بأحوالهم وينتفعون بأموالهم وأحوالهم . ﴿ وجعلوا لله ﴾ إشارة إلى أنه كما يخرج بماء اللطف من أرض القلوب لأربابها أنواع الكمالات كذلك يخرج بماء القهر من أرض النفوس لأصحابها أنواع الضلالات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 132.134 ﴾

*(72/244)*

---

قوله تعالى ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (101) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ختم بالتنزيه عما قالوا من الشريك والولد ، استدل على ذلك التنزيه بأن الكل خلقه ، محيط بهم علمه ، ولن يكون المصنوع كالصانع ، فقال : ﴿ بديع السماوات والأرض ﴾ أي مبدعهما ، وله صفة الإبداع ، أي القدرة على الاختراع ثابتة ، ومن كان كذلك فهو غني عن التوليد ، فلذا حسن التعجب في قوله : ﴿ أَنَّى ﴾ أي كيف ومن أيّ وجه ﴿ يكون له ولد ﴾ وزاد في التعجيب بقوله : ﴿ ولم ﴾ أي الحال أنه لم ﴿ يكن له صاحبة و ﴾ الحال أنه ﴿ خلق كل شيء ﴾ أي مقدور ممكن من كل صاحبة تفرض ، وكل ولد يتوهم ، وكل شريك يدعي فكيف يكون المبدع محتاجاً إلى شيء من ذلك على وجه التوليد أو غيره . ولما كانت القدرة لا تتم إلا بشمول العلم قال : ﴿ وهو ﴾ ولم يضمر تنبيهاً على أن عموم العلم لا تخصيص فيه كالخلق فقال : ﴿ بكل شيء عليم ﴾ أي فهو على كل شيء قدير ، لأن شمول العلم يلزمه تمام القدرة – كما يأتي برهانه إن شاء الله في طه ، ومن كان له ولد لم يكن محيط العلم ولا القدرة ، بل يكون محتاجاً إلى التوليد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 689 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات : ﴿ ولم يكن ﴾ بياء الغيبة : قتيبة ﴿ درست ﴾ بتاء التأنيث : ابن عامر وسهل ويعقوب ﴿ دارست ﴾ بتاء الخطاب من المدارسة : ابن كثير وابو عمرو .

والباقون بتاء الخطاب ﴿ درست ﴾ من الدرس . ﴿ عدوّاً ﴾ على فعول بالضم : يعقوب . الباقون ﴿ عدوا ﴾ على فعل . ﴿ إنها إذا جاءت ﴾ بالكسر : ابن كثير وأبو عمرو وسهل ويعقوب وخلف وقتيبة ونصير وأبو بكر وحماد . الباقون : بالفتح . ﴿ لا تؤمنون ﴾ بتاء الخطاب : ابن عامر وحمزة . الباقون : على الغيبة .

*(73/244)*

---

الوقوف : ﴿ والأرض ﴾ ط ﴿ صاحبة ﴾ ط ﴿ كل شيء ﴾ ط لاحتمال الواو الحال والاستئناف ﴿ عليهم ﴾ ط ﴿ ربكم ﴾ ط لاحتمال الجملة الاستئناف والحال والعامل معنى الإشارة ﴿ إلا هو ﴾ ط لأن قوله ﴿ خالق ﴾ بدل من الضمير المستثنى أو خبر ضمير محذوف ﴿ فاعبدوه ﴾ ط لاحتمال الواو الحال والاستئناف ﴿ وكيل ﴾ ه ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ ج لاختلاف الجملتين مع أن الثانية من تمام المقصود ﴿ يدرك الأبصار ﴾ ط لاحتمال الواو الاستئناف والحال أي يدرك الأبصار لطيفاً خبيراً . ﴿ الخبير ﴾ ه ﴿ من ربكم ﴾ ط لابتداء الشرط مع فاء التعقيب ﴿ فلنفسه ﴾ ط كذلك مع الواو . ﴿ فعليها ﴾ ط ﴿ بحفيظ ﴾ ه ﴿ يعلمون ﴾ ه ﴿ من ربك ﴾ ط لاحتمال الجملة الحال والاستئناف على أنها جملة معترضة ﴿ إلا هو ﴾ ط للعطف مع

العارض ﴿ المشركين ﴾ ه ﴿ ما أشركوا ﴾ ط ﴿ حفيظاً ﴾ ط للابتداء بالنفي مع اتحاد المعنى ﴿ بوكيل ﴾ ه ﴿ بغير علم ﴾ ط ﴿ يعلمون ﴾ ه ﴿ ليؤمنن بها ﴾ ط ﴿ وما يشعركم ﴾ ط لمن قرأ ﴿ إنها ﴾ بكسر الألف . ﴿ لا يؤمنون ﴾ ه ﴿ يعمهون ﴾ ه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 134. 135 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما بين فساد قول طوائف أهل الدنيا من المشركين .

شرع في إقامة الدلائل على فساد قول من يثبت له الولد فقال : ﴿ بَدِيعُ السموات والأرض ﴾ .

واعلم أن تفسير قوله : ﴿ بَدِيعُ السموات والأرض ﴾ قد تقدم في سورة البقرة إلا أنا نشير ههنا إلى ما هو المقصود الأصلي من هذه الآية .

فنقول : الإبداع عبارة عن تكوين الشيء من غير سبق مثال ، ولذلك فإن من أتى في فن من الفنون بطريقة لم يسبقه غيره فيها ، يقال : إنه أبدع فيه .

إذا عرفت هذا فنقول : إن الله تعالى سلم للنصارى أن عيسى حدث من غير أب ولا نطفة بل أنه إنما حدث ودخل في الوجود .

لأن الله تعالى أخرجه إلى الوجود من غير سبق الأب .

---

إذا عرفت هذا فنقول : المقصود من الآية أن يقال إنكم إما أن تريدوا بكونه والداً لله تعالى أنه أحدثه على سبيل الإبداع من غير تقدم نطفة ووالد .

وإما أن تريدوا بكونه ولد الله تعالى كما هو المألوف المعهود من كون الإنسان ولداً لأبيه ، وإما أن تريدوا بكونه ولداً لله مفهوماً ثالثاً مغايراً لهذين المفهومين .

أما الاحتمال الأول : فباطل ، وذلك لأنه تعالى وإن كان يحدث الحوادث في مثل هذا العالم الأسفل بناء على أسباب معلومة ووسايط مخصوصة إلا أن النصارى يسلمون أن العالم الأسفل محدث ، وإذا كان الأمر كذلك .

لزمهم الاعتراف بأنه تعالى خلق السموات والأرض من غير سابقة مادة ولا مدة ، وإذا كان الأمر كذلك .

وجب أن يكون إحداثه للسموات والأرض إبداعاً فلو لزم من مجرد كونه مبدعاً لإحداث عيسى عليه السلام كونه والداً له لزم من كونه مبدعاً للسموات والأرض كونه والداً لهما .

ومعلوم أن ذلك باطل بالاتفاق ، فثبت أن مجرد كونه مبدعاً لعيسى عليه السلام لا يقتضي كونه والداً له ، فهذا هو المراد من قوله : ﴿ بَدِيعُ السموات والأرض ﴾ وإنما ذكر السموات

والأرض فقط ولم يذكر ما فيهما لأن حدوث ما في السموات والأرض ليس على سبيل الإبداع ، أما حدوث ذات السموات والأرض فقد كان على سبيل الإبداع ، فكان المقصود من الإلزام حاصلاً بذكر السموات والأرض .

لا بذكر ما في السموات والأرض ، فهذا إبطال الوجه الأول .

وأما الاحتمال الثاني : وهو أن يكون مراد القوم من الولادة هو الأمر المعتاد المعروف من الولادة في الحيوانات ، فهذا أيضاً باطل ويدل عليه وجوه :

الوجه الأول : أن تلك الولادة لا تصح إلا ممن كانت له صاحبة وشهوة ، وينفصل عنه جزء ويحتبس ذلك الجزء في باطن تلك الصاحبة ، وهذه الأحوال إنما تثبت في حق الجسم الذي يصح عليه الاجتماع والافتراق والحركة والسكون والحد والنهاية والشهوة واللذة ، وكل ذلك على خالق العالم محال .

*(75/244)*

---

وهذا هو المراد من قوله أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة .

والوجه الثاني : أن تحصيل الولد بهذا الطريق إنما يصح في حق من لا يكون قادراً على الخلق والإيجاد والتكوين دفعة واحدة فلما أراد الولد وعجز عن تكوينه دفعة واحدة عدل إلى

تحصيله بالطريق المعتاد .

أما من كان خالقاً لكل الممكنات قادراً على كل المحدثات ، فإذا أراد إحداث شيء قال له كن فيكون ، ومن كان هذا الذي ذكرنا صفته ونعته ، امتنع منه إحداث شخص بطريق الولادة وهذا هو المراد من قوله : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ .

والوجه الثالث : وهو أن هذا الولد إما أن يكون قديماً أو محدثاً ، لا جائز أن يكون قديماً لأن القديم يجب كونه واجب الوجود لذاته .

وما كان واجب الوجود لذاته كان غنياً عن غيره فامتنع كونه ولداً لغيره .

(76/244)

---

فبقي أنه لو كان ولداً لوجب كونه حادثاً ، فنقول إنه تعالى عالم بجميع المعلومات فإما أن يعلم أن له في تحصيل الولد كمالاً ونفعاً أو يعلم أنه ليس الأمر كذلك ، فإن كان الأول فلا وقت يفرض أن الله تعالى خلق هذا الولد فيه إلا والداعي إلى إيجاد هذا الولد كان حاصلاً قبل ذلك ، ومتى كان الداعي إلى إيجاده حاصلاً قبله وجب حصول الولد قبل ذلك ، وهذا يوجب كون ذلك الولد أزلياً وهو محال ، وإن كان الثاني فقد ثبت أنه تعالى عالم بأنه ليس له في تحصيل الولد كمال حال ولا ازدياد مرتبة في الإلهية ، وإذا كان الأمر كذلك وجب أن لا

يحدثه ألبتة في وقت من الأوقات ، وهذا هو المراد من قوله : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

وفيه وجه آخر وهو أن يقال الولد المعتاد إنما يحدث بقضاء الشهوة ، وقضاء الشهوة يوجب اللذة ، واللذة مطلوبة لذاتها ، فلو صحت اللذة على الله تعالى مع أنها مطلوبة لذاتها ، وجب أن يقال إنه لا وقت إلا وعلم الله بتحصيل تلك اللذة يدعوه إلى تحصيلها قبل ذلك الوقت لأنه تعالى لما كان عالماً بكل المعلومات وجب أن يكون هذا المعنى معلوماً ، وإذا كان الأمر كذلك ، وجب أن يحصل تلك اللذة في الأزل ، فلزم كون الولد أزلياً ، وقد بينا أنه محال فثبت أن كونه تعالى عالماً بكل المعلومات مع كونه تعالى أزلياً يمنع من صحة الولد عليه ، وهذا هو المراد من قوله : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فثبت بما ذكرنا أنه لا يمكن إثبات الولد لله تعالى بناء على هذين الاحتمالين المعلومين ، فأما إثبات الولد لله تعالى بناء على احتمال ثالث فذلك باطل .

لأنه غير متصور ولا مفهوم عند العقل ، فكان القول بإثبات الولادة بناء على ذلك الاحتمال الذي هو غير متصور خوضاً في محض الجهالة وأنه باطل ، فهذا هو المقصود من هذه الآية ولو أن الأولين والآخرين اجتمعوا على أن يذكروا في هذه المسألة كلاماً يساويه في القوة والكمال لعجزوا عنه ، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 96.98 ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ بديع ﴾ بمعنى : مبدع ومخترع وخالق ، فهو بناء اسم فاعل كما جاء : سميع بمعنى مسمع و ﴿ أنى ﴾ بمعنى كيف ومن أين ، فهي استفهام في معنى التوقيف والتقرير ، وقرأ جمهور الناس " ولم تكن " بالتاء على تأنيث علامة الفعل ، وقرأ إبراهيم النخعي : بالياء على تذكيرها وتذكير كان وأخواتها مع تأنيث اسمها أسهل من ذلك في سائر الأفعال ، فقولك : كان في الدار هند أسوغ من قام في الدار هند ، وحسن القراءة الفصل بالظرف الذي هو الخبر ويتجه في القراءة المذكورة أن يكون في ﴿ تكن ﴾ ضمير اسم الله تعالى ، وتكون الجملة التي هي ﴿ له صاحبة ﴾ خبر كان ، ويتجه أن يكون في " يكن " ضمير أمر وشأن وتكون الجملة بعد تفسيراً له وخبراً ، وهذه الآية رد على الكفار بقياس الغائب على الشاهد ، وقوله ﴿ وخلق كل شيء ﴾ لفظ عام لكل ما يجوز أن يدخل تحته ولا يجوز أن يدخل تحته صفات الله تعالى وكلامه ، فليس هو عموماً مخصصاً على ما ذهب إليه قوم لأن العموم المخصص هو أن يتناول العموم شيئاً ثم يخرجه التخصيص ، وهذا لم يتناول قط هذه التي ذكرناها ، وإنما هذا بمنزلة قول الإنسان : قتلت كل فارس وأفحمت كل خصم فلم يدخل القائل قط في هذا العموم الظاهر من لفظه ، وأما قوله ﴿ وهو بكل شيء

عليم ﴾ فهذا عموم على الإطلاق ولأن الله عز وجل يعلم كل شيء لا رب غيره ولا معبود سواه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(78/244)

---

وقال البيضاوى :

﴿ بَدِيعُ السموات والأرض ﴾ من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها ، أو إلى الظرف كقولهم : ثبت الغدر بمعنى أنه عديم النظير فيهما ، وقيل معناه المبدع وقد سبق الكلام فيه ، ورفعه على الخبر والمبتدأ محذوف أو على الابتداء وخبره . ﴿ أنى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ﴾ أي من أين أو كيف يكون له ولد . ﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَّهُ صاحبة ﴾ يكون منها الولد . وقرىء بالياء للفصل أو لأن الاسم ضمير الله أو ضمير الشأن . ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لا تخفى عليه خافية ، وإنما لم يقل به لتطرق التخصيص إلى الأول ، وفي الآية استدلال على نفي الولد من وجوه : ( الأول ) أنه من مبدعاته السموات والأرضون ، وهي مع أنها من جنس ما يوصف بالولادة مبرأة عنها لاستمرارها وطول مدتها فهو أولى بأن يتعالى عنها ، أو أن ولد الشيء نظيره ولا نظير له فلا ولد . ( والثاني ) أن المعقول من الولد ما يتولد من ذكر وأنثى متجانسين والله سبحانه وتعالى منزه عن المجانسة . ( والثالث ) أن الولد كفؤ

الوالد ولا كفؤ له لوجهين : الأول أن كل ما عداه مخلوقه فلا يكافئه . والثاني أنه سبحانه وتعالى لذاته عالم بكل المعلومات ولا كذلك غيره بالإِجماع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 436 . 437 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ بديع السموات والأرض ﴾ تقدّم تفسيره في البقرة .

﴿ أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ﴾ أي كيف يكون له ولد ؟ وهذه حاله أي إن الولد إنما يكون من الزوجة وهو لا زوجة له ولا ولد ، وقرأ النخعي : ولم يكن بالياء ووجه على أن فيه ضميراً يعود على الله أو على أن فيه ضمير الشأن ، والجملة في هذين الوجهين في موضع خبر ﴿ تكن ﴾ أو على ارتفاع ﴿ صاحبة ﴾ بتكن وذكر للفصل بين الفعل والفاعل كقوله :

لقد ولد الأخيطل أم سوء . . .

وحضر للقاضي امرأة .

وقال ابن عطية : وتذكيرها وأخواتها مع تأنيث اسمها أسهل من ذلك في سائر الأفعال .

*(79/244)*

انتهى ، ولا أعرف هذا عن النحويين ، ولم يفرقوا بين كان وغيرها والظاهر ارتفاع بديع على أنه خبر مبتدأ أي هو بديع فيكون الكلام جملة واستقلال الجملة بعدها ، وجوزوا أن يكون بديع مبتدأ والجملة بعده خبره فيكون انتفاء الولدية من حيث المعنى بجهتين : إحداهما : انتفاء الصاحبة والأخرى : كونه بديعاً أي عديم المثل ومبدعاً لما خلق ومن كان بهذه الصفة لا يمكن أن يكون له ولد لأن تقدير الولدية وتقدير الإبداع ينافي الولدية ، وهذه الآية رد على الكفار بقياس الغائب على الشاهد ، وقرأ المنصور : بديع بالجر رداً على قوله : ﴿ جعلوا لله ﴾ أو على ﴿ سبحانه ﴾ .

وقرأ صالح الشامي : ﴿ بديع ﴾ بالنصب على المدح.

﴿ وخلق كل شيء ﴾ قيل : هذا عموم معناه الخصوص أي وخلق العالم فلا تدخل فيه صفاته ولا ذاته كقوله : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ ولا تسع إبليس ولا من مات كافراً وتدمر كل شيء ولم تدمر السموات والأرض ، قال ابن عطية : ليس هو عموماً مخصصاً على ما ذهب إليه قوم لأن العموم المخصص هو أن يتناول العموم شيئاً ثم يخرجه بالتخصيص ، وهذا لم يتناول قط هذا الذي ذكرناه وإنما هو بمنزلة قول الإنسان : قتلت كل فارس وأفحمت كل خصم فلم يدخل القاتل قط في هذا العموم الظاهر من لفظه ، قال الزمخشري : وفيه إبطال الولد من ثلاثة أوجه : أحدها : أن مبتدع السموات والأرض وهي أجسام عظيمة لا يستقيم أن يوصف بالولادة ، لأن الولادة من صفات الأجسام ومخترع

الأجسام لا يكون جسماً حتى يكون والداً ، والثاني : أن الولادة لا تكون إلا بين زوجين من جنس واحد ، وهو تعالى متعال عن مجانس فلم يصح أن تكون له صاحبة فلم تصح الولادة ، والثالث : أنه ما من شيء إلا وهو خالقه والعالم به ومن كان بهذه الصفة كان غنياً عن كل شيء والولد إنما يطلبه المحتاج.

*(80/244)*

---

﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾ قال ابن عطية : هذا عموم على الإطلاق لأن الله تعالى يعلم كل شيء ، وقال التبريزي : ﴿ بكل شيء ﴾ من الواجب والممكن والممتنع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السماوات والأرض ﴾

أي مبدعهما ؛ فكيف يجوز أن يكون له ولد .

و "بَدِيعُ" خبر ابتداء مضمر أي هو بديع .

وأجاز الكِسائيّ خفضه على النعتِ لِلَّه عز وجل ، ونصبه بمعنى بديعا السموات والأرض .

وذا خطأ عند البصريين لأنه لِما مضى .

﴿ أنى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ﴾ أي من أين يكون له ولد .

وولد كل شيء شبيهه ، ولا شبيه له .

﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَّهُ صَاحِبَةٌ ﴾ أي زوجة .

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ عموم معناه الخصوص ؛ أي خلق العالم .

ولا يدخل في ذلك كلامه ولا غيره من صفات ذاته .

ومثله ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [ الأعراف : 156 ] ولم تسع إبليس ولا من مات كافراً .

ومثله ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [ الأحقاف : 25 ] ولم تدمر السموات والأرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ بَدِيعُ السموات والأرض ﴾ أي مُبدِعُهما ومخترعُهما بلا مثالٍ يَحتذيه ولا قانونٍ ينتحيه ، فإن البديعَ كما يطلق على المُبدِع ( بكسر الدال ) يطلق على المبدَع ( بفتح الدال ) نصَّ عليه أئمة اللغة كالصريخ بمعنى المُصرِخ وقد جاء : بدَعَه كمنعه بمعنى أنشأه كابتدعه ، على ما ذُكر في القاموس وغيرِه ، ونظيرُه السميعُ بمعنى المُسمِع في قوله :

أمِنْ ريحانةَ الداعي السميعُ . . . وقيل : هو من إضافة الصفةِ المشبهةِ إلى الفاعل للتخفيف بعد نصبِه تشبيهاً لها باسم الفاعل كما هو المشهور أي بديعُ سمواتِه وأرضِه من بَدَعَ إذا كان على نمطٍ عجيبٍ وشكلٍ فائق وحُسنٍ رائقٍ ، أو إلى الظرف كما في قولهم : ثَبْتُ العذرِ بمعنى أنه عديمُ النظير فيهما ، والأولُ هو الوجه ، والمعنى أنه تعالى مبدعٌ لقطري العالم العلويِّ والسفليِّ بلا مادة فاعلٍ على الإطلاق منزّه عن الانفعال بالمرة ، والوالدُ عنصرُ الولد منفعلٌ بانتقال مادتِه عنه فكيف يمكن أن يكون له ولد ؟ وقرىء بديعَ بالنصب على المدح وبالجر على أنه بدلٌ من الاسم الجليل أو من الضمير المجرورِ في سبحانه على رأي من يُجيزه ، وارتفاعُه في القراءة المشهورة على أنه خبرُ مبتدإٍ محذوفٍ أو فاعلُ تعالى ، وإظهارُه في موضع الإضمارِ لتعليل الحكمِ ، وتوسيطُ الظرفِ بينه وبين الفعل للاهتمام ببيانه ، أو مبتدأٌ خبرُه قوله تعالى : ﴿ أنى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ﴾ وهو على الأولَيْن جملةٌ مستقلةٌ مَسوقةٌ لما قبلها لبيان استحالةِ ما نسبوه إليه تعالى وتقرير تنزُّهِه عنه وقوله تعالى : ﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَّهُ صاحبة ﴾ حال مؤكدةٌ للاستحالة المذكورة فإن انتفاءَ أن يكون له تعالى صاحبةٌ مستلزمٌ لانتفاء أن يكون له ولدٌ ضرورةَ استحالة وجودِ الولدِ بلا والدة ، وإن أمكن وجودُه بلا والد ، وانتفاءُ الأولِ مما لا ريب فيه لأحد فمن ضرورته انتفاءُ الثاني أي من أين أو كيف يكون له ولد كما زعموا والحالُ أنه ليس له على زعمهم أيضاً صاحبةٌ يكون الولدُ منها ؟ وقرىء لم يكنْ

بتذكير الفعل للفصل أو لأن الاسمَ ضميرُه تعالى ، والخبرُ هو الظرفُ وصاحبةٌ مرتفعٌ به على الفاعلية لاعتماده على المبتدإ ، أو الظرفُ خبرٌ مقدمٌ وصاحبةٌ مبتدأٌ مؤخرٌ والجملةُ خبرٌ للكون وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون الاسمُ ضميرَ الشأنِ لصلاحية الجملةِ حينئذ لأن تكونَ مفسِّرةً لضمير

(82/244)

---

الشأنِ لا على الوجه الأول لما بيّن في موضعه أن ضميرَ الشأنِ لا يفسَّر إلا بجملة صريحةٍ ، وقوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ إما جملةٌ مستأنفةٌ أخرى سيقت لتحقيق ما ذُكر من الاستحالة أو حالٌ أخرى مقرِّرةٌ لها أي أنى يكون له ولدٌ والحالُ أنه خلق كلَّ شيءٍ انتظمه التكوينُ والإيجادُ من الموجودات التي من جملتها ما سمَّوْه ولداً له تعالى فكيف يُتَصوَّر أن يكون المخلوقُ ولداً لخالقه ؟ ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ ﴾ مِنْ شأنه أن يُعلم كائناً ما كان مخلوقاً أو غيرَ مخلوق كما ينبىء عنه ترك الإضمار إلى الإظهار ﴿ عَلِيمٌ ﴾ مبالغٌ في العلم أزلاً وأبداً حسبما يُعرِبُ عنه العدولُ إلى الجملة الاسميةِ فلا يخفى عليه خافيةٌ مما كان وما سيكون من الذوات والصفاتِ والأحوالِ التي من جملتها ما يجوز عليه تعالى وما لا يجوز من المُحالات التي ما زعموه فردٌ من أفرادها ، والجملةُ استئنافٌ مقررٌ لمضمون ما قبلها من الدلائل

القاطعةِ ببطلان مقالِتهم الشنعاءِ التي اجترأوا عليها بغير علم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(83/244)

---

وقال الآلوسى :

﴿ بَدِيعُ السموات والأرض ﴾ أي مبدعهما "وموجدهما بغير آلة ولا مادة ولا زمان ولا مكان" قاله الراغب ، وهو كما يطلق على المبدع يطلق على المبدع اسم مفعول ، ومنه قيل : ركي بديع وكذلك البدع بكسر الباء يقال لهما .

وقيل : هو من إضافة الصفة المشبهة إلى الفاعل للتخفيف بعد نصبه تشبيهاً لها باسم الفاعل كما هو المشهور أي بديع سمواته وأرضه من بدع إذا كان على نمط عجيب وشكل فائق وحسن رائق أو إلى الظرف كما في قولهم فلان ثَبْتُ الغَدَرِ أي ثبت في الغدر وهو بغين معجمة ودال وراء مهملتين المكان ذو الحجارة والشقوق ويقولون ذلك إذا كان الرجل ثبتاً في قتال أو كلام .

والمراد من بديع في السموات والأرض أنه سبحانه عديم النظير فيهما .

ومعنى ذلك على ما قال بعض المحققين أن إبداعه لهما لا نظير له لأنهما أعظم المخلوقات

الظاهرة فلا يرد أنه لا يلزم من نفي النظير فيهما نفيه مطلقاً ، ولا حاجة إلى تكلف أنه خارج مخرج الرد على المشركين بحسب زعمهم أنه لا موجود خارج عنهما .

واختار غير واحد التفسير الأول ، والمعنى عليه أنه تعالى مبدع لقطري العالم العلوي والسفلي بلا مادة فاعل على الإطلاق منزه عن الإنفعال بالكلية ، والوالد عنصر الولد منفعل بانتقال مادته عنه فكيف يمكن أن يكون له ولد ؟ .

*(84/244)*

---

وقرىء ﴿ بَدِيعُ ﴾ بالنصب على المدح والجر على أنه بدل من الاسم الجليل أو من الضمير المجرور في ﴿ سبحانه ﴾ [ الأنعام : 100 ] على رأي من يجوزه ، وارتفاعه على القراءة المشهورة على ثلاثة أوجه كما قال أبو البقاء ، الأول : أنه خبر مبتدأ محذوف ، والثاني : أنه فاعل ﴿ تَعَالَى ﴾ [ الأنعام : 100 ] وإظهاره في موضع الإضمار لتعليل الحكم ، وتوسيط الظرف بينه وبين الفعل للاهتمام ببيانه .

والثالث : أنه مبتدأ خبره قوله سبحانه : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ﴾ وهو على الأولين جملة مستقلة مسوقة كما قبلها لبيان استحالة ما نسبوه إليه تعالى وتقرير تنزيهه عنه جل شأنه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صاحبة ﴾ حال مؤكدة للاستحالة المذكورة ضرورة أن الولد

لا يكون بلا والدة أصلاً وإن أمكن وجوده بلا والد أي من أين أو كيف يكون له ولد والحال أنه ليس له صاحبة يكون الولد منها .

وقرأ إبراهيم النخعي ﴿ لَمْ يَكُنِ ﴾ بتذكير الفعل ؛ وجاز ذلك مع أن المرفوع مؤنث للفصل كما في قوله

: لقد ولد الأخيطل أم سوء . . .

على قمع استها صلب وشام

قال ابن جنى : تؤنث الأفعال لتأنيث فاعلها لأنهما يجريان مجرى كلمة واحدة لعدم استغناء كل عن صاحبه فإذا فصل جاز تذكيره وهو في باب كان أسهل لأنك لو حذفتها استقل ما بعدها .

وقيل : إن اسم ﴿ يَكُنِ ﴾ ضميره تعالى والخبر هو الظرف و ﴿ صاحبة ﴾ مرتفع به على الفاعلية لاعتماده على المبتدأ والظرف خبره مقدم و ﴿ صاحبة ﴾ مبتدأ والجملة خبر ﴿ يَكُونَ ﴾ وعلى هذا يجوز أن يكون الاسم ضمير الشأن لصلاحية الجملة حينئذ لأن تكون مفسرة للضمير لا على الأول لأنه كما بين في موضعه لا يفسر إلا بجملة صريحة ، والاعتراض بأنه إذا كان العمدة في المفسرة مؤنثاً فالمقدر ضمير القصة لا الشأن فيعود السؤال ليس بوارد كعدم اللزوم وإن توهمه بعضهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ استئناف لتحقيق ما ذكر من الاستحالة أو حال أخرى مقررة لها أي أنَّى يكون له ولد والحال أنه خلق كل شيء من الموجودات التي من جملتها ما سموه ولداً فكيف يتصور أن يكون المخلوق ولداً لخالقه .

ويفهم من "التفسير الكبير" أن من زعم أن لله تعالى شأنه ولداً إن أراد أنه سبحانه أحدثه على سبيل الإبداع من غير تقدم نطفة مثلاً رد بأن خلقه للسموات والأرض كذلك فيلزم كونهما ولداً له تعالى وهو باطل بالاتفاق ، وإن أراد ما هو المعروف من الولادة في الحيوانات رد أولاً بأنه لا صاحبة له وهي أمر لازم في المعروف .

وثانياً بأن تحصيل الولد بذلك الطريق إنما يصح في حق من لا يكون قادراً على الخلق والإيجاد والتكوين دفعة واحدة أما من كان خالقاً لكل الممكنات وكان قادراً على كل المحدثات فإذا أراد شيئاً قال له كن فيكون فيمتنع منه إحداث شخص بطريق الولادة .

وإن أراد مفهوماً ثالثاً فهو غير متصور .

﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ من شأنه أن يعلم كائناً ما كان مخلوقاً أو غير مخلوق كما ينبىء عنه ترك الإضمار إلى الإظهار ﴿ عَلِيمٌ ﴾ مبالغ في العلم أزلا وأبداً حسبما يعرب عنه العدول إلى الجملة الإسمية ، وحينئذ فلا يخلو إما أن يكون الولد قديماً أو محدثاً لا جائز أن يكون قديماً لأن القديم يجب كونه واجب الوجود لذاته وما كان كذلك كان غنياً عن غيره فامتنع

كونه ولداً للغير فتعين كونه حادثاً ، ولا شك أنه تعالى عالم بكل شيء فإما أن يعلم أن له في تحصيل الولد كمالاً أو نفعاً أو يعلم أنه ليس كذلك ، فإن كان الأول فلا وقت يفرض إلا والداعي إلى إيجاد هذا الولد كان حاصلاً قبله وهو يوجب كونه أزلياً وهو محال وإن كان الثاني وجب أن لا يحدث ألبتة في وقت من الأوقات .

*(86/244)*

---

وقرر الإمام عليه الرحمة الرد بهذه الجملة بوجه آخر أيضاً ، وبعضهم جعل هذه الجملة مع ما قبلها متضمنة لوجه واحد من أوجه الرد ، والجملة إما حالية أو مستأنفة ، واقتصر بعضهم على الثاني فقال : إنها استئناف مقرر لمضمون ما قبلها من الدلائل القاطعة ببطلان مقالتهم الشنعاء التي اجترءوا عليها بغير علم .

والظاهر من هذا أن ما في الآية أدلة قطعية على بطلان ما زعمه المختلقون ، وكلام الإمام حيث قال بعد تقرير الوجوه .

"لو أن الأولين والآخرين اجتمعوا على أن يذكروا في هذه المسألة كلاماً يساويه أي ما دلت عليه الآية في القوة والكمال لعجزوا عنه" .

وادعى الشهاب أن ما يفهم من ذلك أدلة اقناعية ، ولعل الأولى القول بأن البعض قطعي والبعض الآخر إقناعي فتدبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

(87/244)

---

وقال صاحب روح البيان :

﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾

أي : هو مبدع من غير مثال سبق لقطري العالم العلوي والسفلي بلا مادة فعل على الإطلاق منزه عن الانفعال بالمرة والوالد عنصر الولد منفعل بانتقال مادته عنه فكيف يكون له ولد فالفعيل بمعنى المفعل كالأليم والحكيم بمعنى المؤلم والمحكم والإضافة حقيقية وقيل هو من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها أي بديع سمواته وأرضه من بدع إذا كان على نمط عجيب وشكل فائق وحسن رائق .

﴿ أَنَّى يَكُونُ لَه وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّه صَاحِبَةٌ ﴾ أي : من أين أو كيف يوجد له ولد والحال أن أسباب الولادة منتفية فإن وجود الولد بلا والدة محال وإن أمكن بلا والد كعيسى عليه السلام والمراد بالصاحبة الزوجة .

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ انتظم بالتكوين والإيجاد من الموجودات التي من جملتها ما سموه ولداً

له تعالى فكيف يتصور أن يكون المخلوق ولداً لخالقه

﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ من شأنه أن يعلم كائناً ما كان مخلوقاً أو غير مخلوق .

﴿ عَلِيمٌ ﴾ مبالغ في العلم أزلاً وأبداً فلا يخفى عليه خافية مما كان وما سيكون من الذوات والصفات والأحوال التي من جملتها ما يجوز عليه تعالى وما لا يجوز من المحالات التي كان ما زعموه فرداً من أفرادها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 3 صـ 98 . 99 ﴾

(88/244)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

جملة مستأنفة وهذا شروع في الإخبار بعظيم قدرة الله تعالى ، وهي تفيد مع ذلك تقوية التّنزيه في قوله : ﴿ سبحانه وتعالى عمّا يصفون ﴾ [ الأنعام : 100 ] فتتنزّل منزلة التَعليل لمضمون ذلك التّنزيه بمضمونها أيضاً ، وبهذا الوجه رَجَح فصلُها على عطفها فإنّ ما يصفونه هو قولهم : إنّ له ولداً وبنات ، لأنّ ذلك التّنزيه يتضمّن نفي الشيء المنزّه عنه وإبطاله ، فعُلّل الإبطال بأنّه خالقُ أعظم المخلوقات دلالة على القدرة فإذا كنتم تدّعون بنوّة الجنّ والملائكة لأجل عظمتها في المخلوقات وأنتم لا ترون الجنّ ولا الملائكة فلماذا لم تدّعوا

البنوّة للسماوات والأرض المشاهدة لكم وأنتم ترونها وترون عظمها .

فهذا الإبطال بمنزلة النّقض في علم الجدل والمناظرة .

وقوله : ﴿ بديع ﴾ خبر لمبتدأ ملتزم الحذف في مثله ، وهو من حذف المسند إليه الجاري على متابعة الاستعمال عندما يتقدّم الحديث عن شيء ثمّ يعقّب بخبر عنه مفردٍ ، كما تقدّم في مواضع .

وتقدّم الكلام على ﴿ بديع السّماوات والأرض ﴾ عند قوله تعالى : ﴿ بل له ما في السّماوات والأرض كلّ له قانتون بديع السّماوات والأرض ﴾ في سورة [ البقرة ( 116 ، 117 ] .

والاستدلال على انتفاء البنوة عن الله تعالى بإبداع السّماوات والأرض لأنّ خلْق المحلّ يقتضي خلق الحالّ فيه ، فالمشركون يقولون بأنّ الملائكة في السّماء وأنّ الجنّ في الأرض والفيافي ، فيلزمهم حدوث الملائكة والجنّ وإلاّ لَوُجد الحالّ قبل وجود المحلّ ، وإذا ثبت الحدوث ثبت انتفاء البنوّة لله تعالى ، لأنّ ابن الإله لا يكون إلاّ إلهاً فيلزم قِدمه ، كيف وقد ثبت حدوثه ، ولذلك عقّب قولهم ﴿ اتّخذ الله ولداً ﴾ [ البقرة : 116 ] بقوله : ﴿ سبحانه بل له ما في السّماوات والأرض كلّ له قَانِتُون ﴾ في سورة [ البقرة : 116 ] .

وقد أشرنا إلى ذلك عند قوله تعالى : ﴿ الحمد لله الَّذي خلق السّماوات والأرض ﴾ في أوّل هذه السّورة [ 1 ] .

وجملة أَنَّى يكون له ولد ﴾ تتنزّل منزلة التّعليل لمضمون التنزيه مِن الإبطال ، وإنّما لم تعطف على الّتي قبلها لاختلاف طريق الإبطال لأنّ الجملة الأولى أبطلتْ دعواهم من جهة فساد الشّبهة فكانت بمنزلة النقْض في المناظرة .

وهذه الجملة أبطلت الدّعوى من جهة إبطال الحقيقة فكأنّها من جهة خطأ الدّليل ، لأنّ قولهم بأنّ الملائكة بنات الله والجنّ أبناءُ الله يتضمّن دليلاً محذوفاً على البنوّة وهو أنّهم مخلوقات شريفة ، فأبطل ذلك بالاستدلال بما ينافي الدّعوى وهو انتفاء الزّوجة الّتي هي أصل الولادة ، فهذا الإبطال الثّاني بمنزلة المعارضة في المناظرة .

و﴿ أنّى ﴾ بمعنى من أين وبمعنى كَيْف .

والواو في ﴿ ولم تكن له صاحبة ﴾ واو الحال لأنّ هذا معلوم للمخاطبين فلذلك جيء به في صيغة الحال .

والصّاحبة : الزّوجة لأنّها تصاحب الزّوج في معظم أحْواله .

(89/244)

---

وقد جعل انتفاء الزّوجة مسلّماً لأنّهم لم يدعوه فلزمهم انتفاء الولد لانتفاء شرط التّولّد ، وهذا مبنيّ على المحاجّة العرفيّة بناء على ما هو المعلوم في حقيقة الولادة .

وقوله : ﴿ وخلَقَ كلّ شيء ﴾ عطف على جملة : ﴿ بديع السّماوات والأرض ﴾ باعتبار ظاهرها وهو التّوصيف بصفات العظمة والقدرة ، فبعد أن أخبر بأنّه تعالى مبدع السّماوات والأرض أخبر أنّه خالق كلّ شيء ، أي كلّ موجود فيشمل ذوات السّماوات والأرض ، وشمل ما فيهما ، والملائكة من جملة ما تحويه السّماوات ، والجنّ من جملة ما تحويه الأرض عندهم ، فهو خالق هذين الجنسين ، والخالق لا يكون أبا كما علمتَ .

ففي هذه الجملة إبطال والولَد أيضاً ، وهذا إبطال ثالث بطريق الكليّة بعد أن أبطل إبطالاً جزئياً ، والمعنى أنّ الموجودات كلّها متساوية في وصف المخلوقيّة ، ولو كان له أولاد لكانوا غير مخلوقين .

وجملة : ﴿ وهو بكلّ شيء عليم ﴾ تذييل لإتمام تعليم المخاطبين بعض صفات الكمال الثّابتة لله تعالى ، فهي جملة معطوفة على جملة : ﴿ وخلق كلّ شيء ﴾ باعتبار ما فيها من التّوصيف لا باعتبار الردّ .

ولكون هذه الجملة الأخيرة بمنزلة التّذييل عدل فيها عن الإضمار إلى الإظهار في قوله : ﴿ بكلّ شيء ﴾ دون أن يقول "به" لأنّ التّذييلات يقصد فيها أن تكون مستقلّة الدّلالة بنفسها لأنّها تشبه الأمثال في كونها كلاماً جامعاً لمعان كثيرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ﴾

والحق سبحانه وتعالى قال في آيات أخرى : ﴿ لَخَلْقُ السماوات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ﴾ [ غافر : 57 ] .

فإن كنت ترى في نفسك عجائب كثيرة ، وكل يوم يعطيك العلم التشريحي أو علم وظائف الأعضاء سرا جديدا فلا تتعجب من هذا الأمر ؛ لأن السماء والأرض إيجاد من عدم ، وسبحانه هنا يقول : " بديع " أي أنه – سبحانه – خلقهما على غير مثال سابق ، فمن الناس من يصنع أشياء على ضوء خبرات أو نماذج سابقة ، لكن الحق سبحانه بديع السموات والأرض ، وقد عرفنا بالعلم أن الأرض التي نعيش عليها وهي كوكب تابع من توابع الشمس ، وقديما كانوا يقولون عن توابع الشمس إنها سبعة ، ولذلك خدع كثير من العلماء والمفكرين وقالوا : إن السبعة التوابع هي السموات ، فأراد الحق أن يبطل هذه المسألة بعد أن قالوا سبعة . فقد اكتشف العلماء تابعا ثامنا للشمس ، ثم اكتشفوا التاسع ، ثم صارت التوابع عشرة ، ثم زاد الأمر إلى توابع لا نعرفها . وأين هذه المجموعة الشمسية من السموات ؟ وكلها مجرد زينة للسماء الدنيا ، وعندما اكتشفت المجاهر والآلات التي تقرب

البعيد رأينا "الطريق اللبني" أو "سكة التبانة" ووجدناها مجرة وفيها مجموعات شمسية لا حصر لها ، وجدنا مليون مجموعة مثل مجموعتنا الشمسية . هذه مجرة واحدة ، وعندنا ملايين المجرات ، ونجد عالماً في الفلك يقول : لو امتلكنا آلات جديدة فسنكتشف مجرات جديدة .

ولنسمع قول الله : ﴿ والسمآء بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [ الذاريات : 47 ] .

إذن يجب أن نأخذ خلْق السموات والأرض في مرتبة أهم من مسألة خلق الناس .

*(91/244)*

---

﴿ بَدِيعُ السماوات والأرض أنى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [ الأنعام : 101 ] .

وما دام سبحانه بديع السموات والأرض ، وهو بقدرته الذاتية الفائقة خلق السموات والأرض الأكبر من خلق الناس ، إذن فإن أراد ولداً لطرأ عليه هذا الابن بالميلاد ، ولا يمكن أن يسمى ولداً إلا إذا وُلد ، وسبحانه منزه عن ذلك ، ثم لماذا يريد ولداً ، وصفات الكمال لن تزيد بالولد ، ولم يكن الكون ناقصاً قبل ادّعاء البعض ان للحق سبحانه ولداً ، إن الكون مخلوق بذات الحق سبحانه وتعالى ، والناس تحتاج إلى الولد لامتداد الذكرى ، وسبحانه لا

يموت ؛ مصداقاً لقوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [ القصص : 88 ] .

والبشر يحتاجون إلى الإنجاب ليعاونهم أولادهم ، وسبحانه هو القوي الذي خلق وهو حي لا يموت ؛ لذلك فلا معنى لأن يُدّعى عليه ذلك وما كان يصحّ أن تناقش هذه المسألة عقلا ، ولكن الله – لطفا بخلقه – وضّح وبين مثل هذه القضايا .

يقول جل وعلا : ﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَّهُ صَاحِبَةٌ ﴾ . وماذا يريد الحق من الصاحبة ؟ إنه لا يريد شيئاً ، فلماذا هذه اللجاجة في أمر الألوهية ؟ .

فلا الولد ولا الصاحبة يزيدان له قدرة تخلق ، ولا حكمة ترتب ، ولا علما يدبر ، ولا أي شيء ، ومجرد هذا اللون من التصور عبث ، فإذا كان الشركاء ممتنعين ، والقصد من الشركاء أن يعاونوه في الملك ؛ إله يأخذ ملك السماء ، وإله آخر يأخذ ملك الأرض . وإله للظلمة ، وإله للنور . مثلما قال الاغريق القدامى حين نصّبوا إلهاً للشر . وإلهاً للخير ، وغير ذلك . والحق واحد أحد ليس له شركاء يعاونونه فما المقصود بالولد والصاحبة ؟ أعوذ بالله ! ألا يمتنع ويرتدع هؤلاء من مثل هذا القول :

﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فسبحانه هو الخالق للكون والعليم بكل ما فيه ولا يحتاج إلى معاونة من أحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(92/244)

" فوائد لغوية وإعرابية "

﴿ بَدِيعُ السماوات والأرض ﴾

قال ابن عادل :

الإبداع : عبارة عن تَكْوِينِ الشيء من غير سَبْقِ مثالٍ ، وتقدَّم الكلامُ عليه في " البقرة " .

وقرأ الجمهور رفع العين ، وفيها ثلاثة أوجه :

أظهرها : أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي : هو بَدِيعٌ ، فيكون الوَقْفُ على قوله : " والأرض " فهي جملة مستقلة بنفسها .

الثاني : أنه فاعل بقوله : " تعالى " ، أي : بديع السموات ، وتكون هذه الجملة الفعلية مَعْطُوفَةً على الفِعْلِ المقدر قبلها ، وهو النَّاصب لـ " سبحان " فإن " سبحان " كما تقدَّم من المصادرِ اللازم إضمار ناصبها .

الثالث : أنه مبتدأ وخبره ما بعده من قوله : " أَنَّى يَكُونُ لَهُ ولدٌ " .

وقرأ المنصور " بديع " بالجر قال الزمخشري : ردًّا على قوله : " وجعلوا لله " ، أو على " سبحانه " كذا قاله ، ولم يبيّن على أي وجه من وُجُوهِ الإعراب هو وكذا أبو حيَّان – رحمه الله – حَكَاهُ عنه ومرَّ عليه ، ويريد بالرد كونه تابعاً ، إما : لله ، أو للضمير المجرور في " سُبْحَانَهُ " وتبعيته له على كونه بدلاً من " لله " تعالى أو من الهاء في " سُبْحَانَهُ " ويجوز أن

يكون نَعْتاً [ لله على أن تكون إضافة " بديع " مَحْضَةً كما ستعرفه .

وأما تَبَعِيَّتُهُ للهاء فيتعين أن يكون بدلاً ، ويمتنع أن يكون نَعْتاً ] ، وإن اعتقدنا تعريفه بالإضافةِ لِمُعَارضٍ آخر ، وهو أن الضمير لا ينعت إلا ضمير الغائب على رأي الكسائي ، فعلى رأيه قد يجوز ذلك .

وقرأ أبو صالح الشَّامي : " بديعَ " نصباً ، ونَصْبُهُ على المَدْحِ ، وهي تؤيد قراءة الجر ، وقرءاة الرفع المتقدمة يحتمل أن تكون أصْلِيَّة الإتباع بالجر على البَدَلِ ثم قطع التابع رفعاً .

و " بديع " يجوز أن يكون بمعنى " مُبْدِعٍ " وقد سَبَقَ معناه ، أو تكون صِفَةً مشبهة أضيفت لرفوعها ، كقولك : فلان بديعُ الشعر ، أي : بديع شعره ، وعلى هذيْنِ القولين ، فإضافته لَفظِيَّةٌ ، لأنه في الأوَّل من باب إضافة اسم الفاعل إلى منصوبه ، وفي الثَّاني من باب إضافة الصفة المشبهة إلى مرفوعها ، ويجوز أن تكون بمعنى عديم النظير والمثل فيهما ، كأنه قيل : البديع في السموات والأرض ، فالإضافة على هذا إضافةٌ مَحْضَةٌ .

قوله : ﴿ أنى يَكُونُ لَهُ وَلَد ﴾ " أنَّى " بمعنى "كيف " [ أو " من أين " ] وفيها وجهان :

أحدهما : أنها خبر كان الناقصة ، و" له " في محل نصبٍ على الحال ، و" ولد " اسمها ، ويجوز أن يتكون مَنْصُوبَةً على التشبيه بالحال أو الظرف ، كقوله : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ ﴾ [ البقرة : 28 ] والعامل فيها قال أبو البقاء : [ " يكون " ] وهذا على رأي من يجيز في " كان " أن تعمل في الأحوال والظروف وشبههما ، و" له " خبر يكون ، و" ولد " اسمها .

ويجوز في " يكون " أن تكون تامَّةً ، وهذا أحْسَنُ أي : كيف يوجد له ولدٌ ، وأسباب الولدية مُنْتَفِيَةٌ ؟

قوله : ﴿ وَلَمْ تَكُنْ لَّهُ صَاحِبَة ﴾ هذه " الواو " للحال ، والجملة بعدها في مَحَل نصب على الحال من مضمون الجملة المتقدمة ، أي : كيف يُوجد له ولد ، والحال أنه لم يكن له زَوجٌ ، وقد عُلِمَ أن الولدَ إنما يكون من بين ذكرٍ وأنثى ، وهو مُنَزَّهٌ عن ذلك .

والجمهور على " تكن " بالتاء من فوق .

وقرأ النخعي بالياء من تحت وفيه أربعة أوجه :

أحدها : أن الفِعْلَ مسند إلى " صاحبه " أيضاً كالقراءة المشهورة ، وإنما جاز التذكير لِلْفَصْلِ كقوله : [ الوافر ]

2777 - لَقَدْ وَلَدَ الأخَيْطِلَ أُمُّ سَوْءٍ . . . . . .

وقول القائل : [ البسيط ]

2278 - إنَّ امْرَأً غَرَّهُ مِنْكُنَّ وَاحِدَةٌ . . .

بَعْدِي وبَعْدَكِ فِي الدُّنْيَا لَمَغْرُور

وقال ابن عطيَّة : " وتذكير "كان " وأخواتها مع تأنيث اسمها أسْهَلُ من ذلك في سائر الأفعال " .

قال أبو حيَّان – رحمه الله – : " ولا أعرف هذا عن النحويين ، ولم يُفَرِّقوا بين "كان " وغيرها " .

قال شهاب الدين : هذا كلامٌ صحيح ، ويؤديه أن الفارسيَّ وإن كان يقول بِحَرْفِيَّةِ بعضها ك " ليس " ، فإنه لا يجيز حَذْفَ التاء منها لو قلت : " ليس هند قائمة " لم يَجُزْ .

الثاني : أن في " يكون " ضميراً يعود على الله تعالى ، و" له " خبر مُقدَّمٌ ، و" صاحبة " مبتدأ مؤخر ، والجملة خبر " يكون " .

(94/244)

---

الثالث : أن يكون " له " وحْدَهُ هو الخبر ، و" صاحبة " فاعل به لاعْتِمَادِهِ وهذه أوْلَى مِمَّا قبله ؛ لأن الجارَّ أقْرَبُ إلى المفرد ، والأصل في الأخبار الإفراد .

الرابع : أنَّ في " يكون " ضمير الأمر والشأن ، و" له " خبر مُقدَّمٌ ، و" صاحبة " مبتدأ مؤخر ، والجملة خبر " يكون " مفسّرة لضمير الشأن ، ولا يجوز في هذا أن يكون " له " هو الخبر

وَحْدَهُ ، و" صاحبة " فاعل به ، كما جاز في الوجه قبله .

والفرق أن ضمير الشَّأن لا يُفسَّر إلا بجملة صريحة ، وقد تقدَّم أن هذا النَّوعَ من قبيل المفردات ، و[ " تكن " ] يَجُوزُ أن تكون النَّاقِصَةَ أو التامة حسبما تقدَّم فيما قبلها .

وقوله : " وَخَلَقَ كُلَّ شيءٍ " هذه جملة إخبارية مُسْتَأْنَفَةٌ ، ويجوز أن تكون حالاً وهي حال لازمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 339 . 341 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (101) ﴾

البديع الذي لا مثل له ، أو هو المنشئ لا على مثال ، وكلاهما في وصفه مستحق .

والواحد يستحيل له الوَلَدُ لاقتضائه البعضية ، والتوحيد ينافيه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 492 ﴾

قوله تعالى ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (102) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ثبت أنه لا كفوء له بما ذكر من صفاته وأفعاله ، وبين فساد أقوال المشركين ، وفصل مذاهبهم على أحسن الوجوه ، وبين فساد كل واحد منها بأمتن الحجج ، فثبت بذلك ما افتتح السورة به من إحاطته بصفات الكمال ، قال مشيراً إلى ذلك كله بمبتدأ خبر بعده أخبار : ﴿ ذلكم ﴾ أي العالي الأوصاف جداً الذي لا حاجة له إلى شيء ، وكل شيء محتاج إليه ﴿ الله ﴾ أي الذي له كل كمال ﴿ ربكم ﴾ أي الموجد لكم والمحسن بجميع أنواع الإحسان ، فهي فذلكة ما قبلها وثمرته ، لأن من اتصف بذلك كان هو رب الكل وحده والخالق للجميع واستحق العبادة وحده فلذا أتبع ذلك قوله : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ لأن المقام للتوحيد اللازم للإحاطة بأوصاف الكمال التي هي معنى الحمد المفتتح به السورة ، وساق قوله : ﴿ خالق كل شيء ﴾ الذي هو مطلع ما بعده مساق التعليل دليلاً على ذلك ، فلما أقام الدليل سبب عنه الأمر بالعبادة فقال : ﴿ فاعبدوه ﴾ أي وحده ، لأن من أشرك به لم يعبده ، لأنه الغني المطلق ، ومن كان له الغنى المطلق لا يحسن أن يقبل مشركاً ، وختم الآية بقوله : ﴿ وهو ﴾ ولما كان المقام لنفي احتياجه إلى شيء ، قدم قوله : ﴿ على كل شيء

وكيل ﴾ إشارة إلى أن الولد أو الشريك إنما يحتاجه العاجز المفتقر ، وأما هو فهو القادر ، ومن سواه عاجز ، وهو الغني ومن سواه فقير ، فكيف يحتاج القدير الغني إلى العاجز الفقير ، هذا ما لا يكون ، ولا ينبغي أن يتخيله الظنون ، وفيه إشارة إلى أن العابد ينبغي أن يتفرغ لعبادته ويقطع أموره عن غير وكالته ، فإنه يكفيه بفضله عمن سواه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 689.690 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما أقام الحجة على وجود الإله القادر المختار الحكيم الرحيم وبين فساد قول من ذهب إلى الإشراك بالله ، وفصل مذاهبهم على أحسن الوجوه وبين فساد كل واحد منها بالدلائل اللائقة به .

*(96/244)*

---

ثم حكى مذهب من أثبت لله البنين والبنات ، وبين بالدلائل القاطعة فساد القول بها فعند هذا ثبت أن إله العالم فرد واحد صمد منزه عن الشريك والنظير والضد والند ، ومنزه عن الأولاد والبنين والبنات ، فعند هذا صرح بالنتيجة فقال : ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل ما سواه فاعبدوه ولا تعبدوا غيره أحداً فإنه هو المصلح لمهمات جميع العباد ،

وهو الذي يسمع دعاءهم ويرى ذلهم وخضوعهم ، ويعلم حاجتهم ، وهو الوكيل لكل أحد على حصول مهماته ، ومن تأمل في هذا النظم والترتيب في تقرير الدعوة إلى التوحيد والتنزيه ، وإظهار فساد الشرك ، علم أنه لا طريق أوضح ولا أصلح منه . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 98 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى بين في هذه السورة بالدلائل الكثيرة افتقار الخلق إلى خالق وموجد ، ومحدث ، ومبدع ، ومدبر ، ولم يذكر دليلاً منفصلاً يدل على نفي الشركاء ، والأضداد والأنداد ، ثم إنه اتبع الدلائل الدالة على وجود الصانع بأن نقل قول من أثبت لله شريكاً ، فهذا القدر يكون أوجب الجزم بالتشريك من الجن ، ثم أبطله ، ثم إنه تعالى بعد ذلك أتى بالتوحيد المحض حيث قال : ﴿ ذلكم الله ربُّكُمْ لا إله إلاَّ هُوَ خالق كُلِّ شَيْءٍ فاعبدوه ﴾ وعند هذا يتوجه السؤال وهو أن حاصل ما تقدم إقامة الدليل على وجود الخالق ، وتزييف دليل من أثبت لله شريكاً ، فهذا القدر كيف أوجب الجزم بالتوحيد المحض ؟ فنقول : للعلماء في إثبات التوحيد طرق كثيرة ، ومن جملتها هذه الطريقة .

وتقريرها من وجوه : الأول : قال المتقدمون الصانع الواحد كاف وما زاد على الواحد

فالقول فيه متكافىء ، فوجب القول بالتوحيد أما قولنا : الصانع الواحد كاف فلأن الإله القادر على كل المقدورات العالم بكل المعلومات كاف في كونه إلهاً للعالم ، ومدبراً له .

(97/244)

---

وأما أن الزائد على الواحد ، فالقول فيه متكافىء ، فلأن الزائد على الواحد لم يدل الدليل على ثبوته ، فلم يكن إثبات عدد أولى من إثبات عدد آخر ، فيلزم إما إثبات آلهة لا نهاية لها ، وهو محال ، أو إثبات عدد معين مع أنه ليس ذلك العدد أولى من سائر الأعداد ، وهو أيضاً محال ، وإذا كان القسمان باطلين لم يبق إلا القول بالتوحيد .

الوجه الثاني : في تقرير هذه الطريقة أن الإله القادر على كل الممكنات العالم بكل المعلومات كاف في تدبير العالم ، فلو قدرنا إلهاً ثانياً لكان ذلك الثاني إما أن يكون فاعلاً وموجوداً لشيء من حوادث هذا العالم أو لا يكون ، والأول باطل ، لأنه لما كان كل واحد منهما قادراً على جميع الممكنات فكل فعل يفعله أحدهما صار كونه فاعلاً لذلك الفعل مانعاً للآخر عن تحصيل مقدوره ، وذلك يوجب كون كل واحد منهما سبباً لعجز الآخر وهو محال .

وإن كان الثاني لا يفعل فعلاً ولا يوجد شيئاً كان ناقصاً معطلاً ، وذلك لا يصلح للإلهية .

والوجه الثالث : في تقرير هذه الطريقة أن نقول : إن هذا الإله الواحد لا بد وأن يكون كاملاً

في صفات الإلهية ، فلو فرضنا إلهاً ثانياً لكان ذلك الثاني إما أن يكون مشاركاً للأول في جميع صفات الكمال أو لا يكون ، فإن كان مشاركاً للأول في جميع صفات الكمال فلا بد وأن يكون متميزاً عن الأول بأمر ما ، إذ لو لم يحصل الامتياز بأمر من الأمور لم يحصل التعدد والإثنينية ، وإذا حصل الامتياز بأمر ما فذلك الأمر المميز إما أن يكون من صفات الكمال أو لا يكون .

*(98/244)*

---

فإن كان من صفات الكمال مع أنه حصل الامتياز به لم يكن جميع صفات الكمال مشتركاً فيه بينهما ، وإن لم يكن ذلك المميز من صفات الكمال ، فالموصوف به يكون موصوفاً بصفة ليست من صفات الكمال ، وذلك نقصان ، فثبت بهذه الوجوه الثلاثة أن الإله الواحد كاف في تدبير العالم والإيجاد ، وأن الزائد يجب نفيه فهذه الطريقة هي التي ذكرها الله تعالى ههنا في تقرير التوحيد .

وأما التمسك بدليل التمانع فقد ذكرناه في سورة البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 99 ﴾

فصل

قال الفخر :

تمسك أصحابنا بقوله : ﴿ خالق كُلّ شَىْء ﴾ على أنه تعالى هو الخالق لأعمال العباد قالوا : أعمال العباد أشياء ، والله تعالى خالق كل شيء بحكم هذه الآية فوجب كونه تعالى خالقاً لها واعلم أنا أطنبنا الكلام في هذا الدليل في كتاب "الجبر والقدر" ، ونكتفي ههنا من تلك الكلمات بنكت قليلة .

قالت المعتزلة : هذا اللفظ وإن كان عاماً إلا أنه حصل مع هذه الآية وجوه تدل على أن أعمال العباد خارجة عن هذا العموم .

فأحدهما : أنه تعالى قال : ﴿ خالق كُلّ شَىْء فاعبدوه ﴾ فلو دخلت أعمال العباد تحت قوله : ﴿ خالق كُلّ شَىْء ﴾ لصار تقدير الآية : أنا خلقت أعمالكم فافعلوها بأعيانها أنتم مرة أخرى .

ومعلوم أن ذلك فاسد .

وثانيها : أنه تعالى إنما ذكر قوله : ﴿ خالق كُلّ شَىْء ﴾ في معرض المدح والثناء على نفسه ، فلو دخل تحته أعمال العباد لخرج عن كونه مدحاً وثناء لأنه لا يليق به سبحانه أن يتمدح بخلق الزنا واللواط والسرقة والكفر .

وثالثها : أنه تعالى قال بعد هذه الآية : ﴿ قَدْ جَاءكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ [ الأنعام : 104 ] ، وهذا تصريح بكون العبد مستقلاً بالفعل والترك ، وأنه لا مانع له ألبتة من الفعل والترك ، وذلك يدل على أن فعل العبد غير مخلوق لله تعالى إذ لو كان مخلوقاً لله تعالى لما كان العبد مستقلاً به ، لأنه إذا أوجده الله تعالى امتنع منه الدفع ، وإذا لم يوجده الله تعالى امتنع منه التحصيل .

فلما دلت هذه الآية على كون العبد مستقلاً بالفعل والترك وثبت أن كونه كذلك يمنع أن يقال فعل العبد مخلوق لله تعالى ، ثبت أن ذكر قوله : ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ يوجب تخصيص ذلك العموم .

ورابعها : أن هذه الآية مذكورة عقيب قوله : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاء الجن ﴾ وقد بينا أن المراد منه رواية مذهب المجوس في إثبات إلهين للعالم .

أحدهما يفعل اللذات والخيرات ، والآخر يفعل الآلام والآفات فقوله بعد ذلك : ﴿ لا إله إِلاَّ هُوَ خالق كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يجب أن يكون محمولاً على إبطال ذلك المذهب ، وذلك إنما يكون إذا قلنا إنه تعالى هو الخالق لكل ما في هذا العالم من السباع والحشرات والأمراض والآلام ، فإذا حملنا قوله : ﴿ خالق كُلِّ شَيْءٍ ﴾ على هذا الوجه لم يدخل تحت أعمال العباد .

قالوا : فثبت أن هذه الدلائل الأربعة توجب خروج أعمال العباد عن عموم قوله تعالى :

﴿ خالق كُلّ شَيْء ﴾ .

والجواب : أنا نقول الدليل العقلي القاطع قد ساعد على صحة ظاهر هذه الآية .

وتقريره أن الفعل موقوف على الداعي وخالق الداعي هو الله تعالى ، ومجموع القدرة مع الداعي يوجب الفعل وذلك يقتضي كونه تعالى خالقاً لأفعال العباد ، وإذا تأكد هذا الظاهر بهذا البرهان العقلي القاطع زالت الشكوك والشبهات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 99.100 ﴾

*(100/244)*

---

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ خالق كُلّ شَيْء فاعبدوه ﴾ يدل على ترتيب الأمر بالعبادة على كونه تعالى خالقاً لكل الأشياء بفاء التعقيب وترتيب الحكم على الوصف بحرف الفاء مشعر بالسببية ، فهذا يقتضي أن يكون كونه تعالى خالقاً للأشياء هو الموجب لكونه معبوداً على الإطلاق ، والإله هو المستحق للمعبودية ، فهذا يشعر بصحة ما يذكره بعض أصحابنا من أن الإله عبارة عن القادر على الخلق والإبداع والإيجاد والاختراع .

المسألة الخامسة :

احتج كثير من المعتزلة بقوله : ﴿ خالق كُلّ شَىْء ﴾ على نفي الصفات ، وعلى كون القرآن مخلوقاً .

أما نفي الصفات فلأنهم قالوا : لو كان تعالى عالماً بالعلم قادراً بالقدرة ، لكان ذلك العلم والقدرة إما أن يقال : إنهما قديمان .

أو محدثان ، والأول باطل .

لأن عموم قوله : ﴿ خالق كُلّ شَىْء ﴾ يقتضي كونه خالقاً لكل الأشياء أدخلنا التخصيص في هذا العموم بحسب ذاته تعالى ضرورة أنه يمتنع أن يكون خالقاً لنفسه ، فوجب أن يبقى على عمومه فيما سواه ، والقول بإثبات الصفات القديمة يقتضي مزيد التخصيص في هذا العموم ، وأنه لا يجوز .

والثاني : وهو القول بحدوث علم الله وقدرته .

فهو باطل بالإجماع ، ولأنه يلزم افتقار إيجاد ذلك العلم والقدرة إلى سبق علم آخر وقدرة أخرى ، وأن ذلك محال .

وأما تمسكهم بهذه الآية على كون القرآن مخلوقاً .

فقالوا : القرآن شيء وكل شيء فهو مخلوق لله تعالى بحكم هذا العموم .

فلزم كون القرآن مخلوقاً لله تعالى أقصى ما في هذا الباب أن هذا العموم دخله التخصيص في

ذات الله تعالى ، إلا أن العام المخصوص حجة في غير محل التخصيص ، ولذلك فإن دخول هذا التخصيص في هذا العموم لم يمنع أهل السنة من التمسك به في إثبات أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى .

*(101/244)*

---

وجواب أصحابنا عنه : أنا نخصص هذا العموم بالدلائل الدالة على كونه تعالى عالماً بالعلم قادراً بالقدرة ، وبالدلائل الدالة على أن كلام الله تعالى قديم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 100 . 101 ﴾ . بتصرف يسير .

قوله تعالى ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾

فصل

قال الفخر :

المراد منه أن يحصل للعبد كمال التوحيد وتقريره ، وهو أن العبد وإن كان يعتقد أنه لا إله إلا هو ، وأنه لا مدبر إلا الله تعالى ، إلا أن هذا العالم عالم الأسباب .

وسمعت الشيخ الإمام الزاهد الوالد رحمه الله يقول : لولا الأسباب لما ارتاب مرتاب .

وإذا كان الأمر كذلك فقد يعلق الرجل القلب بالأسباب الظاهرة ، فتارة يعتمد على الأمير

، وتارة يرجع في تحصيل مهماته إلى الوزير ، فحينئذ لا ينال إلا الحرمان ولا يجد إلا تكثير الأحزان ، والحق تعالى قال : ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ والمقصود أن يعلم الرجل أنه لا حافظ إلا الله ، ولا مصلح للمهمات إلا الله ، فحينئذ ينقطع طمعه عن كل ما سواه ، ولا يرجع في مهم من المهمات إلا إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 101 ﴾

*(102/244)*

---

فائدة

قال فى روح البيان :

﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾

أي : وهو مع تلك الصفات متولي أموركم فكلوها إليه وتوسلوا بعبادته إلى إنجاح مآربكم الدنيوية والأخروية ورقيب على أعمالكم فيجازيكم .

قال الإمام الغزالي قدس سره : والوكيل ينقسم إلى من يفي بما وكل إليه وفاء تاماً من غير قصور وإلى من لا يفي بالجميع والوكيل المطلق هو الذي يفي بالأمور الموكولة إليه وهو ملى بالقيام بها وفي بإتمامها وذلك هو الله تعالى فقط وقد فهمت من هذا مقدار مدخل العبد في

معنى هذا الاسم انتهى كلامه .

وعن الشيخ أبي حمزة الخراساني رحمه الله قال : حججت سنة من السنين فبينما أنا أمشي إذ وقعت في بئر فنازعتني نفسي أن أستغيث فقلت : لا والله لا أستغيث فما استتم هذا الخاطر حتى مرّ برأس البئر رجلان فقال أحدهما للآخر : تعالَ حتى نسد رأس هذا البئر لئلا يقع فيه أحد فأتيا بقصب وبارية وطمسا رأس البئر فهممت أن أصيح ، ثم قلت في نفسي ألجأ إلى من هو أقرب منهما وسكت وفوضت أمري إلى الله تعالى فبينما أنا بعد ساعة إذا بشيء جاء وكشف عن رأس البئر وأدلى رجله وكأنه يقول تعلق بي في همهمة منه كنت أعرف منها ذلك فتعلقت به فأخرجني فإذا هو سبع فمر وهتف بي هاتف يا أبا حمزة أليس هذا أحسن نجيناك من التلف بالتلف فالله تعالى قادر على ذلك وهو على كل شيء وكيل . (1)

والإشارة في الآيات أن الله تعالى كما أخرج بماء اللطف والهداية من أرض القلوب لأربابها أنواع الكمالات أخرج بماء القهر والخذلان من أرض النفوس لأصحابها أنواع الضلالات حتى أشركوا بالله تعالى وقالوا ما قالوا من أسوأ المقال مع أنه تعالى متفرد بالذات والصفات والأفعال .

فعلى العاقل أن يستعيذ بالله من مكره وقهره ويستجلب بطاعته مزيد رضائه ورحمته ويقطع النظر عن الغير في كل شر وخير فإن الكل من الله تعالى وإن كان لا يرضى لعباده

الكفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 3 صـ 99.100 ﴾

---

(1) لا يخلو بعض كلامه من نظر . والله أعلم .

(103/244)

---

فائدة

قال الفخر :

إنه قال قبل هذه الآية بقليل ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [ الأنعام : 101 ] وقال ههنا ﴿ خالق كُلِّ شَىْءٍ ﴾ وهذا كالتكرار .

والجواب من وجوه :

الأول : أن قوله : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ إشارة إلى الماضي .

أما قوله : ﴿ خالق كُلِّ شَىْءٍ ﴾ فهو اسم الفاعل ، وهو يتناول الأوقات كلها ، والثاني : وهو التحقيق أنه تعالى ذكر هناك قوله : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ ليجعله مقدمة في بيان نفي الأولاد ، وههنا ذكر قوله : ﴿ خالق كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ليجعله مقدمة في بيان أنه لا معبود إلا هو ، والحاصل أن هذه المقدمة مقدمة توجب أحكاماً كثيرة ونتائج مختلفة ، فهو تعالى يذكرها مرة بعد مرة ، ليفرع عليها في كل موضع ما يليق بها من النتيجة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 101 ﴾

سؤال : لقائل أن يقول : الإله هو الذي يستحق أن يكون معبوداً ، فقوله : ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ معناه لا يستحق العبادة إلا هو ، فما الفائدة في قوله بعد ذلك ﴿ فاعبدوه ﴾ فإن هذا يوهم التكرير .

والجواب : قوله : ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ أي لا يستحق العبادة إلا هو ، وقوله : ﴿ فاعبدوه ﴾ أي لا تعبدوا غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 101 ﴾

فصل

قال الفخر :

القوم كانوا معترفين بوجود الله تعالى كما قال : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [ لقمان : 25 ] وما أطلقوا لفظ الله على أحد سوى الله سبحانه ، كما قال تعالى : ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ [ مريم : 65 ] فقال : ﴿ ذلكم الله رَبُّكُمُ ﴾ [ إبراهيم : 34 ] أي الشيء الموصوف بالصفات التي تقدم ذكرها هو الله تعالى ، ثم قال بعده : ﴿ رَبُّكُمْ ﴾ يعني الذي يربيكم ويحسن إليكم بأصناف التربية ووجوه الإحسان ، وهي أقسام بلغت في الكثرة إلى حيث يعجز العقل عن ضبطها ، كما قال : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ الله لاَ تُحْصُوهَا ﴾ .

ثم قال : ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ يعني أنكم لما عرفتم وجود الإله المحسن المتفضل المتكرم فاعلموا

أنه لا إله سواه ولا معبود سواه .

ثم قال : ﴿ خالق كُلّ شَىْء ﴾ يعني إنما صح قولنا : لا إله سواه ، لأنه لا خالق للخلق سواه ، ولا مدبر للعالم إلا هو .

فهذا الترتيب ترتيب مناسب مفيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 102.101 ﴾

*(104/244)*

---

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : "ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شئ فاعبدوه وهو على كل شئ وكيل "

وفى سورة غافر : "ذلكم الله ربكم خالق كل شئ لا إله إلا هو فأنى تؤفكون " .

للسائل أن يسأل عن وجه التقديم والتأخير فيما قدم وأخر فى هاتين الآيتين .

والجواب عن ذلك : أن آية الأنعام لما تقدم فيها قوله تعالى : "وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم " ، وقوله تعالى : "أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة "كان الملائم نفى ما جعلوه وادعوه من الشركاء والصاحبة والولد ، فقدم ما الأمر عليه من

وحدانيته سبحانه وتعاليه عن الشركاء والولد فقال : "لا إله إلا هو" ، وعرف العباد بعد بأن كل ما سواه سبحانه خلقه وملكه فقدم الأهم فى الموضع .

وأما آية غافر فتقدمها قوله تعالى : "لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس" ثم قوله تعالى : "الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا" فلما تقدم ذكر الخلق الأعظم ولم يتقدم هنا ما تقدم فى آية الأنعام ما أتبع بالتنبيه على أنه سبحانه خالق كل شئ فكان تقديم هذا التعريف هنا أنسب وأهم ، ثم أعقب بالتعريف بوحدانيته تعالى فجاء كل على ما يجب ويناسب ولم تكن واحدة من الآيتين لتناسب ما تقدم الأخرى والله سبحانه أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 167 . 168 ﴾

*(105/244)*

---

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ ذلكم ﴾ إشارةٌ إلى المنعوت بما ذُكر من جلائل النعوتِ وما فيه من معنى البُعد للإيذان بعلوّ شأنِ المُشارِ إليه وبُعدِ منزلتِه في العظمة ، والخطابُ للمشركين المعهودين بطريق الالتفاتِ ، وهو مبتدأٌ وقولُه تعالى : ﴿ اللهُ رَبُّكُمْ لا إله إلاَّ هُوَ خالق كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أخبارٌ

أربعةٌ مترادفةٌ أي ذلك الموصوفُ بتلك الصفاتِ العظيمةِ هو الله المستحِقُّ للعبادة خاصةً ، مالكُ أمرِكم لا شريك له أصلاً ، خالقُ كلِّ شيءٍ مما كان ومما سيكون ، فلا تكرارَ ، إذ المعتبرُ في عنوان الموضوعِ إنما هو خالقيتُه لما كان فقط كما ينبىء عنه صيغةُ الماضي ، وقيل : الخبرُ هو الأولُ ، والبواقي أبدالٌ ، وقيل : الاسمُ الجليلُ بدلٌ من المبتدأ والبواقي أخبارٌ ، وقيل : يقدر لكلَ من الأخبار الثلاثةِ مبتدأٌ ، وقيل : يُجعل الكلُّ بمنزلة اسمٍ واحد .

وقولُه تعالى : ﴿ فاعبدوه ﴾ حكم مترتبٌ على مضمون الجملة ، فإن مَنْ جمع هذه الصفاتِ كان هو المستحقُّ للعبادة خاصة ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ عطفٌ على الجملة المتقدمة أي هو مع ما فُصل من الصفات الجليلةِ متولي أمورِ جميعِ مخلوقاتِه التي أنتم من جملتها فكِلوا أمورَكم إليه وتوسلوا بعبادته إلى نجاح مآربِكم الدنيويةِ والأخروية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

*(106/244)*

---

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ ذلكم ﴾ إشارة إلى المنعوت بما ذكر من جلائل النعوت ، وما فيه من معنى البعد لما مر مراراً .

والخطاب للمشركين المعهودين بطريق الالتفات .

وذهب الطبرسي أنه لجميع الناس ، وهو مبتدأ وقوله سبحانه : ﴿ اللهُ رَبُّكُمْ لا إله إلاَّ هُوَ خالق كُلّ شَيْء ﴾ أخبار أربعة مترادفة أي ذلك الموصوف بتلك الصفات العظيمة الشأن هو الله المستحق للعبادة خاصة مالك أمركم لا شريك له أصلاً خالق كل شيء مما كان وسيكون ، والمعتبر في عنوان الموضوع حسبما اقتضته الإشارة إنما هو خالقيته سبحانه لما كان فقط كما ينبىء عنه صيغة الماضي ، وجوز أن يكون الاسم الجليل بدلاً من اسم الإشارة و﴿ رَبُّكُمْ ﴾ صفته وما بعده خبر ، وأن يكون الاسم الجليل هو الخبر وما بعده إبدال منه ، وأن يكون بدلاً والبواقي أخبار ، وأن يقدر لكل خبر من الأخبار الثلاثة مبتدأ ، وأن يجعل الكل بمنزلة اسم واحد ، وأن يكون ﴿ خالق كُلّ شَيْء ﴾ بدلاً من الضمير ، وجوز غير ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ فاعبدوه ﴾ مسبب عن مضمون الجملة فإن من جمع هذه الصفات كان هو المستحق للعبادة خاصة ، وادعى بعضهم أن العبادة المأمور بها هي نهاية الخضوع وهي لا تتأتى مع التشريك فلذا استغنى عن أن يقال : فلا تعبدوا إلا إياه ، ويفهم منه أن مجرد مفهوم العبادة يفيد الاختصاص ، ولا يأباه دعوى إفادة تقديم المفعول في ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ [

الفاتحة : 5 ] إياه لأن إفادة الحصر بوجهين لا مانع منها كما في ﴿ فَلِلَّهِ الحمد ﴾ [ الجاثية : 36 ] ونحوه ، وإنما قال سبحانه هنا : ﴿ ذَلِكُمُ الله لا إله إِلاَّ هُوَ خالق كُلّ شَىْء فاعبدوه ﴾ وفي سورة المؤمن ( 26 ) ﴿ ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ خالق كُلّ شَىْء لاَّ إله إِلاَّ هُوَ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ فقدم سبحانه هنا ﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ على ﴿ خالق كُلّ شَىْء ﴾ وعكس هناك .

*(107/244)*

---

قال بعض المحققين : لأن هذه الآية جاءت بعد قوله تعالى : ﴿ جَعَلُواْ للَّهِ شُرَكَاء ﴾ [ الأنعام : 100 ] الخ فلما قال جل شأنه : ﴿ ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ ﴾ أتى بعده بما يدفع الشركة فقال : عز قائلاً ﴿ لاَ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ ﴿ ثُمَّ خالق كُلّ شَىْء ﴾ وتلك جاءت بعد قوله سبحانه ﴿ لَخَلْقُ السموات والأرض أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الناس ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [ غافر : 57 ] فكان الكلام على تثبيت خلق الناس وتقريره لا على نفي الشريك عنه جل شأنه كما كان في الآية الأولى فكان تقديم ﴿ خالق كُلّ شَىْء ﴾ هناك أولى والله تعالى أعلم بأسرار كلامه .

﴿ وَهُوَ على كُلّ شَىْء وَكِيلٌ ﴾ عطف على الجملة السابقة أي وهو مع تلك الصفات الجليلة الشأن متولي جميع الأمور الدنيوية والأخروية ، ويلزم من ذلك أن لا يوكل أمر إلى غيره

ممن لا يتولى .

وجوز أن تكون هذه الجملة في موضع الحال وقيدا للعبادة ويؤول المعنى إلى أنه سبحانه مع ما تقدم متولي أموركم فكلوها إليه وتوسلوا بعبادته إلى إنجاح مأربكم ، وفسر بعضهم الوكيل بالرقيب أي أنه تعالى رقيب على أعمالكم فيجازيكم عليها .

واستدل أصحابنا بعموم ﴿ خالق كُلّ شَىْء ﴾ على أنه تعالى هو الخالق لأعمال العباد والمعتزلة قالوا : عندنا هنا أشياء تخرج أعمال العباد من البين .

أحدها : تعقيب ذلك العموم بقوله سبحانه : ﴿ فاعبدوه ﴾ فإنه لو دخلت أعمال العباد هناك لصار تقدير الآية إنا خلقنا أعمالكم فافعلوها بأعيانها مرة أخرى وفساده ظاهر .

وثانيها : أن ﴿ خالق كُلّ شَىْء ﴾ ذكر في معرض المدح والثناء ولا تمدح بخلق الزنا واللواطة والسرقة والكفر مثلا .

ثالثها : أنه تعالى قال بعد .

﴿ قَدْ جَاءكُمْ بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ﴾ [ الأنعام : 104 ]

وهو تصريح بكون العبد مستقلاً بالفعل والترك وأنه لا مانع له .

*(108/244)*

رابعها : أن هذه الآية أتى بها بعد ﴿ وَجَعَلُواْ للهِ شُرَكَاء الجن ﴾ [ الأنعام : 100 ] والمراد منه على ما روي عن الحبر الرد على المجوس في إثبات الهين فيجب أن يكون ﴿ خالق كُلّ شَيْء ﴾ محمولاً على إبطال ذلك وهو إنما يكون إذا قلنا : إنه تعالى هو الخالق لما في هذا العالم من السباع والآلام ونحوها وإذا حمل على ذلك لم تدخل أعمال العباد ولا يخفى ما في ذلك من النظر ومثله استدلالهم بالآية على نفي الصفات وكون القرآن مخلوقاً فتدبر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾

وقوع اسم الإشارة بعد إجراء الصّفات والأخبار المتقدّمة ، للتّنبيه على أنّ المشار إليه حقيق بالأخبار والأوصاف الّتي تَرد بعد اسم الإشارة ، كما تقدّم عند قوله : ﴿ ذلكم الله فأَنَّى تؤفكون ﴾ [ الأنعام : 95 ] قبل هذا ، وقوله تعالى : ﴿ أولئك على هدى من ربّهم ﴾ في سورة [ البقرة : 5 ] .

والمشار إليه هو الموصوف بالصّفات المضمّنة بالأخبار المتقدّمة ، ولذلك استغنى عن اتباع اسم الإشارة ببيانٍ أو بدل ، والمعنى : ذلكم المبدع للسّماوات والأرض والخالق كلّ شيء والعليم بكلّ شيء هو الله ، أي هو الّذي تعلمُونه .

وقوله : ربّكم ﴾ صفة لاسم الجلالة .

وجملة : ﴿ لا إله إلاّ هو ﴾ حال من ﴿ ربّكم ﴾ أو صفة .

وقوله : ﴿ خالق كلّ شيء ﴾ صفة ل ﴿ ربّكم ﴾ أو لاسم الجلالة ، وإنّما لم نجعله خبراً لأنّ الإخبار قد تقدّم بنظائره في قوله : ﴿ وخلق كلّ شيء ﴾ .

وجملة : ﴿ فاعبدوه ﴾ مفرّعة على قوله : ﴿ ربّكم لا إله إلاّ هو ﴾ وقد جعل الأمر بعبادته مفرّعاً على وصفه بالرّبوبيّة والوحدانيّة لأنّ الربوبيّة مقتضية استحقاق العبادة ، والانفرادُ بالربوبيّة يقتضي تخصيصه بالعبادة ، وقدْ فهم هذا التّخصيص من التّفريع .

*(109/244)*

---

ووجه أمرهم بعبادته أنّ المشركين كانوا معرضين عن عبادة الله تعالى بحيث لا يتوجّهون بأعمال البرّ في اعتقادهم إلاّ إلى الأصنام فهم يزورونها ويقرّبون إليها القرابين وينذرون لها النّذور ويستعينون بها ويستنجدون بنصرتها ، وما كانوا يذكرون الله إلاّ في موسم الحجّ ، على أنّهم قد خلطوه بالتّقرّب إلى الأصنام إذ جعلوا فوق الكعبة ( هُبَل ) ، وجعلوا فوق الصّفا والمروة ( أسافاً ونائلة ) .

وكان كثير منهم يُهلّ ( لمناة ) في منتهى الحجّ ، فكانوا معرضين عن عبادة الله تعالى ، فلذلك

أمروا بها صريحاً ، وأمروا بالاقتصار عليها بطريق الإيماء بالتّفريع .

وجملة : ﴿ وهو على كلّ شيء وكيل ﴾ يجوز أن تكون معطوفة على الصّفات المتقدّمة فتكون جملة ﴿ فاعبدوه ﴾ معترضة ، ويجوز أن تكون معطوفة على جملة ﴿ فاعبدوه ﴾ بناء على جواز عطف الخبر على الإنشاء والعكس ( وهو الحقّ ) ، على وجه تكميل التّعليل للأمر بعبادته دون غيره ، بأنّه متكفّل بالأشياء كلّها من الخلق والرّزق والإنعام وكلّ ما يطلب المَرْءُ حفظه له ، فالوجه عبادته ولا وجهِ لعبادة غيره ، فإنّ اسم الوكيل جامع لمعنى الحفظ والرّقابة ، كما تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ في سورة [ آل عمران : 173 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

*(110/244)*

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ﴾

انظر التقديم بكلمة رب ، قبل " لا إله إلا هو " كلمة " رب " هذه هي حيثية " لا إله إلا هو " ؛ لأن إلهاً تعني معبودا ، ومعبودا يعني مُطاعا ، ومطاعا يعني له أوامر ونواهٍ ، ولماذا ولأي

سبب ؟ . السبب أنه الرب المتولي الإيجاد والتربية . ومن الواجب والمعقول أن نسمع كلامه ؛ لأنه هو الرّب والخالق وهو الذي يرزق ، بدليل أننا حين نسأل أهل الكُفْر في غفلة شهواتهم : من خلق السموات والأرض ؟ تنطق فطرتهم ويقولون : الله هو الذي خلق السموات والأرض . أما إن كان السؤال موجها في محاجاة مسبقة فأنت تجد المكر والكذب .

وحين تريد أن تنزع منهم قضية صدق وتضع وتبطل قضية كذب فلنأخذهم على غفلة ودون تحضير فيقولون إن الذي خلق هو الله .

ورأينا الآلات التي صمموها ليكتشفوا الكذب ، وليروا العملية العقلية التي تجهد الكذاب ، أما صاحب الحق فلا يُجْهد ؛ لأن صاحب الحق يستقرئ واقعا ينطق به ولا يصيبه الجهد ، لكن الذي يكذب يجهد نفسه ويتردد بين أمور ويضطرب ولا يدري بأيها يأخذ ويجيب بإجابات متناقضة في الشيء الواحد .

﴿ ذلكم الله ربُّكُمْ لا إله إلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فاعبدوه وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [ الأنعام : 102 ] .

وما دام هو خالق لكل شيء وهو الباقي فهو الأحق بالعبادة ؛ لأن العبادة – كما قلنا – معناها طاعة الأمر وطاعة النهي – وما دام سبحانه الذي خلق فهو الذي يضع قانون الصيانة للإنسان والكون ، وإن خالفت المنهج يفسد الكون والإنسان ، وإذا فسد الكون أو

الإنسان فأنت تلجأ إلى منهج الخالق لتعيد لكل منهما صلاحيته ؛ لذلك هو الأولى بالعبادة . ﴿ ذلكم الله ربُّكُمْ لا إله إلاَّ هُوَ ﴾ .

*(111/244)*

---

وهذه شهادة شهد بها لذاته قبل أن يخلق كل شيء ، وقبل أن يخلق الملائكة ، وشهدت بها ملائكته ، وشهد بها أولو العلم . ﴿ شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إلاَّ هُوَ والملائكة وَأُوْلُواْ العلم قَآئِمَاً بالقسط ﴾ [ آل عمران : 18 ] .

إذن فالله شهد بألوهيته من البداية ، ومن أسمائه " المؤمن " ونحن مؤمنين بالله ، وربنا المؤمن بأنه إله واحد ، وهذا الإيمان منه أنه إله واحد ، يخاطب كل شيء يريده وهو يعلم أن أي شيء لا يقدر أن يخالفه ، إنه يخاطبه بقوله : " كن فيكون " ولأنه إله واحد يعلم أن أحداً أو شيئاً لم يخالفه ، لذلك يباشر ملكه وهو العليم بأن الغير خاضع لأمره ولا يمكن أن يتخلف عن مراداته ، أو نقول : " المؤمن " لما خلق ولمن خلق ، أي منحهم الأمن والأمان فهو سبحانه القائل : ﴿ الذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [ قريش : 4 ] .

لقد أوضح الحق سبحانه لنا : أنتم خلقي فإن أخذتم منهجي أطعمكم من الجوع وآمنكم من الخوف .

﴿ ذلكم الله ربُّكُمْ لا إله إلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ .

إذن فالمنطق يفرض علينا عبادته سبحانه ، والأمر المنسجم مع المقدمة ، أن لا رب ، ولا إله إلا هو ، إنه خالق كل شيء ؛ لذلك تكون عبادته ضرورة ، ويتمثل ذلك أن تطيعه فيما أمر ، وفيما نهى .

﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [ الأنعام : 102 ] .

*(112/244)*

---

وهذه دقة الأداء البياني في القرآن ، فنحن في أعرافنا فلان وكيل لفلان أي يقوم لصالحه بالأمور التي يريدها ، وسبحانه ليس وكيلاً لك ، بل هو وكيل عنك ؛ لأن الوكيل لك ينفذ أوامرك ، لكن هو وكيل عليك ، مثل الوصي على القاصر هو وكيل عليه ، ويقول للقاصر : افعل كذا فيفعل ، وسبحانه وكيل علينا ، ولذلك نحن نطلب منه وهو الذي يستجيب لدعائنا بالخير ، فلا ينفذ رغباتنا الطائشة ، ونجد الأحمق من يقول : لقد دعوت الله ولم يستجيب لي ، ونقول : إنك تفهم الاستجابة أنها تؤدي لك مطلوبك ، وسبحانه أعلم بما يناسبك لأنه وكيل عليك ويعدل من تصرفاتك ، وساعة تطلب حاجة ، إن كان فيها خير يعطيها لك ، وإن كنت تظن أنها خير ، لكنها ستأتي بالشر لا يعطيها لك .

وعلى من يدعو ألا يتعجل الإجابة . قال صلى الله عليه وسلم : " يستجاب لأحدكم مالم يَعْجَل ، يقول : قد دعوت فلم يستجب لي " .

﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أي سواء أكان هذا الشيء مختاراً أم غير مختار ؛ لأن المختار قد يختار شراً ، ولأن الله وكيل عليه يقول له : لا ، وغير المكلف ولا اختيار له ، مقهور لإرادة الله مثل النار ، فهي مأمورة أن تحرق ، لكنه أمرها ألا تحرق سيدنا إبراهيم وتبقيه سليماً .

وتأتي الآية التالية لتؤكد دواعي عظمته سبحانه فيقول : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَار . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(113/244)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " ذِلِكُم " أي : ذلكم الموصوف بتلك الصِّفَاتِ المتقدمة اللَّهُ تعالى فاسم الإشارة مبتدأ ، و" الله " تعالى خبره ، وكذا " ربكم " ، وكذا الجملة من قوله : " لا إله إلا هو " ، وكذا " خلاق " .

قال الزمخشري : " وهو مبتدأ وما بعده أخبار مترادفة " .

قال شهاب الدين : وهذا عند من يُجيزُ تَعَدُّدَ الخبر مُطْلَقاً ، ويجوز أن يكون " الله " وَحْدَهُ هو الخبر ، وما بعده أبْدَالٌ ، كذا قال أبو البقاء ، وفيه نظرٌ من حيث إنَّ بعضها مُشْتَقٌّ ، والبدل يَقِلُّ بالمُشْتَقَّاتِ ، وقد يقال : إنَّ هذه وإن كانت مُشْتَقَّةً ولكنها بالنِّسْبَةِ إلى الله – تعالى من حيث اختصاصها به صارت كالجَوَامِدِ ، ويجوز أن يكون " الله تعالى هو البدل ، وما بعده أخبار أيضاً .

ومن منع تعدُّدَ الخبر قدَّرَ قبل كُلِّ خبر مبتدأ أو يجعلها كلها بمنزلة اسم واحد ، كأنه قيل : ذلك المَوْصُوفُ هو الجامع بين هذه الصفات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 342 . 343 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (102) ﴾

تعرَّف إليهم بآياته ، ثم تعرَّف إليهم بصفاته ، ثم كاشفهم بحقائق ذاته .

فقوله : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ تعريف للسادات والأكابر ، وقوله : ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ تعريف للعوام والأصاغر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 493 ﴾

---

قوله تعالى ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (103) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان كل والد وكل شريك لا بد أن يكون مجانساً لولده وشريكه بوجه ، وصل بذلك من وصفه ما اقتضاه المقام من تنزيهه ، فقال : ﴿ لا تدركه ﴾ أي حق الإدراك بالإحاطة ﴿ الأبصار ﴾ أي أن من جعلتموه ولده أو شريكه هو مدرك بأبصاركم كعيسى وعزير عليهما السلام والأوثان والنجوم والظلمة والنور ، وأما الملائكة والجن فإن كان حكمكم عليهم بذلك عن مشاهدة فهم كمن تقدمهم ، وإن كان عن إخبار فهو عن الأنبياء ليس غير ، وكل منهم مخبر بأنهم عباد الله كغيرهم ، وأنه منزه عن شريك وولد ، وهذه كتبهم وصحاح أخبارهم شاهدة بذلك ، ووراء ذلك كله أنهم بحيث يدركون بالأبصار في الجملة ، ليس إدراكهم مستحيلاً ، وأما هذا الإله العزيز فهو غير مدرك لكم بالبصر كما يدرك غيره إدراكاً تاماً ، فيتأمله ناظره فيزنه وينقده بالخبرة بما فيه من رضى وغضب وغيرهما ، بما أبدته الفراسة وأوضحه التوسم ، لأنه سبحانه متعال عن أن يحاط به ، هذا على أنه من

عموم السلب ، وإن كان من سلب العموم فالمعنى أنه عزيز لا يراه كل أحد ، بل يراه الخواص إذا أراد فكشف لهم الحجاب وأوجد لهم الأسباب ﴿ وهو ﴾ مع ذلك يدرككم ، بل و﴿ يدرك ﴾ ما لا تدركونه من أنفسكم ﴿ الأبصار ﴾ وهي القوى المودعة في عصبة العين لتدرك بها المبصرات ﴿ وهو اللطيف ﴾ عن أن يحيط به الأبصار ، لأنه يمنع الأسباب عن أن ينشأ عنها مسبباتها ، ويوجد أدق الأسباب وأغربها ، فلا يستغرب عليه إدراك المعاني لأنه الذي أوجدها ﴿ ألا يعلم من خلق ﴾ [ الملك : 14 ] وأصل اللطف دقة النظر في الأشياء ﴿ الخبير ﴾ أي المحيط بالأبصار فإحاطته بأصحابها أجدر ، ويتحقق معنى الاسمين لتحقق المعنى ؛ قال الحرالي في شرح الأسماء : اللطف إخفاء التوسل إلى الشيء بإظهار ما يضاده ، ولا يتم إلا بخبرة ، ولذلك نظم باسمه ﴿ الخبير ﴾ لأنه أخفى حكمته في ظاهر يضادها ، فاللطف مخبرة في حكمة ، وباسمه تعالى اللطيف أقام أمر حكمته ما بين الدنيا والآخرة ، وبذلك أقام أمر أهل

*(115/244)*

---

ولايته في الدنيا لما جمع لهم من أمره فيها ، فيبدو عزهم من وراء ذل ، ويتراءى ذلهم ومن دونه عز ، فيسبق عزهم إلى القلوب مع تذللهم في الحواس ، ويؤول محسوسهم إلى عز في

عقبى الدنيا ، ومبادرة الآخرة مع تأنس القلوب بهم ، ﴿ إن ربي لطيف لما يشاء ﴾ [ يوسف : 100 ] لما أراد أن يملكه مصر وجعل وسيلة ذلك استبعاده بها ، وبحصول معناه بتمام الخبرة والحكمة – وتلك إبداء الشيء في ضده – يتضح اختصاصه بالحق ، فهو الذي أطعم من جوع وآمن من خوف ، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ، فهو تعالى اللطيف الذي لا لطيف إلا هو ، ثم قال : الخبرة إدراك خبايا الأشياء وخفاياها بحيث لا يبدو منه خبيئة أمر إلا كان إدراك الخبير سابقاً لبدوها ، وذلك لا يتم إلا لمبديها الذي هو يخرج خبأها ، وهو الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ، ومخبرة الخلق لا بد فيها من إظهار باد ينبئ عن الخبء بمقتضى التجربة ، وإلاّ لم يصح لهم الخبرة ، كما قيل : مخبرة المرء فيما يبدو من نطقه وما يظهره اليوم والليلة من عمله ، والخبير الحق خبير بالشيء دون باد يرى الظاهر خبيئة أمره ، فهو بالحقيقة الذي لا خبير إلاّ هو – انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 690. 691 ﴾

فصل

قال الفخر :

احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى تجوز رؤيته والمؤمنين يرونه يوم القيامة من وجوه :

الأول : في تقرير هذا المطلوب أن نقول : هذه الآية تدل على أنه تعالى تجوز رؤيته .

وإذا ثبت هذا وجب القطع بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة .

أما المقام الأول : فتقريره : أنه تعالى تمدح بقوله : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ وذلك مما يساعد الخصم عليه ، وعليه بنوا استدلالهم في إثبات مذهبهم في نفي الرؤية .

وإذا ثبت هذا فنقول : لو لم يكن تعالى جائز الرؤية لما حصل التمدح بقوله : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ ألا ترى أن المعدوم لا تصح رؤيته .

(116/244)

---

والعلوم والقدرة والإرادة والروائح والطعوم لا يصح رؤية شيء منها ، ولا مدح لشيء منها في كونها بحيث لا تصح رؤيتها ، فثبت أن قوله : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ يفيد المدح ، وثبت أن ذلك إنما يفيد المدح لو كان صحيح الرؤية ، وهذا يدل على أن قوله تعالى : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ يفيد كونه تعالى جائز الرؤية ، وتمام التحقيق فيه أن الشيء إذا كان في نفسه بحيث يمتنع رؤيته ، فحينئذ لا يلزم من عدم رؤيته مدح وتعظيم للشيء .

أما إذا كان في نفسه جائز الرؤية ، ثم إنه قدر على حجب الأبصار عن رؤيته وعن إدراكه كانت هذه القدرة الكاملة دالة على المدح والعظمة .

فثبت أن هذه الآية دالة على أنه تعالى جائز الرؤية بحسب ذاته .

وإذا ثبت هذا وجب القطع بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة ، والدليل عليه أن القائل قائلان :

قائل قال بجواز الرؤية مع أن المؤمنين يرونه ، وقائل قال لا يرونه ولا تجوز رؤيته .

فأما القول بأنه تعالى تجوز رؤيته مع أنه لا يراه أحد من المؤمنين فهو قول لم يقل به أحد من الأمة فكان باطلاً .

فثبت بما ذكرنا أن هذه الآية تدل على أنه تعالى جائز الرؤية في ذاته ، وثبت أنه متى كان الأمر كذلك ، وجب القطع بأن المؤمنين يرونه ، فثبت بما ذكرنا دلالة هذه الآية على حصول الرؤية وهذا استدلال لطيف من هذه الآية .

الوجه الثاني : أن نقول المراد بالأبصار في قوله : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ ليس هو نفس الإبصار فإن البصر لا يدرك شيئاً ألبتة في موضع من المواضع .

*(117/244)*

---

بل المدرك هو المبصر فوجب القطع بأن المراد من قوله ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ هو أنه لا يدركه المبصرون وإذا كان كذلك كان قوله : ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار ﴾ المراد منه وهو يدرك المبصرين ، ومعتزلة البصرة يوافقوننا على أنه تعالى يبصر الأشياء فكان هو تعالى من جملة المبصرين فقوله : ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار ﴾ يقتضي كونه تعالى مبصراً لنفسه ، وإذا كان الأمر كذلك كان تعالى جائز الرؤية في ذاته ، وكان تعالى يرى نفسه .

وكل من قال إنه تعالى جائز الرؤية في نفسه ، قال : إن المؤمنين يرونه يوم القيامة فصارت هذه الآية دالة على أنه جائز الرؤية وعلى أن المؤمنين يرونه يوم القيامة ، وإن أردنا أن نزيد هذا الاستدلال اختصاراً قلنا : قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبصار ﴾ المراد منه إما نفس البصر أو المبصر ، وعلى التقديرين : فيلزم كونه تعالى مبصراً لأبصار نفسه ، وكونه مبصراً لذات نفسه .

وإذا ثبت هذا وجب أن يراه المؤمنون يوم القيامة ضرورة أنه لا قائل بالفرق .

الوجه الثالث : في الاستدلال بالآية أن لفظ ﴿ الأبصار ﴾ صيغة جمع دخل عليها الألف واللام فهي تفيد الاستغراق فقوله : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ يفيد أنه لا يراه جميع الأبصار ، فهذا يفيد سلب العموم ولا يفيد عموم السلب .

إذا عرفت هذا فنقول : تخصيص هذا السلب بالمجموع يدل على ثبوت الحكم في بعض أفراد المجموع ، ألا ترى أن الرجل إذا قال إن زيداً ما ضربه كل الناس فإنه يفيد أنه ضربه بعضهم .

فإذا قيل : إن محمداً صلى الله عليه وسلم ما آمن به كل الناس أفاد أنه آمن به بعض الناس ، وكذا قوله : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ معناه : أنه لا تدركه جميع الأبصار ، فوجب أن يفيد أنه تدركه بعض الأبصار .

أقصى ما في الباب أن يقال : هذا تمسك بدليل الخطاب .

فنقول : هب أنه كذلك إلا أنه دليل صحيح لأن بتقدير أن لا يحصل الإدراك لأحد ألبتة كان تخصيص هذا السلب بالمجموع من حيث هو مجموع عبثاً ، وصون كلام الله تعالى عن العبث واجب .

الوجه الرابع : في التمسك بهذه الآية ما نقل أن ضرار بن عمرو الكوفي كان يقول : إن الله تعالى لا يرى بالعين ، وإنما يرى بحاسة سادسة يخلقها الله تعالى يوم القيامة ، واحتج عليه بهذه الآية فقال : دلت هذه الآية على تخصيص نفي إدراك الله تعالى بالبصر ، وتخصيص الحكم بالشيء يدل على أن الحال في غيره بخلافه ، فوجب أن يكون إدراك الله بغير البصر جائزاً في الجملة ، ولما ثبت أن سائر الحواس الموجودة الآن لا تصلح لذلك ثبت أن يقال : إنه تعالى يخلق يوم القيامة حاسة سادسة بها تحصل رؤية الله تعالى وإدراكه ، فهذه وجوه أربعة مستنبطة من هذه الآية يمكن العويل عليها في إثبات أن المؤمنين يرون الله في القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 102 . 103 ﴾

فصل

قال الفخر :

في حكاية استدلال المعتزلة بهذه الآية في نفي الرؤية .

اعلم أنهم يحتجون بهذه الآية من وجهين : الأول : أنهم قالوا : الإدراك بالبصر عبارة عن الرؤية ، بدليل أن قائلاً لو قال أدركته ببصري وما رأيته ، أو قال رأيته وما أدركته ببصري فإنه يكون كلامه متناقضاً ، فثبت أن الإدراك بالبصر عبارة عن الرؤية .

إذا ثبت هذا فنقول : قوله تعالى : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ يقتضي أنه لا يراه شيء من الأبصار في شيء من الأحوال ، والدليل على صحة هذا العموم وجهان : الأول : يصح استثناء جميع الأشخاص وجميع الأحوال عنه فيقال : لا تدركه الأبصار إلا بصر فلان ، وإلا في الحالة الفلانية والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لوجب دخوله .

فثبت أن عموم هذه الآية يفيد عموم النفي عن كل الأشخاص في جميع الأحوال .

وذلك يدل على أن أحداً لا يرى الله تعالى في شيء من الأحوال .

*(119/244)*

---

الوجه الثاني : في بيان أن هذه الآية تفيد العموم أن عائشة رضي الله عنها لما أنكرت قول ابن عباس في أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه ليلة المعراج تمسكت في نصرة مذهب نفسها بهذه الآية ، ولو لم تكن هذه الآية مفيدة للعموم بالنسبة إلى كل الأشخاص وكل

الأحوال لما تم ذلك الاستدلال ، ولا شك أنها كانت من أشد الناس علماً بلغة العرب .

فثبت أن هذه الآية دالة على النفي بالنسبة إلى كل الأشخاص وذلك يفيد المطلوب .

الوجه الثاني : في تقرير استدلال المعتزلة بهذه الآية أنهم قالوا : إن ما قبل هذه الآية إلى هذا الموضع مشتمل على المدح والثناء ، وقوله بعد ذلك : ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار ﴾ أيضاً مدح وثناء فوجب أن يكون قوله : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ مدحاً وثناء ، وإلا لزم أن يقال : إن ما ليس بمدح وثناء وقع في خلال ما هو مدح وثناء ، وذلك يوجب الركاكة وهي غير لائقة بكلام الله .

إذا ثبت هذا فنقول : كل ما كان عدمه مدحاً ولم يكن ذلك من باب الفعل كان ثبوته نقصاً في حق الله تعالى ، والنقص على الله تعالى محال ، لقوله : ﴿ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ ﴾ [ البقرة : 255 ] وقوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ﴾ [ الشورى : 11 ] وقوله : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ [ الإخلاص : 3 ] إلى غير ذلك .

فوجب أن يقال كونه تعالى مرئياً محال .

واعلم أن القوم إنما قيدوا ذلك بما لا يكون من باب الفعل لأنه تعالى تمدح بنفي الظلم عن نفسه في قوله : ﴿ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً للعالمين ﴾ [ آل عمران : 108 ] وقوله : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بظلام للْعَبِيدِ ﴾ [ فصلت : 46 ] مع أنه تعالى قادر على الظلم عندهم ، فذكروا هذا

القيد دفعاً لهذا النقض عن كلامهم .

فهذا غاية تقرير كلامهم في هذا الباب .

(120/244)

---

والجواب عن الوجه الأول من وجوه : الأول : لا نسلم أن إدراك البصر عبارة عن الرؤية

والدليل عليه : أن لفظ الإدراك في أصل اللغة عبارة عن اللحوق والوصول قال تعالى :

﴿ قَالَ أَصحاب موسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [ الشعراء : 61 ] أي لملحقون وقال : ﴿ حتى إِذَا أَدْرَكَهُ الغرق ﴾ [ يونس : 90 ] أي لحقه ، ويقال : أدرك فلان فلاناً ، وأدرك الغلام أي بلغ الحلم ، وأدركت الثمرة أي نضجت .

فثبت أن الإدراك هو الوصول إلى الشيء .

إذا عرفت هذا فنقول : المرئي إذا كان له حد ونهاية وأدركه البصر بجميع حدوده وجوانبه ونهاياته .

صار كأن ذلك الإبصار أحاط به فتسمى هذه الرؤية إدراكاً ، أما إذا لم يحط البصر بجوانب المرئي لم تسم تلك الرؤية إدراكاً .

فالحاصل أن الرؤية جنس تحتها نوعان : رؤية مع الإحاطة .

ورؤية لا مع الإحاطة .

والرؤية مع الإحاطة هي المسماة بالإدراك فنفي الإدراك يفيد نفي نوع واحد من نوعي الرؤية ، ونفي النوع لا يوجب نفي الجنس .

فلم يلزم من نفي الإدراك عن الله تعالى نفي الرؤية عن الله تعالى ، فهذا وجه حسن مقبول في الاعتراض على كلام الخصم .

فإن قالوا لما بينتم أن الإدراك أمر مغاير للرؤية فقد أفسدتم على أنفسكم الوجوه الأربعة التي تمسكتم بها في هذه الآية في إثبات الرؤية على الله تعالى .

قلنا : هذا بعيد لأن الإدراك أخص من الرؤية وإثبات الأخص يوجب إثبات الأعم .

وأما نفي الأخص لا يوجب نفي الأعم .

فثبت أن البيان الذي ذكرناه يبطل كلامكم ولا يبطل كلامنا .

*(121/244)*

---

الوجه الثاني : في الاعتراض أن نقول : هب أن الإدراك بالبصر عبارة عن الرؤية ، لكن لم قلتم أن قوله لا تدركه الأبصار يفيد عموم النفي عن كل الأشخاص وعن كل الأحوال وفي كل الأوقات ؟ وأما الاستدلال بصحة الاستثناء على عموم النفي فمعارض بصحة الاستثناء

عن جمع القلة مع أنها لا تفيد عموم النفي بل نسلم أنه يفيد العموم إلا أن نفي العموم غير ، وعموم النفي غير ، وقد دللنا على أن هذا اللفظ لا يفيد إلا نفي العموم ، وبينا أن نفي العموم يوجب ثبوت الخصوص ، وهذا هو الذي قررناه في وجه الاستدلال .

وأما قوله إن عائشة رضي الله عنها تمسكت بهذه الآية في نفي الرؤية فنقول : معرفة مفردات اللغة إنما تكتسب من علماء اللغة ، فأما كيفية الاستدلال بالدليل فلا يرجع فيه إلى التقليد ، وبالجملة فالدليل العقلي دل على أن قوله : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ يفيد نفي العموم .

وثبت بصريح العقل أن نفي العموم مغاير لعموم النفي ومقصودهم إنما يتم لو دلت الآية على عموم النفي ، فسقط كلامهم .

الوجه الثالث : أن نقول صيغة الجمع كما تحمل على الاستغراق فقد تحمل على المعهود السابق أيضاً ، وإذا كان كذلك فقوله : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ يفيد أن الأبصار المعهودة في الدنيا لا تدركه ، ونحن نقول بموجبه فإن هذه الأبصار وهذه الأحداق ما دامت تبقى على هذه الصفات التي هي موصوفة بها في الدنيا لا تدرك الله تعالى ، وإنما تدرك الله تعالى إذا تبدلت صفاتها وتغيرت أحوالها فلم قلتم أن عند حصول هذه التغيرات لا تدرك الله ؟

الوجه الرابع : سلمنا أن الأبصار ألبتة لا تدرك الله تعالى فلم لا يجوز حصول إدراك الله تعالى

بحاسة سادسة مغايرة لهذه الحواس كما كان ضرار بن عمرو يقول به ؟ وعلى هذا التقدير فلا يبقى في التمسك بهذه الآية فائدة .

*(122/244)*

---

الوجه الخامس : هب أن هذه الآية عامة إلا أن الآيات الدالة على إثبات رؤية الله تعالى خاصة والخاص مقدم على العام ، وحينئذ ينتقل الكلام من هذا المقام إلى بيان أن تلك الآيات هل تدل على حصول رؤية الله تعالى أم لا ؟

الوجه السادس : أن نقول بموجب الآية فنقول : سلمنا أن الأبصار لا تدرك الله تعالى ، فلم قلتم إن المبصرين لا يدركون الله تعالى ؟ فهذا مجموع الأسئلة على الوجه الأول ، وأما الوجه الثاني فقد بينا أنه يمتنع حصول التمدح بنفي الرؤية لو كان تعالى في ذاته بحيث تمتنع رؤيته ، بل إنما يحصل التمدح لو كان بحيث تصح رؤيته ، ثم إنه تعالى يحجب الأبصار عن رؤيته ، وبهذا الطريق يسقط كلامهم بالكلية ، ثم نقول : إن النفي يمتنع أن يكون سبباً لحصول المدح والثناء ، وذلك لأن النفي المحض والعدم الصرف لا يكون موجباً للمدح والثناء والعلم به ضروري ، بل إذا كان النفي دليلاً على حصول صفة ثابتة من صفات المدح والثناء .

قيل : بأن ذلك النفي يوجب المدح .

ومثاله أن قوله : ﴿ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ ﴾ لا يفيد المدح نظراً إلى هذا النفي .

فإن الجماد لا تأخذه سنة ولا نوم إلا أن هذا النفي في حق الباري تعالى يدل على كونه تعالى عالماً بجميع المعلومات أبداً من غير تبدل ولا زوال وكذلك قوله : ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ ﴾ [ الأنعام : 14 ] يدل على كونه قائماً بنفسه غنياً في ذاته لأن الجماد أيضاً لا يأكل ولا يطعم .

إذا ثبت هذا فنقول : قوله : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الابصار ﴾ يمتنع أن يفيد المدح والثناء إلا إذا دل على معنى موجود يفيد المدح والثناء ، وذلك هو الذي قلناه ، فإنه يفيد كونه تعالى قادراً على حجب الأبصار ومنعها عن إدراكه ورؤيته .

وبهذا التقرير فإن الكلام ينقلب عليهم حجة فسقط استدلال المعتزلة بهذه الآية من كل الوجوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 103.106 ﴾

فصل

قال الفخر :



---

اعلم أن القاضي ذكر في "تفسيره" وجوهاً أخرى تدل على نفي الرؤية وهي في الحقيقة خارجة عن التمسك بهذه الآية ومنفصلة عن علم التفسير وخوض في علم الأصول ، ولما

فعل القاضي ذلك فنحن ننقلها ونجيب عنها ثم نذكر لأصحابنا وجوهاً دالة على صحة الرؤية .

أما القاضي فقد تمسك بوجوه عقلية أولها : أن الحاسة إذا كانت سليمة وكان المرئي حاضراً وكانت الشرائط المعتبرة حاصلة وهي أن لا يحصل القرب القريب ولا البعد البعيد ولا يحصل الحجاب ويكون المرئي مقابلاً أو في حكم المقابل فإنه يجب حصول الرؤية ، إذ لو جاز مع حصول هذه الأمور أن لا تحصل الرؤية جاز أن يكون بحضرتنا بوقات وطبلات ولا نسمعها ولا نراها وذلك يوجب السفسطة .

قالوا إذا ثبت هذا فنقول : إن انتفاء القرب القريب والبعد البعيد والحجاب وحصول المقابلة في حق الله تعالى ممتنع ، فلو صحت رؤيته لوجب أن يكون المقتضي لحصول تلك الرؤية هو سلامة الحاسة وكون المرئي تصح رؤيته .

وهذان المعنيان حاصلان في هذا الوقت .

فلو كان بحيث تصح رؤيته لوجب أن تحصل رؤيته في هذا الوقت .

وحيث لم تحصل هذه الرؤية علمنا أنه ممتنع الرؤية .

والحجة الثانية : أن كل ما كان مرئياً كان مقابلاً أو في حكم المقابل والله تعالى ليس كذلك ، فوجب أن تمتنع رؤيته .

والحجة الثالثة : قال القاضي : ويقال لهم كيف يراه أهل الجنة دون أهل النار ؟ إما أن يقرب

منهم أو يقابلهم فيكون حالهم معه بخلاف أهل النار وهذا يوجب أنه جسم يجوز عليه القرب والبعد والحجاب .

والحجة الرابعة : قال القاضي : إن قلتم إن أهل الجنة يرونه في كل حال حتى عند الجماع وغيره فهو باطل ، أو يرونه في حال دون حال وهذا أيضاً باطل ، لأن ذلك يوجب أنه تعالى مرة يقرب وأخرى يبعد .

وأيضاً فرؤيته أعظم اللذات ، وإذا كان كذلك وجب أن يكونوا مشتهين لتلك الرؤية أبداً . فإذا لم يروه في بعض الأوقات وقعوا في الغم والحزن وذلك لا يليق بصفات أهل الجنة .

*(124/244)*

---

فهذا مجموع ما ذكره في "كتاب التفسير" .

واعلم أن هذه الوجوه في غاية الضعف .

أما الوجه الأول : فيقال له هب أن رؤية الأجسام والأعراض عند حصول سلامة الحاسة وحضور المرئي وحصول سائر الشرائط واجبة ، فلم قلتم إنه يلزم منه أن يكون رؤية الله تعالى عند سلامة الحاسة وعند كون المرئي بحيث يصح رؤيته واجبة ؟ ألم تعلموا أن ذاته تعالى مخالفة لسائر الذوات ، ولا يلزم من ثبوت حكم في شيء ثبوت مثل ذلك الحكم فيما

يخالفه ، والعجب من هؤلاء المعتزلة أن أولهم وآخرهم عولوا على هذا الدليل وهم يدعون الفطنة التامة والكياسة الشديدة ولم يتنبه أحد منهم لهذا السؤال ولم يخطر بباله ركاكة هذا الكلام .

وأما الوجه الثاني : فيقال له إن النزاع بيننا وبينك وقع في أن الموجود الذي لا يكون مختصاً بمكان وجهة هل يجوز رؤيته أم لا ؟ فإما أن تدعوا أن العلم بامتناع رؤية هذا الموجود الموصوف بهذه الصفة علم بديهي أو تقولوا أنه علم استدلالي ، والأول باطل لأنه لو كان العلم به بديهياً لما وقع الخلاف فيه بين العقلاء .

وأيضاً فبتقدير أن يكون هذا العلم بديهياً كان الاشتغال بذكر الدليل عبثاً فاتركوا الاستدلال واكتفوا بادعاء البديهة .

وإن كان الثاني فنقول : قولكم المرئي يجب أن يكون مقابلاً أو في حكم المقابل إعادة لعين الدعوى ، لأن حاصل الكلام أنكم قلتم : الدليل على أن ما لا يكون مقابلاً ولا في حكم المقابل لا تجوز رؤيته ، أن كل ما كان مرئياً فإنه يجب أن يكون مقابلاً أو في حكم المقابل ، ومعلوم أنه لا فائدة في هذا الكلام إلا إعادة الدعوى .

*(125/244)*

وأما الوجه الثالث : فيقال له لم لا يجوز أن يقال إن أهل الجنة يرونه وأهل النار لا يرونه ؟ لا لأجل القرب والبعد كما ذكرت ، بل لأنه تعالى يخلق الرؤية في عيون أهل الجنة ولا يخلقها في عيون أهل النار فلو رجعت في إبطال هذا الكلام إلى أن تجويزه يفضي إلى تجويز أن يكون بحضرتنا بوقات وطبلات ولا نراها ولا نسمعها ، كان هذا رجوعاً إلى الطريقة الأولى ، وقد سبق جوابها .

وأما الوجه الرابع : فيقال لم لا يجوز أن يقال : إن المؤمنين يرون الله تعالى في حال دون حال . أما قوله فهذا يقتضي أن يقال : إنه تعالى مرة يقرب ومرة يبعد ، فيقال هذا عود إلى أن الإبصار لا يحصل إلا عند الشرائط المذكورة ، وهو عود إلى الطريق الأول ، وقد سبق جوابه ، وقوله ثانياً : الرؤية أعظم اللذات ، فيقال له إنها وإن كانت كذلك إلا أنه لا يبعد أن يقال إنهم يشتهونها في حال دون حال ، بدليل أن سائر لذات الجنة ومنافعها طيبة ولذيذة ثم إنها تحصل في حال دون حال فكذا ههنا .

فهذا تمام الكلام في الجواب عن الوجوه التي ذكرها في هذا الباب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 106 . 107 ﴾

فصل

قال الفخر :

في تقرير الوجوه الدالة على أن المؤمنين يرون الله تعالى ونحن نعدها هنا عدا ، ونحيل تقريرها

إلى المواضع اللائقة بها .

فالأول : أن موسى عليه السلام طلب الرؤية من الله تعالى ، وذلك يدل على جواز رؤية الله تعالى .

والثاني : أنه تعالى علق الرؤية على استقرار الجبل حيث قال : ﴿ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى ﴾ [ الأعراف : 143 ] واستقرار الجبل جائز والمعلق على الجائز جائز ، وهذان الدليلان سيأتي تقريرهما إن شاء الله تعالى في سورة الأعراف .

الحجة الثالثة : التمسك بقوله : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ من الوجوه المذكورة .

الحجة الرابعة : التمسك بقوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى ﴾ [ يونس : 26 ] وزيادة وتقريره قد ذكرناه في سورة يونس .

*(126/244)*

---

الحجة الخامسة : التمسك بقوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ ﴾ [ الكهف : 110 ] وكذا القول في جميع الآيات المشتملة على اللقاء وتقريره قد مر في هذا التفسير مراراً وأطواراً .

الحجة السادسة : التمسك بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾ [

الإنسان : 20 ] فإن إحدى القراآت في هذه الآية : ﴿ ملكاً ﴾ بفتح الميم وكسر اللام ، وأجمع المسلمون على أن ذلك الملك ليس إلا الله تعالى .

وعندي التمسك بهذه الآية أقوى من التمسك بغيرها .

الحجة السابعة : التمسك بقوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [ المطففين : 15 ] وتخصيص الكفار بالحجب يدل على أن المؤمنين لا يكونون محجوبين عن رؤية الله عز وجل .

الحجة الثامنة : التمسك بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَءاهُ نَزْلَةً أُخرى * عِندَ سِدْرَةِ المنتهى ﴾ [ النجم : 13 ، 14 ] وتقرير هذه الحجة سيأتي في تفسير سورة النجم .

الحجة التاسعة : أن القلوب الصافية مجبولة على حب معرفة الله تعالى على أكمل الوجوه ، وأكمل طرق المعرفة هو الرؤية .

فوجب أن تكون رؤية الله تعالى مطلوبة لكل أحد ، وإذا ثبت هذا وجب القطع بحصولها لقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِى أَنفُسُكُمْ ﴾ [ فصلت : 31 ] .

الحجة العاشرة : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات كَانَتْ لَهُمْ جنات الفردوس نُزُلاً ﴾ [ الكهف : 107 ] دلت هذه الآية على أنه تعالى جعل جميع جنات الفردوس نزلاً للمؤمنين ، والاقتصار فيها على النزل لا يجوز ، بل لا بد وأن يحصل عقيب النزل تشريف أعظم حالاً من ذلك النزل ، وما ذاك إلا الرؤية .

الحجة الحادية عشرة : قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [ القيامة : 22 ، 23 ] وتقرير كل واحد من هذه الوجوه سيأتي في الموضع اللائق به من هذا الكتاب .

*(127/244)*

---

وأما الأخبار فكثيرة منها الحديث المشهور وهو قوله عليه السلام : " سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته " واعلم أن التشبيه وقع في تشبيه الرؤية بالرؤية في الجلاء والوضوح لا في تشبيه المرئي بالمرئي ، ومنها ما اتفق الجمهور عليه من أنه صلى الله عليه وسلم قرأ قوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ [ يونس : 26 ] فقال الحسنى هي الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الله ، ومنها أن الصحابة رضي الله عنهم اختلفوا في أن النبي صلى الله عليه وسلم هل رأى الله ليلة المعراج ، ولم يكفر بعضهم بعضاً بهذا السبب ؟ وما نسبه إلى البدعة والضلالة ، وهذا يدل على أنهم كانوا مجمعين على أنه لا امتناع عقلاً في رؤية الله تعالى ، فهذا جملة الكلام في سمعيات مسألة الرؤية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 107 . 108 ﴾

فصل

قال الفخر :

دل قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار ﴾ على أنه تعالى يرى الأشياء ويبصرها ويدركها .

وذلك لأنه إما أن يكون المراد من الأبصار عين الأبصار .

أو المراد منه المبصرين ، فإن كان الأول وجب الحكم بكونه تعالى رائياً لرؤية الرائين ولأبصار المبصرين ، وكل من قال ذلك قال إنه تعالى يرى جميع المرئيات والمبصرات .

وإن كان الثاني وجب الحكم بكونه تعالى رائياً للمبصرين ، فعلى كلا التقديرين تدل هذه الآية على كونه تعالى مبصراً للمبصرات رائياً للمرئيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 108 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار ﴾ يفيد الحصر معناه أنه تعالى هو يدرك الأبصار ولا يدركها غير الله تعالى ، والمعنى أن الأمر الذي به يصير الحي رائياً للمرئيات ومبصراً للمبصرات ومدركاً للمدركات ، أمر عجيب وماهية شريفة ، لا يحيط العقل بكنهها .

*(128/244)*

ومع ذلك فإن الله تعالى مدرك لحقيقتها مطلع على ماهيتها ، فيكون المعنى من قوله : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ هو أن شيئاً من القوى المدركة لا تحيط بحقيقته ، وأن عقلاً من العقول لا يقف على كنه صمديته ، فكلت الأبصار عن إدراكه ، وارتدعت العقول عن الوصول إلى ميادين عزته ، وكما أن شيئاً لا يحيط به ، فعلمه محيط بالكل ، وإدراكه متناول للكل ، فهذا كيفية نظم هذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 108 . 109 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾

فصل

قال الفخر :

اللطافة ضد الكثافة ، والمراد منه الرقة ، وذلك في حق الله ممتنع ، فوجب المصير فيه إلى التأويل ، وهو من وجوه :

الوجه الأول : المراد لطف صنعه في تركيب أبدان الحيوانات من الأجزاء الدقيقة ، والأغشية الرقيقة والمنافذ الضيقة التي لا يعلمها أحد إلا الله تعالى .

الوجه الثاني : أنه سبحانه لطيف في الإنعام والرأفة والرحمة .

والوجه الثالث : أنه لطيف بعباده ، حيث يثني عليهم عند الطاعة ، ويأمرهم بالتوبة عند المعصية ، ولا يقطع عنهم سواد رحمته سواء كانوا مطيعين أو كانوا عصاة .

الوجه الرابع : أنه لطيف بهم حيث لا يأمرهم فوق طاقتهم ، وينعم عليهم بما هو فوق

استحقاقهم .

وأما الخبير : فهو من الخبر وهو العلم ، والمعنى أنه لطيف بعباده مع كونه عالماً بما هم عليه من ارتكاب المعاصي والإقدام على القبائح ، وقال صاحب "الكشاف" ﴿ اللطيف ﴾ معناه : أنه يلطف عن أن تدركه الأبصار ﴿ الخبير ﴾ بكل لطيف ، فهو يدرك الأبصار ، ولا يلطف شيء عن إدراكه ، وهذا وجه حسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 109 ﴾

*(129/244)*

---

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبصَارُ ﴾ ، هذه الآية الكريمة توهم أن الله تعالى لا يرى بالأبصار, وقد جاءت آيات أخر تدل على أنه يرى بالأبصار ، كقوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ, إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ، وكقوله: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ ، فالحسنى: الجنة, والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم ، وكذلك قوله: ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ على أحد القولين ، وكقوله تعالى في الكفار: ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ

لَمَحْجُوبُونَ ﴾ ، يفهم من دليل خطابه أن المؤمنين ليسوا محجوبين عن ربهم والجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أن المعنى: لا تدركه الأبصار أي في الدنيا فلا ينافي الرؤية في الآخرة.

الثاني: أنه عام مخصوص برؤية المؤمنين له في الآخرة, وهذا قريب في المعنى من الأول.

الثالث: وهو الحق: أن المنفي في هذه الآية الإدراك المشعر بالإحاطة بالكنه, أما مطلق الرؤية فلا تدل الآية على نفيه بل هو ثابت بهذه الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة واتفاق أهل السنة والجماعة على ذلك.

وحاصل هذا الجواب أن الإدراك أخص من مطلق الرؤية لأن الإدراك المراد به الإحاطة, والعرب تقول: "رأيت الشيء وما أدركته", فمعنى لا تدركه الأبصار: لا تحيط به كما أنه تعالى يعلمه الخلق ولا يحيطون به علما ، وقد اتفق العقلاء على أن نفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم, فانتفاء الإدراك لا يلزم منه انتفاء مطلق الرؤية مع أن الله تعالى لا يدرك كنهه على الحقيقة أحد من الخلق, والدليل على صحة هذا الوجه ما أخرجه الشيخان من حديث أبي موسى مرفوعا: "حجابه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه" ، فالحديث صريح في عدم الرؤية في الدنيا ويفهم منه عدم إمكان الإحاطة مطلقا.

والحاصل أن رؤيته تعالى بالأبصار جائزة عقلا في الدنيا والآخرة ؛ لأن كل موجود يجوز أن يرى عقلا ، وأما في الشرع فهي جائزة وواقعة في الآخرة ممتنعة في الدنيا ، ومن أصرح الأدلة في ذلك ما رواه مسلم وابن خزيمة مرفوعا : "إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا" والأحاديث برؤية المؤمنين له يوم القيامة متواترة والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 120.122 ﴾

*(131/244)*

---

ومن فوائد الماوردى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله عز وجل : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبصَارَ ﴾

فيه لأهل التأويل خمسة أقاويل :

أحدها : معناه لا تحيط به الأبصار ، وهو يحيط بالأبصار ، واعتل قائل هذا بقوله : ﴿ فَلَمَّا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ ﴾ فوصف الله الغرق بأنه أدرك فرعون ، وليس الغرق موصوفاً بالرؤية ، كذلك الإدراك هنا ، وليس ذلك بمانع من الرؤية بالإبصار ، غير أن هذا اللفظ لا يقتضيه

وإن دل عليه قوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ .

والقول الثاني : معناه لا تراه الأبصار وهو يرى الأبصار ، واعتل قائلو ذلك بأمرين :

أحدهما : أن الأبصار ترى ما بينها ولا ترى ما لاصقها ، وما بين البصر فلا بد أن يكون بينهما فضاء ، فلو رأته الأبصار لكان محدوداً ولخلا منه مكان ، وهذه صفات الأجسام التي يجوز عليها الزيادة والنقصان .

والثاني : أن الأبصار تدرك الألوان كما أن السمع يدرك الأصوات ، فلما امتنع أن يكون ذا لون امتنع أن يكون مرئياً ، كما أن ما امتنع أن يكون ذا صوت امتنع أن يكون مسموعاً .

والقول الثالث : لا تدركه أبصار الخلق في الدنيا بدليل قوله : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ وتدركه في الآخرة بدليل قوله : ﴿ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [ القيامة : 23 ] وهو يدرك الأبصار في الدنيا والآخرة .

والرابع : لا تدركه أبصار الظالمين في الدنيا والآخرة ، وتدركه أبصار المؤمنين ، وهو يدرك الأبصار في الدنيا والآخرة ، لأن الإدراك له كرامة تنتفي عن أهل المعاصي .

*(132/244)*

والقول الخامس : أن الأبصار لا تدركه في الدنيا والآخرة ، ولكن الله يحدث لأوليائه حاسة سادسة سوى حواسهم الخمس يرونه بها ، اعتِلالاً بأن الله أخبر برؤيته ، فلو جاز أن يُرَى في الآخرة بهذه الأبصار وإن زِيْدَ في قواها جاز أن يرى بها في الدنيا وإن ضعفت قواها بأضعف من رؤية الآخرة ، لأن ما خُلِقَ لإدراك شيء لا يُعْدَمُ إدراكه ، وإنما يختلف الإدراك بحسب اختلاف القوة والضعف ، فلما كان هذا مانعاً من الإدراك – وقد أخبر الله تعالى بإدراكه – اقتضى أن يكون ما أخبر به حقاً لا يدفع بالشبه ، وذلك بخلق حاسة أخرى يقع بها الإدراك .

ثم قال : ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ فاحتمل وجهين من التأويل :

أحدهما : لطيف بعباده في الإنعام عليهم ، خبير بمصالحهم .

والثاني : لطيف في التدبير خبير بالحكمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد ابن الجوزى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ في الإدراك قولان .

أحدهما : أنه بمعنى الإحاطة .

والثاني : بمعنى الرؤية .

وفي ﴿ الأبصار ﴾ قولان .

أحدهما : أنها العيون ، قاله الجمهور .

والثاني : أنها العقول ، رواه عبد الرحمن ابن مهدي عن أبي حصين القارىء .

ففي معنى الآية ثلاثة أقوال .

أحدها : لا تحيط به الأبصار ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال سعيد ابن المسيب وعطاء .

وقال الزجاج : معنى الآية : الإحاطة بحقيقته ، وليس فيها دفع للرؤية ، لِما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرؤية ، وهذا مذهب أهل السُنَّة والعلم والحديث .

والثاني : لا تدركه الأبصار إذا تجلَّى بنوره الذي هو نوره ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثالث : لا تدركه الأبصار في الدنيا ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، ومقاتل .

*(133/244)*

---

ويدل على أن الآية مخصوصة بالدنيا ، قوله : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ [ القيامة : 22 – 23 ] فقيَّد النظر إليه بالقيامة ، وأطلق في هذه الآية ، والمطلق يحمل على

المقيد .

وقوله تعالى : ﴿ وهو يدرك الأبصار ﴾ فيه القولان .

قال الزجاج : وفي هذا الإعلام دليل على أنَّ خَلْقَه لا يدركون الأبصار ، أي : لا يعرفون حقيقة البصر ، وما الشيء الذي صار به الإنسان يبصر من عينيه ، دون أن يبصر من غيرهما من أعضائه ؛ فأعلم الله أن خلقاً من خلقه لا يدرك المخلوقون كنهه ، ولا يحيطون بعلمه ؛ فكيف به عز وجل ؟ ! فأما "اللطيف" فقال أبو سليمان الخطابي : هو البرّ بعباده ، الذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون ، ويسبِّب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون .

قال ابن الاعرابي : اللطيف : الذي يوصل إليك أربَك في رِفق ؛ ومنه قولهم : لطف الله بك ؛ ويقال : هو الذي لَطُفَ عن أن يُدرَك بالكيفية .

وقد يكون اللطف بمعنى الدقة والغموض ، ويكون بمعنى الصغر في نعوت الأجسام ، وذلك مما لا يليق بصفات الباري سبحانه .

وقال الأزهري : اللطيف من أسماء الله ، معناه الرفيق بعباده ؛ والخبير : العالم بكنه الشيء ، المطلع على حقيقته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾

أجمع أهل السنة على أن الله تعالى يرى يوم القيامة ، يراه المؤمنون وقاله ابن وهب عن مالك بن أنس ، والوجه أن يبين جواز ذلك عقلاً ثم يستند إلى ورود السمع بوقوع ذلك الجائز ، واختصار تبيين ذلك يعتبر بعلمنا بالله عز وجل ، فمن حيث جاز أن نعلمه لا في مكان ولا متحيز ولا مقابل ولم يتعلق علمنا بأكثر من الوجود ، جاز أن نراه غير مقابل ولا محاذى ولا مكيفاً ولا محدوداً ، وكان الإمام أبو عبد الله النحوي يقول : مسألة العلم حلقت لحى المعتزلة ثم ورد الشرع بذلك وهو قوله عز وجل : ﴿ وجوه يؤمئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ [ القيامة : 22 ] وتعدية النظر يأتي إنما هو في كلام العرب لمعنى الرؤية لا لمعنى الانتظار على ما ذهبت إليه المعتزلة ، وذكر هذا المذهب لمالك فقال : فأين هم عن قوله تعالى : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ [ المطفّفين : 15 ] .

قال القاضي أبو محمد : فقال بدليل الخطاب ذكره النقاش ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم ، فيما صح عنه وتواتر وكثر نقله : إنكم ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر ونحوه من الأحاديث على اختلاف ترتيب ألفاظها ، وذهبت المعتزلة إلى المنع من جواز رؤية الله تعالى يوم القيامة واستحال ذلك بآراء مجردة ، وتمسكوا بقوله تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ وانفصل أهل السنة عن تمسكهم بأن الآية مخصوصة في الدنيا ، ورؤية الآخرة ثابتة بأخبارها ، وانفصال آخر ، وهو أن يفرق بين معنى الإدراك ومعنى الرؤية ، ونقول إنه عز وجل تراه الأبصار ولا تدركه ، وذلك الإدراك يتضمن الإحاطة بالشيء والوصول إلى أعماقه وحوزه من جميع جهاته ، وذلك كله محال في أوصاف الله عز وجل ، والرؤية لا تفتقر إلى أن يحيط الرائي بالمرئي ويبلغ غايته ، وعلى هذا التأويل يترتب العكس في قوله ﴿ وهو يدرك الأبصار ﴾ ويحسن معناه ، ونحو هذا روي عن ابن عباس وقتادة وعطية العوفي ، فرقوا بين الرؤية والإدراك ، وأما الطبري رحمه الله ففرق بين الرؤية والإدراك واحتج بقول بني إسرائيل إنَّا لمدركون فقال إنهم رأوهم ولم يدركوهم .

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : وهذا كله خطأ لأن هذا الإدراك ليس بإدراك البصر بل هو مستعار منه أو بإشتراك ، وقال بعضهم إن المؤمنين يرون الله تعالى بحاسة سادسة تخلق يوم القيامة ، وتبقى هذه الآية في منع الإدراك بالأبصار عامة سليمة ، قال :

وقال بعضهم : إن هذه الآية مخصوصة في الكافرين ، أي إنه لا تدركه أبصارهم لأنهم محجوبون عنه .

(136/244)

---

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : وهذه الأقوال كلها ضعيفة ودعاو لا تستند إلى قرآن ولا حديث ، و﴿ اللطيف ﴾ المتلطف في خلقه واختراعه وإتقانه ، وبخلقه وعباده و﴿ الخبير ﴾ المختبر لباطن أمورهم وظاهرها ، و" البصائر " جمع بصيرة وهي ما يتفق عن تحصيل العقل للأشياء المنظور فيها ، بالاعتبار ، فكأنه قال قد جاءكم في القرآن والآيات طرائق إبصار الحق والمعينة عليه ، والبصيرة للقلب مستعارة من إبصار العين ، والبصيرة أيضاً هي المعتقد المحصل في قول الشاعر [ الأسعر الجعفي ] : [ الكامل ]

راحوا بَصَائِرُهُمْ عَلَى اكْتَافِهِمْ . . . وَبَصِيرَتِي يَعْدُو بها عَتَدٌ وَأَى

وقال بعض الناس في هذا البيت البصيرة طريقة الدم ، والشاعر إنما يصف جماعة مشوا به في طلب دم ففتروا فجعلوا الأمر وراء ظهورهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد البيضاوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ ﴾ أي لا تحيط به . ﴿ الأبصار ﴾ جمع بصر وهي حاسة النظر وقد يقال للعين من حيث إنها محلها واستدل به المعتزلة على امتناع الرؤية وهو ضعيف ، إذ ليس الإدراك مطلق الرؤية ولا النفي في الآية عاماً في الأوقات فلعله مخصوص ببعض الحالات ولا في الأشخاص ، فإنه في قوة قولنا لا كل بصر يدركه مع أن النفي لا يوجب الامتناع . ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار ﴾ يحيط علمه بها . ﴿ وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ فيدرك ما لا تدركه الأبصار كالأبصار ، ويجوز أن يكون من باب اللف أي لا تدركه الأبصار لأنه اللطيف وهو يدرك الأبصار لأنه الخبير ، فيكون اللطيف مستعاراً من مقابل الكثيف لما لا يدرك بالحاسة ولا ينطبع فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 438 . 439 ﴾

ومن فوائد القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ بيّن سبحانه أنه منزه عن سِمات الحدوث ، ومنها الإدراك بمعنى الإحاطة والتحديد ، كما تدرك سائر المخلوقات ، والرؤية ثابتة .

*(137/244)*

فقال الزجاج: أي لا يبلغ كُنْه حقيقته؛ كما تقول: أدركت كذا وكذا؛ لأنه قد صحّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم الأحاديث في الرؤية يوم القيامة.

وقال ابن عباس: "لا تدركه الأبصار" في الدنيا، ويراه المؤمنون في الآخرة؛ لإخبار الله بها في قوله: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾.

وقاله السُّدِّي.

وهو أحسن ما قيل لدلالة التنزيل والأخبار الواردة برؤية الله في الجنة وسيأتي بيانه في "يونس".

وقيل: "لا تدركه الأبصار" لا تحيط به وهو يحيط بها، عن ابن عباس أيضاً.

وقيل: المعنى لا تدركه أبصار القلوب، أي لا تدركه العقول فتتوهمه؛ إذ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: 11].

وقيل: المعنى لا تدركه الأبصار المخلوقة في الدنيا، لكنه يخلق لمن يريد كرامته بصراً وإدراكاً يراه به كمحمد عليه السلام؛ إذ رؤيته تعالى في الدنيا جائزةٌ عقلاً، إذ لو لم تكن جائزةً لكان سؤال موسى عليه السلام مستحيلاً، ومحالٌ أن يجهل نبيّ ما يجوز على الله وما لا يجوز، بل لم يسأل إلا جائزاً غير مستحيل.

واختلف السلف في رؤية نبينا عليه السلام ربّه، ففي صحيح مسلم عن مسروق قال: كنت متكئاً عند عائشة، فقالت: يا أبا عائشة ثلاثٌ من تكلّم بواحدة منهنّ فقد أعظم

على الله الْفِرْية .

قلت : ما هنّ ؟ قالت : من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفِرية .

قال : وكنت متكئاً فجلست فقلت : يا أمّ المؤمنين ، أَنْظِريني ولا تُعْجِليني ، ألم يَقُلِ الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بالأفق المبين ﴾ [ التكوير : 32 ] .

*(138/244)*

---

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخرى ﴾ ؟ [ النجم : 13 ] فقالت : أنا أوّل هذه الأمة من سأل عن ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال : " إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين رأيته منهبطاً من السماء ساداً عِظم خلقِه ما بين السماء والأرض " فقالت : أو لم تسمع أن الله عز وجل يقول : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ ؟ [ الأنعام : 103 ] أو لم تسمع أن الله عز وجل يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ الله إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً إلى قوله عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ ؟ [ الشورى : 51 ] قالت : ومن زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الْفِرْيَةَ ، والله تعالى يقول : ﴿ يا أيها الرسول بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [ المائدة : 67 ] قالت : ومن زعم أنه يُخبر بما

يكون في غدٍ فقد أعظم على الله الْفِرْية ، والله تعالى يقول : ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السماوات والأرض الغيب إِلاَّ الله ﴾ [ النمل : 65 ] .

وإلى ما ذهبت إليه عائشة رضي الله عنها من عدم الرؤية ، وأنه إنما رأى جبريل : ابن مسعود ، ومثله عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وأنه إنما رأى جبريل ، واختلف عنهما .

وقال بإنكار هذا وامتناع رؤيته جماعةٌ من المحدّثين والفقهاء والمتكلّمين .

وعن ابن عباس أنه رآه بعينيه ؛ هذا هو المشهور عنه .

وحجته قوله تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ الفؤاد مَا رأى ﴾ [ النجم : 11 ] .

وقال عبد الله بن الحارث : اجتمع ابن عباس وأُبَيّ بن كعب ، فقال ابن عباس : أما نحن بنو هاشم فنقول إن محمداً رأى ربّه مرتين .

ثم قال ابن عباس : أتعجبون أن الخَلّة تكون لإبراهيم والكلام لموسى ، والرؤية لمحمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين .

*(139/244)*

---

قال : فكبّر كعب حتى جاوبته الجبال ، ثم قال : إن الله قسّم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى عليهما السلام ، فكلّم موسى ورآه محمد صلى الله عليه وسلم .

وحكى عبد الرزّاق أن الحسن كان يحلف بالله لقد رأى محمد ربّه .

وحكاه أبو عمر الطَّلَمَنْكيّ عن عِكرمة ، وحكاه بعض المتكلمين عن ابن مسعود ، والأوّل عنه أشهر .

وحكى ابن إسحاق أن مروان سأل أبا هريرة : هل رأى محمد ربّه ؟ فقال : نعم .

وحكى النقاش عن أحمد بن حنبل أنه قال : أنا أقول بحديث ابن عباس : بعينه رآه رآها حتى انقطع نفسه ، يعني نفس أحمد .

وإلى هذا ذهب الشيخ أبو الحسن الأشعريّ وجماعة من أصحابه ( أن محمداً صلى الله عليه وسلم ) رأى الله ببصره وعيني رأسه .

وقاله أنس وابن عباس وعكرمة والربيع والحسن .

وكان الحسن يحلف بالله الذي لا إله إلا هو لقد رأى محمد ربّه .

وقال جماعة منهم أبو العالِية والقُرَظِيّ والربيع بن أنس : إنه إنما رأى ربّه بقلبه وفؤاده ؛

وحكى عن ابن عباس أيضاً وعكرمة .

وقال أبو عمر : قال أحمد بن حنبل رآه بقلبه ، وجَبُنَ عن القول برؤيته في الدنيا بالأبصار .

وعن مالك بن أنس قال : لم يُرَ في الدنيا ؛ لأنه باق ولا يُرَى الباقي بالفاني ، فإذا كان في الآخرة ورُزقوا أبصاراً باقية رأوا الباقي بالباقي .

قال القاضي عِياض : وهذا كلام حسن مليح ، وليس فيه دليل على الاستحالة إلا من

حيث ضعف القدرة ؛ فإذا قوّى الله تعالى من شاء من عباده وأقدره على حمل أعباء الرؤية لم يمتنع في حقّه .

وسيأتي شيء من هذا في حق موسى عليه السلام في "الأعراف" إن شاء الله .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار ﴾ أي لا يخفى عليه شيء إلا يراه ويعلمه .

وإنما خصّ "الأبصار" لتجنيس الكلام .

وقال الزجاج : وفي هذا الكلام دليل على أن الخلق لا يُدركون الأبصار ؛ أي لا يعرفون كيفية حقيقةِ البصر ، وما الشيء الذي صار به الإنسان يُبصر من عينيه دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه .

*(140/244)*

---

ثم قال : ﴿ وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ أي الرفيق بعباده ؛ يقال : لَطَف فلان بفلان يَلْطُف ، أي رفق به .

واللطف في الفعل الرفْقُ فيه .

واللُّطف من الله تعالى التوفيق والعِصمة .

وألطفه بكذا ، أي بَرّه به .

والاسم اللَّطف بالتحريك .

يقال : جاءتنا من فلان لَطَفة ؛ أي هَدِيّة .

والملاطفة المبارّة ؛ عن الجوهري وابن فارس .

قال أبو العالية : المعنى لطيف باستخراج الأشياء خبيرٌ بمكانها .

وقال الجُنَيد : اللّطيف من نوّر قلبك بالهدى ، وربَّى جسمك بالغذا ، وجعل لك الولاية في البَلْوَى ، ويحرسُك وأنت في لظى ، ويدخلك جنة المَأْوى .

وقيل غير هذا ، مما معناه راجع إلى معنى الرفق وغيرِه .

وسيأتي ما للعلماء من الأقوال في ذلك في "الشُّورَى" إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

ومن فوائد ابن جزى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ يعني في الدنيا ؛ وأما في الآخرة ، فالحق أن المؤمنين يرون ربهم بدليل قوله : إلى ربها ناظرة ، وقد جاءت في ذلك أحاديث صحيحة صريحة ، لا تحتمل التأويل ، وقالت الأشعرية إن رؤية الله تعالى في الدنيا جائزة عقلاً ، لأن موسى سألها من الله ، ولا يسأل موسى ما هو محال ، وقد اختلف الناس هل رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه ليلة الإسراء أم لا ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار ﴾ قال بعضهم : الفرق بين الرؤية

والإدراك أن الإدراك يتضمن الإحاطة بالشيء والوصول إلى غايته ، فلذلك نفى أن تدرك أبصار الخلق ربهم ، ولا يقتضي ذلك نفي الرؤية وحسن على هذا قوله : وهو يدرك الأبصار وهو الخبير بكل شيء ، وهو يدرك الأبصار لإحاطة علمه تعالى بالخفيات ﴿ اللطيف الخبير ﴾ أي لطيف عن أن تدركه الأبصار وهو الخبير بكل شيء ، وهو يدرك الأبصار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 2 صـ 18 ﴾

*(141/244)*

---

ومن فوائد الخازن فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله عز وجل : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ قال جمهور المفسرين معنى : الإدراك الإحاطة بكنه الشيء وحقيقته فالأبصار ترى البارئ جل جلاله ولا تحيط به كما أن القلوب تعرفه ولا تحيط به .

وقال سعيد بن المسيب في تفسيره : قوله لا تدركه الأبصار ، لا تحيط به الأبصار .

وقال ابن عباس : كلت أبصار المخلوقين عن الإحاطة به .

( فصل )

تمسك بظاهر الآية قوم من أهل البدع ووهم الخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة وقالوا : إن الله تبارك وتعالى لا يراه أحد من خلقه وإن رؤيته مستحيلة عقلاً ، لأن الله أخبر أن الأبصار لا تدركه وإدراك البصر عبارة عن الرؤية ، إذ لا فرق بين قوله أدركته ببصري ورأيته ببصري فثبت بذلك أن قوله لا تدركه الأبصار بمعنى لا تراه الأبصار وهذا يفيد العموم ومذهب أهل السنة أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وفي الجنة وأن رؤيته غير مستحيلة عقلاً واحتجوا لصحة مذهبهم بتظاهر أدلة الكتاب والسنة وإجماع الصحابة ، ومن بعدهم من سلف الأمة على إثبات رؤية الله تبارك وتعالى للمؤمنين في الآخرة قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ ففي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وقال تعالى : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ قال الشافعي رحمه الله : حجب قوماً بالمعصية وهي الكفر فثبت أن قوماً يرونه بالطاعة وهي الإيمان وقال مالك لو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يعير الكفار بالحجاب وقال تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ وفسروا هذه الزيادة بالنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى يوم القيامة .

*(142/244)*

وأما دلائل السنة فما روي عن جرير بن عبد الله البجلي قال "كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ : ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴾ "

أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة : "أن ناساً قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تضامون في القمر ليلة البدر ؟ قالوا لا يا رسول الله قال هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا لا يا رسول الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنكم ترونه "كذلك أخرجه أبو داود وأخرجه الترمذي وليس عنده في أوله أن أناساً سألوا ولا في آخره ليس دونها سحاب .

عن أبي رزين العقيلي قال : " قلت يا رسول الله أكلنا يرى ربه مخلياً به يوم القيامة ؟ قال : نعم قلت وما آية ذلك من خلقه ؟ قال : يا أبا رزين أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر مخلياً به قلت بلى قال : " فالله أعظم إنما هو خلق من خلق الله يعني القمر فالله جل وأعظم "

أخرجه أبو داود وأما الدلائل العقلية ، فقد احتج أهل السنة أيضاً بهذه الآية على جواز رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة ، وتقريره ، أنه تعالى تمدح بقوله لا تدركه الأبصار فلو لم يكن جائز الرؤية وتحقيق هذا أن الشيء إذا كان في نفسه بحيث تمتنع رؤيته فحينئذ لا يلزم من عدم رؤيته مدح وتعظيم ، أما إذا كان في نفسه جائز الرؤية .

---

ثم إنه قدر على حجب الأبصار عنه كانت القدرة دالة على المدح والعظمة فثبت أن هذه الآية دالة على أنه تعالى جائز الرؤية وإذا ثبت هذا وجب القطع بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة ، لأن موسى صلى الله عليه وسلم سأل الرؤية بقوله : أرني أنظر إليك وذلك يدل على جواز الرؤية ، إذ لا يسأل نبي مثل موسى ما لا يجوز ويمتنع وقد علق الله الرؤية على استقرار الجبل بقوله فإن استقر مكانه فسوف تراني .

استقرار الجبل جائز .

والمعلق على الجائز جائز .

وأما الجواب عن تمسك المعتزلة بظاهر هذه الآية في نفي الرؤية ، فاعلم أن الإدراك غير الرؤية ، لأن الإدراك هو الإحاطة بكنه الشيء وحقيقته ، والرؤية : المعاينة للشيء من غير إحاطة .

وقد تكون الرؤية بغير إدراك كما قال تعالى في قصة موسى : قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا وكان قوم فرعون قد رأوا قوم موسى ولم يدركوهم ولكن قاربوا إدراكهم إياه فنفى موسى الإدراك مع إثبات الرؤية بقوله كلا والله تعالى يجوز أن يرى في الآخرة من غير

إدراك ولا إحاطة لأن الإدراك هو الإحاطة بالمرئي وهو ما كان محدوداً وله جهات والله تعالى منزه عن الحد والجهة لأنه القديم الذي لا نهاية لوجوده فعلى هذا أنه تعالى يرى ولا يدرك وقال قوم : إن الآية مخصوصة بالدنيا .

قال ابن عباس في معنى الآية : لا تدركه الأبصار في الدنيا وهو يرى في الآخرة وعلى هذا القول فلا فرق بين الإدراك والرؤية قالوا ويدل على هذا التخصيص قوله : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ فقوله : ﴿ يومئذ ناظرة ﴾ مقيد بيوم القيامة على هذا يمكن الجمع بين الآيتين وقال السدي : البصر بصران : بصر معاينة وبصر علم فمعنى قوله ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ لا يدركه علم العلماء ونظيره ولا يحيطون به علماً هذا وجه حسن أيضاً والله أعلم .

*(144/244)*

---

وقوله تعالى : ﴿ وهو يدرك الأبصار ﴾ يعني أنه تعالى يرى جميع المرئيات ويبصر جميع المبصرات لا يخفى عليه شيء منها ويعلم حقيقتها ومطلع على ماهيتها فهو تعالى لا تدركه أبصار المبصرين وهو يدركها ﴿ وهو اللطيف الخبير ﴾ قال ابن عباس : بأوليائه الخبير بهم .

وقال الزهري : معنى اللطيف الرفيق بعباده .

وقيل هو الموصل الشيء إليك برفق ولين .

وقيل هو الذي ينسى عباده ذنوبهم لئلا يخجلوا وأصل اللطف دقة النظر في الأشياء .

وقال أبو سليمان الخطابي : اللطيف هو اللين بعباده يلطف بهم من حيث لا يعلمون ويوصل إليهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون .

وقال الأزهري : اللطيف في أسماء الله تعالى معناه الرفيق بعباده .

وقيل : هو اللطيف حيث لم يأمر عباده بفوق طاقتهم وينعم عليهم فوق استحقاقهم .

وقيل : هو اللطيف بعباده حيث يثني عليهم عند الطاعة ولم يقطع عنهم بره وإحسانه عند المعصية .

وقيل : هو الذي لطف عن أن تدركه الأبصار وهو يدركها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد ابن كثير فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبصَارُ ﴾ فيه أقوال للأئمة من السلف :

أحدها : لا تدركه في الدنيا ، وإن كانت تراه في الآخرة كما تواترت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير ما طريق ثابت في الصحاح والمسانيد والسنن ، كما قال

مسروق عن عائشة أنها قالت : من زعم أن محمدا أبصر ربه فقد كذب . [وفي رواية : على الله] فإن الله يقول : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبصَارَ ﴾

رواه ابن أبي حاتم من حديث أبي بكر بن عَيَّاش ، عن عاصم بن أبي النَّجُود ، عن أبي الضحى ، عن مسروق . ورواه غير واحد عن مسروق ، وثبت في الصحيح وغيره

*(145/244)*

---

عن عائشة غير وجه (1)

وقد خالفها ابن عباس ، فعنه إطلاق الرؤية ، وعنه أنه رآه بفؤاده مرتين . والمسألة تذكر في أول "سورة النجم" إن شاء الله [تعالى]

وقال ابن أبي حاتم : ذكر محمد بن مسلم ، حدثنا أحمد بن إبراهيم الدَّوْرَقي ، حدثنا يحيى بن مَعِين قال : سمعت إسماعيل بن عُلَيَّة يقول في قول الله تعالى : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبصَارَ ﴾ قال : هذا في الدنيا . قال : وذكر أبي ، عن هشام بن عبيد الله أنه قال نحو ذلك .

وقال آخرون : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبصَارُ ﴾ أي : جميعها ، وهذا مخصص بما ثبت من رؤية المؤمنين له في الدار الآخرة

وقال آخرون ، من المعتزلة بمقتضى ما فهموه من الآية : إنه لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة .

فخالفوا أهل السنة والجماعة في ذلك ، مع ما ارتكبوه من الجهل بما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله . أما الكتاب ، فقوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : 22 ، 23] ، وقال تعالى عن الكافرين : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين : 15] .

قال الإمام الشافعي : فدل هذا على أن المؤمنين لا يُحْجَبُون عنه تبارك وتعالى .

وأما السنة ، فقد تواترت الأخبار عن أبي سعيد ، وأبي هريرة ، وأنس ، وجرير ، وصُهَيْب ، وبلال ، وغير واحد من الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم : أن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العرصات ، وفي روضات الجنات ، جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه آمين .

---

(1) رواه البخاري في صحيحه برقم (4612) ومسلم في صحيحيه برقم (177) والترمذي في السنن برقم (3068) من طريق الشعبي ، عن مسروق به .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبصَارُ ﴾ أي : العقول . رواه ابن أبي حاتم عن علي بن الحسين ، عن الفلاس ، عن ابن مهدي ، عن أبي الحصين يحيى بن الحصين قارئ أهل مكة أنه قال ذلك . وهذا غريب جدًا ، وخلاف ظاهر الآية ، وكأنه اعتقد أن الإدراك في معنى الرؤية ، والله [سبحانه وتعالى] أعلم .

وقال آخرون : لا منافاة بين إثبات الرؤية ونفي الإدراك ، فإن الإدراك أخص من الرؤية ، ولا يلزم من نفي الأخص انتفاء الأعم . ثم اختلف هؤلاء في الإدراك المنفي ، ما هو ؟ فقيل : معرفة الحقيقة ، فإن هذا لا يعلمه إلا هو وإن رآه المؤمنون ، كما أن من رأى القمر فإنه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته ، فالعظيم أولى بذلك وله المثل الأعلى .

وقال آخرون : المراد بالإدراك الإحاطة . قالوا : ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية كما لا يلزم من عدم إحاطة العلم عدم العلم ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [طه : 110] ، وفي صحيح مسلم : "لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك" (1) ولا يلزم منه عدم الثناء ، فكذلك هذا .

قال العَوْفي ، عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبصَارَ ﴾ قال : لا يحيط بصر أحد بالملك .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زُرْعة ، حدثنا عمرو بن حماد بن طلحة القناد ، حدثنا أسباط عن سماك ، عن عِكْرِمة ، أنه قيل له : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبصَارُ ﴾ ؟ قال : ألست

ترى السماء ؟ قال : بلى . قال : فكلها ترى ؟ .

وقال سعيد بن أبي عَرُوبَة ، عن قتادة : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأبصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصَارَ ﴾ هو أعظم من أن تدركه الأبصار .

وقال ابن جرير : حدثنا سعد بن عبد الله بن عبد الحكم ، حدثنا خالد بن عبد الرحمن ، حدثنا أبو عرفجة ، عن عطية العوفي في قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : 22 ، 23] ، قال : هم ينظرون إلى الله ، لا تحيط أبصارهم به من عظمته ، وبصره محيط بهم . فذلك قوله : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأبصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصَارَ ﴾

وقد ورد في تفسير هذه الآية حديث . رواه ابن أبي حاتم هاهنا ، فقال :

---

(1) صحيح مسلم برقم (486) من حديث عائشة ، رضي الله عنها .



---

حدثنا أبو زرعة ، حدثنا مِنْجَاب بن الحارث السهمي حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبي روق ، عن عطية العوفي ، عن أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأبصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصَارَ ﴾ قال : "لو أن الجن والإنس والشياطين والملائكة منذ خلقوا إلى أن فَنُوا صُفّوا صفًا واحدًا ، ما أحاطوا بالله أبدا" .

غريب لا يعرف إلا من هذا الوجه ، ولم يروه أحد من أصحاب الكتب الستة (1) والله أعلم .

وقال آخرون في [قوله تعالى] ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأبصَارُ ﴾ بما رواه الترمذي في جامعه ، وابن أبي عاصم في كتاب "السنة" له ، وابن أبي حاتم في تفسيره ، وابن مَرْدُوَيه أيضا ، والحاكم في مستدركه ، من حديث الحكم بن أبان قال : سمعت عِكْرِمة يقول : سمعت ابن عباس يقول : رأى محمد ربه تبارك وتعالى . فقلت : أليس الله يقول : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأبصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصَارَ ﴾ الآية ؟ فقال : لي "لا أم لك . ذلك نوره ، الذي هو نوره ، إذا تجلى بنوره لا يدركه شيء" . وفي رواية : "لا يقوم له شيء" .

قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه (2)

وفي معنى هذا الأثر ما ثبت في الصحيحين ، عن أبي موسى الأشعري ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور – أو : النار – لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه" (3)

---

(1) ورواه ابن عدي في الكامل (10/2) من طريق سفيان بن بشر ، عن بشر بن عمارة به ، وإسناده واه .

(2) سنن الترمذي برقم (3279) والسنة لابن أبي عاصم برقم (437) والمستدرك

(306/2) وقال الترمذي : "حسن غريب" . وقال ابن أبي عاصم : "فيه كلام" .

(3) رواه مسلم في صحيحه برقم (179) ولم أجده بعد البحث في صحيح البخاري حتى الحافظ المزى لم يذكره في تحفة الأشراف من رواية البخاري .

*(148/244)*

---

وفي الكتب المتقدمة : إن الله تعالى قال لموسى لما سأل الرؤية : يا موسى ، إنه لا يراني حي إلا مات ، ولا يابس إلا تدهده . أي : تدعثر . وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : 143] ونفي هذا الأثر الإدراك الخاص لا ينفي الرؤية يوم القيامة (1) يتجلى لعباده المؤمنين كما يشاء . فأما جلاله وعظمته على ما هو عليه – تعالى وتقدس وتنزه – فلا تدركه الأبصار ؛ ولهذا كانت أم المؤمنين عائشة ، رضي الله عنها ، تثبت الرؤية في الدار الآخرة وتنفيها في الدنيا ، وتحتج بهذه الآية : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ فالذي نفته الإدراك الذي هو بمعنى رؤية العظمة والجلال على ما هو عليه ، فإن ذلك غير ممكن للبشر ، ولا للملائكة ولا لشيء .

وقوله : ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ أي : يحيط بها ويعلمها على ما هي عليه ؛ لأنه خلقها

كما قال تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك : 14] .

وقد يكون عبر بالأبصار عن المبصرين ، كما قال السُّدِّي في قوله : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾

---

(1) انظر : شرح العقيدة الطحاوية (214/1) لابن أبي العز الحنفي للتوسع في بحث الرؤية .

*(149/244)*

---

لا يراه شيء وهو يرى الخلائق .

وقال أبو العالية في قوله [تعالى] ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ اللطيف باستخراجها ، الخبير بمكانها . والله أعلم .

وهذا كما قال تعالى إخبارا عن لقمان فيما وعظ به ابنه : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان : 16] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 309.312 ﴾

*(150/244)*

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾

الإدراك قيل معناه الإحاطة بالشيء وبذلك فسره هنا ابن عباس وقتادة وعطية العوفي وابن المسيب والزجاج ، قال ابن المسيب لا تحيط به الأبصار ، وقال الزجاج : لا تحيط بحقيقته والإدراك يتضمن الإحاطة بالشيء والوصول إلى أعماقه وحوزه من جميع جهاته أو كنى بالإبصار عن الأشخاص لأن بها تدرك الأشخاص الأشياء ، وكان المعنى لا تدركه الخلق وهو يدركهم أو يكون المعنى إبصار القلب أي لا تدركه علوم الخلق وهو يدرك علومهم وذواتهم ، لأنه غير محاط به وهو على هذا مستحيل على الله عند المسلمين ولا تنافي الرؤية انتفاء الإدراك ، وقيل : الإدراك هنا الرؤية وهي مختلف فيها بين المسلمين فالمعتزلة يحيلونها وأهل السنة يجوزونها عقلاً ويقولون : هي واقعة سمعاً وهذه مسألة يبحث عنها في علم أصول الدين وفيه ذكر دلائل الفريقين مستوفاة وقد رأيت فيها لأبي جعفر الطوسي وهو من عقلاء الإمامية سفراً كبيراً ينصر فيه مقالة أصحابه نفاة الرؤية وقد استدل نفاة الرؤية بهذه الآية لمذهبهم وأجيبوا بأن الإدراك غير الرؤية ، وعلى تسليم أن الإدراك هو الرؤية فالإبصار مخصوصة أي أبصار الكفار الذين سبق ذكرهم أو لا تدركه في الدنيا ، قال

الماتريدي : والبصر هو الجوهر اللطيف الذي ركبه الله تعالى في حاسة النظر به تدرك المبصرات وفي قوله : ﴿ وهو يدرك الأبصار ﴾ دلالة على أن الإدراك لا يراد به هنا مجرد الرؤية إذ لو كان مجرد الرؤية لم يكن له تعالى بذلك اختصاص ولا تمدح ، لأنا نحن نرى الأبصار فدل على أن معنى الإدراك الإحاطة بحقيقة الشيء فهو تعالى لا تحيط بحقيقته الأبصار وهو محيط بحقيقتها ، وقال الزمخشري : والمعنى أن الأبصار لا تتعلق به ولا تدركه ، لأنه متعال أن يكون مبصراً في ذاته لأن الأبصار إنما تتعلق بما كان في جهة أصلاً أو تابعاً كالأجسام والهيئات ﴿ وهو يدرك الأبصار ﴾ وهو للطف إدراكه للمدركات يدرك تلك الجواهر اللطيفة التي لا يدركها مدرك .

*(151/244)*

---

﴿ وهو اللطيف الخبير ﴾ يلطف عن أن تدركه الأبصار الخبير بكل لطيف ﴿ وهو يدرك الأبصار ﴾ لا تلطف عن إدراكه وهذا من باب اللف انتهى ، وهو على مذهبه الاعتزالي وتظافرت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم برؤية المؤمنين الله في الآخرة ، وقد اختلفوا هل رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدنيا ببصره ليلة المعراج ؟ فذهب جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين إلى إنكار ذلك ، وقالت عائشة وابن مسعود وأبو

هريرة على خلاف عنهما بذلك ، وذهب ابن عباس وكعب والحسن وعكرمة وأحمد بن حنبل وأبو الحسن الأشعري وجماعة من الصحابة إلى أنه رآه ببصره وعيني رأسه ، وروي هذا عن ابن مسعود وأبي هريرة والأول عن ابن مسعود أشهر ، وقيل : ﴿ وهو يدرك الأبصار ﴾ معناه لا يخفى عليه شيء وخص الأبصار لتجنيس الكلام يعني المقابلة ، وقال الزجاج : في هذا دليل على أن الخلق لا يدركون الأبصار أي لا يعرفون كيفية حقيقة البصر الذي صار به الإنسان مبصراً من عينيه دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه : ﴿ وهو اللطيف الخبير ﴾ قال أبو العالية : لطيف باستخراج الأشياء خبير بأماكنها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

(152/244)

---

﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ البصرُ حاسةُ النظرِ ، وقد تطلق على العين من حيث أنها محلُّها ، وإدراكُ الشيءِ عبارةٌ عن الوصول إليه والإحاطةِ به أي لا تصِل إليه الأبصارُ ولا تُحيط به كما قال سعيد بن المسيِّب ، وقال عطاء : كلّتْ أبصارُ المخلوقين عن الإحاطة به فلا

مُتمسَّك فيه لمنكري الرؤيةِ على الإطلاق . وقد روي عن ابن عباس ومقاتل رضي الله عنهم : لا تدركه الأبصارُ في الدنيا وهو يُرى في الآخرة ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار ﴾ أي يحيطُ بها علمُه إذ لا تخفى عليه خافيةٌ ﴿ وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ فيدرك ما لا تدركه الأبصارُ ، ويجوز أن يكون تعليلاً للحُكمين السابقين على طريقة اللفِّ أي لا تدركه الأبصارُ لأنه اللطيفُ وهو يدرك الأبصارَ لأنه الخبيرُ فيكون اللطيفُ مستفاداً من مقابل الكثيفِ لما لا يُدرك بالحاسة ولا ينطبع فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

*(153/244)*

---

ومن فوائد الآلوسى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾

جمع بصر يطلق كما قال الراغب على الجارحة الناظرة "وعلى القوة التي فيها وعلى البصيرة .

وهي قوة القلب المدركة" وإدراك الشيء عبارة عن الوصول إلى غايته والإحاطة به ، وأكثر المتكلمين على حمل البصر هنا على الجارحة من حيث إنها محل القوة .

وقيل : هو إشارة إلى ذلك وإلى الأوهام والأفهام كما قال أمير المؤمنين علي كرم الله تعالى وجهه .

التوحيد أن لا تتوهمه وقال أيضاً كل ما أدركته فهو غيره .

ونقل الراغب عن بعضهم أنه حمل ذلك على البصيرة ، وذكر أنه قد نبه به على ما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه في قوله : يا من غاية معرفته القصور عن معرفته إذا كان معرفته تعالى أن تعرف الأشياء فتعلم أنه ليس بمثل لشيء منها بل هو موجد كل ما أدركته .

واستدل المعتزلة بهذه الآية على أنه تعالى لا يرى .

وتقرير ذلك على ما في "المواقف وشرحها" أن الإدراك المضاف إلى الأبصار إنما هو الرؤية ولا فرق بين أدركته ببصري ورأيته إلا في اللفظ أو هما متلازمان لا يصح نفي أحدهما مع إثبات الآخر فلا يجوز رأيته وما أدركته ببصري ولا عكسه ، فالآية نفت أن تراه الأبصار وذلك يتناول جميع الأبصار بواسطة اللام الجنسية في مقام المبالغة في جميع الأوقات ، لأن قولك : فلان تدركه الأبصار لا يفيد عموم الأوقات فلا بد أن يفيده ما يقابله فلا يراه شيء من الأبصار لا في الدنيا ولا في الآخرة لما ذكر ولأنه تعالى تمدح بكونه لا يرى حيث ذكره في أثناء المدائح وما كان من الصفات عدمه مدحاً كان وجوده نقصاً يجب تنزيه الله تعالى عنه فظهر أنه يمتنع رؤيته سبحانه ، وإنما قيل : من الصفات احترازاً عن الأفعال كالعفو والانتقام فإن الأول تفضل والثاني عدل وكلاهما كمال انتهى .

وحاصله أن المراد بالإدراك الرؤية المطلقة لا الرؤية على وجه الإحاطة ، وأن ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ سالبة كلية دائمة وهذا أقوى أدلتهم النقلية في هذا المطلب كما ذكره شيخ مشايخنا الكوراني قدس سره .

والجواب عنه من وجوه .

*(154/244)*

---

الأول أن الإدراك ليس هو الرؤية المطلقة وإن اختاره على ما نقله الآمدي أبو الحسن الأشعري وإنما هو الرؤية على نعت الإحاطة بجوانب المرئي كما فسره ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بها في أحد تفسيريه ، ففي "الدر المنثور" "وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ لا يحيط بصر أحد بالله" تعالى انتهى .

وإليه ذكب الكثير من أئمة اللغة وغيرهم .

والرؤية المكيفة بكيفية الإحاطة أخص مطلقاً من الرؤية المطلقة ولا يلزم من نفي الأخص نفي الأعم ، فظهر صحة أن يقال : رأيته وما أدركه بصري أي ما أحاط به من جوانبه وإن لم يصح عكسه .

الثاني أن ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ كما يحتمل أن يلاحظ فيه أولاً دخول النفي ثم ورود

اللام فتكون سالبة كلية على طرز قوله تعالى : ﴿ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ ﴾ [ غافر : 31 ] فيكون لعموم السلب كذلك يحتمل أن يعتبر فيه العموم أولاً ثم ورود النفي عليه فتكون سالبة جزئية نحو ما قام العبيد كلهم ولم آخذ الدراهم كلها فتكون لسلب العموم وكلما احتمل سلب العموم لم يكن نصاً في عموم السلب وإن كان عموم السلب في مثل هذا هو الأكثر وكلما كان كذلك لم يبق فيه حجة على امتناع الرؤية مطلقاً وهو ظاهر ، هذا إذا كان أل في "الأبصار" للاستغراق فإن كان للجنس كان ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ سالبة مهملة وهي في قوة الجزئية فيكون المعنى لا تدركه بعض الأبصار وهو متفق عليه .

الثالث أنا لو سلمنا أن الإدراك هو الرؤية المطلقة وأن أل للاستغراق وأن الكلام لعموم السلب لكن لا نسلم عمومه في الأحوال والأوقات أي لا نسلم أنها دائمة لجواز أن يكون المراد نفي الرؤية في الدنيا كما يروى تقييده بذلك عن الحسن وغيره .

*(155/244)*

---

ويدل عليه ما أخرجه الحكيم الترمذي في "نوادر الأصول" وأبو نعيم في "الحلية" عن ابن عباس قال : "تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : ﴿ رَبِّ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [ الأعراف : 143 ] فقال : قال الله تعالى : يا موسى إنه لا يراني حي إلا مات ولا يابس إلا

تدهده ولا رطب إلا تفرق وإنما يراني أهل الجنة الذين لا تموت أعينهم ولا تبلى أجسادهم"

قولهم : بل هي دائمة لأن قولك : فلان تدركه الأبصار لا يفيد عموم الأوقات فلا بد أن يفيده ما يقابله ، قلنا : هذا لا يتم إلا إذا وجب أن يكون التقابل من الله تعالى تدركه الأبصار و"لا تدركه الأبصار" تقابل تناقض ولا موجب لذلك لا عقلياً ولا لغوياً ولا شرعياً : أما الأول فلأنا إذا وجدنا قضية موجبة مطلقة جاز أن يقابلها سالبة دائمة مطلقة وأن يقابلها سالبة دائمة ولا تتعين الدائمة الصادقة إلا إذا كانت المطلقة كاذبة قطعاً لكن كذب المطلقة ههنا أول البحث وعين المتنازع فيه فلا يجوز أن يبنى كون ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ دائمة على كذب هذه المطلقة أعني الله تعالى يدركه الأبصار مراداً بها أبصار المؤمنين في الجنة والموقف لأنه مصادرة على المطلوب المستلزم للدور ، وأما الثاني فلأن الجملة ثبوتية كانت أو منفية تستعمل بحسب المقامات تارة في الإطلاق وتارة في الدوام وليس يجب في اللغة أنا إذا وجدنا جملة مثبتة استعملت في مقام ما في معنى الإطلاق أن تكون الجملة المقابلة لها مستعملة في معنى الدوام ألبتة بل يختلف باختلاف المقامات وقصد المستعملين لها وهو ظاهر جداً ، وأما الثالث فلأن المطلقة المذكورة بالمعنى السابق عين المتنازع فيه بيننا وبين المعتزلة شرعاً فنحن نقول إنها صادقة شرعاً ونحتج عليها بالعقل والنقل من الكتاب والسنة ، وكلما كان كذلك لزم أن لا يكون ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ دائمة دفعا للتناقض فتكون إما مطلقة عامة أو وقتية مطلقة ، وعلى التقديرين لا تناقض لانتفاء

---

اتحاد الزمان فيصدق الله تعالى تدركه الأبصار أي أبصار المؤمنين يوم القيامة مثلاً أو وقت تجليه في نوره الذي لا يذهب بالأبصار الله تعالى لا تدركه الأبصار أي في الدنيا بالقيد الذي أشير إليه سابقاً أو وقت تجليه بنوره الذي يذهب بالأبصار وهو النور الشعشعاني المشار إليه في الحديث الوارد في "صحيح مسلم" وغيره

"لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره" .

وإلى هذا التقييد يشير ثاني تفسيري ابن عباس المتقدم أولهما .

فقد روي أنه قال : "رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه فقال له عكرمة : أليس الله تعالى يقول : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ فقال : لا أم لك ذاك نوره الذي هو نوره إذا تجلى بنوره لا يدركه شيء " الحديث .

وبإثبات هذين النورين يجمع بين جوابيه عليه الصلاة والسلام لأبي ذر حيث سأله هل رأيت ربك ؟ فقال في أحد جوابيه .

"نور أنى أراه" .

وفي الجواب الآخر "رأيت نوراً" فيقال : النور الذي نفى رؤيته في الاستفهام الإنكاري المدلول

عليه بأنى هو نوره أعني النور الذي يذهب بالأبصار ولا يقوم له بصر ، والنور الذي أثبت رؤيته هو النور الذي لا يذهب بالأبصار .

وكذا يمكن حمل قول عائشة رضي الله عنهما : "من زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربه سبحانه فقد أعظم على الله عز وجل الفرية" واستشهادها لذلك بهذه الآية على هذا بأن يقال : أرادت من زعم أن محمداً عليه الصلاة والسلام رأى ربه سبحانه في نوره الذي هو نوره الذي يذهب بالأبصار فقد أعظم على الله عز وجل الفرية ؛ ويكون الاستشهاد بالآية على ما روي عن ابن عباس من ثاني تفسيريه ، وحينئذ لا يتم للمعتزلة دعوى كون ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ دائمة إلا إذا كانت هذه المطلقة كاذبة شرعاً وهو عين المتنازع فيه كما عرفت فلم يبق لهم على دعوى الدوام دليل أصلاً .

*(157/244)*

---

وقد يقال أيضاً : المراد نفي الرؤية وقت عدم إذن الله تعالى للأبصار بالإدراك ، والدليل على صحة إرادة هذا القيد هو أن إرادة الأبصار فعل من أفعال العبيد وكسب من كسبهم وقد ثبت بغير ما دليل أن العباد لا يقدرون على شيء ما من المقدورات إلا بإذن الله تعالى ومشيئته وتمكينه فلا تدركه الأبصار إلا بإذنه وهو المطلوب .

ويؤيد هذا البيان ويشيد أركانه أن ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ وقع بعد قوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [ الأنعام : 102 ] .

ووجه التأييد أن الله تعالى أخبر بأنه على كل شيء وكيل أي متول لأموره ، ومعلوم أن الأبصار من الأشياء وأن إدراكها من أمورها فهو سبحانه وتعالى متوليها ومتصرف فيها على حسب مشيئته فيفيض عليها الإدراك ويأذن لها إذا شاء كيف شاء وعلى الحد الذي شاء ويقبض عنها الإدراك قبضاً كلياً أو جزئياً في أي وقت شاء كيف شاء ، ولا يخفى على هذا أنه غاية التمدح بالعزة والقهر والغلبة فإن من هو على كل شيء وكيل إذا لم تدركه الأبصار إلا بإذنه مع كونه يدرك الأبصار ولا تخفى عليه خافية كان ذلك غاية في عزته وقهره وكونه غالباً على أمره .

وذهب بعض المحققين أن الآية لم تسق للتمدح وإنما سيقت للتخويف بأنه سبحانه رقيب من حيث لا يرى فليحذر ، وهو ظاهر على التفسير الثاني للوكيل .

الرابع من الوجوه يجوز أن يكون المراد لا تدركه الأبصار على الوجه المعتاد في رؤية المحسوسات المشروطة بالشروط التسعة العادية على ما يشير إليه آخر الآية ، ومعلوم أن نفي الخاص لا يستلزم نفي العام فلا يلزم على هذا من الآية نفي الرؤية مطلقاً .

الخامس ما قيل : إنا لو سلمنا للخصم ما أراد نقول : إن الآية إنما تدل على أن الأبصار لا تدركه ونحن نقول به وندعي أن ذوي الأبصار يدركونه ، والاعتراض بأنه كما أن الأبصار لا تدركه فكذلك لا يدركه غيرها فلا فائدة للتخصيص مدفوع بأنه إنما يلزم انتفاء الفائدة أن لو انحصرت في نفي حكم المنطوق على المسكوت وهو غير مسلم ولعله كان بخصوص سؤال سائل عنه دون غيره أو لمعنى آخر .

السادس أنا سلمنا أن المراد لا يدركه المبصرون بأبصارهم لكنه لا يفيد المطلوب أيضاً لجواز حصول إدراك الله تعالى بحاسة سادسة مغايرة لهذه الحواس كما يدعيه ضرار بن عمرو الكوفي ، فقد نقل عنه أنه كان يقول : إن الله تعالى لا يرى بالعين وإنما يرى بحاسة سادسة يخلقها سبحانه له يوم القيامة ، واحتج عليه بهذه الآية فقال : إنها دلت على تخصيص نفي إدراك الله تعالى بالبصر وتخصيص الحكم بالشيء يدل على أن الحال في غيره بخلافه فوجب أن يكون إدراك الله تعالى بغير البصر جائزاً في الجملة ، ولما ثبت أن سائر الحواس الموجودة الآن لا يصلح لذلك ثبت أنه تعالى يخلق يوم القيامة حاسة سادسة بها تحصل رؤية الله تعالى وإدراكه اه .

ومن الناس من استدل بالآية على أن الإطلاع على كنه ذات الله تعالى ممتنع بناء على أن الأبصار جمع بصر بمعنى البصيرة وقرره كما قرر المعتزلة استدلالهم على امتناع الرؤية وفيه

ما فيه .

نعم احتمال حمل البصر على البصيرة مما يوهن استدلال المعتزلة كما لا يخفى ، ولهم في هذا المطلب أدلة أخرى نقلية سيأتي إن شاء الله تعالى الكلام على بعضها ، وعقلية قد عقلها القوم في معاطن البطلان .

ولعل النوبة تفضي إلى تسريح يعملات الأقلام في رياض تحقيق ذلك إن شاء الله تعالى الملك العلام فمنه التوفيق لإدراك أبصار الأفهام مخفيات الأسرار وفلق صباح الحق بسواطع الأنوار .

*(159/244)*

---

﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار ﴾ أي يراها على وجه الإحاطة أو يحيط بها علماً أو علما ورؤية كما قيل ، وذكر الآمدي أن البصريين من المعتزلة ذهبوا إلى أن إدراك الله تعالى بمعنى الرؤية وأن البغداديين منهم ذهبوا إلى أنها بمعنى العلم لا بمعنى الرؤية ، والمراد بالأبصار هنا على ما قرره بعض المحققين النور الذي تدرك به المبصرات فإنه لا يدركه مدرك بخلاف جرم العين فإنه يرى .

ولعل هذا هو السر في الإظهار في مقام الإضمار ، وجوز أن يقال المراد أن كل عين لا ترى

نفسها :

﴿ وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ فيدرك سبحانه ما لا يدركه الأبصار ، فالجملة سيقت لوصفه تعالى بما يتضمن تعليل قوله سبحانه : "وهو" الخ .

وجوز غير واحد أن يكون ما ذكر من باب اللف فإن اللطيف يناسب كونه غير مدرك بالفتح والخبير يناسب كونه تعالى مدركاً بالكسر ، واللطيف مستعار من مقابل الكثيف لما لا يدرك بالحاسة من الشيء الخفي .

ويفهم من ظاهر كلام البهائي كما قال الشهاب أنه لا استعارة في ذلك حيث قال في "شرح أسماء الله تعالى الحسنى" : اللطيف الذي يعامل عباده باللطف وألطافه جل شأنه لا تتناهى ظواهرها وبواطنها في الأولى والأخرى ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ [ النحل : 81 ] وقيل : اللطيف العليم بالغوامض والدقائق من المعاني والحقائق ولذا يقال للحاذق في صنعته لطيف .

ويحتمل أن يكون من اللطافة المقابلة للكثافة وهو وإن كان في ظاهر الاستعمال من أوصاف الجسم لكن اللطافة المطلقة لا توجد في الجسم لأن الجسمية يلزمها الكثافة وإنما لطافتها بالإضافة ، فاللطافة المطلقة لا يبعد أن يوصف بها النور المطلق الذي يجل عن إدراك البصائر فضلاً عن الأبصار ويعز عن شعور الأسرار فضلاً عن الأفكار ويتعالى عن مشابهة الصور والأمثال وينزه عن حلول الألوان والأشكال ، فإن كمال اللطافة إنما يكون لمن هذا

شأنه ووصف الغير بها لا يكون على الإطلاق بل بالقياس إلى ما هو دونه في اللطافة ويوصف إليه بالكثافة انتهى .

والمرجح أن إطلاق اللطيف بمعنى مقابل الكثيف على ما ينساق إلى الذهن على الله تعالى ليس بحقيقة أصلا كما لا يخفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

*(160/244)*

---

ومن فوائد صاحب روح البيان

قال عليه الرحمة :

﴿ لا تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾

البصر حاسة النظر وقد تطلق على العين من حيث إنها محله وإدراك الشيء عبارة عن الوصول إليه والإحاطة به أي لا تصل إليه الأبصار ولا تحيط به .

﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبصَارَ ﴾ أي : يحيط بها علمه ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ فيدرك ما لا تدركه الأبصار ولهذا خص الأبصار بإدراكه تعالى إياها مع أنه يدرك كل شيء لأن الأبصار لا تدرك نفسها ولا يجوز في غيره أن يدرك البصر وهو لا يدركه ففيه دليل على أن الخلق لا يدركون بالأبصار كنه حقيقة البصر وهو الشيء الذي صار به الإنسان يبصر من عينيه

دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه .

اعلم أن الإدراك غير الرؤية لأن الإدراك هو الوقوف على كنه الشيء والإحاطة به والرؤية المعاينة وقد تكون الرؤية بلا إدراك لأنه يصح أن يقال رآه وما أدركه ، فالإدراك أخص من الرؤية ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم ، فالله يجوز أن يرى من غير إدراك وإحاطة كما يعرف في الدنيا ولا يحاط به يعني إن معرفة الله تعالى ممكنة من حيث الارتباط بينه وبين الخلق وانتشاء العالم منه بقدر الطاقة البشرية إذ منه ما لا تفيه الطاقة البشرية وهو ما وقع به الكمل في ورطة الحيرة وأقروا بالعجز عن حق المعرفة وقالوا ما عرفناك حق معرفتك فذات الله تعالى من حيث تجرده عن النسب والإضافات لا يدرك ولهذا سئل النبي عليه السلام هل رأيت ربك قال : "نور إني أراه" أي : النور المجرد لا يمكن رؤيته وكذا أشار الحق في كتابه لما ذكر ظهور نوره في مراتب المظاهر قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ ﴾ (النور : 35) فلما فرغ من ذكر مراتب التمثيل قال : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ (النور : 35) فأحد النورين هو الضياء

*(161/244)*

والآخر هو النور المطلق الأصلي ولهذا تمم فقال : ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ (النور : 35) أي : يهدي الله بنوره المتعين في المظاهر والساري فيها إلى نوره المطلق الأحدي فإنما تتعذر الرؤية والإدراك باعتبار تجرد الذات عن المظاهر والنسب والإضافات فأما في المظاهر ومن ورائية حجابية المراتب فالإدراك ممكن كما قيل :

كالشمس تمنعك اجتلاءك وجهها

فإذا اكتست برقيق غيم أمكنا وإلى مثل هذا أشار النبي صلى الله عليه وسلّم في بيان الرؤية الجنانية المشبهة برؤية الشمس والقمر فأخبر عن أهل الجنة أنهم يرون ربهم وأنه ليس بينه وبينهم حجاب إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن فنبه صلى الله عليه وسلّم على بقاء الرتبة الحجابية وهي رتبة المظهر وتحقيقه إن أهل الاعتزال بالغوا في نفي الرؤية واستدلوا على مذهبهم بما ورد في الصحيحين عن أبي موسى "جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه" قالوا إن الرداء حجاب بين المرتدي والناظرين فلا تمكن الرؤية وجوابهم إنهم حجبوا وإن المرتدى لا يحتجب عن الحجاب إذ المراد بالوجه الذات وبرداء الكبرياء وإضافته للبيان والكبرياء رداؤه الذي يلبسه عقول العلماء بالله .

يقول الفقير في شرح هذا المقام : قوله : ولكنهم حجبوا إلخ وذلك لأن المرآة لا تكون حجاباً للناظر كما أن اللباس كذلك بالنسبة إلى البدن نفسه إذ لا واسطة بينهما فالرداء من

المرتدي بمنزلة المرآة من النظر وكذا المرتدي من الرداء بمنزلة الناظر من المرآة إذ المراد بالوجه الذات بطريق إطلاق اسم الجزء على الكل فالمرتدي وهو الذات لا يحتجب عن حجابه وإنما يحتجب به عن الغير كالقناع للعروس فإنه كشف بالإضافة إليها وحجاب بالنسبة إلى غيرها وبرداء الكبرياء إلخ.

*(162/244)*

---

الحقيقة المحمدية التي هي حقيقة الحقائق ولكل موجود حصة من تلك الحقيقة بقدر قابليته لكنها في نفسها حقيقة واحدة، وهو الوجود العام الشامل، كالحيوان الناطق فإنه معنى واحد عام شامل لجميع الأفراد وكثرته بالنسبة إلى تلك الأفراد لا تنافي وحدته الحقيقية، فمعنى قوله عليه السلام: "وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه" حقيقة كل منهما التي تجلى الذات فيها بحسب صفاء مرآتها ومعرفتها وتلك الحقيقة ليست بحجاب بين القوم وبين الذات الأحدية إذ ما وراء تلك الحقيقة مع قطع النظر عن التجلي فيها وكونها مرآة له إطلاق صرف لا يتعلق به رؤية رداء أيا كان فكل ناظر ينكشف له جمال الذات من حقيقة نفسه فينظر إليه من تلك الحقيقة وهي ليست بحجاب للنظر ولا للذات؛ إذ هي كالمرآة فالنظر الظاهري قيد تام وما وراء تلك الحقيقة من الذات

إطلاق صرف فلا مناسبة بينهما بوجه من الوجوه وتلك الحقيقة بين التقييد والإطلاق برزخ جامع لهما ، كما قال عليه السلام : "من عرف نفسه فقد عرف ربه" فالعارف إذ لم يتعلق عرفانه بنفسه الكلية وحقيقته الجامعة لا يتأتى منه عرفان ربه لأن ربه مطلق عن القيود والنسب والإضافات وهو بهذا الاعتبار لا تتعلق به المعرفة وأما نفسه المتجلى فيها الرب بحقائق أسمائه فتتعلق بها تلك الرؤية من تلك الحيثية فتكون حقيقة نفسه ومعرفتها مرآة معرفة ربه فلا حجاب بين المرتدي ورداءه

أصلاً وإنما غلط من غلط بقياس الغائب على الشاهد وهو ممنوع باطل لأنه لا يلزم أن يكون هناك رداء مانع وبرزخ بين الناظر والمرتدي ولذا قال : الكبرياء رداؤه الذي يلبسه عقول العلماء بالله .

*(163/244)*

---

فالتردد في أن الرداء حجاب بين المرتدي والناظرين فلا يمكن الرؤية إنما هو من عمى البصيرة والعياذ بالله وهو في ثلاثة أشياء إرسال الجوارح في معاصي الله والتصنع بطاعة الله والطمع في خلق الله فالحق ليس بمحجوب عنك لثبوت إحاطته وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه بما تراكم على بصيرتك من العيوب العارضة وما يلازم بصرك من العيب اللازم

الذي هو الفناء الحسي الذي لا يرتفع إلا في الدار الآخرة فلذلك كانت الرؤية موقوفة عليها وإلا فالحجاب في حقه تعالى ممتنع غير متصور فلا تكن ممن يطلب الله لنفسه ولا يطالب نفسه لربه فذلك حال الجاهلين .

وقال بعض المفسرين : إن الإدراك إذا قرن بالبصر كان المراد منه الرؤية فإنه يقال أدركت ببصري ورأيت ببصري بمعنى واحد فمعنى قوله : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبصَارُ ﴾ أي : لا تراه في الدنيا فهو مخصوص برؤية المؤمنين له في الآخرة لقوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (القيامة : 22) وحديث الشيخين "إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر" والمراد تشبيه الرؤية بالرؤية في الجلاء والوضوح لا تشبيه المرئي بالمرئي أي في الجهة وإنما يرونه في الآخرة لأنها قلب الدنيا فالبصيرة هناك كالبصر في الدنيا فيكون البصر الظاهر في الدنيا باطناً في الآخرة والبصيرة الباطنة ظاهرة فيستعد الكل للرؤية بحسب حاله وأما في الدنيا فالرؤية غاية الكرامة فيها وغاية الكرامة فيها لأكرم الخلق ، وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم صاحب المقام المحمود الذي شاهد ربه ليلة المعراج بعيني رأسه يعني رآه بالسر والروح في صورة الجسم فكان كل وجوده الشريف عيناً لأنه تجاوز في تلك الليلة عن عالم العناصر ثم عن عالم الطبيعة ثم عن عالم الأرواح حتى وصل إلى عالم الأمر وعين الرأس من عالم الأجسام فانسلخ عن الكل ورأى ربه بالكل فافهم هداك الله خير السبل فإن العبارة ههنا لا تسع غير هذا .

---

قال في "التأويلات النجمية" : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبصَارُ ﴾ أي لا تلحقه المحدثات لا الأبصار الظاهرة ولا الأبصار الباطنة تقدست صمديته عن كل لحوق ودرك ينسب إلى مخلوق ومحدث بل ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ * قَدْ جَاءَكُم بَصَآئِرُ مِن ﴾ من أن يدركه المحدثات أو يلحقه المخلوقات .

﴿ الْخَبِيرُ ﴾ بمن يستحق أن يتجلى له الحق ويدرك أبصارها باطلاعه عليها فيستعدها للرؤية ومن لطف الله أنه أوجد الموجودات وكون المكونات فضلاً منه وكرماً من غير أن يكون استحقاقها للوجود انتهى ولو رآه إنسان في الموطن الدنيوي لوجب عليه شكره ولو شكره لاستحق الزيادة ولا مزيد على الرؤية ولذلك حرمها وهذا هو المعنى في قوله عليه السلام : لن تروا ربكم حتى تموتوا .

قال ابن عطاء : إتمام النعيم بالنظر إلى وجه الله الكريم على الوجه اللائق بجلاله في الدار الآخرة حسبما جاء الوعد الصدق بذلك كما في الدنيا إذ غالب النصوص يقتضي منع ذلك بل يكاد يقع الإجماع على نفي وقوع ذلك ومنعه شرعاً وإن جاز عقلاً انتهى .

وأما الرؤية في المنام : فقد حكيت عن كثير من السلف كأبي حنيفة .

وعن أبي يزيد رحمه الله : رأيت ربي في المنام فقلت له كيف الطريق إليك ؟ فقال : اترك نفسك ثم تعال .

*(165/244)*

---

وروي عن حمزة القارىء أنه قرأ على الله القرآن من أوله إلى آخره في المنام حتى إذا بلغ إلى قوله : وهو القاهر فوق عباده ﴾ (الأنعام : 18) قال الله تعالى يا حمزة وأنت القاهر ولا خفاء في أن الرؤية في المنام نوع مشاهدة يكون بالقلب دون العين وفي الحديث : "رأيت ربي في المنام في صورة شاب أمرد" وسر تجليه في صورة الإنسانية بصفة الربوبية أن الحقيقة الإنسانية أجمع الحقائق فإنه تعالى لما استخلف الإنسان وجعله خاتماً على خزائن الدنيا والآخرة ظهر جيمع ما في الصورة الإلهية من الأسماء في النشأة الإنسانية الجامعة بين النشأة العنصرية والروحانية وإليه يشير قوله عليه السلام : "إن الله خلق آدم على صورته" وإطلاق الصورة على الحق مجاز باعتبار أهل الظاهر إذ لا تستعمل في الحقيقة إلا في المحسوسات ففي المعقولات مجاز ، وأما عند المحققين فحقيقة لأن العالم الكبير بأسره صورة الحضرة الإلهية ومظاهر أسمائها بحضراتها تفصيلاً وإجمالاً والإنسان الكامل صورته جمعاً .

فإن قلت : الرؤية أقوى أنواع الإدراك أم العلم .

قلت : قد قيل بالأول ولهذا يتلذذ المؤمنون برؤية الله تعالى فوق ما يتلذذون بمعرفته .

قال الإمام في "الإحياء" : إن الرؤية نوع كشف وعلم إلا أنها أوضح وأتم من العلم فإذا جاز تعلق العلم به ليس في جهة جاز تعلق الرؤية من غير جهة وكما جاز أن يعلم من غير كيفية وصورة جاز أن يرى كذلك من غير كيفية وصورة .

قال بعضهم : الرؤية أعلى من المعرفة لأن العارفين مشتاقون إلى منازل الوصال والواصلون لا يشتاقون إلى منازل المعرفة .

وقال بعضهم : المعرفة ألطف والرؤية أشرف .

قال حضرة الشيخ الشهير بأفتاده أفندي قدس سره : وصلة العلماء على قدر علمهم واستدلالهم ووصلة الكمل على قدر مشاهدتهم وعيانهم لكن لا على وجه مشاهدة سائر الأشياء فإنه تعالى منزه عن الكيف والأين بل هي عبارة عن ظهوره وانكشاف الوجود الحقيقي عند اضمحلال وجود الرائي وفنائه انتهى .

*(166/244)*

أقول : فظهر من هذا أن من فنى عن ذاته وصفاته وأفعاله واضمحل عن بشريته وهويته فجائز أن يرى الله تعالى في الدنيا بالبصيرة بعد الانسلاخ التام .

وذلك كالشمس في الجلاء لا يكابر فيه أحد أصلاً ؛ لأن القلب من عالم الملكوت والبصيرة كالبصر له وعالم الملكوت مطلق عن قيود الأمور الوهمية التي هي الزمان والمكان والجهة والكيفية وغيرها ؛ لأنها من أحكام عالم الملك فأين هذا من ذاك ولا يقاس أحدهما على الآخر وحقيقة ذوق هذا المطلب الأعلى لا تعرف إلا بالسلوك .

ثم اللطيف من يعلم دقائق المصالح وغوامضها وما دقّ منها وما لطف ثم يسلك في إيصالها إلى المستصلح سبيل الرفق دون العنف وإذا اجتمع الرفق في الفعل واللطف في الإدراك تم معنى اللطيف ولا يتصور كمال ذلك في العلم والفعل إلا تعالى وحظ العبد من هذا الوصف الرفق بعباد الله تعالى والتلطف بهم في الدعوة إلى الله تعالى والهداية إلى سعادة الآخرة من غير إزراء وعنف ومن غير تعصب وخصام وأحسن وجوه اللطف فيه الجذب إلى قبول الحق بالشمائل والسير المرضية والأعمال الصالحة فإنها أوقع وألطف من الألفاظ المزينة .

قال الشيخ الأكبر قدس سره قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم "صلوا كما رأيتموني أصلي" ولم يقل صلوا كما قلت لكم لأن الفعل أرجح في نفس التابع المقتدي من القول .

والخبير : هو الذي لا تعزب عنه الأخبار الباطنة ولا يجرى في الملك والملكوت شيء ولا تتحرك ذرة ولا تسكن ولا تضطرب نفس ، ولا تطمئن إلا ويكون عنده خبرها وهو بمعنى العليم لكن العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة سمي خبرة ، وسمي صاحبه خبيراً وحظ العبد من ذلك أن يكون خبيراً بما يجري في عالمه وعالمه قلبه وبدنه والخفايا التي يتصف القلب بها من الغش والخيانة والطواف حول العاجلة وإضمار الشر وإظهار الخير والتجمل بإظهار الإخلاص والإفلاس عنه لا يعرفها إلا ذو خبرة بالغة قد خبر نفسه ومارسها وعرف مكرها وتلبيسها وخدعها فحادبها وتشمر لمعاداتها وأخذ الحذر منها فذلك من العباد جدير بأن يسمى خبيراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 3 صـ 100 .

105 ﴾

*(168/244)*

---

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾

جملة مستأنفة ، إما مؤكدة لقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ ذكرت للتخويف بأنه رقيب من حيث لا يرى فليحذر ، وإما هي مؤكدة لما تقرر قبل من تنزهه وتعاليه عن إفكهم أعظم تأكيد ، ببيان أنه لا تراه الأبصار المعهودة وهي أبصار أهل الدنيا ، لجلاله وكبريائه وعظمته ، فأنى يصح أن ينسب إلى عليائه تلك العظيمة ؟ وذلك لأنه تعالى لم يخلق لأرباب هذه النشأة الدنيوية استعداداً لرؤيته المقدسة .

قال العارف الجليل الشيخ الأكبر قدس سره في " فتوحاته " : سبب عجز الناس عن رؤية ربهم في الدنيا ضعف نشأة هذه الدار ، إلا لمن أمده الله بالقوة ، بخلاف نشأة الآخرة لقوتها . وسبب رؤيته تعالى في المنام كون النوم أخا الموت . وفي الحديث إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا . فما نفى الشرع إلا رؤية الله في الدنيا يقظة . انتهى .

وقال بعضهم : إن الأبصار المعهودة في الدنيا لا تدركه تعالى ، لأن هذه الأحداق ما دامت تبقى على هذه الصفات التي هي موصوفة بها في الدنيا لا تدرك الله تعالى ، وإنما تدركه إذا تبدلت صفاتها ، وتغيرت أحوالها .

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل النهار قبل الليل ، وعمل الليل قبل النهار ، حجابه النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه > .

قال ابن كثير : وفي الكتب المتقدمة ، أن الله تعالى قال لموسى لما سأل الرؤية : يا موسى ! إنه لا يراني حيّ إلا مات ، ولا يابس إلا تدهده . وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [ الأعراف : 143 ] .

أقول : كون المنفيّ من الإدراك في هذه الآية هو الإدراك الدنيويّ خاصة ، لا يحتاج إلى حجة ولا برهان . ومن فهم من تعض الفرق ، كالمعتزلة ، من هذه الآية أن المنفيّ هو الإدراك في النشأتين ، فقد نادى على نفسه بالجهل بما دل عليه كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم المتواترة . أما الكتاب فمثل قوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [ القيامة : 22 – 23 ] . وأما السنة فما روي عن جرير بن عبد الله البجلي قال : كنا جلوساً عند النبيّ صلى الله عليه وسلم ، إذ نظر إلى القمر ليلة البدر وقال : < إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامّون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها > ، فافعلوا ثم قرأ : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ .

قال ابن كثير : تواترت الأخبار عن أبي سعيد وأبي هريرة وأنس وجرير وصهيب وبلال وغير واحد من الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم : < أن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العرصاة وفي روضات الجنات > . انتهى .

قال الحافظ ابن حجر في " الفتح " : وأدلة السمع طافحة بوقوع ذلك في الآخرة لأهل الإيمان دون غيرهم ، ومنع ذلك في الدنيا . إلا أنه اختلف في نبينا صلى الله عليه وسلم . انتهى .

قال ابن كثير : كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تثبت الرؤيا في الدار الآخرة وتنفيها في الدنيا ، وتحتج بهذه الآية . انتهى .

*(170/244)*

---

فعن مسروق قال : قلت لعائشة رضي الله عنها : يا أمتاه ! هل رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه ، فقالت لقد قفّ شعري مما قلت ! أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب : من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب . ثم قرأت : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبصَارَ ﴾ ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَاب ﴾ [ الشورى : 51 ] . ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب . ثم قرأت : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً ﴾ [ لقمان : 34 ] ومن حدثك أنه كتم فقد كذب ثم قرأت : ﴿ يَا أَيُّهَا

الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ [ المائدة : 67 ] . ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين -أخرجه الشيخان والترمذيّ- .

وخالفها ابن عباس . فعنه إطلاق الرؤية ، وعنه أنه رآه بفؤاده . والمسألة تذكر مبسوطة في أول سورة النجم إن شاء الله تعالى . ومن الناس من ذهب إلى أن الإدراك ليس هو مطلق الرؤية ، بل معرفة الكنه أو الإحاطة .

قال ابن كثير : قال آخرون : لا منافاة بين إثبات الرؤية ونفي الإدراك . فإن الإدراك أخص من الرؤية ، ولا يلزم من نفي الأخص انتفاء الأعم . ثم اختلف هؤلاء في الإدراك المنفيّ ما هو ؟ فقيل : معرفة الحقيقة ، فإن هذا لا يعلمه إلا هو ، وإن رآه المؤمنين ، كما أن من رأى القمر فإنه لا يدرك حقيقته وكنهه وماهيته ، فالعظيم أولى بذلك ، وله المثل الأعلى .

وقال آخرون : الإدراك أخص من الرؤية ، وهو الإحاطة . قالوا : ولا يلزم من عدم الإحاطة عدم الرؤية ، كما لا يلزم من عدم إحاطة العلم عدم العلم . قال تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ [ طه : 110 ] .

وفي صحيح مسلم : < لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك > . ولا يلزم منه عدم الثناء ، فكذلك هذا . انتهى .

*(171/244)*

وقال النسفي : تشبثُ المعتزلة بهذه الآية لا يستتب ، لأن المنفيّ هو الإدراك لا الرؤية والإدراك هو الوقوف على جوانب المرئيّ وحدوده ، وما يستحيل عليه الحدود والجهات ، يستحيل إدراكه ، لا رؤيته ، فنزّل الإدراك من الرؤية منزلة الإحاطة من العلم ، ونفى الإحاطة التي تقتضي الوقوف على الجوانب والحدود ، لا يقتضي نفي العلم به ، فكذا هذا . على أن مورد الآية ، وهو التمدح ، يوجب ثبوت الرؤية ، إذ نفي إدراك ما تستحيل رؤيته . لا تمدح فيه ، لأن كل ما لا يرى لا يدرك ، وإنما التمدح بنفي الإدراك مع تحقق الرؤية ، إذ انتفاؤه مع تحقق الرؤية ، دليل ارتفاع نقيصة التناهي والحدود عن الذات ، فكانت الآية حجة لنا عليهم . انتهى .

وقد جود العلامة العضد في " المواقف " البحث في هذه الآية ، ونقل شبه المنكرين فيها ، وأجاب عنها . ونحن ، لنفاسته ، ننقل كلامه مع شرحه للسيد الشريف قدس سره ، وبعض حواشيه ، ونصه :

الأولى – من شبه المنكرين للرؤية السمعية قوله تعالى : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبصَارُ ﴾ :

1 – والإدراك المضاف إلى الأبصار إنما هو الرؤية . فمعنى قولك : أدركته ببصري ، معنى رأيته . لا فرق إلا في اللفظ . أو هما أمران متلازمان لا يصح نفي أحدهما مع إثبات الآخر ، فلا يجوز : رأيته وما أدركته ببصري ولا عكسه . فالآية نفت أن تراه الأبصار وذلك يتناول

جميع الأبصار بواسطة اللام الجنسية في مقام المبالغة ، في جميع الأوقات ، لأن قولك : فلان تدركه الأبصار ، لا يفيد عموم الأوقات ، فلا بد أن يفيده ما يقابله ، فلا يراه شيء من الأبصار ، لا في الدنيا ، ولا في الآخرة لما ذكرنا .

*(172/244)*

---

2 - ولأنه تعالى تمدح بكونه لا يُرى ، فإنه ذكره في أثناء المدائح : وما كان من الصفات عدمه مدحاً ، كان وجوده نقصاً ، يجب تنزيه الله عنه ، فظهر أنه يمتنع رؤيته ، وإنما قلنا : ( من الصفات ) احترازاً عن ( الأفعال ) ، كالعفو والانتقام ، فإن الأول فضل ، والثاني عدل ، وكلاهما كمال . والجواب :

أما عن الوجه الأول في الاستدلال بالآية فمن وجوه :

الأول - أن الإدراك هو الرؤية ، على نعت الإحاطة بجوانب المرئيّ ، إذ حقيقته النيل والوصول ، و ( إنا لمدركون ) أي : ملحقون ، و ( أدركت الثمرة ) أي : وصلت إلى حد النضج و ( أدرك الغلام ) أي : بلغ . ثم نقل إلى الرؤية المحيطة ، لكونها أقرب إلى تلك الحقيقة . والرؤية المكيفة بكيفية الإحاطة ، أخص مطلقاً من الرؤية المطلقة . فلا يلزم من نفي المحيطة عن الباري سبحانه ، لامتناع الإحاطة ، نفي المطلقة عنه . وقوله ( لا يصح نفي

أحدهما مع إثبات الآخر ) ممنوع ، بل يصح أن يقال : رأيته وما أدركه بصري . أي : لم يحط به من جوانبه ، وإن لم يصح عكسه .

(173/244)

---

الثاني – أن ( تدركه الأبصار ) موجبة كلية ، لأن موضوعها جمع محلَّى باللام الاستغراقية . وقد دخل عليها النفي فرفعها . ورفع الموجبة الكلية سالبة جزئية . وبالجملة فيحتمل قوله : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبصَارُ ﴾ إسناد النفي إلى الكل ، بأن يلاحظ أولاً دخول النفي ، ثم ورود العموم عليه ، فيكون سالبة كلية . ونفي الإسناد إلى الكل بأن يعتبر العموم أولاً ، ثم ورود النفي عليه ، فيكون سالبة جزئية . ومع احتمال المعنى الثاني ، لم يبق فيه حجة لكم علينا . لأن أبصار الكفار لا تدركه ، إجماعاً . هذا ما نقوله : لو ثبت أن اللام في الجمع للعموم والاستغراق ، وإلا عكسنا القضية ، فادَّعَيْنَا أن الآية حجة لنا وقلنا : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبصَارُ ﴾ سالبة مهملة في قوة الجزئية ، فالمعنى : لا تدركه بعض الأبصار ، وتخصيص البعض بالنفي يبدل بالمفهوم على الإثبات للبعض ، فالآية حجة لنا لا علينا . انتهى – لكن هذا إنما يستقيم إذا كانت المهملة مرادفة للجزئية . وكونها في قوتها لا يفيد المرادفة . ولهذا اعترض عليه بأن الجنس في حيزّ النفي يفيد العموم اتفاقاً ، نحو : ما جاءني الرجل .

وإنما الاحتمال لعموم السلب ، وسلب العموم عند قصد الاستغراق ، فكيف تعكس القضية على تقدير حمل اللام على الجنس ؟ ولو ثبت المرادفة لاندفع الاعتراض ، إذ تصير الآية حينئذ حجة لنا إلزامية ، حيث يرجع قيد البعضية إلى النفي ، كما أرجع المعتدل قيد العموم ، على تقدير الاستغراق ، إليه . فتأمل ! – كذا في حواشي الحلبي والشرواني – .

الثالث – من تلك الوجوه أنها – أي : الآية – وإن عمت في الأشخاص باستغراق اللام ، فإنها لا تعم في الأزمان ، فإنها سالبة مطلقة لا دائمة ، ونحن نقول بموجبه ، حيث لا يرى في الدنيا .

*(174/244)*

---

قال العلامة حسن حلبي : وما استدل به الخصم سابقاً على أنها دائمة ، من أن إيجابها لا يفيد عموم الأوقات ، فلا بد أن يفيد ما يقابله – فجوابُه : أنه إنما يتم إذا كان التقابل بينهما تقابل التناقض ، وهو ممنوع . فإن القضية الموجبة والسالبة ، الغير الموجهتين ، لم توضعا في العربية لمعنيين متناقضين ، بل لهما محامل يحملهما المستعمل حسب ما يريده .

الرابع – منها أن الآية تدل على أن الأبصار لا تراه ، ولا يلزم منه أن المبصرين لا يرونه ، لجواز أن يكون ذلك النفي المذكور في الآية ، نفياً للرؤية بالجارحة مواجهة وانطباعاً ، كما هو

العادة ، فلا يلزم نفي الرؤية بالجارحة مطلقاً . وأما الجواب عن الوجه الثاني وهو قوله : تمدح الباري بأنه لا يرى ، فنقول : هذا مدعاكم ، فأين الدليل عليه ؟ إن قلت : أشير فيما تقدم إلى دليله بأنه ذكر في أثناء المدائح ، والمذكور بينهما يجب أن يكون مدحاً -قلت : ذلك الدليل إنما يدل على التمدح بنفي المبصرية ، لا بنفي الرؤية ، والفرق قد سبق في الجواب الأول . انتهى .

وإذا ثبت أن سياق الكلام يقتضي أنه تمدح ، لم يكن لكم فيه دليل على امتناع رؤيته ، بل لنا فيه الحجة على صحة الرؤية ، لأنه لو امتنعت رؤيته لما حصل المدح بنفيها عنه ، إذ لا مدح للمعدوم بأنه لا يُرى ، حيث لم يكن له ذلك ، وإنما المدح في عدم الرؤية للمتمنع المتعزز بحجاب الكبرياء ، كما في الشاهد . انتهى .

وناقش الخيالي قولهم : ( لا مدح للمعدوم ) بأن عدم مدح المعدوم لاشتماله على معدن كل نقص أعني : العدم ، فإن أصل الممادح والكمالات هو الوجود ، وقد عرا عنه . كما أن الأصوات والروائح لا تمدح بمنع إمكان رؤيتها ، لكونها مقرونة بسمات النقص .

قال : والحق أن امتناع الشيء لا يمتنع التمدح بنفيه ، إذ قد ورد التمدح بنفي الشريك ، ونفي اتخاذ الولد في القرآن ، مع امتناعهما في حقه تعالى . انتهى .

*(175/244)*

ووافقه حسن حلبي في " حواشي شرح المواقف " ، لكنه أجاب بأن المدح بجهة لا يقتضي الكمال من جهات أخر ، وكذا النقصان من جهة لا ينافي المدح بغيرها . انتهى .

وأجاب قره خليل بوجوه :

الأول – أن مراد ذلك المستدل هو الإلزام على المعتزلة ، لا تحقيق الاستدلال على جواز الرؤية .

الثاني – أن مبنى كلامه على العرف واللغة ، فإن أهلها إذا أرادوا مدح شيء يقولون هذا الشيء مما لا تدركه الأبصار ، أو مما لا تراه العيون ، مع أنها مما تدركه عادة . فهذا القول منهم يدل على إمكان رؤية ذلك الشيء عادة ، بل على وقوعها أيضاً . بخلاف الأصوات والروائح ونحوها ، فإنها ليست مما تدركه الأبصار عادة ، فلا يحسن مدحها بعدم إدراك الأبصار ، أو بعدم رؤيتها . نعم ! إذا أرادوا مدح الأصوات يقولون : لم تسمعها أذن ، وإذا أرادوا مدح الروائح ، يقولون : لم يشمها أنف .

الثالث – إنا قلنا : إن نفي الرؤية في مقام المدح يدل على إمكان الرؤية ، ولم نقل إن نفي كل شيء في مقام المدح يدل على إمكان ذلك الشيء ، حتى يرد علينا النقض بنفي الشريك ، أو بنفي اتخاذ الولد في مقام المدح ، مع أن إمكان المنفي في صورة النقض نقص ينافي الألوهية ، وإمكان المنفي فيما نحن بصدده ليس نقصاً ، بل هو كمال . انتهى .

قال حسن حلبي : إن قيل : يلزم على ثبوت التمدح بنفي الرؤية ، تعززاً وتمنعاً ، أن لا يزول ، لأن زوال ما به التمدح نقص ، فيلزم أن لا يرى في الآخرة . والجواب : أن ذلك فيما يرجع إلى الصفات . والتمدحُ بنفي الرؤية يرجع إلى التمدح بخلق ضدها ، وهو من قبيل الأفعال ، كما أنخلق الرؤية أيضاً منها . انتهى .

*(176/244)*

---

وقد بيناه أولاً ، وسيأتي لذلك تتمة شافية إن شاء الله تعالى عند قوله سبحانه : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ، مما هو أعظم حجة ، وأوضح برهاناً ، والله الموفق . وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ أي : يرى جميع المرئيات ، ويبصر جميع المبصرات ، لا يخفى عليه شيء منها ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ ﴾ أي : الذي يعامل عباده باللطف والرأفة ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ أي : العليم بدقائق الأمور وجلياتها . وجوز أن تكون الجملة وتعليلاً لما قبلها ، على طريقة اللف ، أي : لا تدركه الأبصار لأنه اللطيف ، وهو يدرك الأبصار لأنه الخبير . قيل : فيكون : ﴿ اللَّطِيفُ ﴾ مستعاراً من مقابل الكثيف ، فشبه به الخفيّ عن الإدراك . وهذا بناء على أنه في ظاهر الاستعمال من أوصاف الجسم والتحقيق أن اللطافة المطلقة لا توجد في الجسم ، لأن الجسمية يلزمها الكثافة ، وإنما لطافتها بالإضافة ،

فاللطافة المطلقة لا يبعد أن يوصف بها النور المطلق ، الذي يجلّ عن إدراك البصائر ، فضلاً عن الإبصار ، ويعز عن شعور الأسرار ، فضلاً عن الأفكار ، ويتعالى عن مشابهة الصور والأمثال ، وينزه عن حلول الألوان والأشكال . فإن كمال اللطافة إنما يكون لمن هذا شأنه ، ووصف الغير بها لا يكون على الإطلاق ، بل بالقياس إلى ما هو دونه في اللطافة ، ويوصف بالنسبة إليه بالكثافة – كذا حققه البهائي قي " شرح الأسماء الحسنى " . وقول الخفاجي : ( اللطيف المشتق من اللطف بمعنى الرأفة ) ، لا يظهر له مناسبة هنا – مدفوعٌ بملاحظة أن قوله تعالى : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ﴾ ذكر للتخويف ، كما أسلفنا ، وحينئذ يناسب أن يشفع ببيان رأفته ورحمته ، جرياً على سنن الترغيب والترهيب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 461. 467 ﴾

*(177/244)*

---

ومن فوائد ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾

جملة ابتدائيّة لإفادة عظمته تعالى وسعة علمه ، فلعظمته جلّ عن أن يحيط به شيء من

أبصار المخلوقين ، وذلك تعريض بانتفاء الإلهيّة عن الأصنام الّتي هي أجسام محدودة محصورة متحيّزة ، فكونُها مدركة بالأبصار من سمات المحدثات لا يليق بالإلهيّة ولو كانت آلهة لكانت محتجبة عن الأبصار ، وكذلك الكواكب الّتي عبدها بعض العرب ، وأمّا الجنّ والملائكة وقد عبدوهما فإنّهما وإن كانا غير مدركين بالأبصار في المتعارف لكلّ النّاس ولا في كلّ الأوقات إلاّ أنّ المشركين يزعمون أنّ الجنّ تَبدو لهم تارات في الفيافي وغيرها .

قال شَمِر بن الحارث الضبي :

أَتَوْا ناري فقلتُ مَنُونَ أنتُم

فقالوا الجنّ قلتُ عِمُوا ظَلامَا . . .

ويتوهّمون أنّ الملائكة يظهرون لبعض النّاس ، يتلقّون ذلك عن اليهود .

والإدراك حقيقته الوصول إلى المطلوب .

*(178/244)*

---

ويطلق مجازاً على شعور الحاسّة بالمحسوس أو العقلِ بالمعقول يقال : أدركَ بصري وأدرك عقْلي تشبيهاً لآلة العلم بشخص أو فرس وصل إلى مطلوبه تشبيهَ المعقول بالمحسوس ، ويقال : أدرك فلان ببصره وأدرك بعقله ، ولا يقال : أدرك فلان بدون تقييد ، واصطلح

المتأخّرون من المتكلّمين والحكماء على تسمية الشعور العقلي إدراكاً ، وجعلوا الإدراك جنساً في تعريف التصوّر والتّصديق ، ووصفوا صاحب الفهم المستقيم بالدّراكَة .

وأمّا قوله تعالى : ﴿ وهو يدرك الأبصار ﴾ فيجوز أن يكون إسنادُ الإدراك إلى اسم الله مشاكلة لما قبله من قوله : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ .

ويجوز أن يكون الإدراك فيه مستعاراً للتصرّف لأنّ الإدراك معناه النوال .

والأبصار جمع بصر ، وهو اسم للقوّة الّتي بها النّظر المنتشرة في إنسان العين الّذي في وسط الحَدقة وبه إدراك المبصرات .

والمعنى : لا تحيط به أبصار المبصرين لأنّ المدرِك في الحقيقة هو المبصِر لا الجارحة ، وإنّما الجارحة وسيلة للإدراك لأنّها توصّل الصّورة إلى الحسّ المشترك في الدّماغ .

والمقصود من هذا بيان مخالفة خصوصيّة الإلهِ الحقّ عن خصوصيات آلهتهم في هذا العالم ، فإنّ الله لا يُرى وأصنامهم تُرى ، وتلك الخصوصيّة مناسبة لعظمته تعالى ، فإنّ عدم إحاطة الأبصار بالشّيء يكون من عظمته فلا تطيقه الأبصار ، فعموم النّكرة في سياق النّفي يدلّ على انتفاء أن يُدركه شيء من أبصار المبصِرين في الدّنيا كما هو السّياق .

ولا دلالة في هذه الآية على انتفاء أن يكون الله يُرى في الآخرة ، كما تمسّك به نفاة الرّؤية ، وهم المعتزلة لأنّ للأمور الآخرة أحوالاً لا تجري على متعارفنا ، وأحرى أن لا دلالة فيها

على جواز رؤيته تعالى في الآخرة .

ومن حاول ذلك فقد تكلّف ما لا يتمّ كما صنع الفخر في "تفسيره" .

*(179/244)*

---

والخلاف في رؤية الله في الآخرة شائع بين طوائف المتكلّمين ؛ فأثبته جمهور أهل السنّة لكثرة ظواهر الأدلّة من الكتاب والسنّة مع اتّفاقهم على أنّها رؤية تخالف الرّؤية المتعارفة .

وعن مالك رحمه الله "لو لم يَرَ المؤمنون ربّهم يوم القيامة لم يُعَيَّر الكفّار بالحجاب في قوله تعالى : ﴿ كلاّ إنّهم عن ربّهم يومئذٍ لمحجوبون ﴾ [ المطففين : 15 ] .

وعنه أيضاً "لم يُر الله في الدّنيا لأنّه باق ولا يرى الباقي بالفاني ، فإذا كان في الآخرة ورزقوا أبصاراً باقية رأوا الباقيَ بالباقي" .

وأمّا المعتزلة فقد أحالوا رؤية الله في الآخرة لاستلزامها الانحياز في الجهة .

وقد اتّفقنا جميعاً على التّنزيه عن المقابلة والجهة ، كما اتّفقنا على جواز الانكشاف العلمي التّامّ للمؤمنين في الآخرة لحقيقة الحقّ تعالى ، وعلى امتناع ارتسام صورة المرْئي في العين أو اتّصال الشّعاع الخارج من العين بالمرئي تعالى لأنّ أحوال الأبصار في الآخرة غير الأحوال المتعارفة في الدّنيا .

وقد تكلّم أصحابنا بأدلّة الجواز وبأدلّة الوقوع ، وهذا ممّا يجب الإيمان به مجملاً على التّحقيق .

وأدلّة المعتزلة وأجوبتنا عليها مذكورة في كتب الكلام وليست من غرض التّفسير ومرجعها جميعاً إلى إعمال الظاهر أو تأويله .

ثمّ اختلف أيمّتنا هل حصلت رؤية الله تعالى للنّبيء صلى الله عليه وسلم فنفى ذلك جمع من الصّحابة منهم عائشة وابن مسعود وأبو هريرة رضي الله عنهم وتمسّكوا بعموم هذه الآية كما ورد في حديث البخاري عن عكرمة عن عائشة .

وأثبتها الجمهور ، ونقل عن أُبَيّ بن كعب وابن عبّاس رضي الله عنهما ، وعليه يكون العموم مخصوصاً .

وقد تعرّض لها عياض في "الشّفاء" .

وقد سئل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجاب بجواب اختلف الرّواةُ في لفظه ، فحجب الله بذلك الاختلاف حقيقةَ الأمر إتماماً لمراده ولطفاً بعباده .

*(180/244)*

وقوله : ﴿ وهو يدرك الأبصار ﴾ معطوف على جملة : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ فإسناد الإدراك إلى ضمير اسمه تعالى إمّا لأنّ فعل ﴿ يُدرك ﴾ استعير لمعنى يَنال ، أي لا تخرج عن تصرّفه كما يقال : لَحِقَه فأدركه ، فالمعنى يَقدر على الأبصار ، أي على المبصِرين ، وإمّا لاستعارة فعل ﴿ يدرك ﴾ لمعنى يعلم لمشاكلة قوله : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ أي لا تعلمه الأبصار .

وذلك كناية عن العلم بالخفيّات لأنّ الأبصار هي العَدَسات الدّقيقة الّتي هي واسطة إحساس الرّؤية أو هي نفس الإحساس وهو أخفى .

وجَمعهُ باعتبار المدرِكين .

وفي قوله : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ محسّن الطِّباق .

وجملة : ﴿ وهو اللّطيف الخبير ﴾ معطوفة على جملة : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ فهي صفة أخرى .

أو هي تذييل للاحتراس دفعا لتوهّم أنّ من لا تدْركه الأبصار لا يعلم أحوال من لا يدركونه .

واللّطيف : وصف مشتقّ من اللّطف أو من اللّطافة .

يقال : لطف بفتح الطّاء بمعنى رَفق ، وأكرَم ، واحتفَى .

ويتعدّى بالباء وباللاّم باعتبار ملاحظة معنى رَفق أو معنى أحْسن .

ولذلك سمّيت الطُّرفة والتُّحفَة الّتي يكرَم بها المرء لَطفَا ( بِالتّحريكِ ) ، وجمعها ألطاف .

فالوصف من هذا لاَطِف ولَطِيف ؛ فيكون اللّطيف اسمَ فاعل بمعنى المبالغة يدلّ على حذف فعل من فاعله ، ومنه قوله تعالى عن يوسف

﴿ إنّ ربّي لطيف لما يشاء ﴾ [ يوسف : 100 ] .

ويقال لَطُفَ بضمّ الطّاء أي دَقّ وخَفّ ضدّ ثَقُل وكَثُف .

واللّطيف : صفة مشبّهة أو اسم فاعل .

*(181/244)*

---

فإن اعتبرت وصفاً جارياً على لطُف بضمّ الطّاء فهي صفة مشبّهة تدلّ على صفة من صفات ذات الله تعالى ، وهي صفة تنزيهه تعالى عن إحاطة العقول بماهيته أو إحاطة الحواس بذاته وصفاته ، فيكون اختيارها للتّعبير عن هذا الوصف في جانب الله تعالى هو منتهى الصّراحة والرّشاقة في الكلمة لأنّها أقرب مادّة في اللّغة العربيّة تقرّب معنى وصفه تعالى بحسب ما وُضعت له اللّغة من متعارف النّاس ، فيَقْرب أن تكون من المتشابه ، وعليه فتكون أعمّ من مدلول جملة ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ ، فتتنزّل من الجملة الّتي قبلها منزلة التّذييل أو منزلة الاستدلال على الجزئيّة بالكلّية فيزيد الوصفَ قبله تمكّناً .

وعلى هذا المعنى حملها الزمخشري في "الكشاف" لأنّه أنسب بهذا المقام وهو من معاني

الكلمة المشهورة في كلام العرب ، واستحسنه الفخر وجوّزه الرّاغب والبيضاوي ، وهو الّذي ينبغي التّفسير به في كلّ موضع اقترن فيه وصف اللّطيف بوصف الخبير كالّذي هنا والّذي في سورة المُلك .

وإن اعتبر اللّطيف اسم فاعل من لطَف بفتح الطّاء فهو من أمثلة المبالغة يدلّ على وصفه تعالى بالرّفق والإحسان إلى مخلوقاته وإتقان صنعه في ذلك وكثرة فعله ذلك ، فيدلّ على صفة من صفات الأفعال .

وعلى هذا المعنى حمله سائر المفسّرين والمبيّنين لمعنى اسمه اللّطيف في عداد الأسماء الحسنى .

وهذا المعنى هو المناسب في كلّ موضع جاء فيه وصفه تعالى به مفرداً معدّى باللاّم أو بالباء نحو ﴿ إنّ ربّي لطيف لما يشاء ﴾ [ يوسف : 100 ] ، وقوله : ﴿ الله لطيف بعباده ﴾ [ الشورى : 19 ] .

وبه فسّر الزمخشري قوله تعالى : ﴿ الله لطيف بعباده ﴾ فللّه درّه ، فإذا حمل على هذا المحمل هنا كان وصفاً مستقلاً عمّا قبله لزيادة تقرير استحقاقه تعالى للإفراد بالعبادة دون غيره .

و"خَبير" صفة مشبّهة من خبُر بضمّ الباء في الماضي ، خُبراً بضمّ الخاء وسكون الباء بمعنى عَلِم وعرَف ، فالخبير الموصوف بالعلم بالأمور الّتي شأنها أن يُخبر عنها عِلماً موافقاً

للواقع .

ووقوع الخبير بعد اللّطيف على المحمل الأوّل وقوعُ صفة أخرى هي أعمّ من مضمونِ ﴿ وهو يدرك الأبصار ﴾ ، فيكمل التّذييل بذلك ويكون التّذييل مشتملاً على محسّنِ النشر بعد اللّف ؛ وعلى المحمل الثّاني موقعه موقع الاحتراس لمعنى اللّطيف ، أي هو الرّفيق المحسن الخبير بمواقع الرّفق والإحسان وبمستحقّيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(182/244)

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾

ولماذا لا تدركه الأبصار ؟ لأن البصر آلة إدراك لها قانونها بأن ينعكس الشعاع من المرئي إلى الرائي ويحدده ، فلو أن الأبصار تدركه لحددته ، وأصبح من يراه قادراً عليه ، ولصار مقدوراً لكم ؛ لأنه دخل في إدارككم . فلو أنك أدركت الله لكان الله مقدوراً لبصرك ، والقادر لا ينقلب مقدوراً ابداً ، إذن فمن عظمته انه لا يُدْرَك : أنت قد ترى الشمس ،

ولكن أتدعي أنك أدركتها ؟ ! لا ، لأن الإدراك معناه الإحاطة ، وحين يقال " أدركه " أي لم يفلت منه ، ولذلك عندما سار قوم فرعون وراء موسى وقومه قال أصحاب موسى : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ .

أي لا فائدة ؛ لأن البحر أمامنا ، إن تقدمنا نغرق ، وإن تأخرنا أهلكونا وقتلونا . إذن " مُدرك " يعني محاطا به . فإذا أحاطت الأبصار بالله انقلب البصر قادرا ، وصار الله مقدورا عليه . والقادر بذاته – كما قلنا – لا ينقلب مقدورا لخلقه أبدا .

﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبصار وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبصار وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ [ الأنعام : 103 ] .

وكل ما عدا الله محتاج إلى الله لبقاء كينونته ، وكينونته سبحانه ليست عند أحد ؛ لذلك ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبصار وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبصار ﴾ لأنه إن قدر على الأبصار كلها فهو قادر بذاته ، والباقي مقدور له ؛ لأنه مخلوق له ، ومادام مخلوقا له يكون مقدورا عليه ولم يطرأ على المخلوقين شيء جديد يجعلهم قادرين بذواتهم ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبصار وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبصار ﴾ .

*(183/244)*

وقد وقف العلماء وقفة كبيرة واختلفوا : هل الإنسان يرى ربه أو لا يراه سواء في الدنيا أم في الآخرة ؟ بعضهم قال : لا أحد يرى الله بنص الآية : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ ونقول : لكن هناك آيات في القرآن تقول : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [ القيامة : 22-23 ] .

و" ناظرة " تضمن الرؤية وتفيدها ، وأيضاً فالله يعاقب من كفر به بأن يحتجب عنه ؛ لأنه القائل : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [ المطففين : 15 ] .

فالكافرون محجوبون عن رؤية الله عقاباً لهم . ولو اشتركنا معهم وحجبنا كما حجبوا فما ميزتنا كمؤمنين ؟ ، إذن فالعلماء لم ينتبهوا إلى أن هناك فرقا بين الأداء القرآني وما يقولون ؟ وحين يحتج عالم منهم بأن رؤية الله غير ممكنة لأن ربنا سبحانه قال لموسى : ﴿ لَن تَرَانِي ولكن انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ [ الأعراف : 143 ] .

فلماذا لم يلتفت هذا العالم إلى قول الحق : ﴿ فَلَمَّا تجلى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسى صَعِقاً ﴾ [ الأعراف : 143 ] .

إذن فالله تجلى لبعض خلقه ، أما أن يراه الخلق في الدنيا فلا ؛ لأن تكويننا غير مؤهل لأن يرى الحق ، بدليل أن الأصلب والأقوى منا وهو الجبل حينما تجلى ربه عليه اندك . فلما اندك الجبل خر موسى صعقا ، فإذا كان موسى قد خر صعقا لرؤية المتَجلَّى عليه وهو الجبل فكيف لو رآه ؟ ! إن فهو غير معد له .

لقد اختلف العلماء عند هذه الآية ، وتجلَّى خلافهم إلى أبعد حد ؛ فمنهم مجيز للرؤية ، ومنهم منكر لها ، وأرى أن خلافهم في غير محل نزاع ؛ لأنهم تكلموا عن الرؤية ، والكلام هنا عن نفي الإدراك ، والإدراك إحاطة ؛ والرؤية تكون إجمالاً ، إنما الإحاطة ليست ممكنة ، وعلى تقدير أن الرؤية والإدراك متحدان في المفهوم نقول : لماذا يكون الخلاف في أمر الآخرة ؟ لو أن الخلاف في أمر الرؤية في الدنيا لكان هذا كلاماً جميلاً ، ولكن الخلاف جعلتموه في الآخرة .

إن آيات القرآن صريحة في أن رؤية الحق سبحانه وتعالى من نعم الله على المؤمنين ، وهي زيادة في الحسنى عليهم ، وحجبه سبحانه عن الكفار لون من العقوبة لهم ونقول – أيضاً – : لماذا لا تقولون إن الإدراك سيوجد في الآخرة بكيفية ليست موجودة في دنيانا ؟ لأننا في هذه الدنيا معدُّون إعداد أسباب – وفي الآخرة سنكون معدين إعداداً لغير أسباب .

أنت هنا إذا أحببت أن تشرب تطلب الماء أو تذهب للماء وتشرب ، وحين تريد أن تأكل الشيء الفلاني ، تقول لأهل البيت : اصنعوا لي كذا أو تشتري ما تريده ، إنما هناك في الآخرة بمجرد أن يخطر ببالك ما تشتهيه تجده أمامك ، وهذا قانون جديد لا ارتباط له

بقانون الدنيا ، فلماذا لا يكون في تكويننا في الآخرة أيضاً قانون يمكن به أن نرى الله وفي إطار ليس كمثله شيء ؟

إن في الآخرة قضايا يتفق الجميع على انها تخالف قوانين الدنيا ونواميس العالم المعاصر لنا الآن في الأكل والشرب ، والتخلص من الفضلات ، لكن في الآخرة سنأكل ونشرب ولكن لن توجد فضلات ؛ لأنك أنت الان تطهى وتهضم ، وفي الهضم أنت تأخذ بعض الطعام ويبقى منه فضلات لابد أن تخرج ، لكن الطهي والهضم في الآخرة ب "كن " وليس له فضلات ، إنه طعام بقدرة القادر ، في الجنة كل ما تريده ستناله دون أن ينفد ، وفي الدنيا أي شيء يؤخذ منه ينقص ، أما في الآخرة فلا شيء ينقص لأن له مدداً من القيومية .

*(185/244)*

---

ويعقب الحق سبحانه وتعالى بعد القضيتين : ﴿ وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ ولطيف تناسب ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ و﴿ الخبير ﴾ يناسب ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار ﴾ ولطيف لها معنى خاص ، فالشيء اللطيف يستعمل في دقيق التكوين – ولله المثل الأعلى – إن الميكروب لم نعرفه إلا مؤخراً لأنه بلغ من اللطف والدقة بحيث لا تدركه العين ، لكن عندما اخترعنا الميكروسكوب رأيناه ، وإن دق الميكروب عن ذلك فلن نراه ، وقد اكتشفنا "

الفيروس " ونحاول معرفة المزيد عن خصائصه ، إذن كلما دق الشيء يلطف ولا يمكن أن نراه ، فالشيء إذا لطف شرف وعلا ونقول – ولله المثل الأعلى – : فلان لطيف المعشر ، والحق سبحانه لطيف في ذاته ويلطف بعباده .

إنك ساعة ما تسمع " لاطف " فهذا اسم فاعل ، مثلها مثل " آكل " ، وحين نقول : " لطيف فهي مبالغة في اللطف ؛ لأنه لاطف بكل إنسان وكل كائن وهذا يحتاج إلى مبالغة ، ولذلك نقول : رحيم ، وهي صيغة مبالغة ؛ لأنه يسبغ رحمته على عباده ، وأول مظهر من مظاهر اللطف ، هو تدبير أمورهم الدقيقة تدبيراً يحقق مصالحهم في وجودهم . إننا حين ندير كوب ماء لكل إنسان ندبر الكثير فما بالنا بتدبير اللطيف بعباده ؟

لقد خلق لنا الأرض ثلاثة أرباعها ماء ، والربع يابس ، لأنه جل وعلا يريد أن يوسع رقعة الماء لأن المياه كلما اتسعت رقعتها ، كان البخر فيها أسهل وأكثر ، لكن لو كانت المياه عميقة ومساحتها قليلة فالبخر يكون على مستوى السطح فقط ، وهنا لا يأتي السحاب بما يكفي الخلق من الماء . لقد سمع الله سبحانه رقعة الماء كي يتبخر الماء ثم ينعقد كسحب في السماء ، ويصادف منطقة باردة لينزل لنا المياه العذبة لنشرب منها ، وتشرب أنعامنا ، ونسقي الزرع ، وكل ذلك من لطف التدبير .

ومن مظاهر اللطف في الحق نجد أموراً لا توصف ، ولذلك كل واحد من العلماء انفعل لزاوية من زوايا لطف الله على خلقه . . فواحد قال : هو " سبوغ النعم " وقال الثاني : " دقة التدبير " وقال الثالث : إن من مظاهر لطف الحق أنه يستقل كثير من النعم على خلقه ، فالنعم التي منحها خلقه قليلة لأن خزائنه – سبحانه – ملأى وعطاياه لا تنفد ولا يعتريها نقص ، ولذلك قال سبحانه : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [ إبراهيم : 7 ] .

أي أن نعمه الكثيرة على عباده قليلة ، وفي المقابل : يستكثر قليل الطاعة من خلقه أي يعتبرها – تفضلاً منه – كثيرة ؛ لأنه هو الذي يجزي الحسنة بعشر أمثالها .

إذن فمظاهر اللطف لا حصر لها ، وعلى قدر دقة اللطف تكون دقة مأتاه وإحصائه ، فهو اللطيف الذي إذا ناديته لبّاك ، وإذا قصدته آواك ، وإذا أحببته أدناك ، وإذا أطعته كافاك وإذا أعطيته وأقرضته من فضله وماله الذي منحك عافاك ، وإذا أعرضت عنه دعاك فهو القائل : " يا بن آدم إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي ، وإن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ خير منهم ، وإن دنوت منّي شبراً دنوت منك ذراعاً ، وإن دنوت منّي ذراعاً دنوت منك باعاً ، وإن أتيتني تمشي أتيتك أهرول " وكلها مظاهر لطف . وهو المنادى : " توبوا إلى الله " والرسول صلى الله عليه وسلم هو القائل : " لله أشد فرحا بتوبة عبده من أحدكم إذا سقط على بعيره قد أضله بأرض فلاة " وإذا قربت من الله هداك .

ويأتي عالم آخر ممن انفعلوا بصفات اللطف ، فيقول : الذي يجازيك إن وفيت ، ويعفو عنك إن قصرت ، وعالم آخر يضيف إلى معاني اللطف فيقول : من افتخر به وأعزه ، ومن افتقر إليه أغناه ، وعالم ينفعل انفعالاً آخر بمظاهر اللطف فيقول : من عطاؤه خير ، ومنعه ذخيرة .

(187/244)

---

. أي أنه لو منع عبده شيئاً فإنه يدخره له في الآخرة ، كل هذه مظاهر للطف ، وهذا مناسب لقوله الحق : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ إن لطفه سبحانه يتغلغل فيما لا نستطيع أن ندركه ، وحين تحلل أنت أي أمر قد لا تصل إلى فهم النعمة ، وإن وصلت فأنت لا تقدر أن تؤدي الحمد على تلك النعمة .

وقوله الحق : ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار ﴾ مناسب لكلمة " خبير " ، ونحن في حياتنا نسمع كلمة " خبير " فعندما نقابل أي مشكلة من المشكلات نجد من يقول : نريد أن نسمع رأي الخبير فيها ، وفي القضاء نجد القاضي يستدعي خبيراً ليكتب تقريراً في أمر يحتاج إلى من هو متخصص فيه وعليم به ، إذن فالخبير في مجال ما هو الذي يعرف تفاصيل الأمر ، فما بالنا بالخبير الأعلى الذي لا يستعصي عليه شيء في ملكه ، وهو الذي يدرك الأبصار ،

فقوله : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ يناسبها " خبير " ، وهذا ما يسمونه في اللغة " لف ونشر " وهو ان يأتي بأمرين أو ثلاثة ثم يأتي بما يقابلها ، مثال ذلك قوله الحق : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الليل والنهار ﴾ [ القصص : 73 ] .

فمن مظاهر رحمته لنا سبحانه أن جعل لنا الليل والنهار ، ثم قال : ﴿ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ﴾ [ القصص : 73 ] .

لنسكن في الليل ، ونبتغي فضله في النهار ، وهذا اسمه – كما قلنا – " لف ونشر " . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(188/244)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (103) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم والعقيلي وابن عدي وأبو الشيخ وابن مردويه بسند ضعيف عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ قال " لو أن الإِنس والجن والشياطين والملائكة منذ خُلِقُوا إلى أن فَنُوا صُفُّوا صفاً واحداً ما

أحاطوا بالله أبداً . قال الذهبي : هذا حديث منكر " .

وأخرج الترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه واللالكائي في السنة عن ابن عباس قال : رأى محمد ربه . قال عكرمة : فقلت له : أليس الله يقول ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ قال : لا أم لك . ! ذلك نوره وإذا تجلى بنوره لا يدركه شيء . وفي لفظ : إنما ذلك إذا تجلى بكيفيته لم يقم له بصر .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ قال : لا يحيط بصر أحد بالله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عكرمة عن ابن عباس قال " إن النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه . فقال له رجل عند ذلك : أليس قال الله ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ فقال له عكرمة : ألست ترى السماء ؟ قال : بلى قال : فكلها تُرَى " .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ قال : هو أجلُّ من ذلك وأعظم أن تدركه الأبصار .

وأخرج أبو الشيخ والبيهقي في كتاب الرؤية عن الحسن في قوله ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ قال : في الدنيا . وقال الحسن : يراه أهل الجنة في الجنة ، يقول الله ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ [ القيامة : 22 ] قال : ينظرون إلى وجه الله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ يقول : لا يراه شيء وهو يرى الخلائق .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن إسمعيل بن علية في قوله ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ قال : هذا في الدنيا .

(189/244)

---

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ واللالكائي من طريق عبد الرحمن بن مهدي قال : سمعت أبا الحصين يحيى بن الحصين قارىء أهل مكة يقول ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ قال : أبصار العقول .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ قال : " قالت امرأة : استشفع لي يا رسول الله على ربك قال " هل تدرين على من تستشفعين ؟ إنه ملأ كرسيه السموات والأرض ثم جلس عليه ، فما يفضل منه من كل أربع أصابع ، ثم قال : إن له أطيطا كأطيط الرحل الجديد ، فذلك قوله ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ ينقطع به بصره قبل أن تبلغ أرجاء السماء زعموا أن أول من يعلم بقيام الساعة الجن ، تذهب فإذا ارجاؤها قد سقطت لا تجد منفذاً تذهب في المشرق والمغرب واليمن والشام " " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(190/244)

ومن فوائد السمرقندى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاء الجن ﴾ يعني : وضعوا لله شركاء .

وقال مقاتل : وذلك أن بني جهينة قالوا : إن صنفاً من الملائكة يقال لهم الجن بنات الرحمن وذلك قوله : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاء الجن ﴾ .

وقال الكلبي : وجعلوا الجن شركاء لله نزلت هذه الآية في الزنادقة ، قالوا : إن الله تعالى وإبليس لعنه الله ولعنهم أخوان .

قالوا : إن الله تعالى خالق الناس والدواب ، وإبليس خالق السباع والحيات والعقارب كقوله : ﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجنة نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجنة إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ [ الصافات : 158 ] قال الزجاج : معناه أطاعوا الجن فيما سوّلت لهم من شركهم ، فجعلوهم شركاء الله وهذا قريب مما قاله الكلبي .

ثم قال : ﴿ وَخَلَقَهُمْ ﴾ يعني : جعلوا لله الذي خلقهم شركاء ، ويقال : وخلقهم يعني خلق الجن ، ويقال : وخلقهم يعني : الذين تكلموا به ﴿ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ ﴾ يعني : وصفوا له بنين وبنات .

﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ يعني : بلا علم يعلمونه ، ويقال بلا حجة وبيان .

وروى عبد الله بن موسى عن جويرية قال : سمعت رجلاً سأل الحسن عن قوله : ﴿ وَخَرَقُواْ لَهُ ﴾ قال : كلمة عربية كانت العرب تقولها ، كان الرجل إذا كذب كذبة في نادي القوم يقول بعض القوم : خرقها .

ثم نزّه نفسه فقال : ﴿ سبحانه ﴾ يعني : تنزيهاً له .

﴿ وتعالى عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ يعني : هو أعلى وأجل مما يصف الكفار بأن له ولداً .

قرأ نافع ﴿ وَخَرَقُواْ ﴾ بالتشديد على معنى المبالغة .

قوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السموات والأرض ﴾ يعني : خالق السموات والأرض يعني مبدعهما ، وهو أن يبتدىء شيئاً لم يكن يعني ابتدعهما ولم يكونا شيئاً .

*(191/244)*

---

﴿ أنى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ﴾ قال القتبي : ﴿ إنّى ﴾ على وجهين يكون بمعنى كيف كقوله ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أنى شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لاَنفُسِكُمْ واتقوا الله واعلموا أَنَّكُم ملاقوه وَبَشّرِ المؤمنين ﴾ [ البقرة : 223 ] وكقوله : ﴿ أَوْ كالذى مَرَّ على قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ على عُرُوشِهَا قَالَ أنى يُحْىِ هذه الله بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ الله مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فانظر إلى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ

وانظر إلى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ وانظر إِلَى العظام كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ الله على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [ البقرة : 259 ] ، ويكون بمعنى من أين كقوله : ﴿ يا أيها الذين ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفروا فِى سَبِيلِ الله اثاقلتم إِلَى الأرض أَرَضِيتُم بالحياة الدنيا مِنَ الآخرة فَمَا مَتَاعُ الحياة الدنيا فِى الآخرة إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ [ التوبة : 38 ] وكقوله : ﴿ أنى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ﴾ ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صاحبة ﴾ يعني : زوجة .

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ يعني : الملائكة وعيسى وغيرهم وهم خلقه وعبيده .

﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ مما خلق .

ثم قال : ﴿ ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ ﴾ يعني : الذي فعل هذا فهو ربكم ﴿ لاَ إِلَه إِلاَّ هُوَ ﴾ يعني : لا خالق غيره .

﴿ خالق كُلِّ شَىْءٍ فاعبدوه ﴾ يعني : وحّدوه وأطيعوه .

﴿ وَهُوَ على كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ يعني : كفيل بأرزاقهم ، ويقال وكيل يعني : حفيظ .

ثم عظّم نفسه فقال : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الابصار ﴾ قال مقاتل : يعني لا يراه الخلق في الدنيا .

وروى الشعبي عن مسروق قال قلت لعائشة هل رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه ؟ فقالت : لقد اقْشَعَرَّ قلبي مما قلت أين أنت من ثلاثة من حدثك بهن فقد كذّب : من حدثك أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه فقد كذب ثم قرأت ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار ﴾ ومن حدثك أنه قد علم ما في غد فقد كذب ، ثم قرأت : ﴿ إِنَّ الله عِندَهُ عِلْمُ الساعة وَيُنَزِّلُ الغيث وَيَعْلَمُ مَا فِى الأرحام وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ الله عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [ لقمان : 34 ] ومن حدثك أنه كتم شيئاً من الوحي فقد كذب .

ثم قرأت ﴿ يَا أَيُّهَا الرسول بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ والله يَعْصِمُكَ مِنَ الناس إِنَّ الله لاَ يَهْدِى القوم الكافرين ﴾ [ المائدة : 67 ] .

ثم قال : ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار ﴾ يعني : لا يخفى عليه شيء ولا يفوته .

قال الزجاج : في هذه الآية دليل أن الخلق لا يدركون الأبصار أي لا يعرفون كيف حقيقة البصر ، وما الشيء الذي صار به الإنسان يبصر من عينيه دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه فاعلم أنهم لا يحيطون بعلمه فكيف به .

ثم قال : ﴿ وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ بخلقه وبأعمالهم وقال أبو العالية لا تدركه الأبصار في الدنيا وتدركه أبصار المؤمنين في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

ومن فوائد الشوكانى فى الآيات

قال رحمه الله :

*(193/244)*

---

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (100) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (101) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (102) لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (103) ﴾

هذا الكلام يتضمن ذكر نوع آخر من جهالاتهم وضلالاتهم .

قال النحاس : ﴿ الجنّ ﴾ المفعول الأوّل ، و ﴿ شركاء ﴾ المفعول الثاني كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَكُمْ مُّلُوكاً ﴾ [ المائدة : 20 ] ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً ﴾ [ المدثر : 12 ]

وأجاز الفراء : أن يكون الجنّ بدلاً من شركاء ومفسراً له .

وأجاز الكسائي رفع الجنّ بمعنى هم الجنّ ، كأنه قيل : من هم ؟ فقيل الجنّ ، وبالرفع قرأ يزيد بن أبي قطيب ، وأبو حيان ، وقرىء بالجر على إضافة شركاء إلى الجنّ للبيان .

والمعنى : أنهم جعلوا شركاء لله فعبدوهم كما عبدوه ، وعظموهم كما عظموه .

وقيل المراد بالجنّ هاهنا الملائكة لاجتنانهم ، أي استتارهم ، وهم الذين قالوا : الملائكة بنات الله .

وقيل : نزلت في الزنادقة الذين قالوا : إن الله تعالى وإبليس أخوان ، فالله خالق الناس والدوابّ ، وإبليس خالق الحيات والسباع والعقارب .

وروي ذلك عن الكلبي ، ويقرب من هذا قول المجوس ، فإنهم قالوا : للعالم صانعان هما الربّ سبحانه والشيطان .

وهكذا القائلون : كل خير من النور ، وكل شرّ من الظلمة ، وهم المانوية .

قوله : ﴿ وَخَلَقَهُمْ ﴾ جملة حالية بتقدير قد ، أي وقد علموا أن الله خلقهم ، أو خلق ما جعلوه شريكاً لله .

*(194/244)*

---

قوله : ﴿ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ ﴾ قرأ نافع بالتشديد على التكثير ، لأن المشركين ادّعوا أن الملائكة بنات الله ، والنصارى ادّعوا أن المسيح ابن الله ، واليهود ادّعوا أن عزيراً ابن الله ، فكثر ذلك من كفرهم فشدّد الفعل لمطابقة المعنى .

وقرأ الباقون بالتخفيف .

وقرىء " حرفوا " من التحريف أي زوّروا .

قال أهل اللغة : معنى ﴿ خرقوا ﴾ اختلقوا وافتعلوا وكذبوا ، يقال اختلق الإفك ، واخترقه وخرقه ، أو أصله من خرق الثوب : إذا شقه ، أي اشتقوا له بنين وبنات .

قوله : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ متعلق بمحذوف هو حال ، أي كائنين بغير علم ، بل قالوا ذلك عن جهل خالص ، ثم بعد حكاية هذا الضلال البين ، والبهت الفظيع من جعل الجنّ شركاء لله ، وإثبات بنين وبنات له ، نزه الله نفسه ، فقال : ﴿ سبحانه وتعالى عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ وقد تقدّم الكلام في معنى ﴿ سبحانه ﴾ .

ومعنى ﴿ تعالى ﴾ تباعد وارتفع عن قولهم الباطل الذي وصفوه به .

قوله : ﴿ بَدِيعُ السموات والأرض ﴾ أي مبدعهما ، فكيف يجوز أن ﴿ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ وقد جاء البديع بمعنى المبدع ، كالسميع بمعنى المسمع كثيراً ، ومنه قول عمرو بن معدي كرب :

أمن ريحانة الدّاعي السَّميع . . . يؤرقني وأصحابي هجوع

أي المسمع .

وقيل : هو من إضافة الصفة المشبهة إلى الفاعل ، والأصل : بديع سمواته وأرضه .

وأجاز الكسائي خفضه على النعت لله .

والظاهر أن رفعه على تقدير مبتدأ محذوف ، أو على أنه مبتدأ وخبره ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ﴾ .

(195/244)

---

وقيل : هو مرفوع على أنه فاعل ﴿ تعالى ﴾ ، وقرىء بالنصب على المدح ، والاستفهام في ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ﴾ للإنكار والاستبعاد ، أي من كان هذا وصفه ، وهو أنه خالق السموات والأرض وما فيهما ، كيف يكون له ولد ؟ وهو من جملة مخلوقاته ، وكيف يتخذ ما يخلقه ولداً ، ثم بالغ في نفي الولد ، فقال : ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صاحبة ﴾ أي كيف يكون له ولد والحال أنه لم تكن له صاحبة ؟ والصاحبة إذا لم توجد استحال وجود الولد ، وجملة : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ لتقرير ما قبلها ، لأن من كان خالقاً لكل شيء استحال منه أن يتخذ بعض مخلوقاته ولداً ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لا تخفى عليه من مخلوقاته خافية ، والإشارة بقوله ﴿ ذلكم ﴾ إلى الأوصاف السابقة ، وهو في موضع رفع على الابتداء وما بعده خبره ، وهو الاسم الشريف ، و ﴿ رَّبُّكُمْ ﴾ خبر ثان ، و ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ خبر ثالث ، و ﴿ خالق كُلِّ شَىْءٍ ﴾ خبر رابع ، ويجوز أن يكون ﴿ الله رَّبُّكُمُ ﴾ بدلاً من اسم الإشارة ، وكذلك ﴿ لا إله إِلاَّ هُوَ خالق كُلِّ شَىْءٍ ﴾ خبر المبتدأ ، ويجوز ارتفاع خالق

على إضمار مبتدأ ، وأجاز الكسائي والفراء النصب فيه .

﴿ فاعبدوه ﴾ أي من كانت هذه صفاته ، فهو الحقيق بالعبادة فاعبدوه ولا تعبدوا غيره ممن ليس له من هذه الصفات العظيمة شيء .

قوله : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ الأبصار : جمع بصر ، وهو الحاسة ، وإدراك الشيء عبارة عن الإحاطة به .

قال الزجاج أي لا تبلغ كنه حقيقته ، فالمنفيّ هو هذا الإدراك لا مجرّد الرؤية .

*(196/244)*

---

فقد ثبتت بالأحاديث المتواترة تواتراً لا شك فيه ولا شبهة ، ولا يجهله إلا من يجهل السنة المطهرة جهلاً عظيماً ، وأيضاً قد تقرّر في علم البيان ، والميزان أن رفع الإيجاب الكلي سلب جزئي ، فالمعنى لا تدركه بعض الأبصار وهي أبصار الكفار ، هذا على تسليم أن نفي الإدراك يستلزم نفي الرؤية ، فالمراد به هذه الرؤية الخاصة ، والآية من سلب العموم لا من عموم السلب ، والأوّل تخلفه الجزئية ، والتقدير : لا تدركه كل الأبصار بل بعضها ، وهي أبصار المؤمنين .

والمصير إلى أحد الوجهين متعين لما عرّفناك من تواتر الرؤية في الآخرة ، واعتضادها بقوله

تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ الآية [ القيامة : 22 ] .

قوله : ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار ﴾ أي يحيط بها ويبلغ كنهها لا تخفى عليه منها خافية ، وخصّ الأبصار ليجانس ما قبله .

وقال الزجاج : في هذا دليل على أن الخلق لا يدركون الأبصار ، أي لا يعرفون كيفية حقيقة البصر ، وما الشيء الذي صار به الإنسان يبصر من عينيه دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه انتهى .

﴿ وَهُوَ اللطيف ﴾ أي الرفيق بعباده ، يقال لطف فلان بفلان : أي رفق به ، واللطف في العمل الرفق به .

واللطف من الله التوفيق والعصمة ، وألطفه بكذا : إذا أبرّه .

والملاطفة : المبارّة .

هكذا قال الجوهري وابن فارس ، و﴿ الخبير ﴾ المختبر بكل شيء بحيث لا يخفى عليه شيء .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاء الجن وَخَلَقَهُمْ ﴾ قال : والله خلقهم ﴿ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ قال : تخرّصوا .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عنه في قوله ﴿ وَخَرَقُواْ ﴾ قال : جعلوا : وأخرج عبد بن حميد ،

وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن مجاهد قال كذبوا .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة نحوه .

(197/244)

---

وأخرج ابن أبي حاتم ، والعقيلي ، وابن عدي وأبو الشيخ ، وابن مردويه بسند ضعيف ، عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ قال : " لو أن الإنس والجنّ والملائكة والشياطين منذ خلقوا إلى أن فنوا صفوا صفاً واحداً ما أحاطوا بالله أبداً " قال الذهبي : هذا حديث منكر انتهى .

وفي إسناده عطية العوفى وهو ضعيف .

وأخرج الترمذي وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن ابن عباس قال : رأى محمد ربه .

قال عكرمة : فقلت له أليس الله يقول : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار ﴾ قال : لا أمّ لك ، ذاك نوره ، إذا تجلى بنوره لا يدركه شيء .

وفي لفظ "إنما ذلك إذا تجلى بكيفيته لم يقم له بصر" .

وأخرج ابن جرير عنه قال : لا يحيط بصر أحد بالله .

وأخرج أبو الشيخ ، والبيهقي في كتاب الرؤية ، عن الحسن في قوله : ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ قال : في الدنيا .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن إسماعيل بن علية مثله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

*(198/244)*

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (103) ﴾

قدَّسَ الصمديةَ عن كل لحوقٍ ودَرَك ، فأنَّى بالإدراك ولا حدَّ له ولا طرف ؟ !

﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ ﴾ الذي لا يخفى عليه شيء ، ﴿ الخَبِيرُ ﴾ الذي أحاط علمُه بكل معلوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 493 ﴾

*(199/244)*

---

فصل نفيس للحافظ ابن حجر

قال عليه رحمة الله :

قال الشوكانى :

قَوْله ( بَاب قَوْل اللَّه تَعَالَى وُجُوه يَوْمَئِذٍ نَاضِرَة إِلَى رَبّهَا نَاظِرَة )

(200/244)

---

كَأَنَّهُ يُشِير إِلَى مَا أَخْرَجَهُ عَبْد بْن حُمَيْد وَالتِّرْمِذِيّ وَالطَّبَرِيّ وَغَيْرهمْ وَصَحَّحَهُ الْحَاكِم مِنْ طَرِيق ثُوَيْر بْن أَبِي فَاخِتَة " عَنْ اِبْن عُمَر عَنْ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ أَدْنَى أَهْل الْجَنَّة مَنْزِلَة لَمَنْ يَنْظُر فِي مُلْكه أَلْف سَنَة ، وَإِنَّ أَفْضَلهمْ مَنْزِلَة لَمَنْ يَنْظُر فِي وَجْه رَبّه عَزَّ وَجَلَّ فِي كُلّ يَوْم مَرَّتَيْنِ " قَالَ : ثُمَّ تَلَا ( وُجُوه يَوْمَئِذٍ نَاضِرَة ) قَالَ بِالْبَيَاضِ وَالصَّفَاء ( إِلَى رَبّهَا نَاظِرَة ) قَالَ تَنْظُر كُلّ يَوْم فِي وَجْه اللَّه ، لَفْظ الطَّبَرِيّ مِنْ طَرِيق مُصْعَب بْن الْمِقْدَام عَنْ إِسْرَائِيل عَنْ ثُوَيْر ، وَأَخْرَجَهُ عَبْد عَنْ شَبَابَة عَنْ إِسْرَائِيل وَلَفْظه : لَمَنْ يَنْظُر إِلَى جِنَانه وَأَزْوَاجه وَخَدَمه وَنَعِيمه وَسُرُره مَسِيرَة أَلْف سَنَة ، وَأَكْرَمهمْ عَلَى اللَّه تَعَالَى مَنْ يَنْظُر إِلَى وَجْهه غَدْوَة وَعَشِيَّة ، وَكَذَا أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيّ عَنْ عَبْد ، وَقَالَ غَرِيب ، رَوَاهُ غَيْر وَاحِد عَنْ إِسْرَائِيل مَرْفُوعًا ، وَرَوَاهُ عَبْد الْمَلِك بْن أَبْجَر عَنْ ثُوَيْر عَنْ اِبْن عُمَر مَوْقُوفًا ، وَرَوَاهُ

الثَّوْرِيّ عَنْ ثُوَيْر عَنْ مُجَاهِد عَنْ اِبْن عُمَر مَوْقُوفًا أَيْضًا ، قَالَ : وَلَا نَعْلَم أَحَدًا ذَكَرَ فِيهِ مُجَاهِدًا غَيْر الثَّوْرِيّ بِالْعَنْعَنَةِ . قُلْت : أَخْرَجَهُ اِبْن مَرْدَوَيْهِ مِنْ أَرْبَعَة طُرُق عَنْ إِسْرَائِيل عَنْ ثُوَيْر قَالَ " سَمِعْت اِبْن عُمَر " وَمِنْ طَرِيق عَبْد الْمَلِك بْن أَبْجَر عَنْ ثُوَيْر مَرْفُوعًا ، وَقَالَ الْحَاكِم بَعْد تَخْرِيجه : ثُوَيْر لَمْ يُنْقَم عَلَيْهِ إِلَّا التَّشَيُّع . قُلْت : لَا أَعْلَم أَحَدًا صَرَّحَ بِتَوْثِيقِهِ ، بَلْ أَطْبَقُوا

(201/244)

---

عَلَى تَضْعِيفه ، وَقَالَ اِبْن عَدِيٍّ : الضَّعْف عَلَى أَحَادِيثه بَيِّن وَأَقْوَى مَا رَأَيْت فِيهِ قَوْل أَحْمَد بْن حَنْبَل فِيهِ ، وَفِي لَيْث بْن أَبِي سُلَيْم وَيَزِيد بْن أَبِي زِيَاد : مَا أَقْرَب بَعْضهمْ مِنْ بَعْض ، وَأَخْرَجَ الطَّبَرِيّ مِنْ طَرِيق أَبِي الصَّهْبَاء مَوْقُوفًا نَحْو حَدِيث اِبْن عُمَر ، وَأَخْرَجَ بِسَنَدٍ صَحِيح إِلَى يَزِيد النَّحْوِيّ عَنْ عِكْرِمَة فِي هَذِهِ الْآيَة قَالَ " تَنْظُر إِلَى رَبّهَا نَظَرًا " وَأَخْرَجَ عَنْ الْبُخَارِيّ عَنْ آدَم عَنْ مُبَارَك عَنْ الْحَسَن قَالَ " تَنْظُر إِلَى الْخَالِق وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَنْظُر " وَأَخْرَجَ عَبْد بْن حُمَيْد عَنْ إِبْرَاهِيم بْن الْحَكَم بْن أَبَان عَنْ أَبِيهِ عَنْ عِكْرِمَة : اُنْظُرُوا مَاذَا أَعْطَى اللَّه عَبْده مِنْ النُّور فِي عَيْنه مِنْ النَّظَر إِلَى وَجْه رَبّه الْكَرِيم عِيَانًا - يَعْنِي فِي الْجَنَّة - ثُمَّ قَالَ : لَوْ جُعِلَ نُور جَمِيع الْخَلْق فِي عَيْنَيْ عَبْد ثُمَّ كُشِفَ عَنْ الشَّمْس سِتْر وَاحِد وَدُونهَا سَبْعُونَ

سِتْرًا مَا قَدَرَ عَلَى أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا ، وَنُور الشَّمْس جُزْء مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نُور الْكُرْسِيّ ، وَنُور الْكُرْسِيّ جُزْء مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نُور الْعَرْش ، وَنُور الْعَرْش جُزْء مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نُور السِّتْر ، وَإِبْرَاهِيم فِيهِ ضَعْفٌ ، وَقَدْ أَخْرَجَ عَبْد بْن حُمَيْدٍ عَنْ عِكْرِمَة مِنْ وَجْه آخَر إِنْكَار الرُّؤْيَة ، وَيُمْكِنُ الْجَمْع بِالْحَمْلِ عَلَى غَيْر أَهْل الْجَنَّة ، وَأَخْرَجَ بِسَنَدٍ صَحِيح عَنْ مُجَاهِد : نَاظِرَة تَنْظُر الثَّوَاب ، وَعَنْ أَبِي صَالِح نَحْوه ، وَأَوْرَدَ الطَّبَرِيّ الِاخْتِلَاف فَقَالَ الْأَوْلَى عِنْدِي بِالصَّوَابِ مَا ذَكَرْنَاهُ عَنْ الْحَسَن الْبَصْرِيّ

(202/244)

---

وَعِكْرِمَة وَهُوَ ثُبُوت الرُّؤْيَة لِمُوَافَقَتِهِ الْأَحَادِيث الصَّحِيحَة ، وَبَالَغَ ابْن عَبْد الْبَرّ فِي رَدّ الَّذِي نُقِلَ عَنْ مُجَاهِد وَقَالَ هُوَ شُذُوذ ، وَقَدْ تَمَسَّكَ بِهِ بَعْض الْمُعْتَزِلَة وَتَمَسَّكُوا أَيْضًا بِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيث سُؤَال جِبْرِيل عَنْ الْإِسْلَام وَالْإِيمَان وَالْإِحْسَان ، وَفِيهِ " أَنْ تَعْبُدَ اللَّه كَأَنَّك تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاك " قَالَ بَعْضهمْ فِيهِ إِشَارَة إِلَى اِنْتِفَاء الرُّؤْيَة ، وَتُعُقِّبَ بِأَنَّ الْمَنْفِيّ فِيهِ رُؤْيَته فِي الدُّنْيَا ؛ لِأَنَّ الْعِبَادَة خَاصَّة بِهَا ، فَلَوْ قَالَ قَائِل إِنَّ فِيهِ إِشَارَة إِلَى جَوَاز الرُّؤْيَة فِي الْآخِرَة لَمَا أَبْعَدَ ، وَزَعَمَتْ طَائِفَة مِنْ الْمُتَكَلِّمِينَ كَالسَّالِمِيَّة مِنْ أَهْل الْبَصْرَة أَنَّ فِي الْخَبَر دَلِيلًا عَلَى أَنَّ الْكُفَّار يَرَوْنَ اللَّه فِي الْقِيَامَة مِنْ عُمُوم اللِّقَاء وَالْخِطَاب ،

وَقَالَ بَعْضهمْ يَرَاهُ بَعْض دُون بَعْض ، وَاحْتَجُّوا بِحَدِيثِ أَبِي سَعِيد حَيْثُ جَاءَ فِيهِ أَنَّ الْكُفَّار يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّار إِذَا قِيلَ لَهُمْ أَلَا تَرُدُّونَ ، وَيَبْقَى الْمُؤْمِنُونَ ، وَفِيهِمْ الْمُنَافِقُونَ فَيَرَوْنَهُ لَمَّا يَنْصِب الْجِسْر وَيَتْبَعُونَهُ ، وَيُعْطِي كُلّ إِنْسَان مِنْهُمْ نُوره ثُمَّ يُطْفَأ نُور الْمُنَافِقِينَ ، وَأَجَابُوا عَنْ قَوْله ( إِنَّهُمْ عَنْ رَبّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ) أَنَّهُ بَعْد دُخُول الْجَنَّة وَهُوَ احْتِجَاج مَرْدُود ، فَإِنَّ بَعْد هَذِهِ الْآيَة ( ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيم ) فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْحَجْب وَقَعَ قَبْل ذَلِكَ ، وَأَجَابَ بَعْضهمْ بِأَنَّ الْحَجْب يَقَع عِنْد إِطْفَاء النُّور ، وَلَا

(203/244)

---

يَلْزَم مِنْ كَوْنه يَتَجَلَّى لِلْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ مَعَهُمْ مِمَّنْ أَدْخَلَ نَفْسه فِيهِمْ أَنْ تَعُمّهُمْ الرُّؤْيَة ؛ لِأَنَّهُ أَعْلَم بِهِمْ ، فَيُنْعِم عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِرُؤْيَتِهِ دُون الْمُنَافِقِينَ كَمَا يَمْنَعهُمْ مِنْ السُّجُود ، وَالْعِلْم عِنْد اللَّه تَعَالَى ، قَالَ الْبَيْهَقِيّ : وَجْه الدَّلِيل مِنْ الْآيَة أَنَّ لَفْظ " نَاضِرَة " : الْأَوَّل بِالضَّادِ الْمُعْجَمَة السَّاقِطَة مِنْ النَّضْرَة بِمَعْنَى السُّرُور ، وَلَفْظ " نَاظِرَة " بِالظَّاءِ الْمُعْجَمَة الْمُشَالَة يَحْتَمِل فِي كَلَام الْعَرَب أَرْبَعَة أَشْيَاء : نَظَر التَّفَكُّر وَالِاعْتِبَار كَقَوْلِهِ تَعَالَى ( أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِل كَيْف خُلِقَتْ ) وَنَظَر الِانْتِظَار كَقَوْلِهِ تَعَالَى ( مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَة وَاحِدَة ) وَنَظَر التَّعَطُّف وَالرَّحْمَة كَقَوْلِهِ تَعَالَى ( لَا يَنْظُر اللَّه إِلَيْهِمْ ) وَنَظَر الرُّؤْيَة كَقَوْلِهِ تَعَالَى ( يَنْظُرُونَ إِلَيْك نَظَر الْمَغْشِيّ عَلَيْهِ مِنْ

الْمَوْت ) وَالثَّلَاثَة الْأُوَل غَيْر مُرَادَة ، وَأَمَّا الْأَوَّل ؛ فَلِأَنَّ الْآخِرَة لَيْسَتْ بِدَارِ اسْتِدْلَال ، وَأَمَّا الثَّانِي : فَلِأَنَّ فِي الِانْتِظَار تَنْغِيصًا وَتَكْدِيرًا ، وَالْآيَة خَرَجَتْ مَخْرَج الِامْتِنَان وَالْبِشَارَة ، وَأَهْل الْجَنَّة لَا يَنْتَظِرُونَ شَيْئًا ؛ لِأَنَّهُ مَهْمَا خَطَرَ لَهُمْ أَتَوْا بِهِ ، وَأَمَّا الثَّالِث فَلَا يَجُوز ؛ لِأَنَّ الْمَخْلُوق لَا يَتَعَطَّف عَلَى خَالِقه ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا نَظَر الرُّؤْيَة ، وَانْضَمَّ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ النَّظَر إِذَا ذُكِرَ مَعَ الْوَجْه اِنْصَرَفَ لِلْعَيْنَيْنِ اللَّتَيْنِ فِي الْوَجْه ؛ وَلِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَتَعَدَّى بِإِلَى كَقَوْلِهِ تَعَالَى ( يَنْظُرُونَ

(204/244)

---

إِلَيْك ) وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ " نَاظِرَة " هُنَا بِمَعْنَى رَائِيَة اِنْدَفَعَ قَوْل مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَعْنَى نَاظِرَة إِلَى ثَوَاب رَبّهَا ؛ لِأَنَّ الْأَصْل عَدَم التَّقْدِير وَأَيَّدَ مَنْطُوق الْآيَة " فِي حَقّ الْمُؤْمِنِينَ " بِمَفْهُومِ الْآيَة الْأُخْرَى " فِي حَقّ الْكَافِرِينَ " أَنَّهُمْ عَنْ رَبّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ، وَقَيَّدَهَا بِالْقِيَامَةِ فِي الْآيَتَيْنِ إِشَارَة إِلَى أَنَّ الرُّؤْيَة تَحْصُل لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَة دُون الدُّنْيَا اِنْتَهَى مُلَخَّصًا مُوَضَّحًا . وَقَدْ أَخْرَجَ أَبُو الْعَبَّاس السَّرَّاج فِي تَارِيخه عَنْ الْحَسَن بْن عَبْد الْعَزِيز الْجَرَوِيّ وَهُوَ مِنْ شُيُوخ الْبُخَارِيّ ، سَمِعْت عَمْرو بْن أَبِي سَلَمَة يَقُول ، سَمِعْت مَالِك بْن أَنَس وَقِيلَ لَهُ يَا أَبَا عَبْد اللَّه قَوْل اللَّه تَعَالَى ( إِلَى رَبّهَا نَاظِرَة ) يَقُول قَوْم إِلَى ثَوَابه ، فَقَالَ كَذَبُوا فَأَيْنَ هُمْ عَنْ قَوْله تَعَالَى (

كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ) وَمِنْ حَيْثُ النَّظَر أَنَّ كُلّ مَوْجُود يَصِحّ أَنْ يُرَى ، وَهَذَا عَلَى سَبِيل التَّنَزُّل وَإِلَّا فَصِفَات الْخَالِق لَا تُقَاس عَلَى صِفَات الْمَخْلُوقِينَ ، وَأَدِلَّة السَّمْع طَافِحَة بِوُقُوعِ ذَلِكَ فِي الْآخِرَة لِأَهْلِ الْإِيمَان دُون غَيْرهمْ ، وَمُنِعَ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا أَنَّهُ اِخْتُلِفَ فِي نَبِيّنَا صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا ذَكَرُوهُ مِنْ الْفَرْق بَيْن الدُّنْيَا وَالْآخِرَة أَنَّ أَبْصَار أَهْل الدُّنْيَا فَانِيَة وَأَبْصَارهمْ فِي الْآخِرَة بَاقِيَة جَيِّدٌ ، وَلَكِنْ لَا يَمْنَع تَخْصِيص ذَلِكَ بِمَنْ ثَبَتَ وُقُوعه لَهُ ، وَمَنَعَ جُمْهُور الْمُعْتَزِلَة مِنْ الرُّؤْيَة مُتَمَسِّكِينَ بِأَنَّ مِنْ

(205/244)

---

شَرْط الْمَرْئِيّ أَنْ يَكُون فِي جِهَة وَاَللَّه مُنَزَّهٌ عَنْ الْجِهَة ، وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهُ يَرَى عِبَاده ، فَهُوَ رَاءٍ لَا مِنْ جِهَة ، وَاخْتَلَفَ مَنْ أَثْبَتَ الرُّؤْيَة فِي مَعْنَاهَا فَقَالَ قَوْم : يَحْصُل لِلرَّائِي الْعِلْم بِاللَّهِ تَعَالَى بِرُؤْيَةِ الْعَيْن كَمَا فِي غَيْره مِنْ الْمَرْئِيَّات ، وَهُوَ عَلَى وَفْق قَوْله فِي حَدِيث الْبَاب "كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَر " إِلَّا أَنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنْ الْجِهَة وَالْكَيْفِيَّة ، وَذَلِكَ أَمْر زَائِد عَلَى الْعِلْم وَقَالَ بَعْضهمْ : إِنَّ الْمُرَاد بِالرُّؤْيَةِ الْعِلْم وَعَبَّرَ عَنْهَا بَعْضهمْ بِأَنَّهَا حُصُول حَالَة فِي الْإِنْسَان نِسْبَتُهَا إِلَى ذَاته الْمَخْصُوصَة نِسْبَة الْإِبْصَار إِلَى الْمَرْئِيَّات ، وَقَالَ بَعْضهمْ رُؤْيَة الْمُؤْمِن لِلَّهِ نَوْع كَشْف وَعِلْم ، إِلَّا أَنَّهُ أَتَمّ وَأَوْضَح مِنْ الْعِلْم وَهَذَا أَقْرَب إِلَى الصَّوَاب مِنْ الْأَوَّل وَتُعُقِّبَ الْأَوَّل بِأَنَّهُ حِينَئِذٍ لَا اِخْتِصَاص

لِبَعْضٍ دُون بَعْض ؛ لِأَنَّ الْعِلْم لَا يَتَفَاوَت ، وَتَعَقَّبَهُ اِبْن التِّين بِأَنَّ الرُّؤْيَة بِمَعْنَى الْعِلْم تَتَعَدَّى لِمَفْعُولَيْنِ تَقُول : رَأَيْت زَيْدًا فَقِيهًا أَيْ عَلِمْتُهُ ، فَإِنْ قُلْت رَأَيْت زَيْدًا مُنْطَلِقًا لَمْ يُفْهَم مِنْهُ إِلَّا رُؤْيَة الْبَصَر ، وَيَزِيدهُ تَحْقِيقًا قَوْله فِي الْخَبَر " إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبّكُمْ عِيَانًا " لِأَنَّ اِقْتِرَان الرُّؤْيَة بِالْعِيَانِ لَا يَحْتَمِل أَنْ يَكُون بِمَعْنَى الْعِلْم ، وَقَالَ اِبْن بَطَّال : ذَهَبَ أَهْل السُّنَّة وَجُمْهُور الْأُمَّة إِلَى جَوَاز رُؤْيَة اللَّه فِي الْآخِرَة وَمَنَعَ الْخَوَارِج وَالْمُعْتَزِلَة وَبَعْض الْمُرْجِئَة ، وَتَمَسَّكُوا بِأَنَّ الرُّؤْيَة تُوجِب كَوْن

(206/244)

---

الْمَرْئِيّ مُحْدَثًا وَحَالًّا فِي مَكَان ، وَأَوَّلُوا قَوْله " نَاظِرَة " بِمُنْتَظِرَة وَهُوَ خَطَأ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَتَعَدَّى بِإِلَى ، ثُمَّ ذَكَرَ نَحْو مَا تَقَدَّمَ ثُمَّ قَالَ : وَمَا تَمَسَّكُوا بِهِ فَاسِد لِقِيَامِ الْأَدِلَّة عَلَى أَنَّ اللَّه تَعَالَى مَوْجُود ، وَالرُّؤْيَة فِي تَعَلُّقهَا بِالْمَرْئِيِّ بِمَنْزِلَةِ الْعِلْم فِي تَعَلُّقه بِالْمَعْلُومِ فَإِذَا كَانَ تَعَلُّق الْعِلْم بِالْمَعْلُومِ لَا يُوجِب حُدُوثه فَكَذَلِكَ الْمَرْئِيّ . قَالَ : وَتَعَلَّقُوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى ( لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ) وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى لِمُوسَى ( لَنْ تَرَانِي ) وَالْجَوَاب عَنْ الْأَوَّل : أَنَّهُ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَار فِي الدُّنْيَا جَمْعًا بَيْن دَلِيلَيْ الْآيَتَيْنِ ، وَبِأَنَّ نَفْي الْإِدْرَاك لَا يَسْتَلْزِم نَفْي الرُّؤْيَة لِإِمْكَانِ رُؤْيَة الشَّيْء مِنْ غَيْر إِحَاطَة بِحَقِيقَتِهِ ، وَعَنْ الثَّانِي : الْمُرَاد لَنْ تَرَانِي فِي الدُّنْيَا جَمْعًا أَيْضًا ؛ وَلِأَنَّ نَفْي الشَّيْء لَا

يَقْتَضِي إِحَالَته مَعَ مَا جَاءَ مِنْ الْأَحَادِيث الثَّابِتَة عَلَى وَفْق الْآيَة ، وَقَدْ تَلَقَّاهَا الْمُسْلِمُونَ بِالْقَبُولِ مِنْ لَدُن الصَّحَابَة وَالتَّابِعِينَ حَتَّى حَدَثَ مَنْ أَنْكَرَ الرُّؤْيَة وَخَالَفَ السَّلَف ، وَقَالَ الْقُرْطُبِيّ : اِشْتَرَطَ النُّفَاةُ فِي الرُّؤْيَة شُرُوطًا عَقْلِيَّة كَالْبِنْيَةِ الْمَخْصُوصَة وَالْمُقَابَلَة وَاتِّصَال الْأَشِعَّة وَزَوَال الْمَوَانِع كَالْبُعْدِ وَالْحَجْب فِي خَبْطٍ لَهُمْ وَتَحَكُّم ، وَأَهْل السُّنَّة لَا يَشْتَرِطُونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ سِوَى وُجُود الْمَرْئِيّ ، وَأَنَّ الرُّؤْيَة إِدْرَاك يَخْلُقُهُ اللَّه تَعَالَى لِلرَّائِي فَيَرَى الْمَرْئِيّ وَتَقْتَرِن بِهَا أَحْوَال يَجُوز

(207/244)

---

تَبَدُّلُهَا وَالْعِلْم عِنْد اللَّه تَعَالَى . ثُمَّ ذَكَرَ الْمُؤَلِّفُ فِي الْبَاب أَحَد عَشَر حَدِيثًا .

6882 - حَدِيث جَرِير ذَكَرَهُ مُطَوَّلًا وَمُخْتَصَرًا مِنْ ثَلَاثَة أَوْجُهٍ .

قَوْله ( خَالِد أَوْ هُشَيْم )

كَذَا فِي نُسْخَة مِنْ رِوَايَة أَبِي ذَرّ عَنْ الْمُسْتَمْلِيّ بِالشَّكِّ وَفِي أُخْرَى بِالْوَاوِ وَكَذَا لِلْبَاقِينَ .

قَوْله ( عَنْ إِسْمَاعِيل )

هُوَ اِبْن أَبِي خَالِدٍ .

قَوْله ( عَنْ قَيْس )

هُوَ اِبْن أَبِي حَازِم وَنُسِبَ فِي رِوَايَة مَرْوَان بْن مُعَاوِيَة عَنْ إِسْمَاعِيل الْمُشَار إِلَيْهَا .

قَوْله ( عَنْ جَرِير )

فِي رِوَايَة مَرْوَان الْمَذْكُورَة " وَسَمِعْت جَرِير بْن عَبْد اللَّه " وَفِي رِوَايَة بَيَان فِي الْبَاب عَنْ قَيْس " حَدَّثَنَا جَرِير " .

قَوْله ( كُنَّا جُلُوسًا عِنْد النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ )

فِي رِوَايَة جَرِير عَنْ إِسْمَاعِيل فِي تَفْسِير سُورَة ق " كُنَّا جُلُوسًا لَيْلَة مَعَ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " .

قَوْله ( لَيْلَة الْبَدْر )

فِي رِوَايَة إِسْحَاق " لَيْلَة أَرْبَع عَشْرَة " وَوَقَعَ فِي رِوَايَة بَيَان الْمَذْكُورَة " خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَة الْبَدْر فَقَالَ " وَيُجْمَع بَيْنهمَا بِأَنَّ الْقَوْل لَهُمْ صَدَرَ مِنْهُ بَعْد أَنْ جَلَسُوا عِنْده .

قَوْله ( إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبّكُمْ )

*(208/244)*

فِي رِوَايَة عَبْد اللَّه بْن نُمَيْر وَأَبِي أُسَامَة وَوَكِيع عَنْ إِسْمَاعِيل عِنْد مُسْلِم " إِنَّكُمْ سَتُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّكُمْ فَتَرَوْنَهُ " وَفِي رِوَايَة أَبِي شِهَاب " إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبِّكُمْ عِيَانًا " هَكَذَا اِقْتَصَرَ أَبُو شِهَاب عَلَى هَذَا الْقَدْر مِنْ الْحَدِيث لِلْأَكْثَرِ وَوَقَعَ فِي رِوَايَة الْمُسْتَمْلِيّ فِي أَوَّله " خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَة الْبَدْر فَقَالَ " وَأَخْرَجَهُ الْإِسْمَاعِيلِيّ مِنْ طَرِيق خَلَف بْن هِشَام عَنْ أَبِي شِهَاب كَالْأَكْثَرِ ، وَمِنْ طَرِيق مُحَمَّد بْن زِيَاد الْبَلَدِيّ عَنْ أَبِي شِهَاب مُطَوَّلًا ، وَاسْم " أَبِي شِهَاب " هَذَا عَبْد رَبّه بْن نَافِع الْحَنَّاط بِالْحَاءِ الْمُهْمَلَة وَالنُّون ، وَاسْم الرَّاوِي عَنْهُ عَاصِم بْن يُوسُف كَانَ خَيَّاطًا بِالْخَاءِ الْمُعْجَمَة وَالتَّحْتَانِيَّة ، قَالَ الطَّبَرِيُّ : تَفَرَّدَ أَبُو شِهَاب عَنْ إِسْمَاعِيل بْن أَبِي خَالِد بِقَوْلِهِ " عِيَانًا " وَهُوَ حَافِظ مُتْقِن مِنْ ثِقَات الْمُسْلِمِينَ اِنْتَهَى . وَذَكَرَ شَيْخ الْإِسْلَام الْهَرَوِيُّ فِي كِتَابه الْفَارُوق أَنَّ زَيْد بْن أَبِي أُنَيْسَة رَوَاهُ أَيْضًا عَنْ إِسْمَاعِيل بِهَذَا اللَّفْظ وَسَاقَهُ مِنْ رِوَايَة " أَكْثَر مِنْ سِتِّينَ نَفْسًا " عَنْ إِسْمَاعِيل بِلَفْظٍ وَاحِد كَالْأَوَّلِ .

قَوْله ( لَا تُضَامُونَ )

*(209/244)*

بِضَمِّ أَوَّله وَتَخْفِيف الْمِيم لِلْأَكْثَرِ وَفِيهِ رِوَايَات أُخْرَى تَقَدَّمَ بَيَانهَا فِي بَاب الصِّرَاط جِسْر جَهَنَّم مِنْ "كِتَاب الرِّقَاق" وَقَالَ الْبَيْهَقِيُّ : سَمِعْت الشَّيْخ الْإِمَام أَبَا الطَّيِّب سَهْل بْن مُحَمَّد الصُّعْلُوكِيّ يَقُول فِي إِمْلَائِهِ فِي قَوْله "لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَته" بِالضَّمِّ وَالتَّشْدِيد مَعْنَاهُ لَا تَجْتَمِعُونَ لِرُؤْيَتِهِ فِي جِهَة وَلَا يُضَمّ بَعْضكُمْ إِلَى بَعْض ، وَمَعْنَاهُ بِفَتْحِ التَّاء كَذَلِكَ وَالْأَصْل لَا تَتَضَامُّونَ فِي رُؤْيَته بِاجْتِمَاعٍ فِي جِهَة وَبِالتَّخْفِيفِ مِنْ الضَّيْم ، وَمَعْنَاهُ لَا تُظْلَمُونَ فِيهِ بِرُؤْيَةِ بَعْضكُمْ دُون بَعْض فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ فِي جِهَاتكُمْ كُلِّهَا وَهُوَ مُتَعَالٍ عَنْ الْجِهَة وَالتَّشْبِيه بِرُؤْيَةِ الْقَمَر لِلرُّؤْيَةِ دُون تَشْبِيه الْمَرْئِيّ تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ .

6885 - حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة "إِنَّ النَّاس قَالُوا : يَا رَسُول اللَّه هَلْ نَرَى رَبّنَا يَوْم الْقِيَامَة ؟ فَقَالَ : هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْس لَيْسَ دُونهَا سَحَاب" الْحَدِيث بِطُولِهِ وَقَدْ مَضَى شَرْحه مُسْتَوْفًى فِي "كِتَاب الرِّقَاق" وَوَقَعَ هُنَا فِي قَوْله "فَإِذَا جَاءَ رَبّنَا عَرَفْنَاهُ" فِي رِوَايَة أَبِي ذَرّ عَنْ الْكُشْمِيهَنِيّ "فَإِذَا جَاءَنَا" وَيَحْتَاج إِلَى تَأَمُّل ، وَفِي قَوْله "أَوَّل مَنْ يُجِيز" فِي رِوَايَة الْمُسْتَمْلِيّ "يَجِيء" مِنْ الْمَجِيء وَفِي قَوْله "وَيُعْطِي رَبّه" فِي رِوَايَة الْكُشْمِيهَنِيّ "وَيُعْطِي اللَّه" وَفِي قَوْله "أَيْ رَبّ لَا أَكُون" فِي رِوَايَة الْمُسْتَمْلِيّ "لَا أَكُونَنَّ" وَقَدْ تَقَدَّمَتْ الْإِشَارَة لِذَلِكَ وَغَيْره فِي شَرْح الْحَدِيث .

(210/244)

6886 - حَدِيث أَبِي سَعِيد فِي مَعْنَى حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة بِطُولِهِ ، وَتَقَدَّمَ شَرْحه أَيْضًا هُنَاكَ ، وَقَوْله فِي سَنَده عَنْ زَيْد هُوَ اِبْن أَسْلَمَ ، " وَعَطَاء " هُوَ اِبْن يَسَار ، وَقَوْله فِيهِ " وَأَصْحَاب آلِهَة مَعَ آلِهَتهمْ " فِي رِوَايَة الْكُشْمِيهَنِيّ " إِلَههمْ " بِالْإِفْرَادِ وَقَوْله " مَا يُجْلِسكُمْ " بِالْجِيمِ وَاللَّام مِنْ الْجُلُوس أَيْ يُقْعِدكُمْ عَنْ الذَّهَاب ، وَفِي رِوَايَة الْكُشْمِيهَنِيّ " مَا يَحْبِسُكُمْ " بِالْحَاءِ وَالْمُوَحَّدَة مِنْ الْحَبْس أَيْ يَمْنَعكُمْ وَهُوَ بِمَعْنَاهُ ، وَقَوْله فِيهِ " فَيَأْتِيهِمْ اللَّه فِي صُورَة " اِسْتَدَلَّ اِبْن قُتَيْبَة بِذِكْرِ الصُّورَة عَلَى أَنَّ لِلَّهِ صُورَة لَا كَالصُّوَرِ كَمَا ثَبَتَ أَنَّهُ شَيْء لَا كَالْأَشْيَاءِ وَتَعَقَّبُوهُ ، وَقَالَ اِبْن بَطَّال : تَمَسَّكَ بِهِ الْمُجَسِّمَة فَأَثْبَتُوا لِلَّهِ صُورَة ، وَلَا حُجَّة لَهُمْ فِيهِ لِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُون بِمَعْنَى الْعَلَامَة وَضَعَهَا اللَّه لَهُمْ دَلِيلًا عَلَى مَعْرِفَته كَمَا يُسَمَّى الدَّلِيل وَالْعَلَامَة صُورَة وَكَمَا تَقُول : صُورَة حَدِيثك كَذَا وَصُورَة الْأَمْر كَذَا وَالْحَدِيث وَالْأَمْر لَا صُورَة لَهُمَا حَقِيقَة ، وَأَجَازَ غَيْره أَنَّ الْمُرَاد بِالصُّورَةِ الصِّفَة ، وَإِلَيْهِ مَيْل الْبَيْهَقِيّ ، وَنَقَلَ اِبْن التِّين أَنَّ مَعْنَاهُ صُورَة الِاعْتِقَاد ، وَأَجَازَ الْخَطَّابِيّ أَنْ يَكُون الْكَلَام خَرَجَ عَلَى وَجْه الْمُشَاكَلَة لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ ذِكْر الشَّمْس وَالْقَمَر وَالطَّوَاغِيت ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَسْط هَذَا هُنَاكَ ، وَكَذَا قَوْله " نَعُوذ بِك " وَقَالَ غَيْره فِي قَوْله فِي الصُّورَة الَّتِي يَعْرِفُونَهَا : يَحْتَمِل أَنْ يُشِير بِذَلِكَ إِلَى مَا عَرَفُوهُ حِين

أَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ صُلْبِهِ ثُمَّ أَنْسَاهُمْ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ يُذَكِّرُهُمْ بِهَا فِي الْآخِرَةِ ، وَقَوْله " فَإِذَا رَأَيْنَا رَبّنَا عَرَفْنَاهُ " قَالَ اِبْن بَطَّال عَنْ الْمُهَلَّب : إِنَّ اللَّه يَبْعَث لَهُمْ مَلَكًا لِيَخْتَبِرهُمْ فِي اِعْتِقَاد صِفَات رَبّهِمْ الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْء فَإِذَا قَالَ لَهُمْ أَنَا رَبّكُمْ رَدُّوا عَلَيْهِ لِمَا رَأَوْا عَلَيْهِ مِنْ صِفَة الْمَخْلُوق ، فَقَوْله " فَإِذَا جَاءَ رَبّنَا عَرَفْنَاهُ " أَيْ إِذَا ظَهَرَ لَنَا فِي مُلْك لَا يَنْبَغِي لِغَيْرِهِ وَعَظَمَة لَا تُشْبِه شَيْئًا مِنْ مَخْلُوقَاته فَحِينَئِذٍ يَقُولُونَ أَنْت رَبّنَا ، قَالَ : وَأَمَّا قَوْله " هَلْ بَيْنكُمْ وَبَيْنه عَلَامَة تَعْرِفُونَهَا ، فَيَقُولُونَ السَّاق " فَهَذَا يَحْتَمِل أَنَّ اللَّه عَرَّفَهُمْ عَلَى أَلْسِنَة الرُّسُل مِنْ الْمَلَائِكَة أَوْ الْأَنْبِيَاء أَنَّ اللَّه جَعَلَ لَهُمْ عَلَامَة تَجَلّيه السَّاق ، وَذَلِكَ أَنَّهُ يَمْتَحِنهُمْ بِإِرْسَالِ مَنْ يَقُول لَهُمْ أَنَا رَبّكُمْ وَإِلَى ذَلِكَ الْإِشَارَة بِقَوْلِهِ تَعَالَى ( يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِت ) وَهِيَ وَإِنْ وَرَدَ أَنَّهَا فِي عَذَاب الْقَبْر فَلَا يَبْعُد أَنْ تَتَنَاوَل يَوْم الْمَوْقِف أَيْضًا ، قَالَ : وَأَمَّا السَّاق فَجَاءَ عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي قَوْله تَعَالَى ( يَوْم يُكْشَف عَنْ سَاق ) قَالَ عَنْ شِدَّة مِنْ الْأَمْر ، وَالْعَرَب تَقُول : قَامَتْ الْحَرْب عَلَى سَاق إِذَا اِشْتَدَّتْ ، وَمِنْهُ : قَدْ سَنَّ أَصْحَابك ضَرْب الْأَعْنَاق وَقَامَتْ الْحَرْب بِنَا عَلَى سَاق وَجَاءَ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيّ فِي تَفْسِيرهَا عَنْ نُور عَظِيم قَالَ اِبْن فُورَكٍ : مَعْنَاهُ مَا يَتَجَدَّد لِلْمُؤْمِنِينَ

مِنْ الْفَوَائِد وَالْأَلْطَاف . وَقَالَ الْمُهَلَّب : كَشْف السَّاق لِلْمُؤْمِنِينَ رَحْمَة وَلِغَيْرِهِمْ نِقْمَة . وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ : تَهَيَّبَ كَثِير مِنْ الشُّيُوخ الْخَوْض فِي مَعْنَى السَّاق ، وَمَعْنَى قَوْل اِبْن عَبَّاس إِنَّ اللَّه يَكْشِف عَنْ قُدْرَته الَّتِي تَظْهَر بِهَا الشِّدَّة . وَأَسْنَدَ الْبَيْهَقِيُّ الْأَثَر الْمَذْكُور عَنْ اِبْن عَبَّاس بِسَنَدَيْنِ كُلّ مِنْهُمَا حَسَن ، وَزَادَ : إِذَا خَفِيَ عَلَيْكُمْ شَيْء مِنْ الْقُرْآن فَأَبْعُوهُ مِنْ الشِّعْر وَذَكَرَ الرَّجَز الْمُشَار إِلَيْهِ ، وَأَنْشَدَ الْخَطَّابِيُّ فِي إِطْلَاق السَّاق عَلَى الْأَمْر الشَّدِيد " فِي سَنَة قَدْ كَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا " وَأَسْنَدَ الْبَيْهَقِيُّ مِنْ وَجْه آخَر صَحِيح عَنْ اِبْن عَبَّاس قَالَ : يُرِيد يَوْم الْقِيَامَة ، قَالَ الْخَطَّابِيُّ : وَقَدْ يُطْلَق وَيُرَاد النَّفْس ، وَقَوْله فِيهِ " وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُد لِلَّهِ رِيَاء وَسُمْعَة فَيَذْهَب كَيْمَا يَسْجُد فَيَعُود ظَهْره طَبَقًا وَاحِدًا " ذَكَرَ الْعَلَّامَة جَمَال الدِّين بْن هِشَام فِي الْمُغْنِي أَنَّهُ وَقَعَ فِي الْبُخَارِيّ فِي هَذَا الْمَوْضِع " كَيْمَا " مُجَرَّدَة وَلَيْسَ بَعْدهَا لَفْظ يَسْجُد فَقَالَ بَعْد أَنْ حَكَى عَنْ الْكُوفِيِّينَ : إِنَّ كَيْ نَاصِبَة دَائِمًا ، قَالَ وَيَرُدّهُ قَوْلهمْ كَيْمَه كَمَا يَقُولُونَ لِمَه ، وَأَجَابُوا بِأَنَّ التَّقْدِير كَيْ تَفْعَل مَاذَا ، وَيَلْزَمهُمْ كَثْرَة الْحَذْف وَإِخْرَاج مَا الِاسْتِفْهَامِيَّة عَنْ الصَّدْر وَحَذْف أَلِفهَا فِي غَيْر الْجَرّ ، وَحَذْف الْفِعْل الْمَنْصُوب مَعَ بَقَاء

عَامِل النَّصْب وَكُلّ ذَلِكَ لَمْ يَثْبُت ، نَعَمْ وَقَعَ فِي صَحِيح الْبُخَارِيّ فِي تَفْسِير ( وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَة ) فَيَذْهَب كَيْمَا

(213/244)

---

فَيَعُود ظَهْره طَبَقًا وَاحِدًا ، أَيْ كَيْمَا يَسْجُد ، وَهُوَ غَرِيب جِدًّا لَا يَحْتَمِل الْقِيَاس عَلَيْهِ اِنْتَهَى كَلَامه . وَكَأَنَّهُ وَقَعَتْ لَهُ نُسْخَة سَقَطَتْ مِنْهَا هَذِهِ اللَّفْظَة ؛ لَكِنَّهَا ثَابِتَة فِي جَمِيع النُّسَخ الَّتِي وَقَفْت عَلَيْهَا حَتَّى أَنَّ اِبْن بَطَّال ذَكَرَهَا بِلَفْظِ " كَيْ يَسْجُد " بِحَذْفِ مَا ، وَكَلَام اِبْن هِشَام يُوهِمُ أَنَّ الْبُخَارِيّ أَوْرَدَهُ فِي التَّفْسِير ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ بَلْ ذَكَرَهَا هُنَا فَقَطْ ، وَقَوْله فِيهِ " فَيَعُود ظَهْره طَبَقًا وَاحِدًا " قَالَ اِبْن بَطَّال تَمَسَّكَ بِهِ مَنْ أَجَازَ تَكْلِيف مَا لَا يُطَاق مِنْ الْأَشَاعِرَة وَاحْتَجُّوا أَيْضًا بِقِصَّةِ أَبِي لَهَب ، وَأَنَّ اللَّه كَلَّفَهُ الْإِيمَان بِهِ مَعَ إِعْلَامه بِأَنَّهُ يَمُوت عَلَى الْكُفْر وَيَصْلَى نَارًا ذَات لَهَب ، قَالَ : وَمَنَعَ الْفُقَهَاء مِنْ ذَلِكَ وَتَمَسَّكُوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى ( لَا يُكَلِّف اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ) وَأَجَابُوا عَنْ السُّجُود بِأَنَّهُمْ يُدْعَوْنَ إِلَيْهِ تَبْكِيتًا إِذْ أَدْخَلُوا أَنْفُسهمْ فِي الْمُؤْمِنِينَ السَّاجِدِينَ فِي الدُّنْيَا فَدُعُوا مَعَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى السُّجُود فَتَعَذَّرَ عَلَيْهِمْ فَأَظْهَرَ اللَّه بِذَلِكَ نِفَاقهمْ وَأَخْزَاهُمْ ، قَالَ : وَمِثْله مِنْ التَّبْكِيت مَا يُقَال لَهُمْ بَعْد ذَلِكَ ( اِرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ) وَلَيْسَ فِي هَذَا تَكْلِيف مَا لَا يُطَاق بَلْ إِظْهَار خِزْيهِمْ ، وَمِثْله مَنْ كُلِّفَ أَنْ

يَعْقِد شَعِيرَة فَإِنَّهَا لِلزِّيَادَةِ فِي التَّوْبِيخ وَالْعُقُوبَة اِنْتَهَى . وَلَمْ يَجِب عَنْ قِصَّة أَبِي لَهَب وَقَدْ اِدَّعَى بَعْضهمْ أَنَّ مَسْأَلَة تَكْلِيف مَا لَا يُطَاق لَمْ تَقَع إِلَّا بِالْإِيمَانِ

(214/244)

---

فَقَطْ ، وَهِيَ مَسْأَلَة طَوِيلَة الذَّيْل لَيْسَ هَذَا مَوْضِع ذِكْرهَا ، وَقَوْله " قَالَ مَدْحَضَة مَزَلَّة " بِفَتْحِ الْمِيم وَكَسْر الزَّاي وَيَجُوز فَتْحهَا وَتَشْدِيد اللَّام ، قَالَ : أَيْ مَوْضِع الزَّلَل وَيُقَال بِالْكَسْرِ فِي الْمَكَان وَبِالْفَتْحِ فِي الْمَقَال ، وَوَقَعَ فِي رِوَايَة أَبِي ذَرّ عَنْ الْكُشْمِيهَنِيّ هُنَا الدَّحْض الزَّلَق ، لِيَدْحَضُوا لِيَزْلَقُوا زَلَقًا لَا يَثْبُت فِيهِ قَدَم ، وَهَذَا قَدْ تَقَدَّمَ لَهُمْ فِي تَفْسِير سُورَة الْكَهْف ، وَتَقَدَّمَ هُنَاكَ الْكَلَام عَلَيْهِ ، وَقَوْله " عَلَيْهِ خَطَاطِيف وَكَلَالِيب " تَقَدَّمَ بَيَانه ، وَقَوْله " وَحَسَكَة " بِفَتْحِ الْحَاء وَالسِّين الْمُهْمَلَتَيْنِ قَالَ صَاحِب التَّهْذِيب وَغَيْره الْحَسَك نَبَات لَهُ ثَمَر خَشِن يَتَعَلَّق بِأَصْوَافِ الْغَنَم وَرُبَّمَا اتُّخِذَ مِثْله مِنْ حَدِيد وَهُوَ مِنْ آلَات الْحَرْب ، وَقَوْله " مُفَلْطَحَة " بِضَمِّ الْمِيم وَفَتْح الْفَاء وَسُكُون اللَّام بَعْدهَا طَاء ثُمَّ حَاء مُهْمَلَتَانِ كَذَا وَقَعَ عِنْد الْأَكْثَر ، وَفِي رِوَايَة الْكُشْمِيهَنِيّ " مُطَلْفَحَة " بِتَقْدِيمِ الطَّاء وَتَأْخِير الْفَاء وَاللَّام قَبْلهَا وَلِبَعْضِهِمْ كَالْأَوَّلِ لَكِنْ بِتَقْدِيمِ الْحَاء عَلَى الطَّاء وَالْأَوَّل هُوَ الْمَعْرُوف فِي اللُّغَة وَهُوَ الَّذِي فِيهِ اِتِّسَاع وَهُوَ عَرِيض ، يُقَال : فَلْطَحَ الْقُرْص بَسَطَهُ وَعَرَّضَهُ ، وَقَوْله شَوْكَة عَقِيفَة بِالْقَافِ ثُمَّ

الْفَاء وَزْن عَظِيمَة ، وَلِبَعْضِهِمْ عُقَيْفَاء بِصِيغَةِ التَّصْغِير مَمْدُود .

( تَنْبِيهٌ ) :

(215/244)

---

قَرَأْت فِي تَنْقِيح الزَّرْكَشِيّ وَقَعَ هُنَا فِي حَدِيث أَبِي سَعِيد بَعْد شَفَاعَة الْأَنْبِيَاء فَيَقُول اللَّه : بَقِيَتْ شَفَاعَتِي فَيُخْرِجُ مِنْ النَّار مَنْ لَمْ يَعْمَل خَيْرًا ، وَتَمَسَّكَ بِهِ بَعْضهمْ فِي تَجْوِيز إِخْرَاج غَيْر الْمُؤْمِنِينَ مِنْ النَّار وَرُدَّ بِوَجْهَيْنِ أَحَدهمَا أَنَّ هَذِهِ الزِّيَادَة ضَعِيفَة ؛ لِأَنَّهَا غَيْر مُتَّصِلَة كَمَا قَالَ عَبْد الْحَقّ فِي الْجَمْع ، وَالثَّانِي أَنَّ الْمُرَاد بِالْخَيْرِ الْمَنْفِيّ مَا زَادَ عَلَى أَصْل الْإِقْرَار بِالشَّهَادَتَيْنِ ، كَمَا تَدُلّ عَلَيْهِ بَقِيَّة الْأَحَادِيث هَكَذَا قَالَ ، وَالْوَجْه الْأَوَّل غَلَط مِنْهُ فَإِنَّ الرِّوَايَة مُتَّصِلَة هُنَا ، وَأَمَّا نِسْبَة ذَلِكَ لِعَبْدِ الْحَقّ فَغَلَط عَلَى غَلَط ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْهُ إِلَّا فِي طَرِيق أُخْرَى وَقَعَ فِيهَا : أَخْرِجُوا مَنْ كَانَ فِي قَلْبه مِثْقَال حَبَّة خَرْدَل مِنْ خَيْر . قَالَ : هَذِهِ الرِّوَايَة غَيْر مُتَّصِلَة ، وَلَمَّا سَاقَ حَدِيث أَبِي سَعِيد الَّذِي فِي هَذَا الْبَاب سَاقَهُ بِلَفْظِ الْبُخَارِيّ وَلَمْ يَتَعَقَّبهُ بِأَنَّهُ غَيْر مُتَّصِل وَلَوْ قَالَ ذَلِكَ لَتَعَقَّبْنَاهُ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ لَا انْقِطَاع فِي السَّنَد أَصْلًا ، ثُمَّ إِنَّ لَفْظ حَدِيث أَبِي سَعِيد هُنَا لَيْس كَمَا سَاقَهُ الزَّرْكَشِيّ وَإِنَّمَا فِيهِ : فَيَقُول الْجَبَّار بَقِيَتْ شَفَاعَتِي

فَيُخْرِجُ أَقْوَامًا قَدْ امْتُحِشُوا ، ثُمَّ قَالَ فِي آخِره : فَيَقُول أَهْل الْجَنَّة هَؤُلَاءِ عُتَقَاء الرَّحْمَن أَدْخَلَهُمْ الْجَنَّة بِغَيْرِ عَمَل عَمِلُوهُ وَلَا خَيْر قَدَّمُوهُ ، فَيَجُوز أَنْ يَكُون الزَّرْكَشِيّ ذَكَرَهُ بِالْمَعْنَى .

(216/244)

---

حَدِيث أَنَس فِي الشَّفَاعَة وَقَدْ مَضَى شَرْحه مُسْتَوْفًى فِي بَاب صِفَة الْجَنَّة وَالنَّار مِنْ " كِتَاب الرِّقَاق " وَقَوْله هُنَا " وَقَالَ حَجَّاج بْن مِنْهَال : حَدَّثَنَا هَمَّام " كَذَا عِنْد الْجَمِيع إِلَّا فِي رِوَايَة أَبِي زَيْد الْمَرْوَزِيّ عَنْ الْفَرَبْرِيّ ، فَقَالَ فِيهَا " حَدَّثَنَا حَجَّاج " وَقَدْ وَصَلَهُ الْإِسْمَاعِيلِيّ مِنْ طَرِيق إِسْحَاق بْن إِبْرَاهِيم وَأَبُو نُعَيْم مِنْ طَرِيق مُحَمَّد بْن أَسْلَمَ الطُّوسِيّ قَالَا " حَدَّثَنَا حَجَّاج بْن مِنْهَال " فَذَكَرَهُ بِطُولِهِ وَسَاقُوا الْحَدِيث كُلّه إِلَّا النَّسَفِيّ فَسَاقَ مِنْهُ إِلَى قَوْله " خَلَقَك اللَّه بِيَدِهِ " ثُمَّ قَالَ " فَذَكَرَ الْحَدِيث " وَوَقَعَ لِأَبِي ذَرّ عَنْ الْحَمَوِيّ نَحْوه لَكِنْ قَالَ " وَذَكَرَ الْحَدِيث بِطُولِهِ " بَعْد قَوْله " حَتَّى يُهِمُّوا بِذَلِكَ " وَنَحْوه لِلْكُشْمِيهَنِيّ . وَقَوْله فِيهِ " ثَلَاث كَذِبَات " فِي رِوَايَة الْمُسْتَمْلِيّ " ثَلَاث كَلِمَات " وَقَوْله " فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فِي دَاره فَيُؤْذَنُ لِي عَلَيْهِ " قَالَ الْخَطَّابِيُّ هَذَا يُوهِم الْمَكَان وَاَللَّه مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ فِي دَاره الَّذِي اتَّخَذَهَا لِأَوْلِيَائِهِ وَهِيَ الْجَنَّة وَهِيَ دَار السَّلَام ، وَأُضِيفَتْ إِلَيْهِ إِضَافَة تَشْرِيف مِثْل بَيْت اللَّه وَحَرَم اللَّه ، وَقَوْله فِيهِ " قَالَ قَتَادَةُ سَمِعْته يَقُول فَأُخْرِجهُمْ " هُوَ مَوْصُول بِالسَّنَدِ

الْمَذْكُور ، وَوَقَعَ لِلْكُشْمِيهَنِيِّ " وَسَمِعْته أَيْضًا يَقُول " وَلِلْمُسْتَمْلِيِّ " وَسَمِعْته يَقُول : فَأَخْرُجُ فَأُخْرِجُهُمْ " الْأَوَّل بِفَتْحِ الْهَمْزَة وَضَمّ الرَّاء وَالثَّانِي بِضَمِّ الْهَمْزَة وَكَسْر الرَّاء .

(217/244)

---

6887 - حَدِيث أَنَس : اِصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْا اللَّه وَرَسُوله فَإِنِّي عَلَى الْحَوْض .

قَوْله فِي السَّنَد ( حَدَّثَنِي عَمِّي )

هُوَ يَعْقُوب بْن إِبْرَاهِيم بْن سَعْد وَأَبُوهُ هُوَ إِبْرَاهِيم بْن سَعْد بْن إِبْرَاهِيم بْن عَبْد الرَّحْمَن بْن عَوْف ، وَلِيَعْقُوب فِيهِ شَيْخ آخَر أَخْرَجَهُ مُسْلِم مِنْ طَرِيقه أَيْضًا عَنْ اِبْن أَخِي اِبْن شِهَاب عَنْ عَمّه وَهِيَ أَعْلَى مِنْ رِوَايَته إِيَّاهُ عَنْ أَبِيهِ عَنْ

" صَالِح "

وَهُوَ اِبْن كَيْسَان عَنْ اِبْن شِهَاب الزُّهْرِيّ .

قَوْله ( أَرْسَلَ إِلَى الْأَنْصَار فَجَمَعَهُمْ فِي قُبَّة )

(218/244)

---

كَذَا أَوْرَدَهُ مُخْتَصَرًا ، وَقَدْ أَخْرَجَهُ مُسْلِم مِنْ هَذَا الْوَجْه وَقَالَ فِي أَوَّله " لَمَّا أَفَاءَ اللَّه عَلَى رَسُوله مَا أَفَاءَ مِنْ أَمْوَال هَوَازِن " ثُمَّ أَحَالَ بِبَقِيَّتِهِ عَلَى الرِّوَايَة الَّتِي قَبْلَهَا مِنْ طَرِيق يُونُس عَنْ الزُّهْرِيّ " فَطَفِقَ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعْطِي رِجَالًا مِنْ قُرَيْش " فَذَكَرَ الْحَدِيث فِي مُعَاتَبَتهمْ ، وَفِي آخِره " فَقَالُوا بَلَى يَا رَسُول اللَّه رَضِينَا ، قَالَ فَإِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ بَعْدِي أَثَرَة شَدِيدَة فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْا اللَّه وَرَسُوله ، فَإِنِّي عَلَى الْحَوْض " وَقَدْ تَقَدَّمَ مِنْ وَجْه آخَر فِي غَزْوَة حُنَيْن وَسَاقَهُ مِنْ حَدِيث عَبْد اللَّه بْن زَيْد بْن عَاصِم أَتَمّ مِنْهُ ، وَتَقَدَّمَ شَرْحه مُسْتَوْفًى هُنَاكَ بِحَمْدِ اللَّه تَعَالَى . وَالْغَرَض مِنْهُ هُنَا قَوْله " حَتَّى تَلْقَوْا اللَّه وَرَسُوله " فَإِنَّهَا زِيَادَة لَمْ تَقَعْ فِي بَقِيَّة الطُّرُق ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَائِل الْفِتَن مِنْ رِوَايَة أَنَس عَنْ أُسَيْد بْن الْحُضَيْر فِي قِصَّة فِيهَا " فَسَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَة فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي " وَتَرْجَمَ لَهُ فِي مَنَاقِب الْأَنْصَار : بَاب قَوْل النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْنِي لِلْأَنْصَارِ " اِصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْض " قَالَ الرَّاغِب : اللِّقَاء مُقَابَلَة الشَّيْء وَمُصَادَفَته ، لَقِيَهُ يَلْقَاهُ وَيُقَال أَيْضًا فِي الْإِدْرَاك بِالْحِسِّ وَبِالْبَصِيرَةِ ، وَمِنْهُ ( وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْت مِنْ قَبْل أَنْ تَلْقَوْهُ ) وَمُلَاقَاة اللَّه يُعَبَّر بِهَا عَنْ الْمَوْت وَعَنْ يَوْم الْقِيَامَة ، وَقِيلَ لِيَوْمِ الْقِيَامَة يَوْم التَّلَاقِي

(219/244)

لِالْتِقَاءِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِيهِ .

6888 - عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي الدُّعَاء عِنْد قِيَام اللَّيْل وَقَدْ تَقَدَّمَ شَرْحه فِي أَوَائِل "كِتَاب التَّهَجُّد " مُسْتَوْفًى ، وَالْغَرَض مِنْهُ قَوْله " وَلِقَاءَك حَقّ " وَقَدْ ذَكَرْت مَا يَتَعَلَّق بِاللِّقَاءِ فِي الَّذِي قَبْله

" وَسُفْيَان "

فِي سَنَده هُوَ الثَّوْرِيّ ،

" وَسُلَيْمَان "

هُوَ اِبْن أَبِي مُسْلِم ، وَقَوْله فِيهِ " وَقَالَ قَيْس بْن سَعْد وَأَبُو الزُّبَيْر عَنْ طَاوُسٍ قِيَام " يُرِيد أَنَّ قَيْس بْن سَعْد رَوَى هَذَا الْحَدِيث عَنْ طَاوُسٍ عَنْ اِبْن عَبَّاس ، فَوَقَعَ عِنْده بَدَل قَوْله : أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَات وَالْأَرْض : " أَنْتَ قَيَّام السَّمَاوَات وَالْأَرْض " وَكَذَلِكَ أَبُو الزُّبَيْر عَنْ طَاوُسٍ وَطَرِيق قَيْس وَصَلَهَا مُسْلِم وَأَبُو دَاوُدَ مِنْ طَرِيق عِمْرَان بْن مُسْلِم عَنْ قَيْس وَلَمْ يَسُوقَا لَفْظه وَسَاقَهَا النَّسَائِيّ كَذَلِكَ وَأَبُو نُعَيْم فِي الْمُسْتَخْرَج ، وَرِوَايَة أَبِي الزُّبَيْر وَصَلَهَا مَالِك فِي الْمُوَطَّأ عَنْهُ وَأَخْرَجَهَا مُسْلِم مِنْ طَرِيقه وَلَفْظه : " قَيَّام السَّمَاوَات وَالْأَرْض " .

قَوْله ( وَقَالَ مُجَاهِد : الْقَيُّوم : الْقَائِم عَلَى شَيْء )

وَصَلَهُ الْفِرْيَابِيّ فِي تَفْسِيره عَنْ وَرْقَاء عَنْ اِبْن أَبِي نَجِيح عَنْ مُجَاهِد بِهَذَا ، قَالَ الْحَلِيمِيّ : الْقَيُّوم الْقَائِم عَلَى كُلّ شَيْء مِنْ خَلْقه يُدَبِّرهُ بِمَا يُرِيد ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَة بْن الْمُثَنَّى : الْقَيُّوم فَيْعُول

وَهُوَ الْقَائِم الَّذِي لَا يَزُول ، وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ : الْقَيُّوم نَعْت لِلْمُبَالَغَةِ فِي الْقِيَام عَلَى كُلّ شَيْء فَهُوَ الْقَيِّم عَلَى كُلّ شَيْء بِالرِّعَايَةِ لَهُ .

قَوْله ( وَقَرَأَ عُمَر الْقَيَّام )

(220/244)

---

قُلْت تَقَدَّمَ ذِكْر مَنْ وَصَلَهُ عَنْ عُمَر فِي تَفْسِير سُورَة نُوح .

قَوْله ( وَكِلَاهُمَا مَدْح )

أَيْ الْقَيُّوم وَالْقَيَّام ؛ لِأَنَّهُمَا مِنْ صِيَغ الْمُبَالَغَة .

(221/244)

---

6889 - حَدِيث عَدِيّ بْن حَاتِم " مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَد إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبّه لَيْس بَيْنه وَبَيْنه تُرْجُمَان " وَقَوْله فِي سَنَده عَنْ خَيْثَمَةَ فِي رِوَايَة حَفْص بْن غِيَاث عَنْ الْأَعْمَش : حَدَّثَنِي خَيْثَمَة بْن عَبْد الرَّحْمَن كَمَا تَقَدَّمَ فِي " كِتَاب الرِّقَاق " وَسِيَاقه هُنَاكَ أَتَمّ ، وَسَيَأْتِي أَيْضًا مِنْ وَجْه آخَر عَنْ الْأَعْمَش وَقَوْله " وَلَا حِجَاب يَحْجُبهُ " فِي رِوَايَة الْكُشْمِيهَنِيّ " وَلَا

حَاجِب " قَالَ اِبْن بَطَّال مَعْنَى رَفْع الْحِجَاب إِزَالَة الْآفَة مِنْ أَبْصَار الْمُؤْمِنِينَ الْمَانِعَة لَهُمْ مِنْ الرُّؤْيَة فَيَرَوْنَهُ لِارْتِفَاعِهَا عَنْهُمْ بِخَلْقِ ضِدّهَا فِيهِمْ ، وَيُشِير إِلَيْهِ قَوْله تَعَالَى فِي حَقّ الْكُفَّار ( كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ) وَقَالَ الْحَافِظ صَلَاح الدِّين الْعَلَائِيّ فِي شَرْح قَوْله فِي قِصَّة مُعَاذ " وَاتَّقِ دَعْوَة الْمَظْلُوم فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنهَا وَبَيْن اللَّه حِجَاب " الْمُرَاد بِالْحَاجِبِ وَالْحِجَاب نَفْي الْمَانِع مِنْ الرُّؤْيَة كَمَا نَفَى عَدَم إِجَابَة دُعَاء الْمَظْلُوم ثُمَّ اِسْتَعَارَ الْحِجَاب لِلرَّدِّ فَكَانَ نَفْيه دَلِيلًا عَلَى ثُبُوت الْإِجَابَة وَالتَّعْبِير بِنَفْيِ الْحِجَاب أَبْلَغ مِنْ التَّعْبِير بِالْقَبُولِ ؛ لِأَنَّ الْحِجَاب مِنْ شَأْنه الْمَنْع مِنْ الْوُصُول إِلَى الْمَقْصُود فَاسْتُعِيرَ نَفْيه لِعَدَمِ الْمَنْع ، وَيَتَخَرَّج كَثِير مِنْ أَحَادِيث الصِّفَات عَلَى الِاسْتِعَارَة التَّخْيِيلِيَّة ، وَهِيَ أَنْ يَشْتَرِك شَيْئَانِ فِي وَصْف ثُمَّ يُعْتَمَد لَوَازِم أَحَدهمَا حَيْث تَكُون جِهَة الِاشْتِرَاك وَصْفًا فَيَثْبُت كَمَاله فِي الْمُسْتَعَار بِوَاسِطَةِ شَيْء آخَر فَيَثْبُت ذَلِكَ لِلْمُسْتَعَارِ

(222/244)

---

مُبَالَغَة فِي إِثْبَات الْمُشْتَرَك ، قَالَ : وَبِالْحَمْلِ عَلَى هَذِهِ الِاسْتِعَارَة التَّخْيِيلِيَّة يَحْصُل التَّخَلُّص مِنْ مَهَاوِي التَّجَسُّم ، قَالَ : وَيَحْتَمِل أَنْ يُرَاد بِالْحِجَابِ اِسْتِعَارَة مَحْسُوس لِمَعْقُولٍ ؛ لِأَنَّ الْحِجَاب حِسِّيّ وَالْمَنْع عَقْلِيّ ، قَالَ : وَقَدْ وَرَدَ ذِكْر الْحِجَاب فِي عِدَّة أَحَادِيث صَحِيحَة

وَاللَّهُ سُبْحَانه وَتَعَالَى مُنَزَّهٌ عَمَّا يَحْجُبهُ إِذْ الْحِجَاب إِنَّمَا يُحِيط بِمُقَدَّرٍ مَحْسُوس ؛ وَلَكِنَّ الْمُرَاد بِحِجَابِهِ مَنْعه أَبْصَار خَلْقه وَبَصَائِرهمْ بِمَا شَاءَ مَتَى شَاءَ كَيْف شَاءَ ، وَإِذَا شَاءَ كَشَفَ ذَلِكَ عَنْهُمْ ، وَيُؤَيِّدهُ قَوْله فِي الْحَدِيث الَّذِي بَعْده " وَمَا بَيْن الْقَوْم وَبَيْن أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبّهمْ إِلَّا رِدَاء الْكِبْرِيَاء عَلَى وَجْهه " فَإِنَّ ظَاهِره لَيْس مُرَادًا قَطْعًا فَهِيَ اِسْتِعَارَة جَزْمًا وَقَدْ يَكُون الْمُرَاد بِالْحِجَابِ فِي بَعْض الْأَحَادِيث الْحِجَاب الْحِسِّيّ لَكِنَّهُ بِالنِّسْبَةِ لِلْمَخْلُوقِينَ وَالْعِلْم عِنْد اللَّه تَعَالَى ، وَنَقَلَ الطِّيبِيُّ فِي شَرْح حَدِيث أَبِي مُوسَى عِنْد مُسْلِم " حِجَابه النُّور لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهه مَا أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ " أَنَّ فِيهِ إِشَارَة إِلَى أَنَّ حِجَابه خِلَاف الْحُجُب الْمَعْهُودَة فَهُوَ مُحْتَجِبٌ عَنْ الْخَلْق بِأَنْوَارِ عِزّه وَجَلَاله وَأَشِعَّة عَظَمَته وَكِبْرِيَائِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْحِجَاب الَّذِي تَدْهَش دُونه الْعُقُول وَتَبْهَت الْأَبْصَار وَتَتَحَيَّر الْبَصَائِر ، فَلَوْ كَشَفَهُ فَتَجَلَّى لِمَا وَرَاءَهُ بِحَقَائِقِ الصِّفَات وَعَظَمَة الذَّات لَمْ يَبْقَ مَخْلُوق إِلَّا اِحْتَرَقَ ، وَلَا مَنْظُور إِلَّا اِضْمَحَلَّ ، وَأَصْل الْحِجَاب

(223/244)

---

السِّتْر الْحَائِل بَيْن الرَّائِي وَالْمَرْئِيّ ، وَالْمُرَاد بِهِ هُنَا مَنْع الْأَبْصَار مِنْ الرُّؤْيَة لَهُ بِمَا ذُكِرَ فَقَامَ ذَلِكَ الْمَنْع مَقَام السِّتْر الْحَائِل فَعَبَّرَ بِهِ عَنْهُ ، وَقَدْ ظَهَرَ مِنْ نُصُوص الْكِتَاب وَالسُّنَّة أَنَّ الْحَالَة

الْمُشَار إِلَيْهَا فِي هَذَا الْحَدِيث هِيَ فِي دَار الدُّنْيَا الْمُعَدَّة لِلْفَنَاءِ دُون دَار الْآخِرَة الْمُعَدَّة لِلْبَقَاءِ ، وَالْحِجَاب فِي هَذَا الْحَدِيث وَغَيْره يَرْجِع إِلَى الْخَلْق ؛ لِأَنَّهُمْ هُمْ الْمَحْجُوبُونَ عَنْهُ ، وَقَالَ النَّوَوِيّ : أَصْل الْحِجَاب الْمَنْع مِنْ الرُّؤْيَة ، وَالْحِجَاب فِي حَقِيقَة اللُّغَة السِّتْر ، وَإِنَّمَا يَكُون فِي الْأَجْسَام وَاللَّهُ سُبْحَانه مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ ، فَعُرِفَ أَنَّ الْمُرَاد الْمَنْع مِنْ رُؤْيَته وَذَكَرَ النُّور ؛ لِأَنَّهُ يَمْنَع مِنْ الْإِدْرَاك فِي الْعَادَة لِشُعَاعِهِ ، وَالْمُرَاد بِالْوَجْهِ الذَّات وَبِمَا اِنْتَهَى إِلَيْهِ بَصَره جَمِيع الْمَخْلُوقَات ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانه مُحِيط بِجَمِيعِ الْكَائِنَات .

6890 - حَدِيث أَبِي مُوسَى

" وَعَبْد الْعَزِيز بْن عَبْد الصَّمَد "

هُوَ اِبْن عَبْد الصَّمَد الْعَمِّيّ بِفَتْحِ الْمُهْمَلَة وَتَشْدِيد الْمِيم ، " وَأَبُو عِمْرَان " هُوَ عَبْد الْمَلِك بْن حَبِيب الْجَوْنِيّ ، " وَأَبُو بَكْر " هُوَ اِبْن أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيّ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذَلِكَ فِي تَفْسِير سُورَة الرَّحْمَن .

قَوْله ( جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَب آنِيَتهمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّة آنِيَتهمَا وَمَا فِيهِمَا )

فِي رِوَايَة حَمَّاد بْن سَلَمَة عَنْ ثَابِت الْبُنَانِيّ عَنْ أَبِي بَكْر بْن أَبِي مُوسَى عَنْ أَبِيهِ قَالَ حَمَّاد : لَا أَعْلَمهُ إِلَّا قَدْ رَفَعَهُ قَالَ : " جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ لِلْمُقَرَّبِينَ وَمِنْ دُونهمَا جَنَّتَانِ مِنْ وَرِق لِأَصْحَابِ الْيَمِين " أَخْرَجَهُ الطَّبَرِيُّ وَابْن أَبِي حَاتِم وَرِجَاله ثِقَات وَفِيهِ رَدّ عَلَى مَا حَكَيْته عَلَى التِّرْمِذِيّ الْحَكِيم أَنَّ الْمُرَاد بِقَوْلِهِ تَعَالَى ( وَمِنْ دُونهمَا جَنَّتَانِ ) الدُّنُوّ بِمَعْنَى الْقُرْب لَا أَنَّهُمَا دُون الْجَنَّتَيْنِ الْمَذْكُورَتَيْنِ قَبْلهمَا ، وَصَرَّحَ جَمَاعَة بِأَنَّ الْأُولَيَيْنِ أَفْضَل مِنْ الْأُخْرَيَيْنِ ، وَعَكَسَ بَعْض الْمُفَسِّرِينَ ، وَالْحَدِيث حُجَّة لِلْأَوَّلِينَ ، قَالَ الطَّبَرِيُّ : اُخْتُلِفَ فِي قَوْله ( وَمِنْ دُونهمَا جَنَّتَانِ ) فَقَالَ بَعْضهمْ : مَعْنَاهُ فِي الدَّرَجَة ، وَقَالَ آخَرُونَ مَعْنَاهُ فِي الْفَضْل ، وَقَوْله جَنَّتَانِ إِشَارَة إِلَى قَوْله تَعَالَى ( وَمِنْ دُونهمَا جَنَّتَانِ ) وَتَفْسِير لَهُ ، وَهُوَ خَبَر مُبْتَدَأ مَحْذُوف أَيْ هُمَا جَنَّتَانِ ، وَآنِيَتهمَا مُبْتَدَأ ، وَمِنْ فِضَّة خَبَره ، قَالَهُ الْكَرْمَانِيُّ قَالَ : وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون فَاعِل فِضَّة كَمَا قَالَ ابْن مَالِك مَرَرْت بِوَاد إِبِل كُلّه ، أَنَّ كُلّه فَاعِل أَيْ جَنَّتَانِ مُفَضَّض آنِيَتهمَا اِنْتَهَى . وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون بَدَل اِشْتِمَال ، وَظَاهِر الْأَوَّل أَنَّ الْجَنَّتَيْنِ مِنْ ذَهَب لَا فِضَّة فِيهِمَا وَبِالْعَكْسِ ، وَيُعَارِضهُ حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة : قُلْنَا يَا رَسُول اللَّه حَدِّثْنَا عَنْ الْجَنَّة مَا بِنَاؤُهَا ؟ قَالَ : لَبِنَة مِنْ ذَهَب وَلَبِنَة مِنْ فِضَّة ، الْحَدِيث أَخْرَجَهُ أَحْمَد وَالتِّرْمِذِيّ وَصَحَّحَهُ

(225/244)

اِبْن حِبَّان ، وَلَهُ شَاهِد عَنْ اِبْن عُمَر أَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ وَسَنَده حَسَن وَآخَر عَنْ أَبِي سَعِيد أَخْرَجَهُ الْبَزَّار وَلَفْظه " خَلَقَ اللَّه الْجَنَّة لَبِنَة مِنْ ذَهَب وَلَبِنَة مِنْ فِضَّة " الْحَدِيث ، وَيُجْمَع بِأَنَّ الْأَوَّل صِفَة مَا فِي كُلّ جَنَّة مِنْ آنِيَة وَغَيْرهَا ، وَالثَّانِي صِفَة حَوَائِط الْجِنَان كُلّهَا ، وَيُؤَيِّدهُ أَنَّهُ وَقَعَ عِنْد الْبَيْهَقِيّ فِي الْبَعْث فِي حَدِيث أَبِي سَعِيد " أَنَّ اللَّه أَحَاطَ حَائِط الْجَنَّة لَبِنَة مِنْ ذَهَب وَلَبِنَة مِنْ فِضَّة " وَعَلَى هَذَا فَقَوْله " آنِيَتهمَا وَمَا فِيهِمَا " بَدَل مِنْ قَوْله " مِنْ ذَهَب " وَيَتَرَجَّح الِاحْتِمَال الثَّانِي .

قَوْله ( وَمَا بَيْن الْقَوْم وَبَيْن أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبّهمْ إِلَّا رِدَاء الْكِبْرِيَاء عَلَى وَجْهه )

(226/244)

---

قَالَ الْمَازِرِيّ : كَانَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُخَاطِب الْعَرَب بِمَا تَفْهَم وَيُخْرِج لَهُمْ الْأَشْيَاء الْمَعْنَوِيَّة إِلَى الْحِسّ لِيُقَرِّبَ تَنَاوُلهمْ لَهَا ، فَعَبَّرَ عَنْ زَوَال الْمَوَانِع وَرَفْعه عَنْ الْأَبْصَار بِذَلِكَ ، وَقَالَ عِيَاض : كَانَتْ الْعَرَب تَسْتَعْمِل الِاسْتِعَارَة كَثِيرًا ، وَهُوَ أَرْفَع أَدَوَات بَدِيع فَصَاحَتهَا وَإِيجَازهَا ، وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى ( جَنَاح الذُّلّ ) فَمُخَاطَبَة النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُمْ بِرِدَاءِ الْكِبْرِيَاء عَلَى وَجْهه وَنَحْو ذَلِكَ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى ، وَمَنْ لَمْ يَفْهَم ذَلِكَ تَاهَ فَمَنْ أَجْرَى الْكَلَام عَلَى ظَاهِره أَفْضَى بِهِ الْأَمْر إِلَى التَّجْسِيم وَمَنْ لَمْ يَتَّضِح لَهُ وَعَلِمَ أَنَّ اللَّه مُنَزَّهٌ

عَنْ الَّذِي يَقْتَضِيه ظَاهِرهَا إِمَّا أَنْ يُكَذِّب نَقَلَتهَا وَإِمَّا أَنْ يُؤَوِّلهَا كَأَنْ يَقُول اِسْتِعَار لِعَظِيم سُلْطَان اللَّه وَكِبْرِيَائِهِ وَعَظَمَته وَهَيْبَته وَجَلَاله الْمَانِع إِدْرَاك أَبْصَار الْبَشَر مَعَ ضَعْفهَا لِذَلِكَ رِدَاء الْكِبْرِيَاء ، فَإِذَا شَاءَ تَقْوِيَة أَبْصَارهمْ وَقُلُوبهمْ كَشَفَ عَنْهُمْ حِجَاب هَيْبَته وَمَوَانِع عَظَمَته اِنْتَهَى مُلَخَّصًا . وَقَالَ الطِّيبِيُّ قَوْله " عَلَى وَجْهه " : حَال مِنْ رِدَاء الْكِبْرِيَاء ، وَقَالَ الْكَرْمَانِيُّ : هَذَا الْحَدِيث مِنْ الْمُتَشَابِهَات فَإِمَّا مُفَوَّض وَإِمَّا مُتَأَوَّل بِأَنَّ الْمُرَاد بِالْوَجْهِ الذَّات ، وَالرِّدَاء صِفَة مِنْ صِفَة الذَّات اللَّازِمَة الْمُنَزَّهَة عَمَّا يُشْبِه الْمَخْلُوقَات ، ثُمَّ اِسْتَشْكَلَ ظَاهِره بِأَنَّهُ يَقْتَضِي أَنَّ رُؤْيَة اللَّه غَيْر وَاقِعَة ، وَأَجَابَ بِأَنَّ مَفْهُومه بَيَان قُرْب النَّظَر

(227/244)

---

إِذْ رِدَاء الْكِبْرِيَاء لَا يَكُون مَانِعًا مِنْ الرُّؤْيَة فَعَبَّرَ عَنْ زَوَال الْمَانِع عَنْ الْإِبْصَار بِإِزَالَةِ الْمُرَاد اِنْتَهَى . وَحَاصِله : أَنَّ رِدَاء الْكِبْرِيَاء مَانِع عَنْ الرُّؤْيَة فَكَأَنَّ فِي الْكَلَام حَذْفًا تَقْدِيره بَعْد قَوْله إِلَّا رِدَاء الْكِبْرِيَاء : فَإِنَّهُ يَمُنّ عَلَيْهِمْ بِرَفْعِهِ فَيَحْصُل لَهُمْ الْفَوْز بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ ، فَكَأَنَّ الْمُرَاد أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا تَبَوَّؤُا مَقَاعِدهمْ مِنْ الْجَنَّة لَوْلَا مَا عِنْدهمْ مِنْ هَيْبَة ذِي الْجَلَال لَمَا حَال بَيْنهمْ وَبَيْن الرُّؤْيَة حَائِل ، فَإِذَا أَرَادَ إِكْرَامهمْ حَفَّهُمْ بِرَأْفَتِهِ وَتَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ بِتَقْوِيَتِهِمْ عَلَى النَّظَرِ إِلَيْهِ سُبْحَانه ، ثُمَّ وَجَدْت فِي حَدِيث صُهَيْبٍ فِي تَفْسِير قَوْله تَعَالَى ( لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى

وَزِيَادَة ) مَا يَدُلّ عَلَى أَنَّ الْمُرَاد بِرِدَاءِ الْكِبْرِيَاء فِي حَدِيث أَبِي مُوسَى الْحِجَاب الْمَذْكُور فِي حَدِيث صُهَيْب ، وَأَنَّهُ سُبْحَانه يَكْشِف لِأَهْلِ الْجَنَّة إِكْرَامًا لَهُمْ ، وَالْحَدِيث عِنْد مُسْلِم وَالتِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ وَابْن خُزَيْمَة وَابْن حِبَّان وَلَفْظ مُسْلِم " أَنَّ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : إِذَا دَخَلَ أَهْل الْجَنَّة الْجَنَّة ، يَقُول اللَّه عَزَّ وَجَلَّ : تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهنَا وَتُدْخِلنَا الْجَنَّة ؟ قَالَ : فَيَكْشِف لَهُمْ الْحِجَاب فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبّ إِلَيْهِمْ مِنْهُ ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَة ( لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَة ) أَخْرَجَهُ مُسْلِم عَقِب حَدِيث أَبِي مُوسَى ، وَلَعَلَّهُ أَشَارَ إِلَى تَأْوِيله بِهِ ، وَقَالَ الْقُرْطُبِيّ

(228/244)

---

: فِي الْمُفْهِم الرِّدَاء اِسْتِعَارَة كُنِّيَ بِهَا عَنْ الْعَظَمَة كَمَا فِي الْحَدِيث الْآخَر " الْكِبْرِيَاء رِدَائِي وَالْعَظَمَة إِزَارِي " وَلَيْسَ الْمُرَاد الثِّيَاب الْمَحْسُوسَة ؛ لَكِنَّ الْمُنَاسَبَة أَنَّ الرِّدَاء وَالْإِزَار لَمَّا كَانَا مُتَلَازِمَيْنِ لِلْمُخَاطَبِ مِنْ الْعَرَب عَبَّرَ عَنْ الْعَظَمَة وَالْكِبْرِيَاء بِهِمَا ، وَمَعْنَى حَدِيث الْبَاب أَنَّ مُقْتَضَى عِزَّة اللَّه وَاسْتِغْنَائِهِ أَنْ لَا يَرَاهُ أَحَد لَكِنَّ رَحْمَته لِلْمُؤْمِنِينَ اقْتَضَتْ أَنْ يُرِيَهُمْ وَجْهه كَمَالًا لِلنِّعْمَةِ ، فَإِذَا زَالَ الْمَانِع فَعَلَ مَعَهُمْ خِلَاف مُقْتَضَى الْكِبْرِيَاء فَكَأَنَّهُ رَفَعَ عَنْهُمْ حِجَابًا كَانَ يَمْنَعهُمْ ، وَنَقَلَ الطَّبَرِيُّ عَنْ عَلِيّ وَغَيْره فِي قَوْله تَعَالَى ( وَلَدَيْنَا مَزِيد ) قَالَ هُوَ النَّظَر إِلَى

وَجْه اللَّهِ .

قَوْله ( فِي جَنَّة عَدْن )

(229/244)

---

قَالَ اِبْن بَطَّال : لَا تَعَلُّق لِلْمُجَسِّمَةِ فِي إِثْبَات الْمَكَان لِمَا ثَبَتَ مِنْ اِسْتِحَالَة أَنْ يَكُون سُبْحَانه جِسْمًا أَوْ حَالًا فِي مَكَان ، فَيَكُون تَأْوِيل الرِّدَاء : الْآفَة الْمَوْجُودَة لِأَبْصَارِهِمْ الْمَانِعَة لَهُمْ مِنْ رُؤْيَته ، وَإِزَالَتهَا فِعْل مِنْ أَفْعَاله يَفْعَلهُ فِي مَحَلّ رُؤْيَتهمْ فَلَا يَرَوْنَهُ مَا دَامَ ذَلِكَ الْمَانِع مَوْجُودًا ، فَإِذَا فَعَلَ الرُّؤْيَة زَالَ ذَلِكَ الْمَانِع وَسَمَّاهُ رِدَاء لِتَنَزُّلِهِ فِي الْمَنْع مَنْزِلَة الرِّدَاء الَّذِي يَحْجُب الْوَجْه عَنْ رُؤْيَته فَأَطْلَقَ عَلَيْهِ الرِّدَاء مَجَازًا ، وَقَوْله " فِي جَنَّة عَدْن " رَاجِع إِلَى الْقَوْم ، وَقَالَ عِيَاض مَعْنَاهُ رَاجِع إِلَى النَّاظِرِينَ أَيْ وَهُمْ فِي جَنَّة عَدْن لَا إِلَى اللَّه فَإِنَّهُ لَا تَحْوِيه الْأَمْكِنَة سُبْحَانه ، وَقَالَ الْقُرْطُبِيّ يَتَعَلَّق بِمَحْذُوفٍ فِي مَوْضِع الْحَال مِنْ الْقَوْم مِثْل كَائِنِينَ ، فِي جَنَّة عَدْن ، وَقَالَ الطِّيبِيُّ : قَوْله " فِي جَنَّة عَدْن مُتَعَلِّق بِمَعْنَى الِاسْتِقْرَار فِي الظَّرْف فَيُقَيَّد بِالْمَفْهُومِ اِنْتِفَاء هَذَا الْحَصْر فِي غَيْر الْجَنَّة ، وَإِلَيْهِ أَشَارَ التُّورِبَشْتِيُّ بِقَوْلِهِ : يُشِير إِلَى أَنَّ الْمُؤْمِن إِذَا تَبَوَّأَ مَقْعَده وَالْحُجُب مُرْتَفِعَة وَالْمَوَانِع الَّتِي تَحْجُب عَنْ النَّظَر إِلَى رَبّه مُضْمَحِلَّة إِلَّا مَا يَصُدّهُمْ مِنْ الْهَيْبَة كَمَا قِيلَ : أَشْتَاقُهُ فَإِذَا بَدَا أَطْرَقْت مِنْ إِجْلَاله فَإِذَا حَفَّهُمْ بِرَأْفَتِهِ

وَرَحْمَته رَفَعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ تَفَضُّلًا مِنْهُ عَلَيْهِمْ .

6891 - عَنْ " عَبْد اللَّه " وَهُوَ اِبْنُ مَسْعُود .

قَوْله ( قَالَ عَبْد اللَّه )

(230/244)

---

وَهُوَ اِبْن مَسْعُود رَاوِيه ، وَهُوَ مَوْصُولٌ بِالسَّنَدِ الْمَذْكُور .

قَوْله ( مِصْدَاقه )

أَيْ الْحَدِيث ، وَمِصْدَاق بِكَسْرِ أَوَّله مِفْعَال مِنْ الصِّدْق بِمَعْنَى الْمُوَافَقَة .

قَوْله ( إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ - إِلَى أَنْ قَالَ - وَلَا يُكَلِّمهُمْ اللَّه الْآيَة )

كَذَا لِأَبِي ذَرّ وَغَيْره وَالْمُرَاد هُنَا مِنْ هَذِهِ الْآيَة قَوْله بَعْده ( وَلَا يَنْظُر إِلَيْهِمْ ) وَيُؤْخَذ مِنْهُ تَفْسِير قَوْله " لَقِيَ اللَّه وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَان " وَمُقْتَضَاهُ أَنَّ الْغَضَب سَبَب لِمَنْعِ الْكَلَام ، وَالرُّؤْيَة وَالرِّضَا سَبَب لِوُجُودِهِمَا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ شَرْح هَذَا الْحَدِيث فِي " كِتَاب الْأَيْمَان وَالنُّذُور " .

6892 - حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة .

قَوْله ( عَنْ عَمْرو )

هُوَ اِبْن دِينَار الْمَكِّيّ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ هَذَا الْحَدِيث سَنَدًا وَمَتْنًا فِي " كِتَاب الشُّرْب " وَتَقَدَّمَ

شَرْحه مُسْتَوْفًى فِي أَوَاخِر الْأَحْكَام .

6893 - حَدِيث أَبِي بَكْرَة

" وَعَبْد الْوَهَّاب "

فِي سَنَده هُوَ اِبْن عَبْد الْمَجِيد الثَّقَفِيّ ،

" وَأَيُّوب "

هُوَ السِّخْتِيَانِيّ ،

" وَمُحَمَّد "

هُوَ اِبْن سِيرِينَ ،

" وَابْن أَبِي بَكْرَة "

(231/244)

---

هُوَ عَبْد الرَّحْمَن كَمَا وَقَعَ التَّصْرِيح بِهِ فِي " كِتَاب الْحَجّ " وَالسَّنَد كُلّه بَصْرِيُّونَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بِعَيْنِهِ فِي بَدْء الْخَلْق وَفِي الْمَغَازِي ، وَأَغْفَلَ الْمِزِّيُّ ذِكْر هَذَا السَّنَد فِي التَّوْحِيد وَفِي الْمَغَازِي وَهُوَ ثَابِت فِيهِمَا ، وَزَعَمَ أَنَّهُ أَخْرَجَهُ فِي التَّفْسِير عَنْ أَبِي مُوسَى وَلَمْ أَرَهُ فِي التَّفْسِير مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَذْكُر مِنْهُ فِي بَدْء الْخَلْق إِلَّا قِطْعَة يَسِيرَة إِلَى قَوْله : " وَشَعْبَان " وَسَاقَهُ

بِتَمَامِهِ فِي الْمَغَازِي ، " وَهُنَا " إِلَّا أَنَّهُ سَقَطَ مِنْ وَسَطِهِ هُنَا عِنْدَ أَبِي ذَرٍّ عَنْ السَّرَخْسِيِّ ، قَوْلَهُ قَالَ : " فَأَيُّ يَوْمٍ هَذَا – إِلَى قَوْلِهِ – قَالَ فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ " وَقَدْ تَقَدَّمَ شَرْحُهُ مُفَرَّقًا ، أَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِأَوَّلِهِ وَهُوَ " أَنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ " فَفِي تَفْسِيرِ سُورَةِ بَرَاءَةَ ، وَأَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْبَلَدِ الْحَرَامِ . فَفِي بَابِ الْخُطْبَةِ أَيَّامَ مِنًى مِنْ " كِتَابِ الْحَجِّ " وَأَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِالنَّهْيِ عَنْ ضَرْبِ بَعْضِهِمْ رِقَابَ بَعْضٍ فَفِي " كِتَابِ الْفِتَنِ " ، وَأَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْحَثِّ عَلَى التَّبْلِيغِ فَفِي " كِتَابِ الْعِلْمِ " وَالْمُرَادُ مِنْهُ هُنَا قَوْلُهُ " وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ " وَقَدْ ذَكَرْتُ مَا فُسِّرَ بِهِ اللِّقَاءُ فِي الْحَدِيثِ الْخَامِسِ ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ .

*(232/244)*

---

( تَكْمِلَةٌ ) :

جَمَعَ الدَّارَقُطْنِيُّ طُرُقَ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي رُؤْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْآخِرَةِ فَزَادَتْ عَلَى الْعِشْرِينَ ، وَتَبِعَهَا ابْنُ الْقَيِّمِ فِي حَادِي الْأَرْوَاحِ فَبَلَغَتْ الثَّلَاثِينَ وَأَكْثَرُهَا جِيَادٌ (1) ، وَأَسْنَدَ الدَّارَقُطْنِيُّ عَنْ يَحْيَى بْنِ مَعِينٍ قَالَ عِنْدِي سَبْعَةَ عَشَرَ حَدِيثًا فِي الرُّؤْيَةِ صِحَاحٌ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ فتح الباري حـ 13 صـ 424.434 ﴾

---

(1) سيأتي ذكر هذا الباب بتمامه إن شاء الله تعالى .

---

كلام نفيس وجامع للإمام ابن القيم

قال عليه الرحمة ما نصه :

الباب الخامس والستون : في رؤيتهم ربهم تبارك وتعالى بأبصارهم جهرة كما يرى القمر ليلة البدر وتجليه لهم ضاحكا إليهم هذا الباب اشرف أبواب الكتاب واجلها قدرا وأعلاها خطرا واقرها عينا أهل السنة والجماعة وأشدها على أهل البدعة والضلالة وهي الغاية التي شمر إليها المشمرون وتنافس فيها المتنافسون وتسابق إليها المتسابقون ولمثلها فليعمل العاملون إذا ناله أهل الجنة نسوا ما هم فيه من النعيم وحرمانه والحجاب عنه لأهل الجحيم اشد عليهم من عذاب الجحيم اتفق عليها الأنبياء والمرسلون وجميع الصحابة والتابعون وأئمة الإسلام على تتابع القرون وأنكرها أهل البدع المارقون والجهمية المتهوكون والفرعونية المعطلون والباطنية الذين هم من جميع الأديان منسلخون والرافضة الذين هم بجبائل الشيطان متمسكون ومن حبل الله منقطعون وعلى مسبة أصحاب رسول الله عاكفون وللسنة وأهلها محاربون ولكل عدو لله ورسوله ودينه مسالمون وكل هؤلاء عن ربهم محجوبون وعن بابه مطرودون أولئك أحزاب الضلال وشيعة اللعين وأعداء الرسول

وحزبه وقد اخبر الله سبحانه وتعالى عن أعلم الخلق به في زمانه وهو كليمه ونجيه وصفيه من أهل الأرض أنه سال ربه تعالى النظر إليه فقال له ربه تبارك وتعالى: ﴿ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ وبيان الدلالة من هذه الآية من وجوه عديدة

أحدها أنه لا يظن بكليم الرحمن ورسوله الكريم عليه أن يسأل ربه ما لا

*(234/244)*

---

يجوز عليه بل ما هو من أبطل الباطل وأعظم المحال وهو عند فروخ اليونان والصابئة والفرعونية بمنزلة أن يسأله أن يأكل ويشرب وينام ونحو ذلك مما يتعالى الله عنه فيا لله العجب كيف صار أتباع الصابئة والمجوس والمشركين عباد الأصنام وفروخ الجهمية والفرعونية أعلم بالله تعالى من موسى بن عمران وبما يستحيل عليه ويجب له واشد تنزيها له منه الوجه الثاني إن الله سبحانه وتعالى لم ينكر عليه سؤاله ولو كان محالا لأنكره عليه ولهذا لما سال إبراهيم الخليل ربه تبارك وتعالى أن يريه كيف يحيي الموتى لم ينكر عليه ولما سأل عيسى بن مريم ربه إنزال المائدة من السماء لم ينكر عليه سؤاله ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر عليه سؤاله وقال: ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما

ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني اكن من الخاسرين الوجه الثالث أنه أجابه بقوله لن ترني ولم يقل لا تراني ولا إني لست بمرئي ولا تجوز رؤيتي والفرق بين الجوابين ظاهر لمن تأمله وهذا يدل على أنه سبحانه وتعالى يرى ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار لضعف قوة البشر فيها عن رؤيته تعالى يوضحه الوجه الرابع وهو قوله ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فأعلمه ان الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت لتجليه له في هذه الدار فكيف بالبشر الضعيف الذي خلق من ضعف الوجه الخامس إن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعل الجبل مستقرا مكانه وليس هذا بممتنع في مقدوره بل هو ممكن وقد علق به الرؤية ولو كانت محالا في ذاتها لم يعلقها بالممكن في ذاته ولو كانت الرؤيا محالا لكان ذلك نظير أن يقول: إن

*(235/244)*

---

استقر الجبل فسوف آكل واشرب وأنام فالأمران عندكم سواء الوجه السادس قوله سبحانه وتعالى ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ وهذا من أبين الأدلة على جواز رؤيته تبارك وتعالى فإنه إذا جاز أن يتجلى للجبل الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب عليه فكيف يمتنع أن يتجلى لأنبيائه ورسله وأوليائه في دار كرامتهم ويريهم نفسه فأعلم سبحانه

وتعالى موسى إن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار فالبشر اضعف الوجه السابع أن ربه سبحانه وتعالى قد كلمه منه إليه وخاطبه وناجاه وناداه ومن جاز عليه التكلم والتكليم وان يسمع مخاطبه كلامه معه بغير واسطة فرؤيته أولى بالجواز ولهذا لا يتم إنكار الرؤية إلا بإنكار التكليم وقد جمعت هذه الطوائف بين إنكار الأمرين فأنكروا أن يكلم أحدا أو يراه أحد ولهذا سأله موسى عليه السلام النظر إليه واسمعه كلامه وعلم نبي الله جواز رؤيته من وقوع خطا به وتكليمه لم يخبره باستحالة ذلك عليه ولكن أراه أن ما سأله لا يقدر على احتماله كما لم يثبت الجبل لتجليه وأما قوله تعالى: ﴿ لَنْ تَرَانِي ﴾ فإنما يدل على النفي في المستقبل ولا يدل على دوام النفي ولو قيدت بالتأبيد فكيف إذا أطلقت قال تعالى: ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً ﴾ مع قوله تعالى: ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾

*(236/244)*

---

فصل الدليل الثاني قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلام ﴾ وقوله تعالى: ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللَّهِ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾ وأجمع أهل اللسان على أن اللقاء متى نسب إلى الحي السليم من العمى والمانع اقتضى المعاينة والرؤية ولا ينتقض هذا بقوله تعالى: فأعقبهم

نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه فقد دلت الأحاديث الصحيحة الصريحة على أن المنافقين يرونه تعالى في عرصات القيامة بل والكفار أيضا كما في الصحيحين من حديث التجلي يوم القيامة وسيمر بك عن قريب إن شاء الله تعالى وفي هذه المسألة ثلاثة أقوال لأهل السنة احدها أن لا يراه إلا المؤمنون والثاني يراه جميع أهل الموقف مؤمنهم وكافرهم ثم يحتجب عن الكفار فلا يرونه بعد ذلك والثالث يراه المنافقون دون الكفار والأقوال الثلاثة في مذهب احمد وهي لأصحابه وكذلك الأقوال الثلاثة بعينها لهم في تكليمه لهم وشيخنا في ذلك منصف مفرد وحكى فيه أقوال الثلاثة وحجج أصحابها وكذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾ إن عاد الضمير على العمل فهو رؤيته في الكتاب مسطورا مثبتا وإن عاد على الرب سبحانه وتعالى فهو لقاؤه الذي وعد به

(237/244)

---

الدليل الثالث قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فالحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجهه الكريم كذلك فسرها رسول الله الذي انزل عليه القران فالصحابة من بعده كما روى مسلم في صحيحيه من

حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب قال قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ قال إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا ويريد أن ينجزكموه فيقولون ما هو ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار فيكشف الحجاب فينظرون الله فما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه وهي الزيادة وقال الحسن بن عرفة حدثنا مسلم بن سالم البلخي عن نوح بن أبي مريم عن ثابت عن أنس قال سئل رسول الله عن هذه الآية للذين أحسنوا الحسنى وزيادة قال للذين أحسنوا العمل في الدنيا الحسنى وهي الجنة والزيادة وهي النظر إلى وجه الله تعالى وقال محمد بن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا إبراهيم بن المختار عن ابن جريج عن عطاء عن كعب بن عجزة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ قال الزيادة النظر إلى وجه الرحمن جل جلاله قلت لعطاء هذا هو الخراساني وليس عطاء بن أبي رباح قال ابن جرير وحدثنا ابن عبد الرحيم حدثنا عمرو بن أبي سلمة قال سمعت زهيرا بن محمد قال حدثني من سمع أبا العالية الرياحي يحدثوا قال يعقوب ابن سفيان حدثنا صفوان بن صالح حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا زهير بن محمد قال حدثني من سمع أبا العالية الرياحي يحدث عن أبي كعب قال سألت رسول الله

عن الزيادة في كتاب الله عز وجل قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ قال الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل وقال أسد السنة حدثنا قيس بن الربيع عن أبان عن أبي تميمة الهيجمي أنه سمع أبا موسى يحدث أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "يبعث الله عز وجل يوم القيامة مناديا ينادي يا أهل الجنة بصوت يسمع أولهم وآخرهم أن الله وعدكم الحسنى والحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل" وقال ابن وهب أخبرني شبيب عن إبان عن ابن تيمية الهجيمي أنه سمع أبا موسى الأشعري يحدث عن رسول الله أن الله عز وجل يأمر يوم القيامة مناديا ينادي يا أهل الجنة بصوت يسمع أولهم وأخرهم أن الله وعدكم الحسنى وزيادة الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الرحمن وأما الصحابة فقال ابن جرير حدثنا ابن يسار حدثنا عبد الرحمن هو ابن مهدي حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عامر بن سعد عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه للذين أحسنوا الحسنى وزيادة قال النظر إلى وجه الله الكريم وبهذا الإسناد عن أبي إسحاق عن مسلم بن يزيد عن حذيفة للذين أحسنوا الحسنى وزيادة قال النظر إلى وجه ربهم تعالى وحدثنا على بن عيسى حدثنا شبابة حدثنا أبو بكر الهذلي قال سمعت أبا تميمة الهجيمي يحدث عن أبي موسى الأشعري قال إذا كان يوم القيامة يبعث الله تعالى إلى

أهل الجنة مناديا ينادي هل أنجزكم الله ما وعدكم فينظرون إلى ما اعد الله لهم من الكرامة فيقولون نعم فيقول للذين أحسنوا الحسنى وزيادة النظر إلى وجه الرحمن عز وجل"

*(239/244)*

---

وقال عبد الله بن المبارك عن أبي بكر الهذلي أنبأنا أبو تميمة قال سمعت أبا موسى الأشعري يخطب الناس في جامع البصرة ويقول أن الله يبعث يوم القيامة ملكا إلى أهل الجنة فيقول يا أهل الجنة هل أنجزكم الله ما وعدكم فينظرون فيرون الحلي والحلل والأنهار والأزواج المطهرة فيقولون نعم قد أنجزنا الله ما وعدنا ثم يقول الملك هل أنجزكم الله ما وعدكم ثلاث مرات فلا ينقدون شيئا مما وعدوا فيقولون نعم فيقول قد بقي لكم شيء إن الله عز وجل يقول للذين أحسنوا الحسنى وزيادة إلا أن الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله تعالى

وفي تفسير أسباط بن نصر عن إسماعيل السدي عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة قال أما الحسنى فالجنة وأما الزيادة فالنظر إلى وجه الله تعالى وأما القتر فالسواد

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى وعامر بن سعد وإسماعيل بن عبد الرحمن السدي والضحاك بن مزاحم وعبد الرحمن بن سابط وأبو إسحاق السبيعي وقتادة وسعيد بن

المسيب والحسن البصري وعكرمة مولى ابن عباس ومجاهد بن جبر الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله تعالى وقال غير واحد من السلف في الآية ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة بعد النظر إليه والأحاديث عنهم بذلك صحيحة ولما عطف سبحانه الزيادة على الحسنى التي هي الجنة دل على إنها أمر آخر من وراء الجنة وقدر زائد عليها ومن فسر الزيادة بالمغفرة والرضوان فهو من لوازم رؤية الرب تبارك وتعالى

فصل

*(240/244)*

---

الدليل الرابع قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ ووجه الاستدلال بها أنه سبحانه وتعالى جعل من أعظم عقوبة الكفار كونهم محجوبين عن رؤيته واستماع كلامه فلو لم يره المؤمنون ولم يسمعوا كلامه كانوا أيضا محجوبين عنه وقد احتج بهذه الحجة الشافعي نفسه وغيره من الأئمة فذكر الطبراني وغيره من المزي قال سمعت الشافعي يقول في قوله عز وجل: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ فيها دليل على أن أولياء الله يرون ربهم يوم القيامة وقال الحاكم حدثنا الأصم أنبأنا الربيع بن سليمان قال حضرت محمد بن إدريس الشافعي وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها ما تقول في قول الله عز وجل: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ

رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ فقال الشافعي لما أن حجب هؤلاء في السخط كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضي قال الربيع فقلت يا أبا عبد الله وبه تقول قال نعم وبه أدين الله ولو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى الله لما عبد الله عز وجل

ورواه الطبراني في شرح السنة من طريق الأصم أيضا وقال أبو زرعة الرازي سمعت احمد بن محمد بن الحسين يقول سئل محمد بن عبد الله ابن الحكم هل يرى الخلق كلهم ربهم يوم القيامة المؤمنون والكفار فقال محمد ابن عبد الله ليس يراه إلا المؤمنون قال ممد وسئل الشافعي عن الرؤية فقال يقول الله تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ ففي هذا دليل على أن المؤمنين لا يحجبون عن الله عز وجل

فصل الدليل الخامس قوله عز وجل

*(241/244)*

---

﴿ لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد ﴾ قال الطبراني قال علي بن أبي طالب وانس بن مالك هو النظر إلى وجه الله عز وجل وقاله من التابعين زيد بن وهب وغيره فصل الدليل السادس قوله عز وجل لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار والاستدلال بهذا أعجب فإنه من أدلة النفاة وقد قرر شيخنا وجه الاستدلال به أحسن تقرير وألطفه وقال لي أنا ألتزم أنه لا يحتج

مبطل بآية أو حديث صحيح على باطله إلا وفي ذلك الدليل ما يدل على نقيض قوله فمنها هذه الآية وهي على جواز الرؤية أدل منها على امتناعها فان الله سبحانه إنما ذكرها في سياق التمدح ومعلوم أن المدح إنما يكون بالأوصاف الثبوتية وأما العدم المحض فليس بكمال ولا يمدح به وإنما يمدح الرب تبارك وتعالى بالعدم إذا تضمن أمرا وجوديا كتمدحه بنفي السنة والنوم المتضمن كمال القيومية ونفي الموت المتضمن كمال الحياة ونفي اللغوب والإعياء المتضمن كمال القدرة ونفي الشريك والصاحبة والولد والظهير المتضمن كمال ربوبيته والهيئة وقهره ونفي الأكل والشرب المتضمن كمال الصمدية وغناه ونفي الشفاعة عنده بدون إذنه المتضمن كمال توحيده وغناه عن خلقه ونفي الظلم المتظمن كمال عدله وعلمه وغناه ونفي النسيان وعزوب شيء عن علمه المتضمن كمال علمه وإحاطته ونفي المثل المتضمن لكمال ذاته وصفاته ولهذا لم يتمدح بعدم محض لا يتضمن أمرا ثبوتيا فان المعدوم يشارك الموصوف في ذلك العدم ولا يوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدوم فيه فلو كان المراد بقوله لا تدركه الأبصار أنه لا يرى بحال لم يكن في ذلك مدح ولا كمال لمشاركة المعدوم له في ذلك فان العدم الصرف لا يرى ولا تدركه الأبصار والرب جل جلاله يتعالى إن يمدح

بما يشاركه فيه العدم المحض فإذا المعنى أنه يرى ولا يدرك ولا يحاط به كما كان المعنى في قوله وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة أنه يعلم كل شيء وفي قوله وما مسنا من لغوب أنه كامل القدرة وفي قوله ولا يظلم ربك أحدا أنه كامل العدل وفي قوله لا تأخذه سنة ولا نوم أنه كامل القيومية فقوله لا تدركه الأبصار يدل على غاية عظمته وأنه اكبر من كل شيء وأنه لعظمته لا يدرك بحيث يحاط به فان الإدراك هو الإحاطة بالشيء وهو قدر زائد على الرؤية كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلاَّ ﴾ فلم ينف عن موسى الرؤية ولم يريدوا بقولهم أنا لمدركون أنا لمرئيون فان موسى صلوات الله وسلامه عليه نفى إدراكهم إياهم بقوله كلا واخبر الله سبحانه وتعالى أنه لا يخاف دركهم بقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخَافُ دَرَكاً وَلا تَخْشَى ﴾ فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه فالرب تعالى يرى ولا يدرك كما يعلم ولا يحاط به وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية قال بن عباس لا تدركه الأبصار لا تحيط به الأبصار قال قتادة هو أعظم من أن تدركه الأبصار وقال عطية ينظرون إلى الله ولا تحيط أبصارهم به من عظمته وبصره يحيط بهم فذلك قوله تعالى: ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبصَارَ ﴾ فالمؤمنون يرون ربهم تبارك وتعالى بأبصارهم عيانا ولا تدركه أبصارهم بمعنى أنها لا تحيط به إذ كان غير جائز أن

يوصف الله عز وجل بان شيئا يحيط به وهو بكل شيئا محيط وهكذا يسمع كلام من يشاء من خلقه ولا يحيطون بكلامه وهكذا يعلم الخلق ما علمهم ولا يحيطون بعلمه ونظير هذا استدلالهم على نفى الصفات بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وهذا من أعظم الأدلة على كثرة صفات كماله ونعوت جلاله وإنها لكثرتها

*(243/244)*

---

وعظمتها وسعتها لم يكن له مثل فيها وإلا فلو أريد بها نفي الصفات لكان العدم المحض أولى بهذا المدح منه مع أن جميع العقلاء إنما يفهمون من قول القائل فلان لا مثل له وليس له نظير ولا شبيه ولا مثل أنه قد تميز عن الناس بأوصاف ونعوت لا يشاركونه فيها وكلما كثرت أوصافه ونعوته فات أمثاله وبعد عن مشابهة أضرابه فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ من أدل شيء على كثرة نعوته وصفاته وقوله لا تدركه الأبصار من أدل شيء على أنه يرى ولا يدرك وقوله هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير من أدل شيء على مباينة الرب لخلقه فانه لم يخلقهم في ذاته بل خلقهم خارج عن ذاته ثم بان عنهم باستوائه على عرشه وهو يعلم ما هم عليه فيراهم وينفذهم بصره

ويحيط بهم علما وقدرة وإرادة وسمعا وبصرا فهذا معنى كونه سبحانه معهم أينما كانوا وتأمل حسن هذه المقابلة لفظا ومعنى وبين قوله ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ فانه سبحانه لعظمته يتعالى أن تدركه الأبصار وتحيط به وللطفه وخبرته يدرك الأبصار فلا تخفي عليه فهو العظيم في لطفه اللطيف في عظمته العالي في قربه القريب في علوه الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير فصل الدليل السابع قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ وأنت إذا أجرت هذه الآية من تحريفها عن مواضعها والكذب على المتكلم بها سبحانه فيما أراده منها وجدتها منادية نداء صريحا إن الله سبحانه يرى عيانا بالأبصار يوم القيامة وإن أبيت إلا تحريفها الذي يسميه المحرفون تأويلا فتأويل نصوص المعاد والجنة والنار والميزان والحساب أسهل على أربابه من تأويلها وتأويل كل نص تضمنه القران والسنة كذلك ولا يشاء مبطل على وجه الأرض أن يتأول النصوص ويحرفها عن مواضعها إلا وجد إلى ذلك من السبيل ما وجده متأول

مثل هذه النصوص وهذا الذي افسد الدين والدنيا وإضافة النظر إلى الوجه الذي هو محله في هذه الآية وتعديته بأداة إلى الصريحة في نظر العين وإخلاء الكلام من قرينة تدل على أن المراد بالنظر المضاف إلى الوجه المعدي بإلى خلاف حقيقته وموضوعه صريح في أن الله سبحانه وتعالى أراد بذلك نظر العين وإخلاء الكلام من قرينه تدل على أن المراد بالنظر المضاف إلى الوجه المعدي بالي خلاف حقيقة وموضوعه صريح في أن الله سبحانه وتعالى أراد بذلك نظر العين التي في الوجه إلى نفس الرب جل جلاله فان النظر له عدة استعمالات بحسب صلاته وتعديه بنفسه فان عدى بنفسه فمعناه التوقف والانتظار كقوله ﴿ انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ وأن عدى بـ: "في" فمعناه التفكر والاعتبار كقوله أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وأن عدى بـ: "إلى" فمعناه المعاينة بالأبصار كقوله ﴿ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذي هو محل البصر قال يزيد بن هارون أنبانا مبارك عن الحسن قال نظرت إلى ربها تبارك وتعالى فنظرت بنوره فاسمع الآن أيها السني تفسير النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين وأئمة الإسلام لهذه الآية قال ابن مردويه في تفسيره حدثنا إبراهيم عن محمد حدثنا صالح بن احمد حدثنا يزيد بن الهيثم حدثنا محمد ابن الصباح حدثنا المصعب بن المقدام حدثنا سفيان عن ثوير بن أبي ناجية عن أبيه عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله في قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴾ قال من البهاء والحسن إلى ربها ناظرة قال في وجه الله عز وجل وقال أبو صالح

عن ابن العباس إلى ربها ناظرة قال تنظر إلى وجه ربها عز وجل وقال عكرمة وجوه يومئذ ناضرة قال من النعيم إلى ربها ناظرة قال تنظر إلى ربها نظرا ثم حكى عن ابن عباس مثله وهذا قول كل مفسر من أهل السنة والحديث .

فصل

*(245/244)*

---

وأما الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الدالة على الرؤية فمتواترة رواها عنه أبو بكر الصديق وأبو هريرة وأبو سعيد الخدري وجرير ابن عبد الله البجلي وصهيب بن سنان الرومي وعبد الله بن مسعود الهذلي وعلي ابن أبي طالب وأبو موسى الأشعري وعدي بن حاتم الطائي وانس بن مالك الأنصاري وبريدة بن الحصيب الأسلمي وأبو رزين العقيلي وجابر بن عبد الله الأنصاري وأبو أمامة الباهلي وزيد بن ثابت وعمار بن ياسر وعائشة أم المؤمنين وعبد الله بن عمر وعمارة بن رويبة وسلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان وعبد الله ابن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص وحديثه موقوف وأبي بن كعب وكعب بن عجرة وفضالة بن عبيد وحديثه موقوف ورجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم غير مسمى فهاك سياق أحاديثهم من الصحاح والمسانيد

والسنن وتلقاها بالقبول والتسليم وانشراح الصدر لا بالتحريف والتبديل وضيق العطن ولا تكذب بها فمن كذب بها لم يكن إلى وجه ربه من الناظرين وكان عنه يوم القيامة من المحجوبين فصل فأما حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقال الإمام احمد حدثنا إبراهيم ابن إسحاق الطالقاني قال حدثني النضر بن شميل المازني قال حدثني أبو نعامة قال حدثني أبو عنيدة البراء بن نوفل عن دالان العدوي عن حذيفة عن أبي بكر الصديق قال أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فصلى الغداة فجلس حتى إذا كان من الضحى ضحك الرسول ثم جلس مكانه حتى صلى الأولى والعصر والمغرب كل ذلك لا يتكلم حتى صلى العشاء الأخيرة ثم قام إلى أهله فقال الناس لأبي بكر: ألا تسأل رسول الله ما شانه صنع اليوم شيئا لم يصنعه قط قال فسأله فقال نعم عرض علي ما هو كائن من أمر الدنيا والآخرة فجمع الأولون والآخرون في صعيد واحد فقطع الناس بذلك حتى انطلقوا إلى آدم والعرق ويكتد يلجمهم فقالوا يا آدم أنت أبو البشر وأنت اصطفاك الله عز وجل اشفع لنا إلى ربك قال قد لقيت مثل الذي لقيتم انطلقوا إلى أبيكم بعد أبيكم إلى نوح: ﴿إِنَّ اللَّهَ

(246/244)

اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ قال فينطلقون إلى نوح عليه الصلاة والسلام فيقولون اشفع لنا إلى ربك فأنت اصطفاك الله واستجاب لك في دعاءك ولم يدع على الأرض من الكافرين ديارا فيقول ليس ذلكم عندي انطلقوا إلى إبراهيم فإن الله اتخذه خليلا فينطلقون إلى إبراهيم فيقول ليس ذلكم عندي انطلقوا موسى فإن الله عز وجل كلمه تكليما فيقول موسى ليس ذلك عندي انطلقوا إلى عيسى ابن مريم فإنه كان يبرأ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى فيقول عيسى ليس ذلكم عندي انطلقوا إلى سيد ولد آدم انطلقوا إلى محمد فليشفع لكم إلى ربكم قال فينطلق فيأتي جبريل ربه تبارك وتعالى فيقول له الله عز وجل ائذن له وبشره بالجنة فينطلق به جبريل صلى الله عليه وسلم فيخر ساجدا قدر جمعة ويقول الله عز وجل ارفع رأسك وقل تسمع واشفع تشفع قال فيرفع رأسه فإذا نظر إلى وجه ربه خر ساجدا قدر جمعة أخرى فيقول الله عز وجل ارفع رأسك وقل تسمع واشفع تشفع قال فيذهب ليقع ساجدا فيأخذ جبريل بضبعيه فيفتح الله عليه من الدعاء شيئا لم يفتحه على بشر قط فيقول أي رب خلقتني سيد ولد آدم ولا فخر وأول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة ولا فخر حتى أنه ليرد على الحوض أكثر مما بين صنعاء وأيلة ثم يقال ادعوا الصديقين فيشفعون ثم يقال ادعوا الأنبياء قال فيجيء النبي ومعه العصابة والنبي صلى الله عليه وسلم معه الخمسة والستة والنبي ليس معه أحد ثم يقال ادعوا الشهداء فيشفعون لمن أرادوا قال فإذا فعلت الشهداء ذلك قال فيقول الله عز وجل أنا ارحم

الراحمين ادخلوا جنتي من كان لا يشرك بي شيئا قال فيدخلون الجنة قال ثم يقول الله عز وجل انظروا في أهل النار هل تلقون من أحد عمل خيرا قط قال فيجدون في النار رجلا فيقولون له هل عملت خيرا قط فيقول لا غير إني كنت أسامح الناس في البيع فيقول الله عز وجل اسمحوا لعبدي بسماحته

*(247/244)*

---

إلى عبيدي ثم يخرجون من النار رجلا يقول له هل عملت خيرا قط فيقول لا غير إني أمرت ولدي إذا مت فأحرقوني في النار ثم اطحنوني حتى إذا كنت مثل الكحل فاذهبوا بي إلى البحر فاذروني في الريح فوالله لا يقدر على رب العالمين أبدا فقال الله عز وجل له لم فعلت ذلك قال من مخافتك قال فيقول الله عز وجل انظر إلى ملك أعظم ملك فان لك مثله وعشرة أمثاله قال فيقول أتسخر بي وأنت الملك قال وذلك الذي ضحكت منه من الضحى فصل وأما حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة أن ناسا قالوا يا رسول الله صلى الله عليه وسلم هل نرى ربنا يوم القيامة فقال رسول الله هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر قالوا لا يا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هل تضارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب قالوا لا قال فإنكم ترونه كذلك يجمع الله

الناس يوم القيامة فيقول من كان يعبد شيئًا فليتبعه فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ويتبع من كان يعبد القمر والقمر ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله تعالى في صورة غير صورته التي يعرفون فيقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله عز وجل في صورته التي يعرفون فيقول أنا ربكم فيقولون أنت ربنا فيتبعونه ويضرب الصراط بين ظهر إني جهنم فأكون أنا وأمتي أول من يجيز ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم السعدان قالوا: نعم يا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله عز وجل تخطف الناس بأعمالهم فمنهم الموبق بعمله ومنهم المجازى حتى ينجو فإذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئًا ممن أراد الله أن يرحمه

*(248/244)*

---

ممن يقول لا اله إلا الله فيعرفونهم بأثر السجود وتأكل النار من ابن آدم إلا اثر السجود وحرم الله على النار أن تأكل أثر السجود فيخرجون من النار قد امتحشوا فيصب عليهم ماء

الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار وهو آخر أهل الجنة دخولا الجنة فيقول أي رب اصرف وجهي عن النار فانه قد شبني ريحها واحرقني ذكاؤها فيدعو الله ما شاء الله أن يدعوه ثم يقول الله تبارك وتعالى هل عسيت إن فعلت ذلك أن تسأل غيره فيقول لا أسألك غيره فيعطي ربه من عهود ومواثيق ما شاء الله فيصرف الله عن وجهه عن النار فإذا اقبل على الجنة ورآها سكت ما شاء الله أن يسكت ثم يقول أي ربي قدمني الى باب الجنة فيقول الله أليس قد أعطيت عهودك ومواثيقك لا تسألني غير الذي أعطيتك ويلك يا ابن آدم ما أغدرك فيقول أي ربي فيدعو الله حتى يقول له فهل عسيت إن أعطيتك ذلك أن تسألني غيره فيقول لا وعزتك فيعطي ربه ما شاء من عهود ومواثيق فيقدمه الله تعالى إلى باب الجنة فإذا قام على باب الجنة أنفهقت له الجنة فرأى ما فيها من الخير والسرور فسكت ما شاء الله أن يسكت ثم يقول أي رب أدخلني الجنة فيقول الله تبارك وتعالى له أليس قد أعطيت عهودك ومواثيقك أن لا تسألني غير ما أعطيت ويلك يا ابن آدم ما أغدرك فيقول أي رب لا أكون أشقى خلقك فلا يزال يدعو الله حتى يضحك الله منه فإذا ضحك الله منه قال ادخل الجنة فإذا دخلها قال الله له تمن فيسأل ربه ويتمنى حتى إن الله ليذكره فيقول تمن كذا وكذا حتى إذا انقطعت به الأماني قال الله عز وجل ذلك لك ومثله معه قال أبو سعيد الخدري وعشرة أمثاله معه قال عطاء بن يزيد وأبو سعيد الخدري مع أبي هريرة لا يرد عليه من

حديثه شيئًا حتى إذا حدث أبو هريرة قال إن الله عز وجل قال لذلك الرجل ومثله معه قال أبو سعيد وعشرة أمثاله معه يا أبا هريرة قال أبو هريرة ما حفظت إلا قوله ذلك لك ومثله معه قال أبو سعيد اشهد إني حفظت من رسول الله قوله ذلك لك وعشرة أمثاله قال أبو هريرة وذلك الرجل آخر أهل

*(249/244)*

---

الجنة دخولا الجنة

وفي الصحيحين أيضا عن أبي سعيد الخدري أن ناسا في زمن رسول الله قالوا يا رسول الله صلى الله عليه وسلم هل نرى ربنا يوم القيامة قال رسول الله نعم هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحوا ليس معها سحاب وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحوا ليس فيها سحاب قالوا لا يا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما تضارون في رؤيته تبارك وتعالى يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن ليتبع كل أمة ما كانت تعبد فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار حتى إذا لم يبقى إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر وغبرات أهل الكتاب فتدعى اليهود فيقال لهم ما كنتم تعبدون قالوا كنا نعبد عزير بن الله فيقال كذبتم ما اتخذ الله من

صاحبه ولا ولد فماذا تبغون قالوا عطشنا يا ربنا فاسقنا فيشار إليهم إلا تردون فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضا فيتساقطون في النار ثم تدعى النصارى فيقال لهم ما كنتم تعبدون قالوا كنا نعبد المسيح ابن الله فيقال لهم كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد فيقال لهم ماذا تبغون فيقولون عطشنا يا ربنا فاسقنا قال فيشار إليهم ألا تردون فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضا فيتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر أتاهم الله رب العالمين سبحانه وتعالى في أدنى صورة من التي راوه فيها قال فماذا تنتظرون لتتبع كل أمة ما كانت تعبد قالوا يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم فيقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئًا مرتين أو ثلاثا حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب فيقول هل بينكم وبينه آية تعرفونه بها فيقولون نعم فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة فيقول

*(250/244)*

أنا ربكم فيقولون أنت ربنا ثم يضرب لهم الجسر على جهنم وتحل الشفاعة قيل يا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما الجسر قال دحض مزلة في خطاطيف وكلاليب وحسكة تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوس في نار جهنم حتى إذا خلص المؤمنون من النار فوالذي نفسي بيده ما من أحد منكم بأشد مناشدة في استيفاء الحق من المؤمنين لله تعالى يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار يقولون ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون فيقال لهم اخرجوا من عرفتهم فيحرم صورهم على النار فيخرجون خلقا كثيرا قد أخذت النار إلى أنصاف ساقيه وإلى ركبتيه فيقولون ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا فيقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم ندر فيها ممن أمرتنا أحدا ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم بقى تدر فيها أحد ممن أمرتنا فيقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم ندر فيها ممن أمرتنا أحدا ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدا ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم ندر فيها خيرا قط وكان أبو سعيد الخدري يقول إن لم

تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤوا إن شئتم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ﴾ فيقول الله عز وجل شفعت الملائكة وشفع النبي صلى الله عليه وسلمون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا ارحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوم لم يعملوا خيرا قط قد عادوا حمما فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل إلا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر ما يكون منها إلى

*(251/244)*

---

الشمس أصيفر وأخيضر وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض فقالوا يا رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنك كنت ترعى بالبادية قال فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتيم يعرفهم أهل الجنة فيقول أهل الجنة هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه ثم يقول ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم فيقولون ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحدا من العالمين فيقول لكم عندي أفضل من هذا فيقولون يا ربنا وأي شيء أفضل من هذا فيقول تعالى رضائي فلا اسخط عليكم بعده أبدا"

فصل

---

وأما حديث جرير بن عبد الله ففي الصحيحين من حديث إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عنه قال كنا جلوسا مع النبي صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة فقال إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل الغروب فافعلوا ثم قرأ قوله فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب رواه عن إسماعيل بن أبي خالد عبد الله بن إدريس الأزدي ويحيى بن سعيد القطان وعبد الرحمن بن محمد المحاربي وجرير بن عبد الحميد وعبيد بن حميد وهشيم بن بشير وعلي بن عاصم وسفيان بن عيينة ومروان بن معاوية وأبو أسامة وعبد الله بن نمير ومحمد بن عبيد وأخوه يعلى بن عبيد ووكيع بن الجراح ومحمد بن الفضيل والطفاوي ويزيد بن هارون وإسماعيل ابن أبي خالد وعنبسة بن سعيد والحسن بن صالح بن حي وورقاء بن عمرو وعمار بن زريق وأبو الأعز سعيد ابن عبد الله ونصر بن طريف وعمار بن محمد والحسن بن عياش أخو أبو بكر ويزيد بن عطاء وعيسى بن يونس وشعبة بن الحجاج وعبد الله بن المبارك وأبو حمزة السكري وحسين بن واقد ومعمر بن سليمان وجعفر بن زياد وخداش بن المهاجر وهريم ابن سفيان ومندل بن علي

وأخوه سنان بن علي وعمر بن يزيد وعبد الغفار بن القاسم ومحمد بن بشير الحريري ومالك بن مغول وعصام بن النعمان وعلي بن القاسم الكندي وعبيد بن الأسود الهمدإني وعبد الجبار ابن العباس والمعلى بن هلال ويحيى بن زكريا ابن أبي زائدة والصباح بن محارب ومحمد بن عيسى وسعيد بن حازم وأبان بن أرقم وعمرو بن النعمان ومسعود بن سعد الجعفي وعثمان بن علي وحسن بن حبيب وسنان بن هارون البرجمي ومحمد بن يزيد الواسطي وعمرو بن هشام ومحمد بن مروان ويعلى بن الحارث المحاربي وشعيب بن راشد والحسن بن دينار وسلام ابن أبي مطيع وداود بن الزبرقان وحماد بن أبي حنيفة ويعقوب بن

*(253/244)*

---

حبيب وحكام ابن سلم وأبو مقاتل بن حفص ومسيب بن شريك وأبو حنيفة النعمان بن ثابت وعمرو بن سمر الجعفي وعمرو بن عبد الغفار التيمي وسيف بن هارون البرجمي أخو سنان وعابد بن حبيب ومالك بن سعير بن الخمس ويزيد بن عطاء مولى أبي عوانة وخالد بن يزيد العصري وعبد الله بن موسى وخالد بن عبد الله الطحان وأبو كدينة يحيى بن المهلب ورقبة بن مصقلة ومعمر بن سليمان الرقي ومرحى ابن رجاء وعمرو بن جرير ويحيى بن هاشم السمسار وإبراهيم ابن طهمان وخارجة ابن مصعب وعبد الله بن

عثمان شريك شعبة وعبد الله بن فروح وزيد ابن أبي أنيسة وجوده فقال فستعاينون ربكم عز وجل كما تعاينون هذا القمر وأبو شهاب الخياط وقال سترون ربكم عيانا وحارثة بن هرم وعاصم بن حكيم ومقاتل بن سليمان وأبو جعفر الرازي والحسن بن أبي جعفر والوليد بن عمرو وأخوه عثمان بن عمرو وعبد السلام بن عبد الله بن قرة العنبري ويزيد بن عبد العزيز وعلي بن صالح بن حي وزفر بن الهذيل والقاسم بن معن تابع إسماعيل بن أبي خالد عن قيس جماعة منهم بيان بن بشر ومجالد بن سعيد وطارق بن عبد الرحمن وجرير بن يزيد بن جرير البجلي وعيسى بن المسيب كلهم عن قيس ابن أبي حازم عن جرير وكل هؤلاء شهدوا على إسماعيل بن أبي خالد وشهد إسماعيل بن أبي خالد على قيس ابن أبي حازم وشهد قيس بن أبي حازم على جرير بن عبد الله وشهد جرير بن عبد الله على رسول الله فكأنك تسمع رسول الله وهو يقول ويبلغه لامته ولا شيء اقر لأعينهم منه وشهدت الجهمية والفرعونية والرافضة والقرامطة والباطنية وفروخ الصابئة والمجوس واليونان بكفر من اعتقد ذلك وأنه من أهل التشبيه والتجسيم وتابعهم على ذلك كل عدو للسنة وأهلها والله تعالى ناصر كتابه وسنة رسوله ولو كره الكافرون .

*(254/244)*

فصل وأما حديث صهيب فرواه مسلم في صحيحه من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب قال قال رسول الله إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله عز وجل تريدون شيئا أزيدكم يقولون ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم ثم تلا هذه الآية للذين أحسنوا الحسنى وزيادة وهذا حديث رواه الأئمة عن حماد وتلقوه عن نبيهم بالقبول والتصديق فصل وأما حديث عبد الله بن مسعود فقال الطبراني حدثنا محمد بن نصر الأزدي وعبد الله بن احمد بن حنبل والحضرمي قالوا حدثنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة الحراني حدثنا محمد بن سلمة الحراني عن أبي عبد الرحيم عن زيد بن أبي أنيسة عن المنهال بن عمرو عن أبي عبيدة بن عبد الله عن مسروق بن الأجدع حدثنا عبد الله بن مسعود عن رسول الله قال يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء قال وينزل الله عز وجل في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي ثم ينادي مناد أيها الناس ألم ترضوا من ربكم الذي خلقكم ورزقكم وأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا أن يولى كل ناس منكم ما كانوا يتولون ويعبدون في الدنيا أليس ذلك عدلا من ربكم قالوا بلى قال فينطلق كل قوم إلى ما كانوا يعبدون ويتولون في الدنيا قال فينطلقون ويمثل لهم أشباه ما كانوا يعبدون فمنهم من ينطلق

إلى الشمس ومنهم من ينطلق إلى القمر وإلى الأوثان من الحجارة وأشباه ما كانوا يعبدون قال ويمثل لمن كان يعبد عيسى شيطان عيسى ويمثل لمن

(255/244)

---

كان يعبد عزيرا شيطان عزير ويبقى محمد وأمته فيأتيهم الرب عز وجل فيقول ما بالكم لا تنطلقون كما انطلق الناس قال فيقولون إن لنا إلها ما رأيناه بعد فيقول هل تعرفونه إن رأيتموه فيقولون أن بيننا وبينه علامة إذا رأيناها عرفناه قال فيقول ما هي فيقولون يكشف عن ساقه فعند ذلك يكشف عن ساق فيخرون له سجدا ويبقى قوم ظهورهم كصياصي البقر يريدون السجود فلا يستطيعون وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون ثم يقول ارفعوا رؤوسكم فيرفعون رؤوسهم فيعطيهم نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يعطى نوره على قدر الجبل العظيم يسعى بين أيديهم ومنهم من يعطى نورا اصغر من ذلك ومنهم من يعطى نورا مثل النخلة بيمينه ومنهم من يعطى نورا اصغر من ذلك حتى يكون آخرهم رجلا يعطى نوره على إبهام قدمه يضيء مرة ويطفئ مرة فإذا أضاء قدم قدمه ومشى وإذا أطفئ قام والرب تبارك وتعالى أمامهم حتى يمر في النار فيبقى أثره كحد السيف قال ويقول مروا فيمرون على قدر نورهم منهم من يمر كطرف العين ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر

كالسحاب ومنهم من يمر كانقضاض الكوكب ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كشد الفرس ومنهم كشد الرحل حتى يمر الذي أعطى نوره على قدر إيهام قدمه يحبو على وجهه ويديه ورجليه تجريد وتعلق يد وتجر رجل وتعلق رجل وتصيب جوانبه النار فلا يزال كذلك حتى يخلص فإذا خلص وقف عليها ثم قال الحمد لله لقد أعطاني الله ما لم يعط أحدا إذ نجاني منها بعد أن رأيتها قال فينطلق به إلى غدير عند باب الجنة فيغتسل فيعود إليه ريح أهل الجنة وألوانهم فيرى ما في الجنة من خلال الباب فيقول رب أدخلني الجنة فيقول الله تبارك وتعالى له أتسال الجنة وقد نجيتك من النار فيقول يا رب اجعل بيني وبينها حجابا لا اسمع حسيسها قال فيدخل الجنة قال ويرى أو يرفع له منزل أمام ذلك كأنما الذي هو فيه حلم ليدخله فيقول رب اعطني ذلك المنزل فيقول لعلك إن أعطيتكه تسأل غيره فيقول لا وعزتك لا

*(256/244)*

---

أسأل غيره وأي منزل يكون أحسن منه قال فيعطاه فينزله قال ويرى أو يرفع له إمام ذلك منزل آخر ليدخله فيقول رب اعطني ذلك المنزل فيقول الله عز وجل فلعلك إن أعطيتكه

تسأل غيره فيقول لا وعزتك لا أسألك غيره وأي منزل يكون أحسن منه قال فيعطاه فينزله قال ويرى

(257/244)

---

أو يرفع له أمام ذلك منزل آخر كأنما الذي هو فيه إليه حلم فيقول رب اعطني ذلك المنزل فيقول الله جل جلاله فلعلك إن أعطيتكه تسال غيره قال لا وعزتك لا أسال غيره وأي منزل يكون أحسن منه قال فيعطاه فينزله ثم يسكت فيقول الله عز وجل مالك لا تسأل فيقول رب لقد سألتك حتى استحييتك وأقسمت لك حتى استحييتك فيقول الله عز وجل ألا ترضى أن أعطيك مثل الدنيا منذ يوم خلقتها إلى يوم أفنيتها وعشرة أضعافه فيقول أتستهزئ بي وأنت رب العزة فيضحك الرب عز وجل من قوله قال فرأيت عبد الله بن مسعود إذا بلغ هذا المكان من هذا الحديث ضحك فقال له رجل يا أبا عبد الرحمن قد سمعتك تحدث بهذا الحديث مرارا كلما بلغت هذا المكان ضحكت فقال إني سمعت رسول الله يحدث بهذا الحديث مرارا كلما بلغ هذا المكان من هذا الحديث ضحك حتى تبدو أضراسه قال فيقول رب العزة عز وجل لا ولكني على ذلك قادر سل فيقول ألحقني بالناس فيقول الحق ألحق بالناس قال فينطلق يرمل في الجنة حتى إذا دنا من الناس رفع له

قصر من درة فيخر ساجدا فيقال له ارفع رأسك مالك فيقول رأيت ربي أو تراءى لي ربي فيقال له إنما هو منزل من منازلك قال ثم يلقى فيها رجلا فيهيأ للسجود فيقال له مه مالك فيقول رأيت إنك ملك من الملائكة فيقول له إنما أنا خازن من خزانك عبد من عبيدك تحت يدي ألف قهرمان على مثل ما أنا عليه قال فينطلق أمامه حتى يفتح له القصر قال وهو في درة مجوفة سقائفها وأبوابها وإغلاقها ومفاتيحها منها تستقبله جوهرة خضراء مبطنة بحمراء كل جوهرة تفضي إلى جوهرة على غير لون الأخرى في كل جوهرة سرور وأزواج ووصائف أدناهن حوراء عيناء عليها سبعون حلة يرى مخ ساقها من وراء حللها كبدها مرآته وكبده مرآتها إذا اعرض عنها أعرضت ازدادت في عينه سبعين ضعفا عما كانت قبل ذلك فيقول لها والله لقد ازددت في عيني سبعين ضعفا فتقول له والله والله وأنت لقد ازددت في عيني سبعين ضعفا فيقال له اشرف قال فيشرف فيقال

(258/244)

---

له ملكك مسيرة مائة عام ينفذه بصره قال فقال عمر إلا تسمع إلى ما يحدثنا ابن أم عبد يا كعب عن أدنى أهل الجنة منزلا فكيف أعلاهم

قال كعب يا أمير المؤمنين فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت أن الله عز وجل جعل دارا فيها

ما شاء من الأزواج والثمرات والأشربة ثم أطبقها فلم يرها أحد من خلقه لا جبريل ولا غيره من الملائكة ثم قرأ كعب ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ قال وخلق دون ذلك جنتين وزينهما بما شاء وأراهما من شاء من خلقه ثم قال من كان كتابه في عليين نزل تلك الدار التي لم يرها أحد حتى أن الرجل من أهل عليين ليخرج فيسير في ملكه فلا تبقى خيمة من خيام الجنة إلا دخلها من ضوء وجه فيستبشرون بريحه فيقولون واها لهذا الريح هذا الرجل من أهل عليين قد خرج يسير في ملكه فقال ويحك يا كعب هذه القلوب قد استرسلت فاقبضها فقال كعب والذي نفسي بيده إن لجهنم يوم القيامة لزفرة ما يبقى من ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا يخر تربيته حتى أن إبراهيم خليل الله يقول رب نفسي نفسي حتى لو كان لك عمل سبعين نبيا إلى عملك لظننت انك لا تنجو هذا حديث كبير حسن رواه المصنفون في السنة كعبد الله بن أحمد والطبراني والدار قطني في كتاب الرؤية رواه عن ابن صاعد حدثنا محمد بن أبي عبد الرحمن المقري قال حدثنا أبي حدثنا ورقاء بن عمر حدثنا أبو طيبة عن كرز بن وبرة عن نعيم بن أبي هند عن أبي عبيدة عن عبد الله ورواه من طريق عبد السلام ابن حرب حدثنا الدالاني حدثنا المنهال بن عمرو عن أبي عبيدة به ورواه من طريق زيد بن أبي أنيسة عن المنهال بن عمرو عن أبي عبيدة به ورواه من طريق احمد بن أبي طيبة عن كرز بن وبرة عن نعيم بن أبي هند عن أبي

عبيدة

فصل وأما حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال يعقوب بن

(259/244)

---

سفيان حدثنا محمد بن المصفى حدثنا سويد بن عبد العزيز حدثنا عمرو بن خالد عن زيد بن علي عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزور أهل الجنة الرب تبارك وتعالى في كل جمعة وذكر ما يعطون قال ثم يقول الله تبارك وتعالى اكشفوا حجابا فيكشف حجاب ثم حجاب ثم يتجلى لهم تبارك وتعالى عن وجهه فكأنهم لم يروا نعمة قبل ذلك وهو قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾

فصل وأما حديث أبي موسى ففي الصحيحين عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم تبارك وتعالى إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن" وقال الإمام احمد حدثنا حسن بن موسى وعثمان قالا حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن عمارة عن أبي بردة عن أبي موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "يجمع الله الأمم في صعيد واحد يوم القيامة فإذا بدا لله أن يصدع بين خلقه مثل لكل قوم ما كانوا يعبدون

فيتبعونهم حتى يقحمونهم النار ثم يأتينا ربنا عز وجل ونحن على مكان رفيع فيقول من أنتم فنقول نحن المسلمون فيقول ما تنتظرون فنقول ننتظر ربنا عز وجل فيقول وهل تعرفونه إن

(260/244)

---

رأيتموه فنقول نعم إنه لا عدل له فيتجلى لنا ضاحكا فيقول أبشروا يا معشر المسلمين فانه ليس منكم أحد إلا جعلت في النار يهوديا أو نصرانيا مكانه" وقال حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن عمارة القرشي عن أبي بردة عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "يتجلى لنا ربنا تبارك وتعالى ضاحكا يوم القيامة" وذكر الدار قطني من حديث إبان بن أبي عياش عن أبي تميمة الهجيمي عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " يبعث الله يوم القيامة مناديا بصوت يسمعه أولهم وآخرهم إن الله عز وجل وعدكم الحسنى وزيادة فالحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل" فصل وأما حديث عدي بن حاتم الطائي ففي صحيح البخاري قالط" بينا أنا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ أتى إليه رجل فشكا إليه الفاقة ثم أتى إليه آخر فشكا إليه قطع السبيل فقال يا عدي هل رأيت الحيرة قلت لم أرها وقد أنبئت عنها قال فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف الكعبة لا تخاف أحدا إلا الله قلت فيما بيني وبين نفسي فأين دعار طيء

الذين سعروا البلاد ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى قلت: كسرى بن هرمز قال كسرى بن هرمز ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدا يقبله منه وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له فيقولن ألم ابعث إليك رسولا فيبلغك فيقول بلى يا رب فيقول ألم أعطك مالا وأفضل عليك فيقول بلى فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم "قال عدي بن حاتم سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : "اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة قال عدي فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز ولئنطالت بكم حياة لترون ما قال النبي صلى الله عليه وسلم"

*(261/244)*

---

فصل وأما حديث أنس بن مالك ففي الصحيحين من حديث سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك وفي لفظ فيلهمون لذلك فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا فيأتون آدم فيقولون أنت آدم أبو الخلق خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر

الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا عند ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا فيقول لست هنا كم فيذكر خطيئته التي أصاب فيستحيي ربه منها ولكن ائتوا نوحا أول رسول بعثه الله عز وجل قال فيأتون نوحا فيقول لست هنا كم فيذكر خطيئته التي أصاب فيستحيي ربه منها ولكن ائتوا إبراهيم الذي الذي اتخذه الله خليلا فيأتون إبراهيم فيقول لست هنا كم ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحيي ربه منها ولكن ائتوا موسى الذي كلمه الله تكليما وأعطاه التوراة فيأتون موسى فيقول لست هنا كم ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحيي ربه منها ولكن ائتوا عيسى روح الله وكلمته فيأتون عيسى روح الله وكلمته فيقول لست هنا كم ولكن ائتوا محمدا عبدا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فيأتون فاستأذن على ربي فيؤذن لي فإذا أنا رأيته فأقع ساجدا فيدعني ما شاء الله أن يدعني فيقال يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعط واشفع تشفع فارفع رأسي فاحمد ربي بتحميد يعلمنيه ربي فأشفع فيحد لي حدا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ثم أعود فأقع ساجدا فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقول ارفع رأسك يا محمد قل تسمع وسل تعط واشفع تشفع فأرفع رأسي فاحمد

*(262/244)*

ربي بتحميد يعلمنيه ربي ثم اشفع فيجد لي حدا فأخرجهم من النار وأخلهم الجنة قال فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال فأقول يا رب ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن أي وجب عليه الخلود" وذكر ابن خزيمة عن ابن عبد الحكم عن أبيه وشعيب بن الليث عن الليث حدثنا معمر بن سليمان عن حميد عن أنس قال: يلقى الناس يوم القيامة ما شاء الله أن يلقوه من الحبس فيقولون انطلقوا بنا إلى آدم فيشفع لنا إلى ربنا فذكر الحديث إلى أن قال فينطلقون إلى محمد فأقول أنا لها فانطلق حتى استفتح باب الجنة فيفتح لي فادخل وربي على عرشه فأخر ساجدا وذكر الحديث وقال أبو عوانة وابن أبي عروبة وهمام وغيرهم عن أنس في هذا الحديث فاستأذن على ربي فإذا رايته وقعت ساجدا وقال عفان عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس فآتي ربي وهو على سريره أو كرسيه فأخر له ساجدا له وساقه ابن خزيمة بسياق طويل وقال فيه فاستفتح فإذا نظرت إلى الرحمن وقعت له ساجدا له ورؤية النبي صلى الله عليه وسلم لربه في هذا المقام ثابتة عنه ثبوتا يقطع به أهل العلم بالحديث والسنة وفي حديث أبي هريرة أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر وأنا سيد ولد آدم ولا فخر وأنا صاحب لواء الحمد ولا فخر وأنا أول من يدخل الجنة ولا فخر اخذ بحلقة باب الجنة فيؤذن لي فيستقبلني وجه الجبار جل جلاله فاخر له ساجدا وقال الدار قطني حدثنا محمد بن إبراهيم النسائي العدل بمصر حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر القاضي حدثنا أبو بكر إبراهيم بن محمد حدثنا الخليل عن عمر الأشج عن سعيد بن أبي

عروبة عن قتادة عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم في قول الله عز وجل: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ قال النظر إلى وجه الله تعالى عز وجل

(263/244)

---

حدثنا أبو صالح عبد الرحمن بن سعيد بن هارون الأصبهاني ومحمد بن جعفر بن احمد الطبري ومحمد بن علي بن إسماعيل الأيلي قالوا حدثنا عبد الله بن روح المدائني حدثنا سلام بن سليمان حدثنا ورقاء وإسرائيل وشعبة وجرير بن عبد الحميد كلهم قالوا حدثنا ليث بن عثمان بن أبي حميد عن أنس بن مالك قال قال سمعت رسول الله يقول " أتاني جبريل وفي كفه كالمرآة البيضاء يحملها فيها كالنكتة السوداء فقلت ما هذه التي في يدك يا جبريل فقال هذه الجمعة فقلت وما الجمعة قال لكم فيها خير كثير قلت وما يكون لنا فيها قال يكون عيدا لك ولقومك من بعدك ويكون اليهود والنصارى تبعا لك قلت وما لنا فيها قال لكم فيها ساعة لا يسأل الله عبد فيها شيئا إلا وهو له قسم إلا أعطاه إياه أو ليس له بقسم إلا ذخر له في آخرته ما هو أعظم منه قلت وما هذه النكتة التي فيها قال هي الساعة ونحن ندعوه يوم المزيد قلت وما ذاك يا جبريل قال إن ربك اتخذ في الجنة واديا فيه كثبان من مسك أبيض فإذا كان يوم الجمعة هبط من عليين على كرسيه فيحف الكرسي بكراسي

من نور فيجيء النبيون حتى يجلسوا على تلك الكراسي ويحف الكراسي بمنابر من نور ومن ذهب مكللة بالجوهر ثم يجيء الصديقون والشهداء حتى يجلسوا على تلك المنابر ثم ينزل أهل الغرف من غرفهم حتى يجلسوا على تلك الكثبان ثم يتجلى لهم الله عز وجل فيقول أنا الذي صدقتكم وعدي وأتممت عليكم نعمتي وهذا محل كرامتي فسلوني فيسألونه حتى تنتهي رغبتهم فيفتح لهم في ذلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وذلك بمقدار منصرفكم من الجمعة ثم يرتفع على كرسيه عز وجل ويرتفع معه النبي صلى الله عليه وسلمون والصديقون ويرجع أهل الغرف إلى غرفهم وهي لؤلؤة بيضاء وزبرجدة خضراء وياقوتة حمراء غرفها وأبوابها وأنهارها مطردة فيها وأزواجها وخدامها وثمارها متدليات فيها فليسوا إلي شيء بأحوج منهم إلى يوم الجمعة ليزدادوا نظرا إلى ربهم ويزدادوا منه

(264/244)

---

كرامة "هذا حديث كبير عظيم الشان رواه أئمة السنة وتلقوه بالقبول وجمل به الشافعي مسنده فرواه عن إبراهيم بن محمد قال حدثني موسى بن عبيدة قال حدثني أبو الأزهر عن عبد الله بن عبد بن عمير أنه سمع أنس بن مالك فذكر بنحوه وقد تقدم لفظه

ثم قال الشافعي أنبانا إبراهيم قال حدثني أبو عمران إبراهيم ابن الجعد عن أنس شبيها به وزاد فيه أشياء ورواه محمد بن إسحاق قال حدثني ليث بن أبي سليم عن عثمان بن عمير عن أنس به وقال فيه : " ثم يتجلى لهم ربهم عز وجل حتى ينظروا إلى وجهه الكريم" وذكر باقي الحديث ورواه عمرو ابن أبي قيس عن أبي ظبية عن عاصم عن عثمان بن عمير أبي اليقظان عن أنس وجوده وفيه "فإذا كان يوم الجمعة نزل على كرسيه ثم حف الكرسي بمنابر من نور فيجيء النبي صلى الله عليه وسلمون حتى يجلسوا عليها ويجيء أهل الغرف حتى يجلسوا على الكثب قال ثم يتجلى لهم ربهم تبارك وتعالى فينظرون إليه فيقول أنا الذي صدقتكم وعدي وأتممت عليكم نعمتي وهذا محل كرامتي سلوني فيسألونه الرضى قال رضاي آمن لكم داري وأنا لكم كرامتي سلوني فيسألونه الرضى قال فيشهدهم بالرضاء ثم يسألونه حتى تنتهي رغبتهم" وذكر الحديث ورواه على ابن حرب حدثنا إسحاق ابن سليمان حدثنا عنبسة بن سعيد عن عثمان بن عمير ورواه الحسن بن عرفة حدثنا عمار بن محمد بن أخت سفيان الثوري عن ليث بن أبي سليم عن عثمان وقال فيه ثم يرتفع على كرسيه ويرتفع معه النبي صلى الله عليه وسلمون والصديقون والشهداء ويرجع أهل الغرف إلى غرفهم ورواه الدار قطني من طريق آخر من حديث قتادة عن أنس قال سمعته يقول بينا نحن حول رسول الله إذ قال أتاني جبريل في يده كالمرآة البيضاء في وسطها كالنكتة السوداء قلت يا جبريل ما هذا قال هذا يوم الجمعة يعرضه عليك ربك

ليكون لك عيدا ولامتك من بعدك قال قلت يا جبريل ما هذه النكتة السوداء قال هي الساعة وهي تقوم يوم الجمعة وهو سيد أيام الدنيا ونحن ندعوه في الجنة يوم المزيد قال قلت يا جبريل ولم تدعونه يوم المزيد قال إن الله اتخذ في الجنة واديا أفيح من مسك أبيض فإذا كان يوم الجمعة نزل ربنا عز وجل على كرسيه

*(265/244)*

---

إلى ذلك الوادي وقد حف الكرسي بمنابر من ذهب مكاله بالجوهر وقد حفت تلك المنابر بكراسي من نور ثم يؤذن لأهل الغرف فيقبلون يخوضون كثبان المسك إلى الركب عليهم أسورة الذهب والفضة وثياب السندس والحرير حتى ينتهوا إلى ذلك الوادي فإذا اطمأنوا فيه جلوسا بعث الله عليهم ريحا يقال لها المثيرة أثارت ينابيع المسك الأبيض في وجوههم وثيابهم وهم يومئذ جرد مرد مكحلون أبناء ثلاث وثلاثين سنة على صورة آدم يوم خلقه الله عز وجل فينادي رب العزة تبارك وتعالى رضوان وهو خازن الجنة فيقول يا رضوان ارفع الحجب بيني وبين عبادي وزواري فإذا رفع الحجب بينه وبينهم فرأوا بهاءه ونوره هموا له بالسجود فيناديهم تبارك وتعالى بصوته ارفعوا رؤوسكم فإنما كانت العبادة في الدنيا وأنتم اليوم في دار الجزاء سلوني ما شئتم فأنا ربكم الذي صدقتكم وعدي وأتممت عليكم

نعمتي فهذا محل كرامتي فسلوني ما شئتم فيقولون ربنا وأي خير لم تفعله بنا الست أعنتنا على سكرات الموت وآنست منا الوحشة في ظلمات القبور وآمنت روعتنا عند النفخة في الصور ألست أقلت عثراتنا وسترت علينا القبيح من فعلنا وثبت على جسر جهنم أقدامنا لست الذي أدنيتنا من جوارك وأسمعتنا لذاذة منطقك وتجليت لنا بنورك ذي خير لم تفعله بنا فنعوذ بالله عز وجل فيناديهم بصوته فيقول أنا ربكم الذي صدقتكم وعدي وأتممت عليكم نعمتي فسلوني فيقولون نسألك رضاك فيقول برضائي عنكم أقلتكم عثراتكم وسترت عليكم القبيح من أموركم وأدنيت مني جواركم وأسمعتكم لذاذة منطقي وتجليت لكم بنوري فهذا محل كرامتي فسلوني فيسألونه حتى تنتهي رغبتهم ثم يقول عز وجل سلوني فيسألونه حتى تنتهي رغبتهم ثم يقول عز وجل سلوني فيقولون رضينا وربنا وسلمنا فيزيدهم من مزيد فضله وكرامته مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ويكون ذلك مقدار تفرقهم من الجمعة قال أنس فقلت بأبي أنت وأمي يا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما مقدار تفرقهم قال كقدر الجمعة إلى الجمعة قال ثم يحمل عرش ربنا تبارك وتعالى معهم الملائكة والنبيون ثم يؤذن لأهل الغرف

*(266/244)*

فيعودون إلى غرفهم وهما غرفتان من زمردتين خضراوين وليسوا إلى شيء أشوق منهم إلى الجمعة لينظروا إلى ربهم عز وجل وليزيدهم من مزيد فضله وكرامته قال أنس سمعته من رسول الله وليس بيني وبينه أحد

ورواه الدار قطني أيضا عن أبي بكر النيسابوري قال أخبرني أبو العباس بن الوليد بن يزيد قال اخبرني محمد بن شعيب قال اخبرني عمر مولى عفرة عن أنس ورواه محمد بن خالد بن جني حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع حدثنا صفوان قال قال أنس قال رسول الله ورواه أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عبد الرحمن بن محمد عن ليث عن أبي عثمان عن أنس ورواه إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة عن زهير بن حرب حدثنا جرير عن ليث عن عثمان بن أبي حميد عن أنس ورواه الأسود بن عامر قال ذكر لي عن شريك عن أبي اليقظان عن أنس ورواه ابن بطة في الإبانة من حديث الأعمش عن أبي وائل عن حذيفة وسيأتي سياقه وقد جمع ابن أبي داود طرقه فصل وأما حديث بريدة بن الحصيب فقال إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة حدثنا أبو خالد عبد العزيز بن إبان القرشي حدنا بشير بن المهاجر عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال قال رسول الله "أما منكم من أحد إلا سيحلو الله به يوم القيامة ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان"

(267/244)

فصل

وأما حديث أبي بن رزين العقيلي فرواه الإمام احمد من حديث شعبة وحماد بن سلمة عن يعلى بن عطاء عن وكيع بن خدش عن أبي رزين قال قلنا يا رسول الله صلى الله عليه وسلم أكلنا يرى ربه عز وجل يوم القيامة قال نعم قلت وما آية ذلك في خلقه قال أليس كلكم ينظر إلى القمر ليلة البدر قلنا نعم قال الله اكبر وأعظم قال عبد الله قال أبي الصواب حدس وقال أبو داود سليمان بن الأشعث حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد بن سلمة به فقد اتفق شعبة وحماد بن سلمة وحسبك بهما على روايته عن يعلى بن عطاء ورواه الناس عنهما وعن أبي رزين فيه إسناد آخر قد تقدم ذكره في حديثه الطويل وأبو رزين العقيلي له صحبة وعداده من أهل الطائف وهو لقيط بن عامر ويقال لقيط بن صبرة هكذا قال البخاري وابن أبي حاتم وغيرهما وقيل هما اثنان ولقيط بن عامر غير لقيط بن صبرة والصحيح الأول وقال ابن عبد البر من قال لقيط بن صبرة نسبه إلى جده وهو لقيط بن عامر ابن صبرة فصل وأما حديث جابر بن عبد الله فقال الإمام احمد حدثنا روح بن جرير اخبرني أبو الزبير أنه سمع جابرا يسأل عن الورود فقال نحن يوم القيامة على كذا وكذا أي فوق الناس فتدعى الأمم بأوثانها وما كانت تعبد الأول فالأول ثم يأتينا ربنا بعد ذلك فيقول ومن تنتظرون فيقولون ننتظر ربنا فيقول أنا ربكم فيقولون حتى ننظر إليك فيتجلى لهم

تبارك وتعالى يضحك قال فينطلق بهم ويتبعونه ويعطى كل إنسان منهم منافق أو مؤمن نورا ثم يتبعونه على جسر

(268/244)

---

جهنم وعليه كلاليب وحسك تأخذ من شاء الله ثم يطفأ نور المنافق ثم ينجو المؤمنون فتنجوا أول زمرة وجوههم كالقمر ليلة البدر وسبعون ألفا لا يحاسبون ثم الذين يلونهم كأضواء النجوم في السماء ثم كذلك ثم تحل الشفاعة حتى يخرج من النار من قال لا اله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة فيجعلون بفناء الجنة ويجعل أهل الجنة يرشون عليهم الماء حتى ينبتون نبات الشيء في السيل ويذهب حراقه ثم يسأل حتى يجعل الله له الدنيا وعشرة أمثالها معها "رواه مسلم في صحيحه وهذا الذي وقع في الحديث من قوله على كذا وكذا قد جاء مفسرا في رواية صحيحة ذكرها عبد الحق في الجمع بين الصحيحين نحن يوم القيامة على تل مشرفين على الخلائق وقال عبد الرزاق أنبانا رباح بن زيد قال حدثني ابن جريج قال أخبرني زياد بن سعد أن أبا الزبير اخبره عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "يتجلى لهم الرب تبارك وتعالى ينظرون إلى وجهه فيخرون له سجدا فيقول ارفعوا رؤوسكم فليس هذا بيوم عبادة" وقال الدار قطني

أنبأنا احمد بن عيسى بن السكن حدثنا احمد بن محمد محمد بن عمر بن يونس حدثنا محمد بن شرحبيل الصنعاني قال حدثني ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله: "يتجلى لنا ربنا عز وجل يوم القيامة ضاحكا" ورواه أبو قرة عن مالك بن أنس عن زياد بن سعد حدثنا أبو الزبير عن جابر أنه سمع رسول الله يقول: "إذا كان يوم القيامة جمعت الأمم" فذكر الحديث وفيه فيقول أتعرفون الله عز وجل إن رأيتموه فيقولون نعم فيقول وكيف تعرفونه ولم تروه فيقولون نعلم أن لا عدل له قال فيتجلى لهم تبارك وتعالى فيخرون له سجدا وقال ابن ماجة في سننه حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب حدثنا

*(269/244)*

---

أبو عاصم العباداني عن فضل بن عيسى الرقاشي عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله: "بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب جل جلاله قد اشرف عليهم من فوقهم فقال السلام عليكم أهل الجنة وهو قول الله عز وجل ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴾ فلا يلتفتون إلى شيء مما هم فيه من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم وتبقى فيهم بركته ونوره وقال حرب في مسائله حدثنا

يحيى ابن أبي حزم حدثنا يحيى بن محمد أبو عاصم العباداني فذكره وعند البيهقي في هذا الحديث سياق آخر رواه أيضا من طريق العباداني عن الفضل بن عيسى بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله: "بينا أهل الجنة في مجالس لهم إذ سطع لهم نور على باب الجنة فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب تبارك وتعالى قد اشرف فقال تعالى: يا أهل الجنة سلوني قالوا نسألك الرضى عنا قال رضائي أحلكم داري وأنالكم كرامتي هذا أوانها فسلوني قالوا نسألك الزيادة قال فيؤتون بنجائب من ياقوت احمر أزمتها زمرد اخضر وياقوت احمر فجاءوا عليها تضع حوافرها عند منتهى طرفها فيأمر الله بأشجار عليها الثمار فتجيء جواري الحور العين وهن يقلن نحن الناعمات فلا نبأس ونحن الخالدات فلا نموت أزواج قوم مؤمنين كرام ويأمر الله عز وجل بكثبان من مسك أبيض أذفر فيثير عليهم ريحا يقال لها المثيرة حتى تنتهي بهم إلى جنة عدن وهي قصبة الجنة فتقول الملائكة يا ربنا قد جاء القوم مرحبا بالصادقين ومرحبا بالطائعين قال فيكشف لهم الحجاب فينظرون إلى الله تبارك وتعالى ويتمتعون بنور الرحمن حتى لا يبصر بعضهم بعضا ثم يقول أرجعوهم إلى القصور بالتحف فيرجعون وقد أبصر بعضهم بعضا فقال رسول الله: " فذاك قوله تعالى: ﴿ نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ " رواه في كتاب البعث والمنشور وفي كتاب الرؤية قال وقد مضى في هذا

الكتاب وفي كتاب الرؤية ما يؤكد هذا الخبر وقال الدارقطني أنبأنا الحسن بن إسماعيل أنبانا أبو الحسن بن إسماعيل أنبانا أبو الحسن علي بن عبدة حدثنا يحيى بن سعيد القطان عن ابن أبي ذئب عن محمد بن المنكدر عن جابر قال قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله عز وجل يتجلى للناس عامة ويتجلى لأبي بكر خاصة"

فصل وأما حديث أبي أمامة فقال ابن وهب اخبرني يونس بن يزيد عن عطاء الخراساني عن يحيى بن أبي عمرو الشيباني عن عمرو بن عبد الله الحضرمي عن أبي أمامة قال: خطبنا رسول الله فكان أكثر خطبته ذكر الدجال يحذرنا منه ويحدثنا عنه حتى فرغ من خطبته فكان فيما قال لنا يومئذ إن الله عز وجل لم يبعث نبيا إلا حذر أمته وإني آخر الأنبياء وأنتم آخر الأمم وهو خارج فيكم لا محالة فان يخرج وأنا بين أظهركم فانا حجيج كل مسلم وإن يخرج فيكم بعدي فكل امرئ حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم أنه يخرج من خلة بين العراق والشام عاث يمينا وعاث شمالا يا عباد الله اثبتوا وأنه يبدأ فيقول أنا نبي ولا نبي بعدي ثم يثني فيقول أنا ربكم ولن تروا ربكم حتى تموتوا وانه مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن فمن لقيه منكم فليتفل في وجهه وليقرأ فواتح سورة أصحاب الكهف وانه يسلط على نفس من بني آدم فيقتلها ثم يحييها وانه لا يعدو ذلك ولا يسلط على نفس غيرها وإن من فتنته إن معه جنة ونارا فناره جنة وجنته نار فمن ابتلي بناره فليغمض عينيه

وليستغث بالله تكن بردا وسلاما كما كانت النار بردا وسلاما على إبراهيم وإن أيامه أربعون يوما يوما كسنة ويوما كشهر ويوما كجمعة ويوما كالأيام وآخر أيامه كالسراب يصبح الرجل عند باب المدينة فيمسي قبل إن يبلغ بابها الآخر قالوا فكيف نصلي يا رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك الأيام قال تقدرون كما تقدرون في الأيام الطوال ورواه الدار قطني عن ابن صاعد عن احمد بن الفرح عن ضمرة بن ربيعة عن يحيى بن أبي عمرويه

(271/244)

---

فصل وأما حديث زيد بن ثابت فقال الإمام احمد حدثنا أبو المغيرة قال حدثني أبو بكر قال حدثني ضمرة بن حبيب عن زيد بن ثابت أن رسول الله علمه دعاء وأمره أن يتعاهد به أهله كل يوم قال قل حين تصبح لبيك اللهم لبيك لبيك وسعديك والخير في يديك ومنك وإليك اللهم وما قلت من قول أو نذرت من نذر أو حلفت من حلف فمشيئتك بين يديه ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا بك انك على كل شيء قدير اللهم وما صليت من صلاة فعلى من صليت وما لعنت من لعنة أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلما والحقني بالصالحين أسألك اللهم الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك من غير ضراء ومضرة ولا فتنة مضلة أعوذ بك اللهم أن

اظلم أو اظلم أو اعتدي أو يعتدى علي أو اكسب خطيئة محبطة أو ذنبا لا تغفره اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة ذا الجلال والإكرام فاني اعهد إليك في هذه الحياة الدنيا وأشهدك وكفى بك شهيدا إني اشهد أن لا اله إلا أنت وحدك لا شريك لك لك الملك ولك الحمد وأنت على كل شيء قدير واشهد أن محمدا عبدك ورسولك واشهد أن وعدك حق وأن لقائك حق والجنة حق والساعة آتية لا ريب فيها وأنت تبعث من في القبور واشهد انك تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضيعة وعورة وذنب وخطيئة وإني لا أثق إلا برحمتك فاغفر لي ذنبي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت وتب علي انك أنت التواب الرحيم رواه أبو داود في صحيحه

فصل

*(272/244)*

---

وأما حديث عمار بن ياسر فقال الإمام احمد حدثنا إسحاق الأزرق عن شريك عن أبي هاشم عن أبي مجلز قال صلى بنا عمار صلاة فاوجز فيها فأنكروا ذلك فقال ألم أتم الركوع والسجود قالوا بلى قال أما إني قد دعوت فيها بدعاء كان رسول الله يدعو به اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيرا لي وتوفني إذا علمت الوفاة خيرا

لي وأسالك خشيتك في الغيب والشهادة وكلمة الحق في الغضب والرضا والقصد في الفقر والغنى ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين وأخرجه ابن حبان والحاكم في صحيحيهما فصل وأما حديث عائشة ففي صحيح الحاكم من حديث الزهري عن عروة عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر: يا جابر إلا أبشرك قال بلى بشرك الله بخير قال شعرت أن الله أحيا أباك فأقعده بين يديه فقال تمن علي عبدي ما شئت أعطكه قال يا رب ما عبدتك حق عبادتك أتمنى عليك أن تردني إلى الدنيا فأقاتل مع نبيك فأقتل فيك مرة أخرى قال أنه قد سلف مني انك إليها لا ترجع وهو في المسند من حديث جابر وفي مسنده ادخله وللترمذي فيه سياق أتم من هذا عن جابر قال لما قتل عبد الله بن عمرو ابن حزام يوم أحد قال قال رسول الله يا جابر إلا أخبرك ما قال الله عز وجل لأبيك قال بلى قال ما كلم الله عز وجل أحدا إلا من وراء حجاب

*(273/244)*

---

وكلم أباك كفاحا فقال يا عبدي تمن علي أعطك قال يا رب تحييني فاقتل فيك ثانية قال أنه سبق مني أنهم إليها لا يرجعون قال يا رب فابلغ من ورائي فانزل الله عز وجل هذه الآية ولا

تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا الآية قال الترمذي هذا حديث حسن غريب قلت وإسناده صحيح ورواه الحاكم في صحيحه فصل وأما حديث عبد الله بن عمر فقال الترمذي حدثنا عبد بن حميد عن شبابة عن إسرائيل عن ثوير بن أبي فأخته وقال الطبراني حدثنا أسد بن موسى حدثنا أبو معاوية محمد بن حازم عن عبد الملك بن ابجر عن ثوير بن أبي فاختة عن ابن عمر قال قال رسول الله: "إن أدنى أهل الجنة منزلة لرجل ينظر في ملكه ألفي سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه ينظر إلى أزواجه وسرره وخدمه وإن أفضلهم منزلة من ينظر إلى وجه الله تبارك وتعالى كل يوم مرتين" قال الترمذي وروى هذا الحديث من غير وجه عن إسرائيل عن ثوير عن ابن عمر مرفوعا ورواه عبد الملك بن ابجر عن ثوير عن مجاهد عن ابن عمر مرفوعا وروى الأشجعي عبيد الله عن سفيان الثوري عن مجاهد عن ابن عمر نحوه ولم يرفعه حدثنا بذلك أبو كريب قلت ورواه الحسن بن عرفة عن شبابة عن إسرائيل عن ثوير عن ابن عمر مرفوعا وزاد فيه ثم قرأ رسول الله ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ وقال سعيد بن هشيم بن بشير عن أبيه عن كريز بن حكيم عن نافع عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يوم القيامة أول يوم نظرت فيه

*(274/244)*

عين إلى الله تبارك وتعالى" ورواه الدار قطني عن جماعة عن احمد بن يحيى بن حبان الرقي عن إبراهيم بن خرزاذ عنه وقال الدارقطني حدثنا احمد بن سليمان حدثنا احمد بن يونس حدثنا عبد الحميد بن صالح حدثنا أبو شهاب الخياط عن خالد بن دينار عن حماد بن جعفر عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله يقول" إلا أخبركم بأسفل أهل الجنة قالوا بلى يا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الحديث إلى أن قال حتى إذا بلغ النعيم منهم كل مبلغ وظنوا أن لا نعيم أفضل منه واشرف الرب تبارك وتعالى عليهم فينظرون إلى وجه الرحمن عز وجل فيقول يا أهل الجنة هللوني وكبروني وسبحوني بما كنتم تهللونني وتكبروني وتسبحوني في دار الدنيا فيتجاوبون بتهليل الرحمن فيقول تبارك وتعالى لداود يا داود قم فمجدني فيقوم داود فيمجد ربه عز وجل" وقال عثمان بن سعيد الدارمي في رده على بشر المريسي حدثنا احمد بن يونس عن أبي شهاب الخياط عن خالد بن دينار عن حماد بن جعفر عن ابن عمر يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم إن أهل الجنة إذا بلغ النعيم منهم كل مبلغ وظنوا أن لا نعيم افضل منه تجلى لهم الرب تبارك وتعالى فنظروا إلى وجه الرحمن فنسوا كل نعيم عاينوه حين نظروا إلى وجه الرحمن فصل وأما حديث عمارة بن رويبة فقال ابن بطة في الإبانة حدثنا عبد الغافر بن سلامة الحمصي حدثنا محمد بن عوف بن سفيان الطائي حدثنا أبو اليمان حدثنا إسماعيل بن عياش عن عبد الرحمن بن عبد الله بن إسماعيل بن أبي خالد عن أبي بكر بن عمارة بن رويبة عن أبيه قال نظر النبي صلى الله

عليه وسلم إلى القمر ليلة البدر فقال : "إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضارون في رؤيته فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا" قال ابن بطة واخبرني أبو القاسم بن عمر بن احمد عن أبي بكر احمد بن هارون حدثنا عبد الرزاق بن منصور حدثنا المغيرة حدثنا المسعودى عن إسماعيل بن أبي خالد عن

(275/244)

---

أبي بكر بن عمارة بن رويبة عن أبيه قال: نظر رسول الله إلى القمر ليلة البدر فقال: "إنكم سترون ربكم تبارك وتعالى كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته

فان استطعتم أن لا تغلبوا على ركعتين قبل طلوع الشمس وركعتين بعد غروبها فافعلوا"

فصل

وأما حديث سلمان الفارسي فقال أبو معاوية حدثنا عاصم الأحول عن أبي عثمان عن سلمان الفارسي قال" يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيقولون يا نبي الله إن الله فتح بك وختم بك وغفر لك قم فاشفع لنا إلى ربك فيقول نعم أنا صاحبكم فيخرج يحوش الناس حتى ينتهي إلى باب الجنة فيأخذ بحلقة الباب فيقرع فيقال من هذا فيقال محمد قال فيفتح له فيجيء حتى يقوم بين يدي الله فيستأذن في السجود فيؤذن له" الحديث

فصل

وأما حديث حذيفة بن اليمان فقال ابن بطة اخبرني أبو القاسم عمر بن احمد عن أبي بكر احمد بن هارون حدثنا يزيد بن جمهور حدثنا الحسن بن يحيى ابن كثير العنبري حدثني أبي عن إبراهيم بن المبارك عن القاسم بن مطيب عن الأعمش عن أبي وائل عن حذيفة بن اليمان وقال البزار وحدثنا محمد بن معمر واحمد بن عمرو بن عبيد العصفري قالا حدثنا يحيى بن كثير حدثنا إبراهيم ابن المبارك عن القاسم بن مطيب عن الأعمش عن أبي وائل عن حذيفة قال قال رسول الله " أتاني جبريل فإذا في كفه مرآة كأصفى المرايا وحسنها وإذا في وسطها

(276/244)

---

نكتة سوداء قال يا جبريل ما هذه قال هذه الدنيا صفاؤها وحسناه قال قلت وما هذه اللمعة في وسطها قال هذه الجمعة قال قلت وما الجمعة قال يوم من أيام ربك عظيم وسأخبرك بشرفه وفضله واسمه في الآخرة أما شرفه وفضله في الدنيا فان الله تعالى جمع فيه أمر الخلق وأما ما يرجى فيه فإن فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم أو أمة مسلمة يسألان الله تبارك وتعالى فيها خيرا إلا أعطاهما إياه وأما شرفه وفضله واسمه في الآخرة فان الله

تبارك وتعالى إذا صير أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار وجرت عليهم أيامها وساعاتها ليس بها ليل ولا نهار إلا قد علم الله تبارك وتعالى مقدار ذلك وساعاته فإذا كان يوم الجمعة في الحين الذي يبرز أو يخرج فيه أهل الجنة إلى جمعتهم نادى مناد يا أهل الجنة اخرجوا إلى دار المزيد لا يعلم سعته وعرضه وطوله إلا الله عز وجل في كثبان من المسك قال فيخرج غلمان الأنبياء بمنابر من نور ويخرج غلمان المؤمنين بكراسي من ياقوت قال فإذا وضعت لهم واخذ القوم مجالسهم بعث الله تبارك وتعالى عليهم ريحا تدعى المثيرة تثير عليهم آثار المسك الأبيض تدخله من تحت ثيابهم وتخرجه في وجوههم وأشعارهم فتلك الريح اعلم كيف تصنع بذلك المسك من امرأة أحدكم لو دفع إليها ذلك الطيب بإذن الله تعالى قال ثم يوحي الله سبحانه إلى حملة العرش فيوضع بين ظهراني الجنة وبينه وبينهم الحجب فيكون أول ما يسمعون منه أن يقول أين عبادي الذين أطاعوني في الغيب ولم يروني وصدقوا رسلي واتبعوا أمري فسلوني فهذا يوم المزيد قال فيجتمعون على كلمة واحدة ربنا رضينا عنك فارض عنا قال فيرجع الله تعالى في قولهم أن يا أهل الجنة إني لو لم ارض عنكم لما أسكنتكم جنتي فسلوني فهذا يوم المزيد قال فيجتمعون على كلمة واحدة رب وجهك أرنا ننظر إليه قال فيكشف الله تبارك وتعالى تلك الحجب ويتجلى لهم فيغشاهم من نوره لولا أنه قضى عليهم أن لا يحترقوا إلا احترقوا مما غشيهم من نوره

(277/244)

قال ثم يقال ارجعوا إلى منازلكم قال فيرجعون إلى منازلهم وقد خفوا على أزواجهم وخفين عليهم مما غشيهم من نوره, فإذا صاروا إلى منازلهم

يزاد النور وأمكن ويزاد وأمكن حتى يرجعوا إلى صورهم التي كانوا عليها قال فيقول لهم أزواجهم لقد خرجتم من عندنا على صورة ورجعتم على غيرها قال فيقولون ذلك بأن الله تبارك وتعالى تجلى لنا فنظرنا منه إلى ما خفينا به عليكم قال فلهم في كل سبعة أيام الضعف على ما كانوا فيه قال وذلك قوله عز وجل ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وقال عبد الرحمن بن مهدي حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن مسلم بن يزيد السعدي عن حذيفة في قوله عز وجل: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ قال النظر إلى وجه الله عز وجل قال الحاكم وتفسير الصحابي عندنا في حكم المرفوع فصل وأما حديث ابن عباس فروى ابن خزيمة من حديث حماد بن سلمة عن ابن جدعان عن أبي نضرة قال خطبنا ابن عباس فقال قال رسول الله ما من نبي إلا وله دعوة تعجلها في الدنيا وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فآتي باب الجنة فآخذ بحلقة الباب فاقرع الباب فيقال من أنت فأقول أنا محمد فآتي ربي وهو على كرسيه أو على سريره فيتجلى لي ربي فاخر له ساجدا ورواه ابن عيينة عن ابن جدعان فقال عن أبي سعيد بدل بن عباس وقال أبو بكر بن أبي داود حدثنا عمى محمد بن الأشعث حدثنا ابن جبير قال حدثني أبي

جبير عن الحسن عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إن أهل الجنة يرون ربهم تبارك وتعالى في كل يوم جمعة في رمال الكافور وأقربهم منه مجلسا أسرعهم إليه يوم الجمعة وأبكرهم غدوا"

فصل

(278/244)

---

وأما حديث عبد الله بن عمرو بن العاص فقال الصنعاني حدثنا صدقة بن عمرو العقدي قال قرأت على محمد بن إسحاق حدثني أمية بن عبد الله بن عمرو بن عثمان عن أبيه عن عبد الله بن عمرو قال سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يحدث مروان بن الحكم وهو أمير المدينة قال" خلق الله الملائكة لعبادته أصنافا فان منهم لملائكة قياما صافين من يوم خلقهم إلى يوم القيامة وملائكة ركوعا خشوعا من يوم خلقهم إلى يوم القيامة وملائكة سجودا منذ خلقهم إلى يوم القيامة فإذا كان يوم القيامة وتجلى لهم تعالى ونظروا إلى وجهه الكريم قالوا سبحانك ما عبدناك حق عبادتك" فصل وأما حديث أبي بن كعب فقال الدار قطني حدثنا عبد الصمد بن علي حدثنا محمد بن زكريا بن دينار قال حدثني قحطبة بن علاقة حدثنا أبو جلدة عن أبي العالية عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم

في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ قال النظر إلى وجه الله عز وجل وأما حديث كعب ابن عجرة فقال محمد بن حميد حدثنا إبراهيم بن المختار عن ابن جريج عن عطاء الخراساني عن كعب بن عجرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ قال الزيادة النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى

(279/244)

---

فصل وأما حديث فضالة بن عبيد فقال عثمان بن سعيد الدارمي حدثنا محمد بن المهاجر عن أبي حليس عن أبي الدرداء أن فضالة يعني ابن عبيد كان يقول : " اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقاءك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة" فصل وأما حديث عبادة بن الصامت ففي مسند أحمد من حديث بقية حدثنا يحيى ابن سعيد عن خالد بن معدان عن عمرو بن الأسود عن جنادة بن أبي أمية عن عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "قد حدثتكم عن الدجال حتى خشيت أن لا تعقلوا إن مسيح الدجال رجل قصير أفحج جعد أعور مطموس العين ليست بناتئة ولا جحراء فإن التبس عليكم فاعلموا أن ربكم ليس بأعور وإنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا" وأما حديث الرجل من أصحاب النبي صلى الله عليه

وسلم فقال الصنعاني حدثنا روح بن عبادة حدثنا عباد بن منصور قال سمعت عدي بن أرطاة يخطب على المنبر بالمدائن فجعل يعظ حتى بكى وأبكانا ثم قال كونوا كرجل قال لابنه وهو يعظه يا بني أوصيك أن لا تصلي صلاة إلا ظننت أنك إلا تصلي بعدها غيرها حتى تموت وتعال يا بني نعمل عمل رجلين كأنهما قد وقفا على النار ثم سألا الكرة ولقد سمعت فلانا نسي عباد اسمه ما بيني وبين رسول الله غيره فقال أن رسول الله قال إن لله ملائكة ترعد فرائصهم من مخافته ما منهم ملك تقطر دمعته من عينه إلا وقعت ملكا يسبح الله تعالى قال وملائكة سجود منذ خلق الله السماوات والأرض لم يرفعوا رؤوسهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة وصفوف لم ينصرفوا عن مصافهم ولا ينصرفون إلى يوم القيامة فإذا

*(280/244)*

---

كان يوم القيامة فإذا كان يوم القيامة وتجلى لهم ربهم فنظروا إليه قالوا سبحانك ما عبدناك كما ينبغي لك أن نعبدك فصل وهاك بعض ما قاله بعض أصحاب رسول الله والتابعون وأئمة الإسلام بعدهم قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال أبو إسحاق عن عامر بن سعد قرأ أبو بكر الصديق ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ فقالوا: ما الزيادة يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى قول علي بن أبي

طالب رضي الله عنه قال عبد الرحمن بن أبي حاتم حدثنا علي بن ميسرة الهمداني حدثنا صالح ابن أبي خالد العنبري عن أبي الأحوص عن أبي إسحاق الهمداني عن عمارة ابن عبيد قال سمعت عليا يقول من تمام النعمة دخول الجنة والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى في جنته" قول حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال حدثنا وكيع عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن مسلم عن زيد عن حذيفة قال الزيادة النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى قول عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم ذكر أبو عوانة عن هلال عن عبد الله بن حكيم قال سمعت عبد الله بن مسعود يقول في هذا المسجد مسجد الكوفة يبدأ باليمين قبل أن يحدثنا فقال والله ما منكم من إنسان إلا أن ربه سيخلو به يوم القيامة كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر قال فيقول ما غرك بي يا ابن آدم ثلاث مرات ماذا أجبت المرسلين ثلاثا كيف عملت فيما علمت وقال ابن أبي داود حدثنا احمد بن الأزهر حدثنا إبراهيم بن الحكم حدثنا أبي عن عكرمة قال قيل لابن عباس كل من دخل الجنة يرى الله عز وجل ؟ قال:

*(281/244)*

نعم وقال أسباط بن نصر عن إسماعيل السدي عن أبي ملك وأبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود لزيادة النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى قول معاذ بن جبل قال عبد الرحمن بن أبي حاتم أنبانا إسحاق بن احمد الخراز حدثنا إسحاق بن سليمان الرازي عن المغيرة بن مسلم عن ميمون بن أبي حمزة قال كنت جالسا عند أبي وائل فدخل علينا رجل يقال له أبو عفيف فقال له شقيق بن سلمة يا أبا عفيف إلا تحدثنا عن معاذ بن جبل قال بلى سمعته يقول يحشر الناس يوم القيامة في صعيد واحد فينادي أين المتقون فيقومون في كنف واحد من الرحمن لا يحتجب الله منهم ولا يستتر قلت من المتقون قال قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان واخلصوا لله في العبادة فيمرون إلى الجنة قول أبي هريرة رضي الله عنه قال ابن وهب اخبرني ابن لهيعة عن أبي النصر أن أبا هريرة كان يقول لن تروا ربكم حتى تذوقوا الموت قول عبد الله بن عمر قال حسين الجعفي عن عبد الملك بن ابجر عن ثوير عن ابن عمر قال إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر إلى ملكه ألفي عام يرى أدناه كما يرى أقصاه وإن أفضلهم منزلة لمن ينظر إلى وجه الله في كل يوم مرتين قول فضالة بن عبيد ذكر الدارمي عن محمد بن مهاجر عن أبي حليس عن أبي الدرداء أن فضالة بن عبيد كان يقول اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك وقد تقدم

قول أبي موسى الأشعري قال وكيع عن أبي بكر الهذلي عن أبي تميمة عن أبي موسى قال

الزيادة النظر إلى وجه الله ويرى يزيد بن هارون وابن أبي عدي وابن علية عن التيمي عن اسلم العجلي عن أبي مزانة عن أبي موسى الاشعري أنه كان يحدث الناس فشخصوا بأبصارهم فقال ما صرف أبصاركم عني قالوا الهلال قال فكيف بكم إذا رأيتم وجه الله جهرة

(282/244)

---

قول أنس بن مالك قال ابن أبي شيبة حدثنا يحيى بن يمان حدثنا شريك عن أبي اليقظان عن أنس بن مالك في قوله عز وجل ولدينا مزيد قال يظهر لهم الرب تبارك وتعالى يوم القيامة قول جابر بن عبد الله قال مروان بن معاوية عن الحكم بن أبي خالد عن الحسن عن جابر قال إذا دخل أهل الجنة الجنة وأديم عليهم بالكرامة جاءتهم خيول من ياقوت احمر لا تبول ولا تروث لها أجنحة فيقعدون عليها ثم يأتون الجبار فإذا تجلى لهم خروا له سجدا فيقول يا أهل الجنة ارفعوا رؤوسكم فقد رضيت عنكم لا سخط بعده قال الطبري فتحصل في الباب ممن روى عن رسول الله من الصحابة حديث الرؤية ثلاث وعشرون نفسا منهم علي وأبو هريرة وأبو سعيد وجرير وأبو موسى وصهيب وجابر وابن عباس وانس وعمار بن ياسر وأبي ابن كعب وابن مسعود وزيد بن ثابت وحذيفة بن اليمان وعبادة بن الصامت

وعدي بن حاتم وأبو رزين العقيلي وكعب بن عجرة وفضالة بن عبيد وبريدة بن الحصيب ورجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقال الدارقطني أنبأنا محمد بن عبد الله حدثنا جعفر بن محمد الأزهر حدثنا مفضل بن غسان قال سمعت يحيى بن معين يقول عندي سبعة عشر حديثا في الرؤية كلها صحاح وقال البيهقي روينا في إثبات الرؤية عن أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وأبي موسى وغيرهم ولم يرو عن أحد منهم نفيها ولو كانوا فيها مختلفين لنقل اختلافهم في ذلك إلينا فلما نقلت رؤية الله سبحانه وتعالى بالأبصار في الآخرة عنهم ولم ينقل عنهم في ذلك اختلاف كما نقل عنهم فيها اختلاف في الدنيا علمنا أنهم كانوا على القول برؤية الله بالأبصار في الآخرة متفقين ومجتمعين

فصل

*(283/244)*

---

وأما التابعون ونزل الإسلام وعصابة الإيمان من أئمة الحديث والفقه والتفسير وأئمة التصوف فأقوالهم أكثر من أن يحيط بها إلا الله عز وجل قال سعيد بن المسيب الزيادة النظر إلى وجه الله رواه مالك عن يحيى عنه وقال الحسن الزيادة النظر إلى وجه الله رواه ابن أبي

حاتم عنه وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى الزيادة النظر إلى وجه الله تعالى رواه حماد بن زيد عن ثابت عنه وقاله عامر بن سعد البجلي ذكره سفيان عن أبي إسحاق عنه وقاله عبد الرحمن ابن سابط رواه جرير بن ليث عنه وقاله عكرمة ومجاهد وقتادة والسدي والضحاك وكعب وكتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله أما بعد فاني أوصيك بتقوى الله ولزوم طاعته والتمسك بأمره والمعاهدة على ما حملك الله من دينه واستحفظك من كتابه فإن بتقوى الله نجا أولياء الله من سخطه وبها رافقوا أنبياءه وبها نضرت وجوههم ونظروا إلى خالقهم وهي عصمة في الدنيا ومن الفتن ومن كرب يوم القيامة وقال الحسن لو علم العابدون في الدنيا أنهم لا يرون ربهم في الآخرة لذابت أنفسهم في الدنيا وقال الأعمش وسعيد بن جبير أن اشرف أهل الجنة لمن ينظر إلى الله تبارك وتعالى غدوة وعشية وقال كعب ما نظر الله سبحانه إلى الجنة قط إلا قال طيبي لأهلك فزادت ضعفا على ما كانت حتى يأتيها أهلها وما من يوم كان لهم عيد في الدنيا إلا ويخرجون في مقداره في رياض الجنة فيبرز لهم الرب تبارك وتعالى فينظرون إليه وتسفى عليهم الريح المسك ولا يسألون الرب تعالى شيئا إلا أعطاهم حتى يرجعوا وقد ازدادوا على ما كانوا عليه من الحسن والجمال سبعين ضعفا ثم يرجعون إلى أزواجهم وقد ازددن مثل ذلك وقال هشام بن حسان

أن الله سبحانه وتعالى يتجلى لأهل الجنة فإذا رآه أهل الجنة نسوا نعيم الجنة وقال طاووس أصحاب المرآء والمقاييس لا يزال بهم المرآء والمقاييس حتى يجحدوا الرؤية ويخالفوا أهل السنة وقال شريك عن أبي إسحاق السبيعي الزيادة النظر إلى وجه الرحمن تبارك وتعالى وقال حماد بن زيد عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أنه تلا هذه الآية: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ قال إذا دخل أهل الجنة الجنة أعطوا فيها ما سألوا وما شاؤا فيقول الله عز وجل لهم أنه قد بقي من حقكم شيء لم تعطوه فتجلى لهم ربهم فلا يكون ما أعطوه عند ذلك بشيء فالحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه ربهم عز وجل ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة بعد نظرهم إلى ربهم تبارك وتعالى وقال علي بن المديني سألت عبد الله بن المبارك عن قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً﴾ قال عبد الله من أراد النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى خالقه فليعمل عملا صالحا ولا يخبر به أحدا وقال نعيم بن حماد سمعت ابن المبارك يقول ما حجب الله عز وجل أحدا عنه إلا عذبه ثم قرأ ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ قال بالرؤية ذكره ابن أبي الدنيا عن يعقوب عن إسحاق عن نعيم وقال عباد بن العوام قدم علينا شريك بن عبد الله منذ خمسين سنة فقلت له يا أبا عبد الله أن عندنا قوما من المعتزلة ينكرون هذه الأحاديث أن الله ينزل إلى السماء الدنيا وأن أهل الجنة يرون ربهم

فحدثني بنحو عشرة أحاديث في هذا وقال أما نحن قد أخذنا ديننا هذا عن التابعين عن أصحاب رسول الله فهم عمن اخذوا وقال عقبة بن قبيصة أتينا أبا نعيم يوما فنزل إلينا من الدرجة التي في داره فجلس وسطها كأنه مغضب فقال حدثنا سفيان ابن سعيد ومنذر الثوري وزهير بن معاوية وحدثنا حسن بن

(285/244)

---

صالح بن حي وحدثنا شريك بن عبد الله النخعي هؤلاء أبناء المهاجرين يحدثوننا عن رسول الله أن الله تبارك وتعالى يرى في الآخرة حتى جاء ابن يهودي صباغ يزعم أن الله تعالى لا يرى يعني بشر المريسي

(286/244)

---

فصل في المنقول عن الأئمة الأربعة ونظائرهم وشيوخهم وأتباعهم على طريقهم ومناهجهم ذكر قول إمام دار الهجرة مالك بن أنس قال احمد بن صالح المصري حدثنا عبد الله بن وهب قال قال مالك بن أنس: الناس ينظرون إلى ربهم عز وجل يوم القيامة بأعينهم وقال

الحارث بن مسكين حدثنا أشهب قال سئل مالك بن أنس عن قوله عز وجل ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ أتنظر إلى الله عز وجل قال نعم فقلت إن أقواما يقولون تنظر ما عنده قال بل تنظر إليه نظرا وقد قال موسى يا رب ارني انظر إليك قال لن تراني وقال الله تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ وذكر الطبري وغيره أنه قيل لمالك بن أنس أنهم يزعمون أن الله لا يرى فقال مالك السيف السيف ذكر قول ابن الماجشون قال أبو حاتم الرازي قال أبو صالح كاتب الليث أملى على ابن عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون وسألته عما جحدت الجهمية فقال لم يزل يملي الشيطان حتى جحدوا قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ فقالوا لا يراه أحد يوم القيامة فجحدوا والله أفضل كرامة الله التي أكرم بها أولياءه يوم القيامة من النظر إلى وجهه ونضرته إياهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر فورب السماء والأرض ليجعلن رؤيته يوم القيامة للمخلصين له ثوابا لينضر بها وجههم دون المجرمين وتفلح بها حجتهم على الجاحدين وهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون لا يرونه كما زعموا أنه لا يرى ولا يكلمهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب اليم ذكر قول الأوزاعي ذكر ابن أبي حاتم عنه قال إني لأرجو أن يحجب الله عز وجل جهما وأصحابه عن أفضل ثوابه الذي وعده الله عز وجل أولياءه حين يقول: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ فجحد جهم وأصحابه أفضل ثوابه الذي وعده الله أولياءه

ذكر قول الليث بن سعد قال ابن أبي حاتم حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث حدثنا الهيثم بن خارجة قال سمعت الوليد بن مسلم يقول سالت الأوزاعي وسفيان الثوري ومالك بن أنس والليث بن سعد عن هذه الأحاديث التي فيها الرؤية فقالوا تمر بلا كيف قول سفيان بن عيينة ذكر الطبري وغيره عنه أنه قال من لم يقل أن القران كلام الله وأن الله يرى في الجنة فهو جهمي وذكر عنه ابن أبي حاتم أنه قال يصلي خلف الجهمي والجهمي الذي يقول لا يرى ربه يوم القيامة قول جرير بن عبد الحميد ذكر ابن أبي حاتم عنه أنه ذكر حديث ابن سابط في الزيادة إنها النظر إلى وجه الله فأنكره رجل فصاح به وأخرجه من مجلسه قول عبد الله بن المبارك ذكر عبد الرحمن بن أبي حاتم عنه إن رجلا من الجهمية قال له يا أبا عبد الرحمن خدارا بان جهان جون ببيند ومعناه كيف يُرى الله يوم القيامة فقال بالعين وقال ابن أبي الدنيا حدثنا يعقوب بن إسحاق قال سمعت نعيم بن حماد يقول سمعت بن المبارك يقول ما حجب الله عنه أحدا إلا عذبه ثم قرأ ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ قال ابن المبارك بالرؤية قول وكيع بن الجراح ذكر ابن أبي حاتم عنه أنه قال يراه تبارك وتعالى المؤمنون في الجنة ولا يراه إلا المؤمنون قول قتيبة بن سعيد ذكر ابن أبي حاتم عنه قال قول الأئمة المأخوذ في الإسلام والسنة والإيمان بالرؤية والتصديق بالأحاديث التي جاءت عن رسول الله في الرؤية قول أبي عبيد القاسم بن

سلام ذكر ابن بطة وغيره عنه أنه إذا ذكرت عنده هذه الأحاديث التي في الرؤية فقال هي عندنا حق ورواها الثقات عن الثقات إلى أن

(288/244)

---

صارت إلينا إلا أنا إذا قيل لنا فسروها لنا قلنا لا نفسر منها شيئا ولكن نمضيها كما جاءت قول اسود بن سالم شيخ الإمام احمد قال المروزي حدثنا عبد الوهاب الوراق قال سألت اسود بن سالم عن أحاديث الرؤية فقال احلف عليها بالطلاق وبالمشي إنها حق قول محمد ابن إدريس الشافعي قد تقدم رواية الربيع عنه أنه قال في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ لما حجب هؤلاء في السخط كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضا قال الربيع فقلب يا أبا عبد الله ونقول به قال نعم وبه ابن الله ولو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى الله عز وجل لما عبده وقال ابن بطة حدثنا ابن الأنباري حدثنا أبو القاسم الأنماطي صاحب المزني قال قال الشافعي رحمه الله ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ دلالة على إن أولياء الله يرونه يوم القيامة بأبصارهم ووجوههم قول إمام السنة احمد بن حنبل قال إسحاق بن منصور قلت لأحمد أليس ربنا تبارك وتعالى يراه أهل الجنة أليس تقول بهذه الأحاديث قال احمد صحيح قال ابن منصور وقال إسحاق بن

راهويه صحيح ولا يدعه إلا كل مبتدع أو ضعيف الرأي وقال الفضل بن زياد سمعت أبا عبد الله وقيل له تقول بالرؤية فقال من لم يقل بالرؤية فهو جهمي قال سمعت أبا عبد الله وبلغه عن رجل أنه قال إن الله لا يرى في الآخرة فغضب غضبا شديدا ثم قال من قال إن الله لا يرى في الآخرة فقد كفر عليه لعنة الله وغضبه من كان من الناس أليس يقول الله عز وجل ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ وقال ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ وقال أبو داود سمعت احمد وذكر له عن رجل شيء في الرؤية فغضب وقال من قال إن الله لا يرى فهو كافر

*(289/244)*

---

وقال أبو داود وسمعت احمد بن حنبل وقيل له في رجل يحدث بحديث عن رجل عن أبي العطوف إن الله لا يرى في الآخرة فقال لعن الله من يحدث بهذا الحديث اليوم ثم قال أخزى الله هذا وقال أبو بكر المرزوي قيل لأبي عبد الله تعرف عن يزيد بن هارون عن أبي العطوف عن أبي الزبير عن جابر إن استقر الجبل فسوف تراني وإن لم يستقر فلا تراني في الدنيا ولا في الآخرة فغضب أبو عبد الله غضبا شديدا حتى تبين في وجهه وكان قاعدا والناس حوله فأخذ نعله وانتعل وقال أخزى الله هذا لا ينبغي أن يكتب ودفع أن يكون يزيد

بن هارون رواه أو حدث به وقال هذا جهمي كافر خالف ما قال الله عز وجل ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ وقال ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ أخزى الله هذا الخبيث قال أبو عبد الله ومن زعم ان الله لا يرى في الآخرة فقد كفر وقال أبو طالب قال أبو عبد الله قول الله عز وجل ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ ﴾ ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ﴾ فمن قال: إن الله لا يرى فقد كفر وقال إسحاق بن إبراهيم بن هانئ سمعت ابا عبد الله يقول من لم يؤمن بالرؤية فهو جهمي والجهمي كافر وقال يوسف بن موسى بن محمد القطان قيل لأبي عبد الله أهل الجنة ينظرون إلى ربهم تبارك وتعالى ويكلمونه ويكلمهم قال نعم ينظر إليهم وينظرون إليه ويكلمهم ويكلمونه كيف شاؤوا إذا شاءوا قال حنبل ابن إسحاق سمعت أبا عبد الله يقول القوم يرجعون إلى التعطيل في أقوالهم ينكرون الرؤرية والآثار كلها وما ظننتم على هذا حتى سمعت مقالاتهم قال حنبل وسمعت ابا عبد الله يقول من زعم إن الله لا يرى في الآخرة فهو جهمي فقد كفر ورد على الله وعلى الرسول ومن زعم إن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا فقد كفر ورد على الله قوله قال أبو عبد الله فنحن نؤمن بهذه الأحاديث ونقرها ونمرها كما جاءت

*(290/244)*

وقال الأثرم سمعت أبا عبد الله يقول فأما من يقول إن الله لا يرى في الآخرة فهو جهمي قال أبو عبد الله وإنما تكلم من تكلم في رؤية الدنيا وقال إبراهيم بن زياد الصائغ سمعت احمد بن حنبل يقول الرؤية من كذب بها فهو زنديق وقال حنبل سمعت أبا عبد الله يقول أدركنا الناس وما ينكرون من هذه الأحاديث شيئا أحاديث الرؤية وكانوا يحدثون بها على الجملة يمرونها على حالها غير منكرين لذلك ولا مرتابين وقال أبو عبد الله قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ وكلم الله موسى من وراء حجاب فقال رب ارني انظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني فاخبر الله عز وجل أن موسى يراه في الآخرة وقال: ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ ولا يكون حجاب إلا لرؤية اخبر الله سبحانه وتعالى إن من شاء الله ومن أراد أن يراه والكفار لا يرونه قال حنبل وسمعت أبا عبد الله يقول قال الله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ والأحاديث التي تروى في النظر إلى الله تعالى حديث جابر بن عبد الله وغيره وتنظرون إلى ربكم أحاديث صحاح وقال للذين أحسنوا الحسنى وزيادة النظر إلى وجه الله تعالى قال أبو عبد الله نؤمن بها ونعلم أنها حق أحاديث الرؤية ونؤمن بأن الله يرى نرى ربنا يوم القيامة لا نشك فيه ولا نرتاب قال وسمعت أبا عبد الله يقول ومن زعم أن الله لا يرى في الآخرة فقد كفر بالله وكذب بالقرآن ورد على الله أمره يستتاب فإن تاب وإلا قتل قال حنبل قلت لأبي عبد الله في أحاديث الرؤية فقال هذه

صحاح نؤمن بها ونقر بها وكلما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم إسناده جيد أقررنا به قال أبو عبد الله إذا لم نقر بما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ودفعناه ورددنا على الله أمره

*(291/244)*

---

قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾

قول إسحاق بن راهويه ذكر الحاكم وشيخ الإسلام وغيرهما عنه إن عبد الله بن طاهر أمير خراسان سأله فقال يا أبا يعقوب هذه الأحاديث التي يروونها في النزول والرؤية ما هن فقال رواها من روى الطهارة والغسل والصلاة والأحكام وذكر أشياء فان يكونوا في هذه عدولا وإلا فقد ارتفعت الأحكام وبطل الشرع فقال شفاك الله كما شفيتني أو كما قال قول جميع أهل الإيمان قال إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة في كتابه إن المؤمنين لم يختلفوا أن المؤمنين يرون خالقهم يوم المعاد ومن أنكر ذلك فليس بمؤمن عند المؤمنين قول المزني ذكر الطبري في السنة عن إبراهيم عن أبي داود المصري قال كنا عند نعيم بن حماد جلوسا فقال نعيم للمزني ما تقول في القرآن فقال أقول أنه كلام الله فقال غير مخلوق فقال غير مخلوق قال وتقول أن الله يرى يوم القيامة قال نعم فلما افترق الناس قام اليه المزني فقال يا ابا عبد الله

شهرتني على رؤوس الناس فقال إن الناس قد أكثروا فيك فأردت أن أبرئك قول جميع أهل اللغة قال أبو عبد الله بن بطة سمعت أبا عمر محمد بن عبد الواحد صاحب اللغة يقول سمعت أبا العباس احمد بن يحيى ثعلبا يقول في قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلام ﴾ اجمع أهل اللغة على أن اللقاء ها هنا لا يكون إلا معاينة ونظرا بالأبصار وحسبك بهذا الإسناد صحة واللقاء ثابت بنص القران كما تقدم وبالتواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم وكل أحاديث اللقاء صحيحة كحديث أنس في قصة حديث بئر معونة أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا وحديث عبادة وعائشة وأبي هريرة وابن مسعود من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه وحديث أنس أنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله وحديث أبي ذر لو لقيني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لقيتك

*(292/244)*

---

بقرابها مغفرة وحديث أبي موسى من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة وغير ذلك من أحاديث اللقاء التي اطردت كلها بلفظ واحد

فصل

في وعيد منكري الرؤية قد تقدم قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ وقول عبد الله ابن المبارك ما حجب الله عنه أحدا إلا عذبه ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون قال بالرؤية وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة قال قالوا يا رسول الله صلى الله عليه وسلم هل نرى ربنا يوم القيامة قال: "هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست فيها سحابة" قالوا لا قال هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس فيه سحابة قالوا لا قال فوالذي نفس محمد بيده لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما فيلقى العبد فيقول أي قل الم أكرمك وأسودك وأزوجك واسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وترفع فيقول بلى فيقول أفظننت أنك ملاقى فيقول لا فيقول فاني انساك كما نسيتني ثم يلقى الثاني فيقول أي فل الم أكرمك وأسودك وأزوجك واسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وترفع فيقول بلى أي ربي فيقول أفظننت أنك ملاقي فيقول لا فيقول إني أنساك كما نسيتني ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول يا رب آمنت بك وبكتبك ورسلك وصليت وصمت وتصدقت ويثني بخير ما استطاع فيقول ها هنا إذا ثم يقال الآن نبعث شاهدا عليك فيتفكر في نفسه من الذي يشهد علي فيختم على فيه ويقال لفخذه انطقي فينطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذي يسخط الله عليه

فأجمع بين قوله فإنكم سترون ربكم وقوله لمن ظن أنه غير ملاقيه فإني أنساك

كما نسيتني وإجماع أهل اللغة على أن اللقاء المعاينة بالأبصار يحصل لك العلم بان منكر الرؤية أحق بهذا الوعيد ومن تراجم أهل السنة على هذا الحديث باب في الوعيد لمنكري الرؤية كما فعل شيخ الإسلام وغيره وبالله التوفيق

فصل

*(293/244)*

---

قد دل القران والسنة المتواترة وإجماع الصحابة وأئمة الإسلام وأهل الحديث عصابة الإسلام ونزل الإيمان وخاصة رسول الله على أن الله سبحانه وتعالى يرى يوم القيامة بالأبصار عيانا كما يرى القمر ليلة البدر صحوا وكما ترى الشمس في الظهيرة فإن كان لما اخبر به الله ورسوله عنه من ذلك حقيقة وان له والله حق الحقيقة فلا يمكن أن يروه إلا من فوقهم لاستحالة إن يروه من أسفل منهم أو خلفهم أو إمامهم أو عن يمينهم أو عن شمالهم وان لم يكن لما اخبر به حقيقة كما يقوله أفراخ الصابئة والفلاسفة والمجوس والفرعونية بطل الشرع والقران فان الذي جاء بهذه الأحاديث هو الذي جاء بالقران والشريعة والذي بلغها هو الذي بلغ الدين فلا يجوز أن يجعل الله ورسوله عضين بحيث يؤمن ببعض معانيه ويكفر ببعضها فلا يجتمع في قلب العبد بعدد الإطلاع على هذه الأحاديث وفهم معناها وإنكارها

والشهادة بأن محمد رسول الله أبدا والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كان لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق والمنحرفون في باب رؤية الرب تبارك وتعالى نوعان أحدهما من يزعم أنه يرى في الدنيا ويحاضر ويسامر والثاني من يزعم أنه لا يرى في الآخرة البتة ولا يكلم عباده وما اخبر الله به ورسوله واجمع عليه الصحابة والأئمة يكذب الفريقين وبالله التوفيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الروح صـ 285.342﴾

(294/244)

---

مبحث في الرؤية

والكلام في الصحة

وفي الوقوع

وفي شبه المنكرين

قال العلامة عضد الدين الإيجى ما نصه :

فههنا ثلاثة مقامات

المقام الأول في صحة الرؤية

وقد طال نزاع المنتمين إلى الملة فيها

فذهب الأشاعرة إلى أنه تعالى يصح أن يرى

ومنعه الأكثرون

ولا بد أولا من تحرير محل النزاع فنقول إذا نظرنا إلى الشمس فرأيناها ثم غمضنا العين فعند

التغميض نعلم الشمس علما جليا

وهذه الحالة مغايرة للحالة الأولى التي هي الرؤية بالضرورة

قالت الفلاسفة هي عائدة إلى تأثر الحدقة لوجوه

الأول إن من نظر إلى الشمس بالاستقصاء ثم غمض فإنه يتخيل أن الشمس حاضرة عنده

لا يتأتى له أن يدفعه عن نفسه أصلا

الثاني إن من نظر إلى روضة خضراء زمانا ثم حول عينيه إلى شيء أبيض يرى لونه ممتزجا

من البياض والخضرة

الثالث إن الضوء القوي يقهر الباصرة

فلولا تأثرها منه لما كان ذلك

قلنا كل ذلك يدل على تأثر الحدقة

وأما عود الإبصار إليه فلا

فلا هي هو

ولا مشروطة به عندنا

وقد سبق ما فيه كفاية

ثم علمت أن الله تعالى ليس جسما ولا في جهة ويستحيل عليه مقابلة ومواجهة وتقليب حدقة نحوه

ومع ذلك يصح أن ينكشف لعباده انكشاف القمر ليلة البدر

ويحصل لهوية العبد بالنسبة إليه هذه الحالة المعبر عنها بالرؤية

وقد استدل عليه بالنقل والعقل

فلنجعله مسلكين

المسلك الأول النقل

والعمدة قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني والاحتجاج به من وجهين

الأول أن موسى سأل الرؤية

ولو امتنع لما سأل

لأنه حينئذ إما أن يعلم امتناعه أو يجهله

فإن علمه فالعاقل لا يطلب المحال

فإنه عبث

وإن جهله فالجاهل بما لا يجوز على الله ويمتنع لا يكون نبيا كليما

الثاني أنه علق الرؤية على استقرار الجبل

واستقرار الجبل أمر ممكن في نفسه

وما علق على الممكن فهو ممكن

الإعتراض أما على الأول فمن وجوه

(295/244)

---

الأول أن موسى عليه السلام لم يسأل الرؤية بل تجوز بها عن العلم الضروري لأنه لازمها

وإطلاق اسم الملزوم على اللازم شائع

وهذا تأويل العلاف

وتبعه الجبائي وأكثر البصريين

والجواب أن الرؤية وإن استعملت للعلم لكنها إذا وصلت بإلى فبعيد جدا ومخالفة الظاهر

لا تجوز إلا لدليل ثم يمتنع حملها عليه ههنا

أما أولا فلأنه يلزم ألا يكون موسى عالما بربه ضرورة مع أنه يخاطبه

وذلك لا يعقل

وأما ثانيا فلأن الجواب ينبغي أن يطابق السؤال

وقوله لن تراني نفي للرؤية بإجماع المعتزلة

الثاني إنه سأله أن يريه علما من أعلامه الدالة على الساعة فحذف المضاف وأقام المضاف

إليه مقامه نحو واسأل القرية وهذا تأويل الكعبي والبغداديين

والجواب إنه خلاف الظاهر

ولا يستقيم

أما أولا فلقوله لن تراني وأما ثانيا فلأن تدكدك الجبل من أعظم الأعلام

فلا يناسب قوله ولكن انظر إلى الجبل المنع من رؤية الآية

الثالثة إنما سألها بسبب قومه ليمنع فيعلم قومه امتناعها بالنسبة إليهم بالطريق الأولى

وهذا تأويل الجاحظ ومتبعيه

والجواب إنه خلاف الظاهر

ولا يستقيم

أما أولا فلأنه لو كان مصدقا بينهم لكفاه أن يقول هذا ممتنع بل كان يجب عليه أن يردعهم عن

طلب ما لا يليق بجلال الله كما قال إنكم قوم تجهلون عند

قولهم اجعل لنا إلها كما لهم آلهة وإلا لم يصدقوه في الجواب

وأما ثانيا فلأنهم لم يروا إلا أن أخذتهم الصاعقة

وليس في ذلك ما يدل على امتناع ما طلبوه

بل ذلك لقصدهم إعجاز موسى تعنتا

فأظهر الله ما يدل على صدقه معجزا

الرابع إنه سألها وإن علم استحالتها ليتأكد دليل العقل بدليل السمع فعل إبراهيم حين قال

أرني كيف تحيي الموتى

قال أولم تؤمن

قال بلى ولكن ليطمئن قلبي

والجواب إن العلم لا يقبل التفاوت

ولذلك يؤول قول الخليل بما يضعف وبما يقوى مع أنه كان يمكنه ذلك من غير ارتكاب سؤال

ما لا يمكن

الخامس إنه قد لا يعلم امتناع الرؤية

*(296/244)*

---

ولا يضر مع العلم بالوحدانية أو السؤال صغيره لا يمتنع على الأنبياء

والجواب التزام أن النبي المصطفى بالتكليم في معرفة الله تعالى وما يجوز عليه ويمتنع دون

آحاد المعتزلة

ومن حصل طرفا من علم الكلام هي البدعة الشنعاء

واحتجاجنا بلزوم العبث

وهو مما ننزه عنه من له أدنى تمييز فضلا عن الأنبياء

كيف ومثل هذا التجاسر على الله تعالى لا يعد من الصغائر

وفي جوازها من الأنبياء ما سيأتي

وأما على الثاني فمن وجهين

الأول إنه علق الرؤية على استقرار الجبل

إما حال سكونه أو حركته

الأول ممنوع

والثاني مسلم

بيانه أنه لو علقه عليه حال سكونه لزم وجود الرؤية

فإذا قد علقه عليه حال حركته

ولا خفاء أن الاستقرار حال الحركة محال

والجواب إنه علقه على استقرار الجبل من حيث هو من غير قيد

وأنه ممكن قطعا إذ لو فرض لم يلزم منه محال لذاته

وأيضا فاستقرار الجبل عند حركته ليس بمحال إذ في ذلك الوقت قد يحصل الاستقرار بدل

الحركة

إنما المحال الاستقرار مع الحركة

الثاني أنه لم يقصد بيان إمكان الرؤية أو امتناعها بل بيان عدم وقوعها لعدم المعلق به

والجواب إنه قد لا يقصد الشيء ويلزم

وههنا كذلك

فإنه إذا فرض وقوع الشرط فإما أن يقع المشروط فيكون ممكنا

وإلا فلا معنى للتعليق به

والشرط والمشروط

تذنيب كل ما سنتلوه عليك مما يدل على وقوع الرؤية فهو دليل على جوازها

فلا نطول بذكرها الكتاب

المسلك الثاني هو العقل

والعمدة مسلك الوجود

وهو طريقة الشيخ والقاضي وأكثر أئمتنا

وتحريره أنا نرى الأعراض كالألوان والأضواء وغيرها

وهذا ظاهر

ونرى الجوهر لأنا نرى الطول والعرض

فقد ثبت أن صحة الرؤية مشتركة بين الجوهر والعرض

وهذه الصحة لها علة لتحققها عند الوجود وانتفائها عند العدم

ولولا تحقق أمر حال الوجود غير متحقق حال العدم لكان ذلك ترجيحا بلا مرجح

وهذه العلة لا بد أن تكون مشتركة بين الجوهر والعرض

وإلا لزم تعليل الأمر الواحد بالعلل المختلفة

وهو غير جائز

لما مر

(297/244)

---

ثم نقول هذه العلة المشتركة إما الوجود أو الحدوث إذ لا مشترك بين الجوهر والعرض

سواهما

لكن الحدوث لا يصلح علة لأنه عبارة عن الوجود مع اعتبار عدم سابق

والعدم لا يصلح أن يكون جزء العلة

وإذا سقط العدم عن درجة الاعتبار لم يبق إلا الوجود

فإذا هي الوجود

وأنه مشترك بينهما وبين الواجب لما تقدم

فعليه صحة الرؤية متحققة في حق الله تعالى فيتحقق صحة الرؤية

وهو المطلوب

واعلم أن هذا يوجب أن يصح رؤية كل موجود كالأصوات والروائح والملموسات والطعوم

والشيخ يلتزمه ويقول لا يلزم من صحة الرؤية تحقق الرؤية له

وإنما لا نرى لجريان العادة من الله بذلك

ولا يمتنع أن يخلق فينا رؤيتها

والخصم يشدد عليه النكير

وما هو إلا استبعاد

والحقائق لا تؤخذ من العادات

ثم الإعتراض عليه من وجوه

الأول لا نسلم أنا نرى العرض والجوهر

بل المرئي الأعراض فقط

قولك نرى الطول والعرض

قلنا والمرجع بهما إلى المقدار

وأنه عرض قائم بالجسم

والجواب أنا قد أبطلنا ذلك بما فيه كفاية

ونزيد ههنا أنا لو فرضنا تألف الأجزاء من السماء إلى الأرض

فإنا نعلم بالضرورة كونها طويلة

وإن لم يخطر ببالنا شيء من الأعراض

وأيضا فالإمتداد شرط لقيام العرض بها

وإلا لقام بها

وإن كانت متناثرة فلا يكون عرضا

الثاني لا نسلم احتياج الصحة إلى علة لأنها الإمكان

والإمكان عدمي لما تقدم في باب الإمكان

والجواب جدلا المعارضة بما سبق فيه وتحقيقا أن المراد بعلة صحة الرؤية ما يمكن أن يتعلق

به الرؤية ونعلم بالضرورة أنه أمر موجود

الثالث لا نسلم أن علة صحة الرؤية يجب أن تكون مشتركة

أما أولا فلأن صحة الرؤية ليست أمرا واحدا بل صحة رؤية الأعراض لا تماثل

صحة رؤية الجواهر إذ المتماثلان ما يسد كل مسد الآخر

ورؤية الجسم لا تقوم مقام رؤية العرض ولا بالعكس

وأما ثانيا فلجواز تعليل الواحد بالنوع بالعلل المختلفة لما مر

والجواب قد ذكرنا أن المراد بعلة صحة الرؤية متعلقها

(298/244)

---

والمدعي أن متعلقها ليس خصوصية واحد منهما

فإنا نرى الشبح من بعيد ولا ندرك منه إلا أنه هوية ما

وأما خصوصية تلك الهوية وجوهريتها وعرضيتها فلا فضلا عن أنها أي جوهر أو عرض هي وإذا رأينا زيدا فإنا نراه رؤية واحدة متعلقة بهويته ولسنا نرى أعراضه من اللون والضوء كما يقوله الفلاسفة بل نرى هويته ثم ربما نفصله إلى جواهر وأعراض تقوم بها وربما نغفل عن ذلك حتى لو سئلنا عن كثير منها لم نعلمها ولم نكن قد أبصرناها إذ كنا أبصرنا الهوية

ولو لم يكن متعلق الرؤية هو الهوية التي بها الاشتراك بل الأمر الذي به الافتراق لما كان كذلك

الرابع لا نسلم أن المشترك بينهما ليس إلا الوجود أو الحدوث

فإن الإمكان مشترك بينهما

والجواب أنا قد بينا أن متعلق الرؤية هو ما يختص بالموجود

وإلا لصح رؤية المعدوم

والإمكان ليس كذلك

وما لا يعلم لا يكون متعلق الرؤية

والذي نعلمه فيهما خصوصية كل

وقد أبطلنا تعلق الرؤية بها ولم يبق إلا المشترك بينهما وهو الوجود إما مع خصوصية بها

يمتاز عن القديم

وإنما هو مطلق الحدوث وإما بدون ذلك وهو مطلق الوجود

الخامس لا نسلم أن الحدوث لا يصلح سببا لصحة الرؤية

فإن صحة الرؤية عدمية فجاز كون سببها كذلك

والجواب ما سبق من أن المراد متعلق الرؤية

ولا يصلح العدم لذلك

فإن قيل ليس الحدوث هو العدم السابق بل مسبوقية الوجود بالعدم

قلنا وذلك أمر اعتباري لا يرى ضرورة

وإلا لم يحتج حدوث الأجسام إلى دليل

السادس لا نسلم أن الوجود مشترك بين الواجب والممكن

كيف وقد جزمتم القول بأن وجود كل شيء نفس حقيقته وكيف تكون حقائق الأشياء

مشتركة حتى تكون حقيقة القديم مثل حقيقة الحادث وحقيقة الفرس مثل حقيقة الإنسان

والجواب إن لا معنى للوجود إلا كون الشيء له هوية

وذلك أمر مشترك بالضرورة

وما ذكرتم مما به الافتراق وألزمتم الاشتراك فيه فشيات الأشياء

وهي هيئات للهويات

وإن عاقلا لا يقول بالاشتراك فيها

(299/244)

---

واعلم أن هذا المقام مزلة للأقدام مضلة للأفهام

وهذا غاية ما يمكن فيه من التقرير والتحرير

لم نأل فيه جهدا ولم ندخر نصحا

وعليك بإعادة التفكر وإمعان التدبر والثبات عند البوارق وعدم الركون إلى أول عارض

ولله العون والمنة

السابع لا نسلم أن علة صحة الرؤية إذا كانت موجودة في القديم كانت صحة الرؤية ثابتة

فيه لجواز أن تكون خصوصية الأصل شرطا أو خصوصية الفرع مانعا

والجواب تعلمه مما قدمناه إليك

المقام الثاني في وقوع الرؤية

إن المؤمنين سيرون ربهم يوم القيامة

قال الإمام الرازي الأمة في هذه المسألة على قولين يصح ويرى

ولا يرى ولا يصح

وقد أثبتنا أنه يصح

فلو قلنا لا يرى لكان قولا ثالثا خارقا للإجماع

وهو غير صحيح لأن خرق الإجماع إثبات ما نفاه أو نفي ما أثبته وهذا القول الثالث إنما هو

التفصيل

وهو القول بالجواز والقول بعدم الوقوع وشيء منهما لا يخالف الإجماع

بل كل واحد مما قال به طائفة

وذلك كما في مسألة قتل المسلم بالذمي والحر بالعبد

فإن القائل قائلان مثبت لهما

وناف لهما

والتفصيل لا يكون خارقا للإجماع ولا ممنوعا عنه بالإجماع

والمعتمد فيه مسلكان

المسلك الأول قوله تعالى وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة

وجه الاحتجاج إن النظر في اللغة جاء بمعنى الانتظار

ويستعمل بغير صلة

قال تعالى انظرونا نقتبس من نوركم

وبمعنى التفكر ويستعمل بفي يقال نظرت في الأمر الفلاني

وبمعنى الرأفة ويستعمل باللام

يقال نظر الأمير لفلان

وبمعنى الرؤية ويستعمل بإلى

قال الشاعر

نظرت إلى من حسن الله وجهه . . . فيا نظرة كادت على وامق تقضي والنظر في الآية

موصول بإلى فوجب حمله على الرؤية

واعترض عليه بوجوه

الأول لا نسلم أن إلى صلة بل واحد الآلاء

فمعنى الآية نعمة ربها منتظرة

ومنه قول الشاعر

أبيض لا يرهب النزال ولا . . . يقطع رحما ولا يخون إلى والجواب أن انتظار النعمة غم

ومن ثمة قيل الانتظار الموت الأحمر

فلا يصح الإخبار به بشارة

(300/244)

---

الثاني أن النظر الموصول بإلى قد جاء للانتظار

قال الشاعر

وشعث ينظرون إلى بلال . . . كما نظر الظماء حيا الغمام وقال

وجوه ناظرات يوم بدر . . . إلى الرحمن يأتي بالفلاح وقال

كل الخلائق ينظرون سجاله . . . نظر الحجيج إلى طلوع هلال والجواب لا نسلم أن النظر

ههنا للانتظار

ففي الأول أي يرون بلالا كما يرى الظماء ماء

ولا يمتنع حمل النظر المطلق على الرؤية

إنما الممتنع حمل الموصول بإلى على غيرها

وفي الثاني أي ناظرات إلى جهة الله وهي العلو في العرف

ولذلك ترفع إليه الأيدي في الدعاء أو إلى آثاره من الضرب والطعن

وفي الثالث أي يرون سجاله ويجوز المجرد للرؤية آنفا

وإن سلم مجيئه مع إلى للانتظار فلا

إذ لا يصلح بشارة لما مر

الثالث إن النظر مع إلى لتقليب الحدقة

يقال نظرت إلى الهلال فما رأيته

ولم أزل أنظر إلى الهلال حتى رأيته

وانظر كيف ينظر فلان إلي

والرؤية لا ينظر إليها

وقال تعالى وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون

ولأنه يوصف بالشدة والشزر والازورار والرضا والتجبر والذل والخشوع وشيء منها لا

يصلح صفة للرؤية بل هي أحوال يكون عليها عين الناظر عند تقليب الحدقة

هذا وتقليب الحدقة ليس هو الرؤية ولا ملزومها

ثم إنه للرؤية مجاز

ولا يتعين لجواز أن يراد ناظرة إلى نعم الله

ولم يترك هذا الإضمار إلى ذلك المجاز

والجواب إن النظر مع إلى للرؤية بالنقل

وقوله نظرت إلى الهلال فما رأيته لم يصح من العرب بل يقال نظرت إلى مطلع الهلال فلم أر

الهلال وربما يحذف المضاف ويقام المضاف إليه مقامه

وهو الجواب عن قولهم لم أزل أنظر إلى الهلال حتى رأيته

والبواقي كلها مجازات مع أن الأشياء التي يمكن إضمارها كثيرة

ولا قرينة معينة

فالتعيين تحكم لا يجوز لغة

ثم تقليب الحدقة طلبا للرؤية بدون الرؤية لا يكون نعمة

ومع الرؤية يكفيه التجوز

فلا يضم إليه الإضمار تقليلا لما هو خلاف الأصل

فإن تقليب الحدقة يكون سببا للرؤية

وإطلاق اسم السبب للمسبب مجاز مشهور

*(301/244)*

---

وأنت لا يخفى عليك أن أمثال هذه الظواهر لا تفيد إلا ظنونا ضعيفة لا تصلح للتعويل عليها

في المسائل العلمية

المسلك الثاني قوله تعالى في الكفار كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون

ذكر ذلك تحقيرا لشأنهم فلزم كون المؤمنين مبرأين عنه

والمعتمد فيه إجماع الأمة قبل حدوث المخالفين على وقوع الرؤية وعلى كون هاتين الآيتين

محمولتين على الظاهر

المقام الثالث في شبه المنكرين وردها

وتنقسم إلى عقلية ونقلية

أما العقلية فثلاث

الأولى شبهة الموانع

لو جازت رؤيته تعالى لرأيناه الآن والتالي باطل

بيان الشرطية لو جازت رؤيته تعالى لجازت في الحالات كلها لأنه حكم ثابت له

إما لذاته أو لصفة لازمة لذاته

فجازت رؤيته الآن

ولو جازت رؤيته لزم أن نراه لأنه إذا اجتمعت شرائط الرؤية وجب حصول الرؤية

وإلا لجاز أن يكون بحضرتنا جبال شاهقة

ونحن لا نراها وأنه سفسطة

وشرائط الرؤية سلامة الحاسة وكون الشيء جائز الرؤية مع حضوره للحاسة ومقابلته

وعدم غاية الصغر وعدم غاية اللطافة وعدم غاية البعد والقرب وعدم الحجاب الحائل

ثم لا يعقل من هذه الشرائط في حق رؤية الله تعالى إلا سلامة الحاسة وصحة الرؤية لكون البواقي مختصة بالأجسام

وهما حاصلان الآن

والجواب أنا لا نسلم وجوب الرؤية عند اجتماع الشروط الثمانية لأنا نرى الجسم الكبير من البعيد صغيرا

وما ذلك إلا لأنا نرى بعض أجزائه دون البعض مع تساوي الكل في حصول الشرائط

لا يقال يتصل بطرفي المرئي من العين خطان شعاعيان كساقي مثلث قاعدته سطح المرئي

ويخرج منها إلى وسطه خط قائم عليه يقسم المثلث إلى مثلثين قائمي الزاوية

فيكون وترا لكل واحدة من الزاويتين الحادتين

وكل من الطرفين وترا لزاوية قائمة

ووتر القائمة أطول من وتر الحادة

فلا تكن أجزاء المرئي متساوية في القرب والبعد

لأنا نقول نفرض هذا التفاوت ذراعا

فلو بعد المرئي بقدر ذلك وجب ألا يرى أصلا

وإذا يرى فهذا البعد لا أثر له في عدم الرؤية

---

قال بعض الفضلاء لا يلزم من رؤيتنا جميع أجزائه أن نراه كبيرا

فلعل رؤيته صغيرا وكبيرا تختلف بضيق الزاوية الحاصلة في الناظر من الخطين المتصلين منه

لطرفي المرئي وسعتها

ولهذا إذا قرب المرئي في الغاية أو بعد صارت لسعتها في الغاية أو لضيقها في الغاية

كالمعدومة فانعدمت الرؤية

وضعفه ظاهر بناء على تركب الأجزاء التي لا تتجزأ لأن رؤية كل أصغر مما هو عليه

توجب الانقسام

ورؤيته أكبر مما هو عليه بمثل توجب ألا يرى إلا ضعفا ضعفا وبأقل من مثل توجب الانقسام

قوله يلزم تجويز جبال شاهقة لا نراها

قلنا هذا معارض بجملة العاليات

ثم إمكان مأخذ الجزم بعدم الجبل ما ذكرتم لوجب ألا نجزم به إلا بعد العلم بهذا

واللازم باطل لأنه يجزم به من لا يخطر بباله هذه المسألة

ولأنه ينجر إلى أن يكون نظريا

سلمنا الوجوب في الشاهد ولم يجب في الغائب

إذ ماهية الرؤية في الغائب غير ماهية الرؤية في الشاهد فجاز اختلافهما في اللوازم كما

يشترط في الشاهد الشروط الستة دون الغائب

الثانية شبهة المقابلة

وهي أن شرط الرؤية المقابلة أو ما في حكمها نحو المرئي في المرآة

وأنها مستحيلة في حق الله تعالى لتنزهه عن المكان والجهة

والجواب منع الاشتراط مطلقا كما مر أو في الغائب

الثالثة شبهة الانطباع

وهي أن الرؤية انطباع صورة المرئي في الحاسة

وهو على الله تعالى محال

والجواب مثل ما مر

وأما السمعية فأربع

الأول قوله تعالى لا تدركه الأبصار

والإدراك المضاف إلى الأبصار إنما هو الرؤية أو هما متلازمان لا يصح نفي أحدهما مع

إثبات الآخر

فالآية نفت أن تراه الأبصار

وذلك يتناول جميع الأبصار في جميع الأوقات

ولأنه تعالى تمدح بكونه لا يرى

وما كان عدمه مدحا كان وجوده نقصا يجب تنزيه الله عنه

والجواب أما عن الوجه الأول في الاستدلال بالآية فمن وجوه

الأول إن الإدراك هو الرؤية على نعت الإحاطة بجوانب المرئي إذ حقيقته النيل والوصول

إنا لمدركون أي ملحقون

*(303/244)*

---

ثم نقل إلى المحيطة والرؤية المكيفة أخص من المطلقة

فلا يلزم من نفيها نفيها

قوله لا يصح نفي أحدهما مع إثبات الآخر

قلنا ممنوع

بل يصح أن يقال رأيته وما أدركه بصري

أي لم يحط به

الثاني إن تدركه الأبصار موجبة كلية

وقد دخل عليها النفي فرفعها

ورفع الموجبة كلية سالبة جزئية

وبالجملة فيحتمل إسناد النفي إلى الكل ونفي الإسناد إلى الكل

ومع احتمال الثاني لم يبق فيه حجة لكم

هذا لو ثبت أن اللام في الجمع للعموم

وإلا عكسنا القضية

الثالث إنها وإن عمت في الأشخاص فإنها لا تعم في الأزمان

ونحن نقول بموجبه حيث لا يرى في الدنيا

الرابع إن الآية تدل على أن الأبصار لا تراه ولا يلزم منه أن المبصرين لا يرونه لجواز أن يكون

ذلك نفيا للرؤية بالجارحة مواجهة وانطباعا

وأما عن الوجه الثاني وهو قوله تمدح بأنه لا يرى فنقول هذا مدعاكم فأين الدليل عليه بل لنا

فيه الحجة على صحة الرؤية لأنه لو امتنعت رؤيته لما حصل المدح

إذ لا مدح للمعدوم بأنه لا يرى حيث لم يكن له ذلك

وإنما المدح فيه للممتنع المتعزز بحجاب الكبرياء كما في الشاهد

الثانية أنه تعالى ما ذكر سؤال الرؤية إلا وقد استعظمه وذلك في ثلاث آيات

الأولى وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في

أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا

ولو كانت الرؤية ممكنة لما كان طالبها عاتيا مستكبرا بل كان ذلك نازلا منزلة طلب سائر المعجزات

الثانية وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون

الثالثة يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك

فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم سمى ذلك ظلما وجازاهم به في الحال

ولو جاز لكان سؤالهم سؤالا لمعجزة زائدة

والجواب إن الاستعظام إنما كان لطلبهم الرؤية تعنتا وعنادا

ولهذا استعظم إنزال الملائكة واستكبر إنزال الكتاب مع إمكانهما

*(304/244)*

---

ولو كان لأجل الامتناع لمنعهم موسى عن ذلك فعله حين طلبوا وهو أن يجعل لهم إلها

إذ قال إنكم قوم تجهلون ولم يقدم على طلب الرؤية الممتنعة بقولهم وقد مر

الثالث قوله تعالى لموسى لن تراني ولن للتأبيد وإذا لم يره موسى لم يره غيره إجماعا

والجواب منع كون لن للتأبيد بل هو للنفي في المستقبل فقط كقوله تعالى ولن يتمنوه أبدا

ويتمنونه في الآخرة

الرابعة قوله تعالى وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب وإذا لم يره من

يكلمه في وقت الكلام لم يره في غيره إجماعا

والجواب إن التكليم وحيا قد يكون حاله الرؤية

وماذا فيه من الدليل على نفي الرؤية

تذنيب الكرامية وافقونا في الرؤية وخالفونا في الكيفية

فعندنا أن الرؤية تكون من غير مواجهة

إذ يمتنع ذلك في الموجود المنزه عن الجهة والمكان

وهم يدعون الضرورة في أن ما لا يكون في جهة قدام الرائي ولا مقابلا له أو في حكم المقابل لا

يرى موافقين في ذلك للمعتزلة

والجواب إنا نمنع الضرورة

وما ذلك منهم إلا كدعوى الضرورة في أن كل موجود فإنه في جهة وحيز

وما ليس في حيز وجهة فإنه ليس بموجود

ولعل هذا فرعه

الشرح

المرصد الخامس فيما يجوز عليه تعالى أي يجوز أن يتعلق به كالرؤية والعلم بالكنه وفيه

مقصدان

المقصد الأول في الرؤية والكلام في الصحة وفي الوقوع وفي شبه المنكرين

فههنا ثلاثة مقامات

المقام الأول في صحة الرؤية

وقد طال نزاع المنتمين إلى الملة فيها فذهب الأشاعرة إلى أنه تعالى يصح أن يرى

ومنعه الأكثرون

قال الآمدي اجتمعت الأئمة من أصحابنا على أن رؤيته تعالى في الدنيا والآخرة جائزة

عقلا

واختلفوا في جوازها سمعا في الدنيا فأثبته بعضهم ونفاه آخرون

وهل يجوز أن يرى في المنام فقيل لا

وقيل نعم

والحق أنه لا مانع من هذه الرؤيا وإن لم تكن رؤيا حقيقة

ولا خلاف بيننا في أنه تعالى يرى ذاته

والمعتزلة حكموا بامتناع رؤيته عقلا لذي الحواس

واختلفوا في رؤيته لذاته

ولا بد أولا من تحرير محل النزاع فنقول إذا نظرنا إلى الشمس فرأيناها ثم غمضنا العين فعند التغميض نعلم الشمس علما جليا

وهذه الحالة مغايرة للحالة الأولى التي هي الرؤية بالضرورة فإن الحالتين وإن اشتركتا في حصول العلم فيها إلا أن الحالة الأولى فيها أمر زائد هو الرؤية

وكذا إذا علمنا شيئًا علما تاما جليا ثم رأيناه فإنا نعلم بالبديهة تفرقة بين الحالتين وإن في الثانية زيادة ليست في الأولى

قالت الفلاسفة هي أي تلك المغايرة والزيادة عائدة إلى تأثر الحدقة لا إلى زيادة في الانكشاف هي الرؤية والإبصار لوجوه

الأول إن من نظر إلى الشمس بالاستقصاء ثم غمض فإنه يتخيل أن الشمس حاضرة عنده لا يتأتى له أن يدفعه أي هذا التخيل عن نفسه أصلا وما ذلك إلا لأن الحدقة تأثرت عن صورة الشمس وبقيت صورتها في الحدقة بعد أن زالت الرؤية

الثاني إن من نظر بالاستقصاء إلى روضة خضراء زمانا طويلا ثم حول عينيه إلى شيء أبيض فإنه يرى لونه ممتزجا من البياض والخضرة فقد تحقق أن حدقته تأثرت عن الخضرة وبقي صورتها فيها بعد التحول

الثالث إن الضوء القوي يقهر الباصرة وكذلك البياض الشديد يقهرها بحيث لو نظر الرائي

بعد رؤيتهما إلى ضوء ضعيف أو بياض ضعيف لم يرهما

فلولا تأثرها أي تأثر الحاسة منه بل منهما لما كان الأمر كذلك

قلنا كل ذلك الذي ذكرتموه يدل على تأثر الحدقة عند الإبصار

وأما عود تلك الزيادة التي هي الإبصار إليه أي إلى التأثر فلا دلالة عليه فلا هي أي فلا

الإبصار بتأويل الرؤية هو أي تأثر الحاسة ولا هي مشروطة به عندنا فجاز أن يرى الله

سبحانه وتعالى من غير أن تتأثر عنه الحاسة

وقد سبق ما فيه كفاية وهو أن الرؤية أمر يخلقه الله في الحي

ولا يشترط بضوء ولا مقابلة ولا غيرهما من الشرائط التي اعتبرها الحكماء ثم علمت أن

الله تعالى ليس جسما ولا في جهة

ويستحيل عليه مقابلة ومواجهة وتقليب حدقة نحوه

*(306/244)*

---

ومع ذلك يصح أن ينكشف لعباده انكشاف القمر ليلة البدر كما ورد في الأحاديث

الصحيحة

وأن يحصل لهوية العبد بالنسبة إليه هذه الحالة المعبر عنها بالرؤية هذا ما تفرد به أهل السنة

وخالفهم في ذلك سائر الفرق

فإن الكرامية والمجسمة وإن جوزوا رؤيته لكن بناء على اعتقادهم كونه جسما

وفي جهة

وأما الذي لا إمكان له ولا جهة فهو عندهم مما يمتنع وجوده فضلا عن رؤيته

وسيرد عليك زيادة تقرير لمذهبهم

وقد استدل عليه أي على جواز رؤيته تعالى بالنقل والعقل

فلنجعله مسلكين

المسلك الأول النقل وإنما قدمه لأنه الأصل في هذا الباب

والعمدة من المنقولات في ذلك قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام

رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني

والاحتجاج به من وجهين

الأول إن موسى عليه السلام سأل الرؤية

ولو امتنع كونه تعالى مرئيا لما سأل لأنه حينئذ إما أن يعلم امتناعه أو يجهله

فإن علمه فالعاقل لا يطلب المحال

فإنه عبث

وإن جهله فالجاهل بما لا يجوز على الله ويمتنع لا يكون نبيا كليما

وقد وصفه الله تعالى بذلك في كتابه بل ينبغي أن لا يصلح للنبوة

إذا المقصود من البعثة هو الدعوة إلى العقائد الحقة والأعمال الصالحة

الثاني إنه تعالى علق الرؤية على استقرار الجبل

واستقرار الجبل أمر ممكن في نفسه

وما علق على الممكن فهو ممكن إذ لو كان ممتنعا لأمكن صدق الملزوم بدون صدق اللازم

الاعتراض أما على الوجه الأول فمن وجوه

الأول إن موسى عليه السلام لم يسأل الرؤية بل تجوز بها عن العلم الضروري لأنه لازمها

وإطلاق اسم الملزوم على اللازم شائع سيما استعمال رأى بمعنى علم

وأرى بمعنى أعلم

فكأنه قال اجعلني عالما بك

علما ضروريا

وهذا تأويل أبي الهذيل العلاف وتبعه فيه الجبائي

وأكثر البصريين

والجواب إن الرؤية وإن استعملت للعلم لكنها إذا وصلت ب إلى فبعيد جدا

والصواب أن يقال لو كانت الرؤية المطلوبة في أرني بمعنى العلم لكان النظر المترتب عليه بمعناه أيضا

والنظر وإن استعمل بمعنى العلم إلا أن استعماله فيه موصولا بإلى مستبعد مخالف للظاهر قطعا ومخالفة الظاهر لا تجوز إلا لدليل ولا دليل ههنا

فوجب حمله على الرؤية بل على تقليب الحدقة نحو المرئي المؤدي إلى رؤيته فيكون الطلب للرؤية أيضا ثم نقول يمتنع حملها المؤدي إلى رؤيته فيكون الطلب للرؤية أيضا ثم نقول يمتنع حملها أي حمل الرؤية المطلوبة عليه أي على العلم الضروري ههنا

أما أولا فلأنه يلزم أن لا يكون موسى عالما بربه ضرورة

مع أنه يخاطبه

وذلك لا يعقل لأن المخاطب في حكم الحاضر المشاهد

وما هو معلوم بالنظر ليس كذلك

وأما ثانيا فلأن الجواب الحاضر المشاهد

وما هو معلوم بالنظر ليس كذلك

وأما ثانيا فلأن الجواب ينبغي أن يطابق السؤال

وقوله لن تراني نفي للرؤية لا للعلم الضروري بإجماع المعتزلة

فلو حمل السؤال على طلب العلم لم يطابقا أصلا

الثاني من وجوه الاعتراض على الأول أنه لم يسأله إراءة ذاته بل سأل أن يريه علما وأمارة من أعلامه وأماراته الدالة على الساعة وتقدير الكلام أنظر إلى علمك فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه فقال انظر إليك نحو واسأل القرية أي أهلها

فتكون الرؤية المطلوبة

متعلقة بالعلم أيضا

والمعنى أرني علما من أعلامك انظر إلى علمك وهذا تأويل الكعبي والبغداديين

والجواب إنه خلاف الظاهر فلا يرتكب إلا لدليل ومع ذلك لا يستقيم

أما أولا فلقوله لن تراني فإنه نفي لرؤيته تعالى لا لرؤية علم من أعلام الساعة بإجماعهم

فلا يطابق الجواب السؤال حينئذ

وأما ثانيا فلأن تدكدك الجبل الذي شاهده موسى عليه السلام من أعظم الأعلام الدالة عليها فلا يناسب قوله ولكن انظر إلى الجبل المنع من رؤية الآية

أي العلامة الدالة على الساعة المستفاد من قوله لن تراني على هذا التأويل بل يناسب رؤيتها

(308/244)

وأيضا قوله فإن استقر مكانه لا يلائم رؤيتها لأن الآية في تدكدك الجبل لا في استقراره

الثالث من تلك الوجوه إنما سألها بسبب قومه لا لنفسه لأنه كان عالما بامتناعها

لكن قومه اقترحوا عليه وقالوا أرنا الله جهرة وإنما نسبها إلى نفسه في قوله أرني ليمنع عن

الرؤية فيعلم قومه امتناعها بالنسبة إليهم بالطريق الأولى وفيه مبالغة لقطع دابر اقتراحهم

وفي أخذ الصاعقة لهم دلالة على استحالة المسئول

وهذا تأويل الجاحظ ومتبعيه

والجواب إنه خلاف الظاهر فلا بد له من دليل ومع ذلك لا يستقيم

أما أولا فلأنه لو كان موسى مصدقا بينهم لكفاه في دفعهم أن

يقول هذا ممتنع بل كان يجب عليه أن يردعهم عن طلب ما لا يليق بجلال الله كما زجرهم

وقال إنكم قوم تجهلون عند قولهم اجعل لنا إلها كما لهم آلهة وإلا أي وإن لم يكن مصدقا

بينهم بل كان القوم كافرين منكرين لصدقه لم يصدقوه أيضا في الجواب ب لن تراني إخبارا عن

الله تعالى لأن الكفار لم يحضروا وقت السؤال ولم يسمعوا الجواب

بل الحاضرون هم السبعون المختارون

فكيف يقبلون مجرد إخباره مع إنكارهم لمعجزاته الباهرة

وأما ثانيا فلأنهم لما سألوا وقالوا أرنا الله جهرة زجرهم الله تعالى وردعهم عن السؤال بأخذ

الصاعقة فلم يحتج موسى في زجرهم إلى سؤال الرؤية وإضافتها إلى نفسه

وليس في أخذ الصاعقة دلالة على امتناع المسؤول لأنهم لم يروا إلا أن أخذتهم الصاعقة عقب سؤالهم

وليس في ذلك ما يدل على امتناع ما طلبوه بل جاز أن يكون ذلك الأخذ لقصدهم إعجاز موسى عن الإتيان بما طلبوه تعنتا مع كونه ممكنا فأنكر الله ذلك عليهم وعاقبهم

كما أنكر قولهم لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا وقولهم أنزل علينا كتابا من السماء بسبب التعنت

وإن كان المسؤول أمرا ممكنا في نفسه فأظهر الله عليهم ما يدل على صدقه معجزا ورادعا لهم عن تعنتهم

*(309/244)*

---

الرابع من وجوه الاعتراض على الأول أنه سألها لنفسه وإن علم استحالتها بالعقل ليتأكد دليل العقل بدليل السمع فيتقوى علمه بتلك الاستحالة

فإن تعدد الأدلة وإن كانت من جنس واحد تفيد زيادة قوة في العلم بالمدلول

فكيف إذا كانت من جنسين

وإنما سأل هذا السؤال وفعله فعل إبراهيم وسؤاله حين قال رب أرني كيف تحيي الموتى قال أو

لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي فقد طلب الطمأنينة فيما يعتقده ويعلمه بانضمام المشاهدة إلى الدليل

والجواب أن العلم لا يقبل التفاوت فإنه كما مر صفة توجب تمييزا لا يحتمل متعلقه النقيض بوجه من الوجوه

ولذلك يؤول قول الخليل تارة بما يضعف وهو أنه مخاطبة منه لجبريل عند نزوله إليه بالوحي ليعلم أنه منه عند الله وضعفه أنه خاطب الرب وجبرائيل ليس برب

وأيضا إحياء الموتى ليس مقدورا لجبرائيل فكيف يطلب منه وتارة بما يقوى وهو ما روي من أنه أوحى الله تعالى إليه أني اتخذت إنسانا خليلا وعلامته أني أحيي الموتى بدعائه فظن إبراهيم أنه ذلك الإنسان فطلب الإحياء ليطمئن به قلبه مع أنه كان يمكنه أي يمكن موسى ذلك أي طلب التأكد من غير ارتكاب سؤال ما لا يمكن

من الرؤية بأن يطلب إظهار الدليل السمعي على استحالتها بلا طلب

فيكون حينئذ طلبها خارجا عما يليق بالعقلاء خصوصا الأنبياء

الخامس من تلك الوجوه أنه قد لا يعلم امتناع الرؤية ولا يضر ذلك في نبوته مع العلم بالوحدانية لأن المقصود من وجوب معرفته عندنا هو التوصل إلى العلم بحكمته

وأنه لا يفعل قبيحا والغرض من البعثة هو الدعوة إلى أنه تعالى واحدا

وأنه كلف عباده بأوامر ونواه تعريضا لهم إلى النعيم المقيم

وذلك لا يتوقف على العلم باستحالة رؤيته

وأما من جعل الوجوب شرعيا فعنده يجوز أن لا تكون شريعة موسى آمرة بمعرفة أنه تعالى يستحيل رؤيته أو يعلم موسى امتناع الرؤية

والسؤال بطلبها صغيرة لا تمتنع على الأنبياء

*(310/244)*

---

والجواب إلتزام أن النبي المصطفى المختار بالتكليم في معرفة الله تعالى وما يجوز عليه ويمتنع دون آحاد المعتزلة ودون من حصل طرفا من علم الكلام هي البدعة الشنعاء والطريقة العوجاء التي لا يسلكها واحد من العقلاء

واحتجاجنا بلزوم العبث على تقدير العلم بالاستحالة وهو ما تنزه عنه من له أدنى تمييز فضلا عن الأنبياء

كيف ومثل هذا التجاسر على الله تعالى بطلب ما لا يجوز عليه ويشعر بالتجسم على رأيكم لا يعد من الصغائر بل من الكبائر التي يمتنع صدورها عنهم وعلى تقدير كون السؤال

من الصغائر نقول في جوازها من الأنبياء ما سيأتي من المنع والتفصيل

وأما على الوجه الثاني أي الاعتراض عليه فمن وجهين

الأول إنه علق الرؤية على استقرار الجبل

إما حال سكونه أو حال حركته

الأول ممنوع

والثاني مسلم

بيانه أنه لو علقه أي وجود الرؤية عليه حال سكونه لزم وجود الرؤية لحصول الشرط الذي

هو الاستقرار

وهو باطل فإذن قد تعين أنه علقه عليه حال حركته

ولا خفاء في أن الاستقرار حال الحركة محال فيكون تعليق الرؤية عليها تعليقا بالمحال

فلا يدل على إمكان المعلق بل على استحالته

والجواب إنه علقه على استقرار الجبل من حيث هو من غير قيد بحال السكون أو الحركة

وإلا لزم الإضمار في الكلام وأنه أي استقرار الجبل من حيث هو ممكن قطعا

إذ لو فرض وقوعه لم يلزم منه محال لذاته

وأيضا فاستقرار الجبل عند حركته أي في زمانها ليس بمحال

إذ في ذلك الوقت قد يحصل الاستقرار بدل الحركة ولا محذور فيه إنما المحال هو الاستقرار

مع الحركة أي كونهما مجتمعين لا وقوع شيء منهما في وقت آخر بدل صاحبه

الثاني من الوجهين أنه لم يقصد من التعليق المذكور بيان إمكان

الرؤية أو امتناعها بل بيان عدم وقوعها لعدم المعلق به وهو الاستقرار سواء كان ممكنا أو

ممتنعا

فلا يلزم إمكان المعلق

والجواب إنه قد لا يقصد الشيء في الكلام قصدا بالذات ويلزم منه لزوما قطعيا والحال ههنا

كذلك

*(311/244)*

---

فإنه إذا فرض وقوع الشرط الذي هو ممكن في نفسه فإما أن يقع المشروط فيكون هو أيضا

ممكنا

وإلا فلا معنى للتعليق به

وإيراد الشرط والمشروط لأنه حينئذ منتف على تقديري وجود الشرط وعدمه

لا يقال فائدة التعليق ربط العدم بالعدم مع السكوت عن ربط الوجود بالوجود لأنا نقول إن

المتبادر في اللغة من مثل قولنا إن ضربتني ضربتك

هو الربط في جانبي الوجود والعدم معا لا في جانب العدم فقط كما هو المعتبر في الشرط المصطلح

تذنيب كل ما سنتلوه عليك في المقام الثاني مما يدل على وقوع الرؤية فهو دليل على جوازها وصحتها بلا شبهة فلا نطول بذكرها في هذا الكتاب كما فعله جمع من الأصحاب

والله الموفق للصواب

المسلك الثاني من مسلكي صحة الرؤية هو العقل

والعمدة في المسلك العقلي مسلك الوجود

وهو طريقة الشيخ أبي الحسن والقاضي أبي بكر وأكثر أئمتنا

وتحريره أنا نرى الأعراض كالألوان والأضواء وغيرهما من الحركة والسكون والاجتماع والافتراق

وهذا ظاهر

ونرى الجوهر أيضا

وذلك لأنا نرى الطول والعرض في الجسم

ولهذا نميز

الطويل من العريض

ونميز الطويل من الأطول

وليس الطول والعرض عرضين قائمين بالجسم لما تقرر من أنه مركب من الجواهر الفردة

فالطول مثلا إن قام بجزء واحد منها فذلك الجزء يكون أكثر حجما من جزء آخر فيقبل

القسمة

هذا خلف

وإن قام بأكثر من جزء واحد لزم قيام العرض الواحد بمحلين

وهو محال

فرؤية الطول والعرض هي رؤية الجواهر التي تركب منها الجسم فقد ثبت أن صحة الرؤية

مشتركة بين الجوهر والعرض

وهذه الصحة لها علة مختصة بحال وجودهما

*(312/244)*

---

وذلك لتحققها عند الوجود كما عرفت وانتفائها عند العدم فإن الأجسام والأعراض لو

كانت معدومة لاستحال كونها مرتبة بالضرورة والاتفاق ولولا تحقق أمر مصحح حال

الوجود غير متحقق حال العدم لكان ذلك أي اختصاص الصحة بحال الوجود ترجيحا بلا

مرجح لأن نسبة الصحة على تقدير استغنائها عن العلة إلى طرفي الوجود والعدم على

سواء وهذه العلة المصححة للرؤية لا بد من أن تكون مشتركة بين الجوهر والعرض

وإلا لزم تعليل الأمر الواحد وهو صحة كون الشيء مرئيا بالعلل المختلفة وهي الأمور

المختصة إما بالجواهر وإما بالأعراض

وهو غير جائز لما مر في مباحث العلل ثم نقول هذه العلة المشتركة إما الوجود أو الحدوث

إذ لا مشترك بين الجوهر والعرض سواهما

فإن الأجسام لا توافق الألوان في صفة عامة بتوهم كونها مصححة سوى هذين لكن

الحدوث لا يصلح أن يكون علة للصحة لأنه عبارة عن الوجود مع اعتبار عدم سابق

والعدم لا يصلح أن يكون جزءا للعلة لأن التأثير صفة إثبات فلا يتصف به العدم

ولا ما هو مركب منه

وإذا أسقط

العدم عن درجة الاعتبار لم يبق إلا الوجود

فإذن هي أي العلة المشتركة الوجود

وأنه مشترك بينهما وبين الواجب لما تقدم من اشتراك الوجود بين الموجودات كلها

فعلة صحة الرؤية متحققة في حق الله تعالى فيتحقق صحة الرؤية

وهو المطلوب

واعلم أن هذا الدليل يوجب أن يصح رؤية كل موجود كالأصوات والروائح والملموسات

والطعوم

والشيخ الأشعري يلتزمه

ويقول لا يلزم من صحة الرؤية لشيء تحقق الرؤية له

وإنما لا نرى هذه الأشياء التي ذكرتموها لجريان العادة من الله بذلك أي بعدم رؤيتها

فإنه تعالى أجرى عادته بعدم خلق رؤيتها فينا

ولا يمتنع أن يخلق فينا رؤيتها كما خلق رؤية غيرها

والخصم يشدد عليه النكير أي الإنكار

ويقول هذه مكابرة محضة وخروج عن حيز العقل بالكلية ونحن نقول ما هو أي إنكاره إلا

استبعاد ناشىء عما هو معتاد في الرؤية

*(313/244)*

---

والحقائق أي الأحكام الثابتة المطابقة للواقع لا تؤخذ من العادات بل مما تحكم به العقول

الخالصة من الأهواء وشوائب التقليدات

ولا شبهة في أن الرؤية بالمعنى الذي حققناه فيما سلف ليست ممتنعة في سائر المحسوسات

ثم الاعتراض عليه بعد النقض المذكور من وجوه

الأول لا نسلم أنا نرى العرض والجوهر معا بل المرئي هو الأعراض فقط

قولك نرى الطول والعرض وهما جوهران

قلنا الحكم برؤيتهما صحيح ولكن المرجع بهما إلى المقدار

فإنه عرض قائم بالجسم

والجواب إنا قد أبطلنا ذلك أي كونهما مقدارا قائما بالجسم بما فيه كفاية فإن وجود المقدار

الذي هو عرض مبني على نفي الجزء وتركب الجسم من الهيولى والصورة

وقد مر بطلانه بما لا حاجة إلى إعادته

ونزيد ههنا لإبطال وجود المقدار العرضي أنا لو فرضنا تألف الأجزاء من السماء

إلى الأرض فإنا نعلم بالضرورة كونها طويلة جدا وإن لم يخطر ببالنا شيء من الأعراض فعلم

أنه لا حاجة في الطول إلى شيء سوى الأجزاء

فالمرئي هو تلك الأجزاء لا عرض قائم بها

وأيضا فالامتداد الحاصل فيما بين الأجزاء شرط لقيام العرض الواحد الذي هو المقدار بها

وإلا لقام المقدار الواحد بها أي بتلك الأجزاء وإن كانت متناثرة متفاصلة

وهو ضروري البطلان

وإذا كان الامتداد شرطا لقيام المقدار العرضي بالأجزاء فلا يكون الامتداد عرضا قائما

بها

وإلا لزم اشتراط الشيء بنفسه

فمرجع الطول إلى الأجزاء المتألفة في سمت مخصوص فرأيته رؤية تلك الأجزاء المتحيزة

وهو المطلوب

الثاني من وجوه الاعتراض لا نسلم احتياج الصحة إلى علة لأنها الإمكان

والإمكان عدمي لما تقدم في باب الإمكان والعدمي لا حاجة به إلى علة

والجواب جدلا المعارضة بما سبق فيه

أي في باب الإمكان من الأدلة الدالة على كونه وجوديا والجواب تحقيقا أن المراد بعلة صحة

الرؤية كما صرح به الآمدي ما يمكن أن يتعلق به الرؤية لا ما يؤثر في الصحة

*(314/244)*

---

واحتياج الصحة سواء كانت وجودية أو عدمية إلى العلة بمعنى متعلق الرؤية ضروري

ونعلم أيضا بالضرورة أنه أي متعلق الرؤية أمر موجود لأن المعدوم لا تصح رؤيته قطعا

الثالث من تلك الوجوه لا نسلم أن علة صحة الرؤية يجب أن تكون مشتركة

أما أولا فلأن صحة الرؤية ليست أمرا واحدا بالشخص

وهو ظاهر

بل نقول صحة رؤية الأعراض لا تماثل صحة رؤية الجواهر إذ المتماثلان ما يسد كل منهما مسد الآخر

ورؤية الجسم لا تقوم مقام رؤية العرض ولا بالعكس إذ يستحيل أن يرى الجسم عرضا أو العرض

جسما

وأما ثانيا فلجواز تعليل الواحد بالنوع بالعلل المختلفة لما مر في مباحث العلل والمعلولات

فعلى تقدير تماثل الصحتين جاز تعليلهما بعلتين مختلفتين

والجواب قد ذكرنا أن المراد بعلة صحة الرؤية متعلقها

والمدعي أن متعلقها ليس خصوصية واحد منهما أي من الجوهر والعرض فإنا نرى الشبح من بعيد ولا ندرك منه إلا أنه هوية ما من الهويات

وأما خصوصية تلك الهوية وجوهريتها وعرضيتها فلا ندركها فضلا عن إدراك أنها أي جوهر أو عرض هي

وإذا رأينا زيدا فإنا نراه رؤية واحدة متعلقة بهويته

ولسنا نرى أعراضه من اللون والضوء كما تقوله الفلاسفة حيث يزعمون أن المرئي بالذات هو الألوان والأضواء

وأما الأجسام فهي مرئية بالعرض والتبعية بل نرى هويته ثم ربما نفصله إلى جواهر هي

أعضاؤه وإلى أعراض تقوم بها أي بتلك الجواهر

وربما نغفل عن ذلك التفصيل حتى لو سئلنا عن كثير منها أي من تلك الجواهر والأعراض لم نعلمها ولم نكن قد أبصرناها

إذ كنا أي زمان كنا أبصرنا الهوية

ولو لم يكن متعلق الرؤية هو الهوية التي بها الاشتراك بين خصوصيات الهويات بل كان متعلق الرؤية الأمر الذي به الافتراق بينها

أعني خصوصية هوية زيد مثلا لما كان الحال كذلك لأن رؤية الهوية المخصوصة الممتازة تستلزم الاطلاع على خصوصيات جواهرها وأعراضها

فلا تكون مجهولة لنا

*(315/244)*

---

فقد تحقق أن متعلق الرؤية هو الهوية العامة المشتركة بين الجواهر والأعراض وبين الباري سبحانه وتعالى

فتصح رؤيته

الرابع من وجوه الاعتراض لا نسلم أن المشترك بينهما أي الجوهر والعرض ليس إلا الوجود

والحدوث

فإن الإمكان أيضا مشترك بينهما وكذا المذكورية والمعلومية وسائر المفهومات العامة

والجواب أنا قد بينا أن متعلق الرؤية الذي فسرنا به علة الصحة هو

ما يختص بالموجود

وإلا لصح رؤية المعدوم والإمكان ليس كذلك لشموله الموجود والمعدوم

وكذا سائر المفهومات الشاملة لهما

فلا يصح شيء منهما متعلقا للرؤية وما لا يعلم لا يكون متعلق الرؤية لأن متعلقها يجب أن

يكون معلوما لكونه مدركا بالبصر والذي نعلمه فيهما

أي في الجوهر والعرض الموجودين خصوصية كل منهما

وقد أبطلنا تعلق الرؤية بها ولم يبق لتعلقها إلا المشترك بينهما

وهو الوجود إما مع خصوصية بها يمتاز كل منهما عن القديم

وإنما هو مطلق الحدوث وقد أبطلناه أيضا

وإما بدون ذلك وهو مطلق الوجود وبذلك يتم المطلوب

الخامس لا نسلم أن الحدوث لا يصلح سببا لصحة الرؤية

فإن صحة الرؤية عدمية فجاز كون سببها كذلك أي عدميا

والجواب ما سبق من أن المراد بسبب الصحة متعلق الرؤية لا ما يؤثر فيها ولا شك في أنه لا

يصلح العدم لذلك أي لكونه متعلق الرؤية

فإن قيل ليس الحدوث هو العدم السابق كما ذكرتم بل مسبوقية الوجود بالعدم فلا يكون عدميا

قلنا وذلك أي كون الوجود مسبوقا بالعدم أمر اعتباري لا يرى ضرورة

وإلا لم يحتج حدوث الأجسام إلى دليل لكونه مدركا محسوسا

السادس لا نسلم أن الوجود مشترك بين الواجب والممكن

كيف وقد جزمتم القول بأن وجود كل شيء نفس حقيقته

وكيف تكون حقائق الأشياء مشتركة حتى تكون حقيقة القديم مثل حقيقة الحادث وحقيقة

الفرس مثل حقيقة الإنسان بل تكون جميع الموجودات مشتركة في حقيقة واحدة هي تمام ماهية كل واحد منها

وذلك مما لا يقول به عاقل

*(316/244)*

فوجب أن يكون الاشتراك في الوجود عندكم لفظيا لا معنويا كما علم في صدر الكتاب

وقد أجاب الآمدي عن هذا السؤال بأن المتمسك بهذا الدليل إن كان ممن يعتقد كون الوجود مشتركا كالقاضي وجمهور الأصحاب لم يرد عليه ما ذكرتموه

وإن كان ممن لا يعتقده كالشيخ فهو بطريق الإلزام

ولا يجب كون الملزوم معتقدا لما تمسك به

ولما لم يكن هذا مرضيا عند المصنف قال والجواب أنه لا معنى للوجود إلا كون الشيء له هوية لما عرفت من أن الوجود الخارجي ليس إلا كون الماهية ممتازة بحسب الهوية الشخصية وذلك أي كون الشيء ذا هوية يمتاز بها أمر مشترك بين الموجودات بأسرها بالضرورة

وما ذكرتم مما به الافتراق كالإنسانية والفرسية وغيرهما وألزمتم الاشتراك فيه على تقدير اشتراك الموجود على مذهبنا فشيات الأشياء أي خصوصياتها التي يمتاز بها بعضها عن بعض وهي هيئات وخصوصيات للهويات المتمايزة بذواتها

وإن عاقلا لا يقول بالاشتراك فيها ولا بما يستلزم هذا الاشتراك استلزاما مكشوفا لا سترة به

فما ذكره الشيخ من أن وجود كل شيء عين حقيقته لم يرد به أن مفهوم كون الشيء ذا هوية هو بعينه مفهوم ذلك الشيء حتى يلزم من الاشتراك في الأول الاشتراك في الثاني بل أراد أن

الوجود ومعروضه ليس لهما هويتان متمايزتان تقوم إحداهما بالأخرى كالسواد بالجسم

وقد عرفت أن هذا هو الحق الصريح

فالاتحاد الذي ادعاه الشيخ على ما مر في الأمور العامة إنما هو باعتبار ما صدقا عليه

وذلك لا ينافي اشتراك مفهوم الوجود

فلا منافاة بين كون الوجود عين الماهية بالمعنى الذي صورناه وبين اشتراكه بين الخصوصيات

المتمايزة بذواتها

والأكثرون توهموا أن ما نقل عنه من أن الوجود عين الماهية ينافي دعوى اشتراكه بين

الموجودات

إذ يلزم منهما معا

كون الأشياء كلها متماثلة متفقة الحقيقة

وهو باطل

فلذلك قال واعلم أن هذا المقام مزلة للأقدام مضلة للأفهام

*(317/244)*

وهذا الذي حققناه لك هو غاية ما يمكن فيه من التقرير والتحرير لم نأل فيه جهدا ولم ندخر نصحا

وعليك بإعادة التفكر وإمعان التدبر والثبات عند البوارق اللامعة من الأفكار وعدم الركون إلى أول عارض يظهر ببادىء الرأي كما ركن إليه من حكم بأن كلام الشيخ في مباحث الرؤية حيث ادعى اشتراك الوجود ينافي ما تقدم حيث قال وجود كل شيء عينه

ولله العون والمنة في إدراك الحقائق والاهتداء إلى الدقائق

السابع من الاعتراضات لا نسلم أن علة صحة الرؤية إذا كانت موجودة في القديم كانت صحة الرؤية ثابتة فيه كما في الحوادث لجواز أن تكون خصوصية الأصل شرطا أو خصوصية الفرع مانعا

والجواب تعلمه مما قدمناه إليك وهو بيان أن المراد بعلة صحة الرؤية متعلقها

وأن متعلقها هو الوجود مطلقا

أعني كون الشيء ذا هوية ما لا خصوصيات الهويات والوجودات كما في الشبح المرئي من بعيد بلا إدراك لخصوصيته

وإذا كان متعلقها مطلق الهوية المشتركة لم يتصور هناك اشتراط بشرط معين ولا تقييد بارتفاع مانع

ولقد بالغ المصنف في ترويج المسلك العقلي لإثبات صحة رؤيته تعالى

لكن لا يلتبس على الفطن المنصف أن مفهوم الهوية المطلقة المشتركة بين خصوصيات

الهويات أمر اعتباري كمفهوم الماهية والحقيقية فلا تتعلق بها الرؤية أصلا

وأن المدرك من الشبح البعيد هو خصوصيته الموجودة

إلا أن إدراكها إجمالي لا يتمكن

به على تفصيلها

فإن مراتب الإجمالي متفاوتة قوة وضعفا كما لا يخفى على ذي بصيرة

فليس يجب أن يكون كل إجمال وسيلة إلى تفصيل أجزاء المدرك وما يتعلق به من الأحوال

ألا ترى إلى قولك كل شيء فهو كذا

وفي هذا الترويج تكلفات اخر يطلعك عليها أدنى تأمل

فإذن الأولى ما قد قيل من أن التعويل في هذه المسألة على الدليل العقلي متعذر فلنذهب إلى

ما اختاره الشيخ أبو منصور الماتريدي من التمسك بالظواهر النقلية وقد مر عمدتها

المقام الثاني في وقوع الرؤية

*(318/244)*

أن المؤمنين سيرون ربهم يوم القيامة أي في الدار الآخرة

قال الإمام الرازي مستدلا على وقوع الرؤية

الأمة في هذه المسألة على قولين فقط

الأول يصح ويرى

والثاني لا يرى ولا يصح

وقد أثبتنا أنه يصح

فلو قلنا مع القول بالصحة أنه لا يرى

لكان قولا ثالثا خارقا للإجماع على عدم الافتراق بين الصحة والوقوع في النفي والإثبات

بل كلاهما مثبتان معا أو منفيان معا

وهو أي هذا الاستدلال غير صحيح كما ذكره الآمدي لأن خرق الإجماع إثبات ما نفاه كما

إذا ذهب بعض المجمعين إلى السالبة الكلية وآخرون إلى السالبة الجزئية

فأحدث القول بالموجبة الكلية أو نفى ما أثبته كما إذا ذهب بعضهم إلى الموجبة الكلية

وبعضهم إلى الجزئية

فأحدث القول بالسالبة الكلية

وأما إذا ذهب بعضهم إلى الموجبة الكلية وآخرون إلى السالبة الكلية

فإحداث القول بالموجبة الجزئية والسالبة الجزئية معا ليس خارقا للإجماع

إذ ليس بين القولين قدر مشترك

بل هو تفصيل وموافقة لطائفة في إحدى المسألتين

والأخرى في أخرى كما فيما نحن بصدده

وإليه أشار بقوله وهذا القول الثالث إنما هو التفصيل

وهو القول بالجواز والقول بعدم الوقوع

وشيء منهما لا يخالف الإجماع ولا يخرقه بل كل واحد من قولي التفصيل مما قال به طائفة

من طائفتي المجمعين وإن كان خارقا لما قال به الطائفة الأخرى وذلك الذي ذكرناه في مسألتنا

هذه كما في مسألة قتل المسلم بالذمي والحر بالعبد

فإن القائل قائلان مثبت لهما معا كالحنفية وناف لهما معا كالشافعية والتفصيل بينهما مما لم

يقل به أحد من الأمة

ولكن لو قيل به لا يكون خارقا للإجماع بل موافقة للمثبت في مسألة

وللنافي في مسألة أخرى ولا يكون هذا التفصيل ممنوعا عنه بل يكون جائزا بالإجماع فهذا

المسلك في إثبات الوقوع مردود

والمعتمد فيه مسلكان

المسلك الأول قوله تعالى وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة

وجه الاحتجاج بالآية الكريمة إن النظر في اللغة جاء بمعنى الانتظار ويستعمل بغير صلة بل يتعدى بنفسه قال تعالى انظرونا نقتبس من نوركم أي انتظرونا

وقال ما ينظرون إلا صيحة واحدة

أي ما ينتظرون

ومنه قوله تعالى فناظرة بم يرجع المرسلون

أي منتظرة

وقول الشاعر

وإن يك صدر هذا اليوم ولى . . . فإن غدا لناظره قريب أي لمنتظره

وجاء بمعنى التفكر والاعتبار ويستعمل حينئذ بفي

يقال نظرت في الأمر الفلاني أي تفكرت واعتبرت وجاء بمعنى الرأفة والتعطف ويستعمل حينئذ باللام

يقال نظر الأمير لفلان أي رأف به وتعطف وجاء بمعنى الرؤية ويستعمل بإلى

قال الشاعر

نظرت إلى من أحسن الله وجهه . . . فيا نظرة كادت على وامق تقضي والنظر في الآية موصول بإلى فوجب حمله على الرؤية فتكون واقعة في ذلك اليوم

وهو المطلوب

واعترض عليه بوجوه

الأول لا نسلم أن لفظ إلى صلة للنظر بل هو واحد الآلاء ومفعول به للنظر بمعنى الانتظار

فمعنى الآية نعمة ربها منتظرة

ومنه قول الشاعر

أبيض لا يرهب النزال ولا . . . يقطع رحما ولا يخون إلى أي نعمة

ويقرب منه ما قد قيل إن إلى بمعنى عند كما في قوله

فهل لكم فيما إلي فإنني . . . طبيب بما أعيى النطاسي حذيما

أي فيما عندي ومعنى الآية حينئذ عند ربها منتظرة نعمته

والجواب أن انتظار النعمة غم

ومن ثمة قيل الانتظار الموت الأحمر

فلا يصح الإخبار به بشارة مع أن الآية وردت مبشرة للمؤمنين بالإنعام والإكرام وحسن الحال

وفراغ البال

وذلك في رؤيته تعالى فإنها أجل النعم والكرامات المستتبعة لنضارة الوجه لا في الانتظار

المؤدي إلى عبوسه

الثاني إن النظر الموصول بإلى قد جاء للانتظار

قال الشاعر

وشعث ينظرون إلى بلال . . . كما نظر الظماء حيا الغمام ومن المعلوم أن العطاش ينتظرون

مطر الغمام

فوجب حمل النظر المشبه على الانتظار ليصح التشبيه

وقال

وجوه ناظرات يوم بدر . . . إلى الرحمن يأتي بالفلاح أي منتظرات إتيانه بالنصر والفلاح

وقال

*(320/244)*

---

كل الخلائق ينظرون سجاله . . . نظر الحجيج إلى طلوع هلال أي ينتظرون عطاياه انتظار

الحجاج ظهور الهلال

والجواب لا نسلم أن النظر ههنا أي فيما ذكر من الأمثلة للانتظار

ففي الأول أي يرون بلالا كما يرى الظماء ماء يطلبونه ويشتاقون إليه ولا يمتنع حمل النظر

المطلق عن الصلة كالمذكور في المشبه به على الرؤية بطريق الحذف والإيصال

إنما الممتنع حمل الموصول ب إلى على غيرها أي غير الرؤية كالانتظار

وفي الثاني أي ناظرات إلى آثاره أي آثار الله من الضرب والطعن الصادرين من الملائكة التي أرسلها الله تعالى لنصرة المؤمنين يوم بدر

وذكر بعض الرواة أن الرواية هكذا وجوه ناظرات يوم بكر

وأن قائله شاعر من أتباع مسيلمة الكذاب

والمراد بيوم بكر يوم القتال مع بني حنيفة لأنهم بطن من بكر بن وائل

وأراد بالرحمن مسيلمة

وعلى هذا فالجواب ظاهر

وفي الثالث أي يرون سجاله

ويجوز النظر المجرد عن الصلة للرؤية كما مر آنفا

وإن سلم مجيئه مع إلى للانتظار فلا يصح حمله عليه في الآية إذ لا يصح بشارة لما مر من أن انتظار النعمة غم ووصولها سرور

الثالث من وجوه الاعتراض أن النظر مع إلى حقيقة لتقليب الحدقة لا للرؤية

يقال نظرت إلى الهلال فما رأيته ولو كان بمعنى الرؤية لكان متناقضا

ولم أزل انظر إلى الهلال حتى رأيته ولو حمل على الرؤية لكان الشيء غاية لنفسه

وانظر كيف ينظر فلان إلي

والرؤية لا ينظر إليها وإنما ينظر إلى تقليب الحدقة

وقال تعالى وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون فالنظر الموصول ب إلى محمول على تقليب الحدقة لما ذكرنا ولأنه يوصف بالشدة والشزر والازورار والرضى والتجبر والذل والخشوع وشيء منها لا يصلح صفة للرؤية بل هي أحوال يكون عليها عين الناظر عند تقليب الحدقة نحو المرئي هذا كما ذكرناه

وتقليب الحدقة ليس هو الرؤية وهو ظاهر

فلا يكون النظر الموصول ب إلى حقيقة فيها

*(321/244)*

---

وإلا لزم الاشتراك ولا ملزومها لزوما عقليا حتى يجب من تحققه تحققها بل لزوما عاديا مصححا للتجوز ثم نقول إنه للرؤية مجاز

ولكنه مجاز لا يتعين كونه مرادا في الآية لجواز أن يراد ناظرة إلى نعم الله

ولم أي ولأي شيء يترك هذا الإضمار إلى ذلك المجاز

والجواب أن النظر مع إلى حقيقة للرؤية بالنقل الذي مر ذكره فلا يكون حقيقة وما استشهد تم به على كونه حقيقة لتقليب الحدقة لا يجدي نفعا إذ قوله نظرت إلى الهلال فما رأيته لم يصح نقله من العرب

بل يقال نظرت إلى مطلع الهلال فلم أر الهلال

وإن سلمناه قلنا ربما يحذف المضاف ويقام المضاف إليه مقامه وهو الجواب عن قولهم لم أزل أنظر إلى الهلال حتى رأيته أي إلى مطلع الهلال والبواقي من الأمثلة كلها مجازات أي النظر فيها وقع مجازا عن تقليب الحدقة من باب إطلاق اسم المسبب الذي هو الرؤية على سببها الذي هو التقليب وعلى تقدير كون النظر حقيقة في التقليب الذي ليس بمراد يجب حمله في الآية على الرؤية مجازا لرجحانه على الإضمار الذي يحتمل وجوها كثيرة وإليه الإشارة بقوله مع أن الأشياء التي يمكن إضمارها كثيرة كنعمة الله وجهة الله وآثار الله ولا قرينة ههنا معينة لبعضها فالتعيين تحكم لا يجوز لغة فوجب المصير إلى المجاز المتعين ثم نقول أيضا تقليب الحدقة طلبا للرؤية بدون الرؤية لا يكون نعمة بل فيه نوع عقوبة فلا يكون مرادا في الآية وتقليب الحدقة مع الرؤية يكفيه التجوز وحده فلا يضم إليه الإضمار تقليلا لما هو خلاف الأصل

فإن تقليب الحدقة يكون سببا عاديا للرؤية وإطلاق اسم السبب للمسبب مجاز مشهور فلنحمل الآية على التجوز عن الرؤية بلا إضمار شيء

وهو المطلوب

وأنت لا يخفى عليك أن أمثال هذه

الظواهر لا تفيد إلا ظنونا ضعيفة جدا

وحينئذ لا تصلح هذه الظواهر للتعويل عليها في المسائل العلمية التي يطلب فيها اليقين

*(322/244)*

---

المسلك الثاني في إثبات الوقوع قوله تعالى في الكفار كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ذكر ذلك تحقيرا لشأنهم

فلزم منه كون المؤمنين مبرأين عنه فوجب أن لا يكونوا محجوبين عنه بل رائين له

وهذا المسلك أيضا من الظواهر المفيدة للظن

والمعتمد فيه أي في إثبات الوقوع

بل وفي صحته أيضا إجماع الأمة قبل حدوث المخالفين على وقوع الرؤية المستلزم لصحتها

وعلى كون هاتين الآيتين محمولتين على الظاهر المتبادر منهما

ومثل هذا الإجمال مفيد لليقين

المقام الثالث في شبه المنكرين وردها

وتنقسم تلك الشبه إلى عقلية ونقلية

أما العقلية فثلاث

الأولى شبهة الموانع وهي أن يقال لو جازت رؤيته تعالى لرأيناه الآن

والتالي باطل بطلانا ظاهرا

وأما بيان الشرطية فهو أنه لو جازت رؤيته تعالى لجازت في الحالات كلها لأنه أي جواز الرؤية حكم ثابت له

إما لذاته أو لصفة لازمة لذاته فلا يتصور انفكاكه عنه في شيء من الأزمنة فجازت رؤيته الآن قطعا

ولو جازت رؤيته الآن لزم أن نراه الآن لأنه إذا اجتمعت شرائط الرؤية في زمان وجب حصول الرؤية في ذلك الزمان وإلا لجاز أن يكون بحضرتنا جبال شاهقة ونحن لا نراها

وأنه سفسطة رافعة للثقة عن القطعيات وشرائط الرؤية ثمانية أمور

الأول سلامة الحاسة ولذلك تختلف مراتب الإبصار بحسب اختلاف سلامة الإبصار وتنتفي بانتفائها

والثاني كون الشيء جائز الرؤية مع حضوره للحاسة بأن تكون الحاسة متلفتة إليه

ولم يعرض هناك ما يضاد الإدراك كالنوم والغفلة والتوجه إلى شيء آخر

والثالث مقابلته للباصرة في جهة من الجهات أو كونه في حكم المقابلة كما في المرئي بالمرآة

والرابع عدم غاية الصغر فإن الصغير جدا لا يدركه البصر قطعا

والخامس عدم غاية اللطافة بأن يكون كثيفا

أي ذا لون في الجملة وإن كان ضعيفا

والسادس عدم غاية البعد وهو مختلف بحسب قوة الباصرة وضعفها

والسابع عدم غاية القرب

فإن المبصر إذا التصق بسطح البصر

بطل إدراكه بالكلية

(323/244)

---

والثامن عدم الحجاب الحائل وهو الجسم الملون المتوسط بينهما

وهناك شرط تاسع هو أن يكون مضيئا بذاته أو بغيره

ولم يذكره ههنا لكونه مذكورا في بحث الكيفيات المبصرة مع أنه يمكن إدراجه في حضوره

للحاسة المعتبرة في الشرط الثاني

ثم لا نعقل من هذه الشرائط في حق رؤية الله تعالى إلا سلامة الحاسة وصحة الرؤية لكون

الست البواقي منها مختصة بالأجسام

وهما أي الشرطان المعقولان في رؤيته حاصلان الآن فوجب حصول رؤيته

والجواب عن هذه الشبهة

أما أولا فهو أنا لا نسلم وجوب الرؤية عند اجتماع الشروط الثمانية وذلك لأن دليلكم وإن دل عليه لكن عندنا ما ينفيه لأنا نرى الجسم الكبير من البعيد صغيرا

وما ذلك إلا لأنا نرى بعض

أجزائه دون البعض مع تساوي الكل في حصول الشرائط فظهر أنه لا تجب الرؤية عند اجتماعها

لا يقال يتصل بطرفي المرئي من العين خطان شعاعيان كساقي مثلث قاعدته سطح المرئي ويخرج منها أي من العين إلى وسطه خط قائم عليه أي على سطحه يقسم ذلك الخط المثلث المذكور إلى مثلثين قائمي الزاوية الواقعة على جنبتي الخط القائم فيكون الخط الوسط وترا لكل واحدة من الزاويتين الحادتين

وكل من الطرفين وترا لزاوية قائمة

ووتر القائمة في المثلث أطول من وتر الحادة

فلم تكن أجزاء المرئي متساوية في القرب والبعد بالنسبة إلى الرائي بل يكون وسط المرئي أقرب إليه من طرفيه

فجاز أن يرى الوسط وحده بدون الطرفين لأنا نقول نفرض هذا التفاوت الذي ذكرتموه في هذه الخطوط ذراعا

فلو كان عدم رؤية الطرفين لأجل البعد

فإذا فرض أنه بعد المرئي يقدر ذلك البعد الذي لطرفيه وجب أن لا يرى أصلا

وإذا يرى

فهذا البعد لا أثر له في عدم الرؤية فتكون الأجزاء كلها مع ذلك التفاوت متساوية في حصول شرائط الرؤية وبعضها غير مرئي فلا تجب الرؤية مع حصولها

قال بعض الفضلاء أي صاحب اللباب معترضا على هذه المعارضة لا يلزم من رؤيتنا جميع أجزائه أن نراه كبيرا

*(324/244)*

---

وإنما يلزم ذلك أن لو كانت رؤيته صغيرا وكبيرا بحسب رؤية الأجزاء وعدمها

وهو ممنوع

فلعل رؤيته صغيرا وكبيرا تختلف بضيق الزاوية الحاصلة في الناظر من الخطين المتصلين منه بطرفي المرئي وسعتها فإن القائلين بالانطباع ذهبوا إلى أن صورة المرئي

إنما ترتسم من الرطوبة الجليدية في زاوية رأس مخروط متوهم قاعدته عند المرئي

وأن اختلافه بالصغر والكبر في الرؤية إنما هو بحسب ضيق تلك الزاوية وسعتها

ولهذا إذا قرب المرئي في الغاية أو بعد في الغاية صارت الزاوية لسعتها في الغاية حال القرب

أو لضيقها في الغاية حال البعد كالمعدوم فانعدمت الرؤية حينئذ لعدم انطباع الصورة

قال المصنف وضعفه ظاهر بناء على تركب الأجزاء التي لا تتجزأ إذ على هذا التقدير إن رأى الأجزاء كلها وجب أن يرى الجسم كما هو في الواقع سواء كان قريبا أو بعيدا

وذلك لأن الرؤية كل منها أو بعضها أصغر مما هو عليه توجب الانقسام فيما لا يتجزأ لثبوت ما هو أصغر منه ورؤيته أي رؤية كل من الأجزاء أكبر مما هو عليه بمثل أو بأزيد منه توجب أن لا يرى إلا ضعفا أو أكبر من ذلك

وهو باطل قطعا ورؤيته أكبر بأقل من مثل توجب الانقسام ورؤية بعضها على ما هو عليه بعضها أكبر بمثل توجب ترجيحا بلا مرجح

فوجب أن يرى الكل على حاله فلا تفاوت حينئذ بالصغر والكبر

فتعين أن يكون التفاوت بحسب رؤية بعض دون بعض

فتمت معارضتنا لدليلهم على وجوب الرؤية عند اجتماع شرائطها ثم نقول قوله إن لم يجد حصول الرؤية عند اجتماعها يلزم تجويز جبال شاهقة بحضرتنا لا نراها وهو سفسطة

قلنا هذا معارض أي منقوض بجملة العاديات فإن الأمور العادية تجوز نقائضها مع جزمنا بعدم وقوعها

ولا سفسطة ههنا

فكذا الحال في الجبال الشاهقة التي لا نراها

فإنا نجوز وجودها ونجزم بعدمها

وذلك لأن الجواز لا يستلزم الوقوع ولا ينافي الجزم بعدمه فمجرد تجويزها لا يكون سفسطة

(325/244)

---

ثم نقول إن كان مأخذ الجزم بعدم الجبل المذكور ما ذكرتم من وجوب الرؤية عند اجتماع

شرائطها لوجب أن لا نجزم به إلا بعد العلم بهذا

واللازم باطل لأنه يجزم به من

لا يخطر بباله هذه المسألة

ولأنه ينجر إلى أن يكون ذلك الجزم نظريا مع اتفاق الكل على كونه ضروريا

وأما ثانيا فهو أنا سلمنا الوجوب أي وجوب الرؤية في الشاهد عند حصول تلك الشرائط

ولكنا نقول لم يجب أي لماذا يجب وجوب الرؤية في الغائب عند حصولها إذ ماهية الرؤية في

الغائب غير ماهية الرؤية في الشاهد فجاز اختلافهما في اللوازم والشرائط كما يشترط في

الشاهد الشروط الستة دون الغائب

وحينئذ جاز أن تجب رؤية الشاهد عند اجتماعها دون رؤية الغائب

الثانية من تلك الشبه شبهة المقابلة

وهي أن شرط الرؤية كما علم بالضرورة من التجربة المقابلة أو ما في حكمها نحو المرئي في المرآة

وأنها أي المقابلة مستحيلة في حق الله تعالى لتنزهه عن المكان والجهة

والجواب منع الاشتراط إما مطلقا كما مر من أن الأشاعرة جوزوا رؤية ما لا يكون مقابلا ولا في حكمه بل جوزوا رؤية أعمى الصين بقة أندلس

أو في الغائب لاختلاف الرؤيتين في الحقيقة فجاز أن لا يشترط في رؤيته المقابلة المشروطة في رؤية الشاهد

وتحقيقه على ما في اللباب أن المراد من الرؤية انكشاف نسبته إلى ذاته المخصوصة كنسبة الانكشاف المسمى بالإبصار إلى سائر المبصرات

والانكشاف على وفق المكشوف في الاختصاص بجهة وحيز وفي عدمه

الثالثة منها شبهة الانطباع

وهي أن الرؤية انطباع صورة المرئي في الحاسة

وهو على الله تعالى محال إذ لا يتصور له صورة تنطبع في حاسة

والجواب مثل ما مر وهو أن نمنع كون الرؤية بالانطباع إما مطلقا أو في الغائب لاختلاف الرؤيتين

وأما الشبه السمعية فأربع لا ست كما وقع في بعض النسخ

الأولى قوله تعالى لا تدركه الأبصار والإدراك المضاف إلى

الأبصار إنما هو الرؤية

(326/244)

---

فمعنى قولك أدركته ببصري معنى رأيته لا فرق إلا في اللفظ أو هما أمران متلازمان لا يصح

نفي أحدهما مع إثبات الآخر فلا يجوز رؤيته وما أدركته ببصري ولا عكسه

فالآية نفت أن تراه الأبصار

وذلك يتناول جميع الأبصار بواسطة اللام الجنسية في مقام المبالغة في جميع الأوقات لأن

قولك فلان تدركه الأبصار لا يفيد عموم الأوقات فلا بد أن يفيده ما يقابله فلا يراه شيء من

الأبصار لا في الدنيا ولا في الآخرة لما ذكرنا

ولأنه تعالى تمدح بكونه لا يرى فإنه ذكره في أثناء المدائح وما كان من الصفات عدمه مدحا

كان وجوده نقصا يجب تنزيه الله عنه فظهر أنه يمتنع رؤيته

وإنما قلنا من الصفات احترازا عن الأفعال كالعفو والانتقام

فإن الأول فضل والثاني عدل

وكلاهما كمال

والجواب أما عن الوجه الأول في الاستدلال بالآية فمن وجوه

الأول أن الإدراك هو الرؤية على نعت الإحاطة بجوانب المرئي إذ حقيقته النيل والوصول

وإنا لمدركون أي ملحقون

وأدركت الثمرة

أي وصلت إلى حد النضج

وأدرك الغلام

أي بلغ ثم نقل إلى الرؤية المحيطة لكونها أقرب إلى تلك الحقيقة

والرؤية المتكيفة بكيفية الإحاطة أخص مطلقا من الرؤية المطلقة

فلا يلزم من نفيها أي نفي المحيطة عن الباري سبحانه وتعالى لامتناع الإحاطة نفيها أي نفي المطلقة عنه

قوله لا يصح نفي أحدهما مع إثبات الآخر

قلنا ممنوع بل يصح أن يقال رأيته وما أدركه بصري

أي لم يحط به من جوانبه

وإن لم يصح عكسه

الثاني من وجوه الجواب أن تدركه الأبصار موجبة كلية لأن موضوعها جمع محلي باللام الاستغراقية وقد دخل عليها النفي فرفعها ورفع الموجبة الكلية سالبة جزئية

وبالجملة فيحتمل قوله لا تدركه

الأبصار إسناد النفي إلى الكل بأن يلاحظ أولا دخول النفي ثم ورود العموم عليه فيكون سالبة كلية

ونفي الإسناد إلى الكل بأن يعتبر العموم أولا ثم ورود النفي عليه فيكون سالبة جزئية

*(327/244)*

---

ومع احتمال المعنى الثاني لم يبق فيه حجة لكم علينا لأن أبصار الكفار لا تدركه إجماعا

هذا ما نقوله لو ثبت أن اللام في الجمع للعموم والاستغراق وإلا عكسنا القضية وقلنا لا تدركه الأبصار سالبة مهملة في قوة الجزئية

فالمعنى لا تدركه بعض الأبصار

وتخصيص البعض بالنفي يدل بالمفهوم على الإثبات للبعض

فالآية حجة لنا لا علينا

الثالث من تلك الوجوه أنها أي الآية وإن عمت في الأشخاص باستغراق اللام فإنها لا تعم في الأزمان فإنها سالبة مطلقة لا دائمة ونحن نقول بموجبة حيث لا يرى في الدنيا

الرابع منها أن الآية تدل على أن الأبصار لا تراه ولا يلزم منه أن المبصرين لا يرونه لجواز أن

يكون ذلك النفي المذكور في الآية نفيا للرؤية بالجارحة مواجهة وانطباعا كما هو العادة فلا يلزم نفي الرؤية بالجارحة مطلقا

وأما عن الوجه الثاني أي وأما الجواب عن الوجه الثاني من وجهي الاستدلال بالآية وهو قوله تمدح الباري بأنه لا يرى فنقول هذا مدعاكم فأين الدليل عليه

وإذا ثبت أن سياق الكلام يقتضي أنه تمدح لم يكن لكم فيه دليل على امتناع رؤيته بل لنا فيه الحجة على صحة الرؤية لأنه لو امتنعت رؤيته لما حصل المدح بنفيها عنه إذ لا مدح للمعدوم بأنه لا يرى

حيث لم يكن له ذلك

وإنما المدح فيه أي في عدم الرؤية للممتنع المتعزز بحجاب الكبرياء كما في الشاهد

الثانية من الشبه السمعية أنه تعالى ما ذكر سؤال الرؤية في موضع من كتابه إلا وقد استعظمه وذلك في ثلاث آيات

الأولى وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا

ولو كانت الرؤية ممكنة لما كان طالبها عاتيا أي مجاوزا للحد مستكبرا رافعا نفسه إلى مرتبة لا يليق بها بل كان ذلك نازلا منزلة طلب سائر المعجزات

الآية الثانية وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة أي عيانا فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون

(328/244)

---

ولو أمكنت الرؤية لما عاقبهم بسؤالها في الحال

الآية الثالثة يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم سمى الله ذلك السؤال ظلما وجازاهم به في الحال بأخذ الصاعقة ولو جاز كونه مرئيا لكان سؤالهم هذا سؤالا لمعجزة زائدة ولم يكن ظلما ولا سببا للعقاب

والجواب أن الاستعظام إنما كان لطلبهم الرؤية تعنتا وعنادا

ولهذا استعظم إنزال الملائكة في الآية الأولى واستكبروا إنزال الكتاب في الآية الثالثة مع إمكانهما بلا خلاف

ولو كان لأجل الامتناع لمنعهم موسى عن ذلك فعله أي منعه حين طلبوا أمرا ممتنعا وهو أن يجعل لهم إلها إذ قال

إنكم قوم تجهلون ولم يقدم موسى على طلب الرؤية الممتنعة بقولهم وطلبهم وقد مر هذا في

المسلك النقلي من مسلكي صحة الرؤية

الثالثة من تلك الشبه قوله تعالى لموسى لن تراني

ولن للتأبيد

وإذا لم يره موسى أبدا لم يره غيره إجماعا

والجواب منع كون لن للتأبيد

بل هو للنفي المؤكد في المستقبل فقط كقوله تعالى ولن يتمنوه أي الموت أبدا

ولا شك أنهم يتمنوه في الآخرة للتخلص من العقوبة

الرابعة منها قوله تعالى وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل

رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء حصر تكليمه للبشر في الوحي إلى الرسل وتكليمه لهم من

وراء حجاب وإرساله إياهم إلى الأمم ليكلمهم على ألسنتهم

وإذ لم يره من يكلمه في وقت الكلام لم يره في غيره إجماعا وإذا لم يره هو أصلا لم يره غيره أيضا

إذ لا قائل بالفرق

والجواب إن التكليم وحيا قد يكون حال الرؤية فإن الوحي كلام يسمع بسرعة

وماذا فيه من الدليل على نفي الرؤية

تذنيب الكرامية والمجسمة وافقونا في الرؤية وخالفونا في الكيفية

فعندنا أن الرؤية تكون من غير مواجهة ولا مقابلة ولا ما في حكمها إذ يمتنع ذلك في الموجود المنزه عن الجهة والمكان

(329/244)

---

وهم يدعون الضرورة في أن ما لا يكون في جهة قدام الرائي ولا مقابلا له أو في حكم المقابل لا يرى موافقين في ذلك للمعتزلة ومخالفين لهم في أصل الرؤية

والجواب أنا نمنع الضرورة

وما ذلك أي ادعاء الضرورة منهم

ههنا إلا كدعوى الضرورة في أن كل موجود فإنه في جهة وحيز

وما ليس في حيز وجهة فإنه ليس بموجود

ولعل هذا الادعاء فرعه

أي فرع ذلك الادعاء

وقد وافقنا الحكماء والمعتزلة على أن حصر الموجود فيما ذكر حكم وهمي مما ليس بمحسوس فيكون باطلا

فكذا الضرورة التي ادعاها الكرامية والمجسمة في الرؤية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المواقف حـ 3 صـ 157 . 204 ﴾

*(330/244)*

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والأربعون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/245)

---

الجزء الخامس والأربعون بعد المائتين

من الآية ﴿ 104 ﴾ من سورة الأنعام

وحتى الآية ﴿ 109 ﴾ من نفس السورة

(4/245)

---

قوله تعالى ﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (104) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أكثر لهم من إقامة الأدلة على وحدانيته ، وختمها بهذا الدليل المحسوس الذي معناه أن كل شريك وكل ابن يدرك شريكه وأباه ، وهو متناه عن أن يدركه ، أي يحيط به أحد ، ناسب أن يعظهم ويمدح الأدلة حثاً على تدبرها ، وجعل ذلك على لسان نبيه صلى الله

عليه وسلم إشارة إلى أنه – لنور قلبه وكمال عقله وصفاء لبه وغزارة علمه وشريف أخلاقه واستقامة غرائزه وبُعد مدى همته عن أن ينسب إلى جور أو يرمى بعناد – حقيق بأن يقول بعد إقامتها من غير تلعثم تقريراً لأمر دعوته بعد تقرير المطالب العالية الإلهية : ﴿ قد جاءكم ﴾ .

ولما كانت الآيات – لقوتها وجلالتها التي أشار إليها تذكير الفعل – توجب المعرفة فتكون سبباً لانكشاف الحقائق الذي هو كالنور في جلاء المحسوسات ، قال : ﴿ بصائر ﴾ أي أنوار هي لقلوبكم بمنزلة الضياء المحسوس لعيونكم ﴿ من ربكم ﴾ أي المحسن إليكم بكل إحسان ، فلا إحسان أصلاً لغيره عندكم ، فاصعدوا عن النظر بالأبصار إلى الاعتبار بالبصائر ، ولا تهبطوا في حضيض التقليد إلى أن تصلوا إلى حد لا تفهمون معه إلا ما يحس بالأبصار بل ترقوا في أوج المعرفة إلى سماوات الاجتهاد وجرّدوا لقطاع الطريق صوارم البصائر ، فإنكم إن رضيتم بالدون لم تضروا إلا أنفسكم ، وإن نافستم في المعالي فإياها نفعتم .

ولذلك سبب عن هذا النور الباهر والسر الظاهر قوله : ﴿ فمن أبصر ﴾ أي عمل بالأدلة ﴿ فلنفسه ﴾ أي خاصة إبصاره لأنه خلصها من الضلال المؤدي إلى الهلاك ﴿ ومن عمي ﴾ أي لم يهتد بالأدلة ﴿ فعليها ﴾ أي خاصة عماه لأنه يضل فيعطب .

ولما كان المعنى أنه ليس لي ولا لغيري من إبصاره شيء ينقصه شيئاً ، ولا علي ولا غيري

شيء من عماه، كان التقدير: فإنما أنا بشير ونذير، عطف عليه قوله ﴿ وما أنا ﴾ وأشار إلى أن حق الآدمي التواضع وإسلام الجبروت والقهر لله بأداة الاستعلاء فقال:

﴿ عليكم ﴾ وأغرق في النفي بقوله: ﴿ بحفيظ ﴾ أي أقودكم قسراً إلى ما ينجيكم، وأمنعكم قهراً مما يرديكم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 691.692 ﴾

فصل

قال الفخر:

اعلم أنه تعالى لما قرر هذه البيانات الظاهرة، والدلائل القاهرة في هذه المطالب العالية الشريفة الإلهية.

عاد إلى تقرير أمر الدعوى والتبليغ والرسالة فقال: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ والبصائر جمع البصيرة، وكما أن البصر اسم للإدراك التام الكامل الحاصل بالعين التي في الرأس، فالبصيرة اسم للإدراك التام الحاصل في القلب.

*(5/245)*

---

قال تعالى: ﴿ بَلِ الإِنسانُ على نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ [القيامة: 14] أي له من نفسه معرفة تامة، وأراد بقوله: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ الآيات المتقدمة، وهي في أنفسها

ليست بصائر إلا أنها لقوتها وجلالتها توجب البصائر لمن عرفها ، ووقف على حقائقها ، فلما كانت هذه الآيات أسباباً لحصول البصائر .

سميت هذه الآيات أنفسها بالبصائر ، والمقصود من هذه الآية بيان ما يتعلق بالرسول وما لا يتعلق به .

أما القسم الأول : وهو الذي يتعلق بالرسول ، فهو الدعوة إلى الدين الحق ، وتبليغ الدلالة والبينات فيها ، وهو أنه عليه السلام ما قصر في تبليغها وإيضاحها وإزالة الشبهات عنها ، وهو المراد من قوله : ﴿ قَدْ جَاءكُمْ بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ .

وأما القسم الثاني : وهو الذي لا يتعلق بالرسول ، فإقدامهم على الإيمان وترك الكفر ، فإن هذا لا يتعلق بالرسول ، بل يتعلق باختيارهم ، ونفعه وضره عائد إليهم ، والمعنى من أبصر الحق وآمن فلنفسه أبصر ، وإياها نفع ، ومن عمي عنه فعلى نفسه عمي وإياها ضر بالعمى ﴿ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ احفظ أعمالكم وأجازيكم عليها .

إنما أنا منذر والله هو الحفيظ عليكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 110.109 ﴾

*(6/245)*

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴾

أي آيات وبراهين يُبْصَر بها ويُستدَلّ ؛ جمع بصيرة وهي الدّلالة .

قال الشاعر :

جاءوا بصائرهُم على أكتافهم . . .

وبصيرتي يَعْدُو بها عَتَدٌ وآي

يعني بالبصيرة الحجة البينة الظاهرة .

ووصف الدلالة بالمجيء لتفخيم شأنها ؛ إذ كانت بمنزلة الغائب المتوقع حضوره للنفس ؛

كما يقال : جاءت العافية وقد انصرف المرض ، وأقبل السعود وأدبر النحوس . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم ﴾

هذا وارد على لسان الرسول لقوله آخره ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ والبصيرة نور القلب

الذي يستبصر به كما أن البصر نور العين الذي به تبصر أي جاءكم من الوحي والتنبيه بما

يجوز على الله تعالى وما لا يجوز ما هو للقلوب كالبصائر قاله الزمخشري ، وقال ابن عطية :

البصيرة هي ما ينقب عن تحصيل العقل للأشياء المنظور فيها بالاعتبار فكأنه قال : قد

جاءكم في القرآن والآيات طرائق إبصار الحق والمعينة عليه والبصيرة للقلب مستعارة من إبصار العين ، وقال الحوفي : البصيرة الحجة البينة الظاهرة كما قال تعالى : ﴿ ادعوا إلى الله على بصيرة ﴾ ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ﴾ وقال الكلبي : البصائر آيات القرآن التي فيها الإيضاح والبينات والتنبيه على ما يجوز عليه وعلى ما يستحيل وإسناد المجيء إلى البصائر مجاز لتفخيم شأنها إذا كانت بمنزلة الغائب المتوقع حضوره كما يقال جاءت العافية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم ﴾

البصائر : جمع البصيرة ، وهي الدلالة التي توجب البصر بالشيء والعلم به .

والمعنى : قد جاءكم القرآن الذي فيه البيان والحجج التي تبصرون بها الهدى من الضلالة والحق من الباطل .

*(7/245)*

---

وقيل : إن الآيات والبراهين ليست في أنفسها بصائر إلا أنها لقوّتها توجب البصائر لمن عرفها ووقف على حقائقها فلما كانت هذه الآيات والحجج والبراهين أسباباً لحصول البصائر

سميت بصائر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

وقوله تعالى : ﴿ قَدْ جَاءكُمْ بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴾

استئنافٌ وارد على لسان النبي عليه الصلاة والسلام ، والبصائرُ جمعُ بصيرةٍ وهي النورُ الذي به تستبصِرُ النفسُ كما أن البصرَ نورٌ به تبصِرُ العين ، والمرادُ بها الآيةُ الواردةُ ها هنا أو جميعُ الآيةِ المنتظمةِ لها انتظاماً أولياً ، ومن لابتداء الغايةِ مجازاً سواءٌ تعلقت بجاء أو بمحذوف هو صفةٌ لبصائرُ ، والتعرضُ لعنوان الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لإظهار كمالِ اللطفِ بهم أي قد جاءكم من جهة مالككم ومبلّغِكم إلى كمالكم اللائقِ بكم من الوحي الناطقِ بالحق والصوابِ ما هو كالبصائر للقلوب أو قد جاءكم بصائرُ كائنةٌ من ربكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

*(8/245)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ قَدْ جَاءكُمْ بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴾

استئناف وارد على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم فقل مقدرة كما قاله بعض

المحققين .

والبصائر جمع بصيرة وهي للقلب كالبصر للعين ، والمراد بها الآيات الواردة ههنا أو جميع الآيات ويدخل ما ذكر دخولاً أولياً ، و﴿ مِنْ ﴾ لابتداء الغاية مجازاً وهي متعلقة بجاء أو بمحذوف وقع صفة لبصائر ، والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لإظهار كمال اللطف بهم أي قد جاءكم من جهة مالككم ومبلغكم إلى كمالكم اللائق بكم من الوحي الناطق بالحق والصواب ما هو كالبصائر للقلوب أو قد جاءكم بصائر كائنة من ربكم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

هذا انتقال من محاجّة المشركين ، وإثبات الوحدانيّة لله بالربوبيّة من قوله : ﴿ إنّ الله فالق الحبّ والنّوى إلى قوله وهو اللّطيف الخبير ﴾ [ الأنعام : 95 103 ] .

فاستؤنف الكلام بتوجيه خطابٍ للنّبيء عليه الصّلاة والسّلام مقولٍ لفعلِ أمر بالقول في أوّل الجملة ، حُذف على الشّائع من حذف القول للقرينة في قوله : ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ [ الأنعام : 104 ] .

ومناسبة وقوع هذا الاستئناف عقب الكلام المسوق إليهم من الله تعالى أنّه كالتّوقيف والشّرح والفذلكة للكلام السّابق فيقدر : قُل يا محمّد قد جاءكم بصائر .

وبصائر جمع بصيرة ، والبصيرة : العقل الّذي تظهر به المعاني والحقائق ، كما أنّ البصر إدراك العين الّذي تتجلّى به الأجسام ، وأطلقت البصائر على ما هو سبب فيها .

وإسناد المجيء إلى البصائر استعارة للحصول في عقولهم ، شُبّه بمجيء شيء كان غائباً ، تنويهاً بشأن ما حصل عندهم بأنّه كالشّيء الغائب المتوقَّع مجيئه كقوله تعالى : ﴿ جاء الحقّ وزهق الباطل ﴾ [ الإسراء : 81 ] .

وخلو فعل "جاء" عن علامة التّأنيث مع أنّ فاعله جمعُ مؤنّث لأنّ الفعل المسند إلى جمع تكسير مطلقاً أو جمع مؤنّث يجوز اقترانه بتاء التّأنيث وخلوُّه عنها .

*(9/245)*

---

و ( من ) ابتدائيّة تتعلّق ب"جاء" أو صفة ل ﴿ بصائر ﴾ ، وقد جعل خطاب الله بها بمنزلة ابتداء السّير من جَانبه تعالى ، وهو منزّه عن المكان والزّمان ، فالابتداء مجاز لغوي ، أو هو مجاز بالحذف بتقدير : مِن إرادةِ ربّكم .

والمقصود التّنويه بهذه التّعاليم والذّكريات الّتي بها البصائر ، والحثّ على العمل بها ، لأنّها مسداة إليهم ممّن لا يقع في هديه خلل ولا خطأ ، مع ما في ذكر الربّ وإضافته من تربية المهابة وتقوية داعي العمل بهذه البصائر .

ولذلك فرّع عليه قوله : ﴿ فمن أبصر فلنفسه ﴾ ، أي فلا عذر لكم في الاستمرار على الضّلال بعد هذه البصائر ، ولا فائدة لغيركم فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل في أحكام هذه الآية

قال الفخر :

وهي أربعة ذكرها القاضي : فالأول : الغرض بهذه البصائر أن ينتفع بها اختياراً استحق بها الثواب لا أن يحمل عليها أو يلجأ إليها ، لأن ذلك يبطل هذا الغرض .

والثاني : أنه تعالى إنما دلنا وبين لنا منافع ، وأغراض المنافع تعود إلينا لا لمنافع تعود إلى الله تعالى .

والثالث : أن المرء بعد وله عن النظر والتدبر يضر بنفسه ، ولم يؤت إلا من قبله لا من قبل ربه .

والرابع : أنه متمكن من الأمرين ، فلذلك قال : ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾

قال : وفيه إبطال قول المجبرة في المخلوق ، وفي أنه تعالى يكلف بلا قدرة .

واعلم أنه متى شرعت المعتزلة في الحكمة والفلسفة والأمر والنهي ، فلا طريق فيه إلا معارضته بسؤال الداعي فإنه يهدم كل ما يذكرونه .

والمراد من الإبصار ههنا العلم ، ومن العمي الجهل ، ونظيره قوله تعال : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى

الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فِى الصدور ﴾ [ الحج : 46 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 110 ﴾ . بتصرف يسير .

فائدة

قال الفخر :

قال المفسرون قوله : ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ﴾ معناه لا آخذكم بالإيمان أخذ الحفيظ عليكم والوكيل .

قالوا : وهذا إنما كان قبل الأمر بالقتال ، فلما أمر بالقتال صار حفيظاً عليهم ، ومنهم من يقول آية القتال ناسخة لهذه الآية ، وهو بعيد فكأن هؤلاء المفسرين مشغوفون بتكثير النسخ من غير حاجة إليه ، والحق ما تقرره أصحاب أصول الفقه إن الأصل عدم النسخ ، فوجب السعي في تقليله بقدر الإمكان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 110 ﴾

*(10/245)*

---

وقال القرطبى :

﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ﴾

الإبصار : هو الإدراك بحاسة البصر ؛ أي فمن استدل وتعرّف فنفسه نفع .

﴿ وَمَنْ عَمِيَ ﴾ لم يستدل ، فصار بمنزلة الأعمى ؛ فعلى نفسه يعود ضرر عماه .

﴿ وَمَا أَنَا۠ عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ أي لم أومر بحفظكم على أن تهلكوا أنفسكم .

وقيل : أي لا أحفظكم من عذاب الله .

وقيل : "بِحَفِيظٍ" برقيب ؛ أحصِي عليكم أعمالكم ، وإنما أنا رسول أبلّغكم رسالات ربّي ، وهو الحفيظ عليكم لا يخفى عليه شيء من أفعالكم .

قال الزجاج : نزل هذا قبل فرض القتال ، ثم أمر أن يمنعهم بالسيف من عبادة الأوثان .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ فمن أبصر ﴾ يعني فمن عرف الآيات واهتدى بها إلى الحق ﴿ فلنفسه ﴾ يعني فلنفسه أبصر ولها عمل لأنه يعود نفع ذلك عليه ﴿ ومن عمي ﴾ يعني ومن جهل ولم يعرف الآيات ولم يستدل بها إلى الطريق ﴿ فعليها ﴾ يعني فعلى نفسه عمى ولها ضر وكان وبال ذلك العمى عليه لأن الله تعالى غني عن خلقه ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ يعني وما أنا عليكم برقيب أحصي عليكم أعمالكم وأفعالكم إنما أنا رسول من ربكم إليكم أبلغكم ما أرسلت به إليكم والله هو الحفيظ عليكم لا يخفى عليه شيء من أعمالكم وأحوالكم .

وقيل معناه لا أقدر أن أدفع عنكم ما يريده الله بكم وقيل معناه لست آخذكم بالإيمان أخذ

الحفيظ الوكيل وهذا كان قبل الأمر بقتال المشركين فعلى هذا القول تكون الآية منسوخة بآيات السيف وعلى القول الأول ليست منسوخة والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ فمن أبصر فلنفسه ﴾ أي فالإبصار لنفسه أي نفعه وثمرته .

*(11/245)*

---

﴿ ومن عمي فعليها ﴾ أي فالعمى عليها أي فجدوى العمى عائد على نفسه والإبصار والعمى كنايتان عن الهدى والضلال ، والمعنى أن ثمرة الهدى والضلال إنما هي للمهتدي والضال لأنه تعالى غني عن خلقه ، وهي من الكنايات الحسنة لما ذكر البصائر أعقبها تعالى بالإبصار والعمى وهذه مطابقة ، وقدره الزمخشري ﴿ فمن أبصر ﴾ الحق وآمن ﴿ فلنفسه ﴾ أبصر وإيّاها نفع ﴿ ومن عمي ﴾ عنه فعلى نفسه عمي والذي قدرناه من المصدر أولى وهو فالإبصار والعمى لوجهين : أحدهما : أن المحذوف يكون مفرداً لا جملة ويكون الجار والمجرور عمدة لا فضلة ، وفي تقديره هو المحذوف جملة والجار والمجرور فضلة ، والثاني : وهو أقوى وذلك أنه لو كان التقدير فعلاً لم تدخل الفاء سواء كانت من شرطاً أم

موصولة مشبهة بالشرط لأن الفعل الماضي إذا لم يكن دعاء ولا جامداً ووقع جواب شرط أو خبر مبتدأ مشبه باسم الشرط لم تدخل الفاء في جواب الشرط ولا في خبر المبتدأ ، لو قلت : من جاءني فأكرمته لم يجز بخلاف تقديرنا فإنه لا بد فيه من الفاء ولا يجوز حذفها إلا في الشعر وقال أبو عبد الله الرازي : البصيرة اسم الإدراك التام الحاصل في القلب والآيات المتقدمة ليست في أنفسها بصائر إلا أنها لقوتها وجلائها توجب البصائر لمن عرفها ، فلما كانت أسباباً لحصول البصائر سميت بصائر .

﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ أي برقيب أحصر أعمالكم أو بوكيل آخذكم بالإيمان أو بحافظكم من عذاب الله أو برب أجازيكم أو بشاهد أقوال رابعها للحسن وخامسها للزجاج ، وقال الزمخشري : ﴿ بحفيظ ﴾ أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها إنما أنا منذر والله هو الحفيظ عليكم .

انتهى ، وهو بسط قول الحسن ، وقال ابن عطية : كان قبل ظهور الإسلام ثم بعد ذلك كان حفيظاً على العالم آخذاً لهم بالإسلام والسيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(12/245)

وقال أبو السعود :

﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ ﴾ أي الحقَّ بتلك البصائرِ وآمن به ﴿ فَلِنَفْسِهِ ﴾ أي فلنفسه أبصر ، أو فإبصارُه لنفسه لأن نفعَه مخصوصٌ بها ﴿ وَمَنْ عَمِىَ ﴾ أي ومن لم يبصر الحقَّ بعد ما ظهر له بتلك البصائرِ ظهوراً بيّناً وضلَّ عنه ، وإنما عبّر عنه بالعمى تقبيحاً له وتنفيراً عنه ﴿ فَعَلَيْهَا ﴾ أي فعليها عمِي أو فعَماهُ عليها أو وبالُ عملِه ﴿ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ وإنما أنا منذر ، والله هو الذي يحفظ أعمالَكم ويجازيكم عليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

*(13/245)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ ﴾ أي الحق بتلك البصائر وآمن به ﴿ فَلِنَفْسِهِ ﴾ أي فلنفسه أبصر كما نقل عن الكلبي وتبعه الزمخشري أو فإبصاره لنفسه كما اختاره أبو حيان لما ستعلم قريباً إن شاء الله تعالى .

والمراد على القولين أن نفع ذلك يعود إليه .

﴿ وَمَنْ عَمِىَ ﴾ أي ومن لم يبصر الحق بعد ما ظهر له بتلك البصائر ظهوراً بيناً وضل عنه

، وإنما عبر عنه بالعمى تنفيراً عنه ﴿ فَعَلَيْهَا ﴾ عمى أو فعماه عليها أي وبال ذلك عليها ، وهما قولان لمن تقدم .

وذكر أبو حيان "أن تقدير المصدر أولى لوجهين : أحدهما : أن المحذوف يكون مفرداً لا جملة ويكون الجار والمجرور عمدة لا فضلة .

والثاني : أنه لو كان المقدر فعلا لم تدخل الفاء سواء كانت "من" شرطية أو موصولة لامتناعها في الماضي" .

وتعقب بأن تقدير الفعل يترجح لتقدم فعل ملفوظ به وكان أقوى في الدلالة ، وأيضاً أن في تقديره المعمول المؤذن بالاختصاص ، وأيضاً ما ذكر في الوجه الثاني غير لازم لأنه لم يقدر الفعل موليا لفاء الجواب بل قدر معمول الفعل الماضي مقدماً ولا بد فيه من الفاء فلو قلت : من أكرم زيداً فلنفسه أكرمه لم يكن بد من الفاء .

*(14/245)*

---

نعم لم يعهد تعدية عمي بعلى وهو لازم التقدير السابق في الجملة الثانية وكأنه لذلك عدل عنه بعضهم بعد أن وافق في الأول إلى قوله : فعليها وباله ﴿ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ وإنما أنا منذر والله تعالى هو الذي يحفظ أعمالكم ويجازيكم عليها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح

المعانى حـ 7 صـ ﴿

وقال ابن عاشور :

"فمن أبصر فلنفسه أبصر" ، أي من عَلِم الحقّ فقد عَلِم علماً ينفع نفسه ، ﴿ ومن عمي ﴾ أي ضلّ عن الحقّ فقد ضلّ ضَلالاً وزره على نفسه .

فاستعير الإبصار في قوله : ﴿ أبصر ﴾ للعلم بالحقّ والعملِ به لأنّ المهتدي بهذا الهدي الواردِ من الله بمنزلة الّذي نُوّر له الطّريق بالبدر أو غيره ، فأبصره وسار فيه ، وبهذا الاعتبار يجوز أن يكون ﴿ أبصر ﴾ تمثيلاً موجزاً ضمّن فيه تشبيه هيئة المرشَد إلى الحقّ إذا عمِل بها أرشِد به ، بهيئة المبصر إذا انتفع ببصره .

واستعير العمى في قوله : ﴿ عَمِيَ ﴾ للمكابرة والاستمرار على الضّلال بعد حصول ما شأنه أن يُقلعه لأنّ المكابر بعد ذلك كالأعمى لا ينتفع بإنارة طريق ولا بهَدْي هاد خِرّيتٍ .

ويجوز اعتبار التّمثيليّة فيه أيضاً كاعتبارها في ضدّه السابق .

*(15/245)*

---

واستعمل اللاّم في الأوّل استعارة للنّفع لدلالتها على المِلك وإنّما يُملك الشّيءُ النّافعُ المدّخر للنّوائب ، واستعيرت ( على ) في الثّاني للضرّ والتّبعة لأنّ الشّيء الضّارّ ثقيل على صاحبه

يكلّفه تَعباً وهو كالحِمل الموضوع على ظهره ، وهذا معروف في الكلام البليغ ، قال تعالى : ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ﴾ [ فصلت : 46 ] ، وقال ﴿ من اهتدى فإنّما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فإنّما يضلّ عليها ﴾ [ الإسراء : 15 ] ، وقال ﴿ وليَحْمِلُنّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ ، ولأجل ذلك سمّي الإثم وزراً كما تقدّم في قوله تعالى : ﴿ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴾ [ الأنعام : 31 ] ، وقد جاء اللاّم في موضع ( على ) في بعض الآيات ، كقوله تعالى : ﴿ إنْ أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسَأتم فلَهَا ﴾ [ الإسراء : 7 ] .

وفي الآية محسّن جناس الاشتقاق بين "البصائر" و"أبصَر" ، وملاحظة مناسبة في الإبصار والبصائر .

وفيها محسّن المطابقة بين قوله : ﴿ أبصر ﴾ و ﴿ عمي ﴾ ، وبين ( اللاّم ) و( عَلى ) .

ويتعلّق قوله : ﴿ لنفسه ﴾ بمحذوف دلّ عليه فعل الشّرط .

وتقديره : فمن أبصر فلنفسه أبصر .

واقترن الجواب بالفاء نظراً لصدره إذ كان اسماً مجروراً وهو غير صالح لأن يلي أداةَ الشّرط .

وإنّما نسج نظم الآية على هذا النّسْج للإيذان بأنّ ﴿ لنفسه ﴾ مقدّم في التّقدير على متعلّقه المحذوف .

---

والتّقدير : فلنفسه أبصر ، ولولا قصد الإيذان بهذا التّقديم لقال : فمن أبصر أبصر لنفسه ، كما قال : ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ﴾ [ الإسراء : 7 ] والمقام يقتضي تقديم المعمول هنا ليفيد القصر ، أي فلنفسه أبصر لا لفائدة غيره ، لأنّهم كانوا يحسبون أنّهم يغيظون النّبيء صلى الله عليه وسلم بإعراضهم عن دعوته إيّاهم إلى الهدى ، وقرينة ذلك أن هذا الكلام مقول من النبي صلى الله عليه وسلم وقد أوما إلى هذا صاحب "الكشاف" ، بخلاف آية ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ﴾ [ الإسراء : 7 ] ، فإنّها حكت كلاماً خُوطب به بنو إسرائيل من جانب الله تعالى وهم لا يتوهّمون أنّ إحسانهم ينفع الله أو إساءتهم تضرّ الله .

والكلام على قوله : ﴿ ومن عمي فعليها ﴾ نظير الكلام على قوله : ﴿ فمن أبصر فلنفسه ﴾ .

وعُدّي فعل ﴿ عَمِيَ ﴾ بحرف ( على ) لأنّ العمى لمّا كان مجازاً كان ضُرّاً يقع على صاحبه .

وجملة : ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ تكميل لما تضمّنه قوله : ﴿ فمن أبصر فلنفسه ومن

عمِي فعليها ﴾ ، أي فلا ينالني من ذلك شيء فلا يرجع لي نفعكم ولا يعود عليّ ضرّكم ولا أنا وكيل على نفعكم وتجنّب ضرّكم فلا تحسبُوا أنّكم حتّى تمكرون بي بالإعراض عن الهدى والاستمرار في الضّلال .

والحفيظ : الحارس ومن يُجعل إليه نظر غيره وحفظُه ، وهو بمنزلة الوكيل إلاّ أنّ الوكيل يكون مجعولاً له الحفظ من جانب الشيء المحفوظ ، والحفيظ أعمّ لأنّه يكون من جانبه ومن جانب مَواليه .

وهذا قريب من معنى قوله ﴿ وكذّب به قومك وهو الحقّ قل لستُ عليكم بوكيل ﴾ [ الأنعام : 66 ] .

والإتيان بالجملة الاسميّة هنا دقيق ، لأنّ الحفيظ وصف لا يُفيد غيرُه مُفادَه ، فلا يقوم مقامَه فعل حَفِظ ، فالحفيظ صفة مشبّهة يقدّر لها فِعْل منقول إلى فَعُل بضمّ العين لم يُنطق به مثل الرّحيم .

ولا يفيد تقديم المسند إليه في الجملة الاسميّة اختصاصاً خلافاً لما يوهمه ظاهر تفسير الزمخشري وإن كان العلامة التّفتزاني مال إليه ، وسكت عنه السيّد الجرجاني وهو وقوف مع الظّاهر .

وتقديم ﴿ عليكم ﴾ على ﴿ بحفيظ ﴾ للاهتمام ولرعاية الفاصلة . انتهى انتهى . اهـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

وبصائر جمع بصيرة ، والبصيرة للمعنويات والإشراقات التي تأبى في القلوب كالبصر بالنسبة للعين ، و" الكون " يعطيكم أدلة الإبصار ، والقرآن يعطيكم أدلة البصائر ، فكما أن الله هدى الإنسان فحذره ونهاه عن المعاصي ومنحه النور الذي يجْلي له الأشياء فيسير على هدى فلا يرتطم ولا يصطدم ، كذلك جعل المعنويات نوراً ، والنور الأول في البصر يأخذه الكافر والمؤمن ، وكلنا شركاء فيه مثله مثل الرزق ، لكن النور الثاني في البصائر يأخذه المؤمن فقط ، ولذلك يقول ربنا : ﴿ لِّيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظلمات إِلَى النور ﴾ [ الحديد : 9 ]

.

وهو نور الهداية في بصائر المعنويات ، فيوضح : أنا خلقتكم خلقاً ووضعت لكم قوانين لصيانتكم . فقانون الصيانة في ماديات الدنيا للمؤمن والكافر ، وقانون الصيانة في معنويات الحياة خاصة للمؤمن .

وهو القائل : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ ﴾ [ النور : 40 ] .

ونعلم أن البصائر من المعنويات والمجيء للأمر الحسّي ؛ كقولنا : " جاء زيد " أو " جاء عمرو " ولك أن تتصور البصائر وهي تأتي ، قال الحق : ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ مِّنَ اللهِ نُورٌ ﴾ [ المائدة : 15 ] .

إنه سبحانه قد أعطانا نورا صحيحا واضحا وهو يأتي إلينا بمشيئته .

*(18/245)*

---

﴿ قَدْ جَآءَكُمْ بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ أي أنها بلغت من تكوينها أنها أصبحت كأنها أشياء محسّة تجيء ، ولا يصح أن تقولوا إنها لم تصلكم لأنها تجيء من الرب الذي خلقنا بقدرته وأمدنا في كل شيء بقيّوميته ، ومن لوازم الربوبية أن يعطي ما يهدي ، وقد حكم الله أن البصائر جاءتنا ، وحكم بأن رسوله قد بلّغ ؛ فسبحانه أعطى لرسوله ، والرسول ناولنا ، فالحق قد شرع ورسوله قد بلغ وبقي أن تؤدوا ولا عذر لكم من المشرع الأعلى الذي خلق وهو الرب . ولا من المبلغ المعصوم وهو الرسول .

ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ [ الأنعام : 104 ]

.

ولله المثل الأعلى ، نجد الولد يدخل البيت فيجد أمه ويقول لها : ماذا أعددت لنا من طعام ؟ فتقول : لا شيء . فيقول الابن : لقد بعث أبي اللحم والأرز والخضار ، فكأنه يقول لها : أين عملك يا أمي ؟

وربنا سبحانه يوضح : أنا خلقتكم ، وعملت لكم قانون صيانة ، وأرسلت لكم رسولاً ولا تعرفون عنه أنه صادق في بلاغه ، وأدى هذه الرسالة ، لذلك فالباقي من المسألة عندكم أنتم ، وكل واحد عليه أن يؤدي ما عليه من عمل ، إن أبصر فلنفسه ، وإن عمى فعليها .

فإياكم أن تفهموا أني كلفتكم بما يعود عليَّ في ذاتي ، ولا ما يزيد من سلطاني شيئا ؛ لأن خيرها لكم أنتم ، ولا آمن على التشريع ممن لا يفيد من التشريع ؛ لأن من يستفيد منه قدر يشرّع لمصلحته ، أما الحق فهو مأمون على التشريع لأنه غير منتفع به .

يقول سبحانه : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ [ الأنعام : 104 ] .

*(19/245)*

---

ولأن الرسول عليه البلاغ فقط والحق قد حفظه وعصمه من الكفر وهو يبلغكم المنهج ، وقد خلق الله كل إنسان مختارا وهو بهذا الاختيار يُدخل نفسه في الحكم أو يخرج نفسه من

الحكم ، وسبحانه لم يبعث الرسول جباراً بل بعثه رحيماً ؛ لذلك يقول الله في حق رسوله صلى الله عليه وسلم : " وما أنا عليكم بحفيظ " والحفيظ من أسماء الله ، وهو الحفيظ لأنه شرَّع ليحفظ الخلق ويريد أن يجعلهم على مثال حسن واعٍ . والرسول هو المبلغ والحق يقول : ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾ [ ق : 45 ] .

إذن فكل واحد حر يدخل نفسه في الحكم أو يخرج نفسه من الحكم . وقد حارب الرسول ليحمي الاختيار بدليل أن البلاد التي فتحها الإسلام تجد بعضاً من سكانها قد ظلوا على كفرهم ولم يرغمهم أحد على الإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(20/245)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾

قال ابن عادل :

وإنما ذُكر الفِعْلُ لشيئين :

أحدهما : الفصل بالمفعول .

والثاني : كون التأنيث مَجَازِياً .

والبَصَائِرُ : جمع "بَصِيرَة" وهي الدلالة التي توجب إبصار النفوس للشيء ومنه قيل للدَّمِ الدال على القتيل "مبصرة" والبصيرة مُخْتَصَّةٌ بالقلب [كالبَصَرِ للعين ، هذا قول بعضهم .

وقال الراغب : "ويقال لقوة القلب المُدْرِكة : "بَصِيرَةٌ وبَصَرٌ" ] قال تبارك وتعالى : ﴿ بَلِ الإنسان على نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ [ القيامة : 14 ] وقال تعالى : ﴿ مَا زَاغَ البصر وَمَا طغى ﴾ [ النجم : 17 ] وتقدَّم تحقيق هذا في أوائل سوة "البقرة" .

وأراد بالبَصَائِرِ الآيات المتقدمة ، وهي في نَفْسِهَا لَيْسَتْ بَصَائِرَ إلا أنها لقوتها وجلائها تُوجِبُ البصائِرَ لمن عرفها ، ووقَفَ على حَقَائِقهَا ، فلما كانت سَبَباً لحصول البَصَائِرِ سميت بالبَصَائِرِ .

قوله : "مِنْ رَبِّكُمْ" يجوز أن يتعلَّق بالفعل قبله ، وأن يتعَّق بمحذوف على أنه صِفَةٌ لما قبله ، أي : بصائر كائنة من ربكم و" من " في الوجهين لابتداء الغاية مَجَازاً .

*(21/245)*

---

قوله : "فَمَنْ أَبْصَرَ" يجوز أن تكون شَرطيَّةً ، وأن تكون مَوصُولةً فالفاء جواب الشَّرطِ على الأوَّل ، ومزِيدَةٌ في الخبر لشبه المَصُولِ باسم الشرط على الثَّانِي ، ولا بُدَّ قبل لام الجرّ من مَحْذُوفٍ يَصِحُّ به الكلام ، والتقدير : فالإبصَارُ لِنَفْسِهِ ، ومَنْ عَمِيَ فالعَمَى عليها ،

فالإبصار والعَمَى مُبْتَدآنِ ، والجارُّ بعدهما هو الخَبَرُ بعدهما هو الخَبَرُ ، والفاء دَاخِلَةٌ على هذه الجملة الواقعة جواباً أو خبراً ، وإنما حُذِف مُبْتَدؤها للعلم به ، وقدَّر الزجاج قريباً من هذا فقال : " فلنفسه نَفْعُ ذلك ومن عَمِيَ فعليها ضَرَرُ ذلك " .

وقال الزمخشري : " فَمَنْ أبصر الحق وآمن فلنفسه أبصر وإياها نفع ، ومن عمي فعليها ، أي : فعلى نفسه عَمِي ، وإياها ضر " .

قال أبو حيَّان : وما قدَّرناه من المصدر أوْلَى ، وهو فالإبصار والعمى لوجهين :

أحدهما : أن المَحْذُوفَ يكون مفرداً لا جملة ، والجار يكون عُمْدَةً لا فَضْلَةً ، وفي تقديره هو المحذوف جملة ، والجار والمرجور فَضْلَة .

والثاني : وهو أقوى ، وذلك أنه لو كان التقدير فِعْلاً لم تدخل الفاء سواء كانت شَرطيَّةً أم موصولة مشبهة بالشرط ؛ لأن الفعل الماضي إذا لم يكن دُعَاءً ولا جَامِداً ، ووقع جوابُ الشَّرطِ أو خبر مبتدأ مُشَبَّهٌ بالشرط لم تدخل الفاءُ في جواب الشرط ، ولا في خبر المبتدأ لو قلت : " من جاءني فأكرمته " لم يَجُزْ بخلاف تقديرنا ، فإنه لا بُدَّ فيه من الفاء ، ولا يجوز حذفها إلا في الشعر .

(22/245)

قال شهاب الدين : وهذا التقدير الذي قدَّرَهُ الزمخشري سبقه إليه الكَلْبِيُّ ، فإنه قال : فَمَنْ أبصر صَدَّق وآمن بمحمد عليه الصلاة والسلام فنلفسه عمل ومَنْ عمي فلم يُصَدِّقْ فعلى نفسه جَنَى العذاب " وقوله : إن الفاء لا تَدْخُلُ فيما ذُكِرَ قد يُنازعُ فيه ، وإذا كانوا فيما يَصْلُحُ أن يكون جواباً صريحاً ، ويظهر فيه أثَرُ الجَازِمِ كالمُضارعِ يجوز فيه دُخُولُ الفاء نحو : ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ ﴾ [ المائدة : 95 ] فالماضي بدخولها أوْلَى وأحْرَى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 352.354 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (104) ﴾

أوضحَ البيانَ وألاحَ الدليلَ ، وأزاحَ العِلَلَ وأنارَ السبيلَ ، ولكن قيل :

وما انتفاعُ أخي الدنيا بمقلته . . . إذا استوت عنده الأنوارُ والظُّلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 493 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (105) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان التقدير التفاتاً إلى مقام العظمة إعلاماً بأن القضاء كله بيده لئلا يظن نقص في نفوذ الكلمة : فانظروا ما صرفنا لكم في هذه السورة من الآيات وأوضحنا بها من شريف الدلالات ، لقد أتينا فيها بعجائب التصاريف وكشفنا عن غرائب التعاريف ، عطف عليه قوله : ﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل هذا التصريف العظيم ﴿ نصرف ﴾ أي ننقل جميع ﴿ الآيات ﴾ من حال إلى حال في المعاني المتنوعة سالكين من وجوه البراهين ما يفوت القوى ويعجز القُدَر لتحير ألباب المارقين وتنطلس أفكار المانعين ، علماً منهم بأنهم عجزة عن الإتيان بما يدانيها فتلزمهم الحجة ﴿ وليقولوا ﴾ اعتداء لا عن ظهور عجزهم " دارست " أي غيرك من أهل الكتاب أو غيرهم في هذا حتى انتظم لك هذا الانتظام وتم لك هذا التمام ، فيأتوا ببهتان بيّن عواره ظاهرة أسراره ، مهتوكة أستاره ، فيكونوا كأنهم قالوا : إنك أتيت به عن علم ونحن جاهلون لا نعلم شيئاً ، فيعلم كل موفق أنهم ما رضوه لأنفسهم مع ادعاء الصدق والمنافسة في البعد عن أوصاف الكذب إلا لفرط الحيرة وتناهي الدهشة وإعواز القادح ، والحاصل أنه أتى به على هذا المنهاج الغريب والأسلوب العجيب ليعمى ناس عن بينة ويبصر آخرون ، وهم المرادون بقوله : ﴿ ولنبينه ﴾ أي القرآن لأنه

المراد بالآيات المسموعة ﴿ لقوم يعلمون ﴾ أي أن المراد من الإبلاغ في البيان أن يزداد الجهلة به جهلاً ، ويهتدي من كان للعلم أهلاً ، فلا يقولون : " دارست " بل يقولون : إنه من عند الله ، فالآية من الاحتباك : إثبات ادعاء المدارسة أولاً يدل على نفيها ثانياً ، وإثبات العلم ثانياً يدل على عدمه أولاً ، وهي من معنى ﴿ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً ﴾ [ البقرة : 26 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 692 . 693 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما تمم الكلام في الإلهيات إلى هذا الموضع شرع من هذا الموضع في إثبات النبوات فبدأ تعالى بحكاية شبهات المنكرين لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

فالشبهة الأولى : قولهم يا محمد إن هذا القرآن الذي جئتنا به كلام تستفيده من مدارسة العلماء ومباحثة الفضلاء ، وتنظمه من عند نفسك ، ثم تقرأه علينا ، وتزعم أنه وحي نزل عليك من الله تعالى ، ثم أنه تعالى أجاب عنه بالوجوه الكثيرة ، فهذا تقرير النظم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 110 . 111 ﴾

فائدة

قال الفخر :

اعلم أن المراد من قوله : ﴿ وكذلك نُصَرّفُ الأيات ﴾ يعني أنه تعالى يأتي بها متواترة حالاً بعد حال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 111 ﴾

(24/245)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وكذلك نُصَرِّفُ الآيات ﴾ الكاف في كذلك في موضع نصب ؛ أي نصرف الآيات مثل ما تلونا عليك .

أي كما صرفنا الآيات في الوعد والوعيد والوعظ والتّنبيه في هذه السورة نصرف في غيرها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وكذلك نصرف الآيات ﴾ أي ومثل ما بينا تلك الآيات التي هي بصائر وصرفناها نصرف الآيات ونرددها على وجوه كثيرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وكذلك نُصَرّفُ الآيات ﴾ أي مثلَ ذلك التصريفِ البديعِ نصرِّف الآياتِ الدالةَ على

المعاني الرائقةِ الكاشفةِ عن الحقائق الفائقةِ لا تصريفاً أدنى منه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(25/245)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وكذلك ﴾ أي مثل ذلك التصريف البديع ﴿ نُصَرِّفُ الآيات ﴾ الدالة على المعاني الرائقة الكاشفة عن الحقائق الفائقة لا تصريفاً أدنى منه .

وقيل : المراد كما صرفنا الآيات قبل نصرف هذه الآيات ، وقد تقدم لك ما هو الحري بالقبول .

وأصل التصريف كما قال علي بن عيسى إجراء المعنى الدائر في المعاني المتعاقبة من الصرف وهو نقل الشيء من حال إلى حال .

وقال الراغب : "التصريف كالصرف إلا في التكثير وأكثر ما يقال في صرف الشيء من حال إلى حال وأمر إلى أمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾ جملة معترضة تذييلاً لما قَبلها .

والواو اعتراضية فهو متّصل بجملة : ﴿ قد جاءكم بصائر من ربّكم ﴾ [ الأنعام : 104 ]

الّتي هي من خطاب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بتقدير "قل" كما تقدّم ،

والإشارة بقوله : ﴿ وكذلك ﴾ إلى التّصريف المأخوذ من قوله : ﴿ نُصرّف الآيات ﴾ .

أي ومثلَ ذلك التّصريف نُصرّف الآيات .

وتقدّم نظيره غير مرّة وأوّلها قوله : ﴿ وكذلك جعلناكم أمّة وسَطا ﴾ في سورة [ البقرة : 143 ] .

والقول في تصريف الآيات تقدّم في قوله تعالى : ﴿ انظر كيف نصرّف الآيات ﴾ في هذه السّورة [ 46 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

*(26/245)*

---

قوله تعالى ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾

فصل

قال الفخر :

فيه مباحث :

البحث الأول : حكى الواحدي : في قوله درس الكتاب قولين : الأول : قال الأصمعي

أصله من قولهم : درس الطعام إذا داسه ، يدرسه دراساً والدراس الدياس بلغة أهل الشام قال : ودرس الكلام من هذا أي يدرسه فيخف على لسانه .

والثاني : قال أبو الهيثم درست الكتاب أي ذللته بكثرة القراءة حتى خف حفظه ، من قولهم درست الثوب أدرسه درساً فهو مدروس ودريس ، أي أخلقته ، ومنه قيل للثوب الخلق دريس لأنه قد لان ، والدراسة الرياضة ، ومنه درست السورة حتى حفظتها ، ثم قال الواحدي : وهذا القول قريب مما قاله الأصمعي بل هو نفسه لأن المعنى يعود فيه إلى الدليل والتليين .

البحث الثاني : قرأ ابن كثير وأبو عمرو دارست بالألف ونصب التاء ، وهو قراءة ابن عباس ومجاهد وتفسيرها قرأت على اليهود وقرؤا عليك ، وجرت بينك وبينهم مدارسة ومذاكرة ، ويقوي هذه القراءة قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ إِنْ هذا إِلاَّ إِفْكٌ افتراه وَأَعَانَهُ عليه قوم آخرون ﴾ [ الفرقان : 4 ] وقرأ ابن عامر ﴿ دَرَسْتَ ﴾ أي هذه الأخبار التي تلوتها علينا قديمة قد درست وانمحت ، ومضت من الدرس الذي هو تعفي الأثر وإمحاء الرسم ، قال الأزهري من قرأ ﴿ دَرَسْتَ ﴾ فمعناه تقادمت أي هذا الذي تتلوه علينا قد تقادم وتطاول وهو من قولهم درس الأثر يدرس دروساً .

واعلم أن صاحب "الكشاف" روى ههنا قراآت أخرى : فإحداها : ﴿ دَرَسْتَ ﴾ بضم الراء مبالغة في ﴿ دَرَسْتَ ﴾ أي اشتد دروسها .

وثانيها : ﴿ دَرَسْتَ ﴾ على البناء للمفعول بمعنى قدمت وعفت .

وثالثها : ﴿ دارست ﴾ وفسروها بدارست اليهود محمداً .

ورابعها : ﴿ درس ﴾ أي درس محمد .

وخامسها : ﴿ دارسات ﴾ على معنى هي دارسات أي قديمات أو ذات درس كعيشة راضية .

البحث الثالث : "الواو" في قوله : ﴿ وَلِيَقُولُواْ ﴾ عطف على مضمر والتقدير وكذلك نصرف الآيات لنلزمهم الحجة وليقولوا فحذف المعطوف عليه لوضوح معناه .

(27/245)

---

البحث الرابع : اعلم أنه تعالى قال : ﴿ وكذلك نُصَرّفُ الأيات ﴾ ثم ذكر الوجه الذي لأجله صرف هذه الآيات وهو أمران : أحدهما قوله تعالى : ﴿ وَلِيَقُولُواْ ﴾ والثاني قوله : ﴿ دَرَسْتَ وَلِنُبَيّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أما هذا الوجه الثاني فلا إشكال فيه لأنه تعالى بين أن الحكمة في هذا التصريف أن يظهر منه البيان والفهم والعلم .

وإنما الكلام في الوجه الأول وهو قوله : ﴿ وَلِيَقُولُواْ دارست ﴾ لأن قولهم للرسول دارست كفر منهم بالقرآن والرسول ، وعند هذا الكلام عاد بحث مسألة الجبر والقدر .

فأما أصحابنا فإنهم أجروا الكلام على ظاهره فقالوا معناه إنا ذكرنا هذه الدلائل حالاً بعد حال ليقول بعضهم دارست فيزداد كفراً على كفر ، وتثبيتاً لبعضهم فيزداد إيماناً على إيمان ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾ [ البقرة : 26 ] وقوله : ﴿ وَأَمَّا الذين فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إلى رِجْسِهِمْ ﴾ [ التوبة : 125 ] وأما المعتزلة فقد تحيروا .

قال الجبائي والقاضي : وليس فيه إلا أحد وجهين : الأول : أن يحمل هذا الإثبات على النفي ، والتقدير : وكذلك نصرف الآيات لئلا يقولوا درست .

ونظيره قوله تعالى : ﴿ يُبَيِّنُ الله لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ﴾ ومعناه : لئلا تضلوا .

والثاني : أن تحمل هذه اللام على لام العاقبة .

والتقدير : أن عاقبة أمرهم عند تصريفنا هذه الآيات أن يقولوا هذا القول مستندين إلى اختيارهم ، عادلين عما يلزم من النظر في هذه الدلائل .

هذا غاية كلام القوم في هذا الباب .

ولقائل أن يقول : أما الجواب الأول فضعيف من وجهين : الأول : أن حمل الإثبات على النفي تحريف لكلام الله وتغيير له ، وفتح هذا الباب يوجب أن لا يبقى وثوق لا بنفيه ولا بإثباته ، وذلك يخرجه عن كونه حجة وأنه باطل .

والثاني : أن بتقدير أن يجوز هذا النوع من التصرف في الجملة ، إلا أنه غير لائق ألبتة بهذا الموضع ، وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يظهر آيات القرآن نجماً نجما ، والكفار كانوا يقولون : إن محمداً يضم هذه الآيات بعضها إلى بعض ويتفكر فيها ويصلحها آية فآية ثم يظهرها ، ولو كان هذا بوحي نازل إليه من السماء ، فلم لا يأتي بهذا القرآن دفعة واحدة ؟ كما أن موسى عليه السلام أتى بالتوراة دفعة واحدة .

إذا عرفت هذا فنقول : إن تصريف هذه الآيات حالاً فحالاً هي التي أوقعت الشبهة للقوم في أن محمداً صلى الله عليه وسلم ، إنما يأتي بهذا القرآن على سبيل المدارسة مع التفكر والمذاكرة مع أقوام آخرين وعلى ما يقول الجبائي والقاضي فإنه يقتضي أن يكون تصريف هذه الآيات حالاً بعد حال يوجب أن يمتنعوا من القول بأن محمداً عليه الصلاة والسلام إنما أتى بهذا القرآن على سبيل المدارسة والمذاكرة .

فثبت أن الجواب الذي ذكره إنما يصح لو جعلنا تصريف الآيات علة لأن يمتنعوا من ذلك القول ، مع أنا بينا أن تصريف الآيات ، هو الموجب لذلك القول فسقط هذا الكلام .

وأما الجواب الثاني : وهو حمل اللام على لام العاقبة ، فهو أيضاً بعيد لأن حمل هذه اللام على لام العاقبة مجاز ، وحمله على لام الغرض حقيقة ، والحقيقة أقوى من المجاز فلو قلنا : "اللام" في قوله : ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾ لام العاقبة في قوله : ﴿ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ للحقيقة

فقد حصل تقديم المجاز على الحقيقة في الذكر وأنه لا يجوز .

فثبت بما ذكرنا ضعف هذين الجوابين وأن الحق ما ذكرنا أن المراد منه عين المذكور في قوله تعالى : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾ ومما يؤكد هذا التأويل قوله : ﴿ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني أنا ما بيناه إلا لهؤلاء ، فأما الذين لا يعلمون فما بينا هذه الآيات لهم ، ولما دل هذا على أنه تعالى ما جعله بيانا إلا للمؤمنين ثبت أنه جعله ضلالاً للكافرين وذلك ما قلنا . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 111.112 ﴾

*(29/245)*

---

وقال القرطبى :

﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾

الواو للعطف على مضمر ؛ أي نصرف الآيات لتقوم الحجة وليقولوا درست .

وقيل : أي "وليقولوا درست" صرفناها ؛ فهي لام الصيرورة .

وقال الزجاج : هذا كما تقول كتب فلان هذا الكتاب لحتفه ؛ أي آل أمره إلى ذلك .

وكذا لما صرفت الآيات آل أمرهم إلى أن قالوا : درست وتعلمت من جَبْر ويَسَار ، وكانا غلامين نصرانيين بمكة ، فقال أهل مكة : إنما يتعلم منهما .

قال النحاس : وفي المعنى قول آخر حسن ، وهو أن يكون معنى "نُصَرِّفُ الآيَاتِ" نأتي بها آية بعد آيةٍ ليقولوا درست علينا ؛ فيذكرون الأوّل بالآخر .

فهذا حقيقة ، والذي قاله أبو إسحاق مجاز .

وفي "دَرَسْت" سبع قراءاتٍ .

قرأ أبو عمرو وابن كَثير "دارست" بالألف بين الدال والراء ، كفاعلت .

وهي قراءة عليّ وابن عباس وسعيدِ بن جبير ومجاهدٍ وعكرمة وأهلِ مكة .

قال ابن عباس : معنى "دَارَسْت" تاليت .

وقرأ ابن عامر "دَرَسَتْ" بفتح السين وإسكان التاء من غير ألف ؛ كخَرَجَتْ .

وهي قراءة الحسن .

وقرأ الباقون "دَرَسْتَ" كخرَجْت .

فعلى الأولى : دارست أهلَ الكتاب ودارسوك ؛ أي ذاكرتهم وذاكروك ؛ قاله سعيد ابن جبير .

ودلّ على هذا المعنى قوله تعالى إخباراً عنهم : ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ [ الفرقان : 4 ] أي أعان اليهودُ النبيّ صلى الله عليه وسلم على القرآن وذاكروه فيه .

وهذا كلّه قول المشركين .

ومثله قولهم : ﴿ وقالوا أَسَاطِيرُ الأولين اكتتبها فَهِيَ تملى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [ الفرقان

: 5 ] .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ [ النحل : 24 ] .

وقيل : المعنى دارستنا ؛ فيكون معناه كمعنى درست ؛ ذكره النحاس واختاره ، والأوّل ذكره مكيّ .

وزعم الناس أنه مجاز ؛ كما قال :

فِلْلموتِ ما تَلد الوالِدهْ . . .

(30/245)

---

ومن قرأ "دَرستْ" فأحسن ما قيل في قراءته أن المعنى : ولئلا يقولوا انقطعت وامحت ، وليس يأتي محمد صلى الله عليه وسلم بغيرها .

وقرأ قتادة "دُرِست" أي قرئت .

وروى سفيان بن عُيينة عن عمرو ابن عبيد عن الحسن أنه قرأ "دارستْ" .

وكان أبو حاتم يذهب إلى أن هذه القراءة لا تجوز ؛ قال : لأن الآيات لا تدارِس .

وقال غيره : القراءة بهذا تجوز ، وليس المعنى على ما ذهب إليه أبو حاتم ، ولكن معناه دارستْ أمّتُك ؛ أي دارستك أمّتك ، وإن كان لم يتقدمّ لها ذكر ؛ مثل قوله : ﴿ حتى

تَوَارَتْ بالحجاب ﴾ [ص : 32] .

وحكى الأخفش "وَلِيَقُولُوا دَرُسَتْ" وهو بمعنى "دَرستْ" إلا أنه أبلغ .

وحكى أبو العباس أنه قرىء "وَلْيقولوا درست" بإسكان اللام على الأمر .

وفيه معنى التهديد ؛ أي فليقولوا بما شاءوا فإن الحق بيّن ؛ كما قال عز وجل ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً ﴾ [التوبة : 82] .

فأمّا من كسر اللام فإنها عنده لام كي .

وهذه القراءات كلها يرجع اشتقاقها إلى شيءٍ واحد ، إلى التليين والتذليل .

و"درَسْتَ" مِن دَرَس يدرُس دِراسة ، وهي القراءة على الغير .

وقيل : درسته أي ذللته بكثرة القراءة ؛ وأصله درسَ الطعامَ أي داسه .

والدِّياس الدّراس بلغة أهل الشام .

وقيل : أصله من درسْتُ الثوبَ أَدْرُسه درساً أي أخلقته .

وقد دَرَس الثوبُ دَرْساً أي أخلق .

ويرجع هذا إلى التذلل أيضاً .

ويقال : سُمِّيَ إدريس لكثرة دراسته لكتاب الله .

ودارست الكتب وتدارستها وادارستها أي درستها .

ودَرستُ الكتاب دَرْساً ودِراسة .

ودرَستِ المرأة درساً أي حاضت .

ويقال : إن فرج المرأة يُكْنَى أبا أَدْراس ؛ وهو من الحيض .

والدَّرْسُ أيضاً : الطريق الخَفِيّ .

وحكى الأصمعيّ : بَعير لم يُدَرَّس أي لم يركب ، ودَرست من درس المنزل إذا عَفَا .

وقرأ ابن مسعود وأصحابه وأُبَيّ وطلحة والأعمش "وليقولوا درس" أي درس محمد الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(31/245)

---

وقال أبو حيان :

﴿ وليقولوا درست ﴾

يعني أهل مكة حين يقرأ عليهم القرآن ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو دارست أي دارست يا محمد غيرك في هذه الأشياء أي قارأته وناظرته إشارة منهم إلى سلمان وغيره من الأعاجم واليهود ، وقرأ ابن عامر وجماعة من غير السبعة ﴿ درست ﴾ مبنياً للفاعل مضمراً فيه أي درست الآيات أي ترددت على أسماعهم حتى بليت وقدمت في نفوسهم وأمحيت ، وقرأ باقي السبعة ﴿ درست ﴾ يا محمد في الكتب القديمة ما تجيئنا به كما قالوا : ﴿

أساطير الأولين اكتتبها ﴾ وقال الضحاك : ﴿ درست ﴾ قرأت وتعلمت من أبي فكيهة وجبر ويسار ، وقرىء ﴿ درّست ﴾ بالتشديد والخطاب أي درست الكتب القديمة ، وقرىء درّست مشدداً مبنياً للمفعول المخاطب ، وقرىء دورست بالتخفيف والواو مبنياً للمفعول والواو مبدلة من الألف في دارست ، وقرأت فرقة دارست أي دارستك الجماعة الذين تتعلم منهم وجاز الإضمار ، لأن الشهرة بالدراسة كانت لليهود عندهم ، ويجوز أن يكون الفعل للآيات وهو لأهلها أي دارس أهل الآيات ، وقرأت فرقة ﴿ درست ﴾ بضم الرّاء مسنداً إلى غائب مبالغة في درست أي اشتد دروسها وبلاها ، وقرأ قتادة والحسن وزيد بن عليّ ﴿ درست ﴾ مبنياً للمفعول وفيه ضمير الآيات غائباً وهي قراءة ابن عباس بخلاف عنه ، قال أبو الفتح : ويحتمل أن يراد عفيت أو تليت وكذا قال الزمخشري : قال بمعنى قرئت أو عفيت أما بمعنى قرئت فظاهر لأن درس بمعنى كرّر القراء متعد وأما درس بمعنى بلى وأمحى فلا أحفظه متعدياً ، وما وجدناه في أشعار من وقفنا على شعره من العرب إلا لازماً ، وقرأ أبيّ درس أي محمد أو الكتاب وهي مصحف عبد الله ، وروي عن الحسن درسن مبنياً للفاعل مسنداً إلى النون أي درس الآيات وكذا هي في بعض مصاحف عبد الله ، وقرأت فرقة درسن بتشديد الراء مبالغة في درسن ، وقرىء دراسات أي هي قديمات أو ذات درس كعيشة راضية فهذه ثلاث عشر قراءة في هذه الكلمة ، وقرأت طائفة ﴿ وليقولوا ﴾ بسكون اللام على جهة الأمر المتضمن

(32/245)

---

للتوبيخ والوعيد ، وقرأ الجمهور بكسرها وقالوا : هذه اللام هي التي تضمر أن بعدها والفعل منصوب بأن المضمرة .

(33/245)

---

قال ابن عطية : على أنها لام كي وهي على هذا لام الصيرورة كقوله : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ أي لما صار أمرهم إلى ذلك ، وقال الزمخشري : و ﴿ ليقولوا ﴾ جوابه محذوف تقديره وليقولوا دارست نصرفها ( فإن قلت ) : أي فرق بين اللامين في ﴿ ليقولوا ﴾ و ﴿ لنبينه ﴾ ( قلت ) : الفرق بينهما أن الأولى مجاز والثانية حقيقة وذلك أن الآيات صرفت للتبيين ولم تصرف ليقولوا دارست ولكنه لأنه حصل هذا القول بتصريف الآيات كما حصل التبيين شبه به فسيق مساقه ، وقيل ﴿ ليقولوا ﴾ كما قيل : ﴿ لنبينه ﴾ انتهى ، وتسميته ما يتعلق به قوله ﴿ ليقولوا ﴾ جواباً اصطلاح غريب ومثل هذا لا يسمى جواباً لا تقول : في جئت من قولك : جئت لتقوم أنه جواب وهذا الذي

ذكره الزمخشري من تخريج ﴿ ليقولوا ﴾ عليه هو الذي ذهب إليه من أنكر لام الصيرورة وهي التي تسمى أيضاً لام العاقبة والمآل وهو أنه لما ترتب على التقاطه كونه صار لهم عدواً وحزناً جعل كأنه علة لالتقاطه فهو علة مجازية ، وقال أبو عليّ الفارسي : واللام في ﴿ ليقولوا ﴾ على قراءة ابن عامر ومن وافقه بمعنى لئلا يقولوا أي صرف الآيات وأحكمت لئلا يقولوا هذه أساطير الأوّلين قديمة قد تليت وتكرّرت على الأسماع واللام على سائر القراءآت لام الصيرورة ، وما أجازه أبو عليّ من إضمار لا بعد اللام المضمر بعدها أن هو مذهب لبعض الكوفيين ، وتقدير الكلام لئلا يقولوا كما أضمروها بعد أن المظهرة في قوله : ﴿ أن تضلوا ﴾ ولا يجيز البصريون إضمار لا إلا في القسم على ما تبين فيه ، وقد حمله بعضهم على أن اللام لام كي حقيقة فقال : المعنى تصريف هذه الدلائل حالاً بعد حال ليقول بعضهم دارست فيزدادوا كفراً على كفر وتنبيه لبعضهم فيزدادوا إيماناً على إيمان ولنظيره ﴿ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ ولا يتعين ما ذكره المعرّبون والمفسرون من أن اللام في ﴿ وليقولوا ﴾

(34/245)

لام كي أو لام الصيرورة بل الظاهر أنها لام الأمر ، والفعل مجزوم بها لا منصوب بإضمار أن ويؤيده قراءة من سكن اللام والمعنى عليه متمكن كأنه قيل : ومثل ذلك نصرف الآيات وليقولوا هم ما يقولون من كونك درستها وتعلمتها أو درست هي أي بليت وقدمت فإنه لا يحفل بهم ولا يلتفت إلى قولهم ، وهو أمر معناه الوعيد بالتهديد وعدم الاكتراث بهم وبما يقولون في الآيات أي نصرفها ليدّعوا فيها ما شاؤوا فلا اكتراث بدعواهم .

﴿ ولنبينه لقوم يعلمون ﴾ أي نصرف الآيات وأعاد الضمير مفرداً قالوا على معنى الآيات لأنها القرآن كأنه قال : وكذلك نصرف القرآن أو على القرآن ودل عليه الآيات أو درست أو على المصدر المفهوم من ﴿ ولنبينه ﴾ أي ولنبين التبيين كما تقول : ضربته زيداً إذا أردت ضربت الضرب زيداً أو على المصدر المفهوم من نصرف ، قال ابن عباس : ﴿ لقوم ﴾ يريد أولياء الذين هداهم إلى سبيل الرشاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(35/245)

---

وقال أبو السعود :

وقوله تعالى : ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾

علةٌ لفعل قد حذف تعويلاً على دلالة السياقِ عليه ، أو وليقولوا درست نفعلُ ما نفعل من التصريفِ المذكورِ ، واللامُ للعاقبة ، والواو اعتراضيةٌ وقيل : هي عاطفةٌ على علة محذوفةٍ واللام متعلقةٌ بنُصرِّف أي مثلَ ذلك التصريفِ نصرِّف الآياتِ لنُلزِمَهم الحجةَ وليقولوا الخ ، وقيل : اللام لامُ الأمرِ ، وتنصُره القراءةُ بسكون اللامِ كأنه قيل : وكذلك نصرف الآياتِ وليقولوا هم ما يقولون فإنه لا احتفالَ بهم ولا اعتدادَ بقولهم ، وهذا أمرٌ معناه الوعيدُ والتهديدُ وعدمُ الاكتراثِ بقولهم ورُدَّ عليه بأن ما بعده يأباه ، ومعنى درست قرأتَ وتعلمتَ ، وقُرِىء دارسْتَ أي دارستَ العلماءَ ، ودَرَسَتْ أي تقدمت هذه الآياتُ وعفَت كما قالوا أساطيرُ الأولين ودَرُسَت بضم الراءِ مبالغةً في درَست أي اشتد دروسُها ودُرست على البناء للمفعول بمعنى قُرئت أو عُفِيت ودارَسَتْ وفسروها بدارست اليهودُ محمداً صلى الله عليه وسلم .

وجاز الإضمارُ لاشتهارهم بالدراسة ، وقد جُوز إسنادُ الفعل إلى الآيات وهو في الحقيقة لأهلها أي دارسَ أهلُ الآيات وحَمَلتُها محمداً صلى الله عليه وسلم وهم أهلُ الكتاب ودرَسَ أي درَسَ محمدٌ ودارِسات أي هي دارساتٌ أي قديمات أو ذاتُ دَرْسٍ كعيشة راضية وقوله تعالى : ﴿ وَلِنُبَيِّنَهُ ﴾ عطفٌ على ليقولوا واللام على الأصل لأن التبيينَ غايةُ التصريفِ ، والضميرُ للآيات باعتبار المعنى أو للقرآن وإن لم يُذكر ، أو للمصدر أي ولِنفعلَ التبيينَ ، واللامُ في قوله تعالى : ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ متعلقةٌ بالتبيين ، وتخصيصُه بهم لما أنهم

المنتفِعون به ، قال ابن عباس : هم أولياؤُه الذين هداهم إلى سبيل الرشادِ ، ووصفُهم بالعلم للإيذان بغاية جهلِ الأولين وخلوّهم عن العلم بالمرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(36/245)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾ علة لفعل قد حذف تعويلاً على دلالة السياق عليه أي وليقولوا درست نفعل ما نفعل من التصريف المذكور .

وبعضهم قدر الفعل ماضياً والأمر في ذلك سهل ، واللام لام العاقبة .

وجوز أن تكون للتعليل على الحقيقة لأن نزول الآيات لإضلال الأشقاء وهداية السعداء قال تعالى : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾ [ البقرة : 26 ] .

والواو اعتراضية ، وقيل : هي عاطفة على علة محذوفة .

واللام متعلقة بنصرف أي مثل ذلك التصريف نصرف الآيات لنلزمهم الحجة وليقولوا الخ .

وهو أولى من تقدير لينكروا وليقولوا الخ .

وقيل : اللام لام الأمر ، وينصره القراءة بسكون اللام كأنه قيل : وكذلك نصرف الآيات

وليقولوا هم ما يقولون فإنهم لا احتفال بهم ولا اعتداد بقولهم ، وهو أمر معناه الوعيد والتهديد وعدم الاكتراث .

ورده في "الدر المصون" بأن ما بعده يأباه فإن اللام فيه نص في أنها لام كي ، وتسكين اللام في القراءة الشاذة لا دليل فيه لاحتمال أن يكون للتخفيف .

ومعنى ﴿ دَرَسْتَ ﴾ قرأت وتعلمت ، وأصله على ما قال الأصمعي من قولهم : درس الطعام يدرسه دراساً إذا داسه كأن التالي يدوس الكلام فيخف على لسانه .

*(37/245)*

---

وقال أبو الهيثم : يقال درست الكتاب أي ذللته بكثرة القراءة حتى خف حفظه من قولهم : درست الثوب أدرسه درساً فهو مدروس ودريس أي أخلقته ، ومنه قيل للثوب الخلق : دريس لأنه قد لان ، والدرسة الرياضة ومنه درست السورة حتى حفظتها .

وهذا كما قال الواحدي قريب مما قاله الأصمعي أو هو نفسه لأن المعنى يعود فيه إلى التذليل والتليين .

وقال الراغب : يقال دَرَسَ الدارُ أي بقي ( أثره ) وبقاء الأثر يقتضي انمحاءه في نفسه فلذلك فسر الدروس بالإنمحاء ، وكذا درس الكتاب ودرست العلم تناولت أثره بالحفظ ، ولما

كان تناول ذلك بمداومة القراءة عبر عن إدامة القراءة بالدرس" وهو بعيد عما تقدم كما لا يخفى .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ دارست ﴾ بالألف وفتح التاء وهي قراءة ابن عباس ومجاهد : أي دارست يا محمد غيرك ممن يعلم الأخبار الماضية وذكرته ، وأرادوا بذلك نحو ما أرادوه بقولهم : ﴿ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ [ النحل : 103 ] .

قال الإمام : "ويقوي هذه القراءة قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ وَقَالَ الذين كَفَرُواْ إِنْ هذا إِلاَّ إِفْكٌ افتراه وَأَعَانَهُ ﴾ [ الفرقان : 4 ] وقرأ ابن عامر ويعقوب وسهل ﴿ دَرَسْتَ ﴾ بفتح السين وسكون التاء ، ورويت عن عبد الله بن الزبير وأبي وابن مسعود والحسن رضي الله تعالى عنهم .

والمعنى قدمت هذه الآيات وعفت وهو كقولهم ﴿ أساطير الاولين ﴾ [ النحل : 24 ] .

وقرىء ﴿ دَرَسْتَ ﴾ بضم الراء مبالغة في درست لأن فعل المضموم للطبائع والغرائز أي اشتد دروسها ، و ﴿ دَرَسْتَ ﴾ على البناء للمفعول بمعنى قرئت أو عفيت وقد صح مجيء عفا متعدياً كمجيئه لازماً ؛ و ﴿ دارست ﴾ بتاء التأنيث أيضاً .

والضمير إما لليهود لاشتهارهم بالدارسة أي دارست اليهود محمداً صلى الله عليه وسلم وإما للآيات وهو في الحقيقة لأهلها أي دارست أهل الآيات وحملتها محمداً عليه الصلاة والسلام وهم أهل الكتاب ، و ﴿ دورست ﴾ على مجهول فاعل .

و﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾ بالبناء للمفعول والإسناد إلى تاء الخطاب مع التشديد ، ونسبت إلى ابن زيد .

و﴿ ادارست ﴾ مشدداً معلوماً ونسبت إلى ابن عباس ، وفي رواية أخرى عن أبي ﴿ درس ﴾ على إسناده إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم أو الكتاب إن كان بمعنى انمحى ونحوه و﴿ درسن ﴾ بنون الإناث مخففاً ومشدداً و﴿ دارسات ﴾ بمعنى قديمات أو ذات درس أو دروس ك ﴿ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [ القارعة : 7 ] .

وارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هي دراسات .

﴿ وَلِنُبَيِّنَهُ ﴾ عطف على ﴿ لِيَقُولُواْ ﴾ واللام فيه للتعليل المفسر ببيان ما يدل على المصلحة المترتبة على الفعل عند الكثير من أهل السنة .

ولا ريب في أن التبيين مصلحة مرتبة على التصريف .

والخلاف في أن أفعال الله تعالى هل تعلل بالأغراض مشهور وقد أشرنا إليه فيما تقدم .

والضمير للآيات باعتبار التأويل بالكتاب أو للقرآن وإن لم يذكر لكونه معلوماً أو لمصدر ﴿ نُصَرِّفُ ﴾ كما قيل أو نبين أي ولنفعلن التبيين ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ فإنهم المنتفعون به وهو

الوجه في تخصيصهم بالذكر .

وهم على ما روي عن ابن عباس أولياؤه الذين هداهم إلى سبيل الرشاد ووصفهم بالعلم للإيذان بغاية جهل غيرهم وخلوهم عن العلم بالمرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ وليقُولوا دَرَسْتَ ﴾ معطوف على ﴿ وكذلك نصرّف الآيات ﴾ .

وقد تقدّم بيان معنى هذا العطف في نظيره في قوله تعالى : ﴿ وكذلك نفصّل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين ﴾ من هذه السّورة [ 55 ] .

ولكن ما هنا يخالف ما تقدّم مخالفة مّا فإنّ قول المشركين للرّسول عليه الصلاة والسلام درستَ ﴾ لا يناسب أن يكون علّة لتصريف الآيات ، فتعيَّن أن تكون اللاّم مستعارة لمعنى العاقبة والصيرورة كالّتي في قوله تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكونَ لهم عدوّاً وحزناً ﴾ [ القصص : 8 ] .

المعنى .

فكان لهم عدوّاً .

وكذلك هنا ، أي نصرّف الآيات مثلَ هذا التّصريف الساطع فيحسبونك اقتبسته بالدّراسة والتّعليم فيقولوا : دَرَسْتَ .

والمعنى : أنّا نصرّف الآيات ونبيّنها تبييناً من شأنه أن يصدر من العَالِم الّذي دَرَس العلم فيقول المشركون دَرستَ هذا وتَلَقَّيتَه من العلماء والكُتب ، لإعراضهم عن النّظر الصّحيح الموصل إلى أنّ صدور مثل هذا التّبيين من رجل يعلمونه أمّيّاً لا يكون إلاّ من قِبل وحي من الله إليه ، وهذا كقوله : ﴿ ولقد نعلم أنّهم يقولون إنّما يعلّمه بشر ﴾ [ النحل : 103 ] وهم قد قالوا ذلك من قَبْل ويقولونه ويزيدون بمقدار زيادة تصريف الآيات ، فشُبّه ترَتُّب قولهم على التّصريف بترتّب العلّة الغائيّة ، واستعير لهذا المعنى الحرفُ الموضوع للعلّة على وجه الاستعارة التّبعيّة ، ولذلك سمّى بعض النّحويين مثل هذه اللاّم لام الصّيرورة ، وليس مرادهم أنّ الصّيرورة معنى من معاني اللاّم ولكنّه إفصاح عن حاصل المعنى .

والدّراسة : القراءة بتمهّل للحفظ أو للفهم ، وتقدّم عند قوله تعالى : ﴿ وبما كنتم تدرسون ﴾ في سورة [ آل عمران : 79 ] .

وفعله من باب نصر .

يقال : درس الكتاب ، أي تعلّم .

وقد تقدّم في قوله تعالى : ﴿ بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ﴾ [ آل عمران :

79 ] ، وقال ﴿ وَدَرَسوا ما فيه ﴾ [ الأعراف : 169 ] .

وسمّي بيت تعلّم اليهود المِدْرَاسَ ، وسمّي البيت الّذي يسكنه التّلامذة ويتعلّمون فيه المدرسة .

والمعنى يقولون : تعلّمت ، طعْناً في أمّية الرّسول عليه الصّلاة والسّلام لئلاّ يلزمَهم أنّ ما جاء به من العلم وحي من الله تعالى .

وقرأ الجمهور ﴿ درست ﴾ بدون ألف وبفتح التّاء .

وقرأه ابن كثير ، وأبو عمرو "دَارسْتَ" على صيغة المفاعلة وبفتح التّاء أي يقولون : قرأت وقُرِىء عليك ، أي دارسْتَ أهل الكتاب وذاكرتهم في علمهم .

وقرأه ابن عامر ويعقوب "دَرَسَتْ" بصيغة الماضي وتاء التّأنيث أي الآيات ، أي تكرّرتْ .

وأمّا اللاّم في قوله : ﴿ ولنبيّنه لقوم يعلمون ﴾ فهي لام التّعليل الحقيقيّة .

وضمير ﴿ نبيّنه ﴾ عائد إلى القرآن لأنّه ما صْدَق ﴿ الآيات ﴾ ، ولأنّه معلوم من السّياق .

والقوم هم الّذين اهتدوا وآمنوا كما تقدّم في قوله : ﴿ قد فصّلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾ [ الأنعام : 97 ] ، والكلام تعريض كما تقدّم .

والمعنى أنّ هذا التّصريف حصل منه هدى للموفّقين ومكابرة للمخاذيل .

كقوله تعالى : ﴿ يضلّ به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضلّ به إلاّ الفاسقين ﴾ [ البقرة : 26 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

*(40/245)*

---

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾ الآية .

يعني ليزعموا إن النَّبي صلى الله عليه وسلم إنما تعلم هذه القرآن بالدرس والتعليم من غيره من أهل الكتاب ، كما زعم كفار مكة أنه صلى الله عليه وسلم تعلم هذا القرآن من جبر ويسار ، وكانا غلامين نصرانيين بمكة ، وقد أوضح الله تعالى بطلان افترائهم هذا في آيات كثيرة كقوله ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [ النحل : 13 ] ، وقوله ﴿ فَقَالَ إِنْ هاذآ إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هاذآ إِلاَّ قَوْلُ البشر سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [ المدثر : 24-26 ] ، ومعنى يؤثر : يرويه محمد صلى الله عليه وسلم عن غيره في زعمهم الباطل ، وقوله : ﴿ وَقَالَ الذين كفروا إِنْ هذا إِلاَّ إِفْكٌ افتراه وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَآءُوا ظُلْماً وَزُوراً وقالوا أَسَاطِيرُ الأولين اكتتبها

فَهِيَ تملى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً قُلْ أَنزَلَهُ الذي يَعْلَمُ السر فِي السماوات والأرض ﴾ [ الفرقان : 4-6 ] الآية . إلى غير ذلك من الآيات . وفي قوله ﴿ دَرَسْتَ ﴾ ثلاث قراءات سبعيات .

قرأه ابن كثير ، وأبو عمر " دارست " بألف بعد الدال مع إسكان السين وفتح التاء من المفاعلة بمعنى : دارست أهل الكتاب ودارسوك حتى حصلت هذا العلم .

وقرأه بقية السبعة غير ابن عامر " درست " بإسقاط الألف ، مع إسكان السين وفتح التاء أيضاً ، بمعنى درست هذا على أهل الكتاب حتى تعلمته منهم .

وقرأه ابن عامر " دَرَسَتْ " بفتح الدال والراء والسين وإسكان التاء على أنها تاء التأنيث ، والفاعل ضمير عائد إلى الآيات المذكورة في قوله ﴿ وكذلك نُصَرِّفُ الآيات ﴾ [ الأنعام : 105 ] .

*(41/245)*

---

قال القرطبي : وأحسن ما قيل في قراءة ابن عامر أن المعنى : ولئلا يقولوا انقطعت وانمحت ، وليس يأتي محمد صلى الله عليه وسلم بغيرها . اه .

وقال القرطبي : ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾ الواو للعطف على مضمر أي نصرف الآيات لتقوم

الحجة وليقولوا درست وقيل : ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾ صرفناها .

قال مقيده : عفا الله عنه ومعناهما آيل إلى شيء واحد ويشهد له القرآن في ى يات كثيرة دالة على أنه يبين الحق واضحاً في هذا الكتاب ليهدي به قوماً ، ويجعله حجة على آخرين كقوله ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ المتقين وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً ﴾ [ مريم : 97 ] وقوله ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [ فصلت : 44 ] ، وقوله : ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الذين أُوتُواْ الكتاب وَيَزْدَادَ الذين آمنوا إِيمَاناً وَلاَ يَرْتَابَ الذين أُوتُواْ الكتاب والمؤمنون وَلِيَقُولَ الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ والكافرون مَاذَآ أَرَادَ الله بهذا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ الله مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [ المدثر : 31 ] كما قال هنا ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ فالأشقياء يقولون : تعلمته من البشر بالدراسة وأهل العلم ، والسعادة يعلمون أنه الحق الذي لا شك فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 1 صـ ﴾

(42/245)

---

ومن فوائد الماوردى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله عز وجل : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن يتلو بعضها بعضاً فلا ينقطع التنزيل .

والثاني : أن الآية تنصرف في معان متغايرة مبالغة في الإِعجاز ومباينة لكلام البشر .

والثالث : أنه اختلاف ما تضمنها من الوعد والوعيد والأمر والنهي ، ليكون أبلغ في الزجر ، وأدعى إلى الإِجابة ، وأجمع للمصلحة .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ ﴾ وفي الكلام حذف ، وتقديره : ولئلا يقولوا درست ، فحذف ذلك إيجازاً كقوله تعالى : ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ﴾ [ النساء : 167 ] أي لئلا تضلوا .

وفي ﴿ دَرَسْتَ ﴾ خمس قراءات يختلف تأويلها بحسب اختلافها :

إحداهن : ﴿ دَرَسْتَ ﴾ بمعنى قرأت وتعلمت ، تقول ذلك قريش للنبي صلى الله عليه وسلم ، قاله ابن عباس ، والضحاك ، وهي قراءة حمزة ، والكسائي .

والثانية : ﴿ دَارَسْتَ ﴾ بمعنى ذاكرت وقارأت ، قاله مجاهد ، وسعيد بن جبير ، ومروي عن ابن عباس ، وهي قراءة ابن كثير ، وأبي عمرو .

وفيها على هذه القراءة تأويل ثانٍ ، أنها بمعنى خاصمت وجادلت .

والثالثة : ﴿ دَرَسَتْ ﴾ بتسكين التاء بمعنى انمحت وتقادمت ، قاله ابن الزبير ، والحسن

، وهي قراءة ابن عامر .

والرابعة : ﴿ دُرِسَتْ ﴾ بضم الدال لما لم يسم فاعله تليت وقرئت ، قاله قتادة .

والخامسة : ﴿ دَرَسَ ﴾ بمعنى قرأ النبي صلى الله عليه وسلم وتلا ، وهذا حرف أبي بن كعب ، وابن مسعود .

﴿ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : لقوم يعقلون .

والثاني : يعلمون وجوه البيان وإن لم يعلموا المبين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(43/245)

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (105) ﴾

"كذلك نصرف" . أي أن يأتي لنا بالحال بعد الحال ويكرر ويعيد ، وتأتي الحادثة من الحوادث وينزل فيها تشريع ، ويرقق قلوبهم ، ويأتي بنماذج من الرسل ، ومواقف أممهم منهم

حتى نصادف في كل حال قلباً مستقبلاً لأنه إن قال مرة واحدة وسكت وكان هناك أناس قلوبهم منصرفة فعندما يكرر الأحداث وينزل فيها التشريع والمواعظ فقد ترق قلوبهم للإيمان وتستوعب القلوب الهداية .

﴿ وكذلك نُصَرِّفُ الآيات وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾ ما معنى : ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾ ؟ إننا نعلم أن السماء تتدخل حين يطم الفساد ، لكن إن وجد في الذات الإنسانية نفس لوّامة فهي مَنَاعة للنفس ووقاية لها . فإن فعل الإنسان ذنباً تلومه نفسه فيرجع ، وإن اختفت النفس اللوّامة وصارت النفس أمّارة بالسوء ، امتنع في المجتمع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فمعنى ذلك أن الفساد قد طمّ . وهنا تتدخل السماء وتأتي ببيان جديد ومعجزة جديدة .

إن الفساد لا يتأبى إلا من وجود طبقات تطحن في طبقات ، والذين يُطحنون بالفساد هم من يستقبلون المنهج بشوق ، لكن الطاحن المستفيد من الفساد هو الذي يعارض المنهج . ولذلك فإن كل جماعة حاربت الرسل هم من الطاحنين للناس ، لكنَّ المطحونين إنما يريدون من ينقذهم .

إذن فكل صاحب دعوة سماوية جعل الله له عدواً من المجرمين ؛ لأن السماء لم تتدخل إلى حين صار الإجرام لا مقاوم له . وهكذا يجعل الله لكل نبي ورسول عدواً من المجرمين ،

وهذا العدو يفتن به الناس ، ويميل له ضعاف العقائد . والحق يصرف الآيات حالاً بعد حال حتى لا يثبت مع الداعي الحق إلا المؤمنون الصادقون .

*(44/245)*

---

ولذلك تجد أن الإسلام قد جاء وغربل الأمور ؛ فمثلاً تأتي حادثة الإسراء فمن كان إيمانه مهتزّا ينكر الإسراء ، وذلك من أجل أن يذهب الزبد ويبقى من يحمل الدعوة بمنهج الحق . أما من كان إيمانه ضعيفاً أو كان يعبد الله على حرف فالإسلام لا يرغبه . ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ﴾ [ التوبة : 47 ] .

إذن فالحق سبحانه وتعالى قد صرّف الآيات لينصر المطحونين ، وحينما قال الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك قالوا درست وادعوا أنه كان قاعداً في الجبل ، وتعلم من أعجمي .

ولذلك نجد الحق يقول : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ [ النحل : 103 ] .

ويأتي الرد من الحق : ﴿ لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [ النحل : 103 ] .

إن سيدنا عمر رضي الله عنه حينما كان في الطواف جاء عند الحجر الأسود وقال : " والله إني لأقبلك وإني أعلم أنك حجر وأنك لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله

صلى الله عليه وسلم قبَّلك ما قبلتُك " .

فعل سيدنا عمر ذلك حتى يعلمنا إذا ماجاء بعض الناس وقال : ما سبب علة تقبيل الحجر الأسود ؟ فيكون الجواب حاضراً : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك وهذا تشريع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(45/245)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

﴿ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ ﴾

و" الكاف " في محلِّ نصب نَعْتٌ لمصدر محذوف ، فقدَّرَهُ الزجاج : ونُصَرِّفَ الآياتِ مِثْلَ ما صَرَّفْنَاها فيما تُلِيَ عليكم ، وقدَّره غيره : نُصَرِّفُ الآيات في غير هذه السُّورةِ تَصْرِيفاً مثل التصريف في هذه السورة .

والمراد بالتَّصْرِيفِ أنه – تبارك وتعالى – يأتي مُتَوَاتِرَةً حالاً بعد حالٍ .

قوله : " ولِيَقُولُوا " الجمهور على كسر اللام كي ، والفِعْلُ بعدها منصوب بإضمار " أن " فهو في تأويل مصدر مَجْرُورٍ بها على ما عرف [ غير مرَّةٍ ] ، وسماها أبو البقاء وابن عطية لام

الصَّيْرُورةِ ، كقوله تبارك وتعالى : ﴿ فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ [ القصص : 8 ] وكقوله : [ الوافر ]

2279 - لِدُوا لِلْمَوْتِ وابْنُوا للخَرَابِ . . . . . .

أي : لما صار أمرهم إلى ذلك عَبّرَ بهذه العبارةِ ، والعِلَّةُ غير مُرَادَةٍ في هذه الأمثلة ، والمُحَقِّقُونَ يأبَوْنَ جَعْلَهَا للعاقبة والصَّيْرُورةِ ، ويُؤوِّلُونَ ما وَرَدَ من ذلك على المَجَازِ .

وجوَّزَ أبو البقاء فيها الوجهين ؛ أعني كونها " لام " العاقبة ، أو العلّة حقيقة ، فإنه قال : " واللام لام العاقبة ، أي : إن أمرهم يَصِيرُ إلى هذا " .

(46/245)

---

وقيل : إنه قَصَدَ بالتصريف أن يقولوا : درست عقوبة لهم ، يعني : فهذه عِلَّةٌ صَرِيحَة ، وقد أوضح بعضهم هذا ، فقال : المعنى : يُصَرِّفُ هذه الدلائل حالاً بعد حال ليقول بعضهم : دارست فيزادوا كُفْراً ، وتَنْبِيهٌ لبعضهم فَيَزْدادُوا إيماناً ، ونحو : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً ﴾ [ البقر : 26 ]

وأبو علي جعلها في بَعْضِ القراءات لام الصَّيْرُورَةِ ، وفي بعضها لام العلّة ؛ فقال : واللام في " ليقولوا " في قراءة ابن عامر ، ومَنْ وافقه بمعنى : لئلاَّ يقولوا ؛ أي : صُرِّفَت الآيات ،

وأحْكِمَتْ لئلا يقولوا : هذه أسَاطيرُ الأوّلينَ قديمة قد بَلِيَتْ وتَكَرَّرَتْ على الأسْماع ، واللام على سائر القراءاتِ لام الصَّيْرُورةِ .

قال شهاب الدين : قراءة ابن عامر دَرَسَتْ بوزن أكَلَتْ وسَرَقَتْ فعلاً ماضياً مسنداً لضمير الآيات ، وسيأتي تحقيق القراءات في هذا الكلمة مُتَواتِرِهَا وشَاذِّهَا .

قال أبو حيَّان : " وما أجَازَهُ من إضمار " لا " بعد اللام المضمر بعدها " أنْ " هو مذْهَبٌ لبعض الكوفيين ، كما أضمروها بعد " أنْ " المُظْهَرَة في ﴿ أَن تَضِلُّوا ﴾ [ النساء : 176 ] ولا يجيز البَصْرِيُّونَ إضْمَارَ " لا " في القَسَمِ على ما تَبَيَّنَ فيه " .

ثم هذه " اللام " لا بد لها من مُتعلّقٍ ، فقدَّرَهُ الزمخشري وغيره مُتَأخّراً ، قال الزمخشري : " وليقولوا " جوابه مَحْذُوف ، تقديره : وليقولوا دَرَسَتْ تُصَرِّفُهَا .

فإن قلت : أيُّ فَرْقٍ بين اللاّمَيْنِ في " ليقولوا " و " لنُبَيِّنَهُ " ؟

قال شهاب الدين : الفَرْقُ بينهما أن الأولَى مَجَازٌ ، والثانية حَقيقَةٌ ، وذلك أن الآيات صُرِفَت للتبيين ، ولم تُصْرَفْ ليقولوا : دارست ، ولكن لأنه لَمَّا حَصَلَ هذا القولُ بتصريف الآيات كما حَصَلَ للتَّبْيينِ شبّه به فسِيقَ مَسَاقَةُ .

وقيل : ليقولوا كما قيل لنَبيهِ .

قال شهاب الدين : فقد نَصَّ هنا على أنَّ لام " ليقولوا " عِلَّةٌ مَجَازِيَّة .

وجوَّز بعضهم أن تكون هذه اللام نَسَقاً على عِلَّة محذوفة .

قال ابن الأنباري : " خلت الواو في " وليقولوا " عطفاً على مضمر ، التقدير : وكذلك نصرف الآيات لنُلْزِمَهُمُ الحجة وليقولوا " .

قال شهاب الدين وعلى هذا فاللام مُتعلِّقَةٌ بفعل التَّصْرِيف ، من حَيْثُ المعنى ، ولذلك قَدَّرَهُ مَنْ قدَّرَهُ مُتَأَخِّراً بـ " نُصَرِّف " .

وقال أبو حيَّان : " ولا يتعيَّنُ ما ذكره المُغْرِبُونَ والمُفَسِّرونَ من أن اللام لام كي ، أو لام الصَّيْرُورةِ ، بل لا ظاهر أنها لامُ الأمْرِ والفعل مَجْزُومٌ بها ، ويُؤيِّدُهُ قرءاة من سَكَّنَ اللام ، والمعنى عليه يَتَمكَّنُ ، كأنه قيل : وكذلك نُصَرِّفُ الآيات ، وليقولوا هم ما يقولون من كَوْنِهَا دَرَسْتَهَا وتعلَّمْتَهَا أو دَرَسَتْ هي ، أي : بَلِيَتْ وقدُمَتْ ، فإنه لا يُحْتَفَلُ بهم ولا يُلْتَفَتُ إلى قولهم وهو أمْرٌ معناه الوعيدُ والتهديد ، وعدمُ الاكتراثِ بقولهم ، أي : نُصَرِّفُهَا وليدَّعُوا فيها ما شَاءُوا ، فإنه لا إكْتِرَاث بدَعْوَاهُمْ " .

وفيه نظرٌ من حيث إنَّ المعنى على ما قالهُ النَّاسُ وفهموه ، وأيضاً فإن بعده " ولنبيِّنَهُ " وهو نَصٌّ في لام كي ، وأمَّا تسكين اللام في القراءة الشَّاذَّةِ ، فلا يَدُلُّ لاحتمال أن تكون لام كي سُكِّنَتْ إجْرَاء للكملة مُجْرَى : كَتِف وكَبِد .

وقد رَدَّ أبو حيان على الزمخشري؛ حيث قال: "ليقولولا جوبه محذوف" فقال: وتَسمِيَتُهُ ما يتَّلَقُ به قوله: "وليقولوا" جواباً اصْطِلاحٌ غريب لا يقال في "جئت" من قولك: "جئت لتقوم" إنه جواب.

قال شهاب الدين: هذه العبارةُ قد تكرَّرَتْ للزمخشري، وسيأتي ذلك في قوله: ﴿ ولتصغى ﴾ [الأنعام: 113] أيضاً.

وقال الشيخ هناك: "وهذا اصْطِلاحٌ غريب".

(48/245)

---

والذي يظهر أنه إنما يُسَمَّى هذا النحو جواباً، لأنه يَقَعُ جواباً لسائل؛ تقول: أين الذي يتعلَّق شبه هذا الجار؟ فيجاب به، فسُمي جواباً الاعْتِبَار، وأضيف إلى الجارّ في قوله: "وليقُولُوا" جوابه؛ لأن الإضافة تقع بأدْنَى مُلابَسَةٍ، وإلا فكلامُ إمَامٍ يَتَكَرَّرُ لا يُحْمَلُ على فَسَادٍ.

وأما القراءات التي في "درست" فثلاث في المتواتر: فقرا ابن عامر: "دَرَسَتْ" بِزِنَةِ: ضَرَبَتْ، وابن كثير وأبو عمرو "دَارَسْتَ" بِزِنَةِ: قَابَلْتَ أنت، والباقون "دَرَسْتَ" بِزِنَةِ ضَرَبْتَ أنت.

فأمَّا قرءاة ابن عامر : فمعناها بَلِيَتْ وقَدُمَتْ ، وتكرَّرَتْ على الأسْمَاعِ ، يشيرون إلى أنها من أحَادِيثِ الأوَّلِينَ ، كما قالوا : " أسَاطِيرُ الأوَّلِينَ " .

وأما قراءة ابن كثير ، وأبي عمروا : فمعناها : دَارَسْتَ يا محمد غَيْرَكَ من أهْلِ الأخبار الماضية ، والقرون الخالية حتى حَفِظْتَهَا قَفَلْتَهَا ، كما حكى عنهم فقال : ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ﴾ [ النحل : 103 ] .

وفي التفسير : أنهم كانوا يقولون : هو يُدَارِسُ سَلْمَانَ وعَدَّاساً .

وأما قراءة الباقين : فمعناها : حَفِظْتَ وأتْقَنْتَ بالدَّرْسِ أخبارَ الأوَّلين ، كما حُكِيَ عنهم ﴿ وقالوا أَسَاطِيرُ الأولين اكتتبها فَهِيَ تملى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [ الفرقان : 5 ] أي : تكرر عليها بالدرس يحفظها .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : وليقولوا أهل " مكة " حين تَقْرَأُ عليهم القرآن : ودَرَسْتَ تعلمت من يسارٍ وجبر ، وكانا عَبْدَيْنِ من سَبي الروم قرأت علينا تَزْعُمُ أنه من عند الله .

حكى الواحدي في قوله : درس الكتاب قولين :

الأول : قال الأصمعيُّ : أصله من قولهم : درس الطعام إذا دَرَسَهُ دراساً ، والدَّرْسُ الدِّيَاسُ بِلُغَةِ أهل " الشام " ، قال : ودرس الكلام من هذا ، أي : يدرسه فيخفُّ على لسانه .

والثاني : قال أبو الهيثم : درست الكتاب ، أي : ذللته بكثرة القراءة خَفَّ حِفْظُهُ من قولهم : درست الثوب أدْرُسُهُ دَرْساً ، فهو مَدْرُوسٌ ودَرِيسٌ ، أي : أخْلَقْتُهُ ، ومنه قيل للثوب الخلق : دريسٌ لأنه قد لان والدراسةُ الرياضة ، ومنه درست السُّورة حتى حفظتها قال الواحدي : وهذا القول قريب مما قال الأصمعيُّ ، بل هو نفسه لأن المعنى يعود إلى التَّذْليل والتَّلْيين .

وقرئ هذا الحرف في الشَّاذِّ عشر قراءات أخر فاجتمع فيه ثلاثة عشرة قراءة ؛ فقرا ابن عباس بخلاف عنه ، وزيد بن علي ، والحسن البصري ، وقتادة " دُرِسَتْ " فعلاً ماضياً مبنياً للمفعول مسنداً لضمير الإناث ، وفسَّرها ابن جنيِّ والزمخشري بمعنيين في أحدهما إشكال .

قال أبو الفتح : " يحتمل أن يُرَادَ عَفَتْ أو بَلِيَتْ " .

وقال أبو القاسم : " بمعنى قُرِئَتْ أو عُفِيَتْ " .

قال أبو حيَّان : " أما معنى قُرِئَتْ وبَلِيَتْ فظاهِرٌ لأن دَرَسَ بمعنى كَرَّرَ القراءة متعدٍّ ، وأما " دَرَس " بمعنى بلي وانمحى فلا أحْفَظُهُ متعدياً ، ولا وَجَدْنا فيمن وقَفْنَا على شعره [ من

العرب ] إلا لازماً " .

قال شهاب الدين : لا يحتاج هذا إلى استقراء ، فإن معناه لا يحتمل أن يكون متعدياً ؛ إذْ حَدَثُهُ لا يتعدَّى فاعله ، فهو كـ " قام " و " قعد " فكما أنا لا نحتاج في مَعْرِفةِ قصور " قام " و " قعد " إلى استقراءٍ ، بل نَعْرِفُهُ بالمعنى ، فكذا هذا .

*(50/245)*

---

وقرئ " دَرَّسْتَ " فعلاً ماضياً مسدّداً مبيناً للفاعل المخاطب ، فيحتمل أن يكون للتكثير ، أي : دَرَّسْتَ الكُتُبَ الكثيرة كـ " ذبَّحت الغنم " ، و " قَطَّعْتُ الأثواب " وأن تكون للتَّعديَةِ ، والمفعولان محذوفان ، أي : دَرَّسْتَ غيرك الكتاب ، ولي بظاهرٍ ؛ إذ التفسير على خلافه .

وقُرِئ دُرِّسْتَ كالذي قبله إلا أنه مَبْنِيٌّ للمفعول ، أي : دَرَّسَكَ غَيْرُكُ الكتب ، فالتضعيف للتعدية لا غير .

وقرئ " دُوْرِسْتَ " مسنداً لتاء المُخاطبِ من " دَارَس " كـ " قاتل " إلا أنه بُنِيَ للمفعول ، فقلبت أِلفُهُ واواً ، والمعنى : دارسَكَ غَيْرُكَ .

وقرئ " دَارَسَتْ " بتاء ساكنة للتأنيث لَحِقَتْ آخر الفعل ، وفي فاعله احتمالان :

أحدهما : أنه ضمير الجَمَاعَةِ أُضْمِرَتْ ، وإن لم يَجْرِ لها ذِكْرٌ لدلالة السياق عليها أي : دراستك الجمَاعةُ يُشيرون لأبي فكيهة ، وسلمان ، وقد تقدَّم ذلك في قراءة ابن كثير ، وأبي عمرو رحمها الله تعالى .

والثاني : ضمير الإناث على سبيلِ المُبالغةِ ، أي : إن الآيات نفسها دارَسَتْكَ ، وإن كان المراد أهْلَهَا .

وقرئ " دَرُسَتْ بفتح الدال ، وضم الراء مُسْنَداً إلى ضمير الإناث ، وهو مُبالغةٌ في " دَرَسَتْ " بمعنى : بَلِيَتْ وقدُمَتْ وانمحَتْ ، أي : اشتدَّ دُرُوسُهَا وبلاهَا .

وقرأ أُبَيٌّ " دَرَسَ " وفاعله ضمير النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، أو ضمير الكتاب بمعنى قرأهُ النَّبِيُّ ، وتلاهُ ، وكُرِّرَ عليه ، أو بمعنى بلي الكتاب وامَّحى ، وهكذا في مصحف عبد الله " دَرَسَ " .

وقرأ الحسنُ في رواية " دَرَسْنَ " فعلاً ماضياً مسنداً لنون الإناثِ هي ضمير الآيات وكذا هي في بَعضِ مصاحفِ ابن مسعود .

وقرئ " دَرَّسْنَ " كالذي قبله إلا أنه بالتَّشديد بمعنى اشتدَّ دُرُوسُهَا وبلاهَا ، كما تقدم .

(51/245)

وقرئ " دَارِسَاتٌ " دمع " دَارِسَة " ؛ بمعنى : قديمات ، أو بمعنى ذات دُرُوس ، نحو : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [ الحاقة : 21 ] و ﴿ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾ [ الطارق : 6 ] وارتفاعها على خبر ابتداء مضمرٍ ، أي : هُنَّ دارسات ، والجملة في محلِّ نصب بالقولِ قبلها .

قوله : " ولنبيّنَه " تقدم أنَّ هذا عطفٌ على ما قَبْلَهُ ؛ فحكمه حُكْمُه ، وفي الضمير المَنْصُوب أربعةُ احتمالات :

أحدها أنه يَعُود على الآياتِ ، وجاز ذلك وإن كانت مُؤَنَّثَة ؛ لأنَّها بمَعْنَى : القُرآن .

الثاني : أنَّه يَعُود على الكتاب ، لدلالة السِّياق عليه ، ويُقَوِّي هذا : أنَّه فاعل بـ " دَرَسَ " في قَراءة مَنْ قَرَأه كذلك .

الثالث : أنَّه يَعُود على المصدَر المفهوم من نُصَرِّف ، أي : نبيّن التَّصْريف .

الرابع : أنه يَعُود على المَصْدَر المفْهُوم من " لِنُبَيِّنه " أي : نُبَيِّن التَّبْين ، نحو : " ضَرَبْتُه زَيْداً " أي : " ضربت الضَّرْب زَيْداً " ، و " لقوم " معلِّقٌ بالفعل قبله ، و " يعْلَمُون " : في محل جرّ صفة للنّكرة قبلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 354 . 359 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (105) ﴾

أوقع الفتنةَ في قلوبهم فَخَنِسَتْ عليهم الأحوال : فَمِنْ شُبْهةٍ دَاخَلَتْهم ومن حَيْرةٍ مَلَكَتْهُم .

ومن تحقيق أدركه قوم ، وتعريفٍ توقف على آخرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 493 ﴾

(52/245)

---

قوله تعالى ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (106) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما انكشف بهذا في أثناء الأدلة وتضاعيف البراهين أن القرآن كنز لا يلقى مثله كنز ، وعز لا يدانيه عز ، وأنه في الذروة التي تضاءلت دونها سوابح الأفكار ، وكلّت عن التماعها نوافذ الأبصار ، وختم بأن المراد بالبيان العلماء ، ناسب له أن ينبه على ذلك لئلا يفتر عنه طعنهم بقولهم " دارست " ونحوه ، فقال مخصصاً له صلى الله عليه وسلم بالخطاب إعلاماً بأنه العالم على الحقيقة : ﴿ اتبع ﴾ أي أنت ومن تبعك ﴿ وما أوحي إليك ﴾ أي فالزم العمل به ؛ ثم أكد مدحه بقوله : ﴿ من ربك ﴾ أي المحسن إليك بهذا البيان ؛ ثم علل ذلك

بقوله : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أي فلا يستحق غيره أن يتبع له أمر ، ولا يلتفت إليه في نفع ولا ضر ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ أي بغير التبليغ ، فإنه ما عليك غيره ، ومزيد حرصك على إيمانهم لا يزيد من أريدت شقوته إلا تمادياً في إشراكه وارتباكاً في قيود أشراكه . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 693 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار أنهم ينسبونه في إظهار هذا القرآن إلى الافتراء أو إلى أنه يدارس أقواماً ويستفيد هذه العلوم منهم ثم ينظمها قرآناً ويدعي أنه نزل عليه من الله تعالى ، أتبعه بقوله : ﴿ اتبع مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ لئلا يصير ذلك القول سبباً لفتوره في تبليغ الدعوة والرسالة ، والمقصود تقوية قلبه وإزالة الحزن الذي حصل بسبب سماع تلك الشبهة ، ونبه بقوله : ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ على أنه تعالى لما كان واحداً في الإلهية فإنه يجب طاعته ، ولا يجوز الإعراض عن تكاليفه بسبب جهل الجاهلين وزيغ الزائغين .

وأما قوله : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين ﴾ فقيل : المراد ترك المقابلة ، فلذلك قالوا إنه منسوخ ، وهذا ضعيف لأن الأمر بترك المقابلة في الحال لا يفيد الأمر بتركها دائماً ، وإذا كان الأمر كذلك لم يجب التزام النسخ .

وقيل المراد ترك مقابلتهم فيما يأتونه من سفه ، وأن يعدل صلوات الله عليه إلى الطريق الذي

يكون أقرب إلى القبول وأبعد عن التنفير والتغليظ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 112.113 ﴾

(53/245)

---

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ اتبع ما أوحي إليك من ربك ﴾

الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم يعني اتبع يا محمد ما أمرك به ربك في وحيه الذي أوحاه إليك وهو القرآن فاعمل به وبلغه إلى البادي ولا تلتفت إلى قول من يقول : دارست أو درست .

وفي قوله اتبع ما أوحي إليك من ربك تعزية لقلب النبي صلى الله عليه وسلم وإزالة الحزن الذي حصل له بسبب قولهم درست ونبه بقوله تعالى : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أنه سبحانه وتعالى واحد فرد صمد لا شريك له وإذا كان كذلك فإنه تجب طاعته ولا يجوز تركها بسبب جهل الجاهلين وزيغ الزائغين وقوله تعالى : ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ قيل : المراد منه في الحال لا الدوام وإذا كان كذلك لم يكن النسخ وقيل : المراد ترك مقالتهم فعلى هذا يكون الأمر بالإعراض منسوخة بآية القتال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ

﴿

وقال أبو السعود :

﴿ اتبع مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾

لما حُكي عن المشركين قدحُهم في تصريف الآياتِ عُقِّب ذلك بأمره عليه السلام بالثبات على ما هو عليه وبعدم الاعتدادِ بهم وبأباطيلهم ، أي دُمْ على ما أنت عليه من اتباع ما أوحي إليك من الشرائع والأحكامِ التي عُمدتُها التوحيدُ ، وفي التعرّض لعنوان الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام من إظهار اللطفِ به ما لا يخفى ، وقوله تعالى : ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ اعتراضٌ بين الأمرين المتعاطفَين مؤكّدٌ لإيجاب اتباعِ الوحي لا سيما في أمر التوحيدِ ، وقد جُوز أن يكون حالاً من ربك أي منفرداً في الألوهية ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين ﴾ لا تحتفِلْ بهم وبأقاويلهم الباطلةِ التي من جملتها ما حُكي عنهم آنفاً . ومن جعله منسوخاً بآية السيفِ حَمل الإعراضَ على ما يعُمّ الكفَّ عنهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(54/245)

وقال الآلوسى :

﴿ اتبع مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾

أي دم على ما أنت عليه من التدين بما أوحي إليك من الشرائع والأحكام التي عمدتها التوحيد .

و( في ) التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام من إظهار اللطف به صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى .

والجار والمجرور يجوز أن يكون متعلقاً بأوحي وأن يكون حالاً من ضمير المفعول المرفوع فيه .

وأن يكون حالاً من مرجعه .

وقوله سبحانه : ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ يحتمل أن يكون اعتراضاً بين المعطوف والمعطوف عليه أكد به إيجاب الاتباع لا سيما في أمر التوحيد .

وجوز أبو البقاء وغيره أن يكون حالاً مؤكدة ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ أي منفرداً في الألوهية ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين ﴾ أي لا تعتد بأقاويلهم الباطلة التي من جملتها ما حكى عنهم آنفاً ولا تبال بها ولا تلتفت إلى أذاهم وعلى هذا فلا نسخ في الآية .

وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنها منسوخة بآية السيف فيكون الإعراض محمولاً على ما يعم الكف عنهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ اتبع مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾

استئناف في خطاب النّبيء عليه الصّلاة والسّلام لأمره بالإعراض عن بهتان المشركين وأن لا يكترث بأقوالهم ، فابتداؤه بالأمر باتّباع ما أوحي إليه يتنزّل منزلة المقدّمة للأمر بالإعراض عن المشركين ، وليس هو المقصد الأصلي من الغرض المسوق له الكلام ، لأنّ اتّباع الرّسول صلى الله عليه وسلم ما أوحي إليه أمر واقع بجميع معانيه ؛ فالمقصود من الأمر الدّوام على اتّباعه .

والمعنى : أعرض عن المشركين اتّباعاً لما أنزل إليك من ربّك .

والمراد بما أوحي إليه القرآن .

(55/245)

---

والاتِّباع في الأصل اقتفاء أثر الماشِي ، ثمّ استعمل في العمل بمثل عمل الغير ، كما في قوله : ﴿ والّذين اتّبعوهم بإحسان ﴾ [ التوبة : 100 ] .

ثمّ استعمل في امتثال الأمر والعمل بما يأمر به المتبوع فهو الائتمار ، ويتعدّى فعله إلى ذات المتَّبَع فيقال : اتَّبعت فلاناً بهذه المعاني الثّلاثة وهو على حذف مضاف في جميع ذلك لأنّ

الاتّباع لا يتعلّق بالذّات .

وإطلاق الاتّباع بمعنى الائتمار شائع في القرآن لأنّه جاء بالأمر والنّهي وأمر النّاس باتّباعه ، واستُعمل أيضاً في معنى الملازمة على سبيل المجاز المرسل ، لأنّ من يتّبع أحداً يلازمه .

ومنه سمّي الرّئيّ من الجنّ في خرافات العرب تابعة ، ومنه سمّي من لازم الصّحابي وروى عنه تابعياً .

فيجوز أن يكون الاتّباع في الآية مراداً به دوام الامتثال لما أمر به القرآن من الإعراض عن أذى المشركين وعنادهم ، فالاتّباع المأمور به اتّباع في شيء مخصوص ، وهذا مأمور به غير مرّة ، فالأمر بالفعل مستمرّ في الأمر بالدّوام عليه .

ويجوز أن يكون أمراً بملازمة الدّعوة إلى الله والإعلان بها ودعاء المشركين إلى التّوحيد والإيمان وأن لا يعتريه في ذلك لَيْن ولا هوادة حتّى لا يكون لبذاءتهم وتكذيبهم إيّاه تأثير على نفسه يوهن دعوتهم والحرصَ على إيمانهم واعتقاد أنّ محاولة إيمانهم لا جدوى لها .

فالمراد بما أوحي إليه ما أوحي من القرآن خطاباً للمشركين ، أو أمراً بدعوتهم للإسلام وعدم الانقطاع عن ذلك ، فيكون الكلام شدّاً لساعد النّبيء صلى الله عليه وسلم في مقامات دعوته إلى الله ، وهذا هو المناسب لقوله : ﴿ لا تسبّوا الّذين يدعون من دون الله ﴾ [ الأنعام : 108 ] كما سنبيّنه .

وقد تقدّم شيء من هذا آنفاً عند قوله تعالى : ﴿ إنْ أَتَّبِعُ إلاّ ما يوحَى إليّ ﴾ [ الأنعام :

50 ] .

وليس المراد من الأمر بالاتّباع الأمرُ باتّباع أوامر القرآن ونواهيه مطلقاً ، لأنّه لا مناسبة له بهذا السّياق ، وفي الإتيان بلفظ : ﴿ ربّك ﴾ دون اسم الجلالة تأنيس للرّسول صلى الله عليه وسلم وتلطّف معه .

وجملة : ﴿ لا إله إلاّ هو ﴾ معترضة ، والمقصود منها إدماج التّذكير بالوحدانيّة لزيادة تقرّرها وإغاظة المشركين .

والمراد بالإعراض عن المشركين الإعراض عن مكابرتهم وأذاهم لا الإعراض عن دعوتهم ، فإنّ الله لم يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بقطع الدّعوة لأي صنف من النّاس ، وكلّ آية فيها الأمر بالإعراض عن المشركين فإنّما هو إعراض عن أقوالهم وأذاهم ، ألا ترى كلّ آية من هذه الآيات قد تلتْها آيات كثيرة تدعو المشركين إلى الإسلام والإقلاع عن الشّرك كقوله تعالى في سورة [ النّساء : 63 ] : ﴿ فأعرض عنهم وعِظْهُم ﴾ وقد تقدّم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

*(56/245)*

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (106) ﴾

وساعة يتكلم متكلم لمخاطب بأمر هو فيه وقائم عليه مؤدٍ له فلابد أن نفهم حقيقة المراد ، مثلما يقول الحق سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ آمِنُواْ ﴾ [ النساء : 136 ] .

وبأي شيء نادى الله خلقه المؤمنين هنا ؟ لقد قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ آمِنُواْ ﴾ ، فكيف يقول : " آمنوا " ؟ لقد ناداهم لأنهم آمنوا إيمانا استوجب خطابهم بالتكليف ، والإنسان ابن أغيار . فيوضح أن الإيمان الذي استقبلتم به التكليف من خطابي داوموا أيضا عليه ، وجاء الأمر هنا بدوامه ، أي كما آمنتم إيمانا جعلكم أهلا للتكليف في مخاطبتكم وقلت لكم يأيها الذين آمنوا : الزموا هذا وداوموا على إيمانكم . وقوله الحق : ﴿ اتبع مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾ هو قول لرسول متبه ، إذن فهو يحمل الأمر بالمداومة على الاتباع ، ولا يحزنك ما يقولون يا محمد ؛ لأنك مؤيد من ربك ويتولى الدفاع عنك ويلقنك الحجة .

﴿ وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالحق وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ [ الفرقان : 33 ] .

ويقول الحق بعد ذلك موجها حديثه لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ اتبع مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إله إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين ﴾ .

أي أنه لا يوجد إله إلا هو سبحانه ، ولا يمكن أن تغير أنت بالمنهج النازل إليك منه ، وعليك

أن تعرض عن المشركين ، فلا تجالسهم ، ولا تخالطهم ، ولا تودهم . إنه إعراض الفطنة والإرشاد والبلاغ. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(57/245)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (104) وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (105) اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (106) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ قد جاءكم بصائر ﴾ أي بينة ﴿ فمن أبصر فلنفسه ﴾ أي من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ﴿ ومن عمي ﴾ أي من ضل ﴿ فعليها ﴾ الله أعلم . قوله تعالى : ﴿ وليقولوا درست ﴾ .

أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس . أنه كان يقرأ هذا الحرف " دارست " بالألف مجزومة السين منتصبة التاء ، قال : قارأت .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس درست قال : قرأت وتعلمت .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس " دارست " قال : خاصمت جادلت تلوت .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله " وليقولوا دارست " قال : فاقهت ، وقرأت على يهود وقرأوا عليك .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن عمرو بن دينار قال : سمعت عبد الله بن الزبير يقول : إن صبياناً ههنا يقرأون ﴿ دارست ﴾ وإنما هي ﴿ درست ﴾ يعني بفتح السين وجزم التاء ، ويقرأون ﴿ وحرم على قرية ﴾ [ الأنبياء : 95 ] وإنما هي ﴿ وحرام ﴾ ويقرأون ﴿ في عين حمئة ﴾ وإنما هي ﴿ حامية ﴾ قال عمرو : وكان ابن عباس يخالفه فيهن كلهن .

*(58/245)*

وأخرج ابن مردويه والحاكم وصححه عن أبي بن كعب قال : اقرأني رسول الله صلى الله وعليه وسلم ﴿ وليقولوا درست ﴾ يعني بجزم السين ونصب التاء .

وأخرج أبو الشيخ من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس دارست يقول : قارأت اليهود وفاقهتهم . وفي حرف أُبي " وليقولوا درس " أي تعلم .

وأخرج أبو عبيد وابن جرير عن هرون قال : في حرف أبي بن كعب وابن مسعود ﴿ وليقولوا درس ﴾ يعني النبي صلى الله عليه وسلم قرأ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد أنه قرأ ﴿ درست ﴾ قال : علمت .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي إسحق الهمداني قال : في قراءة ابن مسعود ﴿ درست ﴾ بغير ألف بنصب السين ووقف التاء .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن الحسن . أنه كان يقرأ ﴿ وليقولوا درست ﴾ أي انمحت وذهبت .

وأخرج سعيد بن منصور عن الحسن . أنه كان يقرأ ﴿ درست ﴾ مشددة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس . أنه كان يقرأ " أدارست " ويتمثل :

دارس كطعم الصاب والعلقم . . . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس ﴿ وليقولوا درست ﴾ قالوا : قرأت وتعلمت ، تقول ذلك له قريش .

قوله تعالى : ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ .

أخرج أبو الشيخ عن السدي ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ قال : كف عنهم ، وهذا منسوخ نسخه القتال ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ [ التوبة : 5 ] . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(59/245)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾

قوله : " ما أوحِي " يجُوز أن تكُون " ما " : اسميَّة ، والعائد هو القائمُ مقام الفاعل ، و " إليك " : فَضْلَه ، وأجَازُوا أن تكون مَصْدريَّة ، والقائِم مقام الفاعل حينئذٍ : الجار والمجرُور ، أي : الايحاء الجَائِي مِنْ ربّك ، و " مِنْ " لابْتِدَاء مَجَازاً ، ف " مِنْ ربِّك " : متعلِّقٌ بـ " أوحِيَ " .

وقيل بل هُو حالٌ من " ما " نَفْسِها .

وقيل : بل هُو حالٌ من الضَّمير المُسْتترِ في " أوحِيَ " وهو بِمَعْنَى ما قَبْلَه .

وقوله : " لا إلهَ إلاَّ هُو " جملة مُعْتَرِضة بَيْن هاتَيْن الجُمْلَتيْن الأمْرِيَّتيْن ، هذا هو الأحْسن .

وجوّز أبُو البقاءِ أن تكُون حالاً من " ربّك " وهي حالٌ مؤكّدَةٌ ، تقديره : من ربّك مُنْفَرِداً .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 360 ﴾

*(60/245)*

---

قوله تعالى ﴿ وَلَوْ شَاء اللَّهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (107) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان الحبيب أسر شيء بما يزيده حبيبه ، قال مسلياً له صلى الله عليه وسلم عن استهزائهم به وردهم لقوله ، عاطفاً على ما تقديره : فلو شاء الله ما خالفوك ولا تكلموا فيك ببنت شفة : ﴿ ولو شاء الله ما أشركوا ﴾ أي ما وقع منهم إشراك أصلاً ، فقد أراد لك من الوقوع فيك ما أراده لنفسه ، فليكن لك في ذلك مسلاة .

ولما كان التقدير : فإنه سبحانه حفيظ عليهم ، عطف عليه قوله : ﴿ وما جعلناك ﴾ أي بعظمتنا ، وأشار إلى أن العلو ليس بغير الله سبحانه فقال : ﴿ عليهم حفيظاً ﴾ أي تحفظ

أعمالهم لئلا يكون منها ما لا يرضينا فتردهم عنه قسراً ﴿ وما أنت ﴾ وقدم ما هو أعم من نفي التحقق بالعلو المحيط القاهر الذي هو خاص بالإله فقال : ﴿ عليهم بوكيل ﴾ أي فتأخذ الحق منهم قهراً ، وتعاملهم بما يستحقونه خيراً أو شراً ، إنما أنت مبلغ عنا ، ثم الأمر في هدايتهم وإضلالهم إلينا .

ولما طال التنفير عما اتخذ من دونه من الأنداد والبنات ، لأنها أقل من ذلك وأحقر ، كان ذلك ربما كان داعية إلى سبها ، فنهى عنه لمفسدة يجرها السب كبيرة جداً ، فقال عاطفاً على قوله ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ غير مواجه له وحده صلى الله عليه وسلم إكراماً له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 693 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاء الله مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جعلناك عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ .

اعلم أن هذا الكلام أيضاً متعلق بقولهم للرسول عليه السلام إنما جمعت هذا القرآن من مدارسة الناس ومذاكرتهم ، فكأنه تعالى يقول له لا تلتفت إلى سفاهات هؤلاء الكفار ، ولا يثقلن عليك كفرهم ، فإني لو أردت إزالة الكفر عنهم لقدرت ، ولكني تركتهم مع كفرهم ، فلا ينبغي أن تشغل قلبك بكلماتهم .

واعلم أن أصحابنا تمسكوا بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُواْ ﴾ والمعنى : ولو شاء الله أن لا يشركوا ما أشركوا ، وحيث لم يحصل الجزاء علمنا أنه لم يحصل الشرط ، فعلمنا أن مشيئة الله تعالى بعدم إشراكهم غير حاصلة .

قالت المعتزلة : ثبت بالدليل أنه تعالى أراد من الكل الإيمان ، وما شاء من أحد الكفر والشرك ، وهذه الآية تقتضي أنه تعالى ما شاء من الكل الإيمان ، فوجب التوفيق بين الدليلين فيحمل مشيئة الله تعالى لإيمانهم على مشيئة الإيمان الاختياري الموجب للثواب والثناء ويحمل عدم مشيئته لإيمانهم على الإيمان الحاصل بالقهر والجبر وللإلجاء .

يعني أنه تعالى ما شاء منهم أن يحملهم على الإيمان على سبيل القهر والإلجاء ، لأن ذلك يبطل التكليف ويخرج الإنسان عن استحقاق الثواب .

هذا ما عول القوم عليه في هذا الباب ، وهو في غاية الضعف ويدل عليه وجوه : الأول : لا شك أنه تعالى هو الذي أقدر الكافر على الكفر فقدرة الكفر إن لم تصلح للإيمان فخالق تلك القدرة لا شك أنه كان مريداً للكفر ، وإن كانت صالحة للإيمان لم يترجح جانب الكفر على جانب الإيمان إلا عند حصول داع يدعوه إلى الإيمان ، وإلا لزم رجحان أحد طرفي الممكن

على الآخر لا لمرجح وهو محال ، ومجموع القدرة مع الداعي إلى الكفر يوجب الكفر ، وإذا كان خالق القدرة والداعي هو الله تعالى ، وثبت أن مجموعهما يوجب الكفر .

ثبت أنه تعالى قد أراد الكفر من الكافر .

الثاني : في تقرير هذا الكلام أن نقول : إنه تعالى كان عالماً بعدم الإيمان من الكافر ، ووجود الإيمان مع العلم بعدم الإيمان متضادان ومع وجود أحد الضدين كان حصول الضد الثاني محالاً ، والمحال مع العلم بكونه محالاً غير مراد ، فامتنع أن يقال إنه تعالى يريد الإيمان من الكافر .

*(62/245)*

---

الثالث : هب أن الإيمان الاختياري أفضل وأنفع من الإيمان الحاصل بالجبر والقهر إلا أنه تعالى لما علم أن ذلك الأنفع لا يحصل ألبتة ، فقد كان يجب في حكمته ورحمته أن يخلق فيه الإيمان على سبيل الإلجاء ، لأن هذا الإيمان وإن كان لا يوجب الثواب العظيم ، فأقل ما فيه أن يخلصه من العقاب العظيم ، فترك إيجاد هذا الإيمان فيه على سبيل الإلجاء يوجب وقوعه في أشد العذاب ، وذلك لا يليق بالرحمة والإحسان ومثاله أن من كان له ولد عزيز وكان هذا الأب في غاية الشفقة وكان هذا الولد واقفاً على طرف البحر فيقول الوالد له :

غص في قعر هذا البحر لتستخرج اللآلي العظيمة الرفيعة العالية منه ، وعلم الوالد قطعاً أنه إذا غاص في البحر هلك وغرق ، فهذا الأب إن كان ناظراً في حقه مشفقاً عليه وجب عليه أن يمنعه من الغوص في قعر البحر ويقول له : اترك طلب تلك اللآلي فإنك لا تحدها وتهلك ، ولكن الأولى لك أن تكتفي بالرزق القليل مع السلامة ، فأما أن يأمره بالغوص في قعر البحر مع اليقين التام بأنه لا يستفيد منه إلا الهلاك فهذا يدل على عدم الرحمة وعلى السعي في الإهلاك فكذا ههنا والله أعلم .

واعلم أنه تعالى لما بين أنه لا قدرة لأحد على إزالة الكفر عنهم ختم الكلام بما يكمل معه تبصير الرسول عليه السلام ، وذلك أنه تعالى بين له قدر ما جعل إليه فذكر أنه تعالى ما جعله عليهم حفيظاً ولا وكيلاً على سبيل المنع لهم ، وإنما فوض إليه البلاغ بالأمر والنهي في العمل والعلم وفي البيان بذكر الدلائل والتنبيه عليها فإن انقادوا للقبول فنفعه عائد إليهم ، وإلا فضرره عائد عليهم وعلى التقديرين فلا يخرج صلى الله عليه وسلم من الرسالة والنبوة والتبليغ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 113.114 ﴾

*(63/245)*

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ ولو شاء الله ما أشركوا ﴾

في ظاهرها رد على المعتزلة القائلين إنه ليس عند الله لطف يؤمن به الكافر وإن الكافر والإنسان في الجملة يخلق أفعاله ، وهي متضمنه أن إشراكهم وغيره وقف على مشيئة الله عز وجل ، وقوله تعالى : ﴿ وما جعلناك عليهم حفيظاً ﴾ كان في أول الإسلام ، وكذلك ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ اللهُ مَآ أَشْرَكُواْ ﴾ نصّ على أن الشرك بمشيئته ، وهو إبطال لمذهب القدرية كما تقدّم .

﴿ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ﴾ أي لا يمكنك حفظهم من عذاب الله .

﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ أي قَيِّم بأمورهم في مصالحهم لدينهم أو دنياهم ، حتى تلطف لهم في تناول ما يجب لهم ؛ فلست بحفيظ في ذلك ولا وكيل في هذا ، إنما أنت مُبَلِّغ .

وهذا قبل أن يؤمر بالقتال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ولو شاء الله ما أشركوا ﴾

أي إن إشراكهم ليس في الحقيقة بمشيئتهم وإنما هو بمشيئة الله تعالى ، وظاهر الآية يرد على

المعتزلة ويتأوّلونها على مشيئة القسر والإلجاء .

﴿ وما جعلناك عليهم حفيظاً ﴾ أي رقيباً تحفظهم من الإشراك .

﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ أي بمسلط عليهم والجملتان متقاربتان في المعنى إلا أن الأولى فيها نفي جعل الحفظ منه تعالى له عليهم .

والثانية فيها نفي الوكالة عليهم والمعنى إنّا لم نسلطك ولا أنت في ذاتك بمسلط فناسب أن تعرض عنهم إذ لست مأموراً منا بأن تكون حفيظاً عليهم ولا أنت وكيل عليهم من تلقائك .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

*(64/245)*

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَوْ شَاء الله ﴾ أي عدمَ إشراكِهم حسبما هو القاعدةُ المستمرةُ في حذف مفعول المشيئةِ من وقوعها شرطاً وكونِ مفعولها مضمونَ الجزاء ﴿ مَا أَشْرَكُواْ ﴾ وهذا دليلٌ على أنه تعالى لا يريد إيمانَ الكافرِ لكنْ لا بمعنى أنه تعالى يمنعُه عنه مِنْ توجّهِه إليه بل بمعنى أنه تعالى لا يريده منه لعدم صرفِ اختيارِه الجزئيِّ نحوَ الإيمان ، وإصرارِه على الكفر ، والجملةُ اعتراضٌ مؤكد للإعراض وكذا قولُه تعالى : ﴿ وَمَا جعلناك عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ﴾ أي

رقيباً مهيمناً مِنْ قِبلنا تحفظ عليهم أعمالَهم ، وكذا قولُه تعالى : ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ من جهتهم تقوم بأمورهم وتدبر مصالِحَهم ، وعليهم في الموضعين متعلقٌ بما بعده ، قُدِّم عليه للاهتمام أو لرعاية الفواصل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(65/245)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَوْ شَاء الله ﴾ عدم إشراكهم ﴿ مَا أَشْرَكُواْ ﴾ وهذا دليل لأهل السنة على أنه تعالى لا يريد إيمان الكافر لكن لا بمعنى أنه تعالى يمنعه عنه مع توجهه إليه بل بمعنى أنه تعالى لا يريده منه لسوء اختياره الناشيء من سوء استعداده .

والجملة اعتراض مؤكد للإعراض .

وكذا قوله تعالى : ﴿ وَمَا جعلناك عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ﴾ أي رقيباً مهيمناً من قبلنا تحفظ عليهم أعمالهم .

وكذا قوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ من جهتهم تقوم بأمرهم وتدبر مصالحهم

وقيل : المراد ما جعلناك عليهم حفيظاً تصونهم عما يضرهم وما أنت عليهم بوكيل تجلب لهم ما ينفعهم .

و﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ في الموضعين متعلق بما بعده قدم عليه للاهتمام به أو لرعاية الفواصل .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ ولو شاء الله ما أشركوا ﴾ عطف على جملة ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ .

وهذا تلطّف مع الرّسول صلى الله عليه وسلم وإزالة لما يلقاه من الكَدَر من استمرارهم على الشّرك وقلّة إغناء آيات القرآن ونُذُره في قلوبهم ، فذكّره الله بأنّ الله قادر على أن يحوّل قلوبهم فتقبَل الإسلام بتكوين آخر ولكنّ الله أراد أن يحصل الإيمانُ ممّن يؤمن بالأسباب المعتادة في الإرشاد والاهتداء ليَميز الله الخبيثَ من الطّيب وتَظهرَ مراتب النّفوس في ميادين التلقّي ، فأراد الله أن تختلف النّفوس في الخير والشّر اختلافاً ناشئاً عن اختلاف كيفيّات الخِلقة والخُلُق والنّشأة والقبولِ ، وعن مراتب اتّصال العباد بخالقهم ورجائهم منه .

*(66/245)*

---

فالمشركون بلغوا إلى حَضِيض الشّرك بأسباب ووسائلَ متسلسلة مترتّبة خَلْقية ، وخُلُقيّة ، واجتماعيّة ، تهيأت في أزمنة وأحوال هيّأْتها لهم ، فلمّا بَعَث الله إليهم المرشد كان إصغاؤهم إلى إرشاده متفاوتاً على تفاوت صلابة عقولهم في الضّلال وعراقتهم فيه ،

وعلى تفاوت إعداد نفوسهم للخير وجموحهم عنه ، ولم يجعل الله إيمان النّاس حاصلاً بخوارق العادات ولا بتبديل خَلْق العقول ، وهذا هو القانون في معنى مثل هذه الآية ، فهذا معنى انتفاء مشيئة الله في هذا المقام المراد به تطمين قلب الرّسول عليه الصّلاة والسّلام وتذكيره بحقائق الأحوال وليس في مثل هذا عذر لهم ولا لأمثالهم من العصاة ، ولذلك ردّ الله عليهم الاعتذار بمثل هذا في قوله في الآية الآتية ﴿ سيقول الّذين أشركوا لو شاءَ الله ما أشْرَكْنا ولا آباؤنا ولا حَرّمنَا من شيء كذلك كذّب الّذين من قبلهم حتّى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ﴾ [ الأنعام : 148 ] الآية .

وفي قوله : ﴿ وقالوا لو شاء الرّحمن ما عَبدْناهم ما لهم بذلك من علم إنْ هم إلاّ يخرصون ﴾ [ الزخرف : 20 ] في سورة الزخرف ، لأنّ هذه حقيقة كاشفة عن الواقع لا تصلح عذراً لمن طلب منهم أن لا يكونوا في عِداد الّذين لم يشأ الله أن يرشدهم ، قال تعالى : ﴿ أولئك الّذين لم يرد الله أن يطهّر قلوبهم ﴾ [ المائدة : 41 ] .

ومفعول المشيئة محذوف دلّ عليه جواب ( لو ) على الطّريقة المعروفة .

والتّقدير : ولو شاء الله عدمَ إشراكهم ما أشركوا .

وتقدّم عند قوله تعالى : ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾ في هذه السّورة [ 35 ] .

وقوله : ﴿ وما جعلناك عليهم حفيظاً ﴾ تذكير وتسلية ليزيح عنه كرب إعراضهم عن الإسلام لأنّ ما يحصل له من الكدر لإعراض قومه عن الإسلام يجعل في نفسه انكساراً كأنّه انكسار من عُهد إليه بعمل فلم يتسَنَّ له ما يريده من حسن القيام ، فذكّره الله تعالى بأنّه قد أدّى الأمانة وبلّغ الرّسالة وأنّه لم يبعثه مُكرهاً لهم ليأتي بهم مسلمين ، وإنّما بعثه مبلّغاً لرسالته فمن آمن فلنفسه ومن كفر فعليها .

والحفيظ : القيّم الرّقيب ، أي لم نجعلك رقيباً على تحصيل إيمانهم فلا يهمّنك إعراضهم عنك وعدم تحصيل ما دعوتَهم إليه إذ لا تَبِعة عليك في ذلك ، فالخبر مسوق مساق التّذكير والتسلية ، لا مساقَ الإفادة لأنّ الرّسول عليه الصّلاة والسّلام يعلم أنّ الله ما جعله حفيظاً على تحصيل إسلامهم إذ لا يجهل الرّسولُ ما كلّف به .

وكذلك قوله : ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ تهوين على نفس الرّسول عليه الصّلاة والسّلام بطريقة التّذكير لينتفي عنه الغمّ الحاصل له من عدم إيمانهم .

فإن أريد ما أنت بوكيل مِنّا عليهم كان تتميماً لقوله : ﴿ وما جعلناك عليهم حفيظاً ﴾ ؛ وإنْ أريد ما أنتَ بوكيل منهم على تحصيل نفعهم كان استيعاباً لنفي أسباب التّبعة عنه في عدم إيمانهم ، يقول : ما أنت بوكيل عليهم وكّلوك لتحصيل منافعهم كإيفاء الوكيل بما وكّله عليه موكّله ، أي فلا تَبِعة عليك منهم ولا تقصير لانتفاء سببي التّقصير إذ ليس مقامك مقام

حفيظ ولا وكيل .

فالخبر أيضاً مستعمل في التّذكير بلازمه لا في حقيقته من إفادة المخبر به ، وعلى كلا المعنيين لا بدّ من تقدير مضاف في قوله : ﴿ عليهم ﴾ ، أي على نفعهم .

والجمع بين الحفيظ والوكيل هنا في خبرين يؤيّد ما قلناه آنفاً في قوله تعالى : ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ [ الأنعام : 104 ] .

من الفرق بين الوكيل والحفيظ فاذْكُره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(68/245)

---

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ﴾

أي : مع استعدادهم ، ولكن جرت سنته برعاية الاستعدادات ﴿ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ﴾ أي : هم وإن كان لهم الاستعداد للإيمان في فطرتهم ، وقد أبطلوه ، فأنت وإن كنت داعياً إلى إصلاح الاستعداد الفطري ، وما جعلناك متولياً عليهم ، تحفظ مصالحهم ، حتى تكون مصلحاً لاستعدادهم الفطري .

﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ تدبر عليهم أمورهم ، أو تغيرهم من استعدادهم إلى آخر ، بل هو مفوض إلى الله تعالى ، يفعل بهم بمقتضى استعدادهم الطبيعيّ لهم من غير تغيير له ، بل هو مفوّض إلى اختيارهم – أفاده المهايمي – .

تنبيهان :

الأول – في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ ﴾ دليل على أنه تعالى لا يريد إيمان الكافر ، لكن لا بمعنى أنه تعالى يمنعه عنه ، مع توجهه إليه ، بل بمعنى أنه تعالى لا يريده منه ، لعدم صرف اختياره الجزئي نحو الإيمان ، وإصراره على الكفر . والزمخشريّ يفسره بمشيئة إكراه وقسر ، لأن عندهم مشيئة الاختيار حاصلة البتة . قال النحرير : وهذه عكازته في دفع مذهب أهل السنة .

*(69/245)*

---

الثاني – قال القاشاني في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ ﴾ : أي : كل ما يقع ، فإنما يقع بمشيئة الله ، ولا شك أن استعداداتهم التي وقعوا بها في الشرك ، وأسباب ذلك ، من تعليم الآباء والعادات وغيرها ، أيضاً واقعة بإرادة من الله ، وإلا لم تقع . فإن آمنوا بذلك فبهداية الله ، وإلا فهوّن على نفسك ، فما جعلناك تحفظهم عن الضلال ، وما

أنت بموكل عليهم بالإيمان . ولا ينافي هذا ما قال في تعييرهم فيما بعد بقوله : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ﴾ لأنهم قالوا ذلك عناداً ودفعاً للإيمان بذلك التعلل ، لا اعتقاداً . فقولهم ذلك ، وإن كان صدقاً في نفس الأمر ، لكنهم كانوا به كاذبين ، مكذبين للرسول ، إذ لو صدقوا لعلموا أن توحيد المؤمنين أيضاً بإرادة الله ، وكذا كل دين ، فلم يعادوا أحد . ولو علموا أن كل شيء لا يقع إلا بإرادة الله لما بقوا مشركين ، بل كانوا موحدين . لكنهم قالوه لغرض التكذيب والعناد ، وإثبات أنه لا يمكنهم الانتهاء عن شركهم ، فلذلك عيرّهم به ، لا لأنه ليس كذلك في نفس الأمر . فإنهم لم يطلعوا على مشيئة الله ، وأنه كما أراد شركهم في الزمان السابق ، لم يرد إيمانهم الآن ، إذ ليس كل منهم مطبوع على القلب ، بدليل إيمان من آمن منهم ، فلم لا يجوز أن يكون بعضهم كانوا مستعدين للإيمان والتوحيد ، واحتجوا بالعادة ، وما وجدوا من آبائهم فأشركوا ، ثم إذا سمعوا الإنذار ، وشاهدوا آيات التوحيد ، اشتاقوا إلى الحق ، وارتفع حجابهم فوحّدوا . فلذلك وبخهم على قولهم ، وطلب منهم الحجة على أن الله أرادهم بذلك دائماً ، وأنذرهم بوعيد من كان قبلهم ، لعل من كان فيه أدنى استعداد ، إذا انقطع عن حجته ، وسمع وعيد من قبله من المنكرين ، ارتفع حجابه ، ولان قلبُه فآمن ، ويكون ذلك توفيقاً له ، ولطفاً في شأنه ، فإن عالم الحكمة يبتني على الأسباب . وأما من كان من

الأشقياء المردودين ، المختوم على قلوبهم ، فلا يرفع لذلك رأساً ، ولا يلقي إليه سمعاً .

انتهى .

وليكن هذا على بال منك ، فالمقام دقيق جدّاً ، وسيأتي بيانه في الآية الآتية إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 470.472 ﴾

(71/245)

---

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ) .

أَيْ وَجَعَلَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ شُرَكَاءَ – وَفَسَّرَ هَؤُلَاءِ الشُّرَكَاءَ بِالْجِنِّ عَلَى طَرِيقِ الْبَدَلِ النَّحْوِيِّ – وَلَمْ يَقُلْ وَجَعَلُوا الْجِنَّ شُرَكَاءَ لِلَّهِ ، بَلْ قَدَّمَ وَأَخَّرَ فِي النَّظْمِ لِإِفَادَةِ أَنَّ مَحَلَّ الْغَرَابَةِ وَالنَّكَارَةِ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ شُرَكَاءُ لَا مُطْلَقَ وُجُودِ الشُّرَكَاءِ . ثُمَّ كَوْنَ الشُّرَكَاءِ مِنَ الْجِنِّ ، فَقَدَّمَ الْأَهَمَّ فَالْمُهِمَّ . وَلَوْ قَالَ وَجَعَلُوا الْجِنَّ شُرَكَاءَ لِلَّهِ لَأَفَادَ أَنَّ مَوْضِعَ الْإِنْكَارِ أَنْ يَكُونَ الْجِنُّ شُرَكَاءَ لِلَّهِ لِكَوْنِهِمْ جِنًّا ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ، بَلِ الْمُنْكَرُ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ شَرِيكٌ مِنْ أَيِّ جِنْسٍ

كَانَ . وَفِي الْمُرَادِ بِالْجِنِّ هُنَا أَقْوَالٌ أَحَدُهَا : أَنَّهُمُ الْمَلَائِكَةُ فَقَدْ عَبَدُوهُمْ ، رُوِيَ هَذَا عَنْ قَتَادَةَ وَالسُّدِّيِّ . وَالثَّانِي : أَنَّهُمُ الشَّيَاطِينُ فَقَدْ أَطَاعُوهُمْ فِي أُمُورِ الشِّرْكِ وَالْمَعَاصِي ، رُوِيَ عَنِ

(72/245)

---

الْحَسَنِ وَسَنُشِيرُ إلَى شَاهِدٍ يَأْتِي لَهُ بَعْدَ عِشْرِينَ آيَةً . وَالثَّالِثُ : أَنَّ الْمُرَادَ بِالْجِنِّ إبْلِيسُ ، فَقَدْ عَبَدَهُ أَقْوَامٌ وَسَمَّوْهُ رَبًّا ، وَمِنْهُمْ مَنْ سَمَّاهُ إلَهَ الشَّرِّ وَالظُّلْمَةِ ، وَخَصَّ الْبَارِي بِالْأُلُوهِيَّةِ الْخَيْرِ وَالنُّورِ ، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : إنَّهَا نَزَلَتْ فِي الزَّنَادِقَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ إنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَالِقُ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَيَوَانِ وَإِبْلِيسَ خَالِقُ السِّبَاعِ وَالْحَيَّاتِ وَالْعَقَارِبِ وَالشَّرِّ ، وَرَجَّحَهُ الرَّازِيُّ وَضَعَّفَ مَا سِوَاهُ وَقَالَ : إنَّ الْمُرَادَ بِالزَّنَادِقَةِ الْمَجُوسُ الَّذِينَ قَالُوا : إنْ كُلَّ خَيْرٍ فِي الْعَالَمِ فَهُوَ مِنْ (يَزْدَانَ) وَكُلَّ شَرٍّ فَهُوَ مِنْ (أَهْرُمَنَ) أَيْ إبْلِيسَ ، فَأَمَّا كَوْنُ إبْلِيسَ وَالشَّيَاطِينِ مِنَ الْجِنِّ فَقَطْعِيٌّ ، وَأَمَّا كَوْنُ الْمَلَائِكَةِ مِنْهُمْ فَقِيلَ : إنَّهُ حَقِيقِيٌّ لِأَنَّهُمْ مِنَ الْعَوَالِمِ الْخَفِيَّةِ فَتَصْدُقُ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْجِنِّ ، وَقِيلَ إنَّهُ مَجَازِيٌّ ، وَفَسَّرُوا الْجِنَّةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا) 37 : 158 بِالْمَلَائِكَةِ ، وَقَالَ بَعْضُ الْعَرَبِ : إنَّهُ تَعَالَى صَاهَرَ إلَى الْجِنِّ فَوَلَدَتْ سَرَوَاتُهُمْ لَهُ الْمَلَائِكَةَ وَقَدْ يُقَابِلُ الْجِنَّ بِالْمَلَائِكَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي

مَوْضُوعِ عِبَادَةِ الْمُشْرِكِينَ لَهُمْ : (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ

(73/245)

---

مُؤْمِنُونَ) 34 : 40 ، 41 فَهَذَا مَعَ آيَةِ الْأَنْعَامِ الْآتِيَةِ : (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) 6 : 121 مِمَّا يَرُدُّ إِنْكَارَ الرَّازِيِّ لِتَسْمِيَةِ طَاعَةِ الشَّيَاطِينِ عِبَادَةً . (وَخَلَقَهُمْ) أَيْ وَالْحَالُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ خَلَقَ هَؤُلَاءِ الْجَاعِلِينَ لَهُ الشُّرَكَاءَ وَلَيْسَ لِشُرَكَائِهِمْ فِعْلٌ وَلَا تَأْثِيرٌ فِي خَلْقِهِمْ ، أَوْ خَلْقِ الشُّرَكَاءِ الْمَجْعُولِينَ ، كَمَا خَلَقَ غَيْرَهُمْ مِنَ الْعَالَمِينَ ، فَنِسْبَةُ الْجَمِيعِ إِلَيْهِ وَاحِدَةٌ ، وَامْتِيَازُ بَعْضِ الْمَخْلُوقِينَ عَلَى بَعْضٍ فِي صِفَاتِهِ وَخَصَائِصِهِ ، أَوْ مَا خُلِقَ مُسْتَعِدًّا لَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَفْضُلُ بِهَا غَيْرَهُ ، لَا يُخْرِجُهُ عَنْ كَوْنِهِ مَخْلُوقًا ، وَلَا يَجْعَلُهُ أَهْلًا لِأَنْ يَكُونَ إِلَهًا أَوْ رَبًّا .

(وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ) أَيْ وَاخْتَلَقُوا لَهُ تَعَالَى بِحَمَاقَتِهِمْ وَجَهْلِهِمْ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ مَا بِذَلِكَ كَمَا سَيَأْتِي ، فَسَمَّى مُشْرِكُو الْعَرَبِ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتِ اللَّهِ (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ) 9 : 30 وَهَاكَ بَيَانُ ذَلِكَ : الْخَرْقُ وَالْخَزْقُ وَالْخَرْبُ وَالْخَرْزُ أَلْفَاظٌ فِيهَا مَعْنَى الثَّقْبِ

بِإِنْفَاذِ شَيْءٍ فِي الْجِسْمِ ، وَقَالَ الرَّاغِبُ : الْخَرْقُ قَطْعُ الشَّيْءِ عَلَى سَبِيلِ الْفَسَادِ مِنْ غَيْرِ تَدَبُّرٍ وَلَا تَفَكُّرٍ ، قَالَ تَعَالَى : (أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ

(74/245)

---

أَهْلَهَا) 18 : 71 وَهُوَ ضِدُّ الْخَلْقِ ، فَإِنَّ الْخَلْقَ هُوَ فِعْلُ الشَّيْءِ بِتَقْدِيرٍ وَرِفْقٍ ، وَالْخَرْقُ بِغَيْرِ تَقْدِيرٍ – وَذَكَرَ الْآيَةَ – وَقَوْلُهُ بِغَيْرِ تَقْدِيرٍ ، أَيْ بِغَيْرِ نِظَامٍ وَلَا هَنْدَسَةٍ هُوَ الصَّوَابُ ، وَقَوْلُهُ قَبْلَهُ : مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ وَلَا تَدَبُّرٍ ، خَطَأٌ ظَاهِرٌ ، وَيُنَاسِبُ هَذَا مِنْ مَعَانِي الْمَادَّةِ الْخُرْقُ " بِالضَّمِّ " وَهُوَ الْحُمْقُ ضِدُّ الرِّفْقِ . يُقَالُ : خَرُقَ زَيْدٌ يَخْرُقُ – بِالضَّمِّ فِيهِمَا – فَهُوَ أَخْرَقُ وَهِيَ خَرْقَاءُ . وَقَالَ صَاحِبُ اللِّسَانِ : وَخَرَقَ " مِنْ بَابِ ضَرَبَ " الْكَذِبَ وَتَخَرَّقَهُ وَخَرَّقَهُ كُلَّهُ اخْتَلَقَهُ ، وَذَكَرَ الْآيَةَ وَأَنَّ نَافِعًا قَرَأَ " وَخَرَّقُوا " بِالتَّشْدِيدِ وَسَائِرُ الْقُرَّاءِ قَرَءُوا بِالتَّخْفِيفِ ، ثُمَّ قَالَ : وَيُقَالُ : خَلَقَ الْكِلْمَةَ وَاخْتَلَقَهَا وَخَرَقَهَا وَاخْتَرَقَهَا إذَا ابْتَدَعَهَا كَذِبًا انْتَهَى . وَلَعَلَّ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَ الْخَلْقِ وَالْخَرْقِ فِي الْأَفْعَالِ ، يَأْتِي نَظِيرُهُ فِي الْأَقْوَالِ ، فَالْخَلْقُ الْكَذِبُ الْمُقَدَّرُ الْمُنَظَّمُ ، وَالْخَرْقُ الْكَذِبُ الَّذِي لَا تَقْدِيرَ فِيهِ وَلَا نِظَامَ ، وَلَا رَوِيَّةَ وَلَا إنْعَامَ ، فَهَا هُنَا يَظْهَرُ التَّقْيِيدُ بِنَفْيِ التَّدَبُّرِ وَالنَّظَرِ ، وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (بِغَيْرِ عِلْمٍ) قَالَ فِي الْكَشَّافِ : مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْلَمُوا حَقِيقَةَ مَا قَالُوهُ مِنْ خَطَأٍ وَصَوَابٍ ، وَلَكِنْ رَمْيًا بِقَوْلٍ عَنْ عَمًى وَجَهَالَةٍ مِنْ

غَيْرِ فِكْرٍ وَرَوِيَّةٍ انْتَهَى . وَهُوَ بَيَانٌ وَتَوْكِيدٌ لِمَعْنَى (خَرَقُوا) فَهَذَا التَّعْبِيرُ مِنْ أَدَقِّ بَلَاغَةِ التَّنْزِيلِ ، وَهُوَ بَيَانُ

(75/245)

---

مَعْنَى الشَّيْءِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى تَزْيِيفِهِ ، وَتَنْكِيرُ الْعَلَمِ هُنَا فِي حَيِّزِ النَّفْيِ " بِغَيْرِ " لِلدَّلَالَةِ عَلَى انْسِلَاخِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ فِي خَرْقِهِمْ هَذَا عَنْ كُلِّ مَا يُسَمَّى عِلْمًا ، فَلَا هُمْ عَلَى عِلْمٍ بِمَعْنَى مَا يَقُولُونَ وَلَا عَلَى دَلِيلٍ يُثْبِتُهُ ، وَلَا عَلَى عِلْمٍ بِمَكَانِهِ مِنَ الْفَسَادِ وَالْبُعْدِ مِنَ الْعَقْلِ ، وَلَا بِمَكَانِهِ مِنَ الشَّنَاعَةِ وَالْإِزْرَاءِ بِمَقَامِ الْأُلُوهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ ، إِذْ لَوْ عَلِمُوا بِذَلِكَ لَمَا ارْتَضَوْهُ لِأَنَّ أَكْثَرَهُمْ مُؤْمِنُونَ بِخَالِقِهِمْ وَخَالِقِ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُمْ يَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِ بِمَا اتَّخَذُوهُ لَهُ مِنْ شَرِيكٍ وَوَلَدٍ (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ) أَيْ هُوَ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ مُتَعَالٍ عَنْهُ لِأَنَّهُ نَقْصٌ يُنَافِي انْفِرَادَهُ بِالْخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ ، وَكَوْنُهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَتَقَدَّمَ تَحْقِيقُ مَعْنَى سُبْحَانَ وَالتَّسْبِيحِ وَالتَّقْدِيسِ فِي أَوَاخِرِ سُورَةِ الْمَائِدَةِ ، وَالتَّعَالِي الْعُلُوُّ وَالْبُعْدُ عَمَّا لَا يَلِيقُ الَّذِي يَظْهَرُ لِلنَّاظِرِ الْمُتَفَكِّرِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا عَلَا عَنْهُ وَبَعُدَ عَنْ مُشَابَهَتِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا ، فَهُوَ مِنْ قَبِيلِ " تَوَافُدِ الْقَوْمِ " فِي الْجُمْلَةِ ، وَلَوْ كَانَ لَهُ تَعَالَى وَلَدٌ لَكَانَ لَهُ جِنْسٌ يُعَدُّ جَمِيعُ أَفْرَادِهِ –

وَلَا سِيَّمَا أَوْلَادُهُ – نُظَرَاءَ لَهُ فِيهِ ، وَهَذَا بَاطِلٌ عَقْلًا وَنَقْلًا عَنْ جَمِيعِ رُسُلِ اللهِ وَجَمِيعِ حُكَمَاءِ الْبَشَرِ

(76/245)

---

وَعُقَلَائِهِمْ مِنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ ، وَلَكِنِ الَّذِينَ اخْتَرَعُوا لِلنَّاسِ عَقَائِدَ الْوَثَنِيَّةِ فِي عُصُورِ الظُّلُمَاتِ وَأَزْمِنَةِ التَّأْوِيلَاتِ ذَهَبُوا هَذِهِ الْمَذَاهِبَ مِنَ الْأَوْهَامِ ، وَلَا نَعْرِفُ أَوَّلَ مَنْ جَعَلَ لِلَّهِ وَلَدًا وَلَا مَنْشَأَ اخْتِرَاعِ هَذِهِ الْعَقِيدَةِ ، وَأَقْرَبُ الْمَآخِذِ لِذَلِكَ مَا بَيَّنَّاهُ فِي أَوَاخِرِ تَفْسِيرِ سُورَةِ النِّسَاءِ فَيُرَاجَعُ هُنَالِكَ فِي ج 6 تَفْسِيرٍ .

(77/245)

---

وَأَمَّا عِبَادَةُ الْجِنِّ فَقَدِيمَةٌ فِي الْمِلَلِ الْوَثَنِيَّةِ أَيْضًا . فَفِي الْخُرَافَاتِ الْيُونَانِيَّةِ وَالرُّومَانِيَّةِ يَجْعَلُونَهُمْ ثَلَاثَ مَرَاتِبَ . الْأُولَى : الْآلِهَةُ وَأَوَّلُهُمُ الْمُوَلَّدُ لَهُمْ أَجِينُوسُ وَهُوَ الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ عِنْدَهُمْ وَهُوَ نَفْسُ (زِفْسَ) أَوْ (جُوبِتِيرَ) . وَالثَّانِيَةُ : تَوَابِعُ الشُّعُوبِ وَالْأَقْطَارِ وَالْبِلَادِ ، فَلِكُلٍّ مِنْهَا رَبٌّ مِنَ الْجِنِّ مُدَبِّرٌ لَهُ وَمُتَصَرِّفٌ فِيهِ ، وَقَدْ نَصَبَ الرُّومُ لِجِنِّيِّ رُومِيَّةَ تِمْثَالًا مِنَ الذَّهَبِ

. وَالثَّالِثَةُ : تَوَابِعُ الْأَفْرَادِ أَيْ قُرَنَاؤُهُمْ . وَالْهُنُودُ الْقُدَمَاءُ يُقَسِّمُونَ الْجِنَّ إلَى قِسْمَيْنِ أَخْيَارٌ وَأَشْرَارٌ ، فَيُسَمُّونَ الْأَخْيَارَ (دِيوه) وَهُمْ عِنْدَهُمْ فِرَقٌ كَالْآلِهَةِ أَشْهَرُهَا (الْكَنَّارَةُ) الَّذِينَ دَأْبُهُمُ التَّرَنُّمُ بِمَدَائِحِ (بُوَاسِيتَا) وَيَلِيهَا (الْيَاكَةُ) الَّذِينَ يُقَسِّمُونَ الثَّرْوَةَ وَالْغِنَى بَيْنَ النَّاسِ وَ (الْغَنْدُورَةُ) وَهُمُ الْعَازِفُونَ لِلشَّمْسِ ، وَيَتَأَلَّفُ مِنْهُمْ أَجْوَاقٌ فِي السَّمَاءِ تَدْخُلُ فِيهَا الْكَنَّارَةُ فَيَسْبُونَ الْعُقُولَ بِتَسْبِيحِهِمْ عَلَى مَعَازِفِهِمْ . وَمِنْهُمْ " الْإِبْسَارَةُ " وَهُنَّ إنَاثٌ يَمْلَأْنَ الْعَالَمَ كُلَّهُ ، وَمُخْتَارَاتُهُنَّ فِي سَمَاءِ " أَنْدَرَا " يَرْقُصْنَ الرَّقْصَ الْبَهِجَ تَحْتَ أَشْجَارِ الذَّهَبِ وَالْيَاقُوتِ فِي جَنَّةِ " مِنْدَانَا " وَمِنْهُمْ " الرَّاجِينَةُ " وَهُنَّ قِيَانٌ مُوَكَّلَاتٌ بِالْمَعَازِفِ مَقَامُهُنَّ فِي سَمَاءِ " بِرَهْمَا " وَعَدَدُهُنَّ 16 أَلْفًا وَمِنْهُمُ الْفَعَلَةُ الْإِلَهِيُّونَ وَيُسَمَّوْنَ " الْجِيدَارَةَ " وَهُمُ الَّذِينَ بَنَوْا قَصْرَ

(78/245)

---

الْآلِهَةِ وَأَنْشَأُوا جَمِيعَ الْمَبَانِي الْعَجِيبَةِ فِي الْعَالَمِ . وَيُقَسِّمُونَ الْجِنَّ الْأَشْرَارَ إلَى طَوَائِفَ أَيْضًا ، مِنْهُمْ (الدِّيتِيَّةُ وَالْأَسْوِرَةُ وَالدَّنَارَةُ وَالرَّشَاقَةُ) وَيَقُولُونَ : إنَّ مَقَامَهُمْ فِي الظُّلْمَةِ وَأَنَّهُمْ هَاجَمُوا الْآلِهَةَ لِيُنْزِلُوهُمْ عَنْ عُرُوشِهِمْ فَفَرُّوا مِنْهُمْ إلَى بِلَادِ السَّاقَةِ وَأَرَادُوا أَنْ يَسْلُبُوهُمْ شَجَرَ الْحَيَاةِ . وَعَقَائِدُ الْمَانَوِيَّةِ مِنَ الْفُرْسِ فِي إلَهَيِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ مَعْرُوفَةٌ ، فِي أَسَاطِيرِ الْفُرْسِ أَنَّ " جِنِّسْتَانَ " أَيْ بِلَادَ الْجِنِّ فِي غَرْبِيِّ إفْرِيقِيَّةَ ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ ، وَأَسَاطِيرُ الْأُمَمِ

الْقَدِيمَةِ فِي الْجِنِّ كَثِيرَةٌ .

وَأَمَّا أَهْلُ الْكِتَابِ فَقَدْ لَخَّصَ الدُّكْتُورُ جُورْجُ بُوسْتْ فِي آخِرِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنْ قَامُوسِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ عَقَائِدَهُمْ فِي الشَّيْطَانِ قَالَ : الشَّيْطَانُ كَائِنٌ حَقِيقِيٌّ وَهُوَ أَعْلَى شَأْنًا مِنَ الْإِنْسَانِ وَرَئِيسُ رُتْبَةٍ مِنَ الْأَرْوَاحِ النَّجِسَةِ " 1 : كو 6 . 3 " وَيُخْبِرُ الْكِتَابُ الْمُقَدَّسُ بِطَبِيعَتِهِ وَصِفَاتِهِ وَحَالِهِ وَكَيْفِيَّةِ اشْتِغَالِهِ وَأَعْمَالِهِ وَمَقَاصِدِهِ وَنَجَاحِهِ وَنَصِيبِهِ ، فَلَنَا فِي شَخْصِيَّتِهِ نَفْسُ الْبَرَاهِينِ الَّتِي لَنَا فِي شَخْصِيَّةِ الرُّوحِ الْقُدُسِ وَالْمَلَائِكَةِ ، أَمَّا طَبِيعَةُ

(79/245)

---

الشَّيْطَانِ فَرُوحِيَّةٌ وَهُوَ مَلَاكٌ يَمْتَازُ بِكُلِّ مَا تَمْتَازُ بِهِ هَذِهِ الرُّتْبَةُ مِنَ الْكَائِنَاتِ إِلَى أَنْ قَالَ بَعْدَ ذِكْرِ كَوْنِهِ عَدُوًّا لِلَّهِ مَطْرُودًا مِنْ وَجْهِهِ – غَيْرَ أَنَّ طَرْدَهُ إِلَى عَالَمِ الظُّلْمَةِ لَا يَمْنَعُ اشْتِغَالَهُ فِي الْأَرْضِ كَإِلَهِ هَذَا الْعَالَمِ وَعَدُوًّا لِلْإِنْسَانِ وَخَالِقِهِ اهـ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ كَلَامٌ فِي الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ مِمَّا يُؤْثَرُ عَنِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَمَا وَرَدَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَبَعْضُ مَا قَالَهُ عُلَمَاؤُنَا فِي ذَلِكَ وَالتَّقْرِيبُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعُلُومِ النَّفْسِيَّةِ وَالْمَادِّيَّةِ ، وَعِنْدَنَا أَنَّ مَا يُحْفَظُ مِنْ أَسَاطِيرِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخَرِينَ فِي ذَلِكَ لَهُ أَصْلٌ مِنَ الْوَحْيِ إِلَى أَنْبِيَائِهِمْ ، خَلَطُوا فِيهِ مِنْ بَعْدِهِمْ وَجَعَلُوا الْحَقِيقَةَ مَجَازًا

وَالْمَجَازَ حَقِيقَةً ، عَلَى نَحْوِ مَا حَقَّقْنَاهُ فِي تَحْرِيفِهِمْ مَعْنَى كَلِمَةِ اللَّهِ الَّتِي عَبَّرَ بِهَا عَنِ التَّكْوِينِ فَجَعَلُوهَا ذَاتًا فَاعِلَةً خَالِقَةً وَسَمَّاهَا بَعْضُهُمْ إِلَهًا وَبَعْضُهُمْ " ابْنَ اللَّهِ " وَتَحْرِيفِهِمْ مَعْنَى رُوحِ الْقُدُسِ كَذَلِكَ ، وَكَلِمَةِ " ابْنٍ " الْمَجَازِيَّةِ كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي أَوَاخِرِ تَفْسِيرِ سُورَةِ النِّسَاءِ (ج 3 تَفْسِيرٍ) فَلَا تُتَّخَذُ مُوَافَقَةُ الْوَحْيِ لِبَعْضِ تِلْكَ الْأَسَاطِيرِ شُبْهَةً عَلَى الْوَحْيِ . وَسَنَزِيدُ مَسْأَلَةَ عِبَادَةِ الْجِنِّ بَيَانًا فِي مَوَاضِعَ أُخْرَى إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

*(80/245)*

---

(بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) هَذَا بَيَانٌ لِمَا قَبْلَهُ مِنْ مَعْنَى تَسْبِيحِ الْبَارِي وَتَعَالِيهِ عَمَّا يَصِفُهُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ . الْبَدْعُ - بِالْفَتْحِ - الْإِنْشَاءُ وَالْإِيجَادُ الْمُبْتَدَأُ ، أَوِ الْبِدْعُ - بِالْكَسْرِ - وَالْبَدِيعُ الشَّيْءُ الَّذِي يَكُونُ أَوَّلًا كَمَا قَالَ فِي اللِّسَانِ ، وَمِنْهُ الْبِدْعَةُ فِي الدِّينِ ، وَيُقَالُ : بَدَعَ الشَّيْءَ (مِنْ بَابِ قَطَعَ) وَأَبْدَعَهُ وَابْتَدَعَهُ . وَقَالَ الرَّاغِبُ : الْإِبْدَاعُ إِنْشَاءُ صَنْعَةٍ بِلَا احْتِذَاءٍ وَاقْتِدَاءٍ ، وَمِنْهُ قِيلَ رَكِيَّةٌ بَدِيعٌ أَيْ جَدِيدَةُ الْحَفْرِ . وَإِذَا اسْتُعْمِلَ فِي اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ إِيجَادُ الشَّيْءِ بِغَيْرِ آلَةٍ وَلَا مَادَّةٍ وَلَا زَمَانٍ وَلَا مَكَانٍ وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِلَّهِ . وَقَالَ صَاحِبُ اللِّسَانِ : وَالْبَدِيعُ الْمُحْدَثُ الْعَجِيبُ ، وَالْبَدِيعُ الْمُبْدِعُ ، وَأَبْدَعْتُ الشَّيْءَ اخْتَرَعْتُهُ لَا عَلَى مِثَالٍ ، وَالْبَدِيعُ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى لِإِبْدَاعِهِ الْأَشْيَاءَ وَإِحْدَاثِهِ إِيَّاهَا ، وَهُوَ الْبَدِيعُ الْأَوَّلُ قَبْلَ كُلِّ

شَيْءٍ . وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى مُبْدِعٍ ، أَوْ يَكُونَ مِنْ بَدَعَ الْخَلْقَ أَوْ بَدَأَهُ . وَاللَّهُ تَعَالَى كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ : (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) أَيْ خَالِقُهُمَا وَمُبْدِعُهُمَا فَهُوَ سُبْحَانَهُ الْخَالِقُ الْمُخْتَرِعُ لَا عَنْ مِثَالٍ سَابِقٍ انْتَهَى . وَذَكَرَ أَنَّ بَدِيعًا مِنْ بَدَعَ لَا مِنْ أَبْدَعَ ، وَهُوَ مَعْرُوفٌ ، فَإِنَّ الْأَصْلَ فِي صِيغَةِ فَعِيلٍ أَنْ تَكُونَ مِنَ الثُّلَاثِيِّ وَقَدْ سُمِعَ وُرُودُهَا مِنَ

(81/245)

---

الْأَفْعَالِ الرُّبَاعِيَّةِ شُذُوذًا ، وَهِيَ تَأْتِي بِمَعْنَى فَاعِلٍ كَقَدِيرٍ ، وَبِمَعْنَى مَفْعُولٍ كَقَتِيلٍ ، وَهُوَ هُنَا بِمَعْنَى الْفَاعِلِ أَوِ الصِّفَةِ الْمُشَبَّهَةِ .

وَالْمَعْنَى عَلَى اخْتِلَافِ التَّقْدِيرِ - أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي بَدَعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، أَوِ الْبَدِيعُ سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضِهِ بِمَا كَانَ مِنْ إِبْدَاعِهِ وَاخْتِرَاعِهِ لَهُمَا ، أَوِ الْبَدِيعُ فِيهِمَا بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا شِبْهَ لَهُ وَلَا نَظِيرَ فِيهِمَا ، وَإِذَا كَانَ هُوَ الْمُبْدِعُ لِلسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَمْ يُوصَفَا بِكَوْنِهِمَا مِنْ وَلَدِهِ فَكَذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ ، وَأَوْلَى بِهَذَا وَأَجْدَرُ أَنْ يَكُونَ خَلْقُهُ لِلْمَسِيحِ مِنْ أُمٍّ بِغَيْرِ أَبٍ غَيْرَ مُسَوِّغٍ لِجَعْلِهِ وَلَدًا لَهُ إِذْ قُصَارَى ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ إِبْدَاعًا مَا . وَالْإِبْدَاعُ التَّامُّ - وَهُوَ إِيجَادُ مَا لَمْ يَسْبِقْ لَهُ نَظِيرٌ فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي وَصْفِهِ وَلَا فِي سَبَبِهِ إِنْ كَانَ لَهُ سَبَبٌ - لَيْسَ وِلَادَةً ، وَأَثَرُ هَذَا الْإِبْدَاعِ وَهُوَ الْمُبْدِعُ لَا يُسَمَّى وَلَدًا ; إِذِ الْوِلَادَةُ مَا كَانَ نَاشِئًا عَنِ ازْدِوَاجٍ بَيْنَ ذَكَرٍ وَأُنْثَى

مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ ، وَلَيْسَ لَهُ جِنْسٌ فَيَكُونَ لَهُ مِنْهُ زَوْجٌ وَلِذَلِكَ قَالَ : (أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ) أَيْ كَيْفَ يَكُونُ لَهُ - وَهُوَ الْمُبْدِعُ لِكُلِّ شَيْءٍ - وَلَدٌ ، وَالْحَالُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ زَوْجٌ يَنْشَأُ الْوَلَدُ مِنِ ازْدِوَاجِهِ بِهَا ، وَلَا مَعْنَى لِلْوَلَدِ إِلَّا مَا كَانَ كَذَلِكَ ، وَإِنَّمَا صُدُورُ جَمِيعِ الْكَائِنَاتِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ عَنْهُ صُدُورُ إِيجَادٍ إِبْدَاعِيٍّ لِلْأُصُولِ الْأُولَى ، وَإِيجَادٍ سَبَبِيٍّ كَالْوَالِدِ بَيْنَهَا بِحَسَبِ سُنَنِهِ فِي التَّوَالِي ، وَلِذَلِكَ قَالَ : (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ) خَلْقًا وَلَمْ يَلِدْهُ وِلَادَةً ، فَمَا خَرَقْتُمْ لَهُ مِنَ الْوَلَدِ مَخْلُوقٌ لَهُ لَا مَوْلُودٌ مِنْهُ ، فَإِنْ خَرَجْتُمْ عَنْ وَضْعِ اللُّغَاتِ وَسَمَّيْتُمْ صُدُورَ الْمَخْلُوقَاتِ عَنْهُ وِلَادَةً فَكُلُّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَكُونُ مِنْ وَلَدِهِ ، وَحِينَئِذٍ يَفُوتُكُمْ مَا أَرَدْتُمْ مِنْ تَخْصِيصِ بَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ بِهَذِهِ الْمَرْتَبَةِ تَفْضِيلًا لَهَا عَلَى غَيْرِهَا ، وَلَا يَقُولُ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِهَذَا ، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ اسْتِئْنَافِيَّةٌ مُقَرِّرَةٌ لِإِنْكَارِ نَفْيِ الْوَلَدِ ، أَوْ حَالٌ بَعْدَ حَالٍ ، وَاسْتِدْلَالٌ بَعْدَ اسْتِدْلَالٍ ، وَمِثْلُهَا قَوْلُهُ : (وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) وَبَيَانُهُ أَنَّ عِلْمَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ ذَاتِيٌّ لَهُ ، وَلَا يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ) 67 : 14 وَلَوْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ لَكَانَ هُوَ أَعْلَمَ بِهِ وَلَهَيَّأَ الْعُقُولَ إِلَيْهِ بِآيَاتِ الْوَحْيِ وَدَلَائِلِ الْعِلْمِ ، وَلَكِنَّهُ كَذَّبَ الَّذِينَ خَرَقُوهُ لَهُ -

(83/245)

---

بِغَيْرِ عِلْمٍ - بِالْوَحْيِ الْمُؤَيَّدِ بِدَلَائِلِ الْعَقْلِ ، قَالَ الْبَيْضَاوِيُّ : وَفِي الْآيَةِ اسْتِدْلَالٌ عَلَى نَفْيِ الْوَلَدِ مِنْ وُجُوهٍ : (الْأَوَّلُ) أَنَّهُ مِنْ مُبْدَعَاتِهِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ، وَهِيَ مَعَ أَنَّهَا مِنْ جِنْسٍ مَا يُوصَفُ بِالْوِلَادَةِ مُبَرَّأَةٌ عَنْهَا لِاسْتِمْرَارِهَا وَطُولِ مُدَّتِهَا ، فَهُوَ أَوْلَى بِأَنْ يَتَعَالَى عَنْهَا ، (وَالثَّانِي) أَنَّ الْمَعْقُولَ مِنَ الْوَلَدِ مَا يَتَوَلَّدُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى مُتَجَانِسَيْنِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى مُنَزَّهٌ مِنَ التَّجَانُسِ ، (وَالثَّالِثُ) أَنَّ الْوَلَدَ كُفْءٌ لِلْوَالِدِ ، وَلَا كُفْءَ لَهُ لِوَجْهَيْنِ ، الْأَوَّلُ : أَنَّ كُلَّ مَا عَدَاهُ مَخْلُوقُهُ فَلَا يُكَافِئُهُ ، وَالثَّانِي : أَنَّهُ لِذَاتِهِ عَالِمٌ بِكُلِّ الْمَعْلُومَاتِ وَلَا كَذَلِكَ غَيْرُهُ بِالْإِجْمَاعِ انْتَهَى ، وَقَدْ تَقَدَّمَ مِثْلُ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ .

(84/245)

---

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ) الْخِطَابُ لِلْمُشْرِكِينَ الْمَحْجُوجِينَ أَوْ لِجَمِيعِ الْمُكَلَّفِينَ ، وَالْإِشَارَةُ إِلَى الْأَشْيَاءِ ، وَإِحَاطَةُ الْعِلْمِ بِالْجَلِيَّاتِ وَالْخَفِيَّاتِ مِنَ الْمَشْهُودَاتِ وَالْغَائِبَاتِ ، أَيْ ذَلِكَ الَّذِي شَأْنُهُ مَا ذَكَرَ هُوَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا مَنْ خَرَقُوا لَهُ مِنَ الْأَوْلَادِ

، وَأَشْرَكُوا بِهِ مِنَ الْأَنْدَادِ ، فَاعْبُدُوهُ إِذًا وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِنَّمَا الْإِلَهُ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ هُوَ الرَّبُّ الْخَالِقُ وَمَا عَدَاهُ مَخْلُوقٌ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْبُدَ خَالِقَهُ ، فَكَيْفَ يَعْبُدُهُ وَيُؤَلِّهُهُ مَنْ هُوَ مِثْلُهُ فِي ذَلِكَ ؟ (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) أَيْ وَهُوَ مَعَ كُلِّ مَا ذَكَرَ مَوْكُولٌ إِلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ يَتَصَرَّفُ فِيهِ وَيُدَبِّرُهُ بِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ ، يُقَالُ : فُلَانٌ وَكِيلٌ عَلَى عَقَارِ فُلَانٍ وَمَالِهِ ، وَقِيلَ : إِنَّ الْوَكِيلَ هُنَا بِمَعْنَى الرَّقِيبِ ، وَفِي سُورَةِ الْمُؤْمِنِ :

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) 40 : 62 قَامَ فِيهِ وَصْفُهُ بِالْخَلْقِ عَلَى كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ عَكْسَ مَا هُنَا ، لِأَنَّ مَا هُنَا رَدٌّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فَنَاسَبَ فِيهِ تَقْدِيمُ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ ، وَآيَةُ سُورَةِ " الْمُؤْمِنِ " جَاءَتْ بَيْنَ آيَاتٍ فِي خَلْقِ وَنِعَمِ اللَّهِ فِيهِ فَنَاسَبَ تَقْدِيمُ الْوَصْفِ بِالْخَلْقِ فِيهَا عَلَى التَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ نَتِيجَةٌ لِذَلِكَ وَغَايَةٌ .

*(85/245)*

---

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) الْبَصَرُ الْعَيْنُ إِلَّا أَنَّهُ مُذَكَّرٌ ، وَأَبْصَرْتُ الشَّيْءَ رَأَيْتُهُ ، وَقِيلَ : الْبَصَرُ حَاسَّةُ الرُّؤْيَةِ ، ابْنُ سِيدَهْ : الْبَصَرُ حُسْنُ الْعَيْنِ وَالْجَمْعُ أَبْصَارٌ ، ذَكَرَهُ فِي اللِّسَانِ وَقَالَ الرَّاغِبُ : الْبَصَرُ يُقَالُ لِلْجَارِحَةِ النَّاظِرَةِ ، نَحْوَ قَوْلِهِ : (كَلَمْحِ الْبَصَرِ) (وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ) 33 : 10 وَلِلْقُوَّةِ الَّتِي فِيهَا ، وَالْإِدْرَاكُ اللِّحَاقُ وَالْوُصُولُ إِلَى الشَّيْءِ ، قَالَ أَصْحَابُ

مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ، وَأَتْبَعَ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ بَنِي إِسْرَائِيلَ (فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ) 26 : 61 وَيُقَالُ : أَدْرَكَهُ الطَّرْفُ وَالْمَوْتُ وَمِنْهُ (حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ) 10 : 90 فِي كُلِّ ذَلِكَ مَعْنَى اللِّحَاقِ بَعْدَ اتِّبَاعٍ حِسِّيٍّ أَوْ مَعْنَوِيٍّ وَالدَّرْكُ - بِالْفَتْحِ - أَقْصَى قَعْرِ

(86/245)

---

الْبَحْرِ ، وَمِنْهُ (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) 4 : 145 قُرِئَ بِالْفَتْحِ وَالتَّحْرِيكِ ، وَقَالَ الرَّاغِبُ : الدَّرْجُ كَالدَّرْكِ لَكِنَّ الدَّرْجَ يُقَالُ بِاعْتِبَارِ الصُّعُودِ وَالدَّرْكَ اعْتِبَارًا بِالْحُدُورِ وَأَدْرَكَ بَلَغَ أَقْصَى الشَّيْءِ ، وَأَدْرَكَ الصَّبِيُّ بَلَغَ غَايَةَ الصِّبَا وَذَلِكَ حِينَ الْبُلُوغِ ، انْتَهَى وَيُقَالُ فِيمَا بَعُدَ أَوْ دَقَّ أَوْ خَفِيَ : لَا يُدْرِكُهُ الطَّرْفُ ، فَإِنَّ اجْتِهَادَ النَّظَرِ لِإِدْرَاكِ مَا لَطُفَ وَدَقَّ إِعْمَالُهُ فِي مُحَاوَلَةِ إِبْصَارِ الْبَعِيدِ ، فَفِي الْإِدْرَاكِ مَعْنَى اللُّحُوقِ وَمَعْنَى بُلُوغِ غَايَةِ الشَّيْءِ ، وَمِنْ هُنَا فَسَّرَ الْجُمْهُورُ الْإِدْرَاكَ فِي الْآيَةِ بِرُؤْيَةِ الْإِحَاطَةِ الَّتِي يُعْرَفُ بِهَا كُنْهُهُ عَزَّ وَجَلَّ فَتَكُونُ بِمَعْنَى (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا) 20 : 110 نَفْيُ إِحَاطَةِ الْعِلْمِ لَا يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ أَصْلِ الْعِلْمِ ، وَكَذَلِكَ نَفْيُ إِدْرَاكِ الْبَصَرِ لِلشَّيْءِ لَا يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ رُؤْيَتِهِ إِيَّاهُ مُطْلَقًا ، وَهَذَا أَقْوَى مَا جَمَعَ بِهِ أَهْلُ السُّنَّةِ بَيْنَ الْآيَةِ وَالْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ النَّاطِقَةِ بِرُؤْيَةِ الْمُؤْمِنِينَ

لِرَبِّهِمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ جِهَةِ اللُّغَةِ ، وَمَنْ سَلَّمَ لِلْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ مُنْكِرِي الرُّؤْيَةِ قَوْلَهُمْ إنَّ الْإِدْرَاكَ هُنَا بِمَعْنَى الرُّؤْيَةِ مُطْلَقًا قَالُوا : إنَّ النَّفْيَ خَاصٌّ بِحَالِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الَّتِي يَعْهَدُهَا الْمُخَاطَبُونَ وَلَا يَعْرِفُونَ فِيهَا رُؤْيَةً إلَّا لِلْأَجْسَامِ وَصِفَاتِهَا مِنَ الْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ ، وَهِيَ الَّتِي

(87/245)

---

يُشْتَرَطُ فِيهَا مَا ذَكَرُوهُ كَالْمُقَابَلَةِ وَعَدَمِ الْحَائِلِ ، وَقَالُوا : إنَّ عَائِشَةَ كَانَتْ تُثْبِتُ الرُّؤْيَةَ فِي الْآخِرَةِ وَتَنْفِيهَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَرَى مِنْ وَرَاءِهِ كَمَا يَرَى مِنْ أَمَامِهِ لِغَلَبَةِ رُوحِهِ الشَّرِيفَةِ اللَّطِيفَةِ عَلَى جُثَّتِهِ الْمَنِيفَةِ ، وَقَدْ جَلَّيْنَا مَسْأَلَةَ رُؤْيَةِ الرَّبِّ فِي الْآخِرَةِ فِي بَابِ الْفَتْوَى مِنْ مُجَلَّدِ الْمَنَارِ التَّاسِعَ عَشَرَ (ص 282 - 288) وَسَنَعُودُ إلَيْهَا فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : (لَنْ تَرَانِي) 7 : 143 مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَهُنَالِكَ نُلِمُّ بِمَسْلَكِ الصُّوفِيَّةِ فِي نَفْيِ الْإِدْرَاكِ وَإِثْبَاتِ الرُّؤْيَةِ لِلرَّبِّ ، بِتَجَلِّيهِ تَعَالَى الَّذِي يَكُونُ هُوَ بِهِ بَصَرُ الْعَبْدِ الثَّابِتُ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ " وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ " الْحَدِيثَ ، وَهُوَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ ، وَخُلَاصَةُ هَذَا

الْمَسْلَكِ أَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يَرَى نَفْسَهُ بِتَجَلِّيهِ فِي بَصَرِ عَبْدِهِ ، فَمَا يَرَى اللهُ إِلَّا اللهُ ، وِفَاقًا لِقَوْلِهِمْ : لَا يَعْرِفُ اللهَ إِلَّا اللهُ .

(88/245)

---

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ) فَمَعْنَاهُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَرَى الْعُيُونَ الْبَاصِرَةَ أَوْ قُوَى الْإِبْصَارِ الْمُودَعَةَ فِيهَا رُؤْيَةَ إِدْرَاكٍ وَإِحَاطَةٍ ، بِحَيْثُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ حَقِيقَتُهَا وَلَا مِنْ عَمَلِهَا شَيْءٌ ، وَقَدْ عَرَفَ الْبَشَرُ مِنْ تَشْرِيحِ الْعَيْنِ مَا تَتَرَكَّبُ مِنْهُ طَبَقَاتُهَا وَرُطُوبَاتُهَا وَوَظَائِفَ كُلٍّ مِنْهَا فِي ارْتِسَامِ الْمَرْئِيَّاتِ فِيهَا ، وَعَرَفُوا كَثِيرًا مِنْ سُنَنِ اللهِ تَعَالَى فِي النُّورِ وَوَظَائِفِهِ فِي رَسْمِ صُوَرِ الْأَشْيَاءِ فِي الْعَيْنَيْنِ ، وَلَكِنْ لَمْ يَعْرِفُوا كُنْهَ الرُّؤْيَةِ وَلَا كُنْهَ قُوَّةِ الْإِبْصَارِ وَلَا حَقِيقَةَ النُّورِ ، وَفِي لِسَانِ الْعَرَبِ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ : أَعْلَمَ اللهُ أَنَّهُ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ، وَفِي هَذَا الْإِعْلَامِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ خَلْقَهُ لَا يُدْرِكُونَ الْإِبْصَارَ ، أَيْ لَا يَعْرِفُونَ حَقِيقَةَ الْبَصَرِ ، وَمَا الشَّيْءُ الَّذِي صَارَ بِهِ الْإِنْسَانُ يُبْصِرُ مِنْ عَيْنَيْهِ دُونَ أَنْ يُبْصِرَ مِنْ غَيْرِهِمَا مِنْ سَائِرِ أَعْضَائِهِ فَاعْلَمْ أَنَّ خَلْقًا مِنْ خَلْقِهِ اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ ، فَأَمَّا مَا جَاءَ مِنَ الْأَخْبَارِ فِي الرُّؤْيَةِ وَصَحَّ عَنْ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَغَيْرُ مَدْفُوعٍ ، وَلَيْسَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى دَفْعِهَا ، لِأَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ إِدْرَاكُ الشَّيْءِ وَالْإِحَاطَةُ بِحَقِيقَتِهِ وَهَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ اهـ .

(وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) أَيْ وَهُوَ اللَّطِيفُ بِذَاتِهِ ، الْبَاطِنُ فِي غَيْبِ وَجُودِهِ بِحَيْثُ تَخْسَأُ الْأَبْصَارُ دُونَ إِدْرَاكِ حَقِيقَتِهِ ، عَلَى أَنَّهُ الظَّاهِرُ بِآيَاتِهِ الَّتِي تَعْرِفُهُ بِهَا الْعُقُولُ بِطَرِيقِ الْبُرْهَانِ ، الظَّاهِرُ فِي مَجَالِ رُبُوبِيَّتِهِ لِأَهْلِ الْعِرْفَانِ ، بِتَجَلِّيَاتِهِ الَّتِي تَكْمُلُ فِي الْآخِرَةِ فَيَكُونُ الْعِلْمُ بِهِ رُؤْيَةَ عِيَانٍ ، وَهُوَ فِي كُلٍّ مِنْ بُطُونِهِ وَظُهُورِهِ مُنَزَّهٌ عَنْ مُشَابَهَةِ الْخَلْقِ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَهُوَ الْخَبِيرُ بِدَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ وَلَطَائِفِهَا ، بِحَيْثُ لَا يَعْزُبُ عَنْ إِدْرَاكِهِ أَلْطَفُ أَرْوَاحِهَا وَقُوَاهَا وَلَا أَدَقُّ جَوَاهِرِهَا وَأَعْرَاضِهَا ، فَفِي الْآيَةِ لَفٌّ وَنَشْرٌ مُرَتَّبٌ .

اللَّطِيفُ مِنَ الْأَجْرَامِ ضِدُّ الْكَثِيفِ وَالْغَلِيظِ فَيُطْلَقُ عَلَى الدَّقِيقِ مِنْهَا وَالرَّقِيقِ ، وَاللَّطِيفُ مِنَ الطِّبَاعِ ضِدُّ الْجَافِي ، قَالَ فِي اللِّسَانِ : وَاللَّطِيفُ مِنَ الْأَجْرَامِ وَالْكَلَامِ مَا لَا خَفَاءَ فِيهِ ، وَجَارِيَةٌ لَطِيفَةٌ ضِدُّ الْجَافِيَةِ ، قَالَ فِي اللِّسَانِ : وَاللَّطِيفُ مِنَ الْأَجْرَامِ وَمِنَ الْكَلَامِ . مَا لَا خَفَاءَ فِيهِ وَجَارِيَةٌ لَطِيفَةُ الْخَصْرِ إِذَا كَانَتْ ضَامِرَةَ الْبَطْنِ ، وَاللَّطِيفُ مِنَ الْكَلَامِ مَا غَمُضَ مَعْنَاهُ وَخَفِيَ ، وَاللُّطْفُ فِي الْعَمَلِ الرِّفْقُ فِيهِ انْتَهَى ، وَكَذَا اللُّطْفُ فِي الْمُعَامَلَةِ هُوَ الرِّفْقُ الَّذِي لَا يَثْقُلُ مِنْهُ شَيْءٌ ، وَيُسْتَعْمَلُ فِعْلُهُ

لَازِمًا وَمُتَعَدِّيًا ، يُقَالُ : لَطُفَ الشَّيْءُ (بِوَزْنِ حَسُنَ) أَيْ صَغُرَ أَوْ دَقَّ وَصَارَ لَطِيفًا . وَيُقَالُ : لَطَفَ بِهِ وَلَطَفَ لَهُ (بِوَزْنِ نَصَرَ) وَقَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي تَفْسِيرِ اللَّطِيفِ . مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ

(91/245)

---

تَعَالَى : هُوَ الَّذِي اجْتَمَعَ لَهُ الرِّفْقُ فِي الْفِعْلِ وَالْعِلْمُ بِدَقَائِقِ الْمَصَالِحِ وَإِيصَالِهَا إلَى مَنْ قَدَّرَهَا لَهُ مِنْ خَلْقِهِ انْتَهَى . أَرْجَعَهُ إلَى صِفَاتِ الْأَفْعَالِ وَإِلَى الْعِلْمِ مِنْ صِفَاتِ الْمَعَانِي . وَهُوَ فِي الْأَوَّلِ أَظْهَرُ وَأَكْثَرُ مِنَ الثَّانِي ، فَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْحَجِّ بَعْدَ ذِكْرِ الْإِنْبَاتِ بِالْمَاءِ : (إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) 22 : 63 وَقَوْلُهُ فِي سُورَةِ الشُّورَى : (اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ) 42 : 19 أَيْ رَفِيقٌ بِهِمْ يُوصِلُ إلَيْهِمُ الْخَيْرَ وَالرِّزْقَ ، بِمُنْتَهَى الْعِنَايَةِ وَالرِّفْقِ . وَفِي سُورَةِ يُوسُفَ حِكَايَةٌ عَنْهُ (إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ) 12 : 100 فَسَّرُوهُ بِلُطْفِ التَّدْبِيرِ وَالْعِنَايَةِ بِهِ وَبِأَبَوَيْهِ وَإِخْوَتِهِ بِجَمْعِ شَمْلِهِمْ بَعْدَ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنَهُمْ . وَعَدَّ بَعْضُهُمْ مِنْ لُطْفِ الْعِلْمِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ لُقْمَانَ حِكَايَةً عَنْهُ (يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) 31 : 16 وَالْأَظْهَرُ فِي مَعْنَاهُ هُنَا أَنَّهُ اللَّطِيفُ بِاسْتِخْرَاجِهَا مِنْ كِنِّ خَفَائِهَا الْخَبِيرُ بِمَكَانِهَا مِنْهُ ،

وَنَزِيدُ عَلَيْهِمْ أَنَّ مِنْ لُطْفِهِ تَعَالَى جَعَلَ أَحْكَامَ دِينِهِ يُسْرًا لَا حَرَجَ فِيهَا وَهِيَ مِنْ صِفَةِ الْكَلَامِ الَّذِي هُوَ مَظْهَرٌ لِعِلْمِهِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ ، فِي آخِرِ مَا خَاطَبَ بِهِ نِسَاءَ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنَ الْمَوَاعِظِ

(92/245)

---

وَالْحِكَمِ وَالْأَحْكَامِ : (وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا) 33 : 34 فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الشَّاهِدُ عَلَى لُطْفِهِ تَعَالَى فِي ذَاتِهِ ، الْمُنَاسِبُ فِي الْكَمَالِ لِلُطْفِهِ فِي صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَحْكَامِهِ ، وَهُوَ الْآيَةُ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِ تَفْسِيرِهَا لَا يَظْهَرُ فِيهَا غَيْرُهُ

.

وَالْمُتَكَلِّمُونَ يَأْبَوْنَ جَعْلَ اللَّطِيفِ مِنْ صِفَاتِ الذَّاتِ لَهُ سُبْحَانَهُ - كَالرَّحِيمِ وَالْحَلِيمِ - وَالْأَثَرِيُّونَ وَالصُّوفِيَّةُ لَا يَأْبَوْنَ مِثْلَ ذَلِكَ بَلْ يُثْبِتُونَهُ ، وَقَدْ قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي الْآيَةِ كَلِمَةً تُشْبِهُ أَنْ تَكُونَ تَأْيِيدًا لِمَذَاهِبِ أَهْلِ الْأَثَرِ وَالصُّوفِيَّةِ وَهُوَ مُعْتَزِلِيٌّ مُبَالِغٌ فِي التَّنْزِيهِ ، وَقَدْ تَابَعَهُ عَلَيْهَا الْمُفَسِّرُونَ مِنَ الْأَشَاعِرَةِ وَغَيْرِهِمْ كَالرَّازِيِّ وَالْبَيْضَاوِيِّ وَأَبِي السُّعُودِ وَالْآلُوسِيِّ قَالَ : وَهُوَ لَطِيفٌ يَلْطُفُ عَنْ أَنْ تُدْرِكَهُ الْأَبْصَارُ ، الْخَبِيرُ بِكُلِّ لَطِيفٍ فَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ لَا تَلْطُفُ عَنْ إِدْرَاكِهِ ، وَهَذَا مِنْ بَابِ اللَّفِّ انْتَهَى . نَقَلُوا هَذَا الْمَعْنَى عَنْهُ وَجَعَلُوا اللَّطِيفَ مُسْتَعَارًا

مِنْ مُقَابِلِ الْكَثِيفِ لِمَا لَا يُدْرَكُ بِالْحَاسَّةِ وَلَا يَنْطَبِعُ فِيهَا .

قَالَ الْآلُوسِيُّ : وَيُفْهَمُ مِنْ ظَاهِرِ كَلَامِ الْبَهَائِيِّ - كَمَا قَالَ الشِّهَابُ - أَنَّهُ لَا اسْتِعَارَةَ فِي ذَلِكَ حَيْثُ قَالَ فِي شَرْحِ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى الْحُسْنَى : اللَّطِيفُ الَّذِي يُعَامِلُ عِبَادَهُ

(93/245)

---

بِاللُّطْفِ ، وَأَلْطَافُهُ جَلَّ شَأْنُهُ لَا تَتَنَاهَى ظَوَاهِرُهَا وَبَوَاطِنُهَا فِي الْأُولَى وَالْأُخْرَى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا) 14 : 34 وَقِيلَ : اللَّطِيفُ الْعَلِيمُ بِالْغَوَامِضِ وَالدَّقَائِقِ ، مِنَ الْمَعَانِي وَالْحَقَائِقِ ; وَلِذَا يُقَالُ لِلْحَاذِقِ فِي صَنْعَتِهِ لَطِيفٌ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنَ اللَّطَافَةِ الْمُقَابِلَةِ لِلْكَثَافَةِ . وَهُوَ وَإِنْ كَانَ فِي ظَاهِرِ الِاسْتِعْمَالِ مِنْ أَوْصَافِ الْجِسْمِ ، لَكِنَّ اللَّطَافَةَ الْمُطْلَقَةَ لَا تُوجَدُ فِي الْجِسْمِ لِأَنَّ الْجِسْمِيَّةَ يَلْزَمُهَا

الْكَثَافَةُ ، وَإِنَّمَا لَطَافَتُهَا بِالْإِضَافَةِ ، فَاللَّطَافَةُ الْمُطْلَقَةُ لَا يَبْعُدُ أَنْ يُوصَفَ بِهَا النُّورُ الْمُطْلَقُ الَّذِي يَجِلُّ عَنْ إِدْرَاكِ الْبَصَائِرِ فَضْلًا عَنِ الْأَبْصَارِ ، وَيَعِزُّ عَنْ شُعُورِ الْإِسْرَارِ فَضْلًا عَنِ الْأَفْكَارِ ، وَيَتَعَالَى عَنْ مُشَابَهَةِ الصُّوَرِ وَالْأَمْثَالِ ، وَيُنَزَّهُ عَنْ حُلُولِ الْأَلْوَانِ وَالْأَشْكَالِ ، فَإِنَّ كَمَالَ اللَّطَافَةِ إِنَّمَا يَكُونُ لِمَنْ هَذَا شَأْنُهُ ، وَوَصْفُ الْغَيْرِ بِهَا لَا يَكُونُ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، بَلْ بِالْقِيَاسِ إِلَى مَا دُونَهُ فِي اللَّطَافَةِ ، وَيُوصَفُ بِالْإِضَافَةِ إِلَيْهِ بِالْكَثَافَةِ ، انْتَهَى . وَتَعَقَّبَهُ

الْآلُوسِيُّ بِقَوْلِهِ : وَالْمُرَجَّحُ أَنَّ إِطْلَاقَ اللَّطِيفِ بِمَعْنَى مُقَابِلِ الْكَثِيفِ – عَلَى مَا يَنْسَاقُ إِلَى الذِّهْنِ – عَلَى اللهِ تَعَالَى لَيْسَ بِحَقِيقَةٍ أَصْلًا كَمَا لَا يَخْفَى اهـ .

(94/245)

---

وَأَقُولُ : إِنَّ مَا ذُكِرَ فِي هَذَا الْكَلَامِ اللَّطِيفُ مِنْ إِثْبَاتِ اللُّطْفِ بِالذَّاتِ لِلذَّاتِ الَّتِي لَا تُشْبِهُهَا الذَّوَاتُ ، وَمِنَ الْإِشَارَةِ إِلَى تَضْعِيفِ جَعْلِ اللَّطِيفِ بِمَعْنَى الْعَلِيمِ بِالدَّقَائِقِ كِلَاهُمَا مِنْ بَابِ الْحَقَائِقِ ، إِذْ مَا فُسِّرَ بِهِ اللَّطِيفَ هُنَا هُوَ مَعْنَى الْخَبِيرِ ، وَقَوْلُهُ : إِنَّ اللَّطَافَةَ الْمُطْلَقَةَ لَا تُوجَدُ فِي الْجِسْمِ إِلَخْ ، لَهُ وَجْهٌ مِنَ اللُّغَةِ ، وَلَكِنَّ الْجِسْمَ فِي عُرْفِ عُلَمَاءِ الْمَعْقُولِ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ وَالْحُكَمَاءِ أَعَمُّ مِنَ الْجِسْمِ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ ، وَمَدْلُولِ اشْتِقَاقِهَا . فَالْجِسْمُ فِي اللُّغَةِ مِنَ الْجَسَامَةِ أَيِ الضَّخَامَةِ ، وَهُوَ كَمَا فِي اللِّسَانِ وَغَيْرِهِ : جَمَاعَةُ الْبَدَنِ أَوِ الْأَعْضَاءِ مِنَ النَّاسِ وَالْإِبِلِ وَالدَّوَابِّ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأَنْوَاعِ الْعَظِيمَةِ الْخَلْقِ وَأَمَّا فِي عُرْفِ الْعُلَمَاءِ فَهُوَ الْقَابِلُ لِلْقِسْمَةِ أَوْ مَا لَهُ طُولٌ وَعَرْضٌ وَعُمْقٌ ، وَالْمَوْجُودَاتُ الْمَادِّيَّةُ أَعَمُّ مِنْ هَذَا أَيْضًا ، وَقَدْ عُرِفَ فِي عُلُومِ الْكَوْنِ وَاتِّسَاعِهَا فِي هَذَا الْعَصْرِ مَا هُوَ أَلْطَفُ مِنْ كُلِّ مَا كَانَ يُعْرَفُ فِي الْعُصُورِ الْخَالِيَةِ الَّتِي كَانَ يُضْرَبُ فِيهَا الْمَثَلُ بِلُطْفِ الْهَوَاءِ أَوِ النَّسِيمِ ، إِذْ ثَبَتَ أَنَّ هَذَا النَّسِيمَ اللَّطِيفَ مُرَكَّبٌ مِنْ عُنْصُرَيْنِ كُلٌّ مِنْهَا أَلْطَفُ مِنَ الْمَجْمُوعِ الْمُرَكَّبِ مِنْهُمَا ، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ

لِلْهَوَاءِ الْمُحِيطِ بِأَرْضِنَا حَدًّا قَرِيبًا ، وَأَنْ فِي الْكَوْنِ مَوْجُودًا آخَرَ أَلْطَفُ مِنْهُ وَمِنْ كُلٍّ مِنْ عُنْصُرَيْهِ وَأَمْثَالِهِمَا مِنَ الْعَنَاصِرِ الْبَسِيطَةِ اللَّطِيفَةِ

(95/245)

---

الْخَفِيَّةِ ، وَهُوَ الَّذِي يَحْمِلُ النُّورَ وَالْحَرَارَةَ

مِنَ الشُّمُوسِ وَالْكَوَاكِبِ الْمُتَفَاوِتَةِ الْأَبْعَادِ الشَّاسِعَةِ إِلَى هَوَائِنَا فَأَرْضِنَا وَيُسَمُّونَهُ (الْأَثِيرَ)

فَهَذَا الْمَوْجُودُ السَّارِي فِي جَمِيعِ الْكَائِنَاتِ ، الرَّابِطُ لِبَعْضِهَا بِبَعْضٍ كَمَا يَجْزِمُ بِهِ عُلَمَاءُ الْكَوْنِ نَظَرًا وَاسْتِدْلَالًا ، قَدْ لَطُفَ عَنْ أَدْرَاكِ الْعُيُونِ وَعَنْ تَصَرُّفِ أَيْدِي الْكِيمَاوِيِّينَ الَّذِينَ يُرْجِعُونَ الْمَاءَ وَالْهَوَاءَ وَغَيْرَهُمَا مِنَ الْمُرَكَّبَاتِ إِلَى بَسَائِطِهَا اللَّطِيفَةِ الَّتِي لَا تُرَى ، وَيَتَصَرَّفُونَ فِيهَا أَنْوَاعًا مِنَ التَّصَرُّفِ ، وَيَسْتَعْمِلُونَهَا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَضَارِّ وَالْمَنَافِعِ ، وَيَرَى بَعْضُ الْمُثْبِتِينَ لِاسْتِقْلَالِ الْأَرْوَاحِ الْبَشَرِيَّةِ وَقُدْرَتِهَا عَلَى الشَّكْلِ فِي الْأَشْبَاحِ اللَّطِيفَةِ وَالْكَثِيفَةِ أَنَّهَا تَسْتَعِينُ عَلَى هَذَا التَّشَكُّلِ بِالْأَثِيرِ ، فَأَلْطَفُ شَبَحٍ تَتَجَلَّى بِهِ يَتَّخِذُ مِنَ الْأَثِيرِ الْمُكَثَّفِ بَعْضَ التَّكْثِيفِ بِحَيْثُ تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ، وَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ مِنَ النُّفُوذِ فِي كَثَائِفِ الْأَجْرَامِ ، وَقَدْ تَأْخُذُ شَبَحًا لَهَا مِنْ جِسْمِ بَشَرٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ تَنَاسُبٌ كَمُسْتَحْضِرِي . الْأَرْوَاحِ ، فَإِذَا خُلِعَتِ الرُّوحُ مِنْ

هَذَا الثَّوْبِ امْتَنَعَتْ رُؤْيَتُهَا لِتَنَاهِي لَطَافَتِهَا .

وَإِذَا كَانَ كُلُّ مَوْجُودٍ فِي كُلِّ رُتْبَةٍ مِنْ رُتَبِ الْوُجُودِ ، وَكُلِّ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ تِلْكَ

(96/245)

---

الرُّتَبِ قَدِ اسْتَفَادَ وُجُودَهُ وَصِفَاتِهِ مِنَ الْخَالِقِ الْحَكِيمِ ، وَكَانَ اللُّطْفُ مِنْ تِلْكَ الصِّفَاتِ الَّتِي أَشَرْنَا إِلَى تَفَاوُتِهَا الْعَظِيمِ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لُطْفُهُ تَعَالَى أَدَقَّ وَأَخْفَى مِنْ لُطْفِهَا ، وَإِذَا كَانَ لُطْفُ بَعْضِهَا لَا يَسْتَلْزِمُ الْجِسْمِيَّةَ اللُّغَوِيَّةَ وَلَا الْعُرْفِيَّةَ فَلُطْفُهُ عَزَّ وَجَلَّ أَجْدَرُ بِذَلِكَ وَأَحَقُّ ، فَعُلَمَاؤُنَا كَافَّةً وَالرُّوحِيُّونَ مِنْ عُلَمَاءِ الْإِفْرِنْجِ وَغَيْرِهِمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ – كَمَا يَقُولُ الصُّوفِيَّةُ – بِتَجَلِّي أَرْوَاحِ الْمَوْتَى فِي صُوَرٍ مُتَفَاوِتَةٍ فِي اللُّطْفِ ، وَبِتَجَرُّدِ بَعْضِ أَرْوَاحِ الْأَحْيَاءِ وَظُهُورِهَا فِي أَشْبَاحٍ لَطِيفَةٍ أُخْرَى ، وَالرُّوحِيُّونَ الْمُنْكِرُونَ مِنْهُمْ لِذَلِكَ – كُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الرُّوحَ لَمْ يُعْرَفْ كُنْهُهَا ، وَأَنَّهَا أَلْطَفُ وَأَخْفَى مِنَ الْأَثِيرِ وَمِنَ الْبَسَائِطِ الْمَادِّيَّةِ بِأَسْرِهَا ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ عَاقِلَةٌ مُتَصَرِّفَةٌ ، وَالْمَادِّيُّونَ يَقُولُونَ : إِنَّ مَادَّةَ الْكَوْنِ الْأُولَى الَّتِي ظَهَرَتْ فِيهَا صُوَرُ جَمِيعِ الْعَنَاصِرِ وَمُرَكَّبَاتِهَا لَا يُعْرَفُ لَهَا كُنْهٌ ، وَلَا يُدْرِكُهَا طَرْفٌ ، وَلَا يُوضَعُ لَهَا حَدٌّ ، وَإِنَّهَا فِي مُنْتَهَى اللُّطْفِ وَهِيَ أَزَلِيَّةٌ أَبَدِيَّةٌ فَجَمِيعُ الْعُلَمَاءِ مِنْ رُوحِيِّينَ وَمَادِّيِّينَ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ لُطْفَ ذَاتِ الشَّيْءِ لَا يَسْتَلْزِمُ التَّرْكِيبَ وَلَا الْحَدَّ وَلَا التَّحَيُّزَ ، فَلُطْفُ ذَاتِ

الْخَالِقِ أَوْلَى بِتَنَزُّهِهِ عَنْ ذَلِكَ . وَإِنَّمَا فَرَّ الْمُتَكَلِّمُونَ مِنْ هَذِهِ اللَّوَازِمِ حَتَّى لَجَأَ بَعْضُهُمْ إِلَى التَّعْطِيلِ وَبَعْضُهُمْ إِلَى

(97/245)

---

التَّأْوِيلِ لِأَكْثَرِ

مَا وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ نَفْسَهُ فِي كُتُبِهِ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا مِنْ قِيَاسِ الْغَائِبِ عَلَى الْحَاضِرِ وَالْوَاجِبِ عَلَى الْجَائِزِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ . وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ، السَّمِيعُ الْبَصِيرُ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ، وَهُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

(قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ 104 وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ 105 اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ 106 وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ) 107 .

الْآيَاتُ السَّابِقَةُ كُلُّهَا فِي الْإِلَهِيَّاتِ مِنْ عَقَائِدِ الدِّينِ ، وَهَذِهِ الْآيَاتُ فِي التَّنْبِيهِ لِمَكَانَتِهَا مِنَ الْهِدَايَةِ ، وَفِي الْمُبَلِّغِ لَهَا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَا يَقُولُ الْمُشْرِكُونَ فِيهِ ، وَإِعْلَامِهِ بِسُنَّةِ اللَّهِ فِيهِمْ مِنْ حَيْثُ هُمْ بَشَرٌ ، وَمَا يَجِبُ عَلَيْهِ وَمَا يُنْفَى عَنْهُ فِي هَذَا الْمَقَامِ . قَالَ تَعَالَى :

(قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ) الْبَصَائِرُ : جَمْعُ بَصِيرَةٍ وَلَهَا مَعَانٍ مِنْهَا عَقِيدَةُ الْقَلْبِ وَالْمَعْرِفَةُ الثَّابِتَةُ بِالْيَقِينِ ، أَوِ الْيَقِينُ فِي الْعِلْمِ بِالشَّيْءِ وَالْعِبْرَةُ وَالشَّاهِدُ ، أَوِ الشَّهِيدُ الْمُثْبِتُ لِلْأَمْرِ ، وَالْحُجَّةُ أَوِ الْفِطْنَةُ ، أَوِ الْقُوَّةُ الَّتِي تُدْرَكُ بِهَا الْحَقَائِقُ الْعِلْمِيَّةُ . وَهَذَا يُقَابِلُ الْبَصَرَ الَّذِي تُدْرَكُ بِهِ الْأَشْيَاءُ الْحِسِّيَّةُ ، وَمِنْهُ قَوْلُ مُعَاوِيَةَ لِبَعْضِ بَنِي هَاشِمٍ : إِنَّكُمْ يَا بَنِي هَاشِمٍ تُصَابُونَ فِي أَبْصَارِكُمْ . وَقَوْلُ الْهَاشِمِيِّ لَهُ : وَأَنْتُمْ يَا بَنِي أُمَيَّةَ تُصَابُونَ فِي بَصَائِرِكُمْ . أَيْ قُلُوبِكُمْ وَعُقُولِكُمْ . وَالْمُرَادُ بِالْبَصَائِرِ هُنَا : الْآيَاتُ الْوَارِدَةُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ أَوْ فِي هَذَا السِّيَاقِ الَّذِي أَوَّلُهُ (إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى) أَوْ هِيَ وَمَا فِي مَعْنَاهَا مِنَ الْآيَاتِ الْمُثْبِتَةِ لِحَقَائِقِ الدِّينِ أَوِ الْقُرْآنِ بِجُمْلَتِهِ ، وَرُبَّمَا يَرْجِعُ هَذَا بِتَذْكِيرِ الْفِعْلِ " جَاءَكُمْ " إِذْ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ نُكْتَةٍ فِي الْكَلَامِ الْبَلِيغِ لِأَنَّهُ خِلَافُ الْأَصْلِ وَإِنْ كَانَ جَائِزًا ، وَأَقْوَى النُّكَتِ وُقُوعُ اللَّفْظِ الْمُؤَنَّثِ عَلَى مَعْنَى مُذَكَّرٍ ، وَالْخِطَابُ وَارِدٌ عَلَى لِسَانِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَمَا قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ

وَغَيْرُهُ ، فَالْمَعْنَى قَدْ جَاءَكُمْ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْجَلِيَّةِ بَصَائِرُ مِنَ الْحُجَجِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْكَوْنِيَّةِ ، تُثْبِتُ لَكُمْ عَقَائِدَ الْحَقِّ الْيَقِينِيَّةِ الَّتِي يَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا نَيْلُ السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ ، جَاءَكُمْ ذَلِكَ مِنْ رَبِّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَسَوَّاكُمْ ، وَرَبَّى أَجْسَادَكُمْ وَمَشَاعِرَكُمْ وَسَائِرَ قُوَاكُمْ ، لِيُرَبِّيَ بِهَا أَرْوَاحَكُمْ ، بِأَحْسَنِ مِمَّا رَبَّى بِهِ أَشْبَاحَكُمْ (فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ) أَيْ فَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا الْحَقَّ وَالْهُدَى ، فَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ، فَلِنَفْسِهِ أَبْصَرَ وَلِسَعَادَتِهَا مَا قَدَّمَ مِنَ الْخَيْرِ وَأَخَّرَ (وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا) أَيْ وَمَنْ عَمِيَ عَنِ الْحَقِّ بِإِعْرَاضِهِ عَنْهَا وَعَدَمِ النَّظَرِ وَالِاسْتِبْصَارِ بِهَا ، فَأَصَرَّ عَلَى ضَلَالِهِ ، ثَبَاتًا عَلَى عِنَادِهِ أَوْ تَقْلِيدِ آبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ ، فَعَلَيْهَا جَنَى وَإِيَّاهَا أَرْدَى ، وَلَعَمَى الْبَصَائِرِ شَرٌّ مِنْ عَمَى الْأَبْصَارِ . وَأَسْوَأُ عَاقِبَةً فِي هَذِهِ الدَّارِ وَفِي تِلْكَ الدَّارِ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا) ، وَقَوْلِهِ : (لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) 2 : 286 وَقَوْلِهِ (إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) 17 : 7 وَقَوْلُهُ هُنَا : " فَلَهَا " بِمَعْنَى فَعَلَيْهَا وَنُكْتَتُهُ الْمُشَاكَلَةُ أَوِ الِازْدِوَاجُ وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ (وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ) يُرَاقِبُ أَعْمَالَكُمْ وَيُحْصِيهَا لِيُجَازِيَكُمْ عَلَيْهَا ، وَإِنَّمَا أَنَا بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ هُوَ الرَّقِيبُ الْحَفِيظُ ، فَهُوَ

*(100/245)*

يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَيَجْزِيكُمْ عَلَيْهِ بِمَا تَسْتَحِقُّونَ ، فَعَلَيْهِ وَحْدُهُ الْحِسَابُ ، وَمَا عَلَيَّ إِلَّا الْبَلَاغُ .

(وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ) أَيْ وَمِثْلَ ذَلِكَ التَّصْرِيفِ وَالتَّفَنُّنِ الْعَلِيِّ الشَّأْنِ الْبَعِيدِ الشَّأْوِ فِي فُنُونِ الْمَعَانِي وَأَفْنَانِ الْبَيَانِ – الَّذِي تَرَاهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ أَوْ هَذَا السِّيَاقِ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ فِي سَائِرِ الْقُرْآنِ ، لِإِثْبَاتِ أُصُولِ الْأَدْيَانِ ، وَالْهِدَايَةِ لِأَحَاسِنِ الْآدَابِ وَالْأَعْمَالِ ، فَنُحَوِّلُهَا مِنْ نَوْعٍ إِلَى نَوْعٍ وَمِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ ، مُرَاعَاةً لِلْعُقُولِ وَالْأَفْهَامِ ، وَلِاخْتِلَافِ اسْتِعْدَادِ الْأَفْرَادِ وَالْأَقْوَامِ

(وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ) الْمَعْنَى الْعَامُّ لِلدَّرْسِ تَكْرَارُ الْمُعَالَجَةِ وَتَتَابُعُ الْفِعْلِ عَلَى الشَّيْءِ حَتَّى يَذْهَبَ بِهِ

أَوْ يَصِلَ إِلَى الْغَايَةِ مِنْهُ ، يُقَالُ : دَرَسَ الشَّيْءُ كَرَسْمِ الدَّارِ وَآثَارِهَا يَدْرُسُ (مِنْ بَابِ قَعَدَ) إِذَا عَفَا وَزَالَ بِفِعْلِ الرِّيحِ أَوْ تَتَابُعِ الْمَشْيِ عَلَيْهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ فَهُوَ دَارِسٌ ، وَدَرَسَتْهُ الرِّيحُ أَوْ غَيْرُهَا ، وَدَرَسَ اللَّابِسُ الثَّوْبَ دَرْسًا أَخْلَقَهُ وَأَبْلَاهُ فَهُوَ دَرِيسٌ ، وَدَرَسُوا الطَّعَامَ أَيِ الْقَمْحَ دَاسُوهُ لِيَتَكَسَّرَ فَيُفَرَّقَ بَيْنَ حَبِّهِ وَتِبْنِهِ ، وَدَرَسَ النَّاقَةَ دَرْسًا رَاضَهَا ، وَدَرَسَ الْكِتَابَ وَالْعِلْمَ يَدْرُسُهُ دَرْسًا وَدِرَاسَةً

*(101/245)*

وَدَارَسَهُ مُدَارَسَةً – مِنْ ذَلِكَ . قَالَ فِي اللِّسَانِ عَقِبَ نَقْلِهِ كَأَنَّهُ عَانَدَهُ حَتَّى انْقَادَ لِحِفْظِهِ ، ثُمَّ قَالَ : وَدَرَسْتُ الْكِتَابَ أَدْرُسُهُ أَيْ ذَلَّلْتُهُ بِكَثْرَةِ الْقِرَاءَةِ حَتَّى خَفَّ حِفْظُهُ عَلَيَّ مِنْ ذَلِكَ ، وَالدِّرْسَةُ بِالضَّمِّ الرِّيَاضَةُ فَفِي كُلِّ مَا ذُكِرَ مَعْنَى تَكْرَارِ الْعَمَلِ وَمُتَابَعَتِهِ حَتَّى بُلُوغِ الْغَايَةِ مِنْهُ . قَرَأَ الْجُمْهُورُ (دَرَسْتَ) فِعْلًا مَاضِيًا لِلْمُخَاطَبِ ، وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو (دَارَسْتَ) لِلْمُشَارَكَةِ وَهِيَ مَرْوِيَّةٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ ، وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ وَيَعْقُوبُ (دَرَسَتْ) بِفَتْحِ السِّينِ وَسُكُونِ التَّاءِ وَهِيَ مَرْوِيَّةٌ عَنْ أُبَيٍّ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ الزُّبَيْرِ وَالْحَسَنِ . وَالتَّعْلِيلُ فِي قَوْلِهِ : (دَرَسْتَ) خَاصٌّ مَعْطُوفٌ عَلَى تَعْلِيلٍ عَامٍّ يُعْرَفُ مِنَ الْقَرِينَةِ .

*(102/245)*

---

وَالْمَعْنَى وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ عَلَى أَنْوَاعٍ شَتَّى لِيَهْتَدِيَ بِهَا الْمُسْتَعِدُّونَ لِلْإِيمَانِ عَلَى اخْتِلَافِ الْعُقُولِ وَالْأَفْهَامِ ، وَلِيَقُولَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ – الْجَاحِدُونَ الْمُعَانِدُونَ مِنْهُمْ وَالْمُقَلِّدُونَ – قَدْ دَرَسْتَ مِنْ قَبْلُ يَا مُحَمَّدُ وَتَعَلَّمْتَ ، وَلَيْسَ هَذَا بِوَحْيٍ مُنَزَّلٍ كَمَا زَعَمْتَ وَقَدْ قَالُوا مِثْلَ هَذَا إِفْكًا وَزُورًا وَزَعَمُوا أَنَّهُ تَعَلَّمَ مِنْ غُلَامٍ رُومِيٍّ كَانَ يَصْنَعُ السُّيُوفَ فِي مَكَّةَ قِيلَ إِنَّهُ كَانَ يَخْتَلِفُ إِلَيْهِ كَثِيرًا . وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ النَّحْلِ : (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) 16 : 103 أَوْ

لِيَقُولُوا : دَارَسْتَ الْعُلَمَاءَ وَذَاكَرْتَهُمْ وَجِئْتَنَا بِمَا تَلَقَّيْتَهُ عَنْهُمْ ، أَوْ دَرَسَتْ هَذِهِ الْعَقَائِدُ وَمُحِيَتْ بِمَعْنَى أَنَّهَا أَسَاطِيرُ قَدِيمَةٌ قَدْ رَثَتْ وَخَلَقَتْ ، وَهَاتَانِ الْقِرَاءَتَانِ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا 25 : 4 ، 5 وَأَظْهَرُ مِنْهُ فِي تَأْيِيدِ الْقِرَاءَةِ الْأَخِيرَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ قَوْمِ هُودٍ فِي الشُّعَرَاءِ : (قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) 26 : 136 - 138 وَحِكْمَةُ الْقِرَاءَاتِ

*(103/245)*

---

الثَّلَاثِ حِكَايَةُ أَقْوَالِ ثَلَاثِ فِئَاتٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَهُوَ مِنْ إِيجَازِ الْقُرْآنِ الْعَجِيبِ فِي الْكَلِمِ وَالرَّسْمِ .

قِيلَ : إِنَّ اللَّامَ فِي قَوْلِهِ " وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ " لِلْعَاقِبَةِ وَالصَّيْرُورَةِ ، أَيْ لِيَكُونَ عَاقِبَةُ تَصْرِيفِ الْآيَاتِ أَنْ يَقُولَ الرَّاسِخُونَ فِي الشِّرْكِ مِثْلَ هَذَا الْقَوْلِ مُكَابَرَةً وَعِنَادًا وَجُحُودًا وَإِلْحَادًا .

وَقِيلَ : إِنَّ هَذَا تَعْلِيلٌ صَحِيحٌ يُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا) 2 : 26 وَنَقُولُ : لَيْسَ مَعْنَى يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا أَنَّ الْإِضْلَالَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الَّتِي

أُنْزِلَ

لِأَجْلِهَا أَوِ الَّتِي مِنْ شَأْنِ الْقُرْآنِ نَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ عِلَّةً وَسَبَبًا لَهَا ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَتَرَتَّبُ عَلَى وُجُودِهِ إِعْرَاضُ فَاسِدِي الْفِطْرَةِ عَنْهُ وَضَلَالُهُمْ بِسَبَبِ الْكُفْرِ بِهِ ، فَهُوَ بِمَعْنَى الْعَاقِبَةِ الَّتِي تَتَرَتَّبُ عَلَى إِنْزَالِهِ كَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَى جَمِيعِ الْمَنَافِعِ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ لِلنَّاسِ فِي الْأَنْفُسِ وَالْآفَاقِ مَضَارُّ كَثِيرَةٌ مِنْ سُوءِ الِاسْتِعْمَالِ .

*(104/245)*

---

(وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) أَيْ وَلِنُبَيِّنَ هَذَا الْقُرْآنَ الْمُشْتَمِلَ عَلَى مَا ذُكِرَ مِنْ تَصْرِيفِ الْآيَاتِ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ بَعْضُ الْمُكَابِرِينَ إِنَّهُ أَثَرُ دَرْسٍ وَاجْتِهَادٍ ، أَوْ لِنُبَيِّنَ التَّصْرِيفَ الْمَفْهُومَ مِنْ " نُصَرِّفُ " لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بِالْفِعْلِ وَبِالِاسْتِعْدَادِ ، الَّذِي لَا يُعَارِضُهُ تَقْلِيدٌ وَلَا عِنَادٌ ، مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْآيَاتُ مِنَ الْحَقَائِقِ ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَى الِاهْتِدَاءِ بِهَا مِنَ السَّعَادَةِ فَعُلِمَ مِنْ عَطْفِ هَذَا عَلَى مَا قَبْلَهُ أَنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ لِلرَّسُولِ إِنَّكَ دَرَسْتَ أَوْ دَارَسْتَ حَتَّى جِئْتَ بِهَذِهِ الْآيَاتِ الْمُنَزَّلَةِ إِذْ كَانَتْ أَثَرَ الدَّرْسِ أَوِ الْمُدَارَسَةِ هُمُ الْجَاهِلُونَ الَّذِينَ لَمْ يَفْهَمُوا تِلْكَ الْآيَاتِ الَّتِي صَرَفَهَا اللَّهُ عَلَى أَنْوَاعٍ أَوْ أَشْتَاتٍ ، أَوْ لَمْ يَفْهَمُوا سِرَّهَا وَمَا يَجِبُ مِنْ إِيثَارِهَا عَلَى مَنَافِعِ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا . وَأَمَّا الَّذِينَ

يَعْلَمُونَ مَدْلُولَاتِهَا وَحَسُنَ عَاقِبَةِ الِاهْتِدَاءِ بِهَا ، فَهُمُ الَّذِينَ يَتَبَيَّنُ لَهُمْ بِتَأَمُّلِهَا حَقِيقَةَ الْقُرْآنِ أَوْ مَا فِي التَّصْرِيفِ لَهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْبَيَانِ ، الْمُؤَيِّدِ بِالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ .

(105/245)

---

وَلِلْمُفَسِّرِينَ فِي الْآيَةِ أَقْوَالٌ أُخْرَى مَنْقُوصَةٌ مِنْهَا قَوْلُ بَعْضِهِمْ : إنَّ الْمُرَادَ بِدَارَسْتَ قَارَأْتَ الْيَهُودَ فَحَفِظْتَ عَنْهُمْ بَعْضَ مَعَانِي هَذِهِ الْآيَاتِ ، وَيَنْهَضُ هَذَا بِمَا هُوَ مَعْلُومٌ عَلَى سَبِيلِ الْقَطْعِ مِنْ نُزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ فِي أَوَائِلِ الْبَعْثَةِ بِمَكَّةَ ، وَلَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَقِيَ أَحَدًا مِنَ الْيَهُودِ إذْ لَمْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِهَا ، وَلَوْ تَلَقَّى عَنْهُمْ كُتُبَهُمْ بِالْمُدَارَسَةِ لَمَا سَكَتُوا عَنْ بَيَانِ ذَلِكَ لِمُشْرِكِي مَكَّةَ حِينَ أَرْسَلُوا إلَيْهِمْ يَسْأَلُونَهُمْ عَنْهُ وَلِغَيْرِهِمْ مِنْ قَوْمِهِمْ وَمِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَلِأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُهَيْمِنٌ عَلَى كُتُبِهِمْ (5 : 48) قَدْ بَيَّنَ أَنَّ مَا عِنْدَهُمْ مُحَرَّفٌ وَفِيهِ زِيَادَةٌ عَمَّا جَاءَ بِهِ أَنْبِيَاؤُهُمْ ، وَنَقْصٌ بِمَا نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ كَمَا بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ أَوَّلِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ وَتَفْسِيرِ النِّسَاءِ (4 : 46) وَالْمَائِدَةِ (5 : 14) : فَلْيُرَاجَعْ فِي الْجُزْئَيْنِ 5 ، 6 مِنَ التَّفْسِيرِ - كَمَا أَنَّهُ بَيَّنَ لَهُمْ كَثِيرًا مِمَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ (5 : 15) وَهُوَ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى أَتَمُّ وَأَكْمَلُ لِأَنَّهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ الَّذِي أَكْمَلَ

اللَّهُ عَلَى لِسَانِهِ الدِّينَ .

(وَمِنْهَا) قَوْلُ آخَرِينَ : إنَّ "لِيَقُولُوا دَارَسْتَ" عَلَى النَّفْيِ ، أَيْ لِئَلَّا يَقُولُوا

(106/245)

---

ذَلِكَ قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَنَقَلَهُ الرَّازِيُّ عَنِ الْقَاضِي مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَرَدَّهُ أَشَدَّ الرَّدِّ وَلَهُ الْحَقُّ ، وَلَكِنَّهُ غَيْرُ مُصِيبٍ فِي جَعْلِ الْعِبَارَةِ مِمَّا يُحْتَجُّ بِهِ عَلَى الْجَبْرِ أَوِ الْقَدَرِ .

(وَمِنْهَا) قَوْلُ الرَّازِيِّ : إنَّ الْكُفَّارَ كَانُوا يَقُولُونَ فِي نُزُولِ الْقُرْآنِ نُجُومًا : إنَّ مُحَمَّدًا يَضُمُّ هَذِهِ الْآيَاتِ بَعْضَهَا إلَى بَعْضٍ وَيَتَفَكَّرُ فِيهَا وَيُصْلِحُهَا آيَةً فَآيَةً ثُمَّ يُظْهِرُهَا ، وَلَوْ كَانَتْ وَحْيًا لَجَاءَ بِهَا دُفْعَةً وَاحِدَةً كَمَا جَاءَ مُوسَى بِالتَّوْرَاةِ دُفْعَةً وَاحِدَةً ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَ تَصْرِيفُ الْآيَاتِ حَالًا فَحَالًا هُوَ الَّذِي أَوْقَعَ الشُّبْهَةَ لِلْقَوْمِ فِي أَنَّ الْقُرْآنَ نَتِيجَةُ مُدَارَسَةٍ وَمُذَاكَرَةٍ مَعَ آخَرِينَ . وَنَقُولُ : إنَّ هَذَا الْكَلَامَ رَأْيٌ جَدَلِيٌّ مُلَفَّقٌ لَا يَصِحُّ بِهِ فِي جُمْلَتِهِ نَقْلٌ ، فَالْعَرَبُ لَمْ تَكُنْ تَعْتَقِدُ أَنَّ مُوسَى جَاءَ بِالتَّوْرَاةِ جُمْلَةً وَاحِدَةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَلَا أَهْلُ الْكِتَابِ وَإِنَّمَا تِلْكَ الْوَصَايَا الْعَشْرُ فَقَطْ ، وَسَائِرُ أَحْكَامِ التَّوْرَاةِ نَزَلَتْ مُتَفَرِّقَةً بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ فِي أَمْكِنَةٍ مُخْتَلِفَةٍ كَالْقُرْآنِ .

(107/245)

وَتِلْكَ الْوَصَايَا لَا تَبْلُغُ عُشْرَ هَذِهِ السُّورَةِ (الْأَنْعَامِ) الَّتِي نَزَلَتْ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِهَا ، بَلْ لَا تَزِيدُ عَلَى نِصْفِ الْعُشْرِ إلَّا قَلِيلًا وَلَعَلَّ كَثْرَةَ مَا فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى أُصُولِ الدِّينِ هُوَ الَّذِي حَمَلَ بَعْضَ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ مَعْنَى (وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ) وَلِئَلَّا يَقُولُوا دَرَسْتَ ، فَإِنَّ الْمَجِيءَ بِهَذِهِ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ الْمُنْتَظِمَةِ لِلْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ الْمُخْتَلِفَةِ دُفْعَةً وَاحِدَةً مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَمْنَعَ الْمُنْصِفَ مِنْ دَعْوَى اقْتِبَاسِ الْقُرْآنِ بِالْمُدَارَسَةِ مَعَ آخَرِينَ ، وَأَيْنَ هَؤُلَاءِ الْمُدَارِسُونَ ؟ وَلِمَ لَمْ يَظْهَرْ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَلَا مِنَ الرَّسُولِ نَفْسِهِ فِي مُدَّةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْمَعَارِفِ الْعَالِيَةِ ، وَالْبَلَاغَةِ الْمُعْجِزَةِ ؟ كَلَّا إنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ جُحُودًا وَمُكَابَرَةً ، وَرُبَّمَا نَطَقَ بِهِ بَعْضُهُمْ بَادِيَ الرَّأْيِ مِنْ غَيْرِ تَفَكُّرٍ فِي مُخَالَفَتِهِ لِمَا هُوَ مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ عِنْدَهُمْ مِنْ كَوْنِهِ أُمِّيًّا وَكَوْنِهِ احْتَجَّ عَلَى جُمْهُورِهِمْ فِي ذَلِكَ بِمِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى فِيهِ : (قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) 10 : 16 وَقَوْلِهِ (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ) 29 : 48 وَهَذِهِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَرْتَابُوا وَإِنَّمَا هِيَ الْمُكَابَرَةُ .

*(108/245)*

(اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ أَنَّ النَّاسَ فَرِيقَانِ ، فَرِيقٌ قَدْ فَسَدَتْ فِطْرَتُهُمْ وَلَمْ يَبْقَ فِيهِ اسْتِعْدَادٌ لِلِاهْتِدَاءِ بِتِلْكَ الْبَصَائِرِ الْمُنَزَّلَةِ وَلَا الْعِلْمِ بِمَا فِيهَا مِنْ تَصْرِيفِ الْآيَاتِ الْبَيِّنَةِ ، فَحَظُّهُمْ مِنْهَا مُكَابَرَتُهَا وَجُحُودُ تَنْزِيلِهَا وَفَرِيقٌ يَعْلَمُونَ ، وَبِالْبَيَانِ يَهْتَدُونَ - أَمَرَهُ

(109/245)

---

أَنْ يَتَّبِعَ مَا أُوحِيَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ، بِالْبَيَانِ لَهُ وَالْعَمَلِ بِهِ ، مُشِيرًا بِإِضَافَةِ اسْمِ الرَّبِّ إِلَى ضَمِيرِهِ ، وَنَاصِبًا إِيَّاهُ إِمَامًا لِجَمِيعِ أَبْنَاءِ جِنْسِهِ ، يَتَرَبَّى بِهِ مِنْ وُفِّقَ مِنْهُمْ لِاتِّبَاعِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الِاقْتِدَاءَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِمَنْ يَعْمَلُ بِمَا يَعْلَمُ وَيَأْتَمِرُ بِمَا أُمِرَ ، وَقَرَنَ هَذَا الْأَمْرَ بِكَلِمَةِ تَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ ، لِبَيَانِ وُجُوبِ مُلَازَمَتِهِ لِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ ، فَكَمَا أَنَّ الْخَالِقَ الْمُرَبِّي لِلْأَشْبَاحِ بِمَا أَنْزَلَ مِنَ الرِّزْقِ ، وَلِلْأَرْوَاحِ بِمَا أَنْزَلَ مِنَ الْوَحْيِ ، وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي الْخَلْقِ وَلَا فِي الْهِدَايَةِ ، فَالْوَاجِبُ أَنْ يَكُونَ الْإِلَهُ الْمَعْبُودُ وَاحِدًا لَا شَرِيكَ لَهُ فِي الْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ بِشَفَاعَةٍ وَلَا وِلَايَةٍ ، فَالْأَمْرُ هُنَا بِالِاتِّبَاعِ لَيْسَ الْغَرَضُ مِنْهُ مُجَرَّدَ الْمُدَاوَمَةِ عَلَيْهِ كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فِي أَكْثَرِ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَمَلِ مَنْ هُوَ مُتَلَبِّسٌ بِهِ ، وَإِنَّمَا الْغَرَضُ مِنْهُ بَيَانُ كَوْنِهِ مِنْ مُتَمِّمَاتِ التَّبْلِيغِ ، ثُمَّ عَطَفَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ الْمَقْرُونِ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ ، أَمْرَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالْإِعْرَاضِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ،

بِأَنْ لَا يُبَالِيَ بِإِصْرَارِهِمْ عَلَى الشِّرْكِ ، وَلَا بِمِثْلِ قَوْلِهِمْ لَهُ : دَارَسْتَ أَوْ دَرَسْتَ لِأَنَّ الْحَقَّ يَعْلُو مَتَى ظَهَرَ بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ مَعَ الْإِخْلَاصِ ، لَا يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ بِخُرَافَاتِ الْأَعْمَالِ وَلَا بِزَخَارِفِ الْأَقْوَالِ ، ثُمَّ هَوَّنَ عَلَيْهِ أَمْرَ الْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ : (وَلَوْ شَاءَ

(110/245)

---

اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا) إلَخْ . أَيْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى أَلَّا يُشْرِكُوا لَمَا أَشْرَكُوا بِأَنْ يَخْلُقَ الْبَشَرَ مُؤْمِنِينَ طَائِعِينَ بِالْفِطْرَةِ كَالْمَلَائِكَةِ ، وَلَكِنَّهُ خَلَقَهُمْ مُسْتَعِدِّينَ لِلْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ وَالتَّوْحِيدِ وَالشِّرْكِ وَالطَّاعَةِ وَالْفِسْقِ ، وَمَضَتْ سُنَّتُهُ فِي ذَلِكَ بِأَنْ يَكُونُوا عَامِلِينَ مُخْتَارِينَ فَأَمَّا غَرَائِزُهُمْ وَفِطَرُهُمْ فَكُلُّهَا خَيْرٌ ، وَأَمَّا تَصَرُّفُهُمْ وَكَسْبُهُمْ لِعُلُومِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ فَمِنْهُ الْخَيْرُ وَالشَّرُّ ، وَقَدْ فَصَّلْنَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ مِنْ قَبْلُ : (وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ) وَإِنَّمَا أَنْتَ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ، وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْحَفِيظُ وَالْوَكِيلُ عَلَيْهِمْ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ لَا يَسْلُبُهُمُ اسْتِعْدَادَهُمْ ، وَلَا يُجْبِرُهُمْ بِقُدْرَتِهِ عَلَى الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ لَهُ ، إذْ لَوْ فَعَلَ ذَلِكَ لَكَانَ إخْرَاجًا لَهُمْ مِنْ جِنْسِ الْبَشَرِ إلَى جِنْسٍ آخَرَ ، وَلَعَلَّ فِي الْجُمْلَتَيْنِ احْتِبَاكًا ، وَالتَّقْدِيرُ : وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِ حَفِيظًا تَحْفَظُ عَلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ لِتُحَاسِبَهُمْ وَتُجَازِيَهُمْ عَلَيْهَا ، وَلَا وَكِيلًا تَتَوَلَّى أُمُورَهُمْ وَتَتَصَرَّفُ فِيهَا ، وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ وَلَا حَفِيظٍ بِمِلْكٍ وَلَا سِيَادَةٍ . أَيْ لَيْسَ لَكَ مَا ذُكِرَ مِنَ

الْوَصْفَيْنِ بِأَمْرِنَا وَحُكْمِنَا ، وَلَا ذَلِكَ بِالْفِعْلِ كَمَا يَكُونُ نَحْوُهُ لِبَعْضِ الْمُلُوكِ بِالْقَهْرِ أَوِ التَّرَاضِي .

(111/245)

---

وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا فِي ج 7 ، وَفِيهِ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ تِلْكَ الْآيَةَ مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ السَّيْفِ وَرُوِيَ ذَلِكَ عَنْهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَوْ مَا قَبْلَهَا ، وَالْجُمْهُورُ لَا يَعُدُّونَ مِثْلَ هَذَا مِنَ الْمَنْسُوخِ كَمَا تَقَدَّمَ ، نَعَمْ إِنَّهُ نَزَلَ قَبْلَ أَنْ تَتَكَوَّنَ الْأُمَّةُ وَيَصِيرَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَاكِمًا ، وَلَكِنْ نَزَلَ مِثْلُهُ بَعْدَ ذَلِكَ ، لِأَنَّ الْحَاكِمَ لَيْسَ حَفِيظًا وَلَا وَكِيلًا عَلَى الْأُمَّةِ بِالْمَعْنَى الْمُرَادِ هُنَا ، فَفِي سُورَةِ النِّسَاءِ الْمَدَنِيَّةِ : (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا) 4 : 80 وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ وَأَمْثَالِهَا مِنْ تَقْرِيرِ حُرِّيَّةِ الدِّينِ وَالِاعْتِقَادِ ، مَا لَا نَظِيرَ لَهُ فِي قَانُونٍ وَلَا كِتَابٍ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار جـ 7 صـ 538.552 ﴾

(112/245)

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ﴾

الحق سبحانه وتعالى يعطينا قضية لابد أن نستصحبها في تاريخنا الإيماني ، والقضية هي : أن أيّ كافر لم يكفر قهرا عن الله ، وإنما كفر لأن الله أرخى له الزمام بالاختيار أي خلقه مختارا ، ولذلك فالكافر إنما يفعل كل فعل بما آتاه الله من الاختيار لاغصبا عن ربنا أو قهرا ، بدليل أن الكون الذي نحيا فيه مقهور بالأمر ، لا يمكن أن يختار إلا مراد الله منه ، وكل ما في الكون يسير إلى مراد الله .

إذن فمن كفر لم يكفر قهرا عن الله ؛ لأن طبيعة الاختيار ممنوحة من الله . وحين اختص الله الإنسان بالاختيار وضع المنهج الذي يرتب عليه الثواب والعقاب . ولذلك نزل التكليف ب " افعل " و" لا تفعل " . وسبحانه إن أراد قهرا فقد قهر كل الأجناس في الكون ؛ قهرها بطول العمر ، وأنها تؤدي مهمتها كما أراد الله منها ، إنّه قهر الشمس ، وقهر القمر ، وقهر النجوم ، وقهر الماء ، وكل حاجة في الكون مقهورة له حتى الملائكة خلقهم : ﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ ﴾ [ التحريم : 6 ] .

إذن صفة القهر أخذت متعلقها كاملا . ولكن أيريد الله من خلقه أن يكونوا مقهورين على ما يريد ؟ لا ، بل يريد سبحانه أن يكونوا فاعلين لما يحبه ، وإن كانوا مختارين أن يفعلوا ما لا يحبه ، كأن خلق القهر في الأجناس كان لإثبات طلاقة القدرة ، وأنه لا يمكن لمخلوق أن يشذ عن

مراد الله منه . وبقي الاختيار في الإنسان ليدل على أن أناسا من خلقه سبحانه يذهبون إليه جل وعلا وهم قادرون ألا يذهبوا إليه ، وهذه تثبت صفة المحبة .

(113/245)

---

وحين يختار المختار الطاعة ، وهو قادر ألا يطيع ، ويختار الإيمان وهو قادر أن يكفر فقد جاء إلى الله محبة لا قهرا ، ولذلك يقول ربنا لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السمآء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [ الشعراء : 3-4 ] .

أي أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة وحزنا على عدم إيمان قومك بما جئت به من عند ربك ، أتريد يا محمد أن أقهرهم ؟ أتريد أعناقاً أو قلوباً ؟ إنك يا محمد تعلم أن منهجك النازل إليك من ربك يريد قلوبا ، والقلوب تأتي بالاختيار . فلو شئنا إيمانهم لأنزلنا معجزة تأخذ بقلوبهم فيؤمنون قهرا عليهم .

ولذلك إذا خُدِشَ الاختيار بفقد أي عنصر من عناصره يزول التكليف . بدليل أنه لا تكليف على فاقد العقل ؛ لأن آلة الاختيار عندنا هي العقل . وكذلك لا تكليف لمن لم ينضج بل يتركه الحق إلى أن ينضج . ويصير قادرا على إنجاب مثله وأن يصل إلى التكوين

الكيماوي السليم . ويمنع عنه الإكراه بأي قوة أعلى منه تقهره على أن يفعل شيئًا على غير مراده ، وهنا يأتي التكليف .

إذن فالتكليف يحتاج إلى أمور ثلاثة : وجود عقل ، لذلك فلا تكليف لمجنون ، وعقل رشيد ناضج ، فقبل البلوغ لا تكليف ولا إكراه حتى يسلم الاختيار ، لماذا ؟ تأتي الإجابة من الحق سبحانه : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ ويحيى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ﴾ [ الأنفال : 42 ] .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(114/245)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " ولوْ شَاء اللَّه " مفعول المشيئة مَحْذُوف ، أي : " لو شَاءَ اللَّه إيمانَهُم " وقد تقدَّم أنه لا يُذْكر إلا لِغرَابتِه ، والمعنى : لا تلتفتْ إلى سَفَاهَات هؤلاء الكُفَّار ، فإنّي لو أرَدْت إزالَة الكُفْرِ عنهم ، لَقَدَرْت ، ولكنّي تركْتُهم مع كُفْرِهم ، فلا يَشْتَغِل قلبك بِكلماتِهم .

قوله : " وَمَا جَعَلْنَاكَ " " جعل " بمعنى : صيَّر فالكافُ مَفْعُول " حَفِيظ " مَحْذُوف ، أى : " حفيظاً عليهم أعْمالهم " .

قال أبو البقاء : " هذا يُؤيِّد قَوْل سيبويه في إعْمَال فَعِيل " يعني : أنه مِثال مُبالَغة ، وللنَّاس في إعْمَاله وإعْمَاله وإعْمَال فعل خلاف أثْبَتَهُ سِيبويْه ، ونفاه غَيْرُه .

[ قال شهاب الدين ] : يُؤيِّده وليْس شيءٌ في اللَّفْظ يَشْهَد لَهُ ؟

قوله : " وَمَا أنْتَ " يجُوز أن تكُون " مَا " الحجازيةح فيكُون " أنْتَ " : اسْمُهَا ، و" بوكيل " : خبرها في مَحَلِّ نصْب ، ويجُوز أن تكُون التَّمِيميَّة ؛ فيكون " أنْتَ " : مبتدأ و" بوكيل " : خَبَره في محلِّ رفع ، والباءُ زايدة على كلا التَّقْديرين ، و" عليهم " : متعلّق بوكيل قُدِّم لما فيما قَبْلَه ، وهذه الجُمْلَة هي في مَعْنى الجملة قَبْلَها ؛ لأن معنى ما أنْت وَكِيلٌ عليهم ، وهو بِمَعْنَى : ما جَعَلْنَاكَ حفيظاً عليهم ، أي : رقيباً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 362.360 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (107) ﴾

العَجَبُ مِمن أقرَّ بقصور حاله عن استحقاق المدح ببقائه عن مراده ، وكيف يصف معبوده بجواز ألا يرتفع في ملكه مراده ؟ ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 493 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (108) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

﴿ ولا تسبوا ﴾ ولما كانت الأصنام لا تعقل ، وكان المشركون يزعمون بها العقل والعلم ، ويسندون إليها الأفعال ، أجري الكلام على زعمهم لأنه في الكف عنها فقال : ﴿ الذين يدعون ﴾ أي دعاء عبادة من الأصنام أو غيرهم بذكر ما فيهم من النقص ، ثم بين دفعاً لتوهم إكرامهم أنهم في سفول بقوله : ﴿ من دون الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي لا كفوء له عدلاً ، بعلم منكم بما لهم من المعايب ، بل أعرضوا عن غير دعائهم إلى الله حتى عن سب آلهتهم بما تستحقه ، فإنا زينا لهم أعمالهم فغرقوا مع غزارة عقولهم فيما لا يرتضيه عاقل ، وكذبوا بجميع الآيات الموجبة للإيمان ، فربما جرهم سبُّكم لها – لما عندهم من حمية الجاهلية – إلى ما لا يليق ﴿ فيسبوا ﴾ أي فيتسبب عن ذلك أن يسبوا ﴿ الله ﴾ أي الذي تدعونه وله الإحاطة بصفات الكمال ، وأظهر تصريحاً بالمقصود وإعظاماً لهذا وتهويلاً له وتنفيراً منه .

ولما كان الحنو يوجب الإسراع ، أشار إليه سبحانه بقوله : ﴿ عدواً ﴾ أي جرياً إلى السب

؛ ولما كان العدو قد يكون مع علم ، قال مبيناً لأنه يراد به مع الإسراع أنه مجاوز للحد : ﴿ بغير علم ﴾ لأنا زينا لهم عملهم ، فالطاعة إذا استلزمت وجود منكر عظيم احترز منه ولو أدى الحال إلى تركها وقتاً ما ، لتحصل القوة على دفع ذلك المنكر ، فحكم الآية باق وليس بمنسوخ.

*(116/245)*

---

ولما كان ذلك شديداً على النفس ضائقاً به الصدر ، اقتضى الحال أن يقال : هل هذا التزيين مختص بهؤلاء المجرمين أم كان لغيرهم من الأمم مثله ؟ فقيل : ﴿ كذلك ﴾ أي بل كان لغيرهم ، فإنا مثل ذلك التزيين الذي زينا لهؤلاء ﴿ زينا لكل أمة ﴾ أي طائفة عظيمة مقصودة ﴿ عملهم ﴾ أي القبيح الذي أقدموا عليه بغير علم بما خلقه في قلوبهم من المحبة له ، رداً منا لهم بعد العقل الرصين أسفل سافلين ، حتى رأوا حسناً ما ليس بالحسن لتبين قدرتنا ؛ فكان في ذلك أعظم تسلية وتأسية وتعزية ، والآية من الاحتباك : إثبات ﴿ بغير علم ﴾ أولا دال على حذفه ثانياً ، وإثبات التزيين ثانياً دليل على حذفه أولاً .

ولما كان سبحانه طويل الأناة عظيم الحلم ، وكان الإمهال ربما كان من جهل بعمل العاصي ، نفى ذلك بقوله ﴿ ثم ﴾ أي بعد طول الإمهال ﴿ إلى ربهم ﴾ أي المحسن إليهم بالحلم عنهم

وهم يتقوون بنعمه على معاصيه ، لا إلى غيره ﴿ مرجعهم ﴾ أي بالحشر الأعظم ﴿ فينبئهم ﴾ أي يخبرهم إخباراً عظيماً بليغاً ﴿ بما ﴾ أي بجميع ما ﴿ كانوا يعملون ﴾ أي على سبيل التجدد والاستمرار بما في جبلاتهم من الداعية إليه وإن ادعوا أنهم عاملون على مقتضى العلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 693.694 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أن هذا الكلام أيضاً متعلق بقولهم للرسول عليه السلام : إنما جمعت هذا القرآن من مدارسة الناس ومذاكرتهم ، فإنه لا يبعد أن بعض المسلمين إذا سمعوا ذلك الكلام من الكفار غضبوا وشتموا آلهتهم على سبيل المعارضة ، فنهى الله تعالى عن هذا العمل ، لأنك متى شتمت آلهتهم غضبوا فربما ذكروا الله تعالى بما لا ينبغي من القول ، فلأجل الاحتراز عن هذا المحذور وجب الاحتراز عن ذلك المقال ، وبالجملة فهو تنبيه على أن خصمك إذا شافهك بجهل وسفاهة لم يجز لك أن تقدم على مشافهته بما يجري مجرى كلامه فإن ذلك يوجب فتح باب المشاتمة والسفاهة وذلك لا يليق بالعقلاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 114 ﴾

*(117/245)*

فصل

قال الفخر :

ذكروا في سبب نزول الآية وجوهاً :

الأول : قال ابن عباس : لما نزل ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [ الأنبياء : 98 ] قال المشركون : لئن لم تنته عن سب آلهتنا وشتمها لنهجون إلهك فنزلت هذه الآية ، أقول : لي ههنا إشكالان : الأول : أن الناس اتفقوا على أن هذه السورة نزلت دفعة واحدة فكيف يمكن أن يقال : إن سبب نزول هذه الآية كذا وكذا .

الثاني : أن الكفار كانوا مقرين بالإله تعالى وكانوا يقولون : إنما حسنت عبادة الأصنام لتصير شفعاء لهم عند الله تعالى ، وإذا كان كذلك ، فكيف يعقل إقدامهم على شتم الله تعالى وسبه .

والقول الثاني : في سبب نزول هذه الآية .

قال السدي : لما قربت وفاة أبي طالب قالت قريش : ندخل عليه ونطلب منه أن ينهى ابن أخيه عنا فإنا نستحي أن نقتله بعد موته فتقول العرب : كان يمنعه فلما مات قتلوه .

فانطلق أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحرث مع جماعة إليه وقالوا له : أنت كبيرنا وخاطبوه بما أرادوا .

فدعا محمداً عليه الصلاة والسلام وقال : هؤلاء قومك وبنو عمك يطلبون منك أن تتركهم

على دينهم ، وأن يتركوك على دينك فقال عليه الصلاة والسلام : " قولوا لا إله إلا الله " فأبوا فقال أبو طالب : قل غير هذه الكلمة فإن قومك يكرهونها .

فقال عليه الصلاة والسلام : " ما أنا بالذي أقول غيرها حتى تأتوني بالشمس فتضعوها في يدي " فقالوا له اترك شتم آلهتنا وإلا شتمناك ، ومن يأمرك بذلك فذلك قوله تعالى :

﴿ فَيَسُبُّواْ اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ .

واعلم أنا قد دللنا على أن القوم كانوا مقرين بوجود الإله تعالى فاستحال إقدامهم على شتم الإله بل ههنا احتمالات : أحدها : أنه ربما كان بعضهم قائلاً بالدهر ونفي الصانع فما كان يبالي بهذا النوع من السفاهة .

وثانيها : أن الصحابة متى شتموا الأصنام فهم كانوا يشتمون الرسول عليه الصلاة والسلام فالله تعالى أجرى شتم الرسول مجرى شتم الله تعالى كما في قوله : ﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ ﴾ [ الفتح : 10 ] وكقوله : ﴿ إِنَّ الذين يُؤْذُونَ اللهَ ﴾ [ الأحزاب : 57 ]

وثالثها : أنه ربما كان في جهالهم من كان يعتقد أن شيطاناً يحمله على ادعاء النبوة والرسالة ، ثم إنه لجهله كان يسمي ذلك الشيطان بأنه إله محمد عليه الصلاة والسلام فكان يشتم إله محمد بناء على هذا التأويل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 114 .

﴿ 115

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله ﴾

في سبب نزولها قولان .

أحدهما : أنه لما قال للمشركين : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ قالوا : لتنتهينَّ يا محمد عن سبِّ آلهتنا وعيبها ، أو لنهجونَّ إلهك الذي تعبده ، فنزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أن المسلمين كانوا يسبون أوثان الكفار ، فيردون ذلك عليهم ، فنهاهم الله تعالى أن يستسبوا لربهم قوماً جهلة لا علم لهم بالله ، قاله قتادة .

ومعنى "يدعون" : يعبدون ، وهي الأصنام .

﴿ فيسبوا الله ﴾ أي : فيسبوا من أمركم بعيبها ، فيعود ذلك إلى الله تعالى ، لا أنهم كانوا يصرحون بسب الله تعالى ، لأنهم كانوا يقرون أنه خالقهم ، وإن أشركوا به .

وقوله تعالى : ﴿ عدواً بغير علم ﴾ أي : ظلماً بالجهل .

وقرأ يعقوب : "عُدُوّاً" بضم العين والدال وتشديد الواو .

والعرب تقول في الظلم : عدا فلان عَدْواً وعُدُوّاً وعُدواناً .

وعدا ، أي : ظلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله ﴾ الآية ، مخاطبة للمؤمنين والنبي عليه السلام ، وقال ابن عباس وسببها أن كفار قريش قالوا لأبي طالب إما أن ينتهي محمد وأصحابه عن سب آلهتنا والغض منها وإما نسب إلهة ونهجوه فنزلت الآية ، وحكمها على كل حال باق في الأمة ، فمتى كان الكافر في منعه وخيف أن يسب الإسلام أو النبي صلى الله عليه وسلم والله عز وجل فلا يحل للمسلم أن يسب دينهم ولا صلبانهم ولا يتعرض ما يؤدي إلى ذلك أو نحوه ، وعبر عن الأصنام وهي لا تعقل ب ﴿ الذين ﴾ وذلك على معتقد الكفرة فيها ، وفي هذه الآية ضرب من الموادعة .

*(119/245)*

---

وقرأ جمهور الناس " عَدْواً " بفتح العين وسكون الدال نصب على المصدر ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن وأبو رجاء وقتادة ويعقوب وسلام وعبد الله بن زيد " عُدُوّاً " بضم العين والدال وتشديد الواو ، وهذا أيضاً نصب على المصدر وهو من الاعتداء ، وقرأ بعض الكوفيين " عَدُواً " بفتح العين وضم الدال نصب على الحال أي في حال عداوة لله ، وهو لفظ مفرد يدل على الجمع ، وقوله ﴿ بغير علم ﴾ بيان لمعنى الاعتداء المتقدم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم ﴾ الآية

قال ابن عباس : لما نزلت : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ قال المشركون يا محمد لتنتهين عن سب آلهتنا أو لنهجون ربك فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم فيسبوا الله عدواً بغير علم وقال قتادة : كان المؤمنون يسبون أوثان الكفار فيردون ذلك عليهم فنهاهم الله عن ذلك لئلا يسبوا الله لأنهم قوم جهلة لا علم لهم بالله عز وجل .

وقال السدي : لما حضرت أبا طالب الوفاة قالت قريش انطلقوا بنا لندخل على هذا الرجل فلنأمره أن ينهى عنا ابن أخيه فإنا نستحي أن نقتله بعد موته فتقول العرب كان عمه يمنعه فلما مات قتلوه .

فانطلق أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحارث وأمية وأبيّ ابنا خلف وعقبة بن أبي معيط وعمرو بن العاص والأسود بن أبي البختري إلى أبي طالب ، فقالوا : يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا وإن محمداً قد آذانا وآذى آلهتنا فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا ولندعه وإلهه فدعاه جاء النبي صلى الله عليه وسلم : فقال له أبو طالب : إن هؤلاء قومك وبنو عمك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " وما يريدون " ؟ قالوا : نريد أن تدعنا وآلهتنا وندعك وإلهك .

فقال له أبو طالب : قد أنصفك قومك فاقبل منهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم أرأيتم إن أعطيتكم هذا فهل أنتم معطي كلمة إن تكلمتم بها ملكتم العرب ودانت لكم العجم وأدت لكم الخراج ؟ فقال أبو جهل نعم وأبيك لنعطينكها وعشرة أمثالها فما هي ؟ فقال : " قولوا لا إله إلا الله " " فأبوا ونفروا " فقال أبو طالب : قل غيرها يا ابن أخي فقال : " يا عم ما أنا بالذي أقول غيرها ولو أتوني بالشمس فوضعوها في يدي ما قلت غيرها إرادة أن يؤيسهم " فقالوا : لتكفن عن شتمك آلهتنا أو لنشتمنك ونشتمن من يأمرك فأنزلت : ﴿ ولا تسبوا الذين تدعون من دون الله ﴾ يعني ولا تسبوا أيها المؤمنون الأصنام التي يعبدها المشركون فيسبوا الله عدواً بغير علم يعني فيسبوا الله ظلماً بغير علم لأنهم جهلة بالله عز وجل .

قال الزجاج : نهوا في ذلك الوقت قبل القتال أن يلعنوا الأصنام التي كانت عبدها المشركون .

وقال ابن الأنباري : هذه الآية منسوخة أنزلها الله عز وجل والنبي صلى الله عليه وسلم بمكة فلما قواه بأصحابه نسخ هذه الآية ونظائرها بقوله اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم .

وقيل إنما نهوا عن سب الأصنام وإن كان في سبها طاعة وهو مباح لما يترتب على ذلك من

المفاسد التي هي أعظم من ذلك وهو سب الله عز وجل وسب رسوله وذلك من أعظم المفاسد فلذلك نهوا عن سب الأصنام وقيل لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم لا تسبوا آلهتكم فيسبوا ربكم فأمسك المسلمون عن سب آلهتهم فظاهر الآية وإن كان نهياً عن سب الأصنام فحقيقته النهي عن سب الله تعالى لأنه سبب لذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم ﴾

*(121/245)*

---

قال ابن عباس : سببها أن كفار قريش قالوا لأبي طالب : إما أن ينتهي محمد وأصحابه عن سب آلهتنا والغض منها وإما أن نسب إلهه ونهجوه فنزلت ، وقيل : قالوا ذلك عند نزول قوله : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ وقيل : كان المسلمون يسبون آلهتهم فنهوا لئلا يكون سبهم سبباً لسب الله تعالى ، وحكم هذه الآية باق في هذه الأمة فإذا كان الكافر في منعة وخيف أن يسب الإسلام أو الرسول أو الله فلا يحل لمسلم ذم دين الكافر ولا صنمه ولا صليبه ولا يتعرض إلى ما يؤدّي إلى ذلك ، ولما أمر تعالى باتباع ما

أوحي إليه وبموادعة المشركين عدل عن خطابه إلى خطاب المؤمنين ، فنهوا عن سب أصنام المشركين ولم يواجه هو صلى الله عليه وسلم بالخطاب وإن كان هو الذي سبت الأصنام على لسانه وأصحابه تابعون له في ذلك لما في مواجهته وحده بالنهي من خلاف ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من الأخلاق الكريمة ، إذ لم يكن عليه السلام فحّاشاً ولا صخّاباً ولا سبّاباً فلذلك جاء الخطاب للمؤمنين فقيل : ﴿ ولا تسبّوا ﴾ ولم يكن التركيب ولا تسب كما جاء ﴿ وأعرض ﴾ وإذا كانت الطاعة تؤدّي إلى مفسدة خرجت عن أن تكون طاعة فيجب النهي عنها كما ينهى عن المعصية و﴿ الذين يدعون ﴾ هم الأصنام أي يدعونهم المشركون وعبر عن الأصنام وهي لا تعقل بالذين كما يعبر عن العاقل على معاملة ما لا يعقل معاملة من يعقل ، إذ كانوا ينزلونهم منزلة من يعقل في عبادتهم واعتقادهم فيهم أنهم شفعاء لهم عند الله تعالى ، وقيل : يحتمل أن يراد ب ﴿ الذين يدعون ﴾ الكفار وظاهر قوله : ﴿ فيسبوا الله ﴾ أنهم يقدمون على سب الله إذا سُبت آلهتهم وإن كانوا معترفين بالله تعالى ، لكن يحملهم على ذلك انتصارهم لآلهتهم وشدة غيظهم لأجلها فيخرجون عن الاعتدال إلى ما ينافي العقل كما يقع من بعض المسلمين إذا اشتد غضبه وانحرف فإنه قد يلفظ بما يؤدّي إلى الكفر نعوذ بالله من ذلك ، وقال أبو عبد الله الرازي : ربما كان

بعضهم قائلاً بالدهر ونفى الصانع فكان يأتي بهذا النوع من الشناعة أو كان المسلمون يسبون الأصنام وهم كانوا يسبون الرسول فأجرى سب الرسول مجرى سب الله تعالى كما قال : ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴾ وكما قال : ﴿ إن الذين يؤذون الله ورسوله ﴾ أو كان بعض الكفرة يعتقد أن شيطاناً يحمل الرسول على ادعاء النبوّة والرسالة وكانوا بجهلهم يشتمون ذلك الشيطان بأنه إله محمد ، انتهى .

وهذه احتمالات مخالفة للظاهر وإنما أوردها لأنه ذكر أن المعترفين بوجود الصانع لا يجسرون أن يقدموا على سبه تعالى ، وقد ذكرنا ما يحمل على حمل الكلام على ظاهره ، وقال بعض الصوفية : بمعنى خاطبوهم بلسان الحجة وإلزام الدليل ولا تكلموهم على نوازع النفس والعادة و﴿ فيسبوا ﴾ منصوب على جواب النهي ، وقيل : هو مجزوم على العطف كقولك : لا تمددها فتشققها ، و﴿ عدواً ﴾ مصدر عدا وكذا عدو وعدوان بمعنى اعتدى أي ظلم ، وقرأ الحسن وأبو رجاء وقتادة ويعقوب وسلام وعبد الله بن يزيد بضم العين والدال وتشديد الواو وهو مصدر لعدا كما ذكرناه ، وجوّزوا فيهما انتصابهما على المصدر في موضع الحال أو على المصدر من غير لفظ الفعل لأن سب الله عدوان أو على المفعول له ، وقال ابن عطية : وقرأ بعض المكيين وعينه الزمخشري فقال عن ابن كثير : بفتح العين وضم الدال وتشديد الواو أي أعداء وهو منصوب على الحال المؤكدة وعدو

يخبر به عن الجمع كما قال : ﴿ هم العدوّ ﴾ ومعنى ﴿ بغير علم ﴾ على جهالة بما يجب لله تعالى أن يذكر به وهو بيان لمعنى الاعتداء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(123/245)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَلاَ تَسُبُّواْ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾

أي لا تشتُموهم من حيث عبادتُهم لآلهتهم كأن تقولوا : تباً لكم ولما تعبُدونه مثلاً ﴿ فَيَسُبُّواْ الله عَدْواً ﴾ تجاوزاً عن الحق إلى الباطل بأن يقولوا لكم مثلَ قولِكم لهم ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي بجهالة بالله تعالى وبما يجب أن يُذكَرَ به ، وقرىء عُدُوّاً يقال : عدا يعدو عَدْواً وعُدُوّاً وعِداء وعُدْواناً . روي أنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند نزول قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ لتنتهِيَنَّ عن سب آلهتِنا أو لنهجُوَنّ إلهك . وقيل : كان المسلمون يسبّونهم فنُهوا عن ذلك لئلا يستتبِعَ سبُّهم سبَّه سبحانه وتعالى ، وفيه أن الطاعةَ إذا أدتْ إلى معصية راجحةٍ وجب تركُها فإن ما يؤدي إلى الشر شرٌّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

---

سؤال : لقائل أن يقول : إن شتم الأصنام من أصول الطاعات ، فكيف يحسن من الله تعالى أن ينهى عنها .

والجواب : أن هذا الشتم ، وإن كان طاعة .

إلا أنه إذا وقع على وجه يستلزم وجود منكر عظيم ، وجب الاحتراز منه ، والأمر ههنا كذلك ، لأن هذا الشتم كان يستلزم إقدامهم على شتم الله وشتم رسوله ، وعلى فتح باب السفاهة ، وعلى تنفيرهم عن قبول الدين ، وإدخال الغيظ والغضب في قلوبهم ، فلكونه مستلزماً لهذه المنكرات ، وقع النهي عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 115 ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ الحسن : ﴿ فَيَسُبُّواْ اللهَ عَدْواً ﴾ بضم العين وتشديد الواو ، ويقال : عدا فلان عدواً وعدواً وعدواناً وعداً .

أي ظلم ظلماً جاوز القدر .

قال الزجاج : وعدواً منصوب على المصدر ، لأن المعنى فيعدوا عدواً .

قال : ويجوز أن يكون بإرادة اللام ، والمعنى : فينسبوا الله للظلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 115 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال الجبائي : دلت هذه الآية على أنه لا يجوز أن يفعل بالكفار ما يزدادون به بعداً عن الحق ونفوراً .

إذ لو جاز أن يفعله لجاز أن يأمر به ، وكان لا ينهى عما ذكرنا ، وكان لا يأمر بالرفق بهم عند الدعاء .

*(125/245)*

---

كقوله لموسى وهرون : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [ طه : 44 ] وذلك يبين بطلان مذهب المجبرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 115 ﴾

فصل

قال الفخر :

قالوا هذه الآية تدل على أن الأمر بالمعروف قد يقبح إذا أدى إلى ارتكاب منكر ، والنهي عن المنكر يقبح إذا أدى إلى زيادة منكر ، وغلبة الظن قائمة مقام العلم في هذا الباب وفيه تأديب لمن يدعو إلى الدين ، لئلا يتشاغل بما لا فائدة له في المطلوب ، لأن وصف الأوثان بأنها جمادات لا تنفع ولا تضر يكفي في القدح في إلهيتها ، فلا حاجة مع ذلك إلى شتمها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 115.116 ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَلاَ تَسُبُّواْ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ أي لا تشتموهم ولا تذكروهم بالقبيح ، والمراد من الموصول إما المشركون على معنى لا تسبوهم من حيث عبادتهم لآلهتهم كأن تقولوا تباً لكم ولما تعبدونه مثلاً أو آلهتهم فالآية صريحة في النهي عن سبها .

والعائد حينئذ مقدر أي الذين تدعونهم .

والتعبير عنها بالذين مبني على زعمهم أنها من أهل العلم أو على تغليب العقلاء منها كالملائكة والمسيح وعزير عليهم الصلاة والسلام .

وقيل : إن سب الآلهة سب لهم كما يقال ضرب الدابة صفع لراكبها .

﴿ فَيَسُبُّواْ الله عَدْواً ﴾ تجاوزاً عن الحق إلى الباطل ، ونصبه على أنه حال مؤكدة .

وجوز أبو البقاء أن يكون على أنه مفعول له ، وأن يكون على المصدرية من غير لفظ الفعل ،

و﴿ يسبوا ﴾ منصوب على جواب النهي ، وقيل : مجزوم على العطف كقولهم : لا تمددها فتشققها .

(126/245)

---

ومعنى سبهم لله عز وجل إفضاء كلامهم إليه كشتمهم له صلى الله عليه وسلم ولمن يأمره ، وقد فسر ﴿ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ بذلك أي فيسبوا الله تعالى بغير علم أنهم يسبونه وإلا فالقوم كانوا يقرون بالله تعالى وعظمته وأن آلهتهم إنما عبدوها لتكون شفعاء لهم عنده سبحانه فكيف يسبونه ؟ ويحتمل أن يراد سبهم له عز اسمه صريحاً ولا إشكال بناء على أن الغضب والغيظ قد يحملهم على ذلك ألا ترى أن المسلم قد تحمله شدة غيظه على التكلم بالكفر .

ومما شاهدناه أن بعض جهلة العوام أكثرَ الرافضة سب الشيخين رضي الله تعالى عنهما عنده فغاظه ذلك جداً فسب علياً كرم الله تعالى وجهه فسئل عن ذلك فقال : ما أردت إلا إغاظتهم ولم أر شيئاً يغيظهم مثل ذلك فاستتيب عن هذا الجهل العظيم ، وقال الراغب : "إن سبهم لله تعالى ليس ( على ) أنهم يسبونه جل شأنه صريحاً ولكن يخوضون في ذكره تعالى ( فيذكرونه بما لا يليق به ) ( 1 ) ويتمادون في ذلك بالمجادلة ويزدادون في ذكره

سبحانه بما ينزه تقدس اسمه عنه ، وقد يجعل الإصرار على الكفر والعناد سباً وهو سب فعلي ، قال الشاعر

: وما كان ذنب بني مالك . . .

بأن سب منهم غلام فسب بأبيض ذي شطب قاطع

يقد العظام ويبري القصب . . .

ونبه به على ما قال الآخر

: ونشتم بالأفعال لا بالتكلم . . .

وقيل : المراد بسب الله تعالى سب الرسول صلى الله عليه وسلم ونظير ذلك من وجه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله ﴾ [ الفتح : 10 ] الآية .

وقرأ يعقوب ﴿ عَدُوّا ﴾ يقال : عدا فلان يعدو عدواً وعدواً ( وعداء ) وعدواناً .

*(127/245)*

---

أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : لما حضر أبا طالب الموت قالت قريش : انطلقوا فلندخل على هذا الرجل فلنأمره أن ينهى عنا ابن أخيه فإنا نستحي أن نقتله بعد موته فتقول العرب : كان يمنعه فلما مات قتلوه فانطلق أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحرث

وأمية وأبي ابنا خلف وعقبة بن أبي معيط وعمرو بن العاص والأسود بن البحتري إلى أبي طالب فقالوا أنت كبيرنا وسيدنا وإن محمداً قد آذانا وآذى آلهتنا فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا ولندعنه وإلهه فدعاه فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال له أبو طالب : هؤلاء قومك وبنو عمك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماذا تريدون ؟ قالوا نريد أن تدعنا وآلهتنا وندعك وإلهك فقال أبو طالب : قد أنصفك قومك فاقبل منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيتكم إن أعطيتكم هذا هل أنتم معطى كلمة إن تكلمتم بها ملكتم العرب ودانت لكم بها العجم .

قال أبو جهل نعم لنعطينكها وأبيك وعشر أمثالها فما هي ؟ قال قولوا لا إله إلا الله فأبوا واشمأزوا فقال أبو طالب قل غيرها يا ابن أخي فإن قومك قد فزعوا منها فقال صلى الله عليه وسلم : يا عم ما أنا بالذي أقول غيرها ولو أتوني بالشمس فوضعوها في يدي ما قلت غيرها فقالوا لتكفن عن شتمك آلهتنا أو لنشتمنك ولنشتمن من يأمرك فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس أنه قال : قالوا يا محمد لتنتهين عن سبك آلهتنا أو لنهجون ربك فنهاهم الله تعالى أن يسبوا أوثانهم ، وفي رواية عنه أنهم قالوا ذلك عند نزول قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [ الأنبياء

: 98 ] نزلت ﴿ وَلَا تَسُبُّوا ﴾ الخ ، واستشكل ذلك بأن وصل آلهتهم بأنها حصب جهنم وبأنها لا تضر ولا تنفع سب لها فكيف نهى عنه بما هنا .

*(128/245)*

---

وأجيب بأنهم إذا قصدوا بالتلاوة سبهم وغيظهم يستقيم النهي عنها ولا بدع في ذلك كما ينهى عن التلاوة في المواضع المكروهة .

وقال في "الكشف" المعنى على هذه الرواية لا يقع السب منكم بناء على ما ورد في الآية فيصير سباً لسبهم .

وقيل : ما في الآية لا يعد سباً لأنه ذكر المساوي لمجرد التحقير والإهانة وما فيها إنما ورد للاستدلال على عدم صلوحها للألوهية والمعبودية وفيه تأمل ، وقريب منه ما قيل : إن النهي في الحقيقة إنما هو عن العدول عن الدعوة إلى السب كأنه قيل : لا تخرجوا من دعوة الكفار ومحاجتهم إلى أن تسبوا ما يعبدونه من دون الله تعالى فإن ذلك ليس من الحجاج في شيء ويجر إلى سب الله عز وجل .

واستدل بالآية على أن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحة وجب تركها فإن ما يؤدي إلى الشر شر وهذا بخلاف الطاعة في موضع فيه معصية لا يمكن دفعها وكثيراً ما يشتبهان ،

ولذا لم يحضر ابن سيرين جنازة اجتمع فيها الرجال والنساء وخالفه الحسن قائلاً : لو تركنا الطاعة لأجل المعصية لأسرع ذلك في ديننا للفرق بينهما .

ونقل الشهاب عن المقدسي في الرمز أن الصحيح عند فقهائنا أنه لا يترك ما يطلب لمقارنة بدعة كترك إجابة دعوة لما فيها من الملاهي وصلاة جنازة لنائحة فإن قدر على المنع منع وإلا صبر ، وهذا إذا لم يقتد به وإلا لا يقعد لأن فيه شين الدين .

وما روي عن أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه أنه ابتلي به كان قبل صيرورته إماماً يقتضي به .

*(129/245)*

---

ونقل عن أبي منصور أنه قال : كيف نهانا الله تعالى عن سب من يستحق السب لئلا يسب من لا يستحقه وقد أمرنا بقتالهم وإذا قاتلناهم قتلونا وقتل المؤمن بغير حق منكر ، وكذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتليغ والتلاوة عليهم وإن كانوا يكذبونه ، وأنه أجاب بأن سب الآلهة مباح غير مفروض وقتالهم فرض ، وكذا التبليغ وما كان مباحاً ينهى عما يتولد منه ويحدث وما كان فرضاً لا ينهى عما يتولد منه ؛ وعلى هذا يقع الفرق لأبي حنيفة رضي الله تعالى عنه فيمن قطع يد قاطع قصاصاً فمات منه فإنه يضمن الدية لأن استيفاء حقه مباح

فأخذ بالمتولد منه ، والإمام إذا قطع يد السارق فمات لا يضمن لأنه فرض عليه فلم يؤخذ بالمتولد منه اه .

ومن هنا لا تحمل الطاعة فيما تقدم على إطلاقها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

عطف على قوله : ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ [ الأنعام : 106 ] يزيد معنى الإعراض المأمور به بياناً ، ويحقّق ما قلناه أن ليس المقصود من الإعراض ترك الدّعوة بل المقصود الإغضاء عن سبابهم وبذيء أقوالهم مع الدّوام على متابعة الدّعوة بالقرآن ، فإنّ النّهي عن سبّ أصنامهم يؤذن بالاسترسال على دعوتهم وإبطال معتقداتهم مع تجنّب المسلمين سبّ ما يدعونهم من دون الله .

والسبّ : كلام يدلّ على تحقير أحد أو نسبته إلى نقيصة أو معرّة ، بالباطل أو بالحقّ ، وهو مرادف الشّتم .

وليس من السبّ النسبةُ إلى خطأ في الرّأي أو العملِ ، ولا النّسبة إلى ضلال في الدّين إن كان صدر من مخالف في الدّين .

والمخاطب بهذا النّهي المسلمون لا الرّسول صلى الله عليه وسلم لأنّ الرّسول لم يكن فحّاشاً ولا سبّاباً لأنّ خُلقه العظيم حائل بينه وبين ذلك ، ولأنّه يدعوهم بما ينزل عليه من القرآن فإذا شاء الله تركه من وحيه الّذي ينزله ، وإنّما كان المسلمون لغيرتهم على الإسلام ربّما تجاوزوا الحدّ ففرطت منهم فرطات سبّوا فيها أصنام المشركين .

روى الطّبري عن قتادة قال "كان المسلمون يسبّون أوثان الكفّار فيردّون ذلك عليهم فنهاهم الله أن يستَسبّوا لربّهم" .

وهذا أصحّ ما روي في سبب نزول هذه الآية وأوفَقُه بنظم الآية .

وأمّا ما روى الطّبري عن عليّ بن أبي طلحة عن ابن عبّاس أنّه لمّا نزل قوله تعالى : ﴿ إنّكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنّم ﴾ [ الأنبياء : 98 ] قال المشركون : لئن لم تنته عن سبّ آلهتنا وشتمها لنهجُوَنّ إلهك ، فنزلت هذه الآية في ذلك ، فهو ضعيف لأنّ عليّ بن أبي طلحة ضعيف وله منكرات ولم يلق ابن عبّاس .

ومن البعيد أن يكون ذلك المراد من النّهي في هذه الآية ، لأنّ ذلك واقع في القرآن فلا يناسب أن ينهى عنه بلفظ ﴿ ولا تسُبّوا ﴾ وكان أن يقال : ولا تجهروا بسبّ الّذين يَدْعون من دون الله مثلاً .

كما قال في الآية الأخرى ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا ﴾ [

الإسراء : 110 ] .

وكذا ما رواه عن السديّ أنّه لمّا قربت وفاة أبي طالب قالت قريش : ندخل عليه ونطلب منه أن ينهى ابنَ أخيه عنّا فإنّا نستحيي أن نقتله بعد موته ، فانطلق نفر من سادتهم إلى أبي طالب وقالوا : أنت سيّدنا ، وخاطبوه بما راموا ، فدعا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقال له : هؤلاء قومك وبنو عمّك يريدون أن تدَعهم وآلهتَهم ويدَعوك وإلَهَك ، وقالوا : لتكُفّن عن شتمك آلهتنا أو لنشتمنّك ولنشتمنّ من يأمُرك .

ولم يقل السدّي أنّ ذلك سبب نزول هذه الآية ولكنّه جعله تفسيراً للآية ، ويرد عليه ما أوردناه على ما روي عن عليّ بن أبي طلحة .

*(131/245)*

---

قال الفخر : ههنا إشكالان هما : أنّ النّاس اتَّفقوا على أنّ سورة الأنعام نزلت دفعة واحدة فكيف يصحّ أن يقال : إنّ سبب نزول هذه الآية كذا ، وأنّ الكفّار كانوا مقرّين بالله تعالى وكانوا يقولون : عبدنا الأصنام لتكون شفعاء لنا عند الله فكيف يعقل إقدامُ الكفّار على شتم الله تعالى أ هـ .

وأقول : يدفع الإشكال الأوّل أنّ سبب النّزول ليس يلزم أن يكون مقارناً للنّزول فإنّ السّبب

قد يتقدّم زمانه ثمّ يشار إليه في الآية النّازلة فتكون الآية جواباً عن أقوالهم .

وقد أجاب الفخر بمثل هذا عند قوله تعالى : ﴿ ولو أنّنا نزّلنا إليهم الملائكة ﴾ [ الأنعام : 111 ] الآية .

ويدفع الإشكال الثّاني أنّ المشركين قالوا لئن لم تنته عن سبّ آلهتنا لنهجونّ إلهك ، ومعناه أنّهم ينكرون أنّ الله هو إلهه ولذلك أنكروا الرّحمان ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرّحمان قالوا وما الرّحمان أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا ﴾ [ الفرقان : 60 ] .

فهم ينكرون أنّ الله أمره بذمّ آلهتهم لأنّهم يزعمون أنّ آلهتهم مقرّبون عند الله ، وإنّما يزعمون أنّ شيطاناً يأمر النّبيء صلى الله عليه وسلم بسبّ الأصنام ، ألا ترى إلى قول امرأة منهم لمّا فتَر الوحي في ابتداء البعثة : ما أرى شيطانه إلاّ ودّعه ، وكان ذلك سبب نزول سورة الضّحى .

وجواب الفخر عنه ﴿ بأنّ بعضهم كان لا يثبت وجود الله وهم الدهريون ، أو أنّ المراد أنّهم يشتمون الرّسول عليه الصّلاة والسّلام فأجرى الله شتم الرّسول مجرى شتم الله كما في قوله تعالى : ﴿ إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون الله ﴾ [ الفتح : 10 ] أهـ .

فإنّ في هذا التّأويل بُعداً لا داعي إليه .

والوجه في تفسير الآية أنّه ليس المراد بالسبّ المنهي عنه فيها ما جاء في القرآن من إثبات

نقائص آلهتهم ممّا يدلّ على انتفاء إلهيتها ، كقوله تعالى : ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضلّ ﴾ في سورة الأعراف ( 179 ) .

*(132/245)*

---

وأمّا ما عداه من نحو قوله تعالى : ألهم أرجل يمشون بها ﴾ [ الأعراف : 195 ] فليس من الشّتم ولا من السبّ لأنّ ذلك من طريق الاحتجاج وليس تصدّياً للشّتم ، فالمراد في الآية ما يصدر من بعض المسلمين من كلمات الذمّ والتّعبير لآلهة المشركين ، كما روي في "السيرة" أنّ عُروة بن مسعود الثّقفي جاء رسولاً من أهل مكّة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومَ الحديبيّة فكان من جملة ما قاله : " وأيم الله لكأنّي بهؤلاء ( يعني المسلمين ) قد انكشفوا عنك " ، وكان أبو بكر الصدّيق حاضراً ، فقال له أبو بكر "امصُصْ بَظْر اللاّت" إلى آخر الخبر .

ووجه النّهي عن سبّ أصنامهم هو أنّ السبّ لا تترتّب عليه مصلحة دينيّة لأنّ المقصود من الدّعوة هو الاستدلال على إبطال الشّرك وإظهار استحالة أن تكون الأصنام شركاء لله تعالى ، فذلك هو الّذي يتميّز به الحقّ عن الباطل ، وينهض به المحقُّ ولا يستطيعه المبطل ، فأمّا السبّ فإنّه مقدور للمحقّ وللمبطل فيظهر بمظهر التّساوي بينهما .

وربّما استطاع المبطل بوقاحته وفحشه ما لا يستطيعه المحقّ ، فيلوح للنّاس أنّه تغلّب على المحقّ .

على أنّ سبّ آلهتهم لمّا كان يُحمي غيظهم ويزيد تصلّبهم قد عادَ مُنافياً لمراد الله من الدّعوة ، فقد قال لرسوله عليه الصّلاة والسّلام " وجادلهم بالّتي هي أحسن " ، وقال لموسى وهارون عليهما السّلام "فقولا له قولاً ليّناً" ، فصار السبّ عائقاً من المقصود من البعثة ، فتمحّض هذا السبّ للمفسدة ولم يكن مشوباً بمصلحة .

وليس هذا مثل تغيير المنكر إذا خيف إفضاؤه إلى مفسدة لأنّ تغيير المنكر مصلحة بالذّات وإفضاؤه إلى المفسدة بالعَرض .

وذلك مَجال تتردّد فيه أنظار العلماء المجتهدين بحسب الموازنة بين المصالح والمفاسد قوّة وضعفاً ، وتحقّقاً واحتمالاً .

وكذلك القول في تعارض المصالح والمفاسد كلّها .

وحكم هذه الآية محكم غير منسوخ .

*(133/245)*

قال القرطبي : قال العلماء : حكمها باق في هذه الأمّة على كلّ حال ، فمتى كان الكافر في منعة وخيف أنّه إنْ سبّ المسلمون أصنامه أو أمور شريعَته أن يَسُبّ هو الإسلام أو النّبيء عليه الصّلاة والسّلام أو اللّهَ عزّ وجلّ لم يحلّ للمسلم أن يسبّ صُلبانهم ولا كنائسهم لأنّه بمنزلة البعث على المعصيّة انتهى انتهى . ا هـ ، أي على زيادة الكفر .

وليس من السبّ إبطال ما يخالف الإسلام من عقائدهم في مقام المجادلة ولكنّ السبّ أن نباشرهم في غير مقام المناظرة بذلك ، ونظير هذا ما قاله علماؤنا فيما يصدر من أهل الذّمة من سبّ الله تعالى أو سبّ النّبيء صلى الله عليه وسلم بأنّهم إن صدر منهم ما هو من أصول كفرهم فلا يعدّ سَبّاً وإن تجاوزوا ذلك عدّ سبّاً ، ويعبّر عنها الفقهاء بقولهم : "مَا به كَفر وغير ما به كفر" .

وقد احتجّ علماؤنا بهذه الآية على إثبات أصل من أصول الفقه عند المالكيّة ، وهو الملقّب بمسألة سَدّ الذّرائع .

قال ابن العربي : "منع الله في كتابه أحداً أن يفعل فعلاً جائزاً يؤدّي إلى محظور ولأجل هذا تعلّق علماؤنا بهذه الآية في سدّ الذّرائع وهو كلّ عقد جائز في الظاهر يؤول أو يمكن أن يتوصّل به إلى محظور" .

وقال في تفسير سورة الأعراف ( 163 ) عند قوله تعالى : ﴿ واسْألهم عن القرية الّتي كانت حاضرة البحر إذْ يعدون في السّبت ﴾ قال علماؤنا : هذه الآية أصل من أصول

إثبات الذّرائع الّتي انفرد بها مالك رضي الله عنه وتابعه عليها أحمد في بعض رواياته وخفيت على الشّافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهما مع تبحّرهما في الشّريعة ، وهو كلّ عمل ظاهر الجواز يتوصّل به إلى محظور أ هـ .

وفَسَّر المازري في باب بيوع الآجال من شرحه للتّلقين ﴿ سَدّ الذّريعة بأنّه منع ما يجوز لئلاّ يَتطرّق به إلى ما لا يجوز أ هـ .

والمراد : سدّ ذرائع الفساد ، كما أفصح عنه القرافي في "تنقيح الفصول" وفي "الفرق الثّامن والخمسين" فقال : الذّريعة : الوسيلة إلى الشّيء .

*(134/245)*

---

ومعنى سدّ الذّرائع حسم مادّة وسائل الفساد .

وأجمعت الأمّة على أنّ الذّرائع ثلاثة أقسام : أحدها : معتبر إجماعاً كحفر الآبار في طرق المسلمين وإلقاءِ السمّ في أطعمتهم وسبّ الأصنام عند من يُعلم من حاله أنّه يسبّ الله تعالى حينئذٍ .

وثانيها : مُلغًى إجماعاً كزراعة العنب فإنّها لا تمنع لخشيَة الخمر ، وكالشركة في سكنى الدّور خشية الزّنا .

وثالثها مختلف فيه كبيوع الآجال ، فاعتبر مالك رضي الله عنه الذّريعة فيها وخالفه غيره أ هـ .

وعَنَى بالمخالف الشّافعي وأبا حنيفة رضي الله عنهما .

وهذه القاعدة تندرج تحت قاعدة الوسائل والمقاصد ، فهذه القاعدة شعبة من قاعدة إعطاء الوسيلة حكم المقصد خاصّة بوسائل حصول المفسدة .

ولا يختلف الفقهاء في اعتبار معنى سدّ الذّرائع في القسم الّذي حكى القرافي الإجماع على اعتبار سدّ الذّريعة فيه .

وليس لهذه القاعدة عنوان في أصول الحنفيّة والشّافعيّة ، ولا تعرّضوا لها بإثبات ولا نفي ، ولم يذكرها الغزالي في "المستصفى" في عداد الأصول الموهومة في خاتمة القطب الثّاني في أدلّة الأحكام .

و﴿ عَدْواً ﴾ بفتح العين وسكون الدّال وتخفيف الواو في قراءة الجمهور ، وهو مصدر بمعنى العدوان والظلم ، وهو منصوب على المفعوليّة المطلقة ل"يسبّوا" لأنّ العدو هنا صفة للسبّ ، فصحّ أن يحلّ محلّه في المفعوليّة المطلقة بياناً لنوعه .

وقرأ يعقوب ﴿ عُدُوّاً ﴾ بضمّ العين والدّال وتشديد الواو وهو مصدر كالعَدْو .

ووصفُ سبِّهم بأنّه عَدْو تعريض بأنّ سبّ المسلمين أصنامَ المشركين ليس من الاعتداء ، وجعل ذلك السبّ عدواً سواء كان مراداً به الله أم كان مراداً به من يأمر النّبيء صلى الله

عليه وسلم بما جاء به لأنّ الّذي أمر النّبيء صلى الله عليه وسلم بما جاء به هو في نفس الأمر اللّهُ تعالى فصادفوا الاعتداء على جلاله .

(135/245)

---

وقوله : ﴿ بغير علم ﴾ حال من ضمير ﴿ يسبّوا ﴾ ، أي عن جهالة ، فهم لجهلهم بالله لا يزعهم وازع عن سبّه ، ويسبّونه غير عالمين بأنّهم يسبّون الله لأنّهم يسبّون مَن أمر محمّداً صلى الله عليه وسلم بما جاء به فيصادف سبّهم سبّ الله تعالى لأنّه الّذي أمره بما جاء به .

ويجوز أن يكون ﴿ بغير علم ﴾ صفة ل ﴿ عَدْواً ﴾ كاشفة ، لأنّ ذلك العدو لا يكون إلاّ عن غير علم بعظم الجرم الّذي اقترفوه ، أو عن علم بذلك لكن حالة إقدامهم عليه تشبه حالة عدم العلم بوخامة عاقبته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾

فصل

قال الفخر :

احتج أصحابنا بهذا على أنه تعالى هو الذي زين للكافر الكفر ، وللمؤمن الإيمان ،

وللعاصي المعصية ، وللمطيع الطاعة .

ق الكعبي : حمل الآية على هذا المعنى محال ، لأنه تعالى هو الذي يقول : ﴿ الشيطان سَوَّلَ لَهُمْ ﴾ [ محمد : 25 ] ويقول : ﴿ والذين كَفَرُواْ أَوْلِيَاؤُهُمُ الطاغوت يُخْرِجُونَهُم مّنَ النور إِلَى الظلمات ﴾ [ البقرة : 257 ] ثم إن القوم ذكروا في الجواب وجوهاً : الأول : قال الجبائي : المراد زينا لكل أمة تقدمت ما أمرناهم به من قبول الحق والكعبي أيضاً ذكر عين هذا الجواب فقال : المراد أنه تعالى زين لهم ما ينبغي أن يعملوا وهم لا ينتهون .

الثاني : قال آخرون : المراد زينا لكل أمة من أمم الكفار سوء عملهم ، أي خليناهم وشأنهم وأمهلناهم حتى حسن عندهم سوء عملهم .

والثالث : أمهلنا الشيطان حتى زين لهم ، والرابع : زيناه في زعمهم وقولهم : إن الله أمرنا بهذا وزينه لنا .

هذا مجموع التأويلات المذكورة في هذه الآية والكل ضعيف وذلك لأن الدليل العقلي القاطع دل على صحة ما أشعر به ظاهر هذا النص ، وذلك لأنا بينا غير مرة أن صدور الفعل عن العبد يتوقف على حصول الداعي .

وبينا أن تلك الداعية لا بد وأن تكون بخلق الله تعالى ، ولا معنى لتلك الداعية إلا علمه واعتقاده أو ظنه باشتمال ذلك الفعل على نفع زائد ، ومصلحة راجحة ، وإذا كانت تلك الداعية حصلت بفعل الله تعالى ، وتلك الداعية لا معنى لها إلا كونه معتقداً لاشتمال ذلك الفعل على النفع الزائد ، والمصلحة الراجحة .

ثبت أنه يمتنع أن يصدر عن العبد فعل ، ولا قول ولا حركة ولا سكون ، إلا إذا زين الله تعالى ذلك الفعل في قلبه وضميره واعتقاده ، وأيضا الإنسان لا يختار الكفر والجهل ابتداء مع العلم بكونه كفراً وجهلاً ، والعلم بذلك ضروري بل إنما يختاره لاعتقاده كونه إيماناً وعلماً وصدقاً وحقاً فلولا سابقة الجهل الأول لما اختار هذا الجهل .

الثاني : ثم إنا ننقل الكلام إلى أنه لم اختار ذلك الجهل السابق ، فإن كان ذلك لسابقة جهل آخر فقد لزم أن يستمر ذلك إلى ما لا نهاية له من الجهالات وذلك محال ، ولما كان ذلك باطلاً وجب انتهاء تلك الجهالات إلى جهل أول يخلقه الله تعالى فيه ابتداء ، وهو بسبب ذلك الجهل ظن في الكفر كونه إيماناً وحقاً وعلماً وصدقاً ، فثبت أنه يستحيل من الكافر اختيار الجهل والكفر إلا إذا زين الله تعالى ذلك الجهل في قلبه ، فثبت بهذين البرهانين القاطعين القطعيين أن الذي يدل عليه ظاهر هذه الآية هو الحق الذي لا محيد عنه ، وإذا كان الأمر كذلك ، فقد بطلت التأويلات المذكورة بأسرها ، لأن المصير إلى التأويل إنما يكون عند تعذر حمل الكلام على ظاهره .

أما لما قام الدليل على أنه لا يمكن العدول عن الظاهر ، فقد سقطت هذه التكليفات بأسرها والله أعلم .

وأيضاً فقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ بعد قوله : ﴿ فَيَسُبُّواْ اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ مشعر بأن إقدامهم على ذلك المنكر إنما كان بتزيين الله تعالى .

فأما أن يحمل ذلك على أنه تعالى زين الأعمال الصالحة في قلوب الأمم ، فهذا كلام منقطع عما قبله ، وأيضاً فقوله : ﴿ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ يتناول الأمم الكافرة والمؤمنة ، فتخصيص هذا الكلام بالأمة المؤمنة ترك لظاهر العموم ، وأما سائر التأويلات ، فقد ذكرها صاحب "الكشاف" : وسقوطها لا يخفى ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 116 ﴾

*(137/245)*

---

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ كذلك زينا لكل أمة ﴾ إشارة إلى ما زين الله لهؤلاء عبدة الأصنام من التمسك بأصنامهم والذب عنها وتزيين الله عمل الأمم هو ما يخلقه ويخترعه في النفوس من المحبة للخير والشر والاتباع لطرقه ، وتزيين الشيطان هو بما يقذفه في النفوس من الوسوسة

وخطرات السوء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

وقوله تعالى : ﴿ كذلك زينا لكل أمة عملهم ﴾ يعني كما زينا لهؤلاء المشركين عبادة الأصنام وطاعة الشيطان بالحرمان والخذلان كذلك زينا لكل أمه عملهم من الخير والشر والطاعة والمعصية وفي هذه الآية دليل على تكذيب القدرية والمعتزلة حيث قالوا لا يحسن من الله خلق الكفر وتزيينه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ كذلك زينا لكل أمّة عملهم ﴾ أي مثل تزيين عبادة الأصنام للمشركين ﴿ زينا لكل أمّة ﴾ وظاهر ﴿ لكل أمّة عملهم ﴾ لعموم في الأمم وفي العمل فيه فيدخل فيه المؤمنون والكافرون وتزيينه هو ما يخلقه ويخترعه في النفوس من المحبة للخير أو الشر والاتباع لطرقه ، وتزيين الشيطان هو ما يقذفه في النفوس من الوسوسة وخطرات السوء ، وخص الزمخشري ﴿ لكل أمّة عملهم ﴾ فقال : من أمم الكفار سوء عملهم أي خليناهم وشأنهم ولم نكفهم حتى حسن عندهم سوء عملهم ، وأمهلنا الشيطان حتى زين لهم أو زيناه في زعمهم وقولهم : إن الله أمرنا بهذا وزينه لنا انتهى ، وهو على طريقته الاعتزالية ، وقال الحسن : أي ﴿ زينا لكل أمّة ﴾ العمل الذي أوجبناه عليهم فجعل ﴿ زينا ﴾ بمعنى شرعنا ﴿ ولكل أمّة ﴾ عام والعمل خاص بما أوجبه الله تعالى ، وأنكر هذا الزجاج وقال

: هو بمعنى طبع الله على قلوبهم والدليل عليه : ﴿ فمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ انتهى .

(138/245)

---

وما فسر به الحسن قد أوضحه بعض المعتزلة فقال : المراد بتزيين العمل تزيين المأمور به لا المنهى عنه ويحمل على الخصوص وإن كان عاماً لئلا يؤدّي إلى تناقض النصوص لأنه نص على تزيين الله للإيمان وتكريهه للكفر في قوله : ﴿ حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكرّه إليكم الكفر ﴾ فلو دخل تزيين الكفر في هذه الآية في المراد لوجب التناقض بين الآيتين ولذلك أضاف التزيين إلى الشيطان بقوله : ﴿ زين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ فلا يكون الله مزيناً ما زينه الشيطان فنقول : الله يزين ما يأمر به والشيطان يزين ما ينهى عنه حتى يكون ذلك عملاً بجميع النصوص انتهى ، وأجيب بأن لا تناقض لاختلاف التزيين تزيين الله بالخلق للشهوات وتزيين الشيطان بالدعاء إلى المعاصي فالآية على عمومها في كل أمّة وفي عملهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ كذلك ﴾ أي مثلَ ذلك التزيينِ القويِّ ﴿ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ من الخير والشر

بإحداث ما يُمكّنهم منه ويحمِلُهم عليه توفيقاً أو تخذيلاً ، ويجوز أن يُراد بكل أمة أممُ الكفرةِ إذ الكلامُ فيهم وبعملهم شرُّهم وفسادُهم ، والمشبَّه به تزيينُ سبِّ الله تعالى لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

*(139/245)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك التزيين القوي ﴿ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ من الأمم ﴿ عَمَلَهُمْ ﴾ من الخير والشر بإحداث ما يمكنهم منه ويحملهم عليه توفيقاً أو تخذيلاً ، وجوز أن يراد بكل أمة أمم الكفرة إذ الكلام فيهم وبعملهم شرهم وفسادهم ، والمشبه به تزيين سب الله تعالى شأنه لهم ، واستدل بالآية على أنه تعالى هو الذي زين للكافر الكفر كما زين للمؤمن الإيمان .

وأنكر ذلك المعتزلة وزين لهم الشيطان أعمالهم فتأولوا الآية بما لا يخفى ضعفه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ كذلك زيّنّا لكلّ أمّة عمَلهم ﴾ معناه كتزييننا لهؤلاء سُوءِ عملهم زَيَّنَّا لكلّ أمّة

عملهم ، فالمشار إليه هو ما حكاه الله عنهم بقوله : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجنّ إلى قوله فيسبّوا الله عدواً بغير علم ﴾ [ الأنعام : 100 108 ] .

فإنّ اجتراءهم على هذه الجرائم وعماهم عن النّظر في سوء عواقبها نشأ عن تزيينها في نفوسهم وحسبانهم أنّها طرائق نفع لهم ونجاة وفوز في الدّنيا بعناية أصنامهم .

فعلى هذه السنّة وبمماثل هذا التّزيين زيّن الله أعمال الأمم الخالية مع الرّسل الّذين بُعثوا فيهم فكانوا يُشاكسونهم ويعصون نصحهم ويجترئون على ربّهم الّذي بعثهم إليهم ، فلمّا شبّه بالمشار إليه تزيينا عَلِم السّامع أنّ ما وقعت إليه الإشارة هو من قبيل التّزيين .

*(140/245)*

---

وقد جرى اسم الإشارة هنا على غير الطّريقة الّتي في قوله : ﴿ وكذلك جعلناكم أمّة وسطا ﴾ [ البقرة : 143 ] ونظائره ، لأنّ ما بعده يتعلّق بأحوال غير المتحدّث عنهم بل بأحوال أعمّ من أحوالهم .

وفي هذا الكلام تعريض بالتوعّد بأن سيحلّ بمشركي العرب من العذاب مثلُ ما حلّ بأولئك في الدّنيا .

وحقيقة تزيين الله لهم ذلك أنّه خلَقهم بعقول يَحْسُن لديها مثلُ ذلك الفعل ، على نحو ما تقدّم

في قوله تعالى : ﴿ ولو شاء الله ما أشركوا ﴾ [ الأنعام : 108 ] .

وذلك هو القانون في نظائره .

والتّزيين تفعيل من الزّين ، وهو الحُسن ؛ أو من الزّينة ، وهي ما يتحسّن به الشّيء .

فالتّزيين جعل الشّيء ذا زينة أو إظهاره زيْناً أو نسبته إلى الزّين .

وهو هنا بمعنى إظهاره في صورة الزّين وإن لم يكن كذلك ، فالتّفعيل فيه للنّسبة مثل التّفسيق .

وفي قوله : ﴿ ولكنّ الله حبّب إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم ﴾ [ الحجرات : 7 ] بمعنى جعله زيناً ، فالتّفعيل للجعل لأنّه حَسَن في ذاته .

ولما في قوله : ﴿ كذلك زيّنّا لكلّ أمّة عملهم ﴾ من التّعريض بالوعيد بعذاب الأمم عقّب الكلام بـ ﴿ ثُمّ ﴾ المفيدة التّرتيب الرتبي في قوله : ﴿ ثمّ إلى ربّهم مرجعهم فينبّئهم بما كانوا يعملون ﴾ ، لأنّ ما تضمّنته الجملة المعطوفة بـ ﴿ ثُمّ ﴾ أعظم ممّا تضمّنته المعطوفُ عليها ، لأنّ الوعيد الّذي عُطفت جملته بـ ﴿ ثمّ ﴾ أشدّ وأنكى فإنّ عذاب الدّنيا زائل غير مؤبّد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

قال الفخر :

المقصود منه أن أمرهم مفوض إلى الله تعالى ، وإن الله تعالى عالم بأحوالهم .

مطلع على ضمائرهم .

ورجوعهم يوم القيامة إلى الله فيجازي كل أحد بمقتضى عمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 116.117 ﴾

*(141/245)*

---

وقال ابن عطية :

وقوله ﴿ ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم ﴾ يتضمن وعداً جميلاً للمحسنين ووعيداً ثقيلاً للمسيئين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

وقوله تعالى : ﴿ ثم إلى ربهم مرجعهم ﴾ يعني المؤمن والكافر والطائع والعاصي ﴿ فينبئهم بما كانوا يعملون ﴾ يعني في الدنيا ويجازيهم على ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون ﴾

أي أمرهم مفوّض إلى الله وهو عالم بأحوالهم مطلع على ضمائرهم ومنقلبهم يوم القيامة إليه

فيجازي كل بمقتضى عمله وفي ذلك وعد جميل للمحسن ووعيد للمسيء . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ ﴾ مالك أمرِهم ﴿ مَرْجِعُهُمْ ﴾ أي رجوعُهم وهو البعثُ بعد الموت ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ ﴾ من غير تأخير ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا على الاستمرار من السيئات المزيَّنةِ لهم ، وهو وعيدٌ بالجزاء والعذاب ، كقول الرجل لمن يتوعدُه : سأُخبرُك بما فعلت ، وفيه نكتةٌ سِرّية مبنيةٌ على حِكمة أبيّةٍ ، وهو أن كلَّ ما يظهر في هذه النشأةِ من الأعيان والأعراضِ فإنما يظهر بصورة مستعارةٍ مخالفةٍ لصورته الحقيقية التي بها يظهر في النشأة الآخرة ، فإن المعاصيَ سمومٌ قاتلةٌ قد برزت في الدنيا بصورةٍ ما تستحسنها نفوسُ العصاة ، كما نطقت به هذه الآيةُ الكريمة ، وكذا الطاعاتُ فإنها مع كونها أحسنَ الأحاسنِ قد ظهرت عندهم بصورة مكروهةٍ ، ولذلك قال عليه السلام : " حُفَّت الجنَّةُ بالمكارهِ وحَفَّتِ النارُ بالشهواتِ " فأعمال الكفرةِ قد برزت لهم في النشأة بصورة مزيَّنةٍ يستحسنها الغُواةُ ويستحبّها الطغاةُ ، وستظهر في النشأة الآخرةِ بصورتها الحقيقيةِ المنكرةِ الهائلةِ فعند ذلك يعرِفون أن أعمالهم ماذا فعبر عن إظهارها بصورها الحقيقية بالإخبار بها لما أن كلاًّ منهما سبب للعلم بحقيقتها كما هي .

فلْيُتدبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

---

وقال الآلوسى :

﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ ﴾ مالك أمرهم ﴿ مَرْجِعُهُمْ ﴾ أي رجوعهم ومصيرهم بالبعث بعد الموت ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ ﴾ من غير تأخير ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا على الاستمرار من خير أو شر ، وذلك بالثواب على الأول والعقاب على الثاني ، فالجملة للوعد والوعيد .

وفسر بعضهم ما بالسيئات المزينة لهم وقال : إن هذا وعيد بالجزاء والعذاب كقول الرجل لمن يتوعده : سأخبرك بما فعلت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

والمعنى أعظم من ذلك أنّهم إلى الله مرجعهم فيحاسبهم .

والعدول عن اسم الجلالة إلى لفظ ﴿ ربّهم ﴾ لقصد تهويل الوعيد وتعليل استحقاقه بأنّهم يرجعون إلى مالكهم الذي خلقهم فكفروا نعمه وأشركوا به فكانوا كالعبيد الآبقين يطوّفون ما يطوفوّن ثمّ يقعون في يد مالكهم .

والإنباء : الإعلام ، وهو توقيفهم على سوء أعمالهم .

وقد استعمل هنا في لازم معناه ، وهو التّوبيخ والعقاب ، لأنّ العقاب هو العاقبة المقصودة

من إعلام المجرم بجرمه .

والفاء للتّفريع عن المَرْجِع مؤذنة بسرعة العقاب إثر الرّجوع إليه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

(143/245)

---

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ نهي .

﴿ فَيَسُبُّوا الله ﴾ جواب النهي .

فنهى سبحانه المؤمنين أن يَسُبُّوا أوثانهم ؛ لأنه علم إذا سبّوها نفر الكفار وازدادوا كُفراً .

قال ابن عباس : قالت كفار قريش لأبي طالب إمّا أن تنهى محمداً وأصحابه عن سب آلهتنا والغض منها وإما أن نَسُبّ إلهه ونهجوه ؛ فنزلت الآية .

الثانية : قال العلماء : حكمها باقٍ في هذه الأمة على كل حال ؛ فمتى كان الكافر في مَنَعة

وخِيف أن يَسُبَّ الإسلام أو النّبيّ عليه السلام أو الله عز وجل ، فلا يحلّ لمسلم أن يَسُبَّ صلبانهم ولا دينهم ولا كنائسهم ، ولا يتعرّض إلى ما يؤدّي إلى ذلك ؛ لأنه بمنزلة البعث على المعصية .

وعبر عن الأصنام وهي لا تعقل ب"الذين" على معتقد الكفرة فيها .

الثالثة : في هذه الآية أيضاً ضَرْبٌ من الموادعة ، ودليلٌ على وجوب الحكم بسدّ الذرائع ؛ حسب ما تقدّم في "البقرة" وفيها دليل على أن المحقّ قد يكفّ عن حق له إذا أدّى إلى ضرر يكون في الدِّين .

ومن هذا المعنى ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : لا تبتّوا الحكم بين ذوي القرابات مخافة القطيعة .

قال ابن العربيّ : إن كان الحق واجباً فيأخذه بكل حال وإن كان جائزاً ففيه يكون هذا القول .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ عَدْواً ﴾ أي جهلاً واعتداء .

وروي عن أهل مكة أنهم قرءوا "عُدُوًّا" بضم العين والدال وتشديد الواو ، وهي قراءة الحسن وأبي رجاء وقَتادة ، وهي راجعة إلى القراءة الأولى ، وهما جميعاً بمعنى الظلم .

وقرأ أهل مكة أيضاً "عَدُوًّا" بفتح العين وضم الدال بمعنى عدوّ .

وهو واحد يؤدّي عن جمع ؛ كما قال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [ الشعراء : 77 ] .

(144/245)

---

وقال تعالى : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ ﴾ [ المنافقون : 4 ] وهو منصوب على المصدر أو على المفعول من أجله .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ أي كما زيّنا لهؤلاء أعمالهم كذلك زينا لكل أمة عملهم .

قال ابن عباس : زيّنا لأهل الطاعةِ الطاعةَ ، ولأهل الكفرِ الكفرَ ؛ وهو كقوله : ﴿ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [ النحل : 93 ] .

وفي هذا ردٌّ على القدرية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(145/245)

---

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

أي : لا تذكروا آلهتهم ، التي يعبدونها ، بما فيها من القبائح ، لئلا يتجاوزوا إلى الجناب الرفيع

.

روى عبد الرزاق عن قتادة قال : كان المسلمون يسبون أصنام الكفار ، فنهوا عنه لذلك .

وقال الزجاج : نهوا أن يلعنوا الأصنام التي كانت تعبدها المشركون . انتهى .

فـ : ﴿ الَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ عبارة عن الآلهة ، والعائد مقدر ، والتعبير بـ : ﴿ الَّذِينَ ﴾ على زعمهم أنهم من أولي العلم ، أو بناء على أن سبّ آلهتهم سبّ لهم ، كما يقال : ضربُ الداية صفعٌ لراكبها . فإن قيل : إنهم كانوا يقرّون بالله وعظمته ، وأن آلهتهم إنما عبدوها لتكون شفعاء عنده ، فكيف يسبونه ؟ قلنا : لا يفعلون ذلك صريحاً ، بل يفضي كلامهم إلى ذلك ، كشتمهم له ولمن يأمر بذلك مثلاً . وقد فسر : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ بهذا ، وهو حسن جداً . أو أن الغيظ والغضب ربما حملهم على سب الله صريحاً . ألا ترى المسلم قد تحمله شدة غضبه بالكفر ؟ !

و : ﴿ عَدْوًا ﴾ مصدر ، أي : ظلماً وعدواناً ، يقال : عدا عليه عدواً ، كـ ( ضرباً ) ، و ( عدوّاً ) كـ ( عتوّ ) ، و ( عداء ) كـ ( عزاء ) ، و ( عدواناً ) كـ ( سبحان ) إذا تعدى

وتجاوز ، وهو مفعول مطلق لـ ( تسبوا ) من معناه ، لأن السبب عدوان . أو مفعول له ، أو حال مؤكدة مثل : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ - كذا في العناية - .

تنبيه :

(146/245)

---

قال ابن الفرس في الآية : إنه متى خيف من سب الكفار وأصنامهم ، أن يسبوا الله وأو رسوله أو القرآن ، لم يجز أن يُسَبّوا ولا دينهم . قال : وهي أصل في قاعدة سد الذرائع .

قال السيوطي : وقد يستدل بها على سقوط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إذا خيف من ذلك مفسدة أقوى . وكذا كل فعل مطلوب ترتب على فعله مفسدة أقوى من مفسدة تركه .

وقال بعض مفسري الزيدية : ثمرة الآية أن الحَسَن يصير قبيحاً إذا كان يحصل بفعله مفسدة . قال الحاكم : نهوا عن سب الأصنام لوجهين :

أحدهما : أنها جماد لا ذنب لها .

والثاني : أن ذلك يؤدي إلى المعصية بسبّ الله تعالى .

قال : والذي يجب علينا بيان بغضها ، وأنه لا تجوز عبادتها ، وأنها لا تضر ولا تنفع ، وأنها

لا تستحق العبادة ، وهذا ليس بسبٍّ . ولهذا قال أمير المؤمنين ( يوم صفين ) : لا تسبوهم ، ولكن اذكروا قبيح أفعالهم . انتهى .

وقال الزمخشري : فإن قلت : سب الآلهة حق وطاعة ، فكيف صح النهي عنه ، وإنما يصح النهي عن المعاصي ؟ قل : رب طاعة عُلِمَ أنها تكون مفسدة ، فتخرج عن أن تكون طاعة ، فيجب النهي عنها لأنها معصية ، لا لأنها طاعة . كالنهي عن المنكر ، هو من أجل الطاعات ، فإذا علم أنه يؤدي إلى زيادة الشر انقلب إلى معصية ، ووجب النهي عن ذلك ، كما يجب النهي عن المنكر . فإن قلت : فقد روي عن الحسن وابن سيرين أنهما حضرا جنازة ، فرأى محمد نساءً ، فرجع . فقال الحسن : لو تركنا الطاعة لأجل المعصية ، لأسرع ذلك في ديننا . قلت : ليس هذا مما نحن بصدده ، لأن حضور . الرجال الجنازة طاعة ، وليس بسبب لحضور النساء ، فإنهن يحضرنها ، حضر الرجال أو لم يحضروا . بخلاف سب الآلهة . وإنما خيل إلى ابن سيرين أنه مثله ، حتى نبه عليه الحسن . انتهى .

ومنه قال بعض مفسري الزيدية : واعلم أن المعصية إن كانت حاصلة لا محالة ، سواء فعل الحسن أم لا ، لم يسقط الواجب ، ولا يقبح الحسن . انتهى .

*(147/245)*

وكذا قال الخفاجي : إن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحة ، وكانت سبباً لها , وجب تركها . بخلاف الطاعة في موضع فيه معصية ، لا يمكن دفعها . وكثيراً ما يشتبهان ولذا لم يحضر ابن سيرين جنازة اجتمع فيها الرجال والنساء ، وخالفه الحسن للفرق بينهما . انتهى

.

قال الرازيّ : وفي الآية تأديب لمن يدعو إلى الدين ، لئلا يتشاغل بما لا فائدة له في المطلوب ، لأن وصف الأوثان بأنها جمادات لا تضر ولا تنفع ، يكفي في القدح في إلهيتها ، فلا حاجة ، مع ذلك ، إلى شتمها .

﴿ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ من الأمم الماضية على الضلال : ﴿ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ ﴾ أي : بالبعث بعد الموت ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ ﴾ أي : يخبرهم : ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا . وذلك بالمحاسبة والمجازاة عليه . تنبيهات :

الأول – ذهب أهل السنة إلى ظاهر الآية ، من أن المزيِّن للكافر الكفر ، وللمؤمن الإيمان ، هو الله تعالى . وذلك لأن صدور الفعل من العبد يتوقف على حصول الداعي ، ولا بد أن يكون ذلك الداعي بخلق الله تعالى . وقد بسط الرازي ذلك ، وساق تأويلات المعتزلة الركيكة ، فانظره !

الثاني – في قوله تعالى : ﴿ فَيُنَبِّئُهُم ﴾ الخ وعيد الجزاء والعذاب . كقول الرجل لمن يتوعده : سأخبرك بما فعلت .

(148/245)

---

الثالث – فيه نكتة سرية , مبينة على حكمة أبيّة , وهي أن كل ما يظهر في هذه النشأة من الأعيان والأعراض , فإنما يظهر بصورة مستعارة مخالفة لصورته الحقيقة التي بها يظهر في النشأة الآخرة . فإن المعاصي سموم قاتلة , قد برزت في الدنيا بصورة تستحسنها نفوس العصاة , كما نطقت به هذه الآية الكريمة , وكذا الطاعات , فإنها مع كونها أحسن الأحاسن , قد ظهرت عندهم بصورة مكروهة , ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : حُفَّت الجنة بالمكاره , وحفت النار بالشهوات . فأعمال الكفرة قد برزت لهم في هذه النشأة بصورة مزينة تستحسنها الغواة وتستحبها الطغاة . وستظهر في النشأة الآخرة بصورتها الحقيقة المنكرة الهائلة, فعند ذلك يعرفون أن أعمالهم ماذا ؟ فعبر عن إظهارها بصورها الحقيقة بالأخبار بها , لما أن كلاً منهما سبب للعلم بحقيقتها كما هي . فليتدبر ! –أفاده أبو السعود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 472.474 ﴾

(149/245)

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

وتتضمن هذه الآية الكريمة منهجاً ضرورياً من مناهج الدعوة إلى الله ، هذه الدعوة التي حملها الرسل السابقون ، وختمهم الحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعلها سبحانه ختماً لاتصال السماء بالأرض ؛ لذلك كان لابد من أن يستوعب الإسلام كل أقضية تتعلق بالدعوة إلى الله يحملها أميناً عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأمة المحمدية . التي شرفها الله سبحانه وتعالى بأن جعل فيها من يحملون أمانة دعوة الله إلى الخلق امتداداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فكل مسلم يعلم حكماً من أحكام الله مطلوب منه أن يبلغه لغيره ؛ فرب مُبلَّغ أوعى من سامع . حتى وإن كان الله لم يوفقه للعمل بما جاء فيما بلغ . فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، فإذا فاته أن يعمل فالواجب ألا يفوت من يعلم قضية من قضايا دينه ثواب البلاغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخلق ، ولكن عليه أن يعمل ليكون قدوة سلوكية يتأسى به غيره حتى لا يقع تحت طائلة قوله تعالى : ﴿ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ .

وإن كان بعض الشعراء يلحون على هذه المسألة . فيقولون :

وخذ بعلمي ولا تركن إلى عملي . . . واجن الثمار وخلّ العود للنار

إذن فالبلاغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر ضروري ، وهو امتداد لشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه بلغ صلى الله عليه وسلم عن الحق مراده من الخلق . وبقي أن يشهد الناس الذين اتبعوا هذا الرسول أنهم بلغوا إلى الناس ما جاءهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ [ البقرة : 143 ] .

إذن فكما أن الرسول سيشهد بأنه بلغنا ، فمن صميم المنهج أن يشهد أتباعه أنهم بلغوا الناس ، فإن حدث تقصير في البلاغ إلى الناس ، فستكون المسئولية على من اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يؤد أمانة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الناس أجمعين .

ومنهج الدعوة منهج صعب ؛ لأن الدعوة إلى الله تتطلب أن يأخذ الداعي يد الذين ينحرفون عن منهج السماء اتباعا لشهوات الأرض ، وشهوات الأرض جاذبة دائما للخلق ؛ لأنها تحقق العاجل من متع النفس . واتباع منهج الدين – كما يقولون – يحقق نفعا آجله ، فهو يحقق – أيضا – المتعة العاجلة ؛ لأن الناس إن تمسكوا بمنهج الله في " افعل ولا تفعل " يعيشون حياة طيبة لا حقد فيها ، ولا استغلال ، ولا ضغن ولا حسد ولا سيطرة ، ولا

جبروت ، فيصبح الناس جميعا في أمان .

إذن فلا تقولوا إن الدين ثمرته في الآخرة بل قولوا ليست مهمة الدين هي الآخرة فحسب بل مهمة الدين هي الدنيا أيضا ، والآخرة إنما هي ثواب على النجاح في هذه المهمة ؛ لأن الله إنما يجازي في الآخرة من أحسن العمل في الدنيا .

ومن اتبع منهج الله كما قال الله ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ ومن أعرض عن منهج الله فإن له معيشة ضنكا . ويحدث ذلك قبل الآخرة ، ثم يأتي يوم القيامة ليتلقى العقاب من الله : ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامة أعمى ﴾ [ طه : 124 ] .

*(151/245)*

---

فإذا كان الدين يأخذ بالناس من شهواتهم الهابطة إلى منهج الله العالي ، فتكون مهمة الداعي شاقة على النفس ، ولذلك قالوا : إن الناصح بالخير يجب أن يكون لبقا ؛ لأنه يريد أن يخلع الناس مما أحبوا وألفوا من الشر ؛ لذلك يجب على الداعي ألا يجمع عليهم إخراجهم مما ألفوا بأسلوب يكرهونه بل لا بد أن يثير جنانهم ورغبتهم في اتباع المنهج ، ولذلك جاءت هذه الآية : ﴿ وَلاَ تَسُبُّواْ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله فَيَسُبُّواْ الله عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إلى رَبِّهِمْ مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [ الأنعام : 108 ] .

لقد قال الحكماء : النصح ثقيل فلا نرسله جبلاً ولا تجعله جدلاً ، والحقائق مُرّة ، فاستعيروا لها خفة البيان . والخفة في النصح تؤلف قلب المنصوح ، وحسبك منه أن تخلعه عما ألف وأحبّ . إلى ما لم يتعود ، فلا يكون خلعه مما ألف بأسلوب عنيف . ولذلك يعلمنا الحق هذه القضية حين ندعو الخصوم إلى الإيمان به ، وهؤلاء الخصوم يتخذون من دون الله أنداداً ؛ أي جعلوا لله ومعه شركاء .

إنهم إذن إرادوا المتعة العاجلة بالابتعاد عن المنهج ، ثم احتفظوا بالله مع الشركاء ؛ لأنه قد تأتي لهم ظروف عصيبة ، لا تقدر أسباب الأرض على دفعها ، ومن مصلحتهم أن يكون لهم إله قادر على أن ينجيهم مما هم فيه . فهم لا يكذبون أنفسهم . والحق سبحانه هو القائل في مثل هؤلاء إن أصروا على الشرك : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ [ الأنبياء : 98 ] .

*(152/245)*

---

حصب جهنم إذن هم المشركون ومعهم الأصنام التي كانوا يعبدونها وستكون وقوداً للنار التي يعذبون بها . وبعض من الناس السطحيين يظن أن هذا عذاب للأحجار ، لا ، بل هي غيرة ونقمة وغضب من الأحجار على خروج المشركين عن منهج الله في توحيد الله .

فتقول الأحجار : لقد كنتم مفتونين بي ولذلك سأكون أنا أداة إحراقكم . إننا نجد المفتونين في الآلهة من البشر أو الآلهة من الأشجار أو الآلهة من الكواكب أو الآلهة يصيبهم الله بالعذاب ، والأحجار التي عبدوها تقول كما قال بعضهم فيها شعراً :

عبدونا ونحن أعبد ل . . . له من القائمين في الأسحار

واتخذوا صمتنا علينا دليلا . . . وغدونا لهم وقود النار

للمغالي جزاؤه والمغالي فيه . . . تنجيه رحمة الغفار

ولذلك يأتي الأمر بألا نسبّ ما يعبده الذين أشركوا بالله ؛ لأن الأصنام لا ذنب لها ، والواقع كان يقتضي أن تتلطفوا بالأحجار فهي لا ذنب لها في المفتونين بها .

والحق سبحانه وتعالى يعلمنا ويوضح لنا ألا نظلم المتَّخَذ إلها ؛ لأنه مغدور ، والسب هو ذكر القبيح ، والشتم ، والذم ، والهجاء ، إنك إن سببت وقبحت ما عبدوه من دون الله فإن العابد لها بغباوته سيسب إلهك فتكون أنت قد سببت إلها باطلا ، وهم سبّوا الإله الحق ، وبذلك لم نكسب شيئًا ؛ فانتبهوا .

ويحذرنا القرآن من الوقوع في ذلك في قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله فَيَسُبُّواْ الله عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [ الأنعام : 108 ] .

وهم سيفعلون ذلك عَدْواً وعدوانا وطغيانا بغير علم بقيمة الحق وقدسيته سبحانه وتعالى ؛ لذلك يجب أن نصون الألسنة عن سب آلهتهم حتى لا نجرئ الألسنة التي لا تؤمن

بالله على سب الله .

إن الحق سبحانه يريد أن يعلمنا اللطف في منهج الدعوة ؛ لأنك تريد أن تحنن قلوبهم لتستميلهم إلى الإيمان ولن يكون ذلك إلا بالأسلوب الطيب .

*(153/245)*

---

صحيح أن المؤمنين معذورون في حماسهم حين يدخلون في مناقشة مع المشركين ولكن ليتذكر المؤمن القيمة النهائية وهي الخير للدعوة . وليسأل الله أن يرزقه الصبر على المشركين ، ويعلمنا الحق كيف نسير في منهج الدعوة ، وعلى سبيل المثال نجد سيدنا نوحاً عليه السلام الذي لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما . وظل يدعو ويتحنن في الدعوة ، إلى أن قالوا له في آخر المطاف : أنت تفتري هذا الكلام من عندك ، فعلمه الله سبحانه وتعالى أن يقول : ﴿ قُلْ إِنِ افتريته فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بريء مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ [ هود : 35 ] .

ويقول الحق سبحانه معلماً رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السماوات والأرض ﴾ [ سبأ : 24 ] .

أي من الذي يعطيكم قوام الحياة ؟ وأنت حين تسألهم سؤالاً يناقض ما هم عليه .

فيتلجلجون ، فيسعف الله رسوله فيوضح سبحانه ويأمره أن يقول لهم : ﴿ قُلِ اللهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لعلى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [ سبأ : 24 ] .

و" إنا " أي رسول الله ومن معه . " أو إياكم " المقصود بها الكافرون بالله ، ولم يقل لهم أنا وحدي على هدى وأنتم على ضلال ، بل قال : منهجنا ومنهجكم لا يتفقان ، ولا بد أن يكون هناك منهج على هدى ومنهج على ضلال ، ولن أقول مَن هو الذي على هدى ، ومَنْ هو الذي على ضلال ؛ لأن محمداً صلى الله عليه وسلم واثق من أنهم لو أداروا المسألة على عقولهم وعلى بصائرهم : فلن يجدوا جواباً إلا أن رسول الله على الهدى وأنهم على الضلال . فتركهم هم ليقولوها .

ولنتأمل أيضاً قول الحق سبحانه : ﴿ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [ سبأ : 25 ] .

لم يقل الحق إنهم هم الذين يجرمون ، بل جعل الجرم – إن صح – على المؤمنين ، وجعل العمل – وإن فسد – مع الكافرين .

*(154/245)*

وعلى الأقل كانت المساواة تقتضي ولا نسأل عما تجرمون ولكنه لم يقل ذلك . وهذا هو الأدب العالي واللطف ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد ألا يترك الرسول لغرائزهم مكاناً للإباء عليه ، وألا يجدوا وسيلة لينفروا من الدعوة . ولهذا يعلمنا هذا الأسلوب فيقول : ﴿ وَلاَ تَسُبُّواْ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله فَيَسُبُّواْ الله عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [ الأنعام : 108 ]

.

وبذلك نحقق لطف الجدل . ويقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [ الأعراف : 194 ] .

وإن كنتم تريدون كشف حقيقة تلك الأصنام فهي أيضاً مخلوقة لله وهي تعبده ، واسألوهم ولن يجيبوا ، وهم لا أرجل لهم يمشون عليها ، ولا لهم أيد يبطشون بها ، ولا لهم أعين يبصرون بها ، ولا لهم آذان يسمعون بها . وفوق ذلك : ﴿ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً وَلَوِ اجتمعوا لَهُ ﴾ [ الحج : 73 ] .

وهل هناك ما هو أقل من الذباب في عرفكم ؟ نعم ، يقول الحق : ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذباب شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ [ الحج : 73 ] .

فإن جاءت ذبابة وحطت على ما تأكل ، أتستطيع أن تسترجع منها شيئاً ؟ لن تستطيع ، وإن كنت جباراً وفتوة فامسك الذبابة وخذ منها الطعام الذي أخذته ، لن تستطيع ، ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ ضَعُفَ الطالب والمطلوب ﴾ [ الحج : 73 ] .

وهذا هو الجدل الذي يجعل المجادل يخجل من نفسه ، لكن إذا ثرت في وجهه وتعصبت فأنت تجعل له عذراً في الحفيظة عليك والغضب منك والهجوم عليك ، وفي الانصراف عن منهج الله ، ونسأل الله أن يعطينا طول البال وسعة الحلم والأناة على الجدل اللطيف .

﴿ وَلاَ تَسُبُّواْ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله فَيَسُبُّواْ الله عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ [ الأنعام : 108 ] .

*(155/245)*

---

وحين يعلمنا الحق الجدل اللطيف للدعوة فهذا تزيين للدعوة ، والدعوة في ذاتها جميلة ؛ لذلك لابد أن يكون عرضها جميلاً .

والمثال من حياتنا : أنت تذهب إلى التاجر وعنده بضاعة قد تكون متميزة جداً لكنه لا يرتبها ولايحسن عرضها ؛ لذلك قد تنفر منه وتذهب إلى تاجر آخر قد تكون بضاعته أقل جودة لكنه يحسن عرضها ، وهذا هو التزيين أي تصعيد الحسن ، ولذلك سُمِّي الحلي وما تتجمل به المرأة زينة والمرأة قد تمتلك أنوثة جميلة ، وهي مع جمالها تقوم بتزيين نفسها بالحلي ، وبالجواهر والملبس الراقي ، وكان العربي حين يمتدح امرأة بقمة جمالية يقول : هذه غانية ، أي استغنت بجمالها عن أن تتزين ؛ لأن ما سوف تداريه بالعقد أجمل من العقد .

والتزيين إذن جمال العرض للاستمالة والانجذاب ، ونحن حين نزين أمراً فإننا نعطيه وقاراً وحسناً ونزيده جمالاً : ﴿ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ والأمة : هي الجماعة التي لها انتماء يجمع أفرادها ، مثل أمة العرب . . أي أن المنتمين إليها هم العرب والأمة الإنجليزية أي أن المنتمين إليها إنجليز ، أما أمة الإسلام فيدخل فيها العرب ، والعجم ، والأسود والأبيض ، والأصفر ، وهي أوسع رقعة ، فإن كانت الأمم السابقة زينت لتناسب عصراً محدوداً وزمناً محدوداً ، ومكاناً محدوداً فنحن نزينكم تزييناً يناسب كل أذواق الدنيا ؛ لأنكم ستواجهون كل هذه الأمم ، فلابد أن يكون في دعوتكم استمالة لهذا ولهذا ولهذا .

وفي بدء الدعوة – وكانت حينئذ ضعيفة نجد – رسول الله صلى الله عليه وسلم يلتفت إلى الأمة ، فيكون بلال الحبشي هو من يؤذن ، ونجده يقول عن – سليمان وهو فارسي – : سلمان منا آل البيت ويأتي سيدنا عمر يقول عن صهيب – وهو رومي – : نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه ، أي أن عدم عصيانه لله طبيعة فيه حتى وإن لم يكن يخاف عقاب الله .

*(156/245)*

فإذا كنا قد زينا لكل أمة من الأمم الماضية عملهم فتزيين أمتكم يجب أن يكون مناسباً لمهمتها زماناً ومكاناً وأجناساً ، وألواناً ، ولغات ، ولابد أن نزينكم أيضاً بحسن أسلوب العرض لمنهج الدعوة . ويجب أن يتناسب مع جمالها ، وأنتم أولى بالتزيين ؛ لأنكم مستوعبون لكل حضارات الدنيا ، وانتماءات الدنيا ، فيجب أن يكون تزيينكم مناسباً لمهمتكم .

﴿ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَّرْجِعُهُمْ ﴾ [ الأنعام : 108 ] .

أي أننا وضحنا لهم منهج نقل الدعوة إلى الغير ، وما ينال المحسن والمطيع من ثواب في الآخرة ، والمؤمنون حينما ينعمون بنعيم الآخرة فهذا نعيم بغير حدود ؛ لأنه على قدر طلاقة قدرة الحق سبحانه وتعالى ، وهم حين يتنعمون بكل هذه النعم يستشرقون إلى لقاء المنعم به ، ويتجلى الله عليهم .

وكما زينا للأمم السابقة أعمالهم قد زيناكم لأنكم أمة الإجابة ، وهذا التزيين الخاص يربي الدعاة إلى منهج الله ، ولو فطن غيركم إلى ما في منهجكم من زينة لبحثوا في هذا المنهج ولقام كل منهم باستقراء الوجود الذي بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ولوجد أن لكل كائن مهمة ، ولانضم إلى المنهج التعبدي . ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [ الذاريات : 56 ] .

و" ليعبدون " تعني أن يطيعوا في " افعل كذا " " ولا تفعل كذا " وإذا قال الحق : ﴿ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ فمعنى ذلك أنه سبحانه قد بين العمل بفوائده .

*(157/245)*

---

وأنت حين تتأمل ظواهر الوجود حولك تجد أن من تميز عليك بموهبة إنما أراده الحق على هذا التميز لينفعك أنت ، ويتجلى هذا الأمر في كل المهن : فالنجار الحاذق والمتقن تعود صنعته عليك ، ومصمم الملابس الذي يتقن عمله سيعود خير صنعته عليك ، ومن مصلحة كل إنسان أن يكون غيره متفوقاً ؛ وأن يكون هو أيضاً متفوقاً في عمله ، وأن يحمد ربنا لأن خيره سيعود على غيره أيضاً ، وبذلك نحيا في مجتمع راق يتكون من أمم وطوائف مثالية ، إذن فالمتفوق في شيء يجب ألا يحقد على غيره من أبناء المجتمع ؛ لأن خير تفوقه سيعود على كل فرد فيه ومن المصلحة أن يصبر الكل إلى التفوق .

فإذا قال الله : ﴿ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ أي جعل الله لكل منا عملاً في الحياة ، ولا بد أن ينتفع به في الدنيا ، وينتفع به في الآخرة أيضاً ويأخذ كل منا ثواب الله عليه ، فالذي يأخذ التزيين يقبل على العمل ، والذي لا يأخذ التزيين فعليه الذنب ، وكل واحد إنما يزين عمله على مقدار الطموح الذي يطلبه لنفسه ، ونحن نرى أمثلة لذلك في الحياة ، ونلتفت

لنجد إنساناً له دخل محدود ، لكنه يفتح على نفسه أبواباً من الترف أكثر من اللازم ، ولا يدخر شيئاً ويحقق لنفسه المتعة العاجلة ، ونجد إنساناً آخر يعيش على قدر الضروريات ويدخر لنجده من بعد ذلك قد طور من أسلوب حياته بالسكن اللائق ومتع الحياة . إن الأول زين له عمله الترف العاجل ، والثاني زين له عمله الترف المقنن ، فإياك أن تنظر إلى شهوة العاجلة ، ولكن انظر إلى الجدوى التي تأتي منها : ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [ الأنعام : 108 ] .

وما دام المرجع لمن أوجد العمل منهجاً في " افعل " و" لا تفعل " والمرجع لمن وضع التزيين في العمل لتأخذ المنهج الكريم منه ، وعلى مقدار ما أخذت من منهجه تأخذ من كرامته .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(158/245)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (108) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله . . . ﴾ الآية . قال : قالوا : يا محمد لتنتهين عن سبِّ أو شتم آلهتنا أو لَنَهْجُوَنَّ ربَّك . فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم ﴿ فيسبوا الله عدواً بغير علم ﴾ .

*(159/245)*

---

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال " لما حضر أبا طالب الموت قالت قريش : انطلقوا فلندخل على هذا الرجل فلنأمره أن ينهي عنا ابن أخيه ، فانا نستحي أن نقتله بعد موته ، فتقول العرب : كان يمنعه . فلما مات قتلوه ، فانطلق أبو سفيان ، وأبو جهل ، والنضر بن الحارث ، وأمية وأبي ابنا خلف ، وعقبة بن أبي معيط ، وعمرو بن العاصي ، والأسود بن البختري ، وبعثوا رجلاً منهم يقال له المطلب ، فقالوا : استأذن لنا علي بن أبي طالب ، فأتى أبا طالب فقال : هؤلاء مشيخة قومك يريدون الدخول عليك ؟ فأذن لهم عليه فدخلوا ، فقالوا : يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا ، وأن محمداً قد آذانا وآذى آلهتنا ، فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا ولندعه وإلهه ، فدعا فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال له أبو طالب : هؤلاء قومك وبنو عمك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما يريدون ؟ قالوا : نريد أن تدعنا وآلهتنا ولندعك وإلهك . قال النبي صلى الله عليه

وسلم : أرأيتم أن أعطيتكم هذا هل أنتم معطيّ كلمة إن تكلمتم بها ملكتم بها العرب ودانت لكم بها العجم الخراج؟ قال أبو جهل : وأبيك لنعطينكها وعشرة أمثالها فما هي ؟ ! قال : قولوا : لا إله إلا الله فأبوا واشمأزوا . قال أبو طالب : قل غيرها فإن قومك قد فزعوا منها . قال : يا عم ما أنا بالذي أقول غيرها حتى يأتوا بالشمس فيضعوها في يدي ، ولو أتوني بالشمس فوضعوها في يدي ما قلت غيرها إرادة أن يؤيسهم ، فغضبوا وقالوا : لتكفن عن شتم آلهتنا أو لنشتمك ونشتم من يأمرك ، فأنزل الله ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم ﴾ " " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : كان المسلمون يسبون أصنام الكفار ، فيسب الكفار الله ، فأنزل الله ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ عن زيد بن أسلم في قوله ﴿ كذلك زينا لكل أمة عملهم ﴾ قال : زين الله لكل أمة عملهم الذي يعملون به حتى يموتوا عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

*(160/245)*

ومن فوائد الشوكاني في الآيات

قال رحمه الله :

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (104) وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (105) اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (106) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (107) وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (108) ﴾

البصائر جمع بصيرة ، وهي في الأصل : نور القلب ، والمراد بها هنا الحجة البينة والبرهان الواضح .

وهذا الكلام وارد على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قال في آخره ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ ووصف البصائر بالمجيء تفخيماً لشأنها ، وجعلها بمنزلة الغائب المتوقع مجيئه ، كما يقال جاءت العافية ، وانصرف المرض ، وأقبلت السعود ، وأدبرت النحوس ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ﴾ أي فمن تعقل الحجة وعرفها وأذعن لها فنفع ذلك لنفسه ؛ لأنه ينجو بهذا الإبصار من عذاب النار ﴿ وَمَنْ عَمِيَ ﴾ عن الحجة ولم يتعقلها ولا أذعن لها ، فضرر ذلك على نفسه ؛ لأنه يتعرض لغضب الله في الدنيا ويكون مصيره

النار ﴿ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ برقيب أحصي عليكم أعمالكم ، وإنما أنا رسول أبلغكم رسالات ربي وهو الحفيظ عليكم .

قال الزجاج : نزل هذا قبل فرض القتال ثم أمر أن يمنعهم بالسيف من عبادة الأوثان .

*(161/245)*

---

﴿ وكذلك نُصَرِّفُ الآيات ﴾ أي مثل ذلك التصريف البديع نصرفها في الوعد والوعيد والوعظ والتنبيه .

قوله : ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾ العطف على محذوف ، أي نصرّف الآيات لتقوم الحجة وليقولوا درست .

أو علة لفعل محذوف يقدّر متأخراً ، أي وليقولوا درست صرفناها ، وعلى هذا تكون اللام للعاقبة أو للصيرورة .

والمعنى : ومثل ذلك التصريف نصرّف الآيات وليقولوا درست ، فإنه لا احتفال بقولهم ولا اعتداد بهم ، فيكون معناه الوعيد والتهديد لهم وعدم الاكتراث بقولهم .

وقد أشار إلى مثل هذا الزجاج .

وقال النحاس : وفي المعنى قول آخر حسن ، وهو أن يكون معنى ﴿ نُصَرِّفُ الآيات ﴾

نأتي بها آية بعد آية ﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾ علينا ، فيذكرون الأوّل بالآخر ، فهذا حقيقته ، والذي قاله أبو إسحاق : يعني الزجاج مجاز .

وفي ﴿ دَرَسْتَ ﴾ قراءات ، قرأ أبو عمرو ، وابن كثير "دارست" بألف بين الدال والراء كفاعلت ، وهي قراءة عليّ ، وابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة ، وأهل مكة .

وقرأ ابن عامر "درست" بفتح السين وإسكان التاء من غير ألف كخرجت ، وهي قراءة الحسن .

وقرأ الباقون "درست" كضربت ، فعلى القراءة الأولى المعنى : دارست أهل الكتاب ودارسوك ، أي ذاكرتهم وذاكروك ، ويدلّ على هذا ما وقع في الكتاب العزيز من إخبار الله عنهم بقوله : ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ [ الفرقان : 4 ] أي أعان اليهود النبي صلى الله عليه وسلم على القرآن ، ومثله قولهم : ﴿ أساطير الأولين اكتتبها فَهِيَ تملى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [ الفرقان : 5 ] ، وقولهم : ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ [ النحل : 103 ] .

والمعنى على القراءة الثانية : قدمت هذه الآيات وعفت وانقطعت ، وهو كقولهم : ﴿ أساطير الأولين ﴾ [ الأنعام : 25 ، وفي ثمانية مواضع أُخر من كتاب الله العزيز ] .

والمعنى على القراءة الثالثة : مثل المعنى على القراءة الأولى .

قال الأخفش : هي بمعنى دارست إلا أنه أبلغ .

وحكى عن المبرد أنه قرأ " وَلِيَقُولُواْ " بإسكان اللام ، فيكون فيه معنى التهديد ، أي وليقولوا ما شاءوا فإن الحق بين ، وفي اللفظ أصله درس يدرس دراسة ، فهو من الدرس ، وهو القراءة .

وقيل من درسته : أي ذللته بكثرة القراءة ، وأصله درس الطعام ، أي داسه .

والدياس : الدراس بلغة أهل الشام .

وقيل أصله من درست الثوب أدرسه درساً ، أي أخلقته ، ودرست المرأة درساً ، أي حاضت .

ويقال : إن فرج المرأة يكنى أبا دراس وهو من الحيض ، والدرس أيضاً : الطريق الخفي .

وحكى الأصمعي : بعير لم يدرس : أي لم يركب .

وروى عن ابن عباس وأصحابه ، وأبي ، وابن مسعود ، والأعمش ، أنهم قرءوا "درس" أي : درس محمد الآيات ، وقرئ "درِسَتْ" وبه قرأ زيد بن ثابت ، أي الآيات على البناء للمفعول ، "ودارست" أي دارست اليهود محمداً .

واللام في ﴿ لنبينه ﴾ لام كي ، أي نصرف الآيات لكي نبينه لقوم يعلمون ، والضمير راجع

إلى الآيات ؛ لأنها في معنى القرآن ، أو إلى القرآن ، وإن لم يجر له ذكر ، لأنه معلوم من السياق أو إلى التبيين المدلول عليه بالفعل .

(163/245)

---

قوله : ﴿ اتبع مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ أمره الله باتباع ما أوحى إليه وأن لا يشغل خاطره بهم ، بل يشتغل باتباع ما أمره الله ، وجملة : ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه ، لقصد تأكيد إيجاب الاتباع ﴿ وَأَعْرِض ﴾ معطوف على ﴿ اتَّبِعُ ﴾ أمره الله بالإعراض عن المشركين بعد ما أمره باتباع ما أوحي إليه ، وهذا قبل نزول آية السيف : ﴿ وَلَوْ شَاء اللهُ مَا أَشْرَكُواْ ﴾ أي لو شاء الله عدم إشراكهم ما أشركوا ، وفيه أن الشرك بمشيئة الله سبحانه ، والكلام في تقرير هذا على الوجه الذي يتعارف به أهل علم الكلام والميزان معروف فلا نطيل بإيراده ، ﴿ وَمَا جعلناك عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ﴾ أي رقيباً ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ أي قيم بما فيه نفعهم فتجلبه إليهم ، ليس عليك إلا إبلاغ الرسالة .

قوله : ﴿ وَلاَ تَسُبُّواْ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله فَيَسُبُّواْ الله عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ الموصول عبارة عن الآلهة التي كانت تعبدها الكفار .

والمعنى : لا تسب يا محمد آلهة هؤلاء الكفار التي يدعونها من دون الله ، فيتسبب عن ذلك سبهم لله عدواناً وتجاوزاً عن الحق ، وجهلاً منهم .

وفي هذه الآية دليل على أن الداعي إلى الحق ، والناهي عن الباطل ، إذا خشي أن يتسبب عن ذلك ما هو أشد منه من انتهاك حرم ، ومخالفة حق ، ووقوع في باطل أشد كان الترك أولى به ، بل كان واجباً عليه ، وما أنفع هذه الآية وأجل فائدتها لمن كان من الحاملين لحجج الله ، المتصدين لبيانها للناس ، إذا كان بين قوم من الصم البكم الذين إذا أمرهم بمعروف تركوه ، وتركوا غيره من المعروف .

*(164/245)*

---

وإذا نهاهم عن منكر فعلوه وفعلوا غيره من المنكرات ؛ عناداً للحق وبغضاً لاتباع المحقين ، وجراءة على الله سبحانه ، فإن هؤلاء لا يؤثر فيهم إلا السيف ، وهو الحكم العدل لمن عاند الشريعة المطهرة وجعل المخالفة لها والتجرؤ على أهلها ديدنه وهجيراه ، كما يشاهد ذلك في أهل البدع الذين إذا دعوا إلى حق وقعوا في كثير من الباطل ، وإذا أرشدوا إلى السنة ، قابلوها بما لديهم من البدعة ، فهؤلاء هم المتلاعبون بالدين المتهاونون بالشرائع ، وهم شرّ من الزنادقة ، لأنهم يحتجون بالباطل وينتمون إلى البدع ، ويتظاهرون بذلك غير خائفين ولا

وجلين ، والزنادقة قد ألجمتهم سيوف الإسلام ، وتحاماهم أهله ، وقد ينفق كيدهم ، ويتمّ باطلهم وكفرهم نادراً على ضعيف من ضعفاء المسلمين ، مع تكتم وتحرز وخيفة ووجل ، وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أن هذه الآية محكمة ثابتة غير منسوخة ، وهي أصل أصيل في سدّ الذرائع ، وقطع التطرّق إلى الشبه .

وقرأ أهل مكة "عُدُوّا" بضم العين والدال وتشديد الواو ، وهي قراءة الحسن ، وأبي رجاء وقتادة .

وقرأ من عداهم بفتح العين وضم الدال وتشديد الواو ، ومعنى القراءتين واحد : أي ظلماً وعدواناً ، وهو منتصب على الحال ، أو على المصدر ، أو على أنه مفعول له ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ أي مثل ذلك التزيين زينا لكل أمة من أمم الكفار عملهم من الخير والشرّ ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [ النحل : 93 ، فاطر : 8 ] ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا من المعاصي التي لم ينتهوا عنها ، ولا قبلوا من المرسلين ما أرسلهم الله به إليهم ، وما تضمنته كتبه المنزلة عليهم .

*(165/245)*

وقد أخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة في قوله : ﴿ قَدْ جَاءكُمْ بَصَائِرُ ﴾ أي بينة ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ﴾ أي فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ﴿ وَمَنْ عَمِيَ ﴾ أي من ضلّ ﴿ فَعَلَيْهَا ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والضياء في المختارة ، عن ابن عباس أنه كان يقرأ "دارست" وقال : قرأت .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه عنه ﴿ دَرَسْتَ ﴾ قال : قرأت وتعلمت .

وأخرج عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عنه أيضاً قال " دارست " خاصمت ، جادلت ، تلوت .

وأخرج أبو الشيخ ، عن السديّ ، ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين ﴾ قال : كفّ عنهم ، وهذا منسوخ ، نسخه القتال : ﴿ فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [ التوبة : 5 ] .

وأخرج ابن أبي حاتم ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَوْ شَاء الله مَا أَشْرَكُواْ ﴾ يقول الله تبارك وتعالى : لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ أي بحفيظ .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن ابن عباس ، في قوله :

﴿ وَلاَ تَسُبُّواْ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ قال : قالوا يا محمد لتنتهينّ عن سبك آلهتنا أو لنهجونَّ ربك ، فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم ﴿ فَيَسُبُّواْ الله عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ .

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ملعون من سبّ والديه " ، قالوا يا رسول الله وكيف يسبّ الرجل والديه ؟ قال : " يسبّ أبا الرجل فيسبّ أباه ، ويسبّ أمه فيسبّ أمه " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

*(166/245)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾

قوله : ﴿ مِنْ دُونِ اللَّه ﴾ يجُوز أن يتعلَّق بـ "يَدْعُونَ" وأن يتعلَّق بمحذُوفٍ على أنَّه حالٌ : إمَّا من الموصُول ، وإمَّا من عَائِدِه المَحْذُوف ، أي : يَدْعُونهم حَال كونهم مستَقِرِّين من دُونِ اللَّه .

قوله : " فَيَسُبُّوا " الظَّاهر أنه مَنْصُوب على جواب النَّهي بإضمار أنْ بعد الفَاءِ ، أي : " لا تَسُبُّوا آلهتَهُم ، فقد يترتَّبُ عليه مَا يَكْرَهُون مِنْ سَبِّ اللَّه " ، ويجُوز أن يكُون مَجْزُوماً نسقاً

على فِعْل النَّهْي قَبْلَه ؛ كَقَوْلِهم : " لاتَمْدُدْها ، فتشُقَّها " وجَازَ وُقُوع " الَّذِين " – وإن كان مُخْتَصًّا بالعُقلاء – على الأصْنَام الَّتِي لا تَعقِلُ ، معاملة لها مُعامَلة العُقلاء ؛ كما أوْقَع عليْها " مِنْ " في قوله : ﴿ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ﴾ [ النحل : 17 ] .

قال شهاب الدّين : وفيه نَظَر ؛ لأنَّ " الَّذِي " و " الَّتِي " وسائِر المَوْصُولات ما عَدَا " مَنْ " فإنَّها تدخل على العُقَلاء وغيرهم ، تقول : أنت الرَّجُل الَّذِي قَام ، ورَأَيت الفَرَس الَّذِي اشْتَرَيته ، قال : ويَجُوز أن يَكُون ذَلِك للتَّغْلِيب ، لأن المَعْبُود مِن دُون اللَّه عُقلاء ؛ كـ " المَسِيح " و " عُزَيْر " و " المَلاَئِكَة " وغيرهم ، [ فغلَّب ] العَاقِل ، وهذا بَعِيدٌ ؛ لأنَّ المُسْلِمين لا يسبّون هؤلاء ويَجُوز أنْ يُرَاد بالَّذين يَدْعُون : المُشْرِكين ، أي : لا تَسُبُّوا الكَفَرة الَّذِين يَدْعون غَيْر اللَّه من دُون الله ، وهو وَجْهٌ وَاضِح .

قوله : " عَدْواً " الجُمْهُور على فَتْح العَيْن ، وسُكون الدَّال ، وتَخْفِيف الواوِ ونصبه من ثلاثة أوْجُه :

أحدها : أنه مَنْصُوب على المَصْدَر ؛ لأنَّه نوع من العَامِل فِيهِ ، لأنَّ السَّبَّ من جِنْس العَدْو .

والثاني : أنَّه مَفْعُول من أجْلِه ، أي : لأجْل العَدْو ، وظاهر كلام الزَّجَّاج : أنه خَلَط القَوْلَين ، فجَعَلَهُمَا قَوْلاً واحداً ، فإنه قال : " وعَدْواً " مَنْصُوب على المَصْدر ؛ لأن المعنى فَتَعْدُوا عَدْواً .

قال : " ويكُون بإرَادَة اللاَّم " والمعنى " : فيسُبُّوا الله للظُّلْم .

والثالث : أَنَّه مَنْصُوب على أَنَّه وَاقِع مَوْقِع الحالِ المُؤكدة ؛ لأنَّ السَّبَّ لا يَكُون إلا عَدْواً .

وقرأ الحسن ، وأبو رجاء ، ويعقوب ، وقتادة ، وسلام ، وعبد الله بن زَيْد : " عُدُواً " بضم العَيْن والدَّال ، وتشديد الواو ، وهو مصدر أيضاً لـ " عَدَا " وانتِصَابهُ على ما تقدَّم من الأوجه الثلاثة .

وقرا ابن كثير في روايةٍ – وهي قراءة أهْل مَكَّة المشرفة فيما نَقَلَهُ النَّحَّاس : " عَدُوّاً بفتح العَيْن ، وضمِّ الدَّال ، وتَشْديد الواو ، بمَعْنى : أعداء ، ونَصْبُه على الحالِ المُؤكدة ، و " عَدُوٌّ " يجُوز أن يَقَع خبراً عن الجَمْع ، قال – تعالى : ﴿ هُمُ العدو ﴾ [ المنافقون : 4 ] ، وقال – تعالى – : ﴿ إِنَّ الكافرين كَانُواْ لَكُمْ عَدُوّاً مُّبِيناً ﴾ [ النساء : 101 ] ، ويُقال : عَدا يَعْدُو عَدْواً ، وعُدُواً ، وعُدْواناً وعَداءً ، و " بغير عِلْم " حَال ، أي : " يَسُبُّونه غير عَالِمين " أي : " مُصَاحِبين للجَهْل " ؛ لأنَّه لو قدَّر حقَّ قَدْره ، لما أقْدَموا عليه .

قوله : " كَذَلِكَ " : نعت لِمَصْدر مَحْذُوف ، أي : زَيَّنَّا لِهؤلاء أعمالهم تزييناً ، مثل تَزْيِيننَا لكلِّ أمَّةٍ عَمَلَهم .

وقيل : تقديره : مثل تَزْيين عِبَادة الأصْنَام للمُشْرِكين " زَيَّنَّا لكل أمَّةٍ عَمَلهم " وهو قَريب من

الأوّل ، والمَعْنَى زينّا لكل أمّةٍ عَمَلهم من الخَيْر والشّر ، والطّاعة والمَعْصِية ، ثم إلى ربّهم مَرْجِعهم ، فيُنَبِّئهم ويجازيهم بما كَانُوا يَعْمَلُون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 364.365 ﴾ . باختصار .

*(168/245)*

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عَدْوَا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ .

يعني خَاطِبْهم بلسان الحجة والتزام الدلائل ونفي الشبهة ، ولا تُكلّمْهم على موجب نوازع النَّفْس والعادة ، فَيَحْمِلَهم ذلك على ترك الإجلال لذكر الله .

ويقال لا تطابِقْهُم على قبيح ما يفعلون فيزدادوا جرأة في غيّهم ، فسيكون فِلْكَ سبباً وَعِلَّةً لزيادةِ كفرهم وفِسْقهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

لبَّسْنا عليهم حقائق الأشياء حتى ظنوا القبيحَ جميلاً ، ولم يَرَوْا لسوءِ حالتهم تبديلاً ،

فركنوا إلى الهوى ، ولم يميزوا بين العوافي والبَلا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 494 ﴾

(169/245)

---

قوله تعالى ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ (109) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما نصب سبحانه هذه الدلالات في هذه الآيات البينات حتى ختمها بما علم منهم من الإسراع إلى سب من أحسن إليهم بأن أوجدهم وأوجد لهم كل ما في الكون ، وما من نعمة عليهم إلا وهي منه ، عجب منهم في الوعد بالإيمان على وجه التأكيد بما يأتيهم من مقترحاتهم إعلاماً بأن ذلك مما زين لهم من عملهم ، وهي أمنية كاذبة ويمين حانثة فقال عاطفاً على ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن ﴾ [ الأنعام : 100 ] ﴿ وأقسموا ﴾ أي المشركون ﴿ بالله ﴾ أي الذي لا أعظم منه ﴿ جهد أيمانهم ﴾ أي باذلين فيها جهدهم حتى كأنها هي جاهدة ، ووطأ للقسم فقال : ﴿ لئن جاءتهم آية ﴾ أي من مقترحاتهم ،

وتلقى القسم بقوله : ﴿ ليؤمنن بها ﴾ .

ولما كانوا بهذا ظالمين من أجل أنهم طلبوا من الرسول ما ليس إليه بعد إتيانه من المعجزات بما أزال معاذيرهم ، وأوجب عليهم الاتباع ، نبه على ذلك بقوله مستأنفاً : ﴿ قل ﴾ أي رداً لتعنتهم ﴿ إنما الآيات ﴾ أي هذا الجنس ﴿ عند الله ﴾ أي الحائز لجميع صفات الكمال ، وليس إليّ ولا إلى غيري شيء من هذا الجنس ليفيد الاقتراح شيئاً غير إغضابه . ولما كان العبد لعجزه لا قدرة له على شيء أصلاً ، فلا يصح له أن يحكم على آت أصلاً لا من أفعاله ولا من أفعال غيره ، قال منكراً عليهم ملتفتاً إلى خطابهم إشارة إلى أنهم حقيقون بالمواجهة بالتبكيت : ﴿ وما ﴾ أي وأي شيء ﴿ يشعركم ﴾ أي أدنى شعور بما أقسمتم عليه من الإيمان عند مجيئها حتى يتوهموه أدنى توهم فضلاً عن الظن فكيف بالجزم ولا سيما على هذا الوجه ! ثم علل الاستفهام بقوله مبيناً أنه لا فائدة في الإتيان بالآية المقترحة : ﴿ أنها ﴾ بالفتح في قراءة نافع وابن عامر وشعبة في رواية عنه وحفص وحمزة والكسائي ، فكان كأنه قيل : أنكرت عليكم لأنها ﴿ إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ بالخطاب في قراءة ابن عامر وحمزة ، والالتفات إلى الغيبة في قراءة غيرهم للإعلام بأنهم بعيدون من الإيمان فهم أهل للإعراض عنهم لما استحقوا من الغضب ، والتعليل عند من كسر " أنها " واضح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 695 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى حكى عن الكفار شبهة توجب الطعن في نبوته ، وهي قولهم إن هذا القرآن إنما جئتنا به لأنك تدارس العلماء ، وتباحث الأقوام الذين عرفوا التوارة والإنجيل .

ثم تجمع هذه السور وهذه الآيات بهذا الطريق .

*(170/245)*

---

ثم إنه تعالى أجاب عن هذه الشبهة بما سبق ، وهذه الآية مشتملة على شبهة أخرى وهي قولهم له إن هذا القرآن كيفما كان أمره ، فليس من جنس المعجزات ألبتة ، ولو أنك يا محمد جئتنا بمعجزة قاهرة وبينة ظاهرة لآمنا بك ، وحلفوا على ذلك وبالغوا في تأكيد ذلك الحلف ، فالمقصود من هذه الآية تقرير هذه الشبهة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 117 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال الواحدي : إنما سمى اليمين بالقسم لأن اليمين موضوعة لتوكيد الخبر الذي يخبر به الإنسان : إما مثبتاً للشيء ، وإما نافياً .

ولما كان الخبر يدخله الصدق والكذب احتاج المخبر إلى طريق به يتوسل إلى ترجيح جانب

الصدق على جانب الكذب ، وذلك هو الحلف ولما كانت الحاجة إلى ذكر الحلف ، إنما تحصل عند انقسام الناس عند سماع ذلك الخبر إلى مصدق به ومكذب به .

سموا الحلف بالقسم ، وبنوا تلك الصيغة على أفعل فقالوا : أقسم فلان يقسم إقساماً : وأرادوا أنه أكد القسم الذي اختاره وأحال الصدق إلى القسم الذي اختاره بواسطة الحلف واليمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 117 ﴾

فصل

قال الفخر :

ذكروا في سبب النزول وجوهاً :

الأول : قالوا لما نزل قوله تعالى : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السماء ءايَةً فَظَلَّتْ أعناقهم لَهَا خاضعين ﴾ [ الشعراء : 4 ] أقسم المشركون بالله لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها فنزلت هذه الآية .

الثاني : قال محمد بن كعب القرظي : إن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : تخبرنا أن موسى ضرب الحجر بالعصا فانفجر الماء ، وأن عيسى أحيا الميت ، وأن صالحاً أخرج الناقة من الجبل ، فأتنا أيضاً أنت بآية لنصدقك فقال عليه الصلاة والسلام : "ما الذي تحبون" فقالوا : أن تجعل لنا الصفا ذهباً ، وحلفوا لئن فعل ليتبعونه أجمعون ، فقام عليه الصلاة والسلام يدعو ، فجاءه جبريل عليه السلام فقال : إن شئت كان ذلك ، ولئن كان

فلم يصدقوا عنده ، ليعذبنهم ، وإن تركوا تاب على بعضهم .

فقال صلى الله عليه وسلم : "بل يتوب على بعضهم" فأنزل الله تعالى هذه الآية . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 117 ﴾

(171/245)

---

فصل

قال الفخر :

ذكروا في تفسير قوله : ﴿ جَهْدَ أيمانهم ﴾ وجوهاً :

قال الكلبي ومقاتل : إذا حلف الرجل بالله فهو جهد يمينه .

وقال الزجاج : بالغوا في الأيمان وقوله : ﴿ لَئِن جَاءتْهُمْ ءايَةٌ ﴾ اختلفوا في المراد بهذه الآية .

فقيل : ما روينا من جعل الصفا ذهباً ، وقيل : هي الأشياء المذكورة في قوله تعالى :

﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنْبُوعًا ﴾ [ الإسراء : 90 ] وقيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخبرهم بأن عذاب الاستئصال كان ينزل بالأمم المتقدمين الذين كذبوا أنبياءهم فالمشركون طلبوا مثلها .

وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا الأيات عِندَ الله ﴾ ذكروا في تفسير لفظة ﴿ عِندَ ﴾ وجوهاً ، فيحتمل

أن يكون المعنى أنه تعالى هو المختص بالقدرة على أمثال هذه الآيات دون غيره لأن المعجزات الدالة على النبوات شرطها أن لا يقدر على تحصيلها أحد إلا الله سبحانه وتعالى ؛ ويحتمل أن يكون المراد بالعندية أن العلم بأن إحداث هذه المعجزات هل يقتضي إقدام هؤلاء الكفار على الإيمان أم لا ليس إلا عند الله ؟ ولفظ العندية بهذا المعنى كما في قوله : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغيب ﴾ [ الأنعام : 59 ] ويحتمل أن يكون المراد أنها وإن كانت في الحال معدومة ؛ إلا أنه تعالى متى شاء إحداثها أحدثها ، فهي جارية مجرى الأشياء الموضوعة عند الله يظهرها متى شاء ، وليس لكم أن تتحكموا في طلبها ولفظ ﴿ عِندَ ﴾ بهذا المعنى هنا كما في قوله : ﴿ وَإِن مّن شَىْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ ﴾ [ الحجر : 21 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 117.118 ﴾

*(172/245)*

---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾

في سبب نزولها قولان .

أحدهما : أنه لما نزل في [ الشعراء : 4 ] ﴿ إن نشأ نُنَزِّل عليهم من السماء آية ﴾ قال

المشركون : أنزلها علينا حتى والله نؤمن بها ؛ فقال المسلمون : يا رسول الله ، أنزلها عليهم لكي يؤمنوا ؛ فنزلت هذه الآية ؛ رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : " أن قريشاً قالوا : يا محمد ، تخبرنا أن موسى كان معه عصى يضرب بها الحجر ، فينفجر منها اثنتا عشرة عيناً ، وأن عيسى كان يحيي الموتى ، وأن ثمود كانت لهم ناقة ، فائتنا بمثل هذه الآيات حتى نصدّقك : فقال : أي شيء تحبون ؟ قالوا : أن تجعل لنا الصفا ذهباً .

قال : فإن فعلت تصدقوني ؟ فقالوا : نعم ، والله لئن فعلت لنتبعنّك أجمعين .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو ، فجاءه جبريل .

فقال : إن شئت أصبح الصفا ذهباً ، ولكني لم أُرسِل بآية فلم يصدّق بها ، إلا أنزلت العذاب ، وإن شئت تركتُهم حتى يتوب تائبهم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اتركهم حتى يتوب تائبهم " فنزلت هذه الآية إلى قوله : ﴿ يجهلون ﴾ ، هذا قول محمد بن كعب القرظي .

وقد ذكرنا معنى ﴿ جهد أيمانهم ﴾ في ( المائدة ) ؛ وإنما حلفوا على ما اقترحوا من الآيات ، كقولهم : ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ [ الإسراء : 90 ] .

قوله تعالى : ﴿ قل إنما الآيات عند الله ﴾ أي : هو القادر على الإتيان بها دوني ودون

أحد من خلقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ هؤلاء قوم من مشركي أهل مكة حلفوا بالله لرسوله صلى الله عليه وسلم لئن جاءتهم آية اقترحوها ليؤمنن بها ، قال ابن جريج : هم المستهزئون .

واختلف في الآية التي اقترحوها على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن تجعل لنا الصفا ذهباً .

(173/245)

---

والثاني : ما ذكره الله في آخر : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيراً أَوْ تُسقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَينَا كِسَفاً ﴾ إلى قوله : ﴿ كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ ﴾ فأمر الله نبيه حين أقسموا له أن يقول لهم ﴿ قُلْ إِنَّمَا الأَيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ .

والثالث : أنه لما نزل قوله تعالى في الشعراء : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُم لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ قال المشركون : أنزلها علينا حتى نؤمن بها إن كنت من الصادقين

، فقال المؤمنون : يا رسول الله أنزلها عليهم ليؤمنوا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، قاله الكلبي :

وليس يجب على الله إجابتهم إلى اقتراحهم لا سيما إذا علم أنهم لا يؤمنون بها ، واختلف في وجوبها عليه إذا علم إيمانهم بها على قولين وقد أخبر أنهم لا يؤمنون بقوله : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

الضمير في قوله ﴿ وأقسموا ﴾ عائد على المشركين المتقدم ذكرهم و ﴿ جهد ﴾ نصب على المصدر العامل فيه ﴿ أقسموا ﴾ على مذهب سيبويه لأنه في معناه ، وعلى مذهب أبي العباس المبرد فعل من لفظة ، واللام في قوله ﴿ لئن ﴾ لام موطئة للقسم مؤذنة به ، وأما اللام المتلقية للقسم فهي قوله ﴿ ليؤمن ﴾ و ﴿ آية ﴾ يريد علامة ، وحكي أن الكفار لما نزلت ﴿ إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ [ الشعراء : 4 ] أقسموا حينئذ أنها إن نزلت آمنوا فنزلت هذه الآية .

وحكي أنهم اقترحوا أن يعود الصفا ذهباً وأقسموا فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو في ذلك فجاءه جبريل فقال له إن شئت أصبح ذهباً فإن لم يؤمنوا هلكوا عن آخرهم معاجلة كما فعل بالأمم إذا لم تؤمن بالآيات المقترحة ، وإن شئت أخروا حتى يتوب تائبهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل حتى يتوب تائبهم ونزلت هذه الآية ، وقرأ ابن مصرف " ليؤَمَنَنْ " بفتح الميم والنون وبالنون الخفيفة ، ثم قال تعالى قل لهم يا محمد على جهة الرد والتخطية إنما الآيات بيد الله وعنده ليست عندي فتقترح عليّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾ قال محمد بن كعب القرظي والكلبي : قالت قريش يا محمد إنك تخبرنا أن موسى كانت له عصاً يضرب بها الحجر فتنفجر منه اثنتا عشرة عيناً وتخبرنا أن عيسى كان يحيي الموتى فأتنا بآية حتى نصدقك ونؤمن بك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أي شيء تحبون " ؟ قالوا : تجعل لنا الصفا ذهباً وابعث لنا بعض موتانا نسأله عنك أحق ما تقول أم باطل ؟ وأرنا الملائكة يشهدون لك ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن فعلت بعض ما تقولون أتصدقوني " ؟ قالوا : نعم والله لئن فعلت لنتبعك أجمعون .

وسأل المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزلها عليهم حتى يؤمنوا فقام رسول

الله صلى الله عليه وسلم وجعل يدعو الله عز وجل أن يجعل الصفا ذهباً فجاءه جبريل فقال ما شئت أن شئت أصبح ذهباً ولكن إن لم يصدقوك لنعذبهم وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " بل يتوب تائبهم " فأنزل الله عز وجل : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾ يعني وحلفوا بالله جهد أيمانهم يعني وحلفوا بالله جهد أيمانهم يعني أوكد ما قدروا عليه من الأيمان وأشدها .

*(175/245)*

---

قال الكلبي ومقاتل : إذا حلف الرجل بالله فهو جهد يمينه ﴿ لئن جاءتهم آية ﴾ يعني كما جاءت من قبلهم من الأمم ﴿ ليؤمنن بها ﴾ يعني ليصدقن بها ﴿ قل ﴾ يعني قل يا محمد ﴿ إنما الآيات عند الله ﴾ يعني أن الله تعالى قادر على إنزالها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُواْ ﴾ أي حلفوا .

وجَهْدُ اليمين أشدّها ، وهو بالله .

فقوله : "جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ" أي غاية أيمانهم التي بلغها علمهم ، وانتهت إليها قدرتهم .

وذلك أنهم كانوا يعتقدون أن الله هو الإله الأعظم ، وأن هذه الآلهة إنما يعبدونها ظنًّا منهم أنها تقربهم إلى الله زلفى ؛ كما أخبر عنهم بقوله تعالى : "مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى" .

وكانوا يحلفون بآبائهم وبالأصنام وبغير ذلك ، وكانوا يحلفون بالله تعالى وكانوا يُسمّونه جَهْد اليَمين إذا كانت اليمين بالله .

"جَهْدَ" منصوب على المصدر والعامل فيه "أقسموا" على مذهب سيبويه ؛ لأنه في معناه .

والجَهْد ( بفتح الجيم ) : المشقّة ؛ يقال : فعلت ذلك بجَهْد .

والجُهْد ( بضمها ) : الطاقة يقال : هذا جُهْدي ، أي طاقتي .

ومنهم من يجعلهما واحداً ، ويحتج بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ ﴾ [ التوبة : 79 ] .

وقرىء "جَهْدهم" بالفتح ؛ عن ابن قتيبة .

وسبب الآية فيما ذكر المفسرون : القُرَظِيّ والكَلْبِي وغيرهما ، " أن قريشاً قالت : يا محمد ، تُخبِرنا بأن موسى ضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عَيْناً ، وأن عيسى كان يُحيي الموتى ، وأن ثمود كانت لهم ناقة ؛ فائتنا ببعض هذه الآيات حتى نصدّقك .

فقال : "أيّ شيء تحبّون" ؟ قالوا : اجعل لنا الصَّفَا ذهباً ؛ فَواللَّهِ إن فعلته لنتبعنّك أجمعون .

(176/245)

---

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو ؛ فجاءه جبريل عليه السلام فقال : "إن شئت أصبح الصفا ذهباً ، ولئن أرسل الله آية ولم يصدّقوا عندها ليعذبنّهم فاتركهم حتى يتوب تائبهم" فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بل يتوب تائبهم" فنزلت هذه الآية " وبيّن الربّ بأن من سبق العلم الأزَليّ بأنه لا يؤمن فإنه لا يؤمن وإن أقسم ليؤمنَنّ .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ قيل : معناه بأغلظ الأيمان عندهم .

وتعرِض هنا مسألةٌ من الأحكام عُظْمَى ، وهي قول الرجل : الأيمان تلزمه إن كان كذا وكذا .

قال ابن العربيّ : وقد كانت هذه اليمين في صدر الإسلام معروفةً بغير هذه الصورة ، كانوا يقولون : عليّ أشدّ ما أخذه أحدٌ على أحد ؛ فقال مالك : تَطْلُق نساؤه .

ثم تكاثرت الصُّوَر حتى آلت بين الناس إلى صورةٍ هذه أمُّها .

وكان شيخنا الفِهْرِيّ الطَّرَسُوسِيّ يقول : يلزمه إطعام ثلاثين مسكيناً إذا حنِث فيها ؛ لأن

قوله "الأيمان" جمع يمين ، وهو لو قال عليّ يمين وحنِث ألزمناه كفارةً .

ولو قال : عليّ يمينان للزمته كفارتان إذا حنِث .

والأيمانُ جمع يمين فيلزمه فيها ثلاث كفارات .

قلت : وذكر أحمد بن محمد بن مغيث في وثائقه : اختلف شيوخ القَيْرَوان فيها ؛ فقال أبو محمد بن أبي زيد : يلزمه في زوجته ثلاث تطليقات ، والمشي إلى مكة ، وتفريقُ ثلث ماله ، وكفارةُ يمين ، وعِتق رقبة .

قال ابن مغيث : وبه قال ابن أرفع رأسه وابن بدر من فقَهاء طُلَيْطُلة .

وقال الشيخ أبو عمران الفاسي وأبو الحسن القابِسيّ وأبو بكر بن عبد الرحمن القَرَوِيّ : تلزمه طلقة واحدة إذا لم تكن له نيّة .

ومن حجتهم في ذلك رواية ابن الحسن في سماعه من ابن وهب في قوله : "وأشدّ ما أخذه أحد على أحد أن عليه في ذلك كفارة يمين" .

*(177/245)*

---

قال ابن مغيث : فجعل مَن سَمّيناه على القائل : "الأيمان تلزمه" طلقةً واحدة ؛ لأنه لا يكون أسوأ حالاً من قوله : أشدّ ما أخذه أحد على أحد أن عليه كفارة يمين ، قال : وبه نقول .

قال : واحتجّ الأوّلون بقول ابن القاسم فيمن قال : عليّ عهد الله وغليظُ ميثاقه وكفالته وأشدّ ما أخذه أحدٌ على أحد على أمر ألاّ يفعله ثم فعله ؛ فقال : إن لم يُرد الطلاق ولا العتاق وعزلهما عن ذلك فلتكن ثلاث كفارات .

فإن لم تكن له نية حين حلف فليكفّر كفارتين في قوله : عليّ عهد الله وغليظ ميثاقه .

ويعتق رقبة وتَطْلُق نساؤه ، ويمشي إلى مكة ويتصدّق بثلث ماله في قوله : وأشدّ ما أخذه أحد على أحد .

قال ابن العربيّ : أمّا طريق الأدلّة فإن الألف واللام في الأيمان لا تخلو أن يراد بها الجنس أو العهد ؛ فإن دخلت للعهد فالمعهود قولك "بالله" فيكون ما قاله الفِهْرِيّ .

فإن دخلت للجنس فالطلاق جنس فيدخل فيها ولا يُستوفَى عدده ، فإن الذي يكفي أن يدخل في كل جنس معنى واحد ؛ فإنه لو دخل في الجنس المعنى كلُّه للزمه أن يتصدّق بجميع ماله ؛ إذ قد تكون الصدقة بالمال يَميناً .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا الآيات عِندَ الله ﴾ أي قل يا محمد : الله القادر على الإتيان بها ، وإنما يأتي بها إذا شاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ﴾

أي آية من اقتراحهم نحو قولهم حتى تنزل ﴿ إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ أنزلها علينا حتى نؤمن بها فقال المسلمون يا رسول الله أنزلها عليهم فنزلت هذه الآية قاله ابن عباس أو نحو قولهم يجعل الصفا ذهباً حتى ذكروا معجزة موسى في الحجر وعيسى في إحياء الموتى وصالح في الناقة فقام الرسول يدعو فجاءه جبريل عليه السلام فقال له : إن شئت أصبح الصفا ذهباً فإن لم يؤمنوا هلكوا عن آخرهم معاجلة كما فعل بالأمم الماضية ، إذ لم يؤمنوا بالآيات المقترحة وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم فقال : بل حتى يتوب تائبهم ، وإنما اقترحوا آية معينة لأنهم شكوا في القرآن ولهذا قالوا : دارست أي العلماء وباحثت أهل التوراة والإنجيل وكابر أكثرهم وعاند ، والمعنى أنهم حلفوا غاية حلفهم وسمي الحلف قسماً لأنه يكون عند انقسام الناس إلى التصديق والتكذيب فكأنه يقوي القسم الذي يختاره ، قال التبريزي : الإقسام إفعال من القسم الذي هو بمعنى النصيب والقسمة ، وكان إقسامهم بالله غاية في الحلف وكانوا يقسمون بآبائهم وآلهتهم فإذا كان الأمر عظيماً أقسموا بالله تعالى ، والجهد : بفتح الجيم المشقة وبضمها الطاقة ومنهم من يجعلهما بمعنى واحد وانتصب جهد على المصدر المنصوب بأقسموا أي

أقسموا جهد إقساماتهم والأيمان بمعنى الإقسامات كما تقول : ضربته أشد الضربات ، وقال الحوفي : مصدر في موضع الحال من الضمير في ﴿ أقسموا ﴾ أي مجتهدين في أيمانهم ، وقال المبرد : مصدر منصوب بفعل من لفظه وقد تقدم الكلام على ﴿ جهد أيمانهم ﴾ في المائدة ، ولئن جاءتهم أخبار عنهم لا حكاية لقولهم إذ لو حكي قولهم لكان لئن جاءتنا آية وتعامل الإخبار عن القسم معاملة حكاية القسم بلفظ ما نطق به المقسم ، وأنه لا يراد بها مطلق آية إذ قد جاءتهم آيات كثيرة ولكنهم أرادوا آية مقترحة كما ذكرناه ، وقرأ طلحة بن مصرّف ﴿ ليؤمننّ بها ﴾ مبنياً للمفعول وبالنون الخفيفة .

*(179/245)*

---

﴿ قل إنما الآيات عند الله ﴾ هذا أمر بالردّ عليهم وأن مجيء الآيات ليس لي إنما ذلك لله تعالى وهو القادر عليها ينزلها على وجه المصلحة كيف شاء لحكمته وليست عندي فتقترح علي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بالله ﴾

روي أن قريشاً اقترحوا بعضَ آيات ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : " فإن فعلتُ

بعضَ ما تقولون أتصدّقونني ؟ " فقالوا : نعم ، وأقسموا لئن فعلتَه ليؤمِنُنّ جميعاً فسأل المسلمون رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن ينزلها طمعاً في إيمانهم فهمّ عليه الصلاة والسلام بالدعاء فنزلت وقوله تعالى : ﴿ جَهْدَ أيمانهم ﴾ مصدرٌ في موقع الحال أي أقسموا به تعالى جاهدين في أيمانهم ﴿ لَئِن جَاءتْهُمْ ءايَةٌ ﴾ من مقترحاتهم أو من جنس الآياتِ وهو الأنسبُ بحالهم في المكابرة والعناد وترامي أمرِهم في العتو والفساد ، حيث كانوا لا يعُدّون ما يشاهدونه من المعجزات الباهرةِ من جنس الآيات ﴿ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ وما كان مَرْمى غرضِهم في ذلك إلا التحكمَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلب المعجزةِ وعدم الاعتدادِ بما شاهدوا منه من البينات الحقيقةِ بأن تُقطعَ بها الأرضُ وتُسيَّر بها الجبالُ ﴿ قُلْ إِنَّمَا الآيات ﴾ أي كلُّها ، فيدخُل فيها ما اقترحوه دخولاً أولياً ﴿ عَندَ الله ﴾ أي أمرُها في حُكمه وقضائِه خاصةً يتصرف فيها حسبَ مشيئتِه المبنيَّةِ على الحِكَم البالغةِ لا تتعلق بها ولا بشأن من شؤونها قُدرةُ أحدٍ ولا مشيئتُه لا استقلالاً ولا اشتراكاً بوجه من الوجوه حتى يُمكِنَني أن أتصدّى لاستنزالها بالاستدعاء .

*(180/245)*

وهذا كما ترى سدٌّ لباب الاقتراحِ على أبلغ وجهٍ وأحسنِه ببيان علوّ شأن الآياتِ وصعوبةِ منالِها وتعاليها من أن تكون عُرضةً للسؤال والاقتراحِ ، وأما ما قيل من أن المعنى إنما الآياتُ عند الله تعالى لا عندي فكيف أُجيبكم إليها أو آتيكم بها وهو القادِرُ عليها لا أنا حتى آتِيَكم بها فلا مناسبةَ له بالمقام كيف لا وليس مقترَحُهم مجيئَها بغير قدرةِ الله تعالى وإرادتِه حتى يجابوا بذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

*(181/245)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَأَقْسَمُواْ ﴾ أي المشركون ﴿ بالله جَهْدَ أيمانهم ﴾ أي جاهدين فيها .

فجهد مصدر في موضع الحال .

وجوز أن يكون منصوباً بنزع الخافض أي أقسموا بجهد أيمانهم أي أوكدها .

وهو بفتح الجيم وضمها في الأصل بمعنى الطاقة والمشقة ، وقيل : بالفتح المشقة وبالضم الوسع ، وقيل : ما يجهد الإنسان ، والمعنى هنا على ما قال الراغب "أنهم حلفوا واجتهدوا في الحلف أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم .

﴿ لَئِن جَاءتْهُمْ ءايَةٌ ﴾ من مقترحاتهم أو من جنس الآيات .

ورجحه بعض المحققين بأنه الأنسب بحالهم في المكابرة والعناد وترامي أمرهم في العتو والفساد حيث كانوا لا يعدون ما يشاهدونه من المعجزات الباهرة من جنس الآيات فاقترحوا غيرها ﴿ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ وما كان مرمى غرضهم إلا التحكم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلب المعجزة وعدم الاعتداد بما شاهدوا منه عليه الصلاة والسلام من البينات .

والباء صلة الإيمان ، والمراد من الإيمان بها التصديق بالنبي صلى الله عليه وسلم .

وجعلها للسببية على معنى ليؤمنن بك بسببها خلاف الظاهر .

﴿ قُلْ إِنَّمَا الآيات ﴾ أي كلها فيدخل ما اقترحوه فيها دخولاً أولياً ﴿ عَندَ الله ﴾ أي أمرها في حكمه وقضائه خاصة يتصرف فيها حسب مشيئته المبنية على الحكم البالغة لا تتعلق بها قدرة أحد ولا مشيئته استقلالاً ولا اشتراكاً بوجه من الوجوه حتى يمكنني أن أتصدى لإنزالها بالاستدعاء ؛ وهذا كما ترى سد لباب الاقتراح .

وقيل : إن المعنى إنما الآيات عند الله لا عندي فكيف أجيبكم إليها أو ءاتيكم بها أو المعنى هو القادر عليها لا أنا حتى ءاتيكم بها .

واعترض ذلك شيخ الإسلام بعد أن اختار ما قدمناه بأنه لا مناسبة له بالمقام كيف لا وليس مقترحهم مجيئها بغير قدرة الله تعالى فتدبر .

روي أن قريشاً اقترحوا بعض ءايات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فإن فعلت

بعض ما تقولون أتصدقونني فقالوا : نعم وأقسموا لئن فعلته لنؤمنن جميعاً فسأل المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزلها طمعاً في إيمانهم فَهَمَّ عليه الصلاة والسلام بالدعاء فنزلت .

*(182/245)*

---

وأخرج ابن جرير عن محمد القرظي قال : كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً فقالوا : يا محمد تخبرنا أن موسى عليه السلام كان معه عصاً يضرب بها الحجر وأن عيسى عليه السلام كان يحيي الموتى وأن ثمود كانت لهم ناقة فأتنا ببعض تلك الآيات حتى نصدقك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أي شيء تحبون أن آتيكم به ؟ قالوا : تحول لنا الصفا ذهباً قال : فإن فعلت تصدقوني ؟ قالوا : نعم والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعين فقام رسول الله عليه الصلاة والسلام يدعو فجاءه جبريل عليه السلام فقال إن شئت أصبح الصفا ذهباً فإن لم يصدقوا عند ذلك لنعذبنهم وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم فقال صلى الله عليه وسلم أتركهم حتى يتوب تائبهم فأنزل الله تعالى هذه الآية إلى ﴿ يَجْهَلُونَ ﴾ [ الأنعام : 111 ] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾

عطف جملة : ﴿ وأقسموا ﴾ على جملة : ﴿ اتَّبِعْ ما أوحِي إليك من ربّك ﴾ [ الأنعام : 106 ] الآية .

والضّمير عائد إلى القوم في قوله : ﴿ وكذّب به قومك وهو الحقّ ﴾ [ الأنعام : 66 ] مثل الضّمائر الّتي جاءت بعد تلك الآية ومعنى : ﴿ لئن جاءتهم آية ﴾ آية غيرُ القرآن .

وهذا إشارة إلى شيء من تعلّلاتهم للتمادي على الكفر بعد ظهور الحجج الدّامغة لهم ، كانوا قد تعلّلوا به في بعض تورّكهم على الإسلام .

*(183/245)*

---

فروى الطّبري وغيره عن مجاهد ، ومحمدّ بن كعب القُرظِي ، والكلبي ، يزيد بعضهم على بعض : أنّ قريشاً سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم آية مثل آية موسى عليه السّلام إذ ضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه العيون ، أو مثل آية صالح ، أو مثل آية عيسى عليهم السّلام ، وأنّهم قالوا لمّا سمعوا قوله تعالى : ﴿ إنْ نشأ ننزّل عليهم من السّماء آية فظلّت أعناقهم لها خاضعين ﴾ [ الشعراء : 4 ] أقسموا أنّهم إن جاءتهم آية كما سألوا أو كما تُوعدوا ليوقِنُنّ أجمعون ، وأنّ رسول الله عليه الصلاة والسّلام سأل الله أن يأتيهم بآية كما

سألوا ، حرصاً على أن يؤمنوا .

فهذه الآية نازلة في ذلك المعنى لأنّ هذه السّورة جمعت كثيراً من أحوالهم ومحاجّاتهم .

والكلام على قوله : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾ هو نحو الكلام على قوله في سورة [ العقود : 53 ] ﴿ أهؤلاء الّذين أقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾ والأيمان تقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللّغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ﴾ في سورة [ البقرة : 225 ] .

وجملة : لئن جاءتهم آية ﴾ إلخ مبيّنة لجملة : ﴿ وأقسموا بالله ﴾ .

واللاّم في ﴿ لئن جاءتهم آية ﴾ موطّئة للقسم ، لأنّها تدلّ على أنّ الشّرط قد جعل شَرطاً في القسم فتدلّ على قَسَم محذوف غالباً ، وقد جاءت هنا مع فعل القسم لأنّها صارت ملازمة للشّرط الواقع جواباً للقسم فلم تنفكّ عنه مع وجود فعل القسم .

واللاّم في ﴿ ليومننّ بها ﴾ لام القسم ، أي لام جوابه .

والمراد بالآية ما اقترحوه على الرّسول صلى الله عليه وسلم يَعنُون بها خارق عادة تدلّ على أنّ الله أجاب مقترحهم ليصدّق رسوله عليه الصلاة والسّلام ، فلذلك نُكّرت ﴿ آية ﴾ ، يعني : آيةَ آيةٍ كانت من جنس ما تنحصر فيه الآيات في زعمهم .

ومجيء الآية مستعار لظهورها لأنّ الشّيء الظّاهر يشبه حضور الغائب فلذلك يستعار له المجيء .

وتقدّم بيان معنى الآية واشتقاقها عند قوله تعالى : ﴿ والّذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون ﴾ في سورة [ البقرة : 39 ] .

ومعنى كون الآيات عند الله أنّ الآيات من آثار قدرة الله وإرادته ، فأسباب إيجاد الآيات من صفاته ، فهو قادر عليها ، فلأجل ذلك شُبّهت بالأمور المدّخرة عنده ، وأنّه إذا شاء إبرازَها أبرزها للنّاس ، فكلمة عند ﴾ هنا مجاز .

استعمل اسم المكان الشّديد القُرب في معنى الاستبداد والاستئثار مجازاً مرسلاً ، لأنّ الاستئثار من لوازم حالة المكان الشّديد القرب عرفاً ، كقوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾ [ الأنعام : 59 ] .

والحصر بـ ﴿ إنّما ﴾ ردّ على المشركين ظنّهم بأنّ الآيات في مقدور النّبيء صلى الله عليه وسلم إن كان نبيئاً فجعلوا عدم إجابة النّبيء صلى الله عليه وسلم اقتراحَهم آية أمارة على انتفاء نبوءته ، فأمره الله أن يجيب بأنّ الآيات عند الله لا عند الرّسول عليه الصّلاة والسّلام ، والله أعلم بما يُظهره من الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾

قال أبو علي "ما" استفهام وفاعل يشعركم ضمير "ما" والمعنى : وما يدريكم إيمانهم ؟ فحذف المفعول ، وحذف المفعول كثير .

والتقدير : وما يدريكم إيمانهم ، أي بتقدير أن تجيئهم هذه الآيات فهم لا يؤمنون .

وقوله : ﴿ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ أَنَّهَا ﴾ بكسر الهمزة على الاستئناف وهي القراءة الجيدة .

*(185/245)*

---

والتقدير : أن الكلام تم عند قوله : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ أي وما يشعركم ما يكون منهم ثم ابتدأ فقال : ﴿ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ قال سيبويه : سألت الخليل عن القراءة بفتح الهمزة في أن وقلت لم لا يجوز أن يكون التقدير ما يدريك أنه لا يفعل ؟ فقال الخليل : إنه لا يحسن ذلك ههنا لأنه لو قال : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا ﴾ بالفتح لصار ذلك عذراً لهم ، هذا كلام الخليل .

وتفسيره إنما يظهر بالمثال فإذا اتخذت ضيافة وطلبت من رئيس البلد أن يحضر فلم يحضر ، فقيل لك لو ذهبت أنت بنفسك إليه لحضر ، فإذا قلت : وما يشعركم أني لو ذهبت إليه لحضر كان المعنى : أني لو ذهبت إليه بنفسي فإنه لا يحضر أيضاً فكذا ههنا قوله : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ معناه أنها إذا جاءت آمنوا .

وذلك يوجب مجيء هذه الآيات ويصير هذا الكلام عذراً للكفار في طلب الآيات ، والمقصود من الآية دفع حجتهم في طلب الآيات ، فهذا تقرير كلام الخليل وقرأ الباقون من القراء ﴿ أَنَّهَا ﴾ بالفتح وفي تفسيره وجوه : الأول : قال الخليل : ﴿ أن ﴾ بمعنى لعل تقول العرب ائت السوق أنك تشتري لنا شيئاً أي لعلك ، فكأنه تعالى قال لعلها إذا جاءت لا يؤمنون قال الواحدي : ﴿ أن ﴾ بمعنى لعل كثير في كلامهم قال الشاعر :

أريني جواداً مات هولاً لأنني . . أرى ما تريني أو بخيلاً مخلداً

وقال آخر :

هل أنتم عاجلون بنا لأنا . . نرى العرصات أو أثر الخيام

وقال عدي بن حاتم :

أعاذل ما يدريك أن منيتي . . إلى ساعة في اليوم أو في ضحى الغد

وقال الواحدي : وفسر علي لعل منيتي روى صاحب "الكشاف" أيضاً في هذا المعنى قول امرىء القيس :

عوجاً على الطلل المحيل لأننا . . نبكي الديار كما بكى ابن خذام

قال صاحب "الكشاف" ويقوي هذا الوجه قراءة أبي ﴿ لعلها إذا جاءتهم لا يؤمنون ﴾ .

(186/245)

---

الوجه الثاني : في هذه القراءة أن تجعل ﴿ لا ﴾ صلة ومثله ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ ﴾ [ الأعراف : 12 ] معناه أن تسجد وكذلك قوله : ﴿ وَحَرَامٌ على قَرْيَةٍ أهلكناها أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ [ الأنبياء : 95 ] أي يرجعون فكذا ههنا التقدير وما يشعركم أنها إذا جاءت يؤمنون والمعنى : أنها لو جاءت لم يؤمنوا قال الزجاج ، وهذا الوجه ضعيف لأن ما كان لغواً يكون لغواً على جميع التقديرات ومن قرأ ﴿ أَنَّهَا ﴾ بالكسر فكلمة ﴿ لا ﴾ في هذه القراءة ليست بلغو فثبت أنه لا يجوز جعل هذا اللفظ لغواً .

قال أبو علي الفارسي : لم لا يجوز أن يكون لغواً على أحد التقديرين ويكون مفيداً على التقدير الثاني ؟ واختلف القراء أيضاً في قوله : ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ فقرأ بعضهم بالياء وهو الوجه لأن قوله : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بالله ﴾ إنما يراد به قوم مخصوصون ، والدليل عليه قوله تعالى بعد هذه الآية : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الملائكة ﴾ وليس كل الناس بهذا الوصف ، والمعنى وما يشعركم أيها المؤمنون لعلهم إذا جاءتهم الآية التي اقترحوها لم يؤمنوا فالوجه الياء وقرأ

حمزة وابن عامر بالتاء وهو على الانصراف من الغيبة إلى الخطاب ، والمراد بالمخاطبين في ﴿ تُؤْمِنُونَ ﴾ هم الغائبون المقسمون الذين أخبر الله عنهم أنهم لا يؤمنون ، وذهب مجاهد وابن زيد إلى أن الخطاب في قوله : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ للكفار الذين أقسموا .

قال مجاهد : وما يدريكم أنكم تؤمنون إذا جاءت ، وهذا يقوي قراءة من قرأ ﴿ تُؤْمِنُونَ ﴾ بالتاء .

على ما ذكرنا أولاً : الخطاب في قوله : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ للكفار الذين أقسموا .

وعلى ما ذكرنا ثانياً : الخطاب في قوله : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ للمؤمنين ، وذلك لأنهم تمنوا نزول الآية ليؤمن المشركون وهو الوجه كأنه قيل للمؤمنين تتمنون ذلك وما يدريكم أنهم يؤمنون ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 118.119 ﴾

*(187/245)*

---

وقال ابن عطية :

﴿ وما يشعركم ﴾

اختلف المتأولون فمن المخاطب بقوله ﴿ وما يشعركم ﴾ ومن المستفهم ب " ما " التي يعود عليها الضمير الفاعل في " يشعركم " ، فقال مجاهد وابن زيد : المخاطب بذلك الكفار

، وقال الفراء وغيره المخاطب بها المؤمنون ، ﴿ وما يشعركم ﴾ معناه وما يعلمكم وما يدريكم ، وقرأ قوم " يشعركم " بسكون الراء ، وهي على التخفيف ، ويحسنها أن الخروج من كسرة إلى ضمة ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية داود الأيادى " إنها " بكسر الألف على القطع واستئناف الإخبار ، فمن قرأ " تؤمنون " بالتاء وهي قراءة ابن عامر وحمزة واستقامت له المخاطبة أولاً وآخراً للكفار ، ومن قرأ " يؤمنون " بالياء وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو والكسائي فيحتمل أن يخاطب أولاً وآخراً المؤمنين ، ويحتمل أن يخاطب بقوله ﴿ وما يشعركم ﴾ الكفار ثم يتسأنف الإخبار عنهم للمؤمنين ، ومفعول ﴿ يشعركم ﴾ الثاني محذوف ويختلف تقديره بحسب كل تأويل وقرأ نافع وعاصم في رواية حفص وحمزة والكسائي وابن عامر " أنها " بفتح الألف ، فمنهم من جعلها " أن " التي تدخل على الجمل وتأتي بعد الأفعال كعلمت وظننت وأعمل فيها ﴿ يشعركم ﴾ ، والتزم بعضهم " أن لا " زائدة في قوله ﴿ لا يؤمنون ﴾ وأنّ معنى الكلام وما يشعركم أنها إذا جاءت يؤمنون أو تؤمنون فزيدت لا كما زيدت في قوله ﴿ وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ﴾ [ الأنبياء : 95 ] لأن المعنى وحرام على قرية مهلكة رجوعهم ، وكما جاءت في قول الشاعر : [ الطويل ]

أبى جُودُهُ لا البُخْلَ واسْتَعْجَلَتْ بِهِ . . . نَعَمْ مِنْ فَتىً لا يَمْنَعُ الجُود قاتِلُهْ

قال الزجاج أراد " أبى جوده البخل " ، كما جاءَت زائدة في قول الشاعر :

أفمنك لا برق كان وميضه . . . غاب تسنمه ضرام مثقب

(188/245)

---

ودعا إلى التزام هذا حفظ المعنى لأنها لو لم تكن زائدة لعاد الكلام عذراً للكفار وفسد المراد بالآية ، وضعّف الزجّاج وغيره وزيادة لا وقال هذا غلط ومنهم من جعل " أنها " بمعنى لعلها وحكاها سيبويه عن الخليل وهو تأويل لا يحتاج معه إلى تقدير زيادة لا ، وحكى الكسائي أنه كذلك في مصحف أبي بن كعب : وما أدراكم لعلها إذا جاءت لا يؤمنون ، ومن هذا المعنى قول الشاعر [ أبو النجم ] : [ الراجز ]

قُلْتُ لِشَيْبَانَ ادْنُ مِنْ لِقَائِهِ . . . أَنَّى تَغَذّى القومُ من شوائِهِ

فهذه كلها بمعنى لعل وضعّف أبو علي هذا بأن التوقع الذي لا يناسب الآية بعد التي حكمت بأنهم لا يؤمنون ، وترجح عنده في الآية أن تكون " أن " على بابها وأن يكون المعنى قل إنما الآيات عند الله لأنها إذا جاءت " لا يؤمنون " ، فهو لا يأتي بها لإصرارهم على كفرهم ، وتكون الآية نظير قوله تعالى : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ [ الإسراء : 59 ] أي بالآيات المقترحة .

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : ويترتب على هذا التأويل أن تكون " ما " نافية ، ذكر ذلك أبو علي فتأمل وترجح عنده أيضاً أن تكون لا زائدة ، وبسط شواهده في ذلك ، وحكى بعض المفسيرين أن في آخر الآية حذفاً يستغنى به عن زيادة لا ، وعن تأويلها بمعنى لعل وتقديره عندهم أنها إذا جاءت " لا يؤمنون " أو يؤمنون .

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : وهذا قول ضعيف لا يعضده لفظ الآية ولا يقتضيه وتحتمل الآية أن يكون المعنى يتضمن الإخبار أنهم لا يؤمنون ، وقيل لهم وما يشعركم بهذه الحقيقة أي لا سبيل إلى شعوركم بها وهي حق في نفسها وهم لا يؤمنون أن لو جاءت ، و ﴿ ما ﴾ استفهام على هذا التأويل ، وفي مصحف ابن مسعود " وما يشعركم إذا جاءتهم يؤمنون " بسقوط أنها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

﴿ وما يشعركم أنها ﴾ أي : يدريكم أنها .

*(189/245)*

---

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وأبو بكر عن عاصم ، وخلف في اختياره : بكسر الألف ، فعلى هذه القراءة يكون الخطاب بقوله ﴿ يشعركم ﴾ للمشركين ، ويكون تمام الكلام عند قوله :

﴿ وما يُشعِركم ﴾ ويكون المعنى : وما يدريكم أنكم تؤمنون إذا جاءت ؟ وتكون "إنها" مكسورة على الاستئناف والإخبار عن حالهم .

وقال أبو علي : التقدير : وما يشعركم إيمانهم ؟ فحذف المفعولُ .

والمعنى : لو جاءت الآية التي اقترحوها ، لم يؤمنوا .

فعلى هذا يكون الخطاب للمؤمنين .

قال سيبويه : سألت الخليل عن قوله : ﴿ وما يشعركم إنها ﴾ ؛ فقلت : ما منعها أن تكون كقولك : ما يدريك أنه لا يفعل ؟ فقال : لا يحسن ذلك في هذا الموضع ؛ إنما قال : ﴿ وما يشعركم ﴾ ثم ابتدأ فأوجب ، فقال : ﴿ إنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ ؛ ولو قال : ﴿ وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ ؛ كان ذلك عذراً لهم .

وقرأ نافع ، وحفص عن عاصم ، وحمزة ، والكسائي : "أنها" بفتح الألف ؛ فعلى هذا ، المخاطب بقوله : ﴿ وما يشعركم ﴾ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؛ ثم في معنى الكلام قولان .

أحدهما : وما يدريكم لعلها إذا جاءت لا يؤمنون .

وفي قراءة أُبي : لعلها إذا جاءت لا يؤمنون .

والعرب تجعل "أن" بمعنى "لعل" يقولون : ائت السوق أنك تشتري لنا شيئاً ، أي : لعلك .

قال عدي بن زيد :

أعَاذِلُ ما يُدْرِيْكِ أنَّ مَنِيَّتِي . . .

إلى سَاعَةٍ في اليَوْمِ أو في ضُحَى غَدِ

أي : لعل منيتي .

وإلى هذا المعنى ذهب الخليل ، وسيبويه ، والفراء في توجيه هذه القراءة .

والثاني : أن المعنى : وما يدريكم أنها إذا جاءت يؤمنون ، وتكون "لا" صلة كقوله : تعالى : ﴿ ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك ﴾ [ الأعراف : 12 ] وقوله تعالى : ﴿ وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ﴾ [ الأنبياء : 95 ] ذكره الفراء ، ورده الزجاج واختار الأول .

*(190/245)*

---

والأكثرون على قراءة ﴿ يؤمنون ﴾ بالياء ، منهم ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ؛ وقرأ ابن عامر ، وحمزة : بالتاء ، على الخطاب للمشركين .

قال أبو علي : من قرأ بالياء ، فلأنَّ الذين أقسموا غُيَّبٌ ، ومن قرأ بالتاء ، فهو انصراف من الغَيبة إلى الخطاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ وما يشعركم ﴾ يعني : وما يدريكم .

ثم اختلف في المخاطبين بقوله وما يشعركم فقيل هو خطاب للمشركين الذين أقسموا بالله وقيل هو خطاب للمؤمنين واختلفوا في قوله ﴿ أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ فقرأ ابن كثير وأهل البصرة وأبو بكر عن عاصي إنها بكسر الألف على الابتداء وقالوا تم الكلام عند قوله وما يشعروكم على معنى وما يدريكم ما يكون منهم ثم ابتداء فقال : ﴿ إنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ فمن جعل الخطاب للمشركين قال معناه وما يشعركم أيها المشركون أنها يعني الآيات إنها إذا جاءت آمنتم .

*(191/245)*

---

ومن جعل الخطاب للمؤمنين قال معناه وما يشعركم أيها المؤمنون إذا جاءت آمنوا لأن المؤمنين كانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله أن يريهم ما اقترحوا حتى يؤمنوا فخاطبهم الله بقوله : ﴿ وما يشعركم ﴾ ثم ابتدأ فقال تعالى إنها : ﴿ إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ وهذا في قوم مخصوصين حكم الله عز وجل عليهم بأنهم لا يؤمنون وذلك لسابق علمه فيهم وقرأ الباقون أنها بفتح الألف وجعلوا الخطاب في ذلك للمؤمنين لأن

المؤمنين هم الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إنزال الآيات حتى يؤمن المشركون بها إذا رؤوها لأن المشركين كانوا حلفوا أنهم إذا جاءتهم آية آمنوا وصدقوا واتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إنزال الآيات لذلك فقال الله تعالى : وما يشعركم أيها المؤمنون أن الآيات إذا جاءت هؤلاء المشركين لا يؤمنون فعلى هذا اختلفوا في لفظة لا من قوله لا يؤمنون فقيل هي صلة والمعنى وما يشعركم إنها إذا جاءت يؤمنون وقيل هي على بابها وفيه حذف والمعنى وما يشعركم أنها إذا جاءتهم يؤمنون أو لا يؤمنون وقيل إن بمعنى لعل في قوله إنها إذا جاءت وكذلك هو في قراءة أبيّ بن كعب لعلها إذا جاءت وهذا سائغ في كلام العرب تقول العرب : أئت السوق أنك تشتري لنا شيئاً ، بمعنى لعلك ومنه قول عدي بن زيد :

أعاذل ما يدريك أن منيتي . . .

إلى ساعة في اليوم أو في ضحى الغد

يعني لعل منيتي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ أي وما يُدريكم أيمانكم ؛ فحذف المفعول .

ثم استأنف فقال : ﴿ إِنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ بكسر إن ، وهي قراءة مجاهد وأبي عمرو وابن كَثير .

ويشهد لهذا قراءة ابن مسعود "وما يشعركم إذا جاءت لا يؤمنون" .

وقال مجاهد وابن زيد : المخاطَب بهذا المشركون ، وتمّ الكلام .

حكم عليهم بأنهم لا يؤمنون ، وقد أعلمنا في الآية بعد هذه أنهم لا يؤمنون .

*(192/245)*

---

وهذا التأويل يشبه قراءة من قرأ "تؤمنون" بالتاء .

وقال الفرّاء وغيره ؛ الخطاب للمؤمنين ؛ لأن المؤمنين قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، لو نزلت الآية لعلهم يؤمنون ؛ فقال الله تعالى : "وَمَا يُشْعِرُكُمْ" أي يعلمكم ويدريكم أيها المؤمنون .

"أنها" بالفتح ، وهي قراءة أهل المدينة والأعمش وحمزة ، أي لعلّها إذا جاءت لا يؤمنون .

قال الخليل : "أنها" بمعنى لعلّها ؛ حكاه عنه سيبويه .

وفي التنزيل : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يزكى ﴾ [ عبس : 3 ] أي أنه يزكَّى .

وحُكي عن العرب : ايت السوق أنّك تشتري لنا شيئاً ، أي لعلّك .

وقال أبو النَّجْم :

قلت لشَيْبَان ادن من لقائِهْ . . .

أن تُغَدّي القومَ من شِوَائِهْ

وقال عدِيّ بن زيد :

أعاذِلَ ما يُدرِيك أنّ منيّتي . . .

إلى ساعةٍ في اليوم أو في ضُحَى الغَدِ

أي لعلّ .

وقال دُرَيد بن الصِّمَّة :

أرِيني جواداً مات هَزْلاً لأَنَّنِي . . .

أرى ما تَرَيْنَ أو بخيلاً مُخَلَّداً

أي لعلّني .

وهو في كلام العرب كثير "أنّ" بمعنى لَعل .

وحكى الكِسائِيّ أنه كذلك في مصحف أُبَيّ بن كعب "وما أدراكم لعلها" .

وقال الكسائي والفَرّاء : أن "لا" زائدة ، والمعنى : وما يشعركم أنها أي الآيات إذا جاءت المشركين يؤمنون ، فزيدت "لا" ؛ كما زيدت "لا" في قوله تعالى : ﴿ وَحَرَامٌ على قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ [ الأنبياء : 95 ] .

لأن المعنى : وحرام على قرية مُهْلَكة رجُوعُهم .

وفي قوله : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ ﴾ [ الأعراف : 12 ] .

والمعنى : ما منعك أن تسجد .

وضعّف الزّجاج والنّحاس وغيرهما زيادة "لا" وقالوا : هو غلط وخطأ ؛ لأنها إنما تزاد فيما لا يُشْكِل .

وقيل : في الكلام حذف ، والمعنى : وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون أو يؤمنون ، ثم حذف هذا لعلم السامع ؛ ذكره النحاس وغيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

(193/245)

---

﴿ وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾

(194/245)

---

ما استفهامية ويعود عليها ضمير الفاعل في ﴿ يشعركم ﴾ ، وقرأ قوم بسكون ضمة الراء ، وقرىء باختلاسها وأما الخطاب فقال مجاهد وابن زيد : هو للكفار ، وقال الفراء وغيره

: المخاطب بها المؤمنون ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والعليمي والأعشى عن أبي بكر ، وقال ابن عطية ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية داود الإيادي أنها بكسر الهمزة ، وقرأ باقي السبعة بفتحها ، وقرأ ابن عامر وحمزة لا تؤمنون بتاء الخطاب ، وقرأ باقي السبعة بياء الغيبة فترتبت أربع قراءات الأولى كسر الهمزة والياء وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وأبي بكر بخلاف عنه في كسر الهمزة وهذه قراءة واضحة ، أخبر تعالى أنهم لا يؤمنون البتة على تقدير مجيء الآية وتم الكلام عند قوله : ﴿ وما يشعركم ﴾ ومتعلق ﴿ يشعركم ﴾ محذوف أي ﴿ وما يشعركم ﴾ ما يكون فإن كان الخطاب للكفار كان التقدير ﴿ وما يشعركم ﴾ ما يكون منكم ثم أخبر على جهة الالتفات بما علمه من حالهم لو جاءتهم الآيات وإن كان الخطاب للمؤمنين كان التقدير ﴿ وما يشعركم ﴾ أيها المؤمنون ما يكون منهم ، ثم أخبر المؤمنين بعلمه فيهم ، القراءة الثانية كسر الهمزة والتاء وهي رواية العليمي والأعشى عن أبي بكر عن عاصم ، والمناسب أن يكون الخطاب للكفار في هذه القراءة كأنه قيل : وما يدريكم أيها الكفار ما يكون منكم ثم أخبرهم على جهة الجزم أنهم لا يؤمنون على تقدير مجيئها ويبعد جداً أن يكون الخطاب في ﴿ وما يشعركم ﴾ للمؤمنين وفي لا تؤمنون للكفار ، القراءة الثالثة فتح الهمزة والتاء وهي قراءة نافع والكسائي وحفص ، فالظاهر أن الخطاب للمؤمنين والمعنى وما يدريكم أيها المؤمنون أن الآية التي تقترحونها إذا جاءت لا يؤمنون بها يعني أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون وأنتم لا تدرون بذلك ، وكان

المؤمنون يطمعون في إيمانهم إذا جاءت تلك الآية ، ويتمنون مجيئها فقال : وما يدريكم أنهم لا يؤمنون على معنى أنكم لا تدرون ما سبق علمي به من أنهم

(195/245)

---

لا يؤمنون ألا ترى إلى قوله ﴿ كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ ويبعد جداً أن يكون الخطاب في ﴿ وما يشعركم ﴾ للكفار وأن في هذه القراءة مصدرية ولا على معناها من النفي ، وجعل بعض المفسرين أن هنا بمعنى لعل وحكي من كلامهم ذلك قالوا : إيت السوق إنك تشتري لحماير بدون لعلك ، وقال امرؤ القيس :

عوجاً على الطلل المحيل لأننا . . .

نبكي الديار كما بكى ابن حرام

وذكر ذلك أبو عبيدة وغيره ولعل تأتي كثيراً في مثل هذا الموضع قال تعالى : ﴿ وما يدريك لعله يزكى ﴾ ﴿ وما يدريك لعل الساعة قريب ﴾ وفي مصحف أبي وما أدراكم لعلها إذا جاءت لا يؤمنون وضعف أبو علي هذا القول بأن التوقع الذي يدل عليه لعل لا يناسب قراءة الكسر ، لأنها تدل على حكمه تعالى عليهم بأنهم لا يؤمنون لكنه لم يجعل أنها معمولة ﴿ ليشعركم ﴾ بل جعلها علة على حذف لامها والتقدير عنده ﴿ قل إنما الآيات عند الله

﴿ لأنها إذا جاءت لا يؤمنون فهو لا يأتي بها لإصرارهم على كفرهم فيكون نظير ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ أي بالآيات المقترحة انتهى ، ويكون ﴿ وما يشعركم ﴾ اعتراضاً بين المعلول وعلته إذ صار المعنى : ﴿ قل إنما الآيات عند الله ﴾ أي المقترحة لا يأتي بها لانتفاء أيمانهم وإصرارهم على ضلالهم وجعل بعضهم لا زائدة فيكون المعنى وما يدريكم بإيمانهم كما قالوا : إذا جاءت وإنما جعلها زائدة لأنها لو بقيت على النفي لكان الكلام عذراً للكفار وفسد المراد بالآية قاله ابن عطية ، قال وضعف الزجاج وغيره زيادة لا ، انتهى .

*(196/245)*

---

قول ابن عطية والقائل بزيادة لا هو الكسائي والفراء ، وقال الزجاج : زعم سيبويه أن معناها لعلها إذا جاءت لا يؤمنون وهي قراءة أهل المدينة ، قال : وهذا الوجه أقوى في العربية والذي ذكر أن لا لغو غالط لأن ما كان لغواً لا يكون غير لغو ومن قرأ بالكسر فالإجماع على أن لا غير لغو فليس يجوز أن يكون المعنى مرة إيجاباً ومرة غير ذلك في سياق كلام واحد ، وتأول بعض المفسرين الآية على حذف معطوف يخرج لا عن الزيادة وتقديره ﴿ وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ أو يؤمنون أي ما يدريكم بانتفاء الإيمان أو

وقوعه ، ذكره النحاس وغيره ، ولا يحتاج الكلام إلى زيادة لا ولا إلى هذا الإضمار ولا لا يكون أن بمعنى لعل وهذا كله خروج عن الظاهر لفرضه بل حمله على الظاهر أولى وهو واضح سائغ كما بحثناه أولاً أي ﴿ وما يشعركم ﴾ ويدريكم بمعرفة انتفاء إيمانهم لا سبيل لكم إلى الشعور بها ، القراءة الرابعة : فتح الهمزة والتاء وهي قراءة ابن عامر وحمزة ، والظاهر أنه خطاب للكفار ويتضح معنى هذه القراءة على زيادة لا أي وما يدريكم أنكم تؤمنون إذا جاءت كما أقسمتم عليه ، وعلى تأويل أن بمعنى لعل وكون لا نفياً أي وما يدريكم بحالهم لعلها إذا جاءت لا يؤمنون بها وكذلك يصح المعنى على تقدير حذف المعطوف أي وما يدريكم بانتفاء إيمانكم إذا جاءت أو وقوعه لأن مآل أمركم مغيب عنكم فكيف تقسمون على الإيمان إذا جاءتكم الآية ، وكذلك يصح معناها على تقدير أي على أن تكون أنها علة أي ﴿ قل إنما الآيات عند الله ﴾ فلا يأتيكم بها لأنها ﴿ إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ وما يشعركم بأنكم تؤمنون وأما على إقرار أن ﴿ أنها ﴾ معمولة ﴿ ليشعركم ﴾ وبقاء ﴿ لا ﴾ على النفي فيشكل معنى هذه القراءة لأنه يكون المعنى ﴿ وما يشعركم ﴾ أيها الكفار بانتفاء إيمانكم إذا جاءتكم الآية المقترحة ، والذي يناسب صدر الآية ﴿ وما يشعركم ﴾ بوقوع الإيمان منكم إذا جاءت ، وقد يصح أن يكون التقدير : وأيّ

شيء يشعركم بانتفاء الإيمان إذا جاءت ، أي لا يقع ذلك في خواطركم بل أنتم مصممون على الإيمان إذا جاءت ، وأنا أعلم أنكم لا تؤمنون إذا جاءت لأنكم مطبوع على قلوبكم . وكم آية جاءتكم فلم تؤمنوا .

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن ﴿ ما ﴾ في قوله ﴿ ما يشعركم ﴾ نافية والفاعل بيشعركم ضمير يعود على الله ، ويتكلف معنى الآية على جعلها نافية ، سواء فتحت أن أم كسرت .

ومتعلق ﴿ لا يؤمنون ﴾ محذوف وحسن حذفه كون ما يتعلق به وقع فاصلة ، وتقديره ﴿ لا يؤمنون ﴾ بها وقد اتضح من ترتيب هذه القراءات الأربع أنه لا يصلح أن يكون الخطاب للمؤمنين على الإطلاق ولا للكفار على الإطلاق ، بل الخطاب يكون على ما يصح به المعنى التي للقراءة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾

كلامٌ مستأنفٌ غيرُ داخلٍ تحت الأمرِ مَسوقٌ من جهته تعالى لبيان الحكمةِ الداعيةِ إلى ما أشعر به الجوابُ السابقُ من عدم مجيءِ الآياتِ خوطب به المسلمون إما خاصةً بطريق التلوينِ لمّا كانوا راغبين في نزولها طمعاً في إسلامهم ، وإما معه عليه الصلاة والسلام بطريق

التعميم لما روي عنه صلى الله عليه وسلم من الهم بالدعاء . وقد بُيّن فيه أن أيمانَهم فاجرةٌ وإيمانُهم مما لا يدخل تحت الوجودِ وإن أجيب إلى ما سألوه .

*(198/245)*

---

و ( ما ) استفهاميةٌ إنكاريةٌ لكن لا على أن مرجعَ الإنكارِ هو وقوعُ المشعَرِ به بل هو نفسُ الإشعارِ مع تحقق المشعَرِ به في نفسه . أي وأيُّ شيءٍ يُعلِمُكم أن الآيةَ التي يقترحونها إذا جاءت لا يؤمنون بل يبقَوْن على ما كانوا عليه من الكفر والعِناد أي لا تعلمون ذلك فتتمنّون مجيئَها طمعاً في إيمانهم فكأنه بسطُ عذرٍ من جهة المسلمين في تمنيهم نزولَ الآياتِ ، وقيل : ( لا ) مزيدةٌ فيتوجه الإنكارُ إلى الإشعار به جميعاً ، أي أيُّ شيءٍ يعلمكم إيمانَهم عند مجيءِ الآياتِ حتى تتمنَّوا مجيئَها طمعاً في إيمانهم ؟ فيكونُ تخطئةً لرأي المسلمين ، وقيل : ( أنّ ) بمعنى لعل ، يقال : ادخُل السوقَ أنك تشتري اللحمَ وعنك وعلّك ولعلك كلُّها بمعنى ، ويؤيده أنه قرىء لعلها إذا جاءت لا يؤمنون على أن الكلامَ قد تمّ قبله ، والمفعولُ الثاني ليُشعركم محذوفٌ كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴾ والجملة استئنافٌ لتعليل الإنكار وتقريرِه ، أي أيُّ شيءٍ يعلمكم حالَهم وما سيكون عند مجيءِ الآياتِ لعلها إذا جاءت لا يؤمنون بها فما لكم تتمنَّوْن مجيئَها ؟ فإن تمنّيَهم إنما يليق بما إذا كان إيمانُهم بها

محقَّقَ الوجودِ عند مجيئِها لا مرجوَّ العدم . وقرىء إنها بالكسر على أنه استئنافٌ حسبما سبق مع زيادة تحقيقٍ لعدم إيمانِهم وقرىء لا تؤمنون بالفوقانية ، فالخطابُ في وما يشعركم للمشركين وقرىء وما يشعرهم أنها إذا جاءتهم لا يؤمنون ، فمرجعُ الإنكارِ إقدامُ المشركين على الإقسام المذكورِ مع جهلهم بحال قلوبِهم عند مجيءِ الآياتِ وبكونها حينئذٍ كما هي الآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

*(199/245)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ كلام مستأنف غير داخل تحت الأمر مسوق من جهته تعالى لبيان الحكمة فيما أشعر به الجواب السابق من عدم مجيء الآيات خوطب به المؤمنون كما قال الفراء وغيرهم إما خاصة بطريق التلوين لما كانوا راغبين في نزولها طمعاً في إسلامهم ، وإما معه عليه الصلاة والسلام بطريق التعميم لما روي مما يدل على رغبته عليه الصلاة والسلام في ذلك أيضاً كالهم بالدعاء ، وفيه بيان لأن أيمانهم فاجرة وإيمانهم في زوايا العدم وأن أجيبوا إلى ما سألوه .

وجوز بعضهم دخوله تحت الأمر ولا وجه له إلا أن يقدر قل للكافرين : إنما الآيات عند الله

وللمؤمنين وما يشعركم الخ وهو تكلف لا داعي إليه .

وعن مجاهد أن الخطاب للمشركين وهو داخل تحت الأمر وفيه التفات و﴿ أَنَّهَا ﴾ الخ عنده إخبار ابتدائي كما يدل عليه ما رواه عنه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ .

و( ما ) استفهامية إنكارية على ما قاله غير واحد لا نافية لما يلزم عليه من بقاء الفعل بلا فاعل ، وجعله ضمير الله تعالى تكلف أو غير مستقيم إلا على بعد ، واستشكل بأن المشركين لما اقترحوا ءاية وكان المؤمنون يتمنون نزولها طمعاً في إسلامهم كان في ظنهم إيمانهم على تقدير النزول ، فإذا أريد الإنكار عليهم فالمناسب إنكار الإيمان لا عدمه كأنهم قالوا : ربنا أنزل للمشركين ءاية فإنه لو نزلت يؤمنون ، وحينئذ يقال في الإنكار : ما يدريكم أنها إذا جاءت يؤمنون .

ويتضح هذا بمثال ، وذلك أنه إذا قال لك القائل : أكرم فلاناً فإنه يكافئك وكنت تعلم منه عدم المكافاة فإنك إذا أنكرت على المشير بإكرامه قلت : وما يدريك أني إذا أكرمته يكافئني فأنكرت عليه إثبات المكافاة وأنت تعلم نفيها فإن قال لك : لا تكرمه فإنه لا يكافئك وأنت تعلم منه المكافاة وأردت الإنكار على المشير بحرمانه قلت : وما يدريك أنه لا يكافئني فأنكرت عليه عدم المكافاة وأنت تعلم ثبوتها .

والآية كما لا يخفى من قبيل المثال الأول فكان الظاهر حيث ظنوا أيمانهم ورغبوا فيه وعلم الله تعالى عدم وقوعه منهم ولو نزل عليهم الملائكة وكلمهم الموتى أن يقال : وما يشعركم أنهم إذا جاءت يؤمنون .

وأجاب عنه بعضهم بأن هذا الاستفهام في معنى النفي وهو إخبار عنهم بعدم العلم لا إنكار عليهم ، والمعنى أن الآيات عند الله تعالى ينزلها بحسب المصلحة ، وقد علم سبحانه أنهم لا يؤمنون ولا تنجع فيهم الآيات وأنتم لا تدرون ما في الواقع وفي علم الله تعالى وهو أنهم لا يؤمنون فلذلك تتوقعون إيمانهم ، والحاصل أن الاستفهام للإنكار وله معنيان لم ولا فإن كان بمعنى لم يقال ما يشعركم أنها إذا جاءت يؤمنون بدون لا على معنى لم قلتم أنها إذا جاءت يؤمنون وتوقعتم ذلك ؟ وإن كان بمعنى لا يقال ما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بإثبات لا على معنى لا تعلمون أنهم لا يؤمنون فلذا توقعتم إيمانهم ورغبتم في نزول آية لهم ؛ وهذا الثاني هو المراد ويرجع إلى إقامة عذر المؤمنين في طلبهم ذلك ورغبتهم فيه .

وأجاب آخرون بأن ﴿ لا ﴾ زائدة كما في قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن لاَ تَسْجُدُواْ ﴾ [ الأعراف : 12 ] و﴿ حَرَامٌ على قَرْيَةٍ أهلكناها أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ [ الأنبياء : 95 ] فإنه أريد تسجد ويرجعون بدون لا .

وعن الخليل أن ( أن ) بمعنى لعل كما في قولهم : ائت السوق أنك تشتري لحماً ؛ وقول امرىء

القيس

: عرجوا على الطلل المحيل لأننا . . .

نبكي الديار كما بكى ابن خذام

وقول الآخر

: هل أنتم عائجون بنا لأنا . . .

نرى العرصات أو أثر الخيام

ويؤيده أن يشعركم ويدريكم بمعنى .

*(201/245)*

---

وكثيراً ما تأتي لعل بعد فعل الدراية نحو ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يزكى ﴾ [ عبس : 3 ] وأن في مصحف أبي رضي الله تعالى عنه ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ والكلام على هذا قد تم قبل ﴿ يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا ﴾ والمفعول الثاني ليشعركم محذوف والجملة استئناف لتعليل الإنكار وتقديره أي شيء يعلمكم حالهم وما سيكون عند مجيء ذلك لعلها إذا جاءت لا يؤمنون فما لكم تتمنون مجيئها فإن تمنيه إنما يليق بما إذا كان إيمانهم بها متحقق الوقوع عند مجيئها لا مرجو العدم .

ومن الناس من زعم أن ﴿ أَنَّهَا ﴾ الخ جواب قسم محذوف بناء على أن أن في جواب القسم يجوز فتحها ولا يخفي بعده .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ويعقوب ﴿ أَنَّهَا ﴾ بالكسر على الإستئناف حسبما سيق مع زيادة تحقيق لعدم إيمانهم .

قال في "الكشف" : وهو على جواب سؤال مقدر على ما ذكره الشيخ ابن الحاجب كأنه قيل لم وبخوا ؟ فقيل لأنها إذا جاءت لا يؤمنون .

ولك أن تبنيه على قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ أي بما يكون منهم فإنه إبراز في معرض المحتمل كأنه قد سئل عنه سؤال شاك ثم علل بأنها إذا جاءت جزماً بالطرف المخالف وبياناً لكون الاستفهام غير جار على الحقيقة .

وفيه إنكار لتصديق المؤمنين على وجه يتضمن إنكار صدق المشركين في المقسم عليه .

وهذا نوع من السحر البياني لطيف المسلك انتهى .

وقرأ ابن عامر وحمزة ﴿ لاَ تُؤْمِنُونَ ﴾ بالفوقانية والخطاب حينئذ في الآية للمشركين بلا خلاف .

وقرىء ﴿ وَمَا ءأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ فمرجع الإنكار إقدام المشركين على الحلف المذكور مع جهلهم بحال قلوبهم عند مجيء ذلك وبكونها حينئذ كما هي الآن .

وقرىء ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ بسكون خالص واختلاس .

وضمير ﴿ بِهَا ﴾ على سائر القراءات راجع للآية لا للآيات لأن عدم إيمانهم عند مجيء ما اقترحوه أبلغ في الذم كما أن استعمال إذا مع الماضي دون أن مع المستقبل لزيادة التشنيع عليهم .

وزعم بعضهم أن عدوه للآيات أولى لقربه مع ما فيه من زيادة المبالغة في بعدهم عن الإيمان وبلوغهم في العناد غاية الإمكان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ وما يشعركم أنّها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ قرأ الأكثر ( أنّها ) بفتح همزة "أنّ" .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ويعقوب ، وخلَف ، وأبو بكر عن عاصم في إحدى روايتين عن أبي بكر بكسر همزة ( إنّ ) .

وقرأ الجمهور ﴿ لا يؤمنون ﴾ بياء الغيبة .

وقرأه ابن عامر ، وحمزة ، وخلف بتاء الخطاب ، وعليه فالخطاب للمشركين .

وهذه الجملة عقبة حَيرة للمفسّرين في الإبانة عن معناها ونظمها ولْنَأت على ما لاح لنا في موقعها ونظمها وتفسير معناها ، ثمّ نعقّبه بأقوال المفسّرين .

فالّذي يلوح لي أنّ الجملة يجوز أن تكون الواو فيها واوَ العطف وأن تكون واو الحال .

فأمّا وجه كونها واو العطف فأن تكون معطوفة على جملة : ﴿ إنّما الآيات عند الله ﴾ كلام مستقلّ ، وهي كلام مستقلّ وجّهه الله إلى المؤمنين ، وليست من القول المأمور به النّبيء عليه الصّلاة والسّلام بقوله تعالى : ﴿ قل إنّما الآيات عند الله ﴾ .

والمخاطب بـ ﴿ يشعركم ﴾ الأظهر أنّه الرّسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنون ، وذلك على قراءة الجمهور قوله : ﴿ لا يؤمنون ﴾ بياء الغيبة .

والمخاطب بـ ﴿ يشعركم ﴾ المشركون على قراءة ابن عامر ، وحمزة ، وخلف ﴿ لا تؤمنون ﴾ بتاء الخطاب ، وتكون جملة ﴿ وما يشعركم ﴾ من جملة ما أمر الرّسول صلى الله عليه وسلم أن يقوله في قوله تعالى : ﴿ قل إنّما الآيات عند الله ﴾ .

*(203/245)*

---

﴿ وأما ﴾ استفهامية مستعملة في التّشكيك والإيقاظ ، لئلاّ يغرّهم قَسم المشركين ولا تروجَ عليهم ترّهاتهم ، فإن كان الخطاب للمسلمين فليس في الاستفهام شيء من الإنكار ولا التّوبيخ ولا التّغليظ إذ ليس في سياق الكلام ولا في حال المسلمين فيما يؤثر من الأخبار ما يقتضي إرادة توبيخهم ولا تغليطهم ، إذ لم يثبت أنّ المسلمين طمعوا في حصول إيمان

المشركين أو أنّ يجَابُوا إلى إظهار آية حسب مقترحهم ، وكيف والمسلمون يقرأون قوله تعالى : ﴿ إنّ الّذين حقّت عليهم كلمات ربّك لا يؤمنون ولو جاءتهم كلّ آية ﴾ وهي في سورة [ يونس : 96 ، 97 ] وهي نازلة قبل سورة الأنعام ، وقد عرف المسلمون كذب المشركين في الدّين وتلوّنهم في اختلاق المعاذير .

والمقصود من الكلام تحقيق ذلك عند المسلمين ، وسيق الخبر بصيغة الاستفهام لأنّ الاستفهام من شأنه أن يهيّءَ نفس السامع لطلب جواب ذلك الاستفهام فيتأهّب لوعي ما يرد بعده .

والإشعار : الإعلام بمعلوم من شأنه أن يخفَى ويَدِقّ .

يقال : شعَرَ فلان بكذا ، أي علمه وتفطّن له ، فالفعل يقتضي متعلِّقاً به بعد مفعوله ويتعيّن أن قوله : أنّها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ هو المتعلِّق به ، فهو على تقدير باء الجرّ .

والتّقدير : بأنّها إذا جاءت لا يؤمنون ، فحذف الجارّ مع ( أنّ ) المفتوحة حذف مطّرد .

وهمزة ( أنّ ) مفتوحة في قراءة الجمهور .

والمعنى أمُشْعِرٌ يُشعركم أنّها إذا جاءت لا يؤمنون ، أي بعدم إيمانهم .

فهذا بيان المعنى والتّركيب ، وإنّما العقدَة في وجود حرف النّفي من قوله : ﴿ لا يؤمنون ﴾ لأنّ ﴿ ما يشعركم ﴾ بمعنى قولهم : ما يدريكم ، ومعتاد الكلام في نظير هذا التّركيب أن يجعل متعلّق فعل الدّراية فيه هو الشّيء الّذي شأنُه أن يَظُنّ المخاطبُ وقوعَه ، والشّيء الّذي يُظَنّ وقوعُه في مثل هذا المقام هو أنّهم يُؤمنون لأنّه الّذي يقتضيه قسمهم ﴿ لئن جاءتهم آية ليؤمننّ ﴾ فلمّا جعل متعلِّق فعل الشّعور نفيَ إيمانهم كان متعلّقاً غريباً بحسب العرف في استعمال نظير هذا التّركيب .

والّذي يقتضيه النّظر في خصائص الكلام البليغ وفروقِه أن لا يقاس قوله : ﴿ وما يُشعركم ﴾ على ما شاع من قول العرب ﴿ ما يُدريك ﴾ ، لأنّ تركيب ما يدريك شاع في الكلام حتّى جرى مجرى المثل باستعمالٍ خاصّ لا يكادون يخالفونه كما هي سُنّة الأمثال أن لا تغيّر عمّا استعملت فيه ، وهو أن يكون اسم ( ما ) فيه استفهاماً إنكارياً ، وأن يكون متعلّق يُدريك هو الأمر الّذي ينكره المتكلّم على المخاطب .

فلو قسنا استعمال ﴿ ما يشعركم أنّها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ على استعمال ( ما يدريكم ) لكان وجود حرف النّفي منافياً للمقصود ، وذلك مثار تردّد علماء التّفسير والعربيّة في محمل ﴿ لا ﴾ في هذه الآية .

فأمّا حين نتطلّب وجه العدول في الآية عن استعمال تركيب ( ما يدريكم ) وإلى إيثار تركيب ﴿ ما يشعركم ﴾ فإنّنا نعلم أنّ ذلك العدول لمراعاة خصوصيّة في المعدول إليه بأنّه

تركيب ليس متَّبعاً فيه طريق مخصوص في الاستعمال ، فلذلك فهو جار على ما يسمح به الوضع والنظمُ في استعمال الأدواتِ والأفعالِ ومفاعيلها ومتعلّقاتها .

(205/245)

---

فلنحمل اسم الاستفهام هنا على معنى التّنبيه والتّشكيك في الظنّ ، ونحمل فعل ﴿ يشعركم ﴾ على أصل مقتضى أمثاله من أفعال العِلم ، وإذا كان كذلك كان نفي إيمان المشركين بإتيان آية وإثباتُه سواء في الفرض الّذي اقتضاه الاستفهام ، فكان المتكلّم بالخيار بين أن يقول : إنّها إذا جاءت لا يؤمنون ، وأن يقول : إنّها إذا جاءت يؤمنون .

وإنّما أوثر جانب النفي للإيماء إلى أنّه الطرف الرّاجح الّذي ينبغي اعتماده في هذا الظنّ .

هذا وجه الفرق بين التّركيبين .

وللفروق في علم المعاني اعتبارات لا تنحصر ولا يَنبغي لصاحب علم المعاني غضّ النّظر عنها ، وكثيراً ما بيّن عبد القاهر أصنافاً منها فليُلحَق هذا الفرق بأمثاله .

وإنْ أَبَيْتَ إلاّ قياسَ ﴿ ما يشعركم ﴾ على ( مَا يُدريكم ) سواء ، كما سلكه المفسّرون فاجعل الغالب في استعمال ( ما يُدريك ) هو مقتضى الظّاهر في استعمال ﴿ ما يُشعركم ﴾ واجعَل تعليق المنفي بالفعل جرياً على خلاف مقتضى الظّاهر لنكتة ذلك الإيماء

ويسهل الخطب .

وأمّا وجه كون الواو في قوله : ﴿ وما يشعركم ﴾ واو الحال فتكون "ما" نكرة موصوفة بجملة ﴿ يشعركم ﴾ .

ومعناها شَيء موصوف بأنّه يشعركم أنّها إذا جاءت لا يؤمنون .

وهذا الشّيء هو ما سبق نُزوله من القرآن ، مثل قوله تعالى : ﴿ إنّ الّذين حقّت عليهم كلمات ربّك لا يؤمنون ولو جاءتهم كلّ آية ﴾ [ يونس : 96 ، 97 ] ، وكذلك ما جرّبوه من تلوّن المشركين في التفصّي من ترك دين آبائهم ، فتكون الجملة حالاً ، أي والحال أنّ القرآن والاستقراء أشعركم بكذبهم فلا تطمعوا في إيمانهم لو جاءتهم آية ولا في صدق أيمانهم ، قال تعالى : ﴿ إنّهم لا أيمان لهم ﴾ [ التوبة : 12 ] .

وإنّي لأعجب كيف غاب عن المفسّرين هذا الوجه من جعل "ما" نكرة موصوفة في حين أنّهم تطرّقوا إلى ما هو أغرب من ذلك .

*(206/245)*

---

فإذا جعل الخطاب في قوله : ﴿ وما يشعركم ﴾ خطاباً للمشركين ، كان الاستفهام للإنكار والتّوبيخ ومتعلِّق فعل ﴿ يشعركم ﴾ محذوفاً دلّ عليه قوله : ﴿ لئن جاءتهم آية ﴾ .

والتّقدير : وما يشعركم أنّنا نأتيكم بآية كما تريدون .

ولا نحتاج إلى تكلّفات تكلّفها المفسّرون ، ففي "الكشاف" : أنّ المؤمنين طمعوا في إيمان المشركين إذا جاءتهم آية وتمنّوا مجيئها فقال الله تعالى : وما يدريكم أنّهم لا يؤمنون ، أي أنّكم لا تدرون أنّي أعلم أنّهم لا يؤمنون .

وهو بناء على جعل ﴿ ما يشعركم ﴾ مساوياً في الاستعمالِ لقولهم ﴿ ما يدريك ﴾ .

ورَوى سيبويه عن الخليل : أنّ قوله تعالى : ﴿ أنّها ﴾ معناه لَعلّها ، أي لعلّ آية إذا جاءت لا يؤمنون بها .

وقال : تأتي ( أنّ ) بمعنى لعلّ ، يريد أنّ في لعلّ لغة تقول : لأنّ ، بإبدال العين همزة وإبدال اللام الأخيرة نوناً ، وأنّهم قد يحذفون اللام الأولى تخفيفاً كما يحذفونها في قولهم : علّك أن تفعل ، فتصير ( أنّ ) أي ( لعلّ ) .

وتبعه الزمخشري وبعض أهل اللّغة ، وأنشدوا أبياتاً .

وعن الفرّاء ، والكسائي ، وأبي عليّ الفارسي : أنّ ﴿ لا ﴾ زائدة ، كما ادّعوا زيادتها في قوله تعالى : ﴿ وحرام على قرية أهلكناها أنّهم لا يرجعون ﴾ [ الأنبياء : 95 ] .

وذكر ابن عطيّة : أنّ أبا عليّ الفارسي جعل ﴿ أنّها ﴾ تعليلاً لقوله ﴿ عند الله ﴾ أي لا تأتيهم بها لأنّها إذا جاءت لا يؤمنون ، أي على أن يكون ﴿ عند ﴾ كناية عن منعهم من الإجابة لما طلبوه .

وعلى قراءة ابن كثير ، وأبي عمرو ، ويعقوب ، وخلف ، وأبي بكر ، في إحدى روايتين عنه ﴿ إنّها ﴾ بكسر الهمزة يكون استئنافاً .

وحذف متعلّق ﴿ يشعركم ﴾ لظهوره من قوله ﴿ لَيُؤمِنُنّ بها ﴾ .

والتّقدير : وما يشعركم بإيمانهم إنّهم لا يؤمنون إذا جاءت آية .

وعلى قراءة ابن عامر ، وحمزة ، وخلف بتاء المخاطب .

(207/245)

---

فتوجيه قراءة خلف الّذي قرأ ﴿ إنّها ﴾ بكسر الهمزة ، أن تكون جملة ﴿ أنّها إذا جاءت ﴾ الخ خطاباً موجّهاً إلى المشركين .

وأمّا على قراءة ابن عامر وحمزة اللّذيْن قرآ ﴿ أنّها ﴾ بفَتح الهمزة فأن يجعل ضمير الخطاب في قوله : ﴿ وما يشعركم ﴾ موجّهاً إلى المشركين على طريقة الالتفات على اعتبار الوقف على ﴿ يشعركم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

حاصل الكلام أن القوم طلبوا من الرسول معجزات قوية وحلفوا أنها لو ظهرت لآمنوا ، فبين

الله تعالى أنهم وإن حلفوا على ذلك ، إلا أنه تعالى عالم بأنها لو ظهرت لم يؤمنوا ، وإذا كان الأمر كذلك لم يجب في الحكمة إجابتهم إلى هذا المطلوب .

قال الجبائي والقاضي : هذه الآية تدل على أحكام كثيرة متعلقة بنصرة الاعتزال .

الحكم الأول

أنها تدل على أنه لو كان في المعلوم لطف يؤمنون عنده لفعله لا محالة ، إذ لو جاز أن لا يفعله لم يكن لهذا الجواب فائدة ، لأنه إذا كان تعالى لا يجيبهم إلى مطلوبهم سواء آمنوا أو لم يؤمنوا لم يكن تعليق ترك الإجابة بأنهم لا يؤمنون عنده منتظماً مستقيماً ، فهذه الآية تدل على أنه تعالى يجب عليه أن يفعل كل ما هو في مقدوره من الألطاف والحكمة .

الحكم الثاني

أن هذا الكلام إنما يستقيم لو كان لإظهار هذه المعجزات أثر في حملهم على الإيمان ، وعلى قول المجبرة ذلك باطل ، لأن عندهم الإيمان إنما يحصل بخلق الله تعالى ، فإذا خلقه حصل ، وإذا لم يخلقه لم يحصل ، فلم يكن لفعل الإلطاف أثر في حمل المكلف على الطاعات .

وأقول هذا الذي قاله القاضي غير لازم .

أما الأول : فلأن القوم قالوا : لو جئتنا يا محمد بآية لآمنا بك ، فهذا الكلام في الحقيقة مشتمل على مقدمتين : إحداهما : أنك لو جئتنا بهذه المعجزات لآمنا بك .

والثانية : أنه متى كان الأمر كذلك وجب عليك أن تأتينا بها ، والله تعالى كذبهم في المقام

الأول ، وبين أنه تعالى وإن أظهرها لهم فهم لا يؤمنون ، ولم يتعرض ألبتة للمقام الثاني ، ولكنه في الحقيقة باق .

فإن لقائل أن يقول : هب أنهم لا يؤمنون عند إظهار تلك المعجزات ، فلم لم يجب على الله تعالى إظهارها ؟ اللهم إلا إذا ثبت قبل هذا البحث أن اللطف واجب على الله تعالى ، فحينئذ يحصل هذا المطلوب من هذه الآية ، إلا أن القاضي جعل هذه الآية دليلاً على وجوب اللطف ، فثبت أن كلامه ضعيف .

وأما البحث الثاني : وهو قوله : إذا كان الكل بخلق الله تعالى لم يكن لهذه الألطاف أثر فيه ، فنقول : الذي نقول به أن المؤثر في الفعل هو مجموع القدرة مع الداعي والعلم بحصول هذا اللطف أحد أجزاء الداعي وعلى هذا التقدير .

فيكون لهذا اللطف أثر في حصول الفعل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 120.119 ﴾

*(208/245)*

---

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾

مصدر في موضع الحال . أي : أقسموا به تعالى جاهدين في أيمانهم , باذلين في توثيقها طاقتهم : ﴿ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ ﴾ أي : خارق كما اقترحوا , : ﴿ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي : أمرها في حكمه وقضائه خاصة , يتصرف بها حسب مشيئته المبنية على الحكم البالغة , لا تتعلق بها قدرة أحد ولا مشيئته , حتى يمكنني أن أتصدى لا ستنزالها بالاستدعاء . وهذا سدٌّ لباب الاقتراح على أبلغ وجه وأحسنه , ببيان صعوبة منالها , وعلو شأنها – أفاده أبو السعود – .

*(209/245)*

---

﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ قرئ : ﴿ أَنَّهَا ﴾ بالكسر على الاستئناف , والمفعول الثاني محذوف , كأنه قيل : وما يدريكم إيمانهم ؟ ثم أخبرهم بما علم منهم إخباراً ابتدائياً . أو هو جواب سؤال , كأنه قيل : لم وُبِّخوا ؟ فقيل : لأنها إذا جاءت لا يؤمنون ! أو هو مبني على قوله : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ فإنه أبرز في معرض المحتمل , كأنه سأل عنه سؤال شاكٍ , ثم علل بقوله لـ : ﴿ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ جزماً بالطرف الخالف , وبياناً لكون الاستفهام غير جار على الحقيقة . وفيه إنكار لتصديق المؤمنين على وجه

يتضمن إنكار صدق المشركين في المقسم عليه . وهذا نوع من السحر البياني , لطيف المسلك , هذا على أن الخطاب للمؤمنين , إذ كانوا يتمنون مجيء الآية طمعاً في إيمانهم .

وقيل : هو للمشركين , لقراءة : ﴿ لَا تُؤْمِنُونَ ﴾ , فيكون فيه التفات . وقرئ : ﴿ إِنَّهَا ﴾ بالفتح , وعليه فقيل : مقتضى حسن ظن المؤمنين بهؤلاء المعاندين , حذف ( لا ) .

وتوضيح ذلك بالمثال أنه إذا قيل لك : أكرم زيداً يكافئك , قلت في إنكاره : ما أدراك أني إذا أكرمته يكافئني ؟ ! فإن قيل : لا تكرمه فإنه لا يكافئك , قلت في إنكار : ما أدراك أنه لا يكافئني ؟ ! تريد : وأنا أعلم منه المكافأة . فمقتضى بحسن ظن المؤمنين بالمشركين أن يقال : وما يدريكم أنها إذا جاءت يؤمنون , فإثبات ( لا ) يعكس المعنى , إلى أن المعلوم لك الثبوت , وأنت تنكر على من نفى .

وقد وجه الفتح بستة وجوه :

*(210/245)*

---

منها - جعل ( لا ) صلة , كقوله : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ [ الأعراف : 12 ] ، وقوله تعالى : ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [ الأنبياء : 95 ] ، أي : يرجعون . وضعفّ الزجاج هذا الوجه , بأن ما كان لغواً يكون كذلك على جميع التقديرات

, وليس كذلك هنا , فإن ( لا ) على قراءة الكسر ليست بصلة . وأجاب الفارسيّ بأنه لم لا يجوز أن يكون لغواً على أحد التقديرين , ومفيداً على التقدير الثاني ؟ انتهى .

ومنها – جعل : ﴿ أَنَّ ﴾ بمعنى ( لعل ) . قال الخليل : تقول العرب : ائت السوق أنك تشتري لنا شيئاً , أي : لعلك . فكأنه تعالى قال : لعلها إذا جاءت لا يؤمنون . قال : الواحدي : ﴿ أَنَّ ﴾ بمعنى ( لعل ) كثير في كلامهم , قال الشاعر :

~أرِيني جَوَاداً ماتَ هَزْلاً لأنني أرَى مَا تَرَيْنَ أو بخيلاً مخلَّدا

وقال عديّ بن حاتم :

~أعاذلَ ما يُدْرِيكَ أن منيتي إلى ساعةٍ في اليوم أو في ضُحَى الْغَدِ

ويؤيده أن ( يشعرك ) و ( يدريكم ) بمعنى . وكثيراً ما تأتي ( لعل ) بعد فعل الدراية . نحو : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴾ [ عبس : 3 ] . وفي مصحف أُبيّ : ﴿ وما أدراك لعلها إذا جاءتهم لا يؤمنون ﴾ .

ومنها – جعل : ﴿ أن ﴾ بمعنى هل .

ومنها –جعل الكلام جواب قسم محذوف بناء على أن : ﴿ إن ﴾ في جواب القسم يجوز فتحها . والذي ارتضاه الزمخشريّ وتبعه المحققون حمل الكلام على ظاهره ، وأن الاستفهام في معنى النفي ، والإخبار بعدم العلم لا إنكار عليهم . والمعنى : وما يدريكم أن الآية التي

يقترحونها إذا جاءت لا يؤمنون بها ، يعني : أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها ، وأنتم لا تدرون ذلك .

(211/245)

---

قال في " الانتصاف " : لما جاءت الآية تفهم ، ببادئ ، أن الله تعالى علم الإيمان منهم ، وأنكر على المؤمنين نفيهم له ، والواقع على خلاف ذلك . اختلف العلماء ( وساق نحو ما قدمنا في الوجوه ) ثم قال : وأما الزمخشري فتفطن لبقاء الآية على ظاهرها وقرارها في نصابها ، من غير حذف ولا تأويل . فقال قوله السالف . ونحن نوضح اطراده في المثال المتقدم ، ليتضح بوجهيه في الآية ، فنقول : إذا حرمت زيداً لعلمك بعدم مكافأته ، فأشير عليك بالإكرام بناء على أن المشير يظن المكافأة ، فلك معه حالتان : حالة تنكر عليه ادعاء العلم بما يعلم خلافه ، وحالة تعذره في عدم العلم بما أحطت به علماً . فإن أنكرت عليه قلت : وما يدريك أنه يكافئ ؟ وإن عذرته في عدم علمه بأنه لا يكافئ قلت : وما يدريك أنه لا يكافئ ؟ يعني : ومن أين تعلم أنت ما علمته أنا من عدم مكافأته ، وأنت لا تخبر أمره خبري . فكذلك الآية إنما ورد فيها الكلام إقامة عذر للمؤمنين في عدم علمهم بالمغيب في علم الله تعالى ، وهو عدم إيمان هؤلاء . فاستقام دخول ( لا ) وتعين ، وتبين أن سبب الاضطراب

التباس الإنكار بإقامة الأعذار . انتهى .

وفي نفي السبب ، وهو الإشعار ، مبالغة في نفي المسبب ، وهو الشعور .

قال الخفاجيّ : وفي نفي المسبب بهذا الطريق مبالغة ليست في نفيها بدونها ، لأن في الكناية إثبات الشيء ببينة . وفيه تعريض بأن الله عالم بعدم إيمانهم ، على تقدير مجيء الآية المقترحة لهم ، وتنبيه على أنه تعالى لم ينزلها لعلمه بأنها إذا جاءت لا يؤمنون . فعدم الإنزال لعدم الإيمان . و ( يشعركم وينصركم ) ونحوه ، قُرئ بضم خالص وسكون واختلاس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 475. 477 ﴾

*(212/245)*

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ ﴾ ، هنا قَسَمٌ : ومُقْسَمٌ به ، ومُقْسِمٌ ، ومقْسَمٌ عليه . . فالمقْسَمُ به هو الله : والمقسِم هم الجماعة المخالفون لرسول الله ، ولماذا يقسمون ؟ لقد أقسموا حينَ أخذهم الجدل بمنطق الحق فغلبهم . . هم أقسموا بالله وقد دعاهم الرسول صلى الله

عليه وسلم إلى عبادته ، و﴿ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ تعرف منها الجهد وهو المشقة أي أنهم بالغوا في القسم مبالغة تجهدهم ليبينوا لمن يقسمون لهم أنهم حريصون على أن يبروا بالقسم ، فأفرغوا جهدهم ومشقتهم في القسَم ، وهذا معناه أنهم أعلنوا أنهم يقسمون قسماً محبوباً لهم ، والمحبوب لهم أكثر أن ينفذوا هذا القسم ، وهذا يدل في ظاهره على إخلاصهم في القسم .

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ ﴾ [ الأنعام : 109 ] .

ألم يأت الرسول صلى الله عليه وسلم بآية واضحة ؟ لقد جاءهم بأعظم آية وهي القرآن ، وعدم عرفانهم بذلك هو أول مصيبة منهم ، ألم يقل لكم : إني رسول بعد أن أعلن الآية وهي نزول القرآن وأنتم تعرفون أنه صادق في التبليغ عن الله . . وكان ذلك هو قمة المماحكة منهم ، وساروا على ذلك حين اقترحوا هم الآيات على الله ، ألم يقولوا : ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴾ [ الإسراء : 90-92 ] .

وأراد الحق بذلك أن يبين لنا أنّ القسم الذي أقسموه هو قسم مدخول فقد قالوا : "كما زعمت علينا " والزعم – كما نعلم – مطية الكذب وهذا أول خلل في القسم .

ويقول الحق : ﴿ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ السمآء ﴾ [ سبأ : 9 ] .

هم إذن غير مؤمنين بالآية الأصلية وهي القرآن ، فيتحدونه في أنه ينزل بالوحي ، فيحذرنا الحق أن نصدق زعمهم ، فهو القائل : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الذين كَفَرُواْ إِنْ هاذآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [ الأنعام : 7 ] .

وحتى إن نزلت الآية فلن يصدقوا ؛ فالحق هو القائل : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السماء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [ الحجر : 14-15 ]

ولو أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد سحركم . . فلماذا لم يسحرهم ليؤمنوا بالله ؟

وهكذا نرى أن الحق قد ذكرنا لنا في كتابه أن كل ما يقولونه في هذه المسألة هو مروق وهروب من الاستجابة للدعوة ؛ لأنه لا توجد آية أعظم من الآية التي نزلت عليهم وهي القرآن ، وكل الآيات التي اقترحوها لا تسمو على هذه الآية ؛ لأنهم أمة نحو وصرف وبلاغة وبيان وأدب ، فجاء لهم بالمعجزة التي تفرقوا فيها . وهم لم يتفوقوا في الأشياء التي ذكروها واقترحوها .

إننا نأتي لهم بمعجزة من جنس ما تفوقوا فيه ؛ لأن المعجزات دائماً تأتي على هذا الأساس ؛ فكل قوم تفوقوا في مجال يأتي الله لهم بشيء يتفوق عليهم في مجال تفوقهم ليثبت صدق الرسول في البلاغ عنه .

*(214/245)*

---

ولقد قلنا : إن المعجزات تأتي خرقاً لنواميس الكون الثابتة لأن نواميس الكون لها قوانين عرفها البشر ، وأصبحت متواترة أمامهم ؛ فإذا ما جاء أمر يخرق الناموس السائد المعترف به بينهم يلتفتون متسائلين كيف خرق الناموس وذلك ليعرف كل واحد منهم أن الذي خلق الناموس هو الذي خرق الناموس ؛ لكي يثبت صدق هذا البلاغ عنه . وقد جاءتكم المعجزة من جنس ما نبغتم به ، والذي يدل على ذلك أنهم لا يتكلمون في المعجزة بل في المنهج وفي شخص من جاء بالمنهج ، تجدهم يقولون : ﴿ لولا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ [ الأنعام : 8 ] .

فيوضح القرآن أن المَلك بطبيعة تكوينه لا يُرى منكم ؛ هو يراكم وأنتم لا ترونه ، وإذا أرسلنا ملكاً فكيف تعرفونه ؟ إذن سيتطلب إرسال ملك أن نخلع عليه وضع البشر ، وإن ينزله الحق في صورة بشر ، وإن نزل في صورة بشر فستقولون : إنه ليس بشراً ولسنا ملزمين بما

جاء به : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [ الأنعام : 9 ]

.

(215/245)

---

وكان سيدنا جبريل – على سبيل المثال – ينزل إلى رسول الله أحياناً في صورة رجل قادم من السفر ويقعد ويتكلم مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يأت جبريل عليه السلام – إذن – بطبيعة تكوينه بل جاء بطبيعة البشر . وهناك خلق آخر مثل الجن ، ونحن لا نقدر أن نرى الجن ، ولا نستطيع بقوانيننا وقوانين الجن أن نراه ، لكن إذا أراد الجن أن يرينا نفسه فهو يتشكل بشكل مادي يرى ؛ يتشكل بشكل حيوان ، يتشكل بشكل قطة ، يتشكل بشكل جمل ، يتشكل بشكل رجل ، وهكذا ، ولو كانت هذه المسألة غير مقيدة بتقنين يحفظ توازن الأمر بين الجنسين – الإنس والجن – لتعب الناس ؛ لأنه ساعة يظهر جن للإنسان ويقف أمامه ثم يختفي يسود الرعب بين البشر على الرغم من أن الجن تخاف من الإنسان اكثر مما نخاف نحن منهم ؛ لأن الجن يعرف أن قانونه يسمح له أن يتشكل بشكل إنس أو أي شكل مادي ، وحينئذ يحكمه قانون الإنس وإن التقى بشخص معه مسدس – مثلا – فقد يضربه بالرصاص ويقتله ، ولذلك يخاف الجن أن يظهر للإنسان مدة طويلة ، وإنما

يظهر كموضة البرق ويختفي ؛ لأنه يخاف كما قلنا – من الإنسان . إذن فالتوازن موجود بين الجن والإنس . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" إن عفريتا من الجن جعل يفتك على البارحة ليقطع عليّ الصلاة وإن الله أمكنني منه فَذَعَتّهُ ، فلقد هممتُ أن أربطه إلى جنب سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون أوكلكم ثم ذكرت قول أخي سليمان : " رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي " فردَّه الله خاسئاً ، وفي رواية : " والله لولا دعوة أخي سليمان لأصبح موثقا يلعب به ولدان أهل المدينة " .

وهكذا نعلم أن القوم إذا اقترحوا آية ، ثم جاء الله بالآية ، فإن كذبوا بها أخذهم أخذ عزيز مقتدر ولا يؤجل ذلك للآخرة .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَمَا كَانَ اللهِ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [ الأنفال : 33 ] .

*(216/245)*

---

إذن فحتى الكفار به نالهم شيء من رحمته .

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَآءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [ الأنعام : 109 ] .

هنا يبلغ الحق رسوله أن يقول لهم : أنا لا آتي بالآيات من عندي ولا آتي بقانون قدرتي ؛ لأن قانون قدرتي مساو لكم . ولست متفوقا عنكم غير أنه يوحي إليّ وأبلغكم ما أرسلت به إليكم . إنّ الله هو الذي يناولني آيات القرآن ، ولا يوجد خلق يقترح على الله الآية ؛ لأن ما سبق في الرسالات السابقة يؤكد أن الحق إذا ما استجاب لآية طلبها الخلق ولم يؤمنوا فسبحانه يهلكهم ويستأصلهم أو يغرقهم أو يرسل عليهم ريحا صرصرا أو يخسف بهم الأرض ، والحق هو القائل : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأولون ﴾ [ الإسراء : 59 ] .

إذن فبعض أهل الرسالات السابقة اقترحوا الآيات وحققها الله لهم ثم كذبوا بها . إذن فالتكذيب هو الأصل عندهم .

والمفروض أن تأتي الآية كما يريدها الله لا أن يقترحها أحد عليه . ولذلك يأمر الحق رسوله أن يبلغهم : ﴿ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ الله ﴾ ثم يأتي خطاب جديد لأناس يختلفون عن المشركين هم المؤمنون ، فيقول الحق لهم : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَآءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ فكأنهم حينما قال أهل الشرك ذلك أراد المؤمنون أن يخففوا عنتهم مع رسول الله فقالوا له : يا رسول الله ، اسأل الله أن ينزل لهم آية حتى نرتاح من لجاجتهم ، فيتجه الله بالرد على من قرظ هذا السؤال موضحا : أنتم مؤمنون وظنكم حسن ، وفكرتكم طيبة في أنكم تريدون

أن تكسروا حدة العنت ، لكن ما يشعركم : أي ما يعلمكم أن الآية التي اقترحوها إن جئت بها لا يؤمنون . فكأن المؤمنين أيدوا قول هؤلاء المشركين في طلب الآية منعا للجاج .

(217/245)

---

والنص القرآني جاء بقوله الحق : " لا يؤمنون " وجاء العلماء عند هذه المسألة واختلفوا ، وجزى الله الجميع خيرا ؛ لأنها أفهام تتصارع لتخدم الإيمان . ونسأل : ما الذي يجعل الأسلوب يجيء بها الشكل ؟ ونقول : إنها مقصودات الإله حتى نعيش في القرآن . لا أن نمر عليه المرور السريع . والأسلوب في قوله : " وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون " هو دليل على أنه ليس لكم علم .

وقلنا : إن الشعور يحتاج إلى إدراك ومواجيد ونزوع ، فعلى أي أساس بنيتم شعوركم هذا ؟ أنتم أخذتم ظاهر كلامهم ، ولكن الحق يعلم ويحيط بما يخفون ويبطنون . وكأنه سبحانه يوضح أن طلب الآية إنما هو تمحيك . وأنتم تعلمون أن الله إن جاء لهم بالآية فلن يؤمنوا .

وبعض من المفسرين قال : إن ( لا ) زائدة ومنهم من كان أكثر تأدبا فقال : ( لا ) صلة لأنهم خافوا أن يقولوا : ( لا ) زائدة وقد يأخذ البعض بمثل هذا القول فيحذفها ، لذلك أحسنوا

الأدب ؛ لأن الذي يتكلم هو الإِله وليس في كلامه حرف زائد بحيث لو حذفته يصح الكلام ، لا . إنك إذا حذفت شيئا فالكلام يفسد ولا يؤدي المراد منه ؛ لأن لله مرادات في كلامه ، وهذه المرادات لابد أن يحققها أسلوبه . والمثال في حياتنا أن يقول لك واحد : " ما عندي مال " أو ما عندي من مال ؟ إن " من مال " هنا ابتدائية أي من عندي من بداية ما يقال : إنه مال ، أما من يقول : " ما عندي مال " أي ليس عنده ما يعتد به من المال الذي له خطر وقيمة ، بل عنده قروش مما لا يثال له : مال . إن في جيبه القليل من القروش .

*(218/245)*

---

و " لا " في هذه الآية جاءت لأن الحق يريد أن يقول للمؤمنين : ما يعلمكم يا مؤمنون أنني إذا جئت لهم بالآية يؤمنون ، فكأنه سبحانه ينكر على المؤمنين تأييد مطلب الكافرين . وقد تلطف الحق مع المؤمنين وكرم حسن ظنهم في التأييد لأنهم لا يؤيدون الطلب حبا في الكافار ، بل حبا في النبي والمنهج ، وكأن الحق يقول لهم : أنا أعذركم لأنكم تأخذون بظاهر جهد اليمين ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ ومبالغتهم فيه . ولا أنكر عليكم تصديقكم لظاهر قولهم ؛ لأن هذا هو مدى علمكم ، ومكا أدراكم أنني إذا جئت بالآية أنهم أيضا لن يعلنوا الإِيمان . ولو كنتم تعبمون ما أعلم لعرفتم أنهم لن يؤمنوا . إذن حين جاء الأسلوب ب

﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ ف " لا " حقيقية وليست زائدة . ومن أجل أن يطمئن الحق المؤمنين أظهر لهم أن علمه الواسع يعلم حقيقة أمرهم يقول : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(219/245)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " جَهْد أيْمَانِهِم " تقدم الكلام عَلَيه في " المائدة " .

وقرا طَلْحَة بن مُصَرِّف : " لَيُؤمَنَنْ " مَبْنياً للمفعول مؤكّداً بالنون الخفيفة ، ومَعْنَى " جهد أيمانهم " : قال الكَلْبِيُّ ومُقَاتِل : إذا حلف الرَّجُل بالله جَهْد يَمِينه ، وقال الزَّجَّاج : بالَغُوا في الأيمَان .

قوله : " وَمَا يُشْعِرُكُم " " ما " : استِفْهَامِيَّة مُبْتَدأ ، والجملة بَعْدَها خَبْرُهَا ، وفاعل " يُشْعِر " يعود عَلَيْها ، وهي تتعدى لاثْنَيْن .

الأوَّل : ضمير الخطاب .

والثاني : مَحْذُوف ، أي : وأيُّ شَيءْ يدرِيكُم إيمانُهم [ إذا جَاءَتْهُم الآيات التي اقْتَرَحُوها .

قال أبو علي : " مَا " استِفْهَام ، وفَاعِل "يُشْعِرُكُم" ضمير " مَا " والمعنى : وما يُدْرِيكم إيمانهم ؟ فحذف المَفْعُول ، وحذف المفعُول كَثِير ] .

والمعنى أي : بِتَقْدير أنْ تَجيئَهم هَذِه الآيات ، فهم لا يُؤمِنُون .

(220/245)

---

وقرأ العامَّة : انها بِفَتْح الهَمْزة ، وابن كثيرٍ وأبو عَمْرو ، وأبوبَكْر بخلاف عنه بِكَسْرِها .

فأما قرءاة الكَسْر : فَوَاضِحَة اسْتجودها النَّاس : الخَلِيل وغيْره ، لأن معناها : اسْتِئَناف إخْبَار بعدم إيمان من طُبع على قَلْبه ، ولو جَاءَتْهُم كل آيَة .

قال سيبويه : سَأَلْتُ الخَلِيل عن هذه القراءة عين : قِرَاءة الفَتْح فَقُلْت : ما مَنَع أن يكُون كقولك : ما يُدْرِيك أنّه لا يَفْعل ؟ فقال : لا يَحْسُن ذلك في هذا المَوْضِع ، إنَّما قال : " ومَا يُشْعِرُكم " ثم ابْتدأ ؛ فأوْجَب ، فقال : " إنَّها غذا جَاءَت ، لا يُؤمِنُون " لو فتحن فقال : " وما يُشْعِرُكم أنَّها إذا جَاءَتْ لا يُؤمِنُون " ، لكان عُذْراً لهم ، وقد شرح النَّاس قَوْل الخَلِيل ، وأوْضَحُوه ، فقال الواحدي وغيره : لأنَّك لو فَتَحْت " أنّ " وجَعَلْتَها الَّتِي في نَحْو : بَلَغَنِي أنَّ زيداً مُنْطَلِق ، لكان عُذْراً لمنَ أخبر عَنْهُم أنَّهم لا يُؤمِنُون ؛ لأنَّه إذا قال القَائِل : " إنَّ زَيْداً لا يُؤمِن " فقلت : وما يُدْرِيك أنَّه لا يُؤمِن ؟ كان المَعْنَى : أنه يُؤمِن ، وإذا كان كذلك ، كان

عُذْراً لمن نفي عنه الإيمان ، وليس مُرادُ الآية الكريمة ، إقامة عُذْرهم ، ووجود إيمانهم .

وقال الزَّمَخْشَري : " وقُرِئ " إنَّها " بالكَسْر ؛ على أنَّ الكلام قد تمَّ قبْله بمَعْنَى : " مَا يُشْعِرُكُم ما يَكُون مِنْهُم " ثمَّ أخبَرَهم بعِلْمه فِيهم ، فقال : إنَّها إذَا جَاءَت ، لا يُؤمِنُون " .

وأما قِرَاءة الفَتْح : فقد وَجَّهَها النَّاسُ على سِتَّة أوْجُه :

أظهرها : أنَّها بمعنى : لَعَلَّ ، حكى الخَلِيل " أتيت السُّوق أنَّك تَشْتَرِي لَنَا مِنْهُ شَيْئاً " أي : " لَعَلَّك " فهذا من كلام العرب – كما حَكَاه الخَلِيل – شَاهد على كَوْن " أنَّ " بِمَعْنَى لَعَلَّ وانْشَد أبو جَعْفَر النَّحَّاس : [ الطويل ]

(221/245)

---

2280 – أرِينِي جَوَاداً مَاتَ هُزْلاً لأنَّنِي . . .

أرَى ما تَرَيْنَ أوْ بَخِيلاً مُخَلَّدَا

وقال امرؤ القيس – أنشده الزَّمَخْشَرِيُّ – [ الكامل ]

2281 – عُوجَا على الطَّلَلِ المُحِيل لأنَّنَا . . .

بنْكِي الدِّيارَ كَمَا بَكَى ابنُ حِذَامِ

وقال جري : [ الوافر ]

2282 – هَل أَنْتُمْ عَائِجُونَ بِنَا لَعَنَّا . . .

نَرَى العَرَصَاتِ أَوْ أَثَرَ الخِيَامِ

وقال عَدِيُّ بنُ زَيْدٍ : [ الطويل ]

2283 – أعَاذِل مَا يُدْرِيكَ أَنَّ مَنِيَّتِي . . .

إلى سَاعَةٍ في اليَوْمِ أَوْ فِي ضُحَى الغَدِ

وقال آخر : [ الزجر ]

2284 – قُلْتُ لِشَيْبَانَ ادْنُ مِنْ لِقَائِهْ . . .

أَنَّا نُغَذِّي النَّاسَ مِنْ شِوَائِهْ

ف " أَنَّ " في هذه المواضِع كلِّها بِمَعْنَى : " لعلَّ " قالوا : ويدلُّ على ذَلِك أَنَّها في مُصْحَف أَبيّ وقراءته : " وما أَدْرَاكُم لعلَّها إذا جَاءَتْ لا يُؤمِنُون " ونُقِل عنه : " وما يُشْعِرُكم لعلّها إذَا جَاءَت لا يُؤمِنُون " ذكر أَبو عُبَيْد وغيره ، ورَجَّحُوا ذلك أَيضاً بأَنَّ " لَعَلَّ " قد كَثُر ورودُها في مِثْل هذا التَّركِيب ؛ كقوله – تعالى – : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الساعة قَرِيبٌ ﴾ [ الشورى : 17 ] ، ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يزكى ﴾ [ عبس : 3 ] ، ومَمَّن جعل " أَنَّ " بِمَعْنَى : " لعل " أَيضاً ، يَحْيَى بن زِيَاد الفرّاء .

ورجَّح الزَّجَّاج فقال : " زعم سِيبوَيْه عن الخَلِيل ، أن مَعْنَاها : " لَعَلَّهَا " قال : " وهَذَا الوَجْه أَقْوى في العَرَبِيَّة وأَجود " ونَسَب القراءة لأَهْل المدينَ ن وكذا أَبو جَعْفَر .

قال شهاب الدّين : وقراءة الكُوفيّين ، والشّامِيّين أيضاً ، إلاَّ أن أبَا عَلِيّ الفارسيّ ضعّف هذا القَوْل الَّذِي استجوده النَّاسُ ، وقوّوْهُ تَخْرِيجاً لهذه القِراءة ، فقال : " التَّوَقُّع الَّذِي تدلّ عليه " لَعَلَّ " لا يُنَاسب قراءة الكَسْر ، لأنها تدلُّ على حُكْمِه – تعالى – عليهم بأنَّهم لا يُؤمِنُون " ولكنَّه لمَّا مَنَعَ كونها بمَعْنَى : " لعل " لم يَجْعَلْها مَعْمُولة لـ " يُشْعِرُكُم " بل جَعَلها على حَذْف لام العِلَّة ، أي : لأنَّها ، والتَّقْدِير عنده : " قل إنَّما الآياتِ عِنْد اللهِ ، لأنَّها إذا جَاءَت لا يُؤمِنُون " .

فهو لا يَأتِي بهَا ؛ لإصْرارهم على كُفْرِهم ، فيَكُون نَظِير : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بالآيات إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأولون ﴾ [ الإسراء : 59 ] ، أي بالآيات المُقْتَرحة ، وعلى هذا فيَكُون قوله : " وما يُشْعِرُكُم " اعتِرَاضاً بين العِلَّة والمَعْلُول .

الثاني : ان تكون " لاَ " مَزِيدة ، وهذا رَأي الفرَّاء وشيخه ، قال : ومثله : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ ﴾ [ الأعراف : 12 ] أي : " أنْ تَسْجُد " فيكون التَّقْدير : وما يُشْعِرُكُم أنَّها إذا جَاءَت يُؤمِنون ، والمعنى على هذا : أنَّها لو جَاءَت لم يُؤمِنُوا ، وإنما حمله على زِيَادَتِها ما تقدَّم من أنَّها لو تُقدَّر زَائِدة ، لكان ظَاهِرُ الكلام عُذْراً لكُفَّار ، وأنَّهم يُؤمِنون كما عرفت

تَحْقيقه أولاً ، إلا أن الزَّجَّاج نسب ذلك إلى الغَلَط ، فقال : " والَّذِي ذكر أنَّ " لا " لَغْو ، غالط ؛ لأن ما يَكُون لَغْواً ، لا يكون غَيْر لَغْوٍ ، ومن قَرَأ بالكَسْر ، فالإجْمَاع : على أنَّ " لا " غير لَغْو " فليس يَجُوز أن يكُون مَعْنَى لفظة : مرةً النَّفي ، ومرَّة الإيجاب في سِيَاق واحد .

(223/245)

---

وانتصر الفارسيّ لقول الفرَّاء ، ونفي عنه الغَلَط ، فإنَّه قال : " يجوز أن تكون " لا " في تأويل زائِدةً ، وفي تَأويل غَيْر زَائدة ؛ كقول الشَّاعر في ذلك : [ الطويل ]

2258 - أبى جُودُهُ لا البُخْلَ واسْتَعْجَلَتْ نَعَمْ . . .

بِهِ مِنْ فَتًى لا يَمْنَعُ الجُودَ نَائِلُهْ

يُنشد بالوَجْهَيْنِ ، أي : بنَصْب " البُخْل " وجرِّه ، فَمَنْ نَصَبَه ، كانت زائدة ، أي : " أَبى جُودُه البُخْلَ " ومَنْ خَفَضَ ، كانت غَيْر زَائِدة ، وأضَافَ " لاَ " إلى البُخْلِ " .

قال شهاب الدِّين : وعلى تَقْدير النَّصْب ، لا يَلْزَم زِيَادتها ؛ لجواز أن تكُون " لا " مَفْعُولاً بِهَا ، و " البُخْل " بدل مِنْهَا ، أي " أَبى جُودُه لَفْظَ " لا " ولفظ " لا " هو بُخْل " .

وقَدْ أوائل لك طَرف من هذا محقَّقاً عند قوله - تعالى - ﴿ وَلاَ الضَّآلِّين ﴾ [ الفاتحة : 7 ] [ في أوائل هذا الموضوع ] وسَيَمُرُّ بك مَوَاضِع مِنها ؛ كقوله - تعالى - : ﴿ وَحَرَامٌ على قَرْيَةٍ

أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء : 95] .

قالوا : تَحْتَمل الزِّيَادة ، وعدمها وكذا ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ ﴾ [الأعراف : 12] ، ﴿ لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب ﴾ [الحديد : 29] .

الثالث : أن الفَتح على تَقْدِير لام العِلَّة ، والتَّقْدير : " إنما الآيات التي يَقْتَرِحُونها عِنْد اللَّه ؛ لأَنَّها إذا جَاءت لاَ يُؤمِنُون " ، و" ما يُشْعِرُكُم " اعتِرَاض كما تقدَّم تَحْقيق ذلك عن أبي عَلِيّ ، فأغنى عن إعَادَتِهِ ، وصار المَعْنَى : " إنَّما الآيات عند اللَّه ، أي : المُقْترحة لا يأتي بِهَا ؛ لانْتِفَاء إيمانهم ، وإصْرارِهْم على كُفْرِهم " .

الرابع : أن في الكلام حَذْف مَعْطُوف على ما تقدَّم .

(224/245)

---

قال أبو جَعْفَر في مَعَانيه : وقيل في الكلام حَذْف ، والمعنى : وما يُشْعِرُكم أَنَّها إذا جاءت لا يُؤمِنُون أو يُؤمِنُون ، فحذفَ هذا لِعْلم السَّامِع ، وقدَّرَه غَيره : " ما يُشْعِرُكُم بانْتِفَاء الإيمان ، أو وقُوعه " .

الخامس : أن " لا " غير مزيدة ، ولي في الكلام حَذْف ، بل المَعْنَى : " وما يُدريكم انتِفَاء إيمانهم " ويكون هَذَا جواباً لمن حُكِم عليْهم بالكُفر ويُئِس من إيمانهِم .

وقال الزَّمَخْشَرِي : " وما يُشْعِرُكم : وما يُدْرِيكُم أنها ، أي : أن الآيات التي يَقترِحُونها " " إذا جاءت لا يُؤمِنُون بِهَا "يَعْنِي : " أنَا أعلم أنَّها إذا جَاءَت لا يُؤمِنُون بِهَا ، وأنتم لا تَدْرُون بِذَلك " .

وذلك أنّ المُؤمنين كانُوا حَرِيصين على إيمانهم ، وطامعين فيه إذا جَاءَت تلك الآية ، ويتمنَّوْن مَجيئها ، فقال – عز وجلَّ – : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ على مَعْنَى : أنكم لا تَدرُوْنَ ما سَبَقَ عِلْمي بهم ، أنهم لا يُؤمِنُون ؛ ألا ترى إلى قوله : ﴿ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [ الأنعام : 110 ] انتهى .

(225/245)

---

قال شهاب الدّين : بَسْطُ قوله إنَّهم كَانُوا يَطْمعُون في إيمانهم ، ما جَاءَ في التَّفْسِير : أن المُشْركين قَالُوا لِرسُول الله صلى الله عليه وسلم : أُنْزِلَ عَلَيْنَا الآية الَّتي قال الله فيها : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السمآء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [ الشعراء : 4 ] ونحن والله نُؤمِن ، فأنزل الله تعالى : " وما يُشْعِرُكُم " إلى آخرها وهذا الوَجْه : هو اخْتِيَار أبي حيَّان ، فإنَّه قال : " ولا يَحْتَاج الكلام إلى زِيَادة " لاَ " ولا إلى هذا الإضْمَار ، يعني حَذْفَ المَعْطُوف ، ولا إلى " أنَّ " بِمَعْنَى : لعَل ، وهذا كلُّه خُرُوجٌ عن الظَّاهِر لغير ضَرُورة ، بل

حَمْلُه على الظَّاهِر أوْلى ، وهو وَاضِحٌ سائغٌ ، أي : وما يُشْعِرُكم ويُدْرِيكم بِمَعْرِفة انْتِفَاء إيمانهم ، لا سَبِيل لَكُم إلى الشُّعُور بِهَا " .

السادس : أن " مَا " حَرْف نَفْي ، يَعْني : أنه نَفى شُعُورهم بِذلكِ ، وعلى هذا فَيُطْلَبُ لـ " يُشْعركُمْ " فاعل .

فقيل : هو ضَمِير الله – تعالى – أضْمر للدَّلالة عَلَيْه ، وفيه تكلُّف بعيد ، أي : " وما يُشْعِركُم اللَّه إذا جاءت الآيات المُقْتَرحَة لا يُؤمِنُون " .

وقد تقدَّم في البقرة كَيْفِيَّة قِرَاءة أبي عَمْرو لـ "يُشْعركم " و﴿ يَنصُرْكُمُ ﴾ [آل عمران : 160 ] ، ونحوهما عند قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ ﴾ [البقرة : 67 ] ، وحَاصِلُها ثلاثة أوْجُه : الضَّمُّ الخَالِص ، والاختلاس ، والسُّكُون المحض .

وقرأ الجُمْهُور : " لا يُؤمنُون " بياء الغَيْبَة ، وابن عامر ، وحمزة بتاء الخِطَاب .

(226/245)

---

وقرأ أيضاً في الجاثية [آية : 6 ] ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ بالخِطَاب ، واقفهُمَا عليها الكَسَائِي ، وأبو بكر عن عَاصِم ، والباقون : باليَاء للغَيْبَة ، فتحصَّل من ذلك أنَّ ابْن عامرٍ ، وحَمْزة يقرآن بالخِطَاب في المَوْضِعَيْن ، وأن نَافِعاً ، وابن كثير ، وأبا عَمْرو ،

وحَفْصاً عن عَاصِم ، بالغيبة في الموْضِعَيْن ، وأنّ الكَسِائيّ ، وأبا بكر عن عَاصِم : بالغَيْبَة هُنَا ، بالخِطَاب في الجَاثِية ، فقد وافقا أحد الفريقين في إحْدى السُّورَتَيْن والآخر في أخرى .

(227/245)

---

فأما قِرَاءة الخِطَاب هُنَا : فيكون الظَّاهر من الخِطاب في قوله : " ومَا يُشْعِرُكُم " أنه للكُفَّار ، ويتَّضح مَعْنَى هذه القِرَاءة على زيادة " لا " أي : ومَا يُشْعِرُكم أنكم تُؤمِنُون ، إذا جَاءَت الآيَات الَّتِي طَلَبْتُمُوها كما أقْسَمْتُم عَلَيْه ، ويتَّضحُ أيضاً على كون " أنَّ " بمعنى : لَعَلَّ ، مع كون " لا " نَافِية ، وعلى كَوْنها عِلَّة بتَقْدير : حذف اللاَّم ، أي : " إنما الآيات عِنْد الله فلا يَأتِيكم بِهَا ؛ لأنَّها إذا جَاءَت لا يُؤمِنُون بها " ويتَّضِحُ أيضاً على كَوْن المَعْطُوف مَحْذُوفاً ، أي : " وما يُدْرِيكم بعدم إيمَانِكم ، إذا جاءَت الآيات أو وُقُوعه ؛ لأن مَآل أمركم مُغَيَّبٌ عَنْكم ، فكَيْفَ تُقْسِمُون على الإيمان عِنْد مَجيئ الآيات ؟ " وإنَّما يُشْكَل ؛ إذا جَعَلْنا " أنَّ " معمولة لـ " يُشْعِرُكم " وجَعَلْنَا " لا " : نافية غير زَائِدَة ؛ يكون المَعْنَى : " وما يُدْرِيكم أيُّهَا المُشْرِكون بانْتِفَاء إيمانكم ، إذا جَاءَتْكم " ، ويَزُول هذا الإشْكَال بأنَّ المَعْنَى : " وما يُدْرِيكم أيُّها المُشْرِكون بانْتِفَاء إيمانِكم ، وإذا جَاءَتْكم " ، ويَزُول هذا الإشْكَال بأنَّ المَعْنى : ايُّ شَيءْ يُدْرِيكم بِعَدم إيمانِكُم ، إذا جَاءَتْكم الآيات الَّتِي اقْتَرَحْتُمُوها ؟ يعني : لا يمرُّ هذا بِخَواطِرِكم

، بل أَنْتُم جازِمُونَ بالإيمان عند مجيئها ، لا يَصُدُّكم عَنْه صادٌّ ، وأنا أعْلَمُ أنكم لا تُؤْمِنُون وَقْت مَجِيئها ؛ لأنكم مَطْبُوع على قُلُوبكُم .

وأمَّا على قِراءة الغَيْبَة ، فتكون الهَمْزَة معها مكْسُورة ؛ وهي قراءة ابْن كَثِير ، وأبِي عَمْرو ، وأبِي بَكْر عن عَاصِم ، ومَفْتُوحة ؛ وهي قرءاة نافِع ، والكسَائي ، وحَفْص عن عَاصِم .

فعلى قِرَاءة ابْن كَثِير ومَنْ مَعَه يكون الخِطَاب في : " وما يُشْعِرُكُم " حائزاً فيه وجهان :

(228/245)

---

أحدهما : أنَّه خِطَاب للمُؤمِنين ، أي : " وما يُشْعِرُكُم أيُّها المُؤمِنُون إيمانَهُم " ثم اسْتَأْنَف إخْباراً عنهم بأنَّهم لا يُؤمِنُون ، فلا تَطْمَعُوا في إيمانهم .

الثاني : أنه للكُفَّار ، أي : " وما يُشْعِرُكم أيُّها المُشْرِكون مَا يَكون مِنْكم " ثم اسْتَأْنف إخْبَاراً عَنْهم بِعَدَم الإيمَان ؛ لعلمه السَّابق فيهم وعلى هَذَا فِفِي الكلام التِفَاتٌ من خِطَاب إلى غَيْبَة .

وعلى قرءاة نَافِع يكون الخِطَاب للكُفَّار ، وتكون " أنَّ " بِمَعْنَى : " لعلَّ " كذا قاله أبو شَامَة ، وغيره .

وقال أبو حيَّان في هَذِه القراءة : " الظَّاهر أن الخِطَاب للمُؤمنين ، والمَعْنَى : " وما يُدْرِيكم

أيُّهَا المُؤمِنُون ، أنَّ الآية الَّتِي تَفْتَرِحُونها إذا جاءت لا يُؤمِنَون " يعني : أنا أعْلَم أنَّها إذَا جَاءَت لا يُؤمِنُون بِهَا " ثم سَاق كلام الزَّمَخْشَري بِعَيْنِه الَّذي قدَّمت ذكره عَنْه في الوَجْه الخَامِس قال : " ويبْعدُ جداً أن يكون الخِطَاب في " وَمَا يُشْعِرُكُم للكُفَّار " .

قال شهاب الدِّين : إنَّما اسْتَبْعَدَه ؛ لأنَّه لم ير في " أنَّ " هَذِه أنَّها بِمَعْنَى : " لَعَل " كما حَكَيْته عَنه .

وقد جَعَل أبُو حيَّان في مَحْمُوع " أنَّها إذا جاءت لا يؤمِنُون " بالنِّسْبَة إلى كَسْر الهمزة وفَتْحِها ، والخِطَاب والغَيْبة أرْبع قِرَاءَات ، قال : وقرأ ابْن كثير ، وأبو عَمْرو ، والعُلَيْمِي ، والأعْشَى عن أبي بكر .

(229/245)

---

وقال ابن عَطِيَّة : ابن كَثير ، وأبو عمرو ، وعَاصِم في رواية داود الأودي ] : إنَّها بكَسْر الهَمْزة ، وقرأ بَاقِي السَّبْعة : بفتحها ، وقرأ ابْن عَامِر وحَمْزة : " لا تُؤمِنُون " بتاء الخِطَاب ، والبَاقُون بياء الغَيْبَة ؛ فترتب أرْبع قِرَاءات : الأولَى : كَسْرُ الهَمْزَة واليَاءِ ، وبه قِرَاءة ابْن كَثِير ، وأبي عَمْرو ، وأبي بَكْر بخلاف عَنْه في كَسْر الهَمْزَة ثم قال : القِرَاءة الثَّانية : كَسْر الهَمْزَة والتَّاء وبه رِوَاية العُلَمِي والأعْشَى عن أبي بَكْرٍ عن عَاصِم ، والمُنَاسب : أن يكون الخِطَاب

للكُفَّار في هذه القِرَاءة ، وكأنَّه قيل : " وما يُدْرِيكُم أيُّهَا الكُفَّار وما يَكُون مِنْكُم " ؟ ثم أخْبرَهُم على جِهَة الجَزَم ، أنَّهم لا يُؤمِنُون على تقدير مَجيئها ، ويَبْعُد جداً أن يكون الخِطَاب في : " وما يُشْعِرُكُم " للمُؤمنين ، وفي " تُؤمِنُون " لكُفَّار ، ثم ذكر القِرَاءة الثَّالِثة ، والرَّابعة ، ووجَّهُهَا بنحو ما نقلته عن النَّاس ، وفي إثباته القراءة الثَّانية نظر لا يَخْفَى ؛ وذلك أنَّه لما حَكَى قِرَاءة الخِطَاب في " تُؤمِنُون " لم يَحْكِها إلا عن حَمْزَة ، وابن عَامِر فقط ، ولم يَدْخل مَعَهُمَا أبو بكر لا من طريق العُلَيْمِي ، والأعْشى ولا من طَرِيق غَيْرهما ، والفَرْض : أن حَمْزة وابنَ عَامِر يَفْتَحان هَمْزة " أنَّها " وأبُوا بكر يَكْسِرُها ويَفْتَحُها ولكِنَّه لا يَقْرأ : " يُؤمِنُون " إلاَّ بِيَاء الغَيْبَة ، فمن أيْن تجيئ لَنا قِرَاءةٌ بكَسْر الهَمْزة ، والخطاب ؟ وإنما أتَيْتُ بكلامه برُمَّتِه ؛ لِيُعْرَف المأخذ عليه ثم إني جوَّزْتُ أنْ تكون هذه رِيوايةً رَوَاها ، فكشفتُ كِتَابَه في القِرَاءاتِ ، وكان قد أفْرَدَ فيه فَصْلاً انْفَرد به العُلَيْمِي في رِوَايته ، فلم يَذْكُر أنه قرأ : " تُؤمنُون " بالخِطاب ألْبَتَّةَ ، ثم كَشَفْتُ كتبا في القِرَاءات

(230/245)

---

عَدِيدة ، فلم أرهم ذَكَرُوا ذلك ، فَعَرفْت أنَّه لما رأيِ لِلْهَمْزة حالَتَيْنِ ، ولحرف إحْدَاها مُهْمَلة ، وقوله : " لا يؤمنون " متعلّقه مَحْذُوف ؛ للعِلْم به ، أي : " لأيؤمِنُون بها " . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 367.374 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (109) ﴾

وعدوا من أنفسهم الإيمان لو شاهدوا البرهان ، ولم يعلموا أنهم تحت قهر الحكم ، وما يُغْنِي وضوحُ الأدلة لمن لا تساعده سوابقُ الرحمة ، ولواحق الحفظ بموجبات القسمة . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 494 ﴾

*(231/245)*

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والأربعون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/246)

---

الجزء السادس والأربعون بعد المائتين

من الآية ﴿ 110 ﴾ من سورة الأنعام

وحتى الآية ﴿ 110 ﴾ نفس الآية

(4/246)

---

قوله تعالى ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (110) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان التقدير : فإنا نطبع على قلوبهم ، ونزين لهم سوء أعمالهم ، عطف عليه قوله : ﴿ ونقلب ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ أفئدتهم ﴾ أي قلوبهم حتى لا يهتدوا بها ﴿ وأبصارهم ﴾ حتى لا ينفعهم الإبصار بها ، فلا يعتبرون فلا يؤمنون ﴿ كما لم يؤمنوا به ﴾ أي بمثل ذلك ﴿ أو لمرة ﴾ أي عند إتيان الآيات التي قبل تلك ﴿ ونذرهم ﴾ أي نتركهم ﴿ في طغيانهم ﴾ أي تجاوزهم للحدود ﴿ يعمهون ﴾ أي يديمون التحير على أن الحال لما فيه من الدلالة لا يقتضي حيرة بوجه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 696 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾

هذا أيضاً من الآيات الدالة على قولنا : إن الكفر والإيمان بقضاء الله وقدره ، والتقلب والقلب واحد ، وهو تحويل الشيء عن وجهه ، ومعنى تقليب الأفئدة والأبصار : هو أنه

إذا جاءتهم الآيات القاهرة التي اقترحوها وعرفوا كيفية دلالتها على صدق الرسول ، إلا أنه تعالى إذا قلب قلوبهم وأبصارهم عن ذلك الوجه الصحيح بقوا على الكفر ولم ينتفعوا بتلك الآيات ، والمقصود من هذه الآية تقرير ما ذكرناه في الآية الأولى من أن تلك الآيات القاهرة لو جاءتهم لما آمنوا بها ولما انتفعوا بظهورها ألبتة .

أجاب الجبائي عنه بأن قال : المراد ونقلب أفئدتهم وأبصارهم في جهنم على لهب النار وجمرها لنعذبهم كما لم يأمنوا به أول مرة في دار الدنيا .

وأجاب الكعبي عنه : بأن المراد من قوله : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وأبصارهم ﴾ بأنا لا نفعل بهم ما نفعله بالمؤمنين من الفوائد والألطاف من حيث أخرجوا أنفسهم عن هذا الحد بسبب كفرهم .

وأجاب القاضي : بأن المراد ونقلب أفئدتهم وأبصارهم في الآيات التي قد ظهرت ، فلا تجدهم يؤمنون بها آخراً كما لم يؤمنوا بها أولاً .

واعلم أن كل هذه الوجوه في غاية الضعف ، وليس لأحد أن يعيبنا ، فيقول : إنكم تكررون هذه الوجوه في كل موضع ، فإنا نقول : إن هؤلاء المعتزلة لهم وجوه معدودة في تأويلات آيات الجزاء ، فهم يكررونها في كل آية ، فنحن أيضاً نكرر الجواب عنها في كل آية ، فنقول : قد بينا أن القدرة الأصلية صالحة للضدين وللطرفين على السوية .

فإذا لم ينضم على تلك القدرة داعية مرجحة امتنع حصول الرجحان ، فإذا انضمت

الداعية المرجحة إما إلى جانب الفعل أو إلى جانب الترك ظهر الرجحان ، وتلك الداعية ليست إلا من الله تعالى قطعاً للتسلسل .

وقد ظهر صحة هذه المقدمات بالدلائل القاطعة اليقينية التي لا يشك فيها العاقل .

*(5/246)*

---

وهذا هو المراد من قوله صلى الله عليه وسلم : " قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء " فالقلب كالموقوف بين داعية الفعل وبين داعية الترك ، فإن حصل في القلب داعي الفعل ترجح جانب الفعل ، وإن حصل فيه داعي الترك ترجح جانب الترك ، وهاتان الداعيتان لما كانتا لا تحصلان إلا بإيجاد الله وتخليقه وتكوينه ، عبر عنهما بأصبعي الرحمن ، والسبب في حسن هذه الاستعارة أن الشيء الذي يحصل بين أصبعي الإنسان يكون كامل القدرة عليه .

فإن شاء أمسكه وإن شاء أسقطه ، فههنا أيضاً كذلك القلب واقف بين هاتين الداعيتين ، وهاتان الداعيتان حاصلتان بخلق الله تعالى ، والقلب مسخر لهاتين الداعيتين ، فلهذا السبب حسنت هذه الاستعارة ، وكان عليه الصلاة والسلام يقول : " يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك "

والمراد من قوله مقلب القلوب أن الله تعالى يقلبه تارة من داعي الخير إلى داعي الشر وبالعكس .

إذا عرفت هذه القاعدة فقوله تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وأبصارهم ﴾ محمول على هذا المعنى الظاهر الجلي الذي يشهد بصحته كل طبع سليم وعقل مستقيم ، فلا حاجة ألبتة إلى ما ذكروه من التأويلات المستكرهة .

وإنما قدم الله تعالى ذكر تقليب الأفئدة على تقليب الأبصار ، لأن موضع الدواعي والصوارف هو القلب .

فإذا حصلت الداعية في القلب انصرف البصر إليه شاء أم أبى ، وإذا حصلت الصوارف في القلب انصرف البصر عنه ، فهو وإن كان يبصره في الظاهر .

إلا أنه لا يصير ذلك الإبصار سبباً للوقوف على الفوائد المطلوبة .

وهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِى ءاذَانِهِمْ وَقْراً ﴾ فلما كان المعدن هو القلب ، وأما السمع والبصر فهما آلتان للقلب ، كانا لا محالة تابعين لأحوال القلب .

*(6/246)*

فلهذا السبب وقع الابتداء بذكر تقليب القلوب في هذه الآية ، ثم أتبعه بذكر تقليب البصر ، وفي الآية الأخرى وقع الابتداء بذكر تحصيل الكنان في القلب ثم أتبعه بذكر السمع ، فهذا هو الكلام القوي العقلي البرهاني الذي ينطبق عليه لفظ القرآن ، فكيف يحسن مع ذلك حمل هذا اللفظ على التكلفات التي ذكروها ؟ ولنرجع إلى ما يليق بتلك الكلمات الضعيفة فنقول : أما الوجه الذي ذكره الجبائي فمدفوع لأن الله تعالى قال : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وأبصارهم ﴾ ثم عطف عليه فقال ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ ولا شك أن قوله : ﴿ وَنَذَرُهُمْ ﴾ إنما يحصل في الدنيا ، فلو قلنا : المراد من قوله : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وأبصارهم ﴾ إنما يحصل في الآخرة ، كان هذا سوأ للنظم في كلام الله تعالى حيث قدم المؤخر وأخر المقدم من غير فائدة ، وأما الوجه الذي ذكره الكعبي فضعيف أيضاً لأنه إنما استحق الحرمان من تلك الألطاف والفوائد بسبب إقدامه على الكفر ، فهو الذي أوقع نفسه في ذلك الحرمان والخذلان فكيف تحسن إضافته إلى الله تعالى في قوله تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وأبصارهم ﴾ .

وأما الوجه الثاني الذي ذكره القاضي فبعيد أيضاً لأن المراد من قوله : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وأبصارهم ﴾ تقليب القلب من حالة إلى حالة ونقله من صفة إلى صفة .

وعلى ما يقوله القاضي فليس الأمر كذلك بل القلب باق على حالة واحدة إلا أنه تعالى

أدخل التقليب والتبديل في الدلائل ، فثبت أن الوجوه التي ذكروها فاسدة باطلة بالكلية .

أما قوله تعالى : ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فقال الواحدي فيه وجهان :

(7/246)

---

الوجه الأول : دخلت الكاف على محذوف تقديره فلا يؤمنون بهذه الآيات كما لم يؤمنوا بظهور الآيات أول مرة أتتهم الآيات مثل انشقاق القمر وغيره من الآيات ، والتقدير فلا يؤمنون في المرة الثانية من ظهور الآيات كما لم يؤمنوا به في المرة الأولى ، وأما الكناية في ﴿بِهِ﴾ فيجوز أن تكون عائدة إلى القرآن أو إلى محمد عليه الصلاة والسلام ، أو إلى ما طلبوا من الآيات .

الوجه الثاني : قال بعضهم : الكاف في قوله : ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ﴾ بمعنى الجزاء ، ومعنى الآية ونقلب أفئدتهم وأبصارهم عقوبة لهم على تركهم الإيمان في المرة الأولى ، يعني كما لم يؤمنوا به أول مرة ، فكذلك نقلب أفئدتهم وأبصارهم في المرة الثانية ، وعلى هذا الوجه فليس في الآية محذوف ولا حاجة فيها إلى الإضمار .

وأما قوله تعالى : ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فالجبائي قال : ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ أي لا نحول بينهم وبين اختيارهم ولا نمنعهم من ذلك بمعاجلة الهلاك وغيره ، لكنا نمهلهم فإن

أقاموا على طغيانهم فذلك من قبلهم ، وهو يوجب تأكيد الحجة عليهم ، وقال أصحابنا : معناه إنا نقلب أفئدتهم من الحق إلى الباطل ونتركهم في ذلك الطغيان وفي ذلك الضلال والعمه .

ولقائل أن يقول للجبائي : إنك تقول إن إله العالم ما أراد بعبيده إلا الخير والرحمة ، فلم ترك هذا المسكين حتى عمه في طغيانه ؟ ولم لا يخلصه عنه على سبيل الإلجاء والقهر ؟ أقصى ما في الباب أنه إن فعل به ذلك لم يكن مستحقاً للثواب فيفوته الاستحقاق فقط ، ولكن يسلم من العقاب ، أما إذا تركه في ذلك العمه مع علمه بأنه يموت عليه ، فإنه لا يحصل استحقاق الثواب .

ويحصل له العقاب العظيم الدائم ، فالمفسدة الحاصلة عند خلق الإيمان فيه على سبيل الإلجاء مفسدة واحدة وهي فوت استحقاق الثواب ، أما المفسدة الحاصلة عند إبقائه على ذلك العمه والطغيان حتى يموت عليه فهي فوت استحقاق الثواب مع استحقاق العقاب الشديد ، والرحيم المحسن الناظر لعباده لا بد وأن يرجح الجانب الذي هو أكثر صلاحاً وأقل فساداً ، فعلمنا أن إبقاء ذلك الكافر في ذلك العمه والطغيان يقدح في أنه لا يريد به إلا الخير والإحسان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 120 . 122 ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ونقلِّب أفئدتهم وأبصارهم ﴾

التقليب : تحويل الشيء عن وجهه .

وفي معنى الكلام أربعة أقوال .

أحدها : لو أتيناهم بآية كما سألوا ، لقلبنا أفئدتهم وأبصارهم عن الإيمان بها ، وحُلْنا بينهم وبين الهدى ، فلم يؤمنوا كما لم يؤمنوا بما رأوا قبلها ، عقوبة لهم على ذلك .

وإلى هذا المعنى ذهب ابن عباس ، ومجاهد ، وابن زيد .

والثاني : أنه جواب لسؤالهم في الآخرة الرجوع إلى الدنيا ؛ فالمعنى : لو رُدُّوا لحُلْنا بينهم وبين الهدى كما حُلْنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا ، روى هذا المعنى ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : ونقلّب أفئدة هؤلاء وأبصارهم عن الإيمان بالآيات كما لم يؤمن أوائلهم من الأمم الخالية بما رأوا من الآيات ، قاله مقاتل .

والرابع : أن ذلك التقليب في النار ، عقوبة لهم ، ذكره الماوردي .

وفي هاء "به" أربعة أقوال .

أحدها : أنها كناية عن القرآن .

والثاني : عن النبي صلى الله عليه وسلم .

والثالث : عما ظهر من الآيات .

والرابع : عن التقليب .

وفي المراد ب "أول مرة" ثلاثة أقوال .

أحدها : أن المرة الأولى : دار الدنيا .

والثاني : أنها معجزات الأنبياء قبل محمد صلى الله عليهم وسلم .

والثالث : أنها صرف قلوبهم عن الإيمان قبل نزول الآيات أن لو نزلت ؛ والطغيان والعمه مذكوران في سورة ( البقرة ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

وقوله تعالى : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا ﴾

المعنى على ما قالت فرقة ونقلب أفئدتهم وأبصارهم في النار وفي لهيبها في الآخرة لما لم يؤمنوا في الدنيا ثم استأنف على هذا ونذرهم في الدنيا ﴿ في طغيانهم يعمهون ﴾ .

*(9/246)*

وقالت فرقة إنما المراد بالتقليب التحويل عن الحق والهدى ، والترك في الضلالة والكفر ، ومعنى الآية أن هؤلاء الذين أقسموا أنهم يؤمنون إن جاءت آية نحن نقلب أفئدتهم وأبصارهم أن لو جاءت فلا يؤمنون بها كما لو يؤمنوا أول مرة بما دعوا إليه من عبادة الله ، فأخبر الله تعالى على هذا التأويل بصورة فعله بهم ، وقرأ أبو رجاء " يذرهم " بالياء ورويت عن عاصم ، وقرأ إبراهيم النخعي " ويقلب ويذرهم " بالياء فيهما كناية عن الله تبارك وتعالى وقرأ أيضاً فيما روى عنه مغيرة " وتَقَلَب " بفتح التاء واللام بمعنى وتنقلب أفئدتهم وأبصارهم بالرفع فيهما ، " ويذرْهم " بالياء وجزم الراء ، وقالت فرقة قوله ﴿ كما ﴾ في هذه الآية إنما هي بمعنى المجازاة أي لما لم يؤمنوا أول مرة نجازيهم بأن نقلب أفئدتهم عن الهدى ونطبع على قلوبهم فكأنه قال ونحن نقلب أفئدتهم وأبصارهم جزاء لما لم يؤمنوا أول مرة بما دعوا إليه من الشرع ، والضمير في " به " يحتمل أن يعود على الله عز وجل أو على القرآن أو على النبي عليه السلام ، و ﴿ نذرهم ﴾ معناه نتركهم ، وقرأ الأعمش والهمداني " ويذرهم " بالياء وجزم الراء على وجه التخفيف ، والطغيان : التخبط في الشر والإفراط فيما يتناوله المرء ، والعمى التردد والحيرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾

هذه آية مُشْكِلة ، ولا سِيّما وفيها ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

قيل : المعنى ونقلب أفئدتهم وأنظارهم يوم القيامة على لهب النار وحرِّ الجمر ؛ كما لم يؤمنوا في الدنيا .

"وَنَذَرُهُمْ" في الدنيا ، أي نمهلهم ولا نعاقبهم ؛ فبعض الآية في الآخرة ، وبعضها في الدنيا .

ونظيرها ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ [ الغاشية : 2 ] فهذا في الآخرة .

"عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ" في الدنيا .

*(10/246)*

---

وقيل : ونقلب في الدنيا ؛ أي نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم تلك الآية ، كما حُلنا بينهم وبين الإيمان أوّل مرة ؛ لمّا دعوتَهم وأظهرتَ المعجزة .

وفي التنزيل : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ [ الأنفال : 24 ] .

والمعنى : كان ينبغي أن يؤمنوا إذا جاءتهم الآية فرأوها بأبصارهم وعرفوها بقلوبهم ؛ فإذا لم يؤمنوا كان ذلك بتقليب الله قلوبَهم وأبصارهم .

﴿ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ودخلت الكاف على محذوف ، أي فلا يؤمنون كما لم يؤمنوا به أوّل مرة ؛ أي أوّل مرة أتتهم الآيات التي عجزوا عن معارضتها مثل القرآن وغيره .

وقيل : ونقلِّب أفئدة هؤلاء كيلا يؤمنوا ؛ كما لم نؤمن كفار الأممِ السالفة لما رأوا ما اقترحوا من الآيات .

وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ؛ أي أنها إذا جاءت لا يؤمنون كما لم يؤمنوا أوّل مرة ونقلّب أفئدتهم وأبصارهم .

﴿ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يتحيرون .

وقد مضى في "البقرة" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ﴾

قال ابن عباس : يعني ونحول بينهم وبين الإيمان فلو جئناهم بالآيات التي سألوها لما آمنوا بها .

والتقليب هو تحويل الشيء وتحريكه عن وجهه إلى وجه آخر لأن الله تعالى إذا صرف القلوب والأبصار عن الإيمان بقيت على الكفر ﴿ كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ يعني كما لم يؤمنوا بما قبل ذلك من الآيات التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل انشقاق القمر وغير ذلك من المعجزات الباهرات ، وقيل : أول مرة يعني الآيات التي جاء بها موسى وغيره من الأنبياء .

وقال ابن عباس : المرة الأولى دار الدنيا يعني لو ردوا من الآخرة إلى الدنيا نقلب أفئدتهم وأبصارهم عن الإيمان فلا يؤمنون كما لم يؤمنوا به أول مرة قبل مماتهم وفي الآية دليل على أن الله تعالى : ﴿ يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴾ وأن القلوب والأبصار بيده وفي تصريفه فيقيم ما شاء منها ويزيغ ما أراد منها ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك " فمعنى قوله بقلب أفئدتهم نزيغها عن الإيمان ونقلب أبصارهم عن رؤية الحق ومعرفة الصواب وإن جاءتهم الآية التي سألوها فلا يؤمنون بها كما لم يؤمنوا بالله ورسوله وبما جاء من عند الله ، فعلى هذا تكون الكناية في به عائدة على الإيمان بالقرآن وبما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل سؤالهم الآيات التي اقترحوها .

وقوله تعالى : ﴿ ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ يعني ونترك هؤلاء المشركين الذين سبق علم الله أنهم لا يؤمنون في تمردهم على الله واعتدائهم عيله يترددون لا يهتدون إلى الحق .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾

الظاهر أن قوله : ﴿ ونقلب ﴾ جملة استئنافية أخبر تعالى أنه يفعل بهم ذلك وهي إشارة إلى الحيرة والتردد وصرف الشيء عن وجهه .

والمعنى أنه تعالى يحولهم عن الهدى ويتركهم في الضلال والكفر .

وكما للتعليل أي يفعل بهم ذلك لكونهم لم يؤمنوا به أول وقت جاءهم هدى الله كما قال تعالى : ﴿ وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴾

ويؤكد هذا المعنى آخر الآية ﴿ ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ أي ونتركهم في تغمطهم في الشرِّ والإفراط فيه يتحيرون ، وهذا كله إخبار من الله تعالى بفعله بهم في الدنيا .

وقالت فرقة : هذا الإخبار هو على تقدير : أنه لو جاءت الآية التي اقترحوها صنعنا بهم ذلك .

*(12/246)*

---

ولذلك قال الزمخشري ﴿ ونقلب أفئدتهم ﴾ ﴿ ونذرهم ﴾ عطف على ﴿ لا يؤمنون ﴾ داخل في حكم ﴿ وما يشعركم ﴾ بمعنى وما يشعركم أنهم لا يؤمنون ﴿ وما يشعركم ﴾ أنّا ﴿ نقلب أفئدتهم وأبصارهم ﴾ أي فنطبع على أبصارهم وقلوبهم فلا يفقهون ولا يبصرون الحق كما كانوا عند نزول آياتنا أولاً لا يؤمنون بها ، لكونهم ﴿ وما يشعركم ﴾ أنّا ﴿ نذرهم في طغيانهم ﴾ أي نخليهم وشأنهم لا نكفهم ونصرفهم عن الطغيان حتى يعمهوا فيه انتهى .

وهذا معنى ما قاله ابن عباس ومجاهد وابن زيد قالوا : لو أتيناهم بآية كما سألوا لقلبنا أفئدتهم وأبصارهم عن الإيمان بها ، وحلنا بينهم وبين الهدى فلم يؤمنوا كما لم يؤمنوا بما رأوا قبلها ، عقوبة لهم على ذلك .

والفرق بين هذا القول والذي بدأنا به أولاً أن ذلك استئناف إخبار بما يفعل بهم تعالى في الدنيا .

وهذا إخبار على تقدير مجيء الآية المقترحة فذلك واقع وهذا غير واقع ، لأن الآية المقترحة لم تقع فلم يقع ما رتب عليها .

وقال مقاتل : نقلب أفئدة هؤلاء وأبصارهم عن الإيمان وعن الآيات كما لم يؤمن أوائلهم من الأمم الخالية بما رأوا من الآيات .

وقيل : تقليبها بإزعاج نفوسهم همّاً وغمّاً .

وقال الكرماني : مغناه أنّا نحيط علماً بذات الصدور وخائنة الأعين منهم انتهى .

ولا يستقيم هذا التفسير لقوله : ﴿ كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ لا على التعليل ولا على التشبيه إلا أن جعل متعلقاً بقوله ﴿ أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ أي ﴿ كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ فيصح على بعد في تفسير التقليب بإحاطة العلم .

وقال الكعبي : المراد أنا لا نفعل بهم ما نفعل بالمؤمنين من الفوائد والألطاف من حيث أخرجوا أنفسهم عن الهداية بسبب الكفر انتهى .

وهو على طريقة الاعتزالي ومعنى تقليب القلب والبصر ما ينشأ عن القلب والبصر من الدواعي إلى الحيرة والضلال ، لأن القلب والبصر يتقلبان بأنفسهما فنسبة التقليب إليهما مجاز .

*(13/246)*

---

وقدمت الأفئدة لأن موضع الدواعي والصوارف هو القلب فإذا حصلت الداعية في القلب انصرف البصر إليه شاء أم أبى ، وإذا حصلت الصوارف في القلب انصرف البصر عنه وإن كان تحدق النظر إليه ظاهراً وهذه التفاسير على أن ذلك في الدنيا .

وقالت فرقة : إن ذلك إخبار من الله تعالى يفعل بهم ذلك في الآخرة .

فروي عن ابن عباس أنه جواب لسؤالهم في الآخرة الرجوع إلى الدنيا .

والمعنى لو ردّوا لحلنا بينهم وبين الهدى كما حلنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا انتهى .

وهذا ينبو عنه تركيب الكلام .

وقيل : تقليبها في النار في جهنم على لهيبها وجمرها ليعذبوا ﴿ كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ يعني في الدنيا وقاله

الجبائي .

وقال أبو الهذيل : تقليب أفئدتهم بلوغها الحناجر كما قال تعالى : ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة ﴾ وقيل : تقليب أبصارهم إلى الزرقة وحمل ذلك على أنه في الآخرة ضعيف قلق النظم ، لأن التقليب في الآخرة وتركهم في الطغيان في الدنيا ، فيختلف الظرفان من غير دليل على اختلافهما ، بل الظاهر أن ذلك إخبار مستأنف كما قررناه أولاً ، والكاف في ﴿ كما ﴾ ذكرنا أنها للتعليل ، وهو واضح فيها وإن كان استعمالها فيه قليلاً .

وقالت فرقة ﴿ كما ﴾ : هي بمعنى المجازاة أي لما ﴿ لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ نجاريهم بأن ﴿ نقلب أفئدتهم ﴾ عن الهدى ونطبع على قلوبهم .

فكأنه قال : ونحن نقلب أفئدتهم وأبصارهم جزاء لما ﴿ لم يؤمنوا أول مرة ﴾ بما دعوا إليه من الشرع .

قاله ابن عطية ، وهو معنى التعليل الذي ذكرناه إلا أنّ تسمية ذلك بمعنى المجازاة غريبة ، لا يعهد في كلام النحويين أنّ الكاف للمجازاة .

وقيل : للتشبه قيل وفي الكلام حذف تقديره فلا يؤمنون به ثاني مرة ﴿ كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ .

وقيل : الكاف نعت لمصدر محذوف أي تقليباً لكفرهم ، أي عقوبة مساوية لمعصيتهم ، قاله أبو البقاء .

وقال الحوفي : نعت لمصدر محذوف والتقدير : لا يؤمنون به إيماناً ثانياً ﴿ كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ انتهى .

والضمير عائد على الله أو القرآن أو الرسول ، أقوال وأبعد من ذهب إلى أنه يعود على القليب ، وانتصب أول مرة على أنه ظرف زمان .

وقرأ النخعي ويقلب ويذرهم بالياء فيهما والفاعل ضمير الله .

وقرأ أيضاً فيما روى عنه مغيرة وتقلب أفئدتهم وأبصارهم ، بالرفع فيهما على البناء للمفعول ، ويذرهم بالياء وسكون الراء .

وافقه على ويذرهم الأعمش والهمداني .

وقال الزمخشري : وقرأ الأعمش وتقلب أفئدتهم وأبصارهم على البناء للمفعول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

*(15/246)*

---

وقال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم

يعمهون ﴾

هذا عطف على أنها إذا جاءت لا يؤمنون أي نحول بينهم وبين الإيمان ولو جاءتهم تلك الآية فلا يؤمنون واختلف في قوله كما لم يؤمنوا به أول مرة فقال كثير من المفسرين المعنى نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم الآية كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة قال ابن عباس في رواية عطاء عنه ونقلب أفئدتهم وأبصارهم حتى يرجعوا إلى ما سبق عليهم من علمي قال وهذا كقوله واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وقال آخرون المعنى ونقلب أفئدتهم وأبصارهم لتركهم الإيمان به أول مرة فعاقبناهم بتقليب أفئدتهم وأبصارهم وهذ معنى حسن فإن كاف التشبيه تتضمن نوعا من التلعيل كقوله وأحسن كما أحسن الله إليك وقوله كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكروني أذكركم والذي حسن اجتماع التعليل والتشبيه الإعلام بأن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر والتقليب تحويل الشيء من وجه إلى وجه وكان الواجب من مقتضى إنزال الآية ووصولهم إليها كما سألوا أن يؤمنوا إذا جاءتهم لأنهم رأوها عيانا وعرفوا أدلتها وتحققوا صدقها فإذا لم يؤمنوا كان تقليبا لقلوبهم وأبصارهم عن وجهها الذي ينبغي أن تكون عليه وقد روى مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أن قلوب بني آدم كلها بين

إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك وروى الترمذي من حديث أنس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك فقلت يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا قال نعم إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء قال هذا حديث حسن وروى حماد عن أيوب وهشام ويعلي بن زياد عن الحسن قال قالت عائشة رضي الله تعالى عنها دعوة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يدعو بها يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك فقلت يا رسول الله دعوة كثيرا ما تدعو بها قال إنه ليس من عبد إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله فإذا شاء أن يقيمه أقامه وإذا شاء أن يزيغه أزاغه وقوله ونذرهم في طغيانهم يعمهون قال ابن عباس أخذلهم وأدعهم في ضلالهم يتمادون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ شفاء العليل صـ 99 ﴾

*(17/246)*

وقال أبو السعود :

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وأبصارهم ﴾

عطفٌ على لا يؤمنون داخلٌ في حكم ما يشعركم مقيدٌ بما قيد به أي وما يُشعرُكم أنا نقلّب أفئدتَهم عن إدراك الحقِّ

فلا يفقهونه وأبصارَهم عن اجتلائه فلا يُبصرونه لكن لا مَعَ توجهها إليه واستعدادِها لقبوله بل لكمال نُبوِّها عنه وإعراضِها بالكلية ولذلك أخّر ذكرُه عن ذكر عدمِ إيمانِهم إشعاراً بأصالتهم في الكفر وحسماً لتوهُّم أن عدم إيمانِهم ناشئٌ من تقليبه تعالى مشاعرَهم بطريق الإجبار ﴿ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُواْ بِهِ ﴾ أي بما جاء من الآيات ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي عند ورودِ الآياتِ السابقةِ ، والكافُ في محل النصبِ على أنه نعتٌ لمصدر محذوفٍ منصوبٌ بلا يؤمنون وما مصدريةٌ أي لا يؤمنون بل يكفرون كفراً كائناً ككفرهم أولَ مرةٍ ، وتوسيطُ تقليبِ الأفئدةِ والأبصارِ بينهما لأنه من متمّمات عدمِ إيمانهم ﴿ وَنَذَرُهُمْ ﴾ عطفٌ على لا يؤمنون داخلٌ في حكم الاستفهامِ الإنكاريِّ مقيّدٌ بما قيد به مبيّنٌ لما هو المرادُ بتقليب الأفئدةِ والأبصار ، ومعْربٌ عن حقيقته بأنه ليس على ظاهره بأن يُقلّب الله سبحانه مشاعِرَهم عن الحق مع توجههم إليه واستعدادِهم له بطريق الإجبارِ بل بأن يُخلّيَهم وشأنَهم بعد ما عُلم فسادُ استعدادِهم وفرطُ نفورِهم عن الحق ، وعدمُ تأثيرِ اللطفِ فيهم أصلاً ، ويطبَعُ على قلوبهم حسبما يقتضيه استعدادُهم كما أشرنا إليه ، وقوله تعالى : ﴿ فِي

طغيانهم ﴾ متعلّقٌ بنذرهم ، وقوله تعالى : ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ حالٌ من الضمير المنصوبِ في نذرهم أي ندعُهم في طغيانهم متحيّرين لا نهديهم هدايةَ المؤمنين ، أو مفعولٌ ثانٍ لنذرُهم أي نصيّرهم عامِهين وقرىء يُقلِّب ويَذَرُ بالياء على إسنادهما إلى ضمير الجلالةِ وقرىء تُقَلَّبُ بالتاء والبناءِ للمفعول على إسناده إلى أفئدتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

*(18/246)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وأبصارهم ﴾ عطف على ﴿ لاَيُؤْمِنُونَ ﴾ [ الأنعام : 109 ] داخل معه في حكم ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ [ الأنعام : 109 ] مقيد بما قيد به أي وما يشعركم أنا نقلب أفئدتهم عن إدراك الحق فلا ( يدركونه ) وأبصارهم عن اجتلائه فلا يبصرونه .

وهذا على ما قال الإمام تقرير لما في الآية الأولى من أنهم لا يؤمنون .

وذكر شيخ الإسلام أن هذا التقليب ليس مع توجه الأفئدة والأبصار إلى الحق واستعدادها له بل لكما نبوها عنه وإعراضها بالكلية ولذلك أخر ذكره عن ذكر عدم إيمانهم إشعاراً

بأصالتهم في الكفر وحسماً لتوهم أن عدم إيمانهم ناشيء من تقليبه تعالى مشاعرهم بطريق الإجبار .

وتحقيقه على ما ذكره شيخ مشايخنا الكوراني أنه سبحانه حيث علم في الأزل سوء استعدادهم المخبوء في ماهياتهم أفاض عليهم ما يقتضيه وفعل بهم ما سألوه بلسان الاستعداد بعد أن رغبهم ورهبهم وأقام الحجة وأوضح المحجة ولله تعالى الحجة البالغة وما ظلمهم الله سبحانه ولكن كانوا هم الظالمين .

﴿ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ ﴾ أي بما جاء من الآيات بالله تعالى .

وقيل : بالقرآن .

وقيل : بمحمد صلى الله عليه وسلم وإن لم يجر لذلك ذكر .

وقيل : بالتقليب وهو كما ترى .

﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي عند ورود الآيات السابقة .

*(19/246)*

---

والكاف في موضع النعت لمصدر ( محذوف ) منصوب بِ ﴿ لا يؤمنون ﴾ [ الأنعام : 109 ] .

وما مصدرية أي لا يؤمنون بل يكفرون كفراً كائناً ككفرهم أول مرة .

وتوسيط تقليب الأفئدة والأبصار لأنه من متممات عدم إيمانهم .

وقال أبو البقاء : أن الكاف نعت لمصدر محذوف أي تقليباً ككفرهم أي عقوبة مساوية لمعصيتهم أول مرة ولا يخفى ما فيه .

والآية ظاهرة في أن الإيمان والكفر بقضاء الله تعالى وقدره .

وأجاب الكعبي عنها بأن المراد من ﴿ يُؤْمِنُونَ وَنُقَلِّبُ ﴾ الخ أنا لا نفعل بهم ما نفعله بالمؤمنين من الفوائد والألطاف من حيث أخرجوا أنفسهم عن هذا الحد بسبب كفرهم .

والقاضي بأن المراد ونقلب أفئدتهم وأبصارهم في الآيات التي ظهرت فلا نجدهم يؤمنون بها آخراً كما لم يؤمنوا بها أولاً .

والجبائي بأن المراد ونقلب أفئدتهم وأبصارهم في جهنم على لهب النار وجمرها لنعذبهم كما لم يؤمنوا به أول مرة في الدنيا .

والكل كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، وهكذا غالب كلام المعتزلة .

﴿ وَنَذَرُهُمْ ﴾ أي ندعهم ﴿ فِي طغيانهم ﴾ أي تجاوزهم الحد في العصيان ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ أي يترددون متحيرين وهذا عطف على ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [ الأنعام : 109 ] قيد بما قيد به أيضاً مبين لما هو المراد بتقليب الأفئدة والأبصار معرب عن حقيقته بأنه ليس على ظاهره .

والجار متعلق بما عنده .

وجملة ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ في موضع الحال من الضمير المنصوب في ﴿ نذرهم ﴾ .

وقرىء ( يقلب ويذر ) على الغيبة والضمير لله عز وجل .

وقرأ الأعمش ﴿ وتقلب ﴾ على البناء للمفعول وإسناده إلى أفئدتهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾

*(20/246)*

---

يجوز أن يكون عطفاً على جملة ﴿ أنّها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ [ الأنعام : 109 ] فتكون بياناً لقوله ﴿ لا يؤمنون ﴾ [ الأنعام : 109 ] ، أي بأن نعطّل أبصارَهم عن تلك الآية وعقولهم عن الاهتداء بها فلا يبصُرون ما تحتوي عليه الآية من الدّلائل ولا تفقه قلوبهم وجه الدّلالة فيتعطَّل تصديقهم بها ، وذلك بأن يحرمهم الله من إصلاح إدراكهم ، وذلك أنّهم قد خُلقت عقولهم نابية عن العلم الصّحيح بما هيّأ لها ذلك من انسلالها من أصول المشركين ، ومن نشأتها بين أهل الضّلال وتلقّي ضلالتهم ، كما بيّنتُه آنفاً .

فعبّر عن ذلك الحال المخالف للفطرة السّليمة بأنّه تقليب لعقولهم وأبصارهم ، ولأنّها كانت مقلوبة عن المعروف عند أهل العقول السّليمة ، وليس داعي الشّرك فيها تقليباً عن حالة كانت صالحة لأنّها لم تكن كذلك حيناً ، ولكنّه تقليب لأنّها جاءت على خلاف ما الشّأن أن تجيء عليه .

وضمير ﴿ به ﴾ عائد إلى القرآن المفهوم من قوله : ﴿ لئن جاءتهم آية ﴾ [ الأنعام : 109 ] فإنّهم عَنوا آية غير القرآن .

والكاف في قوله : ﴿ كما لم يؤمنوا به أوّل مرّة ﴾ لتشبيه حالة انتفاء إيمانهم بعد أن تجيئهم آية ممّا اقترحوا .

والمعنى ونقلِّب أيديهم وأبصارهم فلا يؤمنون بالآية الّتي تجيئهم مثلَما لم يؤمنوا بالقرآن من قبلُ ، فتقليب أفئدتهم وأبصارهم على هذا المعنى يحصل في الدّنيا ، وهو الخذلان .

ويجوز أن تكون جملة ﴿ ونقلّب أفئدتهم وأبصارهم ﴾ مستأنفة والواو للاستئناف ، أو أن تكون معطوفة على جملة ﴿ لا يؤمنون ﴾ [ الأنعام : 109 ] .

والمعنى : ونحن نقلّب أفئدتهم وأبصارهم ، أي في نار جهنّم ، كناية عن تقليب أجسادهم كلّها .

وخصّ من أجسادهم أفئدتُهم وأبصارهُم لأنّها سبب إعراضهم عن العبرة بالآيات ، كقوله

تعالى : ﴿ سحروا أعْيُن النّاس ﴾ [ الأعراف : 116 ] ، أي سحروا النّاسَ بما تُخيّلُه لهم أعينهم .

(21/246)

---

والكاف في قوله : ﴿ كما لم يؤمنوا به ﴾ على هذا الوجه للتّعليل كَقوله : ﴿ واذكروه كما هداكم ﴾ [ البقرة : 198 ] .

وأقول : هذا الوجه يناكده قوله ﴿ أوّل مرّة ﴾ إذ ليس ثمّة مرّتان على هذا الوجه الثّاني ، فيتعيّن تأويل ﴿ أوّل مرّة ﴾ بأنّها الحياة الأولى في الدّنيا .

والتّقليب مصدر قلّب الدالّ على شدّة قلب الشّيء عن حاله الأصليّة .

والقلب يكون بمعنى جعل المقابل للنظر من الشيء غير مقابل ، كقوله تعالى : ﴿ فأصبح يُقلِّب كفَّيْه على ما أنفق فيها ﴾ [ الكهف : 42 ] ، وقولهم : قَلَب ظَهْر المِجَن ، وقريب منه قوله : ﴿ قد نرى تقلّب وجهك في السّماء ﴾ [ البقرة : 144 ] ؛ ويكون بمعنى تغيير حالة الشيء إلى ضدّها لأنّه يشبه قلب ذات الشّيء .

والكاف في قوله : ﴿ كما لم يؤمنوا به ﴾ الظّاهر أنّها للتّشبيه في محلّ حال من ضمير ﴿ لا يؤمنون ﴾ [ الأنعام : 109 ] ، و"ما" مصدريّة .

والمعنى : لا يؤمنون مثل انتفاء إيمانهم أوّل مرّة .

والضّمير المجرور بالباء عائد إلى القرآن لأنّه معلوم من السّياق كما في قوله : ﴿ وكذّب به قومك ﴾ [ الأنعام : 66 ] ، أي أنّ المكابرة سجيّتهم فكما لم يؤمنوا في الماضي بآية القرآن وفيه أعظم دليل على صدق الرّسول عليه الصّلاة والسّلام لا يؤمنون في المستقبل بآيةٍ أخرى إذا جاءتهم .

وعلى هذا الوجه يكون قوله : ﴿ ونقلّب أفئدتهم وأبصارهم ﴾ معترضاً بالعطف بين الحال وصاحبها .

ويجوز أن يجعل التّشبيه للتقليب فيكون حالاً من الضّمير في ﴿ نقلّب ﴾ ، أي نقلّب أفئدتهم وأبصارهم عن فطرة الأفئدة والأبصار كما قلّبناها فلم يؤمنوا به أوّل مرّة إذ جمحوا عن الإيمان أوّلَ ما دعاهم الرّسول عليه الصّلاة والسّلام ، ويصير هذا التّشبيه في قوّة البيان للتّقليب المجعول حالاً من انتفاء إيمانهم بأنّ سبب صدورهم عن الإيمان لا يزال قائماً لأنّ الله حرمهم إصلاح قلوبهم .

*(22/246)*

وجوّز بعض المفسّرين أن تكون الكاف للتّعليل على القول بأنّه من معانيها ، وخُرّج عليه قوله تعالى : ﴿ واذكروه كما هداكم ﴾ [ البقرة : 198 ] .

فالمعنى : نقلّب أفئدتهم لأنّهم عصوا وكابروا فلم يؤمنوا بالقرآن أوّلَ ما تحدّاهم ، فنجعلُ أفئدتهم وأبصارهم مستمرّة الانقلاب عن شأن العقول والأبصار ، فهو جزاء لهم على عدم الاهتمام بالنّظر في أمر الله تعالى وبعثة رسوله ، واستخفافهم بالمبادرة إلى التّكذيب قبل التّأمّل الصّادق .

وتقديم الأفئدة على الأبصار لأنّ الأفئدة بمعنى العقول ، وهي محلّ الدّواعي والصّوارف ، فإذا لاح للقلب بارق الاستدلال وجّه الحواس إلى الأشياء وتأمّل منها .

والظّاهر أنّ وجه الجمع بين الأفئدة والأبصار وعدم الاستغناء بالأفئدة عن الأبصار لأنّ الأفئدة تختصّ بإدراك الآيات العقليّة المحضة ، مثل آية الأمّية وآيةِ الإعجاز .

ولمّا لم تكفهم الآيات العقليّة ولم ينتفعوا بأفئدتهم لأنّها مقلَّبة عن الفطرة وسألوا آيات مرئيّة مبصَرة ، كأنْ يرقى في السّماء وينزلَ عليهم كتاباً في قرطاس ، أخبر الله رسوله صلى الله عليه وسلم والمسلمين بأنّهم لو جاءتهم آية مبصرة لَمَا آمنوا لأنّ أبصارهم مقلّبة أيضاً مثل تقليب عقولهم .

وذُكِر ﴿ أوّل ﴾ مع أنّه مضاف إلى ﴿ مرّة ﴾ إضافة الصفة إلى الموصوف لأنّ أصل "أوّل" اسمُ تفضيل .

واسم التّفضيل إذا أضيف إلى النّكرة تعيّن فيه الإفراد والتّذكير ، كما تقول : خَديجَةُ أوّل النّساء إيماناً ولا تقول أولى النّساء .

والمراد بالمرّة مرّة من مَرّتَيْ مجيء الآيات ، فالمرّة الأولى هي مَجيء القرآن ، والمرّة الثّانية هي مجيء الآية المقترحة ، وهي مرّة مفروضة .

﴿ ونَذَرُهم ﴾ عطف على ﴿ نُقلّب ﴾ .

(23/246)

---

فحُقّق أنّ معنى ﴿ نقلّب أفئدتهم ﴾ نتركها على انقلابها الّذي خلقت عليه ، فكانت مملوءة طغياناً ومكابرة للحقّ ، وكانت تصرف أبصارهم عن النّظر والاستدلال ، ولذلك أضاف الطّغيان إلى ضميرهم للدّلالة على تأصّله فيهم ونشأتهم عليه وأنّهم حرموا لين الأفئدة الّذي تنشأ عنه الخشيةُ والذّكرى .

والطّغيان والعَمَه تقدّماً عند قوله تعالى : ﴿ ويَمُدّهم في طغيانهم يعمهون ﴾ في سورة [ البقرة : 15 ] .

والظّرفيّة من قوله : في طغيانهم ﴾ مجازية للدّلالة على إحاطة الطّغيان بهم ، أي بقلوبهم .

وجملة : ﴿ ونذرهم ﴾ معطوفة على ﴿ نقلّب ﴾ .

وجملة ﴿ يعمهون ﴾ حال من الضّمير المنصوب في قوله : ﴿ ونذرهم ﴾ .

وفيه تنبيه على أنّ العمَه ناشيء عن الطّغيان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 6 صـ ﴾

*(24/246)*

---

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ) .

أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ فِيمَا قَبْلَ هَذِهِ الْآيَاتِ بِتَبْلِيغِ وَحْيِهِ بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ ، وَبِالْإِعْرَاضِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ بِمُقَابَلَةِ جُحُودِهِمْ وَطَعْنِهِمْ فِي الْوَحْيِ بِالصَّبْرِ وَالْحِلْمِ ، وَعَلَّلَ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْ مُقْتَضَى سُنَّتِهِ فِي خَلْقِ الْبَشَرِ مُتَفَاوِتِي الِاسْتِعْدَادِ ، مُخْتَلِفِي الْفَهْمِ وَالِاجْتِهَادِ ، أَنْ لَا يَتَّفِقُوا عَلَى دِينٍ ، وَمِنْ مُقْتَضَى هِدَايَتِهِ فِي بَعْثَةِ الرُّسُلِ أَنْ يَكُونُوا مُبَلِّغِينَ لَا مُسَيْطِرِينَ وَهَادِينَ لَا جَبَّارِينَ ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَضِيقُوا ذَرْعًا بِحُرِّيَّةِ النَّاسِ فِي اعْتِقَادِهِمْ ، فَإِنَّ خَالِقَهُمْ هُوَ الَّذِي مَنَحَهُمْ هَذِهِ الْحُرِّيَّةَ وَلَمْ يُجْبِرْهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ إِجْبَارًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ عَطَفَ

عَلَى هَذَا الْإِرْشَادِ النَّهْيَ عَنْ سَبِّ آلِهَتِهِمْ ، وَطَلَبِ بَعْضِهِمْ لِلْآيَاتِ وَحَقِيقَةِ حَالِهِمْ فِيهَا فَقَالَ :

(25/246)

---

(وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ) ; أَيْ وَلَا تَسُبُّوا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مَعْبُودَاتِهِمُ الَّتِي يَدْعُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ لِجَلْبِ النَّفْعِ لَهُمْ أَوْ دَفْعِ الضُّرِّ عَنْهُمْ بِوَسَاطَتِهَا وَشَفَاعَتِهَا عِنْدَ اللَّهِ لَهُمْ ، فَيَتَرَتَّبَ عَلَى ذَلِكَ سَبُّهُمْ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى (عَدْوًا) ، أَيْ تَجَاوُزًا مِنْهُمْ فِي السِّبَابِ وَالْمُشَاتَمَةِ الَّتِي يَغِيظُونَ بِهَا الْمُؤْمِنِينَ إلَى ذَلِكَ بِغَيْرِ عِلْمٍ مِنْهُمْ أَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ سَبًّا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ ، لِأَنَّهُمْ وَهُمْ مُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ لَا يَتَعَمَّدُونَ سَبَّهُ ابْتِدَاءً عَنْ رَوِيَّةٍ وَعِلْمٍ ، بَلْ يَسُبُّونَهُ بِوَصْفٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ كَسَبِّهِمْ لِمَنْ أَمَرَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِتَحْقِيرِ آلِهَتِهِمْ ، أَوْ لِمَنْ يَقُولُ إنَّهَا لَا تَشْفَعُ وَلَا تَنْفَعُ ، أَوْ يَقُولُونَ قَوْلًا يَسْتَلْزِمُ سَبَّهُ بِحَيْثُ يُفْهَمُ ذَلِكَ مِنْهُمْ وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ ذَلِكَ قَائِلُهُ . وَهَذَا مِمَّا يَجِبُ اجْتِنَابُ سَبِّهِ حَتَّى عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ لَازِمَ الْمَذْهَبِ لَيْسَ بِمَذْهَبٍ أَوْ يُقَابِلُونَ السَّابَّ لِمَعْبُودِهِمْ بِمِثْلِ سَبِّهِ يُرِيدُونَ مَحْضَ الْمُجَازَاةِ فَيَتَجَاوَزُونَهَا كَمَا يَقَعُ

(26/246)

كَثِيرًا مِنَ الْمُخْتَلِفِينَ فِي الدِّينِ وَالْمَذْهَبِ ، يَسُبُّ نَصْرَانِيٌّ نَبِيَّ الْمُسْلِمِ فَيَسُبُّ الْمُسْلِمُ نَبِيَّهُ وَيُرِيدُ عِيسَى : (عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) وَيَسُبُّ شِيعِيٌّ - يُلَاحِي سُنِّيًّا وَيُمَارِيهِ - أَبَا بَكْرٍ فَيَسُبُّ عَلِيًّا (رضي الله عَنْهُمَا) وَالْأَوَّلُ يَعْلَمُ أَنَّ سَبَّ عِيسَى كُفْرٌ ; كَسَبِّ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَالثَّانِي يَعْلَمُ أَنَّ سَبَّ عَلِيٍّ فِسْقٌ ; كَسَبِّ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا . وَمِثْلُ هَذَا يَقَعُ كَثِيرًا ، بَلْ كَثِيرًا مَا يَتَسَابُّ أَخَوَانِ مِنْ أَهْلِ دِينٍ وَاحِدٍ يَسُبُّ أَحَدُهُمَا أَبَا الْآخَرِ أَوْ مَعْبُودَهُ فَيُقَابِلُهُ بِمِثْلِ سَبِّهِ ، يَغِيظُهُ بِسَبِّ أَبِيهِ مُضَافًا إلَيْهِ وَيَعُدُّهُ إهَانَةً لَهُ ، فَيَسُبُّهُ مُضَافًا إلَى أَخِيهِ إهَانَةً لِأَخِيهِ .

وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ حُبِّ الذَّاتِ وَالْجَهْلِ الْحَامِلِ عَلَى الْمُعَاقَبَةِ عَلَى الْجَرِيمَةِ بِارْتِكَابِهَا عَيْنِهَا ، يُهِينُ وَالِدَهُ الْمُعَظَّمَ عِنْدَهُ وَمَعْبُودَهُ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ احْتِمَاءً لِنَفْسِهِ وَعَصَبِيَّةً لَهَا . وَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو مَرْفُوعًا : " مِنَ الْكَبَائِرِ شَتْمُ الرَّجُلِ وَالِدَيْهِ " قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَهَلْ يَشْتُمُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ ؟ قَالَ : " يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ " .

(27/246)

فَالْمُرَادُ بِالْعِلْمِ الْمَنْفِيِّ – عَلَى هَذَا – الْعِلْمُ الْحُضُورِيُّ الْبَاعِثُ عَلَى الْعَمَلِ وَهُوَ إِرَادَةُ السَّبِّ الَّتِي يُقْصَدُ بِهَا إِهَانَةُ الْمَسْبُوبِ ، فَإِنَّ هَذَا السَّابَّ هُنَا لَا يَتَوَجَّهُ قَصْدُهُ إِلَّا إِلَى إِهَانَةِ مُخَاطَبِهِ الَّذِي سَبَّهُ وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِالْعِلْمِ الْمَنْفِيِّ اعْتِقَادُ السَّابِّ أَنَّ خَصْمَهُ لَا يَعْبُدُ اللَّهَ تَعَالَى بَلْ يَعْبُدُ إِلَهًا آخَرَ ، لِأَنَّهُ يَصِفُ مَعْبُودَهُ بِمَا لَا يَصِحُّ أَنْ يُوصَفَ بِهِ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَهُ ، وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ بَعْضِ الْمُخْتَلِفِينَ فِي

(28/246)

---

الْأَدْيَانِ وَفِي مَذَاهِبِ الدِّينِ الْوَاحِدِ وَصْفُ رَبِّهِمْ وَإِلَاهِهِمْ بِصِفَاتٍ ، وَرَبِّ خُصُومِهِمْ وَإِلَهِهِمْ بِصِفَاتٍ تُنَاقِضُهَا أَوْ تُضَادُّهَا ، كَمَا يَقُولُ مُثْبِتُو الصِّفَاتِ وَنُفَاتُهَا بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ وَيُمْكِنُ التَّمْثِيلُ لِهَذَا بِاخْتِلَافِ الْأَشْعَرِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ فِي مَسْأَلَةِ إِرَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِلشَّرِّ وَالْكُفْرِ وَعَدَمِهَا ، فَقَدْ يُبَالِغُ كُلٌّ مِنْهُمَا فِيهِ فَيَزْعُمُ أَنَّ إِلَهَهُ غَيْرُ إِلَهِ مُخَالِفِهِ ، وَقَدْ نُقِلَ عَنِ اثْنَيْنِ مِنْ أَكَابِرِ عُلَمَائِهِمَا أَنَّهُمَا الْتَقَيَا فَقَالَ الْمُعْتَزِلِيُّ : سُبْحَانَ مَنْ تَنَزَّهَ عَنِ الْفَحْشَاءِ ، فَقَالَ الْأَشْعَرِيُّ : سُبْحَانَ مَنْ لَا يَقَعُ فِي مُلْكِهِ إِلَّا مَا يَشَاءُ ، أَيْ وَمِنْهُ الْفَحْشَاءُ فَهَلْ يَبْعُدُ أَنْ يُعَبِّرَ بَعْضُ الْمُجَازِفِينَ عَنْ هَذَيْنِ الْمَعْنَيَيْنِ بِصِيغَةِ السَّبِّ لِتَأْيِيدِ الْمَذْهَبِ ؟ دَعْ مَا يَقُولُهُ مَنْ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ غُلُوًّا فِي تَضْلِيلِ الْمُخَالِفِ وَتَكْفِيرِهِ وَالْجَمِيعُ يَقُولُونَ إِنَّهُمْ يَعْبُدُونَ اللَّهَ خَالِقَ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَهُمْ صَادِقُونَ فِي ذَلِكَ وَإِنِ اتَّخَذَ بَعْضُهُمْ لَهُ شَرِيكًا أَوْ وَصَفَهُ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِ أَوْ نَفَى عَنْهُ عَمَّا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ ، وَلَكِنَّ تَعَصُّبَ الْمَرْءِ لِنَفْسِهِ وَلِمَنْ تَجْمَعُهُ بِهِ جَامِعَةٌ مَا قَدْ تَحْمِلُهُ عَلَى تَوْسِيعِ شِقَّةِ الْخِلَافِ بِمِثْلِ ذَلِكَ وَلَا سِيَّمَا فِي أَثْنَاءِ الْجَدَلِ ، وَفِي هَذَا الْمَقَامِ تَزْدَادُ فَهْمًا لِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ

(29/246)

---

ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) 29 : 46 هَذَا مَا نَرَاهُ فِي مَعْنَى النَّهْيِ وَتَعْلِيلِهِ وَقَدْ وَرَدَ فِي الْمَأْثُورِ مَا يُؤَيِّدُ بَعْضَهُ نَنْقُلُهُ عَنِ الدُّرِّ الْمَنْثُورِ وَهُوَ :

" أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ مُنْذِرٍ وَابْنُ حَاتِمٍ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) الْآيَةَ . قَالَ قَالُوا : يَا مُحَمَّدُ لَتَنْتَهِيَنَّ عَنْ سَبِّكَ آلِهَتَنَا أَوْ لَنَهْجُوَ رَبَّكَ ; فَنَهَاهُمُ اللَّهُ أَنْ يَسُبُّوا أَوْثَانَهُمْ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ .

وَأَخْرَجَ ابْنُ حَاتِمٍ عَنِ السُّدِّيِّ قَالَ : لَمَّا حَضَرَ أَبَا طَالِبٍ الْمَوْتُ قَالَتْ قُرَيْشٌ : انْطَلِقُوا

فَلْنَدْخُلْ عَلَى هَذَا الرَّجُلِ فَنَأْمُرْهُ أَنْ يَنْهَى عَنَّا ابْنَ أَخِيهِ ، فَانْطَلَقَ أَبُو سُفْيَانَ وَأَبُو جَهْلٍ وَالنَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ وَعَقَبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ

(30/246)

---

وَالْأَسْوَدُ بْنُ الْبَخْتَرِيِّ وَبَعَثُوا رَجُلًا مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ الْمُطَّلِبُ فَقَالُوا : اسْتَأْذِنْ لَنَا عَلَى أَبِي طَالِبٍ . فَأَتَى أَبَا طَالِبٍ فَقَالَ : هَؤُلَاءِ مَشْيَخَةُ قَوْمِكَ يُرِيدُونَ الدُّخُولَ عَلَيْكَ ، فَأَذِنَ لَهُمْ عَلَيْهِ فَدَخَلُوا فَقَالُوا : يَا أَبَا طَالِبٍ أَنْتَ كَبِيرُنَا وَسَيِّدُنَا وَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ آذَانَا وَآذَى آلِهَتَنَا فَنُحِبُّ أَنْ تَدْعُوَهُ فَتَنْهَاهُ عَنْ ذِكْرِ آلِهَتِنَا وَلْنَدَعْهُ وَإِلَهَهُ . فَدَعَاهُ فَجَاءَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ لَهُ : هَؤُلَاءِ قَوْمُكَ وَبَنُو عَمِّكَ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " مَاذَا يُرِيدُونَ ؟ " قَالُوا : نُرِيدُ أَنْ تَدَعَنَا وَآلِهَتَنَا وَلْنَدَعْكَ وَإِلَهَكَ ، قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَعْطَيْتُكُمْ هَذَا ، هَلْ أَنْتُمْ مُعْطِيَّ كَلِمَةً إِنْ تَكَلَّمْتُمْ بِهَا مَلَكْتُمْ بِهَا الْعَرَبَ وَدَانَتْ لَكُمْ بِهَا الْعَجَمُ وَأَدَّتْ لَكُمُ الْخَرَاجَ ؟ " قَالَ أَبُو جَهْلٍ : وَأَبِيكَ لَنُعْطِيَنَّكَهَا وَعِشْرَةَ أَمْثَالِهَا فَمَا هِيَ ؟ قَالَ : " قُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ " فَأَبَوْا وَاشْمَأَزُّوا ، قَالَ أَبُو طَالِبٍ : قُلْ غَيْرَهَا فَإِنَّ قَوْمَكَ قَدْ فَزِعُوا مِنْهَا ، قَالَ : " يَا عَمِّ مَا أَنَا بِالَّذِي أَقُولُ غَيْرَهَا حَتَّى يَأْتُوا بِالشَّمْسِ فَيَضَعُوهَا فِي يَدِي ، وَلَوْ أَتَوْنِي بِالشَّمْسِ فَوَضَعُوهَا فِي يَدِي ، مَا قُلْتُ غَيْرَهَا " إِرَادَةَ أَنْ

يُؤْيِسَهُمْ ، فَغَضِبُوا وَقَالُوا لَتَكُفَّنَّ عَنْ شَتْمِ آلِهَتِنَا أَوْ لَنَشْتُمَنَّكَ وَنَشْتُمَ مَنْ يَأْمُرُكَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : (وَلَا تَسُبُّوا

(31/246)

---

الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ) .

وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ وَابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَأَبُو الشَّيْخِ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ : كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَسُبُّونَ أَصْنَامَ الْكُفَّارِ فَيَسُبُّ الْكُفَّارُ اللَّهَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) انْتَهَى . أَيْ أَنْزَلَ ذَلِكَ ضِمْنَ السُّورَةِ كَمَا تَقَدَّمَ نَظِيرُهُ " ا هـ .

وَقَدْ غَفَلَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ عَنْ مِثْلِ مَا ذَكَرْنَا مِنْ شُئُونِ النَّاسِ الَّتِي تَحْمِلُهُمْ عَلَى سَبِّ أَعْظَمِ شَيْءٍ عِنْدَهُمْ فِي حَالِ الْغَضَبِ ، وَالْمُلَاحَاةِ فِي الْمِرَاءِ وَالْجَدَلِ وَعَنِ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ عَنِ السَّلَفِ ، حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ : إنَّ الْمُرَادَ بِسَبِّهِمُ اللَّهَ تَعَالَى هُنَا سَبُّ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ بَابِ التَّجَوُّزِ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ) 48 : 10 وَهُوَ تَكَلُّفٌ بَعِيدٌ ، وَقَالَ الرَّاغِبُ : وَسَبُّهُمْ لِلَّهِ لَيْسَ عَلَى أَنَّهُمْ يَسُبُّونَهُ صَرِيحًا ، وَلَكِنْ يَخُوضُونَ فِي ذِكْرِهِ فَيَذْكُرُونَهُ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِ وَيَتَمَادَوْنَ فِي ذَلِكَ بِالْمُجَادَلَةِ فَيَزْدَادُونَ فِي ذِكْرِهِ بِمَا تَنَزَّهَ تَعَالَى عَنْهُ انْتَهَى . وَمَا قَالَهُ مِمَّا يَقَعُ مِثْلُهُ وَلَيْسَ كُلَّ الْمُرَادِ .

وَاسْتَشْكَلَ بَعْضُهُمُ النَّهْيَ بِمَا وَرَدَ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ مِنْ وَصْفِ آلِهَتِهِمْ بِأَنَّهَا لَا تَضُرُّ

(32/246)

---

وَلَا تَنْفَعُ ، وَلَا تُقَرِّبُ وَلَا تَشْفَعُ ، وَأَنَّهَا وَإِيَّاهُمْ حَصَبُ جَهَنَّمَ ، وَتَسْمِيَتُهَا بِالطَّاغُوتِ وَهُوَ مُبَالَغَةٌ مِنَ الطُّغْيَانِ ، وَجَعَلَ عِبَادَتَهَا طَاعَةً لِلشَّيْطَانِ . وَقَدْ يُجَابُ عَنْهُ بِأَنَّ هَذَا لَا يُسَمَّى سَبًّا . وَإِنْ زَعَمُوهُ جَدَلًا ، لِأَنَّ السَّبَّ هُوَ الشَّتْمُ وَهُوَ مَا يُقْصَدُ بِهِ الْإِهَانَةُ وَالتَّعْيِيرُ ، وَالْغَرَضُ مِنْ ذِكْرِ مَعْبُودَاتِهِمْ بِذَلِكَ بَيَانُ الْحَقَائِقِ وَالتَّنْفِيرِ عَنِ الْخُرَافَاتِ وَالْمَفَاسِدِ وَأُجِيبَ عَلَى تَقْدِيرِ التَّسْلِيمِ بِأَنَّ سَبَّ مَا يَسْتَحِقُّ السَّبَّ جَائِزٌ فِي نَفْسِهِ ، وَإِنَّمَا يُحْظَرُ إِذَا أَدَّى إِلَى مَفْسَدَةٍ أَكْبَرَ مِنْهُ ، وَالْحَالُ هُنَا كَذَلِكَ . وَقَدْ صَحَّ النَّهْيُ عَنِ الصَّلَاةِ فِي الْمَقْبَرَةِ وَالْحَمَّامِ ، وَكَمِثْلِهَا التِّلَاوَةُ فِي الْمَوَاضِعِ الْمَكْرُوهَةِ .

(33/246)

---

وَاسْتَنْبَطَ الْعُلَمَاءُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الطَّاعَةَ إذَا أَدَّتْ إلَى مَعْصِيَةٍ رَاجِحَةٍ وَجَبَ تَرْكُهَا ، فَإِنَّ مَا يُؤَدِّي إلَى الشَّرِّ شَرٌّ ، وَفَرَّقُوا بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ الطَّاعَةِ فِي كُلِّ مَكَانٍ فِيهِ مَعْصِيَةٌ لَا يُمْكِنُ دَفْعُهَا . وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ تَحْتَاجُ إلَى بَسْطٍ وَإِيضَاحٍ فَإِنَّ مِنَ الطَّاعَةِ مَا يَجِبُ وَمَا لَا يَجِبُ ، وَمِنَ الْمَعَاصِي وَالشُّرُورِ الَّتِي تَتَرَتَّبُ عَلَى بَعْضِ الطَّاعَاتِ أَحْيَانًا مَا هُوَ مَفْسَدَةٌ رَاجِحَةٌ وَمَا لَيْسَ كَذَلِكَ ، وَمِنْ كُلٍّ مِنْهُمَا مَا يُمْكِنُ التَّفَصِّي مِنْ تَرَتُّبِهِ عَلَى الطَّاعَةِ وَمَا لَا يُمْكِنُ التَّفَصِّي مِنْهُ ، وَلِكُلٍّ مِنْ ذَلِكَ أَحْكَامٌ ، وَتَعْرِضُ لَهُ دَرَجَاتُ الْإِنْكَارِ الثَّلَاثُ : " مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ " رَوَاهُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَأَصْحَابُ السُّنَنِ الْأَرْبَعَةِ .

*(34/246)*

---

وَمِنْ فُرُوعِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مَا ذَكَرْنَاهُ فِي الْعَدَدِ الْأَوَّلِ مِنْ مَنَارِ السَّنَةِ الْأُولَى فِي بَحْثِ اصْطِلَاحِ كِتَابِ الْعَصْرِ ، وَهُوَ أَنَّ مَعْنَى لَفْظِ الْكُفْرِ فِي اللُّغَةِ السَّتْرُ وَالتَّغْطِيَةُ ، وَمِنْهُ قِيلَ اللَّيْلُ كَافِرٌ وَالْبَحْرُ كَافِرٌ ، وَأُطْلِقَ لَفْظُ الْكُفَّارِ فِي سُورَةِ الْفَتْحِ عَلَى الزُّرَّاعِ وَغَلَبَ لَفْظُ الْكُفْرِ فِي الْقُرْآنِ وَعُرِفَ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ بِمَعْنَى الْمُقَابِلِ لِلْإِيمَانِ الصَّحِيحِ شَرْعًا ، ثُمَّ غَلَبَ فِي عُرْفِ كُتَّابِ هَذَا الْعَصْرِ عَلَى الْمَلَاحِدَةِ الْمُعَطِّلِينَ الْمُنْكِرِينَ لِوُجُودِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَصَارَ إطْلَاقُهُ

عَلَى كُلِّ مُتَدَيِّنٍ سَبًّا وَإِهَانَةً ، فَيَتَرَتَّبُ عَلَى هَذَا أَنَّ إِطْلَاقَهُ عَلَى مَنْ يَحْرُمُ إِيذَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ مُحَرَّمٌ شَرْعًا إذَا تَأَذَّى بِهِ وَلَا سِيَّمَا فِي الْخِطَابِ . وَذَكَرْنَا لِهَذَا مِنْ فَتَاوَى الْحَنَفِيَّةِ وَهُوَ مَا فِي مُعِينِ الْحُكَّامِ قَالَ : إذَا شَتَمَ الذِّمِّيَّ يُعَزَّرُ لِأَنَّهُ ارْتَكَبَ مَعْصِيَةً . وَفِيهِ نَقْلًا عَنِ الْغُنْيَةِ : وَلَوْ قَالَ لِلذِّمِّيِّ يَا كَافِرُ يَأْثَمُ إنْ شَقَّ عَلَيْهِ ذَلِكَ اهـ .

(وَمِنْهَا) مَا ذَكَرْتُهُ فِي سِيَاقِ الْكَلَامِ فِي الْمُخْتَلِفِينَ فِي لَعْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ مِنَ

(35/246)

---

(الْمَنَارِ ص 630 م7) بَعْدَ بَيَانِ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى لَعْنِهِ مِنَ التَّعَادِي بَيْنَ الشِّيعَةِ وَالسُّنِّيِّينَ وَهُوَ : لِهَذَا لَا أُبَالِي أَنْ أَقُولَ : لَوِ اطَّلَعَ عَلَى الْغَيْبِ وَعَلِمَ أَنَّهُ مَاتَ عَلَى غَيْرِ الْإِسْلَامِ لَمَا جَازَ لَهُ أَنْ يَلْعَنَهُ . وَغَرَضِي مِنْ هَذَا أَنَّ اللَّعْنَ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مَفَاسِدُ الشِّقَاقِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ مَا يَجْعَلُهُ مُحَرَّمًا وَأَكْثَرُ الْمُسْلِمِينَ يُحَرِّمُونَ لَعْنَهُ ، وَقَدْ لَعَنَ اللَّهُ الشَّيْطَانَ وَيَلْعَنُهُ اللَّاعِنُونَ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، وَمَنْ لَا يَلْعَنُهُ طُولَ عُمُرِهِ لَا يَسْأَلُهُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يُوجِبْ عَلَيْهِ كَمَا قَالَ بَعْضُ الْأَئِمَّةِ ، وَلَيْسَ هُوَ مِنَ الطَّاعَاتِ الَّتِي أَمَرَنَا اللَّهُ تَعَالَى بِهَا وَإِنْ كَانَ جَائِزًا فِي نَفْسِهِ .

(وَمِنْهَا) مَا نُقِلَ عَنْ أَبِي مَنْصُورٍ قَالَ : كَيْفَ نَهَانَا اللَّهُ تَعَالَى عَنْ سَبِّ مَنْ يَسْتَحِقُّ السَّبَّ لِئَلَّا يُسَبَّ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ – وَقَدْ أَمَرَنَا بِقِتَالِهِمْ وَإِذَا قَاتَلْنَاهُمْ قَتَلُونَا وَقَتْلُ الْمُؤْمِنِ بِغَيْرِ حَقٍّ مُنْكَرٌ "

؟ وَكَذَا أَمَرَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالتَّبْلِيغِ وَالتِّلَاوَةِ عَلَيْهِمْ وَإِنْ كَانُوا يُكَذِّبُونَهُ وَأَجَابَ عَنْهُ بِأَنَّ سَبَّ الْآلِهَةِ مُبَاحٌ غَيْرُ مَفْرُوضٍ وَقِتَالَهُمْ فَرْضٌ وَكَذَا التَّبْلِيغُ ، وَمَا كَانَ مُبَاحًا يَنْهَى عَمَّا يَتَوَلَّدُ عَنْهُ .

*(36/246)*

---

وَاخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي إجَابَةِ الدَّعْوَةِ إلَى وَلِيمَةِ النِّكَاحِ الْمُقَارِنَةِ لِبَعْضِ الْمَعَاصِي كَمَا يَقَعُ كَثِيرًا ; هَلْ يُجِيبُ الدَّعْوَةَ وَيُغَيِّرُ مَا يَرَاهُ مِنَ الْمُنْكَرِ بِيَدِهِ أَوْ بِلِسَانِهِ إنْ قَدَرَ ، وَإِلَّا أَنْكَرَهُ بِقَلْبِهِ وَصَبَرَ ؟ أَمْ يُجِيبُ فِي حَالِ الْقُدْرَةِ عَلَى التَّغْيِيرِ دُونَ حَالِ الْعَجْزِ ؟ أَمْ يُفَرَّقُ فِيهِ بَيْنَ مَنْ يُقْتَدَى بِهِ وَغَيْرِهِ فَيَحْرُمُ حُضُورُهُ الْمُنْكَرَ وَلَوْ مَعَ النَّهْيِ عَنْهُ عَلَى الْأَوَّلِ دُونَ الثَّانِي ؟ أَقْوَالٌ : لَا مَجَالَ هُنَا لِتَحْقِيقِ الْحَقِّ فِيهَا ، وَلَا لِلْإِطَالَةِ فِي فُرُوعِ الْمَسْأَلَةِ .

*(37/246)*

---

(كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ) أَيْ مِثْلَ ذَلِكَ التَّزْيِينِ الَّذِي يَحْمِلُ الْمُشْرِكِينَ عَلَى مَا ذُكِرَ - حَمِيَّةً لِمَنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ - زَيَّنَا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ مِنْ إيمَانٍ وَكُفْرٍ وَخَيْرٍ وَشَرٍّ ، أَيْ مَضَتْ

سُنَّتَنَا فِي أَخْلَاقِ الْبَشَرِ وَشُئُونِهِمْ أَنْ يَسْتَحْسِنُوا مَا يَجْرُونَ عَلَيْهِ وَيَتَعَوَّدُونَهُ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُهُمْ ، أَوْ مِمَّا اسْتَحْدَثُوهُ بِأَنْفُسِهِمْ ، إِذَا صَارَ يُسْنَدُ وَيُنْسَبُ إِلَيْهِمْ ، سَوَاءٌ كَانُوا عَلَى تَقْلِيدٍ وَجَهْلٍ ، أَمْ عَلَى بَيِّنَةٍ وَعِلْمٍ ، فَسَبَبُ التَّزْيِينِ فِي الْأَوَّلِ أُنْسُهُمْ بِهِ كَوْنُهُ مِنْ شُئُونِ أُمَّتِهِمْ ، الَّتِي يُعَدُّ مَدْحُهَا مَدْحًا لَهَا وَلَهُمْ ، وَذَمُّهَا عَارًا عَلَيْهَا وَعَلَيْهِمْ ، وَزِدْ عَلَى ذَلِكَ فِي الثَّانِي مَا يُعْطِيهِ الْعِلْمُ مِنْ كَوْنِ ذَلِكَ حَقًّا وَخَيْرًا فِي نَفْسِهِ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ فَضْلُهُمْ عَلَى غَيْرِهِمْ فِيهِ وَفِي الْجَزَاءِ عَلَيْهِ ، وَشُبُهَاتُ الْأَوَّلِ لَيْسَ لَهَا مِثْلُ هَذَا التَّأْثِيرِ .

فَظَهَرَ بِهَذَا أَنَّ التَّزْيِينَ أَثَرٌ لِأَعْمَالٍ اخْتِيَارِيَّةٍ لَا جَبْرَ فِيهَا وَلَا إِكْرَاهَ ، وَلَيْسَ

(38/246)

---

الْمُرَادُ بِهِ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ فِي قُلُوبِ بَعْضِ الْأُمَمِ تَزْيِينًا لِلْكُفْرِ وَالشَّرِّ ، وَفِي قُلُوبِ بَعْضِهَا تَزْيِينًا لِلْإِيمَانِ وَالْخَيْرِ خَلْقًا ابْتِدَائِيًّا ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ عَمَلٌ اخْتِيَارِيٌّ نَشَأَ عَنْهُ ذَلِكَ ، إِذْ لَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا ذُكِرَ لَكَانَ الْإِيمَانُ وَالْكُفْرُ وَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ مِنَ الْغَرَائِزِ الْخُلُقِيَّةِ الَّتِي تُعَدُّ الدَّعْوَةُ إِلَيْهَا وَالتَّرْغِيبُ فِيهَا ، وَمَا يُقَابِلُهُمَا مِنَ النَّهْيِ وَالتَّرْهِيبِ عَنْهَا مِنَ الْعَبَثِ الَّذِي يَتَنَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ إِرْسَالِ الرُّسُلِ وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ لِأَجْلِهِ ، وَلَكَانَ عَمَلُ الرُّسُلِ وَالْحُكَمَاءِ وَالْمُؤَدِّبِينَ الَّذِينَ يَهْدُونَ النَّاسَ وَيُزَكُّونَ بِالتَّأْدِيبِ - كُلُّهُ مِنَ الْجُنُونِ ، وَمِنْ لَوَازِمِ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ التَّفَاوُتُ بَيْنَ الْأَخْيَارِ

وَالْأَشْرَارِ مِنَ النَّاسِ كَالتَّفَاوُتِ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ وَالشَّيَاطِينِ ، وَهُوَ خِلَافٌ مَقْطُوعٌ بِهِ عَقْلًا وَنَقْلًا مِنِ اسْتِوَائِهِمْ فِي قَابِلِيَّةِ كُلٍّ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَقَدْ غَفَلَتِ الْمُعْتَزِلَةُ عَنْ هَذَا التَّحْقِيقِ فَأَوَّلَ بَعْضُهُمُ الْآيَةَ بِأَنَّهَا خَاصَّةٌ بِالْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ زَيَّنَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ

(39/246)

---

الْإِيمَانَ ، وَبَعْضُهُمْ بِغَيْرِ ذَلِكَ ، وَاحْتَجَّ بِهَا بَعْضُ الْجَبْرِيَّةِ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ مَعًا ، وَبَعْضُ الْأَشْعَرِيَّةِ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ الْجَبْرَ وَيُقِيمُونَ الْحُجَجَ لِإِثْبَاتِهِ وَيَتَبَرَّءُونَ مِنْ لَفْظِهِ وَالِانْتِسَابِ إلَى أَهْلِهِ - احْتَجَّ كُلٌّ مِنْهُمَا بِأَنَّهَا نَصٌّ فِي مَذْهَبِهِ . وَقَدْ تَفَلْسَفَ الرَّازِيُّ فِي الِاسْتِدْلَالِ عَلَى أَنَّ تَزْيِينَ الْكُفْرِ بِخَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ غَيْرِ اخْتِيَارٍ لِلْعَبْدِ ، فَزَعَمَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَخْتَارُ الْكُفْرَ وَالْجَهْلَ ابْتِدَاءً مَعَ الْعِلْمِ لِكَوْنِهِ كُفْرًا وَجَهْلًا ، وَإِنَّمَا يَخْتَارُهُ لِاعْتِقَادِهِ كَوْنَهُ إيمَانًا وَعِلْمًا وَصِدْقًا وَحَقًّا ، فَلَوْلَا سَابِقَةُ الْجَهْلِ الْأَوَّلِ لَمَا اخْتَارَ هَذَا الْجَهْلَ الثَّانِي ، وَذَلِكَ الْجَهْلُ السَّابِقُ إنْ كَانَ اخْتِيَارِيًّا يُقَالُ فِيهِ مِثْلُ مَا قِيلَ فِيمَا قَبْلَهُ فَيَلْزَمُ التَّسَلْسُلُ الْمُحَالُ ، وَقَالَ : " لَمَّا كَانَ ذَلِكَ بَاطِلًا وَجَبَ انْتِهَاءُ تِلْكَ الْجَهَالَاتِ إلَى جَهْلٍ أَوَّلٍ يَخْلُقُهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ ابْتِدَاءً ، وَهُوَ بِسَبَبِ ذَلِكَ الْجَهْلِ ظَنَّ فِي الْكُفْرِ كَوْنَهُ إيمَانًا وَحَقًّا وَعِلْمًا وَصِدْقًا ، فَثَبَتَ أَنَّهُ يَسْتَحِيلُ مِنَ الْكَافِرِ اخْتِيَارُ الْجَهْلِ فِي قَلْبِهِ " اهـ . وَيُبْطِلُ هَذَا الدَّلِيلَ الَّذِي سَمَّاهُ قَطْعِيًّا أَنَّ الْجَهْلَ أَمْرٌ سَلْبِيٌّ لَا

يُوصَفُ بِأَنَّهُ خَلْقٌ ابْتِدَائِيٌّ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ كُفْرٍ مُزَيَّنًا لِصَاحِبِهِ بِاعْتِقَادِهِ أَنَّهُ حَقٌّ وَعِلْمٌ وَصِدْقٌ كَمَا زَعَمَ بَلْ شَرُّ الْكُفْرِ وَأَشَدُّهُ كُفْرُ الْجُحُودِ وَالْعِنَادِ وَالْمُكَابَرَةِ ، وَإِنَّمَا

(40/246)

---

يُزَيِّنُهُ الشَّيْطَانُ لِصَاحِبِهِ بِعَدِّهِ مِنْ عِزَّةِ النَّفْسِ وَشَرَفِهَا ، بِالِامْتِنَاعِ مِنِ اعْتِرَافِهَا بِمَا تَرَاهُ عَارًا عَلَيْهَا وَعَلَى الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ بِاتِّبَاعِ مَنْ هُوَ دُونَهَا فِي الشَّرَفِ وَالْجَاهِ كَمَا عُرِفَ مِنْ شَأْنِ الْجَادِّينَ ، مِنْ رُؤَسَاءِ الْأُمَمِ الْمُتْرَفِينَ ، مَعَ الْأَنْبِيَاءِ الْمُرْسَلِينَ ، وَوَرَثَتِهِمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُصْلِحِينَ

.

(41/246)

---

فَعُلِمَ مِنْ هَذَا التَّحْقِيقِ أَنَّ تَزْيِينَ الْأَعْمَالِ لِلْأُمَمِ عِبَارَةٌ عَنْ سُنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَعْمَالِهَا وَعَادَاتِهَا وَأَخْلَاقِهَا الْمَكْسُوبَةِ وَالْمَوْرُوثَةِ . وَقَدْ بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِ : (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ) 3 : 14 أَنَّ مَا كَانَ كَذَلِكَ لَا يُسْنَدُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَاضِعِ السُّنَنِ وَكَاتِبِ الْمَقَادِيرِ وَأَمَّا تَزْيِينُ الْقَبِيحِ مِنْ عَمَلٍ وَاعْتِقَادٍ فَيُسْنِدُهُ تَارَةً إِلَى الشَّيْطَانِ ، وَشَوَاهِدُهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ

(6 : 43 و137) وَفِي الْأَنْفَالِ (8 : 48) وَالنَّحْلِ (16 : 63) وَالنَّمْلِ (27 : 24) وَالْعَنْكَبُوتِ (29 : 38) وَحم السَّجْدَةِ (41 : 25) وَتَارَةً إِلَى الْمَفْعُولِ وَشَوَاهِدُهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ (6 : 22) وَفِي التَّوْبَةِ وَيُونُسَ وَفَاطِرٍ وَالْمُؤْمِنِ وَالْقِتَالِ وَالْفَتْحِ وَوَرَدَ إِسْنَادُهُ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ النَّمْلِ فَقَطْ ، وَيُقَابِلُهُ إِسْنَادُ تَزْيِينِ الْإِيمَانِ إِلَيْهِ تَبَارَكَ اسْمُهُ فِي سُورَةِ الْحُجُرَاتِ فَقَطْ وَيَجْمَعُهُمَا مَعًا إِسْنَادُ الْأَعْمَالِ إِلَيْهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِ تَفْسِيرِهَا ، وَنَحْوُهُ إِسْنَادُ " حُبُّ الشَّهَوَاتِ " إِلَى الْمَفْعُولِ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ وَيُرَاجَعُ تَفْسِيرُنَا لَهَا ، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي أَوَاخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ : (لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) ، وَفِي تَفْسِيرِ الْأَخِيرَةِ كَلَامٌ حَسَنٌ لِلْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ .

*(42/246)*

---

(ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أَيْ ثُمَّ يَرْجِعُ جَمِيعُ أَفْرَادِ أُولَئِكَ الْأُمَمِ إِلَى رَبِّهِمُ الَّذِي هُوَ سَيِّدُهُمْ وَمَالِكُ أَمْرِهِمْ بَعْدَ أَنْ يَمُوتُوا وَيُبْعَثُوا لَا إِلَى غَيْرِهِ ، إِذْ لَا رَبَّ غَيْرُهُ ، فَيُنَبِّئُهُمْ عَقِبَ رُجُوعِهِمْ إِلَيْهِ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِمَّا كَانَ مُزَيَّنًا لَهُمْ وَغَيْرَ مُزَيَّنٍ ، وَيَجْزِيهِمْ بِهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ .

(وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا ) أَيْ وَأَقْسَمَ أُولَئِكَ الْمُشْرِكُونَ

الْمُعَانِدُونَ بِاللهِ أَشَدَّ أَيْمَانِهِمْ تَأْكِيدًا وَمُنْتَهَى جَهْدِهِمْ وَوُسْعِهِمْ مُبَالَغَةً فِيهَا ، لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ مِنَ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ الَّتِي اقْتَرَحُوهَا أَوْ مُطْلَقًا لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِلدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِ رَسُولِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَيَكُونُ إِيمَانُهُمْ بِهَا إِيمَانًا بِهِ أَوْ لَيُؤْمِنُنَّ بِمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ بِسَبَبِهَا : (قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ ; أَيْ قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى فَهُوَ وَحْدَهُ الْقَادِرُ عَلَيْهَا وَالْمُتَصَرِّفُ فِيهَا يُعْطِيهَا مَنْ يَشَاءُ وَيَمْنَعُهَا مَنْ يَشَاءُ بِحِكْمَتِهِ ، (وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ) 13 : 38 وَمَشِيئَتِهِ ، وَكَمَالُ الْأَدَبِ مَعَهُ تَعَالَى أَنْ يُفَوَّضَ إِلَيْهِ الْأَمْرُ فِي ذَلِكَ . وَتَقَدَّمَ تَحْقِيقُ الْمَسْأَلَةِ فِي أَوَائِلِ تَفْسِيرِ السُّورَةِ .

*(43/246)*

---

رَوَى أَبُو الشَّيْخِ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ أَنَّ هَذَا نَزَلَ فِي الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الْآيَةَ ، وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ مِثْلَهُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ مُفَصَّلًا ، فَذَكَرَ أَنَّهُمْ ذَكَرُوا لَهُ أَخْبَارًا بِعَصَا مُوسَى وَإِحْيَاءِ عِيسَى الْمَوْتَى وَنَاقَةِ ثَمُودَ وَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمُ الصَّفَا ذَهَبًا وَأَقْسَمُوا بِاللهِ لَئِنْ فَعَلَ لَيَتَّبِعُنَّهُ أَجْمَعِينَ ، فَقَامَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَدْعُو فَجَاءَهُ جِبْرِيلُ فَخَيَّرَهُ بَيْنَ أَنْ يُصْبِحَ الصَّفَا ذَهَبًا عَلَى أَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللهُ إِذَا لَمْ يُؤْمِنُوا – أَيْ عَذَابَ الِاسْتِئْصَالِ حَسَبَ سُنَّتِهِ تَعَالَى كَمَا تَقَدَّمَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ – وَبَيْنَ أَنْ يَتْرُكَهُمْ حَتَّى

يَتُوبَ تَائِبُهُمْ فَاخْتَارَ الثَّانِي فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ (وَأَقْسَمُوا بِاللهِ) حَتَّى (وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ) أَيْ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَاتِ فِي ضِمْنِ السُّورَةِ الَّتِي نَزَلَتْ دُفْعَةً وَاحِدَةً ، وَتَقَدَّمَ تَحْقِيقُ مِثْلِهِ مِرَارًا

.

(44/246)

---

(مَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ أَيْ إنَّكُمْ لَيْسَ لَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَسْبَابِ الشُّعُورِ بِهَذَا الْأَمْرِ الْغَيْبِيِّ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إلَّا عَلَّامُ الْغُيُوبِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَهُوَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ إنْ جَاءَتِ الْآيَةُ . وَالْخِطَابُ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَجِيءَ الْآيَةِ لِيُؤْمِنُوا وَالنَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَعَهُمْ ، وَقِيلَ لَهُمْ وَحْدَهُمْ ، وَيُؤَيِّدُ الْأَوَّلَ رِوَايَةُ دُعَائِهِ بِذَلِكَ ، وَرِوَايَةُ طَلَبِهِ الْقَسَمَ مِنْهُمْ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا ، وَقَدْ غَفَلَ مَنْ غَفَلَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ عَنْ كَوْنِ الِاسْتِفْهَامِ إنْكَارِيًّا نَافِيًا لِشُعُورِهِمْ بِهَذَا الْأَمْرِ الثَّابِتِ عِنْدَهُ تَعَالَى فِي عِلْمِ الْغَيْبِ ، فَذَهَبَ إلَى أَنَّ الْمَعْنَى وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ إذَا جَاءَتْ ؟ فَجَعَلُوا النَّفْيَ لَغْوًا ، وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إلَى أَنَّ (أَنَّهَا) بِمَعْنَى لَعَلَّهَا ، وَنَقَلُوا هَذَا عَنِ الْخَلِيلِ وَجَاءُوا عَلَيْهِ بِشَوَاهِدَ ، هُمْ فِي غِنًى عَنْهُ وَعَنْهَا . وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَأَبُو بَكْرٍ بِخِلَافٍ عَنْهُ عَنْ عَاصِمٍ وَيَعْقُوبَ (إنَّهَا) بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ كَأَنَّهُ قَالَ : وَمَا يُشْعِرُكُمْ مَا يَكُونُ مِنْهُمْ إذَا جَاءَتْ ؟ وَكَأَنَّهُمْ قَالُوا : مَاذَا يَكُونُ مِنْهُمْ ؟ فَأَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ قَائِلًا : أَنَّهَا إذَا

جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ وَحَمْزَةُ (لَا تُؤْمِنُونَ) الْخِطَابُ لِلْمُشْرِكِينَ ، وَهُوَ كَسَابِقِهِ الْتِفَاتٌ وَتَلْوِينٌ .

(45/246)

---

(وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ) هَذَا عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ : (لَا يُؤْمِنُونَ) وَبَيَانٌ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي عَدَمِ إِيمَانِهِمْ بِرُؤْيَةِ الْآيَةِ . أَيْ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَيْضًا أَنَّنَا نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ عِنْدَ مَجِيءِ الْآيَةِ بِالْخَوَاطِرِ وَالتَّأْوِيلَاتِ وَالتَّفَكُّرِ فِي اسْتِنْبَاطِ الِاحْتِمَالَاتِ وَأَبْصَارَهُمْ فِي تَوَهُّمِ التَّخَيُّلَاتِ . كَشَأْنِهِمْ فِي عَدَمِ إِيمَانِهِمْ بِمَا جَاءَهُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ مِنَ الْآيَاتِ ، وَقِيلَ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ) (15 : 14 : 15) فَإِنَّ مَنْ لَمْ يُقْنِعْهُ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنَ الْآيَاتِ الْعَقْلِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ ، لَا يُقْنِعُهُ مَا يَرَاهُ بِعَيْنِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْحِسِّيَّةِ ، بَلْ يَدَّعِي أَنَّ عَيْنَيْهِ خُدِعَتَا أَوْ أُصِيبَتَا بِآفَةٍ فَهِيَ لَا تَرَى إِلَّا صُوَرًا خَيَالِيَّةً ، أَوْ أَنَّهُ مِنْ أَعْمَالِ السِّحْرِ الصِّنَاعِيَّةِ ، وَهَلْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ، فِي مُكَابَرَةِ آيَاتِ مَنْ بُعِثَ فِيهِمْ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ؟

(46/246)

(وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) الْعَمَهُ : التَّرَدُّدُ فِي الْأَمْرِ مِنَ الْحَيْرَةِ فِيهِ ، أَيْ وَنَدَعُهُمْ فِي تَجَاوُزِهِمُ الْحُدُودَ فِي الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ ، الْمُشَابِهِ لِطُغْيَانِ الْمَاءِ فِي الطُّوفَانِ ، الَّذِي رَسَخُوا فِيهِ فَتَرَتَّبَ عَلَيْهِ مَا ذُكِرَ مِنْ سُنَّتِنَا فِي تَقْلِيبِ الْقُلُوبِ وَالْأَبْصَارِ ، يَتَرَدَّدُونَ مُتَحَيِّرِينَ فِيمَا سَمِعُوا وَرَأَوْا مِنَ الْآيَاتِ ، هَلْ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ، أَمِ السِّحْرُ الَّذِي يَخْدَعُ النَّاظِرِينَ ؟ وَهَلِ الْأَرْجَحُ اتِّبَاعُ الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ، أَمِ الْمُكَابَرَةُ لَهُ وَالْجِدَالُ فِيهِ كِبْرًا وَأَنَفَةً مِنَ الْخُضُوعِ لِمَنْ يَرَوْنَهُ دُونَهُمْ ؟ وَهَذَا صَرِيحٌ فِي أَنَّ رُسُوخَهُمْ فِي الطُّغْيَانِ الَّذِي هُوَ مُنْتَهَى الْإِسْرَافِ فِي الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ ، وَهُوَ سَبَبُ تَقْلِيبِ الْقُلُوبِ وَالْأَبْصَارِ وَإِنَّمَا إِسْنَادُهُ إِلَى الْخَالِقِ لَهَا لِبَيَانِ سُنَّتِهِ الْحَكِيمَةِ فِيهَا . كَغَيْرِهِ مِنْ رَبْطِ الْمُسَبَّبَاتِ بِأَسْبَابِهَا ، وَإِنَّمَا يُخْطِئُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ هَذَا الْأَمْرَ الْوَاقِعَ لِعَدَمِ التَّأَمُّلِ فِيهِ ، وَتَوَهَّمَ أَنَّ جَمِيعَ مَا يُسْنَدُ إِلَيْهِ تَعَالَى فَهُوَ مِنَ الْخَلْقِ الْمُسْتَقِلِّ دُونَ نِظَامٍ لِلْمَقَادِيرِ ، وَهِيَ نَزْعَةٌ قَدَرِيَّةٌ دَاخِلَةٌ فِي قَوْلِهِمُ " الْأَمْرُ أُنُفٌ " أَوْ لَا نِظَامَ فِيهِ وَلَا قَدَرَ ، يَتْبَعُهُمْ خُصُومُهُمْ فِيهَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ، وَيُوقِعُهُمُ التَّعَصُّبُ لِلْمَذَاهِبِ فِي أَظْهَرِ التَّنَاقُضِ وَهُمْ غَافِلُونَ ، فَنَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يُثَبِّتَ أَفْئِدَتَنَا وَأَبْصَارَنَا عَلَى الْحَقِّ ، وَيَحْفَظَنَا مِنَ الطُّغْيَانِ وَالْعَمَهِ

فِي كُلِّ أَمْرٍ ، وَيَجْعَلَنَا مِمَّنْ أَبْصَرَ بِمَا جَاءَهُ مِنَ الْبَصَائِرِ ، وَيُصْلِحَ لَنَا السَّرَائِرَ وَالظَّوَاهِرَ ، اللَّهُمَّ آمِينَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 7 صـ 553. 560 ﴾

*(48/246)*

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾

وحين تقول : أنا أقلب السلعة فهذا يعني أنك تفحصها . والحق يبلغنا هنا : أنا قلبت قلوبهم على كل لون ولن آخذ بظاهر الفؤاد ، بل بلطفي وعظيم خبرتي أعلم الباطن منهم فاطمئنوا إلى أن حكمي هو الحكم الحق الناتج من تقليب لطيف خبير .

وقد يكون هنا معنى آخر ، أي أن يكون التقليب لونا من التغيير ؛ فمن الجائز أنهم حينما أقسموا بالله جهد أيمانهم كانوا في هذا الوقت قد اقتربوا من الإيمان ولكن قلوبهم لا تثبت على عقيدة . بل تتقلب دائما . وما دامت قلوبهم لا تثبت فأنَّى لنا بتصديقهم لحظة أن أقسموا بالله جهد أيمانهم على إعلان الإيمان إن جاءت آية ؟ وهل فيهم من يملك نفسه بعد مجيء الآية أيظل أمره أم يتغير ؟ . لأن ربنا مقلب القلوب وما كنت تستحسنه أولا قد لا

تستحسنه ثانيا . حين ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ ﴾ أي أن الحكم قد جاء عن خبرة وإحاطة علم ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ .

إن الإيمان يحتاج إلى استقبال آيات كونية بالبصر ، وبعد أن تستقبل الآيات الدالة على عظمة الإله تؤمن به ويستقر الإيمان في فؤادك . وسبحانه يوضح لنا أنه يقلب أفئدتهم وأبصارهم ، هل يبصرون باعتبار واقتناع ؟ أو هي رؤية سطحية لا فهم لهم فيها ولا قدرة منهم على الاستنباط ؟ وهل أفئدتهم قد استقرت على الإيمان أو أن أبصارهم قاصرة وقلوبهم قاصرة ؟

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [ الأنعام : 110 ]

(49/246)

---

إذن فهم لا يؤمنون ويسيرون إلى ضلالهم . فإن جاءت آية فلن يؤمنوا ، وفي هذا عذر للمؤمنين في أنهم يرجون ويأملون أن تنزل آية تجعل من أقسموا جهد الإيمان أن يؤمنوا .

لماذا ؟ لأن الحق قال : ﴿ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ، أي أنهم لم يتغيروا ولذلك يصدر ضدهم الحكم ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ والطغيان هو تجاوز الحد ، وهم قد

تجاوزوا الحد هنا في استقبال الآيات ، فقد جاءتهم آيات القرآن وعجزوا عن أن يأتوا بمثلها ، وعجزوا عن أن يأتوا بعشر سور ، وعجزوا عن أن يأتوا بسورة ، وكان يجب ألا يطغوا ، وألا يتجاوزوا الحد في طلب الاقتناع بصدق الرسول .

﴿ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ و" العمه " هو التردد والحيرة ، وهم في طغيانهم يترددون ، لأن فيهم فطرة تستيقظ ، وكفرا يلح ؛ يقولون لأنفسهم : أنؤمن أو لا نؤمن ؟ والفطرة التي تستيقظ فيهم تلمع كومضات البرق ، وكان يجب ألا يترددوا : أو ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ ﴾ في النار ؛ لأن البصر لم يؤد مهمته في الاعتبار ، والقلب لم يؤد في الفقه عن الله ، فيجازيهم الله من جنس ما عملوا بأن يقلب أبصارهم وقلوبهم في النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(50/246)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (109) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ

مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (110) ﴾

أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : أنزلت في قريش ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم ﴾ يا معشر المسلمين ﴿ أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ إلا إن يشاء الله فيجبرهم على الإِسلام .

وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال "كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً فقالوا : يا محمد تخبرنا أن موسى كان معه عصاً يضرب بها الحجر ، وأن عيسى كان يُحيي الموتى ، وأن ثمود كان لهم ناقة ، فأتنا من الآيات حتى نصدقك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي شيء تحبون أن آتيكم به ؟ قالوا : تجعل لنا الصفا ذهباً . قال : فإن فعلت تصدقوني ؟ قالوا : نعم . والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعون . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو ، فجاءه جبريل فقال له : إن شئت أصبح ذهباً . فإن لم يصدقوا عند ذلك لنعذبنهم ، وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم ؟ فقال : بلى يتوب تائبهم . فأنزل الله ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾ إلى قوله ﴿ يجهلون ﴾ " .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ﴾ في المستهزئين هم الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية ، فنزل فيهم ﴿ وأقسموا بالله ﴾ حتى ﴿ ولكن أكثرهم يجهلون ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة عن مجاهد قال : القسم يمين ، ثم قرأ ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم

﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس قال : القسم يمين .

(51/246)

---

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ﴾ قال : سألت قريش محمداً صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بآية فاستحلفهم ليؤمنن بها ﴿ قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم ﴾ قال : ما يدريكم ، ثم أوجب عليه أنهم لا يؤمنون ﴿ ونقلب أفئدتهم ﴾ قال : نحول بينهم وبين الأيمان لو جاءتهم كل آية كما حلنا بينهم وبينه أول مرة ﴿ ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ قال : يترددون .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ من وجه آخر عن مجاهد في قوله ﴿ وما يشعركم ﴾ قال : وما يدريكم أنكم تؤمنون إذا جاءت ، ثم استقبل يخبر فقال : أنها إذا جاءت لا يؤمنون .

وأخرج أبو الشيخ عن النضر بن شميل قال : سأل رجل الخليل بن أحمد عن قوله ﴿ وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ فقال : إنها لعلها ألا ترى أنك تقول : اذهب إنك تأتينا بكذا وكذا ، يقول : لعلك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ قال : لما جحد المشركون ما أنزل الله لم تثبت قلوبهم على شيء ، وردت عن كل أمر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله ﴿ ونقلب أفئدتهم . . . ﴾ الآية . قال : جاءهم محمد بالبينات فلم يؤمنوا به ، فقلبنا أبصارهم وأفئدتهم ولو جاءتهم كل آية مثل ذلك لم يؤمنوا إلا أن يشاء الله .

وأخرج ابن المبارك وأحمد في الزهد وابن أبي شيبة والبيهقي في شعب الإِيمان وابن عسكر عن أم الدرداء . أن أبا الدرداء لما احتضر جعل يقول : من يعمل لمثل يومي هذا : من يعمل لمثل ساعتي هذه ، من يعمل لمثل مضجعي هذا ، ثم يقول ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ ثم يغمى عليه ، ثم يفيق فيقولها حتى قبض . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

*(52/246)*

---

ومن فوائد السمرقندى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ يعني بياناً من ربكم وهو القرآن الذي فيه البيان ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ﴾ يقول : من صدق بالقرآن وآمن به فثوابه لنفسه ، ﴿ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ يعني : من لم يصدق بالقرآن ولم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فعليها جزاء العذاب ﴿ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ يعني : بمسلط وهذا قبل أن يؤمر بالقتال .

ثم قال : ﴿ وكذلك نُصَرِّفُ الآيات ﴾ يعني : نبين لهم الآيات في القرآن في كل وجه .

﴿ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ دَارَسْتَ ﴾ يعني : ذاكرت أهل الكتاب وقرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي ﴿ الآيات وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾ يعني : قرأت الكتب .

ويقال : تعلمت من جبر ويسار وكانا غلامين بمكة عبرانيين فقال أهل مكة : إنما يتعلم منهما وقرأ ابن عامر ﴿ دَرَسْتَ ﴾ بنصب الراء والسين يعني : هذا شيء قديم قد خلفت وقرأ بعضهم ﴿ دَرَسْتَ ﴾ أي قرئت .

وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ ﴿ لِّيَقُولُواْ ﴾ بغير واو ﴿ درس ﴾ بغير تاء يعني : لكي يقولوا دَرَسَ النبي صلى الله عليه وسلم .

وكان نزول هذه الآيات سبباً لقولهم هذا ، فأضاف قولهم إلى الآيات .

ثم قال ﴿ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني : أصحاب محمد عليه السلام .

ثم قال : ﴿ اتبع مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ يعني : اعمل بما أنزل إليك من ربك من أمره

ونهيه حين دعي إلى ملة آبائه .

ثم قال ﴿ لا إله إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين ﴾ يعني : اتركهم على ضلالتهم .

ثم قال ﴿ وَلَوْ شَاء الله مَا أَشْرَكُواْ ﴾ يقول : ولو شاء الله لجعلهم مؤمنين .

ويقال : لو شاء لأنزل عليهم آية يؤمنوا بها لو شاء لاستأصلهم فقطع سبب شركهم .

*(53/246)*

---

﴿ وَمَا جعلناك عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ﴾ يعني : أن لم يوحّدوا ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ يعني : بمسلط وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَسُبُّواْ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كان يذكرون الأصنام بسوء ويذكرون عيبهم ، فقال المشركون : لتنتهين عن شتم آلهتنا ، أو لنسبنّ ربك .

فنهى الله تعالى المؤمنين عن شتم آلهتهم عندهم لأنهم جهلة .

﴿ فَيَسُبُّواْ الله عَدْواً ﴾ يعني : اعتداءً ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ يعني : بلا علم منهم ويقال : ﴿ عَدُوّا ﴾ يعني : ظلماً صار نصباً بالمصدر ، وفي الآية دليل أن الإنسان إذا أراد أن يأمر بالمعروف فيقع المأمور به في أمر هو شر مما هو فيه من الضرب أو الشتم أو القتل ، ينبغي أن لا يأمره ويتركه على ما هو فيه .

ثم قال : ﴿ كَذَلِكَ زَيَّنَّا ﴾ يقول : هكذا زينا ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ يعني : لكل أهل دين عملهم يعني : ضلالتهم في الدنيا عقوبة ومجازاة لهم ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَّرْجِعُهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ يعني : فيجازيهم بذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ وكان أهل الجاهلية يحلفون بآبائهم وبالأصنام وبغير ذلك ، وكانوا يحلفون بالله تعالى ، وكان يسمونه جهد اليمين إذا كانت اليمين بالله ، ولما نزل قوله تعالى ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [ الشعراء : 4 ] الآية قالوا : أنزلها فوالله لنؤمنن بك .

وقال المسلمون : أنزلها لكي يؤمنوا فنزل ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ يقول : حلفوا بالله ﴿ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ﴾ إن شاء أنزلها وإن شاء لم ينزلها .

*(54/246)*

---

ثم قال : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا ﴾ يقول : وما يدريكم أنها ﴿ إِذَا جَاءَتْ ﴾ يعني : الآية ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ وقال مقاتل : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ يا أهل مكة أنها إذا جاءتكم لا تؤمنون .

وقال الكلبي ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ .

أيها المؤمنون أنها إذا جاءت لا يؤمنون .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر ﴿ أَنَّهَا ﴾ بالكسر على معنى الابتداء وإنما يتم الكلام عند قوله ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ ثم ابتدأ فقال : ﴿ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

ويشهد لهذا قراءة عبد الله بن مسعود ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

وقرأ الباقون ﴿ أَنَّهَا ﴾ بالنصب على معنى البناء ويشهد لها قراءة أُبي وما يشعركم لعلها إذا جاءت .

وقرأ ابن عامر وحمزة ﴿ لاَ تُؤْمِنُونَ ﴾ بالتاء على معنى المخاطبة ، وهذه القراءة توافق لقول مقاتل .

ثم قال : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وأبصارهم ﴾ يعني : نترك قلوبهم وأبصارهم مغلقة كما هي ولا أوفقهم .

﴿ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ قبل نزول الآيات ويقال عند انشقاق القمر : لما لم يعتبروا به ولم يؤمنوا فعاقبهم الله تعالى وختم على قلوبهم فثبتوا على كفرهم .

﴿ وَنَذَرُهُمْ ﴾ يقول : وندعهم ﴿ فِي طغيانهم ﴾ يعني : في ضلالتهم ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ يعني : يترددون ويتحيرون فيه .

ويقال : ﴿ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ يعني : كما لم يؤمن به أوائلهم من الأمم الخالية لما سألوا الآية من أنبيائهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(55/246)

---

ومن فوائد الثعلبى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَجَعَلُواْ ﴾ يعني الكافرين ﴿ للَّهِ شُرَكَآءَ الجن ﴾ يعني وجعلوا للّه الجن شركاء ، وإن شئت نصبته على التفسير ﴿ وَخَلَقَهُمْ ﴾ يعني وهو خلقهم وخلق الجن .

وقرأ يحيى بن معمر : وخلقهم بسكون اللام وفتح القاف أراد إفكهم وادّعاءهم ما يعبدون من الأصنام حيث جعلوها شركاء للّه عز وجل يعني وجعلوا له خلقهم .

وقرأيحيى بن وثاب : وخلقهم بسكون اللام وكسر القاف ، يعني جعلوا للّه شركاء ولخلقهم أشركوهم مع اللّه في خلقه إياهم .

(56/246)

---

وقال الكلبي : نزلت في الزنادقة قالوا : إن اللّه وإبليس شريكان ، واللّه خالق النور والناس والدواب والأنعام . وإبليس خالق الظلمة والسباع والعقارب والحيّات ، وهذا كقوله ﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجنة نَسَباً ﴾ [ الصافات : 158 ] يعني في الجنة ، وهم صنف من الملائكة خزان الجنان أشق لهم منهم صنف من الجن ﴿ وَخَرَقُواْ ﴾ أي اختلفوا وخرصوا .

وقرأ أهل المدينة : بكثرته وخرّقوا على التكثير ﴿ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ وهم كفار مكة ، قالوا : الملائكة والأصنام بنات اللّه . واليهود قالوا : عزير ابن اللّه . والنصارى قالوا : المسيح ابن اللّه ثم نزّه نفسه . وقال تعالى ﴿ سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ السماوات والأرض أنى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَّهُ صَاحِبَةٌ ﴾ زوجة ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ أجراه بعضهم على العموم فقال : معناه لا تحيط به الأبصار بل تراه وهو يحيط بها .

قال اللّه عز وجل ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ [ طه : 110 ] فكما تعرفه في الدنيا لا كالمعروفين فكذلك تراه في العقبى لا كالمرئيين .

قالوا : وقد ترى الشيء ولا تدركه كما أخبر اللّه تعالى عن قول أصحاب موسى ( عليه السلام ) حين قرب منهم فرعون ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [ الشعراء : 61 ] وكان قوم فرعون قد رأوا قوم موسى ولم يدركوهم لأن اللّه تعالى قد وعد نبيه موسى ( عليه السلام ) إنهم لا

يدركون بقوله ﴿ لاَّ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تخشى ﴾ [ طه : 77 ] .

وكذلك قال سعيد بن المسيب : لا تحيط به الأبصار . وقال عطاء : كلّت أبصار المخلوقين عن الإحاطة به .

وقال الحسن : لا تقع عليه الأبصار ولا تدلّ عليه العقول ولا يدركه الإذعان .

*(57/246)*

---

يدلّ عليه ما روى عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار ﴾ . قال : " لو أن الجن والإنس والشياطين والملائكة منذ خلقوا إلى أن فنوا صفوا صفاً واحداً ما أحاطوا بالله أبداً " .

وأجراه بعضهم على النصوص . قال ابن عباس ومقاتل : معناه لا تدركه الأبصار في الدنيا وهو يرى في الآخرة ﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار ﴾ لا يخفى عليه شيء ولا يفوته .

وقيل : معناه لا تدركه أبصار الكافرين ، فأما المؤمنون فيرونه ، والله أعلم ﴿ وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ .

قال أبو العالية : لطيف باستخراج الأشياء خبير بها .

وقال أكثر العلماء في معنى اللطيف . فقال الجنيد : اللطيف : من نوّر قلبك بالهدى وربي

جسمك بالغدا ، وجعل لك الولاية في البلوى ويحرسك من لظى ويدخلك جنة المأوى .

وقيل : اللطيف الذي أنسى العباد ذنوبهم لئلاّ يخجلوا . وقيل : الذي ركّب من النطفة من ماء مهين وقيل : هو الذي يستقل الكثير من نعمه ويستكثر القليل من طاعة عباده .

قتادة : وقيل : اللطيف الذي يُغِير ولا يُغَير . وقيل : اللطيف الذي إن رجوته لبّاك وأن قصدته آواك ، وإن أحببته أدناك وإن أطعته كافاك ، وإن عصيته عافاك وإن أعرضت عنه دعاك ، وإن أقبلت إليه عداك .

وقيل : اللطيف : الذي لا يطلب من الأحباب الأحساب والأنساب . وقيل : اللطيف : الذي يغني المفتقر إليه ويعز المفتخر به . وقيل : اللطيف : من يكافي الوافي ويعفو عن الباقي . وقيل : اللطيف : من أمره تقريب ونهيه تأريب .

وقيل : اللطيف : الذي يكون عطاؤه خير ومنعه ذخيرة . وأصل اللطيف دقة النظر في جميع الأشياء ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ يعني الحجج البينة التي يبصرون بها الهدى من الضلال والحق من الباطل .

قال الكلبي : يعني بينات القرآن .

*(58/246)*

﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ ﴾ يعني عرفها وآمن بها ﴿ فَلِنَفْسِهِ ﴾ عمل وحظه أصاب وإياها بغى الخير ﴿ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ عنها فلم يعرفها ولم يصدقها .

وقرأ طلحة بن مصرف : ومن عُمّي بضم العين وتشديد الميم على المفعول التي تدل عليها ، يقول : فنفسه ضر وإليها أساء لا إلى غيره ﴿ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ رقيب أحصي إليكم أعمالكم وإنما أنا رسول أبلغكم رسالات ربي وهو الحفيظ عليكم الذي لا يخفى عليه شيء من أفعالكم ﴿ وكذلك نُصَرِّفُ الآيات ﴾ نبينها في كل وجه لندعوكم بها ﴿ وَلِيَقُولُواْ ﴾ وليلاً يقولوا إذا قرأت عليهم القرآن ﴿ دَرَسْتَ ﴾ أي تلوت وقرأت يا محمد بغير ألف قرأه جماعة منهم أبي رجاء وأبي وائل والأعرج ومعظم أهل العراق وأهل الحجاز ، وكان عبد اللّه بن الزبير يقول : إن صبياناً يقرأونها دارست بالألف وإنما هي درست .

وقرأ علي ومجاهد وابن كثير وأبو عمرو : دارست بالألف يعني قارأت أهل الكتاب وتعلمت منهم تقرأ عليهم يقرأوا عليك .

وقال ابن عباس : يعني جادلت وخاصمت ، وكذلك كان يقرأها ، وقرأ قتادة : درست بمعنى قرئت وتليت .

وقرأ الحسن وابن عامر ويعقوب : درست بفتح الدال والراء وجزم التاء بمعنى تقادمت وانمحت وقرأ ابن مسعود وأبي طلحة والأعمش : درس بفتحها يعنون النبي درس الآيات ﴿ وَلِنُبَيِّنَهُ ﴾ يعني القول والتحريف والقرآن ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * اتبع ﴾ يا محمد ﴿ مَآ

أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ يعني القرآن إعمل به ﴿ لا إله إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين ﴾ فلا تجادلهم ولا تعاقبهم ﴿ وَلَوْ شَآءَ الله مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ﴾ رقيباً . ويقال رباً . قال عطاء : وما جعلناك عليهم حفيظاً تمنعهم مني ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ والإعراض منسوخ بآية السيف . وهذه الآية نزلت حين قال المشركون لرسول اللّه صلى الله عليه وسلم إلى دين آبائك .

*(59/246)*

---

﴿ وَلاَ تَسُبُّواْ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ .

قال ابن عباس : لما نزلت هذه الآية ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [ الأنبياء : 98 ] . قال المشركون : يا محمد لتنتهينّ عن سبّ الهتنا أو لنهجون ربك فنهاهم اللّه تعالى أن يسبوا أوثانهم .

قال قتادة : كان المسلمون يسبون أصنام الكفار فنهاهم اللّه عن ذلك كيلا يسبوا اللّه فإنهم قوم جهلة .

وقال السدي : " لما حضرت أبا طالب الوفاة ، قالت قريش : إنطلقوا فلندخل على هذا الرجل ولنأمرنّه أن ينهى عنا ابن أخيه فإنا نستحي أن نقتله بعد موته فيقول العرب : كان

يمنعه فلما مات قتلوه ، فانطلق أبو سفيان ، وأبو جهل ، والنضر بن الحرث ، وأمية وأبي بن أخلف ، وعقبة بن أبي معيط ، وعمرو بن العاص ، والأسود بن البحتري ، إلى أبي طالب فقالوا : يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا وإن محمداً قد آذانا وآذى الهتنا فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر الهتنا ولندعه وإلهه ، فدعاه فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال له أبو طالب : هؤلاء قومك وبنو عمك ، قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم " ما يريدون ؟ قالوا : نريد أن تدعنا وآلهتنا وندعك وإلهك " .

قال : قد أنصف قومك ، فاقبل منهم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم " أرأيتم إن أعطيتكم هذا هل أنتم معطيّ كلمة إن تكلمتم بها ملكتم العرب ودانت لكم بها العجم " .

قال أبو جهل : نعم وأبيك لنعطينكها وعشراً أمثالها فما هي ؟ قال : قولوا : لا إله إلاّ اللّه ، فأبوا واشمأزّوا .

وقال أبو طالب : قل غيرها يا ابن أخي ، فإن قومك قد فزعوا منها . فقال : " يا عم ما أنا بالذي أقول غيرها ولو أتوني بالشمس فوضعوها في يدي ما قلت غيرها " .

فقالوا : لتكفّنّ عن شتمك آلهتنا أو لنشتمن من يأمرك . فأنزل اللّه تعالى ﴿ وَلاَ تَسُبُّواْ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ من الأوثان ﴿ فَيَسُبُّواْ الله عَدْواً ﴾ " .

وقرأ أبو رجاء والحسن وقتادة ويعقوب : عدواً بضم العين والدال وتشديد الواو أي أعداء الله .

" ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ فلما نزلت هذه الآية ، قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم لأصحابه لا تسبوا ربهم " فأمسك المسلمون عن سبّ آلهتهم " .

﴿ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ يعني كما زيّنا لهؤلاء المشركين عبادة الأوثان وطاعة الشيطان ، الحرمان والخذلان كذلك زيّنا لكل أمة عملهم من الخير والشر والطاعة والمعصية ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ ﴾ يخبرهم ويجازيهم ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ .

قال محمد بن كعب القرضي والكلبي : " قالت قريش : يا محمد تخبرنا بأن موسى كان معه عصا يضرب بها الحجر فتنفجر منه اثنتا عشرة عيناً ، وتخبرنا أن عيسى كان يحيي الموتى ، وتخبرنا أن ثمود كانت لهم ناقة فأتنا من الآيات حتى نصدقك . قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم " أي شيء تحبون أن آتيكم به ؟ " .

قالوا : تجعل لنا الصفا ذهباً وابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم عنك أحق ما تقول أم باطل ، وأرنا الملائكة يشهدون لك أو ائتنا باللّه والملائكة قبيلاً . فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم " لئن فعلت بعض ما تقولون تصدقوني " قالوا : نعم واللّه لئن فعلت نتبعك أجمعين .

وسأل المسلمون رسول اللّه صلى الله عليه وسلم أن ينزلها عليهم حتى يؤمنوا ، فقام رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يدعو اللّه أن يجعل الصفا ذهباً ، فجاء جبرئيل عليه السلام فقال له : إن شئت أصبح ذهباً ولكن إن لم يصدقوا عذبتهم فإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم . فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم " بل يتوب تائبهم " فأنزل اللّه تعالى ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ "

يعني أوكد ما قدروا عليه من الايمان وحدها .

*(61/246)*

---

قال الكلبي ومقاتل : إذا حلف الرجل باللّه سبحانه فهو جهد بيمينه . ﴿ لَئِن جَآءَتْهُمْ آيَةٌ ﴾ كما جاء من قبلهم من أمم ﴿ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ إِنَّمَا الآيات عِندَ الله ﴾ وهو القادر على إتيانها دوني ودون كل من خلقه . ثم قال ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ وما يدريكم فحذف المفعول وما أدريكم ، واختلفوا في المخاطبين ، بقوله ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ حسب اختلافهم في قراءة قوله ﴿ أَنَّهَآ ﴾ . فقال بعضهم : إن الخطاب للمشركين الذين أقسموا وتمّ الكلام عند قوله وما يشعركم ، ثم إستأنف ، فقال : إنها يعني الآيات ﴿ إِذَا جَآءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ حكم عليهم بأنهم لا يؤمنون .

وقرؤا : ﴿ أَنَّهَآ ﴾ بالكسر على الإبتداء ، وهو في قراءة مجاهد وقتادة وابن محيصن وابن كثير وشبل وأبي عمر والجحدري .

وقال آخرون : الخطاب لرسول اللّه صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقرأوا : أنها بالفتح وجعلوا " لا " صلة يعني وما يدريكم يا معشر المؤمنين أنها إذا جاءت المشركين لا يؤمنون كقوله ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ [ الأعراف : 12 ] يعني : أن تسجد ، وقوله ﴿ وَحَرَامٌ على قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَآ أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴾ [ الأنبياء : 95 ] يعني إنهم يرجعون . وقيل : معنى إنها : لعلها وكذلك هي قراءة أُبيّ ، تقول العرب : إذهب إلى السوق إنك تشتري شيئاً بمعنى لعلك تمر .

وقال عدي بن زيد :

أعاذل ما يدريك أن منيتي . . . إلى ساعة في اليوم أو في ضحى الغد

يعنى : لعلّ منيّتي .

وقال دريد بن الصمة :

ذريني أطوف في البلاد لأنّني . . . أرى ما ترين أو بخيلا مخلدا

يعني : لعلّني .

وقال أبو النجم :

قلت لسينان أدن من لقائه . . . إنا نغدي القوم من سرائه

أي ثعلباً تغدي .

وقرأ ابن عامر والسدي وحمزة : ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ بالتاء على [ حساب ] الكفار وما يشعركم ، واعتبر بقراءة أُبيّ : لعلكم إذا جاءكم لا يؤمنون .

(62/246)

---

وقرأ الباقون : بالياء على الخبر وتصديقها قراءة الأعمش إنّها إذا جاءتهم لا يؤمنون ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ .

قال ابن عباس وابن زيد : يعني نحول بينه وبين الإيمان . ولو جئناهم بالآيات التي سألوا ما آمنوا بها كما لم يؤمنوا بالتي قبلها مثل انشقاق القمر وغيره عقوبة لهم على ذلك .

وقيل : كما لم يؤمنوا به في الدنيا قبل مماتهم . نظيره قوله تعالى ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ [ الأنعام : 28 ] ﴿ وَنَذَرُهُمْ ﴾ قرأ أبو رجاء : ويذرهم بالياء . وقرأ النخعي : ويقلب ويذرهم كلاهما بالياء ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

ومن فوائد ابن جزى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ قَدْ جَآءَكُمْ بَصَآئِرُ ﴾ جمع بصيرة ، وهو نور القلب ، والبصر نور العين ، وهذا الكلام على لسان النبي صلى الله عليه وسلم وما أنا عليك بحفيظ ﴿ وَلِيَقُولُواْ ﴾ متعلق بمحذوف تقديره : ليقولوا صرفنا الآيات ﴿ دَرَسْتَ ﴾ بإسكان السين وفتح التاء درست العلم وقرأته ، ودارَسْتَ بالألف أي دارست العلم وتعلمت منه ، ودرست بفتح السين وإسكان التاء بمعنى قدمت هذه الآيات ودبرت ﴿ وَلِنُبَيِّنَهُ ﴾ الضمير للآيات وجاء مذكراً لأن المراد بها القرآن ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين ﴾ إن كان معناه : أعرض عما يدعونك إليه ؛ أو عن مجادلتهم فهو محكم ، وإن كان عن قتالهم وعقابهم فهو منسوخ . وكذلك ما أنا عليكم بحفيظ وبوكيل .

*(63/246)*

---

﴿ وَلاَ تَسُبُّواْ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ أي لا تسبوا آلهتهم فيكون ذلك سبباً لأن يسبوا الله ، واستدل المالكية بهذا على سدّ الذرائع ﴿ قُلْ إِنَّمَا الآيات عِندَ الله ﴾ أي هي بيد الله لا بيدي ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ أي ما يدريكم ، وهو من الشعور بالشيء ، وما نافية أو استفهامية ﴿ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ من قرأ بفتح أنها فهو معمول يشعركم : أي ما يدريكم أن الآيات إذا جاءتهم لا يؤمنون بها ، نحن نعلم ذلك وأنتم لا تعلمونه وقيل : لا

زائدة ، والمعنى ما يشعركم أنهم يؤمنون ، وقيل : أن هنا بمعنى لعل فمن قرأ بالكسر فهي استئناف إخبار وتم الكلام في قوله : وما يشعركم أي ما يشعركم ما يكون منهم فعلى القراءة بالكسر يوقف على ما يشعركم . وأما على القراءة بالفتح فإن كانت مصدرية لم يوقف عليه لأنه عامل فيها ، وإن كانت بمعنى لعل فأجاز بعض الناس الوقف . ومنعه شيخنا أبو جعفر بن الزبير ، لما في لعل من معنى فأجاز بعض الناس الوقف . ومنعه شيخنا أبو جعفر بن الزبير ، لما في لعل من معنى التعليل ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وأبصارهم ﴾ أي نطبع عليها ونصدها عن الفهم فلا يفهمون ﴿ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ ﴾ الكاف للتعليل أي : نطبع على أفئدتهم وأبصارهم عقوبة لهم على أنهم لا يؤمنون به أول مرة ، ويحتمل أن تكون للتشبيه ، أن تطبع عليها إذا رأوا الآيات مثل طبعنا عليها أول مرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 2 صـ 18 ﴾

ومن فوائد الخطيب الشربينى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وجعلوا شركاء الجنّ ﴾ أي : الشياطين لأنهم أطاعوهم في عبادة الأوثان فجعلوها شركاء الله .

فإن قيل : لله مفعول ثان لجعلوا وشركاء مفعول أوّل ويبدل منه الجنّ فما فائدة التقديم ؟

أجيب : بأنّ فائدته استعظام أن يتخذ لله شريك من جنّ أو إنس أو ملك فلذلك قدم اسم الله تعالى على الشركاء ، وقيل : المراد بالجنّ الملائكة بأن عبدوهم وقالوا : الملائكة بنات الله وسماهم جناً لاجتنانهم تحقيراً لشأنهم ، وقال الكلبيّ : نزلت في الزنادقة أثبتوا الشركة لإبليس في الخلق فقالوا : الله خالق النور والناس والدواب والأنعام وإبليس خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب فيقولون : هو شريك الله في تدبير هذا العالم فما كان من خير فمن الله وما كان من شر فمن إبليس تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً وقوله تعالى :

﴿ وخلقهم ﴾ حال بتقدير قد والضمير إمّا أن يعود إلى الجنّ فيكون المعنى والله خلق الجنّ فكيف يكون شريك الله عز وجلّ محدثاً مخلوقاً وإمّا أن يعود إلى الجاعلين لله شركاء فيكون المعنى وجعلوا لله الذي خلقهم شركاء لا يخلقون شيئاً وهذا كالدليل القاطع بأنّ المخلوق لا يكون شريكاً لله وكل ما في الكون محدث مخلوق والله تعالى خالق لجميع ما في الكون فامتنع أن يكون لله شريك في ملكه ﴿ وخرقوا ﴾ قرأه نافع بتشديد الراء ، والباقون بالتخفيف ، أي : اختلقوا ﴿ له بنين وبنات بغير علم ﴾ وهو قول أهل الكتابين في المسيح وعزير وقول قريش في الملائكة يقال : خلق الإفك وخرقه واختلقه واخترقه بمعنى وسئل الحسن عنه فقال : كلمة غريبة كانت العرب تقولها ، كان الرجل إذا كذب كذبة في نادي القوم يقول له

بعضهم : قد خرقها والله ﴿ سبحانه ﴾ تنزيهاً له ﴿ وتعالى عما يصفون ﴾ بأن له شريكاً أو ولداً

(65/246)

---

﴿ بديع السموات والأرض ﴾ أي : مبتدعهما من غير سبق مثال ورفع بديع على الخبر والمبتدأ محذوف أي : هو بديع أو على الابتداء والخبر ﴿ أنى يكون له ولد ﴾ أي : من أين يكون له ولد ﴿ ولم تكن له صاحبة ﴾ يكون منها الولد لأنّ الولد لا يكون إلا من صاحبة أنثى ﴿ وخلق كل شيء ﴾ أي : من شأنه أن يخلق ﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾ لا تخفى عليه خافية ، وفي الآية استدلال على نفي الولد من وجوه : الأوّل : إنه مبدع السموات والأرض وهي أجسام عظيمة من جنس ما يوصف بالولادة لكونها مخلوقة لا يستقيم أن توصف بالولادة لاستمرارها وطول مدّتها ومخترع الأجسام لا يكون جسماً حتى يكون والدا ، الثاني : أن الولادة لا تكون إلا من ذكر وأنثى مجانسين وهو متعال عن مجانس فلم يصح أن تكون له صاحبة فلم تصح الولادة ، والثالث : أنه ما من شيء إلا وهو خالقه والعالم به ومن كان بهذه الصفة كان غنياً عن كل شيء والولد إنما يطلبه المحتاج ، وقوله تعالى: ﴿ ذلكم ﴾ إشارة إلى الموصوف بما سبق من الصفات وهو مبتدأ وقوله تعالى : ﴿ الله

ربكم لا إله إلا هو خالق كلّ شيء ﴾ أخبار مترادفة ويجوز أن يكون البعض في غير الله تعالى بدلاً أو صفة لأنّ الله تعالى أوّل وليس بصفة والبعض خبراً وقوله تعالى :

﴿ فاعبدوه ﴾ مسبب عن مضمون ذلك فإنّ من استجمع هذه الصفات استحق العبادة ﴿ وهو على كل شيء وكيل ﴾ أي : وهو مع تلك الصفات مالك لكل شيء من الأرزاق والآجال رقيب على الأعمال فيجازي عليها ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ جمع بصر وهي حاسة النظر وقد يقال للعين من حيث إنها محلها والإدراك إحاطة بكنه الشيء وحقيقته وتمسك بظاهر هذه الآية قوم من أهل البدع وهم الخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة وقالوا : إنّ الله تبارك وتعالى لا يراه أحد من خلقه وإن رؤيته مستحيلة عقلاً لأنّ الله تعالى أخبر أنّ الأبصار لا تدركه وإدراك البصر عبارة عن الرؤية إذ لا فرق بين قولك أدركته ببصري ورأيته ببصري فثبت بذلك أنّ لا تدركه الأبصار بمعنى لا تراه

*(66/246)*

---

الأبصار وهذا يفيد العموم ومذهب أهل السنة إن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وفي الجنة واستدلوا لمذهبهم بأشياء من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة ومن بعدهم من السلف فمن الكتاب قوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ (القيامة ، )

ففي هذه الآية دليل على أنّ المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة ، وقال تعالى : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون ﴾ (المطففين ، )

قال الشافعي رضي الله تعالى عنه : حجب قوماً بالمعصية وهي الكفر فثبت أنّ قوماً يرونه بالطاعة وهي الإيمان ، وقال مالك رضي الله تعالى عنه : لو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يعير الله تعالى الكفار بالحجاب وقال تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ (يونس ، ) وهذه الزيادة مفسرة بالنظر إلى الله تعالى يوم القيامة ومن السنة ما روي عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله تعالى عنه قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال : إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا" ثم قرأ : ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ﴾ (طه ، )

*(67/246)*

---

ومنها أنّ ناساً قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم "هل تضامون في القمر ليلة البدر ـ أي : هل تشكّون ؟ " قالوا : لا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "فإنكم ترونه كذلك" وعن أبي رزين العقيلي رضي الله عنه قال

: قلت يا رسول الله أكلنا يرى ربه مخلياً به يوم القيامة ؟ قال : "نعم" قلت : وما آية ذلك من خلقه ؟ قال : "يا أبا رزين أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر مخلياً به ؟" قلت : بلى ، قال : "فالله أعظم إنما هو خلق من خلق الله ـ أي : القمر ـ فالله أعظم وأجل" واحتج أهل السنة أيضاً على جواز رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة بقول كليم الله موسى عليه السلام : ﴿ رب أرني أنظر إليك ﴾ (الأعراف ، )

إذ لا يسأل نبيّ ما لا يجوز أو يمتنع وقد علق الله تعالى الرؤية على استقرار الجبل بقوله تعالى : ﴿ فإن استقرّ مكانه فسوف تراني ﴾ (الأعراف ، )

واستقرار الجبل جائز والمعلق على الجائز جائز وأمّا قول المتمسكين بظاهر الآية وإنّ الإدراك بمعنى الرؤية فممنوع لأنّ الإدراك هو الوقوف على كنه الشيء والإحاطة به والرؤية المعاينة وقد تكون المعاينة بلا إدراك قال الله تعالى في قصة موسى عليه السلام : ﴿ قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا ﴾ (الشعراء ) وكان قوم فرعون قد رأوا قوم موسى ولم يدركوهم فنفى موسى عليه السلام الإدراك مع ثبوت الرؤية فالله تعالى يصح أن يرى من غير إدراك ولا إحاطة كما يعرف في الدنيا ولا يحاط به قال تعالى : ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ فنفي الإحاطة مع ثبوت العلم ، قال سعيد بن المسيب : لا تحيط به الأبصار وقال عطاء : كلت أبصار ، المخلوقين عن الإحاطة به ، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ومقاتل : لا تدركه الأبصار في الدنيا وهو يرى في الآخرة ، وظاهر هذا التسوية بين الإدراك

والرؤية ويدل على هذا التخصيص قوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ (القيامة ، ، )

(68/246)

---

فقوله : ناظرة مقيد بيوم القيامة ويكون هذا جمعاً بين الآيتين ﴿ وهو يدرك الأبصار ﴾ أي : يراها أو يحيط بها علماً فلا يخفى عليه شيء ولا يفوته شيء ﴿ وهو اللطيف الخبير ﴾

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : اللطيف بأوليائه الخبير بهم ،

وقال الزهري : اللطيف الرفيق بعباده ، وقيل : اللطيف الموصل الشيء بالرفق واللين ،

وقيل : اللطيف الذي ينسي العباد ذنوبهم لئلا يخجلوا .

﴿ قد جاءكم بصائر ﴾ جمع بصيرة أي : حجج ﴿ من ربكم ﴾ تبصرون بها الهدى من الضلالة والحق من الباطل ﴿ فمن أبصر ﴾ أي : عمل بالأدلة ﴿ فلنفسه ﴾ أي : خاصة إبصاره لأنه خلصها من الضلال إلى الهدى ﴿ ومن عمي ﴾ أي : لم يهد بالأدلة

﴿ فعليها ﴾ أي : خاصة عماه لأنه يضل فلا يضر إلا نفسه ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ أي : برقيب لأعمالكم وإنما أنا منذر والله تعالى هو الرقيب عليكم يحفظ أعمالكم ويجازيكم عليها .

﴿ وكذلك ﴾ أي : كما بينا ما ذكر ﴿ نصرّف ﴾ أي : نبيّن ﴿ الآيات ﴾ من حال إلى حال في المعاني المتنوّعة سالكين من وجوه البراهين بما يفوت القوى ويعجز القدر ليعتبروا ﴿ وليقولوا ﴾ اعتذاراً عند ظهور عجزهم ﴿ دارست ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بألف بين الدال والراء أي : ذاكرت أهل الكتاب ، والباقون بغير ألف أي : درست كتب الماضين وجئت بهذا منها ، وقرأ ابن عامر بفتح السين وسكون التاء من الدروس أي : هذه الآيات التي تتلوها علينا قديمة قد درست وانمحت كقولهم : أساطير الأوّلين ، وقيل : اللام فيه لام العاقبة أي : عاقبة أمرهم أن يقولوا : دارست أي : قرأت على غيرك ، وقيل : قرأت كتب أهل الكتاب كقوله تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّاً وحزناً ﴾ (القصص ، ) ﴿ ولنبينه ﴾ أي : الآيات وذكر الضمير لأنها في معنى القرآن كأنه قيل : وكذلك نصرّف القرآن أو القرآن وإن لم يجر له ذكر لكونه معلوماً أو إلى التبيين الذي هو مصدر الفعل كقولهم : ضربته زيداً ﴿ لقوم يعلمون ﴾ فإنهم المنتفعون به .

وقوله تعالى:

﴿ اتبع ﴾ خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم أي : اتبع يا محمد ﴿ ما أوحي إليك ﴾ أي : القرآن فالزم العمل به ، ثم أكد مدحه بقوله : ﴿ من ربك ﴾ أي : المحسن إليك بهذا البيان ، وقوله تعالى : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ اعتراض أكد به إيجاب الاتباع لما في كلمة التوحيد من التمسك بحبل الله والاعتصام به والإعراض عما سواه ، وقول البيضاوي : أو حال مؤكدة من ربك بمعنى منفرداً في الألوهية مبني على جواز تأكيد الجملة الفعلية بالإسمية وهو نادر ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ ولا تحتفل بأقوالهم ولا تلتفت إلى رأيهم ، ومن جعله منسوخاً بآية السيف حمل الإعراض على ما يعمّ الكف عنهم .

﴿ ولو شاء الله ﴾ إيمانهم وعدم إشراكهم ﴿ ما أشركوا ﴾ وهذا نص صريح في أن شركهم كان بمشيئة الله تعالى خلافاً للمعتزلة في قولهم : لم يرد الله من أحد الكفر والشرك والآية ردّ عليهم ﴿ وما جعلناك عليهم حفيظاً ﴾ أي : رقيباً فتجازيهم بأعمالهم ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ أي : فتجبرهم على الإيمان وهذا قبل الأمر بالقتال .

﴿ ولا تسبوا الذين يدعون ﴾ أي : يعبدون ﴿ من دون الله ﴾ وهي الأصنام أي : ولا تذكروا آلهتهم التي يعبدونها بما فيها من القبائح ﴿ فيسبوا الله عدواً ﴾ أي : اعتداءً وظلماً ﴿ بغير علم ﴾ أي : جهلاً منهم بالله وبما يجب أن يذكر به .

روي أنه صلى الله عليه وسلم كان يطعن في آلهتهم فقالوا : لتنتهين عن سب آلهتنا أو لنهجون إلهك فنزلت وقال السدي : لما حضرت أبا طالب الوفاة قالت قريش : انطلقوا فلندخلنّ على هذا الرجل فلنأمره أن ينهى عنا ابن أخيه فإنا نستحيي أن نقتله بعد موته فتقول العرب : كان يمنعه عمه فلما مات قتلوه ، فانطلق أبو سفيان وأبو جهل وأبي بن خلف ومعهم جماعة إلى أبي طالب فقالوا : يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا وإنّ محمداً قد أذانا وآلهتنا فنحب أن تدعوه وتنهاه عن ذكر آلهتنا وندعه وإلهه ، فطلبه وقال : هؤلاء قومك وبنو عمك يقولون : نريد أن تدعنا وآلهتنا وندعك وإلهك وقد أنصفك قومك فاقبل منهم فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم "أرأيتم إن أعطيتكم هذا هل أنتم معطيّ كلمة إن تكلمتم بها ملكتم العرب ودانت لكم بها العجم" فقال أبو جهل : نعم وأبيك لنعطينكها وعشرة أمثالها فما هي ؟ قال : "قولوا لا إله إلا الله" فأبوا ونفروا ، فقال أبو طالب : قل غيرها يا ابن أخي ، فقال : "يا عمّ ما أنا بالذي أقول غيرها" فقالوا : لتكفن عن سبك آلهتنا أو لنشتمنك ومن يأمرك ، فنزلت . وقيل : كان المسلمون يسبونها فنهوا لئلا يكون سبهم سبباً لسبّ الله تعالى وفيه دليل على أنّ الطاعة إذا أدّت إلى معصية راجحة وجب تركها فإن ما يؤدّي إلى الشرّ شر ﴿كذلك﴾ أي : كما زينا لهؤلاء ما هم عليه من عبادة الأوثان وطاعة الشيطان بالحرمان والخذلان ﴿زينا لكل أمّة عملهم﴾ أي : من الخير والشرّ بإحداث ما يمكنهم منه

ويحملهم عليه توفيقاً وتخذيلاً ، وفي هذه الآية دليل على تكذيب القدرية والمعتزلة حيث قالوا : لا يحسن من الله تعالى خلق الكفر وتزيينه فهو الفعال لما يريد لا يسئل عما يفعل ﴿ ثم إلى ربهم مرجعهم ﴾ في الآخرة ﴿ فينبئهم بما كانوا يعملون ﴾ في الدنيا فيجازيهم به .

﴿ وأقسموا ﴾ أي : كفار مكة ﴿ جهد أيمانهم ﴾ أي : غاية اجتهادهم فيها ﴿ لئن جائتهم آية ﴾ أي : مما اقترحوه ﴿ ليؤمنن بها ﴾ .

*(71/246)*

---

روي أنّ قريشاً قالوا : يا محمد إنك تخبرنا أنّ موسى كان معه عصا يضرب بها الحجر فينفجر منه الماء اثنتي عشرة عيناً وتخبرنا أنّ عيسى كان يحيي الموتى فأتنا من الآيات حتى نصدقك فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم "أي شيء تحبون ؟" قالوا : تجعل لنا الصفا ذهباً وتبعث لنا بعض أمواتنا حتى نسأله عنك أحق ما تقول أم باطل ؟ وأرنا الملائكة يشهدون لك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن فعلت بعض ما تقولون أتصدقونني ؟" قالوا : نعم والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعين وسأل المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزلها عليهم حتى يؤمنوا فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الله أن يجعل الصفا ذهباً فجاء جبريل عليه السلام فقال : يا رسول الله لك ما شئت إن شئت

أصبح ذهباً ولكن إن لم يصدقوا ليعذبنهم الله وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "بل يتوب تائبهم" فنزلت ، قال الله تعالى : ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ إنما الآيات عند الله ﴾ ينزلها كيف يشاء وإنما أنا نذير ﴿ وما يشعركم ﴾ أي : وما يدريكم أيها المسلمون بإيمانهم إذا جاءت فإنهم كانوا يتمنون مجيء الآية طمعاً في إيمانهم أي : أنتم لا تدرون ذلك ﴿ إنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ لما سبق في علمي .

وقرأ أبو عمرو بسكون الراء ، وروي عن الدوري اختلاس الضم وكسر الهمزة من إنها ابن كثير وأبو عمرو على الابتداء وقالا : تم الكلام عند قوله تعالى : ﴿ وما يشعركم ﴾ والباقون بالفتح فهي بمعنى لعل وهو شائع في كلام العرب : ائت السوق أنك تشتري لنا شيئاً ، بمعنى لعلك ، ومنه قول عدي بن زيد :

*أعاذل ما يدريك أنّ منيتي ** إلى ساعة في اليوم أو في ضحى الغد *

أي : لعل منيتي . وقرأ ابن عامر وحمزة : لا تؤمنون ، بالتاء خطاباً للكفار ، والباقون بالياء على الغيبة .

(72/246)

﴿ ونقلب أفئدتهم ﴾ أي : ونحوّل قلوبهم عن الحق فلا يفقهونه ﴿ و ﴾ نقلب ﴿ أبصارهم ﴾ عن الحق فلا يبصرونه فلا يؤمنون لأنّ الله تعالى إذا صرف القلوب والأبصار عن الإيمان بقيت على الكفر ﴿ كما لم يؤمنوا به ﴾ أي : بما أنزل من الآيات ﴿ أوّل مرّة ﴾ أي : التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل انشقاق القمر وغيره من المعجزات الباهرات . وقيل : معجزات موسى وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كقوله تعالى : ﴿ أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل ﴾ (القصص ) .

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ المرّة الأولى دار الدنيا أي : لوردوا من الآخرة إلى الدنيا نقلب أفئدتهم وأبصارهم عن الإيمان كما لم يؤمنوا في الدنيا قبل مماتهم كما قال تعالى : ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ (الأنعام ، )

﴿ ونذرهم ﴾ أي : نتركهم ﴿ في طغيانهم ﴾ أي : ضلالهم ﴿ يعمهون ﴾ أي : يتردّدون متحيرين لا نهديهم هداية المتقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 2 صـ 142 .

﴿ 148

*(73/246)*

ومن فوائد السعدى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

يخبر تعالى: أنه مع إحسانه لعباده وتعرفه إليهم ، بآياته البينات ، وحججه الواضحات –أن المشركين به ، من قريش وغيرهم ، جعلوا له شركاء ، يدعونهم ، ويعبدونهم ، من الجن والملائكة ، الذين هم خلق من خلق الله ، ليس فيهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء ، فجعلوها شركاء لمن له الخلق والأمر ، وهو المنعم بسائر أصناف النعم ، الدافع لجميع النقم ، وكذلك "خرق المشركون" أي: ائتفكوا ، وافتروا من تلقاء أنفسهم لله ، بنين وبنات بغير علم منهم ، ومن أظلم ممن قال على الله بلا علم ، وافترى عليه أشنع النقص ، الذي يجب تنزيه الله عنه ؟ ! ! .

ولهذا نزه نفسه عما افتراه عليه المشركون فقال: ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ فإنه تعالى ، الموصوف بكل كمال ، المنزه عن كل نقص ، وآفة وعيب .

﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي: خالقهما ، ومتقن صنعتهما ، على غير مثال سبق ، بأحسن خلق ، ونظام وبهاء ، لا تقترح عقول أولي الألباب مثله ، وليسله في خلقهما

مشارك .

﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ ﴾ أي: كيف يكون لله الولد ، وهو الإله السيد الصمد ، الذي لا صاحبة له أي: لا زوجة له ، وهو الغني عن مخلوقاته ، وكلها فقيرة إليه ، مضطرة في جميع أحوالها إليه ، والولد لا بد أن يكون من جنس والده ؛ والله خالق كل شيء وليس شيء من المخلوقات مشابها لله بوجه من الوجوه .

ولما ذكر عموم خلقه للأشياء ، ذكر إحاطة علمه بها فقال: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ وفي ذكر العلم بعد الخلق ، إشارة إلى الدليل العقلي إلى ثبوت علمه ، وهو هذه المخلوقات ، وما اشتملت عليه من النظام التام ، والخلق الباهر ، فإن في ذلك دلالة على سعة علم الخالق ، وكمال حكمته ، كما قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ وكما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ ذلكم الذي خلق ما خلق ، وقدر ما قدر .

*(74/246)*

---

﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ * قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ .

﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أي: المألوه المعبود ، الذي يستحق نهاية الذل ، ونهاية الحب ، الرب ، الذي ربى جميع الخلق بالنعم ، وصرف عنهم صنوف النقم . ﴿ لا إِلَهَ إِلا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ﴾ أي: إذا استقر وثبت ، أنه الله الذي لا إله إلا هو ، فاصرفوا له جميع أنواع العبادة ، وأخلصوها لله ، واقصدوا بها وجهه . فإن هذا هو المقصود من الخلق ، الذي خلقوا لأجله ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ ﴾ .

﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أي: جميع الأشياء ، تحت وكالة الله وتدبيره ، خلقا ، وتدبيرا ، وتصريفا .

ومن المعلوم ، أن الأمر المتصرف فيه يكون استقامته وتمامه ، وكمال انتظامه ، بحسب حال الوكيل عليه . ووكالته تعالى على الأشياء ، ليست من جنس وكالة الخلق ، فإن وكالتهم ، وكالة نيابة ، والوكيل فيها تابع لموكله .

وأما الباري ، تبارك وتعالى ، فوكالته من نفسه لنفسه ، متضمنة لكمال العلم ، وحسن التدبير والإحسان فيه ، والعدل ، فلا يمكن لأحد أن يستدرك على الله ، ولا يرى في خلقه خللا ولا فطورا ، ولا في تدبيره نقصا وعيبا .

ومن وكالته: أنه تعالى ، توكل ببيان دينه ، وحفظه عن المزيلات والمغيرات ، وأنه تولى حفظ المؤمنين وعصمتهم عما يزيل إيمانهم ودينهم .

﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبصَارُ ﴾ لعظمته ، وجلاله وكماله ، أي: لا تحيط به الأبصار ، وإن كانت تراه ، وتفرح بالنظر إلى وجهه الكريم ، فنفي الإدراك لا ينفي الرؤية ، بل يثبتها بالمفهوم . فإنه إذا نفى الإدراك ، الذي هو أخص أوصاف الرؤية ، دل على أن الرؤية ثابتة .

فإنه لو أراد نفي الرؤية ، لقال "لا تراه الأبصار" ونحو ذلك ، فعلم أنه ليس في الآية حجة لمذهب المعطلة ، الذين ينفون رؤية ربهم في الآخرة ، بل فيها ما يدل على نقيض قولهم .

﴿ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبصَارَ ﴾ أي: هو الذي أحاط علمه ، بالظواهر والبواطن ، وسمعه بجميع الأصوات الظاهرة ، والخفية ، وبصره بجميع المبصرات ، صغارها ، وكبارها ، ولهذا قال: ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ الذي لطف علمه وخبرته ، ودق حتى أدرك السرائر والخفايا ، والخبايا والبواطن .

ومن لطفه ، أنه يسوق عبده إلى مصالح دينه ، ويوصلها إليه بالطرق التي لا يشعر بها العبد ، ولا يسعى فيها ، ويوصله إلى السعادة الأبدية ، والفلاح السرمدي ، من حيث لا يحتسب ، حتى أنه يقدر عليه الأمور ، التي يكرهها العبد ، ويتألم منها ، ويدعو الله أن يزيلها ، لعلمه أن دينه أصلح ، وأن كماله متوقف عليها ، فسبحان اللطيف لما يشاء ، الرحيم بالمؤمنين .

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ لما بين تعالى من الآيات البينات ، والأدلة الواضحات ، الدالة على الحق في جميع

المطالب والمقاصد ، نبه العباد عليها ، وأخبر أن هدايتهم وضدها لأنفسهم ، فقال: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أي: آيات تبين الحق ، وتجعله للقلب بمنزلة الشمس للأبصار ، لما اشتملت عليه من فصاحة اللفظ ، وبيانه ، ووضوحه ، ومطابقته للمعاني الجليلة ، والحقائق الجميلة ، لأنها صادرة من الرب ، الذي ربى خلقه ، بصنوف نعمه الظاهرة والباطنة ، التي من أفضلها وأجلها ، تبيين الآيات ، وتوضيح المشكلات .

﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ ﴾ بتلك الآيات ، مواقع العبرة ، وعمل بمقتضاها ﴿ فَلِنَفْسِهِ ﴾ فإن الله هو الغني الحميد .

﴿ وَمَنْ عَمِيَ ﴾ بأن بُصِّر فلم يتبصر ، وزُجِر فلم ينزجر ، وبين له الحق ، فما انقاد له ولا تواضع ، فإنما عماه مضرته عليه .

﴿ وَمَا أَنَا ﴾ أي: الرسول ﴿ عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ أحفظ أعمالكم وأرقبها على الدوام إنما عليَّ البلاغ المبين وقد أديته ، وبلغت ما أنزل الله إليَّ ، فهذه وظيفتي ، وما عدا ذلك فلست موظفا فيه (1) .

---

(1) انتقل الشيخ -رحمه الله- بعد تفسير هذه الآية إلى قوله تعالى: (ولا تسبوا . . .) فلم يفسر الآيات من قوله تعالى: (وكذلك نصرف الآيات) إلى قوله: (وما أنت عليهم بوكيل) ذات الأرقام (105-107) فقام النجار بتفسيرها دون الإشارة إلى أنها ليست من كلام الشيخ -رحمه الله- انظر طبعة النجار (2/450-452) .

﴿ 108 ﴾ ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

ينهى الله المؤمنين عن أمر كان جائزا ، بل مشروعا في الأصل ، وهو سب آلهة المشركين ، التي اتخذت أوثانا وآلهة مع الله ، التي يتقرب إلى الله بإهانتها وسبها .

ولكن لما كان هذا السب طريقا إلى سب المشركين لرب العالمين ، الذي يجب تنزيه جنابه العظيم عن كل عيب ، وآفة ، وسب ، وقدح –نهى الله عن سب آلهة المشركين ، لأنهم يحمون لدينهم ، ويتعصبون له . لأن كل أمة ، زين الله لهم عملهم ، فرأوه حسنا ، وذبوا عنه ، ودافعوا بكل طريق ، حتى إنهم ، ليسبون الله رب العالمين ، الذي رسخت عظمته في قلوب الأبرار والفجار ، إذا سب المسلمون آلهتهم .

ولكن الخلق كلهم ، مرجعهم ومآلهم ، إلى الله يوم القيامة ، يعرضون عليه ، وتعرض أعمالهم ، فينبئهم بما كانوا يعملون ، من خير وشر .

وفي هذه الآية الكريمة ، دليل للقاعدة الشرعية وهو أن الوسائل تعتبر بالأمور التي توصل إليها ، وأن وسائل المحرم ، ولو كانت جائزة تكون محرمة ، إذا كانت تفضي إلى الشر .

﴿ 109 - 111 ﴾ ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

أي: وأقسم المشركون المكذبون للرسول محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ أي: قسما اجتهدوا فيه وأكدوه . ﴿ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ ﴾ تدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ وهذا الكلام الذي صدر منهم ، لم يكن قصدهم فيه الرشاد ، وإنما قصدهم دفع الاعتراض عليهم ، ورد ما جاء به الرسول قطعا ، فإن الله أيد رسوله صلى الله عليه وسلم ، بالآيات البينات ، والأدلة الواضحات ، التي - عند الالتفات لها - لا تبقي أدنى شبهة ولا إشكال في صحة ما جاء به ، فطلبهم -بعد ذلك- للآيات من باب التعنت ، الذي لا يلزم إجابته ، بل قد يكون المنع من إجابتهم أصلح لهم ، فإن الله جرت سنته في عباده ، أن المقترحين للآيات على رسلهم ، إذا جاءتهم ، فلم يؤمنوا بها -أنه يعاجلهم بالعقوبة ، ولهذا قال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي: هو الذي يرسلها إذا شاء ، ويمنعها إذا شاء ، ليس لي من الأمر شيء ، فطلبكم مني الآيات ظلم ، وطلب لما لا أملك ، وإنما توجهون إلى توضيح ما جئتكم به ، وتصديقه ، وقد حصل ، ومع

ذلك ، فليس معلوما ، أنهم إذا جاءتهم الآيات يؤمنون ويصدقون ، بل الغالب ممن هذه حاله ، أنه لا يؤمن ، ولهذا قال: ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

(78/246)

---

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

أي: ونعاقبهم ، إذا لم يؤمنوا أول مرة يأتيهم فيها الداعي ، وتقوم عليهم الحجة ، بتقليب القلوب ، والحيلولة بينهم وبين الإيمان ، وعدم التوفيق لسلوك الصراط المستقيم .

وهذا من عدل الله ، وحكمته بعباده ، فإنهم الذين جنوا على أنفسهم ، وفتح لهم الباب فلم يدخلوا ، وبين لهم الطريق فلم يسلكوا ، فبعد ذلك إذا حرموا التوفيق ، كان مناسبا لأحوالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير السعدى صـ 267 . 269 ﴾

(79/246)

---

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (100) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (110) ﴾

عندما يبلغ إلى هذا المقطع يعرض شرك المشركين ، فإذا هو غريب غريب في هذا الجو المؤمن الموصول بمبدع الوجود . ويعرض أوهام المشركين فإذا هي سخف تشمئز منه القلوب والعقول . وسرعان ما يعقب عليها بالاستنكار . والجو كله مهيأ للاستنكار :

﴿ وجعلوا لله شركاء الجن – وخلقهم – وخرقوا له بنين وبنات بغير علم . سبحانه وتعالى عما يصفون ! بديع السماوات والأرض ، أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ؟ وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ﴾ . .

وقد كان بعض مشركي العرب يعبدون الجن . . وهم لا يعرفون من هم الجن ! ولكنها أوهام الوثنية ! والنفس متى انحرفت عن التوحيد المطلق قيد شبر انساقت في انحرافها إلى أي مدى ؛ وانفرجت المسافة بينها وبين نقطة الانحراف التي بدأت صغيرة لا تكاد تلحظ !

وهؤلاء المشركون كانوا على دين إسماعيل . . دين التوحيد الذي جاء به إبراهيم عليه السلام في هذه المنطقة . . ولكنهم انحرفوا عن هذا التوحيد . . ولا بد أن يكون الانحراف

قد بدأ يسيراً . . ثم انتهى إلى مثل هذا الانحراف الشنيع . . الذي يبلغ أن يجعل الجن شركاء لله . . وهم من خلقه سبحانه :

﴿ وجعلوا لله شركاء الجن – وخلقهم – ﴾ !

ولقد عرفت الوثنيات المتعددة في الجاهليات المتنوعة أن هناك كائنات شريرة – تشبه فكرة الشياطين – وخافوا هذه الكائنات – سواء كانت أرواحاً شريرة أو ذوات شريرة – وقدموا لها القرابين اتقاء لشرها ؛ ثم عبدوها !

*(80/246)*

---

والوثنية العربية واحدة من هذه الوثنيات التي وجدت فيها هذه التصورات الفاسدة ، في صورة عبادة للجن ، واتخاذهم شركاء لله . . سبحانه . .

والسياق القرآني يواجههم بسخف هذا الاعتقاد . . يواجههم بكلمة واحدة :

﴿ وخلقهم ﴾ . .

وهي لفظة واحدة ، ولكنها تكفي للسخرية من هذا التصور ! فإذا كان الله سبحانه هو الذي ﴿ خلقهم ﴾ فكيف يكونون شركاء له في الألوهية والربوبية ؟ !

ولم تكن تلك وحدها دعواهم . فأوهام الوثنية متى انطلقت لا تقف عند حد من

الانحراف . بل كانوا يزعمون له سبحانه بنين وبنات :

﴿ وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ﴾ .

و﴿ خرقوا ﴾ أي : اختلقوا . . وفي لفظها جرس خاص وظل خاص ؛ يرسم مشهد الطلوع بالفرية التي تخرق وتشق !

خرقوا له بنين : عند اليهود : عزير . وعند النصارى : المسيح : وخرقوا له بنات . عند المشركين : الملائكة . وقد زعموا أنهم إناث . . ولا يدري أحد طبعاً لماذا هم إناث !

فالادعاءات كلها لا تقوم على أساس من علم . . فكلها ﴿ بغير علم ﴾ . .

﴿ سبحانه وتعالى عما يصفون ! ﴾ . .

ثم يواجه فريتهم هذه وتصوراتهم بالحقيقة الإلهية ، ويناقشهم في هذه التصورات بما يكشف عما فيها من هلهلة :

﴿ بديع السماوات والأرض . أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة . وخلق كل شيء ، وهو بكل شيء عليم ﴾ .

.

إن الذي يبدع هذا الوجود إبداعاً من العدم ما تكون حاجته إلى الخلف ! ؟ والخلف إنما هو امتداد الفانين ، وعون الضعفاء ، ولذة من لا يبدعون !

ثم هم يعرفون قاعدة التكاثر . . أن يكون للكائن صاحبة أنثى من جنسه . . فكيف يكون

لله ولد – وليست له صاحبة – وهو – سبحانه – مفرد أحد ، ليس كمثله شيء . فأنى يكون النسل بلا تزاوج ؟ !

وهي حقيقة ، ولكنها تواجه مستواهم التصوري ؛ وتخاطبهم بالأمثلة القريبة من حياتهم ومشاهداتهم !

*(81/246)*

---

ويتكىء السياق – في مواجهتهم – على حقيقة " الخلق " لنفي كل ظل للشرك . فالمخلوق لا يكون أبداً شريكاً للخالق . وحقيقة الخالق غير حقيقة المخلوق : كما يواجههم بعلم الله المطلق الذي لا تقابله منهم إلاّ أوهام وظنون :

﴿ وخلق كل شيء ﴾ . .

﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾ . .

وكما واجههم السياق القرآني بحقيقة أن الله " خلق كل شيء " ، ليرتب عليها تهافت تصوراتهم بأن لله – سبحانه – بنين وبنات ، أو أن له شركاء الجن – وهو خلقهم – فإنه يتكىء على هذه الحقيقة مرة أخرى . لتقرير أن الذي يعبد ويخضع له ويطاع ، ويعترف له بالدينونة وحده هو خالق كل شيء ، فلا إله إذن غيره ، ولا رب إذن سواه :

﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو . خالق كل شيء ؛ فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل ﴾ . .

إن تفرد الله سبحانه بالخلق ، يفرده سبحانه بالملك ، والمتفرد بالخلق والملك يتفرد كذلك بالرزق . فهو خالق خلقه ومالكهم ، فهو كذلك يرزقهم من ملكه الذي ليس لأحد شرك فيه . فكل ما يقتاته الخلق وكل ما يستمتعون به فإنما هو من هذا الملك الخالص لله . . فإذا تقررت هذه الحقائق . . الخلق والملك والرزق . . تقرر معها – ضرورةً وحتماً – أن تكون الربوبية له سبحانه . فتكون له وحده خصائص الربوبية – وهي القوامة والتوجيه والسلطان الذي يُخضع له ويطاع ، والنظام الذي يتجمع عليه العباد – وتكون له وحده العبادة بكل مدلولاتها . ومنها الطاعة والخضوع والاستسلام .

*(82/246)*

---

ولم يكن العرب – في جاهليتهم – ينكرون أن الله هو خالق هذا الكون ، وخالق الناس ، ورازقهم كذلك من ملكه ، الذي ليس وراءه ملك تقتات منه العباد ! . . وكذلك لم تكن الجاهليات الأخرى تنكر هذه الحقائق – على قلة من الفلاسفة الماديين من الإغريق ! – ولم تكن هنالك هذه المذاهب المادية التي تنتشر اليوم بشكل أوسع مما عرف أيام الإغريق . .

لذلك لم يكن الإسلام يواجه في الجاهلية العربية إلا الانحراف في التوجه بالشعائر التعبدية لآلهة – مع الله – على سبيل الزلفى والقربى من الله ! – وإلا الانحراف في تلقي الشرائع والتقاليد التي تحكم حياة الناس . . أي أنه لم يكن يواجه الإلحاد في وجود الله – سبحانه – كما يقول اليوم " ناس " ! أو كما يتبجحون بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير !

والحق أن هؤلاء الذين يجادلون في وجود الله اليوم قلة .

وسيظلون قلة . إنما الانحراف الأساسي هو ذاته الذي كان في الجاهلية . وهو تلقي الشرائع في شؤون الحياة من غير الله . . وهذا هو الشرك التقليدي الأساسي الذي قامت عليه الجاهلية العربية ، وكل الجاهليات أيضاً !

والقلة الشاذة التي تجادل في وجود الله اليوم لا تعتمد على " العلم " وإن كانت هذه دعواها . فالعلم البشري ذاته لا يملك أن يقرر هذا الإلحاد ولا يجد عليه دليلاً لا من هذا العلم ولا من طبيعة الكون . . إنما هي لوثة سببها الأول الشرود من الكنيسة وإلهها الذي كانت تستذل به الرقاب من غير أصل من الدين . . ثم نقص في التكوين الفطري لهؤلاء المجادلين ، ينشأ عنه تعطل في الوظائف الأساسية للكينونة البشرية . . كما يقع للأمساخ من المخلوقات . . !

ومع أن حقيقة الخلق والتقدير فيه – كحقيقة انبثاق الحياة أيضاً – لم تكن تساق في القرآن لإثبات وجود الله – إذ كان الجدال في وجوده تعالى سخفاً لا يستحق من جدية القرآن العناية به – إنما كانت تساق لرد الناس إلى الرشاد ، كي ينفذوا في حياتهم ما تقتضيه تلك الحقيقة من ضرورة إفراد الله سبحانه بالألوهية والربوبية والقوامة والحاكمية في حياتهم كلها ؛ وعبادته وحده بلا شريك . .

مع هذا فإن حقيقة الخلق والتقدير فيه – كحقيقة انبثاق الحياة أيضاً – تقذف في وجوه الذين يجادلون في الله – سبحانه – بالحجة الدامغة التي لا يملكون بإزائها إلا المراء . وإلا التبجح الذي يصل إلى حد الاستهتار في كثير من الأحيان !

" جوليان هاكسلي " مؤلف كتاب : " الإنسان يقوم وحده " وكتاب " الإنسان في العالم الحديث " من هؤلاء المتبجحين المستهترين ؛ وهو يقذف بالمقررات التي لا سند لها إلا هواه وهو يقول في كتاب " الإنسان في العالم الحديث " ؛ في فصل : " الدين كمسألة موضوعية " ذلك الكلام !

" ولقد أوصلنا تقدم العلوم والمنطق وعلم النفس إلى طور أصبح فيه الإله فرضاً عديم الفائدة ، وطردته العلوم الطبيعية من عقولنا ، حتى اختفى كحاكم مدبر للكون ، وأصبح مجرد " أول سبب " أو أساساً عاماً غامضاً " .

و" ول ديورانت " مؤلف كتاب " مباهج الفلسفة " يقول : إن الفلسفة تبحث عن الله ، ولكنه ليس " إله اللاهوتيين الذين يتصورونه خارج عالم الطبيعة . بل إله الفلاسفة ؛ وهو قانون العالم وهيكله ، وحياته ومشيئته " . . وهو كلام لا تستطيع إمساكه ! ولكنه كلام يقال !

ونحن لا نحاكم هؤلاء الخابطين في الظلام إلى قرآننا ، ولا نحاكمهم كذلك إلى عقولنا المنضبطة بهدى هذا القرآن . إنما نكلهم إلى أندادهم من " العلماء " وإلى العلم البشري الذي يواجه هذه القضية بشيء من الجد والتعقل .

.

*(84/246)*

---

يقول جون كليفلاند كوتران : ( من علماء الكيمياء والرياضة . دكتوراه من جامعة كورنيل . رئيس قسم العلوم الطبيعية بجامعة دولث ) . من مقال : " النتيجة الحتمية " من كتاب : " الله يتجلى في عصر العلم " :

" فهل يتصور عاقل ، أو يفكر ، أو يعتقد ، أن المادة المجردة من العقل والحكمة قد أوجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة ؟ أو أنها هي التي أوجدت هذا النظام وتلك القوانين ، ثم

فرضته على نفسها ؟ لا شك أن الجواب سوف يكون سلبياً . بل إن المادة عندما تتحول إلى طاقة أو تتحول الطاقة إلى مادة ، فإن كل ذلك يتم طبقاً لقوانين معينة . والمادة الناتجة تخضع لنفس القوانين التي تخضع لها المادة التي وجدت قبلها " .

" وتدلنا الكيميا على أن بعض المواد في سبيل الزوال أو الفناء ؛ ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة . وعلى ذلك فإن المادة ليست أبدية . ومعنى ذلك أيضاً أنها ليست أزلية . إذ أن لها بداية . وتدل الشواهد من الكيميا وغيرها من العلوم على أن بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجية ، بل وجدت بصورة فجائية . وتستطيع العلوم أن تحدد لنا الوقت الذي نشأت فيه هذه المواد . وعلى ذلك فإن هذا العالم المادي لا بد أن يكون مخلوقاً . وهو منذ أن خلق يخضع لقوانين وسنن كونية محددة ، ليس لعنصر المصادفة بينها مكان " .

*(85/246)*

---

" فإذا كان هذا العالم المادي عاجزاً عن أن يخلق نفسه ، أو يحدد القوانين التي يخضع لها ، فلا بد أن يكون الخلق قد تم بقدرة كائن غير مادي . وتدل الشواهد جميعاً على أن هذا الخالق لا بد أن يكون متصفاً بالعقل والحكمة . إلا أن العقل لا يستطيع أن يعمل في العالم

المادي – كما في ممارسة الطب والعلاج السيكلوجي – دون أن يكون هنالك إرادة . ولا بد لمن يتصف بالإرادة أن يكون موجوداً وجوداً ذاتياً . . وعلى ذلك فإن النتيجة المنطقية الحتمية التي يفرضها علينا العقل ليست مقصورة على أن لهذا الكون خالقاً فحسب ، بل لا بد أن يكون هذا الخالق حكيماً عليماً قادراً على كل شيء ، حتى يستطيع أن يخلق هذا الكون وينظمه ويدبره ؛ ولا بد أن يكون هذا الخالق دائم الوجود ، تتجلى آياته في كل مكان . وعلى ذلك فإنه لا مفر من التسليم بوجود الله ، خالق هذا الكون وموجهه – كما أشرنا إلى ذلك في بداية المقال " .

" إن التقدم الذي أحرزته العلوم منذ أيام لورد كيلفن يجعلنا نؤكد بصورة لم يسبق لها مثيل ، ما قاله من قبل ، من أننا إذا فكرنا تفكيراً عميقاً ، فإن العلوم سوف تضطرنا إلى الإيمان بالله ﴾ .

.

ويقول فرانك ألن عالم الطبيعة البيولوجية في مقال " نشأة العالم هل هو مصادفة أو قصد " من الكتاب نفسه :

" كثيرا ما يقال : إن هذا الكون المادي لا يحتاج إلى خالق . ولكننا إذا سلمنا بأن هذا الكون موجود ، فكيف نفسر وجوده ؟ . . هنالك أربعة احتمالات للإجابة على هذا السؤال : فإما أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال – وهو ما يتعارض مع القضية التي

سلمنا بها حول وجوده – وإما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم . وإما أن يكون أزلياً ليس لنشأته بداية . وإما أن يكون له خالق " .

(86/246)

---

أما الاحتمال الأول فلا يقيم أمامنا مشكلة سوى مشكلة الشعور والإحساس ، فهو يعني أن إحساسنا بهذا الكون وإدراكنا لما يحدث فيه لا يعدو أن يكون وهماً من الأوهام ، ليس له ظل من الحقيقة . ولقد عاد إلى هذا الرأي في العلوم الطبيعية أخيراً سير جيمس جينز ، الذي يرى أن هذا الكون ليس له وجود فعلي ، وأنه مجرد صورة في أذهاننا . وتبعاً لهذا الرأي نستطيع أن نقول : إننا نعيش في عالم من الأوهام ! فمثلاً هذه القطارات التي نركبها ونلمسها ليست إلا خيالات ؛ وبها ركاب وهميون ، وتعبر أنهاراً لا وجود لها ، وتسير فوق جسور غير مادية . . الخ . وهو رأي وهمي لا يحتاج إلى مناقشة أو جدال !

" أما الرأي الثاني القائل بأن هذا العالم ، بما فيه من مادة وطاقة ، قد نشأ هكذا وحده من العدم ، فهو لا يقل عن سابقه سخفاً وحماقة ؛ ولا يستحق هو أيضاً أن يكون موضعاً للنظر أو المناقشة " .

(87/246)

" والرأي الثالث الذي يذهب إلى أن هذا الكون أزلي ليس لنشأته بداية ، إنما يشترك مع الرأي الذي ينادي بوجود خالق لهذا الكون – وذلك في عنصر واحد هو الأزلية – وإذن فنحن إما أن ننسب صفة الأزلية إلى عالم ميت ، وإما أن ننسبها إلى إله حي يخلق ، وليس هنالك صعوبة فكرية في الأخذ بأحد هذين الاحتمالين أكثر مما في الآخر . ولكن قوانين " الديناميكا الحرارية " تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجياً . وأنها سائرة حتماً إلى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض ، هي الصفر المطلق ؛ ويومئذ تنعدم الطاقة ، وتستحيل الحياة . ولا مناص من حدوث هذه الحالة من انعدام الطاقات عندما تصل درجة حرارة الأجسام إلى الصفر المطلق ، بمضي الوقت . أما الشمس المستعرة ، والنجوم المتوهجة ، والأرض الغنية بأنواع الحياة ، فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة ، فهو إذن حدث من الأحداث . . ومعنى ذلك أنه لا بد لأصل الكون من خالق أزلي ، ليس له بداية ، عليم محيط بكل شيء ، قوي ليس لقدرته حدود ، ولا بد أن يكون هذا الكون من صنع يديه " .

.

الله – سبحانه خالق كل شيء . لا إله إلا هو . .

هذه هي القاعدة التي يقيم عليها السياق القرآني هنا وجوب عبادة الله وحده . ووجوب

ربوبيته وحده - بكل مدلولات الربوبية من الحكم والتربية والتوجيه والقوامة :

﴿ ذلكم الله ربكم . لا إله إلا هو : خالق كل شيء . فاعبدوه . وهو على كل شيء وكيل ﴾ . .

فهي القوامة لا على البشر وحدهم ، ولكن على كل شيء كذلك . . بما أنه هو خالق كل شيء . . وهذا هو المقصود من تقرير تلك القاعدة ، التي لم يكن المشركون - في جاهليتهم - يجحدونها . ولكنهم ما كانوا يسلمون بمقتضاها . وهو : الخضوع والطاعة لحاكمية الله وحده والدينونة لسلطانه بلا شريك . .

*(88/246)*

---

ثم تعبير عن صفة الله سبحانه ، يغشى الجوانح والحنايا بظلال ما أحسب أن لغة البشر تملك لها وصفاً ، فلندعها تلقي ظلالها في شفافية ولين ؛ وترسم المشهد الذي يغلف فيه ما يهول ويروع من صفة الله ، بما يطمئن ويروح ، ويشف شفافية النور :

﴿ لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير ﴾ . .

إن الذين كانوا يطلبون في سذاجة أن يروا الله ، كالذين يطلبون في سماجة دليلاً مادياً على الله ! هؤلاء وهؤلاء لا يدركون ماذا يقولون !

إن أبصار البشر وحواسهم وإدراكهم الذهني كذلك . . كلها إنما خلقت لهم ليزاولوا بها التعامل مع هذا الكون ، والقيام بالخلافة في الأرض . . وإدراك آثار الوجود الإلهي في صفحات هذا الوجود المخلوق . . فأما ذات الله – سبحانه – فهم لم يوهبوا القدرة على إدراكها . لأنه لا طاقة للحادث الفاني أن يرى الأزلي الأبدي . فضلاً على أن هذه الرؤية لا تلزم لهم في خلافة الأرض . وهي الوظيفة التي هم معانون عليها وموهوبون ما يلزم لها . .

*(89/246)*

---

وقد يفهم الإنسان سذاجة الأولين . ولكنه لا يملك أن يفهم سماجة الآخرين ! إن هؤلاء يتحدثون عن " الذرة " وعن " الكهرب " وعن " البروتون " وعن " النيوترون " . . وواحد منهم لم ير ذرة ولا كهرباً ولا بروتوناً ولا نيوترونا في حياته قط . فلم يوجد بعد الجهاز المكبر الذي يضبط هذه الكائنات . . ولكنها مسلمة من هؤلاء ، كفرض ، ومصداق هذا الفرض أن يقدروا آثاراً معينة تقع لوجود هذه الكائنات . فإذا وقعت هذه الآثار ( جزموا ) بوجود الكائنات التي أحدثتها ! بينما قصارى ما تصل إليه هذه التجربة هو " احتمال " وجود هذه الكائنات على الصفة التي افترضوها ! . . ولكنهم حين يقال لهم عن وجود الله – سبحانه – عن طريق آثار هذا الوجود التي تفرض نفسها فرضاً على العقول ! يجادلون في

الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ويطلبون دليلاً مادياً تراه الأعين . . كأن هذا الوجود بجملته ، وكأن هذه الحياة بأعاجيبها لا تكفي لتكون هذا الدليل !

وكذلك يعقب السياق القرآني على ما عرضه من آيات في صفحة الوجود وفي مكنونات النفوس .

وعلى تقريره عن ذات الله سبحانه بأنه :

﴿ لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير ﴾ .

يعقب السياق على هذا الوصف الذي لا تملك لغة البشر أن تشرحه أو تصفه . . بقوله :

﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمي فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ . .

فهذا الذي جاء من عند الله . . بصائر . . والبصائر تهتدي وتهدي . . وهذا بذاته . . بصائر . . تهدي . فمن أبصر فلنفسه فإنما يجد الهدى والنور . وليس وراء ذلك إلا العمى . فما يبقى على الضلال بعد هذه الآيات والبصائر إلا أعمى . . معطل الحواس . مغلق المشاعر . مطموس الضمير . .

ويوجه النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يعلن براءته من أمرهم ومغبته :

﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ . .

ولا يفوتنا أن نلمح التناسق في الجو والظلال والعبارة بين قوله في الآية السابقة : في صفة الله سبحانه : ﴿ لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير ﴾ . . وبين قوله في الآية اللاحقة : ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمي فعليها ﴾ . . واستخدام الأبصار والبصائر ، والبصر والعمى ، في السياق المتناسق المتناغم . .

بعد ذلك يلتفت السياق إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – فيتحدث عن تصريف الآيات على هذا المستوى ، الذي لا يتناسب مع أمية النبي – صلى الله عليه وسلم – وبيئته ؛ والذي يدل بذاته على مصدره الرباني – لمن تتفتح بصيرته – ولكن المشركين ما كانوا يريدون الاقتناع بالآيات . ومن ثم كانوا يقولون : إن محمداً درس هذه القضايا العقيدية والكونية مع أحد أهل الكتاب ! وما دروا أن أهل الكتاب ما كانوا يعلمون شيئاً على هذا المستوى الذي يحدثهم محمد فيه ؛ وما كان أهل الأرض جميعاً – وما يزالون – يبلغون شيئاً من هذا المستوى السامق على كل ما عرف البشر وما يعرفون . ومن ثم يوجه الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى اتباع ما أوحي إليه والإعراض عن المشركين :

﴿ وكذلك نصرف الآيات ، وليقولوا : درست ، ولنبينه لقوم يعلمون . اتبع ما أوحي إليك من ربك ، لا إله إلا هو ، وأعرض عن المشركين . ولو شاء الله ما أشركوا . وما جعلناك

عليهم حفيظاً ، وما أنت عليهم بوكيل ﴾ . .

إن الله يصرف آياته على هذا المستوى الذي لا عهد للعرب به ؛ لأنه ليس نابعاً من بيئتهم – كما أنه ليس نابعاً من البيئة البشرية على العموم – فينتهي هذا التصريف إلى نتيجتين متقابلتين في البيئة :

فأما الذين لا يريدون الهدى ، ولا يرغبون في العلم ، ولا يجاهدون ليبلغوا الحقيقة . . فهؤلاء سيحاولون أن يجدوا تعليلاً لهذا المستوى الذي يخاطبهم به محمد – وهو منهم – وسيختلقون ما يعلمون أنه لم يقع .

*(91/246)*

---

فما كان شيء من حياة محمد خافياً عليهم قبل الرسالة ولا بعدها . . ولكنهم يقولون : درست هذا يا محمد مع أهل الكتاب وتعلمته منهم ! وما كان أحد من أهل الكتاب يعلم شيئاً على هذا المستوى . . وهذه كتب أهل الكتاب التي كانت بين أيديهم يومذاك ما تزال بين أيدينا . والمسافة شاسعة شاسعة بين هذا الذي في أيديهم وهذا القرآن الكريم . . إن ما بين أيديهم إن هو إلا روايات لا ضابط لها عن تاريخ الأنبياء والملوك مشوبة بأساطير وخرافات من صنع أشخاص مجهولين – هذا فيما يختص بالعهد القديم – فأما العهد

الجديد – وهو الأناجيل – فما يزيد كذلك على أن يكون روايات رواها تلاميذ المسيح – عليه السلام – بعد عشرات السنين ؛ وتداولتها المجامع بالتحريف والتبديل والتعديل على ممر السنين . وحتى المواعظ الخلقية والتوجيهات الروحية لم تسلم من التحريف والإضافة والنسيان . . وهذا هو الذي كان بين أيدي أهل الكتاب حينذاك ، وما يزال . . فأين هذا كله من القرآن الكريم ؟ ! ولكن المشركين – في جاهليتهم – كانوا يقولون هذا ؛ وأعجب العجب أن جاهليين في هذا العصر من " المستشرقين " و" المتمسلمين " ! يقولون هذا القول فيسمى الآن " علماً " و" بحثاً " و" تحقيقاً " لا يبلغه إلا المستشرقون !

فأما الذين " يعلمون " حقاً ، فإن تصريف الآيات على هذا النحو يؤدي إلى بيان الحق لهم فيعرفونه :

﴿ ولنبينه لقوم يعلمون ﴾ . .

ثم تقع المفاصلة بين قوم مبصرين يعلمون ، وقوم عمي لا يعلمون !

*(92/246)*

---

ويصدر الأمر العلوي للنبي الكريم ، وقد صرف الله الآيات ، فافترق الناس في مواجهتها فريقين . . يصدر الأمر العلوي للنبي – صلى الله عليه وسلم – أن يتبع ما أوحي إليه ، وأن

يعرض عن المشركين ، فلا يحفلهم ولا يحفل ما يقولون من قول متهافت ، ولا يشغل باله بتكذيبهم وعنادهم ولجاجهم . فإنما سبيله أن يتبع ما أوحي إليه من ربه ؛ فيصوغ حياته كلها على أساسه ؛ ويصوغ نفوس أتباعه كذلك . ولا عليه من المشركين ؛ فإنما هو يتبع وحي الله ، الذي لا إله إلا هو ، فماذا عليه من العبيد ؟ !

﴿ اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إله إلا هو ، وأعرض عن المشركين ﴾ . .

ولو شاء الله أن يلزمهم الهدى لألزمهم ، ولو شاء أن يخلقهم ابتداء لا يعرفون إلا الهدى كالملائكة لخلقهم . ولكنه سبحانه خلق الإنسان بهذا الاستعداد للهدى وللضلال ، وتركه يختار طريقه ويلقى جزاء الاختيار – في حدود المشيئة المطلقة التي لا يقع في الكون إلا ما تجري به ، ولكنها لا ترغم إنساناً على الهدى أو الضلال – وخلقه على هذا النحو لحكمة يعلمها ؛ وليؤدي دوره في هذا الوجود كما قدره الله له . باستعداداته هذه وتصرفاته :

﴿ ولو شاء الله ما أشركوا ﴾ .

.

وليس الرسول – صلى الله عليه وسلم – مسؤولاً عن عملهم ، وهو لم يوكل بقلوبهم فالوكيل عليها هو الله :

﴿ وما جعلناك عليهم حفيظاً ، وما أنت عليهم بوكيل ﴾ . .

وهذا التوجيه لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – يحدد المجال الذي يتناوله اهتمام

الرسول – صلى الله عليه وسلم – وعمله . كما يحدد هذا المجال لخلفائه وأصحاب الدعوة إلى دينه في كل أرض وفي كل جيل . .

*(93/246)*

---

إن صاحب الدعوة لا يجوز أن يعلق قلبه وأمله وعمله بالمعرضين عن الدعوة ، المعاندين ، الذين لا تتفتح قلوبهم لدلائل الهدى وموحيات الإيمان . . إنما يجب أن يفرغ قلبه ، وأن يوجه أمله وعمله للذين سمعوا واستجابوا . فهؤلاء في حاجة إلى بناء كيانهم كله على القاعدة التي دخلوا الدين عليها . . قاعدة العقيدة . . وفي حاجة لإنشاء تصور لهم كامل عميق عن الوجود والحياة على أساس هذه العقيدة . وفي حاجة إلى بناء أخلاقهم وسلوكهم ؛ وبناء مجتمعهم الصغير على هذا الأساس نفسه . وهذا كله يحتاج إلى الجهد . ويستحق الجهد . فأما الواقفون على الشق الآخر ، فجزاؤهم الإهمال والإعراض بعد الدعوة والبلاغ . . وحين ينمو الحق في ذاته فإن الله يجري سنته ، فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق . . إن على الحق أن يوجد ومتى وجد الحق في صورته الصادقة الكاملة ، فإن شأن الباطل هين ، وعمره كذلك قريب !

ومع أمر الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالإعراض عن المشركين ، فقد وجه المؤمنين إلى

أن يكون هذا الإعراض في أدب ، وفي وقار ، وفي ترفع ، يليق بالمؤمنين . . لقد أمروا ألا يسبوا آلهة المشركين مخافة أن يحمل هذا أولئك المشركين على سب الله سبحانه – وهم لا يعلمون جلال قدره وعظيم مقامه – فيكون سب المؤمنين لآلهتهم المهينة الحقيرة ذريعة لسب الله الجليل العظيم :

﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم . كذلك زينا لكل أمة عملهم . ثم إلى ربهم مرجعهم ، فينبئهم بما كانوا يعملون ﴾ .

*(94/246)*

---

إن الطبيعة التي خلق الله الناس بها ، أن كل من عمل عملاً ، فإنه يستحسنه ، ويدافع عنه ! فإن كان يعمل الصالحات استحسنها ودافع عنها . وإن كان يعمل السيئات استحسنها ودافع عنها . وإن كان على الهدى رآه حسناً ، وإن كان على الضلال رآه حسناً كذلك ! فهذه طبيعة في الإنسان . . وهؤلاء يدعون من دون الله شركاء . . مع علمهم وتسليمهم بأن الله هو الخالق الرازق . . ولكن إذا سب المسلمون آلهتهم هؤلاء اندفعوا وعدوا عما يعتقدونه من ألوهية الله ، دفاعاً عما زين لهم من عبادتهم وتصوراتهم وأوضاعهم وتقاليدهم ! . . فليدعهم المؤمنون لما هم فيه :

﴿ ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون ﴾ . .

وهو أدب يليق بالمؤمن ، المطمئن لدينه ، الواثق من الحق الذي هو عليه . الهادىء القلب ، الذي لا يدخل فيما لا طائل وراءه من الأمور .

فإن سب آلهتهم لا يؤدي بهم إلى الهدى ولا يزيدهم إلا عناداً . فما للمؤمنين وهذا الذي لا جدوى وراءه . وإنما قد يجرهم إلى سماع ما يكرهون . من سب المشركين لربهم الجليل العظيم ؟ !

وأخيراً يختم هذا الدرس ، الذي استعرض فيه صفحة الوجود الحافلة بالآيات والخوارق ، في كل لحظة من ليل أو نهار . . يختمه بأن هؤلاء المشركين يقسمون بالله جهد أيمانهم أن لو جاءتهم آية – أي خارقة مادية كخوارق الرسل السابقة – ليؤمنن بها ! الأمر الذي جعل بعض المسلمين حين سمعوا أيمانهم يقترحون على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يسأل ربه هذه الآية التي يطلبون ! . . ويجيء الرد الحاسم على المؤمنين ، ببيان طبيعة التكذيب في هؤلاء المكذبين :

﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها . قل : إنما الآيات عند الله . وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ؟ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ، كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم في طغيانهم يعمهون . ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ، وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا – إلا أن يشاء الله – ولكن أكثرهم يجهلون ﴾ . .

إن القلب الذي لا يؤمن بآيات الله المبثوثة في هذا الوجود – بعد توجيهه إليها على هذا النحو العجيب الذي تكفل به هذا الكتاب العجيب – ولا توحي آيات الله المبثوثة في الأنفس والآفاق إليه أن يبادر إلى ربه ، ويثوب إلى كنفه . . إن هذا القلب هو قلب مقلوب . . والذي عاق هؤلاء عن الإيمان في أول الأمر ، ما الذي يُدري المسلمين الذين يقترحون إجابة طلبهم ، أن يعوقهم عن الإيمان بعد ظهور الخارقة ؟ إن الله هو الذي يعلم حقيقة هذه القلوب . . وهو يذر المكذبين في طغيانهم يعمهون ، لأنه يعلم منهم أنهم يستحقون جزاء التكذيب ؛ كما يعلم عنهم أنهم لا يستجيبون . . لا يستجيبون ولو نزل إليهم الملائكة كما يقترحون ! ولو بعث لهم الموتى يكلمونهم – كما اقترحوا كذلك ! – ولو حشر الله عليهم كل شيء في هذا الوجود يواجههم ويدعوهم إلى الإيمان ! . . إنهم لا يؤمنون – إلا أن يشاء الله – والله سبحانه لا يشاء ، لأنهم هم لا يجاهدون في الله ليهديهم الله إليه . . وهذه هي الحقيقة التي يجهلها أكثر الناس عن طبائع القلوب . .

إنه ليس الذي ينقص الذين يلجون في الضلال أنه لا توجد أمامهم دلائل وبراهين . . إنما الذي

ينقصهم آفة في القلب ، وعطل في الفطرة ، وانطماس في الضمير . .

وإن الهدى جزاء لا يستحقه إلا الذين يتجهون إليه ، والذين يجاهدون فيه . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ الظلال حـ 2 صـ 1162 . 1170 ﴾

(96/246)

---

" فوائد بلاغية "

قال الشيخ الصابونى :

البَلاَغَة : 1 - ﴿ يُخرِجُ الحي مِنَ الميت ﴾ بين لفظ الحيّ والميت طباقٌ وهو من المحسنات البديعية وفي الآية أيضاً من المحسنات ما يسمى ردّ العجز على الصدر في قوله ﴿ وَمُخْرِجُ الميت مِنَ الحي ﴾ .

2 - ﴿ فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ استفهام إنكاري بمعنى النفي أي لا وجه لصرفكم عن الإِيمان بعد قيام البرهان .

3 - ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ فيه التفاتٌ عن الغيبة والأصل فأخرج به والنكتة هي الاعتناء بشأن المُخْرج والإِشارة إلى أنّ نِعَمَه عظيمة .

4 - ﴿ والزيتون والرمان ﴾ من عطف الخاص على العام المزيد الشرف لأنهما من أعظم

النعم .

5 - ﴿ بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ مجاز مرسل من باب تسمية المسبب باسم السبب أي حجج وبراهين تبصرون بها الحقائق .

6 - ﴿ أَبْصَرَ عَمِيَ ﴾ طباق وبين لفظ ﴿ بَصَآئِرُ أَبْصَرَ ﴾ جناس الاشتقاق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 411.412 ﴾

*(97/246)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " ونُقَلِّبُ " في هذه الجُمْلَة وجهان :

أحدهما : - ولم يقل الزَّمَخْشَري غيره - أنَّها وما عُطِف عليْها من قوله : " ويذَرُهُم " عطف على " يُؤمِنُون " داخل في حُكْم " ومَا يُشْعِرُكُم " ، بمعنى : " وما يُشْعِرُكُم أنَّهم لا يُؤمِنُون " وما يشعركم أنَّا نُقلِّب أفْئِدَتَهُم وأبصارهم " ، " وما يُشْعِرُكم أنَّا نَذَرُهم " وهذا يُسَاعده ما جَاء في التَّفْسير عن ابْنِ عَبَّاسٍ ، ومُجَاهد ، وبان زَيْد .

والثاني : أنَّهَا اسِتْئْنَاف إخبار ن وجعله أبُو حيَّان الظَّاهر ، والظَّاهر ، ما تقدَّم .

" والأَفْئِدة " : جمع فُؤاد ، وهو القَلْبُ ، ويلطق على العَقْل .

وقال الرَّاغب : الفُؤاد كالقَلْب ، لكن يُقال له : فؤاد إذا اعتبر به مَعْنَى : " التُّفَؤد " أي : التوقُّد " يقالك " فأدْتُ اللَّحم " : شَوَيْتُه " ومنه " لحم فَئِيد " أي : " مَشْويٌّ " وظاهر هذا : أنَّ الفُؤاد غير القَلْب ، ويقال له : " فؤاد " بالواو الصَّريحة ، وهي بَدَل من الهَمْزَة ؛ لأنَّه تَخْفِيف قِيَاسيّ ، وبه يَقْرأ وَرْش فيه وفي نَظَائِره وصلاً ووَقْفاً ، وحَمْزة وقفاً ويُجْمع على : أَفْئِدَة ، وهو جَمْع مُنْقَاس ، نحو : " غُراب " ، و " أَغْرِبة " ويجُوز " أَفْيِدَة " بِيَاء بعد الهَمْزة ، وقرأ بِهَا هِشَام في سُورة إبْراهيم ، وسَيَأتي إن شاء الله تعالى – .

قوله : " كَمَا لَمْ يُؤمِنُوا بِهِ " الكافُ في محلِّ نَصب ، نَعْتاً لِمَصْدر مَحْذُوف و " ما " مَصْدريَّة والتقدير كما لَمْ يُؤمِنُوا به أوّلاً مرة [ وقيل : الكاف هُنَا للتَعْلِيل ، أي : " نقلب أَفْئِدَتَهم وأَبْصَارهم ؛ لعدم إيمانِهم أوّل مرة " .

وقيل : في الكلام حَذْفٌ تقديره : " فلا يؤمنون به ثاني مَرَّة كَمَا لَم يُؤمِنوا به أوّل مرَّة ]

وقال بَعْضُ المفسّرين : الكافُ هُنَا مَعْنَاها : المُجَازَاة ، أي : " لَمَّا " لم يُؤمِنُوا به أوّل مرَّة ، نُجازيهم بأن نُقَلِّب أَفْئِدتَهُم عن الهُدَى ، ونَطْبَع على قُلُوبهم " ، فكأَنَّه قيل : ونحن نَقَلِّب أَفْئِدتَهَم ؛ جَزَاءً لما لم يُؤمِنُوا به أوّل مرَّة ، قاله ابن عطية قال أبو حيان وهُو مَعْنَى التَّعْلِيل الذي كرناه ، إلا أن تسْمِيتَه ذلك بالمُجازاة غَرِيبَة لا تُعْهدُ في كلام النَّحْوِيِّين .

قال شهاب الدِّين : قد سُبِقَ أبن عطيَّة إلى هذه العبارة .

قال الواحدي : وقال بَعْضُهم : معنى الكَافِ في "كَمَا لَمْ يُؤمِنوا " : معنى الجَزَاء ، ومَعْنَى الآية : ونُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُم وأَبْصَارهم ، عُقُوبة لَهُم على تَرْكِ الإيمان في المرَّة الأُولَى ، والهَاء في " به " تعود على الله – تعالى – ، أو على رسُوله ، أو على القُرآن ، أو على القَلْب المَدْلُول عليه بالفِعْل ، وهو أَبْعَدُهَا ، و" أوّل مَرَّة " : نَصب على ظَرْف الزَّمان ، وقد تقدم تَحْقِيقُه .

وقرأ إبْرَاهيم النَّخْعي : " ويُقَلِّب – ويَذرُهم – " بالياء ، والفَاعِل ضمير البَاري – تعالى –

.

وقرأ الأَعْمَش : " تُقَلَّبُ أَفْئِدتهم وأَبْصَارهم " على البِنَاء للمَفْعُول ، ورُفِع ما بعده على قِيَام مقام الفاعل ، كذا رَوَاهَا الزَّمَخْشَري عنه ، والمشْهُور بهذه القِرَاءة ، إنَّما هو النَّخْعِيّ أيضا ، ورُوِي عَنْه : " ويَذرْهُم " بياء الغيبة كما تقدَّم وسُكُون الرَّاء ، وخرَّج أَبو البَقَاء هذا التَّسْكِين على وجْهَين :

أحدهما : التَّسْكِين لتَوَالِي الحَرَكَات .

والثاني : أنه مَجْزُوم عَطْفاً على "يُؤمِنُوا " والمَعْنَى : جَزَاءً على كُفْرهم ، وأَنَّه لم يَذرْهُم في طُغْيَانهم ، بل بيَّن لهم ، وهذا الثَّانِي ليس بَظَاهر ، و"يَعْمَهُون " في محلِّ حال ، أو مَفْعُول

ثانٍ ، لأن التَّرْك بِمَعْنَى : التَّصْيِير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 374 . 377 ﴾ . باختصار .

(99/246)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (110) ﴾

العَجَبُ ممن تبْقَى على قلبه شبهةٌ في مسألة القَدَر ، والحقُّ – سبحانه – يقول : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ ﴾ ، لا بل من حقائق التقليب بقاء إشكال هذا الأمر – مع وضوحه – على قلوب مَنْ هو مِنْ جملة العقلاء ، فسبحان مَنْ يُخْفِي هذا الأمر مع وضوحه ! هذا هو قهر القادر وحكم الواحد . انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 494.495 ﴾

(100/246)

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (95) ﴾

فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى بالنبات والشجر . وعن مجاهد : أراد الشقين الذين في النواة والحنطة يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ أى الحيوان ، والنامي من النطف . والبيض والحب والنوى وَمُخْرِجُ هذه الأشياء الميتة من الحيوان والنامي - فإن قلت : كيف قال مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ بلفظ اسم الفاعل ، بعد قوله يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ قلت : عطفه على فالق الحب والنوى ، لا على الفعل ، ويخرج الحىَّ من الميت : موقعه موقع الجملة المبينة لقوله فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى

*(101/246)*

---

لأنّ فلق الحب والنوى بالنبات والشجر النامين « 1 » من جنس إخراج الحىّ من الميت ، لأنّ النامي

(1) . قال محمود : «معناه فالق الحب والنوى بالنبات والشجر . . . الخ» قال أحمد رحمه الله : وقد ورد جميعاً بصيغة الفعل كثيراً في قوله : يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ وقوله أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ عطف أحد القسمين على الآخر كثيراً دليل على أنهما توأمان مقرونان ، وذلك يبعد قطعه عنه في آية الأنعام هذه ورده إلى فالق الحب والنوى ، فالوجه – والله أعلم – أن يقال : كان الأصل وروده بصيغة اسم الفاعل أسوة أمثاله من الصفات المذكورة في هذه الآية من قوله فالِقُ الْحَبِّ وفالِقُ الْإِصْباحِ وجَعَلَ اللَّيْلَ ومُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ إلا أنه عدل عن اسم الفاعل إلى الفعل المضارع في هذا الوصف وحده ، وهو قوله يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ إرادة لتصوير إخراج الحي من الميت واستحضاره في ذهن السامع ، وهذا التصوير والاستحضار إنما يتمكن في أدائهما الفعل المضارع دون اسم الفاعل والماضي . وقد مضى تمثيل ذلك بقوله تعالى أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً فعدل عن الماضي المطابق لقوله أَنْزَلَ لهذا المعنى .

ومنه ما في قوله :

إني قد لقيت الغول تسعى بسيب كالصحيفة صحصحان

فآخذه فأضربه فخرت صريعا اليدين وللجران

فعدل إلى المضارع إرادة لتصوير شجاعته واستحضارها لذعن السامع . ومنه إِنَّا سَخَّرْنَا

الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً فعدل عن مسبحات وإن كان مطابقا لمحشورة بهذا السبب والله أعلم ، ثم هذا المقصد إنما يجيء فيما تكون العناية به أقوى ، ولا شك أن إخراج الحي من الميت أشهر في القدرة من عكسه ، وهو أيضا أول الحالين والنظر أول ما يبدأ فيه ، ثم القسم الآخر وهو إخراج الميت من الحي ناشئ عنه ، فكان الأول جديراً بالتصدير والتأكيد في النفس ، ولذلك هو مقدم أبدا على القسم الآخر في الذكر على حسب ترتيبهما في الواقع ، وسهل عطف الاسم على الفعل ، وحسنه أن اسم الفاعل في معنى الفعل المضارع «فكل واحد منهما يقدر بالآخر ، فلا جناح في عطفه عليه . والله أعلم .

*(102/246)*

---

في حكم الحيوان . ألا ترى إلى قوله يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها ، ذِلِكُمُ اللَّهُ أى ذلكم المحيي والمميت هو الله الذي تحق له الربوبية فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ فكيف تصرفون عنه وعن توليه إلى غيره .

[سورة الأنعام (6) : آية 96]

فالِقُ الْإِصْباحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْباناً ذِلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (96)

الْإِصْباحِ مصدر سمى به الصبح. وقرأ الحسن بفتح الهمزة جمع صبح وأنشد قوله:

أفنى رباحا وبنى رباح تناسخ الإمساء والإصباح «1»

بالكسر والفتح مصدرين، وجمع مساء وصبح. فإن قلت: فما معنى فلق الصبح، والظلمة «2» هي التي تنفلق عن الصبح، كما قال:

---

(1). «رباح» أبو حى من يربوع، ثم صار اسما للحي. وروى بالتحتية بدل الموحدة. والإمساء والإصباح:

يرويان بكسر الهمزة على أنهما مصدران، وبفتحهما جمع مساء وصباح. وظلام الليل ينسخ نور النهار ويزيله وبالعكس. وإسناد الافناء إلى التناسخ مجاز عقلى، من باب الاسناد الزمان، أو هو على اعتقاد الجاهلية فيكون حقيقة عندهم.

(2). عاد كلامه. قال: «فان قلت ما معنى فلق الصبح والظلمة وهي التي تنفلق . . . الخ» ؟ قال أحمد: وقيل الخالق والفالق بمعنى، فيكون المراد خالق الإصباح. والأظهر ما فسره عليه المصنف، والله أعلم.

تردّت به ثمّ انفرى عن أديمها تفرّى ليل عن بياض نهار «1»

قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يراد فالق ظلمة الإصباح ، وهي الغبش في آخر الليل ، ومنقضاه الذي يلي الصبح . والثاني : أن يراد فالق الإصباح الذي هو عمود الفجر عن بياض النهار وإسفاره . وقالوا : انشق عمود الفجر . وانصدع الفجر . وسموا الفجر فلقا بمعنى مفلوق .

وقال الطائي :

وأزرق الفجر يبدو قبل أبيضه وأوّل الغيث قطر ثمّ ينسكب «2»

وقرئ : فالق الإصباح ، وجاعل الليل سكناً ، بالنصب على المدح . وقرأ النخعي : فلق الإصباح وجعل الليل . والسكن : ما يسكن إليه الرجل ويطمئن استئناسا به واسترواحاً إليه ، من زوج أو حبيب . ومنه قيل للنار : سكن ، لأنه يستأنس بها . ألا تراهم سموها المؤنسة ، والليل يطمئن إليه التعب بالنهار لاستراحته فيه وجمامه «3» . ويجوز أن يراد : وجعل الليل مسكوناً فيه من قوله لتسكنوا فيه وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ قرئا بالحركات الثلاث ، فالنصب على إضمار فعل دل عليه

---

(1) كأن بقايا ما عفا من حبابها تفاريق شيب في سواد عذار

تردت به ثم انفرى عن أديمها تفرى ليل عن بياض نهار

لأبى نواس يصف الخمرة . يقول : كأن بقايا الذي هلك وذهب من فقاقعها شيب أبيض

متفرق في عذار أسود ، لأن كلا منهما أبيض منتشر فيما يخالف لونه ، ولا يلزم من ذلك أنها سوداء كما يدل عليه ما بعده ، ثم قال : تردت ، أى استترت بالحباب ، فالتردى : استعارة التستر ، ثم انفرى : انشق وزال عن أديمها أى وجهها كتفرى الليل وانشقاق ظلامه عن بياض النهار ، والجامع استتار كل بغيرها ، ثم ظهوره بتفرق ذلك الغير فهو مركب . ولا يلزم من ذلك أن الحباب أسود كالليل ، والخمرة بيضاء كالنهار ، وانظر كيف خيل أنه في الأول أبيض وفي الثاني أسود وهي بالعكس . وهذا من العجب الداعي للطرب . وفيه أنه يرى في الأول أبيض معجبا ، ثم تعرض عنه النفس وتريد الخمرة ، فيتخيل أنه مظلم ، ثم ينكشف وتظهر هي بيضاء ترهقها صفرة ، كالسماء وقت الاسفار .

(2) هذى مخايل برق خلفه مطر جود وروى زناد خلفه لهب

وأزرق الفجر يبدو قبل أبيضه وأول الغيث قطر ثم ينسكب

لأبى تمام . وقيل للبحترى . و«مخايل» أضواء تتخيلها ، أو تخيل إلينا المطر بعدها . والجود - في الأصل - جمع جائد ، كصحب وصاحب ، وهو الكثير النافع . والورى : قدح الزند ، والزناد جمعه ، ككلب وكلاب ، وقد يكون مفرداً ككتاب . يقول : إن أوائل الأمور تبدو قليلة ثم تكثر ، فينبغي الحرص من أول الأمر قبل بلوغه غايته فيكثر الضرر ويعسر درؤه ، أو المعنى أنه ينبغي التأنى إلى بلوغ المراد ، فالكلام كله من باب التمثيل . وروى

وكاذب العمر يبدو قبل صادقه

وروى بعد هذا البيت :

ومثل ذلك وجد العاشقين هوى بالمزح يبدو وبالادمان ينتهب

ونسبا لابن الرومي ، أى الوجد في أوله هوى وفي آخره نار ، والإدمان : الادامة .

(3) . قوله «وجمامه» أى راحته من التعب . وفي الصحاح «الجمام» بالفتح - : الراحة .

(ع)

*(104/246)*

---

جاعل الليل ، أى وجعل الشمس والقمر حسباناً . أو يعطفان على محل الليل . فإن قلت كيف يكون لليل محل والإضافة حقيقية ، لأنّ اسم الفاعل المضاف إليه في معنى المضىّ ، ولا تقول : زيد ضارب عمرا أمس ؟ قلت : ما هو في معنى المضىّ ، وإنما هو دال على جعل مستمرّ في الأزمنة المختلفة ، وكذلك فالق الحب ، وفالق الإصباح ، كما تقول : اللّه قادر عالم ، فلا تقصد زماناً دون زمان ، والجر عطف على لفظ الليل ، والرفع على الابتداء ، والخبر محذوف تقديره : والشمس والقمر مجعولان حسباناً ، أو محسوبان حسباناً . ومعنى جعل الشمس والقمر حسباناً : جعلهما على حسبان ، لأنّ حساب الأوقات يعلم بدورهما وسيرهما . والحسبان - بالضم - : مصدر حسب ، كما أنّ الحسبان - بالكسر

- مصدر حسب. ونظيره الكفران والشكران ذِلكَ إشارة إلى جعلهما حسبانا ، أى ذلك التسيير بالحساب المعلوم تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الذي قهرهما وسخرهما الْعَلِيمِ بتدبيرهما وتدويرهما .

[سورة الأنعام (6) : آية 97]

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (97)

فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ في ظلمات الليل بالبر والبحر ، وأضافها إليهما لملابستها لهما ، أو شبه مشتبهات الطرق بالظلمات .

[سورة الأنعام (6) : آية 98]

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (98)

من فتح قاف المستقر ، كان المستودع اسم مكان مثله أو مصدراً . ومن كسرها ، كان اسم فاعل والمستودع اسم مفعول . والمعنى : فلكم مستقرّ في الرحم . ومستودع في الصلب ، أو مستقر فوق الأرض ومستودع تحتها . أو فمنكم مستقرّ ومنكم مستودع . فإن قلت : لم قيل يَعْلَمُونَ مع ذكر النجوم «1» ويَفْقَهُونَ مع ذكر إنشاء بنى آدم ؟ قلت كان إنشاء الإنس من نفس

---

(1) . قال محمود : «إن قلت لم قيل مع ذكر النجوم يعلمون . . . الخ» قال أحمد : لا يتحقق

هذا التفاوت ولا سبيل إلى الحقيقة ، وما هذا الجواب إلا صناعى . والتحقيق أنه لما أريد فصل كليهما بفاصلة تنبيها على استقلال كل واحدة منهما بالمقصود من الحجة ، كره فصلهما بفاصلتين متساويتين في اللفظ ، لما في ذلك من التكرار ، فعدل إلى فاصلة مخالفة تحسينا للنظم واتساقا في البلاغة . ويحتمل وجها آخر في تخصيص الأولى بالعلم والثانية بالفقه ، وهو أنه لما كان المقصود التعريض بمن لا يتدبر آيات اللّه ولا يعتبر بمخلوقاته ، وكانت الآية المذكورة أولا خارجة عن أنفس النظار ومنافية لها ، إذ النجوم والنظر فيها وعلم الحكمة الالهية في تدبيره لها أمر خارج عن نفس الناظر ، ولا كذلك النظر في إنشائهم من نفس واحدة وتقلباتهم في أطوار مختلفة وأحوال متغايرة ، فانه نظر لا يعدو نفس الناظر ولا يتجاوزها ، فإذا تمهد ذلك . فجهل الإنسان بنفسه وبأحواله وعدم النظر فيها والتفكر أبشع من جهله بالأمور الخارجة عنه كالنجوم والأفلاك ، ومقادير سيرها وتقلبها ، فلما كان الفقه أدنى درجات العلم ، إذ هو عبارة عن الفهم نفى من أبشع القبيلين جهلا ، وهم الذين لا يتبصرون في أنفسهم ، ونفى الأدنى أبشع من نفى الأعلى درجة فخص به أسوأ الفريقين حالا ، ويفقهون ها هنا مضارع فقه الشيء بكسر القاف إذا فهمه ولو أدنى فهم ، وليس من فقه بضم القاف ، لأن تلك درجة عالية . ومعناه : صار فقيها . قاله الهروي في معرض الاستدلال على أن فقه أنزل من علم . وفي حديث سلمان أنه قال – وقد سألته امرأة جاءته – : فقهت ، أى فهمت ، كالمتعجب من فهم المرأة عنه .

وإذا قيل فلان لا يفقه شيئا ، كان أذم في العرف من قولك : فلان لا يعلم شيئا ، وكان معنى قولك : لا يفقه شيئا ليست له أهلية الفهم وإن فهم . وأما قولك : لا يعلم ، فغايته نفى حصول العلم له . وقد يكون له أهلية الفهم والعلم لو يعلم . والذي يدل على أن التارك للفكرة في نفسه أجهل وأسوأ حالا من التارك للفكرة في غيره قوله تعالى وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ

فخص التبصر في النفس بعد اندراجها فيما في الأرض من الآيات ، وأنكر على من لا يتبصر في نفسه إنكاراً مستأنفا . وقولنا في أدراج الكلام أنه نفى العلم عن أحد الفريقين ونفى الفقه عن الآخر ، يعنى بطريق التعريض ، حيث خص العلم بالآيات المفصلة والتفقه فيها بقوم ، فأشعر أن قوما غيرهم لا علم عندهم ولا فقه ، والله الموفق . فتأمل هذا الفصل وإن طال بعض الطول ، فالنظر في الحسن غير مملول .

*(105/246)*

---

واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة ألطف وأدق صنعة وتدبيراً ، فكان ذكر الفقه الذي هو استعمال فطنة وتدقيق نظر مطابقاً له .

[سورة الأنعام (6) : آية 99]

وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَراكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها قِنْوانٌ دانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ انْظُرُوا إِلى ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذلِكُمْ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (99)

فَأَخْرَجْنا بِهِ بالماء نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ نبت كل صنف من أصناف النامي ، يعنى أن السبب واحد وهو الماء . والمسببات صنوف مفتنة ، كما قال يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ . فَأَخْرَجْنا مِنْهُ من النبات خَضِراً شيئاً غضا أخضر . يقال أخضر وخضر ، كأعور وعور ، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة نُخْرِجُ مِنْهُ من الخضر حَبًّا مُتَراكِباً وهو السنبل . وقِنْوانٌ رفع بالابتداء . وَمِنَ النَّخْلِ خبره . وَمِنْ طَلْعِها بدل منه ، كأنه قيل : وحاصلة من طلع النخل قنوان . ويجوز أن يكون الخبر محذوفا لدلالة أخرجنا عليه ، تقديره : ومخرجة من طلع النخل قنوان . ومن قرأ : يخرج منه حب متراكب ، كان قِنْوانٌ عنده معطوفا على حب . والقنوان : جمع قنو ، ونظيره : صنو وصنوان . وقرئ بضم القاف وبفتحها ، على أنه اسم جمع كركب ، لأنّ فعلان ليس من زيادة التكسير دانِيَةٌ سهلة المجتنى

(106/246)

معرضة للقاطف ، كالشيء الداني القريب المتناول ، ولأنّ النخلة وإن كانت صغيرة ينالها القاعد فإنها تأتى بالثمر لا تنتظر الطول . وقال الحسن : دانية قريب بعضها من بعض .

وقيل : ذكر القريبة وترك ذكر البعيدة : لأنّ النعمة فيها أظهر وأدلّ بذكر القريبة على ذكر البعيدة ، كقوله سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ . وقوله وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنابٍ فيه وجهان ، أحدهما : أن يراد : وثم جنات من أعناب ، أى مع النخل . والثاني : أن يعطف على قِنْوانٌ على معنى : وحاصلة ، أو ومخرجة من النخل قنوان وجنات من أعناب ، أى من نبات أعناب ، وقرئ وَجَنَّاتٍ بالنصب عطفاً على نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ أى : وأخرجنا به جنات من أعناب ، وكذلك قوله وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ والأحسن أن ينتصبا على الاختصاص ، كقوله وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ لفضل هذين الصنفين مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ يقال اشتبه الشيئان وتشابها ، كقولك استويا وتساويا . والافتعال والتفاعل يشتركان كثيراً . وقرئ : متشابها وغير متشابه . وتقديره : والزيتون متشابها وغير متشابه ، والرمّان كذلك كقوله :

كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدَيَّ بَرِيّا

والمعنى : بعضه متشابها وبعضه غير متشابه ، في القدر واللون والطعم . وذلك دليل على التعمد دون الإهمال انْظُرُوا إِلى ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ إذا أخرج ثمره كيف يخرجه ضئيلا ضعيفاً لا يكاد ينتفع به . وانظروا إلى حال ينعه ونضجه كيف يعود شيئاً جامعاً لمنافع وملاذ ، نظر اعتبار واستبصار واستدلال على قدرة مقدّره ومدبره وناقله من حال إلى حال . وقرئ

وَيَنْعِهِ بالضم. يقال: ينعت الثمرة ينعاً وينعاً. وقرأ ابن محيصن: ويانعه. وقرئ: وثمره، بالضم.

[سورة الأنعام (6): آية 100]

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يَصِفُونَ (100)

إن جعلت لِلَّهِ شُرَكاءَ مفعولي جعلوا، نصبت الجن بدلا من شركاء، وإن جعلت لِلَّهِ لغوا كان شُرَكاءَ الْجِنَّ مفعولين قدّم ثانيهما على الأول. فإن قلت: فما فائدة التقديم؟ قلت: فائدته استعظام أن يتخذ للّه شريك مَن كان ملكا أو جنياً أو إنسياً أو غير ذلك. ولذلك قدّم اسم اللّه على الشركاء. وقرئ الجن بالرفع، كأنه قيل: من هم؟ فقيل: الجن. وبالجرّ على الإضافة التي للتبيين. والمعنى أشركوهم في عبادته، لأنهم أطاعوهم كما يطاع اللّه. وقيل: هم الذين زعموا أنّ اللّه خالق الخير وكل نافع، وإبليس خالق الشر وكل ضارّ وَخَلَقَهُمْ وخلق الجاعلين للّه شركاء. ومعناه: وعلموا أن اللّه خالقهم دون الجن، ولم يمنعهم علمهم أن يتخذوا من لا يخلق

شريكا للخالق . وقيل : الضمير للجن . وقرئ : وخلقهم ، أى اختلاقهم الإفك ، يعنى : وجعلوا للّه خلقهم حيث نسبوا قبائحهم إلى اللّه في قولهم وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِها ، وَخَرَقُوا لَهُ وخلقوا له ، أى افتعلوا له بَنِينَ وَبَناتٍ وهو قول أهل الكتابين في المسيح وعزير ، وقول قريش في الملائكة يقال : خلق الإفك وخرقه واختلقه واخترقه ، بمعنى : وسئل الحسن عنه فقال : كلمة عربية كانت العرب تقولها : كان الرجل إذا كذب كذبة في نادى القوم يقول له بعضهم : قد خرقها واللّه ، ويجوز أن يكون من خرق الثوب إذا شقه ، أى اشتقوا له بنين وبنات ، وقرئ : وخرّقوا بالتشديد للتكثير ، لقوله بَنِينَ وَبَناتٍ وقرأ ابن عمر وابن عباس رضى اللّه عنهما : وحرّفوا له ، بمعنى : وزوّروا له أولاداً لأنّ المزوّر محرّف مغير للحق إلى الباطل بِغَيْرِ عِلْمٍ من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه من خطأ أو صواب ، ولكن رمياً بقول عن عمى وجهالة . من غير فكر وروية .

[سورة الأنعام (6) : آية 101]

بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (101)

بَدِيعُ السَّماواتِ من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها ، كقولك : فلان بديع الشعر ، أى بديع شعره . أو هو بديع في السموات والأرض ، كقولك : فلان ثبت الغدر ، أى ثابت فيه ، والمعنى أنه عديم النظير والمثل فيها . وقيل : البديع بمعنى المبدع ، وارتفاعه على أنه خبر

مبتدأ محذوف ، أو هو مبتدأ وخبره أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ أو فاعل تعالى : وقرئ بالجرّ ردّاً على قوله وَجَعَلُوا لِلَّهِ أو على سُبْحانَهُ . وبالنصب على المدح ، وفيه إبطال الولد من ثلاثة أوجه ، أحدها : أن مبتدع السموات والأرض وهي أجسام عظيمة لا يستقيم أن يوصف بالولادة ، لأنّ الولادة من صفات الأجسام ، ومخترع الأجسام لا يكون جسما حتى يكون والداً .

والثاني :

أن الولادة لا تكون إلا بين زوجين من جنس واحد وهو متعال عن مجانس ، فلم يصح أن تكون له صاحبة ، فلم تصح الولادة . والثالث : أنه ما من شيء إلا وهو خالقه والعالم به ، ومن كان بهذه الصفة كان غنيا عن كل شيء ، والولد إنما يطلبه المحتاج . وقرئ : ولم يكن له صاحبة ، بالياء .

وإنما جاز للفصل كقوله :

لَقَدْ وَلَدَ الأُخَيْطِلَ أُمُّ سُوءٍ «1»

---

(1) لقد ولد الأخيطل أم سوء على يأب استه صلب وشام

لجرير يهجو الأخطل . والأخيطل : تصغير الأخطل . وأم سوء - بالاضافة - : فاعل ، فكان حق الفعل التأنيث ، لكن سوغ تركه الفصل بالمفعول . والاست - بوصل الهمزة - الدبر . والصلب : جمع صليب . والشام اسم جمع شامة ، وهي العلامات والنفوش .

وكان الأخطل - وهو غياث بن غوث - من نصارى العرب. ويروى «على باب استها» أى الأم. وهو أقعد في المعنى، وأشنع في هتك الحرمة.

*(108/246)*

---

[سورة الأنعام (6) : آية 102]

ذِلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (102)

ذِلِكُمُ إشارة إلى الموصف مما تقدم من الصفات، وهو مبتدأ وما بعده أخبار مترادفة وهي اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ أى ذلك الجامع لهذه الصفات فَاعْبُدُوهُ مسبب عن مضمون الجملة على معنى: أن من استجمعت له هذه الصفات كان هو الحقيق بالعبادة فاعبدوه ولا تعبدوا من دونه من بعض خلقه. ثم قال وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ يعنى وهو مع تلك الصفات مالك لكل شيء من الأرزاق والآجال، رقيب على الأعمال.

[سورة الأنعام (6) : آية 103]

لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (103)

البصر: هو الجوهر اللطيف «1» الذي ركبه اللّه في حاسة النظر، به تدرك المبصرات. فالمعنى أن الأبصار لا تتعلق به ولا تدركه، لأنه متعال أن يكون مبصراً «2» في ذاته، لأن

الأبصار إنما تتعلق بما كان في جهة أصلا أو تابعا ، كالأجسام والهيئات وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وهو للطف إدراكه للمدركات يدرك تلك الجواهر اللطيفة التي لا يدركها مدرك وَهُوَ اللَّطِيفُ يلطف عن أن تدركه الأبصار الْخَبِيرُ بكل لطيف فهو يدرك الأبصار ، لا تلطف عن إدراكه وهذا من باب اللطف .

[سورة الأنعام (6) : آية 104]

قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (104)

---

(1) . قال محمود : «البصر هو الجوهر اللطيف الذي ركبه اللّه تعالى في حاسة النظر به تدرك . . . الخ» قال أحمد :

وقد سلف الكلام على هذه الآية في غير موضعها ، لأن المصنف تعجل الكلام عليها قبل ، والذي يريده الآن أن الإدراك عبارة عن الاحاطة ، ومنه : حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ أى أحاط به ، وإِنَّا لَمُدْرَكُونَ أى محاط بنا ، فالمنفى إذاً عن الأبصار إحاطتها به عز وعلا لا مجرد الرؤية ، ثم إما أن نقتصر على أن الآية لا تدل على مخالفتنا ، أو تزيد فنقول ، بدل لنا أن تخصيص الاحاطة بالنفي يشعر بطريق المفهوم بثبوت ما هو أدنى من ذلك ، وأقله مجرد الرؤية ، كما أنا نقول : لا تحيط به الأفهام وإن كانت المعرفة بمجردها حاصلة لكل مؤمن ، فالاحاطة للعقل منفية كنفى الاحاطة للحس ، وما دون الاحاطة من المعرفة للعقل والرؤية

للحس ثابت غير منفي . ولم يذكر الزمخشري على إحالة الرؤية عقلا دليلا ولا شبهة فيحتاج إلى القدح فيه ثم معارضته بأدلة الجواز ، ولكنه اقتصر على استبعاد أن يكون المرئي لا في جهه ، فيقتصر معه على إلزامه استبعاد أن يكون الموجود لا في جهة إذ اتباع الرهم يبعدهما جميعاً ، والانقياد إلى العقل يبطل هذا الوهم ويجيزهما معاً . وهذا القدر كاف بحسب ما أورده في هذا الوضع ، والله الموفق .

(2) . قوله «لأنه متعال عن أن يكون مبصراً» استحالة الرؤية مذهب المعتزلة ، لظاهر هذه الآية . وجوازها مذهب أهل السنة لقوله تعالى وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ وكل يؤول مستند الآخر . وتحقيقه في التوحيد . (ع)

(109/246)

---

قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ هو وارد على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقوله وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ والبصيرة نور القلب الذي به يستبصر ، كما أن البصر نور العين الذي به تبصر أى جاءكم من الوحى ، والتنبيه على ما يجوز على الله وما لا يجوز ما هو للقلوب كالبصائر فَمَنْ أَبْصَرَ الحق وآمن فَلِنَفْسِهِ أبصر وإياها نفع وَمَنْ عَمِيَ عنه فعلى نفسه عمى وإياها ضرّ بالعمى وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها ، إنما أنا منذر

واللّه هو الحفيظ عليكم .

[سورة الأنعام (6) : آية 105]

وَكَذٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (105)

وَلِيَقُولُوا جوابه محذوف تقديره . وليقولوا درست تصرّفها . ومعنى دَرَسْتَ قرأت وتعلمت . وقرئ : دارست ، أى دارست العلماء . ودرست بمعنى قدّمت هذه الآيات وعفت كما قالوا : أساطير الأولين ، ودرست بضم الراء ، مبالغة في درست ، أى اشتدّ دروسها . ودرست - على البناء للمفعول - بمعنى قرئت أو عفيت . ودارست . وفسروها بدارست اليهود محمداً صلى اللّه عليه وسلم ، وجاز الإضمار ، لأن الشهرة بالدراسة كانت لليهود عندهم . ويجوز أن يكون الفعل للآيات ، وهو لأهلها ، أى دارس أهل الآيات وحملتها محمداً ، وهم أهل الكتاب . ودرس أى درس محمد . ودارسات ، على : هي دارسات ، أى قديمات . أو ذات دروس ، كعيشة راضية . فإن قلت : أى فرق بين اللامين في لِيَقُولُوا ، وَلِنُبَيِّنَهُ ؟ قلت : الفرق بينهما أنّ الأول مجاز والثانية حقيقة ، وذلك أن الآيات صرفت للتبيين ولم تصرف ليقولوا دارست ، ولكن لأنه حصل هذا القول بتصريف الآيات كما حصل التبيين ، شبه به فسيق مساقه . وقيل : ليقولوا كما قيل لنبينه : فإن قلت : إلام يرجع الضمير في قوله وَلِنُبَيِّنَهُ ؟ قلت : إلى الآيات لأنها في معنى القرآن ، كأنه قيل : وكذلك نصرف القرآن . أو إلى القرآن وإن لم يجر له ذكر ، لكونه معلوما إلى التبيين الذي

هو مصدر الفعل ، كقولهم : ضربته زيداً . ويجوز أن يراد فيمن قرأ درست ودارست : درست الكتاب ودراسته ، فيرجع إلى الكتاب المقدّر .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 106 إلى 107]

اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (106) وَلَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكُوا وَما جَعَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (107)

لا إِلهَ إِلَّا هُوَ اعتراض أكد به إيجاب اتباع الوحى لا محلّ له من الإعراب . ويجوز أن يكون حالا من ربك ، وهي حال مؤكدة كقوله وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً .

*(110/246)*

---

[سورة الأنعام (6) : آية 108]

وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (108)

وَلا تَسُبُّوا الآلهة الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ وذلك أنهم قالوا عند نزول قوله تعالى إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ لتنتهينّ عن سب آلهتنا أو لنهجونّ إلهك .

وقيل : كان المسلمون يسبون آلهتهم ، فنهوا لئلا يكون سبهم سببا لسب اللّه تعالى .

فإن قلت : سب الآلهة حق وطاعة ، فكيف صحّ النهى عنه ، وإنما يصح النهى عن المعاصي ؟

قلت : ربّ طاعة علم أنها تكون مفسدة فتخرج عن أن تكون طاعة ، فيجب النهى عنها لأنها معصية ، لا لأنها طاعة كالنهى عن المنكر هو من أجلّ الطاعات ، فإذا علم أنه يؤدّى إلى زيادة الشر انقلب معصية ، ووجب النهى عن ذلك النهى . كما يجب النهى عن المنكر .

فإن قلت : فقد روى عن الحسن وابن سيرين أنهما حضرا جنازة فرأى محمد نساء فرجع ، فقال الحسن : لو تركنا الطاعة لأجل المعصية لأسرع ذلك في ديننا . قلت : ليس هذا ممن نحن بصدده ، لأنّ حضور الرجال الجنازة طاعة وليس بسبب لحضور النساء فإنهن يحضرنها حضر الرجال أو لم يحضروا ، بخلاف سب الآلهة . وإنما خيل إلى محمد أنه مثله حتى نبه عليه الحسن .

عَدْواً ظلماً وعدواناً . وقرئ عدوّاً بضم العين وتشديد الواو بمعناه . يقال : هذا فلان عدواً وعدواً وعدواناً وعداء . وعن ابن كثير : عدوّاً ، بفتح العين بمعنى أعداء بِغَيْرِ عِلْمٍ على جهالة بالله وبما يجب أن يذكر به كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ مثل ذلك التزيين زينا لكل أمّة من أمم الكفار سوء عملهم ، أو خليناهم وشأنهم «1» ولم نكفهم حتى حسن عندهم سوء عملهم : أو أمهلنا الشيطان حتى زين لهم أو زيناه في زعمهم . وقولهم إن الله أمرنا بهذا وزينه لنا فَيُنَبِّئُهُمْ فيوبخهم عليه ويعاتبهم ويعاقبهم .

[سورة الأنعام (6) : آية 109]

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِها قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ (109)

لَئِنْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ من مقترحاتهم لَيُؤْمِنُنَّ بِها ، قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وهو قادر

---

(1) . قوله «أو خليناهم وشأنهم» فسر التزيين بذلك ، لأنه تعالى لا يخلق الشر عند المعتزلة ، ويخلق الشر والخير عند أهل السنة . (ع)

(111/246)

---

عليها ، ولكنه لا ينزلها الا على موجب الحكمة «1» . أو إنما الآيات عند اللّه لا عندي . فكيف أجيبكم إليها وآتيكم بها وَما يُشْعِرُكُمْ وما يدريكم أَنَّها أن الآية التي تقترحونها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ يعنى أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها وأنتم لا تدرون بذلك . وذلك أن المؤمنين كانوا يطمعون في إيمانهم إذا جاءت تلك الآية ويتمنون مجيئها . فقال عزّ وجلّ وما يدريكم أنهم لا يؤمنون ، على معنى أنكم لا تدرون ما سبق على به من أنهم لا يؤمنون به . ألا ترى إلى قوله كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وقيل : «أنها» بمعنى «لعلها» من قول العرب : ائت السوق أنك تشترى لحماً . وقال امرؤ القيس :

عوجا على الطّلل المحيل لأنّنا نبكي الديار كما بكى ابن خذام «2»

وتقويها قراءة أبيّ : لعلها إذا جاءت لا يؤمنون . وقرئ بالكسر على أن الكلام قد تمّ قبله بمعنى :

وما يشعركم ما يكون منهم ، ثم أخبرهم بعلمه فيهم فقال : أنها إذا جاءت لا يؤمنون البتة .

ومنهم

---

(1) . قال محمود : «يعنى أن اللّه تعالى قادر على أن ينزل الآيات ولكنه لا ينزلها إلا على موجب الحكمة . . . الخ» قال أحمد : ومحز النظر في الآية يتضح بمثال ، فنقول : إذا قال لك القائل «أكرم فلانا فانه يكافئك» وكنت أنت تعلم منه عدم المكافأة ، فإذا أنكرت على المشير بإكرامه قلت : وما يدريك أنى إذا أكرمته يكافئنى ؟ فأنكرت عليه إثباته المكافأة وأنت تعلم نفيها ، فان انعكس الأمر فقال لك : «لا تكرمه فانه لا يكافئك» وكنت تعلم منه المكافأة فأنكرت على المشير بحرمانه قلت : وما يدريك أنه لا يكافئنى ؟ تريد : وأنا أعلم منه المكافأة ، فكان مقتضى الإنكار على المؤمنين الذين أحسنوا الظن بالمعاندين فاعتقدوا أنهم يؤمنون عند نزول الآية المقترحة أن يقال : وما يدريكم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ، كما تقول في المثال منكراً على من أثبت المكافأة وأنت تعلم خلافها ، وما يدريكم أنه يكافئنى ؟ بإسقاط «لا» وإن أثبتها انعكس المعنى ، إلى أن المعلوم لك الثبوت وأنت تنكر على من نفى ، فلما جاءت الآية تفهم ببادئ الرأى أن اللّه تعالى علم الايمان منهم وأنكر على المؤمنين نفيهم

له والواقع على خلاف ذلك ، اختلف العلماء ، فحمل بعضهم «لا» على الزيادة ، وبعضهم أول «أن» بلعل ، وبعضهم جعل الكلام جواب قسم محذوف . وقد تفتح «أن» بعد القسم فقال التقدير : والله أنها إذا جاءت لا يؤمنون . وأما الزمخشري فتفطن لبقاء الآية على ظاهرها وقرارها في نصابها من غير حذف ولا تأويل فقال قوله السالف ، ونحن نوضح اطراده في المثال المذكور ليتضح بوجهيه في الآية ، فنقول : إذا حرمت زيداً لعلمك بعدم مكافأته فأشير عليك بالإكرام بناء على أن المشير يظن المكافأة ، تلك معه حالتان : حالة تنكر عليه ادعاء العلم بما يعلم خلافه ، وحالة نعذره في عدم العلم بما أحطت به علماً ، فان أنكرت عليه قلت : وما يدريك أنه يكافئ ؟ وإن عذرته في عدم عليه بأنه لا يكافئ قلت : وما يدريك أنه لا يكافئ ؟ يعنى ومن أين تعلم أنت ما علمته أنا من عدم مكافأته وانت لم تخبر أمره خبرى ، فكذلك الآية ، إنما ورد فيها الكلام قامة عذر للمؤمنين في عدم علمهم بالمغيب في علم الله تعالى وهو عدم إيمان هؤلاء ، فاستقام دخول «لا» وتعين وتبين أن سبب الاضطراب التباس الإنكار باقامة الأعذار . والله الموفق للصواب .

(2) . لامرئ القيس . والعوج : عطف رأس البعير بالزمام . والمحيل : الذي حال وتغير عن صفة الجدة إلى صفة البلى ، أو الذي أصابه المحل والاقفار . هذا وفي الصحاح : أحال الشيء إذا أتى عليه الحول . ومنه الطلل المحيل ، فهو اسم فاعل وهو الوجيه ، ولأننا : بفتح اللام والهمزة ، بمعنى لعلنا . قال في التسهيل : في لعل عشر لغات ، وعد منها أن المفتوحة ،

ولأن . وابن خذام بمعجمتين أول من بكى الديار من شعراء العرب ، وكان طبيبا حاذقا يضرب به المثل في الطب . [ . . . . . ]

*(112/246)*

---

من جعل «لا» مزيدة في قراءة الفتح وقرئ : وما يشعرهم أنها إذا جاءت لا يؤمنون . أى يحلفون بأنهم يؤمنون عند مجيئها . وما يشعرهم أن تكون قلوبهم حينئذ كما كانت عند نزول القرآن وغيره من الآيات مطبوعا عليها فلا يؤمنوا بها .

[سورة الأنعام (6) : آية 110]

وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (110)

وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ . . . وَنَذَرُهُمْ عطف على يؤمنون ، داخل في حكم وما يشعركم ، بمعنى : وما يشعركم أنهم لا يؤمنون ، وما يشعركم اما نقلب أفئدتهم وأبصارهم : أى نطبع على قلوبهم وأبصارهم فلا يفقهون ولا يبصرون الحق كما كانوا عند نزول آياتنا . أو لا يؤمنون بها لكونهم مطبوعا على قلوبهم ، وما يشعركم أنا نذرهم في طغيانهم أى نخليهم وشأنهم لا نكفهم عن الطغيان حتى يعمهوا «1» فيه . وقرئ : ويقلب . ويذرهم بالياء أى اللّه عزّ وجلّ . وقرأ الأعمش : وتقلب أفئدتهم وأبصارهم ، على البناء للمفعول . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿الكشاف حـ 2 صـ 47. 58﴾

---

(1) . قوله «حتى يعمهوا فيه» أي يتحيروا . (ع)

(113/246)

---

وقال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (101) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (102) لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (103) قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (104) وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (105) اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (106) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (107) وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (108) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ

إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (109) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (110) ﴾

(114/246)

---

التفسير : لما نبه إجمالاً بغير علم على الدليل على إبطال قول من خرق له بنين وبنات ، فصل ذلك بقوله ﴿ بديع السموات والأرض ﴾ الآية . والمراد هو بديع السموات ، ويجوز أن يكون ﴿ بديع ﴾ مبتدأ والجملة بعده خبره . وتقرير الدليل أنكم إما أن تريدوا بكون عيسى ولداً له أنه أحدثه على سبيل الإبداع من غيره تقدم نطفة ولا أب وحينئذ يلزمكم القول بأنه والد السموات والأرض بكونه مبدعاً لهما وهذا باطل بالاتفاق ، وإما أن تريدوا به الولادة كما هو المألوف في الحيوانات وهذا أيضاً محال لأن تلك الولادة لا تصح إلا ممن كانت له صاحبة من جنسه وينفصل منه جزء يحتبس في رحمها ، وهذه الأحوال إنما تثبت في حق الجسم الذي يصح عليه الاجتماع والافتراق والحركة والسكون والحد والنهاية والشهوة واللذة ، وكل ذلك على الله محال وأشار إلى هذا بقوله ﴿ أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ﴾ وأيضاً الولد بهذا الطريق إنما يتصور في حق من لا يقدر على خلق الأشياء دفعة واحدة ، أما الذي إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون فذلك في حقه مستحيل ،

وإلى هذا أشار بقوله ﴿ خلق كل شيء ﴾ وأيضاً هذا الولد لا يكون أزلياً وإلا كان واجباً لذاته غنياً عن غيره فبقي أن يكون حادثاً فنقول : إنه تعالى عالم بكل المعلومات أزلاً وأبداً كما قال ﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾ فإن كان قد علم أن له في تحصيل ذلك الولد كمالاً أو نفعاً أو لذة لتعلقت إرادته بإيجاده في الأزل دفعاً لذلك الاحتياج والنقصان ، فيكون الولد أزلياً على تقدير كونه حادثاً هذا خلف ، فتبين أن إله العالم فرد واحد صمد منزه عن الشريك والنظير والأضداد والأنداد والأولاد ، فلهذا صرح بالنتيجة فقال ﴿ ذلكم الله ﴾ فاسم الإشارة مبتدأ وما بعده أخبار مترادفة أي ذلكم الموصوف الجامع لتلك الصفات المقدسة هو الله إلى آخره .

*(115/246)*

---

وإنما قال ههنا ﴿ لا إله إلا هو خالق كل شيء ﴾ وفي " المؤمن " بالعكس لأنه وقع ههنا بعد ذكر الشركاء والبنين والبنات فكان رفع الشرك أهم ، وهنالك وقع بعد ذكر خلق السموات والأرض فكان تقديم الخالقية أهم . ثم قال ﴿ فاعبدوه ﴾ وهو مسبب عن مضمون الجملة المقدمة يعني أن من استجمعت له هذه الكمالات كان حقيقاً بالعبادة ﴿ وهو ﴾ مع تلك الصفات ﴿ على كل شيء وكيل ﴾ يحفظه ويرزقه ويراقبه . قال في

التفسير الكبير : إنه سبحانه أقام الدليل على وجود الخالق ، ثم زيف طريق من أثبت له شريكاً وهذا القدر لا يوجب التوحيد المحض لكن للعلماء في إثبات التوحيد طرق منها : أن الدليل قد دل على وجود صانع ، والزائد على الواحد لم يدل دليل على ثبوته فليس عدد أولي من عدد آخر فيلزم آلهة لا نهاية لها ، أو القول بعدد معين بلا ترجيح وكلاهما محال فلم يبق إلا الاكتفاء بواحد وهو المطلوب . ومنها أنا لو قدّرنا إلهين قادرين على كل المقدورات عالمين بكل المعلومات ، فكل فعل يفعله أحدهما صار كونه فاعلاً لذلك الفعل مانعاً للآخر من تحصيل مقدوره وذلك يوجب أن يكون كل واحد يعجز الآخر وهو محال ، وإن كان في أحدهما عجز ونقص لم يصلح للإلهية . ومنها أنا لو فرضنا إلهاً ثانياً فكان إما أن يكون الثاني مشاركاً للأوّل في جميع صفات الكمال أولا . وعلى الأول لا بد أن يحصل الامتياز بأمر وإلا لم يحصل التعدد ، فذلك المميز إن كان من صفات الكمال لم يكن جميع صفات الكمال مشتركة بينهما ، وإن كان من صفات النقص فالموصوف به لا يصلح للإلهية وكذا إن لم يكن الثاني مشاركاً للأوّل في جميع صفات الكمال فثبت التوحيد بهذه الدلائل ، مع أن الدليل النقلي في التوحيد كاف والله أعلم . قالت الأشاعرة : عموم قوله ﴿ خالق كل شيء ﴾ يدل على أنه خالق أفعال العباد . وقالت المعتزلة : إنما ذكر هذا الكلام في معرض المدح ولكنه لا يتمدح بخلق الزنا والكفر واللواط ، وعورض بالعلم والداعي كما

مر مراراً . وأيضاً احتج كثير من المعتزلة به على نفي الصفات وعلى أن القرآن مخلوق .

(117/246)

أما الثاني فلأن القرآن شيء فيدخل تحت العموم . وأما الأوّل فلأن الصفات لو كانت موجودة له تعالى لزم أن تكون مخلوقة له . وأجيب بأنكم تخصصون هذا العام بحسب ذاته ضرورة أنه يمتنع أن يكون خالقاً لنفسه وبحسب أفعال العباد ، فنحن أيضاً نخصصه بحسب الصفات وبحسب القرآن . وأما الفرق بين قوله ﴿ وخلق كل شيء ﴾ وقوله ﴿ خالق كل شيء ﴾ فذلك لأن الأول يتعلق بالزمان الماضي ، والثاني يتناول الأوقات كلها على سبيل الاستمرار . ثم بين أن شيئاً من القوى المدركة لا يحيط بحقيقته وأن عقلاً من العقول لا يقف على كنه صمديته فقال ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ هذه الآية من مشهورات استدلالات المعتزلة على نفي رؤيته تعالى . قالوا : الإدراك بالبصر عبارة عن الرؤية بدليل أن قول القائل : أدركته ببصري وما رأيته متناقضان . ثم إن قوله ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ يقتضي أنه لا يراه شيء من الأبصار في شيء من الأحوال بدليل صحة الاستثناء . وأيضاً أنه ذكر الآية في معرض المدح والثناء ، وكل ما كان عدمه مدحاً ولم يكن ذلك من باب الفعل

كان ثبوته نقصاً كقوله ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ [ البقرة : 255 ] ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ [ الصمد : 3 ] فوجب كون الرؤية نقصاً في حقه تعالى . وإنما قيدوا بما لا يكون من باب الفعل لأنه تعالى يمتدح بنفي الظلم عن نفسه في قوله ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ [ فصلت : 46 ] مع أنه تعالى قادر على الظلم عندهم . وأجيب بالمنع من أن إدراك البصر عبارة عن الرؤية لأنه في أصل اللغة موضوع للوصول واللحوق ومنه ﴿ قال أصحاب موسى إنا لمدركون ﴾ [ الشعراء : 61 ] أي لملحقون وقوله تعالى ﴿ حتى إذا أدركه الغرق ﴾ [ يونس : 90 ] أي لحقه . وأدرك الغلام أي بلغ ، وأدركت الثمرة إذا نضجت . وإذ قد ثبت ذلك فنقول : الرؤية جنس والإدراك أي إدراك البصر رؤية مع الإحاطة . ولا يلزم من نفي الخاص نفي العام ، فلا يلزم من نفي إدراك البصر نفي الرؤية . سلمنا أن إدراك البصر

*(118/246)*

---

عبارة عن الرؤية لكن قوله ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ لا يفيد إلا نفي العموم وأنتم تدعون عموم النفي فأين ذاك من هذا . وإنما قلنا إنه لا يفيد إلا نفي العموم لأن صيغة الجمع كما تحمل على الاستغراق فقد تحمل على المعهود السابق أيضاً . فقوله ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ يفيد أنها لا تدركه في الدنيا وأنها تركه إذا تبدلت صفاتها وتغيرت أحوالها في الآخرة ،

أو نقول قول القائل : لا يدركه جميع الأبصار يفيد سلب العموم ولا يفيد عموم السلب ، فلم لا يجوز أن يفيد أنه يدركه بعض الأبصار كما لو قيل إن محمداً ما آمن به كل الناس فإنه يفيد أنه آمن به بعض الناس ، سلمنا أن الأبصار لا تدركه البتة فلم لا يجوز حصول إدراك الله تعالى بحاسة سادسة يخلقها الله تعالى يوم القيامة كما هو مذهب ضرار بن عمرو الكوفي .

*(119/246)*

---

أو نقول : سلمنا أن الأبصار لا تدركه فلم قلتم إن المبصرين لا يدركونه ، أما قولهم إن الآية مذكورة في معرض المدح فنقول : لو لم يكن الله تعالى جائز الرؤية لما حصل المدح بقوله ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ وإنما يحصل التمدح لو كان بحيث نصح رؤيته . ثم إنه تعالى يحجب الأبصار عن رؤيته لغاية جلاله ونهاية جماله . والتحقيق فيه أن النفي المحض والعدم الصرف لا يكون موجباً للمدح والعلم به ضروري ، بل إذا كان النفي دليلاً على حصول صفة ثابتة من صفات المدح قيل : إن ذلك النفي يوجب التمدح كقوله ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ [ البقرة : 255 ] فإنه لا يفيد المدح نظراً إلى هذا النفي ، فإن الجماد أيضاً لا تأخذه سنة ولا نوم إلا أن هذا النفي في حق الباري تعالى يدل على كونه عالماً بجميع المعلومات من غير تبدل ولا زوال . فقوله ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ يمتنع أن يفيد المدح إلا

إذا دل على معنى موجود وذلك ما قلناه من كونه قادراً على حجب الأبصار ومنعها عن الإحاطة به ، فثبت بما ذكرنا أن هذه الآية عليكم لا لكم لأنها أفادت أنه تعالى جائز الرؤية بحسب ذاته . ثم نقول : إذا ثبت ذلك يجب القطع بأن المؤمنين يرونه يوم القيامة لأن القائل قائلان : قائل بجواز الرؤية مع أن المؤمنين يرونه ، وقائل لا يرونه ولا تجوز رؤيته ، وإذا بطل هذا القول يبقى الأول حقاً لأن القول بجواز رؤيته مع أنه لا يراه أحد قول لم يقل به أحد وهذا استدلال لطيف . ثم إن القاضي استدل ههنا على نفي الرؤية بوجوه أخر خارجة عن التفسير لائقة بالأصول . فأولها أن الحاسة إذا كانت سليمة وكان المرئي حاضراً وكانت الشرائط المعتبرة حاصلة – وهو أن لا يحصل القرب القريب والبعد البعيد وارتفع الحجاب وكان المرئي مقابلاً أو في حكم المقابل – فإنه يجب حصول الرؤية وإلا لجاز أن يكون بحضرتنا بوقات وطبول ونحن لا نسمعها ولا نراها ، وهذا يوجب السفسطة إذا ثبت هذا فنقول : القرب القريب والبعد البعيد

*(120/246)*

---

والحجاب والمقابلة في حقه تعالى ممتنع ، فلو صحت رؤيته كان المقتضي لحصول تلك الرؤية سلامة الحاسة وكون المرئي بحيث يصح رؤيته ، وهذان المعنيان حصلان في هذا الوقت

فوجب أن تحصل رؤيته ، وحيث لم تحصل علمنا أن رؤيته ممتنعة في نفسها . وأجيب بأن ذاته تعالى مخالفة لسائر الذوات ولا يلزم من ثبوت حكم لشيء ثبوت مثله فيما يخالفه .

وثانيها لو صحت رؤيته لأهل الجنة لرآه أهل النار أيضاً لأن القرب والبعد والحجاب ممتنع في حقه تعالى . وأجيب لأنه لم لا يجوز أن يخلق الله تعالى الرؤية في عيون أل الجنة ولا يخلقها في عيون أهل النار ؟ وثالثها أن كل ما كان مرئياً كان مقابلاً أو في حكم المقابل ، والله تعالى منزه عن ذلك .

وأجيب بمنع الكلية وبأنه إعادة لعين الدعوى لأن النزاع واقع في أن الموجود الذي لا يكون مختصاً بمكان وجهة هل يجوز رؤيته أم لا . ورابعها أن أهل الجنة يلزم أن يروه في كل حال حتى عند الجماع لأن القرب والبعد عليه تعالى محال ، ولأن رؤيته أعظم اللذات وفوات ذلك يوجب الغم والحزن وذلك لا يليق بحال أهل الجنة . وأجيب بأنهم لعلهم يشتهون الرؤية في حال دون حال كسائر الملاذ والمنافع .

*(121/246)*

---

( في تعديد الوجوه الدالة على جواز الرؤية ) : منها هذه الآية كما بينا . ومنها أن موسى عليه السلام طلب الرؤية فدل ذلك على جوازها . ومنها أنه تعالى علق الرؤية على

استقرار الجبل والمعلق على الجائز جائز . ومنها قوله ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ [ يونس : 26 ] قد اتفق الجمهور على أن النبي صلى الله عليه وسلم وآله فسر الحسنى بالجنة والزيادة بالرؤية ، ومنها قوله ﴿ فمن كان يرجوا لقاء ربه ﴾ [ الكهف : 110 ] ونحو ذلك من الآيات الدالة على اللقاء ، ومنها قوله ﴿ كانت لهم جنات الفروس نزلاً ﴾ [ الكهف : 107 ] والاقتصار على النزل لا يجوز فالزائد على جنات الفردوس لا يكون إلا اللقاء . ومنها قوله ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ [ النجم : 13 ] وسوف يأتي في سورة النجم إن شاء الله تعالى . ومنها قوله ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ [ القيامة : 22 ، 23 ] ومنها قوله ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ [ المطففين : 15 ] فيكون المؤمنون غير محجوبين . ومنها قوله ﴿ فيها ما تشتهيه الأنفس ﴾ [ الزخرف : 71 ] ولا شك أن القلوب الصافية مجبولة على حب معرفة الله على أكل الوجوه وأكمل طرق المعرفة هو العيان . ومنها قوله ﴿ وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً ﴾ [ الدهر : 20 ] فيمن قرأ بفتح الميم وكسر اللام . وأما الأخبار فكثيرة منها : الحديث المشهور " إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته " والمراد تشبيه الرؤية بالرؤية في الجلاء والوضوح لا تشبيه المرئي بالمرئي . ومنها أن الصحابة اختلفوا في أن النبي صلى الله عليه وسلم وآله هل رأى الله تعالى ليلة المعراج ولم يكفر بعضهم بعضاً بهذا السبب فدل ذلك على أنهم كانوا يجمعون على إمكان الرؤية . أما قوله تعالى ﴿ وهو

يدرك الأبصار ﴾ ففيه دليل على أنه سبحانه مبصر للمبصرات ، راء للمرئيات ، مطلع على ماهياتها ، عليم بعوارضها وذاتياتها . ثم قال ﴿ وهو اللطيف الخبير ﴾

(122/246)

---

وليس المراد باللطافة ضد الكثافة وهو رقة القوام فإن ذلك من صفات الأجسام ، بل المراد لطف صنعه في تركيب أبدان الحيوانات من الأجزاء الدقيقة والأغشية الرقيقة والمنافذ الضيقة التي لا يعلمها إلا مبدعها . أو المراد أنه لطيف في الإنعام والرحمة لا يأمرهم فوق طاقتهم وينعم عليهم فوق استحقاقهم .

(123/246)

---

أو الغرض أنه يثني عليهم بالطاعة ، ولا يقطع موادّ إحسانه عنهم بالمعصية . أو المراد أنه يلطف عن أن يدركه الأبصار الخبير بكل لطيف ولا يلطف شيء عن إدراكه ، ثم عاد إلى تقرير أمر الدعوة والرسالة فقال ﴿ قد جاءكم بصائر ﴾ أي موجباتها والبصيرة للقلب بمنزلة البصر للعين . ﴿ فمن أبصر ﴾ الحق وآمن ﴿ فلنفسه ﴾ أبصر وإياها نفع . ﴿

ومن عمي ﴾ عنه فعلى نفسه عمي وإياها ضر . قالت المعتزلة : فيه تصريح بأن العبد يتمكن من الأمرين : الفعل والترك . وعورض بالعلم والداعي ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها ، إنما أنا منذر والله هو الحفيظ عليكم . ثم حكى شبه المنكرين بقوله ﴿ وكذلك ﴾ أي مثل ذلك التقرير البليغ ﴿ نصرف الآيات ﴾ نأتي بها متواترة حالاً بعد حال ﴿ وليقولوا ﴾ عطف على محذوف أي لتلزمهم الحجة وليقولوا أو متعلق بما بعده أي وليقولوا درست نصرفها . ومعنى ﴿ درست ﴾ قرأت وتعلمت من الدرس ، ومن قرأ ﴿ دارست ﴾ أي قرأت على اليهود وقرؤا عليك وجرت بينك وبينهم مدارسة ومذاكرة . وأما قراءة ابن عامر ﴿ درست ﴾ فهي من الدروس بمعنى أن هذه الآيات قد درست وعفت أي هذه الأخبار التي تلوتها علينا من جملة أساطير القرون الخالية ، قالت العلماء : التركيب يدل على التذليل والتليين لأن من درس الكتاب فقد ذلله بكثرة القراءة ، ومنه قيل للثواب الخلق " دريس " ، لأنه قد لان فكأنه تعالى ذكر الوجه الذي لأجله صرف الآيات وهو أمران : أحدهما قوله ﴿ وليقولوا دارست ﴾ والثاني قوله ﴿ ولنبينه ﴾ أما الثاني فلا إشكال فيه لأنه بيّن أن الحكمة في هذا التصريف أن يظهر منه البيان والعلم والضمير في ﴿ لنبينه ﴾ للآيات لأنها في معنى القرآن ، أو يعود إلى القرآن وإن لم يجر له ذكر للعلم به ، أو إلى التبيين الذي هو مصدر الفعل نحو : ضربته زيداً أي ضربت

الضرب زيداً . وأما الأول فقد أورد عليه أن قولهم للرسول ﴿ دارست ﴾ كفر منهم بالقرآن والرسول ، وعلى هذا

(124/246)

---

فتعود مسألة الجبر والقدر ، أما الأشاعرة فأجروا الكلام على ظاهره وقالوا : معناه أنا ذكرنا هذه الدلائل حالاً بعد حال ليقول بعضهم دارست فيزدادوا كفراً على كفر ، ونبينه لبعض فيزدادوا إيماناً على إيمان كقوله ﴿ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً ﴾ [ البقرة : 26 ] وأما المعتزلة فقال الجبائي منهم والقاضي : إن هذا الإثبات محمول على النفي والتقدير : نصرف الآيات لئلا يقولوا كقوله ﴿ يبين الله لكم أن تضلوا ﴾ [ النساء : 176 ] أي لئلا تضلوا . أو المراد لام العاقبة ، وزيف بأن حمل الإثبات على النفي تحريف لكلام الله وفتح هذا الباب يخرج الكتاب عن أن يكون حجة . وأيضاً إنه مناف للمقصود لأن إنزال الآيات نجماً فنجماً هو الذي أوقع الشبهة للقوم في أن محمداً صلى الله عليه وسلم إنما أتى بالقرآن على سبيل المدارسة والمذاكرة مع أقوام آخرين ، ولهذا كانوا يقولون لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة .

فالجواب الذي ذكره إنما يصح لو كان التصريف علة لأن يمتنعوا من هذا القول لكنه موجب له فسقط كلامهم ، وأيضاً حمل اللام على لام العاقبة مجاز ، وحمل الكلام على الحقيقة أولى .

*(125/246)*

---

ثم إنه لما حكى عن الكفار أنهم نسبوه في شأن القرآن إلى الافتراء وإلى أنه دارس أقواماً واستفاد هذه العلوم منهم ثم نظمها قرآناً وادّعى أنه نزل عليه من الله أتبعه قوله ﴿ اتبع ما أوحي إليك من ربك ﴾ لئلا يصير ذلك القول سبباً لفتوره في تبليغ الدعوة والرسالة والمقصود تقوية قلبه وإزالة الحزن الذي يعتريه بسماع تلك الشبهة ، ونبه بالجملة المعترضة أو الحال المؤكدة وهي قوله ﴿ لا إله إلا هو ﴾ على أنه سبحانه لما كان واحداً في الإلهية فإنه يجب طاعته ولا يجوز الإعراض عن تكاليفه بسبب جهل الجاهلين وزيغ الزائغين . ثم ختم الآية بقوله ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ وحمله بعضهم على أنها منسوخة بآية القتال . وضعف بأن المراد واترك مقابلتهم فيما يأتونه من سفه ، وأن يعدل صلوات الله عليه إلى الطريق الذي يكون أقرب إلى القبول وأبعد عن التنفير والتغيظ . ﴿ ولو شاء الله ما أشركوا ﴾ مذهب الأشاعرة فيه ظاهر . وحمله المعتزلة على مشيئة الإلجاء والقسر . وأجيب بعد المعارضة بالعلم والداعي بأن الإيمان الاختياري هب أنه أنفع وأفضل من

الإيمان القهري إلا أنه تعالى لما علم أن ذلك لا يقع ولا يحصل فقد كان يجب في حكمته أن يخلق الله فيه الإيمان القهري كي يخلص من العقاب ، وإن لم يجب له الثواب كما أن الأب المشفق إذا علم أن ابنه لا يحسن الغوص يقول له : اترك الغوص في البحر ولا تطلب اللآلىء فإنك لا تجدها واكتف بالرزق القليل مع السلامة ، فأما أن يأمره بالغوص في البحر مع اليقين التام بأنه لا يستفيد منه إلا الهلاك فإن ذلك من الرحمة والشفقة بمعزل . ثم ختم الكلام بما يكمل به بصيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وآله ، وذلك أن بيّن له قدر ما جعل إليه فذكر أنه ما جعله حفيظاً ولا وكيلاً عليهم وإنما فوض إليه الإبلاغ والإنذار . ثم إنهم لما نسبوا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أنه جمع القرآن بطريق المداومة وكان لا يبعد أن يغضب له المسلمون لسبب ذلك فيسبوا

*(126/246)*

---

آلهتهم نهى الله تعالى عن ذلك فقال ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله ﴾ وذلك أن المسلمين إذا شتموا آلهتهم فربما غضبوا وذكروا الله بما لا ينبغي من القول . وفيه تنبيه على أن خصمك إذا شافهك بجهل وسفاهة لم يجز لك أن تقدم على مشافهته بما يجري مجرى

كلامه فإن ذلك يوجب فتح باب المشاتمة والمسافهة وإنه لا يليق بالعقلاء . قال ابن عباس : لما نزل

(127/246)

---

﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ [ الأنبياء : 98 ] قال المشركون : لئن لم تنته عن سب آلهتنا وعيبها لنهجونّ إلهك فنزلت . وقال السدي : " لما حضر أبا طالب الوفاة قالت قريش : انطلقوا فلندخل على هذا الرجل فلنأمرنه أن ينهي عنا ابن أخيه فإنا نستحي أن نقتله بعد موته فتقول العرب كان يمنعه فلما مات قتلوه . فانطلق أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحرث وأمية وأبي ابنا خلف وعقبة ابن أبي معيط وعمرو بن العاص والأسود بن البختري إلى أبي طالب فقالوا : أنت كبيرنا وسيدنا ، وأن محمداً قد آذانا وآذى آلهتنا فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا ولندعه وإلهه . فدعاه فجاء النبي صلى الله عليه وسلم وآله فقال له أبو طالب : هؤلاء قومك وبنو عمك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماذا تريدون ؟ قالوا : نريد أن تدعنا وآلهتنا وندعك وإلهك . فقال أبو طالب : قد أنصفك قومك وبنو عمك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرأيتم إن أعطيتكم هذا هل أنتم معطيّ كلمة إن تكلمتم بها ملكتم العرب ودانت لكم بها العجم ؟

قال أبو جهل : نعم وأبيك لنعطينكها وعشر أمثالها فما هي ؟ قال : قولوا لا إله إلا الله فأبوا واشمأزوا فقال أبو طالب : قل غيرها يا ابن أخي فإن قومك قد فزعوا منها . فقال : يا عم ما أنا بالذي أقول غيرها ، ولو أتوني بالشمس فوضعوها في يدي ما قلت غيرها . فقالوا : لتكفن عن شتمك آلهتنا أو لنشتمنك ولنشتمن من يأمرك فأنزل الله تعالى هذه الآية " قالت العلماء : إن القوم كانوا مقرين بوجود الإله تعالى فكيف يتصور إقدامهم على شتم الله ؟ وأجيب بأنه ربما كان بعضهم قائلاً بالدهر ونفي الصانع فما كان يبالي هذا النوع من السفاهة ، أو لعل مرادهم شتم الرسول صلى الله عليه وسلم وآله فأجرى الله تعالى شتمه مجرى شتم الله كما في قوله ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴾ [ الفتح : 10 ] أو لعلهم من جهالتهم اعتقدوا أن الشطيان يحمله على ادعاء

*(128/246)*

---

الرسالة ثم إنهم سموا ذلك الشيطان بأنه إله محمد صلى الله عليه وسلم وآله . وههنا سؤال وهو أن شتم الأصنام من أصول الطاعات فكيف يحسن من الله تعالى أن ينهى عنه ؟ والجواب أن هذا الشتم وإن كان طاعة إلا أنه إذا وقع على وجه يستلزم منكراً وجب الاحتراز عنه ، لأن هذا الشتم كان يستلزم إقدامهم على شتم الله سبحانه وشتم رسوله

وفتح باب السفاهة ويقتضي تنفيرهم عن قبول الدين وإدخال الغيظ والغضب في قلوبهم .

وفيه أن الأمر بالمعروف قد يقبح إذا أدى إلى ارتكاب منكر ، والنهي عن المنكر يقبح إذا أدى إلى زيادة منكر وغلبة الظن قائمة مقام اليقين في هذا الباب . وفيه تأديب لمن يدعو إلى الدين كيلا يتشاغل بما لا يفيد في المطلوب ، فإن وصف الأوثان بأنها جمادات لا تنفع ولا تضر يكفي في القدح في إلهيتها فلا حاجة مع ذلك إلى شتمها ، يقال : عدا فلان عدواً وعدواناً وعداء إذا ظلم ظلماً يتجاوز القدر .

*(129/246)*

---

قال الزجاج ﴿ عدواً ﴾ منصوب على المصدر لأن المعنى فيعدو عدواً وقرىء ﴿ عدوّاً ﴾ بفتح العين والتشديد أي في حال كونهم أعداء . ومعنى ﴿ بغير علم ﴾ على جهالة بالله وبما يجب أن يذكر به ﴿ وكذلك ﴾ أي مثل ذلك التزيين ﴿ زينا لكل أمة عملهم ﴾ قالت الأشاعرة : فيه دلالة على أنه تعالى هو الذي زين للكافر الكفر وللمؤمن الإيمان وللعاصي المعصية ، وزيفه الكعبي بقوله تعالى ﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ [ النمل : 24 ] [ العنكبوت : 38 ] وبقوله ﴿ والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت ﴾ [ البقرة : 257 ] فإذا المراد أنه تعالى زين لهم ما لهم أن يعملوا وهم لا يفقهون ، أو المراد زينا

لكل أمة من أمم الكفار عملهم أي خليناهم وشأنهم وأمهلناهم حتى حسن عندهم سوء عملهم ، أو أمهلنا الشيطان حتى زين لهم أو زينا في زعمهم وقولهم أن الله أمرنا بهذا وزينه لنا ، وضعف بعد المعارضة بالعلم وخلق الداعي بأن قوله تعالى ﴿ كذلك زينا ﴾ بعد قوله ﴿ فيسبوا الله ﴾ مشعر بأن إقدامهم على ذلك المنكر إنما كان بتزيين الله تعالى .

وأيضاً الإنسان لا يختار الكفر والجهل ابتداء مع العلم بكونه كفراً وجهلاً والعلم بذلك ضروري ، بل إنما يختاره لأنه اعتقد كونه إيماناً وعلماً وحقاً وصدقاً ، ولولا سابقة الجهل الأول لما اختار الجهل الثاني ولا تذهب الجهالات إلى غير النهاية ، فلا بد أن ينتهي إلى جهل أول يخلقه الله تعالى فيه وهو بسبب ذلك الجهل ظن الكفر إيماناً والجهل علماً . قال : ﴿ وأقسموا بالله جهد إيمانهم ﴾ والغرض حكاية شبهة أخرى لهم وهي أن هذا القرآن كيفما كان أمره فليس من جنس المعجزات البتة ، ولو أنك يا محمد جئتنا بمعجزة باهرة وبينه قاهرة لآمنا بك وأكدوا هذا المعنى بالأيمان والأقسام . قال الواحدي : إنما سمى اليمين بالقسم لأن اليمين موضعة لتوكيد الخبر وكانت الحاجة إلى ذكر الحلف عند انقسام الناس وقت سماع الخبر إلى مصدق ومكذب ، فمعنى الأقسام إزالة القسمة وجعل

الناس كلهم مصدقين بواسطة الحلف واليمين . عن محمد بن كعب قال : "كلمت رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله قريش فقالوا : يا محمد تخبرنا أن موسى كانت معه عصا فضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، وأن عيسى كان يحيى الموتى ، وأن صالحاً كانت له ناقة ، فأتنا ببعض تلك الآيات حتى نصدقك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي شيء تحبون أن آتيكم به ؟ قالوا : تجعل لنا الصفا ذهباً . قال : فأن فعلت تصدقوني ؟ قالوا : نعم والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعون . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فجاءه جبريل عليه السلام فقال : إن شئت أصبح الصفا ذهباً ولكن لم أرسل بآية فلم يصدق بها إلا أنزلت العذاب ، وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتركهم حتى يتوب تائبهم "

*(131/246)*

---

وأنزل الله الآيات إلى قوله ﴿ ولكن أكثرهم يجهلون ﴾ قال الكلبي ومقاتل : إذا حلف الرجل بالله فهو جهد يمينه . وقال الزجاج : معناه بالغوا في الإيمان . والمراد بقوله ﴿ لئن جاءتهم آية ﴾ ما روينا من جعل الصفا ذهباً . وقيل : هي الأشياء المذكورة في قوله ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا ﴾ [ الإسراء : 90 ] الآيات . وقيل : كان النبي صلى

الله عليه وسلم وآله يخبرهم بأن عذاب الاستئصال كان ينزل بالأمم المتقدمين المكذبين فالمشركون طلبوا مثلها . ﴿ قل إنما الآيات عند الله ﴾ أي هو مختص بالقدرة على أمثال هذه الآيات لأن المعجزات لا تحصل إلا بتخليق الله تعالى ، أو المراد بالعندية هو العلم بأن إحداث هذه المعجزات هل يقتضي إيمانهم أم لا كقوله ﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾ [ الأنعام : 59 ] أو المراد أنها وإن كانت معدومة في الحال إلا أنه تعالى متى شاء أحدثها وليس لكم أن تتحكموا في طلبها كقوله ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ﴾ [ الحجر : 21 ] ﴿ وما يشعركم ﴾ ما استفهام والجملة خبره ، ثم من قرأ ﴿ انها ﴾ بكسر الهمزة على الابتداء – وهي القراءة الجيدة – فالتقدير وما يشعركم ما يكون منهم ثم ابتدأ فقال ﴿ إنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ وأما قراءة الفتح فقال سيبويه : سألت الخليل عن ذلك فقال : لا تحسن لأنها تصير عذراً للكفار ، لأن معنى قول القائل : ما يدريك أنه لا يفعل هو أنه يفعل . فمعنى الآية أنها إذا جاءت آمنوا وذلك يوجب مجيء هذه الآيات ويصير هذا الكلام عذراً لهم في طلبها ، لكن القراءة لما كانت متواترة فلا جرم ذكر العلماء فيه وجوها : قال الخليل : " أن " بمعنى " لعل " تقول العرب : ائت السوق أنك تشتري لنا شيأً أي لعلك . ويقوي هذا الوجه قراءة أبي ﴿ لعلها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ وثانيها " أن " تجعل " لا " صلة كما في قوله ﴿ ما منعك أن لا تسجد ﴾ [ الأعراف : 12 ] ﴿ وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ﴾ [ الأنبياء : 95 ] وثالثها أن

(132/246)

---

المؤمنين كانوا يطمعون في إيمانهم إذا جاءت تلك الآية ويتمنون مجيئها فقال الله : وما يدريكم أيها المؤمنون أنهم لا يؤمنون على معنى أنكم لا تدرون ما سبق به على من أنهم لا يؤمنون . وأما من قرأ ﴿ لا تؤمنون ﴾ بتاء الخطاب فالمراد وما يشعركم أيها الكفار . قال القاضي والجبائي : في الآية دلالة على أنه تعالى يجب أن يفعل كل ما في مقدوره من الألطاف إذ لو كان في المعلوم لطف يؤمنون عنده ، ثم إنه لا يفعل ذلك لم يكن لتعليل ترك الإجابة بأنهم لا يؤمنون وجه .

(133/246)

---

وأيضاً لو كان الإيمان بخلق الله تعالى ولم يكن لفعل الألطاف أثر في حمل المكلف على الطاعات لم يكن لإظهار تلك المعجزات أثر . وأجيب بأن تأثير المعجزات عندهم مبني على وجوب اللطف ، فلو أثبت اللطف به لزم الدور ، وبأن الآية التي بعد هذه وهي قوله ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ﴾ تدل على أن الكفر والإيمان بقضاء الله وقدره .

ومعنى تقليب الأفئدة والأبصار هو أنهم إذا جاءتهم الآيات القاهرة التي اقترحوها عرفوا كيفية دلالتها على صدق الرسول إلا إنه تعالى إذا قلب قلوبهم وأبصارهم عن ذلك الوجه الصحيح بقوا على الكفر ولم ينتفعوا بتلك الآيات . والتقليب تحريك الشيء عن وجهه . وكان صلى الله عليه وسلم وآله يقول " يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك " والمراد أنه تعالى يقلب القلوب تارة من داعي الخير إلى داعي الشر وبالعكس . وإنما قدم ذكر تقليب الأفئدة على تقليب الأبصار ، لأن موضع الدواعي والصوارف هو القلب فإذا حصلت الداعية في القلب انصرف البصر عنه ، والحاصل أن السمع والبصر آلتان للقلب فلهذا السبب وقع الابتداء بتقليب القلب . قال الجبائي : المراد ونقلب أفئدتهم وأبصارهم في جهنم على لهب النار وحرها لتعذيبهم . وزيف بأن قوله ﴿ ونذرهم ﴾ إنما يحصل في الدنيا وهذا يستلزم سوء النظم . وقال الكعبي : المراد ونقلب أفئدتهم وأبصارهم بأنا لا نفعل بهم ما نفعل بالمؤمنين من الفوائد والألطاف حيث أخرجوا أنفسهم عن هذا الحد بسبب كفرهم . وضعف بأنه إنما استحق الحرمان من تلك الألطاف والفوائد بسبب إقدامه على الكفر وهو الذي أوقع نفسه في ذلك الحرمان فكيف يحسن إضافته إلى الله تعالى في قوله ﴿ ونقلب ﴾ وقال القاضي : القلب باقٍ على حالة واحدة إلا أنه تعالى أدخل التقليب والتبديل في الدلائل . واعترض بأن تقليب القلب نقله من صفة إلى صفة

ومن حالة إلى حالة . وأما قوله ﴿ كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ فقال الواحدي : فيه حذف والتقدير ولا يؤمنون

(134/246)

---

بهذه الآيات كما لم يؤمنوا بظهور الآيات أول مرة يعني أول مرة أتتهم الآيات مثل انشقاق القمر وغيره . والكناية في ﴿ به ﴾ إما عائدة إلى القرآن ، أو إلى محمد صلى الله عليه وسلم وآله ، أو إلى ما طلبوا من الآيات وقيل : الكاف للجزاء أي كما لم يؤمنوا أول مرة فكذلك نقلب أفئدتهم وأبصارهم عقوبة لهم . قال الجبائي : ﴿ ونذرهم ﴾ أي لا نحول بينهم وبين اختيارهم ولا نمنعهم بمعاجلة الهلاك وغيره لكنا نمهلهم ، فإن أقاموا على طغيانهم فذلك من قبلهم وأنه يوجب تأكيد الحجة عليهم . وقالت الأشاعرة : نقلب أفئدتهم من الحق إلى الباطل ونتركهم في ذلك الطغيان والضلال والعمى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 135.145 ﴾

(135/246)

---

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ قد جاءكم بصائر ﴾ دلالات السعادات الباقية ، فمن أبصرها بنظر البصيرة فاشتغل بتحصيلها وأقبل على الله لسلوك سبيلها فذلك تحصيل لنفسه ﴿ فإن الله غني عن العالمين ﴾ ﴿ ومن عمي ﴾ فبالعكس . ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون ﴾ لا تخاطبوا أهل الضلال على مواجب نوازع النفس والطبيعة فيحملهم ذلك على ترك الإجلال وإظهار الضلال ، بل خاطبوهم بلسان الحجة والتزام الحجة ونفي الشبهة . ﴿ وأقسموا بالله ﴾ حسبوا أن البرهان يوجب الإيمان ولم يعلموا أنهم مقهورون تحت حكم السلطان ، وما يغني وضوح الأدلة لمن لم تدركه سوابق الرحمة ﴿ ونقلب أفئدتهم ﴾ عن الآخرة إلى الدنيا ﴿ وأبصارهم ﴾ عن شواهد المولى إلى مشاهدة النفس والهوى كأنهم لم يؤمنوا يوم الميثاق إذ قلت ألست بربكم ؟ قالوا بلى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 145 ﴾

وقال العلامة الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [ الأنعام : 87 ] قال الجنيد قدس سره : أي أخلصانهم وآويناهم لحضرتنا ودللناهم للاكتفاء بنا عما سوانا ﴿ ذلك هُدَى اللهِ يَهْدِى بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ وهم أهل السابقة الذين سألوه سبحانه الهداية بلسان الاستعداد الأزلي ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُواْ ﴾ بالميل

إلى السوى وهو شرك الكاملين كما أشار إليه سيدي عمر بن الفارض قدس سره بقوله :

ولو خطرت لي في سواك إرادة . . .

(136/246)

---

على خاطري سهواً حكمت بردتي

﴿ لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [ الأنعام : 88 ] لعظم ما أتوا به ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [ لقمان : 13 ] ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء ﴾ وهو المحجوبون ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بكافرين ﴾ [ الأنعام : 89 ] وهم العارفون بالله عز وجل الذين هم خزائن حقائق الإيمان .

وفي الخبر " لا يزال طائفة من أمتي قائمين بأمر الله تعالى لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله سبحانه وهم على ذلك " ﴿ أُوْلَئِكَ الذين هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ ﴾ وهو آداب الشريعة والطريقة والحقيقة ﴿ اقتده ﴾ [ الأنعام : 90 ] أمر له صلى الله عليه وسلم أن يتصف بجميع ما تفرق فيهم من ذلك الهدى وكان ذلك على ما قيل في منازل الوسائط ، ولما كحل عيون أسراره بكحل الربوبية جعله مستقلاً بذاته مستقيماً بحاله وأخرجه من حد الإرادة إلى حد المعرفة والاستقامة ولذا أمره عليه الصلاة والسلام بإسقاط الوسائط كما يشير إليه

قوله سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي ﴾ [ الأعراف : 203 ] مع قوله صلى الله عليه وسلم : " لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي " .

وقال بعض العارفين : ليس في هذا توسيط الوسائط لأنه أمر بالاقتداء بهداهم لا بهم .

*(137/246)*

---

ونظيره ﴿ أَنِ اتبع مِلَّةَ إبراهيم ﴾ [ النحل : 123 ] حيث لم يقل سبحانه أن أتبع إبراهيم ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أي ما عرفوه حق معرفته ﴿ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللهُ على بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ [ الأنعام : 91 ] أي لم يظهر من علمه وكلامه سبحانه على أحد شيئاً وذلك لزعمهم البعد من عباده جل شأنه وعدم إمكان ظهور بعض صفاته على مظهر بشري ولو عرفوا لما أنكروا ولا اعتقدوا أنه لا مظهر لكمال علمه وحكمته إلا الإنسان الكامل بل لو ارتفع الحول عن العين لما رأوا الواحد إثنين ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مُبَارَكٌ ﴾ لما فيه من أسرار القرب والوصال والتشويق إلى الحسن والجمال بل منه تجلى الحق لخلقه لو يعلمون .

﴿ مُّصَدِّقُ الذى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من التوراة والإنجيل لجمعه الظاهر والباطن على أتم وجه ﴿ وَلِتُنذِرَ أُمَّ القرى ﴾ وهي القلب ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [ الأنعام : 92 ] من القوى ﴿ وَمَنْ

أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾ كمن ادعى الكمال والوصول إلى التوحيد والخلاص عن كثرة صفات النفس وزعم أنه بالله عز وجل وأنه من أهل الإرشاد وهو ليس كذلك ﴿ أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ كمن سمى مفتريات وهمه وخياله ومخترعات عقله وفكره وحيا فيضاً من الروح القدسي فتنبأ لذلك ﴿ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ الله ﴾ كمن تفرعن وادعى الألوهية ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظالمون ﴾ وهم هؤلاء الأصناف الثلاثة ﴿ فِي غَمَرَاتِ الموت ﴾ الطبيعي ﴿ والملائكة بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ ﴾ بقبض أرواحهم كالمتقاضي الملظ يقولون ﴿ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ ﴾ تغليظاً وتعنيفاً عليهم

(138/246)

---

﴿ اليوم تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهون ﴾ [ الأنعام : 93 ] والصغار لوجود صفات نفوسكم وهياآتها المظلمة وتكاثف حجاب أنانيتكم وتفرعنكم ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى ﴾ أي منفردين مجردين عن كل شيء بالاستغراق في عين جميع الذات ﴿ كَمَا خلقناكم أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [ الأنعام : 94 ] عند أخذ الميثاق .

﴿ إِنَّ الله فَالِقُ الحب ﴾ أي حبة القلب بنور الروح عن العلوم والمعارف ﴿ والنوى ﴾ أي نوى النفس بنور القلب عن الأخلاق والمكارم أو فالق حبة المحبة الأزلية في قلوب المحبين

والصديقين ونوى شجر أنوار الأزل في فؤاد العارفين فتثمر بالأعمال الزكية والمقامات الشريفة والحالات الرفيعة ﴿ يُخْرِجُ الحى مِنَ الميت ﴾ أي العالم به من الجاهل ﴿ مُخْرِجَ الميت مِنَ الحى ﴾ [ الأنعام : 95 ] أي الجاهل به من العالم أو يخرج حي القلب عن ميت النفس تارة باستيلاء نور الروح عليها ومخرج ميت النفس عن حي القلب أخرى بإقباله عليها واستيلاء الهوى وصفات النفس عليه ﴿ فَالِقُ الإصباح ﴾ أي مظهر أنوار صفاته على صفحات آفاق مخلوقاته أو شاق ظلمة الإصباح بنور الإصباح وذلك لأن بحر العدم كان مملوءاً من الظلمة فشقه بأن أجرى فيه جدولاً من نوره حتى بلغ السيل الزبى وقال الإمام "فالق ظلمة العدم بصباح التكوين والإيجاد وفالق ظلمة الجمادية بصباح (العقل و) الحياة والعقل والرشاد وفالق ظلمة الجهالة بصباح الإدراك وفالق ظلمة العالم الجسماني بتخليص النفس القدسية إلى صبحة عالم الأفلاك وفالق ظلمة الإشتغال بعالم الممكنات بصباح نور الاستغراق في معرفة مدبر المحدثات والمبدعات" ، وقال بعض العارفين المعنى فالق ظلمة صفات النفس عن القلب بإصباح نور شمس الروح وإشراقه عليها ﴿ وَجَعَلَ الليل ﴾ أي ليل الحيرة في الذات البحت ﴿ سَكَناً ﴾ تسكن إليه أرواح العاشقين كما قال قائلهم :

زدني بفرط الحب فيك تحيرا . . .

وارحم حشا بلظى هواك تسعرا

أو جاعل ظلمة النفس سكن القلب يسكن إليها أحياناً للارتفاق والاسترواح أو سكنا تسكن فيه القوى البدنية وتستقر عن الاضطراب كما قيل ﴿ والشمس ﴾ أي شمس تجلي الصفات ﴿ والقمر ﴾ أي قمر تجلي الأفعال ﴿ حُسْبَاناً ﴾ [الأنعام: 96] أي علمي حساب الأحوال حيث يعتبر بهما أو شمس الروح وقمر القلب محسوبين في عداد الموجودات الباقية الشريفة معتداً بهما .

أو علمي حساب الأوقات والأحوال ﴿ وَهُوَ الذى جَعَلَ لَكُمُ النجوم ﴾ أي المرشدين أو نجوم الحواس ﴿ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظلمات البر ﴾ وهو علم الآداب ﴿ والبحر ﴾ [الأنعام: 97] وهو علم الحقائق أو المعنى لتهتدوا بها في ظلمات بر الأجساد إلى مصالح المعاش وبحر العلوم باكتسابها بها ﴿ وَهُوَ الذى أَنشَأَكُم ﴾ أي أظهركم ﴿ مّن نَّفْسٍ واحدة ﴾ وهي النفس الكلية ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ ﴾ في أرض البدن حال الظهور ﴿ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴾ [الأنعام: 98] في عين جمع الذات ﴿ وَهُوَ الذى أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء ﴾ أي من سماء الروح ماء العلم ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلّ شَىْء ﴾ أي كل صنف من الأخلاق والفضائل ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ ﴾ أي النبات ﴿ خُضْرًا ﴾ زينة النفس وبهجة لها ﴿ نُّخْرِجُ مِنْهُ ﴾ أي الخضر ﴿ حَبّاً مُّتَرَاكِباً ﴾ أي أعمالا مترتبة شريفة ونيات صادقة يتقوى القلب بها ﴿ وَمِنَ النخل ﴾ أي نخل العقل ﴿ مِن طَلْعِهَا ﴾ أي من

ظهور تعلقها ﴿ قنوان ﴾ معارف وحقائق ﴿ دَانِيَةٌ ﴾ قريبة التناول لظهورها بنور الروح كأنها بديهية ﴿ وجنات مّنْ أعناب ﴾ وهي أعناب الأحوال والأذواق ومنها تعتصر سلافة المحبة

وفي سكرة منها ولو عمر ساعة . . .

ترى الدهر عبداً طائعاً ولك الحكم

*(140/246)*

---

﴿ والزيتون ﴾ أي زيتون التفكر ﴿ والرمان ﴾ أي رمان الهمم الشريفة والعزائم النفيسة ﴿ مُشْتَبِهاً ﴾ كما في أفراد نوع واحد ﴿ وَغَيْرَ متشابه ﴾ كنوعين وفردين منهما مثلاً ﴿ انظروا إلى ثَمَرَةٍ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ أي راعوه بالمراقبة عند السلوك وبدأ الحال ﴿ وَيَنْعِهِ ﴾ [ الأنعام : 99 ] وهو كماله عند الوصول بالحضور ﴿ وَجَعَلُواْ للَّهِ شُرَكَاء الجن ﴾ أي جن الوهم والخيال حيث أطاعوهم وانقادوا لهم ﴿ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ ﴾ افتروا ﴿ لَهُ بَنِينَ ﴾ من العقول ﴿ وَبَنَاتُ ﴾ من النفوس يعتقدون أنها لتجردها مؤثرة مثله ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ منهم أنها أسماؤه وصفاته لا تؤثر إلا به جل شأنه ﴿ سبحانه وتعالى عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [ الأنعام : 100 ] من تقيده بما قيدوه به جل شأنه ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ قال الشيخ

الأكبر قدس سره في الباب الحادي والعشرين وأربعمائة : يعني من كل عين من أعين الوجوه وأعين القلوب فإن القلوب ما ترى إلا بالبصر وأعين الوجوه لا ترى إلا بالبصر فالبصر حيث كان به يقع الإدراك فيسمى البصر في العقل عين البصيرة ويسمى في الظاهر بصر العين والعين في الظاهر محل للبصر والبصيرة في الباطن محل للعين الذي هو بصر في عين الوجه فاختلف الاسم عليه وما اختلف هو في نفسه فكما لا تدركه العيون بأبصارها لا تدركه البصائر بأعينها ، وورد في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار وإن الملأ الأعلى يطلبونه كما تطلبونه أنتم " فاشتركنا في الطلب مع الملأ الأعلى واختلفنا في الكيفية فمنا من يطلبه بفكره والملأ الأعلى له العقل وما له الفكر ، ومنا من يطلبه به وليس في الملأ الأعلى من يطلبه به لأن الكامل منا هو على الصورة الإلهية التي خلقه الله تعالى عليها فلهذا يصح ممن هذه صفته أنه يطلب الله تعالى به ومن طلبه به وصل إليه فإنه لم يصل إليه غيره وأن الكامل منا له نافلة

*(141/246)*

---

تزيد على فرائضه إذا تقرب العبد بها إلى ربه أحبه فإذا أحبه كان سمعه وبصره فإذا كان الحق بصر مثل هذا العبد رآه وأدركه ببصره لأن بصره الحق فما أدركه إلا به لا بنفسه وما ثم

ملك يتقرب إلى الله تعالى بنافلة بل هم في الفرائض وفرائضهم قد استغرقت أنفاسهم فلا نفل عندهم فليس لهم مقام ينتج أن يكون الحق بصرهم حتى يدركوه به فهم عبيد اضطرار ونحن عبيد اضطرار من فرائضنا وعبيد اختيار من نوافلنا إلى آخر ما قال ، وهو صريح في أن بعض الأبصار تدركه لكن من حيثية رفع الغيرية .

وقال في الباب الرابع عشر وأربعمائة بعد أن أنشد :

من رأى الحق كفاحاً علنا . . .

إنما أبصره خلف حجاب

وهو لا يعرفه وهو به . . .

إن هذا لهو الأمر العجاب

كل راء لا يرى غير الذي . . .

هو فيه من نعيم وعذاب

صورة الرائي تجلت عنده . . .

وهو عين الراء بل عين الحجاب

فإذا رآه سبحانه الرائي كفاحاً فما يراه إلا حتى يكون الحق جل جلاله بصره فيكون هو الرائي نفسه ببصره في صورة عبده فأعطته الصورة المكافحة إذا كانت الحاملة للبصر ولجميع القوى الخ .

وقال في الباب الحادي وأربعمائة بعد أن أنشد :

قد استوى الميت والحي . . .

في كونهم ما عندهم شي

مني فلا نور ولا ظلمة . . .

فيهم ولا ظل ولا في

رؤيتهم لي معدومة . . .

فنشرهم في كونهم صلى

وفهمهم إن كان معناهم . . .

عنه إذا حققته غي

(142/246)

---

إن كل مرئي لا يرى الرائي إذا رآه منه إلا قدر منزلته ورتبته فما رآه وما رأى إلا نفسه ولولا ذلك ما تفاضلت الرؤية في الرائين إذ لو كان هو المرئي ما اختلفوا لكن لما كان هو سبحانه مجلي رؤيتهم أنفسهم لذلك وصفوه بأنه جل شأنه يتجلى ولكن شغل الرائي برؤية نفسه في مجلى الحق حجبه عن رؤية الحق فلو لم تبد للرائي صورته أو صورة كون من الأكوان ربما كان

يراه فما حجبنا عنه إلا رؤية نفوسنا فيه فلو زلنا عنا ما رأيناه لأنه ما كان يبقى بزوالنا من يراه وإن نحن لم نزل فما نرى إلا نفوسنا فيه وصورنا وقدرنا ومنزلتنا فعلى كل حال ما رأيناه وقد نتوسع فنقول : قد رأيناه ونصدق كما أنه لو قلنا رأينا الإنسان صدقنا في أن نقول رأينا من مضى من الناس ومن بقي ومن في زماننا من كونهم إنساناً لا من حيث شخصية كل إنسان ولما كان العالم أجمعه وآحاده على صورة حق ورأينا الحق فقد رأيناه وصدقنا وإذا نظرنا في عين التمييز في عين عين لم نصدق إلى آخر ما قال .

وفي ذلك تحقيق نفيس لهذا المطلب ، ومنه يعلم ما في قول بعضهم ﴿ لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار ﴾ لغاية ظهوره سبحانه ﴿ وَهُوَ اللطيف ﴾ إذ لا ألطف كما قال الشيخ الأكبر قدس سره من هوية تكون عين بصر العبد ﴿ الخبير ﴾ [ الأنعام : 103 ] أي العليم خبرة أنه بصر العبد ﴿ والله مِن وَرَائِهِمْ مُّحِيطٌ ﴾ [ البروج : 20 ] و ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السميع البصير ﴾ [ الشورى : 11 ] وعن الجنيد قدس سره اللطيف من نور قلبك بالهدى وربى جسمك بالغذاء وجعل لك الولاية بالبلوى .

ويحرسك وأنت في لظى .

ويدخلك جنة المأوى .

وقال غيره : اللطيف إن دعوته لباك وإن قصدته آواك ، وإن أحببته أدناك وإن أطعته كافك .

وان أغضبته عافاك وإن أعرضت عنه دعاك .

وإن أقبلت إليه هداك وإن عصيته راعاك .

وهو كلام ما ألطفه ﴿ قَدْ جَاءكُمْ بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ وهي صور تجليات صفاته .

*(143/246)*

---

وقال بعض العارفين : إنها كلماته التي تجلى منها لذوي الحقائق وبرزت من تحت سرادقاتها أنوار نعوته الأزلية ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ ﴾ واهتدى ﴿ فَلِنَفْسِهِ ﴾ ذلك الإبصار أي أن ثمرته تعود إليه ﴿ وَمَنْ عَمِيَ ﴾ واحتجب عن الهدى ﴿ فَعَلَيْهَا ﴾ عماه واحتجابه ﴿ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ [ الأنعام : 104 ] بل الله تعالى حفيظ عليكم لأنكم وسائر شؤونكم به موجودون ﴿ وكذلك نُصَرِّفُ الآيات لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [ الأنعام : 105 ] قال ابن عطاء أي حقيقة البيان وهو الوقوف معه حيث ما وقف والجرى معه حيث ما جرى لا يتقدم بغلبته ولا يتخلف عنه لعجزه ، وقال آخر : المعنى لقوم يعرفون قدري ويفهمون خطابي لا من لا يعرف مكان خطابي ومرادي من كلامي ﴿ اتبع مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ قيل : هو إشارة إلى وحي خاص به صلى الله عليه وسلم لا يتحمله غيره أو إشارة إلى الوحي بالتوحيد ولذا وصف سبحانه نفسه بقوله : ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ ثم قال جل شأنه :

﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ المشركين ﴾ [ الأنعام : 106 ] المحجوبين بالكثرة عن الوحدة ﴿ وَلَوْ شَاء الله مَا أَشْرَكُواْ ﴾ [ الأنعام : 107 ] بل شاء سبحانه إشراكهم لأنه المعلوم له جل شأنه أزلا دون إيمانهم ولا يشاء إلا ما يعلمه دون ما لا يعلمه من النفي الصرف ﴿ وَلاَ تَسُبُّواْ الذين يَدْعُونَ مِن دُونِ الله ﴾ بل أرشدوهم إلى الحق بالتي هي أحسن ﴿ فَيَسُبُّواْ الله عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ بأن يسبوكم وأنتم أعظم مظاهره ﴿ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ [ الأنعام : 108 ] إذ هو الذي طلبوه منا بألسنة استعدادهم الأزلي ومن شأننا أن لا نرد طالباً ﴿ وَأَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ أيمانهم لَئِن جَاءتْهُمْ ءايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ أي أنهم طلبوا خوارق العادات وأعرضوا عن الحجج البينات لاحتجابهم بالحس والمحسوس ﴿ قُلْ إِنَّمَا الآيات عِندَ الله قُلْ إِنَّمَا الآيات عِندَ

(144/246)

---

الله وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [ الأنعام : 109 ] لسبق الشقاء عليهم ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وأبصارهم ﴾ لاقتضاء استعدادهم ذلك ﴿ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ حين أعرضوا عن الحجج البينات أو في الأزل ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ ﴾ الذي هو لهم بمقتضى استعدادهم ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ [ الأنعام : 110 ] يترددون متحيرين لا يدرون وجه

الرشاد ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [غافر: 33]. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 7 صـ ﴾

*(145/246)*

---

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى الآيات السابقة

[سورة الأنعام (6): الآيات 59 إلى 62]

وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُها وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (59) وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (60) وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ (61) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحاسِبِينَ (62)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (عنده) مثل عندي " 1 " ، (مفاتح) مبتدأ مؤخر مرفوع (الغيب) مضاف إليه مجرور (لا) نافية (يعلم) مضارع مرفوع و(ها) ضمير مفعول به (إلا) أداة حصر (هو)

ضمير منفصل مبني

---

(1) في الآية (53) من هذه السورة .



---

في محلّ رفع فاعل ، (الواو) عاطفة (يعلم) مثل الأول والفاعل هو (ما) اسم موصول مبني في محلّ نصب مفعول به (في البر) جار ومجرور متعلق بمحذوف صلة ما (الواو) عاطفة (البحر) معطوف على البر مجرور مثله (الواو) عاطفة (ما) نافية (تسقط) مثل يعلم (من) حرف جر زائد معتمد على النفي (ورقة) مجرور لفظا مرفوع محلا فاعل تسقط (إلا) مثل الأول (يعلمها) مثل الأولى (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (حبة) معطوف على ورقة مجرور لفظا (في الظلمات) جار ومجرور متعلق بنعت لحبة (الأرض) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة في الموضعين (لا) زائدة لتأكيد النفي في الموضعين (رطب ، يابس) لفظان معطوفان على ورقة مجروران لفظا " 1 " ، (إلّا) أداة حصر (في كتاب) جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من حبة ما عطف عليه " 2 " ، (مبين) نعت لكتاب مجرور .

جملة " عنده مفاتح . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الله أعلم " 3 " .

وجملة " لا يعلمها إلا هو " في محل نصب حال من مفاتح الغيب " 4 " .

وجملة " يعلم ما في البر " لا محلّ لها معطوفة على جملة عنده مفاتح الغيب .

---

(1) هذا ما ذهب إليه توجيه الجمل والسيوطيّ في العطف . . . ولكن الأظهر أن يكون (حبّة) وما عطف عليه مبتدأ خبره (في كتاب مبين) .

(2) جعلها الزمخشري توكيد معنى لجملة يعلمها وتكريرا لها لأن قوله ولا حبة ولا . . . إلا في كتاب أي إلا يعلمها وأتى بأداة الحصر مرة أخرى لطول الكلام . . . والاستثناء الثاني هو من نوع البدل من الاستثناء الأول إما بدل كل أو بدل اشتمال .

(3) في الآية السابقة .

(4) والعامل فيها الاستقرار المتعلق به الخبر . . . ويجوز كونها استئنافا .

*(147/246)*

---

وجملة " تسقط . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة عنده مفاتح الغيب .

وجملة " يعلمها " في محلّ نصب حال من ورقة .

(60) (الواو) عاطفة (هو) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ (الذي) اسم موصول مبني في محلّ رفع خبر (يتوفى) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الألف و(كم) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (بالليل) جار ومجرور متعلق بـ (يتوفى) ،

(الواو) عاطفة (يعلم ما) مثل الأولى (جرحتم) فعل ماض مبني على السكون . . . (وتم) ضمير فاعل (بالنهار) جار ومجرور متعلق بـ (جرحتم) ، (ثم) حرف عطف (يبعثكم) مثل يتوفاكم (في) حرف جر و(الهاء) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (يبعث) ، (اللام) لام التعليل (يقضى) مضارع مبني للمجهول منصوب بأن مضمرة وعلامة النصب الفتحة المقدرة على الألف (أجل) نائب فاعل مرفوع (مسمى) نعت لأجل مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة .

والمصدر المؤوّل (أن يقضى) في محلّ جر باللام متعلق بـ (يتوفاكم ويبعثكم) .

(ثم) حرف عطف (إليه) مثل فيه متعلق بمحذوف خبر مقدم (مرجع) مبتدأ مؤخر مرفوع و(كم) ضمير مضاف إليه (ثم) مثل الأول (ينبئكم) مثل يتوفاكم (الباء) حرف جر و(ما) اسم موصول مبني في محلّ جر " 1 " متعلق بـ (ينبئ) (كنتم) فعل ماض ناقص مبني على

---

(1) والعائد محذوف . . . ويجوز أن يكون حرفا مصدريا والمصدر المؤوّل في محلّ جر متعلق بـ (ينبئ) . [ . . . . . ]

السكون . . . (وتم) ضمير اسم كان (تعملون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل . . .

وجملة " هو الذي . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة عنده مفاتح الغيب .

وجملة " يتوفاكم " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة " يعلم . . . . " لا محلّ لها معطوفة على صلة الموصول .

وجملة " جرحتم " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " يبعثكم . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يتوفاكم .

وجملة " يقضى أجل " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر .

وجملة " إليه مرجعكم " لا محلّ لها معطوفة على جملة يبعثكم .

وجملة " ينبّئكم . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إليه مرجعكم .

وجملة "كنتم . . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الاسميّ أو الحرفيّ .

وجملة " تعملون " : في محلّ نصب خبر كنتم .

(61) (الواو) عاطفة (هو القاهر) مبتدأ مرفوع وخبره (فوق) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف حال من الضمير في القاهر أي مستعليا " 1 " ، (عباد) مضاف إليه مجرور و(الهاء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (يرسل) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (على) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يرسل) ، (حفظة) مفعول به

(1) أو متعلّق باسم الفاعل القاهر على معنى المهيمن فوق عباده .

(149/246)

---

منصوب (حتّى) حرف ابتداء (إذا) ظرف للزمن المستقبل متضمّن معنى الشرط في محلّ نصب متعلّق بالجواب توفّته (جاء) فعل ماض (أحد) مفعول به منصوب و(كم) ضمير مضاف إليه (الموت) فاعل مرفوع على حذف يضاف أي دواعي الموت (توفّت) فعل ماض . . . و(التاء) للتأنيث ، مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين (رسل) فاعل مرفوع و(نا) ضمير مضاف إليه (الواو) حاليّة (هم) مثل هو (لا) نافية (يفرّطون) مثل تعملون .

جملة " هو القاهر " : لا محلّ لها معطوفة على جملة هو الذي . . .

وجملة " يرسل . . . . " : في محلّ رفع معطوفة على الخبر (القاهر " 1 " ) .

وجملة " جاء أحدكم الموت " : في محلّ جرّ بإضافة (إذا) إليها .

وجملة " توفّته رسلنا " : لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة " هم لا يفرّطون " : في محلّ نصب حال من رسلنا .

وجملة " لا يفرّطون " : في محلّ رفع خبر المبتدأ هم .

(ثمّ) حرف عطف (ردّوا) فعل ماض مبنيّ للمجهول مبنيّ على الضمّ . . . والواو ضمير في محلّ رفع نائب فاعل (إلى اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ردّوا) ، (مولى) نعت للفظ الجلالة مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف و(هم) ضمير مضاف إليه (الحقّ) نعت ثان مجرور (ألا) حرف تنبيه (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (الحكم) مبتدأ مؤخّر مرفوع (الواو) عاطفة (هو) مثل الأول

---

(1) يحتمل أن تكون خبرا لمبتدأ محذوف تقديره هو ، والجملة الاسميّة حال من الضمير المستكنّ في (القاهر) . . . ويجوز أن تكون مستأنفة لا محلّ لها .

*(150/246)*

---

(أسرع) خبر مرفوع (الحاسبين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

وجملة " ردّوا . . . " : لا محلّ لها معطوفة على جملة الجواب توفّته .

وجملة " له الحكم " : لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " هو أسرع . . . . " : لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

الصرف :

(مفاتح) ، إمّا جمع مفتاح بكسر الميم وهو اسم آلة على وزن مفعال ، وجاز جمعه كذلك كما جاز جمع مصباح على مصابح . . . وإمّا هو جمع مفتح – بفتح الميم وكسر التاء – وهو بمعنى مخزن . . . وإمّا هو جمع مفتح – بفتح الميم والتاء – وهو المفتاح الآلة المعلومة . وجوّز الواحديّ أن يكون مفاتح جمع مفتح بفتح الميم والتاء على أنه مصدر ميميّ أي عنده فتوح الغيب .

(البرّ) ، اسم جامد للأرض اليابسة ، ووزنه فعل بفتح الفاء .

(البحر) ، انظر الآية (50) من سورة البقرة .

(ورقة) ، واحدة الورق ، اسم جامد لما يوجد في الشجر أو الكتاب ، ووزنه فعلة بفتح الفاء والعين .

(رطب) ، صفة مشبّهة من فعل رطب يرطب باب نصر وباب كرم ، ووزنه فعل بفتح فسكون .

(يابس) ، اسم فاعل من يبس ييبس باب فرح وباب وثق ، ووزنه فاعل .

(يتوفّاكم) ، الألف فيه منقلبة عن ياء لأن مجرّده وفي يفي ، جاءت

الياء متحرّكة وما قبلها مفتوح قلبت ألفا ، وزنه يتفعّلكم .

(يقضى) ، الألف فيه منقلبة عن ياء لمناسبة البناء للمجهول ، جاءت الياء متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا ، وزنه يفعل بضمّ الياء وفتح العين .

(مسمّى) ، اسم مفعول من سمّى الرباعيّ ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وفتح العين المشدّدة .

(حفظة) ، جمع حافظ اسم فاعل من حفظ الثلاثيّ ، وزنه فاعل ، ووزن حفظة فعلة بفتحتين .

(توفّته) ، في الفعل إعلال بالحذف لمناسبة التقاء الساكنين ، حذفت الألف الساكنة قبل تاء التأنيث الساكنة ، وزنه تفعّته .

(أسرع) ، صفة مشتقّة وزنه أفعل وهي صيغة تفضيل وليست بتفضيل ، فعله سرع يسرع باب فرح وباب كرم .

(الحاسبين) ، جمع الحاسب ، اسم فاعل من حسب يحسب باب نصر ، وزنه فاعل .

البلاغة

1 – الاستعارة التصريحية التحقيقية : في قوله تعالى " وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ " حيث استعار العلم للمفاتح ، والقرينة الإضافة إلى الغيب .

2 – الكناية : في قوله تعالى " وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ " حيث كنى بالظلمة عن البطن لأنه لا يدرك فيه كما لا يدرك في الظلمة .

3 – المقابلة : فقد طابق بين البر والبحر ، والرطب واليابس . .

4 – التكرير : في قوله تعالى " إِلَّا يَعْلَمُها " وفي قوله " إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ " وفائدة هذا التكرير التطرية لما بعد عهده ، لأنه لما عطف على ورقة بعد أن سلف الإيجاب المقصود للعلم في قوله " إِلَّا يَعْلَمُها " وكانت هذه المعطوفات

داخله في إيجاب العلم ، وهو المقصود وطالت وبعد ارتباط آخرها بالإيجاب السالف ، كان ذلك جديرا بتجديد العهد بالمقصود ، ثم كان اللائق بالبلاغة المألوفة في القرآن التجديد بعبارة أخرى ، ليتلقاها السامع غضة جديدة غير مملولة بالتكرير . وهذا السر إنما ينقب عنه المسيطر في علم البيان ونكت اللبان .

*(152/246)*

---

5 – الاستعارة التبعية : في قوله تعالى " وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ " أي ينيمكم فيه حيث أستعير التوفي من الموت للنوم لما بينهما من المشاركة في زوال إحساس الحواس الظاهرة والتمييز ، قيل والباطنة أيضا .

6 – التنزيل المنظوم : في هذه الآية الكريمة ، وهو ما ورد في القرآن موزونا بغير قصد الشعر وذلك في قوله " وَيَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ " فهو شطر بيت من البحر الوافر ، وقد وجد في

القرآن ما هو بيت تامّ أو مصراع ، فلا يكتسب اسم الشعر ولا صاحبه اسم الشاعر . فمن ذلك قوله تعالى من الطويل وهو مصراع بيت : " فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ " .

الفوائد

1 - قوله تعالى : " وَيَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ " إنه شطر منظوم من البحر الوافر .

ويرد مثل ذلك تلقائيا في القرآن الكريم وليس هو بالشعر ولا محمد شاعر وإنما هو من باب التوافق ، وقد استغلّ الشعراء أمثال هذا التعبير وضمنوه ما نظموا من قصائد . وللعلماء رأي في ذلك فحواه يجوز ذلك شريطة أن لا يسفّ بألفاظ القرآن ، ولا يستعمل فيما يزرى بالقرآن أو يتبذل به إلى ما يتنزه القرآن عن ذكره ومستواه .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 63 إلى 65]

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجانا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (63) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْها وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (64) قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (65)

الإعراب :

(قل) فعل أمر ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (من) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (ينجي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء و(كم) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (من ظلمات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ينجيكم) ، (البرّ) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (البحر) معطوف على البر مجرور (تدعون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . . . والواو فاعل و(الهاء) ضمير مفعول به (تضرّعا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو نوعه " 1 " ، (خفية) معطوف على (تضرّعا) بالواو منصوب (اللام) موطّئة للقسم (إن) حرف شرط جازم (أنجى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف في محلّ جزم فعل الشرط و(نا) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (من) حرف جرّ (ها) حرف تنبيه (ذه) اسم إشارة مبنيّ

(1) أو يلاقي فعله في المعنى : تدعون بمعنى تتضرّعون . . . ويجوز أن يكون مصدرا في موضع الحال .

على الكسر في محلّ جرّ متعلّق بـ (أنجانا) ، (اللام) لام القسم (نكوننّ) مضارع ناقص مبنيّ على الفتح في محلّ رفع . . . والنون للتوكيد ، واسمه ضمير مستتر تقديره نحن (من الشاكرين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر نكوننّ ، وعلامة الجرّ الياء .

جملة " قل . . . " : لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " من ينجيكم ؟ " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " ينجيكم . . . . " : في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة " تدعونه " : في محلّ نصب حال من ضمير النصب في (ينجيكم) .

وجملة " إن أنجانا . . . . " : لا محلّ لها تفسيريّة " 1 " .

وجملة " نكوننّ . . . . " : لا محلّ لها جواب القسم . . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم .

(64 (قل) مثل الأول (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (ينجيكم) مثل الأول (من) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (ينجيكم) ، (الواو) عاطفة (من كلّ) جارّ ومجرور متعلّق بما تعلّق به (منها) فهو معطوف عليه (كرب) مضاف إليه مجرور (ثمّ) حرف عطف (أنتم) ضمير منفصل مبتدأ في محلّ رفع (تشركون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

وجملة " قل . . . . " : لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " اللّه ينجيكم " : في محلّ نصب مقول القول .

(1) أو مقول القول لقول مقدّر هو حال من فاعل تدعون أي : قائلين أو يقولون لئن أنجانا .



---

وجملة " ينجيكم " : في محلّ رفع خبر المبتدأ " اللّه " .

وجملة " أنتم تشركون " : في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة " تشركون " : في محلّ رفع خبر المبتدأ (أنتم) .

(65) (قل) مثل الأول (هو القادر) مبتدأ وخبر مرفوعان (على) حرف جرّ (أن) حرف مصدريّ ونصب (يبعث) مضارع منصوب ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو .

والمصدر المؤوّل (أن يبعث) في محلّ جرّ بحرف الجرّ متعلّق باسم الفاعل (القادر) .

(على) مثل الأول و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يبعث) ، (عذابا) مفعول به منصوب (من فوق) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لـ (عذابا) " 1 " ، و(كم) ضمير مضاف إليه (أو) حرف عطف (من تحت) جارّ ومجرور متعلّق بما تعلّق به (من فوقكم) فهو معطوف عليه (أرجل) مضاف إليه مجرور و(كم) ضمير مضاف إليه (أو) حرف عطف (يلبس) مضارع منصوب معطوف على (يبعث) ، و(كم) ضمير في محلّ نصب مفعول به ، والفاعل هو (شيعا) حال منصوبة من الضمير المنصوب " 2 " ، (الواو) عاطفة (يذيق)

مثل يبعث ومعطوف عليه (بعض) مفعول به منصوب و(كم) مضاف إليه (بأس) مفعول به ثان منصوب

---

(1) يجوز تعليقه بفعل (يبعث) .

(2) قال العكبريّ : يجوز نصبه على المصدر من غير لفظه ، كما يجوز أن يكون حالا في هذا المعنى أي أن يكون مصدرا في موضع الحال .

*(156/246)*

---

(بعض) مضاف إليه مجرور (انظر) فعل أمر ، والفعل ضمير مستتر تقديره أنت (كيف) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب حال عامله (نصرّف) وهو مضارع مرفوع ، والفاعل نحن للتعظيم (الآيات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (لعلّ) حرف مشبّه بالفعل للترجّي و(هم) ضمير في محلّ نصب اسم لعلّ (يفقهون) مضارع مثل تشركون .

وجملة " قل . . . . " : لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " هو القادر " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " يبعث " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة " يلبسكم . . . . " : لا محلّ لها معطوفة على جملة صلة الموصول الحرفيّ .

وجملة " يذيق . . . . " : لا محلّ لها معطوفة على جملة صلة الموصول الحرفيّ .

وجملة " انظر . . . . " : لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " نصرّف " : في محلّ نصب مفعول به لفعل النظر المعلّق بالاستفهام .

وجملة " لعلّهم يفقهون " : لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تعليليّة .

وجملة " يفقهون " : في محلّ رفع خبر لعلّ .

الصرف :

(تضرّعا) ، مصدر قياسيّ لفعل تضرّع الخماسيّ ، على وزن ماضية بضمّ ما قبل آخره ، وزنه تفعّل .

(خفية) ، مصدر سماعيّ لفعل خفي يخفى باب فرح ، وزنه فعلة بضمّ الفاء ، وثمّة مصدران آخران للفعل هما خفية بكسر الخاء وخفاء بفتح الفاء .

*(157/246)*

---

(أنجانا) ، فيه قلب الواو ألفا لأن مجرّده نجا ينجو ، وأصله أنجونا ، فلمّا جاءت الواو متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا ، وزنه أفعلنا .

(كرب) ، مصدر سماعيّ لفعل كرب يكرب باب نصر ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(شيعا) ، جمع شيعة . وفي القاموس شيعة الرجل بالكسر أتباعه وأنصاره ، وتقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكّر والمؤنّث ، وزنه فعلة بكسر الفاء وسكون الياء .

[سورة الأنعام (6) : آية 66]

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (66)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (كذّب) فعل ماض (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ(كذّب) ، (قوم) فاعل مرفوع و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ مضاف إليه (الواو) حاليّة (هو) ضمير منفصل مبتدأ (الحقّ) خبر مرفوع (قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (لست) فعل ماض ناقص مبنيّ على السكون . . . (والتاء) اسم ليس (على) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بوكيل (الباء) حرف جرّ زائد (وكيل) مجرور لفظا منصوب محلّا خبر ليس .

وجملة "كذّب به قومك" : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة "هو الحقّ" : في محلّ نصب حال "1" .

---

(1) يجوز أن تكون استئنافية لا محلّ لها .

وجملة " قل . . . " : لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " لست . . . بوكيل " : في محلّ نصب مقول القول .

[سورة الأنعام (6) : آية 67]

لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (67)

الإعراب :

(لكلّ) جارّ ومجرور متعلّق بخبر مقدّم (نبأ) مضاف إليه مجرور (مستقرّ) مبتدأ مؤخر

(الواو) استئنافية (سوف) حرف استقبال (تعلمون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

وجملة " لكلّ نبأ مستقرّ " : لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " تعلمون " : لا محلّ لها استئنافية .

الصرف :

(مستقرّ) ، اسم زمان من فعل استقرّ السداسيّ ، وقد يكون مصدرا ميميّا ، وبعضهم يجعله اسم مكان ، وزنه مستفعل بضمّ الميم وفتح العين .

[سورة الأنعام (6) : آية 68]

وَإِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (68)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (إذا) ظرف للزمن المستقبل فيه معنى الشرط مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بالجواب أعرض (رأيت) فعل ماض مبنيّ على السكون . . (والتاء) فاعل (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (يخوضون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل (في آيات)

جارّ ومجرور متعلّق بـ (يخوضون) ، و(نا) ضمير مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب الشرط (أعرض) فعل أمر مبنيّ ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (عن) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أعرض) ، (حتّى) حرف غاية وجرّ (يخوضوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتّى وعلامة النصب حذف النون . . والواو فاعل (في حديث) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يخوضوا) ، (غير) نعت لحديث مجرور مثله و(الهاء) ضمير مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (أن يخوضوا) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (أعرض) .

(الواو) عاطفة (ان) حرف شرط جازم (ما) زائدة لا عمل لها (ينسينّ) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ جزم فعل الشرط . . والنون للتوكيد و(الكاف) ضمير مفعول به ، والمفعول الثاني محذوف تقديره ما أمرت به . . . (الشيطان) فاعل مرفوع (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لا) ناهية جازمة (تقعد) مضارع مجزوم ، والفاعل أنت (بعد) ظرف زمان

منصوب متعلّق بـ (تقعد) ، (الذكرى) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (مع) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (تقعد) ، (القوم) مضاف إليه مجرور (الظالمين) نعت للقوم مجرور مثله وعلامة الجرّ الياء .

جملة " رأيت . . . . " : في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة " يخوضون . . " : لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " أعرض عنهم " : لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة " يخوضوا . . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة " ينسينّك الشيطان " : لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة المكوّنة من الشرط إذا وفعله وجوابه .

*(159/246)*

---

وجملة " لا تقعد . . . . " : في محلّ جزم جواب الشرط (إن) مقترنة بالفاء .

الصرف :

(الذكرى) ، اسم مصدر من فعل تذكّر الخماسيّ بمعنى التذكّر ، وزنه فعلي بكسر الفاء ،

وليس من مصدر على هذا الوزن إلّا ذكرى .

البلاغة

1 – الاستعارة : في قوله تعالى " الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنا " فأصل معنى الخوض عبور الماء أستعير للتفاوض في الأمور .

2 – وضع الظاهر موضع المضمر : في قوله تعالى " مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ " أي معهم فوضع المظهر موضع المضمر نعيا عليهم أنهم بذلك الخوض ظالمون واضعون للتكذيب والاستهزاء موضع التصديق والتعظيم راسخون في ذلك .

الفوائد

1 – لاستعمال أدوات الشرط مقامات تختلف باختلاف موضوع الشرط ، وليس في كلام العرب ما يفرق لدى استعمال أدوات الشرط حسب المواطن كما فرق القرآن الكريم ففي هذه الآية استعمل " إذا " في موطن غير مشكوك فيه وهو خوضهم في آيات الله سبحانه . وفي الشرط الثاني الذي هو إنساء الشيطان للرسول/ صلّى اللّه عليه وسلّم/ استعمل أداة الشرط " إن " لأن موضوع الشرط أمر مشكوك فيه قد يقع وقد لا يقع فسبحان من هذا كلامه ، وهذا إعجاز كتابه الكريم .

[سورة الأنعام (6) : آية 69]

وَما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلكِنْ ذِكْرى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (69)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (ما) نافية (على) حرف جرّ (الذين) موصول في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (يتقون) مضارع مرفوع . .

*(160/246)*

---

والواو فاعل ، ومفعوله محذوف تقديره اللّه (من حساب) جارّ ومجرور متعلّق بحال من شي ء – نعت تقدّم على المنعوت – و(هم) ضمير مضاف إليه (من) حرف جرّ زائد (شي ء) اسم مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر (الواو) عاطفة (لكن) حرف استدراك لا عمل له (ذكرى) مفعول مطلق لفعل محذوف أي يذكرونهم ذكرى " 1 " ، (لعلّهم يتّقون) مثل لعلّهم يفقهون " 2 " ، ومفعول يتّقون محذوف تقديره الخوض في الآيات . . .

جملة " ما على الذين . . . الاسمّية " : لا محلّ لها معطوفة على استئنافية الآية السابقة .

وجملة " يتّقون . . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " (يذكرونهم) ذكرى " : لا محلّ لها معطوفة على جملة ما على الذين . . . .

وجملة " لعلّهم يتّقون " : لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة " يتّقون (الثانية) " : في محلّ رفع خبر لعلّ .

---

(1) أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو أي النهي عن مجالستهم . . . . أو مبتدأ خبره محذوف أي عليهم ذكرى . . ويجوز أن يكون معطوفا على موضع (شيء) .

(2) في الآية (65) من هذه السورة.

*(161/246)*

---

[سورة الأنعام (6) : آية 70]

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْها أُولئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِما كَسَبُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (70)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (ذر) فعل أمر ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (اتّخذوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . . والواو فاعل (دين) مفعول به منصوب و(هم) ضمير مضاف إليه (لعبا) مفعول به ثان منصوب " 1 " ، (الواو) عاطفة (لهوا) معطوف على (لعبا) منصوب (الواو) عاطفة (غرّت) فعل ماض مبنيّ . . . والتاء للتأنيث و(هم) ضمير مفعول به (الحياة) فاعل مرفوع (الدنيا) نعت للحياة مرفوع

وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة . (الواو) عاطفة (ذكّر) مثل ذر (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (ذكّر) ، (أن) حرف مصدريّ ونصب (تبسل) مضارع منصوب مبنيّ للمجهول (نفس) نائب فاعل مرفوع . .

والمصدر المؤوّل (أن تبسل) في محلّ نصب مفعول لأجله على حذف مضاف أي مخافة أن تبسل نفس .

---

(1) أجاز بعضهم أن يكون (لعبا) مفعول لأجله بتضمين فعل اتّخذوا معنى اكتسبوا متعدّيا لواحد أي اكتسبوه لأجل اللعب .

*(162/246)*

---

(الباء) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ " 1 " ، (كسبت) مثل غرّت ، والفاعل هي أي النفس .

والمصدر المؤوّل (ما كسبت) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (تبسل) " 2 " .

(ليس) فعل ماض ناقص جامد (اللام) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر ليس المحذوف (من دون) جارّ ومجرور متعلّق بحال من وليّ " 3 " – نعت تقدّم على المنعوت – (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (من) حرف جرّ زائد (وليّ) مجرور لفظا

مرفوع محلّا اسم ليس مؤخّر (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (شفيع) معطوف على وليّ مرفوع محلّا مجرور لفظا (الواو) عاطفة (ان) حرف شرط جازم (تعدل) مضارع مجزوم فعل الشرط والفاعل ضمير مستتر تقديره هي – النفس – (كلّ) مفعول مطلق منصوب نائب عن المصدر فهو مضاف إلى المصدر (عدل) مضاف إليه مجرور (لا) نافية (يؤخذ) مضارع مجزوم مبنيّ للمجهول جواب الشرط (منها) مثل لها في محلّ رفع نائب فاعل " 4 " ، (أولاء) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ و(الكاف) للخطاب (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع خبر المبتدأ أولئك " 5 " ، (أبسلوا) فعل

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ بالحرف والعائد محذوف أي بما كسبته .

(2) أو متعلّق بمحذوف نعت لنفس .

(3) يجوز أن يتعلّق بخبر ليس المحذوف .

(4) لا يجوز جعل الضمير المستتر في (يؤخذ) نائب فاعل لأنه يعود إلى (كلّ عدل) ، وهو مصدر ، ولا يصحّ أن يؤخذ المصدر لأنه حدث وليس بذات . . . ويصحّ هذا التخريج إن ضمّن الفعل معنى يقبل ، ويصبح الجارّ متعلّقا بالفعل (انظر شذور الذهب ص 192) .

[. . . . . .]

(5) أو في محلّ رفع بدل من اسم الإشارة ، والخبر جملة لهم شراب . . أو في محلّ رفع نعت لاسم الإشارة والخبر جملة لهم شراب .

---

ماض مبنيّ للمجهول مبني على الضمّ . . والواو نائب فاعل (بما كسبوا) مثل بما كسبت . . والمصدر المؤوّل (ما كسبوا) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (أبسلوا) ، والباء للسببيّة أي أبسلوا بسبب كسبهم .

(لهم) مثل لها متعلّق بخبر مقدّم (شراب) مبتدأ مؤخّر مرفوع (من حميم) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لشراب (الواو) عاطفة (عذاب) معطوف على شراب مرفوع مثله (أليم) نعت لعذاب مرفوع (بما) مثل الأول (كانوا) فعل ماض ناقص – ناسخ – مبنيّ على الضمّ . . والواو اسم كان (يكفرون) مضارع مرفوع . والواو فاعل .

جملة " ذر الذين . . . " : لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " اتّخذوا . . . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " غرّتهم الحياة . . . . " : لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة " ذكّر به . . . . " : لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة " تبسل نفس . . . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة "كسبت . . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ أو الاسميّ (ما) .

وجملة "ليس لها . . . . " : لا محلّ لها استئنافية" 1 " .

---

(1) أو في محلّ نصب حال من نفس - لأنه وصف - أو من الضمير في (كسبت) .

(164/246)

---

وجملة " تعدل . . . " : لا محلّ لها معطوفة على جملة ليس لها . . . " 1 " .

وجملة " لا يؤخذ منها " : لا محلّ لها جواب شرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة " أولئك الذين . . . . " : لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " أبسلوا . . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة "كسبوا " : لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني الحرفيّ أو الاسميّ .

وجملة " لهم شراب " : في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ (أولئك) " 2 " .

وجملة "كانوا . . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ أو الاسميّ (ما) الثالث .

وجملة " يكفرون " : في محلّ نصب خبر كانوا .

الصرف :

(حميم) ، صفة مشبّهة من حمّ يحمّ اللازم باب فتح ، واستعمل اسما بمعنى الماء البالغ الحرارة وزنه فعيل .

[سورة الأنعام (6) : آية 71]

قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُنا وَلا يَضُرُّنا وَنُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا بَعْدَ إِذْ هَدانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرانَ لَهُ أَصْحابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى وَأُمِرْنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (71)

---

(1) أو محلها النصب معطوفة على جملة ليس لها . . . .

(2) أو في محلّ نصب حال من الضمير في (أبسلوا) . ويجوز أن تكون الجملة مستأنفة استئنافا بيانيّا فلا محلّ لها .

(165/246)

---

الإعراب :

(قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (الهمزة) للاستفهام الإنكاريّ (ندعو) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الواو والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن (من دون) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ندعو) بتضمينه معنى نعبد " 1 " (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (ما) اسم موصول " 2 " مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (لا) نافية (ينفع) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو - وهو العائد - و(نا) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (لا) مثل

الأولى (يضرّنا) مثل ينفعنا (الواو) عاطفة (نردّ) ، مضارع مرفوع مبنيّ للمجهول ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره نحن (على أعقاب) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نردّ) ، و(نا) ضمير مضاف إليه " 3 " ، (بعد) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (نردّ) ، (إذ) ظرف للزمن الماضي في محلّ جرّ مضاف إليه (هدى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف و(نا) ضمير مفعول به (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الكاف) حرف جرّ (الذي) موصول في محلّ جرّ متعلّق بحال من فاعل نردّ أي خاسرين كالذي استهوته الشياطين " 4 " ، (في الأرض) جارّ ومجرور ،

---

(1) ويجوز أن يكون حالا من فاعل (ندعو) أي متجاوزين . . أو أن يكون حالا من (ما) الموصول – نعت متقدّم – .

(2) أو هو نكرة موصوفة في محلّ نصب ، والجملة بعده نعت له .

(3) يجوز أن يكون متعلّقا بمحذوف حال من الضمير في (نردّ) ، أي منقلبين على أعقابنا .

(4) أو متعلّق بمحذوف مفعول مطلق أي نردّ ردّا كردّ الذي استهوته الشياطين ، فهو على حذف مضاف كما يظهر .

وفي تعليقه عدّة احتمالات . . . آ – متعلّق بفعل استهوته ب – متعلّق بمحذوف حال من مفعول استهوته ج – متعلّق بمحذوف حال من الضمير المستكنّ في حيران (حيران) حال منصوبة من ضمير المفعول في استهوته (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (أصحاب) مبتدأ مؤخّر مرفوع (يدعون) مضارع مرفوع والواو فاعل و(الهاء) ضمير مفعول به (إلى الهدى) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يدعون) ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة (ائت) فعل أمر مبنيّ على حذف حرف العلّة ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت و(نا) ضمير مفعول به (قل) مثل الأول (إنّ) حرف مشبّه بالفعل – حرف ناسخ – (هدى) اسم إنّ منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (هو) ضمير فصل للتأكيد " 1 " ، (الهدى) خبر إنّ مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (الواو) عاطفة (أمرنا) فعل ماض مبنيّ للمجهول مبنيّ على السكون . . و(نا) ضمير نائب فاعل (اللام) لها عدّة تخريجات . . آ – لتعليل المفعول المحذوف أي أمرنا بالإخلاص للتسليم . . ب – لتعليل الأمر أي أمرنا من أجل الإسلام ج – هي زائدة في المفعول " 2 " ، أي أمرنا أن نسلم . . د – هي بمعنى الباء أي أمرنا بأن نسلم " 3 " ، (نسلم) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والفاعل نحن .

والمصدر المؤوّل (أن نسلم) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (أمرنا) –

---

(1) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره (الهدى) ، والجملة خبر ! . . .

(2) وهو رأي ابن هشام .

(3) وهو رأي الجلال السيوطيّ .

*(167/246)*

---

أو في محلّ نصب مفعول به ، إذا كانت زائدة – .

(لربّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نسلم) ، (العالمين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

جملة " قل . . . . " : لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " ندعو . . . . " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " ينفعنا " : لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " يضرّنا " : لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة " نردّ . . . . " : في محلّ نصب معطوفة على جملة ندعو .

وجملة " هدانا اللّه " : في محلّ جرّ بإضافة (إذ) إليها .

وجملة " استهوته الشياطين " : لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة " له أصحاب . . . " : في محلّ نصب حال من الضمير في حيران " 1 " .

وجملة " يدعونه . . . . " : في محلّ رفع نعت لأصحاب .

وجملة " ائتنا " : في محلّ نصب مقول القول لقول محذوف ، والجملة المحذوفة في محلّ نصب حال من ضمير الفاعل في (يدعونه) " 2 " .

وجملة " قل (الثانية) . . . . " : لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " إنّ هدى اللّه . . . " : في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) أو لا محلّ لها استئنافية .

(2) يجوز في جملة (ائتنا) ألّا يكون لها محلّ . . . فهي جواب الدعاء بتضمينه معنى النداء ، أو هي تفسير لمضمون الدعاء .

*(168/246)*

---

وجملة " أمرنا . . . . " : في محلّ نصب معطوفة على جملة إنّ هدى . . .

الصرف :

(استهوت) ، في الفعل إعلال بالحذف لمناسبة التقاء الساكنين ، فقد حذفت الألف – لام الكلمة – لمجيئها ساكنة قبل تاء التأنيث الساكنة ، وزنه استفعته .

(حيران) ، صفة مشبّهة من حار يحار باب فتح مؤنّثه حيرى ، وزنه فعلان .

البلاغة

1 - التشبيه التمثيلي المنفي : في قوله تعالى "كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ "

حيث شبه فيه من خلص من الشرك ثم نكص على عقبيه بحال من ذهبت به الشياطين في المهمة وأضلته بعد ما كان على الجادة المستقيمة .

[سورة الأنعام (6) : آية 72]

وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (72)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (أن) حرف مصدريّ " 1 " (أقيموا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . . . والواو فاعل (الصلاة) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (اتّقوا) مثل أقيموا و(الهاء) ضمير مفعول به (الواو) استئنافية (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (الذي) موصول مبنيّ في محلّ رفع خبر (إلى) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ

---

(1) أو حرف تفسير . . والجملة بعده تفسيريّة مسبوقة بفعل (أمرنا) وهو بمعنى القول دون حروفه . [ . . . . . ]

متعلق بـ (تحشرون) وهو مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع . . . والواو نائب فاعل .

والمصدر المؤوّل (أن أقيموا) في محلّ جرّ معطوف على المصدر المؤوّل المتقدّم في الآية السابقة (أن نسلم) أو في محلّ نصب على المحلّ لأنه المفعول الثاني لفعل أمرنا .

جملة " أقيموا . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) " 1 " .

وجملة " اتّقوا " : لا محلّ لها معطوفة على جملة أقيموا .

وجملة " هو الذي . . . . " : لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " تحشرون " : لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

[سورة الأنعام (6) : آية 73]

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (73)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (هو الذي) مرّ إعرابها " 2 " ، (خلق) فعل ماض ، والفاعل هو (السموات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (الواو) عاطفة (الأرض) معطوف على السموات مجرور (بالحقّ) جارّ

(1) أو تفسيريّة.

(2) في الآية السابقة (72).



---

و مجرور متعلّق بحال من فاعل خلق (الواو) عاطفة (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بمحذوف خبر مقدّم " 1 " ، (يقول) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (كن) فعل أمر تام ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب " 2 " ، (يكون) مضارع تام ، والفاعل هو " 3 " ، (قول) مبتدأ مؤخّر مرفوع و(الهاء) ضمير مضاف إليه (الحق) نعت (لقوله) مرفوع " 4 " ) ، (الواو) عاطفة (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (الملك) مبتدأ مؤخر مرفوع (يوم) بدل من (يوم يقول) " 5 " ، (ينفخ) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع (في الصور) جارّ ومجرور في محلّ رفع نائب فاعل (عالم) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو (الغيب) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (الشهادة) معطوف بالواو على الغيب مجرور (الواو) عاطفة (هو) ضمير مبتدأ (الحكيم) خبر مرفوع (الخبير) خبر ثان مرفوع.

جملة " هو الذي . . . . " : لا محلّ لها معطوفة على جملة هو الذي إليه تحشرون " 6 " .

---

(1) أو مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر . . . هذا ويجوز تجريده من الظرفيّة فيعطف على الضمير المنصوب في قوله (اتّقوه) في الآية السابقة ، على حذف مضاف ، أي واتّقوا عذاب يوم يقول . . .

(2) وهي استئنافيّة عند بعضهم . . . وابن هشام رفض ذلك .

(3) وهو يعود على جميع ما يخلقه اللّه ، أو ضمير يعود على اليوم . . . ويجوز أن يكون الفاعل هو (قوله) ، أي يوجد قوله الحقّ ، فيتعلّق الظرف (يوم) بفعل من مضمون (قوله الحقّ) أي يحقّ قوله يوم يقول .

(4) يجوز أن يكون خبرا للمبتدأ (الحقّ) . . . فيعرب (يوم) بواحد من الأعاريب الآنفة .

(5) أو متعلّق بفعل يحشرون في الآية السابقة ، أو متعلّق بالملك ، أو بحال من الملك وعامله الاستقرار ، أو متعلّق بـ (عالم الغيب) .

(6) في الآية السابقة (73) .

*(171/246)*

---

وجملة " خلق السموات . . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة " يقول . . . . " : في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة "كن . . . . " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة "يكون " : في محلّ جرّ معطوفة على جملة يقول " 1 " .

وجملة " قوله الحقّ يوم . . . . " : لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة (خلق . . . ) .

وجملة " له الملك . . . . " : لا محلّ لها معطوفة على جملة قوله الحقّ . . . .

وجملة " ينفخ في الصور " : في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة " (هو) عالم . . . " : لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " هو الحكيم . . . " : لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة الأخيرة .

الصرف :

(الصور) ، اسم جامد مأخوذ من صار يصور باب نصر بمعنى صوّت . وهو القرن ، وزنه فعل بضمّ فسكون .

(الشهادة) ، اسم لما شوهد في العالم الظاهر ، وزنه فعالة بفتح الفاء .

[سورة الأنعام (6) : آية 74]

وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْناما آلِهَةً إِنِّي أَراكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (74)

---

(1) أو هي استئنافية عند من يرى ذلك خلافا لابن هشام .

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (إذ) اسم ظرفيّ مبنيّ في محلّ نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر (قال) فعل ماض (إبراهيم) فاعل مرفوع (لأبيه) جارّ ومجرور ومضاف إليه ، وعلامة الجرّ الياء ، متعلّق بـ (قال) ، (آزر) بدل من أبي أو عطف بيان له مجرور وعلامة الجرّ الفتحة فهو ممنوع من الصرف للعلميّة والعجمة أو وزن الفعل (الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ (تتّخذ) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (أصناما) مفعول به منصوب (آلهة) مفعول به ثان منصوب (إنّ) حرف مشبّه بالفعل – من النواسخ – و(الياء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (أرى) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف و(الكاف) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (الواو) عاطفة (قوم) معطوف على الضمير المتّصل في (أراك) تبعه في النصب ، و(الكاف) ضمير مضاف إليه (في ضلال) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال " 1 " ، (مبين) نعت لضلال مجرور .

جملة " قال إبراهيم . . . . " : في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة " أ تتّخذ . . . . " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " إنّي أراك . . . . " : لا محلّ استئنافيّة في حيّز القول السابق للتعليل .

وجملة " أراك . . . . " : في محلّ رفع خبر إنّ .

الصرف :

(آزر) ، زنة آدم مفتوح الزاي ، وهو أعجميّ عند من قال بعدم اشتقاقه ، أو على وزن الفعل عند من قال انه مشتقّ من الوزر أو الأزر .

---

(1) أو بمحذوف مفعول به ثان إذا كانت الرؤية قلبيّة .

*(173/246)*

---

(أصناما) ، جمع صنم ، اسم جامد وهو التمثال أو الوثن ، وزنه فعل بفتحتين .

(آلهة) ، جمع إله اسم للمعبود مطلقا وزنه فعال بكسر الفاء .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 75 إلى 79]

وَكَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ هذا رَبِّي هذا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (الكاف) حرف جرّ للتشبيه " 1 " ، (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف مفعول مطلق " 2 " ، و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (نري) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن للتعظيم (إبراهيم) مفعول به منصوب ممنوع من التنوين للعلميّة والعجمة (ملكوت) مفعول به ثان منصوب (السموات) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (الأرض)

---

(1) أو اسم بمعنى مثل في محلّ نصب مفعول مطلق نائب عن المصدر . . والكاف عند بعضهم بمعنى اللام للتعليل أي ولذلك الإنكار نري إبراهيم ملكوت . . .

(2) أو متعلّق بمحذوف خبر لمبتدأ مقدّر أي والأمر كذلك .



---

معطوف على السموات مجرور (الواو) عاطفة (اللام) للتعليل (يكون) مضارع ناقص – ناسخ – منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، واسمه ضمير مستتر تقديره هو (من الموقنين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر يكون .

والمصدر المؤوّل (أن يكون) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (نري) وهو معطوف على مصدر مؤوّل محذوف أي نريه . . . ليستدلّ وليكون من الموقنين .

جملة " نري إبراهيم . . . . " : لا محلّ لها معطوفة على مقدّر مستأنف أي : أريناه ضلال قومه وأبيه ونريه ملكوت السموات . . . كذلك .

وجملة " يكون . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

(76) (الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بالجواب رأى (جنّ) فعل ماض (على) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ(جنّ) ، (الليل) فاعل مرفوع (رأى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (كوكبا) مفعول به منصوب (قال) مثل جنّ (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (ربّ) خبر مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء ، و(الياء) ضمير مضاف إليه " 1 " .

(فلمّا أفل) مثل فلمّا جنّ (قال) مثل جنّ (لا) نافية (أحبّ) مضارع مرفوع والفاعل أنا (الآفلين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء .

وجملة " جنّ عليه الليل . . . " : في محلّ جرّ مضاف إليه .

---

(1) يجعل الأخفش هذه الجملة إنشائيّة بتقدير همزة الاستفهام قبلها أي : أ هذا ربّي . . .

وجملة " رأى . . . . " : لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة " قال (الأولى) . . . . " : لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة " هذا ربّي " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " أفل . . . . " : في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة " قال (الثانية) . . . . " : لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة " لا أحبّ . . . . " : في محلّ نصب مقول القول .

(78) (فلمّا رأى) مثل فلمّا جنّ (القمر) مفعول به منصوب (بازغا) حال منصوبة من القمر (قال هذا ربّي) " 1 " مثل الأولى (فلمّا أفل قال) مثل الأولى (اللام) موطّئة للقسم (إن) حرف شرط جازم (لم) حرف نفي فقط (يهد) مضارع مجزوم فعل الشرط ، وعلامة الجزم حذف حرف العلّة . .

و(النون) للوقاية و(الياء) ضمير مفعول به (ربّ) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء و(الياء) ضمير مضاف إليه (اللام) لام القسم (أكونّ) مضارع ناقص – ناسخ – مبنيّ على الفتح في محلّ رفع . . والنون للتوكيد ، واسمها ضمير مستتر تقديره أنا (من القوم) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر أكون (الضالّين) نعت للقوم مجرور وعلامة الجرّ الياء .

وجملة " رأى القمر . . . . " : في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة " قال . . . (الثانية) " : لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة " هذا ربّي " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " أفل (الثانية) " : في محلّ جرّ مضاف إليه .

---

(1) انظر الحاشية رقم (1) في الصفحة السابقة . [ . . . . . ]



---

وجملة " قال (الرابعة) : لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة " لئن لم يهدني ربّي . . . " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " أكونن . . . " : لا محلّ لها جواب القسم . . . وجواب الشرط (إن) محذوف دلّ عليه جواب القسم .

(78) (فلمّا رأى الشمس بازغة) مثل لمّا رأى القمر بازغا قال هذا ربّي) مثل الأولى (هذا) مثل الأول (أكبر) خبر مرفوع (فلما أفلت قال) مثل فلمّا أفل قال ، والتاء في الفعل للتأنيث (إنّ) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – و(الياء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (بري ء) خبر مرفوع (من) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق ببري ء " 1 " ، (تشركون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

وجملة " رأى الشمس . . . " : في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة " قال (الخامسة) " : لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة " هذا ربّي " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " هذا أكبر " : في محلّ نصب بدل من مقول القول .

وجملة " أفلت . . . " : في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة " قال (السادسة) . . . . " : لا محلّ لها جواب الشرط .

وجملة النداء " يا قوم ، وما في حيزّها " : في محلّ نصب مقول القول " 2 " .

---

(1) أو حرف مصدريّ يؤوّل مع الفعل بمصدر في محلّ جرّ . . . والجملة بعده صلة الموصول الحرفيّ .

(2) يجوز أن تكون جملة النداء اعتراضيّة فلا محلّ لها ، وجملة : إنّي بريء في محلّ نصب مقول القول .



---

وجملة " إنّي بريء . . . " : لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة " تشركون " : لا محلّ لها صلة الموصول (ما) وكلّ الجمل الشرطيّة وجوابها معطوفة على الاستئناف المتقدّم .

(79) (إنّي) مثل الأول (وجّهت) فعل ماض وفاعله (وجه) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء ، و(الياء) ضمير مضاف إليه (اللام) حرف جرّ (الذي) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (وجّهت) (فطر) مثل جنّ (السموات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (الواو) عاطفة (الأرض) معطوف على السموات منصوب (حنيفا) حال منصوبة من ضمير الفاعل في (وجّهت) ، (الواو) عاطفة (ما) نافية " 1 " ، (أنا) ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ " 2 " ، (من المشركين) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ ، وعلامة الجرّ الياء .

وجملة " إنّي وجّهت . . . " : لا محلّ لها بدل من جملة إلّي بريء " 3 " .

وجملة " وجّهت . . . " : في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة " فطر السّموات " : لا محلّ لها صلة الموصول الذي .

وجملة " ما أنا من المشركين " : لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّي وجهت .

الصرف :

(نري) ، فيه حذف همزتين تخفيفا ، الأولى الهمزة

---

(1) يجوز أن تكون عاملة عمل ليس .

(2) يجوز أن يكون في محلّ رفع اسم ما ، والجار والمجرور خبرا .

(3) أو هي استئناف بيانيّ .

*(178/246)*

---

الزائدة ، لأن ماضية أرى على وزن أفعل ، والثانية عين الكلمة . . أصله نؤرئي ، وقد حذفت الهمزة الأولى كما تحذف من مضارع كلّ فعل على وزن أفعل مثل يخرج ويكرم . . . وحذفت الثانية في فعل رأى بخاصّة . .

ووزن نري نفي .

(ملكوت) ، اسم لما يملك بمعنى الملك ، وقالوا هو مختصّ بملك اللّه تعالى ، وهذا ما ينبغي .

وزنه فعلوت .

(الموقنين) ، جمع الموقن ، اسم فاعل من أيقن الرباعيّ على وزن مفعل بضمّ الميم وكسر العين . . وفي اللفظ إعلال بالقلب أصله ميقن ، جاءت الياء ساكنة بعد ضمّ قلبت واوا ، فأصبح (موقن) .

(رأى) ، فيه إعلال بالقلب أصله رأي – بالياء في آخره – تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا .

(كوكبا) ، اسم جامد للجرم السماويّ المطفأ ، وزنه فعلل بفتح الفاء .

(الآفلين) ، جمع الآفل ، اسم فاعل من أفل الثلاثيّ وزنه فاعل . . .

وقد أدغمت همزة الفعل مع ألف فاعل لتحرّك الهمزة بالفتح وسكون الألف ووضعت المدّة فوقها .

(بازغا) ، اسم فاعل من بزغ الثلاثيّ ، وزنه فاعل .

(يهدني) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم ، وزنه يفعني .

البلاغة

1 - خروج الاستفهام عن معناه الأصلي : في قوله تعالى " قالَ هذا رَبِّي "

ففي الكلام استفهام إنكاري محذوف ، وحذف أداة الاستفهام كثير في كلامهم ، ومنه قوله تعالى " فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ " أي أ فلا اقتحم .

2 - فن التعريض : في هذه الآية الكريمة حيث عرض بضلالهم هنا ، ولم يعرض عليه السّلام بأنهم على ضلاله إلا بعد أن وثق بإصغائهم إلى تمام المقصود واستماعهم له إلى آخره .

والدليل على ذلك أنه (صلّى اللّه عليه وسلّم) ترقى في النوبة الثالثة إلى التصريح بالبراءة منهم والتصريح بأنهم على شرك حين تم قيام الحجة عليهم وتبلج الحق وبلغ من الظهور غايته .

[سورة الأنعام (6) : آية 80]

وَحاجَّهُ قَوْمُهُ قالَ أَتُحاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدانِ وَلا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (80)

الإعراب :

*(179/246)*

---

(الواو) استئنافية (حاجّ) فعل ماض و(الهاء) ضمير مفعول به (قوم) فاعل مرفوع و(الهاء) مضاف إليه (قال) فعل ماض ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (الهمزة) للاستفهام (تحاجّون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل و(النون) الثانية المدغمة مع علامة الرفع هي للوقاية (الياء) ضمير مفعول به (في اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تحاجّون) على حذف مضاف إي في وحدانيّة اللّه (الواو) حاليّة (قد) حرف تحقيق (هدى) فعل ماض و(النون) للوقاية و(ياء) المتكلّم المحذوفة مفعول به

(الواو) استئنافية (لا) نافية (أخاف) مضارع مرفوع والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به " 1 " ، (تشركون) مثل تحاجّون (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تشركون) " 2 " ، (إلّا) أداة استثناء (أن) حرف مصدريّ ونصب (يشاء) مضارع منصوب (ربّ) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمة

المقدّرة على ما قبل الياء و(الياء) ضمير مضاف إليه (شيئًا) مفعول به منصوب " 3 " .

والمصدر المؤوّل (أن يشاء ربّي) في محلّ نصب على الاستثناء المنقطع أو المتّصل أي إلّا مشيئة ربّي خوف ما أشركتم .

(وسع) فعل ماض (ربّي) مثل الأول (كلّ) مفعول به منصوب (شي ء) مضاف إليه مجرور (علما) تمييز " 4 " . منصوب . (الهمزة) مثل الأولى (الفاء) استئنافيّة (لا) نافية (تتذكّرون) مثل تحاجّون .

جملة " حاجّه قومه . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " قال . . . . " : لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة " أتحاجّوني . . . " : في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " قد هدان . . . . " في محلّ نصب حال من مفعول تحاجّونيّ أو من لفظ الجلالة .

وجملة " لا أخاف . . . . " : لا محلّ لها استئناف في حيّز القول .

---

(1) أو نكرة موصوفة ، والجملة بعده نعت له .

(2) يحتمل أن يعود الضمير في (به) إلى الصنم المعبود أو إلى لفظ الجلالة .

(3) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر أي شيء مشيئة .

(4) لو ضمّن (وسع) معنى علم فتكون كلمة (علما) مفعولا مطلقا .

وجملة " تشركون . . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " يشاء ربّي " : لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة " وسع ربّي . . . . " : لا محلّ لها تعليليّة للاستثناء .

وجملة " تتذكّرون " : لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

الصرف :

(هدان) ، فيه إعلال بالقلب ، أصله هدي بالياء ، جاءت الياء متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا .

البلاغة

1 – الإظهار في موضع الإضمار : في قوله تعالى " وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً " تأكيد للمعنى المذكور واستلذاذ بذكره سبحانه وتعالى .

الفوائد

1 – أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ ألا : الاستفتاحية تكون لأمور . منها : التوبيخ والإنكار وهي مركبة من همزة الاستفهام ولا النافية وقد أقحمت بينهما الفاء .

وفي هذه الآية يوبخهم الله وينكر عليهم عدم تذكرهم الحق وإدراكهم الحقيقة .

[سورة الأنعام (6) : آية 81]

وَكَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81)

---

(1) يجوز أن تكون معطوفة بالفاء على جملة مقدّرة مستأنفة أي أ تعرضون فلا تتذكّرون .

*(181/246)*

---

الإعراب :

(الواو) عاطفة (كيف) اسم استفهام مبنيّ في محلّ نصب حال عامله أخاف (أخاف ما أشركتم) مثل أخاف ما تشركون " 1 " ، (الواو) حاليّة (لا) نافية (تخافون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (أنّ) حرف مشبّه بالفعل و(كم) ضمير في محلّ نصب اسم أنّ (أشركتم) فعل ماض مبنيّ على السكون . و(تم) ضمير فاعل (باللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أشركتم) ، (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به " 2 " ، (لم) حرف نفي وجزم وقلب (ينزّل) مضارع مجزوم ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (الباء) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (ينزّل) ، (على) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (ينزّل) " 3 " ، (سلطانا) مفعول به منصوب . . .

والمصدر المؤوّل (أنكم أشركتم . . . ) في محلّ نصب مفعول به عامله تخافون .

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (أيّ) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (الفريقين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء (أحقّ) خبر مرفوع (بالأمن) جارّ ومجرور متعلّق بأحقّ (إن) حرف شرط جازم (كنتم) فعل ماض ناقص مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط . . . (وتم) ضمير اسم كان (تعلمون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة " أخاف . . . " : لا محلّ لها معطوفة على جملة لا أخاف " 4 " .

---

(1) في الآية السابقة (80) .

(2) أو نكرة موصوفة . . . والجملة بعده نعت له .

(3) أو متعلّق بمحذوف حال من سلطان – نعت تقدّم على المنعوت – .

(4) في الآية السابقة (80) . [ . . . . . ]



---

وجملة " أشركتم " : لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " لا تخافون . . . " : في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف تقديره أنتم والجملة الاسميّة في محلّ نصب حال " 1 " .

وجملة " أشركتم (الثانية) " : في محلّ رفع خبر (أنّ) .

وجملة " ينزّل . . . " : لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

وجملة " أيّ الفريقين أحقّ . . " : جواب شرط مقدّر أي : إن أدركتم قولي فأي الفريقين . . . .

وجملة "كنتم تعلمون " : لا محلّ لها استئنافيّة . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي : فأي الفريقين أحقّ بالأمن .

وجملة " تعلمون " : في محلّ نصب خبر كنتم .

[سورة الأنعام (6) : آية 82]

الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82)

الإعراب :

(الذين) اسم موصول مبتدأ " 2 " ، (آمنوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (الواو) عاطفة (لم) حرف نفي وجزم وقلب (يلبسوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . والواو فاعل (أيمان) مفعول به منصوب و(هم) ضمير مضاف إليه (بظلم) جارّ

---

(1) يجوز أن تكون الجملة معطوفة على الاستئنافيّة بالواو .

(2) أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم ، والجملة الاسميّة في محلّ نصب مقول القول لفعل

محذوف تقديره قال – أي إبراهيم – أو قالوا – أي قوم إبراهيم – والجملة المحذوفة لا محلّ لها استئنافيّة.

(183/246)

---

ومجرور متعلّق بـ (يلبسوا) ، (أولاء) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (الأمن) مبتدأ مؤخّر مرفوع (الواو) عاطفة (هم) ضمير مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (مهتدون) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو.

جملة "الذين آمنوا . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة "آمنوا . . " : لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة "لم يلبسوا . . . " : لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة " 1 " .

وجملة "أولئك لهم الأمن " : في محلّ رفع خبر (الذين) المبتدأ.

وجملة "لهم الأمن " : في محلّ رفع خبر (أولئك) المبتدأ " 2 " .

وجملة "هم مهتدون " : في محلّ رفع معطوفة على جملة لهم الأمن " 3 " .

الفوائد

1 – أي الاستفهامية يطلب بها تعيين الشيء نحو أي رجل جاء وأية امرأة جاءت وهي

تذكر مع المذكر بحذف التاء وتؤنث مع المؤنث بإثبات التاء المربوطة.

وإذا تضمنت معنى الشرط جزمت الفعلين نحو أيّ رجل يستقم ينجح.

وقد تفيد معنى الكمال وتسمّى الكمالية نحو فلان رجل أي رجل ولا

---

(1) يجوز نصبها على الحال إن قدّر (الذين) خبرا لمبتدأ محذوف.

(2) يجوز إعرابها خبرا للمبتدأ (الذين) إذا أعرب (أولئك) بدلا من الموصول.

(3) يجوز نصبها على الحال والعامل فيه معنى الاستقرار المتقدّم.

*(184/246)*

---

تستعمل إلا مضافة وتطابق موصوفها بالتذكير والتأنيث. وقد تكون وصلة لنداء ما فيه ال. وتعرب حسب ما تضاف إليه وقد ألمحنا إلى هذا البحث فليرجع إليه في مظانه.

[سورة الأنعام (6) : آية 83]

وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (تي) اسم إشارة مبنيّ على السكون الظاهر على الياء المحذوفة لالتقاء

الساكنين في محلّ رفع مبتدأ و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (حجّة) خبر المبتدأ مرفوع " 1 " ، و(نا) ضمير مضاف إليه (آتينا) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و(نا) ضمير فاعل و(ها) ضمير مفعول به أوّل (إبراهيم) مفعول به ثان منصوب وهو ممتنع من التنوين للعلميّة والعجمة (على قوم) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال أي حجّة على قومه " 2 " و(الهاء) ضمير مضاف إليه (نرفع) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن للتعظيم (درجات) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (نرفع) ، (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (نشاء) مثل نرفع (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (ربّ) اسم إنّ منصوب و(الكاف) مضاف إليه (حكيم) خبر مرفوع (عليم) خبر ثان مرفوع .

جملة " تلك حجّتنا . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) أو بدل من اسم الإشارة تبعه في الرفع – أو عطف بيان منه – .

(2) لم يتعلّق الجارّ بحال من (حجّتنا) المذكور لأن بينه وبين الجارّ فاصل أجنبيّ هو جملة آتيناها .

وجملة " آتيناها . . . " : في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ (تلك) " 1 " .

وجملة " نرفع . . . " : لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

وجملة " نشاء " : لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة " إنّ ربّك حكيم . . . " : لا محلّ لها تعليليّة .

البلاغة

1 - قوله تعالى " إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ " ففي وضع الرب مضافا إلى ضميره عليه الصلاة والسلام موضع نون العظمة بطريق الالتفات في تضاعيف بيان حال إبراهيم عليه السّلام ما لا يخفى من إظهار مزيد اللطف والعناية به (صلّى اللّه عليه وسلّم) .

[سورة الأنعام (6) : آية 84]

وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنا وَنُوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَسُلَيْمانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسى وَهارُونَ وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (وهبنا) مثل آتينا " 3 " ، (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بفعل وهبنا (إسحاق) مفعول به منصوب ومنع من التنوين للعلميّة والعجمة (الواو) عاطفة (يعقوب) معطوف على إسحاق منصوب مثله (كلّا) مفعول به مقدّم منصوب

(هدينا) مثل آتينا " 4 " ، (الواو) عاطفة (نوحا) مفعول به مقدّم

---

(1) يجوز أن تكون حالا والعامل فيها معنى الإشارة ، وهي خبر فقط إن أعرب (حجّتنا) بدلا من اسم الإشارة .

(2) أو حال من فاعل آتينا .

(3 ، 4) في الآية السابقة (83) .

*(186/246)*

---

(هدينا) مثل آتينا " 1 " ، (من) حرف جرّ (قبل) اسم مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (هدينا) ، (الواو) عاطفة (من ذرّية) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من داود ومن عطف عليه و(الهاء) ضمير مضاف إليه (داود) معطوف على (نوحا) منصوب مثله " 2 " ، (الواو) عاطفة في المواضع الخمسة (سليمان ، . . . هارون) أسماء معطوفة على (نوحا) منصوبة مثله - أو معطوفة على داود - (الواو) اعتراضيّة (الكاف) حرف جرّ " 3 " (ذا) اسم إشارة مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف مفعول مطلق ، أي نجزي المحسنين جزاء كذلك ، و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب ، (نجزي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن للتعظيم (المحسنين) مفعول به

منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة " وهبنا . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة " هدينا . . . " في محلّ نصب حال من إسحاق ويعقوب أي مهديين ، أو حال من فاعل هدينا أي هادين لهما .

وجملة " (هدينا) الثانية " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة " نجزي . . . " لا محلّ لها اعتراضية .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 85 إلى 87]

وَزَكَرِيَّا وَيَحْيى وَعِيسى وَإِلْياسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (85) وَإِسْماعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكلاًّ فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ (86) وَمِنْ آبائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوانِهِمْ وَاجْتَبَيْناهُمْ وَهَدَيْناهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (87)

---

(1) في الآية السابقة (83) .

(2) أو مفعول به لفعل محذوف تقديره (هدينا) ، والعطف يصبح من عطف الجمل .

(3) أو اسم بمعنى مثل في محلّ نصب مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه صفته .

الإعراب :

(الواو) عاطفة في المواضع الأربعة (زكريا . . . إلياس) أسماء معطوفة على داود " 1 " منصوبة (كل) مبتدأ مرفوع " 2 " ، (من الصالحين) جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر ، وعلامة الجر الياء .

جملة "كلّ من الصالحين " في محلّ نصب حال من الأسماء المتقدمة " 3 " .

(86) (الواو) عاطفة في المواضع الأربعة (إسماعيل . . . لوطا) أسماء معطوفة على زكريا – أو داود – منصوبة (كلّا) مفعول به مقدم منصوب (فضّلنا) فعل ماض مبني على السكون . . و(نا) فاعل (على العالمين) جار ومجرور متعلّق بـ (فضلنا) ، وعلامة الجر الياء .

وجملة " فضلنا . . . " لا محلّ لها استئناف بياني .

(87) (الواو) عاطفة (من آباء) جار ومجرور متعلق بـ (فضّلنا) أو بـ (هدينا) ، ومن للتبعيض و(هم) ضمير في محلّ جر مضاف إليه (الواو) عاطفة (ذرّياتهم) معطوف على آبائهم يعرب مثله وكذلك (إخوانهم) ، (الواو) عاطفة (اجتبينا) مثل فضلنا و(هم) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (هديناهم) مثل اجتبيناهم (إلى صراط) جار ومجرور متعلق بـ (هدينا) ، (مستقيم) نعت لصراط مجرور مثله .

---

(1 ، 2) في الآية السابقة (84) . [ . . . . . ]

(3) أو لا محلّ لها استئناف بياني .

*(188/246)*

---

وجملة " اجتبيناهم " لا محلّ لها معطوفة على جملة فضّلنا .

وجملة " هديناهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اجتبيناهم .

[سورة الأنعام (6) : آية 88]

ذِلكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (88)

الإعراب :

(ذا) اسم إشارة مبني في محلّ رفع مبتدأ و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (هدى) خبر مرفوع " 1 " وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الألف (الله) مضاف إليه مجرور (يهدي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي الله (الباء) حرف جر و(الهاء) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (يهدي) ، (من) اسم موصول مبني في محلّ نصب مفعول به (يشاء) مضارع مرفوع ، والفاعل هو (من عباد) جار ومجرور متعلق بمحذوف حال من الموصول " 2 " ، و(الهاء) ضمير مضاف إليه . (الواو) عاطفة

(لو) حرف شرط غير جازم (أشركوا) فعل ماض مبني على الضم . . . والواو فاعل (اللام) واقعة في جواب لو (حبط) فعل ماض (عن) حرف جر و(هم) ضمير في محلّ جر متعلق بـ(حبط) بتضمينه معنى أزيل أو أنزل (ما) حرف مصدري " 3 " ، (كانوا) فعل ماض ناقص مبني على الضم . . . والواو ضمير اسم كان (يعملون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل . والمصدر المؤوّل (ما كانوا يعملون) في محلّ رفع فاعل حبط .

---

(1) أو بدل من اسم الإشارة ، والخبر جملة يهدي . . .

(2) أو من عائده المقدّر أي : يشاء هدايته من عباده . . .

(3) أو اسم موصول فاعل حبط والعائد محذوف أي : ما كانوا يعملونه .



---

جملة " ذلك هدى الله . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " يهدي . . . " في محلّ نصب حال من هدى الله ، والعامل هو الإشارة " 1 " .

وجملة " يشاء . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة " أشركوا . . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة " حبط . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة "كانوا . . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي .

وجملة " يعملون " في محلّ نصب خبر (كانوا) .

[سورة الأنعام (6) : آية 89]

أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ (89)

الإعراب :

(أولئك) اسم إشارة مبني على الكسر في محلّ رفع مبتدأ (الذين) اسم موصول مبني في محلّ رفع خبر (آتينا) فعل ماض مبني على السكون . . . . و(نا) ضمير فاعل و(هم) ضمير مفعول به أول منصوب (الكتاب) مفعول به ثان منصوب (الواو) عاطفة في الموضعين (الحكم ، النبوة) اسمان معطوفان على الكتاب منصوبان (الفاء) عاطفة (إن) حرف شرط جازم (يكفر) مضارع مجزوم فعل الشرط (الباء) حرف جر و(ها) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (يكفر) ، (ها) حرف تنبيه (أولاء) اسم إشارة مبني في محلّ رفع فاعل (الفاء) رابطة لجواب الشرط (قد) حرف

---

(1) أو هي حال من لفظ الجلالة . . . أو هي خبر ثان لاسم الإشارة أو خبر فقط إذا أعرب (هدى الله) بدلا من اسم الإشارة .

---

تحقيق (وكّلنا) مثل آتينا (بها) مثل الأول متعلق بـ (وكّلنا) ، (قوما) مفعول به منصوب (ليسوا) فعل ماض ناقص جامد مبني على الضم والواو ضمير اسم ليس (بها) مثل الأول متعلق بكافرين (الباء) حرف جر زائد (كافرين) مجرور لفظا منصوب محلا خبر ليسوا ، وعلامة الجر الياء .

جملة " أولئك الذين . . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " آتيناهم . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " يكفر بها هؤلاء " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة " قد وكّلنا . . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة " ليسوا بها بكافرين " في محلّ نصب نعت لـ (قوما) .

[سورة الأنعام (6) : آية 90]

أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرى لِلْعالَمِينَ (90)

الإعراب :

(أولئك الذين هدى الله) مثل أولئك الذين آتينا " 1 " ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (بهدى) جار ومجرور متعلق بـ (اقتد) ، و(هم) ضمير مضاف إليه (اقتد) فعل أمر مبني على حذف حر العلة و(الهاء) هاء السكت لا محلّ لها " 2 " ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (قل) فعل أمر والفاعل أنت (لا) نافية (أسأل) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا و(كم) ضمير مفعول به (على) حرف جر

---

(1) في الآية السابقة (89) .

(2) أو هو ضمير في محلّ نصب مفعول مطلق لأنه ضمير المصدر أي اقتد الاقتداء . . . وفي القراءة منهم من يثبتها وقفا ووصلا ، ومنهم من يثبتها وقفا فقط .



---

و (الهاء) ضمير في محلّ جر متعلق بمحذوف حال من (أجرا) - نعت تقدم على المنعوت - (أجرا) مفعول به منصوب (إن) حرف نفي (هو) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع مبتدأ (إلا) أداة حصر (ذكرى) خبر مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الألف (للعالمين) جار ومجرور متعلق بنعت لذكرى " 1 " ، وعلامة الجر الياء .

جملة " أولئك الذين . . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " هدى الله " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " اقتده " جواب شرط مقدّر أي : إن صرت إلى مثل حالهم فاقتد بهواهم .

وجملة " قل . . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " أسألكم . . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " هو ذكرى " لا محلّ لها تعليلية .

الصرف :

(اقتده) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء ، وزنه افتعه .

[سورة الأنعام (6) : آية 91]

وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آباؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (91)

---

(1) أو متعلق بالمصدر (ذكرى) .

الإعراب :

(الواو) استئنافية (ما) نافية (قدروا) فعل ماض مبني على الضم . . . والواو فاعل (الله) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (حق) مفعول مطلق نائب عن المصدر ، أضيف إلى المصدر ، منصوب (قدر) مضاف إليه و(الهاء) ضمير مضاف إليه (إذ) ظرف للزمن الماضي مبني في محلّ نصب متعلق بـ (قدروا) ، (قالوا) مثل قدروا (ما) مثل الأول (أنزل) فعل ماض (الله) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (على بشر) جار ومجرور متعلق بـ (أنزل) ، (من) حرف جر زائد (شيء) مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به (قل) فعل أمر ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (من) اسم استفهام مبني في محلّ رفع مبتدأ (أنزل) مثل الأول والفاعل هو (الكتاب) مفعول به منصوب (الذي) اسم موصول مبني في محلّ نصب نعت للكتاب (جاء) مثل أنزل (الباء) حرف جر و(الهاء) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (جاء) ، (موسى) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الألف (نورا) حال منصوبة من الضمير المجرور في (به) ، (هدى) معطوف على (نورا) بالواو منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدرة على الألف (للناس) جار ومجرور متعلق بمحذوف نعت لهدى ، (تجعلون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل (الهاء) ضمير مفعول به (قراطيس) مفعول به ثان منصوب " 1 " ، (تبدون) مثل تجعلون و(هاء) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (تخفون) مثل تجعلون (كثيرا) مفعول به منصوب (الواو) حالية (علمتم) فعل ماض مبني للمجهول مبني على السكون . . .

و(تم) ضمير نائب فاعل (ما) اسم موصول مبني في محلّ نصب مفعول به " 2 " ، (لم) حرف نفي وجزم وقلب (تعلموا) مضارع مجزوم وعلامة

---

(1) أو منصوب على نزع الخافض أي في قراطيس فيتعلق بالفعل .

(2) أو نكرة موصوفة . . . والجملة بعده في محلّ نصب نعت له .

*(193/246)*

---

الجزم حذف النون . . . والواو فاعل (أنتم) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع توكيد لضمير الفاعل في (تعلموا) ، (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (آباء) معطوف على ضمير الفاعل في (تعلموا) مرفوع و(كم) ضمير مضاف إليه (قل) مثل الأول (الله) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع " 1 " ، والخبر محذوف تقديره أنزل الكتاب . (ثم) حرف عطف (ذر) مثل قل و(هم) ضمير مفعول به (في خوض) جار ومجرور متعلق بـ (ذرهم) " 2 " ، و(هم) ضمير مضاف إليه (يلعبون) مثل تجعلون .

جملة " ما قدروا . . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " قالوا . . . . " في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة " ما أنزل الله . . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " قل . . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " من أنزل . . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " أنزل الكتاب " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) .

وجملة " جاء به موسى . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة " تجعلونه . . . . . " في محلّ نصب حال من الضمير في (به) فالعامل جاء أو حال من الكتاب فالعامل أنزل .

وجملة " تبدونها " في محلّ نصب نعت لقراطيس .

وجملة " تخفون . . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة تبدونها ،

---

(1) أو فاعل لفعل محذوف تقديره أنزل .

(2) أو متعلق بـ (يلعبون) ، أو متعلق بمحذوف حال من مفعول ذرهم أي : ذرهم عابثين في خوضهم . . . وحينئذ تصبح جملة يلعبون حالا مؤكّدة لمضمون ما قبلها .

والرابط محذوف أي تخفون كثيرا منها .

وجملة " علّمتم . . . . " في محلّ نصب حال بتقدير (قد) .

وجملة " لم تعلموا . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " قل (الثانية) " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " الله (أنزله) " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " ذرهم " لا محلّ لها معطوفة على جملة قل . . .

وجملة " يلعبون " في محلّ نصب حال من المفعول في (ذرهم) .

الصرف :

(قدره) ، مصدر سماعي لفعل قدر يقدر باب نصر وباب ضرب ، وزنه فعل بفتح الفاء ، وثمة مصدر آخر للفعل هو قدر بفتحتين .

(خوضهم) ، مصدر سماعي لفعل خاض يخوض باب نصر ، وزنه فعل بفتح فسكون .

[سورة الأنعام (6) : آية 92]

وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ (92)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبني في محلّ رفع مبتدأ (كتاب) خبر

مرفوع (أنزلنا) فعل ماض مبني على السكون . . . و(نا) ضمير فاعل و(الهاء) ضمير مفعول به (مبارك) نعت لكتاب مرفوع (مصدق) نعت آخر لكتاب مرفوع (الذي) اسم موصول مبني في محلّ جر مضاف إليه (بين) ظرف مكان منصوب متعلق بمحذوف الصلة (يدي) مضاف إليه مجرور وعلامة الجر الياء و(الهاء) ضمير مضاف إليه . (الواو) عاطفة (اللام) لام التعليل (تنذر) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (أم) مفعول به منصوب (القرى) مضاف إليه مجرور وعلامة الجر الكسرة المقدرة على الألف .

والمصدر المؤول (أن تنذر) في محلّ جر باللام متعلق بـ (أنزلنا) ، وهذا المصدر المجرور معطوف على مصدر مقدّر أي أنزلناه للإيمان به ولتنذر . . .

*(195/246)*

---

(الواو) عاطفة (من) اسم موصول مبني معطوف على أمّ في محلّ نصب (حول) ظرف مكان منصوب متعلق بمحذوف صلة (من) . (الواو) عاطفة (الذين) اسم موصول مبني في محلّ رفع مبتدأ " 1 " (يؤمنون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل (بالآخرة) جار ومجرور متعلق بـ (يؤمنون) الأول (يؤمنون) مثل الأول (الباء) حرف جر و(الهاء) ضمير في محلّ جر

متعلق بـ (يؤمنون) الثاني " 2 " ، (الواو) حالية (هم) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع مبتدأ (على صلاة) جار ومجرور متعلق بـ (يحافظون) ، و(هم) ضمير مضاف إليه (يحافظون) مثل يؤمنون .

جملة " هذا كتاب . . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " أنزلناه " في محلّ رفع نعت لكتاب .

---

(1) أو في محلّ نصب معطوف على أم أي ولتنذر الذين يؤمنون . . . وحينئذ تكون جملة يؤمنون الثانية حالا من الموصول .

(2) ذكر الجار والمجرور هذا واجب لأن الخبر من لفظ المبتدأ . [ . . . . . ]



---

وجملة " تنذر . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي .

وجملة " الذين يؤمنون . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف .

وجملة " يؤمنون (الأولى) " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " يؤمنون (الثانية) " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) " 1 " .

وجملة " هم يحافظون " في محلّ نصب حال .

وجملة " يحافظون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

الصرف :

(أمّ) ، اسم جامد بمعنى الوالدة أو الأصل ، وهنا اسم لمكة المكرمة ، وزنه فعل بضم فسكون .

البلاغة

1 - جاء بالصفة الأولى فعلية ، وهي جملة أنزلناه ، لأن الإنزال يتجدد وقتا بعد وقت ، ووقعت الصفة الثانية اسما ، وكذلك الثالثة ، للدّلالة على الثبوت والاستمرار وديمومة البركة .

[سورة الأنعام (6) : آية 93]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَراتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (93)

---

(1) المتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى أنه لم تتم الفائدة في هذه الجملة الاسمية لتشابه المبتدأ والخبر لفظا ، ولكنّ المعنى مختلف فيهما لاختلاف معنى الفضلتين .

الإعراب :

(الواو) استئنافية (من) اسم استفهام مبني في محلّ رفع مبتدأ (أظلم) خبر مرفوع (من) حرف جر (من) اسم موصول مبني في محلّ جر متعلق بـ (أظلم) ، (افترى) فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (على الله) جار ومجرور متعلق بـ (افترى) ، (كذبا) مفعول به منصوب " 1 " ، (أو) حرف عطف (قال) فعل ماض والفاعل هو (أوحي) فعل ماض مبني للمجهول (إلى) حرف جر و(الياء) ضمير في محلّ جر ، والجار والمجرور في محلّ رفع نائب فاعل " 2 " ، (الواو) حالية (لم) حرف نفي وجزم وقلب (يوح) مضارع مجزوم مبني للمجهول ، وعلامة الجزم حذف حرف العلة (إليه) مثل إليّ متعلق بـ (يوح) ، (شيء) نائب فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (من) مثل الأول ومعطوف عليه في محلّ جر (قال) مثل الأول (السين) حرف استقبال (أنزل) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (مثل) مفعول به منصوب " 3 " ، (ما) اسم موصول مبني في محلّ جر مضاف إليه " 4 " ، (أنزل) مثل قال (الله) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الواو) عاطفة – أو

(1) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو مرادفه .

(2) يجوز – على رأي العكبري أن يكون نائب الفاعل ضميرا مستترا يعود إلى الإيحاء المفهوم من السياق ، فيتعلق الجار حينئذ بالفعل .

(3) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنّه صفته أي سأنزل إنزالا مثل إنزال الله ، وحينئذ تكون (ما) مصدرية .

(4) أو نكرة موصوفة ، والجملة بعدها نعت لها . . . أو هي مصدريّة .

*(198/246)*

---

استئنافية – (لو) حرف شرط غير جازم (ترى) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الألف ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت والمفعول محذوف تقديره الكفار أو الظالمين (إذ) ظرف للزمن الماضي مبني في محلّ نصب متعلق بـ (ترى) ، (الظالمون) مبتدأ مرفوع وعلامة الرفع الواو (في غمرات) جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ (الموت) مضاف إليه مجرور (الواو) حالية (الملائكة) مبتدأ مرفوع (باسطو) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو وحذفت النون للإضافة (أيدي) مضاف إليه مجرور وعلامة الجر الياء و(هم) ضمير مضاف إليه (أخرجوا) فعل أمر مبني على حذف النون . . . والواو فاعل (أنفس) مفعول به منصوب و(كم) ضمير مضاف إليه (اليوم) ظرف زمان منصوب متعلق بـ

(تجزون) " 1 " ، (تجزون) مضارع مرفوع . . . . والواو نائب فاعل (عذاب) مفعول به منصوب (الهون) مضاف إليه مجرور (الباء) حرف جر سببية (ما) مثل الأول " 2 " متعلق بـ (تجزون) ، (كنتم) فعل ماض ناقص مبني على السكون . . . . و(تم) ضمير اسم كان (تقولون) مضارع مرفوع . . . . والواو فاعل (على الله) مثل الأول متعلق بـ (تقولون) بتضمينه معنى تكذبون (غير) مفعول به " 3 " منصوب (الحق) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (كنتم . . . . تستكبرون) مثل كنتم . . . . تقولون والجار والمجرور متعلق بـ (تستكبرون) بتضمينه معنى تبتعدون .

جملة " من أظلم . . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " افترى . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة " قال . . . . " لا محلّ لها معطوفة على صلة الموصول .

---

(1) يجوز أن يتعلق بـ (أخرجوا) فيلزم الوقف على اليوم .

(2) أو نكرة موصوفة ، والجملة بعدها نعت لها ، أو هي مصدرية .

(3) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته أي قولا غير الحق .

وجملة " أوحي إلي . . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " لم يوح . . . شيء " في محلّ نصب حال .

وجملة " قال (الثاني) لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثانية .

وجملة " سأنزل . . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " أنزل الله " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " لو ترى . . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة – أو استئنافية – وجواب (لو) محذوف تقديره لرأيت أمرا عظيما .

وجملة " الظالمون في غمرات في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة " الملائكة باسطو " في محلّ نصب حال .

وجملة " أخرجوا . . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر أي يقولون أخرجوا ، وجملة القول في محلّ نصب حال من الضمير في (باسطو) .

وجملة " تجزون . . . . " لا محلّ لها استئناف بياني .

وجملة "كنتم تقولون . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " تقولون . . . . " في محلّ نصب خبر كنتم .

وجملة "كنتم (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة . . . .

أو استئنافية .

وجملة " تستكبرون " في محلّ نصب خبر كنتم الثاني .

الصرف :

(يوح) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم ، وزنه يفع بضم الياء وفتح العين .

(غمرات) ، جمع غمرة ، الاسم من غمر يغمر باب نصر بمعنى بالغ

*(200/246)*

---

وغطى ، وهو الشدة ، وزنه فعلة بفتح فسكون ، وله جمع آخر هو غمار بكسر الغين وغمر بضم الغين وفتح الميم .

(الهون) ، مصدر سماعي لفعل هان يهون باب نصر وزنه فعل بضم فسكون ، وثمة مصدر آخر للفعل هو هوان بفتح الهاء ، وله مصدر ميمي مهانة .

البلاغة

1 - الاستعارة التصريحية التمثيلية : في قوله تعالى " فِي غَمَراتِ الْمَوْتِ " فأصل الغمرة ما يغمر من الماء فاستعيرت للشدة الغالبة .

[سورة الأنعام (6) : آية 94]

وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ وَما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (94)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (اللام) لام القسم لقسم مقدر (قد) حرف تحقيق (جئتم) فعل ماض مبني على السكون . . . و(تم) ضمير فاعل و(الواو) زائدة هي إشباع حركة الميم و(نا) ضمير مفعول به (فرادى) حال منصوبة من ضمير الفاعل (الكاف) حرف جر و(ما) حرف مصدري (خلقنا) فعل ماض وفاعله و(كم) ضمير مفعول به (أوّل) ظرف زمان منصوب متعلق بـ(خلقنا) " 1 " ، (مرة) مضاف إليه مجرور .

---

(1) لا يعرب (أوّل) مفعولا مطلقا كيلا يقدّر أوّل حلق ، ولأنه يستدعي خلقا ثانيا ، وليس ثمة خلق ثان وإنما هو إعادة خلق (حاشية الجملة على الجلالين) .

*(201/246)*

---

والمصدر المؤول (ما خلقناكم) في محلّ جر بالكاف متعلق بمحذوف حال ثانية من فاعل جئتمونا " 1 " .

(الواو) حالية (تركتم) مثل جئتم (ما) اسم موصول مبني في محلّ نصب مفعول به (خولنا) مثل خلقنا و(كم) ضمير مفعول به (وراء) ظرف مكان منصوب متعلق بـ (تركتم) ، (ظهور) مضاف إليه مجرور و(كم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (ما) نافية (نرى) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمة المقدرة على الألف ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن للتعظيم (مع) ظرف مكان منصوب متعلق بـ (نرى) ، و(كم) ضمير مضاف إليه (شفعاء) مفعول به منصوب و(كم) مضاف إليه (الذين) اسم موصول مبني في محلّ نصب نعت لشفعاء (زعمتم) مثل جئتم (أن) حرف مشبه بالفعل – ناسخ – و(هم) ضمير في محلّ نصب اسم أن (في) حرف جر و(كم) ضمير في محلّ جر متعلق بشركاء على حذف مضافين أي في حق عبادتكم (شركاء) خبر مرفوع .

والمصدر المؤول (أنهم فيكم شركاء) سد مسد مفعولي زعمتم .

(اللام) لام القسم لقسم مقدر (قد) حرف تحقيق (تقطع) فعل ماض والفاعل ضمير مستتر تقديره هو يعود على الوصل المفهوم من سياق الكلام بقوله (أنهم فيكم شركاء) ، (بين) ظرف مكان منصوب متعلق بـ (تقطع) " 2 " ، و(كم) مضاف إليه (الواو) عاطفة (ضل) فعل ماض

---

(1) أو بمحذوف مفعول مطلق أي مجيئا كمجيئكم وقت خلقناكم . . . أو منفردين انفرادا كحالكم أوّل مرة .

(2) أو هو نعت لفاعل تقطع المحذوف أي مقطّع وصل بينكم . . . ويجوز أن يكون (بينكم) هو الفاعل بمعنى الوصل وبني اللفظ على الفتح جملا على أكثر أحوال الطرف ولأنه أضيف هنا إلى مبني ، في محلّ رفع (انظر الشذور لابن هشام ص 94) .

*(202/246)*

---

(عنكم) مثل فيكم متعلق بـ (ضلّ) بتضمينه معنى زال (ما) اسم موصول مبني في محلّ رفع فاعل (كنتم) فعل ماض ناقص – ناسخ – مبني على السكون . . . و(تم) ضمير اسم كان ، (تزعمون) مضارع مرفوع . .

والواو فاعل . . . ومفعولا الفعل محذوفان دل عليهما قوله (أنهم فيكم شركاء) أي : تزعمونهم شركاء .

جملة " جئتمونا . . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدر .

وجملة " خلقناكم . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (ما) .

وجملة " تركتم . . . . " في محلّ نصب حال بتقدير (قد) " 1 " .

وجملة " خولناكم " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " ما نرى . . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة تركتم " 2 " .

وجملة " زعمتم . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " تقطع . . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدر .

وجملة " ضلّ . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تقطع .

وجملة "كنتم تزعمون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

وجملة " تزعمون " في محلّ نصب خبر كنتم .

الصرف :

(فرادى) ، جمع أو اسم جمع ، ومن قال انّه جمع فقد اختلف في مفرده فهو فرد أو فريد أو فردان ووزن فرادى فعالى بضمّ الفاء زنة سكارى ، لذلك رجّحوا أن يكون مفرده فردان كسكران ، وهو على كلّ حال صفة مشتقّة .

---

(1) أو استئنافية لا محلّ لها .

(2) أو لا محلّ لها لعطفها على استئناف .



---

[سورة الأنعام (6) : آية 95]

إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى

تُؤْفَكُونَ (95)

الإعراب :

(إنّ) حرف مشبه بالفعل – ناسخ – (الله) لفظ الجلالة اسم إن منصوب (فالق) خبر مرفوع (الحب) مضاف إليه مجرور (النوى) معطوف على الحب بالواو مجرور وعلامة الجر الكسرة المقدرة على الألف (يخرج) مضارع مرفوع ، والفاعل هو (الحي) مفعول به منصوب (من الميت) جار ومجرور متعلق بـ (يخرج) ، (الواو) عاطفة (مخرج) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو ، مرفوع (الميت) مضاف إليه مجرور (من الحي) جار ومجرور متعلق بمخرج ، (ذلكم) اسم إشارة مبني في محلّ رفع مبتدأ . . . . و(اللام) للبعد ، و(كم) للخطاب (الله) لفظ الجلالة خبر مرفوع (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر " 1 " ، (أنّى) اسم استفهام بمعنى كيف في محلّ نصب حال عامله (تؤفكون) مضارع مبني للمجهول مرفوع . . . والواو نائب الفاعل .

جملة " إن الله فالق . . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " يخرج الحي . . . . " لا محلّ لها استئناف بياني " 2 " .

وجملة " ذلكم الله " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " أنى تؤفكون " جواب شرط مقدر أي : إن بدا لكم بيان قدرة الله فأنى تؤفكون وتصرفون عن الإيمان .

---

(1) أو هي عاطفة تربط المسبّب بالسبب ، والجملة بعدها معطوفة على الاستئنافيّة قبلها . [ . . . . . ]

(2) يجوز أن تكون خبرا ثانيا حتى يصح عطف (مخرج) على الفعل في أحد التخريجات .

*(204/246)*

---

الصرف :

(فالق) ، اسم فاعل من فلق يفلق باب ضرب ، وزنه فاعل .

(الحب) ، اسم جمع واحدته حبّة ، جمعه حبوب بضم الحاء . . .

وحبان كذلك ، ووزن الحب فعل بفتح فسكون .

(النوى) ، جمع نواة ، اسم جامد لبذر التمر ونحوه ، والألف فيه منقلبة عن ياء أصله النوي بياء في آخره ، جاءت متحركة بعد فتح قلبت ألفا ، وزنه فعل بفتحتين .

البلاغة

فن مخالفة الظاهر : في قوله تعالى "يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ"

فالوجه والله أعلم أن يقال : كان الأصل أن يؤتى بصيغة اسم الفاعل أسوة أمثاله في الآية إلا أنه عدل عن ذلك إلى المضارع في هذا الوصف وحده إرادة لتصور إخراج الحي من الميت

واستحضاره في ذهن السامع وذلك إنما يتأتى بالمضارع دون اسم الفاعل والماضي كما في قوله تعالى " أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً " حيث عدل فيه عن الماضي المطابق لأنزل.

[سورة الأنعام (6) : الآيات 96 إلى 99]

*(205/246)*

---

فالِقُ الْإِصْباحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْباناً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (96) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (97) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (98) وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَراكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها قِنْوانٌ دانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ انْظُرُوا إِلى ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذلِكُمْ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (99)

الإعراب:

(فالق) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو (الإصباح) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة

(جعل) فعل ماض والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (الليل) مفعول به أول منصوب (سكنا) مفعول به ثان منصوب " 1 " ، (الواو) عاطفة في الموضعين (الشمس ، القمر) اسمان معطوفان على الليل منصوبان مثله و(حسبانا) معطوف على (سكنا) منصوب " 2 " ، (ذلك) مثل ذلكم " 3 " ، (تقدير) خبر المبتدأ ذلك مرفوع (العزيز) مضاف إليه مجرور (العليم) بدل من العزيز مجرور مثله .

جملة " (هو) فالق الإصباح " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " جعل الليل سكنا " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة " ذلك تقدير . . . " لا محلّ لها استئنافية " 4 " .

---

(1) أو هو حال إذا ضمن (جعل) معنى خلق .

(2) يجوز أن يكون (حسبانا) مفعولا ثانيا لفعل محذوف تقديره جعل ، والشمس وما عطف عليه المفعول الأول ، والعطف يصبح من عطف الجمل .

(3) في الآية السابقة (95) .

(4) أو اعتراضية لأنها اعترضت بين جملتين متعاطفتين هما جملة (هو) فالق . . . وجملة هو الذي . . .

(97) (الواو) عاطفة (هو) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع مبتدأ (الذي) اسم موصول مبني في محلّ رفع خبر (جعل) مثل الأول (اللام) حرف جر و(كم) ضمير في محلّ جر متعلق بمحذوف مفعول به ثان " 1 " ، (النجوم) مفعول به منصوب (اللام) للتعليل (تهتدوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام وعلامة النصب حذف النون . . . والواو فاعل (الباء) حرف جر و(ها) ضمير في محلّ متعلق بـ (تهتدوا) ، (في ظلمات) جار ومجرور متعلق بحال من فاعل تهتدوا أي : سائرين أو كائنين في ظلمات البر (البر) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (البحر) معطوف على البر مجرور .

والمصدر المؤول (أن تهتدوا) في محلّ جر باللام متعلق بـ (جعل) " 2 " .

(قد) حرف تحقيق (فصّلنا) فعل ماض مبني على السكون . . . و(نا) ضمير في محلّ رفع فاعل (الآيات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (لقوم) جار ومجرور متعلق بـ (فصلنا) ، (يعلمون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . . والواو فاعل .

جملة " هو الذي . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة (هو) فالق . . .

وجملة " جعل . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة " تهتدوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن)

(1) ومتعلق بـ (جعل) إذا ضمّن معنى خلق .

(2) اللام هنا للتعليل و(اللام) في (لكم) للتمليك تملك منفعة ، ولهذا جاز تعليق كليهما بالفعل نفسه . . . وبعضهم يجعل الثاني بدلا من الأول بدل اشتمال .

*(207/246)*

---

المضمر .

وجملة " قد فصلنا . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة – أو استئنافيّة – .

وجملة " يعلمون " في محلّ جر نعت لقوم .

(98) (الواو) عاطفة (هو الذي أنشأ) مثل هو الذي جعل و(كم) ضمير مفعول به (من نفس) جار ومجرور متعلق بفعل أنشأ (واحدة) نعت لنفس مجرور (الفاء) عاطفة (مستقر) مبتدأ مرفوع خبره محذوف متقدم عليه أي لكم مستقر (الواو) عاطفة (مستودع) معطوف على مستقر مرفوع (قد فصّلنا . . . يفقهون) مثل نظيرتها قد فصّلنا . . . يعلمون .

وجملة " هو الذي . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة هو الذي جعل . . .

وجملة " أنشأكم " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة (لكم) مستقر) لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة ، والعائد محذوف تقديره بإذنه أو مشيئته .

وجملة " فصّلنا لكم " لا محلّ لها اعتراضيّة أو استئنافية .

وجملة " يفقهون " في محلّ جر نعت لقوم .

(99) (الواو) عاطفة (هو الذي أنزل) مثل هو الذي جعل (من السماء) جار ومجرور متعلق بـ (أنزل) أي من السّحاب (ماء) مفعول به منصوب (الفاء) عاطفة (أخرجنا) مثل فصّلنا (به) مثل بها متعلق بـ (أخرجنا) والباء سببية (نبات) مفعول به منصوب (كلّ) مضاف إليه مجرور (شيء) مضاف إليه مجرور (الفاء) عاطفة (أخرجنا) مثل فصّلنا (منه) مثل بها متعلق بـ (أخرجنا) ، (خضرا) مفعول به منصوب وهو نعت حلّ محلّ المنعوت (نخرج) مضارع مرفوع ، والفاعل نحن للتعظيم (منه) مثل بها متعلق بـ (نخرج) (حبّا) مفعول به منصوب (متراكبا) نعت لـ (حبّا)

*(208/246)*

---

منصوب (الواو) عاطفة (من النخل) جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم (من طلع) جار ومجرور بدل من الأول و(ها) ضمير مضاف إليه (قنوان) مبتدأ مؤخر مرفوع (دانية)

نعت لقنوان مرفوع (الواو) عاطفة (جنّات) معطوف على نبات منصوب مثله وعلامة النصب الكسرة (من أعناب) جار ومجرور متعلق بنعت لجنات (الواو) عاطفة في الموضعين (الزيتون ، الرمان) اسمان معطوفان بحرفي العطف على نبات منصوبان مثله (مشتبها ) حال من الزيتون والرمان أي ورقهما (الواو) عاطفة (غير) معطوف على (مشتبها ) منصوب (متشابه) مضاف إليه مجرور (انظروا) فعل أمر مبني على حذف النون . . . والواو فاعل (إلى ثمر) جار ومجرور متعلق بـ (انظروا) ، و(الهاء) ضمير مضاف إليه (إذا) ظرف للمستقبل مجرد من الشرط في محلّ نصب متعلق بـ (انظروا) ، (أثمر) فعل ماض ، والفاعل هو أي الثمر (الواو) عاطفة (ينع) معطوف على ثمر مجرور و(الهاء) مضاف إليه (إن) حرف مشبه بالفعل – ناسخ – (في) حرف جر (ذلكم) اسم إشارة مبني في محلّ جر متعلق بمحذوف خبر مقدم و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب و(الميم) حرف لجمع الذكور (اللام) لام الابتداء تفيد التوكيد (آيات) اسم إن مؤخر منصوب وعلامة النصب الكسرة (لقوم) جار ومجرور متعلق بنعت لآيات (يؤمنون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

وجملة " هو الذي أنزل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة هو الذي جعل . . .

وجملة " أنزل . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة " أخرجنا به " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة " أخرجنا منه " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة " نخرج منه " في محلّ نصب نعت لـ (خضرا) " 1 " .

وجملة " من النخل . . . قنوان " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة والعائد محذوف تقديره بإرادتنا ، أو بإرادته .

وجملة " انظروا . . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " أثمر " في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة " إنّ في ذلكم لآيات " لا محلّ لها تعليلية – استئناف بياني – .

وجملة " يؤمنون " في محلّ جر نعت لقوم .

الصرف :

(الإصباح) ، مصدر قياسي لفعل أصبح الرباعي وزنه إفعال .

(سكنا) اسم لما يسكن إليه من مال أو ولد . . وقد يكون مصدرا سماعيّا لفعل سكن باب نصر .

(حسبانا) ، مصدر سماعي لفعل حسب يحسب باب نصر بمعنى الحساب بكسر الحاء ، وثمة مصدر آخر للفعل هو حسبان بكسر الحاء .

وفي المصباح : حسبت المال حسبا من باب قتل أحصيته عددا ، وفي المصدر أيضا حسبة بالكسر وحسبانا بالضم . . .

(تقدير) ، مصدر قياسي لفعل قدر الرباعي ، وزنه تفعيل .

(النجوم) ، جمع النجم وهو اسم جامد من لفظه فعل نجم ينجم باب نصر بمعنى ظهر وطلع .

(مستودع) ، اسم مكان من فعل استودع السداسي فهو على وزن اسم المفعول . . . وقد يكون مصدرا ميميّا بمعنى الاستيداع . . . وزنه مستفعل بضم الميم وفتح العين .

---

(1) أو لا محلّ لها استئنافية .

*(209/246)*

---

(خضرا) ، صفة مشبهة من فعل خضر يخضر باب فرح وزنه فعل بفتح فكسر . . . وقد يستعمل اللفظ اسما بمعنى الزرع أو البقلة الخضراء .

(متراكبا) ، اسم فاعل من تراكب الخماسي ، وزنه متفاعل بضم الميم وكسر العين .

(النخل) ، اسم جنس جمعي يذكر ويؤنث (نخل منقعر) ، (نخل خاوية) ، واحدته نخلة .

(طلعها) ، اسم لشيء يخرج من النخل كأنه نعلان مطبّقان ، والحمل بينهما منضود أو ما يبدو من ثمرته أول ظهورها .

(قنوان) ، جمع قنو وزنه فعل بكسر فسكون ، وهو اسم جامد ، وهو من النخل كالعنقود من العنب ويجمع على أقناء وقنيان بضم القاف وكسرها ، وقنوان بضم القاف وكسرها .

(دانية) ، مؤنث دان ، اسم فاعل من دنا يدنو ، وزنه فاعلة .

(الزيتون) ، اسم جنس جمعي للثمر المعروف أو الشجر المعروف واحدته زيتونة فعلون .

(الرمان) ، اسم جنس جمعي للثمر المعروف واحدته رمانة ، وزنه فعال بضم الفاء وتشديد العين .

*(210/246)*

---

(مشتبها) ، اسم فاعل من اشتبه الخماسي ، وزنه مفتعل بضم الميم وكسر العين .

(متشابه) ، اسم فاعل من تشابه الخماسي ، وزنه متفاعل بضم الميم وكسر العين .

(ينعه) ، مصدر سماعي لفعل ينع يينع باب ضرب وباب فرح ، وزنه فعل بفتح فسكون . وفي المعجم ينع يينع باب ضرب وباب فتح .

البلاغة

1 - تحلو الإشارة هنا إلى ما ورد في هذه الآية من فنون البيان الذي شأى فيه القرآن الكريم شأوا واسعا يكاد لا تدركه مدارك البلغاء وتقصر عن تحقيقه لغة الضاد إلا في كلام الله الذي أعجز كل معجز وتحدّى كل ناثر أو شاعر . فنحن نجد في هذه الآية فنّ " المشاكلة " وفنّ " الاستعارة التمثيلية " في قوله " فالق الإصباح " فقد أتى باسم الفاعل مشاكلة لقوله

تعالى : فالق الحب والنوى .

واستعمل فلق الإصباح تشبيها له بفلق الحبة أو النوى على طريق الاستعارة التمثيلية فقد شبه انشقاق عمود الفجر وانصداع الفجر بفلق الإصباح 2 - تشبيه الليل بالسكن : وفي تشبيه الليل بالسكن إعجاز يتجسد فيه عجز الإنسان .

3 - الاستعارة : في قوله تعالى " لِتَهْتَدُوا بِها فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ " أي مشتبهات الطرق عبر عنها بالظلمات على طريقة الاستعارة .

4 - التعريض بمن لا يتدبر آيات اللّه ولا يعتبر بمخلوقاته : حيث خص العلم بالآيات المفصلة والتفقه فيها بقوم ، فأشعر أن قوما غيرهم لا علم عندهم ولا فقه واللّه الموفق .

1 - الالتفات : في قوله تعالى " فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ " حيث التفت الى



---

التكلم إظهارا لكمال العناية بشأن ما أنزل الماء لأجله ، وذكر بعضهم نكتة خاصة لهذا الالتفات غير ما ذكر وهي أنه سبحانه لما ذكر فيما مضى ما ينبهك على أنه الخالق اقتضى ذلك التوجه إليه حتى يخاطب ، واختيار ضمير العظمة دون ضمير المتكلم وحده لإظهار كمال العناية أي فأخرجنا بعظمتنا بذلك الماء مع وحدته نبات كل شيء .

]

سورة الأنعام (6) : آية 100]

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يَصِفُونَ (100)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (جعلوا) فعل ماض مبني على الضم . . . والواو فاعل (لله) جار ومجرور متعلق بحال من شركاء - نعت تقدم على المنعوت - " 1 " ، (شركاء) مفعول به ثان منصوب مقدم (الجن) مفعول به أول منصوب (الواو) حالية (خلق) فعل ماض ، والفاعل هو و(هم) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (خرقوا) مثل جعلوا (اللام) حرف جر و(الهاء) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (خرقوا) ، (بنين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء فهو ملحق بجمع المذكر السالم (الواو) عاطفة (بنات) معطوف على بنين منصوب وعلامة النصب الكسرة فهو ملحق بجمع المؤنّث السالم (بغير) جار ومجرور ، في محلّ نصب حال من فاعل خرقوا أي خرقوا له بنين وبنات جاهلين (علم) مضاف إليه مجرور (سبحان) مفعول مطلق منصوب لفعل محذوف و(الهاء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (تعالى) فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف والفاعل هو (عن) حرف جر (ما) اسم موصول مبني في

(1) يجوز جعل الجار والمجرور المفعول الثاني و(شركاء) المفعول الأول و(الجن) بدل من شركاء .

*(212/246)*

---

محلّ جر متعلق بـ (تعالى) " 1 " والعائد محذوف (يصفون مضارع مرفوع . . .

والواو فاعل .

جملة " جعلوا . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " خلقهم " في محلّ نصب حال بتقدير (قد) .

وجملة " خرقوا " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة " (نسبح) سبحانه " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " تعالى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نسبّح .

وجملة " يصفون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

الصرف :

(يصفون) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة ياء المضارعة وكسر عين الفعل ، فهو معتل مثال . . . . وزنه يعلون .

[سورة الأنعام (6) : آية 101]

بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (101)

الإعراب :

(بديع) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو (السموات) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (الأرض) معطوف على السموات مجرور مثله (أنى) اسم استفهام مبني في محلّ نصب على الظرفية متعلق بمحذوف خبر مقدم للفعل الناقص " 2 " ، (يكون) مضارع ناقص ناسخ مرفوع (اللام) حرف جر و(الهاء) ضمير في محلّ جر متعلق بحال من ولد - نعت تقدم على المنعوت - (ولد) اسم يكون مرفوع " 3 " ، (الواو) حالية

---

(1) يجوز أن يكون (ما) حرفا مصدريّا . . . والمصدر المؤوّل في محلّ جر متعلق بـ (تعالى) .

(2) أو في محلّ نصب حال والعامل هو الفعل التام يكون .

(3) أو فاعل (يكون) التام مرفوع .

(لم) نافية (تكن) يخرج مثل يكون وهو مجزوم (له) مثل الأول متعلق بخبر مقدم – أو متعلق بالفعل التام – (صاحبة) مثل ولد في الحالتين (الواو) عاطفة (خلق) فعل ماض ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (كلّ) مفعول به منصوب (شيء) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (هو) ضمير منفصل مبتدأ (بكلّ) جار ومجرور متعلق بعليم (شيء) مثل الأول (عليم) خبر المبتدأ هو مرفوع .

جملة " (هو) بديع . . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " يكون له ولد " لا محلّ لها استئنافية " 1 " .

وجملة " لم تكن له صاحبة " في محلّ نصب حال مؤكدة لمضمون الجملة قبلها وجملة " خلق . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة الحالية " 2 " . . .

وجملة " هو . . . . عليم " في محلّ نصب معطوفة على جملة خلق " 3 " .

الصرف :

(صاحبة) ، مؤنث صاحب ، اسم فاعل من صحب الثلاثي ، وزنه فاعلة .

الفوائد

1 – وردت كلمة " بديع " بمعنى " مبدع " وهي من استعمال الصفة المشبهة مكان اسم الفاعل وقد وردت هذه الصيغة في القرآن الكريم مرة بمعنى الجدّة أي إنشاء الشيء ابتداء وعلى غير مثال سابق .

ومرة بمعنى البراعة المعجبة . ومنه قول عمر بن أبي ربيعة

فأتتها فأخبرتها بعذري ثم قالت أتيت أمرا بديعا .

---

(1) يجوز أن تكون خبرا إذا أعرب (بديع) مبتدأ .

(2) أو لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة . [ . . . . . ]

(3) أو لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

*(214/246)*

---

[سورة الأنعام (6) : الآيات 102 إلى 103]

ذِلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (102)
لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (103)

الإعراب :

(ذلكم) اسم إشارة مبني مبتدأ و(اللام) للبعد (وكم) للخطاب (الله) لفظ الجلالة خبر مرفوع " 1 " (رب) خبر ثان مرفوع " 2 " ، (لا) نافية للجنس (إله) اسم لا مبني على الفتح في محلّ نصب (إلا) للاستثناء (هو) ضمير منفصل في محلّ رفع بدل من الضمير المستكن في الخبر المحذوف " 3 " ، (خالق) خبر رابع مرفوع " 4 " ، (كل) مضاف إليه مجرور (شيء)

مضاف إليه مجرور (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر " 5 " ، (اعبدوا) فعل أمر مبني على حذف النون . . . والواو فاعل و(الهاء) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (هو على كل شيء وكيل) مثل هو بكل شيء عليم " 6 " .

جملة " ذلكم الله . . . " لا محلّ لها استئنافية .

---

(1) أو بدل من اسم الإشارة ، والخبر حينئذ ما بعد لفظ الجلالة .

(2) أو بدل من لفظ الجلالة إذا كان خبرا .

(3) أو بدل من محلّ لا واسمها لأن محله الرفع . . . وانظر إعراب الآية في (163 ، 255) من سورة البقرة ، والآية (1 ، 6 ، 18) من سورة آل عمران ، والآية (86) من سورة النساء .

(4) أو بدل من ربكم .

(5) أو عاطفة لربط المسبب بالسبب عند من يعطف الإنشاء على الخبر ، وهي لمطلق السببية عند من لا يجيز ذلك .

(6) في الآية (101) من هذه السورة .

وجملة " لا إله إلا هو " في محلّ رفع خبر ثالث للإشارة (ذلكم) .

وجملة " اعبدوه " جواب شرط مقدر أي إن كانت هذه صفات الله فاعبدوه .

وجملة " هو . . . وكيل " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

(103) (لا) نافية (تدرك) مضارع مرفوع و(الهاء) ضمير مفعول به (الأبصار) فاعل مرفوع (الواو) حالية (هو) ضمير منفصل مبتدأ (يدرك) مثل تدرك ، والفاعل هو (الأبصار) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (هو) مثل السابق (اللطيف) خبر مرفوع (الخبير) خبر ثان مرفوع .

وجملة " لا تدركه الأبصار " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " هو يدرك . . . . " في محلّ نصب حال من ضمير المفعول في (تدركه) .

وجملة " يدرك الأبصار " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هو) .

وجملة " هو اللطيف " في محلّ نصب معطوفة على جملة هو يدرك .

الصرف :

(خالق) ، اسم فاعل من خلق الثلاثي ، وزنه فاعل .

(اللطيف) ، صفة مشبهة مشتقة من فعل لطف يلطف باب نصر ، وزنه فعيل .

البلاغة

1 - فن اللف والنشر : في هذه الآية الكريمة فقوله تعالى " وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ " تعليلا للحكمين السابقين على طريقة اللف والنشر أي لا تدركه الأبصار لأنه اللطيف وهو يدرك الأبصار لأنه الخبير .

2 - فن المطابقة : وذلك بين قوله تعالى " لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ " وقوله تعالى " وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ " .

*(216/246)*

---

الفوائد

ذا اسم إشارة للمفرد المذكر . يسبق اسم الاشارة بهاء التي هي حرف للتنبيه .

فيقال : هذا وهي إشارة للقريب . تلحق ذا الكاف التّي هي حرف خطاب .

فقال ذلك وهي إشارة البعيد أيضا

[سورة الأنعام (6) : آية 104]

قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (104)

الإعراب :

(قد) حرف تحقيق (جاء) فعل ماض و(كم) ضمير مفعول به (بصائر) فاعل مرفوع (من رب) جار ومجرور متعلق بـ (جاء) " 1 " ، و(كم) ضمير مضاف إليه (الفاء) عاطفة (من) اسم شرط جازم مبني ، في محلّ رفع مبتدأ (أبصر) فعل ماض مبني في محلّ جزم فعل الشرط ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو ، والمفعول محذوف أي أبصرها (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لنفس) جار ومجرور خبر لمبتدأ محذوف تقديره إبصاره ، و(الهاء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (من عمي) مثل من أبصر (الفاء) رابطة لجواب الشرط (على) حرف جر و(ها) ضمير في محلّ جر متعلق بخبر والمبتدأ مقدر أي عماه (الواو) عاطفة (ما) نافية عاملة عمل ليس (أنا) ضمير منفصل في محلّ رفع اسم ما (عليكم) مثل عليها متعلق بحفيظ (الباء) حرف جر زائد (حفيظ)

---

(1) أو متعلق بمحذوف نعت لبصائر .



---

مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما .

جملة " جاءكم بصائر . . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " من أبصر . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة " أبصر . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " .

وجملة " (إبصاره) لنفسه " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة " من عمي . " لا محلّ لها معطوفة على جملة من أبصر .

وجملة " عمي . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 2 " .

جملة " (عماه) عليها " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة " ما أنا . . . بحفيظ " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

الصرف :

(بصائر) ، جمع بصيرة ، اسم جامد يدل على العقل والفطنة والحجة ، وقد يستعمل في موضع الصفة مثل جوارحه بصيرة عليه أي شاهدة ، وزنه فعيلة ، وبصائر فيه قلب الياء همزة لمجيئها زائدة بعد ألف ساكنة ، وزنه فعائل .

---

(1 ، 2) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .



---

[سورة الأنعام (6) : آية 105]

وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (105)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (كذلك) اسم إشارة مبني في محلّ جر بالكاف " 1 " ، متعلق بمحذوف مفعول مطلق أي : نصرف الآيات تصريفا كذلك " 2 " ، و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (نصرف) مضارع مرفوع ، والفاعل للتعظيم (الآيات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (الواو) عاطفة (اللام) للتعليل (يقولوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (درست) فعل ماض وفاعله .

والمصدر المؤول (أن يقولوا) في محلّ جر متعلق باللام متعلق بـ (نصرف) .

(الواو) عاطفة (اللام) للتعليل أو لام العاقبة (نبيّن) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام و(الهاء) ضمير مفعول به ، والفاعل نحن للتعظيم (لقوم) جار ومجرور متعلق بـ (نبيّن) ، (يعلمون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

والمصدر المؤول (أن نبيّن) في محلّ جر باللام متعلق بما تعلق به المصدر المؤول الأول لأنه معطوف عليه .

---

(1) يجوز أن يكون الكاف اسما بمعنى مثل ، فهو في محلّ نصب مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته .

(2) أي نصرّف الآيات في غير هذه السورة تصريفا مثل التّصريف في هذه السورة ، أو نصرّفها في هذه السورة كما صرّفناها في غيرها .



---

جملة " نصرف . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " يقولوا . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر .

وجملة " درست " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " نبينه " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر .

وجملة " يعلمون " في محلّ جر نعت لقوم .

البلاغة

1 - فإن قلت : أي فرق بين اللامين في " ليقولوا " ، " و لنبينه " ؟

قلت : الفرق بينهما أن الأولى مجاز والثانية حقيقة ، وذلك أن الآيات صرفت للتبيين ولم تصرف ليقولوا درست ، ولكن لأنه حصل هذا القول بتصريف الآيات كما حصل التبيين ، شبه به فسيق مساقه .

الفوائد

- وليقولوا درست .

كثرت القراءات في لفظ " درست " حتى جعلت ثلاث عشرة قراءة يختلف بعضها عن بعض قوة وضعفا ولعلّ المتواتر منها ثلاث فقط :

الأولى درست مبيّنا للفاعل .

الثانية : درست والتاء تاء التأنيث الساكنة .

الثالث : دارست مثل : قاتلت بمعنى " دارست يا محمد غيرك " .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 106 إلى 107]

اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (106) وَلَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكُوا وَما جَعَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (107)

الإعراب :

(اتبع) فعل أمر ، والفاعل أنت (ما) اسم موصول مبني في محلّ نصب مفعول به " 1 " ، (أوحي) فعل ماض مبني للمجهول ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو وهو العائد - أي القرآن - (إلى) حرف جر و(الكاف) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (أوحي) ، (من رب) جار ومجرور متعلق بـ (أوحي) " 2 " ، و(الكاف) مضاف إليه (لا إله إلا هو) مر إعرابها آنفا " 3 " ، (الواو) عاطفة (أعرض) مثل اتّبع (عن المشركين) جار ومجرور متعلق بـ (أعرض) ، وعلامة الجر الياء .

جملة " اتبع . . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " أوحي . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة " لا إله إلا هو " لا محلّ لها اعتراضية بين المتعاطفين تؤكد إيجاب اتباع الوحي في أمر التوحيد " 4 " .

وجملة " أعرض . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة اتبع .

(107) (الواو) عاطفة (لو) حرف شرط غير جازم (شاء) فعل ماض (الله) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (ما) نافية (أشركوا) فعل ماض مبني على الضم . . . والواو فاعل (الواو) عاطفة (ما جعلنا) مثل ما أشركوا و(الكاف) ضمير مفعول به (على) حرف جر و(هم) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (حفيظا) ، (الواو) عاطفة (ما أنت عليهم بوكيل) سبق إعراب

---

(1) أجاز بعضهم أن يكون (ما) حرفا مصدريا ، والمصدر المؤول مفعول اتّبع ، وحينئذ يصبح الجار والمجرور نائب الفاعل .

(2) أو متعلق بحال من نائب الفاعل .

(3) في الآية (102) من هذه السورة . [ . . . . . ]

(4) يجوز إعرابها حالا من (ربّك) ، أي من ربّك منفردا .

نظيرها " 1 " .

جملة " شاء الله . . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة . . .

ومفعول شاء محذوف أي : شاء الله إيمانهم .

وجملة " ما أشركوا " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة " ما جعلناك . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة شاء الله " 2 " .

وجملة " ما أنت . . . . بوكيل " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما جعلناك .

[سورة الأنعام (6) : آية 108]

وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (108)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (لا) ناهية جازمة (تسبوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . . . والواو فاعل (الذين) اسم موصول مبني في محلّ نصب مفعول به (يدعون) مضارع مرفوع . . . . والواو فاعل (من دون) جار ومجرور متعلق بحال من العائد المحذوف أو من الموصول نفسه (الله) لفظ الجلالة مضاف إليه (الفاء) فاء السببية (يسبوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء " 3 " ، وعلامة النصب حذف النون . . والواو

(1) في الآية (104) من هذه السورة .

(2) يجوز أن تكون معطوفة على جملة ما أشركوا فلا محلّ لها أيضا .

(3) يجوز أن يكون الفعل مجزوما نسقا وعطفا على فعل النهي (لا تسبّوا) .



---

فاعل (الله) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (عدوّا) مفعول لأجله منصوب " 1 " ، (بغير) جار ومجرور متعلق بحال مؤكدة أي جاهلين (علم) مضاف إليه مجرور .

والمصدر المؤول (أن يسبوا) معطوف على مصدر متصيد من الكلام السابق أي لا يكن منكم سب لآلهتهم فسب منهم للّه .

(الكاف) حرف جر (ذلك) اسم إشارة مبني في محلّ جر متعلق بمفعول مطلق عامله (زيّنا) أي : زينا لكل أمة تزيينا مثل التزيين لهؤلاء " 2 " . . . و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (زيّنا) فعل ماض مبني على السكون . . . وفاعله (لكل) جر ومجرور متعلق بـ (زينا) ، (أمة) مضاف إليه مجرور (عمل) مفعول به منصوب و(هم) ضمير مضاف إليه (ثم) حرف عطف (إلى رب) جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم و(هم) ضمير مضاف إليه (مرجع) مبتدأ مؤخر مرفوع و(هم) مضاف إليه (الفاء) عاطفة (ينبئ) مضارع مرفوع ،

والفاعل هو و(هم) ضمير مفعول به (الباء) حرف جر (ما) اسم موصول " 3 " مبني في محلّ جر متعلق بـ (ينبئهم) ، والعائد محذوف (كانوا) فعل ماض ناقص ناسخ مبني على الضم . . . والواو ضمير اسم كان (يعملون) مثل يدعون .

جملة " لا تسبوا . . . . " لا محلّ لها استئنافية .

---

(1) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر لأن العدو يلاقي السب في المعنى . . . ويجوز أن يكون حالا مؤكدة أي يسبّوا الله معتدين .

(2) فإذا كان الكاف اسما فهو في محلّ نصب مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه صفته .

(3) أو حرف مصدري ، والمصدر المؤول في محلّ جر . . . ويجوز أن يكون نكرة موصوفة ، والجملة بعده نعت له .

*(222/246)*

---

وجملة " يدعون . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة " يسبوا . . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) المضمر .

وجملة " زيّنا . . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " إلى ربهم مرجعهم " لا محلّ لها معطوفة على محذوف أي :

فعملوه ثم إلى ربهم مرجعهم .

وجملة " ينبئهم " لا محلّ لها معطوفة على جملة إلى ربهم مرجعهم .

وجملة " كانوا يعملون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) ، والعائد محذوف أي كانوا يعملونه .

وجملة " يعملون " في محلّ نصب خبر كانوا .

الصرف :

(عدوا) ، مصدر سماعي لفعل عدا يعدو باب نصر وزنه فعل بفتح فسكون ، وثمة مصادر أخرى للفعل هي عدو بضم العين ، وعداء بفتح العين ، وعدوان بضم العين وكسرها ، وعدوى بضم العين .

الفوائد

1 – من آداب القرآن نهى الله سبحانه المؤمنين عن سب الكفرة وآلهتهم التي يشركون بها من دون الله . وعلّل ذلك بأن الذي على الباطل إذا شتمت له ما يعتقد به سوف يرد لك الشتيمة ، فإذا كنت على الحق فقد تسببت في شتم الحق . ودين الحق .

وهذا الأدب القرآني كان ولا يزال ضرورة من الضرورات الاجتماعية يفرض نفسه في العلاقات الراقية بين الأمم مهما اختلفت أديانها وتباينت عقائدها .

ولا يتنكر لهذا التوجيه الإلهي إلا المتعصبون الذين يسيئون للدين وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . . . !

[سورة الأنعام (6) : آية 109]

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِها قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ (109)

الإعراب :

(223/246)

---

(الواو) استئنافية (أقسموا) فعل ماض مبني على الضم . . . والواو فاعل (بالله) جار ومجرور متعلق بـ (أقسموا) ، (جهد) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو مضاف إلى مرادف المصدر منصوب " 1 " ، (أيمان) مضاف إليه مجرور و(هم) ضمير مضاف إليه (اللام) موطئة للقسم (إن) حرف شرط جازم (جاء) فعل ماض و(التاء) تاء التأنيث و(هم) ضمير مفعول به (آية) فاعل مرفوع (اللام) لام القسم (يؤمنن) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون وقد حذفت لتوالي الأمثال . . . والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين ضمير في محلّ رفع فاعل . . . والنون نون التوكيد (الباء) حرف جر و(ها) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (يؤمنن) ، (قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (إنّما) كافة ومكفوفة (الآيات) مبتدأ مرفوع (عند) ظرف مكان منصوب متعلق بمحذوف خبر (الله) لفظ الجلالة مضاف إليه

مجرور (الواو) عاطفة (ما) اسم استفهام مبني في محلّ رفع مبتدأ ، والاستفهام إنكاري ، (يشعر) مضارع مرفوع و(كم) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو يعود على ما (أنّ) حرف مشبه بالفعل – ناسخ – و(ها) ضمير في محلّ نصب اسم أنّ (إذا) ظرف للزمن المستقبل مجرد من الشرط مبني في محلّ نصب متعلق

---

(1) أو مصدر في موضع الحال أي مجتهدين أو جاهدين . . . . وانظر الآية (53) من سورة المائدة .

*(224/246)*

---

ب (يؤمنون) (جاءت) مثل الأول ، والفاعل هي (لا) زائدة " 1 " ، (يؤمنون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل والرابط محذوف أي بها .

والمصدر المؤول (أنها . . . لا يؤمنون) في محلّ نصب مفعول به ثان لفعل يشعركم ، أي وما يشعركم إيمانهم وقت مجيئها .

جملة " أقسموا . . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " إن جاءتهم آية . . . " لا محلّ لها تفسير لمضمون القسم – أو اعتراضية – .

وجملة " يؤمنن بها " لا محلّ لها جواب القسم ، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب

القسم .

وجملة " قل . . . " لا محلّ لها استئنافية .

وجملة " إنما الآيات عند الله " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة " ما يشعركم . . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة " يشعركم . . . . " في محلّ رفع خبر (ما) .

وجملة " جاءت . . . . " في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة " يؤمنون " في محلّ رفع خبر أنّ .

---

(1) يجوز أن تكون غير زائدة ، وحينئذ تقدر (أنّها) بمعنى (لعلها) ، والجملة لا محلّ لها للتعليل المستأنف ومفعول (يشعركم) الثاني محذوف تقديره إيمانهم أي : وما يشعركم إيمانهم لعلها إذا جاءت لا يؤمنون بها . . . . وإذا كانت غير زائدة يكون المصدر المؤول حينئذ هو المفعول الثاني منفيا ، كأنه جواب لمن حكم عليهم بالكفر أبدا أي : وما يشعركم عدم إيمانهم بها إذا جاءت . . .

[سورة الأنعام (6) : آية 110]

وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (110)

الإعراب :

(الواو) استئنافية (نقلّب) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن للتعظيم (أفئدة) مفعول به منصوب و(هم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (أبصار) معطوف على أفئدة منصوب و(هم) مضاف إليه (الكاف) حرف جر وتشبيه (ما) حرف مصدري (لم) حرف نفي وجزم وقلب (يؤمنوا) مضارع مجزوم ، وعلامة الجزم حذف النون . . .

والواو فاعل (الباء) حرف جر و(الهاء) ضمير في محلّ جر متعلق بـ (يؤمنوا) ، (أول) ظرف زمان منصوب " 1 " متعلق بـ (يؤمنوا) ، (مرة) مضاف إليه مجرور .

والمصدر المؤول (ما لم يؤمنوا) في محلّ جر بالكاف متعلق بمحذوف مفعول مطلق . . . أي تقليبا ككفرهم من قبل " 2 " .

(الواو) عاطفة (نذر) مثل نقلّب و(هم) ضمير مفعول به (في طغيان) جار ومجرور متعلق بـ (يعمهون) ، و(هم) ضمير مضاف إليه (يعمهون) فعل مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

---

(1) أي عند نزول الآيات المتقدمة على اقتراحهم كانشقاق القمر . . .

(2) ويجوز تعليقه بمحذوف يقتضيه السياق أي نقلّب أفئدتهم وأبصارهم فلا يؤمنون كعدم إيمانهم من قبل .

*(226/246)*

---

جملة " نقلب أفئدتهم " لا محلّ لها استئنافية " 1 " .

وجملة " لم يؤمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (ما) .

وجملة " نذرهم . . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نقلب .

وجملة " يعمهون " في محلّ نصب حال من مفعول (نذرهم) . . . . . أو هي مفعول ثان إن حمل (نذرهم) معنى فعل من أفعال التحويل أي نصيرهم عمهين في طغيانهم .

الصرف :

(أفئدة) ، جمع فؤاد ، اسم جامد للقلب أو العقل ، ومنه اشتق فعل فأده يفأده باب فتح إذا أصاب فؤاده ، وفئد يفأد باب فرح إذا شكا فؤاده ، وزنه فعال بضم الفاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 7 صـ 252.167 ﴾

---

(1) يجوز عطفها على جملة يؤمنون في الآية السابقة داخلة في حكم وما يشعركم أي : وما يشعركم أننا نقلب أفئدتهم (انظر الجمل في حاشيته على الجلالين) .

(227/246)

---

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

[سورة الأنعام (6) : آية 59]

وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُها وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (59)

اللغة :

(المفاتح) : جمع مفتح بكسر الميم ، وهو المفتاح ، وقرئ

مفاتيح . وقيل : مفاتيح جمع مفتاح ، وهو الذي يتوصل به إلى ما في المخازن المتوثّق منها

بالإغلاق . وقيل : هو جمع مفتح : بفتح الميم وكسر التاء ، وهو المخزن ، وزنا ومعنى .

الاعراب :

)

(228/246)

وَعِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ) الكلام مستأنف مسوق لبيان أن الأمور الغيبية مختصة به سبحانه والظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم ، ومفاتح الغيب مبتدأ مؤخر ، وجملة لا يعلمها في محل نصب على الحال من مفاتح ، والعامل فيها الاستقرار الذي تعلق به الظرف ، وإلا أداة حصر ، وهو فاعل أو تأكيد للفاعل المستتر ، ولعله أولى (وَيَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها) الواو استئنافية ، وما نافية ، ويعلم فعل مضارع ، وما اسم موصول في محل نصب مفعول به وفي البر جار ومجرور متعلقان بمحذوف صلة " ما " والبحر عطف على البر ، والواو حرف عطف وما نافية ، وتسقط فعل مضارع مرفوع ، ومن حرف جر زائد ، وورقة مجرور لفظا بمن مرفوع محلا على أنه فاعل تسقط ، وإلا أداة حصر ، وجملة يعلمها حال من ورقة . وجاء الحال من النكرة لاعتمادها على النفي (وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ) الواو حرف عطف ، وحبة معطوفة على ورقة بالجر لفظا ، ولو قرئ " حبة " بالرفع بالعطف على المعنى لجاز ، ولا رطب ولا يابس عطف على ورقة أيضا ، وإلا أداة حصر ، وفي كتاب جار ومجرور وهو تكرار لقوله : إلا يعلمها ، على أنه بدل اشتمال ، فهو في محل نصب على الحال .

البلاغة :

اشتملت هذه الآية على ضروب من البلاغة نلخصها فيما يلي :

1- الاستعارة التصريحية في قوله : " مفاتح الغيب " ، كأن للغيب مفاتيح بيده تعالى يكشف بها ما غمض على الناس .

2- الاستعارة التصريحية في قوله : " ظلمات " لشدائد البر والبحر وأهوالهما التي تبطل الحواس وتدهش العقول ، لأن الظلمات تبطل حاسة البصر ، ومن ثم قيل لليوم الشديد العصيب : يوم مظلم ، ويوم ذو كواكب ، لأن الكواكب لا تظهر إلا في الظلمة ، على طريق الاستعارة التصريحية .

*(229/246)*

---

3- الطباق بين البر والبحر ، والرطب واليابس ، فهي مقابلة .

4- التكرير في قوله : " إلا يعلمها " ، وفي قوله : " إلا في كتاب مبين " ، لأنه بمثابة " إلا يعلمها " ، وفائدة هذا التكرير التطرية لما بعد عهده ، لأنه لما عطف على " ورقة " بعد أن سلب الإيجاب المقصود للعلم في قوله : " إلا يعلمها " وكانت هذه المعطوفات داخلة في إيجاب العلم ، وهو المقصود ، وبعد ارتباط آخرها بالإيجاب السالف ، كان ذلك جديرا بتجديد العهد بالمقصود ، ثم كان اللائق بالبلاغة المألوفة في القرآن التجديد بعبارة أخرى ، ليتلقّاها السامع غضّة جديدة غير مملولة بالتكرير .

5- حصر الجزئي وإلحاقه بالكلي : وهو أن يأتي المتكلم إلى نوع ما فيجعله بالتعظيم له جنسا بعد حصر أقسام الأنواع منه

والأجناس ، فإنه سبحانه بعد أن أخبر بأن عنده مفاتيح كلّ غيب ، إذ اللام للجنس ها هنا مجملا في القول ، تمدّح بأنه يعلم ما في البر والبحر من أصناف الحيوان والنبات والجماد ، وحاصر الكليات المولدات ، ورأى سبحانه أن الاختصار على ذلك لا يكمل به معنى التمدح لاحتمال أن يظنّ ضعيف أنه يعلم الكليات دون الجزئيات ، فإن المولدات الثلاث- وإن كانت جزئيات بالنسبة إلى العالم- فكل واحد منها كليّ بالنسبة إلى ما تحته من الأجناس المتوسطة والأنواع وأصنافها ، فقال لكمال التّمدّح : " وما تسقط من ورقة إلا يعلمها " ، وعلم أن علم ذلك قد يشاركه فيه من مخلوقاته كل من خلق له إدراكا وهداه إلى طريق ذلك . فشارك فيه فتمدح بما لا يشارك فيه بقوله :

"

(230/246)

---

ولا حبة في ظلمات الأرض " ، ثم ألحق هذه الجزئيات بعد حصرها بالكليات حيث قال : " ولا رطب ولا يابس " لأن جميع المولّدات وعناصرها التي تولدت منها - ما كان منها في

باطن الأرض وما خرج إلى ظاهرها – لا يخرج عن هذين القسمين . وألغى ذكر المعتدل فإنه ممتزج من هذين القسمين . فاستغنى بذكر الأصل عن الفرع . ثم قال : " إلا في كتاب مبين " إشارة إلى أن علمه بذلك علم من معلومه مفيد في كتاب مبين . فهو يأمن الضلال والنسيان .

نماذج شعرية :

وقال أبو الطّيّب المتنبي رامقا هذه السّماء العالية من البيان :

هي الغرض الأقصى ورؤيتك المنى ومنزلك الدنيا وأنت الخلائق

فقد قصد تعظيم ممدوحه ، فجعل منزلة الّذي هو الجزئي كلّيّا .

وهو الدنيا ، وجعل ذاته التي هي جزئية كلية ، وهي الخلائق ، فجعل الجزئيّ كلّيّا . وأما حصر أقسام الجزئيّ فلان العالم إما حيوان بجسمه وعرضه ، والمنزل شامل لهما ، ومثله لأبي الفرج الببغا :

ما بأرض لم تبد فيها صباح ما بدار حللت فيها ظلام

وإذا ما أقمت في بلد فهي جميع الدّنيا وأنت الأنام

فقد حصر جميع أقسام الجزئيّ بالطّريقة التي ذكرناها ، وألحقه بالكليّ . وقال أبو الحسن السّلاميّ :

إليك طوى عرض البسيطة جاعل قصارى المطايا أن يلوح لها القصر

فكنت وعزمي والظّلام وصارمي ثلاثة أشباه كما اجتمع النسر

فسرت بآمالي لملك هو الورى ودار هي الدّنيا ويوم هو الدهر

والبيت الأخير هو المراد ، فقد أراد الشاعر تعظيم ممدوحه ، وتفخيم أمر داره التي قصده فيها ، وتبجيل يومه الذي لقيه ، فجعل الممدوح جميع الورى ، وجعل داره التي قصده فيها كل الدنيا ، وجعل

*(231/246)*

---

يومه الذي لقيه فيه جملة الدهر ، فجعل الجزئي كلّيا بعد حصر أقسام الجزئي . أما جعله الجزئيّ كلّيا فإن الممدوح جزء من الورى ، وداره جزء من الدنيا ، ويوم لقائه جزء من الدهر . وأما حصر أقسام الجزئي فلأن العالم عبارة عن أجسام وظروف زمان وظروف مكان ، وقد حصر ذلك كلّه في ذكر الممدوح ، وذكر داره ، وذكر يوم لقائه . وأما الحاق الجزئي بالكلّيّ فلكونه ألحق الممدوح بجميع الورى في كونه جعله وزن جميع الورى ، على حدّ قول أبي نواس :

ليس على اللّه بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

[سورة الأنعام (6) : آية 60]

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ

مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (60)

اللغة :

(جَرَحْتُمْ) كسبتم وفي المصباح : وجرح من باب نفع واجترح :

عمل بيده واكتسب : ومنه قيل لكواسب الطير والسّباع : جوارح ، لأنها تكسب بيدها .

الاعراب :

(وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ) كلام مستأنف مسوق لخطاب

(232/246)

---

الكفرة . وهو مبتدأ ، والذي خبره ، وجملة يتوفاكم لا محل لها لأنها صلة الموصول ، وبالليل جار ومجرور متعلقان بيتوفّاكم (وَيَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ) الواو حرف عطف ، ويعلم عطف على يتوفاكم ، وما اسم موصول في محل نصب مفعول يعلم ، وجملة جرحتم لا محل لها لأنّها صلة الموصول ، ويجوز أن تكون " ما " مصدرية والمصدر المؤول مفعول جرحتم (ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضى أَجَلٌ مُسَمًّى) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي ، ويبعثكم عطف على يتوفاكم ، وفيه جار ومجرور متعلقان بيبعثكم ، واللام للتعليل ، ويقضى فعل مضارع مبني للمجهول منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل ، والجار والمجرور متعلقان

يبعثكم ، وأجل نائب فاعل ومسمى صفة (ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) عطف على الجملة السابقة ، وإليه جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، ومرجعكم مبتدأ مؤخر ، ثم ينبئكم عطف أيضا ، وبما جار ومجرور متعلقان بينبئكم ، وجملة كنتم تعملون لا محل لها لأنها صلة ، وجملة تعملون خبر كنتم .

البلاغة :

في هذه الآية " التنزيل المنظوم " ، وهو ما ورد في القرآن موزونا بغير قصد الشعر ، وذلك في قوله : " ويعلم ما جرحتم بالنهار " فهو شطر بيت من البحر الوافر . وقد وجد في القرآن ما هو بيت تامّ أو مصراع ، فلا يكتسب اسم الشعر ولا صاحبه اسم الشاعر .

وسنورد لك طائفة من الآيات التي وردت منظومة ، ولا تعرّج على القائلين بأنها شعر . فمن ذلك قوله تعالى من الطويل وهو مصراع بيت :

" فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر " . ومن المديد " واصنع الفلك بأعيننا " . ومن البسيط : " فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم " . ومن الخفيف : " لا يكادون يفقهون حديثا " . وقد يكون بيتا كاملا كقوله وهو من مجزوء الرمل : " وجفان كالجوابي وقدور راسيات " .

وجفان كالجوابي وقدور راسيات

وقوله من البحر نفسه :

---

لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبّون

ومن مجزوء الكامل :

واللّه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم

ومن المجتثّ :

نبّىء عبادي أنّي أنا الغفور الرحيم

وقد تلاعب الشعراء في هذا الموضوع وضمنوا أبياتهم آيات وردت منظومة بغير قصد ، فورد بعضها طريفا حلوا . وقد ذكر عن أبي نواس أنه ضمن ذلك بقوله :

وفتية في مجلس وجوههم ريحانهم قد عدموا التّثقيلا

دانية عليهم ظلالها وذلّلت قطوفها تذليلا

وهو من الرّجز ولا بد من إشباع الميم في " عليهم " ليستقيم الوزن . ولا مندوحة هنا عن الاشارة إلى أنه قد نشب بين العلماء خلاف حول جواز اقتباس الآيات الكريمة ، والذي عليه الجمهور منهم

أنه جائز شريطة ألا يسف الناظم إلى المعاني والموضوعات التي لا تتفق مع جلال القرآن .

ومن طريف ما يذكر بهذا الصدد أن بعضهم نظم بيتا قال فيه :

وما حسن بيت له زخرف تراه إذا زلزلت لم يكن

ثمّ توقّف لأنه استعمل فيه هذه الألفاظ القرآنية في الشعر فجاء إلى شيخ الإسلام تقي الدين بن دقيق العيد ليسأله عن ذلك ، وأنشده البيت ، فقال له الشيخ : قل : فما حسن كهف ، فقال له : يا سيدي أفدتني وأفتيتني .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 61 إلى 62]

وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ (61) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحاسِبِينَ (62)

الإعراب :

(وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً) كلام مستأنف مسوق لبيان أنه سبحانه هو الغالب القاهر المتصرف بأمور العباد .

وهو مبتدأ ، والقاهر خبره ، وفوق ظرف متعلق بمحذوف حال ، أي :

مستعليا ، ويرسل الواو استئنافية ، ولا بأس بأن تكون عاطفة ، من باب عطف الجملة الفعلية على الجملة الاسمية ، وعليكم جار ومجرور

متعلقان بيرسل ، وحفظة مفعول به ، ويجوز تعليق الجار والمجرور بحفظة ، لأنه جمع حافظ ، وهو اسم فاعل ، أي : يرسل من يحفظ عليكم أعمالكم (حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا) حتى ابتدائية أو غائية ، وقد تقدمت كثيرا ، وإذا ظرف مستقبل متعلق بتوفته ، وجملة جاء في محل جر بالإضافة ، وأحدكم مفعول به مقدم ، والموت فاعل مؤخر ، وجملة توفته رسلنا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم (وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ) الواو حالية ، وهم مبتدأ ، وجملة لا يفرطون في محل رفع خبر ، والجملة حال . ولك أن تجعل الواو استئنافية ، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان أنهم لا يفرطون بشيء من أمور العباد (ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي ، وردوا فعل ماض مبني للمجهول ، والواو نائب فاعل ، وجملة ردوا عطف على توفته ، وإلى اللّه جار ومجرور متعلقان بردوا ، ومولاهم بدل من اللّه أو نعت له ، والحق نعت لمولاهم (أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحاسِبِينَ) ألا حرف تنبيه واستفتاح ، وله جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، والحكم مبتدأ مؤخر ، والواو حرف عطف ، وهو مبتدأ ، وأسرع الحاسبين خبره ، والجملة مستأنفة .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 63 إلى 64]

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجانا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ

مِنَ الشَّاكِرِينَ (63) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْها وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (64)

الاعراب :

)

*(235/246)*

---

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) كلام مستأنف لإقامة الحجة على البشر الظالم الذي يبدو ضعيفا حين يقع في الشدة ، فإذا انزاحت عنه رجع إلى غيّه وعنفوانه وغطرسته . وقل فعل أمر ، وفاعله مستتر تقديره أنت ، ومن اسم استفهام في محل رفع مبتدأ ، وجملة ينجيكم خبر ، ومن ظلمات جار ومجرور متعلقان بينجيكم ، والجملة الاستفهامية في محل نصب مقول القول ، والبر مضاف إليه ، والبحر عطف على البرّ (تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً) جملة تدعونه في محل نصب على الحال من الكاف في ينجيكم ، أي : ينجيكم حال كونكم داعين إياه . أما ما جنح إليه الجلال من تقدير ظرف ، وجعلها في محل جر بالإضافة ، فهو بعيد جدا ، لأن حذف المضاف إلى الجملة لم يسمع في كلامهم . وتدعونه فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون ، والواو فاعل ، والهاء مفعول به ، وتضرعا وخفية مصدران في موضع الحال من الواو ، أي : تدعونه حال كونكم متضرعين

مسرّين .

ويجوز إعرابهما على أنهما مصدران من معنى العامل لا من لفظه ، كقولهم : قعدت جلوسا

(لَئِنْ أَنْجانا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشّاكِرِينَ) هذه الجملة منصوبة بإرادة القول ، والقول حال ،

أي : تدعونه قائلين ذلك . ويجوز أن تكون لا محل لها من الاعراب لأنها مفسرة للدعاء ،

واللام موطئة للقسم ، وإن شرطية وأنجانا فعل ماض في محل جزم فعل الشرط ، والفاعل هو

، ونا ضمير متصل في محل نصب مفعول به ، ومن هذه جار ومجرور متعلقان بأنجانا ،

والإشارة إلى الظلمات ، وهي تجري مجرى الواحدة ، ولنكونن اللام واقعة في جواب القسم

، وجملة نكونن من الشاكرين لا محل لها لأنها جواب القسم لتقدمه

حسب القاعدة ، وحذف جواب الشرط لتأخره ، على حد قول ابن مالك :

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم

*(236/246)*

---

و من الشاكرين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر نكونن (قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْها) الجملة

مستأنفة ، والله مبتدأ ، وجملة ينجيكم خبره ، ومنها جار ومجرور متعلقان بينجيكم ، أي

من الظلمات ، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول (وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ)

الواو حرف عطف ، ومن كل كرب عطف على الضمير المجرور وإعادة حرف الجر ، كما هي القاعدة ، وثم حرف عطف ، وأنتم مبتدأ ، وجملة تشركون خبر .

[سورة الأنعام (6) : آية 65]

قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (65)

اللغة :

(يَلْبِسَكُمْ) : يخلطكم ، ومعنى خلطهم أن ينشب القتال بينهم فيختلطوا أو يشتبكوا في ملاحم القتال ، على حد قوله :

وكتيبة لبّستها بكتيبة حتى إذا التبست نفضت لها يدي

(شِيَعاً) : جمع شيعة ، كسدرة وسدر ، قال الراغب ، والشيعة من يتقوى بهم الإنسان ، والجمع شيع أشياع .

الاعراب :

)

قُلْ : هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) الكلام مستأنف مسوق لبيان قدرته تعالى على التطويح بهم في المتالف والمهالك . وهو مبتدأ والقادر خبر ، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول ، وعلى حرف جر ، وأن يبعث مصدر مؤول مجرور بعلى ، والجار والمجرور متعلقان بالقادر ، وعليكم جار ومجرور متعلقان بيبعث ، وعذابا مفعول به ، ومن فوقكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لقوله " عذابا " ، أو من تحت أرجلكم عطف على قوله من فوقكم (أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ) أو حرف عطف ، ويلبسكم معطوف على يبعث ، وشيعا نصب على الحال ، ويذيق عطف على يلبس ، وبعضكم مفعول به أول ليذيق وبأس بعض مفعول يذيق الثاني (انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ) الجملة مستأنفة .

وكيف اسم استفهام في محل نصب على الحال أو مفعول مطلق ، ونصرف الآيات فعل مضارع ومفعول به ، والجملة في محل نصب مفعول لانظر ، ولعلهم لعل واسمها ، وجملة يفقهون خبرها ، وجملة الرجاء حالية .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 66 إلى 67]

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (66) لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (67)

اللغة :

(مُسْتَقَرٌّ) اسم زمان ، ويجوز أن يكون اسم مكان ، ومن استقر بمعنى ثبت .

الاعراب :

)

(238/246)

---

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ) كلام مستأنف لبيان تكذيبهم بالعذاب المتقدم ذكره . ويجوز أن يعود الضمير على القرآن . والجار والمجرور متعلقان بكذب ، وقومك فاعل ، والواو استئنافية أو حالية ، فتكون الجملة مستأنفة أو حالية من الهاء في : " به " ، أي : حال كونه حقا ، وهو أشد إيغالا في القبح (قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ) الجملة مستأنفة مسوقة للرد عليهم . وجملة لست في محل نصب مقول القول ، وليس فعل ماض ناقص ، والتاء اسمها ، وعليكم جار ومجرور متعلقان بوكيل ، والباء حرف زائد ، ووكيل اسم مجرور لفظا منصوب محلا لأنه خبر ليس (لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) الجملة مستأنفة مسوقة للدلالة على أن الأمور مرهونة بأوقاتها أو أماكنها . والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، ونبأ مضاف إليه ، ومستقر مبتدأ مؤخر ، والواو حرف عطف وسوف حرف استقبال ، وتعلمون فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون .

[سورة الأنعام (6) : آية 68]

وَإِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (68)

الإعراب :

)

*(239/246)*

---

وَإِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا ) الكلام مستأنف مسوق لأمره صلى اللّه عليه وسلم بالإعراض عنهم في خوضهم في آياتنا . وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط متعلق بالجواب ، وهو : فأعرض عنهم ، ورأيت فعل وفاعل ، والرؤية هنا بصرية ، ولذلك تعدّت لواحد ، ولا بد حينئذ من تقدير حال محذوفة ، أي : وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا متلبسين بالخوض فيها ، ويجوز أن تكون الرؤية قلبية ، وحذف المفعول الثاني للاختصار ، والذين مفعول به ، وجملة يخوضون صلة الموصول ، وفي آياتنا جار ومجرور متعلقان بيخوضون (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ) الفاء رابطة لجواب الشرط ، وأعرض فعل أمر ، وعنهم جار ومجرور متعلقان بأعرض ، وحتى حرف غاية وجر ،

ويخوضوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى ، وفي حديث جار ومجرور متعلقان بيخوضوا ، وحتى الجارة ومجرورها المؤول متعلقان ب " أعرض " ، وغيره صفة لحديث ، والضمير يعود على الآيات ، والتذكير باعتبارها قرآنا أو حديثا (وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) الكلام مستأنف مسوق لتقدير طروء النسيان بوسوسة الشيطان . وإن شرطية ، وما زائدة ، أدغمت فيها نون " إن " ، أي : إن شغلك الشيطان بوسوسته حتى تنسى النهي عند مجالستهم . وينسينك فعل مضارع مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط ، والنون نون التوكيد الثقيلة ،

والكاف مفعول ينسينّك ، والشيطان فاعله ، والفاء رابطة لجواب الشرط ، ولا ناهية ، وتقعد فعل مضارع مجزوم بلا الناهية ، وبعد الذكرى ظرف زمان متعلق بتقعد ومع ظرف مكان متعلق بتقعد أيضا ، والقوم مضاف اليه ، والظالمين صفة .

البلاغة :



---

1 - الاستعارة في الخوض لأنه في اللغة : الشروع في خوض الماء والعبور فيه ، وقد استعير للأخذ في الحديث والشروع فيه على أفانين متنوعة ، وأساليب متعددة ، على وجه العبث

واللهو ، فهي استعارة مكنية تبعية .

2- الاختلاف في الشرط : قيل في الآية : " وإذا رأيت " فجاء الشرط بإذا لأن خوضهم في الآيات أمر غير مشكوك فيه ، وجاء الشرط الثاني بإن لأن إنساء الشيطان أمر مشكوك فيه ، قد يقع وقد لا يقع ، لأنه معصوم منه ، وقد تقدمت القاعدة ، فسبحان قائل هذا الكلام .

3- وضع الظاهر موضع المضمر . وقد تقدم بحثه للتنبيه على ظلمهم .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 69 إلى 70]

وَما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (69) وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْها أُولئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِما كَسَبُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (70)

اللغة :

(ذِكْرى) مصدر ذكر ، ولم يجيء على فعلى بكسر الفاء غيره .

(عَدْلٍ) بفتح العين ، أي : فداء لأن الفادي يعدل المفديّ بمثله .

والعدل الفدية .

(تُبْسَلَ) من البسل ، وأصله في اللغة التحريم والمنع ، يقال :

هذا عليك بسل ، أي ، حرام ممنوع . والإبسال : مصدر مثل البسل ، وهو المنع . ومنه : أسد باسل ، لأن فريسته لا تفلت منه ، أو لأنه ممتنع . والباسل : الشجاع لامتناعه من قرنه . وفي المختار : " وأبسله :

(241/246)

---

أسلسه للهلكة ، فهو مبسل ، وقوله تعالى : " أن تبسل نفس بما كسبت " قال أبو عبيدة : أي أن تسلم ، والمستبسل هو الذي يوطّن نفسه على الموت أو الضرب . وقد استبسل أي استقتل ، وهو أن يطرح نفسه في الحرب ، ويريد أن يقتل أو يقتل لا محالة " .

الاعراب :

(وَما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ) يجوز في الواو أن تكون عاطفة لتتمة الحديث ، وأن تكون مستأنفة مسوقة للغرض

(242/246)

---

نفسه . وما نافية ، وعلى الذين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، وجملة يتقون صلة الموصول ، ومن حسابهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال . ومن حرف جر زائد ، وشيء مجرور لفظا بمن مرفوع محلا على أنه مبتدأ مؤخر (وَلَكِنْ ذِكْرى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) الواو عاطفة ، ولكن مخففة مهملة ، وذكرى يجوز أن تكون نصبا على المصدرية بفعل مضمر ، أي : ولكن يذكرونهم ذكرى ، وأن تكون رفعا على أنها خبر لمبتدأ محذوف . أي : هي ذكرى ، أو أنها مبتدأ والخبر محذوف ، أي : ولكن عليهم ذكرى ، ولعل واسمها ، وجملة يتقون خبرها ، وجملة الرجاء حالية (وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً) الواو عاطفة ، وذر فعل أمر ، أمات العرب ماضيه ، وسيأتي بحثه في هذا الكتاب . وفاعله مستتر تقديره أنت ، والذين اسم موصول في محل نصب مفعول به ، وجملة اتخذوا صلة الموصول ، ودينهم مفعول به أول لاتخذوا ، ولعبا مفعول به ثان ، ولهوا عطف عليه . ويجوز أن تكون اتخذوا بمعنى اكتسبوا ، فتتعدى لمفعول واحد ، وتكون لعبا ولهوا نصبا على المفعول لأجله (وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا) الجملة معطوفة ، وهي فعل ومفعول به وفاعل وصفة (وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ) وذكّر فعل أمر وبه جار ومجرور متعلقان بذكّر وأنّ وما بعدها في تأويل مصدر مفعول لأجله ، أي : مخافة أن تسلم إلى العذاب والهلكة ، والباء حرف جر ، وما مصدرية ، والمصدر المؤول في محل جر بالباء ، والجار والمجرور متعلقان بتبسل . وجملة ليس وما في حيزها صفة لنفس أو مستأنفة ،

ولها جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، ومن دون اللّه جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، وولي اسم ليس ، وشفيع عطف على ولي (وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْها) الواو

(243/246)

---

عاطفة ، وإن شرطية ، وتعدل فعل الشرط ، وكل عدل نصب على المصدرية ، ولا نافية ، ويؤخذ فعل مضارع مبني للمجهول ، ومنها جار ومجرور في محل رفع نائب فاعل يؤخذ ، ولا يجوز أن يكون نائب الفاعل ضمير العدل لأنه هنا باق على مصدريته ، لأن الفعل تعدّى اليه بغير واسطة ، ولو كان المراد المعدى به لكان مفعولا به ، فلم يتعدّ إليه الفعل إلا بالباء ، وكان وجه الكلام : وإن تعدل بكل عدل ، فلما عدل عنه علم أنه مصدر ، وهذا من الدقائق التي تندّ عن الأذهان (أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِما كَسَبُوا) الجملة مستأنفة مسوقة لبيان قبح ما ارتكبوه . وأولئك مبتدأ ، والذين خبره ، وجملة أبسلوا صلة الموصول ، وبما كسبوا جار ومجرور متعلقان بأبسلوا ، وما مصدرية ، أي : بسبب كسبهم ، ويجوز أن يكون اسم الموصول بدلا من اسم الإشارة ، فيكون قوله : (لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ) هو الخبر والاشارة إلى الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا ، ولهم جار ومجرور متعلقان

بمحذوف خبر مقدم ، وشراب مبتدأ مؤخر ، وعلى الإعراب الأول تكون الجملة خبرا ثانيا أو حالا أو استئنافية ، ومن حميم جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لشراب ، وعذاب عطف على شراب ، وأليم نعت . وقوله : " بما كانوا يكفرون " الجار والمجرور متعلقان بمحذوف ، تقديره : أعد لهم ، فيكون بمثابة التفسير لأبسلوا ، وما مصدرية ، وجملة كانوا لا محل لها ، وجملة يكفرون في محل نصب خبر كانوا .

[سورة الأنعام (6) : آية 71]

*(244/246)*

---

قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُنا وَلا يَضُرُّنا وَنُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا بَعْدَ إِذْ هَدانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرانَ لَهُ أَصْحابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى وَأُمِرْنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (71)

اللغة :

(اسْتَهْوَتْهُ) : أصله من الهويّ ، وهو النزول من علوّ إلى سفل ، فكأن الشياطين حين استهوته في الأرض طلبت هويّه فيها .

(حَيْرانَ) تائها ضالا عن جادة الطريق ، وهو صفة مشبهة ، ومؤنثة حيرى ولذلك لم

ينصرف ، وفعله حار يحار حيرة وحيرانا وحيرورة ، وتخطىء العامة فتقول : احتار .

الاعراب :

(قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُنا وَلا يَضُرُّنا ) كلام مستأنف مسوق لبيان حال الذي يدعو إلى عبادة الأصنام ، كما سيأتي في باب البلاغة . والهمزة للاستفهام الإنكاري ، وندعو فعل مضارع ، والجملة مقول القول ، ومن دون اللّه جار ومجرور متعلقان بندعو ، وما اسم موصول في محل نصب مفعول ندعو ، وجملة لا ينفعنا صلة الموصول ، وكذلك جملة ولا يضرنا المعطوفة عليها (وَنُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا بَعْدَ إِذْ هَدانَا اللَّهُ) الواو عاطفة ، ونرد فعل مضارع معطوف على ندعو ، داخل في حكم الإنكار والنفي ، ونائب الفاعل مستتر تقديره نحن ، وعلى



---

أعقابنا جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، أي : راجعين إلى الشرك بعد إذ أنقذنا اللّه منه ، وبعد ظرف متعلق ب " نردّ " ، وإذ ظرف لما مضى من الزمن في محل جر بالإضافة ، وجملة هدانا اللّه في محل جر بالإضافة ل " إذ " ، وهدانا اللّه فعل ومفعول به وفاعل (كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرانَ) يجوز في هذه الكاف أن تكون نعتا لمصدر محذوف

، أي : نردّ ردّا مثل ردّ الذي استهوته الشياطين ، ويجوز أن تكون حالا من نائب فاعل نرد ، أي : نرد مشبهين الذي استهوته الشياطين ، وجملة استهوته الشياطين صلة الموصول ، وفي الأرض جار ومجرور متعلقان باستهوته ، وحيران حال من مفعول استهوته (لَهُ أَصْحابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنا ) له جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، وأصحاب مبتدأ مؤخر ، والجملة في محل نصب حال من ضمير حيران ، ويجوز أن تكون مستأنفة ، وجملة يدعونه صفة لأصحاب ، وإلى الهدى جار ومجرور متعلقان بيدعونه ، وائتنا فعل أمر ونا مفعوله ، والجملة في محل نصب مقول قول محذوف ، أي : يقولون : ائتنا ، وجملة القول في محل نصب حال (قُلْ : إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى وَأُمِرْنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ) الجملة مستأنفة ، وإن واسمها ، وهو ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ ، والهدى خبره ، والجملة الاسمية في محل رفع خبر إن ، وجملة إن وما في حيزها في محل نصب مقول القول ، وأمرنا الواو حرف عطف ، وأمرنا فعل ماض مبني للمجهول ، ونا ضمير متصل في محل رفع نائب فاعل ، والجملة عطف على جملة : إن هدى اللّه هو الهدى ، منتظمة في حيز القول ، ولنسلم الواو حرف عطف ، وفي هذه اللام أقوال كثيرة لا طائل تحتها ، ضربنا عنها صفحا ، وأقرب ما يبدو فيها أنها على بابها من التعليل ، فهي تعليل للأمر ، والمعنى قيل لنا : أسلموا لأجل أن نسلم ، والغرض من

دخولها إفادة الاستقبال على وجه أوثق ، إذ لا يتعلق الأمر والإرادة إلا بمستقبل ، ونسلم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعدها ، ولرب العالمين جار ومجرور متعلقان بنسلم .

البلاغة :

التشبيه التمثيلي المنفي في قوله : "كالذي استهوته الشياطين في الأرض" ، والمشبه هو أنه لا ينبغي لنا ولا يمكن أن نعبد غير اللّه بعد أن هدانا ، لأنا لو فعلنا ذلك لكنا مثل من حيرته الشياطين ، فهو تشبيه جملة بجملة ، واستفيد النفي من الإنكار في قوله : "أندعو" .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 72 إلى 73]

وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (72) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (73)

اللغة :

(الصُّورِ) : القرن ينفخ فيه ، وهو المعروف اليوم بالبوق .

الاعراب :

(وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) الواو

حرف عطف ، وأن وما بعدها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض ، أي : وأمرنا بأن

أقيموا الصلاة ، وقد اختلف في هذا العطف ، فقيل :

إنه في محل نصب بالقول نسقا على قوله : إن هدى اللّه هو الهدى ، أي : قل هذين الشيئين ، وقال سيبويه : إنه نسق على : لنسلم ، والتقدير : أمرنا بكذا للإسلام ولنقيم الصلاة ، و" أن " توصل بالأمر كقولهم : كتبت إليه بأن قم ، وقد اختار الزمخشري هذا الوجه قال :

"

*(247/246)*

---

فإن قلت علام عطف قوله : وأن أقيموا ؟ قلت : على موضع " لنسلم " ، كأنه قيل : أمرنا أن نسلم وأن أقيموا " . وأقيموا فعل أمر ، والصلاة مفعول به ، واتقوه عطف على أقيموا ، وهو الواو استئنافية ، وهو مبتدأ ، والذي خبره ، وجملة تحشرون صلة ، وإليه جار ومجرور متعلقان بتحشرون (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ) الواو استئنافية ، وهو مبتدأ ، والذي خبره ، وجملة خلق السموات والأرض صلة الموصول ، وبالحق جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، أي : محقا جادا لا هازئا ولا عابثا (وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ) الواو استئنافية ، والظرف متعلق ب " اذكر " مقدرة ، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان سرعة التكوين ، وجملة يقول في محل جر بالإضافة ، وكن فعل أمر تام لا ناقص ، فيكتفي

بمرفوعه ، وفاعل كن ضمير جميع ما يخلقه اللّه تعالى يوم القيامة ، والفاء عاطفة ، ويكون فعل مضارع تام معطوف على كن (قَوْلُهُ الْحَقُّ) اختلفوا كثيرا في إعراب هذا الكلام ، والذي أختاره أن يكون مبتدأ وخبرا ، والجملة مستأنفة ، ولا طائل تحت الأوجه التي أوردها ، أخبر سبحانه عن قوله بأنه لا يكون إلا حقا (وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ) الواو عاطفة ، وله جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، والملك مبتدأ مؤخر ، ويوم ظرف زمان متعلق بمحذوف بدل من الظرف الأول في قوله :

" يوم يقول " ، وجملة ينفخ في محل جر بالإضافة ، وفي الصور جار ومجرور في محل رفع نائب فاعل ينفخ (عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) عالم خبر مبتدأ محذوف ، والواو حرف عطف ، والحكيم الخبير خبراه . والجملة استئنافية .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 74 إلى 75]

*(248/246)*

---

وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْناما آلِهَةً إِنِّي أَراكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (74)
وَكَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75)

اللغة :

(آزَرَ) : اختلف المفسرون وعلماء اللغة في لفظة آزر بما لا طائل تحته ، وأقرب ما يقال فيه أنه علم أعجمي ، ولذلك منع من الصرف .

(مَلَكُوتَ) : يعني ملكه ، وزيدت فيه التاء كما زيدت في الجبروت .

الاعراب :

(وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ) الواو حرف عطف ، وإذ ظرف لما مضى من الزمن متعلق باذكر مضمرة ، عطفا على : قل أندعو ، أي :

واذكر لقريش ، بعد أن أنكرت عليهم عبادة مالا ينفع ولا يضر ، وقت قول إبراهيم الذي يدعون أنهم على ملته . وجملة قال إبراهيم في محل

(249/246)

---

جر بالإضافة ، ولأبيه جار ومجرور متعلقان بقال ، وآزر بدل من أبيه (أَتَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً إِنِّي أَراكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) الهمزة للاستفهام الإنكاري ، والجملة في محل نصب مقول القول ، وأصناما مفعول تتخذ الأول ، وآلهة مفعول به ثان ، وإن واسمها ، وجملة أراك خبرها ، والجملة تعليل للإنكار ، وقومك عطف على الكاف ، أو مفعول معه ، وفي ضلال : إما مفعول به ثان إذا كانت الرؤية قلبية ، وإما بمحذوف حال إذا كانت الرؤية بصرية ،

ومبين صفة (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) الواو اعتراضية ، والكاف مع مجرورها في محل نصب نعت لمفعول مطلق محذوف تقديره : ومثل ذلك التعريف والتبصير نعرف إبراهيم ونبصره ملكوت السموات والأرض . وقد اعترض أبو حيان على هذا التقدير فقال : " وهذا بعيد من دلالة اللفظ " . وتعقبه بعضهم فقال : وإنما كان بعيدا لأن المحذوف من غير الملفوظ به ، ولو قدره بقوله : وكما أريناك يا محمد الهداية ، لكان قريبا لدلالة اللفظ والمعنى عليه معا ، وقدره أبو البقاء بوجهين ، أحدهما : قال : " هو نصب على إضمار " أريناه " وتقديره :

وكما رأى أباه وقومه في ضلال مبين أريناه ، ذلك ويجوز أن يكون منصوبا ب " نري " التي بعده ، على أنه صفة لمصدر محذوف ، تقديره :

نريه ملكوت السموات والأرض رؤية كرؤية ضلال أبيه . ويجوز أن تكون الكاف في محل رفع على خبر ابتداء مضمر ، أي : والأمر كذلك ، وابراهيم مفعول به أول ، وملكوت السموات والأرض هو المفعول الثاني ، والجملة كلها لا محل لها لأنها معترضة بين قوله : " وإذ قال " وبين الاستدلال على ذلك بقوله : " فلما جن عليه الليل " . (وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) الواو عاطفة ، والمعطوف محذوف ، أي : وفعلنا ذلك ليكون ، فاللام للتعليل ، ويكون فعل مضارع منصوب بأن مضمرة

بعد لام التعليل ، والجار والمجرور متعلقان بالمعطوف المحذوف ، واسم يكون مستتر تقديره هو ، ومن الموقنين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر يكون .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 76 إلى 78]

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ هذا رَبِّي هذا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78)

اللغة .

(جَنَّ) تقدم اشتقاق هذه المادة عند ذكر الجنة ، وهنا ما يختص بالفعل المسند إلى الليل ، يقال : جنّ عليه الليل وأجنّ عليه : بمعنى أظلم ، فيستعمل لازما ، وجنّه وأجنّه ، فيستعمل متعديا . فهذا ما اتفق عليه الثلاثي والرباعي ، غير أن الأجود في الاستعمال : جنّ عليه الليل ، وأجنّه الليل ، فيكون الثلاثي لازما والرباعي متعديا .

(أَفَلَ) : الشيء وأفولاً من بابي ضرب وقعد : غاب .

(بازِغاً) : البزوغ : الطلوع ، يقال : بزغ بفتح الزاي ، يبزغ بضمها ، يستعمل لازما ومتعديا . وللباء مع الزاي ، فاء وعينا للفعل ،

خاصة متشابهة ، تلك هي معنى الطلوع والبروز . يقال : بزّه ثوبه وابتزّه : سلبه على مرأى منه ، وابتزت من ثيابها تجردت فظهرت يعريها ، ومنه قول امرئ القيس :

إذا ما الضجيع ابتزّها من ثيابها تميل عليه هونة غير متعال

وبزل الشراب من المبزل : أساله منه ، قال زهير بن أبي سلمى :

سعى ساعيا غيظ بن مرّة بعد ما تبزّل ما بين العشيرة بالدم

والبازي طائر معروف ، ويقال : فلان يتحيّن كالحازي ، ثم ينقضّ كالبازيّ . وهذا من العجب بمكان .

الاعراب :

)

(251/246)

---

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قالَ : هذا رَبِّي) الفاء حرف عطف ، والجملة معطوفة على جملة قال إبراهيم لأبيه ، فيكون قوله :

" وكذلك نري إبراهيم " معترضا كما تقدم ، ولما حينية أو رابطة ، وجن فعل ماض ، وعليه جار ومجرور متعلقان بجن ، والليل فاعل ، وجملة جن في محل جر بالإضافة ، أو لا

محل لها على الثاني ، وجملة رأى كوكبا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ، وجملة : قال هذا ربي مستأنفة ، وجملة هذا ربي في محل نصب مقول القول (فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ) فلما الفاء عاطفة ، ولما حينية أو رابطة ، وجملة

أفل في محل جر بالإضافة ، أو لا محلّ لها ، وجملة قال جواب شرط غير جازم ، وجملة لا أحب الآفلين في محل نصب مقول القول ، وإنما قال ذلك لأن الربّ لا يجوز عليه التغير والانتقال (فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً قالَ هذا رَبِّي) الفاء عاطفة ، وبازغا حال ، لأن الرؤية بصرية ، وهذا مبتدأ ، وربي خبره ، والجملة في محل نصب مقول القول وجملة قال هذا ربي لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم (فَلَمَّا أَفَلَ قالَ : لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ) اللام موطئة للقسم ، وإن شرطية ، ولم حرف نفي وقلب وجزم ، ويهدني فعل مضارع مجزوم بلم ، والنون للوقاية ، والياء مفعول به ، وربي فاعل ، واللام جواب القسم ، وجملة أكونن جواب القسم لا محل لها ، ومن القوم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر أكونن ، والضالين نعت (فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ : هذا رَبِّي هذا أَكْبَرُ) تقدم إعرابها ، وجعل المبتدأ نظير الخبر وإن كانت الاشارة إلى الشمس لكونهما عبارة عن شيء واحد ، ولصيانة الربّ عن شبهة التأنيث ، ألا تراهم قالوا في صفته :

علام ، ولم يقولوا : علامة ، وإن كان علّامة أبلغ احترازا من علامة التأنيث ، وسيأتي مزيد من هذا البحث في باب الفوائد (فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) مما جار ومجرور متعلقان ببريء ، وما مصدرية أي بريء من اشراككم ، ويجوز أن تكون موصولة ، أي من الذي تشركونه مع اللّه في عبادته ، فحذف العائد . ويلاحظ أن إبراهيم عليه السلام احتجّ على قومه بالأفول دون البزوغ ، مع أن كليهما يفيد الانتقال من حال إلى حال ، لسرّ دقيق وهو أن الأفول انتقال مع الخفاء والانطماس ، والبزوغ انتقال مع الظهور والسطوع والائتلاق .

البلاغة :

في الآية فن التعريض ، وقد تقدم بحثه ، وإنما عرض بضلالهم .

ويلاحظ أنه عرض بضلالهم في أمر القمر لأنه أيس منهم في أمر الكوكب ، ولهذا أعلن في أمر الشمس البراءة منها عن طريق استدراج الخصم وإيقاعه تحت الحجة .

الفوائد :

قيل : الشمس تذكر وتؤنث ، فأنثت أولا على المشهور ، وذكرت في الاشارة على اللغة القليلة ، مراعاة ومناسبة للخبر ، فرجحت كفة التذكير - التي هي أقل - على لغة التأنيث .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 79 إلى 80]

إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79)
وَحاجَّهُ قَوْمُهُ قالَ أَتُحاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدانِ وَلا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ رَبِّي
شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ (80)

الإعراب :

(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) كلام مستأنف مسوق لإعلان إبراهيم عليه السلام

*(253/246)*

---

تمسكه بالهدى ودين الحق . وإن واسمها ، وجملة وجهت خبرها ، ووجهي مفعول به ، وللذي جار ومجرور متعلقان بوجهت ، وجملة فطر السموات والأرض صلة الموصول ، والسموات مفعول به ، والأرض عطف على السموات ، وحنيفا حال من التاء في وجهت ، والواو حرف عطف ، وما نافية حجازية ، تعمل عمل ليس ، وأنا اسمها ، ومن المشركين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبرها (وَحاجَّهُ قَوْمُهُ قالَ : أَتُحاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدانِ) كلام مستأنف مسوق لذكر المحاجّة بين إبراهيم عليه السلام وقومه . روي أنه لما كثر استهزاؤه بالأصنام والتنديد بها جادله قومه ، وأرادوا أن يقيموا عليه الحجة .

وحاجّه فعل ماض ، والهاء مفعول به ، وقومه فاعل ، وقال فعل ماض ، وفاعله مستتر تقديره هو ، والجملة مستأنفة ، والهمزة للاستفهام الإنكاري ، وتحاجوني بالنون المشددة على إدغام نون الرفع في نون الوقاية ، والأصل أتحاجونني ! وفي اللّه جار ومجرور متعلقان بتحاجوني ، والواو حالية ، وقد حرف تحقيق ، وهدان فعل ماض ، والنون للوقاية ، والياء المحذوفة رسما مفعول به ويجوز حذفها وإثباتها في الوصل ، والجملة في محل نصب على الحال من الياء في أتحاجّوني ، أي :

أتجادلونني في اللّه حال كوني مهديا من لدنه ؟ ويجوز أن تكون حالا من اللّه ، أي : أتجادلونني فيه حال كونه هاديا لي ؟ فحجتكم متهافتة من أساسها (وَلا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ رَبِّي شَيْئاً) الواو يجوز أن تكون استئنافية ، والجملة مستأنفة ، أخبرهم عليه السلام أنه لا يخاف ما يشركونه باللّه ثقة به وارتكانا على دعمه وكلاءته ، ويحتمل أن تكون عاطفة ، فهي تابعة لجملة : " وقد هدان " ، أي :

في النصب على الحال ، وما اسم موصول مفعول به ، والضمير في " به " يعود على " ما " ، والمعنى : ولا أخاف الذي تشركون اللّه به . وإلا

أداة استثناء ، والمصدر المؤول من أن والفعل مستثنى متصل ، لأنه من جنس الأول ، والمستثنى منه الزمان ، وقد قدره الزمخشري بقوله :

إلا وقت مشيئة ربي شيئا يخاف ، فحذف الوقت . ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعا ، فتكون " إلا " بمعنى " لكن " ، فإن المشيئة ليست مما يشركونه به . والمصدر المؤوّل مبتدأ خبره محذوف ، تقديره :

لكن مشيئة ربي أخافها وشيئا مفعول به (وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ) الجملة تعليل للاستثناء لا محل لها ، ووسع ربي فعل وفاعل ، وكل شيء مفعول به ، وعلما تمييز ، محوّل عن الفاعل ، والتقدير : وسع علم ربي كل شيء ، والهمزة للاستفهام الإنكاري ، والفاء عاطفة ، ولا نافية ، وتتذكرون معطوف على محذوف ، أي :

أتعرضون عن التأمل في أن آلهتكم جمادات لا تضرّ ولا تنفع فلا تتذكرون أنها بهذه المثابة ؟

[سورة الأنعام (6) : الآيات 81 إلى 82]

وَكَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82)

الإعراب :

(وَكَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً)

الواو استئنافية ، والجملة مستأنفة مسوقة لنفي الخوف عن النبي صلى اللّه عليه وسلم . وكيف اسم استفهام في محل نصب حال ، وأخاف فعل مضارع ، وما اسم موصول مفعول به ، وجملة أشركتم صلة ، ويجوز أن تكون ما مصدرية ، والمصدر المؤول مفعول أخاف ، ولا تخافون عطف على أخاف ، فتكون داخلة في حيز الإنكار ، ويجوز أن تكون الواو للحال ، فتكون الجملة في محل نصب على الحال ، أي : وكيف أخاف الذي تشركون به غيره ، وإشراككم حال كونكم أنتم غير خائفين . وأن واسمها ، وجملة أشركتم باللّه خبرها ، وما اسم موصول مفعول به لأشركتم ، وبه جار ومجرور متعلقان بينزل ، وعليكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، لأنه كان في الأصل صفة لقوله : سلطانا ، فلما تقدم أعرب حالا ، وسلطانا مفعول به (فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) الفاء الفصيحة ، وأي أداة استفهام مبتدأ ، وأحق خبرها ، وإن شرطية ، وكان فعل ماض في محل جزم فعل الشرط ، والتاء اسمها ، وجملة تعلمون خبرها ، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه ، أي : فأخبروني أي الفريقين أحق بالاتباع ؟ (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) الذين خبر لمبتدأ محذوف ، بناء على أن الكلام مسوق من إبراهيم جوابا عن السؤال في قوله : فأي

الفريقين ؟ ويجوز أن تكون مبتدأ بناء على أن الكلام من اللّه تعالى ، وجملة آمنوا صلة ، ولم الواو عاطفة ، ولم حرف نفي وقلب وجزم ، ويلبسوا فعل مضارع مجزوم بلم ، معطوف على الصلة ، وبظلم جار ومجرور متعلقان بيلبسوا (أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) أولئك مبتدأ ، ولهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، والأمن مبتدأ مؤخر ثان ، والجملة الاسمية خبر اسم الإشارة ، وجملة الاشارة وما في حيزها في محل نصب مقول قول

*(256/246)*

---

محذوف على الوجه الأول ، أو مرفوعة على أنها خبر الذين على الوجه الثاني ، والواو حرف عطف ، وهم مبتدأ ، ومهتدون خبره ، والجملة عطف على ما تقدم .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 83 إلى 87]

وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنا وَنُوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَسُلَيْمانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسى وَهارُونَ وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيى وَعِيسى وَإِلْياسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (85) وَإِسْماعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ (86) وَمِنْ آبائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوانِهِمْ وَاجْتَبَيْناهُمْ وَهَدَيْناهُمْ إِلى

صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (87)

الإعراب :

(وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ) كلام مستأنف مسوق للاشارة إلى الدلائل المتقدمة ، والأنبياء التي أنزلت على أيديهم ، وتلك :

اسم إشارة مبتدأ ، وحجتنا خبره ، وجملة آتيناها خبر ثان أو حال ،

والعامل فيها معنى الاشارة ، وآتيناها فعل وفاعل ومفعول به ، وإبراهيم مفعول به ثان ،

وعلى قومه جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال أو بحجتنا (نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) الجملة مستأنفة لا محل لها ، وأعربها أبو البقاء حالا من فاعل آتيناها ، أي : في حال كوننا رافعين ، ودرجات مفعول فيه ، ومن اسم موصول مفعول به ، وجملة نشاء صلة الموصول ، والمعنى نرفع من نشاء في درجات ، أي :

*(257/246)*

---

مراتب . وإن واسمها وخبراها ، والجملة تعليلية لا محل لها (وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنا) الواو عاطفة على قوله : وتلك حجتنا ، ولا مشاحة في جواز عطف كل من الفعلية والاسمية على الأخرى ، ووهبنا فعل وفاعل ، وإسحق مفعول به ، ويعقوب عطف على

إسحق ، وكلا مفعول به مقدم لهدينا ، وهدينا فعل وفاعل ، والجملة عطف على وهبنا (وَنُوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ) ونوحا مفعول مقدم لهدينا ، والجملة معطوفة على ما تقدم ، ومن قبل جار ومجرور متعلقان بهدينا ، وبني قبل على الضم لانقطاعه عن الإضافة لفظا لا معنى ، أي : قبل ابراهيم (وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَسُلَيْمانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسى وَهارُونَ وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) الواو حرف عطف ، ومن ذريته جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، أي : وهدينا داود وسليمان إلى آخر من ذكرهم من الأنبياء حال كونهم من ذريته ، فجملة الأربعة عشر نبيا بعد نوح منصوبة بفعل الهداية الذي نصب " نوحا " ، والواو استئنافية ، وكذلك جار ومجرور متعلقان بمحذوف مفعول مطلق ، ونجزي فعل مضارع ، والمحسنين مفعول به (وَزَكَرِيَّا وَيَحْيى وَعِيسى وَإِلْياسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ) الواو عاطفة ، وكل مبتدأ ، وساغ الابتداء به لما فيه من معنى العموم ، والتنوين في كل عوض عن كلمة ، أي : كل واحد ، ومن الصالحين جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر (وَإِسْماعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلًّا فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ)

*(258/246)*

كلّا مفعول به مقدم لفضلنا ، وعلى العالمين جار ومجرور متعلقان بفضلنا (وَمِنْ آبائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوانِهِمْ وَاجْتَبَيْناهُمْ) أي : وهدينا كلّا من آبائهم . واجتبيناهم فعل وفاعل ومفعول به ، والجملة عطف على ما تقدم (وَهَدَيْناهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ) الواو عاطفة ، وكرر الهداية لتكرير التأكيد وتمهيدا لبيان ما هدوا إليه ، وإلى صراط جار ومجرور متعلقان بهديناهم ، ومستقيم صفة .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 88 إلى 90]

ذِلكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (88) أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ (89) أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرى لِلْعالَمِينَ (90)

الإعراب :

(ذِلكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ) كلام مستأنف مسوق لبيان ما أشير إليه ، وهو إما الاجتباء وإما الهداية . وذلك اسم إشارة مبتدأ ، وهدى اللّه خبر ، وجملة يهدي حالية أو خبر ثان ،

ويجوز إعراب هدى اللّه بدلا من اسم الإشارة وجملة يهدي خبر ، وبه جار ومجرور متعلقان بيهدي ، ومن اسم موصول مفعول به ، وجملة يشاء صلة الموصول ، ومن عباده جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من اسم الموصول (وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ) الواو حالية ، ولو شرطية ، وأشركوا فعل وفاعل ، وهو فعل الشّرط ، واللام واقعة في جواب الشرط ، وجملة حبط لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم ، وعنهم جار ومجرور متعلقان بحبط ، وما اسم موصول فاعل ، وجملة كانوا صلة الموصول ، وجملة يعملون خبر كانوا (أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ) الجملة مستأنفة ، وأولئك اسم إشارة مبتدأ والإشارة إلى الأنبياء الثمانية عشر المذكورين والذين خبر اسم الإشارة ، وجملة آتيناهم صلة الموصول ، والكتاب مفعول به ثان ، وما بعده عطف عليه (فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ) الفاء استئنافية ، وإن شرطية ، ويكفر فعل الشرط ، وبها جار ومجرور متعلقان بيكفر ، وهؤلاء فاعل ، والإشارة إلى أهل مكة الذين أرسل محمد عليه الصلاة والسلام لهدايتهم ، فقد الفاء رابطة لجواب الشرط ، وقد حرف تحقيق ، ووكلنا فعل وفاعل ، وبها جار ومجرور متعلقان بوكلنا ، وقوما مفعول به ، وجملة ليسوا صفة ، وبها جار ومجرور متعلقان بكافرين ، والباء حرف جر زائد ، وكافرين مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ليسوا (أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ

اقْتَدِهْ) الجملة مستأنفة ، وأولئك مبتدأ ، أي الأنبياء المذكورون ، والذين اسم موصول في محل رفع خبر ، وجملة هدى اللّه صلة ، فبهداهم الفاء الفصيحة ، أي إذا شئت سلوك الطريق القويم والارتفاع إلى أسمى المسئوليّات فاقتد بهداهم ، وقد جمع اللّه له خصائص الأنبياء الكبرى التي كانت متوزعة عليهم ، اقتد فعل

*(260/246)*

---

أمر مبني على حذف حرف العلة ، والهاء للسكت . وقد تقدّم بحثها والجملة الواقعة بعد الفاء الفصيحة جواب شرط لا محل لها (قُلْ : لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرى لِلْعالَمِينَ) جملة قل مستأنفه ، وجملة لا أسألكم في محل نصب مقول القول ، وعليه جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، والضمير في " عليه " يعود على التبليغ المفهوم من سياق الكلام ، وأجرا مفعول به ثان لأسألكم ، وإن نافية ، وهو مبتدأ ، وإلا أداة حصر ، وذكرى خبر ، وللعالمين جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة . وجملة إن هو إلا ذكرى استئنافية .

[سورة الأنعام (6) : آية 91]

وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ ما لَمْ

تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آباؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (91)

الإعراب :

(وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) كلام مستأنف مسوق للرّد على اليهود الذين قالوا ما يأتي مما ينسجم مع طبعهم الأصيل في التّعنّت والملاحاة . وما نافية ، وقدروا اللّه فعل وفاعل ومفعوله ، وحق قدره مفعول مطلق ، والأصل : قدره الحقّ ، ثم أضيفت الصّفة إلى الموصوف ، يقال : قدر الشيء إذا سبره وحزره ليعرف مقداره ومداه ،

*(261/246)*

---

ثم استعمل في صفة الشّيء (إِذْ قالُوا : ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ) إذ ظرف لما مضى من الزمن متعلق بقدروا ، وجملة قالوا : في محل جر بالإضافة ، والقائلون هم اليهود ، فلم تكن ثمّة مندوحة عن إلزامهم ما لا بد لهم من الإقرار به من إنزال التّوراة على موسى ، وأدرج تحت إلزامهم تبويخهم والانحناء عليهم باللائمة ، ووصمهم بالغباء المفرط والجهالة الرعناء ، وجملة ما أنزل اللّه في محل نصب مقول القول ، ومن حرف جر زائد ، وشيء مجرور لفظا مفعول به منصوب محلا ، (قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ) الجملة مستأنفة مسوقة للرّد عليهم وإسقاطهم في حضيض المذلة . ومن اسم

استفهام مبتدأ ، وجملة أنزل الكتاب خبر ، والذي اسم موصول صفة للكتاب ، وجملة جاء به موسى صلة ، ونورا منصوب على الحال ، وهدى عطف على : نورا وللناس جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لهدى (تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها وَتُخْفُونَ كَثِيراً) الجملة حالية من الكتاب ، أو من الضمير في به ، وتجعلونه فعل وفاعل ومفعول به أول ، وقراطيس مفعول به ثان ، نزلوه منزلة القراطيس ، وقد تقدم القول في القرطاس ، وجملة تبدونها في محل نصب صفة ل " قراطيس " ، وجملة وتخفون كثيرا عطف على جملة تبدونها ، وكثيرا مفعول به ل " تخفون " (وَعُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آباؤُكُمْ) الواو عاطفة ، وجملة علمتم عطف على جملة تجعلونه في نطاق الحال ، وعلمتم فعل ماض مبني للمجهول ، والتاء نائب فاعل ، وما اسم موصول في محل نصب مفعول به ثاني . وجملة لم تعلموا صلة الموصول ، وأنتم تأكيد للفاعل وهو الواو في : " لم تعلموا " ولا الواو حرف عطف ، وآباؤكم عطف على قوله " أنتم " . (

قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ) الجملة مستأنفة مسوقة لمتابعة الرّدّ عليهم ، والله مبتدأ حذف خبره ،

(262/246)

أو خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير : اللّه أنزله ، أو وهو اللّه ، ثم حرف عطف ، وذرهم فعل أمر أمات العرب ماضيه ، وفي خوضهم جار ومجرور متعلقان بذرهم ، أو بيلعبون أو بمحذوف حال ، وجملة يلعبون في محل نصب على الحال من مفعول ذرهم .

[سورة الأنعام (6) : آية 92]

وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ (92)

اللغة :

(أُمَّ الْقُرى ) سميت مكة أم القرى لأنها مكان أول بيت وضع للناس ، ولأنها قبلة أهل القرى ومحجهم ، ولأنها أعظم القرى شأنا .

وأنشد الزمخشري لبعض المجاورين ، ولعله يريد نفسه ، فهو من نظمه :

فمن يلق في بعض القرّيات رحله فأمّ القرى ملقى رحالي ومنتابي

الاعراب :

(وَهذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) الواو استئنافية ، وهذا اسم اشارة مبتدأ ، وكتاب خبره ، وجملة أنزلناه في محل رفع صفة أولى ل "كتاب " ، ومبارك صفة ثانية ، ومصدق صفة

ثالثة ، والذي اسم موصول في محل جر بالإضافة ، والظرف متعلق بمحذوف صلة الموصول ، ويديه مضاف إليه (وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَمَنْ حَوْلَها ) الواو عاطفة واللام للتعليل ، وتنذر فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والجار والمجرور متعلقان بأنزلناه ، أي : أنزلناه للبركات وتصديق ما تقدّمه من الكتب وأم القرى مفعول به ومن عطف على أم القرى ، وحولها ظرف متعلق بمحذوف صلة الموصول (وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ) الواو استئنافية ، والذين اسم موصول مبتدأ ، وجملة يؤمنون بالآخرة صلة الموصول ، وجملة يؤمنون به خبر ، ويجوز أن تكون الواو عاطفة ، والذين اسم موصول معطوف على أم القرى ، أي : لتنذر أهل أم القرى ولتنذر الذين آمنوا ، فتكون جملة يؤمنون الثانية حالا من الموصول ، والواو حالية ، وهم مبتدأ ، وجملة يحافظون خبر ، والجملة نصب على الحال .

البلاغة :

جاء بالصفة الأولى فعلية ، وهي جملة أنزلناه ، لأن الإنزال يتجدد وقتا بعد وقت ، على حد قوله :

وقال رائدهم : أرسو نزاولها فحتف كل امرئ يجري بمقدار

ووقعت الصفة الثانية اسما ، وكذلك الثالثة ، للدّلالة على الثبوت والاستمرار وديمومة

البركة.

[سورة الأنعام (6) : آية 93]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَراتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (93)

اللغة:

)

(264/246)

---

غَمَراتِ الْمَوْتِ) : شدائده وسكراته، والغمرات: جمع غمرة، وهي الشدة الفظيعة، من غمره الماء إذا ستره، وفي المختار: "وقد غمره الماء أي علاه وبابه نصر، والغمرة: الشدة، والجمع غمر، كتوبة وتوب، وغمرات الموت شدائده". ومن غريب أمر اشتقاق هذه الأحرف الثلاثة- وهي الغين والميم والرّاء- أنك تعقد على تراكيبها معنى واحدا يجمع تلك التراكيب وما تصرّف منها، فلهذه الأحرف ستة تراكيب وهي: غمر وغرم ومرغ

ومغر ورغم ورمغ ، ويجمعها معنى واحد وهو التغطية والستر والإخفاء وإزالة الأثر .

وفي اجتماع الغين والميم فاء وعينا معنى التغطية تقول : سيف مغمود ومغمد ، أي موضوع في غمده ، وتغمّده اللّه برحمته أي : ستره ، والغمز معروف ، تقول : ما فيه مغمز ولا غميزة أي : أمر مغطّى معاب ، وله جارية غمّازة أي : حسنة الغمز للأعضاء ، وغمسه في الماء فانغمس واغتمس أي : أخفاه فيه ، وغمس النجم غموسا غاب ، ومه اليمين الغموس لشدتها ، وغمض الأمر : خفي ، وكلام غامض : غير واضح ، وغمط النعمة : احتقرها ولم يشكرها ، وغمّ الشيء إذا غطّاه .

(الْهُونِ) : بضم الهاء : مصدرها هوانا وهونا ، أي : ذلّ ، والعرب إذا أرادت بالهون معنى الهوان ضمّت الهاء ، وإذا أرادت به الرفق والدّعة وخفّة المئونة فتحت الهاء ، فقالوا : هو قليل هون المئونة .

الاعراب :

)

(265/246)

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ) الواو استئنافية ، والكلام مستأنف مسوق لذكر بعض المتنبّئين ضلالة ، ومن اسم استفهام يفيد معنى النفي ، أي : لا أحد ، في محل رفع مبتدأ ، وأظلم خبره ، وممّن جار ومجرور متعلقان بأظلم ، وجملة افترى صلة الموصول ، وعلى اللّه جار ومجرور متعلقان بافترى ، وكذبا يجوز فيه أن يكون مفعولا به لفعل افترى ، وأن يكون مصدرا على المعنى ، أي افتراء ، فيكون مفعولا مطلقا ، وأن يكون مفعولا لأجله ، وأن يكون مصدرا في موضع الحال (أَوْ قالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ) أو حرف عطف ، وقال عطف على افترى ، وأوحي فعل ماض مبني للمجهول ، وإليّ الجار والمجرور في موضع رفع على أنهما نائب فاعل أوحي ، والواو حالية . وجملة لم يوح في موضع نصب على الحال من ضمير الفاعل في " قال " ، أو الياء في " إليّ " ، وشيء نائب فاعل ل " يوح " (وَمَنْ قالَ : سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ) أو حرف عطف ، ومن اسم موصول معطوف على المجرور ب " من " ، أي : ممّن افترى ، وجملة سأنزل في محل نصب مقول القول ، ومثل : يجوز أن تكون منصوبة على أنها مفعول به ، وما اسم موصول في محل جر بالإضافة ، وجملة أنزل اللّه صلة الموصول ، ويجوز أن تكون نعتا لمصدر محذوف ، والتقدير

سأنزل إنزالا مثل ما أنزل اللّه ، و " ما " على هذا الوجه مصدرية ، وجملة أنزل اللّه لا محل لها لأنها وقعت بعد موصول حرفي (وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَراتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ باسِطُوا

أَيْدِيهِمْ) الواو استئنافية ، ولو شرطية ، وترى فعل مضارع شرطه لو ، وجواب لو محذوف أي :

(266/246)

---

لرأيت أمرا عظيما . وقد تقدمت نظائر لذلك . والرؤية بصرية ، ومفعولها محذوف ، أي : ولو ترى الظالمين إذ هم في غمرات الموت ، وإذ ظرف لما مضى من الزمن متعلق بترى ، والظالمون مبتدأ ، وفي غمرات الموت جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر " الظالمون " ، ، والجملة الاسمية في محل جر بالإضافة ، والملائكة الواو حالية ، والملائكة مبتدأ وباسطو خبر ، وأيديهم مضاف اليه وهو مفعول به في المعنى ، والجملة في محل نصب على الحال من الضمير المستكن في الخبر ، وهو في غمرات الموت (أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ) جملة أخرجوا أنفسكم منصوبة بقول مضمر ، أي : يقولون لهم تعنيفا وتقريعا ، وهذا القول في محل نصب على الحال من الضمير المستكن في اسم الفاعل ، وهو باسطو ، وأنفسكم مفعول به ، واليوم ظرف زمان منصوب متعلق بأخرجوا أو بتجزون ، وجملة تجزون مستأنفة ، وهو فعل مضارع مبني للمجهول ، والواو نائب فاعل ، وعذاب الهون مفعول به ثان ، وبما الباء حرف جر ، وما مصدرية مؤولة مع ما

بعدها بمصدر مجرور بالباء ، والجار والمجرور متعلقان بتجزون ، أي : بسببه ، وكان واسمها ، وجملة تقولون خبر كنتم ، وغير الحق نعت لمصدر محذوف ، أي : تقولون القول غير الحق (وَكُنْتُمْ عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ) عطف على كنتم الأولى ، داخلة في حيز صلة الموصول ، وهو ما ، وعن آياته جار ومجرور متعلقان بتستكبرون ، وجملة تستكبرون خبر كنتم .

البلاغة :

في قوله : " غمرات الموت " استعارة تصريحية تمثيلية ، فقد استعار ما يغمر من الماء للشدة البالغة .

[سورة الأنعام (6) : آية 94]

*(267/246)*

---

وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ وَما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (94)

اللغة :

(فُرادى) : اختلف علماء اللغة في فرادى : هل هو جمع أم لا ! والقائلون بأنه جمع اختلفوا في مفرده ، فقال الفراء : فرادى جمع فرد وفريد وفردان ، وقال ابن قتيبة : هو جمع فردان كسكران وسكارى وعجلان وعجالى ، وقال قوم : هو جمع فريد كرديف ورادفى ، وأسير وأسارى ، قاله الراغب . وقيل : هو اسم جمع لأن فردا لا يجمع على فرادى ، وقول من قال : إنه جمع له ، فإنما يريد في المعنى ، ومعنى فرادى : فردا فردا .

الاعراب :

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) الواو استئنافية ،

(268/246)

---

و اللام جواب قسم محذوف ، وجئتمونا فعل وفاعل ومفعول به ، والواو لإشباع ضمة الميم التي هي علامة جمع الذكور وفرادى منصوب على الحال من التاء ، أي فاعل جاء ، وكما خلقناكم يصح في الكاف ومجرورها - وهو المصدر المؤوّل من ما المصدرية والفعل - أن تكون في محل نصب نعت لمصدر محذوف ، أي : مجيئا مثل مجيئكم يوم خلقناكم أول مرة ، وأن تكون في محل نصب على الحال من فاعل جئتمونا ، وأول مرة منصوب على الظرفية الزمانية ، والعامل فيه خلقناكم ، ومرة في الأصل مصدر لمرّ يمرّ مرّة ، ثم اتسع فيها فصارت

زمانا (وَتَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ) يجوز في الواو أن تكون استئنافية أو حالية ، والجملة إما مستأنفة لا محل لها ، أو في محل نصب على الحال من فاعل جئتمونا ، بتقدير : قد ، وتركتم فعل وفاعل ، وترك هنا يجوز أن تتعدى لواحد لأنها بمعنى التخلية لا التصيير ، أو بمعنى التصيير فتتعدى لمفعولين ، أولهما " ما " الموصولية ، والثاني الظرف ، فيتعلق بمحذوف أي : وصيّرتم بالترك الذي خوّلناكموه كائنا وراء ظهوركم ، وعلى الأول يتعلق الظرف بتركتم (وَما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ) الواو عاطفة ، وما نافية ، ونرى فعل مضارع مرفوع ، ومعكم ظرف مكان متعلق بنرى ، وشفعاءكم مفعول به ، والذين نعت ، وجملة زعمتم صلة الموصول ، وأن وما في حيزها سد مسد مفعولي زعم ، وأن واسمها ، وفيكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال لأنه كان في الأصل صفة لشركاء وقدم عليه ، وشركاء خبر أن (لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) اللام جواب لقسم محذوف ، وقد حرف تحقيق ، وتقطع فعل ماض وفاعله مضمر يعود على الاتصال الذي تدل عليه لفظة " شركاء " ، إذ يفهم منها الوصل ، أي :

الارتباط والتعلق ، والمعنى : لقد تقطع الاتصال بينكم ، وقرئ بالرفع ، وبينكم فاعل لأنه اسم غير ظرف ، وهو من الأضداد يستعمل للوصل والفراق ، أي : لقد تقطّع وصلكم . وضل الواو عاطفة ، وضل فعل ماض ، وعنكم جار ومجرور متعلقان بضل ، وما اسم موصول فاعل ، وجملة كنتم صلة الموصول ، وجملة تزعمون خبر كنتم ، ومفعولا تزعمون محذوفان ، والتقدير : تزعمونهم شفعاء ، وحذفا للدلالة عليهما ، على حدّ قول الكميت :

بأي كتاب أم بأية سنّة ترى حبهم عارا عليّ وتحسب

أي : وتحسبه عارا .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 95 إلى 96]

إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (95) فالِقُ الْإِصْباحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْباناً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (96)

اللغة :

(فالِقُ) اسم فاعل من فلق ، أي : شقّ الشيء ، وفيده الراغب بإبانة بعضه عن بعض ، أي : شاق الحبّ عن النبات ، فيشق الجبة فيخرج منها ورق أخضر ، ويشقّ النواة اليابسة فيخرج منها شجرة صاعدة في الهواء . والفرق بين الحب والنوى معروف ، فالأول كالحنطة

والشعير ، والثاني كالخوخ والمشمش .

(تُؤْفَكُونَ) : تصرفون ، أي : كيف تصرفون عن الإيمان .

(الْإِصْباحِ) بكسر الهمزة : مصدر سمي به الصبح ، وقرئ بفتح الهمزة على أنه جمع صبح ، قال :

أفنى رياحا وبني رياح تناسخ الإمساء والإصباح

وسيأتي المزيد من معناهما في باب البلاغة .

(حُسْباناً) : بضم الحاء مصدر حسب الحساب ، وتكسر هاؤه أيضا ، والحساب العدّ .

(سَكَناً) السكن : ما يسكن إليه من أهل ومال وغير ذلك ، وهو مصدر سكنت إلى الشيء من باب طلب . قال أبو الطيب :

بم التّعلّل لا أهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن

الاعراب :

)

(270/246)

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ) كلام مستأنف مسوق لذكر الدلائل على كمال قدرته تعالى ، وأنه المبدع للأشياء . ومن كان هذا شأنه فهو المستحق للعبادة . وإن واسمها وخبرها ، والحب مضاف لفالق ، والإضافة غير محضة ، على أنه بمعنى الحال أو الاستقبال ، فيكون الحب مجرور اللفظ منصوب المحل ، ويجوز أن تكون الإضافة محضة على أنه اسم فاعل بمعنى الماضي ، لأن ذلك قد كان . والنوى عطف على الحب ، وجملة يخرج الحي يجوز أن تكون مستأنفة ، فلا محل لها ، ويجوز أن تكون في

محل رفع خبر ثان لإن ، ومن الميت جار ومجرور متعلقان بيخرج ، ومخرج عطف على فالق ، أي : اللّه فالق ومخرج ، ويجوز أن يعطف على يخرج ، لمما لأة الكلام بعضه لبعض ، ولا بد حينئذ من تأويل الفعل بالاسم ليصح عطف الاسم عليه أو بالعكس . ومن الحي جار ومجرور متعلقان بمخرج (ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) الكلام مستأنف مسوق لبيان أن اللّه هو فاعل ذلك كله ، والفاء استئنافية ، واسم الاشارة مبتدأ ، واللّه خبره ، والفاء استئنافية ، وأنى اسم استفهام بمعنى كيف في محل نصب حال ، وتؤفكون فعل مضارع مبني للمجهول ، والواو نائب فاعل (فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا) فالق الإصباح نعت للّه ، والإصباح مضاف إليه ، وجعل الواو عاطفة ، جعل فعل ماض ، والليل مفعوله الأول ، وسكنا مفعوله

الثاني ، وفي قراءة ينسبونها إلى الجمهرة :

"

(271/246)

---

جاعل " بحر " الليل " بالإضافة مناسبة لقوله : " فالق الإصباح " ، ولك أن تنصب سكنا على الحال (وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً) الواو عاطفة ، والشمس عطف على الليل ، وحسبانا عطف على سكنا ، ولك أن تنصب حسبانا على نزع الخافض ، والجار والمجرور في محل نصب على الحال ، أي : يجريان بحسبان ، وتدل عليه آية الرحمن كما سيأتي (ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) الكلام مستأنف ، واسم الاشارة مبتدأ ، وتقدير خبره ، والعزيز مضاف إليه ، والعليم صفة .

البلاغة :

انطوت هذه الآية على فنون رائعة من فنون البيان :

1 - فن مخالفة الظاهر :

فقد جاءت " يخرج الحي من الميت " بالفعل ، وكان الظاهر ورودها بصيغة اسم الفاعل ، أسوة بأمثالها من الصفات المذكورة من قوله : " فالق

الإصباح " و" مخرج الميت من الحي " ، إلا أنه عدل عن اسم الفاعل إلى الفعل المضارع في هذا الوصف وحده ، وهو قوله .

" يخرج الحي من الميت " إرادة لتصوير إخراج الحيّ من الميت كالانسان والطائر من النطفة والبيضة ، واستحضاره في ذهن السامع كأنه يشهده بعيان ، وقد سبق التمثيل لهذا الفن بقوله : " ألم تر أن اللّه أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة " فعدل عن الماضي المطابق لقوله " أنزل " لهذا المعنى . ولا شك في أن إخراج الحي من الميت أشهر في القدرة وأدل عليها من عكسه ، والنظر أول ما يبدأ فيه كإخراج النطفة والبيضة من الحيوان .

2- فن الاشكال :

*(272/246)*

---

وقد تقدمت الاشارة إليه في " آل عمران " ، والإشكال هنا مجيء " مخرج " على خلاف ما جاء عليه أمثاله ، ولم يأت كما أتى في آل عمران : " وتخرج " ، ولا كما جاء في " يونس " وكما جاء في " الروم " . وعلى هذا يرد السؤال التالي : ما النكتة التي أوجبت مجيء هذا المكان على ما جاء عليه مخالفا لأمثاله ؟ والجواب الذي يتضح به هذا الإشكال أن يقال : إنما جاء توخيا لحسن الجوار في النظم ، لأنه قال : فالق الحب والنوى ، وفالق الإصباح .

والآية إنما سيقت للتمدّح بالقدرة المطلقة التي هي صفة ذاتية للّه تعالى ، فكان التمدّح بها مع الإتيان بصيغة اسم الفاعل أبلغ من الإتيان بصيغة الفعل ، لما يدل عليه اسم الفاعل من المضيّ المطلق الدالّ على القدم ، فإن مجيء ذلك على ما جاء عليه يستفاد منه قدم القدرة ، ويلزم من

قدمها قدم الموصوف بها . ولما علم سبحانه أن تمدّحه بمجرد فلق الحب والنوى في بطن الأرض غير تام ، لأنه لا ينتفع به حتى يخرج نباته إلى ظاهر الأرض ، ويشاهد الناس قدرة مخرجه ومخترعه ، وصار قوله :

" ومخرج الميت من الحي " مكملا ، وأتى في هذه الجملة باسم الفاعل ، وهذا من المعاجز التي تتقطّع دونها الأعناق .

3- فن الاستعارة التمثيلية :

وذلك بقوله : " فالق الإصباح " ، وخلاصتها أنه تعالى شبّه انشقاق عمود الفجر وانصداع الفجر بفلق الإصباح . وقد رمق الشعراء سماء هذه البلاغة ، فقال أبو تمام وتلاعب بهذا المعنى :

وأزرق الفجر يبدو قبل أبيضه وأول الغيث قطر ثم ينسكب

يقول : إن أوائل الأمور تبدو قليلة ، ثم تكثر ، فينبغي الحرص من أول الأمر قبل بلوغ غايته .

وأتبعه ببيت آية في الحسن فقال :

ومثل ذلك وجد العاشقين هوى بالمزح يبدو وبالإدمان ينتهب

ومن النقاد من ينسب هذين البيتين إلى ابن الرومي ، يريد أن الوجد في أوله هوى وفي آخره نار .

4- تشبيه الليل بالسكن :

*(273/246)*

---

وفي تشبيه الليل بالسكن إعجاز يتجسد فيه عجز الإنسان ، فالكلمة القرآنية في تعبيرها عن المعنى المراد تمتاز عن سائر مرادفاتها

اللغوية بتطابق أتمّ من المعنى المراد ، ومهما استبدلت بها غيرها لم يسدّ مسدّها ، ولم يغن غناءها ، ولم يؤدّ الصورة التي كانت تؤدّيها .

وانظر إلى طبيعة الأحرف التي تتكون منها كلمة " سكنا " وتوالي الفتحات على حروفها ، كل ذلك يشعرك بذلك الهدوء الذي يبعث على الطمأنينة ، وينشر الراحة في النفس .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 97 إلى 98]

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (97) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ

يَفْقَهُونَ (98)

اللغة :

(يَفْقَهُونَ) : مضارع فقه الشيء ، بكسر القاف : إذا فهمه ولو أدنى فهم ، قاله الهروي في معرض الاستدلال على أن " فقه " أنزل من " علم " . وفي حديث سلمان أنه قال وقد سألته امرأة جاءته : فقهت ؟

أي فهمت ؟ كالمتعجب من فهم المرأة عنه . وإذا قيل : لا يفقه فلان شيئًا ، كان أوغل في الذمّ في العرف من قولك : لا يعلم شيئًا ، وكأن معنى قولك : لا يفقه شيئًا ، ليست له أهلية الفهم وإن فهم ، وأما قولك : لا يعلم شيئًا ، فغايته نفي حصول العلم له ، وقد تكون له أهلية الفهم والعلم لو يعلم ، وسيأتي سرّ استعمال يفقهون هنا في باب البلاغة .

(مستقر) بفتح القاف ، لأنه اسم مكان أو مصدر ميمي بمعنى الاستقرار .

(مُسْتَوْدَعٌ) بفتح الدّال ، لأنه اسم مكان من استودع ، وسيأتي مزيد من معناهما في باب الاعراب .

الاعراب :

)

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) الواو حرف عطف ، وهو مبتدأ ، والذي خبره ، وجعل هنا بمعنى خلق فتتعدّى لواحد ، ولكم جار ومجرور متعلّقان بجعل ، والنجوم مفعول به ، ولتهتدوا اللام للتعليل والجر ، وتهتدوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التّعليل ، والجار والمجرور متعلقان بجعل أيضا ، عن طريق البدلية الاشتمالية ، بإعادة العامل ، والتقدير : جعل لكم النجوم لاهتدائكم ، وفي ظلمات البر والبحر جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، أي : حال كونكم مدلجين في ظلمات الليل بالبر والبحر (قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) الجملة مستأنفة ، مسوقة للتأكيد على وجوب إفراغ الجهد في سبيل التعليم والهداية ، والآيات مفعول به ، ولقوم جار ومجرور متعلقان بفصلنا ، وجملة يعلمون صفة لقوم (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ) الواو عاطفة على ما تقدم ، وهو مبتدأ ، واسم الموصول خبره ، وجملة أنشأكم صلة الموصول ، ومن نفس جار ومجرور متعلقان بأنشأكم ، وواحدة صفة ، فمستقر الفاء واقعة في جواب الموصول لما فيه من رائحة الشرط ، ومستقر قرئ بفتح القاف ، فهو مبتدأ حذف خبره ، والتقدير : فلكم مستقر ، لأنه اسم مكان أو

مصدر ميمي ، ومن قرأ بكسر القاف والدال فهما اسم فاعل ، والتقدير :

فمنكم مستقر ومستودع (قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ) تقدم إعرابها ، وسيأتي المزيد

منها في باب البلاغة .

البلاغة :

(275/246)

---

التعريض بمن لا يتدبر آيات اللّه ولا يعتبر بما خلق . ومعلوم أن للجهل حالين متغايرين : أولهما جهل لا يعدو نفس الناظر ولا يتجاوزها ، وثانيها جهل خارج عن أنفس النظار اي النجوم والنظر فيها وعلم الحكمة الإلهية ، فاذا تمهد ذلك سهل عليك أن تعرف أن جهل الإنسان بنفسه وبأحواله وعدم النظر فيها والتفكر في تطوراتها أبشع من جهله الأمور الخارجة عنه ، كالنجوم والأفلاك ومقادير سيرها ، فلما كان الفقه أدنى درجات العلم خصّ به أسوأ الفريقين ، وصار بالتالي تخصيص نفي أعلاها بالعلم بأسوأ الفريقين حالا .

وهذا من دقائق لغتنا العربية ، فاحرص عليه .

الفوائد :

وللشوكاني عبارة في " المستقر والمستودع " تروى الغليل قال :

" قرأ ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن وأبو عمرو وعيسى والأعرج والنخعي : بكسر القاف ، والباقون بفتحها ، وهما مرفوعان على أنها مبتدآن ، وخبرهما محذوف ، والتقدير

: فمنكم مستقر ، أو فلكم مستقر ، التقدير الأول على القراءة الأولى ، والثّانية على الثّانية ، أي :

فمنكم مستقر على ظهر الأرض ، أو فلكم مستقر على ظهرها ، ومنكم مستودع في الرحم أو في باطن الأرض أو في الصلب . وقيل : المستقر ما كان في الرحم ، والمستودع ما كان في الصلب . وقيل : المستقر من خلق . والمستودع من لم يخلق والاستيداع إشارة إلى كونهم في القبور إلى البعث " .

[سورة الأنعام (6) : آية 99]

وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَراكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها قِنْوانٌ دانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ انْظُرُوا إِلى ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذلِكُمْ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (99)

اللغة :

)

(276/246)

خَضِراً) بكسر الضّاد ، صفة مشبهة ، يقال : أخضر وخضر كأعور وعور .

(مُتَراكِباً) يركب بعضه بعضا كسنابل الحنطة ونحوها .

(قِنْوانٌ) جمع تكسير ، مفرده قنو كصنو وصنوان . وهذا الجمع يلتبس بالمثنّى في حال الوقف ، ويتميز بحركة النّون ، فنون المثنى مكسورة دائما ، ونون هذا الجمع تتوارد عليها الحركات الثلاث بحسب الإعراب . ويتميّزان أيضا في النسب ، فإذا نسبت إلى المثنّى رددته إلى المفرد فقلت : قنويّ ، وإذا نسبت إلى الجمع أبقيته على حاله لأنه جمع تكسير ، فنقول : قنوانيّ . ويتميزان أيضا بالإضافة ، فنون المثنّى تسقط لها بخلاف نون جمع التكسير ، فتقول في المثنى : هذان قنواك ، وفي الجمع : هذه قنوانك ، ويقال مثل هذا في : صنوان ، مثنى وجمعا ، والقنو بكسر القاف ، ويقال : بضمها : العذق ، وهو من النخل كالعنقود من العنب .

(دانِيَةٌ) سهلة المتجنى ، قريبة للقاطف .

(يَنْعِهِ) مصدر ينع بكسر النون ، فهي مكسورة في الماضي مفتوحة في المضارع ، أي : نضج واستوى . وقال أبو عبيدة في كتابه مجاز القرآن : إذا فتحت ياؤه هو جمع يانع ، كما التجر جمع تاجر ، والصّحب جمع صاحب ، وقد يجوز في مصدره ينوعا ، ومسموع من العرب : وأينعت الثمرة تونع إيناعا . ومن لغة الذين قالوا : ينع قول الشاعر يزيد بن معاوية في نصرانية ترهّبت في دير خرب عند الماطرون ، وهو موضع بالشام ، قال :

آب هذا الهمّ فاكتنفا وأترّ النوم فامتنعا

راعيا للنجم أرقبه فإذا ما كوكب طلعا

في قباب عند سكرة حولها الزيتون قد ينعا

الى آخر هذه القصيدة الممتعة .

الاعراب :

(وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ) الواو عاطفة ، والكلام معطوف على ما قبلها لمناسبة أول الكلام آخره وذكر ما يحتاج اليه الناس في معاشهم ، وهو مبتدأ ، والذي خبره ،

(277/246)

---

وجملة أنزل من السماء صلة ، وماء مفعول به ، والفاء عاطفة ، وأخرجنا فعل وفاعل ، وبه جار ومجرور متعلّقان بأخرجنا ، ونبات كل شيء مفعول به (فَأَخْرَجْنا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَراكِباً) الفاء : حرف عطف ، وأخرجنا فعل وفاعل ، ومنه جار ومجرور متعلقان بأخرجنا ، وخضرا مفعول به وجملة نخرج صفة ل " خضرا " وعبر بالمضارع مع أن المقام للماضي لاستحضار الصورة القريبة ، وقد مرت نظائره في أبواب البلاغة . ومنه جار

ومجرور متعلقان بنخرج ، وحبا مفعول به ، ومتراكبا صفة . (وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها قِنْوانٌ دانِيَةٌ) الواو اعتراضية ، ومن النّخل جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم ، ومن طلعها بدل من الجار والمجرور قبله بإعادة الجار ، والبدل هنا بدل بعض من كل ، لأن الطلع أول ما يبدو للعيون منها ، وقنوان مبتدأ مؤخر ، ودانية صفة لقنوان ، والجملة معترضة سيقت للمنّة ، لأنه من أعظم أقوات العرب ، ولأنه جامع بين اللذة والقوت (وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشابِهٍ) الواو عاطفة ، وجنات عطف على نبات ، فهو منصوب ، أي : فأخرجنا بالماء النّبات ، وجنات ، فهو من عطف الخاص على العام ، ومن أعناب جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة ، وكذلك الزيتون والرمان ، واختار الزمخشري أن ينصب الزيتون والرمان على الاختصاص تنويها بهذين الجنسين وتمييزا لهما ، ومشتبها حال ، والمراد تشابه أوراقهما ، وغير متشابه عطف عليه ، وقرأ بعضهم " وجنات " بالرفع ، وضعفها أبو جعفر الطّبري ، والرفع على عطفها على قنوان ، أو على أنها مبتدأ خبره محذوف ، أي :

وثمّ جنات من أعناب ، وقدره أبو البقاء ومن الكرم جنات (انْظُرُوا إِلى ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ) الجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم مقدم ، وانظروا فعل أمر والواو فاعل ، وإلى ثمره جار ومجرور

متعلقان بانظروا ، وإذا ظرف مستقل متضمن معنى الشرط متعلق بالجواب وهو انظروا وجملة أثمر في محل جر بالإضافة ، وينعه عطف على ثمره (إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) الكلام مستأنف مسوق لتعليل عبادته سبحانه ، وبيان قدرته البالغة . وإن حرف مشبه بالفعل ، وفي ذلكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر إن المقدم ، واللّام المزحلقة ، وآيات اسم إن ، لقوم جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لآيات ، وجملة يؤمنون صفة لقوم ، والإشارة تقع على جميع ما تقدم ذكره من قوله : " إن اللّه فالق الحب والنوى " إلى هنا .

البلاغة :

في الآية التفات بليغ بقوله : " فأخرجنا " ، وسره العناية بشأن هذا الإخراج والتنويه بالعظمة والقدرة البالغتين .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 100 إلى 101]

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (100) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (101)

اللغة :

(وَخَرَقُوا) : اختلقوا ، يقال : خلق الإفك وخرقه ، واختلقه وافتراه وافتعله ، بمعنى كذب

، وهو من باب ضرب .

)

بَدِيعُ) وردت كلمة بديع في القرآن مرتين ، الأولى في البقرة ، في قوله : " بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون " ، والثانية في هذه الآية ، ومعنى بديع في الآيتين منشئهما ومبدعهما على غير مثال سابق ، ولهذه المادة معان كثيرة تنتهي إلى أمرين اثنين :

1- الجدّة الّتي يدلّ عليها إنشاء الشيء ابتداء وعلى غير مثال سابق .

2- البراعة والغرابة التي يدلّ عليها العجيب ، قال عمر بن أبي ربيعة :

فأتتها فأخبرتها بعذري ثم قالت : أتيت أمرا بديعا

الاعراب :

*(279/246)*

---

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ) كلام مستأنف مسوق في بيان موقفهم من خالقهم ، بعد أن بين المنن المسبغة عليهم ، وكيف خالفوا ما يقتضيه العقل السّليم . وجعلوا فعل وفاعل ، ولله : جار ومجرور متعلقان بشركاء أو حال منه ، وشركاء مفعول جعلوا الثاني ، وقدمه

لاستعظام أن يتخذ للّه شريك ، والجن هو المفعول الأول . (وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ) الواو حالية ، ولا بد من تقدير قد بعدها وخرقوا الواو حرف عطف ، وخرقوا فعل وفاعل ، وله جار ومجرور متعلقان بخرقوا ، وبنين مفعول به ، وبنات عطف على بنين ، وبغير علم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من فاعل خرقوا ، أي :

(280/246)

---

افتعلوا الكذب مصاحبين للجهل وهو عدم العلم ، والجملة عطف على جملة وخلقهم (سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يَصِفُونَ) سبحانه : مفعول مطلق لفعل محذوف ، أي تنزه تنزيها ، وتعالى عطف على الفعل المقدر العامل في سبحانه ، وعما جار ومجرور متعلقان بتعالى ، وجملة يصفون صلة الموصول ، والجملة التنزيهية مستأنفة (بَدِيعُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ) الجملة مستأنفة مسوقة لبيان استحالة ما ينسونه إليه ، وتقرير تنزيهه عنه ، وبديع السموات والأرض خبر لمبتدأ محذوف ، أي : هو بديع ، وأنى اسم استفهام بمعنى كيف أو من أين ، في محل نصب حال ، ويكون فعل مضارع ناقص ، وله جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر يكون المقدم ، وولد اسمها المؤخر وجملة أنى يكون له ولد استئنافية (وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) الواو عاطفة ، ولم حرف نفي

وقلب وجزم ، ولكن فعل مضارع ناقص مجزوم بلم ، وله جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر تكن المقدم ، وصاحبة اسمها المؤخر ، وخلق كل شيء : هذه الجملة إما مستأنفة أو حالية ، وعلى الاعراب الأخير يكون المعنى : كيف ومن أين يكون له ولد والحال أنه خلق جميع الأشياء ومن جملتها ما سموه ولدا له ، فكيف يدور بخلد أحد أن يكون المولود ولدا لخالقه ؟

وهو : الواو عاطفة أو حالية ، وهو مبتدأ ، وبكل شيء جار ومجرور متعلقان بعليم ، وعليم خبر " هو " .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 102 إلى 103]

ذِلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (102)

لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (103)

الاعراب :

(281/246)

---

(ذِلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ) الكلام مستأنف ، وهو وما بعده سرد لتقرير نعته سبحانه بهذه الأوصاف السّامية ، واسم الإشارة مبتدأ ، واللّه خبر أول ، وربكم خبر ثان ، وجملة

لا إله إلا هو خبر ثالث ، وقد تقدم إعراب كلمة الشهادة ، فجدّد به عهدا (خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) خالق كل شيء خبر رابع ، فاعبدوه : الفاء تعليلية ، واعبدوه فعل أمر وفاعل ومفعول به ، والجملة لا محل لها لأنها لبيان سبب العبادة ، وهو الواو عاطفة ، وهو مبتدأ ، وعلى كل شيء جار ومجرور متعلقان بوكيل ، ووكيل خبر هو (لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) الجملة خبر خامس ، وتدركه الأبصار فعل ومفعول به مقدم وفاعل ، وهو يدرك : الواو عاطفة ، وهو مبتدأ ، وجملة يدرك الأبصار خبره ، وهو : الواو حرف عطف ، وهو مبتدأ ، واللطيف خبر أول ، والخبير خبر ثان .

البلاغة :

في الآية الثانية فنون عديدة من البلاغة نوجزها فيما يلي :

1 – المناسبة :

وهي أن يبتدئ المتكلم بمعنى ، ثم يتمّم كلامه بما يناسبه معنى دون لفظ ، فإن معنى نفي إدراك الأبصار للشيء يناسب اللطف ، وهذا الكلام خرج مخرج التمثيل ، لأن المعهود عند المخاطب أن البصر لا يدرك الأجسام اللطيفة كالهواء وسائر العناصر ، ولا الجواهر المفردة ، إنما يدرك اللّون من كلّ متلوّن ، والكون من كلّ متكوّن ، فجاء هذا التّمثيل ليتخيّله السّامع فيقيس به الغائب على الشّاهد ، وكذلك قوله تعالى : " وهو يدرك الأبصار " فإن

ذلك يناسبه وصف المدرك بالخبرة .

2- فن الاحتراس :

فإنه سبحانه لما أثبت له إدراك الأبصار اقتضت البلاغة فن الاحتراس تفاديا لأن يظنّ ظانّ أنه إذا لم يكن مدركا لم يكن موجودا ، فوجب أن تقول " وهو يدرك الأبصار " لتثبت لذاته الوجود .

3- فن اللفّ والنّشر :

*(282/246)*

---

وسماه بعضهم " فن تشابه الأطراف " ، فقوله : " اللّطيف " راجع إلى قوله : " لا تدركه الأبصار " ، وقوله : " الخبير " راجع إلى قوله : " وهو يدرك الأبصار " .

4- فن التّعطّف :

الذي هو قوله : " لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار " لمجيء الأبصار في أول الكلام وآخره .

5- فن المطابقة :

بين قوله " لا تدركه الأبصار " وقوله : " وهو يدرك الأبصار " .

فقد استكملت الآية خمسة فنون تامة من فنون البلاغة .

الفوائد :

هذه الآية أقوى دلائل المعتزلة في الأدلّة السّمعيّة على أن اللّه تعالى لا يرى ، لأنها صريحة .

والجواب : إن الآية الأخرى تناقضها وهي قوله تعالى : " وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة " وأما شبهتهم في قوله تعالى : " لا تدركه الأبصار " فقد أجاب الأشاعرة عنها ، بأن قوله : " لا تدركه الأبصار " نقيض لقوله تعالى : " يدرك الأبصار " يقتضي أن كلّ أحد لا يبصره ، لأن الألف واللّام إذا دخلتا على الجمع أفادتا الاستغراق ، ونقيض السالبة الكلّية الموجبة الجزئية ، فكان معنى قوله : " لا تدركه الأبصار " : لا تدركه كل الأبصار ، ونحن نقول بموجبه ، فإن جميع الأبصار لا تراه ، ولا يراه إلّا المؤمنون ، وهذه النكتة هي معنى قولهم : سلب العموم لا يفيد السلب .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 104 إلى 107]

قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (104) وَكَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (105) اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (106) وَلَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكُوا وَما جَعَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (107)

اللغة :

)

(283/246)

---

بَصائِرُ) : جمع بصيرة ، وهي نور القلب الذي به يستصر ، والبصر نور العين الذي به تبصر ، وتطلق على العقل والفطنة والعبرة والشاهد والحجة ، يقال : جوارحه بصيرة عليه ، وفراسة ذات بصيرة أي : صادقة . وفي القاموس : البصر محركة : حس العين ، والجمع أبصار ، مثل : سبب وأسباب .

الاعراب :

(قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ) كلام مستأنف مسوق على لسان النبي ، والمراد بها آيات القرآن ، وقد حرف تحقيق ، وجاءكم بصائر فعل ومفعول به مقدّم وفاعل مؤخّر ، ومن ربكم جار ومجرور متعلقان بجاءكم ، أو بمحذوف صفة لبصائر (فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها) الفاء استئنافية للتفصيل ، ومن اسم شرط جازم في محل رفع مبتدأ ، وأبصر فعل ماض في محل جزم فعل الشرط ، والفاء رابطة للجواب ، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف ، أي : فالإبصار لنفسه ، ومثله : ومن عمي فعليها ، والجملة

المقترنة بالفاء في محل جزم جواب الشرط ، وفعل الشرط وجوابه خبر " من " (وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ) الواو استئنافية ، ويجوز أن تكون حالية ، وما نافية حجازية ، وأنا ضمير منفصل في محل رفع اسمها ، وعليكم جار ومجرور متعلقان بحفيظ ، والباء حرف جر زائد ، وحفيظ اسم مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ليس (وَكَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) الواو استئنافية ، والكاف في

(284/246)

---

محل نصب نعت لمصدر محذوف ، أي : تصريفا مثل ما صرفناها فيما يتلى عليكم ، والآيات مفعول به ، والواو حرف عطف ، واللام هي لام التعليل ، والفعل بعدها يقولوا منصوب بإضمار أن ، وسماها ابن عطية وأبو البقاء : لام العاقبة أو الصيرورة ، وجملة ليقولوا معطوفة على مقدر ، أي : ليعتبروا وليقولوا ، وجملة درست في محل نصب مقول القول ، ولنبينه : الواو عطف على اللام الأولى ، والجار والمجرور متعلقان بنصرف ، وسيأتي الفرق بين اللامين في باب البلاغة .

والضمير في " لنبينه " يعود للقرآن وإن لم يجر له ذكر لكونه معلوما ، ولقوم جار ومجرور متعلقان بنبينه ، وجملة يعلمون صفة لقوم (اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ

عَنِ الْمُشْرِكِينَ) الجملة مستأنفة لخطاب النبي صلى اللّه عليه وسلم ، واتبع فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت ، و" ما " يجوز فيها أن تكون اسم موصول في محل نصب على المفعولية لاتبع ، والعائد هو نائب فاعل أوحي ، والجملة صلة الموصول ، ويجوز أن تكون مصدرية ، فيكون الجار والمجرور هما نائب الفاعل ، ومن ربك جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ، أي كائنا من ربك ، وجملة لا إله إلا هو معترضة ، وقد تقدم إعراب كلمة الشهادة كثيرا .

وأعرض عطف على اتبع ، وعن المشركين جار ومجزور متعلقان بأعرض (وَلَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكُوا) الواو استئنافية أو حالية ، ولو شرطية ، وشاء ربك فعل وفاعل ، ومفعول المشيئة محذوف ، والتقدير عدم إشراكهم ، وجملة ما أشركوا لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم (وَما جَعَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً) الواو عاطفة ، وما نافية ، وجعلناك فعل وفاعل ومفعول به أول ، وحفيظا مفعول جعلنا الثاني ، وعليهم جار ومجرور متعلقان ب " حفيظا " . (وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ) عطف على ما تقدم ، وقد تقدم إعرابها قريبا .

البلاغة :

*(285/246)*

قال الزمخشري : وهو من عيون النكت التي جاء بها : " فإن قلت : أي فرق بين الامين في ليقولوا ولنبينه ؟ قلت : الفرق بينهما أن الأولى مجاز والثانية حقيقة ، وذلك أن الآيات صرفت للتبين ، ولم تصرف ليقولوا ، درست ، ولكن لأنه حصل هذا القول بتصريف الآيات كما حصل التبيين به شبه به فسيق مساقه " .

الفوائد :

في قوله " درست " ثلاث عشرة قراءة ، ثلاث منها متواترة ، وعشر منها شاذة ، وقد أدرجناها باختصار :

الثلاث المتواترة :

1- درست بوزن ضربت ، مبنيا للفاعل ، والتاء للفاعل ، أي :

درست يا محمد .

2- درست والتاء تاء التأنيث الساكنة ومعناها بليت وتكررت في الأسماع .

3- دارست : بوزن قاتلت ، أي : دارست يا محمد غيرك .

العشر الشّاذّة :

1- درّست : بالتشديد والخطاب ، أي : درست الكتب القديمة .

2- درّست : مشدّدا مبنيا للمجهول المخاطب .

3- دورست : بالتخفيف والواو مبنيا للمجهول .

4- دورست : مبنيا للمجهول مسندا لضمير الآيات .

5- دارست : بتاء ساكنة للتأنيث لحقت آخر الفعل .

6- درست : بفتح الدال وضم الراء ، مسندا إلى ضمير الآيات .

7- درس : فاعله النبيّ .

8- درسن : مسند لنون الإناث ، وهي ضمير الآيات .

9- درّسن : كالذي قبله ، إلا أنه بالتشديد ، بمعنى :

اشتد درسها .

10- دارسات : جمع دارسة ، بمعنى : قديمات ، أو بمعنى :

ذات دروس .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 108 إلى 109]

وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (108) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِها قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ (109)

اللغة :

(عَدْواً) : ظلما واعتداء .

(جَهْدَ أَيمانِهِمْ) : الجهد بفتح الجيم المشقة وبضمها الطاقة .

(يُشْعِرُكُمْ) : يدريكم ويعلمكم .

الاعراب :

(وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) كلام مستأنف مسوق للنهي عن أمر هو واجب في حد ذاته ، ولكنه يؤدّي إلى سبّ اللّه تعالى ، فلذلك جرى النهي عنه ، ورب طاعة جرت إلى معصية . ولا ناهية ، وتسبوا فعل مضارع مجزوم بها ، والواو فاعل ، والذين اسم موصول في محل نصب مفعول به ، وجملة يدعون صلة الموصول ، ومن دون اللّه جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال (فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ) الفاء هي السببية ، ويسبوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعدها ، لأنها مسبوقة بالنهي ، أي : لا تسبوا آلهتهم فقد يترتب على ذلك ما تكرهون من سب اللّه . ويجوز أن تكون الفاء عاطفة ، ويسبوا معطوفة على تسبوا ، ولفظ الجلالة مفعول به ، وعدوا منصوب على المصدر لأنه مرادفه ، ويصح أن يكون مفعولا لأجله ، أي : لأجل الاعتداء ، ويجوز أن يكون مصدرا في موضع الحال ، لأن السب لا يكون إلا عدوا . وبغير علم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال مؤكدة (كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ) كذلك الجار والمجرور نعت لمصدر محذوف ، أي : زينا لهؤلاء

أعمالهم تزيينا مثل تزييننا لكل أمة عملهم ، وزينا فعل وفاعل ، ولكل أمة جار ومجرور متعلقان بزينا ، وعملهم مفعول به ، والجملة نصب على الحال (ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ) ثم عاطفة للترتيب مع التراخي ، والعطف على محذوف تقديره : فأتوه ، وإلى ربهم جار ومجرور متعلقان بمحذوف

(287/246)

---

خبر مقدم ، ومرجعهم مبتدأ مؤخر ، فينبئهم الفاء عاطفة للترتيب مع التعقيب لتقرير أن التوبيخ والتقريع تابعان للمرجع بسرعة لا هوادة فيها ، وينبئهم فعل مضارع والهاء مفعول به أول ، وبما جار ومجرور في موضع المفعول الثاني لينبئهم ، وجملة كانوا صلة الموصول ، وجملة يعلمون خبر كانوا (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ) الواو استئنافية ، وأقسموا فعل وفاعل ، وبالله جار ومجرور متعلقان بأقسموا ، وجهد أيمانهم منصوب على المصدرية ، أي : أقسموا جهد اقساماتهم ، والأيمان بمعنى الاقسامات ، كما تقول : ضربته أشدّ الضربات ، وقيل :

مصدر في موضع الحال ، أي : أقسموا مجتهدين في أيمانهم ، وقال المبرد : منصوب بفعل من لفظه ، وأيمانهم مضاف إليه ، من إضافة المصدر لمفعوله (لَئِنْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِها قُلْ إِنَّمَا

الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ) اللام موطئة للقسم ، وإن شرطية وجاءتهم فعل الشرط ومفعوله ، وآية فاعل ، وليؤمنن : اللام واقعة في جواب القسم ، والجملة لا محل لها لأنها جواب القسم ، لأنه متقدم على الشرط ، ويؤمنن فعل مضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال ، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل ، والنون المشددة هي نون التوكيد الثقيلة ، وبها جار ومجرور متعلقان بيؤمنن ، قل فعل أمر ، والجملة مستأنفة ، وإنما كافة ومكفوفة ، والآيات مبتدأ ، وعند اللّه ظرف متعلق بمحذوف خبر المبتدأ (وَما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ) الواو استئنافية ، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان الحكمة التي دعت إلى أن يكون الجواب على هذا الشكل ، وما اسم استفهام إنكاري في محل رفع مبتدأ ، وجملة يشعركم خبرها ، والكاف مفعول أول ليشعركم ، وأنّ وما في حيزها في موضع المفعول الثاني ، وإذا ظرف متعلق بيؤمنون ، وجملة لا يؤمنون خبر أنها . وسيأتي مزيد من القول في هذا التركيب المعجز .

*(288/246)*

---

الفوائد :

كثر اختلاف العلماء حول هذا التركيب المعجز ، وسنختار ما هو أكثر ملاءمة للمنطق

والذوق ، فقد مثل بعضهم لهذا التركيب بمثال وهو : إذا قال لك قائل أكرم فلانا فإنه يكافئك ، وأنت تعلم منه نفيها ، قلت في الجواب : وما يدريك أني إذا أكرمته يكافئني ، فتنكر عليه إثبات المكافأة ، فإن انعكس الأمر فقال لك : لا تكرمه فإنه لا يكافئك ، وكنت تعلم منه المكافأة ، فأنكرت على المشير بحرمانه ، قلت :

وما يدريك أنه لا يكافئني ، تريد : وأنا أعلم منه المكافأة ، فكان مقتضى الإنكار على المؤمنين الذين أحسنوا الظن بالمعاندين فاعتقدوا أنهم يؤمنون عند نزول الآية المقترحة أن يقال : وما يدريكم أنها إذا جاءت يؤمنون ، بإسقاط " لا " ، فلما جاءت الآية على هذا الشكل ، اختلف العلماء ، فحمل بعضهم " لا " على أنها زائدة ، وبعضهم أوّل " أنّ " ب " لعل " من قول العرب : أئت السوق أنك تشتري لحما ، واستشهدوا بقول امرئ القيس :

عوجا على الطّلل المحيل لأننا نبكي الديار كما بكى ابن حزام

أي : لعلنا ، وبعضهم جعل الكلام جواب قسم محذوف ، وقد تفتح همزة أن بعد القسم ، فقال : التقدير : واللّه أنها إذا جاءت لا يؤمنون . والأصح أن الآية باقية على ظاهرها ، وأن هذا كله مجرد تكلّف ، ولإيضاح ذلك يقال : إذا حرمت زيدا لعلمك بعدم مكافأته فأشير عليك بالإكرام ، بناء على أن المشير يظن المكافأة ، فلك معه حالتان : حالة تنكر عليه ادعاء العلم بما يعلم خلافه ، وحالة تعذره في عدم العلم بما أحطت به علما ، فان أنكرت عليه قلت : وما يدريك أنه

بكافئ ، وإن عذرته في عدم علمه بأنه لا يكافىء قلت : وما يدريك أنه لا يكافىء ؟ يعني ومن أين تعلم أنت ما علمته أنا من عدم مكافأته ، وأنت لم تخبر أمره خبري ، ولم تسبر غوره سبري ؟ فكذلك الآية ، إنما ورد فيها الكلام إقامة عذر للمؤمنين في عدم علمهم بالمغيب في علم اللّه تعالى ، وهو عدم إيمان هؤلاء ، فاستقام دخول " لا " وتبيّن أن سبب الاضطراب التباس الإنكار بإقامة الأعذار ، وهذا من أسمى دلائل الإعجاز .

[سورة الأنعام (6) : آية 110]

وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (110)

اللغة :

(يَعْمَهُونَ) : مضارع " عمه " في طغيانه عمها ، من باب تعب :

إذا تردّد متحيرا ، وهو مأخوذ من قولهم : أرض عمهاء ، إذا لم تكن فيها أمارات النجاة ، فهو عمه وأعمه .

الاعراب :

(وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ) الواو استئنافية أو عاطفة ، ونقلب

فعل مضارع ، وأفئدتهم مفعوله ، وأبصارهم عطف على أفئدتهم ، وكما الجار والمجرور متعلقان بمحذوف تقديره : فلا يؤمنون كما كانوا عند نزول الآيات على مقترحهم الأول ، لكونهم مطبوعا على قلوبهم ، فهو مفعول مطلق ، وما مصدرية ، ولم حرف نفي وقلب وجزم ، ويؤمنوا فعل مضارع مجزوم بلم ، وبه جار ومجرور متعلقان بيؤمنوا وأول مرة ظرف زمان متعلق بيؤمنوا (وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ) الواو عاطفة ، ونذرهم عطف على لا يؤمنون ، داخل في نطاق الإنكار ، مقيّد بما تقيد به ، وفي طغيانهم جار ومجرور متعلقان بيعمهون ، وجملة يعمهون حال ، أي متحيرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 3 صـ 130.199﴾

*(290/246)*

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والأربعون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/247)

---

الجزء السابع والأربعون بعد المائتين

من الآية ﴿ 111 ﴾ من سورة الأنعام

وحتى الآية ﴿ 115 ﴾ من نفس السورة

(4/247)

---

قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (111) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر أنهم لا يؤمنون عند آية مقترحة عمم على وجه مفصل لإجمال ما قبله فقال :

﴿ ولو أننا ﴾ أي على عظمتنا البالغة بما أشار إليه جمع النونات ﴿ نزلنا ﴾ أي على وجه يليق بعظمتنا ﴿ إليهم الملائكة ﴾ أي كلهم فرأوهم عياناً ﴿ وكلمهم الموتى ﴾ أي كذلك ﴿ وحشرنا عليهم ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ كل شيء قبلاً ﴾ جمع قبيل جمع قبيلة في قراءة من ضم القاف والباء كرغيف ورغف ، أي جاءهم ذلك المحشور كله قبيلة قبيلة تترى ومواجهة ﴿ ما كانوا ليؤمنوا ﴾ أي على حال من الأحوال ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ أي إلا حال مشيئته لإيمانهم لأنه الملك الأعلى الذي لا أمر لأحد معه ، فإذن لا عبرة إلا بمشيئته ، فالآية دامغة لأهل القدر ، ولا مدخل لآية ولا غيرها في ذلك ، فلا يطمع أحد في إيمانهم بغير ذلك ، ويقرب عندي – وإن بعُد المدى – أن يكون ﴿ وأقسموا ﴾ معطوفاً على قوله تعالى ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ وهذا من المتعارف في كلام البلغاء أن يحكي الإنسان جملة من كلام خصمه ، ثم يشرع في توهينها ، ويخرج إلى أمور – يجرّها المقام –

كثيرة الأنواع طويلة الذيول جداً ، ثم يحكي جملة أخرى فيقول معجباً منه : وقال كذا وكذا ، ثم يشرع فيما يتعلق بذلك من النقد والرد ، ومما يؤيد ذلك توحيد ختمهما ، فختم الأولى

(5/247)

---

﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ [ الأنعام : 37 ] وختم هذه ﴿ ولكن أكثرهم يجهلون ﴾ أي أهل جهل مطبوعون فيه ، يقسمون على الإيمان عند مجيء آية مقترحة ولا يشعرون أن المانع لهم من الإيمان إنما هو المشيئة وإلا لآمنوا بما جاءهم من الآيات ، فإنه كفاية في المبادرة إلى الإيمان ، والآيات كلها متساوية الأقدام في الدلالة على صدق الداعي بخرق العادة والعجز عن الإتيان بمثلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 696 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى بين في هذه الآية تفصيل ما ذكره على سبيل الإجمال بقوله : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ فبين أنه تعالى لو أعطاهم ما طلبوه من إنزال الملائكة وإحياء الموتى حتى كلموهم بل لو زاد في ذلك ما لا يبلغه اقتراحهم بأن يحشر عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 122 . 123 ﴾

اللغَة :

﴿ قُبُلاً ﴾ مقابلة ومواجهة ومنه قولهم أتيتُك قُبُلاً لا دُبُراً أي من قِبَل وجهك ﴿ وَحَشَرْنَا ﴾ الحشر : الجمع مع سوقٍ وكل جمعٍ حشرٌ ومنه ﴿ فَحَشَرَ فنادى ﴾ [ النازعات : 23 ] . ﴿ زُخْرُفَ ﴾ قال الزجاج : الزخرف الزينة وقال أبو عبيدة : كلُّ ما حسنته وزينته وهو باطل فهو زخرف ﴿ ولتصغى ﴾ صغى إلى الشيء مال إليه ومثله أصغى وفي الحديث " فأصغى إليها الإناء " وأصله الميل ﴿ يَقْتَرِفُونَ ﴾ اقترف : اكتسب وأكثر ما يكون في الشر يقال : قرف الذنبَ واقترفه أي اكتسبه ﴿ يَخْرُصُونَ ﴾ يكذبون قال الأزهري : أصله الظن فيما لا يستيقن ﴿ صَغَارٌ ﴾ ذلة وهوان ﴿ يَشْرَحْ ﴾ يوسّع والشرح : البسط والتوسعة ﴿ حَرَجاً ﴾ الحَرج : شدة الضيق قال ابن قتيبة : الحَرِج الذي ضاق فلم يجد منفذاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 412 ﴾

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ قبلاً ﴾ بكسر القاف وفتح الباء : أبو جعفر ونافع وابن عامر . الباقون : بضمتين . ﴿ منزل ﴾ بالتشديد : ابن عامر وحفص والمفضل . ﴿ كلمة ربك ﴾ عاصم وحمزة وعلي وخلف وسهل ويعقوب . الباقون ﴿ كلمات ﴾ ﴿ من يضل ﴾ من الإضلال : الأصبهاني عن نصير ، فصل على البناء للفاعل و ﴿ حرم ﴾ على البناء للمفعول : حمزة وخلف وعاصم غير حفص والمفضل ، وقرأ أبو جعفر ونافع وسهل ويعقوب وحفص جميعاً بالفتح الباقون : على البناء للمفعول فيهما ﴿ ليضلون ﴾ بضم الياء : عاصم وحمزة وعلي وخلف ، الباقون : بالفتح .

الوقوف : ﴿ يجهلون ﴾ ه ﴿ غروراً ﴾ ط ﴿ يفترون ﴾ ه ﴿ مفصلاً ﴾ ط ﴿ الممترين ﴾ ه ﴿ وعدلاً ﴾ ه ﴿ لكلماته ﴾ ج لابتداء الضمير المنفصل مع احتمال الواو الحال أي لا تبديل لكلماته وهو يسمع ويعلم ، ﴿ العليم ﴾ ه ﴿ عن سبيل الله ﴾ ط ﴿ يخرصون ﴾ ه ﴿ عن سبيله ﴾ ج ﴿ بالمهتدين ﴾ ه ﴿ مؤمنين ﴾ ه ﴿ إليه ﴾ ط ﴿ بغير علم ﴾ ط ﴿ بالمعتدين ﴾ ه ﴿ وباطنه ﴾ ط ﴿ يقترفون ﴾ ه ﴿ لفسق ﴾ ط ﴿ ليجادلوكم ﴾ ج ﴿ لمشركون ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 147.146 ﴾

---

فصل

قال الفخر :

قال ابن عباس : المستهزئون بالقرآن كانوا خمسة :

الوليد بن المغيرة المخزومي والعاصي بن وائل السهمي ، والأسود بن عبد يغوث الزهري ، والأسود بن المطلب ، والحرث بن حنظلة ، ثم إنهم أتوا الرسول صلى الله عليه وسلم في رهط من أهل مكة ، وقالوا له أرنا الملائكة يشهدوا بأنك رسول الله أو ابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم أحق ما تقوله أم باطل ؟ أو ائتنا بالله والملائكة قبيلاً أي كفيلاً على ما تدعيه ، فنزلت هذه الآية ، وقد ذكرنا مراراً أنهم لما اتفقوا على أن هذه السورة نزلت دفعة واحدة كان القول بأن هذه الآية نزلت في الواقعة الفلانية مشكلاً صعباً ، فأما على الوجه الذي قررناه وهو أن المقصود منه جواب ما ذكره بعضهم وهو أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم لو جاءتهم آية لآمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام ، فذكر الله تعالى هذا الكلام بياناً لكذبهم ، وأنه لا فائدة في إنزال الآيات بعد الآيات وإظهار المعجزات بعد المعجزات ، بل المعجزة الواحدة لا بد منها ليتميز الصادق عن الكاذب ، فأما الزيادة عليها فتحكم محض ولا

حاجة إليه وإلا فلهم أن يطلبوا بعد ظهور المعجزة الثانية ثالثة ، وبعد الثالثة رابعة ، ويلزم أن لا تستقر الحجة وأن لا ينتهي الأمر إلى مقطع ومفصل ، وذلك يوجب سد باب النبوات .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 123 ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ نافع وابن عامر ﴿ قُبُلاً ﴾ ههنا وفي الكهف بكسر القاف وفتح الباء ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بالضم فيهما في السورتين ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ههنا وفي الكهف بالكسر ، قال الواحدي : قال أبو زيد يقال لقيت فلاناً قبلاً ومقابلة وقبلاً وقبلاً وقبيلاً كله واحد .

وهو المواجهة .

*(9/247)*

---

قال الواحدي : فعلى قول أبي زيد المعنى في القراءتين واحد وإن اختلف اللفظان ، ومن الناس من أثبت بين اللفظين تفاوتاً في المعنى ، فقال أما من قرأ ﴿ قُبُلاً ﴾ بكسر القاف وفتح الباء ، فقال أبو عبيدة والفراء والزجاج : معناه عيانا ، يقال لقيته قبلاً أي معاينة ،

وروي عن أبي ذر قال : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : أكان آدم نبياً ؟ قال : " نعم كان نبياً كلمه الله تعالى قبلاً " وأما من قرأ ﴿ قُبُلاً ﴾ فله ثلاثة أوجه .

أحدها : أن يكون جمع قبيل الذي يراد به الكفيل ، يقال قبلت بالرجل أقبل قبالة أي كلفت به .

ويكون المعنى لو حشر عليهم كل شيء وكفلوا بصحة ما يقول لما آمنوا ، وموضع الإعجاز فيه أن الأشياء المحشورة منها ما ينطق ومنها ما لا ينطق ، فإذا أنطق الله الكل وأطبقوا على قبول هذه الكفالة كان ذلك من أعظم المعجزات .

وثانيها : أن يكون ﴿ قُبُلاً ﴾ جمع قبيل بمعنى الصنف والمعنى : وحشرنا عليهم كل شيء قبيلاً قبيلاً ، وموضع الإعجاز فيه هو حشرها بعد موتها ، ثم إنها على اختلاف طبائعها تكون مجتمعة في موقف واحد .

وثالثها : أن يكون ﴿ قُبُلاً ﴾ بمعنى قبلا أي مواجهة ومعاينة كما فسره أبو زيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 123 ﴾

*(10/247)*

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الملائكة ﴾

هذا جواب لقولهم : ﴿ وَقَالُواْ لولا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأمر ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ ﴾ [ الأنعام : 8 ] ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالم على يَدَيْهِ يَقُولُ يا ليتنى اتخذت مَعَ الرسول سَبِيلاً ﴾ [ الفرقان : 27 ] قال الله تعالى .

ولو أننا أنزلنا إليهم الملائكة كما سألوا حتى يشهدوا بأنك رسول الله ﴿ وَكَلَّمَهُمُ الموتى ﴾ بأنك رسول الله ﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلاً ﴾ قرأ نافع وابن عامر ﴿ قُبُلاً ﴾ بكسر القاف ونصب الباء .

وقرأ الباقون بالضم ، فمن قرأ بالضم فمعناه جماعة القبيل .

والقبيل الكفيل .

ويقال قبلاً : أي أصنافاً من الآدميين ومن الملائكة ومن الوحش .

ومن قرأ ﴿ قُبُلاً ﴾ بالكسر معناه : وحشرنا عليهم كل شيء معاينة فعاينوه . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الملائكة ﴾

أخبر الله عز وجل في هذه الآية أنه لو أتى بجميع ما اقترحوه من إنزال الملائكة وإحياء سلفهم

حسبما كان من اقتراح بعضهم أن يحشر قصي وغيره ، فيخبر بصدق محمد أو يجمع عليهم كل شيء يعقل أن يحشر عليهم ، ما آمنوا إلا بالمشيئة واللطف الذي يخلقه ويخترعه في نفس من شاء لا رب غيره ، وهذا يتضمن الرد على المعتزلة في قولهم بالآيات التي تضطر الكفار إلى الإيمان ، وقال ابن جريج : نزلت هذه الآية في المستهزئين .

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : لا يثبت إلا بسند ، وقرأ نافع وابن عامر وغيرهما " قِبَلاً " بكسر القاف وفتح الباء ، ومعناه مواجهة ومعاينة قاله ابن عباس ، وغيره نصبه على الحال ، وقال المبرد : المعنى ناحية كما تقول له قبل فلان دين .

*(11/247)*

---

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : فنصبه على هذا هو على الظرف ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وغيرهم " قُبُلاً " بضم القاف والباء ، وكذلك قرأ ابن كثير وأبو عمرو هنا وقرأ ﴿ العذاب قبلاً ﴾ [ الكهف : 55 ] مكسورة القاف واختلف في معناه فقال عبد الله بن زيد ومجاهد وابن زيد : " قبل " جمع قبيل أي صنفاً صنفاً ونوعاً نوعاً كما يجمع قضيب على قضيب وغيره ، وقال الفراء والزجّاج هو جميع قبيل وهو الكفيل " وحشرنا عليهم كل شيء كفلاء " بصدق محمد وذكره الفارسي وضعفه ، وقال بعضهم قبل الضم

بمعنى قبل بكسر القاف أي مواجهة كما تقول قبل ودبر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قدّ من قبل ﴾ [ يوسف : 26 ] ومنه قراءة ابن عمر ﴿ لقبل عدتهن ﴾ [ الطلاق : 1 ] أي لاستقبالها ومواجهتها في الزمن وقرأ الحسن وأبو رجاء وأبو حيوة " قُبْلاً " بضم القاف وسكون الباء ، وذلك على جهة التخفيف .

وقرأ طلحة بن مصرف " قَبْلاً " بفتح القاف وإسكان الباء ، وقرأ أبيّ والأعمش " قبيلاً " بفتح القاف وكسر الباء وزيادة ياء ، والنصب في هذه كله على الحال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الملائكة ﴾ فرأوْهم عياناً .

﴿ وَكَلَّمَهُمُ الموتى ﴾ بإحيائنا إيّاهم .

﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ سألوه من الآيات .

﴿ قُبُلاً ﴾ مُقابلة ؛ عن ابن عباس وقَتادة وابن زيد .

وهي قراءة نافع وابن عامر .

وقيل : معاينة ، لَمَا آمنوا .

وقال محمد بن يزيد : يكون "قِبلاً" بمعنى ناحية ؛ كما تقول لي قِبَل فلان مالٌ ؛ فقِبلاً نصب على الظرف .

وقرأ الباقون "قُبُلاً" بضم القاف والباء ، ومعناه ضمَناء ؛ فيكون جمع قبِيل بمعنى كفيل ، نحو رغِيف ورُغُف ؛ كما قال : ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بالله والملائكة قَبِيلاً ﴾ [ الإسراء : 92 ] ؛ أي يضمنون ذلك ؛ عن الفرّاء .

*(12/247)*

---

وقال الأخفش : هو بمعنى قَبِيل قَبيل ؛ أي جماعة جماعة ، وقاله مجاهد ، وهو نصب على الحال على القولين .

وقال محمد بن يزيد "قُبُلاً" أي مقابلة ؛ ومنه ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ ﴾ [ يوسف : 26 ] .

ومنه قُبُل الرجل ودُبُره لما كان من بين يديه ومن ورائه .

ومنه قُبُل الحيض .

حكى أبو زيد : لقِيت فلاناً قُبُلاً ومقابلة وقَبَلاً وقِبُلاً ، كله بمعنى المواجهة ؛ فيكون الضم كالكسر في المعنى وتستوي القراءتان ؛ قاله مَكّيّ .

وقرأ الحسن "قُبْلاً" حذف الضمة من الباء لثقلها .

وعلى قول الفَرّاء يكون فيه نطق ما لا ينطق ، وفي كفالة ما لا يعقل آية عظيمة لهم .

وعلى قول الأخفش يكون فيه اجتماع الأجناس الذي ليس بمعهود .

والحشر الجمع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ﴾

أي لو أتيناهم بالآيات التي اقترحوها من إنزال الملائكة في قولهم ﴿ لولا أنزل عليه ملك ﴾ وتكليم الموتى إياه في قولهم ﴿ فأتوا بآبائنا ﴾ وفي قولهم أخي قصي بن كلاب وجد عان بن عمرو ، وهما أمينا العرب ، والوسطان فيهم .

وحشر كل شيء عليهم من السباع والدواب والطيور وشهادتهم بصدق الرسول .

وقال الزمخشري : ﴿ وحشرنا عليهم كل شيء ﴾ قالوا : ﴿ أو تأتي بالله والملائكة قبلاً ﴾ وقرأ نافع وابن عامر قبلاً بكسر القاف وفتح الباء ، ومعناه مقابلة أي عياناً ومشاهدة .

قاله ابن عباس وقتادة وابن زيد ، ونصبه على الحال .

وقال المبرد : معناه ناحية كما تقول : زيد قبلك ، ولي قبل فلان دين ، فانتصابه على الظرف وفيه بعد .

وقرأ باقي السبعة قبلاً بضم القاف والباء .

فقال مجاهد وابن زيد وعبد الله بن يزيد : جمع قبيل وهو النوع ، أي نوعاً نوعاً وصنفاً صنفاً .

وقال الفراء والزجاج : جمع قبيل بمعنى كفيل أي : كفلاً بصدق محمد .

(13/247)

---

يقال قبلت الرجل أقبله قبالة ، أي كفلت به والقبيل والكفيل والزعيم والأدين والحميل والضمين بمعنى واحد .

وقيل قبلاً بمعنى قبلاً أي مقابلة ومواجهة .

ومنه أتيتك قبلاً لا دبراً .

أي من قبل وجهك .

وقال تعالى : ﴿ إن كان قميصه قدّ من قبل ﴾ وقرىء لقبل عدتهن : أي لاستقبالها ومواجهتها .

وهذا القول عندي أحسن لاتفاق القراءتين .

وقرأ الحسن وأبو رجاء وأبو حيوة ، قبلاً بضم القاف وسكون الباء على جهة التخفيف من الضم .

وقرأ أبيّ والأعمش ﴿ قبيلاً ﴾ بفتح القاف وكسر الباء وياء بعدها ، وانتصابه في هذه القراءة على الحال .

وقرأ ابن مصرّف بفتح القاف وسكون الباء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(14/247)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الملائكة ﴾

تصريح بما أشعر به قوله عز وجل : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ [ الأنعام : 109 ] الخ من الحكمة الداعية إلى ترك الإجابة إلى ما اقترحوا وبيان لكذبهم في إيمانهم على أبلغ وجه وآكده أي ولو أنا لم نقتصر على ما اقترحوه ههنا بل نزلنا إليهم الملائكة كما سألوه بقولهم : ﴿ لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الملائكة ﴾ [ الفرقان : 21 ] وقولهم : ﴿ لَّوْمَا تَأْتِينَا بالملائكة ﴾ [ الحجر : 7 ] . ﴿ وَكَلَّمَهُمُ الموتى ﴾ بأن أحييناهم وشهدوا بحقية الإيمان حسبما اقترحوه بقولهم : ﴿ فَأْتُواْ بِآبَائِنَا ﴾ [ الدخان : 36 ] ﴿ وَحَشَرْنَا ﴾ أي جمعنا وسوقنا ﴿ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلاً ﴾ أي مقابلة ومعاينة حتى يواجهوهم كما روي عن ابن عباس وقتادة ، وهو

على هذا مصدر كما قاله غير واحد وإلى ذلك ذهب ابن زيد ، وعنه : يقال لقيت فلاناً قبلاً ومقابلة وقبلاً وقبلاً وقبيلاً كله بمعنى واحد وهو المواجهة .

ونقل الراغب أنه "جمع قابل بمعنى مقابل لحواسهم" ، وقيل : هو جمع قبيل بمعنى كفيل كرغيف ورغف وقضيب وقضب فهو من قولك : قبلت الرجل وتقبلت به إذا تفلت به ، ومنه القبالة لكتاب العهد والصك وروي ذلك عن الفراء .

وعن مجاهد تفسيره بالجماعة على أنه جمع قبيلة كما قال الراغب .

ونقل تفسيره بالكفيل وبالجماعة وكذا بالمعاينة والمقابلة في قوله تعالى : ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً ﴾ [ الإسرار : 92 ] أي لو أحضرنا لديهم كل شيء تتأتى منه الكفالة والشهادة بحقية الايمان لا فرادى بل بطريق المعية أو لو حشرنا عليهم كل شيء جماعات في موقف واحد .

﴿ مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ أي ما صح ولا استقام لهم الإيمان ، وانتصاب ﴿ قُبُلاً ﴾ على هذه الأقوال على أنه حال من ﴿ كُلَّ ﴾ وساغ ذلك على القول بجمعيته لأن كلاً يجوز مراعاة معناه ومراعاة لفظه كما نص عليه النحاة واستشهدوا له بقول عنترة

: جادت عليه كل عين ثرة . . .

فتركن كل حديقة كالدرهم

إذ قال تركن دون تركت فلا حاجة إلى ما قيل : إن ذلك باعتبار لازمه وهو الكل المجموعي

وقرأ نافع وابن عامر ﴿ قُبُلاً ﴾ بكسر القاف وفتح الباء وهو مصدر بمعنى مقابلة ومشاهدة ، ونصبه على الحال كما قال الفراء والزجاج وكثير وعن المبرد أنه بمعنى جهة وناحية فانتصابه على الظرفية كقولهم : لي قبل فلان كذا .

وقرىء ﴿ قِبَلاً ﴾ بضم فسكون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(15/247)

---

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ ﴾

جملة ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا ﴾ معطوفة على جملة ﴿ وما يُشعركم ﴾ [ الأنعام : 109 ] باعتبار كون جملة ﴿ وما يُشعركم عطفاً على جملة قل إنّما الآيات عند الله ﴾ [ الأنعام : 109 ] ، فتكون ثلاثتها ردّا على مضمون جملة ﴿ وأقسموا بالله جَهْد أيمانهم لئن جاءتهم آية ﴾ [ الأنعام : 109 ] إلخ ، وبيانا لجملة ﴿ وما يشعركم أنّها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ [ الأنعام : 109 ] .

روى عن ابن عبّاس : أنّ المستهزئين ، الوليدَ بن المغيرة ، والعاصي بن وائل ، والأسودَ بن عَبْدِ يغوثَ ، والأسودَ بنَ المطّلب ، والحارثَ بن حنظلة ، من أهل مكّة .

أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في رَهْط من أهل مكّة فقالوا : " أرِنا الملائكةَ يشهدون لك أوْ ابعث لنا بعض موتانا فنسألهم : أحقّ ما تقول " وقيل : إن المشركين قالوا : "لا نؤمن لك حتَّى يُحشر قُصَيٌّ فيُخبِرَنا بصِدْقك أو ائتِنا بالله والملائكة قبيلاً أي كفيلاً " فنزل قوله تعالى : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ﴾ للردّ عليهم .

وحكى الله عنهم ﴿ وقالوا لن نؤمن لك إلى قوله أو تأتي بالله والملائكة قبيلا في سورة الإسراء : ( 90 92 ) .

وذَكر ثلاثة أشياء من خوارق العادات مسايرة لمقترحاتهم ، لأنَّهم اقترحوا ذلك .

وقوله : ﴿ وحَشَرنا عليهم كلّ شيء ﴾ يشير إلى مجموع ما سألوه وغيرِه .

والحَشر : الجمع ، ومنه : ﴿ وحُشر لسليمان جنوده ﴾ [ النمل : 17 ] .

وضمّن معنى البعث والإرسَالِ فعُدّي بعلَى كما قال تعالى : ﴿ بعثنا عليكم عباداً لنا ﴾ [ الإسراء : 5 ] .

و﴿ كل شيء ﴾ يعمّ الموجودات كلّها .

لكن المقام يخصّصه بكلّ شيء ممّا سألوه ، أو من جنس خوارق العادات والآيات ، فهذا من العام المراد به الخصوص مثل قوله تعالى ، في ريح عاد ﴿ تدمر كل شيء بأمر ربها ﴾ [ الأحقاف : 25 ] والقرينة هي ما ذكر قبله من قوله : ﴿ ولو أنَّنا نزّلنا إليهم الملائكة وكلّمهم الموتى ﴾ .

---

وقوله : ﴿ قِبَلاً ﴾ قرأه نافع ، وابن عامر ، وأبو جعفر بكسر القاف وفتح الباء ، وهو بمعنى المقابلة والمواجهة ، أي حشرنا كلّ شيء من ذلك عياناً .

وقرأه الباقون بضمّ القاف والباء وهو لغة في قِبَل بمعنى المواجهة والمعاينة ؛ وتأوّلها بعض المفسّرين بتأويلات أخرى بعيدة عن الاستعمال ، وغير مناسبة للمعنى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

المراد من الآية أنه تعالى لو أظهر جميع تلك الأشياء العجيبة الغريبة لهؤلاء الكفار فإنهم لا يؤمنون إلا أن يشاء الله إيمانهم .

قال أصحابنا : فلما لم يؤمنوا دل ذلك الدليل على أنه تعالى ما شاء منهم الإيمان ، وهذا نص

في المسألة .

قالت المعتزلة : دل الدليل على أنه تعالى أراد الإيمان من جميع الكفار ، والجبائي ذكر الوجوه المشهورة التي لهم في هذه المسألة .

أولها : أنه تعالى لو لم يرد منهم الإيمان لما وجب عليهم الإيمان كما لو لم يأمرهم لم يجب عليهم .

وثانيها : لو أراد الكفر من الكافر لكان الكافر مطيعاً لله بفعل الكفر ، لأنه لا معنى للطاعة إلا بفعل المراد ، وثالثها : لو جاز من الله أن يريد الكفر لجاز أن يأمر به ، ورابعها : لو جاز أن يريد منهم الكفر لجاز أنه يأمرنا بأن نريد منهم الكفر .

قالوا : فثبت بهذه الدلائل أنه تعالى ما شاء إلا الإيمان منهم وظاهره هذه الآية يقتضي أنه تعالى ما شاء الإيمان منهم ، والتناقض بين الدلائل ممتنع فوجب التوفيق ، وطريقه أن نقول إنه تعالى شاء من الكل الإيمان الذي يفعلونه على سبيل الاختيار وأنه تعالى ما شاء منهم الإيمان الحاصل على سبيل الإلجاء والقهر وبهذا الطريق زال الإشكال .

*(17/247)*

---

واعلم أن هذا الكلام أيضاً ضعيف من وجوه : الأول : أن الإيمان الذي سموه بالإيمان الاختياري إن عنوا به أن قدرته صالحة للإيمان والكفر على السوية ، ثم إنه يصدر عنها

الإيمان دون الكفر لا لداعية مرجحة ولا لإرادة مميزة ، فهذا قول برجحان أحد طرفي الممكن على الآخر لا لمرجح وهو محال ، وأيضاً فبتقدير أن يكون ذلك معقولاً في الجملة إلا أن حصول ذلك الإيمان لا يكون منه ، بل يكون حادثاً لا لسبب ولا مؤثر أصلاً لأن الحاصل هناك ليس إلا القدرة وهي بالنسبة إلى الضدين على السوية ، ولم يصدر من هذا القدر تخصيص لأحد الطرفين على الآخر بالوقوع والرجحان ، ثم إن أحد الطرفين قد حصل بنفسه فهذا لا يكون صادراً منه بل يكون صادراً لا عن سبب ألبتة ، وذلك يبطل القول بالفعل والفاعل والتأثير والمؤثر أصلاً ، ولا يقوله عاقل ، وإما أن يكون هذا الذي سموه بالإيمان الاختياري هو أن قدرته وإن كانت صالحة للضدين إلا أنها لا تصير مصدراً للإيمان إلا إذا انضم إلى تلك القدرة حصول داعية الإيمان كان هذا قولاً بأن مصدر الإيمان هو مجموع القدرة مع الداعي ، وذلك المجموع موجب للإيمان ، فذلك هو عين ما يسمونه بالجبر وأنتم تنكرونه .

فثبت أن هذا الذي سموه بالإيمان الاختياري لم يحصل منه معنى معقول مفهوم ، وقد عرفت أن هذا الكلام في غاية القوة .

والوجه الثاني : سلمنا أن الإيمان الاختياري مميز عن الإيمان الحاصل بتكوين الله تعالى إلا أنا نقول قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الملائكة ﴾ وكذا وكذا ما كانوا ليؤمنوا ، معناه : ما كانوا ليؤمنوا إيماناً اختيارياً بدليل أن عند ظهور هذه الأشياء لا يبعد أن يؤمنوا إيماناً على

سبيل الإلجاء والقهر .

فثبت أن قوله : ﴿ مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ﴾ المراد : ما كانوا ليؤمنوا على سبيل الاختيار ، ثم استثنى عنه فقال : ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ ﴾ والمستثنى يجب أن يكون من جنس المستثنى عنه .

*(18/247)*

---

والإيمان الحاصل بالإلجاء والقهر ليس من جنس الإيمان الاختياري .

فثبت أنه لا يجوز أن يقال المراد بقولنا إلا أن يشاء الله ، الإيمان الاضطراري بل يجب أن يكون المراد منه الإيمان الاختياري ، وحينئذ يتوجه دليل أصحابنا ويسقط عنه سؤال المعتزلة بالكلية .

المسألة الثانية :

قال الجبائي قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ ﴾ يدل على حدوث مشيئة الله تعالى ، لأنها لو كانت قديمة لم يجز أن يقال ذلك ، كما لا يقال لا يذهب زيد إلى البصرة إلا أن يوحد الله تعالى ، وتقريره ، أنا إذا قلنا : لا يكون كذلك إلا أن يشاء الله فهذا يقتضي تعليق حدوث هذا الجزاء على حصول المشيئة فلو كانت المشيئة قديمة لكان الشرط قديماً ، ويلزم من حصول

الشرط حصول المشروط ، فيلزم كون الجزاء قديماً .

والحس دل على أنه محدث فوجب كون الشرط حادثاً ، وإذا كان الشرط هو المشيئة لزم القول بكون المشيئة حادثة .

هذا تقرير هذا الكلام .

والجواب : أن المشيئة وإن كانت قديمة إلا أن تعلقها بإحداث ذلك المحدث في الحال إضافة حادثة وهذا القدر يكفي لصحة هذ الكلام ، ثم إنه تعالى ختم هذه الآية بقوله : ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ قال أصحابنا : المراد ، يجهلون بأن الكل من الله وبقضائه وقدره .

وقال المعتزلة : المراد ، أنهم جهلوا أنهم يبقون كفاراً عند ظهور الآيات التي طلبوها والمعجزات التي اقترحوها وكان أكثرهم يظنون ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 123.125 ﴾

*(19/247)*

---

وقال السمرقندى :

﴿ مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ﴾ وهذا إعلام للنبي صلى الله عليه وسلم بأنهم لا يؤمنون كما أعلم نوحاً عليه السلام ﴿ وَأُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ ءَامَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا

كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [ هود : 36 ] .

ثم قال : ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ ﴾ يعني : إلا من هو أهل لذلك فيوفقه الله تعالى .

ويقال : ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ ﴾ يقول : قد شاء الله أن لا يؤمنوا حيث خذلهم ولم يوفقهم .

﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ عن ذلك ويقال : أكثرهم يجهلون الحق أنه من الله تعالى .

ويقال : يجهلون ما في العلامة من وجوب هلاكهم بعد العلامة إن لم يؤمنوا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللّهُ ﴾ ذلك لهم . وقيل : الإستثناء لأهل السعادة الذين سبق لهم في علم اللّه الإيمان ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ إن ذلك كذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

وقوله عز وجل : ﴿ ولكن أكثرهم يجهلون ﴾ الضمير عائد إلى الكفار المتقدم ذكرهم ، والمعنى يجهلون أن الآية تقتضي إيمانهم ولا بد ، فيقتضي اللفظ أن الأقل لا يجهل فكان فيهم من يعتقد أن الآية لو جاءت " لم يؤمن إلا أن يشاء الله " له ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ مَّا كَانُواْ لِيُؤمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللّهُ ﴾ "أن" في موضع استثناء ليس من الأوّل ؛ أي لكن إن شاء ذلك لهم .

وقيل : الاستثناء لأهل السعادة الذين سبق لهم في علم الله الإيمان .

وفي هذا تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ أي يجهلون الحق .

وقيل : يجهلون أنه لا يجوز اقتراح الآيات بعد أن رأوا آية واحدة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

(20/247)

---

وجواب ﴿ لو ﴾ ﴿ ما كانوا ليؤمنوا ﴾ وقدره الحوفي لما كانوا قال : وحذفت اللام وهي مرادة ، وليس قوله بجيد لأن المنفي بما إذا وقع جواباً للو فالأكثر في لسان العرب ، أن لا تدخل اللام على ما وقل دخولها على ما ، فلا تقول إن اللام حذفت منه بل إنما أدخلوها على ما تشبيهاً للمنفى بما بالموجب ، ألا ترى أنه إذا كان النفي بلم لم تدخل اللام على لم فدل على أن أصل المنفي أن لا تدخل عليه اللام و﴿ ما كانوا ليؤمنوا ﴾ أبلغ في النفي من لم

يؤمنوا لأن فيه نفي التأهل والصلاحية للإيمان ، ولذلك جاءت لام الجحود في الخبر وإلا أن يشاء الله استثناء متصل من محذوف هو علة .

وسبب التقدير ﴿ ما كانوا ليؤمنوا ﴾ لشيء من الأشياء إلا لمشيئة الله .

وقدره بعضهم في كل حال إلا في حال مشيئة الله ومن ذهب إلى أنه استثناء منقطع كالكرماني وأبي البقاء والحوفي .

فقوله فيه بعد إذ هو ظاهر الاتصال أو علق إيمانهم بمشيئة الله دليل على ما يذهب إليه أهل السنة من أن إيمان العبد واقع بمشيئة الله ، وحمل ذلك المعتزلة على مشيئة الإلجاء والقهر .

ولذلك قال الزمخشري : مشيئة إكراه واضطرار ، والظاهر أن الضمير في ﴿ أكثرهم ﴾ عائد على ما عادت عليه الضمائر قيل من الكفار أي يجهلون الحق ، أو يجهلون أنه لا يجوز اقتراح الآيات بعد أن رأوا آية واحدة ، أو يجهلون أن كلاًّ من الإيمان والكفر هو بمشيئة الله وقدره .

وقال الزمخشري يجهلون فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يشعرون من حال قلوبهم عند نزول الآيات .

قال أو لكن أكثر المسلمين يجهلون أن هؤلاء لا يؤمنون إلا أن يضطرهم فيطمعون في إيمانهم إذا جاءت الآية المقترحة .

وقال غيره من المعتزلة يجهلون أنهم يبقون كفاراً عند ظهور الآيات التي اقترحوها .

(21/247)

---

وقال الجبائي ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ يدل على حدوث مشيئة الله إذ لو كانت قديمة لم يجز أن يعلق عليها الحادث لأنها شرط ويلزم من حصول المشروط حصول الشرط والحسن دل على حدوث الإيمان فوجب كون الشرط حادثاً وهو المشيئة .

وأجاب أبو عبد الله الرازي بأن المشيئة وإن كانت قديمة تعلقها بإحداث ذلك المحدث في الحالة إضافة حادثة انتهى .

وهذه الآية مؤيسة من إيمان هؤلاء الذين اقترحوا الآيات إلا من شاء الله منهم .

ولذلك جاء قوله : ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ وهم من ختم له بالسعادة فآمن منهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(22/247)

---

وقال الآلوسى :

و ﴿ مَا كَانُواْ ﴾ الخ جواب لو وهو إذا كان منفياً لا تدخله اللام خلافاً لمن وهم فقدرها .

وعلل هذا الحكم بسوء استعدادهم الثابت أزلاً في علم الله تعالى المتعلق بالأشياء حسبما هي عليه في نفس الأمر وعلله البعض بسبق القضاء عليهم بالكفر .

واعترض عليه بعض الأفاضل بأن فيه تعليل الحوادث بالتقدير الأزلي ولايخفى فساده ، وعلله ببطلان استعدادهم وتبدل فطرتهم القابلة بسوء اختيارهم ، وتبعه في ذلك شيخ الإسلام وعلله بتماديهم في العصيان وغلوهم وتمردهم في الطغيان معترضاً على ما ذكر بأنه من الأحكام المترتبة على التمادي المذكور حسبما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [ الأنعام : 110 ] وتعقب ذلك الشهاب قائلاً : إنه ليس بشيء لأن ما ذكر على مذهب الأشعري القائل بأنه لا تأثير لاختيار العبد وإن قارن الفعل عنده ، ولا يلزم الجبر كما يتوهم على ما حققه أهل الأصول .

ولا خفاء في كون القضاء الأزلي سبباً لوقوع الحوادث ولا فساد فيه ، وأما سوء اختيار العبد فسبب للقضاء الأزلي ، وتحقيقه كما قيل أن سوء الاختيار وإن كان كافياً في عدم وقوع الإيمان لكنه لا قطع فيه لجواز أن يحسن الإختيار بصرفه إلى الإيمان بدل صرفه إلى الكفر فكان سوء اختياره فيما لا يزال سبباً للقضاء بكفره في الأزل فبعد القضاء يكون الواقع منه الكفر حتماً كما قال سبحانه ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ [ السجدة : 13 ] انتهى .

وأنا أقول وإن أنكر على أرباب الفضول : إن المعلل بسوء الاستعداد هو السالك مسلك السداد ، وتحقيق ذلك أنه قد حقق كثير من الراسخين وأهل الكشف الكاملين أن ماهيات الممكنات المعلومة لله تعالى أزلاً معدومات متميزة في نفسها تمييزاً ذاتياً غير مجعول لما حقق من توقف العلم بها على ذلك التميز وإنما المجعول صورها الوجودية الحادثة وأن لها استعدادات ذاتية غير مجعولة تختلف اقتضاءاتها ، فمنها ما يقتضي اختيار الإيمان والطاعة ومنها ما يقتضي اختيار الكفر والمعصية والعلم الإلهي متعلق بها كاشف لها على ما هي عليه في أنفسها من اختلاف استعداداتها التي هي من مفاتح الغيب التي لا يعلمها إلا هو واختلاف مقتضيات تلك الاستعدادات فإذا تعلق العلم الإلهي بها على ما هي عليه مما يقتضيه استعدادها من اختيار أحد الطرفين الممكنين أعني الإيمان والطاعة أو الكفر والمعصية تعلقت الإرادة الإلهية بهذا الذي اختاره العبد حال عدمه بمقتضى استعداده تفضلاً ورحمة لا وجوباً لغناه الذاتي عن العالمين المصحح لصرف اختيار العبد إلى الطرف الآخر الممكن بالذات إن شاء فيصير مراد العباد بعد تعلق الإرادة الإلهية مراد الله تعالى ، ومن هذا يظهر أن اختيارهم الأزلي بمقتضى استعدادهم متبوع للعلم المتبوع للإرادة مراعاة للحكمة تفضلاً وإن اختيارهم فيما لا يزال تابع للإرادة الأزلية المتعلقة باختيارهم لما

اختاروه فهم مجبورون فيما لا يزال في عين اختيارهم أي مساقون إلى أن يفعلوا ما يصدر عنهم باختيارهم لا بالإكراه والجبر .

(24/247)

---

ومنه يتضح معنى قول أمير المؤمنين علي كرم الله تعالى وجهه : إن الله تعالى لم يعص مغلوباً ولم يطع مكرهاً ولم يملك تفويضاً ولم يكونوا مجبورين في اختيارهم الأزلي لأنه سابق الرتبة على العلم السابق على تعلق الإرادة والجبر تابع للإرادة التابع للعلم التابع للمعلوم الذي هو هنا اختيارهم الأزلي فيمتنع أن يكون تابعاً لما هو متأخر عنه بمراتب فمن وجد خيراً فليحمد الله تعالى لأنه سبحانه متفضل بإيجاد ما اختاروه لا يجب عليه مراعاة الحكمة ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه لأن إرادته جل شأنه لم تتعلق بما صدر منهم من الأفعال إلا لكونهم اختاروها أزلاً بمقتضى استعدادهم فاختارها تعالى مراعاة للحكمة تفضلاً ، والعباد كاسبون بالله تعالى إذ لا كسب إلا بقوة ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

والله تعالى خالق أعمالهم بهم لأنه سبحانه أخبر بأنه خالق أعمالهم مع نسبة العمل إليهم المتبادر منها صدورها منهم باختيارهم وذلك يقتضي أن المخلوق لله تعالى بالعبد عين مكسوب العبد بالله تعالى ، ولا منافاة بين كون الأعمال مخلوقة لله تعالى وبين كونها مكسوبة

لهم بقدرتهم واختيارهم ، وما شاع عن الأشعري من أنه لا تأثير لقدرة العبد أصلاً وإنما هي مقارنة للفعل وهو بمحض قدرة الله تعالى فمما لا يكاد يقبل عند المحققين المحقين ، وقدرة العبد عندهم مؤثرة بإذن الله تعالى لا استقلالاً كما يزعمه المعتزلة ولا غير مؤثرة كما نسب إلى الأشعري ولا هي منفية بالكلية كما يقوله الجبرية ، وهذا بحث مفروغ منه وقد أشرنا إليه في أوائل التفسير ، وليس غرضنا هنا سوى تحقيق أن عدم إيمان الكفار إنما هو لسوء استعدادهم الأزلي الغير المجعول المتبوع للعلم المتبوع للإرادة ليعلم منه ما في كلام الشهاب وغيره وقد حصل ذلك بتوفيقه تعالى عند من تأمل وأنصف .

*(25/247)*

---

﴿ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ ﴾ استثناء من أعم الأحوال فإن لوحظ أن جميع أحوالهم شاملة لحال تعلق المشيئة لهم فهو متصل وإن لم يلاحظ لأن حال المشيئة ليس من أحوالهم كان منقطعاً أي لكن إن شاء الله تعالى آمنوا واستبعده أبو حيان ، وقيل : هو استثناء من أعم الأزمان وهو خلاف الظاهر ، والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وإدخال الروعة أي ما كانوا ليؤمنوا بعد اجتماع ما ذكر من الأمور الموجبة للإيمان في حال من الأحوال إلا في حال مشيئته تعالى إيمانهم ، والمراد بيان استحالة وقوع إيمانهم بناء على استحالة وقوع المشيئة

كما يدل عليه السباق واللحاق .

﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ استدراك من مضمون الشرطية بعد ورود الاستثناء ، وضمير الجمع للمسلمين أو للمقسمين ، والمعنى أن حالهم كما شرح ولكن أكثر المسلمين يجهلون عدم إيمانهم عند مجيء الآيات لجهلهم عدم مشيئته تعالى لإيمانهم فيتمنون مجيئها طمعاً فيما لا يكون أو ولكن المشركين يجهلون عدم إيمانهم عند مجيء الآيات لجهلهم عدم مشيئته تعالى لإيمانهم حينئذ فيقسمون بالله تعالى جهد أيمانهم على ما لا يكاد يوجد أصلاً .

فالجملة على الأول : كما قال بعض المحققين مقررة لمضمون قوله تعالى ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ [ الأنعام : 109 ] الخ على القراءة المشهورة ، وعلى الثاني : بيان لمنشأ خطأ المقسمين ومناط أقسامهم على تلك القراءة أيضاً وتقرير له على قراءة ﴿ لاَ تُؤْمِنُونَ ﴾ [ الأنعام : 109 ] بالفوقانية ، وكذا على قراءة ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

واستدل أهل السنة بالآية على أن الله تعالى يشاء من الكافر كفره وقرر ذلك بأنه سبحانه لما ذكر أنهم لا يؤمنون إلا أن يشاء الله تعالى إيمانهم دل على أنه جل شأنه ما شاء إيمانهم بل كفرهم .

وأجاب عنه المعتزلة بأن المراد لا أن يشاء مشيئة قسر وإكراه ، وعدم إيمانهم يستلزم عدم المشيئة القسرية وهي لا تستلزم عدم المشيئة مطلقاً .

واستدل بها الجبائي على حدوث مشيئته تعالى وإلا يلزم قدم ما دل الحس على حدوثه .

وأهل السنة تفصوا عن ذلك بدعوى أن تعلقها بإحداث ذلك المحدث في الحال إضافة حادثة فتأمل جميع ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

و ﴿ ما كانوا ليؤمنوا ﴾ هو أشدّ من ( لا يؤمنون ) تقوية لنفي إيمانهم ، مع ذلك كلّه ، لأَنَّهم معاندون مكابرون غير طالبين للحقّ ، لأَنَّهم لو طَلَبوا الحقّ بإنصاف لكفتْهم معجزة القرآن ، إنْ لَمْ يكفهم وضوح الحقّ فيما يدْعُو إليه الرّسول عليه الصلاة والسلام .

فالمعنى : الإخبار عن انتفاء إيمانهم في أجدر الأحوال بأن يؤمن لها من يؤمن ، فكيف إذا لم يكن ذلك .

والمقصود انتفاء إيمانهم أبداً .

﴿ ولو ﴾ هذه هي المسماة ﴿ لَوْ ﴾ الصهيبية ، وسنشرح القول فيها عند قوله تعالى : ﴿ ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون في سورة الأنفال ( 23 ) .

وقوله : ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ استثناء من عموم الأحوال التي تضمّنها عموم نفي إيمانهم ،

فالتّقدير : إلاّ بمشيئة الله ، أي حال أن يشاء الله تغيير قلوبهم فيؤمنوا طوعاً ، أو أن يكرههم على الإيمان بأن يسلّط عليهم رسوله صلى الله عليه وسلم كما أراد الله ذلك بفتح مكّة وما بعده .

ففي قوله : ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ تعريض بوعد المسلمين بذلك ، وحذفت الباء مع "أنْ" .

ووقع إظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار : لأنّ اسم الجلالة يومىء إلى مقام الإطلاق وهو مقامُ ﴿ لا يُسأل عمّا يفعل ﴾ [ الأنبياء : 23 ] ، ويومىء إلى أنّ ذلك جرى على حسب الحكمة لأنّ اسم الجلالة يتضمّن جميع صفات الكمال .

*(27/247)*

---

والاستدراك بقوله : ﴿ ولكن أكثرهم يجهلون ﴾ راجع إلى قوله : ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ المقتضي أنّهم يؤمنون إذا شاء الله إيمانهم : ذلك أنَّهم ما سألوا الآيات إلاّ لتوجيه بقائهم على دينهم ، فإنَّهم كانوا مصمّمين على نبذ دعوة الإيمان ، وإنَّما يتعلَّلون بالعلل بطلب الآيات استهزاء ، فكان إيمانهم في نظرهم من قبيل المحال ، فبيّن الله لهم أنَّه إذا شاء إيمانَهم آمنوا ، فالجهل على هذا المعنى : هو ضدّ العلم .

وفي هذا زيادة تنبيه إلى ما أشار إليه قوله : ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ من أنّ ذلك سيكون ، وقد حصل إيمان كثير منهم بعد هذه الآية .

وإسناد الجهل إلى أكثرهم يدلّ على أنّ منهم عقلاء يحسبون ذلك .

ويجوز أن يكون الاستدراك راجعاً إلى ما تضمّنه الشّرط وجوابُه : من انتفاء إيمانهم مع إظهار الآيات لهم ، أي لا يؤمنون ، ويزيدهم ذلك جهلاً على جهلهم ، فيكون المراد بالجهل ضدّ الحلم ، لأَنَّهم مستهزئون ، وإسناد الجهل إلى أكثرهم لإخراج قليل منهم وهم أهل الرأي والحلم فإنَّهم يرجى إيمانهم ، لو ظهرت لهم الآيات ، وبهذا التّفسير يظهر موقع الاستدراك . فضمير ﴿ يجهلون ﴾ عائد إلى المشركين لا محالة كبقية الضّمائر التي قبله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

(28/247)

---

فائدة

قال فى روح البيان :

اعلم أن الآية وإن عظمت لا تضطر إلى الإيمان إن لم يشأ الله تعالى فإنه لا آية أعظم من قيام الساعة والله تعالى يقول : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ (الأنعام : 28) وجملة الأمر

أن المشيئة تغير السجية وعدمها من فساد الاستعداد فلذا بقي أهل الضلال في يد القهر والجلال .

وجميع المعجزات من الأنبياء والكرمات من الأولياء علمية كانت أو كونية تربية لمن في زمانهم فمن حسن استعداده مال واهتدى ومن فسد أعرض وضلّ وترى كثيراً من المغرورين المشغولين بأحكام طبائعهم الخبيثة ونفوسهم المتمردة يقولون كالطلبة ، لو أنا صادفنا المرشد الكامل ورأينا منه العلامة واضحة لكنا أول من يسلك بطريقتهم ويتمسك بأذيال حقيقتهم فقل لهم إن الشمس شمس ، وإن لم يرها الضرير والعسل عسل ، وإن لم يجد طعمه الممرور والطالب المستعد لا يقع في الأمنية ، ولا يضيع نقد عمره بخسارة بل يجتهد كل حين بما أمكن له من الطاعات ويكون في طريق الطلب فإن ما لا يدرك كله لا يترك كله .

ثم هذا الاستعداد وانشراح الصدر في طريق الحق نور من الله تعالى يقذفه في قلب أيّ عبد شاء وليس بحداثة السن ولا بالشيخوخة وكم رأيت وسمعت من غلبه الحال في عنفوان عمره وعنوان أمره .

*(29/247)*

وعن بعض الصالحين قال : حججت سنة من السنين وكانت سنة كثيرة الحر والسموم فلما كان ذات يوم وقد توسطنا أرض الحجاز ، انقطعت عن الحاج وغفلت قليلاً فلم أشعر ليلاً إلا وأنا وحدي في البرية فلاح لي شخص أمامي فأسرعت إليه ولحقته ، وإذا به غلام أمرد لا نبات بعارضيه كأنه القمر المنير والشمس الضاحية وعليه أثر الدلال والترف ، فقلت له : السلام عليك يا غلام ، فقال : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا إبراهيم فعجبت منه كل العجب ورابني أمره ، فلم أتمالك أن قلت له يا غلام سبحان الله من أين تعرفني ولم ترني قبلها ؟ فقال لي : يا إبراهيم ما جهلت مذ عرفت ولا قطعت مذ وصلت ، فقلت : ما الذي أوقعك في هذه البرية في مثل هذه السنة الكثيرة الحر والقيظ ؟ فأجابني يا إبراهيم ما آنس بسواه ولا رافقت غيره وأنا منقطع إليه بالكلية مقرّ له بالعبودية ، فقلت له : من أين المأكول والمشروب فقال لي : تكفل به المحبوب فقلت والله إني خائف عليك لأجل ما ذكرت لك فأجابني ودموعه تتحدر على خديه كاللؤلؤ الرطب .

فلو أجوع فذكر الله يشبعني

ولا أكون بحمد الله عطشانا

وإن ضعفت فوجد منه يحملني

من الحجاز إلى أقصى خراسانا

فقلت له : بالله عليك يا غلام إلا ما أعلمتني حقيقة عمرك ؟ فقال اثنتا عشرة سنة ثم

رجوته فدعا لي باللحوق إلى أصحابي فلما وقفنا بعرفة ودخلنا الحرم إذا أنا بالغلام وهو متعلق بأستار الكعبة وهو يبكي ويناجي ثم وقع ساجداً ومات إلى رحمة الله تعالى ، ثم رأيته في المنام فقلت ما الذي فعل بك إلهك فقال أوقفني بين يديه وقال لي ما بغيتك فقلت إلهي وسيدي أنت بغيتي ، فقال لي :

أنت عبدي حقاً ولك عندي أن أحجب عنك ما تريد ، فقلت : أريد أن تشفعني في القرن الذي أنا فيه ، قال شفعتك فيه ثم إنه صافحني فاستيقظت بعد المصافحة فلم أر أحداً إلا ويقول لي يا إبراهيم لقد أزعجت الناس من طيب رائحة يدك .

قال بعض المحدثين : ولم تزل رائحة الطيب تخرج من يد إبراهيم حتى قضى نحبه رحمه الله رحمة واسعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 3 صـ 112.114 ﴾ . بتصرف يسير .

*(30/247)*

---

ومن فوائد ابن الجوزى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ﴾

سبب نزولها : أن المستهزئين أتوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في رهط من أهل مكة ، فقالوا له : ابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم : أحق ما تقول أم باطل ؟ أو أرنا الملائكة يشهدون لك أنك رسول الله ، أو ائتنا بالله والملائكة قبيلاً .

فنزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ومعنى الآية ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة كما سألوا ، وكلمهم الموتى ، فشهدوا لك بالنبوة ، ﴿ وحشرنا ﴾ : أي : جمعنا ﴿ عليهم كل شيء ﴾ في الدنيا ﴿ قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ﴾ ، فأخبر أن وقوع الإيمان بمشيئته ، لا كما ظنوا أنهم متى شاؤوا آمنوا ، ومتى شاؤوا لم يؤمنوا .

فأما قوله "قِبَلاً" فقرأ ابن عامر ، ونافع : بكسر القاف وفتح الباء .

قال ابن قتيبة : معناها : معاينة .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي "قُبُلا" بضم القاف والباء .

وفي معناها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه جمع قبيل ، وهو الصِّنْف ؛ فالمعنى : وحشرنا عليهم كل شيء قبيلاً قبيلاً ، قاله مجاهد ، واختاره أبو عبيدة ، وابن قتيبة .

والثاني : أنه جمع قبيل أيضاً ، إلا أنه : الكفيل ؛ فالمعنى : وحشرنا عليهم كل شيء ، فكَفَلَ بصحة ما تقول ، اختاره الفراء ، وعليه اعتراض ، وهو أن يقال : إذا لم يؤمنوا بانزال الملائكة ، وتكليم الموتى ، فَلأَنْ لا يؤمنوا بالكفالة التي هي قول ، أولى .

فالجواب : أنه لو كَفَلَت الأشياء المحشورة ، فنطق ما لم ينطق ، كان ذلك آية بينة .

والثالث : أنه بمعنى : المقابل ، فيكون المعنى : وحشرنا عليهم كل شيء ، فقابلهم ، قاله ابن زيد .

قال أبو زيد : يقال : لقيت فلاناً قِبَلاً وقَبَلاً وقُبُلاً وقبيلاً وقَبَلِيّاً ومقابلة ، وكله واحد ، وهو للمواجهة .

قال أبو علي : فالمعنى في القرآن على ما قاله أبو زيد واحد ، وإن اختلفت الألفاظ .

*(31/247)*

---

قوله تعالى : ﴿ ولكن أكثرهم يجهلون ﴾ فيه قولان .

أحدهما : يجهلون أن الاشياء لا تكون إلا بمشيئة الله تعالى .

والثاني : أنهم يجهلون أنهم لو أوتوا بكل آية ما آمنوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد الخازن فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله عز وجل : ﴿ ولو أننا أنزلنا إليهم الملائكة ﴾

قال ابن جريج : نزلت في المستهزئين ، وذلك أنهم أتوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من قريش ، فقالوا : يا محمد ابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم عنك أحق ما تقول أم باطل وأرنا الملائكة يشهدن لك أنك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو ائتنا بالله والملائكة قبيلاً فنزلت هذه الآية جواباً لهم .

والمعنى : ولو أنا نزلنا إليهم الملائكة حتى يشهدوا لك بالرسالة ﴿ وكلمهم الموتى ﴾ يعني كما سألوا ﴿ وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ﴾ يعني وجمعنا عليهم كل شيء قبلاً قبيلاً ، قيل القبيل الكفيل بصحة ما تقول ما آمنوا وهو قوله : ﴿ ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ﴾ يعني إلا أن يشاء الله الإيمان منهم وفيه دليل على أن جميع الأشياء بمشيئة الله تعالى حتى الإيمان والكفر ، وموضع المعجزة أن الأشياء المحشورة منها ناطق ومنها صامت فإذا أنطق الله الكل حتى يشهدوا له بصحة ما يقول كان ذلك في غاية الإعجاز .

وقيل قبلاً من المقابلة والمواجهة ، والمعنى : وحشرنا عليهم كل شيء مواجهة ومعاينة ﴿ ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ﴾ أخبر الله أن الإيمان بمشيئة الله لا كما ظنوا أنهم متى شاؤوا آمنوا ومتى شاؤوا لم يؤمنوا ، وقال ابن عباس : ما كانوا ليؤمنوا هم أهل الشقاء إلا أن يشاء الله هم أهل السعادة الذين سبق لهم في علمه أنهم يدخلون في الإيمان .

وصحح الطبري قول ابن عباس قال : لأن الله عم بقوله ما كانوا ليؤمنوا القوم الذين تقدم

ذكرهم في قوله : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ﴾ ثم استثنى منهم أهل السعادة وهم الذين شاء لهم الإيمان .

(32/247)

---

قوله تعالى : ﴿ ولكن أكثرهم يجهلون ﴾ يعني يجهلون أن ذلك كذلك ويحسبون أن الإيمان إليهم متى شاؤوا آمنوا ومتى شاؤوا كفروا ، وليس الأمر كذلك بل الإيمان والكفر بمشيئة الله تعالى فمن شاء له الإيمان آمن ومن شاء له الكفر كفر وفي هذا دليل لمذهب أهل السنة أن الأشياء كلها بمشيئة الله تعالى ورد على القدرية والمعتزلة في قوله : إن الله أراد الإيمان من جميع الكفار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الملائكة ﴾

(33/247)

---

تصريحٌ بما أشعَرَ به قولُه عز وجل : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ من الحكمة الداعيةِ إلى ترك الإجابةِ إلى ما اقترحوه من الآيات إثرَ بيانِ أنها في حُكمه وقضائه المبنيِّ على الحِكَم البالغةِ لا مدخلَ لأحد في أمرها بوجه من الوجوه ، وبيانٌ لكذبهم في أيمانهم الفاجرةِ على أبلغِ وجهٍ وآكَدِه أي ولو أننا لم نقتصِرْ على إيتاء ما اقترحوه ها هنا من آية واحدةٍ من الآيات بل نزلنا إليهم الملائكةَ كما سألوه بقولهم : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الملائكة ﴾ وقولِهم : ﴿ لَّوْمَا تَأْتِينَا بالملائكة ﴾ ﴿ وَكَلَّمَهُمُ الموتى ﴾ وشهدوا بحقية الإيمانِ بعد أن أحييناهم حسبما اقترحوه بقولهم : فأتوا بآبائنا ﴿ وَحَشَرْنَا ﴾ أي جمعنا ﴿ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلاً ﴾ بضمتين وقرىء بسكون الباء أي كُفلاءَ الأمرِ وصدقِ النبي صلى الله عليه وسلم ، على أنه جمعُ قَبيل بمعنى الكفيل كرغيف ورُغُف وقضيب وقُضُب وهو الأنسب بقوله تعالى : ﴿ أَوْ تَأْتِىَ بالله والملائكة قَبِيلاً ﴾ أي لو لم نقتصِرْ على ما اقترحوه بل زدنا على ذلك بأن أحضرنا لديهم كلَّ شيءٍ يتأتّى منه الكفالةُ والشهادةُ بما ذُكر لا فرادى بل بطريق المعيةِ . أو جماعاتٍ على أنه جمعُ قَبيلٍ وهو جمعُ قبيلة ، وهو الأوفق لعموم كلِّ شيءٍ وشمولِه للأنواع والأصنافِ أي حشرنا كلَّ شيء نوعاً نوعاً وصنفاً صنفاً وفوجاً فوجاً ، وانتصابُه على الحالية وجمعيتُه باعتبار الكل المجموعيِّ اللازمِ للكل الإفراديِّ أو مقابلةً وعِياناً على أنه مصدرٌ كقِبَلا ، وقد قرىء كذلك ، وانتصابُه على الوجهين على أنه مصدرٌ في موقع الحالِ ، وقد نقل عن المبرِّد وجماعةٍ من أهل اللغة أن الأخيرَ بمعنى الجهة كما في قولك

: لي قِبَلَ فلانٍ حقٌّ ، وأن انتصابَه على الظرفية ﴿ مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ﴾ أي ما صح وما استقام لهم الإيمانُ لتماديهم في العصيان وغلوّهم في

(34/247)

---

التمرد والطُّغيانِ ، وأما ما سبق القضاءُ عليهم بالكفر فمن الأحكامِ المترتبةِ على ذلك حسبما ينبىء عنه قولُه عز وجل : ﴿ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ أَن يَشَاء الله ﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعم الأحوالِ ، والالتفاتُ إلى الاسم الجليل لتربية المهابةِ وإدخالِ الروعة ، أي ما كانوا ليؤمنوا بعد اجتماعِ ما ذكر من الأمورِ الموجبةِ للإيمان في حال من الأحوال الداعيةِ إليه المتمّمة لموجباته المذكورةِ إلا في حال مشيئتِه تعالى لإيمانهم أو من أعمّ العللِ أي ما كانوا ليؤمنوا لعلة من العلل المعدودةِ وغيرِها إلا لمشيئته تعالى له ، وأياً ما كان فليس المرادُ بالاستثناء بيانَ أن إيمانَهم على خطر الوقوعِ بناءً على كون مشيئتِه تعالى أيضاً كذلك بل بيانَ استحالةِ وقوعِه بناءً على استحالة وقوعِها كأنه قيل : ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله وهيهاتَ ذلك وحالُهم حالُهم بدليل ما سبق من قوله تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ ﴾ الآية ، كيف لا وقولُه عز وجل : ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ استدراكٌ من مضمون الشرطيةِ بعد ورودِ الاستثناءِ لا قبله ، ولا ريبَ في أن الذي يجهلونه

سواءٌ أريد بهم المسلمون وهو الظاهرُ ، أو المُقسِمون ليس عدمَ إيمانِهم بلا مشيئة الله تعالى كما هو اللازمُ من حمل النظمِ الكريمِ على المعنى الأولِ فإنه ليس مما يعتقده الأولون ولا مما يدّعيه الآخَرون بل إنما هو عدمُ إيمانهم لعدم مشيئتِه إيمانَهم ومرجعُه إلى جهلهم بعدم مشيئتِه إياه فالمعنى أن حالَهم كما شُرح ولكن أكثر المسلمين يجهلون عدمَ إيمانِهم عند مجيءِ الآياتِ لجهلهم عدمَ مشيئتِه تعالى لإيمانهم فيتمنَّوْن مجيئَها طمعاً فيما لا يكون . فالجملةُ مقرِّرةٌ لمضمون قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ الخ ، على القراءة المشهورة ، أو ولكن أكثرَ المشركين يجهلون عدمَ إيمانِهم عند مجيء الأيات لجهلهم عدم

(35/247)

---

مشيئته تعالى لإيمانهم حينئذ فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يكاد يكونُ ، فالجملةُ على القراءة السابقةِ بيانٌ مبتدأٌ لمنشأ خطأ المقسِمين ومناطِ إقسامهم وتقريرٌ له على قراءة لا تؤمنون بالتاء الفوقانية وكذا على قراءة وَمَا يشعرهم أنها إذا جاءتهم لا يؤمنون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(36/247)

ومن فوائد الشيخ عبد الكريم الخطيب فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى ﴾

التفسير :

فى هذه الآية يكشف اللّه سبحانه وتعالى عن هذا المدى البعيد الذي بلغه أولئك المشركون من إمعان فى الضلال والطغيان ، وأنهم إن يروا كل آية لا يؤمنوا بها . .

فلو أن اللّه - سبحانه - أنزل عليهم الملائكة ، يمشون بينهم ، ويتحدثون إليهم لقالوا فيهم مقالا ، ولوجدوا للزور والبهتان علّة يعتلّون بها . .

ولو أن اللّه سبحانه بعث الموتى من قبورهم يكلمونهم ، كما كانوا يكلمونهم وهم أحياء ، لكان لهم فيهم لغط وجدل .

ولو أن اللّه - سبحانه - بعث إليهم كل شىء يقترحونه ، وجاءهم به عيانا ومواجهة « قبلا » ، ما كانوا ليؤمنوا ، ولقالوا من الزور والبهتان ما حكاه اللّه عنهم فى قوله تعالى : « وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ » (14 - 15 : الحجر) وفى قوله تعالى : « إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ » هو استثناء من جميع الأحوال ، أي أنهم لا يؤمنون فى أي حال إلا فى تلك الحال التي يشاء اللّه لهم فيها أن يؤمنوا ،

وهى حال تتعلق بمشيئة اللّه ، ولا تتعلق بما يساق إليهم من آيات ومعجزات ، فإيمانهم معلق بمشيئة اللّه ، لا بتلك الآيات التي يقترحونها . . « وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ »

(37/247)

---

أي أكثر النّاس ، وهم هؤلاء المشركون جميعا ، ومعهم كثير من أولئك المؤمنين الذين طمعوا فى إيمانهم ، واستشعروا أنهم قد يؤمنون إذا جاءهم النبي بما يقترحون عليه من آيات . أكثر هؤلاء لا يعلمون مشيئة اللّه المتسلطة على هذا الوجود ، القائمة على تصريفه وتدبيره . . فلا يقع شىء إلا على الوجه الذي شاءه اللّه - سبحانه وتعالى - وقدّره .

مبحث : فى مشيئة اللّه ومشيئة العباد

وهنا نودّ أن نقف وقفة قصيرة ، مع هذه القضية ، التي شغلت الناس منذ عرفوا اللّه فآمنوا به . . من علماء ، وفلاسفة ، وفقهاء ، ومتدينين بل وملحدين . .

هل للإنسان إرادة ؟

هذا سؤال لا يكاد يتردد أحد فى الإجابة عليه « بنعم » ! ! فكل إنسان يعلم من نفسه ، ومن تصرفات الناس حوله ، أن للإنسان إرادة . . بها يتحرك ويعمل ، وبها يأخذ ويدع .

ولكن حين يصبح السؤال هكذا :

هل للإنسان إرادة مع إرادة اللّه ؟

هنا تأخذ المسألة وضعا آخر ، وتدخل القضية فى مجال النزاع والخلاف . .

إنها قضية القضايا . . فهى ليست من القضايا ذات الصبغة « المحلّية » كما يقولون . . بين الإنسان والإنسان ، أو بين الإنسان والطبيعة . . ولكنها بين الإنسان وبين اللّه . . بين العبد والرب . . بين المخلوق والخالق !

*(38/247)*

---

وما ظنّك بقضية يكون العبد فيها خصما لربّه ، أو محاجّا لخالقه ؟ إنها حينئذ تكون قصية شائكة محرجة . . فيها لجاجة وخروج على مقتضى العبودية . .

فيها تجديف وضلال ، وفيها مزالق وعثرات ! ونعم . . الطريق شائك ، ملىء بالمزالق والعثرات . . ولكن هيهات أن يمسك الإنسان نفسه عن السير فيه . . فإن استطاع أن يمسك قلمه ، أو لسانه ، فإنه ليس بمستطيع أن يمسك زمام خواطره ووساوسه . . بحال أبدا . .

أما والأمر كذلك ، فخير للمرء أن يواجه المشكلة ، وأن يقتحم عليها موطنها ، قبل أن تفجأه على غرّة ، وتهجم عليه على حين غفلة ، فتنال منه ، وتفسد عليه رأيه ، أو تدخل

الشك والوسوسة على عقيدته .

وأما وقد رضينا أن نواجه المشكلة ، ونقتحم عليها حماها ، فإنه يجب علينا أن نأخذ لها حذرنا وأسلحتنا . . شأن من يتهيأ لصراع عنيف ، ويدخل فى معركة حاسمة . . !

وزادنا فى هذه المعركة ، هو إيمان بالله . . إيمان وثيق ، لا تزعزعه الأعاصير العاتية ، ولا تنال منه الأحداث المزلزلة . . وأمّا سلاحنا فهو عقل يقظ ، وقلب سليم ، ننظر بهما فى كتاب الله ، وفى سنّة رسول الله ، فى حدود ما وهبنا الله من استعداد فطرى ، دون التطويح بالعقل ، والشرود به فى مجال غير مجاله الذي خلق له . .

ذلك هو زادى ، وهذا هو سلاحى . . فإن أردت أن تصحبنى على هذا الطريق ، فخذ من الزاد والسّلاح ما أخذت . . وإلا فأنصح لك أن تكون حيث أنت ، ولا تصاحبنى . .

وحسبك أن تعود أدراجك ونحن على أول الطريق ، وأن تطوى هذه الصفحات ، لتستقبل ما بعدها مما نحن بسبيله

*(39/247)*

---

من الوقوف بين يدى الله ، وكلماته ، على ما عهدت منا ، قبل أن نأخذ فى هذا الحديث

. .

فإن كنت قد رضيت صحبتى على ما اشترطت عليك فهيّا بنا إلى غايتنا . .

ولكن مهلا . . هل اختبرت إيمانك ؟ وهل أيقظت عقلك ، وأحليت قلبك من كل شك ووسواس ؟ لا بأس من أن تعيد النظر . . فإننا ـ كما قلت لك ـ لا نزال على الشاطئ ، وقد يكون العود أحمد لك . . !

وبعد ، فإن كنت على عزيمة أن تسير معى ، فلى عليك ما اشترط العبد الصالح على موسى ، عليهما السلام : « فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً » . .

أتتحرك إذن ؟ ليكن . . وعلى بركة اللّه .

هل للعبد إرادة مع اللّه ؟

سنجيب على هذا السؤال بالجوابين المحتملين له . . فنقول : « نعم » مرة ، ونقول : « لا » . . مرة أخرى . . وننظر .

القول بأن للعبد إرادة مع اللّه وهذا القول قالت به القدريّة من المعتزلة . .

ويبنى على هذا القول أمران :

أولا : أن العبد خالق لأفعاله ، مسئول عنها مسئولية كاملة . .

وثانيا : أن ما يناله العبد من نعيم أو عذاب فى الآخرة هو بسبب عمله الحسن ، أو السيّء

. .

وقد بنى هذان الأمران عند القدرية على ما يأتى :

(40/247)

---

أولا : أن العبد لو لم يكن خالقا لأفعاله ، وأن اللّه سبحانه وتعالى هو الذي خلقها ، وأضافها إلى الإنسان ، ثم عذّبه عليها ـ مع أنه لم يفعلها ـ لكان ظالما له ، والظلم نقصان ، لا يليق باللّه الموصوف بالكمال المطلق .

وكيف يفعل اللّه شيئا ، ثم يلوم الإنسان عليه ، ويقول له : كيف فعلته ؟

ولم فعلته ؟ وهو لم يكن له كيف ، ولا فعل ؟

إن اللّه عادل ، وعدله يقضى بأن يحاسب العبد على ما فعل . .

وإذن ، فأفعال العبد مخلوقة له ، ومحسوبة عليه . .

وثانيا : أوجب القدريّة على اللّه أن يثيب الطائعين ، كى لا يظلمهم ، فإن الظلم نقصان لا يليق بربّ الأرباب ! هذه هى حجة أو حجج من يقولون إن للعبد إرادة خالقة ، مع إرادة الخالق . .

القول بألا إرادة للعبد مع إرادة الرب وأهل السنة ، هم أصحاب هذا القول . . وقد بنوه

على أمرين كذلك :

أولا : أن كمال الإله هو فى التفرد بكل شىء . . ونفى القدرة عيب ، ونقصان . .

والكمال يقتضى أن يكون كل شىء خاضعا لقدرة اللّه ، جاريا على ما تقضى به حكمته ومشيئته . .

وثانيا : إثابة المحسن ، ليس لإحسانه وحده ، وإنما ذلك من فضل اللّه عليه . وتعذيب من يعذبهم اللّه ، ليس لذنوبهم وحدها ، وإنما ذلك لحكمة يعلمها اللّه ، وحسب نظام قدّره ، وليس فى هذا ظلم . . لأن الظلم إنما ينسب لمن يتصرف فى غير ملكه ، واللّه سبحانه إنما يتصرف فيما خلق . .

وأهل السّنة - مع هذا - لا ينفون إرادة العبد أصلا ، كما سنرى بعد ، ولكن يرونها إرادة خاضعة لإرادة اللّه ، جارية على تقديرها . .

وهناك فريق ثالث - وهم الجبرية - لا يرون للعبد إرادة مطلقا ، فيقولون

*(41/247)*

---

إن أفعال الإنسان اضطرارية ، وأن كل ما يفعله لا إرادة له فيه ، وإنما هو أشبه بآلة تعمل بلا وعى ولا عقل . . وأن المأمورات والمنهيات ليست موصوفة بالحسن والقبح ، وإنما هى

أوامر ونواه صادرة من جهة عليا ، وعلى الإنسان أن يمتثل من غير أن يفكر فى حسن المأمور به أو قبح المنهىّ عنه . . فالإنسان لا يقدر على شىء ، ولا يوصف بالاستطاعة ، وإنما هو مجبور على أفعاله ، لا قدرة له ، ولا إرادة ، ولا اختيار ، بل يخلق اللّه تعالى الأفعال فيه ، كما يخلقها فى سائر الكائنات ، وتنسب إليه الأفعال مجازا كما ننسبها إلى الجمادات ، كما يقال : أثمرت الشجرة ، وجرى الماء ، وتحرك الحجر ، وطلعت الشمس . .

والثواب والعقاب جبر ، كما أن الأفعال جبر .

هذا هو مجمل القول فى إرادة العبد وإرادة اللّه ، بين أطراف الخصومة عند جماعات المسلمين .

وأنت ترى بعد الشّقة بينهم . . فبينا يقول القدرية : إن العبد خالق لكل أفعاله ، وأن إرادته مطلقة من كل قيد . إذ يقول الجبرية : إن العبد لا يفعل شيئا ، وإنما اللّه سبحانه هو الذي يخلق ما يفعل العبد ، وأن الإنسان والجماد فى هذا سواء ، كلاهما مسيرّ إلى غاية لا يملك من أمره معها شيئا .

أما أهل السنة ، فقد ذهبوا بين الفريقين مذهبا وسطا . . قالوا بإرادة اللّه العامة الشاملة ، وقالوا بإرادة العبد المحدودة الواقعة فى محيط الإرادة العامة .

وقد دخلت هذه الآراء فى مجال للصراع العنيف ، واجتمع على كل رأى أنصار يدافعون عنه ، ويحتجون له . . وكان الفلاسفة والمتكلمون فرسان الحلبة فى هذا الصراع ، يصولون

ويجولون ، ويحومون حول الكتاب والسنة ، يأخذون منهما الحجة على خصومهم ، فخلطوا فى هذا بين فطرة الإسلام ، وفلسفة اليونان ، وما وصل إليهم من معتقدات فارس والهند وغيرهما . . وكان من هذا أن

(42/247)

---

اتسعت شقّة الخلاف بين المتخاصمين ، وانقسمت الفرق المختلفة على نفسها ، فكان لكل فريق مقولات تدور حول الأصل الذي قام عليه الرأى فى المذهب .

تفصيل بعد إجمال

ولكى نتعرف إلى وجه الحق فى هذه القضية ، يجب أن ننظر فى آراء هذه الفرق ، وفى الأدلة التي قدموها بين يدى هذه الآراء ، ثم إن لنا بعد هذا رأينا ، الذي نفقهه من ديننا ، بعيدا عن التعصب المذهبى ، أو التحزّب الطائفي ، وخالصا من كل غرض ، إلا ابتغاء الحق ، وإلا إقامة العقيدة على الحق الذي نزل به الكتاب ، وبيّنه الرسول . . كلّ هذا فى إيجاز شديد ، لأننا نعالج قضية شغل بها العقل الإنسانى منذ كان ، وإلى أن يخلى مكانه من هذا العالم ، وقد خلّف وراءه محصولا من الآراء والمقولات لا حصر لها .

آراء القدرية

برز من المعتزلة عدد غير قليل من ذوى اللّسن والرأى . . قالوا بالقدر ، وسمّوا بالقدرية ، لأنهم يقولون إن العبد قادر على خلق أفعاله ، مختارا غير مضطر . .

وقد استطاعوا بما لهم من فصاحة وعقل أن يصوروا آراءهم فى منطق ، وأن يصوغوها فى قوالب من الفصاحة والبلاغة ، بما كان لهم من نظر فى كتب الفلسفة والمنطق ، وبما اطلعوا عليه من المعتقدات الدينية الوافدة مع الداخلين فى الإسلام من كل أمة . . فكانت لهم فلسفة ، وكان لهم أدب . . وحسبك أن يكون من رجال هذه الطائفة . . واصل بن عطاء ، والنّظّام ، وأبو الهزيل العلّاف ، والجاحظ ، وجميعهم أئمة فى الأدب ، كما أنهم أئمة فى الرأى . .

*(43/247)*

---

وهذه مقولات لبعض رجالهم رأى واصل بن عطاء :

يقول واصل بن عطاء : « إن اللّه تعالى حكيم عادل ، ولا يجوز أن يضاف إليه شر وظلم ، ولا يجوز أن يريد من العباد خلاف ما يأمر به ، وأن يحكم عليهم شيئا ثم يجازيهم عليه » !

وهذا الذي يقوله واصل ، حق لا شك فيه . . فاللّه حكيم عادل ، ولكن مع حكمة اللّه وعدله ، قدرته وإرادته ، والقدرة والإرادة يقضيان بألا يقع فى ملكه غير ما يشاء ويريد

. .

والسؤال هنا : هل الإنسان من القدرة والاستطاعة بحيث يتحكم فى الأسباب الخارجة ، التي تصادم القوى التي أودعها اللّه فيه . . من عقل وإرادة . . ؟

يقول واصل : « فالعبد هو الفاعل للخير والشر ، والإيمان والكفر ، والطاعة والمعصية ، وهو المجازى على فعله ، والرب أقدره على ذلك كله » .

ونقول : إذا كان اللّه أقدر العبد على كل ما يفعل من خير وشر ، وإيمان وكفر ، وطاعة ومعصية ـ فماذا بقي للعبد إذن ؟ وكيف يضاف إليه كل ما يفعل ، وهو إنما يفعل بالقدرة التي أقدره اللّه بها على فعل ما يفعل ؟ كيف يتفق هذا مع ذك . ؟

ويقول واصل أيضا :

« ويستحيل أن يخاطب اللّه العبد « بافعل » وهو لا يمكنه أن يفعل . . ؟

*(44/247)*

---

« وهو ـ أي العبد ـ يحسّ من نفسه الاقتدار والفعل . . ومن أنكره فقد أنكر الضرورة » !

ونقول : إن مفهوم هذا القول يقتضى أن يقوم إزاءه قول آخر . . وهو :

إنه يستحيل أن يخاطب اللّه العبد بألا تفعل ثم لا يمكّنه من ألّا يفعل ! وإذن ، فيكون الوضع

الصحيح للمسألة على مقتضى هذا الرأى ، هو :

أولا : أن اللّه يأمر العبد بأن يفعل ، ويمكّنه من أن يفعل . . وهذا فى باب الخير والمعروف ، فيفعل كل ما هو خير ومعروف .

وثانيا : أن اللّه ينهى العبد ألا يفعل المنكر ، ويمكّنه من ألا يفعله . .

وهذا يشمل المنهيات جميعا ، فلا يفعل العبد ما هو شر ومنكر أبدا . . وهذا غير واقع . . فما أكثر ما يأتى الإنسان ما نهى اللّه عنه من فواحش وعلى هذا ، فالعبد إنما يفعل ما يفعل من خير أو شر بما أودع اللّه فيه من قدرة ، فإذا فعل العبد خيرا فبما أودع اللّه فيه من قدرة على فعل الخير ، وإذا فعل شرّا فبما فيه من قوة لا تستطع أن تدفع الشرّ الذي فعل .

ما ذنب العبد إذن ؟ أهذا يتفق مع العدل الذي يقوم عليه مذهب المعتزلة ؟

ألا ينتهى هذا الرأى إلى القول بالجبر ؟

« ويكاد واصل » يقول هذا . . ولكنه يردّه عن ذلك ما يرى من عدل اللّه وحكمته ، فهو يريد أن يدفع عن عدل اللّه تبعة الأعمال السيئة التي يجازى عليها المسيئون ، كما يدفع عن حكمة اللّه هذه الشرور التي تقع فى محيط الناس .

أترى أن واصلا كان عادلا فى هذا الحكم ؟ إنه نظر إلى المسألة من جانب واحد . . جانب الإنسان العاجز الضعيف ، وعلّق فى عنقه كل هذه الشرور والآثام . .

رأى أبى علىّ الجبّائى وابنه أبى هاشم يقولان : « إن اللّه تعالى لم يدّخر عن عباده شيئا يعلم أنه إذا فعل بهم أتوا بالطاعة والتقوى . . من الصلاح والأصلح ، واللطف ، لأنه ـ تعالى ـ قادر ، عالم ، جواد ، حكيم ، لا يضرّه الإعطاء ، ولا ينقص من خزائنه المنح ، ولا يزيد فى ملكه الادخار . . ولا يقال إن اللّه تعالى يقدر على شىء هو أصلح مما فعله بعبده ثم لم يفعله . . والتكاليف كلها ألطاف ! ! » وواضح أن هذا القول يجعل أفعال العبد كلها مرضيّة عند اللّه ، خيرها وشرها ، لأن اللّه لم يدخر عن عباده شيئا من الصلاح والأصلح واللطف . .

وإذن . . فلا خير ولا شر . . فالتكاليف ـ كما يقولان ـ كلها ألطاف ، وما يأتى العبد منها وما يدع ، إنما هو غاية ما أعطى اللّه العبد من قوى ، وليس وراء هذا شىء يمكن أن يمنحه اللّه العبد غير الذي منح .

ونقول : هل على هذا يقال : إن العبد حرّ مختار ، يفعل ما يشاء ؟

نعم : إنه يفعل ما يشاء فى حدود هذه الطاقة التي أمدّه اللّه بها ، والتي هى كل ما عند اللّه له . . كما يقولان ! وإذن فلم يحاسب العبد ويعذّب على الشرّ الذي يفعله ، وهو لم يفعل إلا بما مكن اللّه له منه ، وأقدره عليه . . ؟

رأى النّظام

يرى النظام أن القدر خيره وشرّه منّا ، وأن اللّه تعالى لا يوصف بالقدرة على الشرور والمعاصي ، وليست هى مقدورة للبارىء تعالى . . ويرى النظام أن اللّه لا يقدر أن يخلق أكثر مما خلق بالفعل ، وإلا فمن ذا الذي يستطيع أن يحول بينه وبين أن يظهر كلّ ما عنده من الجود والجمال ؟ » .

*(46/247)*

---

ونقول : كيف يقف شىء أمام قدرة اللّه ؟ وهل تقع هذه الأمور التي نراها شرّا إن لم تكن من تقدير اللّه ؟ وهل يدخل على نظام هذا الملك شىء لا يريده اللّه ؟

لقد ردّ أصحاب « النظام » أنفسهم على هذا ، فقالوا : إن اللّه قادر على الشرور والمعاصي ، ولكنه لا يفعلها لأنها قبيحة .

ونقول : إذا كانت تلك الأمور التي يصفونها بأنها قبيحة ، هى قبيحة فعلا . . فلم يدعها اللّه سبحانه تدخل فى نظام ملكه الذي أقامه ؟

هذا قول متهافت ، لا يستقيم أوله مع آخره . .

ونستطيع بعد هذا أن نقول : إن أقوال المعتزلة فى قدرة الإنسان لم تقم على منطق سليم ، ولم نستقم على طريق واضح .

اللّه عادل . . ما فى ذلك شك .

ومقتضى هذا العدل أن تجزى كل نفس بما كسبت . . فالعبد كاسب لأفعاله ، أي أنها جرت على يديه . وبمحض إرادته . . ولكنه مع هذا واقع تحت إرادة اللّه ، خاضع لمشيئته .

وللنظام رأى فى إرادة اللّه ، وأن معنى الإرادة عنده ليس هو معنى المشيئة ، لأن الإرادة بمعنى المشيئة تستلزم حاجة من جانب المريد ، ولهذا يقول : « إن اللّه إذا وصف بأنه مريد لأفعاله ، فمعنى ذلك أنه خالقها ومنشئها ، وإذا وصف بأنه مريد لأفعال عباده أو وقوع أمر ، فمعنى ذلك أنه حاكم بذلك ، أو آمر ، أو مخبر » .

وهذا الفهم للإرادة بأنها تستلزم حاجة من جانب المريد ، إنما هو فهم مقيس على المستوي الإنسانى ، حيث إرادتنا محصورة فى دائرة حاجاتنا ومطالبنا . .

*(47/247)*

---

فلا نريد إلا ما نحن فى حاجة إليه . . ذلك فهم يتفق مع عالم النقص الذي نحن فيه ، فتكون إرادتنا متحركة فى هذا العالم حسب حاجتنا ، ساعية إلى سدّ ما نشعر به من نقص . . إننا نريد كذا ، لأجل كذا . .

أما عالم الكمال ، فما يصدر عنه لا يصدر لحاجة ، وإن صدر بإرادة ومشيئة ، ولن يصدر بغير إرادة ومشيئة . . إنه يجرى مع الحكمة التي يطلبها الكمال . .

مما تقدم يمكن أن نقول :

أولا : إن المعتزلة قد بالغوا فى رفع قيمة الإنسان ، وكادوا يجعلون منه إلها مستقلا بسلطان وجوده ، لا يلتفت إلى ما وراء وجوده فى صراعه مع الحياة ، وفى تقلبه بين خيرها وشرها .

ولا شك أن هذه « الانعزالية » عن العالم العلوي ، تحرم الإنسان كثيرا من أمداد الاستعانة بالخالق جلّ وعلا ، كما أنها تدفع داعية التوكل على اللّه ، والرضا بقضائه وقدره ، بعد أن ينفذ القضاء ، ويقع المقدور ، فيكون فى هذا عزاء جميلا عما وقع للإنسان مما يكره ويسوء .

ثانيا : أن المعتزلة فى دفعهم للإنسان إلى هذا الحدّ ، قد جاروا على الإنسان نفسه ، وخلّوا بينه وبين ذاته ، وألزموه أمورا وحمّلوه أوزارا يلقى بها ربه فى غير رجاء ، كما جعلوا صوالح أعماله حقّا ملزما للّه ، يطالبه به العبد فى غير حياء ! وتلك حال يدخل فيها الضيم على الإنسان من كل وجه . . فإن أي إنسان مهما بلغ من التقوى والكمال ، ومهما قدّم من خير وبرّ ، فهو فى حاجة أبدا إلى فضل اللّه ، وإنّه لن يدخل الجنة بعمله ، لأن أعماله مهما عظمت لن تفى بالقليل من بعض نعم اللّه وفضله عليه . . وفى هذا يقول الرسول الكريم

. .

« إنكم لن تدخلوا الجنة بأعمالكم » .

. قالوا ولا أنت يا رسول اللّه ؟ قال :

« ولا أنا إلّا أن يتغمّدنى اللّه برحمته »

(48/247)

---

ولهذا وجد كثير من أنصار المعتزلة حرجا فى الأخذ بقولهم هنا ، من إطلاق قدرة الإنسان وإرادته . .

فهذا إمام من أئمتهم ، وهو « الجاحظ » لا يرضى أن يقرر مذهب المعتزلة فى هذه المسألة على هذا الوجه . . بل إنه ليصل إرادة العبد بإرادة اللّه . . يقول الجاحظ : « لا فضل للإنسان إلا بالإرادة » .

ومعنى هذا أن للإنسان إرادة ، وأنه بغيرها لا يكون أحسن من الحيوان حالا ، ولا أكرم منزلة . .

ولكن هذه الإرادة التي يحملها الإنسان فى كيانه لا تعمل وحدها ، هكذا مطلقة من كل قيد ، فهى متصلة أولا بكيان الإنسان كله ، وهى ثمرة من ثمرات التفاعل الذي يجرى فى هذا

الكيان ، الذي هو متصل بهذا الوجود كلّه ، مقيد به ، ومؤثر فيه ، ومتأثر به . . وفى هذا يقول الجاحظ :

«لأن أفعال الإنسان كلها داخلة فى نسيج حوادث الطبيعة من جهة ، ولأن علم الإنسان كلّه اضطراري يأتيه من أعلى . . من جهة أخرى» .

ومعنى هذا أن الإرادة التي يعمل بها الإنسان ليست كلها له ، لأنها فرع العلم الذي يحصّله اضطرارا ، والذي يأتيه من أعلى . .

ونسأل : وأين إرادة الإنسان إذن ؟

نكاد نقول إن الجاحظ يقول بالجبر والاختيار معا . . !

ثالثا : إن المعتزلة وهم يحاولون أن يدافعوا عن « عدل اللّه » بإضافة أقوال الإنسان كلها - خيرها وشرها - إلى الإنسان - أقول : إنهم بهذا الدفاع قد أنكروا على اللّه أن يكون قادرا ومريدا ، مطلق القدرة ، ومطلق الإرادة ، أي ذا قدرة وإرادة شاملتين . . والقدرة والإرادة بهذا الوصف - من صفات الكمال . فكيف لا يتصف الخالق بهما ؟ تعالى اللّه عن ذلك علوّا كبيرا . .

*(49/247)*

ثورة على المعتزلة

لهذا لم يرتض كثير من المسلمين آراء المعتزلة ، وإن حمدوا للكثير منهم دفاعهم عن الدّين ، وكسرهم من حدّة السلبيّة ، التي استولت على المجتمع الإسلامى ، بعد تلك الفتن الكثيرة ، والجراحات القاتلة ، التي أصابت الصميم من الجسد الاجتماعى الإسلامى ، التي أصابت المسلمين ، بعد مقتل الإمام علىّ - كرم اللّه وجهه - ومصارع أهل البيت - رضوان اللّه عليهم - وامتحان كثير من صحابة رسول اللّه ، والتابعين ، على يد الخلفاء الأمويين والعباسيين على السواء . .

فكان الاستسلام للأحداث ، والتسليم بالهزيمة هو العزاء لكثير من النفوس ، حتى لقد كان لسان حال الناس فى كل أمر هو : هذا ما قضى اللّه وقدّره ! وكان هذا القول - وهو قول حق - يقال فى كل حال داعية إليه ، أو غير داعية ، يتعزّى به الناس عند كل مصيبة ، ويستدعونه عند كل نازلة ، دون استحضار هممهم ، وبذل جهدهم . . والقول بأن هذا قضاء اللّه وقدر اللّه ، هو قول حق ، ولكن الاستنامة فى ظل هذا القول ، وإلقاء كل أخطائنا على القدر ، هو الذي لا يرضاه ، عقل ، ولا يقرّه دين « 1 » .

من أجل هذا قام المعتزلة فى وجه هذه الظاهرة ، وتصدّوا لتلك الدّعوة المريضة ، ولكن بدلا من أن يقتصدوا فى تقرير مسئولية الإنسان ، وفى إبراز شخصيته ، وإثبات وجوده مع أحداث الحياة - بالغوا أيما مبالغة فى هذا الأمر ، فبعد أن كان القول الذائع بأن إرادة اللّه

فوق كل شيء ، وإرادة العبد لا شيء . أصبح القول عند المعتزلة هو : إن إرادة العبد هى كل شيء ، وإن إرادة اللّه لا شيء ! .

---

(1) انظر بحث المؤلف فى القضاء والقدر فى كتابنا « القضاء والقدر بين الفلسفة والدين » .

(50/247)

---

وهكذا اندفع المعتزلة زمنا وراء هذه الدعوة ، وجروا بها أشواطا بعيدة ، حتى وقع الخلاف بينهم ، وقام فيهم من يردّ عليهم ، ويوقف انطلاق دعوتهم . .

وكان « الأشعري » فارس هذه الحلبة ، ورجل هذا الميدان ! .

رأى أهل السنة

الأشعري : هو تلميذ أبى علىّ الجبّائى . أحد ائمة المعتزلة . ولكنّه لم يرتض قول المعتزلة فى إطلاق إرادة الإنسان واختياره ، . . فكان له رأيه الذي أصبح . فيما بعد . الرأى الذي تقول به الجماعة ، (أي أهل السنّة) .

يقول « دى بور » فى كتابه تاريخ الفلسفة الإسلامية : « وظهر من بين صفوف المعتزلة رجل كانت رسالته أن يتوسط بين مختلف الآراء ، ويقيم بناء المذهب الذي عرف فى

الشرق ، ثم فى بلاد العالم الإسلامى ، بأنه مذهب السنّة . .

« استطاع الأشعري أن يجعل للّه ما يليق به ، دون أن يتحيّف حق الإنسان . .

فالإنسان عنده يمتاز بأنه يستطيع أن يضيف إلى نفسه ما يخلقه اللّه فيه من الأفعال ، وأن يعتبر ذلك من كسبه » . .

وليست مكانة الأشعري عند جمهور المسلمين فى هذا الرأى الذي قرّره . .

كما يقول « دى بور » ـ فإن هذا الرأى فى ذاته غير واضح المعالم ، وغير مقنع فى قضية القدر ـ كما سنرى ـ ولكن قيمة الأشعري ومكانته ، إنما هى فى خروجه على المعتزلة ، ووقوفه فى وجههم ، وتصدّيه لهم وهم أوج قوتهم .

يقول « طاش كبرى زاده » فى كتابه : « مفتاح السعادة » : « ودفع ـ أي الأشعري ـ الكتب التي ألّفها على مذهب أهل السنة ، وكانت المعتزلة قبل ذلك قد رفعوا رءوسهم ، فجحرهم الأشعري ، حتى دخلوا فى أقماع السمسم » ! !

*(51/247)*

---

ويعلّق المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق على هذا بقوله : « إذا كان مذهب الأشعري فى محاربة المعتزلة بمثل سلاحهم ، من أساليب النظر العقلي ـ قد أضعف الاعتزال ، وأذلّ

سلطانه ، فإن السياسة كان لها كبير الأثر فيما ناله الاعتزال من القوة والسيادة أولا ، وكان لها أثرها فى نزوله عن عرشه أخيرا » .

إن الأشعري ، قد وقف فى وجه المعتزلة ، فانتزع منهم الإنسان الذي جعلوه فى بعض أحواله خالقا ، منفردا بخلق أفعاله وتدبير وجوده ، حتى لكأنه يطاول إله العالمين ، وينازعه سلطانه. انتزع الأشعري هذا الإنسان الإلهى ، ونزل به إلى واقع الحياة البشرية ، فجعله « كاسبا » لأفعاله ، لا خالقا لها ، عاملا بإرادته ، ولكن فى ظلّ من إرادة اللّه ومشيئته . .

[كسب الإنسان]

فتح الأشعري بنظرية « الكسب » التي أحلها محل « الخلق » الذي تقول به المعتزلة. نقول : فتح بابا دخل منه كثير من الفلاسفة والمتكلمين على هذا الشيء الذي سماه الأشعري كسبا ، والذي يراه فى الإنسان ، متلبسا بإرادته ، معلقا بمشيئته . .

وقد عدّ كثير من العلماء والباحثين قول الأشعري لغزا تندّروا به ، ووضعوه موضع العقد التي لا يعرف لها حلّ ، وذلك أنهم لم يروا فارقا واضحا بين « الخلق » الذي تقول به المعتزلة ، وبين « الكسب » الذي يقول به الأشعري ، ويراه مناقضا للقول بالخلق .

يقول ابن تيمية فى تفنيد نظرية الكسب : « ولا يقول الأشعري : إن العبد فاعل فى الحقيقة ، بل كاسب ، ولم يذكر بين الكسب والفعل فرقا معقولا ، بل حقيقة قولهم. أي الأشعرية. قول جهم : (هو جهم بن معبد ، رأس الجبرية) إن العبد لا قدرة له ، ولا فعل ولا كسب .

---

وقد نظم بعضهم هذا شعرا ، وقرن نظرية القول « بالكسب » إلى نظرية القول « بالطّفرة » عند النظام ، والقول « بالحال » عندهم أبى هاشم : فقال :

مما يقال ولا حقيقة عنده معقولة تدنو إلى الأفهام

الكسب عند الأشعري والحال عند البهشميّ وطفرة النظام « 1 »

والذي جعل الأشعري يقول « بالكسب » هو ما رآه فى الإنسان من إرادة وقدرة على الفعل أو الترك ، ثم ما يراه من جهة أخرى من قدرة اللّه المطلقة الشاملة ، وعلمه المحيط بكل شىء ، فلم يرتض أن يقول إن العبد خالق لأفعاله ، لأن الخلق للّه ، ولم يقبل أن يجعل العبد آلة مسخرة ، لأنه يراه يعمل بإرادة ، ويتحرك بقدرة ، ويقدم أو يحجم عن تقدير وتفكير . . فلا بد - والأمر كذلك - أن يضيف إلى الإنسان شيئا مما يعمل ، لا كل ما يعمل ، وسمّى هذا « كسبا » .

يقول الأشعري : « والعبد قادر على أفعال العباد . . إذ الإنسان يجد من نفسه تفرقة ضرورية ، بين حركات الرّعدة والرعشة ، - التي هى حركات اضطرارية - وحركات الاختيار والإرادة . . إن الحركات الاختيارية حاصلة من اختيار القادر . . والمكتسب

هو المقدور بالقدرة الحادثة » .

وعلى أىّ ، فإن نظرية « الكسب » هذه ، قد أثارت جوّا من التفكير عند الباحثين فى هذه المشكلة ، وكانت معتمد الذين لا يقولون بقول المعتزلة ، من أن للإنسان اختيارا مطلقا فى أفعاله ، وإنّما للإنسان نوع من الاختيار ، ودرجة من الإرادة ، حيث يضعون الإنسان فى منزلة بين الاختيار والجبر ،

---

(1) البهشمى : هو أبو هاشم ووالده أبو على الجبائي من شيوخ المعتزلة . .

وقد ركب اسمه « أبو هاشم » تركيبا مزجيا « بهشمى » .



---

فلا هو مختار مطلق ، ولا هو مجبر ملزم . . إن له إرادة ، ولكنها إرادة مقيدة بأكثر من قيد .

ولقد صار الأشعري بقوله هذا زعيما لحركة أطلق عليها لفظ « الأشاعرة » نسبة إليه ، ثم أصبحت هذه الحركة معبرة عن رأى أهل السنة .

وقد ظاهر هذه الحركة كثير من علماء السنّة وفقهائها . . منهم إمام الحرمين . . أبو المعالي الجويني ، والقاضي أبو بكر الباقلاني ، وفخر الدين الرازي ، والإمام الغزالي ، ولسان الدين بن الخطيب . . وكثير غيرهم .

حركة الأشاعرة

يدور رأى الأشاعرة ـ كما أشرنا من قبل ـ على القول بأن الإنسان فى « منطقة » حرام ، بين الجبر والاختيار . .

فالإنسان مختار فى قالب مجبر ، وأنه أشبه براكب سفينة تمخر عباب المحيط ، فهو حرّ مختار يسير كيف يشاء ، وأين يشاء ، داخل هذه السفينة ، ولكنه مجبر مسيّر هو وسفينته بعوامل خارجية تحيط به وبالسفينة . . كالأنواء ، والعواصف وغيرها . . مما يتصل بسلامة السفينة وقوة احتمالها . . كذلك الإنسان فى سفينة الوجود ! هو حرّ مطلق ، ولكنه مقيد بالنظام العام للوجود ! فالأشاعرة هنا قريبون من الفلاسفة الغربيين القائلين بنظرية الاتفاقية ، أو الظروف والمناسبات . . ومعناها أن كل فعل إنما هو فى الحقيقة للّه ، ولكنه يظهر على النحو الذي يظهر فيه ، إذا تحققت ظروف خاصة : إنسانية ، أو غير إنسانية ، حتى لكأنّما يخيل للإنسان أن الظروف هى التي أوجدت هذا الفعل . .

والأشعري ، يرى ألا تأثير للقدرة الحادثة فى الأحداث ، وإنما جرت سنّة

اللّه بأن يلازم بين الفعل المحدث وبين القدرة المحدثة له ، ويسمّى هذا الفعل كسبا ، فيكون خلقا من اللّه تعالى ، وكسبا من العبد ، فى متناول قدرته واستطاعته . .

هذا هو المحتوى الإجمالى لمذهب « الأشاعرة » غير أن لكل صاحب قول فى هذا المذهب اتجاها خاصا فى تقرير هذه القضية ، وتحريرها . . كما سنرى فى عرض هذه النماذج من المقولات .

لسان الدين بن الخطيب ورأيه فى الكسب

يرى لسان الدين بن الخطيب ، أن الكسب فعل يخلقه اللّه فى العبد ، كما يخلق فيه القدرة ، والإرادة ، والعلم . . فيضاف الفعل إلى اللّه « خلقا » لأنه خالقه ، وإلى العبد « كسبا » لأنه محلّه الذي قام به . .

يقول ابن الخطيب :

« وإذا كانت العرب تقول : حرّكت القضيب فتحرك ، فتجعل الحركة بين فاعلين ، حركة للمتحرك ، وفعلا للمحرّك ، فذلك - أي ما يصدر عن الإنسان - أقرب ، لوجود القصد ، والعلم ، والقدرة . . فى محيط الإنسان . . ثم إن الطاعة والمعصية للعبد من حيث الكسب . ولا طاعة ولا معصية - أي للعبد - من حيث الخلق ! « والخلق لا يصح أن يضاف إلى العبد ، لأنه إيجاد من عدم ، والفعل موجود بالقدرة القديمة ، لعموم تعلق القدرة الحادثة بها . . فالقدرة الحادثة تتعلق ولا تؤثر . . وهذه - أي القدرة الحادثة - تصلح للتأثير لولا

المانع ، وهو وجود القدرة القديمة ، لأنهما إذا تواردا ـ أي اجتمعا : القدرة القديمة والحادثة ـ لم يكن للقدرة الحادثة تأثير ! ! » فابن الخطيب ، يرى للإنسان قصدا ، وعلما ، يلقى بهما ضروب الأمور

(55/247)

---

فى الحياة . . فهذا جانب حر ، أو منطقة حرّة فى كيان الإنسان . . ولكنه يرى من جهة أخرى أن الأفعال كلها مخلوقة للّه ، بإرادة أزلية سابقة شاملة ، وأن إرادة الإنسان لا تؤثر فى القدرة القديمة . .

فالإنسان محكوم عليه أن ينفّذ ما وقع فى إرادة اللّه ، وأن إرادة الإنسان ، وقصده ، وعلمه ـ كل هذا ، لا يغيّر من المقدّر عليه شيئا . . فالإنسان حر إلى أن يفرغ من الفعل الذي قدّر عليه بإرادة سابقة أن يقع على يديه .

وتسأل : ما قيمة هذه الحرّية مع ما سبق من إرادة اللّه وقدرته ؟ إن الإنسان فى ظاهر الأمر يبدو حرّا طليقا ، ولكن قوة غير ظاهرة هى التي تقوده إلى ما سبق به علم اللّه ، وقضت به إرادته . . ومرة أخرى : ما قيمة هذه الحرّية ؟

أتراها تدفع شيئا مما قضى به اللّه وقدّره ؟

والجواب : كلا . . إنها لا تدفع قضاء ولا تردّ قدرا . . ولكنها حرية تتيح للإنسان أن يبرز ذاته ، وأن يعمل قواه كلها ، وأن يفرض وجوده على الحياة ، وأن يبسط سلطانه على الأشياء ، وإن تفلّتت منه وخرجت من يديه ! وذلك شيء ليس بالقليل فى وجود الإنسان الذي لا قيمة له بغير هذه الحرية التي تمنحه الاستعلاء على الأشياء ، وتريه من نفسه أنه قادر ، مستطيع ، عالم ، مريد . . وإن لم يكن قادرا ، ولا مستطيعا ، ولا عالما ، ولا مريدا .

إمام الحرمين ورأيه فى الكسب

هو أبو المعالي ، عبد الملك بن عبد اللّه الجويني ، المعروف بإمام الحرمين (توفى سنة 478 هجرية) .

وقد نزع بنظرية الكسب منزعا آخر . . إنه يطلق حرّية الإنسان من



---

جانب ، ويربطه بالأسباب الخارجة عن محيطه من جانب آخر . . ثم يجعل أفعال الإنسان ـ تبعا لهذا ـ قسمة بين إرادته وبين الأسباب الملازمة .

يقول :

« نفى القدرة والاستطاعة عن الإنسان ، مما يأباه العقل والحسّ . . فلا بدّ إذن من نسبة

فعل العبد إلى قدرته حقيقة ، لا على وجه الإحداث والخلق . .

فإن الخلق يشعر باستقلال فى إيجاد الفعل من العدم ، وذلك من شأن اللّه وحده . .

« والإنسان كما يحسّ من نفسه الاقتدار ، يحسّ من نفسه أيضا عدم الاستقلال . . فالفعل يستند وجودا إلى القدرة ـ أي القدرة الإنسانية .

« والقدرة تستند وجودا إلى سبب آخر يكون نسبة القدرة إلى ذلك السبب كنسبة الفعل إلى القدرة ! « وكذلك يستند سبب إلى سبب ، حتى ينتهى إلى مسبب الأسباب . .

فهو ـ أي اللّه ـ الخالق للأسباب ومسبباتها ، المستغنى على الإطلاق . . على خلاف الأسباب ، فإن كل سبب مستغن من وجه ، محتاج من وجه ، والباري تعالى ، هو المطلق الذي لا حاجة له ولا افتقار . »

ورأى إمام الحرمين ـ كما ترى ـ غير صريح فى حرّية الإنسان واضطراره ، إنه يضع الإنسان فى منطقة الذبذبات الاختيارية المقيدة فى مجال الاضطرار . .

انظر :

الفعل يستند وجودا إلى القدرة ، أي القدرة التي تحمل الإنسان على اختيار فعل دون فعل . . وهذا واضح .

والقدرة تستند وجودا إلى سبب ! ومعنى هذا أن القدرة التي يواجه بها الإنسان أىّ أمر هى وليدة سبب ، وهذا السبب الذي به أصبح الإنسان ذا قدرة ، يتولد من أسباب كثيرة ، بعضها وراثي ، وبعضها كسبى ، وهى فى الواقع كل كيان الإنسان ، الذي ليس للإنسان - فى الواقع - أثر كبير فى تكييفه .

فهذه الأسباب التي توجد القدرة ، هى موضع النظر فى هذه القضية . .

فمن أوجدها وقدّرها ؟ هذا هو أساس المشكلة التي يطلب علاجها . .

ثم أليس هذا هو رأى « الجاحظ » المعتزلي ، الذي يقول : إن أفعال الإنسان كلها داخلة فى نسيج حوادث الطبيعة ، وإن إرادة الإنسان هى القوة العاملة فيه ، وإن هذه الإرادة هى فرع العلم ، وثمرة من ثمراته ، وإن العلم اضطراري يأتى من أعلى ؟

فالإنسان بمقتضى هذا القول ، عند إمام الحرمين ، مجبر فى صورة مختار ، أو مختار فى حال مقيد !

رأى الغزالىّ في الكسب

يذهب الغزالي فى قضية القدر مذهب التسليم ، فيأخذ بظاهر آيات الكتاب ، ولا يرضى لعقله الفلسفي أن يتناول هذه القضية .

يقول الغزالي : « اللّه تعالى خلق القدرة والمقدور جميعا ، وخلق الاختيار والمختار جميعا

. . فأما القدرة فوصف للعبد ، وخلق للرب ، وأما الحركة ، فخلق للربّ ، ووصف للعبد وكسب له » .

ومعنى هذا ـ كما يقول الغزالي ـ أن اللّه خالق كل شيء . . القدرة والمقدور

(58/247)

---

جميعا . . فليس للعبد شيء إذن ، إن له بالعمل نوعا من الصلة ، وهو الكسب الذي يقول به الأشعري ! ثم يقول الغزالي : « واعلم أن من ظنّ أن اللّه تعالى أنزل الكتاب ، وأرسل الرسل ، وأمر ونهى ووعد وتوعّد ، لغير قادر مختار ـ فهو مختلّ المزاج ، محتاج إلى علاج » ! ! وهذه حجة اعتمد فيها الغزالي على النقل ، أكثر من اعتماده على العقل . .

رأى الفارابي فى الكسب

يقول الفارابي :

« وللنفس بطبيعتها نزوع ، ولمّا كانت تحسّ وتتخيّل فلها إرادة كسائر الحيوان ، غير أن الاختيار للإنسان فقط . . لأن الاختيار يقوم على الرويّة ، وميدانه ميدان العقل الخالص . . فالاختيار متوقف على أسباب من الفكر . .

فكان الاختيار والاضطرار فى وقت واحد . . لأنه ـ أي العقل ـ بحسب أصله الأول ،

مقدّر فى علم اللّه .

ثم يقول :

« والاختيار الإنسانى ، إذا فهم على هذا النحو لا يستطيع أن يقهر الشهوة إلا قهرا ناقصا ، لأن المادة تقف فى سبيله ، وعلى هذا لا تكتمل حرّية النفس الناطقة إلا إذا تحررت من قيود المادة ، أعنى إذا صارت النفس عقلا ! » وواضح أن رأى الفارابي يتفق مع رأى إمام الحرمين . . لأن الاختيار الذي يقول به ، متوقف على أسباب من الفكر . . والعقل مقدّر فى علم اللّه ، والإنسان إنما يعمل بما وهبه اللّه من عقل . .

*(59/247)*

---

رأى الفيلسوف محمد إقبال

ويقول الفيلسوف الباكستانى محمد إقبال فى هذا الموضوع :

« ولا شكّ أن ظهور ذوات لها القدرة على الفعل التلقائى ، ومن ثمّ يكون فعلها غير متلبّأ به. يتضمن تحديدا لحرية الذات المحيطة بكل شىء » يريد إقبال أن يقول : إن إرادة الإنسان التي تخلق من تلقاء نفسها ، فيها تحديد لإرادة اللّه المطلقة ، إذ كانت هناك إرادات تعمل مستقلّة عن تلك الإرادة الشاملة . .

ثم يقول إقبال :

« ولكنّ هذا التحديد لم يفرض على الذات الأولى - ذات اللّه - من خارج ، بل نشأ عن حريتها الخالقة التي شاءت أن تصطفى بعض الذوات المتناهية - أي ذوات البشر - لتقاسمه . . فى الحياة ، والقوة ، والاختيار ! » .

ومعنى هذا - كما يقول إقبال - أنه لا تعارض بين إرادة اللّه وإرادة الإنسان ، فاللّه سبحانه بإرادته الشاملة خلق إرادات تعمل فى حدود معينة ، هى حدود الإمكان البشرى .

ثم يقول إقبال : « وربّ سائل يقول : ولكن كيف يكون فى الإمكان التوفاق بين التحديد ، وبين القدرة المطلقة ؟

ويجيب على هذا بقوله :

« وكل فعل ، سواء أكان متصلا بالخالق ، أم غير متصل به ، هو نوع من التحديد ، يستحيل بغيره أن نتصوّر اللّه ذاتا فعّالة متحققة الوجود فى الخارج . .

ولو أننا تصورنا القدرة المطلقة تصورا مجردا ، لكانت مجرد نوع من قوة عمياء ، متقلبة الأهواء ، ولا حدّ لها . .

« والقرآن يصوّر الطبيعة تصويرا واضحا محددا ، بوصفها عالما يتألف من قوّى يتعلق بعضها ببعض ، وعلى هذا ، فهو ـ أي القرآن ـ يعتبر قدرة اللّه المطلقة وثيقة الصلة بحكمته الإلهية ، ويرى أن قدرة اللّه غير المتناهية ، تتجلّى لا فيما هو متعسف صادر عن الهوى ، وإنما فى المتواتر ، المطرد ، المنظم » .

يريد إقبال أن يقول : إن كل الحوادث الواقعة فى الوجود ، هى فى الواقع تحديد لقدرة اللّه ، لأنها ـ أي القدرة ـ تجرى بما قتضته الحكمة الإلهية التي أودعت فى الوجود نظاما مطردا ، والنظام فى ذاته قيد من غير شك ! ثم يقول إقبال فى موضع آخر :

« فالمعصية الأولى للإنسان ـ معصية آدم ـ كانت أول فعل ـ أي للإنسان ـ تتمثل فيه حرّية الاختيار ، ولهذا تاب اللّه على آدم ، وغفر له . .

« وعمل الخير لا يمكن أن يكون قسرا ، بل هو خضوع عن طواعيّة للمثل الأخلاقى الأعلى ، خضوعا ينشأ عن تعاون الذوات الحرة المختارة ، عن رغبة ورضى .

« والكائن الذي قدّرت عليه حركاته كلها ، كما قدرت حركات الآلة ، لا يقدر على فعل الخير . . وعلى هذا فإن الحرية شرط فى عمل الخير . .

« ولكن السّماح بظهور ذات متناهية لها القدرة على أن تختار ما تفعل بعد تقدير القيم النسبية للأفعال الممكنة لها ـ هو فى الحق مغامرة كبرى ، لأن حرّية اختيار الخير ، تتضمن حرية اختيار عكسه . .

« وكون المشيئة الإلهية اقتضت ذلك ، دليل على ما للّه من ثقة فى الإنسان . . » (ولقد بقي على الإنسان أن يبرهان على أنه أهل لهذه الثقة !)

*(61/247)*

---

«وربما كانت مغامرة كهذه ، هى وحدها التي تيسّر الابتلاء ، والتنبيه للقوى الممكنة لوجود « خلق » « فى أحسن تقويم » ثم ردّ إلى « أسفل سافلين » وكما يقول القرآن : « وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً » . .

وهذا ـ فى رأينا ـ أعدل رأى فى هذه القضية ! ! ويعجبنى فى هذا المقام رأى للفيلسوف الأمريكى « رويس » يصوّر به الصلة بين اللّه الإنسان ، وهى صلة ـ كما يراها الفيلسوف ، تجعل للّه ـ سبحانه ـ القدرة المطلقة ، كما تجعل للإنسان قدرة عاملة داخل قدرة اللّه . .

ويضرب الفيلسوف لهذا مثلا محكما من الرياضيات ، التي تعتبر أكثر المعارف دقة وانضباطا . .

والمثل الذي ضربه « رويس » هو أنه وضع للّه سبحانه وتعالى دلالة من الأعداد ، هى سلسلة ـ تبدأ بالواحد ، ولا تنتهى . . هكذا :

1 ، 2 ، 4 ، 5 ، 6 ، 7 . . . إلى ما لا نهاية . . وهو اللّه سبحانه فهذا هو المطلق الذي

يشتمل كل شيء . .

أما الموجودات ، فقد صورها « رويس » فى سلاسل عددية على هذا النحو الآتي : .2.

16.8.4 . . . إلى ما لا نهاية.

81.27.9.3 . . . إلى ما لا نهاية.

625.125.25.5 . . . إلى ما لا نهاية.

2401.343.49.7 . . . إلى ما لا نهاية.

وهكذا تتوالى سلاسل الأعداد إلى ما لا نهاية أيضا . .

وكل عدد من هذه الأعداد يمثل فرادا من أفراد الناس . .

ويلاحظ فى هذه الأعداد الإنسانية :

*(62/247)*

---

أولا : أنها داخلة جميعها فى السلسلة الأولى ، إذ جميع ما فيها من أعداد تشتمل عليه السلسلة الأولى « المطلق » .

وثانيا : أنها تتميز بطابع فريد ، يجعلها وحدة قائمة بذاتها ، ليس بينها وبين غيرها اتفاق مطلق .

هذا المثل يعطينا تصورا واضحا للصلة التي بين الإنسان وبين اللّه ، من جهة ، وبين الإنسان وبين غيره من الناس من جهة أخرى .

ففى كل سلسلة إنسانية شىء من السلسلة الأولى « اللّه » أو المطلق ، وهى واقعة فى مضمونها . .

وهذا يعنى أن للإنسان ذاتية خاصة ، وإن كانت تلك الذاتية ضمن مشتملات الذات الأولى ، ومعنى هذا أيضا أن الإنسان مطلق من جهة ، ومقيد من جهة أخرى . .

ثم إن الاختلاف بين هذه السلاسل يعنى أن الناس لا بد أن يكونوا مختلفين فيما بينهم . . كل إنسان كون مستقل بذاته ، داخل هذا الكون العظيم « المطلق » .

والفيلسوف « وليم چيمس » يحقق ذاتية الإنسان ، مع وجود اللّه . .

فلا يلغى إرادة الإنسان مع إرادة اللّه ، ويرسم لهذا صورة قريبة من الصورة التي رسمها « رويس » .

. ولكنها صورة كلامية ، وليست عددية .

يقول « چيمس » :

« الإله الذي هو عقل ، يشمل سائر العقول ، وليس منفصلا عن الكون انفصال الخالق عن خلقه ، كما تصورت الديانات التقليدية ، كلا ، ولا هو حالّ فى الوجود كله ، كما تصورت فلسفة وحدة الوجود .

« ولكن إله بينه وبين سائر العقول الفردية قسط مشترك ، هو الاشتراك فى إدراكات بعينها ، لكنه فى الوقت نفسه يتميز بفردية مستقلة ، كما يتميز كل فرد من الأفراد الصغرى بفرديته المستقلّة . .

فالصورة ، أقرب إلى سلّم متدرج من عقول . . فعقل أكبر من عقل ، لأنه يدرك إدراكات هذا العقل ثم يزيد عليها ، ثم عقل ثالث أكبر من هذا العقل ، فرابع أكبر . . وهكذا دواليك صعودا ، دون أن يتحتم أن يكون هناك عقل مطلق يسع كل شىء . . فالعقل الأعلى فيه كل ما فى الأدنى مع الاحتمال دائما بأن يكون هناك ما هو أعلى » .

ومنطق هذا القول يقضى بأن لا تنتهى درجات السلّم العقلي عند نهاية ليس بعدها شىء ، بل هناك احتمال دائما بأن يكون هناك ما هو أعلى . . ومع وجود هذا الاحتمال ، فإن الواقع المحقق هو أن هناك عقلا أعلى يسع العقول جميعا ، وهو الذي يمكن أن يطلق عليه العقل المطلق ، مادام ليس هناك ما هو فوقه .

فإذا وقع الاحتمال المتوقع ، وهو ظهور عقل أعلى ، كان هو العقل المطلق . .

وهكذا .

ولعل ماحدا بوليم چيمس إلى هذه الفكرة التي تجعل العقول متصاعدة ، دون أن تضيع فى ذلك شخصية العقل الأدنى فى العقل الأعلى ـ هو أنه أراد أن يحتفظ لكل فرد بإرادته المستقلة ، لتقع عليه مسئوليته الخلقية . . وهذا ما يجعل لكفاح الأفراد نحو الخير معنى ، لأنه يجعل فى مستطاع الأفراد تغيير ما هو كائن ، إذا كان ذلك الكائن شرا ، ليصبح أفضل مما هو وأكمل . .

اللّه والإنسان . . مرة أخرى

لا يستطيع عاقل أن ينكر إرادة الإنسان المستقرة فى كيانه ، والتي بها



---

يتعامل مع الحياة ، فيقبل على الشيء أو يعرض عنه ، حسب تقديره وإرادته . .

ولا يستطيع مؤمن باللّه أن ينكر قدرة اللّه الشاملة ، وإرادته النافذة ، وأن كل شيء بيد اللّه ، وتحت مشيئته . .

هذان الأمران يكاد يتفق عليهما جميع المؤمنين باللّه ، وهما : أن للّه إرادة وقدرة ، وأن للإنسان إرادة وقدرة . .

ولكن الخلاف يقع ويشتد بين المؤمنين باللّه ، حين ينظر الناظرون منهم إلى الإرادتين معا ،

وإلى القدرتين معا ، فى مجال التصريف والعمل . .

وقد رأينا ألوانا مختلفة من التفكير ، ومذاهب متعددة من الرأى ، فى تقدير إرادة الإنسان وقدرته ، إلى جانب إرادة اللّه وقدرته . .

فذهب قوم إلى أن إرادة الإنسان وقدرته لا أثر لهما إزاء إرادة اللّه وقدرته ، بينما ذهب أقوام إلى عكس هذا ، فقالوا : إن إرادة الإنسان لا تلغيها إرادة اللّه ، ولا تعطّل عملها . .

فالإنسان حرّ مختار يفعل ما يشاء ، كيف يشاء .

وقد كان يمكن أن يمضى القول بهذا الرأى أو ذاك ، أو بالرأيين معا ، دون أن يبدو أثر ظاهر فى واقع الحياة إذا انتقلت من رأى إلى رأى . . فسيّان أن يكون الإنسان فى واقعه يعمل فى أمور مطلقة يخلقها كيف يشاء ، ويدبّرها حيث يريد ، أو فى أمور قدّرت من قبل ، وأخذت صورتها كاملة قبل أن يلتقى بها . ما دام الإنسان لم يؤت قدرة على كشف الغيب والتحقق من نتائج الأعمال قبل معالجتها ووقوعها . .

إن الإنسان يعالج أمور الحياة حسب تقديره ، ويمضيها حسب إرادته ، ثم تجىء نتائجها التي لا يعلم علمها إلا بعد أن تقع . . وكون الإنسان يعمل فى أمور قدّرت ، أو فى أمور لم تقدّر ، فإن ذلك لا يؤثر على إرادته العاملة ، ولا يتدخل تدخلا محسوسا فى تدبيره أموره .

أقول : إن القول بأن الإنسان مختار أو مجبر ، والقول بأنه يعمل فى أمور مقدرة أو غير مقدرة ـ إن هذا القول أو ذاك لا يظهر لهما أثر إلا إذا نزلت أعمال الإنسان منزل الحساب والجزاء ، حين يحاسب على عمله ، فيجزى عن الخير خيرا ، وعن الشر شرا .

هنا يتغير الموقف ، ويصبح للقول باختيار الإنسان أو جبره ، وللقول بالقدر أو بأنّا قدر ـ نتائج خطيرة ، يتعلق بها مصير الإنسان ، وتتقرر بها سعادته أو شقاؤه فى الدار الآخرة . .

فإذا قيل إن الإنسان حر مختار ، كان معنى هذا أنه مسئول عن عمله الحسن أو السيّء ، وأنه سينال ثوابه وعقابه على ما قدم من عمل ، ولا حجة له أمام اللّه . . . .

وإذا قيل إنه مجبر مكره ، وإنه يعمل بإرادة غالبة ، وبقدر سابق ، كان معنى هذا أنّا تبعة عليه ، وبالتالى ألا ثواب على حسن ، ولا عقاب على سيىء ! ولكن الذي يقال هو غير هذا . .

فهناك دار الآخرة ، وفيها ثواب وعقاب ، وجنة للمؤمنين المتقين ، ونار للعصاة المذنبين .

وهنا تجىء التساؤلات والاعتراضات . .

ما ذنب الإنسان ؟ وكيف يسأل عن أعمال مقدورة ، محكوم عليه أن يعملها ؟ . .

وهنا تبرز مشكلة القضاء والقدر ، وتصبح هذه المشكلة فى مجال النظر والامتحان .

وهنا تتفتح للكثير من الناس أبواب المنازعة فى تدبير اللّه وفى حكمته ،

(66/247)

---

وفى قضائه وقدره . .

فمن مستسلم لحكمة اللّه وتدبيره ، وقضائه فيه ، مؤمن بأن ما أصابه من خير أو شر فهو بقضاء اللّه وقدره ، راض بما قسم اللّه . . ومن متخبط متسخّط ، يضيف إلى نفسه الأعمال الطيبة الناجحة ، ويرمى القدر بما لا يرضيه وما لا يرضى عنه من الأعمال . .

وقد كان إبليس ـ لعنه اللّه ـ أول من احتج « بالقدر » بعد أن عصى أمر ربه ، فلم يسجد لآدم كما أمره ، فلما حل غضب اللّه عليه ، لم يرجع على نفسه باللائمة ، ولم يستشعر الندم فيتوب كما تاب آدم ، بل غلبت عليه شقوته ، فقال :

« رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ » .

وقد تلقى كثير ممن غلب عليهم الشقاء من بنى آدم ، هذه الحجة الضالة ، عن إبليس ، فتخلّوا عن كل خير ، وغرقوا فى كل ضلال ، وبين أيديهم هذه الحجة الخادعة ، التي يرددونها عند كل قولة ناصح ، ينصح لهم ، ويدعوهم إلى الإيمان والهدى ، فيقولون ما

حكاه اللّه عنهم فى قوله تعالى : « لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ » (35 : النحل) وقوله : « سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا » (148 : الأنعام) وقوله سبحانه : « وَإِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ » (47 يس) انظر كيف يفترون على اللّه الكذب ؟ يؤمنون بقضائه وقدره ، ويحتجون بمشيئته ، ثم يكفرون به ؟ فالذين يحتجون بالقدر هذا الاحتجاج ، لا يؤمنون باللّه ، ولو آمنوا باللّه لآمنوا بقضائه وقدره ، ولامتثلوا أوامره ، واجتنبوا نواهيه . .

*(67/247)*

---

فالقول بأن لو شاء اللّه ما أشركوا قول حق ، ولكنه لا يصدر عن القائلين به لتقرير عموم إرادة اللّه وشمول مشيئته ، ولو كان هذا متوجّه قولهم لكان ذلك إيمانا خالصا . . فاللّه سبحانه وتعالى يقول : « وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً » (99 : يونس) ولكنهم يقولون هذا القول فى سفسطة خبيثة ، تهوى بهم إلى مهاوى الهالكين . .

ولهذا أنكر اللّه عليهم قولهم الذي قالوه فى مشيئته ، لأنهم - كما يقول ابن القيم - « لم يذكروا ما ذكروا إثباتا لقدرة اللّه وربوبيته ووحدانيته ، وافتقارا إليه ، وتوكلا عليه ، ولو قالوا ذلك

لكانوا مصيبين ، وإنما قالوه معارضين لشرعه ، ودافعين لأمره ، فعارضوا أمره وشرعه ودفعوه بقضائه وقدره . .

أباطيل بعض المتصوفة

ولبعض المتصوفة فلسفة مريضة ، تذهب بهم هذا المذهب الأعوج الأهوج ، الذي يقود إلى الضلال والهلاك . . إنهم ينسبون إلى اللّه كل شيء من طاعات وسخافات معا . . إن كل ما يفعلونه حسن ، لأنهم ـ حسب تصورهم المخبول ـ لا يعملون شيئا ، وإنما هم ينفذون إرادة اللّه ومشيئته . . فكل أعمالهم طاعات ، وكل سخافاتهم قربات ، حتى ليقول قائلهم مخاطبا ربه فى غير حياء :

أصبحت منفعلا لما تختاره منىّ ، ففعلى كله طاعات !

فهذا الغبي الأحمق ، هو منفعل ـ كما يقول ـ وليس فاعلا . . وليته انفعل بالطاعات . . وإنما هو منفعل بما يمليه عليه شيطانه الذي يوسوس له حين يفطر رمضان ! وهو منفعل بمشيئة اللّه ، حين يترك الصلاة عمدا ، أو حين يشرب الخمر ، ويأتى كل فاحشة جهارا فى غير حياء !

*(68/247)*

هو فى تلك الأحوال ـ كما زيّن له الشيطان ـ قائم فى محراب العبادة ، لأنه ينفذ إرادة اللّه ويحقق مشيئته ! « كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ » (12 يونس)

طريق المؤمنين

أما المؤمنون حقا فمدعّوون إلى الإيمان بقضاء اللّه وقدره . . فاللّه خالق كل شىء ، وهو على كل شىء قدير ، فما شاء اللّه كان ، وما لم يشأ لم يكن . .

عن أبى هريرة ـ رضى اللّه عنه قال : لما نزل قوله تعالى على نبيه صلى اللّه عليه وسلم : « إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ » قالوا ـ أي المؤمنون « الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وإن لم نشأ لم نستقم » فأنزل اللّه عز وجل :

« وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ » .

وعن ابن عباس ـ رضى اللّه عنهما ـ فى قوله تعالى : « كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ، فَرِيقاً هَدى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ » .

. قال : « وكذلك خلقهم حين خلقهم :

مؤمنا وكافرا ، وسعيدا وشقيا ، وكذلك يعودون يوم القيامة ، مهتدين وضلّالا » .

وقال مالك بن أنس : « ما أضلّ من كذب بالقدر ، لو لم يكن عليهم حجة إلا قوله تعالى : ( « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ » لكفى بها حجة) .

وعن أبى حازم ، قال : قال اللّه عز وجل « فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها » . .

أي فالتقيّ ألهمه التقوى ، والفاجر ألهمه الفجور » .

وفوق هذا كله ، وقبل هذا كله ، قول الرسول الكريم : « لا يؤمن

(69/247)

---

أحدكم حتى يؤمن بالقدر خيره وشرّ ، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه » .

وكان الحسن البصارى ـ رضى اللّه عنه ـ يقول : « من كذّب بالقدر فقد كذّب بالحق ، إن اللّه عز وجلّ ، قدّر خلقا ، وقدّر أجلا ، وقدّر بلاء ، وقدّر مصيبة ، وقدّر معافاة . . من كذب بالقدر فقد كذّب بالقرآن » .

فالإيمان بالقدر ، والتسليم بالمقدور والرضا به ، هو الصميم من الإيمان ، وهو دعوة الإسلام ، وهو سبيل المؤمنين ، وبغير هذا لا ينعقد إيمان ، ولا يكمل دين .

يقول ابن تيمية : « وما قدّر من المصائب يجب الاستسلام له ، لأنه من تمام الرضا باللّه ربّا . . وأما الذنوب ، فليس للعبد أن يذنب ، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب . . فيتوب من المعايب ، ويصبر على المصائب . .

« فإذا عمل العبد بطاعة اللّه عزّ وجل علم أنها بتوفاق اللّه ، فيشكره على ذلك ويحمده ،

وإذا عمل بمعصية ندم على ذلك ، وعلم أنها بمقدور جرى عليه ، فذمّ نفسه ، واستغفر ربه . . وليس لأحد على اللّه حجة ، بل للّه الحجة على خلقه :

« قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ ، فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ » .

. فاللّه سبحانه وتعالى خلق الخلق كما شاء ، فجعلهم شقيا وسعيدا ، قبل أن يخرجهم إلى الدنيا : « لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ » (23 : الأنبياء) .

وعلى هذا ، فمطلوب من العبد أن يقول فى كل ما يقع له ، أو يقع منه : هذا بقضاء اللّه ، ومشيئة اللّه . . يقول ذلك عن يقين لا شك فيه ، فذلك هو الإيمان الذي يشدّ عزمات الإنسان فى الشدائد ، ويعينه على الحق ، ويجعل منه إنسانا غير ضائع فى الحياة . . إن زلّ فذلك بقدر سابق ، ولكن يجب أن يرى نفسه فى هذه الحال فى موقف لا يرضى اللّه ، فيبادر بالانسحاب من هذا الموقف بكل ما لديه

*(70/247)*

---

من قوة وعزم وإيمان ، مستعينا باللّه ، تائبا إليه ، نادما على ما وقع منه ، فتلك هى سبيل المؤمنين ، الذين يقول اللّه فيهم : « وَالَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ » .

(135 : آل عمران) .

يقول ابن تيمية : « كل من احتجّ بالقدر فإنه متناقض . . فإنه لا يمكن أن يدع كل آدمىّ يفعل به ما يشاء . . فلا بد إذا ظلمه ظالم أن يدفع هذا القدر ، وأن يعاقب الظالم بما يكفّ من عدوانه ، وعدوان أمثاله ، فيقال له ـ أي للمحتج بالقدر ـ : إن كان القدر حجة ، فدع كل أحد يفعل بك ما يشاء ، وإن لم يكن حجّة ، فبطل قولك : إن القدر حجة . . » .

ثم يقول : وأصحاب هذا القول الذين يحتجون بالحقيقة الكونية (أي القدر) لا يطردون هذا القول ولا يلتزمونه ، إنما هم يتبعون آراءهم وأهواءهم ، كما قال فيهم بعض العلماء : « أنت عند الطاعات قدرىّ ، وعند المعصية جبرىّ » اه إن الأخذ بالأسباب ، ودفع الأقدار ، هو مما يقوم عليه نظام الحياة ، وتشير به الحكمة ، ويقضى به العقل ، ومن ترك الأسباب فقد ألغى عقله ، وأفسد وجوده ، وأدخل الخلل على حياته . . إن الحيوان الأعجم لا يرضى هذه المنزلة التي صار إليها من يحتج بالقدر . . إن الحيوان يدفع الجوع بالأكل الذي يطلبه ويسعى إليه ، وينال منه ، ويدفع الظمأ بالماء ، برد موارده ، ويلتمس مواطنه ، ويمدّ فمه إليه ، ويتقى العدوّ المتربص به ، بكل سلاح يقدر عليه ، فيقاتل بقرونه ، وأنيابه ، ومخالبه ، وأظفاره . . وبكيانه كله . وإن هو رأى من نفسه العجز عن لقاء عدوّه ومدافعته ، طلب النجاة . . فرارا ، وهربا .

فالإنسان الذي يعطّل جوارحه ، ويميت مشاعره ، ويلقى بنفسه فى منامة

---

العجز والتواكل ، محتجا بأن ما قدّر له سيقع ، سواء سعى أم لم يسع . هذا الإنسان ليس أهلا لأن يعيش فى الناس ، أو يحسب فى الأحياء . .

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليبس

سأل بعض الصحابة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فقالوا : يا رسول اللّه :

أرأيت أدوية لتداوى بها ، ورُقى نسترقى بها ، وتقى نتقى بها . . هل تردّ من قدر اللّه شيئا ؟ فقال الرسول صلوات اللّه وسلامه عليه : « هى من قدر اللّه » .

فالأسباب من قدر اللّه ، كما أن المسببات من قدر اللّه . . فمن لم يأخذ بالأسباب إلى مسبباتها فقد آمن وكفر ، وذلك نفاق أشد من الكفر .

يقول جعفر الصادق : « إن اللّه تعالى أراد بنا شيئا ، وأراد منّا شيئا ، فما أراده بنا طواه عنّا ، وما أراده منا أظهره لنا ، فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا ؟ » وذلك هو مقطع القول فى تلك القضية الشائكة ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 4 صـ 262 . 297 ﴾

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾

هنا يوسع الحق المسألة . فلم يقل : إنهم سوف يؤمنون ، بل قال : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الملائكة ﴾ مثلما اقترحوا ، أو حتى لو كلمهم الموتى ، كما قالوا من قبل : ﴿ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [ سورة الدخان : 36 ]

ويأتي القول : ﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ و" الحشر " يدل على سوق بضغط مثلما نضع بعضا من الكتب في صندوق من الورق ونضطر إلى أن نحشر كتابا لا مكان له ، إذن : الحشر هو سوق فيه ضغط ، وهنا يوضح الحق : لو أنني أحضرت لهم الآيات يزاحم بعضها بعضا وقدرتي صالحة أن آتي بالآيات التي طلبوها جميعا لوجدت قلوبهم مع هذا الحشر والحشد تضن بالإيمان .

﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً ﴾ و" قبلا " هي جمع " قبيل " ، مثل سرير وسرر .

﴿ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً ﴾ . وهذا يعني أن الحق إن جاء لهم بكل ما طلبوا من آيات ، وكأن كل آية تمثل قبيلة والآية الأخرى تمثل قبيلة ثانية ، وهكذا . فلن يؤمنوا ، أو "

قبلا " تعني معاينة أي أنهم يرونها بأعينهم ، لأن في كل شيء دبرا وقبلا ؛ والقبل هو الذي أمام عينيك ، والدبر هو من خلفك . فإن حشرنا عليهم كل شيء مقابلا . ومعاينا لهم فلن يؤمنوا . وإن اخذتها على المعنى الأول أي أنه سبحانه إن حشد الآيات حشدا وصار المعطي أكثر من المطلوب فلن يؤمنوا . وإن أردت أن تجعلها مواجهة ، أي أنهم لو رأوا بعيونهم مواجهة من أمامهم فلن يؤمنوا .

(73/247)

---

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الملائكة وَكَلَّمَهُمُ الموتى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ ليؤمنوا إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله ﴾ [ الأنعام : 111 ]

وجاء الحق هنا بمشيئته لأن له طلاقة القدرة التي إن رغب أن يرغمهم على الإيمان فلن يستطيعوا رد ذلك ، ولكن الإرغام على الإيمان لا يعطي الاختيار في التكليف ولذلك قال سبحانه : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السمآء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [ الشعراء : 3-4 ]

والله لا يريد أعناقا تخضع ، وإنما يريد قلوبا تخشع . لذلك يذيل الحق الآية بقوله : ﴿ ولكن أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ . والجهل يختلف عن عدم العلم ، بل الجهل هو علم المخالف ، أي أن

هناك قضية والجاهل يعلم ما يخالفها ، أما إن كان لا يعلم القضية فهذه أمية ويكفي أن نقولها حتى يفهمها فورا . لكن مع الجاهل هناك مسألتان : الأولى أن نزيل من ادراكه هذا الجهل الكاذب ، والأخرى أن نضع في إدراكه القضية الصحيحة ، وما دام أكثرهم يجهلون . فهذا يعني أنهم قد اتبعوا الضلال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(74/247)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " قُبُلاً " قرأ نَافِع ، وابْن عَامِر : " قِبَلاً " هنا وفي الكَهْف بكسر القَافِ ، وفَتْح البَاء ، والكوفِيُّون هنا وفي الكَهْف ، وقرأ الحسن البَصْرِي ، وأبُو حَيْوة ، وأبُو رَجَاء بالضَّمِّ والسُّكُون .

وقرأ أبَيّ والأعْمَش " قَبِيلاً " بياء مُثَنَّاة من تَحْت بعد بَاءٍ موحَّدة مَكْسُوقر ، وقرأ طَلْحَة بن مُصَرِّف : " قَبْلاً " بفتح القَافِ وسُكون البَاء .

فأما قِرَاءة نَافِع ، وابن عَامِر ففيها وجهان :

أحدهما : أنَّها مُقَابَلَة ، أي : مُعَايَنَةً ومُشَاهَدَةً ، وانتِصَابُه على هذا الحَالِ قاله أبو عُبَيْدة ،

والفرّاء ، والزَّجَّاج ونقله الوَاحِدي أيضاً عن جَمِيع أهْل اللُّغة ، يُقَال : " لَقِيته قِبَلاً " أي عِيَاناً .

وقال ابن الأنْبَاري : " قال أبو ذَرّ : قُلْت للنَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم أنبيّاً كان آدم ؟ فقال : نعم ، كان نبيّاً كلَّمه الله قبلاً " وبذلك فسَّرها ابن عبَّاس ، وقتادة ، وابن زَيْد ، ولم يَحْكِ الزَّمَخْشَري غَيْره ، فهو مَصْدر في مَوْضَع الحَال كما تقدَّم .

والثاني : أنَّها بمعنى نَاحِية وجِهَة قاله المُبَرِّد ، وجماعة من أهل اللُّغَة كأبي زَيْد ، وانتصابه حينئذٍ على الظَّرْف ، كقولهم : " لي قِبَلُ فلان دَيْنٌ " و " ما قِبَلك حَقٌّ " ويقال : " لَقِيْتُ فلاناً قِبَلا ، ومُقابلة ، وقُبُلاً ، وقُبَلاً وقَبْلِياً ، وقَبِيلاً " كله بمَعْنَى واحد ، ذكر ذلك أبو زيد ، وأتْبَعه بكَلام طويل مُفيد فرحمه الله – تعالى – وجزاه اللَّه خيراً .

وأمَّا قِرَاءة البَاقِين هُنَا ففيها أوْجُه :

أحدهما : أن يكون " قُبُلاً " جمع قِبِيل ، بمعنى : كَفِيل ؛ " كرغيف " و " رُغُف " ، و " قضيب " و " قُضُب " و " نَصِيب " ون " نُصُب " .

وانْتَصَابه حالاً .

قال الفرّاء والزَّجَّاج : جَمْع قِبِيل بمعْنَى : كفيل أي : كَفِيلاً بصِدْق محمد – عليه الصَّلاة والسَّلام – ، ويقال : قَبَلْتُ الرّجل أقْبَلُه قَبالة بفَتْح البَاء في الماضي والقاف في المَصْدَر ، أي : تكفَّلْت به ، والقَبِيل ، والكَفِيل ، والزَّعِيم ، والأذِين والضّمِين ، والحَمِيل ، وبمعنى وَاحِد .

وإنما سُمّيت الكَفَالة قَبَالة ؛ لأنَّها أوْكَد تَقَبُّل ، وباعْتِبَار معنى الكَفَالة سُمِّي العَهْد المَكْتوب : قَبالة .

(75/247)

---

وقال الفرَّاء في سُورة الأنعام : " قُبُلاً " جَمْع " قَبِيل " وهو " الكَفِيل " قال : وإنَّما اخْتَرت هنا أن يكُون القُبُل في المعنى الكفالة ؛ لقولهم : ﴿ أَوْ تَأْتِيَ بالله والملائكة قَبِيلاً ﴾ [ الإسراء : 92 ] يَضْمَنُون ذلك .

الثاني : أن يَكُون جَمْع قِبِيل ، بمَعْنى : جماعةً جماعةً ، أو صنْفاً صنفاً .

والمعنى : " وحَشَرْنا عَلَيْهم كلَّ فوْجاً فوْجاً ، ونوْعاً نوْعاً من سَائِر المَخْلُوقات " .

الثالث : أن يكون " قُبُلاً " بمَعْنى : قِبَلاً كالقِرَاءة الأولَى في أحد وجْهَيْهَا وهو المُواجَهة أي : مُواجَهَةً ومُعَايَنةً ، ومنه " آتِيكَ قُبُلاً لا دُبُراً " أي : آتِيك من قِبَل وَجْهك ، وقال تعالى : ﴿ إن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ ﴾ [ يوسف : 26 ] وقُرِئ : " لقبل عدتهن " [ الطلاق : 41 ] ، أي : لاسْتِقْبَالها ، وقال الفرَّاء : " وقد يكون قُبُلاً : " من قِبَل وُجُوهِهم " .

وأمَّا الذي في سُورة الكَهْف : فإنه يَصِحُّ فيه مَعْنى المُواجهة ، والمُعَاينة ، والجماعة صنْفاً صنْفاً ، لأن المُراد بالعَذَاب : الجِنْس ، وسَيَأتي له مَزِيد بَيَان .

و" قُبُلاً " نَصْب على الحَال – كما مَرَّ – من " كلّ " ، وإن كان نكرة ؛ لِعُمُومه ، وتقدَّم أنَّه في أحد أوْجُهِهِ يُنْصَبُ على الظَّرف عند المُبَرّد .

وأمّا قراءة الحسن فمخفَّفَة من المَضْمُوم ، وقرأه أُبَيٌّ بالأصْل وهو المُفْرَدِ .

وأما قراءة طَلْحَة فهو ظَرْف مَقْطُوع عن الإضَافة ، مَعْنَاه : أو يَأتِيَ بالله والملائِكَة قَبْله ، ولكن كَانَ يَنْبَغِي أن يُبْنَى ؛ لأن الإضافة مُرادَة .

قوله : " مَا كَانُوا " جواب " لَوْ " وقد تقدَّم أنَّه إذا كَانَ مَنْفيّاً ، امتَنَعت اللاَّم .

(76/247)

---

وقال الحُوفِي : " التَّقْدِير لما كَانُوا حُذِفَت اللاَّم وهي مُرَادة " وهذا لَيْس بجيِّد ؛ لأن الجواب المَنْفِي بـ " مَا " يَقِلُّ دُخُولها ، بل لا يَجُوز عند بَعْضِهم ، والمَنْفِي بـ " لم " مُمْتَنِع أَلْبَتَّة .

وهذه اللاَّم لام الجُحُود جارَّة للمصْدَر المؤوّل من " أنْ " والمنْصُوب بِهَا ، وقد تقدَّم تَحْقِيقه – بعون الله تعالى – .

قوله : " إلا أنْ يشاء اللَّه " يجُوز أن يكُون مُتَّصِلاً ، أي : ما كانُوا لِيُؤمِنُوا في سَائِرِ الأحْوال إلاَّ في حَالِ مَشِيئَة اللَّه ، أو في سَائِرِ الأزْمَان إلا في زَمَان مَشِيئَته .

وقيل : إنه اسْتِثْنَاء من عِلَّة عامَّة ، أي : " ما كانوا لِيُؤمِنُوا لِشَيء من الأشْيَاء إلاَّ لمشيئة الله

تعالى " .

والثاني : أن يكُون مُنْقَطعاً ، نقل ذلك الحُوفِيُّ وأبُو البَقَاء ، واسْتَبْعَده أبو حيَّان . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 379 . 381 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (111) ﴾

لأن الآيات وإنْ توالت ، وشموس البرهان وإنْ تعالَتْ فَمَنْ قَصَمَتْه العِزَّةُ وكَبَسْته القِسمة لم يَزِدْه ذلك إلا حيرة وضلالاً ، ولم يستنجز إلا للشقوة حالاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 495 ﴾

*(77/247)*

---

قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (112) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان مضمون ما تقدم إثبات عداوة الكفار للنبي صلى الله عليه وسلم ، كان كأنه قيل تسلية له وتثبيتاً لفؤاده : فقد جعلناهم أعداء لك لأنك عالم ، والجاهلون لأهل العلم أعداء ﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل ما جعلنا لك أعداء من كفار الإنس والجن ﴿ جعلنا لكل نبي ﴾ أي ممن كان قبلك ، وعبر عن الجمع بالمفرد – والمراد به الجنس – إشارة إلى أنهم يد واحدة في العداوة فقال : ﴿ عدواً ﴾ وبين أن المراد به الجنس ، وأنهم أهل الشر فقال مبدلاً : ﴿ شياطين ﴾ أي أشرار ﴿ الإنس والجن ﴾ المتمردين منهم ، وربما استعان شيطان الجن شيطان الإنس لقرب قلبه منه ، أم يكون نوعه إليه أميل ، وأشار إلى هوان أمرهم وسوء عاقبتهم بقوله : ﴿ يوحي بعضهم ﴾ أي الشياطين من النوعين ﴿ إلى بعض ﴾ أي يكلمه في خفاء ﴿ زخرف القول ﴾ أي مزينه ومنمقه .

ولما كان هذا يدل على أنه – لكونه لا حقيقة له – لولا الزخرفة ما قيل ، زاده بياناً بقوله : ﴿ غروراً ﴾ أي لأجل أن يغروهم بذلك ، أي يخدعوهم فيصيروا لقبولهم كلامهم كالغافلين الذين شأنهم عدم التحفظ ، والغرور هو الذي يعتقد فيه النفع وليس بنافع .

ولما كان أول الآية معلماً أن هذا كان بمشيئة الله وجعله ، أيد ذلك ومكنه في آخرها بأنه لو شاء ما كان ، وكل ذلك غيرة على مقام الإلهية وتنزيهاً لصفة الربوبية أن يخرج شيء عنها فيدل على الوهن ، ويجر قطعاً إلى اعتقاد العجز ، فقال : ﴿ ولو شاء ﴾ ولما كان في بيان

أعدائه صلى الله عليه وسلم والمسلطين عليه ، أشار إلى أن ذلك لإكرامه وإعزازه ، لا لهوانه ، فقال ﴿ ربك ﴾ أي بما له إليك من حسن التربية وغزير الإحسان مع ما له من تمام العلم وشمول القدرة ، أن لا يفعلوه ﴿ ما فعلوه ﴾ أي هذا الذي أنبأتك به من عداوتهم وما تفرع عليها .

(78/247)

---

ولما قرر أن هذا من باب التربية فعاقبته إلى خير ، سبب عنه قطعاً قوله : ﴿ فذرهم ﴾ أي اتركهم على أيّ حالة اتفقت ﴿ وما يفترون ﴾ أي يتعمدون كذبه واختلافه ، واذكر ما لربك عليك من العاطفة لتعلم أن الذي سلطهم على هذا في غاية الرأفة بك والرحمة لك وحسن التربية كما لا يخفى عليك ، فثق به واعلم أن له في هذا لطيف سريرة تدق عن الأفكار ، بخلاف الآيات الآتية التي عبر فيها باسم الجلالة ، فإنها في عظيم تجرئهم على مقام الإلهية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 696 . 697 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ وكذلك ﴾ منسوق على شيء وفي تعيين ذلك الشيء قولان : الأول : أنه منسوق

على قوله : ﴿ كذلك زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ [ الأنعام : 108 ] أي كما فعلنا ذلك ﴿ كذلك جَعَلْنَا لِكُلِّ نبيّ عَدُوّاً ﴾ الثاني : معناه : جعلنا لك عدواً كما جعلنا لمن قبلك من الأنبياء فيكون قوله : ﴿ كذلك ﴾ عطفاً على معنى ما تقدم من الكلام ، لأن ما تقدم يدل على أنه تعالى جعل له أعداء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 125 ﴾

فصل

قال الفخر :

ظاهر قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نبيّ عَدُوّاً ﴾ أنه تعالى هو الذي جعل أولئك الأعداء أعداء للنبي صلى الله عليه وسلم ، ولا شك أن تلك العداوة معصية وكفر فهذا يقتضي أن خالق الخير والشر والطاعة والمعصية والإيمان والكفر هو الله تعالى ، أجاب الجبائي عنه : بأن المراد بهذا الجعل الحكم والبيان ، فإن الرجل إذا حكم بكفر إنسان قيل : إنه كفره ، وإذا أخبر عن عدالته قيل : إنه عدله ، فكذا ههنا أنه تعالى لما بين للرسول عليه الصلاة والسلام كونهم أعداء له لا جرم قال إنه جعلهم أعداء له ، وأجاب أبو بكر الأصم عنه : بأنه تعالى لما أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم إلى العالمين وخصه بتلك المعجزة حسدوه ، وصار ذلك الحسد سبباً للعداوة القوية ، فلهذا التأويل قال إنه تعالى جعلهم أعداء له ونظيره قول المتنبي :

فأنت الذي صيرتهم لي حسداً . . وأجاب الكعبي عنه : بأنه تعالى أمر الأنبياء بعدواتهم وأعلمهم كونهم أعداء لهم ، وذلك يقتضي صيرورتهم أعداء للأنبياء .

لأن العداوة لا تحصل إلا من الجانبين ، فلهذا الوجه جاز أن يقال إنه تعالى جعلهم أعداء للأنبياء عليهم السلام .

واعلم أن هذه الأجوبة ضعيفة جداً لما بينا أن الأفعال مستندة إلى الدواعي ، وهي حادثة من قبل الله تعالى ، ومتى كان الأمر كذلك .

فقد صح مذهبنا .

ثم ههنا بحث آخر : وهو أن العداوة والصداقة يمتنع أن تحصل باختيار الإنسان ، فإن الرجل قد يبلغ في عداوة غيره إلى حيث لا يقدر ألبتة على إزالة تلك الحالة عن قلبه ، بل قد لا يقدر على إخفاء آثار تلك العداوة ، ولو أتى بكل تكلف وحيلة لعجز عنه ، ولو كان حصول العداوة والصداقة في القلب باختيار الإنسان لوجب أن يكون الإنسان متمكناً من قلب العداوة بالصداقة وبالضد وكيف لا نقول ذلك والشعراء عرفوا أن ذلك خارج عن الوسع ؟ قال المتنبي :

يراد من القلب نسيانكم . . وتأبى الطباع على الناقل

والعاشق الذي يشتد عشقه قد يحتال بجميع الحيل في إزالة عشقه ولا يقدر عليه ، ولو كان حصول ذلك الحب والبغض باختياره لما عجز عن إزالته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 125.126 ﴾

*(80/247)*

---

وقال الثعلبى :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا ﴾ يعزي نبيه صلى الله عليه وسلم يعني كما أتيناك بهؤلاء القوم وكذلك جعلنا ﴿ لِكُلِّ نَبِيٍّ ﴾ قبلك ﴿ عَدُوّاً ﴾ أعداء وفسّرهم فقال ﴿ شَيَاطِينَ الإِنس والجن ﴾ .

عكرمة والضحاك والسدي والكلبي : معناه : شياطين الإنس التي مع الإنس وشياطين الجن التي مع الجن وليس للإنس شياطين .

وذلك أن إبليس قسم جنده فريقين ، بعث منهم فريقاً إلى الإنس وفريقاً إلى الجن ، شياطين الإنس والجن فهم ملتقون في كل حين ، فيقول شيطان الإنس لشيطان الجن أضللت صاحبي بكذا فاضل صاحبك بمثله ، ويقول شيطان الجن لشيطان الإنس كذلك فذلك يوحي

بعضهم إلى بعض .

وقال آخرون : إنّ من الإنس شياطين ومن الجن شياطين ، والشيطان : العاتي المتمرّد من كل شيء .

قالوا : إن الشيطان إذا أغوى المؤمن وعجز عن إغوائه ذهب إلى متمرد من الإنس وهو شيطان من الإنس فأغراه المؤمن .

قال أبو طلحة ما روى عوف بن مالك عن أبي ذر قال : " قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : " يا أبا ذر هل تعوذت باللّه من شر شياطين الإنس والجن " قال : يا رسول اللّه فهل للإنس من شياطين ؟ قال : نعم هو شر من شياطين الجن " .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " ما منكم من أحد إلاّ وقد وكّل قرينه من الجن " قيل : ولا أنت يا رسول اللّه ؟

قال : " ولا أنا إلاّ أن اللّه قد أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلاّ بخير " .

وقال مالك بن دينار : إن شيطان الإنس أشد من شيطان الجن وذلك إني إذا تعوذت باللّه ذهب عني شيطان الجن ، وشيطان الإنس يحبني فيجرني إلى المعاصي عياناً . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ ﴾ يُعَزِّي نبيّه ويسلّيه ، أي كما ابتليناك بهؤلاء القوم

فكذلك جعلنا لكل نبي قَبْلَك ﴿ عَدُوّاً ﴾ أي أعداء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(81/247)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيّ عَدُوّاً ﴾

كلام مبتدأ مسوق لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم عما ( كان ) يشاهده من عداوة قريش وما بنوا عليها من الأقاويل والأفاعيل ، وذلك إشارة إلى ما يفهم مما تقدم ، والكاف في موضع نصب على أنه نعت لمصدر مؤكد لما بعده ، والتقديم للقصر المفيد للمبالغة ، و ﴿ عَدُوّا ﴾ بمعنى أعداء كما في قوله

: إذا أنا لم أنفع صديقي بوده . . .

فإن عدوي لم يضرهم بغضي

أي مثل ذلك الجعل في حقك حيث جعلنا لك أعداء يضادونك ( ويضارونك ) ولا يؤمنون ويبغونك الغوائل ( ويدبرون في إبطال أمرك مكايد ) جعلنا لكل نبي تقدمك فعلوا معهم نحو ما فعل معك أعداؤك لا جعلاً أنقص منه .

وجعله الإمام على هذا الوجه عطفاً على معنى ما تقدم من الكلام ، ولعله ليس المراد منه العطف الإصطلاحي ، وجوز أن يكون مرتبطاً بقوله سبحانه : و ﴿ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ [ الأنعام : 108 ] أي كما فعلنا ذلك جعلنا لكل نبي عدواً وفيه بعد .

وأياً ما كان فالآية ظاهرة فيما ذهب إليه أهل السنة من أنه تعالى خالق الشر كما أنه خالق الخير ، وحملها على أن المراد بها وكما خلينا بينك وبين أعدائك كذلك فعلنا بمن قبلك من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأعدائهم لم نمنعهم من العداوة لما فيه من الإمتحان الذي هو سبب ظهور الثبات والصبر وكثرة الثواب والأجر خلاف الظاهر .

ومثله قول أبي بكر الأصم إن هذا الجعل بطريق التسبب حيث أرسل سبحانه الأنبياء عليهم السلام وخصهم بالمعجزات فحسدهم من حسدهم وصار ذلك سبباً للعداوة القوية ، ونظير ذلك قول المتنبي

: فأنت الذي صيرتهم حسداً . . .

وقيل : المراد كما أمرناك بعداوة قومك من المشركين كذلك أمرنا من قبلك من الأنبياء بمعاداة نحو أولئك أو كما أخبرناك بعداوة المشركين وحكمنا بذلك أخبرنا الأنبياء بعداوة أعدائهم وحكمنا بذلك والكل ليس بشيء ، وهكذا غالب تأويلات المعتزلة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا ﴾

اعتراض قصد منه تسلية الرّسول صلى الله عليه وسلم والواو واو الاعتراض ، لأنّ الجملة بمنزلة الفذلكة ، وتكون للرّسول صلى الله عليه وسلم تسلية بعد ذكر ما يحزنه من أحوال كفار قومه ، وتصلّبهم في نبذ دعوته ، فأنبأه الله : بأنّ هؤلاء أعداؤه ، وأن عداوة أمثالهم سنة من سنن الله تعالى في ابتلاء أنبيائه كلّهم ، فما منهم أحد إلاّ كان له أعداء ، فلم تكن عداوة هؤلاء للنبيء عليه الصلاة والسلام بِدْعا من شأن الرّسل .

فمعنى الكلام : أَلَسْتَ نبيئا وقد جعلنا لكلّ نبيء عدوّا إلى آخره .

والإشارة بقوله : ﴿ وكذلك ﴾ إلى الجعل المأخوذ من فعل ﴿ جعلنا ﴾ كما تقدّم في قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً ﴾ [ البقرة : 143 ] .

فالكاف في محل نصب على أنّه مفعول مطلق لفعل ﴿ جعلنا ﴾ .

وقوله : ﴿ عدواً ﴾ مفعول ﴿ جعلنا ﴾ الأوّل ، وقوله : ﴿ لكل نبي ﴾ المجرور مفعول ثان ل ﴿ جعلنا ﴾ وتقديمه على المفعول الأول للاهتمام به ، لأنّه الغرض المقصود من السّياق ، إذ المقصود الإعلام بأنّ هذه سنّة الله في أنبيائه كلّهم ، فيحصل بذلك التَّأسِّي والقُدوة والتّسلية ؛ ولأن في تقديمه تنبيهاً من أول السمع على أنه خبر ، وأنه ليس متعلّقا

بقوله : ﴿ عدواً ﴾ كيلا يخال السّامع أنّ قوله : ﴿ شياطين الإنس ﴾ مفعول لأنّه يُحوّل الكلام إلى قصد الإخبار عن أحوال الشّياطين ، أو عن تعيين العدوّ للأنبياء من هو ، وذلك ينافي بلاغة الكلام .

و﴿ شياطين ﴾ بدل من ﴿ عدواً ﴾ وإنَّما صيغ التّركيب هكذا : لأنّ المقصود الأوّل الإخبار بأنّ المشركين أعداء للرّسول صلى الله عليه وسلم فمن أعرب ﴿ شياطين ﴾ مفعولاً ل ﴿ جَعل ﴾ و﴿ لكل نبي ﴾ ظرفاً لغواً متعلّقاً بـ ﴿ عدوّا ﴾ فقد أفسد المعنى .

(83/247)

---

والعَدُوّ : اسم يقع على الواحد والمعتدّ ، قال تعالى : ﴿ هم العدوّ فاحذرهم ﴾ [ المنافقون : 4 ] وقد تقدّم ذلك عند قوله تعالى : ﴿ فإن كان من قوم عدوّ لكم ﴾ في سورة النساء ( 92 ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

فائدة

قال الفخر :

النصب في قوله : ﴿ شياطين ﴾ فيه وجهان :

الأول : أنه منصوب على البدل من قوله : ﴿ عَدُوّا ﴾ والثاني : أن يكون قوله ﴿ عَدُوّا ﴾ منصوباً على أنه مفعول ثان ، والتقدير : وكذلك جعلنا شياطين الإنس والجن أعداء الأنبياء .

واختلفوا في معنى شياطين الإنس والجن على قولين : الأول : أن المعنى مردة الإنس والجن ، والشيطان ؛ كل عات متمرد من الإنس والجن ، وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء ومجاهد والحسن وقتادة وهؤلاء قالوا : إن من الجن شياطين ، ومن الإنس شياطين ، وإن الشيطان من الجن إذا أعياه المؤمن ذهب إلى متمرد من الإنس ، وهو شيطان الإنس فأغراه بالمؤمن ليفتنه ، والدليل عليه ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبي ذر : " هل تعوذت بالله من شر شياطين الجن والإنس ؟ " قال قلت : وهل للإنس من شياطين ؟ قال : " نعم هم شر من شياطين الجن "

والقول الثاني : أن الجميع من ولد إبليس إلا أنه جعل ولده قسمين ، فأرسل أحد القسمين إلى وسوسة الإنس .

والقسم الثاني إلى وسوسة الجن ، فالفريقان شياطين الإنس والجن ، ومن الناس من قال : القول الأول أولى لأن المقصود من الآية الشكاية من سفاهة الكفار الذين هم الأعداء وهم الشياطين ، ومنهم من يقول : القول الثاني أولى ، لأن لفظ الآية يقتضي إضافة الشياطين إلى الإنس والجن .

والإضافة تقتضي المغايرة ، وعلى هذا التقدير : فالشياطين نوع مغاير للجن وهم أولاد إبليس .

فائدة :

قال الزجاج وابن الأنباري : قوله : ﴿ عَدُوّاً ﴾ بمعنى أعداء وأنشد ابن الأنباري :

إذا أنا لم أنفع صديقي بوده . . فإن عدوي لن يضرهمو بغضي

أراد أعدائي ، فأدى الواحد عن الجمع ، وله نظائر في القرآن .

(84/247)

---

ومنها قوله : ﴿ ضَيْفِ إبراهيم المكرمين ﴾ [ الذاريات : 24 ] جعل المكرمين وهو جمع نعتاً للضيف وهو واحد ، وثانيها : قوله : ﴿ والنخل باسقات لَّهَا طَلْعٌ ﴾ [ ق : 10 ] وثالثها : قوله : ﴿ أَوِ الطفل الذين لَمْ يَظْهَرُواْ على عورات النساء ﴾ [ النور : 31 ] ورابعها : قوله : ﴿ إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ إِلاَّ الذين ءَامَنُواْ ﴾ [ العصر : 2 ] وخامسها : قوله : ﴿ كُلُّ الطعام كَانَ حِلاًّ لِّبَنِى إسرائيل ﴾ [ آل عمران : 93 ] أكد المفرد بما يؤكد الجمع به ، ولقائل أن يقول لا حاجة إلى هذا التكلف ، فإن التقدير : وكذلك جعلنا لكل واحد من الأنبياء عدواً واحداً ، إذ لا يجب لكل واحد من الأنبياء أكثر من عدو واحد .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 126 ﴾ . بتصرف يسير .

وقال القرطبى :

ثم نعتهم فقال : ﴿ شَيَاطِينَ الإنس والجن ﴾ حكى سيبويه جعل بمعنى وصف .

"عَدُوًّا" مفعول أوّل .

"لِكُلِّ نَبِيٍّ" في موضع المفعول الثاني .

"شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ" بدل من عدوّ .

ويجوز أن يكون "شياطين" مفعولا أوّل ، "عدواً" مفعولا ثانياً ؛ كأنه قيل : جعلنا شياطين الإنس والجن عدوّاً .

وقرأ الأعمش : "شياطين الجن والإنس" بتقديم الجن .

والمعنى واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ شياطين الإنس والجن ﴾ أي مردة النوعين كما روي عن الحسن وقتادة ومجاهد على أن الإضافة بمعنى من البيانية ؛ وقيل : هي إضافة الصفة للموصوف والأصل الإنس والجن الشياطين ، وقيل : هي بمعنى اللام أي الشياطين ( التي ) للإنس والجن .

وفي "تفسير الكلبي" عن ابن عباس ما يؤيده فإنه روى عنه أنه قال : إن إبليس عليه اللعنة جعل جنده فريقين فبعث فريقاً منهم إلى الإنس وفريقاً آخر إلى الجن .

وفي رواية أخرى عنه أن الجن هم الجان وليسوا بشياطين والشياطين ولد إبليس وهم لا يموتون إلا معه والجن يموتون ومنهم المؤمن والكافر ، وهو نصب على البدلية من ﴿ عَدُوّا ﴾ والجعل متعد إلى واحد أو إلى إثنين وهو أول مفعوليه قدم عليه الثاني مسارعة إلى بيان العداوة ، واللام على التقديرين متعلقة بالجعل أو بمحذوف وقع حالاً من ﴿ عَدُوّا ﴾ قدم عليه لنكارته ، وجوز أن يكون متعلقاً به وقدم عليه للإهتمام ، وأن يكون نصب ﴿ شياطين ﴾ بفعل مقدر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(85/247)

---

وقال ابن عاشور :

والشّيطان أصله نوع من الموجودات المجرّدة الخفية ، وهو نوع من جنس الجنّ ، وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشّياطين على ملك سليمان ﴾ [ البقرة : 102 ] .

ويطلق الشّيطان على المضلّل الّذي يفعل الخبائث من النّاس على وجه المجاز .

ومنه "شياطين العرب" لجماعة من خباثهم ، منهم : ناشب الأعور ، وابنُه سعد بن ناشب الشّاعر ، وهذا على معنى التّشبيه ، وشاع ذلك في كلامهم .

والإنس : الإنسان وهو مشتقّ من التأّنس والإلْف ، لأنّ البشر يألف بالبشر ويأنس به ،

فسمّاه إنساً وإنساناً .

و"شياطين الإنس" استعارة للنّاس الّذين يفعلون فعل الشّياطين : من مكر وخديعة .

وإضافة شياطين إلى الإنس إضافة مجازية على تقدير ( مِن ) التبعيضية مجازا ، بناء على الاستعارة التي تقتضي كون هؤلاء الإنس شياطين ، فهم شياطين ، وهم بعض الإنس ، أي أنّ الإنس : لهم أفراد متعارفة ، وأفراد غير متعارفة يطلق عليهم اسم الشّياطين ، فهي بهذا الاعتبار من إضافة الأخصّ من وجهٍ إلى الأعمّ من وجهٍ ، وشياطين الجنّ حقيقة ، والإضافة حقيقة ، لأنّ الجنّ منهم شياطين ، ومنهم غير شياطين ، ومنهم صالحون ، وعداوة شياطين الجنّ للأنبياء ظاهرة ، وما جاءت الأنبياء إلاّ للتحذير من فعل الشّياطين ، وقد قال الله تعالى لآدم : ﴿ إنّ هذا عدوّ لك ولزوجك ﴾ [ طه : 117 ] . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول غُرُوراً ﴾

فصل

قال الفخر :

المراد أن أولئك الشياطين يوسوس بعضهم بعضاً .

واعلم أنه لا يجب أن تكون كل معصية تصدر عن إنسان فإنها تكون بسبب وسوسة شيطان ، وإلا لزم دخول التسلسل أو الدور في هؤلاء الشياطين ، فوجب الاعتراف بانتهاء

هذه القبائح والمعاصي إلى قبيح أول ، ومعصية سابقة حصلت لا بوسوسة شيطان آخر .

إذا ثبت هذا الأصل فنقول : إن أولئك الشياطين كما أنهم يلقون الوساوس إلى الإنس والجن فقد يوسوس بعضهم بعضاً .

*(86/247)*

---

وللناس فيه مذاهب .

منهم من قال الأرواح إما فلكية وإما أرضية ، والأرواح الأرضية منها طيبة طاهرة خيرة آمرة بالطاعة والأفعال الحسنة ، وهم الملائكة الأرضية .

ومنها خبيثة قذرة شريرة ، آمرة بالقبائح والمعاصي ، وهم الشياطين .

ثم إن تلك الأرواح الطيبة كما أنها تأمر الناس بالطاعات والخيرات ، فكذلك قد يأمر بعضهم بعضاً بالطاعات .

والأرواح الخبيثة كما أنها تأمر الناس بالقبائح والمنكرات ، فكذلك قد يأمر بعضهم بعضاً بتلك القبائح والزيادة فيها .

وما لم يحصل نوع من أنواع المناسبة بين النفوس البشرية ، وبين تلك الأرواح لم يحصل ذلك الانضمام ، فالنفوس البشرية ، إذا كانت طاهرة نقية عن الصفات الذميمة كانت من جنس

الأرواح الطاهرة فتنضم إليها ، وإذا كانت خبيثة موصوفة بالصفات الذميمة كانت من جنس الأرواح الخبيثة فتنضم إليها .

ثم إن صفات الطهارة كثيرة .

وصفات الخبث والنقصان كثيرة ، وبحسب كل نوع منها طوائف من البشر وطوائف من الأرواح الأرضية بحسب تلك المجانسة والمشابهة والمشاكلة ينضم الجنس إلى جنسه ، فإن كان ذلك في أفعال الخير كان الحامل عليها ملكاً وكان تقوية ذلك الخاطر إلهاماً ، وإن كان في باب الشر كان الحامل عليها شيطاناً ، وكان تقوية ذلك الخاطر وسوسة .

إذا عرفت هذا الأصل فنقول : إنه تعالى عبر عن هذه الحالة المذكورة بقوله : ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول غُرُوراً ﴾ فيجب علينا تفسير ألفاظ ثلاثة : الأول : الوحي وهو عبارة عن الإيماء والقول السريع .

والثاني : الزخرف وهو الذي يكون باطنه باطلاً ، وظاهره مزيناً ظاهراً ، يقال : فلان يزخرف كلامه إذا زينه بالباطل والكذب ، وكل شيء حسن مموه فهو مزخرف .

*(87/247)*

واعلم أن تحقيق الكلام فيه أن الإنسان ما لم يعتقد في أمر من الأمور كونه مشتملاً على خير راجح ونفع زائد ، فإنه لا يرغب فيه ، ولذلك سمي الفاعل المختار مختاراً لكونه طالباً للخير والنفع ، ثم إن كان هذا الاعتقاد مطابقاً للمعتقد ، فهو الحق والصدق والإلهام وإن كان صادراً من الملك ، وإن لم يكن معتقداً مطابقاً للمعتقد ، فحينئذ يكون ظاهره مزيناً ، لأنه في اعتقاده سبب للنفع الزائد والصلاح الراجح ، ويكون باطنه فاسداً باطلاً .

لأن هذا الاعتقاد غير مطابق للمعتقد فكان مزخرفاً .

فهذا تحقيق هذا الكلام .

والثالث : قوله ﴿ غُرُوراً ﴾ قال الواحدي : ﴿ غُرُوراً ﴾ منصوب على المصدر ، وهذا المصدر محمول على المعنى .

لأن معنى إيحاء الزخرف من القول معنى الغرور ، فكأنه قال يغرون غروراً ، وتحقيق القول فيه أن المغرور هو الذي يعتقد في الشيء كونه مطابقاً للمنفعة والمصلحة مع أنه في نفسه ليس كذلك ، فالغرور إما أن يكون عبارة عن عين هذا الجهل أو عن حالة متولدة عن هذا الجهل .

فظهر بما ذكرنا أن تأثير هذه الأرواح الخبيثة بعضها في بعض لا يمكن أن يعبر عنه بعبارة أكمل ولا أقوى دلالة على تمام المقصود من قوله : ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول غُرُوراً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 127 . 128 ﴾

---

وقال القرطبى :

﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول غُرُوراً ﴾

عبارة عما يوسوس به شياطين الجن إلى شياطين الإنس .

وسُمِّيَ وَحْياً لأنه إنما يكون خفية ، وجعل تمويههم زخرفاً لتزيينهم إياه ؛ ومنه سمي الذهب زخرفا .

وكل شيء حسَن مُمَوّه فهو زُخْرُف .

والمزخرَف المزيّن .

وزخارف الماء طرائقه .

و"غُرُوراً" نصب على المصدر ، لأن معنى "يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ" يغرونهم بذلك غروراً .

ويجوز أن يكون في موضع الحال .

والغرور الباطل .

قال النحاس : ورُوي عن ابن عباس بإسناد ضعيف أنه قال في قول الله عز وجل : "يُوحِي

بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ" قال: مع كل جني شيطان، ومع كل إنسيّ شيطان، فيلقى أحدهما الآخر فيقول: إني قد أضللت صاحبي بكذا فأضل صاحبك بمثله.

ويقول الآخر مثل ذلك؛ فهذا وحي بعضهم إلى بعض.

وقاله عكرمة والضحاك والسُّدّي والكَلْبي.

قال النحاس: والقول الأوّل يدل عليه ﴿ وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ [الأنعام: 121]؛ فهذا يبيّن معنى ذلك.

قلت: ويدُلّ عليه من صحيح السنة قوله عليه السلام: " "ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قَرِينُه من الجن" قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: "ولا أنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير" " روى "فأسلم" برفع الميم ونصبها.

فالرفع على معنى فأسلم من شره.

والنصب على معنى فأسلم هو.

فقال: "ما منكم من أحد" ولم يقل ولا من الشياطين؛ إلا أنه يحتمل أن يكون نبّه على أحد الجنسين بالآخر؛ فيكون من باب "سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ" وفيه بُعْدٌ، والله أعلم.

*(89/247)*

وروى عَوف بن مالك عن أبي ذَرٍّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " "يا أبا ذَرّ هل تعوّذت بالله من شرّ شياطين الإنس والجن" ؟ قال قلت : يا رسول الله ، وهل للإنس من شياطين ؟ قال : "نعم هم شرٌّ من شياطين الجن" " وقال مالك بن دِينار : إن شيطان الإنس أشدّ عليّ من شيطان الجن ، وذلك أني إذا تعوّذت بالله ذهب عني شيطان الجن ، وشيطان الإنس يجيئني فيجرّني إلى المعاصي عِياناً .

وسَمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه امرأة تنشد :

إن النساء رَياحين خلقن لكم . . .

وكلُّكم يشتهِي شمّ الرياحين

فأجابها عمر رضي الله عنه :

إن النساء شياطين خُلقن لنا . . .

نعوذ بالله من شر الشياطين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

*(90/247)*

---

وقال الآلوسى :

وقوله سبحانه : ﴿ يُوحِى بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ ﴾

كلام مستأنف مسوق لبيان أحكام عداوتهم أو حال من ﴿ شياطين ﴾ أو صفة لعدو ، وجمع الضمير باعتبار المعنى كما في البيت السابق ، "وأصل الوحي كما قال الراغب الإشارة السريعة ولتضمن السرعة قيل أمر وحي ، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض ، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب وبإشارة ببعض الجوارح وبالكتابة أيضاً" ، والمعنى هنا يلقى ويوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس أو بعض كل من الفريقين إلى الآخر .

﴿ زُخْرُفَ القول ﴾ أي المزوق من الكلام الباطل منه .

وأصل الزخرف الزينة المزوقة ، ومنه قيل للذهب : زخرف ، وقال بعضهم : أصل معنى الزخرف الذهب ، ولما كان حسناً في الأعين قيل لكل زينة زخرفة ، وقد يخص بالباطل ﴿ غُرُوراً ﴾ مفعول له أي ليغروهم ، أو مصدر في موقع الحال أي غارين ، أو مصدر لفعل مقدر هو حال من فاعل ﴿ يُوحِي ﴾ أي يغرون غروراً ، وفسر الزمخشري الغرور بالخداع والأخذ على غرة ، ونسب للراغب أنه قال : يقال غره غروراً كأنما طواه على غره بكسر الغين المعجمة وتشديد الراء وهو طيه الأول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ إنّ هذا عدوّ لك ولزوجك ﴾ [ طه : 117 ] .

وجملة ﴿ يوحى ﴾ في موضع الحال ، يتقيّد بها الجَعل المأخوذ من ﴿ جعلنا ﴾ فهذا الوحي من تمام المجعول .

والوحي : الكلام الخفي ، كالوسوسة ، وأريد به ما يشمل إلقاء الوسوسة في النّفس من حديث يُزوّر في صورة الكلام .

والبعض الموحي : هو شياطين الجنّ ، يُلقون خواطر المقدرة على تعليم الشرّ إلى شياطين الإنس ، فيكونون زعماء لأهل الشرّ والفساد .

والزّخرف : الزّينة ، وسمّي الذهب زُخرفاً لأنَّه يتزيَّن به حَلياً ، وإضافة الزخرف إلى القول من إضافة الصّفة إلى الموصوف ، أي القول الزُخرف : أي المُزَخْرَف ، وهو من الوصف بالجامد الّذي في معنى المشتق ، إذ كان بمعنى الزيْن .

وأفهم وصف القول بالزُخرف أنّه محتاج إلى التّحسين والزخرفَة ، وإنَّما يحتاج القول إلى ذلك إذا كان غير مشتمل على ما يكسبه القبول في حدّ ذاته ، وذلك أنّه كان يفضي إلى ضُرّ يحتاج قائله إلى تزيينه وتحسينه لإخفاء ما فيه من الضرّ ، خشية أن ينفر عنه من يُسوله لهم ، فذلك التّزيين ترويج يستهوون به النّفوس ، كما تموّه للصّبيان اللُّعب بالألوان والتذهيب .

وانتصب ﴿ زخرف القول ﴾ على النيابة عن المفعول المطلق من فِعل ﴿ يوحى ﴾ لأنّ إضافة الزّخرف إلى القول ، الّذي هو من نوع الوحي ، تجعل ﴿ زخرف ﴾ نائياً عن المصدر المبيِّن لنوع الوحي .

---

والغرور : الخِداع والإطماع بالنّفع لقصد الإضرار ، وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ لا يغرنَّك تقلّب الذين كفروا في البلاد ﴾ في سورة آل عمران ( 196 ) .

وانتصب غروراً ﴾ على المفعول لأجله لفعل ﴿ يوحى ﴾ ، أي يرحون زخرف القول ليَغُرّوهم .

والقول في معنى المشيئة من قوله : ﴿ ولو شاء ربك ما فعلوه ﴾ كالقول في ﴿ ما كانوا ليؤمنوا إلاّ أن يشاء الله ﴾ [ الأنعام : 111 ] وقوله : ﴿ ولو شاء الله ما أشركوا ﴾ [ الأنعام : 107 ] والجملة معترضة بين المفعول لأجله وبين المعطوف عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾

قال الفخر :

أصحابنا يحتجون به على أن الكفر والإيمان بإرادة الله تعالى .

والمعتزلة يحملونه على مشيئة الإلجاء ، وقد سبق تقرير هذه المسألة على الاستقصاء ، فلا فائدة في الإعادة .

ثم قال تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ قال ابن عباس : معناه يريد ما زين لهم إبليس وغرهم به قال القاضي : هذا القول يتضمن التحذير الشديد من الكفر والترغيب الكامل في الإيمان ، ويقتضي زوال الغم عن قلب الرسول من حيث يتصور ما أعد الله للقوم على كفرهم من أنواع العذاب وما أعد له من منازل الثواب بسبب صبره على سفاهتهم ولطفه بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 128 ﴾

*(92/247)*

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾

أي ما فعلوا إيحاء القول بالغرور .

﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ أمْرٌ فيه معنى التهديد .

قال سيبويه : ولا يقال وَذَر ولا وَدَع ، استغنَوْا عنهما بترك .

قلت : هذا إنما خرج على الأكثر .

وفي التنزيل : "وَذَرِ الَّذِينَ" و"ذَرْهم" و"مَا وَدَعَكَ" .

وفي السنة : "لينتهِيَنّ أقوام عن وَدْعِهم الجُمُعات" .

وقوله : "إذا فعلوا يريد المعاصي فقد تُودِّع منهم" .

قال الزجاج : الواو ثقيلة ؛ فلما كان "ترك" ليس فيه واو بمعنى ما فيه الواو تُرِك ما فيه الواو .

وهذا معنى قوله وليس بنصِّه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(93/247)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ رجوع كما قيل إلى بيان الشؤون الجارية بينه عليه الصلاة والسلام وبين قومه المفهومة من حكاية ما جرى بين الأنبياء عليهم السلام وبين أممهم كما ينبىء عنه الالتفات ، والتعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام المعربة عن كمال اللطف في التسلية ، والضمير المنصوب في ﴿ فَعَلُوهُ ﴾ عائد إلى عداوتهم له صلى الله عليه وسلم وإيحاء بعضهم إلى بعض مزخرفات الأقاويل الباطلة المتعلقة بأمر عليه الصلاة والسلام باعتبار انفهام ذلك مما تقدم وأمر الأفراد سهل ، وقيل : إنه عائد إلى ما ذكر من معاداة الأنبياء عليهم السلام ، وإيحاء الزخارف أعم من أن تكون في أمره صلى الله عليه وسلم وأمور إخوانه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وفيه أن قوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ كالصريح في أن المراد بهم الكفرة

المعاصرون له عليه الصلاة والسلام ، وقيل : هو عائد إلى الإيحاء أو الزخرف أو الغرور ، وفي أخذ ذلك عاماً أو خاصاً احتمالان لا يخفى الأولى منهما ، ومفعول المشيئة محذوف أي عدم ما ذكر ولا إشكال في جعل العدم الخاص متعلق المشيئة ، وقدره بعضهم إيمانهم . واعترض بأن القاعدة المستمرة أن مفعول المشيئة عند وقوعها شرطاً يكون مضمون الجزاء كما في "علم المعاني" وهو هنا ﴿ مَّا فَعَلُوهُ ﴾ وتعقب بأنه ههنا ذكر المشيئة فيما تقدم متعلقاً بشيء وهو الإيمان كما أشير إليه ثم ذكر في حيز الشرط بدون متعلق فالظاهر أنه يجوز أن يقدر متعلقه مضمون الجزاء وأن يقدر ما علق به فعل المشيئة سابقاً ، ولا بأس بمراعاة كل من الأمرين بحسب ما يقتضيه الحال .

(94/247)

---

والمذكور في المعاني إنما هو فيما لم يتكرر فيه فعل المشيئة ولم يكن قرينة غير الجزاء فليعرف ذلك فإنه بديع ، والأولى عندي اعتبار مضمون الجزاء مطلقاً ، وإنما قال سبحانه هنا ﴿ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ [ الأنعام : 137 ] وفيما يأتي ﴿ وَلَوْ شَاء اللهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ فغاير بين الإسمين في المحلين لما ذكر بعضهم وهو أن ما قبل هذه الآية من عداوتهم له عليه الصلاة والسلام كسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام التي لو شاء منعهم عنها فلا يصلون إلى

المضرة أصلاً يقتضي ذكره جل شأنه بهذا العنوان إشارة إلى أنه مربيه صلى الله عليه وسلم في كنف حمايته وإنما لم يفعل سبحانه ذلك لأمر اقتضته حكمته ، وأما الآية الأخرى فذكر قبلها إشراكهم فناسب ذكره عز اسمه بعنوان الألوهية التي تقتضي عدم الاشتراك فكأنه قيل ههنا : إذا كان ما فعلوه من أحكام عداوتك من فنون المفاسد بمشيئة ربك جل شأنه الذي لم تزل في كنف حمايته وظل تربيته فاتركهم وافتراءهم أو وما يفترونه من أنواع المكايد ولا تبال به فإن لهم في ذلك عقوبات شديدة ولك عواقب حميدة لابتناء مشيئته سبحانه على الحكم البالغة ألبتة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

والضّمير المنصُوبُ في قوله : ﴿ فعلوه ﴾ عائد إلى الوحي .

المأخوذ من ﴿ يوحى ﴾ أو إلى الإشراك المتقدّم في قوله : ﴿ ولو شاء الله ما أشركوا ﴾ [ الأنعام : 107 ] أو إلى العداوة المأخوذة من قوله : ﴿ لكل نبي عدواً ﴾ .

والضّمير المرفوع عائد إلى ﴿ شياطين الإنس والجن ﴾ ، أو إلى المشركين ، أو إلى العدوّ ، وفرع عليه أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بتركهم وافتراءَهم ، وهو تركُ إعراضٍ عن الاهتمام بغرورهم ، والنكدِ منه ، لا إعْراض عن وعظهم ودعوتهم ، كما تقدّم في قوله : ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ .

والواو بمعنى مع .

﴿ وما يفترون ﴾ مَوصول منصوب على المفعول معه .

وما يفترونه هو أكاذيبهم الباطلة من زعمهم إلهية الأصنام ، وما يتبع ذلك من المعتقدات الباطلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

(95/247)

---

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : "ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون " ، وورد بعد هذا : "ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون " ، للسائل أن يسأل عن وجه اختلاف الاسمين فى قوله "ولو شاء ربك " ، و"ولو شاء الله " ؟

والجواب عن ذلك والله أعلم : أنه لما تقدم الآية الأولى قوله تعالى : "ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شئ قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله " ، فعرف سبحانه نبيه ، عليه السلام بما سبق لهؤلاء وما قدره عليهم فى الأزل حتى لا يجدى عليهم شئ ولا ينفعهم تذكار فلما تقدم من القدر على هؤلاء ما يثير أشد الخوف كان مظنة إشفاق فأنس نبيه صلى الله عليه وسلم ولاطفه بإضافة اسم ربوبيته سبحانه لنبيه عليه

السلام ، مخاطبا له فقال : "ولو شاء ربك ما فعلوه" فسكن جأشه وتلطف فى تأنيسه ، عليه السلام وتأنيس أمته بأنسه ، ولما لم يقع قبل الآية بعد مثل هذا وإنما قبلها : "وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم ولو شاء الله ما فعلوه" وليس هذا فى اقتضاء الحتم عليهم المؤذن بقطع الرجاء منهم كقوله فى الأولى : "ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة . . . "الآية ، فلذلك قال عقب هذه الآية الثانية : "ولو شاء الله ما فعلوه" فجاء باسمه الأعظم تعالى من غير إضافة إذ ليس هذا مثل الأول ، ولو ورد الاسم الأعظم أولا والاسم الكريم المضاف ثانيا لما ناسب على ما تمهد ، والله سبحانه أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 168 ﴾

*(96/247)*

---

لطيفة

قال فى البحر المديد :

الإشارة : كما جعل الله لكل نبي عدوًا من شياطين الإنس والجن ؛ جعل للأولياء كذلك ؛ تحويشًا لهم إليه ، وتطهيرًا لهم من البقايا ليصلحوا لحضرته ، قال في الحِكَم : " إنما أجرى الأذى عليهم كي لا تكون ساكنًا إليهم ، أراد أن يُزعجك عن كل شيء حتى لا يشغلك عنه

شيء " . وقال في لطائف المنن : اعلم أن أولياء الله حكمهم في بدايتهم أن يُسلط الخلق عليهم ليطهروا من البقايا ، وتكمل فيهم المزايا ، كي لا يساكنوا هذا الخلق باعتماد ، أو يميلوا إليهم باستناد ، ومن آذاك فقد أعتقك من رزق إحسانه ، ومن أحسن إليك فقد استرقك بوجود امتنانه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : " من أسدى إليكم نعمًا فكافئوه ، فإن لم تقدروا فادعوا له " كل ذلك ليتخلص القلب من رق إحسان الخلق ، ويتعلق بالملك الحق . أ هـ

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه : آذاني إنسانٌ فضقت به ذرعًا ، فرأيتُ يُقال لي : مِن علامة الصديقية كثرةُ أعدائها ثم لا يبالي بهم . وقال بعضهم : الصيحة من العدو ، سَوطٌ من الله يزجرُ بها القلوب إذا ساكنت غيره ، وإلا رقد القلب في ظل العز والجاه ، وهو حجاب عن الله تعالى عظيم . ه .

وقال شيخ شيوخنا سيدي على الجمل رضي الله عنه : ( عداوة العدو حقًا : اشتغالك بمحبة الحبيب حقًا ، وأما إذا اشتغلت بعداوة العدو نال مراده منك ، وفاتتك محبة الحبيب ) . وقال بعض أشياخ الشعراني في بعض وصاياه له : لا تشتغل قط بمن يؤذيك ، واشتغل بالله يرده عنك ؛ فإنه هو الذي حركه عليك ؛ ليختبر دعواك في الصدق ، وقد غلط في هذا الأمر خلق كثير ، فاشتغلوا بأذى من آذاهم ، فدام الآذى مع الإثم ، ولو أنهم رجعوا إلى الله لردهم عنهم وكفاهم أمرهم . أ هـ

وهذا كله إنما يكون في البدايات ، كما قال الشاذلي رضي الله عنه : ( اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا ) . . فإذا تمت أنوارهم وتطهرت من البقايا أسرارهم ، حكَّمهم في العباد ، وأذلهم لهم ، فيكون العبد المجتبى سيفاً من سيوف الله ، ينتصر الله به لنفسه ؛ كما نبه على ذلك في لطائف المنن . وذلك من أسرار عدم مشروعية الجهاد من أول الإسلام ؛ تشريعًا لما ذكرنا ، وتحذيرًا من الانتصار للنفس ، وعدم تمحض النصرة للحق . وعند الرسوخ في اليقين ، والأمن من مزاحمة الصدق غيره ، وقع الإذن في الجهاد ، هذا بالنسبة إلى الصحابة الكرام ، وأما النبي صلى الله عليه وسلم فكامل من أول نشأته ، وإنما ذلك تشريع لغيره ، وترفيع لرتبته . والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 2 صـ 160 . 161 ﴾

فائدة

قال فى روح البيان :

وفي الآية : إشارة إلى أن البلايا للسائرين إلى الله هي المطايا وأن أشد البلاء شماتة الأعداء فلما كانت رتبة الأنبياء أعلى كانت عداوة الكفار لهم أوفى وفي ذلك ترقيات لهم وتجليات .

والإشارة في شيطان الإنس إلى النفس الأمارة بالسوء وهي أعدى الأعداء ولهذا قدم ذكره على الجن ههنا بخلاف المواضع الأخر وليعلم أن عداوة النفس وأصحاب النفوس أشد وأصعب من عداوة شياطين الجن فإن كيد الشيطان مع كيد الإنسان ضعيف وأرباب القلوب لا يصغون إلى زخارف أقوال أصحاب النفوس بل كلما تشتد عداوة الأعداء يقوى إيمان الأولياء .

وإنما يتسلط الشيطان على ابن آدم بفضول النظر والكلام والطعام وبمخالطة الناس ومن اختلط فقد استمع إلى الأكاذيب .

وعن بعض الشيوخ : أن الشيطان أشد بكاء على المؤمن إذا مات من بعض أهله لما فاته من افتتانه إياه في الدنيا وإذا عرج بروح المؤمن إلى السماء قالت الملائكة سبحان الذي نجّى هذا العبد من الشيطان يا ويحه كيف نجا .

فعلى المؤمن أن يحترز من وساوسه وحديث نفسه أيضاً كيلا يفتضح عند الله وعند الناس

فإنه روي أن الوسواس الخناس يخبر بما وقع في قلب ابن آدم وحدث به نفسه وإن لم يخبره لغيره كما حكي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذكر امرأة في نفسه فجعل الناس يتحدثون به فيما بينهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 3 صـ 115 ﴾

(99/247)

---

ومن فوائد السمرقندى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا ﴾

يعني : أعداء ومعنى ذلك كما جعلنا لك ولأمتك أعداء مثل أبي جهل وأصحابه كذلك جعلنا لكل نبي عدواً

﴿ شياطين الإنس والجن ﴾ قال مقاتل وذلك أن إبليس وكل شياطين الإنس وشياطين الجن يضلونهم فإذا التقى شيطان الجن مع شيطان الإنس قال أحدهما للآخر : إني أضللت صاحبي بكذا وكذا فأَضْلِلْ أنت صاحبك بكذا وكذا .

فذلك قوله : ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ يعني : يكلم بعضهم بعضاً بالإضلال .

وقال عكرمة : للجن شياطين مثل شياطين الإنس .

وروي عن الزبير بن العوام أنّ جنياً شكا إليه ما لقي من الشيطان ، فعلمه دعاء ليخلص منه فدعا به ، ووجه آخر شياطين الإنس والجن يعني : الشياطين من الإنس والشياطين من الجن ، لأن كل عات متمرد فهو شيطان .

وروي عن أبي ذر الغفاري أنه قال دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد فأمرني أن أصلي ركعتين فصليت ثم جلست عنده قال : " يا أَبَا ذَرَ تَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَشَيَاطِينَ الجِنّ " فقلت يا رسول الله أوَ من الإنس شياطين ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم " أوَ مَا تَقْرَأ قَوْلَهُ ﴿ شياطين الإنس والجن ﴾ ؟ " وكذلك هذان القولان من قوله تعالى ﴿ الذى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ الناس مِنَ الجنة والناس ﴾ [ الناس : 5 ، 6 ] ثم قال ﴿ يُوحِى بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ ﴾ يعن يوسوس بعضهم بعضاً .

﴿ زُخْرُفَ القول غُرُوراً ﴾ يعني : ما زين منه وحسن وموه يعني : يزين القول باطلاً ، يغرهم بذلك .

وأصل الزخرف الذهب .

وسمى الزينة زخرفاً لأن أصل الزينة من الذهب يعني : يزين لبعض الأعمال .

*(100/247)*

ثم قال : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ يعني : لو شاء ربك لمنعهم من الوسوسة ، ولكن الله يمتحن بما يعلم أنه أبلغ في الحكمة وأجزل في الثواب ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ يعني : خلّ عنهم وما يكذبون من القول والغرور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

ومن فوائد الماوردى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله عز وجل : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُواً ﴾

أي جعلنا للأنبياء أعداء كما جعلنا لغيرهم من الناس أعداء .

وفي ﴿ جَعَلْنَا ﴾ وجهان :

أحدهما : معناه حكمنا بأنهم أعداء .

والثاني : معناه تركناهم على العداوة ، فلم نمنعهم منها .

وفي ﴿ شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ ثلاثة أقاويل :

أحدها : يعني شياطين الإنس الذين مع الإنس ، وشياطين الجن الذين مع الجن ، قاله عكرمة ، والسدي .

والثاني : شياطين الإنس كفارهم ، وشياطين الجن كفارهم ، قاله مجاهد .

والثالث : أن شياطين الإنس والجن مردتهم ، قاله الحسن ، وقتادة .

﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ في يوحي ثلاثة أوجه :

أحدها : يعني يوسوس بعضهم بعضاً .

والثاني : يشير بعضهم إلى بعض ، فعبر عن الإشارة بالوحي كقوله : ﴿ فَأَوْحَى إِلَيهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ [ مريم : 11 ] و ﴿ زُخْرُفَ الْقَوْلِ ﴾ ما زينوه لهم من الشبه في الكفر وارتكاب المعاصي .

والثالث : يأمر بعضهم بعضاً كقوله : ﴿ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ [ فصلت : 12 ] أي أمر .

ثم قال : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : ما فعلوه من الكفر .

والثاني : ما فعلوا من زخرف القول .

وفي تركهم على ذلك قولان :

أحدهما : ابتلاء لهم وتمييزاً للمؤمنين منهم .

والثاني : لا يلجئهم إلى الإيمان فيزول التكليف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد ابن الجوزى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً ﴾

---

أي : وكما جعلنا لك ولأُمتك شياطين الإنس والجن أعداءً ، كذلك جعلنا لمن تقدّمك من الأنبياء وأُممهم ؛ والمعنى : كما ابتليناك بالأعداء ، ابتلينا مَنْ قبلك ، ليعظم الثواب عند الصبر على الأذى .

قال الزجاج : "وعدو" : في معنى أعداء ، و"شياطين الإنس والجن" : منصوب على البدل من "عدو" ومفسر له ؛ ويجوز أن يكون : "عدواً" منصوب على أنه مفعول ثان ، المعنى : وكذلك جعلنا شياطين الإنس والجن أعداءً لأُممهم .

وفي شياطين الإنس والجن ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم مردة الإنس والجن ، قاله الحسن ، وقتادة .

والثاني : أن شياطين الإنس : الذين مع الإنس ، وشياطين الجن : الذين مع الجن ، قاله عكرمة ، والسدي .

والثالث : أن شياطين الإنس والجن : كفارهم ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : ﴿ يوحي ﴾ أصل الوحي : الإعلام والدلالة بِسَتر وإخفاء .

وفي المراد به هاهنا ثلاثة أقوال .

أحدها : أن معناه : يأمر .

والثاني : يوسوس .

والثالث : يشير .

وأما ﴿ زخرف القول ﴾ ، فهو ما زُيِّن منه ، وحُسِّن ، ومُوِّه ، وأصل الزخرف : الذهب .

قال أبو عبيدة : كل شيء حسَّنته وزيَّنته وهو باطل ، فهو زخرف .

وقال الزجاج : "الزخرف" في اللغة : الزينة ؛ فالمعنى : أن بعضهم يزين لبعض الأعمال القبيحة ؛ و"غروراً" منصوب على المصدر ؛ وهذا المصدر محمول على المعنى ، لأن معنى إيحاء الزخرف من القول : معنى الغرور ، فكأنه قال : يَغرُّون غُروراً .

وقال ابن عباس : ﴿ زخرفَ القول غروراً ﴾ : الأمانيُّ بالباطل .

قال مقاتل : وكَّلَ إبليسُ بالإنس شياطين يُضِلُّونَهم ، فإذا التقى شيطان الإنس بشيطان الجن ، قال أحدهما لصاحبه : إني أضللت صاحبي بكذا وكذا ، فأضلْ أنت صاحبك بكذا وكذا ، فذلك وحي بعضهم إلى بعض .

وقال غيره : إن المؤمن إذا أعيا شيطانه ، ذهب إلى متمرد من الإنس ، وهو شيطان الإنس ، فأغراه بالمؤمن ليفتنه .

وقال قتادة : إن من الجن شياطين ، وإن من الإنس شياطين .

وقال مالك بن دينار : إن شيطان الإنس أشد عليَّ من شيطان الجن ، لأني إذا تعوَّذت من ذاك ذهب عني ، وهذا يجرني إلى المعاصي عِياناً .

قوله تعالى : ﴿ ولو شاء ربك ما فعلوه ﴾ في هاء الكناية ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها ترجع إلى الوسوسة .

والثاني : ترجع إلى الكفر .

والثالث : إلى الغرور وأذى النبيّين .

قوله تعالى : ﴿ فذرهم وما يفترون ﴾ قال مقاتل : يريد كفار مكة وما يفترون من الكذب .

وقال غيره : فذر المشركين وما يخاصمونك به مما يوحي إليهم أولياؤهم ، وما يختلقون من كذب ، وهذا القدر من هذه الآية منسوخ بآية السيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي ﴾ الآية ، تتضمن تسلية النبي عليه السلام وعرض القدوة عليه ، أي إن هذا الذي امتحنت به يا محمد من الأعداء قد امتحن به غيرك من

الأنبياء ليبتلي الله أولي العزم منهم ، و﴿ عدواً ﴾ مفرد في معنى الجمع ، ونصبه على المفعول الأول ل ﴿ جعلنا ﴾ المفعول الثاني في قوله ﴿ لكل نبي ﴾ ، و﴿ شياطين ﴾ بدل من قوله ﴿ عدواً ﴾ ، ويصح أن يكون المفعول الأول ﴿ شياطين ﴾ والثاني ﴿ عدواً ﴾ ، وقوله ﴿ شياطين الإنس والجن ﴾ يريد به المتمردين من النوعين الذين هم من شيم السوء كالشياطين ، وهذا قول جماعة من المفسرين ويؤيده حديث أبي ذر أنه صلى يوماً فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تعوذ يا أبا ذر من شياطين الجن والإنس ، قال وإن من الإنس لشياطين ؟ قال : نعم " قال السدي وعكرمة : المراد بالشياطين الموكلون بالإنس والشياطين الموكلون بمؤمني الجن ، وزعماً أن للجن شياطين موكلين بغوايتهم وأنهم يوحون إلى شياطين الإنس بالشر والوسوسة يتعلمها بعضهم من بعض ، قالا : ولا شياطين من الإنس .

*(103/247)*

---

قال القاضي أبن محمد : وهذا قول لا يستند إلى خبر ولا إلى نظر ، و﴿ يوحي ﴾ معناه يلقيه في اختفاء فهو كالمناجاة والسرار ، و﴿ زخرف القول ﴾ معناه محسنه ومزينه بالأباطيل ، قاله عكرمة ومجاهد ، و" الزخرفة " أكثر ذلك إنما يستعمل في الشر والباطل ،

و ﴿ غروراً ﴾ نصب على المصدر ومعناه أنهم يغرون به المضللين ويوهمون لهم أنهم على شيء والأمر بخلاف ، والضمير في قوله ﴿ فعلوه ﴾ عائد على اعتقادهم العداوة ، ويحتمل على الوحي الذي تضمنته ﴿ يوحي ﴾ . وقوله ﴿ فذرهم وما يفترون ﴾ لفظ يتضمن الأمر بالموادعة منسوخ بآيات القتال ، قال قتادة كل ذر في كتاب الله فهو منسوخ بالقتال و ﴿ يفترون ﴾ معناه يختلفون ويشتقون ، وهو من الفرقة تشبيهاً بفري الأديم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد الخازن فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً ﴾

قيل هو منسوق على قوله تعالى كذلك زينّا لكل أمة عملهم ، أي كما فعلنا ذلك كذلك جعلنا لكل نبي عدواً .

وقيل : معناه كما جعلنا لمن قبلك من الأنبياء أعداء كذلك جعلنا لك أعداء وفيه تعزية للنبي صلى الله عليه وسلم وتسلية له يقول الله تبارك وتعالى : كما ابتليناك بهؤلاء القوم فكذلك جعلنا لكل نبي قبلك عدواً ليعظم ثوابه على ما يكابده من أذى أعدائه وعدو واحد يراد به الجمع يعني جعلنا لكل نبي أعداء

﴿ شياطين الإنس والجن ﴾ اختلف العلماء في معنى شياطين الإنس والجن على قولين :

أحدهما : أن المراد شياطين من الإنس وشياطين من الجن والشيطان كل عات متمرد من الجن والإنس وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء ، وهو قول مجاهد وقتادة .

*(104/247)*

---

قالوا : وشياطين الإنس أشد تمرداً من شياطين الجن لأن شيطان الجن إذا عجز عن إغواء المؤمن الصالح وأعياه ذلك استعان على إغوائه بشيطان الإنس ليفتنه ، ويدل على صحة هذا القول ما روي عن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " هل تعوذ بالله من شيطان الجن والإنس قلت يا رسول الله وهل للإنس من شيطان ؟ قال نعم هم شر من شياطين الجن " ذكره البغوي بغير سند وأسنده الطبري .

وقال مالك بن دينار : إن شيطان الإنس أشد عليّ من شيطان الجن وذلك أني إذا تعوذت بالله ذهب شيطان الجن وشيطان الإنس يجيئني فيجرني إلى المعاصي .

القول الثاني : إن الجميع من ولد إبليس وأضيف الشياطين إلى الإنس على معنى أنهم يغوونهم ، وهذا قول عكرمة والضحاك والكلبي والسدي .

ورواية عن ابن عباس قالوا : والمراد بشياطين الإنس التي مع الإنس وبشياطين الجن التي مع الجن وذلك أن إبليس قسم جنده قسمين فبعث فريقاً منهم إلى الجن وفريقاً إلى الإنس

فالفريقان شياطين الجن والإنس بمعنى أنهم يغوونهم ويضلّونهم وكلا الفريقين أعداء للنبي صلى الله عليه وسلم ولأولياءه من المؤمنين والصالحين .

ومن ذهب إلى هذا القول قال : يدل على صحته أن لفظ الآية يقتضي إضافة الشياطين إلى الإنس والجن والإضافة تقتضي المغايرة فعلى هذا يكون في الشياطين نوع مغاير للإنس والجن وهم أولاد إبليس .

وقوله تعالى : ﴿ يوحي بعضهم إلى بعض ﴾ يعني يلقي ويسرّ بعضهم إلى بعض ويناجي بعضهم بعضاً وهو الوسوسة التي يلقيها إلى من يريد إغوائه ، فعلى القول الأول : إن شياطين الإنس والجن يسر بعضهم إلى بعض ما يفتنون به المؤمنين والصالحين ، وعلى القول الثاني : إن أولاد إبليس يلقى بعضهم بعضاً في كل حين فيقول شيطان الإنس لشيطان الجن أضللت صاحبي بكذا وكذا فأضلَّ أنت صاحبك بمثله ويقول شيطان الجن لشيطان الإنس كذلك فذلك وحي بعضهم إلى بعض .

*(105/247)*

---

وقوله : ﴿ زخرف القول ﴾ يعني باطل القول والزخرف هو الباطل من الكلام الذي قد زين ووشي بالكذب وكل شيء حسن مموه فهو زخرف ﴿ غروراً ﴾ يعني أن الشياطين يغرون

بذلك القول الكذب المزخرف غروراً وذلك أن الشياطين يزينون الأعمال القبيحة لبني آدم ويغرونهم بها غروراً ﴿ ولو شاء ربك ما فعلوه ﴾ يعني ما فعلوا الوسوسة التي يلقيها الشياطين في قلوب بني آدم ، والمعنى أن الله تعالى لو شاء لمنعَ الشياطين من إلقاء الوسوسة إلى الإنس والجن ولكن الله يمتحن من يشاء من عباده بما يعلم أنه الأجزل له في الثواب إذا صبر على المحنة ﴿ فذرهم وما يفترون ﴾ يعني فخلِّهم يا محمد وما زين لهم إبليس وغرهم به من الكفر والمعاصي فإني من ورائهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوّاً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾

المعنى مثل ما جعل هؤلاء الكفار المقترحين الآيات وغيرهم أعداء لك جعلنا لمن قبلك من الأنبياء أعداء شياطين الإنس والجن أي متمردي الصنفين ﴿ يوحى ﴾ يلقي في خفية بعضهم إلى بعض ، أي بعض الصنف الجني إلى بعض الصنف الإنسي ، أو يوحي شياطين الجن إلى شياطين الإنس زخرف القول ، أي محسنه ومزينه ، وثمرة هذا الجعل الامتحان فيظهر الصبر على ما منوا به ممن يعاديهم فيعظم الثواب والأجر وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتأس بمن تقدمه من الأنبياء وأنك لست منفرداً بعداوة من

عاصرك ، بل هذه سنة من قبلك من الأنبياء .

وعدو كما قلنا قبل في معنى أعداء .

وقال تعالى : ﴿ وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً ﴾ وقال الشاعر :

إذ أنا لم أنفع صديقي بودّه . . .

فإن عدوّي لن يضرهم بغضي

وأعرب الحوفي والزمخشري وابن عطية وأبو البقاء هنا كإعرابهم ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن ﴾ وجوّزوا في شياطين البدلية من عدواً ، كما جوّزوا هناك بدلية الجن من شركاء وقد رددناه عليهم .

*(106/247)*

---

والظاهر أن قوله ﴿ شياطين الإنس والجن ﴾ هو من إضافة الصفة إلى الموصوف ، أي الإنس والجن الشياطين فيلزم أن يكون من الإنس شياطين ومن الجن شياطين ، والشيطان هو المتمرّد من الصنفين كما شرحناه .

وهذا قول قتادة ومجاهد والحسن ، وكذا فهم أبو ذر من قول الرسول له : " هل تعوّذت من شياطين الجن والإنس " قلت : يا رسول الله وهل للإنس من شياطين ؟ قال : " نعم وهم

شر من شياطين الجن " .

وقال مالك بن دينار شيطان الإنس عليّ أشد من شيطان الجن لأني إذا تعوذت بالله ذهب عني شيطان الجن ، وشيطان الإنس يجيئني ويجرني إلى المعاصي عياناً .

وقال عطاء : أما أعداء النبي صلى الله عليه وسلم من شياطين الإنس : فالوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأبو جهل بن هشام والعاصي بن عمرو ، وزمعة بن الأسود والنضر بن الحارث والأسود بن عبد الأسد وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وعتبة بن أبي معيط والوليد بن عتبة وأبيّ وأمية ابنا خلف ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وعتبة بن عبد العزى ، ومعتب بن عبد العزى .

وفي الحديث : " ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن قيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : "ولا أنا إلا أن الله عافاني وأعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير " .

وقيل : الإضافة ليست من باب إضافة الصفة للموصوف بل هي من باب غلام زيد أي شياطين الإنس والجن ، أي متمردين مغوين لهم .

*(107/247)*

وعلى هذا فسره عكرمة والضحاك والسدّي والكلبي قالوا : ليس من الإنس شياطين والمعنى شياطين الإنس التي مع الإنس ، وشياطين الجن التي مع الجن ، قسم إبليس جنده فريقاً إلى الإنس وفريقاً إلى الجنّ ، يتلاقون فيأمر بعض بعضاً أن يضل صاحبه بما أضل هو به صاحبه ، ورجحت هذه الإضافة بأن أصل الإضافة المغايرة بين المضاف والمضاف إليه ، ورجحت الإضافة السابقة بأن المقصود التسلّي والائتسا بمن سبق من الأنبياء ، إذ كان في أممهم من يعاديهم كما في أمّة محمد من كان يعاديه ، وهم شياطين الإنس والظاهر في جعلنا أنه تعالى هو مصيرهم أعداء للأنبياء والعداوة للأنبياء معصية وكفر ، فاقتضى أنه خالق ذلك وتأول المعتزلة هذا الظاهر .

فقال الزمخشري وكما خلينا بينك وبين أعدائك كذلك فعلنا بمن قبلك من الأنبياء وأعدائهم ، لم يمنعهم من العداوة انتهى .

وهذا قول الكعبي قال : خلي بينه وبينه .

وقال الجبائي : الجعل هنا الحكم والبيان يقال كفره حكم بكفره وعدله أخبر عن عدالته .

ولما بين للرسول كونهم أعداء لهم قال جعلهم أعداء لهم .

وقال أبو بكر الأصم لما أرسله الله إلى العالمين وخصه بالمعجزات حسدوه وصار الجسد مبيناً للعداوة القوية ، فلهذا التأويل قال جعلهم له أعداء كما قال الشاعر :

فأنت صيرتهم لي حسداً . . .

وذلك يقتضي صيرورتهم أعداء للأنبياء ، وانتصب غروراً على أنه مفعول له وجوّزوا أن يكون مصدراً ليوحي لأنه بمعنى يغرّ بعضهم بعضاً أو مصدراً في موضع الحال أي غارّين .

﴿ ولو شاء ربك ما فعلوه ﴾ أي ما فعلوا العداوة أو الوحي أو الزخرف ، أو القول أو الغرور أوجه ذكروها .

﴿ فذرهم وما يفترون ﴾ أي اتركهم وما يفترون من تكذيبك ويتضمن الوعيد والتهديد .

قال ابن عباس يريد ما زين لهم إبليس وما غرّهم به انتهى .

وظاهر الأمر الموادعة وهي منسوخة بآيات القتال .

*(108/247)*

---

وقال قتادة كل ذر في كتاب الله فهو منسوخ بالقتال وما بمعنى الذي أو موصوفة أو مصدرية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

ومن فوائد ابن كثير فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (112) ﴾

يقول تعالى : وكما جعلنا لك – يا محمد – أعداءً يخالفونك ، ويعادونك جعلنا لكل نبي من قبلك أيضا أعداء فلا يَهِيدنَّك ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ [آل عمران : 184] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا [حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ] ﴾ [الأنعام : 34] ، وقال تعالى : ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [فصلت : 43] ، وقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ [وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ] ﴾ [الفرقان : 43] .

وقال ورقة بن نوفل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : [إنه] لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي (1)

وقوله : ﴿ شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ بدل من ﴿ عَدُوًّا ﴾ أي : لهم أعداء من شياطين الإنس والجن ، ومن هؤلاء وهؤلاء ، قبحهم الله ولعنهم .

---

(1) رواه البخاري في صحيحه برقم (3) ومسلم في صحيحه برقم (160) من حديث عائشة ، رضي الله عنها .

قال عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر ، عن قتادة في قوله [تعالى] ﴿ شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ قال : من الجن شياطين ، ومن الإنس شياطين ، يوحي بعضهم إلى بعض ، قال قتادة : وبلغني أن أبا ذر كان يوما يصلي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "تَعَوَّذ يا أبا ذر من شياطين الإنس والجن" . فقال : أو إن من الإنس شياطين ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "نعم" .

وهذا منقطع بين قتادة وأبي ذر وقد روي من وجه آخر عن أبي ذر ، رضي الله عنه ، قال ابن جرير :

حدثنا المثنى ، حدثنا أبو صالح ، حدثني معاوية بن صالح ، عن أبي عبد الله محمد بن أيوب وغيره من المشيخة ، عن ابن عائذ ، عن أبي ذر قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مجلس قد أطال فيه الجلوس ، قال ، فقال : "يا أبا ذر ، هل صليت ؟" . قال : لا يا رسول الله . قال : "قم فاركع ركعتين" . قال : ثم جئت فجلستُ إليه ، فقال : "يا أبا ذر ، هل تعوذت بالله من شياطين الجن والإنس ؟" . قال : قلت : لا يا رسول الله ، وهل للإنس من شياطين ؟ قال : "نعم ، هم شر من شياطين الجن" .

وهذا أيضا فيه انقطاع وروي متصلا كما قال الإمام أحمد :

حدثنا وكيع ، حدثنا المسعودي ، أنبأني أبو عمر الدمشقي ، عن عبيد بن الخشخاش ، عن أبي ذر قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد ، فجلست فقال : "يا

أبا ذر هل صليت ؟" . قلت : لا . قال : "قم فصل" . قال : فقمت فصليت ، ثم جلست فقال : "يا أبا ذر ، تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن" . قال : قلت يا رسول الله ، وللإنس شياطين ؟ قال : "نعم" . وذكر تمام الحديث بطوله .

وكذا رواه الحافظ أبو بكر بن مَرْدُوَيه في تفسيره ، من حديث جعفر بن عون ، ويعلى بن عبيد ، وعبيد الله بن موسى ، ثلاثتهم عن المسعودي ، به (1)

---

(1) المسند (178/5) وقال الهيثمي في المجمع (160/1) : "فيه المسعودي وهو ثقة وقد اختلط" .

*(110/247)*

---

طريق أخرى عن أبي ذر : قال ابن جرير : حدثني المثنى ، حدثنا الحجاج ، حدثنا حماد ، عن حميد بن هلال ، حدثني رجل من أهل دمشق ، عن عوف بن مالك ، عن أبي ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "يا أبا ذر ، هل تعوذت بالله من شر شياطين الإنس والجن ؟" . قال : قلت يا رسول الله ، هل للإنس من شياطين ؟ قال : "نعم"

طريق أخرى للحديث : قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عَوْف الحِمْصي ، حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا معان بن رفاعة ، عن علي بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبي أمامة [رضي

الله عنه] قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا أبا ذر تعوذتَ من شياطين الجن والإنس ؟" . قال : يا رسول الله ، وهل للإنس [من] شياطين ؟ قال : "نعم ، شياطينَ الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا" (1)

فهذه طرق لهذا الحديث ، ومجموعها يفيد قوته وصحته ، والله أعلم .

وقد روي ابن جرير : حدثنا ابن وَكِيع ، حدثنا أبو نُعَيم ، عن شَرِيك ، عن سعيد بن مسروق ، عن عِكْرِمة : ﴿ شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾ قال : ليس من الإنس شياطين ، ولكن شياطين الجن يوحون إلى شياطين الإنس ، وشياطين الإنس يوحون إلى شياطين الجن .

قال : وحدثنا الحارث ، حدثنا عبد العزيز ، حدثنا إسرائيل ، عن السُّدِّي ، عن عِكْرِمة في قوله : ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ قال : للإنسى شيطان ، وللجني شيطان فيلقى شيطان الإنس شيطان الجن ، فيوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا .

---

(1) ورواه أحمد في مسنده (265/5) من طريق أبي المغيرة به مطولا . وقال الهيثمي في المجمع (159/1) : "مداره على علي بن زيد وهو ضعيف" .

وقال أسباط ، عن السُّدِّي ، عن عِكْرِمة في قوله : ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ في تفسير هذه الآية : أما شياطين الإنس ، فالشياطين التي تضل الإنس وشياطين الجن الذين يضلون الجن ، يلتقيان ، فيقول كل واحد منهما لصاحبه : إني أضللت صاحبي بكذا وكذا ، فأَضْلِل أنت صاحبك بكذا وكذا ، فيعلم بعضهم بعضا .

ففهم ابن جرير من هذا ؛ أن المراد بشياطين الإنس عند عِكْرِمة والسُّدِّي : الشياطين من الجن الذين يضلون الناس ، لا أن المراد منه شياطين الإنس منهم . ولا شك أن هذا ظاهر من كلام عِكْرِمة ، وأما كلام السُّدِّي فليس مثله في هذا المعنى ، وهو محتمل ، وقد روى ابن أبي حاتم نحو هذا ، عن ابن عباس من رواية الضحاك ، عنه ، قال : إن للجن شياطين يضلونهم مثل شياطين الإنس

يضلونهم ، قال : فيلتقي شياطين الإنس وشياطين الجن ، فيقول هذا لهذا : أضلله بكذا ، أضلله بكذا . فهو قوله : ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾

وعلى كل حال فالصحيح ما تقدم من حديث أبي ذر : إن للإنس شياطين منهم ، وشيطان كل شيء ما رده ، ولهذا جاء في صحيح مسلم ، عن أبي ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "الكلب الأسود شيطان" (1)

ومعناه – والله أعلم – : شيطان في الكلاب .

وقال ابن جُرَيْج : قال مجاهد في تفسير هذه الآية : كفار الجن شياطين ، يوحون إلى شياطين الإنس ، كفار الإنس ، زخرف القول غرورا .

---

(1) صحيح مسلم برقم (510) .

*(112/247)*

---

وروى ابن أبي حاتم ، عن عِكْرِمة قال : قدمت على المختار فأكرمني وأنزلني حتى كاد يتعاهد مبيتي بالليل ، قال : فقال لي : اخرج إلى الناس فحدث الناس . قال : فخرجت ، فجاء رجل فقال : ما تقول في الوحي ؟ فقلت : الوحي وحيان ، قال الله تعالى : ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ [يوسف : 3] ، وقال [الله] تعالى : ﴿ شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ قال : فهموا بي أن يأخذوني ، فقلت : ما لكم ذاك ، إني مفتيكم وضيفكم . فتركوني .

وإنما عَرَضَ عِكْرِمة بالمختار - وهو ابن أبي عبيد - قبحه الله ، وكان يزعم أنه يأتيه الوحي ، وقد كانت أخته صفية تحت عبد الله بن عمر وكانت من الصالحات ، ولما أخبر عبد الله بن عمر أن المختار يزعم أنه يوحى إليه قال : صدق ، [قال] الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ ﴾ [الأنعام : 121] ، وقوله تعالى : ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ

زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ أي : يلقي بعضهم إلى بعض القول المزين المزخرف ، وهو المزوق الذي يغتر سامعه من الجهلة بأمره .

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ أي : وذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيئته أن يكون لكل نَبيّ عدوّ من هؤلاء .

﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ أي : فدعهم ، ﴿ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ أي : يكذبون ، أي : دع أذاهم وتوكل على الله في عداوتهم ، فإن الله كافيك وناصرك عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 318. 321 ﴾

*(113/247)*

---

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا ﴾

كلامٌ مبتدأٌ مسوقٌ لتسلية رسولِ الله صلى الله عليه وسلم عما كان يشاهده من عداوة قريشٍ له عليه الصلاة والسلام وما بنَوْا عليها مما لا خير فيه من الأقاويل والأفاعيلِ ببيان أن ذلك ليس مختصاً بل هو أمرٌ ابتُليَ به كلُّ من سبَقك من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ،

ومحلُّ الكاف النصبُ على أنه نعتٌ لمصدر محذوفٍ أشير إليه بذلك منصوبٌ بفعله المحذوفِ مؤكدٌ لما بعده وذلك إشارةٌ إلى ما يفهم مما قبله أي جعلنا لكل نبيَ عدواً والتقديمُ على الفعل المذكورِ للقصر المفيدِ للمبالغة أي مثلَ ذكل الجعلِ الذي جعلنا في حقك لك عدواً يُضادُّونك ويضارُّونك ولا يؤمنون ويبغونك الغوائلَ ويدبّرون في إبطال أمرِك مكايدَ جعلنا لكل نبيَ تقدمَك عدواً فعلوا بهم ما فعل بك أعداؤُك لا جعلاً أنقصَ منه .

وفيه دليلٌ على أن عداوةَ الكفرةِ للأنبياء عليهم السلام بخلقه تعالى للابتلاء ﴿ شياطين الإنس والجن ﴾ أي مَرَدةَ الفريقين على أن الإضافة بمعنى مِنْ البيانية ، وقيل : هي إضافةُ الصفةِ إلى الموصوف والأصلُ الإنسُ والجنُّ والشياطينُ ، وقيل : هي بمعنى اللام أي الشياطين التي للإنس والتي للجن ، وهو بدلٌ من عدواً والجعلُ متعدَ إلى واحد أو إلى اثنين وهو أولُ مفعوليْه قُدِّم عليه الثاني مسارعةً إلى بيان العداوةِ ، واللام على التقديرين متعلقةٌ بالجعل أو بمحذوف هو حالٌ من عدواً ، وقوله تعالى : ﴿ يُوحِى بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ ﴾ كلامٌ مستأنفٌ مَسوقٌ لبيان أحكامِ عداوتِهم ، وتحقيقُ وجهِ الشبهِ بين المشبهِ والمشبَّه به ، أو حالٌ من الشياطين أو نعتٌ لعدواً ، وجمعُ الضميرِ باعتبار المعنى فإنه عبارةٌ عن الأعداء كما في قوله :

إذا أنا لم أنفعْ صديقي بودّه . . . فإن عدوِّي لم يضرَّهمو بغضي

والوحيُ عبارةٌ عن الإيماء والقول السريعِ ، أي يُلقي ويوسوس شياطينُ الجنّ إلى شياطينِ الإنسِ ، أو بعضُ كلَ من الفريقين إلى بعض آخَرَ ﴿ زُخْرُفَ القول ﴾ أي المموّهَ منه المزيَّنَ ظاهرُه الباطلَ باطنُه . من زَخْرفه إذا زيّنه . ﴿ غُرُوراً ﴾ مفعول له ليوحي أي ليغرّوهم ، أو مصدرٌ في موقع الحال أي غارّين أو مصدرٌ مؤكد لفعل مقدرٍ هو حال من فاعل يوحي أي يغرُّون غروراً ﴿ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ ﴾ رجوعٌ إلى بيان الشؤونِ الجاريةِ بينه صلى الله عليه وسلم وبين قومِه المفهومةِ من حكاية ما جرى بين الأنبياءِ عليهم السلام وبين أُمِمهم كما ينبىء عنه الالتفاتُ ، والتعرُّضُ لوصف الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم المُعربة عن كمال اللطفِ في التسلية أي ولو شاء ربُّك عدمَ الأمورِ المذكورةِ لا إيمانَهم كما قيل فإن القاعدةَ المستمرةَ أن مفعولَ المشيئةِ إنما يحذف عند وقوعِها شرطاً وكونِ مفعولِها مضمونَ الجزاءِ وهو قوله تعالى : ﴿ مَّا فَعَلُوهُ ﴾ أي ما فعلوا ما ذكر من عداوتك ، وإيحاءِ بعضهم إلى بعض مزخرفاتِ الأقاويلِ الباطلةِ المتعلقةِ بأمرك خاصة لا بما يعمّه وأمورَ الأنبياءِ عليهم السلام أيضاً كما قيل فإن قوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ صريحٌ في أن المرادَ بهم الكفرةُ المعاصِرون له عليه الصلاة والسلام أي إذا كان ما فعلوه من أحكام عداوتك من فنون المفاسد بمشيئته تعالى فاتركْهم وافتراءَهم أو ما يفترونه من أنواع المكايدِ فإن لهم في

ذلك عقوباتٍ شديدةً ولك عواقبُ حميدةٌ لابتناء مشيئتِه تعالى على الحِكَم البالغة ألبتة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

*(115/247)*

---

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْأِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾

أي : مثل ذلك الجعل الذي جعلناه في حقك ، حيث جعلنا لك عدوّاً يضادونك ولا يؤمنون ، جعلنا لكل نبي تقدمك عدوّاً من مَرَدَةَ الإنس والجن ، فعلوا بهم ما فعل بك أعداؤك ، كما قال تعالى : ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِك ﴾ [ فصلت : 43 ] . وقال ورقة بن نوفل للنبيّ صلى الله عليه وسلم : لم يأت رجل قط بمثل ما جئتَ به إلا عودي . ﴿ يُوحِي ﴾ أي : يلقي ويوسوس : ﴿ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ ﴾ أي : المموه منه ، المزين ظاهره ، الباطل باطنه ﴿ غُرُوراً ﴾ أي : للضعفاء ، لأن الله تعالى جعلهم أهل الحجاب ، وكذا الغابرّين ، ليقهرهم بمقتضى استعدادهم . وفي الآية دليل على أن عداوة الكفرة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، بفعل الله سبحانه وتعالى ، وخلقه .

قال المهايمي : لتظهر الحجج بمجادلتهم ، وترتفع شبهاتهم ، ولئلا يقال إنه شخص ساعده الكل ليأكلوا أموال الناس ، أو يتواسوا عليهم .

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ أي : ما فعلوا ذلك ، يعني : معاداة الأنبياء ، وإيحاء الزخارف . وهو أيضاً دليل على المعتزلة ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ أي : من الكفر ، فسوف يعلمون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 480 ﴾

*(116/247)*

---

ومن فوائد السعدى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴾ .

يقول تعالى –مسليا لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم– وكما جعلنا لك أعداء يردون دعوتك ، ويحاربونك ، ويحسدونك ، فهذه سنتنا ، أن نجعل لكل نبي نرسله إلى الخلق أعداء ، من شياطين الإنس والجن ، يقومون بضد ما جاءت به الرسل .

﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ أي: يزين بعضهم لبعض الأمر الذي يدعون إليه من الباطل ، ويزخرفون له العبارات حتى يجعلوه في أحسن صورة ، ليغتر به السفهاء ، وينقاد له الأغبياء ، الذين لا يفهمون الحقائق ، ولا يفقهون المعاني ، بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة ، والعبارات المموهة ، فيعتقدون الحق باطلا والباطل حقا ، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ ﴾ أي: ولتميل إلى ذلك الكلام المزخرف ﴿ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ لأن عدم إيمانهم باليوم الآخر وعدم عقولهم النافعة ، يحملهم على ذلك ، ﴿ وَلِيَرْضَوْهُ ﴾ بعد أن يصغوا إليه ، فيصغون إليه أولا فإذا مالوا إليه ورأوا تلك العبارات المستحسنة ، رضوه ، وزين في قلوبهم ، وصار عقيدة راسخة ، وصفة لازمة ، ثم ينتج من ذلك ، أن يقترفوا من الأعمال والأقوال ما هم مقترفون ، أي: يأتون من الكذب بالقول والفعل ، ما هو من لوازم تلك العقائد القبيحة ، فهذه حال المغترين بشياطين الإنس والجن ، المستجيبين لدعوتهم ، وأما أهل الإيمان بالآخرة ، وأولو العقول الوافية والألباب الرزينة ، فإنهم لا يغترون بتلك العبارات ، ولا تخلبهم تلك التمويهات ، بل همتهم مصروفة إلى معرفة الحقائق ، فينظرون إلى المعاني التي يدعو إليها الدعاة ، فإن كانت حقا قبلوها ، وانقادوا لها

، ولو كسيت عبارات ردية ، وألفاظا غير وافية ، وإن كانت باطلا ردوها على من قالها ، كائنا من كان ، ولو ألبست من العبارات المستحسنة ، ما هو أرق من الحرير .

ومن حكمة الله تعالى ، في جعله للأنبياء أعداء ، وللباطل أنصارا قائمين بالدعوة إليه ، أن يحصل لعباده الابتلاء والامتحان ، ليتميز الصادق من الكاذب ، والعاقل من الجاهل ، والبصير من الأعمى .

*(118/247)*

---

ومن حكمته أن في ذلك بيانا للحق ، وتوضيحا له ، فإن الحق يستنير ويتضح إذا قام الباطل يصارعه ويقاومه . فإنه –حينئذ– يتبين من أدلة الحق ، وشواهده الدالة على صدقه وحقيقته ، ومن فساد الباطل وبطلانه ، ما هو من أكبر المطالب ، التي يتنافس فيها المتنافسون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير السعدى صـ 269.270 ﴾

*(119/247)*

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴾

﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ إشارة من الحق سبحانه وتعالى إلى الرسل والأنبياء ليعطي الأسوة للرسول بإخوانه السابقين له في موكب الرسالات ، فلست بدعا – يا محمد – في أنك رسول يُواجَه بأعداء ، فكل رسول من الرسل ووجه وقوبل بهؤلاء الأعداء .

وهل فَتّ أعداء الرسل في عضد مَن أرسل إليهم وأضعفوا قوتهم وأوهنوا عزائمهم وأثنوهم عن دعوتهم ؟ أو ظل الرسل أيضا صامدين ؟ . . إنهم صمدوا وأيدهم الله ونصرهم وإذا كنت أنت خاتم الرسل ، وسيد المرسلين ، والمعقب على رسالات سبقتك ولا معقب على رسالتك فلابد أن يكون الأعداء الذين يواجهونك مناسبين للمهمة التي تؤديها . وإياك أن تظن أن المقصد في هذه العداوة أننا تركناهم أعداء لمجرد العداء ، لا ، بل نحن قد أردنا هذه العداوة لصالح الدعوة ؛ لأن الإنسان إذا ما كان في منهج خير وأهاجه الشر يتحمس لمزيد من الخير . ولذلك لا تجد الصحوات الإيمانية إلا حين يجد المؤمنون تحديا من خصومهم ، هنا تجد الصحوة الإيمانية قد استيقظت لأن هناك خصوما يتحدونها ، ولو لم يكن هناك خصوم لبقيت الصحوة فاترة . وهذا ما نراه حين يوجد من خصوم الإسلام من

أي لون من ألوانهم مَن يتحدى أي قضية من قضايا الدين . في هذه الحالة نجد حتى غير الملتزم بمنهج الإسلام يغار على الدين .

*(120/247)*

---

إذن فالعداوة لها فائدة ، وإياك أن تظن أن في أي مظهر في الوجود يُغلب الله على مراداته في كونه ، والشر له رسالة لأنه لولا أن الشر موجود ويصاب الناس من أذاه لما تحمس الناس للخير ، فالذي يجعلنا نتحمس للخير هو وجود الشر ، وأوضحنا من قبل أن الباطل جندي من جنود الحق : لأن الباطل حين يعض ويعربد في الناس يتساءل الناس متى يأتي الحق لينقذنا ، وأنك ساعة ترى مريضا يتألم إياك أن تظن أن الألم قد جاءه دون سبب ، بل الألم جندي من جند الشفاء . وكأن الألم يقول لمن يصيبه : يا إنسان تنبه أن عطبا في هذا المكان فسارع إلى علاجه . ولذلك نجد أعنف الأمراض وأشرسها وأخبثها ، هي الأمراض التي تأتي بلا ألم يسبقها ، ولا تظهر أعراضها إلا أن يستعصي شفاؤها ، وهكذا نرى أن الألم جندي من جنود العافية .

وحين يكون لك عدو في الحارة أو في البلدة وعيونه مركزة عليك فأنت تخاف أن تقع منك هَنة وعيب حتى لا يشنّع عليك ؛ لذلك تسير على الصراط المستقيم لأنك لا تريد أن

تنصره على نفسك .

والشاعر القديم ، الذي أعجبه الشعر فشطره . يقول لك :

عداي لهم فضل عليّ ومنة . . . فعندي لهم شكر على نفعهم ليا

فهم كدواء والشفاء بمرّه . . . فلا أبعد الرحمن عني الأعاديا

همُ بحثوا عن زلَّتي فاجتنبتها . . . فأصبحت مِمَّا دنس العرض خاليا

وهم أججوا جهدي ولكن ببغضهم . . . وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

لذلك لابد أن تنظر إلى كل شيء بحكمة إيجاد الحكيم له فقد شاء الحق أن يوجد الأعداء للدعوة الإسلامية حتى تنتصر وتقوى .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام : 112]

(121/247)

---

وجعل الحق سبحانه وتعالى الأعداء للأنبياء ، مهيِّجين ومثيرين للنبي ولأتباعه ؛ لأن الأمر إذا حصلت فيه معارضة من مخالف أججت في نفس المقابل قوة حتى لا يهزم أمامه ولا يغلب أمام منطقه . ولذلك قال الحق : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا ﴾ لأي أنهم لم يتطوعوا بالعداوة

إنما هو تسخير للعداوة ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً ﴾ .

وكيف يجعل الله لكل نبي عدوا ؟ إنه يفعل ذلك بما أودع في الناس من الاختيار ، وما داموا مختارين فالذي اختار الهدى يكون نصيراً للنبي ، والذي اختار الضلال يكون عدوا للنبي .

إذن فهم لم يكونوا أعداء بطبيعتهم ، وإنما بما أودع الله فيهم من الاختيار .

وإذا كان الله هو الذي أودع الاختيار فقد أراد أن يحقق مشيئته في قوله : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ ويحيى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ . . ﴾ [ الأنفال : 42 ]

ولو شاء الله الا يكون للنبوة أعداء لفعل ذلك ؛ لأن له طلاقة القدرة ، ولكن ذلك سيكون بالقهر ، والله لا يريد قهراً للعقلاء ، وإنما يريد أن يذهبوا إليه بمحض اختيارهم ؛ اي وهم قادرون على الا يذهبوا . وكلمة " عدو " في ظاهرها أنها مفرد ، ولكنها تطلق على الواحد ، وتطلق على الاثنين ، وتطلق على الجماعة ، فتقول : " هذا عدو لي " ؛ و " هذه عدو لي " ؛ ولا تقل " عدوة " ، وتقول : وهذان عدو لي ، وهاتان عدو لي ، لأن كلمة " عدو " تطلق على الذكر والأنثى وتقال للمفرد وللمثنى ، وللجمع .

اقرأ قول الحق : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ العالمين ﴾ [ الشعراء : 77 ]

واقرأوا قول الحق : ﴿ قَالَ اهبطا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتبع هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يشقى ﴾ [ طه : 123 ]

ولم يقل أعداء ، إذن فكلمة " عدو " تطلق على المفرد والمفردة ، والمثنى والمثناة ، وعلى جمع المذكر والجمع المؤنث . لكن بعض الذين يحبون أن يكونوا مستدركين على كلام الله . يقول الواحد منهم : كيف يقول : " فإنهم عدو لي " ، أو " اهبطو بعضكم لبعض عدو " ؟ !

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشجرة وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ الشيطآن لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ . . ﴾ [ الأعراف : 22 ]

والشيطان عدو ، وهم عدو . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ واذكروا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً . . ﴾ [ آل عمران : 103 ]

ونقول له : أنت قد فاتك أن الذي يتكلم هو الرب الأعلى . والعداوة نوعان ، فإذا تعدد العدو ، وجمعته مصلحة واحدة في معاداة المعادي يكونون وحدة في العداوة فهم عدو واحد لاجتماعهم على سبب واحد في العداوة .

لكن إذا تعددت أسباب العداوة فالأمر يختلف ، فقد يكون لك عدو لأن مظهرك أحسن منه ، وعدو آخر لأنك أذكى منه ، وعدو ثالث لأنك أغنى منه . فلتعدد الأسباب صار كل واحد منهم عدوًا برأسه وجمع على أعداء لتعدد سبب العداوة . ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإنس والجن يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ . . ﴾ [ سورة الأنعام :

وشياطين الإنس والجن كما يقول النجاة بدل من عدو و" شياطين " جمع شيطان وهو اللعين المطرود ، البغيض ، سواء أكان من الإنس أم من الجن .

﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول غُرُوراً ﴾ والوحي – كما نعرف – هم إعلام بخفاء ، ولماذا يوحي بعضهم إلى بعض ؟ لن غلبة الحق لا تجعلهم قادرين على أن يتجاهروا ؛ لذلك يتآمرون مع بعضهم البعض ، لكن الناس المحقين في قضية يتحركون في علانية . ولا يستخفون من الناس .

*(123/247)*

---

﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ ﴾ ومن الذي يوحي ؟ ومن الذي يوحى إليه ؟ ليس لنا دخل بهذا الموضوع ، إنما الوحي : هو إعلام بخفاء ، إن كان إلهاماً في النفس ، أو إن كان بالإشارة أو بالدس ، أو إن كان بالوسوسة ، أو إن كان بواسطة رسول نحن لا نراه ، كل ذلك أساليب الوحي الشامل للخير والشر .

وإذا كان الوحي من شياطين الجن فهل يوحون إلا بِشَرٍّ ؟ نعم . وكذلك هناك شياطين من الإنس يوحون أيضاً بشرّ . مصداقاً لقوله الحق : ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول

﴿ وزخرف القول ، المقصود به أنهم يدخلون على المسائل بالتزيين ، فيزينون للناس الشهوة ، ولذلك سماها ربنا " وسوسة " ، ونعلم أن المعاني حين يؤخذ لها ألفاظ تؤخذ من الأشياء الحسيّة ، والوسوسة هي صوت الحلى ، وقد اختار الله لما يفعله الشياطين من الإنس والجن للفظ الموحى بالمعنى المراد لأن وسوسة الحلى تغري بالنفاسة وعظم القيمة ، والوسوسة طريقها هو الخفاء .

﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول ﴾ وهم شياطين من الإنس والجن ، إنس يوحي لإنس بأن يزين له المعصية والشهوة ، وكثيراً ما يقع ذلك .

وجنّي يوحي لجنّي ؛ لأن الجن مكلَّف أيضاً . وكذلك يوحي الجن للإنس .

﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول ﴾ الزخرف . هو الشيء لمزين ظاهره لكن باطنه فاسد ، ولذلك قال عز وجل : ﴿ وَزُخْرُفاً وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الحياة الدنيا . . ﴾ [ الزخرف : 35 ]

أي أموراً مزخرفة ظاهراً ، لكن ليس لها عمق أو عمر أو نفاسة .

﴿ يوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول غُرُوراً . . ﴾ [ الأنعام : 112 ]

*(124/247)*

وذلك ليغروهم ويخدعوهم ليفعلوا ويقترفوا المعصية ، وإن لم يأتوا للمعصية بكلمات تزخرفها وتزينها فلن يستطيعوا أن يدخلوا بها على الناس ؛ لذلك يعرضون ويبدون محاسن المعصية في ظاهر الأمر ، مثال ذلك أنك لا تجد من يقول لآخر : اشرب الخمر لتصاب بتليف الكبد مثلا ! ! ولكن هناك من يقول : احتس الخمر ليذهب همك وتنشط نفسك ويكثر فرحك .

﴿ زُخْرُفَ القول غُرُوراً ﴾ أي ليغروهم ؛ بإظهار فائدة موهومة فيه ، ويسترون عن الناس مضرّة هذا الشيء ومهالكه .

ويتابع سبحانه : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ إنّ الحق سبحانه وتعالى هو الذي أعطى خلقه اختياراً في أن يكونوا مؤمنين أو أن يكونوا كافرين ، مهديين أو ضالين ، في نور أو في ظلمة . ويأتي الوقت الذي يثيب فيه سبحانه أو يعاقب ؛ لذلك فهو – جل شأنه – لا يرغمهم على فعل ثم يعاقبهم عليه ؛ لأنه هو العدل . ولذلك نجد من يقول : لماذا العقاب ولا شيء في الكون يقع على غير مشيئة الله ؟ ونقول : نعم كل شيء من فعل الله ؛ لأن سبب الاختيار من الله . وسبحانه هو الذي خلق الاختيار . فالكافر لا يقدر أن يؤمن إلا أن شاء الله لكن المطلوب منه أن يؤمن لأن طبيعته صالحة للكفر وصالحة للإيمان .

إذن خلق الله الإنسان مختاراً في أن يفعل أو لا يفعل في بعض الأمور ، فالذي ينظر إلى أن كل فعل من الله أي ليس بطاقة من عبد ، نقول له : صح رأيك . ومن يقول : إن هذا الأمر من العباد نقول له أيضاً : صح موقفك ؛ لأن ربنا خلق الإنسان صالحاً لأن يحصل منه كذا .

فإن أردت الحقيقة تجد كل فعل يأتي من الله ، فأنت – على سبيل المثال – لم تخلق القوة التي لليد لترتفع ، ولا خلقت القوة للأصابع لتنقبض . وإذا أردت أن تقبض يدك . فما هي العضلات التي تتحرك لتفعل الانقباض ؟ أنت لا تعرف . إنّك تقبض يدك بمجرد إرادة منك أن تقبضها ، والذي خلق لك هذه القوة يأمرك ألا تستعملها في قهر الآخرين ، ولكن عليك أن تستعملها فيما يفيد الناس . واليد صالحة للضرب وللعمل الطيب وأنت لم تخلق الطاقة التي في اليد ، ولا خلقت الانفعال فيها لإرادتك .

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ أي لو شاء عدم فعله لفعل ؛ لأن له طلاقة القدرة فلا يقدر أحد أن يخرج عن مراده أبداً . ونحن نرى السماء والأرض وكل ما دون الإنسان مسخراً ، ثم لماذا نأخذ أمثلة من السماء والأرض والنبات والجماد والحيوان ؟ خذ المثال من نفسك . أنت فيك أشياء ليس لك سيطرة عليها ، واختيار لك عليها ، ألك اختيار أن تمرض ؟ . لا .

ألك اختيار أن يقع عليك حجر وأنت تمشي ؟ . لا .

ألك اختيار في أن يصيبك سائق سكران ؟ . لا .

ألك اختيار في أن تموت او لا تموت ؟ . لا . لقد جعل الله فيك الأمرين الأثنين :

قهرك في أمور . والقهرية تثبت له – سبحانه – القدرة وطلاقتها ، وجعلك مختارا في أشياء ، والاختيار يثبت صحة التكليف .

*(126/247)*

---

ويتابع الحق مذيلاً الآية : ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ لأن افتراءهم وكذبهم وزعمهم الباطل لن يغير من حقيقة الأمر شيئاً ، وهم يرون أن افتراءهم يعوق الدعوة ، لا ، فقد صار افتراؤهم وكيدهم وعداوتهم للنبي وقوداً مهيّجاً للدعوة ؛ لأن يخلص الدعوة من الشوائب ويصهر المؤمنين بها ويخرج منهم خصال الشر ويملأهم بخلال الخير .

﴿ فَأَمَّا الزبد فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس فَيَمْكُثُ فِي الأرض . . ﴾ [ الرعد : 17 ]

ولو لم يكن هناك مهيّجات لهذه المسائل لدخل الدعوة العاطل والباطل ولاندس فينا من لا يعرف قيمة الإيمان ؛ لذلك يمحص الله بالأعداء وبالقوم الذين يقفون أمامها حتى لا يكون في حملة الدعوة احد من ضعاف العقائد وضعاف الإيمان ، وهم الذين يخرجون هرباً من

مسئوليات الإيمان ولا يبقى إلا أصحاب الرسالة الذين يخلصون الصدق مع الله وينقيهم الله بواسطة الأعداء . ولذلك قال : ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ﴾ [ التوبة : 47 ]

فمن الحكمة أنه – سبحانه – ثبط عزيمتهم وضعف رغبتهم في الانبعاث والخروج معكم .

﴿ وَلَوْ أَرَادُواْ الخروج لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً ولكن كَرِهَ الله انبعاثهم فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقعدوا مَعَ القاعدين ﴾ [ التوبة : 46 ]

وهنا يقول الحق : ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول ﴾ وزخرف القول هو لون من الأداء له سُمَّاع ، ومن يسمعونه قد لا يؤثر في قلوبهم ولا في نفوسهم ، ومرة أخرى يسمعونه ويكون عندهم ميل وليس عندهم عقيدة ثابتة راسخة إلى هذا القول .

وكيف يسلك هؤلاء الناس : ﴿ ولتصغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ . . ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(127/247)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

الكاف في "كَذِلك" في محلِّ نَصْب، نعتاً لِمَصْدَر مَحْذُوف، فقدَّره الزَّمَخْشَري: "ما خَلَّيْنا بَيْنَك وبين أعْدَائِك، كذلك فَعَلْنا بِمَنْ قَبْلك".

وقال الوَاحِدي: "وكذلك" منسُوق على قوله: "وكَذَلِكَ زَيَّنَّا" أي: فَعَلْنا ذَلِك كذلك "جَعَلْنا لكلِّ نبيٍّ عَدُوًّا"، ثم قال: وقيل: مَعْنَاه جَعَلْنا لَكَ عَدُوًّا كما جَعَلْنا لمن قَبْلَك من الأَنْبِيَاء، فَيَكُون قوله: "وكذلك" عَطْفاً على مَعْنَى ما تقدَّم من الكلام، وما تقدَّم من الكلام، وما تقدَّم يدلُّ مَعْنَاهُ على أنَّه جعل له أعْدَاء [والمراد: تَسْلِيَة النَّبي صلى الله عليه وسلم، أي: كما ابتُليت بِهَؤلاء القَوْم، فكذلك جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ قَبْلك أعْدَاء].

و"جَعَلَ" يتعدى لاثْنَيْن بمعنى: صَيَّر.

وأعْرَب الزَّمَخْشَري، وأبو البقاء والحوفي هنا نحو إعرابهم في قوله: تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ الجن﴾ [الأنعام: 100] فَيَكُون المَفْعُول الأول "شَيَاطِين الإنْس"، والثاني "عَدُواً"، و"لكلِّ": حال من "عَدُواً" لأنَّه صفته في الأصْل، أو مُتعلِّق بالجَعْل قَبْلَه، ويَجُوز أن يكون المَفْعُول الأول "عُدُوّاً" و"لكلِّ" هو الثَّانِي قُدِّم، و"شياطين": بَدَل من المفعول الأوّل.

(128/247)

والإضافة في : " شَيَاطِين الإنْس " يحتمل أن تكون من باب إضافَة الصِّفةِ لِمَوْصُوفها ، والأصْل : الإنْس والجن الشَّياطين ، نحو : جَرْد قَطِيفَة ، ورجَّحْتُه ؛ بأنَّ المقصود : التَّسلِّي والاتِّسَاءُ بمن سَبَق من الأنْبيَاء ، إذ كان في أمَمِهم مَنْ يُعادِلُهم ، كما في أمَّة محمَّد صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أن تكُون من الإضافة الَّتِي بَمَعْنَى اللام ، وليست من باب إضافة صِفَةٍ لِمَوصُوف ، والمعنى : الشَّياطين التي للإنْس ، والشَّياطين التي لِلْجنّ ، فإن إلْليس قَسَّم جُنْده قسمين : قِسْمٌ مُتسَلِّط على الإنْسِ ، وآخر على الجِنّ ، كذا جاء في التَّفْسِير .

ووقع " عَدُوا " مفعولاً ثَانِياً لـ " شَيَاطِين " على أحَد الإعْرَابَيْن بلَفْظ الإفْراد ؛ لأنَّهُ يُكْتَفى به في ذلك ، وتقدَّم شَوَاهِده ، ومِنْه ما أنْشَده ابن الأنْبَارِي : [ الطويل ]

2286 - إذَا أنَا لَمْ أنْفَعْ صَدِيقِي بِوُدِّهِ . . .

فإنَّ عَدُوِّي لَنْ يَضُرَّهُمُ بُغْضِي

فأعاد الضَّمير مِنْ " يَضُرَّهُم " على " عَدُوّ " فدل على جَمْعِيَّته ؛ وكقوله تعالى : ﴿ ضَيْفِ إبْرَاهِيمَ المكرمين ﴾ [ الذاريات : 24 ] ، ﴿ أَوِ الطفل الذين لَمْ يَظْهَرُواْ ﴾ [ النور : 31 ] ﴿ إنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ إلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ [ العصر : 2 ، 3 ] .

وقيل لا حَاجَة إلى هذا التَّكْليف ، والتَّقْدِير وكذلك جَعَلْنَا لِكُلِّ واحد من الأنْبيَاء عُدُوّاً واحِداً ، إذ لا يَجِبُ أن يَكُون واحدٍ من الأنْبيَاء أكْثَر من عُدوّ واحد .

قوله : " غُرُوا " قيل : نُصِب على المَفْعُول له ، أي : لا يَغرُّوا غيرهم .

وقيل : هو مَصْدر في مَوْضِع الحَالِ ، أي : غارِّين ، وأن يَكُون مَنْصُوباً على المَصْدَر ؛ لأن العَامِل فيه بِمَعْنَاه ، كأنه قِيل : "يَغُرُّون غُروراً بالوَحي " .

(129/247)

---

قوله : " ولَوْ شَاءَ ربُّكَ ما فَعَلُوه " ما أُلْقواه من الوسْوَسة في القُلُوب ، وقد تقدَّم الكلام في المَشِيئَة ومَدْلُولِها مع المُعتزلة .

قوله : " وما يَفْتَرُون " " ما " موصولة اسميَّة ، أو نكرة مَوْصُوفة ، والعَائِد على كلا هَذَين القَوْلَيْن محذُوفٌ ، أي : " وما يَفْتَرُونَه " أو مصدريَّة ، وعلى كُلِّ قوله فمحلُّهَا نَصْب ، وفيه وَجهَان :

أحدهما : أنها نَسَق على المَفْعُول في : " فَذَرْهُمْ " أي : اتْرُكْهُم ، واترك افْتِرَاءهم .

والثاني : أنَّها مفعول مَعَه ، وهو مَرْجُوحٌ ، لأنه متى أمكن العَطْف من غير ضَعْفٍ في التركب ، أو في المَعْنَى ، كان أوْلَى من المَفْعُول معه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 386.383 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (112) ﴾

كلمَّا كان المحلُّ أعلى كانت البلايا أوفى ، والمطالبات أقوى ، فلمَّا كانت رتبُ الأنبياء – عليهم – السلام – أشرفَ كانت العداوة معهم أشد وأصعب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 495 ﴾

*(130/247)*

---

قوله تعالى ﴿ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (113) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان التقدير : ذرهم لتعرض عنهم قلوب الذين يؤمنون بالآخرة وليسخطوه ، وليعلموا ما هم له مبصرون وبه عارفون ، فترفع بذلك درجاتهم ، عطف عليه قوله : ﴿ ولتصغى ﴾ أي تميل ميلاً قوياً تعرض به ﴿ إليه ﴾ أي كذبهم وما في حيزه ﴿ أفئدة ﴾ أي قلوب ﴿ الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أي ليس في طبعهم الإيمان بها لأنها غيب ، وهم لبلادتهم

واقفون مع الوهم ، ولذلك استولت عليهم الدنيا التي هي أصل الغرور ﴿ وليرضوه ﴾ أي بما تمكن من ميلهم إليه ﴿ وليقترفوا ﴾ أي يفعلوا بجهدهم ﴿ ما هم مقترفون ﴾ وهذه الجمل – كما نبه عليه أبو حيان – على غاية الفصاحة ، لأنه أولاً يكون الخداع فيكون الميل فيكون الرضى فيكون فعل الاقتراف ، فكأن كل واحد مسبب عما قبله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 697.698 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن الصغو في اللغة معناه : الميل .

يقال في المستمع إذا مال بحاسته إلى ناحية الصوت أنه يصغي ، ويقال : أصغى الإناء إذا أماله حتى انصب بعضه في البعض ، ويقال للقمر إذا مال إلى الغروب صغا وأصغى .

فقوله : ﴿ وَلِتَصْغَى ﴾ أي ولتميل .

فائدة :

"اللام" ﴿ وَلِتَصْغَى ﴾ لا بد له من متعلق .

فقال أصحابنا : التقدير : وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من شياطين الجن والإنس ، ومن صفته أنه يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ، وإنما فعلنا ذلك لتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون أي وإنما أوجدنا العداوة في قلب الشياطين الذين من صفتهم ما ذكرناه

ليكون كلامهم المزخرف مقبولاً عند هؤلاء الكفار ، قالوا : وإذا حملنا الآية على هذا الوجه يظهر أنه تعالى يريد الكفر من الكافر أما المعتزلة فقد أجابوا عنه من ثلاثة أوجه .

*(131/247)*

---

الوجه الأول : وهو الذي ذكره الجبائي قال : إن هذا الكلام خرج مخرج الأمر ومعناه الزجر ، كقوله تعالى : ﴿ واستفزز مَنِ استطعت مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ ﴾ [ الإسراء : 64 ] وكذلك قوله : ﴿ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ ﴾ [ الأنعام : 113 ] وتقدير الكلام كأنه قال للرسول : فذرهم وما يفترون ثم قال لهم على سبيل التهديد ولتصغى إليه أفئدتهم وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون .

والوجه الثاني : وهو الذي اختاره الكعبي أن هذه اللام لام العاقبة أي ستؤل عاقبة أمرهم إلى هذه الأحوال .

قال القاضي : ويبعد أن يقال : هذه العاقبة تحصل في الآخرة ، لأن الإلجاء حاصل في الآخرة ، فلا يجوز أن تميل قلوب الكفار إلى قبول المذهب الباطل ، ولا أن يرضوه ولا أن يقترفوا الذنب ، بل يجب أن تحمل على أن عاقبة أمرهم تؤل إلى أن يقبلوا الأباطيل ويرضوا بها ويعملوا بها .

والوجه الثالث : وهو الذي اختاره أبو مسلم .

قال : "اللام" في قوله : ﴿ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالأخرة ﴾ متعلق بقوله : ﴿ يُوحِى بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول غُرُوراً ﴾ [ الأنعام : 112 ] والتقدير أن بعضهم يوحي إلى بعض زخرف القول ليغروا بذلك ﴿ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ ﴾ الذنوب ويكون المراد أن مقصود الشياطين من ذلك الإيحاء هو مجموع هذه المعاني .

فهذا جملة ما ذكروه في هذا الباب .

أما الوجه الأول : وهو الذي عول عليه الحبائي فضعيف من وجوه ذكرها القاضي .

فأحدها : أن "الواو" في قوله : ﴿ وَلِتَصْغَى ﴾ تقتضي تعلقه بما قبله فحمله على الابتداء بعيد .

وثانيها : أن "اللام" في قوله : ﴿ وَلِتَصْغَى ﴾ لام كي فيبعد أن يقال : إنها لام الأمر ويقرب ذلك من أن يكون تحريفاً لكلام الله تعالى وأنه لا يجوز .

وأما الوجه الثاني : وهو أن يقال : هذه اللام لام العاقبة فهو ضعيف ، لأنهم أجمعوا على أن هذا مجاز وحمله على "كي" حقيقة فكان قولنا أولى .

وأما الوجه الثالث : وهو الذي ذكره أبو مسلم فهو أحسن الوجوه المذكورة في هذا الباب : لأنا نقول : إن قوله : ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول غُرُوراً ﴾ يقتضي أن يكون الغرض من ذلك الإيحاء هو التغرير .

وإذا عطفنا عليه قوله : ﴿ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ فهذا أيضاً عين التغرير لا معنى التغرير ، إلا أنه يستميله إلى ما يكون باطنه قبيحاً .

وظاهره حسناً ، وقوله : ﴿ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ عين هذه الاستمالة فلو عطفنا لزم أن يكون المعطوف عين المعطوف عليه وأنه لا يجوز ، أما إذا قلنا : تقدير الكلام وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من شأنه أن يوحي زخرف القول لأجل التغرير وإنما جعلنا مثل هذا الشخص عدواً للنبي لتصغى إليه أفئدة الكفار ، فيبعدوا بذلك السبب عن قبول دعوة ذلك النبي ، وحينئذ لا يلزم على هذا التقدير عطف الشيء على نفسه .

فثبت أن ما ذكرناه أولى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 128 .

129 ﴾ . بتصرف يسير .

وقال الثعلبى :

﴿ ولتصغى ﴾ أي ولكي تميل .

وقال ابن عباس : ترجع يقال : صغى يصغى صغاً وصغى يصغى ويصغو صغواً وصغواً إذا مال .

قال الفطامي :

أصغت إليه هجائن بنحدودها . . . آذانهن تلى الحداة السوق

ترى عينها صغواء في جنب ماقها . . . تراقب كفي والقطيع المحرما

﴿ إِلَيْهِ ﴾ يعني إلى الزخرف والغرور ، ويقال : صغو فلان معك ، وصغاه معك أي ميله وهواه .

وقرأ النجعي : ولتصغي بضم التاء وكسر الغين أي تميل ، والإصغاء الإمالة . ومنه الحديث "إن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم كان يصغي الإناء للهرة" .

﴿ أَفْئِدَةُ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ الأفئدة جمع الفؤاد مثل غراب وأغربة . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ ولتصغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ ﴾

تصغى تميل ؛ يقال : صغوت أصْغُو صَغْواً وصُغُوًّا ، وصَغَيت أصغى ، وصَغِيت بالكسر أيضاً .

يقال منه : صغِي يَصْغَى صغًى وصُغِيًّا ، وأصغيت إليه إصغاء بمعنًى .

قال الشاعر :

تَرَى السَّفيهَ به عن كلّ مُحْكَمَة . . .

زَيْغٌ وفيه إلى التشبيه إصغاءُ

ويقال : أصغيت الإناء إذا أملْته ليجتمع ما فيه .

وأصله الميل إلى الشيء لغرض من الأغراض .

ومنه صَغَت النجوم : مالت للغروب .

وفي التنزيل : ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ [ التحريم : 4 ] .

قال أبو زيد : يقال صَغْوُه معك وصِغْوُه ، وصَغاه معك ، أي ميله .

وفي الحديث "فأصْغَى لها الإناء" يعني للهرة .

وأكرموا فلاناً في صاغِيته ، أي في قرابته الذين يميلون إليه ويطلبون ما عنده .

وأصغت الناقة إذا أمالت رأسها إلى الرجل كأنها تستمع شيئاً حين يَشُدّ عليها الرَّحْل .

قال ذو الرُّمَّة :

تُصْغِي إذا شدّها بالكُورِ جانِحةً . . .

حتى إذا ما استَوَى في غَرْزِها تَثِبُ

واللام في "ولِتَصْغَى" لام كَيّ ، والعامل فيها "يوحِي" تقديره : يُوحِي بعضهم إلى بعض ليغروهم ولتصغى .

*(134/247)*

---

وزعم بعضهم أنها لام الأمر ، وهو غلط ؛ لأنه كان يجب "ولْتصغ إليه" بحذف الألف ، وإنما هي لام كي .

وكذلك ﴿ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ ﴾ إلا أن الحسن قرأ "ولْيرضوه وليقترفوا" بإسكان اللام ، جعلها لام أمر فيه معنى التهديد ؛ كما يقال : افعل ما شئت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ولتصغي له أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾

أي ولتميل إليه الضمير يعود على ما عاد عليه في فعلوه ، وليرضوه وليكتسبوا ما هم مكتسبون من الآثام .

واللام لام كي وهي معطوفة على قوله غروراً لما كان معناه للغرور ، فهي متعلقة بيوحي

ونصب غرور الاجتماع شروط النصب فيه ، وعدى يوحى إلى هذا باللام لفوت شرط صريح المصدرية واختلاف الفاعل لأن فاعل يوحي هو بعضهم وفاعل تصغى هو ﴿ أفئدة ﴾ ، وترتيب هذه المفاعيل في غاية الفصاحة لأنه أولاً يكون الخداع فيكون الميل فيكون الرضا فيكون الفعل فكأن كل واحد مسبب عما قبله .

وقال الزمخشري : ﴿ ولتصغي ﴾ جوابه محذوف تقديره ، وليكون ذلك جعلنا لكل نبيّ عدوّاً على أن اللام لام الصيرورة ، والضمير في ﴿ إليه ﴾ راجع إلى ما يرجع إليه الضمير في فعلوه أي ولتميل إلى ما ذكر من عداوة الأنبياء ووسوسة الشياطين أفئدة الكفار انتهى .

وتسمية ما تتعلق به اللام جواباً اصطلاح غريب ، وما قاله هو قول الزجاج ، قال : تقديره ﴿ ولتصغي إليه ﴾ فعلوا ذلك فهي لام صيرورة .

وذهب الأخفش إلى أن لام ﴿ ولتصغي ﴾ هي لام كي وهي جواب لقسم محذوف تقديره .

والله ﴿ ولتصغي ﴾ موضع ولتصغين فصار جواب القسم من قبيل المفرد فتقول والله ليقوم زيد التقدير أقسم بالله لقيام زيد واستدل على ذلك بقول الشاعر :

إذا قلت قدني قال الله حلفة . . .

لتغني عني ذا أنائك أجمعا

وبقوله : ﴿ ولتصغي ﴾ والرد عليه مذكور في كتب النحو .

وقرأ النخعي والجراح بن عبد الله ﴿ ولنصغي ﴾ من أصغى رباعياً .

وقرأ الحسن بسكون اللام في الثلاثة .

(135/247)

---

وقيل عنه في ليرضوه وليقترفوا بالكسر في ﴿ ولتصغي ﴾ .

وقال أبو عمرو الداني قراءة الحسن ، إنما هي ﴿ ولتصغي ﴾ بكسر الغين انتهى ، وخمرج سكون اللام في الثلاثة على أنه شذوذ في لام كي وهي لام كي في الثلاثة .

وهي معطوفة على غرور أو سكون لام كي في نحو هذا شاذ في السماع قوي في القياس قاله أبو الفتح .

وقال غيره : هي لام الأمر في الثلاثة ويبعد ذلك في ﴿ ولتصغي ﴾ بإثبات الياء وإن كان قد جاء ذلك في قليل من الكلام .

قرأ قنبل أنه من يتقي ويصبر على أنه يحتمل التأويل .

وقيل هي في ﴿ ولتصغي ﴾ لام كي سكنت شذوذاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ ولتصغى إِلَيْهِ ﴾ أي إلى زُخرُفِ القولِ وهو على الوجه الأولِ علة أخرى للإيحاء معطوفةٌ على غروراً وما بينهما اعتراضٌ وإنما لم ينصَبْ لفقد شرطِه إذ الغرورُ فعلُ الموحي وصغْوُ الأفئدةِ فعلُ الموحى إليه أي يوحي بعضُهم إلى بعض زُخْرفَ القولِ ليغرّرَهم به ولتميل إليه ﴿ أَفْئِدَةُ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ إنما خصَّ بالذكر عدمُ إيمانِهم بالآخرة دون ما عداها من الأمور التي يجب الإيمانُ بها وهم بها كافرون إشعاراً بما هو المدارُ في صغْو أفئدتِهم إلى ما يلقى إليهم ، فإن لذّاتِ الآخرةِ محفوفةٌ في هذه النشأةِ بالمكاره ، وآلامُها مزينةٌ بالشهوات فالذين لا يؤمنون بها وبأحوال ما فيها لا يدرون أن وراءَ تلك المكارهِ لذّاتٍ ودون هذه الشهواتِ آلاماً وإنما ينظُرون إلى ما بدا لهم في الدنيا بادىءَ الرأي فهم مضطرون إلى حبّ الشهواتِ التي من جملتها مزخْرَفاتُ الأقاويلِ ومُموَّهاتُ الأباطيل وأما المؤمنون بها فحيث كانوا واقفين على حقيقة الحالِ ناظرين إلى عواقب الأمورِ لم يُتصوَّر منهم الميلُ إلى تلك المزخرَفاتِ لعلمهم ببطلانها ووخامة عاقبتِها .

*(136/247)*

وأما على الوجهين الأخيرين فهو علةٌ لفعل محذوف يدل عليه المقامُ أي ولكون ذلك جعلنا ما جعلنا ، والمعتزلةُ جعلوا اللامَ لامَ العاقبةِ أو لام القسَم أو لامَ الأمر وضعفُه في غاية الظهور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

*(137/247)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ ﴾

أي إلى زخرف القول ، وقيل : الضمير للوحي أو للغرور أو للعداوة لأنها بمعنى التعادي ، والواو للعطف وما بعدها عطف على ﴿ غُرُوراً ﴾ [ الأنعام : 112 ] بناء على أنه مفعول له فيكون علة أخرى للإيحاء وما في البين اعتراض ، وإنما لم ينصب لفقد شرط النصب إذ الغرور فعل الموحي وصغو الأفئدة فعل الموحى إليه .

وهو على الوجهين الأخيرين علة لفعل محذوف يدور عليه المقام أي وليكون ذلك جعلنا ما جعلنا .

"وأصل الصغو كما قال الراغب الميل يقال : صغت الشمس والنجوم صغوا مالت للغروب وصغيتُ الإناء وأصغيته وأصغيت إلى فلان ملت بسمعي نحوه ، وحُكِي صغوت إليه

أصغو وأصغى صغواً وصُغِيّاً ؛ وقيل : صغيت أصغى وأصغيت أُصغي " .

وفي "القاموس" "صغا يصغو ويصغي صغواً وصغى يصغي صغاً وصغياً مال" .

وذكر بعض الفضلاء أن هذا الفعل مما جاء واوياً ويائياً فقيل : يصغو ويصغى ؛ ويقال : في مصدره صغيا بالفتح والكسر .

وزاد الفراء صغياً وصغوا بالياء والواو مشددتين ، ويقال : إن أصغى مثله .

والمراد هنا ولتميل إليه .

﴿ أَفْئِدَةُ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ أي على الوجه الواجب .

وخص عدم إيمانهم بها دون ما عداها من الأمور التي يجب الإيمان بها وهم بها كافرون قال مولانا شيخ الإسلام "إشعاراً بما هو المدار في صغو أفئدتهم إلى ما يلقى إليهم فإن لذات الآخرة محفوفة في هذه النشأة بالمكاره وآلامها مزينة بالشهوات فالذين لا يؤمنون بها وبأحوال ما فيها لا يدرون أن وراء تلك المكاره لذات ودون هذه الشهوات آلاما وإنما ينظرون ما بدا لهم في الدنيا بادي الرأي فهم مضطرون إلى حب الشهوات التي من جملتها مزخرفات الأقاويل ومموهات الأباطيل ، وأما المؤمنون بها فحيث كانوا واقفين على حقيقة الحال ناظرين إلى عواقب الأمور لم يتصور منهم الميل إلى تلك المزخرفات لعلمهم ببطلانها ووخامة عاقبتها " اه .

والآية حجة على المعتزلة في وجه .

وأجاب الكعبي بأن اللام للعاقبة وليست للتعليل بوجه وهو خلاف الظاهر .

وقال غيره : إنها لام القسم كسرت لما لم يؤكد الفعل بالنون .

واعترض بأن النون حذفت ولام القسم باقية على فتحها كقوله

: لئن تكن قد ضاقت على بيوتكم . . .

ليعلم ربي أن بيتي واسع

بفتح لام ليعلم ، نعم حُكِي عن بعض العرب كسر لام جواب القسم الداخلة على المضارع كقوله

: لتغني عن ذا إنائك أجمعا . . .

*(138/247)*

---

وهو غير مجمع عليه أيضاً فإن أناساً أنكروا ورود ذلك ، وجعلوا اللام في البيت للتعليل والجواب محذوف أي لتشربن لتغني عني .

واستشهد الأخفش بالبيت على إجابة القسم بلام كي .

وقال الرضي : لا يجوز عند البصريين في جواب القسم الاكتفاء بلام الجواب عن نون التوكيد إلا في الضرورة .

وعن الجبائي أن اللام هنا لام الأمر ، والمراد منه التهديد أو التخلية واستعمال الأمر في ذلك كثير .

واعترض بأنها لو كانت لام الأمر لحذف حرف العلة .

وأجيب بأن حرف العلة قد يثبت في مثله كما خرج عليه قراءة ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً نَرتع وَنَلْعَب ﴾ و ﴿ إِنَّهُ مِن يَتَّقِي وَيِصْبِرْ ﴾ فليكن هذا كذلك .

ويؤيد أنها لام الأمر أنه قرىء بحذف حرف العلة .

وقرأ الحسن بتسكين اللام في هذا وفي الفعلين بعده .

فدعوى إن ضعف كونها للأمر أظهر من ضعف الوجهين الأولين غير ظاهرة .

واستدل أصحابنا بإسناد الصغو إلى الأفئدة على أن البنية ليست شرطاً للحياة فالحي عندهم هو الجزء الذي قامت به الحياة ، والعالم هو الجزء الذي قام به العلم ، وقالت المعتزلة : الحي والعالم هو الجملة لا ذلك الجزء ، والإسناد هنا مجازي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ ﴾

عُطف قوله : ﴿ ولتصغى ﴾ على ﴿ غروراً ﴾ [ الأنعام : 112 ] لأنّ ﴿ غروراً ﴾ في معنى ليغرّوهم .

واللام لام كي وما بعدها في تأويل مصدر ، أي ولصغى ، أي مَيل قلوبهم إلى وحيِهم فتقوم عليهم الحجّة .

ومعنى ﴿ تصغى ﴾ تميل ، يقال : صَغَى يَصغى صَغْياً ، ويَصْغُو صَغواً بالياء وبالواو ووردت الآية على اعتباره بالياء لأنّه رسم في المصحف بصورة الياء .

وحقيقته المَيل الحسي ، يقال : صَغى ، أي مال ، وأصغى أمال .

وفي حديث الهِرّة : أنّه أصغى إليها الإناءَ ، ومنه أطلق : أصغى بمعنى استمع ، لأنّ أصله أمال سمعه أو أذُنه ، ثمّ حذفوا المفعول لكثرة الاستعمال .

وهو هنا مجاز في الاتّباع وقبول القول .

(139/247)

---

والَّذين لا يؤمنون بالآخرة هم المشركون .

وخصّ من صفات المشركين عدمُ إيمانهم بالآخرة ، فعُرّفوا بهذه الصّلة للإيماء إلى بعض آثار وحي الشّياطين لهم .

وهذا الوصف أكبر ما أضرّ بهم ، إذ كانوا بسببه لا يتوخّون فيما يصنعون خشية العاقبة وطلَبَ الخير ، بل يتَّبعون أهواءهم وما يُزيِّن لهم من شهواتهم ، معرضين عمّا في خلال ذلك

من المفاسد والكفرِ ، إذ لا يترقَّبون جزاء عن الخير والشرّ ، فلذلك تصغى عقولهم إلى غرور الشَّياطين .

ولا تصغَى إلى دعوة النَّبيء صلى الله عليه وسلم والصّالحين .

وعطف ﴿ وليرضوه ﴾ على ﴿ ولتصغى ﴾ ، وإن كان الصّغْي يقتضي الرّضى ويسبّبه فكان مقتضى الظاهر أن يعطف بالفاء وأن لا تكرّر لام التّعليل ، فخولف مقتضى الظاهر ، للدلالة على استقلاله بالتّعليل ، فعطف بالواو وأعيدت اللاّم لتأكيد الاستقلال ، فيدل على أن صَغى أفئدتهم إليه ما كان يكفي لعملهم به إلاّ لأَنَّهم رَضُوه . انتهى انتهى . اهـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

زعم أصحابنا أن البنية ليست مشروطاً للحياة ، فالحي هو الجزء الذي قامت به الحياة ، والعالم هو الجزء الذي قام به العلم ، وقالت المعتزلة : الحي والعالم هو الجملة "لا" ذلك الجزء .

إذا عرفت هذا فنقول : احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة قولهم ، لأنه قال تعالى : ﴿ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ فجعل الموصوف بالميل والرغبة هو القلب ، لا جملة الحي ، وذلك يدل على قولنا .

فائدة :

الذين قالوا الإنسان شيء مغاير للبدن اختلفوا .

منهم من قال : المتعلق الأول هو القلب ، وبواسطته تتعلق النفس بسائر الأعضاء كالدماغ والكبد .

*(140/247)*

---

ومنهم من قال : القلب متعلق النفس الحيوانية ، والدماغ متعلق النفس الناطقة ، والكبد متعلق النفس الطبيعية ، والأولون تعلقوا بهذه الآية ، فإنه تعالى جعل محل الصغو الذي هو عبارة عن الميل والإرادة القلب ، وذلك يدل على أن المتعلق بالنفس القلب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 129 ﴾ . بتصرف يسير .

فائدة

قال الفخر :

الكناية في قوله : ﴿ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ ﴾ [ الأنعام : 113 ] عائدة إلى زخرف القول ، وكذلك في قوله : ﴿ وَلِيَرْضَوْهُ ﴾ .

وأما قوله : ﴿ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ فاعلم أن الاقتراف هو الاكتساب ، يقال في

المثل : الاعتراف يزيل الاقتراف ، كما يقال : التوبة تمحو الحوبة .

وقال الزجاج : ﴿ ليقترفوا ﴾ أي ليختلفوا وليكذبوا ، والأول أصح . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 129.130 ﴾

(141/247)

---

وقال السمرقندى :

﴿ وَلِيَرْضَوْهُ ﴾ يقول : لكي يقبلوا من الشياطين الزينة والغرور ﴿ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ يعني : ليكسبوا ما هم مكتسبون من المعاصي وليعملوا ما هم عاملون .

وقرأ بعضهم ﴿ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ ﴾ بجزم اللام على معنى الأمر ، والمراد به التهديد كقوله ﴿ اعملوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [ فصلت : 40 ] والقراءة المعروفة بكسر اللام ، والمراد به التهديد ، ومعناه : اتركهم ليعلموا ما هم عاملون . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾

أي وليكتسبوا ما هم مكتسبون .

وقال ابن زيد : وليعملوا ما هم عاملون . يقال : إقترف فلان مالاً أي اكتسبه ، وقارف فلان هذا الأمر إذا واقعه وعمله ، قال الله تعالى ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً ﴾ [ الشورى : 23 ] .

قال لبيد :

وإني لآتي ما أتيت وإنني . . . لما اقترفت نفسي عليَّ لراهب

وقيل : هو من التهمة يقال : قرفه بسوء إذا اتهمه به .

قال رؤبة :

أعيا اقتراف الكذب المقروف . . . تقوى التقيّ وعفّة العفيف . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

ومعنى ﴿ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ أي وليكتسبوا ؛ عن ابن عباس والسّدّي وابن زيد .

يقال : خرج يقترف أهلَه أي يكتسب لهم .

وقارف فلان هذا الأمرَ إذا واقعه وعمِله .

وقَرَفْتني بما ادّعيت عليّ ، أي رميتني بالرِّيبة .

وقَرف القُرْحة إذا قَشَر منها .

واقترف كَذِباً .

قال رُؤْبَة :

أعيا اقترافُ الكذب المقروفِ . . .

تقوى التّقِي وعفّةُ العفيفِ

وأصله اقتطاع قطعة من الشيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

(142/247)

---

﴿ وَلِيَرْضَوْهُ ﴾ لأنفسهم بعد ما مالت إليه أفئدتهم ﴿ وَلِيَقْتَرِفُواْ ﴾ أي يكتسبوا بوجب ارتضائِهم له ﴿ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ له من القبائح التي لا يليق ذكرُها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَلِيَرْضَوْهُ ﴾ لأنفسهم بعد ما مالت إليه أفئدتهم ﴿ وَلِيَقْتَرِفُواْ ﴾ أي ليكتسبوا ، قال الراغب : "أصل القرف والإقتراف قشر اللحاء عن الشجرة والجليدة عن الجرح وما يؤخذ منه قِرَف ، واستعير الإقتراف للإكتساب حسناً كان أو سوءاً وفي الإساءة أكثر استعمالاً ،

ولهذا يقال : الإعتراف يزيل الإقتراف ، ويقال : قرفت فلاناً بكذا إذا عبته به واتهمته ؛

وقد حمل على ذلك ما هنا " وفيه بعد .

ومثله ما نقل عن الزجاج أن المعنى فيه وليختلقوا وليكذبوا ﴿ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ أي الذي هم مقترفوه من القبائح التي لا يليق ذكرها .

وجوز أن تكون ﴿ مَا ﴾ موصوفة ، والعائد محذوف أيضاً .

وأن تكون مصدرية فلا حاجة إلى تقدير عائد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(143/247)

---

وقال ابن عاشور :

وعطْفُ ﴿ وليقترفوا ما هم مقترفون ﴾ على وليرضوه كعطف وليرضوه على ﴿ ولتصغى ﴾ .

والاقتراف افتعال من قرف إذا كسب سيئة ، قال تعالى بعد هذه الآية : ﴿ إنّ الذين يكسبون الإثم سيُجْزون بما كانوا يقترفون ﴾ [ الأنعام : 120 ] فذكَرَ هنالك لِ ﴿ يكسبون ﴾ مفعولا لأنّ الكسب يعمّ الخير والشرّ ، ولم يذكر هنا ل ﴿ يقترفون ﴾ مفعولاً

لأنّه لا يكون إلاّ اكتساب الشرّ ، ولم يقل : سيُجزْون بما كانوا يكسبون لقصد تأكيد معنى الإثم .

يقال : قرف واقترف وقارف .

وصيغة الافتعال وصيغة المفاعلة فيه للمبالغة ، وهذه المادة تؤذن بأمر ذميم .

وحكوا أنَّه يقال : قَرف فلانٌ لعِيالِه ، أي كسب ، ولا أحسبه صحيحاً .

وجيء في صلة الموصول بالجملة الاسميّة في قوله : ﴿ ما هم مقترفون ﴾ للدلالة على تمكّنهم في ذلك الاقتراف وثباتهم فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

(144/247)

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (113) ﴾

كأن من يؤمن بالآخرة لا يقرب منه الزخرف أبداً ولا يميل إليه . وإن زُينت له معصية فإنه يتساءل : كم ستدوم لذة هذه المعصية ؟ دقيقتين ، ساعة ، شهراً ؛ وماذا أفعل يوم القيامة

الذي يكون فيه الإنسان إمّا إلى دخول الجنة وإمّا إلى دخول النار . إذن فمن يؤمن بالآخرة لا تتقبل أذنه ولا فؤاده هذا الزخرف من القول ، ولا يتقبله إلا من لا يؤمن بالآخرة ، وهو لا يعرف إلا الدنيا ، فيقول لنفسه : فلتتمتع في الدنيا فقط ، ولذلك لو استحضرَ كل مؤمن العقوبة على المعصية ما فعلها ، وهو لا يفعلها ، وهو لا يفعلها إلا حين يغفل عن العقوبة . وإذا كنا في هذه الدنيا نخاف من عقوبة بعضنا بعضاً ، وقدراتنا في العقوبة محدودة ، فما بالنا بقدرة الرب القاهرة في العقوبة ؟ ! ولذلك نجد الذين يجعلون الآخرة على ذكر من أنفسهم وبالهم إذا عرضت لهم أي معصية ، يقارنونها بالعقاب ، فلا يقتربون منها . ﴿ ولتصغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ .

(145/247)

---

والإصغاء هو ميل الأذن إلى المتكلم ؛ لأنك قد لا تسمع من يتكلم بغير إصغاء ، وحين يسير الإنسان منا في الطريق فهو يسمع الكثير ، لكن أذنه لا تتوقف عند كل ما يسمع ، بل قد تقف الأذن عندما يظن الإنسان أنه كلام مهم . ولذلك يسمونه التسمع لا السمع ، وهذا هو الإصغاء . ولذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام : من تسمع غانية – أي امرأة تغني بخلاعة – ولم يقل : " من سمع " ، والإنسان منا قد يسير ويذهب إلى أي مكان والمذياع يذيع

الأغاني ، ويسمعها الإنسان ، وآلة إدراك السمع منطقة وليست مفتوحة ؛ فهو لا يتصنت ، وآلة إدراك الانطباقية أو الانفتاحية مثل العين ؛ فالعين لا ترى وهي مغمضة ، إنها ترى وهي مفتوحة ، والعين تغمض بالجفون أما الأذن فليس لها جفون يقول لها : لا تسمعي هذه ، وهذه اسمعيها .

إذن فالسمع ليس للإنسان فيه اختيار ، لكن التسمع هو الذي له فيه اختيار .

﴿ ولتصغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [ الأنعام : 113 ]

كأن فيه شيئا ينبع طلب السمع فيه من الفؤاد ، أي يوافق ما في الأعماق ، وشيئا آخر يمر عليه الإنسان مر الكرام غير ملتفت إليه . والأفئدة هي القلوب ، صحيح أن الآذان هي التي تصغي ، لكن القلوب قد تتسمع ما يقال ، وكأن النفس مستعدة لهذه العملية ؛ لأنها لا تؤمن بأن هناك آخرة وعندما استعداد لأن تأخذ لذة الدنيا دون التفات للآخرة . ولذلك ينقل الحق سبحانه الإصغاء من الأذن إلى الفؤاد وهذا إدراك .

﴿ ولتصغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة . . ﴾ [ الأنعام : 113 ]

ثم تأتي المرحلة الثانية والمرحلة الثالثة :

﴿ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [ الأنعام : 113 ]

وقد يصغي إنسان ، ثم تتنبه نفسه اللوامة ، ويمتنع عن الاستجابة .

لكن هناك من يصغي ويرضى وجدانه ويستريح لما يسمع ، ثم ينزع للعمل ليقترف الإثم .

وهذه ثلاث مراحل : الأولى هي : ﴿ ولتصغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ . ثم المرحلة الثانية : ﴿ وَلِيَرْضَوْهُ ﴾ ، ثم المرحلة الأخيرة : ﴿ وَلِيَقْتَرِفُواْ ﴾ أي يرتكبوا الإثم ، وهذه المسألة حددت لنا المظاهر الشعورية التي درسها علماء النفس فالإدراك ؛ " لتصغى " ، والوجدان ؛ " ليرضوه " ، والنزوع ؛ " ليقترفوا " .

وقبل أن يولد علم النفس جاء القرآن بوصف الطبيعة البشرية بمراحلها المختلفة من إدراك ووجدان ، ونزوع والشرع لا يتدخل عند أي مظهر من مظاهر شعور المرء إلا عند النزوع إلا في حالة واحدة حيث لا يمكن فصل النزوع عن الوجدان وعن الإدراك ؛ لذلك يتدخل الشرع من أول الأمر ، وهو ما يكون في عملية نظر الرجل إلى المرأة ؛ لأنك حين تنظر تجد نفسك : تحبها وتعشقها تفتن بها ، ومحرم عليك النزوع ، فحين تتقدم ناحيتها يقول لك الشرع : لا . ولأن هذا أمر شاق على النفس البشرية ، ولا يمكن فصل هذه العمليات ؛ لأنه إن أدرك وَجِد ، وإن وَجِد نزع ، فأمر الحق بالامتناع من أول الأمر : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ . . ﴾ [ النور : 30 ] ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ . . ﴾ [

النور : 31 ]

إذن فقد منع الإدراك من بدايته ولم ينتظر حتى النزوع ، لماذا ؟ لأن الإدراك الجمالي في كل شيء يختلف عن الإدراك الجمالي في المرأة . الإدراك الجمالي في المرأة يُحدث عملية كيماوية في الجسم تسبب النزوع ، ولا يمكن فصلها أبداً . ﴿ ولتصغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ .

وساعة ما نقول : " ما " ويأتي الإبهام فهذا دليل على أن هناك أموراً كثيرة جدًا .

ولذلك يقول الحق : ﴿ . . فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اليم مَا غَشِيَهُمْ ﴾ [ طه : 78 ]

*(147/247)*

---

أي أنه أمر لا يمكن أن تحدده الألفاظ ، مثله مثل قوله : ﴿ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ .

أي أن كل واحد يقترف ويكتسب ويعمل ويرتكب ما يميل إليه ؛ فهناك من يغتاب أو يحسد أو يسرق وغير ذلك من شهوات النفس التي لا تحدد ؛ لذلك جاء لها باللفظ الذي يعطي على العموم .

وما دامت المسألة في نبوّة واتباع نبوّة ، وفي أعداء شياطين من الإنس والجن ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً إذن فهذه معركة ، وحتى يتم الفصل فيها لابد من حاكم

يحكم . فأوضح الحق : يا محمد أنا أرسلتك ، ولك أعداء وسيكيدون لك بكذا وكذا ويبذلون قصارى جهدهم في إيذائك ومن اتبعك ، فإياك أن تبتغي حكما غيري ؛ لأني أنا المشرع وأنا من أحكم ، وأنا الذي سوف أجازي .

لماذا ؟ لأن الخلاف على ما شرع الله ، ولا يستقيم ولا يصح أن يأتي من يقول مراد المقنن كذا ، أو المفسر الفرنسي قال كذا ، والمفسر الإنجليزي قال كذا ، لا ، إن الذي يحكم هو من وضع القانون ، ومراداته هو أعلم بها ، والحق الواضح هو أعلم به ، وسبحانه هو من يحكم ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

" إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها " .

أي إياك أن يقول واحد : إن النبي قد حكم ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد حكم بظاهر الحجة ، وقد يكون واحد من المختصمين قوي الحجة ، والآخر لا يجيد التعبير عن نفسه . إذن فالحكم هو الله لأنه هو الذي قنن ، ومادام هو الذي قنن وهو الذي يحكم بينكم ، فليطمئن كل إنسان يتخاصم مع غيره ؛ لأن القضية يفصل فيها أعدل العادلين وأحكم الحاكمين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (112) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (113) ﴾

أخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الجن والإنس . قال : يا نبي الله وهل للإنس شياطين ؟ قال : نعم ﴿ شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ ؟ " .

وأخرج أحمد وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي ذر قال : قال لي النبي صلى الله عليه وسلم " تعوذ شياطين الانس والجن . قلت : يا رسول الله وللانس شياطين ؟ قال : نعم " .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوّاً شياطين الإنس والجن ﴾ قال : إن للجن شياطين يضلونهم مثل شياطين الإنس يضلونهم ، فيلتقي شيطان الإنس وشيطان الجن فيقول هذا لهذا : أضلله بكذا وأضلله بكذا . فهو

قوله ﴿ يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ وقال ابن عباس : الجن هم الجان وليسوا بشياطين ، والشياطين ولد إبليس وهم لا يموتون إلا مع إبليس ، والجن يموتون فمنهم المؤمن ومنهم الكافر .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن مسعود قال : الكهنة هم شياطين الإِنس .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ يوحي بعضهم إلى بعض ﴾ قال : شياطين الجن يوحون إلى شياطين الإِنس ، فإن الله تعالى يقول ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ﴾ [ الأنعام : 121 ] .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ شياطين الإِنس والجن ﴾ قال : من الإِنس شياطين ومن الجن شياطين . ﴿ يوحي بعضهم إلى بعض ﴾ .

*(149/247)*

---

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ زخرف القول غروراً ﴾ يقول : بوراً من القول .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ زخرف القول غروراً ﴾ يقول : بوراً من القول .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ زخرف القول غروراً ﴾ قال : يحسن بعضهم لبعض القول ليتبعوهم في فتنتهم .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو نصر السجزي في الابانة وأبو الشيخ عن مجاهد في الآية قال : شياطين الجن يوحون إلى شياطين الانس كفار الإِنس ﴿ زخرف القول غروراً ﴾ قال : تزيين الباطل بالألسنة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ زخرف القول ﴾ قال : زخرفوه وزينوه ﴿ غروراً ﴾ قال : يغرون به الناس والجن .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن زيد في الآية قال : الزخرف المزين حيث زين لهم هذا الغرور كما زين إبليس لآدم ما جاء به ، وقاسمه إنه لمن الناصحين .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ ولتصغى ﴾ لتميل .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ ولتصغى إليه أفئدة ﴾ قال : تزيغ ﴿ وليقترفوا ﴾ قال : ليكتسبوا .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ قال : لتميل إليه قلوب الكفار ﴿ وليرضوه ﴾ قال : يحبوه ﴿ وليقرفوا ما هم مقترفون ﴾ يقول : ليعملوا ما هم عاملون .

وأخرج الطستي وابن الأنباري عن ابن عباس أن نافر بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله

تعالى ﴿ زخرف القول غروراً ﴾ قال : باطل القول غروراً قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت أوس بن حجر وهو يقول :

لم يغروكم غروراً ولكن . . . يرفع الآل جمعكم والدهاء

وقال زهير بن أبي سلمى :

فلا يغرنك دنيا ان سمعت بها . . . عند امرىء سروه في الناس مغرور

قال : فأخبرني عن قوله ﴿ ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون ﴾ ما تصغي ؟ قال : ولتميل إليه . قال فيه الفطامي :

*(150/247)*

---

وإذا سمعن هما هما رفقة . . . ومن النجوم غوابر لم تخفق

أصغت إليه هجائن بخدودها . . . آذانهن إلى الحداة السوّق

قال : أخبرني عن قوله ﴿ وليقترفوا ما هم مقترفون ﴾ قال : ليكتسبوا ما هم مكتسبون فإنهم يوم القيامة يجازون بأعمالهم . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت لبيد بن ربيعة وهو يقول :

وإني لآتي ما أتيت وإنني . . . لما اقترفت نفسي عليّ لراهب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

*(151/247)*

---

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (111) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (112) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (113) ﴾

الآية الأولى تكملة لفقرة سابقة في السياق – في نهاية الجزء السابع – ومتعلقة بما كان يقترحه مشركو العرب على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من الخوارق التي يريدون أن يأتي لهم بها فيصدقوه وما كان من حلفهم بالله حلفا مكررا مؤكدا أن لو جاءتهم هذه الآيات التي يطلبون إنهم ليؤمنون ! مما جعل بعض المسلمين أنفسهم يشتهون أن لو يجيبهم الله إلى ما

يطلبون ! ويقترحون على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يسأل ربه هذه الآيات التي يقترحها المقترحون !

والفقرة كلها جاءت هكذا :

﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم : لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها . قل : إنما الآيات عند الله . وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ؟ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم – كما لم يؤمنوا به أول مرة – ونذرهم في طغيانهم يعمهون . . ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ، وكلمهم الموتى ، وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ، ما كانوا ليؤمنوا – إلا أن يشاء الله – ولكن أكثرهم يجهلون ﴾ . .

ولقد سبق الحديث عن هذه الآيات في نهاية الجزء السابع . فالآن نتحدث عن الحقائق العامة التي تتناولها هذه النصوص ؛ والتي لم نتعرض لها هناك في تفسيرها :

*(152/247)*

---

والحقيقة الأولى : هي أن الإيمان أو الكفر . والهدى أو الضلال . . . لا تتعلق بالبراهين والأدلة على الحق . فالحق هو برهان ذاته . وله من السلطان على القلب البشري ما يجعله يقبله ويطمئن إليه ويرضخ له . . ولكنها المعوقات الأخرى هي التي تحول بين القلب والحق ، وهذه المعوقات يقول الله – سبحانه – للمؤمنين بشأنها :

﴿ وما يشعركم أنها إذا جاءت ( أي الآيات والخوارق ) لا يؤمنون ؟ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ . .

فما وقع لهم في أول مرة ومنعهم من الهدى ، يمكن أن يتكرر وقوعه كذلك – بعد نزول الآية – فيمنعهم من الهدى كرة أخرى . .

إن موحيات الإيمان كامنة في القلب ذاته ؛ وفي الحق كذلك بذاته ؛ وليست متعلقة بعوامل خارجية . . فيجب أن تتجه المحاولة إذن إلى ذلك القلب لعلاجه من آفاته ومن معوقاته . .

والحقيقة الثانية : هي أن مشيئة الله هي المرجع الأخير في أمر الهدى والضلال . فقد اقتضت هذه المشيئة أن تبتلي البشر بقدر من حرية الاختيار والتوجه في الابتداء ؛ وجعل هذا القدر موضع ابتلاء للبشر وامتحان . فمن استخدمه في الاتجاه القلبي إلى الهدى والتطلع إليه والرغبة فيه – وإن كان لا يعلم حينئذ أين هو – فقد اقتضت مشيئة الله أن يأخذ بيده ويعينه ويهديه إلى سبيله . ومن استخدمه في الرغبة عن الهدى والصدود عن دلائله وموحياته ، فقد اقتضت مشيئة الله أن يضله وأن يبعده عن الطريق وأن يدعه يتخبط في الظلمات .

. وإرادة الله وقدره محيطان بالبشر في كل حالة ، ومرد الأمر كله إليه في النهاية .

وهذه الحقيقة يشير إليها السياق في قوله تعالى :

﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم – كما لم يؤمنوا به أول مرة – ونذرهم في طغيانهم يعمهون

﴿ وفي قوله : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى ، وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ، ما كانوا ليؤمنوا – إلا أن يشاء الله – ولكن أكثرهم يجهلون ﴾ . .

(153/247)

---

كما يشير إليها في آية سابقة على هذه الفقرة في سياق السورة قوله تعالى :

﴿ اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين . ولو شاء الله ما أشركوا . وما جعلناك عليهم حفيظاً ، وما أنت عليهم بوكيل ﴾ كما تتكرر الإشارة إليها في الآية التالية لهذه الفقرة .

﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً – ولو شاء ربك ما فعلوه – فذرهم وما يفترون . . . ﴾ . .

فالأمر كله مرهون بمشيئة الله ، هو الذي شاء ألا يهديهم لأنهم لم يأخذوا بأسلوب الهدى ؛ وهو الذي شاء أن يدع لهم هذا القدر من الاختيار على سبيل الابتلاء ؛ وهو الذي يهديهم إذا جاهدوا للهدى ؛ وهو الذي يضلهم إذا اختاروا الضلال . . بلا تعارض – في التصور الإسلامي – بين طلاقة المشيئة الإلهية وهذا المجال الذي ترك للبشر لابتلائهم فيه بهذا القدر من الاختيار .

والحقيقة الثالثة : هي أن الطائعين والعصاة في قبضة الله سواء ، وتحت قهره وسلطانه سواء . فهم لا يملكون جميعاً أن يحدثوا شيئاً إلا بقدر الله وفق مشيئته التي جرت بتلك السنن في تصريف أمر العباد . . ولكن المؤمنين يطابقون – في القدر المتروك لهم للاختيار – بين الخضوع القهري المفروض عليهم لسلطان الله في ذوات أنفسهم وفي حركة خلاياهم وفي طبائع تكوينهم العضوي النفسي ؛ وبين الخضوع الاختياري الذي يلتزمونه بأنفسهم بناء على المعرفة والهدى والاختيار . وبذلك يعيشون في سلام مع أنفسهم ذاتها ، لأن الجانب القهري فيها والجانب الاختياري يتبعان ناموسا واحدا وسلطانا واحدا وحكومة واحدة ! فأما الآخرون فهم مقهورون على اتباع ناموس الله الفطري الذي يقهرهم ولا يملكون أن يخرجوا منه في تكوينهم الجسمي وحاجاتهم الفطرية ، بينما في الجانب الذي ترك لهم الاختيار فيه هم ناشزون على سلطان الله الممثل في منهجه وشرعه . أشقياء بهذا الفصام في شخصيتهم ! وهم بعد هذا كله في قبضة الله لا يعجزونه في شيء ، ولا يحدثون شيئاً إلا بقدره !

وهذه الحقيقة الثالثة ذات أهمية خاصة في القضايا التي يعرضها الشطر الباقي في السورة .

فهي تتكرر في مواضع متعددة في صور متنوعة ، ذلك أن هذا الشطر كله – كما بينا من قبل – يواجه قضية الألوهية وسلطانها في حياة البشر وشريعتهم التي يعيشون بها .

. ومن ثم يتكئ السياق على تقرير أن السلطان كله لله . حتى في كيان العصاة الناشزين عن منهج الله وشرعه ، وأنهم لا يؤذون أولياء الله إلا بما شاء الله . فهم أعجز من أن يكون لهم في ذواتهم سلطان ، فكيف يكون لهم على المؤمنين سلطان ! إنما هي مشيئة الله يكون بها ما يشاء في الطائعين والعصاة سواء .

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تفسير قوله تعالى :

﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ، وكلمهم الموتى ، وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ، ما كانوا ليؤمنوا – إلا أن يشاء الله – ولكن أكثرهم يجهلون ﴾ .

*(155/247)*

---

( يقول – تعالى ذكره – لنبيه محمد – صلى الله عليه وسلم – يا محمد آيس من فلاح هؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأصنام ، القائلين لك : ﴿ لئن جئتنا بآية لنؤمنن لك ﴾ فإننا لو نزلنا إليهم الملائكة حتى يروها عيانا وكلمهم الموتى بإحيائنا إياهم حجة لك ، ودلالة على نبوتك ، وأخبروهم أنك محق فيما تقول ، وأن ما جئتهم به حق من عند الله ؛ وحشرنا عليهم كل

شيء فجعلناهم لك قبلا . ما آمنوا ولا صدقوك ولا اتبعوك – إلا أن يشاء الله ذلك لمن شاء منهم – ﴿ ولكن أكثرهم يجهلون ﴾ . . يقول : ولكن أكثر هؤلاء المشركين يجهلون أن ذلك كذلك . يحسبون أن الإيمان إليهم ، والكفر بأيديهم ، متى شاءوا آمنوا ، ومتى شاءوا كفروا . وليس ذلك كذلك ، ذلك بيدي . لا يؤمن منهم إلا من هديته له فوفقته ، ولا يكفر إلا من خذلته عن الرشد فأضللته ) .

وهذا الأصل الذي يقرره ابن جرير هنا هو الصحيح . ولكنه يحتاج إلى زيادة الإيضاح – التي أسلفناها – باستلهام مجموعة النصوص القرآنية عن الهدى والضلالة ومشيئة الله وجهد الإنسان . . إن الإيمان حدثٌ والضلال حدث . وما يقع في هذا الوجود حدث إلا بقدر من الله ينشئه :

﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ فأما السنة التي يجري على أساسها ذلك القدر بوقوع إيمان فلان وضلال فلان ، فهي التي تبينها مجموعة النصوص . وهي أن الإنسان مبتلى بقدر من الاختيار في الاتجاه . فإذا اتجه إلى الهدى وجاهد فيه هداه الله ووقع هداه وتحقق بقدر من الله . وإذا اتجه إلى الضلال وكره الهدى أضله الله . ووقع ضلاله وتحقق بقدر من الله . . وهو على الحالين في قبضة الله وسلطانه . وحياته تجري بقدر الله وفق مشيئته الطليقة ، وسنته التي وضعتها مشيئته الطليقة .

بعد ذلك تجيء آيتان في سياق السورة ؛ هما من ناحية تكملة للمعاني والحقائق التي تستهدفها الفقرة السابقة التي انتهينا من الحديث عنها . ومن ناحية هما تمهيد للقضايا العقيدية المتعلقة بالسلطان والشريعة والحاكمية . وهي القضايا التي تستغرق ما تبقى من السورة . .

الآيتان :

﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً – ولو شاء ربك ما فعلوه – فذرهم وما يفترون .

ولتصغي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وليرضوه ، وليقترفوا ما هم مقترفون ﴾ .

. . كذلك . . كالذي قدرناه من أن أولئك المشركين الذين يعلقون إيمانهم بمجيء الخوارق ، ويعرضون عن دلائل الهدى وموحياته في الكون والنفس ، لا يقع منهم الإيمان ولو جاءتهم كل آية . .

كذلك الذي قدرناه في شأن هؤلاء ، قدرنا أن يكون لكل نبي عدوهم شياطين الإنس والجن . وقدرنا أن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول ليخدعوهم به ويغروهم بحرب الرسل وحرب الهدى . وقدرنا أن تصغي إلى هذا الزخرف أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ، ويرضوه ، ويقترفوا ما يقترفونه من العداوة للرسل وللحق ؛ ومن الضلال والفساد في

الأرض . .

كل ذلك إنما جرى بقدر الله ؛ وفق مشيئته . ولو شاء ربك ما فعلوه . ولمضت مشيئته بغير هذا كله ؛ ولجرى قدره بغير هذا الذي كان . فليس شيء من هذا كله بالمصادفة . وليس شيء من هذا كله بسلطان من البشر كذلك أو قدرة !

فإذا تقرر أن هذا الذي يجري في الأرض من المعركة الناشبة التي لا تهدأ بين الرسل والحق الذي معهم ، وبين شياطين الإنس والجن وباطلهم وزخرفهم وغرورهم . . إذا تقرر أن هذا الذي يجري في الأرض إنما يجري بمشيئة الله ويتحقق بقدر الله ، فإن المسلم ينبغي أن يتجه إذن إلى تدبر حكمة الله من وراء ما يجري في الأرض ، بعد أن يدرك طبيعة هذا الذي يجري والقدرة التي وراءه . .

﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا ، شياطين الإنس والجن ، يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ . .

*(157/247)*

---

بإرادتنا وتقديرنا ، جعلنا لكل نبي عدوا . . هذا العدو هو شياطين الإنس والجن . .

والشيطنة وهي التمرد والغواية والتمحض للشر صفة تلحق الإنس كما تلحق الجن . وكما

أن الذي يتمرد من الجن ويتمحض للشر والغواية يسمى شيطاناً ؛ فكذلك الذي يتمرد من الإنس ويتمحض للشر والغواية . . وقد يوصف بهذه الصفة الحيوان أيضا إذا شرس وتمرد واستشرى أذاه ! وقد ورد : " الكلب الأسود شيطان " .

هؤلاء الشياطين – من الإنس والجن – الذين قدر الله أن يكونوا عدوا لكل نبي ، يخدع بعضهم بعضا بالقول المزخرف ، الذي يوحيه بعضهم إلى بعض – ومن معاني الوحي التأثير الداخلي الذي ينتقل به الأثر من كائن إلى كائن آخر – ويغر بعضهم بعضا ، ويحرض بعضهم بعضاً على التمرد والغواية والشر والمعصية . .

وشياطين الإنس أمرهم معروف ومشهود لنا في هذه الأرض ، ونماذجهم ونماذج عدائهم لكل نبي ، وللحق الذي معه ، وللمؤمنين به ، معروفة يملك أن يراها الناس في كل زمان .

فأما شياطين الجن – والجن كله – فهم غيب من غيب الله ، لا نعرف عنه إلا ما يخبرنا به مَن عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو . . ومن ناحية مبدأ وجود خلائق أخرى في هذا الكون غير الإنسان وغير الأنواع والأجناس المعروفة في الأرض من الأحياء .

*(158/247)*

. نقول من ناحية المبدأ نحن نؤمن بقول الله عنها ، ونصدق بخبره في الحدود التي قررها .

فأما أولئك الذين يتترسون " بالعلم " لينكروا ما يقرره الله في هذا الشأن ، فلا ندري علام يرتكنون ؟ إن علمهم البشري لا يزعم أنه أحاط بكل أجناس الأحياء ، في هذا الكوكب الأرضي ! كما أن علمهم هذا لا " يعلم " ماذا في الأجرام الأخرى ! وكل ما يمكن أن " يفترضه " أن نوع الحياة الموجود في الأرض يمكن أو لا يمكن أن يوجد في بعض الكواكب والنجوم . . وهذا لا يمكن أن ينفي – حتى لو تأكدت الفروض – أن أنواعاً أخرى من الحياة وأجناساً أخرى من الأحياء يمكن أن تعمر جوانب أخرى في الكون لا يعلم هذا " العلم " عنها شيئاً ! فمن التحكم والتبجح أن ينفي أحد باسم " العلم " وجود هذه العوالم الحية الأخرى .

وأما من ناحية طبيعة هذا الخلق المسمى بالجن ؛ والذي يتشيطن بعضه ويتمحض للشر والغواية – كإبليس وذريته – كما يتشيطن بعض الإنس . . من ناحية طبيعة هذا الخلق المسمى بالجن ، نحن لا نعلم عنه إلا ما جاءنا الخبر الصادق به عن الله – سبحانه – وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

*(159/247)*

ونحن نعرف أن هذا الخلق مخلوق من مارج من نار . وأنه مزود بالقدرة على الحياة في الأرض وفي باطن الأرض وفي خارج الأرض أيضاً . وأنه يملك الحركة في هذه المجالات بأسرع مما يملك البشر . وأن منه الصالحين المؤمنين ، ومنه الشياطين المتمردين . وأنه يرى بني آدم وبنو آدم لا يرونه – في هيئته الأصلية – وكم من خلائق ترى الإنسان ولا يراها الإنسان ! وأن الشياطين منه مسلطون على بني الإنسان يغوونهم ويضلونهم ، وهم قادرون على الوسوسة لهم والإيحاء بطريقة لا نعلمها . وأن هؤلاء الشياطين لا سلطان لهم على المؤمنين الذاكرين . وأن الشيطان مع المؤمن إذا ذكر الله خنس وتوارى ، وإذا غفل برز فوسوس له ! وأن المؤمن أقوى بالذكر من كيد الشيطان الضعيف . وأن عالم الجن يحشر مع عالم الإنس ؛ ويحاسب ؛ ويجازى بالجنة وبالنار كالجنس الإنساني . وأن الجن حين يقاسون إلى الملائكة يبدون خلقاً ضعيفاً لا حول له ولا قوة !

وفي هذه الآية نعرف أن الله سبحانه قد جعل لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن . .

ولقد كان الله – سبحانه – قادراً – لو شاء – ألا يفعلوا شيئاً من هذا . . ألا يتمردوا ؛ وألا يتمحضوا للشر ؛ وألا يعادوا الأنبياء ؛ وألا يؤذوا المؤمنين ؛ وألا يضلوا الناس عن سبيل الله . . كان الله سبحانه قادرا أن يقهرهم قهراً على الهدى ؛ أو أن يهديهم لو توجهوا للهدى ؛ أو أن يعجزهم عن التصدي للأنبياء والحق والمؤمنين به .

. ولكنه سبحانه ترك لهم هذا القدر من الاختيار . وأذن لهم أن تمتد أيديهم بالأذى لأولياء

الله – بالقدر الذي تقضي به مشيئته ويجري به قدره – وقدر أن يبتلي أولياءه بأذى أعدائه ؛ كما يبتلي أعداءه بهذا القدر من الاختيار والقدرة الذي أعطاهم إياه . فما يملك هؤلاء أن يوقعوا بأولياء الله من الأذى إلا ما قدره الله :

﴿ ولو شاء الله ما فعلوه ﴾ فما الذي يخلص لنا من هذه التقريرات ؟

*(160/247)*

---

* يخلص لنا ابتداء : أن الذين يقفون بالعداوة لكل نبي ؛ ويقفون بالأذى لأتباع الأنبياء . . هم " شياطين " ! . شياطين من الإنس ومن الجن . . وأنهم يؤدون جميعاً – شياطين الإنس والجن – وظيفة واحدة ! وأن بعضهم يخدع بعضاً ويضله كذلك مع قيامهم جميعاً بوظيفة التمرد والغواية وعداء أولياء الله . .

* ويخلص لنا ثانياً : أن هؤلاء الشياطين لا يفعلون شيئاً من هذا كله ، ولا يقدرون على شيء من عداء الأنبياء وإيذاء أتباعهم بقدرة ذاتية فيهم . إنما هم في قبضة الله . وهو يبتلي بهم أولياءه لأمر يريده . من تمحيص هؤلاء الأولياء ، وتطهير قلوبهم ، وامتحان صبرهم على الحق الذي هم عليه أمناء . فإذا اجتازوا الامتحان بقوة كف الله عنهم الابتلاء . وكف عنهم هؤلاء الأعداء . وعجز هؤلاء الأعداء أن يمدوا إليهم أيديهم بالأذى

وراء ما قدر الله . وآب أعداء الله بالضعف والخذلان ؛ وبأوزارهم كاملة يحملونها على ظهورهم :

﴿ ولو شاء الله ما فعلوه ﴾ * ويخلص لنا ثالثا : أن حكمة الله الخالصة هي التي اقتضت أن يترك لشياطين الإنس والجن أن يتشيطنوا – فهو إنما يبتليهم في القدر الذي تركه لهم من الاختيار والقدرة – وأن يدعهم يؤذون أولياءه فترة من الزمان – فهو إنما يبتلي أولياءه كذلك لينظروا : أيصبرون ؟ أيثبتون على ما معهم من الحق بينما الباطل ينتفش عليهم ويستطيل ؟ أيخلصون من حظ أنفسهم في أنفسهم ويبيعونها بيعة واحدة لله ، على السراء وعلى الضراء سواء . وفي المنشط والمكره سواء ؟ وإلا فقد كان الله قادراً على ألا يكون شيء من هذا الذي كان !

*(161/247)*

---

* ويخلص لنا رابعا : هوان الشياطين من الإنس والجن ، وهوان كيدهم وأذاهم . فما يستطيلون بقوة ذاتية لهم ؛ وما يملكون أن يتجاوزوا ما أذن الله به على أيديهم . . والمؤمن الذي يعلم أن ربه هو الذي يقدر ، وهو الذي يأذن ، خليق أن يستهين بأعدائه من الشياطين ؛ مهما تبلغ قوتهم الظاهرة وسلطانهم المدَّعى . ومن هنا هذا التوجيه العلوي لرسول الله

الكريم :

﴿ فذرهم وما يفترون ﴾ . .

دعهم وافتراءهم . فأنا من ورائهم قادر على أخذهم ، مدخر لهم جزاءهم . .

* وهناك حكمة أخرى غير ابتلاء الشياطين ، وابتلاء المؤمنين . . لقد قدر الله أن يكون هذا العداء ، وأن يكون هذا الإيحاء ، وأن يكون هذا الغرور بالقول والخداع . . لحكمة أخرى :

﴿ ولتصغي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وليرضوه ، وليقترفوا ما هم مقترفون ﴾

أي لتستمع إلى ذلك الخداع والإيحاء قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة .

. فهؤلاء يحصرون همهم كله في الدنيا . وهم يرون الشياطين في هذه الدنيا يقفون بالمرصاد لكل نبي . وينالون بالأذى أتباع كل نبي ، ويزين بعضهم لبعض القول والفعل . فيخضعون للشياطين ، معجبين بزخرفهم الباطل ، معجبين بسلطانهم الخادع . ثم يكسبون ما يكسبون من الإثم والشر والمعصية والفساد . في ظل ذلك الإيحاء ، وبسبب هذا الإصغاء . .

وهذا أمر أراده الله كذلك جرى به قدره . لما وراءه من التمحيص والتجربة . ولما فيه من إعطاء كل أحد فرصته ليعمل لما هو ميسر له ؛ ويستحق جزاءه بالعدل والقسطاس .

ثم لتصلح الحياة بالدفع ؛ ويتميز الحق بالمفاصلة ؛ ويتمحض الخير بالصبر ؛ ويحمل

الشياطين أوزارهم كاملة يوم القيامة . . وليجري الأمر كله وفق مشيئة الله . . أمر أعدائه وأمر أوليائه على السواء . . إنها مشيئة الله ، والله يفعل ما يشاء .

*(162/247)*

---

والمشهد الذي يرسمه القرآن الكريم للمعركة بين شياطين الإنس والجن من ناحية ، وكل نبي وأتباعه من ناحية أخرى ؛ ومشيئة الله المهيمنة وقدره النافذ من ناحية ثالثة . . هذا المشهد بكل جوانبه جدير بأن نقف أمامه وقفة قصيرة :

إنها معركة تتجمع فيها قوى الشر في هذا الكون . . شياطين الإنس والجن . . تتجمع في تعاون وتناسق لإمضاء خطة مقررة . . هي عداء الحق الممثل في رسالات الأنبياء وحربه . . خطة مقررة فيها وسائلها . . ﴿ يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ . . يمد بعضهم بعضاً بوسائل الخداع والغواية ؛ وفي الوقت ذاته يغوي بعضهم بعضا ! وهي ظاهرة ملحوظة في كل تجمع للشر في حرب الحق وأهله . . إن الشياطين يتعاونون فيما بينهم ؛ ويعين بعضهم بعضاً على الضلال أيضاً ! إنهم لا يهدون بعضهم البعض إلى الحق أبداً . ولكن يزين بعضهم لبعض عداء الحق وحربه والمضي في المعركة معه طويلاً !

ولكن هذا الكيد كله ليس طلقياً . . إنه محاط به بمشيئة الله وقدره . . لا يقدر الشياطين

على شيء منه إلا بالقدر الذي يشاؤه الله وينفذه بقدره . ومن هنا يبدو هذا الكيد – على ضخامته وتجمع قوى الشر العالمية كلها عليه – مقيداً مغلولاً ! إنه لا ينطلق كما يشاء بلا قيد ولا ضابط . ولا يصيب من يشاء بلا معقب ولا مراجع – كما يحب الطغاة أن يلقوا في روع من يعبدونهم من البشر ، ليعلقوا قلوبهم بمشيئتهم وإرادتهم . . كلا ! إن إرادتهم مقيدة بمشيئة الله . وقدرتهم محدودة بقَدر الله . وما يضرون أولياء الله بشيء إلا بما أراده الله – في حدود الابتلاء – ومرد الأمر كله إلى الله .

*(163/247)*

---

ومشهد التجمع على خطة مقررة من الشياطين جدير بأن يسترعي وعي أصحاب الحق ليعرفوا طبيعة الخطة ووسائلها . . ومشهد إحاطة مشيئة الله وقدره بخطة الشياطين وتدبيرهم جدير كذلك بأن يملأ قلوب أصحاب الحق بالثقة والطمأنينة واليقين ، وأن يعلق قلوبهم وأبصارهم بالقدرة القاهرة والقدر النافذ ، وبالسلطان الحق الأصيل في هذا الوجود ، وأن يطلق وجدانهم من التعلق بما يريده أو لا يريده الشياطين ! وأن يمضوا في طريقهم يبنون الحق في واقع الخلق ، بعد بنائه في قلوبهم هم وفي حياتهم . أما عداوة الشياطين ، وكيد الشياطين ، فليدعوهما للمشيئة المحيطة والقدر النافذ .

﴿ ولو شاء ربك ما فعلوه . فذرهم وما يفترون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 3 صـ 1185 . 1191 ﴾

(164/247)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

﴿ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾

في هذه اللاَّم ثلاثة أوْجُه :

أحدها : أنها لام "كَيْ" والفِعْل بعدها مَنْصُوب بإضمار "أن" وفيما يتعلَّق به احتمالان :

الاحتمال الأول : أن يتعلَّق بـ "يُوحِي" على أنَّها نَسَق على "غُرُوراً" و "غُرُوراً" مفعول له ، والتقدير : "ويحي بَعْضُهم إلى بَعْض للغُرُور وللصَّغْو" ، ولكن لما كان المَفْعُول له الأوَّل مُسْتَكْمِلاً لِشُروط النَّصْب ، نُصِب ، ولما كان هذا غير مُسْتكمل للشُّروطِ ، وصل افعل إليه بحَرف العِلَّة ، وقد فَاتَه من الشَّروط كونه لم يتَّحِد فيه الفَاعِل ، فإنَّ فاعل الوحي : " بَعْضُهم " ، وفاعل الصَّغْو : "الأفئدة" وفات أيضاً من الشُّروط صَرِيح المصدريَّة .

والاحتمال الثاني : أن يتعلَّق بِمَحْذُوف متَأَخِّر بَعْدَها ، فقدَّره الزَّجَّاج ، ولِتَصْغى إليه فَعَلُوا

ذَلِك ، وكذا قدَّره الزَّمَخْشَرِي ، فقال : ولِتَصْغى جَوَابُه مَحْذُوف ، تقديره : وليكون ذَلِك جَعَلْنا لكُلِّ نبي عدُواً على أن اللاَّم لام الصَّيْرُورة .

والوجه الثاني : أن اللاَّم لام الصَّيْرُورة وهي الَّتِي يعبِّرون عنها بِلام العاقِبَة ، وهي رأي الزَّمَخْشَري ، كما تقدَّم حكايته عنه .

الوجه الثالث : أنها لام القَسَم .

قال أبو البقاء : " إلا أنَّها كُسِرتْ لمَّا لم يؤكد الفِعْل بالنُّون " وما قَالَه غير مَعْرُوف ، بل المَعْرُوف في هذا القَول : أنَّ هذه لام كَيْ ، وهي جوابُ قسم مَحْذُوف ، تقديره : واللَّه لتَصْغَى فوضع " لِتَصْغَى " موضع " لَتَصْغَيَنَّ " فصار دواب القَسَم من قَبِيل المُفْرَد ؛ كقولك : " والله ليقومُ زيد " أي : " أحْلِفُ بالله لَقيامُ زيد " هذا مَذْهبُ الأخْفَش وأنشد : [ الطويل ]

2289 - إذَا قُلْتُ قَدْنِي قَالَ بِاللَّه حَلْفَةً . . .

لِتُغْنِيَ عَنِّي ذَا إنَائِكَ أجْمَعَا

فقوله : " لتُغْنِي " جواب القَسَم ، فقد ظَهَر أن هذا القَائِل يَقُول بكونها لام كي ، غاية ما في الباب أنَّها وقعت مَوْقِع جواب القَسَم لا أنَّها جوابٌ بنَفْسِها ، وكُسِرَتْ لمَّا حُذِفَتْ منها نون التَّوكيد ، ويدلُّ على فساد ذلك ، أنَّ النُّونَ قد حُذِفَتْ ، ولامَ الجواب بَاقِية على فَتْحِها ، قال القَائِل في ذلك : [ الطويل ]

2290 - لِئِنْ تَكُ قَدْ ضَاقَتْ عَلَيْكُمْ بُيُوتُكُمْ . . .

لَيَعْلَمُ رَبِّي أَنَّ بَيْتِي وَاسِعُ

فقوله : " لَيَعْلَمُ " جوابُ القَسَم الموطَّأ له باللاَّم في " لَئِنْ " ومع ذلك فَهِي مَفْتُوحة مع حَذْفِ نُونِ التَّوْكِيد .

(165/247)

---

والضَّمِير في قوله : " مَا فَعَلُوه " وفي : " إليه " يَعُود : إمَّا على الوَحْي ، وإمَّا على الزُّخْرُف ، وإما على القَوْل ، وإمَّا عَلَى الغُرُور ، وإمّا على العداوة ؛ لأَنَّها بمعنى : التَّعَادي .

ولتصغى أي تميل وهذ المادَّة تدل على المَيْل ، ومنه قوله – تعالى – : ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ [ التحريم : 4 ] ، وفي الحديث : " فأَصْغى لها الإِنَاء " وصاغِيَةُ الرجل : قَرَابَتُه الَّذِين يَمِيلون إليه ، وعين صَغْوى أي : مائِلَة ، قال الأَعْشَى : [ الطويل ]

2291 – تَرَى عَينَهَا صَغْوَاء فِي جَنْبِ مُؤقِهَا . . .

تُرَاقِبُ فِي كَفِّي القَطِيعَ المُحَرَّمَا

والصَّغَا : مَيْلٌ في الحَنَك العَيْن ، وصغت الشمس والنجوم : أي مالت للغُرُوب .

ويقال : " صَغَوْتُ ، وصَغِيتُ وصَغَيْتُ " فاللاَّم واو أو ياء ، ومع الياء تُكْسَرُ عين المَاضِي وتُفْتَحُ .

قال أبو حيَّان : " فَمَصْدر الأوَّل صَغْوٌ ، والثَّاني صُغيٌّ والثالث صَغاً ، ومضارِعُها يَصْغَى بفتح العين " .

قال شهاب الدِّين : قد حَكَى الأصْمَعِيُّ في مصدر صَغَا يَصْغُوا صَغاً ، فليس " صَغاً " مُخْتَصاً بكونه مَصْداً لـ " صَغِي " بالكَسْر .

وزاد الفرَّاء : " صُغِياً " و" صُغُواً " بالياء والواو مُشَدَّدتين ، وأما قوله : " ومُضارِعُها ، أي مُضارع الأفعال الثلاثة : يَصْغَى بِفَتْح الغين " فقد حكى أبو عُبَيْد عن الكسَائِي : صَغَوتُ أصْغُو ، وكذا ابن السِّكِّيت حَكَى : صَغَوتُ أصْغُو ، فقد خَالَفُوا بين مُضارِعِها ، وصَغَوْتُ أصْغُو هو القياس الفَاشِي ، فإن فعل المُعْتَل اللاَّم بالواو قِيَاس مُضَارعه : يَفْعُل بضمِّ العَيْن .

وقال أبو حيَّان أيضاً : " وهي - يعني الأفعال الثلاثة - لازمة " أي : لا تتعدَّى ، وأصْغَى مثْلها لازم ، ويأتِي متعدِّياً ، فتكون الهَمْزَة للنَّقْل ، وأنشد على " أصْغَى " اللاَّزم قول الشاعر : [ البسيط ]

(166/247)

---

2292 - تَرَى السَّفِيهَ بِهِ عَنْ كُلِّ مُحْكَمَةٍ . . .

زَيْغٌ وَفِيهِ إلى التَّشْبيه إصْغَاءُ

قال شهاب الدّين : ومثله قول الآخر : [ البسيط ]

2293 - تُصْغِي إذَا شَدَّهَا بالرَّحْلِ جَانِحَةً . . .

حَتَّى إذا اسْتَوَى فِي غَرْزِهَا تَثِبُ

وفي الحديث : فأَصْغَى لها الإِنَاء " وهذا الذي زَعَمه من كَوْن صغَى ، أو صَغِيَ ، أو صَغاً يكون لازماً غير مُوافَقٍ عليه ، بل قد حَكى الرَّاغب أنه يُقَال : صَغَيْتُ الإِنَاء وأَصغَيْتُه [ وصَغِيت بكسر الغَيْن ] يُحْتَمل أن يَكُن من ذَوَات اليَاءِ ، ويُحْتَمل أن يكُون من ذَوَاتَ الواوِ ، وإنَّما قُلِبَت الواوُ ياءً ؛ لانكسار ما قَبْلَها ؛ كقَوِي ، وهُو من القُوَّة .

وقراءة النَّخعِي ، والجَرَّاح بن عبد الله : " ولِتُصْغَى " من أصغَى رباعياً وهو هُنا لازِم .

وقرأ الحسن : " وَلْتَصْغى ولِيَرْضَوْه ولْيَقْتَرِفوا " بسكون اللاَّم في الثَّلاثة ، وقال أبو عمرو الداني : " قراءة الحَسَن إنَّما هُو : " ولِتَصْغِي " بكَسْر الغَيْن " .

قال شهاب الدّين : فتكون كقراءة النَّخعِيّ .

وقيل : قرأ الحسن : " ولتصغي " بكَسْر اللاَّم كالعامَّة ، ولْيَرْضوه ولْيَقْتَرِفوا بسكون اللاَّم ، خرَّجوا تَسْكين اللاَّم على أحَدِ وَجْهَين : إمَّا أنها لام كي ، وإنَّما سُكِّنَتْ إجراءً لها مع بَعْدها مُجْرى كَبِد ، ونَمِر .

قال ابن جنّي : " وهو قَوِيٌّ في القِيَاس ، شاذٌّ في السَّماع " .

والثاني : أنَّها لام الأَمْر ، وهذا وإن تَمشَّى في " لِيرْضَوْه ولِيَقْتَرِفوا : فلا يتمشَّى في : "

ولِتَصْغى " إذ حرف العلة يحذف جزماً .

قال أبو البقاء : " ولَيْست لام الأمْر ؛ لأنه لَمْ يَجْزِم الفعل " .

(167/247)

---

قال شهاب الدّين : قد ثبت حَرْف العِلَّة جَزْماً في المُتَواتِر ، فمنها : ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ [ يوسف : 12 ] ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ الله ﴾ [ يوسف : 90 ] ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ [ الأعلى : 6 ] ﴿ لاَّ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تخشى ﴾ [ طه : 77 ] وفي كُلِّ ذلك تَأويلات سَتَقِف عَلَيْها - إن شاء الله تعالى - فتلكن هذه القراءة الشَّاذَّة مثل هذه المَوَاضِع ، والقول بكون لام " لتصغى " لام " كَيْ " سُكِنت ؛ لِتَوالي الحَرَكات واللاَّمين بَعْدَها لامَيْ أمْر بعيدٌ وتَشَهّ .

وقال النَّحَّاس : ويُقْرأ : " ولْيَقْتَرِفُوا " يعني بالسُّكُون ، قال : " وفيه مَعْنى التَّهْديد " .

يريد : أنَّه أمر تَهْديد ؛ كقوله : ﴿ اعملوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [ فصلت : 40 ] ولم يحك التَّسْكِين في " لِتَصْغَى " ، ولا في " لِتَرْضَوه " .

و " مَا " في " ما هم مُقْتَرِفون " مَوْصُولة اسميَّة ، أو نكرة مَوْصُوفة مصدريَّة ، والعَائِد على كلا القولَين الأولين مَحْذُوف ، أي : " ما هم مُقْتَرِفُوه " .

[ و] قال أبو البقاء : " وأثبت النُّون لما حُذِفَت الهاء " يريد : أن الضَّمير المتَّصِل باسم الفاعل المُثَنَّى والمجموع على حَدّه ، تُحْذَفُ له نُون التَّثْنِيَة والجمع ، نحو : " هَذَانِ ضَارِبَاه " و" هؤلاء ضَارِبُوه " فغذا حذفَ الضَّمِير ، وقد ثَبَتت ؛ قال القائل : [ الطويل ]

2295 - وَلَم يَرْتَقِقْ والنَّاسُ مُحْتَضِرُونَهُ . . .

جَمِيعاً وأَيدِي المُعْتَفِينَ رَوَاهِقُهْ

وقال القائل في ذلك : [ الطويل ]

2269 - هُمُ الفَاعِلون الخَيْرَ والآمِرُونَهُ . . . . . .

*(168/247)*

---

والاقْتِرَاف : الاكْتِساب ، واقترف فُلان لأهْله ، أي : اكْتَسَب ، وأكثر ما يُقَال في الشَّرّ والذَّنب ، ويطْلَق في الخَيْر ، قال - تعالى - ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً ﴾ [ الشورى : 23 ] .

وقال ابن الأَنْبَارِيّ : " قَرَفَ واقْتَرَفَ : اكتسب " وأُنْشَد في ذلك : [ الطويل ]

2297 - وإِنِّي لآتٍ مَا أَتَيْتُ وَإِنَّنِي . . .

لِمَا اقْتَرَفَت نَفْسِي عَلَيَّ لَرَاهِبُ

وأصل القِرْفِ والاقْتِرَاف : قِشْرُ لحاء الشَّجر ، والجِلْدَةُ من أعَلَى الحرج وا يؤخَذُ منه قَرف ، ثُمَّ استُعِير الاقْتِرَاف للاكْتِسَاب حَسَناً كان ، أو سيّئاً وفي السيّئ أكثر اسْتِعْملاً وقارف فلان أمْراً : تَعَاطى ما يُعَاب به .

وقيل : الاعْتراف يُزِيل الاقْتِرَاف ، ورجل مُقْرِف ، أي : هجين : قال الشَّاعر : [ الرمل ]

2298 - كَمْ بِجُودٍ مُقْرِفٍ نَالَ العُلَى . . .

وشَرِيفٍ بُخْلُهُ قَدْ وَضَعَهْ

وقَرَفْتُه بكذا : اتَّهَمْتُه ، أو عِبْتُه به ، وقارف الذَّنب وعَبَره ، إذا أتَاه ولا صقَهُ ، وقارف امْرَأتَهُ ، وإذا جَامَعها ، والمُقْتَرِف من الخَيْل : الهَجِين ، وهو الَّذي أمُّه برذون ، وأبُوه عَرَبِيّ .

وقيل : بالعَكْس .

وقيل : هُو الَّذي دان الهجنة وقَارَفَها ، ومن حَدِيب عُمَر - رضي الله عنه - : كتب إلى أبِي مُوسى في البَراذِين ما قَارفَ العِتَاق مِنْهَا ، فأجْعَل لَهُ منهما واحِداً ، أي : قَارَبَهَا ودَانَاهَا ، نقله ابن الأثير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 387 . 391 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (113) ﴾

وكلت أسماع الكفار باللغو وقلوبهم بالسوء فَرَضُوا لأنفسهم أخَسَّ الأنصباءَ . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 495 ﴾

(169/247)

---

قوله تعالى ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (114) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان فيما تقدم الإخبار عن مغيب ، وهو أنهم لا يؤمنون عند مجيء الآيات المقترحة ، وكانت عادة العرب دعاء الأعداء والمخالفين إلى حاكم يفصل بينهم ، وكانوا إنما يفزعون في الأمور المغيبة إلى الكهان لما كانوا يكشفون لهم بما يقذف إليهم إخوانهم من الجان مما يسترقونه من السمع ، فيزيدونه كذباً كثيراً ، ثم لا يضرهم ذلك عندهم لذلك القليل الذي يصدقون فيه – كما ابتلينا به في هذا الزمان من الافتتان بمن يفعل مثل ذلك من المجانين والمتشبهين بهم ، وكانت الآيات التي فرغ منها قد أثبتت أن اتخاذهم غرور ، سبب عن ذلك وجوب نفي اتخاذهم غير الله لما اتصف به من إيحاء ما خالف إيحاءهم ، ففات

القوى في إخباره عن حقائق الأمور مفصلة أحسن تفصيل في أساليب قصرت دونها سوابق الأفكار ، وكعّت عنها نوافذ الأفهام ، فثبتت به نبوته ووضحت رسالته ، فكان اقتراحهم ظاهراً في كونه تعنتاً لأنهم كذبوا بأعظم الآيات : القرآن ، ولم يؤمنوا به ، وطعنوا فيه بما زادهم فضائح ، فثبت أنه لا فائدة في إجابتهم إلى مقترحاتهم ، فكان الجواب – عما اقتضاه لسان حالهم من طلب التحاكم إلى أوليائهم ببليغ الإنكار عليهم بقوله : ﴿ أفغير الله ﴾ أي الملك الأعظم – على غاية من البلاغة لا تدرك ، والفاء فيه للسبب ، وإنما تقدمت عليها همزة الإنكار لاقتضائها الصدر ﴿ أبتغي ﴾ أي أطلب حال كون ذلك الغير ﴿ حكماً ﴾ أي يحكم بيني وبينكم ويفصل نزاعنا ؛ ثم استدل على هذا الإنكار بتفصيل الكتاب هذا التفصيل المعجز فقال : ﴿ وهو ﴾ أي والحال أنه لا غيره ﴿ الذي أنزل إليكم ﴾ أي خاصة نعمة علي بالقصد الأول وعليكم بالقصد الثاني ﴿ الكتاب ﴾ أي الأكمل المعجز ، وهو هذا القرآن الذي هو تبيان لكل شيء ﴿ مفصلاً ﴾ أي مميزاً فيه الحلال والحرام ، وغير ذلك من جميع الأحكام ، مع ما تفيده فواصل الآيات من اللطائف والمعارف الكاشفة لحقائق البدايات والنهايات ، ولقد اشتد الاعتناء في هذه السورة بالتنبيه على التفصيل

لوقوع العلم من أرباب البصائر في الصنائع بأن من لا يحسن التفصيل لا يتقن التركيب .

ولما كان التقدير : فأنتم وجميع أرباب البلاغة تعلمون حقيقته بتفصيله والعجز عن مثيله ، عطف عليه قوله : ﴿ والذين ﴾ ويجوز أن يكون جملة حالية ﴿ آتيناهم ﴾ أي بعظمتنا التي تعرفونها ويعرفون بها الحق من الباطل ﴿ الكتاب ﴾ أي المعهود إنزاله من التوراة والإنجيل والزبور ﴿ يعلمون ﴾ أي لما لهم من سوابق الأنس بالكتب الإلهية ﴿ أنه منزل ﴾ .

ولما تقدم ذكر الجلالة الشريفة في حاق موضعه في سياق الحكم الذي لا يكون إلا مع التفرد بالكمال ، وكان هذا المقام بسياق الإنزال يقتضي الإحسان ، لم يضمر بل قال : ﴿ من ربك ﴾ أي المحسن إليك بما خصك به في هذا الكتاب من أنواع الفضائل ﴿ بالحق ﴾ أي الأكمل لما عندهم به من البشائر في كتبهم ولما له من موافقتها في ذكر الأحكام المحكمة والمواعظ الحسنة وكثرة ذكر الله على وجوه ترقق القلوب وتفيض الدموع وتصدع الصدور ، مع ما يزيد به على كتبهم من التفصيل بما يفهم معارف الإلهية والمقامات الصوفية في ضمن الأحكام السياسية والإعجاز بكل آية .

ولما كان أهل الكتاب يخفون ما عندهم من العلم ، ويقولون للمشركين : إنهم أهدى سبيلاً ، بما قد يوهم أنهم يعتقدون بطلانه ، أو أن الأمر ملبس عليهم ، سبب عن إخباره سبحانه قوله على طريق التهييج والإلهاب : ﴿ فلا تكونن ﴾ أي انف نفياً مؤكداً جداً أن تكون في وقت ما ﴿ من الممترين ﴾ أي العاملين عمل الشاك فيما أخبرناك به وإن زاد إخفاؤهم له وإظهارهم لما يوهم خلافه ؛ وإذا حاربتهم في ذلك وأنت أفطن الناس وأعرفهم بما يظهره المجاوزات من خفايا الأسرار – تحققت ما قلناه وإن اجتهدوا في الكتمان ، كما كشفت عنه قصة المناشدة في أمر الزانيين وغيرها ؛ وقال أبو حيان : قال مشركو قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اجعل بيننا وبينك حكماً من أحبار اليهود ، وإن شئت من أساقفة النصارى ، ليخبرنا عنك بما في كتابهم من أمرك فنزلت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 698 . 699 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن

بها ، أجاب عنه بأنه لا فائدة في إظهار تلك الآيات ، لأنه تعالى لو أظهرها لبقوا مصرين على كفرهم .

ثم إنه تعالى بين في هذه الآية أن الدليل الدال على نبوته قد حصل وكمل ، فكان ما يطلبونه طلباً للزيادة وذلك مما لا يجب الالتفات إليه ، وإنما قلنا : إن الدليل الدال على نبوته قد حصل لوجهين :

الوجه الأول : أن الله قد حكم بنبوته من حيث إنه أنزل إليه الكتاب المفصل المبين المشتمل على العلوم الكثيرة والفصاحة الكاملة ، وقد عجز الخلق عن معارضته فظهور مثل هذا المعجز عليه يدل على أنه تعالى قد حكم بنبوته ، فقوله : ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً ﴾ يعني قل يا محمد : إنكم تتحكمون في طلب سائر المعجزات ، فهل يجوز في العقل أن يطلب غير الله حكماً ؟ فإن كل أحد يقول إن ذلك غير جائز .

ثم قل : إنه تعالى حكم بصحة نبوتي حيث خصني بمثل هذا الكتاب المفصل الكامل البالغ إلى حد الإعجاز .

*(173/247)*

والوجه الثاني : من الأمور الدالة على نبوته اشتمال التوراة والإنجيل على الآيات الدالة على أن محمداً عليه الصلاة والسلام رسول حق ، وعلى أن القرآن كتاب حق من عند الله تعالى ، وهو المراد من قوله : ﴿ والذين ءاتيناهم الكتاب يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بالحق ﴾ وبالجملة فالوجهان مذكوران في قوله تعالى : ﴿ قُلْ كفى بالله شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكتاب ﴾ [ الرعد : 43 ] .

أما قوله تعالى في آخر الآية : ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين ﴾ ففيه وجوه : الأول : أن هذا من باب التهييج والإلهاب كقوله : ﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ [ الأنعام : 114 ] والثاني : التقدير ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين ﴾ في أن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق . والثالث : يجوز أن يكون قوله : ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ ﴾ خطاباً لكل واحد والمعنى أنه لما ظهرت الدلائل فلا ينبغي أن يمتري فيها أحد .

الرابع : قيل هذا الخطاب وإن كان في الظاهر للرسول إلا أن المراد منه أمته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 130 ﴾

*(174/247)*

وقال السمرقندى :

﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِى حَكَماً ﴾ يعني : أعْبُدُ غير الله ؟ ويقال : أأطلب القضاء من غير الله ؟ ﴿ وَهُوَ الذى أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الكتاب مُفَصَّلاً ﴾ يعني : مبيناً فيه أمره ونهيه بلغة يعرفونها .

ويقال : مفرقاً سورة سورة وآية آية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً ﴾

"غير" نصب ب"أبتغى" .

"حَكَماً" نصب على البيان ، وإن شئت على الحال .

والمعنى : أفغير الله أطلب لكم حاكماً وهو الذي كفاكم مئونة المسألة في الآيات بما أنزله إليكم من الكتاب المفصّل ، أي المبين .

ثم قيل : الحَكَم أبلغ من الحاكم ؛ إذ لا يستحق التسمية بحَكَم إلا من يحكم بالحق ، لأنها صفة تعظيم في مدح .

والحاكم صفة جارية على الفعل ، فقد يُسَمَّى بها من يحكم بغير الحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ أفغير الله أبتغي حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ﴾

قال مشركو قريش للرسول : اجعل بيننا وبينك حكماً من أحبار اليهود ، وإن شئت من أساقفة النصارى ، ليخبرنا عنك بما في كتابهم من أمرك فنزلت .

ووجه نظمها بما قبلها أنه لما حكى حلف الكفار وأجاب بأنه لا فائدة في إظهار الآيات المقترحة لهم أنهم لا يبقون مصرين على الكفر بين الدليل على نبوته بإنزال القرآن عليه ، وقد عجز الخلق عن معارضته وحكم فيه بنبوته ، وباشتمال التوراة والإنجيل على أنه رسول حق ، وأن القرآن كتاب من عند الله حق .

ووجه آخر وهو أنه لما ذكر العداوة وتهددهم قالوا ما ذكرناه في سبب النزول .

وكان من عادتهم إذا التبس عليهم أمر واختلفوا فيه جعلوا بينهم كاهناً حكماً فأمره الله أن يقول : ﴿ أفغير الله أبتغي حكماً ﴾ وهذا استفهام معناه النفي أي لا أبتغي حكماً غير الله .

قال الكرماني : والحكم أبلغ من الحاكم لأنه من عرف منه الحكم مرة بعد أخرى ، والحاكم اسم فاعل يصدق على المرة الواحدة .

*(175/247)*

وقال إسماعيل : الضرير الفرق بينهما أن الحكم لا يحكم إلا بالحق والحاكم يحكم بالحق وبغير الحق .

وقال ابن عطية نحوه .

قال الحكم : أبلغ من الحاكم إذ هي صيغة للعدل من الحكام ، والحاكم جار على الفعل وقد يقال للجائر ؛ انتهى .

وكأنه إشارة إلى حكم الله عليهم بأنهم لا يؤمنون ولو بعث إليهم كل الآيات ، أو حكمه بأن جعل للأنبياء أعداء وحكماً أي فاصلاً بين الحق والباطل ، وجوزوا في إعراب غير أن يكون مفعولاً بأبتغي وحكماً حال وعكسه وأجاز الحوفي وابن عطية أن ينتصب على التمييز عن غيرهم كقولهم : إن لنا غيرها إبلاً وهو متجه .

وحكاه أبو البقاء فالكتاب القرآن ومفصلاً موضحاً مزال الإشكال أو مفضلاً بالوعد والوعيد أو مفصلاً مفرقاً على حسب المصالح أي لم ينزله مجموعاً أو مفصلاً فيه الأحكام من النهي والأمر والحلال والحرام والواجب والمندوب والضلال والهدى ، أو مفصلاً مبيناً فيه الفصل بين الحق والباطل والشهادة لي بالصدق وعليكم بالافتراء أقوال خمسة وبهذه الآية خاصمت الخوارج علياً في تكفيره بالتحكيم وهذه الجملة حالية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً ﴾

(176/247)

---

كلامٌ مستأنفٌ واردٌ على إرادة القولِ ، والهمزةُ للإنكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه الكلامُ أي قل لهم : أأَمِيلُ إلى زخارف الشياطينِ فأبتغيَ حكماً غيرَ الله يحكمُ بيننا ويفصل المحِقَّ منا من المبْطِل ؟ وقيل : إن مشركي قريش قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اجعلْ بيننا وبينك حكَماً من أحبار اليهود أو من أساقفة النصارى ليخبرَنا عنك بما في كتابهم من أمرك فنزلت . وإسنادُ الابتغاءِ المنكرِ إلى نفسه صلى الله عليه وسلم لا إلى المشركين كما في قوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ ﴾ مع أنهم الباغون لإظهار كمال النَّصَفَةِ أو لمراعاة قولِهم : اجعلْ بيننا وبينك حكماً . وغيرَ إما مفعولُ أبتغي وحكَماً حالٌ منه وإما بالعكس ، وأياً ما كان فتقديمُه على الفعل الذي هو المعطوفُ بالفاء حقيقةً كما أشير إليه للإيذان بأن مدارَ الإنكارِ هو ابتغاءُ غيرِه تعالى حكماً لا مطلقُ الابتغاء . وقيل : حكماً تمييزٌ لما في (غيرَ) من الإبهام كقولهم : إن لنا غيرَها إبلاً . قالوا : الحكَمُ أبلغُ من الحاكمِ وأدلُّ على الرسوخ لما أنه لا يُطلق إلا على العادل وعلى مَنْ تكرَّر منه الحكمُ بخلاف

الحاكم وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الكتاب ﴾ جملةٌ حاليةٌ مؤكدةٌ لإنكار ابتغاءِ غيرِه تعالى حكماً ، ونسبةُ الإنزالِ إليهم خاصةً مع أن مقتضى المقامِ إظهارُ تساوي نسبتِه إلى المتحاكِمَيْن لاستمالتهم نحوَ المُنْزَل واستنزالِهم إلى قبول حكمِه بإيهام قوةِ نسبتِه إليهم ، أي أغيرَه تعالى أبتغي حكَماً والحالُ أنه هو الذي أنزلَ إليكم .

(177/247)

---

وأنتم أمةٌ أمّيةٌ لا تدرون ما تأتون وما تذرون فإن القرآنَ الناطقَ بالحق والصوابِ الحقيقُ بأن يُخَصَّ به اسمُ الكتاب ﴿ مُفَصَّلاً ﴾ أي مبيناً فيه الحقُّ والباطلُ والحلالُ والحرام وغيرُ ذلك من الأحكام بحيث لم يبْقَ في أمور الدينِ شيءٌ من التخليط والإبهامِ فأيُّ حاجة بعد ذلك إلى لحَكَم ؟ وهذا كما ترى صريحٌ في أن القرآنَ الكريمَ كافٍ في أمر الدينِ مغنٍ عن غيره ببيانه وتفصيلِه وأما أن يكون لإعجازه دخْلٌ في ذلك كما قيل فلا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(178/247)

---

وقال الآلوسى :

﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِى حَكَماً ﴾

كلام مستأنف ( وارد ) على إرادة القول .

والهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي قل لهم يا محمد : أأميل إلى زخارف الشياطين أو أعدل عن الطريق المستقيم فأطلب حكماً غير الله تعالى يحكم بيني وبينكم ويفصل المحق منا من المبطل .

وقيل : إن مشركي قريش قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اجعل بيننا وبينك حكماً من أحبار اليهود أو من أساقفة النصارى ليخبرنا عنك بما في كتابهم من أمرك فنزلت .

وإسناد الابتغاء المنكر لنفسه الشريفة صلى الله عليه وسلم لا إلى المشركين كما في قوله سبحانه : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ ﴾ [ آل عمران : 83 ] مع أنهم الباغون لإظهار كمال النصفة أو لمراعاة قولهم : اجعل بيننا وبينك حكماً ، و( غير ) مفعول ﴿ أَبْتَغِى ﴾ و ﴿ حُكْمًا ﴾ حال منه ، وقيل : تمييز لما في ( غير ) من الإبهام كقولهم : إن لنا إبلاً غيرها ، وقيل : مفعول له ؛ وأولى المفعول همزة الاستفهام دون الفعل لأن الإنكار إنما هو في ابتغاء غير الله تعالى حكماً لا في مطلق الابتغاء فكان أولى بالتقديم وأهم ، وقيل : تقديمه للتخصيص .

وحمل على أن المراد تخصيص الإنكار لا إنكار التخصيص ، وقيل : في تقديمه إيماء إلى

وجوب تخصيصه تعالى بالابتغاء والرضى بكونه حكماً .

وجوز أن يكون ﴿ غَيْرِ ﴾ حالاً من ﴿ حُكْمًا ﴾ وحكماً مفعول ﴿ أَبْتَغِى ﴾ والتقديم لكونه مصب الانكار ، والحَكَم يقال للواحد والجمع كما قال الراغب ، وصرح هو وغيره بأنه أبلغ من الحاكم لا مساو له كما نقل الواحدي عن أهل اللغة ، وعلل بأنه صفة مشبهة تفيد ثبوت معناها ولذا لا يوصف به إلا العادل أو من تكرر منه الحكم .

﴿ وَهُوَ الذى أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الكتاب ﴾ جملة حالية مؤكدة للإنكار ، ونسبة الإنزال إليهم خاصة مع أن مقتضى المقام إظهار تساوي نسبته إلى المتحاكمين لاستمالتهم نحو المنزل واستنزالهم إلى قبول حكمه بإيهام قوة نسبته إليهم وقيل : لأن ذلك أوفق بصدر الآية بناء على أن المراد بها الانكار عليهم وإن عبر بما عبر إظهاراً للنصفة ، ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا لِىَ لاَ أَعْبُدُ الذى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [ يس : 22 ] .

ومعنى الآية عند بعض المحققين أغيره تعالى أبتغي حكماً والحال أنه هو الذي أنزل إليكم الكتاب وأنتم أمة أمية لا تدرون ما تأتون وما تذرون القرآن الناطق بالحق والصواب الحقيق بأن يخص به اسم الكتاب .

﴿ مُفَصَّلاً ﴾ أي مبيناً فيه الحق والباطل والحلال والحرام وغير ذلك من الأحكام بحيث لم يبق في أمر الدين شيء من التخليط والإبهام فأي حاجة بعد ذلك إلى الحكم ، ثم قال : وهذا كما ترى صريح في أن القرآن الكريم كاف في أمر الدين مغن عن غيره ببيانه وتفصيله ؛ وأما أن يكون لإعجازه دخل في ذلك كما قيل فلا انتهى .

ولا يخفى أن ملاحظة الإعجاز أمر مطلوب على تقدير كون الآية مرتبطة معنى بقوله سبحانه : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ ﴾ [ الأنعام : 109 ] الآية ، وبيان ذلك على ما ذكره الإمام أنه سبحانه وتعالى "لما حكى عن الكفار أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أتتهم آية ليؤمنن بها أجاب عنه جل شأنه بأنه لا فائدة في إظهار تلك الآيات لأنه تعالى لو أظهرها لبقوا مصرين على كفرهم ، ثم إنه تعالى بين في هذه الآية أن الدليل الدال على نبوته عليه الصلاة والسلام قد حصل وكمل فكان ما يطلبونه طلباً للزيادة وذلك مما لا يجب الالتفات إليه ، ثم نبه على حصول الدليل من هذه الآية بوجهين ، الأول : أنه تعالى أنزل إليه الكتاب المفصل المبين المشتمل على العلوم الكثيرة والفصاحة الكاملة وقد عجز الخلق عن معارضته فيكون ظهور هذا المعجز دليلاً على أنه تعالى قد حكم بنبوته ، فمعنى الآية قل يا محمد : إنكم تتحكمون في طلب سائر المعجزات فهل يجوز في العقل أن يطلب غير الله سبحانه حكماً ؟ فإن كل أحد يقول : إن ذلك غير جائز ثم قل : إنه تعالى حكم بصحة نبوتي حيث خصني بمثل هذا الكتاب المفصل الكامل البالغ إلى حد الإعجاز .

الثاني : اشتمال التوراة والإنجيل على الآيات الدالة على أنه صلى الله عليه وسلم رسول حق وعلى أن القرآن كتاب حق من عند الله تعالى وهذا هو المراد من الآية بعد " انتهى .

(180/247)

---

ووجه بعضهم مدخلية الإعجاز بأنه لا يتم الإلزام إلا بالعلم بكون المنزل من عند الله تعالى وهو يتوقف على الإعجاز بحيث يستغني عن آية أخرى دالة على صدق دعواه عليه الصلاة والسلام أنه من عند الله تعالى لكن قال : إن في دلالة النظم الكريم على ذلك خفاء إلا أن يقال : الجملة الاسمية الحالية تفيده لما فيها من الدلالة على ثبوته وتقرره في نفسه أو يجعل الكتاب بمعنى المعهود إعجازه ، وذكر أن هذا من عدم تدبر الآية إذ المعنى لا أبتغي حكماً في شأني وشأن غيري إلا الله سبحانه الذي نزل الكتاب لذلك ، وهو إنما يحكم له صلى الله عليه وسلم بصدق مدعاه بالإعجاز ، فإنهم لما طعنوا في نبوته عليه الصلاة والسلام وأقسموا إن جاءتهم آية آمنوا بين سبحانه أنهم مطبوع على قلوبهم وأمره أن يوبخهم وينكر عليهم بقوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ ﴾ الخ أي أأزيغ عن الطريق السوي فأخص غيره بالحكم وهو الذي أنزل هذا الكتاب المعجز الذي أفحمكم وألزمكم الحجة فكفي به سبحانه حاكماً بيني وبينكم بإنزال هذا الكتاب المفصل بالآيات البينات من التوحيد

والنبوة وغيرهما الذي أعجزكم عن آخركم ، ويؤول هذا إلى أنه صلى الله عليه وسلم أجابهم بالقول بالموجب لأنهم طعنوا في معجزاته فكبتهم على أحسن وجه وضم إليه علم أهل الكتاب ، وعلى هذا فكونه معجزاً مأخوذ من كونه مغنياً عما عداه في شأنه وشأن غيره على ما أشير إليه ، وهذا له نوع قرب مما ذكره الإمام وما أشار إليه من ارتباط الآية معنى بما تقدم من قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ ﴾ [ الأنعام : 109 ] الخ لا يخلو عن حسن إلا أن دعوى خفاء دلالة النظم الكريم على الإعجاز مما لا خفاء في صحتها عندي ، ولم يظهر مما ذكر ما ما يزيل ذلك الخفاء ، وكون سوق الآية دليلاً على ملاحظة ذلك غير بعيد عن المأخذ الذي سمعته فتدبر .

*(181/247)*

---

ومن الناس من قال : يحتمل أن يراد بالكتاب التوراة أي إنه تعالى حكم بيني وبينكم بما أنزل فيه مفصلاً حيث أخبركم بنبوتي وفصل فيه علاماتي وهو كما ترى ، والحق ما تقدم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾

استئناف بخطاب من الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بتقدير الأمر بالقول بقرينة السّياق كما في قوله تعالى : ﴿ لا نفرّق بين أحد من رسله ﴾ [ البقرة : 285 ] أي يقولون .

وقوله المتقدّم آنفاً ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم ﴾ [ الأنعام : 104 ] بعد أن أخبره عن تصاريف عناد المشركين ، وتكذيبهم .

وتعنّتهم في طلب الآيات الخوارق ، إذ جعلوها حكَماً بينهم وبين الرّسول عليه الصلاة والسلام في صدق دعوته ، وبعد أن فضحهم الله بعداوتهم لرسوله عليه الصلاة والسلام ، وافترائهم عليه ، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالإعراض عنهم وتركِهم وما يفترون ، وأعلمَه بأنَّه ما كلَّفه أن يكون وكيلاً لإيمانهم ، وبأنَّهم سيَرجعون إلى ربّهم فينبّئهم بما كانوا يعملون ، بعد ذلك كلّه لَقَّن الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخاطبهم خطاباً كالجواب عن أقوالهم وتورّكاتهم ، فيفرّع عليها أنّه لا يطلب حاكماً بينه وبينهم غير الله تعالى ، الّذي إليه مرجعهم ، وأنهم إن طمعوا في غير ذلك منه فقد طمعوا منكراً ، فتقدير القول متعيّن لأنّ الكلام لا يناسب إلاّ أن يكون من قول النبي عليه الصلاة والسلام .

*(182/247)*

والفاء لتفريع الجواب عن مجموع أقوالهم ومقترحاتهم ، فهو من عطف التّلقين بالفاء : كما جاء بالواو في قوله تعالى : ﴿ قال إنّي جاعلك للنّاس إماماً قال ومن ذرّيتي ﴾ [ البقرة : 124 ] ، ومنه بالفاء قوله في سورة الزمر ( 64 ) : ﴿ قل أفغيرَ اللّه تأمرونيَ أعْبُد أيها الجاهلون ﴾ فكأنّ المشركين دعوا النّبي إلى التّحاكم في شأن نبوءته بحكم ما اقترحوا عليه من الآيات ، فأجابهم بأنّه لا يضع دِين الله للتّحاكم ، ولذلك وقع الإنكار أن يحكِّم غير الله تعالى ، مع أنّ حكم الله ظاهر بإنزال الكتاب مفصّلا بالحقّ ، وبشهادة أهل الكتاب في نفوسهم ، ومن موجبات التّقديم كون المقدّم يتضمّن جواباً لردّ طلب طلبَه المخاطب ، كما أشار إليه صاحب الكشاف ﴾ في قوله تعالى : ﴿ قل أغير الله أبغي رباً في هذه السورة ﴾ [ الأنعام : 164 ] .

والهمزة للاستفهام الإنكاري : أي إن ظننتم ذلك فقد ظننتم مُنكراً .

وتقديم ﴿ أفغير الله ﴾ على ﴿ أبتغي ﴾ لأنّ المفعول هو محلّ الإنكار .

فهو الحقيق بموالاة همزة الاستفهام الإنكاري ، كما تقدّم في قوله تعالى : ﴿ قل أغير الله أتّخذ وليّا ﴾ في هذه السورة ( 14 ) .

والحَكَم : الحاكم المتخصّص بالحكم الّذي لا ينقض حكمه ، فهو أخصّ من الحاكم ، ولذلك كان من أسمائه تعالى : الحَكَم ، ولم يكن منها : الحاكم .

وانتصب حكما ﴾ على الحال .

والمعنى : لا أطلب حكَماً بيني وبينكم غير الله الّذي حكم حُكمَه عليكم بأنَّكم أعداء مقترفون .

وتقدّم الكلام على الابتغاء عند قوله تعالى : ﴿ أفغيرَ دين الله يبغون ﴾ في سورة آل عمران ( 83 ) .

وقوله : وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ﴾ من تمام القول المأمور به .

والواو للحال أي لا أعدل عن التّحاكم إليه .

وقد فصّل حكمه بإنزال القرآن إليكم لتتدبّروه فتعلَموا منه صدقي ، وأنّ القرآن من عند الله .

وقد صيغت جملة الحال على الاسميّة المعرَّفةِ الجزأين لتفيد القصر مع إفادة أصل الخبر .

*(183/247)*

---

فالمعنى : والحال أنّه أنزل إليكم الكتاب ولم ينزله غيره ، ونكتة ذلك أنّ في القرآن دلالة على أنّه من عند الله بما فيه من الإعجاز ، وبأُمّيَّةِ المنزّل عليه .

وأنّ فيه دلالة على صدق الرّسول عليه الصلاة والسلام تبعاً لثبوت كونه منزّلا من عند الله ، فإنَّه قد أخبر أنَّه أرسل محمّدا صلى الله عليه وسلم للنّاس كافَّة ، وفي تضاعيف حجج

القرآن وأخباره دلالة على صدق من جاء به ؛ فحصل بصوغ جملة الحال على صيغة القصر الدّلالة على الأمرين : أنَّه من عند الله ، والحكمِ للرسول عليه الصّلاة والسّلام بالصّدق .

والمراد بالكتاب القرآن ، والتعريف للعهد الحضوري ، والضمير في ﴿ إليكم ﴾ خطاب للمشركين ، فإنّ القرآن أُنزل إلى النّاس كلّهم للاهتداء به ، فكما قال الله : ﴿ بما أنزل إليك أنزله بعلمه ﴾ [ النساء : 166 ] قال : ﴿ يأيُّها النّاس قد جاءكم بُرْهان من ربّكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ﴾ [ النساء : 174 ] وفي قوله : ﴿ إليكم ﴾ هنا تسجيل عليهم بأنَّه قد بلّغهم فلا يستطيعون تجاهلاً .

والمفصّل المبيَّن .

وقد تقدّم ذكر التّفصيل عند قوله تعالى : ﴿ وكذلك نفصّل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين ﴾ في هذه السورة ( 55 ) .

وجملة والذين أتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل ﴾ معطوفة على القول المحذوف ، فتكون استئنافاً مثله ، أو معطوفة على جملة ﴿ أفغير الله أبتغى ﴾ أو على جملة ﴿ وهو الذي أنزل إليكم الكتاب ﴾ ، فهو عطف تلقين عُطف به الكلام المنسوب إلى الله على الكلام المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم تعضيدا لما اشتمل عليه الكلام المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم من كون القرآن حقّاً ، وأنّه من عند الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ والذين ءاتيناهم الكتاب يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بالحق ﴾

فائدة

قال الفخر :

قال الواحدي : ﴿ أَفَغَيْرَ الله أَبْتَغِى حَكَماً ﴾ الحكم والحاكم واحد عند أهل اللغة ، غير أن بعض أهل التأويل قال الحكم أكمل من الحاكم لأن الحاكم كل من يحكم .

وأما الحكم فهو الذي لا يحكم إلا بالحق والمعنى أنه تعالى حكم حق لا يحكم إلا بالحق .

فلما أظهر المعجز الواحد وهو القرآن فقد حكم بصحة هذه النبوة ، ولا مرتبة فوق حكمه فوجب القطع بصحة هذه النبوة .

فأما أنه هل يظهر سائر المعجزات أم لا ؟ فلا تأثير له في هذا الباب بعد أن ثبت أنه تعالى حكم بصحة هذه النبوة بواسطة إظهار المعجز الواحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 131 ﴾

وقال القرطبى :

﴿ والذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب ﴾ يريد اليهود والنصارى .

وقيل : من أسلم منهم كسَلْمَان وصُهيب وعبدِ الله بن سَلام .

﴿ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ ﴾ أي القرآن .

﴿ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بالحق ﴾ أي أنّ كلّ ما فيه من الوعد والوعيد لَحَقّ ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين ﴾ أي من الشاكين في أنهم يعلمون أنه منزّل من عند الله .

وقال عطاء : الذين آتيناهم الكتاب وهم رؤساء أصحاب محمد عليه السلام : أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ﴾

أي والذين أعطيناهم علم التوراة والإنجيل والزبور والصحف ، والمراد علماء أهل الكتاب فهو عام بمعنى الخصوص وهذه الجملة تكون استئنافاً وتتضمن الاستشهاد بمؤمني أهل الكتاب والطعن على مشركيهم وحسدتهم ، والعضد في الدلالة بأن القرآن حق يعلم أهل الكتاب أنه حق لتصديقه كتبهم وموافقته لها .

﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ .

قيل : الخطاب للرسول خطاب لأمته .

وقيل : لكل سامع أي إذا ظهرت الدلالة فلا ينبغي أن يمتري فيه .

وقيل : هو من باب التهييج والإلهاب كقوله : ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ .

وقيل : ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ في أن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ولا يريبك جحود أكثرهم وكفرهم .

وقرأ ابن عباس وحفص ﴿ منزل ﴾ بالتشديد والباقون بالتخفيف . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

وقوله تعالى : ﴿ والذين ءاتيناهم الكتاب يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بالحق ﴾

*(186/247)*

---

كلامٌ مستأنفٌ غيرُ داخلٍ تحت القولِ المقدَّرِ مَسوقٌ من جهته سبحانه لتحقيق حقّيةِ الكتابِ الذي نيط به أمرُ الحَكَمية وتقريرِ كونِه منزلاً من عنده عز وجل ببيان أن الذين وثِقوا بهم ورضوا بحَكَميّتهم حسبما نُقل آنفاً من علماء اليهودِ والنصارى عالمون بحقيته ونزولِه من عنده تعالى ، وفي التعبير عن التوراة والإنجيلِ باسم الكتابِ إيماءٌ إلى ما بينهما وبين القرآنِ

من المجانسة المقتضيةِ للاشتراك في الحقية والنزولِ من عنده تعالى مع ما فيه من الإيجاز ، وإيرادُ الطائفتين بعنوان إيتاءِ الكتابِ للإيذان بأنهم عِلموه من جهة كتابِهم حيث وجدوه حسبما نُعت فيه وعاينوه موافِقاً له في الأصول وما لا يُختلف من الفروع ومُخبِراً عن أمور لا طريقَ إلى معرفتها سوى الوحي . والمرادُ بالموصول إما علماءُ الفريقين وهو الظاهرُ فالإيتاءُ هو التفهيمُ بالفعل وإما الكلُّ وهم داخلون فيه دخولاً أولياً فهو أعمُّ مما ذكر من التفهيم بالقوة ، ولا ريب في أن الكل متمكنون من ذلك ، وقيل : المرادُ مؤمنوا أهلِ الكتاب ، وقرىء مُنْزلٌ من الإنزال ، والتعرضُ لعنوان الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم لتشريفه عليه الصلاة والسلام ، والباءُ في قوله تعالى بالحق متعلقٌ بمحذوف وقع حالاً من الضمير المستكنّ في مُنزّلٌ أي ملتبساً بالحق .

*(187/247)*

---

﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين ﴾ أي في أنهم يعلمون ذلك لما لا تشاهِد منهم آثارَ العلم وأحكام المعرفة ، فالفاء لترتيب النهي على الإخبار بعلم أهل الكتاب بشأن القرآنِ أو في أنه منزلٌ من ربك بالحق فيكونُ من باب التهييجِ والإلهابِ كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ وقيل : الخطابُ في الحقيقة للأمة وإن كان له صلى الله عليه وسلم صورةً ، وقيل : الخطابُ

لكل أحدٍ على معنى أن الأدلةَ قد تعاضدت وتظاهرت فلا ينبغي لأحد أن يمتريَ فيه ، والفاءُ على هذه الوجوهِ لترتيب النهي على نفس علمِهم بحال القرآن . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(188/247)

---

وقال الآلوسى :

﴿ والذين ءاتيناهم الكتاب يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بالحق ﴾

كلام مستأنف غير داخل تحت القول المقدر مسوق من جهته تعالى لتحقيق حقية الكتاب الذي نيط بإنزاله أمر الحكمية وتقرير كونه منزلاً من عنده عز وجل ، وليس المراد منه الاستدلال على ثبوت نبوته صلى الله عليه وسلم كما يلوح من كلام الإمام ، والمراد بالكتاب التوراة والإنجيل ، والتعبير عنهما بذلك للإيماء إلى ما بينهما وبين القرآن من المجانسة المقتضية للاشتراك في الحقية والنزول من عنده تعالى مع ما فيه من الايجاز ، والمراد بالموصول إما علماء اليهود والنصارى وإما الفريقان مطلقاً والعلماء داخلون دخولاً أولياً ، والإيتاء على الأول التفهيم بالفعل وعلى الثاني أعم منه ومن التفهيم بالقوة ، وإيراد الطائفتين بعنوان إيتاء الكتاب للإيذان بأنهم علموا ما علموا من جهة كتابهم ، وقيل : المراد بالموصول

مؤمنو أهل الكتاب .

وعن عطاء أن المراد بالكتاب القرآن وبالموصول كبراء الصحابة وأهل بدر رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، ولا يخفى أنه أبعد من الثريا .

والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لتشريفه صلى الله عليه وسلم مع الإيذان بأن نزوله من آثار الربوبية .

*(189/247)*

---

و ﴿ مِنْ ﴾ لابتداء الغاية مجازاً وهي متعلقة بمنزل ، والباء للملابسة وهي متعلقة بمحذوف وقع حالاً من الضمير المستكن في ﴿ مُنَزَّلٌ ﴾ أي متلبساً بالحق .

وقرأ غالب السبعة ﴿ مُنَزَّلٌ ﴾ بالتخفيف من الإنزال .

والفرق بين أنزل ونزل قد أشرنا إليه فيما مر وأن الأول دفعي والثاني تدريجي وأنه أكثري ، والقراءة بهما تدل على قطع النظر عن الفرق ، وليس إشارة إلى المعنيين باعتبار إنزاله إلى السماء الدنيا ثم إنزاله إلى الأرض لأن إنزاله دفعة إلى السماء على ما قيل لا يعلمه أهل الكتاب .

﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين ﴾ أي المترددين في أنهم يعلمون ذلك لما لا يشاهد منهم آثار العلم

وأحكام المعرفة ، فالفاء لترتيب النهي على الإخبار بعلم أهل الكتاب أو في أنه منزل من ربك بالحق فليس المراد حقيقة النهي له صلى الله عليه وسلم عن الإمتراء في ذلك بل تهييجه وتحريضه عليه الصلاة والسلام كقوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ المشركين ﴾ [ الأنعام : 14 ] ويحتمل أن يكون الخطاب في الحقيقة للأمة على طريق التعريض وإن كان له عليه الصلاة والسلام صورة ، وأن يكون لكل أحد ممن يتصور منه الامتراء بناء على ما تقرر أن أصل الخطاب أن يكون مع معين وقد يترك لغيره كما في قوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ ترى إِذِ المجرمون ﴾ [ السجدة : 12 ] والفاء على هذه الأوجه لترتيب النهي على نفس علمهم بحال القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

والمراد بالَّذين آتاهم الله الكتابَ : أحبار اليهود ، لأنّ الكتاب هو التّوراة المعروف عند عامّة العرب ، وخاصّة أهل مُكَّة ، لتردّد اليهود عليها في التّجارة .

ولتردّد أهل مكّة على منازل اليهود بيَثرب وقُراها ولكون المقصود بهذا الحكم أحبارَ اليهود خاصّة قال : ﴿ آتيناهم الكتاب ﴾ ولم يقل : أهلُ الكتاب .

*(190/247)*

ومعنى علم الّذين أوتوا الكتاب بأنّ القرآن منزّل من الله : أنَّهم يجدونه مصدّقاً لما في كتابهم ، وهم يعلمون أنّ محمّداً صلى الله عليه وسلم لم يَدرس كتابهم على أحد منهم ، إذ لو درسه لشاع أمْرُه بينهم ، ولأعلنوا ذلك بين النّاس حين ظهور دعوته .

وهم أحرص على ذلك ، ولم يَدّعوه .

وعلمُهم بذلك لا يقتضي إسلامهم لأنّ العناد والحسد يصدّانهم عن ذلك .

وقيل : المراد بالَّذين آتاهم الله الكتاب : مَن أسلموا من أحبار اليهود .

مثل عبدا لله بن سلاَم .

ومُخَيْرِيق ، فيكون الموصول في قوله : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب ﴾ للعهد .

وعن عطاء : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب ﴾ .

هم رؤساء أصحاب محمّد صلى الله عليه وسلم أبو بكر ، وعُمر ، وعثمانُ ، وعليّ .

فيكون الكتابُ هو القرآن .

وضمير ﴿ أنَّه ﴾ عائد إلى الكتاب الّذي في قوله : ﴿ وهو الذي أنزل إليكم الكتاب ﴾ وهو القرآن .

والباء في قوله ﴿ بالحق ﴾ للملابسة ، أي ملابساً للحقّ .

وهي ملابسة الدّالّ للمدلول ، لأنّ معانيه ، وأخباره ، ووعده ، ووعيده ، وكلّ ما اشتمل عليه ، حقّ .

وقرأ الجمهور ﴿ مُنْزَل ﴾ بتخفيف الزاي وقرأ ابن عامر وحفص بالتّشديد والمعنى متقارب أو متّحد ، كما تقدّم في قوله تعالى : ﴿ نزّل عليك الكتاب بالحقّ ﴾ في أوّل سورة آل عمران ( 3 ) .

*(191/247)*

---

والخطاب في قوله : ﴿ فلا تكونّ من الممترين ﴾ [ البقرة : 147 ] يحتمل أن يكون خطاباً للنبيء صلى الله عليه وسلم فيكون التّفريع على قوله : ﴿ يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ﴾ أي فلا تكن من الممترين في أنَّهم يعلمون ذلك ، والمقصود تأكيد الخبر كقول القائل بعد الخبر : هذا مَا لا شكّ فيه ، فالامتراء المنفي هو الامتراء في أنّ أهل الكتاب يعلمون ذلك ، لأنّ غريباً اجتماعُ علمهم وكفرهم به ، ويجوز أن يكون خطابا لغير معيّن ، ليعمّ كلّ من يحتاج إلى مثل هذا الخطاب ، أي فلا تكونّ أيُّها السّامع من الممترين ، أي الشّاكين في كون القرآن من عند الله ، فيكون التّفريع على قوله : ﴿ منزل من ربك بالحق ﴾ أي فهذا أمر قد اتّضح .

فلا تكن من الممترين فيه .

ويحتمل أن يكون المخاطب الرّسول عليه الصلاة والسلام ، والمقصود من الكلام المشركون

الممترون ، على طريقة التّعريض ، كما يقال : ( إياكَ أعني واسمعي يا جارهْ ) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ عملك ﴾ [ الزمر : 65 ] .

وهذا الوجه هو أحسن الوجوه ، والتفريع فيه كما في الوجه الثّاني .

وعلى كلّ الوجوه كان حذف متعلّق الامتراء لظهوره من المقام تعويلاً على القرينة ، وإذ قد كانت هذه الوجوه الثّلاثة غير متعارضة ، صحّ أن يكون جميعها مقصوداً من الآية .

لتذهب أفهام السامعين إلى ما تتوصّل إليه منها .

وهذا فيما أرى من مقاصد إيجاز القرآن وهو معنى الكلام الجامع ، ويجيء مثله في آيات كثيرة ، وهو من خصائص القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

*(192/247)*

---

ومن فوائد الماوردى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله عز وجل : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : معناه هل يجوز لأحد أن يعدل عن حكم الله حتى أعدل عنه .

والثاني : هل يجوز لأحد أن يحكم مع الله حتى أحتكم إليه .

والفرق بين الحَكَم والحَاكِم ، أن الحَكَمَ هو الذي يكون أهلاً للحُكْم فلا يَحْكُمُ إلا بحق ، والحَاكِمُ قد يكون من غير أهله فَيَحْكُمُ بغير حق ، فصار الحَكَم من صفات ذاته ، والحَاكِم من صفات فعله ، فكان الحَكَم أبلغ في المدح من الحَاكِم .

ثم قال : ﴿ وَهُوَ الَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾ في المفصَّل أربعة تأويلات :

أحدها : تفصيل آياته لتبيان معانيه فلا تُشْكِل .

والثاني : تفصيل الصادق من الكاذب .

والثالث : تفصيل الحق من الباطل ، والهدى من الضلال ، قاله الحسن .

والرابع : تفصيل الأمر من النهي ، والمستحب من المحظور ، والحلال من الحرام .

وسبب نزول هذه الآية أن مشركي قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : اجعل بيننا وبينك حَكَماً إن شئت من أحبار اليهود وإن شئت من أحبار النصارى ، ليخبرنا عنك بما في كتابهم من أمرك ، فنزلت عليه هذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

---

قوله تعالى : ﴿ أفغير ﴾ نصب ب ﴿ أبتغي ﴾ ، و ﴿ حكماً ﴾ نصب على البيان والتمييز ، و ﴿ مفصلاً ﴾ معناه مزال الإشكال قد فصلت آياته ، وإن كان معناها يعم في أن الله لا يبتغى سواه حَكماً في كل شيء وفي كل قضية فإنَّا نحتاج في وصف الكلام واتساق عليهم بأنهم لا يؤمنون ولو بعث إليهم كل الآيات . وحكمه بأن جعل الأنبياء أعداء من الجن والإنس ، و ﴿ حَكَماً ﴾ أبلغ من حاكم إذ هي صيغة للعدل من الحكام والحاكم جار على الفعل فقد يقال للجائر ، و ﴿ حَكَماً ﴾ نصب على البيان أو الحال ، وبهذه الآية خاصمت الخوارج علياً رضي الله عنه في تكفيره بالتحكيم ، ولا حجة لها لأن الله تعالى حكم في الصيد وبين الزوجين فتحكيم المؤمنين من حكمه تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ﴾ .

يتضمن الإشهاد بمؤمنيهم والطعن والتنبيه على مشركيهم وحسدتهم ، وقرأ ابن عامر وحفص عن عاصم " منزّل " بالتشديد ، والباقون بالتخفيف ، " والكتاب " أولاً هو القرآن ، وثانياً اسم جنس التوارة والإنجيل والزبور والصحف ، ووصفه أهل الكتاب بالعلم عموم بمعنى الخصوص وإنما يريد علماؤهم وأحبارهم ، وقوله ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾

تثبيت ومبالغة وطعن على الممترين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد الخازن فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله عز وجل : ﴿ أفغير الله أبتغي حكماً ﴾

*(194/247)*

---

أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين أفغير الله أطلب حكاً قاضياً يقضي بيني وبينكم وذلك أنهم كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم اجعل بيننا وبينك حكماً ، فأمره الله تعالى أن يجيبهم بهذا الجواب والحكم والحاكم واحد عند أهل اللغة ، غير أن بعض أهل المعاني قال : الحكم أكمل من الحاكم لأن الحاكم من شأنه أن يحكم والحكم أهل أن يتحاكم إليه وهو الذي لا يحكم إلا بالحق فالله تعالى حكم لا يحكم إلا بالحق فلما أنزل الله على محمد القرآن فقد حكم له بالنبوة وهو قوله تعالى : ﴿ وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ﴾ يعني علماء اليهود والنصارى ﴿ يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ﴾ يعني يشهدون أن هذا القرآن منزل من عند الله وذلك لما ثبت عندهم بالدلائل الدالة على ذلك ، وقيل المراد بهم علماء الصحابة ورؤساؤهم مثل : أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ونظرائهم يعلمون أن هذا القرآن

منزل من ربك بالحق فآمنوا به وصدقوه ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ يعني فلا تكونن يا محمد من الشاكّين أن علماء أهل الكتاب يعلمون أن هذا القرآن حق وأنه منزل من عند الله وقيل : معناه فلا تكونن في شك مما قصصنا عليك أنه حق وصدق فهو من باب التهييج لأنه صلى الله عليه وسلم لم يشك قط ، وقيل : الخطاب وإن كان في الظاهر للنبي صلى الله عليه وسلم إلا أن المراد به غيره .

والمعنى : فلا تكونن أيها الإنسان السامع لهذا القرآن في شك أنه منزل من عند الله لما فيه من الإعجاز الذي لا يقدر على مثله إلا الله تبارك وتعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

*(195/247)*

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾

فسبحانه هو من يحكم وهو من قنن ، وهو من يعلم القانون ويعلم من يتبع القانون ، ومن يخالف القانون . وساعة تقول : ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً ﴾ . فهذا دليل على أنك

واثق أن مجيبك لن يقول لك إلا : لا تبتغي حكما إلا الله ، ولذلك يطرح المسألة في صيغة استفهام ، ويقول صلى الله عليه وسلم : مبلغا عن ربه : ﴿ وَهُوَ الذي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الكتاب مُفَصَّلاً ﴾ ، ولم يقل رسول الله : وهو الذي أنزل عليّ الكتاب ، بل قال مبلغاً عن رب العزة : ﴿ وهُوَ الذي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الكتاب ﴾ كأن العداوة ليست لمحمد وحده ، لكنها العداوة لأمة الإيمان كلها ، والحكم لأمة الإيمان كلها . ومع أن القرآن نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً ، ولكن مهمته البلاغ إلى الناس والغاية منه للمؤمنين كلهم ، وهكذا تكون العداوة للنبي عداوة للمؤمنين كلهم ، ولذلك أنزل عليه الحق هذا التساؤل : ﴿ أَفَغَيْرَ الله أَبْتَغِي حَكَماً ﴾ كما أنزل عليه من قبل القول الحق : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نبيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإنس والجن ﴾ [ الأنعام : 112 ]

إذن فعدو النبي هو عدو المؤمنين به والمتبعين له ، لكن قمة العداوة تكون للنبي المرسل من الحق :

﴿ والذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بالحق فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين ﴾ [ الأنعام : 114 ]

وكلمة ﴿ مِّن رَّبِّكَ بالحق ﴾ فيها إغراء للمؤمنين بأن كل الأمر يعود عليكم أنتم بالفائدة ؛ لأن غاية إنزال الكتاب لكم أنتم ، والكتاب جاء بهذا المنهج لصالحكم ولن يزيد في صفات الله صفة ، ولن يزيد في ملك الله ملكا . بل الغاية أنتم .

﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الذي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الكتاب ﴾ [ الأنعام : 114 ]

وسبحانه لم ينزل الكتاب إلا بتفصيل لا تلتبس فيه مسألة بأخرى :

﴿ والذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بالحق فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين ﴾ [ الأنعام : 114 ]

والمقصود هنا بالذين آتيناهم الكتاب اليهود والنصارى ؛ لأنهم يعلمون صفاتك يا رسول الله ويعلمون نعتك ويعلمون الكثير من كتابك فكل ما يتعلق بك موجود عندهم لكن الآفة أنهم اعتنقوا دينين : دينا يعلن يبدونه ويظهرونه ، ودينا يُسَرّ به ، فما يسر به لا يعلنونه ويُحرِّمون السؤال فيه ، ولا يقبلون فيه نقاشاً ، وعندما تصل إلى الحقيقة وتعرضها عليهم لا يقبلونها ، وما الذي جعلهم يلتوون هكذا ؟ لأن لهم حالين اثنتين : حال أيام أن كانوا يعاديهم من لا يؤمن بالسماء ومنهج السماء كعبدة الأوثان والمشركين . وقال فيه الحق : ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذين كَفَرُواْ ﴾ [ البقرة : 89 ]

لقد كانوا من قبل أعداء للذين كفروا وأشركوا فكان همهم وشغلهم الشاغل أن ينتصروا على هؤلاء الكافرين ، وقالوا :

(أظل زمان نبي نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم)

وحينما جاءهم ما عرفوا كفروا به لأنهم: ﴿ اشتروا بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً . . . ﴾ [التوبة: 9]

وكان الثمن هو بقاء السلطة في أيديهم، وعندما تأتي النبوة تنزع منهم السلطة، فليس في الإِسلام سيطرة لرجال الدين ولا كهنوت. وكانوا يريدون أن تستمر سيادتهم، فاشتروا بآيات الله ثمنا قليلا.

*(197/247)*

---

﴿ والذين آتَيْنَاهُمُ الكتاب يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بالحق فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين ﴾ [الأنعام: 114]

وهم يعلمون أنه منزل من ربك بالحق، وهم يعلمون أن الذي يشيعونه هو باطل. إذن فهناك علم بينهم وبين نفوسهم؛ وعلم آخر يقولونه للآخرين. وقوله الحق: ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين ﴾ أي الشاكين في أن أهل الكتاب يعلمون أن القرآن منزل من عند ربك بالحق.

هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، ونعلم أنه إذا طلب المتكلم من المخاطب أمرا هو فيه فالمراد المداومة عليه والزيادة؛ لأن هناك أموراً قد تزلزل الإيمان؛ لذلك يأتي الأمر

بالثبات ، أو هو إهاجة له ، أو هو تسلية للمؤمنين إذ قال لهم لا تمتروا ولا تشكوا . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(198/247)

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (114) ﴾

أخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ﴾ قال : مبيناً

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق مالك بن أنس عن ربيعة قال : إن الله تبارك وتعالى أنزل الكتاب وترك فيه موضعاً للسنة ، وسن رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك فيها موضعاً للرأي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(199/247)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " أفَغَيْرَ " يجوز نَصْب " غَيْرَ " من وَجْهَين :

أحدهما : أنَّه مَفْعُول لـ " أبْتَغي " مقدَّماً عليه ، ووَلِيَ الهَمْزَة لما تقدَّم في قوله : ﴿ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً ﴾ [ الأنعام : 14 ] ويكُون " حَكَماً " حنيئذٍ : إمَّا حالاً ، وإمَّا تَمْيِيزاً لـ " غَيْر " ذكره الحُوفِيُّ : وأبو البَقَاء ، وابْنُ عَطِيَّة ؛ كقولهم : " إنَّ غَيْرَها إبلاً " .

الثاني : أن يَنْتَصِب " غَيْر " على الحَالِ مِنْ " حَكَماً : لأنَّه في الأصْل يَجُوز أن يَكُون وَصْفاً له ، و " حَكَماً " هذا المَفْعُول به ؛ فتحصَّل في نَصْب " غَيْر " وجهان ، وفي نصب " حَكَماً " ثلاثة أوجه : كونه حالاً ، أو مَفْعُولاً ، أو تَمْيِيزاً .

والحَكَمُ أبلغ من الحَاكِم .

قيل : لأنَّ الحَكَمَ لا يَحْكُم إلا بالعَدْل ، ولا حاكم قد يَجُوز ، ومَعْنى الآية الكريمة : قُلْ لَهُم يا محمَّد : أفَغَير اللَّه أطْلب قَاضياً بَيْنِي وبَيْنَكُم وذلك أنَّهم كَانُوا يَقُولُون للنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم : اجعل بَيْنَنا وبَيْنَك حَكَماً ، فأجابَهُم به .

قوله : " وهُو الَّذي أنْزَل " هذه الجُمْلة في مَحَلِّ نَصْب على الحَالِ من فاعِل : " أبْتَغِي " ، و " مُفَصَّلاً " : حَالٌ من " الكِتَاب " أي مُبيِّناً فيه أمْرُه ونهيه ، والمراد بالكِتَاب : القُرآن العَظِيم ،

وقيل " مُفَصَّلاً " أي : خَمْساً خَمْساً ، وعَشْراً عَشْراً ، كما قال : ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [ الفرقان : 32 ] .

وقوله : " والذين آتَيْنَاهم الكِتَاب " : مُبْتَدأ ، و" يعْلَمُونَ " : خَبَره ، والجُمْلَة مُسْتَأْنَفَة ، والمراد بِهِم : عُلَماء اليَهُود والنَّصارى الذين آتَيْناهم التَّوْراة والإنْجيل .

وقيل : هم مُؤمِنوا أهل الكِتَاب ، وقال عطاء : رُؤسَاء أصْحَاب النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم بالكِتَاب : القُرْآن العَظِيم ، يَعْلَمون أنه مَنَزَّلٌ .

(200/247)

---

قرأ ابنُ عامر ، وحَفْص عن عاصم : " مُنَزَّل " بتشْدِيد الزَّاي ، والباقُون بتَخْفِيفِها ، وقد تقدَّم : أنَّ أنزل ونزَّل لُغَتَان ، أو بَيْنَهُما فَرْق ، و" من ربّك " لابْتِداء الغَايةِ مَجازاً ، و" بالحقّ " حال من الضَّمِير المُسْتَكنّ في " مُنَزَّل " أي : مُلْتَبِساً بالحَقّ ، فالباء للمُصَاحَبَة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 393 ـ 394 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ

يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (114) ﴾

قلْ لهم أترون أني – بعد ظهور البيان ووضوح البرهان – أَذَرُ اليقين ، وأوثر التخمين وأفارق الحقَّ ، وأقارن الحظ ؟ إن هذا محال من الظن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 496 ﴾

(201/247)

---

قوله تعالى ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (115) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما دل على كونه حقاً من عند الله بعلم أهل الكتاب صريحاً وأهل اللسان تلويحاً ، دل عليه بوجه آخر شهودي ، وهو أنه ما قال شيئاً إلا كان على وفق ما قال ، وأنه لم يستطع – ولا يستطيع أحد – منع شيء مما أخبر به ولا تعويقه ساعة من نهار ولا أقل ولا أكثر بقوله تعالى مظهراً في موضع الإضمار ، لتذكيره صلى الله عليه وسلم بما له سبحانه من الإحسان ، والتنبيه على ما يريد به من التشريف والإكرام : ﴿ وتمت ﴾ أي نفذت وتحققت ﴿ كلمة

ربك ﴾ أي المحسن إليك المدبر لأمرك حال كونها ﴿ صدقاً ﴾ أي لا يقدر أحد أن يبدي في شيء منها حديثاً بتخلف ما عن مطابقة الواقع .

ولما كان الصدق غير مناف للجور ، قال : ﴿ وعدلاً ﴾ ولما كان الصدق العدل قد لا يتم معه مراد القائل ، ولا ينفذ فيه كلام الآمر لمنع من هو أقوى منه ، أخبر أنه لا راد لأمره ولا معقب لحكمه ، تصريحاً بما أفهم مطلع الآية من التمام ، وأظهر موضع الإضمار تعميماً وتبركاً وتلذيذاً فقال : ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ أي من حيث إنها كلماته مطلقاً من غير تخصيص بنوع ما ، بل كل ما أخبرت به فهو كائن لا محالة ، رضي من رضي وسخط من سخط .

ولما كان المغير لشيء إنما يتم له ما يريد من التغيير بكون المغير عليه لا يعلم الأسباب المنجحة لما أراد ليحكمها ، والموانع العائقة ليبطلها ، قال عاطفاً على ما تقديره : فهو العزيز الحكيم : ﴿ وهو ﴾ أي لا غيره ﴿ السميع ﴾ أي البالغ السمع لجميع ما يمكن سمعه من الأقوال والأفعال ﴿ العليم ﴾ أي البالغ العلم لجميع ذلك ، فهو إذن الكامل القدرة النافذ الأمر في جميع الأسباب والموانع ، فلا يدع أحداً يغير شيئاً منها وإن دلس أو شبه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 699 . 700 ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ عاصم وحمزة والكسائي : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ بغير ألف على الواحد ، والباقون ﴿ كلمات ﴾ على الجمع ، قال أهل المعاني ، الكلمة والكلمات ، معناهما ما جاء من وعد ووعيد وثواب وعقاب ، فلا تبديل فيه ولا تغيير له كما قال : ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾ [ ق : 29 ] فمن قرأ ﴿ كلمات ﴾ بالجمع قال : لأن معناها الجمع فوجب أن يجمع في اللفظ ، ومن قرأ على الوحدة فلأنهم قالوا : الكلمة ، قد يراد بها الكلمات الكثيرة إذا كانت مضبوطة بضابط واحد ، كقولهم : قال زهير في كلمته : يعني قصيدته ، وقال قس في كلمته ، أي خطبته ، فكذلك مجموع القرآن كلمة واحدة في كونه حقاً وصدقاً ومعجزاً .

فائدة :

*(202/247)*

---

إن تعلق هذه الآية بما قبلها أنه تعالى بين في الآية السابقة أن القرآن معجز ، فذكر في هذه الآية أنه تمت كلمة ربك ، والمراد بالكلمة القرآن أي تم القرآن في كونه معجزاً دالاً على صدق محمد عليه السلام ، وقوله : ﴿ صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾ أي تمت تماماً صدقاً وعدلاً ، وقال أبو علي الفارسي : ﴿ صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾ مصدران ينصبان على الحال من الكلمة تقديره صادقة عادلة ، فهذا وجه تعلق هذه الآية بما قبلها .

واعلم أن هذه الآية تدل على أن كلمة الله تعالى موصوفة بصفات كثيرة .

فالصفة الأولى : كونها تامة وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ وفي تفسير هذا التمام وجوه : الأول : ما ذكرنا أنها كافية وافية بكونها معجزة دالة على صدق محمد عليه الصلاة والسلام ، والثاني : أنها كافية في بيان ما يحتاج المكلفون إليه إلى قيام القيامة عملاً وعلماً ، والثالث : أن حكم الله تعالى هو الذي حصل في الأزل ، ولا يحدث بعد ذلك شيء ، فذلك الذي حصل في الأزل هو التمام ، والزيادة عليه ممتنعة ، وهذا الوجه هو المراد من قوله صلى الله عليه وسلم : " جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة "

الصفة الثانية : من صفات كلمة الله كونها صدقاً ، والدليل عليه أن الكذب نقص والنقص على الله محال ، ولا يجوز إثبات أن الكذب على الله محال بالدلائل السمعية ، لأن صحة الدلائل السمعية موقوفة على أن الكذب على الله محال ، فلو أثبتنا امتناع الكذب على الله بالدلائل السمعية لزم الدور وهو باطل .

*(203/247)*

---

واعلم أن هذا الكلام كما يدل على أن الخلف في وعد الله تعالى محال فهو أيضاً يدل على أن الخلف في وعيده محال بخلاف ما قاله الواحدي في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً

مُّتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا ﴾ [ النساء : 93 ] إن الخلف في وعيد الله جائز ، وذلك لأن وعد الله ووعيده كلمة الله ، فلما دلت هذه الآية على أن كلمة الله يجب كونها موصوفة بالصدق على أن الخلف كما أنه ممتنع في الوعد فكذلك ممتنع في الوعيد .

الصفة الثالثة : من صفات كلمات الله كونها عدلاً وفيه وجهان : الأول : أن كل ما حصل في القرآن نوعان ، الخبر والتكليف .

أما الخبر فالمراد كل ما أخبر الله عن وجوده أو عن عدمه ويدخل فيه الخبر عن وجود ذات الله تعالى وعن حصول صفاته أعني كونه تعالى عالماً قادراً سميعاً بصيراً ، ويدخل فيه الأخبار عن صفات التقديس والتنزيه كقوله : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ [ الإخلاص : 3 ] وكقوله : ﴿ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ ﴾ [ البقرة : 255 ] ويدخل فيه الخبر عن أقسام أفعال الله وكيفية تدبيره لملكوت السموات والأرض وعالمي الأرواح والأجسام ، ويدخل فيه كل أمر عن أحكام الله تعالى في الوعد والوعيد والثواب والعقاب ، ويدخل فيه الخبر عن أحوال المتقدمين ، والخبر عن الغيوب المستقبلة ، فكل هذه الأقسام داخلة تحت الخبر ، وأما التكليف فيدخل فيه كل أمر ونهي توجه منه سبحانه على عبده سواء كان ذلك العبد ملكاً أو بشراً أو جنياً أو شيطاناً وسواء كان ذلك في شرعنا أو في شرائع الأنبياء عليهم السلام المتقدمين ، أو في شرائع الملائكة المقربين الذين هم سكان السموات والجنة والنار والعرش وما وراءه مما لا يعلم أحوالهم إلا الله تعالى .

---

وإذا عرفت انحصار مباحث القرآن في هذين القسمين فنقول : قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً ﴾ إن كان من باب الخبر ﴿ وَعَدْلاً ﴾ إن كان من باب التكاليف ، وهذا ضبط في غاية الحسن .

والقول الثاني : في تفسير قوله : ﴿ وَعَدْلاً ﴾ أن كل ما أخبر الله تعالى عنه من وعد ووعيد وثواب وعقاب فهو صدق لأنه لا بد وأن يكون واقعاً ، وهو بعد وقوعه عدل لأن أفعاله منزهة عن أن تكون موصوفة بصفة الظلمية .

الصفة الرابعة : من صفات كلمة الله قوله : ﴿ لاَ مُبَدِّلَ لكلماته ﴾ وفيه وجوه : الأول : أنا بينا أن المراد من قوله : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ أنها تامة في كونها معجزة دالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم قال : ﴿ لاَّ مُبَدِّلَ لكلماته ﴾ والمعنى أن هؤلاء الكفار يلقون الشبهات في كونها دالة على صدق محمد عليه الصلاة والسلام إلا أن تلك الشبهات لا تأثير لها في هذه الدلائل التي لا تقبل التبديل ألبتة لأن تلك الدلالة ظاهرة باقية جلية قوية لا تزول بسبب ترهات الكفار وشبهات أولئك الجهال .

والوجه الثاني : أن يكون المراد أنها تبقى مصونة عن التحريف والتغيير كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ [ الحجر : 9 ] .

والوجه الثالث : أن يكون المراد أنها مصونة عن التناقض كما قال : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ الله لَوَجَدُواْ فِيهِ اختلافا كَثِيراً ﴾ [ النساء : 82 ] .

والوجه الرابع : أن يكون المراد أن أحكام الله تعالى لا تقبل التبديل والزوال لأنها أزلية والأزلي لا يزول .

واعلم أن هذا الوجه أحد الأصول القوية في إثبات الجبر ، لأنه تعالى لما حكم على زيد بالسعادة وعلى عمرو بالشقاوة ، ثم قال : ﴿ لاَ مُبَدّلِ لِكَلِمَات الله ﴾ يلزم امتناع أن ينقلب السعيد شقياً وأن ينقلب الشقي سعيداً ، فالسعيد من سعد في بطن أمه ، والشقي من شقي في بطن أمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 131.133 ﴾

*(205/247)*

---

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبّكَ ﴾

يقول وجب قول ربك بأنه ناصر محمد صلى الله عليه وسلم وأن عاقبة الأمر به ﴿ صِدْقاً

وَعَدْلاً ﴾ يعني : ﴿ صِدْقاً ﴾ فيما وعد الله له من النصرة ﴿ وَعَدْلاً ﴾ فيما حكم به ﴿ لاَ مُبَدّلَ لكلماته ﴾ يقول : لا مغيّر لوعده كقوله ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والذين ءَامَنُواْ فِى الحياة الدنيا وَيَوْمَ يَقُومُ الاشهاد ﴾ [ غافر : 51 ] ويقال : ﴿ لاَ مُبَدّلَ لكلماته ﴾ يعني : لا ينقض بعضها بعضاً ولا يشبه كلام البشر .

وروى أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾ قال : " هُوَ قَوْلُ لاَ إله إِلاَّ الله " ﴿ وَهُوَ السميع العليم ﴾ ﴿ السميع ﴾ بما سألوا ﴿ العليم ﴾ بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبّكَ ﴾

قرأ أهل الكوفة كلمة : على الواحد والباقون : كلمات على الجمع ، واختلفوا في الكلمات .

فقال قتادة : هي القرآن لا مبدل له لا يزيد المفترون ولا ينقصون .

وقال بعضهم : هي أقضيته وعدالته ﴿ لاَّ مُبَدّلِ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ لا مغير لها ﴿ وَهُوَ السميع العليم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَتَمَّتَ كَلِمَةُ رَبّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾

يعني القرآن ، وفي تمامه أربعة أوجه محتملة :

أحدها : تمام حُجَجِهِ ودلائله .

والثاني : تمام أحكامه وأوامره .

والثالث : تمام إنذاره بالوعد والوعيد .

والرابع : تمام كلامه واستكمال صوره .

وفي قوله : ﴿ صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾ وجهان :

أحدهما : صدقاً في وعده ووعهده ، وعدلاً في أمره ونهيه ، قاله ابن بحر .

والثاني : صدقاً فيما حكاه ، عدلاً فيما قضاه ، وهو معنى قول قتادة .

وقد مضى تفسير ﴿ لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وتمت كلمة ربك ﴾

(206/247)

---

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، ونافع : "كلمات" على الجمع ؛ وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي ، ويعقوب : "كلمة" على التوحيد ؛ وقد ذكرت العرب الكلمة ، وأرادت

الكثرة؛ يقولون : قال قُسّ في كلمته ، أي : في خطبته ، وزهير في كلمته ، أي : في قصيدته .

وفي المراد بهذه الكلمات ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها القرآن ، قاله قتادة .

والثاني : أقضيتُه وعداته .

والثالث : وعده ووعيده ، وثوابه وعقابه .

وفي قوله : ﴿ صدقاً وعدلاً ﴾ قولان .

أحدهما : صدقاً فيما أخبر ، وعدلاً فيما قضى وقدّر .

والثاني : صدقاً فيما وعد وأوعد ، وعدلاً فيما أمر ونهى .

وفي قوله : ﴿ لا مبدِّل لكلماته ﴾ قولان .

أحدهما : لا يقدر المفترون على الزيادة فيها والنقصان منها .

والثاني : لا خُلف لمواعيده ، ولا مغير لحكمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ

﴾

وقال ابن عطية :

﴿ تمت ﴾ في هذا الموضع بمعنى استمرت وصحت في الأزل صدقاً وعدلاً ، وليس بتمام من نقص ، ومثله ما وقع في كتاب السيرة من قولهم وتم حمزة على إسلامه في الحديث مع أبي جهل ، و" الكلمات " ما نزل على عباده ، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي "كلمة"

بالإفراد هنا وفي يونس في الموضعين وفي حم المؤمن . وقرأ نافع وابن عامر جميع ذلك " كلماتُ " بالجمع . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو هنا فقط "كلمات" بالجمع ، وذهب الطبري إلى أنه القرآن كما يقال كلمة فلان في قصيدة الشعر والخطبة البليغة .

(207/247)

---

قال القاضي أبو محمد : وهذا عندي بعيد معترض ، وإنما القصد العبارة عن نفوذ قوله تعالى : ﴿ صدقاً ﴾ فيما تضمنه من خبر ﴿ وعدلاً ﴾ فيما تضمنه من حكم ، هما مصدران في موضع الحال ، قال الطبري نصباً على التمييز وهذا غير صواب ، و ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ معناه في معانيها بأن يبين أحد أن خبره بخلاف ما أخبر به أو يبين أن أمره لا ينفذ ، والمثال من هذا أن الله تعالى قال لنبيه عليه السلام ﴿ فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج ﴾ [ التوبة : 83 ] إلى الخالفين ، فقال المنافقون بعد ذلك للنبي عليه السلام وللمؤمنين ذرونا نتبعكم فقال الله لنبيه : ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل ﴾ [ الفتح : 15 ] أو في قوله ﴿ فقل لن تخرجوا معي أبداً ﴾ [ التوبة : 83 ] لأن مضمنه الخبر بأن لا يباح لهم خروج ، وأما الألفاظ فقد بدلتها بنو إسرائيل وغيرتها ، هذا مذهب جماعة من العلماء ، وروي عن ابن عباس أنهم إنما بدلوا

بالتأويل والأول أرجح ، وفي حرف أبي بن كعب ، "لا مبدل لكلمات الله" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾

قراءة أهل الكوفة بالتوحيد ، والباقون بالجمع .

قال ابن عباس : مواعيد ربك ، فلا مغيّر لها .

والكلمات ترجع إلى العبارات أو إلى المتعلقات من الوعد والوعيد وغيرهما .

قال قتادة : الكلمات هي القرآن لا مبدل له ، لا يزيد فيه المفترون ولا ينقصون .

﴿ صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾ أي فيما وعد وحكم ، لا رادّ لقضائه ولا خُلْف في وعده .

وحكى الرّمّاني عن قتادة : لا مبدلّ لها فيما حكم به ، أي إنه وإن أمكنه التغيير والتبديل في الألفاظ كما غيّر أهل الكتاب التوراةَ والإنجيل فإنه لا يعتدّ بذلك .

ودلّت الآية على وجوب اتباع دلالات القرآن ؛ لأنه حق لا يمكن تبديله بما يناقضه ، لأنه من عند حكيم لا يخفى عليه شيء من الأمور كلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ وتمت كلمة ربك ﴾ وقرئ كلمات ربك على الجمع فمن قرأ على التوحيد قال : الكلمة قد يراد بها الكلمات الكثيرة إذا كانت مضبوطة بضابط واحد كقولهم قال الشاعر في كلمته يعني في قصيدته ، وكذلك القرآن كلمة واحدة لأنه شيء واحد في إعجاز النظم وكونه حقاً وصدقاً ومعجزاً ومن قرأ بالجمع قال لأن الله قال في سياق الآية ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ فوجب الجمع في اللفظ الأول إتباعاً للثاني ﴿ صدقاً وعدلاً ﴾ يعني صدقاً فيما وعد وعدلاً فيما حكم وقيل إن القرآن مشتمل على الأخبار والأحكام فهو صادق فيما أخبر عن القرون الماضية والأمم الخالية وعما هو كائن إلى قيام الساعة .

وفيما أخبر عن ثواب المطيع في الجنة وعقاب العاصي في النار وهو عدل فيما حكم من الأمر والنهي والحلال والحرام وسائر الأحكام ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ يعني لا مغير لقضائه ولا رادّ لحكمه ولا خلف لمواعيده ، وقيل : لما وصف كلماته بالتمام في قوله وتمت كلمة ربك والتمام في كلام الله لا يقبل النقص والتغيير والتبديل .

قال الله تعالى : ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ لأنها مصونة عن التحريف والتغيير والتبديل باقية إلى يوم القيامة وفي قوله : ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ دليل على أن السعيد لا ينقلب شقياً ولا الشقي ينقلب سعيداً ، فالسعيد من سعدَ في الأزل والشقي من شقيّ في الأزل وأورد على

هذا أن الكافر يكون شقياً بكفره فيسلم فينقلب سعيداً بإسلامه وأجيب عنه بأن الاعتبار بالخاتمة فمن ختم له بالسعادة كان قد كتب سعيداً في الأزل ومن ختم له بالشقاوة كان شقياً في الأزل والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وهو السميع ﴾ يعني لما يقول العباد ﴿ العليم ﴾ بأحوالهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

*(209/247)*

---

وقال أبو حيان :

﴿ وتمت كلمات ربك صدقاً وعدلاً ﴾

لما تقدّم من أول السورة إلى هنا دلائل التوحيد والنبوة والبعث والطعن على مخالفي ذلك وكان من هنا إلى آخر السورة أحكام وقصص ، ناسب ذكر هذه الآيات هنا أي تمت أقضيته وأقداره قاله ابن عباس .

وقال قتادة : كلماته هو القرآن ، وقال الزمخشري : كل ما أخبر به وأمر ونهى ووعد وأوعد .

وقال الحسن : صدقاً في الوعد وعدلاً في الوعيد .

وقيل : في ما تضمن من خبر وحكم أو فيما كان وما يكون ، أو فيما أمر وما نهى أو في الترغيب والترهيب أو فيما قال : هؤلاء إلى الجنة وهؤلاء إلى النار أو في الثواب والعقاب أو في نصرة أوليائه وخذلان أعدائه ، أو في نصرة الرسول ببدر وإهلاك أعدائه أو في الإرشاد والإضلال أو في الغفران والتعذيب ، أو في الفضل والمنع أو في توسيع الرزق وتقتيره أو في إعطائه وبلائه وهذه الأقوال أول القول فسر به الصدق والمعطوف فسر به العدل ، وأعرب الحوفي والزمخشري وابن عطية وأبو البقاء ﴿ صدقاً وعدلاً ﴾ مصدرين في موضع الحال والطبري تمييزاً وجوزه أبو البقاء .

وقال ابن عطية : هو غير صواب وزاد أبو البقاء مفعولاً من أجله وليس المعنى في ﴿ تمت ﴾ أنها كان بها نقص فكملت وإنما المعنى استمرت وصحت كما جاء في الحديث : " وتم حمزة على إسلامه " .

وكقوله تعالى : ﴿ وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم ﴾ أي استمرت وهي عبارة عن نفوذ أقضيته .

وقرأ الكوفيون هنا كلمة بالإفراد ونافع جميع ذلك ﴿ كلمات ﴾ بالجمع تابعه أبو عمرو وابن كثير هنا .

﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ أي لا مغير لأقضيته ولا مبدل لكلمات القرآن فلا يلحقها تغيير ، لا في المعنى ولا في اللفظ وفي حرف أبي لا مبدل لكلمات الله .

﴿ وهو السميع العليم ﴾ أي السميع لأقوالكم العليم بالضمائر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(210/247)

---

وقال البيضاوى :

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ بلغت الغاية أخباره وأحكامه ومواعيده . ﴿ صِدْقاً ﴾ في الأخبار والمواعيد . ﴿ وَعَدْلاً ﴾ في الأقضية والأحكام ونصبهما يحتمل التمييز والحال والمفعول له . ﴿ لاَ مُبَدّلَ لكلماته ﴾ لا أحد يبدل شيئاً منها بما هو أصدق وأعدل ، أو لا أحد يقدر أن يحرفها شائعاً ذائعاً كما فعل بالتوراة على أن المراد بها القرآن ، فيكون ضماناً لها من الله سبحانه وتعالى بالحفظ كقوله : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ أو لا نبي ولا كتاب بعدها ينسخها ويبدل أحكامها . وقرأ الكوفيون ويعقوب ﴿ كلمة ربك ﴾ أي ما تكلم به أو القرآن . ﴿ وَهُوَ السميع ﴾ لما يقولون . ﴿ العليم ﴾ بما يضمرون فلا يهملهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 445.446 ﴾

(211/247)

وقال أبو السعود :

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾

شروعٌ في بيان كمالِ الكتابِ المذكورِ من حيث ذاتُه إثرَ بيانِ كمالِه من حيث إضافتُه إليه تعالى بكونه منزلاً منه بالحق ، وتحقيقُ ذلك بعلم أهلِ الكتاب به ، وإنما عبر عنه بالكلمة لأنها الأصلُ في الاتصاف بالصدق والعدلِ وبها تظهر الآثارُ من الحكم ، وقرىء كلماتُ ربك ﴿ صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾ مصدران نصبا على الحال وقيل : على التمييز وقيل : على العلة وقوله تعالى : ﴿ لاَ مُبَدّلَ لكلماته ﴾ إما استئنافٌ مبينٌ لفضلها على غيرها إثرَ بيانِ فضلِها في نفسها ، وإما حالٌ أخرى من فاعل تمت على أن الظاهرَ مغنٍ عن الضمير الرابطِ ، والمعنى أنها بلغت الغايةَ القاصيةَ صدقاً في الإخبار والمواعيدِ وعدلاً في الأقضية والأحكامِ لا أحدَ يبدل شيئاً من ذلك بما هو أصدقُ وأعدلُ ولا بما هو مثلُه فكيف يُتصوّر ابتغاءُ حكمٍ غيرِه تعالى ﴿ وَهُوَ السميع ﴾ لكل ما يتعلق به السمع ﴿ العليم ﴾ بكل ما يمكن أن يُعلم فيدخُل في ذلك أقوالُ المتحاكمين وأحوالُهم الظاهرةُ والباطنةُ دخولاً أولياً ، هذا وقد قيل : المعنى لا أحدَ يقدِر على أن يحرّفها كما فُعل بالتوراة ، فيكونُ ضماناً لها من الله عز وجل بالحفظ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ أو لا نبيَّ ولا كتابَ بعدها ينسخها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾

شروع في بيان كمال القرآن من حيث ذاته إثر بيان كماله من حيث إضافته إليه عز وجل بكونه منزلاً منه سبحانه بالحق وتحقيق ذلك بعلم أهل الكتابين به ، "وتمام الشيء كما قال الراغب انتهاؤه إلى حد لا يحتاج إلى شيء خارج عنه" .

والمراد بالكلمة وأريد به كما قال قتادة وغيره القرآن ، وإطلاقها عليه إما من باب المجاز المرسل أو الاستعارة وعلاقتها تأبى أن تطلق الكلمة على الجملة غير المفيدة وعلاقته لا لكن لم يوجد في كلامهم ذلك الإطلاق ، واختير هذا التعبير لما فيه من اللطافة التي لا تخفى على من دقق النظر .

وقال البعض لما أن الكلمة هي الأصل في الاتصاف بالصدق والعدل وبها تظهر الآثار من الحكم .

وعن أبي مسلم أن المراد بالكلمة دين الله تعالى كما في قوله سبحانه : ﴿ وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ العليا ﴾ [ التوبة : 40 ] .

وقيل : المراد بها حجته عز وجل على خلقه والأول هو الظاهر .

وقرأ بالتوحيد عاصم وحمزة وعلي وخلف وسهل ويعقوب ، وقرأ الباقون ﴿ كلمات ربَّكَ ﴾ .

﴿ صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾ مصدران نصبا على الحال من ﴿ ربَّكَ ﴾ أو من ﴿ كلمات ﴾ كما ذهب إليه أبو علي الفارسي .

وجوز أبو البقاء نصبهما على التمييز وعلى العلة ؛ والصدق في الأخبار والمواعيد منها في المشهور والعدل في الأقضية والأحكام ﴿ لاَ مُبَدّلَ لكلماته ﴾ استئناف مبين لفضلها على غيرها إثر بيان فضلها في نفسها .

وقال بعض المحققين : إنه سبحانه لما أخبر بتمام كلمته وكان التمام يعقبه النقص غالباً كما قيل

: إذا تم أمر بدا نقصه . . .

توقع زوالاً إذا قيل تم

ذكر هذا احتراساً وبياناً لأن تمامها ليس كتمام غيرها .

وجوز أن يكون حالاً من فاعل ﴿ تَمُتْ ﴾ على أن الظاهر مغن عن الضمير الرابط .

قال أبو البقاء : ولا يجوز أن يكون حالاً من ربك لئلا يفصل بين الحال وصاحبها بأجنبي وهو ﴿ صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾ إلا أن يجعلا حالين منه أيضاً .

---

والمعنى لا أحد يبدل شيئاً من كلماته بما هو أصدق وأعدل منه ولا بما هو مثله فكيف يتصور ابتغاء حكم غيره تعالى .

والمراد بالأصدق الأبين والأظهر صدقاً فلا يرد أن الصدق لا يقبل الزيادة والنقص لأن النسبة إن طابقت الواقع فصدق وإلا فكذب .

وذكر الكرماني في حديث " أصدق الحديث " الخ أنه جعل الحديث كمتكلم فوصف به كما يقال زيد أصدق من غيره والمتكلم يقبل الزيادة والنقص في ذلك ، وقيل : المعنى لا يقدر أحد أن يحرفها شائعاً كما فعل بالتوراة فيكون هذا ضماناً منه سبحانه بالحفظ كقوله جل وعلا : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ [ الحجر : 9 ] أو لا نبي ولا كتاب بعدها يبدلها وينسخ أحكامها .

وعيسى عليه السلام يعمل بعد النزول بها لا ينسخ شيئاً كما حقق في محله .

وقيل : المراد إن أحكام الله تعالى لا تقبل التبدل والزوال لأنها أزلية والأزلي لا يزول .

وزعم الإمام "أن الآية على هذا أحد الأصول القوية في إثبات الجبر لأنه تعالى لما حكم على زيد بالسعادة وعلى عمرو بالشقاوة ثم قال : ﴿ لاَ مُبَدّلَ لكلماته ﴾ يلزم امتناع أن ينقلب

السعيد شقيا والشقي سعيداً فالسعيد من سعد في بطن أمه والشقي من شقي في بطن أمه" وأنا أقول لا يخفى أن الشقي في العلم لا يكون سعيداً والسعيد فيه لا يكون شقياً أصلاً لأن العلم لا يتعلق إلا بما المعلوم عليه في نفسه وحكمه سبحانه تابع لذلك العلم .

وكذا إيجاده الأشياء على طبق ذلك العلم .

ولا يتصور هناك جبر بوجه من الوجوه لأنه عز شأنه لم يفض على القوابل إلا ما طلبته منه جل وعلا بلسان استعدادها كما يشير إليه قوله سبحانه : ﴿ أعطى كُلَّ شَىء خَلْقَهُ ﴾ [ طه : 50 ] نعم يتصور الجبر لو طلبت القوابل شيئاً وأفاض عليها عز شأنه ضده والله سبحانه أجل وأعلى من ذلك .

*(214/247)*

---

﴿ وَهُوَ السميع ﴾ لكل ما يتعلق به السمع ﴿ العليم ﴾ بكل ما يمكن أن يعلم فيدخل في ذلك أقوال المتحاكمين وأحوالهم الظاهرة والباطنة دخولاً أولياً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾

هذه الجملة معطوفة على جملة : ﴿ أفغير الله أبْتغي حَكَما ﴾ [ الأنعام : 114 ] لأنّ تلك الجملة مَقولُ قول مقدّر ، إذ التّقدير : قل أفغير الله أبتغي حكماً باعتبار ما في تلك الجملة من قوله : ﴿ وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصّلاً ﴾ [ الأنعام : 114 ] فلمّا وصف الكتاب بأنّه منزّل من الله ، ووصف بوضوح الدّلالة بقوله : ﴿ وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصّلاً ﴾ [ الأنعام : 114 ] ثمّ بشهادة علماء أهل الكتاب بأنَّه من عند الله بقوله : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنّه منزل من ربّك ﴾ [ الأنعام : 114 ] ، أعلَم رسوله عليه الصلاة والسلام والمؤمنين بأنّ هذا الكتاب تامّ الدلالة ، ناهض الحجّة ، على كلّ فريق : من مؤمن وكافر ، صادق وعدُه ووعيده ، عادل أمره ونهيه .

ويجوز أن تكون معطوفة على جملة : ﴿ وجعلنا لكلّ نبيء عَدوّاً ﴾ وما بينهما اعتراض ، كما سنبيّنه .

*(215/247)*

---

والمراد بالتمام معنى مجازي : إمّا بمعنى بلوغ الشّيء إلى أحسن ما يبلغه ممّا يراد منه ، فإنّ التّمام حقيقته كون الشّيء وافراً أجزاءه ، والنقصان كونه فاقدا بعض أجزائه ، فيستعار لوفرة الصّفات التي تراد من نوعه ؛ وإمّا بمعنى التّحقّق فقد يطلق التّمام على حصول المنتظر

وتحقّقه ، يقال : تَم ما أخبر به فلان ، ويقال : أتم وعده ، أي حقّقه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وإذِ آبتلى إبراهيم ربُّه بكلمات فأَتَمَّهُن ﴾ [ البقرة : 124 ] أي عمل بهنّ دون تقصير ولا ترخّص ، وقوله تعالى : ﴿ وتمّت كلمة ربّك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ﴾ [ الأعراف : 137 ] أي ظهر وعده لهم بقوله : ﴿ ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ﴾ [ القصص : 5 ] الآية ، ومن هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ والله متمّ نوره ﴾ [ الصف : 8 ] أي محقّق دينه ومثبتُه ، لأَنَّه جعل الإتمام في مقابلة الإطفاء المستعمل في الإزالة مجازاً أيضاً .

وقوله : ﴿ كلمات ربك ﴾ قرأه الجمهور بصيغة الجمع وقرأه عاصم ، وحمزة ، والكسائي ، ويعقوب ، وخلف : كَلمة بالإفراد فقيل : المراد بالكلمات أو الكلمة القرآن ، وهو قول جمهور المفسّرين ، ونقل عن قتادة ، وهو الأظهر ، المناسب لجعْل الجملة معطوفة على جملة : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب ﴾ [ الأنعام : 114 ] .

فأمّا على قراءة الإفراد فإطلاق الكلمة على القرآن باعتبار أنّه كتاب من عند الله ، فهو من كلامه وقوله .

والكلمة والكلام يترادفان ، ويقول العربُ : كلمة زهير ، يعنون قصيدته ، وقد أطلق في القرآن ( الكلمات ) على الكتب السّماوية في قوله تعالى : ﴿ فآمِنوا بالله ورسوله النّبيء الأمّي الذي يؤمن بالله وكلماته ﴾ [ الأعراف : 158 ] أي كتبه .

وأمّا على قراءة الكلمات بالجمع فإطلاقها على القرآن باعتبار ما يشتمل عليه من الجمل والآيات .

أو باعتبار أنواع أغراضه من أمر ، ونهي ، وتبشير ، وإنذار ، ومواعظ ، وإخبار ، واحتجاج ، وإرشاد ، وغير ذلك .

(216/247)

---

ومعنى تمامها أنّ كلّ غرض جاء في القرآن فقد جاء وافياً بما يتطلّبه القاصد منه .

واستبعد ابن عطيّة أن يكون المراد من ﴿ كلمات ربك ﴾ بالجمع أو الإفراد القرآن ، واستظهر أنّ المراد منها : قول الله ، أي نفذ قوله وحكمه .

وقريب منه ما أُثر عن ابن عبّاس أنّه قال : كلمات الله وَعده .

وقيل : كلمات الله : أمره ونهيه ، ووعده ، ووعيده ، وفسّر به في "الكشاف" ، وهو قريب من كلام ابن عطيّة ، لكنّ السّياق يشهد بأنّ تفسير الكلمات بالقرآن أظهر .

وانتصب ﴿ صدقاً وعدلاً ﴾ على الحال ، عند أبي عليّ الفارسي ، بتأويل المصدر باسم الفاعل ، أي صادقة وعادلة ، فهو حال من ﴿ كلمات ﴾ وهو المناسب لكون التّمام بمعنى التّحقّق ، وجعلهما الطّبري منصوبين على التّمييز ، أي تمييز النّسبة ، أي تمّت من

جهة الصّدق والعدل ، فكأنّه قال : تَمّ صدقُها وعدلها ، وهو المناسب لكون التمام بمعنى بلوغ الشّيء أحسنَ ما يطلب من نوعه .

وقال ابن عطيّة : هذا غير صواب .

وقلت : لا وجه لعدم تصويبه .

والصّدق : المطابقة للواقع في الإخبار : وتحقيق الخبر في الوعد والوعيد ، والنّفوذ في الأمر والنّهي ، فيشمل الصّدق كُلّ ما في كلمات الله من نوع الإخبار عن شؤون الله وشؤون الخلائق .

ويطلق الصّدق مجازاً على كون الشّيء كاملاً في خصائص نوعه .

والعدل : إعطاء من يستحقّ ما يستحقّ ، ودفع الاعتداء والظلمِ على المظلوم ، وتدبير أمور النّاس بما فيه صلاحهم .

وتقدم بيانه عند قوله تعالى : ﴿ وإذا حكمتم بين النّاس أن تحكموا بالعدل ﴾ في سورة النّساء ( 58 ) .

فيشمل العدل كلّ ما في كلمات الله : من تدبير شؤون الخلائق في الدّنيا والآخرة .

*(217/247)*

فعلى التّفسير الأوّل للكلمات أو الكلمة ، يكون المعنى : أن القرآن بلغ أقصى ما تبلغه الكتب : في وضوح الدّلالة ، وبلاغة العبارة ، وأنّه الصّادق في أخباره ، العادل في أحكامه ، لا يُعثر في أخباره على ما يخالف الواقع ، ولا في أحكامه على ما يخالف الحقّ ؛ فذلك ضرب من التحدّي والاحتجاج على أحقّيّة القرآن .

وعلى التّفسيرين الثّاني والثّالث ، يكون المعنى : نفذ ما قاله الله ، وما وَعَدَ وأَوْعَد ، وما أمر ونهى ، صادقاً ذلك كلُّه ، أي غير متخلّف ، وعادلاً ، أي غير جائر .

وهذا تهديد للمشركين بأنْ سيحقُّ عليهم الوعيد ، الّذي توعّدهم به ، فيكون كقوله تعالى : ﴿ وتمَّت كلمة ربّك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ﴾ [ الأعراف : 137 ] أي تَمّ ما وعدهم به من امتلاك مشارق الأرض ومغاربها الّتي بارك فيها ، وقوله : ﴿ وكذلك حقّت كلمات ربّك على الذين كفروا أنّهم أصحاب النّار ﴾ [ غافر : 6 ] أي حقّت كلمات وعيده .

ومعنى : ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ نفي جنس من يبدل كلمات الله ، أي من يبطل ما أراده في كلماته .

والتّبديل تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ﴾ من سورة البقرة ( 61 ) ، وتقدّم هناك بيان أنّه لا يوجد له فعل مجرّد ، وأنّ أصل مادّته هو التّبديل .

والتّبديل حقيقته جعل شيء مكان شيء آخر ، فيكون في الذّوات كما قال تعالى : ﴿ يوم تُبدّل الأرض غير الأرض ﴾ [ إبراهيم : 48 ] وقال النّابغة :

عهدتُ بها حيّاً كراماً فبُدّلت

خنَاظِيل آجَالِ النّعَاج الجَوافل . . .

ويكون في الصّفات كقوله تعالى: ﴿ وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمنا ﴾ [ النور : 55 ] .

ويستعمل مجازاً في إبطال الشّيء ونقضه ، قال تعالى : ﴿ يريدون أن يبدّلوا كلام الله ﴾ [ الفتح : 15 ] أي يخالفوه وينقضوا ما اقتضاه ، وهو قوله : ﴿ قُل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل ﴾ [ الفتح : 15 ] .

وذلك أنّ النقض يستلزم الإتيان بشيء ضدّ الشّيء المنقوض .

*(218/247)*

---

فكان ذلك اللّزوم هو علاقة المجاز .

وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ فمن بدّله بعد ما سمعه ﴾ في سورة البقرة ( 181 ) .

وقد استعمل في قوله : لا مبدل لكلماته ﴾ مجازا في معنى المعارضة أو النقض على الاحتمالين في معنى التّمام من قوله : ﴿ وتمت كلمات ربك ﴾ ونفي المبَدّل كناية عن نفي

التَبْديل .

فإن كان المراد بالكلمات القرآن ، كما تقدّم ، فمعنى انتفاء المبدّل لكلماته : انتفاء الإتيان بما ينقضه ويبطله أو يعارضه ، بأن يُظهر أنّ فيه ما ليس بتمام .

فإن جاء أحد بما ينقضه كذباً وزوراً فليس ذلك بنقض .

وإنَّما هو مكابرة في صورة النقض ، بالنّسبة إلى ألفاظ القرآن ونظمه ، وانتفاءُ ما يبطل معانيَه وحقائقَ حكمته ، وانتفاء تغيير ما شرعه وحكَم به .

وهذا الانتفاء الأخير كناية عن النّهي عن أن يخالفهُ المسلمون .

وبذلك يكون التّبديل مستعملاً في حقيقته ومجازه وكنايته .

ويجوز أن تكون جملة : ﴿ وتمت كلمات ربك ﴾ عطفاً على جملة : ﴿ جعلنا لكلّ نبيء عدوّا ﴾ [ الأنعام : 112 ] وما بينهما اعتراضاً ، فالكلمات مراد بها ما سنّه الله وقدّره : من جعل أعداءَ لكلّ نبي يزخرفون القول في التّضليل ، لتصغى إليهم قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، ويتّبعوهم ، ويقترفوا السيئات ، وأنّ المراد بالتّمام التّحقّق ، ويكون قوله : ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ نفي أن يقدر أحد أن يغيّر سنّة الله وما قضاه وقدّره ، كقوله : ﴿ فلن تجد لِسُنَّتِ الله تبديلاً ولن تجد لِسُنَّتِ الله تحويلاً ﴾ [ فاطر : 43 ] فتكون هذه الآية في معنى قوله : ﴿ ولقد كُذّبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذّبوا وأوذوا حتّى أتاهم نصرنا ولا مبدّل لكلمات الله ﴾ [ الأنعام : 34 ] .

ففيها تأنيس للرسول صلى الله عليه وسلم وتطمين له وللمؤمنين بحلول النّصر الموعود به في إبّانه .

(219/247)

---

وقوله : ﴿ وهو السميع العليم ﴾ تذييل لجملة : ﴿ وتمت كلمات ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته ﴾ أي : وهو المطّلع على الأقوال ، العليم بما في الضّمائر ، وهذا تعريض بالوعيد لمن يسعى لتبديل كلماته ، فالسّميع العالم بأصوات المخلوقات ، الّتي منها ما توحي به شياطين الإنس والجنّ ، بعضهم إلى بعض ، فلا يفوته منها شيء ؛ والعالم أيضاً بمن يريد أن يبدّل كلمات الله ، على المعاني المتقدّمة ، فلا يخفى عليه ما يخوضون فيه : من تبييت الكيد والإبطال له .

والعليم أعمّ ، أي : العليم بأحوال الخلق ، والعليم بمواقع كلماته ، ومَحَالّ تمامها ، والمنظم بحكمته لتمامها ، والموقت لآجال وقوعها .

فذكر هاتين الصّفتين هنا : وعيد لمن شملته آيات الذمّ السابقة ، ووعد لمن أُمر بالإعراض عنهم وعن افترائهم ، وبالتحاكم معهم إلى الله ، والّذين يعلمون أنّ الله أنزل كتابه بالحقّ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (115) ﴾

وكلمة " تمت " تدل على أن المسألة لها بداية ولها خاتمة ، فما المراد بالكلمة التي تمت ؟ . أهي كلمة الله العليا بنصر الإسلام وانتهاء الأمر إليه ؟ أو هو تمام أمر الرسالة حيث قال الحق : ﴿ اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِيناً . . ﴾ [ المائدة : 3 ]

أو "كلمة ربك " المقصود بها قرآنه ؟ . ونرى أن معنى " تمت " استوعبت كل أقضية الحياة إلى أن تقوم الساعة ، فليس لأحد أن يستدرك على ما جاء في كتاب الله حكماً من الأحكام ؛ لأن الأحكام غطت كل الأقضية . ولفظ " كلمة " مفردة لكنها تعطي معنى الجمع . وأنت تسمع في الحياة اليومية من يقول : وألقى فلان كلمة طيبة قوبلت بالاستحسان والتصفيق . هو قال كلمات لكن التعبير عنها جاء ب " كلمة " إذن ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ المقصود بها المنهج الذي يشمل كل الحياة ، واقرأ قوله الحق : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ . . ﴾ [ الكهف : 5 ]

أهي كلمة أو كلمات ؟ أنها كلمة ولكن فيها كلمات . إذن لفظ "كلمة" تطلق ويراد بها اللفظ المفرد ، وتطلق ويراد بها الكلام . والكلمة في الأصل لفظ مفرد ، أي لا يكون معها لفظ آخر ، ولكنها تدل على معنى ، فإذا كان المعنى غير مستقل بالفهم ؛ ويحتاج إلى ضميمة شيء إليه لنفهمه فهذا حرف ، وأنت تقول : "في" وهو لفظ يدل على الظرفية ، إلا أنه غير مستقل بالفهم ؛ لأن الظرف يقتضي مظروفاً ومظروفاً فيه ، فتقول : "الماء في الكوب" لتؤدي المعنى المستقل بالفهم . وكذلك ساعة تسمع كلمة "من" تفهم أن هناك ابتداء ، وساعة تسمع كلمة "إلى" تعلم أن هناك انتهاء . وإن كان يدل على معنى في نفسه وهو غير مرتبط بزمن فهو الاسم . وإن كان الزمن جزءاً منه فهو "الفعل" . أما "الكلام" فهو الألفاظ المفيدة .

وحين تسمع "سماء" تفهم المعنى ، وكذلك حين تسمع كلمة "أرض" وهو معنى مستقل بالفهم . وحين تسمع كلمة "كتب" فهي تدل على معنى مستقل بالفهم ، والزمن جزء من الفعل ، فكتب تدل على الزمن الماضي و"يكتب" تدل على الحاضر و"سيكتب" تدل على الكتابة في المستقبل . إذن ف "الكلمة" لفظ يدل على معنى فإن كان غير مستقل

بالفهم فهو حرف . و" الكلمة " قد يقصد بها الكلام .

وقوله الحق : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ تعني الكثير . فإن أردت بها القرآن فالمقصود هو كلمة الله . وكلام الله نسميه " كلمة " لأن مدلوله كلمة واحدة . انتهت وليس فيها تضارب ، هذا إن أردنا بها القرآن ، ولتفهم أن القرآن قد استوعب كل شيء ، وكل قضية في الوجود وأيضاً لم ينس أو بدّل فيه حرف ؛ بل بقى وسيبقى كما أنزل ؛ لأن الآفة في الكتب التي نزلت أنهم كتموا بعضها ونسوا بعضها ، وحرفوا بعضها ، وكان حفظها موكولاً إلى المكلفين ، ومن طبيعة الأمر التكليفي أنه يطاع مرة ، ويعصى مرة أخرى .

*(222/247)*

---

وإن أطاعوا حافظوا على الكتب ، وإن عصوا حرفوها بدليل قوله تعالى الحق : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا التوراة فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النبيون الذين أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ والربانيون والأحبار بِمَا استحفظوا مِن كِتَابِ الله . . ﴾ [ المائدة : 44 ]

و" استحفظوا " : أي طلب منهم أن يحافظوا عليه ، وهذا أمر تكليفي عرضة أن يطاع ، وعرضة أن يعصى ، لكن الأمر اختلف بالنسبة للقرآن فقد قال الحق : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [ الحجر : 9 ]

فسبحانه هو من يحافظ على القرآن ، وليس ذلك للبشر لأن القرآن معجزة ، والمعجزة لا يكون للمكلَّف عمل فيها أبداً .

إذن فقوله الحق : ﴿ وتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ المقصود بها أن تَطْمَئِن على أن القرآن الذي بين يديك إلى أن تقوم الساعة هو هو لن تتغير فيه كلمة ، بدليل أنك تتعجب في بعض نصوص القرآن ، فتجد نصًا مساويا لنص ، ثم يختلف السياق ، فيقول الحق : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ﴾ [ المدثر : 54-55 ]

ومرة أخرى يقول سبحانه : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ﴾ [ عبس : 11-12 ]

ومرة أخرى يقول : ﴿ إِنَّ هذه تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ اتخذ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ [ الإنسان : 29 ]

فهذا لون ونوع من المتشابه من الآيات ليقول لنا الحق : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فاتبع قُرْآنَهُ ﴾ [ القيامة : 18 ]

*(223/247)*

---

والحق يقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤمنون * الذين هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ * والذين هُمْ عَنِ اللغو مُّعْرِضُونَ * والذين هُمْ للزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * والذين هُمْ لفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ على

أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابتغى وَرَآءَ ذلك فأولئك هُمُ العادون * والذين هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * والذين هُمْ على صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون : 1-9]

وفي آية أخرى يقول : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ على صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [المعارج : 34]

وكل ذلك يدلك على أن كل كلمة وصلتك كما أنزلت ، وبذلك تكون كلمة ربك قد تمت .

أو قول الله : ﴿ وتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ ليدل على أن كلمة الله هي العليا ، ولذلك تلاحظ أن "كلمة الله هي العليا " لم يجعلها الحق جعلاً ، وإنما جاءت ثبوتاً ، وسبحانه القائل : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الذين كَفَرُواْ السفلى . . ﴾ [التوبة : 40]

هذا السياق الإعرابي حصل فيه كسر مقصود ، والسياق في غير القرآن أن يقول : وجعل كلمة الله هي العليا ، ولكنه سبحانه يقول : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الذين كَفَرُواْ السفلى وَكَلِمَةُ الله هِيَ العليا ﴾

وسبحانه أراد بذلك أن نفهم أن كلمة الله هي العليا دائماً وليست جعلاً . وهذا دليل على أن كلمته قد تمت .

ونلحظ أن قول الحق : ﴿ وتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ تأتي بعد ﴿ أَفَغَيْرَ الله أَبْتَغِي حَكَماً ﴾ ، واستقرىء موكب الرسالات من لدن آدم ، وانظر إلى حكم الله بين المبطلين والمحقين ، وبين المهتدين والضالين : إنه الحق القائل :

﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً ﴾ [العنكبوت : 40 ]

والحاصب هو الريح التي تهب محملة بالحصى وكانت عقوبة لقوم عاد . ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة ﴾ [العنكبوت : 40 ]

(224/247)

---

وهم قوم ثمود ، يسميها مرة الصيحة ، وأخرى يسميها الطاغية : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بالطاغية ﴾ [الحاقة : 5 ]

ومرة يخسف بهم الأرض مثلما فعل مع قارون : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرض ﴾ وكذلك : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ .

وقد أغرق الله قوم فرعون وكذلك أغرق – من قبلهم – المكذبين لنوح . إذن كل قوم أخذوا حكم الله عليهم ، لكنك يا محمد مختلف عنهم وكذلك أمة محمد التي أصبحت مأمونة على الوصية ، وعلى المنهج ، ولذلك قال الحق : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : 15 ] وبعد أن بعث الحق رسوله صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ وَمَا كَانَ اللهِ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : 33 ]

إذن ﴿ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ ، وهي الفصل النهائي : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا

المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [الصافات: 171-173]

وأنتم المنصورون لأنكم منسوبون إلى منهج غالب، والنصر للمنهج الغالب يقتضي الإخلاص، فإن تنصروا المنهج باتباعه ينصركم من أنزل المنهج، فهو القائل: ﴿ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِي . . ﴾ [المجادلة: 21]

وما قاله كان هو الواقع وما جاء به الواقع كان مطابقاً للكلام. ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً . . ﴾ [الأنعام: 115]

*(225/247)*

---

أي وافق الواقع الكوني ما قال الله به وكيف كان الواقع صادقاً وعادلاً في آن واحد؟

لنفرض أنك أحضرت مدرساً خصوصيًّا لولدك، وصادف أنه هو الذي يدرس في المدرسة وهو الذي يدرس لابنك ثم قلت له: أريد أن ينجح الولد في الامتحان. ووعد المدرس بذلك ثم جاء الامتحان ونجح الولد، فتكون كلمة المدرس قد صدقت. لكن هل هذا عدل؟ قد يكون المدرس هو واضع الأسئلة ولّمح للولد بالأسئلة، ويكون النجاح حينئذٍ غير عادل، لكن كلمة الله تجيء مطابقة لما قال، موقعها مطابق لما قال، وهي

كذلك عدل ؛ لأنه سبحانه أوضح الثواب والعقاب : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾ . لأنه لا مبدل لكلمات الله ، ولا يوجد إله آخر يعارضه فله سبحانه طلاقة القدرة .

أما بالنسبة للبشر فقد علَّم الله عباده احتياط الصدق في كلامهم ؛ فأوصاهم : ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلك غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله . . ﴾ [ الكهف : 23-24 ]

لأن فعل ذلك غداً والإتيان به وإحداثه هو أمر يتعلق بالمستقبل الذي لا نتحكم فيه ، فاحم نفسك وقل : " إن شاء الله " ، فإن لم يحدث يمكنك أن تقول : لم يشأ ربنا حدوث ما وعدت به ، وبذلك يحمي الإنسان نفسه من أن يكون كاذباً ويجعل نفسه صادقاً فلا يتكلم إلاَّ على وفق ما عنده من قوانين الفعل وعدم الفعل ؛ لأنه عندما تقول : " أفعل ذلك غداً " . ماذا ستفعل غداً وأنت لا تضمن نفسك وحياتك وظروفك ؟ ! لكن الله إذا قال : " سأفعل " فله طلاقة القدرة .

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السميع العليم ﴾ [ الأنعام : 115 ]

ومادامت الكلمات ستتحقق والحكم سيصدر فهذا دليل على أنه سبحانه سميع لما قالوه في عدواتهم ، وعليهم بما دبروه من مكائدهم ، وهو القائل من قبل : ﴿ وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ . . ﴾ [ الأنعام : 121 ]

أي ليعلموهم بخفاء ، فإن كان كلامهم ظاهراً فهو مسموع ، وإن كان بخفاء فهو معلوم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(226/247)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (115) ﴾

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ﴾ قال : صدقاً فيما وعد ، وعدلاً فيما حكم .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وأبو نصر السجزي في الابانة عن محمد بن كعب القرظي في قوله ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ قال : لا تبديل لشيء . قاله في الدنيا والآخرة ، كقوله ﴿ ما يبدل القول لدي ﴾ [ سورة ق : 29 ] .

وأخرج ابن مردويه عن أبي اليمان جابر بن عبد الله قال " دخل النبي صلى الله عليه وسلم المسجد الحرام يوم فتح مكة ومعه مخصرة ولكل قوم صنم يعبدونه ، فنجعل يأتيها صنماً صنماً ويطعن في صدر الصنم بعصا ثم يعقره ، كلما صرع صنماً أتبعه الناس ضرباً

بالفؤوس حتى يكسرونه ويطرحونه خارجاً من المسجد ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ﴾ " .

وأخرج ابن مردويه وابن النجار عن أنس بن مالك " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ﴾ قال " لا إله إلا الله " " .

وأخرج البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس قال " كان النبي صلى الله عليه وسلم يعوّذُ الحسن والحسين رضي الله عنهما : أعيذكما بكلمات الله التامة من شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة ، ثم يقول : كان أبوكم إبراهيم يعوّذ بها إسماعيل وإسحاق " .

*(227/247)*

---

وأخرج ابن أبي شيبة والترمذي والنسائي وابن ماجة والبيهقي عن خولة بن حكيم " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من نزل منزلاً فقال : أعوذ بكلمات الله التامات كلها من شر ما خلق ، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك " .

وأخرج مسلم والنسائي والبيهقي عن أبي هريرة قال : " جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال " يا رسول الله ما لقيت من عقرب لدغتني البارحة ؟ قال : أما إنك لو

قلت حيث أمسيت : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم تضرك " " .

وأخرج أبو داود والنسائي وابن أبي الدنيا والبيهقي عن علي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول عند مضجعه " اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم وكلماتك التامة من شر ما أنت آخذ بناصيته اللهم أنت تكشف المغرم والمأثم ، اللهم لا يهزم جندك ، ولا يخلف وعدك ، ولا ينفع ذا الجد من الجد ، سبحانك وبحمدك " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي عن محمد بن يحيى بن حبان " ان الوليد بن الوليد شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأرق حديث النفس بالليل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا أويت إلى فراشك فقل : أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه ، ومن شر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون ، فإنه لن يضرك وحريٌّ أن لا يقربك " .

*(228/247)*

---

وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي عن أبي التياح قال : قال رجل لعبد الرحمن بن خنبش : كيف صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كادته الشياطين ؟ قال : نعم ، تحدرت الشياطين من الجبال والأودية يريدون رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم شيطان معه

شعلة من نار يريد أن يحرق بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم فزع منهم ، وجاءه جبريل فقال : يا محمد قل . قال : ما أقول ؟ قال : قل " أعوذ بكلمات الله التامات اللاتي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق وبرأ وذرأ ، ومن شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها ، ومن شر ما ذرأ في الأرض وما يخرج منها ، ومن شر فتن الليل والنهار ، ومن شر كل طارق إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن . قال : فطفئت نار الشياطين وهزمهم الله عز وجل " .

وأخرج النسائي والبيهقي عن ابن مسعود قال : لما كان ليلة الجن أقبل عفريت من الجن في يده شعلة من نار ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن ، فلا يزداد إلا قرباً فقال له جبريل : أَلاَ أعلمك كلمات تقولهن ينكب منها لفيه وتطفأ شعلته ؟ قل " أعوذ بوجه الله الكريم ، وكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يهرج فيها ، ومن شر ما ذرأ في الأرض ومن شر ما يخرج منها ، ومن شر فتن الليل والنهار ، ومن شر طوارق الليل ، ومن شر كل طارق إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن . فقالها فانكب لفيه وطفئت شعلته " .

*(229/247)*

وأخرج ابن أبي شيبة عن مكحول " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل مكة تلقته الجن بالشرر يرمونه ، فقال جبريل : تعوّذ يا محمد . فتعوّذ بهؤلاء فدحروا عنه فقال : أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما نزل من السماء وما يعرج منها ، ومن شر ما بث في الأرض وما يخرج منها ، ومن شر الليل والنهار ، ومن شر كل طارق إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن " . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

*(230/247)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

في نصب " صِدْقاً وعَدْلاً " ثلاثة أوجه :

أحدها : أن يَكُونا مَصْدَرَيْن في مَوضِع الحال ، أي : تَمَّتَ الكَلِمَات صَادِقَات في الوَعْد ، عَادِلات في الوعيدِ .

الثاني : أنهما نَصْب على التَّمْييز .

قال ابن عطيَّة : " وهو غَيْر صَوَاب " وممن قَالَ بكَوْنه تَمِييزاً : الطَّبريُّ ، وأبو البقاء .

الثالث : أنهما نصب على المَفْعُول من أجْله ، أي : تَمَّتْ لأجْل الصِّدْق والعَدْل الواقِعَين

مِنْهُما ، وهو مَحَلُّ نظر ، ذكر هذا الوَجْه أبو البَقَاء .

وقرأ الكوفِيُّون هنا ، وفي يونس في قوله : ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الذين فسقوا ﴾ [ يونس : 33 ] ، ﴿ إِنَّ الذين حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ [ يونس : 96 ] موضعان ، فوي غافر : ﴿ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ [ غافر : 6 ] "كلمة" بالإفراد ، وافقهم ابنُ كثير ، وأبو عمرو على مَا في يُونُس وغافر ، دون هذه السُّورة ، والباقون : بالجَمع في المَواضِع الثَّلاثة .

قال أبو حيَّان : " قرأ الكُوفِيُّون هُنَا وفي يُونُس في الموضعين وفي المؤمن : "كلمة" بالإفْرَاد ، ونَافِع جميع ذلك "كلمات" بالجَمع ، تابعه أبو عَمْرو ، وبان كثير هُنَا "

قال شهاب الدِّين : كيف نَسِي ابن عامر ؟ لا يُقَال : إنَّه قد أسْقَطَه النَّاسِخ وكان الأصْل " ونَافِع وابن عامر " ؛ لأنَّه قال : " تَابَعَهه " ولو كان كَذَلِكَ ، لقال : " تَابَعَهُمَا " .

ووجه الإفراد : إرادة الجِنْس ، وهو نظير : رسالته ورسالاته .

وقولهم : قال زهير في كلمته ، أي : قصيدته ، وقال قُسّ في كَلمته ، أي : خُطْبَته ، فكذا مَجْمُوع القُرآن العَظِيم ، وقراءة الجَمْع ظَاهِرة ؛ لأن كَلِمَاته - تعالى مَتْبُوعة بالنِّسْبة إلى الأمْر ، والنَّهي ، والوعد ، والوعيد وأراد بالكلمات : أمْرَه ونَهْيَهُ ووعْدَه ووَعِيدَه ، في الأمْر والنَّهْي .

وقال قتادة : ومُقاتل : صِدْقاً فيما وعد عدلاً فيما حَكَم ، وهذا الكلام كما يَدُل على أن الخُلْف في وَعْد اللَّه مُحَال ؛ فيدل أيضاً : على أنَّ الخُلْفَ في وعيده مُحَال ، بخلاف ما قالهُ الوَاحِدِيّ في تَفْسِير قوله – تبارك وتعالى – : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا ﴾ [ النساء : 93 ] إن الخُلْف في وعيد اللَّه جَائِزٌ ، لأن وعد اللَّه ووعِيدَه كلمة اللَّه ، فيجب كَوْنَها موصُوفَةٌ بالصِّدق ؛ لأن الكذب نَقْص ، والنَّقْص على اللَّه مُحَال ، ولا يَجُتز إثْبات أنَّ الكَذِب على اللَّه مُحَال ، فلو أثبتنا امتِنَاع أن الكذب على الله مُحَال ] لزم الدَّوْر ، وهو بَاطِل ، وأجْمَعُوا على الجَمْع في قوله : وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً ﴿ لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ ﴿ وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ الله ﴾ [ الأنعام : 34 ] .

قوله : " لا مبدِّلِ لكلماتِه " يحتمل أن يكُون لَهَا مَحلٌّ من الإعراب ؛ لأنَّها مُسْتَأنفة ، وأن تكون جُمْلة حَالِيّضة من فاعل " تَمَّتْ " .

فإن قُلْت : فأين الرَّابِط بين ذي الحَالِ ، والحَالِ ؟

فالجواب أنَّ الرَّبْط حصل بالظَّاهر ، والأصْل : لا مبدِّل لها ، وإنَّما أبرزت ظَاهِرة ؛ تَعْظِيماً لها ولإضافتها إلى لَفْظ الجلالة الشَّرِيفة .

قال أبو البَقَاء : ولا يجُوز حالاً من " ربِّك " لئلا يُفْصَلَ بين الحَالِ وصاحبها الأجْنَبِيّ ، وهو : " صدقاً وعدلاً " إلا أن يُجْعَلَ " صِدْقاً وعَدْلاً " : حالاً من " ربِّك " لا من " الكَلِمَات " .

قال شهاب الدّين : فإنه إذا جعل " صدقاً وعدلاً " : حالاً من " ربّك " لم يَلْزَمْ منه فَصْلٌ ؛ لأَنَّها حالان لذي حال ، ولكنّ قَاعدته تَمْنَع تَعَدُّد الحال لذي حالٍ واحدة ، وتمنع أيضاً مَجِيء الحَالِ من المُضاف إلَيْه ، وإن كان المُضَاف بَعْض الثَّانِي ، ولم يُمْنعن هنا بِشَيْء من ذلك ، والرسم في " كَلِمَات " في المواضعِ الّتِي أشَرْتُ [ إلى ] اخْتِلاف القُرَّاء فيها مُحْتَمِل لِخِلافِهِم ، فإنه في المُصْحَف الكَرِيم من غير أَلِف بعد الميم .

[ وقوله تعالى : " إن يتَّبِعُون " ، و " إن إلا يَخْرصُون " " إن " نافية ، بمعنى : ما في الموضعين و " الخَرْص " : الحَزْر ويُعَبّر به عن الكذب والافْتِراء ، وأصله من التَّظَنِّي ، وهو قول ما لم يُسْتَيْقَن ، ويتحقق ؛ قاله الأَزْهِري .

ومنه خرص النَّخل ، يقال : " خَرَصَها " الخَارِص خَرْصاً ، فهي " خِرْص " فالمَفْتُوح مَصْدر ، ولا مكْسُور بِمَعْنَى : مَفْعُول ؛ كالنَّقض والنِّقض ، والذَّبْح ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 394 . 396 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (115) ﴾

تقدَّسَتْ عن التغيير ذاتُه ، وتنزهت عن التبديل صفاتُه . والتمام ينفي النقصان . وكلُّ نقصانٍ فمن الحَدَثِ أصلُه ، وأَنَّى بالنقص – والقِدَمُ وصفُه ؟ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 496 ﴾

*(233/247)*

---

فائدة

قال القاسمى :

قال السيوطى فى ( الإكليل ) :

يستدل به من قال : إن اليهود والنصارى لم يبدلوا لفظ التوراة والإنجيل ، وإنما بدلوا المعنى ، لأن كلمات الله لا تبدل انتهى انتهى . ا هـ (1)

وهو رواية ابن عباس . أخرجها البخارى فى آخر صحيحه

وبسط المقام فى ذلك الحافظ ابن حجر فى فتح البارى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 483 . 484 ﴾

فصل

قال الحافظ ابن حجر :

قَوْله ( بَاب قَوْل اللَّه تَعَالَى بَلْ هُوَ قُرْآن مَجِيد فِي لَوْح مَحْفُوظ )

قَالَ الْبُخَارِيّ فِي خَلْق أَفْعَال الْعِبَاد بَعْد أَنْ ذَكَرَ هَذِهِ الْآيَة وَالَّذِي بَعْدهَا : قَدْ ذَكَرَ اللَّه أَنَّ الْقُرْآن يُحْفَظ وَيُسْطَر ، وَالْقُرْآن الْمُوعَى فِي الْقُلُوب الْمَسْطُور فِي الْمَصَاحِف الْمَتْلُوّ بِالْأَلْسِنَةِ كَلَام اللَّه لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ ، وَأَمَّا الْمِدَاد وَالْوَرَق وَالْجِلْد فَإِنَّهُ مَخْلُوق .

قَوْله ( وَالطُّور وَكِتَاب مَسْطُور قَالَ قَتَادَةُ مَكْتُوب )

وَصَلَهُ الْبُخَارِيّ فِي خَلْق أَفْعَال الْعِبَاد مِنْ طَرِيق يَزِيد بْن زُرَيْعٍ عَنْ سَعِيد بْن أَبِي عَرُوبَة عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْله " وَالطُّور وَكِتَاب مَسْطُور " قَالَ الْمَسْطُور : الْمَكْتُوب ، فِي رَقّ مَنْشُور : هُوَ الْكِتَاب ، وَصَلَهُ عَبْدُ بْن حُمَيْدٍ مِنْ رِوَايَة شَيْبَانَ بْن عَبْد الرَّحْمَن وَعَبْد الرَّزَّاق عَنْ مَعْمَر كِلَاهُمَا عَنْ قَتَادَةَ نَحْوه ، وَأَخْرَجَ عَبْد بْن حُمَيْدٍ عَنْ ابْن أَبِي نَجِيح عَنْ مُجَاهِد فِي قَوْله " وَكِتَاب مَسْطُور " قَالَ صُحُف مَكْتُوبَة " فِي رَقٍّ مَنْشُور " قَالَ فِي صُحُف .

قَوْله ( يَسْطُرُونَ : يَخُطُّونَ )

أَيْ يَكْتُبُونَ ، أَوْرَدَهُ عَبْد بْن حُمَيْدٍ مِنْ طَرِيق شَيْبَانَ بْن عَبْد الرَّحْمَن عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْله " وَالْقَلَم وَمَا يَسْطُرُونَ " قَالَ وَمَا يَكْتُبُونَ .

---

(1) وقد يجاب عن ذلك بأن الجملة خبرية لفظا إنشائية معنى ويكون معناها ـ والله أعلم ـ عليكم ألا تبدلوا كلمات الله . والله أعلم بأسرار كتابه .

---

قَوْله ( فِي أُمّ الْكِتَاب جُمْلَة الْكِتَاب وَأَصْله )

وَصَلَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَاب النَّاسِخ وَالْمَنْسُوخ مِنْ طَرِيق مَعْمَر عَنْ قَتَادَة فِي قَوْله ( يَمْحُو اللَّه مَا يَشَاء وَيُثْبِت وَعِنْده أُمّ الْكِتَاب ) قَالَ جُمْلَة الْكِتَاب وَأَصْله ، وَكَذَا أَخْرَجَهُ عَبْد الرَّزَّاق فِي تَفْسِيره عَنْ مَعْمَر عَنْ قَتَادَة وَعِنْد اِبْن أَبِي حَاتِم مِنْ طَرِيق عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي قَوْله تَعَالَى ( وَعِنْده أُمّ الْكِتَاب ) يَقُول جُمْلَة ذَلِكَ عِنْده فِي أُمّ الْكِتَاب النَّاسِخ وَالْمَنْسُوخ وَمَا يُكْتَب وَمَا يُبَدَّل .

قَوْله ( مَا يَلْفِظ مِنْ قَوْل )

مَا يَتَكَلَّم مِنْ شَيْء إِلَّا كُتِبَ عَلَيْهِ ، وَصَلَهُ اِبْن أَبِي حَاتِم مِنْ طَرِيق شُعَيْب بْن إِسْحَاق عَنْ سَعِيد بْن أَبِي عَرُوبَة عَنْ قَتَادَة وَالْحَسَن فِي قَوْله " مَا يَلْفِظ مِنْ قَوْل " قَالَ مَا يَتَكَلَّم بِهِ مِنْ شَيْء إِلَّا كُتِبَ عَلَيْهِ وَمِنْ طَرِيق زَائِدَة بْن قُدَامَة عَنْ الْأَعْمَش عَنْ مَجْمَع قَالَ : الْمَلَك مِدَادُهُ رِيقُهُ ، وَقَلَمُهُ لِسَانُهُ .

قَوْله ( وَقَالَ اِبْن عَبَّاس يَكْتُب الْخَيْر وَالشَّرّ )

وَصَلَهُ الطَّبَرِيُّ وَابْن أَبِي حَاتِم مِنْ طَرِيق هِشَام بْن حَسَّان عَنْ عِكْرِمَة عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي قَوْله تَعَالَى " مَا يَلْفِظ مِنْ قَوْل " قَالَ إِنَّمَا يَكْتُب الْخَيْر وَالشَّرّ ، وَأَخْرَجَ أَيْضًا مِنْ طَرِيق عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة عَنْ اِبْن عَبَّاس فِي قَوْله تَعَالَى ( مَا يَلْفِظ مِنْ قَوْل إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيب عَتِيد ) قَالَ يُكْتَب كُلّ مَا تَكَلَّمَ بِهِ مِنْ خَيْر أَوْ شَرّ حَتَّى أَنَّهُ لَيُكْتَب قَوْله : أَكَلْت شَرِبْت ذَهَبْت جِئْت رَأَيْت حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْم الْخَمِيس عُرِضَ قَوْله وَعَمَله فَأُقِرَّ مَا كَانَ مِنْ خَيْر أَوْ شَرّ وَأُلْقِيَ سَائِره ، فَذَلِكَ قَوْله ( يَمْحُوا اللَّه مَا يَشَاء وَيُثْبِت وَعِنْده أُمّ الْكِتَاب ) وَأَخْرَجَ الطَّبَرِيُّ هَذَا مِنْ طَرِيق الْكَلْبِيّ عَنْ أَبِي صَالِح عَنْ جَابِر بْن عَبْد اللَّه بْن رِئَاب بِكَسْرِ الرَّاء ثُمَّ يَاء مَهْمُوزَة وَآخِره مُوَحَّدَة ، وَالْكَلْبِيّ مَتْرُوك وَأَبُو صَالِح لَمْ يُدْرِك جَابِرًا هَذَا ، وَأَخْرَجَ الطَّبَرِيُّ مِنْ طَرِيق سَعِيد بْن أَبِي عَرُوبَة عَنْ قَتَادَة وَالْحَسَن " مَا يَلْفِظ مِنْ قَوْل " مَا يَتَكَلَّم بِهِ مِنْ شَيْء إِلَّا كُتِبَ عَلَيْهِ وَكَانَ عِكْرِمَة يَقُول إِنَّمَا ذَلِكَ فِي الْخَيْر وَالشَّرّ . قُلْت : وَيُجْمَع بَيْنهمَا بِرِوَايَةِ عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة الْمَذْكُورَة .

قَوْله ( يُحَرِّفُونَ : يُزِيلُونَ )

لَمْ أَرَ هَذَا مَوْصُولًا مِنْ كَلَامِ اِبْن عَبَّاس مِنْ وَجْه ثَابِت مَعَ أَنَّ الَّذِي قَبْله مِنْ كَلَامه وَكَذَا الَّذِي بَعْده ، وَهُوَ قَوْله " دِرَاسَتهمْ : تِلَاوَتهمْ " وَمَا بَعْده ، وَأَخْرَجَ جَمِيع ذَلِكَ اِبْن أَبِي حَاتِم مِنْ طَرِيق عَلِيّ بْن أَبِي طَلْحَة عَنْ اِبْن عَبَّاس ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي بَاب قَوْله " كُلّ يَوْم هُوَ فِي شَأْن " عَنْ اِبْن عَبَّاس مَا يُخَالِف مَا ذَكَرَهُ هُنَا وَهُوَ تَفْسِير يُحَرِّفُونَ بِقَوْلِهِ يُزِيلُونَ ، نَعَمْ أَخْرَجَهُ اِبْن أَبِي حَاتِم مِنْ طَرِيق وَهْب بْن مُنَبِّه ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَة فِي كِتَاب الْمَجَاز فِي قَوْله يُحَرِّفُونَ الْكَلِم عَنْ مَوَاضِعه قَالَ : يُقَلِّبُونَ وَيُغَيِّرُونَ ، وَقَالَ الرَّاغِب التَّحْرِيف الْإِمَالَة وَتَحْرِيف الْكَلَام أَنْ يَجْعَلهُ عَلَى حَرْف مِنْ الِاحْتِمَال بِحَيْثُ يُمْكِن حَمْله عَلَى وَجْهَيْنِ فَأَكْثَر .

قَوْله ( وَلَيْسَ أَحَدٌ يُزِيل لَفْظ كِتَاب اللَّه مِنْ كُتُب اللَّه عَزَّ وَجَلَّ وَلَكِنَّهُمْ يُحَرِّفُونَهُ : يَتَأَوَّلُونَهُ عَنْ غَيْر تَأْوِيله )

(237/247)

---

فِي رِوَايَة الْكُشْمِيهَنِيّ " يَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى غَيْر تَأْوِيله " قَالَ شَيْخنَا اِبْن الْمُلَقِّن فِي شَرْحه هَذَا الَّذِي قَالَهُ أَحَدُ الْقَوْلَيْنِ فِي تَفْسِير هَذِهِ الْآيَة وَهُوَ مُخْتَاره - أَيْ الْبُخَارِيّ - وَقَدْ صَرَّحَ كَثِير مِنْ أَصْحَابنَا بِأَنَّ الْيَهُود وَالنَّصَارَى بَدَّلُوا التَّوْرَاة وَالْإِنْجِيل وَفَرَّعُوا عَلَى ذَلِكَ جَوَاز اِمْتِهَان أَوْرَاقهمَا وَهُوَ يُخَالِف مَا قَالَهُ الْبُخَارِيّ هُنَا اِنْتَهَى . وَهُوَ كَالصَّرِيحِ فِي أَنَّ قَوْله " وَلَيْسَ أَحَد

" إِلَى آخِرِه مِنْ كَلَامِ الْبُخَارِيّ ذَيَّلَ بِهِ تَفْسِيرِ ابْنِ عَبَّاس وَهُوَ يَحْتَمِل أَنْ يَكُون بَقِيَّة كَلَامِ ابْنِ عَبَّاس فِي تَفْسِير الْآيَة ، وَقَالَ بَعْض الشُّرَّاح الْمُتَأَخِّرِينَ اُخْتُلِفَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَة عَلَى أَقْوَال أَحَدُهَا : أَنَّهَا بُدِّلَتْ كُلّهَا وَهُوَ مُقْتَضَى الْقَوْل الْمَحْكِيّ بِجَوَازِ الِامْتِهَان وَهُوَ إِفْرَاط ، وَيَنْبَغِي حَمْل إِطْلَاق مَنْ أَطْلَقَهُ عَلَى الْأَكْثَر وَإِلَّا فَهِيَ مُكَابَرَة ، وَالْآيَات وَالْأَخْبَار كَثِيرَةٌ فِي أَنَّهُ بَقِيَ مِنْهَا أَشْيَاء كَثِيرَة لَمْ تُبَدَّل ، مِنْ ذَلِكَ قَوْله تَعَالَى ( الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُول النَّبِيّ الْأُمِّيّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدهمْ فِي التَّوْرَاة وَالْإِنْجِيل ) الْآيَة ، وَمِنْ ذَلِكَ قِصَّة رَجْم الْيَهُودِيَّيْنِ وَفِيهِ وُجُود آيَة الرَّجْم ، وَيُؤَيِّدهُ قَوْله تَعَالَى ( قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ) ثَانِيهَا : أَنَّ التَّبْدِيل وَقَعَ وَلَكِنْ فِي مُعْظَمهَا وَأَدِلَّته كَثِيرَةٌ وَيَنْبَغِي حَمْل الْأَوَّل عَلَيْهِ ، ثَالِثهَا : وَقَعَ فِي الْيَسِير مِنْهَا وَمُعْظَمهَا بَاقٍ عَلَى حَالِهِ ،

*(238/247)*

---

وَنَصَرَهُ الشَّيْخ تَقِيّ الدِّين بْن تَيْمِيَة فِي كِتَابه الرَّدّ الصَّحِيح عَلَى مَنْ بَدَّلَ دِين الْمَسِيح ، رَابِعهَا : إِنَّمَا وَقَعَ التَّبْدِيل وَالتَّغْيِير فِي الْمَعَانِي لَا فِي الْأَلْفَاظ وَهُوَ الْمَذْكُور هُنَا ، وَقَدْ سُئِلَ ابْن تَيْمِيَة عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَة مُجَرَّدًا فَأَجَابَ فِي فَتَاوِيه أَنَّ لِلْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ قَوْلَيْنِ ، وَاحْتَجَّ لِلثَّانِي مِنْ أَوْجُهٍ كَثِيرَة مِنْهَا قَوْله تَعَالَى ( لَا مُبَدِّل لِكَلِمَاتِهِ ) وَهُوَ مُعَارَض بِقَوْلِهِ تَعَالَى ( فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا

سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمه عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ) وَلَا يَتَعَيَّنْ الْجَمْع بِمَا ذُكِرَ مِنْ الْحَمْل عَلَى اللَّفْظ فِي النَّفْي وَعَلَى الْمَعْنَى فِي الْإِثْبَات لِجَوَاز الْحَمْل فِي النَّفْي عَلَى الْحُكْم وَفِي الْإِثْبَات عَلَى مَا هُوَ أَعَمّ مِنْ اللَّفْظ وَالْمَعْنَى ، وَمِنْهَا أَنَّ نَسْخ التَّوْرَاة فِي الشَّرْق وَالْغَرْب وَالْجَنُوب وَالشَّمَال لَا يَخْتَلِف وَمِنْ الْمُحَال أَنْ يَقَع التَّبْدِيل فَيَتَوَارَد النَّسْخ بِذَلِكَ عَلَى مِنْهَاج وَاحِد ، وَهَذَا اِسْتِدْلَال عَجِيب ؛ لِأَنَّهُ إِذَا جَازَ وُقُوع التَّبْدِيل جَازَ إِعْدَام الْمُبْدَل وَالنَّسْخ الْمَوْجُودَة الْآنَ هِيَ الَّتِي اِسْتَقَرَّ عَلَيْهَا الْأَمْر عِنْدهمْ عِنْد التَّبْدِيل وَالْأَخْبَار بِذَلِكَ طَافِحَة ، أَمَّا فِيمَا يَتَعَلَّق بِالتَّوْرَاةِ فَلِأَنَّ بُخْتَنَصَّر لَمَّا غَزَا بَيْت الْمَقْدِس وَأَهْلَكَ بَنِي إِسْرَائِيل وَمَزَّقَهُمْ بَيْن قَتِيل وَأَسِير وَأَعْدَمَ كُتُبهمْ حَتَّى جَاءَ عُزَيْر فَأَمْلَاهَا عَلَيْهِمْ ، وَأَمَّا فِيمَا يَتَعَلَّق بِالْإِنْجِيلِ فَإِنَّ الرُّوم لَمَّا دَخَلُوا فِي النَّصْرَانِيَّة جَمَعَ مَلِكُهُمْ

(239/247)

---

أَكَابِرَهُمْ عَلَى مَا فِي الْإِنْجِيل الَّذِي بِأَيْدِيهِمْ وَتَحْرِيفهمْ الْمَعَانِي لَا يُنْكَر بَلْ هُوَ مَوْجُود عِنْدهمْ بِكَثْرَةٍ وَإِنَّمَا النِّزَاع هَلْ حُرِّفَتْ الْأَلْفَاظ أَوْ لَا ؟ وَقَدْ وُجِدَ فِي الْكِتَابَيْنِ مَا لَا يَجُوز أَنْ يَكُون بِهَذِهِ الْأَلْفَاظ مِنْ عِنْد اللَّه عَزَّ وَجَلَّ أَصْلًا ، وَقَدْ سَرَدَ أَبُو مُحَمَّد بْن حَزْم فِي كِتَابه الْفَصْل فِي الْمِلَل وَالنِّحَل أَشْيَاء كَثِيرَةً مِنْ هَذَا الْجِنْس ، مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّ فِي أَوَّل فَصْل فِي أَوَّل

وَرَقَة مِنْ تَوْرَاة الْيَهُود الَّتِي عِنْد رُهْبَانهمْ وَقُرَّائِهِمْ وَعَانَاتهمْ وَعِيسَوِيِّهِمْ حَيْثُ كَانُوا فِي الْمَشَارِق وَالْمَغَارِب لَا يَخْتَلِفُونَ فِيهَا عَلَى صِفَة وَاحِدَة لَوْ رَامَ أَحَدٌ أَنْ يَزِيد فِيهَا لَفْظَة أَوْ يُنْقِص مِنْهَا لَفْظَة لَافْتَضَحَ عِنْدهمْ مُتَّفَقًا عَلَيْهَا عِنْدهمْ إِلَى الْأَحْبَار الْهَارُونِيَّة الَّذِينَ كَانُوا قَبْل الْخَرَاب الثَّانِي يَذْكُرُونَ أَنَّهَا مُبَلَّغَة مِنْ أُولَئِكَ إِلَى عِزْرَا الْهَارُونِيّ ، وَأَنَّ اللَّه تَعَالَى قَال لَمَّا أَكَلَ آدَمُ مِنْ الشَّجَرَة : هَذَا آدَمُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا فِي مَعْرِفَة الْخَيْر وَالشَّرّ وَأَنَّ السَّحَرَة عَمِلُوا لِفِرْعَوْن نَظِير مَا أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ الدَّم وَالضَّفَادِع وَأَنَّهُمْ عَجَزُوا عَنْ الْبَعُوض وَأَنَّ اِبْنَتَيْ لُوط بَعْد هَلَاك قَوْمه ضَاجَعَتْ كُلّ مِنْهُمَا أَبَاهَا بَعْد أَنْ سَقَتْهُ الْخَمْر فَوَطِئَ كُلًّا مِنْهُمَا فَحَمَلَتَا مِنْهُ إِلَى غَيْر ذَلِكَ مِنْ الْأُمُور الْمُنْكَرَة الْمُسْتَبْشَعَة ، وَذَكَرَ فِي مَوَاضِع أُخْرَى أَنَّ التَّبْدِيل وَقَعَ فِيهَا إِلَى أَنْ أُعْدِمَتْ فَأَمْلَاهَا عِزْرَا الْمَذْكُور عَلَى

(240/247)

---

مَا هِيَ عَلَيْهِ الْآن ثُمَّ سَاقَ أَشْيَاء مِنْ نَصّ التَّوْرَاة الَّتِي بِأَيْدِيهِمْ الْآن الْكَذِب فِيهَا ظَاهِرٌ جِدًّا ثُمَّ قَال : وَبَلَغَنَا عَنْ قَوْم مِنْ الْمُسْلِمِينَ يُنْكِرُونَ أَنَّ التَّوْرَاة وَالْإِنْجِيل اللَّتَيْن بِأَيْدِي الْيَهُود وَالنَّصَارَى مُحَرَّفَانِ وَالْحَامِل لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ قِلَّة مُبَالَاتهمْ بِنُصُوص الْقُرْآن وَالسُّنَّة وَقَدْ اِشْتَمَلَا عَلَى أَنَّهُمْ ( يُحَرِّفُونَ الْكَلِم عَنْ مَوَاضِعه ) وَ ( يَقُولُونَ عَلَى اللَّه الْكَذِب وَهُمْ يَعْلَمُونَ ،

وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ . وَ " لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ " ) ، وَيُقَالُ لِهَؤُلَاءِ الْمُنْكِرِينَ : قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي صِفَةِ الصَّحَابَةِ ( ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ) إلَى آخِرِ السُّورَةِ ، وَلَيْسَ بِأَيْدِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى شَيْءٌ مِنْ هَذَا وَيُقَالُ لِمَنْ ادَّعَى أَنَّ نَقْلَهُمْ نَقْلُ مُتَوَاتِرٍ قَدْ اتَّفَقُوا عَلَى أَنْ لَا ذِكْرَ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْكِتَابَيْنِ ، فَإِنْ صَدَّقْتُمُوهُمْ فِيمَا بِأَيْدِيهِمْ لِكَوْنِهِ نُقِلَ نَقْلَ الْمُتَوَاتِرِ فَصَدِّقُوهُمْ فِيمَا زَعَمُوهُ أَنْ لَا ذِكْرَ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا أَصْحَابِهِ ، وَإِلَّا فَلَا يَجُوزُ تَصْدِيقُ بَعْضٍ وَتَكْذِيبُ بَعْضٍ مَعَ مَجِيئِهِمَا مَجِيئًا وَاحِدًا انْتَهَى كَلَامُهُ وَفِيهِ فَوَائِدُ ، وَقَالَ الشَّيْخُ بَدْرُ الدِّينِ الزَّرْكَشِيّ : اغْتَرَّ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ بِهَذَا - يَعْنِي بِمَا قَالَ الْبُخَارِيّ - فَقَالَ إنَّ فِي تَحْرِيفِ التَّوْرَاةِ خِلَافًا هَلْ هُوَ فِي

(241/247)

---

اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى أَوْ فِي الْمَعْنَى فَقَطْ ، وَمَالَ إلَى الثَّانِي وَرَأَى جَوَازَ مُطَالَعَتِهَا وَهُوَ قَوْلٌ بَاطِلٌ ، وَلَا خِلَافَ أَنَّهُمْ حَرَّفُوا وَبَدَّلُوا ، وَالِاشْتِغَالُ بِنَظَرِهَا وَكِتَابَتِهَا لَا يَجُوزُ بِالْإِجْمَاعِ ، وَقَدْ غَضِبَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ رَأَى مَعَ عُمَرَ صَحِيفَةً فِيهَا شَيْءٌ مِنْ التَّوْرَاةِ ، وَقَالَ : لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إلَّا اتِّبَاعِي وَلَوْلَا أَنَّهُ مَعْصِيَةٌ مَا غَضِبَ فِيهِ . قُلْت : إنْ ثَبَتَ الْإِجْمَاعُ

فَلَا كَلَام فِيهِ وَقَدْ قَيَّدَهُ بِالِاشْتِغَالِ بِكِتَابَتِهَا وَنَظَرِهَا فَإِنْ أَرَادَ مَنْ يَتَشَاغَلُ بِذَلِكَ دُونَ غَيْرِهِ فَلَا يَحْصُلُ الْمَطْلُوب ؛ لِأَنَّهُ يُفْهِم أَنَّهُ لَوْ تَشَاغَلَ بِذَلِكَ مَعَ تَشَاغُلِهِ بِغَيْرِهِ جَازَ وَإِنْ أَرَادَ مُطْلَقَ التَّشَاغُلِ فَهُوَ مَحَلّ النَّظَر ، وَفِي وَصْفِهِ الْقَوْلَ الْمَذْكُور بِالْبُطْلَانِ مَعَ مَا تَقَدَّمَ نَظَر أَيْضًا ، فَقَدْ نُسِبَ لِوَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ وَهُوَ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِالتَّوْرَاةِ ، وَنُسِبَ أَيْضًا لِابْنِ عَبَّاسٍ تُرْجُمَانِ الْقُرْآنِ وَكَانَ يَنْبَغِي لَهُ تَرْكُ الدَّفْعِ بِالصَّدْرِ وَالتَّشَاغُلِ بِرَدِّ أَدِلَّةِ الْمُخَالِفِ الَّتِي حَكَيْتَهَا ، وَفِي اِسْتِدْلَالِهِ عَلَى عَدَمِ الْجَوَازِ الَّذِي اِدَّعَى الْإِجْمَاعَ فِيهِ بِقِصَّةِ عُمَرَ نَظَر أَيْضًا سَأَذْكُرُهُ بَعْدَ تَخْرِيجِ الْحَدِيثِ الْمَذْكُور ، وَقَدْ أَخْرَجَهُ أَحْمَد وَالْبَزَّار وَاللَّفْظ لَهُ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ قَالَ : نَسَخَ عُمَر كِتَابًا مِنْ التَّوْرَاةِ بِالْعَرَبِيَّةِ فَجَاءَ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَعَلَ يَقْرَأُ وَوَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَغَيَّر . فَقَالَ لَهُ رَجُل مِنْ

(242/247)

---

الْأَنْصَار : وَيْحَك يَا اِبْنَ الْخَطَّابِ أَلَا تَرَى وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " لَا تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ وَقَدْ ضَلُّوا ، وَإِنَّكُمْ إِمَّا أَنْ تُكَذِّبُوا بِحَقٍّ أَوْ تُصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ ، وَاَللَّهِ لَوْ كَانَ مُوسَى بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مَا حَلَّ لَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي " وَفِي سَنَدِهِ جَابِرٌ الْجُعْفِيُّ وَهُوَ ضَعِيف ، وَلِأَحْمَد أَيْضًا وَأَبِي يَعْلَى

مِنْ وَجْه آخَر عَنْ جَابِر أَنَّ عُمَر أُتِيَ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْض كُتُب أَهْل الْكِتَاب فَقَرَأَهُ عَلَى النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَغَضِبَ فَذَكَرَ نَحْوَهُ دُون قَوْل الْأَنْصَارِيّ وَفِيهِ : " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي " وَفِي سَنَده مُجَالِد بْن سَعِيد وَهُوَ لَيِّن ، وَأَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ بِسَنَدٍ فِيهِ مَجْهُول وَمُخْتَلَف فِيهِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء " جَاءَ عُمَر بِجَوَامِع مِنْ التَّوْرَاة فَذَكَرَ بِنَحْوِهِ " وَسَمَّى الْأَنْصَارِيّ الَّذِي خَاطَبَ عُمَر عَبْد اللَّه بْن زَيْد الَّذِي رَأَى الْأَذَان ، وَفِيهِ " لَوْ كَانَ مُوسَى بَيْن أَظْهُركُمْ ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُوهُ لَضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا " وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَالطَّبَرَانِيُّ مِنْ حَدِيث عَبْد اللَّه بْن ثَابِت قَالَ " جَاءَ عُمَر فَقَالَ يَا رَسُول اللَّه إِنِّي مَرَرْت بِأَخٍ لِي مِنْ بَنِي قُرَيْظَة فَكَتَبَ لِي جَوَامِع مِنْ التَّوْرَاة أَلَا أَعْرِضهَا عَلَيْك ؟ قَالَ : فَتَغَيَّرَ وَجْه رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " الْحَدِيث وَفِيهِ " وَالَّذِي نَفْس مُحَمَّد بِيَدِهِ

(243/247)

---

لَوْ أَصْبَحَ مُوسَى فِيكُمْ ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ " وَأَخْرَجَ أَبُو يَعْلَى مِنْ طَرِيق خَالِد بْن عُرْفُطَة قَالَ : كُنْت عِنْد عُمَر فَجَاءَهُ رَجُل مِنْ عَبْد الْقَيْس فَضَرَبَهُ بِعَصًا مَعَهُ فَقَالَ مَا لِي يَا أَمِير الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ أَنْتَ الَّذِي نَسَخْت كِتَاب دَانْيَال قَالَ مُرْنِي بِأَمْرِك قَالَ اِنْطَلِقْ فَامْحُهُ فَلَئِنْ بَلَغَنِي أَنَّك قَرَأْته أَوْ أَقْرَأْته لَأُنْهِكَنَّك عُقُوبَة ، ثُمَّ قَالَ اِنْطَلَقْت فَانْتَسَخْت كِتَابًا مِنْ أَهْل

الْكِتَاب ثُمَّ جِئْت فَقَالَ لِي رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا هَذَا قُلْت كِتَاب انْتَسَخْته لِنَزْدَادَ بِهِ عِلْمًا إِلَى عِلْمنَا فَغَضِبَ حَتَّى احْمَرَّتْ وَجْنَتَاهُ فَذَكَرَ قِصَّة فِيهَا : يَا أَيُّهَا النَّاس إِنِّي قَدْ أُوتِيت جَوَامِع الْكَلِم وَخَوَاتِمه وَاخْتُصِرَ لِي الْكَلَام اخْتِصَارًا وَلَقَدْ أَتَيْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاء نَقِيَّة فَلَا تَتَهَوَّكُوا ، وَفِي سَنَده عَبْد الرَّحْمَن بْن إِسْحَاق الْوَاسِطِيُّ وَهُوَ ضَعِيف ، وَهَذِهِ جَمِيع طُرُق هَذَا الْحَدِيث وَهِيَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَا يُحْتَجّ بِهِ لَكِنَّ مَجْمُوعهَا يَقْتَضِي أَنَّ لَهَا أَصْلًا ، وَالَّذِي يَظْهَر أَنَّ كَرَاهِيَة ذَلِكَ لِلتَّنْزِيهِ لَا لِلتَّحْرِيمِ وَالْأَوْلَى فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَة التَّفْرِقَة بَيْن مَنْ لَمْ يَتَمَكَّن وَيَصِرْ مِنْ الرَّاسِخِينَ فِي الْإِيمَان فَلَا يَجُوز لَهُ النَّظَر فِي شَيْء مِنْ ذَلِكَ بِخِلَافِ الرَّاسِخ فَيَجُوز لَهُ وَلَا سِيَّمَا عِنْد الِاحْتِيَاج إِلَى الرَّدّ عَلَى الْمُخَالِف ، وَيَدُلّ عَلَى ذَلِكَ نَقْل الْأَئِمَّة قَدِيمًا وَحَدِيثًا مِنْ التَّوْرَاة وَإِلْزَامهمْ الْيَهُود بِالتَّصْدِيقِ بِمُحَمَّدٍ

(244/247)

---

صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا يَسْتَخْرِجُونَهُ مِنْ كِتَابهمْ ، وَلَوْلَا اعْتِقَادهمْ جَوَاز النَّظَر فِيهِ لَمَا فَعَلُوهُ وَتَوَارَدُوا عَلَيْهِ ، وَأَمَّا اسْتِدْلَاله لِلتَّحْرِيمِ بِمَا وَرَدَ مِنْ الْغَضَب وَدَعْوَاهُ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مَعْصِيَة مَا غَضِبَ مِنْهُ فَهُوَ مُعْتَرَض بِأَنَّهُ قَدْ يَغْضَب مِنْ فِعْل الْمَكْرُوه وَمِنْ فِعْل مَا هُوَ خِلَاف الْأَوْلَى إِذَا صَدَرَ مِمَّنْ لَا يَلِيق مِنْهُ ذَلِكَ ، كَغَضَبِهِ مِنْ تَطْوِيل مُعَاذ صَلَاة الصُّبْح بِالْقِرَاءَةِ ، وَقَدْ

يَغْضَب مِمَّنْ يَقَع مِنْهُ تَقْصِير فِي فَهْم الْأَمْر الْوَاضِح مِثْل الَّذِي سَأَلَ عَنْ لُقَطَة الْإِبِل ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي "كِتَاب الْعِلْم" الْغَضَب فِي الْمَوْعِظَة ، وَمَضَى فِي "كِتَاب الْأَدَب" مَا يَجُوز مِنْ الْغَضَب .

قَوْله ( يَتَأَوَّلُونَهُ )

(245/247)

---

قَالَ أَبُو عُبَيْدَة وَطَائِفَة فِي قَوْله تَعَالَى ( وَمَا يَعْلَم تَأْوِيله إِلَّا اللَّه ) التَّأْوِيل التَّفْسِير وَفَرَّقَ بَيْنهمَا آخَرُونَ فَقَالَ أَبُو عُبَيْد الْهَرَوِيُّ : التَّأْوِيل رَدّ أَحَد الْمُحْتَمَلَيْنِ إِلَى مَا يُطَابِق الظَّاهِر ، وَالتَّفْسِير كَشْف الْمُرَاد عَنْ اللَّفْظ الْمُشْكِل وَحَكَى صَاحِب النِّهَايَة أَنَّ التَّأْوِيل نَقْل ظَاهِر اللَّفْظ عَنْ وَضْعه الْأَصْلِيّ إِلَى مَا لَا يَحْتَاج إِلَى دَلِيل لَوْلَاهُ مَا تُرِكَ ظَاهِر اللَّفْظ ، وَقِيلَ : التَّأْوِيل إِبْدَاء اِحْتِمَال لَفْظ مُعْتَضِد بِدَلِيلٍ خَارِج عَنْهُ ، وَمَثَّلَ بَعْضهمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى ( لَا رَيْب فِيهِ ) قَالَ مَنْ قَالَ لَا شَكّ فِيهِ فَهُوَ التَّفْسِير ، وَمَنْ قَالَ لِأَنَّهُ حَقّ فِي نَفْسه لَا يَقْبَل الشَّكّ فَهُوَ التَّأْوِيل ، وَمُرَاد الْبُخَارِيّ بِقَوْلِهِ "يَتَأَوَّلُونَهُ" أَنَّهُمْ يُحَرِّفُونَ الْمُرَاد بِضَرْبٍ مِنْ التَّأْوِيل كَمَا لَوْ كَانَتْ الْكَلِمَة بِالْعِبْرَانِيَّةِ تَحْتَمِل مَعْنَيَيْنِ قَرِيب وَبَعِيد وَكَانَ الْمُرَاد الْقَرِيب فَإِنَّهُمْ يَحْمِلُونَهَا عَلَى الْبَعِيد وَنَحْو ذَلِكَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح الباري جـ 13 صـ 522.526 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والأربعون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثامن والأربعون بعد المائتين

من الآية ﴿ 116 ﴾ من سورة الأنعام

وحتى الآية ﴿ 121 ﴾ من نفس السورة

*(4/248)*

---

قوله تعالى ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (116) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أجاب عن شبهات الكفار ، وبين صحة نبوته عليه السلام ، شرع في الحث على الإعراض عن جهل الجهال ، والإقبال على ذي الجلال ، فكان التقدير : فإن أطعته فيما أمرك به اهتديت إلى صراط الله الذي يتم لك بسلوكه جميع ما وعدك به ، عطف عليه قوله : ﴿ وإن تطع ﴾ ولما كانت أكثر الأنفس متقيدة بالأكثر ، أشار إلى أن ذلك لا يفعله إلا جاهل مخلد إلى التقليد فقال : ﴿ أكثر من في الأرض ﴾ أي توجد طاعتك لهم في شيء من الأوقات بعد أن علمت أن أكثرهم إنما يتبع الهوى ، وأن أكثرهم فاسقون لا يعلمون لا

يشكرون ﴿ يضلوك عن سبيل الله ﴾ أي المستجمع لصفات الكمال ؛ ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إن ﴾ أي لأنهم ما ﴿ يتبعون ﴾ في أمورهم ﴿ إلا الظن ﴾ أي كما يظن هؤلاء جهلاً أن آباءهم كانوا على الحق .

ولما كان أكثر من يجزم بالأمور بما دعاه إليه ظنه كذباً ، وكان الخارص يقال على الكاذب والمخمن الحازر ، قال : ﴿ وإن هم ﴾ أي بصميم ضمائرهم ﴿ إلا يخرصون ﴾ أي يجزمون بالأمور بحسب ما يقدرون ، فيكشف الأمر عن أنها كذب ، فيعرف الفرق بينك وبينهم في تمام الكلام ونفوذه نفوذ السهام ، أو تخلفه عن التمام ونكوصه كالسيف الكهام ، فلا يبقى شبهة في أمر المحق والمبطل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 700 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما أجاب عن شبهات الكفار ثم بين بالدليل صحة نبوة محمد عليه الصلاة والسلام بين أن بعد زوال الشبهة وظهور الحجة لا ينبغي أن يلتفت العاقل إلى كلمات الجهال ، ولا ينبغي أن يتشوش بسبب كلماتهم الفاسدة فقال : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى الأَرض يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ وهذا يدل على أن أكثر أهل الأرض كانوا ضلالاً ، لأن الإضلال لا بد وأن يكون مسبوقاً بالضلال .

واعلم أن حصول هذا الضلال والإضلال لا يخرج عن أحد أمور ثلاثة : أولها : المباحث المتعلقة بالإلهيات فإن الحق فيها واحد ، وأما الباطل ففيه كثرة ، ومنها القول بالشرك إما كما تقوله الزنادقة وهو الذى أخبر الله عنه في قوله : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاء الجن ﴾ [ الأنعام : 100 ] وإما كما يقوله عبدة الكواكب .

وإما كما يقوله عبدة الأصنام ، وثانيها : المباحث المتعلقة بالنبوات .

إما كما يقوله من ينكر النبوة مطلقاً أو كما يقوله من ينكر النشر .

أو كما يقوله من ينكر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

ويدخل في هذا الباب المباحث المتعلقة بالمعاد .

وثالثها : المباحث المتعلقة بالأحكام ، وهي كثيرة ، فإن الكفار كانوا يحرمون البحائر والسوائب والوصائل ويحللون الميتة ، فقال تعالى : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى الأرض ﴾ فيما يعتقدونه من الحكم على الباطل بأنه حق ، وعلى الحق بأنه باطل يضلوك عن سبيل الله ، أي عن الطريق والمنهج الصدق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 133 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى الأَرض ﴾

يعني : أهل أرض مكة فيما يدعونه إلى ملة آبائه .

ويقال : وإن تطع أكثر من في الأرض يعني : الكفار لأن أكثر من في الأرض كانوا الكفار .

﴿ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ يعني : يصرفوك عن دين الإسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض ﴾

سبب نزولها : أن الكفار قالوا للمسلمين : أتأكلون ما قتلتم ، ولا تأكلون ما قتل ربُّكم ؟

فنزلت هذه الآية ، ذكره الفراء .

والمراد ب ﴿ أكثر من في الأرض ﴾ : الكفار .

وفي ماذا يطيعهم فيه أربعة أقوال .

أحدها : في أكل الميتة .

والثاني : في أكل ما ذبحوا للأصنام .

والثالث : في عبادة الأوثان .

والرابع : في اتباع ملل الآباء ؛ و﴿ سبيل الله ﴾ : دينه .

قال ابن قتيبة : ومعنى ﴿ يخرصون ﴾ : يحدسون ويوقعون ، ومنه قيل للحازر : خارص

فإن قيل : كيف يجوز تعذيب من هو على ظنٍ من شركه ، وليس على يقينٍ من كفره ؟ !

فالجواب : انهم لما تركوا التماس الحجة ، واتبعوا أهواءهم ، واقتصروا على الظن والجهل ، عُذِّبوا ، ذكره الزجاج . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض ﴾ الآية ، المعنى فامض يا محمد لما أمرت به وانفذ لرسالتك فإنك إن تطع أكثر من في الأرض يضلوك وذكر ﴿ أكثر ﴾ لأن أهل الأرض حينئذ كان أكثرهم كافرين ولم يكن المؤمنون إلا قلة ، وقال ابن عباس : ﴿ الأرض ﴾ هنا الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى الأرض ﴾

لما تحقق اختصاصُه تعالى بالحكمية لاستقلاله بما يوجبها من إنزال الكتابِ الكاملِ الفاصلِ بين الحقِّ والباطلِ وتمامِ صدقِ كلامِه وكمالِ عدالةِ أحكامِه وامتناعِ وجودِ من يبدل شيئاً منها واستبدادِه تعالى بالإحاطة التامةِ بجميع ( المسموعات ) والمعلومات عقّب ذلك ببيان أن الكفرةَ متصفون بنقائض تلك الكمالاتِ من النَّقائص التي هي الضلالُ والإضلالُ واتباعُ الظنونِ الفاسدةِ الناشىءُ من الجهل والكذبِ على الله سبحانه وتعالى إبانةً لكمال مباينةِ حالِهم لما يرومونه وتحذيراً عن الرّكون إليهم والعملِ بآرائهم ، والمرادُ بمن في الأرض الناسُ وبأكثرهم الكفارُ ، وقيل : أهلُ مكةَ والأرضُ أرضُها أي إن تُطِعهم بأن جعلتَ منهم حكَماً ﴿ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ عن الطريق الموصلِ إليه أو عن الشريعة التي شرعها لعباده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

*(8/248)*

---

وقال الآلوسى :

"ثم إنه تعالى على ما ذكر الإمام لما أجاب عن شبهات الكفار وبين بالدليل صحة النبوة أرشد إلى أنه بعد زوال الشبهة وظهور الحجة لا ينبغي أن يلتفت العاقل إلى كلمات الجهال فقال سبحانه :

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ وقال شيخ الإسلام : إنه لما تحقق اختصاصه تعالى بالحكمية لاستقلاله بما يوجب ذلك من إنزال الكتاب ( الكامل ) الفاصل بين الحق والباطل وتمام صدق كلامه وكمال عدله في أحكامه وامتناع وجود من يبدل شيئاً منها واستبداده سبحانه بالإحاطة التامة بجميع الموسوعات والمعلومات عقب ذلك ببيان أن الكفرة متصفون بنقائض تلك الكمالات من النقائص التي هي الضلال والإضلال واتباع الظنون الفاسدة الناشىء من الجهل والكذب على الله تعالى إبانة لكمال مباينة حالهم لما يرومونه وتحذيراً عن الركون إليهم والعمل بآرائهم فقال سبحانه ما قال .

ويحتمل أن يكون هذا من باب الإرشاد إلى اتباع القرآن والتمسك به بعد بيان كماله على أكمل وجه خطاب له صلى الله عليه وسلم ولأمته .

وقيل : خوطب عليه الصلاة والسلام وأريد غيره .

والمراد بمن في الأرض الناس وبأكثرهم الكفار وقيل : ما يعمهم وغيرهم من الجهال واتباع الهوى .

وقيل : أهل مكة والأرض أرضها وأكثر أهلها كانوا حينئذ كفاراً .

ومن الناس من زعم أن هذا نهى في المعنى عن متابعة غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذ هم والكرام قليل أقل الناس عدداً .

وقد قال سبحانه : ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ [ الأنعام : 90 ] وهو كما ترى .

ومثله احتمال أنه نهى عن متابعة غير الله سبحانه لأنه لو أطيع أكثر من في الأرض لأضلوا فضلاً عن إطاعة قليل أو واحد منهم .

والمعنى إن تطع أحداً من الكفار بمخالفة ما شرع لك وأودعه كلماته المنزلة من عنده إليك يضلوك عن الحق أو إن تطع الكفار بأن جعلت منهم حكما يضلوك عن الطريق الموصل إليه أو عن الشريعة التي شرعها لعباده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

*(9/248)*

---

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

أُعقِب ذكرُ عناد المشركين ، وعداوتِهم للرسول صلى الله عليه وسلم وولايتهم للشّياطين ، ورضاهم بما توسوس لهم شياطين الجنّ والإنس ، واقترافهم السيّئات طاعة لأوليائهم ، وما طَمْأن به قلب الرّسول صلى الله عليه وسلم من أنّه لقي سنّة الأنبياء قبلَه من آثار عداوة شياطين الإنس والجنّ ، بذكر ما يهون على الرّسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين ما يرونه من كثرة المشركين وعزّتهم ، ومن قلّة المسلمين وضعفهم ، مع تحذيرهم من الثّقة بقولهم ، والإرشاد إلى مخالفتهم في سائر أحوالهم ، وعدم الإصغاء إلى رأيهم ، لأنَّهم يُضِلّون عن

سبيل الله ، وأمرِهم بأن يلزموا ما يرشدهم الله إليه .

فجملة : ﴿ وإن تطع ﴾ متّصلة بجملة : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبيء عدوّا شياطين الإنس والجنّ ﴾ [ الأنعام : 112 ] وبجملة : ﴿ أفغير الله أبتغي حكماً ﴾ [ الأنعام : 114 ] وما بعدها إلى : ﴿ وهو السميع العليم ﴾ [ الأنعام : 115 ] .

والخطاب للنّبي صلى الله عليه وسلم والمقصود به المسلمون مثل قوله تعالى : ﴿ لئن أشركت ليحبطنّ عملك ﴾ [ الزمر : 65 ] .

وجيء مع فعل الشّرط بحرف ( إنْ ) الّذي الأصل فيه أن يكون في الشّرط النّادر الوقوع ، أو الممتنع إذا كان ذكره على سبيل الفرض كما يفرض المحال ، والظاهر أنّ المشركين لمّا أيسوا من ارتداد المسلمين ، كما أنبأ بذلك قوله تعالى : ﴿ قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرّنا ﴾ [ الأنعام : 71 ] الآية ، جَعلوا يلقون على المسلمين الشُبه والشكوك في أحكام دينهم ، كما أشار إليه قوله تعالى عقب هذا : ﴿ وإنّ الشّياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإنْ أطعتموهم إنّكم لمشركون ﴾ [ الأنعام : 121 ] .

*(10/248)*

وقد روى الطّبري عن ابن عبّاس ، وعكرمة : أنّ المشركين قالوا : "يا محمّد أخبرنا عن الشّاة إذا ماتَتْ مَنْ قَتلها ( يريدون أكل الشّاة إذا ماتت حتف أنفها دون ذبح ) قال اللَّهُ قتَلها فتزعم أنّ ما قتلتَ أنت وأصحابُك حلال وما قتل الكلبُ والصَقر حلال وما قتله الله حرام" فوقع في نفس ناس من المسلمين من ذلك شيء وفي "سنن التّرمذي" ، عن ابن عبّاس قال : " أتى أناس النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله أنأكل ما نقتل ولا نأكل ما يقتل اللَّهُ " فأنزل الله : ﴿ فكلوا ممّا ذكر اسم الله عليه ﴾ [ الأنعام : 118 ] الآية .

قال التّرمذي : هذا حديث حسن غريب .

فمن هذا ونحوه حَذّر الله المسلمين من هؤلاء ، وثبّتهم على أنّهم على الحقّ ، وإن كانوا قليلاً .

كما تقدّم في قوله : ﴿ قل لا يستوي الخبيث والطّيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴾ [ المائدة : 100 ] .

والطاعة : اسم للطّوع الّذي هو مصدر طاع يطوع ، بمعنى انقاد وفَعَل ما يؤمر به عن رضى دون ممانعة ، فالطاعة ضدّ الكره .

ويقال : طاع وأطاع ، وتستعمل مجازاً في قبول القول ، ومنه ما جاء في الحديث : " فإن هم طاعوا لك بذلك فأخبرهم أنّ الله قد فرض عليهم زكاة أموالهم "

ومنه قوله تعالى : ﴿ ولا شفيعٍ يُطاع ﴾ [ غافر : 18 ] أي يُقبل قوله ، وإلاّ فإنّ المشفوع

إليه أرفع من الشفيع فليس المعنى أنّه يمتثل إليه .

والطاعة هنا مستعملة في هذا المعنى المجازي وهو قبول القول .

و﴿ أكثر من في الأرض ﴾ هم أكثر سكّان الأرض .

والأرض : يطلق على جميع الكرة الأرضية الّتي يعيش على وجهها الإنسان والحيوان والنّبات ، وهي الدّنيا كلّها .

ويطلق الأرض على جزء من الكرة الأرضيّة معهود بين المخاطبين وهو إطلاق شائع كما في قوله تعالى : ﴿ وقُلنا مِن بعده لبني إسرائيل اسكُنُوا الأرض ﴾ [ الإسراء : 104 ] يعني الأرض المقدّسة ، وقوله : ﴿ أو يُنْفَوْا من الأرض ﴾ [ المائدة : 33 ] أي الأرض الّتي حاربوا الله فيها .

*(11/248)*

---

والأظهر أنّ المراد في الآية المعنى المشهور وهو جميع الكرة الأرضية كما هو غالب استعمالها في القرآن .

وقيل : أريد بها مكّة لأنّها الأرض المعهودة للرّسول عليه الصلاة والسلام .

وأيّاً مّا كان فأكثر من في الأرض ضالّون مضلّون : أمّا الكرة الأرضية فلأنّ جمهرة سكّانها

أهل عقائد ضالّة ، وقوانين غير عادلة .

فأهل العقائد الفاسدة : في أمر الإلهيّة : كالمجوس ، والمشركين ، وعبدة الأوثان ، وعبدة الكواكب ، والقائلين بتعدّد الإله ؛ وفي أمر النّبوّة : كاليهود والنّصارى ؛ وأهلُ القوانين الجائرة من الجميع .

وكلّهم إذا أطيع إنَّما يدعو إلى دينه ونحلته ، فهو مُضِلّ عن سبيل الله ، وهم متفاوتون في هذا الضّلال كثرة وقلّة ، واتّباع شرائعهم لا يخلو من ضلال وإن كان في بعضها بعض من الصّواب .

والقليل من النّاس مَن هم أهل هدى ، وهم يومئذ المسلمون ، ومن لم تبلغهم دعوة الإسلام من الموحّدين الصّالحين في مشارق الأرض ومغاربها الطالبين للحقّ .

وسبب هذه الأكثرية : أنّ الحقّ والهدى يحتاج إلى عقولٍ سليمة ، ونفوس فاضلة ، وتأمّل في الصّالح والضارّ ، وتقديمِ الحقّ على الهوى ، والرشدِ على الشّهوة ، ومحبّة الخير للنّاس ؛ وهذه صفات إذا اختلّ واحد منها تطرّق الضّلال إلى النّفس بمقدار ما انثلم من هذه الصّفات .

واجتماعها في النّفوس لا يكون إلاّ عن اعتدال تامّ في العقل والنّفس ، وذلك بتكوين الله وتعليمه ، وهي حالة الرّسل والأنبياء ، أو بإلهام إلهي كما كان أهل الحقّ من حكماء اليونان وغيرهم من أصحاب المكاشفات وأصحاب الحكمة الإشراقية وقد يسمّونها الذّوق .

أو عن اقتداء بمرشد معصوم كما كان عليه أصحاب الرّسل والأنبياء وخيرة أممهم ؛ فلا جرم كان أكثر من في الأرض ضالّين وكان المهتدون قلّة ، فمن اتبعهم أضلّوه .

*(12/248)*

---

والآية لم تقتض أنّ أكثر أهل الأرض مُضِلّون ، لأنّ معظم أهل الأرض غير متصدّين لإضلال النّاس ، بل هم في ضَلالهم قانعون بأنفسهم ، مقبلون على شأنهم ؛ وإنَّما اقتضت أنّ أكثرهم ، إنْ قَبِل المسلم قَولهم ، لم يقولوا له إلاّ ما هو تضليل ، لأنّهم لا يُلقون عليه إلاّ ضلالهم .

فالآية تقتضي أنّ أكثر أهل الأرض ضالّون بطريق الالتزام لأنّ المهتدي لا يُضِلّ مُتبعه وكلّ إناء يرشح بما فيه .

وفي معنى هذه الآية قوله تعالى في آية ( 100 ) سورة العقود : ﴿ قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث .

﴾ واعلم أنّ هذا لا يشمل أهل الخطأ في الاجتهاد من المسلمين ، لأنّ المجتهد في مسائل الخلاف يتطلّب مصادفة الصّواب باجتهاده ، بتتبع الأدلة الشرعية ولا يزال يبحث عن معارض اجتهاده وإذا استبان له الخطأ رجع عن رأيه ، فليس في طاعته ضلال عن سبيل الله لأنّ من سبيل الله طُرق النّظر والجدلِ في التفقّه في الدّين .

وقوله : ﴿ يضلوك عن سبيل الله ﴾ تمثيل لحال الدّاعي إلى الكفر والفساد مَن يَقْبَل قولَه ، بحال من يُضلّ مستهديه إلى الطريق ، فينعت له طريقاً غير الطّريق الموصّلة ، وهو تمثيل قابل لتوزيع التّشبيه : بأنّ يشبّه كلّ جزء من أجزاء الهيئة المشبَّهة بجزء من أجزاء الهيئة المشبَّة بِها ، وإضافة السبيل إلى اسم الله قرينة على الاستعارة ، وسبيل الله هو أدلّة الحقّ ، أو هو الحقّ نفسه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾

فصل

قال الفخر :

المراد أن هؤلاء الكفار الذين ينازعونك في دينك ومذهبك غير قاطعين بصحة مذاهبهم ، بل لا يتبعون إلا الظن وهم خراصون كذابون في ادعاء القطع وكثير من المفسرين يقولون : المراد من ذلك الظن رجوعهم في إثبات مذاهبهم إلى تقليد أسلافهم لا إلى تعليل أصلاً .

فائدة :

تمسك نفاة القياس بهذه الآية .

*(13/248)*

فقالوا رأينا أن الله تعالى بالغ في ذم الكفار في كثير من آيات القرآن بسبب كونهم متبعين للظن ، والشيء الذي يجعله الله تعالى موجباً لذم الكفار لا بد وأن يكون في أقصى مراتب الذم ، والعمل بالقياس يوجب اتباع الظن ، فوجب كونه مذموماً محرماً ، لا يقال لما ورد الدليل القاطع بكونه حجة كان العمل به عملاً بدليل مقطوع لا بدليل مظنون لأنا نقول هذا مدفوع من وجوه : الأول : أن ذلك الدليل القاطع إما أن يكون عقلياً ، وإما أن يكون سمعياً ، والأول باطل لأن العقل لا مجال له في أن العمل بالقياس جائز أو غير جائز ، لا سيما عند من ينكر تحسين العقل وتقبيحه .

والثاني : أيضاً باطل لأن الدليل السمعي إنما يكون قاطعاً لو كان متواتراً وكانت ألفاظه غير محتملة لوجه آخر سوى هذا المعنى الواحد ، ولو حصل مثل هذا الدليل لعلم الناس بالضرورة كون القياس حجة ، ولارتفع الخلاف فيه بين الأمة ، فحيث لم يوجد ذلك علمنا أن الدليل القاطع على صحة القياس مفقود .

الثاني : هب أنه وجد الدليل القاطع على أن القياس حجة ، إلا أن مع ذلك لا يتم العمل بالقياس إلا مع اتباع الظن وبيانه أن التمسك بالقياس مبني على مقامين : الأول : أن الحكم في محل الوفاق معلل بكذا .

والثاني : أن ذلك المعنى حاصل في محل الخلاف ، فهذان المقامان إن كانا معلومين على سبيل القطع واليقين فهذا ما لا خلاف فيه بين العقلاء في صحته وإن كان مجموعهما أو كان

أحدهما ظنياً فحينئذ لا يتم العمل بهذا القياس إلا بمتابعة الظن ، وحينئذ يندرج تحت النص الدال على أن متابعة الظن مذمومة .

والجواب : لم لا يجوز أن يقال : الظن عبارة عن الاعتقاد الراجح إذا لم يستند إلى أمارة وهو مثل اعتقاد الكفار أما إذا كان الاعتقاد الراجح مستنداً إلى أمارة ، فهذا الاعتقاد لا يسمى ظناً .

وبهذا الطريق سقط هذا الاستدلال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 134.133 ﴾ . بتصرف يسير .

*(14/248)*

---

وقال السمرقندى :

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن ﴾

يعني : أن أكثرهم يتبعون أكابرهم بالظن ، ويتبعونهم فيما لا يعلمون أنهم على الحق

فإن قيل : كيف يعذبون وهم ظانون على غير يقين ؟

قيل لهم : لأنهم اقتصروا على الظن والجهل ، لأنهم اتبعوا أهواءهم ولم يتفكروا في طلب الحق .

ويقال : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن ﴾ يعني في أكل الميتة واستحلالها ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ يعني : ما هم إلا كاذبون باستحلالهم الميتة ، لأنهم كانوا يقولون : ما قتل الله فهو أولى بالحل وبأكله مما نذبحه بأيدينا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن ﴾ "إِنْ" بمعنى ما ، وكذلك ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ أي يَحْدِسُون ويقدرون ؛ ومنه الخَرْص ، وأصله القطع .

قال الشاعر :

ترى قِصَد المُرّان فينا كأنّه . . .

تَذَرُّعُ خِرصان بأيْدِي الشّواطِبِ

يعني جريداً يُقطع طولاً ويتخذ منه الخَصْر .

وهو جمع الخرص ؛ ومنه خَرَص يَخْرُص النخل خَرْصاً إذا حزره ليأخذ الخَرَاج منه .

فالخارص يقطع بما لا يجوز القطع به ؛ إذ لا يقين معه .

وسيأتي لهذا مزيد بيان في "الذاريات" إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن ﴾ وهو ظنُّهم أن آباءَهم كانوا على الحق فهم على آثارهم يهتدون أو جهالاتُهم وآراؤهم الباطلةُ على أن المرادَ بالظن ما يقابل العلم ، والجملةُ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من الشرطية كأنه قيل : كيف يضلون ؟ فقيل : لا يتبعون في أمور دينِهم إلا الظنَّ وإنّ الظنَّ لا يُغني من الحق شيئاً فيضلون ضلالاً مبيناً ، ولا ريبَ في أن الضالَّ المتصدّيَ للإرشاد إنما يُرشد غيرَه إلى مسلك نفسِه فهم ضالون مضِلّون وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ عطفٌ على ما قبله داخلٌ في حكمه أي يكذِبون على الله سبحانه فيما ينسُبون إليه تعالى كاتخاذ الولدِ وجعلِ عبادةِ الأوثانِ ذريعةً إليه تعالى وتحليلِ الميتةِ وتحريمِ البحائرِ ونظائرِها ، أو يقدّرون أنهم على شيء وأنّى لهم ذلك ودونه مناطُ العَيُّوقِ وحقيقتُه ما يقال عن ظن وتخمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

*(16/248)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ أي ما يتبعون فيما هم عليه من الشرك والضلال ﴿ إِلاَّ الظن ﴾ وإن

الظن فيما يتعلق بالله تعالى لا يغني من الحق شيئاً ولا يكفي هناك إلا العلم وأنى لهم به ، وهذا بخلاف سائر الأحكام وأسبابها مثلاً فإنه لا يشترط فيها العلم وإلا لفات معظم المصالح الدنيوية والأخروية ، "والفرق بينهما على ما قاله العز بن عبد السلام في "قواعده الكبرى" أن الظان مجوز لخلاف مظنونه فإذا ظن صفة من صفات الإله عز شأنه فإنه يجوز نقيضها وهو نقص ولا يجوز ( تجويز ) النقص عليه سبحانه ( لأن الظن لا يمنع من تجويز نقيض المظنون ) بخلاف الأحكام فإنه لو ظن الحلال حراماً أو الحرام حلالاً لم يكن في ذلك تجويز نقص على الرب جل شأنه لأنه سبحانه لو أحل الحرام وحرم الحلال لم يكن ذلك نقصاً عليه عز وجل فدار تجويزه بين أمرين كل ( واحد ) منهما كمال بخلاف الصفات" .

وقال غير واحد : المراد ما يتبعون إلا ظنهم أن آباءهم كانوا على الحق وجهالاتهم وآراءهم الباطلة ، ويراد من الظن ما يقابل العلم أي الجهل فليس في الآية دليل على عدم جواز العمل بالظن مطلقاً فلا متمسك لنفاة القياس بها ، والإمام بعد أن قرر وجه استدلالهم قال : "والجواب لم لا يجوز أن يقال : الظن عبارة عن الاعتقاد الراجح إذا لم يستند إلى أمارة وهو مثل ( ظن ) الكفار أما إذا كان الاعتقاد الراجح مستنداً إليها فلا يسمى ظناً" وهو كما ترى .

﴿ وَإِنْ هُمْ ﴾ أي وما هم ﴿ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ أي يكذبون .

وأصل الخرص القول بالظن وقول من لا يستيقن ويتحقق كما قال الأزهري ، ومنه خرص النخل خرصاً بفتح الخاء وهي خرص بالكسر أي مخروصة ، والمراد أن شأن هؤلاء الكذب وهم مستمرون على تجدده منهم مرة بعد مرة مع ما هم عليه من اتباع الظن في شأن خالقهم عز شأنه وقال الإمام : "المراد أن هؤلاء الكفار الذين ينازعونك في دينك ومذهبك غير قاطعين بصحة مذاهبهم بل لا يتبعون إلا الظن وهم خراصون كاذبون في ادعاء القطع" ؛ ولا يخفى بعد تقييد الكذب بادعاء القطع .

وقال غير واحد : المراد أنهم يكذبون على الله تعالى فيما ينسبون إليه جل شأنه كاتخاذ الولد وجعل عبادة الأوثان ذريعة إليه سبحانه وتحليل الميتة و( تحريم ) البحائر ونظير ذلك .

ولعل ما ذهبنا إليه أولى وأبلغ في الذم ، ويحتمل أن يكون المراد أن هؤلاء الكفار يتبعون في أمور دينهم ظن أسلافهم وأن شأنهم أنفسهم الظن أيضاً ، وحاصل ذلك ذمهم بفسادهم وفساد أصولهم إلا أن ذلك بعيد جداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

ثمّ بيّن الله سبب ضلالهم وإضلالهم : بأنّهم ما يعتقدون ويدينون إلاّ عقائد ضالّة ، وأدياناً سَخيفة ، ظنّوها حقّا لأنّهم لم يستفرغوا مقدرة عقولهم في ترسُّم أدلّة الحقّ فقال : ﴿ إن

يتبعون إلا الظن ﴾ .

والاتّباع : مجاز في قبول الفكر لما يقال وما يخطر للفكر : من الآرَاء والأدلّة وتقلّد ذلك .

فهذا أتمّ معنى الاتّباع ، على أنّ الاتّباع يطلق على عمل المرء برأيه كأنّه يتبعه .

(18/248)

---

والظنّ ، في اصطلاح القرآن ، هو الاعتقاد المخطىء عن غير دليل ، الّذي يحسبه صاحبه حقّا وصحيحاً ، قال تعالى : ﴿ وما يتّبع أكثرهم إلاّ ظنّاً إنّ الظنّ لا يغنى من الحقّ شيئاً ﴾ [ يونس : 36 ] ومنه قول النّبي صلى الله عليه وسلم " إيّاكم والظَّنّ فإنّ الظنّ أكذب الحديث " وليس هو الظنّ الّذي اصطلح عليه فقهاؤنا في الأمور التّشريعية ، فإنَّهم أرادوا به العلم الرّاجح في النّظر ، مع احتمال الخطأ احتمالاً مرجوحاً ، لتعسّر اليقين في الأدلّة التّكليفيّة ، لأنّ اليقين فيها : إن كان اليقينَ المراد للحكماء ، فهو متوقّف على الدّليل المنتهي إلى الضّرورة أو البرهان ، وهما لا يجريان إلاّ في أصول مسائل التّوحيد ، وإن كان بمعنى الإيقان بأنّ الله أمر أو نهى ، فذلك نادر في معظم مسائل التّشريع ، عدا ما علم من الدّين بالضرورة أو حصل لصاحبه بالحسّ ، وهو خاصّ بما تلقّاه بعض الصّحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة ، أو حصل بالتّواتر .

وهو عزيز الحصول بعد عصر الصّحابة والتّابعين ، كما عُلم من أصول الفقه .

وجملة : ﴿ إن يتبعون إلا الظن ﴾ استئناف بياني ، نشأ عن قوله : ﴿ يضلوك عن سبيل الله ﴾ فبيّن سبب ضلالهم : أنّهم اتَّبعوا الشّبهة ، من غير تأمّل في مفاسدها ، فالمراد بالظنّ ظنّ أسلافهم ، كما أشعر به ظاهر قوله : ﴿ يتبعون ﴾ .

وجملة ﴿ وإن هم إلا يخرصون ﴾ عطف على جملة : ﴿ إن يتبعون إلا الظن ﴾ .

ووجود حرف العطف يمنع أن تكون هذه الجملة تأكيداً للجملة التي قبلها ، أو تفسيراً لها ، فتعيّن أنّ المراد بهذه الجملة غير المراد بجملة : ﴿ إن يتبعون إلا الظن ﴾ .

وقد تردّدت آراء المفسّرين في محمل قوله : ﴿ وإن هم إلا يخرصون ﴾ ؛ فقيل : يَخرصون يكذبون فيما ادّعوا أنّ ما اتَّبعوه يقين ، وقيل : الظن ظنّهم أنّ آباءهم على الحقّ .

والخرص : تقديرهم أنفسهم على الحقّ .

*(19/248)*

---

والوجه : أنّ محمل الجملة الأولى على ما تلقّوه من أسلافهم ، كما أشعر به قوله : ﴿ يتبعون ﴾ ، وأنّ محمل الجملة الثّانية على ما يستنبطونه من الزّيادات على ما ترك لهم أسلافهم وعلى شبهاتهم التي يحسبونها أدلّة مفحمة ، كقولهم : "كيف نأكل مَا قتلناه وقتله الكلب

والصّقر ، ولا نأكل ما قتله الله" كما تقدم آنفاً ، كما أشعر به فعل : ﴿ يخرصون ﴾ من معنى التّقدير والتّأمّل .

والخَرْص : الظنّ الناشىء عن وِجدان في النّفس مستند إلى تقريب ، ولا يستند إلى دليل يشترك العقلاء فيه ، وهو يرادف : الحزرَ ، والتّخمين ، ومنه خرص النّخل والكرْم ، أي تقدير ما فيه من الثّمرة بحسب ما يجده النّاظر فيما تعوّدهُ .

وإطلاق الخرص على ظنونهم الباطلة في غاية الرشاقة لأنّها ظنون لا دليل عليها غير ما حَسُن لظانِّيها .

ومن المفسّرين وأهل اللّغة من فسّر الخرص بالكذب ، وهو تفسير قاصر ، نظرَ أصحابُه إلى حاصل ما يفيده السّياق في نحو هذه الآية ، ونحو قوله : ﴿ قُتل الخرّاصون ﴾ [ الذاريات : 10 ] ؛ وليس السّياق لوصف أكثر من في الأرض بأنّهم كاذبون ، بل لوصمهم بأنَّهم يأخذون الاعتقاد من الدّلائل الوهميّة ، فالخرص ما كان غير علم ، قال تعالى : ﴿ ما لهم بذلك من علم إن هم إلاّ يخرصون ﴾ [ الزخرف : 20 ] ، ولو أريد وصفهم بالكذب لكان لفظ ( يكذبون ) أصرح من لفظ ﴿ يخرصون ﴾ .

واعلم أنّ السّياق اقتضى ذمّ الاستدلال بالخرص ، لأنّه حزر وتخمين لا ينضبط ، ويعارضه ما ورد عن عتاب بن أسيد قال : "أمرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرص العنب كما يخرص التّمر" .

(20/248)

---

فأخذ به مالك ، والشّافعي ، ومحمله على الرخصة تيسيراً على أرباب النّخيل والكروم لينتفعوا بأكل ثمارهم رطبة ، فتؤخذ الزّكاة منهم على ما يقدره الخرص ، وكذلك في قسمة الثّمار بين الشّركاء ، وكذلك في العَرِيَّة يشتريها المُعري ممن أعراه ، وخالف أبو حنيفة في ذلك وجعل حديث عتاب منسوخاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

(21/248)

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

و﴿ مَن فِي الأرض ﴾ المقصود بهم المكلفون ؛ لأنهم هم من يتميزون بالاختيار ولهم أوامر ونواه ، فما دون الإنسان لا أمر له ، و" أكثر " لا يقابلها بالضرورة كلمة " قليل " أو " أقل " ، وما دام القول هو : " أكثر " . فقد يكون الباقون كثيراً أيضاً ، وأمّا كثير فإنها ، تعطي له

كميته في ذاته وليست منسوبة إلى غيره ، ولذلك كنا نسمع من يقول : مكتوب على محطة مصر أو على " المطار " أو على " الميناء " ، يا داخل مصر منك كثير ، أي إن كنت رجلاً طيباً فستجد مثلك الكثير ، وإن كنت شريراً فستجد مثلك الكثير أيضاً .

ويقول الحق : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدوآب وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب . . ﴾ [ الحج : 18 ]

فكل الكائنات مقهورة مسخرة ، وعند الناس انقسم الأمر ؛ لأن لهم اختياراً ، فراح أناس للطاعة وذهب أناس للمعصية ، فلم يقل الحق : والناس . بل قال " وكثير من الناس " ، ولم يقل الحق : وقليل حق عليه العذاب ، لكنه قال : ﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب ﴾ فهؤلاء كثير وهؤلاء كثير ، وإن نظرت إليهم في ذاتهم فهم كثير ، والآخرون أيضاً إذا نظرت إليهم تجدهم كثيراً . ولماذا يقول الحق : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأرض يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ ؟

(22/248)

" الطاعة " – كما نعرف – استجابة للأمر في " افعل " ، والنهي في " لا تفعل " إذا قال الحق للإنسان افعل كذا ؛ فالإنسان صالح لأن يفعل ، وأن لا يفعل ، وإن كان هناك شيء لا تقدر عليه فلن يقول لك : افعله . والإنسان عادة حين يؤمر أو يُنهي إنما يؤمر وينهي لمصلحته ، فإن لم يوجد أمام مصلحةٍ معارض من منهج إلهي فهذا من مصلحته أيضاً ؛ لأن الله أجاز له حرية الفعل والتّرك . ويوضح الحق : من رحمتي أن جعلت لكم تشريعاً ؛ لأننا لو تركنا الناس إلى أهوائهم فسيأمر كل واحد من الذين لهم السيطرة على الناس بما يوافق هواه ، وسينهي كل واحد من الناس بما يخالف هواه ؛ لذلك نعصم هذا الأمر بالمنهج . حتى لا يتضارب الخلق ولا يتعاكس هواك مع هوى أخيك . ومن المصلحة أن يوجد مطاع واحد لا هوى له ، ويوجد منهج يقول للجميع " افعلوا كذا " و" لا تفعلوا كذا " وبذلك يأتي الاستطراق لنفعهم جميعاً . ولذلك يقول الحق : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ . . ﴾ [ الأنعام : 116 ]

فهناك أناس مؤمنون وهم أصحاب الفطرة السليمة بطبيعتهم ؛ لأن الخير هو الفطرة في الإنسان ، وقد جاء التشريع لينمي في صاحب الفطرة السليمة فطرته أو يؤكدها له ، ويعدل في صاحب النزعة السيئة ليعود به إلى الفطرة الحسنة .

والذين يضلون عن سبيل الله ماذا يتبعون ؟ يقول الحق : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن ﴾ .

كل واحد منهم يظن أن هذا الضلال ينفعه الآن ، ويغيب عنه ما يجر عليه من الوبال فيما

بعد ذلك .

و" الظن " - كما نعلم - هو إدراك الطرف الراجح ويقابله الوهم وهو إدراك الطرف المرجوح والظن هنا ، هو ما يرجحه الهوي : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ [ الأنعام : 116 ]

*(23/248)*

---

و " إن " - كما نعرف - تأتي مرة جازمة : إن تفعلْ كذا تجدْ كذا ، وتأتي مرة نافية ، مثل قوله الحق : ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللائي وَلَدْنَهُمْ . . ﴾ [ المجادلة : 2 ] أي : ما أماتهم ؛ ف " إن " هنا نافية . وقوله الحق : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن ﴾ أي ما يتبعون إلا الظن . هم إما أن يتبعوا الظن وإمّا أن يخرصوا . ( فالخارص ) هو من يتكلم بغير الحقيقة ، بل يخمن تخميناً ، كأن ينظر إنسان إلى آخر في سوق الغلال ويسأله : كم يبلغ مقدار هذا الكوم من القمح ؟ . فيرد : حوالي عشرة أرداب أو اثنى عشر أردباً ، وهو يخمن تخميناً بلا دليل يقيني أو بلا مقاييس ثابتة ، أو يقول كلاماً ليس له معنى دقيق .

فإذا اتبعت الناس فسوف يضلونك . لأنهم لا يملكون دليلاً علمياً ، ولاحقًا يقينيًا ، بل

يتبعون الظن إن كان الأمر راجحاً ، ويخرصون ويخمنون حتى ولو كان الأمر مرجوحاً .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(24/248)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (116) ﴾

أهل الله قليلون عدداً وإن كانوا كثيرين وزناً وخَطَراً ، وأمَّا الأعداء ففيهم كثرة . فإنْ لاحظْتَهُم – يا محمد – فَتَنُوكَ ، وإنْ صاحبتهم منعوك عن الحق وقلبوكَ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 496 ﴾

(25/248)

---

قوله تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (117) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان المقام للعلم الكاشف للحقائق المبين لما يتبع وما يجتنب ، قال معللاً لهذا الإخبار : ﴿ إن ربك ﴾ أي المحسن إليك بإنزال هذا الكتاب الكاشف للارتياب الهادي إلى الصواب ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ أعلم ﴾ ولكون الحال شديد الاقتضاء للعلم ، قطعه عما بعده ليسبق إلى الفهم أنه أعلم من كل من يتوهم فيه العلم مطلقاً ثم قال : ﴿ من ﴾ أي يعلم من ﴿ يضل ﴾ أي يقع منه ضلال يوماً ما ﴿ عن سبيله ﴾ أي الذي بينه بعلمه ﴿ وهو ﴾ أي وحده ﴿ أعلم بالمهتدين ﴾ كما أنه أعلم بالضالين ، فمن أمركم باتباعه فاتبعوه ، ومن نهاكم عنه فاجتنبوه ، فمن ضل أرداه ، ومن اهتدى أنجاه ، فاستمسكوا بأسبابه حذراً من وبيل عقابه يوم حسابه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 701 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين ﴾

فيه مسألتان :

المسألة الأولى :

في تفسيره قولان : الأول : أن يكون المراد أنك بعد ما عرفت أن الحق ما هو ، وأن الباطل ما هو ، فلا تكن في قيدهم بل فوض أمرهم إلى خالقهم ، لأنه تعالى عالم بأن المهتدي من هو ؟ والضال من هو ؟ فيجازي كل واحد بما يليق بعمله .

والثاني : أن يكون المراد أن هؤلاء الكفار وإن أظهروا من أنفسهم ادعاء الجزم واليقين فهم كاذبون ، والله تعالى عالم بأحوال قلوبهم وبواطنهم ، ومطلع على كونهم متحيرين في سبيل الضلال تائهين في أودية الجهل .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ فيه قولان : الأول : قال بعضهم ﴿ أَعْلَمُ ﴾ ههنا بمعنى يعلم والتقدير : إن ربك يعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين .

فإن قيل : فهذا يوجب وقوع التفاوت في علم الله تعالى وهو محال .

قلنا : لا شك أن حصول التفاوت في علم الله تعالى محال .

إلا أن المقصود من هذا اللفظ أن العناية بإظهار هداية المهتدين فوق العناية بإظهار ضلال الضالين ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [ الإسراء : 7 ] فذكر الإحسان مرتين والإساءة مرة واحدة .

والثاني : أن موضع ﴿ مِنْ ﴾ رفع بالابتداء ولفظها لفظ الاستفهام ، والمعنى إن ربك هو

أعلم أي الناس يضل عن سبيله ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ لنعلم أي الحزبين أحصى ﴾ [ الكهف : 12 ] وهذا قول : المبرد والزجاج والكسائي والفراء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 134 ﴾

*(26/248)*

---

وقال القرطبى :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ ﴾

قال بعض الناس : إن "اعلم" هنا بمعنى يعلم ؛ وأنشد قول حاتم الطائيّ :

تحالفَتْ طيءٌ من دوننا حَلِفاً . . .

والله أعلم ما كنا لهم خُذُلاَ

وقول الخنساء :

الله أعلم أن جفنته . . .

تغدو غداة الريح أو تسرى

وهذا لا حجة فيه ؛ لأنه لا يطابق ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين ﴾ .

ولأنه يحتمل أن يكون على أصله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾

لما ذكر تعالى يضلوك عن سبيل الله أخبر أنه أعلم العالمين بالضال والمهتدي ، والمعنى أنه أعلم بهم وبك فإنهم الضالون وأنت المهتدي و ﴿ من ﴾ قيل في موضع جر على إسقاط حرف الجر وإبقاء عمله ، وهذا ليس بجيد لأن مثل هذا لا يجوز إلا في الشعر نحو زيد أضرب السيف أي بالسيف .

وقال أبو الفتح : في موضع نصب بأعلم بعد حذف حر الجر وهذا ليس بجيد ، لأن أفعل التفضيل لا يعمل النصب في المفعول به ، وقال أبو علي : في موضع نصب بفعل محذوف أي يعلم من يضل ودل على حذفه أعلم ومثله ما أنشده أبو زيد

وأضرب منا بالسيوف القوانسا . . .

أي تضرب القوانس وهي إذ ذاك موصولة وصلتها ﴿ يضل ﴾ وجوز أبو البقاء أن تكون موصوفة بالفعل .

وقال الكسائي والمبرد والزجاج ومكي في موضع رفع وهي استفهامية مبتدأ والخبر ﴿ يضل ﴾ والجملة في موضع نصب بأعلم أي أعلم أي الناس يضل كقوله ﴿ لنعلم أي الحزبين ﴾ وهذا ضعيف لأن التعليق فرع عن جواز العمل وأفعل التفضيل لا يعمل في المفعول به فلا

يعلق عنه ، والكوفيون يجيزون إعمال أفعل التفضيل في المفعول به والرد عليهم في كتب النحو .

(27/248)

---

وقرأ الحسن وأحمد أبي شريح ﴿ يضل ﴾ بضم الياء وفاعل ﴿ يضل ﴾ ضمير من ومفعوله محذوف أي من يضل الناس أو ضمير الله على معنى يجده ضالاً أو يخلق فيه الضلال ، وهذه الجملة خبرية تتضمن الوعيد والوعد لأن كونه تعالى عالماً بالضال والمهتدي كناية عن مجازاتهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالمهتدين ﴾

تقريرٌ لمضمون الشرطيةِ وما بعدها وتأكيدٌ لما يفيده من التحذير ، أي هو أعلمُ بالفريقين فاحذر أن تكون من الأولين ، و( من ) موصولةٌ أو موصوفةٌ في محل النصبِ لا بنفس أعلمُ فإن أفعلَ التفضيلِ لا ينصِبُ الظاهرَ في مثل هذه الصور بل بفعل دلَّ هو عليه ، أو استفهاميةٌ مرفوعة بالابتداء والخبرُ يَضِلّ والجملةُ معلقٌ عنها الفعلُ المقدر ، وقرىء يُضِل بضم الياء على أن ( من ) فاعلٌ ليُضِل ومفعولُه محذوفٌ ومحلها النصب بما ذكر من الفعل المقدر أي هو

أعلم يعلم من يُضِل الناسَ فيكون تأكيداً للتحذير عن طاعة الكفرة . وأما أن الفاعلَ هو الله تعالى ومَنْ منصوبةٌ بما ذكر أي يعلم مَنْ يُضِلّه أو مجرورةٌ بإضافة أعلمُ إليها أي أعلمُ المُضِلّين من قوله تعالى : ﴿ مَن يُضْلِلِ الله ﴾ أو من قولك : أضللتُه إذا وجدتُه ضالاً فلا يساعده السباقُ والسياقُ والتفضيلُ في العلم بكثرته وإحاطتِه بالوجوه التي يمكن تعلّقُ العلمِ بها ولزومُه وكونُه بالذات لا بالغير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(28/248)

---

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين ﴾

تقرير كما قال بعض المحققين لمضمون الشرطية وما بعدها وتأكيد لما يفيده من التحذير أي هو أعلم بالفريقين فاحذر أن تكون من الأولين .

و ﴿ مِنْ ﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب على المفعولية بفعل دل عليه ﴿ أَعْلَمُ ﴾ كما ذهب إليه الفارسي أي يعلم لا به فإن أفعل لا ينصب الظاهر فيما إذا أريد به التفضيل على الصحيح خلافاً لبعض الكوفيين لأنه ضعيف لا يعمل عمل فعله ، وإذا جرد لمعنى اسم الفاعل ، فمنهم من جوز نصبه كما صرح به في "التسهيل" ، وحينئذ يؤتى بمفعوله

مجروراً بالباء أو اللام .

ومن الناس من ادعى أن الباء هنا مقدرة ليتطابق طرفا الآية .

ولا يجوز أن يكون أفعل مضافاً إلى ( من ) لفساد المعنى .

وجوز أن تكون إستفهامية مبتدأ والخبر ﴿ يُضِلَّ ﴾ والجملة معلق عنها الفعل المقدر ، وإلى هذا ذهب الزجاج .

ولا يخفى ما في التعبير في جانب الفريق الأول بما عبر به وفي جانب الفريق الثاني بالمهتدين مع عدم بيان ما اهتدوا إليه من الإعتناء بشأن الآخرين ومزيد التفرقة بينهم وبين الأولين .

وقرىء ﴿ مَن يَضِلُّ ﴾ بضم الياء على أن "من" مفعول لما أشير إليه من الفعل المقدر وفاعل ﴿ يُضِلَّ ﴾ ضمير راجع إليه ومفعوله محذوف أي يعلم من يضل الناس فيكون تأكيداً للتحذير عن طاعة الكفرة ، وجوز أن تكون مجرورة بالإضافة أي أعلم المضلين من قوله تعالى : ﴿ مَن يُضْلِلِ الله ﴾ [ الأعراف : 186 ] أو من قولك : أضللته إذا وجدته ضالاً كأحمدته إذا وجدته محموداً ، وأن تكون إستفهامية معلقاً عنها الفعل أيضاً ، وأن يكون فاعل ﴿ يُضِلَّ ﴾ ضمير الله تعالى ، و( من ) منصوبة بما ذكر من الفعل المقدر أن يعلم من يضله الله تعالى ، قيل : وكان الظاهر أن يقال : بالمهديين .

وكأنه وجه العدول عنه الإشارة إلى أن الهداية صفة سابقة ثابتة لهم في أنفسهم كأنها غير

محتاجة إلى جعل لقوله عليه الصلاة والسلام "كل مولود يولد على الفطرة" بخلاف الضلال فإنه أمر طار أوجده فيهم فتأمل .

(29/248)

---

والتفضيل في العلم إما بالنظر إلى المعلومات فإنها غير متناهية أو إلى وجوه العلم التي يمكن تعلقه بها ، وإما باعتبار الكيفية وهي لزوم العلم له سبحانه أو كونه بالذات لا بالغير . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾

تعليل لقوله : ﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلّوك ﴾ [ الأنعام : 116 ] لأنّ مضمونه التّحذير من نزغاتهم وتوقّع التّضليل منهم وهو يقتضي أنّ المسلمين يريدون الاهتداء ، فليجتنبوا الضالّين ، وليهتدوا بالله الّذي يهديهم .

وكذلك شأن ( إنّ ) إذا جاءت في خبر لا يحتاج لردّ الشكّ أو الإنكار : أن تفيد تأكيد الخبر ووصله بالّذي قبله ، بحيث تغني غَناء فاء التّفريع ، وتفيد التّعليل ، ولمّا اشتملت الآيات المتقدّمة على بيان ضلال الضالّين ، وهدى المهتدين ، كان قوله : ﴿ إن ربك هو أعلم من

يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ تذييلاً لجميع تلك الأغراض .

وتعريف المسند إليه بالإضافة في قوله : ﴿ إن ربك ﴾ لتشريف المضاف إليه ، وإظهار أن هدي الرّسول عليه الصلاة والسلام هو الهُدى ، وأنّ الّذين أخبر عنهم بأنّهم مُضلّون لا حظّ لهم في الهدى لأنّهم لم يتّخذوا الله ربّاً لهم .

وقد قال أبو سفيان يوم أحُد : "لَنَا العُزّى ولا عُزّى لكم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أجيبوه قولوا : " اللَّهُ مولانا ولا مولى لكم " .

و ﴿ أعلمُ ﴾ اسم تفضيل للدّلالة على أنّ الله لا يعزب عن علمه أحد من الضالّين ، ولا أحد من المهتدين ، وأنّ غير الله قد يعلم بعض المهتدين وبعض المضلّين ، ويفوته علم كثير من الفريقين ، وتخفَى عليه دخيلة بعض الفريقين .

*(30/248)*

---

والضّمير في قوله : ﴿ هو أعلم ﴾ ضمير الفصل ، لإفادة قصر المسند على المسند إليه ، فالأعلمية بالضالّين والمهتدين مقصورة على الله تعالى ، لا يشاركه فيها غيره ، ووجه هذا القصر أنّ النّاس لا يشكّون في أنّ علمهم بالضالّين والمهتدين علم قاصر ، لأنّ كلّ أحد إذا علم بعض أحوال الناس تخفى عليهم أحوال كثير من النّاس ، وكلّهم يعلم قصور علمه ،

ويتحقّق أن ثمّة من هو أعلم من العالِم منهم ، لكنّ المشركين يحسبون أنّ الأعلمية وصف لله تعالى ولآلهتهم ، فنفي بالقصر أن يكون أحد يشارك الله في وصف الأعلميّة المطلقة .

و ﴿ مَنْ ﴾ موصولة ، وإعرابها نصب بنزع الخافض وهو الباء ، كما دلّ عليه وجود الباء في قوله : ﴿ وهو أعلم بالمهتدين ﴾ لأنّ أفعل التّفضيل لا ينصب بنفسه مفعولاً به لضعف شبهه بالفعل ، بل إنّما يتعدّى إلى المفعول بالباء أو باللاّم أو بإلى ، ونصبه المفعول نادر ، وحقّه هنا أن يعدّى بالباء ، فحذفت الباء ايجازَ حذف ، تعويلا على القرينة .

وإنَّما حذف الحرف من الجملة الأولى ، وأظهر في الثّانية ، دون العكس ، مع أنّ شأن القرينة أن تتقدّم ، لأنّ أفعل التّفضيل يضاف إلى جمعٍ يكون المفضّل واحداً منهم ، نحو : هو أعلم العلماء وأكرم الأسخياء ، فلمّا كان المنصُوبانِ فيهما غير ظاهر عليهما الإعراب ، يلتبس المفعول بالمضاف إليه ، وذلك غير ملتبس في الجملة الأولى ، لأنّ الصّلة فيها دالّة على أنّ المراد أنّ الله أعلم بهم ، فلا يتوهّم أن يكون المعنى : الله أعلم الضّالّين عن سبيله ، أي أعلم عالمٍ منهم ، إذ لا يخطر ببال سامع أن يقال : فلان أعلم الجاهلين ، لأنّه كلام مُتناقض ، فإنّ الضّلال جهالة ، ففساد المعنى يكون قرينة على إرادة المعنى المستقيم ، وذلك من أنواع القرينة الحاليَّة ، بخلاف ما لو قال : وهو أعلم المهتدين ، فقد يتوهّم السّامع أنّ المراد أنّ الله أعلم المهتدين ، أي أقوى المهتدين علماً ، لأنّ الاهتداء من العلم .

هذا ما لاح لي في نكتة تجريد قوله : ﴿ هو أعلم من يضل عن سبيله ﴾ من حرف الجرّ الّذي يتعدّى به ﴿ أعلم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

(31/248)

---

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " إن ربك هم أعلم من يضل عن سبيله وهو أعمل بالمهتدين " وفى سورة النجم : قوله تعالى : "إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله " بزيادة الباء فى "من " من قوله : "بمن ضل عن سبيله " وكذا فى سورة القلم بخلاف الأخريين "ضل " ففى هذا سؤالان :

أحدهما زيادة الباء فى آيتى النجم والقلم ويقوطهما فى الأنعام والثانى ورود الماضى فى آيتى النجم والقلم وورود المضارع فى الآية الأنعام .

والجواب عن الأول أن سقوط الباء الداخلة على "من " فى آية الأنعام إنما ذلك والله أعلم لاستثقال زيادتها مع الزيادة اللازمة للمضارع مع التقارب إيثارا للإيجاز أما آيتا النجم والقلم فلا زيادة فى الفعل لكونه ماضيا فزيد باء التأكيد الداخلة على "من " ويشهد لهذا اطراد زيادتها فى الآيتين لورود الماضى فيهما بخلاف آية الأنعام .

والجواب عن الثانى : أن آية الأنعام قد اكتنفها من غير الماضى من الأفعال والإعلام بما يكون قطعيا أو يتوقع فى المآل ما يقتضى المناسبة فى النظم ولو ورد غير الماضى هنا لما ناسب ولا لاءم ، أما آية النجم فمبنية على مطلع السورة فى قوله تعالى : "والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى " ، فقال تعالى مشيرا إلى حالهم : "إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله " فبرأ نبيه صلى الله عليه وسلم مما نسبوا إليه وأثبت ذلك بكناية وتعريض أوقع فى نفوسهم من الإفصاح بتعيينهم وأما آية القلم فإنه لما تقدم فيها قوله تعالى : "ما أنت بنعمة ربك بمجنون " وقوله تعالى : "فستبصر ويبصرون بأييكم المفتون " تهديدا لهم وتعريفا بكذبهم فى قولهم حين نسبوه إلى الجنون أعقب ذلك بقوله تعالى : "إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله " فسجلت هذه الكناية بضلالهم وكذبهم وتناسب هذا كله أوضح تناسب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 168.169 ﴾

*(32/248)*

---

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا)

بَيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ فِي الْآيَتَيْنِ اللَّتَيْنِ قَبْلَ هَذِهِ الْآيَاتِ ، أَنَّ مُقْتَرِحِي الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ عَلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقْسَمُوا بِاللهِ مُجْتَهِدِينَ فِي أَيْمَانِهِمْ مُؤَكِّدِينَهَا قَائِلِينَ : لَئِنْ جَاءَتْنَا آيَةٌ لَنُؤْمِنَنَّ بِهَا وَبِمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ مِنْ صِدْقِ الرَّسُولِ فِي دَعْوَى الرِّسَالَةِ وَمَا جَاءَ بِهِ عَنِ اللهِ تَعَالَى . وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا يَوَدُّونَ إِجَابَةَ اقْتِرَاحِهِمْ ، وَيَظُنُّونَ أَنَّهَا تُفْضِي إِلَى إِيمَانِهِمْ ، فَبَيَّنَ اللهُ تَعَالَى لَهُمْ خَطَأَ ظَنِّهِمْ بِقَوْلِهِ : (وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) نَفَى عَنْهُمُ الشُّعُورَ بِسُنَّتِهِ تَعَالَى فِيهِمْ وَفِي أَمْثَالِهِمْ مِنَ الْمُعَانِدِينَ وَمَا يَكُونُ مِنْ شَأْنِهِمْ إِذَا رَأَوْا آيَةً تَدُلُّ عَلَى خِلَافِ مَا يَعْتَقِدُونَ وَمَا يَهْوَوْنَ ، وَهِيَ أَنَّهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا وَيَتَفَكَّرُونَ فِيهَا بِقَصْدِ الْجُحُودِ وَالْإِنْكَارِ ، فَيَحْمِلُونَهَا عَلَى خِدَاعِ السِّحْرِ وَأَبَاطِيلِهِ ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهَا لَا تَدُلُّ عَلَى الْمَطْلُوبِ . وَبَعْدَ بَيَانِ سُنَّتِهِ تَعَالَى فِيهِمْ عِنْدَ مَجِيءِ الْآيَةِ الْمُقْتَرَحَةِ

صَرَّحَ بِمَا هُوَ أَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ فَقَالَ :

*(33/248)*

---

(وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ) فَرَأَوْهَا الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ بِأَعْيُنِهِمْ وَسَمِعُوا شَهَادَتَهَا لَكَ بِالرِّسَالَةِ بِآذَانِهِمْ (وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى) مِنْهُمْ بِإِحْيَائِنَا إِيَّاهُمْ آيَةً لَكَ وَحُجَّةً عَلَى صِدْقِ مَا جِئْتَ بِهِ عَنِ

اللهِ – تَعَالَى – مِنْ أَنَّ الْمَوْتَ لَيْسَ عَدَمًا مَحْضًا لِلْإِنْسَانِ (وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا) أَيْ وَجَمَعْنَا كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْآيَاتِ وَالدَّائِلِ غَيْرَ الْمَلَائِكَةِ وَالْمَوْتَى فَسُقْنَاهُ وَأَرْسَلْنَاهُ عَلَيْهِمْ مُقَابِلًا لَهُمْ ، أَوْ كَافِلًا لِصِحَّةِ دَعْوَاكَ ، أَوْ قَبِيلًا قَبِيلًا (مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا) أَيْ مَا كَانَ مِنْ شَأْنِهِمْ وَلَا مُقْتَضَى اسْتِعْدَادِهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا ، وَنَفْيُ الشَّيْءِ أَبْلَغُ مِنْ نَفْيِ الْفِعْلِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يَنْظُرُونَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْآيَاتِ نَظَرَ اسْتِدْلَالٍ ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا نَظَرَ مَنْ جَاءَهُ وَلِيٌّ يُرِيدُ نَصْرَهُ وَإِغَاثَتَهُ وَإِخْرَاجَهُ مِنْ ضِيقٍ نَزَلَ بِهِ ، فَظَنَّ أَنَّهُ عَدُوٌّ يُهَاجِمُهُ لِيُوقِعَهُ بِهِ وَيَسْلُبَهُ مَا بِيَدِهِ فَيَنْبَرِي لِقِتَالِهِ ، فَإِذَا قَالَ لَهُ إِنَّمَا أَنَا وَلِيٌّ نَصِيرٌ ، لَا عَدُوٌّ مُغِيرٌ ، ظَنَّ أَنَّهُ يَخْدَعُهُ بِقَوْلِهِ ، وَأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَسْبِقْ إِلَى قَتْلِهِ قَتَلَهُ ، لَا يَعْقِلُ غَيْرَ هَذَا .

*(34/248)*

---

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (قُبُلًا) قَرَأَهُ عَاصِمٌ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ بِضَمِّ الْقَافِ وَالْبَاءِ هُنَا وَفِي سُورَةِ الْكَهْفِ ، وَقَرَأَهُ نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ بِكَسْرِ الْقَافِ وَفَتْحِ الْبَاءِ فِيهِمَا ، وَابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو كَالْأَوَّلِينَ هُنَا وَكَالْآخِرِينَ فِي الْكَهْفِ . قِيلَ : إِنَّ مَعْنَى الْقِرَاءَتَيْنِ وَاحِدٌ وَهُوَ الْمُقَابَلَةُ وَالْمُوَاجَهَةُ بِالشَّيْءِ ، وَنَقَلَهُ الْوَاحِدِيُّ عَنْ أَبِي زَيْدٍ ، وَالتَّقْدِيرُ : وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ الدَّائِلِ مُوَاجَهَةً وَمُعَايَنَةً ، وَقِيلَ : إِنَّ الْأُولَى جَمْعُ قَبِيلٍ فَهُوَ كَقُضُبٍ وَرُغُفٍ – بِضَمَّتَيْنِ

فِيهِمَا - جَمْعُ قَضِيبٍ وَرَغِيفٍ ، وَالتَّقْدِيرُ : وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ قَبِيلًا قَبِيلًا وَصِنْفًا صِنْفًا ، أَيْ كُلُّ صِنْفٍ مِنْهُ عَلَى حِدَةٍ ، وَمِنِ اسْتِعْمَالِ مُفْرَدِهِ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي حِكَايَةِ اقْتِرَاحِهِمُ الْآيَاتِ مِنْ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ : (أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا) (17 : 92) وَقِيلَ : مَعْنَاهُ الْكَفِيلُ ، أَيْ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ مَا ذُكِرَ كُفَلَاءَ يَضْمَنُونَ لَهُمْ صِحَّةَ مَا جِئْتَ بِهِ . وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ وَالْفَرَّاءِ وَالزَّجَّاجِ ، وَكُلُّ مَا ذُكِرَ مِنَ الْمَعَانِي لِلْقِرَاءَتَيْنِ مُتَّفَقٌ يُؤَيِّدُ بَعْضُهُ بَعْضًا .

وَأَمَّا الِاسْتِثْنَاءُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى (إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) فَقِيلَ : هُوَ مُنْقَطِعٌ ، مَعْنَاهُ لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنْ شَاءَ إِيمَانَ أَحَدٍ مِنْهُمْ آمَنَ ، وَقِيلَ : هُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُتَّصِلٌ مِنْ أَعَمِّ الْأَحْوَالِ أَوِ

(35/248)

---

الْأَوْقَاتِ ، وَالْمُرَادُ عَلَيْهِ أَنَّهُمْ مَا دَامُوا عَلَى صِفَاتِهِمُ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا فِي زَمَنِ اقْتِرَاحِ الْآيَاتِ لَا يُؤْمِنُونَ ، وَإِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُزِيلَهَا فَعَلَ . وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ مُؤَيِّدٌ لِذَلِكَ الْجَزْمِ بِعَدَمِ إِيمَانِ هَؤُلَاءِ النَّاسِ الْمَوْصُوفِينَ بِمَا ذُكِرَ مِنَ الْعِنَادِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْمُكَابَرَةِ ، وَمَعْنَاهُ : أَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي فَقْدِهِمُ الِاسْتِعْدَادَ لِلْإِيمَانِ جَارِيَةٌ بِحَسَبِ مَشِيئَتِهِ تَعَالَى كَكُلِّ مَا يَجْرِي فِي هَذَا الْعَالَمِ ، وَلَوْ شَاءَ غَيْرَ ذَلِكَ لَكَانَ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَشَاءُ لِأَنَّهُ تَغْيِيرٌ لِسُنَنِهِ ، وَتَبْدِيلٌ لِطِبَاعِ هَذَا النَّوْعِ مِنْ خَلْقِهِ -

الْإِنْسَانِ – فَهُوَ إِذًا مَزِيدُ تَأْكِيدٍ لِنَفْيِ الْإِيمَانِ عَنْهُمْ ، وَالْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ يُعِدُّ مِنْ هَذَا التَّأْكِيدِ قَوْلَهُ تَعَالَى : (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) (87 : 6 ، 7)

*(36/248)*

---

فَالْمُرَادُ أَنَّهُ لَا يَنْسَى أَلْبَتَّةَ ، وَقَدْ يُفَسَّرُ بِهِ مَا اسْتَشْكَلُوهُ وَذَهَبُوا الْمَذَاهِبَ فِي تَأْوِيلِهِ مِنْ آيَتَيْ سُورَةِ هُودٍ : (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ) (11 : 107) وَلَا حُجَّةَ فِي الِاسْتِثْنَاءِ بِالْمَشِيئَةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَأَمْثَالِهَا لِلْجَبْرِيَّةِ عَلَى جَبْرِهِمْ ، وَلَا لِلْقَائِلِينَ بِخَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى لِلشَّرِّ وَلَا لِمُنْكِرِيهِ ، فَكُلُّ مَا يَجْرِي فِي الْكَوْنِ مِنْ أَعْمَالِ الْبَشَرِ الِاخْتِيَارِيَّةِ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا جَارٍ بِنِظَامٍ وَسُنَنٍ حِكْمِيَّةٍ وَكُلُّهَا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَمَا هُوَ شَرٌّ مِنْ أَفْعَالِ النَّاسِ الِاخْتِيَارِيَّةِ لِقُبْحِهِ وَلِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ ضَرَرِهِمْ بِهِ وَعِقَابِهِمْ عَلَيْهِ لَا يَسْتَلْزِمُ مَا قَالَتْهُ تِلْكَ الْفِرَقُ كَمَا بَيَّنَّاهُ مِرَارًا فِي هَذَا التَّفْسِيرِ وَفِي مَبَاحِثَ أُخْرَى مِنَ الْمَنَارِ .

*(37/248)*

---

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ) سُنَنَ اللهِ تَعَالَى فِي عِبَادِهِ وَانْطِبَاقَهَا عَلَى الْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ ، لِذَلِكَ يَتَمَنَّى بَعْضُ الْمُؤْمِنِينَ لَوْ يُؤْتَى مُقْتَرِحُو الْآيَاتِ مَا اقْتَرَحُوهُ لِظَنِّهِمْ أَنَّهُ سَيَكُونُ سَبَبًا لِإِيمَانِهِمْ ، وَلَيْسَتِ الْآيَاتُ بِمُلْزِمَةٍ وَلَا مُغَيِّرَةٍ لِطِبَاعِ الْبَشَرِ فِي اخْتِيَارِ مَا تَرَجَّحَ عِنْدَ كُلٍّ مِنْهُمْ بِحَسَبِ نَظَرِهِ فِيهَا وَفِي غَيْرِهَا ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى لَجَعَلَهَا كَذَلِكَ ، وَلَوْ شَاءَ أَيْضًا لَخَلَقَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِ الْبَشَرِ خَلْقًا لَا عَمَلَ لَهُمْ فِيهِ وَلَا اخْتِيَارَ . وَحِينَئِذٍ لَا يَكُونُونَ مُحْتَاجِينَ إِلَى رُسُلٍ ، بَلْ لَا يَكُونُونَ هُمْ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الْخَلْقِ الَّذِي سُمِّيَ الْإِنْسَانَ .

ذَهَبَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ الْأَخِيرَةَ نَزَلَتْ فِي الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ قَطْعًا أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُقْتَرِحِينَ الْمُعَانِدِينَ مِنَ الَّذِينَ فَقَدُوا الِاسْتِعْدَادَ لِلْإِيمَانِ وَالِاسْتِعْدَادَ لِلنَّظَرِ الصَّحِيحِ فِي الْآيَاتِ وَالدَّلَائِلِ الْمُوَصِّلَةِ إِلَيْهِ . وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّهَا فِي الْكَافِرِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ – كَالْجُمَلِ قَبْلَهَا – وَلَا شَكَّ أَنَّ جَهْلَهُمْ عَظِيمٌ فِي هَذَا الْأَمْرِ وَفِي غَيْرِهِ ، وَيُرَجِّحُ الْأَوَّلَ إِسْنَادُ الْجَهْلِ إِلَى أَكْثَرِهِمْ وَهُوَ عَامٌّ شَامِلٌ لَهُمْ ،

*(38/248)*

---

وَلَا سِيَّمَا إِذَا أُرِيدَ بِهِمُ الْمُسْتَهْزِئُونَ الْخَمْسَةُ خَاصَّةً كَمَا تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ السِّيَاقِ مِنْ آخِرِ الْجُزْءِ السَّابِعِ ، وَهُمُ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيُّ ، وَالْعَاصِي بْنُ وَائِلٍ السَّهْمِيُّ ، وَالْأَسْوَدُ بْنُ

عَبْدِ يَغُوثَ الزُّهْرِيُّ ، وَالْأَسْوَدُ بْنُ الْمُطَّلِبِ ، وَالْحَارِثُ بْنُ حَنْظَلَةَ ، فَقَدْ كَانُوا أَجْهَلَ الْقَوْمِ بِهَذِهِ الْهِدَايَةِ وَأَشَدَّهُمْ جَهْلًا عَلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَلَمَّا تَضَمَّنَ الْقَوْلُ السَّابِقُ أَنَّ أُولَئِكَ الْمُشْرِكِينَ الْمُقْتَرِحِينَ لِلْآيَاتِ أَعْدَاءٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمَا اقْتَرَحُوا مَا اقْتَرَحُوا إلَّا لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْتَوْنَهُ فَيَكُونُ ذَلِكَ بَابًا لِلطَّعْنِ فِي رِسَالَتِهِ - أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى تَسْلِيَتَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ بِبَيَانِ أَنَّ تِلْكَ سُنَّتُهُ فِي جَمِيعِ النَّبِيِّينَ فَقَالَ : (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ) أَيْ وَكَمَا جَعَلْنَا هَؤُلَاءِ وَمَنْ عَلَى شَاكِلَتِهِمْ أَعْدَاءً لَكَ ، جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ جَاءَ قَبْلَكَ أَعْدَاءً هُمْ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ . وَالْعَدُوُّ ضِدُّ الصَّدِيقِ وَالْحَبِيبِ ، وَهُوَ يُطْلَقُ عَلَى الْمُفْرَدِ وَالْمُثَنَّى وَالْجَمْعِ وَالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى ، قَالَ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى : (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي) (26 : 77) وَلِذَلِكَ بَيَّنَ الْعَدُوَّ هُنَا بِأَنَّهُمْ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ

*(39/248)*

---

وَالْجِنِّ ، فَشَيَاطِينُ بَيَانٌ لِـ (عَدُوًّا) أَوْ بَدَلٌ مِنْهُ . وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى جَعَلْنَا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ أَعْدَاءً لِكُلِّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى . ذَهَبَ عِكْرِمَةُ وَالسُّدِّيُّ إلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِشَيَاطِينِ الْإِنْسِ الشَّيَاطِينُ الَّذِينَ يُضِلُّونَ الْإِنْسَ بِالْوَسْوَسَةِ لَهُمْ ، وَبِشَيَاطِينِ الْجِنِّ الَّذِينَ

يُضِلُّونَ الْجِنَّ كَذَلِكَ ، وَكُلُّهُمْ مِنْ وَلَدِ إِبْلِيسَ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْإِنْسِ شَيَاطِينُ . وَهَذَا الْقَوْلُ بَاطِلٌ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ) (2 : 14) الْآيَةَ .

وَالصَّوَابُ مَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ وَالْحَسَنِ وَهُوَ أَنَّ مِنَ الْإِنْسِ شَيَاطِينَ وَمِنَ الْجِنِّ شَيَاطِينَ وَرَجَّحَهُ ابْنُ جَرِيرٍ بِحَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ الْمَرْفُوعِ الَّذِي رَوَاهُ مِنْ عِدَّةِ طُرُقٍ وَهُوَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ عَقِبَ صَلَاةٍ "يَا أَبَا ذَرٍّ هَلْ تَعَوَّذْتَ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ؟ - قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَهَلْ لِلْإِنْسِ مِنْ شَيَاطِينَ ؟ قَالَ : نَعَمْ " وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كُلُّ عَاتٍ مُتَمَرِّدٍ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فَهُوَ شَيْطَانٌ .

*(40/248)*

---

وَمَعْنَى هَذَا الْجَعْلِ أَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْخَلْقِ مَضَتْ بِأَنْ يَكُونَ الشِّرِّيرُ الْمُتَمَرِّدُ الْعَاتِي عَنِ الْحَقِّ وَالْمَعْرُوفِ ، أَيِ الَّذِي لَا يَنْقَادُ لَهُمَا كِبْرًا وَعِنَادًا وَجُمُودًا عَلَى مَا تَعَوَّدَ ، يَكُونُ عَدُوًّا لِلدُّعَاةِ إِلَيْهِمَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَمِنْ وَرَثَتِهِمْ وَنَاشِرِي هِدَايَتِهِمْ .

وَهَكَذَا شَأْنُ كُلِّ ضِدَّيْنِ يَدْعُو أَحَدُهُمَا إِلَى خِلَافِ مَا عَلَيْهِ الْآخَرُ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِمَنَافِعِهِمْ

*(41/248)*

الِاجْتِمَاعِيَّةِ ، فَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا خَيِّرًا مُحِقًّا نُسِبَتِ الْعَدَاوَةُ إِلَى الْآخَرِ الشِّرِّيرِ الْمُبْطِلِ ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَسْعَى إِلَى إِيذَاءِ مُخَالِفِهِ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ يَسْتَطِيعُهَا لِأَنَّهُ مُخَالِفٌ وَإِنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يُرِيدُ الْخَيْرَ لَهُ . وَلَيْسَ كُلُّ مُخَالِفٍ مُبْطِلٍ عَدُوًّا يَسْعَى جَهْدَهُ لِإِيذَاءِ مُخَالِفِهِ الْمُحِقِّ وَإِنَّمَا يَتَصَدَّى لِذَلِكَ الْعُتَاةُ الْمُسْتَكْبِرُونَ الْمُحِبُّونَ لِلشُّهْرَةِ وَالزَّعَامَةِ بِالْبَاطِلِ وَالْمُتْرَفُونَ الَّذِينَ يَخَافُونَ عَلَى نَعِيمِهِمْ ، فَلَمْ يَكُنْ كُلُّ كَافِرٍ بِالْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ نَاصِبًا نَفْسَهُ لِعَدَاوَتِهِمْ وَإِيذَائِهِمْ وَصَدِّ النَّاسِ عَنْهُمْ ، بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الْعُتَاةُ الْمُتَمَرِّدُونَ مِنَ الرُّؤَسَاءِ وَالْمُتْرَفِينَ وَالْقُسَاةِ الَّذِينَ ضُرِبَتْ أَنْفُسُهُمْ بِالْعُدْوَانِ وَالْبَغْيِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الشَّيَاطِينُ الْمُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ، سَوَاءٌ كَانُوا مِنْ جِنْسِ الْإِنْسِ الظَّاهِرِ أَوْ مِنْ جِنْسِ الْجِنِّ الْخَفِيِّ ، وَحِكْمَةُ عَدَاوَةِ الْأَشْرَارِ لِلْأَخْيَارِ هِيَ مَا يُعَبَّرُ عَنْهُ فِي عُرْفِ عُلَمَاءِ الِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ بِسُنَّةِ تَنَازُعِ الْبَقَاءِ بَيْنَ الْمُتَقَابِلَاتِ الَّتِي تُفْضِي بِالْجِهَادِ وَالتَّمْحِيصِ إِلَى مَا يُسَمُّونَهُ (سُنَّةَ الِانْتِخَابِ الطَّبِيعِيِّ) أَيِ انْتِصَارُ الْحَقِّ وَبَقَاءُ الْأَمْثَلِ الَّتِي وَرَدَ بِهَا الْمَثَلُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ الرَّعْدِ : (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ

زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ) (13 : 17) فَالْحَيَاةُ الدُّنْيَا جِهَادٌ لَا يَكْمُلُ وَيَثْبُتُ فِيهَا إِلَّا الْمُجَاهِدُونَ الصَّابِرُونَ ، وَكَذَلِكَ الْعَمَلُ فِيهَا لِلْآخِرَةِ (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ) (2 : 142) (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ) (2 : 214)

*(43/248)*

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ حَتَّى مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ بَلْهَ غَيْرِهِمْ يَجْهَلُونَ هَذِهِ السُّنَنَ الْحَكِيمَةَ الْعَالِيَةَ ، وَإِذَا ذُكِرَتْ لَهُمْ يَشْتَبِهُونَ فِي تَطْبِيقِهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَعَلَى غَيْرِهِمْ ، كَمَا اشْتَبَهَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي سَبَبِ خُذْلَانِ دُوَلِهِمْ وَسُقُوطِ حُكُومَاتِهِمْ ، ظَانِّينَ أَنَّ مُجَرَّدَ تَسْمِيَتِهَا مُسْلِمَةً كَافٍ لِنَصْرِ اللهِ إِيَّاهَا وَإِنْ خَالَفَتْ هِدَايَةَ دِينِهِ بِالظُّلْمِ وَالْفِسْقِ وَالْكُفْرِ فِي زُعَمَائِهَا وَإِقْرَارِهِمْ عَلَيْهِ مِنْ دَهْمَائِهَا ، وَخَالَفَتْ سُنَنَهُ فِي تَنَازُعِ الْبَقَاءِ وَتَوَقُّفِهِ عَلَى كَمَالِ الِاسْتِعْدَادِ كَمَا قَالَ : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) (8 : 60) وَقَالَ : (وَلَا تَنَازَعُوا

فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) (8 : 46) وَلَمْ يُقِيمُوا شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي بَلْ فَعَلُوا ضِدَّهَا ، وَقَدْ سَبَقَ لَنَا تَحْقِيقُ هَذِهِ الْمَبَاحِثِ فِي التَّفْسِيرِ وَغَيْرِ التَّفْسِيرِ مِنْ أَبْوَابِ الْمَنَارِ .

*(44/248)*

---

ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى شَرَّ ضُرُوبِ عَدَاءِ هَؤُلَاءِ الشَّيَاطِينِ لِلْأَنْبِيَاءِ وَهُوَ مُقَاوَمَةُ هِدَايَتِهِمْ بِقَوْلِهِ : (يُوحِي بَعْضُهُمْ إلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا) أَيْ يُلْقِي بَعْضُهُمْ إلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ الْمُزَيَّنَ الْمُمَوَّهَ بِمَا يَظُنُّونَ أَنَّهُ يَسْتُرُ قُبْحَهُ وَيُخْفِي بَاطِلَهُ بِطُرُقٍ خَفِيَّةٍ دَقِيقَةٍ لَا يَفْطِنُ لِبَاطِلِهَا كُلُّ أَحَدٍ لِيَغْرُوهُمْ بِهِ . فَالْإِيحَاءُ : الْإِعْلَامُ بِالْأَشْيَاءِ مِنْ طَرِيقٍ خَفِيٍّ دَقِيقٍ سَرِيعٍ كَالْإِيمَاءِ وَتَقَدَّمَ . وَالزُّخْرُفُ الزِّينَةُ كَالْأَزْهَارِ لِلْأَرْضِ وَالذَّهَبِ لِلنِّسَاءِ وَالتَّخْيِيلِ الشِّعْرِيِّ فِي الْكَلَامِ ، وَمَا يَصْرِفُ السَّامِعَ عَنِ الْحَقَائِقِ إلَى الْأَوْهَامِ . وَالْغُرُورُ ضَرْبٌ مِنَ الْخِدَاعِ بِالْبَاطِلِ مَأْخُوذٌ مِنَ الْغِرَّةِ (بِالْكَسْرِ) وَالْغَرَارَةِ (بِالْفَتْحِ) وَهُمَا بِمَعْنَى الْغَفْلَةِ وَالْبَلَاهَةِ وَعَدَمِ التَّجَارِبِ وَمِنْهُ : شَابٌّ غِرٌّ وَفَتَاةٌ غِرٌّ (بِالْكَسْرِ) أَيْ غَافِلَانِ عَنْ شُؤُونِ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ لَا تَجْرِبَةَ لَهُمَا . وَهَذَا مَأْخُوذٌ مِنْ غَرِّ الثَّوْبِ (بِالْفَتْحِ) وَهُوَ الْكَسْرُ وَالثَّنْيُ الَّذِي يَحْدُثُ مِنْ طَيِّهِ . يَقُولُونَ طَوَيْتُ الثَّوْبَ عَلَى غَرِّهِ ، أَيْ عَلَى ثَنْيِ طَيَّتِهِ الْأُولَى لَمْ أُحْدِثْ فِيهِ تَغْيِيرًا ، ثُمَّ صَارَ مَثَلًا يُضْرَبُ لِكُلِّ

مَا يُتْرَكُ عَلَى حَالِهِ ، يُقَالُ : طَوَيْتُهُ عَلَى غَرِّهِ . وَالْبَصِيرُ الَّذِي عَلَّمَتْهُ التَّجَارِبُ حِيَلَ النَّاسِ وَأَبَاطِيلَهُمْ لَا يُغَرُّ كَمَا يُغَرُّ مَنْ بَقِيَ عَلَى سَجِيَّتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا كَالثَّوْبِ الْبَاقِي عَلَى طَيَّتِهِ الْأُولَى . يُقَالُ غَرَّهُ يَغُرُّهُ

(45/248)

---

غَرًّا وَغُرُورًا وَالْمِثَالُ الْأَوَّلُ مِنْ هَذَا الْغُرُورِ هُوَ مَا أَوْحَاهُ الشَّيْطَانُ الْأَوَّلُ لِلْإِنْسَانِ الْأَوَّلِ أَبِينَا (آدَمَ) وَلِزَوْجِهِ ، وَهُوَ تَزْيِينُهُ لَهُمَا الْأَكْلَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي اخْتَبَرَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى بِالنَّهْيِ عَنْ قُرْبِهَا إِذْ قَالَ لَهُمَا إِنَّهَا (شَجَرَةُ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى) (20 : 120) . (وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ) (7 : 21 ، 22) وَمِنْهُ مَا يُوَسْوِسُ بِهِ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ لِمَنْ يُزَيِّنُونَ لَهُمُ الْمَعَاصِيَ بِمَا فِيهَا مِنَ اللَّذَّةِ وَالِانْطِلَاقِ مِنَ الْقُيُودِ الْمَانِعَةِ مِنَ الْحُرِّيَّةِ ، وَإِطْمَاعِ الْمُؤْمِنِ مِنْهُمْ بِأَمَانِي الرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ ، وَالْكَفَّارَاتِ وَالشَّفَاعَةِ ، كَقَوْلِ أَحَدِ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ :

تَكَثَّرْ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الْخَطَايَا . . . فَإِنَّكَ وَاجِدٌ رَبًّا غَفُورَا

تَعُضُّ نَدَامَةً كَفَّيْكَ مِمَّا . . . تَرَكْتَ مَخَافَةَ النَّارِ السُّرُورَا

وَالتَّغْرِيرُ بِزُخْرُفِ الْقَوْلِ قَدِ ارْتَقَى عِنْدَ شَيَاطِينِ هَذَا الزَّمَانِ وَلَا سِيَّمَا شَيَاطِينُ السِّيَاسَةِ

ارْتِقَاءً عَجِيبًا ، فَإِنَّهُمْ يَخْدَعُونَ الْأَحْزَابَ مِنْهُمْ وَالْأُمَمَ وَالشُّعُوبَ مِنْ غَيْرِهِمْ فَيُصَوِّرُونَ لَهَا الِاسْتِعْبَادَ حُرِّيَّةً ، وَالشَّقَاوَةَ سَعَادَةً ، بِتَغْيِيرِ الْأَسْمَاءِ وَتَزْيِينِ أَقْبَحِ الْمُنْكَرَاتِ ، وَإِنَّ مِنَ الشُّعُوبِ

غِرَارًا كَالْأَفْرَادِ ، تُلْدَغُ مِنَ الْجُحْرِ الْوَاحِدِ مَرَّتَيْنِ بَلْ عِدَّةَ مِرَارٍ ، فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ .

*(46/248)*

---

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ) أَيْ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ - أَيُّهَا الرَّسُولُ - أَلَّا يَفْعَلُوا هَذَا الْإِيحَاءَ الْغَارَّ مَا فَعَلُوهُ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَشَأْ أَنْ يُغَيِّرَ خَلْقَهُمْ ، أَوْ يُجْبِرَهُمْ عَلَى خِلَافِ مَا زَيَّنَتْهُ لَهُمْ أَهْوَاؤُهُمْ ، بَلْ شَاءَ أَنْ يَكُونَ كُلٌّ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ مُسْتَعِدِّينَ لِلْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَأَنْ يَكُونُوا مُخْتَارِينَ فِي سُلُوكِ كُلٍّ مِنَ الطَّرِيقَيْنِ ، كَمَا قَالَ فِي الْإِنْسَانِ (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) (90 : 10) وَمِنْ وَسْوَسَةِ هَؤُلَاءِ الشَّيَاطِينِ لِلنَّاسِ وَزُخْرُفِهَا تَحْرِيفُ مِثْلِ هَذِهِ الْآيَةِ الْحَكِيمَةِ بِحَمْلِهَا عَلَى مَعْنَى الْجَبْرِ فَيَقُولُونَ : إِنَّ كُلَّ عَاصٍ لِلَّهِ مَعْذُورٌ لِأَنَّهُ مَا عَصَاهُ إِلَّا بِمَشِيئَتِهِ الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُ الْخُرُوجَ عَنْهَا . وَسَيَأْتِي فِي هَذِهِ السُّورَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ : (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا

تَخْرُصُونَ) (6 : 148) فَلَا عُذْرَ بِمَشِيئَةِ اللهِ لِأَحَدٍ لِأَنَّهُ لَمْ يَشَأْ أَنْ تَكُونَ أَفْعَالُهُمُ اضْطِرَارِيَّةً ، بَلْ خَلَقَهُمْ بِمَشِيئَتِهِ يَفْعَلُونَ مَا يَفْعَلُونَ بِاخْتِيَارِهِمْ وَيَحْتَجُّونَ عَلَى الْمُنْكِرِينَ عَلَيْهِمْ كَثِيرًا بِأَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ ، وَإِذَا اعْتَرَفُوا بِخَطَأٍ يَلْتَمِسُونَ لِأَنْفُسِهِمْ فِيهِ الْعُذْرَ (فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ) مِنْ كَذِبٍ ، وَيَخْلُقُونَ مِنْ

*(47/248)*

---

إِفْكٍ ، لِيَصْرِفُوا النَّاسَ عَنِ الْحَقِّ ، وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ، وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ وَالْجَزَاءُ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ وَسَنُرِيكَ سُنَّتَنَا فِي أَمْثَالِهِمْ بَعْدَ حِينٍ . وَقَدْ فَعَلَ عَزَّ وَجَلَّ فَأَهْلَكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِالْقُرْآنِ الَّذِينَ قِيلَ إِنَّ السِّيَاقَ نَزَلَ فِيهِمْ ، وَنَصَرَ اللهُ عَبْدَهُ ، وَأَعَزَّ جُنْدَهُ وَهَكَذَا يَنْصُرُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، وَأَمَّا الْمُتَنَازِعُونَ عَلَى الْبَاطِلِ ، وَمَجْدِ الدُّنْيَا الزَّائِلِ ، فَإِنَّمَا يَكُونُ الْفَلْجُ بَيْنَهُمْ بِحَسَبِ سُنَنِ اللهِ تَعَالَى لِأَشَدِّهِمْ مُرَاعَاةً لَهَا فِي الِاسْتِعْدَادِ الْحَرْبِيِّ وَالِاجْتِمَاعِيِّ ، وَتَخَلُّقًا بِالْأَخْلَاقِ الْعَالِيَةِ كَالصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ كَمَا بَيَّنَّاهُ مِرَارًا .

(وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ) صَغِيَ إِلَيْهِ "كَرَضِيَ" يَصْغَى صِغًى وَصَغِيَ إِلَيْهِ صَغْيًا مَالَ وَمِثْلُهُ صَغَا يَصْغُو صَغْوًا . وَأَصْغَى إِلَى حَدِيثِهِ مَالَ وَاسْتَمَعَ ، وَأَصْغَى الْإِنَاءَ أَمَالَهُ . وَيُقَالُ : صَغِيَ فُلَانٌ وَصَغْوُهُ مَعَكَ أَيْ : مَيْلُهُ وَهَوَاهُ – كَمَا يُقَالُ ضِلْعُهُ مَعَكَ

وَالْمَعْنَى يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ لِيُغْرُوهُمْ بِهِ وَيَخْدَعُوهُمْ وَيَنْشَأَ عَنْ ذَلِكَ أَنْ تَصْغَى إِلَيْهِ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لِمُوَافَقَتِهِ لِأَهْوَائِهِمْ (وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ

(48/248)

---

مُقْتَرِفُونَ) أَيْ وَلِيَتَرَتَّبَ عَلَيْهِ أَيْضًا أَنْ يَرْضُوهُ مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ فِي صِحَّتِهِ وَعَدَمِهَا ، وَأَنْ يَقْتَرِفُوا بِتَفْسِيرِهِ مَا هُمْ مُقْتَرِفُوهُ مِنَ الْمَعَاصِي وَالْآثَامِ بِغُرُورِهِمْ بِهِ وَرِضَاهُمْ عَنْهُ . اقْتَرَفَ الْمَالَ اكْتَسَبَهُ ، وَالذَّنْبَ اجْتَرَحَهُ ، وَصَرَّحَ بِاللَّامِ فِي هَذِهِ الْجُمَلِ دُونَ الْغُرُورِ لِأَنَّ الْغُرُورَ مِنْ فِعْلِ الْمُوحِينَ

وَهَذِهِ الْأَفْعَالُ لَيْسَتْ مِنْهُ وَإِنَّمَا هِيَ مِمَّا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ أَفْعَالِ الْمُغْتَرِّينَ بِهِ لِاسْتِعْدَادِهِمْ لَهُ وَهُمُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ، فَإِنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ لَا يُهِمُّهُمْ مِنْ حَيَاتِهِمْ إِلَّا اتِّبَاعُ أَهْوَائِهِمْ وَإِرْضَاءُ شَهَوَاتِهِمْ . وَقَدْ غَفَلَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ عَنِ الْفَرْقِ بَيْنَ فِعْلِ الْغِرِّ وَالْغُرُورِ وَبَيْنَ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ أَفْعَالِ الْمُغْتَرِّينَ بِهِ ، فَظَنَّ أَنَّ تَفْسِيرَ الْكَلَامِ هَكَذَا يَكُونُ مِنْ عَطْفِ الشَّيْءِ عَلَى نَفْسِهِ وَإِنَّمَا هُوَ بِمَعْنَى زَيْدٌ غَرَّ عَمْرًا فَاغْتَرَّ . وَهَذِهِ اللَّامُ هِيَ الَّتِي تُسَمَّى لَامَ الْعَاقِبَةِ وَالصَّيْرُورَةِ قَطْعًا .

(49/248)

وَمِنْ مَبَاحِثِ الْبَلَاغَةِ نُكْتَةُ الْفَرْقِ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ (112) مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ) وَقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ (107) مِنْ آيَاتٍ قَبْلَهَا فِي السُّورَةِ : (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا) وَهِيَ أَنَّ الْمَشِيئَةَ أُسْنِدَتْ إِلَى اسْمِ الْجَلَالَةِ فِي مَقَامِ إِظْهَارِ الْحَقَائِقِ فِي شُؤُونِ الْمُشْرِكِينَ وَمَا يَجِبُ عَلَى الرَّسُولِ وَمَا لَيْسَ لَهُ ، وَأُسْنِدَتْ إِلَى اسْمِ الرَّبِّ مُضَافًا إِلَى الرَّسُولِ فِي مَقَامِ تَسْلِيَتِهِ وَبَيَانِ سُنَّتِهِ تَعَالَى فِي أَعْدَاءِ الرُّسُلِ قَبْلَهُ ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ : هَذَا مَا اقْتَضَتْهُ مَشِيئَةُ رَبِّكَ الْكَافِلِ لَكَ بِحُسْنِ تَرْبِيَّتِهِ وَعِنَايَتِهِ - نَصْرَكَ عَلَى أَعْدَائِكَ ، وَجَعَلَ الْعَاقِبَةَ لَكَ وَلِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . كَمَا تَقَدَّمَ آنِفًا فِي تَفْسِيرِ الْجُمْلَةِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مُلْهِمِ الصَّوَابِ .

(أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى فِي السِّيَاقِ الَّذِي قَبْلَ هَذَا أَنَّ الَّذِينَ اقْتَرَحُوا عَلَى رَسُولِهِ

الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةَ وَأَقْسَمُوا بِأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِهَا إِذَا جَاءَتْهُمْ كَاذِبُونَ فِي دَعْوَاهُمْ وَأَيْمَانِهِمْ ، كَمَا ثَبَتَ فِيمَا مَضَتْ بِهِ سُنَّةُ اللهِ فِي أَمْثَالِهِمْ مِنْ أَعْدَاءِ الرُّسُلِ الْمُعَانِدِينَ ، وَهُمْ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ الَّذِينَ يُغْرُونَ الْجَاهِلِينَ بِزُخْرُفِ أَقْوَالِهِمْ . فَيَصْرِفُونَهُمْ بِهَا عَنِ الْحَقِّ وَيُزَيِّنُونَ لَهُمُ الْبَاطِلَ ، فَتَمِيلُ إِلَيْهِ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَيَرْضَوْنَهُ لِمُوَافَقَتِهِ لِأَهْوَائِهِمْ فَيَحْمِلُهُمْ عَلَى اقْتِرَافِ السَّيِّئَاتِ وَارْتِكَابِ الْمُنْكَرَاتِ . ثُمَّ قَفَّى عَلَيْهِ بِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ الْمُبَيِّنَتَيْنِ لِآيَةِ اللهِ الْكُبْرَى الَّتِي هِيَ أَقْوَى دَلَالَةً عَلَى رِسَالَةِ نَبِيِّهِ مِنْ جَمِيعِ مَا اقْتَرَحُوا وَمِمَّا لَمْ يَقْتَرِحُوا مِنَ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ . وَهِيَ الْقُرْآنُ الْحَكِيمُ ، وَكَوْنُ مُنْزِلِهَا هُوَ الَّذِي يَجِبُ الرُّجُوعُ إِلَيْهِ فِي الْحُكْمِ فِي أَمْرِ الرِّسَالَةِ وَغَيْرِهِ ، وَاتِّبَاعِ حُكْمِهِ فِيهَا دُونَ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ الْمُبْطِلِينَ الْمُضِلِّينَ فَقَالَ آمِرًا لِرَسُولِهِ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ :

*(51/248)*

---

(أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا ) الْحَكَمُ ، بِفَتْحَتَيْنِ كَالْجَبَلِ ، هُوَ مَنْ يَتَحَاكَمُ النَّاسُ إِلَيْهِ بِاخْتِيَارِهِمْ وَيَرْضَوْنَ بِحُكْمِهِ وَيُنَفِّذُونَهُ ، أَيْ أَأَطْلُبُ حَكَمًا غَيْرَ اللهِ تَعَالَى يَحْكُمُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ فِي هَذَا الْأَمْرِ غَيْرُهُ (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ) أَيْ وَالْحَالُ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا فِيهِ كُلُّ مَا يَصِحُّ بِهِ الْحُكْمُ – فَإِنْزَالُهُ مُشْتَمِلًا عَلَى الْحُكْمِ التَّفْصِيلِيِّ لِلْعَقَائِدِ

وَالشَّرَائِعِ وَغَيْرِهَا عَلَى لِسَانِ رَجُلٍ مِنْكُمْ أُمِّيٍّ مِثْلِكُمْ هُوَ أَكْبَرُ دَلِيلٍ وَأَوْضَحُ آيَةٍ عَلَى أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَى لَا مِنْ عِنْدِهِ هُوَ ، كَمَا قَالَ بِأَمْرِ اللهِ فِي آيَةٍ أُخْرَى : (فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ) (10 : 16) جَاوَزَ الْأَرْبَعِينَ مِنَ السِّنِينَ ، وَلَمْ يَصْدُرْ عَنِّي فِيهِ شَيْءٌ مِنْ مِثْلِهِ فِي عُلُومِهِ وَلَا فِي إِخْبَارِهِ بِالْغَيْبِ وَلَا فِي أُسْلُوبِهِ وَلَا فِي فَصَاحَتِهِ وَبَلَاغَتِهِ (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) أَنَّ مِثْلَ هَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا بِوَحْيٍ مِنَ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ ؟ ثُمَّ إِنَّ مَا فُصِّلَ فِيهِ مِنْ سُنَنِ اللهِ تَعَالَى فِي طِبَاعِ الْبَشَرِ وَأَخْلَاقِهِمْ وَارْتِبَاطِ أَعْمَالِهِمْ بِمَا اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْآرَاءِ وَالْأَفْكَارِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْعَادَاتِ – الْمُوَضِّحِ بِقَصَصِ مَنْ قَبْلَنَا مِنَ الْأُمَمِ – بُرْهَانٌ عِلْمِيٌّ عَلَى صِحَّةِ مَا حَكَمَ بِهِ فِي طَلَبِكُمُ الْآيَةَ الْكَوْنِيَّةَ وَزَعْمِكُمْ أَنَّكُمْ تُؤْمِنُونَ بِهَا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَوْجِيهُهُ فِي تَفْسِيرِ السِّيَاقِ الْأَخِيرِ فِي طَلَبِهَا

*(52/248)*

---

وَفِي أَمْثَالِهِ ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُ كَوْنِ الْقُرْآنِ أَدَلَّ عَلَى صِحَّةِ الرِّسَالَةِ وَصِدْقِ الرَّسُولِ مِنْ جَمِيعِ الْآيَاتِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَهُوَ فِي مَوَاضِعَ مِنَ التَّفْسِيرِ وَالْمَنَارِ ، وَمِنْ أَقْرَبِهَا مَا جَاءَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ 37 مِنْ

هَذِهِ السُّورَةِ [ص323 وَمَا بَعْدَهَا ج 7 ط الْهَيْئَةِ] .

(وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ) أَيْ وَالَّذِينَ أَعْطَيْنَاهُمْ عِلْمَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنْ قَبْلِهِ كَعُلَمَاءِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى دُونَ الْمُقَلِّدِينَ مِنْهُ يَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ مُنَزَّلٌ عَلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ . وَبَيَانُ هَذَا مِنْ وَجْهَيْنِ : (أَحَدُهُمَا) أَنَّ الْعَالِمَ بِالشَّيْءِ يُمَيِّزُ بَيْنَ مَا كَانَ مِنْهُ وَمَا لَمْ يَكُنْ ، فَمَنْ أَلَّفَ كِتَابًا فِي عِلْمِ الطِّبِّ كَانَ الْأَطِبَّاءُ أَعْلَمَ النَّاسِ بِكَوْنِهِ طَبِيبًا ، وَمَنْ أَلَّفَ كِتَابًا فِي النَّحْوِ كَانَ النُّحَاةُ أَعْلَمَ النَّاسِ بِكَوْنِهِ نَحْوِيًّا ، كَذَلِكَ الْمُؤْمِنُونَ بِالْوَحْيِ الْعَالِمُونَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ مِنْهُ يَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مِنْ جِنْسِ ذَلِكَ الْوَحْيِ وَفِي أَعْلَى مَرَاتِبِ الْكَمَالِ مِنْهُ ، وَأَنَّ أَوْسَعَ الْبَشَرِ عِلْمًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ ، فَكَيْفَ يَسْتَطِيعُهُ رَجُلٌ أُمِّيٌّ لَمْ يَقْرَأْ وَلَمْ يَكْتُبْ قَبْلَهُ شَيْئًا (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ) (29 : 48) وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى : (أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ) (26 : 197) . (ثَانِيهُمَا) أَنَّ فِي الْكُتُبِ الْأَخِيرَةِ كَالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ بِشَارَاتٍ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَمْ تَكُنْ تَخْفَى عَلَى عُلَمَائِهِمَا فِي زَمَنِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَدْ بَيَّنَّا بَعْضَهَا وَسَيَأْتِي تَفْصِيلُهَا فِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ ، وَقَالَ

تَعَالَى : (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (2 : 146) وَقَدِ اعْتَرَفَ الْمُنْصِفُونَ مِنْ أُولَئِكَ الْعُلَمَاءِ بِذَلِكَ وَآمَنُوا ، وَكَتَمَ بَعْضُهُمُ الْحَقَّ وَأَنْكَرُوهُ بَغْيًا وَحَسَدًا كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي مَحِلِّهِ .

وَالْخِطَابُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُرَادُ غَيْرُهُ ، عَلَى حَدِّ قَوْلِهِمْ : إِيَّاكِ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَةُ ، وَقِيلَ : لِكُلِّ مُخَاطَبٍ ، أَيْ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِّينَ فِي ذَلِكَ . عَلَى أَنَّ نَهْيَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الشَّكِّ فِي كَوْنِ أَهْلِ الْكِتَابِ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ بِالْحَقِّ مَقْرُونًا بِإِخْبَارِهِ بِهِ لَا يَقْتَضِي جَوَازَ شَكِّهِ فِيهِ بَعْدَ هَذَا الْإِخْبَارِ ، فَإِنْ كَانَ يَشُكُّ فِيهِ قَبْلَهُ فَلَا ضَرَرَ .

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا) الْكَلِمَةُ تُطْلَقُ عَلَى الْجُمْلَةِ وَالطَّائِفَةِ مِنَ الْقَوْلِ فِي مَعْنًى وَاحِدٍ أَوْ غَرَضٍ وَاحِدٍ طَالَ أَوْ قَصُرَ ، فَإِذَا أَلْقَى أَفْرَادٌ خُطَبًا أَوْ كَتَبُوا مَقَالَاتٍ فِي مَوْضُوعٍ مَا ، قِيلَ فِي كُلِّ خُطْبَةٍ وَكُلِّ مَقَالَةٍ : هَذِهِ كَلِمَةُ فُلَانٍ ، وَرُوِيَ أَنَّ

الْعَرَبَ كَانَتْ تُسَمِّي الْقَصِيدَةَ مِنَ الشِّعْرِ كَلِمَةً ; لِأَنَّ الْقَصِيدَةَ تُقَالُ فِي غَرَضٍ وَاحِدٍ وَإِنِ اشْتَمَلَتْ عَلَى مَعَانٍ كَثِيرَةٍ ، وَتُسَمَّى جُمْلَةً " لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ " كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ ، وَمِنْ هُنَا قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ : إِنَّ الْمُرَادَ بِالْكَلِمَةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْقُرْآنُ . وَهُوَ جَائِزٌ لُغَةً وَلَكِنَّهُ غَيْرُ ظَاهِرٍ مَعْنًى ، وَإِنَّمَا الظَّاهِرُ الْمُتَبَادِرُ بِقَرِينَةِ السِّيَاقِ أَنَّ الْكَلِمَةَ هُنَا مِنْ قَبِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) (11 : 119) وَقَوْلِهِ : (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا) (7 : 137) الْآيَةَ فَمَعْنَى الْجُمْلَةِ : وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ فِيمَا وَعَدَكَ بِهِ مِنْ نَصْرِكَ ، وَمَا أَوْعَدَ بِهِ هَؤُلَاءِ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِالْقُرْآنِ الْمُقْتَرِحِينَ لِلْآيَاتِ وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ مُعَانِدِي قَوْمِكَ الْمُسْتَكْبِرِينَ عَنِ الْإِيمَانِ بِكَ مِنْ خُذْلَانِهِمْ وَهَلَاكِهِمْ ، كَمَا تَمَّتْ مِنْ قَبْلُ فِي الرُّسُلِ وَأَعْدَائِهِمْ مِنْ قَبْلِكَ ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) (37 : 171 173) وَمَا فِي مَعْنَاهَا مِنْ عَامٍّ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) (40 : 51) وَخَاصٍّ كَقَوْلِهِ لِرَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) (15 : 95) أَمَّا تَمَامُهَا

صِدْقًا فَهُوَ وُقُوعُ مَضْمُونِهَا مِنْ حَيْثُ كَوْنِهَا خَبَرًا ، وَأَمَّا تَمَامُهَا عَدْلًا فَمِنْ حَيْثُ كَوْنِهَا جَزَاءً لِلْكَافِرِينَ الْمُعَانِدِينَ لِلْحَقِّ بِمَا يَسْتَحِقُّونَ ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ الْمُهْتَدِينَ بِمَا يَسْتَحِقُّونَ ، وَإِنْ كَانُوا بِمُقْتَضَى الْفَضْلِ يُزَادُونَ ، وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ بِمَكَّةَ قَبْلَ نَصْرِ اللَّهِ تَعَالَى نَبِيَّهُ عَلَى طُغَاةِ قَوْمِهِ فِي بَدْرٍ وَغَيْرِهَا ، فَالْفِعْلُ الْمَاضِي فِيهَا " تَمَّتْ " بِمَعْنَى الْمُسْتَقْبَلِ ، فَهُوَ لِتَحَقُّقِ وُقُوعِهِ كَأَنَّهُ وَقَعَ ، وَهَذَا مِنْ ضُرُوبِ الْمُبَالَغَةِ الْبَلِيغَةِ . وَفِيهِ وَجْهٌ آخَرُ وَهُوَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْخَبَرِ هُنَا لَازِمُهُ وَهُوَ تَأْكِيدُ مَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الْآيَاتُ مِنْ تَسْلِيَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ كُفْرِ هَؤُلَاءِ الْمُعَانِدِينَ وَإِيذَائِهِمْ لَهُ وَلِأَصْحَابِهِ وَإِيئَاسِ الطَّامِعِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي إِيمَانِهِمْ بِإِيتَائِهِمُ الْآيَاتِ الْمُقْتَرَحَةَ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : كَمَا أَنَّ سُنَّتِي مَضَتْ بِأَنْ يَكُونَ لِلرُّسُلِ أَعْدَاءٌ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، قَدْ تَمَّتْ كَلِمَتِي بِنَصْرِ الْمُرْسَلِينَ ، وَخُذْلَانِ هَؤُلَاءِ الطُّغَاةِ الْمُفْسِدِينَ .

(لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ) كَمَا أَنَّهُ لَا تَبْدِيلَ لِسُنَنِهِ (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا) (33 : 62)

وَالتَّبْدِيلُ التَّغْيِيرُ بِالْبَدَلِ . وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ

تَعْلِيلٌ لِمَا قَبْلَهَا ، وَالْمَعْنَى أَنَّ كَلِمَةَ اللهِ تَعَالَى فِي نَصْرِكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ وَخُذْلَانِ أَعْدَائِكَ قَدْ تَمَّتْ وَأَصْبَحَ نُفُوذُهَا حَتْمًا لَا مَرَدَّ لَهُ ؛ لِأَنَّ كَلِمَاتِ اللهِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَفْرَادِهَا لَا مُبَدِّلَ لَهَا ؛ إِذْ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ - وَكُلُّ مَا عَدَاهُ فَهُوَ مِنْ خَلْقِهِ - أَنْ يُزِيلَ كَلِمَةً مِنْ كَلِمَاتِهِ بِكَلِمَةٍ أُخْرَى تُخَالِفُهَا ، أَوْ يَمْنَعَ صِدْقَهَا عَلَى مَنْ وَرَدَتْ فِيهِمْ ، كَأَنْ يَجْعَلَ الْوَعْدَ وَعِيدًا أَوِ الْوَعِيدَ وَعْدًا أَوْ يَصْرِفَهُمَا عَنِ الْمَوْعُودِ بِالثَّوَابِ أَوِ الْمُوعَدِ بِالْعِقَابِ إِلَى غَيْرِهِمَا أَوْ يَحُولَ دُونَ وُقُوعِهِمَا أَلْبَتَّةَ .

(58/248)

---

فَإِنْ قِيلَ : إِنَّ بَعْضَ الْمُتَكَلِّمِينَ جَوَّزَ تَخَلُّفَ الْوَعِيدِ دُونَ الْوَعْدِ لِأَنَّهُ فَضْلٌ وَإِحْسَانٌ ، قُلْنَا : لَمْ يُجَوِّزْ أَحَدٌ مِنْ مُحَقِّقِي أَهْلِ الْحَقِّ تَخَلُّفَ الْوَعِيدِ مُطْلَقًا ، بَلْ صَرَّحُوا بِأَنَّ مِنْ أُصُولِ الْعَقِيدَةِ أَنَّ نُفُوذَ الْوَعِيدِ فِي الْكُفَّارِ وَفِي طَائِفَةٍ مِنْ عُصَاةِ الْمُؤْمِنِينَ حَقٌّ ، وَإِنَّمَا قِيلَ : يَتَخَلَّفُ شُمُولُ الْوَعِيدِ لِجَمِيعِ الْعُصَاةِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ إِطْلَاقُ بَعْضِ النُّصُوصِ ، وَلَنَا أَنْ نَقُولَ : إِنَّ هَذَا لَيْسَ بِتَخَلُّفٍ فَيُقَالُ : إِنَّهُ تَبْدِيلٌ لِكَلِمَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَكْذِيبٌ لَهَا ، فَإِنَّهُ - تَعَالَى - لَمْ يُرِدْ بِتِلْكَ الْإِطْلَاقَاتِ الشُّمُولَ الْعَامَّ لِجَمِيعِ أَفْرَادِ مَنْ وَرَدَتْ فِيهِمْ تِلْكَ النُّصُوصُ ، لِأَنَّهُ بَيَّنَ فِي نُصُوصٍ أُخْرَى أَنَّهُ يَعْفُو عَنْ بَعْضِ الذُّنُوبِ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ مُقْتَرِفِيهَا وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ،

وَهُوَ يَعْلَمُ مَنْ أَرَادَ الْمَغْفِرَةَ لَهُمْ وَمَنْ أَرَادَ تَعْذِيبَهُمْ وَلَا يُبَدِّلُ كَلَامَهُ فِي أَحَدٍ مِنْهُمَا ، وَأُبْهِمَ ذَلِكَ عَلَيْنَا لِنَرْجُوَهُ دَائِمًا وَلَا يُوقِعُنَا الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِي الْغُرُورِ وَالْأَمْنِ مِنْ عَذَابِهِ فَنُقَصِّرُ ، وَنَخَافُهُ دَائِمًا وَلَا يُوقِعُنَا ارْتِكَابُ الذَّنْبِ فِي الْيَأْسِ مِنْ رَحْمَتِهِ فَنَهْلَكُ ، وَقَدْ أَحْسَنَ أَبُو الْحَسَنِ الشَّاذِلِيُّ فِي قَوْلِهِ فِي هَذَا الْمَقَامِ : وَقَدْ أَبْهَمْتَ الْأَمْرَ عَلَيْنَا لِنَرْجُوَ وَنَخَافَ فَأَمِّنْ خَوْفَنَا وَلَا تُخَيِّبْ رَجَاءَنَا .

(59/248)

---

فَإِنْ قِيلَ : أَلَيْسَ الشُّفَعَاءُ يُؤَثِّرُونَ فِي إِرَادَتِهِ تَعَالَى فَيَحْمِلُونَهُ عَلَى الْعَفْوِ عَنِ الْمَشْفُوعِ لَهُمْ وَالْمَغْفِرَةِ لَهُمْ ؟ قُلْنَا : كَلَّا إِنَّ الْمَخْلُوقَ لَا يَقْدِرُ عَلَى التَّأْثِيرِ فِي صِفَاتِ الْخَالِقِ الْأَزَلِيَّةِ الْكَامِلَةِ ، وَقَدْ نَطَقَتِ الْآيَاتُ بِأَنَّ الشَّفَاعَةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ، لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَشْفَعَ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، وَهُوَ لَا يَأْذَنُ إِلَّا لِمَنْ تَعَلَّقَتْ مَشِيئَتُهُ وَعِلْمُهُ فِي الْأَزَلِ بِالْإِذْنِ لَهُمْ (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) (21 : 28) فَيَكُونُ ذَلِكَ إِظْهَارَ كَرَامَةٍ وَجَاهٍ لَهُمْ عِنْدَهُ ، لَا إِحْدَاثَ تَأْثِيرٍ لِلْحَادِثِ فِي صِفَاتِ الْقَدِيمِ وَسُلْطَانٍ لَهُ عَلَيْهَا ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَحْقِيقُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مِرَارًا .

(60/248)

فَإِنْ قِيلَ : أَلَا يَدُلُّ قَوْلُهُ : (لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ) عَلَى اسْتِحَالَةِ التَّحْرِيفِ أَوِ التَّبْدِيلِ فِي الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ أَيْ فِي لَفْظِهَا وَعِبَارَتِهَا ، كَاسْتِحَالَةِ التَّبْدِيلِ فِي صِدْقِهَا وَنُفُوذِهَا ؟ قُلْنَا : إِنَّمَا وَرَدَ السِّيَاقُ وَالنَّصُّ فِي صِدْقِهَا وَعَدْلِهَا فِي لَفْظِهَا ، وَقَدْ أَثْبَتَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ تَحْرِيفَ أَهْلِ الْكِتَابِ قَبْلَنَا لِكَلَامِهِ وَنِسْيَانَهُمْ حَظًّا مِنْهُ ، وَمَا كَفَلَ تَعَالَى حِفْظَ كِتَابٍ مِنْ كُتُبِهِ بِنَصِّهِ إِلَّا هَذَا الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ الَّذِي قَالَ فِيهِ : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (15 : 9) وَظَهَرَ صِدْقُ كَفَالَتِهِ بِتَسْخِيرِ الْأُلُوفِ الْكَثِيرَةِ فِي كُلِّ عَصْرٍ لِحِفْظِهِ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ ، وَلِكِتَابَةِ النُّسَخِ الَّتِي

لَا تُحْصَى مِنْهُ فِي كُلِّ عَصْرٍ مِنْ زَمَنِ الصَّحَابَةِ - رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ - إِلَى هَذَا الْعَصْرِ ، وَنَاهِيكَ بِمَا طُبِعَ مِنْ أُلُوفِ الْأُلُوفِ مِنْ نُسَخِهِ فِي عَهْدِ وُجُودِ الطِّبَاعَةِ بِمُنْتَهَى الدِّقَّةِ وَالتَّصْحِيحِ ، وَلَمْ يَتَّفِقْ مِثْلُ ذَلِكَ لِكِتَابٍ إِلَهِيٍّ وَلَا غَيْرِ إِلَهِيٍّ ، فَأَهْلُ الْكِتَابِ لَمْ يَحْفَظُوا كُتُبَ رُسُلِهِمْ فِي الصُّدُورِ وَلَا فِي السُّطُورِ ، وَسَيَأْتِي بَسْطُ هَذَا فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

*(61/248)*

وَقَدْ خُتِمَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى (وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) لِأَنَّهُ تَذْيِيلٌ لِلسِّيَاقِ الْأَخِيرِ كُلِّهِ لَا لِهَذِهِ الْآيَةِ فَقَطْ ، وَهُوَ سِيَاقُ مُحَاجَّةِ الْمُشْرِكِينَ الْمُعَانِدِينَ مُقْتَرِحِي الْآيَاتِ ، وَفِيهِ ذِكْرُ اقْتِرَاحِهِمْ وَأَيْمَانِهِمُ الْكَاذِبَةِ ، وَذِكْرُ سَائِرِ أَعْدَاءِ الرُّسُلِ أَمْثَالِهِمْ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَخِدَاعِهِمْ لِلنَّاسِ بِزُخْرُفِ الْقَوْلِ ، وَصَغْيِ قُلُوبِ مُنْكِرِي الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ إِلَيْهِ وَضَلَالِهِمْ بِهِ ، فَهُوَ يَقُولُ إِنَّهُ تَعَالَى سَمِيعٌ لِتِلْكَ الْأَقْوَالِ الْخَادِعَةِ مِنْهُمْ ، عَلِيمٌ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ ذَلِكَ الصَّغْيِ وَالْمَيْلِ وَغَيْرِهِ مِنْ مَقَاصِدِهِمْ وَنِيَّاتِهِمْ ، وَبِمَا يَقْتَرِفُونَ مِنَ السَّيِّئَاتِ بِكُفْرِهِمْ وَغُرُورِهِمْ .

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ

*(62/248)*

---

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ)

هَذِهِ الْآيَاتُ سِيَاقٌ جَدِيدٌ فِي بَيَانِ ضَلَالِ جَمِيعِ الْأُمَمِ فِي عَهْدِ بَعْثَةِ خَاتَمِ الرُّسُلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَغَلَبَةِ الشِّرْكِ عَلَيْهِمْ فِي أَثَرِ بَيَانِ ضَلَالِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَمَنْ عَلَى شَاكِلَتِهِمْ فِي عَقَائِدِهِمْ وَإِقَامَةِ حُجَجِ الْإِسْلَامِ عَلَيْهِمْ ، وَوَصَلَ ذَلِكَ بِبَيَانِ مَسْأَلَةٍ اعْتِقَادِيَّةٍ عَمَلِيَّةٍ مِنْ أَكْبَرِ أُصُولِ الشِّرْكِ وَهِيَ مَسْأَلَةُ الذَّبَائِحِ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى . قَالَ عَزَّ وَجَلَّ :

*(63/248)*

---

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) هَذِهِ جُمْلَةٌ مَعْطُوفَةٌ عَلَى مَا قَبْلَهَا مُتَمِّمَةٌ لَهُ ، فَإِنَّهُ بَيَّنَ فِيمَا قَبْلَهَا وَحْيَ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ الَّذِي يُلْقُونَهُ لِغُرُورِ النَّاسِ بِهِ ، وَصَغْيِ قُلُوبِ مُنْكِرِي الْآخِرَةِ لَهُ وَافْتِتَانِهِمْ بِهِ ، وَمَا يُقَابِلُ ذَلِكَ مِنْ هِدَايَةِ وَحْيِ اللَّهِ الْمُفَصِّلِ لِكُلِّ مَا يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمُ الَّذِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ صَلَاحُ دُنْيَاهُمْ ، فَهُوَ تَعَالَى يَقُولُ لِرَسُولِهِ : لَا تَبْتَغِ أَنْتَ وَمَنِ اتَّبَعَكَ حَكَمًا غَيْرَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ، فَهَذَا الْكِتَابُ هُوَ الْهِدَايَةُ التَّامَّةُ الْكَامِلَةُ ، فَادْعُ إِلَيْهِ النَّاسَ كَافَّةً ، وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ الَّتِي بَيَّنَهَا لَكَ فِيهِ ؛ لِأَنَّهُمْ ضَالُّونَ مُتَّبِعُونَ لِوَحْيِ الشَّيْطَانِ (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) أَيْ مَا يَتَّبِعُونَ فِي عَقَائِدِهِمْ وَآدَابِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ إِلَّا الظَّنَّ الَّذِي تُرَجِّحُهُ لَهُمْ أَهْوَاؤُهُمْ ، وَمَا هُمْ فِيهَا إِلَّا يَخْرُصُونَ

خَرْصًا فِي تَرْجِيحِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ ، كَمَا يَخْرُصُ أَهْلُ الْحَرْثِ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ وَغَيْرِهَا وَيُقَدِّرُونَ مَا تَأْتِي بِهِ مِنَ التَّمْرِ وَالزَّبِيبِ ، فَلَا شَيْءَ مِنْهَا مَبْنِيٌّ عَلَى عِلْمٍ صَحِيحٍ وَلَا ثَابِتٍ بِدَلَائِلَ تَنْتَهِي إِلَى الْيَقِينِ .

*(64/248)*

---

وَهَذَا الْحُكْمُ الْقَطْعِيُّ بِضَلَالِ أَكْثَرِ أَهْلِ الْأَرْضِ ظَاهِرٌ بِمَا بَيَّنَهُ بِهِ مِنِ اتِّبَاعِ الظَّنِّ وَالْخَرْصِ – وَلَا سِيَّمَا فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ – تُؤَيِّدُهُ تَوَارِيخُ الْأُمَمِ كُلِّهَا ، فَقَدِ اتَّفَقَتْ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ كَانُوا قَدْ تَرَكُوا هِدَايَةَ أَنْبِيَائِهِمْ وَضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ، وَكَذَلِكَ أُمَمُ الْوَثَنِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ أَبْعَدَ عَهْدًا عَنْ هِدَايَةِ رُسُلِهِمْ ، وَهَذَا مِنْ أَعْلَامِ نُبُوَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ أُمِّيٌّ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مِنْ أَحْوَالِ الْأُمَمِ إِلَّا شَيْئًا يَسِيرًا مِنْ شُئُونِ الْمُجَاوِرِينَ لِبِلَادِ الْعَرَبِ خَاصَّةً .

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) أَيْ إِنَّ رَبَّكَ الَّذِي رَبَّاكَ وَعَلَّمَكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ، وَبَيَّنَ لَكَ فِيهِ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ مِنَ الْحَقِّ وَمِنْ شُئُونِ الْخَلْقِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ وَمِنْ سَائِرِ خَلْقِهِ بِمَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ الْقَوِيمِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ السَّالِكِينَ صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ ، إِذِ الضَّلَالُ مَا يَصُدُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَيُبْعِدُ السَّالِكَ عَنْهُ

، وَالِاهْتِدَاءُ مَا يَجْذِبُهُ إِلَيْهِ وَيُقَرِّبُهُ مِنْهُ ، فَكَيْفَ لَا يَكُونُ أَعْلَمَ بِهِ مِنْ نَفْسِهِ وَأَصْدَقَ فِي الْحُكْمِ عَلَيْهِ مِنْ حِسِّهِ ، وَهُوَ فَوْقَ ذَلِكَ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا .

(65/248)

---

وَمِنْ مَبَاحِثِ اللَّفْظِ أَنَّ الْبَصْرِيِّينَ وَالْكُوفِيِّينَ مِنَ النُّحَاةِ اضْطَرَبُوا فِي إِعْرَابِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ) لِمَجِيئِهِ عَلَى خِلَافِ الْمَعْهُودِ الشَّائِعِ مِنِ اقْتِرَانِ مَعْمُولِ اسْمِ التَّفْضِيلِ بِالْبَاءِ كَقَوْلِهِ - تَعَالَى - فِي مِثْلِ هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ سُورَةِ الْقَلَمِ : (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (68 : 7)

فَكَانَ أَبْعَدُ إِعْرَابِهِمْ لَهُ عَنِ التَّكَلُّفِ أَنَّ الْبَاءَ حُذِفَتْ مِنْهُ اكْتِفَاءً بِاقْتِرَانِهَا بِمُقَابِلِهِ الْمُتَّصِلِ بِهِ وَهُوَ قَوْلُهُ : (أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) وَمُخَالَفَةُ الْمَعْهُودِ فِي أَسَالِيبِ اللُّغَةِ لَا يَكَادُ يَقَعُ فِي كَلَامِ بُلَغَاءِ أَهْلِهَا إِلَّا لِنُكْتَةٍ يَقْصِدُونَهَا بِهِ ، وَكَلَامُ رَبِّ الْبُلَغَاءِ وَمُنْطِقِهِمْ بِاللُّغَاتِ أَوْلَى بِذَلِكَ . وَالنُّكَتُ مِنْهَا لَفْظِيٌّ كَالِاخْتِصَارِ وَالتَّفَنُّنِ فِي الْأُسْلُوبِ ، وَمِنْهَا مَعْنَوِيٌّ وَهُوَ أَعْلَى . وَقَدْ يَكُونُ مِنْ نُكَتِ مُخَالَفَةِ الْمَعْهُودِ الْكَثِيرِ تَنْبِيهُ الذِّهْنِ الْمُتَأَمِّلِ ، كَمَنْ يُرِيدُ إِيقَافَ سَالِكِ الطَّرِيقِ فِي مَكَانٍ مِنْهُ لِفَائِدَةٍ لَهُ فِي الْوُقُوفِ ، كَمَا أَرَى اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ مُوسَى النَّارَ فِي الشَّجَرَةِ بِجَانِبِ الطُّورِ فَحَمَلَ أَهْلَهُ

عَلَى الْمُكْثِ فِيهِ لِمَا عَلِمْنَا مِنْ حِكْمَةِ ذَلِكَ . وَقَدْ بَيَّنَّا هَذَا النَّوْعَ مِنَ النُّكَتِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلْنَا مِنْهُ عَطْفَ الْمَرْفُوعِ عَلَى الْمَنْصُوبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ) (5 : 69) أَيْ وَكَذَا الصَّابِئُونَ أَوْ وَالصَّابِئُونَ كَذَلِكَ ، خَصَّ هَؤُلَاءِ بِإِخْرَاجِهِمْ عَنْ نَسَقِ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي الْإِعْرَابِ لِأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَ أَنَّهُمْ بَقَايَا أَهْلِ كِتَابٍ وَقَدْ يَكُونُ حَذْفُ الْبَاءِ فِي قَوْلِهِ : (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ) لِلتَّنْبِيهِ إِلَى التَّأَمُّلِ وَالتَّفَكُّرِ فِي كَوْنِ اللهِ تَعَالَى أَعْلَمَ بِأَحْوَالِهِمْ لِأَنَّهَا هِيَ الْمَقْصُودَةُ هُنَا بِالذَّاتِ بِدَلِيلِ سَابِقِ الْكَلَامِ وَلَاحِقِهِ إِذْ هُوَ فِيهِمْ ، وَمَا ذَكَرَ الْعِلْمَ بِالْمُهْتَدِينَ إِلَّا لِأَجْلِ التَّكْمِلَةِ وَالْمُقَابَلَةِ ; وَلِذَلِكَ عُطِفَ عَلَى مَا قَبْلَهُ عَطْفَ جُمْلَةٍ لَا عَطْفَ مُفْرَدٍ ، فَتَأَمَّلْ . وَلَوْ جَازَتِ الْإِضَافَةُ هُنَا نَحْوُ " أَفْضَلُ مَنْ حَجَّ وَاعْتَمَرَ " . لَكَانَ الْكَلَامُ احْتِبَاكًا تَقْدِيرُهُ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ وَمَنْ يَهْتَدِي وَهُوَ أَعْلَمُ بِالضَّالِّينَ وَبِالْمُهْتَدِينَ ، فَحَذَفَ مِنْ كُلٍّ مِنَ الْمُتَقَابِلَيْنِ مَا أَثْبَتَ نَظِيرَهُ فِي الْآخَرِ ، وَلَيْسَ الْمَانِعُ مِنْ جَوَازِ الْإِضَافَةِ هُنَا كَوْنَ صِلَةِ " مَنْ " فِعْلًا مُضَارِعًا لَا مَاضِيًا كَالْمِثَالِ الَّذِي أَوْرَدْنَاهُ وَنَظَائِرُهُ ، بَلِ الْمَانِعُ هُوَ أَنَّ الْمُضَافَ فِي مِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ مِنْ جِنْسِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ وَهُوَ مُمْتَنِعٌ فِي الْآيَةِ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا جِنْسَ لَهُ

(67/248)

---

، وَلَوِ اقْتَرَنَ الْمَوْصُولُ هُوَ بِالْجَارِ فَقِيلَ : هُوَ أَعْلَمُ مِمَّنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ، لَجَزَمْنَا بِالِاجْتِبَاكِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 8 صـ 15.3 ﴾

(68/248)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

في " أعلم " قولان :

أحدهما : أنَّها ليست للتَّفْضِيل ، بل بِمَعْنَى اسم فاعل في قوتهن كأنه قيل : إن ربَّك هو يَعْلَم . قال الواحدي - رحمها الله - : " ولا يجوز ذلك ؛ لأنَّه لا يطَابِق : وهو أعْلَم بالمُهتَدين " .

والثاني : أنَّها على بابها من التَّفْضِيل ، ثم اختلف هؤلاء في محلِّ " مَنْ " : فقال بعض البصْرِيِّين : هو جَرٌّ بحرف مُقَدَّر حُذِف وبقي عمله ؛ قولة الدَّلالة عليه بقَوْله : " وهو أعْلَمُ بالمُهْتَدين " وهذا ليس بِشَيء ؛ لأنه لا يُحْذَف الجَارُّ ويبقى أثَرُه إلا في مواضع تقدَّم التَّنْبِيه

عليها ، ما ورد بخلافها ، فضرورةٌ ؛ كقوله : [ الطويل ]

2299 - . . . . .

أشَارَتْ كُلَيْبٍ بالأكُفِّ الأصَابِعُ

وقوله : [ الكامل ]

2300 - . . . .

*(69/248)*

---

حَتَّى تَبَذَّخَ فارْتَقَى الأعلامِ

الثاني : أنَّها في محلِّ نَصْب على إسْقاط الخَافِض ؛ كقوله : [ الوافر ]

2301 - تَمُرُّونَ الدِّيَارَ ولَمْ تَعوجُوا . . . . . .

قاله أبُو الفَتْح .

وهو مَردُودٌ من وجهين :

الأول أن ذلك لا يطَّرِد .

الثاني : أن أفْعَل التَّفْضِيل لا تَنْصِبُ بِنَفْسِها ؛ لضَعْفها .

الثالث : وهو قَوْل الكُوفيين - أنَّه نصب بنفس أفْعَل ، فإنها عندهم تَعْمل عمل الفِعْل .

الرابع : أنها مَنْصُوبة بِفعل مُقَدَّر يدل عليه أفْعَل ، قاله الفَارسيُّ ؛ وعلي خَرَّج قول الشاعر : [ الطويل ]

2302 - أكَرَّ وأحْمَى لِلْحَقيقةِ مِنْهُمُ . . .

وأضْرَبَ مَنَّا بالسُّيُوفِ القَوَانِسَا

ف " القوانس " نُصِب بإضمار فعلٍ ، أي : يَضْرِبُ القَوانِسَ ؛ لأن أفْعَل ضَعِيفة كما تقرَّر .

الخامس : أنَّها مَرْفُوعة المحلِّ بالابْتِداء ، و " يَضِل " : خَبَره ، والجُمْلَة مُعَلّقة لأفْعَل التَّفْضِيل ؛ فهي محلِّ نَصْب بها ؛ كأنه قيل : أعلم أيُّ النَّاسِ يَضِل كقوله : ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أحصى ﴾ [ الكهف : 12 ] ، وهذا رأي الكسائِي ، والزَّجَّاج ، والمُبَرِّد ، ومَكّي ، وإلا أن أبا حيَّان ردَّ هذا ؛ بان التَّعْلِيق فرع ثُبُوت العمل في المَفْعُول به ، وأفْعَل لا يَعْمل فيه ، فلا يُعَلَّق .

*(70/248)*

---

والرَّاجِح من هذه الأقْوَال : نَصْبُها بمضمر ، وهو قول الفَارسيِّ ، وقواعد البصريين مُوافِقَةٌ له ، ولا يَجُوز ان تكون " مَنْ " في محلِّ جرّ بإضافة أفْعل إلَيْها ؛ لئلاَّ يلزم مَحْذُور عَظِيم ، وذلك أنَّ أفعل التَّفْضِيل لا تُضَاف إلاَّ إلى جنْسِها ، فإذا قُلْتَ : " زَيْد أعْلَم الضَّالِّين " لَزِم أن يكون " زَيْد " بَعْض الضَّالِّين ، أي : مُتَّصِفٌ بالضَّلال ، فهذا الوَجْه مُسْتَحيل في الآية الكريمة ، وهذا

عند من قرأ "يَضِلُّ" بفتح حَرْف المُضارعة، أمَّا من قرأ بضمّه: "يُضِلّ" - وهو الحسن، وأحمد بن أبي سُرَيْج -، فقال أبو البقاءِ: "يجُوز أن تكون "مَنْ" في موضع جرّ بإضافة "أفعل" "إليها".

قال: "إمَّا على مَعْنَى: هو أعْلَم المُضِلّين، أي: من يجد الضَّلال وهو من أضْلَلْتُه، أي: وَجَدْته ضالاً؛ مثل أحْدَتُه، أي: وَجَدته مَحْمُوداً، أو بمَعْنى: أنه يَضِلُّ عن الهدى".

قال شهاب الدّين: ولا حَاجَة إلى ارْتكَاب مِثْل الأمَاكن الحَرِجة، وكان قد عبَّر قَبْل ذلك بعِبَارات اسْتَعْظَمتُ النُّطْق بها، فَضَرَبْت عَنْها إلى أمْثِلةٍ من قوْلي، والَّذِي تُحْمل عليه هذه القراءة، ما تقدّضم من المُخْتَار؛ وهو النَّصْب بمُضْمَر، وفاعل "يُضِلّ" على هذه القراءة: ضمير يَعُود على اللَّه - تعالى - على مَعْنَى: يَجِدُه ضالاً، أو يَخْلُق فيه الضَّلال "لا يسأل عمَّا يَفْعَل" ويجُوز أن يكُون ضمير "مَنْ" أيْ: أعْلَم مَنْ يضِلُّ النَّاس، والمَفْعُول مَحْذُوف، وأمَّا على القراءة الشَّهيرة، فالفَاعِل ضمير "مَنْ" فقط، و"مَنْ" يجُوز أن تكُن موصُولة، وهو الظَّاهر، وأن تكون نَكِرة مَوْصُوفة، ذكره أبو البقاء. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 398. 399﴾

(71/248)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (117) ﴾

تقاصرت علومُ الخَلْق عن إدراك غيبه إلا بقدر ما عَرَّفهم من أمره ، والذي لا يخفى عليه شيءٌ فهو الواحدُ – سبحانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 496 ﴾

*(72/248)*

---

ومن فوائد الشوكانى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (114) وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (115) وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (116) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (117) ﴾

قوله : ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ ﴾ الاستفهام للإنكار ، والفاء للعطف على فعل مقدّر ، والكلام هو على إرادة القول ، والتقدير : قل لهم يا محمد كيف أضلّ أوابتغى غير الله حكماً ؟ و" غير " مفعول لأبتغي مقدّم عليه ، وحكماً المفعول الثاني أو العكس .

*(73/248)*

---

ويجوز أن ينتصب ﴿ حكماً ﴾ على الحال ، والحكم أبلغ من الحاكم كما تقرر في مثل هذه الصفة المشتقة ، أمره الله سبحانه وتعالى أن ينكر عليهم ما طلبوه منه ، من أن يجعل بينه وبينهم حكماً فيما اختلفوا فيه ، وإن الله هو الحكم العدل بينه وبينهم ، وجملة : ﴿ وَهُوَ الذى أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الكتاب مُفَصَّلاً ﴾ في محل نصب على الحال ، أي كيف أطلب حكماً غير الله ، وهو الذي أنزل عليكم القرآن مفصلاً مبيناً واضحاً ، مستوفياً لكل قضية على التفصيل ؟ ثم أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن أهل الكتاب ، وإن أظهروا الجحود والمكابرة ، فإنهم يعلمون أن القرآن منزل من عند الله بما دلّتهم عليه كتب الله المنزلة ، كالتوراة والإنجيل ، من أنه رسول الله وأنه خاتم الأنبياء ، و﴿ بالحق ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالاً ، أي متلبساً بالحق الذي لا شك فيه ولا شبهة ، ثم نهاه الله عن أن يكون من الممترين في أن أهل الكتاب يعلمون بأن القرآن منزل من عند الله بالحق ، أو نهاه عن مطلق

الامتراء ، ويكون ذلك تعريضاً لأمته عن أن يمتري أحد منهم ، أو الخطاب لكل من يصلح له ، أي فلا يكونن أحد من الناس من الممترين ، ولا يقدح في ذلك كون الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن خطابه خطاب لأمته .

قوله : ﴿ وتمت كلمات ربك

صدقاً وعدلاً ﴾ قرأ أهل الكوفة ﴿ كلمة ﴾ بالتوحيد ، وقرأ الباقون بالجمع ، والمراد بالكلمات العبارات أو متعلقاتها من الوعد والوعيد .

والمعنى : أن الله قد أتمّ وعده ووعيده ، فظهر الحق وانطمس الباطل .

وقيل : المراد بالكلمة أو الكلمات القرآن ، و ﴿ صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾ منتصبان على التمييز ، أو الحال ، على أنهما نعت مصدر محذوف ، أي تمام صدق وعدل ﴿ لاَ مُبَدّلَ لكلماته ﴾ لا خلف فيها ولا مغير لما حكم به ، والجملة المنفية في محل نصب على الحال ، أو مستأنفة ﴿ وَهُوَ السميع ﴾ لكل مسموع ﴿ العليم ﴾ بكل معلوم .

*(74/248)*

---

قوله : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى الأَرض يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ أخبره الله سبحانه بأنه إذا رام طاعة أكثر من في الأرض أضلوه ، لأن الحق لا يكون إلا بيد الأقلين ، وهم الطائفة التي لا

تزال على الحق ، ولا يضرّها خلاف من يخالفها ، كما ثبت ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل المراد بالأكثر : الكفار .

وقيل المراد بالأرض : مكة أي أكثر أهل مكة ، ثم علل ذلك سبحانه بقوله : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن ﴾ أي ما يتبعون إلا الظنّ الذي لا أصل له ، وهو ظنهم أن معبوداتهم تستحق العبادة وأنها تقربهم إلى الله ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ أي وما هم إلا يخرصون ، أي يحدسون ويقدّرون ، وأصل الخرص القطع ، ومنه خرص النخل يخرص : إذا حزره ليأخذ منه الزكاة ، فالخارص يقطع بما لا يجوز القطع به ، إذ لا يقين منه .

وإذا كان هذا حال أكثر من في الأرض ، فالعلم الحقيقي هو عند الله ، فاتبع ما أمرك به ، ودع عنك طاعة غيره ، وهو العالم بمن يضلّ عن سبيله ومن يهتدي إليه .

قال بعض أهل العلم : إن ﴿ أَعْلَمُ ﴾ في الموضعين بمعنى يعلم ، قال : ومنه قول حاتم الطائي :

فحالفت طيّ من دوننا حلفا . . . والله أعلم ما كنا لهم خولا

والوجه في هذا التأويل أن أفعل التفضيل لا ينصب الاسم الظاهر ، فتكون " من " منصوبة بالفعل الذي جعل أفعل التفضيل نائباً عنه .

وقيل : إن أفعل التفضيل على بابه والنصب بفعل مقدّر .

وقيل : إنها منصوبة بأفعل التفضيل ، أي إن ربك أعلم أيّ الناس يضلّ عن سبيله ، وقيل :

في محل نصب بنزع الخافض ، أي بمن يضلّ ، قاله بعض البصريين .

وقيل : في محل جرّ بإضافة أفعل التفضيل إليها .

وقد أخرج عبد الرزاق ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ مُفَصَّلاً ﴾ قال : مبيناً .

(75/248)

---

وأخرج عبد ابن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة في قوله : ﴿ صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾ قال : صدقاً فيما وعد ، وعدلاً فيما حكم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وأبو نصر السجزي في الإبانة ، عن محمد بن كعب القرظي ، في قوله : ﴿ لاَ مُبَدّلَ لكلماته ﴾ قال : لا تبديل لشيء قاله في الدنيا والآخرة لقوله : ﴿ مَا يُبَدّلُ القول لَدَيَّ ﴾ [ ق : 29 ] .

وأخرج ابن مردويه ، وابن النجار ، عن أنس ، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾ قال : " لا إله إلا الله " وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أبي اليمان عامر بن عبد الله قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد الحرام يوم فتح مكة ، ومعه مخصرة ، ولكل قوم صنم يعبدونه ، فجعل يأتيها صنماً صنماً ويطعن في

صدر الصنم بعصا ثم يعقره ، فكلما طعن صنماً أتبعه ضرباً بالقوس حتى يكسروه ويطرحوه خارجاً من المسجد ، والنبيّ يقول : ﴿ وَتَمَّتْ * كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لكلماته وَهُوَ السميع العليم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(76/248)

---

قوله تعالى ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآَيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (118) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قدم سبحانه ما مضى من السوائب وما معها وفي المائدة مما يدين به أهل الجاهلية في أكل الحيوان الذي جر إليه الشرك ، وأتبعه بيان أنه لا ضرر على أهل الإيمان من دين أهل الضلال إذا اهتدوا ، وأتبع ذلك ما لاءمه ، وانتظم في سلكه ولاحمه ، حتى ظهر أي ظهور أن الكل مِلكه ومُلكه ، وأنه لا شريك له ، فوجب شكره وحده ، وكانوا مع ذلك قد كفروا نعمه تعالى فاتخذوا معه شركاء ولم يكفهم ذلك حتى جعلوا لها مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، فكانوا بذلك المانعين الحق عن أهله ، ومانحين ما خولهم فيه من له الملك لما لا يملك ضراً ولا نفعاً ، وتاركين بعض ما أنعم عليهم به صاحب الحق رعاية لمن لا حق له ولا حرمة ،

وكانت سنة الله تعالى قد جرت بأنه يذكر نفسه الشريفة بالوحدانية .

ويستدل على ذلك بخلق السماوات والأرض وما أودع فيهما لنا من المنافع وما أبدع من المرافق والمصانع ، ثم يعجب ممن أشرك به ، ثم يأمر بالأكل مما خلق تذكيراً بالنعمة ، ليكون ذلك داعية لكل ذي لب إلى شكره ، كما قال تعالى في البقرة عقب ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾ ﴿ إن في خلق السماوات والأرض ﴾ [ البقرة : 164 ] ثم قال ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً ﴾ [ البقرة : 165 ] ثم قال ﴿ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ﴾ [ البقرة : 168 ] ؛ أجرى هذه السنة الجليلة في هذه السورة أيضاً ، فقال : ﴿ إن الله فالق الحب والنوى ﴾ [ الأنعام : 95 ] بعد ﴿ إني وجهت وجهي للذي فطر ﴾ [ الأنعام : 79 ] ثم ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن ﴾ [ الأنعام : 100 ] ودل على أنه لا شريك له في مِلكه ولا مُلكه ، وختم بأنه لا حكم سواه ينازعه في حكمه أو يباريه في شيء من أمره ، وبين أن من آيها الهداية التي جعلها شرطاً لعدم ضرر يلحق من دين أهل الشرك ؛ فسبب عن جميع ما ذكرت قوله : ﴿ فكلوا مما ذكر ﴾ أي وقت الذبح ﴿ اسم الله ﴾ أي الملك الذي له الإحاطة الكاملة فله كل شيء ﴿ عليه ﴾ أي كأن قائلاً لذلك سواء ذكر بالفعل أولا ، وعدل عن التعبير بما جعلته المراد ليفهم أن الذكر بالفعل مندوب إليه ، ولا يكونوا ممن بنى دينه على اتباع الأهوية والظنون الكاذبة ، فكأنه قيل : اتبعوا من يعرف الحق لأهله فإنه مهتد غير معرجين على غيره فإنه ضال ، والله أعلم بالفريقين ، فكونوا من المهتدين ، فكلوا

مما خلق الله لكم حلالاً شاكرين لنعمته ، وإنما أطال هنا دون البقرة ما بين الجمل الكلام تقريراً لمضامينها وما يستتبعه واحتجاجاً على جميع ذلك لأنها سورة التفصيل ، وأتى بالذكر والمراد قبول المأكول له ، أي كلوا مما يقبل أن يسمى عليه على مقتضى ما شرعه ، وذلك هو الذي أحله من الحيوان وغيره سواء كان مما جعلوه لأوثانهم أولا ، دون ما مات من الحيوان حتف أنفه ، أو ذكر عليه اسم غير الله أو كان مما

(77/248)

---

حرم أكله وإن ذبح وذكر عليه اسم الله ، فإنه لا يقبل التحليل بالتسمية ، فالتسمية في غير موضعها ، لورود النصوص بالتحريم ، ولا تتبعوا المشركين في منعهم أنفسهم من خير مما خلق الله لهم من الحرث والأنعام بتسميتهم إياه لآلهتهم التي لا غناء عندها ، ويكون ذلك حثاً على التسمية على جميع المأكول الحلال ، فتكون الآية كآية البقرة بزيادة .

ولما كان هذا الأمر لا يقبله إلا من زال دين الشرك وجميع توابعه من قبله ؛ قال : ﴿ إن كنتم ﴾ أي بما لكم من الجِبِلَّة الصالحة ﴿ بآياته ﴾ أي عامة التي منها آيات التحليل والتحريم ﴿ مؤمنين ﴾ أي عريقين في وصف الإيمان ، وقد لاح بذلك حسن انتظام قوله : ﴿ وما لكم ﴾ أي أيّ شيء يكون لكم في ﴿ ألا تأكلوا مما ذكر ﴾ أي يقبل أن يذكر ﴿ اسم

الله ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 701 . 702 ﴾

فصل

قال الفخر :

في الآية مباحث نذكرها في معرض السؤال والجواب .

السؤال الأول : "الفاء" في قوله : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ ﴾ يقتضي تعلقاً بما تقدم ، فما ذلك الشيء ؟

والجواب : قوله : ﴿ فَكُلُواْ ﴾ مسبب عن إنكار اتباع المضلين الذين يحللون الحرام ويحرمون الحلال ، وذلك أنهم كانوا يقولون للمسلمين : إنكم تزعمون أنكم تعبدون الله فما قتله الله أحق أن تأكلوه مما قتلتموه أنتم .

فقال الله للمسلمين إن كنتم متحققين بالإيمان فكلوا مما ذكر اسم الله عليه وهو المذكى ببسم الله .

السؤال الثاني : القوم كانوا يبيحون أكل ما ذبح على اسم الله ولا ينازعون فيه ، وإنما النزاع في أنهم أيضاً كانوا يبيحون أكل الميتة ، والمسلمون كانوا يحرمونها ، وإذا كان كذلك كان ورود الأمر بإباحة ما ذكر اسم الله عليه عبثاً لأنه يقتضي إثبات الحكم في المتفق عليه وترك الحكم في المختلف فيه .

والجواب : فيه وجهان : الأول : لعل القوم كانوا يحرمون أكل المذكاة ويبيحون أكل الميتة ، فالله تعالى رد عليهم في الأمرين ، فحكم بحل المذكاة بقوله : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ ﴾ وبتحريم الميتة بقوله : ﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عَلَيْهِ ﴾ الثاني : أن نحمل قوله : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ ﴾ على أن المراد اجعلوا أكلكم مقصوراً على ما ذكر اسم الله عليه ، فيكون المعنى على هذا الوجه تحريم أكل الميتة فقط .

السؤال الثالث : قوله : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ ﴾ صيغة الأمر ، وهي للإباحة . وهذه الإباحة حاصلة في حق المؤمن وغير المؤمن ، وكلمة ﴿ إن ﴾ في قوله : ﴿ إِن كُنتُم بآياته مُؤْمِنِينَ ﴾ تفيد الاشتراط .

والجواب : التقدير ليكن أكلكم مقصوراً على ما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين والمراد أنه لو حكم بإباحة أكل الميتة لقدح ذلك في كونه مؤمناً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 134 . 135 ﴾

*(79/248)*

وقال ابن جزى :

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (118) ﴾

القصد بهذا الأمر إباحة ما ذكر اسم الله عليه ، والنهي عما ذبح للنصب وغيرها ، وعن الميتة وهذا النهي يقتضيه دليل الخطاب من الأمر ثم صرح به في قوله الآتي : ﴿ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ ﴾ ؛ وقد استدل بذلك من أوجب التسمية على الذبيحة ، وإنما جاء الكلام في سياق تحريم الميتة وغيرها ، فإن حملناه على ذلك لم يكن فيه دليل على وجوب التسمية في ذبائح المسلمين ، وإن حملناه على عمومه كان فيه دليل على ذلك ، وقال عطاء : وهذه الآية أمر بذكر الله على الذبح والأكل والشرب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التسهيل حـ 2 صـ 19 ﴾

*(80/248)*

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ ﴾

نزلت بسبب أناس أَتَوُا النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ، إنا نأكل ما نقتل ولا نأكل ما قتل الله ؟ فنزلت "فَكُلُوا إلى قوله وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ" خرجه الترمذيّ

وغيره .

قال عطاء : هذه الآية أمرٌ بذكر اسم الله على الشَّراب والذبح وكلّ مطعوم .

وقوله : ﴿ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي بأحكامه وأوامره آخذين ؛ فإن الإيمان بها يتضمّن ويقتضي الأخذ بها والانقياد لها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ﴾

هذا جواب لقول المشركين حيث قالوا للمسلمين أتأكلون مما قتلتم ولا تأكلون مما قتل ربكم ؟ فقال الله تعالى للمسلمين فكلوا أنتم ما ذكر اسم الله عليه من الذبائح : ﴿ إن كنتم بآياته مؤمنين ﴾ وقيل كانوا يحرمون أصنافاً من النعم ويحلون الميتة فقيل : أحلوا ما أحل الله وحرموا ما حرم الله ، فعلى هذا القول تكون الآية خطاباً للمشركين .

وعلى القول الأول تكون الآية خطاباً للمسلمين وهو الأصح لقوله في آخر الآية : ﴿ إن كنتم بآياته مؤمنين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ فكلوا مما ذكر اسم عليه إن كنتم بآياته مؤمنين ﴾

ذكر أن السبب في نزولها أنهم قالوا للرسول : من قتل الشاة التي ماتت ؟ قال الله : قالوا فتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك وما قتله الصقر والكلب حلال وما قتله الله حرام .

وقال عكرمة : لما أنزل تحريم الميتة كتب مجوس فارس إلى مشركي قريش فكانوا أولياءهم في الجاهلية وبينهم مكاتبة أن محمداً وأصحابه يزعمون أنهم يبتغون أمر الله ثم يزعمون أن ما ذبحوا فهو حلال وما ذبح الله فهو حرام فوقع في أنفس ناس من المسلمين ، فأنزل الله : ﴿ ولا تأكلوا مما ﴾ ولما تضمنت الآية التي قبلها الإنكار على اتباع المضلين الذين يحلون الحرام ويحرمون الحلال وكانوا يسمون في كثير مما يذكرونه اسم آلهتهم أمر المؤمنين بأكل ما سمي على ذكاته اسم الله لا غيره من آلهتهم أمر إباحة وما ذكر اسم الله عليه فهو المذكى لإمامات حتف أنفه .

وقال الزمخشري : ﴿ فكلوا ﴾ متسبب عن إنكار اتباع المضلين وعلق أكل ما سمي الله على ذكاته بالإيمان كما تقول : أطعني إن كنت ابني أي أنتم مؤمنون فلا تخالفوا أمر الله وهو حث على أكل ما أحل وترك ما حرم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ ﴾

أمرٌ مترتبٌ على النهي عن اتباع المُضلّين الذين من جملة إضلالِهم تحليلُ الحرامِ وتحريمُ الحلالِ

، وذلك أنهم كانوا يقولون للمسلمين : إنكم تعبدون الله فما قتله الله أحقُّ أن تأكُلوه مما قتلتم أنتم فقيل للمسلمين : كلوا ممّا ذُكر اسمُه تعالى خاصة على ذبحه لا مما ذكر عليه اسمُ غيرِه فقط أو مع اسمه تعالى أو مات حتفَ أنفِه ﴿ إِن كُنتُم بآياته ﴾ التي من جملتها الآياتُ الواردةُ في هذا الشأن ﴿ مُّؤْمِنِينَ ﴾ فإن الإيمانَ بها يقتضي استباحةَ ما أحله الله والاجتنابِ عما حرمه ، وجوابُ الشرطِ محذوفٌ لدلالة ما قبله عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(82/248)

---

وقال الآلوسى :

﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ ﴾

أمر مترتب على النهي عن اتباع المضلين الذين من جملة إضلالهم تحليل الحرام وتحريم الحلال ، فقد ذكر الواحدي أن المشركين قالوا : يا محمد أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قبلها فقال عليه الصلاة والسلام : الله تعالى قتلها قالوا : فتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال وما قتل الصقر والكلب حلال وما قتله الله تعالى حرام فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وقال عكرمة : إن المجوس من أهل فارس لما أنزل الله تعالى تحريم الميتة كتبوا إلى مشركي قريش وكانوا

أولياءهم في الجاهلية وكانت بينهم مكاتبة أن محمداً عليه الصلاة والسلام وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله تعالى ثم يزعمون أن ما ذبحوا فهو حلال وما ذبح الله تعالى فهو حرام فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء فأنزل سبحانه لآية وأخرج أبو داود والترمذي وحسنه وجماعة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاءت اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : أنأكل مما قتلنا ولا نأكل مما يقتل الله تعالى فأنزل الله تعالى الآية ، والمعنى على ما ذهب إليه غير واحد : كلوا مما ذكر اسم الله تعالى على ذبحه لا مما ذكر عليه اسم غيره خاصة أو مع اسمه عز اسمه أو مات حتف انفه ، والحصر كما قيل مستفاد من عدم اتباع المضلين ومن الشرط ولولا ذلك لكان هذا الكلام متعرضاً لما لا يحتاج إليه ساكتاً عما يحتاج إليه ، وادعى بعضهم أن لا حصر واستفادة عدم حل ما مات حتف أنفه من صريح النظم أعني قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا ﴾ الخ وهو مخالف لما عليه الجمهور .

*(83/248)*

---

﴿ إِن كُنتُم بآياته ﴾ التي من جملتها الآيات الواردة في هذا الشأن ﴿ مُّؤْمِنِينَ ﴾ فإن الإيمان بها يقتضي استباحة ما أحل الله تعالى واجتناب ما حرم ، وقيل : المعنى إن صرتم عالمين حقائق الأمور التي هذا الأمر من جملتها بسبب إيمانكم ، وقيل : المراد إن كنتم

متصفين بالإيمان وعلى يقين منه فإن التصديق يختلف ظناً وتقليداً وتحقيقاً ، والجار والمجرور متعلق بما بعده وقدم رعاية للفواصل ؛ وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾

هذا تخلّص من محاجّة المشركين وبيان ضلالهم ، المذيّل بقوله : ﴿ إنّ ربّك هو أعلم من يضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ [ الأنعام : 117 ] .

انتقل الكلام من ذلك إلى تبيين شرائع هدى للمهتدين ، وإبطالِ شرائع شَرَعها المضلّون ، تبيينا يزيل التّشابه والاختلاط .

ولذلك خللت الأحكام المشروعة للمسلمين ، بأضدادها الّتي كان شرعها المشركون وسلَفُهم .

(84/248)

---

وما تُشعر به الفاء من التفريع يقضي باتّصال هذه الجملة بالَّتي قبلها ، ووجه ذلك : أنّ قوله تعالى : ﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلّوك عن سبيل الله ﴾ [ الأنعام : 116 ] تضمّن

إبطال ما ألقاه المشركون من الشّبهة على المسلمين : في تحريم الميتة ، إذ قالوا للنّبيء صلى الله عليه وسلم " تزعم أن ما قتلتَ أنت وأصحابك وما قتل الكلب والصّقر حلال أكلُه ، وأنّ ما قتل اللَّهُ حرام " وأنّ ذلك ممّا شمله قوله تعالى : ﴿ وإن هم إلاّ يَخْرصون ﴾ [ الأنعام : 116 ] ، فلمّا نهى الله عن اتّباعهم ، وسمّى شرائعهم خرصاً ، فرّع عليه هنا الأمر بأكل ما ذكر اسم الله عليه ، أي عند قتله ، أي ما نُحر أو ذُبح وذُكر اسم الله عليه ، والنّهيَ عن أكل ما لم يُذكر اسم الله عليه ، ومنه الميتة ، فإنّ الميتة لا يذكر اسم الله عليها ، ولذلك عقبت هذه الآية بآية : ﴿ وإنّ الشّياطين ليوحون إلى أولياِئهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنَّكم لمشركون ﴾ [ الأنعام : 121 ] .

فتبيّن أنّ الفاء للتّفريع على معلوم من المراد من الآية السّابقة .

والأمر في قوله : ﴿ فكلوا ﴾ للإباحة .

ولمّا لم يكن يخطر ببال أحد أنّ ما ذُكر اسم الله عليه يحرم أكلُه ، لأنّ هذا لم يكن معروفاً عند المسلمين ، ولا عند المشركين ، علم أنّ المقصود من الإباحة ليس رفع الحرج ، ولكن بيان ما هو المباح ، وتمييزه عن ضدّه من الميتة وما ذبح على النُّصُب .

والخطاب للمسلمين .

وقوله : ﴿ مما ذكر اسم الله عليه ﴾ دلّ على أنّ الموصول صادق على الذّبيحة ، لأنّ العرب كانوا يذكرون عند الذّبح أو النّحر اسم المقصود بتلك الذكاة ، يجهرون بذكر اسمه ،

ولذلك قيل فيه : أُهِلّ به لغير الله ، أي أُعلن .

والمعنى كلوا المذكّى ولا تأكلوا الميتة .

فما ذُكر اسم الله عليه كناية عن المذبوح لأنّ التّسمية إنَّما تكون عند الذّبح .

(85/248)

---

وتعليق فعل الإباحة بما ذكر اسم الله عليه ؛ أفهم أنّ غير ما ذكر اسم الله عليه لا يأكله المسلمون ، وهذا الغير يساوي معناه معنى ما ذكر اسمُ غير الله عليه ، لأنّ عادتهم أن لا يذبحوا ذبيحة إلاّ ذكروا عليها اسم الله ، إن كانت هديا في الحجّ ، أو ذبيحة للكعبة ، وإن كانت قرباناً للأصنام أو للجنّ ذكروا عليها اسم المتقرّب إليه .

فصار قوله : ﴿ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ﴾ مفيداً النّهي عن أكل ما ذُكر اسم غير الله عليه ، والنّهي عمّا لم يذكر عليه اسم الله ولا اسم غير الله ، لأنّ ترك ذكر اسم الله بينهم لا يكون إلاّ لقصد تجنّب ذكره .

وعلم من ذلك أيضاً النّهي عن أكل الميتة ونحوها ، ممّا لم تقصد ذكاته ، لأنّ ذكر اسم الله أو اسم غيره إنَّما يكون عند إرادة ذبح الحيوان .

كما هو معروف لديهم ، فدلت هذه الجملة على تعيين أكل ما ذكّي دون الميتة ، بناء على

عرف المسلمين لأنّ النّهي موجّه إليهم .

وممّا يؤيّد ذلك : ما في "الكشاف" ، أنّ الفقهاء تأوّلوا قوله الآتي : " ولا تأكلوا ممّا لم يذكر اسم الله عليه " بأنّه أراد به الميتة ، وبناء على فهم أن يَكون قد ذُكر اسم الله عليه عند ذكاته دون ما ذكر عليه اسم غير الله ، أخذا من مقام الإباحة والاقتصارِ فيه على هذا دون غيره ، وليس في الآية صيغة قصر ، ولا مفهوم مخالفة ، ولكن بعضها من دلالة صريح اللّفظ ، وبعضها من سياقه ، وهذه الدّلالة الأخيرة من مستتبعات التّراكيب المستفادة بالعقل الّتي لا توصف بحقيقة ولا مجاز .

وبهذا يُعلم أن لا علاقة للآية بحكم نسيان التّسمية عند الذّبح ، فإنّ تلك مسألة أخرى لها أدلَّتها وليس من شأن التّشريع القرآني التعرّض للأحوال النّادرة .

و"على" للاستعلاء المجازي ، تدلّ على شدّة اتَّصال فعل الذّكر بذات الذّبيحة ، بمعنى أن يذكر اسم الله عليها عند مباشرة الذّبح لا قبله أو بعده .

وقوله : ﴿ إن كنتم بآياته مؤمنين ﴾ تقييد للاقتصار المفهوم : من فعل الإباحة ، وتعليقِ المجرور به ، وهو تحريض على التزام ذلك ، وعدم التّساهل فيه ، حتّى جعل من علامات كون فاعله مؤمناً ، وذلك حيث كان شعارُ أهل الشّرك ذكرَ اسم غير الله على معظم الذّبائح .

فأمّا ترك التّسمية : فإن كان لقصد تجنّب ذكر اسم الله فهو مساو لذكر اسم غير الله ، وإن

كان لسهو فحكمه يُعرف من أدلّة غير هذه الآية ، منها قوله تعالى : ﴿ ربَّنا لا تؤاخذنا إن نسينا ﴾ [ البقرة : 286 ] وأدلّة أخرى من كلام النّبيء صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

(86/248)

---

فائدة

قال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ ظَاهِرُهُ أَمْرٌ وَمَعْنَاهُ الْإِبَاحَةُ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾ ﴿ فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ هَذَا إذَا أَرَادَ بِأَكْلِهِ التَّلَذُّذَ فَهُوَ إبَاحَةٌ وَيَحْتَمِلُ التَّرْغِيبَ فِي اعْتِقَادِ صِحَّةِ الْإِذْنِ فِي أَكْلِهِ لِلِاسْتِعَانَةِ بِهِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَيَكُونُ أَكْلُهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ مَأْجُورًا وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ : ﴿ إنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ يَدُلُّ عَلَى حَظْرِ أَكْلِ مَا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ لِاقْتِضَائِهِ مُخَالَفَةَ الْمُشْرِكِينَ فِي أَكْلِ مَا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَوْلُهُ ﴿ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ عُمُومٌ فِي سَائِرِ الْأَذْكَارِ ، وَيُحْتَجُّ بِهِ عَلَى جَوَازِ أَكْلِ ذَبْحِ الْغَاصِبِ لِلشَّاةِ الْمَغْصُوبَةِ وَفِي الذَّبْحِ بِسِكِّينٍ مَغْصُوبَةٍ أَنَّ الْمَالِكَ لِلشَّاةِ لَهُ أَكْلُهَا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ

اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ إذْ كَانَ ذَلِكَ مِمَّا قَدْ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(87/248)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾

في هذه الفَاءِ وجهان :

أحدهما : أنَّها جواب شَرْط مُقدَّر .

قال الزَّمخْشَريُّ بعد كلام : فقيل للمُسْلِمين : إن كُنْتم مُتَحَقِّقين بالإيمان ، فكُلوا [ وذلك أنَّهم كانوا يَقُلون للمُسْلِمين : إنَّكم تَزْعُمون أنَّكم تَعْبُدُون اللَّه ، فما قتله الله أحَقُّ أن تَأْكُلُوا ممَّا قَتَلْتُمُوه أنْتُم ، وقال الله – تعالى – للمسلمين : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ ﴾ .

والثاني : أنها عَاطِفَة على مَحْذُوف .

قال الواحدي : " ودخَلَت الفاءُ للعطْف على ما دلَّ عليه أوَّل الكلام ، كأنه قِيل : كونوا على الهُدَى ، فكُلُوا " .

والظَّاهر : أنَّها عَاطِفة على ما تقدَّم من مَضْمُون الجُمَل المُتقدّمَة كأنه قيل : " اتَّبِعُوا ما أمركُم اللَّه تعالى من أكْلِ المُذَكَّى دون الميتة ، فكُلُوا " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 400 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآَيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (118) ﴾

هذا في حكم التفسير مختص بالذبيحة ، وفي معنى الإشارة منع الأكل على الغفلة ، فإن من أكل على الغفلة فما دامت تلك القوةُ باقيةً فيه فخواطره إما هواجس النَّفْس أو وساوس الشيطان .

أهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 496. 497 ﴾

*(88/248)*

---

قوله تعالى ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (119) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

﴿ وما لكم ﴾ أي أيّ شيء يكون لكم في ﴿ ألا تأكلوا مما ذكر ﴾ أي يقبل أن يذكر ﴿ اسم الله ﴾ أي الذي له كل شيء ﴿ عليه ﴾ فإن التسمية قائمة مقام إذنه ﴿ وقد ﴾ أي والحال أنه قد ﴿ فصل لكم ﴾ أي من قبل ذلك والخلق خلقه والأمر أمره ﴿ ما حرم عليكم ﴾ أي مما لم يحرم تفصيلاً واضح البيان ظاهر البرهان ﴿ إلا ما اضطررتم إليه ﴾ أي فإن الضرورة تزيل التفصيل عنه برده إلى ما كان عليه قبل التفصيل ؛ فيصير الكل حلالاً لا تفصيل فيه ، والمراد في هذه الآية مختلف باختلاف المخاطبين ، فأما من خوطب بها وقت الإنزال فالمراد بالتفصيل الذي آتاه الآية الآتية أخير هذه فإنها نزلت جملة ، وكذا كل ما شاكلها مما أنزل بمكة قبل هذه السورة ، وكذا ما أخبر به صلى الله عليه وسلم في وحي متلو إذ ذاك ، ولعله نسخت تلاوته وبقي حكمه ، أو وحي غير متلو من جميع الأحاديث التي تقدمت على هذه السورة ، وأما من خوطب بها بعد ترتيبه على هذا الوجه فالمراد في حقه كما في البقرة والمائدة وغيرهما من السور الماضية – من الحلال والحرام .

*(89/248)*

ولما كان التقدير : من عمل بهذه الأوامر اهتدى بما نال من العلم وهم قليل ، عطف عليه قوله : ﴿ وإن كثيراً ﴾ أي من الناس ﴿ ليضلون ﴾ أي يقع منهم الضلال فيوقعون غيرهم فيه بنكوبهم عما دعت إليه أوامر الله وهدى إليه بيانه ، فيكونون بمعرض العطب ﴿ بأهوائهم ﴾ أي بسبب اتباعهم للهوى ؛ ولما كان الهوى – وهو ميل النفس – ربما كان موافقاً لما أدى إليه العم بصحيح الفكر وصريح العقل قال : ﴿ بغير علم ﴾ أي دعا إلى ذلك ممن له العلم من شريعة ماضية ممن له الأمر .

ولما كانوا ينكرون هذا ، أثبت لنفسه الشريفة ما هو مسلم عند كل أحد وقال دليلاً على صحة ما أخبر به : ﴿ إن ربك ﴾ أي المحسن إليك بإنزال هذا الكتاب شاهداً لك بإعجازه بالتصديق ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ أعلم ﴾ وكان الموضع للإضمار فأظهر للتعميم والتنبيه على الوصف الذي أوجب لهم ذلك فقال : ﴿ بالمعتدين ﴾ أي الذين يتجاوزون الحدود مجتهدين في ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 702 . 703 ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ نافع وحفص عن عاصم ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ بالفتح في الحرفين ، وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو بالضم في الحرفين ، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿ فَصَّلَ ﴾ بالفتح ﴿ وَحَرَّمَ ﴾ بالضم ، فمن قرأ بالفتح في الحرفين فقد احتج

بوجهين : الأول : أنه تمسك في فتح قوله : ﴿ فَصَّلَ ﴾ بقوله : ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الأيات ﴾ [ الأنعام : 97 ، 98 ، 126 ] وفي فتح قوله : ﴿ حَرَّمَ ﴾ بقوله : ﴿ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ ﴾ [ الأنعام : 151 ] .

*(90/248)*

---

والوجه الثاني : التمسك بقوله : ﴿ مِمَّا ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ فيجب أن يكون الفعل مسنداً إلى الفاعل لتقدم ذكر اسم الله تعالى ، وأما الذين قرؤا بالضم في الحرفين فحجتهم قوله : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة والدم ﴾ [ المائدة : 3 ] وقوله : ﴿ حرمات ﴾ تفصيل لما أجمل في هذه الآية ، فلما وجب في التفصيل أن يقال : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة ﴾ بفعل ما لم يسم فاعله وجب في الإجمال كذلك وهو قوله : ﴿ مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ ولما ثبت وجوب ﴿ حَرَّمَ ﴾ بضم الحاء فكذلك يجب ﴿ فَصَّلَ ﴾ بضم الفاء لأن هذا المفصل هو ذلك المحرم المجمل بعينه .

وأيضاً فإنه تعالى قال : ﴿ وَهُوَ الذى أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الكتاب مُفَصَّلاً ﴾ [ الأنعام : 114 ] وقوله : ﴿ مُفَصَّلاً ﴾ يدل على فصل .

وأما من قرأ ﴿ فَصَّلَ ﴾ بالفتح وحرم بالضم فحجته في قوله : ﴿ فَصَّلَ ﴾ قوله : ﴿ قَدْ

فَصَّلْنَا الأيات ﴾ وفي قوله : ﴿ حَرَّمَ ﴾ قوله : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة ﴾ . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 135.136 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ ﴾

المعنى : ما المانع لكم من أكل ما سمّيتم عليه ربّكم وإن قتلتموه بأيديكم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ ﴾

إنكار لأن يكون لهم شيء يدعوهم إلى الاجتناب عن أكل ما ذكر اسم الله تعالى عليه ، فما للاستفهام الإنكاري وليست نافية كما قيل وهي مبتدأ و ﴿ لَكُمْ ﴾ الخبر وأن تأكلوا بتقدير حرف الجر أي في أن تأكلوا ، والخلاف في محل المنسبك بعد الحذف مشهور .

*(91/248)*

---

وجوز أن يكون ذلك حالا ، ورد بأن المصدر المؤول من أن والفعل لا يقع حالا كما صرح به سيبويه لأنه معرفة ولأنه مصدر بعلامة حرف الاستقبال المنافية للحالية إلا أن يؤول بنكرة

أو يقدر مضاف أي ذوي أن لا تأكلوا ومفعول ﴿ تَأْكُلُواْ ﴾ كما قال أبو البقاء : محذوف أي شيئاً مما الخ ، قيل : وظاهر الآية مشعر بأنه يجوز الأكل مما ذكر اسم الله تعالى عليه وغيره معا وليست من التبعيضية لإخراجه بل لإخراج ما لم يؤكل كالروث والدم وهو خارج بالحصر السابق فلا تغفل ، وسبب نزول الآية على ما قاله الإمام أبو منصور أن المسلمين كانوا يتحرجون من أكل الطيبات تقشفاً ونزهداً فنزلت . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾

عطف على قوله : ﴿ فكلوا ممّا ذكر اسم الله عليه ﴾ [ الأنعام : 118 ] .

والخطاب للمسلمين .

و﴿ مَا ﴾ للاستفهام ، وهو مستعمل في معنى النّفي : أي لا يَثبت لكم عدم الأكل ممّا ذُكر اسم الله عليه ، أي كلوا ممّا ذكر اسم الله عليه .

واللام للاختصاص ، وهي ظرف مستقرّ خبر عن ( ما ) ، أي ما استقرّ لكم .

و﴿ أن لا تأكلوا ﴾ مجرور بـ ( في ) محذوفة .

مع ( أنْ ) .

وهي متعلّقة بما في الخبر من معنى الاستقرار ، وتقدّم بيان مثل هذا التّركيب عند قوله تعالى : ﴿ قالوا وما لَنا أَلاَّ نقاتل في سبيل الله ﴾ في سورة البقرة ( 246 ) .

*(92/248)*

---

ولم يفصح أحد من المفسّرين عن وجه عطف هذا على ما قبله ، ولا عن الدّاعي إلى هذا الخطاب ، سوى ما نقله الخفاجي في حاشية التّفسير ﴾ عمّن لقَّبه علم الهدى ولعلّه عنى به الشّريف المرتضى : أنّ سبب نزول هذه الآية أنّ المسلمين كانوا يتحرّجون من أكل الطّيّبات ، تقشّفاً وتزهّداً انتهى انتهى . ا هـ ، ولعلّه يريد تزهّداً عن أكل اللّحم ، فيكون قوله تعالى : ﴿ وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ﴾ استطراداً بمناسبة قوله قبله : ﴿ فكلوا ممّا ذكر اسم الله عليه ﴾ [ الأنعام : 118 ] ، وهذا يقتضي أنّ الاستفهام مستعمل في اللّوم ، ولا أحسب ما قاله هذا الملقّب بعلم الهدى صحيحاً ولا سند له أصلاً .

قال الطّبري : ولا نعلم أحداً من سلف هذه الأمّة كفّ عن أكل ما أحلّ اللّه من الذّبائح .

والوجه عندي أنّ سبب نزول هذه الآية ما تقدّم آنفاً من أنّ المشركين قالوا للنّبيء صلى الله عليه وسلم وللمسلمين ، لمّا حَرّم الله أكل الميتة : " أنأكل ما نَقتل ولا نَأكل ما يقتلُ اللّهُ " يعنون الميتة ، فوقع في أنفس بعض المسلمين شيء ، فأنزل الله ﴿ وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم

الله عليه ﴾ أي فأنبأهم الله بإبطال قياس المشركين المُموِّه بأنّ الميتة أولى بالأكل ممّا قتله الذّابح بيده ، فأبدى الله للنّاس الفرق بين الميتة والمذكّى ، بأنّ المذكّى ذُكر اسم الله عليه ، والميتة لا يذكر اسم الله عليها ، وهو فارق مؤثّر .

وأعرض عن محاجة المشركين لأنّ الخطاب مسوق إلى المسلمين لإبطال محاجّة المشركين فآل إلى الرد على المشركين بطريق التعريض .

*(93/248)*

---

وهو من قبيل قوله في الردّ على المشركين ، في قولهم : ﴿ إنَّما البيعُ مثل الرّبا ﴾ [ البقرة : 275 ] ، إذ قال : ﴿ وأحلّ الله البيع وحرّم الرّبا ﴾ [ البقرة : 275 ] كما تقدّم هنالك ، فينقلب معنى الاستفهام في قوله : ﴿ وما لكم أن لا تأكلوا ﴾ إلى معنى : لا يسوِّلْ لكم المشركون أكل الميتة ، لأنّكم تأكلون ما ذكر اسم الله عليه ، هذا ما قالوه وهو تأويل بعيد عن موقع الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾

أكثر المفسرين قالوا : المراد منه قوله تعالى في أول سورة المائدة : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمُ الخنزير ﴾ وفيه إشكال : وهو أن سورة الأنعام مكية وسورة المائدة مدنية ، وهي آخر ما أنزل الله بالمدينة .

وقوله : ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ ﴾ يقتضي أن يكون ذلك المفصل مقدماً على هذا المجمل ، والمدني متأخر عن المكي ، والمتأخر يمتنع كونه متقدماً .

بل الأولى أن يقال المراد قوله بعد هذه الآية : ﴿ قُل لا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا على طَاعِمٍ يطعمه ﴾ [ الأنعام : 145 ] .

وهذه الآية وإن كانت مذكورة بعد هذه الآية بقليل إلا أن هذا القدر من التأخير لا يمنع أن يكون هو المراد والله أعلم .

وقوله : ﴿ إِلاَّ مَا اضطررتم إِلَيْهِ ﴾ أي دعتكم الضرورة إلى أكله بسبب شدة المجاعة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 136 ﴾

*(94/248)*

وقال القرطبى :

﴿ وَقَدْ فَصَّلَ ﴾ أي بيّن لكم الحلال من الحرام ، وأزيل عنكم اللبس والشك .

ف"ما" استفهام يتضمن التقرير .

وتقدير الكلام : وأي شيء لكم في ألا تأكلوا .

ف"أنْ" في موضع خفض بتقدير حرف الجر .

ويصحّ أن تكون في موضع نصب على ألا يقدّر حرف جر ، ويكون الناصب معنى الفعل الذي في قوله "مَا لَكُمْ" تقديره أي ما يمنعكم .

ثم استثنى فقال ﴿ إِلاَّ مَا اضطررتم إِلَيْهِ ﴾ يريد من جميع ما حرّم كالميتة وغيرها كما تقدّم في "البقرة" .

وهو استثناء منقطع .

وقرأ نافع ويعقوب "وقد فَصَّل لكم ما حَرّم" بفتح الفعلين .

وقرأ أبو عمرو وابن عامر وابن كَثير بالضم فيهما ، والكوفيون "فَصَّل" بالفتح "حُرِّم" بالضم .

وقرأ عطية العَوْفي "فَصَل" بالتخفيف .

ومعناه أبان وظهر ؛ كما قرىء ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ [ هود : 1 ] أي استبانت .

واختار أبو عبيدة قراءة أهل المدينة .

وقيل : "فصل" أي بيّن ، وهو ما ذكره في سورة "المائدة" من قوله : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمُ الخنزير ﴾ [ المائدة : 3 ] الآية .

قلت هذا فيه نظر ؛ فإن "الأنعام" مكية والمائدة مدنِية فكيف يحيل بالبيان على ما لم ينزل بعد ، إلا أن يكون فصّل بمعنى يفصّل . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

*(95/248)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ بقوله تعالى : ﴿ قُل لا أَجِدُ فِيمَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ﴾ [ الأنعام : 145 ] الآية فبقي ما عدا ذلك على الحل ، وقيل بقوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة والدم ﴾ [ المائدة : 3 ] واعترضه الإمام بأن سورة المائدة من أواخر ما نزل بالمدينة وهذه مكية كما علمت فلا يتأتى ذلك وأما التأخر في التلاوة فلا يوجب التأخر في النزول فلا يضر تأخر ﴿ قُل لا أَجِدُ ﴾ الخ عن هذه الآية في هذه السورة ، وقيل : التفصيل بوحي غير متلو ، والجملة حالية مؤكدة للإنكار السابق .

قرأ أهل الكوفة غير حفص "فصل . . .

ما حرم" ببناء الأول للفاعل والثاني للمفعول .

وقرأ أهل المدينة وحفص ويعقوب وسهل "فصل" "وحرم" كليهما بالبناء للفاعل .

وقرأهما الباقون بالبناء للمفعول .

(96/248)

---

﴿ إِلاَّ مَا اضطررتم إِلَيْهِ ﴾ أي دعتكم الضرورة إلى أكله بسبب شدة المجاعة ، وظاهر تقرير الزمخشري كما قال العلامة الثاني يقتضي أن ( ما ) موصولة فلا يستقيم غير جعل الاستثناء منقطعاً أي لكن الذي اضطررتم إلى أكله مما هو حرام عليكم حلال لكم حال الضرورة ، وجوز عليه الرحمة جعله استثناء من ضمير "حرم" و( ما ) مصدرية في معنى المدة أي فصل لكم الأشياء التي حرمت عليكم إلا وقت الاضطرار إليها ، واعترض بأنه لا يصح حينئذ الاستثناء من الضمير بل هو استثناء مفرغ من الظرف العام المقدر كأنه قيل : حرمت عليكم كل وقت إلا وقت الخ ، ومن الناس من أورد هنا شيئاً لا أظنه مما يضطر إليه حيث قال بعد كلام : والمهم في هذا المقام بيان فائدة ﴿ إِلاَّ مَا اضطررتم ﴾ ، وقد أعني عنه قوله سبحانه : ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ لأن تفصيل ما حرم يتضمن قوله

تعالى : ﴿ إِلاَّ مَا اضطررتم إِلَيْهِ ﴾ وكأن الفائدة فيه والله تعالى أعلم المبالغة في النهي عن الإمتناع عن الأكل بأن ما حرم يصير مما لا يؤكل بخلاف ما حل فإنه لا يصير مما لا يؤكل فكيف يجتنب عما يؤكل فتأمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ وقد فصل لكم ما حرم عليكم ﴾ جملة في موضع الحال مبيّنة لما قبلها ، أي لا يصدّكم شيء من كلّ ما أحلّ الله لكم ، لأنّ الله قد فصّل لكم ما حرّم عليكم فلا تعدوه إلى غيره .

(97/248)

---

فظاهر هذا أنّ الله قد بيّن لهم ، من قَبْلُ ، ما حرّمه عليهم من المأكولات ، فلعلّ ذلك كان بوحي غير القرآن ، ولا يصحّ أن يكون المراد ما في آخر هذه السّورة من قوله : ﴿ قُل لا أجد فيما أوحي إليّ محرّما ﴾ [ الأنعام : 145 ] الآية ، لأنّ هذه السّورة نزلت جملة واحدة على الصّحيح ، كما تقدّم في ديباجة تفسيرها ، فذلك يناكِد أن يكون المتأخّر في التّلاوة متقدّماً نزولهُ ، ولا أن يكون المراد ما في سورة المائدة ( 3 ) في قوله : ﴿ حُرّمت عليكم الميتة ﴾ لأنّ سورة المائدة مدنيّة بالاتّفاق ، وسورة الأنعام هذه مكّيّة بالاتِّفاق .

وقوله : إلا ما اضطررتم إليه ﴾ استثناء من عائد الموصول ، وهو الضّمير المنصوب بـ ﴿ حرّم ﴾ ، المحذوف لكثرة الاستعمال ، و ﴿ ما ﴾ موصولة ، أي إلاّ الّذي اضطُررتم إليه ، فإنّ المحرّمات أنواع استثني منها ما يضطرّ إليه من أفرادها فيصير حلالاً .

فهو استثناء متّصل من غير احتياج إلى جعل ﴿ ما ﴾ في قوله : ﴿ ما اضطررتم ﴾ مصدريّة .

وقرأ نافع ، وحمزة ، والكسائي ، وعاصم ، وأبو جعفر ، وخلف : ﴿ وقد فصل ﴾ ببناء الفعل للفاعل .

وقرأه ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر بالبناء للمجهول .

وقرأ نافع ، وحفص عن عاصم ، وأبو جعفر : ﴿ ما حرم ﴾ بالبناء للفاعل ، وقرأه الباقون : بالبناء للمجهول .

والمعنى في القراءات فيهما واحد .

والاضطرار تقدّم بيانه في سورة المائدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ لَّيُضِلُّونَ ﴾ بفتح الياء وكذلك في يونس ﴿ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ ﴾ [

يونس : 88 ] وفي إبراهيم ﴿ لِيُضِلُّواْ ﴾ [ إبراهيم : 30 ] وفي الحج ﴿ ثَانِىَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ ﴾ [ الحج : 9 ] وفي لقمان ﴿ لَهْوَ الحديث لِيُضِلَّ ﴾ [ لقمان : 6 ] وفي الزمر ﴿ أَندَاداً لِّيُضِلَّ ﴾ [ الزمر : 8 ] وقرأ عاصم وحمزة والكسائي جميع ذلك بضم الياء .

*(98/248)*

---

وقرأ نافع وابن عامر ههنا وفي يونس بفتح الياء ، وفي سائر المواضع بالضم ، فمن قرأ بالفتح أشار إلى كونه ضالاً ، ومن قرأ بالضم أشار إلى كونه مضلاً .

قال : وهذا أقوى في الذم لأن كل مضل فإنه يجب كونه ضالاً ، وقد يكون ضالاً ولا يكون مضلاً ، فالمضل أكثر استحقاقاً للذم من الضال .

فائدة :

المراد من قوله : ﴿ لَّيُضِلُّونَ ﴾ قيل إنه عمرو بن لحي ، فمن دونه من المشركين .

لأنه أول من غير دين إسمعيل واتخذ البحائر والسوائب وأكل الميتة .

وقوله : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ يريد أن عمرو بن لحي أقدم على هذه المذاهب عن الجهالة الصرفة والضلالة المحضة .

وقال الزجاج : المراد منه الذين يحللون الميتة ويناظرونكم في إحلالها ، ويحتجون عليها

بقولهم لما حل ما تذبحونه أنتم فبأن يحل ما يذبحه الله أولى .

وكذلك كل ما يضلون فيه من عبادة الأوثان والطعن في نبوة محمد عليه الصلاة والسلام فإنما يتبعون فيه الهوى والشهوة ، ولا بصيرة عندهم ولا علم .

فائدة :

دلت هذه الآية على أن القول في الدين بمجرد التقليد حرام ، لأن القول بالتقليد قول بمحض الهوى والشهوة ، والآية دلت على أن ذلك حرام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 136 ﴾ . بتصرف يسير .

*(99/248)*

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً لَيَضِلُّونَ ﴾

قرأ الكوفيون "يُضِلون" من أضل .

﴿ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ يعني المشركين حيث قالوا : ما ذبح الله بسِكّينه خير مما ذبحتم بسكاكينكم "بِغَيْرِ عِلْمٍ" أي بغير علم يعلمونه في أمر الذبح ؛ إذ الحكمة فيه إخراج ما حرّمه الله علينا من الدم بخلاف ما مات حَتْف أنْفه ؛ ولذلك شرع الذكاة في محل مخصوص ليكون

الذبح فيه سبباً لجذب كل دم في الحيوان بخلاف غيره من الأعضاء . والله أعلم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا ﴾ من الكفار ﴿ لَّيُضِلُّونَ ﴾ الناس بتحريم الحلال وتحليل الحرام كعمرو بن لحي وأضرابه الذين اتخذوا البحائر والسوائب وأحلوا أكل الميتة ، وعن الزجاج إن المراد بهذا الكثير الذين ناظروا في الميتة .

*(100/248)*

---

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب ﴿ لَّيُضِلُّونَ ﴾ بفتح الياء ﴿ بِأَهْوَائِهِم ﴾ الزائغة وشهواتهم الباطلة ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ مقتبس من الشريعة مستند إلى الوحي أو بغير علم أصلا كما قيل وذكر ذلك للإيذان بأن ما هم عليه محض هوى وشهوة ، وجوز أن يكون من قبيل قوله تعالى : ﴿ وَيَقْتُلُونَ الأَنبياء بِغَيْرِ حَقّ ﴾ [ آل عمران : 112 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ .

تحذير من التشبّه بالمشركين في تحريم بعض الأنعام على بعض أصناف النّاس .

وهو عطف على جملة : ﴿ وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ﴾ ، ويجوز أن يكون الواو للحال ، فيكون الكلام تعريضاً بالحذر من أن يكونوا من جملة من يضلّهم أهل الأهواء بغير علم .

وقرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، ويعقوب : ﴿ لَيَضِلُّون ﴾ بفتح الياء على أنّهم ضالّون في أنفسهم ، وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وخلف : بضمّ الياء على معنى أنَّهم يُضلّلون النّاس ، والمعنى واحد ، لأنّ الضالّ من شأنه أن يُضلّ غيره ، ولأنّ المُضلّ لا يكون في الغالب إلاّ ضالاً ، إلاّ إذا قصد التّغرير بغيره .

والمقصود التّحذير منهم وذلك حاصل على القراءتين .

والباء في ﴿ بأهوائهم ﴾ للسببيّة على القراءتين .

والباء في ﴿ بغير علم ﴾ للملابسة ، أي يضلّون مُنقَادِين للهوى ، مُلابسين لعَدم العلم .

والمراد بالعلم : الجزم المطابق للواقع عن دليل ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ إن يتَّبعون إلاّ الظن وإن هم إلاّ يَخْرصون ﴾ [ الأنعام : 116 ] .

ومن هؤلاء قادة المشركين في القديم ، مثل عَمْرو بن لُحَيّ ، أوّلِ من سنّ لهم عبادة الأصنام وبَحَّر البحيرة وسيَّب السائبة وحَمَى الحامِي ، ومَن بعده مثل الّذين قالوا : ( ما قتل اللَّهُ أولى بأن نأكله ممّا قتلنا بأيدينا ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بالمعتدين ﴾

قال الفخر :

المراد منه أنه هو العالم بما في قلوبهم وضمائرهم من التعدي وطلب نصرة الباطل والسعي في إخفاء الحق ، وإذا كان عالماً بأحوالهم وكان قادراً على مجازاتهم فهو تعالى يجازيهم عليها ، والمقصود من هذه الكلمة التهديد والتخويف . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 136 . 137 ﴾

*(101/248)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بالمعتدين ﴾ المتجاوزين ( لحدود ) الحق إلى الباطل والحلال إلى الحرام فيجازيهم على ذلك ، ولعل المراد بهم هذا الكثير ، ووضع الظاهر موضع ضميرهم لوسمهم بصفة الاعتداء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ إن ربك هو أعلم بالمعتدين ﴾ تذييل ، وفيه إعلام للرّسول صلى الله عليه وسلم بتوعّد الله هؤلاء الضالّين المضلين ، فالإخبار بعلم الله بهم كناية عن أخذه إيّاهم

بالعقوبة وأنَّه لا يفلتهم ، لأنّ كونه عالماً بهم لا يُحتاج إلى الإخبار به .

وهو وعيد لهم أيضاً ، لأنَّهم يسمعون القرآن ويُقرأ عليهم حين الدّعوة .

وذِكْرُ المعتدين ، عقب ذكر الضالّين ، قرينة على أنَّهم المراد وإلاّ لم يكن لانتظام الكلام مناسبة ، فكأنَّه قال : إنّ ربّك هو أعلم بهم وهم معتدون ، وسمّاهم الله معتدين .

والاعتداء : الظلم ، لأنَّهم تقلّدوا الضّلال من دون حجّة ولا نظر ، فكانوا معتدين على أنفسهم ، ومعتدين على كلّ من دَعوه إلى موافقتهم .

وقد أشار هذا إلى أنّ كلّ من تَكلَّم في الدّين بما لا يعلمه ، أو دعا النّاس إلى شيء لا يعلم أنّه حق أو باطل ، فهو معتد ظالم لنفسه وللنّاس ، وكذلك كلّ ما أفتى وليس هو بكفء للإفتاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

*(102/248)*

---

ومن فوائد الخازن فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وما لكم ألاّ تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ﴾

يعني وأي شيء لكم في أن لا تأكلوا وما يمنعكم من أن تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وهذا

تأكيد في إباحة ما ذبح على اسم الله دون غيره : ﴿ وقد فصل لكم ما حرم عليكم ﴾ يعني وقد بين لكم الحلال من الحرام فيما تطعمون .

وقال جمهور المفسرين : المراد بقوله وقد فصل لكم ما حرم عليكم المحرمات المذكورة في قوله تعالى : ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به ﴾ وأورد الإمام فخر الدين الرازي ها هنا إشكالاً فقال : في سورة الأنعام مكية وسورة المائدة من آخر ما أنزل الله تعالى بالمدينة ، وقد فصل يجب أن يكون ذلك المفصل متقدماً على هذا المحل والمدني متأخر على المكي فيمتنع كونه متقدماً ثم قال بل الأولى أن يقال قوله تعالى بعد هذه الآية ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير ﴾ وهذه الآية وإن كانت مذكورة بعد هذه الآية بقليل إلا أن هذا القدر من المتأخر لا يمنع أن يكون هو المراد قال كاتبه ولما ذكره المفسرون وجه وهو أن الله لما علم أن سورة المائدة متقدمة على سورة الأنعام في الترتيب لا في النزول حسن عود الضمير في قوله وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلى ما هو متقدم في الترتيب وهو قوله ﴿ حرمت عليكم الميتة ﴾ الآية والله أعلم بمراده .

قوله تعالى : ﴿ إلا ما اضطررتم إليه ﴾ يعني إلا أن تدعوكم الضرورة إلى أكله بسبب شدة المجاعة فيباح لكم ذلك عند الاضطرار ﴿ وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم ﴾ يعني وإن كثيراً من الذين يجادلونكم في أكل الميتة ويحتجون عليكم في ذلك بقولهم أتأكلون ما

تذبحون ولا تأكلون ما يذبحه الله ، وإنما قالوا هذه المقالة جهلاً منهم بغير علم منهم بصحة ما يقولون بل يتبعون أهواءهم ليضلوا أنفسهم وأتباعهم بذلك .

*(103/248)*

---

وقيل : المراد به عمرو بن لحي فمن دونه من المشركين لأنه أول من بحرَ البحائر وسيَّب السوائب وأباح الميتة وغير دين إبراهيم عليه السلام ﴿ إن ربك هو أعلم بالمعتدين ﴾ يعني إن ربك يا محمد هو أعلم بمن تعدى حدوده فأحل ما حرم وحرم ما أحل الله فهو يجازيهم على سوء صنيعهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وما لكم أن لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه ﴾

أي وأي غرض لكم في الامتناع من أكل ما ذكر اسم الله عليه ؟ وهو استفهام يتضمن الأنكار على من امتنع من ذلك أي لا شيء يمنع من ذلك ﴿ وقد فصل لكم ﴾ في هذه السورة لأنها على ما نقل مكية ، ونزلت في مرة واحدة فلا يناسب أن تكون ﴿ وقد فصل ﴾ راجعاً

إلى تفصيل البقرة والمائدة لتأخيرهما في النزول عن هذه السورة .

وقال الزمخشري : ﴿ قد فصل لكم ما حرم عليكم ﴾ مما لم يحرم عليكم وهو قوله : ﴿ حرمت عليكم الميتة ﴾ انتهى .

وذكرنا أن تفصيل التحريم بما في البقرة والمائدة لا يناسب ودعوى زيادة لا هنا لا حاجة إليها والمعنى على كونها نافية صحيح واضح ، و﴿ أن لا تأكلوا ﴾ أصله في أن لا تأكلوا فحذف في المتعلقة بما تعلق به لكم الواقع خبراً لما الاستفهامية ونفى ﴿ أن لا تأكلوا ﴾ على الخلاف أهو منصوب أو مجرور ومن ذهب إلى ﴿ أن لا تأكلوا ﴾ في موضع الحال أي تاركين الأكل فقوله : ضعيف لأن أن ومعمولها لا يقع حالاً وهذا منصوص عليه من سيبويه ، ولا نعلم مخالفاً له ممن يعتبر وله علة مذكورة في النحو والجملة من قوله : ﴿ وقد فصل ﴾ في موضع الحال .

*(104/248)*

---

وقرأ العربيان وابن كثير ﴿ فصل ﴾ و﴿ حرم ﴾ مبنياً للمفعول ونافع وحفص ﴿ فصل ﴾ و﴿ حرم ﴾ على بنائهما للفاعل والأخوان وأبو بكر ﴿ فصل ﴾ مبنياً للفاعل و﴿ حرم ﴾ مبنياً للمفعول وعطية كذلك إلا أنه خفف الصاد ومعنى ﴿ إلا ما اضطررتم إليه

﴿ من ﴿ ما حرم عليكم ﴾ في حالة الاختيار فإنه حلال لكم في حالة الاضطرار .

قال ابن عطية : وما يريد بها جميع ما حرم كالميتة وغيرها قال هو والحوفي ، وهي في موضع نصب بالاستثناء أو الاستثناء منقطع .

وقال أبو البقاء : ﴿ ما ﴾ في موضع نصب على الاستثناء من الجنس من طريق المعنى كأنه وبخهم بترك الأكل مما سمي عليه وذلك يتضمن إباحة الأكل مطلقاً .

﴿ وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم ﴾ أي وإن كثيراً من الكفار المجادلين في المطاعم وغيرها ليضلون بالتحريم والتحليل وبأهوائهم وشهواتهم بغير علم ، أي بغير شرع من الله بل بمجرد أهوائهم كعمرو بن لحي ومن دونه من المشركين كأبي الأحوص بن مالك الجشمي وبديل بن ورقاء الخزاعي وحليس بن يزيد القرشي الذين اتخذوا البحائر والسوائب .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ ليضلون ﴾ بفتح الياء هنا وفي يونس ﴿ ربنا ليضلوا ﴾ وفي إبراهيم ﴿ أنداداً ليضلوا ﴾ وفي الحج ﴿ ثاني عطفه ليضل ﴾ وفي لقمان ﴿ ليضل عن سبيل الله ﴾ وفي الزمر ﴿ أَنداداً ليضل ﴾ وضمها الكوفيون في الستة وافقهم الصاحبان إلا في يونس وهنا ففتح .

﴿ إن ربك هو أعلم بالمعتدين ﴾ أي بالمجاوزين الحد في الاعتداء فيحللون ويحرمون من غير إذن الله وهذا إخبار يتضمن الوعيد الشديد لمن اعتدى أي فيجازيهم على اعتدائهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا لَكُمْ أَن لا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ ﴾

(105/248)

---

إنكارٌ لأن يكون لهم شيءٌ يدعوهم إلى الاجتناب عن أكل ما ذُكر عليه اسمُ الله تعالى من البحائر والسوائبِ ونحوِها وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم ﴾ الخ ، جملةٌ حاليةٌ مؤكدةٌ للإنكار كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَنَا أَن لا نقاتل فِى سَبِيلِ الله وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن ديارنا وَأَبْنَائِنَا ﴾ أي وأيُّ سببٍ حاصلٍ لكم في ألا تأكُلوا مما ذكر اسمُ الله عليه ، أو وأيُّ غرضٍ يحمِلُكم على أن لا تأكلوا ويمنعُكم من أكله والحالُ أنه قد فصل لكم ﴿ مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ بقوله تعالى : ﴿ قُل لا أَجِدُ فِيمَا أُوْحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا ﴾ الخ ، فبقي ما عدا ذلك على الحِلّ لا بقوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة ﴾ الخ ، لأنها مدنية ، وأما التأخرُ في التلاوة فلا يوجبُ التأخّرَ في النزول ، وقرىء الفعلان على البناء للمفعول وقرىء الأول على البناء للفاعل والثاني للمفعول ﴿ إِلاَّ مَا اضطررتم إِلَيْهِ ﴾ مما حرّم فإنه أيضاً حلالٌ حينئذ ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا ﴾ أي من الكفار ﴿ لَّيُضِلُّونَ ﴾ الناسَ بتحريم الحلالِ وتحليلِ الحرام كعمرو بنِ

لُحَيّ وأضرابِه وقرىء يَضِلّون ﴿ بِأَهْوَائِهِم ﴾ الزائغةِ وشهواتِهم الباطلة ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ مقتبسٍ من الشريعة الشريفة مستندٍ إلى الوحي ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بالمعتدين ﴾ المتجاوزين لحدود الحقِّ إلى الباطل والحلالِ إلى الحرام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

*(106/248)*

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (117) ﴾

وساعة ترى " هو " هذه فاعرف أنها تَرُدّ وتجيب على ما يمكن أن يقال ، فهناك من يقول : أنا سوف أرى تصرفات فلان ، ولأنك من البشر فمهما علمت عنه فأنت محدود الإدراك ؛ لأنك سترى تصرفات فقط ، ولن ترى انفعالات قلبه وتقلبات عقله ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الأعلم ؛ لأن الميزان كله عنده ، إنه يدرك الظاهر والباطن ، وهو سبحانه يقول هنا : " أعلم " وهناك " عليم " ، و" العليم " هو من يرى ظاهر الأمر ويحيط به ، لا الخافي منه ، أما الذي يرى الظاهر والخفي فهو أعلم .

ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم في مسائل كثيرة يعامل الناس بعلانيتهم ، ويترك سرائرهم إلى الله . " وعندما قتل مسلم رجلاً أعلن الإسلام ، سأله صلى الله عليه وسلم لماذا ؟ ، قال : لأنه أعلن الإسلام نفاقاً . فقال صلى الله عليه وسلم : أشققت عن قلبه ؟ ! "

وسبحانه وتعالى " أعلم " ؛ لأنه يعلم الظاهر والباطن ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

ويقول الحق :

(107/248)

---

﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ * وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضطررتم إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بالمعتدين ﴾

ما الذي أدخل هذه المسألة في هذا السياق ؟ لقد تكلم الحق عن أن هناك أعداء لكل نبي يلتمسون ثغرة في منهجه ليتكلموا فيها ، وهذه هي مهمتهم التي هيأها الله لهم ، فحين يقولون الاعتراضات نجد المنهج يرد عليهم وبذلك تنتفع الدعوة إلى أن تقوم الساعة .

مثال ذلك نجد الجماعة الذين عارضوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإسراء والمعراج ، فحين قال لهم : أنني أسرى بي إلى المسجد الأقصى وعرج بي إلى السماء في ليلة واحدة ، التمسوا له ثغرة لينفذوا منها ويضللوا غيرهم وقالوا له : أتدّعي أنك أتيتنا في ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؟ ! ! لكنْ أبو بكر الصديق قال : إن كان قال فقد صدق ، وهذا هو الإيمان الذي يحسن استقبال الأمر المخالف للنواميس . ويجادلون أبا بكر ، فيقول : أنا صدقته في خبر السماء فكيف أكذبه في ذلك ، ما دام قال فقد صدق ، وهذا كلام منطقي .

لكنَّ المعارضين لرسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : أتدّعي أنك أتيتها في ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ! فأعطى صلى الله عليه وسلم لهم الأمارات ووصف لهم العير التي في الطريق ، وغير ذلك من العلامات التي تجعل من الأمر حجة إلى يوم القيامة ، ولو مرّت مسألة الإسراء والمعراج من غير أن يعترض أحد من الأعداء ، لما وجدنا الحرارة في تصديقها .

*(108/248)*

إننا نجد حالياً من يقول : وهل من المعقول أنه صلى الله عليه وسلم راح إلى بيت المقدس وجاء في ليلة ؟ لابد أن ذلك كان حلماً . لو لم يقولوا هم هذا ما كنا عرفنا الرد ؛ إنما هم قالوها حتى نعرف الرد ويظل الرد رادعاً إلى أن تقوم الساعة ، وهذه هي المهمة التي جعلها الله للأعداء ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لو قال لهم : إنني حلمت أني رحت بيت المقدس . أكان هناك من يعترض على أن يحلم النبي حتى ولو قال : إنه ذهب إلى آخر المعمورة إنه لا يجرؤ واحد أن يكذبه ، لكنهم ما داموا قد كذبوه ، ورفضوا تصديق الإسراء فهذا دليل على أنهم فهموا من الذهاب أنه ليس ذهاب رؤيا وإنما ذهاب قالب ، لقد فهموا عنه أنه انتقل بجسده من مكة إلى بيت المقدس ، ولذلك كذبوه ، وهذا التكذيب منهم ينفعنا الآن ، لنردَّ به على المكذبين المعاصرين .

إذن فوجد الأعداء يهيج القرائح التي يمكن أن نرد على أية شُبَهٍ يثيرها أي إنسان سواء أكان ماضياً أم معاصراً .

والحق هنا يقول : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ [ الأنعام 118 ]

هذه الآية لها قصة توضح كيف يحاول الأعداء اصطياد الثغرات لينفذوا منها ، وقالوا : يقول النبي لكم : إن الميتة لا يحل أن تأكلوا منها ، وما تذبحونه بأيديكم كلوا منه ، والذبح لون من الموت ، هذه هي الشبهة التي قالوها ، وهي أولاً مغالطة في الأساليب ؛ لأن الميتة غير

المذبوحة وغير المقتولة . فالمذبوحة إنما ذبحناها لنطهرها من الدم ؛ لذلك فالمناقشة الفقهية أو العلمية تهزم قولهم ؛ لأن هناك فرقاً بين الموت والقتل . فالموت هو أخذ للحياة بدون سلب للبنية ، إنما القتل هو سلب للبنية أولاً فتزهق الروح ويبقى الدم في الجسم . ثم هل يأخذ المشرع وهو الرب الأعلى الحكمة منّا أو أن الحكمة عنده هو وحده ؟ .

*(109/248)*

---

وقد تبين لنا في عصرنا أن غير المؤمنين بدأوا في الاهتداء إلى أن الميتة فيها كل الفضلات الضارة ، واهتدوا إلى إزالة كل الفضلات الضارة من الحيوانات التي يريدون أكلها ؛ لأن تكوين جسم الحيوان يتشابه مع تكوين جسم الإنسان ، فهو يأكل ويهضم ويمتص العناصر الغذائية ليتكون الدم والطاقة ، وفي الجسد أجهزة تصفي وتنقي الجسم من السموم الضارة ، فَالكُلْية مثلاً تصفّي الدم من البولينا وغيرها ، ويسير الدم ليمر على الرئة ليأخذ الأوكسيجين ، وكل ذلك لتخليص الجسد من الفضلات الضارة ، وأوعية الدم في الإنسان والحيوان فيها الدم الصالح والدم الفاسد ، والدم الفاسد هو الذي لم تتم تنقيته ، وعندما نذبح الذبيحة ينزل منها الدم الفاسد وغيره ، أي أننا ضحينا بالدم الصالح في سبيل وقايتنا من الدم الفاسد . لكنها إن ماتت دون ذبح ؛ فآثار الدمين الاثنين موجودة . وكذلك آثار

الفضلات التي كان يجب أن يتخلص منها ، وهذا ما نفعله في هذا الأمر ، لكن هل لنا مع الحق سبحانه وتعالى تعقل في شيء إلا في توثيق الحكم والاطمئنان إلى مجيئه منه جلت قدرته ؟

كان جدلهم انهم قالوا : أنتم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله ، فأنتم تظنون أنفسكم أحسن من الله ، وهذا افتراء منهم .

ثم إن الحيوان حين يموت لم يذكر عليه اسم الله ، لكن الذبيحة التي نذبحها نذكر عليها اسم الله ، فكأن الحق سبحانه وتعالى يوضح : فكلوا مما ذكر اسم الله عليه . أي غير الميتة وغير ما يذبح للأصنام . ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ [ الأنعام 118 ]

إنَّ تلقي أي حكم من الحق ، لا يصح أبداً أن نبحث عن علته أولاً ثم نؤمن به ، بل علينا بعد أن نثق بأنه من الله الذي آمنا به . علينا إذن أن نأخذ الحكم الذي أمر به الله .

*(110/248)*

---

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضطررتم إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالمعتدين ﴾ [ الأنعام

وللآيتين – كما علمنا – سبب نزلتا من أجله وهو أن بعض المعارضين لرسول الله الذين يقفون من الدعوة موقف التكذيب والعمل على إبطالها والقضاء عليها كانوا يُشيعون عند المؤمنين إشاعات قد تفت في عضدهم العقدي فعرضوا هذه المسألة وهي في ظاهرها تشكيك . وهم قد عرضوا القضية بهذا الشكل غير المتسق ؛ لأن من الذي قتل ؟ لقد قالوا : إن الميتة قتلها الله ، فهل الله هو الذي قطع رقبتها ؟ وهل ضربها الله على رأسها فأمات أصل إدارة الحياة وهو المخ ؟ هل صوّب شيئاً إلى قلبها ؟ سبحانه جل وعلا منزه عن مثل هذه الأفعال البشرية ، فكيف يسمون الموت قتلاً ؟ إن تسمية الموت قتلاً هو الخطأ ، فقولهم : كيف تبيحون لأنفسكم ما قتلتموه أي بالذبح . ولا تبيحون ما قتله الله أي أماته ، فيه مغالطة في عرض القضية ، ويريد الله سبحانه وتعالى أن يضع عند المؤمنين مناعة من هذه الهواجس التي يثيرونها ؛ فقال : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ [ الأنعام 118 ]

وما معنى الذكر ؟ إنّ عدم تحديد العلماء المعنى المقصود بالذكر ، هو الذي أوجد بينهم خلافاً كبيراً . فسيدنا الإمام مالك يرى أنك إذا ذبحت ولم تذكر اسم الله سواء أكنت ناسياً أم عامداً فلا يصح لك ان تأكل من الذبيحة . ويرى الإمام أبو حنيفة : إذا كنت لم تسم ناسياً فكل مما ذبحت ، لكن إن كنت عامداً فلا تأكل ، والإمام الشافعي – رضي الله عنه –

يرى : ما دمت مؤمناً ومقبلاً على الذبح وأنت مؤمن فَكُلْ مما لم تذكر اسم الله ناسياً أو عامداً لأن إيمانك ذكر لله .

*(111/248)*

---

ونقول : ما هو الذكر ؟ هل الذكر أن تقول باللسان ؟ أو الذكر أن يمر الشيء بالخاطر ؟ إن كنتم تقولون إنّ الذكر باللسان فلنبحث في الحديث القدسي الذي قاله الله تعالى : " أنا عند ظن عبدي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم . "

إذن فقد سمّي ربنا الخاطر في النفس ذكراً وبذلك يصبح من حق الإمام الشافعي أن يقول ما قال .

لذلك أقول : يجب أن نحدد معنى الذكر أولاً حتى ننهي الخلاف حول هذه المسألة ، فليس من المقبول أن نقيم معركة حول معنى " الذكر " ؛ لأن الذكر وهو خطور الأمر على البال قد يصحبه أن يخطر الأمر على اللسان مع الخطور على البال ، وقد يظل خطوراً على البال فقط ، بدليل ما جاء في الحديث السابق .

والمؤمن حين يجد أمامه أشياء كثيرة ، قد يوجد شيء جميل وآخر ليس له من الجمال شيء

؛ فالجاموسة أقل في الجمال من بعض الحيوانات التي حرم الله أكلها ، وأقبل المؤمنون على ذبح الجاموسة ليأكلوا منها . ولم نسمع عن مسلم تقدم إلى حيوان حرم الله أكله ليذبحه ، لماذا ؟ لأن المؤمن يقبل على ما أحل الله ، وهذا الإقبال دليل على أنه ذكر في نفسه المحلل والمحرم وهو الله ، إذن اختياره حيواناً للذبح دليل على أنه ذكر الله في النفس أو في القول ، وبهذا نتفق على أن ذكر المؤمن يكون في قلبه قال أو لم يقل ، وينتهي الخلاف في هذه المسألة . إذن الإمام الشافعي أخذ بهذه المسألة ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم حينما سئل عن أكل المسلم من ذبيحة لا يعرف من ذبحها وهل سمّى أو لم يسمّ ، أوضح لمن سأله : سمّ وكُلْ .

*(112/248)*

---

فالإنسان منا لا يحضر وقت الذبح دائماً ، ويكفيه أن يستحضر المحلل والمحرم ساعة الأكل . والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : اذكروا اسم الله ، وسبحانه يعلم أنك تقبل على أشياء لتفعلها . وهذه الأشياء تنقسم إلى قسمين : قسم يمر على بالك قبل أن تفعله ، وقسم لا يمر على بالك ، بل تفعله تلقائياً بدون ما يمر على البال ، ومثال ذلك الأفعال العكسية كلها التي يفعلها الإنسان إنها لا تمر على باله . فلو حدث أن حاول واحد أن يضع إصبعه في عين آخر ، فهذا الآخر يغمض عينيه تلقائياً . ويختلف ذلك عن الفعل الذي

تفكر فيه قبل أن تفعله . فالذي يفعل الفعل بعد أن يمر بخاطره هو فعل ذو بال . ولذلك أراد الرسول عليه الصلاة والسلام ألا يكلفنا عناء أو مشقة ؛ فقال : "كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم أقطع . "

والأمر ذو بال هو الأمر الذي يكون قد خطر على بالك أن تفعله أو لا تفعله .

إذن فالله سبحانه وتعالى لا يكلفنا إلا عند الأمر الذي يمر على الخاطر ؛ لأنك حين تقبل على أي فعل فينفعل لك كما تريد ، إن هذا من عطاء الله لك ، وأنت حين تذبح عجلاً ، أو خروفاً ، وتتأمل أنت كيف يُقدرك الله على هذا الكائن الحي . وإنك لم تفعل ذلك إلا لتسخير الله كُلَّ الكائنات لك . فباسم الله تذبحه .

إذن هناك أمور كثيرة وأفعال ذات بال تمر عليك ومن حسن الأدب والإيمان أن تقبل عليها باسم الله . ولذلك يخطئ بعض الناس حين يظنون أن الإنسان عندما يذبح حيواناً فهو يؤذيه . لا ، بل ذبح هذا الحيوان هو تكملة لمهمته في الحياة ؛ لأنه مخلوق لهذا الهدف ومذلل له .

*(113/248)*

لقد قلنا سابقاً : إن هناك عجيبة من عجائب المزاولات الفعلية ، هذه العجيبة أنك حين تأتي إلى الحيوانات التي لم يحلها الله للإنسان ، كالحمار مثلا إذا ما تعرضت هذه الحيوانات إلى ما يميتها ، كأن التف حول عنقه حبل ، واختنق فهو يموت دون أن يمد رقبته إلى الأمام ، لكن الحيوان الذي أحله الله للأكل ؛ مثل الجاموسة أو الخروف أو العجل ، نجد الحيوان من هذه الحيوانات إن اختنق يمد رأسه إلى الإمام ، فيقول أهل الريف في مصر : إنه يطلب الحلال ، أي الذبح . فلا يسمى ذبح الحيوان اعتداء عليه ؛ لأن الحيوان مخلوق لهذه المهمة . إذن فمعنى كلمة " باسم الله " أي أنني لم أجترئ على هذا العمل إلا في إطار اسم الله الذي أحل لي هذا .

بعد ذلك يقول الحق للمؤمنين : لا تسمعوا كلام الكافرين ، ويأتي السؤال الاستنكاري : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ ﴾ والمعنى : أي سبب يمنعكم من أن تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ؟ وقد فصل لكم ما حرم عليكم ، فما ذكر اسم الله عليه ليس من ضمن المحرمات التي نص الله عليها ، فربنا سبحانه هو من حلل وحرم . وإن قيل : ما دام قد حرم علينا بعض الأشياء فلماذا خلقت هذه الأشياء ؟

ونقول : إن من يفكر بمثل هذا الأسلوب يتناسى أن كل مخلوق من الحيوانات ليس مخلوقاً للأكل ، بل لكلٍ حيوان مهمة . وإن ذبحت محرماً ، فقد يناقص هذا الفعل مهمته فالخنزير – مثلاً – حرّمه ربنا ؛ إن ذبحته فستذهب به بعيداً عن مهمته ؛ لأنه مخلوق كي يلم جراثيم

الأشياء التي لا تراها العين ، فأنت حين تذبحه تخرجه عن مهمته . والحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان ، ويعلم ما يناسبه من غذاء يولد الطاقة ولا يهدر الصحة ؛ لذلك حرم وحلل له ، وإياك أن تقول : إن الله سبحانه وتعالى لم يحرم إلا الشيء الضار ؛ فقد حرم شيئاً غير ضار لأنه يريد بذلك الأدب في : " افعل هذا " و" لا تفعل هذا " .

*(114/248)*

---

ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [ النساء : 160 ]

وفي حياتنا اليومية هل تقول : إن الذين يربون أبناءنا في الجيش بالشدة ، يقسون على الأبناء ؟ لا ، بل إنهم يعدّونهم لمواجهة المهام الشاقة . وأن يتعوّدوا التزام الأدب والطاعة والانضباط ، فكذلك حلل الحق ما أراد وحرم ما شاء ليجعل الكون منضبطاً بقدرة الحكيم القادر ، فسبحانه يحرم أشياء مثل المخدرات ، ونحن في بعض الأحيان نتناولها لنداوي بها الأمراض ، فلو أخذها الإنسان من غير مرض أو داعٍ فإنّها تسرق الصحة من بنية الإنسان ، وإن أخذها من بعد ذلك للعلاج لا تأتي بالمفعول المطلوب منها . ولذلك نجد من الأطباء من يسأل الإنسان قبل إجراء الجراحات الدقيقة إن كان المريض قد تناول

المخدرات أو لا ، وذلك حتى يتعرف الأطباء على حقيقة ما يصلح له من ألوان التخدير .

وسبحانه وتعالى قد منع عنا تلك الألوان من مغيبات العقول ، لعلنا نحتاج إليها في لحظة الشدة والمرض .

إذن فالحق سبحانه وتعالى قد ربط كل حكم من الأحكام التحليلية والتحريمية ب " إن كنتم مؤمنين " ، ومعنى " إن كنتم مؤمنين " أي يا من آمنتم بالإِله الحكيم الذي لا يأمر إلا بما فيه مصلحتكم ، امتنعوا عن مثل تلك الأفعال ، وإذا أقبلت على أي شيء مما أحله الله لك فأقبل عليه باسم الله ، وسبحانه وتعالى له أسماء علمها لنا ، وأنزلها في كتابه ، وأسماء علمها لأحد من خلقه ، وأسماء استأثر بها في علم الغيب عنده ، وهذه الأسماء هي صفات الكمال لله ، التي لا توجد في غيره . وحين نستحضر الاسم الجامع لكل صفات الكمال نقول : باسم الله . وتنهي المسألة . وحين ناقش العلماء مسألة التحريم والتحليل ، قال بعضهم : إن الحق سبحانه وتعالى قال في أول سورة المائدة : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة ﴾ [ المائدة : 3 ]

*(115/248)*

وهنا في سورة الأنعام يقول : ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [ الأنعام : 119 ]

والمتنبهون من العلماء قالوا : إن سورة المائدة مدنية ، ومعنى كونها مدنية أنها نزلت بعد السورة المكية ، وسورة الأنعام مكية ، وهل يقول الحق في السورة المكية ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ في السورة المدنية ؟ وبعض العلماء الذين أعطاهم ربنا نور بصيرة قال : لقد فصل لكم في سورة المائدة وجاء أيضاً في سورة الأنعام فقال : ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَآ أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضطر غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [ الأنعام : 145 ]

أي فصل لك في هذه السورة المكية . وقد يأتي واحد من المولعين بالاعتراض أو من خصوم الإسلام ويقول : لم تذكر الآية كل الأشياء المحرمة لماذا ؟

ونقول : القرآن هو الخطوط الأساسية في المنهج ، وتأتي السنة بالتفصيل في إطار :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا . . ﴾ [ الحشر : 7 ]

والحق يقول هنا : ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضطررتم إِلَيْهِ . . ﴾ [ الأنعام : 119 ]

واضطرار هو أمر ملجئ إلى شيء غير الأسباب الكونية المشروعة . ومعنى كونه مضطراً أنه يلجأ إلى شيء فقد أسبابه المشروعة كالذي يريد أن يأكل ليستبقي الحياة ، فإذا لم يجد

من الحل ما يستبقي به الحياة فهو مضطر . ونقول له : خذ من غير ما أحل الله بالقدر الذي يدفع عنك الضرورة فكل من الميتة بقدر الضرورة ولا تشبع .

والحق يقول : ﴿ فَمَنِ اضطر فِي مَخْمَصَةٍ . . ﴾ [ المائدة : 3 ]

*(116/248)*

---

والمخمصة هي المجاعة . إذن فالاضطرار هو شيء فوق الأسباب المشروعة للعمل .

والله سبحانه وتعالى يعطي الإنسان الرخصة في أن يتناول ما حرمه إذا كان مضطراً . ﴿ إِلاَّ مَا اضطررتم إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ . . ﴾ [ الأنعام : 119 ]

والذين يضلون بأهوائهم بغير علم هم من أرادوا زراعة الشك في نفوس المسلمين ومعنى الضلال بالهوى أي أن تكون عالما بالقضية ، ولكن هواك يعدل بك عن مراد الحق من القضية . ولذلك يصف الحق رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى ﴾ [ النجم : 3 ]

وحين يقول الحق : ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِ ﴾ فمعنى ذلك أنه يوجد ضلال بغير هوى ، وهو عدم وصول الإنسان إلى الحقيقة ؛ لأنه لا يعرف الطريق إليها ، والضلال بالهوى أي أن تكون عندك الحقيقة وأنت عارف بدورها ولكنك تعدل عنها : ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ

بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ . . ﴾ [الأنعام: 119]

وساعة ترى مجيء متعلق بعد "يضلون" وهو قوله: ﴿ بِأَهْوَائِهِم ﴾ تقول كأن هناك ضلالاً بغير علم، وهو غير مذموم؛ لأن صاحبه لا يعرف الحكم في القضية، وهذا يختلف عن الذي يضل وهو يعرف الحكم، فهذا ضلال بالهوى، وهذا الفهم يحل لنا إشكالات كثيرة أيضاً. و﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي ليس عندهم علم بالقضية وأحكامها.

ويذيل الحق الآية بقوله: ﴿ . . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالمعتدين ﴾ [الأنعام: 119]

وقد أفسح الله في النص القرآني لبعض خلقه الذين يعرفون المهتدى من غير المهتدى، والكثير من الناس لا يعلمون المهتدى من غير المهتدى ولكن إن علموا فالله أعلم. انتهى

انتهى. اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(117/248)*

---

"فوائد لغوية وإعرابية"

قال ابن عادل:

قوله: "ومَا لَكُمْ" مُبْتَدأ وخبر، وقوله: "ألاَّ تَأْكُلُوا" فيه قولان:

أحدهما: هو حَذْف حَرْف الجرِّ، أى: أيُّ اسْتَقَرَّ في مَنْع الأكْل ممَّا ذكر اسْم اللَّه عليه؛ وهو

قول أبي إسْحَاق الزَّجَّاج فلما حُذِفَتْ " في " جَرَى القولان المَشْهُوران ، ولم يذكر الزَّمَخْشَرِيُّ غير هذا الوجه .

الثاني : أنَّها في محل نَصْب على الحال ، والتَّقْدير : وأيُّ شَيْء لَكُم تَاركين للأكْل ، ويؤيِّد ذلك وُقوع الحالِ الصَّريحة في مِثْل التَّركيب كَثِيراً ، نحو : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التذكرة مُعْرِضِينَ ﴾ [ المدثر : 49 ] إلاَّ أن هذا مَرْدُود بِوَجْهَيْن :

أحدهما : أنَّ " أنْ " تُخَلِّص الفِعْل للاسْتِقْبَال ، فكيف يَقَعُ ما بَعْدَها حالاً ؟

والثاني : أنَّها مع ما بعدها مُؤوَّلة بالمصدر ، وهو أشْبَه بالمُضْمَرَات كما تقدَّم تحريره ، والحال إنَّما تكُون نكرة .

قال أبو البقاء : إلاَّ أن يُقَدَّر حَذْفُ مُضاف ، فَيَجُوز ، أي : " وما لَكُم ذَوِي ألا تأكلوا " وفي تَكَلُّ ، فمفعول " تَأكُلُوا " مَحْذوف بَقِيتْ صفَته ، تقديره : " شَيْئاً مما ذُكِر اسْمُ اللَّه " ويجُوز ألاَ يُراد مَفْعُول ، بل المُراد : ومَال لكُم ألا يقع منكم الأكْل ، وتكون " مِنْ " لابْتِدَاء الغَاية ، أي : أن لا تَبْتَدِئُوا بالأكْل من المَذْكُور عليه اسم اللَّه ، وزُعِم ، أنَّ " لاَ " مَزِيدة ، وهذا فَاسِدٌ ؛ إذا لا داعِي لِزيَادتها .

قوله : " وقد فصَّل لَكُم ما حرَّم " قرأ ابْنُ كَثِير ، وأبُو عَمْرو ، وابنُ عَامِر : ببنائهما للمفعُول : ونافع ، وحفصٌ عن عاصم : ببنَائِهَما للفاعل ، وحمزة ، والكسَائِيُّ ، وأبُو بكر عن عاصم : ببناء الأوَّل للفاعل ، وبناء الثَّانِي للمَفْعُول ، ولم يأتي عكس هذه ، وقرأ عطيَّة العُوفيُّ كقراءة

الأَخَوَيْن ، إلاَّ أَنَّه خفف الصَّاد من " فَصَّل " والقَائِم مقام الفاعل : هو المَوْصُول ، وعائده من قوله : " حرَّم عَلَيْكُم " .

والفَاعِل في قراءة مَنْ بَنَى للفَاعِل ضمير اللَّه - تعالى - ، والجُمْلَة في محلِّ نَصْبٍ على الحالِ .

قوله : " إلاَّ ما اضْطُرِرْتُم إليه " في الاسْتِثْنَاء وجهان :

أحدهما : أَنَّه مُنْقَطِع ، قاله ابن عطيَّة والحُوفِي .

والثاني : أنه [ اسْتِثْنَاء ] متَّصِل .

(118/248)

---

قال أبو البقاء : " ما " في مَوْضِع نَصْبٍ على الاسْتِثْنَاء من الجِنْس من طريق المَعْنى ؛ لأنه وبِّخَهُم بترك الأكل مِمَّا سُمِّي عليه ، وذلك يَتَضَمَّن الإباحة مُطْلَقاً .

قال شهاب الدِّين : الأَوَّل أَوْضَح والاتِّصال قلق المَعْنَى ، ثم قال : " وقوله : " وقد فصَّل لَكُم ما حرَّم عليكم " أي : في حَال الاخْتِيَار ، وذلك حلالٌ حال الاضْطِرار " .

قوله : " وإنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّون " قرأ الكوفيُّون بضمِّ الياء ، وكذا الَّتِي في يُونس : ﴿ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ ﴾ [ الآية : 88 ] والباقون : بالفَتْح ، وسيأتي لذلك نَظَائِر في إبْراهيم وغيرها ، والقراءتان واضِحَتَان ؛ فإنه يُقال : ضلَّ في نَفْسَه ، وأَضَلَّ غيره ، فالمَفْعُول مَحْذُوف على

قراءة الكُوفيين : وهي أبْلَغ في الذمِّ ، فإنها تتضمَّن قُبْحَ فِعْلِهم ، حَيْث ضلوا في أنْفُسِهم ، وأضَلُّوا غيرهم ؛ كقوله – تعالى – : ﴿ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ السبيل ﴾ [ المائدة : 77 ] .

قيل المُراد به : عمرو بن لُحَيّ فمن دُونه من المشركين الَّذين اتخذوا البَحَائِر والسَّوَائِب

وقراءة الفَتح لا تُحوجُ إلى حذف ، فرجَّحها بَعْضُهم بهذا وأيضاً : فإنهم أجْمَعُوا على الفَتْح في " ص " عند قوله : ﴿ إِنَّ الذين يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ [ 26 ] .

وقوله : " بِأهْوَائِهم " متعلِّق بـ " يَضِلُّونَ " والباءُ سَبَبيَّة ، أي : اتِّباعهم أهْواءَهم ، وشهواتهم .

وقوله : " بغير عِلْم " متعلِّق بِمَحْذُوف ، لأنه حالٌ ، أي : يَضِلُّون مُصَاحِبين للجَهْلِ أي : مُلْتَبِسين بغير علمٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 400 . 402 ﴾ . باختصار .

*(119/248)*

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (119) ﴾

يعني أي شيء عليكم لو تركتم الغفلة ؟ وما الذي يضركم لو استدمتم الذكر ؟

وقد تبيَّن لكم الفَرْقُ بين أُنس الذكر ووحشة الغفلة في الحال والوقت ، أَلاَ تعرفوا حكم الثواب والعقاب في المآل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 497 ﴾

*(120/248)*

---

قوله تعالى ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (120) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان مما يقبل في نفسه في الجملة أن يذكر اسم الله عليه ما يحرم لكونه ملكاً للغير أو فيه شبهة ، نهى عنه على وجه يعم غيره ، فقال عطفاً على " فكلوا " ﴿ وذروا ﴾ أي اتركوا على أيّ حالة اتفقت وإن كنتم تظنونها غير صالحة ﴿ ظاهر الإثم ﴾ أي المعلوم الحرمة من

هذا وغيره ﴿ وباطنه ﴾ من كل ما فيه شبهة من الأقوال والأفعال والعقائد ، فإن الله جعل له في القلب علامة ، وهو أن يضطرب عنده ولا يسكن كما قال صلى الله عليه وسلم : " والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر " - أخرجه مسلم عن النواس بن سمعان رضي الله عنه ؛ ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إن الذين يكسبون الإثم ﴾ أي ولو بأخفى أنواع الكسب ، بما دل عليه تجريد الفعل ، وهو الاعتقاد للاسم الشريف .

ولما كان العاقل من خاف من مطلق الجزاء بني للمفعول قوله ﴿ سيجزون ﴾ أي بوعد لا خلف فيه ﴿ بما ﴾ أي بسبب ما ﴿ كانوا ﴾ بفاسد جبلاتهم ﴿ يقترفون ﴾ أي يكتسبون اكتساباً يوجب الفرق وهو أشد الخوف ويزيل الرفق ، وصيغة الافتعال للدلالة على أن أفعال الشر إنما تكون بمعالجة من النفس للفطرة الأولى السليمة . انتهى انتهى . اهـ

﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 703 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما بين أنه فصل المحرمات أتبعه بما يوجب تركها بالكلية بقوله : ﴿ وَذَرُواْ ظاهر الإثم وَبَاطِنَهُ ﴾ والمراد من الإثم ما يوجب الإثم ، وذكروا في ظاهر الإثم وباطنه وجهين : الأول : أن ﴿ ظاهر الإثم ﴾ الإعلان بالزنا ﴿ وَبَاطِنَهُ ﴾ الاستسرار به .

قال الضحاك : كان أهل الجاهلية يرون الزنا حلالاً ما كان سراً ، فحرم الله تعالى بهذه الآية

السر منه والعلانية .

الثاني : أن هذا النهي عام في جميع المحرمات وهو الأصح ، لأن تخصيص اللفظ العام بصورة معينة من غير دليل غير جائز ، ثم قيل : المراد ما أعلنتم وما أسررتم ، وقيل : ما عملتم وما نويتم .

وقال ابن الأنباري : يريد وذروا الإثم من جميع جهاته كما تقول : ما أخذت من هذا المال قليلاً ولا كثيراً ، تريد ما أخذت منه بوجه من الوجوه ، وقال آخرون : معنى الآية النهي عن الإثم مع بيان أنه لا يخرج من كونه إثماً بسبب إخفائه وكتمانه ، ويمكن أن يقال : المراد من قوله : ﴿ وَذَرُواْ ظاهر الإثم ﴾ النهي عن الإقدام على الإثم ، ثم قال : ﴿ وَبَاطِنَهُ ﴾ ليظهر بذلك أن الداعي له إلى ترك ذلك الإثم خوف الله لا خوف الناس .

وقال آخرون : ﴿ ظاهر الإثم ﴾ أفعال الجوارح ﴿ وَبَاطِنَهُ ﴾ أفعال القلوب من الكبر والحسد والعجب وإرادة السوء للمسلمين ، ويدخل فيه الاعتقاد والعزم والنظر والظن والتمني واللوم على الخيرات ، وبهذا يظهر فساد قول من يقول : إن ما يوجد في القلب لا يؤاخذ به إذا لم يقترن به عمل فإنه تعالى نهى عن كل هذه الأقسام بهذه الآية .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يَكْسِبُونَ الإثم سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴾ ومعنى الاقتراف قد تقدم ذكره .

وظاهر النص يدل على أنه لا بد وأن يعاقب المذنب ، إلا أن المسلمين أجمعوا على أنه إذا

تاب لم يعاقب ، وأصحابنا زادوا شرطاً ثانياً ، وهو أنه تعالى قد يعفو عن المذنب فيترك عقابه كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ [ النساء : 48 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 137 ﴾

*(121/248)*

---

وقال السمرقندى :

﴿ وَذَرُواْ ظاهر الإِثم وَبَاطِنَهُ ﴾

يعني : زنى السر والعلانية لأن أهل الجاهلية كانوا يحرمون الزنى في العلانية ، ولا يرون به بأساً في السر .

فأخبر الله تعالى أن الزنى حرام في السر والعلانية .

ويقال : ظاهر الإثم وهو الزنى وباطنه القُبْلة واللَّمس والنظر .

وقال الضحاك ﴿ ظاهر الإثم ﴾ الزنى وباطنه نكاح الأمهات والأخوات وقال قتادة : ﴿ ظاهر الإِثم وَبَاطِنَهُ ﴾ يعني : قليله وكثيره .

ويقال : ظاهره ارتكاب المعاصي ، وباطنه ترك الفرائض .

ويقال : باطنه الرياء في الأعمال .

ويقال : الكفر ويقال : جميع المعاصي .

﴿ إِنَّ الذين يَكْسِبُونَ الإِثم ﴾ يقول : يعملون الفواحش ويتكلمون بها ﴿ سَيُجْزَوْنَ بِمَا يَقْتَرِفُونَ ﴾ سيعاقبون بما كانوا يكسبون من الإثم .

قرأ أهل الكوفة عاصم وحمزة والكسائي : وإن كثيراً لَيُضلون بأهوائهم بضم الياء يعني : يضلون الناس .

وقرأ الباقون ﴿ لَّيُضِلُّونَ ﴾ بنصب الياء يعني يَضلون بأنفسهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثم وَبَاطِنَهُ ﴾ يعني الذنوب كلها لا يخلو من هذين الوجهين .

واختلفوا فيها فقال قتادة : سرّه وعلانيته ، عطاء : قليله وكثيره . ومجاهد : ما ينوي وما هو عامله . الكلبي : ظاهر الإثم الزنا وباطنه المخالة .

السدي : الزواني الذي في الحوانيت وهو بيت أصحاب الرايات وباطنه الصديقة يتخذها الرجل فيأتيها سرّاً . وقال مرّة الهمذاني : كانت العرب تجوز الزنا وكان الشريف إن يزني يستر ذلك وغيره لا يبالي إذا زنا ومتى زنا فأنزل اللّه تعالى هذه الآية .

وقال الضحاك : كان أهل الجاهلية يسترون الزنا ويرون ذلك حلالا ما كان سرّاً ، فحرم اللّه تعالى لهذه الأمة السرّ منه والعلانية .

وروى حيان عن الكلبي : ظاهر الإثم طواف الرجال بالنهار عراة وباطنه طواف النساء بالليل عراة .

(122/248)

---

وقال سعيد بن جبير : الظاهر ما حرم الله تعالى بقوله ﴿ وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النسآء ﴾ [ النساء : 22 ] وقوله ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾ [ النساء : 23 ] الآية والباطن منه الزنا .

وقال ابن زيد : ظاهر الإثم التعرّي والتجرّد من الثياب في الطواف والباطن الزنا .

﴿ إِنَّ الذين يَكْسِبُونَ الإثم سَيُجْزَوْنَ ﴾ في الآخرة ﴿ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴾ بما يكسبون في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : سره وعلانيته ، قاله مجاهد ، وقتادة .

والثاني : ظاهر الإثم : ما حرم من نكاح ذوات المحارم بقوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتكُمْ . . . ﴾ الآية . وباطنه الزِّنى ، قاله سعيد بن جبير .

والثالث : أن ظاهر الإثم أُوْلاَت الرايات من الزواني ، والباطن ذوات الأخدان ، لأنهن كُنَّ يستحللنه سراً ، قاله السدي ، والضحاك .

والرابع : أن ظاهر الإثم العِرية التي كانو يعملون بها حين يطوفون بالبيت عراة ، وباطنه الزِّنى ، قاله ابن زيد .

ويحتمل خامساً : أن ظاهر الإثم ما يفعله بالجوارح ، وباطنه ما يعتقده بالقلب . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه ﴾ في الإثم ها هنا ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الزنا ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ؛ فعلى هذا ، في ظاهره وباطنه قولان .

أحدهما : أن ظاهره : الإعلان به ، وباطنه : الاستسرار ، قاله الضحاك ، والسدي .

قال الضحاك : وكانوا يرون الاستسرار بالزنا حلالاً .

والثاني : أن ظاهره : نكاح المحرمات ، كالأُمهات ، والبنات ، وما نكح الآباء .

وباطنه : الزنا ، قاله سعيد بن جبير .

والثاني : أنه عام في كل إثم ، والمعنى : ذروا المعاصي سرَّها وعلانيتها ؛ وهذا مذهب أبي العالية ، ومجاهد ، وقتادة ، والزجاج .

وقال ابن الأنباري : المعنى : ذروا الإثم من جميع جهاته .

والثالث : أن الإثم : المعصية ، إلا أن المراد به هاهنا أمر خاص .

قال ابن زيد : ظاهره هاهنا : نزع أثوابهم ، إذ كانوا يطوفون بالبيت عراة ، وباطنه : الزنا .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله عز وجل : ﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه ﴾

هذا نهي عام من طرفيه لأن ﴿ الإثم ﴾ يعم الأحكام والنسب اللاحقة للعصاة عن جميع المعاصي ، والظاهر والباطن يستوفيان جميع المعاصي ، وقد ذهب المتأولون إلى أن الآية من ذلك في مخصص ، فقال السدي : ظاهره الزنا الشهير الذي كانت العرب تفعله ، وباطنه اتخاذ الأخدان ، وقال سعيد بن جبير : الظاهر ما نص الله على تحريمه من النساء بقوله ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم ﴾ [ النساء : 23 ] ، وقوله ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم ﴾ [ النساء : 22 ] ، والباطن الزنا ، وقال ابن زيد : الظاهر التعري والباطن الزنا .

قال القاضي أبو محمد : يريد التعري الذي كانت العرب تفعله في طوافها ، قال قوم : الظاهر الأعمال والباطن المعتقد .

قال القاضي أبو محمد : وهذا حسن لأنه عاد ثم توعد تعالى كسبة الإثم بالمجازاة على ما

اكتسبوه من ذلك وتحملوا ثقله ، و" الاقتراف " الاكتساب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه ﴾ يعني وذروا أيها الناس ما يوجب الإثم وهي الذنوب والمعاصي كلها سرها وعلانيتها قليلها وكثيرها ، قال الربيع بن أنس : نهى الله عن ظاهر الإثم وباطنه أن يعمل به سراً وعلانية وقال سعيد بن جبير : في هذه الآية الظاهر منه قوله : ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف ﴾ ونكاح المحارم من الأمهات والبنات والأخوات والباطن الزنا ، وقال السدي : أما الظاهر فالزواني في الحوانيت وهنَّ أصحاب الرايات .

*(124/248)*

---

وأما الباطن فالمرأة يتخذها الرجل صديقة فيأتيها سراً ، وقال الضحاك : كان أهل الجاهلية يستسرون بالزنا ويرون أن ذلك حلالاً ما كان سراً فحرم الله السر منه والعلانية ، وقال ابن زيد : ظاهر الإثم التجرد من الثياب والتعري في الطواف والباطن الزنا ، وقال الكلبي : ظاهر الإثم طواف الرجال بالبيت نهاراً عراة وباطنه طواف النساء بالليل عراة

وكان أهل الجاهلية يفعلون ذلك إلى أن جاء الإسلام فنهى الله عن ذلك كله .

وقيل : إن هذا النهي عام في جميع المحرمات التي نهى الله عنها وهو الأصح لأن تخصيص العام بصورة معينة من غير دليل لا يجوز ، فعلى هذا القول يكون معنى الآية وذروا ما أعلنتم به وما أسررتم من الذنوب كلها ، قال ابن الأنباري : وذروا الإثم من جميع جهاته .

وقيل : المراد بظاهر الإثم الإقدام على الذنوب من غير مبالاة وباطنه ترك الذنوب لخوف الله عز وجل لا خوف الناس وقيل المراد بظاهر الإثم أفعال الجوارح وباطنه أفعال القلوب فيدخل في ذلك الحسد والكبر والعجب إرادة السوء للمسلمين ونحو ذلك .

وقوله عز وجل : ﴿ إن الذين يكسبون الإثم ﴾ يعني إن الذين يعملون بما نهاهم الله عنه ويرتكبون ما حرم عليهم من المعاصي وغيرها ﴿ سيجزون ﴾ يعني في الآخرة ﴿ بما كانوا يقترفون ﴾ يعني بما كانوا يسكبون في الدنيا من الآثام وظاهر هذا النص يدل على عقاب المذنب أنه مخصوص بمن لم يتب لأن المسلمين أجمعوا على أنه إذا تاب العبد من الذنب توبة صحيحة لم يعاقب وزاد أهل السنة في ذلك ، فقالوا : المذنب إذا لم يتب فهو في خطر المشيئة إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه بفضله وكرمه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه ﴾

﴿ الإثم ﴾ عام في جميع المعاصي لما عتب عليهم في ترك أكل ما سمي الله عليه أمروا بترك ﴿ الإثم ﴾ ما فعل ظاهراً وما فعل في خفية فكأنه قال : اتركوا المعاصي ظاهرها وباطنها قاله أبو العالية ومجاهد وقتادة وعطاء وابن الأنباري والزجاج .

وقال ابن عباس : ظاهره الزنا .

وقال السدي : الزنا الشهير الذي كانت العرب تفعله وباطنه اتخاذ الأخدان .

وقال ابن جبير : ظاهره ما نص الله على تحريمه بقوله : ﴿ حرمت عليكم ﴾ الآية ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء ﴾ الآية ، والباطن الزنا .

وقال ابن زيد : ظاهره نزع أثوابهم إذ كانوا يطوفون بالبيت عراة وباطنه الزنا .

وقيل : ظاهره عمل الجوارح وباطنه عمل القلب من الكبر والحسد والعجب وسوء الاعتقاد وغير ذلك من معاصي القلب .

وقيل : ظاهره الخمر وباطنه النبيذ ، وقال مجاهد أيضاً : ظاهره الزنا وباطنه ما نواه .

وقال الماتريدي : الأليق أن يحمل ظاهر ﴿ الإثم وباطنه ﴾ على أكل الميتة وما لم يذكر اسم الله عليه ، وقال مقاتل : ﴿ الإثم ﴾ هنا الشرك وقال غيره جميع الذنوب سوى

الشرك ، وكل هذه الأقوال تخصصات لا دليل عليها والظاهر العموم في المعاصي كلها من الشرك وغيره ، ظاهرها وخفيها ويدخل في هذا العموم كل ما ذكروه .

﴿ إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون ﴾ أي يكسبون الإثم في الدنيا سيجزون في الآخرة وهذا وعيد وتهديد للعصاة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَذَرُواْ ظاهر الإثم وَبَاطِنَهُ ﴾

أي ما يُعلن من الذنوب وما يُسَرّ أو ما يعمل منها بالجوارح وما بالقلب ، وقيل : الزنا في الحوانيت واتخاذُ الأخذان ﴿ إِنَّ الذين يَكْسِبُونَ الإثم ﴾ أي يكتسبونه من الظاهر والباطن ﴿ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴾ كائناً ما كان فلا بد من اجتنابهما ، والجملةُ تعليلٌ للأمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

*(126/248)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَذَرُواْ ظاهر الإثم وَبَاطِنَهُ ﴾

أي ما يعلن وما يسر كما قال مجاهد وقتادة والربيع بن أنس أو ما بالجوارح وما بالقلب كما قاله الجبائي أو نكاح ما نكح الآباء ونحوه والزنا بالأجنبيات كما روي عن ابن جبير أو الزنا في الحوانيت واتخاذ الأخدان كما روى عن الضحاك والسدي وقد روي أن أهل الجاهلية كانوا يرون أن الزنا إذا ظهر كان إثماً وإذا استسر به صاحبه فلا إثم فيه .

قال الطيبي : وهو على هذا الوجه مقصود بالعطف مسبب عن عدم الإتباع ، وعلى الأول معترض توكيداً لقوله سبحانه : ﴿ فَكُلُواْ ﴾ [ الأنعام : 118 ] أولاً و ﴿ لاَ تَأْكُلُواْ ﴾ [ الأنعام : 121 ] ثانياً وهو الوجه ، ولعل الأمر على الوجه الذي قبله مثله .

﴿ إِنَّ الذين يَكْسِبُونَ الإثم ﴾ أي يعملون المعاصي التي فيها الإثم ويرتكبون القبائح الظاهرة أو الباطنة ﴿ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴾ أي يكسبون من الإثم كائناً ما كان فلا بد من اجتناب ذلك ، والجملة تعليل للأمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَذَرُواْ ظاهر الإثم وَبَاطِنَهُ ﴾ .

جملة معترضة ، والواو اعتراضيّة ، والمعنى : إنْ أردتم الزّهد والتقرّب إلى الله فتقرّبوا إليْه بترك الإثم ، لا بترك المباح .

وهذا في معنى قوله تعالى : ﴿ ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البرّ من آمن بالله ﴾ [ البقرة : 177 ] الآية .

*(127/248)*

---

وتقدّم القول على فعل ( ذَر ) عند قوله تعالى : ﴿ وذرِ الذين اتَّخذوا دينهم لعباً ولهواً ﴾ في هذه السّورة [ 70 ] .

والإثم تقدّم الكلام عليه عند قوله تعالى : ﴿ قل فيهما إثم كبير ﴾ في سورة [ البقرة : 219 ] .

والتّعريف في الإثم : تعريف الاستغراق ، لأنَّه في المعنى تعريف للظاهر وللباطن منه ، والمقصود من هذين الوصفين تعميم أفراد الإثم لانحصارها في هذين الوصفين ، كما يقال : المَشرق والمغرب والبَرّ والبحر ، لقصد استغراق الجهات .

وظاهر الإثم ما يراه النّاس ، وباطنُه ما لا يطّلع عليه النّاس ويقع في السرّ ، وقد استوعب هذا الأمر ترك جميع المعاصي .

وقد كان كثير من العرب يراءون النّاس بعمل الخير ، فإذا خلوا ارتكبوا الآثام ، وفي بعضهم جاء قوله تعالى : ﴿ ومن النّاس مَن يعجبك قوله في الحياة الدّنيا ويُشهد الله على ما في قلبه

وهو ألدّ الخصام وإذا تولَّى سعى في الأرض ليفسد فيها ويُهلك الحرث والنسل والله لا يحبّ الفساد وإذا قيل له اتَّق الله أخذته العزّة بالإثم فحسبه جهنّم ولبئس المهاد ﴾ [ البقرة : 204 ، 206 ] .

﴿ إِنَّ الذين يَكْسِبُونَ الإثم سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴾ .

تعليل للأمر بترك الإثم ، وإنذارٌ وإعذار للمأمورين ، ولذلك أكَّد الخبر بـ ( إنّ ) ، وهي في مثل هذا المقام ، أي مقام تعقيب الأمر أو الإخبار تفيد معنى التّعليل ، وتغني عن الفاء ، ومثالها المشهور قول بشار :

إنّ ذاك النّجاحَ في التّبكير

وإظهار لفظ الإثم في مقام إضماره إذ لم يقل : إنّ الّذين يكسبونه لزيادة التّنديد بالإثم ، وليستقرّ في ذهن السّامع أكمل استقرار ، ولتكون الجملة مستقلّة فتسير مسير الأمثال والحكم .

وحرف السّين ، الموضوع للخبر المستقبل ، مستعمل هنا في تحقّق الوقوع واستمراره .

*(128/248)*

ولمّا جاء في المذنبين فعل يُكسبون المتعدي إلى الإثم ، جاء في صلة جَزائهم بفعل ( يقترفون ) ، لأنّ الاقتراف إذا أطلق فالمراد به اكتساب الإثم كما تقدّم آنفاً في قوله تعالى : ﴿ وليقترفوا ما هم مقترفون ﴾ [ الأنعام : 113 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

(129/248)

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾

هذه تقنينات السماء التي تحمي المجتمع من بعضه وذلك في ألا تقع عين أحد على مخالفة من أحد ، وإذا وقعت عينك على مخالفة من غيرك تكون المخالفة مما يدرك لكنها ليست كل الفساد في المجتمع ؛ ففساد المجتمع يأتي من أشياء كثيرة لا تقع تحت دائرة الإدراكات .

وهناك أشياء تكون في منابع النفس البشرية التي تصدر عنها عوامل النزوع ؛ فقبل أن يوجد إثم ظاهر يوجد إثم باطن ، والإثم الباطن سابق على الإثم الظاهر . والتقنينات البشرية كلها تحمينا من ظاهر الإثم ، ولكن منهج السماء يحمينا من فساد ظاهر الإثم وباطن الإثم .

ويوضح لنا الحق الفرق بين تقنين البشر للبشر وتقنين الإله ، فسبحانه رقيب على مواجيدكم ووجداناتكم وسرائركم ، فإياكم أن تفعلوا باطن الإثم ، ولا يكفي أن تحمي نفسك من أن يراك القانون ؛ لأن قصارى ما يعمل القانون أن يمنع الناس من أن يتظاهروا بالجريمة ويقترفوها علانية ، والفرق بين تشريع السماء وتشريع الأرض أن تشريع الأرض يحمي الناس من ظاهر الإثم ، ولكن تشريع السماء يحمي الناس من ظاهر الإثم وباطن الإثم ، وباطن الإثم هو أعنف أنواع الإثم في الأرض .

وبعض أهل الاكتساب في الشر برياضتهم على الشر يسهل عليهم فعل الشر وكأنهم يفعلون أمراً قد تعودوا عليه بلا افتعال .

*(130/248)*

---

و "كسب " – كما نعلم – تأتي بالاستعمال العام للخير ، و "اكتسب " تأتي للشّر لأن الخير يكون فيه الفعل العملي رتيباً مع كل الملكات ، ولا افتعال فيها ، فمن يريد – مثلاً – أن يشتري من محل ما فهو يذهب إلى المحل في وضح النهار ويشتري . لكن من يريد أن يسرق فهو يرتب للسرقة ترتيباً آخر ، وهذا افتعال ، لكن الافتعال قد يصبح بكثرة المران والدربة عليه لا يتطلب انفعالاً ، لأنه قد أضحى لوناً من الكسب . و "يكسبون " تدل على الربح ؛ لأن "

كسب " تدل على أنك أخذت الأصل والزيادة على الأصل ، والإنسان حين يصنع الخير إنما يعطي لنفسه مقومات الحياة ويأخذ أجر الآخرة زائداً ، وهذا هو قمة الكسب .

ويريد الحق سبحانه وتعالى من العبد في حركته أن يحقق لذاته نفعاً هو بصدد الحاجة إليه ، ولكن الإنسان قد يحقق ما ينفعه وهو بصدد الحاجة إليه ، ثم ينشأ من ذلك الفعل ضرر بعد ذلك ؛ لذلك يحمي الله الإنسان المؤمن بالمنهج حتى يميز بين ما يحقق له الغرض الحالي ويحقق نفعاً ممتداً ولا يأتي له بالشر وما يحقق له نفعاً عاجلاً ولكن عاقبته وخيمة ونهايته أليمة ، إننا نجد الذين يصنعون السيئات ويميلون للشهوات – مثلاً – يحققون لأنفسهم نفعاً مؤقتاً ، مثل التلميذ الذي لا يلتفت إلى دروسه ، والذي ينام ولا يستيقظ ، والذي إن أيقظوه وأخرجوه من البيت ذهب ليتسكع في الشوارع ، هي في ظاهر الأمر يحقق لنفسه راحة ، لكن مآله إلى الفشل .

بينما نجد أن من اجتهد وجدَّ وتعب قد حقق لنفسه النفع المستمر الذي لا تعقبه ندامة .

﴿ إِنَّ الذين يَكْسِبُونَ الإثم سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ﴾ [ الأنعام : 120 ]

ففي الدنيا نجد أن الجزاء من بشر لبشر ، ولكن ماذا عن لحظة العرض أمام الله وهو العليم بظاهر الإثم وباطن الإثم ؟

فالذي يصون المجتمع – إذن – هو التقنين السماوي ، فالمنهج لا يحمي الإنسان ممن حوله فحسب ولكنه يقنن لحركة الإنسان لتكون صحيحة .

ويعود الحق بعد ذلك إلى قضية الطعام فيقول : ﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عليه . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(131/248)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآَيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (118) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (119) وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (120) ﴾

أخرج أبو داود والترمذي وحسنه والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : جاءت اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : أنأكل مما قتلنا ولا نأكل مما يقتل الله ؟ فأنزل الله ﴿ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين ﴾ إلى قوله ﴿ وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ﴾ فإنه

حلال ﴿ إن كنتم بآياته مؤمنين ﴾ يعني بالقرآن مصدقين ﴿ وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ﴾ يعني الذبائح ﴿ وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه ﴾ يعني ما حرم عليكم من الميتة ﴿ وإن كثيراً ﴾ من مشركي العرب ﴿ ليضلون بأهوائهم بغير علم ﴾ يعني في أمر الذبائح وغيره ﴿ إن ربك هو أعلم بالمعتدين ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ وقد فصل لكم ﴾ يقول : بين لكم ﴿ ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه ﴾ أي من الميتة والدم ولحم الخنزير .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ وقد فصل لكم ﴾ مثقلة بنصب الفاء ﴿ ما حرم عليكم ﴾ برفع الحاء وكسر الراء ﴿ وإن كثيراً ليضلون ﴾ برفع الياء .

*(132/248)*

---

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس ﴿ وذروا ظاهر الإثم ﴾ قال : هو نكاح الأمهات والبنات ﴿ وباطنه ﴾ قال : هو الزنا .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه ﴾ قال : الظاهر منه ﴿ لا تنكحوا ما نكح آباؤكم من

النساء ﴾ [ النساء : 22 ] و﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم ﴾ [ النساء : 23 ] الآية ، والباطن الزنا .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه ﴾ قال : علانيته وسره .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه ﴾ قال : ما يحدث به الإنسان نفسه مما هو عامله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس في قوله ﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه ﴾ قال : نهى الله عن ظاهر الاثم وباطنه أن يعمل به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

*(133/248)*

---

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (114) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (120) ﴾

الآن نجيء إلى القضية التي تعالجها بقية السورة؛ والتي كان التمهيد لها مطرداً في سياق السورة كله؛ وآخر هذا التمهيد ما ساقه من قضايا العقيدة الكبيرة؛ ومن واقع المعركة العقيدية الطويلة في الآيتين السابقتين. ومن تقرير سلطان الله المطلق فيما يقع من المعركة بين شياطين الإنس والجن وكل نبي. ومن قواعد الهدى والضلال وسنة الله التي يجري وفقها الضلال والهدى... إلى آخر ما استعرضناه في الصفحات السابقة.

الآن نجيء إلى القضية التي جعلت هذه المقدمات كلها قاعدة لها.. قضية الحل والحرمة فيما ذكر اسم الله عليه وما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح.. وهي تأخذ أهميتها من ناحية تقرير المبدأ الإسلامي الأول: مبدأ حق الحاكمية المطلقة لله وحده؛ وتجريد البشر من ادعاء هذا الحق أو مزاولته في أية صورة من الصور.. وحين تكون القضية هي قضية هذا المبدأ فإن الصغيرة تكون كالكبيرة في تحقيق هذا المبدأ أو نقضه.. ولا يهم أن يكون الأمر أمر ذبيحة يؤكل منها أو لا يؤكل؛ أو أن يكون أمر دولة تقام أو نظام مجتمع يوضع. فهذه كتلك من ناحية المبدأ. وهذه كتلك تعني الاعتراف بألوهية الله وحده؛ أو تعني رفض هذه الألوهية.

والمنهج القرآني يتكئ كثيرا جدا على هذا المبدأ لتقريره في كل مناسبة . ولا يمل تكراره حيثما جاءت مناسبته أمام كل تشريع للصغير وللكبير من الأمور . . ذلك أن هذا المبدأ هو العقيدة ، وهو الدين ، وهو الإسلام ؛ وليس وراءه من هذا الدين كله إلا التطبيقات والتفريعات .

وسنجد في هذا المقطع من السورة – كما سنجد في بقيتها إلى ختامها – أن تقرير هذا المبدأ يكرر في صور شتى ؛ بمناسبة عرض شرائع الجاهلية وتقاليدها ؛ ويتضح ارتباط هذه الشرائع والتقاليد بالشرك والاستكبار عن الإسلام ؛ وانبثاقها من نقطة إقامة ألوهية أخرى غير ألوهية الله ، ومن ثم يسلط عليها القرآن هذه الحملات العنيفة ، المنوعة الأساليب ، ويربطها هذا الربط بأصل الاعتقاد وأصل الإيمان والإسلام .

إن السياق يبدأ بتقرير جهة الحاكمية في أمر العباد كله – تمهيدا لتقرير جهة الحاكمية في التحليل والتحريم في الذبائح ، الأمر الذي يزاول فيه المشركون حق الحاكمية افتراء على الله واعتداء على سلطانه – ويمهد لهذا الأمر تمهيداً طويلا كما نلحظ من سياق الآيات في هذا الموضع :

﴿ أفغير الله أبتغي حكما ، وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، فلا تكونن من الممترين . وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا

مبدل لكلماته ، وهو السميع العليم . وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ، إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون .

إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين ﴾ .

هذا التمهيد كله يجيء قبل أن يدخل في الموضوع الواقع الحاضر الذي يمهد له هذا التمهيد ، ثم يربطه ربطاً مباشرا بقضية الإيمان أو الكفر :

﴿ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه . . إن كنتم بآياته مؤمنين . . وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، وقد فصل لكم ما حرم عليكم - إلا ما اضطررتم إليه ﴾ .

*(135/248)*

---

وقبل أن ينتهي من عرض قضية التحليل والتحريم - بعد ذلك التمهيد كله - يفصل بين فقرتين بتوجيهات وتعقيبات أخرى ، تحوي مؤثرات قوية من الأمر والنهي والبيان والوعيد :

﴿ وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم . إن ربك هو أعلم بالمعتدين . وذروا ظاهر الإثم وباطنه . إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون ﴾ . .

ثم يستأنف الحديث في قضية التحليل والتحريم ؛ فيربطها مباشرة بقضية الإسلام والشرك :

﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه – وإنه لفسق – وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم . . وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ . .

ثم يمضي بعد ذلك شوطاً آخر في الحديث عن طبيعة الكفر وطبيعة الإيمان . . شوطاً كأنه تعقيب على أمر التحليل والتحريم .

ومن هذا التتابع ، وهذا الربط ، وهذا التوكيد ، تتمثل طبيعة نظرة الإسلام لقضية التشريع والحاكمية ، في شؤون الحياة اليومية . .

﴿ أفغير الله ابتغي حكما ، وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا ، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، فلا تكونن من الممترين ﴾ . .

إنه سؤال على لسان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – للاستنكار . استنكار أن يبتغي حكما غير الله في شأن من الشؤون على الإطلاق . وتقرير لجهة الحاكمية في الأمر كله ، وإفرادها بهذا الحق الذي لا جدال فيه . ونفي أن يكون هناك أحد غير الله يجوز أن يتجه إليه طالبا حكمه في أمر الحياة كله .

﴿ أفغير الله أبتغي حكما ؟ ﴾ . .

ثم . . تفصيل لهذا الإنكار ، وللملابسات التي تجعل تحكيم غير الله شيئاً مستنكراً غريباً . . إن الله لم يترك شيئاً غامضاً ؛ ولم يجعل العباد محتاجين إلى مصدر آخر ، يحكمونه

في ما يعرض لهم من مشكلات الحياة :

﴿ وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ﴾ . .

*(136/248)*

---

لقد نزل هذا الكتاب ليحكم بالعدل بين الناس فيما اختلفوا فيه ، ولتتمثل فيه حاكمية الله وألوهيته . ثم لقد نزل هذا الكتاب مفصلا ، محتويا على المبادئ الأساسية التي يقوم عليها نظام الحياة جملة . كما أنه تضمن أحكاماً تفصيلية في المسائل التي يريد الله تثبيتها في المجتمع الإنساني مهما اختلفت مستوياته الاقتصادية والعلمية والواقعية جملة . . وبهذا وذلك كان في هذا الكتاب غناء عن تحكيم غير الله في شأن من شؤون الحياة . . هذا ما يقرره الله – سبحانه – عن كتابه . فمن شاء أن يقول : إن البشرية في طور من أطوارها لا تجد في هذا الكتاب حاجتها فليقل .

. ولكن ليقل معه . . إنه – والعياذ بالله – كافر بهذا الدين ، مكذب بقول رب العالمين !

ثم إن هناك مِن حولهم ملابسة أخرى تجعل ابتغاء غير الله حكما في شأن من الشؤون أمراً مستنكرا غريبا . . إن الذين أوتوا الكتاب من قبل يعلمون أن هذا الكتاب منزل من عند الله ، وهم أعرف بالكتاب لأنهم من أهل الكتاب :

﴿ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ﴾ . .

ولقد كانت هذه ملابسة حاضرة في مكة وفي الجزيرة ، يخاطب الله بها المشركين . . سواء أقر أهل الكتاب بها وجهروا - كما وقع من بعضهم ممّن شرح الله صدره للإسلام - أو كتموها وجحدوها - كما وقع من بعضهم - فالأمر في الحالين واحد ؛ وهو إخبار الله سبحانه - وخبره هو الصدق - أن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل من ربه بالحق . . فالحق محتواه ؛ كما أن الحق متلبس بتنزيله من الله . .

*(137/248)*

---

وما يزال أهل الكتاب يعلمون أن هذا الكتاب منزل من الله بالحق . وما يزالون يعلمون أن قوة هذا الدين إنما تنبثق من هذا الحق الذي يتلبس به ، ومن هذا الحق الذي يحتويه . وما يزالون - من أجل علمهم بهذا كله - يحاربون هذا الدين ، ويحاربون هذا الكتاب ، حرباً لا تهدأ . . وأشد هذه الحرب وأنكاها ، هو تحويل الحاكمية عن شريعة هذا الكتاب ؛ إلى شرائع كتب أخرى من صنع البشر . وجعل غير الله حكما ، حتى لا تقوم لكتاب الله قائمة ، ولا يصبح لدين الله وجود . وإقامة ألوهيات أخرى في البلاد التي كانت الألوهية فيها لله وحده ؛ يوم كانت تحكمها شريعة الله التي في كتابه ؛ ولا تشاركها شريعة أخرى ، ولا يوجد

إلى جوار كتاب الله كتب أخرى ، تستمد منها أوضاع المجتمع ، وأصول التشريعات ، ويرجع إليها ويستشهد بفقراتها كما يستشهد المسلم بكتاب الله وآياته ! وأهل الكتاب – من صليبيين وصهيونيين – من وراء هذا كله ؛ ومن وراء كل وضع وكل حكم يقام لمثل هذه الأهداف الخبيثة !

وحين يقرر السياق أن هذا الكتاب أنزله الله مفصلا ؛ وأن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل من الله بالحق ، يلتفت إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومن وراءه من المؤمنين به ؛ يهون عليه وعليهم شأن التكذيب والجدل الذي يجدونه من المشركين ؛ وشأن الكتمان والجحود الذي يجدونه من بعض أهل الكتاب :

﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ .

وما شك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولا امترى . ولقد ورد أنه – صلى الله عليه وسلم – عندما نزل الله عليه : ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك . لقد جاءك الحق من ربك ، فلا تكونن من الممترين ﴾ قال : " لا أشك ، ولا أسأل " .

ولكن هذا التوجيه وأمثاله ؛ وهذا التثبيت على الحق ونظائره ؛ تدل على ضخامة ما كان يلقاه – صلى الله عليه وسلم – والجماعة المسلمة معه من الكيد والعنت والتكذيب والجحود ؛ ورحمة الله – سبحانه – به وبهم بهذا التوجيه والتثبيت . .

ويمضي السياق في هذا الاتجاه ؛ يقرر أن كلمة الله الفاصلة قد تمت ؛ وأنه لا مبدل لها بفعل الخلق ، بالغاً ما بلغ كيدهم :

﴿ وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ، لا مبدل لكلماته ، وهو السميع العليم ﴾ . .

لقد تمت كلمة الله – سبحانه – صدقا – فيما قال وقرر – وعدلا – فيما شرع وحكم – فلم يبق بعد ذلك قول لقائل في عقيدة أو تصور أو أصل أو مبدأ أو قيمة أو ميزان . ولم يبق بعد ذلك قول لقائل في شريعة أو حكم ، أو عادة أو تقليد . . ولا معقب لحكمه ولا مجير عليه . .

﴿ وهو السميع العليم ﴾ . .

الذي يسمع ما يقوله عباده ، ويعلم ما وراءه ، كما يعلم ما يصلح لهم ، وما يصلحهم .

وإلى جانب تقرير أن ﴿ الحق ﴾ هو ما تضمنه الكتاب الذي أنزله الله ، يقرر أن ما يقرره البشر وما يرونه إن هو إلا اتباع الظن الذي لا يقين فيه ؛ واتباعه لا ينتهي إلا إلى الضلال .

وأن البشر لا يقولون الحق ولا يشيرون به إلا إذا أخذوه من ذلك المصدر الوحيد المستيقن ؛ ويحذر الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يطيع الناس في شيء يشيرون به عليه من عند

أنفسهم ؛ مهما بلغت كثرتهم ؛ فالجاهلية هي الجاهلية مهما كثر أتباعها الضالون :

﴿ وإِن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله . إن يتبعون إلا الظن ، وإن هم إلا يخرصون ﴾ . .

*(139/248)*

---

ولقد كان أكثر من في الأرض – كما هو الحال اليوم بالضبط – من أهل الجاهلية . . لم يكونوا يجعلون الله هو الحكم في أمرهم كله ، ولم يكونوا يجعلون شريعة الله التي في كتابه هي قانونهم كله . ولم يكونوا يستمدون تصوراتهم وأفكارهم ، ومناهج تفكيرهم ومناهج حياتهم من هدى الله وتوجيهه . . ومن ثم كانوا – كما هو الحال اليوم – في ضلالة الجاهلية ؛ لا يملكون أن يشيروا برأي ولا بقول ولا بحكم يستند على الحق ويستمد منه ؛ ولا يقودون من يطيعهم ويتبعهم إلا إلى الضلال . . كانوا – كما هم اليوم – يتركون العلم المستيقن ويتبعون الظن والحدس . . والظن والحدس لا ينتهيان إلا إلى الضلال . . وكذلك حذر الله رسوله من طاعتهم واتباعهم كي لا يضلوا عن سبيل الله . . هكذا على وجه الإجمال . وإن كانت المناسبة الحاضرة حينذاك كانت هي مناسبة تحريم بعض الذبائح وتحليل بعضها كما سيجيء في السياق . .

ثم قرر أن الذي يحكم على العباد بأن هذا مهتد وهذا ضال هو الله وحده . لأن الله وحده هو الذي يعلم حقيقة العباد ، وهو الذي يقرر ما هو الهدى وما هو الضلال :

﴿ إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ .

.

فلا بد من قاعدة للحكم على عقائد الناس وتصوراتهم وقيمهم وموازينهم ونشاطهم وأعمالهم . لا بد من قاعدة لتقرير ما هو الحق وما هو الباطل في هذا كله - كي لا يكون الأمر في هذه المقومات هو أمر هوى الناس المتقلب واصطلاحهم الذي لا يقوم على علم مستيقن . . ثم لا بد من جهة تضع الموازين لهذه المقومات ، ويتلقى منها الناس حكمها على العباد والقيم سواء .

والله - سبحانه - يقرر هنا أنه هو - وحده - صاحب الحق في وضع هذا الميزان . وصاحب الحق في وزن الناس به ، وتقرير من هو المهتدي ، ومن هو الضال .

*(140/248)*

---

إنه ليس " المجتمع " هو الذي يصدر هذه الأحكام وفق اصطلاحاته المتقلبة . . ليس المجتمع الذي تتغير أشكاله ومقوماته المادية ، فتتغير قيمه وأحكامه . . حيث تكون قيم

وأخلاق للمجتمع الزراعي ، وقيم وأخلاق أخرى للمجتمع الصناعي . وحيث تكون هناك قيم وأخلاق للمجتمع الرأسمالي البرجوازي ، وقيم وأخلاق أخرى للمجتمع الاشتراكي أو الشيوعي . . ثم تختلف موازين الناس وموازين الأعمال وفق مصطلح هذه المجتمعات !

الإسلام لا يعرف هذا الأصل ولا يقره . . الإسلام يعين قيماً ذاتية له يقررها الله – سبحانه – وهذه القيم تثبت مع تغير " أشكال " المجتمعات . . والمجتمع الذي يخرج عليها له اسمه في الاصطلاح الإسلامي . . إنه مجتمع غير إسلامي . . مجتمع جاهلي . . مجتمع مشرك بالله ، لأنه يدع لغير الله – من البشر – أن يصطلح على غير ما قرره الله من القيم والموازين والتصورات والأخلاق ، والأنظمة والأوضاع . . وهذا هو التقسيم الوحيد الذي يعرفه الإسلام للمجتمعات وللقيم وللأخلاق . . إسلامي وغير إسلامي . . إسلامي وجاهلي . . بغض النظر عن الصور والأشكال ! !

بعد هذا التمهيد التقريري الطويل تجيء قضية الذبائح ، مبنية على القاعدة الأساسية التي أقامها ذلك التمهيد التقريري الطويل :

﴿ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه . . إن كنتم بآياته مؤمنين . . وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، وقد فصل لكم ما حرم عليكم – إلا ما اضطررتم إليه – وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم ، إن ربك هو أعلم بالمعتدين . وذروا ظاهر الإثم وباطنه ، إن الذين

يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون . ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه – وإنه لفسق – وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ، وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ . .

وقبل أن ندخل في تفصيل هذه الأحكام من الناحية الفقهية ، يهمنا أن نبرز المبادئ الأساسية الاعتقادية التي تقررها .

*(141/248)*

---

إنه يأمر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه . والذكر يقرر الوجهة ويحدد الاتجاه . ويعلق إيمان الناس بطاعة هذا الأمر الصادر إليهم من الله :

﴿ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه .

. إن كنتم بآياته مؤمنين ﴾ . .

ثم يسألهم : وما لهم في الامتناع من الأكل مما ذكر اسم الله عليه ، وقد جعله الله لهم حلالا ؟ وقد بين لهم الحرام الذي لا يأكلونه إلا اضطراراً ؟ فانتهى بهذا البيان كل قول في حله وحرمته ؛ وفي الأكل منه أو تركه ؟

﴿ وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه ؟ ﴾ . .

ولما كانت هذه النصوص تواجه قضية حاضرة إذ ذاك في البيئة ، حيث كان المشركون يمتنعون من ذبائح أحلها الله ؛ ويحلون ذبائح حرمها الله – ويزعمون أن هذا هو شرع الله ! – فإن السياق يفصل في أمر هؤلاء المشترعين المفترين على الله ، فيقرر أنهم إنما يشرعون بأهوائهم بغير علم ولا اتباع ، ويضلون الناس بما يشرعونه لهم من عند أنفسهم ، ويعتدون على ألوهية الله وحاكميته بمزاولتهم لخصائص الألوهية وهم عبيد :

﴿ وإن كثراً ليضلون بأهوائهم بغير علم . . إن ربك هو أعلم بالمعتدين ﴾ . .

ويأمرهم بأن يتركوا الإثم كله – ظاهره وخافيه – ومنه هذا الذي يزاولونه من إضلال الناس بالهوى وبغير علم ؛ وحملهم على شرائع ليست من عند الله ، وافتراء أنها شريعة الله !

ويحذرهم مغبة هذا الإثم الذي يقترفونه :

﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه . إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون ﴾ . .

*(142/248)*

---

ثم ينهى عن الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح التي كانوا يذكرون عليها أسماء آلهتهم ؛ أو ينحرونها للميسر ويستقسمونها بالأزلام ؛ أو من الميتة التي كانوا يجادلون المسلمين في تحريمها ، يزعمون أن الله ذبحها ! فكيف يأكل المسلمون مما ذبحوا بأيديهم ، ولا يأكلون مما ذبح

الله ؟ ! وهو تصور من تصورات الجاهلية التي لا حد لسخفها وتهافتها في جميع الجاهليات ! وهذا ما كانت الشياطين – من الإنس والجن – توسوس به لأوليائها ليجادلوا المسلمين فيه من أمر هذه الذبائح مما تشير إليه الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 3 صـ 1192.1197 ﴾

*(143/248)*

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (120) ﴾

ظاهر الإثم ما للأغيار عليه اطلاع ، وباطن الإثم هو سرٌ بينك وبين الله ، لا وقوفَ لمخلوقٍ عليه .

ويقال باطن الإثم خَفِيُّ العقائد و( . . . . ) الألحاظ .

ويقال باطن الإثم ما تمليه عليك نفسك بنوع تأويل .

ويقال باطن الإثم – على لسان أهل المعرفة – الإغماض عَمَّا لَك فيه حظ ، ويقال باطن

الإثم – على لسان أهل المحبة – دوام التغاضي عن مطالبات الحق ؛ وإنَّ بناءَ مطالبات الحب على التجني والقهر ، قال قائلهم :

إذا قلتُ : ما أذنبتُ ؟ قالت مجيبةً : . . . حياتُك ذنبٌ لا يقاس به ذنبُ

ويقال أسبغتُ عليكم النِّعم ظاهراً وباطناً ، فذروا الإثم ظاهراً وباطناً ، فإنَّ من شرط الشكر ترك استعمال النعمة فيما يكون إثماً ومخالفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 497.498 ﴾

*(144/248)*

---

ومن فوائد الشوكانى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآَيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (118) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (119) وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (120) ﴾

لما تقدم ذكر ما يصنعه الكفار في الأنعام من تلك السنن الجاهلية ، أمر الله المسلمين بأن

يأكلوا مما ذكر اسم الله عليه .

وقيل : إنها نزلت في سبب خاص وسيأتي ، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فكل ما ذكر الذابح عليه اسم الله حلّ إن كان مما أباح الله أكله .

وقال عطاء : في هذه الآية الأمر بذكر الله على الشراب والذبح وكل مطعوم ، والشرط في ﴿ إِن كُنتُم بآياته مُؤْمِنِينَ ﴾ للتهييج والإلهاب ، أي بأحكامه من الأوامر والنواهي التي من جملتها الأمر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه ، والاستفهام في ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ ﴾ للإنكار ، أي ما المانع لكم من أكل ما سميتم عليه بعد أن أذن الله لكم بذلك ؟ والحال أن ﴿ قَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي بين لكم بياناً مفصلاً يدفع الشك ، ويزيل الشبهة بقوله : ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ﴾ [ الأنعام : 145 ] إلى آخر الآية ، ثم استثنى فقال : ﴿ إِلاَّ مَا اضطررتم إِلَيْهِ ﴾ أي من جميع ما حرّمه عليكم ، فإن الضرورة تحلل الحرام ، وقد تقدّم تحقيقه في البقرة .

*(145/248)*

---

قرأ نافع ، ويعقوب " وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ " بفتح الفعلين على البناء للفاعل ، وهو الله سبحانه .

وقرأ أبو عمرو ، وابن عامر ، وابن كثير ، بالضم فيهما على البناء للمفعول .

وقرأ عطية العوفي "فصل" بالتخفيف ، أي أبان وأظهر .

قوله : ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ هم الكفار الذين كانوا يحرّمون البحيرة والسائبة ونحوهما ، فإنهم بهذه الأفعال المبنية على الجهل ، كانوا يضلون الناس ، فيتبعونهم ، ولا يعلمون أن ذلك جهل وضلالة ، لا يرجع إلى شيء من العلم ، ثم أمرهم الله أن يتركوا ظاهر الإثم وباطنه .

والظاهر : ما كان يظهر كأفعال الجوارح .

والباطن : ما كان لا يظهر كأفعال القلب ؛ وقيل ما أعلنتم وما أسررتم .

وقيل : الزنا الظاهر ، والزنا المكتوم وأضاف الظاهر والباطن إلى الإثم ، لأنه يتسبب عنهما ، ثم توعد الكاسبين للإثم بالجزاء بسبب افترائهم على الله سبحانه .

وقد أخرج أبو داود ، والترمذي وحسنه ، والبزار ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن ابن عباس ، قال : جاءت اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم قالوا : إنا نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله ، فأنزل الله : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ ﴾ فإنه حلال ﴿ إِن كُنتُم بآياته ﴾ يعني القرآن ﴿ مُّؤْمِنِينَ ﴾ قال : مصدقين ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا

ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ ﴾ يعني : الذبائح ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ يعني : ما حرّم عليكم من الميتة ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا ﴾ يعني من مشركي العرب ﴿ لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ يعني في أمر الذبائح .

(146/248)

---

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة في قوله : ﴿ إِلاَّ مَا اضطررتم إِلَيْهِ ﴾ أي من الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ﴿ وَذَرُواْ ظاهر الإثم ﴾ قال : هو نكاح الأمهات والبنات ﴿ وَبَاطِنَهُ ﴾ قال : هو الزنا .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن سعيد بن جبير قال : الظاهر منه ﴿ لا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَاؤُكُمْ مِّنَ النساء ﴾ [ النساء : 22 ] و ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم ﴾ [ النساء : 23 ] الآية ، والباطن : الزنا .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال : علانيته وسرّه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(147/248)

قوله تعالى ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (121) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أمرهم بالأكل مما ينفعهم ويعينهم على شكره محذراً من أكل ما يعيش مرأى بصائرهم ، أتبعه نهيهم نهياً جازماً خاصاً عن الأكل مما يضرهم في أبدانهم وأخلاقهم ، وهو ما ضاد الأول في خلوه عن الاسم الشريف فقال ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر ﴾ أي مما لا يقبل أن يذكر ﴿ اسم الله ﴾ أي الذي لا يؤخذ شيء إلا منه ، لأن له الكمال كله فله الإحاطة الكاملة ، وأشار بأداة الاستعلاء إلى الإخلاص ونفي الإشراك فقال : ﴿ عليه ﴾ أي لكون الله قد حرمه فصار نجس العين أو المعنى ، فصار مخبثاً للبدن والنفس مما ذكر عليه غير اسمه سبحانه بما دل عليه من تسميته فسقاً ، وتفسير الفسق في آية أخرى بما أهل به لغير الله وكذا ما كان في معناه مما مات أو كان حراماً بغير ذلك ، واسمه تعالى منزه عن أن يذكر على غير الحلال ، فإن ذكر عليه كان ملاعباً فلم يطهره ، وأما ما كان حلالاً ولم يذكر عليه اسم الله ولا غيره فهو حلال – كما في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت : قالوا : يا رسول الله ! إن هنا أقواماً حديث عهد بشرك يأتوننا بلحمان لا ندري يذكرون اسم الله أم

لا ! قال : " اذكروا أنتم اسم الله وكلوا " قال البغوي : ولو كانت التسمية شرطاً للإباحة لكان الشك في وجودها مانعاً من أكلها كالشك في أصل الذبح - انتهى .

*(148/248)*

---

ولما كان التقدير : فإنه خبيث في نفسه مخبث ، عطف عليه قوله : ﴿ وإنه ﴾ أي الأكل منه أو هو نفسه لكونه السبب ﴿ لفسق ﴾ فجعله نفس الفسق - وهو الخروج عما ينبغي إلى ما لا ينبغي - لأنه عريق جداً في كونه سببه لما تأصل عندهم من أمره وانتشر من شره ، وهذا دليل على ما أولت به لأن النسيان ليس بسبب الفسق ، والذي تركت التسمية عليه نسياناً ليس بفسق ، والناسي ليس بفاسق - كما قاله البخاري ، وإلى ذلك الإشارة بما رواه عن عائشة رضي الله عنها أن قوماً قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إن قوماً يأتونا باللحم ، لا ندري أذكر اسم الله عليه أم لا ! فقال : " سموا عليه أنتم وكلوه " ، قالت : وكانوا حديثي عهد بالكفر - انتهى .

فهذا كله يدل على أن المراد إنما هو كونه مما يحل ذبيحته ، وليس المراد اشتراط التسمية بالفعل .

ولما كانت الشبه ربما زلزلت ثابت العقائد ، قال محذراً منها : ﴿ وإن الشياطين ﴾ أي

أخابث المردة من الجن والإنس البعيدين من الخير المهيئين للنشر المحترقين باللعنة من مردة الجن والإنس ﴿ ليوحون ﴾ أي يوسوسون وسوسة بالغة سريعة ﴿ إلى أوليائهم ﴾ أي المقاربين لهم في الطباع المهيئين لقبول كلامهم ﴿ ليجادلوكم ﴾ أي ليفتلوكم عما أمركم به بأن يقولوا لكم : ما قتله الله أحق بالأكل مما قتلتموه أنتم وجوارحكم - ونحو ذلك ، وأهل الحرم لا ينبغي أن يقفوا في غيره ، والغريب لا ينبغي أن يساويهم في الطواف في ثيابه ، والنذر للأصنام كالنذر للكعبة ، ونحو هذا من خرافاتهم التي بنوا أمرهم فيها على الهوى الذي هم معترفون بأنه مضل مضر ، ومبالغون في الذم باتباعه والميل إليه ، ويكفي في هدم جميع شبههم إجمالاً أن صاحب الدين ومالك الملك منع منها .

*(149/248)*

---

ولما كان التقدير : فإن أطعتموهم تركتم الهدى وتبعتم الهوى ، وكان من المعلوم أن الهوى يعود إلى الشرك ، عطف على هذا قوله : ﴿ وإن أطعتموهم ﴾ أي المشركين تديناً بما يقولونه في ترك الأكل مما ذكر اسم الله عليه والأكل مما لم يذكر اسم الله عليه ، أو في شيء مما جادلوكم فيه ﴿ إنكم لمشركون ﴾ أي فأنتم وهم في الإشراك سواء كما إذا سميتم غير الله على ذبائحكم على وجه العبادة ، لأن من اتبع أمر غير الله فقد اشركه بالله كما قال صلى

الله عليه وسلم في حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه في قوله تعالى ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ [ التوبة : 31 ] من أن عبادتهم لهم تحليلهم ما أحلوا وتحريمهم ما حرموا ، فنبه صلى الله عليه وسلم بذلك على أن الأسماء تتبع المعاني ؛ قال شيخ الإسلام محيي الدين النووي الشافعي في باب الضحايا من كتاب الروضة : حكي في الشامل وغيره عن نص الشافعي أنه لو كان لأهل الكتاب ذبيحة يذبحونها باسم غير الله كالمسيح لم تحل ؛ وفي كتاب القاضي ابن كنج أن اليهودي لو ذبح لموسى والنصراني لعيسى عليهما السلام أو للصليب حرمت ذبيحته ، وأن المسلم لو ذبح للكعبة أو لرسول الله صلى الله عليه وسلم فينبغي أن يقال : تحرم ، لأنه ذبح لغير الله تعالى ، قال : وخرّج أبو الحسن وجهاً آخر أنها تحل لأن المسلم يذبح لله ولا يعتقد في رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يعتقده النصراني في عيسى عليه السلام .

قال : وإذا ذبح للصنم لم تؤكل ذبيحته سواء كان الذابح مسلماً أو نصرانياً ، وفي تعليقه للشيخ إبراهيم المروزي أن ما يذبح عند استقبال السلطان تقرباً إليه أفتى أهل بخارى بتحريمه لأنه مما أهل به لغير الله ، واعلم أن الذبح للمعبود باسمه نازل منزلة السجود له .

*(150/248)*

وكل واحد منهما نوع من أنواع التعظيم ، العبادة المخصوصة بالله تعالى الذي هو المستحق للعبادة ، فمن ذبح لغيره من حيوان أو جماد كالصنم على وجه التعظيم والعبادة لم تحل ذبيحته ، وكان فعله كفراً كمن سجد لغيره سجدة عبادة ، وكذا لو ذبح له ولغيره على هذا الوجه ، فأما إذا ذبح لغيره لا على هذا الوجه – بأن ضحى أو ذبح للكعبة تعظيماً لها لأنها بيت الله تعالى أو لرسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا لا يجوز أن يمنع حل الذبيحة ، وإلى هذا المعنى يرجع قول القائل : أهديت للحرم أو للكعبة ، ومن هذا القبيل الذبح عند استقبال السلطان ، فإنه استبشار بقدومه نازل منزلة ذبح العقيقة لولادة المولود ، ومثل هذا لا يوجب الكفر ، وكذا السجود لغير الله تذللاً وخضوعاً ، فعلى هذا إذا قال الذابح : بسم الله واسم محمد ، وأراد : أذبح باسم الله وأتبرك باسم محمد ، فينبغي أن لا يحرم ، وقول من قال : لا يجوز ذلك ، يمكن أن يحمل على أن اللفظ مكروه ، لأن المكروه يصح نفي الجواز والإباحة المطلقة عنه ، وحكى الرافعي أنه وقعت في هذا منازعة بين أهل قزوين أفضت إلى فتنة في أنه تحل ذبيحته وهل يكفر بذلك ! قال : والصواب ما بينا ؛

قال الشيخ محيي الدين : ومما يؤيد ما قاله – أي الرافعي – ما ذكره الشيخ إبراهيم المروزي في تعليقه : قال : حكى صاحب التقريب عن الشافعي رحمه الله أن النصراني إذا سمى غير الله كالمسيح لم تحل ذبيحته ، قال صاحب التقريب : معناه أن يذبحها له .

فأما إن ذكر المسيح على معنى الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فجائز ، قال :

وقال الحليمي : تحل مطلقاً وإن سمى المسيح – والله أعلم ، ثم قال في المسائل المنثورة : الثالثة : قال ابن كج : من ذبح شاة وقال : أذبح لرضى فلان ، حلت الذبيحة ، لأنه لا ينصرف إليه بخلاف من تقرب بالذبح إلى الصنم ؛

*(151/248)*

---

وقال الروياني : إن من ذبح للجن وقصد به التقرب إلى الله تعالى ليصرف شرهم عنه فهو حلال ، وإن قصد الذبح لهم فحرام ؛ ومما يوضح لك سر هذا الانتظام ويزيده حسناً أن هذه الآيات كلها من قوله تعالى ﴿ إن الله فالق الحب والنوى ﴾ [ الأنعام : 100 ] إلى آخر السورة تفصيل لقوله تعالى في أول السورة ﴿ قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السماوات والأرض ﴾ [ الأنعام : 14 ] ، فلما ذكر إبداعه السماوات والأرض بقوله ﴿ إن الله فالق الحب والنوى ﴾ [ الأنعام : 95 ] ونحوه ، وأنكر اتخاذ من دونه بقوله ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن ﴾ [ الأنعام : 100 ] وما نحا نحوه ، قال ﴿ فكلوا ﴾ [ الأنعام : 118 ] إشارة إلى ﴿ وهو يطعم ولا يطعم ﴾ [ الأنعام : 14 ] وقوله ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه ﴾ [ الأنعام : 122 ] وقوله ﴿ فمن يرد الله أن يهديه ﴾ [ الأنعام : 125 ] ونحوهما إشارة إلى قوله ﴿ قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ﴾ [ الأنعام : 14 ] ، وقوله ﴿ ويوم نحشرهم

جميعاً ﴾ [ الأنعام : 22 ] ونحوه مشير إلى ﴿ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ [ الأنعام : 15 ] .

(152/248)

---

ولما انقضى التفصيل عند قوله ﴿ فسوف يعلمون ﴾ شرع في تفصيلها ثانياً بقوله : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ﴾ [ الأنعام : 136 ] إلى آخرها ، والسر في الإعادة أن الشيء إذا أثبت أو نفي ، وأقيمت الدلائل على إثبات ما ثبت منه ونفي ما نفي ، ثم أعيد ذلك في أسلوب آخر ، كان أثبت في النفس وألصق بالقلب ، لا سيما إن كان في الأسلوب الثاني - كما هي عادة القرآن - زيادة في البيان وتنبيه على ما لم يتقدم أولاً ، ولا سيما إن كانت العبارة فائقة والألفاظ عذبة رائقة وأنت خبير بأن هذا كله دأب القرآن في أساليب الافتنان ؛ قال الغزالي في أوائل كتاب الجواهر في الفصل الذي فيه اشتمال الفاتحة على ثمانية أقسام : وقوله ثانياً ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ إشارة إلى الصفة مرة أخرى ، ولا تظن أنه مكرر ، فلا مكرر في القرآن ، إذ حد المكرر ما لا ينطوي على مزيد فائدة ، وذكر الرحمة بعد ذكر ﴿ العالمين ﴾ ، وقبل ذكر ﴿ العالمين ﴾ ، وقبل ذكر ﴿ مالك يوم الدين ﴾ ينطوي على فائدتين عظيمتين في تفصيل مجاري الرحمة ثم ذكر ما حاصله أن إحداهما ملتفت إلى

خلق كل عالم من العالمين على أكمل أنواعه وأفضلها وإيتائه كل ما احتاج إليه ، والثانية ملتفت إلى ما بعده بالإشارة إلى الرحمة في المعاد يوم الجزاء عند الإنعام بالملك المؤبد ، قال : وشرح ذلك يطول والمقصود أنه لا مكرر في القرآن ، وإن رأيت شيئاً مكرراً من حيث الظاهر فانظر إلى سوابقه ولواحقه لينكشف لك مزيد الفائدة في إعادته – انتهى .

وفي ذلك نكتة أخرى ، وهي أن الرحمن مشير إلى ما قال من جهة الربوبية في الإيجادين : الأول والثاني ، والرحيم مشير بخصوصه بما ترضاه الإلهية إلى الإيجاد الثاني والإبقاء الثاني بالرحمة الجزائية وإلى ما يفهمه الخصوص من النعمة بمن لم يخصه الرحمة – كما مضت الإشارة إليه في الفاتحة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 703 . 74 ﴾

*(153/248)*

---

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما بين أنه يحل أكل ما ذبح على اسم الله ، ذكر بعده تحريم ما لم يذكر عليه اسم الله ، ويدخل فيه الميتة ، ويدخل فيه ما ذبح على ذكر الأصنام ، والمقصود منه إبطال ما ذكره المشركون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 138 ﴾

فصل

قال الفخر :

نقل عن عطاء أنه قال : كل ما لم يذكر عليه اسم الله من طعام أو شراب ، فهو حرام ، تمسكاً بعموم هذه الآية .

وأما سائر الفقهاء فإنهم أجمعوا على تخصيص هذا العموم بالذبح ، ثم اختلفوا فقال مالك : كل ذبح لم يذكر عليه اسم الله فهو حرام ، سواء ترك ذلك الذكر عمداً أو نسياناً .

وهو قول ابن سيرين وطائفة من المتكلمين .

وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى : إن ترك الذكر عمداً حرم ، وإن ترك نسياناً حل .

وقال الشافعي رحمه الله تعالى : يحل متروك التسمية سواء ترك عمداً أو خطأً إذا كان الذابح أهلاً للذبح ، وقد ذكرنا هذه المسألة على الاستقصاء في تفسير قوله : ﴿ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ [ المائدة : 3 ] فلا فائدة في الإعادة ، قال الشافعي رحمه الله تعالى : هذا النهي مخصوص بما إذا ذبح على اسم النصب ، ويدل عليه وجوه : أحدها : قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ وأجمع المسلمون على أنه لا يفسق أكل ذبيحة المسلم الذي ترك التسمية .

وثانيها : قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَائِهِمْ ليجادلوكم ﴾ وهذه المناظرة إنما كانت في مسألة الميتة ، روي أن ناساً من المشركين قالوا للمسلمين : ما يقتله الصقر والكلب تأكلونه ، وما يقتله الله فلا تأكلونه .

وعن ابن عباس أنهم قالوا : تأكلون ما تقتلونه ولا تأكلون ما يقتله الله ، فهذه المناظرة

مخصوصة بأكل الميتة ، وثالثها : قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ وهذا مخصوص بما ذبح على اسم النصب ، يعني لو رضيتم بهذه الذبيحة التي ذبحت على اسم إلهية الأوثان ، فقد رضيتم بإلهيتها وذلك يوجب الشرك .

*(154/248)*

---

قال الشافعي رحمه الله تعالى : فأول الآية وإن كان عاماً بحسب الصيغة ، إلا أن آخرها لما حصلت فيه هذه القيود الثلاثة علمنا أن المراد من ذلك العموم هو هذا الخصوص ، ومما يؤكد هذا المعنى هو أنه تعالى قال : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ فقد صار هذا النهي مخصوصاً بما إذا كان هذا الأمر فسقاً ، ثم طلبنا في كتاب الله تعالى أنه متى يصير فسقاً ؟ فرأينا هذا الفسق مفسراً في آية أخرى ، وهو قوله : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ [ الأنعام : 145 ] فصار الفسق في هذه الآية مفسراً بما أهل به لغير الله ، وإذا كان كذلك كان قوله : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ مخصوصاً بما أهل به لغير الله .

والمقام الثاني : أن نترك التمسك بهذه المخصصات ، لكن نقول لم قلتم إنه لم يوجد ذكر الله

ههنا ؟ والدليل عليه ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ذكر الله مع المسلم سواء قال أو لم يقل " ، ويحمل هذا الذكر على ذكر القلب .

*(155/248)*

---

والمقام الثالث : وهو أن نقول : هب أن هذا الدليل يوجب الحرمة إلا أن سائر الدلائل المذكورة في هذه المسألة توجب الحل ، ومتى تعارضت وجب أن يكون الراجح هو الحل ، لأن الأصل في المأكولات الحل ، وأيضاً يدل عليه جميع العمومات المقتضية لحل الأكل والانتفاع كقوله تعالى : ﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأرض جَمِيعاً ﴾ [ البقرة : 29 ] وقوله : ﴿ كُلُواْ واشربوا ﴾ [ البقرة : 60 ] لأنه مستطاب بحسب الحس فوجب أن يحل لقوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمُ الطيبات ﴾ [ المائدة : 4 ] ولأنه مال لأن الطبع يميل إليه ، فوجب أن لا يحرم لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن إضاعة المال ، فهذا تقرير الكلام في هذه المسألة ومع ذلك فنقول : الأولى بالمسلم أن يحترز عنه لأن ظاهر هذا النص قوي .

فائدة :

الضمير في قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ إلى ماذا يعود ؟ فيه قولان : الأول : أن قوله ﴿ لاَ تَأْكُلُواْ ﴾ يدل على الأكل ، لأن الفعل يدل على المصدر ، فهذا الضمير عائد إلى هذا

المصدر .

والثاني : كأنه جعل ما لم يذكر اسم الله عليه في نفسه فسقاً ، على سبيل المبالغة . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 138 . 139 ﴾ . بتصرف يسير .

*(156/248)*

---

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عَلَيْهِ ﴾

يعني : ما لم يُذكَ ولم يذبح أو ذبح بغير اسم الله ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ يعني : أكله معصية

واستحلاله كفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾

سبب نزولها : مجادلة المشركين للمؤمنين في قولهم : أتأكلون مما قتلتم ، ولا تأكلون ما قتل

الله ! على ما ذكرنا في سبب قوله تعالى : ﴿ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ﴾ [ الأنعام :

118 ] هذا قول ابن عباس .

وقال عكرمة : كتبت فارس إلى قريش : إن محمداً وأصحابه لا يأكلون ما ذبحه الله ،

ويأكلون ما ذبحوا لأنفسهم ؛ فكتب المشركون إلى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، فوقع في أنفس ناسٍ من المسلمين من ذلك شيء ، فنزلت هذه الآية .

وفي المراد بما لم يذكر اسم الله عليه أربعة أقوال .

أحدها : أنه الميتة ، رواه ابن جبير عن ابن عباس .

والثاني : أنه الميتة والمنخنقة ، إلى قوله : ﴿ وما ذبح على النصب ﴾ [ المائدة : 3 ] روي عن ابن عباس .

والثالث : أنها ذبائح كانت العرب تذبحها لأوثانها ، قاله عطاء .

والرابع : أنه عام فيما لم يسمَّ الله عند ذبحه ، وإلى هذا المعنى ذهب عبد الله ابن يزيد الخطمي ، ومحمد بن سيرين .

فصل

فان تعمَّد ترك التسمية ، فهل يباح ؟ فيه عن أحمد روايتان .

وإن تركها ناسياً أُبيحت .

وقال الشافعي : لا يحرم في الحالين جميعاً .

وقال شيخنا علي بن عبيد الله : فإذا قلنا : إن ترك التسمية عمداً يمنع الإباحة ، فقد نُسخ من هذه الآية ذبائح أهل الكتاب بقوله : ﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ﴾ [ المائدة : 5 ] وعلى قول الشافعي : الآية محكمة .

قوله تعالى : ﴿ وإنه لفسق ﴾ يعني : وإنّ أكلَ ما لم يُذكر عليه اسم الله لفسق ، أي : خروج عن الحق والدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

*(157/248)*

---

وقال أبو حيان :

﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق ﴾

قال السخاوي قال مكحول : وروي عن أبي الدرداء وعبادة بن الصامت مثل ذلك وأجاز ذبائح أهل الكتاب وإن لم يذكر اسم الله عليها ، وذهب جماعة إلى أن الآية محكمة ولا يجوز لنا أن نأكل من ذبائحهم إلا ما ذكر عليه اسم الله ، وروي ذلك عن علي وعائشة وابن عمر ؛ انتهى .

ولا يسمى هذا نسخاً بل هو تخصيص ولما أمر بأكل ما سمي الله عليه وكان مفهومه أنه لا يأكل مما لم يذكر اسم الله عليه أكد هذا المفهوم بالنص عليه ، والظاهر تحريم أكل ما لم يذكر اسم الله عليه عمداً كان ترك التسمية أو نسياناً وبه قال ابن عباس وابن عمر وعبد الله بن عياش بن أبي ربيعة وعبد الله بن يزيد الخطيمي وابن سيرين والشعبي ونافع وأبو ثور وداود في رواية .

وقال أبو هريرة وابن عباس أيضاً في رواية وأبو عياض وأبو رافع وعطاء وابن المسيب والحسن وجابر وعكرمة وطاووس والنخعي وقتادة وابن زيد وعبد الرحمن بن أبي ليلى وربيعة ومالك في رواية ، والشافعي والأصم : يحل أكل متروك التسمية عمداً كان الترك أو نسياناً .

وقال مجاهد وطاووس أيضاً وابن شهاب وابن جبير وعطاء في رواية وأبو حنيفة وأصحابه والثوري والحسن بن حيي والحسن بن صالح وإسحاق ومالك في رواية ، وأحمد في رواية وابن أبي القاسم وعيسى وأصبغ : يؤكل إن كان الترك ناسياً وإن كان عمداً لم يؤكل واختاره النحاس وقال : لا يسمى فاسقاً إذا كان ناسياً وروي عن علي وابن عباس جواز أكل ذبيحة الناسي للتسمية ، وقال ابن عطية : وهذا قول الجمهور ، وقال أشهب والطبري : تؤكل ذبيحة تارك التسمية عمداً إلا أن يكون مستخفاً .

وقال أبو بكر الآيذي : يكره أكل ذبيحة تارك التسمية عمداً وتحتاج هذه التخصيصات إلى دلائل .

والظاهر أن المراد بقوله : ﴿ مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ ظاهره لعموم الآية وهو متروك التسمية .

وقال ابن عباس في رواية : إنه الميتة وعنه أنه الميتة والمنخنقة إلى وما ذبح على النصب ، وقال عطاء : ذبائح للأوثان كانت العرب تفعل ذلك ، وقال ابن بحر : صيد المشركين لأنهم لا يسمون عند إرسال السهم ولا هم من أهل التسمية .

قال الحسن : ﴿ لفسق ﴾ لكفر ، قال الكرماني : يريد مع الاستحلال وقال غيره لفسق المعصية والضمير في ﴿ وإنه ﴾ عائد إلى المصدر الدال عليه تأكلوا أي وإن الأكل قاله الزمخشري ، واقتصر عليه وجوز معه الحوفي في أن يعود على ما من قوله : ﴿ مما لم يذكر ﴾ وجوز معه ابن عطية أن يعود على الذكر الذي تضمنه قوله ﴿ لم يذكر ﴾ ، انتهى .

ومعنى إنه عائد على المصدر المنفي كأنه قيل : وإن ترك الذكر لفسق وهذه الجملة لا موضع لها من الإعراب وتضمنت معنى التعليل فكأنه قيل لفسقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عَلَيْهِ ﴾

ظاهرٌ في تحريم متروكِ التسميةِ عمْداً كان أو نسياناً ، وإليه ذهب داودُ ، وعن أحمدَ بنِ حنبل مثلُه ، وقال مالك والشافعي بخلافه لقوله عليه السلام : " ذبيحةُ المسلم حلالٌ وإن لم يذكر اسمَ الله عليها " وفرق أبو حنيفة بين العمْد والنسيانِ وأوّله بالميتة أو بما ذكر عليه

اسمُ غيرِه تعالى لقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ فإن الفسقَ ما أُهل به لغير الله والضميرُ لما ، ويجوز أن يكون للأكل المدلولِ عليه بلا تأكلوا ، والجملةُ مستأنفةٌ وقيل : حالية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

*(159/248)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عَلَيْهِ ﴾

أي من الحيوان كما هو المتبادر ، والآية ظاهرة في تحريم متروك التسمية ، عمداً كان أو نسياناً ، وإليه ذهب داود .

وعن أحمد والحسن وابن سيرين والجبائي مثله ، وقال الشافعي بخلافه لما رواه أبو داود وعبد بن حميد عن راشد بن سعد مرسلا ذبيحة المسلم حلال ذكر اسم الله تعالى أو لم يذكر" .

وعن مالك وهي الرواية المعول عليها عند أئمة مذهبه أن متروك التسمية عمدا لا يؤكل سواء كان تهاوناً أو غير تهاون ، ولأشهب قول شاذ بجواز غير المتهاون في ترك التسمية عليه .

وزعم بعضهم أن مذهب مالك كمذهب الشافعي ، وآخرون أنه كمذهب داود ومن معه ، وما ذكرناه هو الموجود في "كتب المالكية" وأهل مكة أدري بشعابها .

ومذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه التفرقة بين العمد والنسيان كالصحيح من مذهب مالك ، قال العلامة الثاني : إن الناسي على مذهب الإمام الأعظم رضي الله تعالى عنه ليس بتارك للتسمية بل هي في قلبه على ما روي أنه صلى الله عليه وسلم سئل عن متروك التسمية ناسياً فقال عليه الصلاة والسلام : "كلوه فإن تسمية الله تعالى في قلب كل مسلم " ولم يلحق به العامد إما لامتناع تخصيص الكتاب بالقياس وإن كان منصوص العلة ، وإما لأنه ترك التسمية عمداً فكأنه نفى ما في قلبه ، واعترض بأن تخصيص العام الذي خص منه البعض جائز بالقياس المنصوص العلة وفاقاً وبأنا لا نسلم أن التارك عمدا بمنزلة النافي لما في قلبه بل ربما يكون لوثوقه بذلك وعدم افتقاره لذكره ، ثم قال : فذهبوا إلى أن الناسي خارج بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ إذ الضمير عائد إلى المصدر المأخوذ من مضمون ﴿ لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عَلَيْهِ ﴾ وهو الترك لكونه الأقرب ، ومعلوم أن الترك نسياناً ليس بفسق لعدم تكليف الناسي والمؤاخذة عليه فيتعين العمد .

واعترض ما ذكر بأن كون ذلك فسقاً لا سيما على وجه التحقيق والتأكيد خلاف الظاهر ولم يذهب إليه أحد ولا يلائم قوله تعالى : ﴿ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ ﴾ [ الأنعام : 145 ] مع أن القرآن يفسر بعضه بعضاً سيما في حكم واحد وبأن ما لم يذكر اسم الله عليه يتناول

الميتة مع القطع بأن ترك التسيمة عليها ليس بفسق ، وبعضهم أرجع الضمير إلى ( ما ) بمعنى الذبيحة وجعلها عين الفسق على سبيل المبالغة لكن لا بد من ملاحظة كونها متروكة التسمية عمداً إذ لا فسق في النسيان وحينئذ لا يصح الحمل أيضاً ومما تقدم يعلم ما فيه .

*(160/248)*

---

وذكر العلامة للشافعي في دعوى حل متروك التسمية عمداً أو نسياناً وحرمة ما ذبح على النصب أو مات حتف أنفه وجوهاً الأول أن التسمية على ذكر المؤمن وفي قلبه ما دام مؤمناً فلا يتحقق منه عدم الذكر فلا يحرم من ذبيحته إلا ما أهل به لغير الله تعالى .

الثاني : أن قوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ على وجه التحقيق والتأكيد لا يصح في حق أكل ما لم يذكر اسم الله تعالى عليه عمداً كان أو سهواً إذ لا فسق بفعل ما هو محل الاجتهاد .

الثالث : أن هذه الجملة في موقع الحال إذ لا يحسن عطف الخبر على الإنشاء ، وقد بين الفسق بقوله عز شأنه : ﴿ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ ﴾ فيكون النهي عن الأكل مقيد بكون ما لم يذكر اسم الله تعالى عليه قد أهل به لغير الله تعالى فيحل ما ليس كذلك إما بطريق مفهوم المخالفة وإما بحكم الأصل ، وإما بالعمومات الواردة في حل الأطعمة .

وهذا خلاصة ما ذكره الإمام في مجلس تذكير عقده له سلطان خوارزم فيها بمحضر منه ومن جلة الأئمة الحنفية .

وعليه لا حاجة للشافعية إلى دليل خارجي في تخصيص الآية .

واعترض بأنه يقتضي أن لا يتناول النهي أكل الميتة مع أنه سبب النزول ، وبأن التأكيد بإن . واللام ينفي كون الجملة حالية لأنه إنما يحسن فيما قصد الإعلام بتحققه ألبتة والرد على منكر تحقيقاً أو تقديراً على ما بين في علم المعاني والحال الواقع في الأمر والنهي مبناه على التقدير كأنه قيل : لا تأكلوا منه إن كان فسقاً فلا يحسن وإنه لفسق بل وهو فسق .

ومن هنا ذهب كثير إلى أن الجملة مستأنفة .

وأجيب عن الأول بأنه دخل في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ ما أهل به لغير الله وبقوله جل شأنه : ﴿ وَإِنَّ الشياطين ﴾ الخ الميتة فيتحقق قولهم : إن النهي مخصوص بما أهل به لغير الله تعالى أو مات حتف أنفه .

*(161/248)*

---

وأجاب العلامة عن الثاني بأنه لما كان المراد بالفسق ههنا الإهلال لغير الله تعالى كان التأكيد مناسباً كأنه قيل : لا تأكلوا منه إذا كان هذا النوع من الفسق الذي الحكم به متحقق

والمشركون ينكرونه ، ومنهم من تأول الآية بالميتة لأن الجدال فيها كما ستعلم قريباً إن شاء الله تعالى .

واستظهر رجوع الضمير إلى الأكل الذي دل عليه ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا ﴾ والذي يلوح من كلام بعض المحققين أن ما لم يذكر اسم الله عليه عام لما أهل به لغير الله تعالى ولمتروك التسمية عمداً أو سهواً ولما مات حتف أنفه لأنه سبب نزول الآية .

والتحقيق أن العام الظاهر متى ورد على سبب خاص كان نصاً في السبب ظاهراً باقياً على ظهوره فيما عداه .

وأنه لا بد لمبيح منسى التسمية من مخصص وهو الخبر المشتمل على السؤال والجواب وادعى أن هذا عند التحقيق ليس بتخصيص بل منع لاندراج المنسي في العموم مستند بالحديث المذكور .

ويؤيد بأن العام الوارد على سبب خاص وإن قوي تناوله للسبب حتى ينتهض الظاهر فيه نصاً إلا أنه ضعيف التناول لما عداه حتى ينحط عن أعالي الظواهر فيه ويكتفي من معارضة ما لا يكتفي به منه لولا السبب انتهى .

ولا يخفى ما فيه لمن أحاط خبراً بما ذكره العلامة قبل .

وذكر كثير من أصحابنا أن قول الشافعي عليه الرحمة مخالف للإجماع إذ لا خلاف فيمن كان قبله في حرمة متروك التسمية عامداً وإنما الخلاف بينهم في متروكها ناسياً فمذهب ابن

عمر رضي الله تعالى عنهما أنه يحرم ومذهب علي كرم الله تعالى وجهه وابن عباس رضي الله عنهما أنه يحل ولم يختلفوا في حرمة متروك التسمية عامداً ولهذا قال أبو يوسف والمشايخ رحمهم الله تعالى : إن متروك التسمية عامداً لا يسع فيه الاجتهاد ولو قضى القاضي بجواز بيعه لا ينفذ لكونه مخالفاً للإجماع وإن ظاهر الآية يقتضي شمولها لمتروك التسمية نسياناً إلا أن الشرع جعل الناسي ذاكراً لعذر من جهته وفي ذلك رفع للحرج فإن الإنسان كثير النسيان .

*(162/248)*

---

وقول بعض الشافعية عليهم الرحمة : إن التسمية لو كانت شرطاً للحل لما سقط بعذر النسيان كالطهارة في باب الصلاة مفض إلى التسوية بين العمد والنسيان ، وهي معهودة فيما إذا كان على الناسي هيئة مذكرة كالأكل في الصلاة والجماع في الإحرام لا فيما إذا لم يكن كالأكل في الصيام ، وهنا إن لم تكن هيئة توجب النسيان وهي ما يحصل للذابح عند زهوق روح حيوان من تغير الحال فليس هيئة مذكرة بموجودة .

والحق عندي أن المسألة اجتهادية وثبوت الإجماع غير مسلم ولو كان ما كان خرقه الإمام الشافعي رحمه الله تعالى ، واستدلاله على مدعاه على ما سمعت لا يخلو عن متانة ، وقول

الأصفهاني كما في "المستصفى" أفحش الشافعي حيث خالف سبع آيات من القرآن ثلاث منها في سورة الأنعام، الأولى: (118) ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ ﴾ والثانية: (119) ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ ﴾ والثالثة: ﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عَلَيْهِ ﴾ وثلاث في سورة الحج، الأولى: (82) ﴿ لِّيَشْهَدُواْ منافع لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ اسم الله فِى أَيَّامٍ معلومات على مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الأنعام ﴾ والثانية: (43) ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ اسم الله ﴾ والثالثة: (63) ﴿ والبدن جعلناها لَكُمْ مِّن شعائر الله لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فاذكروا اسم الله عَلَيْهَا صَوَافَّ ﴾ وآية (4) في المائدة ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ واذكروا اسم الله عَلَيْهِ ﴾ من الفحش في حق هذا الإمام القرشي، ومثاره عدم الوقوف على فضله وسعة علمه ودقة نظره، وبالجملة الكلام في الآية واسع المجال وبها استدل كل من أصحاب هاتيك الأقوال.

*(163/248)*

---

وعن عطاء وطاوس أنهما استدلا بظاهرها على أن متروك التسمية حيواناً كان أو غيره حرام، وسبب النزول يؤيد خلاف ذلك كما علمت والاحتياط لا يخفى. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

جملة : ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ معطوفة على جملة : ﴿ فكلوا ممّا ذكر اسم الله عليه ﴾ [ الأنعام : 118 ] .

و( ما ) في قوله : ﴿ مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ موصولة ، وما صُدق الموصول هنا : ذَكِيَ ، بقرينة السّابق الّذي ما صُدقه ذلك بقرينة المقام .

ولمّا كانت الآية السّابقة قد أفادت إباحة أكل ما ذكر اسمُ الله عليه ، وأفهمت النّهيَ عمَّا لم يذكر اسم الله عليه ، وهو الميتة ، وتَمّ الحكم في شأن أكل الميتة والتفرقةُ بينها وبين ما ذُكّي وذُكر اسم الله عليه ، ففي هذه الآية أفيد النّهي والتّحذير من أكل ما ذُكر اسم غيرِ الله عليه .

فمعنى : ﴿ لم يذكر اسم الله عليه ﴾ : أنَّه تُرِك ذكر اسم الله عليه قصداً وتجنّبا لذكره عليه ، ولا يكون ذلك إلاّ لقصد أن لا يكون الذّبح لله ، وهو يساوي كونه لغير الله ، إذ لا واسطة عندهم في الذكاة بين أن يذكروا اسم الله أو يذكروا اسم غير الله ، كما تقدّم بيانه عند قوله : ﴿ فكلوا ممّا ذكر اسم الله عليه ﴾ [ الأنعام : 118 ] .

وممّا يرشّح أنّ هذا هو المقصود قولُه هنا : ﴿ وإنه لفسق ﴾ وقوله في الآية الآتية : ﴿ أو فِسْقا أهِلّ لغير الله به ﴾ [ الأنعام : 145 ] ، فعلم أنّ الموصوف بالفسق هنا : هو الّذي وصف به هنالك ، وقيد هنالك بأنَّه أُهلّ لغير الله به ، وبقرينة تعقيبه بقوله : ﴿ وإن

أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ لأنّ الشّرك إنّما يكون بذكر أسماء الأصنام على المذكّى ، ولا يكون بترك التّسمية .

(164/248)

---

وربّما كان المشركون في تَحيّلهم على المسلمين في أمر الذكاة يقتنعون بأن يسألوهم ترك التّسمية ، بحيث لا يُسمّون الله ولا يسمّون للأصنام ، فيكون المقصود من الآية : تحذير المسلمين من هذا التّرك المقصود به التمويه ، وأن يسمّى على الذّبائح غيرُ أسماء آلهتهم .

فإن اعتددنا بالمقصد والسّياق ، كان اسم الموصول مراداً به شيء معيّن ، لم يذكر اسم الله عليه ، فكان حكمها قاصراً على ذلك المعيّن ، ولا تتعلّق بها مسألةُ وجوب التّسمية في الذكاة ، ولا كونها شرطاً أو غير شرط بله حكم نسيانها .

وإن جعلنا هذا المقصد بمنزلة سبب للنّزول ، واعتددنا بالموصول صادقاً على كلّ ما لم يذكر اسم الله عليه ، كانت الآية من العامّ الوارد على سبب خاصّ ، فلا يخصّ بصورة السّبب ، وإلى هذا الاعتبار مال جمهور الفقهاء المختلفين في حكم التّسمية على الذّبيحة .

وهي مسألة مختلف فيها بين الفقهاء على أقوال : أحدها : أنّ المسلم إن نسي التّسمية على الذبح تؤكل ذبيحته ، وإن تعمّد ترك التّسمية استخفافاً أو تجنّبا لها لم تؤكل ( وهذا مثل ما

يفعله بعض الزّنوج من المسلمين في تونس وبعض بلاد الإسلام الّذين يزعمون أنّ الجنّ تمتلكهم ، فيتفادَون من أضرارها بقرابين يذبحونها للجنّ ولا يسمّون اسم الله عليها ، لأنَّهم يزعمون أنّ الجنّ تنفر من اسم الله تعالى خِيفة منه ، ( وهذا متفشّ بينهم في تونس ومصر ) فهذه ذبيحة لا تؤكل .

ومستند هؤلاء ظاهر الآية مع تخصيصها أو تقييدها بغير النّسيان ، إعمالاً لقاعدة رفع حكم النّسيان عن النّاس .

وإنْ تعمّد ترك التّسمية لا لقصد استخفاف أو تجنّب ولكنّه تثاقل عنها ، فقال مالك ، في المشهور ، وأبو حنيفة ، وجماعة ، وهو رواية عن أحمد : لا تؤكل .

ولا شكّ أنّ الجهل كالنّسيان ، ولعلّهم استدلّوا بالأخذ بالأحوط في احتمال الآية اقتصارا على ظاهر اللّفظ دون معونة السِياق .

(165/248)

---

الثّاني : قال الشّافعي ، وجماعة ، ومالك ، في رواية عنه : تؤكل ، وعندي أنّ دليل هذا القول أنّ التّسمية تكملة للقربة ، والذكاة بعضها قربة وبعضها ليست بقربة ، ولا يبلغ حكم التّسمية أن يكون مفسداً للإباحة .

وفي "الكشاف" أنَّهم تأوّلوا ما لم يذكر اسم الله عليه بأنَّه الميتة خاصّة ، وبما ذُكر غيرُ اسم الله عليه .

وفي "أحكام القرآن" لابن العربي ، عن إمام الحرمين : ذِكر الله إنَّما شرع في القُرَب ، والذبحُ ليس بقربة .

وظاهر أنّ العامد آثم وأنّ المستخفّ أشدّ إثماً .

وأمّا تعمّد ترك التّسمية لأجل إرضاءِ غير الله فحكمه حكم من سمَّى لغير الله تعالى .

وقيل : إنْ ترَك التّسميةَ عمداً يُكره أكلها ، قاله أبو الحسن بن القصّار ، وأبو بكر الأبهري من المالكيّة .

ولا يعدّ هذا خلافاً ، ولكنّه بيان لقول مالك في إحدى الرّوايتين .

وقال أشهب ، والطبرِي : تؤكل ذبيحة تارك التّسمية عمداً ، إذا لم يتركها مستخِفاً .

وقال عبد الله بن عمر ، وابن سيرين ، ونافِع ، وأحمد بن حنبل ، وداودُ : لا تؤكل إذا لم يسمّ عليها عَمْداً أو نسياناً ، أخذاً بظاهر الآية ، دون تأمّل في المقصد والسّياق .

وأرجح الأقوال : هو قول الشّافعي .

والرّوايةُ الأخرى عن مالك ، إنْ تعمّد ترك التّسميه تؤكل ، وأنّ الآية لم يُقْصد منها إلاّ تحريم ما أهل به لغير الله بالقرائن الكثيرة التي ذكرناها آنفاً ، وقد يكون تارك التّسمية عمداً آثماً ، إلاّ أنّ إثمه لا يُبطل ذكاته ، كالصّلاة في الأرض المغصوبة عند غير أحمد .

وجملة : ﴿ وإنه لفسق ﴾ معطوفة على جملة ﴿ ولا تأكلوا ﴾ عطف الخبر على الإنشاء ، على رأي المحقّقين في جوازه ، وهو الحقّ ، لا سيما إذا كان العطف بالواو ، وقد أجاز عطف الخبر على الإنشاء بالواو بعض من منعه بغير الواو ، وهو قول أبي عليّ الفارسي ، واحتجّ بهذه الآية كما في "مغنى اللّبيب" .

*(166/248)*

---

وقد جعلها الرّازي وجماعة : حالاً ﴿ مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ بناء على منع عطف الخبر على الإنشاء .

والضّمير في قوله : ﴿ وإنه لفسق ﴾ يعود على ﴿ مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ والإخبار عنه بالمصدر وهو ﴿ فسق ﴾ مبالغة في وصف الفعل ، وهو ذكرُ اسم غير الله ، بالفسق حتّى تجاوز الفسق صفة الفعل أن صار صفة المفعول فهو من المصدر المراد به اسم المفعول : كالخَلق بمعنى المخلوق ، وهذا نظير جعله فسقاً في قوله بعدُ :

﴿ أو فسقاً أُهِلّ لغير الله به ﴾ [ الأنعام : 145 ] .

والتّأكيد بإنّ : لزيادة التّقرير ، وجعل في "الكشاف" الضّمير عائداً إلى الأكل المأخوذ من ﴿ ولا تأكلوا ﴾ ، أي وإنّ أكْلَه لفسق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَائِهِمْ ليجادلوكم ﴾

فصل

قال الفخر :

فيه قولان :

الأول : أن المراد من الشياطين ههنا إبليس وجنوده ، وسوسوا إلى أوليائهم من المشركين ليجادلوا محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه في أكل الميتة .

والثاني : قال عكرمة : وإن الشياطين ، يعني مردة المجوس ، ليوحون إلى أوليائهم من مشركي قريش ، وذلك لأنه لما نزل تحريم الميتة سمعه المجوس من أهل فارس ، فكتبوا إلى قريش وكانت بينهم مكاتبة ، أن محمداً وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله ، ثم يزعمون أن ما يذبحونه حلال وما يذبحه الله حرام .

فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

ثم قال : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ ﴾ يعني في استحلال الميتة ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ قال الزجاج : وفيه دليل على أن كل من أحلَّ شيئاً مما حرم الله تعالى ، أو حرم شيئاً مما أحل الله تعالى فهو مشرك ، وإنما سمي مشركاً لأنه أثبت حاكماً سوى الله تعالى ، وهذا هو الشرك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 139 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَائِهِمْ ﴾

يعني : يوسوسون إلى أوليائهم من المشركين ﴿ ليجادلوكم ﴾ يقول : ليخاصموكم في أكل الميتة .

وهو قولهم : ما قتله الله فهو أولى أن يؤكل .

وروي عن عبد الله بن الزبير أنه قيل له : إن المختار يقول : يوحى إليّ فقال ، صَدَق ﴿ وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَائِهِمْ ﴾ .

قال الفقيه قال : حدّثنا أبو الفضل بن أبي حفص قال : حدّثنا أبو جعفر الطحاوي بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس قال قال المشركون للمسلمين : ما قتل ربكم ومات فلا تأكلوه وما قتلتم أنتم وذبحتم فتأكلوه فأوحى الله تعالى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عَلَيْهِ ﴾ . . .

إلى قوله : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ ﴾ يعني : في أكل الميتة واستحلاله ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ مثلهم ففي الآية دليل أن من استحل شيئاً مما حرم الله تعالى صار مشركاً . انتهى انتهى . اهـ

﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ ﴾ ليوسوسون ﴿ إلى أَوْلِيَآئِهِمْ ﴾ من المشركين . وذلك " إن المشركين قالوا : يا محمد أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها ؟ قال : اللّه قتلها . قالوا : فتزعم إن ما قتلت أنت وأصحابك حلال وما قتل الصقر والكلب حلال وما قتله اللّه حرام ؟ فأنزل اللّه عز وجل هذه الآية " .

*(168/248)*

---

وقال عكرمة : معناه ولي الشياطين يعني مردة المجوس ليوحون إلى أوليائهم من مشركي قريش وكانوا أولياءهم في الجاهلية وذلك أن المجوس من أهل فارس لما أنزل اللّه تعالى تحريم الميتة كتبوا إلى مشركي قريش وكانت بينهم مكاتبة إن محمداً وأصحابه يزعمون إنهم يتبعون أمر اللّه ثم يزعمون إن ما ذبحوا فهو حلال ، وما ذبحه اللّه فهو حرام ولا يأكلونه ، فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء فأنزل اللّه تعالى هذه الآية ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ ﴾ في أكل الميتة ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

وفي المراد بالشياطين هاهنا قولان .

أحدهما : أنهم شياطين الجن ، روي عن ابن عباس .

والثاني : قوم من أهل فارس ، وقد ذكرناه عن عكرمة ؛ فعلى الأول : وحيهم الوسوسة ، وعلى الثاني : وحيهم الرسالة .

والمراد ب "أوليائهم" : الكفار الذين جادلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في ترك أكل الميتة .

ثم فيهم قولان .

أحدهما : أنهم مشركو قريش .

والثاني : اليهود .

﴿ وإن أطعمتموهم ﴾ في استحلال الميتة ، ﴿ إنكم لمشركون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على خمسة أقوال .

أحدها : أنها نزلت في حمزة بن عبد المطلب ، وأبي جهل ، وذلك أن أبا جهل رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بفرث ، وحمزة لم يؤمن بَعْدُ ، فأُخبر حمزةُ بما فعل أبو جهل ، فأقبل حتى علا أبا جهل بالقوس ، فقال له : أما ترى ما جاء به ؟ سفَّه عقولنا ، وسبَّ آلهتنا ، فقال حمزة : ومن أسفهُ منكم ؟ تعبدون الحجارة من دون الله ؟ أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، فنزلت هذه الآية ، هذا قول ابن عباس .

والثاني : أنها نزلت في عمار بن ياسر ، وأبي جهل ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال

عكرمة .

والثالث : في عمر بن الخطاب ، وأبي جهل ، قاله زيد بن أسلم ، والضحاك .

(169/248)

---

والرابع : في النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبي جهل ، قاله مقاتل .

والخامس : أنها عامة في كل مؤمن وكافر ، قاله الحسن في آخرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ﴾

أي وإن شياطين الجن قاله ابن عباس وعبد الله بن كثير .

وقال عكرمة : مردة الإنس من مجوس فارس وتقدم ذكر كتابتهم إلى قريش أي ليوسوسون إلى كفار قريش بإلهامهم تلك الحجة في أمر الذبائح التي تقدّم ذكرها ، أو على ألسنة الكهان في زمانهم ليجادلوكم .

قال الزمخشري بقولهم : ولا تأكلون ما قتله الله ، وبهذا ترجح تأويل من تأول بالميتة ؛ انتهى .

والأحسن حمل الآية على عدم التخصيص بما ذكروه بل هذا إخبار أن ما صدر من جدال

الكفار للمؤمنين ومنازعتهم فإنما هو من الشياطين يوسوسون لهم بذلك ولذلك ختم بقوله : ﴿ وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ أي وإن أطعتم أولياء الشياطين إنكم لمشركون لأن طاعتهم طاعة للشياطين وذلك إشراك ولا يكون مشركاً حقيقة حتى يطيعه في الاعتقاد ، وأما إذا أطاعه في الفعل وهو سليم الاعتقاد فهو فاسق وهذه الجملة إخبار يتضمن الوعيد وأصعب ما على المؤمن أن يشبه المشرك فضلاً أن يحكم عليه بالشرك .

وحكي عن ابن عباس أن الذين جادلوا بتلك الحجة قوم من اليهود وضعف بأن اليهود لا تأكل الميتة اللهم إلا أن قالوا ذلك على سبيل المغالطة وإجابتهم عن العرب فيمكن وجواب الشرط .

*(170/248)*

---

زعم الحوفي أنه ﴿ إنكم لمشركون ﴾ على حذف الفاء أي فإنكم وهذا الحذف من الضرائر فلا يكون في القرآن وإنما الجواب محذوف و ﴿ إنكم لمشركون ﴾ جواب قسم محذوف التقدير والله ﴿ إن أطعتموهم ﴾ لقوله : ﴿ وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن ﴾ وقوله : ﴿ وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن ﴾ وأكثر ما يستعمل هذا التركيب بتقدير اللام المؤذنة بالقسم المحذوف على إن الشرطية ، كقوله : ﴿ لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ﴾

وحذف جواب الشرط لدلالة جواب القسم عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَائِهِمْ ﴾

المرادُ بالشياطين إبليسُ وجنودُه فإيحاؤهم وسوستُهم إلى المشركين ، وقيل : مرَدةُ المجوسِ فإيحاؤهم إلى أوليائهم ما أَنْهَوا إلى قريشٍ بالكتاب أن محمداً وأصحابَه يزعُمون أنهم يتبعون أمرَ الله ثم يزعُمون أن ما يقتلونه حلالٌ وما يقتله الله حرام ﴿ ليجادلوكم ﴾ أي بالوساوس الشيطانيةِ أو بما نقل من أباطيلِ المجوسِ وهو يؤيد التأويلَ بالميتة ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ ﴾ في استحلالِ الحرامِ وساعدتموهم على أباطيلهم ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ ضرورةَ أن من ترك طاعةَ الله إلى طاعة غيرِه واتبعه في دينه فقد أشركه به تعالى ، بل آثرَه عليه سبحانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

*(171/248)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِنَّ الشياطين ﴾ أي إبليس وجنوده ﴿ لَيُوحُونَ ﴾ أي يوسوسون ﴿ إلى أَوْلِيَائِهِمْ

﴿ الذين اتبعوهم من المشركين قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وقيل : المراد بالشياطين مردة المجوس فإيحاؤهم إلى أوليائهم ما أنهوا إلى قريش حسبما حكيناه عن عكرمة ﴿ ليجادلوكم ﴾ أي بالوساوس الشيطانية أو بما نقل من أباطيل المجوس ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ ﴾ في استحلال الحرام ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ ضرورة أن من ترك طاعة الله تعالى إلى طاعة غيره واستحل الحرام واتبعه في دينه فقد أشركه به تعالى بل آثره عليه سبحانه .

ونقل الإمام عن الكعبي أنه قال : "الآية حجة على أن الإيمان اسم لجميع الطاعات وإن كان معناه في اللغة التصديق كما جعل تعالى الشرك اسماً لكل ما كان مخالفاً لله عز وجل وإن كان في اللة مختصاً بمن يعتقد أن لله تعالى شأنه شريكاً بدليل أنه سبحانه سم طاعة المؤمنين للمشركين في إباحة الميتة شركاً ، ثم قال : ولقائل أن يقول : لم لا يجوز أن يكون المراد من الشرك ههنا اعتقاد أن لله تعالى شريكاً في الحكم والتكليف ؟ وبهذا التقدير يرجع معنى هذا الشرك إلى الاعتقاد فقط" انتهى .

والظاهر أن التعبير عن هذه الإطاعة بالشرك من باب التغليظ ونظائره كثيرة والكلام هنا كما قال أبو حيان وغيره على تقدير القسم وحذف لام التوطئة أي ولئن أطعتموهم والله أنكم لمشركون وحذف جواب الشرط لسد جواب القسم مسده .

وجعل أبو البقاء وتبعه بعضهم المذكور جواب الشرط ولا قسم وادعى أن حذف الفاء منه

حسن إذا كان الشرط بلفظ الماضي كما هنا واعترض بأن هذا لم يوجد في كتب العربية بل اتفق الكل على وجوب الفاء في الجملة الإسمية ولم يجوزوا تركها إلا في ضرورة الشعر وفيه أن المجرد أجاز ذلك في الاختيار كما ذكره المرادي في "شرح التسهيل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

*(172/248)*

---

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجدلوكم ﴾ عطف على : ﴿ وإنه لفسق ﴾ ، أي : واحذروا جَدَل أولياء الشّياطين في ذلك ، والمراد بأولياء الشّياطين : المشركون ، وهم المشار إليهم بقوله ، فيما مرّ : ﴿ يُوحي بعضهم إلى بعض ﴾ [ الأنعام : 112 ] وقد تقدّم بيانه .

والمجادلة المنازعة بالقول للإقناع بالرأي ، وتقدّم بيانها عند قوله تعالى : ﴿ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ﴾ في سورة النساء ( 107 ) ، والمراد هنا المجادلة في إبطال أحكام الإسلام وتحبيب الكفر وشعائره ، مثل قولهم : كيف نأكل ما نقتل بأيدينا ولا نأكل ما قتله الله .

وقوله : وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ حُذف متعلّق ﴿ أطعتموهم ﴾ لدلالة المقام عليه ، أي : إن أطعتموهم فيما يجادلونكم فيه ، وهو الطّعن في الإسلام ، والشكّ في صحّة أحكامه .

وجملة : ﴿ إنكم لمشركون ﴾ جواب الشّرط .

وتأكيد الخبر بإنّ لتحقيق التحاقهم بالمشركين إذا أطاعوا الشّياطين ، وإن لم يَدْعوا لله شركاء ، لأنّ تخطئة أحكام الإسلام تساوي الشرك ، فلذلك احتيج إلى التّأكيد ، أو أراد : إنَّكم لصائرون إلى الشّرك ، فإنّ الشّياطين تستدرجكم بالمجادلة حتّى يبلغوا بكم إلى الشرك ، فيكون اسم الفاعل مراداً به الاستقبال .

وليس المعنى : إن أطعتموهم في الإشراك بالله فأشركتم بالله إنَّكم لمشركون ، لأنَّه لو كان كذلك لم يكن لتأكيد الخبر سبب ، بل ولا للإخبار بأنّهم مشركون فائدة .

وجملة : ﴿ إنكم لمشركون ﴾ جواب الشرط ، ولم يَقترن بالفاء لأنّ الشّرط إذا كان مضافاً يحسن في جوابه التّجريد عن الفاء ، قاله أبو البقاء العُكبري ، وتبعه البيضاوي ، لأنّ تأثير الشّرط الماضي في جزائه ضعيف ، فكما جاز رفع الجزاء وهو مضارع ، إذا كان شرطه ماضياً ، كذلك جاز كونه جملة اسميّة غير مقترنة بالفاء .

على أنّ كثيراً من محقّقي النّحويين يجيز حذف فاء الجواب في غير الضّرورة ، فقد أجازه المبرّد وابن مالك في شرحه على "مشكل الجامع الصّحيح" .

وجعل منه قوله صلى الله عليه وسلم " إنك إنْ تَدَعْ ورثتَك أغنياء خيرُ من أن تدعهم عالة " على رواية إنْ بكسر الهمزة دون رواية فتح الهمزة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

قال الكعبي : الآية حجة على أن الإيمان اسم لجميع الطاعات وإن كان معناه في اللغة التصديق ، كما جعل تعالى الشرك اسماً لكل ما كان مخالفاً لله تعالى ، وإن كان في اللغة مختصاً بمن يعتقد أن لله شريكاً ، بدليل أنه تعالى سمى طاعة المؤمنين للمشركين في إباحة الميتة شركاً .

ولقائل أن يقول : لم لا يجوز أن يكون المراد من الشرك ههنا اعتقاد أن الله تعالى شريكاً في الحكم والتكليف ؟ وبهذا التقدير يرجع معنى هذا الشرك إلى الاعتقاد فقط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 139 ﴾

---

ومن فوائد البغوى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله عز وجل : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما : الآية في تحريم الميتات وما في معناها من المنخنقة وغيرها .

وقال عطاء : الآية في تحريم الذبائح التي كانوا يذبحونها على اسم الأصنام .

واختلف أهل العلم في ذبيحة المسلم إذا لم يذكر اسم الله عليها : فذهب قوم إلى تحريمها سواء ترك التسمية عامدا أو ناسيا ، وهو قول ابن سيرين والشعبي ، واحتجوا بظاهر هذه الآية .

وذهب قوم إلى تحليلها ، يروى ذلك عن ابن عباس وهو قول مالك والشافعي وأحمد رضوان الله عليهم أجمعين .

وذهب قوم إلى أنه إن ترك التسمية عامدا لا يحل ، وإن تركها ناسيا يحل ، حكى الخرقي من أصحاب أحمد : أن هذا مذهبه ، وهو قول الثوري وأصحاب الرأي .

من أباحها قال : المراد من الآية الميتات أو ما ذبح على غير اسم الله بدليل أنه قال : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ والفسق في ذكر اسم غير الله كما قال في آخر السورة ﴿ قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ ﴾ إلى قوله ﴿ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾

واحتج من أباحها بما أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا يوسف بن موسى ثنا أبو خالد الأحمر قال سمعت هشام بن عروة يحدّث عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : قالوا : يا رسول الله إن هنا أقواما حديث عهدهم بشرك يأتونا بلحمان لا ندري يذكرون اسم الله عليها أم لا ؟ قال : اذكروا أنتم اسم الله وكلوا" (1) .

ولو كانت التسمية شرطا للإباحة لكان الشك في وجودها مانعا من أكلها كالشك في أصل [الذبح] .

---

(1) أخرجه البخاري في التوحيد ، باب السؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها : 13 / 379 ، وفي البيوع . والبغوى في شرح السنة : 11 / 194 .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ أراد أن الشياطين ليوسوسون إلى أوليائهم من المشركين ليجادلوكم ، وذلك أن المشركين قالوا : يا محمد أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها ؟ فقال : الله قتلها ، قالوا : أفتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال ، وما قتله الكلب والصقر حلال ، وما قتله الله حرام ؟ فأنزل الله هذه الآية ، ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ ﴾ في أكل الميتة ، ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ قال الزجاج : وفيه دليل على أن من أحل شيئاً مما حرم الله أو حرم ما أحل الله فهو مشرك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البغوى حـ 3 صـ 183.184 ﴾

*(176/248)*

---

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾

المقصد بهذه الآية النهي عن الميتة إذ هي جواب لقول المشركين تتركون ما قتل الله ، والنهي أيضاً عما ذبح للأنصاب ، ومع ذلك فلفظها يعم ما تركت التسمية عليه من ذبح الإسلام ، وبهذا العموم تعلق محمد بن سيرين وعبد الله بن عياش بن أبي ربيعة وعبد الله بن عمر

ونافع وعبد الله بن يزيد الخطمي والشعبي وغيرهم فما تركت التسمية عليه نسياناً أو عمداً لم يؤكل ، وقالت طائفة عظيمة من أهل العلم : يؤكل ما ذبح ولم يسم عليه نسياناً ، ولا يؤكل ما لم يسم عليه عمداً ، وهذا قول الجمهور ، وحكى الزهراوي عن مالك بن أنيس أنه قال : تؤكل الذبيحة التي تركت التسمية عليها عمداً أو نسياناً ، وعن ربيعة أيضاً قال عبد الوهاب : التسمية سنة فإذا تركها الذابح ناسياً أكلت الذبيحة في قول مالك وأصحابه ، وإذا تركها عمداً فقال مالك لا تؤكل ، فحمل بعض أصحابه قوله لا تؤكل على التحريم ، وحمله بعضهم على الكراهة ، وقال أشهب : تؤكل ذبيحة تارك التسمية عمداً إلا أن يكون مستخفاً ، وقال نحوه الطبري ، وذبائح أهل الكتاب عند جمهور العلماء في حكم ما ذكر اسم الله عليه من حيث لهم دين وتشرع ، وقال قوم نسخ من هذه الآية ذبائح أهل الكتاب ، قاله عكرمة والحسن بن أبي الحسن ، والضمير في ﴿ إنه ﴾ في قوله : ﴿ وإنه لفسق ﴾ عائد على الأكل الذي تضمنه الفعل في قوله ﴿ ولا تأكلوا ﴾ ويحتمل أن يعود على ترك الذكر الذي يتضمنه قوله ﴿ لم يذكر ﴾ ، والفسق الخروج عن الطاعة ، هذا عرْفه في الشرع ، وقوله تعالى : ﴿ وإن الشياطين ﴾ الآية ، قال عكرمة عنى بالشياطين في هذه الآية مردة الإنس من مجوس فارس ، وذلك أنهم كانوا يوالون قريشاً على عداوة النبي صلى الله عليه وسلم فخاطبوهم منبهين على الحجة التي ذكرناها في أمر الذبح من قولهم تأكلون

ما قتلتم ، ولا تأكلون ما قتل الله ، فذلك من مخاطبتهم هو الوحي الذي عنى به ، " والأولياء " قريش ، " والمجادلة " هي تلك الحجة ، وقال ابن عباس

(177/248)

---

وعبد الله بن كثير : بل ﴿ الشياطين ﴾ الجن واللفظة على وجهها وكفرة الجن أولياء الكفرة قريش ، ووحيهم إليهم كان بالوسوسة حتى ألهموهم لتلك الحجة أو على ألسنة الكهان ، وقال أبو زميل : كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال إن إسحاق يعني المختار زعم أنه أوحي إليه الليلة . فقال ابن عباس صدق ، فنفرت فقال ابن عباس : ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ﴾ ثم نهى الله عز وجل عن طاعتهم بلفظ يتضمن الوعيد وعرض أصعب مثال في أن يشبه المؤمن بمشرك ، وحكى الطبري عن ابن عباس قولاً : إن الذين جادلوك بتلك الحجة هم قوم من اليهود .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف لأن اليهود لا تأكل الميتة ، أما أن ذلك يتجه منهم على جهة المغالطة كأنهم يحتجون عن العرب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد البيضاوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عَلَيْهِ ﴾

ظاهر في تحريم متروك التسمية عمداً أو نسياناً ، وإليه ذهب داود وعن أحمد مثله ، وقال مالك والشافعي بخلافه لقوله عليه الصلاة والسلام " ذبيحة المسلم حلال وإن لم يذكر اسم الله عليه " وفرق أبو حنيفة رحمه الله بين العمد والنسيان وأوله بالميتة أو بما ذكر غير اسم الله عليه لقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ فإن الفسق ما أهل لغير الله به ، والضمير لما ويجوز أن يكون للأكل الذي دل عليه لا تأكلوا . ﴿ وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ ﴾ ليوسوسون . ﴿ إلى أَوْلِيَائِهِمْ ﴾ من الكفار . ﴿ ليجادلوكم ﴾ بقولهم تأكلون ما قتلتم أنتم وجوارحكم وتدعون ما قتله الله ، وهو يؤيد التأويل بالميتة . ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ ﴾ في استحلال ما حرم . ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ فإن من ترك طاعة الله تعالى إلى طاعة غيره واتبعه في دينه فقد أشرك ، وإنما حسن حذف الفاء فيه لأن الشرط بلفظ الماضي . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 448 ﴾

*(178/248)*

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى : روى أبو داود قال : جاءت اليهود إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله ؟ فأنزل الله عز وجل ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ إلى آخر الآية .

وروى النَّسائي عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ قال : خاصمهم المشركون فقالوا : ما ذبح الله فلا تأكلوه وما ذبحتم أنتم أكلتموه ؛ فقال الله سبحانه لهم : لا تأكلوا ؛ فإنكم لم تذكروا اسم الله عليها .

وتنشأ هنا مسألة أصولية ، وهي :

الثانية : وذلك أن اللفظ الوارد على سبب هل يُقصر عليه أم لا ؛ فقال علماؤنا : لا إشكال في صحة دعوى العموم فيما يذكره الشارع ابتداء من صِيَغ ألفاظ العموم .

أما ما ذكره جواباً لسؤال ففيه تفصيل ، على ما هو معروف في أصول الفقه ؛ إلا أنه إن أتى بلفظ مستقل دون السؤال لَحِق بالأوّل في صحة القصد إلى التعميم .

فقوله : "لا تأكلوا" ظاهر في تناول الميتة ، ويدخل فيه ما ذُكر عليه غير اسم الله بعمومِ أنه لم

يذكر عليه اسم الله ، وبزيادة ذكر غير اسم الله سبحانه عليه الذي يقتضي تحريمه نصًّا بقوله : ﴿ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ﴾ [ البقرة : 173 ] .

وهل يدخل فيه ما ترك المسلم التسمية عمداً عليه من الذبح ، وعند إرسال الصيد .

اختلف العلماء في ذلك على أقوال خمسة ، وهي المسألة :

الثالثة : ( القول ) الأوّل : إن تركها سهواً أُكِلا جميعاً ؛ وهو قول إسحاق ورواية عن أحمد بن حنبل .

فإن تركها عمداً لم يؤكلا ؛ وقاله في الكتاب مالكٌ وابن القاسم ، وهو قول أبي حنيفة وأصحابِه والثوريّ والحسن بن حيّ وعيسى وأَصْبَغَ ، وقاله سعيد بن جُبير وعطاء ، واختاره النحاس وقال : هذا أحسن ؛ لأنه لا يُسَمَّى فاسقاً إذا كان ناسياً .

*(179/248)*

---

الثاني : إن تركها عامداً أو ناسياً يأكلهما .

وهو قول الشافعي والحسن ، وروي ذلك عن ابن عباس وأبي هريرة وعطاء وسعيد بن المسيّب وجابر بن زيد وعِكرمة وأبي عِياض وأبي رافع وطاوس وإبراهيم النَّخَعِيّ وعبد الرحمن بن أبي لَيْلى وقتادة .

وحكى الزَّهْرَاوِيّ عن مالك بن أنس أنه قال : تؤكل الذبيحة التي تركت التسمية عليها عمداً أو نسياناً .

وروى عن ربيعة أيضاً .

قال عبد الوهاب : التسمية سنة ؛ فإذا تركها الذابح ناسياً أكلت الذبيحة في قول مالك وأصحابه .

الثالث : إن تركها عامداً أو ساهياً حَرُم أكلها ؛ قاله محمد بن سِيرين وعبد الله بن عياش بن أبي ربيعة وعبد الله بن عمر ونافع وعبد الله بن زيد الخَطْمِيّ والشعبيّ ؛ وبه قال أبو ثور وداود بن عليّ وأحمد في رواية .

الرابع : إن تركها عامداً كُره أكلها ؛ قاله القاضي أبو الحسن والشيخ أبو بكر من علمائنا .

الخامس : قال أشهب : تؤكل ذبيحة تارك التسمية عمداً إلا أن يكون مستخِفًّا ، وقال نحوه الطبري .

أدلة قال الله تعالى : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسم الله عَلَيْهِ ﴾ وقال : ﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عَلَيْهِ ﴾ فبيّن الحالين وأوضح الحكمين .

فقوله : "لا تأكلوا" نهيٌ على التحريم لا يجوز حمله على الكراهة ؛ لتناوله في بعض مقتضياته الحرام المحض ، ولا يجوز أن يتبعّض ، أي يراد به التحريم والكراهة معاً ؛ وهذا من نفيس الأصول .

وأما النَّاسي فلا خطاب توجّه إليه إذ يستحيل خطابه ؛ فالشرط ليس بواجب عليه .

وأما التارك للتسمية عمداً فلا يخلو من ثلاثة أحوال : إما أن يتركها إذا أضجع الذبيحة ويقول : قلبي مملوء من أسماء الله تعالى وتوحيده فلا أفتقر إلى ذكرٍ بلساني ؛ فذلك يجزئه لأنه ذكر الله جلّ جلاله وعظمه .

أو يقول : إن هذا ليس بموضع تسْمية صريحة ، إذ ليست بقربة ؛ فهذا أيضاً يجزئه .

أو يقول : لا أسمي ، وأيّ قدر للتسمية ؛ فهذا متهاون فاسق لا تؤكل ذبيحته .

*(180/248)*

---

قال ابن العربيّ : وأعجب لرأس المحققين أمامِ الحرمين حيث قال : ذِكر الله تعالى إنما شُرع في القُرَب ، والذّبح ليس بقُرْبة .

وهذا يعارض القرآن والسنة ؛ قال صلى الله عليه وسلم في الصحيح : " ما أنهر الدّمَ وذُكر اسم الله عليه فَكُلْ " فإن قيل : المراد بذكر اسم الله بالقلب ؛ لأن الذكر يضادّ النسيان ومحل النسيان القلب فمحل الذكر القلب ، وقد روى البَرَاء بن عازب : اسم الله على قلب كل مؤمن سَمَّى أو لم يسمّ .

قلنا : الذكر باللسان وبالقلب ، والذي كانت العرب تفعله تسمية الأصنام والنُّصُب

باللسان ، فنسخ الله ذلك بذكره في الألسنة ، واشتهر ذلك في الشريعة حتى قيل لمالك : هل يُسَمِّي الله تعالى إذا توضأ فقال : أيريد أن يذبح .

وأما الحديث الذي تعلّقوا به من قوله : " اسم الله على قلب كل مؤمن " فحديث ضعيف .

وقد استدلّ جماعة من أهل العلم على أن التسمية على الذبيحة ليست بواجبة ؛ ل " قوله عليه السلام لأناس سألوه ، قالوا : يا رسول الله ، إنّ قوماً يأتوننا باللّحم لا ندري أذكروا اسم الله عليه أم لا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سَمّوا الله عليه وكلوا" " أخرجه الدّارقطنيّ عن عائشة ومالك مرسلاً عن هشام بن عروة عن أبيه ، لم يُختلف عليه في إرساله ، وتأوّله بأن قال في آخره : وذلك في أوّل الإسلام .

يريد قبل أن ينزل عليه "وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسم اللَّهِ عَلَيْهِ" .

قال أبو عمر : وهذا ضعيف ، وفي الحديث نفسِه ما يردّه ، وذلك أنه أمرهم فيه بتسمية الله على الأكل ؛ فدلّ على أن الآية قد كانت نزلت عليه .

ومما يدلّ على صحة ما قلناه أن هذا الحديث كان بالمدينة ، ولا يختلف العلماء أن قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عَلَيْهِ ﴾ .

نزل في سورة "الأنعام" بمكة .

ومعنى ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ أي لمعصية ؛ عن ابن عباس .

والفِسْق : الخروج ؛ وقد تقدّم .

---

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَآئِهِمْ ﴾ أي يُوَسْوِسُون فيُلقون في قلوبهم الجدال بالباطل .

روى أبو داود عن ابن عباس في قوله : "وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم" يقولون : ما ذبح الله فلا تأكلوه ، وما ذبحتم أنتم فكُلُوه ، فأنزل الله ﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عَلَيْهِ ﴾ قال عِكرمة : عنى بالشياطين في هذه الآية مَرَدة الإنس من مَجُوس فارس .

وقال ابن عباس وعبد الله بن كثير : بل الشياطين الجنُّ ، وكفرة الجن أولياء قريش .

ورُوي عن عبد الله بن الزبير أنه قيل له : إن المختار يقول : يُوحَى إليّ فقال : صدق ، إن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم .

وقوله : "ليجادلوكم ) .

يريد قولهم : ما قتل الله لم تأكلوه وما قتلتموه أكلتموه .

والمجادلة : دفع القول على طريق الحجة بالقوّة ؛ مأخوذ من الأجدل ، طائر قويّ .

وقيل : هو مأخوذ من الجَدالة ، وهي الأرض ؛ فكأنه يغلِبه بالحجة ويقهره حتى يصير كالمجدول بالأرض .

وقيل : هو مأخوذ من الجدْل ، وهو شدّة الفَتْل ؛ فكأن كلّ واحد منهما يفتل حجة صاحبه حتى يقطعها ، وتكون حقاً في نصرة الحق وباطلاً في نصرة الباطل .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ ﴾ أي في تحليل الميتة ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ .

فدلّت الآية على أن من استحل شيئاً مما حرّم الله تعالى صار به مُشرِكاً .

وقد حرَّم الله سبحانه الميتة نصًّا ؛ فإذا قَبل تحليلها من غيره فقد أشرك .

قال ابن العربيّ : إنما يكون المؤمن بطاعة المشرك مشركاً إذا أطاعه في الاعتقاد ؛ فأما إذا أطاعه في الفعل وعقده سليم مستمر على التوحيد والتصديق فهو عاصٍ ؛ فافهموه .

وقد مضى في "المائدة" . انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(182/248)

---

ومن فوائد ابن كثير فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (121) ﴾

استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أنه لا تحل الذبيحة التي لم يذكر اسم الله عليها ، ولو

كان الذابح مسلما ، وقد اختلف الأئمة ، رحمهم الله ، في هذه المسألة على ثلاثة أقوال :

فمنهم من قال : لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة ، وسواء متروك التسمية عمدًا أو سهوًا .

وهو مروي عن ابن عمر ، ونافع مولاه ، وعامر الشعبي ، ومحمد بن سيرين . وهو رواية عن الإمام مالك ، ورواية عن أحمد بن حنبل نصرها طائفة من أصحابه المتقدمين والمتأخرين ، وهو اختيار أبي ثور ، وداود الظاهري ، واختار ذلك أبو الفتوح محمد بن محمد بن علي الطائي من متأخري الشافعية في كتابه "الأربعين" ، واحتجوا لمذهبهم هذا بهذه الآية ، وبقوله في

(183/248)

---

آية الصيد : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ [المائدة : 4] . ثم قد أكد في هذه الآية بقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ والضمير قيل : عائد على الأكل ، وقيل : عائد على الذبح لغير الله – وبالأحاديث الواردة في الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد ، كحديثي عدي بن حاتم وأبي ثعلبة : "إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك" . وهما في الصحيحين ، وحديث رافع بن خُدَيْج . "ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه" . وهو في الصحيحين أيضًا ، وحديث ابن مسعود أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال للجن : "لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه" (1) رواه مسلم .

وحديث جُنْدَب بن سفيان البَجَلي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من ذبح قبل أن يصلي فليذبح مكانها أخرى ، ومن لم يكن ذبح حتى صلينا فليذبح باسم الله" . أخرجاه (2) وعن عائشة ، رضي الله عنها ، أن ناسا قالوا : يا رسول الله ، إن قوما يأتوننا باللحم لا ندري : أذكر اسم الله عليه أم لا ؟ قال : "سموا عليه أنتم وكلوا" . قالت : وكانوا حديثي عهد بالكفر . رواه البخاري . ووجه الدلالة أنهم فهموا أن التسمية لا بد منها ، [وأنهم] خشوا ألا تكون وجدت من أولئك ، لحداثة إسلامهم ، فأمرهم بالاحتياط بالتسمية عند الأكل ، لتكون كالعوض عن المتروكة عند الذبح إن لم تكن وجدت ، وأمرهم بإجراء أحكام المسلمين على السداد ، والله [تعالى] أعلم .

---

(1) صحيح مسلم برقم (450) .

(2) صحيح البخاري برقم (985) وصحيح مسلم برقم (1960) .

*(184/248)*

---

والمذهب الثاني في المسألة : أنه لا يشترط التسمية ، بل هي مستحبة ، فإن تركت عمدًا أو نسيانًا لم تضر وهذا مذهب الإمام الشافعي ، رحمه الله ، وجميع أصحابه ، ورواية عن

الإمام أحمد . نقلها عنه حنبل . وهو رواية عن الإمام مالك ، ونص على ذلك أشهب بن عبد العزيز من أصحابه ، وحكي عن ابن عباس ، وأبي هريرة ، وعطاء بن أبي رباح ، والله أعلم .

وحمل الشافعي الآية الكريمة : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ على ما ذبح لغير الله ، كقوله تعالى ﴿ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ [الأنعام : 145] .

وقال ابن جُرَيْج ، عن عطاء : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ قال : ينهى عن ذبائح كانت تذبحها قريش عن الأوثان ، وينهى عن ذبائح المجوس ، وهذا المسلك الذي طرقه الإمام الشافعي [رحمه الله] قوي ، وقد حاول بعض المتأخرين أن يقويه بأن جعل "الواو" في قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ حالية ، أي : لا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه في حال كونه فسقًا ، ولا يكون فسقا حتى يكون قد أهل به لغير الله . ثم ادعى أن هذا متعين ، ولا يجوز أن تكون "الواو" عاطفة . لأنه يلزم منه عطف جملة إسمية خبرية على جمله فعلية طلبية . وهذا ينتقض عليه بقوله : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ ﴾ فإنها عاطفة لا محاولة ، فإن كانت "الواو" التي ادعى أنها حالية صحيحة على ما قال ؛ امتنع عطف هذه عليها ، فإن عطفت على الطلبية ورد عليه ما أورد على غيره ، وإن لم تكن "الواو" حالية ، بطل ما قال من أصله ، والله أعلم .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا يحيى بن المغيرة ، أنبأنا جرير ، عن عطاء ، عن سعيد بن جُبَيْر ، عن ابن عباس قوله : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ قال : هي الميتة .

ثم رواه ، عن أبي زُرْعَة ، عن يحيى بن أبي كثير عن ابن لَهِيعَة ، عن عطاء – وهو ابن السائب – به .

وقد استدل لهذا المذهب بما رواه أبو داود في المراسيل ، من حديث ثور بن يزيد ، عن الصلت السدوسي – مولى سُوَيْد بن مَنْجوف أحد التابعين الذين ذكرهم أبو حاتم بن حبان في كتاب الثقات – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ذَبِيحَة المسلم حلال ذُكِر اسمُ اللهِ أو لم يُذْكَرْ ، إنه إن ذكر لم يذكر إلا اسم الله" (1)

وهذا مرسل يعضد بما رواه الدارقطني عن ابن عباس أنه قال : إذا ذبح المسلم – ولم يذكر اسم الله فليأكل ، فإن المسلم فيه اسم من أسماء الله" (2)

واحتج البيهقي أيضاً بحديث عائشة ، رضي الله عنها ، المتقدم أن ناسا قالوا : يا رسول الله ، إن قوما حديثي عهد بجاهلية يأتونا بلحم لا ندري أذكروا اسم الله عليه أم لا ؟ فقال : "سَمّوا أنتم وكُلُوا" . قال : فلو كان وجود التسمية شرطا لم يرخص لهم إلا مع تحققها ، والله أعلم .

المذهب الثالث في المسألة : [أنه] إن ترك البسملة على الذبيحة نسيانا لم يضر وإن تركها عمدًا لم تحل .

---

(1) المراسيل برقم (378) ورواه البيهقي في السنن الكبرى (240/9) من طريق أبي داود به . وقال ابن القطان كما في نصب الراية (183/4) : "فيه مع الإرسال أن الصلت السدوسي لا يعرف له حال ولا يعرف بغير هذا ، ولا روى عنه غير ثور بن يزيد " .

(2) سنن الدارقطني (295/4) وقد روى مرفوعا ، ورجح البيهقي وقفه وصححه ابن السكن .

*(186/248)*

---

هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك ، وأحمد بن حنبل ، وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه ، وإسحاق بن راهويه : وهو محكي عن علي ، وابن عباس ، وسعيد بن المُسَيَّب ، وعَطَاء ، وطاوس ، والحسن البصري ، وأبي مالك ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى ، وجعفر بن محمد ، وربيعة بن أبي عبد الرحمن .

ونقل الإمام أبو الحسن المرغيناني في كتابه "الهداية" الإجماع – قبل الشافعي على تحريم متروك التسمية عمدا ، فلهذا قال أبو يوسف والمشايخ : لو حكم حاكم بجواز بيعه لم ينفذ

لمخالفة الإجماع.

وهذا الذي قاله غريب جدًا ، وقد تقدم نقل الخلاف عمن قبل الشافعي ، والله أعلم .

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير : من حرم ذبيحة الناسي ، فقد خرج من قول جميع الحجة ، وخالف الخبر الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك

يعني ما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي : أنبأنا أبو عبد الله الحافظ ، حدثنا أبو العباس الأصم ، حدثنا أبو أمية الطرسوسي ، حدثنا محمد بن يزيد ، حدثنا معقل بن عبيد الله ، عن عمرو بن دينار ، عن عِكْرِمة ، عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "المسلم يكفيه اسمه ، إن نسي أن يسمي حين يذبح ، فليذكر اسم الله وليأكله" (1)

وهذا الحديث رفعه خطأ ، أخطأ فيه معقل بن عبيد الله الجزيري فإنه وإن كان من رجال مسلم إلا أن سعيد بن منصور ، وعبد الله بن الزبير الحميدي روياه عن سفيان بن عيينة ، عن عمرو ، عن أبي الشعثاء ، عن عِكْرِمة ، عن ابن عباس ، من قوله . فزادا في إسناده "أبا الشعثاء" ، ووقفا والله [تعالى] أعلم . وهذا أصح ، نص عليه البيهقي [وغيره من الحفاظ]

وقد نقل ابن جرير وغيره . عن الشعبي ، ومحمد بن سيرين ، أنهما كرها متروك التسمية نسيانا ، والسلف يطلقون الكراهية على التحريم كثيرا ، والله أعلم . إلا أن من قاعدة ابن جرير أنه لا يعتبر قول الواحد ولا الاثنين مخالفا لقول الجمهور ، فيعده إجماعا ، فليعلم هذا ،

والله الموفق .

قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا أبو أسامة ، عن جَهير بن يزيد قال : سئل الحسن ، سأله رجل أتيت بطير كَرًى فمنه ما قد ذبح فذكر اسم الله عليه ، ومنه ما نسي أن يذكر اسم الله عليه ، واختلط الطير ، فقال الحسن : كله ، كله . قال : وسألت محمد بن سيرين فقال : قال الله [تعالى] ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾

واحتج لهذا المذهب بالحديث المروي من طرق عند ابن ماجه ، عن ابن عباس ، وأبي هريرة ، وأبي ذر وعقبة بن عامر ، وعبد الله بن عمرو ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : "إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان ، وما استكرهوا عليه" (2) وفيه نظر ، والله أعلم .

---

(1) السنن الكبرى (240/9) .

(2) رواه ابن ماجة في السنن برقم (2045) من طريق الأوزاعي عن عطاء عن ابن عباس ، رضي الله عنه ، ورواه ابن ماجة في السنن برقم (2044) من طريق قتادة ، عن زرارة بن أبي أوفى ، عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، ورواه ابن ماجة في السنن برقم (2043) من طريق أبي بكر الهذلي ، عن شهر بن حوشب ، عن أبي ذر الغفاري ، رضي الله عنه . قال البوصيري في الزوائد (130/2) : "إسناده ضعيف" . ورواه البيهقي في السنن الكبرى (356/7) من طريق ابن لهيعة ، عن موسى بن وردان ، عن

عقبة بن عامر ، رضي الله عنه ، أما من حديث عبد الله بن عمرو فلم أجده ، وقد جاء من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب رواه أبو نعيم في الحلية (352/6) .

*(187/248)*

---

وقد روى الحافظ أبو أحمد بن عدي ، من حديث مروان بن سالم القرقساني ، عن الأوزاعي ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أرأيت الرجل منا يذبح وينسى أن يسمي ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "اسم الله على كل مسلم" (1)

---

(1) الكامل لابن عدي (385/6) .

*(188/248)*

---

ولكن هذا إسناده ضعيف ، فإن مروان بن سالم القرقساني أبا عبد الله الشامي ، ضعيف ، تكلم فيه غير واحد من الأئمة ، والله أعلم .

وقد أفردت هذه المسألة على حدة ، وذكرت مذاهب الأئمة ومآخذهم وأدلتهم ، ووجه

الدلالات والمناقضات والمعارضات ، والله أعلم .

قال ابن جرير : وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية : هل نسخ من حكمها شيء أم لا ؟ فقال بعضهم : لم ينسخ منها شيء وهي محكمة فيما عُنيت به . وعلى هذا قول عامة أهل العلم .

وروي عن الحسن البصري وعكرمة . ما حدثنا به ابن حُميد ، حدثنا يحيى بن واضح ، عن الحسين بن واقد ، عن عكرمة والحسن البصري قالا قال الله : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ وقال ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ فنسخ واستثنى من ذلك فقال : ﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ﴾ [المائدة : 5] .

وقال ابن أبي حاتم : قرئ علي العباس بن الوليد بن مزيد ، حدثنا محمد بن شعيب ، أخبرني النعمان – يعني ابن المنذر – عن مكحول قال : أنزل الله في القرآن : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ ثم نسخها الرب ورحم المسلمين فقال : ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ ﴾ فنسخها بذلك وأحل طعام أهل الكتاب .

ثم قال ابن جرير : والصواب أنه لا تعارض بين حل طعام أهل الكتاب ، وبين تحريم ما لم يذكر اسم الله عليه .

وهذا الذي قاله صحيح ، ومن أطلق من السلف النسخ ها هنا فإنما أراد التخصيص ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

(189/248)

---

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ ﴾ قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن أبي إسحاق قال : قال رجل لابن عمر : إن المختار يزعم أنه يوحى إليه ؟ قال : صدق ، وتلا هذه الآية : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ ﴾

وحدثنا أبي ، حدثنا أبو حذيفة ، حدثنا عكرمة بن عمار ، عن أبي زُمَيْل قال : كنت قاعدًا عند ابن عباس ، وحج المختار ابن أبي عبيد ، فجاءه رجل فقال : يا ابن عباس ، وزعم أبو إسحاق أنه أوحي إليه الليلة ؟ فقال ابن عباس : صدق ، فنفرت وقلت : يقول ابن عباس صدق . فقال ابن عباس : هما وحيان ، وحي الله ، ووحي الشيطان ، فوحي الله [عَزَّ وجل] إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، ووحي الشيطان إلى أوليائه ، ثم قرأ : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ ﴾

وقد تقدم عن عكرمة في قوله : ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ نحو

هذا .

وقوله [تعالى]: ﴿ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ قال ابن أبي حاتم : : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا عمران بن عيينة ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جُبَيْر قال : خاصمت اليهود النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : نأكل مما قتلنا ، ولا نأكل مما قتل الله ؟ فأنزل الله : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾

هكذا رواه مرسلا ورواه أبو داود متصلا فقال : حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا عمران بن عيينة ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جُبَيْر ، عن ابن عباس قال : جاءت اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : نأكل مما قتلنا ولا نأكل مما قتل الله ؟ فأنزل الله : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ [وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ] ﴾ .

وكذا رواه ابن جَرير ، عن محمد بن عبد الأعلى وسفيان بن وَكِيع ، كلاهما عن عمران بن عيينة ، به .

ورواه البزار ، عن محمد بن موسى الحَرَشي ، عن عمران بن عيينة ، به . (1) وهذا فيه نظر من وجوه ثلاثة :

أحدها : أن اليهود لا يرون إباحة الميتة حتى يجادلوا .

الثاني : أن الآية من الأنعام ، وهي مكية .

الثالث : أن هذا الحديث رواه الترمذي ، عن محمد بن موسى الحَرَشِي ، عن زياد بن عبد

الله البكائي ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جُبَيْر ، عن ابن عباس . ورواه الترمذي بلفظ : أتى

---

(1) سنن أبي داود برقم (2819) وتفسير الطبري (82/12) .

*(190/248)*

---

ناس النبي صلى الله عليه وسلم فذكره وقال : حسن غريب ، رُوي عن سعيد بن جبير مرسلا (1) .

وقال الطبراني : حدثنا علي بن المبارك ، حدثنا زيد بن المبارك ، حدثنا موسى بن عبد العزيز ، حدثنا الحكم بن أبان ، عن عِكْرِمة ، عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ أرسلت فارس إلى قريش : أن خاصموا محمدًا وقولوا له : كَمَا تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال ، وما ذبح الله ، عَزَّ وجل ، بشمشير من ذهب - يعني الميتة - فهو حرام . فنزلت هذه الآية : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ قال : الشياطين من فارس ، وأوليائهم [من] قريش (2) .

وقال أبو داود : حدثنا محمد بن كثير ، أخبرنا إسرائيل ، حدثنا سِماك ، عن عِكْرِمة ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ ﴾ يقولون : ما ذبح الله فلا

تأكلوه . وما ذبحتم أنتم فكلوه ، فأنزل الله : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾

ورواه ابن ماجه وابن أبي حاتم ، عن عمرو بن عبد الله ، عن وكيع ، عن إسرائيل ، به (3) . وهذا إسناد صحيح .

---

(1) سنن الترمذي برقم (3069) .

(2) المعجم الكبير للطبراني (241/11) .

(3) سنن أبي داود برقم (2818) وسنن ابن ماجة برقم (3173) .

*(191/248)*

---

ورواه ابن جرير من طرق متعددة ، عن ابن عباس ، وليس فيه ذكر اليهود ، فهذا هو المحفوظ ، والله أعلم .

وقال ابن جُرَيْج : قال عمرو بن دينار ، عن عكرمة : إن مشركي قريش كاتبوا فارس على الروم ، وكاتبتهم فارس ، وكتب فارس إلى مشركي قريش : أن محمدًا وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله ، فما ذبح الله بسكين من ذهب فلا يأكله محمد وأصحابه - للميتة وما ذبحوه هم يأكلون . فكتب بذلك المشركون إلى أصحاب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء ، فأنزل الله : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ

الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ [إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ] ﴾ ونزلت : ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾

وقال السُّدِّي في تفسير هذه الآية : إن المشركين قالوا للمؤمنين : كيف تزعمون أنكم تتبعون مرضاة الله ، وما ذبح الله فلا تأكلونه ، وما ذبحتم أنتم أكلتموه ؟ فقال الله : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ ﴾ فأكلتم الميتة ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾

وهكذا قاله مجاهد ، والضحاك ، وغير واحد من علماء السلف ، رحمهم الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ أي : حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره ، فقدمتم عليه غيره فهذا هو الشرك ، كما قال تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ [وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ] ﴾ [التوبة : 31] .

*(192/248)*

---

وقد روى الترمذي في تفسيرها ، عن عدي بن حاتم أنه قال : يا رسول الله ، ما عبدوهم ، فقال : "بل إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم" (1) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 324. 330 ﴾

---

(1) سنن الترمذي برقم (3095) من طريق عبد السلام بن حرب ، عن غطيف بن أعين ، عن مصعب بن سعد ، عن عدي بن حاتم ، رضي الله عنه ، قال الترمذي : "هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب ، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث" .

*(193/248)*

---

ومن فوائد الإمام الجصاص فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ فِيهِ نَهْيٌ عَنْ أَكْلِ مَا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ .

وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا وَمَالِكٌ ﴿ وَالْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ : إنْ تَرَكَ الْمُسْلِمُ التَّسْمِيَةَ عَمْدًا لَمْ يُؤْكَلْ وَإِنْ تَرَكَهَا نَاسِيًا أُكِلَ ﴾ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : ﴿ يُؤْكَلُ فِي الْوَجْهَيْنِ ﴾ ، وَذَكَرَ مِثْلَهُ عَنْ الْأَوْزَاعِيِّ وَقَدْ اُخْتُلِفَ أَيْضًا فِي تَارِكِ التَّسْمِيَةِ نَاسِيًا ، فَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَعَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ وَابْنِ شِهَابٍ وَطَاوُسٍ قَالُوا : لَا بَأْسَ بِأَكْلِ مَا ذُبِحَ وَنَسِيَ التَّسْمِيَةَ

عَلَيْهِ .

وَقَالَ عَلِيٌّ : ﴿ إِنَّمَا هِيَ عَلَى الْمِلَّةِ ﴾ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : الْمُسْلِمُ ذِكْرُ اللَّهِ فِي قَلْبِهِ وَقَالَ : كَمَا لَا يَنْفَعُ الِاسْمُ فِي الشِّرْكِ لَا يَضُرُّ النِّسْيَانُ فِي الْمِلَّةِ .

وَقَالَ عَطَاءٌ : الْمُسْلِمُ تَسْمِيَةُ اسْمِ اللَّهِ تَعَالَى ؛ الْمُسْلِمُ هُوَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالْمُؤْمِنُ هُوَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَائِهِ ، وَالْمُؤْمِنُ تَسْمِيَةٌ لِلذَّابِحِ .

وَرَوَى أَبُو خَالِدٍ الْأَصَمُّ عَنْ ابْنِ عَجْلَانَ عَنْ نَافِعٍ : ﴿ أَنَّ غُلَامًا لِابْنِ عُمَرَ قَالَ لَهُ : يَا عَبْدَ اللَّهِ قُلْ بِسْمِ اللَّهِ قَالَ : قَدْ قُلْت ، قَالَ : قُلْ بِسْمِ اللَّهِ قَالَ : قَدْ قُلْت ، قَالَ : قُلْ بِسْمِ اللَّهِ قَالَ : قَدْ قُلْت ، قَالَ : فَذَبَحَ فَلَمْ يَأْكُلْ مِنْهُ ﴾ وَقَالَ ابْنُ سِيرِينَ : إذَا تَرَكَ التَّسْمِيَةَ نَاسِيًا لَمْ يُؤْكَلْ .

*(194/248)*

---

وَرَوَى يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ عَنْ مَوْلًى لِقُرَيْشٍ عَنْ أَبِيهِ : ﴿ أَنَّهُ أَتَى عَلَى غُلَامٍ لِابْنِ عُمَرَ قَائِمًا عِنْدَ قَصَّابٍ ذَبَحَ شَاةً وَنَسِيَ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا ، فَأَمَرَهُ ابْنُ عُمَرَ أَنْ يَقُومَ عِنْدَهُ فَإِذَا جَاءَ إنْسَانٌ يَشْتَرِي قَالَ : ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ إنَّ هَذِهِ لَمْ يُذَكِّهَا فَلَا تَشْتَرِ ﴾ .

وَرَوَى شُعْبَةُ عَنْ حَمَّادٍ عَنْ إبْرَاهِيمَ فِي الرَّجُلِ يَذْبَحُ فَيَنْسَى أَنْ يُسَمِّيَ قَالَ : ﴿ أَحَبُّ إلَيَّ

أَنْ لَا يَأْكُلَ ﴾ .

وَظَاهِرُ الْآيَةِ مُوجِبٌ لِتَحْرِيمِ مَا تَرَكَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ نَاسِيًا كَانَ ذَلِكَ أَوْ عَامِدًا ، إلَّا أَنَّ الدَّلَالَةَ قَدْ قَامَتْ عِنْدَنَا عَلَى أَنَّ النِّسْيَانَ غَيْرُ مُرَادٍ بِهِ ؛ فَأَمَّا مَنْ أَبَاحَ أَكْلَهُ مَعَ تَرْكِ التَّسْمِيَةِ عَمْدًا فَقَوْلُهُ مُخَالِفٌ لِلْآيَةِ غَيْرُ مُسْتَعْمِلٍ لِحُكْمِهَا بِحَالٍ ، هَذَا مَعَ مُخَالَفَتِهِ لِلْآثَارِ الْمَرْوِيَّةِ فِي إيجَابِ التَّسْمِيَةِ عَلَى الصَّيْدِ وَالذَّبِيحَةِ فَإِنْ قِيلَ : إنَّ الْمُرَادَ بِالنَّهْيِ الذَّبَائِحُ الَّتِي ذَبَحَهَا الْمُشْرِكُونَ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مَا رَوَى شَرِيكٌ عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ الْمُشْرِكُونَ : أَمَّا مَا قَتَلَ رَبُّكُمْ فَمَاتَ فَلَا تَأْكُلُونَهُ وَأَمَّا مَا قَتَلْتُمْ أَنْتُمْ وَذَبَحْتُمْ فَتَأْكُلُونَهُ فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ قَالَ : ﴿ الْمَيْتَةَ ﴾ .

*(195/248)*

---

وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي نَسَقِ التِّلَاوَةِ : ﴿ لَيُوحُونَ إلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ فَإِذَا كَانَتْ الْآيَةُ فِي الْمَيْتَةِ وَفِي ذَبَائِحِ الْمُشْرِكِينَ فَهِيَ مَقْصُورَةُ الْحُكْمِ وَلَمْ يَدْخُلْ فِيهَا ذَبَائِحُ الْمُسْلِمِينَ .

قِيلَ لَهُ : نُزُولُ الْآيَةِ عَلَى سَبَبٍ لَا يُوجِبُ الِاقْتِصَارَ بِحُكْمِهَا عَلَيْهِ بَلْ الْحُكْمُ لِلْعُمُومِ إذَا كَانَ

أَعُمَّ مِنْ السَّبَبِ ، فَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ ذَبَائِحَ الْمُشْرِكِينَ لَذَكَرَهَا وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى ذِكْرِ تَرْكِ التَّسْمِيَةِ ، وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ وَإِنْ سَمَّوا عَلَى ذَبَائِحِهِمْ لَمْ تُؤْكَلْ مِثْلُ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ ذَبَائِحَ الْمُشْرِكِينَ ؛ إذْ كَانَتْ ذَبَائِحُهُمْ غَيْرَ مَأْكُولَةٍ سَمَّوا اللَّهَ عَلَيْهَا أَوْ لَمْ يُسَمُّوا ، وَقَدْ نَصَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى تَحْرِيمِ ذَبَائِحِ الْمُشْرِكِينَ فِي غَيْرِ هَذِهِ الْآيَةِ وَهُوَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾ وَأَيْضًا فَلَوْ أَرَادَ ذَبَائِحَ الْمُشْرِكِينَ أَوْ الْمَيْتَةَ لَكَانَتْ دَلَالَةُ الْآيَةِ قَائِمَةً عَلَى فَسَادِ التَّذْكِيَةِ بِتَرْكِ التَّسْمِيَةِ ؛ إذْ جَعَلَ تَرْكَ التَّسْمِيَةِ عَلَمًا لِكَوْنِهِ مَيْتَةً ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَا تُرِكَتْ التَّسْمِيَةُ عَلَيْهِ فَهُوَ مَيْتَةٌ .

وَعَلَى أَنَّهُ قَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ التَّسْمِيَةُ دُونَ ذَبِيحَةِ الْكَافِرِ .

*(196/248)*

---

وَهُوَ مَا رَوَاهُ إسْرَائِيلُ عَنْ سِمَاكٍ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ ﴾ قَالَ : كَانُوا يَقُولُونَ : مَا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَلَا تَأْكُلُوهُ وَمَا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكُلُوهُ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ ، فَأَخْبَرَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ الْمُجَادَلَةَ مِنْهُمْ كَانَتْ فِي تَرْكِ التَّسْمِيَةِ وَأَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي إيجَابِهَا لَا مِنْ طَرِيقِ ذَبَائِحِ الْمُشْرِكِينَ وَلَا الْمَيْتَةِ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَرْكَ التَّسْمِيَةِ عَامِدًا يُفْسِدُ

الزَّكَاةَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنْ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ وَمَعْلُومٌ أَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ يَقْتَضِي الْإِيجَابَ وَأَنَّهُ غَيْرُ وَاجِبٍ عَلَى الْآكِلِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ بِهِ حَالَ الِاصْطِيَادِ ، وَالسَّائِلُونَ قَدْ كَانُوا مُسْلِمِينَ فَلَمْ يُبَحْ لَهُمْ الْأَكْلُ إلَّا بِشَرِيطَةِ التَّسْمِيَةِ ؛ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ﴾ يَعْنِي فِي حَالِ النَّحْرِ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا ﴾ وَالْفَاءِ لِلتَّعْقِيبِ .

(197/248)

---

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ السُّنَّةِ حَدِيثُ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ حِينَ سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ صَيْدِ الْكَلْبِ ، فَقَالَ : ﴿ إذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَك الْمُعَلَّمَ وَذَكَرْت اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكُلْ إذَا أَمْسَكَ عَلَيْك ، وَإِنْ وَجَدْتَ مَعَهُ كَلْبًا آخَرَ وَقَدْ قَتَلَهُ فَلَا تَأْكُلْهُ ﴾ فَإِنَّمَا ذَكَرْت اسْمَ اللَّهِ عَلَى كَلْبِك وَلَمْ تَذْكُرْهُ عَلَى غَيْرِهِ وَقَدْ كَانَ عَدِيٌّ بْنُ حَاتِمٍ مُسْلِمًا ، فَأَمَرَهُ بِالتَّسْمِيَةِ عَلَى إرْسَالِ الْكَلْبِ وَمَنَعَهُ الْأَكْلَ عِنْدَ عَدَمِ التَّسْمِيَةِ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَلَا تَأْكُلْهُ فَإِنَّمَا ذَكَرْت اسْمَ اللَّهِ عَلَى كَلْبِك ﴾ .

وَقَدْ اقْتَضَتْ الْآيَةُ النَّهْيَ عَنْ أَكْلِ مَا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَالنَّهْيُ عَنْ تَرْكِ التَّسْمِيَةِ أَيْضًا .

وَيَدُلُّ عَلَى تَأْكِيدِ النَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ وَهُوَ رَاجِعٌ إلَى الْأَمْرَيْنِ مِنْ تَرْكِ التَّسْمِيَةِ وَمِنْ الْأَكْلِ وَيَدُلُّ أَيْضًا عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ حَالُ تَرْكِهَا عَامِدًا ؛ إذْ كَانَ النَّاسِي لَا يَجُوزُ أَنْ تَلْحَقَهُ سِمَةُ الْفِسْقِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مَا رَوَى عَبْدُ الْعَزِيزِ الدَّرَاوَرْدِيُّ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ ﴿ النَّاسَ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ إنَّ الْأَعْرَابَ يَأْتُونَ بِاللَّحْمِ فَبِتْنَا عِنْدَهُمْ وَهُمْ حَدِيثُو عَهْدٍ بِكُفْرٍ لَا نَدْرِي ذَكَرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ أَمْ لَا ؟ فَقَالَ : سَمُّوا عَلَيْهِ اللَّهَ وَكُلُوا ﴾ ، فَلَوْ لَمْ تَكُنْ التَّسْمِيَةُ مِنْ شَرْطِ الذَّكَاةِ لَقَالَ : وَمَا عَلَيْكُمْ مِنْ تَرْكِ التَّسْمِيَةِ ، وَلَكِنَّهُ قَالَ : ﴿ كُلُوا ﴾ لِأَنَّ الْأَصْلَ أَنَّ أُمُورَ الْمُسْلِمِينَ مَحْمُولَةٌ عَلَى الْجَوَازِ وَالصِّحَّةِ فَلَا تُحْمَلُ عَلَى الْفَسَادِ وَمَا لَا يَجُوزُ إلَّا بِدَلَالَةٍ .

فَإِنْ قِيلَ : لَوْ كَانَ الْمُرَادُ تَرْكَ الْمُسْلِمِ التَّسْمِيَةَ لَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ مَنْ اسْتَبَاحَ أَكْلَهُ فَاسِقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ فَلَمَّا اتَّفَقَ الْجَمِيعُ عَلَى أَنَّ الْمُسْلِمَ التَّارِكَ لِلتَّسْمِيَةِ عَامِدًا غَيْرَ مُسْتَحِقٍّ بِسِمَةِ الْفِسْقِ دَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ الْمَيْتَةُ أَوْ ذَبَائِحُ الْمُشْرِكِينَ قِيلَ لَهُ : ظَاهِرُ قَوْلِهِ : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ عَائِدٌ عَلَى الْجَمِيعِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ وَقِيَامُ الدَّلَالَةِ عَلَى خُصُوصِ

بَعْضِهِمْ غَيْرُ مَانِعٍ بَقَاءَ

حُكْمِ الْآيَةِ فِي إِيجَابِ التَّسْمِيَةِ عَلَى الْمُسْلِمِ فِي الذَّبِيحَةِ .

(199/248)

---

وَأَيْضًا فَإِنَّا نَقُولُ : مَنْ تَرَكَ التَّسْمِيَةَ عَامِدًا مَعَ اعْتِقَادِهِ لِوُجُوبِهَا هُوَ فَاسِقٌ .

وَكَذَلِكَ مَنْ أَكَلَ مَا هَذَا سَبِيلُهُ مَعَ الِاعْتِقَادِ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ شَرْطِهَا فَقَدْ لَحِقَتْهُ سِمَةُ الْفِسْقِ ، وَأَمَّا مَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ ذَلِكَ فِي الْمَيْتَةِ أَوْ ذَبَائِحِ أَهْلِ الشِّرْكِ دُونَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ فَاسِقًا لِزَوَالِهِ عِنْدَ حُكْمِ الْآيَةِ بِالتَّأْوِيلِ .

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : لَمَّا كَانَتْ التَّسْمِيَةُ ذِكْرًا لَيْسَ بِوَاجِبٍ فِي اسْتِدَامَتِهِ وَلَا فِي انْتِهَائِهِ وَجَبَ أَنْ لَا يَكُونَ وَاجِبًا فِي ابْتِدَائِهِ ، وَلَوْ كَانَ وَاجِبًا لَاسْتَوَى فِيهِ الْعَامِدُ وَالنَّاسِي .

قِيلَ لَهُ : أَمَّا الْقِيَاسُ الَّذِي ذَكَرْتَهُ فَهُوَ دَعْوَى مَحْضٌ لَمْ يَرُدَّهُ عَلَى أَصْلٍ فَلَا يَسْتَحِقُّ الْجَوَابَ ، عَلَى أَنَّهُ مُنْتَقَضٌ بِالْإِيمَانِ وَالشَّهَادَتَيْنِ وَكَذَلِكَ فِي التَّلْبِيَةِ وَالِاسْتِئْذَانِ وَمَا شَاكَلَ هَذَا لِأَنَّ هَذِهِ إذَا كَانَتْ لَيْسَتْ بِوَاجِبَةٍ فِي اسْتِدَامَتِهَا وَانْتِهَائِهَا وَمَعَ ذَلِكَ فَهِيَ وَاجِبَةٌ فِي الِابْتِدَاءِ .

(200/248)

وَإِنَّمَا قُلْنَا إِنَّ تَرْكَ التَّسْمِيَةِ نَاسِيًا لَا يَمْنَعُ صِحَّةَ الذَّكَاةِ ، مِنْ قِبَلِ أَنَّ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ خِطَابٌ لِلْعَامِدِ دُونَ النَّاسِي ؛ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْله تَعَالَى فِي نَسَقِ التِّلَاوَةِ : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ وَلَيْسَ ذَلِكَ صِفَةٌ لِلنَّاسِي ؛ وَلِأَنَّ النَّاسِيَ فِي حَالِ نِسْيَانِهِ غَيْرُ مُكَلَّفٍ لِلتَّسْمِيَةِ ، وَرَوَى الْأَوْزَاعِيُّ عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ ﴾ ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مُكَلَّفًا لِلتَّسْمِيَةِ فَقَدْ أَوْقَعَ الذَّكَاةَ عَلَى الْوَجْهِ الْمَأْمُورِ بِهِ فَلَا يُفْسِدُهُ تَرْكُ التَّسْمِيَةِ ، وَغَيْرُ جَائِزٍ إلْزَامُهُ ذَكَاةً أُخْرَى لِفَوَاتِ ذَلِكَ مِنْهُ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مِثْلَ نِسْيَانِ تَكْبِيرَةِ الصَّلَاةِ أَوْ نِسْيَانِ الطَّهَارَةِ وَنَحْوِهَا لِأَنَّ الَّذِي يَلْزَمُهُ بَعْدَ الذِّكْرِ هُوَ فَرْضٌ آخَرُ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَلْزَمَهُ فَرْضٌ آخَرُ فِي الذَّكَاةِ لِفَوَاتِ مَحَلِّهَا .

فَإِنْ قِيلَ : لَوْ كَانَتْ التَّسْمِيَةُ مِنْ شَرَائِطِ الذَّكَاةِ لَمَا أَسْقَطَهَا النِّسْيَانُ ، كَتَرْكِ قَطْعِ الْأَوْدَاجِ .

*(201/248)*

وَهَذَا السُّؤَالُ لِلْفَرِيقَيْنِ : مَنْ أَسْقَطَ التَّسْمِيَةَ رَأْسًا ، وَمَنْ أَوْجَبَهَا فِي حَالِ النِّسْيَانِ ؛ فَأَمَّا مَنْ أَسْقَطَهَا فَإِنَّهُ يَسْتَدِلُّ عَلَيْنَا بِاتِّفَاقِنَا عَلَى سُقُوطِهَا فِي حَالِ النِّسْيَانِ ، وَشَرَائِطُ الذَّكَاةِ لَا يُسْقِطُهَا النِّسْيَانُ كَتَرْكِ قَطْعِ الْأَوْدَاجِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ التَّسْمِيَةَ لَيْسَتْ بِشَرْطٍ فِيهَا ، وَمَنْ أَوْجَبَهَا فِي حَالِ النِّسْيَانِ يُشَبِّهُهَا بِتَرْكِ قَطْعِ الْحُلْقُومِ وَالْأَوْدَاجِ نَاسِيًا أَوْ عَامِدًا أَنَّهُ يَمْنَعُ صِحَّةَ الذَّكَاةِ .

فَأَمَّا مَنْ أَسْقَطَ فَرْضَ التَّسْمِيَةِ رَأْسًا فَإِنَّ هَذَا السُّؤَالَ لَا يَصِحُّ لَهُ ؛ لِأَنَّهُ يَزْعُمُ أَنَّ تَرْكَ الْكَلَامِ مِنْ فُرُوضِ الصَّلَاةِ وَكَذَلِكَ فِعْلُ الطَّهَارَةِ وَهُمَا جَمِيعًا مِنْ شُرُوطِهَا ، ثُمَّ فَرَّقَ بَيْنَ تَارِكِ الطَّهَارَةِ نَاسِيًا وَبَيْنَ الْمُتَكَلِّمِ فِي الصَّلَاةِ نَاسِيًا ؛ وَكَذَلِكَ النِّيَّةُ شَرْطٌ فِي صِحَّةِ الصَّوْمِ وَتَرْكُ الْأَكْلِ أَيْضًا شَرْطٌ فِي صِحَّتِهِ ، وَلَوْ تَرَكَ النِّيَّةَ نَاسِيًا لَمْ يَصِحَّ صَوْمُهُ وَلَوْ أَكَلَ نَاسِيًا لَمْ يَفْسُدْ صَوْمُهُ ، فَهَذَا سُؤَالٌ يَنْتَقِضُ عَلَى أَصْلِ هَذَا السَّائِلِ .

*(202/248)*

---

وَأَمَّا مَنْ أَوْجَبَهَا فِي حَالِ النِّسْيَانِ وَاسْتَدَلَّ بِقَطْعِ الْأَوْدَاجِ فَإِنَّهُ لَا يَصِحُّ لَهُ ذَلِكَ أَيْضًا لِأَنَّ قَطْعَ الْأَوْدَاجِ هُوَ نَفْسُ الذَّبْحِ الَّذِي يُنَافِي مَوْتَهُ حَتْفَ أَنْفِهِ وَيَنْفَصِلُ بِهِ مِنْ الْمَيْتَةِ ، وَالتَّسْمِيَةُ مَشْرُوطَةٌ لِذَلِكَ لَا عَلَى أَنَّهَا نَفْسُ الذَّبْحِ بَلْ هِيَ مَأْمُورٌ بِهَا عِنْدَهُ فِي حَالِ الذِّكْرِ دُونَ حَالِ

النِّسْيَانِ ، فَلَمْ يُخْرِجْهُ عَدَمُ التَّسْمِيَةِ عَلَى وَجْهِ السَّهْوِ مِنْ وُجُودِ الذَّبْحِ ، فَلِذَلِكَ اخْتَلَفَا .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

*(203/248)*

---

ومن فوائد ابن العربى فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ .

فِيهَا عَشْرُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : ﴿ أَتَى أُنَاسٌ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ أَنَأْكُلُ مَا نَقْتُلُ ، وَلَا نَأْكُلُ مَا قَتَلَ اللَّهُ ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ لَمُشْرِكُونَ ﴾ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ يَقْضِي بِدَلِيلِ الْخِطَابِ عَلَى رَأْيِ مَنْ قَرَأَ أَلَّا يُؤْكَلَ مَا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ عَلَّقَ الْحُكْمَ وَهُوَ جَوَازُ الْأَكْلِ عَلَى أَحَدِ وَصْفَيْ الشَّيْءِ ، وَهُوَ مَا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْآخَرَ بِخِلَافِهِ ، بَيْدَ أَنَّ اللَّهَ

تَعَالَى بَيَّنَ الْحُكْمَيْنِ بِنَصَّيْنِ ، وَتَكَلَّمَ فِيهِمَا بِكَلَامَيْنِ صَرِيحَيْنِ ، فَقَالَ فِي الْمُقَابِلِ الثَّانِي : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إلَيْهِ ﴾ .

*(204/248)*

---

الْمَعْنَى : مَا الْمَانِعُ لَكُمْ مِنْ أَكْلِ مَا سَمَّيْتُمْ عَلَيْهِ رَبَّكُمْ ، وَإِنْ قَتَلْتُمُوهُ بِأَيْدِيكُمْ ؛ وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ لَكُمْ الْمُحَرَّمَ ، وَأَوْضَحَ لَكُمْ الْمُحَلَّلَ ، فَإِنَّ مَنْ حَرَّمَ عَلَيْك مَعْنًى خَاصًّا أَبَاحَ مَا سِوَاهُ ، فَكَيْفَ وَقَدْ أَذِنَ لَهُ فِي الْقَتْلِ وَالتَّسْمِيَةِ عَلَيْهِ وَأَكْلِهِ ، فَكَيْفَ يُقَابَلُ ذَلِكَ مِنْ تَفْصِيلِ اللَّهِ وَحُكْمِهِ وَإِيضَاحِهِ وَشَرْحِهِ بِهَوًى بَاطِلٍ وَرَأْيٍ فَاسِدٍ ، صَدَرَا عَنْ غَيْرِ عِلْمٍ وَكَانَا بِاعْتِدَاءٍ وَإِثْمٍ ، وَرَبُّك أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ .

الْمَعْنَى : قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ الْمُحَرَّمَ فَذَرُوهُ وَهُوَ الْإِثْمُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، وَفِي ذَلِكَ لِلْعُلَمَاءِ سِتَّةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : ظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ : سِرُّهُ وَعَلَانِيَتُهُ : قَالَهُ مُجَاهِدٌ ، وَقَتَادَةُ .

الثَّانِي : قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : ظَاهِرُ الْإِثْمِ نِكَاحُ ذَوَاتِ الْمَحَارِمِ ، وَبَاطِنُهُ الزِّنَا .

الثَّالِثُ : ظَاهِرُ الْإِثْمِ أَصْحَابُ الرَّايَاتِ مِنْ الزَّوَانِي ، وَبَاطِنُهُ ذَوَاتِ الْأَخْدَانِ ؛ قَالَهُ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ .

الرَّابِعُ : ظَاهِرُ الْإِثْمِ طَوَافُ الْعُرْيَانِ ، وَبَاطِنُهُ الزِّنَا ؛ قَالَهُ ابْنُ زَيْدٍ .

وَقَدْ قَالَتْ طَائِفَةٌ : إنَّ الْإِثْمَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الْخَمْرِ ؛ فَعَلَى هَذَا يَكُونُ مَعْنَى الْآيَةِ فِي الْقَوْلِ الْخَامِسِ ظَاهِرُ الْإِثْمِ الْخَمْرُ ، وَبَاطِنُهُ الْمُثَلَّثُ وَالْمُنَصَّفُ ، وَسَنُبَيِّنُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

(205/248)

---

وَيُحْتَمَلُ وَجْهًا سَادِسًا ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرُ الْإِثْمِ وَاضِحَ الْمُحَرَّمَاتِ .

وَبَاطِنُهُ الشُّبُهَاتِ وَمِنْهَا الذَّرَائِعُ ، وَهِيَ الْمُبَاحَاتُ الَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إلَى الْمُحَرَّمَاتِ ؛ وَسَيَأْتِي ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ يَعْنِي : فَمُطْلَقُ سَبَبِ الْآيَةِ الْمَيْتَةُ ، وَهِيَ الَّتِي قَالُوا هُمْ فِيهَا : وَلَا نَأْكُلُ مِمَّا قَتَلَ اللَّهُ .

فَقَالَ اللَّهُ لَهُمْ : لَا تَأْكُلُوا مِنْهَا ؛ فَإِنَّكُمْ لَمْ تَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا .

فَإِنْ قِيلَ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : هَذَا هُوَ السَّبَبُ الَّذِي خَرَجَتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ ، وَقَصْرُ اللَّفْظِ الْوَارِدِ عَلَى السَّبَبِ الْمَوْرُودِ عَلَيْهِ إذَا كَانَ اللَّفْظُ مُسْتَقِلًّا دُونَ عَطْفِهِ عَلَيْهِ لَا يَجُوزُ لُغَةً وَلَا حُكْمًا .

(206/248)

---

قُلْنَا : قَدْ آنَ أَنْ نَكْشِفَ لَكُمْ نُكْتَةً أُصُولِيَّةً وَقَعَتْ تَفَارِيقَ فِي أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ تَلَقَّفْتُهَا جُمْلَةً مِنْ فَكٍّ شَدِيدٍ ؛ وَذَلِكَ أَنَّا نَقُولُ : مَهْمَا قُلْنَا : إنَّ اللَّفْظَ الْوَارِدَ عَلَى سَبَبٍ ، هَلْ يَقْصُرُ عَلَيْهِ أَمْ لَا ؟ فَإِنَّا لَا نُخْرِجُ السَّبَبَ عَنْهُ ، بَلْ نُقِرُّهُ فِيهِ ، وَنَعْطِفُ بِهِ عَلَيْهِ ، وَلَا نَمْتَنِعُ أَنْ يُضَافَ غَيْرُهُ إلَيْهِ إذَا احْتَمَلَهُ اللَّفْظُ ، أَوْ قَامَ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ ؛ فَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ ظَاهِرٌ فِي تَنَاوُلِ الْمَيْتَةِ بِعُمُومِ لَفْظِهِ ، وَكَوْنِهَا سَبَبًا لِوُرُودِهِ ، وَيَدْخُلُ فِيهِ مَا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ اسْمَ غَيْرِ اللَّهِ مِنْ الْآلِهَةِ الْمُبْطَلَةِ وَهِيَ :

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ : بِعُمُومِ أَنَّهُ لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَبِزِيَادَةِ ذِكْرِ غَيْرِ اللَّهِ عَلَيْهِ الَّذِي يَقْتَضِي تَحْرِيمُهُ هَذَا اللَّفْظَ عُمُومًا وَمَعْنَاهُ تَنْبِيهًا مِنْ طَرِيقِ الْأَوْلَى ، وَيَقْتَضِي تَحْرِيمُهُ نَصًّا قَوْلُهُ : ﴿ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ ، فَقَدْ تَوَارَدَ عَلَى تَحْرِيمِ ذَلِكَ النَّصُّ وَالْعُمُومُ وَالتَّنْبِيهُ مِنْ طَرِيقِ الْأَوْلَى بِالتَّحْرِيمِ لِظَاهِرِ أَدِلَّةِ الشَّرْعِ عَلَيْهِ أَوَّلًا .

وَهَذَا مِنْ بَدِيعِ الِاسْتِنْبَاطِ فِي مَوَارِدِ الْأَدِلَّةِ الْمُمَاثَلَةِ فِي اقْتِضَاءِ الْحُكْمِ الْوَاحِدِ عَلَيْهِ ، وَهَلْ يَدْخُلُ فِيهِ مَا تَرَكَ الْمُسْلِمُ التَّسْمِيَةَ عَلَيْهِ عَمْدًا مِنْ الذَّبَائِحِ أَمْ لَا ؟ مَسْأَلَةٌ مُشْكِلَةٌ جِدًّا قَدْ مَهَّدْنَا الْقَوْلَ فِيهَا فِي تَخْلِيصِ الطَّرِيقَتَيْنِ ، وَلَكِنَّنَا نُشِيرُ فِيهَا هَاهُنَا إلَى نُكْتَةٍ تَتَعَلَّقُ بِالْمَقْصُودِ ؛ فَنَقُولُ : اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي مَتْرُوكِ التَّسْمِيَةِ عَلَى سِتَّةِ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : إنْ تَرَكَهَا سَهْوًا أُكِلَتْ .

وَإِنْ تَرَكَهَا عَمْدًا لَمْ تُؤْكَلْ قَالَهُ فِي الْكِتَابِ مَالِكٌ وَابْنُ الْقَاسِمِ وَأَبُو حَنِيفَةَ ، وَعِيسَى ، وَأَصْبَغُ .

الثَّانِي : إنْ تَرَكَهَا عَامِدًا أَوْ نَاسِيًا تُؤْكَلُ ؛ قَالَهُ الْحَسَنُ ، وَالشَّافِعِيُّ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ إنْ تَرَكَهَا عَامِدًا أَوْ نَاسِيًا حَرُمَ أَكْلُهَا ؛ قَالَهُ ابْنُ سِيرِينَ ، وَأَحْمَدُ .

الرَّابِعُ : إنْ تَرَكَهَا مُتَعَمِّدًا كُرِهَ أَكْلُهَا وَلَمْ تُحَرَّمْ ؛ قَالَهُ الْقَاضِي أَبُو الْحَسَنِ ، وَالشَّيْخُ أَبُو بَكْرٍ مِنْ أَصْحَابِنَا ، وَهُوَ ظَاهِرُ قَوْلِ الشَّافِعِيِّ .

الْخَامِسُ : قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ : التَّسْمِيَةُ شَرْطٌ فِي إرْسَالِ الْكَلْبِ دُونَ السَّهْمِ فِي إحْدَى رِوَايَتَيْهِ .

السَّادِسُ : قَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : يَجِبُ أَنْ تُعَلَّقَ هَذِهِ الْأَحْكَامُ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَالدَّلَائِلِ الْمَعْنَوِيَّةِ الَّتِي أَسَّسَتْهَا الشَّرِيعَةُ .

فَأَمَّا الْقُرْآنُ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ .

﴾

(208/248)

---

وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ فَبَيَّنَ الْحَالَيْنِ وَأَوْضَحَ الْحُكْمَيْنِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ نَهْيٌ مَحْمُولٌ عَلَى التَّحْرِيمِ ، وَلَا يَجُوزُ حَمْلُهُ عَلَى الْكَرَاهَةِ ؛ لِتَنَاوُلِهِ فِي بَعْضِ مُقْتَضَيَاتِهِ الْحَرَامَ الْمَحْضَ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَتَبَعَّضَ .

وَهَذَا مِنْ نَفِيسِ عِلْمِ الْأُصُولِ .

وَأَمَّا السُّنَّةُ فَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصِّحَاحِ : ﴿ مَا أَنْهَرَ الدَّمَ ، وَذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكُلْ ﴾ .

وَقَالَ أَيْضًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إذَا أَرْسَلْت كَلْبَك الْمُعَلَّمَ ، وَذَكَرْت اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكُلْ ﴾ .

وَقَالَ أَيْضًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ وَإِنْ وَجَدْت مَعَ كَلْبِك كَلْبًا آخَرَ فَلَا تَأْكُلْ ؛ فَإِنَّك إنَّمَا

سَمَّيْت عَلَى كَلْبِك وَلَمْ تُسَمِّ عَلَى الْآخَرِ ﴾ .

وَهَذِهِ أَدِلَّةٌ ظَاهِرَةٌ غَالِبَةٌ عَالِيَةٌ ، وَذَلِكَ مِنْ أَظْهَرِ الْأَدِلَّةِ .

وَأَعْجَبُ لِرَأْسِ الْمُحَقِّقِينَ إمَامِ الْحَرَمَيْنِ يَقُولُ فِي مُعَارَضَةِ هَذَا : [ وَذِكْرُ اللَّهِ ] إنَّمَا شُرِعَ فِي الْقُرَبِ ، وَالذَّبْحُ لَيْسَ بِقُرْبَةٍ .

قُلْنَا : هَذَا فَاسِدٌ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ : أَحَدُهَا : أَنَّهُ يُعَارِضُهُ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ ، كَمَا قُلْنَا .

الثَّانِي : أَنَّ ذِكْرَ اللَّهِ مَشْرُوعٌ فِي كُلِّ حَرَكَةٍ وَسَكْنَةٍ ، حَتَّى فِي خُطْبَةِ النِّكَاحِ ، وَإِنَّمَا تَخْتَلِفُ دَرَجَاتُهُ : بِالْوُجُوبِ وَالِاسْتِحْبَابِ .

*(209/248)*

---

الثَّالِثُ : أَنَّ الذَّبِيحَةَ قُرْبَةٌ بِدَلِيلِ افْتِقَارِهَا إلَى النِّيَّةِ عِنْدَنَا وَعِنْدَك ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ﴾ .

فَإِنْ قِيلَ : الْمُرَادُ بِذِكْرِ اسْمِ اللَّهِ بِالْقَلْبِ ؛ لِأَنَّ الذِّكْرَ يُضَادُّ النِّسْيَانَ ، وَمَحَلُّ النِّسْيَانِ الْقَلْبُ ، فَمَحَلُّ الذِّكْرِ الْقَلْبُ .

وَقَدْ رَوَى الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ وَغَيْرُهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ اسْمُ اللَّهِ عَلَى قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ

يُسَمِّي أَوْ لَمْ يُسَمِّ ﴾ ، وَلِهَذَا تُجْزِئُهُ الذَّبِيحَةُ إذَا نَسِيَ التَّسْمِيَةَ تَعْوِيلًا عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ مِنْ اسْمِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ .

قُلْنَا : الذِّكْرُ يَكُونُ بِاللِّسَانِ ، وَيَكُونُ بِالْقَلْبِ ، وَالَّذِي كَانَتْ الْعَرَبُ تَفْعَلُهُ تَسْمِيَةَ الْأَصْنَامِ وَالنُّصُبِ بِاللِّسَانِ ، فَنَسَخَ اللَّهُ ذَلِكَ بِذِكْرِ اللَّهِ فِي الْأَلْسِنَةِ ، وَاسْتَمَرَّ ذَلِكَ فِي الشَّرِيعَةِ ، حَتَّى قِيلَ لِمَالِكٍ : هَلْ يُسَمِّي اللَّهَ إذَا تَوَضَّأَ ؟ فَقَالَ : أَيُرِيدُ أَنْ يَذْبَحَ ؟ إشَارَةً إلَى أَنَّ مَوْضِعَ التَّسْمِيَةِ وَمَوْضُوعَهَا إنَّمَا هُوَ فِي الذَّبَائِحِ لَا فِي الطَّهَارَةِ .

وَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي تَعَلَّقُوا بِهِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ اسْمُ اللَّهِ عَلَى قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ ﴾ فَحَدِيثٌ ضَعِيفٌ لَا تَلْتَفِتُوا إلَيْهِ .

وَأَمَّا النَّاسِي لِلتَّسْمِيَةِ عَلَى الذَّبِيحَةِ فَإِنَّهَا لَمْ تُحَرَّمْ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ وَلَيْسَ النَّاسِي فَاسِقًا بِإِجْمَاعٍ ، فَلَا تُحَرَّمُ عَلَيْهِ .

*(210/248)*

---

فَإِنْ قِيلَ : وَكَذَلِكَ الْمُتَعَمِّدُ لَيْسَ بِفَاسِقٍ إنْ أَكَلَهَا إجْمَاعًا ؛ لِأَنَّهَا مَسْأَلَةُ اجْتِهَادٍ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِيهَا .

قُلْنَا : قَدْ أَجَبْنَا عَنْ هَذِهِ النُّكْتَةِ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ ، وَصَرَّحْنَا فِيهِ بِالْحَقِّ مِنْ وُجُوهٍ ؛

أَظْهَرُهَا أَنَّ تَارِكَ التَّسْمِيَةِ عَمْدًا لَا يَخْلُو مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْوَالٍ : أَحَدُهَا : أَنْ يَتْرُكَ التَّسْمِيَةَ إذَا أَضْجَعَ الذَّبِيحَةَ ؛ لِأَنَّهُ يَقُولُ : قَلْبِي مَمْلُوءٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ ، فَلَا أَفْتَقِرُ إلَى ذِكْرِ ذَلِكَ بِلِسَانِي : فَذَلِكَ يُجْزِيهِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ ذَكَرَ اللَّهَ وَعَظَّمَهُ .

وَإِنْ قَالَ : لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ التَّسْمِيَةِ صَرِيحَةً ، فَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِقُرْبَةٍ ، فَهَذَا يُجْزِيهِ لِكَوْنِهِ عَلَى مَذْهَبٍ يَصِحُّ اعْتِقَادُهُ اجْتِهَادًا لِلْمُجْتَهِدِ فِيهِ وَتَقْلِيدًا لِمَنْ قَلَّدَهُ .

وَإِنْ قَالَ : لَا أُسَمِّي ، وَأَيُّ قَدْرٍ لِلتَّسْمِيَةِ ؟ فَهَذَا مُتَهَاوِنٌ كَافِرٌ فَاسِقٌ لَا تُؤْكَلُ ذَبِيحَتُهُ ، فَإِنَّمَا يُتَصَوَّرُ الْخِلَافُ فِي

الْمَسْأَلَةِ عَلَى الصُّورَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ ، فَأَمَّا عَلَى الصُّورَةِ الثَّالِثَةِ فَلَا تَشْخِيصَ لَهَا .

وَالَّذِي نَعْتَمِدُ عَلَيْهِ فِي صُورَةِ النَّاسِي أَنَّ الْخِطَابَ لَا يَتَوَجَّهُ إلَيْهِ ، لِاسْتِحَالَةِ خِطَابِ النَّاسِي ؛ فَالشَّرْطُ لَيْسَ بِوَاجِبٍ عَلَيْهِ .

(211/248)

---

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إلَى أَوْلِيَائِهِمْ ﴾ سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى مَا يَقَعُ فِي الْقُلُوبِ مِنْ إلْهَامٍ وَحْيًا ، وَهَذَا مِمَّا يُطْلِقُهُ شُيُوخُ التَّصَوُّفِ ، وَيُنْكِرُهُ جُهَّالُ الْمُتَوَسِّمِينَ بِالْعِلْمِ ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْوَحْيَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ ، وَأَنَّ إطْلَاقَهُ فِي جَمِيعِهَا جَائِزٌ فِي

دِينِ اللَّهِ ، أَوْ لَسْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ سَمَّى إلْهَامَ الشَّيَاطِينِ وَحْيًا ؛ وَكُلُّ مَا يَقُومُ بِالْقَلْبِ مِنْ الْخَوَاطِرِ فَهُوَ خَلْقُ اللَّهِ ؛ فَكُلُّ مَا كَانَ مِنْ الشَّرِّ أَضَافَهُ اللَّهُ إلَى الشَّيْطَانِ ، وَمَا كَانَ مِنْ الْخَيْرِ أَضَافَهُ اللَّهُ إلَى الْمَلَكِ .

وَفِي الْحَدِيثِ : ﴿ إنَّ الْقَلْبَ بَيْنَ لَمَّتَيْنِ : لَمَّةٌ مِنْ الْمَلَكِ وَلَمَّةٌ مِنْ الشَّيْطَانِ ؛ فَلَمَّةُ الْمَلَكِ إيعَادٌ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ ، وَلَمَّةُ الشَّيْطَانِ إيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ الْمُجَادَلَةُ دَفْعُ الْقَوْلِ عَلَى الْقَوْلِ عَلَى طَرِيقِ الْحُجَّةِ بِالْقُوَّةِ مَأْخُوذٌ مِنْ " الْأَجْدَلِ " : طَائِرٌ قَوِيٌّ ، أَوْ لِقَصْدِ الْمُغَالَبَةِ ؛ كَأَنْ يَطْرَحَهُ عَلَى الْجَدَالَةِ ، وَيَكُونُ حَقًّا فِي نُصْرَةِ الْحَقِّ وَبَاطِلًا فِي نُصْرَةِ الْبَاطِلِ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ .

(212/248)

---

الْمَسْأَلَةُ الْعَاشِرَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ إنَّمَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ بِطَاعَةِ الْمُشْرِكِ مُشْرِكًا إذَا أَطَاعَهُ فِي اعْتِقَادِهِ : الَّذِي هُوَ مَحَلُّ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ ؛ فَإِذَا أَطَاعَهُ فِي الْفِعْلِ وَعَقْدُهُ سَلِيمٌ مُسْتَمِرٌّ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالتَّصْدِيقِ فَهُوَ عَاصٍ .

فَافْهَمُوا ذَلِكَ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(213/248)

---

ومن فوائد الخطيب الشربينى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾

قال ابن عباس : الآية في تحريم الميتات وما في معناها من المنخنقة وغيرها ، وقال عطاء : الآية في تحريم الذبائح التي كانوا يذبحونها على اسم الأصنام ، واختلف أهل العلم في ذبيحة المسلم إذا لم يذكر اسم الله تعالى عليها فذهب قوم إلى تحريمها سواء أتركت التسمية عمداً أم نسياناً وهو قول ابن سيرين والشعبيّ واحتجوا بظاهر الآية وذهب قوم إلى حلها مطلقاً ، ويروى ذلك عن ابن عباس وهو قول الشافعي وأحمد وذهب قوم إلى أنه إن ترك التسمية عامداً لم تحل أو ناسياً حلت وهو مذهب مالك ، ومن قال بالإباحة مطلقاً قال المراد من الآية الميتات وما ذبح على غير اسم الله بدليل قوله تعالى : ﴿ وإنه لفسق ﴾ أي : ما ذكر عليه اسم غير الله كما قال تعالى في آخر السورة : ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً ﴾

إلى قوله : ﴿ أو فسقاً أهل لغير الله به ﴾ (الأنعام) والضمير لما ويجوز أن يكون للأكل الذي دل عليه لا تأكلوا واحتجوا أيضاً في إباحتها بما روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : قالوا : يا رسول الله إنّ هنا أقواماً حديث عهدهم بشرك يأتوننا بلحمان فلا ندري أيذكرون اسم الله عليها أم لا ؟ قال : "اذكروا أنتم اسم الله وكلوا" فلو كانت التسمية شرطاً للإباحة لكان الشك في وجودها مانعاً من أكلها كالشك في أصل الذبح ﴿ وإنّ الشياطين ليوحون ﴾ أي : يوسوسون ﴿ إلى أوليائهم ﴾ من الكفار ﴿ ليجادلوكم ﴾ في تحليل الميتة بقولهم : تأكلون ما قتلتم أنتم وجوارحكم وتدعون ما قتله الله وهذا يؤيد التأويل بالميتة ﴿ وإن أطعتموهم ﴾ أي : باستحلال ما حرم ﴿ إنكم لمشركون ﴾ أي : مثلهم في الشرك ، قال الزجاج : فيه دليل على أنّ كل من أحل شيئاً مما حرّم الله أو حرّم شيئاً مما أحلّ الله فهو مشرك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 2 صـ 153.152 ﴾

*(214/248)*

---

ومن فوائد الشوكانى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (121) ﴾

نهى الله سبحانه عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه ، بعد أن أمر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه ، وفيه دليل على تحريم أكل ما لم يذكر اسم الله عليه .

وقد اختلف أهل العلم في ذلك ، فذهب ابن عمر ، ونافع مولاه ، والشعبي ، وابن سيرين وهو رواية عن مالك وعن أحمد بن حنبل ، وبه قال أبو ثور ، وداود الظاهري أن ما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح حرام من غير فرق بين العامد والناسي لهذه الآية .

ولقوله تعالى في آية الصيد : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ واذكروا اسم الله عَلَيْهِ ﴾ [ المائدة : 4 ] ويزيد هذا الاستدلال تأكيداً قوله سبحانه في هذه الآية : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ .

وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة ، الأمر بالتسمية في الصيد وغيره .

وذهب الشافعي وأصحابه ، وهو رواية عن مالك ، ورواية عن أحمد : أن التسمية مستحبة لا واجبة ، وهو مرويّ عن ابن عباس ، وأبي هريرة ، وعطاء بن أبي رباح ، وحمل الشافعي الآية على من ذبح لغير الله ، وهو تخصيص للآية بغير مخصص .

وقد روى أبو داود في المرسل أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ذبيحة المسلم حلال ، ذكر اسم الله أو لم يذكر " وليس في هذا المرسل ما يصلح لتخصيص الآية ، نعم حديث عائشة أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : إن قوماً يأتوننا بلحمان لا ندري أذكر اسم

الله عليه أم لا ؟ فقال : " سموا أنتم وكلوا " يفيد أن التسمية عند الأكل تجزىء مع التباس وقوعها عند الذبح .

وذهب مالك ، وأحمد في المشهور عنهما ، وأبو حنيفة وأصحابه ، وإسحاق بن راهويه ، أن التسمية إن تركت نسياناً لم تضرّ ، وإن تركت عمداً لم يحلّ أكل الذبيحة .

*(215/248)*

---

وهو مرويّ عن علي ، وابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، وعطاء وطاووس ، والحسن البصري ، وأبي مالك ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى ، وجعفر بن محمد ، وربيعة بن أبي عبد الرحمن ، واستدلوا بما أخرجه البيهقي عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " المسلم إن نسي أن يسمي حين يذبح فليذكر اسم الله وليأكله " وهذا الحديث رفعه خطأ ، وإنما هو من قول ابن عباس .

وكذا أخرجه من قوله عبد الرزاق ، وسعيد ابن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ؛ نعم يمكن الاستدلال لهذا المذهب بمثل قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [ البقرة : 286 ] كما سبق تقريره ، وبقوله صلى الله عليه وسلم : " رفع عن أمتي الخطأ والنسيان " وأما حديث أبي هريرة الذي أخرجه ابن عديّ أن رجلاً جاء إلى النبي

صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أرأيت الرجل منا يذبح وينسى أن يسمى ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

" اسم الله على كل مسلم " فهو حديث ضعيف ، قد ضعفه البيهقي وغيره .

قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ الضمير يرجع إلى " مَا " بتقدير مضاف ، أي وإن أكل ما لم يذكر لفسق ، ويجوز أن يرجع إلى مصدر تأكلوا ، أي فإن الأكل لفسق ، وقد تقدّم تحقيق الفسق .

وقد استدلّ من حمل هذه الآية على ما ذبح لغير الله بقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ ووجه الاستدلال أن الترك لا يكون فسقاً ، بل الفسق الذبح لغير الله .

ويجاب عنه بأن إطلاق اسم الفسق على تارك ما فرضه الله عليه غير ممتنع شرعاً ﴿ وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَائِهِمْ ﴾ أي يوسوسون لهم بالوساوس المخالفة للحق ، المباينة للصواب ، قاصدين بذلك أن يجادلكم هؤلاء الأولياء بما يوسوسون لهم ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ ﴾ فيما يأمرونكم به وينهونكم عنه ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ مثلهم .

*(216/248)*

---

وقد أخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وأبو داود ، وابن ماجه ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والنحاس ، والطبراني وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ،

والبيهقي في سننه ، عن ابن عباس ، قال : قال المشركون ، وفي لفظ : قال اليهود : لا تأكلوا مما قتل الله وتأكلوا مما قتلتم أنتم ، فأنزل الله : ﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عَلَيْهِ ﴾ .

وأخرج ابن جرير ، والطبراني ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عنه قال لما نزلت : ﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عَلَيْهِ ﴾ أرسلت فارس إلى قريش أن خاصموا محمداً ، فقالوا له : ما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال ، وما ذبح الله بشمشار من ذهب يعني الميتة فهو حرام ؟ فنزلت : ﴿ وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَائِهِمْ ليجادلوكم ﴾ قال : الشياطين من فارس وأولياؤهم من قريش .

وقد روى نحو ما تقدّم في حديث ابن عباس الأوّل من غير طريق .

وأخرج ابن المنذر ، وأبو الشيخ ، عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَائِهِمْ ﴾ قال : إبليس أوحى إلى مشركي قريش .

وأخرج أبو داود ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه ، عنه أيضاً في قوله : ﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ فنسخ ، واستثنى من ذلك فقال : ﴿ وَطَعَامُ الذين أُوتُواْ الكتاب حِلٌّ لَّكُمْ ﴾ [ المائدة : 5 ] .

وأخرج عبد بن حميد ، عن عبد الله بن يزيد الخطمي قال : كلوا ذبائح المسلمين وأهل الكتاب مما ذكر اسم الله عليه .

وروى ابن أبي حاتم عن مكحول نحو قول ابن عباس في النسخ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(217/248)

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾

وهنا يسمى الحق ما لم يذكر اسم الله عليه ب " الفسق " وهو ما تشرحه الآية الأخرى وتبرزه باسم مخصوص : ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضطر غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [ الأنعام : 145 ]

إذن ف " فسقاً " معطوفة على الميتة والدم المسفوح ولحم خنزير ، لكنه سبحانه فصل بين المعطوف وهو " فسقاً " ؛ والمعطوف عليه بحكم يختص بالمعطوف عليه ، وهذا الحكم هو الرجس وهكذا أخذت الثلاثة المحرمات حكم الرجس . وعطف عليها ما ذبح عليه اسم غير الله كالأصنام وهو قد جمع بين الرجس والفسق .

ويقول الحق : ﴿ وإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَآئِهِمْ ﴾ وسبحانه يريد أن يبين لنا أن الفطرة السليمة التي لا يميلها هوى تصل إلى حقائق الخير ، ولذلك نجد أن الذين يحثون ويحض بعضهم بعضا على الشر ويعلم بعضهم بخفاء إنما يأخذون مقام الشيطان بالوسوسة والتحريض على العصيان والكفر ؛ لأن المسألة الفطرية تأبى هذا ، وحين يرتكب إنسان موبقة من الموبقات ، إنما يلف لها ويتحايل ليصل إلى ارتكاب الموبقة ، وقد يوحي بذلك إلى غيره ، فيدله على الفساد . ويكون بذلك في مقام الشياطين الذين يوحون إلى أوليائهم بإعلام خفي ؛ لأن الفطرة السليمة تأبى الأشياء الشريرة وتقف أيضاً فيها ، ولا يجعلها تتقدم إلى الشر إلى الهوى ، فإذا ما أراد شيطان من الإنس أو شيطان من الجن أن يزيّن للناس فعلاً فهو لا يعلن ذلك مباشرة . إنما يلف ويدور بكلام ملفوف مزين .

﴿ وَإِنَّ الشياطين لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ وفي ذلك إشارة إلى قول المشركين : تأكلون ما قتلتم أنتم ولا تأكلون ما قتل الله وأنتم أولى أن تأكلوا مما قتل الله .

﴿ . . وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [ الأنعام : 121 ]

وكأن مجرد الطاعة لهؤلاء المشركين لون من الشرك ؛ لأن معنى العبادة امتثال وائتمار عابد لمعبود أمراً ونهياً ، فإذا أخذت أمراً من غير الله فإنه يخرج بك عن صلب وقلب منهجه سبحانه وبذلك تكون قد أشركت به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(219/248)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (121) ﴾

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو داود وابن ماجة وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس وأبو الشيخ وابن مردويه والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال : المشركون . وفي لفظ قالت اليهود : لا تأكلون مما قتل الله وتأكلون مما قتلتم أنتم ، فأنزل الله ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن الضحاك قال : قال المشركون لأصحاب محمد : هذا الذي تذبحون أنتم تأكلونه ، فهذا الذي يموت من قتله ؟ قالوا : الله . . . قالوا : فما قتل الله

تحرمونه وما قتلتم أنتم تحلونه ؟ فأنزل الله ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم عليه وإنه لفسق ﴾ . الآية .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ أرسلت فارس إلى قريش أن خاصموا محمداً . فقالوا له : ما تذبح أنت بيدك بسكين فهو حلال ، وما ذبح الله بمسمار من ذهب يعني الميته فهو حرام ، فنزلت هذه الآية ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ﴾ قال : الشياطين من فارس وأوليائهم من قريش .

وأخرج أبو داود في ناسخه عن عكرمة " أن المشركين ليجادلوكم " قال : الشياطين من فارس وأولياؤهم قريش .

وأخرج أبو داود في ناسخه عن عكرمة " أن المشركين دخلوا على نبي الله صلى الله عليه وسلم قالوا : أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها ؟ قال : الله قتلها . قالوا : فتزعم أن ما قَتَلْتَ أنت وأصحابك حلال ، وما قتله الله حرام ؟ فأنزل الله ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ .

*(220/248)*

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ يعني الميتة .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : يوحي الشياطين إلى أوليائهم من المشركين أن يقولوا تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله ؟ فقال : إن الذي قتلتم يذكر اسم الله عليه ، وإن الذي مات لم يذكر اسم الله عليه .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال " قالوا : يا محمد أما ما قتلتم وذبحتم فتأكلونه ، وأما ما قتل ربكم فتحرمونه ؟ فأنزل الله ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم ﴾ في كل ما نهيتكم عن أنكم إذاً لمشركون " .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة قال : عمد عدو الله إبليس إلى أوليائه من أهل الضلالة فقال لهم : خاصموا أصحاب محمد في الميتة فقولوا : أما ما ذبحتم وقتلتم فتأكلون ، وأما ما قتل الله فلا تأكلون ، وأنتم زعمتم أنكم تتبعون أمر الله ؟ فأنزل الله ﴿ وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ وأنا والله ما نعلمه كان شركاً قط إلا في إحدى ثلاث : أن يدعى مع الله إلهاً آخر ، أو يسجد لغير الله ، أو تسمى الذبائح لغير الله .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ من طريق ابن جريج عن ابن عباس في قوله ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ﴾ قال : إبليس أوحى إلى مشركي قريش .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس قال : من ذبح فنسي أن يسمي فليذكر اسم الله عليه وليأكل ولا يدعه للشيطان إذا ذبح على الفطرة ، فإن اسم الله في قلب كل مسلم .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي مالك . في الرجل يذبح وينسى أن يسمي قال : لا بأس به . قيل : فأين قوله ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ قال : إنما ذبحت بدينك .

*(221/248)*

---

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء في قوله ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ قال : نهى عن ذبائح كانت تذبحها قريش على الأوثان ، وينهى عن ذبائح المجوس .

وأخرج عبد بن حميد عن راشد بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ذبيحة المسلم حلال سمى أو لم يسم ما لم يتعمد ، والصيد كذلك " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن عروة قال : "كان قوم أسلموا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فقدموا بلحم إلى المدينة يبيعونه ، فتحنثت أنفس أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم منه ، وقالوا : لعلهم لم يسموا . فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم فقال "

سموا أنتم وكلوا " " .

وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال : إذا ذبح المسلم ونسي أن يذكر اسم الله فليأكل ، فإن المسلم فيه اسم من أسماء الله .

وأخرج ابن عدي والبيهقي وضعَّفه عن أبي هريرة قال : " جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أرأيت لرجل من يذبح وينسى أن يسمي ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم م " اسم الله على كل مسلم " " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن طاوس قال : مع المسلم ذكر الله ، فإن ذبح ونسي أن يسمي فليسم وليأكل ، فإن المجوسي لو سمى الله على ذبيحته لم تؤكل .

وأخرج أبو داود والبيهقي في سننه وابن مردويه عن ابن عباس ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق ﴾ فنسخ واستثنى من ذلك فقال ﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ﴾

[ المائدة : 5 ] .

وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن يزيد الخطمي قال : كلوا ذبائح المسلمين وأهل الكتاب مما ذكر اسم الله عليه .

وأخرج عبد بن حميد عن محمد بن سيرين . في الرجل يذبح وينسى أن يسمي . قال : لا يأكل .

وأخرج النحاس عن الشعبي قال : لا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " قال إبليس : يا رب كل خلقك بينت رزقه ففيم رزقي ؟ قال : فيما لم يذكر اسمي عليه " .

(222/248)

---

وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن معمر قال : بلغني أن رجلاً سأل ابن عمر عن ذبيحة اليهودي والنصراني ؟ فتلا عليه ﴿ أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب ﴾ [ المائدة : 5 ] وتلا ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ وتلا عليه ﴿ وما أهلَّ به لغير الله ﴾ [ البقرة : 173 ] قال : فجعل الرجل يردد عليه فقال ابن عمر : لعن الله اليهود والنصارى وكفرة الأعراب فان هذا وأصحابه يسألوني ، فإذا لم أوافقهم انشأوا يخاصموني .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مكحول قال : أنزل الله في القرآن ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ ثم نسخها الرب عز وجل ورحم المسلمين ﴿ اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ﴾ [ المائدة : 5 ] فنسخها بذلك وأحل طعام أهل الكتاب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ وإن أطعتموهم ﴾ يعني في أكل الميتة

استحلالاً ﴿ إنكم لمشركون ﴾ مثلهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي أنه سئل عن قوله ﴿ وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ فقيل تزعم الخوارج إنها في الأمراء ؟ قال : كذبوا إنما أنزلت هذه الآية في المشركين ، كانوا يخاصمون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون : أما ما قتل الله فلا تأكلوا منه يعني الميتة وأما ما قلتم أنتم فتأكلون منه . فأنزل الله ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ إلى قوله ﴿ إنكم لمشركون ﴾ قال : لئن أكلتم الميتة وأطعتموهم إنكم لمشركون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر أنه قيل له : أن المختار يزعم أنه يوحى إليه قال : صدق ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ﴾ .

*(223/248)*

---

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي زميل قال : كنت قاعداً عند ابن عباس وحج المختار بن أبي عبيد ، فجاء رجل فقال : يا أبا عباس زعم أبو إسحق أنه أوحي إليه الليلة ؟ فقال ابن عباس : صدق . فنفرت وقلت : يقول ابن عباس صدق . . . ! فقال ابن عباس : هما وحيان ، وحي الله ووحي الشيطان ، فَوَحَى الله إلى محمد وَوَحَى الشيطانُ إلى أوليائه ،

ثم قرأ ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(224/248)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " وإنَّه لَفِسْقٌ " هذه الجُمْلَة فيها أرْبَعَة أوْجُه :

أحدها : أنَّها مُسْتأنَفة ، قالوا : ولا يَجُوز أن تكُون مَنْسُوقة على ما قَبْلَها ؛ لأن الأولَى طلبيَّة ، وهي خَبَرِيَّة ، وتُسَمَّى هذه الواوُ ، واو الاسْتِئْنَافِ .

والثاني : أنَّها مَنْسُوقة على ما قَبْلَها ، ولا يُبَالَى بتَخَلُّفِهما ، وهو مَذْهَبُ سيبويْه ، وقد تقدَّم تَحْقِيق ذلك ، [ وقد أوْرَدْتُ من ذلِك شَواهِد صالِحَة من شِعْر وغيره ] .

الثالث : أنَّها حاليَّة ، أي : " لا تأكُلوه ، الحالُ : أنَّه فِسْق " وقد تبجَّح الإمام الرَّازي بهذا الوَجْه على الحَنَفيَّة ، حيث قَلَب دَليلَهُم عليهم بهذا الوَجْه ، وذلك أنَّهم يَمْنِعُون من أكْل مَتْروك التَّسْمِيَة ، والشَّافعيَّ لا يَمْنعَون منه استدل عيهم الحَنَفِيَّة بظَاهِر هذه الآية .

فقال الرَّازي : هذه الجُملَة حاليَّة ، ولا يَجُوز أن تَكُون مَعْطُوفة لِتخَالُفِهَمَا طَلَباً وخبراً ،

فتعيَّن أن تكون حاليَّة ، وإذا كان حاليَّة ، كان المعنى : " لا تَكُلُوه حال كَوْنِهِ مُفَسَّقاً " ، ثم هذا الفِسْق مُجْمَل قد فَسَّره اللَّه تعالى في مَوْضِع آخرَرن فقال : " أو فِسْقاً أُهِلَّ لِغَير اللَّه به " يعني : أنه إذَا ذُكشر على الذَّبيحة غَيْر اسم اللَّه ، فإنَّه لا يَجُوزظ أكْلُها ؛ لأنَّه فِسقٌ .

ونحن نقُول به ، ولا يَلْزَم من ذِلك أنَّه إذا لم يُذْكر اسْم اللَّه ، ولا اسْم غيره ، أن تكون حَرَاماً ؛ لأنه لَيْس بالتَّفْسِير الذي ذَكَرْنَاه ، والنِّزاع فيه مُحَال من وُجُوه :

منها : أنّا لا نُسَلِّم امْتِناع عَطْفِ الخَبَر على الطَّلَب ، والعَكْس ، كما قدَّمتُه عن سِيبويْه ، وإن سُلِّم ، فالواو للاسْتِئْنَاف ، كما تقدم ، وما بَعْدَها مُسْتأنفُ ، وإن سُلِّم أيضاً ، فلا نسلم أن " فِسْقاً " في الآية الأخرى مُبَيَّن للفِسق في هذه الآية ، فإن هذا لَيْس من بابِ المُجْمَل والمُبَيَّن ؛ لأن له شُرُوطاً لَيْسَت مَوجُودَة هُنَا .

وهذا الذي قاله مُشْتَمِلٌ من كلام الزَّمَخْشَرِي : فإنه قال :

فإن قُلْت : قد ذَهَبَ جماعة من المُجْتَهِدين إلى جَوازِ أكْل ما لَمْ يُذْكَر اسْم اللَّه عليه بِنسْيَان أوْ عَمْد .

قلت : قد تأوَّله هؤلاء بالمَيْتَة ، وبما ذُكِر غَيْر اسْم اللَّه عليه ؛ كقوله : " أو فِسْقاً أُهلِّ لِغَيْر اللَّه به " فهذا أصْل ما ذكره ابن الخَطِيب وتبجَّ به والضَّمير في " أنَّه " يُحْتَمل أن يعُود على الأكْل المَدْلُول عليه بـ " لا تأكُلُوا " ، وأن يعُود على الموصُول ، وفيه حنئيذٍ تأويلان : أن تَجْعَل الموصُول نَفْس الفِسْق مبالغة .

أو على حَذْفِ مُضَافٍ ، أي : " وإنَّ أكله لَفِسْق " أو على الذكْر المَفْهُوم من قوله : " ذكر " قال أبُو حيَّان : " والضَّمِ ] ر في " إنَّه " : يعُوج على الأكْل ، قاله الزَّمَخْشَري ، واقْتَصَر عليه " .

قال شهاب الدّين – رحمه الله – : لم يَقْتَصِرْ عليه بل ذَكَر : أنَّه يجُوز أن يَعُوج على المَوصُول ، وذكر التَّأويلين المُتقدّمين ، فقال : " الضَّمير راجع على مَصْدر الفِعْل الدَّاخل عليه حَرْف النَّهْي ، بمعنى : وإنَّ الأكل منه لَفِسْق ، أو على الموصُول على أنَّ أكْلَه لَفِسْق ، أو جعل ما لَمْ يُذكَر اسْمُ اللَّه عليه في نفس فِسْقاً " .

قوله : " لِيُجَادِلُوكُم " متعلّق بـ " يُوحُون " أي : " يُوحُون لأجْل مُجَادَلَتِكم " ، وأصْل " يُوحُون " يُوحِيُون ؛ فأعِلّ .

قوله : " وإن أطَعْتُمُوهم " قيل : إنَّ التَّوْطِئة للقسم ، فلذلك أجيب القسم المُقَدَّر بقوله : " إنكم لَمُشْرِكُون " وحذف جواب الشَّرْط بِلَفْظِ الماضِي ، وهو ههنا كذلك ، وهو قوله : " وإنْ أطَعْتُمُوهُم " .

قال شهاب الدّين : كأنه زعم : أنَّ جواب الشَّرْط هو الجُمْلَة من قوه : " إنَّكُم لَمُشْرِكُون "

والأصل : " فإنكُم " بالفاء ؛ لأنَّها جُمْلَة اسميَّة ، ثم حُذِفَت الفاء ؛ لكون فِعْل الشَّرْط بلَفْظِ المُضِيّ ، وهذا لَيْس بشَيء ؛ فإن القَسَم مُقدَّر قَبْل الشَّرْط ويدُل على ذلك حَذْف اللاَّم المُوَطِّئَة قبل " إن " الشَّرْطية ، ولَيْس فِعْل الشَّرْط مَاضِياً ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ ﴾ [ الأعراف : 3 ] فَهَهُنَا لا يُمْكنه أن يقُول : إن الفاء مَحذُوفة ؛ لأن فِعْل الشَّرْط مُضارعٌ ، وكأن أبا البقاء – والله أعلم – أخذ هذا من الحُوفِيّ ؛ فإني رَأَيْتُه فيه كما ذَكَرَهُ أبو البقاء ، ورَدَّه أبو حيَّان بنحو ما تقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 405.407 ﴾ . باختصار .

*(226/248)*

---

" فصل "

قال العلامة نظام الدين النيسابورى فى الآيات :

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ ﴾

هذا شروع في تفصيل ما أجمله قوله ﴿ أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ [ الأنعام : 109 ]

وكان المستهزؤن بالقرآن خمسة : الوليد بن المغيرة المخزومي والعاصي بن وائل السهمي والأسود بن عبد يغوث الزهري والأسود بن المطلب والحرث بن حنظلة ، أتوا الرسول صلى

الله عليه وآله في رهط من أهل مكة فقالوا : أرنا الملائكة يشهدون بأنك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أبو ابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم أحق ما تقول أم باطل ، أو ائتنا بالله والملائكة قبيلاً أي كفيلاً على ما تدعيه ، فنفى الله تعالى عنهم الإيمان وإن أوتوا هذه المقترحات . قال أبو زيد : يقال لقيت فلاناً قبلاً وقبلاً ومقابلة كلها بمعنى واحد وهو المواجهة رواه الواحدي ، وقال أبو عبيدة والفراء والزجاج : قبلاً بكسر القاف معناه معاينة . روي عن أبي ذر قال : قلت للنبي صلى الله عليه وآله : أكان آدم نبياً ؟ قال : نعم ، كان نبياً كلمه الله تعالى قبلاً ، وأما قبلاً بضمتين فقيل : إنه جمع قبيل ومعناه الجماعة تكون من الثلاثة فصاعداً من قوم شتى مثل الروم والزنج والعرب ولهذا قال الأخفش في تفسيره أي قبيلاً قبيلاً . أو معناه الكفيل والعريف من قبل به يقبل قبالة ، والمعنى لو حشرنا عليهم كل شيء فكفلوا بصحة ما يقول ما آمنوا ، وموضع الإعجاز فيه أن الأشياء المحشورة منها ما ينطق ومنها ما لا ينطق ، ومنها حي ومنها ميت ، فإذا حشرها الله تعالى على اختلاف طبائعها مجتمعة في موقف واحد ثم أنطقها وأطبقوا على قبول هذه الكفارة كان ذلك من أعظم المعجزات ، أما قوله تعالى : ﴿ ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ﴾ إيمانهم ، فقد قالت الأشاعرة : فلما لم يؤمنوا دل على أنه تعالى ما شاء إيمانهم ، وقالت المعتزلة : لو لم يرد منهم الإيمان لما وجب عليهم الإيمان كما لو لم يأمرهم به لم يجب ، ولو أراد الكفر من الكافر لكان الكافر في كفره مطيعاً لله لأنه لا معنى للطاعة إلا فعل المراد ، ولو جاز من الله

---

تعالى أن يريد الكفر لجاز أن يأمر به ، ولجاز أن يأمرنا بأن نريد الكفر .

فالمراد من الآية أنه شاء من الكل الإيمان الاختياري وما شاء الإيمان القهري . والمعنى : ما كانوا ليؤمنوا إيماناً اختيارياً إلا أن يشاء الله مشيئة إكراه واضطرار فحينئذ يؤمنون ، وزيف بأن الاختيار لا بد معه من حصول داعية يترجح بها أحد طرفي الممكن ، ولا تحصل تلك الداعية إلا بتخليق الله تعالى فكأنه لا اختيار . قال الجبائي : قوله : ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ يدل على حدوث المشيئة إذ لو كانت قديمة وهي الشرط لزم من حصولها حصول المشروط . وأجيب بأنها قديمة إلا أن تعلقها بأحداث المحدث في الحال إضافة حادثة . ثم ختم الآية بقوله : ﴿ ولكن أكثرهم يجهلون ﴾ قالت الأشاعرة : أي لا يعلمون أن الكل بقضاء الله وبقدره . وقالت المعتزلة : إنهم لا يدرون أنهم يبقون كفاراً عند ظهور الآية التي طلبوها والمعجزات التي اقترحوها فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يشعرون من حال قلوبهم ، أو ولكن أكثر المسلمين يجهلون أن هؤلاء لا يؤمنون إلا أن يضطرهم فيطمعون في إيمانهم الاختياري بمجيء الآيات المقترحات .

ثم قال : ﴿ وكذلك ﴾ قيل : إنه منسوق على قوله : ﴿ وكذلك زينا ﴾ [ الأنعام : 108 ] أي وكما زينا لكل أمة عملهم ﴿ جعلنا ﴾ وقيل : إن المشار إليه محذوف أي وكما خلينا بينك وبين أعدائك كذلك فعلنا بمن قبلك من الأنبياء وأعدائهم ، لم نمنعهم من العداوة لما فيه من الامتحان الذي هو سبب ظهور الثبات والصبر وكثرة الثواب والأجر . قالت الأشاعرة : لا شك أن تلك العداوة معصية وكفر ، وأن جعلها شرفاً لآية تدل على أن خالق الخير والشر والطاعة والمعصية والإيمان والكفر هو الله . قال الجبائي : المراد بهذا الجعل أنه حكم وبين فإن الرجل إذا حكم بكفر إنسان قيل إنه كفره ، وإذا أخبر عن عدالته قيل عدله . وقال الكعبي : إنه أمر الأنبياء . لأن العداوة تكون من الجانبين . أجاب أبو بكر الأصم بأنه لما أرسل محمداً إلى العالمين وخصه بتلك المعجزات صار ذلك التخصيص سبباً للحسد والعداوة أو للبغضاء فهذا هو المراد بجعلهم أعداء له . وزيف بأن الأفعال مستندة إلى الدواعي وهي من الله تعالى ، وبأن العداوة والمحبة متعلقة بالطبع لا بالإرادة والتكلف فلا يقدر عليها إلا الله تعالى ، وانتصاب ﴿ الشياطين ﴾ كما مر في قوله : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن ﴾ [ الأنعام : 100 ] قال الزجاج وابن الأنباري : ﴿ عدوّا ﴾ في معنى الجمع ، ولقائل أن يقول : لا حاجة إلى هذا التكلف لصحة قولنا : وكذلك جعلنا

لكل واحد من الأنبياء عدوّاً واحداً : إذ ليس يجب أن يحصل لكل واحدة من الأنبياء أكثر من عدو واحد .

*(229/248)*

---

عن ابن عباس : كل عات متمرد من الجن والإنس فهو شيطان . وقال مجاهد وقتادة والحسن : إن من الجن شياطين ومن الإنس شياطين ، وإن شيطان الجن إذا أعياه المؤمن ذهب إلى متمرد من الإنس وهو شيطان الإنس فأغراه بالمؤمن ليعينه عليه . " روي أن النبي صلى الله عليه وسلم وآله قال لأبي ذر : هل تعوّذت بالله من شر شياطين الإنس والجن ؟ قال : قلت : وهل للإنس من شياطين ؟ قال : نعم ، هم شر من شياطين الجن " وقيل : إن الجميع من ولد إبليس إلا أن الذي يوسوس للإنس يسمى شيطان الإنس ، والذي يوسوس للجن يسمى شيطان الجن . وزيف بأن المقصود من الآية الشكاية من سفاهة الكفار الذين هم الأعداء وهم الشياطين . وعن مالك بن دينار أن شيطان الإنس أشدّ عليّ من شيطان الجن لأني إذا تعوّذت بالله ذهب شيطان الجن عني وشيطان الإنس يجيئني فيجرني إلى المعاصي عياناً . ومعنى الإيحاء الإيمان أو القول السريع أي يوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس ، وكذلك بعض الجن إلى بعض ، وبعض الإنس إلى بعض ، وكأنه لا

يتصوّر وسوسة الإنس إلى الجن إلا على تقدير القول بالتسخير . و﴿ زخرف القول ﴾ ما يزينه من القول والوسوسة والإغراء على المعاصي ، والتحقيق فيه أن الإنسان ما لم يعتقد في أمر من الأمور خيرية أو نفعاً لم يرغب فيه . ثم إن كان هذا الاعتقاد مطابقاً للواقع فهو الحق والصدق والإلهام وكان صادراً من الملك وإلا كان مزخرفاً أي يكون باطنه فاسداً وظاهره مزيناً ، قال الواحدي : ﴿ غروراً ﴾ نصب على المصدر لأن إيحاء الزخرف من القول في معنى الغرور . ﴿ ولو شاء ربك ما فعلوه ﴾ استدلال الأشاعرة به ظاهر والمعتزلة يحملونه على مشيئة الإلجاء . ﴿ فذرهم وما يفترون ﴾ منصوب على أنه مفعول معه أو مفعول به أي وافتراءهم أو ما يفترونه . قال ابن عباس : يريد ما زين لهم إبليس وغرهم به ، وفيه تحذير من الكفر وترغيب في الإيمان وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وتنبيه له على ما أعد

*(230/248)*

---

للكفرة من العقاب وله من الثواب بسبب صبره على سفاهتهم وتلطفه بهم . الصغو في اللغة الميل . يقال في المستمع إنه مصغ إذا مال بحاسته إلى ناحية الصوت . وأصغى الإناء إذا أماله حتى انصب بعضه في بعض . ويقال للقمر إذا مال إلى الغروب صغا وأصغى . قال

الجوهري : صغا يصغو ويصغي صغواً أي مال ، وكذلك صغى بالكسر يصغي بالفتح صغى وصغياً ، واللام في ﴿ ولتصغي ﴾ لا بد لها من متعلق فقالت الأشاعرة : التقدير وإنما جعلنا مثل ذلك الشخص عدوّاً للنبي لتميل ﴿ إليه ﴾ أو إلى قوله المزخرف ﴿ أفئدة ﴾ الكفار فيبعدوا بذلك السبب عن قبول دعوة النبي ﴿ وليرضوه ﴾ وليختاروه على أنفسهم ﴿ وليقترفوا ﴾ وليكتسبوا من الآثام ﴿ ما هم مقترفون ﴾ وقال الجبائي : إن هذا الكلام خرج مخرج الأمر ومعناه الزجر كقوله : ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك ﴾ [ الإسراء : 14 ] . وزيف بأن حمل لام كي على لام الأمر تحريف . وقال الكعبي : هي لام العاقبة تقديره : ولتميل إلى ما ذكر من عداوة الأنبياء ووسوسة الشياطين أفئدة الكفار جعلنا لكل نبي عدواً . وعن أبي مسلم أنها معطوفة على موضع ﴿ غرور ﴾ والتقدير : يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول ليغتروا بذلك ولتميل قلوب الكفار إلى المذاهب الباطلة . وأورد عليه أن ميل القلوب إلى الآراء الفاسدة هو عين الاغترار فيلزم عطف الشيء على نفسه . وههنا بحث وهو أن الأشاعرة قالوا : البنية ليست شرطاً للحياة ، فالحي هو الجزء الذي قامت الحياة به ، والعالم هو الجزء الذي قام العلم به . وقالت المعتزلة : الحي والعالم هو الجملة لا ذلك الجزء . حجة الأشاعرة أنه جعل الموصوف بالميل والرغبة في الآية هو القلب لا جملة الحي ، وبمثله استدل من جعل المتعلق الأول للنفس هو القلب لا مجموع البدن . ثم إنه سبحانه لما ذكر أنه لا فائدة لهم في إظهار الآيات التي

اقترحوها بين بقوله : ﴿ أفغير الله أبتغي حكماً ﴾ الآية أن الدليل الدال على نبوته قد حصل وكمل

(231/248)

---

والزائد على ذلك لا يجب الالتفات إليه ، وإنما قلنا إن الدليل الدال على نبوته قد حصل لوجهين : الأول : أن الله تعالى قد حكم بنبوته من حيث إنه أنزل عليه الكتاب المبين المشتمل على العلوم الكثيرة والفصاحة الكاملة وقد عجز الخلق عن معارضته وأشار إلى هذا الوجه بقوله : ﴿ أفغير الله أبتغي حكماً ﴾ يعني قل يا محمد إنكم تتحكمون في طلب سائر المعجزات ، فهل يجوز في العقل أن يطلب غير الله حكماً فإن كل أحد يقول إن ذلك غير جائز . الوجه الثاني : اشتمال التوراة والإنجيل على أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله حقاً ، وعلى أن القرآن كتاب حق من عند الله وأشار إليه بقوله : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ﴾ ثم قال : ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ والخطاب لكل أحد أي إذا ظهرت الدلائل فلا ينبغي أن يمتري فيه أحد . وقيل : الخطاب للرسول في الظاهر والمراد به الأمة . وقيل : الخطاب للرسول في الحقيقة والمراد التهييج والإلهاب كقوله : ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ [ الأنعام : 14 ] والمراد فلا تكونن من

الممترين في أن أهل الكتاب يعلمون أنه منزّل من ربك بالحق ، ولا يريبك جحود أكثرهم .

قال الواحدي : الحكم والحاكم واحد عند أهل اللغة . وقال بعض أهل التأويل : الحكم أكمل من الحاكم لأن الحاكم كل من يحكم والحكم هو الذي لا يحكم إلا بالحق .

ثم لما بين أن القرآن معجز قال : ﴿ وتمت كلمة ربك ﴾ أي القرآن .

*(232/248)*

---

وقوله : ﴿ صدقاً وعدلاً ﴾ مصدران منتصبان على الحال من الكلمة ، ومعنى تمامها أنها وافية كافية في كونها معجزة دالة على صدق محمد ، أو كافية في بيان ما يحتاج المكلفون إليه إلى القيامة علماً وعملاً ، أو المراد بالتمام أنها أزلية ولا يحدث بعد ذلك شيء . واعلم أن كل ما حصل في القرآن نوعان : الخبر والتكليف ؛ فالخبر كل ما أخبر الله تعالى عن وجوده أو عن عدمه كالخبر عن وجود ذاته وحصول صفاته أعني كونه تعالى قادراً سميعاً بصيراً ويدخل فيه الخبر عن صفات التقديس والتنزيه كقوله تعالى : ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ [ الإخلاص : 3 ] ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ [ البقرة : 255 ] ويدخل فيه الخبر عن أقسام أفعال الله تعالى وكيفية تدبيره لملكوته في السموات والأرض وفي عالم الأرواح والأجسام ، ويدخل فيه الخبر عن أحكام الله تعالى في الوعد والوعيد والثواب والعقاب ،

ويدخل فيه الخبر عن أقسام أسماء الله تعالى والخبر عن النبوات عن النبوات وأقسام المعجزات ، والخبر عن أحوال النشر والقيامة وصفات أهل الجنة والنار . والخبر عن أحوال المتقدمين والخبر عن المغيبات . وأما التكليف فيدخل فيه كل أمر ونهي توجه منه سبحانه على عبيده سواء كان ملكاً أو بشراً أو شيطاناً ، وسواء كان ذلك في شرعنا أو في شرائع الأنبياء المتقدمين أو في مراسيم الملائكة المقربي الذين هم سكان السموات والجنة والنار والعرش وما وراءه مما لا يعلم أحوالهم إلا الله تعالى . فإذن المراد وتمت كلمات ربك صدقاً إن كان من باب الخبر وعدلاً إن كان من باب التكاليف وهذا ضبط حسن . وقيل : إن كل ما أخبر الله تعالى عنه من وعد ووعيد وثواب وعقاب فهو صدق لأنه لا بد أن يكون واقعاً ، وهو بعد وقوعه عدل لأن أفعاله منزهة عن أن تكون بصفة الظلم . ثم قال : ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ والمعنى أن هؤلاء الكفار يلقون الشبه في كون القرآن دالاً على صدق محمد إلا أن تلك الشبهات لا تأثير لها في هذه الدلالة ألبتة

*(233/248)*

---

لجلاء الدلالة ووضوحها . أو المراد أن كلماته تبقى موصوفة بصفتها مصونة عن التحريف والتغيير كما قال : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ [ الحجر : 9 ] أو الغرض أنها

بريئة عن التناقض كما قال : ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ [ النساء : 82 ] أو المعنى أن أحكام الله تعالى لا تتغير ولا تتبدل لأنها أزلية والأزلي لا يزول ، وهذا الوجه أحد الأصول القوية في إثبات الجبر إذ يلزم منه أن لا ينقلب السعيد شقياً وبالضد . ثم لما أجاب عن شبه الكفار بيّن أن عند ظهور الحجة وتبين المحجة لا ينبغي للعاقل أن يلتفت إلى كلمات الجهال فقال : ﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾ والمضل لا بد أن يكون ضالاً ويعني بهم الذين ينازعون النبي في الدين غير قاطعين بصحة مذاهبهم كالزنادقة وعبدة الكواكب والأصنام ، وكالذين يحرمون البحائر والسوائب والوصائل ويحللون الميتة فيحكمون على الحق بأنه باطل وعلى الباطل بأنه حق .

*(234/248)*

---

ثم قال : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ يقدرون على أنهم على شيء أو يكذبون في أن الله أحل كذا وحرم كذا . وأصل الخرص حزر ما على النخل من الرطب تمراً . وليس لنفاة القياس تمسك بالآية من قبل توجه الذم على متبع الظن ، لأن المذموم من اتباع الظن هو الذي لا يستند إلى أمارة كظن الكفار المستند إلى تقليد أسلافهم فقط ، أما إذا

كان الاعتقاد الراجح مستنداً إلى إمارة فلم يتم أنه كذلك . ثم قال : ﴿ إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ والمراد أنك بعد ما عرفت أن الحق ما هو والباطل ما هو فلا تكن في قيدهم بل فوض أمرهم إلى خالقهم لأن الله تعالى عالم بأن المهتدي من هو والضال من هو فيجازي كل أحد بما يليق بعمله ، أو المراد أن هؤلاء الكفار وإن أظهروا من أنفسهم ادعاء الجزم واليقين فهم كاذبون والله تعالى عالم بأحوال قلوبهم وبواطنهم ، ومطلع على تحيرهم في أودية الجهالة وتيه الضلال ، قال النحويون : إن أفعل التفضيل لا يعمل في مظهر ، ففي الكلام محذوف أي يعلم من يضل عن سبيله ، فإن لم يقدر محذوف قوي بالباء كما في القلم ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ [ القلم : 7 ] وهذا هو الأصل ، وإنما خص هذه السورة بالحذف موافقة لقوله : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ [ الأنعام : 124 ] وعدل إلى لفظ المستقبل تنبيهاً على قطع الإضافة لأن أكثر ما يستعمل " أفعل من " يستعمل مع الماضي نحو " أعلم من دب ودرج " و " أحسن من قام وقعد " و " أفضل من حج واعتمر " . فلو لم يعدل إلى لفظ المستقبل التبس بالإضافة تعالى عن ذلك . وجوّز بعضهم أن يكون " من " للاستفهام كقوله : ﴿ لنعلم أي الحزبين أحصى ﴾ [ الكهف : 12 ] ثم قال : ﴿ فكلوا ﴾ والفاء مسبب عن إنكار اتباع المضلين الذين يحلون الحرام ويحرّمون الحلال ، وذلك أنهم كانوا يقولون للمسلمين : إنكم تزعمون أنكم تعبدون الله فما قتله الله أحق أن تأكلوا مما قتلتم

أنتم . فقال الله سبحانه للمسلمين : إن كنتم محققين بالإيمان فكلوا مما ذكر اسم الله عليه وهو المذكى ببسم الله . فإن قيل : إن القوم كانوا يبيحون ما ذبح على اسم الله تعالى ولا ينازعون فيه ، وإنما النزاع في أكل الميتة فإنهم كانوا يبيحونها والمسلمون يحرمونها ، فما الحكمة في إثبات الحكم في المتفق عليه وترك الحكم في المختلف فيه ؟ فالجواب لعل القوم كانوا يحرمون أكل المذكاة ويبيحون أكل الميتة فرد الله تعالى عليهم في الأمرين بقوله : ﴿ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ﴾ وبقوله : ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ [ الأنعام : 145 ] أو نقول : المراد اجعلوا أكلكم مقصوراً على ما ذكر اسم الله عليه ، وعلى هذا فيكون المراد تحريم الميتة فقط والله أعلم . أما قوله : ﴿ وقد فصل لكم ﴾ فأكثر المفسرين قالوا : المراد به ما فصل في أول المائدة من قوله : ﴿ حرمت عليكم الميتة ﴾ [ المائدة : 3 ] إلى آخر الآية ، واعترض عليه بأن سورة الأنعام مكية والمائدة من آخر ما نزل بالمدينة ، والآية تقتضي أن يكون المفصل مقدماً على هذا المجمل بل الأولى أن يقال : المراد قوله تعالى بعد هذه الآية : ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرماً ﴾ [ الأنعام : 145 ] إلى آخرها . فإن هذا القدر من التأخر غير ضائر . وقوله : ﴿ إلا ما اضطررتم ﴾ أي

دعتكم الضرورة إلى أكله بسبب شدّة المجاعة ﴿ وإن كثيراً ليضلون ﴾ المبالغة في قراءة ضم الياء أكثر لأن كل مضل فإنه يكون ضالاً ، وقد يكون الضال غير مضل ، قيل : إنه عمرو بن لحي فمن دونه من المشركين لأنه أول من غير دين إسماعيل واتخذ البحائر والسوائب وأكل الميتة . وقوله : ﴿ بأهوائهم بغير علم ﴾ يريد أن عمرو بن لحي أقدم على هذه المذاهب عن الجهالة الصرفة ، وقال الزجاج : المراد منه الذين يحللون الميتة ويناظرون في إحلالها ، أو يحتجون عليها بقولهم إذ حل ما تذبحونه أنتم فلأن يحل ما يذبحه الله تعالى أولى ، وكذلك كل ما

*(236/248)*

---

يضلون فيه من عبادة الأوثان والطعن في نبوّة محمد صلى الله عليه وآله . وفي الآية دلالة على أن النزاع في الدين بمجرد التقليد حرام ﴿ إن ربك هو أعلم بالمعتدين ﴾ فيجازيهم عليها وفيه من التهديد ما فيه .

ثم ذكر آية جامعة فقال : ﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه ﴾ فقيل : ظاهره الزنا في الحوانيت وباطنه الصديقة في السر . قال الضحاك : كان أهل الجاهلية يرون الزنا حلالاً ما كان سراً . والأصح أن النهي عام إذ لا دليل على تخصيصه . ثم قيل : المراد ما أعلنتم وما أسررتم

. وقيل : ما عملتم وما نويتم . وقال ابن الأنباري : يريد وذروا الإثم من جميع جهاته كما تقول : ما أخذت من هذا المال قليلاً ولا كثيراً أي ما أخذته بوجه من الوجوه . وقريب منه قول من قال : المراد النهي عن الإثم مع بيان أنه لا يخرج عن كونه إنما بسبب إخفائه وكتمانه . وقيل : المراد النهي عن الإقدام على الإثم . ثم قال : ﴿ وباطنه ﴾ ليظهر بذلك أن الداعي له إلى ترك ذلك الإثم خوف الله لا خوف الناس . وقيل : ظاهر الإثم أفعال الجوارح ، وباطنه أفعال القلوب من الكبر والحسد والعجب وإرادة الشر للمسلمين ، ويدخل فيه الاعتقاد والعزم والنظر والظن والتمني والندم على أفعال الخيرات ، ومنه يعلم أن ما يوجد في القلب قد يؤاخذ به وإن لم يقترن به عمل ﴿ إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون ﴾ أي يكتسبون من الآثام ومنه الاعتراف يمحو الاقتراف كما يقال : التوبة تمحو الحوبة .

وظاهر النص يدل على أنه يعاقب المذنب ألبتة إلا أن المسلمين أجمعوا على أنه إذا تاب لم يعاقب . وأهل السنة على أنه إذا لم يتب احتمل العفو .

﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾

نقل عن عطاء أنه قال : كل ما لم يذكر اسم الله تعالى عليه من طعام أو شراب فهو حرام تمسكاً بعموم الآية . وأجمع سائر الفقهاء على تخصيص هذا العموم بالذبح ، ثم اختلفوا فمالك : كل ذبح لم يذكر اسم الله تعالى عليه فهو حرام ، ترك الذكر عمداً أو نسياناً وهو قول ابن سيرين وطائفة من المتكلمين . أبو حنيفة : إن ترك عمداً حرام وإن ترك نسياناً حل . الشافعي : متروك التسمية عمداً وسهواً حلال إذا كان الذابح مسلماً لقوله تعالى : ﴿ وإنه لفسق ﴾ والضمير عائد إلى الأكل الذي دل عليه الفعل أو إلى الموصول على أنه في نفسه فسق مثل " رجل عدل " أو على تقدير حذف المضاف أي وإن أكله لفسق . وقد أجمع المسلمون على أنه لا يفسق بأكل ذبيحة المسلم الذي ترك التسمية ولقوله تعالى : ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ﴾ وهذه المناظرة كانت في مسألة الميتة ؛ وذلك أن المشركين قالوا : يا محمد أخبرنا عن الشاة من قتلها إذا ماتت ؟ قال : الله قتلها ، قالوا : فتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال ، وما قتل الكلب والصقر حلال ، وما قتله الله حرام ؟ فأنزل الله الآية ، فالمراد من الشياطين ههنا إبليس وجنوده وسوسوا إلى أوليائهم من المشركين ليخاصموا محمداً وأصحابه في أكل الميتة . وقال عكرمة : وإن الشياطين – يعني مردة المجوس – ليوحون إلى أوليائهم من مشركي قريش . وذلك أنه لما نزل تحريم الميتة سمعه المجوس من أهل فارس فكتبوا إلى قريش وكانت بينهم مكاتبة أن محمداً وأصحابه يزعمون أن ما يذبحونه حلال وأن ما يذبحه الله حرام ، فوقع في أنفس ناس من المسلمين شيء فنزلت

الآية . ثم قال : ﴿ وإن أطعتموهم ﴾ يعني في استحلال الميتة ﴿ إنكم لمشركون ﴾ قال الزجاج : وفيه دليل على أن كل من أحل شيئاً مما حرم الله تعالى أو حرم شيئاً مما أحل الله فهو مشرك لأنه أثبت حاكماً سوى الله تعالى . ثم قال الشافعي : الفسق في آية أخرى وهي ، قوله : ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إليّ

*(238/248)*

---

محرماً ﴾ [ الأنعام : 145 ] إلى قوله : ﴿ أو فسقاً أهل لغير الله ﴾ [ الأنعام : 145 ] مفسر بما أهل به لغير الله فعلمنا أن الفسق في هذه الآية أيضاً مفسر به نزلنا عن هذا المقام وهو التمسك بالمخصصات ، فلم قلتم إنه لم يوجد ذكر الله ههنا لما روي أنه صلى الله عليه وآله قال : " ذكر الله مع المسلم سواء قال أو لم يقل " فيحمل هذا الذكر على ذكر القلب . أو نقول : هب أن هذا الدليل يوجب الحرمة إلا أن معنا ما يدل على الحل ، وإذا تعارض الحل والحرمة فالحل راجح لأن الأصل في الأشياء الإباحة وللعمومات الدالة على الحل كقوله : ﴿ خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ [ البقرة : 29 ] ﴿ وكلوا واشربوا ﴾ [ الطور : 19 ] ولأنه مستطاب وقد قال : ﴿ أحل لكم الطيبات ﴾ [ المائدة : 4 ] ، ولأن الطبع يميل إليه وقد نهى عن إضاعة المال ، هذا تقرير مذهب الشافعي ومع ذلك فالأولى بالمسلم

أن يحترز عنه لقوة ظاهر النص . قال الكعبي : في الآية دلالة على أن الإيمان اسم لجميع الطاعات لأنه تعالى سمى مخالفته شركاً . وأجيب بأنه لم لا يجوز أن يراد بالشرك ههنا اعتقاد أن لله شريكاً في الحكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 147 . 154 ﴾

*(239/248)*

---

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ وكلمهم الموتى ﴾ أي : قلوبهم الميتة ﴿ وحشرنا ﴾ أي أريناهم جميع الآيات المودعة في المكونات ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ فإن المشيئة تغير السجية والعناية الأزلية كفاية الأبدية ﴿ ولكن أكثرهم يجهلون ﴾ أن الهدى ليس بالمنى وأنه بمشيئة المولى ، ثم أخبر أن البلايا للسائرين إلى الله هي المطايا فقال : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس ﴾ هي النفس الأمارة التي هي أعدى الأعداء . ﴿ والذين آتيناهم الكتاب ﴾ هديناهم بنور الكتاب إلى حضرة الجلال ﴿ فلا تكونن ﴾ نهى التكوين في الأزل ﴿ وتمت كلمة ربك ﴾ كلامه وقضاؤه في الأزل ﴿ صدقاً ﴾ فيما قال ﴿ وعدلاً ﴾ فيما حكم

بالوجود والعدم والسعادة والشقاوة والرد والقبول والخير والشر والحسن والقبح والإيمان والكفر ، وأحسن شيء خلقه هو الإنسان ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ [ التين : 4 ] وكذلك شر شيء هو الإنسان عند فساد استعداده ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ [ التين : 5 ] ولأهل الكمال ترقٍ في كمال الحسن إلى الأبد ، ولأهل النقصان تسفل في القبح إلى الأبد أيضاً إظهاراً للقدرة الكاملة غير المتناهية ﴿ وهو السميع ﴾ لحاجة كل ذي حاجة ﴿ العليم ﴾ بما يستأهله كل موجود ﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض ﴾ وهم أهل الأهواء وأقلهم أهل الحق ﴿ وإن هم إلا يخرصون ﴾ في دعوى طلب الحق . فإن سبيل الحق لا يسلك بالهوى وإنما يسلك بالصدق والهدى . ﴿ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ﴾ فمن أمارات الإيمان أن يأكلوا الطعام بحكم الشرع لا على وفق الطبع ويذيبوه بذكر الله كما قال صلى الله عليه وآله " أذيبوا طعامكم بذكر الله " فالأكل على الغفلة والنسيان والاستعانة به على العصيان يورث موت الجنان والحرمان من الجنان . ﴿ وقد فصل لكم ﴾ يا أهل الله ﴿ ما حرم عليكم ﴾ وهو الدنيا وما فيها والآخرة ونعيمها ﴿ إلا ما اضطررتم إليه ﴾ من ضروريات البشر في الدارين بأمر المولى لا بالطبع والهوى ﴿ إن ربك هو أعلم بالمعتدين ﴾

الذين جاوزوا المولى وركنوا إلى الدنيا والعقبى ﴿ وذروا ظاهر الإثم ﴾ يعني الأعمال الطبيعية ﴿ وباطنه ﴾ يعني الأخلاق ، الذميمة الردية ﴿ سيجزون بما كانوا يقترفون ﴾ لأن الأخلاق الظلمانية توجب صدأ مرآة القلب وتزيدها ريناً إلى أن يصير حجاباً بين العبد وبين الله تعالى : ولا تأكلوا طعاماً إلا بأمر الله وعلى ذكر الله وفي طلب الله ليندفع بنور الذكر ظلمة الطعام وشهوته ، ﴿ وإنه ﴾ يعني ظلام الطعام يؤدي إلى الفسق الذي هو الخروج من النور الروحاني إلى الكلمة النّفسانية . ﴿ وإن الشياطين ليوحون ﴾ فإن للشيطان مجالاً في الوسوسة إذا كانت النفوس في المجادلة مع القلوب لتدعوها إلى متابعة الهوى الله حسبي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 154. 155 ﴾

*(241/248)*

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والأربعون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

*(3/249)*

---

الجزء التاسع والأربعون بعد المائتين

من الآية ﴿ 122 ﴾ من سورة الأنعام

وحتى الآية ﴿ 125 ﴾ من نفس السورة

*(4/249)*

---

قوله تعالى ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (122) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان معنى التحذير من طاعة المشركين أنكم إن فعلتم كنتم قد رددتم أنفسكم إلى ظلام الضلال بعد أن منحتم نور الهداية ، فكان التقدير : أفمن كان هكذا كان كمن نصح لنفسه باتباع الأدلة وتوقي الشبه ، عطف عليه قوله : ﴿ أو من كان ميتاً ﴾ أي بالغرق في أمواج ظلام الكفر ، ليس لهم من ذواتهم إلا الجمادية بل العدمية ﴿ فأحييناه ﴾ أي بما لنا من العظمة بإشراق أنوار الإيمان على قبله الذي إن صلح صلح الجسد كله ، وإن فسد فسد الجسد كله ﴿ وجعلنا ﴾ أي بعظمتنا على وجه الخصوص ﴿ له نوراً ﴾ أي بالهداية إلى كل خير ﴿ يمشي ﴾ مستضيئاً ﴿ به في الناس ﴾ فيعرفون أفعاله وأخلاقه وأقواله ﴿ كمن مثله ﴾ أي الذي يمثل به ، وهو ما ينكشف بوجه الشبه روح لبه وخلاصة حال قلبه ، حال قلبه ، أو يكون المعنى : صفته أنه ﴿ في الظلمات ﴾ أي ما له من نفسه من ظلمة الجهل وظلمة ما ينشأ عنه من الهوى وظلمة ما نشأ عن الهوى من الكفر ، وإذا كان المثل الذي هو الأعلى من الممثول في شيء كان الممثول عريقاً فيه بطريق الأولى ، فلذلك قال : ﴿ ليس بخارج ﴾ أي ذلك المثل ﴿ منها ﴾ أي الظلمات بما زين له من سوء أعماله حتى

صارت أحب إليه من نفسه وماله ، وإذا لم يخرج المثل من شيء لم يخرج الممثول منه وإلا لم تكن بينهما مماثلة ، وذلك لأنه زين له عمله ، وهي ناظرة إلى قوله أول السورة ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ﴾ [ الأنعام : 36 ] وقوله : ﴿ والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات ﴾ [ الأنعام : 39 ] .

*(5/249)*

---

ولما كان إيحاء الشياطين إلى أوليائهم مما يوجب لزوم العمى ليس إلاّ تزييناً للقبائح ، فكان حالهم مما يشتد العجب منه ، كان كأنه قيل : لولا رؤيتنا لحالهم ما صدقنا أن عاقلاً يرضى ما فعلوه بأنفسهم ، فهل وقع لأحد قط مثل حالهم ؟ فقيل : نعم ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ما زين لهم سوء أعمالهم ﴿ زين للكافرين ﴾ أي كلهم ﴿ ما كانوا ﴾ بما جبلناهم عليه ﴿ يعملون ﴾ فهم أبداً في الظلمات ، فالآية من الاحتباك : أثبت أولاً كونه في الظلمات دليلاً على تقديره ثانياً ، وثانياً التزيين دليلاً على تقديره أولاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 707 . 708 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما ذكر في الآية الأولى أن المشركين يجادلون المؤمنين في دين الله ذكر مثلاً يدل

على حال المؤمن المهتدي ، وعلى حال الكافر الضال ، فبين أن المؤمن المهتدي بمنزلة من كان ميتاً ، فجعل حياً بعد ذلك وأعطى نوراً يهتدى به في مصالحه ، وأن الكافر بمنزلة من هو في ظلمات منغمس فيها لا خلاص له منها ، فيكون متحيراً على الدوام .

ثم قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وعند هذا عادت مسألة الجبر والقدر فقال أصحابنا : ذلك المزين هو الله تعالى ، ودليله ما سبق ذكره من أن الفعل يتوقف على حصول الداعي وحصوله لا بد وأن يكون بخلق الله تعالى ، والداعي عبارة عن علم أو اعتقاد أو ظن باشتمال ذلك الفعل على نفع زائد وصلاح راجح ، فهذا الداعي لا معنى له إلا هذا التزيين ، فإذا كان موجد هذا الداعي هو الله تعالى كان المزين لا محالة هو الله تعالى ، وقالت المعتزلة : ذلك المزين هو الشيطان ، وحكوا عن الحسن أنه قال : زينه لهم والله الشيطان .

واعلم أن هذا في غاية الضعف لوجوه : الأول : الدليل القاطع الذي ذكرناه .

والثاني : أن هذا المثل مذكور ليميز الله حال المسلم من الكافر فيدخل فيه الشيطان فإن كان إقدام ذلك الشيطان على ذلك الكفر لشيطان آخر ، لزم الذهاب إلى مزين آخر غير النهاية وإلا فلا بد من مزين آخر سوى الشيطان .

الثالث : أنه تعالى صرح بأن ذلك المزين ليس إلا هو فيما قبل هذه الآية وما بعدها ، أما قبلها فقوله : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا

لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ [ الأنعام : 108 ] وأما بعد هذه الآية فقوله : ﴿ وكذلك جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾ [ الأنعام : 123 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 139.140 ﴾

*(6/249)*

---

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ ميتاً ﴾ بالتشديد : أبو جعفر ونافع وسهل ويعقوب ﴿ رسالته ﴾ بالنصب والتوحيد : ابن كثير وحفص والمفضل . الباقون : ﴿ رسالاته ﴾ على الجمع وبالكسر في موضع النصب ﴿ ضيقا ﴾ وبابه بالتخفيف : ابن كثير ﴿ حرجاً ﴾ بكسر الراء : أبو جعفر ونافع وسهل وأبو بكر وحماد . الباقون : بالفتح ﴿ يصعد ﴾ من الصعود : ابن كثير ﴿ يصاعد ﴾ من التصاعد بإدغام التاء في الصاد : أبو بكر وحماد . الباقون : ﴿ يصعد ﴾ بالإدغام من التصعيد . ﴿ يحشرهم ﴾ بياء الغيبة : حفص . الآخرون بالنون .

الوقوف : ﴿ بخارج منها ﴾ ط ﴿ يعملون ﴾ ه ﴿ فيها ﴾ ط ﴿ وما يشعرون ﴾ ه

﴿ رسل الله ﴾ ط ﴿ رسالاته ﴾ ط ﴿ يمكرون ﴾ ه ﴿ للإسلام ﴾ ج لابتداء شرط آخر مع العطف . ﴿ في السماء ﴾ ج ﴿ لا يؤمنون ﴾ ه ﴿ مستقيماً ﴾ ط ﴿ يذكرون ﴾ ه ﴿ يعملون ﴾ ه ﴿ جميعاً ﴾ ج للحذف أي يحشرهم ويقول لهم مع اتحاد المقصود ﴿ من الإنس ﴾ الأول ج لتبدل القائل مع اتفاق الجملتين ﴿ أجلت لنا ﴾ ط قال النار يغلظ الصوت على النار إشارة إلى أن النار مبتدأ بعد القول وليست فاعله ﴿ يشاء الله ﴾ ط ﴿ عليم ﴾ ه ﴿ يكسبون ﴾ ه ﴿ يومكم هذا ﴾ ط ﴿ كافرين ﴾ ه .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 156 ﴾

*(7/249)*

---

فصل

قال الفخر :

قال أهل المعاني : قد وصف الكفار بأنهم أموات في قوله : ﴿ أموات غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [ النحل : 21 ] وأيضاً في قوله : ﴿ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً ﴾ [ ياس : 70 ] وفي قوله : ﴿ إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الموتى ﴾ [ النمل : 80 ] وفي قوله : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الأعمى والبصير . . .

وَمَا يَسْتَوِي الأحياء وَلاَ الأموات ﴾ [ فاطر : 19 و22 ] فلما جعل الكفر موتاً والكافر ميتاً ، جعل الهدى حياة والمهتدي حياً ، وإنما جعل الكفر موتاً لأنه جهل ، والجهل يوجب الحيرة والوقفة ، فهو كالموت الذي يوجب السكون ، وأيضاً الميت لا يهتدي إلى شيء ، والجاهل كذلك ، والهدى علم وبصر ، والعلم والبصر سبب لحصول الرشد والفوز بالنجاة ، وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي الناس ﴾ عطف على قوله ﴿ فأحييناه ﴾ فوجب أن يكون هذا النور مغايراً لتلك الحياة والذي يخطر بالبال والعلم عند الله تعالى أن الأرواح البشرية لها أربع مراتب في المعرفة .

*(8/249)*

---

فأولها : كونها مستعدة لقبول هذه المعارف وذلك الاستعداد الأصلي يختلف في الأرواح ، فربما كانت الروح موصوفة باستعداد كامل قوي شريف ، وربما كان ذلك الاستعداد قليلاً ضعيفاً ، ويكون صاحبه بليداً ناقصاً .

والمرتبة الثانية : أن يحصل لها العلوم الكلية الأولية ، وهي المسماة بالعقل .

والمرتبة الثالثة : أن يحاول ذلك الإنسان تركيب تلك البديهيات : ويتوصل بتركيبها إلى تعرف المجهولات الكسبية ، إلا أن تلك المعارف ربما لا تكون حاضرة بالفعل ، ولكنها تكون

بحيث متى شاء صاحبها استرجاعها واستحضارها ، يقدر عليه .

والمرتبة الرابعة : أن تكون تلك المعارف القدسية والجلايا الروحانية حاضرة بالفعل ، ويكون جوهر ذلك الروح مشرقاً بتلك المعارف مستضيئاً بها مستكملاً بظهورها فيه .

إذا عرفت هذا فنقول :

المرتبة الأولى : وهي حصول الاستعداد فقط ، هي المسماة بالموت .

والمرتبة الثانية : وهي أن تحصل العلوم البديهية الكلية فيه فهي المشار إليها بقوله : ﴿ فأحييناه ﴾ .

والمرتبة الثالثة : وهي تركيب البديهيات حتى يتوصل بتركيباتها إلى تعرف المجهولات النظرية ، فهي المراد من قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا ﴾ .

والمرتبة الرابعة : وهي قوله : ﴿ يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ إشارة إلى كونه مستحضراً لتلك الجلايا القدسية ناظراً إليها ، وعند هذا تتم درجات سعادات النفس الإنسانية ، ويمكن أن يقال أيضاً الحياة عبارة عن الاستعداد القائم بجوهر الروح ، والنور عبارة عن إيصال نور الوحي والتنزيل به .

فإنه لا بد في الإبصار من أمرين : من سلامة الحاسة ، ومن طلوع الشمس ، فكذلك البصيرة لا بد فيها من أمرين : من سلامة حاسة العقل ، ومن طلوع نور الوحي والتنزيل ، فلهذا السبب قال المفسرون : المراد بهذا النور ، القرآن .

ومنهم من قال : هو نور الدين ، ومنهم من قال : هو نور الحكمة ، والأقوال بأسرها متقاربة ، والتحقيق ما ذكرناه .

(9/249)

---

وأما مثل الكافر ﴿ فَهُوَ كَمَنْ فِي الظلمات لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ وفي قوله : ﴿ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ دقيقة عقلية ، وهي أن الشيء إذا دام حصوله مع الشيء صار كالأمر الذاتي والصفة اللازمة له .

فإذا دام كون الكافر في ظلمات الجهل والأخلاق الذميمة صارت تلك الظلمات كالصفة الذاتية اللازمة له يعسر إزالتها عنه ، نعوذ بالله من هذه الحالة .

وأيضاً الواقف في الظلمات يبقى متحيراً لا يهتدي إلى وجه صلاحه فيستولي عليه الخوف والفزع ، والعجز والوقوف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 140 .

141 ﴾

فصل

قال الفخر :

اختلفوا في أن هذين المثلين المذكورين هل هما مخصوصان بإنسانين معينين أو عامان في كل

مؤمن وكافر .

فيه قولان : الأول : أنه خاص بإنسانين على التعيين ، ثم فيه وجوه : الأول : قال ابن عباس : إن أبا جهل رمى النبي صلى الله عليه وسلم بفرث وحمزة يومئذ لم يؤمن ، فأخبر حمزة بذلك عند قدومه من صيد له والقوس بيده ، فعمد إلى أبي جهل وتوخاه بالقوس ، وجعل يضرب رأسه ، فقال له أبو جهل : أما ترى ما جاء به ؟ سفه عقولنا ، وسب آلهتنا ، فقال حمزة : أنتم أسفه الناس ، تعبدون الحجارة من دون الله ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، فنزلت هذه الآية .

والرواية الثانية : قال مقاتل : نزلت هذه الآية في النبي صلى الله عليه وسلم وأبي جهل وذلك أنه قال : زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف ، حتى إذا صرنا كفرسي رهان ، قالوا منا نبي يوحى إليه .

والله لا نؤمن به ، إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه فنزلت هذه الآية .

والرواية الثالثة : قال عكرمة والكلبي : نزلت في عمار بن ياسر وأبي جهل .

والرواية الرابعة : قال الضحاك : نزلت في عمر بن الخطاب وأبي جهل .

والقول الثاني : إن هذه الآية عامة في حق جميع المؤمنين والكافرين ، وهذا هو الحق ، لأن المعنى إذا كان حاصلاً في الكل ، كان التخصيص محض التحكم ، وأيضاً قد ذكرنا أن هذه السورة نزلت دفعة واحدة ، فالقول بأن سبب نزول هذه الآية المعينة ، كذا وكذا مشكل ،

إلا إذا قيل إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن مراد الله تعالى من هذه الآية العامة ، فلان بعينه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 141 ﴾

*(10/249)*

---

وقال السمرقندى :

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فأحييناه ﴾

يعني من كان ضالاً كافراً فهديناه إلى الإسلام والتوحيد ﴿ وجعلنا له نوراً يمشي في الناس ﴾ يعني : أكرمناه بالمعرفة .

ويقال : جعلنا له إيماناً يهتدي به سبيل الخيرات ، والنجاة يمشي به في الناس يعني : مع المؤمنين .

ويقال : أعطيناه نوراً يوم القيامة يمشي به على الصراط مع المؤمنين .

لا يكن حاله ﴿ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظلمات ﴾ يعني : كمن قدر عليه الكفر ونزل في الكفر مخذولاً ﴿ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ يعني : ليس براجع منها .

يعني : ليسا بسواء .

قال الكلبي : نزلت في عمار بن ياسر يعني ليس حاله بحال الكفار .

وقال مقاتل : يعني به النبي صلى الله عليه وسلم ليس مثل أبي جهل بن هشام الذي بقي في الكفر .

ويقال : يعني جميع المؤمنين ليس حالهم كحال الكفار .

قرأ نافع ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا ﴾ بالتشديد ، وقرأ الباقون بالتخفيف ، ومعناهما واحد .

ثم قال : ﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ يعني : هكذا نعاقب من اختار الكفر على الإيمان فنختم على قلبه مجازاة لكفره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

قوله تعالى ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾

هو ألف الاستفهام والتقدير دخلت على واو النسق فبقيت على فتحها يعني أومن كان كافراً ميتاً بالضلالة فهديناه واجتبيناه بالإيمان ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً ﴾ يستضيء به و ﴿ يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ على قصد السبيل ومنهج الطريق .

قال ابن زيد : يعني بهذا النور الإسلام نيابة قوله ﴿ يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [ البقرة : 257 ] .

وقال قتادة : هذا المؤمن معه من الله نوراً وبينة يعمل بها ويأخذ وإليها ينتهي كتاب الله ﴿ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ .

قال بعضهم : المثل زائد تقديره كمن في الظلمات .

---

وقال بعضهم : معناه كن أو شبه بشيء كان يشبهه من في الظلمات من ظلمة الكفر والجهل والضلالة والمسير .

﴿ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ لا يبصر شيئاً ولا يعرف طريقاً كالذي ضل طريقه في ظلمة الليل فهو لا يجد مخرجاً ولا يهتدي طريقاً .

وقيل : إن هذه الآية نزلت في رجلين بأعيانهما ، ثم اختلفوا فيهما .

فقال ابن عباس : أومن كان [ ميتاً ] فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس . يريد حمزة بن عبد المطلب كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها . أبو جهل ، وذلك إن أبا جهل رمى النبي صلى الله عليه وسلم بالحجارة وحمزة لم يؤمن بعد فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل وهو راجع من قنصه وبيده قوس ، فأقبل غضبان حتى علا أبا جهل بالقوس وهو يتضرع كعبد مسكين يقول : يا أبا يعلى أما ترى ما جاء به سفّه عقولنا وسبّ آلهتنا وخالف أبانا .

فقال حمزة : ومن أسفه منكم تعبدون الحجارة من دون اللّه ، أشهد أن لا إله إلاّ اللّه لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله فأنزل اللّه تعالى هذه الآية .

وقال الضحاك [ ويمان ] : نزلت في عمر بن الخطاب وأبي جهل .

قال عكرمة والكلبي : نزلت في عمار بن ياسر وأبي جهل .

﴿ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من الكفر والمعصية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال البغوى :

قوله عز وجل : ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾

*(12/249)*

---

قرأ نافع " ميّتا " و(لحم أخيه ميّتا ) (الحجرات ، 12 ) و(الأرض الميتة أحييناها ) (سورة يس ، 33 ) بالتشديد فيهن ، والآخرون بالتخفيف ﴿ فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ أي : كان ضالا فهديناه ، كان ميتا بالكفر فأحييناه بالإيمان ، ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا ﴾ يستضيء به ، ﴿ يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ على قصد السبيل ، قيل : النور هو الإسلام ، لقوله تعالى "يخرجهم من الظلمات إلى النور "(البقرة ، 257 ) ، وقال قتادة : هو كتاب الله بينة من الله مع المؤمن ، بها يعمل وبها يأخذ وإليها ينتهي ، ﴿ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ المثل صلة ، أي : كمن هو في الظلمات ، ﴿ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ يعني : من ظلمة الكفر .

قيل : نزلت هذه الآية في رجلين بأعيانهما ، ثم اختلفوا فيهما ، قال ابن عباس : جعلنا له

نورا ، يريد حمزة بن عبد المطلب ، كمن مثله في الظلمات يريد أبا جهل بن هشام ، وذلك أن أبا جهل رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بفرث ، فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل وهو راجع من قنصه وبيده قوس ، وحمزة لم يؤمن بعد ، فأقبل غضبان حتى علا أبا جهل بالقوس وهو يتضرع إليه ، ويقول : يا أبا يعلى أما ترى ما جاء به ؟ سفّه عقولنا وسبّ آلهتنا وخالف آباءنا ، فقال حمزة : ومن أسفه منكم ؟ تعبدون الحجارة من دون الله ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، فأنزل الله هذه الآية .

وقال الضحاك : نزلت في عمر بن الخطاب وأبي جهل وقال عكرمة والكلبي : نزلت في عمار بن ياسر وأبي جهل .

﴿ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من الكفر والمعصية ، قال ابن عباس : يريد زين لهم الشيطان عبادة الأصنام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البغوى حـ 3 صـ 184 .

﴿ 185

وقال ابن عطية :

قوله عز وجل : ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه ﴾

*(13/249)*

تقدم في هذه الآية السالفة ذكر قوم مؤمنين أمروا بترك الإثم وباطنه وغير ذلك ، وذكر قوم كافرين يضلون بأهوائهم وغير ذلك ، فمثل الله عز وجل في الطائفتين بأن شبه الذين آمنوا بعد كفرهم بأموات أحيوا ، هذا معنى قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما ، وشبه الكافرين وحيرة جهلهم بقوم في ظلمات يترددون فيها ولا يمكنهم الخروج منها ليبين عز وجل الفرق بين الطائفتين والبون بين المنزلتين .

وقرأ جمهور الناس " أوَمن " بفتح الواو فهي ألف استفهام دخلت على واو عطف جملة على جملة ، و﴿ من ﴾ بمعنى الذي ، وقرأ طلحة بن مصرف : " أفمن " بالفاء ، والمعنى قريب من معنى الواو ، والفاء في قوله ﴿ فأحييناه ﴾ عاطفة ، و﴿ نوراً ﴾ أمكن ما يعنى به الإيمان و﴿ يمشي به ﴾ يراد به جميع التصرف في الأفعال والأقوال ، قال أبو علي : ويحتمل أن يراد النور الذي يؤتاه المؤمنون يوم القيامة ، و﴿ في الناس ﴾ متعلق ب ﴿ يمشي ﴾ ، ويصح أن يتعلق ب ﴿ كان ميتاً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ كمن مثله ﴾ بمنزلة كمن هو ، والكاف في قوله ﴿ كذلك زين ﴾ متعلقة بمحذوف يدل ظاهر الكلام عليه ، تقديره وكما أحيينا المؤمنين وجعلنا لهم نوراً كذلك زين للكافرين ، ويحتمل أن يتعلق بقوله ﴿ كمن مثله ﴾ أي كهذه الحال هو التزيين ، وقرأ نافع وحده " ميّتاً " بكسر الياء وشدها ، وقرأ الباقون " ميْتاً " بسكون الياء ، قال أبو علي : التخفيف كالتشديد ، والياء المحذوفة هي الثانية المنقلبة عن واو أعلت بالحذف كما أعلت بالقلب ، وقالت طائفة إن هذه الألفاظ التي مثل

بها وإن كانت تعم كل مؤمن وكل كافر فإنما نزلت في مخصوصين ، فقال الضحاك : المؤمن الذي كان ميتاً فأحيي عمر بن الخطاب ، وحكى المهدوي عن بعضهم أنه حمزة بن عبد المطلب ، وقال عكرمة : عمار بن ياسر ، وقال الزجاج : جاء في التفسير أنه يعني به النبي عليه السلام .

*(14/249)*

---

قال القاضي أبو محمد : واتفقوا على أن الذي في الظلمات أبو جهل بن هشام ، إلى حاله وحال أمثاله هي الإشارة والتشبيه بقوله ﴿ وكذلك جعلنا في كل قرية ﴾ . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

وفي قوله : ﴿ كان ميتاً فأحييناه ﴾ قولان .

أحدهما : كان ضالاً فهديناه ، قاله مجاهد .

والثاني : كان جاهلاً ، فعلَّمناه ، قاله الماوردي .

وقرأ نافع : "ميّتاً" بالتشديد .

قال أبو عبيدة : الميتة ، مخففة : من ميّتة ، والمعنى واحد .

وفي "النور" ثلاثة أقوال.

أحدها: أنه الهدى، قاله ابن عباس.

والثاني: القرآن، قاله الحسن.

والثالث: العلم.

وفي قوله: ﴿ يمشي به في الناس ﴾ ثلاثة أقوال.

أحدها: يهتدي به في الناس، قاله مقاتل.

والثاني: يمشي به بين الناس إلى الجنة.

والثالث: ينشر به دينه في الناس، فيصير كالماشي، ذكرهما الماوردي.

قوله تعالى: ﴿ كمن مثله ﴾ المثل: صلة؛ والمعنى: كمن هو في الظلمات.

وقيل: المعنى: كمن لو شُبّه بشيء، كان شبيهُه مَنْ في الظلمات.

وقيل: المراد بالظلمات هاهنا: الكفر.

قوله تعالى: ﴿ وكذلك زين ﴾ أي: كما بقي هذا في ظلماته لا يتخلص منها، كذلك زين ﴿ للكافرين ما كانوا يعملون ﴾ من الشرك والمعاصي. انتهى انتهى. اهـ ﴿ زاد المسير حـ2 صـ ﴾

وقال أبو حيان:

﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس

بخارج منها ﴾

قال ابن عباس : نزلت في حمزة وأبي جهل رمي الرسول بفرث فأخبر بذلك حمزة حين رجع من قنصه وبيده قوس ، وكان لم يسلم فغضب فعلاً بها أبا جهل وهو يتضرع إليه ويقول : سفه عقولنا وسب آلهتنا وخالف آباءنا ، فقال حمزة : ومن أسفه منكم تعبدون الحجارة من دون الله وأسلم .

وعن ابن عباس أيضاً أنها نزلت في عمار وأبي جهل .

*(15/249)*

---

وقال زيد بن أسلم : في عمر وأبي جهل لما تقدم ذكر المؤمنين والكافرين مثل تعالى بأن شبه المؤمن بعد أن كان كافراً بالحي المجعول له نور يتصرف به كيف سلك ، والكافر بالمختلط في الظلمات المستقر فيها دائماً ليظهر الفرق بين الفريقين والموت والحياة والنور والظلمة مجاز فالظلمة مجاز عن الكفر والنور مجاز عن الإيمان والموت مجاز عن الكفر .

وقال الماتريدي : الموت مجاز عن كونه في ظلمة البطن لا يبصر ولا يعقل شيئاً ثم أخرج فأبصر وعقل ، نقول : لا يستوي من أخرج من الظلمات ومن ترك فيها فكذلك لا يستوي المؤمن الذي يبصر الحق ويعمل به ، والكافر الذي لا يبصر ونحو منه قول ابن بحر قال : أو من كان

نطفة أو علقة أو مضغة فصورناه ونفخنا فيه الروح ، انتهى ؛ وأما النور فهو نور الحكمة أو نور الدين أو القرآن أقوال .

وقال أبو عبد الله الرازي : الحياة الاستعداد لقبول المعارف فتحصل له علوم كلية أولية وهي المسماة بالعقل والنور ما توصل إليه تركيب تلك البديهيات من المجهولات النظرية ومشيه في الناس كونه صار محضراً للمعارف القدسية والجلايا الروحانية ناظراً إليها ، ويمكن أن يقال : الحياة الاستعداد القائم بجوهر الروح والنور اتصال نور الوحي والتنزيل به فالبصيرة لا بد فيها من أمرين : سلامة حاسة العقل ، وطلوع نور الوحي كما أن البصر لا بد فيه من أمرين : سلامة الحاسة وطلوع الشمس ؛ انتهى ، ملخصاً .

*(16/249)*

---

وهو بعيد من مناحي كلام العرب ومفهوماتها ولما ذكر صفة الإحسان إلى العبد المؤمن نسب ذلك إليه فقال : ﴿ فأحييناه وجعلنا له نوراً ﴾ وفي صفة الكافر لم ينسبها إلى نفسه بل قال : ﴿ كمن مثله في الظلمات ﴾ ولما كانت أنواع الكفر متعددة قال ﴿ في الظلمات ﴾ ولما ذكر جعل النور للميت قال : ﴿ يمشي به في الناس ﴾ أي يصحبه كيف تقلب ، وقال : ﴿ في الناس ﴾ إشارة إلى تنويره على نفسه وعلى غيره من الناس فذكر أن منفعة

المؤمن ليست مقتصرة على نفسه وقابل تصرفه بالنور وملازمة النور له باستقرار الكافر ﴿ في الظلمات ﴾ وكونه لا يفارقها ، وأكد ذلك بدخول الباء في خبر ليس ويبعد قول من قال : إن النور والظلمة هما يوم القيامة إشارة إلى قوله : ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ وإلى ظلمة جهنم وتقدم الكلام على مثل في قوله ﴿ كمثل الذي استوقد ناراً ﴾ وقرأ طلحة أفمن الفاء بدل الواو .

﴿ كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون ﴾ الإشارة بذلك إلى إحياء المؤمن أو إلى كون الكافر في الظلمات أي كما أحيينا المؤمن زين للكافر أو ككينونة الكافر في الظلمات ، زين للكافرين والفاعل محذوف .

قال الحسن : هو الشيطان ، وقال غيره : الله تعالى وجوز الوجهين الزمخشري ، وتقدم الكلام في التزيين وقيل : المزين الأكابر الأصاغر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه ﴾

يعني أو من كان ميتاً بالكفر فأحييناه بالإيمان وإنما جعل الكفر موتاً لأنه جعل الإيمان حياة لأن الحي صاحب بصر يهتدي به إلى رشده ولما كان الإيمان يهدي إلى الفوز العظيم والحياة الأبدية شبهه بالحياة ﴿ وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس ﴾ يعني وجعلنا له نوراً

يستضيء به في الناس ويهتدي به إلى قصد السبيل ، قيل : النور هو الإسلام لأنه يخلص من ظلمات الكفر لقوله : يخرجهم من الظلمات إلى النور .

(17/249)

---

وقال قتادة : هو كتاب الله القرآن لأنه بينة من الله مع المؤمنين بما يعمله ﴿ كمن مثله في الظلمات ﴾ يعني كمن هو في ظلمة الكفر وظلمة الجهالة وظلمة عمى البصيرة ﴿ ليس بخارج منها ﴾ يعني من تلك الظلمات وهذا مثل ضربه الله تعالى لحال المؤمن والكافر فبين أن المؤمن المهتدي بمنزلة من كان ميتاً فأحياه وأعطاه نوراً يهتدي به في مصالحه وأن الكافر بمنزلة من هو في ظلمات منغمس فيها ليس بخارج منها فيكون متحيراً على الدوام ، ثم اختلف المفسرون في هذين المثالين هل هما مخصوصان بإنسانين معينين أو هما عامّان في كل مؤمن وكافر ؟ فذكروا في ذلك قولين : أحدهما أن الآية في رجلين معينين ثم اختلفوا فيهما فقال ابن عباس في قوله وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس يريد حمزة بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم كمن مثله في الظلمات يريد بذلك أن أبا جهل بن هشام وذلك أبا جهل رمى النبي صلى الله عليه وسلم بفرث فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل ، وكان حمزة قد رجع من صيد وبيده قوس وحمزة لم يؤمن بعد فأقبل حمزة غضبان حتى علا أبا جهل وجعل

يضربه بالقوس ، وجعل أبو جهل يتضرع إلى حمزة ويقول : يا أبا يعلى أما ترى ما جاء به سفَّه عقولنا وسب آلهتنا وخالف آباءنا ؟ فقال حمزة : ومن أسفه منكم عقولاً تعبدون الحجارة من دون الله أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فأسلم حمزة يومئذ فأنزل الله هذه الآية .

وقال الضحاك : نزلت في عمر بن الخطاب وأبي جهل .

وقال عكرمة والكلبي : نزلت في عمار بن ياسر وأبي جهل ، وقال مقاتل : نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم وأبي جهل وذلك أن أبا جهل قال زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا نحن وهم كفرسي رهان ، قالوا منا نبي يوحى إليه والله لا نؤمن حتى يأتينا وحي كما يأتيه فنزلت هذه الآية .

*(18/249)*

---

والقول الثاني : وهو قول الحسن في آخرين أن هذه الآية عامة في حق كل مؤمن وكافر وهذا هو الصحيح لأن المعنى إذا كان حاصلاً في الكل دخل فيه كل أحد .

وقوله تعالى : ﴿ كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون ﴾ قال أهل السنة ، المزين هو الله تعالى ويدل عليه قوله زينّا لهم أعمالهم ولأن حصول الفعل يتوقف على حصول الدواعي

وحصوله لا يكون إلا بخلق الله تعالى فدل ذلك على أن المزين هو الله تعالى ، وقالت المعتزلة المزين هو الشيطان ويرده ما تقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾

قرأ الجمهور بفتح الواو ، دخلت عليها همزة الاستفهام .

وروى المُسَيَّبي عن نافع بن أبي نعيم "أَوْ مَنْ كَانَ" بإسكان الواو .

قال النحاس : يجوز أن يكون محمولاً على المعنى ، أي انظروا وتدبروا أغير اللَّهِ أبتغي حكماً .

"أَوْ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ" قيل : معناه كان ميتاً حين كان نطفة فأحييناه بنفخ الروح فيه ؛ حكاه ابن بحر .

وقال ابن عباس : أو من كان كافراً فهديناه .

نزلت في حمزة بن عبد المطلب وأبي جهل .

وقال زيد بن أسْلم والسُّدّي : "فَأَحْيَيْنَاهُ" عمر رضي الله عنه .

"كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ" أبو جهل لعنه الله .

والصحيح أنها عامّة في كل مؤمن وكافر .

وقيل : كان ميتاً بالجهل فأحييناه بالعلم .

وأنشد بعض أهل العلم ما يدل على صحة هذا التأويل لبعض شعراء البصرة :

وفي الجهل قبل الموت موتٌ لأهله . . .

فأجسامهم قبل القبور قبورُ

وإنّ امرأ لم يَحْيَ بالعلم ميّتٌ . . .

فليس له حتى النشور نشورُ

والنُّور عبارة عن الهُدَى والإيمان .

وقال الحسن : القرآن .

وقيل : الحكمة .

وقيل : هو النور المذكور في قوله : ﴿ يسعى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم ﴾ [ الحديد : 12 ] ، وقوله : ﴿ انظرونا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ [ الحديد : 13 ] .

*(19/249)*

---

﴿ يَمْشِي بِهِ ﴾ أي بالنور ﴿ فِي الناس كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظلمات ﴾ أي كمن هو ؛ فمثل زائدة .

تقول : أنا أُكرم مثلك ؛ أي أكرمك .

ومثله ﴿ فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النعم ﴾ [المائدة: 95] ، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: 11] .

وقيل: المعنى كمن مَثَله مَثَل من هو في الظلمات .

والمَثَل والمثل واحد .

﴿ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي زين لهم الشيطان عبادة الأصنام ، وأوهمهم أنهم أفضل من المسلمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(20/249)

---

وقال الخطيب الشربينى :

﴿ أو من كان ميتاً ﴾ أي : بالكفر ﴿ فأحييناه ﴾ أي : بالإيمان وإنما جعل الكفر موتاً لأنه جعل الإيمان حياة لأنّ الحي صاحب بصر يهتدي به إلى رشده ، ولما كان الإيمان يهدي إلى الفوز العظيم والحياة الأبدية شبه بالحياة ، وقرأ نافع بتشديد الياء والباقون بالتخفيف ﴿ وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس ﴾ أي : يتبصر به الحق من غيره وهو الإيمان ، وقال قتادة : هو كتاب الله القرآن بينة من الله مع المؤمن بها يعمل وبها يأخذ وإليها ينتهي ﴿ كمن مثله ﴾ أي : كمن هو ﴿ في الظلمات ﴾ فمثل زائدة ﴿ ليس بخارج منها ﴾ وهو الكافر

أي : ليس مثله . نزلت هذه الآية في حمزة بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه وأبي جهل بن هشام وذلك إنّ أبا جهل رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بفرث فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل وهو راجع من قنصه وبيده قوس وحمزة لم يؤمن بعد فأقبل غضبان حتى علا أبا جهل بالقوس وهو يقول : يا أبا يعلى ما ترى ما جاء به سفه عقولنا وسفه آلهتنا وخالف آباءنا ، فقال حمزة : ومن أسفه منكم تعبدون الحجارة من دون الله أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمداً رسول الله ، وقيل : في عمر بن الخطاب أو عمار بن ياسر وأبي جهل . ﴿ كذلك ﴾ أي : كما زين للمؤمنين إيمانهم ﴿ زين للكافرين ما كانوا يعملون ﴾ أي : من الكفر والمعاصي ، قال أهل السنة : المزين هو الله تعالى ويدل عليه قوله تعالى : زينا لهم أعمالهم وقالت المعتزلة : المزين هو الشيطان وردّ بالآية المذكورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 2 صـ 153 ﴾

*(21/249)*

---

وقال أبو السعود :

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا ﴾ وقرىء ميّتاً على الأصل ﴿ فأحييناه ﴾ تمثيلٌ مَسوقٌ لتنفير المسلمين عن طاعة المشركين إثرَ تحذيرِهم عنها بالإشارة إلى أنهم مستضيئون بأنوار الوحي

الإلهي والمشركون خابطون في ظلمات الكفرِ والطغيانِ فكيف يُعقل إطاعتُهم لهم ؟

والهمزةُ للإنكار والنفي ، والواوُ لعطف الجملةِ الاسميةِ على مثلها الذي يدل عليه الكلامُ ، أي أأنتم مثلُهم ومَنْ كان ميتاً فأعطيناه الحياةَ وما يتبعُها من القوى المُدْرِكة والمحرِّكة ؟ ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ ﴾ مع ذلك من الخارج ﴿ نُوراً ﴾ عظيماً ﴿ يَمْشِي بِهِ ﴾ أي بسببه ، والجملةُ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل : فماذا يصنع بذلك النورِ ؟ فقيل : يمشي به ﴿ فِى الناس ﴾ أي فيما بينهم آمِناً من جهتهم أو صفةٌ له ﴿ كَمَن مَّثَلُهُ ﴾ أي صفتُه العجيبةُ وهو مبتدأ وقوله تعالى : ﴿ فِى الظلمات ﴾ خبرُه على أن المرادَ بهما اللفظُ لا المعنى كما في قولك : زيدٌ صفتُه اسمرُ ، وهذه الجملةُ صلةٌ لمن وهي مجرورةٌ بالكاف وهي مع مجرورها خبرٌ لمن الأولى وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ حالٌ من المستكن في الظرف وقيل : من الموصول أي غيرُ خارجٍ منها بحال ، وهذا كما ترى مثلٌ أُريد به من بقي في الضلالة بحيث لا يفارقها أصلاً كما أن الأولَ مثلٌ أُريد به من خلقه الله تعالى على فطرة الإسلامِ وهداه بالآيات البينةِ إلى طريق الحقِّ يسلُكه كيف يشاء لكن لا على أن يدل على كل واحدٍ من هذه المعاني بما يليق به من الألفاظ الواردةِ في المثَلين بواسطة تشبيهِه بما يناسبه من معانيها ، فإن ألفاظَ المثَلِ باقيةٌ في معانيها الأصلية ، بل على أنه قد انتُزعت من الأمور المتعددةِ المعتبرةِ في كل واحدٍ من جانبي المَثَلين هيئةٌ على حِدَة فشُبِّهت بهما

الأُوليان ونُزّلتا منزلتيهما فاستُعمل فيهما ما يدل على الأُخْريين بضرب من التجوّز ، وقد أشير في تفسير قوله تعالى : ﴿

(22/249)

---

خَتَمَ الله على قُلُوبِهِمْ ﴾ الآية ، إلى أن التمثيلَ قسمٌ برأسه لا سبيل إلى جعله من باب الاستعارةِ حقيقةً وأن الاستعارةَ التمثيليةَ من عبارات المتأخرين . نعم قد يجري ذلك على سنن الاستعارةِ بأن لا يُذكرَ المشبّه كهذين التمثيلين ونظائرِهما وقد يجري على منهاج التشبيه كما في قوله :

وما الناسُ إلا كالديار وأهلُها . . . بها يوم حلُّوها غدواً بلاقعُ

﴿ كذلك ﴾ أي مثلَ ذلك التزيينِ البليغ ﴿ زُيِّنَ ﴾ أي من جهة الله تعالى بطريق الخلق عند إيحاءِ الشياطينِ أو من جهة الشياطينِ بطريقة الزخرفةِ والتسويلِ ﴿ للكافرين ﴾ التابعين للوساوس الشيطانيةِ الآخذين بالمُزخْرَفات التي يوحونها إليهم ﴿ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ ما استمرّوا على عمله من فنون الكفرِ والمعاصي التي من جملتها ما حُكيَ عنهم من القبائح فإنها لو لم تكن مُزينةً لهم لما أصروا عليها ولما جادلوا بها الحقَّ ، وقيل : الآية نزلت

في حمزةَ رضي الله عنه ، وأبي جهلٍ وقيل : في عمرَ أو عمارٍ رضي الله عنهما وأبي جهل .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(23/249)

---

وقال الآلوسى :

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فأحييناه ﴾

تمثيل مسوق لتنفير المسلمين عن طاعة المشركين إثر تحذيرهم عنها بالإشارة إلى أنهم مستضيئون بأنوار الوحي الإلهي والمشركون غارقون في ظلمات الكفر والطغيان فكيف يعقل طاعتهم له ، فالآية كما قال الطيبي متصلة بقوله سبحانه ، ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ ﴾ [ الأنعام : 121 ] والهمزة للإنكار .

والواو كما قال غير واحد لعطف الجملة الاسمية على مثلها الذي يدل عليه الكلام أي أأنتم مثلهم ومن كان ميتاً فاعطيناه الحياة ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ ﴾ مع ذلك من الخارج ﴿ نُوراً ﴾ عظيماً ﴿ يَمْشِي بِهِ ﴾ أي بسببه ﴿ فِى الناس ﴾ أي فيما بينهما آمنا من جهتهم ، والجملة إما استئناف مبني على سؤال نشأ من الكلام كأنه قيل : فماذا يصنع بذلك النور ؟ فقيل : يمشي الخ أو صفة له .

و( من ) اسم موصول مبتدأ وما بعده صلته والخبر متعلق الجار والمجرور في قوله تعالى : ﴿ كَمَن مَّثَلُهُ ﴾ أي صفته العجيبة .

و( من ) فيه اسم موصول أيضاً و ﴿ مّثْلِهِ ﴾ مبتدأ .

وقوله سبحانه : ﴿ فِى الظلمات ﴾ خبر هو محذوف .

وقوله سبحانه : ﴿ لَيْسَ بِخَارِجٍ مّنْهَا ﴾ في موضع الحال من المستكن في الظرف ، وهذه الجملة خبر المبتدأ أعني مثله على سبيل الحكاية بمعنى إذا وصف يقال له ذلك ، وجملة ﴿ مّثْلِهِ ﴾ مع خبره صلة الموصول .

(24/249)

---

وإن شئت جعلت ( من ) في الموضعين نكرة موصوفة ولم يجوز أن يكون ﴿ فِى الظلمات ﴾ خبراً عن ﴿ مّثْلِهِ ﴾ لأن الظلمات ليس ظرفاً للمثل .

وظاهر كلام بعضهم كأبي البقاء أن ﴿ فِى الظلمات ﴾ هو الخبر وليس هناك هو مقدراً ، ولا يلزم كما نص عليه بعض المحققين حديث الظرفية لأن المراد أن مثله هو كونه في الظلمات والمقصود الحكاية ؛ نعم ما ذكر أولاً أولى لأن خبر ﴿ مّثْلِهِ ﴾ لا يكون إلا جملة تامة والظرف بغير فاعل ظاهر لا يؤدي مؤدى ذلك .

وجوز كون جملة ﴿ لَيْسَ بِخَارِجٍ ﴾ حالاً من الهاء في ﴿ مِّثْلِهِ ﴾ ومنعه أبو البقاء للفصل ، قيل : ولضعف مجيء الحال من المضاف إليه وقرأ نافع ويعقوب ﴿ مَيْتًا ﴾ بالتشديد وهو أصل للمخفف والمحذوف من اليائين الثانية المنقلبة عن الواو أعلت بالحذف كما أعلت بالقلب ولا فرق بينهما عند الجمهور .

*(25/249)*

---

"ثم إن هذا الأخير كما قال شيخ الإسلام مثل أريد به من بقي في الضلالة بحيث لا يفارقها أصلاً كما أن الأول مثل أريد به من خلقه الله تعالى على فطرة الإسلام وهداه بالآيات البينات إلى طريق الحق يسلكه كيف شاء لكن لا على أن يدل على كل واحد من هذه المعاني بما يليق به من الألفاظ الواردة في المثلين بواسطة تشبيهه بما يناسبه من معانيها فإن ألفاظ المثل باقية على معانيها الأصلية بل على أنه قد انتزعت من الأمور المتعددة المعتبرة في كل واحد من جانب المثلين هيئة على حدة ومن الأمور المتعددة المذكورة في كل واحد من جانب المثلين هيئة على حدة فشبهت بهما الأولتان ونزلتا منزلتهما فاستعمل فيهما ما يدل على الأخيرتين بضرب من التجوز" إلى آخر ما قال ، ونص القطب الرازي على أنهما تمثيلان لا استعارتان ، ورد كما قال الشهاب بأن الظاهر بأن من كان ميتاً ومن مثله في

الظلمات من قبيل الاستعارة التمثيلية إذ لا ذكر للمشبه صريحاً ولا دلالة بحيث ينافي الاستعارة والاستعارة الأولى بجملتها مشبهة والثانية مشبه به وهذا كما تقول في الاستعارة الإفرادية أيكون الأسد كالثعلب ؟ أي الشجاع كالجبان وهو من بديع المعاني الذي ينبغي أن يتنبه له ويحفظ .

والتفسير المأثور عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد بالميت الكافر الضال وبالإحياء الهداية وبالنور القرآن وبالظلمات الكفر والضلالة ، والآية على ما أخرج أبو الشيخ عنه نزلت في عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو المراد بمن أحياه الله تعالى وهداه ، وأبي جهل بن هشام لعنه الله تعالى وهو المراد بمن مثله في الظلمات ليس بخارج ، وروي عن زيد بن أسلم مثل ذلك .

وفي رواية عن ابن عباس أنها في حمزة وأبي جهل ، وعن عكرمة أنها في عمار بن ياسر ، وأبي جهل .

*(26/249)*

---

وأيما كان فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فيدخل في ذلك كل من إنقاد لأمر الله تعالى ومن بقى على ضلاله وعتوه ﴿ كذلك ﴾ إشارة إلى التزيين المذكور على طرز ما

قرر في أمثاله أو إشارة إلى إحياء الشياطين إلى أوليائهم أو إلى تزيين الايمان للمؤمنين ﴿ زُيِّنَ ﴾ من جهته تعالى خلقا أو من جهة الشياطين وسوسة ﴿ للكافرين ﴾ كأبي جهل وأضرابه ﴿ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي ما استمروا على عمله من فنون الكفر والمعاصي التي من جملتها ما حكى عنهم من القبائح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

الواو في قوله : ﴿ أو من كان ميتاً ﴾ عاطفة لجملة الاستفهام على جملة : ﴿ وإن أطعتموهم إنَّكم لمشركون ﴾ [ الأنعام : 121 ] لتضمّن قوله : ﴿ وإن أطعتموهم ﴾ أنّ المجادلة ، المذكورة من قَبْلُ ، مجادلة في الدّين : بتحسين أحوال أهل الشّرك وتقبيح أحكام الإسلام الّتي منها : تحريم الميتة ، وتحريم ما ذُكر اسم غير الله عليه .

فلمّا حَذر الله المسلمين من دسائس أولياء الشّياطين ومجادلتهم بقوله : ﴿ وإن أطعتموهم إنَّكم لمشركون ﴾ [ الأنعام : 121 ] أعقَب ذلك بتفظيع حال المشركين ، ووصَفَ حسن حالة المسلمين حين فارقوا الشّرك ، فجاء بتمثيلين للحالتين ، ونفَى مساواة إحداهما للأخرى : تنبيها على سوء أحوال أهل الشّرك وحسنِ حال أهل الإسلام .

والهمزة للاستفهام المستعمل في إنكار تَماثل الحالتين : فالحالة الأولى : حالة الّذين أسلموا بعد أن كانوا مشركين ، وهي المشبّهة بحال مَن كان ميّتاً مودَعاً في ظلمات ، فصار حيّاً في

نورٍ واضحٍ ، وسار في الطّريق الموصّلة للمطلوب بين النّاس ، والحالة الثّانية : حالةُ المشرك وهي المشبّهة بحالة من هو في الظلمات ليس بخارج منها ، لأنَّه في ظلمات .

(27/249)

---

وفي الكلام إيجازُ حذفٍ ، في ثلاثة مواضع ، استغناء بالمذكور عن المحذوف : فقوله : ﴿ أو من كان ميتاً ﴾ معناه : أَحَال مَن كان ميّتاً ، أو صِفة مَن كان ميّتاً .

وقوله : ﴿ وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس ﴾ يدلّ على أنّ المشبّه به حال مَن كان ميّتاً في ظُلمات .

وقوله : كمن مثله في الظلمات تقديره : كمن مثله مثَل ميّت فما صدْق ( مَن ) ميّت بدليل مقابلته بميّت في الحالة المشبّهة ، فيعلم أنّ جزء الهيئة المشبّهة هو الميّت لأنّ المشبّه والمشبّه به سواء في الحالة الأصليّة وهي حالة كون الفريقين مشركين .

ولفظ ( مثَل ) بمعنى حالة .

ونفيُ المشابهة هنا معناه نفي المساواة ، ونفي المساواة كناية عن تفضيل إحدى الحالتين على الأخرى تفضيلاً لا يلتبس ، فذلك معنى نفي المشابهة كقوله : ﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظّلمات والنّور ﴾ [ الرعد : 16 ] وقوله ﴿ أفمَن كان

مؤمناً كَمَن كان فاسقاً لا يستوون ﴾ [ السجدة : 18 ] .

والكاف في قوله : ﴿ كمن مثله في الظلمات ﴾ كاف التّشبيه ، وهو تشبيه منفي بالاستفهام الإنكاري .

والكلام جار على طريقة تمثيل حال من أسْلَم وتخلَّص من الشرك بحال من كان ميّتا فأُحْيِي ، وتمثيلِ حال من هو باق في الشرك بحال ميت باق في قبره .

فتضمّنت جملة : ﴿ أو من كان ميتاً ﴾ إلى آخرها تمثيل الحالة الأولى ، وجملة : ﴿ كمن مثله في الظلمات ﴾ الخ تمثيلَ الحالة الثّانية ، فهما حالتان مشبّهتان ، وحالتان مشبَّهٌ بهما ، وحصل بذكر كاف التّشبيه وهمزة الاستفهام الإنكاري أنّ معنى الكلام نفي المشابهة بين من أسلم وبين من بَقي في الشرك .

كما حصل من مجموع الجملتين : أنّ في نظم الكلام تشبيهين مركَّبين .

*(28/249)*

---

ولكنّ وجودَ كاف التّشبيه في قوله : ﴿ كمن مثله ﴾ مع عدم التّصريح بذكر المشبَّهَيْن في التّركيبين أثارَا شُبهة : في اعتبار هذين التّشبيهين أهو من قبيل التّشبيه التّمثيلي ، أم من قبيل الاستعارة التّمثيلية ؛ فنحا القطب الرّازي في "شرح الكشاف" القبيلَ الأول ، ونحا

التفتازاني القبيلَ الثّاني ، والأظهر ما نحاه التفتازاني : أنَّهما استعارتان تمثيليتان ، وأمّا كاف التّشبيه فهو متوجّه إلى المشابهة المنفيّة في مجموع الجملتين لا إلى مشابهة الحالين بالحالين ، فمورد كاف التّشبيه غير مورد تمثيل الحالين .

وبين الاعتبارين بون خفي .

والمراد : بـ ﴿ الظّلمات ﴾ ظلمةُ القبر لمناسبته للميّت ، وبقرينة ظاهر ﴿ في ﴾ من حقيقة الظرفية وظاهر حقيقة فعل الخروج .

ولقد جاء التّشبيه بديعاً : إذ جعل حال المسلم ، بعد أن صار إلى الإسلام ، بحال من كان عديم الخير ، عديم الإفادة كالميّت ، فإنّ الشرك يحول دون التّمييز بين الحقّ والباطل ، ويصرف صاحبه عن السّعي إلى ما فيه خيره ونجاته ، وهو في ظلمة لو أفاق لم يعرف أين ينصرف ، فإذا هداه الله إلى الإسلام تغيرّ حاله فصار يميّز بين الحقّ والباطل ، ويعلم الصّالح من الفاسد ، فصار كالحي وصار يسعى إلى ما فيه الصّلاح ، ويتنكّب عن سبيل الفساد ، فصار في نور يمشي به في النّاس .

وقد تبيّن بهذا التّمثيل تفضيل أهل استقامة العقول على أضدادِهم .

والباء في قوله : ﴿ يمشي به ﴾ باء السّببيّة .

والنّاس المصرح به في الهيئة المشبه بها هم الأحياء الّذين لا يخلو عنهم المجتمع الإنساني .

والنّاس المقدّر في الهيئة المشبهة هم رفقاء المسلم من المسلمين .

وقد جاء المركب التّمثيلي تاماً صالحاً لاعتبار تشبيه الهيئة بالهيئة ، ولاعتبار تشبيه كلّ جزء من أجزاء الهيئة المشبّهة بجزء من أجزاء الهيئة المشبّهِ بها ، كما قد علمته وذلك أعلى التّمثيل .

(29/249)

---

وجملة : ﴿ ليس بخارج منها ﴾ حال من الضّمير المجرور بإضافة ( مَثل ) ، أي ظلمات لا يرجى للواقع فيها تنوّر بنور ما دام في حالة الإشراك .

وجملة : ﴿ كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون ﴾ استئناف بياني ، لأنّ التّمثيل المذكور قبلها يثير في نفس السّامع سُؤالاً ، أن يقول : كيف رضوا لأنفسهم البقاء في هذه الضّلالات ، وكيف لم يشعروا بالبَون بين حالهم وحال الّذين أسلموا ؛ فإذا كانوا قبل مجيء الإسلام في غفلة عن انحطاط حالهم في اعتقادهم وأعمالهم ، فكيف لمّا دعاهم الإسلام إلى الحقّ ونصب لهم الأدلَّة والبراهين بَقُوا في ضلالهم لم يقلعوا عنه وهمْ أهل عقول وفطنة فكان حقيقاً بأن يبيّن له السّبب في دوامهم على الضّلال ، وهو أنّ ما عملوه كان تزيّنه لهم الشّياطين ، هذا التّزيين العجيب ، الّذي لو أراد أحد تقريبه لم يجد ضلالاً مزيّناً أوضح منه وأعجبَ فلا يشبَّه ضلالُهم إلاّ بنفسه على حدّ قولهم : ( والسّفاهة كاسمها ) .

واسم الإشارة في قوله : ﴿ كذلك زين للكافرين ﴾ مشار به إلى التّزيين المأخوذ من فعل ﴿ زين ﴾ أي مثلَ ذلك التّزيين للكافرين العجيب كيداً ودِقّةً زيّن لهؤلاء الكافرين أعمالهم على نحو ما تقدّم في قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً ﴾ في سورة البقرة ( 143 ) .

وحُذف فاعل التّزيين فبني الفعل للمجهول : لأنّ المقصود وقوع التّزيين لا معرفة مَن أوقعه .

والمزيّن شياطينهم وأولياؤهم ، كقوله : ﴿ وكذلك زيَّن لكثير من المشركين قتلَ أولادهم شركاؤُهم ﴾ [ الأنعام : 137 ] ، ولأنّ الشّياطين من الإنس هم المباشرون للتّزيين ، وشياطين الجنّ هم المُسَوّلون المزيّنون .

والمراد بالكافرين المشركون الّذين الكلام عليهم في الآيات السّابقة إلى قوله : ﴿ وإنّ الشّياطين لَيُوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ﴾ [ الأنعام : 121 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

هذه الآية من أقوى الدلائل أيضاً على أن الكفر والإيمان من الله تعالى ، لأن قوله : ﴿ فأحييناه ﴾ وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي الناس ﴾ قد بينا أنه كناية عن المعرفة والهدى ، وذلك يدل على أن كل هذه الأمور إنما تحصل من الله تعالى وبإذنه ، والدلائل العقلية ساعدت على صحته ، وهو دليل الداعي على ما لخصناه ، وأيضاً أن عاقلاً لا يختار الجهل والكفر لنفسه ، فمن المحال أن يختار الإنسان جعل نفسه جاهلاً كافراً ، فلما قصد تحصيل الإيمان والمعرفة ، ولم يحصل ذلك ، وإنما حصل ضده وهو الكفر والجهل ، علمنا أن ذلك حصل بإيجاد غيره .

فإن قالوا إنما اختاره لاعتقاده في ذلك الجهل أنه علم .

قلنا : فحاصل هذا الكلام أنه إنما اختار هذا الجهل لسابقة جهل آخر ، فإن كان الكلام في ذلك الجهل السابق كما في المسبوق لزم الذهاب إلى غير النهاية ، وإلا فوجب الانتهاء إلى جهل يحصل فيه لإيجاده وتكوينه ، وهو المطلوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 142 ﴾

*(31/249)*

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾

والحق سبحانه وتعالى – كما عرفنا – يعرض بعض القضايا لا عرضاً إخبارياً منه ، ولكن يعرضها باستفهام ؛ لأنه – جل وعلا – عليم بأنه حين يأتي لك الاستفهام ، ثم تدير ذهنك لتجيب فلن تجد إلا جواباً واحداً هو ما يريده الحق . إذن فالأسلوب أحياناً يكون أسلوباً خبرياً أو يكون استفهاماً بالإثبات أو استفهاماً بالنفي . وأقواها الاستفهام بالنفي . وحين يعرض سبحانه القضية التي نحن بصددها يوضح وهو العليم أنك إن أحببت أن تجيب فلن تجد إلا الجواب الذي يريده الحق .

إننا نجد في الآية الكريمة موتاً وحياة ، وظلاماً ونوراً .

وما هي الحياة ؟ . الحياة هي وجود الكائن على حالة تمكنه من أداء مهمته المطلوبة منه ، وما دام الشيء يكون على حالة يؤدي بها مهمته ففيه حياة ، وأرقى مستوى للحياة هو ما تجتمع فيه الحركة والحس والفكر ، وهذه الأمور توجد كلها في الإنسان . أمّا الحيوان ففيه حس وحركة وليس عنده فكر . غير أن الحيوان له غريزة أقوى من فكر الإنسان ، فهو

محكوم بالغريزة في أشياء وبالاختيار في أشياء ، وليس لك في الغريزة عمل . لكن في مجال الاختيار لك عمل ، تستطيع أن تعمله وتستطيع ألا تعمله .

*(32/249)*

---

إذن فالحياة هي أن يكون الكائن على حال يؤدي به مهمته المطلوبة منه . وعلى هذا الاعتبار ففي الإنسان حياة ، وفي الحياة حياة ، وفي النبات حياة ، وفي الجماد حياة ، وكلما تقدم العلم يثبت لنا حيوات أشياء كثيرة جداً كنا نظن ألا حياة فيها ، وإن ظهر لنا في التفاعلات أن بعض الأشياء تتحول إلى أشياء أخرى ، فعلى سبيل المثال الحيوان فيه حياة فإذا ذبحناه وأكلناه ، ورمينا عظامه ، كانت فيها حياة من نوع ثم صارت أجزاؤه إلى جمادية لها حياة من نوعها ، بدليل أنه حين يمر بعض من الزمن يتفتت العظم .

وكنا قديماً في الريف نحلب اللبن في أوعية من الفخار وتوضع في مراقد ، ويستمر اللبن أسبوعاً في المرقد ، ويكون أحلى في يومه عن أمسه . ويزداد اللبن حلاوة كل يوم ، ثم تأخذ زوجة الفلاح قطعة القشطة الأخيرة وتصنع منها الجبن الجميل الطعم . أو الزُّبد لكن بعد أن غلينا اللبن نجده يفسد بعد عدة ساعات ؛ لأنك حين وضعته في المرقد ، أخذته بالحياة فيه فظلت فيه حيوية حياته ، لكن حين غليته فقد قتلت ما فيه من الحياة ، فإن لم تضعه في

ثلاجة لابد من أن يتعفن ، ومعنى التعفن أنه لم يعد يؤدي مهمته كلبن ، وإنما انتقل إلى حياة أخرى بفعل البكتريا وغيرها ، ولا يُذهب الحياة إلا الهلاك وهو ما قاله الحق : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ . . ﴾ [ القصص : 88 ]

إذن ، لا تأخذ الميت على أنه شيء ليس فيه حياة ، ولكنه انتقل إلى حياة ثانية .

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي الناس . . ﴾ [ الأنعام : 122 ]

*(33/249)*

---

كأن للإنسان حياة في ذاته ، ثم جعل الحق له نوراً يمشي به . كأن الحياة متنقلة في أشياء ، ويحتاج الإنسان إلى حياة ، ويحتاج إلى نور تتضح به مرائي الأشياء . وكانوا قديماً يعتقدون أن الإنسان يرى حين ينتقل شعاع من عينه إلى المرئي فيراه ، إلى أن جاء العربي المسلم ابن الهيثم . وقال هذا رأي جانبه الصواب في قانون الضوء ، وقال : إن الإنسان يرى ؛ لأن شعاعاً من المرئي يصل إلى عين الرائي . بدليل أن المرئي إن كان في ضوء يدركه الإنسان ، وإن كان في ظلمة لا يدركه الإنسان ، ولو كانت الأشعة تخرج من عين الإنسان لرأى الأشياء سواء أكانت في نور أم في ظلمة ، وتعدلت كل النظريات في الضوء على يد العالم المسلم ، وجاءت من بعد ذلك الصور الفوتوغرافية والسينما . إذن فالنور وسيلة إلى المرئيات .

ويترك الحق سبحانه وتعالى في أقضية الكون الحسية أدلة على الأقضية المعنوية ؛ فالنور الحسيب الذي نراه إما ضوء الشمس وإما ضوء القمر ، وإما ضوء المصباح ، وإما غير ذلك ، وهذا ما يجعل الإنسان يرى الأشياء ، ومعنى رؤية الإنسان للأشياء أن يتعامل معها تعاملاً نفعياً غير ضار . ونحن نضيء المصباح بالكهرباء حين يغيب النور الطبيعي – نور الشمس – وعندما نضيء مصابيحنا نرى الأشياء ونتفاعل معها ولا نحطمها ولا تحطمنا ، وكل واحد منا يأخذ من النور على قدر إمكاناته . إذن كل واحد يضيء المكان المظلم الذي اضطر إليه بغيبة المنير الطبيعي على حسب استطاعته ، فإذا ظهرت الشمس أطفأنا جميعاً مصابيحنا ؛ هذا دليل من أدلة الكون الحسيّة الملموسة لنأخذ منها دليلاً على أن الله إن فعل لقيمنا نورا فلا نأتي بقيم من عندنا ، ما دامت قيمُهُ موجودة .

*(34/249)*

---

ويوضح الله أن الإنسان بدون قيم هو ميت متحرك ، ويأتيه المنهج ليحيا حياة راقية .

ويوضح سبحانه لكل إنسان : احرص على الحياة الثانية الخالدة التي لا تنتهي وذلك لا يتأتى الا اتباع المنهج ، وإياك أن تظن أن الحياة فقط هي ما تراه في هذا الوجود لأنه إن كانت هذه هي غاية الحياة لما أحس الإنسان بالسعادة ؛ لأنه لو كانت الدنيا هي غايتنا للزم أن يكون

حظنا من الدنيا جميعاً واحداً وأعمارنا واحدة ، وحالاتنا واحدة ، والاختلاف فيها طولاً وقصراً وحالاً دليل على أنها ليست الغاية ؛ لأن غاية المتساوي لا بد أن تكون متساوية .

إذن فقول الله هو القول الفصل : ﴿ وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان . . ﴾ [ العنكبوت : 64 ]

فهذه هي الحياة التي لا تضيع منك ولا تضيع منها ، ولا يفوتك خيرها ولا تفوته . إذن فالذي يحيا الحياة الحسية الأولى وهي الحركة بالنفخ في الروح هو ميت متحرك . ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ ﴾ [ الأنعام : 122 ]

أي أنه سبحانه قد أعطى لمثل هذا العبد حياة خالدة ونوراً يمشي به ، ولا يحطِّم ولا يتحطم .

أما من يقول : إن الحياة بمعناها الدنيوي ، لا تختلف عن الحياة في ضوء الإيمان ، لمثل هذا نقول : لا ، ليس بينهما تساوٍ فهما مختلفان بدليل ان الحق يقول : ﴿ استجيبوا للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [ الأنفال 24 ]

فسبحانه يخاطبهم ، وما دام يخاطبهم فهم أحياء بالقانون العادي ، لكنه سبحانه أنزل لرسوله المنهج الذي يحيا به المؤمن حياة راقية ، وافطنوا إلى أن الحق سبحانه وتعالى أعطى ومنح الروح الأولى التي ينفخها في المادة فتتحرك وتحس بالحياة الدنيا ، إنّه أعطاها المؤمن

والكافر . ثم يأتي بروح ثانية تعطي حياة أبدية . ولذلك سمّي منهج الله لخلقه روحاً : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [ الشورى : 52 ]

*(35/249)*

---

فالمنهج يعطي حياة خالدة .

إذن فقوله الحق : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ أي أَوَمن كان ضالاً فهديناه ، أو من كان كافراً فجعلناه مؤمناً . ولنلحظ أن فيه " ميْتاً " بالتخفيف ، وفيه ميّت بالتشديد .

والميّت هو من يكون مآله الموت وإن كان حيًّا ، فكل منا ميّت وإن كان حيًّا . ولكن الميْت هو من مات بالفعل وسلبت وأزهقت روحه . ولذلك يخاطب الحق نبيه صلى الله عليه وسلم فيقول له : ( إنك ميّت ) .

أي تؤول إلى الموت وإن كنت حيًّا الآن . لأن كُلاًّ من مستمر في الحياة إلى أن يتلبس بصفة الفناء ، ويقول الحق : " فأحييناه " أي بالمنهج الذي يعطيه حياة ثانية ، ولذلك سمّي القرآن روحاً ، وسمّي من نزل بالقرآن روحاً أيضاً .

﴿ وجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي الناس ﴾ ولماذا يمشي به في الناس فقط ، وليس بين كل الأشياء ؟ ؛ لأن الأشياء الأخرى من الممكن أن تحتاط أنت منها ، ولكن كلمة الناس تعبر

عن التفاعل الصعب لأنهم أصحاب أغيار . ويتابع الحق : ﴿ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظلمات لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ وهذا تساؤل جوابه : لا ، أي ليس كل منهما مساويا للآخر ، مثلما نقول : هل يستوي الأعمى والبصير ؟ . والفطرة هنا تقول : لا ، مثلما تؤكد الفطرة عدم استواء الظلمات والنور ، أو الظل والحرور ، وهنا يَأْمُنُنَا الله على الجواب ؛ لأنه سبحانه – يعلم الأمر إذا طرح السؤال كسؤال وكاستفهام فلن نجد إلا جواباً واحداً هو ما يريد الحق أن يقوله خبراً .

ويذيل الحق الآية : ﴿ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [ الأنعام : 122 ]

والمعنى هنا أي تركناهم عرضة لأن ينفعلوا للتزيين ، ولم يحمهم الحق بالعصمة في اختيارهم ؛ لأنه سبحانه قد ترك الاختيار حرًّا للإنسان : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [ الكهف : 29 ] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(36/249)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ

بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (122) ﴾

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه ﴾ قال : كان كافراً ضالاً فهديناه ﴿ وجعلنا له نوراً ﴾ هو القرآن ﴿ كمن مثله في الظلمات ﴾ الكفر والظلالة .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ أو من كان ميتاً ﴾ قال : ضالاً ﴿ فأحييناه ﴾ فهديناه ﴿ وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس ﴾ قال : هدى ﴿ كمن مثله في الظلمات ﴾ قال : في الضلالة أبداً .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة في قوله ﴿ أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس ﴾ قال : نزلت في عمار بن ياسر .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس ﴾ قال : عمر بن الخطاب ﴿ كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ يعني أبا جهل بن هشام .

وأخرج ابن المنذر وابي أبي حاتم وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم في قوله ﴿ أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به الناس كمن مثله في الظلمات ﴾ قال : أنزلت في عمر بن الخطاب وأبي جهل بن هشام ، كانا ميتين في ضلالتهما فأحيا الله عمر بالإِسلام وأعزه وأقر أبا جهل في ضلالته وموته ، وذلك أن رسول الله صلى عليه وسلم دعا فقال : " اللهم أعز

الإِسلام بأبي جهل بن هشام أو بعمر بن الخطاب " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله ﴿ أومن كان ميتاً فأحييناه ﴾ قال : عمر بن الخطاب رضي الله عنه ﴿ كمن مثله في الظلمات ﴾ قال : أبو جهل بن هشام .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي سنان ﴿ أومن كان ميتاً فأحييناه ﴾ قال : نزلت في عمر بن الخطاب .

(37/249)

---

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس ﴾ قال : هذا المؤمن معه من الله بينة ، وبها يعمل وبها يأخذ وإليها ينتهي وهو كتاب الله ﴿ كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ قال : مثل الكافر في ضلالته متحير فيها متسكع فيها لا يجد منها مخرجاً ولا منفذاً .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس ﴿ وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس ﴾ قال : القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(38/249)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : "كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون " ، وفى سورة يونس : "كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون " ، للسائل أن يسأل عن الفرق ؟

والجواب أنه لما تقدم قبل آية الأنعام قوله تعالى : "أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس " والمراد أو من كان ميتا فى غمرات الجهل والكفر فأحييناه بنور الإيمان والعلم كمن مثله فى الظلمات أى ظلمات الجهل والكفر متماديا على غيه غير مقلع عن كفره لا يجدى عليه إنذار ولا ينتفع بوعظ التذكار فسواء فى حقه الإنذار وعدمه فلما ذكر فى هذا الطرف من لم يشم بارق إيمان وسجل بعدم خروجه عن مقتضى موبقاته فى شنيع ذلك الخذلان أعقب تعالى : "كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون "فوسم بكفره للبأس من خيره .

*(39/249)*

أما آية يونس فقد تقدم قبلها : "وإذا مس الإنسان الضر " والمراد هنا جنس الإنسان : "دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما " أى دعانا على أى حال كان على مقتضى قوله تعالى : "ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون " ثم قال : "فلما كان كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه " ذكر سبحانه من حال الإنسان حال متذكر داع عند مس الضر غير مشرك ولا كافر حال ففى حاله فى دعائه عند الضر ومروره فى المخالفات أو الغفلة عند كشفه شبه من حال المقول فيهم : "خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا " ، فأعقب ذكر هذا الضرب بقوله تعالى : "كذلك زين للمسرفين " أى أن هؤلاء زين لهم لمرتكبهم فى مرورهم بعد كشف الضر عنهم على أحوالهم قبل مس الضر إياهم كما زين للمسرفين ما كانوا يعملون ، فتشبهت أحوالهم بأحوال المسرفين ليزدجر المؤمن ويستعيذ من مثل تلك الحال ويدأب على الطاعة والتضرع إلى الله سبحانه ، والمسرف هنا والله أعلم محتمل أن يراد به المسرف فى المعاصى دون الكفر أو المسرف فى كفره المقول فيه وفيمن كان على حاله : "وأن المسرفين هم أصحاب النار " ، فعدل فى آية يونس عن أن يقال "للكافرين " إلى قوله "المسرفين " لما فى صفة الإسراف من الاحتمال لمناسبة ما تقدمه من تقلب حالتى الإنسان عند مس الضر إياه وكشفه عنه .

*(40/249)*

أما آية الأنعام فقد تقدمها قوله تعالى : "كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها " فإنما ذكر فى هذه الآية طرفان قد بولغ فيهما وهما المجعول له نور يمشى به فى الناس لا يفارقه والمتخبط فى ظلمات لا يخرج عنها فلا يمكن أن تكون حال أسوأ من حال هذا لأن ذكر الطرفين لا واسطة بينهما يقتضى من حيث البلاغة النهاية فى كل طرف فعبر هنا بصفة الكفر أما حال المسرف من حيث ما ذكرنا من الاحتمال فدون حال المتخبط فى الظلمات فعلى هذا يحتمل أن يكون الإسراف فيما دون الكفر فيكون المتصف به غير منقطع الرجاء إذا لم يبلغ الكفر ، قال تعالى : "قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله " ، فشتان ما بين مسرف راج ومتخبط فى ظلمات كفر داج ، فجاء كل على ما يناسب ، ولم يكن ليناسب العكس بوجه ، والله سبحانه أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 169.170 ﴾

*(41/249)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " أو مَنْ كَانَ " تقدَّم أن الهَمْزَة يَجُوز أن تكُون مقدَّمة على حرف العطْفِ ، وهو رَأي الجُمْهُور ، وأن تكُون على حَالِها وبَيْنها وبيْن فِعْل مُضْمَر ، و" مَنْ " في محلِّ رفع بالابتداء ، و" كمَنْ " خَبَرُهُ ، وهي مَوْصُولة ، و" يمشي " في محلِّ نَصْب صِفَة لـ " نُوراً " .

قال قتادة : أراد بـ " النور " : كتَاب اللَّه – تعالى – بيّنه مع المُؤمن ، بها يعمل ، وبها يَأخُذ ، وإليها يَنْتَهِي ، و" مَثَلُه " مُبْتَدأ و" فِي الظُّلُمات " : خَبَرُه ، والجُمْلَةُ صِلَةُ " مَنْ " الأولى و" ليس بِخَارِج " في محلِّ نَصْبٍ على الحَالِ من الموصُول ، أي : " مِثْل الَّذي اسْتَقَرَّ في الظُّلُمات حالَ كَوْنه مُقِمياً فيها " .

وقال أبو البقاء : " لَيْس بِخَارِج في مَوْضِع الحَالِ من الضَّمِير في " منْها " ولا يَجُوز أن يكُون حالاً من الهَاءِ في " مَثَلُه " للفَصْل بَيْنَه وبيْن الحَال بالخبر " .

وجعل مَكِّي الجُمْلَة حالاً من الضَّمِير المُسْتَكِنِّ في " الظُّلُمات " وقرأ طَلْحَة بن مُصَرِّف : " أفَمَنْ كَانَ " بالفَاءِ بدل الواو .

قوله : " كَذَلك زُيِّن " نعتُ لِمَصْدَر ، فقدَّره بَعْضُهم : " زُيِّن للكَافِرين تَزْيناً كما أحْيَيْنا المُؤمنين " وقدَّره آخرَرُون : " زين لِلْكَافرين تَزْيِيناً لكون الكَافرين في ظُلُمات مُقِيمين فيها " والفاعل المَحْذُوف من " زُيِّن " المَنُوبُ عنه هو اللَّه – تعالى – ويجُوز أنْ يَكُون الشَّيْطَان ، وقد صرَّح بكُلٍّ من الفَاعِلَيْن مَعَ لفظ " زَيَّن " ، قال – تعالى – ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [ النمل : 4 ] ، وقال – تعالى – ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشيطان أَعْمَالَهُمْ ﴾ [ العنكبوت : 38 ] و"

مَا كَانُوا يَعْمَلُون " : هو القَائِم مقام الفَاعِل ، و" ما "يَجُوز أن نُون مَوْصُولة اسميَّة أو حَرْفِيَّة أوْ نَكِرة مَوْصُوفة والعائدُ على القولِ الأولِ والثالث محذوفٌ ، دون الثاني عند الجُمْهورِ ، على ما عُرِفَ غير مرَّةٍ .

وقال الزجاجُ : " موضعُ الكافِ رفعٌ ، والمعنى : مثل ذلك الذي قَصَصْنا عليك ، زُيِّن للكافرين أعمالهم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 407. 409 ﴾ . باختصار .

*(42/249)*

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (122) ﴾

الإيمان عند هؤلاء القوم حياةُ القلب بالله . وأهل الغفلة إذْ لَهُمْ الذكر فقد صاروا أحياءً بعد ما كانوا أمواتاً ، وأربابُ الذكرِ لو اعتراهم نسيانٌ فقد ماتوا بعد الحياة . والذي هو في أنوار القرب وتحت شعاع العرفان وفي روْح الاستبصار لا يدانيه مَنْ هو في ( أسْرِ ) الظلمات

، ولا يساويه مَنْ هو رهين الآفات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 498 ﴾

(43/249)

---

قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (123) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان معلوماً أن عداوتهم له صلى الله عليه وسلم المشار إليها بقوله ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً ﴾ الآية ، لا يقوم بها إلا أكابر الناس ، لما كان عليه صلى الله عليه وسلم من جلالة المنصب وشرف العشيرة وكثرة الأقارب وأنه لا يتمادى عليها إلا جاهل مطموس البصيرة مزين له قبيح أعماله ، عطف تعالى على التزيين للكافرين قوله : ﴿ وكذلك ﴾ أي مثل ما زينا للكافرين سوء أعمالهم ، فكان أكابر أهل مكة يمكرون فيتبع غيرهم مكرهم ﴿ جعلنا ﴾ أي بما لنا من العظمة في إقامة الأسباب لما يعلي كلمة الإنسان أو يجعله حقير الشأن ﴿ في كل قرية ﴾ أي بلد جامع ، ولما كان الكبر مختلف الأنواع باختلاف أشخاص

المجرمين ، طابق بأفعال التفضيل المقصودين لها في الجمع على إحدى اللغتين ، وعبر بصيغة منتهى الجمع دلالة على تناهيهم في الكثرة فقال : ﴿ أكابر مجرميها ﴾ أي القاطعين لما ينبغي أن يوصل .

ولما كان من شأن الإنسان استجلاب أسباب الرفعة لنفسه ، وكان لا يصل إلى ذلك في دار ربط المسببات بحكمة الأسباب إلا بالمكر ، وكان الأكابر أقدر على إنفاذ المكر وترويج الأباطيل بما لأغلب الناس من السعي في رضاهم طمعاً فيما عندهم ، وكان الإنسان كلما تمكن من ذلك أمعن فيه ، وكان الكبير إنما يصل إلى ما قدر له من ذلك بتقدير الله له ؛ كان بما قدر له من ذلك كأنه خلقه له ، فقال معبراً بالجعل لما فيه من التصيير والتسبيب :

﴿ ليمكروا فيها ﴾ أي يخدعوا أصاغرهم ويغروهم بما يلبسون عليهم من الأمور حتى يتبعوهم فيعادوا لهم حزب الله .

ولما كان ذلك موجعاً وغائظاً محزناً ، قال تصغيراً لشأنهم وتحقيراً لأمرهم : ﴿ وما ﴾ أي والحال أنهم ما ﴿ يمكرون إلا بأنفسهم ﴾ لأن عملهم بالمكر وبال عليهم موبق لهم ، ولأن مكرهم بأولياء الله إنما هو مكر بالله ، وذلك غير متأت ولا كائن بوجه من الوجوه ، وكيف يتأتى مكر من لا يعلم شيئاً من الغيب بمن يعلم جميع الغيب ! ﴿ وما يشعرون ﴾ أي وما لهم نوع شعور بأن مكرهم عائد على نفوسهم ، لأن الله تعالى الذي يعلم سرهم وجهرهم يجعل بما يزين لهم تدميرهم في تدبيرهم ، وإنما أجرى سنته الإلهية بذلك لما يشتمل عليه من

أعلام النبوة ، فإن غلبة شخص واحد - بمفرده أو باتباع كثير منهم ممن لا يؤبه لهم مع قلة العدد وضعف المدد لرؤساء الناس وأقويائهم مع طول مكثه بينهم منابذاً لهم منادياً عليهم بأن دينكم يمحى وديني يظهر وإن كرهتم - من خوارق العادات وبواهر الآيات تصديقاً لقوله تعالى : ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ [المجادلة : 21] ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾ [الصافات : 173] - في أمثال ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 2 صـ 708 . 709﴾

*(44/249)*

---

فصل

قال الفخر :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ﴾

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

"الكاف" في قوله : ﴿وكذلك﴾ يوجب التشبيه ، وفيه قولان : الأول : وكما جعلنا في مكة صناديدها ليمكروا فيها ، كذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها .

الثاني : أنه معطوف على ماقبله ، أي كما زينا للكافرين أعمالهم ، كذلك جعلنا .

المسألة الثانية :

الأكابر جمع الأكبر الذي هو اسم ، والآية على التقديم والتأخير تقديره : جعلنا مجرميها أكابر ، ولا يجوز أن يكون الأكابر مضافة ، فإنه لا يتم المعنى ، ويحتاج إلى إضمار المفعول الثاني للجعل ، لأنك إذا قلت : جعلت زيداً ، وسكت ، لم يفد الكلام حتى تقول رئيساً أو ذليلاً أو ما أشبه ذلك ، لاقتضاء الجعل مفعولين ، ولأنك إذا أضفت الأكابر ، فقد أضفت الصفة إلى الموصوف ، وذلك لا يجوز عند البصريين .

المسألة الثالثة :

صار تقدير الآية : جعلنا في كل قرية مجرميها أكابر ليمكروا فيها ، وذلك يقتضي أنه تعالى إنما جعلهم بهذه الصفة ، لأنه أراد منهم أن يمكروا بالناس ، فهذا أيضاً يدل على أن الخير والشر بإرادة الله تعالى .

أجاب الجبائي عنه : بأن حمل هذه اللام على لام العاقبة .

وذكر غيره أنه تعالى لما لم يمنعهم عن المكر صار شبيهاً بما إذا أراد ذلك ، فجاء الكلام على سبيل التشبيه ، وهذا السؤال مع جوابه قد تكرر مراراً خارجة عن الحد والحصر .

المسألة الرابعة :

قال الزجاج : إنما جعل المجرمين أكابر ، لأنهم لأجل رياستهم أقدر على الغدر والمكر

وترويج الأباطيل على الناس من غيرهم ، ولأن كثرة المال وقوة الجاه تحمل الإنسان على المبالغة في حفظهما ، وذلك الحفظ لا يتم إلا بجميع الأخلاق الذميمة من الغدر والمكر ، والكذب ، والغيبة ، والنميمة ، والأيمان الكاذبة ، ولو لم يكن للمال والجاه عيب سوى أن الله تعالى حكم بأنه إنما وصف بهذه الصفات الذميمة من كان له مال وجاه ، لكفى ذلك دليلاً على خساسة المال والجاه .

*(45/249)*

---

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ والمراد منه ما ذكره الله تعالى في آية أخرى ، وهي قوله : ﴿ وَلاَ يَحِيقُ المكر السيىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ [ فاطر : 43 ] وقد ذكرنا حقيقة ذلك في أول سورة البقرة في تفسير قوله تعالى : ﴿ الله يَسْتَهْزِىء بِهِمْ ﴾ [ البقرة : 15 ] قالت المعتزلة : لا شك أن قوله : ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ مذكور في معرض التهديد والزجر ، فلو كان ما قبل هذه الآية يدل على أنه تعالى أراد منهم أن يمكروا بالناس ، فكيف يليق بالرحيم الكريم الحكيم الحليم أن يريد منهم المكر ، ويخلق فيهم المكر ، ثم يهددهم عليه ويعاقبهم أشد العقاب عليه ؟ واعلم أن معارضة هذا الكلام

بالوجوه المشهورة قد ذكرناها مراراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 143.142 ﴾

(46/249)

---

وقال السمرقندى :

﴿ وكذلك جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾

يعني جعلنا مجرميها أكابرها وجبابرتها كما جعلنا في أهل مكة وهذا معطوف على ما قبله أي مثل ذلك جعلنا في كل قرية كما زين للكافرين ﴿ لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ﴾ يعني : ليتكبروا فيها ويكذبوا رسلهم ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ ﴾ يعني : وما يصنعون ذلك ﴿ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ ﴾ يعني : إلا على أنفسهم ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أن ذلك على أنفسهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وكذلك ﴾ أي وكما زيّنا للكافرين أعمالهم كذلك جعلنا .

وقيل : وكما جعلنا فسّاق مكة أكابرها كذلك ﴿ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ ﴾ يعني عظماء ، جمع أكبر مثل أفضل وأحمر وأحامر وأسود وأساود ﴿ مُجْرِمِيهَا ﴾ إن شئت

نصبته على التقديم تقديره وكذلك جعلنا في كل قرية مجرميها أكابر ، كما تقول : جعلت زيداً رئيسها وإن شئت خفضته على الإضافة ﴿ لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ لأن وبال مكرهم وجزاءه راجع إليهم ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ إنه كذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ﴾

هذه الآية تتضمن إنذاراً بفساد حال الكفرة المتقدم ذكرهم ، لأنه مقتضى حال من تقدمهم من نظرائهم ، وقال عكرمة : نزلت هذه الآية في المستهزئين .

*(47/249)*

---

قال القاضي أبو محمد : يعني أن التمثيل لهم ، و ﴿ جعلنا ﴾ في هذه الآية بمعنى صيرنا ، فهي تتعدى إلى مفعولين الأول ﴿ مجرميها ﴾ والثاني ﴿ أكابر ﴾ وفي الكلام على هذا تقديم وتأخير تقديره وكذلك جعلنا في كل قرية مجرميها أكابر ، وقدم الأهم إذ لعلة كبرهم أجرموا ، ويصح أن يكون المفعول الأول ﴿ أكابر ﴾ و ﴿ مجرميها ﴾ مضاف والمفعول الثاني في قوله ﴿ في كل قرية ﴾ و ﴿ ليمكروا ﴾ نصب بلام الصيرورة ، والأكابر جمع

أكبر كما الأفاضل جمع أفضل ، ويقال أكابرة كما يقال أحمر وأحامرة ، ومنهم قول الشاعر [ الأعشى ] : [ الكامل ]

إنَّ الأَحَامِرَةَ الثّلاثة أَتْلَفَتْ . . . مالي وكنتُ بهنَّ قِدْماً مُولَعا

يريد الخمر واللحم والزعفران ، و" المكر " التخيل بالباطل والخديعة ونحوهما ، وقوله ﴿ وما يمكرون إلا بأنفسهم ﴾ يريد لرجوع وبال ذلك عليهم ، ﴿ وما يشعرون ﴾ أي ما يعلمون ، وهي لفظة مأخوذة من الشعار وهو الشيء الذي يلي البدن ، فكأن الذي لا يشعر نفي عنه أن يعلم علم حس ، وفي ذلك مبالغة في صفة جهله ، إذ البهائم تعلم علوم الحس وأما هذه الآية فإنما نفي فيها الشعور في نازلة مخصوصة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا في كل قرية ﴾

أي : وكما زينا للكافرين عملهم ، فكذلك جعلنا في كل قرية أكابرَ مجرميها .

وقيل معناه : وكما جعلنا فُسَّاق مكة أكابرها ، فكذلك جعلنا فُسَّاق كل قرية أكابرها .

وإنما جعل الأكابر فُسَّاقَ كلِّ قرية ، لأنهم أقرب إلى الكفر بما أعطوا من الرياسة والسعة .

وقال ابن قتيبة : تقدير الآية : وكذلك جعلنا في كل قرية مجرميها أكابر ؛ و"أكابر" لا ينصرف ، وهم العظماء .

قوله تعالى : ﴿ ليمكروا فيها ﴾ قال أبو عبيدة المكر والخديعة ، والحيلة ، والفجور ، والغدر ، والخلاف .

قال ابن عباس : ليقولوا فيها الكذب .

(48/249)

---

قال مجاهد : أجلسوا على كل طريق من طرق مكة أربعةً ، ليصرفوا الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، يقولون : للناس : هذا شاعر ، وكاهن .

قوله تعالى : ﴿ وما يمكرون إلا بأنفسهم ﴾ أي : ذلك المكر بهم يحيق . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال النسفى :

﴿ وكذلك ﴾ أي وكما جعلنا في مكة صناديدها ليمكروا الناس فيها ﴿ جَعَلْنَا ﴾ صيرنا ﴿ فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ﴾ ليتجبروا على الناس فيها ويعملوا بالمعاصي .

واللام على ظاهرها عند أهل السنة وليست بلام العاقبة ، وخص الأكابر وهم الرؤساء لأن ما فيهم من الرياسة والسعة أدعى لهم إلى المكر والكفر من غيرهم ، دليله ﴿ وَلَوْ بَسَطَ

الله الرزق لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِي الأرض ﴾ [ الشورى : 27 ] ثم سلى رسوله عليه السلام ووعد له النصرة بقوله ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ ﴾ لأن مكرهم يحيق بهم ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أنه يحيق بهم ﴿ أكابر ﴾ مفعول أول والثاني ﴿ فِي كُلِّ قَرْيَةٍ ﴾ و ﴿ مُجْرِمِيهَا ﴾ بدل من ﴿ أكابر ﴾ أو الأول ﴿ مُجْرِمِيهَا ﴾ والثاني ﴿ أكابر ﴾ والتقدير : مجرميها أكابر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 32 ﴾

وقال الخازن :

وقوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ﴾

يعني وكما جعلنا في مكة أكابر ، وعظماء جعلنا في كل قرية أكابر وعظماء ، وقيل : هو معطوف على ما قبله .

*(49/249)*

---

ومعناه : كما زينا للكافرين ما كانوا يعملون كذلك جعلنا في كل قرية أكابر جمع الأكبر ولا يجوز أن يكون مضافاً لأنه لا يتم المعنى في بل الآية تقديم وتأخير تقديره : وكذلك جعلنا كل قرية أكابر " مجرميها " وإنما جعل المجرمين أكابر لأنهم أقدر على المكر والغدر وترويج الباطل بين الناس من غيرهم ، وإنما حصل ذلك لأجل رياستهم وذلك سنة الله أنه جعل في

كل قرية أتباع الرسل ضعفاءهم وجعل فسَّاقهم أكابرهم ﴿ ليمكروا فيها ﴾ قال أبو عبيدة : المكر ، الخديعة والحيلة والغدر والفجور .

زاد بعضهم والغيبة والنميمة والأيمان الكاذبة وترويج الباطل .

قال ابن عباس : معناه ليقولوا فيها الكذب .

وقال مجاهد : جلس على كل طريق من طرق مكة أربعة نفر ليصرفوا الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ويقولوا هو كذاب ساحر كاهن فكان هذا مكرهم ﴿ وما يمكرون إلا بأنفسهم ﴾ يعني ما يحيق هذا المكر إلا بهم لأن وبال مكرهم يعود عليهم ﴿ وما يشعرون ﴾ يعني أن وبال ذلك المكر يعود عليهم ويضرهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وكذلك جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾

المعنى : وكما زينا للكافرين ما كانوا يعملون كذلك جعلنا في كل قرية .

﴿ مُجْرِمِيهَا ﴾ مفعول أوّل لجعل ﴿ أَكَابِرَ ﴾ مفعول ثاني على التقديم والتأخير .

وجعل بمعنى صير .

والأكابر جمع الأكبر .

قال مجاهد : يريد العظماء .

وقيل : الرؤساء والعظماء .

وخصهم بالذكر لأنهم أقدر على الفساد .

والمكر الحيلة في مخالفة الاستقامة ، وأصله الفتل ؛ فالماكر يَفْتِل عن الاستقامة أي يصرف عنها .

قال مجاهد : كانوا يجلسون على كل عَقَبَةٍ أربعةً ينفرّون الناس عن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم ؛ كما فعل من قبلهم من الأمم السالفة بأنبيائهم .

﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ أي وبَالُ .

مكرهم راجعٌ إليهم .

(50/249)

---

وهو من الله عز وجل الجزاء على مكر الماكرين بالعذاب الأليم .

﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ في الحال ؛ لفرط جهلهم أن وبال مكرهم عائد إليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ﴾

أي كما جعلنا في مكة صناديدها ليمكروا فيها جعلنا في كل قرية ، وتضمن ذلك فساد حال الكفرة المعاصرين للرسول إذ حالهم حال من تقدمهم من نظرائهم الكفار .

وقال عكرمة : نزلت في المستهزئين يعني أن التمثيل لهم وقيل : هو معطوف على ﴿ كذلك زين ﴾ فتكون الإشارة فيه إلى ما أشير إليه بقوله : ﴿ كذلك زين ﴾ و ﴿ جعلنا ﴾ بمعنى صيرنا ومفعولها الأول ﴿ أكابر مجرميها ﴾ ﴿ وفي كل قرية ﴾ المفعول الثاني و ﴿ أكابر ﴾ على هذا مضاف إلى ﴿ مجرميها ﴾ ، وأجاز أبو البقاء أن يكون ﴿ مجرميها ﴾ بدلاً من ﴿ أكابر ﴾ وأجاز ابن عطية أن يكون ﴿ مجرميها ﴾ المفعول الأول و ﴿ أكابر ﴾ المفعول الثاني والتقدير مجرميها أكابر ، وما أجازه خطأ وذهول عن قاعدة نحوية وهو أن أفعل التفضيل إذا كان بمن ملفوظاً بها أو مقدرة أو مضافة إلى نكرة كان مفرداً مذكراً دائماً سواء كان لمذكر أو مؤنث ، مفرد أو مثنى أو مجموع ، فإذا أنث أو ثنى أو جمع طابق ما هو له في ذلك ولزمه أحد أمرين : إما الألف واللام أو الإضافة إلى معرفة ، وإذا تقرر هذا فالقول بأن ﴿ مجرميها ﴾ بدل من ﴿ أكابر ﴾ أو أن ﴿ مجرميها ﴾ مفعول أول خطأ لالتزامه أن يبقى ﴿ أكابر ﴾ مجموعاً وليس فيه ألف ولام ولا هو مضاف إلى معرفة وذلك لا يجوز ، وقد تنبه الكرماني لهذه القاعدة فقال : أضاف الأكابر إلى مجرميها لأن أفعل لا يجمع إلا مع الألف واللام أو مع الإضافة ؛ انتهى .

وكان ينبغي أن يقيد فيقول : أو مع الإضافة إلى معرفة وقدر بعضهم المفعول الثاني محذوفاً أي فساقاً ﴿ ليمكروا فيها ﴾ وهو ضعيف جداً لا يجوز أن يحمل القرآن عليه ، وقال ابن عطية : ويقال أكابرة كما قالوا أحمر وأحامرة ومنه قول الشاعر :

إن الأحامرة الثلاثة أهلكت . . .

مالي وكنت بهنّ قدماً مولعا

انتهى ، ولا أعلم أحداً أجاز في الأفاضل أن يقال الأفاضلة بل الذي ذكره النحويون أن أفعل التفضيل يجمع للمذكر على الأفضلين أو الأفاضل ، وخص الأكابر لأنهم أقدر على الفساد والتحيل والمكر لرئاستهم وسعة أرزاقهم واستتباعهم الضعفاء والمحاويج .

قال البغوي : سنة الله أنه جعل أتباع الرسل الضعفاء كما قال : ﴿ واتبعك الأرذلون ﴾ وجعل فساقهم أكابرهم ، وكان قد جلس على طريق مكة أربعة ليصرفوا الناس عن الإيمان بالرسول يقولون لكل من يقدم إياك وهذا الرجل فإنه ساحر كاهن كذاب وهذه الآية تسلية للرسول إذ حاله في أن كان رؤساء قومه يعادونه كما كان في كل قرية من يعاند الأنبياء ، وقرأ ابن مسلم أكبر مجرميها وأفعل التفضيل إذا أضيف إلى معرفة وكان لمثنى أو مجموع أو مؤنث جاز أن يطابق وجاز أن يفرد كقوله : ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ﴾ وتحرير هذا وتفصيله وخلافه مذكور في علم النحو ، ولام ﴿ ليمكروا ﴾ لام كي .

وقيل : لام العاقبة والصيرورة .

﴿ وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون ﴾ أي وباله يحيق بهم كما قال ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ﴿ وما يشعرون ﴾ يحيق ذلك بهم ولا يعني شعورهم على الإطلاق وهو مبالغة في نفي العلم إذ نفى عنهم الشعور الذي يكون للبهائم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(52/249)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وكذلك ﴾ قيل : معناه كما جعلنا في مكةَ أكابرَ مجرميها ليمكروا فيها ﴿ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ ﴾ من سائر القرى ﴿ أكابر مُجْرِميهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ﴾ ومفعولا جعلنا أكابرَ مجرميها على تقديم المفعولِ الثاني والظرفُ لغو أو هما الظرفُ وأكابرَ على أن مجرميها بدلٌ أو مضافٌ إليه فإن أفعل التفضيل إذا أُضيف جاز الإفرادُ والمطابقةُ ولذلك قرىء أكبرَ مجرميها وقيل : أكابرَ مجرميها مفعولُه الأولُ والثاني ليمكروا فيها ، ولا يخفى أن أيَّ معنى يراد من هذه المعاني لا بد أن يكون مشهورَ التحققِ عند الناسِ معهوداً فيما بينهم حتى يصلُحَ أن تُصرفَ الإشارةُ عن سباق النظمِ الكريمِ وتوجَّهَ إليه ويُجعلَ مقياساً لنظائره

بإخراجه مُخرجَ المصدرِ التشبيهيّ وظاهرٌ أنْ ليس الأمرُ كذلك ولا سبيلَ إلى توجيهها إلى ما يفهم من قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ زُيِّنَ للكافرين مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ وإن كان المرادُ بهم أكابرَ مكةَ لأن مآلَ المعنى حينئذ بعد اللتيا والتي كما جعلنا أعمالَ أهلِ مكةَ مزينةً لهم جعلنا في كل قرية أكابرَ مجرميها الخ ، فإذن الأقربُ أن ذلك إشارةٌ إلى الكفَرة المعهودين باعتبار اتصافِهم بصفاتهم ، والإفرادُ بتأويل الفريقِ أو المذكور ، ومحلُّ الكافِ النصبُ على أن المفعولُ الثاني لجعلنا قدم عليه لإفادة التخصيصِ كما في قوله تعالى : ﴿ كذلك كُنتُمْ مّن قَبْلُ ﴾ الآية ، والأولُ أكابرَ مجرميها ، والظرف لغة أي ومثلَ أولئك الكفرةِ الذين هم صناديدُ مكةَ ومجرموها جعلنا في كل قريةٍ أكابرَها المجرمين أي جعلناهم متصفين بصفات المذكورين مزيَّناً لهم أعمالُهم مُصِرّين على الباطل مجادلين به الحقَّ ليمكروا فيها أي ليفعلوا المكرَ فيها ، وهذا تسليةٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ ﴾ اعتراضٌ على سبيل الوعدِ لرسول الله عليه الصلاة والسلام والوعيدِ للكفرة أي

(53/249)

---

وما تحيقُ غائلةُ مكرِهم إلا بهم ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ حال من ضمير يمكرون مع اعتبار ورودِ الاستثناءِ على النفي أي إنما يمكرون بأنفسهم والحالُ أنهم ما يشعُرون بذلك أصلاً بل

يزعُمون أنهم يمكرون بغيرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وكذلك ﴾ قيل أي كما جعلنا في مكة أكابر مجرميها ليمكروا فيها ﴿ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ ﴾ من سائر القرى ﴿ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ﴾ أو كما جعلنا أعمال أهل مكة مزينة لهم جعلنا في كل قرية ألخ ، وإلى الاحتمالين ذهب الامام الرازي .

وجعل غير واحد جعل بمعنى صير المتعدية لمفعولين .

واختلف في تعيينهما فقيل : ﴿ أَكَابِرَ ﴾ مفعول أول و ﴿ مُجْرِمِيهَا ﴾ بدل منه ، وقيل : ﴿ أَكَابِرَ ﴾ مفعول ثان و ﴿ مُجْرِمِيهَا ﴾ مفعول أول لأنها معرفة فيتعين أنه المبتدأ بحسب الأصل ، والتقدير جعلنا في كل قرية مجرميها أكابر فيتعلق الجار والمجرور بالفعل .

(54/249)

---

واعترض أبو حيان كون ﴿ مُجْرِمِيهَا ﴾ بدلا من ﴿ أَكَابِرَ ﴾ أو مفعول لا بأنه خطأ وذهول عن قاعدة نحوية وهي أن أفعل التفضيل يلزم أفراده وتذكيره إذا كان بمن الظاهر أو مقدره أو مضافا إلى نكرة سواء كان لمفرد مذكر أو لغيره فإن طابق ما هو له تأنيثا وجمعا وتثنيه لزمه أحد الأمرين إما الألف واللام أو الاضافه إلى معرفة و ﴿ أَكَابِرَ ﴾ في التخريجين

باق على الجمعية وهو غير معرف بأل ولا مضاف لمعرفة وذلك لا يجوز .

وتعقبه الشهاب فقال : إنه غير وارد لأن أكابر وأصاغر أجرى مجرى الأسماء لكونه بمعنى الرؤساء كما نص عليه راغب وما ذكره إنما هو إذا بقى على معناه الأصلي .

ويؤيده قول ابن عطية : انه يقال أكابر كما يقال أحمر وأحامرة كما قال

: ان الأحامرة الثلاث تعولت . . .

وإن رده أبو حيان بأنه لم يعلم أن أحداً من أهل اللغة والنحو أجاز في جمع أفضل أفاضلة وفيه نظر .

وأما الجواب بأنه على حذف المضاف المعرفة للعلم به أي أكابر الناس أو أكابر أهل القرية فلا يخفى ضعفه اه .

وظاهر كلام الزمخشري أن الظرف لغو و ﴿ أكابر ﴾ المفعولين مضاف لمجرميها و ﴿ لِيَمْكُرُواْ ﴾ المفعول الثاني .

وجوز بعضهم كون جعل متعدياً لواحد على أن المراد بالجعل التمكين بمعنى الإقرار في المكان والإسكان فيه ومفعوله ﴿ أكابر مُجْرِميهَا ﴾ بالإضافة ، ويفهم من كلام البعض أن احتمال الإضافة لا يجري إلا على تفسير جعلنا هم بمكناهم ولا يخلو ذلك عن دغدغة .

وقال العلامة الثاني بعد سرد عدة من الأقوال : والذي يقتضيه النظر الصائب أن ﴿ فِي كُلّ

قَرْيَةٍ ﴾ لغو و﴿ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾ مفعول أول و﴿ لِيَمْكُرُواْ ﴾ هو الثاني ؛ ولا يخفى حسنه بيد أنه مبني على جعل الإشارة لأحد الأمرين اللذين أشير فيما سبق إليهما .

(55/249)

---

وناقش في ذلك شيخ الإسلام وادعى أن الأقرب جعل المشار إليه الكفرة المعهودين باعتبار اتصافهم بصفاتهم والإفراد باعتبار الفريق أو المذكور ، ومحل الكاف النصب على أنه المفعول الثاني لجعلنا قدم عليه لإفادة التخصيص كما في قوله سبحانه :

﴿ كَذَلِكَ كُنتُمْ مِّن قَبْلُ ﴾ [ النساء : 94 ] والأول : ﴿ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾ ، والظرف لغو أي ومثل أولئك الكفرة الذين هم صناديد مكة ومجرموها جعلنا في كل قرية أكابرها المجرمين أي جعلناهم متصفين بصفات المذكورين مزيناً لهم أعمالهم مصرين على الباطل مجادلين به الحق ليمكروا فيها أي ليفعلوا المكر فيها اه .

ولا يخفى بعده .

وتخصيص الأكابر لأنهم أقوى على استتباع الناس والمكر بهم .

وقرىء ﴿ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾ وهذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ ﴾ اعتراض على سبيل الوعد له عليه

الصلاة والسلام والوعيد للكفرة الماكرين أي وما يحيق غائلة مكرهم إلا بهم ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ حال من ضمير ﴿ يَمْكُرُونَ ﴾ أي إنما يمكرون بأنفسهم والحال أنهم ما يشعرون بذلك أصلاً بل يزعمون أنهم يمكرون بغيرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ﴾

عطف على جملة : ﴿ كذلك زيّن للكافرين ما كانوا يعملون ﴾ [ الأنعام : 122 ] فلها حكم الاستئناف البياني ، لبيان سبب آخر من أسباب استمرار المشركين على ضلالهم ، وذلك هو مكر أكابر قريتهم بالرّسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين وصرفهم الحيل لصدّ الدهماء عن متابعة دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمشار إليه بقوله : ﴿ وكذلك ﴾ أولياء الشياطين بتأويل ﴿ كذلك ﴾ المذكور .

*(56/249)*

---

والمعنى : ومِثْل هذا الجعل الذي جعلناه لمشركي مكّة جعَلنا في كلّ قرية مضت أكابرَ يصدّون عن الخير ، فشبّه أكابر المجرمين من أهل مكّة في الشرّك بأكابر المجرمين في أهل القرى

في الأَممِ الأخرى ، أي أنّ أمر هؤلاء ليس ببدع ولا خاصّ بأعداء هذا الدّين ، فإنَّه سنّة المجرمين مع الرسل الأوّلين .

فالجَعل : بمعنى الخلق ووضعِ السّنن الكونيّة ، وهي سنن خلق أسباب الخير وأسباب الشرّ في كلّ مجتمع ، وبخاصّة القُرى .

وفي هذا تنبيه على أنّ أهل البداوة أقرب إلى قبول الخير من أهل القرى ، لأَنَّهم لبساطة طباعهم من الفطرة السّليمة ، فإذا سمعوا الخير تقبّلوه ، بخلاف أهل القرى ، فإنَّهم لتشبّثهم بعوائدهم وما ألفوه ، ينفرون من كلّ ما يغيّره عليهم ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وممّن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النّفاق ﴾ [ التوبة : 101 ] فجعل النّفاق في الأعراب نفاقاً مجرّداً ، والنّفاق في أهل المدينة نفاقاً مارداً .

وقد يكون الجَعل بمعنى التّصيير ، وهو تصيير خَلْق على صفة مخصوصة أو تصيير مخلوق إلى صفة بعد أن كان في صفة أخرى ، ثمّ إنّ تصارع الخير والشرّ يكون بمقدار غلبة أهل أحدهما على أهل الآخر ، فإذا غلب أهل الخير انقبض دعاة الشرّ والفساد ، وإذا انعكس الأمر انبسط دعاة الشرّ وكثروا .

ومن أجل ذلك لم يزل الحكماء الأقدمون يبذلون الجهد في إيجاد المدينة الفاضلة الّتي وصفها ( أفلاطون ) في "كتابه" ، والّتي كادت أن تتحقّق صفاتها في مدينة ( أثينة ) في زمن جمهوريتها ، ولكنّها ما تحقّقت بحقّ إلاّ في مدينة الرّسول صلى الله عليه وسلم في زمانه

وزمان الخلفاء الرّاشدين فيها .

وقد نبّه إلى هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وإذَا أردْنا أن نهلك قرية أمَّرْنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمرناها تدميراً ﴾ [ الإسراء : 16 ] على قراءة تشديد ميم : ﴿ أمَّرنا ﴾ .

(57/249)

---

والأظهر في نظم الآية : أنّ ﴿ جعلنا ﴾ بمعنى خلقنا وأوجدنا ، وهو يتعدّى إلى مفعول واحد كقوله : ﴿ وجعل الظّلمات والنّور ﴾ [ الأنعام : 1 ] فمفعوله : ﴿ أكابر مجرميها ﴾ .

وقوله : ﴿ في كل قرية ﴾ ظرف لغو متعلّق بـ ﴿ جعلنا ﴾ وإنَّما قدّم على المفعول مع أنّه دونه في التعلّق بالفعل ، لأنّ كون ذلك من شأن جميع القرى هو الأهمّ في هذا الخبر ، ليَعلم أهل مكّة أنّ حالهم جرى على سُنن أهل القرى المرسل إليها .

وفي قوله : ﴿ أكبر مجرميها ﴾ إيجاز لأنَّه أغنى عن أن يقول جعلنا مُجرمين وأكابر لهم وأن أولياء الشياطين أكابر مجرمي أهل مكة ، وقوله : ﴿ ليمكروا ﴾ متعلّق بـ ﴿ جعلنا ﴾ أي ليحصُل المكر ، وفيه على هذا الاحتمال تنبيه على أنّ مكرهم ليس بعظيم الشأن .

ويحتمل أن يكون ﴿ جعلنا ﴾ بمعنى صيّرنا فيتعدّى إلى مفعولين هما : ﴿ أكبر مجرميها ﴾ على أنّ ﴿ مجرميها ﴾ المفعول الأوّل ، و ﴿ أكابر ﴾ مفعول ثان ، أي جعلنا مجرميها أكابر ، وقدم المفعول الثّاني للاهتمام به لغرابة شأنه ، لأنّ مصير المجرمين أكابر وسادة أمر عجيب ، إذ ليسوا بأهل للسؤدد ، كما قال طفيل الغنوي:

لا يصلح النّاس فَوضى لا سَراة لهم . . .

ولا سَراة إذا جُهَّالهم سادوا

تُهدَى الأمورُ بأهل الرأي ما صَلُحت . . .

فإنْ تولَّتْ فبالأشرار تَنْقَادُ

وتقديم قوله : ﴿ في كل قرية ﴾ للغرض المذكور في تقديمه للاحتمال الأوّل .

وفي هذا الاحتمال إيذان بغلبة الفساد عليهم ، وتفاقم ضرّه ، وإشعار بضرورة خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم من تلك القرية ، وإيذان باقتراب زوال سيادة المشركين إذ تولاها المجرمون لأنّ بقاءهم على الشّرك صيّرهم مجرمين بين مَن أسلم منهم .

ولعلّ كلا الاحتمالين مراد من الكلام ليفرض السّامعون كليهما ، وهذا من ضروب إعجاز القرآن كما تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنَّه منزل من ربّك بالحقّ فلا تكونّ من الممترين ﴾ [ الأنعام : 114 ] .

واللاّم في ﴿ ليمكروا ﴾ لام التّعليل ، فإنّ من جملة مراد الله تعالى من وضع نظام وجود الصّالح والفاسد ، أن يعمل الصّالح للصلاح ، وأن يعمل الفاسد للفساد ، والمكرُ من جملة الفساد ، ولام التّعليل لا تقتضي الحصر ، فللّه تعالى في إيجاد أمثالهم حِكَم جمّة ، منها هذه الحكمة ، فيظهر بذلك شرف الحقّ والصّلاح ويسطع نوره ، ويظهر انْدِحاض الباطل بين يديه بعد الصّراع الطّويل ؛ ويجوز أن تكون اللام المسماةَ لام العاقبة ، وهي في التحقيق استعارة اللام لمعنى فاء التفريع كالتي في قوله تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّاً وحزناً ﴾ [ القصص : 8 ] .

ودخلت مكّة في عموم : ﴿ كل قرية ﴾ وهي المقصود الأول ، لأنَّها القرية الحاضرة الّتي مُكِر فيها ، فالمقصود الخصوص .

والمعنى : وكذلك جعلنا في مكّة أكابر مجرميها ليمكروا فيها كما جعلنا في كلّ قرية مثلَهم ، وإنَّما عُمّم الخبرُ لقصد تذكير المشركين في مكّة بما حلّ بالقرى من قبلها ، مثل قرية : الحِجر ، وسَبا ، والرّس ، كقوله : ﴿ تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبيّنات فما كانوا ليؤمنوا ﴾ [ الأعراف : 101 ] ، ولقصد تسلية الرّسول صلى الله عليه وسلم بأنَّه ليس ببدع من الرّسل في تكذيب قومه إيَّاه ومكرهم به ووعده بالنّصر .

وقوله : ﴿ أكبر مجرميها ﴾ أكابر جمع أكبر .

وأكبر اسم لعظيم القوم وسيّدهم ، يقال : ورثوا المجد أَكْبَر أَكْبَر ، فليست صيغة أفعل فيه مفيدة الزّيادة في الكبر لا في السِنّ ولا في الجسم ، فصار بمنزلة الاسم غير المشتقّ ، ولذلك جمع إذا أخبر به عن جمع أو وُصف به الجمع ولو كان معتبراً بمنزلة الاسم المشتقّ لكان حقّه أن يلزم الإفراد والتّذكير .

وجمع على أكابر ، يقال : ملوك أكابر ، فوزن أكابر في الجمع فَعالل مثل أفاضل جمع أفضل ، وأيامِنَ وأشَائِمَ جمع أَيمن وأشأم للطّير السوانح في عرف أهل الزجر والعيافة .

(59/249)

---

وأعلم أنّ اصطلاح النّحاة في موازين الجموع في باب التّكسير وفي باب ما لا ينصرف أن ينظروا إلى صورة الكلمة من غير نظر إلى الحروف الأصليّة والزائدة بخلاف اصطلاح علماء الصّرف في باب المُجرّد والمزيد .

فهمزة أكبر تعتبر في الجمع كالأصلي وهي مزيدة .

وفي قوله : ﴿ أكابر مجرميها ﴾ إيجاز لأنّ المعنى جعلنا في كلّ قرية مجرمين وجعلنا لهم أكابر فلمّا كان وجود أكابر يقتضي وجود من دونهم استغنى بذكر أكابر المجرمين .

والمكر : إيقاع الضرّ بالغير خُفية وتحيُّلاً ، وهو من الخداع ومن المذام ، ولا يغتفر إلاّ في

الحرب ، ويغتفر في السّياسة إذا لم يمكن اتّقاء الضرّ إلاّ به ، وأمّا إسناده إلى الله في قوله تعالى : ﴿ ومكرَ الله واللَّهُ خير الماكرين ﴾ [ آل عمران : 54 ] فهو من المشاكلة لأنّ قبلهُ ﴿ ومكروا ﴾ [ آل عمران : 54 ] ، أي مكروا بأهل الله ورسله .

والمراد بالمكر هنا تحيّل زعماء المشركين على النّاس في صرفهم عن النّبيء صلى الله عليه وسلم وعن متابعة الإسلام ، قال مجاهد : كانوا جلسوا على كلّ عقبة ينفّرون النّاس عن اتّباع النّبيء صلى الله عليه وسلم

وقد حذف متعلِّق : ﴿ ليمكروا ﴾ لظهوره ، أي ليمكروا بالنَّبيء عليه الصلاة والسلام ظنّاً منهم بأنّ صدّ النّاس عن متابعته يضرّه ويحزنه ، وأنَّه لا يعلم بذلك ، ولعلّ هذا العمل منهم كان لما كثُر المسلمون في آخر مدّة إقامتهم بمكّة قبيل الهجرة إلى المدينة ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ وما يمكرون إلا بأنفسهم ﴾ ، فالواو للحال ، أي هم في مكرهم ذلك إنَّما يضرّون أنفسهم ، فأطلق المكر على مآله وهو الضرّ ، على سبيل المجاز المرسل ، فإنّ غاية المكر ومآله إضرار المكور به ، فلمّا كان الإضرار حاصلا للماكرين دون المكور به أطلق المكر على الإضرار .

وجيء بصيغة القصر : لأنّ النّبيّء صلى الله عليه وسلم لا يلحقه أذى ولا ضرّ من صدّهم النّاس عن اتّباعه ، ويَلحق الضرّ الماكرين ، في الدّنيا : بعذاب القتل والأسر ، وفي الآخرة : بعذاب النّار ، إنْ لم يؤمنوا فالضرّ انحصر فيهم على طريقة القصر الإضافي ، وهو قصر

قلب .

وقوله : ﴿ وما يشعرون ﴾ جملة حال ثانية ، فهم في حالة مكرهم بالنّبيء متّصفون بأَنَّهم ما يمكرون إلاّ بأنفسهم وبأَنَّهم ما يشعرون بلحاق عاقبة مكرهم بهم ، والشّعور : العلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

*(60/249)*

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ﴾

وقول الحق سبحانه : ﴿ وكذلك ﴾ تدل على أن شيئاً شبّه بشيء ، فكما وُجد في مكة من يناصبك العداء ويناهضك ويقاومك في أمر الدعوة إلى الله ، ويصدّ عن سبيل الحق ؛ إن تلك قضية لست فيها بدعاً من الرسل ؛ لأن هذه المسألة قضية سائدة مع كل رسول في موكب الإيمان ، و"كذلك" أي كما جعلنا في مكة مجرمين يمكرون جعلنا في كل قرية سبقت مع رسول سبق هذه المسألة ، فلم تكن بدعاً من الرسل . وحيث إنك لم تكن بدعاً من الرسل فلتصبر على ذلك كما صبر أولو العزم من الرسل . وأنت أولى منهم بالصبر ؛ لأن

مشقاتك على قدر مهمتك الرسالية في الكون كله ، فكل رسول إنما جاء لأمة محدودة ليعالج داءً محدوداً في زمان محدود . وأنت قد جئت للأمر العام زماناً ومكاناً إلى أن تقوم الساعة ، فلابد أن تتناسب المشقات التي تواجهك مع عموم رسالتك التي خصك الله بها . ﴿ وكذلك جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾ [ الأنعام : 123 ]

والإجرام هو مأخوذ من مادة " الجيم " و" الراء " و" الميم " ، الجرْم والجُرْم والجريمة . فيها معنى القطع . و" مجرميها " جمع مجرم ، ومجرم من أجرم ، وأجرم أي ارتكب الجُرم والجريمة ، ومعنى ذلك أنه قطع نفسه بالجريمة عن مجتمعه الذي يعايشه ، فهو يعزل نفسه لا لمصلحة لأحد إلا لمصلحته هو ، فكأنه قام بعملية انعزال اجتماعي ، وجعل كل شيء لنفسه ، ولم يجعل نفسه لأحد ؛ لأنه يريد أن يحقق مرادات نفسه غير مهتم بالنتائج التي تترتب على ذلك .

*(61/249)*

---

إذن فالإجرام هو الإقدام على القبائح اقداماً يجعل الإنسان عازلاً نفسه عن خير مجتمعه ؛ لأنه يريد كل شيء لنفسه . ومادام كل شيء لنفسه فعامل التسلط موجود فيه ، ويرتكب الرذائل . ولأنه يرتكب الرذائل فهو يريد من كل المجتمع أن تنتشر فيه مثل هذه الرذائل ؛ لكي

لا يشعر أن هناك واحداً أحسن منه . ﴿ . . لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام : 123 ]

والمكر – كما نعرف – مأخوذ من التفاف الأغصان بعضها على بعض التفافاً بحيث لا تستطيع إذا أمسكت ورقة من أعلى أن تقول هذه الورقة من هذا الفرع ؛ لأن الأغصان والفروع ملفوفة ومتشابكة ومجدولة بعضها مع بعض . والماكر يصنع ذلك لأنه يريد أن يلف تبييته حتى لا يُكشف عنه ، وما دام يفعل ذلك فاعلم من أول الأمر أنه ضعيف التكوين ؛ لأنه لو لم يعلم ضعف تكوينه لما مكر لأن القوي لا يمكر أبداً ، بل يواجه ، ولذلك يقول الشاعر :

وضعيفة فإذا أصابت فرصة . . . قتلت كذلك قدرة الضعفاء

والضعيف عندما يملك فهو يحدث لنفسه بأن هذه الفرصة لن تتكرر ، فيجهز على خصمه خوفاً من الا تأتي له فرصة أخرى ، لكن القوي حين يأتي لخصمه فيمسكه ثم يحدث نفسه بأن يتركه ، وعندما يرتكب هذا الخصم حماقة جديدة فيعاقبه .

إذن فلا يمكر الا الضعيف . والحق سبحانه وتعالى في هذه المسألة يتكلم عن المجرمين من أكابر الناس ، أي الذين يتحكمون في مصائر الناس ، ويفسدون فيها ولا يقدر أحد أن يقف في مواجهتهم . وهناك كثير من الآيات تتعلق بهذه المسألة ، وبعضها وقع فيه الجدل والخلاف ، ومن العجيب أن الخلاف لم يُصفَّ ، وكل جماعة من العلماء يتمسكون برأيهم .

وهذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها تلتقي مع القول الحق : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا القول فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾ [ الإسراء : 16 ]

*(62/249)*

---

وهذه الآية فيها اشكال ، وقامت بسببها معركة بين العلماء ؛ فنجد منهم من يقول : وكيف يأمر الله أناساً بالفسق ؟ . وحاولوا أن يجدوا تأويلا لذلك فقالوا : إن الحق قد قسر وأجبر أكابر هؤلاء الناس على الفسق . والجانب الثاني من العلماء قالوا : لا ، إن الحق لا يقسر البشر على الفسق ، بل على الإنسان حين يقرأ كلمة أمر الله في المنهج فلابد أن يعرف أن هذا الأمر عرضة لأن يطاع وعرضة لأن يعصى ؛ لأن المأمور – وهو المكلف – صالح أن يفعل ، وصالح الا يفعل ، وأن الآمر قد أمر بشيء ، والمأمور له حق الاختيار ؛ وبذلك تجد أكابر القوم إنما استقبلوا أمر الله بالعصيان ؛ لأن الحق هو القائل : ﴿ وَمَآ أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ الله . . ﴾ [ البينة : 5 ]

والفسق – إذن – مترتب على اختيار المأمور .

وحين نتأمل نحن بالخواطر معنى : " أمر الله " نجد أن أمر الله يتمثل في التكوينات الطبيعية الكونية ولا يوجد لأحد قدرة على مخالفة الله في ذلك ، فهو القائل : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ

شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

ويتمثل أيضاً أمر الله في التشريعات ، وللبشر الذين نزلت لهم هذه التشريعات أن يختاروا بين الطاعة أو العصيان ، وسبحانه القائل عن الأمر بالتشريع : ﴿ وَمَآ أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ ﴾ .

وحين يقول الحق : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾ .

فسبحانه لا يهلك هذه القرية ظلماً ، وإنما يرسل إليها المنهج ، فإن أطاعوا فأهلاً وسهلاً ، وإن عصوا فلابد لهم من العقاب بالدمار .

*(63/249)*

---

وهكذا نرى أن العلماء الذين ظنوا أن الفسق مترتب على الأمر من الله لم يلتفتوا إلى أن ورود الأمر في القرآن الكريم جاء على لونين : أولا : أمر التكوين بالقهريات فلا يستطيع المأمور أن يتخلف عنه ، ويمثل الأمر القهري قوله الحق : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [ يس : 82 ]

فالأمر جاهز في عالم الأزل ليبرز حين يشاء الحق . والأمر الثاني : هو الأمر التشريعي وهو صالح لأن يختار المكلف بين أن يطيع أو يعصي ، وفي هذا الإطار نفهم قوله الحق : ﴿ وَإِذَآ

أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا القول فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾ [الإسراء : 16]

فلا تقل : إن الله يأمر بالفسق ؛ فالحق قد أمر المؤمنين بالمنهج لأنه سبحانه لا يأمر بالفحشاء . بل جاء الأمر لكل البشر أن يعبدوا الله مخلصين له الدين ، لكن كبار أهل هذه القرية أخذوا البديل للطاعة وهو الفسق والمعصية ، فلما أمرهم ففسقوا ماذا يصنع بهم ؟ ، هو سبحانه يدمرهم تدميرا فإن كان في الكونيات فلا أحد من خلق الله مكلف في الكونيات ، إنما أمره الثاني في اتباع المنهج فلنا أن نفهم أنه الاختيار .

*(64/249)*

---

وهكذا نعلم ونفهم معنى هذه الآية لتلتقي مع الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : أي وإذا أردنا أن نهلك قرية أنزلنا منهجاً فأكابرها كانوا أسوة سيئة ففسقوا فيها بعدم إطاعة منهج الله فحق عليها القول فدمرناها تدميرا . وكذلك – أيضاً – نفهم قوله الحق : ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ لأن المكر إنما يريد به الماكر أن يحقق شيئاً من طريق ملتوٍ لأنه ضعيف لا يمكن أن يواجه الحقائق ، وهذه الحقائق تستقبلها الفطرة السليمة ، وهو يريد تزييف المسألة على هذه الفطرة لذلك يلتوي . ولمثل هذا الماكر نقول : أنت تريد أن

تحقق لنفسك خيراً عاجلاً وشهوة موقوتة ، ولكنك إن استحضرت العقوبة التي تنشأ من هذا الأمر بالنسبة لك . وكذلك عقوبتك على أنك أضللت الآخرين لرأيت كيف يأتي الشر . ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [ الأنعام : 123 ]

أي لا يعلمون ، لأنهم لا يوازنون الأمور بدقة تؤدي إلى النفع الحقيقي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(65/249)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (123) ﴾

أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن عكرمة في قوله ﴿ وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ﴾ قال : نزلت في المستهزئين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ﴾ قال : سلطنا شرارها فعصوا فيها ، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ أكابر مجرميها ﴾ قال : عظماؤها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(66/249)

---

لطيفة

قال فى البحر المديد :

الإشارة : إذا أراد الله بقومٍ خيرًا جعل الخير في أكابرهم : فيجعل أُمراءهم عُدولاً حُلَماء ، وعلماءهم زهَّادًا أعفَّاءً ، وأغنياءهم رحماء أسخياء ، وصُلحاءهم قانعين أغنياء ، وإذا أراد بهم شرًا جعل الشر في كبرائهم ، فيجعل أمراءهم فجارًا يحكمون بالهوى ، وعلماءهم حراصًا جامعين للدنيا ، وأغنياءهم أشحاء قاسية قلوبهم ، وصلحاءهم طماعين في الناس ، منتظرين لما في أيديهم ، فبهؤلاء يصلح الدين إذا صلحوا ، ويفسد إذا فسدوا ، وفي ذلك يقول ابن المبارك رحمه الله :

وَهَل أفسَدَ الدِّينَ إلا المُلُوكُ . . . وأحبارُ سُوءٍ ورُهبَانُها

وقد تقدم تمامه في تفسير سورة البقرة . وبالله التوفيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 2 صـ 166 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾

قيل "كذلك" نَسَقٌ على "كَذَلِكَ" قبلها ففيها ما فيها .

وقدَّرَهُ الزَّمْخَشَرِيُّ بأنّ معناه : " وكما جعلنا في مكَّةَ المشرفةِ صَنَاديدَهَا لِيَمْكُرُوا " يجوزُ أن تكون فيها ، كذلك جعلْنَا في كل قريةٍ أكابرَ مجْرِميها " واللامُ في "لِيَمْكُرُوا " يجوزُ أن تكون للعاقبة ؛ وأنْ تكونَ للعلَّة مَجَازاً ، و" جَعَلَ " تَصْيِيرِيَّة ، فتتعدَّى لاثنَيْنِ ، واختُلِف في تقديرهما : والصحيحُ أنء تكُونَ "فِي قَرْيَةٍ" مَفْعُولاً ثانياً قُدِّم على الأوَّل ، والأولُ "أكابِر" مُضَافاً لمجرميها .

الثاني : أنَّ "فِي كُلِّ قَرْيَةٍ" مفعولٌ – مقدَّمٌ ، و"أكَابِر" هو الأول ، و"مُجْرِمِيهَا" بدلٌ من "أكَابِر" ؛ ذكر ذلك أبو البقاء .

الثالث : أن يكُون "أكَابِر" مفعولاً ثانياً قُدِّم ، و"مُجْرِميها" مَفْعُولٌ أول أخّر ، والتقديرُ : جَعَلءنا في كُلِّ قريةٍ مجرميها أكَابِرَ ، فيتعلق الجارُّ بنفسِ الفِعْلِ قبلهح ذكر ذلك ابنُ عَطِيَّة .

قال أبو حيَّان : " وما أجَازَاهُ – يعني : أبَا البَقَاءِ ، وابنُ عَطيَّةَ0 خطأٌ وذهولٌ عن قاعدةٍ نَحْوِيَّةٍ ، وهي أنَّ أفْعَلَ التفضيلِ إذا كانت بـ " مِنْ " مَلْفُوظاً بها ، أو مقدرةً ، أو مُضَافة إلى نِكَرَة كانت مُفردةً على كُل حالٍ ، سواءٌ كانت لمذكر ، أم مؤنث ، مُفْرَدٍ أم مُثَنى أمْ مَجْمُوعٍ ، وإذا ثُنِّيَتْ أو جُمِعَتْ أو أُنِّثَتْ وطابَقَتْ ما هي له ، لَزِمَها أحَدُ أمْرَيْنِ : إمَّا الألف واللام ، وإمَّا الإضافة لمعرفة .

وإذا تقرَّرَ ذلك ، فالقولُ بكَوْنِ " مُجْرِميهَا " بدلاً ، أو بكونه مفعولاً أول ، و" أكابر " مَفعولٌ ثانٍ – خَطَأٌ ؛ لاسْتِلْزام أنْ يبقى " أكَابِرَ " مَجْمُوعاً وليست في أِلفٌ ولامٌ ، ولا هِيَ مُضَافة لمعرفةٍ " .

قال : " وقد تنبّه الكرمَانِيُّ إلى هذه القاعدة فقال : أضَاف " أكَابِر " إلى " مُجْرِميها " لأن أفْعَلَ لا يُجْمَعُ إلاَّ مع الألفِ واللامِ ، أو مع الإضافة " .

قال أبو حيَّان : " وكان يَنْبَغِي أنْ يُقَيَّد بالإضافة إلى معرفةٍ " .

قال شهابُ الدّين : أما هذه القاعدةُ فمسلمة ، ولكن قد ذكر مكّي مِثْلَ ما ذُكِر عن ابْن عَطيَّة سواء ، وما أظُنّه أخذ إلاَّ منه ، وكذلك الواحديُّ أيضاً ، ومنع أنْ تُجوَّز إضافةُ "

أَكَابر " إلى مجرميها " ؛ قال رحمه الله : " والآيةُ على التَّقْديمِ ، والتأخير تقديرُه : " جَعَلْنَاه مُجْرِميها أَكَابر " ولا يجوز أن تكون الأَكَابِر مضافةً ؛ لأنه لا يتمُّ المعنى ، ويحتاجُ إلى إضْمار المفعول الثاني للجعل ؛ لأنك إذا قلت : " جعلتُ زَيْداً " وسكتَّ لم يُفِد الكلامُ حتى تقول : رَئيساً أو لَيلاً ، أو ما أشبه ذلك ، ولأنَّك إذا أضَفْتَ الأَكَابِر ، فقد أضَفْتَ النعتَ إلى المنعوت ؛ وذلك لا يجوزُ عند البَصْرِيّين " .

قال شهابُ الدِّين : هذان الوجْهَانِ اللذان ردّ بهما الواحديُّ لَيْسَا بِشَيْءٍ .

(69/249)

---

أمَّا الأولُ فلا نسلم أنا نُضْمِرُ المعفول الثاني ، وأنه يَصِيرُ الكلامُ غيرَ مُفِيد ، وأمَّا ما أوْرَده من الأَمْثِلَةِ ، فليس مُطَابِقاً ؛ لأنَّا نقولُ : إنَّ المفعول الثَّانِي – هنا – مذكورٌ مصرّحٌ به ، هو الجارُّ والمجرورُ السابقُ .

وأما الثاني : فلا نُسَلِّم محذوفٌ ، قالوا : وتقديرُه : " جعلنا في كُلِّ قرية أَكَابر مُجْرميها فَسَقَاً لِيَمْكُرُوا " وهذا لَيْس بِشَيءٍ ؛ لأنه لا يحذفُ شيء إلاَّ لدليلٍ ، والدليلُ على ما ذكروه غيرُ واضحٍ .

وقال ابنُ عطيَّة : " ويقال أُكابرة كما يقال أُحْمر وأحَامِرَة " ؛ قال الشاعر : [ الكامل ]

2303 - إنَّ الأحَامِرَةَ الثَّلاثةَ أتْلَفَتْ . . .

مَالِي وكُنْتُ بِهِنَّ قِدْماً مُؤْلَعاَ

قال أبو حيان : " ولا أعْلَمُ أحَداً أجاز في جَمْع أفْضَل أفَاضِلَة ، بل نَصَّ النحويون على أن : أفْعَل التَّفْضِيل يجمعُ للمذكَّرِ على الأفضِلين ، أو على الأفاضل " .

قال شهابُ الدين : وهذه التاءُ يذكرها النحويونُ أنها تكون دَالَّةً على النسب في مِثْلِ هذه البنية ، قالوا : الأزَارِقَة ، والأشاعِثَة ، وفي الأزْرَقِ ورهطه ، والأشْعَث وبنيه ، ولي بقياسٍ ، ولَيْس هذا مِنْ ذلك في شَيْءٍ .

والجمهورُ على " أكَابِرَ " جَمْعاً .

وقرأ ابنُ مُسْلِم : " أكبر مجرميها " بالإفْرَادِ ، وهو جائِزٌ ، وذلك أنَّ أفعل التفضيل إذا أضيفت لمعرفة وأُريد بها غيرُ الإفْرَادِ ، والتذكير ؛ جاز أنْ يُطابِق ، كالقراءةِ المشهُورةِ هنا ، وفي الحديث : " أحَسنكم أخلاقاً " وجاز أن يُفْرَج ، وقد أُجْمِعَ على ذلك في قوله : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَاس ﴾ [ البقرة : 96 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 412.410 ﴾

(70/249)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (123) ﴾

لبَّسنا عليهم حقائق التوحيد ، وسوَّلت لهم ظنونهم أن بهم شظية من المحو والإثبات ؛ فانهمكوا ظانين أنهم يَمْكرون ، وهم في التحقيق مخادعون ، وسيعلمون حين لا ينفعهم علم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 499 ﴾

*(71/249)*

---

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (124) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما قرر هذا ، أتبعه بمقالة لهم تدل على تعظيمهم وتكبرهم فقال عاطفاً على ﴿ وأقسموا

بالله جهد أيمانهم ﴾ [ الأنعام : 109 ] تعجيباً من حالهم فيما زين لهم من ضلالهم ، وتصديقاً لما تقدم من الإخبار بأنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية إلاّ أن يشاء الله ؛ وتحقيقاً لما في الآية السالفة من مكرهم لغيرهم وعوده على أنفسهم : ﴿ وإذا جاءتهم ﴾ أي الكافرين من أكابر المجرمين وأتباعهم ﴿ آية قالوا ﴾ حسداً لمن خصه الله بالنبوة لكونهم أكابر مؤكدين للنفي لما لمعجزات الأنبياء عليهم السلام من العبر الموجب لظن الإذعان لأعتى أهل الكفران ﴿ لن نؤمن ﴾ أي أبداً ﴿ حتى نؤتى ﴾ لما لنا من العلو والعظمة المقتضية لأن لا يختص أحد عنا بشيء ﴿ مثل ما ﴾ .

ولما كان نظرهم مقصوراً على عالم الحس من غير نظر إلى جانب الله لكونه غيباً بنوا للمفعول قولهم : ﴿ أوتي رسل الله ﴾ يجوز أن يكون المراد : حتى يوحي إلينا لئلا يكونوا أعظم منا كما قال تعالى ﴿ بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتي صحفاً منشرة ﴾ [ المدثر : 52 ] وكما تقدم في أول السورة عن أبي جهل أنه قال : تنازعنا نحن وبنو عد مناف الشرف حتى إذا كنا كفرسي رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، ويحك ! متى ندرك هذا والله لا نؤمن به أبداً .

وأن يكون المراد إتيانه صلى الله عليه وسلم بمثل آيات الأولين من شق البحر واليد والعصا وإحياء الموتى ونحوها ، وسموهم تنزلاً واستهزاء ، وعبروا بالجلالة إشارة إلى القدرة التامة فلا عذر .

ولما ذكر اسم الجلالة إيذاناً بعظيم ما اجترؤوا عليه لعماهم - بما طمس على أنوار قلوبهم من ظلمات الهوى - عما للرسل من الجلال الذي يخضع له شوامخ الأنوف ، أعادها أيضاً تهويلاً للأمر وتنبيهاً على ما هناك من عظيم القدر ، فقال رداً عليهم فيما تضمن قولهم من دعوى التعلم بالحكمة والاعتراض على الله عز وجل : ﴿ الله ﴾ أي بما له من صفات الكمال ﴿ أعلم ﴾ أي من كل من يمكن منه علم ﴿ حيث يجعل ﴾ أي يصير بما يسبب من الأمور ﴿ رسالته ﴾ أي كلها بالنسبة إلى كل فرد من أفراد الخلق فهو لا يضع شيئاً منها بالتشهي .

*(72/249)*

---

ولما كشف هذا النظم عن أنهم اجترؤوا عليه ، وأنهم أصروا على أقبح المعاصي الكفر ، لا لطلب الدليل بل لداء الحسد ؛ تاقت النفس إلى معرفة ما يحل بهم فقال جواباً :

﴿ سيصيب ﴾ أي بوعد لا خلف فيه ، وأظهر موضع الإضمار تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف فقال : ﴿ الذين أجرموا ﴾ أي قطعوا ما ينبغي أن يوصل ﴿ صغار ﴾ أي رضى بالذل لعدم الناصر ؛ ولما كان الشيء تعظم بعظمة محله ومن كان منه ذلك الشيء قال : ﴿ عند الله ﴾ أي الجامع لصفات العظمة ﴿ وعذاب ﴾ أي مع الصغار ﴿ شديد ﴾ أي

في الدنيا بالقتل والخزي وفي الآخرة بالنار ﴿ بما ﴾ أي بسبب ما ﴿ كانوا يمكرون ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 709 . 710 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى حكى عن مكر هؤلاء الكفار وحسدهم أنهم متى ظهرت لهم معجزة قاهرة تدل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم قالوا : لن نؤمن حتى يحصل لنا مثل هذا المنصب من عند الله ، وهذا يدل على نهاية حسدهم ، وأنهم إنما بقوا مصرين على الكفر لا لطلب الحجة والدلائل ، بل لنهاية الحسد .

قال المفسرون : قال الوليد بن المغيرة : والله لو كانت النبوة حقاً لكنت أنا أحق بها من محمد ، فإني أكثر منه مالاً وولداً ، فنزلت هذه الآية .

وقال الضحاك : أراد كل واحد منهم أن يخص بالوحي والرسالة ، كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله : ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امرىء مِّنْهُمْ أَن يؤتى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً ﴾ [ المدثر : 52 ] فظاهر الآية التي نحن في تفسيرها يدل على ذلك أيضاً لأنه تعالى قال : ﴿ وَإِذَا جَاءتْهُمْ ءايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حتى نؤتى مِثْلَ مَا أُوتِىَ رُسُلُ الله ﴾ وهذا يدل على أن جماعة منهم كانوا يقولون هذا الكلام .

وأيضاً فما قبل هذه الآية يدل على ذلك أيضاً ، وهو قوله : ﴿ وكذلك جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ﴾ [ الأنعام : 123 ] ثم ذكر عقيب تلك الآية أنهم قالوا : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ ﴾ وظاهره يدل على أن المكر المذكور في الآية الأولى هو هذا الكلام الخبيث .

وأما قوله تعالى : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ ﴾ ففيه قولان :

القول الأول : وهو المشهور ، أراد القوم أن تحصل لهم النبوة والرسالة ، كما حصلت لمحمد عليه الصلاة والسلام ، وأن يكونوا متبوعين لا تابعين ، ومخدومين لا خادمين .

والقول الثاني : وهو قول الحسن ، ومنقول عن ابن عباس : أن المعنى ، وإذا جاءتهم آية من القرآن تأمرهم باتباع النبي .

قالوا : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ ﴾ وهو قول مشركي العرب ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ إلى قوله : ﴿ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَءُهُ ﴾ [ الإسراء : 90-93 ] من الله إلى أبي جهل ، وإلى فلان وفلان كتاباً على حدة ، وعلى هذا التقدير : فالقوم ما طلبوا النبوة ، وإنما طلبوا أن تأتيهم آيات قاهرة ومعجزات ظاهرة مثل معجزات الأنبياء المتقدمين كي تدل على صحة نبوة محمد عليه الصلاة والسلام .

قال المحققون : والقول الأول أقوى وأولى ، لأن قوله : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ لا

يليق إلا بالقول الأول ، ولمن ينصر القول الثاني أن يقول : إنهم لما اقترحوا تلك الآيات القاهرة ، فلو أجابهم الله إليها وأظهر تلك المعجزات على وفق التماسهم ، لكانوا قد قربوا من منصب الرسالة ، وحينئذ يصلح أن يكون قوله : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ جواباً على هذا الكلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 143 .

144 ﴾

(74/249)

---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وإذا جاءتهم آية ﴾

سبب نزولها : أن أبا جهل قال : زاحمتنا بنو عبد مناف في الشرف ، حتى إذا صرنا كَفَرَسَيْ رِهَان ، قالوا : منَّا نبيٌّ يوحى إليه ، والله لا نؤمن به ولا نَتَّبِعُهُ أو أن يأتينا وحي كما يأتيه ، فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل .

قال الزجاج : الهاء والميم تعود على الأكابر الذين جرى ذكرهم .

وقال أبو سليمان : تعود على المجادلين في تحريم الميتة .

قال مقاتل : والآية : انشقاق القمر ، والدخان .

قال ابن عباس : في قوله : ﴿ مثل ما أُوتِيَ رسلُ الله ﴾

قال : حتى يوحى إلينا ، ويأتينا جبريل ، فيخبرنا أن محمداً صادق .

قال الضحاك : سأل كل واحد منهم أن يختص بالرسالة والوحي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ ﴾

بيّن شيئاً آخر من جهلهم ، وهو أنهم قالوا لن نؤمن حتى نكون أنبياء ، فنؤتَى مثل ما أوتي موسى وعيسى من الآيات ؛ ونظيره "بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امرىء مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً" .

والكناية في "جاءتهم" ترجع إلى الأكابر الذين جرى ذكرهم .

قال الوليد بن المغيرة : لو كانت النبوّة حقًّا لكنت أوْلَى بها منك ؛ لأني أكبر منك سِنًّا ، وأكثر منك مالا .

وقال أبو جهل : والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً ، إلا أن يأتينا وَحْيٌ كما يأتيه ؛ فنزلت الآية .

وقيل : لم يطلبوا النبوّة ولكن قالوا لا نصدّقك حتى يأتينا جبريل والملائكة يخبروننا بصدقك .

والأوّل أصح ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ أي بمن هو مأمون عليها وموضع لها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله ﴾

(75/249)

---

يعني النبوة وذلك أن الوليد بن المغيرة قال للنبي صلى الله عليه وسلم : لو كانت النبوة حقاً لكنت أنا أولى بها منك لأني أكبر منك سناً وأكثر منك مالاً ، فأنزل الله هذه الآية .

وقال مقاتل : نزلت في أبي جهل ، وذلك أنه قال زاحمنا بنو عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يوحى إليه والله لا نؤمن به ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه فأنزل الله هذه الآية .

وإذا جاءتهم آية ، يعني حجة بينة ودلالة واضحة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم .

قالوا : يعني الوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام أو كل واحد من رؤساء الكفر ويدل عليه الآية التي قبلها وهي قوله وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها فكان من مكر كفار قريش أن قالوا لن نؤمن لك حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله يعني النبوة وإنما قالوا هذه المقالة الخبيثة حسداً منهم للنبي صلى الله عليه وسلم وفي قولهم لن نؤمن حتى نؤتى

مثل ما أوتي رسل الله قولان :

أحدهما : وهو المشهور أن القوم أرادوا أن تحصل لهم النبوة والرسالة كما حصلت للنبي صلى الله عليه وسلم وأن يكونوا متبوعين لا تابعين .

القول الثاني : وهو قول الحسن ومنقول عن ابن عباس أن المعنى : وإذا جاءتهم آية من القرآن تأمرهم باتباع محمد صلى الله عليه وسلم قالوا : لن نؤمن لك يعني لن نصدقك حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله يعني حتى يوحى إلينا ويأتينا جبريل بصدقك بأنك رسول الله ، فعلى هذا القول لم يطلبوا النبوة وإنما طلبوا أن تخبرهم الملائكة بصدق محمد صلى الله عليه وسلم وأنه رسول الله تعالى .

وعلى القول الأول أنهم طلبوا أن يكونوا أنبياء ويدل على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالاته ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله ﴾

*(76/249)*

قال مقاتل : روي أن الوليد بن المغيرة قال : لو كانت النبوّة حقاً لكنت أولى بها منك لأني أكبر منك سناً وأكثر منك مالاً .

روي أن أبا جهل قال : زاحمنا بني عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا : منا نبي يوحى إليه والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه فنزلت ونحوه ، ﴿ بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشرة ﴾ والآية العلامة على صدق الرسول والضمير في ﴿ جاءتهم ﴾ عائد على الأكابر قاله الزجاج .

وقال غيره : يعود على المجادلين في أكل الميتة وتغيية إيمانهم بقوله : ﴿ حتى نؤتى ﴾ دليل على تمحلهم في دعواهم واستبعاد منهم أن الإيمان لا يقع منهم البتة إذ علقوه بمستحيل عندهم ، وقولهم : ﴿ رسل الله ﴾ ليس فيه إقرار بالرسل من الله وإنما قالوا ذلك على سبيل التهكم والاستهزاء ، ولو كانوا موقنين وغير معاندين لاتبعوا رسل الله والمثلية كونهم يجري على أيديهم المعجزات فتحيى لهم الأموات ويفلق لهم البحر ونحو ذلك ، كما جرت على أيدي الرسل أو النبوّة أو جبريل والملائكة أو انشقاق القمر أو الدخان أو آية من القرآن تأمرهم بالإيمان أقوال آخرها للحسن وابن عباس ، وفيه تأمرهم باتباع الرسول وأولاها النبوّة والرسالة لقوله : ﴿ الله أعلم ﴾ حيث يجعل رسالاته فظاهره يدل على أنه المثلية هي في الرسالة .

وقال الماتريدي : أخبر عن غاية سفههم وأنهم ينكرون رسالته عن علم بها ولولا ذلك ما

تمنوا أن يؤتوا مثل ما أوتي انتهى ؛ ولم يتمنوا ذلك إنما أخبروا أنهم لا يؤمنون حتى يؤتوا مثل ما أوتي الرسل فعلقوا ذلك على ممتنع وقصدوا بذلك أنهم لا يؤمنون ألبتة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(77/249)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذَا جَاءتْهُمْ ءايَةٌ ﴾

رجوع إلى بيان حال مجرمي أهل مكة بعد ما بين بطريق التسلية حال غيرهم فإن العظيمة المنقولة إنما صدرت عنهم لا عن سائر المجرمين أي وإذا جاءتهم آية بواسطة الرسول عليه الصلاة والسلام .

﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حتى نؤتى مِثْلَ مَا أُوتِىَ رُسُلُ الله ﴾ قال شيخ الإسلام : "قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما حتى يوحى إلينا ويأتينا جبريل عليه السلام فيخبرنا أن محمداً عليه الصلاة والسلام صادق كما قالوا ﴿ أَوْ تَأْتِىَ بالله والملائكة قَبِيلاً ﴾ [ الإسراء : 92 ] .

وعن الحسن البصري مثله ، وهذا كما ترى صريح في أن ما علق بإيتاء ما أوتي الرسل عليهم السلام هو إيمانهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما أنزل إليه إيماناً حقيقياً كما هو

المتبادر منه عند الإطلاق خلا أنه يستدعي أن يحمل ما أوتي رسل الله على مطلق الوحي ومخاطبة جبريل عليه السلام في الجملة وأن يصرف الرسالة في قوله سبحانه : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ عن ظاهرها وتحمل على رسالة جبريل عليه السلام بالوجه المذكور ، ويراد بجعلها تبليغها إلى المرسل إليه لا وضعها في موضعها الذي هو الرسول ليتأتى كونه جواباً عن اقتراحهم ورداً له بأن كون معنى الاقتراح لن نؤمن بكون تلك الآية نازلة من عند الله تعالى إلى الرسول عليه الصلاة والسلام حتى يأتينا جبريل بالذات عياناً كما يأتي الرسل فيخبرنا بذلك ، ومعنى الرد الله أعلم بمن يليق بإرسال جبريل عليه السلام إليه لأمر من الأمور إيذاناً بأنهم بمعزل من استحقاق ذلك التشريف ، وفيه من التمحل ما لا يخفى . وأنت تعلم أنه لا تمحل في حمل ما أوتي رسل الله على مطلق الوحي بل في العدول عن قول لن نؤمن حتى نجعل رسلاً إلى ما في النظم الكريم نوع تأييد لهذا الحمل ، نعم صرف الرسالة عن ظاهرها وحمل الجعل على التبليغ لا يخلو عن بعد ، ولعل الأمر فيه سهل .

*(78/249)*

---

ويفهم من كلام البعض أن مطلق الوحي ومخاطبة جبريل عليه السلام في الجملة وإن لم يستدع تلك الرسالة إلا أنه قريب من منصبها فيصلح ما ذكر جواباً بدون حاجة إلى الصرف

والحمل المذكورين ، وفيه ما فيه .

وقال مقاتل : نزلت في أبي جهل حين قال : زاحمنا بني عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا : منا نبي يوحى إليه والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً حتى يأتينا وحي كما يأتيه .

وقال الضحاك : سأل كل واحد من القوم أن يخص بالرسالة والوحي كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله سبحانه : ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امرىء مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً ﴾ [ المدثر : 52 ] قال الشيخ : "ولا يخفى أن كل واحد من هذين القولين وإن كان مناسباً للرد المذكور لكنه يقتضي أن يراد بالإيمان المعلق بإيتاء مثل ما أوتي الرسل مجرد تصديقهم برسالته صلى الله عليه وسلم في الجملة من غير شمول لكافة الناس ، وأن يكون كلمة حتى في قول اللعين . حتى يأتينا وحي كما يأتيه إلخ غاية لعدم الرضى لا لعدم الاتباع فإنه مقرر على تقديري إتيان الوحي وعدمه ، فالمعنى لن نؤمن برسالته أصلاً حتى نوتى نحن من ( الوحي و) النبوة مثل ما أوتي رسل الله أو إيتاء مثل إيتاء رسل الله" ، ولا يخفى أنه يجوز أن تكون حتى في كلام اللعين غاية للاتباع أيضاً على أن المراد به مجرد الموافقة وفعل مثل ما يفعله صلى الله عليه وسلم من توحيد الله تعالى وترك عبادة الأصنام لا قفو الأثر بالإئتمار ، على أن اللعين إنما طلب إتيان وحي كما يأتي النبي صلى الله عليه وسلم وليس ذلك نصاً في طلب الاستقلال المنافي للاتباع .

ولعل مراده عليه اللعنة المشاركة في الشرف بحيث لا ينحط عنه عليه الصلاة والسلام بالكلية ؛ ويمكن أن يدعي أيضاً أن هؤلاء الكفرة لكون كل منهم أبا جهل بما يقتضيه منصب الرسالة لا يأبون كون الرسولين يجوز أن يبعث أحدهما إلى الآخر ويلزم أحدهما امتثال أمر الآخر واتباعه وإن كان مشاركاً له في أصل الرسالة فليفهم ، وقيل : إن الوليد بن المغيرة قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو كانت النبوة حقاً لكنت أولى بها منك لأني أكبر منك سناً وأكثر مالاً وولداً فنزلت هذه الآية .

وتعقبه الشيخ قدس سره "أنه لا تعلق له بكلامهم المردود إلا أن يراد بالإيمان المعلق بما ذكر مجرد الإيمان بكونه الآية النازلة وحياً صادقاً لا الإيمان بكونها نازلة إليه عليه الصلاة والسلام فيكون المعنى وإذا جاءتهم آية نازلة إلى الرسول قالوا : لن نؤمن بنزولها من عند الله حتى يكون نزولها إلينا لا إليه لأنا نحن المستحقون دونه فإن ملخص معنى قوله : ( لو كانت النبوة حقاً ) الخ لو كان ما تدعيه من النبوة حقاً لكنت أنا النبي لا أنت وإذا لم يكن الأمر كذلك فليست بحق ، ومآله تعليق الايمان بحقية النبوة بكون نفسه نبياً" .

وأنت تعلم أن إطلاق النبوة وقولهم ﴿ رُسُلُ اللهِ ﴾ ليس بينهما كمال الملاءمة بحسب

الظاهر كما لا يخفى ، فالحق سقوط هذا القول عن درجة الإعتبار وإن روي مثله عن ان جريج لما في تطبيقه على ما في الآية من مزيد العناية .

و﴿ مِثْلَ مَا أُوتِيَ ﴾ نصب على أنه نعت لمصدر محذوف و( ما ) مصدرية أي حتى نؤتاها إيتاء مثل إيتاء رسل الله ، وإضافة الإيتاء إليهم لأنهم منكرون لإيتائه عليه الصلاة والسلام ، و﴿ حَيْثُ ﴾ مفعول لفعل مقدر أي يعلم وقد خرجت عن الظرفية بناء على القول بتصرفها ولا عبرة بمن أنكره ، والجملة بعدها كما نص عليه أبو علي في "كتاب الشعر" صفة لها ، وإضافتها إلى ما بعدها حيث استعملت ظرفاً .

*(80/249)*

---

وقال الرضي : الأولى : أن حيث مضافة ولا مانع من إضافتها وهي اسم إلى الجملة ، وبحث فيه ، ولا يجوز فيها هنا عند الكثير أن تكون مجرورة بالإضافة لأن أفعل بعض ما يضاف إليه ، ولا منصوبة بأفعل نصب الظرف لأن علمه تعالى غير مقيد بالظرف وممن نص على ذلك ابن الصائغ ، وجوز بعضهم الثاني ورد ما علل به المنع منه بأن يجوز جعل تقييد علمه تعالى بالظرف مجازياً باعتبار ما تعلق به بل ذلك أولى من إخراج حيث عن الظرفية فإنه إما نادر أو ممتنع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ .

عطف على جملة : ﴿ جعلنا في كلّ قرية أكابر مجرميها ﴾ [ الأنعام : 123 ] لأنّ هذا حديث عن شيء من أحوال أكابر مجرمي مكّة ، وهم المقصود من التّشبيه في قوله : ﴿ وكذلك جعلنا في كلّ قرية أكابر مجرميها .

ومكّة هي المقصود من عموم كلّ قرية كما تقدّم ، فالضّمير المنصوب في قوله : جاءتهم ﴾ عائدٌ إلى ﴿ أكابر مجرميها ﴾ [ الأنعام : 123 ] ، باعتبار الخاصّ المقصود من العموم ، إذ ليس قولُ : ﴿ لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسل الله ﴾ بمنسوب إلى جميع أكابر المجرمين من جميع القرى .

والمعنى : إذا جاءتهم آية من آيات القرآن ، أي تُليت عليهم آية فيها دعوتهم إلى الإيمان .

فعبّر بالمجيء عن الإعلام بالآية أو تلاوتها تشبيها للإعلام بمجيء الدّاعي أو المرسل .

*(81/249)*

---

والمراد أنَّهم غير مقتنعين بمعجزة القرآن ، وأنَّهم يطْلبون معجزات عَيْنية مثل معجزة موسى ومعجزة عيسى ، وهذا في معنى قولهم : ﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأوّلون ﴾ [ الأنبياء :

5 ] لجهلهم بالحكمة الإلهيّة في تصريف المعجزات بما يناسب حال المرسل إليهم ، كما حكى الله تعالى : ﴿ وقَالوا لولا أنزل عليه آيات من ربّه قل إنَّما الآيات عند الله وإنَّما أنا نذير مبين أو لم يكفهم أنَّا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إنّ في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ [ العنكبوت : 50 ، 51 ] ؛ وقال النّبيء صلى الله عليه وسلم " ما من الأنبياء نبيء إلاّ أعطي من الآيات ما مِثْلُه آمنَ عليه البشر ، وإنَّما كان الّذي أوتيتُ وحياً أوحى الله إليّ " الحديث .

وأطلق على إظهار المعجزة لديهم بالإيتاء في حكاية كلامهم إذ قيل : ﴿ حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ﴾ لأنّ المعجزة لمّا كانت لإقناعهم بصدق الرّسول عليه الصّلاة والسلام أشبهت الشّيء المعطى لهم .

ومعنى : ﴿ مثل ما أوتى رسل الله ﴾ مثل ما أَتَى اللَّهُ الرّسلَ من المعجزات الّتي أظهروها لأقوامهم .

فمرادهم الرّسل الّذين بَلغتهم أخبارهم .

وقيل : قائل ذلك فريق من كبراء المشركين بمكّة ، قال الله تعالى : ﴿ بل يريد كل امرىء منهم أن يُؤتى صحفاً مُنَشَّرة ﴾ [ المدثر : 52 ] .

روي أنّ الوليد بن المغيرة ، قال للنّبيء صلى الله عليه وسلم لو كانت النّبوءةُ لكنتُ أولى بها منكَ لأنّي أكبرُ منك سِنّا وأكثر مالاً وولداً ؛ وأنّ أبا جهل قال : زاحمَنا ( يعني بني مخزوم )

بنو عبد مناف في الشّرف ، حتّى إذا صرنا كفَرسَيْ رِهانٍ قالوا : مِنّا نبيء يُوحى إليه ، والله لا نرضى به ولا نتّبعه أبداً إلاّ أن يأتينا وحي كما يأتيه .

فكانت هذه الآية مشيرة إلى ما صدر من هذين ، وعلى هذا يكون المراد حتّى يأتينا وَحْي كما يأتي الرّسلَ .

(82/249)

---

أو يكون المراد برسل الله جميع الرّسل ، فعدلوا عن أن يقولوا مثل ما أوتي محمّد صلى الله عليه وسلم لأنّهم لا يؤمنون بأنّه يأتيه وحي .

ومعنى ﴿ نؤتى ﴾ على هذا الوجه نعطى مثل ما أعطي الرّسل ، وهو الوحي .

أو أرادوا برسل الله محمّداً صلى الله عليه وسلم فعبّروا عنه بصيغة الجمع تعريضاً ، كما يقال : إنّ ناساً يقولون كذا ، والمراد شخص معيّن ، ومنه قوله تعالى : ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ﴾ [ الشعراء : 105 ] ونحوه ، ويكون إطلاقهم عليه : ﴿ رسل الله ﴾ تهكّماً به صلى الله عليه وسلم كما حكاه الله عنهم في قوله : ﴿ وقالوا يأيُّها الذي نُزِّل عليه الذكر إنَّك لمجنون ﴾ [ الحجر : 6 ] وقوله : ﴿ إنّ رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ﴾ [ الشعراء : 27 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾

فصل

قال الفخر :

وأما قوله : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ فالمعنى أن للرسالة موضعاً مخصوصاً لا يصلح وضعها إلا فيه ، فمن كان مخصوصاً موصوفاً بتلك الصفات التي لأجلها يصلح وضع الرسالة فيه كان رسولاً وإلا فلا ، والعالم بتلك الصفات ليس إلا الله تعالى .

واعلم أن الناس اختلفوا في هذه المسألة ، فقال بعضهم : النفوس والأرواح متساوية في تمام الماهية ، فحصول النبوة والرسالة لبعضها دون البعض تشريف من الله وإحسان وتفضل .

وقال آخرون : بل النفوس البشرية مختلفة بجواهرها وماهياتها ، فبعضها خيرة طاهرة من علائق الجسمانيات مشرقة بالأنوار الإلهية مستعلية منورة .

وبعضها خسيسة كدرة محبة للجسمانيات ، فالنفس ما لم تكن من القسم الأول ، لم تصلح لقبول الوحي والرسالة .

ثم إن القسم الأول يقع الاختلاف فيه بالزيادة والنقصان والقوة والضعف إلى مراتب لا نهاية لها ، فلا جرم كانت مراتب الرسل مختلفة ، فمنهم من حصلت له المعجزات القوية والتبع القليل ، ومنهم من حصلت له معجزة واحدة أو اثنتان وحصل له تبع عظيم ، ومنهم من كان الرفق غالباً عليه ، ومنهم من كان التشديد غالباً عليه ، وهذا النوع من البحث فيه استقصاء ، ولا يليق ذكره بهذا الموضع وقوله تعالى : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ فيه تنبيه على دقيقة أخرى .

وهي : أن أقل ما لا بد منه في حصول النبوة والرسالة البراءة عن المكر والغدر ، والغل والحسد .

وقوله : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ حتى نؤتى مِثْلَ مَا أُوتِىَ رُسُلُ اللهِ ﴾ عين المكر والغدر والحسد ، فكيف يعقل حصول النبوة والرسالة مع هذه الصفات ؟ ثم بين تعالى أنهم لكونهم موصوفين بهذه الصفات الذميمة سيُصيبهم صَغار عند الله وعذاب شديد وتقريره أن الثواب لا يتم إلا بأمرين ، التعظيم والمنفعة ، والعقاب أيضاً إنما يتم بأمرين : الإهانة والضرر .

والله تعالى توعدهم بمجموع هذين الأمرين ، في هذه الآية ، أما الإهابة فقوله : ﴿ سَيُصِيبُ الذين أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ وإنما قدم ذكر الصغار على ذكر الضرر ، لأن القوم إنما تمردوا عن طاعة محمد عليه الصلاة والسلام طلباً للعز والكرامة ، فالله تعالى بين أنه يقابلهم بضد مطلوبهم ، فأول ما يوصل إليهم إنما يوصل الصغار والذل والهوان ، وفي

قوله : ﴿ صَغَارٌ عِندَ اللهِ ﴾ وجوه : الأول : أن يكون المراد أن هذا الصغار إنما يحصل في الآخرة ، حيث لا حاكم ينفذ حكمه سواه .

والثاني : أنهم يصيبهم صغار بحكم الله وإيجابه في دار الدنيا ، فلما كان ذلك الصغار هذا حاله ، جاز أن يضاف إلى عند الله .

الثالث : أن يكون المراد ﴿ سَيُصِيبُ الذين أَجْرَمُواْ صَغَارٌ ﴾ ثم استأنف .

وقال : ﴿ عَندَ اللهِ ﴾ أي معد لهم ذلك ، والمقصود منه التأكيد ، الرابع : أن يكون المراد صغار من عند الله ، وعلى هذا التقدير : فلا بد من إضمار كلمة "من" وأما بيان الضرر والعذاب ، فهو قوله : ﴿ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ فحصل بهذا الكلام أنه تعالى أعد لهم الخزي العظيم والعذاب الشديد ، ثم بين أن ذلك إنما يصيبهم لأجل مكرهم وكذبهم وحسدهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 144.145 ﴾

*(84/249)*

---

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالاته ﴾

وقرأ ابن كثير ، وحفص عن عاصم : "رسالتَه" بنصب التاء على التوحيد ؛ والمعنى : أنهم

ليسوا لها بأهل ، وذلك أن الوليد بن المغيرة قال : والله لو كانت النبوة حقاً لكنتُ أولى بها منك ، لأني أكبرُ منك سناً ، وأكثرُ منك مالاً ، فنزل قوله تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالاته ﴾

وقال أهل المعاني : الأبلغ في تصديق الرسل أن لا يكونوا قبل مبعثهم مطاعين في قومهم ، لأن الطعن كان يتوجه عليهم ، فيقال : إنما كانوا رؤساء فاتُّبِعوا ، فكان الله أعلم حيث جعل الرسالة ليتيم أبي طالب ، دون أبي جهل ، والوليد ، وأكابر مكة .

قوله تعالى : ﴿ سيصيب الذين أجرموا صَغَارٌ ﴾ قال أبو عبيدة : الصَّغَار : أشد الذل .

وقال الزجاج : المعنى : هم ، وإن كانوا أكابر في الدنيا ، فسيصبهم صغار عند الله ، أي : صغار ثابت لهم عند الله .

وجائز أن يكون المعنى : سيصيبهم عند الله صغار .

وقال الفراء : معناه : صغار من عند الله ، فحذفت "مِنْ" .

وقال ابو رَوقْ : صغار في الدنيا ، وعذاب شديد في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالاته ﴾

يعني أنه تعالى يعلم من يستحق الرسالة فيشرفه بها ويعلم من لا يستحقها من ليس بأهل لها ،

وأنتم لستم لها بأهل وأن النبوة لا تحصل لمن يطلبها ، خصوصاً لمن عنده حسد ومكر وغدر .

وقال أهل المعاني : الأبلغ في تصديق الرسل أن لا يكونوا قبل البعثة مطاعين في قومهم ، لأن الطعن كان يتوجه عليهم فيقال إنما كانوا رؤساء مطاعين فاتبعهم قومهم لأجل ذلك فكان الله تعالى أعلم بمن يستحق الرسالة فجعلها ليتيم أبي طالب دون أبي جهل والوليد وغيرهما من أكابر قريش ورؤسائها .

وقوله تعالى : ﴿ سيصيب الذين أجرموا صَغار ﴾ أي ذلة وهوان .

وقيل الصغار هو الذل الذي تصغر إلى المرء نفسه فيه ﴿ عند الله ﴾ يعني هذا من عند الله وقيل إن هذا الصغار ثابت لهم عند الله فعلى هذا القول إنما يحصل لهم الصغار في الآخرة وقيل معناه سيصيبهم صغار بحكم الله حكم به عليهم في الدنيا ﴿ وعذاب شديد ﴾ يعني في الآخرة ﴿ بما كانوا يمكرون ﴾ يعني إنما حصل لهم هذا الصغار والعذاب بسبب مكرهم وحسدهم وطلبهم ما لا يستحقون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

*(85/249)*

وقال القرطبى :

والصَّغار : الضَّيْم والذل والهوان ، وكذلك الصُّغر ( بالضم ) .

والمصدر الصَّغَر ( بالتحريك ) .

وأصله من الصِّغَر دون الكبر ؛ فكأنّ الذلّ يصغّر إلى المرء نفسه ، وقيل : أصله من الصَّغَر

وهو الرضا بالذل ؛ يقال منه : صَغَر يَصْغُر بفتح الغين في الماضي وضمها في المستقبل .

وصَغِر بالكسر يصْغَر بالفتح لغتانِ ، صَغَراً وصَغاراً ، واسم الفاعل صاغِر وصغير .

والصاغر : الراضي بالضيم .

والمَصْغُوراء الصِّغار .

وأرض مُصْغِرَة : نبتها لم يَطُل ؛ عن ابن السِّكّيت .

﴿ عِندَ الله ﴾ أي من عند الله ، فحذف .

وقيل : فيه تقديم وتأخير ، أي سيصيب الذين أجرموا عند الله صغار .

الفراء : سيصيب الذين أجرموا صغار من الله .

وقيل : المعنى سيصيب الذين أجرموا صغار ثابت عند الله .

قال النحاس : وهذا أحسن الأقوال ؛ لأن "عند" في موضعها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالاته ﴾

هذا استئناف إنكار عليهم وأنه تعالى لا يصطفي للرسالة إلا من علم أنه يصلح لها وهو أعلم بالجهة التي يضعها فيها وقد وضعها فيمن اختاره لها وهو رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم دون أكابر مكة كأبي جهل والوليد بن المغيرة ونحوهما .

وقيل : الأبلغ في تصديق الرسل أن لا يكونوا قبل البعث مطاعين في قومهم لأنهم إن كانوا مطاعين قبل اتبعوا لأجل الطاعة السابقة وقالوا : حيث لا يمكن إقرارها على الظرفية هنا .

قال الحوفي : لأنه تعالى لا يكون في مكان أعلم منه في مكان فإذا لم تكن ظرفاً كانت مفعولاً على السعة والمفعول على السعة لا يعمل فيه أعلم لأنه لا يعمل في المفعولات فيكون العامل فيه فعل دل عليه أعلم .

وقال أبو البقاء : والتقدير يعلم موضع رسالاته وليس ظرفاً لأنه يصير التقدير يعلم في هذا المكان كذا وليس المعنى عليه ، وكذا قدره ابن عطية .

وقال التبريزي : ﴿ حيث ﴾ هنا اسم لا ظرف انتصب انتصاب المفعول كما في قول الشماخ :

وحلأها عن ذي الأراكة عامر . . .

أخو الخضر يرمي حيث تكوى النواحر

فجعل مفعولاً به لأنه ليس يريد أنه يرمي شيئاً حيث تكوى النواحر ، إنما يريد أنه يرمي ذلك الموضع ؛ انتهى .

*(87/249)*

---

وما قاله من أنه مفعول به على السعة أو مفعول به على غير السعة تأباه قواعد النحو ، لأن النحاة نصوا على أن ﴿ حيث ﴾ من الظروف التي لا تتصرف وشذ إضافة لدى إليها وجرها بالياء ونصوا على أن الظرف الذي يتوسع فيه لا يكون إلا متصرفاً وإذا كان الأمر كذلك امتنع نصب ﴿ حيث ﴾ على المفعول به لا على السعة ولا على غيرها ، والذي يظهر لي يجعل رسالته إقرار ﴿ حيث ﴾ على الظرفية المجازية على أن تضمن ﴿ أعلم ﴾ معنى ما يتعدى إلى الظرف فيكون التقدير الله أنفذ علماً ﴿ حيث يجعل رسالاته ﴾ أي هو نافذ العلم في الموضع الذي يجعل فيه رسالته ، والظرفية هنا مجاز كما قلنا وروى ﴿ حيث ﴾ بالفتح .

فقيل : حركة بناء .

وقيل : حركة إعراب ويكون ذلك على لغة بني فقعس فإنهم يعربون ﴿ حيث ﴾ حكاها الكسائي .

وقرأ ابن كثير وحفص رسالته بالتوحيد وباقي السبعة على الجمع .

(88/249)

---

﴿ سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ﴾

هذا وعيد شديد وعلق الإصابة بمن أجرم ليعم الأكابر وغيرهم ، والصغار الذل والهوان يقال : منه صغر يصغر وصغر يصغر صغراً وصغاراً واسم الفاعل صاغر وصغير وأرض مصغر لم يطل نبتها ، عن ابن السكيت وقابل الأكبرية بالصغار والعذاب الشديد من الأسر والقتل في الدنيا والنار في الآخرة وإصابة ذلك لهم بسبب مكرهم في قوله : ﴿ ليمكروا فيها ﴾ وقوله : ﴿ وما يمكرون إلا أنفسهم ﴾ وقدّم الصغار على العذاب لأنهم تمرّدوا عن اتباع الرسول وتكبروا طلباً للعز والكرامة فقوبلوا أوّلاً بالهوان والذل ، ولما كانت الطاعة ينشأ عنها التعظيم ثم الثواب عليها نشأ عن المعصية الإهانة ثم العقاب عليها ومعنى ﴿ عند الله ﴾ قال الزجاج : في عرصة قضاء الآخرة .

وقال الفراء : في حكم الله كما يقول عند الشافعي أي في حكمه .

وقيل : في سابق علمه .

وقيل : إن الجزية توضع عليهم لا محالة وأن حكم الله بذلك مثبت عنده بأنه سيكون ذلك فيهم .

وقال إسماعيل الضرير : في الكلام تقديم وتأخير أي صغار ﴿ وعذاب شديد ﴾ عند الله في الآخرة ، وانتصب عند ﴿ سيصيب ﴾ أو بلفظ ﴿ صغار ﴾ لأنه مصدر فيعمل أو على أنه صفة لصغار فيتعلق بمحذوف ، وقدّره الزجاج ثابت عند الله و﴿ ما ﴾ الظاهر أنها مصدرية أي بكونهم ﴿ يمكرون ﴾ .

وقيل : موصولة بمعنى الذي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

*(89/249)*

---

وقال الآلوسى :

وجملة ﴿ اللهُ أَعْلَمُ ﴾ الخ استئناف بياني ، والمعنى أن منصب الرسالة ليس مما ينال بما يزعمونه من كثرة المال والولد وتعاضد الأسباب والعدد وإنما ينال بفضائل نفسانية ونفس قدسية أفاضها الله تعالى بمحض الكرم والجود على من كمل استعداده ، ونص بعضهم على أنه تابع للاستعداد الذاتي وهو لا يستلزم الايجاب الذي يقوله الفلاسفة لأنه سبحانه إن شاء

أعطى ذلك وإن شاء أمسك وإن استعد المحل ، وما في "المواقف" من أنه لا يشترط في الإرسال الاستعداد الذاتي بل الله تعالى يختص برحمته من يشاء محمول على الاستعداد الذاتي الموجب ، فقد جرت عادة الله تعالى أن يبعث من كل قوم أشرفهم وأطهرهم جبلة ، وتمام البحث في موضعه .

وقرأ أكثر السبعة ﴿ رسالاته ﴾ بالجمع ، وعن بعضهم أنه يسن الوقف على ﴿ أُوتِىَ رُسُلُ الله ﴾ وأنه يستجاب الدعاء بين الآيتين ولم أر في ذلك ما يعول عليه .

﴿ سَيُصِيبُ الذين أَجْرَمُواْ ﴾ استئناف آخر ناع عليهم ما سيلقونه من فنون الشر بعد ما نعى عليهم حرمانهم مما أملوه ، والسين للتأكيد ، ووضع الموصول موضع الضمير لمزيد التشنيع ، وقيل : إشعاراً بعلية مضمون الصلة أي يصيبهم ألبتة مكان ما تمنوه وعلقوا به أطماعهم الفارغة من عز النبوة وشرف الرسالة ﴿ صَغَارٌ ﴾ أي ذل عظيم هوان بعد كبرهم ﴿ عَندَ الله ﴾ يوم القيامة .

*(90/249)*

---

وقيل : من عند الله وعليه أكثر المفسرين كما قال الفراء ، واعترضه بأنه لا يجوز في العربية أن تقول جئت عند زيد وأنت تريد من عند زيد ، وقيل : المراد أن ذلك في ضمانه سبحانه

أو ذخيرة لهم عنده وهو جار مجرى التهكم كما لا يخفى ﴿ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ في الآخرة أو في الدنيا ﴿ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴾ أي بسبب مكرهم المستمر أو بمقابلته ، وحيث كان هذا من أعظم مواد إجرامهم صرح بسببه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ .

اعتراض للردّ على قولهم : ﴿ حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ﴾ على كلا الاحتمالين في تفسير قولهم ذلك .

فعلى الوَجه الأوّل : في معنى قولهم : ﴿ حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ﴾ يكون قوله : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ ردّاً بأنّ الله أعلم بالمعجزات اللائقة بالقوم المرسَل إليهم ؛ فتكون ﴿ حيث ﴾ مجازاً في المكان الاعتباري للمعجزة ، وهم القوم الذين يُظهرها أحد منهم ، جُعلوا كأنَّهم مكان لظهور المعجزة .

والرّسالات مطلقة على المعجزات لأنَّها شبيهة برسالة يرسلها الله إلى النّاس ، وقريب من هذا قول علماء الكلام : وجهُ دلالة المعجزة على صدق الرّسول صلى الله عليه وسلم أنّ المعجزة قائمة مقام قول الله : " صدق هذا الرسولُ فيما أخبر به عني " بأمارةِ أنِّي أخرق العادة دليلاً على تصديقه .

وعلى الوجه الثّاني : في معنى قولهم : ﴿ حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ﴾ ، يكون قوله : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ ردّاً عليهم بأنّ الرّسالة لا تُعطى بسؤال سائِلها ، مع التّعريض بأنّ أمثالهم ليسوا بأهل لها ، فما صُدِقَ ﴿ حيث ﴾ الشّخصُ الّذي اصطفاه الله لرسالته .

و﴿ حيث ﴾ هنا اسم دالّ على المكان مستعارة للمبعوث بالرّسالة ، بناء على تشبيه الرّسالة بالوديعة الموضوعة بمكان أمانة ، على طريقة الاستعارة المكنيّة .

(91/249)

---

وإثباتُ المكان تخييل ، وهو استعارة أخرى مصرّحة بتشبيه الرّسل بمكان إقامة الرّسالة .

وليست ﴿ حيث ﴾ هنا ظرفاً بل هي اسم للمكان مجرّد عن الظرفية ، لأنّ ﴿ حيث ﴾ ظرف متصرّف ، على رأي المحقّقين من النّحاة ، فهي هنا في محلّ نصب بنزع الخافض وهو الباء ، لأن ﴿ أعلم ﴾ اسم تفضيل لا ينصب المفعول ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ إنّ ربّك هو أعلم من يضلّ عن سبيله ﴾ [ الأنعام : 117 ] كما تقدّم آنفاً .

وجملة ﴿ يجعل رسالته ﴾ صفة ل ﴿ حيث ﴾ إذا كانت ﴿ حيث ﴾ مجرّدة عن الظرفية .

ويتعيّن أن يكون رابط جملة الصّفة بالموصوف محذوفاً ، والتّقدير : حيث يجعل فيه رسالاته .

وقد أفادت الآية : أنّ الرّسالة ليست ممّا يُنال بالأماني ولا بالتشهّي ، ولكن الله يعلم مَن يصلح لها ومن لا يصلح ، ولو علم من يصلح لها وأراد إرساله لأرسله ، فإنّ النّفوس متفاوتة في قبول الفيض الإلهي والاستعداد له والطّاقة على الاضطلاع بحمله ، فلا تصلح للرّسالة إلاّ نفس خُلقت قريبة من النّفوس الملكيّة ، بعيدة عن رذائل الحيوانية ، سليمة من الأدواء القلبية .

فالآية دالّة على أنّ الرّسول يُخلق خِلقة مناسبة لمراد الله من إرساله ، والله حين خلقه عالم بأنّه سَيرسله ، وقد يخلق الله نفوساً صالحة للرّسالة ولا تكون حكمةٌ في إرسال أربابها ، فالاستعداد مهيِّيء لاصطفاء الله تعالى ، وليس موجِبا له ، وذلك معنى قول بعض المتكلّمين : إنّ الاستعداد الذّاتي ليس بموجب للرّسالة خلافاً للفلاسفة ، ولعلّ مراد الفلاسفة لا يبعد عن مراد المتكلّمين .

وقد أشار ابنُ سينا في "الإشارات" إلى شيء من هذا في النّمط التّاسع .

وفي قوله : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ بيان لعظيم مقدار النبي صلى الله عليه وسلم وتنبيه لانحطاط نفوس سادة المشركين عن نوال مرتبة النّبوءة وانعدام استعدادهم ، كما قيل في المثل "ليس بعُشّكِكِ فادْرُجي" .

وقرأ الجمهور : ﴿ رسالاته ﴾ بالجمع وقرأ ابن كثير ، وحفص عن عاصم بالإفراد ولمّا كان المراد الجنس استوى الجمع والمفرد .

﴿ سَيُصِيبُ الذين أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ الله وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴾ .

استئناف ناشىء عن قوله : ﴿ ليمكروا فيها ﴾ [الأنعام : 123] وهو وعيد لهم على مكرهم وقولهم : ﴿ لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ﴾ .

فالمراد بالّذين أجرموا أكابر المجرمين من المشركين بمكّة بقرينة قوله : ﴿ بما كانوا يمكرون ﴾ فإنّ صفة المكر أثبتت لأكابر المجرمين في الآية السّابقة ، وذكرهم بـ ﴿ الّذين أجرموا ﴾ إظهار في مقام الإضمار لأنّ مقتضى الظاهر أنّ يقال : سيصيبهم صغار ، وإنَّما خولف مقتضى الظاهر للإتيان بالموصول حتّى يومىء إلى علّة بناء الخبر على الصّلة ، أي إنَّما أصابهم صغار وعذاب لإجرامهم .

والصّغَار بفتح الصّاد الذلّ ، وهو مشتقّ من الصِّغَر ، وهو القماءة ونقصان الشيء عن مقدار أمثاله .

وقد جعل الله عقابهم ذلاّ وعذاباً : ليناسب كِبْرهم وعُتُوّهم وعصيانهم الله تعالى .

والصّغار والعذاب يحصلان لهم في الدّنيا بالهزيمة وزوال السّيادة وعذاب القتل والأسر والخوف ، قال تعالى : ﴿ قُل هل تربصون بنا إلاّ إحدى الحسنيين ونحن نتربّص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ﴾ [ التوبة : 52 ] وقد حصل الأمران يوم بدر ويوم أحُد ، فهلكت سادة المشركين ، وفي الآخرة بإهانتهم بين أهل المحشر ، وعذابهم في جهنم .

ومعنى ﴿ عند الله ﴾ أنَّه صغار مقدّر عند الله ، فهو صغار ثابت محقّق ، لأنّ الشّيء الّذي يجعله الله تعالى يحصل أثره عند النّاس كلّهم ، لأنَّه تكوين لا يفارق صاحبه ، كما ورد في الحديث : " إنّ الله إذا أحبّ عبداً أمر جبريل فأحبّه ثمّ أمر الملائكة فأحبّوه ثمّ يوضع له القبول عند أهل الأرض " فلا حاجة إلى تقدير ( مِنْ ) في قوله : ﴿ عند الله ﴾ ، ولا إلى جعل العندية بمعنى الحصول في الآخرة كما درج عليه كثير من المفسّرين .

والباء في : ﴿ بما كانوا يمكرون ﴾ سببيّة .

و( ما ) مصدريّة : أي بسبب مكرهم ، أي فعلهم المكر ، أو موصولة : أي بسبب الّذي كانوا يمكرونه ، على أنّ المراد بالمكر الاسم ، فيقدر عائدٌ منصوبٌ هو مفعول به محذوف .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

ومن فوائد ابن كثير فى الآية

قال رحمه الله :

قوله : ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾

أي : إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة ، قالوا : ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾ أي : حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة ، كما تأتي إلى الرسل ، كقوله ، جل وعلا ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا [لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ] ﴾ [الفرقان : 21] .

*(94/249)*

---

وقوله : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ أي : هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نزل هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّك ﴾ الآية [الزخرف : 31 ، 32] يعنون : لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير مبجل في أعينهم ﴿ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ ﴾ أي : مكة والطائف . وذلك لأنهم – قبحهم الله – كانوا يزدرون بالرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، بغيًا وحسدًا ،

وعنادًا واستكبارًا ، كما قال تعالى مخبرًا عنهم : ﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [الأنبياء : 36] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولا ﴾ [الفرقان : 41] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأنعام : 10] . هذا وهم يعترفون بفضله وشرفه ونسبه . وطهارة بيته ومرباه ومنشئه ، حتى أنهم كانوا يسمونه بينهم قبل أن يوحى إليه : "الأمين" ، وقد اعترف بذلك رئيس الكفار "أبو سفيان" حين سأله "هرقل" ملك الروم : كيف نسبه فيكم ؟ قال : هو فينا ذو نسب . قال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا الحديث بطوله الذي استدل به ملك الروم بطهارة صفاته ، عليه السلام ، على صدقه ونبوته وصحة ما جاء به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن مُصعب ، حدثنا الأوزاعي ، عن شَدَّاد أبي عمار ، عن واثلة بن الأسقع ، رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم" .

انفرد بإخراجه مسلم من حديث الأوزاعي – وهو عبد الرحمن بن عمرو إمام أهل الشام ، به نحوه (1) .

(1) المسند (107/4) وصحيح مسلم برقم (2276) .



---

وفي صحيح البخاري ، عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بُعِثت من خير قُرون بني آدم قَرْنًا فقرنًا ، حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه" (1) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو نُعَيم ، عن سفيان ، عن يزيد بن أبي زياد ، عن عبد الله بن الحارث ابن نوفل ، عن المطلب بن أبي وداعة قال : قال العباس : بلغه صلى الله عليه وسلم بعضُ ما يقول الناس ، فصعد المنبر فقال : "من أنا ؟" . قالوا : أنت رسول الله . قال : "أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه ، وجعلهم فرقتين فجعلني في خير فرقة ، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة . وجعلهم بيوتا فجعلني في خيرهم بيتًا ، فأنا خيركم بيتًا وخيركم نفسا" (2) . صدق صلوات الله وسلامه عليه .

وفي الحديث أيضا المروي عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "قال لي جبريل : قلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد رجلا أفضل من محمد ، وقلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد بني أب أفضل من بني هاشم" . رواه

الحاكم والبيهقي (3) .

---

(1) صحيح البخاري برقم (3557) .

(2) المسند (210/1) .

(3) دلائل النبوة للبيهقي (176/1) من طريق موسى بن عبيدة ، عن عمرو بن عبد الله ، عن الزهري ، عن أبي سلمة ، عن عائشة به ، ورواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (3511) "مجمع البحرين" من طريق موسى بن عبيدة الربذي به . قال الهيثمي في المجمع (217/8) : "فيه موسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف" .

*(96/249)*

---

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو بكر ، حدثنا عاصم ، عن زِرِّ بن حُبَيْش ، عن عبد الله بن مسعود [رضي الله عنه] قال : إن الله نظر في قلوب العباد ، فوجد قلب محمد صلى الله عليه وسلم خير قلوب العباد ، فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته . ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فجعلهم وزراء نبيه ، يقاتلون على دينه ، فما رآى المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن ، وما رأوا سيئًا فهو عند الله سيئ (1) .

وقال أحمد : حدثنا شُجاع بن الوليد قال : ذكر قابوس بن أبي ظبيان ، عن أبيه ، عن سلمان قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم "يا سلمان ، لا تبغضني فتفارق دينك" . قلت : يا رسول الله ، كيف أُبْغِضُك وبك هدانا الله ؟ قال : "تبغض العرب فتبغضني" (2) .

وذكر ابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية : ذُكِرَ عن محمد بن منصور الجواز ، حدثنا سفيان ، عن ابن أبي حسين قال : أبصر رجل ابن عباس وهو يدخل من باب المسجد فلما نظر إليه راعه ،

---

(1) المسند (379/1) .

(2) المسند (440/5) ورواه الترمذي في السنن برقم (3927) والحاكم في المستدرك (86/4) والطبراني في المعجم الكبير (238/6) من طريق شجاع بن الوليد عن قابوس به . قال الترمذي : "حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث أبي بدر شجاع بن الوليد ، وسمعت محمد بن إسماعيل يقول : أبو ظبيان لم يدرك سلمان ، مات سلمان قبل علي" .

فقال: من هذا ؟ قالوا: ابن عباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾

وقوله تعالى: ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ [بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ] ﴾ هذا وعيد شديد من الله وتهديد أكيد، لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاؤوا به، فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدي الله ﴿ صَغَارٌ ﴾ وهو الذلة الدائمة، لما أنهم استكبروا أعقبهم ذلك ذُلاً كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: 60] أي: صاغرين ذليلين حقيرين.

وقوله: ﴿ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ لما كان المكر غالبا إنما يكون خفيا، وهو التلطف في التحيل والخديعة، قوبلوا بالعذاب الشديد جزاء وفاقا، ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: 49]، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ [الطارق: 9] أي: تظهر المستترات والمكنونات والضمائر. وجاء في الصحيحين، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يُنْصَب لكل غادر لواء عند استِه يوم القيامة، فيقال: هذه غَدْرة فلان ابن فلان" (1).

والحكمة في هذا أنه لما كان الغدر خَفِيًا لا يطلع عليه الناس، فيوم القيامة يصير عَلَمًا منشورًا على صاحبه بما فعل.

---

(1) رواه البخاري في صحيحه برقم (7111) ومسلم في صحيحه برقم (1735) من

حديث عبد الله بن عمر ، رضي الله عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 333.332 ﴾

(98/249)

---

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءتْهُمْ ءايَةٌ ﴾ رجوعٌ إلى بيان حالِ مجرمي أهلِ مكةَ بعد ما بُيّن بطريق التسليةِ أن حالَ غيرِهم أيضاً كذلك وأن عاقبةَ مكرِ الكلِّ ما ذُكر ، فإن العظيمةَ المنقولةَ إنما صدَرت عنهم لا عن سائر المجرمين ، أي إذا جاءتهم آيةٌ بواسطة الرسولِ عليه الصلاة والسلام ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حتى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِىَ رُسُلُ اللهِ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : حتى يوحيَ إلينا ويأتيَنا جبريلُ عليه السلام فيخبرَنا أن محمداً صادق كما قالوا : ﴿ أَوْ تَأْتِىَ بالله والملائكة قَبِيلاً ﴾ وعن الحسن البصْري مثلُه .

وهذا كما ترى صريحٌ في أن ما عُلّق بإيتاء ما أوتيَ الرسلُ عليهم الصلاة والسلام هو إيمانُهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما أنزل إليه إيماناً حقيقياً كما هو المتبادَرُ منه عند الإطلاقِ خلا أنه يستدعي أن يُحمل ما أوتيَ رسلُ الله على مطلق الوحي ومخاطبةِ جبريلَ

عليه السلام في الجملة وأن تُصرفَ الرسالةُ في قوله تعالى : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ عن ظاهرها ، وتُحملَ على رسالة جبريلَ عليه السلام بالوجه المذكور ، ويُرادَ بجعلها تبليغُها إلى المرسَل إليه لا وضعُها في موضعها الذي هو الرسول ليتأتّى كونُه جواباً عن اقتراحهم ورداً له بأن يكونَ معنى الاقتراحِ : لن نؤمنَ بكون تلك الآيةِ نازلةً من عند الله تعالى إلى الرسول حتى يأتيَنا بالذات عِياناً كما يأتي الرسولُ فيخبرُنا بذلك ، ومعنى الردّ : الله أعلم مَنْ يليقُ بإرسال جبريلَ عليه السلام إليه لأمر من الأمور إيذاناً بأنهم بمعزل من استحقاق ذلك التشريفِ ، وفيه من التمحُّل ما لا يخفى . وقال مقاتلٌ : نزلت في أبي جهل حين قال : زاحَمْنا بني عبدِ منافٍ في الشرف حتى إذا صِرْنا كفرَسَيْ رهانٍ قالوا : منا نبيٌّ يوحى إليه ، والله لا نرضى به ولا نتّبعه أبداً حتى يأتيَنا وحيٌ كما يأتيه .

(99/249)

---

وقال الضحاك : سأل كلُّ واحد من القوم أن يُخَصّ بالرسالة والوحي كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله : ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امرىء مِّنْهُمْ أَن يؤتى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً ﴾ ولا يخفى أن كلَّ واحد من هذين القولين وإن كان مناسباً للرد المذكورِ لكنه يقتضي أن يراد بالإيمان المُعلَّقِ بإيتاء ما أوتيَ الرسلُ مجردُ تصديقِهم برسالته عليه الصلاة والسلام في الجملة من غير شمولٍ

لكافة الناس وأن تكون كلمةُ حتى في قول اللعينِ حتى يأتيَنا وحيٌ كما يأتيه الخ ، غايةً لعدم الرضا لا لعدم الاتباعِ فإنه مقررٌ على تقديريْ إيتاءِ الوحي وعدمِه ، فالمعنى لن نؤمنَ برسالته أصلاً حتى نؤتى نحن من الوحي والنبوة مثلَ ما أوتي رسلُ الله ، أو إيتاءِ رسلِ الله ، وأما ما قيل من أن الوليدَ بنَ المغيرةِ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو كانت النبوةُ حقاً لكنتُ أولى بها منك لأني أكبرُ منك سناً وأكثرُ منك مالاً وولداً .

فنزلت فلا تعلُّقَ له بكلامهم المردودِ إلا أن يرادَ بالإيمان المعلَّقِ بما ذكر مجردُ الإيمانِ بكون الآيةِ النازلةِ وحياً صادقاً لا الإيمانِ بكونها نازلةً إليه عليه الصلاة والسلام .

فيكون المعنى وإذا جاءتهم آيةٌ نازلةٌ إلى الرسول قالوا : لن نؤمنَ بنزولها من عند الله حتى يكونَ نزولُها إلينا لا إليه ، لأنا نحن المستحقون دونه ، فإن مُلخّصَ معنى قولِه : لو كانت النبوةُ حقاً الخ : لو كان ما تدّعيه من النبوة حقاً لكنتُ أنا النبيَّ لا أنت ، وإذا لم يكن الأمرُ كذلك فليست بحق وما له تعليقُ الإيمانِ بحقية النبوةِ بكون نفسِه نبياً .

*(100/249)*

---

ومثلَ ما أُوتيَ نُصب على أنه نعتٌ لمصدر محذوفٍ ، وما مصدريةٌ أي حتى نؤتاها إيتاءً مثلَ إيتاءِ رسلِ الله وإضافةُ الإيتاءِ إليهم لأنهم منكِرون لإيتائه عليه الصلاة والسلام ، و(

حيث ) نُصب على المفعولية توسعاً لا بنفس ( أعلمُ ) لما عرفتَ من أنه لا يعمل في الظاهر بل بفعل دلَّ هو عليه أي هو أعلمُ يعلم الموضِعَ الذي يضعها فيه والمعنى أن منصِبَ الرسالةِ ليس مما ينال بكثرة المالِ والولدِ وتعاضُدِ الأسبابِ والعدد ، وإنما يُنال بفضائلَ نفسانيةٍ يخُصّها الله تعالى بمن يشاء من خُلّص عبادِه ، وقرىء رسالاتِه ﴿ سَيُصِيبُ الذين أَجْرَمُواْ ﴾ استئنافٌ آخرُ ناعٍ عليهم ما سيلقونه من فنون الشرِّ بعد ما نعى عليهم حِرمانَهم مما أمّلوه ، والسين للتأكيد ، ووضعُ الموصول موضعَ الضمير للإشعار بأن إصابةَ ما يصيبهم لإجرامهم المستتبِعِ لجميع الشرورِ والقبائحِ ، أي يصيبهم ألبتةَ مكانَ ما تمنَّوْه وعلّقوا به أطماعَهم الفارغةَ من عزة النبوة وشرفِ الرسالة ﴿ صَغَارٌ ﴾ أي ذلة وحقارة بعد كِبْرِهم ﴿ عَندَ الله ﴾ أي يوم القيامة وقيل : من عند الله ﴿ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ في الآخرة أو في الدنيا ﴿ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴾ أي بسبب مكرِهم المستمرِّ أو بمقابلته ، وحيث كان هذا من معظم موادِّ إجرامِهم صُرّح بسببيته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(101/249)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (118) ﴾

بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ الْأَرْضِ يُضِلُّونَ مَنْ أَطَاعَهُمْ لِأَنَّهُمْ ضَالُّونَ خَرَّاصُونَ ، وَأَنَّهُ هُوَ أَعْلَمُ بِالضَّالِّينَ وَالْمُهْتَدِينَ ، رَتَّبَ عَلَى ذَلِكَ أَمْرَ اتِّبَاعِ هَذَا الرَّسُولِ بِمُخَالَفَةِ الضَّالِّينَ مِنْ قَوْمِهِمْ وَغَيْرِ قَوْمِهِمْ فِي مَسْأَلَةِ الذَّبَائِحِ وَبِتَرْكِ جَمِيعِ الْآثَامِ فَقَالَ : (فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ) أَيْ إِذَا كَانَ أَمْرُ أَكْثَرِ النَّاسِ عَلَى مَا بَيَّنْتُهُ لَكُمْ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ مِنَ الذَّبَائِحِ دُونَ غَيْرِهِ – وَهُوَ مَا يُصَرِّحُ بِهِ بَعْدَ آيَتَيْنِ مِنَ السِّيَاقِ – إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ الَّتِي جَاءَتْكُمْ بِالْهُدَى وَالْعِلْمِ مُؤْمِنِينَ ، وَبِمَا يُخَالِفُهَا مِنْ ضَلَالِ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ وَجَهْلِ أَهْلِهِ مُكَذِّبِينَ ، وَحِكْمَةُ الِاهْتِمَامِ بِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَقَرْنِهَا بِمَسَائِلِ الْعَقَائِدِ هُوَ أَنَّ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَغَيْرَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ جَعَلُوا الذَّبَائِحَ مِنْ أُمُورِ الْعِبَادَاتِ ، بَلْ نَظَّمُوهَا فِي سِلْكِ أُصُولِ الدِّينِ وَالِاعْتِقَادَاتِ ، فَصَارُوا يَتَعَبَّدُونَ بِذَبْحِ الذَّبَائِحِ لِآلِهَتِهِمْ وَمَنْ قَدَّسُوا مِنْ رِجَالِ دِينِهِمْ ، وَيُهِلُّونَ لَهُمْ

*(102/249)*

بِهَا عِنْدَ ذَبْحِهَا كَمَا يَأْتِي ، وَهَذَا شِرْكٌ بِاللهِ لِأَنَّهُ عِبَادَةٌ تُوَجَّهُ إِلَى غَيْرِهِ سَوَاءٌ أَسَمَّى ذَلِكَ الْغَيْرُ إِلَهًا أَوْ مَعْبُودًا أَمْ لَا ، وَقَدْ غَفَلَ عَنْ هَذَا بَعْضُ كِبَارِ الْمُفَسِّرِينَ فَلَمْ يَهْتَدِ إِلَيْهِ بِذَكَائِهِ وَعِلْمِهِ وَلَمْ يَرْوِهِ عَنْ غَيْرِهِ ، فَاسْتَشْكَلَ هُوَ وَمَنْ تَبِعَهُ الْمَسْأَلَةَ وَقَالُوا : إِنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمْ يَكُونُوا يُحَرِّمُونَ مَا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَلَا يَمْتَنِعُونَ مِنْ أَكْلِهِ ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يَأْكُلُونَ الْمَيْتَةَ أَيْضًا ، فَكَيْفَ نَازَعَهُمْ فِي الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ وَسَكَتَ عَنِ الْمُخْتَلَفِ فِيهِ ؟ وَأَجَابُوا عَنِ السُّؤَالِ بِاحْتِمَالِ أَنَّهُمْ كَانُوا يُحَرِّمُونَ الْمُذَكَّاةَ ، وَبِجَوَازِ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِمَا ذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ الِاقْتِصَارَ عَلَى الْمُذَكَّى دُونَ غَيْرِهِ فَيَكُونُ بِمَعْنَى تَحْرِيمِ الْمَيْتَةِ ، وَكُلٌّ مِنَ الْوَجْهَيْنِ بَاطِلٌ وَلَا مَحَلَّ لَهُ هُنَا كَمَا عَلِمْتَ ، وَقَدْ بَيَّنَّا مِنْ قَبْلُ أَنَّ سَبَبَ غَفْلَةِ أَذْكِيَاءِ الْمُفَسِّرِينَ عَنْ أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ اقْتِصَارُهُمْ فِي أَخْذِ التَّفْسِيرِ عَلَى الرِّوَايَاتِ الْمَأْثُورَةِ وَمَدْلُولِ الْأَلْفَاظِ فِي اللُّغَةِ أَوْ فِي عُرْفِ الْفُقَهَاءِ وَالْأُصُولِيِّينَ وَالْمُتَكَلِّمِينَ الَّذِي حَدَثَ بَعْدَ نُزُولِ الْقُرْآنِ بِزَمَنٍ طَوِيلٍ ، وَلَا يُغْنِي شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ عَنِ الِاسْتِعَانَةِ عَلَى فَهْمِ الْآيَاتِ الْوَارِدَةِ فِي شُؤُونِ الْبَشَرِ بِمَعْرِفَةِ الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ وَتَارِيخِ أَهْلِهَا وَمَا كَانُوا عَلَيْهِ فِي عَصْرِ التَّنْزِيلِ . وَقَدْ كَانَ مِنْ أَثَرِ تَقْصِيرِ الْمُفَسِّرِينَ وَعُلَمَاءِ

الْعَقَائِدِ وَالْأَحْكَامِ فِي أَهَمِّ مَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ فَهْمُ الْمُرَادِ مِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ الْآيَاتِ أَنْ وَقَعَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِيمَا كَانَ عَلَيْهِ أُولَئِكَ الضَّالُّونَ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ ، حَتَّى الذَّبْحِ لِبَعْضِ الصَّالِحِينَ وَتَسْيِيبِ السَّوَائِبِ لَهُمْ كَعِجْلِ الْبَدَوِيِّ الْمَشْهُورِ أَمْرُهُ فِي أَرْيَافِ مِصْرَ ، وَلَمَّا سَرَتْ هَذِهِ الضَّلَالَةُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ ذَكَرَ الْفُقَهَاءُ حُكْمَهَا وَمَتَى تَكُونُ كُفْرًا كَمَا سَيَأْتِي ، وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ مَسْأَلَةَ الذَّبَائِحِ مِنْ مَسَائِلِ الْعِبَادَاتِ الَّتِي كَانَ يُتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، ثُمَّ صَارُوا فِي عَهْدِ الْوَثَنِيَّةِ يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَى غَيْرِهِ وَذَلِكَ شِرْكٌ صَرِيحٌ ، وَهَذَا هُوَ الْوَجْهُ لِذِكْرِهَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ بَيْنَ مَسَائِلِ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ وَالشِّرْكِ وَالتَّوْحِيدِ .

(وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ) تَقُولُ الْعَرَبُ مَا لَكَ أَلَّا تَفْعَلَ كَذَا ، وَهُوَ مِنْ مُوجَزِ الْكَلَامِ بِالْحَذْفِ وَالتَّقْدِيرِ ، وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ هُنَا وَأَيُّ شَيْءٍ ثَبَتَ لَكُمْ مِنَ الْفَائِدَةِ فِي تَرْكِ الْأَكْلِ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ؟ وَكَلِمَةُ " فِي " تُحْذَفُ قَبْلَ أَنْ وَأَنَّ قِيَاسًا . وَقِيلَ : إِنَّ مَعْنَى الْجُمْلَةِ : وَأَيُّ شَيْءٍ يَمْنَعُكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ؟ وَإِنَّ هَذَا مَعْرُوفٌ فِي كَلَامِهِمْ ، وَالتَّقْدِيرُ الْأَوَّلُ أَظْهَرُ وَأَبْعَدُ عَنِ التَّكْلِيفِ

. وَالِاسْتِفْهَامُ هُنَا لِلْإِنْكَارِ ، أَيْ لَا فَائِدَةَ لَكُمْ أَلْبَتَّةَ فِي عَدَمِ الْأَكْلِ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ وَحْدَهُ عَلَيْهِ دُونَ مَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِهِ كَمَا يَفْعَلُهُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ قَوْمِكُمْ (وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ) أَيْ وَالْحَالُ أَنَّهُ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ وَبَيَّنَهُ بِقَوْلِهِ الْآتِي فِي هَذِهِ السُّورَةِ (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ) (145) أَيْ ذُكِرَ اسْمُ غَيْرِهِ عَلَيْهِ عِنْدَ ذَبْحِهِ كَأَسْمَاءِ الْأَصْنَامِ أَوِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ الَّذِينَ وُضِعَتِ الْأَصْنَامُ وَالتَّمَاثِيلُ ذِكْرَى لَهُمْ . وَالتَّفْصِيلُ وَالتَّبْيِينُ وَاحِدٌ ، فَهُوَ فَصْلُ بَعْضِ الْأَشْيَاءِ وَإِبَانَتُهَا مِنْ بَعْضٍ

*(105/249)*

---

آخَرَ يَتَّصِلُ بِهَا اتِّصَالًا حِسِّيًّا أَوْ مَعْنَوِيًّا ، كَالْأُمُورِ الَّتِي يَشْتَبِهُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ حَتَّى تُعَدَّ كَأَنَّهَا شَيْءٌ وَاحِدٌ فِي الْجِنْسِ ، إِذْ أَزَلْتَ مَا بِهِ الِاشْتِبَاهُ بَيْنَهَا بِمَا يَمْتَازُ بِهِ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ وَجَعَلْتَهَا أَنْوَاعًا تَكُونُ قَدْ فَصَّلْتَ كُلَّ نَوْعٍ مِنَ الْجِنْسِ وَأَبَنْتَهُ مِنَ الْآخَرِ . وَتَكْرِيرُ الْفَصْلِ هُوَ التَّفْصِيلُ . وَقَوْلُهُ : (إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ) اسْتِثْنَاءٌ مِمَّا حَرَّمَهُ ، فَمَتَى وَقَعَتِ الضَّرُورَةُ بِأَنْ لَمْ يُوجَدْ مِنَ الطَّعَامِ عِنْدَ شِدَّةِ الْجُوعِ إِلَّا الْمُحَرَّمُ زَالَ التَّحْرِيمُ . وَهَذِهِ قَاعِدَةٌ عَامَّةٌ فِي يُسْرِ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَالضَّرُورَةُ تُقَدَّرُ بِقَدْرِهَا ، فَيُبَاحُ لِلْمُضْطَرِّ مَا تَزُولُ بِهِ الضَّرُورَةُ وَيُتَّقَى

الْهَلَاكُ وَقَدْ تَقَدَّمَ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ التَّحْرِيمِ الْمُفَصَّلَةِ فِي أَوَائِلِ سُورَةِ الْمَائِدَةِ ، وَلَعَلَّ بَعْضَ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا يَأْكُلُونَ مِمَّا يَذْبَحُ الْمُشْرِكُونَ عَلَى النُّصُبِ وَيُهِلُّونَ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ قَبْلَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ ، بَلْ مِثْلُ هَذَا مِنَ الْأُمُورِ الْمُعْتَادَةِ الَّتِي لَا يَتْرُكُهَا أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا بَعْدَ التَّصْرِيحِ بِتَحْرِيمِهَا عَلَيْهِمْ ، وَإِنَّمَا يَفْطِنُ لِقُبْحِهَا خَوَاصُّ أَهْلِ الْبَصِيرَةِ فَيَتَنَزَّهُونَ عَنْهَا قَبْلَ أَنْ تُحَرَّمَ عَلَيْهِمْ ; وَلِذَلِكَ بُيِّنَتْ بِمَا تَرَى مِنَ الْإِسْهَابِ وَالْإِطْنَابِ .

*(106/249)*

---

قَرَأَ أَهْلُ الْكُوفَةِ غَيْرَ حَفْصٍ " فَصَّلَ " بِفَتْحِ الْفَاءِ وَ " حُرِّمَ " بِضَمِّ الْحَاءِ ، وَقَرَأَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَحَفْصٌ وَيَعْقُوبُ وَسَهْلٌ الْفِعْلَيْنِ بِفَتْحِ أَوَّلِهِمَا وَقَرَأَهُمَا الْبَاقُونَ بِضَمِّ أَوَّلِهِمَا ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ هَذِهِ الْقِرَاءَاتِ فِي الْمَعْنَى وَإِنَّمَا هِيَ تَوْسِعَةٌ فِي اللَّفْظِ .

(وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) قَرَأَ الْجُمْهُورُ يُضِلُّونَ (بضم الياء) وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَيَعْقُوبُ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَالْأُولَى أَبْلَغُ ، وَفَائِدَةُ الْقِرَاءَتَيْنِ بَيَانُ وُقُوعِ الْأَمْرَيْنِ بِالْإِيجَازِ الْعَجِيبِ ، وَالْمَعْنَى أَنَّ مِنَ الثَّابِتِ الْقَطْعِيِّ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يُضِلُّونَ غَيْرَهُمْ كَمَا ضَلُّوا فِي مِثْلِ أَكْلِ مَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ بِذِكْرِ اسْمِ ذَلِكَ الْغَيْرِ مِنْ نَبِيٍّ أَوْ صَالِحٍ أَوْ وَثَنٍ وُضِعَ لِتَعْظِيمِهِ وَالتَّذْكِيرِ بِهِ ، كَمَا أَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَضِلُّ فِي ذَلِكَ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ أَوْ بِإِضْلَالِ غَيْرِهِ وَلَا يَتَصَدَّى

لِإِضْلَالِ أَحَدٍ فِيهِ لِلْعَجْزِ عَنِ الْإِضْلَالِ أَوْ لِفَقْدِ الدَّاعِيَةِ ، وَكُلٌّ مِنْ ذَلِكَ الضَّلَالِ وَالْإِضْلَالِ وَاقِعٌ بِأَهْوَاءِ أَهْلِهِ لَا بِعِلْمٍ مُقْتَبَسٍ مِنَ الْوَحْيِ ، وَلَا مُسْتَنْبَطٍ بِحُجَجِ الْعَقْلِ .

(107/249)

---

وَمَهَبُّ هَذِهِ الْأَهْوَاءِ مَا كَانَ سَبَبَ الْوَثَنِيَّةِ وَأَصْلَهَا ، وَهُوَ أَنَّهُ كَانَ فِي الْقَوْمِ الَّذِينَ أَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ نَبِيَّهُ نُوحًا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - رِجَالٌ صَالِحُونَ عَلَى دِينِ الْفِطْرَةِ الْقَدِيمِ ، فَلَمَّا مَاتُوا وَضَعُوا لَهُمْ أَنْصَابًا تُمَثِّلُهُمْ لِيَتَذَكَّرُوهُمْ بِهَا وَيَقْتَدُوا بِهِمْ ، ثُمَّ صَارُوا يُكْرِمُونَهَا لِأَجْلِهِمْ ، ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِهِمْ أُنَاسٌ جَهِلُوا حِكْمَةَ وَضْعِهِمْ لَهَا ، وَإِنَّمَا حَفِظُوا عَنْهُمْ تَعْظِيمَهَا وَتَكْرِيمَهَا وَالتَّبَرُّكَ بِهَا تَدَيُّنًا وَتَوَسُّلًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، فَكَانَ ذَلِكَ عِبَادَةً لَهَا . وَتَسَلْسَلَ فِي الْأُمَمِ بَعْدَهُمْ ، فَعَلَى هَذَا الْأَصْلِ الَّذِي بُنِيَتْ عَلَيْهِ الْوَثَنِيَّةُ - كَمَا فِي الْبُخَارِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - يَبْنِي الْمُضِلُّونَ شُبُهَاتِهِمْ عَلَى جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي عَبَدُوا بِهَا غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى ، كَالتَّوَسُّلِ بِهِ وَدُعَائِهِ وَطَلَبِ الشَّفَاعَةِ مِنْهُ وَذَبْحِ الْقَرَابِينَ

(108/249)

---

بِاسْمِهِ وَالطَّوَافِ حَوْلَ تِمْثَالِهِ أَوْ قَبْرِهِ وَالتَّمَسُّحِ بِأَرْكَانِهِمَا ، وَكُلُّ ذَلِكَ شِرْكٌ فِي الْعِبَادَةِ شُبْهَتُهُ تَعْظِيمُ الْمُقَرَّبِينَ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِلتَّقْرِيبِ بِهِمْ إِلَيْهِ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ . وَقَدْ رَاجَتْ هَذِهِ الشُّبُهَاتُ الْوَثَنِيَّةُ فِي أَهْلِ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ بِالْأَهْوَاءِ الْجَهْلِيَّةِ . وَأَوَّلُوا لِأَجْلِهَا النُّصُوصَ الْقَطْعِيَّةَ ، وَأَجَازَ بَعْضُ مُنْتَحِلِي الْعِلْمِ الدِّينِيِّ مِنْهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ وَأَتْبَاعِهِمْ مِنْ ذَلِكَ مَا يَعُدُّونَهُ كُفْرًا وَشِرْكًا مِنْ غَيْرِهِمْ إِمَّا بِإِنْكَارِ تَسْمِيَتِهِ عِبَادَةً أَوْ بِدَعْوَى أَنَّ الْعِبَادَةَ الَّتِي يُتَوَجَّهُ بِهَا إِلَى غَيْرِ اللهِ تَعَالَى لِأَجْلِ جَعْلِهِ وَاسِطَةً وَوَسِيلَةً إِلَيْهِ لَا تُعَدُّ شِرْكًا بِهِ ، وَمَا الشِّرْكُ فِي الْعِبَادَةِ إِلَّا هَذَا ، وَلَوْ وُجِّهَتِ الْعِبَادَةُ إِلَى هَؤُلَاءِ الْوُسَطَاءِ لِذَوَاتِهِمْ طَلَبًا لِلنَّفْعِ أَوْ دَفْعِ الضَّرَرِ مِنْهُمْ أَنْفُسِهِمْ – وَهَذَا وَاقِعٌ أَيْضًا – لَكَانَتْ تَوْحِيدًا لِعِبَادَةِ هَؤُلَاءِ لَا إِشْرَاكًا لَهُمْ مَعَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ) (98 : 5) وَالْمُخْلِصُ لِلَّهِ : مَنْ خَلُصَتْ عِبَادَتُهُ مِنَ التَّوَجُّهِ إِلَى غَيْرِهِ مَعَهُ ، وَالْحَنِيفُ : مَنْ كَانَ مَائِلًا عَنْ غَيْرِهِ إِلَيْهِ ، فَمَا كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ مُوَحِّدًا لَهُ (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) (12 : 106) وَتَقَدَّمَ تَوْضِيحُ هَذِهِ الْمَعَانِي مِرَارًا .

*(109/249)*

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ) هَذَا التَّذْيِيلُ الْتِفَاتٌ عَنْ خِطَابِ الْمُؤْمِنِينَ كَافَّةً إِلَى خِطَابِ الرَّسُولِ خَاصَّةً ، أَيْ إِنَّ رَبَّكَ الَّذِي بَيَّنَ هَذِهِ الْهِدَايَةَ عَلَى لِسَانِكَ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ وَمِنْ سَائِرِ خَلْقِهِ بِالْمُعْتَدِينَ الَّذِينَ يَتَجَاوَزُونَ مَا أَحَلَّهُ لَهُمْ إِلَى مَا حَرَّمَهُ عَلَيْهِمْ ، أَوْ يَتَجَاوَزُونَ حَدَّ الضَّرُورَةِ عِنْدَ وُقُوعِهَا اتِّبَاعًا لِأَهْوَائِهِمْ ، وَتَقَدَّمَ تَفْصِيلُ الْقَوْلِ فِي الِاعْتِدَاءِ الْعَامِّ وَالْخَاصِّ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) (5 : 87) وَهَذَا الْإِخْبَارُ يَتَضَمَّنُ الْإِنْذَارَ وَالْوَعِيدَ ، أَيْ فَهُوَ يُجَازِيهِمْ عَلَى اعْتِدَائِهِمْ .

وَقَدِ اسْتَنْبَطَ بَعْضُهُمْ مِنَ الْآيَةِ تَحْرِيمَ الْقَوْلِ فِي الدِّينِ بِمُجَرَّدِ التَّقْلِيدِ وَعَصَبِيَّةِ الْمَذَاهِبِ ، لِأَنَّ ذَلِكَ مِنِ اتِّبَاعِ الْأَهْوَاءِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِذِ الْمُقَلِّدُ غَيْرُ عَالِمٍ بِمَا قَلَّدَ فِيهِ وَذَلِكَ بَدِيهِيٌّ فِي الْعَقْلِ ، وَمُتَّفَقٌ عَلَيْهِ فِي النَّقْلِ . قَالَ الرَّازِيُّ : دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ الْقَوْلَ فِي الدِّينِ بِمُجَرَّدِ التَّقْلِيدِ قَوْلٌ بِمَحْضِ الْهَوَى وَالشَّهْوَةِ وَالْآيَةُ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ حَرَامٌ .

*(110/249)*

---

(وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ) الْإِثْمُ فِي اللُّغَةِ : الْقَبِيحُ الضَّارُّ ، وَفِي الشَّرْعِ : كُلُّ مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَهُوَ لَمْ يُحَرِّمْ عَلَى الْعِبَادِ إِلَّا مَا كَانَ ضَارًّا بِالْأَفْرَادِ فِي أَنْفُسِهِمْ أَوْ أَمْوَالِهِمْ أَوْ عُقُولِهِمْ

أَوْ أَعْرَاضِهِمْ أَوْ دِينِهِمْ ، أَوْ ضَارًّا بِالْجَمَاعَاتِ فِي مَصَالِحِهِمُ السِّيَاسِيَّةِ أَوِ الاجْتِمَاعِيَّةِ .

وَالظَّاهِرُ مِنْهُ مَا فُعِلَ عَلَنًا وَالْبَاطِنُ مَا فُعِلَ سِرًّا ، أَوِ الظَّاهِرُ مَا ظَهَرَ قُبْحُهُ أَوْ ضَرَرُهُ لِلْعَامَّةِ ، وَإِنْ فُعِلَ سِرًّا ، وَالْبَاطِنُ مَا يَخْفَى ذَلِكَ فِيهِ إِلَّا عَنْ بَعْضِ الْخَاصَّةِ وَإِنْ فُعِلَ جَهْرًا ، أَوِ الظَّاهِرُ مَا تَعَلَّقَ بِأَعْمَالِ الْجَوَارِحِ ، وَالْبَاطِنُ مَا تَعَلَّقَ بِأَعْمَالِ الْقُلُوبِ كَالنِّيَّاتِ وَالْكِبْرِ وَالْحَسَدِ وَالتَّفْكِيرِ فِي تَدْبِيرِ الْمَكَايِدِ الضَّارَّةِ وَالشُّرُورِ ، وَيَجُوزُ الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْوُجُوهِ .

وَمِمَّا يَقْتَضِيهِ السِّيَاقُ مِمَّا يَدْخُلُ فِي عُمُومِ بَاطِنِ الْإِثْمِ عَلَى بَعْضِ

(111/249)

---

الْوُجُوهِ مَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ، فَهُوَ مِمَّا يَخْفَى عَلَى غَيْرِ الْعُلَمَاءِ بِحَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ ، وَمِنْهُ الِاعْتِدَاءُ فِي أَكْلِ الْمُحَرَّمِ الَّذِي يُبَاحُ لِلْمُضْطَرِّ بِأَنْ يَتَجَاوَزَ فِيهِ حَدَّ الضَّرُورَةِ . وَقِيلَ الْحَاجَةِ . وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (5 : 3) وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ مِنْ جَوَامِعِ الْكَلِمِ وَالْأُصُولِ الْكُلِّيَّةِ فِي تَحْرِيمِ الْآثَامِ حَتَّى قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ : إِنَّ الْمُرَادَ بِهَذَا التَّعْبِيرِ تَرْكُ الْإِثْمِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ ، أَيْ جَمِيعُ أَنْوَاعِ الظُّهُورِ وَالْبُطُونِ فِيهِ . وَقَدْ خَصَّ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ الظَّاهِرَ بِزِنَا السِّفَاحِ الَّذِي يَكُونُ فِي الْمَوَاخِيرِ ، وَالْبَاطِنَ بِاتِّخَاذِ الْأَخْدَانِ وَالصَّدِيقَاتِ فِي السِّرِّ ، وَكَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَسْتَبِيحُونَ زِنَا السِّرِّ

وَيَسْتَقْبِحُونَ السِّفَاحَ بِالْجَهْرِ ، وَخَصَّ بَعْضُهُمُ الظَّاهِرَ بِنِكَاحِ الْأُمَّهَاتِ وَالْأَخَوَاتِ وَأَزْوَاجِ الْآبَاءِ ، وَالْبَاطِنَ بِالزِّنَا ، وَالتَّخْصِيصُ بِغَيْرِ مُخَصِّصٍ بَاطِلٌ .

(112/249)

---

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ) تَقَدَّمَ مَعْنَى لَفْظِ الِاقْتِرَافِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ 113 مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ . وَمَعْنَى الْجُمْلَةِ : إِنَّ الَّذِينَ يَكْتَسِبُونَ جِنْسَ الْإِثْمِ سَوَاءٌ أَكَانَ ظَاهِرًا أَمْ بَاطِنًا سَيَلْقَوْنَ جَزَاءَ إِثْمِهِمْ بِقَدْرِ مَا كَانُوا يُبَالِغُونَ فِي إِفْسَادِ فِطْرَتِهِمْ ، وَتَدْسِيَةِ أَنْفُسِهِمْ بِالْإِصْرَارِ عَلَيْهِ وَمُعَاوَدَتِهِ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ ، كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ فِعْلُ الْكَوْنِ ، وَصِيغَةُ الْمُضَارِعِ الدَّالَّةُ عَلَى الِاسْتِمْرَارِ ، وَأَمَّا الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ : فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَيَمْحُو تَأْثِيرَ الْإِثْمِ مِنْ قُلُوبِهِمْ بِالْحَسَنَاتِ الْمُضَادَّةِ لَهَا (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) (11 : 114) فَتَعُودُ أَنْفُسُهُمْ زَكِيَّةً طَاهِرَةً ، وَتَلْقَى رَبَّهَا سَلِيمَةً بَارَّةً .

(113/249)

---

(وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ) أَمَرَ اللهُ - تَعَالَى - بِالْأَكْلِ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُهُ عَلَيْهِ فِي مَقَامِ بَيَانِ ضَلَالِ الْمُشْرِكِينَ وَإِضْلَالِهِمْ بِأَكْلِ مَا ذُكِرَ اسْمُ غَيْرِهِ عَلَيْهِ ، ثُمَّ صَرَّحَ بِالْمَفْهُومِ الْمُرَادِ مِنْ ذَلِكَ الْأَمْرِ ، وَلَمْ يَكْتَفِ بِدَلَالَةِ السِّيَاقِ عَلَى الْقَصْرِ ، لِشِدَّةِ الْعِنَايَةِ بِهَذَا الْأَمْرِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَظْهَرِ أَعْمَالِ الشِّرْكِ ، أَيْ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ مِنَ الذَّبَائِحِ عِنْدَ تَزْكِيَتِهِ ، وَالْحَالُ إِنَّهُ لَفِسْقٌ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِهِ كَمَا قَالَ فِي آيَةِ الْمُحَرَّمَاتِ : (أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ) فَالْآيَةُ لَا تَدُلُّ عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ مَا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ مِنَ الذَّبَائِحِ فَضْلًا عَنْ غَيْرِهَا مِنَ الْأَطْعِمَةِ خِلَافًا لِمَنْ قَالَ بِهَذَا وَذَاكَ ؛ لِأَنَّهَا خَاصَّةٌ بِتِلْكَ الْقَرَايِنِ الدِّينِيَّةِ وَأَمْثَالِهَا بِقَرِينَةِ السِّيَاقِ كَمَا تَقَدَّمَ شَرْحُهُ ، وَبِدَلِيلِ تَقْيِيدِ النَّهْيِ بِالْجُمْلَةِ الْحَالِيَّةِ كَمَا حَقَّقَهُ السَّعْدُ التَّفْتَازَانِيُّ ، وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ : (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) أَيْ وَإِنَّ شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ الَّذِينَ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ بِالْوَسْوَسَةِ وَالتَّلْقِينِ الْخَادِعِ الْخَفِيِّ مَا يُجَادِلُونَكُمْ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ فِيهَا فَجَارَيْتُمُوهُمْ فِي هَذِهِ

*(114/249)*

الْعِبَادَةِ الْوَثَنِيَّةِ الْبَاطِلَةِ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ مِثْلُهُمْ ؛ فَإِنَّ التَّعَبُّدَ بِالذَّبْحِ لِغَيْرِ اللهِ شِرْكٌ كَدُعَاءِ غَيْرِ اللهِ وَسَائِرِ مَا يُتَوَجَّهُ بِهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ لِغَيْرِهِ ، وَإِنْ كَانَ لِأَجْلِ التَّوَسُّلِ بِذَلِكَ الْغَيْرِ إِلَيْهِ لِيُقَرِّبَ الْمُتَوَسِّلَ إِلَيْهِ زُلْفَى وَيَشْفَعَ لَهُ عِنْدَهُ كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُ الْوَثَنِيَّةِ . وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ أَوْلِيَاءَ الشَّيَاطِينِ لَمْ يُجَادِلُوا أَحَدًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا

لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ وَلَا اسْمُ غَيْرِهِ عَلَيْهِ مِنَ الذَّبَائِحِ الْمُعْتَادَةِ الَّتِي لَا يُقْصَدُ بِهَا الْعِبَادَةُ ، وَأَنَّ مَنْ يَأْكُلُ هَذِهِ الذَّبَائِحَ لَا يَكُونُ مُشْرِكًا ، وَكَذَلِكَ مَنْ يَأْكُلُ الْمَيْتَةَ لَا يَكُونُ مُشْرِكًا بَلْ يَكُونُ عَاصِيًا إِنْ لَمْ يَكُنْ مُضْطَرًّا وَإِنْ كَانَ قَدْ وَقَعَ الْجِدَالُ فِي هَذِهِ .

*(115/249)*

---

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ : (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ) فَقَالَ بَعْضُهُمْ : عَنَى بِذَلِكَ شَيَاطِينَ فَارِسٍ وَمَنْ عَلَى دِينِهِمْ مِنَ الْمَجُوسِ (إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ) مِنْ مَرَدَةِ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ ، يُوحُونَ إِلَيْهِمْ زُخْرُفَ الْقَوْلِ لِيَصِلَ إِلَى نَبِيِّ اللهِ وَأَصْحَابِهِ فِي أَكْلِ الْمَيْتَةِ . وَرُوِيَ بِسَنَدِهِ عَنْ عِكْرِمَةَ فِي تَحْرِيمِ الْمَيْتَةِ قَالَ : أَوْحَتْ فَارِسُ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ مِنْ قُرَيْشٍ أَنْ خَاصِمُوا مُحَمَّدًا وَقُولُوا لَهُ : إِنَّ مَا ذَبَحْتَ فَهُوَ حَلَالٌ وَمَا ذَبَحَ اللهُ فَهُوَ حَرَامٌ ؟ وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ : كَتَبَتْ فَارِسُ إِلَى مُشْرِكِي قُرَيْشٍ أَنَّ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ

يَتَّبِعُونَ أَمْرَ اللَّهِ فَمَا ذَبَحَ اللَّهُ بِسِكِّينٍ مِنْ ذَهَبٍ فَلَا يَأْكُلُهُ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ وَأَمَّا مَا ذَبَحُوا هُمْ فَيَأْكُلُونَ . وَذَكَرَ أَنَّهُ وَقَعَ فِي أَنْفُسِ نَاسٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ فِي ذَلِكَ . ثُمَّ ذَكَرَ عَنْ بَعْضٍ آخَرَ أَنَّهُمْ أَوَّلُوا الْآيَةَ بِوَسْوَسَةِ شَيَاطِينِ الْجِنِّ لِمُشْرِكِي قُرَيْشٍ مَا قَالُوهُ لِلْمُسْلِمِينَ فِي رِوَايَاتٍ أُخْرَى كَرِوَايَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُمْ قَالُوا لَهُمْ : مَا قَتَلَ رَبُّكُمْ فَلَا تَأْكُلُونَهُ وَمَا قَتَلْتُمْ أَنْتُمْ تَأْكُلُونَهُ ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ فِي ذَلِكَ ، أَيْ فِي أَثْنَاءِ السُّورَةِ . وَرَجَّحَ ابْنُ جَرِيرٍ شُمُولَ الْآيَةِ لِلْقَوْلَيْنِ فِي وَحْيِ الشَّيَاطِينِ ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ فُرُوعِ قَوْلِهِ تَعَالَى قَبْلَهُ : (شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ

*(116/249)*

---

زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا) (112) ثُمَّ ذَكَرَ خِلَافَهُمْ فِي الْمُحَرَّمِ - بِهَذِهِ الْآيَةِ - الْمُرَادِ بِمَا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَرُوِيَ عَنِ ابْنِ جَرِيرٍ أَنَّهُ قَالَ : قُلْتُ لِعَطَاءٍ : مَا قَوْلُهُ (فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ) ؟ قَالَ : يَأْمُرُ بِذِكْرِ اسْمِ اللَّهِ عَلَيْهِ ، قَالَ وَيَنْهَى عَنْ ذَبَائِحَ كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَلَى الْأَوْثَانِ . ثُمَّ ذَكَرَ رِوَايَاتٍ أُخْرَى وَرَجَّحَ شُمُولَ الْآيَةِ لِمَا ذُبِحَ لِلْأَصْنَامِ وَالْآلِهَةِ وَمَا مَاتَ أَوْ ذَبَحَهُ مَنْ لَا تَحِلُّ ذَبِيحَتُهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ دُونَ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ ، قَالَ : وَذَبَائِحُ أَهْلِ الْكِتَابِ ذَكِّيَةٌ سَمَّوْا عَلَيْهَا أَمْ لَمْ يُسَمُّوا ؛ لِأَنَّهُمْ أَهْلُ تَوْحِيدٍ وَأَصْحَابُ كُتُبٍ لِلَّهِ يَدِينُونَ

بِأَحْكَامِهَا يَذْبَحُونَ الذَّبَائِحَ بِأَدْيَانِهِمْ كَمَا يَذْبَحُ الْمُسْلِمُ بِدِينِهِ سَمَّى اللَّهَ عَلَى ذَبِيحَتِهِ أَمْ لَمْ يُسَمِّهِ ، إلَّا أَنْ يَكُونَ مَنْ تَرَكَ تَسْمِيَةَ اللَّهِ عَلَى ذَبِيحَتِهِ عَلَى الدَّيْنُونَةِ بِالتَّعْطِيلِ أَوْ بِعِبَادَةِ شَيْءٍ سِوَى اللَّهِ فَيَحْرُمُ حِينَئِذٍ أَكْلُ ذَبِيحَتِهِ . انْتَهَى مُلَخَّصًا .

وَقَالَ الرَّازِيُّ فِي الْمَسْأَلَةِ الْأُولَى مِنْ مَسَائِلِ الْآيَةِ " نُقِلَ عَنْ عَطَاءٍ أَنَّهُ قَالَ : كُلُّ مَا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ فَهُوَ حَرَامٌ تَمَسُّكًا بِعُمُومِ هَذِهِ الْآيَةِ . وَأَمَّا سَائِرُ الْفُقَهَاءِ فَإِنَّهُمْ أَجْمَعُوا عَلَى تَخْصِيصِ هَذَا الْعُمُومِ بِالذَّبْحِ . ثُمَّ اخْتَلَفُوا فَقَالَ مَالِكٌ : كُلُّ مَا ذُبِحَ وَلَمْ يُذْكَرْ

(117/249)

---

عَلَيْهِ اسْمُ اللَّهِ فَهُوَ حَرَامٌ سَوَاءٌ تُرِكَ ذَلِكَ الذِّكْرُ عَمْدًا أَوْ نِسْيَانًا . وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ سِيرِينَ وَطَائِفَةٍ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ . وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - : إنْ تُرِكَ الذِّكْرُ عَمْدًا حُرِّمَ ، وَإِنْ تُرِكَ نِسْيَانًا حَلَّ ، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : يَحِلُّ مَتْرُوكُ التَّسْمِيَةِ سَوَاءٌ كَانَ عَمْدًا أَوْ خَطَأً إذَا كَانَ الذَّابِحُ أَهْلًا لِلذَّبْحِ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ عَلَى الِاسْتِقْصَاءِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ : (إلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ) (5 : 3) فَلَا فَائِدَةَ فِي الْإِعَادَةِ .

(118/249)

" قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ : هَذَا النَّهْيُ مَخْصُوصٌ بِمَا إِذَا ذُبِحَ عَلَى اسْمِ النُّصُبِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ وُجُوهٌ (أَحَدُهَا) قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ) وَأَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّهُ لَا يُفَسَّقُ آكِلُ ذَبِيحَةِ الْمُسْلِمِ الَّذِي تَرَكَ التَّسْمِيَةَ . (وَثَانِيهَا) قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ) وَهَذِهِ الْمُنَاظَرَةُ إِنَّمَا كَانَتْ فِي مَسْأَلَةِ الْمَيْتَةِ . رُوِيَ أَنَّ نَاسًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لِلْمُسْلِمِينَ : مَا يَقْتُلُهُ الصَّقْرُ وَالْكَلْبُ تَأْكُلُونَهُ وَمَا يَقْتُلُهُ اللَّهُ فَلَا تَأْكُلُونَهُ ؟ وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُمْ قَالُوا : تَأْكُلُونَ مَا تَقْتُلُونَهُ وَلَا تَأْكُلُونَ مَا يَقْتُلُهُ اللَّهُ . فَهَذِهِ الْمُنَاظَرَةُ مَخْصُوصَةٌ بِأَكْلِ الْمَيْتَةِ ، (وَثَالِثُهَا) قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) وَهَذَا مَخْصُوصٌ بِمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ، يَعْنِي لَوْ رَضِيتُمْ بِهَذِهِ الذَّبِيحَةِ الَّتِي ذُبِحَتْ عَلَى اسْمِ إِلَاهِيَّةِ الْأَوْثَانِ فَقَدْ رَضِيتُمْ بِإِلَاهِيَّتِهَا وَذَلِكَ يُوجِبُ الشِّرْكَ .

*(119/249)*

---

" قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : فَأَوَّلُ هَذِهِ الْآيَةِ وَإِنْ كَانَ عَامًّا بِحَسَبِ هَذِهِ الصِّيغَةِ إِلَّا أَنَّ آخِرَهَا لَمَّا حَصَلَتْ فِيهِ هَذِهِ الْقُيُودُ الثَّلَاثَةُ عَلِمْنَا أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ ذَلِكَ الْعُمُومِ هُوَ هَذَا الْخُصُوصُ وَمِمَّا يُؤَكِّدُ هَذَا الْمَعْنَى أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ : (وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ

لَفِسْقٌ) فَقَدْ صَارَ هَذَا النَّهْيُ مَخْصُوصًا بِمَا إذَا كَانَ هَذَا الْأَكْلُ فِسْقًا ، ثُمَّ طَلَبْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ مَتَى يَصِيرُ فِسْقًا ، فَرَأَيْنَا هَذَا الْفِسْقَ مُفَسَّرًا فِي آيَةٍ أُخْرَى وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ) فَصَارَ الْفِسْقُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مُفَسَّرًا بِمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ قَوْلُهُ : (وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ) مَخْصُوصًا بِمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ اهـ .

وَقَدْ سَبَقَ الْبَحْثُ فِيمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ وَفِي الذَّبَائِحِ وَالتَّسْمِيَةِ عَلَيْهَا فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْمَائِدَةِ فَتُرَاجَعْ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ التَّفْسِيرِ [ص113 ، 145 وَمَا بَعْدَهُمَا ط الْهَيْئَةِ] .

(120/249)

---

وَقَدْ عَدَّ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ مِمَّا يُذْبَحُ لِغَيْرِ اللَّهِ وَيَتَنَاوَلُهُ التَّحْرِيمُ مَا ذُبِحَ عِنْدَ قُدُومِ السُّلْطَانِ أَوْ غَيْرِهِ مِنْ كُبَرَاءِ الدُّنْيَا تَكْرِيمًا لَهُ إذَا ذُكِرَ اسْمُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ ذَبْحِهِ . وَالتَّحْقِيقُ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَنَّ كُلَّ مَا يُذْبَحُ بِبَاعِثٍ دِينِيٍّ فَهُوَ عِبَادَةٌ ، وَالْعِبَادَةُ لَا تَكُونُ إلَّا لِلَّهِ تَعَالَى فَلَا يُذْكَرُ غَيْرُ اسْمِهِ عَلَيْهِ ، وَمَا كَانَ لِأَجْلِ التَّكْرِيمِ بِالْمُبَالَغَةِ فِي الضِّيَافَةِ فَلَا يَدْخُلُ فِي هَذَا الْبَابِ ، وَلَا يَذْكُرُ الْمُسْلِمُ اسْمَ السُّلْطَانِ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الضُّيُوفِ الْمُكَرَّمِينَ عِنْدَ الذَّبْحِ كَمَا يَذْكُرُ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى ،

أَوْ كَمَا يُهِلُّ مَنْ يَذْبَحُونَ لِلْأَصْنَامِ أَوْ لِلْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ بِأَسْمَائِهِمْ عِنْدَ الذَّبْحِ . وَإِنَّمَا يَذْكُرُهُ مَنْ يُذَكِّرُهُ لِبَيَانِ أَنَّ هَذَا لِأَجْلِ ضِيَافَتِهِ . وَقَدْ ذَكَرَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ صَاحِبُ (الرَّوْضَةِ النَّدِيَّةِ بِشَرْحِ الدُّرَرِ الْبَهِيَّةِ) وَبَيَّنَ وَجْهَ الْخِلَافِ فِيهَا وَجَاءَ فِي سِيَاقِ الْكَلَامِ بِفَوَائِدَ تَتَعَلَّقُ بِالْمَقَامِ فَقَالَ :

*(121/249)*

---

" وَأَمَّا الذَّبْحُ لِلسُّلْطَانِ وَهَلْ هُوَ دَاخِلٌ فِي عُمُومِ مَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ أَمْ لَا ؟ فَقَدْ أَجَابَ الْمَاتِنُ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي بَحْثٍ لَهُ عَلَى ذَلِكَ بِمَا لَفْظُهُ : اعْلَمْ أَنَّ الْأَصْلَ الْحِلُّ كَمَا صَرَّحَتْ بِهِ الْعُمُومَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ وَالْحَدِيثِيَّةُ ، فَلَا يُحْكَمُ بِتَحْرِيمِ فَرْدٍ مِنَ الْأَفْرَادِ أَوْ نَوْعٍ مِنَ الْأَنْوَاعِ إلَّا بِدَلِيلٍ يَنْقُضُ ذَلِكَ الْأَصْلَ الْمَعْلُومَ مِنَ الشَّرِيعَةِ الْمُطَهَّرَةِ ، مِثْلُ تَحْرِيمِ مَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَالْمَيْتَةِ وَالْمُتَرَدِّيَةِ وَالنَّطِيحَةِ وَالْمَوْقُوذَةِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ ، وَكُلِّ شَيْءٍ خَرَجَ مِنْ ذَلِكَ الْأَصْلِ بِدَلِيلٍ مِنَ الْكِتَابِ أَوِ السُّنَّةِ الْمُطَهَّرَةِ كَتَحْرِيمِ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ وَمِخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ وَتَحْرِيمِ الْحُمُرِ الْإِنْسِيَّةِ . وَقَدْ ذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ إلَى أَنَّ أُصُولَ التَّحْرِيمِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْإِجْمَاعُ وَالْقِيَاسُ ، أَوْ وُقُوعُ الْأَمْرِ بِالْقَتْلِ أَوِ النَّهْيِ عَنْهُ أَوِ الِاسْتِخْبَاثِ أَوِ التَّحْرِيمِ عَلَى الْأُمَمِ السَّالِفَةِ - إذَا لَمْ يُنْسَخْ - فَلَا بُدَّ لِلْقَائِلِ بِتَحْرِيمِ فَرْدٍ مِنَ الْأَفْرَادِ أَوْ نَوْعٍ مِنَ

الْأَنْوَاعِ مِنِ انْدِرَاجِهِ تَحْتَ أَصْلٍ مِنْ هَذِهِ الْأُصُولِ ، فَإِنْ تَعَذَّرَ عَلَيْهِ ذَلِكَ فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَتَقَوَّلَ عَلَى اللهِ مَا لَمْ يَقُلْ ، فَإِنَّ مَنْ حَرَّمَ مَا أَحَلَّ اللهُ كَمَنْ حَلَّلَ مَا حَرَّمَ اللهُ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا ، وَفِي ذَلِكَ مِنَ الْإِثْمِ مَا لَا يَخْفَى عَلَى عَارِفٍ ، وَلَا شَكَّ

*(122/249)*

---

أَنَّ الْبَرَاءَةَ الْأَصْلِيَّةَ بِمُجَرَّدِهَا كَافِيَةٌ عَلَى مَا هُوَ الْحَقُّ ، فَكَيْفَ إِذَا انْضَمَّ إِلَيْهَا مِنَ الْعُمُومَاتِ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا) الْآيَةَ . وَقَوْلِهِ : (أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ) (5 : 4) وَقَوْلُهُ : (وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ) (7 : 32) وَقَوْلُهُ : (كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) وَقَوْلُهُ : (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) (2 : 29) وَقَوْلُهُ : (وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ) (7 : 157) .

" وَالْحَاصِلُ أَنَّ الْوَاجِبَ وَقْفُ التَّحْرِيمِ عَلَى الْمَنْصُوصِ عَلَى حُرْمَتِهِ وَالتَّحْلِيلِ عَلَى مَا عَدَاهُ ، وَقَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ حَدِيثُ سَلْمَانَ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " الْحَلَالُ مَا أَحَلَّ اللهُ فِي كِتَابِهِ وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَ اللهُ فِي كِتَابِهِ وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ مِمَّا عَفَا عَنْهُ " وَأَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَوْقُوفًا : كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَأْكُلُونَ أَشْيَاءَ وَيَتْرُكُونَ أَشْيَاءَ تَقَذُّرًا ، فَبَعَثَ اللهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ وَأَنْزَلَ كِتَابَهُ فَأَحَلَّ حَلَالَهُ وَحَرَّمَ حَرَامَهُ فَمَا

(123/249)

---

أَحَلَّ فَهُوَ حَلَالٌ وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَفْوٌ ، وَتَلَا : (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا) وَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ قَبِيصَةَ بْنِ هُلْبٍ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ قَالَ لَهُ رَجُلٌ : إِنَّ مِنَ الطَّعَامِ طَعَامًا أَتَحَرَّجُ مِنْهُ ، فَقَالَ : " ضَارَعْتَ النَّصْرَانِيَّةَ لَا يَخْتَلِجَنَّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ " .

(124/249)

---

" إِذَا تَقَرَّرَ هَذَا فَمَسْأَلَةُ السُّؤَالِ أَعْنِي مَا ذُبِحَ مِنَ الْأَنْعَامِ لِقُدُومِ السُّلْطَانِ وَالِاسْتِدْلَالِ عَلَى تَحْرِيمِ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ) فَاسِدٌ ، فَإِنَّ الْإِهْلَالَ رَفْعُ الصَّوْتِ لِلصَّنَمِ وَنَحْوِهِ وَذَلِكَ قَوْلُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ بِاسْمِ اللَّاتِ وَالْعُزَّى . كَذَا قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي الْكَشَّافِ : وَالذَّابِحُ عِنْدَ قُدُومِ السُّلْطَانِ لَا يَقُولُ عِنْدَ ذَبْحِهِ " بِاسْمِ السُّلْطَانِ " ، وَلَوْ فُرِضَ وُقُوعُ ذَلِكَ كَانَ مُحَرَّمًا بِلَا نِزَاعٍ ، وَلَكِنَّهُ يَقُولُ بِاسْمِ اللهِ ، وَقَدِ اسْتُدِلَّ عَلَى ذَلِكَ بِمَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ

وَسَلَّمَ يَقُولُ : " لَعَنَ اللَّهُ مِنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ " الْحَدِيثَ . وَلَيْسَ ذَلِكَ الِاسْتِدْلَالُ بِصَحِيحٍ فَإِنَّ الذَّبْحَ لِغَيْرِ اللَّهِ كَمَا بَيَّنَهُ شُرَّاحُ هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، أَنْ يَذْبَحَ بِاسْمِ غَيْرِ اللَّهِ كَمَنْ ذَبَحَ لِلصَّنَمِ أَوْ لِلصَّلِيبِ أَوْ لِمُوسَى أَوْ لِعِيسَى أَوْ لِلْكَعْبَةِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ ، فَكُلُّ هَذَا حَرَامٌ وَلَا تَحِلُّ هَذِهِ الذَّبِيحَةُ سَوَاءٌ كَانَ الذَّابِحُ مُسْلِمًا أَوْ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا كَمَا نَصَّ عَلَى ذَلِكَ الشَّافِعِيُّ ، وَأَصْحَابُهُ قَالَ النَّوَوِيُّ فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ فَإِنْ

قَصَدَ الذَّابِحُ مَعَ ذَلِكَ تَعْظِيمَ الْمَذْبُوحِ لَهُ - وَكَانَ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى - وَالْعِبَادَةَ لَهُ كَانَ ذَلِكَ كُفْرًا ، فَإِنْ كَانَ الذَّابِحُ مُسْلِمًا قَبْلَ ذَلِكَ صَارَ بِالذَّبْحِ مُرْتَدًّا انْتَهَى .

*(125/249)*

---

" وَهَذَا إذَا كَانَ الذَّبْحُ بِاسْمِ أَمْرٍ مِنْ تِلْكَ الْأُمُورِ لَا إذَا كَانَ لِلَّهِ وَقُصِدَ بِهِ الْإِكْرَامُ لِمَنْ يَجُوزُ إكْرَامُهُ ، فَإِنَّهُ لَا وَجْهَ لِتَحْرِيمِ الذَّبِيحَةِ . هَاهُنَا كَمَا سَلَفَ . وَذَكَرَ الشَّيْخُ إبْرَاهِيمُ الْمَرْوَذِيُّ مِنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ أَنَّ مَا يُذْبَحُ عِنْدَ اسْتِقْبَالِ السُّلْطَانِ تَقَرُّبًا إلَيْهِ أَفْتَى أَهْلُ بُخَارَى بِتَحْرِيمِهِ ؛ لِأَنَّهُ مِمَّا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ، وَقَالَ الرَّافِعِيُّ : هَذَا إنَّمَا يَذْبَحُونَهُ اسْتِبْشَارًا بِقُدُومِهِ فَهُوَ كَذَبْحِ الْعَقِيقَةِ لِوِلَادَةِ الْمَوْلُودِ ، وَمِثْلُ هَذَا لَا يُوجِبُ التَّحْرِيمَ انْتَهَى . وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ ، وَفِي رَوْضَةِ الْإِمَامِ النَّوَوِيِّ : مَنْ ذَبَحَ لِلْكَعْبَةِ تَعْظِيمًا لَهَا لِكَوْنِهَا بَيْتَ اللَّهِ أَوْ لِرَسُولِ اللَّهِ لِأَنَّهُ

رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهَذَا لَا يَمْنَعُ الذَّبِيحَةَ بَلْ تَحِلُّ . قَالَ : وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ الذَّبْحُ الَّذِي يُذْبَحُ عِنْدَ اسْتِقْبَالِ السُّلْطَانِ اسْتِبْشَارًا بِقُدُومِهِ فَإِنَّهُ نَازِلٌ مَنْزِلَةَ الذَّبْحِ لِعَقِيقَةِ الْوِلَادَةِ . انْتَهَى . وَقَدْ أَشْعَرَ أَوَّلُ كَلَامِهِ أَنَّ مَنْ ذَبَحَ لِلسُّلْطَانِ تَعْظِيمًا لَهُ لِكَوْنِهِ سُلْطَانَ الْإِسْلَامِ كَانَ ذَلِكَ جَائِزًا مِثْلَ الذَّبْحِ

(126/249)

---

لَهُ لِأَجْلِ الِاسْتِبْشَارِ بِقُدُومِهِ ، إذْ لَا فَرْقَ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ الذَّبْحِ لِلْكَعْبَةِ تَعْظِيمًا لَهَا لِكَوْنِهَا بَيْتَ اللهِ . وَذَكَرَ الدَّوَّارِيُّ أَنَّ مَنْ ذَبَحَ لِلْجِنِّ وَقَصَدَ بِهِ التَّقَرُّبَ إلَى اللهِ تَعَالَى لِيَصْرِفَ عَنْهُ شَرَّهُمْ فَهُوَ حَلَالٌ ، وَإِنْ قَصَدَ الذَّبْحَ لَهُمْ فَهُوَ حَرَامٌ . انْتَهَى .

وَهَذَا يُسْتَفَادُ مِنْهُ حِلُّ مَا ذُبِحَ لِإِكْرَامِ السُّلْطَانِ – بِالْأَوْلَى – وَذَلِكَ هُوَ الْحَقُّ ، لِمَا أَسْلَفْنَاهُ مِنْ أَنَّ الْأَصْلَ هُوَ الْحِلُّ ، وَأَنَّ الْأَدِلَّةَ الْعَامَّةَ قَدْ دَلَّتْ عَلَيْهِ ، وَعَدَمِ وُجُودِ نَاقِلٍ عَنْ ذَلِكَ الْأَصْلِ وَلَا مُخَصِّصٍ لِذَلِكَ الْعُمُومِ وَاللهُ أَعْلَمُ . " انْتَهَى كَلَامُ الشَّوْكَانِيِّ . وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى التَّفْرِقَةِ بَيْنَ مَا يُذْبَحُ لِلتَّقَرُّبِ إلَى غَيْرِ اللهِ تَعَالَى وَبَيْنَ مَا يُذْبَحُ لِغَيْرِهِ مِنَ الِاسْتِبْشَارِ وَنَحْوِهِ

كَالذَّبْحِ لِلْعَقِيقَةِ وَالْوَلِيمَةِ وَالضِّيَافَةِ وَنَحْوِهَا ، فَالْأَوَّلُ يَحْرُمُ وَالثَّانِي يَحِلُّ .

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ الْمَكِّيُّ فِي الزَّوَاجِرِ : وَجَعَلَ أَصْحَابُنَا مِمَّا يُحَرِّمُ الذَّبِيحَةَ أَنْ يَقُولَ

(127/249)

---

بِاسْمِ اللَّهِ وَاسْمِ مُحَمَّدٍ أَوْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِجَرِّ اسْمِ الثَّانِي - أَوْ مُحَمَّدٍ إنْ عُرِفَ النَّحْوُ فِيمَا يَظْهَرُ ، أَوْ أَنْ يَذْبَحَ كِتَابِيٌّ لِكَنِيسَةٍ أَوْ لِصَلِيبٍ أَوْ لِمُوسَى أَوْ لِعِيسَى أَوْ مُسْلِمٌ لِلْكَعْبَةِ أَوْ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، أَوْ تَقَرُّبًا لِسُلْطَانٍ أَوْ غَيْرِهِ أَوْ لِلْجِنِّ فَهَذَا كُلُّهُ يُحَرِّمُ الْمَذْبُوحَ وَهُوَ كَبِيرَةٌ قَالَ : وَمَعْنَى مَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ مَا ذُبِحَ لِلطَّوَاغِيتِ وَالْأَصْنَامِ قَالَهُ جَمْعٌ . وَقَالَ آخَرُونَ : يَعْنِي مَا ذُكِرَ عَلَيْهِ غَيْرُ اسْمِ اللَّهِ . قَالَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ : وَهَذَا الْقَوْلُ أَوْلَى لِأَنَّهُ أَشَدُّ مُطَابَقَةً لِلَفْظِ الْآيَةِ . قَالَ الْعُلَمَاءُ : " لَوْ ذَبَحَ مُسْلِمٌ ذَبِيحَةً وَقَصَدَ بِذَبْحِهِ التَّقَرُّبَ بِهَا إلَى غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى صَارَ مُرْتَدًّا وَذَبِيحَتُهُ ذَبِيحَةُ مُرْتَدٍّ " . انْتَهَى كَلَامُ الزَّوَاجِرِ ، وَقَالَ صَاحِبُ الرَّوْضِ : إنَّ الْمُسْلِمَ إذَا ذَبَحَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَفَرَ ، انْتَهَى ، قَالَ الشَّوْكَانِيُّ فِي الدُّرِّ النَّضِيدِ : وَهَذَا الْقَائِلُ مِنْ أَئِمَّةِ الشَّافِعِيَّةِ وَإِذَا كَانَ الذَّبْحُ لِسَيِّدِ الرُّسُلِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُفْرًا عِنْدَهُ فَكَيْفَ الذَّبْحُ لِسَائِرِ الْأَمْوَاتِ ؟ انْتَهَى .

(128/249)

قَالَ الشَّيْخُ الْفَاضِلُ مُفْتِي الدِّيَارِ النَّجْدِيَّةِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حَسَنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ ابْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَلِيٍّ فِي كِتَابِهِ " فَتْحِ الْمَجِيدِ شَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ " فِي بَابِ مَا جَاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللهِ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ تَقِيُّ الدِّينِ أَحْمَدُ بْنُ تَيْمِيَّةَ – رَحِمَهُ اللهُ – فِي كِتَابِهِ (اقْتِضَاءُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ) فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ) الظَّاهِرُ أَنَّهُ مَا ذُبِحَ لِغَيْرِ اللهِ ، مِثْلُ أَنْ يُقَالَ : هَذَا ذَبِيحَةٌ لِكَذَا . وَإِذَا كَانَ هَذَا هُوَ الْمَقْصُودَ فَسَوَاءٌ لَفَظَ بِهِ أَوْ لَمْ يَلْفِظْ ، وَتَحْرِيمُ هَذَا أَظْهَرُ مِنْ تَحْرِيمِ مَا ذُبِحَ لِلَّحْمِ وَقَالَ فِيهِ بِاسْمِ الْمَسِيحِ وَنَحْوِهِ ، كَمَا أَنَّ مَا ذَبَحْنَاهُ مُتَقَرِّبِينَ بِهِ إِلَى اللهِ كَانَ أَزْكَى وَأَعْظَمَ مِمَّا ذَبَحْنَاهُ لِلَحْمٍ وَقُلْنَا عَلَيْهِ بِاسْمِ اللهِ ، فَإِذَا حَرُمَ مَا قِيلَ فِيهِ بِاسْمِ الْمَسِيحِ أَوِ الزُّهَرَةِ فَلَأَنْ يَحْرُمَ مَا قِيلَ فِيهِ لِأَجْلِ الْمَسِيحِ أَوِ الزُّهَرَةِ أَوْ قُصِدَ بِهِ ذَلِكَ أَوْلَى ، فَإِنَّ الْعِبَادَةَ لِغَيْرِ اللهِ أَعْظَمُ كُفْرًا مِنَ الِاسْتِعَانَةِ بِغَيْرِ اللهِ ، وَعَلَى هَذَا فَلَوْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ مُتَقَرِّبًا إِلَيْهِ يَحْرُمُ ، وَإِنْ قَالَ فِيهِ بِاسْمِ اللهِ كَمَا قَدْ يَفْعَلُهُ طَائِفَةٌ مِنْ مُنَافِقِي هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّذِينَ قَدْ يَتَقَرَّبُونَ إِلَى الْكَوَاكِبِ بِالذَّبْحِ وَالْبَخُورِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، وَإِنْ كَانَ هَؤُلَاءِ مُرْتَدِّينَ لَا تُبَاحُ ذَبِيحَتُهُمْ بِحَالٍ ؛ لِكَوْنِهِ يَجْتَمِعُ فِي الذَّبِيحَةِ مَانِعَانِ : الْأَوَّلُ :

أَنَّهُ مِمَّا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ ، وَالثَّانِي أَنَّهَا ذَبِيحَةُ مُرْتَدٍّ . وَمِنْ هَذَا الْبَابِ مَا يَفْعَلُهُ الْجَاهِلُونَ بِمَكَّةَ مِنَ الذَّبْحِ لِلْجِنِّ ، وَلِهَذَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ نَهَى عَنْ ذَبَائِحِ الْجِنِّ انْتَهَى . قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : كَانُوا إِذَا اشْتَرَوْا دَارًا أَوْ بَنَوْهَا أَوِ اسْتَخْرَجُوا عَيْنًا ذَبَحُوا ذَبِيحَةً خَوْفًا أَنْ تُصِيبَهُمُ الْجِنُّ فَأُضِيفَتْ إِلَيْهِمُ الذَّبَائِحُ لِذَلِكَ . انْتَهَى كَلَامُ فَتْحِ الْمَجِيدِ . وَقَدْ نَقَلَ الشَّوْكَانِيُّ أَيْضًا الْعِبَارَةَ الْمُتَقَدِّمَةَ لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ فِي رِسَالَتِهِ (الدُّرُّ النَّضِيدُ) وَاسْتَدَلَّ بِهِ عَلَى تَحْرِيمِ مَا ذُبِحَ لِغَيْرِ اللهِ تَعَالَى سَوَاءٌ لَفَظَ بِهِ الذَّابِحُ عِنْدَ الذَّبْحِ أَوْ لَمْ يَلْفِظْ وَهَذَا هُوَ الْحَقُّ . انْتَهَى كَلَامُ الرَّوْضَةِ النَّدِيَّةِ .

(تَنْبِيهٌ) السُّنَّةُ الثَّابِتَةُ فِي التَّسْمِيَةِ عَلَى الطَّعَامِ وَالذَّبْحِ وَالصَّيْدِ هِيَ "بِاسْمِ اللهِ" فَقَطْ وَمَنْ زَادَ "الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" فَلَيْسَ لَهُ حُجَّةٌ .

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)

*(130/249)*

وَجْهُ اتِّصَالِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ بِمَا قَبْلَهُمَا أَنَّهُ جَاءَ فِي الْآيَاتِ الَّتِي قَبْلَهُمَا أَنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ الْأَرْضِ ضَالُّونَ مُتَّبِعُونَ لِلظَّنِّ وَالْخَرْصِ ، وَأَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ يُضِلُّونَ غَيْرَهُمْ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَأَنَّ الشَّيَاطِينَ الْمُتَمَرِّدِينَ الْعَاتِينَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ يُوحُونَ إلَى أَوْلِيَائِهِمْ مَا يُجَادِلُونَ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ لِيُضِلُّوهُمْ وَيَحْمِلُوهُمْ عَلَى اقْتِرَافِ الْآثَامِ الَّتِي نَهَتْ تِلْكَ الْآيَاتُ عَنْ ظَاهِرِهَا وَبَاطِنِهَا ، بَلْ لِيَحْمِلُوهُمْ عَلَى الشِّرْكِ أَيْضًا بِالذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَالتَّوَسُّلِ بِهِ إلَيْهِ وَذَلِكَ عِبَادَةٌ لَهُ مَعَهُ ، فَلَمَّا بَيَّنَ اللَّهُ - تَعَالَى - مَا ذَكَرَ ضَرَبَ لَهُ مَثَلًا يَتَبَيَّنُ بِهِ الْفَرْقُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُهْتَدِينَ ؛ لِلِاقْتِدَاءِ بِهِمْ ، وَالْكَافِرِينَ الضَّالِّينَ ؛ لِلتَّنْفِيرِ مِنْ طَاعَتِهِمْ وَالْحَذَرِ مِنْ غِوَايَتِهِمْ ، وَبَيَّنَ أَنَّ سَبَبَهُ مَا زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ فَلَمْ يُمَيِّزُوا بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلُمَاتِ وَسُنَّةِ اللَّهِ فِي مَكْرِ أَكَابِرِ الْمُجْرِمِينَ السَّيِّئَاتِ فَقَالَ :

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا) قَرَأَ جُمْهُورُ الْقُرَّاءِ (مَيْتًا) بِسُكُونِ الْيَاءِ وَنَافِعٌ وَيَعْقُوبُ بِتَشْدِيدِهَا ،

*(131/249)*

---

وَالتَّشْدِيدُ أَصْلُ التَّخْفِيفِ الَّذِي حُذِفَتْ فِيهِ الْيَاءُ الثَّانِيَةُ الْمُنْقَلِبَةُ عَنْ الْوَاوِ فِي التَّشْدِيدِ ، وَالِاسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ ، وَهَمْزَةُ الِاسْتِفْهَامِ دَاخِلَةٌ عَلَى جُمْلَةٍ مَحْذُوفَةٍ لِلْعِلْمِ بِهَا مِنْ السِّيَاقِ

(وَهُوَ مِنْ لَطَائِفِ الْإِيجَازِ) عَطَفَ عَلَيْهَا قَوْلَهُ : " وَمَنْ كَانَ مَيْتًا " وَالتَّقْدِيرُ : أَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ كَأُولَئِكَ الشَّيَاطِينِ أَوْ كَأَوْلِيَائِهِمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَكُمْ بِمَا أَوْحَوْهُ إِلَيْهِمْ مِنْ زُخْرُفِ الْقَوْلِ الَّذِي غَرُّوهُمْ بِهِ ، وَمَنْ كَانَ مَيْتًا بِالْكُفْرِ وَالْجَهْلِ فَأَحْيَيْنَاهُ بِالْإِيمَانِ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ - وَهُوَ نُورُ الْقُرْآنِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ وَالْهِدَايَةِ بِالْآيَاتِ - إِلَى الْعِلْمِ النَّظَرِيِّ . كَمَنْ مَثَلُهُ أَيْ كَمَنْ صِفَتُهُ وَنَعْتُهُ الَّذِي يُمَثِّلُ حَالَهُ هُوَ أَنَّهُ خَابِطٌ فِي ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ وَالتَّقْلِيدِ الْأَعْمَى وَفَسَادِ الْفِطْرَةِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا . لِأَنَّهَا قَدْ أَحَاطَتْ بِهِ وَأَلِفَتْهَا نَفْسُهُ فَلَمْ يَعُدْ يَشْعُرُ بِالْحَاجَةِ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْهَا إِلَى النُّورِ ، بَلْ رُبَّمَا يَشْعُرُ بِالتَّأَلُّمِ مِنْهُ فَهُوَ بِإِزَاءِ النُّورِ الْمَعْنَوِيِّ كَالْخُفَّاشِ بِإِزَاءِ النُّورِ الْحِسِّيِّ هَذَا التَّقْدِيرُ لِلْجُمْلَةِ الِاسْتِفْهَامِيَّةِ الْمَحْذُوفَةِ هُوَ الَّذِي ارْتَضَاهُ بَعْضُ الْمُدَقِّقِينَ فِي الْعَرَبِيَّةِ ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَدَّرَ مَا هُوَ أَقْرَبُ مِنْهُ إِلَى الْمَعْنَى الَّذِي يَصِلُ الْآيَةَ بِمَا قَبْلَهَا مُبَاشَرَةً وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ)

*(132/249)*

---

بِأَنْ يُقَالَ : إِنَّ تَقْدِيرَ الْكَلَامِ : أَطَاعَةُ هَؤُلَاءِ الْمُتَّبِعِينَ لِوَحْيِ الشَّيَاطِينِ ، كَطَاعَةِ وَحْيِ اللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ النُّورُ الْمُبِينُ ، وَمَنْ كَانَ مَيْتًا بِالْكُفْرِ وَالشِّرْكِ فَأَحْيَيْنَاهُ بِالْإِيمَانِ ، وَكَانَ مُتَسَكِّعًا فِي ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ وَالْغَبَاوَةِ وَتَقْلِيدِ أَهْلِ الضَّلَالِ فَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْمُؤَيِّدَةِ

بِالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ ، يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ فِي دِينِهِ وَآدَابِهِ وَمُعَامَلَاتِهِ لِلنَّاسِ ، كَمَنْ مَثَلُهُ الْمُبَيِّنُ لِحَقِيقَةِ حَالِهِ كَمَثَلِ السَّائِرِ فِي ظُلُمَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ - ظُلْمَةُ اللَّيْلِ وَظُلْمَةُ السَّحَابِ وَظُلْمَةُ الْمَطَرِ ؟ وَفَسَّرَ بَعْضُهُمُ النُّورَ بِالدِّينِ وَالْإِسْلَامِ ، وَالْمِصْدَاقُ وَاحِدٌ ، وَالْعِبْرَةُ فِي هَذَا الْمَثَلِ أَنْ يُطَالِبَ الْمُسْلِمُ نَفْسَهُ بِأَنْ يَكُونَ حَيًّا عَالِمًا عَلَى بَصِيرَةٍ فِي دِينِهِ وَأَعْمَالِهِ وَحُسْنِ سِيرَتِهِ فِي النَّاسِ ، وَقُدْوَةً لَهُمْ فِي الْفَضَائِلِ وَالْخَيْرَاتِ ، وَحُجَّةً عَلَى فَضْلِ دِينِهِ عَلَى جَمِيعِ الْأَدْيَانِ وَعُلُوِّ آدَابِهِ عَلَى جَمِيعِ الْآدَابِ .

*(133/249)*

---

هَذَا الْمَثَلُ عَامٌّ يَشْمَلُ كُلَّ مَنْ يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ فِي زَمَنِ التَّنْزِيلِ وَغَيْرِهِ ، وَعَلَيْهِ عَامَّةُ أَهْلِ التَّفْسِيرِ ، وَرُوِيَ أَنَّهُ نَزَلَ فِي رَجُلَيْنِ بِأَعْيَانِهِمَا ، وَالْمُرَادُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّهُ نَزَلَ فِي ضِمْنِ السُّورَةِ صَادِقًا عَلَيْهِمَا ظَاهِرًا فِيهِمَا أَتَمَّ الظُّهُورِ ، فَإِنَّ السُّورَةَ نَزَلَتْ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَمَا تَقَدَّمَ ، وَمَنِ اسْتَثْنَى مِنْهَا بَعْضَ آيَاتٍ لَمْ يَذْكُرُوا هَذِهِ الْآيَةَ مِنْهَا وَإِلَّا لَكَانَ شُمُولُهُ مِنْ بَابِ قَاعِدَةِ : الْعِبْرَةُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ ، عَلَى أَنَّهُمُ اخْتَلَفُوا فِي الرَّجُلَيْنِ وَاخْتِلَافُهُمَا يُرَجِّحُ مَا قُلْنَاهُ مِنْ إِرَادَةِ صِدْقِ الْمَثَلِ عَلَيْهِمَا ، فَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَالضَّحَّاكِ أَنَّ الْأَوَّلَ

صَاحِبَ النُّورِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وَعَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّ الْأَوَّلَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ كَذَا فِي

(134/249)

---

كُتُبِ التَّفْسِيرِ بِالْمَأْثُورِ ، وَذَكَرَ الرَّازِيُّ قَوْلَيْنِ آخَرَيْنِ عَزَا أَحَدَهُمَا إلَى ابْنِ عَبَّاسٍ وَهُوَ : أَنَّ الْأَوَّلَ حَمْزَةُ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، عَمُّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالثَّانِي أَنَّهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَفْسُهُ وَعَزَاهُ إلَى مُقَاتِلٍ ، وَهَذَا أَضْعَفُ الْأَقْوَالِ وَأَوْهَاهَا ، فَإِنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَا يُقَالُ إنَّهُ كَانَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ مَيِّتًا ، وَإِنْ وَرَدَ فِي سُورَةِ الضُّحَى أَنَّهُ كَانَ ضَالًّا أَيْ لَا يَعْرِفُ الْمَخْرَجَ مِنَ الْحِيرَةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا مِنْ أَمْرِ إصْلَاحِ النَّاسِ وَهِدَايَتِهِمْ ، وَلَا الْكِتَابَ وَلَا الْإِيمَانَ التَّفْصِيلِيَّ الَّذِي أُوحِيَ إلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ . وَقَدِ اتَّفَقَ أَصْحَابُ هَذِهِ الْأَقْوَالِ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ الثَّانِيَ فِي الْمَثَلِ هُوَ أَبُو جَهْلٍ ، لَعَنَهُ اللهُ تَعَالَى ، قَالَ الرَّازِيُّ فِي الرِّوَايَةِ الْأُولَى : إنَّ أَبَا جَهْلٍ رَمَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِفَرْثٍ (وَهُوَ مَا فِي الْكِرْشِ) وَحَمْزَةُ يَوْمَئِذٍ لَمْ يُؤْمِنْ ، فَأُخْبِرَ بِذَلِكَ عِنْدَ قُدُومِهِ مِنْ صَيْدٍ لَهُ وَالْقَوْسُ بِيَدِهِ فَعَمَدَ إلَى أَبِي جَهْلٍ وَتَوَخَّاهُ بِالْقَوْسِ وَجَعَلَ يَضْرِبُ رَأْسَهُ فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : أَمَا تَرَى مَا جَاءَ بِهِ ؟ سَفَّهَ عُقُولَنَا

وَسَبَّ آلِهَتَنَا ، فَقَالَ حَمْزَةُ : أَنْتُمْ أَسَفَهُ النَّاسِ تَعْبُدُونَ الْحِجَارَةَ مِنْ دُونِ اللهِ ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ . وَقَالَ فِي الثَّانِيَةِ إِنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ :

(135/249)

---

زَاحَمَنَا بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ بِالشَّرَفِ حَتَّى إِذَا صِرْنَا كَفَرَسَيْ رِهَانٍ قَالُوا : مِنَّا نَبِيٌّ يُوحَى إِلَيْهِ ، وَاللهِ لَا نُؤْمِنُ بِهِ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَا وَحْيٌ كَمَا يَأْتِيهِ . وَقِصَّةُ إِلْقَاءِ فَرْثِ الْجَزُورِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ سَاجِدٌ مَشْهُورَةٌ ، وَكَذَا قَوْلُ أَبِي جَهْلٍ فِي بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ، وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْهُمَا سَبَبًا لِنُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ .

(كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) أَيْ مِثْلُ هَذَا التَّزْيِينِ الَّذِي تَضَمَّنَهُ الْمَثَلُ فِي الْجُمْلَةِ السَّابِقَةِ ، وَهُوَ تَزْيِينُ نُورِ الْهُدَى وَالدِّينِ لِمَنْ أَحْيَاهُ اللهُ تِلْكَ الْحَيَاةَ الْمَعْنَوِيَّةَ الْعَالِيَةَ ، وَتَزْيِينُ ظُلُمَاتِ الضَّلَالِ وَالْكُفْرِ لِمَوْتَى الْقُلُوبِ قَدْ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَهُ مِنَ الْآثَامِ كَعَدَاوَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذَبْحِ الْقَرَابِينِ لِغَيْرِ اللهِ تَعَالَى وَتَحْرِيمِ مَا لَمْ يُحَرِّمْهُ وَإِحْلَالِ مَا حَرَّمَهُ عَلَيْهِمْ بِمِثْلِ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ الَّتِي تَقَدَّمَ شَرْحُهَا فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ ، وَقَدْ بُنِيَ فِعْلُ التَّزْيِينِ هُنَا لِلْمَفْعُولِ لِأَنَّ الْمُشَبَّهَ بِهِ حَسَنٌ وَقَبِيحٌ ، فَالْأَوَّلُ تَزْيِينُ عَمَلِ الْمُؤْمِنِ لِلْمُؤْمِنِ ، وَالثَّانِي تَزْيِينُ عَمَلِ الْكَافِرِ

لِلْكَافِرِ ، وَإِنَّمَا لَمْ يُذْكَرْ فِي الْمُشَبَّهِ إِلَّا النَّوْعُ الثَّانِي لِأَنَّ السِّيَاقَ لَهُ ، وَإِنَّمَا ذُكِرَ الْأَوَّلُ فِي الْمَثَلِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ فِي التَّشْبِيهِ لِبَيَانِ قُبْحِ الضِّدِّ بِمُقَابَلَتِهِ بِحُسْنِ ضِدِّهِ ، وَالَّذِي يُزَيِّنُ لِلْكَافِرِينَ أَعْمَالَهُمُ الْقَبِيحَةَ هُوَ الشَّيْطَانُ بِوَسْوَسَتِهِ كَمَا قَالَ فِي خِطَابِهِ لِلْبَارِي تَعَالَى (لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ) (15 : 39) وَسَائِرُ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ كَمَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ " 112 " وَإِنْ كَانَ كُلُّ مَا يَجْرِي فِي الْكَوْنِ يُسْنَدُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِاعْتِبَارِ الْخَلْقِ وَالتَّقْدِيرِ ، وَإِقَامَتِهِ نِظَامَ الْكَوْنِ بِسُنَنِ ارْتِبَاطِ الْأَسْبَابِ بِالْمُسَبَّبَاتِ ، وَتَقَدَّمَ إِسْنَادُ تَزْيِينِ الْأَعْمَالِ إِلَى الشَّيْطَانِ فِي الْآيَةِ " 43 " مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ . وَقَدْ حَقَّقْنَا فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ) (3 : 14) مَا يُسْنَدُ مِنَ التَّزْيِينِ إِلَى اللَّهِ - تَعَالَى - وَمَا يُسْنَدُ مِنْهُ إِلَى الشَّيْطَانِ ، وَمَا يُبْنَى فِعْلُهُ لِلْمَجْهُولِ بِالشَّوَاهِدِ مِنَ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ . فَلْيُرَاجَعْ فِي الْجُزْءِ الثَّالِثِ مِنَ التَّفْسِيرِ (ص196 وَمَا بَعْدَهَا ط الْهَيْئَةِ) وَمِنْهُ يُعْلَمُ ضَعْفُ اسْتِدْلَالِ بَعْضِ الْمُفَسِّرِينَ وَالْمُتَكَلِّمِينَ بِالْآيَةِ عَلَى مَذَاهِبِهِمْ .

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ) اخْتُلِفَ فِي وَجْهِ التَّشْبِيهِ هُنَا ، فَاسْتَنْبَطَهُ بَعْضُهُمْ مِنْ قَرِينَةِ الْحَالِ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا السُّورَةُ وَهِيَ بَيَانُ حَالِ أَهْلِ مَكَّةَ فِي كُفْرِهِمْ وَعَدَاوَتِهِمْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِإِغْرَاءِ أَكَابِرِهِمُ الْمُسْتَكْبِرِينَ ، وَتَقْدِيرُهُ : وَكَمَا جَعَلْنَا فِي مَكَّةَ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ مِنْ قُرَى الْأُمَمِ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ، فَلَيْسَ هَؤُلَاءِ الْأَكَابِرُ بِبِدْعٍ مِنَ الْأَكَابِرِ الْمُجْرِمِينَ ، بَلْ ذَلِكَ شَأْنُ الْأَكَابِرِ الْمُتْرَفِينَ الْمُتَكَبِّرِينَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ ، وَاسْتَنْبَطَهُ بَعْضُهُمْ مِنْ عِبَارَةِ الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ فَجَعَلَ الْقَرِينَةَ لَهُ لَفْظِيَّةً فَقَالَ فِي التَّقْدِيرِ : وَكَمَا زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ كَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ إِلَخْ ، وَجَمَعَ بَعْضُهُمْ بَيْنَ الْقَرِينَتَيْنِ اللَّفْظِيَّةِ وَالْحَالِيَّةِ الْمَعْنَوِيَّةِ ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ التَّقْدِيرُ هَكَذَا : وَكَمَا أَنَّ أَعْمَالَ أَهْلِ مَكَّةَ مُزَيَّنَةٌ لَهُمْ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا فَزُيِّنَ لَهُمْ بِحَسَبِ سُنَّتِنَا فِي الْبَشَرِ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ فِي عَدَاوَةِ الرُّسُلِ وَمُقَاوَمَةِ الْإِصْلَاحِ اتِّبَاعًا لِلْهَوَى وَاسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ .

*(138/249)*

---

وَلَفْظُ أَكَابِرَ جَمْعُ أَكْبَرَ ، وَفَسَّرَهُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ بِالْعُظَمَاءِ أَيِ الرُّؤَسَاءِ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ جَمْعُ كَبِيرٍ ، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ وَلَوْ قِيلَ هُوَ جَمْعُ كَبِيرٍ فَجُمِعَ أَكَابِرَ لَكَانَ صَوَابًا . وَاسْتَدَلَّ بِمَا سُمِعَ عَنِ

الْعَرَبِ مِنْ قَوْلِهِمْ " الْأَكَابِرَةُ وَالْأَصَاغِرَةُ وَالْأَكَابِرُ وَالْأَصَاغِرُ بِغَيْرِ الْهَاءِ " ، قَالَ :

وَكَذَلِكَ تَفْعَلُ الْعَرَبُ بِمَا جَاءَ مِنَ النُّعُوتِ عَلَى أَفْعَلَ إِذَا أَخْرَجُوهَا إِلَى الْأَسْمَاءِ مِثْلُ جَمْعِهِمُ الْأَحْمَرَ وَالْأَسْوَدَ : الْأَحَامِرَ وَالْأَحَامِرَةَ وَالْأَسَاوِدَ وَالْأَسَاوِدَةَ وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

إِنَّ الْأَحَامِرَةَ الثَّلَاثَةَ أَهْلَكَتْ . . . مَالِي وَكُنْتُ بِهِنَّ قِدَمًا مُولَعًا

وَذَكَرَ الْبَيْتَ الثَّانِي الَّذِي بَيَّنَ الشَّاعِرُ فِيهِ الْأَحَامِرَةَ وَهِيَ اللَّحْمُ وَالْخَمْرُ وَالزَّعْفَرَانُ مِنَ الطِّيبِ وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي رِوَايَتِهِ وَهُوَ لِلْأَعْشَى .

(139/249)

---

وَالْمُجْرِمُونَ : أَصْحَابُ الْجُرْمِ أَوْ فَاعِلُو الْإِجْرَامِ وَهُوَ مَا فِيهِ الْفَسَادُ وَالضَّرَرُ مِنَ الْأَعْمَالِ .

وَالْقَرْيَةُ : الْبَلَدُ الْجَامِعُ لِلنَّاسِ وَيُسْتَعْمَلُ فِي التَّنْزِيلِ بِمَعْنَى الْعَاصِمَةِ فِي عُرْفِ هَذَا الْعَصْرِ ، أَيِ الْمَدِينَةِ الْجَامِعَةِ الَّتِي يُقِيمُ فِيهَا زُعَمَاءُ الشَّعْبِ وَأُولُو أَمْرِهِ ، وَكَذَا بِمَعْنَى الشَّعْبِ أَوِ الْأُمَّةِ ، وَيُعَبِّرُ عَنْهَا أَهْلُ هَذَا الْعَصْرِ بِالْبَلَدِ فَيَقُولُونَ : ثَرْوَةُ الْبَلَدِ وَمَصْلَحَةُ الْبَلَدِ – أَيِ الْأُمَّةِ – وَالْمُعَاهَدَاتُ بَيْنَ الْبَلَدَيْنِ تَقْتَضِي كَذَا – أَيْ بَيْنَ الْأُمَّتَيْنِ أَوِ الدَّوْلَتَيْنِ . وَ " جَعَلْنَا " مُتَعَدِّيَةٌ لِمَفْعُولٍ وَاحِدٍ عِنْدَ بَعْضِهِمْ وَلِمَفْعُولَيْنِ عِنْدَ الْأَكْثَرِينَ وَاخْتَلَفُوا فِي إِعْرَابِهَا ، فَلَخَّصَ الْبَيْضَاوِيُّ أَشْهَرَ الْأَقْوَالِ بِقَوْلِهِ : أَيْ كَمَا جَعَلْنَا فِي مَكَّةَ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا جَعَلْنَا

فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا

لِيَمْكُرُوا فِيهَا . وَ" جَعَلْنَا " بِمَعْنَى صَيَّرْنَا وَمَفْعُولَاهُ " أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا " عَلَى تَقْدِيمِ الْمَفْعُولِ الثَّانِي - أَوْ : فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ ، وَمُجْرِمِيهَا بَدَلٌ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُضَافًا إِلَيْهِ إِنْ فُسِّرَ الْجَعْلُ بِالتَّمْكِينِ ، وَأَفْعَلُ التَّفْضِيلِ إِذَا أُضِيفَ جَازَ فِيهِ الْإِفْرَادُ وَالْمُطَابَقَةُ ، وَلِذَلِكَ قُرِئَ (أَيْ فِي الشَّوَاذِّ) " أَكْبَرَ مُجْرِمِيهَا " انْتَهَى . وَرَجَّحَ الرَّازِيُّ أَنَّ الْمَعْنَى : جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ مُجْرِمِيهَا أَكَابِرَ .

*(140/249)*

---

وَالْمَكْرُ : صَرْفُ الْمَرْءِ غَيْرَهُ عَمَّا يُرِيدُهُ إِلَى غَيْرِهِ بِضَرْبٍ مِنَ الْحِيلَةِ فِي الْفِعْلِ أَوِ الْخِلَابَةِ فِي الْقَوْلِ ، وَالْأَكْثَرُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ الصَّرْفُ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ وَعَنِ الْخَيْرِ إِلَى الشَّرِّ ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ وَالْخَيْرَ قَلَّمَا يُحْتَاجُ إِلَى إِخْفَائِهِمَا بِالْحِيلَةِ وَالْخِلَابَةِ .

وَنَقُولُ فِي الْعِبْرَةِ بِالْآيَةِ بِمَا يُنَاسِبُ حَالَ هَذَا الْعَصْرِ : إِنَّ سُنَّةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ قَدْ مَضَتْ بِأَنْ يَكُونَ فِي كُلِّ عَاصِمَةٍ لِشَعْبٍ أَوْ أُمَّةٍ أَوْ كُلِّ قَرْيَةٍ وَبَلْدَةٍ بُعِثَ فِيهَا رَسُولٌ أَوْ مُطْلَقًا رُؤَسَاءُ وَزُعَمَاءُ مُجْرِمُونَ يَمْكُرُونَ فِيهَا بِالرُّسُلِ ، أَوْ بِأَنْ يَكُونَ أَكَابِرُهَا الْمُجْرِمُونَ مَاكِرِينَ فِيهَا بِالرُّسُلِ فِي عَهْدِهِمْ ، وَبِسَائِرِ الْمُصْلِحِينَ

(141/249)

---

مِنْ بَعْدِهِمْ . وَكَذَلِكَ شَأْنُ أَكْثَرِ أَكَابِرِ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ – وَلَا سِيَّمَا فِي الْأَزْمِنَةِ الَّتِي تَكْثُرُ فِيهَا الْمَطَامِعُ وَيَعْظُمُ حُبُّ الرِّيَاسَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ – يَمْكُرُونَ بِالنَّاسِ مِنْ أَفْرَادِ أُمَّتِهِمْ وَجَمَاعَاتِهَا لِيَحْفَظُوا رِيَاسَتَهُمْ وَيُعَزِّزُوا كِبْرِيَاءَهُمْ وَيُثَمِّرُوا مَطَامِعَهُمْ فِيهَا ، وَيَمْكُرُ الرُّؤَسَاءُ وَالسَّاسَةُ مِنْهُمْ بِغَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ وَالدُّوَلِ لِإِرْضَاءِ مَطَامِعِ أُمَّتِهِمْ وَتَعْزِيزِ نُفُوذِ حُكُومَتِهِمْ فِي تِلْكَ الْأُمَمِ وَالدُّوَلِ . وَقَدْ عَظُمَ هَذَا الْمَكْرُ فِي هَذَا الْعَصْرِ فَصَارَ قُطْبَ رَحَى السِّيَاسَةِ فِي الدُّوَلِ ، وَعَظُمَ الْإِفْكُ بِعِظَمِهِ لِأَنَّهُ أَعْظَمُ أَرْكَانِهِ ، وَقَدْ كَتَبْنَا مَقَالًا فِي بَيَانِ ذَلِكَ وَشَرْحِ عِلَلِهِ وَأَسْبَابِهِ عُنْوَانُهُ (دَوْلَةُ الْكَلَامِ الْمُبْطِلَةُ الظَّالِمَةُ) نُشِرَ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْ مُجَلَّدِ الْمَنَارِ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ فَلْيُرَاجِعْهُ مَنْ شَاءَ .

(142/249)

---

وَهَذَا الْعُمُومُ فِي الْآيَةِ صَحِيحٌ وَاقِعٌ يَعْرِفُهُ أَهْلُ الْبَصِيرَةِ وَالْعِلْمِ بِشُؤُونِ الِاجْتِمَاعِ وَالْعُمْرَانِ ، وَلَا تَظْهَرُ صِحَّةُ الْعُمُومِ فِي الْقُرَى وَالْأَكَابِرِ جَمِيعًا بِجَعْلِ جَمِيعِ الْأَكَابِرِ الْمُجْرِمِينَ مَاكِرِينَ فِي

جَمِيعِ الْقُرَى ، أَوْ بِجَعْلِ جَمِيعِ الْمُجْرِمِينَ فِيهَا أَكَابِرَ أَهْلِهَا ، بِحَيْثُ يَكُونُ الْإِجْرَامُ هُوَ سَبَبَ كَوْنِهِمْ أَكَابِرَهَا ، بَلْ قَدْ يَتَحَقَّقُ بِكَوْنِ أَكْثَرِ الْأَكَابِرِ الزُّعَمَاءِ مُجْرِمِينَ مَاكِرِينَ وَلَا سِيَّمَا فِي الْقُرَى الَّتِي اسْتَحَقَّتِ الْهَلَاكَ بِحَسَبِ سُنَّةِ الِاجْتِمَاعِ الْمُبَيَّنَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ : (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) (17 : 16) وَلَا سِيَّمَا عَلَى الْقَوْلِ الرَّاجِحِ بِأَنَّ مَعْنَاهُ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا بِمَا نُرْسِلُ بِهِ الرُّسُلَ مِنَ التَّوْحِيدِ وَعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ وَمَا يَلْزَمُهُ - حَتْمًا - مِنَ الصَّلَاحِ وَالْإِصْلَاحِ وَالْعَدْلِ ، فَفَسَقُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَظَلَمُوا وَأَفْسَدُوا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ الَّذِي أَوْحَاهُ اللهُ إِلَى الرُّسُلِ بِمِثْلِ قَوْلِهِ : (فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ) (14 : 13) فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ، وَكَذَا عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ مَعْنَى (أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا) كَثَّرْنَاهُمْ ؛ لِأَنَّ كَثْرَتَهُمْ وَقِلَّةَ الصَّالِحِينَ الْمُتَّقِينَ لَا تَتَحَقَّقُ عَادَةً إِلَّا إِذَا كَانَ جُمْهُورُ الْأَكَابِرِ مِنْهُمْ .

*(143/249)*

---

وَقَدْ رَاجَعْنَا بَعْدَ كِتَابَةِ مَا تَقَدَّمَ تَفْسِيرَ الْحَافِظِ ابْنِ كَثِيرٍ فَأَلْفَيْنَاهُ قَدِ اسْتَشْهَدَ بِآيَةِ الْإِسْرَاءِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِ تَفْسِيرِهَا وَقَالَ : قِيلَ مَعْنَاهُ أَمَرْنَاهُمْ بِالطَّاعَةِ فَخَالَفُوا فَدَمَّرْنَاهُمْ ، وَقِيلَ : أَمَرْنَاهُمْ أَمْرًا قَدَرِيًّا كَمَا قَالَ هُنَا : (لِيَمْكُرُوا فِيهَا) وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (أَكَابِرَ

مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ) قَالَ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : سَلَّطْنَا شِرَارَهُمْ فَعَصَوْا فِيهَا ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَهْلَكْنَاهُمْ . انْتَهَى . وَالْمُرَادُ بِالْأَمْرِ الْقَدَرِيِّ - وَيُعَبِّرُ عَنْهُ بَعْضُهُمْ بِأَمْرِ التَّكْوِينِ - مَا اقْتَضَتْهُ سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي نِظَامِ الْخَلْقِ وَتَكْوِينِهِ كَمَا قَالَ : (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) (54 : 49) أَيْ بِنِظَامٍ مُقَدَّرٍ لَا أُنُفًا ، وَبِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ لَا جُزَافًا .

ثُمَّ نَعُودُ إِلَى بَحْثِ الْعُمُومِ فِي الْآيَةِ فَنَقُولُ : لَوْ كَانَتِ الْعِبَارَةُ نَصًّا فِي أَنَّ جَمِيعَ أَكَابِرِ كُلِّ قَرْيَةٍ مُجْرِمُونَ مَاكِرُونَ لَوَجَبَ جَعْلُهَا مِنْ بَابِ الْعُمُومِ الْمُرَادِ بِهِ الْخُصُوصُ بِأَنْ يُرَادَ بِالْأَكَابِرِ الْمُجْرِمِينَ مَنْ يُقَاوِمُونَ دَعْوَةَ الْإِصْلَاحِ وَيُعَادُونَ الْمُصْلِحِينَ مِنَ الرُّسُلِ وَوَرَثَتِهِمْ لِيَنْطَبِقَ عَلَى الْوَاقِعِ . وَإِلَّا فَإِنَّ أَكَابِرَ أَهْلِ مَكَّةَ لَمْ يَكُونُوا كُلُّهُمْ مَاكِرِينَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ كَذَلِكَ .

*(144/249)*

---

وَعَلَّلَ الْمُفَسِّرُونَ تَخْصِيصَ الْأَكَابِرِ بِأَنَّهُمْ أَقْدَرُ عَلَى الْمَكْرِ . وَاسْتِتْبَاعِ النَّاسِ ، وَمَنْ قَالَ مِنْهُمْ بِأَنَّ الْمَعْنَى : جَعَلْنَا مُجْرِمِيهَا أَكَابِرَ . يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَجْعَلَ " اللَّامَ " فِي قَوْلِهِ : (لِيَمْكُرُوا)

لَامَ الْعَاقِبَةِ فَإِنَّ الْمُجْرِمِينَ إذَا صَارُوا أَكَابِرَ بَلَدٍ وَزُعَمَاءَهُ لَا يُمْكِنُهُمْ أَنْ يُحَافِظُوا عَلَى مَكَانَتِهِمْ فِيهِ إلَّا بِالْمَكْرِ وَالْخِدَاعِ فَيَصِيرُ أَمْرُهُمْ إلَيْهِمَا .

*(145/249)*

---

(وَمَا يَمْكُرُونَ إلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) هَذَا بَيَانُ حَقِيقَةٍ أُخْرَى مِنْ طَبَائِعِ الِاجْتِمَاعِ الْإِنْسَانِيِّ مُتَمِّمَةٍ لِمَا قَبْلَهَا ، وَهِيَ تَتَضَمَّنُ الْوَعِيدَ لِأَكَابِرِ مُجْرِمِي مَكَّةَ الْمَاكِرِينَ وَالْوَعْدَ وَالتَّسْلِيَةَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ ، وَذَلِكَ بِالْإِيجَازِ الَّذِي يَسْتَنْبِطُهُ الْأَذْكِيَاءُ مِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ الْقَوَاعِدِ الْعَامَّةِ . وَسَيُصَرَّحُ بِهِ فِي الْآيَاتِ التَّالِيَةِ . وَمَا يَمْكُرُ أُولَئِكَ الْأَكَابِرُ الْمُجْرِمُونَ الَّذِينَ يُعَادُونَ الرُّسُلَ فِي عَصْرِهِمْ وَدُعَاةَ الْإِصْلَاحِ مِنْ وَرَثَتِهِمْ بَعْدَهُمْ إلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَكَذَا سَائِرُ مَنْ يُعَادُونَ الْحَقَّ وَالْعَدْلَ وَالصَّلَاحَ لِبَقَاءِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْفِسْقِ وَالْفَسَادِ ؛ لِأَنَّ عَاقِبَةَ هَذَا الْمَكْرِ السَّيِّئِ تَحِيقُ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ - أَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَالْأَمْرُ ظَاهِرٌ وَالنُّصُوصُ وَاضِحَةٌ ، وَأَمَّا فِي الدُّنْيَا فَبِمَا ثَبَتَ فِي الْآيَاتِ مِنْ نَصْرِ الْمُرْسَلِينَ ، وَهَلَاكِ الْكَافِرِينَ الْمُعَانِدِينَ لَهُمْ ، وَمِنْ عُلُوِّ الْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ وَدَمْغِهِ لَهُ ، وَمِنْ هَلَاكِ الْقُرَى الظَّالِمَةِ الْمُفْسِدَةِ ، وَبِمَا أَيَّدَ ذَلِكَ مِنَ الِاخْتِبَارِ ، حَتَّى صَارَ مِنْ قَوَاعِدِ عِلْمِ الِاجْتِمَاعِ أَنَّ تَنَازُعَ الْبَقَاءِ يَنْتَهِي بِبَقَاءِ الْأَمْثَلِ وَالْأَصْلَحِ وِفَاقًا لِلْمَثَلِ الَّذِي ضَرَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْحَقِّ وَالْبَاطِلِ : (فَأَمَّا الزَّبَدُ

فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ) (13 : 17) وَمِنَ النُّصُوصِ الصَّرِيحَةِ فِيهِ بِمَعْنَى الْآيَةِ

*(146/249)*

---

قَوْلُهُ تَعَالَى فِي مُجْرِمِي مَكَّةَ : (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ

*(147/249)*

---

إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا) (35 : 42 ، 43) - وَهَذَا نَصٌّ فِيمَا انْفَرَدْنَا بِفَهْمِهِ مِنْ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ بَيَانٌ لِسُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ - وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي رَهْطِ قَوْمِ صَالِحٍ الْمُفْسِدِينَ ، وَهُوَ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ هُنَا مِنْ سُنَّةِ الْأَوَّلِينَ : (وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ) (27 : 50 ، 51) فَالَّذِينَ كَانُوا يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لِمُقَاوَمَةِ

إِصْلَاحِ الرُّسُلِ حِرْصًا عَلَى رِيَاسَتِهِمْ وَفِسْقِهِمْ وَفَسَادِهِمْ لَمْ يَكُونُوا يُشْعِرُونَ بِأَنَّ عَاقِبَةَ مَكْرِهِمْ تَحِيقُ بِهِمْ لِجَهْلِهِمْ بِسُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ ، وَهُمْ جَدِيرُونَ بِهَذَا الْجَهْلِ ، وَأَمَّا أَكَابِرُ الْمُجْرِمِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ فَهُمْ لَا يُعْذَرُونَ بِالْجَهْلِ بَعْدَ هَذَا الْإِرْشَادِ ، وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ قَلَّمَا يُقَاوِمُونَ بِمَكْرِهِمْ إِصْلَاحًا يُرْضِي اللَّهَ - تَعَالَى - كَإِصْلَاحِ الرُّسُلِ وَوَرَثَتِهِمْ لِأَنَّهُ لَا يَكَادُ يُوجَدُ فَيُقَاوِمُوهُ ، وَمِنْ هَذَا الْقَلِيلِ مَكْرُ أَكَابِرِ الِاتِّحَادِيِّينَ الْعُثْمَانِيِّينَ لِإِزَالَةِ مَا كَانَ فِي الدَّوْلَةِ مِنْ بَقَايَا الشَّرْعِ ، وَفِي الْأُمَّةِ مِنْ بَقَاءِ الدِّينِ ، وَسُوءُ عَاقِبَتِهِمْ دَلِيلٌ عَلَى ذَلِكَ ، وَهُوَ حُجَّةٌ عَلَى الْمُتَعَصِّبِينَ لَهُمْ ، وَعَلَى الْمُشْتَبِهِينَ فِي أَمْرِهِمْ وَإِنَّمَا يَمْكُرُ أَكْثَرُ زُعَمَاءِ الْأُمَمِ الْيَوْمَ بِأَمْثَالِهِمْ مِنَ الْمُعَارِضِينَ لَهُمْ مِنْ أُمَّتِهِمْ فِي

(148/249)

---

الْأُمُورِ الدَّاخِلِيَّةِ ، وَمِنْ خُصُومِهَا فِي السِّيَاسَةِ الْخَارِجِيَّةِ وَالْمَطَامِعِ الْأَجْنَبِيَّةِ فَمَكْرُهُمْ فِي الْغَالِبِ بَاطِلٌ يُصَادِمُ بَاطِلًا ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُ يُسَمَّى حَقًّا عُرْفِيًّا أَوْ سِيَاسِيًّا ، فَإِنْ وُجِدَ فِي بَعْضِ هَذَا الصِّدَامِ حَقٌّ صَحِيحٌ وَوُجِدَ مَنْ يُؤَيِّدُهُ وَيَنْصُرُهُ فَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ الْعَاقِبَةُ لَهُ ، وَتَحْقِيقُ مَعْنَى الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ دَقِيقٌ جِدًّا ، وَقَدْ حَرَّرْنَا فِيهِ مَقَالًا خَاصًّا عُنْوَانُهُ (الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ وَالْقُوَّةُ) بَيَّنَّا فِيهِ حَقِيقَتَهُ وَأَنْوَاعَهُ - كَالْحَقِّ فِي الْفَلْسَفَةِ وَالنَّظَرِيَّاتِ الْعَقْلِيَّةِ ، وَالْحَقِّ

فِي الْوُجُودِ وَسُنَنِ الْكَوْنِ ، وَالْحَقِّ فِي السُّنَنِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَالْحَقِّ فِي الْقَوَانِينِ وَالْمُوَاضَعَاتِ الْعُرْفِيَّةِ ، وَالْحَقِّ فِي الدِّينِ وَالشَّرِيعَةِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَبَيَّنَّا بِالدَّلِيلِ الْوَاضِحِ أَنَّ الْحَقَّ الصَّحِيحَ يَغْلِبُ الْبَاطِلَ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَمَعْنَى وَعْدِ اللهِ بِنَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ وَصِدْقِهِ بِشَرْطِهِ ، وَحَالِ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ مَعَ الْأُمَمِ الْغَالِبَةِ لَهُمْ . وَقَدْ نَشَرْنَا هَذَا الْمَقَالَ فِي الْمُجَلَّدِ (52 م 9 منار) .

(وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ

*(149/249)*

---

أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

*(150/249)*

الْآيَةُ الْأُولَى مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ مَعْطُوفَةٌ هِيَ وَمَا فِي حَيِّزِهَا عَلَى آخَرَ أَمْثَالِهَا مِنْ طَوَائِفِ الْآيَاتِ الَّتِي تَصِفُ أَحْوَالَ الْمُشْرِكِينَ وَعَقَائِدَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ ، وَمُقَاوَمَتَهُمْ لِلْإِسْلَامِ وَصَدَّهُمْ عَنْهُ وَعَنِ الرَّسُولِ الدَّاعِي إِلَيْهِ ، مَبْدُوءًا أَوَّلُهَا بِالْحِكَايَةِ عَنْهُمْ بِضَمِيرِ الْغَيْبَةِ ، ثُمَّ قَدْ يَتَخَلَّلُهَا آيَاتٌ بِضَمِيرِ الْخِطَابِ عَلَى طَرِيقَةِ الِالْتِفَاتِ ، وَيَتَضَمَّنُ بَعْضُهَا مَا يَتَضَمَّنُ مِنَ الْحَقَائِقِ فِي الْإِيمَانِ وَسُنَنِ الِاجْتِمَاعِ وَطَبَائِعِ الْأُمَمِ ، وَأَقْرَبُ هَذِهِ الطَّوَائِفِ الْآيَاتُ الْمَبْدُوءَةُ بِضَمِيرِ الْغَيْبَةِ فِي الْحِكَايَةِ عَنْهُمُ الْآيَةُ الَّتِي افْتُتِحَ بِهَا هَذَا الْجُزْءُ (الثَّامِنُ) وَهِيَ قَوْلُهُ - تَعَالَى - : (وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) (111) وَهِيَ إِبْطَالٌ لِمَا حَكَاهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ : (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ) (109) إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ اللَّتَيْنِ خُتِمَ بِهِمَا الْجُزْءُ السَّابِقُ (السَّابِعُ) وَقَدْ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الطَّائِفَةُ مِنَ الْآيَاتِ - وَمِنَ الْجُزْءِ إِلَى هُنَا - احْتِجَاجًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي آيَةِ الْقُرْآنِ وَكَوْنِهَا أَقْوَى حُجَّةً عَلَى الرِّسَالَةِ مِنْ جَمِيعِ آيَاتِ الرُّسُلِ ، وَحَقَائِقَ فِي طِبَاعِ الْبَشَرِ وَشُئُونِ الْكُفَّارِ فِي جَمِيعِ الْأُمَمِ ، وَإِثْبَاتَ ضَلَالِ أَكْثَرِ أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَتَخْصِيصَ مَسْأَلَةِ الذَّبَائِحِ لِغَيْرِ اللَّهِ - مِنْ ضَلَالِهِمْ -

بِالذِّكْرِ لِأَنَّهَا مِنْ أَكْبَرِهَا ، وَوَحْيَ الشَّيَاطِينِ لِأَوْلِيَائِهِمْ فِي الْمُجَادَلَةِ فِيهَا وَتَلَا ذَلِكَ ضَرْبُ الْمَثَلِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ ، وَبَيَانُ قَاعِدَةِ الِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ فِي الْأُمَمِ الضَّارِّ بِمَكْرِ زُعَمَائِهَا الْمُجْرِمِينَ ، وَهَذِهِ الْقَاعِدَةُ تَنْطَبِقُ أَتَمَّ الِانْطِبَاقِ عَلَى جَمْهَرَةِ أَكَابِرِ مَكَّةَ ، وَبِذَلِكَ يَكُونُ التَّنَاسُبُ وَالِاتِّصَالُ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَاتِ

وَبَيْنَ مَا قَبْلَهَا مِنْ وَجْهَيْنِ : وَجْهٍ عَامٍّ يَتَعَلَّقُ بِالْأُسْلُوبِ فِي الطَّوَائِفِ الْكَثِيرَةِ مِنْ آيَاتِ كُلِّ سِيَاقٍ ، وَوَجْهٍ خَاصٍّ يَتَعَلَّقُ بِبَيَانِ كَوْنِ مُجْرِمِي مَكَّةَ الْمَاكِرِينَ الْمُبَيَّنِ حَالُهُمْ فِي الْآيَةِ الْأُولَى لَيْسُوا إِلَّا بَعْضَ أَفْرَادِ الْعَامِّ فِي الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهَا وَهُوَ الْمَقْصُودُ أَوَّلًا بِالذَّاتِ مِنَ الِاعْتِبَارِ بِتِلْكَ الْقَاعِدَةِ . وَيَلِيهَا بَيَانُ سُنَّةِ اللَّهِ فِي الْمُسْتَعِدِّينَ لِلْإِيمَانِ وَالْهُدَى ، وَغَيْرِ الْمُسْتَعِدِّينَ مَعَ ظُهُورِ الْحَقِّ فِي نَفْسِهِ وَهُوَ صِرَاطُ الرَّبِّ وَجَزَاءُ سَالِكِهِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى . قَالَ عَزَّ وَجَلَّ :

*(152/249)*

---

(وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ) أَيْ وَإِذَا جَاءَتْ أُولَئِكَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ " أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا " آيَةٌ بَيِّنَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ تَتَضَمَّنُ حُجَّةً عَقْلِيَّةً ظَاهِرَةَ الدَّلَالَةِ عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا جَاءَ بِهِ

عَنْ رَبِّهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْهُدَى قَالُوا : لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ إِلَى الْأُمَمِ قَبْلَنَا . قَالَ هَذَا أَكَابِرُهُمُ الْمُجْرِمُونَ ، وَرُؤَسَاؤُهُمُ الْمَاكِرُونَ ، وَتَبَعُهُمْ عَلَيْهِ الْغَوْغَاءُ الْمُقَلِّدُونَ . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِيهِ : يَعْنُونَ حَتَّى يُعْطِيَهُمُ اللهُ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ مِثْلَ الَّذِي أُعْطِيَ مُوسَى مِنْ فَلْقِ الْبَحْرِ وَعِيسَى مِنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى وَإِبْرَاءِ الْأَكْمَهِ وَالْأَبْرَصِ ، وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : أَيْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الْمَلَائِكَةُ مِنَ اللهِ بِالرِّسَالَةِ كَمَا تَأْتِي إِلَى الرُّسُلِ . كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا) (25 : 21) الْآيَةَ . فَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا إِذَا أُوتُوا عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ الَّتِي يُؤَيِّدُهُ اللهُ بِهَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ أُولَئِكَ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ . وَمَعْنَى الْقَوْلِ الْآخَرِ أَنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ مُؤْمِنِينَ بِالرِّسَالَةِ مُطْلَقًا إِلَّا إِذَا صَارُوا رُسُلًا يُوحَى إِلَيْهِمْ ، وَهَذَا أَقْرَبُ

*(153/249)*

---

إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ : (اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنَ الْمَعْنَيَيْنِ صَحِيحًا وَاقِعًا . قَرَأَ " رِسَالَتَهُ " (بِالْإِفْرَادِ) ابْنُ كَثِيرٍ وَحَفْصٌ عَنْ نَافِعٍ ، وَقَرَأَهَا الْبَاقُونَ رِسَالَاتِهِ (بِالْجَمْعِ) أَيْ رِسَالَاتِهِ إِلَى رُسُلِهِ . وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ مِنْ كَلَامِ اللهِ تَعَالَى رَدٌّ عَلَيْهِمْ وَبَيَانٌ لِجَهَالَتِهِمْ ، يَنْتَظِرُهُ السَّامِعُ وَالْقَارِئُ بَعْدَ حِكَايَةِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِمْ . وَبِالْوَقْفِ قَبْلَهُ تَامٌّ

لِأَنَّهُ آخِرُ قَوْلِهِمُ الْمَحْكِيِّ عَنْهُمْ .

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ : أَيْ هُوَ أَعْلَمُ حَيْثُ يَضَعُ رِسَالَتَهُ وَمَنْ يَصْلُحُ لَهَا مِنْ خَلْقِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ) (43 : 31 ، 32) الْآيَةَ . يَعْنُونَ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ عَظِيمٍ كَبِيرٍ جَلِيلٍ مُبَجَّلٍ فِي أَعْيُنِهِمْ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ ، أَيْ مَكَّةَ وَالطَّائِفَ . وَذَلِكَ أَنَّهُمْ - قَبَّحَهُمُ اللَّهُ - كَانُوا يَزْدَرُونَ الرَّسُولَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - بَغْيًا وَحَسَدًا وَعِنَادًا وَاسْتِكْبَارًا كَقَوْلِهِ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُ : (وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ) (21 : 36)

*(154/249)*

---

وَقَالَ تَعَالَى : (وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا) (25 : 41) وَزَادَ ابْنُ كَثِيرٍ أَنَّهُمْ كَانُوا مَعَ ذَلِكَ مُعْتَرِفِينَ بِفَضْلِهِ وَشَرَفِهِ وَنَسَبِهِ وَطَهَارَةِ بَيْتِهِ وَمُرَبَّاهُ وَمَنْشَئِهِ صَلَّى اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ عَلَيْهِ ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَهُ الْأَمِينَ ، وَاسْتُشْهِدَ عَلَى ذَلِكَ بِشَهَادَةِ أَبِي سُفْيَانَ لِهِرَقْلَ بِصِدْقِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ يَوْمَ كَانَ أَشَدَّ أُولَئِكَ الْأَكَابِرِ مُجَاهَرَةً بِعَدَاوَتِهِ وَمَكْرًا بِهِ ، كَأَنَّهُ يَعْنِي أَنَّ مَا يَعْلَمُونَ مِنْ فَضَائِلِهِ الذَّاتِيَّةِ وَالنَّسَبِيَّةِ وَالْبَيْتِيَّةِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ

مُقْنِعًا لَهُمْ بِأَنَّهُ أَوْلَى مِنْ جَمِيعِ أُولَئِكَ الْأَكَابِرِ الْحَاسِدِينَ لَهُ بِالرِّسَالَةِ وَبِكُلِّ كَرَامَةٍ صَحِيحَةٍ مِنَ الْحَكَمِ الْعَدْلِ الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ وَلَكِنَّ حَسَدَ الْأَكَابِرِ وَبَغْيَهُمْ وَتَقْلِيدَ مَنْ دُونَهُمْ لَهُمْ بِتَأْثِيرِ مَكْرِهِمْ قَدْ كَانَا هُمَا الْبَاعِثَيْنِ لَهُمْ عَلَى تِلْكَ الْأَقْوَالِ فِيهِ ، وَالْأَفْعَالِ فِي عَدَاوَتِهِ وَمُعَانَدَتِهِ .

*(155/249)*

---

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) حُجَّةٌ لِأَهْلِ الْحَقِّ عَلَى أَنَّ الرِّسَالَةَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ - تَعَالَى - يَخْتَصُّ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ ، لَا يَنَالُهَا أَحَدٌ بِكَسْبٍ ، وَلَا يُتَوَسَّلُ إلَيْهَا بِسَبَبٍ وَلَا نَسَبٍ ، وَعَلَى أَنَّهُ تَعَالَى لَا يَخْتَصُّ بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ الْعَظِيمَةِ ، وَالْمَنْقَبَةِ الْكَرِيمَةِ ، إلَّا مَنْ كَانَ أَهْلًا لَهَا بِمَا أَهَّلَهُ هُوَ مِنْ سَلَامَةِ الْفِطْرَةِ ، وَعُلُوِّ الْهِمَّةِ ، وَزَكَاءِ النَّفْسِ ، وَطَهَارَةِ الْقَلْبِ وَحُبِّ الْخَيْرِ وَالْحَقِّ . وَكَانَ أَذْكِيَاءُ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَلَى شِرْكِهِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى يَعْلَمُونَ أَنَّ الصَّادِقِينَ مُحِبِّي الْحَقِّ وَفَاعِلِي الْخَيْرِ مِنَ الْفُضَلَاءِ أَهْلٌ لِكَرَامَتِهِ - تَعَالَى - وَعِنَايَتِهِ كَمَا يُؤْخَذُ مِنِ اسْتِنْبَاطِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ خَدِيجَةَ فِي حَدِيثِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ فِي بَدْءِ الْوَحْيِ فَإِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا قَالَ لِخَدِيجَةَ رُضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهَا : " لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي ، قَالَتْ لَهُ : كَلَّا فَوَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا ، إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ " . هَذَا لَفْظُ مُسْلِمٍ .

وَذَكَرَ الرَّازِيُّ أَنَّ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - : (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) فِيهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَنْبِيهًا عَلَى دَقِيقَةٍ حَقِيقَةٍ بِالذِّكْرِ ، وَهِيَ أَنَّ أَقَلَّ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ فِي حُصُولِ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ الْبَرَاءَةُ مِنَ الْمَكْرِ وَالْغَدْرِ وَالْغِلِّ وَالْحَسَدِ (وَقَوْلِهِمْ) : " لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ " عَيْنُ الْمَكْرِ وَالْغَدْرِ وَالْحَسَدِ

فَكَيْفَ يُعْقَلُ حُصُولُ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ مَعَ هَذِهِ الصِّفَاتِ ؟ انْتَهَى . وَذَكَرَ " الرَّازِيُّ " قَبْلَ ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي قَوْلِ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ : وَاللَّهِ لَوْ كَانَتِ النُّبُوَّةُ حَقًّا لَكُنْتُ أَنَا أَحَقَّ بِهَا مِنْ مُحَمَّدٍ فَإِنِّي أَكْثَرُ مِنْهُ مَالًا وَوَلَدًا ، وَمِنَ الْمَعْهُودِ أَنْ يَصِلَ الْغُرُورُ بِبَعْضِ الْمَغْرُورِينَ بِالْمَالِ وَالْقُوَّةِ إلَى اعْتِقَادِ مِثْلِ هَذَا وَانْتِحَالِهِ لِأَنْفُسِهِمْ - وَإِنْ كَانَتِ الرِّوَايَةُ فِي كَوْنِ هَذَا الْقَوْلِ كَانَ سَبَبًا لِلنُّزُولِ لَمْ تَصِحَّ ، وَقِيلَ فِي سَبَبِ نُزُولِ غَيْرِهَا - كَمَا أَنَّهُ عَهِدَ مِنْهُمْ أَنْ يَقُولُوا مِثْلَ هَذَا الْقَوْلِ كِبْرًا وَعِنَادًا - يُكَابِرُونَ بِهِمَا أَنْفُسَهُمْ - وَخِدَاعًا وَغُرُورًا يَغُشُّونَ بِهِمَا غَيْرَهُمْ . وَلَا يَهْتَدِي لِمِثْلِ اسْتِنْبَاطِ خَدِيجَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - إلَّا الْأَفْرَادُ مِنَ الْفُضَلَاءِ الْمُنْصِفِينَ ، وَقَدْ سَبَقَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ تَحْقِيقُ الْقَوْلِ فِي طَلَبِ الْمُشْرِكِينَ

لِلْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ ، وَفِي كِبْرِيَائِهِمْ وَحَسَدِهِمْ وَغُرُورِهِمْ ، وَكَوْنِهَا هِيَ الْعِلَلَ الْحَقِيقِيَّةَ لِكُفْرِهِمْ وَجُحُودِهِمْ .

بَعْدَ أَنْ رَدَّ اللَّهُ – تَعَالَى – عَلَى أُولَئِكَ الْمُسْتَكْبِرِينَ الْمَغْرُورِينَ مَا تَضَمَّنَهُ قَوْلُهُمْ مِنْ دَعْوَى الِاسْتِعْدَادِ لِمَنْصِبِ الرِّسَالَةِ ، يَخْطُرُ فِي بَالِ الْقَارِئِ مَا يُسَائِلُ بِهِ نَفْسَهُ عَنْ جَزَائِهِمْ فَقَالَ تَعَالَى فِي بَيَانِ ذَلِكَ : (سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ) هَذَا الْوَعِيدُ صَرِيحٌ فِي كَوْنِ قَائِلِي ذَلِكَ الْقَوْلِ : " لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ " مِنَ الْمُجْرِمِينَ الْمَاكِرِينَ الَّذِينَ مَضَتْ سُنَّةُ اللَّهِ – تَعَالَى – أَنْ يَكُونُوا أَكَابِرَ وَزُعَمَاءَ فِي كُلِّ قَرْيَةٍ دَبَّ فِيهَا الْفَسَادُ وَكَانَ أَهْلُهَا مُقَاوِمِينَ لِلْإِصْلَاحِ ، وَفِيمَا ذَهَبْنَا إِلَيْهِ مِنْ عَوْدِ مَكْرِهِمْ عَلَيْهِمْ بِعِقَابِ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاهُمْ فِي الْآخِرَةِ بِاضْطِرَادٍ ، وَفِي الدُّنْيَا حَيْثُ يَمْكُرُونَ بِالرُّسُلِ وَيَصُدُّونَ عَمَّا جَاءُوا بِهِ أَوْ مَا يُقَرِّبُ مِمَّا جَاءُوا بِهِ مِنَ الْإِصْلَاحِ ، وَقَدْ قَصَّرَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي اقْتِصَارِهِ عَلَى ذِكْرِ عِقَابِهِمْ فِي الْآخِرَةِ .

*(158/249)*

الصَّغَارُ كَالصَّغَرِ (بِالتَّحْرِيكِ) فِي الْأُمُورِ الْمَعْنَوِيَّةِ ، كَالصِّغَرِ (بِوَزْنِ الْعِنَبِ) فِي الْأَشْيَاءِ الْحِسِّيَّةِ كَمَا قَالَ الرَّاغِبُ وَقَدْ فَسَّرُوهُ بِالذِّلَّةِ وَالْهَوَانِ ، جَزَاءً عَلَى الْكِبْرِ وَالطُّغْيَانِ . وَفَسَّرَ الرَّاغِبُ الصَّاغِرَ بِالرَّاضِي بِالْمَنْزِلَةِ الدَّنِيَّةِ وَهُوَ أَقْرَبُ إلَى الصَّوَابِ ، وَالتَّحْقِيقُ فِي تَفْسِيرِ (حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) (9 : 29) أَنَّ الْمُرَادَ بِالصَّغَارِ خُضُوعُهُمْ لِأَحْكَامِنَا .

وَنَقَلَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ أَنَّ إعْطَاءَهُمْ إيَّاهَا هُوَ الصَّغَارُ ، أَيْ لِأَنَّهُ طَاعَةٌ وَخُضُوعٌ لِغَيْرِهِمْ ، وَهُنَاكَ قَوْلَانِ آخَرَانِ لَهُمْ : (أَحَدُهُمَا) مَا رَوَاهُ عَنِ الضَّحَّاكِ أَنَّ مَعْنَاهُ أَنْ تَأْخُذَهَا وَأَنْتَ جَالِسٌ وَهُوَ قَائِمٌ . (وَثَانِيهُمَا) أَنْ يَمْشُوا بِهَا وَيَنْقُلُوهَا إلَى الْعَامِلِ .

وَلَيْسَ هَذَا وَلَا ذَاكَ بِمَعْنَى الصَّغَارِ فِي اللُّغَةِ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ قَائِلُوهُمَا أَنَّهُ يَتَحَقَّقُ بِهِمَا ، وَلَمْ يُرِيدُوا أَنَّ اللَّفْظَ يَدُلُّ عَلَيْهِ بِوَضْعِهِ اللُّغَوِيِّ .

*(159/249)*

---

وَمَعْنَى كَوْنِ هَذَا الصَّغَارِ يُصِيبُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، إذْ كُلُّ مَا فِيهَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ عِنْدَ اللَّهِ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ هُنَالِكَ تَصَرُّفٌ مَا وَلَا تَأْثِيرٌ ، لَا كَالدُّنْيَا الَّتِي صَرَفَ اللَّهُ فِيهَا النَّاسَ أَنْوَاعًا مِنَ التَّصَرُّفِ . أَوْ مَعْنَاهُ أَنَّهُ مِمَّا اقْتَضَاهُ حُكْمُهُ وَعَدْلُهُ

وَسَبْقَ بِهِ تَقْدِيرُهُ ، فَإِنَّ مَا هُوَ ثَابِتٌ عِنْدَ اللهِ فِي حُكْمِهِ الْقَدَرِيِّ التَّكْوِينِيِّ الَّذِي دَبَّرَ بِهِ نِظَامَ الْخَلْقِ وَمَا ثَبَتَ فِي حُكْمِهِ الشَّرْعِيِّ التَّكْلِيفِيِّ الَّذِي أَقَامَ بِهِ الْعَدْلَ وَالْحَقَّ ، يُطْلَقُ عَلَى كُلٍّ مِنْهُمَا أَنَّهُ عِنْدَهُ . قَالَ تَعَالَى فِي أَهْلِ الْإِفْكِ : (فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ) (24 : 13) ثُمَّ قَالَ فِيهِ : (وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ) (24 : 15) وَعَلَى الْقَوْلِ الثَّانِي يَصِحُّ أَنْ يَحْصُلَ هَذَا الْجَزَاءُ لَهُمْ بِالصَّغَارِ عَلَى اسْتِكْبَارِهِمْ عَنِ الْحَقِّ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ وَعَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ يَتَعَيَّنُ أَنْ يَكُونَ فِي الْآخِرَةِ ، وَحِينَئِذٍ يَكُونُ الْمُرَادُ بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ مَا يُصِيبُهُمْ فِي الدُّنْيَا أَوْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ جَمِيعًا . قَالَ تَعَالَى : (كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ فَأَذَاقَهُمُ اللهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (39 : 25 ، 26) وَقَالَ فِي عَادٍ قَوْمِ هُودٍ بَعْدَ مَا ذَكَرَ مِنِ اسْتِكْبَارِهِمْ وَجُحُودِهِمْ :

*(160/249)*

---

(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ) (41 : 16) وَعَذَابُ الْأُمَمِ فِي الدُّنْيَا بِذُنُوبِهَا مُطَّرِدٌ ، وَلَا يَطَّرِدُ عَذَابُ الْأَفْرَادِ وَإِنْ كَانُوا مِنَ الْمُجْرِمِينَ الْمَاكِرِينَ وَلَكِنَّ أَكَابِرَ مُجْرِمِي مَكَّةَ

الَّذِينَ تَصَدَّوْا لِإِيذَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْكَيْدِ لَهُ قَدْ عُذِّبُوا فِي الدُّنْيَا كَالْخَمْسَةِ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ قِيلَ إِنَّ السِّيَاقَ السَّابِقَ فِي طَلَبِ الْآيَاتِ - الَّذِي يُعَدُّ هَذَا السِّيَاقُ تَابِعًا لَهُ - نَزَلَ فِيهِمْ لِأَنَّهُمْ رُؤَسَاءُ الْمُجْرِمِينَ [رَاجِعْ تَفْسِيرَ الْآيَاتِ 109 ، 112 مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ] وَقُتِلَ مِنْ قُتِلَ مِنْهُمْ فِي بَدْرٍ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ .

وَإِذْ قَدْ بَيَّنَ تَعَالَى عَاقِبَةَ الْمُجْرِمِينَ الْمَاكِرِينَ الَّذِينَ حُرِمُوا الِاسْتِعْدَادَ لِلْإِسْلَامِ بَعْدَ بَيَانِ حَالِهِمْ ، قَفَّى عَلَيْهِ بِالْمُقَابَلَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْتَعِدِّينَ لَهُ ، ثُمَّ بِبَيَانِ ظُهُورِ هِدَايَتِهِ وَاسْتِقَامَةِ مَحَجَّتِهِ ، وَبِجَزَاءِ الْمُهْتَدِينَ بِهِ ، عَلَى حَسَبِ سُنَّتِهِ فِي كِتَابِهِ فَقَالَ :

(فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 8 صـ 36.15 ﴾

*(161/249)*

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾

وكأن الآية التي أرسلها الله مع رسوله وهي القرآن لتثبت لهم صدقه في البلاغ عن الله لم

تقنعهم ، ولم يكتفوا بها ، بل طالبوا بآيات أخرى ، فهم قد قالوا : ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴾ [ الإسراء : 90-92 ]

هم لا يريدون أن يؤمنوا بل إنهم يدخلون في اللجاج ، والتماس سبل الفرار من الإيمان ؛ لذلك تجد أن كل الحجج التي وقفوا بها أمام دعوة الرسول هي أكاذيب ؛ فقالوا إنه ساحر يفرق بين المرء وزوجه ، وبين الولد وأبيه ، ويدخل بما جاء به – ويزعم أنه من عند الله – الفتنة في الأسرة الواحدة .

لكن لماذا لم يتساءلوا : مادام قد سحر غيرنا فلماذا لم يسحرنا ؟ . وهل تأبوا هم على السحر ؟ . وهل للمسحور رغبة أو خيار مع الساحر ؟ . إنهم في ذلك كاذبون .

*(162/249)*

---

ثم قالوا : إن الرسول صلى الله عليه وسلم شاعر . ولو أن أحداً غيرهم قال مثل هذا الكلام لكان مقبولاً لأنه يجهل رسول الله ، ولأنه ليس من قوم هم أهل فصاحة وأهل بلاغة وأهل بيان ، إنهم يعرفون الشعر ، والنثر ، والخطابة والكتابة . فلو كان هذا الأمر من

غيرهم لكان القول مقبولاً ، ولذلك نجد منهم من تصفو نفسه يقول : والله ما هو بقول كاهن ولا بقول شاعر . ويطلب الحق منهم ألا يقولوا رأيا جماهيريا ؛ ففي الرأي الجماهيري يختلط ويلتبس الحق بالباطل . بل كان يطلب منهم أن يكون الكلام محدداً بحيث تنسب كل كلمة إلى قائلها فيقول الحق : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مثنى وفرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ . . ﴾ [ سبأ : 46 ]

أي لا تأتوا في أثناء هياج الناس وتتهموا الرسول صلى الله عليه وسلم بالجنون ؛ لأن قولكم في الهياج الجماهيري غير محسوب على أحد لكن المطلوب أن تقوموا لله مثنى أي اثنين اثنين ، وكل اثنين يقولان : هيا بنا نستعرض أمر هذا الرسول ونرى قضاياه : أهو كاهن ؟ . أهو ساحر ؟ . أهوشاعر ؟ فبين الاثنين لا يضيع الحق أبداً لأن كلاًّ منهما يناقش الآخر ، وحين يجلس اثنان للنقاش ، إذا انهزم منهما واحد أمام الآخر لا يُفضح أمام الغير ، لكن حين يتناقش ثلاثة أو أربعة فكل منهم يخاف أن ينهزم أمام غيره ، ونجد كل واحد يدافع عن نفسه . ولذلك حين يجلس اثنان معاً ليتناقشا ، ويبحثا أي أمر لا يخشى أحدهما الهزيمة ؛ لذلك يأتي الأمر من الله أن يقوموا لله مثنى أو فرادى ، ويتذكر كل واحد منهم أمر هذا الرسول : أهو مجنون ؟ .

إن أفعال المجنون وأعماله تكون متقطعة غير مستقيمة .

ومحمد على خلق عظيم ، وهل يقال للمجنون : إنه على خلق عظيم ؟ ؛ لأن الإِنسان منا لا يعرف كيف سيقابله المجنون ، أيضربه ، أيشتمه ، أيقطع له ملابسه ؟ . أمّا الخلق العظيم فمعناه الخلق المضبوط بالقيم ، وخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم مضبوط بالقيم حتى صار ملكة وليس أمرًا افتعاليًّا . وحين يقول الناس عن إنسان إن خلقه الكرم أي تأصلت فيه صفة الكرم تأصلاً بحيث أصبحت تصدر عنه أفعال البذل بيسر وسهولة ، وفي أعمال المعاني نسميها خلقاً ، وفي أعمال المادة نسميها آلية .

وكلنا يعرف أن الإِنسان إن أراد أن يتعلم قيادة سيارة فهو يتعلم قيادة الأفعال التي تؤدي إلى سير السيارة حتى يكتسب المهارة ويؤديها بيسر وبدون صعوبة ، وكذلك الشأن في الخلق حين تصدر وعنه الأفعال بدُربة ومهارة ، ونجد – على سبيل المثال – من يتعلم الفقه ، فيسأله إنسان عن الحكم في الأمر المعين ، فيستعرض الأمر من أوجهه في وقت طويل ، لكن من يتدرب يصبح الفقه بالنسبة إليه ملكة ، فلا يتعب في استنباط الحكم . كذلك الخلق .

ويوضح لهم الحق : أنتم تقولون عن الرسول : إنه مجنون ، فاجلسوا مثنى مثنى أو فرادى وادرسوا تصرفاته ستجدون أنها تصرفات منطقية مبنية على خلق كامل مكتمل ، وهو سلوك يختلف بالتأكيد عن سلوك المجنون ؛ لأن المجنون لا ضابط له في حركاته ولا في سكناته ولا فيما يدع . وكذلك لا يمكن أن يكون شاعراً ؛ لأنكم أنتم أهل شعر ، وكذلك

ليس بكاهن ؛ فالكهنة قد يستبدلون بآيات الله ثمنا قليلا ، وهو الذي أعلن لكم رفض الملك والثروة والجاه . لكنهم قالوا : ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ . . ﴾ [ الأنعام : 124 ]

*(164/249)*

---

وقد حدث الوليد بن المغيرة نفسه بذلك ، وكان من ناحية السن أسنّ من رسول الله ، ومن ناحية المال كان غنّيا ، ومن ناحية الأولاد عنده العزوة والولد ، وقال : لو كانت الرسالة بكل هذه الأمور لكنت أنا أولى بهذا لأنني أسنّ ولأنني أكثر مالاً ولأنني أكثر ولداً . وهو قد قاسها بمقاييس البشر ، وكأن الوليد لم يكن يعلم أن الرسالة ليست رئاسة ، فإذا كنت أنت دون غيرك عندك المال وعندك الأولاد وعندك الزروع وغير ذلك لكنك لست على خلق محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي فطره الله عليه وأعده واصطفاه ليكون رسولا ، ولكن مع هذا قال بعضهم : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [ الزخرف : 31 ]

ولنسمع رد القرآن : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ . . ﴾ [ الزخرف : 32 ]

ويوضح لهم الحق : نحن قسمنا بينهم الأمور الحياتية ، لكنكم تريدون تقسيم رحمة الله ،

وفرق بين الرحمة في الرسالات وبين امتداد الحياة بالأقوات والمال ؛ لأن هذه عطاءات ربوبية . لكن الرحمة هي عطاءات ألوهية ، انكم تميزتهم في دنياكم بالمال والبنين والبساتين لا لخصوصية فيكم ولكن لأن نظام الكون كله إنما يحتاج إلى مواهب متكاملة لا إلى مواهب متكررة ، ولو امتلك كل الناس مثل ما عندك يا وليد من أرض ومال لما وجدت من يفلح لك الأرض ، ولما كان عندك من يسرج لك الفرس .

ولهذا جعل الحق مسألة الثروة دولاً ، أي يقلب سبحانه هذه الأمور لتكون متداولة بين الناس ؛ تكون لهذا في زمن ولآخر في وقت وزمن آخر ولا تدوم لأحد .

*(165/249)*

---

وحين جاء الناس إلى أبي جهل يحدثونه في الرسالة قال : زاحمنا بني عبد مناف في الشرف ؛ أطعموا فأطعمنا ، كسوا فكسونا ، ذبحوا فذبحنا . حتى صرنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يوحى إليه والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً الا أن يأتينا بوحي كما يأتيه ، ومعنى كفرسي رهان ، أي فحين تنطلق الخيل في السباق في وقت واحد كانوا يدقون عوداً في الأرض عند نهاية السباق ومن يجذبه من الأرض يقال له : حاز قصب السبق ، وعود القصبة هو غاية المشوار ، حتى لا يقولن أحد لقد سبقني بخطوة أو غير ذلك .

وهنا يقول الحق : ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ آيَةٌ ﴾ .

وانظر إلى كلمة ﴿ جَآءَتْهُمْ آيَةٌ ﴾ ، فمرة يقول : ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ [ طه : 47 ] ، ومرة يقول : ﴿ جَآءَتْهُمْ آيَةٌ ﴾ ، فكأن الآية بلغت من وضوحها ومن استقلالها ومن ذاتيتها وخصوصيتها أنها تجيء . ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ . . ﴾ [ الأنعام : 124 ]

*(166/249)*

---

ويقول الله لهم رداً عليهم : لا تقترحوا ذلك على الله ؛ لأن ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ ؛ لأن الرسالة إنما تجيء لتنشر خيراً في الجميع ، ولكنها تعف نفسها عن آثار الانتفاع من ذلك الخير . والغير يريد أن تأتي له الخير ثم يترك بعضاً من الخير للناس . والرسول قد جاء لينشر خيره للآخرين ، وهو نفسه لا ينال من هذا الخير إلا البلاغ به . ويأمر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت ألا يأخذ أهله الزكاة ، أمّا ما تركه فقد صار صدقة للناس ، أي أنه لم ينتفع به في الدنيا ؛ لذلك هو مأمون على الرسالة ، ولم يردُ أن يأخذ الدنيا ليرثها أهله من بعده . وقد أراده الله كذلك ليكون خيره لكل الناس . فالرسالة تكليف ، والنبوة ليس جزاؤها هنا ، بل من عظمة الجزاء أنه في الآخرة ، " ولذلك حينما جاء

الرسول صلى الله عليه وسلم في بيعة العقبة وقالوا : اشترط لنفسك . قال : تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وتعملون كذا وتعملون كذا . "

قالوا له : فما لنا ؟ أنت اشترطت لنفسك ، فما لنا إن نحن وفينا ؟ . ماذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ . قال : لكم الجنة . هذا هو الثمن الذي عنده ، فمن يريد الجنة يأتي إلى الإيمان ، ومن يريد ما هو دون الجنة فليس مكانه مع أهل الإيمان . مع أنه قال لهم فيما بعد ستركبون السفن وتفرشون الزرابي والوسائد وتجلسون عليها ، وبشرهم بالكثير ، لكنه لم يقل لهم ذلك من البداية لأن من هؤلاء من لا يدرك خيراً في الدنيا مع الإسلام ؛ بل يموت والإسلام ضعيف واتباعه في قلة ، لذلك أعطاهم الجزاء المضمون لهم جميعاً حين قالوا له : ماذا إن نحن وَفَّيْنا ؟ .

قال : لكم الجنة . وكأنه صلى الله عليه وسلم يعلمهم أن الدنيا أهون من أن تكون جزاءً على العمل الصالح ، فجزاء العمل الصالح خالد لا يفوتك ولا تفوته . ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ . . ﴾ [ الأنعام : 124 ]

وحين نتأمل قولهم : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ ﴾ نجد أن في هذا القول إصراراً على عدم الإيمان ، أي لن نؤمن حتى في المستقبل إنهم تحكموا في المستقبل . ثم يفضحهم الله فيموت بعضهم على الكفر ، ومن بقي منهم يأتون مؤمنين بعد الفتح . ومن العجيب أن العبارة التي ينطقون بها هي عبارة مهزوزة لا تستقيم مع منطق الكفر منهم ، قالوا : لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله ، كأنهم قد عرفوا أن هناك رسلا من الله ، والأصل في الآية أن يؤمنوا برسل الله ورسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل ، وهذا القول يدل على مجرد المعارضة المقترنة بالغباء ، فما دمتم تعرفون أن لله رسلاً يصطفيهم ، فكيف تحاولون أنتم تحديد إرادة الله في الاختيار ؟ .

إن رسل الله كانت لهم آيات كونية ، حسية مرئية ، وهي وإن كانت فيها قوة المشهد الملزم ، إلا إنه لا ديمومة لها ، فمن رأى سيدنا موسى وهو يضرب البحر فينفلق لن يكذب هذه الآية الكونية ، إلا أنها أصبحت خبراً والخبر مناسب لمحدودية رسالة موسى ، كذلك رسالة عيسى عليه السلام حيث أبرأ الأكمة والأبرص بإذن الله . وهذه الرسالات لزمن محدود وفي قوم محدودين ، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء ومعه المنهج المعجزة الباقي إلى قيام الساعة ، فإن كانت المعجزة حسيّة فلن يراها إلى أن تقوم الساعة . فلا بد له من آية باقية إلى قيام الساعة ؛ لذلك كانت الآية في المعنويات والعقليات التي لا تختلف فيها الأمم ولا تختلف فيها الأزمان ، لكنهم أرادوا معجزة حسية ، وأخرى عقلية ، حتى إذا جاءت

واحدة فقط أنكروا الثانية ، فحسم الحق الأمر وقال : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه ﴾ .

(168/249)

---

ولو نظروا إلى كلمة ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ ، فكلمة ﴿ أَعْلَمُ ﴾ تدل على أنه قد يمكّن الله بعضاً من خلقه ليعلموا لماذا اختار الله محمداً صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الذين واجههم صلى الله عليه وسلم بأمر الدعوة ، هل انتظروا منه أن تكون له آية أو معجزة ، أو آمنوا به بمجرد الإخبار ؟ . لقد آمنوا بمجرد الإخبار ؛ لأن تجربتهم معه أكدت أنه صادق وأمين على خبر الأرض ، ولابد أن يكون مأموناً على خبر السماء ؛ لأنه لم يكذب عليهم في أمر الأرض ، فكيف يكذب في أمر السماء ؟

إننا نجد أن سيدنا أبا بكر ، بمجرد أن علم بأمر الرسالة قال : صدقت ، وسيدتنا خديجة صدقته من فور أن قال ، وأخذت صدق بلاغه من مقدمات حياته ، وقالت أول استنباط فقهي في الإسلام .

وكذا ذلك لسيدتنا أم المؤمنين خديجة قبل أن يعرف الفقه بمعناه الإصطلاحي الحديث ، مما يدل على أن الاستنباطات للأدلة هي استنباطات للعقل الفطري السليم البعيد عن

الأهواء . إنه يقدر أن يستقرئ الأمر ولابد أن يهتدي ، فحين أعلن لها أنه خائف أن يكون الذي أصابه مرض أو مسٌ من الجن رفضت ذلك لأنه يصل الرحم ، ويحمل الكلّ ، ويعين على نوائب الدهر ، وقال له : والله لا يخزيك الله أبداً .

إذن فقد جاءت بالمقدمات التي ترشح أن ربنا لا يمكن أن يخذله ، وكل المقدمات مفاخر ، كلها خلق عظيم ، وكلها التقاءات إنسانية قبل أن يأتي منهج السماء ، التقاءات إنسانية بالفطرة دون تقدير أو تدبير ، وكان هذا أول استنباط فقهي في الإسلام . ولذلك نعرف السر لماذا جعل الله لرسوله أم المؤمنين خديجة أو زوجة له ؟ لأنه ستمر به فترة لا يحتاج فيها إلى زوجة فقط . بل إلى ناضجة ، ذلك النضج الكامل الذي تستقبل به مسائل النبوة ، ولذلك حين يخرج إلى الغار تأتي له حكمة خديجة في الاستنباط قبل أن يوجد فقه الإسلام ؟

*(169/249)*

---

﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه ﴾ ؟ ، وهم قد أصروا على ألا يعلموا على الرغم من أنهم وجدوا منه خصالاً وأشياءً حكموا بوجودها فيه وأنها صفات رسول . ﴿ سَيُصِيبُ الذين أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ الله ﴾ [ الأنعام : 124 ]

هنا نجد فجوة انتقالية في الأداء ، فمن قبل يتحدث سبحانه عمن يظنون أنهم كبار ، فيأتي ليقول : إن الصِّغار سيصيبهم ، وليس معنى الصغار الذل والهوان لدى الناس ، لا ، بل صغار وذل وهوان عند نفس كل منهم ذاتيًّا ، فكل منهم سيشعر بالذل أمام نفسه ويستصغر نفسه . كأن الصغار منسوباً إلى عندية الله فهو لا يزول أبداً ؛ لأنه لا توجد قوة ثانية تقول لله إن قدرك لن يتحقق . فالصغار والذل والهوان سينزل بهم هم مع كونهم أكابر المجرمين فلن يستطيعوا دفعه عن أنفسهم ، وسيصيبهم مع ذلك عذاب شديد .

لماذا العذاب الشديد ؟

لقد قلنا من قبل : إن العذاب يوصف مرة بأنه أليم ، ويوصف مرة أخرى بأنه مهين ، ويوصف هنا بأنه شديد . والعذاب المهين الذي تكون فيه ذلة النفس . والعذاب الأليم الذي يكون في البنية ؛ لأن الإِنسان له بنية وله معنويات قيمية ، فمن ناحية البنية يصيبه العذاب ، ومن ناحية المعاني النفسية تصيبه الإِهانة ، فهناك من يتعذب لكنك لا تملك أن تهينه ويتحمل المشقة برجولة ، ومهما تلقى من الإِهانة فلا تزال نفسه كريمة عليه ، مصدقاً لقول الشاعر :

وتجلدي للشامتين أريهمو . . . أني لريب الدهر لا أتضعضعُ

لذلك ينزل قدر الله بالعذاب على نوعين : عذاب بنية وعذاب قيم ، وهذا هو الصغار ، والعذاب الشديد ، وهو الذي لا يقوى الإِنسان على تحمله ، ولم يُنزل الحق العذاب بهؤلاء

جزافاً ، لكنه بسبب ما كانوا يمكرون ، فسبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ولكن كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [ النحل : 118 ]

(170/249)

---

والحق سبحانه وتعالى حينما عرض هذه القضية عرضها ليبين لنا أنه لم يرغم بقدره خلقاً من خلقه على مسائل الاختيار في التكليف بل أوجد ذلك في إطار : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ . . ﴾ [ الكهف : 29 ]

ولكن الإرغام من الحق جاء للأمور القهرية القدرية الكونية الخارجة عن نطاق التكليف ، أما أمر التكليف فالله سبحانه وتعالى قال فيمن يرفضون الطاعة : ﴿ سَيُصِيبُ الذين أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ الله وَعَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ وسبحانه قد أوضح لنا : نحن لم نجعل ذلك قهراً منا لهم دون عمل عملوه باختياره بل إن العذاب والصغار كانا جزاءً لمكرهم .

ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى لنا بقضية يقع فيها الجدل التبريري لبعض الناس الذين أسرفوا على أنفسهم ، ويريدون أن يجعلوا إسرافهم على أنفسهم في الذنوب خاضعا لأن الله أراد منهم ذلك ؛ فيقول سبحانه : ﴿ فَمَن يُرِدِ الله أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ . . ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

---

ومن فوائد الشوكانى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (122) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (123) وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (124) ﴾

قوله : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فأحييناه ﴾ قرأ الجمهور بفتح الواو بعد همزة الاستفهام .

وقرأ نافع ، وابن أبي نعيم بإسكانها ، قال النحاس : يجوز أن يكون محمولاً على المعنى ، أي انظروا وتدبروا ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فأحييناه ﴾ والمراد بالميت هنا الكافر ، أحياه الله بالإسلام .

وقيل معناه : كان ميتاً حين كان نطفة ، فأحييناه بنفخ الروح فيه .

والأوّل أولى ، لأن السياق يشعر بذلك لكونه في تنفير المسلمين عن اتباع المشركين ، وكثيراً

ما تستعار الحياة للهداية وللعلم ، ومنه قول القائل :

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله . . . فأجسامهم قبل القبور قبور

وإن امرأ لم يحيي بالعلم ميت . . . فليس له حتى النشور نشور

والنور : عبارة عن الهداية والإيمان .

وقيل هو القرآن .

وقيل الحكمة .

وقيل هو النور المذكور في قوله تعالى : ﴿ يسعى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وبأيمانهم ﴾ [ الحديد : 12 ] والضمير في " به " راجع إلى النور ﴿ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظلمات ﴾ أي كمن صفته في الظلمات ، ومثله مبتدأ والظلمات خبره ، والجملة صفة لمن .

*(172/249)*

---

وقيل مثل زائدة ، والمعنى : كمن في الظلمات ، كما تقول : أنا أكرم من مثلك ، أي منك ، ومثله : ﴿ فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النعم ﴾ [ المائدة : 95 ] ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [ الشورى : 11 ] .

وقيل المعنى : كمن مثله مثل من هو في الظلمات ، و ﴿ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ في محل نصب

على الحال ، أي حال كونه ليس بخارج منها بحال من الأحوال .

قوله : ﴿ وكذلك جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابر مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ﴾ أي مثل ذلك الجعل جعلنا في كل قرية .

والأكابر جمع أكبر ، قيل : هم الرؤساء والعظماء ، وخصهم بالذكر ؛ لأنهم أقدر على الفساد ، والمكر : الحيلة في مخالفة الاستقامة ، وأصله الفتل ، فالماكر يفتل عن الاستقامة : أي يصرف عنها ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ ﴾ أي وبال مكرهم عائد عليهم ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ بذلك لفرط جهلهم ﴿ وَإِذَا جَاءتْهُمْ ءايَةٌ ﴾ من الآيات ، ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حتى نؤتى مِثْلَ مَا أُوتِىَ رُسُلُ الله ﴾ يريدون أنهم لا يؤمنون حتى يكونوا أنبياء ، وهذا نوع عجيب من جهالاتهم الغريبة وعجرفتهم العجيبة ، ونظيره : ﴿ يُرِيدُ كُلُّ امرىء مِّنْهُمْ أَن يؤتى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً ﴾ [ المدثر : 52 ] .

والمعنى : إذا جاءت الأكابر آية قالوا هذه المقالة ، فأجاب الله عنهم بقوله : ﴿ الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه ﴾ أي إن الله أعلم بمن يستحق أن يجعله رسولاً ، ويكون موضعاً لها ، وأميناً عليها ، وقد اختار أن يجعل الرسالة في محمد صفيه وحبيبه ، فدعوا طلب ما ليس من شأنكم ، ثم توعدهم بقوله : ﴿ سَيُصِيبُ الذين أَجْرَمُواْ صَغَارٌ ﴾ أي : ذلّ وهوان ، وأصله من الصغر كأنّ الذلّ يصغر إلى المرء نفسه .

وقيل الصغار هو الرضا بالذلّ ، روي ذلك عن ابن السكيت .

وقد أخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فأحييناه ﴾ قال : كان كافراً ضالاً فهديناه ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا ﴾ هو القرآن ﴿ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظلمات ﴾ : الكفر والضلالة .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن عكرمة في الآية قال : نزلت في عمار بن ياسر .

وأخرج أبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فأحييناه وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِى الناس ﴾ يعني عمر بن الخطاب ، ﴿ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظلمات لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ يعني أبا جهل بن هشام .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن زيد بن أسلم ، في الآية قال : نزلت في عمر ابن الخطاب ، وأبي جهل بن هشام ، كانا ميتين في ضلالتهما ، فأحيا الله عمر بالإسلام وأعزّه ، وأقرّ أبا جهل في ضلالته وموته ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا فقال : " اللهم أعزّ الإسلام بأبي جهل بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب " .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن عكرمة في قوله : ﴿ وكذلك جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أكابر

مُجْرِمِيهَا ﴾ قال : نزلت في المستهزئين .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في الآية قال : سلطنا شرارها فعصوا فيها ، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد قال ﴿ أكابر مُجْرِمِيهَا ﴾ عظماءها .

وأخرج ابن المنذر ، وأبو الشيخ ، عن ابن جريج في قوله : ﴿ وَإِذَا جَاءتْهُمْ ءايَةٌ ﴾ الآية قال : قالوا لمحمد حين دعاهم إلى ما دعاهم إليه من الحق .

لو كان هذا حقاً لكان فينا من هو أحق أن يؤتي به محمد : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [ الزخرف : 31 ] .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ سَيُصِيبُ الذين أَجْرَمُواْ ﴾ قال : أشركوا ﴿ صَغَارٌ ﴾ قال : هوان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

*(174/249)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (124) ﴾

أخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتيَ رسل الله ﴾ وذلك أنهم قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم حين دعاهم إلى ما دعاهم إليه من الحق : لو كان هذا حقاً لكان فينا من هو أحق أن يأتي به من محمد ﴿ وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [ الزخرف : 31 ] .

أما قوله تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالاته ﴾ .

أخرج أحمد عن ابن مسعود قال : إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته ، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه ، فما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رأوه سيئاً فهو عند الله سيء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن أبي حسن قال : أبصر رجل ابن عباس وهو يدخل من باب المسجد ، فلما نظر إليه راعه فقال : من هذا ؟ قالوا : ابن عباس ابن عم رسول الله . قال ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالاته ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ سيصيب الذين أجرموا ﴾ قال : أشركوا ﴿

صغار ﴾ قال : هوان .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ صغار ﴾ قال : ذلة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ بما كانوا يمكرون ﴾ قال : بدين الله ونبيه وعباده المؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

*(175/249)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ .

في " حَيْثُ " هذه وجهان :

أحدهما : أنَّها خرجتْ عن الظرفيَّة ، وصارت مَفْعُولاً بها على السّعَةِ ، وليس العامِلُ " أعْلَمُ هذه ؛ لما تقدَّم مِنْ أنَّ أفْعَلَ لا تنصبُ المفعول به .

قال أبو عَلِيّ : " لا يجوز أنْ يكُونَ العامِلُ في " حَيْثُ " : فِعلاً يدُلُّ عليه " أعْلَمُ " و " حَيْثُ " لا يكونُ ظَرْفاً ، بل يكونُ اسْماً ، وانتصابُه على المفعلول به على الاتِّساعِ ومل ذُلك في انتصابِ " حَيْثُ " على المفعولِ به اتساعاً قولُ الشَّمَّاخِ : [ الطويل ]

2304 - وحَلأهَا عَنْ ذِي الأَرَاكَةِ عَامِرٌ . . .

أَخُو الخُضْرِ يَرْمِي حَيْثُ تُكْوَى النَّوَاجِزُ

ف " حَيْثُ " مفعولةٌ ، لأنه لي يُريدُ أنه يَرْمِي شَيْئاً حيث تكون النواجِز ، إنما يريدُ أنه يرمي ذلك الموضع " .

وتبع الناسُ الفَارسيَّ على هذا القول .

(176/249)

---

فقال الحوفِيُّ : " لَيْسَتْ ظَرْفاً ؛ لأنه تعالى لا يكُون فِي مكانٍ أعْلمَ منه في مكانٍ آخر ، وإذَا لم تكن ظَرْفاً ، كان مَفْعُلاً بها ؛ على السّعَةِ ، وإذا كانت مَفْعُولاً ، لم يعملْ فيها " أعْلَمُ " ؛ لأن " أعْلَمُ " لا يعملُ في المفعولِ بِهِ فيقدّرُ لها فِعْلٌ " وعبارةُ ابْنِ عطيَّة ، وأبِي البَقَاءِ نحو مِنْ هذا .

وأخذ البرِيزيُّ كلام الفارسيِّ [ فنقله ] ، وأنْشدَ البيتَ المتقدّمَ .

والثاني : أنَّها باقيةٌ على ظَرْفِيَّتِهَا بطري المجاز ، وهذا القول لَيْسَ بشيءٍ ، ولكنْ أجَازَهُ أبو حيَّان مختاراً له على ما تقدم .

فقال : " وما أجازُوه مِنْ أنَّهُ مفعولٌ به على السعة أو مفعولٌ به على غيْرِ السعة - تَأَبَاهُ قواعِدُ النَّحْو ؛ لأن النحويِّينَ نَصُّوا على أنَّ " حَيْثُ " مِنَ الظرُوفِ التي لا تتصرفُ ، وشذَّ

إضافةُ "لَدى" إليها، وجرّها "بالياء"، وب "في"، ونصُّوا على أن الظرف المتوسَّعَ فيه لا يكونُ إلاَّ مُتَصرِّفاً، وإذا كان كذلك، امتنع نصبُ "حَيْثُ" على المفعُولِ به، لا على السِّعَة، ولا على غَيْرها.

والذي يَظْهَرُ لي إقْرارُ "حَيْثُ" على الظَّرفيةِ المجازيَّةِ، على أنْ يُضَمَّنَ "أعْلَمُ" مَعْنَى ما تيعدّى إلى الظرفِ، فيكون التقديرُ: "اللَّهُ أنْفَذُ عِلْماً حَيْثُ يجعلُ رِسَالاه" أي: "هو نافِذُ العلم في لا موضع الذي يجعل فيه رسالاته، والظرف هنا مجازٌ كما قلنا".

*(177/249)*

---

قال شهابُ الدِّين: قد ترك ما قاله الجمهورُ، وتتابعوا عليه، وتأوَّل شَيْئاً هو أعْظَم مما فَرَّ مِنْه الجمهورُ، وذلك أنه ليزمه على ما قدَّر أنَّ عِلْمَ الله في نَفْسِه يتفاوت بالنسْبَة إلى الأمْكِنَة، فيكونُ في مكانٍ أبْعَدَ مِنْه في مكانٍ، ودعواه مجازُ الظرفيَّةِ لا ينفعهُ؛ فيما ذكرته من الإشْكَال، وكيف يُقَالُ مِثْلُ هذا؟ وقوله: "نَصَّ النحاةُ على عدم تصرُّفها" هذا معارضٌ - أيضاً - بأنهم نصُّا على أنها قد تتصرَّفُ بغير ما ذكر هو مِنْ كونها مجروةً بـ "لَدَى" أو "إلى" أو "فِي" فمنه: أنها جاءت اسماً لـ "إنَّ" في قوله الشاعر: [الخفيف]

2305 - إنَّ حَيْثُ اسْتَقَرَّ مَنْ أنْتَ رَاجي...

هِ حِمًى فِيه عِزَّةٌ وأَمَان

ف " حيثُ " اسمُ " إن " ، و " حِمًى " خبرُها ، أيْ : إنَّ مكاناً استقرَّ من أنتن راعية مكانٌ يحمي فيه العزُّ والأمانْ ومِنْ مَجيئها مجروةً بـ " إلى " قول القائل في ذلك : [ الطويل ]

2306 - فَشَدَّ وَلَمْ يُنْظِرْ بُيُوتاً كَثِيرَةً . . .

إِلَى حَيْثُ أَلْقَتْ رَحْلَهَا أُمُّ قَشْعَمِ

وقد يجابُ عن الإشْكال الذي أَوْرَدْتُه عليه ، بأنه لم يُرِدْ بقوله " أَنْفَذُ عِلْماً " التفضيل ، وإنْ كان هو الظاهِرُ بل يُريد مُجَردَ الوصْفِ ؛ ويدلُّ على ذلك قوه : أي هُوَ نَافِذُ العلمل في الموضع الذي يَجْعَلُ فيه رِسَالاته ، ولكن كان يَنْبَغِي أنْ يصرِّحَ بذلك ، فيقول : ولِيٍ المراد التفضيل .

وروي " حَيْثَ يَجْعَلُ " بفتح الثاء ، وفيها احتمالان :

أحدهما : أنها فتحةُ بناءٍ ؛ طَرْداً للباب .

والثاني : أنها فتحةُ إعرابٍ ؛ لأنها معربةٌ في لغةِ بَنِي فَقْعس ، حكاها الكسَائِيُ .

[ وفي " حَيْثُ " سِتُّ لُغَاتٍ : حَيْثُ : بالياء بتَثْليث الثاءِ ، وحَوْثُ : بالواو ، مع تَثْليث الثاء ] .

*(178/249)*

وقرأ ابنُ كثير، وحَفْصٌ عن عَاصم "رسالَتَه" بالإفراد، والباقون: "رِسَالاتِهِ" بالجمع، وقد تقدَّم توجيهُ ذلك في المائدة؛ إلا أن بَعْضَ مَنْ قرهُناك بالجمْع - وهوحَفْصٌ - قرأ هنا بالإفْرادِ، وبعضُ مَنْ قرأ هناك بالإفْرَادِ - وهو أبو عَمْرو، والأخوانِ، وأبُو بَكْرٍ، عَنْ عاصم - قرأ هنا بالجمع، ومعنى الكلام: "اللهُ أعْلَمُ بمَنْ هُوَ أحَقُّ بالرِّسالةِ".

قوله: ﴿ سَيُصِيبُ الذين أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ الله ﴾ قِيلَ: المرادُ بالصِّغَارِ ذلك وهوان يحصلُ لهم في الآخرة.

وقيل: الصغارُ في الدنيا، وعذابٌ شَدِيدٌ في الآخرة.

قوله: "عِنْدَ اللَّهِ" يجوزُ أنْ يَنْتَصِبَ بـ "يُصِيب" ويجوز أن ينتصبَ بـ "صَغَار"؛ لأنه مصدرٌ، وأجازُوا أن يكون صِفَةً لـ "صغار"؛ فيتعلق بمحذوفٍ، وقدَّره الزجاجُ فقال: ثَابِتٌ عن الله تعالى".

والصِّغارُ: الذلُّ والهوان، يقالُ منه: صَغُرَ يَصْغَرُ صِغْراً فهو صغِيرٌ، هذا قولُ اللَّيْثِ، فوقع الفرقُ بين المعْنَيَيْنِ بالمصدرِ، والفعلِ.

وقال غيره: إنه يُقالُ: صَغُر، وصغَر من الذل.

والعِنْدِيَّةُ هنا: مجازٌ عن حَشْرِهم يوم القيامةِ، أو عَنْ حُكمه وقضائه بذلك؛ كقولك: ثَبَتَ عند فلانٍ القاضِي، أيْ: في حكمه، ولذلك قدَّم الصَّغار على العذاب؛ لأنه يُصيبهُمْ في الدنيا.

و" بما كانوا " الباء للسببيّة أي : إنما يُصيبهم ذلك بسبب مَكْرِهم ، وكَيْدِهم ، وحَسَدِهم و" مَا " مصدرية ، ويجوز أن تكون معنى الذي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 413.416 ﴾

(179/249)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (124) ﴾

بعد إزاحة العلة ، وبيان الحجة ، وزوال الشبهة ( فالتعلُّل ) باستزادة البصيرة إعلام عن سوء الأدب ، وذلك منهم من التعدي ؛ لمساواة مَنْ جاء بالاستحقاق بمَنْ جاء بنوع من تسويلات النَّفْس يوجب مقاساة الهوان . وملازمةُ الحدود . وتركُ التعدي على الحقِّ قضيةُ التوفيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 499 ﴾

(180/249)

قوله تعالى ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (125) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تقدم أنه تعالى أعلم بمن طبع على قلبه فلا ينفك عن الضلال ، ومن يقبل الهداية في الحال أو المآل ، وأن مكر المجرمين إنما هو بإرادته ونافذ قدرته ، علم أن الأمر أمره ، والقلوب بيده ، فتسبب عن ذلك قوله : ﴿ فمن يرد الله ﴾ أي الذي له جميع الجلال والإكرام ﴿ أن يهديه ﴾ أي يخلق الهداية في قلبه من أكابر المجرمين أو غيرهم ﴿ يشرح صدره ﴾ أي يوسعه بأن يجعله مهيئاً قابلاً بالنور ﴿ للإسلام ﴾ قال الإمام أبو جعفر النحاس : روي أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : " يا رسول الله ! وهل ينشرح الصدر ؟ فقال : نعم ، يدخل القلب نور ، فقال : وهل لذلك من علامة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل الموت " ، وفي رواية : الفوت ﴿ ومن يرد ﴾ أي الله ، ولم يظهر هنا إشارة إلى أن الضلال على مقتضى الطبع ﴿ أن يضله ﴾ أي يخلق الضلال ويديمه في قلبه ﴿ يجعل صدره ﴾ أي الذي هو مسكن قلبه

الذي هو معدن الأنوار ﴿ ضيقاً حرجاً ﴾ أي شديد الضيق فيكون مرتجساً أي مضطرباً ، روي أن عمر رضي الله عنه أحضر أعرابياً من كنانة من بني مدلج فقال له : ما الحرجة ؟ فقال : شجرة لا تصل إليها وحشية ولا راعية ، وساق البغوي القصة ولفظه : وقال : الحرجة فينا الشجرة تكون بين الأشجار التي لا تصل إليها راعية لا وحشية ولا شيء - ثم اتفقا - فقال عمر رضي الله عنه : كذلك قلب الكافر لا يصل إليه شيء من الإيمان والخير ؛ وزاد البغوي : يقال سيبويه : الحرج - بالفتح المصدر ، ومعناه : ذا حرج ، وبالكسر الاسم وهو أشد الضيق ، وقال المهدوي : هنا الحرج الشديد الضيق وقد تقدم القول فيه ، وقال في النساء في قوله تعالى ﴿ ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ﴾ [ النساء : 65 ] أي ضيقاً ، وإلى هذا المعنى يرجع قول مجاهد : إنه الشك ، وقول الضحاك : إنه الإثم ، كأنه ضيق شك أو ضيق إثم ؛ وقال النحاس : ﴿ حرجاً مما قضيت ﴾ أي شكاً وضيقاً ، وأصل

(181/249)

---

الحرج الضيق - انتهى .

(182/249)

وتحقيق ذلك أن الآية هنا فيها – بعد التأكيد بالإتيان بصيغة فعيل دون فاعل – تأكيد أخر إما بالمصدر أو باسم الفاعل ، فأفاد زيادة على أصل الفعل وهي الشدة فيه ، فمعنى الفتح : ضيقاً – بكسر الضاد وإسكان الياء ومعناه – إن كسرتَ حرجاً – ضيقاً بإعادة اسم الفاعل ، ومادة حرج بخصوص هذا الترتيب تدور على المكان الضيق الكثير الشجر ، ويلزمه الشخوص على وجه الأرض والارتفاع والجمع والمنع والشدة والحيرة والحر والبرد ، وهي – بأي ترتيب كان وهي خمسة : حرج جحر رجح حجر جرح – تدور على الحجر الذي هو الجسم المعروف ، ويلزمه الثقل والمنع والحدة والشخوص والصلابة التي هي القسوة ويلزمها الضيق ، فيرجع إلى الصلابة الحرجُ بمعنى الضيق ، والحرجة للغيضة ، ولحرج للقلادة من الودع ، والحرجوج للريح الشديدة الباردة ، والناقة الحرجوج للوقادة القلب ، ويجوز رجوعها إلى الحدة ، والجرح لسرير الموتى لضيق الصدر من ذكره ، ولضيقه عن أسرّة الأحياء ، ومنه أيضاً جحر الضب ونحوه للثقب المحتفر في الأرض ، ويرجع إلى الثقل الحرجُ بمعنى الإثم ، وينشأ عن ذلك البعث المفضي إلى الحيرة ، ومنه حرجت عينه ، أي حارت فلا تطرف ، ويلزم الثقل أيضاً الجرحُ بمعنى الطعن النافذ في البدن ، ومن ذلك اجترح – إذا اكتسب مالاً ، لأنه من آثاره ، ومنه الرجحان بمعنى الثقل ، والحكم الراجح الذي يوجب رزانة صاحبه ، ومنه الأرجوحة لأن كلاًّ من طرفيها يرجح بالآخر ، ويرجع إلى المنع الحجرُ

بمعنى العقل وبمعنى الحضن والحرام والفرس الأنثى لأنها قد تمنع من الركوب للحمل أو الولد ، والحجر في المال ، والحجرة للناحية القريبة لأن الشيء إذا بعد عنك – ولو قدر باع – امتنع منك ، وكان التأنيث فيه لقربه ، ويرجع إلى الشخوص الحرجُ للناقة الطويلة ؛ وقال الإمام أبو الفتح بن جني رحمه الله في كتابه " المحتسب في توجيه القراءات الشواذ " عند قوله تعالى في هذه السورة " وحرث حرج " فيمن قرأ بتقديم

*(183/249)*

---

الراء : إن جميع تراكيب هذه المادة الخمسة تلتقي معانيها في الضيق والشدة والاجتماع ، وإذا أنعمت النظر وتركت الملل والضجر وجدت الأمر كما قال – والله أعلم – نحو الحجر واستحجر الطين والحجرة وبقيته ، وكله إلى التماسك والضيق ، ومنه الحرج للضيق والجرح مثله ، والحرجة ما التف من الشجر فلم يمكن دخوله ، ومنه الحجر وبابه لضيقه ، ومنه الجرح لمخالطة الحديد للحم وتلاحمه عليه ، ومنه رجح الميزان – لأنه مال أحد شقيه نحو الأرض فقرب منها وضاق ما كان واسعاً بينه وبينها ، فإن قلت : فإنه إذا مال أحدهما إلى الأرض فقد بعد الآخر ؟ قيل : كلامنا على الراجح والراجح هو الذي إلى الأرض ، فأما الآخر فلا يقال له : راجح ، وإذا ثبت ذلك – وقد ثبت – فكذلك قوله تعالى ﴿ وحرث

حجر ﴾ في معنى حجر ، معناه عندهم أنها ممنوعة محجورة لن يطعمها إلاّ من يسألون أن يطعموه إياها بزعمهم – انتهى .

ولما كان صاحب هذا الصدر لا يكاد الهداية تصل إليه ، وإن وصل إليه شيء منها على لسان واعظ ومن طريق مرشد ناصح لم تجد مسلكاً فنكصت ، وهكذا لا تزال في اضطراب وتردد أبداً ؛ كانت ترجمته قوله : ﴿ كأنما يصعد ﴾ أي يتكلف هذا الشخص في قبول الهداية الصعود ﴿ في السماء ﴾ في خفاء حياء من مزاولة ما لا يمكن ، بما أشار إليه قراءة من أدغم التاء في الصاد ، فكلما أصعدته حركته الاختيارية أهبطته حركته الطبيعية القسرية ، كما نرى بعض الحشرات يحمل شيئاً ثقيلاً ويصعد به في جدار أملس ، فيصير يتكلف ذلك فيقع ، ثم يتكلف الصعود ايضاً فربما وصل إلى مكانه الأول وسقط ، وربما سقط دونه ، فهو مما يمتنع عادة ، فلا يزال مرتجساً أي مضطرباً ومجامع الاضطراب عقبه بما بعده كما يأتي .

(184/249)

---

ولما كان ما وصف به صدر الضال مما ينفر منه ، وكان الرجس في الأصل لما يستقذر ، والمستقذر ينفر منه ، وكان هذا الكلام ربما أثار سؤالاً ، وهو أن يقال : هل هذا – وهو

جعل الضال على هذه الصفة – خاص بأهل هذا الزمان ، أجيب بما حاصله : لا ، ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ما جعل الله الرجس على من أراد ضلاله من أهل هذا الزمان ﴿ يجعل الله ﴾ أي بما له من القدرة التامة والعظمة الباهرة ﴿ الرجس ﴾ أي الاضطراب والقذر ﴿ على الذين لا يؤمنون ﴾ من أهل كل زمان لإرادته سبحانه دوام ضلالهم ، فالآية من الاحتباك : ذكر أولاً الضلال دليلاً على حذفه ثانياً ، وذكر الرجس ثانياً دليلاً على حذفه أولاً ، والآية نص في أن الله يريد هدى المؤمن وضلال الكافر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 710 . 713 ﴾

فصل

قال الفخر :

تمسك أصحابنا بهذه الآية في بيان أن الضلال والهداية من الله تعالى .

واعلم أن هذه الآية كما أن لفظها يدل على قولنا ، فلفظها أيضاً يدل على الدليل القاطع العقلي الذي في هذه المسألة ، وبيانه أن العبد قادر على الإيمان وقادر على الفكر ، فقدرته بالنسبة إلى هذين الأمرين حاصلة على السوية ، فيمتنع صدور الإيمان عنه بدلاً من الكفر أو الكفر بدلاً من الإيمان ، إلا إذا حصل في القلب داعية إليه ، وقد بينا ذلك مراراً كثيرة في هذا الكتاب ، وتلك الداعية لا معنى لها إلا علمه أو اعتقاده أو ظنه بكون ذلك الفعل مشتملاً على مصلحة زائدة ومنفعة راجحة ، فإنه إذا حصل هذا المعنى في القلب دعاه

ذلك إلى فعل ذلك الشيء ، وإن حصل في القلب علم أو اعتقاد أو ظن بكون ذلك الفعل مشتملاً على ضرر زائد ومفسدة راجحة دعاه ذلك إلى تركه ، وبينا بالدليل أن حصول هذه الدواعي لا بد وأن يكون من الله تعالى ، وأن مجموع القدرة مع الداعي يوجب الفعل .

*(185/249)*

---

إذا ثبت هذا فنقول : يستحيل أن يصدر الإيمان عن العبد إلا إذا خلق الله في قلبه اعتقاد أن الإيمان راجح المنفعة زائد المصلحة ، وإذا حصل في القلب هذا الاعتقاد مال القلب ، وحصل في النفس رغبة شديدة في تحصيله ، وهذا هو انشراح الصدر للإيمان .

فأما إذا حصل في القلب اعتقاد أن الإيمان بمحمد مثلاً سبب مفسدة عظيمة في الدين والدنيا ، ويوجب المضار الكثيرة فعند هذا يترتب على حصول هذا الاعتقاد نفرة شديدة عن الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام ، وهذا هو المراد من أنه تعالى يجعل صدره ضيقاً حرجاً ، فصار تقدير الآية : أن من أراد الله تعالى منه الإيمان قوى دواعيه إلى الإيمان ، ومن أراد الله منه الكفر قوى صوارفه عن الإيمان ، وقوى دواعيه إلى الكفر ولما ثبت بالدليل العقلي أن الأمر كذلك ، ثبت أن لفظ القرآن مشتمل على هذه الدلائل العقلية ، وإذا انطبق قاطع البرهان على صريح لفظ القرآن ، فليس وراءه بيان ولا برهان .

قالت المعتزلة : لنا في هذه الآية مقامان :

المقام الأول : بيان أنه لا دلالة في هذه الآية على قولكم .

المقام الثاني : مقام التأويل المطابق لمذهبنا وقولنا .

أما المقام الأول : فتقريره من وجوه :

الوجه الأول : أن هذه الآية ليس فيها أنه تعالى أضل قوماً أو يضلهم ، لأنه ليس فيها أكثر من أنه متى أراد أن يهدي إنساناً فعل به كيت وكيت ، وإذا أراد إضلاله فعل به كيت وكيت ، وليس في الآية أنه تعالى يريد ذلك أو لا يريده .

والدليل عليه أنه تعالى قال : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لاتخذناه مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فاعلين ﴾ [ الأنبياء : 17 ] فبين تعالى أنه يفعل اللهو لو أراده ، ولا خلاف أنه تعالى لا يريد ذلك ولا يفعله .

الوجه الثاني : أنه تعالى لم يقل : ومن يرد أن يضله عن الإسلام ، بل قال : ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ ﴾ فلم قلتم إن المراد ومن يرد أن يضله عن الإيمان .

والوجه الثالث : أنه تعالى بين في آخر الآية أنه إنما يفعل هذا الفعل بهذا الكافر جزاء على كفره ، وأنه ليس ذلك على سبيل الابتداء ، فقال : ﴿ كذلك يَجْعَلُ الله الرجس عَلَى الذين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

الوجه الرابع : أن قوله : ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً ﴾ فهذا يشعر بأن جعل الصدر ضيقاً حرجاً يتقدم حصوله على حصول الضلالة ، وأن لحصول ذلك المتقدم أثراً في حصول الضلال وذلك باطل بالإجماع .

أما عندنا : فلا نقول به .

وأما عندكم : فلأن المقتضى لحصول الجهل والضلال هو أن الله تعالى يخلقه فيه لقدرته فثبت بهذه الوجوه الأربعة أن هذه الآية لا تدل على قولكم .

أما المقام الثاني : وهو أن تفسير هذه الآية على وجه يليق بقولنا ، فتقريره من وجوه : الأول : وهو الذي اختاره الجبائي ، ونصره القاضي ، فنقول : تقدير الآية : ومن يرد الله أن يهديه يوم القيامة إلى طريق الجنة ، يشرح صدره للإسلام حتى يثبت عليه ، ولا يزول عنه ، وتفسير هذا الشرح هو أنه تعالى يفعل به ألطافاً تدعوه إلى البقاء على الإيمان والثبات عليه ، وفي هذا النوع ألطاف لا يمكن فعلها بالمؤمن ، إلا بعد أن يصير مؤمناً ، وهي بعد أن يصير الرجل مؤمناً يدعوه إلى البقاء على الإيمان والثبات عليه وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بالله يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [ التغابن : 11 ] وبقوله : ﴿ والذين جاهدوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ

سُبُلَنَا ﴾ [ العنكبوت : 69 ] فإذا آمن عبد وأراد الله ثباته فحينئذ يشرح صدره ، أي يفعل به الألطاف التي تقتضي ثباته على الإيمان ودوامه عليه فأما إذا كفر وعاند ، وأراد الله تعالى أن يضله عن طريق الجنة ، فعند ذلك يلقي في صدره الضيق والحرج .

ثم سأل الجبائي نفسه وقال : كيف يصح ذلك ونجد الكفار طيبي النفوس لا غم لهم ألبتة ولا حزن ؟

*(187/249)*

---

وأجاب عنه : بأنه تعالى لم يخبر بأنه يفعل بهم ذلك في كل وقت فلا يمتنع كونهم في بعض الأوقات طيبي القلوب .

وسأل القاضي نفسه على هذا الجواب سؤالاً آخر فقال : فيجب أن تقطعوا في كل كافر بأنه يجد من نفسه ذلك الضيق والحرج في بعض الأوقات .

وأجاب عنه بأن قال : وكذلك نقول ودفع ذلك لا يمكن خصوصاً عند ورود أدلة الله تعالى وعند ظهور نصرة الله للمؤمنين ، وعند ظهور الذلة والصغار فيهم ، هذا غاية تقرير هذا الجواب .

والوجه الثاني : في التأويل قالوا لم لا يجوز أن يقال : المراد فمن يرد الله أن يهديه إلى الجنة

يشرح صدره للإسلام ؟ أي يشرح صدره للإسلام في ذلك الوقت الذي يهديه فيه إلى الجنة ، لأنه لما رأى أن بسبب الإيمان وجد هذه الدرجة العالية ، والمرتبة الشريفة يزداد رغبة في الإيمان ، ويحصل في قلبه مزيد انشراح وميل إليه ، ومن يرد أن يضله يوم القيامة عن طريق الجنة ، ففي ذلك الوقت يضيق صدره ، ويحرج صدره بسبب الحزن الشديد الذي ناله عند الحرمان من الجنة والدخول في النار قالوا : فهذا وجه قريب واللفظ محتمل له ، فوجب حمل اللفظ عليه .

والوجه الثالث : في التأويل أن يقال : حصل في الكلام تقديم وتأخير ، فيكون المعنى من شرح صدر نفسه بالإيمان فقد أراد الله أن يهديه أي يخصه بالألطاف الداعية إلى الثبات على الإيمان ، أو يهديه بمعنى أنه يهديه إلى طريق الجنة ، ومن جعل صدره ضيقاً حرجاً عن الإيمان ، فقد أراد الله أن يضله عن طريق الجنة ، أو يضله بمعنى أنه يحرمه عن الألطاف الداعية إلى الثبات على الإيمان ، فهذا هو مجموع كلامهم في هذا الباب .

والجواب عما قالوه أولاً : من أن الله تعالى لم يقل في هذه الآية أنه يضله ، بل المذكور فيه أنه لو أراد أن يضله لفعل كذا وكذا .

*(188/249)*

فنقول : قوله تعالى في آخر الآية : ﴿ كذلك يَجْعَلُ الله الرجس عَلَى الذين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ تصريح بأنه يفعل بهم ذلك الإضلال لأن حرف "الكاف" في قوله : ﴿ كذلك ﴾ يفيد التشبيه ، والتقدير : وكما جعلنا ذلك الضيق والحرج في صدره ، فكذلك نجعل الرجس على قلوب الذين لا يؤمنون .

والجواب عما قالوه ثانياً وهو قوله : ومن يرد الله أن يضله عن الدين .

فنقول : إن قوله في آخر الآية : ﴿ كذلك يَجْعَلُ الله الرجس عَلَى الذين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ تصريح بأن المراد من قوله : ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ ﴾ هو أنه يضله عن الدين .

والجواب عما قالوه ثالثاً : من أن قوله : ﴿ كذلك يَجْعَلُ الله الرجس عَلَى الذين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ يدل على أنه تعالى إنما يلقي ذلك الضيق والحرج في صدورهم جزاء على كفرهم .

فنقول : لا نسلم أن المراد ذلك ، بل المراد كذلك يجعل الله الرجس على قلوب الذين قضى عليهم بأنهم لا يؤمنون ، وإذا حملنا هذه الآية على هذا الوجه ، سقط ما ذكروه .

والجواب عما قالوه رابعاً : من أن ظاهر الآية يقتضي أن يكون ضيق الصدر وحرجه شيئاً متقدماً على الضلال وموجباً له .

فنقول : الأمر كذلك ، لأنه تعالى إذا خلق في قلبه اعتقاداً بأن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم يوجب الذم في الدنيا والعقوبة في الآخرة ، فهذا الاعتقاد يوجب إعراض النفس ونفور القلب عن قبول ذلك الإيمان ويحصل في ذلك القلب نفرة ونبوة عن قبول ذلك الإيمان

وهذه الحالة شبيهة بالضيق الشديد ، لأن الطريق إذا كان ضيقاً لم يقدر الداخل على أن يدخل فيه ، فكذلك القلب إذا حصل فيه هذا الاعتقاد امتنع دخول الإيمان فيه ، فلأجل حصول هذه المشابهة من هذا الوجه ، أطلق لفظ الضيق والحرج عليه ، فقد سقط هذا الكلام .

وأما الوجه الأول : من التأويلات الثلاثة التي ذكروها .

*(189/249)*

---

فالجواب عنه : أن حاصل ذلك الكلام يرجع إلى تفصيل الضيق والحرج باستيلاء الغم والحزن على قلب الكافر ، وهذا بعيد ، لأنه تعالى ميز الكافر عن المؤمن بهذا الضيق والحرج ، فلو كان المراد منه حصول الغم والحزن في قلب الكافر ، لوجب أن يكون ما يحصل في قلب الكافر من الغموم والهموم والأحزان أزيد مما يحصل في قلب المؤمن زيادة يعرفها كل أحد ، ومعلوم أنه ليس الأمر كذلك ، بل الأمر في حزن الكافر والمؤمن على السوية ، بل الحزن والبلاء في حق المؤمن أكثر .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ الناس أُمَّةً واحدة لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بالرحمن لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ ﴾ [ الزخرف : 33 ] وقال عليه السلام : " خص البلاء بالأنبياء ثم بالأولياء ثم

الأمثل فالأمثل "

وأما الوجه الثاني : من التأويلات الثلاثة فهو أيضاً مدفوع ، لأنه يرجع حاصله إلى إيضاح الواضحات لأن كل أحد يعلم بالضرورة أن كل من هداه الله تعالى إلى الجنة بسبب الإيمان فإنه يفرح بسبب تلك الهداية وينشرح صدره للإيمان مزيد انشراح في ذلك الوقت .

وكذلك القول في قوله : ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ ﴾ المراد من يضله عن طريق الجنة فإنه يضيق قلبه في ذلك الوقت فإن حصول هذا المعنى معلوم بالضرورة ، فحمل الآية عليه إخراج لهذه الآية من الفائدة .

*(190/249)*

---

وأما الوجه الثالث : من الوجوه الثلاثة ، فهو يقتضي تفكيك نظم الآية ، وذلك لأن الآية تقتضي أن يحصل انشراح الصدر من قبل الله أولاً ، ثم يترتب عليه حصول الهداية والإيمان ، وأنتم عكستم القضية فقلتم العبد يجعل نفسه أولاً منشرح الصدر ، ثم إن الله تعالى بعد ذلك يهديه بمعنى أنه يخصه بمزيد الألطاف الداعية له إلى الثبات على الإيمان ، والدلائل اللفظية إنما يمكن التمسك بها إذا أبقينا ما فيها من التركيبات والترتيبات فأما إذا أبطلناها وأزلناها لم يمكن التمسك بشيء منها أصلاً ، وفتح هذا الباب يوجب أن لا يمكن التمسك

بشيء من الآيات ، وإنه طعن في القرآن وإخراج له عن كونه حجة ، فهذا هو الكلام الفصل في هذه السؤالات ، ثم إنا نختم الكلام في هذه المسألة بهذه الخاتمة القاهرة ، وهي أنا بينا أن فعل الإيمان يتوقف على أن يحصل في القلب داعية جازمة إلى فعل الإيمان وفاعل تلك الداعية هو الله تعالى ، وكذلك القول في جانب الكفر ولفظ الآية منطبق على هذا المعنى ، لأن تقدير الآية فمن يرد الله أن يهديه قوى في قلبه ما يدعوه إلى الإيمان ومن يرد أن يضله ألقى في قلبه ما يصرفه عن الإيمان ويدعوه إلى الكفر ، وقد ثبت بالبرهان العقلي أن الأمر يجب أن يكون كذلك ، وعلى هذا التقدير : فجميع ما ذكرتموه من السؤالات ساقط ، والله تعالى أعلم بالصواب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 145.148 ﴾

فصل في تفسير ألفاظ الآية

قال الفخر :

أما شرح الصدر ففي تفسيره وجهان :

الوجه الأول : قال الليث : يقال شرح الله صدره فانشرح أي وسع صدره لقبول ذلك الأمر فتوسع .

وأقول : إن الليث فسر شرح الصدر بتوسيع الصدر ، ولا شك أنه ليس المراد منه أن يوسع صدره على سبيل الحقيقة ، لأنه لا شبهة أن ذلك محال ، بل لا بد من تفسير توسيع الصدر فنقول : تحقيقه ما ذكرناه فيما تقدم ولا بأس بإعادته ، فنقول إذا اعتقد الإنسان في عمل من الأعمال أن نفعه زائد وخيره راجح مال طبعه إليه ، وقويت رغبته في حصوله وحصل في القلب استعداد شديد لتحصيله ، فتسمى هذه الحالة بسعة النفس ، وإذا اعتقد في عمل من الأعمال أن شره زائد وضرره راجح عظمت النفرة عنه وحصل في الطبع نفرة ونبوة عن قبوله ، ومعلوم أن الطريق إذا كان ضيقاً لم يتمكن الداخل من الدخول فيه ، وإذا كان واسعاً قدر الداخل على الدخول فيه فإذا حصل اعتقاد أن الأمر الفلاني زائد النفع والخير وحصل الميل إليه ، فقد حصل ذلك الميل في ذلك القلب ، فقيل : اتسع الصدر له وإذا حصل اعتقاد أنه زائد الضرر والمفسدة لم يحصل في القلب ميل إليه فقيل إنه ضيق فقد صار الصدر شبيهاً بالطريق الضيق الذي لا يمكن الدخول فيه ، فهذا تحقيق الكلام في سعة الصدر وضيقه .

والوجه الثاني : في تفسير الشرح يقال : شرح فلان أمره إذا أظهره وأوضحه وشرح المسألة إذا كانت مشكلة فبينها .

واعلم أن لفظ الشرح غير مختص بالجانب الحق ، لأنه وارد في الإسلام في قوله : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ للإسلام ﴾ [ الزمر : 22 ] وفي الكفر في قوله : ﴿ ولكن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ [ النحل : 106 ] قال المفسرون : لما نزلت هذه الآية سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل له : كيف يشرح الله صدره ؟ فقال عليه السلام : " يقذف فيه نوراً حتى ينفسح وينشرح " فقيل له وهل لذلك من أمارة يعرف بها ؟ فقال عليه السلام : " الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت " وأقول هذا الحديث من أدل الدلائل على صحة ما ذكرناه في تفسير شرح الله الصدر ، وتقريره أن الإنسان إذا تصور أن الاشتغال بعمل الآخرة زائد النفع والخير ، وأن الاشتغال بعمل الدنيا زائد الضرر والشر ، فإذا حصل الجزم بذلك إما بالبرهان أو بالتجربة أو التقليد لا بد وأن يترتب على حصول هذا الاعتقاد حصول الرغبة في الآخرة ، وهو المراد من الإنابة إلى دار الخلود والنفرة عن دار الدنيا ، وهو المراد من التجافي عن دار الغرور ، وأما الاستعداد للموت قبل نزول الموت فهو مشتمل على الأمرين ، أعني النفرة عن الدنيا والرغبة في الآخرة . إذا عرفت هذا فنقول : الداعي إلى الفعل لا بد وأن يحصل قبل حصول الفعل ، وشرح الصدر للإيمان عبارة عن حصول الداعي إلى الإيمان ، فلهذا المعنى أشعر ظاهر هذه الآية

بأن شرح الصدر متقدم على حصول الإسلام ، وكذا القول في جانب الكفر . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 148.149 ﴾

*(193/249)*

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ ﴾

أي يوسعه له ، ويوفّقه ويزيّن عنده ثوابه .

ويقال : شرح شقّ ، وأصله التوسعةُ .

وشرح الله صدره وسّعه بالبيان لذلك .

وشرحت الأمر : بيّنته وأوضحته .

وكانت قريش تَشْرَحِ النساء شَرحاً ، وهو مما تقدّم : من التوسعة والبَسْط ، وهو وَطْءُ المرأة مستلقِيَةً على قفاها .

فالشّرح : الكشف ؛ تقول : شرحت الغامض ؛ ومنه تشريح اللحم .

قال الراجز :

كَمْ قَد أكلتُ كَبِداً وإنْفَحَهْ . . .

ثم ادخرت إِلْيَةً مُشَرَّحَهْ

والقطعة منه شَرِيحة .

وكل سمين من اللحم ممتدّ فهو شريحة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾

أي الإيمان .

يقال : شرح الله صدره فانشرح أي وسعه لقبول الإيمان والخير فتوسع وذلك أن الإنسان إذا اعتقد في عمل من الأعمال أن نفعه زائد وخيره راجح وربحه ظاهر مال بطبعه إليه وقويت رغبته فيه فتسمى هذه الحالة سعة النفس وانشراح الصدر .

وقيل الشرح الفتح والبين ويقال شرح فلان أمره إذا : أوضحه وأظهره .

وشرح المسألة إذا كانت مشكلة فأوضحها وبينها فقد ثبت أن للشرح معنين :

أحدهما : الفتح ومنه يقال شرح الكافر بالكفر صدراً أي فتحه لقبوله ومنه قوله تعالى : ﴿ ولكن من شرح بالكفر صدراً ﴾ وقوله : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام ﴾ يعني فتحه ووسعه لقبوله .

والثاني : أن الشرح نور يقذفه الله في قلب العبد فيعرف بذلك النور الحق ، فيقبله وينشرح صدره له ومعنى الآية : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه للإيمان بالله ﴾ وبرسوله وبما جاء به من عنده يوفقه له ويشرح صدره ، لقبوله ويهونه عليه ويسهله له بفضله وكرمه ولطفه به وإحسانه إليه فعند ذلك يستنير الإسلام في قلبه فيضيء به ويتسع له صدره ولما نزلت هذه الآية سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن شرح الصدر فقال " نور يقذفه الله في قلب المؤمن فينشرح له وينفسح " قيل فهل لذلك أمارة قال : " نعم الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت " وأسنده الطبري عن ابن مسعود قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلت عليه هذه الآية : ﴿ فمن يريد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ قال " إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح " قالوا فهل لذلك من آية يعرف بها ؟ قال : " الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل لقاء الموت " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

*(195/249)*

وقال الآلوسى :

﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ ﴾

أي يعرفه طريق الحق ويوفقه للإيمان ، وقالت المعتزلة ؛ المراد يهديه إلى الثواب أو إلى الجنة أو يثيبه على الهدى أو يزيده ذلك ﴿ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسلام ﴾ فيتسع له وينفسح وهو مجاز أو كناية عن جعل النفس مهيأة لحلول الحق فيها مصفاة عما يمنعه وينافيه كما أشار إليه صلى الله عليه وسلم حين قال له : كيف الشرح يا رسول الله ؟ فقال : " نور يقذف في الصدر فينشرح له وينفسح فقيل : هل لذلك من آية يعرف بها يا رسول الله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل لقاء الموت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾

الفاء مُرتِّبة الجملةَ الّتي بعدها على مضمون ما قبلها من قوله : ﴿ أو من كان ميّتاً فأحييناه ﴾ [ الأنعام : 122 ] وما ترتَّب عليه من التّفاريع والاعتراض .

وهذا التّفريع إبطال لتعلّلاتهم بعلّة ﴿ حتى نوتى مثل ما أوتي رسل الله ﴾ [ الأنعام : 124 ] ، وأنّ الله منعهم ما علّقوا إيمانَهم على حصوله ، فتفرّع على ذلك بيان السّبب المؤثّر بالحقيقة إيمانَ المؤمن وكُفْرَ الكافر ، وهو : هداية الله المؤمنَ ، وإضلالُه الكافرَ ،

فذلك حقيقة التّأثير ، دون الأسباب الظّاهرة ، فيعرف من ذلك أنّ أكابر المجرمين لو أوتوا ما سألوا لما آمنوا ، حتّى يريد الله هدايتهم إلى الإسلام ، كما قال تعالى : ﴿ إنّ الذين حقّت عليهم كلمات ربّك لا يؤمنون ولو جاءتهم كلّ آية حتّى يَروا العذاب الأليم ﴾ [ يونس : 96 ، 97 ] وكما قال : ﴿ ولو أنَّنا نزّلنا إليهم الملائكة وكلّمهم الموتى وحشَرْنا عليهم كلّ شيء قِبَلاً ما كانوا ليؤمنوا إلاّ أن يشاء الله ﴾ [ الأنعام : 111 ] .

*(196/249)*

---

والهدى إنَّما يتعلّق بالأمور النّافعة : لأنّ حقيقته إصابة الطريق الموصّل للمكان المقصود ، ومجازَه رشاد العقل ، فلذلك لم يحتج إلى ذكر متعلّقه هنا لظهور أنَّه الهدى للإسلام ، مع قرينة قوله : ﴿ يشرح صدره للإسلام ﴾ ، وأمّا قوله : ﴿ فاهْدُوهم إلى صراط الجحيم ﴾ [ الصافات : 23 ] فهو تهكّم .

والضّلال إنَّما يكون في أحوال مضرّة لأنّ حقيقته خطأ الطّريق المطلوب ، فلذلك كان مُشعراً بالضرّ وإن لم يذكر متعلّقه ، فهو هنا الاتّصاف بالكفر لأنّ فيه إضاعة خير الإسلام ، فهو كالضّلال عن المطلوب ، وإن كان الضّالّ غير طالب للإسلام ، لكنّه بحيث لو استقبَلَ من أمره ما استدبَر لطلبه .

والشّرْح حقيقته شقّ اللّحم ، والشّريحة القطعة من اللّحم تشقّ حتّى ترقّق ليقع شَيُّها .

واستعمل الشّرح في كلامهم مجازاً في البيان والكشف ، واستعمل أيضاً مجازاً في انجلاء الأمر ، ويقين النّفس به ، وسكون البال للأمر ، بحيث لا يتردّد فيه ولا يغتمّ منه ، وهو أظهر التّفسيرين في قوله تعالى : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ [ الشرح : 1 ] .

والصّدر مراد به الباطن ، مجازاً في الفهم والعقل بعلاقة الحلول ، فمعنى ﴿ يشرح صدره ﴾ يجعل لنفسه وعقله استعداداً وقبولاً لتحصيل الإسلام ، ويُوطّنه لذلك حتّى يسكن إليه ويرضى به ، فلذلك يشبَّه بالشّرح ، والحاصل للنّفس يسمّى انشراحاً ، يقال : لم تنشرح نفسي لكذا ، وانشرحتْ لكذا .

وإذا حلّ نور التّوفيق في القلب كان القلب كالمتّسع ، لأنّ الأنوار توسّع مناظر الأشياء .

روى الطّبري وغيره ، عن ابن مسعود : " أنّ ناساً قالوا : يا رسول الله كيف يشرحُ الله صدره للإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل فيه النّور فينفسح قالوا وهل لذلك من علامة يعرف بها قال الإنابة إلى دار الخلود ، والتنحّي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل الفوت " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

(197/249)

قوله تعالى ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله : ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً ﴾ ففيه مباحث :

البحث الأول : قرأ ابن كثير ﴿ ضَيِّقاً ﴾ ساكنة الياء وكذا في كل القرآن ، والباقون مشددة الياء مكسورة ، فيحتمل أن يكون المشدد والمخفف بمعنى واحد ، كسيد وسيد ، وهين وهين ولين ولين ، وميت وميت ، وقرأ نافع وأبو بكر عن عاصم ﴿ حَرَجاً ﴾ بكسر الراء ، والباقون بفتحها قال الفراء : وهو في كسره ونصبه بمنزلة الوجل والوجل ، والقرد والقرد ، والدنف والدنف .

قال الزجاج : الحرج في اللغة أضيق الضيق ومعناه : أنه ضيق جداً ، فمن قال : إنه رجل حرج الصدر بفتح الراء فمعناه : ذو حرج في صدره ، ومن قال : حرج جعله فاعلاً ، وكذلك رجل دنف ذو دنف ، ودنف نعت .

البحث الثاني : قال بعضهم : الحرج ، بكسر الراء الضيق ، والحرج بالفتح جمع حرجة ، وهو الموضع الكثير الأشجار الذي لا تناله الراعية .

وحكى الواحدي في هذا الباب حكايتين : إحداهما : روى عن عبيد بن عمير عن ابن عباس أنه قرأ هذه الآية وقال : هل ههنا أحد من بني بكر .

قال رجل : نعم .

قال : ما الحرجة فيكم .

قال : الوادي الكثير الشجر المشتبك الذي لا طريق فيه .

فقال ابن عباس : كذلك قلب الكافر .

والثانية : روى الواحدي عن أبي الصلت الثقفي قال : قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الآية ، ثم قال : ائتوني برجل من كنانة جعلوه راعياً فأتوا به ، فقال له عمر : يا فتى ما الحرجة فيكم .

قال : الحرجة فينا الشجرة تحدق بها الأشجار فلا يصل إليها راعية ولا وحشية .

فقال عمر : كذلك قلب الكافر لا يصل إليه شيء من الخير .

أما قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السماء ﴾ ففيه بحثان :



---

البحث الأول : قرأ ابن كثير ﴿ يَصْعَدُ ﴾ ساكنة الصاد وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿ يصاعد ﴾ بالألف وتشديد الصاد بمعنى يتصاعد ، والباقون ﴿ يَصَّعَّدُ ﴾ بتشديد الصاد والعين بغير ألف ، أما قراءة ابن كثير ﴿ يَصْعَدُ ﴾ فهي من الصعود ، والمعنى : أنه في

نفوره عن الإسلام وثقله عليه بمنزلة من تكلف الصعود إلى السماء ، فكما أن ذلك التكليف ثقيل على القلب ، فكذلك الإيمان ثقيل على قلب الكافر وأما قراءة أبي بكر ﴿ يصاعد ﴾ فهو مثل يتصاعد .

وأما قراءة الباقين ﴿ يَصْعَدُ ﴾ فهي بمعنى يتصعد ، فأدغمت التاء في الصاد ومعنى يتصعد يتكلف ما يثقل عليه .

البحث الثاني : في كيفية هذا التشبيه وجهان : الأول : كما أن الإنسان إذا كلف الصعود إلى السماء ثقل ذلك التكليف عليه ، وعظم وصعب عليه ، وقويت نفرته عنه ، فكذلك الكافر يثقل عليه الإيمان وتعظم نفرته عنه .

والثاني : أن يكون التقدير أن قلبه ينبو عن الإسلام ويتباعد عن قبول الإيمان ، فشبه ذلك البعد ببعد من يصعد من الأرض إلى السماء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 149.150 ﴾

*(199/249)*

---

وقال القرطبى :

﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ ﴾ يُغوِيه ﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً ﴾ وهذا ردّ على

القدرية .

ونظير هذه الآية من السُّنَّة قوله عليه السلام : " مَنْ يُرِد الله به خيراً يفقهه في الدِّين " أخرجه الصحيحان .

ولا يكون ذلك إلا بشرح الصدر وتنويره .

والدين العبادات ؛ كما قال : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسلام ﴾ [ آل عمران : 19 ] .

ودليل خطابه أن مَن لم يُرد الله به خيراً ضيّق صدره ، وأبعد فهمه فلم يفقهه .

والله أعلم .

وروي " أن عبد الله بن مسعود قال : يا رسول الله ، وهل ينشرح الصدر ؟ فقال : "نعم يدخل القلبَ نورٌ" فقال : وهل لذلك من علامة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : "التَّجَافِي عن دار الغُرورِ والإنابةُ إلى دار الخلود والاستعدادُ للموت قبل نزول الموت" " وقرأ ابن كثير "ضَيْقاً" بالتخفيف ؛ مثل هَيْن ولَيْن لغتان .

ونافع وأبو بكر "حَرِجاً" بالكسر ، ومعناه الضيق .

كرر المعنى ، وحسن ذلك لاختلاف اللفظ .

والباقون بالفتح .

جمع حرجة ؛ وهو شدّة الضيق أيضاً ، والحَرجَة الغَيْضَة ؛ والجمع حَرَج وحَرَجات .

ومنه فلان يتحرَّج أي يضيِّق على نفسه في تركه هواه للمعاصي ؛ قاله الهَرَوِيّ .

وقال ابن عباس : الحَرَج موضع الشجر الملتف ؛ فكأنّ قلب الكافر لا تصل إليه الحكمة كما لا تصل الراعية إلى الموضع الذي التف شجره .

ورُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا المعنى ؛ ذكره مكيّ والثعلبِي وغيرهما .

وكل ضيّق حَرِجٌ وحَرَج .

قال الجوهَرِي : مكان حرِج وحَرَج أي ضيق كثير الشجر لا تصل إليه الراعية .

وقرىء "يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً" و"حَرِجاً" .

وهو بمنزلة الوَحَد والوَحِد والفَرَد والفَرِد والدنَف والدّنِف ؛ في معنًى واحد ، وحكاه غيره عن الفراء .

وقد حَرِج صدره يَحْرَج حرجاً .

والحَرَج الإثم .

والحرج أيضاً : الناقة الضامرة .

ويقال : الطويلة على وجه الأرض ؛ عن أبي زيد ، فهو لفظ مشترك .

(200/249)

والحَرَج : خشب يُشدّ بعضه إلى بعض يُحمل فيه الموتى ؛ عن الأصمعيّ .

وهو قول امرىء القيس :

فإمّا تَرَيْني في رِحالة جابرٍ . . .

على حَرَج كالقَرّ تَخفقُ أكفانِي

وربما وضع فوق نعش النساء ؛ قال عنترة يصف ظَلِيماً :

يتْبَعْن قُلَّةَ رأسِه وكأنّه . . .

حَرَج على نَعْش لهنّ مُخَيّم

وقال الزجاج : الحَرَج : أضيق الضِّيق .

فإذا قيل : فلان حَرَج الصدر ، فالمعنى ذو حَرَج في صدره .

فإذا قيل : حَرِج فهو فاعل .

قال النحاس : حرِج اسم الفاعل ، وحَرَج مصدر وصف به ؛ كما يقال : رجل عَدْلٌ ورِضاً .

قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السمآء ﴾ قرأه ابن كثير بإسكان الصاد مخفَّفاً ، من الصعود وهو الطلوع .

شبه الله الكافر في نفوره من الإيمان وثِقله عليه بمنزلة من تكلّف ما لا يُطيقه ؛ كما أن صعود السماء لا يطاق .

وكذلك يصّاعد وأصله يَتَصاعد ، أدغمت التاء في الصاد ، وهي قراءة أبي بكر والنخَعِي ؛ إلا أن فيه معنى فِعل شيء بعد شيء ، وذلك أثقل على فاعله .

وقرأ الباقون بالتشديد من غير ألف ، وهو كالذي قبله .

معناه يتكلف ما لا يطيق شيئاً بعد شيء ؛ كقولك : يتَجرّع ويتفوّق .

وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ "كأنما يَتَصَعّد" .

قال النحاس : ومعنى هذه القراءة وقراءةِ من قرأ يصّعد ويصّاعد واحد .

والمعنى فيهما أن الكافر من ضيق صدره كأنه يريد أن يصعد إلى السماء وهو لا يقدِر على ذلك ؛ فكأنّه يستدعي ذلك .

وقيل : المعنى كاد قلبه يصعد إلى السماء نَبْواً عن الإسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

وقوله تعالى : ﴿ ومن يرد ﴾ أي الله ﴿ أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً ﴾ يعني يجعل صدره ضيقاً حتى لا يدخله الإيمان ، وقال الكلبي : ليس للخير فيه منفذ ، وقال ابن عباس : إذا سمع ذكر الله اشمأز قلبه وإذا سمع ذكر الأصنام ارتاح إلى ذلك .

وقرأ عمر بن الخطاب هذه الآية وعنده أعرابي من كنانة فقال له : ما الحرجة فيكم ؟ قال : الحرجة فينا الشجرة تكون بين الأشجار التي لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء ، فقال عمر : كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير .

وأصل الحرج الضيق وهو مأخوذ من الحرجة وهي الأشجار الملتف بعضها على بعض حتى لا يصل إليه شيء .

وقرأ ابن عباس هذه الآية فقال : هل هنا أحد من بني بكر ؟ قال رجل : نعم .

قال : ما الحرجة فيكم ؟ قال : الوادي الكثير الشجر المستمسك الذي لا طريق فيه ، فقال ابن عباس : كذلك قلب الكافر .

قال أهل المعاني : لما كان القلب محلاً للعلوم والاعتقادات وصف الله تعالى قلب من يريد هدايته بالإنشراح والانفساح ونوره فقبل ما أودعه من الإيمان بالله ورسوله ووصف قلب من يريد ضلالته بالضيق الذي هو خلاف الشرح والانفساح فدل ذلك على أن الله تعالى صير قلب الكافر بحيث لا يعي علماً ولا استدلالاً على توحيد الله تعالى والإيمان به وفي الآية دليل على أن جميع الأشياء بمشيئة الله وإرادته حتى إيمان المؤمن وكفر الكافر .

وقوله تعالى : ﴿ كأنما يصعد في السماء ﴾ يعني أن الكافر إذا دعي إلى الإسلام كأنه قد كلف أن يصعد إلى السماء ولا يقدر على ذلك ، وقيل : يجوز أن يكون المعنى كأن قلب

الكافر يصعد إلى السماء نبواً عن الإسلام وتكبراً ، وقيل : ضاق عليه المذهب فلم يجد إلا أن يصعد إلى الماء وليس يقدر على ذلك ، وقيل : هو من المشقة وصعوبة الأمر فيكون المعنى أن الكافر إذا دعي إلى الإسلام فإنه يتكلف مشقة وصعوبة في ذلك كمن يتكلف إلى السماء وليس يقدر على ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

*(202/249)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ ﴾ أي يخلق فيه الضلالة ( لسوء اختياره ) ، وقيل : المراد يضله عن الثواب أو عن الجنة أو عن زيادة الإيمان أو يخذله ويخلي بينه وبين ما يريده ﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً ﴾ بحيث ينبو عن قبول الحق فلا يكاد ( يكون فيه للخير منفذ ) وقرأ ابن كثير ﴿ ضَيِّقاً ﴾ بالتخفيف ، ونافع وأبو بكر عن عاصم ﴿ حَرَجاً ﴾ بكسر الراء أي شديد الضيق والباقون بفتحها وصفاً بالمصدر للمبالغة "وأصل معنى الحرج كما قال الراغب مجتمع الشي ( وتُصوِّر منه ضيق ما بينهما ) ، ومنه قيل : للضيق حرج" ، وقال بعض المحققين : أصل معناه شدة الضيق فإن الحرجة غيضة أشجارها ملتفة بحيث يصعب دخولها .

وأخرج ابن حميد وابن جرير وغيرهما عن أبي الصلت الثقفي أن عمر رضي الله تعالى عنه قرأ ﴿ حَرَجاً ﴾ بفتح الراء وقرأ بعض من عنده من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ حَرَجاً ﴾ بكسرها فقال عمر : أبغوني رجلاً من كنانة واجعلوه راعياً وليكن مدلجياً فأتوه به فقال له عمر : يا فتى ما الحرجة فيكم ؟ قال : الحرجة فينا الشجرة تكون بين الأشجار التي لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء فقال عمر رضي الله تعالى عنه : كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير .

﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السماء ﴾ استئناف أو حال من ضمير الوصف أو وصف آخر ، والمراد المبالغة في ضيق صدره حيث شبه بمن يزاول ما لا ( يكاد ) يقدر عليه فإن صعود السماء مثل فيما هو خارج عن دائرة الاستطاعة ، وفيه تنبيه على أن الإيمان يمتنع منه كما يمتنع منه الصعود ، والامتناع في ذلك عادي .

وعن الزجاج معناه كأنما يتصاعد إلى السماء نبواً عن الحق وتباعداً في الهرب منه ، وأصل ﴿ يَصْعَدُ ﴾ يتصعد وقد قرىء به فادغمت التاء في الصاد .

وقرأ ابن كثير ﴿ يَصْعَدُ ﴾ وأبو بكر عن عاصم ﴿ يصاعد ﴾ وأصله أيضاً يتصاعد ففعل به ما تقدم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

ومعنى : ﴿ ومن يرد أن يضله ﴾ من يُرد دوام ضَلاله بالكفر ، أو من يُرد أن يضلّه عن

الاهتداء إلى الإسلام ، فالمراد ضلال مستقبل ، إمَّا بمعنى دَوام الضلال الماضي ، وإمَّا بمعنى ضلال عن قبول الإسلام ، وليس المراد أن يضلّه بكفره القديم ، لأنّ ذلك قد مضى وتقرّر .

(203/249)

---

والضيِّقُ بتشديد الياء بوزن فَيْعِل مبالغة في وصف الشّيء بالضيّق ، يقال ضاق ضِيقاً بكسر الضاد وضَيقاً بفتحها والأشهر كسر الضاد في المصدر والأقيس الفتح ؛ ويقال بتخفيف الياء بوزن فَعْل ، وذلك مثل مَيِّت ومَيْت ، وهما وإن اختلفت زنتهما ، وكانت زنة فَيْعِل في الأصل تفيد من المبالغة في حصول الفعل ما لا تفيده زنة فَعْل ، فإنّ الاستعمال سوّى بينهما على الأصحّ .

والأظهر أنّ أصل ضيِّق : بالتخفيف وصف بالمصدر ، فلذلك استويا في إفادة المبالغة بالوصف .

وقرىء بهما في هذه الآية ، فقرأها الجمهور : بتشديد الياء ، وابن كثير : بتخفيفها .

وقد استعير الضيِّق لضدّ ما استعير له الشّرح فأريد به الّذي لا يستعدّ لقبول الإيمان ولا تسكن نفسه إليه ، بحيث يكون مضطرب البال إذا عُرض عليه الإسلام ، وهذا كقوله تعالى

: ﴿ حصرت صدورهم ﴾ وتقدّم في سورة النّساء ( 90 ) .

والحَرِج بكسر الراء صفة مشبّهة من قولهم : حَرِج الشّيء حرَجاً ، من باب فرح ، بمعنى ضاق ضيقاً شديداً ، فهو كقولهم : دَنِف ، وقَمِن ، وفَرِق ، وحَذِر ، وكذلك قرأه نافع ، وعاصم في رواية أبي بكر ، وأبو جعفر ، وأمّا الباقون فقرأوه بفتح الراء على صيغة المصدر ، فهو من الوصف بالمصدر للمبالغة ، فهو كقولهم : رجل دَنَف بفتح النّون وفَرَد بفتح الراء .

وإتْباع الضيّق بالحرج : لتأكيد معنى الضيق ، لأنّ في الحرج من معنى شدّة الضّيق ما ليس في ضيق .

والمعنى يجعل صدره غير متّسع لقبول الإسلام ، بقرينة مقابلته بقوله : يشرح صدره للإسلام ﴾ .

وزاد حالة المضلَّل عن الإسلام تبيينا بالتّمثيل ، فقال : ﴿ كأنما يصعد في السماء ﴾ .

*(204/249)*

---

قرأه الجمهور : ﴿ يصّعَّد ﴾ بتشديد الصاد وتشديد العين على أنَّه يَتفعَّل من الصعود ، أي بتكلّف الصعود ، فقلبت تاء التفعّل صاداً لأنّ التاء شبيهة بحروف الإطباق ، فلذلك تقلب طاء بعد حروف الإطباق في الافتعال قلباً مطّرداً ثمّ تدغم تارة في مماثلها أو مقاربها ،

وقد تقلب فيما يشابه الافتعال إذا أريد التّخفيف بالإدغام ، فتدغم في أحد أحرف الإطباق ، كما هنا ، فإنَّه أريد تخفيف أحد الحروف الثّلاثة المتحرّكة المتوالية من ( يَتصعّد ) ، فسُكنت التاء ثمّ أدغمت في الصّاد إدغام المقارب للتخفيف .

وقرأه ابن كثير : ﴿ يَصْعَد ﴾ بسكون الصّاد وفتح العين ، مخفّفاً .

وقرأه أبو بكر ، عن عاصم : ﴿ يصّاعد ﴾ بتشديد الصّاد بعدها ألف وأصله يتصاعد .

وجملة ﴿ كأنما يصعد ﴾ في موضع الحال من ضمير : ﴿ صدْرَه ﴾ أو من صَدره ، مُثّل حال المشرك حين يدعى إلى الإسلام أو حين يخلو بنفسه ، فيتأمل في دعوة الإسلام ، بحال الصّاعد ، فإنّ الصّاعد يضيق تنفّسه في الصّعود ، وهذا تمثيل هيئة معقولة بهيئة متخيَّلة ، لأنّ الصّعود في السّماء غير واقع .

والسّماء يجوز أن يكون بمعناه المتعارف ، ويجوز أن يكون السّماء أطلق على الجوّ الّذي يعلو الأرض .

قال أبو عليّ الفارسي : "لا يكون السّماء المُظلةَ للأرض ، ولكن كما قال سيبويه القيدود الطويل في غير سماء أي في غير ارتفاع صعداً" أراد أبو عليّ الاستظهار بكلام سيبويه على أنّ اسم السّماء يقال للفضاء الذّاهب في ارتفاع ( وليست عبارة سيبويه تفسيراً للآية ) .

وحرف ﴿ في ﴾ يجوز أن يكون بمعنى ( إلى ) ، ويجوز أن يكون بمعنى الظرفية : إمَّا بمعنى

كأنّه بلغ السّماء وأخذ يصعد في منازلها ، فتكون هيئة تخييلية ، وإمّا على تأويل السّماء بمعنى الجوّ. انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

(205/249)

---

قوله تعالى ﴿كذلك يَجْعَلُ الله الرجس عَلَى الذين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله : ﴿كذلك يَجْعَلُ الله الرجس عَلَى الذين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ ففيه بحثان :

البحث الأول : الكاف في قوله : ﴿كذلك ﴾ يفيد التشبيه بشيء ، وفيه وجهان : الأول : التقدير أن يجعل الله الرجس عليهم كجعله ضيق الصدر في قلوبهم .

والثاني : قال الزجاج التقدير : مثل ما قصصنا عليك ، يجعل الله الرجس .

البحث الثاني : اختلفوا في تفسير ﴿الرجس ﴾ فقال ابن عباس : هو الشيطان يسلطه الله عليهم وقال مجاهد : ﴿الرجس ﴾ مالا خير فيه .

وقال عطاء : ﴿الرجس ﴾ العذاب .

وقال الزجاج: ﴿ الرجس ﴾ اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 150 ﴾

(206/249)

---

وقال القرطبى:

﴿ كذلك يَجْعَلُ الله الرجس ﴾ عليهم؛ كجعله ضيق الصدر في أجسادهم.

وأصل الرِّجس في اللغة النتن.

قال ابن زيد: هو العذاب.

وقال ابن عباس: الرِّجس هو الشيطان؛ أي يسلطه عليهم.

وقال مجاهد: الرِّجس ما لا خير فيه.

وكذلك الرجس عند أهل اللغة هو النتن.

فمعنى الآية والله أعلم: ويجعل اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة ﴿ عَلَى الذين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن:

﴿ كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾

الكاف في كذلك تفيد التشبيه وفيه وجهان :

الأول معناه أن جعله الرجس عليهم كجعله صدورهم ضيقة حرجة والمعنى كما جعلنا صدورهم ضيقة حرجة كذلك يجعل الله الرجس عليهم .

والوجه الثاني : قال الزجاج : أي مثل ما قصصنا عليك كذلك يجعل الله الرجس .

قال ابن عباس : الرجس الشيطان أي فيسلطه الله عليهم ، وقال مجاهد : الرجس ما لا خير فيه .

وفي رواية عن ابن عباس أن الرجس العذاب ، وقال الزجاج : الرجس في الدنيا اللعنة وفي الآخرة العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

*(207/249)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ كذلك ﴾ إشارة إلى الجعل المذكور بعده على ما مر تحقيقه أو إشارة إلى الجعل السابق أي مثل ذلك الجعل أي جعل الصدر حرجاً على الوجه المذكور ﴿ يَجْعَلُ الله الرجس ﴾ أي العذاب أو الخذلان .

وأخرج ابن المنذر وغيره عن مجاهد أنه قال : الرجس ما لا خير فيه .

وقال الراغب : "الرجس الشيء القذر" ، وقال الزجاج : هو اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة .

وأصله على ما قيل من الارتجاس وهو الاضطراب ﴿ عَلَى الذين لاَيُؤْمِنُونَ ﴾ أي عليهم .

ووضع الظاهر موضع المضمر للتعليل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وجملة : ﴿ كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ تذييل للتي قبلها ، فلذلك فصلت .

والرجس : الخبث والفساد ، ويطلق على الخبث المعنوي والنّفسي .

*(208/249)*

---

والمراد هنا خبث النّفس وهو رجس الشّرك ، كما قال تعالى : ﴿ وأمّا الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ [ التوبة : 125 ] أي مرضاً في قلوبهم زائداً على مرض قلوبهم السّابق ، أي أرسخت المرض في قلوبهم ، وتقدّم في سورة المائدة ( 90 ) ﴿ إنَّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشّيطان ﴾ فالرجس يعمّ سائر

الخباثات النّفسيّة ، الشّاملة لضيق الصّدر وحرجه ، وبهذا العموم كان تذييلاً ، فليس خاصّا بضيق الصدر حتّى يكون من وضع المظهر موضع المضمر .

وقوله : كذلك ﴾ نائب عن المفعول المطلق المراد به التّشبيه والمعنى : يجعل الله الرجس على الّذين لا يؤمنون جَعْلا كهذا الضيق والحرج الشّديد الّذي جعله في صدور الّذين لا يؤمنون .

و﴿ على ﴾ في قوله : ﴿ على الذين لا يؤمنون ﴾ تفيد تمكّن الرجس من الكافرين ، فالعُلاوة مجاز في التمكّن ، مثل : ﴿ أولئك على هدى من ربّهم ﴾ [ البقرة : 5 ] والمراد تمكّنه من قلوبهم وظهور آثاره عليهم .

وجيء بالمضارع في ﴿ يَجعل ﴾ لإفادة التّجدّد في المستقبل ، أي هذه سنّة الله في كلّ من ينصرف عن الإيمان ، ويُعرض عنه .

و﴿ الّذين لا يؤمنون ﴾ مَوصول يومىء إلى علّة الخبر ، أي يجعل الله الرجس متمكّناً منهم لأَنَّهم يعرضون عن تلقّيه بإنصاف ، فيجعل الله قلوبهم متزائدة بالقساوة .

والموصول يعمّ كلّ من يُعرض عن الإيمان ، فيشمل المشركين المخبر عنهم ، ويشمل غيرهم من كلّ من يُدعى إلى الإسلام فيُعرض عنه ، مثل يهود المدينة والمنافقين وغيرهم .

وبهذا العموم صارت الجملة تذييلاً ، وصار الإتيان بالموصول جارياً على مقتضى الظاهر ،

وليس هو من الإظهار في مقام الإضمار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 7 صـ

﴾

(209/249)

---

فصل نفيس للإمام فخر الدين الرازى

قال عليه الرحمة :

ولنختم تفسير هذه الآية بما روي عن محمد بن كعب القرظي أنه قال تذاكرنا في أمر القدرية عند ابن عمر .

فقال : لعنت القدرية على لسان سبعين نبياً ، منهم نبينا صلى الله عليه وسلم .

فإذا كان يوم القيامة نادى مناد ، وقد جمع الناس بحيث يسمع الكل أين خصماء الله ، فتقوم القدرية وقد أورد القاضي هذا الحديث في تفسيره .

وقال : هذا الحديث من أقوى ما يدل على أن القدرية هم الذين ينسبون أفعال العباد إلى الله تعالى قضاء وقدراً وخلقاً ، لأن الذين يقولون هذا القول ، هم خصماء الله ، لأنهم يقولون لله أي ذنب لنا حتى تعاقبنا ، وأنت الذي خلقته فينا وأردته منا ، وقضيته علينا ، ولم تخلقنا إلا له ، وما يسرت لنا غيره ، فهؤلاء لا بد وأن يكونوا خصماء الله بسبب هذه الحجة أما

الذين قالوا : إن الله مكن وأزاح العلة ، وإنما أتى العبد من قبل نفسه ، فكلامه موافق لما يعامل به من إنزال العقوبة ، فلا يكونون خصماء الله ، بل يكونون منقادين لله هذا كلام القاضي وهو عجيب جداً وذلك لأنه يقال له يبعد منك أنك ما عرفت من مذاهب خصومك أنه ليس للعبد على الله حجة ولا استحقاق بوجه من الوجوه ، وأن كل ما يفعله الرب في العبد فهو حكمة وصواب ، وليس للعبد على الرب اعتراض ولا مناظرة ، فكيف يصير الإنسان الذي هذا دينه واعتقاده خصماً لله تعالى .

أما الذين يكونون خصماء لله فهم المعتزلة وتقريره من وجوه : الأول : أنه يدعي عليه وجوب الثواب والعوض ، ويقول : لو لم تعطني ذلك لخرجت عن الإلهية وصرت معزولاً عن الربوبية وصرت من جملة السفهاء ، فهذا الذي مذهبه واعتقاده ذلك هو الخصم لله تعالى .

*(210/249)*

---

والثاني : أن من واظب على الكفر سبعين سنة ، ثم إنه في آخر زمن حياته قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله عن القلب ، ثم مات ، ثم إن رب العالمين أعطاه النعم الفائقة والدرجات الزائدة ألف ألف سنة ، ثم أراد أن يقطع تلك النعم عنه لحظة واحدة ، فذلك العبد يقول : أيها الإله إياك ، ثم إياك أن تترك ذلك لحظة واحدة ، فإنك إن تركته لحظة واحدة

صرت معزولاً عن الإلهية والحاصل : أن إقدام ذلك العبد على ذلك الإيمان لحظة واحدة أوجب على الإله إيصال تلك النعم مدة لا آخر لها ، ولا طريق له ألبتة إلى الخلاص عن هذه العهدة ، فهذا هو الخصومة .

أما من يقول إنه لا حق لأحد من الملائكة والأنبياء على الله تعالى وكل ما يوصل إليهم من الثواب فهو تفضل وإحسان من الله تعالى ، فهذا لا يكون خصماً .

والوجه الثالث : في تقرير هذه الخصومة ما حكى أن الشيخ أبا الحسن الأشعري لما فارق مجلس أستاذه أبي علي الجبائي وترك مذهبه وكثر اعتراضه على أقاويله عظمت الوحشة بينهما فاتفق أن يوماً من الأيام عقد الجبائي مجلس التذكير وحضر عنده عالم من الناس ، وذهب الشيخ أبو الحسن إلى ذلك المجلس ، وجلس في بعض الجوانب مختفياً عن الجبائي ، وقال لبعض من حضر هناك من العجائز إني أعلمك مسألة فاذكريها لهذا الشيخ قولي له كان لي ثلاثة من البنين واحد كان في غاية الدين والزهد ، والثاني كان في غاية الكفر والفسق ، والثالث كان صبياً لم يبلغ ، فماتوا على هذه الصفات فأخبرني أيها الشيخ عن أحوالهم .

فقال الجبائي : أما الزاهد ، ففي درجات الجنة ، وأما الكافر ، ففي دركات النار ، وأما الصبي ، فمن أهل السلامة .

قال قولي له : لو أن الصبي أراد أن يذهب إلى تلك الدرجات العالية التي حصل فيها أخوه الزاهد هل يمكن منه .

*(211/249)*

---

فقال الجبائي : لا لأن الله يقول له إنما وصل إلى تلك الدرجات العالية بسبب أنه أتعب نفسه في العلم والعمل وأنت فليس معك ذاك فقال أبو الحسن : قولي له لو أن الصبي حينئذ يقول : يا رب العالمين ليس الذنب لي ، لأنك أمتني قبل البلوغ ولو أمهلتني فربما زدت على أخي الزاهد في الزهد والدين .

فقال الجبائي : يقول الله له علمت أنك لو عشت لطغيت وكفرت وكنت تستوجب النار ، فقبل أن تصل إلى تلك الحالة راعيت مصلحتك وأمتك حتى تنجو من العقاب ، فقال أبو الحسن : قولي له لو أن الأخ الكافر الفاسق رفع رأسه من الدرك الأسفل من النار ، فقال : يا رب العالمين ، ويا أحكم الحاكمين ، ويا أرحم الراحمين ، كما علمت من ذلك الأخ الصغير أنه لو بلغ كفر علمت مني ذلك ، فلم راعيت مصلحته وما راعيت مصلحتي ؟ قال الراوي : فلما وصل الكلام إلى هذا الموضع انقطع الجبائي .

فلما نظر رأى أبا الحسن ، فعلم أن هذه المسألة منه ، لا من العجوز ، ثم إن أبا الحسين

البصري جاء بعد أربعة أدوار أو أكثر من بعد الجبائي فأراد أن يجيب عن هذا السؤال ، فقال : نحن لا نرضى في حق هؤلاء الأخوة الثلاثة بهذا الجواب الذي ذكرتم ، بل لنا ههنا جوابان آخران سوى ما ذكرتم ، ثم قال : وهو مبني على مسألة اختلف شيوخنا فيها ، وهي أنه هل يجب على الله أن يكلف العبد أم لا ؟ فقال البصريون : التكليف محض التفضل والإحسان ، وهو غير واجب على الله تعالى .

وقال البغداديون : إنه واجب على الله تعالى .

*(212/249)*

---

قال : فإن فرعنا على قول البصريين ، فلله تعالى أن يقول لذلك الصبي إني طولت عمر الأخ الزاهد ، وكلفته على سبيل التفضل ولم يلزم من كوني متفضلاً على أخيك الزاهد بهذا الفضل أن أكون متفضلاً عليك بمثله وأما إن فرعنا على قول البغداديين فالجواب أن يقال : إن إطالة عمر أخيك وتوجيه التكليف عليه كان إحساناً في حقه ، ولم يلزم منه عود مفسدة إلى الغير فلا جرم فعلته وأما إطالة عمرك وتوجيه التكليف عليك كان يلزم منه عود مفسدة إلى غيرك ، فلهذا السبب ما فعلت ذلك في حقك فظهر الفرق .

هذا تلخيص كلام أبي الحسين البصري سعياً منه في تخليص شيخه المتقدم عن سؤال

الأشعري ، بل سعياً منه في تخليص إلهه عن سؤال العبد ، وأقول قبل الخوض في الجواب عن كلام أبي الحسين صحة هذه المناظرة الدقيقة بين العبد وبين الله ، إنما لزمت على قول المعتزلة وأما على قول أصحابنا رحمهم الله فلا مناظرة ألبتة بين العبد وبين الرب ، وليس للعبد أن يقول لربه ، لم فعلت كذا ؟ أو ما فعلت كذا .

فثبت أن خصماء الله هم المعتزلة ، لا أهل السنة ، وذلك يقوي غرضنا ويحصل مقصودنا ، ثم نقول :

أما الجواب الأول : وهو أن إطالة العمر وتوجيه التكليف تفضل ، فيجوز أن يخص به بعضاً دون بعض .

*(213/249)*

---

فنقول : هذا الكلام مدفوع ، لأنه تعالى لما أوصل التفضل إلى أحدهما ، فالامتناع من إيصاله إلى الثاني قبيح من الله تعالى ، لأن الإيصال إلى هذا الثاني ، ليس فعلاً شاقاً على الله تعالى ، ولا يوجب دخول نقصان في ملكه بوجه من الوجوه ، وهذا الثاني يحتاج إلى ذلك التفضل ومثل هذا الامتناع قبيح في الشاهد ألا ترى أن من منع غيره من النظر في مرآته المنصوبة على الجدار لعامة الناس قبح ذلك منه ، لأنه منع من النفع من غير اندفاع ضرر إليه ، ولا وصول

نفع إليه فإن كان حكم العقل بالتحسين والتقبيح مقبولاً ، فليكن مقبولاً ههنا ، وإن لم يكن مقبولاً لم يكن مقبولاً ألبتة في شيء من المواضع ، وتبطل كلية مذهبكم فثبت أن هذا الجواب فاسد .

وأما الجواب الثاني : فهو أيضاً فاسد ، وذلك لأن قولنا تكليفه يتضمن مفسدة ليس معناه أن هذا التكليف يوجب لذاته حصول تلك المفسدة ، وإلا لزم أن تحصل هذه المفسدة أبداً في حق الكل وأنه باطل ، بل معناه : أن الله تعالى علم أنه إذا كلف هذا الشخص ، فإن إنساناً آخر يختار من قبل نفسه فعلاً قبيحاً ، فإن اقتضى هذا القدر أن يترك الله تكليفه ، فكذلك قد علم من ذلك الكافر أنه إذا كلفه فإنه يختار الكفر عند ذلك التكليف ، فوجب أن يترك تكليفه ، وذلك يوجب قبح تكليف من علم الله من حاله أنه يكفر ، وإن لم يجب ههنا لم يجب هنالك ، وأما القول بأنه يجب عليه تعالى ترك التكليف إذا علم أن غيره يختار فعلاً قبيحاً عند ذلك التكليف ، ولا يجب عليه تركه إذا علم تعالى أن ذلك الشخص يختار القبيح عند ذلك التكليف ، فهذا محض التحكم .

فثبت أن الجواب الذي استخرجه أبو الحسين بلطيف فكره ، ودقيق نظره بعد أربعة أدوار ضعيف ، وظهر أن خصماء الله هم المعتزلة ، لا أصحابنا ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 150 . 153 ﴾

فائدة

قال التستري :

وقوله : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ ﴾ [ 125 ] قال سهل : إن الله ميز بين المريد والمراد في هذه الآية ، وإن كان الجميع من عنده ، وإنما أراد أن يبين موضع الخصوص من العموم ، فخص المراد في هذه السورة وغيرها ، وذكر المريد وهو موضع العموم في هذه السورة أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التستري صـ 62 ﴾

*(215/249)*

---

ومن فوائد السمرقندي في الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ ﴾

يعني : من يرد الله أن يوفقه للإسلام ويهديه لدينه ﴿ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسلام ﴾ يقول يوسع قلبه ويلينه لقبول الإسلام ، ويدخل فيه نور الإسلام وحلاوته .

وقال القتبي : ﴿ يَشْرَحْ صَدْرَهُ ﴾ يعني : يفتحه .

قال الفقيه : قال : حدّثنا الخليل بن أحمد حدّثنا الديبلي قال : حدّثنا أبو عبيد الله عن سفيان عن خالد بن أبي كريمة عن عبد الله بن المسور أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسلام ﴾ قالوا : يا رسول الله : فكيف ذلك ؟ إذا دخل النور في القلب انشرح وانفسح قالوا : وهل لذلك من علامة يعرف به ؟ قال : " نَعَمْ التَّجَافِي عَنْ دَارِ الغُرُورِ وَالإِنَابَةُ إلى دَارِ الخُلُودِ وَالاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِ المَوْتِ "

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ ﴾ عن الإسلام فلا يقبله ويتركه بغير نور ﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً ﴾ عن الإسلام يعني : غير موسع ﴿ حَرَجاً ﴾ يعني : شاكاً .

وقال ابن عباس : كالشجرة الملتفة بعضها في بعض لا يجد النور منفذاً ومجازاً قرأ ابن كثير ﴿ ضَيِّقاً ﴾ بتخفيف الياء وجزمها .

وقرأ الباقون بالتشديد .

وقرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر ﴿ حَرَجاً ﴾ بكسر الراء .

وقرأ الباقون بالنصب .

فمن قرأ بالنصب فهو المصدر .

ومن قرأ بالكسر فهو النعت .

ثم قال : ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السماء ﴾ يعني : مثله كمثل الذي يتكلف الصعود إلى السماء

وهو لا يستطيع ، فكذلك قلب الكافر لا يستطيع قبول الإسلام .

قرأ ابن كثير ﴿ يَصْعَدُ ﴾ بجزم الصاد ونصب العين بغير تشديد من صَعَدَ يَصْعَد .

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿ يَصَّاعد ﴾ بالألف مع تشديد الصاد وتخفيف العين لأن أصله يتصاعد فأدغم التاء في الصاد .

(216/249)

---

وقرأ الباقون : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ﴾ بتشديد الصاد والعين بغير ألف لأن أصله يتصعد فأدغم التاء في الصاد ثم قال : ﴿ كذلك يَجْعَلُ الله الرجس ﴾ يعني : العذاب ﴿ عَلَى الذين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ بترك حلاوة الإيمان على الذين لا يرغبون في الإيمان ويقال الرجس في اللغة : هو اللعنة والعذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

ومن فوائد الثعلبى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ فَمَن يُرِدِ الله أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ ﴾ أي يوسّع عقله أو ينوّره ليقبل الإسلام فأنزل اللّه تعالى هذه الآية .

" سئل رسول اللّه صلى الله عليه وسلم عن شرح الصدر ما هو ؟ قال : " نور يقذفه اللّه

تعالى في قلب المؤمن فينشرح له صدره وينفسح " قالوا : فهل لذلك من أمارة يعرف بها ؟ قال : نعم الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت " .

﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً ﴾ قرأ ابن كثير : ضيقاً بالتخفيف . والباقون : بالتشديد وهي لغتان مثل هين وهيّن ، ولين وليّن ، حرجاً كسر أهل المدينة ، راءه وفتحها الباقون وهما لغتان مثل الأنف والأنف ، والفرد والفرد ، والوعد والوعد .

وقال سيبويه : الحرج بالفتح المصدر كالصلب والحلب ومعناه ذا حرج ، والحرج بالكسر الإسم وهو أشد الضيق ، يعني قلبه ضيقاً لا يدخله الإيمان .

وقيل : أثيماً لقول العرب : حرج عليك ضلمي أي ضيق وأثم . وقال السدي : حرجها شاكاً . وقال قتادة : ملتبساً .

وقال النضر بن شميل : ملقاً . وقال ليس للخير فيه منفذ .

وقال عبيد بن عمير . قرأ ابن عباس : هذه الآية ، فقال : هل ها هنا أحد من بني بكر ؟ فقال رجل : نعم ، قال : ما الحرج فيكم ؟ قال : الوادي الكثير الشجر المتمسك الذي لا طريق فيه . قال ابن عباس : كذلك قلب الكافر .

وقال أبو الصلت الثقفي وعمر بن الخطاب ( رضي الله عنه ) : هذه الآية ضيقاً حرجاً بنصب الراء . وقرأ بعض من عنده من أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه وسلم حرجاً بالكسر . فقال عمر : ابعثوا إلى رجل من كنانة وجعلوه راعياً فأتوه به فقال له عمر : يا فتى ما الحرجة فيكم ؟ قال الحرجة فينا الشجرة التي تكون بين الأشجار التي لا يصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء .

فقال عمر ( رضي الله عنه ) : كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السمآء ﴾ يعني يشق عليه الإيمان ، ويمتنع ويعجز عنه كما يشق عليه صعود السماء .

واختلف القراء في ذلك ، فقرأ أهل المدينة وأبو عمرو وحمزة والكسائي : يصعّد بتشديد الصاد والعين بغير ألف أي يصعد فأدغمت التاء في الصاد .

فاختاره أبو حاتم وأبو عبيد ( إعتزازاً ) بقراءة عبد اللّه كأنما يتصعد في السماء .

وقرأ طلحة وعاصم وأبو عبيد والنخعي ومجاهد : بالألف مشدداً بمعنى تصاعد .

وقرأ ابن كيسان وابن ( محيصن ) ، والأعرج وأبو رجاء : يصعد حقيقة .

﴿ كذلك يَجْعَلُ الله الرجس عَلَى الذين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾

قال مجاهد : الرجس ما لا خير فيه .

ابن زيد : الرجس العذاب مثل الرجز . وقال ابن عباس : هو الشيطان الذي يسلطه عليه

.

وقال الكلبي : هو المأثم ، وقيل : هو النجس . ويقال : رجس رجاسة ونجس نجاسة .

وكان رسول اللّه صلى الله عليه وسلم إذا دخل الخلاء قال : " اللهم إني أعوذ بك من نجس منجس الخبث المخبث الشيطان الرجيم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(218/249)

---

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ ، الآية ، " من " أداة شرط ، و ﴿ يشرح ﴾ جواب الشرط ، والآية نص في أن الله عز وجل يريد هدى المؤمن وضلال الكافر ، وهذا عند جميع أهل السنة بالإرادة القديمة التي هي صفة ذاته تبارك وتعالى ، و " الهدى " في هذه الآية هو خلق الإيمان في القلب واختراعه ، و " شرح الصدر " هو تسهيل الإيمان وتحبيبه وإعداد القلب لقبوله وتحصيله ، والهدى لفظة مشتركة تأتي بمعنى الدعاء

كقوله عز وجل : ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ [ الشورى : 52 ] وتأتي بمعنى إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان والطرق والأعمال المقصية إليها ، كقوله تعالى : ﴿ فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم ﴾ [ محمد : 5 ] وغير ذلك ، إلا أنها في هذه الآية وفي قوله ﴿ من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون ﴾ [ الأعراف : 178 ] ، وفي قوله ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ [ القصص : 56 ] ونحوها لا يتجه حملها إلا على خلق الإيمان واختراعه ، إذ الوجوه من الهدى تدفعها قرائن الكلام مما قبل وبعد ، وقوله ﴿ يشرح صدره ﴾ ألفاظ مستعارة ها هنا إذ الشرح التوسعة والبسط في الأجسام وإذا كان الجرم مشروحاً موسعاً كان معداً ليحل فيه ، فشبه توطئة القلب وتنويره وإعداده للقبول بالشرح والتوسيع ، وشبه قبوله وتحصيله للإيمان بالحلول في الجرم المشروح ، و" الصدر " عبارة عن القلب وهو المقصود هنا الإيمان فقط بدليل قرينة الشرح والهدى ، ولكنه عبر بالإسلام إذ هو أعم وأدنى الهدى حب الأعمال وامتثال العبادات ، وفي ﴿ يشرح ﴾ ضمير عائد على الهدى ، قال : وعوده على الله عز وجل أبين .

*(219/249)*

قال القاضي أبو محمد : والقول بأن الضمير عائد على المهدي قول يتركب عليه مذهب القدرية في خلق الأفعال وينبغي أن يعتقد ضعفه وأن الضمير إنما هو عائد على اسم الله عز وجل فإن هذا يعضده اللفظ والمعنى ، وروي عن النبي عليه السلام أنه لما نزلت هذه الآية ، " قالوا يا رسول الله ، كيف يشرح الصدر ؟ قال : " إذا نزل النور في القلب انشرح له الصدر وانفسح ، قالوا وهل لذلك علامة يا رسول الله ؟ قال : نعم : الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل الفوت " والقول في قوله ﴿ ومن يرد أن يضله ﴾ كالقول في قوله ﴿ فمن يرد الله أن يهديه ﴾ ، وقوله ﴿ يجعل صدره ضيقاً حرجاً ﴾ ألفاظ مستعارة تضاد شرح الصدر للإسلام ويجعل في هذا الموضع تكون بمعنى يحكم له بهذا الحكم ، كما تقول هذا يجعل البصرة مصراً أي يحكم لها بحكمها .

قال القاضي أبو محمد : وهذا المعنى يقرب من صير ، وحكاه أبو علي الفارسي ، وقال أيضاً يصح أن يكون " جعل " بمعنى سمى ، كما قال تعالى ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عند الرحمن إناثاً ﴾ [ الزخرف : 19 ] أي سموهم ، قال وهذه الآية تحتمل هذا المعنى .

*(220/249)*

قال القاضي أبو محمد : وهذا الوجه يضعف في هذه الآية ، وقرأ جمهور الناس والسبعة سوى ابن كثير " ضيّقاً " بكسر الياء وتشديدها ، وقرأ ابن كثير " ضيْقاً " بسكون الياء وكذلك قرأ في الفرقان ، قال أبو علي وهما بمنزلة الميّت والميْت ، قال الطبري وبمنزلة الهيّن والليّن والهيْن والليْن ، قال ويصح أن يكون الضيق مصدراً من قولك ضاق والأمر يضيق ضيقاً وضيقاً ، وحكي عن الكسائي أنه قال الضّيق بشد الضاد وكسرها في الأجرام والمعاش ، والضَّيق بفتح الضاد : في الأمور والمعاني ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي " حرَجاً " بفتح الراء وقرأ نافع وعاصم في رواية أبي بكر " حرِجاً " بكسرها ، قال أبو علي فمن فتح الراء كان وصفاً بالمصدر كما تقول رجل قمَن بكذا وحرَى بكذا ودنَف ، ومن كسر الراء فهو كدِنف وقمِن وفرِق ، وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأها يوماً بفتح الراء فقرأها له بعض الصحابة بكسر الراء ، فقال : ابغوني رجلاً من كنانة وليكن راعياً من بني مدلج ، فلما جاءه قال له : يا فتى ما الحرجة عندكم ، قال : الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية ولا وحشية .

(221/249)

قال عمر : كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير ، وقوله تعالى : ﴿ كأنما يصعد في السماء ﴾ أي كأن هذا الضيق الصدر يحاول الصعود في السماء حتى الإيمان أو فكر فيه ويجد صعوبته عليه كصعوبة الصعود في السماء ، قال بهذا التأويل ابن جريج وعطاء الخراساني والسدي ، وقال ابن جبير : المعنى لا يجد مسلطاً إلا صعداً من شدة التضايق ، وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي " يصعد " بإدغام التاء من يتصعد في الصاد ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر " يصّاعد " بإدغام التاء من يتصاعد في السماء ، وقرأ ابن كثير وحده " يصعد " ، وقرأ ابن مسعود والأعمش وابن مصرف " يتصعد " بزيادة تاء ، و ﴿ في السماء ﴾ يريد من سفل إلى علو في الهواء ، قال أبو علي : ولم يرد السماء المظلة بعينها ، وإنما هو كما قال سيبويه والقيدود : الطويل في غير سماء ، يريد في غير ارتفاع صعداً قال ومن هذا قوله عز وجل : ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء ﴾ [ البقرة : 144 ] أي في وجهة الجو .

قال القاضي أبو محمد : وهذا على غير من تأول تقلب الوجه أنه الدعاء إلى الله عز وجل في الهداية إلى قبلة فإن مع الدعاء يستقيم أن يقلب وجهه في السماء المظلة حسب عادة الداعين إذ قد ألفوا مجيء النعم والآلاء من تلك الجهة ، وتحتمل الآية أن يكون التشبيه بالصاعد في عقبة كؤود كأنه يصعد بها الهواء ، و ﴿ يصعد ﴾ معناه يعلو ، و ﴿ يصعد ﴾ معناه يتكلف من ذلك ما يشق عليه . ومنه قول عمر بن الخطاب :

" ما تصعدني شيء كما تصعدني خطبة النكاح " ، إلى غير ذلك من الشواهد ، "

ويصاعد " في المعنى مثل " يصعد " وقوله تعالى : ﴿ كذلك يجعل الله الرجس ﴾ أي وكما كان هذه كله من الهدى والضلال بإرادة الله عز وجل ومشيئته كذلك يجعل الله الرجس ، قال أهل اللغة ﴿ الرجس ﴾ يأتي بمعنى العذاب ويأتي بمعنى النجس ، وحكى الطبري عن مجاهد أنه قال : ﴿ الرجس ﴾ كل ما لا خير فيه وقال بعض الكوفيين : الرجس والنجس لغتان بمعنى ، " ويجعل " في هذا الموضع يحسن أن تكون بمعنى يلقي كما تقول جعلت متاعك بعضه على بعض ، وكما قال عز وجل ﴿ ويجعل الخبيث بعضه على بعض ﴾ [ الأنفال : 37 ] .

قال القاضي أبو محمد : وهذا المعنى في جعل حكاه أبو علي الفارسي ، ويحسن أن تكون ﴿ يجعل ﴾ في هذه الآية بمعنى يصير ويكون المفعول الثاني في ضمن ﴿ على الذين لا يؤمنون ﴾ ، كأنه قال قرين الدين أو لزيم الذين ونحو ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد ابن الجوزى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه ﴾

قال مقاتل : نزلت في رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبي جهل .

قوله تعالى : ﴿ يشرحْ صدرَه ﴾

قال ابن الأعرابي : الشرح : الفتح .

قال ابن قتيبة : ومنه يقال : شرحتُ لك الأمر ، وشرحتُ اللحم : إذا فتحتَه .

وقال ابن عباس : "يشرحْ صدره" أي : يوسعْ قلبه للتوحيد والإيمان .

وقد روى ابن مسعود " أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ : ﴿ فمن يرد الله أن يهديَه يشرحْ صدرَه للإسلام ﴾ فقيل له : يا رسول الله ، وما هذا الشرح ؟ قال : "نور يقذفه الله في القلب ، فينفتح القلب" قالوا : فهل لذلك من أمارة ؟ قال : "نعم" .

قيل : وما هي ؟ قال : "الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزوله" "

قوله تعالى : ﴿ ضيقاً ﴾ قرأ الأكثرون بالتشديد .

وقرأ ابن كثير : "ضَيْقاً" وفي [ الفرقان : 13 ] ﴿ مكاناً ضَيْقاً ﴾ بتسكين الياء خفيفة .

قال أبو علي : الضَّيِّق والضَّيْق : مثل : الميّت ، والميْت .

قوله تعالى : ﴿ حرجاً ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : ﴿ حَرَجاً ﴾ بفتح الراء .

وقرأ نافع ، وابو بكر عن عاصم : بكسر الراء .

قال الفراء : وهما لغتان .

وكذلك قال يونس بن حبيب النحوي : هما لغتان ، إلا أن الفتح أكثر من ألسنة العرب من الكسر ، ومجراهما مجرى الدَّنَفِ والدِّنَفَ .

وقال الزجاج : الحرج في اللغة : أضيق الضيق .

قوله تعالى : ﴿ كأنما يصَّاعد ﴾ قرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : "يصَّعد" بتشديد الصاد والعين وفتح الصاد من غير ألف .

وقرأ أبو بكر عن عاصم : "يصّاعد" بتشديد الصاد وبعدها ألف .

وقرأ ابن كثير : "يَصْعَد" بتخفيف الصاد والعين من غير ألف والصاد ساكنة .

وقرأ ابن مسعود ، وطلحة : "تصْعَدُ" بتاء من غير ألف .

وقرأ أبي بن كعب : "يتصاعد" بألف وتاء .

قال الزجاج : قوله : ﴿ كأنما يصّاعد في السماء ﴾ .

و"يصَّعَّد" ، أصله : "يتصاعد" ، و"يتصعد" ، إلا أن التاء تدغم في الصاد لقربها منها ، والمعنى : كأنه قد كُلِّف أن يَصْعَدَ إلى السماء إذا دعي إلى الإسلام من ضيق صدره عنه .

ويجوز أن يكون المعنى : كأن قلبه يصعد في السماء نُبُوّاً عن الإسلام والحكمة .

وقال الفراء : ضاق عليه المذهب ، فلم يجد إلا أن يصعد في السماء ، وليس يقدر على ذلك .

وقال ابو علي : "يَصَّعَّد" و"يَصّاعد" : من المشقة ، وصعوبة الشيء ، ومنه قول عمر : ما تَصَعَّدني شيء كما تصعدتني خطبة النكاح ، أي : ما شق عليَّ شيء مشقتها .

قوله تعالى : ﴿ كذلك ﴾ أي : مثل ما قصصنا عليك .

﴿ يجعل الله الرجس ﴾ وفيه خمسة أقوال .

أحدها : أنه الشيطان ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، يعني : أن الله يسلِّطه عليهم .

والثاني : أنه المأثم ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : أنه مالا خير فيه ، قاله مجاهد .

والرابع : أنه العذاب ، قاله عطاء وابن زيد ، وأبو عبيدة .

والخامس : أنه اللعنة في الدنيا ، والعذاب في الآخرة ، قاله الزجاج .

وهذه الآية تقطع كلام القَدَرِيَّة ، إذ قد صرحت بأن الهداية والإضلال متعلقة بإرادة الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء ﴾

قال مقاتل : نزلت في الرسول صلى الله عليه وسلم وفي أبي جهل ، والهداية هنا مقابلة الضلالة والشرح كناية عن جعله قابلاً للإسلام متوسعاً لقبول تكاليفه ، ونسبة ذلك إلى صدره مجاز عن ذات الشخص ولذلك قالوا : فلان واسع الصدر إذا كان الشخص محتملاً ما يرد عليه من المشاق والتكاليف ، ونسبة إرادة الهدى والضلال إلى الله إسناد حقيقي لأنه تعالى هو الخالق ذلك والموجد له والمريد له وشرح الصدر تسهيل قبول الإيمان عليه وتحسينه وإعداده لقبوله : وضمير فاعل الهدى عائد على الله أي يشرح الله صدره .

وقيل : يعود على الهدى المنسبك من ﴿ أن يهديه ﴾ أي يشرح الهدى صدره .

قال ابن عطية : ويتركب عليه مذهب القدرية في خلق الأعمال ؛ انتهى .

وفي الحديث السؤال عن كيفية هذا الشرح وأنه إذا وقع النور في القلب انشرح الصدر وأمارته الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل الفوت والضيق والحرج كناية عن ضد الشرح واستعارة لعدم قبول الإيمان والحرج الشديد الضيق ، والضمير في ﴿ يجعل ﴾ عائد على ﴿ الله ﴾ ومعنى يجعل يصير لأن الإنسان يخلق أوّلاً على الفطرة وهي كونه مهيأ لما يلقى إليه ولما يجعل فيه فإذا أراد الله إضلاله أضله وجعله لا يقبل الإيمان ويحتمل أن يكون ﴿ يجعل ﴾ بمعنى يخلق وينتصب ﴿ ضيقاً حرجاً ﴾ على الحال أي يخلقه على هذه الهيئة فلا يسمع الإيمان ولا يقبله ولاعتزال أبي عليّ الفارسي ذهب إلى أن يجعل هنا بمعنى يسمى قال كقوله : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ﴾ قال : أي سموهم أو بمعنى يحكم له بالضيق كما تقول : هذا يجعل البصرة مصراً أي يحكم لها بحكمها فراراً من نسبة خلق ذلك إلى الله تعالى ، أو تصييره وجوباً على مذهبه الاعتزالي ونحو منه في خروج اللفظ عن ظاهره .

قول الزمخشري ﴿ أن يهديه ﴾ أن يلطف به ولا يريد أن يلطف إلا بمن له لطف بشرح صدره للإسلام يلطف به حتى يرغب في الإسلام وتسكن إليه نفسه ويحب الدخول فيه ، ﴿ ومن يرد أن يضله ﴾ أن يخذله ويخليه وشأنه وهو الذي لا لطف له ﴿ يجعل صدره ضيقاً حرجاً ﴾ يمنعه ألطافه حتى يقسو قلبه وينبو عن قبول الحق وينسد فلا يدخله

الإيمان ؛ انتهى .

وهذا كله إخراج اللفظ عن ظاهره وتأويل على مذهب المعتزلة والجملة التشبيهية معناها أنه كما يزاول أمراً غير ممكن لأن صعود السماء مثل فيما يبعد ويمتنع من الاستطاعة ويضيق عليه عند المقدرة قاله الزمخشري .

وهو قريب من تأويل ابن جريج وعطاء الخراساني والسدي قالوا : أي كان هذا الضيق الصدر الحرج يحاول الصعود في السماء حتى حاول الإيمان أو فكر فيه ويجد صعوبته عليه كصعوبة الصعود في السماء ؛ انتهى .

*(226/249)*

---

ولامتناع ذلك عندهم حكى الله عنهم أنهم اقترحوا قولهم أو ترقى في السماء .

وقال ابن جبير : المعنى لا تجد مسلكاً إلا صعداً من شدة التضايق ، يريد ضاقت عليه الأرض فظل مصعداً إلى السماء .

وقيل : المعنى أنه عازب الرأي طائر القلب في الهواء كما يطير الشيء الخفيف عند عصف الرّياح .

وقرأ ابن كثير : ﴿ ضيقاً ﴾ هنا وفي الفرقان فاحتمل أن يكون مخففاً من ضيق كما قالوا

لين .

وقال الكسائي : الضيق بالتشديد في الإجرام وبالتخفيف في المعاني ، واحتمل أن يكون مصدراً قالوا في مصدر ضاق ضيق بفتح الضاد وكسرها بمعنى واحد فإما ينسب إلى الصدر على المبالغة أو على معنى الإضافة ، أي ذا ضيق أو على جعله مجازاً عن اسم الفاعل وهذا على الأوجه الثلاثة المقولة في نعت الإجرام بالمصادر .

وقرأ نافع وأبو بكر ﴿ حرجاً ﴾ بفتح الراء وهو مصدر أي ذا حرج أو جعل نفس الحرج ، أو بمعنى حرج بكسر الراء ورويت عن عمر وقرأها له ثمة بعض الصحابة بالكسر .

فقال : ابغوني رجلاً من كنانة راعياً ولكن من بني مدلج فلما جاءه قال : يا فتى ما الحرجة عندكم ؟ قال : الشجرة تكون بين الأشجار لا يصل إليها راعية ولا وحشية ، فقال عمر : كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير ؛ انتهى .

وهذا تنبيه والله أعلم على جهة اشتقاق الفعل من نفس العين كقولهم : استحجر واستنوق .

وقرأ ابن كثير ﴿ يصعد ﴾ مضارع صعد .

وقرأ أبو بكر يصاعد أصله يتصاعد فأدغم .

وقرأ باقي السبعة ﴿ يصعد ﴾ بتشديد الصاد والعين وأصله يتصعد ، وبها قرأ عبد الله وابن مصرف والأعمش .

وقال أبو علي : ﴿ كأنما يصعد ﴾ من سفل إلى علو ولم يرد السماء المظلة بعينها كما قال سيبويه والقيدود الطويل في غير سماء أي في غير ارتفاع .

(227/249)

---

وقال ابن عطية : ويحتمل أن يكون التشبيه بالصاعد في عقبة كؤود كأنه يصعد بها في الهواء ، ويصعد معناه يعلو ويصعد معناه يتكلف من ذلك ما يشق عليه ومنه قول عمر بن الخطاب : ما تصعدني شيء كما تصعدني خطبة النكاح وروي ما تصعدني خطبة .

﴿ كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ أي مثل ذلك الجعل جعله الصدر ﴿ ضيقاً حرجاً ﴾ ويبعد ما قاله الزجاج : أي مثل ما قصصنا عليك ﴿ يجعل ﴾ ومعنى ﴿ يجعل الله الرجس ﴾ يلقى الله أو يصير الله العذاب والرجس بمعنى العذاب قاله أهل اللغة .

وتعدية ﴿ يجعل ﴾ بعلى يحتمل أن يكون معناه نلقي كما تقول : جعلت متاعك بعضه على بعض وأن تكون بمعنى يصير و ﴿ على ﴾ في موضع المفعول الثاني .

وقال الزمخشري : ﴿ يجعل الله ﴾ يعني الخذلان ومنع التوفيق وصفه بنقيض ما يوصف به التوفيق من الطيب أو أراد الفعل المؤدّي إلى الرجس وهو العذاب من الارتجاس وهو

الاضطراب ؛ انتهى .

وهو على طريقة الاعتزالي ونقيض الطيب النتن الرائحة الكريهة ، و﴿ الرجس ﴾ والنجس بمعنى واحد قاله بعض أهل الكوفة .

وقال مجاهد : ﴿ الرجس ﴾ كل ما لا خير فيه .

وقال عطاء وابن زيد وأبو عبيدة : ﴿ الرجس ﴾ العذاب في الدنيا والآخرة .

وقال الزجاج : اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة ، وقيل : ﴿ الرجس ﴾ السخط .

وقال إسماعيل الضرير : ﴿ الرجس ﴾ التعذيب وأصله النتن النجس وهو رجاسة الكفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

*(228/249)*

---

ومن فوائد ابن كثير فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (125) ﴾

يقول تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ﴾ أي : ييسره له وينشطه ويسهله لذلك ، فهذه علامة على الخير ، كقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ [فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ] ﴾ [الزمر : 22] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ [الحجرات : 7] .

قال ابن عباس : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ﴾ يقول : يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به وكذا قال أبو مالك ، وغير واحد . وهو ظاهر .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا الثوري ، عن عمرو بن قيس ، عن عمرو بن مُرَّة ، عن أبي جعفر قال : سُئل النبي صلى الله عليه وسلم : أيّ المؤمنين أكيس ؟ قال : "أكثرهم ذكرًا للموت ، وأكثرهم لما بعده استعدادًا" . قال : وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ﴾ وقالوا : كيف يشرح صدره يا رسول الله ؟ قال : "نور يُقْذَف فيه ، فينشرح له وينفسح" . قالوا : فهل لذلك من أمارة يُعرف بها ؟ قال : "الإنابة إلى دار الخُلُود ، والتَّجَافِي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت" (1) .

وقال ابن جرير : حدثنا هَنَّاد ، حدثنا قَبِيصَة ، عن سفيان - يعني الثوري - عن عمرو بن مُرَّة ، عن رجل يكنى أبا جعفر كان يسكن المدائن ، قال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم

عن قوله : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ [يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ] ﴾ فذكر نحو ما تقدم .

---

(1) تفسير عبد الرزاق (210/1) ورواه الطبري في تفسيره (99/12) من طريق عبد الرزاق به .

*(229/249)*

---

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا ابن إدريس ، عن الحسن بن الفرات القزاز ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي جعفر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا دخل الإيمان القلب انفسح له القلب وانشرح قالوا : يا رسول الله ، هل لذلك من أمارة ؟ قال : "نعم ، الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل الموت" .

وقد رواه ابن جرير عن سوار بن عبد الله العنبري ، حدثنا المعتمر بن سليمان ، سمعت أبي يحدث عن عبد الله بن مرة ، عن أبي جعفر فذكره .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد الأحمر ، عن عمرو بن قَيْس ، عن عمرو بن مرة ، عن عبد الله بن المِسْوَر قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه

الآية : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ﴾ قالوا : : يا رسول الله ، ما هذا الشرح ؟ قال : "نور يقذف به في القلب" . قالوا : يا رسول الله ، فهل لذلك من أمارة ؟ قال "نعم" قالوا : وما هي ؟ قال : "الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل الموت" (1) .

وقال ابن جرير أيضا : حدثني هلال بن العلاء ، حدثنا سعيد بن عبد الملك بن واقد ، حدثنا محمد بن سَلَمَة ، عن أبي عبد الرحيم عن زيد بن أبي أَنَيْسة ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي عبيدة ابن عبد الله بن مسعود [رضي الله عنه] قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح" . قالوا : فهل لذلك من علامة يعرف بها ؟ قال : "الإنابة إلى دار الخلود ، والتنحي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل لُقي الموت" (2) .

---

(1) ورواه سعيد بن منصور وابن جرير والبيهقي في الأسماء والصفات كما في الدر المنثور (355/3) .

(2) رواه البيهقي في الزهد الكبير برقم (974) من طريق زيد بن أبي أنيسة به .

وقد رواه [ابن جرير] من وجه آخر ، عن ابن مسعود متصلا مرفوعًا فقال : حدثني بن سِنان القزاز ، حدثنا محبوب بن الحسن الهاشمي ، عن يونس ، عن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عتبة ، عن عبد الله بن مسعود ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ﴾ قالوا : يا رسول الله ، وكيف يُشْرَح صدره ؟ قال : "يدخل الجنة فينفسح" . قالوا : وهل لذلك علامة يا رسول الله ؟ قال : "التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل أن ينزل الموت" (1) .

فهذه طرق لهذا الحديث مرسلة ومتصلة ، يشد بعضها بعضا ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا [كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ] ﴾ قرئ بفتح الضاد وتسكين الياء ، والأكثرون : ﴿ ضَيِّقًا ﴾ بتشديد الياء وكسرها ، وهما لغتان : كَهَيْن وهَيِّن . وقرأ بعضهم : ﴿ حَرَجًا ﴾ بفتح الحاء وكسر الراء ، قيل : بمعنى آثم . وقال السُّدِّي . وقيل : بمعنى القراءة الأخرى ﴿ حَرَجًا ﴾ بفتح الحاء والراء ، وهو الذي لا يتسع لشيء من الهدى ، ولا يخلص إليه شيء ما ينفعه من الإيمان ولا ينفذ فيه .

وقد سأل عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، رجلا من الأعراب من أهل البادية من مُدْلِج : ما الحرجة ؟ قال هي الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية ، ولا وحشية ، ولا شيء . فقال عمر ، رضي الله عنه : كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير .

---

(1) ورواه الحاكم في المستدرك (311/4) وابن أبي الدنيا في الموت ومن طريقه البيهقي في شعب الإيمان برقم (10552) من طريق عدي ابن الفضل، عن المسعودي، عن القاسم، عن عبد الرحمن، عن أبيه، عن ابن مسعود بنحوه.

قال الذهبي في تلخيص المستدرك: "عدى ساقط".

*(231/249)*

---

وقال العَوْفي عن ابن عباس: يجعل الله عليه الإسلام ضيقًا، والإسلام واسع. وذلك حين يقول: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: 78]، يقول: ما جعل عليكم في الإسلام من ضيق.

وقال مجاهد والسُّدِّي: ﴿ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ شاكا. وقال عطاء الخراساني: ﴿ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ ليس للخير فيه منفذ. وقال ابن المبارك، عن ابن جُرَيْج ﴿ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ بلا إله إلا الله، حتى لا تستطيع أن تدخله، كأنما يصعد في السماء من شدة ذلك عليه.

وقال سعيد بن جُبَيْر: يجعل صدره ﴿ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ قال: لا يجد فيه مسلكا إلا صُعدا.

وقال السُّدِّي: ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ من ضيق صدره.

وقال عطاء الخراساني : ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ يقول : مثله كمثل الذي لا يستطيع أن يصعد في السماء . وقال الحكم بن أبان عن عِكْرِمة ، عن ابن عباس : ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ يقول : فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء ، فكذلك لا يستطيع أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه ، حتى يدخله الله في قلبه .

وقال الأوزاعي : ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ كيف يستطيع من جعل الله صدره ضيقا أن يكون مسلما .

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير : وهذا مثل ضربه الله لقلب هذا الكافر في شدة تضيقه إياه عن وصول الإيمان إليه . يقول : فمثله في امتناعه من قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه ، مثل امتناعه من الصعود إلى السماء وعجزه عنه ؛ لأنه ليس في وسعه وطاقته .

*(232/249)*

---

وقال في قوله : ﴿ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ يقول : كما يجعل الله صدر من أراد إضلاله ضيقا حرجا ، كذلك يسلط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان بالله ورسوله ، فيغويه ويصده عن سبيل الله .

قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس : الرجس : الشيطان . وقال مجاهد : الرجس : كل ما لا

خير فيه . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الرجس : العذاب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 334 . 337 ﴾

(233/249)

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾

نجد من يقول إن ربنا حين يريد لإنسان أن يشرح صدره للإسلام فذلك من إرادة الله وما ذنب المكلف إذن ؟ .

وللرد على هذا نقول : لقد عرفنا من قبل أن الهداية لها معنيان : المعنى الأول : الدلالة وهي أمر وارد وواجب حتى للكافر . فإن هُدى الله للكافر أن يدلّه إلى طريق الخير ، ولكن هناك هداية من نوع آخر وهي للذي آمن ، ويصبح أهلاً لمعونة الله بأن يخفف عنه أعباء التكاليف وييسرها له ويجعله يعشق كل الأوامر ويعشق البغض والتجافي عن كل النواهي .

يقول بعض الصالحين : " اللهم إني أخاف ألا تثيبني على طاعة ، لأني أصبحت أشتهيها "

كأنه عشق الطاعة بحيث لم يعد فيها مشقة أو تكليفاً ، لذلك فهو خائف ، وكأنه قد فهم أنه لابد ان توجد مشقة ، ولمثل هذا الإنسان الصالح نقول : لقد فقدت الإحساس بمشقة التكليف لأنك عشقته فألفت العبادة كما ألفتك وعشقتك ، وحدث الانجذاب بينك وبين الطاعة ، وجعلت رسول الله مثلاً لك وقدوة ، فقد كان صلى الله عليه وسلم يرى أنه إذا نودي إلى الصلاة يقوم الناس إليها كسالى لكنه " صلى الله عليه وسلم يقول لبلال حينما يأتي وقت الصلاة : أرحنا بها يا بلال " .

*(234/249)*

---

وهذا غير ما يقوله بعض ممن يؤدون الصلاة الآن حيث يقول الواحد منهم : هيا نصل لنزيحها من على ظهورنا ، وهؤلاء يؤدونها بالتكليف لا بالمحبة والعشق . أما الذين ألفوا الراحة بالصلاة حينما يحزبهم ويشتد عليهم أمر خارج عن نطاق أسبابهم ، ويقول الواحد منهم : مادامت الصلاة تريح القلب ، فلأذهب إليها وألقى ربي زائداً على أمر تكليفه لى متقربا إليه بالنوافل ، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة . ومعنى حزبه أن الأسباب البشرية لا تنهض به . فيقوم إلى الصلاة ، وهذا أمر منطقي ، لله المثل الأعلى .

كان الإنسان منا وهو طفل إذا ما ضايقه أمر يذهب إلى أبيه ، فما بالنا إذا ما ضايقنا أمر فوق الأسباب المعطاة لنا من الله فلمن نروح ؟ إننا نلجأ لربنا ولقد كان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة .

إذن فعشق التكليف شيء يدل على أنك ذقت حلاوة الطاعة ، وقد يجوز أنه شاق عليك ؛ لأنه يخرجك أولاً عما ألفت من الاعتياد . فعندما يأتيك أمر فيه مشقة تقول : إن هذه المشقة إنما يريد بها لي حسن الجزاء ، فإذا ما عشقت الصلاة صارت حبًا لك ، وكان واحد من الصالحين – كما قلت – يخاف ألا يثاب على الصلاة لأنها أصبحت شهوة نفس ، والإنسان مطالب بأن يحارب نفسه في شهواتها لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع لنا المثل فقال :

" لا يؤمن أحدكم حتى يصبح هواه تبعاً لما جئت به " أي يصبح ما يشتهيه موافقاً لمنهج الله ، فإذا وصل وانتهى المؤمن إلى هذه المنزلة فهو نعم العبد السوي .

وهكذا عرفنا أن الهداية قسمان : هداية بمعنى الدلالة ، وهداية بمعنى المعونة .

*(235/249)*

فإذا ما اقتعنت بهداية الدلالة وآمنت بالحق فسبحانه يخفف عليك أمور التكليف ويجعلك عاشقاً لها ، ولذلك يقول أهل الصلاح : ربنا قد فرض علينا خمس صلوات ، وسبحانه يستحق منا الوقوف بين يديه أكثر من خمس مرات ، وفرض علينا ربنا نصاب الزكاة وهو اثنان ونصف بالمائة ، وسبحانه يستحق منا أكثر من ذلك لأنه واهب كل شيء ، وهذا عشق التكليف ، وهذا هو معنى قوله : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ ﴾ .

﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ ﴾ أي يدلّه سبحانه كما دل كل العباد إلى المنهج ، لكن الذي اقتنع بالدلالة وآمن يسهل عليه تبعات التكليف مصداقاً لقوله الحق : ﴿ وَيَزِيدُ اللهُ الذين اهتدوا هُدًى والباقيات الصالحات خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّاً ﴾ [ مريم : 76 ]

فهذه هداية المعونة ، وفيه فرق هنا بين الإِسلام والإِيمان لأن الإِيمان لا يحتاج فقط إلى الاعتقاد ؛ إنما هو حمل النفس على مطلوبات الإِيمان . ولذلك نجد أن كبار رجال قريش رفضوا أن يقولوا : " لا إله إلا الله " ؛ لأنهم علموا أنها ليست مجرد كلمة تقال ، ولكن لها مطلوبات تتعب في التكاليف الناتجة عنها ب " افعل " و " لا تفعل " . فالتكليف يقول لك : " افعل " لشيء هو صعب عليك ، ويقول لك : " لا تفعل " في شيء من الصعب أن تتركه ، لذلك يقول سبحانه : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ ﴾ [ الأنعام : 125 ]

وسبحانه يشرح صدره للإِسلام بعد أن علم أنه قد اعتقد شريعة التوحيد ورضيها واطمأن بها ، فيأتي إلى فهم التكاليف ؛ لأن صحيح الإِسلام يقتضي الانقياد لأمور التكاليف ، فمن أخذ الهداية الأولى وآمن بربه ، يوضح له سبحانه : آمنت بي وجئتني ؛ لذلك أخفف عنك تبعات العمل ، ويشرح صدره للإِسلام ، وشرح الصدر قد يكون جزاءً . فسبحانه هو القائل : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [ الشرح : 1 ]

*(236/249)*

---

فقد جازاه ربنا بذلك ؛ لأنه أدّى ما عليه وصمد . كأن الله يريد بالإِيمان من المؤمن أن يقبل على الحق ، وحينما يقبل على الحق ، يبحث العبد ليتعرف على المراد والمطلوب منه فيعلم أنها التكاليف ، فإذا رأى الله منك الاستعداد المتميز لقبول التكاليف ، فإنّه يخففها عنك لا بالتقليل منها ، ولكن بأن يجعلك تشتهيها ، وقد تلزم نفسك بأشياء فوق ما كلفك الله ؛ لتكون من أهل المودة ومن أهل التجليات ومن الذين يدخلون مع الله في ود ، وتلتفت لنفسك وأنت تقول : لقد كلفني الله بالقليل وسبحانه يستحق الكثير . فتزيد من طاعتك وتجد أمامك دائماً الحديث القدسي .

" من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته

عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها . "

أي بالأمور التي تزيد على ما كلفه في الصلاة والزكاة والصيام والحج .

إذن فمعنى ﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ ﴾ أي يجعل الأمور التي يظن بعض من الناس أنها متعبة فإنه بإقباله عليها وعشقه لها يجدها مريحة ويقبل عليها بشوق وخشوع . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يترك في خلقه مُثُلاً للناس . فنجد المال عزيزاً على النفس حريصة عليه لأنه إن كان المال قد جاء بطريق شرعه الله وأحله فهو يأتي بتعب وبكدّ ؛ لذلك يحرص عليه الإِنسان ، فيحنن الله العبد من أجل البذل والعطاء .

*(237/249)*

---

إننا نجد المؤمن يعطي للسائل لأن السائل هو الجسر الذي يسير عليه المسلم إلى الثواب من الله ، فيقول العبد المؤمن للسائل : مرحباً بمن جاء ليحمل زادي إلى الآخرة بغير أجرة ، ولذلك عندما جاء مسلم إلى الإِمام عليّ – رضي الله عنه وكرّم الله وجهه – ، قال المسلم : أنا أريد أن أعرف أأنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ واختار الإمام عليّ مقياساً للإِيمان في نفس كل مؤمن ، وقال له : إن جاءك من يطلب منك ، وجاء من يعطيك ، فإن كنت

تهش لمن يعطيك فأنت من أهل الدنيا ، وإن كنت تهش لمن يأخذ منك فأنت من أهل الآخرة ؛ لأن الإنسان يحب من يعمر له ما يحب .

إذن ف " يشرح صدره للإسلام " أي يخفف عنه متاعب التكليف بحيث لا توجد مشقة ، ثم يرتقي بعد ذلك ارتقاءً آخر بأن يعشقه في التكليف . ويهديه الله إلى طريق الجنة ، لأن هناك هداية إلى المنهج وهداية إلى الجزاء على المنهج ، ولذلك نجد القرآن يقول ؛ عمن ضلوا : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً * إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذلك عَلَى اللهِ يَسِيراً ﴾ [ النساء : 168-169 ]

كأن هناك هداية إلى العمل وهداية إلى الجزاء ، ونجد الحق يقول : ﴿ والذين قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ الله فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الجنة عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ [ محمد : 4-6 ]

وقد يتساءل إنسان : كيف يهدي الله من قتل ، وهل هناك تكليف بعد القتل ؟ . نقول : انظر إلى الهداية ، إنها هداية الجزاء " سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم " .

*(238/249)*

وهكذا نعرف أن هناك هداية الجزاء ، من يحسن العمل يُجزِه الله الجنة ، أما من يسيء فله عذاب في الدنيا والآخرة . ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السمآء كذلك يَجْعَلُ الله الرجس عَلَى الذين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [ الأنعام : 125 ]

وهل هذا تجن من الله على خلقه ؟ لا ، لأنه مادام دعاهم للإيمان فآمن بعضهم وصاروا أهلاً للتجليات ، وكفر بعضهم فلم يؤمنوا ، فصاروا أهلاً للحرج وضيق الصدر .

ومعنى الضيق أن الشيء يكون حجمه أقل مما يؤدي به مهمته ، فحين يقال : ضاق البيت بي وبعيالي ، فهذا يعني أن الرجل وزوجه في البداية عاشا في غرفتين ، وكان البيت متسعاً . ثم انجبا عيالاً كثيرة فضاق بهم البيت . وهكذا نعلم أنه لم يطرأ شيء على الجدران ومساحة البيت ، لكن حين زاد عدد الأفراد شعر رب الأسرة بضيق المنزل . ويقال : صدره ضيّق أوضيْق فقد ورد في القرآن لفظ ضيق على لغتين : فالحق يقول : ﴿ . . وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [ النحل : 127 ]

وهناك في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها توجد كلمة ضَيّق ، والحق يقول : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يوحى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ . . ﴾ [ هود : 12 ]

فما المراد من " ضائق " ، و" ضيَق " ، و" ضيْق " ؟ . نعرف أن الصدر هو مكان الجارحتين الأساسيتين في التكوين : القلب والرئة ، والرئة هي الجارحة التي لا تستمر الحياة الا بعملها ؛ فقد تبطئ الأمعاء مثلا ، أو تتوقف قليلا عن عملها ، ويتغذى الإنسان على

خزينته من الدهن أو اللحم ولذلك يصبر الإنسان على الجوع مدة طويلة ، ويصبر على الماء مدة أقل ، لكنه لا يصبر على افتقاد الهواء لدقائق ، ولا صبر لأحد على ترك الشهيق والزفير .

*(239/249)*

---

ولقد قلنا من قبل : إن الحق سبحانه وتعالى قد يملكّ بعضاً قوت بعض . وأقل منه أن يملِّك بعضا ماء بعض ، لكن أيملّك أحداً هواء أحد ؟ لا ؛ لأن الرضا والغضب أغيار في النفس البشرية . فإذا غضب إنسان على إنسان ، وكان يملك الهواء وحبسه عنه فالإنسان يموت قبل أن يرضى عنه هذا الآخر ، ولذلك لم يملّك الله الهواء لأحد من خلقه أبداً .

إذن كل المسألة المتعلقة بقوله : ﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً ﴾ نعلم عنها أن الصدر هو محل التنفس ، والرئة تأخذ الأوكسجين وتطرد ثاني أوكسيد الكربون ، وعندما يصاب الإنسان بنوبة برد نراه وهو يجد صعوبة في التنفس ، كأن حيّز الصدر صار ضيقاً ، فلا يدخل الهواء الكافي لتشغيل الرئتين ، ويحاول الإنسان أن يعوض بالحركة ما فاته فينهج . ويشخص الأطباء ذلك بأن المريض يريد أن يأخذ ما يحتاجه إليه من الهواء فينهج ؛ لأن الحيّز قد ضاق ، وكذلك عندما يصعد الإنسان سلماً ، ينهج أيضاً ؛ لأن الصعود يحتاج إلى

مجهود ، لمعاندة جاذبية الأرض ، فالأرض لها جاذبية تشد الإنسان ، ومن يصعد إنما يحتاج إلى قوة ليتحرك إلى أعلى ويقاوم الجاذبية .

إننا نجد نزول السلم مريحاً ؛ لأن في النزول مساعدة للجاذبية ، لكن الصعود يحتاج إلى جهد أكثر ، فإذا ضاق الصدر فمعنى ذلك أن حيز الصدر لم يعد قادراً على أن يأخذ الهواء بالتنفس بطريقة تريح الجسم ، ولذلك يقال : " فلان صدره ضيق " أي أن التنفس يجهده إجهاداً بحيث يحتاج إلى هواء أكثر من الحجم الذي يسعه صدره .

﴿ ومَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً ﴾ والحرج معناه الحجز عن الفعل ، كأن نقول حرَّجت على فلان أن يفعل كذا ، أي ضيقت عليه ومنعته من أن يؤدي هذا العمل . " كأنما يصعّد في السماء " .

*(240/249)*

---

وعلمنا أن الصعود لأعلى هو امتداد لفعل الجسم إلى جهة من جهاته . فالجهات التي تحيط بأي شيء ست : هي فوق وتحت ، ويمين ، شمال ، وأمام ، وخلف ، وعرفنا أن الهبوط سهل ؛ لأن الجاذبية تساعد عليه ، والمشي ماذا يعني ؟ المشي إلى يمين أو إلى شمال أو إلى أمام أو إلى خلف ، فهو فعل في الاستواء العادي الظاهر ، والذي يتعب هو أن يصعد

الإنسان ، لأنه سيعاند الجاذبية ، وهو بذلك يحتاج إلى قوتين : قوة للفعل في ذاته ، والقوة الثانية لمعاندة الجاذبية .

﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السمآء ﴾ وذلك بسبب مشقات التكليف ؛ لأنه لم يدخلها بعشق ، فلا يدخل إلى مشقات التكليف بعشق إلا المؤمن فهو الذي يستقبل هذه التكاليف بشرح صدر وانبساط نفس وتذكر بما يكون له من الجزاء على هذا العمل ، والذي يسهل مشقة الأعمال حلاوة تصور الجزاء عليها ؛ فالذي يجتهد في دروسه إنما يستحضر في ذهنه لذة النجاح وآثار هذا النجاح في نفسه مستقبلاً وفي أهله . أما الذي لا يستحضر نتائج ما يفعل فيكون العمل شاقاً عليه . ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السمآء . . ﴾ [ الأنعام : 125 ]

والسماء هي كل ما علاك فأظلك ، فالجو الذي يعلوك هو سماء ، وكذلك السحابة ، وأوضح لنا ربنا أنه أقام السموات السبع ، وهنا أراد بعض العلماء الذين يحبون أن يظهروا آيات القرآن كمعجزات كونية إلى أن تقوم الساعة ، أرادوا أن يأخذوا من هذا القول دليلاً جديداً على صدق القرآن ، وتساءلوا : من الذي كان يدرك أن الذي يصعد في الجو يتعب ويحتاج إلى مجهودين : الأول للعمل والثاني لمناهضة الجاذبية ولذلك يضيق صدره لأنه لا يجد الهواء الكافي لإمداده بطاقة تولد وقوداً .

ونقول لهؤلاء العلماء : لا يوجد ما يمنع استنباط ما يتفق في القضية الكونية مع القضية القرآنية بصدق ، ولكن لنحبس شهوتنا في أن نربط القرآن بكل أحداث الكون حتى لا نتهافت فنجعل من تفسيرنا لآية من آيات القرآن دليلاً على تصديق نظرية قائمة ، وقد نجد من بعد ذلك من يثبت خطأ النظرية .

إنه يجب على المخلصين الذي يريدون أن يربطوا بين القرآن لما فيه من معجزات قرأنية مع معجزات الكون أن يمتلكوا اليقظة فلا يربطوا آيات القرآن إلا بالحقائق العلمية ، وهناك فرق بين النظرية وبين الحقيقة ؛ فالنظرية افتراضية وقد تخيب .

لذلك نقول : أنبعد القرآن عن هذه حتى لا تعرضه للذبذبة . ولا تربطوا القرآن إلا بالحقائق العلمية التي أثبتت التجارب صدقها .

وقائل القرآن هو خالق الكون ، لذلك لا تتناقض الحقيقة القرآنية مع الحقيقة الكونية ؛ لذلك لا تحدد أنت الحقيقة القرآنية وتحصرها في شيء وهي غير محصورة فيه . وتنبه جيداً إلى أن تكون الحقيقة القرآنية حقيقة قرآنية صافية ، وكذلك الحقيقة الكونية . ﴿ . . كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السماء كذلك يَجْعَلُ الله الرجس عَلَى الذين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [ الأنعام : 125 ]

والرجس وهو العذاب ، إنما يأتيهم بسبب كفرهم وعدم إقبالهم على التكليف . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(242/249)

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (125) ﴾

أخرج ابن المبارك في الزهد وعبد الرزاق والفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي جعفر المدائني رجل من بني هاشم وليس هو محمد بن علي قال : " سئل النبي صلى الله عليه وسلم أي المؤمنين أكيس ؟ قال : " أكثرهم ذكراً للموت وأحسنهم لما بعده استعداداً . قال : وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ﴿ فمن يرد الله أن

يهديه يشرح صدره للإِسلام ﴾ قالوا : كيف يشرح صدره يا رسول الله ؟ قال : نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح له . قالوا فهل لذلك من إمارة يعرف بها ؟ قال : الإِنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت " " .

وأخرج عبد بن حميد عن الفضيل " أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أرأيت قول الله ﴿ من يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإِسلام ﴾ فكيف الشرح ؟ قال : إذا أراد الله بعبد خيراً قذف في قلبه النور فانفسح لذلك صدره ، فقال : يا رسول الله هل لذلك من آية يعرف بها ؟ قال : نعم . قال : فما آية ذلك ؟ قال : التجافي عن دار الغرور ، والإِنابة إلى دار الخلود ، وحسن الإِستعداد للموت قبل نزول الموت " .

*(243/249)*

---

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب ذكر الموت عن الحسن قال : " لما نزلت هذه الآية ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإِسلام ﴾ قام رجل إلى رسول الله صلى الله وسلم فقال : هل لهذه الآية علم تعرف به ؟ قال " نعم ، الإِنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل أن ينزل " " .

وأخرج ابن شيبة وابن أبي الدنيا وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم والبيهقي في

الشعب من طرق عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلت هذه الآية ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ قال " إذا أدخل الله النورَ القلبَ انشرحَ وانفسحَ . قالوا : فهل لذلك من آية يعرف بها ؟ قال : الإِنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والإِستعداد للموت قبل نزول الموت " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رجل : " يا رسول الله أي المؤمنين أكيس ؟ قال " أكثرهم للموت ذكراً ، وأحسنهم له استعداداً . ثم تلا رسول الله صلى الله وعليه وسلم ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإِسلام ﴾ قلت : وكيف يشرح صدره للإِسلام ؟ قال : هو نور يقذف فيه ، إن النور إذا وقع في القلب انشرح له الصدر وانفسح . قالوا : يا رسول الله هل لذلك من علامة يعرف بها ؟ قال : نعم ، الإِنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والإِستعداد للموت قبل الموت . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بئس القوم لا يقومون لله بالقسط ، بئس القوم قوم يقتلون الذين يأمرون بالقسط " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الأسماء والصفات عن عبد الله بن المسور وكان من ولد جعفر بن أبي طالب قال : " تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإِسلام ﴾ قالوا : يا رسول الله ما هو هذا الشرح ؟ قال : نور يقذف به في القلب ينفسح له القلب . قالوا : فهل لذلك من إمارة يعرف بها ؟ قال : نعم ، الإِنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور والإِستعداد للموت قبل الموت " .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإِسلام ﴾ يقول يوسع قلبه للتوحيد والإِيمان به ﴿ ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً ﴾ يقول : شاكاً ﴿ كأنما يصّعَّد في السماء ﴾ يقول : كما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء فكذلك لا يقدر على أن يدخل التوحيد والإِيمان قلبه حتى يدخله الله في قلبه .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن أبي الصلت الثقفي . أن عمر بن الخطاب قرأ هذه الآية ﴿ ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً ﴾ بنصب الراء ، وقرأها بعض من عنده من أصحاب رسول الله ﴿ حرجاً ﴾ بالخفض . فقال عمر : أبغوني رجلاً من كنانة وأجعلوه راعياً ، ولكن مدلجيا . فأتوه به فقال له عمر : يا فتى ما الحرجة فيكم ؟ قال : الحرجة فينا : الشجرة تكون بين الأشجار التي لا تصل إليها راعية

ولا وحشية ولا شيء . فقال عمر : كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم . أنه قرأ ﴿ ضيقاً حرجاً ﴾ بكسر الراء .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة ﴿ ضيقاً حرجاً ﴾ أي ملتبساً .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج ﴿ ضيقاً حرجاً ﴾ أي بلا إله إلا الله لا يستطيع أن يدخلها في صدره ، لا يجد لها في صدره مساغاً .

وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد ﴿ كأنما يصعد في السماء ﴾ من شدة ذلك عليه .

(245/249)

---

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله ﴿ ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً ﴾ يقول : من أراد الله أن يضله يضيق عليه حتى يجعل الإِسلام عليه ضيقاً والإِسلام واسع ، وذلك حين يقول : ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ [ الحج : 78 ] يقول : ما في الإِسلام من ضيق .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عطاء الخرساني في قوله ﴿ يجعل صدره ضيقاً حرجاً ﴾ قال : ليس للخير فيه منفذ ﴿ كأنما يصعد في السماء ﴾ يقول : مثله كمثل الذي لا يستطيع أن يصعد في السماء .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ كذلك يجعل الله الرجس ﴾ قال : الرجس ما لا خير فيه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(246/249)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ ﴾ كقوله : " مَنْ يَشأ اللَّهُ يُضْلِله " و " مَنْ " يَجُوزُ أن تكُون مَرْفُوعة بالابتداء ، وأن تكون مَنْصُوبَةً بمقدّرٍ بَعْدَهَا على الاشْتِغَال ، أي : مَنْ يُوَفِّق اللَّه يُرِدْ أن يَهْدِيَهُ ، وأنْ تكون مَنْصُوبَةً بمقدّرٍ بَعْدَهَا على الاشْتِغَال ، أي : مَنْ يُوَفِّق اللَّه يُرِدْ أن يَهْدِيَهُ ، و " أنْ يَهْدِيَهُ " مَفْعُول الإرادَة ، والشَّرْح : البَسْطُ والسّعَة ، قاله الليث .

وقال ابن قُتَيْبَة : " هو الفَتْحُ ، ومنه : شَرَحْتُ اللَّحم ، أي : فَتَحْتُه " وشرح الكلام : بَسَطَهَ وفتح مغْلَقَه ، وهو استِعَارةٌ في المَعانِي ، حَقِيقَةٌ في الأعْيَان .

و " للإسْلام " أى : : لِقبُولِه .

قوله : ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً ﴾ .

يجُوز أن يَكُون الجَعْلُ هنا بمعْنَى التَّصْيير ، وأن يَكُون بمَعْنَى الخَلْق ، وأن يكون بمعنى سَمَّى ، وهذا الثَّالثُ ذهب إليه المعتزلة ، كالفارسي وغيره من مُعْتَزِلَة النُّحَاةِ ؛ لأن الله – تعالى – لا يُصَيِّر ولا يَخْلُق أحَداً كذا ، فعلى الأوَّلِ يكون " ضَيِّقاً مَفْعُولاً ثانياً عند مَنْ شدَّدَ يَاءَهُ ، وهم العَامَّة غَيْر ابن كثير ، وكذلك عند مَنْ خَفَّفَها سَاكِنَةً ، ويكون فِيهِ لُغتانِ : التَّثقيل والتَّخْفيفُ ؛ كميِّت ومَيْت ، وهيِّن وهَيْن .

وقيل : المخَفَّف مصدرُ ضاقَ يَضِيقُ ضيقاً ، كقوله – تعالى – ﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ ﴾ [ النحل : 127 ] ، يقال : ضَاقَ يضيقُ ضَيْقاً بفتح الضَّادِ وكَسْرِها .

(247/249)

---

وبالكَسْر قرأ ابن كثير في النحل والنَّمْل ، فعلى جعله مصدراً يَجِيءُ فيه الأوْجُه الثلاثة في المصدرِ الواقع وَصْفاً لـ " جُثَّة " ، نحو : " رجُلٌ عَدْلٌ " وبه حَذْفُ مُضَاف ، والمُبَالغَة ، أوْ وُقُوعه مَوْقع اسْم الفاعل ، أي : يَجْعَلُ صدره ذا ضيق ، أو ضَائقاً ، أو نَفْس الضِّيق ؛ مُبالغةً ، والذي يَظْهَرُ من قارءة ابن كثير : أنه عِنْدهُ اسم صِفَةٍ مخَفَّف مِن " فَيْعل " وذلك أنَّه اسْتَغْرَب قراءَتَهُ في مَصْدَر هذا الفِعْلِ ، دُون الفَتْح في سُورة النَّحْل والنَّمْل ، فَلَوْ كان هذا عِنْدَهُ مَصْدَراً ، لكان الظَّاهرُ في قراءته الكَسْرَ كالموضِعَيْنِ المُشَارِ إليْهما ، وهذا من

مَحَاسِنِ علم النَّحْو والقراءاتِ ، والخلافُ الجَارِي هُنَا جارٍ في الفُرقَانِ .

قوال الكسائي : " الضِّيّق بالتَّشْديد في الأجْرَام ، وبالتَّخْفيف في المَعَانِي " .

ووزن ضيّق : " فَيْعل " كميّت وسيّد عند جُمْهُور النَّحْوِيّين ثم أدْغِم ، ويجوز تَخْفِيفُه كما تقدَّم تَحْرِيرُه .

قال الفَارِسي : " والياءُ الواوِ في الحَذْفِ وإن لم تَعْتَلَّ بالقَلْبِ كما اعتَلَّتِ الواوُ ، اتْبعتِ اليَاءُ الواو في هذا ؛ كما أتبعت في قولهم : " أَتّسَرَ " من اليُسْر ، فجُعِلَتْ بمنزلة اتَّعَدَ " .

وقال ابن الأَنْبَاريّ : " الذي يُثَقِّل اليَاء يقول : وَزْنُه من الفِعْل " فَعِيل " والأصْل فيه ضَيِيق على مِثَال كَرِيم " و " نَبِيل " فجعلُوا اليَاءَ الأولى أِلفاً ؛ لتحرّكها وانْفِتَاح ما قَبْلَها من حَيْثُ أعَلُّوا ضَاقَ يَضِيقُ ، ثم أسْقَطُوا الأِلفَ بسُكُونها وسُكُون ياء " فَعِيل " فأشْفَقُوا مِنْ أنْ يَلْتَبِس " فَعِيل " بـ " فَعْل " فزادوا ياء على الياءِ ليكمل بها بِنَاء الحَرْفِ ، ويقعُ فيها فَرْقٌ بين " فَعِيل " و " فَعْل " .

*(248/249)*

---

والذين خَفَّفُوا اليَاءَ قالوا : " أمِن البَس ؛ لأَنَّه قد عُرِفَ أصْلُ هذا الحرفِ ، فالثِّقَةُ بمعْرِفته مَانِعَةٌ من البَّسِ " .

وقال البصريون [ وزنه من الفِعْل " فَيْعِل " ، فأدْغِمَت الياءُ في الَّتِي بَعْدَهَا ، فَشُدِّدَ ثم جَاءَ التَّخْفِيفُ ، قال : وقد ردَّ الفرَّاءُ وأصْحَابُهُ هذا على البَصْرِيِّين ] وقالوا : " لا يُعْرَفُ في كلام العربِ اسمٌ على وَزن " فَيْعِل " يَعْنُون : بكسر العيْنِ ، إنما يُعْرَف " فَيْعَل " يعنون : بفتحها ، نحو : " صَيْقَل " و " هَيْكَل " فمتى ادّعَى مُدَّعٍ في اسْم مُعْتَل ما لا يُعْرَفُ في السَّالِم ، كانت دَعْوَاهُ مردُودَةً " وقد تقدَّم تحْرِيرُ هذه الأقوال عِنْد قوله - تبارك وتعالى - : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ ﴾ [ البقرة : 19 ] فليُراجَعْ ثَمَّةَ .

وإذا قُلْنَا : إنَّهُ مُخَفَّفٌ من المشدَّدِ ؛ فهل المَحْذُوفُ اليَاء الأولى أو الثَّانِيَة " خِلافٌ مرَّت له نَظَائِرُهُ .

وإذا كانت " يَجْعَل " بمعنى : يَخْلُق ، فيكون " ضَيِّقاً " حالاً ، وإن كانَتْ بمعنى " سَمَّى " ، كانَتْ مفعُولاً ثانياً ، والكلام عليه بالنِّسْبَة إلى التَّشْدِيد والتَّخْفِيف ، وتقدير المَعَانِي كالكلام عليه أوّلاً .

و " حَرَجاً " حَرِجاً " بفتح الرَّاء وكَسْرها : هو المُتزايد في الضِّيق ، فهُو أخَصُّ من الأوَّل ، فكل حَرَج من غير عَكْس ، وعلى هَذَا فالمَفْتُوح والمكْسُور بمَعْنَى واحد ، يقال " رَجُل حَرِجٌ وحَرَجٌ " قال الشَّاعر : [ الرجز ]

2307 - لا حَرِجُ الصَّدْرِ ولا عَنِيفُ . . .

قال الفراء - رحمه الله - : هو في كَسْرِه ونَصْبِه بمَنْزِلَة " الوَحَد " و " الوحِد " ، و " الفَرَد " و "

الفَرِد " و" الدِّنَف " و" الدِّنِف " .

وفرَّق الزَّجَّاج والفارسي بينهُمَا فقالا : " المَفْتُوح مَصْدر ، والمكْسُور اسْمُ فَاعِل " .

(249/249)

---

قال الزَّجَّاج : " الحَرَجُ أضْيَقُ الضِّيقِ ، فَمَنْ قال : رَجُلٌ حَرَجٌ - يعني بالفَتْح - فمعناه : ذُو حَرَجٍ في صَدْرِه ، ومن قال حِرِجٌ - يعني بالكَسْر - جعله فَاعِلاً ، وكذلك دْنف ودَنَف " .

وقال الفارسي : " مَنْ فتح الرَّاء ، كان وصْفاً بالمصدر ، نحو : قَمَنْ وحَرَى ودنَف ، ونحو ذلك من المصادرِ التي يُوصَفُ بها ، ولا تكُون " كَبَطَل " لأن اسْم الفاعل في الأمْر العَام إنَّما على فَعِل " .

ومن قرأ " حِرجاً " - يعني بكسْر الرَّاء - فهو مثل " دِنَف وفَرِق بكَسْر العَيْن " .

وقيل : " الحَرَجُ بالفَتْح جمع حَرَجَة ؛ كقَصَبَ وقَصَب ، والمكْسُور صِفَة ؛ كذِنَف وأصل المادَّة من التَّشَابُك وشِدَّة التَّضَايُقِ ، فإنَّ الحَرَجة غَيْضَة من شَجَر السَّلَم ملتفة لا يَقْدِرُ أحَدٌ أن يَصِل إليها .

قال العجَّاج : [ الزجر ]

2308 - عَايَنَ حَيَّا كَالحِرَاجِ نَعَمُهْ . . .

الحِراج : جَمْع حِرْج ، وحِرْج جَمْع حَرَجَة ، ومن غَريب ما يُحكَى : أن ابْن عَبَّاس قرأ هذه الآية ، فقال : هل هُنَا أحَدٌ من بَنِي بَكْرٍ ؟ فقال رَجُلٌ : نعم ، قال : ما الحَرَجَة فِيكُم ؟ قال : الوَادِي الكَثِير الشَّجَر المسْتَمْسِكُ ؛ الذي لا طريقَ فيه .

فقال ابن عبَّاس : " فَهَكَذَا قَلْبُ الكَافِرِ " هذه رواية عُبَيْج بن عُمَيْر .

وقد حَكَى أبو الصَّلْت الثَّقْفِي هَذِهِ الحكَايَة بأطْوَال مِنْ هذا ، عن عُمَر بن الخطاب ، فقال : قرأ عُمِر بن الخطَّاب هذه الآية فقال : " ابْغُونِي رَجُلاً من بَنِي كِنَانَة ، واجْعَلُوه راعِياً " فأتوهُ به ، فقال لَهُ عُمر : " يا فتى ما الحَرَةُ فِيكُم " ؟ قال : " الحَرَجَة فِينَا الشَّجَرَةُ تُحْدِقُ بها الأشْجَارُ فلا تَصِلُ إليها رَاعِيةٌ ولا وَحْشِيَّةٌ " .

فقال عُمَر – رضي الله عنه – : " وكذلك قَلْبُ الكافر لا يَصِلُ إلهي شيءٌ من الخَيْرِ " .

(250/249)

---

وبعضهُم يحْكِي هذه الحكاية عن عُمر – رضي الله عنه – كالمُنْتَصِر لمن قَرأ بالكَسْر قال : قرَأهَا بَعْضُ أصْحَاب عُمَر له بالكَسْر ، فقال : " ابْغُوني رجلاً من كِنَانَة رَاعِياً ، وليَكُون من بني مُدْلج " .

فأتوه به ، فقال : " يا فَتَى ، ما الحَرَجَة تكُون عِنْدكُم " ؟ فقال : " شَجَرَةٌ تكُون بيْن

الأَشْجَار لا يَصِلُ إِلَيْهَا رَاعِيَة ولا وَحِشِيَّة " .

فقال : كذلِك قَلْبُ الكَافِر ، ولا يَصل إليه شيءٌ [ من الخَيْر ] .

قال أبو حيَّان : " وهذا تَنْبيه – والله أعلم – على اشْتِقَاقِ الفِعْل من اسْم العَيْن " كاسْتَنْوقَ واستَحَجَر " .

قال شهاب الدين : لَيْس هذا من باب اسْتَنْوَقَ واسْتَحْجَرَ في شَيْءٍ ؛ لأن هذا مَعْنَى مستَقِلٌّ ، ومادَّةٌ مُسْتَقِلَّةٌ مُتَصَرِّفَة ، نحو : " حَرِجَ يَحْرَجُ فهو حَرِجٌ وحَارِجٌ " بخلاف تِيكَ الألفاظ ، فإنَّ معناها يُضْطَرُّ فيه إلى الأَخْذِ من الأَسْمَاء الجَامِدَة ، فإن مَعْنَى قولك : استَنْوَقَ الجمل ، أي : " صار كالنَّاقِة " ، واسْتَحْجر والنَّاقَةِ ، وأَنْتَ إذا قُلْتَ : حَرِج صَدْرُه لَيْس بكَ ضَرورَة أن تَقُولك " ص كالحَرَجَةِ " بل مَعْنَاه : " تَزايد ضِيقُه " ، وأما تَشْبيهُ عُمَر بن الخطَّاب ، فلإبْرَازه المَعَانِي في قوالِب الأَعْيَان ؛ مبالغة في البيان .

وقرأ نافع وأبو بكر عن عاصم : " حَرِجاً " بكَسْر الراء والباقون : بفتحها وقد عُرِفَا ، فأمّا على قراءةِ الفَتْح ، فإن كان مَصْدراً ، جاءت فيه الأَوْجُهُ الثلاثة المقدّمَة في نَظَائِره ، وإن جُعِلَ صِفَةً فلا تأويل .

(251/249)

ونَصْبُه على القراءتَيْن : إمَّا على كونِهِ نَعْتاً لـ " ضَيِّقاً " ، وإمَّا على كَوْنه مَفْعُولاً به تعدَّد ، وذلك أنَّ الأفْعَال النَّواسِخَ إذا دَخَلَت على مُبْتَدأ وخبر ، كان الخبرانِ على حَالِهما ، فكما يَجُوز تعدُّدُ الخبر مُطْلقاً أو بتَأويل في المبتدأ والخبر الصَّريحَيْن ، كذلك في المَنْسُوخَيْن حين تَقُول : " زَيْدٌ كَاتِبٌ شَاعِرٌ فقيهٌ " ثم تقُول : ظَنَنْتُ زيداً كَاتِباً شاعراً فَقِيهاً ، فتقول : " زَيْداً " مَفْعُول أوَّل ، " كاتباً " مَفْعُول ثان ، " شَاعِراً " مفعول ثالث ، " فَقِيهاً " مَفْعُول رَابع ؛ كما تَقُول : خبر ثانٍ وثالث ورابع ولا يَلْزَمُ من هذا أن يتعدَّى الفِعْل لثلاثة ولا أرْبَعَة ؛ لأن ذلك بالنِّسْبَة إلى تَعَدُّد الأَلْفَاظِ ، فلَيْس هذا كقول : في : أعْلَمْتُ زيداً عمراً فلاضلاً ، إذا المَفْعُول الثَّالِثُ هناك لَيْس متكَرِّراً لشَيْء واحِدٍ ؛ وإنما بَيَّنْتُ هذا لأن بَعْضَ النَّاسِ وهم في فَهْمِه ، وقد ظَهَر لك ممَّا تقدَّم أن قوله : " ضَيِّقاً حَرَجاً " لي في تكْرَار .

وقال مَكِّي : " ومعنى حَرِجٌ - يعني بالكَسْرِ - كمعنى ضَيِّق ، كرِّر لاخْتِلاف لفْظِه للتأكيد " .

قال شهاب الدِّين : إنما يكون للتَّأكيد حيث لم يَظْهَر بَيْنَها فَارِقٌ فتَقُول : كُرِّر لاخْتِلاف اللَّفْظِ ؛ كقوله : ﴿ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ [ البقرة : 157 ] وكقوله : [ الوافر ]

2309 - . . . . . .

وَأَلْقَى قَوْلَهَا كَذِباً ومَيْنَا

وقوله : [ الطويل ]

2310 - . . .

وهِنْدٌ أَتَى مِنْ دُونِهَا النَّأْيُ والبُعْدُ

وأما هُنَا فقد تقدَّم الفَرْقُ بالعُمُوم والخُصُوص أو غير ذلِك .

وقال أبو البقاء : " وقيل : هو جَمْع " حَرَجَة " مثل قصبة وقَصَب ، والهاءُ فيه للمُبالغَة " .

*(252/249)*

---

قال شهاب الدين : " ولا أدْري كَيْفَ توهَّم كَوْنَ هذه الهاء الدَّالَّة على الوَحْدَةِ في مُفْرِدَ أسْمَاء الأجْنَاس ؛ كثمرة وبُرَّة ونَبِقَة للمُبالغة ، كِهي في رَوايةٍ ونَسَّابَة وفرُوقة ؟

قوله : " كَأَنَّمَا " " مَا " هذه مُهَيِّئَةٌ لدُخُول كأنَّ على الجمل الفعلية ؛ كَهي في ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ ﴾ [ آل عمران : 185 ] .

قوله : " يَصَّعَّدُ " وقرأ ابن كثير : " يَصْعَدُ ساكن الصَّادِ ، مخفّق العَيْن ، مضارع " صَعِيد " أي : ارتفع ، وأبو بكْر عن عاصم : " يصَّاعَدُ " بتشديد الصَّاد بعدها أَلِفٌ ، وأصْلُها يتصاعَدُ ، أي : " يتعَاطى الصُّعُود وتَكَلَّفه " فأدْغم التَّاءَ في الصَّادِ تَخْفيفاً ، والباقون : " يَصَّعَّد " بتَشْديد الصَّاد والعَيْن دون أَلِفٍ بَيْنَهُما ، ومِنْ " يصَّعَّند ط أيكي يَفْعَل الصُّعُود ويُكَلَّفه ، والأصْل : " يَتَصَعَّد " فأدغم كما في قِراءَة شُعْبَة وهذه الجُمْلَة التشبيهيَّة يحتمل أن

يتكُونَ مُسْتَانفة ، شبَّه فيها حَالَ مَنْ جعَل اللَّهُ صدْرهُ ضيّقاً حَرَجاً ، بأنه بِمَنْزِلَة من يَطْلُب الصُّعُود إلى السَّماء المظللة أو إلى مكان مرتفع [ وعْرٍ ] كالعَقَبَةِ الكَؤود .

والمعنى : أنه يَسْبِقُ عليه الإيمانُ كما يَسْبقُ عليه صُعُود السَّماء ، وجوَّزوا فيها وَجْهَيْن آخرين :

أحدهما : أن يكون مَفْعُولاً آخر تعدَّد كما تعدَّد ما قَبْلَها .

والثاني : ان يكُون حالاً وفي صاحبها احتمالان :

أحدهما : هو الضَّمِيرُ المسْتَكِنُّ في " ضَيِّقاً " .

والثاني : هو الضَّمِير في " حَرَجاً " ، و" في السَّماءِ " متعلِّقٌ بما قَبْلَه .

(253/249)

---

قوله : " كَذَلِكَ يَجْعَلُ " هو كنظائره وقدَّره الزَّجَّاج : " مثل ما قَصَصْنَا عليْك يَجْعَل " أي : فيكون مُبْتَدأ وخبراً ، أو نَعْت مَصْدر مَحْذُوف ، فلَكَ أن تَرْفَعَ " مِثْل " وأن تَنْصِبَها بالاعْتِبَارَيْن عِنده ، والأحسن أن يُقَدَّر لها مَصْدَر مُنَاسِبٌ كما قدره النَّاسُ ، وهو مِثْل ذلك الجَعْل – أي : جَعْلِ الصَّدر ضَيِّقاً حَرَجاً – " يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ " كذا قدَّره مكي وغيره ، و" يَجْعَل " يحتمل أن تكُونَ بمعْنَى " أَلْقَى " وهو الظَّاهِرُ ، فتتعدَّى لواحد بنَفْسها

وللآخر بحَرْف الجرّ ، ولذلك تعدَّتْ هُنَا بـ " عَلَى " والمَعْنَى : "كذلِكَ يُلْقي الله العذابَ على الَّذِين لا يُؤمِنُون " .

ويجوز ان تكُون بمعْنَى صَيَّر أي : "يُصيِّره مُسْتعْلياً عليهم مُحِيطاً بِهِم " ، والتَّقْدير الصّناعي : مستَقِرّاً عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 416. 425 ﴾ .

باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ ﴾ .

المُسْلِمُ لا يتحرك في باطنه عِرْقٌ للمنازعة مع التقدير ، فإن الإسلام يقتضي تسليم الكل بلا استئثار ، ومَنْ استثقل شيئاً من التكليف أو بقي منه نَفَسٌ لكراهية شيء فيعدُّ غير مستسلمٍ لحُكْمِه .

ويقال نورٌ في البداية هو نور العقل ، ونورٌ في الوسائط هو نور العلم ونور في النهاية هو نور العرفان ؛ فصاحب العقل مع البرهان ، وصاحب العلم مع البيان ، وصاحب المعرفة حكم العيان .

ويقال مَنْ وَجَدَ أنوار الغيب ظهرت له خفايا الأمور فلا يشكل عليه شيء من ذوات

الصدور عند ظهور النور ، وقال صلى الله عليه وسلم : " اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى " .

(254/249)

---

ويقال أول أثر لأنوار الغيب في العبد يُنَبِّهه إلى نقائص قَدَرِه ومساوئ غيِّه ، ثم يشغله عن شهود نفسه مما يلوح لقلبه من شهود ربه ، ثم غَلَبَاتُ الأنوار على سِرِّه حتى لا يشهد السرَّ بعد ما كان يشهد ؛ كالنَّاظِرِ في قُرصِ الشمس تُسْتَهْلَكُ أنوار بصره في شعاع الشمس كذلك تستهلك أنوار البصيرة في حقائق الشهود ، فيكون العبد صاحب الوجود دون الشهود ثم بعده خمود العبد بالكلية ، وبقاء الأحدية بنعت السرمدية .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

وذلك حتى لا يسعى في غير مراد الحق سبحانه ، وحدُّ البشرية ضيق القلب ، وصاحبه في أسْرِ الحدثان والأعلال ، ولا عقوبةَ أشدُّ من عقوبة الغفلة عن الحق . انتهى انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 499.500 ﴾

(255/249)

فصل نفيس لابن القيم فى أسباب شرح الصدور وحصولها على الكمال له صلى الله عليه وسلم

قال رحمه الله :

أعظم أسباب شرح الصدر : التوحيدُ وعلى حسب كماله ، وقوته ، وزيادته يكونُ انشراحُ صدر صاحبه . قال اللَّه تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ

ص -24- صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّه ﴾ [الزمر: 22] . وقال تعالى: ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ، وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ ﴾ [الأنعام: 125] .

فالهُدى والتوحيدُ مِن أعظم أسبابِ شرحِ الصدر ، والشِّركُ والضَّلال مِن أعظم أسبابِ ضيقِ الصَّدرِ وانحراجِه ، ومنها : النورُ الذى يقذِفُه اللَّه فى قلب العبد ، وهو نورُ الإيمان ، فإنه يشرَحُ الصدر ويُوسِّعه ، ويُفْرِحُ القلبَ . فإذا فُقِدَ هذا النور من قلب العبد ، ضاقَ وحَرِجَ ، وصار فى أضيق سجنٍ وأصعبه .

وقد روى الترمذى فى جامعه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال: "إذا دَخَلَ النور القلبَ ، انْفَسَحَ وانشرحَ" . قالوا : وما عَلامَةُ ذَلِكَ يَا رسُولَ اللَّهِ ؟ قال: "الإِنَابَةُ إلى دارِ الخُلُودِ ، والتَجَافِى عَنْ دَارِ الغُرُورِ ، والاسْتِعْدادُ للمَوْتِ قَبْلَ نُزُوله" . فيُصيب العبد من

انشراح صدره بحسب نصيبه من هذا النور ، وكذلك النورُ الحِسّي ، والظلمةُ الحِسّية ، هذه تشرحُ الصدر ، وهذه تُضيّقه .

ومنها : العلم ، فإنه يشرح الصدر ، ويوسّعه حتى يكون أَوسعَ من الدنيا ، والجهلُ يورثه الضِّيق والحَصْر والحبس ، فكلما اتَّسع علمُ العبد ، انشرح صدره واتسع ، وليس هذا لكل عِلم ، بل للعلم الموروث عن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو العلمُ النافع ، فأهلُه أشرحُ الناس صدراً ، وأوسعهم قلوباً ، وأحسنُهم أخلاقاً ، وأطيبُهم عيشاً .

*(256/249)*

---

ومنها : الإنابة إلى اللَّه سبحانه وتعالى ، ومحبتُه بكلِّ القلب ، والإقبالُ عليه ، والتنعُّم بعبادته ، فلا شيء أشرحُ لصدر العبد من ذلك . حتى إنه ليقولُ أحياناً : إن كنتُ في الجنة في مثل هذه الحالة ، فإني إذاً في عيش طيب . وللمحبة تأثيرٌ عجيبٌ في انشراح الصدر ، وطيبِ النفس ، ونعيم القلب ، لا يعرفه إلا مَن له حِس به ، وكلَّما كانت المحبَّة أقوى وأشدَّ ، كان الصدرُ أفسحَ وأشرحَ ، ولا يَضيق إلا عند رؤية البطَّالين الفارِغين من هذا الشأن ، فرؤيتُهم قَذَى عينه ، ومخالطتهم حُمَّى روحه .

ومِنْ أعظم أَسباب ضيق الصدر : الإعراضُ عن اللَّه تعالى ، وتعلُّقُ القلب بغيره ، والغفلةُ

عن ذِكره ، ومحبةُ سواه ، فإن مَن أحبَّ شيئاً غيرَ اللَّه عُذِّبَ به ، وسُجِنَ قلبُه فى محبة ذلك الغير ، فما فى الأرض أشقى منه ، ولا أكسف بالاً ، ولا أنكد عيشاً ، ولا أتعب قلباً ، فهما محبتان: محبة هى جنة الدنيا ، وسرور النفس ، ولذةُ القلب ، ونعيم الروح ، وغِذاؤها ، ودواؤُها ، بل حياتُها وقُرَّةُ عينها ، وهى محبةُ اللَّه وحدَه بكُلِّ القلب ، وانجذابُ قوى الميل ، والإرادة ، والمحبة كلِّها إليه .

ومحبةٌ هى عذاب الروح ، وغمُّ النفس ، وسِجْنُ القلب ، وضِيقُ الصدر ، وهى سببُ الألم والنكد والعناء ، وهى محبة ما سواه سبحانه .

ومن أسباب شرح الصدر دوامُ ذِكره على كُلِّ حال ، وفى كُلِّ موطن ، فللذِكْر تأثير عجيب فى انشراح الصدر ، ونعيم القلب ، وللغفلة تأثيرٌ عجيب فى ضِيقه وحبسه وعذابه .

ومنها : الإحسانُ إلى الخَلْق ونفعُهم بما يمكنه من المال ، والجاهِ ، والنفع بالبدن ، وأنواع الإحسان ، فإن الكريم المحسنَ أشرحُ الناس صدراً ، وأطيبُهم نفساً ، وأنعمُهم قلباً ، والبخيلُ الذى ليس فيه إحسان أضيقُ الناسِ

*(257/249)*

صدراً ، وأنكدُهم عيشاً ، وأعظمُهم همّاً وغمّاً . وقد ضرب رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فى الصحيح مثلاً للبخيل والمتصدّق ، كمَثَل رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُنَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ ، كُلَّمَا هَمَّ الْمُتَصَدِّقُ بِصَدَقَةٍ ، اتَّسَعَتْ عَلَيْهِ وَانْبَسَطَتْ ، حَتَّى يَجُرَّ ثِيَابَهُ وَيُعْفِيَ أَثَرَهُ ، وَكُلَّمَا هَمَّ الْبَخِيلُ بِالصَّدَقَةِ ، لَزِمَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا ، وَلَمْ تَتَّسِعْ عَلَيْهِ . فهذا مَثَلُ انشِراحِ صدر المؤمن المتصدّق ، وانفساح قلبه ، ومثلُ ضِيقِ صدر البخيل وانحصار قلبه .

ومنها : الشجاعة ، فإن الشجاع منشرح الصدر ، واسع البطان ، متَّسِعُ القلب ، والجبانُ: أضيق الناس صدراً ، وأحصرُهم قلباً ، لا فرحة له ولا سرور ، ولا لذَّة له ، ولا نعيم إلا منْ جنس ما للحيوان البهيمى ، وأما سرور الروح ، ولذّتُها ، ونعيمُها ، وابتهاجُها ، فمحرَّمٌ على كل جبان ، كما هو محرَّم عِلى كل بخيلٍ ، وعلى كُلِّ مُعرِض عن اللّه سبحانه ، غافلٍ عن ذِكره ، جاهلٍ به وبأسمائه تعالى وصفاته ، ودِينه ، متعلق القلبِ بغيره . وإن هذا النعيم والسرور ، يصير فى القبر رياضاً وجنة ، وذلك الضيقُ والحصر ، ينقلبُ فى القبر عذاباً وسجناً . فحال العبد فى القبر . كحال القلب

فى الصدر ، نعيماً وعذاباً وسجناً وانطلاقاً ، ولا عبرةَ بانشراح صدر هذا لعارض ، ولا بضيق صدرِ هذا لعارض ، فإن العوارِضَ تزولُ بزوال أسبابها ، وإنما المعوَّلُ على الصِّفة التى قامت بالقلب تُوجب انشراحه وحبسه ، فهى الميزان . . واللّه المستعان .

ومنها بل من أعظمها : إخراجُ دَغَلِ القَلْبِ من الصفات المذمومة التى تُوجب ضيقه وعذابه

، وتحولُ بينه وبين حصول البُرء ، فإن الإنسان إذا أتى الأسباب التى تشرحُ صدره ، ولم يُخرِجْ تلك الأوصافَ المذمومة من قلبه ، لم يحظَ مِن انشراح صدره بطائل ، وغايته أن يكون له مادتان تعتورَانِ على قلبه ، وهو للمادة الغالبة عليه منهما .

*(258/249)*

---

ومنها : تركُ فضولِ النظر ، والكلام ، والاستماع ، والمخالطةِ ، والأكل ، والنوم ، فإن هذه الفضولَ تستحيل آلاماً وغموماً ، وهموماً فى القلب ، تحصُرُه ، وتحبسه ، وتضيّقهُ ، ويتعذَّبُ بها ، بل غالِبُ عذابِ الدنيا والآخرة منها ، فلا إله إلا اللَّهُ ما أضيقُ صدرَ مَن ضرب فى كل آفةٍ من هذه الآفات بسهم ، وما أنكدَ عيشَه ، وما أسوأ حاله ، وما أشدَّ حصرَ قلبه ، ولا إله إلا اللَّه ، ما أنعمَ عيشَ مَنْ ضرب فى كل خَصلةٍ من تلك الخصال المحمودة بسهم ، وكانت همتُّه دائرةً عليها ، حائمةً حولها ، فلهذا نصيب وافر مِنْ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الأَبرَارَ لَفِى نَعِيم ﴾ [الانفطار: 13] ولذلك نصيب وافر من قوله تعالى: ﴿ وإِنَّ الفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار: 14] وبينهما مراتبُ متفاوتة لا يُحصيها إلا اللَّه تبارك وتعالى .

والمقصود : أن رسولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم كان أكملَ الخلق فى كلِّ صفة يحصُل بها

انشراحُ الصدر ، واتّساعُ القلب ، وقُرَّةُ العين ، وحياةُ الروح ، فهو أكملُ الخلق فى هذا الشرح والحياة ، وقُرَّةِ العين مع ما خُصَّ به من الشرح الحِسّيّ ،

وأكملُ الخلق متابعة له ، أكملُهم انشراحاً ولذةً وقُرَّةَ عين ، وعلى حسب متابعته ينالُ العبد من انشراح صدره وقُرَّةَ عينه ، ولذةَ روحه ما ينال ، فهو صلى اللَّه عليه وسلم فى ذُروة الكمال مِن شرح الصدر ، ورفع الذِكْر ، ووضع الوِزْر ، ولأتباعه من ذلك بحسب نصيبهم من اتّباعه . . واللَّه المستعانُ .

وهكذا لأتباعه نصيبٌ من حفظ اللَّه لهم ، وعصمتِه إياهم ، ودفاعِه عنهم ، وإعزازه لهم ، ونصرِه لهم ، بحسب نصيبهم من المتابعة ، فمستقِلٌّ ومستكثِر ، فمَن وجد خيراً ، فليحمد اللَّه . ومَن وجد غير ذلك ، فلا يلومنَّ إلا نفسه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المعاد حـ 2 صـ 24. 27 ﴾

*(259/249)*

---

فصل

قال صاحب الميزان :

( كلام في معنى الهداية الإلهية ) الهداية بالمعنى الذى نعرفه كيفما اتخذت هي من العناوين

التى تعنون بها الأفعال وتتصف بها ، تقول هديت فلانا إلى أمر كذا إذا ذكرت له كيفية الوصول إليه أو أريته الطريق الذى ينتهى إليه ، وهذه هي الهداية بمعنى إراءة الطريق ، أو أخذت بيده وصاحبته في الطريق حتى توصله إلى الغاية المطلوبة ، وهذه هي الهداية بمعنى الايصال إلى المطلوب .

فالواقع في الخارج في جميع هذه الموارد هو اقسام الأفعال التى تأتى بها من ذكر الطريق أو إراءته أو المشى مع المهدى وأما الهداية فهى عنوان للفعل يدور مدار القصد كما أن ما يأتيه المهدى من الفعل في إثره معنون بعنوان الاهتداء فما ينسب إليه تعالى من الهداية ويسمى لاجله هاديا وهو أحد الأسماء الحسنى من صفات الفعل المنتزعة من فعله تعالى كالرحمة والرزق ونحوهما .

وهدايته تعالى نوعان : أحدهما الهداية التكوينية وهى التى تتعلق بالأمور التكوينية كهدايته كل نوع من أنواع المصنوعات إلى كماله الذى خلق لاجله وإلى أفعاله التى كتبت له ، وهدايته كل شخص من أشخاص الخليقة إلى الأمر المقدر له والاجل المضروب لوجوده قال تعالى : ( الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى ) ( طه : 50 ) وقال : ( الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ) ( الاعلى : 3 ) .

والنوع الثاني : الهداية التشريعية وهى التى تتعلق بالأمور التشريعية من الاعتقادات الحقة والاعمال الصالحة التى وضعها الله سبحانه للامر والنهى والبعث والزجر ووعد على

الاخذ بها ثوابا وأوعد على تركها عقابا .

ومن هذه الهداية ما هي إراءة الطريق كما في قوله تعالى : ( إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ) ( الدهر : 3 ) .

*(260/249)*

---

ومنها ما هي بمعنى الايصال إلى المطلوب كما في قوله تعالى : ( ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ) ( الاعراف : 176 ) وقد عرف الله سبحانه هذه الهداية تعريفا بقوله : ( فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ) ( الآية : 125 ) فهى انبساط خاص في القلب يعى به القول الحق والعمل الصالح من غير أن يتضيق ، به وتهيؤ مخصوص لا يأبى به التسليم لامر الله ولا يتحرج عن حكمه .

وإلى هذا المعنى يشير تعالى بقوله : ( أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه – إلى أن قال – ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ) ( الزمر : 23 ) وقد وصفه في الآية بالنور لأنه ينجلى به للقلب ما يجب عليه أن يعيه من التسليم لحق القول وصدق العمل عما يجب عليه أن لا يعيه ولا يقبله وهو باطل القول وفاسد العمل .

وقد رسم الله سبحانه لهذه الهداية رسما آخر وهو ما في قوله عقيب ذكره هدايته أنبياءه

الكرام وما خصهم به من النعم العظام : ( واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ) ( الأنعام : 88 ) فقد أوضحنا في تفسير الآية أن الآية تدل على أن من خاصة الهداية الإلهية أنها تورد المهتدين بها صراطا مستقيما وطريقا سويا لا تخلف فيه ولا اختلاف .

فلا بعض أجزاء صراطه الذى هو دينه بما فيه من المعارف والشرائع يناقض البعض الآخر لما أن الجميع يمثل التوحيد الخالص الذى ليس إلا حقيقة ثابتة واحدة ، ولما أن كلها مبنية على الفطرة الإلهية التى لا تخطئ في حكمها ولا تتبدل في نفسها ولا في مقتضياتها .

ولا بعض الراكبين عليه السائرين فيه يالفون بعضا آخر فالذي يدعو إليه نبى من أنبياء الله هو الذى يدعو إليه جميعهم ، والذى يندب إليه خاتمهم وآخرهم هو الذى يندب إليه آدمهم وأولهم من غير أي فرق إلا من حيث الإجمال والتفصيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الميزان حـ 7 صـ 346 . 347 ﴾

*(261/249)*

---

من الإعجاز العلمى فى الآية الكريمة

مقال للدكتور / زغلول النجار

قال حفظه الله :

" فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء . . . . . " ( الأنعام :125 ) "

يعجب الإنسان لهذا التشبيه القرآني المعجز الذي

يقابل بين ضيق صدر العازفين عن الهداية الربانية , كلما ذكروا بها , وضيق صدر الذي يصعد في السماء بغير وسيلة واقية , وهي حقيقة لم يدركها الإنسان في

أبعادها الصحيحة إلا بعد ريادته للفضاء , وقبل الدخول في تفصيل المغزي العلمي لهذا التشبيه القرآني لابد من توضيح الدلالات اللغوية والقرآنية لعدد من الألفاظ الواردة في الآية الكريمة وهذا ما سوف نفصله في الأسطر القليلة التالية .

الدلالات اللغوية لبعض ألفاظ الآية الكريمة

بالنسبة للفعل ( يشرح ) في قول الحق ( تبارك وتعالي ) : يشرح صدره فإن ( الشرح ) في اللغة هو الكشف والبسط وإظهار الغامض والخافي من المعاني .

يقال : ( شرح ) المشكل أو الغامض من الأمر ( يشرحه ) ( شرحا ) أي فسره , وبسطه , وأظهر ما خفي من معانيه , و( شرح ) الله صدره للإسلام ( فانشرح ) أي انبسط في رضا وارتياح للنور الإلهي والسكينة الروحية لأن من معاني ( شرح ) الصدر توسعته .

أما عن (الصدر الضيق الحرج) فأصل (الحرج) و(الحراج) مجتمع الأشياء من مثل الشجر ونحوه, ومن هنا تصور منه ضيق ما بينها , فقيل للضيق (حرج), وللإثم (حرج) واستخدام فعل (التحريج) بمعني التضييق , ويقال للغيضة الملتفة الأشجار التي يصعب دخولها :(حرجة), وعلي ذلك فإن (الحرج) في اللغة هو الضيق بل ضيق الضيق , يقال مكان (حرج) ـ بكسر الراء وفتحها ـ أي ضيق كثير الشجر , و(الحرج) و(الحرج) أيضا الإثم , يقال :(أحرجه) بمعني آثمه , و(تحرج) أي تأثم , و(حرج) عليه الشئ أي حرم عليه , و(المنحرج) المتجنب من الحرج والإثم , ويقال :(حرج) صدره (حرجا ) فهو (حرج) أي ضاق ضيقا شديدا .

وأما عن (التصعد في السماء ) فالتصعد والتصاعد والصعود هو الذهاب إلي المكان العالي أو الارتفاع , وهو ضد الحدور , يقال :(صعد ) بالكسر (يصعد )(صعودا ) في السلم أي ارتقاه ارتقاء , و(صعد )(يتصعد ) في الجبل , و(تصعد )

(يتصعد ) أي ارتفع عليه وعلاه , و(أصعد ) في الأرض (صعودا ) أي

مضي وسار في مناكبها والصعود أيضا العقبة الشاقة الكئود ويستعار لكل شاق وأصعد في الوادي و(صعد ) فيه (تصعيدا ) أي انحدر معه , ولو أن الصعود أصلا ضد الهبوط , وهو و(الصعد ) والصعيد واحد , ويقال عذاب (صعد ) أي شديد و(الصعيد ) هو

أيضا ما يصعد إليه , و( الصعداء ) : تنفس ممدود , ويقال ( تصعد ) النفس بمعني صعب مخرجه , ويقال :( يصعد ) وأصلها ( يتصعد ) أي يتكلف الصعود , فلا يستطيعه , و( تصعد ) أيضا تستخدم بمعني شق من المشقة و( الإصعاد )= الإبعاد في الأرض سواء كان في صعود أو حدور ( هبوط ) ; و( الصعد ) الشاق أو المشقة ويقال :( تصعدون ) أي تذهبون في الوادي هربا من عدوكم من ( الإصعاد ) وهو الذهاب في صعيد الأرض , والإبعاد فيه , يقال :( أصعد ) في الأرض إذا أبعد في الذهاب وأمعن فيه فهو ( مصعد ) .

*(263/249)*

---

الدلالات القرآنية لبعض ألفاظ الآية الكريمة

جاء الفعل ( شرح ) بتصريفاته في أربعة مواضع من القرآن الكريم بالإضافة إلي الآية الكريمة التي نحن بصددها علي النحو التالي :

(1) أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو علي نور من ربه . . . . *( الزمر :22)

(2) ألم نشرح لك صدرك *( الشرح :1)

(3) قال رب اشرح لي صدري *( طه :25)

(4) . . ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم *(

النحل :106)

وجاءت لفظة ( حرج ) في خمسة عشر موضعا بمعني الضيق في التشريع , أو شدة الضيق بصفة عامة , كما جاءت بمعني الإثم أو الذنب .

أما الفعل ( صعد ) بمشتقاته فقد جاء في تسعة مواضع من كتاب الله ( تعالي ) بمعني الأرتفاع , والقبول , والرضا من الله ( سبحانه وتعالي ) , وبمعني الذهاب في الوادي , والمضي فيه هربا , وبمعني تكلف الصعود بمشقة بالغة , فلا يستطيعه , وبمعني شديدا صعبا , وبمعني العقبة المرتفعة الشاقة المصعد , وبمعني وجه الأرض البارز سواء كان ترابا أو

غيره , وقيل التراب ذاته .

أما لفظة ( السماء ) فقد جاءت في ثلاثمائة وعشرة مواضع من كتاب الله , منها مائة وعشرون بالإفراد ( السماء ) , ومائة وتسعون بالجمع ( السماوات ) , وصيغة الجمع توحي ببقية الكون في مقابلة الأرض , بينما الإشارات المفردة بلفظ ( السماء ) جاءت في ثمانية وثلاثين موضعا بمعني الغلاف الغازي للأرض بصفة عامة , والجزء الأسفل منه بصفة خاصة ( أو ما يعرف باسم نطاق التغيرات المناخية أو نطاق الرجع ) والذي يحتوي غالبية مادة الغلاف الغازي للأرض , وجاء لفظ ( السماء ) أيضا بالإفراد في أثنين وثمانين موضعا يفهم الغالب منها علي أنه السماء الدنيا التي زينها ربنا ( تبارك وتعالي ) بالكواكب والنجوم

والبروج , ويفهم منها مجموع السماوات قبل فصلها إلي سبع , وبعد فصلها في بعض المواضع

.

(264/249)

---

كذلك جاءت الإشارة في القرآن الكريم إلي ( السماوات والأرض وما بينهما ) في عشرين موضعا , ويفهم هذا التعبير علي أن المقصود منه هو الغلاف الغازي للأرض بصفة عامة , والجزء الأسفل منه بصفة خاصة , وذلك لقول الحق ( تبارك وتعالي ) :

( . . . والسحاب المسخر بين السماء والأرض . . . *)

(البقرة :164)

والسحاب يتحرك في نطاق الطقس , والقرآن الكريم يشير في أكثر من آية إلي إنزال الماء من السماء , وواضح الأمر أن المقصود بالسماء هنا هو السحاب .

فإذا كان المقصود بالسماء في قول الحق ( تبارك وتعالي ) : كأنما يصعد في السماء هو الغلاف الغازي للأرض فإن لذلك صعوباته ومشاقه التي تصل إلي حد الاستحالة , وإذا كان المقصود هو السماء الدنيا فإن الصعوبات والعقبات تتضاعف أضعافا كثيرة حتي تصل إلي ما فوق الاستحالة , وذلك لأن الله ( تعالي ) قد حدد للإنسان نطاقا معينا من

الأرض وغلافها الغازي تتواءم فيه ومعه بنيته الجسدية , ووظائف أعضائه المختلفة , وإذا خرج عن هذا النطاق فإنه يحتضر ويموت , كما يموت السمك

إذا أخرج من الماء , ويتضح ذلك جليا من دراسة الصفات الطبيعية والكيميائية لنطق الغلاف الغازي للأرض .

شروح المفسرين للآية الكريمة

*(265/249)*

---

في تفسير الآية الكريمة التي نحن بصددها ذكر ابن كثير ( يرحمه الله ) ما نصه : يقول تعالي :( فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام أي ييسره له وينشطه ويسهله لذلك , فهذه علامات علي الخير , كقوله تعالي ( أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو علي نور من ربه ) الآية , وقال تعالي :( ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم ) , وقال ابن عباس معناه يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به , وهو ظاهر . سئل رسول الله ( صلي الله عليه وسلم ) : أي المؤمنين أكيس ؟ قال : أكثرهم ذكرا للموت وأكثرهم لما بعده استعدادا , وسئل عن هذه الآية ( فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ) قالوا : كيف يشرح صدره يارسول الله ؟ قال : نور يقذف فيه , فينشرح له وينفسح , قالوا : فهل لذلك من أمارة يعرف

بها ؟ قال : الإنابة إلي دار الخلود , والتجافي عن دار الغرور , والاستعداد للموت قبل لقاء الموت . . وقوله تعالي ( ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا ) حرجا بفتح الحاء والراء , وهو الذي لا يتسع لشئ من الهدي , ولا يخلص إليه شئ من الإيمان ولا ينفذ فيه , وقد سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلا من الأعراب من أهل البادية من مدلج عن الحرجة ؟ فقال : هي الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شئ , فقال عمر رضي الله عنه : كذلك قلب المنافقين لا يصل إليه شئ من الخير ; وقال ابن عباس : يجعل الله عليه الإسلام ضيقا والإسلام واسع , وذلك حين يقول :( وما جعل عليكم في الدين من حرج ) يقول : ما جعل عليكم في الإسلام من ضيق , وقال مجاهد والسدي :( ضيقا حرجا ) شاكا , وقال عطاء الخراساني :( ضيقا حرجا ) أي ليس للخير فيه منفذ , وقال ابن المبارك :( ضيقا حرجا )

*(266/249)*

---

بلا إله إلا الله حتي لا تستطيع أن تدخل قلبه ,( كأنما يصعد في السماء ) من شدة ذلك عليه , وقال سعيد بن جبير :( يجعل صدره ضيقا حرجا ) لا يجد فيه مسلكا إلا صعد , وقال عطاء الخراساني :( كأنما يصعد في السماء ) يقول : مثله كمثل الذي لا يستطيع أن يصعد

إلي السماء , وقال ابن عباس : فكما لا يستطيع ابن آدم ان يبلغ السماء , فكذلك لا يستطيع ان يدخل التوحيد والإيمان قلبه حتي يدخله الله في قلبه , وقال الأوزاعي : كيف يستطيع من جعل الله صدره ضيقا ان يكون مسلما ; وقال ابن جرير : وهذا مثل ضربه الله لقلب هذا الكافر في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه يقول : فمثله في امتناعه عن قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه مثل امتناعه عن الصعود إلي السماء وعجزه عنه , لأنه ليس في وسعه وطاقته . . . .

وقال صاحب تفسير الجلالين ( يرحمهما الله ) شيئا مختصرا عن ذلك وذكر كل من صاحب ( صفوة البيان لمعاني القرآن ) ـ يرحمه الله ـ وصاحب صفوة التفاسير ( أمد الله في عمره ) شيئا مشابها أيضا .

وذكر صاحب الظلال ( يرحمه الله ) : من يقدر الله له الهداية ـ وفق سنته الجارية من هداية من يرغب في الهدي ويتجه إليه بالقدر المعطي له من الاختيار بقصد الابتلاء ـ ( يشرح صدره للإسلام ) , فيتسع له , ويستقبله في يسر ورغبة , ويتفاعل معه , ويطمئن إليه , ويستريح به ويستريح له .

ومن يقدر له الضلال ـ وفق سنته الجارية من إضلال من يرغب عن الهدي ويغلق فطرته عنه ـ ( يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء ) . . فهو مغلق مطموس يجد العسر والمشقة في قبوله , ( كأنما يصعد في السماء ) . . وهي حالة نفسية تجسم في حالة

حسية , من ضيق النفس , وكربة الصدر , والرهق المضني في التصعد الي السماء !

التصعد في السماء كما تراه العلوم الكونية

سبق , وأن أشرنا أن لفظة ( السماء ) تعني الكون في مقابلة الأرض , وأن التعريف اللغوي للسماء

*(267/249)*

---

يشمل كل ما علاك فأظلك بدءا من نطق الغلاف الغازي للأرض وانتهاء بالحدود المدركة للكون .

السماء بمعني الغلاف الغازي للأرض

تحاط الأرض بغلاف غازي تقدر كتلته بنحو خمسة آلاف مليون مليون طن

(5,2*1510 أطنان ) ويقدر سمكه بعدة آلاف من الكيلو مترات فوق مستوي سطح البحر , ويتناقص ضغطه من نحو الكيلو جرام علي السنتيمتر المربع عند مستوي سطح البحر إلي واحد من المليون من ذلك في الجزء العلوي منه .

ويقسم الغلاف الغازي للأرض إلي قسمين رئيسيين علي النحو التالي :

أ ـ القسم السفلي من الغلاف الغازي للأرض

(The lower Atmosphere)

ويتكون من خليط من جزيئات النيتروجين , والاوكسجين , وعدد من الغازات الأخري ,

ويعرف باسم النطاق المتجانس

(The Homosphere)

ويقسم إلي ثلاثة نطق متميزة من أسفل إلي أعلي علي النحو التالي :

(1) نطاق التغيرات الجوية :

نطاق الطقس أو نطاق الرجع

(TheTroposphere)

وهو نطاق قليل السمك , يلامس الأرض مباشرة , ويمتد من مستوي سطح البحر إلي ارتفاع 16 إلي 17 كيلو مترا فوق خط الاستواء , ويتناقص سمكه إلي ما بين 6 و8 كيلو مترات فوق القطبين , ويختلف سمكه فوق خطوط العرض الوسطي باختلاف ظروفها الجوية , فينكمش إلي ما دون السبعة كيلو مترات في مناطق الضغط المنخفض , ويمتد إلي نحو 13 كيلو مترا في مناطق الضغط المرتفع , وعندما تتحرك كتل الهواء الحار من خط الأستواء في اتجاه القطبين فإنها تضطرب فوق هذا المنحني الوسطي , فتزداد سرعة الهواء مندفعا تجاه الشرق بتأثير دوران الأرض حول محورها أمام الشمس من الغرب إلي الشرق , ويتم ذلك بسرعة فائقة تعطي كتل الهواء المتحركة بها اسم التيار النفاث

(The Jet stream) .

ويضم هذا النطاق ثلثي (66%) كتلة الغلاف الغازي للأرض , وتتناقص درجة الحرارة فيه مع الارتفاع باستمرار ( بمعدل 6 درجات مئوية كل كيلو متر ارتفاع في المتوسط حتي تصل إلي ستين

*(268/249)*

---

درجة مئوية تحت الصفر في قمته المعروفة باسم مستوي الركود الجوي

(The tropopause)

وذلك لتناقص الضغط فيه إلي عشر الضغط الجوي عند سطح البحر تقريبا , وللبعد عن سطح الأرض وهو مصدر التدفئة الصاعدة إلي هذا النطاق .

وهذا النطاق هو نطاق تكثف بخار الماء الصاعد من الأرض , وتكون السحب , وهطول كل من المطر والبرد والثلج , وحدوث ظواهر الرعد والبرق , وتحرك الرياح , وتكون العواصف والدوامات , وتيارات الحمل الهوائية , وغير ذلك من الظواهر الجوية , ويتركب الغلاف الغازي في هذا النطاق أساسا من جزيئات كل من النيتروجين ( بنسبة 78,1% بالحجم ) والاوكسجين ( بنسبة 21% بالحجم ) , والأرجون بنسبة 0,93% بالحجم

وثاني اكسيد الكربون ( بنسبة 0,03% بالحجم ) , بالإضافة إلي نسب ضئيلة من بخار الماء , وآثار طفيفة من كل من الميثان , وأكاسيد النيتروجين , وأول أكسيد الكربون , والإيدروجين , والهيليوم , والأوزون وبعض الغازات الخاملة مثل الأرجون .

(2) نطاق التطبق

(The Stratosphere):

ويمتد من فوق مستوي الركود الجوي

(TheTropopause)

أي من ارتفاع 16 ـ 17 كيلو مترا فوق مستوي سطح البحر إلي قرابة الخمسين كيلو مترا فوق مستوي سطح البحر , وبذلك يقدر سمكه بنحو 33 ـ 34 كيلو مترا , وينتهي بمستوي الركود الطبقي

(The Stratopause)

وترتفع درجة الحرارة في هذا النطاق من اكثر من ستين درجة مئوية تحت الصفر عند قاعدته إلي نحو الثلاث درجات فوق الصفر المئوي عند قمته , ويرجع السبب المباشر في هذا الارتفاع الحراري إلي امتصاص قدر من الأشعة فوق البنفسجية المقبلة مع اشعة الشمس بواسطة جزيئات الأوزون التي تتركز في الجزء السفلي من هذا النطاق ( بين ارتفاعي 18 و30 كيلو مترا فوق مستوي سطح البحر ) مكونة جزءا مميزا منه يعرف

باسم نطاق الأوزون

(The Ozonosphere)

يتركز فيه هذا الغاز المهم بنسبة 0,001% ولكنها

*(269/249)*

---

نسبة كافية لحماية الأرض , وما عليها من صور الحياة من أضرار الأشعة فوق البنفسجية , وهي أشعة حارقة ومدمرة لجميع صور الحياة الأرضية , ولولا وجود طبقة الاوزون , وما أعطاها الله تعالي من قدرة لامتصاص وتحويل الأشعة فوق البنفسجية لكانت الحياة مستحيلة علي الأرض .

ويستمر الضغط في الانخفاض في نطاق التطبق من قاعدته إلي قمته حيث يصل فيه الي واحد من ألف من الضغط الجوي عند سطح البحر .

(3) النطاق المتوسط

(The Mesosphere)

ويمتد من مستوي الركود الطبقي ( أي من ارتفاع نحو خمسين كيلو مترا فوق مستوي سطح البحر إلي ارتفاع 80 إلي 90 كيلو مترا فوق هذا المستوي , ويتراوح سمكه بين 30 و40

كيلو مترا ) .

وتنخفض درجة الحرارة في نطاق التطبق بمعدل ثلاث درجات لكل كيلو متر ارتفاع تقريبا حتي تصل إلي نحو مئة درجة مئوية تحت الصفر عند حده العلوي والمعروف باسم مستوي الركود الأوسط

(The Mesopause)

وإن كانت درجة الحرارة تلك تتغير باستمرار مع تغير الفصول المناخية .

كذلك يستمر الضغط في الانخفاض مع الارتفاع حتي يصل في قمة هذا النطاق إلي أربعة من المليون من الضغط الجوي عند سطح البحر .

( ب ) القسم العلوي من الغلاف الغازي للأرض

(The upper Atmosphere)

وهذا القسم من الغلاف الغازي للأرض يختلف اختلافا كليا عن القسم السفلي ولذا يعرف باسم نطاق التباين

(The Heterosphere)

وتبدأ فيه جزيئات مكوناته في التفكك إلي ذراتها وأيوناتها بفعل كل من أشعة الشمس والأشعة الكونية , كذلك تسود فيه ذرات الغازات الخفيفة من مثل الايدروجين والهيليوم علي حساب الذرات الكثيفة نسبيا من مثل الاوكسجين والنيتروجين , وتواصل درجات

الحرارة الارتفاع فيه حتي تصل إلي أكثر من ألفي درجة مئوية , ويواصل الضغط الانخفاض حتي يصل في قمة هذا النطاق إلي أقل من واحد في المليون من الضغط الجوي علي سطح البحر .

ويحوي هذا القسم نطاقين متميزين هما

من أسفل إلي أعلي كما يلي :

*(270/249)*

---

(1) النطاق الحراري

(TheThermosphere)

ويمتد من مستوي الركود المتوسط (أي من ارتفاع يتراوح بين 80 و90 كيلو مترا فوق مستوي سطح البحر في المتوسط إلي عدة مئات من الكيلومترات فوق مستوي سطح البحر عند مستوي الركود الحراري

(Thermopause)

وتواصل درجات الحرارة في الأرتفاع في هذا النطاق من نحو المائة درحة مئوية في أعلي النطاق الأسفل منه لتصل إلي ما بين 227 و500 درجة مئوية عند ارتفاع مائة وعشرين

كيلو مترا فوق مستوي سطح البحر , وتبقي درجة الحرارة ثابتة تقريبا عند درجة 500 مئوية إلي ارتفاع يتراوح بين ثلاثمائة واربعمائة كيلو مترا فوق مستوي سطح البحر , ثم تقفز بعد ذلك إلي درجات تتراوح بين 1500 و2000 درجة مئوية إلي نهاية النطاق وتزيد في فترات النشاط الشمسي .

(2) النطاق الخارجي

(The Exosphere):

هو نطاق يعلو النطاق الحراري , تثبت فيه درجة الحرارة ثبوتا نسبيا , ولذا يطلق عليه أحيانا اسم نطاق التساوي الحراري

(The Isothermalsphere)

ويتضاءل الضغط فيه , وتتمدد الغازات تمددا كبيرا وتتحرك ذراتها بحرية كاملة في مساراتها فتقل فرص التلاقي بينها بعد أرتفاع يطلق عليه اسم الارتفاع الحرج

(The Critical Elevation)

أو خط ركود الضغط الجوي

(The Baropause)

أو قاعدة العوالم الخارجية عن الأرض

(The Exobase)

وعند هذا الحد يبدأ الغلاف الغازي للأرض في الالتصاق بقاعدة السماء الدنيا أو ما يطلق عليه اسم المادة بين الكواكب

(The Interplanetary Matter)

والتداخل أحيانا فيها لتضاؤل سيطرة الجاذبية الأرضية علي ذرات الغازات في الأجزاء العليا من هذا النطاق مما يزيد من قدرات تلك الذرات علي الانفلات من قيود الجاذبية الأرضية والهروب بعيدا عن الأرض وعن غلافها الجوي .

وفي المنطقة من قمة النطاق المتوسط ( أي من ارتفاع مائة كيلو متر تقريبا ) إلي أقصي الحدود العلوية

*(271/249)*

---

للغلاف الغازي للأرض تتأين ذرات الغازات ( أي تشحن بالكهرباء ) بفعل كل من الأشعة فوق البنفسجية والسينية المقبلة مع أشعة الشمس , وبعض جسيمات كل من الاشعة الشمسية الكونية , ويطلق علي هذا السمك أسم نطاق التأين

(The Ionosphere) .

والمنطقة التي تفوق فيها طاقة الايونات الطاقة الحرارية فإنها تتحرك بين خطوط قوي مجال

الجاذبية الأرضية مكونة منطقة متميزة تعرف باسم النطاق المغناطيسي للأرض

(The Magnetosphere)

وتمتد إلي نهاية الغلاف الغازي للأرض , وقد تتداخل في نطاق المادة بين الكواكب .

كذلك تم اكتشاف زوجين من الاحزمة الاشعاعية

(The Radiation Belts)

يحيطان بالكرة الأرضية علي هيئة هلالية مزدوجة تزيد فيها تلك الاحزمة في السمك زيادة ملحوظة عند خط الاستواء , وترق رقة شديدة عند القطبين , وفي هذه الاحزمة تحتبس الأيونات واللبنات الأولية للمادة ( من مثل البروتونات والاليكترونات ) والتي يقتنصها المجال المغناطيسي للأرض , فتتحرك عبر ذلك المجال من أحد قطبي الأرض للآخر وبالعكس في حركة دائبة .

ويتركز الزوج الداخلي من أحزمة الإشعاع علي أرتفاع 3200 كيلو متر فوق مستوي سطح البحر , بينما يتركز الزوج الخارجي علي ارتفاع 25000 كيلو متر فوق هذا المستوي .

تقسيم الغلاف الغازي للأرض من حيث مواءمته للحياة الأرضية

يقسم الغلاف الغازي للأرض من حيث مواءمته للحياة الأرضية إلي النطق التالية :

(1) نطاق المواءمة الكاملة للحياة الأرضية

ويمثل الجزء الغازي من نطاق الحياة الذي يمتد من أعماق المحيطات ( بمتوسط عمق 3800 متر تحت مستوي سطح البحر ) إلي أرتفاع في الغلاف الغازي للأرض لا يتعدي الثلاثة كيلو مترات فوق مستوي سطح البحر . وهذا الجزء الهوائي من نطاق الحياة هو نطاق المواءمة البيئية الكاملة لحياة الإنسان , أي التي يستطيع الإنسان العيش فيها بدون مخاطر صحية , لملاءمة التركيب الكيميائي والصفات

*(272/249)*

---

الطبيعية للغلاف الغازي للأرض في هذا النطاق لطبيعة جسم الإنسان ولوظائف كل أعضائه وأجهزته من مثل وفرة الاوكسجين , وتوسط كل من الضغط ودرجات الحرارة . ومتوسط ارتفاع اليابسة لايكاد يصل إلي هذا الحد من الارتفاع فوق مستوي سطح البحر الذي تكون التغيرات الطبيعية والكيميائية عنده محتملة , ولذلك لا تظهر علي البشر الذين يعيشون في مثل هذه الارتفاعات أو يصلون إليها أية أعراض من أعراض نقص الاوكسجين أو تناقص الضغط , علي الرغم من الأنخفاض في درجة الحرارة , وبعض الاختلافات في سلوك سائل مثل الماء في تلك الارتفاعات العالية .

(2) نطاق شبه المواءمة للحياة الأرضية

ويمتد هذا النطاق من ارتفاع ثلاثة كيلو مترات فوق مستوي سطح البحر إلي ارتفاع ستة عشر كيلو مترا فوق ذلك المستوي ويقترب في منتصفه من أعلي قمم الأرض ارتفاعا (8848 مترا ) ويتميز بنقص تدريجي في نسبة الاوكسجين , وتناقص الضغط بمعدلات ملحوظة , ويمكن للإنسان العيش في الاجزاء السفلي من هذا النطاق بصعوبة فائقة لصعوبة التنفس , والخلل الذي يعتري بعض وظائف أعضاء جسده نتيجة لانخفاض الضغط الجوي فتبدو عليه أعراض نقص الاوكسجين ( هيبوكسيا ) وأعراض انخفاض الضغط الجوي ( ديسباريزم ) .

(3) نطاق استحالة وجود الإنسان بغير عوامل وقائية كاملة :

ويمتد من ارتفاع ستة عشر كيلو مترا فوق مستوي سطح البحر إلي نهاية الغلاف الغازي للأرض , وهو نطاق يستحيل بقاء الإنسان فيه بغير عوامل كافية للوقاية من مخاطر هذا النطاق , وذلك بتكييف الجو المحيط به من حيث الضغط ودرجتي الحرارة والرطوبة , وامداده بالقدر الكافي من الاوكسيجين وتنقيته من ثاني اكسيد الكربون , وغير ذلك من النواتج الضارة , مع المراقبة المستمرة للاحوال الصحية ويتم ذلك بتزويده بحلل مشابهة لحلل رواد الفضاء المزودة بأجهزة كاملة لدعم حياة الإنسان في مثل هذه البيئات الخطرة من مثل النقص الحاد في كل من

الضغط الجوي , ونسبة الاوكسجين , والتغيرات الشديدة في درجات الحرارة .

والحلل التي يرتديها رواد الفضاء في داخل مركباتهم الفضائية المكيفة بظروف موائمة لطبيعة الإنسان هي حلل محكمة غاية الإحكام غير منفذة للهواء ولا للأشعة الكونية ـ ومليئة بالهواء المضغوط بالقدر المطلوب لسلامة جسم الإنسان , وتتم مراقبة الضغط داخل تلك الحلل بأجهزة ضغط يمكن التحكم فيها بواسطة صمامات خارجية , ومزودة بجيوب لتجميع افرازات الجسم والسوائل الخارجة منه , وتسمح في الوقت نفسه بالوصول إلي الجسد لمعالجته بالحقن الطبية اللازمة في حالات الضرورة .

أما في ريادة الغلاف الغازي للأرض خارج المركبات الفضائية , فيحتاج رواد الفضاء إلي حلل مزودة بضوابط بيئية تفوق الحلل المستخدمة داخل المركبات الفضائية في تعقيدها , وذلك بتزويدها بضوابط لدعم الحياة محمولة تسمي باسم نظم الدعم الحياتي المحمولة (Portable Life-Support Systems),

وتضم بالإضافة إلي حلل داخل المركبات الفضائية مصادر محمولة للتزود بالاوكسيجين لها أنبوبتان إحداهما للشهيق والأخري للزفير , وأجهزة أتصال لاسلكية , ووحدة تكييف للهواء , ولوحات تحكم في الضغط , وخوذة وغطاء عازلان للحرارة ولكل من الأشعة الشمسية والكونية , وأحذية طويلة الرقبة , وقفازات عازلة لكل من الحرارة والأشعة

ورجوم النيازك المتناهية في صغر الحجم .

الصعوبات التي يواجهها الإنسان حينما يتصعد في السماء بغير وقاية كافية

إذا تجاوز الإنسان ارتفاع الثمانية كيلو مترات فوق مستوي سطح البحر فإنه يتعرض

لمشكلات عديدة منها صعوبة التنفس لنقص الاوكسجين وتناقص ضغط الهواء , وهو

مرض يسميه المتخصصون في طب الطيران باسم مرض عوز الاوكسجين

Hypoxia

ومنها مشكلات انخفاض الضغط الجوي والذي يسمي باسم خلل الضغط الجوي

Dysbarism

وتحت هذين العارضين لا يستطيع جسم الإنسان القيام بوظائفه الحيوية , فتبدأ في التوقف

*(274/249)*

---

الوظيفة تلو الاخري , وهنا يمكن تفسير ضيق الصدر الذي يمر به الإنسان عند الصعود إلي

تلك المرتفعات بغير استعدادات وقائية كافية , فيبدأ بالشعور بالإجهاد الشديد ,

والصداع المستمر , والشعور بالرغبة في النوم , ونتيجة للنقص في الضغط الجوي تبدأ

الغازات المحبوسة في داخل انسجة الجسم وتجاويفه المختلفة في التمدد من مثل الجهاز

التنفسي من الرئتين والقصبة الهوائية وتشعباتهما والأنف , والجيوب الانفية , والجهاز

الدوري من القلب والاوردة والشرايين , والجهاز السمعي خاصة الاذن الوسطي , والجهاز الهضمي من مثل المعدة والأمعاء الدقيقة والغليظة , خاصة القولون , والفم والأسنان والاضراس واللثة مما يؤدي إلي آلام شديدة في كل أجزاء الجسم , وإلي ضغوط شديدة علي الرئتين والقلب وإلي تمزق خلاياهما وانسجتهما , ويسبب الشعور بضيق الصدر وحشرجة الموت .

كذلك تبدأ الغازات الذائبة في جميع سوائل الجسم وأنسجته في الانفصال والتصاعد إلي خارج حيز الجسد , وأهمها غاز النيتروجين الذي يصل حجمه في جسم الفرد البالغ إلي نحو اللتر موزعة بين الدم وأنسجة الجسم المختلفة , وتخرج هذه الغازات علي هيئة فقاعات تندفع الي الخارج بسرعة فائقة مما يزيد من تمزق الخلايا والانسجة , وإلي حدوث آلام مبرحة بكل من الصدر والمفاصل , وإلي ضيق شديد في التنفس نتيجة لتصاعد فقاعات النيتروجين من أنسجة الرئتين , ومن داخل الشعيرات الدموية , ومن الانسجة المحيطة بها ومن الجلد ومن انسجة وخلايا الجهاز العصبي , فتتأثر رؤية الشخص , ويختل توازنه , ويصاب بصداع شديد , ثم اغماء كامل أو صدمة عصبية أو بشلل جزئي أو كلي وزرقة بالجسم تنتهي بالوفاة بسبب توقف كل من القلب والرئتين , وانهيار الجهاز العصبي , وفشل كامل في وظائف بقية أعضاء الجسم ولعل ذلك هو المقصود بقول الحق ( تبارك وتعالي ) :

فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل

صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس علي الذين لا يؤمنون *(الأنعام :125)

وهذه حقائق لم يدركها الإنسان إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين وإن بدأ يتحسسها منذ نهاية القرن الثامن عشر , وورودها في كتاب الله الذي أنزل قبل أربعة عشر قرنا علي نبي أمي صلي الله وسلم وبارك عليه في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين مما يؤكد أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق , وأن هذا النبي الخاتم والرسول الخاتم كان موصولا بالوحي ومعلما من قبل خالق السماوات والأرض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مقال للدكتور / زغلول النجار ﴾



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخمسون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾



---

الجزء الخمسون بعد المائتين

من الآية ﴿ 126 ﴾ من سورة الأنعام

وحتى الآية ﴿ 128 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (126) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر ما ألزمه لأهل الضلال بلفظ ما يستقذر ، كان في غاية الحسن تعقيبه بالصراط ، فإنه مما يعشق لاستقامته وإضافته إلى الرب الذي له – مع استجماع الكمالات كلها – صفة العطف والإحسان واللطف ، وإضافة الرب إلى هذا الرسول الذي يعشق خلقه وخلقه كلُ من يراه أو يسمع به ، وأحسن من ذلك وأمتن أن مادة " رجس " تدور على الاضطراب الملزوم للعوج الملزوم للضلال المانع من الإيمان ، فلما مثل سبحانه حال الضال بحال المضطرب ، وأخبر أنه ألزم هذا الاضطراب كل من لا يؤمن ، أتبعه وصف سبيله بالاستقامة التي هي أبعد شيء عن الاضطراب الملزوم للعوج ، وكان التقدير : فهذا حال أهل الضلال ، فعطف عليه قوله : ﴿ وهذا ﴾ أي الذي ذكرناه من الشرائع الهادية في هذا القرآن التي ختمناها بأن الهادي المضل هو الله وحده ، لا الإتيان بالمقترحات ولو جاءت كل آية ﴿ صراط ﴾ أي طريق ﴿ ربك ﴾ أي المحسن إليك حال كون هذا الصراط ﴿ مستقيماً ﴾ أي لا عوج فيه أصلاً ، بل هو على منهاج الفطرة الأولى التي هي في أحسن تقويم بالعقل السليم الذي لم يشبه هوى ولم يشبه خلل في أن الأمر كله بيد الله لكيلا يزال

الإنسان خائفاً من الله وراجياً له لأنه القادر على كل شيء ، وأما غيره فلا قدرة له إلاّ بتقديره لأنه خلق القوى والقدر عندنا وعند المعتزلة ، فلتكن الجزئيات كذلك لأن الخلق لا يتصور بغير علم ، وليس غير الله محيط العلم ؛ قال الإمام : فالآية التي قبلها من المحكمات ، فيجب إجراؤها على ظاهرها ، ويحرم التصرف فيها بالتأويل .

(5/250)

---

ولما كان جميع ما في هذا الصراط على منهاج العقل ليس شيء منه خارجاً عنه وإن كان فيه ما لا يستقل بإدراكه العقل ، بل لا بد له فيه من إرشاد الهداة من الرسل الآخذين على الله ، قال مبيناً لمدحه مرشداً إلى انتظامه مع العقل : ﴿ قد فصلنا ﴾ أي غاية التفصيل بما لنا من العظمة ﴿ الآيات ﴾ أي كلها فصلاً فصلاً بحيث تميزت تميزاً لا يختلط واحد منها بالآخر ﴿ لقوم يذكرون ﴾ أي يجهدون أنفسهم في التخلص من شوائب العوائق للعقل من الهوى وغيره – ولو على أدنى وجوه الاجتهاد بما يشير إليه الإدغام – ليذكروا أنه قال : ما من شيء ذكرناه إلاّ وقد أودعنا في عقولهم شاهداً عليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ2 صـ713 ﴾

(6/250)

فصل

قال الفخر :

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ وهذا ﴾ إشارة إلى مذكور تقدم ذكره وفيه قولان : الأول : وهو الأقوى عندي أنه إشارة إلى ما ذكره وقرره في الآية المتقدمة وهو أن الفعل يتوقف على الداعي وحصول تلك الداعية من الله تعالى ، فوجب كون الفعل من الله تعالى ، وذلك يوجب التوحيد المحض وهو كونه تعالى مبدئاً لجميع الكائنات والممكنات ، وإنما سماه صراطاً لأن العلم به يؤدي إلى العلم بالتوحيد الحق ، وإنما وصفه بكونه مستقيماً لأن قول المعتزلة غير مستقيم ، وذلك لأن رجحان أحد طرفي الممكن على الآخر إما أن يتوقف على المرجح أو لا يتوقف ، فإن توقف على المرجح لزم أن يقال الفعل لا يصدر عن القادر إلا عند انضمام الداعي إليه ، وحينئذ يتم قولنا ويكون الكل بقضاء الله وقدره ويبطل قول المعتزلة ، وإما أن لا يتوقف رجحان أحد طرفي الممكن على الآخر على مرجح وجب أن يحصل هذا الاستغناء في كل الممكنات والمحدثات ، وحينئذ يلزم نفي الصنع والصانع وإبطال القول بالفعل والفاعل والتأثير والمؤثر فأما القول بأن هذا الرجحان يحتاج إلى المؤثر في بعض الصور دون البعض

كما يقوله هؤلاء المعتزلة فهو معوج غير مستقيم ، إنما المستقيم هو الحكم بثبوت الحاجة على الإطلاق ، وذلك يوجب عين مذهبنا فهذا القول هو المختار عندي في تفسير هذه الآية .

القول الثاني : أن قوله : ﴿ وهذا صراط ربّكَ مُسْتَقِيماً ﴾ إشارة إلى كل ما سبق ذكره في كل القرآن قال ابن عباس : يريد هذا الذي أنت عليه يا محمد دين ربك مستقيماً وقال ابن مسعود يعني القرآن والقول الأول أولى .

لأن عود الإشارة إلى أقرب المذكورات أولى .

وإذا ثبت هذا فنقول : لما أمر الله تعالى بمتابعة ما في الآية المتقدمة وجب أن تكون من المحكمات لا من المتشابهات لأنه تعالى إذا ذكر شيئاً وبالغ في الأمر بالتمسك به والرجوع إليه والتعويل عليه وجب أن يكون من المحكمات .

*(7/250)*

---

فثبت أن الآية المتقدمة من المحكمات وأنه يجب إجراؤها على ظاهرها ويحرم التصرف فيها بالتأويل .

المسألة الثانية :

قال الواحدي : انتصب مستقيماً على الحال ، والعامل فيه معنى "هذا" وذلك لأن "ذا"

يتضمن معنى الإشارة ، كقولك : هذا زيد قائماً معناه أشير إليه في حال قيامه ، وإذا كان العامل في الحال معنى الفعل لا الفعل ، لم يجز تقديم الحال عليه لا يجوز قائماً هذا زيد ، ويجوز ضاحكاً جاء زيد .

أما قوله : ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ .

فنقول : أما تفصيل الآيات فمعناه ذكرها فصلاً فصلاً بحيث لا يختلط واحد منها بالآخر ، والله تعالى قد بين صحة القول بالقضاء والقدر في آيات كثيرة من هذه السورة متوالية متعاقبة ، بطرق كثيرة ووجوه مختلفة .

وأما قوله : ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ فالذي أظنه والعلم عند الله أنه تعالى إنما جعل مقطع هذه الآية هذه اللفظة لأنه تقرر في عقل كل واحد أن أحد طرفي الممكن لا يترجح على الآخر إلا لمرجح ، فكأنه تعالى يقول للمعتزلي : أيها المعتزلي تذكر ما تقرر في عقلك أن الممكن لا يترجح أحد طرفيه على الآخر ، إلا لمرجح ، حتى تزول الشبهة عن قلبك بالكلية في مسألة القضاء والقدر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 153 . 154 ﴾

*(8/250)*

وقال السمرقندى :

﴿ وهذا صراط ربّكَ مُسْتَقِيماً ﴾

يعني : هذا التوحيد دين ربك مستقيماً يعني : قائماً برضاه ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيات ﴾ يعني : قد بيّنا العلامات وبيّنا الآيات في أمر القلوب والهدى والضلالة ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ يعني : يتعظون ويتفكرون في توحيد الله تعالى .

ويقال : معناه لا عذر لأحد في التخلّف عن الإيمان لأن الله تعالى قد بيّن طريق الهدى ، وقد بيّن العلامات في ذلك لمن كان له عقل وتمييز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وهذا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً ﴾

أي هذا الذي بيّنا طريق ربّك والذي ارتضاه لنفسه ديناً وجعله مستقيماً لا عوج فيه وهو الإسلام .

وقال ابن مسعود : هو القرآن . وقال : إن الصراط محتضر يحضره الشياطين ينادون : يا عبد اللّه هلم هذا الطريق ليصدوا عن سبيل اللّه فاعتصموا بحبل اللّه وهو كتاب اللّه ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيات لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وهذا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً ﴾

هذا إشارة إلى القرآن والشرع الذي جاء به محمد عليه السلام ، قاله ابن عباس ، و" الصراط " الطريق ، وإضافة الصراط إلى الرب على جهة أنه من عنده وبأمره و ﴿ مستقيماً ﴾ حال مؤكدة وليست كالحال في قولك جاء زيد راكباً بل هذه المؤكدة تتضمن المعنى المقصود . و ﴿ فصلنا ﴾ معناه بينا وأوضحنا ، وقوله ﴿ لقوم يذكرون ﴾ أي للمؤمنين الذين يعدون أنفسهم للنظر ويسلكون طريق الاهتداء . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وهذا صراط ربِّكَ ﴾

فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه القرآن ، قاله ابن مسعود .

والثاني : التوحيد ، قاله ابن عباس .

والثالث : ما هو عليه من الدِّين ، قاله عطاء : ومعنى استقامته : أنه يؤدِّي بسالكه إلى الفوز .

قال مكي بن أبي طالب : و"مستقيماً" نصب على الحال من "صراط" ، وهذه الحال يقال لها : الحال المؤكدة ، لأن صراط الله ، لا يكون إلا مستقيماً ، ولم يؤت بها لتفرق بين حالتين ، إذ لا يتغير صراط الله عن الاستقامة أبداً ، وليست هذه الحال كحال من قولك : "هذا زيد راكباً" ، لأن زيداً قد يخلو من الركوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وهذا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً ﴾

أي هذا الذي أنت عليه يا محمد والمؤمنون دين ربك لا اعوجاج فيه .

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيات ﴾ أي بيّناها ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ وهذا صراط ربك مستقيماً ﴾

يعني وهذا الذي بيَّنّا لك يا محمد في هذه السورة وغيرها من سور القرآن هو صراط ربك يعني دينه الذي شرعه لعباده ورضيه لنفسه وجعله مستقيماً لا اعوجاج فيه .

قال ابن عباس : في قوله وهذا صراط ربك مستقيماً يعني الإسلام ، وقال ابن مسعود : يعني القرآن لأنه يؤدي من تبعه وعمل به إلى طريق الاستقامة والسداد ﴿ قد فصلنا الآيات ﴾

يعني قد فصلنا آيات القرآن بالوعد والوعيد والثواب والعقاب والحلال والحرام والأمر والنهي وغير ذلك من أحكام القرآن ﴿ لقوم يذكرون ﴾ يعني لمن يتذكر بها ويتعظ بما فيها من المواعظ والعبر .

قال عطاء : يعني أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن تبعهم بإحسان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وهذا صراط ربك مستقيماً ﴾

الإشارة بقوله : ﴿ وهذا ﴾ إلى القرآن والشرع الذي جاء به الرسول قاله ابن عباس ، أو القرآن قاله ابن مسعود ، أو التوحيد قاله بعضهم ، أو ما قرره في الآيات المتقدّمة في هذه الآية وفي غيرها من سبل الهدى وسبل الضلالة .

*(10/250)*

---

وقال الزمخشري : ﴿ وهذا صراط ربك ﴾ طريقه الذي اقتضته الحكمة وعادته في التوفيق والخذلان ونحو منه قول إسماعيل الضرير يعني هذا صنع ربك و ﴿ هذا ﴾ إشارة إلى الهدى والضلال ، وأضيف الصراط إلى الرب على جهة أنه من عنده وبأمره ﴿

مستقيماً ﴾ لا عوج فيه وانتصب ﴿ مستقيماً ﴾ على أنه حال مؤكدة .

﴿ قد فصلنا الآيات ﴾ أي بيناها ولم نترك فيها إجمالاً ولا التباساً .

﴿ لقوم يذكرون ﴾ يتدبرون بعقولهم وكأن الآيات كانت شيئاً غائباً عنهم لم يذكروها فلما فصلت تذكروها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وهذا ﴾ أي البيانُ الذي جاء به القرآنُ أو الإسلامُ أو ما سبق من التوفيق والخذلان ﴿ صراط ربّكَ ﴾ أي طريقُه الذي ارتضاه أو عادتُه وطريقتُه التي اقتضتها حِكمتُه ، وفي التعرّض لعنوان الربوبيةِ إيذانٌ بأن تقويمَ ذلك الصراطِ للتربية وإفاضةِ الكمال ﴿ مُّسْتَقِيماً ﴾ لا عِوَجَ فيه أو عادلاً مطّرداً ، أو هو حالٌ مؤكدة كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الحق مُصَدّقًا ﴾ والعاملُ فيها معنى الإشارة ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيات ﴾ بيّناها مفصلةً ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ يتذكرون ما في تضاعيفها فيعلمون أن كلَّ ما يحدُث من الحوادث خيراً كان أو شراً فإنما يحدُث بقضاء الله تعالى وخلقِه وأنه تعالى عالمٌ بأحوال العبادِ حكيمٌ عادلٌ فيما يفعل بهم ، وتخصيصُ القومِ المذكورين بالذكر لأنهم المنتفِعون بتفصيل الآيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وهذا ﴾ أي ما جاء به القرآن كما روي عن ابن مسعود أو الإسلام كما روي عن ابن عباس أو ما سبق من التوفيق والخذلان كما قيل .

﴿ صراط ربّكَ ﴾ أي طريقه الذي ارتضاه أو عادته وطريقته التي اقتضتها حكمته . ولا يخفى ما في التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطب من اللطف ﴿ مُّسْتَقِيماً ﴾ لا اعوجاج فيه ولا زيغ أو عادلاً مطرداً وهو إما حال مؤكدة لصاحبها وعاملها محذوف وجوباً مثل هذا أبوك عطوفاً أو مؤسسة والعامل فيها معنى الإشارة أو ها التي للتنبيه ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيات ﴾ بيناها مفصلة ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي يتذكرون ما في تضاعيفها فيعلمون أن كل الحوادث بقضائه سبحانه وقدره وأنه جل شأنه حكيم عادل في جميع أفعاله ، وتخصيص هؤلاء القوم بالذكر لأنهم المنتفعون بذلك التفصيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾

عطف على جملة : ﴿ ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيّقاً حرجاً ﴾ [ الأنعام : 125 ] إلى آخِرها ، لأنّ هذا تمثيل لحال هدي القرآن بالصّراط المستقيم الّذي لا يجهد متّبعه ،

فهذا ضدّ لحال التّمثيل في قوله : ﴿ كأَنَّما يصّعَّد في السَّماء ﴾ [ الأنعام : 125 ] .

وتمثيل الإسلام بالصّراط المستقيم يتضمّن تمثيل المسلم بالسّالك صراطاً مستقيماً ، فيفيد توضيحاً لقوله : ﴿ يشرح صدره للإسلام ﴾ [ الأنعام : 125 ] .

وعطفت هذه الجملة مع أنها بمنزلة بيان الجملة التي قبلها لتكون بالعطف مقصودة بالإخبار .

وهو اقبال على النبي صلى الله عليه وسلم بالخطاب .

والإشارة بـ ﴿ هَذا ﴾ إلى حاضر في الذهن وهو دين الإسلام .

والمناسبة قوله : ﴿ يشرح صدره للإسلام ﴾ [ الأنعام : 125 ] .

والصّراط حقيقته الطّريق ، وهو هنا مستعار للعمل الموصل إلى رضى الله تعالى .

وإضافته إلى الربّ لتعظيم شأن المضاف ، فيعلم أنَّه خير صراط .

وإضافة الربّ إلى ضمير الرّسول تشريف للمضاف إليه ، وترضية للرّسول صلى الله عليه وسلم بما في هذا السَّنن من بقاء بعض النّاس غير متّبعين دينه .

*(12/250)*

والمستقيم حقيقته السّالم من العوج ، وهو مستعار للصّواب لسلامته من الخطأ ، أي سَنَن الله الموافق للحكمة والّذي لا يتخلّف ولا يعطّله شيء .

ويجوز أن تكون الإشارة إلى حاضر في الحسّ وهو القرآن ، لأنَّه مسموع كقوله : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك ﴾ [ الأنعام : 92 ] ، فيكون الصّراط المستقيم مستعاراً لما يُبلِّغ إلى المقصود النّافع ، كقوله : ﴿ وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتَّبعوا ولا تتَّبعوا السّبل فتفرّق بكم عن سبيله ﴾ [ الأنعام : 153 ] .

ومستقيماً حال من "صراط" مؤكّدة لمعنى إضافته إلى الله .

وجملة : ﴿ قد فَصّلْنا الآيات ﴾ استئناف وفذلكة لما تقدم .

والمراد بالآيات آيات القرآن .

ومن رشاقة لفظ ﴿ الآيات ﴾ هنا أن فيه تورية بآيات الطريق التي يهتدي بها السائر .

واللاّم في : ﴿ لقوم يذكرون ﴾ للعلّة ، أي فصّلنا الآيات لأجلهم لأنَّهم الّذين ينتفعون بتفصيلها .

والمراد بالقوم المسلمون ، لأنَّهم الّذين أفادتهم الآيات وتذكّروا بها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

(13/250)

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيتين :

(فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ) .

(14/250)

هَذَا وَصَفٌ لِحَالِ الْمُسْتَعِدِّ لِهِدَايَةِ الْإِسْلَامِ بِسَلَامَةِ فِطْرَتِهِ وَطَهَارَةِ نَفْسِهِ مِنَ الْخُلُقَيْنِ الصَّادَّيْنِ عَنْ إِجَابَةِ دَعْوَةِ الْحَقِّ وَهُمَا الْكِبْرِيَاءُ وَالْحَسَدُ وَبِتَحَلِّيهَا - أَيْ نَفْسُهُ - بِالْهَادِيَيْنِ إِلَى الْحَقِّ وَالرَّشَادِ . وَهُمَا اسْتِقْلَالُ الْفِكْرِ الصَّادِّ عَنْ تَقْلِيدِ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ ، وَقُوَّةُ الْإِرَادَةِ الصَّارِفَةِ عَنِ اتِّبَاعِ الرُّؤَسَاءِ أَوْ مُجَارَاةِ الْأَنْدَادِ ، فَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ كَانَ أَهْلًا بِإِرَادَةِ اللهِ تَعَالَى وَتَقْدِيرِهِ لِقَبُولِ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ الَّذِي هُوَ دِينُ الْفِطْرَةِ وَمُهَذِّبُهَا ، فَإِذَا أُلْقِيَتْ إِلَيْهِ وَجَدَ لَهَا فِي صَدْرِهِ انْشِرَاحًا وَاتِّسَاعًا بِمَا يَشْعُرُ بِهِ قَلْبُهُ مِنَ السُّرُورِ وَدَاعِيَةِ الْقَبُولِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَجِدُ مَانِعًا مِنَ النَّظَرِ الصَّحِيحِ فِيمَا أُلْقِيَ إِلَيْهِ فَيَتَأَمَّلُهُ فَتَظْهَرُ لَهُ آيَتُهُ ، وَتَتَّضِحُ لَهُ دَلَالَتُهُ فَتَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ إِرَادَتُهُ ، وَيُذْعِنُ لَهُ قَلْبُهُ فَتَتْبَعُهُ جَوَارِحُهُ ، وَهَذَا هُوَ النُّورُ الَّذِي يَفِيضُ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ أَوِ الَّذِي يَسِيرُ فِيهِ بِاتِّبَاعِهِ لَهُ ، فَهَذِهِ الْآيَةُ مُقَابِلَةٌ لِآيَةِ الْمَثَلِ الَّذِي ضَرَبَهُ اللهُ تَعَالَى فِي هَذَا السِّيَاقِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ ، وَمَا الْعَهْدُ بِهَا بِبَعِيدٍ ، وَفِي مَعْنَاهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : (أَفَمَنْ شَرَحَ

اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (39 : 22) . (وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ

(15/250)

---

فِي السَّمَاءِ) قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ " ضَيْقًا " بِتَخْفِيفِ الْيَاءِ وَالْبَاقُونَ بِتَشْدِيدِهَا ، فَهُوَ كَمَيِّتٍ وَمَيْتٍ وَهَيِّنٍ وَهَيْنٍ وَلَيِّنٍ وَلَيْنٍ . وَقَرَأَ نَافِعٌ وَأَبُو بَكْرٍ عَنْ عَاصِمٍ " حَرِجًا " بِكَسْرِ الرَّاءِ عَلَى الصِّفَةِ الْمُشَبَّهَةِ وَالْبَاقُونَ بِفَتْحِهَا عَلَى الْوَصْفِ

بِالْمَصْدَرِ ، فَهُوَ كَدَنَفٍ وَدَنِفٍ : وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ "يَصْعَدُ " بِسُكُونِ الصَّادِ مُضَارِعُ صَعِدَ الثُّلَاثِيِّ (كَفَرِحَ يَفْرَحُ) وَأَبُو بَكْرٍ عَنْ عَاصِمٍ يَصَّاعَدُ بِالْأَلِفِ وَتَشْدِيدِ الصَّادِ وَأَصْلُهُ يَتَصَاعَدُ ، أَيْ يُحَاوِلُ الصُّعُودَ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ ، وَالْبَاقُونَ (يَصَّعَّدُ) بِتَشْدِيدِ الصَّادِ وَالْعَيْنِ وَأَصْلُهُ يَتَصَعَّدُ أَيْ يَتَكَلَّفُ الصُّعُودَ وَيُحَاوِلُ مِنْهُ مَا لَا يَسْتَطِيعُ .

وَهَذَا وَصْفٌ لِلْكَافِرِ غَيْرِ الْمُسْتَعِدِّ لِقَبُولِ الْإِسْلَامِ بِمَا أَفْسَدَ مِنْ فِطْرَتِهِ بِالشِّرْكِ وَأَعْمَالِهِ ، وَبِمَا تَدَنَّسَتْ بِهِ نَفْسُهُ مِنْ رَذِيلَتَيِ الْكِبْرِ وَالْحَسَدِ اللَّذَيْنِ يَصْرِفَانِ الْمُدَنَّسَ بِهِمَا عَنِ التَّأَمُّلِ فِيمَا يُدْعَى إِلَيْهِ وَالْحِرْصِ عَلَى اسْتِبَانَةِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ فِيهِ ، وَيَشْغَلَانِهِ بِمَا يَكُونُ مِنْ شَأْنِهِ مَعَ

الدَّاعِي لَهُ إِلَى الشَّيْءِ ، فَيَعِزُّ عَلَى الْمُسْتَكْبِرِ وَالْحَاسِدِ أَنْ يَكُونَ تَابِعًا لِغَيْرِهِ وَهُوَ يَرَى نَفْسَهُ أَجْدَرَ بِالْإِمَامَةِ مِنْهَا بِالْقُدْوَةِ ، أَوْ بِمَا سَلَبَهُ اسْتِقْلَالَ الْفِكْرِ وَصِحَّةَ النَّظَرِ

(16/250)

---

مِنَ التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى الْأَصَمِّ ، أَوْ مَا حَرَمَهُ حُرِّيَّةَ التَّصَرُّفِ وَهُوَ ضَعْفُ الْإِرَادَةِ عَنْ مُخَالَفَةِ الْجُمْهُورِ ، فَهُوَ إِذَا عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدَّعْوَةُ يَجِدُ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا أَوْ ذَا حَرَجٍ شَدِيدٍ ، وَهُوَ تَأْكِيدُ الضِّيقِ لِأَنَّهُ بِمَعْنَاهُ ، وَقِيلَ : بَلْ هُوَ أَضْيَقُ الضِّيقِ . وَجَعَلَهُ الرَّاغِبُ وَغَيْرُهُ مُشْتَقًّا مِنَ الْحَرَجَةِ الَّتِي هِيَ الشَّجَرُ الْكَثِيرُ الْمُلْتَفُّ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ بِحَيْثُ لَا يَتَّسِعُ لِلزِّيَادَةِ . وَرُوِيَ أَنَّ عُمَرَ سَأَلَ أَعْرَابِيًّا مِنْ مُدْلِجَ عَنِ الْحَرَجَةِ فَقَالَ : هِيَ الشَّجَرَةُ تَكُونُ بَيْنَ الْأَشْجَارِ لَا تَصِلُ إِلَيْهَا رَاعِيَةٌ وَلَا وَحْشِيَّةٌ . فَقَالَ عُمَرُ : كَذَلِكَ قَلْبُ الْمُنَافِقِ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْخَيْرِ . ذَكَرَهُ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ . وَفِي لِسَانِ الْعَرَبِ عَنِ الْفَرَّاءِ قَالَ : الْحَرَجُ فِيمَا فَسَّرَ ابْنُ عَبَّاسٍ هُوَ الْمَوْضِعُ الْكَثِيرُ الشَّجَرِ الَّذِي لَا تَصِلُ إِلَيْهِ الرَّاعِيَةُ قَالَ : وَكَذَلِكَ صَدْرُ الْكَافِرِ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ الْحِكْمَةُ ، انْتَهَى . وَهَذَا يَتَّفِقُ مَعَ مَا قَبْلَهُ فَإِنَّ الْحَرَجَ بِالتَّحْرِيكِ جَمْعُ حَرَجَةٍ وَهِيَ الشَّجَرُ الْمَذْكُورُ . وَأُطْلِقَ كُلٌّ مِنْهُمَا عَلَى الْمَكَانِ ذِي الشَّجَرِ الْكَثِيرِ الْمُلْتَفِّ . وَالْمَعْنَى أَنَّهُ يَجِدُ صَدْرَهُ شَدِيدَ الضِّيقِ لَا يَتَّسِعُ لِقَبُولِ شَيْءٍ جَدِيدٍ مُنَافٍ لِمَا اسْتَحْوَذَ عَلَى قَلْبِهِ وَفِكْرِهِ

مِنَ التَّقَالِيدِ ، أَوْ لِمَا يُزَلْزِلُ كِبْرِيَاءَهُ وَيُصَادِمُ حَسَدَهُ مِنَ الْخُضُوعِ وَالِاتِّبَاعِ لِمَنْ يَرَى نَفْسَهُ أَوْلَى مِنْهُ بِالرِّيَاسَةِ وَالْإِمَامَةِ ، فَيَكُونُ

(17/250)

---

اسْتِثْقَالُهُ لِإِجَابَةِ الدَّعْوَةِ وَشُعُورُهُ بِالْعَجْزِ عَنْهَا كَشُعُورِهِ بِالْعَجْزِ عَنِ الصُّعُودِ بِجِسْمِهِ فِي جَوِّ السَّمَاءِ لِأَجْلِ الْوُصُولِ إِلَيْهَا أَوِ التَّصَاعُدِ فِيهَا بِالتَّدْرِيجِ ، أَوِ التَّصَعُّدِ أَيِ التَّكَلُّفُ لَهُ ، وَصُعُودُ السَّمَاءِ يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِيمَا لَا يُسْتَطَاعُ ، أَوْ مَا يُشَقُّ عَلَى النَّفْسِ حَتَّى كَأَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَطَاعٍ . وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَالسُّدِّيِّ تَفْسِيرُ الضِّيقِ الْحَرَجِ بِالشَّاكِّ ، وَعَنْ عَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ بِمَا لَيْسَ فِيهِ لِلْخَيْرِ مَنْفَذٌ ، وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ : لَا يَجِدُ فِيهِ مَسْلَكًا وَلَا مَصْعَدًا .

(كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) أَيْ مَثَّلَ جَعْلَ الصَّدْرِ ضَيِّقًا حَرَجًا بِالْإِسْلَامِ ، وَعَلَى هَذَا النَّحْوِ فِي سُنَّةِ اللَّهِ فِيهِ وَتَقْدِيرِهِ لَهُ بِمَا ذَكَرْنَا مِنْ أَسْبَابِهِ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ يُعْرِضُونَ عَنِ الْإِيمَانِ ، فَيَظْهَرُ فِي أَعْمَالِهِمْ وَتَصَرُّفِهِمْ وَلَا سِيَّمَا مَعَ أَهْلِ الدَّعْوَةِ ، فَيَكُونُ مُعْظَمُهَا قَبِيحًا سَيِّئًا فِي ذَاتِهِ أَوْ فِيمَا بَعَثَ عَلَيْهِ مِنْ قَصْدٍ وَنِيَّةٍ فَإِنَّ الرِّجْسَ يُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَى كُلِّ مَا يَسُوءُ أَوْ يُسْتَقْذَرُ حِسًّا أَوْ عَقْلًا أَوْ عُرْفًا . وَقَدْ أَطْلَنَا

فِي شَرْحِ مَعْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْخَمْرِ

مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ (5 : 90) فَهُوَ يُفَسَّرُ فِي كُلِّ كَلَامٍ بِمَا يُنَاسِبُ الْمَقَامَ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ تَفْسِيرُهُ هُنَا بِالشَّيْطَانِ ، وَعَنْ

*(18/250)*

---

مُجَاهِدٍ بِكُلِّ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ ، وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ بِالْعَذَابِ ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ : هُوَ اللَّعْنَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْعَذَابُ فِي الْآخِرَةِ . وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ يُونُسَ : (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ) (10 : 100) وَكَأَنَّ الْجَعْلَ فِي الْآيَتَيْنِ ضُمِّنَ مَعْنَى الْإِلْقَاءِ ، أَيْ عَلَى ذَلِكَ النَّحْوِ فِي أَسْبَابِ جَعْلِ الصَّدْرِ ضَيِّقًا حَرَجًا بِأَصْلِ الْإِسْلَامِ يَقَعُ الرِّجْسُ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ - تَعَالَى - عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِأَنْ يَكُونَ لَازِمًا لَهُمْ ، وَتُلْقَى تَبِعَتُهُ عَلَيْهِمْ ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ الَّذِي اجْتَنَبُوهُ هُوَ الَّذِي يَصُدُّ عَنْهُ وَيُطَهِّرُ الْأَنْفُسَ مِنْهُ وَلِأَجْلِ هَذَا لَمْ يَقُلْ : كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَيْهِمْ ، أَوْ عَلَى الْكَافِرِينَ .

*(19/250)*

---

وَاعْلَمْ - أَيُّهَا الْقَارِئُ - أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ كَانَتْ مُعْتَرَكَ أَهْلِ الْكَلَامِ مِنَ الْقَدَرِيَّةِ الْجَبْرِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَالْأَشْعَرِيَّةِ - فَالْقَدَرِيَّةُ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ أَنَّ خَلْقَ الْخَلْقِ وَقَعَ بِتَقْدِيرٍ سَابِقٍ مِنَ اللهِ - تَعَالَى - وَنِظَامٍ ثَابِتٍ بِسُنَنٍ حَكِيمَةٍ يَقُولُونَ : إِنَّ الْآيَةَ ظَاهِرَةٌ فِي أَنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَرَادَ هِدَايَةَ امْرِئٍ يَخْلُقُ فِي صَدْرِهِ انْشِرَاحًا لِلْإِسْلَامِ فَيَكُونُ قَبُولُهُ لَهُ بِخَلْقِ اللهِ ، وَهَذَا الْخَلْقُ يَحْصُلُ آنِفًا أَيْ جَدِيدًا غَيْرَ مُرَتَّبٍ عَلَى تَقْدِيرٍ سَابِقٍ . وَالْجَبْرِيُّ مِنْهُمْ وَمِنْ غَيْرِهِمْ يَقُولُ : إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَإِسْلَامُ الْمَرْءِ لَيْسَ بِاخْتِيَارِهِ وَلَا كَسْبِهِ بَلْ بِفِعْلِ اللهِ - تَعَالَى - وَحْدَهُ ، وَمِنَ الْأَشْعَرِيَّةِ مَنْ يَقُولُ : لَهُ فِيهِ كَسْبٌ يُنْسَبُ إِلَيْهِ وَلَكِنْ مَخْلُوقٌ لِلَّهِ لَا تَأْثِيرَ لَهُ فِي نَفْسِهِ ، وَحَاصِلُ الْقَوْلَيْنِ وَاحِدٌ ، وَيَقُولُونَ مِثْلَ هَذَا فِيمَنْ يُرِيدُ أَنْ يُضِلَّهُ فَيَخْلُقُ لَهُ مِنْ ضِيقِ الصَّدْرِ وَالْحَرَجِ مَا يَثْبُتُ بِهِ عَلَى كُفْرِهِ وَيَمْتَنِعُ مِنْ قَبُولِ الْإِيمَانِ . وَلِلْمُعْتَزِلَةِ تَأْوِيلَاتٌ فِي الْآيَةِ حَاوَلُوا فِيهَا تَطْبِيقَهَا عَلَى مَذْهَبِهِمْ فِي كَوْنِ إِيمَانِ الْمَرْءِ وَكُفْرِهِ مِنْ فِعْلِهِ الْمُسْتَقِلِّ ، فَجَعَلَهَا بَعْضُهُمْ خَاصَّةً بِهِدَايَةِ الْمُؤْمِنِ فِي الْآخِرَةِ إِلَى طَرِيقِ الْجَنَّةِ وَضَلَالِ الْكَافِرِ عَنْهُ . وَبَعْضُهُمْ مِنْ قَبِيلِ مَا يُعَبِّرُونَ عَنْهُ بِمَنْحِ الْأَلْطَافِ وَالتَّوْفِيقِ الْمُسَهِّلِ لِمَنْ أَرَادَ اللهُ هِدَايَتَهُ أَنْ يَهْتَدِيَ بِفِعْلِهِ وَكَسْبِهِ ،

*(20/250)*

وَعَدَمِ مَنْحِ ذَلِكَ لِمَنْ لَا يُرِيدُ مِنْهُ ذَلِكَ فَيَبْقَى عَلَى كُفْرِهِ بِإِرَادَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ ، وَهَذَا أَقْرَبُ مَا قَالُوهُ إلَى مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ .

وَإِنَّمَا وَقَعَ حُذَّاقُ النُّظَّارِ فِي أَمْثَالِ هَذَا الْخِلَافِ لِاتِّخَاذِ مَذَاهِبِهِمْ أُصُولًا مُسَلَّمَةً ، وَمُحَاوَلَةِ حَمْلِ نُصُوصِ كِتَابِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَأَخْبَارِ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَيْهَا لِتَصْحِيحِهَا وَإِبْطَالِ مَذَاهِبِ خُصُومِهِمُ الْمُخَالِفَةِ لَهَا ، فَهُمْ يَنْظُرُونَ فِي كُلِّ آيَةٍ تَتَعَلَّقُ بِقَوَاعِدِ هَذِهِ الْمَذَاهِبِ مُفْرَدَةً عَلَى حِدَتِهَا وَلَا يَعْرِضُونَهَا عَلَى سَائِرِ الْآيَاتِ الَّتِي فِي مَوْضُوعِهَا لِيَكُونُوا مُؤْمِنِينَ

وَعَامِلِينَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ جَاعِلِيهِ عِضِينَ . وَمَنِ اسْتَعْرَضَ عَقْلَهُ عِنْدَ تَحْقِيقِ كُلِّ عَقِيدَةٍ أَوْ مَسْأَلَةٍ مَجْمُوعَ مَا وَرَدَ فِيهَا يَتَجَلَّى لَهُ الْحَقُّ ، وَأَنَّهُ لَا مَجَالَ لِلِاخْتِلَافِ فِي كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) (4 : 82) فَفِي الْكِتَابِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ

*(21/250)*

---

بِقَدَرٍ لَا آنِفًا جَدِيدًا غَيْرَ مُرْتَبِطٍ بِنِظَامٍ سَابِقٍ . وَفِيهِ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ بِإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَأَنَّ مَشِيئَتَهُ مَقْرُونَةٌ بِحِكْمَتِهِ الَّتِي اقْتَضَتِ النِّظَامَ وَالتَّقْدِيرَ ، وَتَنَزَّهَ بِهَا عَنِ الْأَنَفِ وَالْجُزَافِ

وَالتَّفَاوُتِ وَالْخَلَلِ وَفِيهِ أَنَّ إِيمَانَ الْعَبْدِ الْمُكَلَّفِ يَقَعُ بِفِعْلِهِ وَاخْتِيَارِهِ ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي خَلَقَهُ فَاعِلًا بِالْإِرَادَةِ وَالِاخْتِيَارِ ; وَبِهَذَا لَا يَكُونُ فِعْلُهُ وَكَسْبُهُ مُنَافِيًا لِخَلْقِ اللَّهِ وَمَشِيئَتِهِ ، وَلَا جَاعِلًا لَهُ مُسْتَقِلًّا دُونَهُ - تَعَالَى - مُسْتَغْنِيًا عَنْ تَوْفِيقِهِ وَإِمْدَادِهِ فِي كُلِّ حِينٍ حَتَّى يُقَالَ إنَّهُ جُعِلَ خَالِقًا لِعِلْمِهِ . فَالْفَرْقُ بَيْنَ الْفِعْلَيْنِ عَظِيمٌ ، وَبِهَذَا الْجَمْعِ بَيْنَ نُصُوصِ الْوَحْيِ ، تَظْهَرُ حُجَّةُ اللَّهِ الْبَالِغَةُ عَلَى الْخَلْقِ .

*(22/250)*

---

وَالتَّوْفِيقُ عِنَايَةٌ خَاصَّةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى يَتَفَضَّلُ بِهَا عَلَى بَعْضِ عِبَادِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ حَيْثُ يَضَعُ تَوْفِيقَهُ كَمَا هُوَ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ، فَيَجْمَعُ لِمَنْ تَفَضَّلَ عَلَيْهِ بِهِ بَيْنَ مَا جَعَلَهُ فِي مَقْدُورِهِ وَتَنَاوُلِ كَسْبِهِ ، وَبَيْنَ مَا لَيْسَ كَذَلِكَ مِمَّا فِيهِ الْخَيْرُ وَالْمَصْلَحَةُ لَهُ ، فَيَتَّفِقُ لَهُ الْأَمْرَانِ ، وَالْخُذْلَانُ ضِدُّهُ أَوْ عَدَمُهُ ، فَهُوَ أَمْرٌ سَلْبِيٌّ وَلَا يَظْلِمُ اللَّهُ الْعَبْدَ الْمَخْذُولَ شَيْئًا ، وَقَدْ يُفَسَّرُ الشَّيْءُ تَفْسِيرًا سَلْبِيًّا تَكُونُ حَقِيقَتُهُ إيجَابِيَّةً وَتَفْسِيرًا إيجَابِيًّا تَكُونُ حَقِيقَتُهُ سَلْبِيَّةً . قَالَ الْمُحَقِّقُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي بَيَانِ مَشْهَدِ التَّوْفِيقِ ، وَالْخُذْلَانِ مِنْ كِتَابِهِ (مَدَارِجُ السَّالِكِينَ) : وَقَدْ أَجْمَعَ الْعَارِفُونَ بِاللَّهِ أَنَّ التَّوْفِيقَ : هُوَ أَلَّا يَكِلَكَ اللَّهُ إلَى نَفْسِكَ ، وَالْخُذْلَانَ : هُوَ أَنْ يُخَلِّيَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ نَفْسِكَ . انْتَهَى . وَهَذَا تَعْرِيفٌ بِالرَّسْمِ وَاضِحُ الْمَعْنَى فِيمَا قُلْنَاهُ ، فَمَعْنَى أَلَّا

يَكِلَكَ إِلَى نَفْسِكَ : هُوَ أَنْ يَمْنَحَكَ فَوْقَ كُلِّ مَا فِي قُدْرَتِكَ وَمَا تَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ إِرَادَتُكَ مِمَّا تَعْلَمُ مِنَ الْخَيْرِ لِنَفْسِكَ مَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ النَّجَاحُ وَإِصَابَةُ الْخَيْرِ مِمَّا لَيْسَ فِي مَقْدُورِكَ وَلَا يَصِلُ إِلَيْهِ اجْتِهَادُكَ وَحْدَكَ ، وَبَعْضُ ذَلِكَ نَفْسِيٌّ وَبَعْضُهُ خَارِجِيٌّ ، فَمَعْنَى التَّوْفِيقِ إِيجَابِيٌّ . وَقَوْلُهُمْ فِي تَفْسِيرِ الْخُذْلَانِ " أَنْ يَكِلَكَ إِلَى نَفْسِكَ " مَعْنَاهُ أَلَّا يَمْنَحَكَ شَيْئًا مِنَ الْعِنَايَةِ الْخَاصَّةِ فِيمَا يَصِلُ إِلَيْهِ

(23/250)

---

كَسْبُكَ ، وَلَا تَسْخِيرَ مَا لَا يَصِلُ إِلَيْهِ ، فَلَا تَنَالُ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا بِقَدْرِ قُدْرَتِكَ عَلَى مَا تَعْلَمُ وَتُرِيدُ مِنْ أَسْبَابِهِ ، وَقُدْرَتُكَ لَا تَصِلُ إِلَى كُلِّ مَا تَعْلَمُ أَنَّ فِيهِ الْخَيْرَ لَكَ ، وَعِلْمُكَ غَيْرُ مُحِيطٍ بِمَا فِيهِ ذَلِكَ الْخَيْرُ ، فَأَنْتَ تَجْهَلُ كَثِيرًا ،

وَمَا أُوتِيتَ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ، وَكَثِيرًا مَا تَظُنُّ الْجَهْلَ عِلْمًا وَالشَّرَّ خَيْرًا .

وَقَدْ جَاءَ ابْنُ الْقَيِّمِ بَعْدَ ذَلِكَ بِتَفْسِيرٍ إِيجَابِيٍّ فَقَالَ : وَالتَّوْفِيقُ إِرَادَةُ اللهِ مِنْ نَفْسِهِ أَنْ يَفْعَلَ بِعَبْدِهِ مَا يَصْلُحُ بِهِ الْعَبْدُ ، بِأَنْ يَجْعَلَهُ قَادِرًا عَلَى فِعْلِ مَا يُرْضِيهِ مُرِيدًا لَهُ مُحِبًّا لَهُ ، مُؤْثِرًا لَهُ عَلَى غَيْرِهِ ، وَيُبَغِّضَ إِلَيْهِ مَا يُسْخِطُهُ وَيُكَرِّهُهُ إِلَيْهِ ، وَهَذَا مُجَرَّدُ فِعْلِهِ وَالْعَبْدُ مُحِلٌّ لَهُ . قَالَ اللهُ تَعَالَى . (وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ

وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (49 : 7 ، 8)

فَهُوَ سُبْحَانَهُ عَلِيمٌ بِمَنْ يَصْلُحُ لِهَذَا الْفَضْلِ وَمَنْ لَا يَصْلُحُ لَهُ ، حَكِيمٌ يَضَعُهُ فِي مَوَاضِعِهِ وَعِنْدَ أَهْلِهِ ، لَا يَمْنَعُهُ أَهْلَهُ ، وَلَا يَضَعُهُ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ . إلَى آخَرِ مَا قَالَ وَأَجَادَ .

*(24/250)*

---

(فَصْلٌ فِي الرَّدِّ عَلَى الْجَبْرِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ بِسُنَنِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ) قَدْ سَبَقَ لَنَا قَوْلٌ قَرِيبٌ فِي الرَّدِّ عَلَى الْجَبْرِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ بِإِثْبَاتِ سُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي تَفْسِيرِ (كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ) (108) (ص669 ج7) رَدَدْنَا فِيهِ عَلَى الْفَخْرِ الرَّازِيِّ إمَامِ هَذِهِ النَّزْعَةِ وَفَارِسِ هَذِهِ الْحَلْبَةِ ، ثُمَّ إنَّنَا رَأَيْنَاهُ قَدْ عَادَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ إلَى بَسْطِ الْقَوْلِ فِي تِلْكَ الْمَسْأَلَةِ ، وَالرَّدِّ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ ، فَاسْتَحْسَنَّا أَنْ نَنْقُلَ أَقْوَى كَلَامِهِ وَنُقَفِّيَ عَلَيْهِ بِقَوْلٍ وَجِيزٍ فِيهِ قَالَ :

*(25/250)*

---

" وَلْنَخْتِمْ تَفْسِيرَ هَذِهِ الْآيَةِ بِمَا رُوِيَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقَرَظِيِّ أَنَّهُ قَالَ : تَذَاكَرْنَا فِي أَمْرِ الْقَدَرِيَّةِ عِنْدَ ابْنِ عُمَرَ فَقَالَ : لُعِنَتِ الْقَدَرِيَّةُ عَلَى لِسَانِ سَبْعِينَ نَبِيًّا مِنْهُمْ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ وَقَدْ جُمِعَ النَّاسُ بِحَيْثُ يَسْمَعُ الْكُلُّ : أَيْنَ خُصَمَاءُ اللَّهِ فَتَقُومُ الْقَدَرِيَّةُ . وَقَدْ أَوْرَدَ الْقَاضِي هَذَا الْحَدِيثَ فِي تَفْسِيرِهِ وَقَالَ : هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ أَقْوَى مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقَدَرِيَّةَ هُمُ الَّذِينَ يَنْسِبُونَ أَفْعَالَ الْعِبَادِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى قَضَاءً وَقَدَرًا وَخَلْقًا ؛ لِأَنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ هَذَا الْقَوْلَ هُمْ خُصَمَاءُ اللَّهِ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ لِلَّهِ : أَيُّ ذَنْبٍ لَنَا حَتَّى تُعَاقِبَنَا وَأَنْتَ الَّذِي خَلَقْتَهُ فِينَا وَأَرَدْتَهُ مِنَّا وَقَضَيْتَهُ عَلَيْنَا وَلَمْ تَخْلُقْنَا إِلَّا لَهُ وَمَا يَسَّرْتَ لَنَا غَيْرَهُ ؟ فَهَؤُلَاءِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا خُصَمَاءَ اللَّهِ بِسَبَبِ هَذِهِ الْحُجَّةِ ، أَمَّا الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ مَكَّنَ وَأَزَاحَ الْعِلَّةَ ، وَإِنَّمَا أَتَى الْعَبْدُ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ فَكَلَامُهُ مُوَافِقٌ لِمَا يُعَامَلُ بِهِ مِنْ إِنْزَالِ الْعُقُوبَةِ ، فَلَا يَكُونُونَ خُصَمَاءَ اللَّهِ بَلْ يَكُونُونَ مُنْقَادِينَ لِلَّهِ ،

*(26/250)*

---

هَذَا كَلَامُ الْقَاضِي وَهُوَ عَجِيبٌ جِدًّا ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يُقَالُ لَهُ : يَبْعُدُ مِنْكَ أَنَّكَ مَا عَرَفْتَ مِنْ مَذَاهِبِ خُصُومِكَ أَنَّهُ لَيْسَ لِلْعَبْدِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ وَلَا اسْتِحْقَاقٌ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ ، وَأَنَّ كُلَّ مَا يَفْعَلُهُ الرَّبُّ فِي الْعَبْدِ فَهُوَ حِكْمَةٌ وَصَوَابٌ وَلَيْسَ لِلْعَبْدِ عَلَى رَبِّهِ اعْتِرَاضٌ وَلَا مُنَاظَرَةٌ ، فَكَيْفَ يَصِيرُ الْإِنْسَانُ الَّذِي هَذَا دِينُهُ وَاعْتِقَادُهُ خَصْمًا لِلَّهِ تَعَالَى ، أَمَّا الَّذِينَ يَكُونُونَ خُصَمَاءَ لِلَّهِ فَهُمُ الْمُعْتَزِلَةُ وَتَقْرِيرُهُ مِنْ وُجُوهٍ .

(الْأَوَّلُ) أَنَّهُ يَدَّعِي عَلَيْهِ وُجُوبَ الثَّوَابِ وَالْعَرْضِ وَيَقُولُ : لَوْ لَمْ تُعْطِنِي ذَلِكَ لَخَرَجْتَ عَنِ الْإِلَهِيَّةِ وَصِرْتَ مَعْزُولًا عَنِ الرُّبُوبِيَّةِ وَصِرْتَ مِنْ جُمْلَةِ السُّفَهَاءِ . فَهَذَا الَّذِي مَذْهَبُهُ وَاعْتِقَادُهُ ذَلِكَ هُوَ الْخَصْمُ لِلَّهِ تَعَالَى .

(وَالثَّانِي) أَنَّ مَنْ وَاظَبَ عَلَى الْكُفْرِ سَبْعِينَ سَنَةً ثُمَّ إنَّهُ فِي آخِرِ زَمَنِ حَيَاتِهِ قَالَ : لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ مِنَ الْقَلْبِ ، ثُمَّ مَاتَ ثُمَّ إنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ أَعْطَاهُ النِّعَمَ الْفَائِقَةَ وَالدَّرَجَاتِ الزَّائِدَةَ أَلْفَ أَلْفِ سَنَةٍ ، ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يَقْطَعَ تِلْكَ النِّعَمَ عَنْهُ لَحْظَةً وَاحِدَةً فَذَلِكَ الْعَبْدُ يَقُولُ : أَيُّهَا الْإِلَهُ إيَّاكَ ثُمَّ إيَّاكَ أَنْ تَتْرُكَ ذَلِكَ لَحْظَةً وَاحِدَةً ؛ فَإِنَّكَ إنْ تَرَكْتَهُ لَحْظَةً وَاحِدَةً صِرْتَ مَعْزُولًا عَنِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْحَاصِلُ أَنَّ إقْدَامَ ذَلِكَ الْعَبْدِ عَلَى ذَلِكَ الْإِيمَانِ لَحْظَةً وَاحِدَةً أَوْجَبَ عَلَى الْإِلَهِ إيصَالَ تِلْكَ

*(27/250)*

---

النِّعَمِ مُدَّةً لَا آخِرَ لَهَا ، وَلَا طَرِيقَ لَهُ أَلْبَتَّةَ إلَى الْخَلَاصِ عَنْ هَذِهِ الْعُهْدَةِ فَهَذَا هُوَ الْخُصُومَةُ ، أَمَّا مَنْ يَقُولُ إنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَكُلُّ مَا يُوصَلُ إلَيْهِمْ مِنَ الثَّوَابِ فَهُوَ تَفَضُّلٌ وَإِحْسَانٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فَهَذَا لَا يَكُونُ خَصْمًا .

(وَالْوَجْهُ الثَّالِثُ فِي تَقْرِيرِ هَذِهِ الْخُصُومَةِ) مَا حُكِيَ أَنَّ الشَّيْخَ أَبَا الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيَّ لَمَّا

فَارَقَ مَجْلِسَ أُسْتَاذِهِ أَبِي عَلِيٍّ الْجُبَّائِيِّ وَتَرَكَ مَذْهَبَهُ وَكَثُرَ اعْتِرَاضُهُ عَلَى أَقَاوِيلِهِ عَظُمَتِ الْوَحْشَةُ بَيْنَهُمَا فَاتَّفَقَ أَنَّ يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ عَقَدَ الْجُبَّائِيُّ مَجْلِسَ التَّذْكِيرِ وَحَضَرَ عِنْدَهُ عَالَمٌ مِنَ النَّاسِ وَذَهَبَ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ إِلَى ذَلِكَ الْمَجْلِسِ وَجَلَسَ فِي بَعْضِ الْجَوَانِبِ مُخْتَفِيًا عَنِ الْجُبَّائِيِّ وَقَالَ لِبَعْضِ مَنْ حَضَرَ هُنَاكَ مِنَ الْعَجَائِزِ إِنِّي أُعْلِمُكَ مَسْأَلَةً فَاذْكُرِيهَا لِهَذَا الشَّيْخِ ، قُولِي لَهُ : كَانَ لِي ثَلَاثَةٌ مِنَ الْبَنِينَ ، وَاحِدٌ كَانَ فِي غَايَةِ الدِّينِ وَالزُّهْدِ ، وَالثَّانِي كَانَ فِي غَايَةِ الْكُفْرِ وَالْفِسْقِ ، وَالثَّالِثُ كَانَ صَبِيًّا لَمْ يَبْلُغْ فَمَاتُوا عَلَى هَذِهِ الصِّفَاتِ ، فَأَخْبِرْنِي أَيُّهَا الشَّيْخُ عَنْ حَالِهِمْ . فَقَالَ الْجُبَّائِيُّ : أَمَّا الزَّاهِدُ فَفِي دَرَجَاتِ الْجَنَّةِ ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَفِي

(28/250)

---

دَرَكَاتِ النَّارِ ، وَأَمَّا الصَّبِيُّ فَمِنْ أَهْلِ السَّلَامَةِ ، قَالَ : قُولِي لَهُ : لَوْ أَنَّ الصَّبِيَّ أَرَادَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى تِلْكَ الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَةِ الَّتِي حَصَلَ فِيهَا أَخُوهُ الزَّاهِدُ هَلْ يُمَكَّنُ مِنْهُ ؟ فَقَالَ الْجُبَّائِيُّ : لَا ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ لَهُ : إِنَّمَا وَصَلَ إِلَى تِلْكَ الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَةِ بِسَبَبِ أَنَّهُ أَتْعَبَ نَفْسَهُ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ وَأَنْتَ فَلَيْسَ مَعَكَ ذَاكَ . فَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ : قُولِي لَهُ : لَوْ أَنَّ الصَّبِيَّ حِينَئِذٍ يَقُولُ : يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ ، لَيْسَ الذَّنْبُ لِي لِأَنَّكَ أَمَتَّنِي قَبْلَ الْبُلُوغِ ، وَلَوْ أَمْهَلْتَنِي فَرُبَّمَا زِدْتُ عَلَى أَخِي الزَّاهِدِ فِي الزُّهْدِ وَالدِّينِ . فَقَالَ الْجُبَّائِيُّ : يَقُولُ اللَّهُ لَهُ : عَلِمْتُ أَنَّكَ لَوْ عِشْتَ لَطَغَيْتَ

وَكَفَرْتَ وَكُنْتَ تَسْتَوْجِبُ النَّارَ فَقَبْلَ أَنْ تَصِلَ إِلَى تِلْكَ الْحَالَةِ رَاعَيْتُ مَصْلَحَتَكَ وَأَمَتُّكَ حَتَّى تَنْجُوَ مِنَ الْعِقَابِ . فَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ : قُولِي لَهُ : لَوْ أَنَّ الْأَخَ الْكَافِرَ الْفَاسِقَ رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ فَقَالَ : يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ وَيَا أَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ وَيَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ، كَمَا عَلِمْتَ مِنْ ذَلِكَ الْأَخِ الصَّغِيرِ أَنَّهُ لَوْ بَلَغَ كَفَرَ عَلِمْتَ مِنِّي ذَلِكَ ، فَلِمَ رَاعَيْتَ مَصْلَحَتَهُ وَمَا رَاعَيْتَ مَصْلَحَتِي ؟ قَالَ الرَّازِيُّ : فَلَمَّا وَصَلَ الْكَلَامُ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ انْقَطَعَ الْجُبَّائِيُّ ، فَلَمَّا نَظَرَ رَأَى أَبَا الْحَسَنِ فَعَلِمَ أَنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ مِنْهُ لَا مِنَ الْعَجُوزِ .

*(29/250)*

---

" ثُمَّ إِنَّ أَبَا الْحُسَيْنِ الْبَصْرِيَّ جَاءَ بَعْدَ أَرْبَعَةِ أَدْوَارٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ بَعْدِ الْجُبَّائِيِّ فَأَرَادَ أَنْ يُجِيبَ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ فَقَالَ : نَحْنُ لَا نَرْضَى فِي حَقِّ هَؤُلَاءِ الْإِخْوَةِ الثَّلَاثَةِ بِهَذَا الْجَوَابِ الَّذِي ذَكَرْتُمْ ، بَلْ لَنَا هَاهُنَا جَوَابَانِ آخَرَانِ سِوَى مَا ذَكَرْتُمْ ، ثُمَّ قَالَ : وَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى مَسْأَلَةٍ اخْتَلَفَ شُيُوخُنَا فِيهَا ، وَهِيَ أَنَّهُ هَلْ يَجِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَلِّفَ الْعَبْدَ أَمْ لَا ؟ فَقَالَ الْبَصْرِيُّونَ : التَّكْلِيفُ مَحْضُ التَّفَضُّلِ وَالْإِحْسَانِ وَهُوَ غَيْرُ وَاجِبٍ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى . وَقَالَ الْبَغْدَادِيُّونَ : إِنَّهُ وَاجِبٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، قَالَ : فَإِنْ فَرَّعْنَا عَلَى قَوْلِ الْبَصْرِيِّينَ فَلِلَّهِ تَعَالَى أَنْ يَقُولَ لِذَلِكَ الصَّبِيِّ : إِنِّي طَوَّلْتُ عُمْرَ الْأَخِ

الزَّاهِدِ وَكَلَّفْتُهُ عَلَى سَبِيلِ التَّفَضُّلِ وَلَمْ يَلْزَمْ مِنْ كَوْنِي مُتَفَضِّلًا عَلَى أَخِيكَ الزَّاهِدِ بِهَذَا الْفَضْلِ أَنْ أَكُونَ مُتَفَضِّلًا عَلَيْكَ بِمِثْلِهِ ، وَأَمَّا إنْ فَرَّعْنَا عَلَى قَوْلِ الْبَغْدَادِيِّينَ فَالْجَوَابُ أَنْ يُقَالَ : إنَّ إطَالَةَ عُمْرِ أَخِيكَ وَتَوْجِيهَ التَّكْلِيفِ عَلَيْهِ كَانَ إحْسَانًا فِي حَقِّهِ وَلَمْ يَلْزَمْ مِنْهُ عَوْدُ مَفْسَدَةٍ إلَى الْغَيْرِ فَلَا جُرْمَ فَعَلْتُهُ . وَأَمَّا إطَالَةُ عُمْرِكَ وَتَوْجِيهُ التَّكْلِيفِ عَلَيْكَ كَانَ يَلْزَمُ مِنْهُ عَوْدُ مَفْسَدَةٍ إلَى غَيْرِكَ ؛ فَلِهَذَا السَّبَبِ مَا فَعَلْتُ ذَلِكَ فِي حَقِّكَ فَظَهَرَ الْفَرْقُ . هَذَا تَلْخِيصُ كَلَامِ أَبِي الْحُسَيْنِ الْبَصْرِيِّ سَعْيًا مِنْهُ فِي تَلْخِيصِ شَيْخِهِ الْمُتَقَدِّمِ عَنْ سُؤَالِ الْأَشْعَرِيِّ ،

(30/250)

---

بَلْ سَعْيًا مِنْهُ فِي تَخْلِيصِ إلَهِهِ عَنْ سُؤَالِ الْعَبْدِ .

(31/250)

---

وَأَقُولُ : قَبْلَ الْخَوْضِ فِي الْجَوَابِ عَنْ كَلَامِ أَبِي الْحُسَيْنِ ، صِحَّةُ هَذِهِ الْمُنَاظَرَةِ الدَّقِيقَةِ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ اللَّهِ (تَعَالَى) إنَّمَا لَزِمَتْ عَلَى قَوْلِ الْمُعْتَزِلَةِ ، وَأَمَّا عَلَى قَوْلِ أَصْحَابِنَا رَحِمَهُمُ اللَّهُ

فَلَا مُنَاظَرَةَ أَلْبَتَّةَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الرَّبِّ ، وَلَيْسَ لِلْعَبْدِ أَنْ يَقُولَ لِرَبِّهِ لِمَ فَعَلْتَ كَذَا أَوْ مَا فَعَلْتَ كَذَا ، فَثَبَتَ أَنَّ خُصَمَاءَ اللَّهِ هُمُ الْمُعْتَزِلَةُ لَا أَهْلُ السُّنَّةِ ، وَذَلِكَ يُقَوِّي غَرَضَنَا وَيُحَصِّلُ مَقْصُودَنَا ثُمَّ نَقُولُ : أَمَّا الْجَوَابُ الْأَوَّلُ وَهُوَ أَنَّ إِطَالَةَ الْعُمْرِ وَتَوْجِيهَ التَّكْلِيفِ تَفَضُّلٌ فَيَجُوزُ أَنْ يَخُصَّ بِهِ بَعْضًا دُونَ بَعْضٍ . فَنَقُولُ : هَذَا الْكَلَامُ مَدْفُوعٌ لِأَنَّهُ - تَعَالَى - لَمَّا أَوْصَلَ التَّفَضُّلَ إلَى أَحَدِهِمَا فَالِامْتِنَاعُ مِنْ إيصَالِهِ إلَى الثَّانِي قَبِيحٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ؛ لِأَنَّ الْإِيصَالَ إلَى هَذَا الثَّانِي لَيْسَ فِعْلًا شَاقًّا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَلَا يُوجِبُ دُخُولَ نُقْصَانٍ فِي مُلْكِهِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ ، وَهَذَا الثَّانِي يَحْتَاجُ إلَى ذَلِكَ التَّفَضُّلِ ، وَمِثْلُ هَذَا الِامْتِنَاعِ قَبِيحٌ فِي الشَّاهِدِ ، أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ مَنَعَ غَيْرَهُ مِنَ النَّظَرِ فِي مِرْآتِهِ الْمَنْصُوبَةِ عَلَى الْجِدَارِ لِعَامَّةِ النَّاسِ قُبِّحَ ذَلِكَ مِنْهُ ؛ لِأَنَّهُ مَنَعَ مِنَ النَّفْعِ مِنْ غَيْرِ انْدِفَاعِ ضَرَرٍ إلَيْهِ وَلَا وُصُولِ نَفْعٍ إلَيْهِ . فَإِنْ كَانَ حُكْمُ الْعَقْلِ بِالتَّحْسِينِ وَالتَّقْبِيحِ مَقْبُولًا فَلْيَكُنْ مَقْبُولًا هَاهُنَا ؛ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَقْبُولًا لَمْ يَكُنْ مَقْبُولًا أَلْبَتَّةَ فِي شَيْءٍ مِنَ

(32/250)

---

الْمَوَاضِعِ ، وَتَبْطُلُ كُلِّيَّةُ مَذْهَبِكُمْ ، فَثَبَتَ أَنَّ هَذَا الْجَوَابَ فَاسِدٌ . وَأَمَّا الْجَوَابُ الثَّانِي فَهُوَ أَيْضًا فَاسِدٌ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ قَوْلَنَا تَكْلِيفُهُ يَتَضَمَّنُ مَفْسَدَةً لَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّ هَذَا التَّكْلِيفَ يُوجِبُ لِذَاتِهِ حُصُولَ تِلْكَ الْمَفْسَدَةِ ، وَإِلَّا لَزِمَ أَنْ تَحْصُلَ هَذِهِ الْمَفْسَدَةُ أَبَدًا فِي حَقِّ الْكُلِّ وَإِنَّهُ بَاطِلٌ

. بَلْ مَعْنَاهُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى عَلِمَ أَنَّهُ إِذَا كَلَّفَ هَذَا الشَّخْصَ فَإِنَّ إِنْسَانًا آخَرَ يَخْتَارُ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ فِعْلًا قَبِيحًا ، فَإِنِ اقْتَضَى هَذَا الْقَدَرُ أَنْ يَتْرُكَ اللهُ تَكْلِيفَهُ ، فَكَذَلِكَ قَدْ عَلِمَ مِنْ ذَلِكَ الْكَافِرِ أَنَّهُ إِذَا كَلَّفَهُ فَإِنَّهُ يَخْتَارُ الْكُفْرَ عِنْدَ ذَلِكَ التَّكْلِيفِ ، فَوَجَبَ أَنْ يَتْرُكَ تَكْلِيفَهُ ، وَذَلِكَ يُوجِبُ قُبْحَ تَكْلِيفِ مَنْ عَلِمَ اللهُ مِنْ حَالِهِ أَنَّهُ يَكْفُرُ وَإِنْ لَمْ يَجِبْ هَا هُنَا لَمْ يَجِبْ هُنَالِكَ .

وَأَمَّا الْقَوْلُ بِأَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ - تَعَالَى - تَرْكُ التَّكْلِيفِ إِذَا عَلِمَ أَنَّ غَيْرَهُ يَخْتَارُ فِعْلًا قَبِيحًا عِنْدَ ذَلِكَ التَّكْلِيفِ ، وَلَا يَجِبُ عَلَيْهِ تَرْكُهُ إِذَا عَلِمَ تَعَالَى أَنَّ ذَلِكَ الشَّخْصَ يَخْتَارُ الْقَبِيحَ عِنْدَ ذَلِكَ التَّكْلِيفِ ، فَهَذَا مَحْضُ التَّحَكُّمِ ، فَثَبَتَ أَنَّ الْجَوَابَ الَّذِي اسْتَخْرَجَهُ أَبُو الْحُسَيْنِ بِلَطِيفِ فِكْرِهِ وَدَقِيقِ نَظَرِهِ بَعْدَ أَرْبَعَةِ أَدْوَارٍ ضَعِيفٌ ، وَظَهَرَ أَنَّ خُصَمَاءَ اللهِ هُمُ الْمُعْتَزِلَةُ لَا أَصْحَابُنَا وَاللهُ أَعْلَمُ . انْتَهَى كَلَامُ الرَّازِيِّ .

*(33/250)*

---

(الْعِبْرَةُ فِي هَذَا الْمِرَاءِ وَالرَّدُّ عَلَى أَهْلِهِ) أَبْدَأُ مَا أُرِيدُ مِنْ بَيَانِ الْعِبْرَةِ فِي هَذَا الْكَلَامِ بِاسْتِغْفَارِ اللهِ تَعَالَى مِنْ نَقْلِهِ وَلَوْ مَعَ حُسْنِ النِّيَّةِ ، لِمَا فِيهِ مِنْ سُوءِ التَّعْبِيرِ وَالْبُعْدِ عَنِ الْأَدَبِ مَعَ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ، وَبِالِاسْتِعَاذَةِ بِاللهِ تَعَالَى مِنْ عَصَبِيَّةِ الْمَذَاهِبِ الَّتِي تُوقِعُ صَاحِبَهَا فِي مِثْلِ هَذَا وَفِيمَا هُوَ شَرٌّ مِنْهُ ، ثُمَّ أُفَصِّلُ مَا قَصَدْتُ بَيَانَهُ فِي مَسَائِلَ :

(34/250)

---

(1) إِنَّ نَظَرِيَّاتِ مُتَكَلِّمِي الْمُعْتَزِلَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَالْأَشَاعِرَةِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، وَنَظَرِيَّاتِ مَنْ سَبَقَهُمْ إِلَى ابْتِدَاعِ الْكَلَامِ مُخَالِفَةٌ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَمْصَارِ ، كَأَئِمَّةِ الْفُقَهَاءِ الْأَرْبَعَةِ وَإِنِ ابْتُلِيَ بِهَا كَثِيرٌ مِنَ الْمُنْتَمِينَ إِلَيْهِمْ - فَلَمْ يَكُونُوا جَبْرِيَّةً وَلَا قَدَرِيَّةً وَلَا مُنْكِرِينَ لِشَيْءٍ مِمَّا وَصَفَ اللهُ تَعَالَى بِهِ نَفْسَهُ أَوْ أَسْنَدَهُ إِلَيْهِ مِنَ الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ بِضُرُوبٍ مِنَ التَّأْوِيلَاتِ ، وَلَمْ يَبْنِ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَقِيدَتَهُ عَلَى اسْتِحَالَةِ التَّسَلْسُلِ وَالْحَوَادِثِ الَّتِي لَا أَوَّلَ لَهَا ، وَلَا عَلَى إِنْكَارِ حُسْنِ الْأَشْيَاءِ وَقُبْحِهَا فِي نَفْسِهَا ، أَوْ إِنْكَارِ امْتِنَاعِ التَّكْلِيفِ بِمَا لَا حُسْنَ فِيهِ لِذَاتِهِ عِنْدَ الْعَقْلِ ، وَمَا كَانُوا يَتَنَابَزُونَ بِالْأَلْقَابِ وَلَا يَتَمَارَوْنَ وَيَتَجَادَلُونَ لِإِثْبَاتِ الْمَذَاهِبِ وَالْآرَاءِ ، وَلَا يُضَلِّلُونَ الْمُخَالِفَ لَهُمْ بِلَوَازِمَ يَسْتَنْبِطُونَهَا مِنَ الْمَقَالِ وَلَا يُشَوِّهُونَ رَأْيَهُ بِالتَّعْبِيرِ عَنْهُ بِعِبَارَاتٍ تُنَافِي الْآدَابَ ، وَقَدْ أَحْسَنَ الْعُلَمَاءُ الَّذِينَ قَالُوا بِعَدَمِ الِاعْتِدَادِ بِنَقْلِ الْمُخَالِفِ ، فَمَا الْقَوْلُ فِي نَقْلِ الْمُخَاصِمِ الْمُمَارِي ، بَلِ الَّذِي يَجْعَلُ مُخَالِفَهُ خَصْمًا لِلْخَالِقِ ! تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ .

(35/250)

---

(2) مَسْأَلَةُ الْوُجُوبِ عَلَى اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وَتَبَرُّؤُ الْأَشَاعِرَةِ مِنْهَا وَقَوْلُ الْمُعْتَزِلَةِ بِهَا ، مَذْهَبُ السَّلَفِ الصَّالِحِ هُوَ الْحَقُّ فِي الْمَسْأَلَةِ ، وَمَا كَانُوا يُنْكِرُونَ الْوُجُوبَ وَلَا يَقُولُونَ بِهِ عَلَى إِطْلَاقِهِ ، وَإِنَّمَا مَذْهَبُهُمْ أَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَى اللهِ - تَعَالَى - إِلَّا مَا أَوْجَبَهُ وَكَتَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَا هُوَ مُقْتَضَى صِفَاتِهِ وَمُتَعَلَّقَاتُهَا ، فَكَمَا وَجَبَ لَهُ تَعَالَى فِي حُكْمِ الْعَقْلِ الِاتِّصَافُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَجَبَ أَنْ يَتَرَتَّبَ عَلَى تِلْكَ الصِّفَاتِ مَا يُسَمُّونَهُ مُتَعَلَّقَاتِهَا كَالْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (6 : 54) وَأَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ شَيْءٌ بِحُكْمِ غَيْرِهِ ، إِذْ لَا سُلْطَانَ فَوْقَ سُلْطَانِهِ فَيُوجِبُ عَلَيْهِ وَيَجْعَلُهُ مَسْئُولًا وَلَا مِثْلَهُ ، بَلْ لَا يُوجَدُ شَيْءٌ فِي السَّمَاءِ

*(36/250)*

---

وَلَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا وَهُوَ سَاجِدٌ لَهُ خَاضِعٌ لِسُلْطَانِهِ (إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ) (55 : 33) وَلَكِنَّ الْأَشَاعِرَةَ يَنْقُلُونَ عَنِ الْمُعْتَزِلَةِ الْقَوْلَ بِأَنَّهُ يَجِبُ عَلَى اللهِ كَذَا وَكَذَا ، وَيَحْتَجُّونَ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) (21 : 23) فَيَدُلُّ نَقْلُهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ يُوجِبُونَ عَلَيْهِ تَعَالَى إِيجَابَ مَنْ

يَكُونُ مُكَلَّفًا مَسْئُولًا ، وَهُمْ لَا يَقُولُونَ بِذَلِكَ ، ثُمَّ يَحْتَجُّونَ - بِهَذِهِ الْآيَةِ - عَلَيْهِمْ بِأَنَّ لَهُ تَعَالَى أَنْ يُعَذِّبَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ حَتَّى

(37/250)

---

الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ وَأَنْ يُنَعِّمَ الشَّيَاطِينَ وَالْمُجْرِمِينَ ، وَالْآيَةُ إنَّمَا تَنْفِي أَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ سُلْطَانٌ عَلَى الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ يُحَاسِبُهُ بِهِ وَيَسْأَلُهُ عَنْ شَيْءٍ ، وَثَبَتَ لَهُ وَحْدَهُ السُّلْطَانُ الْأَعْلَى عَلَى كُلِّ فَاعِلٍ مُخْتَارٍ مِنَ الْمُكَلَّفِينَ كَسَائِرِ خَلْقِهِ ، فَهُوَ بِهِ يُحَاسِبُهُمْ وَيَسْأَلُهُمْ عَمَّا فَعَلُوا بِنِعَمِهِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْهِمْ وَعَمَّا كَلَّفَهُمْ إيَّاهُ وَلَا يَدْخُلُ فِي هَذَا الْإِثْبَاتِ أَنَّهُ يَجُوزُ عَلَيْهِ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ وَالْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ، بَلْ هَذَا مُحَالٌ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْعَقْلُ الَّذِي وَهَبَهُ ، وَالْكِتَابُ الَّذِي أَنْزَلَهُ : (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) (68 : 35 ، 36) (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ) (38 : 28) وَإِنَّا نَنْقُلُ عِبَارَةً لِعَالِمٍ مُسْتَقِلٍّ فِي هَذَا الْوُجُوبِ لِيُعْرَفَ الْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ كَلَامِ الْمُتَعَصِّبِينَ عَلَى أَنَّهُ شَدِيدُ الْإِنْكَارِ عَلَى الْمُخَالِفِينَ .

(38/250)

قَالَ الشَّيْخُ الْمُقْبِلِيُّ فِي كِتَابِهِ (الْعَلَمُ الشَّامِخُ فِي إِيثَارِ الْحَقِّ عَلَى الْآبَاءِ وَالْمَشَايِخِ) : وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُعْتَزِلَةَ اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ فِي مَعْنَى الْوُجُوبِ عَلَى اللهِ تَعَالَى ، فَقَالَتِ الْبَصْرِيَّةُ : مَعْنَاهُ فِي حَقِّ غَيْرِهِ وَهُوَ فِي حَقِّهِ أَحَقُّ وَأَوْلَى : فَإِنْ قُلْتَ فَمِنْ لَوَازِمِ الْوُجُوبِ وَالْقُبْحِ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ وَذَلِكَ لَا يُعْقَلُ فِي حَقِّ الْبَارِئِ تَعَالَى . قُلْتُ : هُمَا مِنْ لَوَازِمِ التَّكْلِيفِ ، وَالتَّكْلِيفُ عِنْدَهُمْ طَلَبُ الْبَارِئِ تَعَالَى الْفِعْلَ الْمُتَّصِفَ بِالْحُكْمِ مِنَ الْمُكَلَّفِ مَعَ مَشَقَّةٍ تَلْحَقُ الْمُكَلَّفَ وَمَعَ إِرَادَةِ الْمُكَلِّفِ تَعَالَى ، وَقَوْلُنَا طَلَبٌ ، لَيْسَ مِنْ عِبَارَاتِهِمْ ، إِنَّمَا يَقُولُونَ إِعْلَامُ الْبَارِئِ الْمُكَلَّفَ شَأْنَ الْفِعْلِ الْمَوْصُوفِ إِلَخْ . وَالَّذِي ذَكَرْنَاهُ أَوْلَى . فَالتَّكْلِيفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ فِي حَقِّ الْبَارِئِ تَعَالَى ، وَالتَّكْلِيفُ إِنَّمَا يَكُونُ مِنَ الْبَارِئِ تَعَالَى ، وَلَا يَصِحُّ مِنْ غَيْرِهِ ؛ لِأَنَّ التَّكْلِيفَ مَصْلَحَةٌ خَالِصَةٌ أَيْ جَلْبُ مَنْفَعَةٍ أَوْ دَفْعُ مُضَرَّةٍ وَلَوَازِمُهُ عِنْدَهُمُ الثَّوَابُ الدَّائِمُ وَالْعِقَابُ الدَّائِمُ ، وَالْعَالِمُ بِكُلِّ مَصْلَحَةٍ وَكُلِّ مَفْسَدَةٍ

*(39/250)*

---

وَالْقَادِرُ عَلَى الْوَفَاءِ كَمَا يُرِيدُ هُوَ الْبَارِئُ تَعَالَى . وَهَذَا كُلُّهُ صَرِيحٌ فِي كُتُبِهِمْ شَهِيرٌ لِمَنْ لَهُ أَدْنَى مَعْرِفَةٍ فِيهَا ، وَإِنَّمَا التَّجَاسُرُ عَلَى الرِّوَايَةِ وَعَدَمُ الْمُبَالَاةِ هُوَ الَّذِي كَثَّرَ الشِّقَاقَ وَسَلَّى

عَنِ الْوِفَاقِ ، وَلَا يَخْلُو مَذْهَبٌ مِنْ عَدَمِ إِنْصَافِ الْخَصْمِ وَإِنِ اخْتَلَفُوا قِلَّةً وَكَثْرَةً إِلَى آخِرِ مَا قَالَ ، وَفِيهِ التَّرْغِيبُ فِي أَخْذِ الْمَذَاهِبِ مِنْ كُتُبِهَا لَا مِنْ أَقْوَالِ الْخُصُومِ لِأَهْلِهَا .

ثُمَّ قَالَ : وَحَاصِلُ مَذْهَبِهِمْ أَنَّ الْمَدْحَ وَالذَّمَّ مِنْ لَوَازِمِ التَّحْسِينِ وَالتَّقْبِيحِ ، وَالثَّوَابَ وَالْعِقَابَ مِنْ تَوَابِعِ التَّكْلِيفِ ، وَالْبَصْرِيَّةُ يُوجِبُونَ الثَّوَابَ وَيُحَسِّنُونَ الْعِقَابَ فَقَطْ ، وَلِلْبَارِئِ تَعَالَى أَنْ يُسْقِطَهُ عَقْلًا وَلُزُومُ الثَّوَابِ وَحُسْنُ الْعِقَابِ هُمَا الْمُحَسِّنَانِ لِلتَّكْلِيفِ عِنْدَهُمْ كَمَا مَضَى ، وَمَعْنَى الِاسْتِحْقَاقِ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ يَحْسُنُ لَا أَنَّهُ يَجِبُ . وَالْبَغْدَادِيَّةُ يَقُولُونَ : يَجِبُ الثَّوَابُ وُجُوبَ جُودٍ بِمَعْنَى أَنَّ صِفَاتِ الْكَمَالِ تَقْتَضِي تَوَفُّرَ دَوَاعِي الْحَكِيمِ إِلَى فِعْلِهِ وَمَا خَلُصَ الدَّاعِي إِلَيْهِ وَجَبَ أَنْ يَفْعَلَهُ الْحَكِيمُ ، وَمَعَ هَذَا يُطْلِقُونَ أَنَّ الثَّوَابَ تَفَضُّلٌ ، أَيْ لَيْسَ لَهُ جِهَةُ وُجُوبٍ فِي نَفْسِهِ

(40/250)

---

فَاعْرِفْ مَذْهَبَهُمْ فَكَمْ غَلِطَ عَلَيْهِمْ إِخْوَانُهُمُ الْبَصْرِيُّونَ فَضْلًا عَنْ غَيْرِهِمْ ، وَيَكْفِي فِي حُسْنِ التَّكْلِيفِ عِنْدَهُمْ سَابِقَةُ الْإِنْعَامِ وَيَقُولُونَ بِوُجُوبِ الْعِقَابِ وَيُجَوِّزُونَ الْعَفْوَ عَقْلًا ؛ لِأَنَّهُ لُطْفٌ لِلْمُكَلَّفِينَ وَاللُّطْفُ وَاجِبٌ عِنْدَهُمْ ، فَمَذْهَبُ الْفَرِيقَيْنِ فِي الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ مُتَعَاكِسٌ " اهـ

.

وَقَدْ أَطَالَ الْمُقْبِلِيُّ فِي بَيَانِ مَذْهَبِ الْمُعْتَزِلَةِ فِي مَبْحَثِ التَّحْسِينِ وَالتَّقْبِيحِ وَأَرْجَعَ كَلَامَ الْبَغْدَادِيَّةِ مِنْهُمْ إلَى كَلَامِ الْبَصْرِيَّةِ . وَأَيْضًا فِي الرَّدِّ عَلَى الرَّازِيِّ فِي هَذَا الْمَبْحَثِ وَفُرُوعِهِ وَلَا سِيَّمَا زَعْمُهُ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ التَّخَلُّصُ مِنْ مَذْهَبِ الْقَدَرِيَّةِ إلَّا بِالْقَوْلِ بِالْجَبْرِ أَوْ بِالْتِزَامِ التَّخْصِيصِ مِنْ غَيْرِ مُخَصِّصٍ وَهُوَ مَا يُكَرِّرُهُ فِي تَفْسِيرِهِ . ثُمَّ انْتَقَلَ مِنْهُ إلَى مَبْحَثِ خَلْقِ الْأَفْعَالِ وَرَدَّ فِيهِ عَلَى الْأَشْعَرِيَّةِ فِي الْقَوْلِ بِتَكْلِيفِ مَا لَا يُطَاقُ وَنَفْيِ التَّحْسِينِ وَالتَّقْبِيحِ مُطْلَقًا ، أَيْ حَتَّى الشَّرْعِيِّينَ ؛ لِأَنَّ مَا أَمَرَ بِهِ الشَّرْعُ لَيْسَ فِيهِ حُسْنٌ ذَاتِيٌّ عِنْدَهُمْ ، وَإِنَّمَا حُسْنُهُ أَنَّهُ أَمَرَ بِهِ ، وَلَوْ نَهَى عَنْهُ لَكَانَ قَبِيحًا ، وَفِي الْجَبْرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

*(41/250)*

---

(3) الْمُنَاظَرَةُ بَيْنَ الْأَشْعَرِيِّ وَشَيْخِهِ الْجُبَّائِيِّ مَشْهُورَةٌ فِي كُتُبِ الْكَلَامِ وَالتَّرَاجِمِ لِلْأَشَاعِرَةِ وَيَذْكُرُونَ أَنَّهَا وَقَعَتْ بَيْنَ الشَّيْخَيْنِ مُشَافَهَةً وَلَمْ يَذْكُرُوا مَا ذَكَرَ الرَّازِيُّ مِنْ تَوَسُّطِ الْعَجُوزِ بَيْنَهُمَا ، وَقَدْ أَوْرَدَهَا الْمُقْبِلِيُّ بِالِاخْتِصَارِ ثُمَّ قَالَ :

فَهَذِهِ الْحِكَايَةُ هَوَسٌ ، وَأَدْنَى الْمُعْتَزِلَةِ - فَضْلًا عَنْ شَيْخِهِمْ - يَقُولُ مِنْ جَوَابِ اللَّهِ

*(42/250)*

عَلَى الصَّغِيرِ : فَضْلِي أَتَفَضَّلُ بِهِ عَلَى مَنْ أَشَاءُ كَمَا كَانَ جَوَابُ اللهِ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ فِي حَدِيثِ تَفْضِيلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ . وَهَذَا جَوَابٌ عَلَى أَصْلِ الْمُعْتَزِلَةِ لِأَنَّ التَّكْلِيفَ تَفَضُّلٌ عِنْدَ الْبَصْرِيَّةِ مِنْهُمْ أَبُو عَلِيٍّ وَغَيْرُهُ ، وَمَنْ قَالَ مِنْهُمْ – وَهُمُ الْبَغْدَادِيَّةُ – إِنَّ التَّكْلِيفَ وَاجِبٌ فَهُوَ عِنْدَهُمْ وُجُوبُ جُودٍ لَا نَعْتَرِضُ عَلَى تَارِكِهِ ، وَأَيْضًا فَهُوَ مَصْلَحَةٌ ، وَيُشْتَرَطُ فِي كُلِّ مَصْلَحَةٍ خَلُوُّهَا عَنِ الْمَفْسَدَةِ وَلَوْ كَانَتِ الْمَفْسَدَةُ فِي غَيْرِ ذَلِكَ الْمُكَلَّفِ عِنْدَهُمْ كَمَا أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مَشْهُورٌ مِنْ مَذَاهِبِهِمْ ، وَعَلَى الْجُمْلَةِ فَالِاعْتِرَاضُ عَلَى اللهِ سَاقِطٌ إِجْمَاعًا ، أَمَّا عِنْدَهُمْ فَلِأَنَّ الِاعْتِرَاضَ مُطْلَقًا إِنَّمَا يَكُونُ لِمُخَالَفَةِ مَا يَنْبَغِي فِي نَفْسِ الْأَمْرِ ، وَهَذَا لَا مَعْنَى لَهُ عِنْدَ الْأَشْعَرِيِّ ؛ إِنَّمَا مَعْنَاهُ فِينَا أَنَّا خَالَفْنَا الْقَادِرَ الَّذِي جَعَلَ مُخَالَفَتَهُ عَلَامَةَ عُقُوبَتِهِ ، لَا لِأَنَّهُ مُنْعِمٌ مُتَفَضِّلٌ حَقِيقٌ بِأَنْ يُمْتَثَلَ أَمْرُهُ فَإِنَّ هَذَا مَعْنَى التَّحْسِينِ الَّذِي نَفَوْهُ ، وَلَكِنْ لِخَوْفِ ضَرَرِهِ الَّذِي نَصَبَ الْوَعِيدَ عَلَامَةً لَهُ فَكُلُّنَا عَبْدُ الْعَصَا . وَأَمَّا عِنْدَ الْمُعْتَزِلَةِ فَلِأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ حَكِيمٌ وَاجِبُ الْحِكْمَةِ فَكُلُّ جُزْئِيٍّ نَرَاهُ نُدْخِلُهُ فِي الْكُلِّيَّةِ ، إِنْ عَرَفْنَا الْحِكْمَةَ فِيهِ عِلْمًا أَوْ ظَنًّا فَفَضْلٌ مِنَ اللهِ ، وَإِلَّا فَنَحْنُ فِي سَعَةٍ رَدَدْنَاهُ إِلَى حِكْمَةِ أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ، وَعِلْمِ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ ، فَكَيْفَ يَتَمَشَّى الِاعْتِرَاضُ ؟

أَمَّا عِنْدَ الْأَشَاعِرَةِ فَلِأَنَّهُ كَالِاعْتِرَاضِ عَلَى الْجَبَابِرَةِ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ غَيْرَ النَّطْعِ وَالسَّيْفِ ، وَأَمَّا

عِنْدَ الْمُعْتَزِلَةِ فَلِأَنَّهُ مِنِ اعْتِرَاضِ الْجَاهِلِينَ عَلَى أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ . انْتَهَى الْمُرَادُ مِنْهُ وَيَتْلُوهُ التَّشْنِيعُ عَلَى الْأَشْعَرِيِّ وَأَصْحَابِهِ فِي سِيَاقِ رَدٍّ طَوِيلٍ فِي أَصْلِ الْمَسْأَلَةِ ، وَالتَّعَجُّبُ مِنْ نَقْلِ كِبَارِ عُلَمَائِهِمْ لِهَذِهِ الْمُنَاظَرَةِ الَّتِي سَمَّاهَا خُرَافَةً .

وَغَرَضُنَا مِنْ نَقْلِ كَلَامِهِ إِقْنَاعُ الْقَارِئِ بِأَلَّا يَطْمَعَ فِي مَعْرِفَةِ الْحَقِّ الْخَالِصِ فِي هَذِهِ الْمَسَائِلِ مِنْ مُتَعَصِّبٍ لِمَذْهَبٍ مِنَ الْمَذَاهِبِ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَذْهَبَ السَّلَفِ الصَّالِحِ ؛ لِأَنَّنَا نَقْطَعُ بِأَنَّ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ عِلْمٍ وَعَمَلٍ بِالدِّينِ وَهُوَ الْإِسْلَامُ الَّذِي جَاءَ بِهِ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِأَنَّهُ لَيْسَ مَذْهَبَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَأَلَّفَتْ لَهُ عَصَبِيَّةٌ تَنْصُرُهُ وَتَعُدُّ كَلَامَهُ أَصْلًا فِي الدِّينِ تَقْبَلُ مَا وَافَقَهُ مِنْ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَتَرُدُّ مَا خَالَفَهُ بِتَأْوِيلٍ أَوْ بِاحْتِمَالِ وُجُودِ تَأْوِيلٍ .

(4) لَمَّا ظَهَرَ الْجَدَلُ الَّذِي سُمِّيَ عِلْمَ الْكَلَامِ عَدَّهُ عُلَمَاءُ السَّلَفِ كَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ بِدْعَةً سَيِّئَةً وَنَهَوْا عَنْهُ ، ثُمَّ كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُنْتَمِينَ إِلَيْهِمْ مِنْ كِبَارِ الْمُتَكَلِّمِينَ ، فَأَكْثَرُ الْمُعْتَزِلَةِ

وَالْمُرْجِئَةِ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ وَالزَّيْدِيَّةِ ، وَأَكْثَرُ الْأَشَاعِرَةِ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ ، وَلَكِنَّ الْمُخْلِصِينَ مِنْهُمْ كَانُوا (يَرْجِعُونَ إِلَى مَذْهَبِ السَّلَفِ الصَّالِحِ فِي أَوَاخِرِ أَعْمَارِهِمْ) كَمَا صَرَّحْنَا بِهِ مِرَارًا ، وَأَكْبَرُ أَنْصَارِ مَذْهَبِ السَّلَفِ فِي الْقُرُونِ الْوُسْطَى وَأَقْوَاهُمْ حُجَّةً شَيْخَا الْإِسْلَامِ أَحْمَدُ تَقِيُّ الدِّينِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ وَشَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ قَيِّمِ الْجَوْزِيَّةِ وَمِنْ أَوْسَعِ كُتُبِ الْأَخِيرِ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ الَّذِي تَخُوضُ فِي أَعْضَلِ مَسَائِلِهِ كِتَابُ (مِفْتَاحُ دَارِ السَّعَادَةِ) وَكِتَابُ (شِفَاءُ الْعَلِيلِ فِي مَسَائِلِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَالْحِكْمَةِ وَالتَّعْلِيلِ) .

*(45/250)*

---

(5) كَلِمَةُ الِاعْتِدَالِ الْوُسْطَى فِي الْخِلَافِ بَيْنَ الْقَدَرِيَّةِ وَالْجَبْرِيَّةِ . قَالَ الْمُحَقِّقُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي شِفَاءِ الْعَلِيلِ : " اعْلَمْ أَنَّ الرَّبَّ سُبْحَانَهُ فَاعِلٌ غَيْرُ مُنْفَعِلٍ ، وَالْعَبْدَ فَاعِلٌ مُنْفَعِلٌ . وَهُوَ فِي فَاعِلِيَّتِهِ مُنْفَعِلٌ لِلْفَاعِلِ الَّذِي لَا يَنْفَعِلُ بِوَجْهٍ . فَالْجَبْرِيَّةُ شَهِدَتْ كَوْنَهُ مُنْفَعِلًا يَجْرِي عَلَيْهِ الْحُكْمُ بِمَنْزِلَةِ الْآلَةِ وَالْمَحَلِّ ، وَجَعَلُوا حَرَكَتَهُ بِمَنْزِلَةِ حَرَكَاتِ الْأَشْجَارِ وَلَمْ يَجْعَلُوهُ فَاعِلًا إِلَّا عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ ، فَقَامَ وَقَعَدَ وَأَكَلَ وَصَلَّى وَصَامَ عِنْدَهُمْ بِمَنْزِلَةِ : مَرِضَ وَأَلِمَ وَمَاتَ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ فِيهِ مُنْفَعِلٌ مَحْضٌ . وَالْقَدَرِيَّةُ شَهِدَتْ كَوْنَهُ فَاعِلًا مَحْضًا غَيْرَ مُنْفَعِلٍ فِي فِعْلِهِ . وَكُلٌّ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ نَظَرَ بِعَيْنٍ عَوْرَاءَ . وَأَهْلُ الْعِلْمِ وَالِاعْتِدَالِ أَعْطَوْا كُلَّ الْمَقَامَيْنِ

حَقَّهُ وَلَمْ يُبْطِلُوا أَحَدَ الْأَمْرَيْنِ بِالْآخَرِ ، فَاسْتَقَامَ نَظَرُهُمْ وَمُنَاظَرَتُهُمْ وَاسْتَقَرَّ عِنْدَهُمُ الشَّرْعُ وَالْقَدَرُ فِي نِصَابٍ وَشَهِدُوا وُقُوعَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ عَلَى مَنْ هُوَ أَوْلَى بِهِ " وَأَفَاضَ فِي تَفْصِيلِ ذَلِكَ وَالشَّوَاهِدِ عَلَيْهِ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ .

وَمَا ذَكَرَ مِنْ نَوْطِ خَطَأِ الْغُلَاةِ بِنَظَرِ بَعْضِهِمْ إلَى أَحَدِ وَجْهَيِ الشَّيْءِ أَوْ جُزْئِهِ وَنَظَرِ



---

الْآخَرِينَ إلَى الْآخَرِ يَرْجِعُ إلَى مَا قُلْنَاهُ مِنَ الْأَخْذِ بِبَعْضِ النُّصُوصِ وَالْغُلُوِّ فِيهِ وَتَرْكِ الْبَعْضِ الْآخَرِ فِي الْحَقِيقَةِ الْوَاحِدَةِ . غَلَتِ الْقَدَرِيَّةُ فِي مَسْأَلَةِ الْحِكْمَةِ فِي الْخَلْقِ وَالتَّكْوِينِ ، وَالْأَمْرِ وَالتَّشْرِيعِ ، وَغَلَتِ الْجَبْرِيَّةُ فِي مَسْأَلَةِ الْمَشِيئَةِ وَالْإِرَادَةِ . فَهَؤُلَاءِ جَوَّزُوا أَنْ تَخْلُوَ الْمَشِيئَةُ عَنِ الْحِكْمَةِ ، وَأُولَئِكَ قَيَّدُوا مَشِيئَةَ الرَّبِّ بِمَا تَصِلُ إلَيْهِ أَفْهَامُهُمْ مِنَ الْحِكْمَةِ ، وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُمَا يُؤْمِنُ بِالصِّفَتَيْنِ كِلْتَيْهِمَا ، وَنِزَاعُهُمُ الطَّوِيلُ الْعَرِيضُ فِي مَسْأَلَةِ الْحُسْنِ وَالْقُبْحِ وَالتَّحْسِينِ وَالتَّقْبِيحِ مَبْنِيٌّ عَلَى ذَلِكَ ، فَالْغُلَاةُ فِي إثْبَاتِهَا قَالُوا : إنَّ فِي كُلِّ فِعْلٍ يَقَعُ التَّكْلِيفُ بِهِ فِعْلًا أَوْ تَرْكًا حَسَنًا أَوْ قُبْحًا ذَاتِيًّا يُعْرَفُ

بِالْعَقْلِ وَيَأْتِي الشَّرْعُ بِالْأَمْرِ كَاشِفًا لِحُسْنِ الْمَأْمُورِ بِهِ ، وَبِالنَّهْيِ كَاشِفًا لِقُبْحِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ ، وَلَا يَكُونُ شَيْءٌ حَسَنًا بِمُجَرَّدِ الْأَمْرِ وَلَا قَبِيحًا بِمُجَرَّدِ النَّهْيِ وَالْغُلَاةُ فِي نَفْيِهَا قَالُوا : لَا حُسْنَ وَلَا قُبْحَ ذَاتِيًّا فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ يَكُونُ مَنَاطَ التَّكْلِيفِ وَسَبَبَهُ وَسَبَبَ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ بِالشَّرْعِ وَحْدَهُ ، فَالْعَدْلُ وَالصِّدْقُ وَالصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ لَا حُسْنَ فِيهَا لِذَاتِهَا بَلِ الْأَمْرُ بِهَا هُوَ الَّذِي جَعَلَهَا حَسَنَةً ، وَكَذَلِكَ الظُّلْمُ وَالْكَذِبُ وَالسُّكْرُ لَا قُبْحَ فِيهَا لِذَاتِهَا بِهَذَا الْمَعْنَى ، بَلْ عُرِفَ قُبْحُهَا بِالشَّرْعِ ، وَأَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَأْمُرَ الرَّبُّ بِمَا نَهَى عَنْهُ وَيَنْهَى عَمَّا أَمَرَ بِهِ ، وَلَوْ فَعَلَ ذَلِكَ لَكَانَ الْجَوْرُ وَالْكَذِبُ حَسَنًا وَالْعَدْلُ وَالصِّدْقُ قَبِيحًا ، وَكَذَلِكَ الْعِبَادَاتُ كُلُّهَا ، لِأَنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ بِمَا يُرِيدُ ، وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَقْرَبُ إِلَى الْمَعْقُولِ وَالْمَنْقُولِ ، وَلَكِنْ وَقَعَ كَثِيرٌ مِنَ الْقَائِلِينَ بِهِ فِي الْإِفْرَاطِ وَالْغُلُوِّ فَالْقَوْلُ الْوَسَطُ الَّذِي عَلَيْهِ الْمُعْتَدِلُونَ الْجَامِعُ بَيْنَ النُّصُوصِ : أَنَّ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى لَا تَعَارُضَ بَيْنَهَا فَلَا تَتَعَلَّقُ مَشِيئَتُهُ تَعَالَى بِمَا يُنَافِي حِكْمَتَهُ وَعَدْلَهُ وَرَحْمَتَهُ وَحِكْمَتَهُ لَا تَقْتَضِي تَقْيِيدَ مَشِيئَتِهِ بِمَا نَفْهَمُهُ وَنَعْقِلُهُ نَحْنُ مِنْهَا بِحَيْثُ نُوجِبُ عَلَيْهِ بَعْضَ الْأَوَامِرِ وَالْأَفْعَالِ ، وَنَحْظُرُ عَلَيْهِ بَعْضَهَا وَإِنَّمَا نَعْتَقِدُ

أَنَّ كُلَّ مَا يَأْمُرُ بِهِ فَهُوَ حَسَنٌ ، وَأَنَّهُ لَا يَأْمُرُ إلَّا بِمَا هُوَ حَسَنٌ وَلَا يَنْهَى إلَّا عَمَّا هُوَ قَبِيحٌ ، كَمَا قَالَ : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ) (16 : 90) وَقَالَ : (وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (7 : 28) وَهَذَا احْتِجَاجٌ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، وَالْمُرَادُ فِيهِ بِالْفَحْشَاءِ وَالْفَاحِشَةِ مَعْنَاهُ اللُّغَوِيُّ وَهُوَ مَا عَظُمَ قُبْحُهُ ، وَلِأَجْلِهِ نَهَى عَنْهُ وَحُسْنُ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُقَلَاءِ وَلِأَجْلِهِ أَمَرَ بِهِ ، وَلَكِنَّ الْأَمْرَ بِالشَّيْءِ قَدْ يَكُونُ لِمَا فِي نَفْسِ ذَلِكَ الشَّيْءِ مِنَ الْحُسْنِ وَالْمَنْفَعَةِ ، وَقَدْ يَكُونُ ابْتِلَاءً لِلْعَبْدِ لِأَجْلِ الْقِيَامِ بِهِ لِمَحْضِ الِامْتِثَالِ وَالطَّاعَةِ وَهَذِهِ مَصْلَحَةٌ وَمَنْفَعَةٌ حَسَنَةٌ ، لَكِنَّ حُسْنَهَا لَيْسَ فِي ذَاتِهَا بَلْ فِي شَيْءٍ خَارِجٍ عَنْهَا ، وَمِنْهُ أَمْرُ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِذَبْحِ وَلَدِهِ . وَجَمِيعُ الْأَفْعَالِ الَّتِي يُسَمِّيهَا الْفُقَهَاءُ تَعَبُّدِيَّةً ، فَالصَّلَاةُ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي تَعْلِيلِ الْأَمْرِ بِإِقَامَتِهَا ، فَحُسْنُهَا ذَاتِيٌّ لَهَا ؛ لِأَنَّهَا سَبَبٌ لِذَلِكَ مِنْ حَيْثُ هِيَ مُنَاجَاةٌ لِلَّهِ تَعَالَى وَذِكْرٌ وَمُرَاقَبَةٌ لَهُ ، وَلَكِنَّ فِيهَا مَا لَا يُدْرِكُ الْعَقْلُ حُسْنَهُ فِي ذَاتِهِ كَعَدَدِ

الرَّكَعَاتِ وَالرُّكُوعِ

وَالسُّجُودِ فِيهَا ، وَإِنْ جُوِّزَ أَنْ يَكُونَ لَهُ حِكْمَةٌ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى فَوْقَ مُجَرَّدِ تَعَبُّدِنَا بِهِ . وَقَدْ شَبَّهَ الْغَزَالِيُّ هَذِهِ الْحِكْمَةَ بِحِكْمَةِ الطَّبِيبِ فِي تَفَاوُتِ مَقَادِيرِ أَجْزَاءِ الدَّوَاءِ الْمُرَكَّبِ مِنْ عِدَّةِ أَجْزَاءٍ وَمَا يَنْبَغِي لِلْمَرِيضِ مِنَ التَّسْلِيمِ لَهُ بِذَلِكَ وَإِنْ لَمْ يَعْرِفْهُ . وَالْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ، وَأَكْبَرُهُ أَنَّهُمَا يُسَهِّلَانِ لِلشَّيْطَانِ إِيقَاعَ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ بَيْنَ السُّكَارَى وَالْمُقَامِرِينَ بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ وَمَعَ غَيْرِهِمْ ، وَيَصُدَّانِ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ وَهَذِهِ قَبَائِحُ ذَاتِيَّةٌ فِيهِمَا .

(50/250)

---

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ : أَنَّ اللهَ تَعَالَى خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَأَنَّهُ يَخْلُقُ بِقَدَرٍ وَنِظَامٍ وَحِكْمَةٍ وَسُنَنٍ لَا أَنَفًا وَلَا جُزَافًا وَلَا عَبَثًا ، وَأَنَّهُ حَكِيمٌ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ ، لَمْ يُشَرِّعْ لِعِبَادِهِ شَيْئًا عَبَثًا كَمَا أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْهُمْ عَبَثًا ، وَأَنَّهُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ قَادِرًا مُرِيدًا فَاعِلًا بِالِاخْتِيَارِ ، يُرَجِّحُ بِحَسَبِ عِلْمِهِ النَّظَرِيِّ وَشُعُورِهِ الْوِجْدَانِيِّ بَعْضَ الْأَعْمَالِ عَلَى بَعْضٍ ، وَيَحْكُمُ عَلَى نَفْسِهِ فَيَقْدِرُ عَلَى تَكَلُّفِ مَا يُؤْلِمُهُ وَلَا يُلَائِمُ هَوَاهُ وَلَذَّتَهُ ، وَأَنَّ أَفْعَالَهُ تُسْنَدُ إِلَيْهِ وَيُوصَفُ بِهَا لِأَنَّهَا تَقُومُ بِهِ وَتَصْدُرُ عَنْهُ بِاخْتِيَارِهِ ، لَا لِأَنَّهُ مَحِلُّهَا ، وَتُنْسَبُ إِلَى مَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ هُوَ الْخَالِقُ لَهُ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ ، وَالْمُعْطِي لَهُ هَذَا التَّصَرُّفَ وَالِاخْتِيَارَ ، وَالْهَادِي لَهُ إِلَى السُّنَنِ وَالْأَسْبَابِ ،

وَالْخَالِقُ لِمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ عَمَلُهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى لَا يُوصَفُ بِتِلْكَ الْأَعْمَالِ الِاخْتِيَارِيَّةِ ، وَلَا تُسْنَدُ إِلَيْهِ إِسْنَادُ الْفِعْلِ إِلَى مَنْ قَامَ بِهِ ، بِحَيْثُ يُشْتَقُّ لَهُ الْوَصْفُ مِنْهُ فَيُقَالُ : أَكَلَ زَيْدٌ فَهُوَ آكِلٌ ، وَصَلَّى عَمْرٌو فَهُوَ مُصَلٍّ ، وَسَرَقَ بَكْرٌ فَهُوَ سَارِقٌ ، وَلَا يُقَالُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فِي الْبَارِئِ تَعَالَى .

(51/250)

---

وَلَا يَخْلُقُ اللَّهُ - تَعَالَى - شَيْئًا قَبِيحًا وَلَا شَرًّا بَلْ هُوَ : (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ) (32 : 7) (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) (27 : 88) فَالْخَيْرُ كُلُّهُ بِيَدَيْهِ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْهِ كَمَا وَرَدَ ، وَإِنَّمَا يُطْلَقُ الشَّرُّ وَالْقَبِيحُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْمَالِ الَّتِي تَقَعُ مِنَ الْمُكَلَّفِينَ أَوْ عَلَيْهِمْ ، وَيُوصَفُ بِهِمَا بَعْضُ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَضُرُّهُمْ أَوْ تَسُوءُهُمْ ، فَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ أَلَمٌ أَوْ ضَرَرٌ لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ أَوْ مِنْ حَوَادِثِ الْكَوْنِ يُسَمُّونَهُ شَرًّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ يَضُرُّهُ وَإِنْ كَانَ خَيْرًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى غَيْرِهِ فَمَنْ هَدَمَ الْمَطَرُ أَوْ فَيَضَانُ النِّيلِ دَارَهُ يَعُدُّ شَرًّا لَهُ وَإِنْ كَانَ خَيْرًا لِمَنْ لَا يُحْصَى مِنَ النَّاسِ ، وَكَثِيرًا مَا يَعُدُّ الْإِنْسَانُ الشَّيْءَ شَرًّا لَهُ لِقِصَرِ نَظَرِهِ أَوْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَبْدَئِهِ ، وَيَكُونُ خَيْرًا فِي الْوَاقِعِ أَوْ فِي الْغَايَةِ . قَالَ تَعَالَى : (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ

(52/250)

لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) (24 : 11) وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (2 : 216) وَقَالَ فِيمَنْ يَكْرَهُونَ نِسَاءَهُمْ : (فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) (4 : 19) وَأَعْظَمُ هَذَا الْخَيْرِ وِلَادَةُ الْأَوْلَادِ النُّجَبَاءِ ، وَلَكِنْ جَمِيعُ مَا يُسَمِّيهِ النَّاسُ شَرًّا مِنْ أَعْمَالِهِمْ أَوْ مِنْ حَوَادِثِ الْكَوْنِ يَقَعُ بِقَدَرِ اللَّهِ وَوِفَاقِ سُنَنِهِ فِي نِظَامِ الْكَوْنِ وَرَبْطِ أَسْبَابِهِ بِمُسَبَّبَاتِهِ ، وَقَدْ رَدَّ الْمُحَقِّقُ ابْنُ الْقَيِّمِ عَلَى الْجَبْرِيَّةِ نُفَاةِ الْحُسْنِ وَالْقُبْحِ فِي الْأَشْيَاءِ فِي كِتَابِهِ (مِفْتَاحُ دَارِ السَّعَادَةِ) مِنْ 63 وَجْهًا فَلْيُرَاجِعْهُ مَنْ شَاءَ .

*(53/250)*

---

(6) مَسْأَلَةُ سُؤَالِ الْعِبَادِ رَبَّهُمْ عَنْ أَفْعَالِهِ وَأَحْكَامِهِ . قَدْ أَثْبَتَ اللَّهُ تَعَالَى لَنَا فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ عِبَادَهُ يَسْأَلُونَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنِ الْجَزَاءِ وَحِكْمَتِهِ فَيُجِيبُهُمْ ، كَمَا سَأَلُوا الرُّسُلَ فِي الدُّنْيَا عَنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ مِنْ أَفْعَالِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَحْكَامِهِ فَأُجِيبُوا ، وَأَنَّ الْكُفَّارَ يَحْتَجُّونَ فِي الْآخِرَةِ فَيُقِيمُ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةَ . وَمِمَّا حَكَاهُ

عَنِ الْمُسْلِمِينَ فِي الدُّنْيَا قَوْلُهُ تَعَالَى : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ) (4 : 77) إِلَى قَوْلِهِ : (وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ) الْآيَةَ . وَقَالَ فِي بَيَانِ حِكْمَةِ إِرْسَالِ الرُّسُلِ : (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا) (4 : 165) وَقَالَ فِي كُفَّارِ هَذِهِ الْأُمَّةِ : (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى) (20 : 134) أَيْ مِنْ قَبْلِ إِرْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِمْ بِالْقُرْآنِ . وَقَالَ فِي سُؤَالِ الْعِبَادِ رَبَّهُمْ : (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ

*(54/250)*

---

الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى) (20 : 124 127) وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ " إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْطَى كُلًّا مِنْ أَهْلِ التَّوْرَاةِ وَأَهْلِ الْإِنْجِيلِ مِنَ الْأَجْرِ عَلَى الْعَمَلِ بِكِتَابِهِ قِيرَاطًا قِيرَاطًا ، وَأَعْطَى أَهْلَ الْقُرْآنِ عَلَى الْعَمَلِ بِهِ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ ، وَضَرَبَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِذَلِكَ مَثَلَ مَنِ اسْتَأْجَرَ عُمَّالًا بِأُجْرَةٍ مُعِينَةٍ عَلَى عَمَلٍ كَثِيرٍ ، وَعُمَّالًا بِأُجْرَةٍ عَلَى عَمَلٍ قَلِيلٍ ، وَذَكَرَ أَنَّ

الْمُؤْمِنِينَ الْمَأْجُورِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ يَسْأَلُونَ رَبَّهُمْ عَنْ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ . قَالَ : " فَقَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ : أَيْ رَبِّ أَعْطَيْتَ هَؤُلَاءِ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ ،

(55/250)

---

وَأَعْطَيْتَنَا قِيرَاطًا قِيرَاطًا وَنَحْنُ كُنَّا أَكْثَرَ عَمَلًا مِنْهُمْ . قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ شَيْئًا ؟ قَالُوا : لَا . قَالَ : فَهُوَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ " أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي أَبْوَابِ مَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ وَكِتَابِ التَّوْحِيدِ وَغَيْرِهِمَا . وَهَذَا الْمَعْنَى فِي آخِرِ سُورَةِ الْحَدِيدِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ) (57 : 28) إلَى قَوْلِهِ : (وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ 29) وَالْحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَطْلَعَ رَسُولَهُ فِيمَا أَظْهَرَهُ مِنَ الْغَيْبِ عَلَى مَا يَكُونُ مِنْ سُؤَالِ مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ بِهِمْ عَنْ سَبَبِ تَفْضِيلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَيْهِمْ وَإِجَابَتِهِ تَعَالَى إيَّاهُمْ ، وَجَوَابُ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ لِأَهْلِ الْكِتَابَيْنِ مَبْنِيٌّ عَلَى اتِّصَافِهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالْعَدْلِ وَالْفَضْلِ وَتَنَزُّهِهِ عَنِ الظُّلْمِ ، وَمِنَ الْعَدْلِ إعْطَاءُ الْحَقِّ لِمُسْتَحِقِّهِ ، وَحَقُّ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ تَعَالَى وَحْدَهُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا أَنْ يُثِيبَهُمُ الْجَنَّةَ وَلَا يُعَذِّبَهُمْ عَذَابَ مَنْ أَشْرَكَ فِي النَّارِ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَسُنَنِ النَّسَائِيِّ أَنَّ مُعَاذًا رَضِيَ

اللهُ عَنْهُ قَالَ : بَيْنَمَا أَنَا رَدِيفُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا آخِرَةُ الرَّحْلِ فَقَالَ : يَا " مُعَاذُ " ، قُلْتُ لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ : "يَا مُعَاذُ " قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ . ثُمَّ سَارَ سَاعَةً . ثُمَّ قَالَ : "يَا مُعَاذُ " قُلْتُ لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ . قَالَ : " هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ ؟ " قُلْتُ : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : " حَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ : "يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ " قُلْتُ : لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ . قَالَ : " هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ إِذَا فَعَلُوهُ ؟ " قُلْتُ : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : " حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ أَلَّا يُعَذِّبَهُمْ " رَوَاهُ عَنْهُ الْبُخَارِيُّ فِي بِضْعَةِ كُتُبٍ مِنَ الصَّحِيحِ وَمُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ . وَهَذِهِ النُّصُوصُ الَّتِي أَوْرَدْنَاهَا مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ حُجَّةٌ عَلَى الرَّازِيِّ وَمَنْ قَالَ بِقَوْلِهِ مِنَ الْأَشْعَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ إِطْلَاقِ عَدَمِ سُؤَالِ الْعِبَادِ رَبَّهُمْ عَنْ شَيْءٍ ، وَعَدَمِ ثُبُوتِ أَيِّ حَقٍّ عَلَيْهِ تَعَالَى ، وَحُجَّةٌ لِسَلَفِ الْأُمَّةِ الصَّالِحِ وَهُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ حَقًّا مِنْ إِثْبَاتِ كُلِّ مَا أَثْبَتَهُ اللهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهُوَ مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ .

(7) يُمْكِنُ رَدُّ نَظَرِيَّاتِ الشَّيْخِ الْأَشْعَرِيِّ وَنَظَرِيَّاتِ شَيْخِهِ الْجُبَّائِيِّ مَعًا مِنْ وُجُوهٍ أُخْرَى عَلَى مَذْهَبِ السَّلَفِ الَّذِي هُوَ الْأَخْذُ بِظَوَاهِرِ النُّصُوصِ مِنْ أَنَّ الثَّوَابَ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ ، وَأَنَّ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْحِكْمَةِ ، وَمُعَلَّلَةٌ بِمَا يَرْجِعُ إِلَى دَرْءِ الْمَفَاسِدِ وَجَلْبِ الْمَصَالِحِ وَالْمَنَافِعِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْأُخْرَوِيَّةِ ، وَكَوْنِ الدُّنْيَا مَزْرَعَةَ الْآخِرَةِ ، وَكَذَا عَلَى مَذْهَبِ الْمُعْتَزِلَةِ عَلَى مَا حَرَّرَهُ الشَّيْخُ الْمُقْبِلِيُّ نَقْلًا عَنْ كُتُبِهِمْ ، فَنَذْكُرُ بَعْضَ مَا يَخْطُرُ مِنْ ذَلِكَ بِالْبَالِ ، لِيَكُونَ نَمُوذَجًا لِمَنْ يَبْنِي عَقِيدَتَهُ عَلَى قَوَاعِدِ الْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ ، وَيَعْرِفُ الْحَقَّ بِنَفْسِهِ لَا بِآرَاءِ الرِّجَالِ ، فَنَقُولُ :

(58/250)

---

ذَكَرَ التَّاجُ السُّبْكِيُّ فِي تَرْجَمَةِ الشَّيْخِ أَنَّهُ قَالَ لِلْجُبَّائِيِّ : (مَا قَوْلُكَ فِي ثَلَاثَةٍ : مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ وَصَبِيٍّ ؟ فَقَالَ : الْمُؤْمِنُ مِنْ أَهْلِ الدَّرَجَاتِ ، وَالْكَافِرُ مِنْ أَهْلِ الْهَلَكَاتِ ، وَالصَّبِيُّ مِنْ أَهْلِ النَّجَاةِ . فَقَالَ الشَّيْخُ : فَإِنْ أَرَادَ الصَّبِيُّ أَنْ يَرْقَى إِلَى أَهْلِ الدَّرَجَاتِ هَلْ يُمْكِنُ ؟ قَالَ الْجُبَّائِيُّ : لَا ، يُقَالُ لَهُ إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِنَّمَا نَالَ هَذِهِ الدَّرَجَةَ بِالطَّاعَةِ وَلَيْسَ لَكَ مِثْلُهَا . قَالَ الشَّيْخُ : فَإِنْ قَالَ : التَّقْصِيرُ لَيْسَ مِنِّي فَلَوْ أَحْيَيْتَنِي كُنْتُ عَمِلْتُ مِنَ الطَّاعَاتِ كَعَمَلِ الْمُؤْمِنِ . قَالَ

الْجُبَّائِيُّ : يَقُولُ لَهُ اللهُ : كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّكَ لَوْ بَقِيتَ لَعَصَيْتَ وَلَعُوقِبْتَ ، فَرَاعَيْتُ مَصْلَحَتَكَ وَأَمَتُّكَ قَبْلَ أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى سِنِّ التَّكْلِيفِ . قَالَ الشَّيْخُ : فَلَوْ قَالَ الْكَافِرُ يَا رَبِّ عَلِمْتَ حَالَهُ كَمَا عَلِمْتَ حَالِي فَهَلَّا رَاعَيْتَ مَصْلَحَتِي مِثْلَهُ ؟ فَانْقَطَعَ الْجُبَّائِيُّ) .

فَأَمَّا جَوَابُ الْجُبَّائِيِّ الْأَوَّلُ فِي الْمُؤْمِنِ الطَّائِعِ وَالْكَافِرِ الْفَاسِقِ فَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي بَيَّنَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ بِقَوْلِهِ فِي جَزَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الْكَامِلِينَ : (أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) (8 : 4)

(59/250)

---

وَقَوْلُهُ فِي جَزَاءِ الْفَرِيقَيْنِ بِالْإِجْمَالِ : (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا) (6 : 132) وَسَتَأْتِي قَرِيبًا ، وَقَوْلُهُ فِي تَفْصِيلِ ذَلِكَ : (إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى) (20 : 74 ، 75) فَهَذِهِ الْآيَاتُ وَغَيْرُهَا مِنَ النُّصُوصِ فِي الْمَسْأَلَةِ بِلَفْظِ الدَّرَجَاتِ وَتَرْتِيبِ الْجَزَاءِ عَلَى الْوَصْفِ دَلِيلٌ عَلَى كَوْنِهِ عِلَّةً لَهُ ، كَمَا قَالَهُ الْمُفَسِّرُونَ مِنَ الْأَشَاعِرَةِ وَغَيْرِهِمْ . وَالنُّصُوصُ فِي تَرْتِيبِ الْجَزَاءِ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ مَعَ الْأَعْمَالِ كَثِيرَةٌ جِدًّا .

وَكَذَلِكَ جَوَابُهُ الْأَوَّلُ عَنْ مَسْأَلَةِ الصَّبِيِّ فَإِنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ الدَّرَجَاتِ الَّتِي نَالَهَا الْمُؤْمِنُ الَّذِي عَمِلَ الصَّالِحَاتِ بِحَسَبِ وَعْدِ اللهِ الْحَقِّ وَجَزَائِهِ الْعَدْلِ ، وَلَكِنَّ ذُرِّيَّةَ الْمُؤْمِنِينَ

(60/250)

---

تَلْحَقُ بِالْأَصْلِ . وَأَمَّا جَوَابُهُ الثَّانِي فَهُوَ خَطَأٌ نَشَأَ عَنْ غَفْلَتِهِ عَنْ فَسَادِ السُّؤَالِ فِي نَفْسِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ عَدَمَ حَيَاةِ الصَّبِيِّ إِلَى أَنْ يَبْلُغَ وَيَعْمَلَ مَا يَعْمَلُ مَسْأَلَةٌ عَدَمِيَّةٌ لَا وَجْهَ لِسُؤَالِ الْخَالِقِ عَنْهَا ، وَلَا يَأْتِي فِيهَا مَسْأَلَةُ الْأَصْلَحِ فِي مَذْهَبِ الْمُعْتَزِلَةِ ؛ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ : إِنَّ أَفْعَالَهُ وَأَحْكَامَهُ تَعَالَى يَجِبُ بِمُقْتَضَى الْحِكْمَةِ أَلَّا تَخْلُوَ عَنْ مَصْلَحَةٍ ، وَأَنْ تَكُونَ مِنْ حَيْثُ هِيَ صَادِرَةٌ عَنْهُ تَعَالَى حَسَنَةً وَخَيْرًا . وَلَا تَقْتَضِي قَوَاعِدُهُمْ هَذَا فِي الْأُمُورِ الْعَدَمِيَّةِ السَّلْبِيَّةِ بِأَنْ يُقَالَ مَثَلًا : إِنَّمَا لَمْ يَخْلُقْ مِنْ صُلْبِ فُلَانٍ مِائَةَ رَجُلٍ لِكَذَا مِنَ الْحِكَمِ وَالْمَصَالِحِ ، وَلَمْ يَجْعَلْ عُمْرَ فُلَانٍ أَلْفَ سَنَةٍ لِكَذَا وَكَذَا .

(61/250)

---

وَأَمَّا النَّظَرُ فِي الْمَسْأَلَةِ مِنْ جِهَةِ الْقَدَرِ وَالسُّنَنِ فَيُقَالُ فِيهِ بِالِاخْتِصَارِ : إنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَلَّتْ حِكْمَتُهُ قَدْ مَضَتْ سُنَّتُهُ فِي نِظَامِ أُمُورِ الْخَلْقِ أَنْ يَكُونَ لِطُولِ الْعُمْرِ أَسْبَابٌ ، مَنْ رُوعِيَتْ فِيهِ صَغِيرًا مِمَّنْ يَقُومُ بِأَمْرِ تَرْبِيَتِهِ وَرَاعَاهَا فِي أَعْمَالِهِ الَّتِي يَسْتَقِلُّ بِهَا مِنْ أَوَّلِ النَّشْأَةِ طَالَ عُمْرُهُ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ تَعَالَى ، كَمَا أَنَّ لِاخْتِيَارِ الْإِيمَانِ عَلَى الْكُفْرِ وَضِدِّهِ وَاخْتِيَارِ الطَّاعَةِ عَلَى الْعِصْيَانِ وَضِدِّهِ أَسْبَابًا بِحَسَبِ السُّنَنِ وَالْأَقْدَارِ كَمَا أَوْضَحْنَاهُ مِرَارًا فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِهِ ، وَكُلُّ تِلْكَ الْأَقْدَارِ وَالسُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى مُنْتَهَى الْحِكْمَةِ وَالْحَقِّ وَالْعَدْلِ ، وَفَوْقَ ذَلِكَ مَا لَمْ تَصِلْ إلَيْهِ بَصَائِرُ غُلَاةِ الْقَدَرِيَّةِ) مِنَ الْجُودِ وَالْفَضْلِ ، فَلَوْ سَأَلَ صَبِيٌّ رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِمَ لَمْ يَطُلْ عُمْرُهُ عَسَاهُ يَعْمَلُ مَا يَسْتَحِقُّ بِهِ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى ؟ فَالْمَعْقُولُ أَنْ يُبَيِّنَ اللَّهُ لَهُ تَعَالَى مَا خَفِيَ عَنْهُ مِنْ سُنَنِهِ وَتَقْدِيرِهِ لِأَسْبَابِ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ وَكَوْنِ سُنَنِهِ لَا تَتَغَيَّرُ وَلَا تَتَبَدَّلُ ، وَأَنَّ إطَالَتَهُ لِعُمْرِ فُلَانٍ دُونَ فُلَانٍ لَمْ يَكُنْ خَلْقًا أَنُفًا جَدِيدًا كَمَا تَزْعُمُ الْقَدَرِيَّةُ النُّفَاةُ حَتَّى يَرِدَ فِيهِ السُّؤَالُ : لِمَ خَصَّ فُلَانًا بِكَذَا وَحَرَمَ مِنْهُ فُلَانًا وَهُوَ مِثْلُهُ ؟ .

*(62/250)*

---

فَعُلِمَ بِهَذَا أَنَّ مَسْأَلَةَ إطَالَةِ أَعْمَارِ بَعْضِ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ لَيْسَ مِنَ الْجُودِ الْخَاصِّ الَّذِي يَخْتَصُّ اللَّهُ بِهِ تَعَالَى بَعْضَ الْعِبَادِ تَفْضِيلًا لَهُ عَلَى غَيْرِهِ وَعِنَايَةً بِهِ كَمَا فَضَّلَ بَعْضَ الرُّسُلِ عَلَى

بَعْضٍ ، وَكَمَا فَضَّلَ هَذِهِ الْأُمَّةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ عَلَى الْأُمَمِ بِإِيتَائِهَا كِفْلَيْنِ مِنَ الْأَجْرِ ، وَلَا عَلَى نَحْوِ مَا ذَكَرْنَاهُ فِي الْكَلَامِ فِي التَّوْفِيقِ حَتَّى يَكُونَ الْمَحْرُومُ مِنْهَا مَخْذُولًا ، وَإِنَّمَا طُولُ الْأَعْمَارِ وَقِصَرُهَا

وَالْأَمْرَاضُ جَارِيَةٌ عَلَى وِفْقِ الْمَقَادِيرِ الْمُطَّرِدَةِ وَالسُّنَنِ الْعَامَّةِ ; وَلِذَلِكَ كَانَتْ عَامَّةً فِي الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ وَالْبَرِّ وَالْفَاجِرِ ، فَهِيَ كَمَسْأَلَةِ الرِّزْقِ فِي سَعَتِهِ وَضِيقِهِ ، قَالَ تَعَالَى فِيهَا : (كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا

*(63/250)*

---

انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ) (17 : 20 ، 21) أَمَّا كَوْنُ الْآخِرَةِ أَكْبَرَ دَرَجَاتٍ فَمِنَ الْمَعْلُومِ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ كُلَّ مَا فِي الْآخِرَةِ مِنْ دَرَجَاتِ النَّعِيمِ وَالْكَرَامَةِ فَهُوَ أَعْظَمُ وَأَرْقَى مِمَّا فِي الدُّنْيَا . وَأَمَّا كَوْنُهَا أَكْبَرَ تَفْضِيلًا فَلِأَنَّ التَّفْضِيلَ فِيهَا يَتَفَاوَتُ تَفَاوُتًا أَعْظَمَ مِمَّا فِي الدُّنْيَا بِمَا لَا يُقَدَّرُ قَدْرُهُ ; وَلِأَنَّهُ قِسْمَانِ : أَحَدُهُمَا : أَجْرٌ عَلَى الْأَعْمَالِ يُضَاعَفُ لِعَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ عَشَرَةَ أَضْعَافٍ ، وَثَانِيهِمَا : فَضْلٌ لَا حَدَّ لَهُ ، لَا جَزَاءَ عَلَى عَمَلٍ يُكَافِئُهُ . وَبِهَذَا الْجَوَابِ الَّذِي بَيَّنَّاهُ لَا يَبْقَى مَجَالٌ لِقَوْلِ الْكَافِرِ وَسُؤَالِهِ .

وَأَمَّا جَوَابُ أَبِي الْحُسَيْنِ الْبَصْرِيِّ عَلَى قَاعِدَةِ أَصْحَابِهِ مُعْتَزِلَةِ الْبَصْرَةِ فَلَهُ وَجْهٌ وَإِنْ كَانَ الْحَقُّ فِي الْمَسْأَلَةِ مَا ذَكَرْنَاهُ . وَرَدُّ الرَّازِيِّ عَلَيْهِ تَمَحُّلٌ بَدِيهِيُّ الْبُطْلَانِ ، إِذْ زَعَمَ أَنَّ إِيصَالَ التَّفَضُّلِ إِلَى أَحَدِ النَّاسِ يَقْتَضِي إِيصَالَهُ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ وَيَقْبُحُ تَرْكُهُ لِأَنَّهُ لَيْسَ شَاقًّا عَلَى اللهِ وَلَا يُوجِبُ دُخُولَ نُقْصَانٍ فِي مُلْكِهِ . وَأَنَّهُ قَبِيحٌ فِي الشَّاهِدِ فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ قَبِيحًا فِي الْغَائِبِ ، وَضَرَبَ لَهُ فِي الشَّاهِدِ مَثَلَ الْمِرْآةِ ، وَلَوْلَا تَعَصُّبُ الْمَذْهَبِ لَمَا كَانَ هَذَا الْعَالِمُ الْكَبِيرُ وَالذَّكِيُّ النِّحْرِيرُ يَقُولُ مِثْلَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ فِي الْمَسْأَلَةِ ، وَالْقَوْمُ يَقُولُونَ بِأَنَّ التَّفَضُّلَ غَيْرُ وَاجِبٍ ، إِذِ الْوَاجِبُ لَا يُسَمَّى تَفَضُّلًا . وَيَقُولُونَ : إِنَّ وُجُوبَ التَّكْلِيفِ وُجُوبُ جُودٍ ؛ لِأَنَّهُ كَمَالٌ لَا وُجُوبُ إِلْزَامٍ وَإِجْبَارٍ ، فَهُوَ تَحَكُّمٌ عَلَيْهِمْ فِي مَذْهَبِهِمْ ، وَعَلَّلَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ لَيْسَ شَاقًّا عَلَى اللهِ تَعَالَى وَلَا يُوجِبُ نَقْصًا فِي مُلْكِهِ ، وَهَذَا التَّعْلِيلُ بَاطِلٌ فِي مَذْهَبِهِ وَمَذْهَبِ الْخَصْمِ ، وَمَثَلُ الْمِرْآةِ غَيْرُ مُنْطَبِقٍ ، وَهُوَ مِنْ قِيَاسِ الْخَالِقِ عَلَى الْمَخْلُوقِ وَيَا لَهُ مِنْ قِيَاسٍ مَعَ الْفَارِقِ الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ فَارِقٌ .

وَهَذَا الْقَوْلُ يُعَدُّ هَيِّنًا فِي جَنْبِ مَا ذَكَرَهُ فِي الْوَجْهَيْنِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي مِنْ وُجُوهِ جَعْلِ الْمُعْتَزِلَةِ خُصُومًا لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، فَإِنَّهُ صَوَّرَ فِيهِمَا مَسْأَلَةَ إِثْبَاتِ وُجُوبِ الثَّوَابِ وَالْعِوَضِ بِصُورَةٍ مُشَوَّهَةٍ يَتَبَرَّأُ مِنْهَا وَيُكَفِّرُ قَائِلَهَا كُلُّ مُعْتَزِلِيٍّ ، وَهِيَ أَنَّ الْقَائِلَ بِهَذَا الْوُجُوبِ يَقُولُ لِرَبِّهِ كَيْتَ وَكَيْتَ ، وَهَذَا مِنَ الْبَاطِلِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَإِنْ كَانَ يَعْنِي بِهِ أَنَّ مِنْ لَوَازِمِ ذَلِكَ الِاعْتِقَادِ ، وَلَا يَعْنِي بِهِ أَنَّ أَحَدًا يَنْطِقُ بِمُؤَاخَذَةِ رَبِّهِ وَتَهْدِيدِهِ وَعَزْلِهِ مِنَ الْأُلُوهِيَّةِ وَشَتْمِهِ ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ بَعْضَهُمْ يَقُولُ : إِنَّ هَذَا وُجُوبُ جُودٍ وَتَفَضُّلٍ ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ : إِنَّهُ مُقْتَضَى صِفَاتِ الْكَمَالِ الْوَاجِبَةِ لَهُ ، فَهَلْ يَجُوزُ أَنْ يُسْتَنْبَطَ مِنْ إِثْبَاتِ

الْفَضْلِ وَالْإِحْسَانِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي لَا يُعْقَلُ مَعْنَاهَا إِلَّا بِحُصُولِ مُتَعَلَّقَاتِهَا مِثْلُ هَذَا التَّنْقِيصِ الْفَظِيعِ ، وَالْكُفْرِ الْمُشَوَّهِ الشَّنِيعِ ؟ !

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ كُلًّا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ قَصَدَ تَنْزِيهَ اللهِ تَعَالَى عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ ، وَوَصْفَهُ بِالْكَمَالِ

(66/250)

---

الَّذِي لَا يُعْقَلُ مَعْنَى الْأُلُوهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ بِدُونِهِ ، فَبَالَغَ بَعْضُهُمْ فِي الْإِثْبَاتِ وَبَعْضُهُمْ فِي النَّفْيِ . وَالْوَسَطُ بَيْنَ ذَلِكَ . وَقَوْلُ الرَّازِيِّ وَأَمْثَالِهِ مِنْ غُلَاةِ الْأَشْعَرِيَّةِ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَبْعَدُ عَنِ الصَّوَابِ ؛ وَعَنْ مَذْهَبِ السَّلَفِ ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُسْتَنْبَطَ مِنْ لَوَازِمِ رَأْيِهِمْ مِثْلُ مَا اسْتَنْبَطُوا مِنْ

رَأْيِ خُصُومِهِمْ مِنَ التَّشْنِيعِ أَوْ أَشَدُّ ، بَلْ وُجِدَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ ، وَالْحَقُّ أَنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ لَوَازِمَ مَقْصُودَةً لِمَذْهَبِ هَؤُلَاءِ وَلَا هَؤُلَاءِ ، وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّ لَازِمَ الْمَذْهَبِ لَيْسَ بِمَذْهَبٍ وَإِنْ كَانَ لَا يَظْهَرُ عَلَى إِطْلَاقِهِ (رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) (59 : 10) . (8) إِنَّ الْحَدِيثَ الَّذِي بُنِيَ عَلَيْهِ هَذَا الْمِرَاءُ بِمَا قَالَهُ الْقَاضِي عَبْدُ الْجَبَّارِ الْمُعْتَزِلِيُّ فِي الْأَشْعَرِيَّةِ وَقَابَلَهُ الرَّازِيُّ الْأَشْعَرِيُّ بِأَفْظَعَ مِنْ قَوْلِهِ فِي الْمُعْتَزِلَةِ هُوَ مِنَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي اخْتَرَعَهَا بَعْضُ هَؤُلَاءِ الْمُتَعَصِّبِينَ لِيَنْبِزَ بِهَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا . وَعِبَارَتُهُ مُوَلَّدَةٌ لَيْسَتْ عَرَبِيَّةً فَصِيحَةً . وَقَدْ أَخْرَجَ أَوَّلَهُ الدَّارَقُطْنِيُّ فِي الْعِلَلِ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ " لُعِنَتِ الْقَدَرِيَّةُ عَلَى لِسَانِ سَبْعِينَ نَبِيًّا " قَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ الْحُوتُ الْكَبِيرُ فِي كِتَابِهِ الَّذِي خَرَّجَ بِهِ أَحَادِيثَ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ الضَّعِيفَةَ قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ : حَدِيثٌ لَا يَصِحُّ فِيهِ الْحَارِثُ

*(67/250)*

---

كَذَّابٌ ، قَالَ ابْنُ الْمَدِينِيِّ : وَكَذَا فِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ عُثْمَانَ . وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ وَفِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ مَتْرُوكٌ وَأَوْرَدَ الذَّهَبِيُّ مِنْ عِدَّةِ طُرُقٍ وَقَالَ : هَذِهِ أَحَادِيثُ لَا تَثْبُتُ ، انْتَهَى .

وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ يَعْنِي بِالْحَارِثِ : الْحَارِثَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْأَعْوَرَ الْهَمْدَانِيَّ صَاحِبَ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللَّهُ

وَجْهَهُ ، وَقَدْ رَوَى عَنْهُ الشَّعْبِيُّ وَقَالَ : إِنَّهُ كَذَّابٌ وَكَذَّبَهُ آخَرُونَ وَوَثَّقَهُ بَعْضُهُمْ . وَالْقَوْلُ الْمُعْتَدِلُ فِيهِ أَنَّهُ ضَعِيفٌ ، وَأَكْثَرُ هَؤُلَاءِ الْمُتَكَلِّمِينَ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ ، بَلْ يَنْقُلُونَ كُلَّ مَا يَرَوْنَهُ فِي الْكُتُبِ كَالْعَوَامِّ ، وَنَكْتَفِي فِي هَذَا الْفَصْلِ الِاسْتِطْرَادِيِّ بِهَذَا الْقَدْرِ ، وَنَعُودُ إِلَى تَفْسِيرِ سَائِرِ الْآيَاتِ .

(وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا) أَيْ وَهَذَا الْإِسْلَامُ الَّذِي يَشْرَحُ اللَّهُ لَهُ صَدْرَ مَنْ يُرِيدُ هِدَايَتَهُ ، هُوَ صِرَاطُ رَبِّكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ الَّذِي بَعَثَكَ بِهِ ، وَبَيَّنَ لَكَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ

(68/250)

---

أَوْ هَذِهِ السُّورَةِ أُصُولَهُ وَعَقَائِدَهُ بِالْحُجَجِ النَّيِّرَاتِ ، وَالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ ، حَالَ كَوْنِهِ مُسْتَقِيمًا فِي نَظَرِ الْعَقْلِ الصَّحِيحِ وَمُقْتَضَى الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ مِنْ فَسَادِ الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ ، فَلَا اعْوِجَاجَ فِيهِ وَلَا الْتِوَاءَ ، وَإِنَّمَا هُوَ السَّبِيلُ السَّوَاءُ ، وَمَنْ عَرَفَهُ تَبَيَّنَ لَهُ اعْوِجَاجُ مَا عَدَاهُ مِنَ السُّبُلِ الَّتِي عَلَيْهَا سَائِرُ أَهْلِ الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ . (قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ) أَيْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ وَالْحُجَجَ الْمُثْبِتَةَ لِحَقِيقَتِهِ وَأُصُولِهِ الرَّاسِخَةِ ، وَمَحَاسِنِ فُرُوعِهِ الْمُثْمِرَةِ النَّافِعَةِ ، لِقَوْمٍ يَتَذَكَّرُونَ مَا بُلِّغُوهُ مِنْهَا كُلَّمَا عَرَضَتِ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ فَيَزْدَادُونَ بِهَا يَقِينًا وَرُسُوخًا فِي الْإِيمَانِ ، وَيَدْرَءُونَ مَا يُورَدُ عَلَيْهِمْ مِنَ الشُّبُهَاتِ وَالْأَوْهَامِ ، كَمَا يَزْدَادُونَ إِذْعَانًا وَمَوْعِظَةً تَبْعَثُهُمْ عَلَى

الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، وَلِذَلِكَ خُصُّوا بِالذِّكْرِ دُونَ غَيْرِهِمْ . وَتَفْسِيرُنَا لِلْمُشَارِ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ : (وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ) بِالْإِسْلَامِ هُوَ الْمُوَافِقُ لِقَوَاعِدِ الْعَرَبِيَّةِ ، لِأَنَّهُ أَقْرَبُ مَذْكُورٍ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمُرَادَ . وَهُوَ الْمَرْوِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَمَنْ خَالَفَهُ فَقَدْ تَكَلَّفَ وَتَعَسَّفَ . وَقَوْلُهُ : (مُسْتَقِيمًا) مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ وَالْعَامِلُ فِيهَا مَا فِي اسْمِ الْإِشَارَةِ أَوِ التَّنْبِيهِ مِنْ مَعْنَى الْفِعْلِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 8 صـ 36 . 54 ﴾

*(69/250)*

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (126) ﴾

و" هذا " مقصود به ما تقدم من آيات . من كتاب الإسلام وهو القرآن ، وذلك ما يشرح الصدر القابل للإيمان ، والقرآن هو الحامل لمنهج الإسلام ؛ فمرة تعود الإشارة إلى القرآن أو إلى الإسلام . وليس هناك خلاف بين القرآن والإسلام .

﴿ وهذا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً ﴾ . و" الصراط " هو الطريق السَّوي ، والطريق السَّوي قد يكون مع استوائه معوجاً لكن هذا الطريق مستوٍ ومستقيم ، ونعلم أن الطريق المستقيم هو أقصر الطرق الموصلة للغاية . وعلى هذا فصراط لا تغني عن مستقيم ، ومستقيم لا

يغني عن صراط ، بل لابد من صراط معبد ومستقيم ليكون أقصر طريق إلى الغاية وبلا متاعب ، إننا – نحن البشر – نرى المهندسين وهم يقيسون الأبعاد والمسافات والغايات والبدايات والنهايات ، وبعد ذلك يربطون البدايات بالغايات .

إنهم يحضرون آلات معينة ليرصدوا استقامة الطريق وكيفية تمهيده . وقد يعترض استقامة الطريق عقبات صبعة شديدة كَأْدَاء كجبل مثلاً ، فيقوم المهندسون إما بنحت نفق في الجبل ليضمنوا له الاستقامة ، وإما بأن يحني الطريق ليضمنوا جودة تعبيد الطريق . فإن جاء المهندسون وقالوا نمشي من هنا لنضمن استقامة الطريق فإننا نفعل ذلك . وإلاّ جعلوا الطريق متعرجاً أو حلزونيًّا ؛ وذلك ليتفادى السائر العقبات التي ليس له قدرة عليها .

*(70/250)*

---

لكن إذا كان الصراط قد مهده رب ، أتوجد له عقبة ؟ طبعاً لا ، إذن فهو طريق مستقيم .

ولنلحظ أنه سبحانه قال : " صراط ربك " أي أنه جاء بها من ناحية الربوبية ، والربوبية عطاء الرب ، إنه سيد ، ومربٍ ، وخالق الخلق ويضمن لهم ما يعينهم على مهمتهم في الوجود معونة ميسرة سهلةً . وهكذا نعرف أن طريق الحق هو الصراط المعبد المستقيم ، أي الذي يصل بين البداية والنهاية . فإن كان الطريق الذي نتبعه مستقيماً ومعبداً ، وسهلاً

، فلماذا لا نتبعه ؟

" هذا صراط ربك " . ونلحظ أنه سبحانه قد أسند الرب لمحمد ، أي من أجل خاطره جعل الصراط مستقيماً ؛ لأنه سبحانه هو المتولي لربوبيتك يا محمد ، وسبحانه رب الكون كله ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عين أعيان الكون . ﴿ وهذا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [ الأنعام : 126 ]

" فصّلنا " أي أنّ كل شيء في هذا الكون مخلوق لما يناسبه ، وكل قضية من قضايا الكون خلقها ربنا لتحقق الفائدة منها بدون مشقة ، وبدون عنت . والمنهج الذي أنزله الله إنما يصلح الكون ويجعل كل شيء فيه مناسباً لمهمته ؛ لأن الله إله كل الناس وهم بالنسبة إليه سواء لأنه لم يتخذ لا صاحبة ولا ولداً . ولا يعطي سبحانه الحياة لمخلوق ويوجده في الكون ، ثم يعرّيه من أسلحة الحركة في الحياة ، ولكل إنسان سلاح من موهبة أو قدرة وبذلك تتعدد الأسلحة والمواهب والقدرات ، فمن يريد أن يبني بيتاً ، أنقول له : اذهب إلى كلية الهندسة لتتعلم كيف ترسم البيت وتخططه ؟ أنقول له : تعلم كيف تكون فنيًّا وكهربيًّا ونقاشاً ؟ إن الفرد الواحد لا يمكن أن يتعلم كل هذه التخصصات ، لذلك وزّع الله المواهب على خلقه ؛ هذا عنده موهبة ليعمل لنفسه ، ويعمل لغيره .

وبعد ذلك يأتي غيره ليؤدي له عملاً ليس له فيه موهبة بحيث يتكامل المجتمع كله ولا يتكرر أفراده .

ولو كنا تخرجنا جميعاً كأطباء أو مهندسين لما نفعت الدنيا ، ومن نقول عليهم : إنهم فشلوا في التعليم يقومون بأعمال في الحياة ما كنا نستطيع الحياة بدونها ؛ فقد خلقهم الله بقدرات عقلية محدودة ليهبهم قدرات أخرى تصلح في مهمات أخرى . وإن تعلم المجتمع كله تعليماً عالياً لصار الهرم مقلوباً . وإن انقلب الهرم فمعنى هذا أن أجراءً منه ستكون بغير دعائم في الأرض . لذلك نجد أن هناك إعداداً عقليا أراده الحق لكل واحد من الخلق ، ولا نستطيع أن نقول لكل إنسان : تعلم وتخرج في الجامعة ثم اكنس الشارع . وكن في الغد حداداً . لذلك ربط الحق كل عمل بالحاجة إليه ، ومن يحسن استقبال قدر الله في نفسه يُعطِ الله له من العمل كل الخير .

ونلحظ الآن أن من يعمل موظفاً في الدولة يحيا في راتب محدود ، بينما تجد السباك يقدر عمله بأجر يحدده هو ، ويبقى الويل والتعب لمن كان تقدير عمله في يد غيره ﴿ وهذا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ .

وانظر كل قضية في الكون ، لم يُدخل ابن آدم فيها أنفه تجدها مستقيمة ، ولا يأتي الفساد إلا في القضايا التي أدخل ابن آدم أنفه فيها بدون منهج الله . فإن دخلت في كل مسألة بمنهج الله

يستقيم الكون تماماً . ولذلك يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى النظام الأعلى في كونه والذي لا تدخل لنا فيه . ولا سيطرة عليه ؛ السموات ، والكواكب ، والشمس ، والقمر ، وحركة الأرض ، كل تلك الكائنات نجد أمورها تسير بانتظام ، ولذلك يقول لنا الحق سبحانه : ﴿ والسمآء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الميزان * أَلاَّ تَطْغَوْاْ فِي الميزان ﴾ [ الرحمن : 7-8 ]

فإن أردتم أن تستقيم أموركم في شئونكم وأحوالكم الاختيارية فادخلوا فيها بمنهج الله ؛ لأن الأشياء التي تدار بمنهج الله بدون أن يتدخل فيها البشر تؤدي مهمتها كما ينبغي .

*(72/250)*

---

فعلى الإنسان – إذن – أن يتذكر كيف يأخذ من المقدمات التي أمامه ما يوصل إلى النتائج ، ولابد أن يأخذ المقدمات السليمة ليصل إلى الغايات الفطرية . وأقصر الأمور أن تسأل نفسك : أنت صنعة من ؟ صنعة نفسك ؟ لا ، هل أنت من صنعة واحد مثلك ؟ لا . وهل ادّعى واحد في كون الله – وما أكثر ما يُدَّعى – أنه خلقك أو خلق نفسه ؟ لا . بل أنت وهو وكل الكون من صنعة الله ، فدعوا الله يقرر قانون صيانتكم ، وسيظل الناس متعبين إلى أن يسلموا الصنعة إلى خالقها . ﴿ وهذا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الآيات لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ .

ولم يقل فصلنا الآيات لواحد ، بل قال " لقوم " حتى إذا ما مال أو غفل واحد في الفكر بعدله غيره . وكلنا متكافلون في التذكير ، وهذا التكافل في التذكير يعصم كل مؤمن من نفسه ؛ فإن حصل عندي قصور من سهو أو من غفلة أو من هوى يعدله غيري . وهذه قضية كونية لو استقرأت الوجود كله وجدتها لا تتخلف أبدا ، ولا بد من تذكر الغاية التي جاء بها قوله الحق : ﴿ لَهُمْ دَارُ السلام . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(73/250)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله – تعالى – : " مُسْتَقِيماً " حال من " صِرَاط " والعَامِل فيه أحَد شَيْئَيْن : إمَّا " هَا " لما فيها من مَعْنَى التَّنْبيه ، وإمَّا " ذَا " لما فِيهِ من مَعْنَى الإشارةِ ، وهي حال مؤكدَةٌ لا مُبَيِّنَة ؛ لأن صرَاط اللَّه لا يكُون إلاَّ كذلِك .

قال الواحدي : انْتَصَب " مُسْتَقِيماً " على الحَال ، والعَامِل فيه مَعْنَى هذا ، وذلك أن " ذَا " يَتَضَمَّن مَعْنَى الإشارة ؛ كقولك : هذا زَيْدٌ قَائِماً ، مَعْنَاه : أشِيرُ إليه في حَالِ قِيَامِه ، وإذا كان العَامِلُ في الحَالِ مَعْنَا آلفِعْل لا الفِعْل ، لم يَجُزْ تقديمُ الحالِ عليه ، لا يَجُوز : " قَائِماً هذا

زَيْد " و[يجوز] ضَاحِكاً جَاءَ زَيْدٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 426 ﴾

(74/250)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (126) ﴾

الصراطُ المستقيمُ إقامة العبودية عند تحقق الربوبية فهو فرق مؤيَّدٌ بجمع ، وجمعٌ مقيدٌ بشرع ، وإثباتٌ للعرفان بغاية الوسع ، ونبو عن المخالفات بغاية الجهد ، والتحقق بأنَّ المُجْرِي واحدٌ لا شريك له ، ثم تركُ الاعتماد ونفي الاستناد ، لا على (حركاته) يعتمد ، ولا إلى سكناته يستند ، (بل) ينتظر ما يفتح به التقدير ، فإن زاغَ صاحبُ الاستقامة لحظةً ، والتفت يمنةً أو يسرةً سقط سقوطاً لا ينتعش . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 500.501 ﴾

(75/250)

قوله تعالى ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (127) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان التذكر – عند الآيات لا يكون إلاّ من أهل العنايات في طرق الهدايات ، قال مرغباً في التذكر فإنه سبب الفيض الإلهي على القلوب المهيأة له : ﴿ لهم ﴾ أي المتذكرين ﴿ دار السلام ﴾ أي الجنة ، أضافها سبحانه إليه زيادة في الترغيب فيها ، وخص هذا الاسم الشريف لأنه لا يلم بها شيء من عطب ولا خوف ولا نصب ؛ ثم زاد الترغيب فيها بقوله : ﴿ عند ربهم ﴾ أي في ضمان المحسن إليهم وحضرته بما هيأهم له ويسره لهم ﴿ وهو ﴾ أي وحده ﴿ وليهم ﴾ أي المتكفل بتولي أمورهم ، لا يكلهم إلى أحد سواه ، وهذا يدل على قربه منهم ، والعندية تدل على قربهم منه لما شرح من صدورهم بالتوحيد ؛ ولما كان ذلك ربما قصر على التذكر ، بين أن المراد منه التأدية إلى الأعمال فإنها معيار الصدق وميزانه فقال : ﴿ بما ﴾ أي بسبب ما ﴿ كانوا ﴾ أي كما جبلهم عليه ، فما كان ذلك إلاّ بفضله ﴿ يعملون ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 713.714 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما بين عظيم نعمه في الصراط المستقيم وبين أنه تعالى معد مهيىء لمن يكون من المذكورين بين الفائدة الشريفة التي تحصل من التمسك بذلك الصراط المستقيم ، فقال : ﴿ لَهُمْ دَارُ السلام عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ وفي هذه الآية تشريفات .

النوع الأول : قوله : ﴿ لَهُمْ دَارُ السلام ﴾ وهذا يوجب الحصر ، فمعناه : لهم دار السلام لا لغيرهم ، وفي قوله : ﴿ دَارُ السلام ﴾ قولان :

القول الأول : أن السلام من أسماء الله تعالى ، فدار السلام هي الدار المضافة إلى الله تعالى ، كما قيل للكعبة بيت الله تعالى وللخليفة عبد الله .

والقول الثاني : أن السلام صفة الدار ، ثم فيه وجهان : الأول : المعنى دار السلامة ، والعرب تلحق هذه الهاء في كثير من المصادر وتحذفها يقولون ضلال وضلالة ، وسفاه وسفاهة ، ولذاذ ولذاذة ، ورضاع ورضاعة .

الثاني : أن السلام جمع السلامة ، وإنما سميت الجنة بهذا الاسم لأن أنواع السلامة حاصلة فيها بأسرها .

إذا عرفت هذين القولين : فالقائلون بالقول الأول قالوا به لأنه أولى ، لأن إضافة الدار إلى الله تعالى نهاية في تشريفها وتعظيمها وإكبار قدرها ، فكان ذكر هذه الإضافة مبالغة في تعظيم الأمر والقائلون بالقول الثاني رجحوا قولهم من وجهين : الأول : أن وصف الدار بكونها دار السلامة أدخل في الترغيب من إضافة الدار إلى الله تعالى ، والثاني : أن وصف الله تعالى

بأنه السلام في الأصل مجاز ، وإنما وصف بذلك لأنه تعالى ذو السلام ، فإذا أمكن حمل الكلام على حقيقته كان أولى .

النوع الثاني : من الفوائد المذكورة في هذه الآية قوله : ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ وفي تفسيره وجوه :

الوجه الأول : المراد أنه معد عنده تعالى كما تكون الحقوق معدة مهيأة حاضرة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [ البينة : 8 ] وذلك نهاية في بيان وصولهم إليها ، وكونهم على ثقة من ذلك .

*(76/250)*

---

الوجه الثاني : وهو الأقرب إلى التحقيق أن قوله : ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ يشعر بأن ذلك الأمر المدخر موصوف بالقرب من الله تعالى ، وهذا القرب لا يكون بالمكان والجهة ، فوجب كونه بالشرف والعلو والرتبة ، وذلك يدل على أن ذلك الشيء بلغ في الكمال والرفعة إلى حيث لا يعرف كنهه إلا الله تعالى ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [ السجدة : 17 ] .

الوجه الثالث : أنه قال في صفة الملائكة : ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [ الأنبياء : 19 ] وقال في صفة المؤمنين في الدنيا أنا عند المنكسرة قلوبهم لأجلي وقال أيضاً أنا عند ظن

عبدي بي وقال في صفتهم يوم القيامة : ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [ القمر : 55 ] وقال في دارهم : ﴿ لَهُمْ دَارُ السلام عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ وقال في ثوابهم : ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [ البينة : 8 ] وذلك يدل على أن حصول كمال صفة العبودية بواسطة صفة العندية .

*(77/250)*

---

النوع الثالث : من التشريفات المذكورة في هذه الآية قوله : ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُم ﴾ والولي معناه القريب ، فقوله : ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ يدل على قربهم من الله تعالى ، وقوله : ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُم ﴾ يدل على قرب الله منهم ، ولا نرى في العقل درجة للعبد أعلى من هذه الدرجة ، وأيضاً فقوله : ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُم ﴾ يفيد الحصر ، أي لا ولي لهم إلا هو ، وكيف وهذا التشريف إنما حصل على التوحيد المذكور في قوله : ﴿ فَمَن يُرِدِ الله أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسلام وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً ﴾ فهؤلاء الأقوام قد عرفوا من هذه الآية أن المدبر والمقدر ليس إلا هو ، وأن النافع والضار ليس إلا هو ، وأن المسعد والمشقي ليس إلا هو ، وأنه لا مبدىء للكائنات والممكنات إلا هو ، فلما عرفوا هذا انقطعوا عن كل ما سواه ، فما كان رجوعهم إلا إليه ، وما كان توكلهم إلا عليه ، وما كان أنسهم إلا به ، وما كان خضوعهم

إلا له ، فلما صاروا بالكلية ، لا جرم قال تعالى : ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُم ﴾ وهذا إخبار بأنه تعالى متكفل بجميع مصالحهم في الدين والدنيا ، ويدخل فيها الحفظ والحراسة والمعونة والنصرة وإيصال الخيرات ودفع الآفات والبليات .

ثم قال تعالى : ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ وإنما ذكر ذلك لئلا ينقطع المرء عن العمل ، فإن العمل لا بد منه ، وتحقيق القول فيه : أن بين النفس والبدن تعلقاً شديداً ، فكما أن الهيآت النفسانية قد تنزل من النفس إلى البدن ، مثل ما إذا تصور أمراً مغضباً ظهر الأثر عليه في البدن ، فيسخن البدن ويحمى ، فكذلك الهيآت البدنية قد تصعد من البدن إلى النفس ، فإذا واظب الإنسان على أعمال البر والخير ظهرت الآثار المناسبة لها في جوهر النفس ، وذلك يدل على أن السالك لا بد له من العمل ، وأنه لا سبيل له إلى تركه ألبتة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 154 . 155 ﴾

*(78/250)*

---

وقال الثعلبي :

﴿ لَهُمْ دَارُ السلام عِندَ رَبِّهِمْ ﴾

يعني الجنة في الآخرة .

قال أكثر المفسرين : السلام هو اللّه عز وجل وداره الجنة . وقيل : سميت الجنة دار السلام لسلامتها من الآفات والعاهات .

وقيل : لأن من دخلها سلم من البلايا والرزايا أجمع .

وقيل : لأنها سلمت من دخول أعداء اللّه كيلا ينتغص أولياء الله فيها كما يُنغّص مجاورتهم في الدنيا .

وقيل : سميت بذلك لأن كل حالة من حالات أهلها مقرونة بالسلام فاما إبتداء دخولها فقوله ﴿ لَهُمْ دَارُ السلام عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ وبعد ذلك قوله ﴿ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾ الآية [ الرعد : 23 ] . وبعده قوله ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ ﴾ [ يونس : 10 ] وبعده قوله ﴿ لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلاَّ سَلاَماً ﴾ [ مريم : 62 ] وقوله ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ تَأْثِيماً * إِلاَّ قِيلاً سَلاَماً سَلاَماً ﴾ [ الواقعة : 25-26 ] وبعده قوله ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ ﴾ [ الأحزاب : 44 ] وبعد ذلك ﴿ سَلاَمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [ يس : 58 ] . فلما كان حالات أهل الجنة مقرونة بالسلام إما من الخلق وإما من الحق سمّاها اللّه دار السلام ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ ﴾ ناصرهم ومعينهم ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ .

قال الحسن بن الفضل : يعني يتولاهم في الدنيا بالتوفيق وفي الآخرة بالجزاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

---

والضمير في قوله ﴿ لهم ﴾ عائد على القوم المتذكرين و﴿ السلام ﴾ يتجه فيه معنيان ، أحدهما أن السلام اسم من أسماء الله عز وجل فأضاف " الدار " إليه هي ملكه وخلقه ، والثاني أنه المصدر بمعنى السلامة ، كما تقول السلام عليك ، وكقوله عز وجل ﴿ تحيتهم فيها سلام ﴾ [ يونس : 10 ] يريد في الآخرة بعد الحشر ، و﴿ وليهم ﴾ أي ولي الأنعام عليهم ، و﴿ بما كانوا يعملون ﴾ أي مسبب ما كانوا يقدمون من الخير ويفعلون من الطاعة والبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ لهم دار السلام ﴾

يعني : الجنة .

وفي تسميتها بذلك أربعة أقوال .

أحدها : أن السلام ، هو الله ، وهي داره ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والسدي .

والثاني : أنها دار السلامة التي لا تنقطع ، قاله الزجاج .

والثالث : أن تحية أهلها فيها السلام ، ذكره أبو سليمان الدمشقي .

والرابع : أن جميع حالاتها مقرونة بالسلام ، ففي ابتداء دخولهم : ﴿ ادخلوها بسلام ﴾ [ الحجر : 46 ] وبعد استقرارهم : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ﴾ [ الرعد : 23-24 ] وقوله : ﴿ إلا قيلا سلاماً سلاماً ﴾ [ الواقعة : 25 ] وعند لقاء الله : ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ [ يس : 58 ] وقوله ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ [ الأحزاب : 44 ] ومعنى ﴿ عند ربهم ﴾ أي مضمونة لهم عنده ﴿ وهو وليهم ﴾ أي متولي إيصال المنافع إليهم ودفع المضار عنهم ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ من الطاعات .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال النسفى :

﴿ لَهُمْ ﴾ أي لقوم يذكرون ﴿ دَارُ السلام ﴾ دار الله يعني الجنة أضافها إلى نفسه تعظيماً لها ، أو دار السلامة من كل آفة وكدر ، أو السلام التحية سميت دار السلام لقوله : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سلام ﴾ [ يونس : 10 ] .

*(80/250)*

---

﴿ إِلاَّ قِيلاً سلاما سلاما ﴾ [ الواقعة : 26 ] ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ في ضمانة ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُم ﴾ محبهم أو ناصرهم على أعدائهم ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ بأعمالهم أو متوليهم بجزاء ما

كانوا يعملون أو هو ولينا في الدنيا بتوفيق الأعمال وفي العقبى بتحقيق الآمال . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 33 ﴾

وقال البيضاوى :

﴿ لَهُمْ دَارُ السلام ﴾ دار الله أضاف الجنة إلى نفسه تعظيماً لها ، أو دار السلامة من المكاره أو دار تحيتهم فيها سلام . ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ في ضمانه أو ذخيرة لهم عنده لا يعلم كنهها غيره . ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُم ﴾ مواليهم أو ناصرهم . ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ بسبب أعمالهم أو متوليهم بجزائها فيتولى إيصاله إليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 452 ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ ﴾ أي للمتذكرين .

﴿ دَارُ السلام ﴾ أي الجنة ، فالجنة دار الله ؛ كما يقال : الكعبة بيت الله .

ويجوز أن يكون المعنى دار السلامة ، أي التي يسلم فيها من الآفات .

ومعنى ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي مضمونة لهم عنده يوصلهم إليها بفضله .

﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ ﴾ أي ناصرُهم ومُعينهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ لهم دار السلام عند ربهم ﴾

يعني الجنة في قول جميع المفسرين .

قال الحسن والسدي : السلام هو الله تعالى وداره الجنة .

معنى السلام في أسماء الله تعالى ذو السلام وهو جمع سلامة لأنه تعالى ذو السلامة من جميع الآفات والنقائص فعلى هذا القول أضيفت الدار إلى السلام الذي هو اسم الله تعالى إضافة تشريف وتعظيم كما قيل للكعبة بيت الله وللنبي صلى الله عليه وسلم عبد الله في قوله ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه ﴾ واحتج لصحة هذا بأن في إضافة الدار إلى الله تعالى نهاية تشريفها وتعظيمها فكان ذكر الإضافة مبالغة في تعظيم أمرها .

*(81/250)*

---

وقيل إن السلام صفة للدار لأنها دار السلامة الدائمة التي لا تنقطع فعلى هذا يكون السلام بمعنى السلامة كأنه قال دار السلامة التي لا يلقون فيها شيئاً يكرهونه .

وقيل سميت بذلك لأن جميع حالاتها مقرونة بالسلامة كما قال تعالى في وصفها ﴿ ادخلوها بسلام آمنين والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ﴾ وقال ﴿ تحيتهم فيها سلام ﴾ وقال ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ ﴿ لا يسمعون فيها لغواً إلا

سلاماً ﴾ وقوله ﴿ عند ربهم ﴾ يعني أن الجنة معدة مهيأة لهم عند ربهم حتى يوصلهم إليها ﴿ وهو وليهم بما كانوا يعملون ﴾ يعني أنه تعلى يتولى أمرهم وإيصال المنافع إليهم ويدفع المضار عنهم.

وقيل معناه أنه يتولاهم في الدنيا بالتوفيق والهداية وفي الآخرة بالجزاء والجنة.

وقيل: الولي هو الناصر والقريب يعني أنه تعالى ينصرهم في الدنيا ويقربهم في الآخرة بسبب أعمالهم الصالحة التي كانوا يتقربون بها إليه في الدنيا. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

*(82/250)*

---

وقال أبو حيان:

﴿ لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون ﴾

أي لهم الجنة و﴿ السلام ﴾ اسم من أسماء الله تعالى كما قيل في الكعبة بيت الله قاله ابن عباس وقتادة وأضيفت إليه تشريفاً أو دار السلامة من كل آفة والسلام والسلامة بمعنى كاللذاذ واللذاذة والضلال والضلالة قاله الزجاج، أو ﴿ دار السلام ﴾ بمعنى التحية لأن تحية أهلها فيها سلام قاله أبو سليمان الدمشقي، ومعنى ﴿ عند ربهم ﴾ في نزله

وضيافته كما تقول : نحن اليوم عند فلان أي في كرامته وضيافته قاله قوم ، أو في الآخرة بعد الحشر قاله ابن عطية ، أو في ضمانه كما تقول لفلان : عليّ حق لا ينسى أو ذخيرة لهم لا يعلمون كنهها لقوله : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين ﴾ قاله قوم منهم الزمخشري أو على حذف مضاف ، أو عند لقاء ربهم قاله قوم أو في جواره كما جاء في جوار الرحمن في جنة عدن على الظرفية المجازية الدالة على شرف الرتبة والمنزلة ، كما قاله في صفة الملائكة ﴿ ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ﴾ وكما قال ﴿ في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ وكما قال ﴿ ابن لي عندك بيتاً في الجنة ﴾ وهو وليهم أي مواليهم ومحبهم أو ناصرهم على أعدائهم أو متوليهم بالجزاء على أعمالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ لَهُمْ دَارُ السلام ﴾ أي للمتذكرين دارُ السلامة من كل المكاره وهي الجنة ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي في ضمانه ، أو ذخيرةٌ لهم عنده لا يعلم كُنهَها غيرُه تعالى ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُم ﴾ أي مولاهم وناصرُهم ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ بسبب أعمالِهم الصالحةِ ، أو متولِّيهم بجزائها يتولى إيصالَه إليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ لَهُمْ ﴾ أي لهؤلاء القوم ﴿ دَارُ السلام ﴾ أي الجنة كما قال قتادة ، والسلام هو الله تعالى كما قال الحسن .

وأبن زيد والسدي .

وإضافة الدار إليه سبحانه للتشريف .

وقال الزجاج والجبائي : ﴿ السلام ﴾ بمعنى السلامة أي دار السلامة من الآفات والبلايا وسائر المكاره التي يلقاها أهل النار .

وقيل : هو بمعنى التسليم أي دار تحيتهم فيها سلام ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي في ضمانه وتكفله التفضلي أو ذخيرة لهم عنده لا يعلم كنه ذلك غيره .

والجملة مستأنفة ، وقيل : صفة لقوم ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُم ﴾ أي محبهم أو ناصرهم ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي بسبب أعمالهم الصالحة أو متوليهم متلبساً بجزائها بأن يتولى إيصال الثواب إليهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

الضّمير في : ﴿ لهم دار السلام ﴾ عائد إلى ﴿ قوم يذّكَّرون ﴾ [ الأنعام : 126 ] .

والجملة إمّا مستأنفة استئنافاً بيانياً : لأنّ الثّناء عليهم بأنّهم فُصّلت لهم الآيات ويتذكّرون

بها يثير سؤال مَن يسأل عن أثر تبيين الآيات لهم وتذكُّرهم بها ، فقيل : ﴿ لهم دار السلام ﴾ .

وإمّا صفة : ﴿ لقوم يذّكّرون ﴾ [ الأنعام : 126 ] .

وتقديم المجرور لإفادة الاختصاص للقوم الذين يذكّرون لا لغيرهم .

والدّارُ : مكان الحلول والإقامة ، ترادف أو تقارب المحلّ من الحُلول ، وهو مؤنّث تقديراً فيصغَّر على دويرة .

والدّار مشتقّة من فعل دار يدور لكثرة دوران أهلها ، ويقال لها : دارة ، ولكن المشهور في الدارة أنّها الأرض الواسعة بين جبال .

*(84/250)*

---

والسّلام : الأمان ، والمراد به هنا الأمان الكامل الّذي لا يعتري صاحِبه شيء ممّا يُخاف من الموجودات جواهرها وأعراضها ، فيجوز أن يراد بدار السّلام الجنّة سمّيت دار السّلام لأنّ السّلامة الحقّ فيها ، لأنَّها قرار أمن من كلّ مكروه للنّفس ، فتمحّضت للنَّعيم الملائم ، وقيل : السّلام ، اسم من أسماء الله تعالى ، أي دار الله تعظيماً لها كما يقال للكعبة : بيت الله ، ويجوز أن يراد مكانة الأمان عند الله ، أي حالة الأمان من غضبه وعذابه ، كقول النّابغة:

كم قد أحلّ بدار الفقر بعد غنىً

عمرو وكم راش عمرو بعد إقتار

و﴿ عند ﴾ مستعارة للقرب الاعتباري ، أريد به تشريف الرتبة كما دلّ عليه قوله عَقِبه : ﴿ وهو وليّهم ﴾ ، ويجوز أن تكون مستعارة للحفظ لأنّ الشيء النّفيس يُجعل في مكان قريب من صاحبه ليحفظه ، فيكون المعنى تحقيق ذلك لهم ، وأنَّه وعد كالشّيء المحفوظ المدّخر ، كما يقال : إن فعلت كذا فلك عندي كذا تحقيقاً للوعد .

والعدول عن إضافة ﴿ عند ﴾ لضمير المتكلّم إلى إضافته للاسم الظاهر : لقصد تشريفهم بأنّ هذه عطيّة مَن هو مولاهم .

فهي مناسبة لفضله وبرّه بهم ورضاه عنهم كعكسه المتقدّم آنفاً في قوله تعالى : ﴿ سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله ﴾ [ الأنعام : 124 ] .

وعطف على جملة : ﴿ لهم دار السلام ﴾ جملة : ﴿ وهو وليهم ﴾ تعميماً لولاية الله إيَاهم في جميع شؤونهم ، لأنَّها من تمام المنّة .

والوليّ يطلق بمعنى النّاصر وبمعنى الموالي .

وقوله : ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ يجوز أن يتعلّق بما في معنى الخبر في قوله : ﴿ لهم دار السلام ﴾ ، من مفهوم الفعل ، أي ثبت لهم ذلك بما كانوا يعملون ، فتكون الباء سببيّة ، أي بسبب أعمالهم الحاصلة بالإسلام ، أو الباء للعوض : أي لهم ذلك جَزاء بأعمالهم ، وتكون جملة : ﴿ وهو وليهم ﴾ معترضة بين الخبر ومتعلّقه ، ويجوز أن يَكون : ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ متعلّقا بـ ﴿ وليّهم ﴾ أي وهو ناصرهم ، والباء للسّببيّه : أي بسبب أعمالهم تولاّهم ، أو الباء للملابسة ، ويكون : ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ مراداً به جزاء أعمالهم ، على حذف مضاف دلّ عليه السّياق .

وتعريف المسند بالإضافة في قوله : ﴿ وليهم ﴾ أفاد الإعلام بأنّ الله وليّ القوم المتذكّرين ، ليعلموا عظم هذه المنّة فيشكروها ، وليعلم المشركون ذلك فيغيظهم .

وذلك أنّ تعريف المسند بالإضافه يخالف طريقة تعريفه بغير الإضافة ، من طرق التّعريف ، لأنّ التّعريف بالإضافة أضعف مراتب التّعريف ، حتّى أنَّه قد يقرب من التّنكير على ما ذكره المُحقّقون : من أنّ أصل وضع الإضافة على اعتبار تعريف العهد ، فلا يُقال : غلام زيد ، إلاّ لغلام معهود بين المتكلّم والمخاطب بتلك النّسبة ، ولكن الإضافة قد تخرج عن ذلك في الاستعمال فتجيء بمنزلة النكرة المخصوصة بالوصف ، فتقول : أتاني غلامُ زيد بكتاب منه وأنت تريد غلاماً له غير معيَّن عند المخاطب ، فيصير المعرّف بالإضافة حينئذ كالمعرّف بلام الجنس ، أي يفيد تعريفاً يميّز الجنس من بين سائر الأجناس ،

فالتّعريف بالإضافة يأتي لما يأتي له التّعريف باللام .

ولهذا لم يكن في قوله : ﴿ وهو وليهم ﴾ قَصْر ولا إفاده حُكم معلوم على شيء معلوم .

وممّا يزيدك يقينا بهذا قوله تعالى : ﴿ ذلك بأنّ الله مولى الذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم ﴾ [ محمد : 11 ] فإنّ عطف : ﴿ وأنّ الكافرين لا مولى لهم ﴾ على قوله : ﴿ بأنّ الله مولى الذين آمنوا ﴾ أفاد أنّ المراد بالأوّل إفادة ولاية الله للّذين آمنوا لا الإعلام بأنّ من عرف بأنَّه مولى الّذين آمنوا هو الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

*(86/250)*

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (127) ﴾

أي أن لهؤلاء المتقدمين الذين صبروا وصابروا ورابطوا ، لهم دار السلام ، وهو أسلوب مكون – كما يقال – من مبتدأ وخبر ، الا أن المبتدأ أُخِّر هنا ، والخبر تقدّم ، وكان المنطق أن يقال : " دار السلام لهؤلاء " ولكن الأسلوب القرآني جاء ليقدم الخبر المكون من الجار والمجرور ومتعلقه ، ويؤخر المبتدأ وذلك لخصوصية أرادها الحق ، وهي أن هذه الدار لهم وحدهم دون غيرهم فهي خالصة لهم يوم القيامة و" دار السلام " مكونة من كلمتين ، " دار

" ومعناها ما يستقر فيه الإنسان ، ويجمع هذا المكان كل ما تتطلبه حياة الإنسان ، وهي أوسع قليلاً من كلمة " بيت " ؛ لأن البيت مكان يعد للبيتوتة ، لكن كلمة " دار " تعد للحياة ولما يتعلق بالحياة من مقوماتها .

و" دار " هنا مضافة إلى السلام ، وهو – كما نعلم – اسم من أسماء الله ، إذن فالحق هنا يوضح : لهم دار منسوبة للسلام وهو الله ، وهم مستحقون لها جزاءً منه ، فإذا كانت الدار التي وعدها الله هي دار السلام وهو الله ، فلابد أن فيها متعاً وامكانات على قدر فضل المضاف إليه وهو الله ، ولماذا لم يقل الله : " دار الله " ؛ لأن الله أراد أن يأتي بوصف آخر من أوصافه ؛ ليعطيهم السلام والأمن والاطمئنان .

وهناك فرق بين دور الدنيا ، وهذه الدار ؛ فدور الدنيا فيها متع ، ولكنك فيها بين أمرين : إما أن تفوت أنت ما هي فيه ، وإما أن يفوتك ما فيها ، ولذلك لا يوجد في الدنيا أمن ؛ لأن غيرك قد يناوئك فيها ويعاديك ، وقد تأتي لك مكدرات المرض ، وقد تأتي لك معكرات الأعداء ، كل ذلك ينغص عليك الأمن والسلام في الدنيا . ولذلك أراد الحق ان تكون لك الآخرة دار السلام مادمت قد آمنت ، وأن تأمن فيها من كل الآفات التي كانت في دار الدنيا . ﴿ لَهُمْ دَارُ السلام عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [ الأنعام : 127 ]

وكأن دار السلام ليست وعداً من الله بأن تكون ، ولكنها جاهزة معدة عند الله ومحفوظة لديه تنتظر المؤمنين ، وسبحانه قد خلق جناناً تتسع لكل خلقه على فرض أنهم آمنوا ، وجعل من النار مثل ذلك على قدر خلقه ، على فرض وتقدير أنهم كفروا . وسيأخذ المؤمنون ما أعد لهم من دور الإيمان ويرثون ما أعد للكافرين من دور الإيمان على فرض أنهم آمنوا في الدنيا . ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الوارثون * الذين يَرِثُونَ الفردوس هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [ المؤمنون : 10-11 ]

فلم يخلق الحق جناناً محدودة ، لا ، بل أعد وهيأ من الجنان ما يتسع لكل الخلق إن امنوا ، ومن النيران ما يتسع لكل الخلق إن كفروا . وما دامت العندية منسوبة إلى الله فهي عندية مأمونة .

وبعد ذلك أيتخلّى الله عنهم ويكلهم إلى ما أعدّه لهم ؟ . لا ، بل قال : ﴿ . . وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [ الأنعام : 127 ]

فهناك إعداد ، ثم قيومة ولاية الله ، وهذه القيومة لله ، هي للمؤمنين في الدنيا ، لكن فلنلاحظ أن الولاية في الدنيا قد تكون فيها أسباب مخلوقة لله ، لكن في الآخرة هناك الجزاء الذي لا يكله الله للأسباب ، فتكون الولاية مباشرة له ؛ لأنه سيعطيك فوراً ، وإذا خطر أي شيء ببالك تجده حاضراً : فهي متعة على غير ما ألف الناس ؛ لأن الناس يتمتعون في

الدنيا بواسطة الأسباب المخلوقة لله . ولكن في الآخرة فلا ملكية لأحد حتى في الأسباب ، لذلك يقول سبحانه : ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم . . ﴾ [ غافر : 16 ]

وستجد الإجابة هي قوله – سبحانه – : ﴿ لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ [ غافر : 16 ]

*(88/250)*

---

والحق هو الولي الذي يليك ، قرباً تنتفع به ، فلا تضطر حتى أن تنادي عليه ليأتي لك بالمنافع ويدفع عنك المضار كما عمل لك في الدنيا ووفقك للعمل وهو وليك في الآخرة بحسن الجزاء لك بسبب ما كنت تعمل ؛ فالعمل في الدنيا هو الزرع وهو الحرث لثمرة الآخرة . ولكن أيعطينا الله على قدر أعمالنا ؟ لا ، بل يعطينا على قدر صبرنا ؛ لأنه إن كان العطاء على قدر الأعمال ، إننا لو حسبناها لما أدينا ثمن عشر معشار نعم الله علينا في الدنيا . فكأننا نعمل في الدنيا لنؤدي شكر ما أفاء علينا وأعطانا من النعم ، فإذا جاء الحق سبحانه وتعالى وأعطانا بعد ذلك ثواباً فهو الفضل منه ، ولذلك يوضح الحق لنا : إياكم حين توفقون في العمل أن تفتتنوا بأعمالكم ، بل عليكم أن تتذكروا ان ذلك فضل من الله : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ فبذلك فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [ يونس : 58 ]

وقد شرح النبي عليه الصلاة والسلام هذا الأمر وقال : " لن يُدْخِل أحداً منكم عملُه الجنة

، قالوا : ولا أنتَ يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة . "

إذن المسألة كلها بالفضل من الله ، ولكن فضل الله شرطه العمل الصالح ؛ فأنت تعمل العمل الصالح ، ويعطيك ربنا أضعافه ، وبطبيعة الحال فعملك لن ينفع جلاله أو جماله أو كماله أو يزيده صفة أو يزيده ملكاً ، لكنه يعطيك على ما عملته لنفعك ولنفع بني جنسك .

*(89/250)*

---

ولذلك نجد الإِمام الرازي – رضي الله عنه – يقول : إن العمل في ذاته يورث الذات شيئًا من الصفاء الذي ترتاح له وتسعد به ، حتى تجد الجزاء في الراحة ، والراحة النفسية هي الأمر المعنوي الذي يوجد في بنية مادية هي قالبك . فساعة يوجد شيء في النفس فهو يؤثر في القالب أغياراً ، فإذا غضب الإنسان فهذا الغضب يظهر أثره في البينة نفسها فيحمر الوجه ، ويرتعش الإِنسان للانفعال بالغضب ، والغضب أمر معنوي لكنه أثّر في البينة ، وكذلك إذا ما حدث ما يسرّك ، يظهر ذلك في البينة أيضاً ؛ فتشرق وتهلل أساريرك . إذن فالعمل يؤثر في البينة ، والبينة تؤثر في العمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(90/250)*

" فوائد بلاغية "

قال الشيخ الصابونى :

البَلاَغَة : 1 - ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ ﴾ التعرض لوصف الربوبية والإِضافة إِلى ضميره عليه السلام ﴿ رَبُّكَ ﴾ لتشريف مقامه وللمبالغة في اللطف في التسلية .

2 - ﴿ الحق مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِّن الممترين ﴾ [ آل عمران : 60 ] الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم على طريق التهييج والإِلهاب .

3 - ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ أي تمَّ كلامه ووحيه أطلق الجزء وأراد الكل فهو مجاز مرسل .

4 - ﴿ وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثم وَبَاطِنَهُ ﴾ بين لفظ ﴿ ظاهر ﴾ و ﴿ باطن ﴾ طباقٌ .

5 - ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ الموت والحياة ، والنور والظلمة كلها من باب الاستعارة فقد استعار الموت للكفر والحياة للإِيمان وكذلك النور والظلمات للهدى والضلال .

6 - ﴿ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ ﴾ الشرح كناية عن قبول النفس للحق والهدى الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وبين لفظ الشرح والضيق طباقٌ وهو من المحسنات البديعية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 417 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله – تعالى – ﴿ لَهُمْ دَارُ السلام عِندَ رَبِّهِمْ ﴾

يحتمل أن تكُون هذه الجُمْلَة مُسْتَأنفة ، فلا مَحَلَّ لها ؛ كأن سَائِلاً سَأل عمّا أعدَّ اللَّه لهمن فَقِيل له ذلِك ، ويُحْتَمَل أن يَكُون حالاً من فَاعِل " يذّكرُون " ، ويُحْتَمل أن يَكُون وَصْفاً لِقَوْم ، وعلى هَذَيْن الوَجْهَيْن فَيَجُوز أن تكُون الحَالُ أوالوصْفُ الجَارُّ والمجْرُور فَقَط ، ويَرْتَفِعث " دَار السَّلام " بالفَاعِليَّة ، وهذا عِنْدَهُم أوْلى ؛ لأنه أقْرَبُ إلى المُفْرَد من الجُمْلَة ، والأصْل في الوَصْفِ والحَالِ والخَبَر الإفْرَاد ، فما قَرُبَ إليه فهو أوْلَى .

و " عِنْد ربِّهِمْ " حال من " دارُ " ويجُوز أن يَنْتَصِب " عِنْدَ " بنَفْس " السَّلام " ؛ لأنه مَصْدَرٌ ، أي : يُسَلَّم عليهم عِنْدَ رَبِّهِم ، أي : في جَنَّتِهِ ، ويجُوز أن يَنْتَصِب بالاسْتِقْرَار في " لَهُمْ " .

وقوله : " وهُوَ وَلِيُّهم " يحتمل أيضاً الاسْتِئْنَاف ، وأن يكون حالاً ، أي : لهُمْ دارُ السلام ، والحال أن اللَّه وَلِيُّهم ونَاصِرُهم .

" وبما كانوا " الباء سَبَبِيَّة ، و" مَا " بمعْنَى الّذِي ، أو نَكِرة أو مَصدريَّة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 426. 427 ﴾

(92/250)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ .

دار السلام أي دار السلامة ، ومَنْ كان في رِقّ شيء من ( الأغراض ) والمخلوقات لم يجد السلامة ، وإنما يجد السلامة مَنْ تحرر عن رِقّ المُكوّنَات ، والآية تشير إلى أنَّ القومَ في الجنة لكنهم ليسوا في أَسْرِ الجنة ، بل تحرروا من رِقّ كل مُكوَّن .

ويقال مَنْ لم يُسلِّمْ – اليوم – على نفسه وروحه وكلِّ ماله من كل كريمة وعظيمة تسليمَ وداعٍ لا يجد – غداً – ذلك الفضْل ، فمن أراد أن يُسلِّم عليه ربُّه – غداً – فَلْيُسَلِّمْ على ( الكون ) بجملته ، وأولاً على نفسه وروحه .

ويقال دار السلام غداً لمن سَلِمَ – اليوم – لسانُه عن الغيبة ، وجَنانه عن الغيبة ، وأبشاره وظواهره من الزَّلّة ، وأسراره وضمائره من الغفلة ، وعقله من البدعة ، ومعاملته من الحرام

والشبهة ، وأعماله من الرياء والمصانعة ، وأحواله من الإعجاب .

ويقال شرفُ قَدْرِ تلك الدار لكونها في محل الكرامة ، واختصاصها بِعِنْدية الزُّلفة ، وإلا فالأقطار كلها ديار ، ولكن قيمة الدار بالجار ، قال قائلهم :

إنّي لأحسد داراً في جِوارِكمُ . . . طوبى لمن أضحى لدارك جارا

يا ليت جارَكَ يعطيني من داره شِبراً . . . إذاً لأعطيه بِشْبرٍ دارا

ويقال : وإن كانت الدارُ منزهةً عن قبول الجار ، وليس القرب منه بتداني الأقطار ، فإطلاق هذا اللفظ لقلوب الأحباب مؤنسٌ ، بل لو جاز القربُ في وصفه من حيث المسافة لم يكن لهذا كبير أثر ، وإنما حياة القلوب بهذا ، لأن حقيقته مقدسة عن هذه الصفات ؛ فهو لأَجْلِ قلوب الأحباب يُطْلق هذا ويقع العلماء في كد التأويل ، وهذا هو أمارة الحب ، قال قائلهم :

أنا من أَجْلِكَ حُمّلْتُ الأ . . . ذى الذي لا أستطيع

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

هذا شرف قدر تلك المنازل حيث قال : ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُم ﴾ لأنه إذا كان – سبحانه – هو وليّهم فإنَّ المنازل بأَسرِها طابت كيفما كانت ، قال قائلهم :

أهوى هواها لمن قد كان ساكنها . . . وليس في الدار لي همٌّ لا وَطَرُ

هو وليُّهم في دنياهم ، ووليُّهم في عقباهم ، هو وليهم في أولادهم وفي أخراهم ، وليهم الذي استولى حديثه على قلوبهم ، فلم يَدَعْ فيها لغيره نصيباً ولا سِوىً وليهم الذي هو أَوْلَى بهم منهم وليُّهم الذي آثرهم على أضرابهم وأشكالهم فآثروه في جميع أحوالهم وليهم الذي تطلب رضاهم ، وليهم الذي لم (يَكْلُهُم) إلى هواهم ، ولا إلى دنياهم ، ولا إلى عقباهم .

وليُّهم الذي بأفضاله يلاطفهم ، وبجماله وجلاله يكاشفهم .

وليُّهم الذي اختطفهم عن كل حظ ونصيب ، وحال بينهم وبين كل حميم وقريب ، فحرَّرهم عن كل موصوف ومطلوب ومحبوب ، وليُّهم الذي هو مؤنِس أسرارهم .

مَشَاهِدهُ مُعْتَكِفُ أبصارهم ، وحضْرَتهُ مَرْتَعُ أرواحهم .

وليُّهم الذي ليس لهم سواه ، وليهم الذي لا يشهدون إلا إياه ، ولا يجدون إلا إياه ، لا في بدايتهم يقصدون غيره ، ولا في نهايتهم يجدون غيره ، ولا في وسائلهم يشهدون غيره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 501.502 ﴾

*(94/250)*

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ ﴾

وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ كما قالوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ ، وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى كما قالوا : فَأْتُوا بِآبائِنا ، وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا كما قالوا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلًا قبلا كفلاء بصحة ما بشرنا به وأنذرنا ، أو جماعات . وقيل قُبُلًا مقابلة . وقرئ قُبُلًا أى عيانا «2» إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ مشيئة إكراه واضطرار «3» وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ فيقسمون

---

(1) . قوله «حتى يعمهوا فيه» أى يتحيروا . (ع)

(2) . قوله «و قرئ قبلا أى عيانا» في الصحاح : رأيته قبلا وقبلا – بالضم – أى مقابلة وعيانا . ورأيته قبلا – بكسر القاف – قال الله تعالى أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ قُبُلًا أى عيانا . (ع)

(3) . قال محمود : «معناه إلا أن يشاء الله مشيئة إكراه واضطرار . . . الخ قال أحمد : بل المراد إلا أن يشاء الله منهم اختيار الايمان ، فانه تعالى لو شاء منهم اختيارهم للايمان لاختاروه وآمنوا حتما . ما شاء الله كان . والزمخشري بنى على القاعدة الفاسدة في اعتقاده أن الله تعالى شاء منهم الايمان اختياراً فلم يؤمنوا ، إذ لا يجب على زعم طائفته نفوذ المشيئة ، ولا يطلقون القول كما أطلقه سلف هذه الأمة وحملة شريعتها . من قولهم : ما

شاء اللّه كان وما لم يشأ لم يكن ، بل يقولون إن أكثر ما شاءه لم يقع ، إذ شاء الايمان والصلاح من جميع الخلق ، فلم يؤمن ويعمل الصالح إلا القليل ، وقليل ما هم . وهذا كله مما يتعالى اللّه عنه علواً كبيراً ، فإذا صد منهم مثل هذه الآية بالرد تحيلوا في المدافعة بحمل للمشيئة المنفية على مشيئة القسر والاضطرار ، وإنما لم يتم لهم ذلك أن لو كان القرآن يتبع الآراء ، وأما وهو القدوة والمتبوع ، فما خالفه حينئذ وتزحزح عنه فالى النار ، وما بعد الحق إلا الضلال ، واللّه الموفق للصواب .

*(95/250)*

---

باللّه جهد أيمانهم على ما لا يشعرون من حال قلوبهم عند نزول الآيات . أو ولكنّ أكثر المسلمين يجهلون أن هؤلاء لا يؤمنون إلا أن يضطرّهم فيطمعون في إيمانهم إذا جاءت الآية المقترحة .

[سورة الأنعام (6) : آية 112]

وَكَذٰلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيٰاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ (112)

وَكَذٰلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا وكما خلينا بينك وبين أعدائك ، كذلك فعلنا بمن قبلك من

الأنبياء وأعدائهم ، لم نمنعهم من العداوة ، لما فيه من الامتحان الذي هو سبب ظهور الثبات والصبر . وكثرة الثواب والأجر . وانتصب شَيَاطِينَ على البدل من عدوّا . أو على أنهما مفعولان كقوله وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ الْجِنَّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ يوسوس شياطين الجنّ إلى شياطين الإنس . وكذلك بعض الجنّ إلى بعض وبعض الإنس إلى بعض . وعن مالك ابن دينار : إنّ شيطان الإنس أشد عليّ من شيطان الجنّ ، لأنى إذا تعوّذت باللّه ذهب شيطان الجنّ عنى ، وشيطان الإنس يجيئني فيجرّنى إلى المعاصي عيانا زُخْرُفَ الْقَوْلِ ما يزينه من القول والوسوسة والإغراء على المعاصي ويموّهه غُرُوراً خدعا وأخذاً على غرّة وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ ما فعلوا ذلك ، أى ما عادوك ، أو ما أوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول بأن يكفهم ولا يخليهم وشأنهم .

[سورة الأنعام (6) : آية 113]

وَلِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ (113)

وَلِتَصْغى جوابه محذوف تقديره : وليكون ذلك جعلنا لكل نبىّ عدوّاً ، على أن اللام لام الصيرورة وتحقيقها ما ذكر . والضمير في إِلَيْهِ «1» يرجع إلى ما رجع إليه الضمير في فعلوه ، أى ولتميل إلى ما ذكر من عداوة الأنبياء ووسوسة الشياطين أَفْئِدَةُ الكفار وَلِيَرْضَوْهُ لأنفسهم وَلِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ من الآثام .

[سورة الأنعام (6) : آية 114]

أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (114)

---

(1) . قوله «و الضمير في إليه» أى في قوله تعالى وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ . (ع)

(96/250)

---

أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً على إرادة القول ، أى قل يا محمد : أفغير اللّه أطلب حاكما يحكم بيني وبينكم ، ويفصل المحق منا من المبطل هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتابَ المعجز مُفَصَّلًا مبيناً فيه الفصل بين الحق والباطل ، والشهادة لي بالصدق وعليكم بالافتراء . ثم عضد الدلالة على أنّ القرآن حق بعلم أهل الكتاب أنه حق لتصديقه ما عندهم وموافقته له فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ من باب التهييج والإلهاب ، كقوله تعالى وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أو فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ في أنّ أهل الكتاب يعلمون أنه منزل بالحق ، ولا يريبك جحود أكثرهم وكفرهم به . ويجوز أن يكون فَلا تَكُونَنَّ خطاباً لكل أحد ، على معنى أنه إذا تعاضدت الأدلة على صحته وصدقه ، فما ينبغي أن يمترى فيه أحد . وقيل : الخطاب لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم خطاباً لأمته «1»

[سورة الأنعام (6) : آية 115]

وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (115)

وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ أى تم كل ما أخبر به ، وأمر ونهى ، ووعد وأوعد صِدْقاً وَعَدْلًا لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ لا أحد يبدّل شيئاً من ذلك مما هو أصدق وأعدل . وصدقا وعدلا . نصب على الحال . وقرئ : كلمة ربك ، أى ما تكلم به . وقيل : هي القرآن .

[سورة الأنعام (6) : آية 116]

وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (116)

وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ أى من الناس أضلوك ، لأنّ الأكثر في غالب الأمر يتبعون هواهم ، ثم قال إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وهو ظنهم أنّ آباءهم كانوا على الحق فهم يقلدونهم وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ يقدّرون أنهم على شيء . أو يكذبون في أنّ اللّه حرّم كذا وأحلّ كذا .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 117 إلى 119]

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (117) فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآياتِهِ مُؤْمِنِينَ (118) وَما لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا ما اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (119)

---

(1) . قوله «خطابا لأمته» لعله «خطاب» . (ع)

وقرئ مَنْ يَضِلُّ بضم الياء أي يضله اللّه فَكُلُوا مسبب عن إنكار اتباع المضلين ، الذين يحلون الحرام ويحرّمون الحلال . وذلك أنهم كانوا يقولون للمسلمين : إنكم تزعمون أنكم تعبدون اللّه ، فما قتل اللّه أحق أن تأكلوا مما قتلتم أنتم ، فقيل للمسلمين : إن كنتم متحققين بالإيمان فكلوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ خاصة دون ما ذكر عليه اسم غيره من آلهتهم أو مات حتف أنفه ، وما ذكر اسم اللّه عليه هو المذكى ببسم اللّه وَما لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا وأى غرض لكم في أن لا تأكلوا وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ وقد بين لكم ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ مما لم يحرّم وهو قوله حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وقرئ : فصل لكم ما حرّم عليكم على تسمية الفاعل ، وهو اللّه عزّ وجلّ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ مما حرّم عليكم فإنه حلال لكم في حال الضرورة وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ قرئ بفتح الياء وضمها ، أى يضلون فيحرّمون ويحللون بِأَهْوائِهِمْ وشهواتهم من غير تعلق بشريعة .

[سورة الأنعام (6) : آية 120]

وَذَرُوا ظاهِرَ الْإِثْمِ وَباطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِما كانُوا يَقْتَرِفُونَ (120)

ظاهِرَ الْإِثْمِ وَباطِنَهُ ما أعلنتم منه وما أسررتم . وقيل : ما عملتم وما نويتم . وقيل : ظاهره الزنا في الحوانيت ، وباطنه الصديقة في السرّ .

[سورة الأنعام (6) : آية 121]

وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (121)

وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ الضمير راجع إلى مصدر الفعل الذي دخل عليه حرف النهى ، يعنى وإنّ الأكل منه لفسق . أو إلى الموصول على : وإنّ أكله لفسق ، أو جعل ما لم يذكر اسم اللّه عليه في نفسه فسقا . فإن قلت : قد ذهب جماعة من المجتهدين إلى جواز أكل «1» ما لم يذكر اسم اللّه

---

(1) . قال محمود : «إن قلت قد ذهب جماعة من المجتهدين إلى جواز أكل ما لم يذكر اسم اللّه عليه بنسيان أو عمد . . . الخ» قال أحمد : مذهب مالك وأبى حنيفة واه في أن متروك التسمية عمدا لا يؤكل . سواء كان تهاونا أو غير تهاون ، ولأشهب قول شاذ بجواز غير المتهاون في ترك تسميته ، والآية تساعد مذهب الإمامين مساعدة بينة ، فانه ذكر عقيب غير المسمى عليه قوله وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وذلك إن كان عبارة عن فعل المكلف وهو إهمال التسمية ، أو تسمية غير اللّه فلا يدخل النسيان ، لأن الناسي غير مكلف فلا يكون فعله فسقا ولا هو فاسق ، وإن كان نفس الفسق الذبيحة التي لم يسم عليها ولم يكن مصدرا ، فإنما تسمى الذبيحة فسقا نقلا لهذا الاسم من المصدر إلى الذات فالذبيحة التي تركت التسمية عليها نسيانا لا يصح أن تسمي فسقا ، إذ الفعل الذي ينقل منه هذا الاسم ليس

بفسق ، فإذا تمهد ذلك فاما أن يقول : لا دليل في الآية على تحريم منسى التسمية ، فبقى على أصل الاباحة . أو يقول : فيها دليل على إباحته من حيث مفهوم تخصيص النهى بما هو فسق ، فما ليس بفسق ليس بحرام . وهذا النظر يسند إذا لم تكن الميتة متناولة في هذه الآية . وأما إذا أثبت أنها مرادة ، تعين صرف الفسق إلى الآكل والمأكول ، وكان الضمير من قوله وَإِنَّهُ عائداً إلى المصدر المنهي عنه ، أو إلى الموصول . وحينئذ يندرج المنسى في النهى ولا يستقيم ، على أن الميتة مندرجة كاندراج المنسى ، لأن الوجه الذي به تندرج الميتة هو الوجه الذي به يندرج المنسى ، إذ يكون الفسق إما للأكل ، وإما للمأكول نقلا من الأكل ، ولا ينصرف إلى غير ذلك ، لأن الميتة لم يفعل المكلف فيها فعلا يسمى فسقا سوى الأكل ، والمنسى تسميتها لا يستقيم أن يسمى الذبح فيها فسقا لأجل النسيان ، فيتعين صرفه إلى الأكل . ومن ثم قوى عند الزمخشري تعميم التحريم حتى في المنسى ، لأنه يرى أن الميتة مرادة من الآية ولا بد ، إذ هي سبب نزول الآية .

والتحقق أن العام الظاهر متى ورد على سبب خاص كان نصا في السبب ظاهرا باقيا على ظهوره فيما عداه . وإذا ثبت اندراج الميتة لزم اندراج المنسى كما تقدم . وحينئذ يضطر مبيح المنسى إلى مخصص ، فيتمسك بقوله عليه الصلاة والسلام «ذكر اللّه على قلب كل مؤمن من سمى أو لم يسم» وكان الناسي ذاكراً حكما وإن لم يكن ذاكرا وجودا ، وهذا عند التحقيق ليس بتخصيص ، ولكن منع لاندراج الناسي في العموم وسنده

الحديث المذكور . ويؤيد بأن العام الوارد على سبب خاص وإن قوى تناوله للسبب حتى ينهض الظاهر فيه نصا ، إلا أنه ضعيف التناول لما عداه حتى ينحط عن أمالى الظواهر فيه ، ويكتفى من معارضته بما لا يكتفى به منه لولا السبب ، وهذا البحث متطلع بفنون شتى على نكت بديعة ، والله الموفق للصواب .

*(98/250)*

---

عليه بنسيان أو عمد . قلت : قد تأوله هؤلاء بالميتة وبما ذكر غير اسم اللّه عليه «1» : كقوله أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ لَيُوحُونَ ليوسوسون إِلى أَوْلِيائِهِمْ من المشركين لِيُجادِلُوكُمْ بقولهم : ولا تأكلوا مما قتله اللّه . وبهذا يرجع تأويل من تأوله بالميتة إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ لأنّ من اتبع غير اللّه تعالى في دينه فقد أشرك به . ومن حق ذى البصيرة في دينه أن لا يأكل مما لم يذكر اسم اللّه عليه كيفما كان ، لما يرى في الآية من التشديد العظيم ، وإن كان أبو حنيفة رحمه اللّه مرخصا في النسيان دون العمد ، ومالك والشافعي رحمهما اللّه فيهما .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 122 إلى 123]

أَوَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَجَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (122) وَكَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ

مُجْرِمِيها لِيَمْكُرُوا فِيها وَما يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنْفُسِهِمْ وَما يَشْعُرُونَ (123)

مثل الذي هداه اللّه بعد الضلالة ومنحه التوفيق لليقين الذي يميز به بين المحق والمبطل والمهتدى والضال، بمن كان ميتا فأحياه اللّه وجعل له نوراً يمشى به في الناس مستضيئا به، فيميز بعضهم من بعض، ويفصل بين حلاهم ومن بقي على الضلالة بالخابط في الظلمات لا ينفك منها ولا يتخلص ومعنى قوله كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها كمن صفته هذه وهي قوله فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها بمعنى: هو في الظلمات ليس بخارج منها، كقوله تعالى مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ

---

(1). قوله «وبما ذكر غير اسم اللّه عليه» لعله «اسم غير اللّه». (ع)



---

أى صفتها هذه، وهي قوله فِيها أَنْهارٌ. زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ أى زينه الشيطان، أو اللّه عزّ وعلا على قوله زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ ويدل عليه قوله وَكَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها يعنى: وكما جعلنا في مكة صناديدها ليمكروا فيها، كذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها لذلك. ومعناه: خليناهم ليمكروا «1» وما كففناهم عن المكر، وخص الأكابر لأنهم هم الحاملون على الضلال والماكرون بالناس، كقوله أَمَرْنا مُتْرَفِيها

وقرئ: أكبر مجرميها ، على قولك: هم اكبر قومهم ، وأكابر قومهم وَما يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ لأنّ مكرهم يحيق بهم.

وهذه تسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وتقديم موعد بالنصرة عليهم. روى أن الوليد بن المغيرة قال: لو كانت النبوّة حقاً لكنت أولى بها منك ، لأنى أكبر منك سناً وأكثر منك مالا.

وروى أن أبا جهل قال: زاحمنا بنى عبد مناف في الشرف ، حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا:

منا نبىّ يوحى إليه ، واللّه لا نرضى به ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه ، فنزلت. ونحوها قوله تعالى بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً.

[سورة الأنعام (6): آية 124]

وَإِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذابٌ شَدِيدٌ بِما كانُوا يَمْكُرُونَ (124)

اللَّهُ أَعْلَمُ كلام مستأنف للإنكار عليهم ، وأن لا يصطفى للنبوّة إلا من علم أنه يصلح لها وهو أعلم بالمكان الذي يضعها فيه منهم سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا من أكابرها صَغارٌ وقماءة «2» بعد كبرهم وعظمتهم وَعَذابٌ شَدِيدٌ في الدارين من الأسر والقتل وعذاب النار.

[سورة الأنعام (6) : الآيات 125 إلى 127]

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (125) وَهذا صِراطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (126) لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (127)

---

(1) . قوله «و معناه خليناهم ليمكروا» أو له بذلك لأنه تعالى لا يخلق الشر عند المعتزلة ويخلقه كالخير عند أهل السنة ، وكذا قوله تعالى وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ . . . الخ وَكَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً . (ع)

(2) . قوله و «قماءة» أى ذل ، (ع)



---

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ أن يلطف به ولا يريد أن يلطف إلا بمن له لطف يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ يلطف به حتى يرغب في الإسلام وتسكن إليه نفسه ويحب الدخول فيه وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ أن يخذله ويخليه وشأنه «1» ، وهو الذي لا لطف له يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً يمنعه ألطافه ، حتى يقسو قلبه ، وينبو عن قبول الحق وينسدّ فلا يدخله الإيمان . وقرئ ضَيِّقاً

بالتخفيف والتشديد حَرَجاً بالكسر ، وحرجا - بالفتح - وصفاً بالمصدر كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كأنما يزاول أمراً غير ممكن ، لأن صعود السماء مثل فيما يمتنع ويبعد من الاستطاعة ، وتضيق عنه المقدرة . وقرئ : يصعد ، وأصله يتصعد . وقرأ عبد اللّه : يتصعد . ويصاعد . وأصله : يتصاعد ويصعد ، من صعد . ويصعد من أصعد يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ يعنى الخذلان ومنع التوفيق ، وصفه بنقيض ما يوصف به التوفيق من الطيب . أو أراد الفعل المؤدّى إلى الرجس وهو العذاب من الارتجاس وهو الاضطراب وَهذا صِراطُ رَبِّكَ وهذا طريقه الذي اقتضته الحكمة وعادته في التوفيق والخذلان مُسْتَقِيماً عادلا مطرداً ، وانتصابه على أنه حال مؤكدة كقوله وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لَهُمْ لقوم يذكرون دارُ السَّلامِ دار اللّه ، يعنى الجنة أضافها إلى نفسه تعظيما لها ، أو دار السلامة من كل آفة وكدر عِنْدَ رَبِّهِمْ في ضمانه ، كما تقول : لفلان عندي حق لا ينسى ، أو ذخيرة لهم لا يعلمون كنهها ، كقوله فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ، وَهُوَ وَلِيُّهُمْ مواليهم ومحبهم «أو ناصرهم على أعدائهم بِما كانُوا يَعْمَلُونَ بسبب أعمالهم ، أو متوليهم بجزاء ما كانوا يعملون . انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشاف حـ 2 صـ 58.64﴾

---

(1) . قوله «أن يخذله ويخليه وشأنه» فسر الإضلال بذلك ، لأنه تعالى لا يفعل الشر عند المعتزلة . أما عند أهل السنة فيفعله كالخير ، وكذا يقال في قوله «يمنعه ألطافه» . (ع)

---

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (121) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (127) ﴾

﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه – وإنه لفسق – وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم . . وإن أطعتموهم إنكم لمشركون . . ﴾ . .

وأمام هذا التقرير الأخير نقف ، لنتدبر هذا الحسم وهذه الصراحة في شأن الحاكمية والطاعة والاتباع في هذا الدين . .

إن النص القرآني لقاطع في أن طاعة المسلم لأحد من البشر في جزئية من جزئيات التشريع التي لا تستمد من شريعة الله ، ولا تعتمد على الاعتراف له وحده بالحاكمية . . أن طاعة المسلم في هذه الجزئية تخرجه من الإسلام لله ، إلى الشرك بالله .

وفي هذا يقول ابن كثير :

" وقوله تعالى : ﴿ وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ . . أي حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه ، إلى قول غيره ، فقدمتم عليه غيره . . فهذا هو الشرك . . كقوله تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ الآية . وقد روى الترمذي في تفسيرها عن عدي بن حاتم أنه قال : يا رسول الله ما عبدوهم .

فقال : " بلى ! إنهم أحلوا لهم الحرام ، وحرموا عليهم الحلال . فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم " .

كذلك روى ابن كثير عن السدي في قوله تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله . . . ﴾ الآية قوله : ( استنصحوا الرجال ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم . ولهذا قال تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ﴾ أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام ، وما حلله فهو الحلال ، وما شرعه اتبع ، وما حكم به نفذ ) . .

*(102/250)*

---

فهذا قول السدي وذاك قول ابن كثير . . وكلاهما يقرر في حسم وصرامة ووضوح – مستمدة من حسم النص القرآني وصرامته ووضوحه ، ومن حسم التفسير النبوي للقرآن ، وصرامته ووضوحه كذلك – أن من أطاع بشراً في شريعة من عند نفسه ، ولو في جزئية

صغيرة ، فإنما هو مشرك . وإن كان في الأصل مسلما ثم فعلها فإنما خرج بها من الإسلام إلى الشرك أيضاً . . مهما بقي بعد ذلك يقول : أشهد أن لا إله إلا الله بلسانه . بينما هو يتلقى من غير الله ، ويطيع غير الله .

وحين ننظر إلى وجه الأرض اليوم – في ضوء هذه التقريرات الحاسمة – فإننا نرى الجاهلية والشرك – ولا شيء غير الجاهلية والشرك – إلا من عصم الله ، فأنكر على الأرباب الأرضية ما تدعيه من خصائص الألوهية ؛ ولم يقبل منها شرعا ولا حكما . . . إلا في حدود الإكراه . .

فأما الحكم الفقهي المستفاد من قوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق . . ﴾ فيما يتعلق بحل الذبائح وحرمتها عند التسمية وعدم التسمية فقد لخصها ابن كثير في التفسير في هذه الفقرات قال :

" استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها ، وإن كان الذابح مسلماً " . .

" وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في هذه المسألة على ثلاثة أقوال :

" فمنهم من قال : لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة . وسواء متروك التسمية عمدا أو سهوا . وهو مروي عن ابن عمر ، ونافع مولاه ، وعامر الشعبي ، ومحمد بن سيرين . وهو رواية عن الإمام مالك ، ورواية عن أحمد بن حنبل ، نصرها طائفة من أصحابه المتقدمين والمتأخرين . وهو اختيار أبي ثور ، وداود الظاهري . واختار ذلك أبو الفتوح محمد بن محمد بن علي الطائي من متأخري الشافعية في كتابه الأربعين ، واحتجوا لمذهبهم بهذه الآية ، وبقوله في آية الصيد : ﴿ فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ﴾ ثم قد أكد ذلك بقوله : ﴿ وإنه لفسق ﴾ والضمير قيل : عائد على الأكل ، وقيل : عائد على الذبح لغير الله . وبالأحاديث الواردة في الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد ، كحديثي عدي بن حاتم وأبي ثعلبة : " إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك "

وهما في الصحيحين . وحديث رافع بن خديج : " ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه " وهو في الصحيحين أيضاً . .

" والمذهب الثاني في المسألة : أنه لا يشترط التسمية ، بل هي مستحبة ، فإن تركها عمداً أو نسياناً لا يضر . وهذا مذهب الإمام الشافعي ، رحمه الله ، وجميع أصحابه . ورواية عن الإمام أحمد نقلها عنه حنبل . وهو رواية عن الإمام مالك ، ونص على ذلك أشهب بن عبد العزيز من أصحابه . وحكي عن ابن عباس ، وأبي هريرة ، وعطاء بن أبي رباح .

والله أعلم . وحمل الشافعي الآية الكريمة : ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق ﴾ على ما ذبح لغير الله كقوله تعالى : ﴿ أو فسقا أهل لغير الله به ﴾ وقال ابن جريج عن عطاء : ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ . . قال : ينهى عن ذبائح كانت تذبحها قريش للأوثان ، وينهى عن ذبائح المجوس . . وهذا المسلك الذي طرقه الإمام الشافعي قوي . .

*(104/250)*

---

" وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي ، حدثنا يحيى بن المغيرة ، أنبأنا جرير ، عن عطاء ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في الآية : ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ قال : هي الميتة . وقد استدل لهذا المذهب بما رواه أبو داود في المراسيل من حديث ثور بن يزيد عن الصلت السدوسيّ مولى سويد بن ميمون أحد التابعين الذين ذكرهم أبو حاتم بن حبان في كتاب الثقات . قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " ذبيحة المسلم حلال ، ذكر اسم الله أو لم يذكر . إنه إن ذكر لم يذكر إلا اسم الله " . وهذا مرسل يعضد بما رواه الدارقطني عن ابن عباس أنه قال : " إذا ذبح المسلم ولم يذكر اسم الله فليأكل . فإن المسلم فيه اسم من أسماء الله " .

" المذهب الثالث : إن ترك البسملة على الذبيحة نسيانا لم يضر ، وإن تركها عمدا لم تحل . . هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل ، وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه . وإسحاق بن راهويه . وهو محكي عن علي ، وابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، وعطاء ، وطاووس ، والحسن البصري ، وأبي مالك ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى ، وجعفر بن محمد ، وربيعة بن أبي عبد الرحمن . . . "

" قال ابن جرير : وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية : هل نسخ من حكمها شيء أم لا ؟ فقال بعضهم : لم ينسخ منها شيء ، وهي محكمة فيما عينت به . وعلى هذا قول مجاهد وعامة أهل العلم . وروي عن الحسن البصري وعكرمة ما حدثنا به ابن حميد حدثنا يحيى بن واضح ، عن الحسين بن واقد ، عن عكرمة والحسن البصري ، قالا : قال الله : ﴿ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين ﴾ وقال : ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق ﴾ فنسخ ، واستثنى من ذلك فقال :

*(105/250)*

---

﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم ﴾ وقال ابن أبي حاتم : قرأ عليَّ العباس بن الوليد بن يزيد ، حدثنا محمد بن شعيب ، أخبرني النعمان - يعني ابن

المنذر – عن مكحول قال : أنزل الله في القرآن : ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ . ثم نسخها الرب ورحم المسلمين فقال : ﴿ اليوم أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ﴾ فنسخها بذلك ، وأحل طعام أهل الكتاب . ثم قال ابن جرير : والصواب : أنه لا تعارض بين حل طعام أهل الكتاب وبين تحريم ما لم يذكر اسم الله عليه . . وهذا الذي قاله صحيح ، ومن أطلق من السلف النسخ هنا ، فإنما أراد التخصيص ، والله سبحانه وتعالى أعلم " . . . انتهى .

بعد ذلك يجيء شوط كامل عن طبيعة الكفر وطبيعة الإيمان ، وعن قدرة الله في أن يجعل في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها . وعن الكبر الذي يحيك في نفوس هؤلاء المجرمين الأكابر . ويمنعهم من الإسلام . ويختم الشوط بالتصوير الرائع الصادق لحالة الإيمان التي يشرح الله لها الصدر ، وحالة الكفر التي يجعل الصدر فيها ضيقاً حرجا مكروب الأنفاس ! . . فيتصل هذا الشوط كله بموضوع التحريم والتحليل في الذبائح اتصال الأصل القاعدي بالفرع التطبيقي ؛ ويدل على عمق هذا الفرع وشدة علاقته بالأصل الكبير : ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه ، وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ؟ كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون . وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون . وإذا جاءتهم آية قالوا : لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله . الله أعلم حيث يجعل رسالته ، سيصيب الذين أجرموا

صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون . فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ .

*(106/250)*

---

إن هذه الآيات في تصوير طبيعة الهدى وطبيعة الإيمان إنما تعبر تعبيرا حقيقيا واقعيا عن حقيقة واقعية كذلك . إن ما يبدو فيها من تشبيه ومجاز إنما هو لتجسيم هذه الحقيقة في الصورة الموحية المؤثرة ؛ ولكن العبارة في ذاتها حقيقية .

إن نوع الحقيقة التي تعبر هذه الآيات عنها هو الذي يقتضي هذه الإيقاعات التصويرية . فهي حقيقة ، نعم . ولكنها حقيقة روحية وفكرية . حقيقة تذاق بالتجربة . ولا تملك العبارة إلا أن تستحضر مذاق التجربة ولكن لمن ذاقها فعلا !

إن هذه العقيدة تنشئ في القلب حياة بعد الموت ، وتطلق فيه نوراً بعد الظلمات . حياة يعيد بها تذوق كل شيء ، وتصور كل شيء ، وتقدير كل شيء بحس آخر لم يكن يعرفه قبل هذه الحياة .

ونوراً يبدو كل شيء تحت أشعته وفي مجاله جديداً كما لم يبد من قبل قط لذلك القلب الذي

نّوره الإيمان .

هذه التجربة لا تنقلها الألفاظ . يعرفها فقط من ذاقها . . والعبارة القرآنية هي أقوى عبارة تحمل حقيقة هذه التجربة . لأنها تصورها بألوان من جنسها ومن طبيعتها .

إن الكفر انقطاع عن الحياة الحقيقية الأزلية الأبدية ، التي لا تفنى ولا تغيض ولا تغيب . فهو موت . . وانعزال عن القوة الفاعلة المؤثرة في الوجود كله . . فهو موت . . وانطماس في أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية . . فهو موت . .

والإيمان اتصال ، واستمداد ، واستجابة . . فهو حياة . .

إن الكفر حجاب للروح عن الاستشراف والاطلاع . . فهو ظلمة . . وختم على الجوارح والمشاعر . . فهو ظلمة . . وتيه في التيه وضلال . . فهو ظلمة . .

وإن الإيمان تفتح ورؤية ، وإدراك واستقامة . . فهو نور بكل مقومات النور . .

إن الكفر انكماش وتحجر . . فهو ضيق . . وشرود عن الطريق الفطري الميسر . . فهو عسر . . وحرمان من الاطمئنان إلى الكنف الآمن . . فهو قلق . .

وإن الإيمان انشراح ويسر وطمأنينة وظل ممدود . .

وما الكافر ؟ إن هو إلا نبته ضالة لا وشائج لها في تربة هذا الوجود ولا جذور . . إن هو إلا فرد منقطع الصلة بخالق الوجود ، فهو منقطع الصلة بالوجود . لا تربطه به إلا روابط هزيلة من وجوده الفردي المحدود . في أضيق الحدود . في الحدود التي تعيش فيها البهيمة . حدود الحس وما يدركه الحس من ظاهر هذا الوجود !

إن الصلة بالله ، والصلة في الله ، لتصل الفرد الفاني بالأزل القديم والأبد الخالد . ثم تصله بالكون الحادث والحياة الظاهرة . . ثم تصله بموكب الإيمان والأمة الواحدة الضاربة في جذور الزمان . الموصولة على مدار الزمان . . فهو في ثراء من الوشائج ، وفي ثراء من الروابط . وفي ثراء من " الوجود " الزاخر الممتد اللاحب ، الذي لا يقف عند عمره الفردي المحدود .

ويجد الإنسان في قلبه هذا النور ، فتتكشف له حقائق هذا الدين ، ومنهجه في العمل والحركة ، تكشفا عجيبا . . إنه مشهد رائع باهر هذا الذي يجده الإنسان في قلبه حين يجد هذا النور . . مشهد التناسق الشامل العجيب في طبيعة هذا الدين وحقائقه . ومشهد التكامل الجميل الدقيق في منهجه للعمل وطريقته . إن هذا الدين لا يعود مجموعة معتقدات وعبادات وشرائع وتوجيهات . . إنما يبدو " تصميما " واحدا متداخلا متراكبا متناسقا . . متعاشقا يبدو حيا يتجاوب مع الفطرة وتتجاوب معه في ألفة عميقة وفي صداقة وثيقة ، وفي حب ودود !

ويجد الإنسان في قلبه هذا النور ؛ فتتكشف له حقائق الوجود ، وحقائق الحياة ، وحقائق الناس ، وحقائق الأحداث التي تجري في هذا الكون وتجري في عالم الناس . . تتكشف له في مشهد كذلك رائع باهر . . مشهد السُّنَّة الدقيقة التي تتوالى مقدماتها ونتائجها في نظام محكم ولكنه فطري ميسر . . ومشهد المشيئة القادرة من وراء السنة الجارية تدفع بالسنة لتعمل وهي من ورائها محيطة طليقة .

. ومشهد الناس والأحداث وهم في نطاق النواميس وهي في هذا النطاق أيضاً .

*(108/250)*

---

ويجد الإنسان في قلبه هذا النور فيجد الوضوح في كل شأن وفي كل أمر وفي كل حدث . . يجد الوضوح في نفسه وفي نواياه وخواطره وخطته وحركته . ويجد الوضوح فيما يجري حوله سواء من سنة الله النافذة ، أو من أعمال الناس ونواياهم وخططهم المستترة والظاهرة ! ويجد تفسير الأحداث والتاريخ في نفسه وعقله وفي الواقع من حوله ، كأنه يقرأ من كتاب !

ويجد الإنسان في قلبه هذا النور ، فيجد الوضاءة في خواطره ومشاعره وملامحه ! ويجد الراحة في باله وحاله ومآله ! ويجد الرفق واليسر في إيراد الأمور وإصدارها ، وفي استقبال

الأحداث واستدبارها ! ويجد الطمأنينة والثقة واليقين في كل حالة وفي كل حين !

وهكذا يصور التعبير القرآني الفريد تلك الحقيقة بإيقاعاته الموحية :

﴿ أومن كان ميتا فأحييناه ، وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس ، كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ؟ ﴾ .

كذلك كان المسلمون قبل هذا الدين . قبل أن ينفخ الإيمان في أرواحهم فيحييها ، ويطلق فيها هذه الطاقة الضخمة من الحيوية والحركة والتطلع والاستشراف . . كانت قلوبهم مواتا . وكانت أرواحهم ظلاما . . ثم إذا قلوبهم ينضح عليها الإيمان فتهتز ، وإذا أرواحهم يشرق فيها النور فتضيء ، ويفيض منها النور فتمشي به في الناس تهدي الضال ، وتلتقط الشارد ، وتطمئن الخائف ، وتحرر المستعبد ، وتكشف معالم الطريق للبشر وتعلن في الأرض ميلاد الإنسان الجديد . الإنسان المتحرر المستنير ؛ الذي خرج بعبوديته لله وحده من عبودية العبيد !

أفمن نفخ الله في روحه الحياة ، وأفاض على قلبه النور . . كمن حاله أنه في الظلمات ، لا مخرج له منها ؟

إنهما عالمان مختلفان شتان بينهما شتان ! فما الذي يمسك بمن في الظلمات والنور حوله يفيض ؟

﴿ كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون ﴾ . .

هذا هو السر . . إن هناك تزيينا للكفر والظلمة والموت ! والذي ينشئ هذا التزيين ابتداء هو مشيئة الله التي أودعت فطرة هذا الكائن الإنساني الاستعداد المزدوج لحب النور وحب الظلمة ، تبتليه بالاختيار للظلمة أو النور . فإذا اختار الظلمة زينت له ؛ ولج في الضلال حتى لا يخرج من الظلمة ولا يعود ، ثم إن هناك شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً . ، ويزينون للكافرين ما يعملون . . والقلب الذي ينقطع عن الحياة والإيمان والنور ، يسمع في الظلمة للوسوسة ؛ ولا يرى ولا يحس ولا يميز الهدى من الضلال في ذلك الظلام العميق ! . . وكذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون . .

وبنفس الطريقة ، ولنفس الأسباب ، وعلى هذه القاعدة جعل الله في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها . . ليتم الابتلاء ، وينفذ القدر ؛ وتتحقق الحكمة ؛ ويمضي كل فيما هو ميسر له ، وينال كل جزاءه في نهاية المطاف :

﴿ وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون ﴾ .

إنها سنة جارية أن ينتدب في كل قرية – وهي المدينة الكبيرة والعاصمة – نفر من أكابر

المجرمين فيها ، يقفون موقف العداء من دين الله . ذلك أن دين الله يبدأ من نقطة تجريد هؤلاء الأكابر من السلطان الذي يستطيلون به على الناس ، ومن الربوبية التي يتعبدون بها الناس ، ومن الحاكمية التي يستذلون بها الرقاب ، ويرد هذا كله إلى الله وحده . . رب الناس . . ملك الناس . . إله الناس .

إنها سنة من أصل الفطرة . . أن يرسل الله رسله بالحق . . بهذا الحق الذي يجرد مدعي الألوهية من الألوهية والربوبية والحاكمية . فيجهر هؤلاء بالعداوة لدين الله ورسل الله . ثم يمكرون مكرهم في القرى ، ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً . ويتعاونون مع شياطين الجن في المعركة مع الحق والهدى ، وفي نشر الباطل والضلال ، واستخفاف الناس بهذا الكيد الظاهر والخافي . .

*(110/250)*

---

إنها سنة جارية . ومعركة محتومة . لأنها تقوم على أساس التناقض الكامل بين القاعدة الأولى في دين الله – وهي رد الحاكمية كلها لله – وبين أطماع المجرمين في القرى . بل بين وجودهم أصلا . .

معركة لا مفر للنبي أن يخوضها ، فهو لا يملك أن يتقيها ، ولا مفر للمؤمنين بالنبي أن يخوضوها

وأن يمضوا إلى النهاية فيها . . والله سبحانه يطمئن أولياءه . . إن كيد أكابر المجرمين – مهما ضخم واستطال – لا يحيق إلا بهم في نهاية المطاف . إن المؤمنين لا يخوضون المعركة وحدهم فالله وليهم فيها ، وهو حسبهم ، وهو يرد على الكائدين كيدهم :

﴿ وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون ﴾ .

فليطمئن المؤمنون !

ثم يكشف السياق القرآني عن طبيعة الكبر في نفوس أعداء رسل الله ودينه . . الكبر الذي يمنعهم من الإسلام ؛ خيفة أن يرجعوا عباداً لله كسائر العباد ، فهم يطلبون امتيازاً ذاتيا يحفظ لهم خصوصيتهم بين الأتباع . ويكبر عليهم أن يؤمنوا للنبي فيسلموا له ، وقد تعودوا أن يكونوا في مقام الربوبية للأتباع ، وأن يشرعوا لهم فيقبلوا منهم التشريع ، وأن يأمروهم فيجدوا منهم الطاعة والخضوع . . من أجل ذلك يقولون قولتهم المنكرة الغبية كذلك : لن نؤمن حتى نؤتى مثلما أوتي رسل الله :

﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا : لن نؤمن حتى نؤتى مثلما أوتي رسل الله ﴾ .

وقد قال الوليد بن المغيرة : لو كانت النبوة حقا لكنت أولى بها منك ، لأني أكبر منك سنا ، وأكثر منك مالا ! وقال أبو جهل : والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً ، إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه !

وواضح أن الكبر النفسي ، وما اعتاده الأكابر من الخصوصية بين الأتباع ، ومظهر هذه

الخصوصية الأول هو الأمر منهم والطاعة والاتباع من الأتباع ! . . واضح أن هذا من أسباب تزيين الكفر في نفوسهم ، ووقوفهم من الرسل والدين موقف العداء .

ويرد الله على قولتهم المنكرة الغبية .

*(111/250)*

---

. أولا بتقرير أن أمر اختيار الرسل للرسالة موكول إلى علمه المحيط بمن يليق بهذا الأمر الكوني الخطير . . ويرد عليهم ثانيا بالتهديد والتحقير وسوء المصير :

﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته . سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ﴾ . .

إن الرسالة أمر هائل خطير . أمر كوني تتصل فيه الإرادة الأَزلية الأبديه بحركة عبد من العبيد . ويتصل فيه الملأ الأعلى بعالم الإنسان المحدود . وتتصل فيه السماء بالأرض ، والدنيا بالآخرة ، ويتمثل فيه الحق الكلي ، في قلب بشر ، وفي واقع ناس ، وفي حركة تاريخ . وتتجرد فيها كينونة بشرية من حظ ذاتها لتخلص لله كاملة ، لا خلوص النية والعمل وحده . ولكن كذلك خلوص المحل الذي يملؤه هذا الأمر الخطير . فذات الرسول – صلى الله عليه وسلم – تصبح موصولة بهذا الحق ومصدره صلة مباشرة كاملة . وهي لا تتصل

هذه الصلة إلى أن تكون من ناحية عنصرها الذاتي صالحة للتلقي المباشر الكامل بل عوائق ولا سدود . .

والله وحده – سبحانه – هو الذي يعلم أين يضع رسالته ، ويختار لها الذات التي تنتدب من بين ألوف الملايين ، ويقال لصاحبها : أنت منتدب لهذا الأمر الهائل الخطير .

والذين يتطلعون إلى مقام الرسالة ؛ أو يطلبون أن يؤتوا مثل ما أوتي الرسول . . هم أولا من طبيعة لا تصلح أساساً لهذا الأمر . فهم يتخذون من ذواتهم محوراً للوجود الكوني !

والرسل من طبيعة أخرى ، طبيعة من يتلقى الرسالة مستسلما ، ويهب لها نفسه ، وينسى فيها ذاته ، ويؤتاها من غير تطلع ولا ارتقاب : ﴿ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب ، إلا رحمة من ربك ﴾ ثم هم بعد ذلك جهال لا يدركون خطورة هذا الأمر الهائل ، ولا يعلمون أن الله وحده هو الذي يقدر بعلمه على اختيار الرجل الصالح . .

لذلك يجبههم الرد الحاسم :

﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ . .

*(112/250)*

وقد جعلها سبحانه حيث علم ، واختار لها أكرم خلقه وأخلصهم ، وجعل الرسل هم ذلك الرهط الكريم ، حتى انتهت إلى محمد خير خلق الله وخاتم النبيين .

ثم التهديد بالصغار والهوان على الله ، وبالعذاب الشديد المهين :

﴿ سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ﴾ . .

والصغار عند الله يقابل الاستعلاء عند الأتباع ، والاستكبار عن الحق ، والتطاول إلى مقام رسل الله ! . . والعذاب الشديد يقابل المكر الشديد ، والعداء للرسل ، والأذى للمؤمنين .

ثم تختم الجولة بتصوير حالة الهدى وحالة الإيمان في داخل القلوب والنفوس :

﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام . ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء . . كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ . .

من يقدر الله له الهداية – وفق سنته الجارية من هداية من يرغب في الهدى ويتجه إليه بالقدر المعطى له من الاختيار بقصد الابتلاء – ﴿ يشرح صدره للإسلام ﴾ ؛ فيتسع له ؛ ويستقبله في يسر ورغبة ، ويتفاعل معه ، ويطمئن إليه ؛ ويستروح به ويستريح له .

ومن يقدر له الضلال – وفق سنته الجارية من إضلال من يرغب عن الهدى ويغلق فطرته عنه – ﴿ يجعل صدره ضيقا حرجاً كأنما يصعد في السماء ﴾ . . فهو مغلق مطموس يجد العسر والمشقة في قبوله ، ﴿ كأنما يصعد في السماء ﴾ . . وهي حالة نفسية تجسم في حالة حسية ، من ضيق النفس ، وكربة الصدر ، والرهق المضني في التصعد إلى

السماء ! وبناء اللفظ ذاته ﴿ يصعد ﴾ - كما هو في قراءة حفص - فيه هذا العسر والقبض والجهد . وجرسه يخيل هذا كله ، فيتناسق المشهد الشاخص ، مع الحالة الواقعة ، مع التعبير اللفظي في إيقاع واحد .

وينتهي المشهد بهذا التعقيب المناسب :

﴿ كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ . .

*(113/250)*

---

. . كذلك . . بمثل هذا الذي يجري به قدر الله من شرح صدر الذي يريد الله به الهدى ، ومن العسر والجهد والمشقة لمن يريد به الضلال . . كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون .

ومن معاني الرجس : العذاب . ومن معانية كذلك : الارتكاس - وكلاهما يلون هذا العذاب بمشهد الذي يرتكس في العذاب ويعود إليه ولا يفارقه ! وهو الظل المقصود ! . على أنه تبقى في النفس بقية من الحديث عن قوله تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام . ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء . كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ . .

إن تصور الحقيقة التي يقررها هذا النص وأمثاله في القرآن الكريم من النصوص التي تتعلق بالتعامل والارتباط بين مشيئة الله – سبحانه – واتجاهات البشر ؛ وما يصيبهم من الهدى والضلال ، وما ينالهم بعد ذلك من جزاء وثواب وعقاب . . إن هذا كله يحتاج إلى استخدام منطقة أخرى من مناطق الإدراك البشري وراء منطقة المنطق الذهني ! وكل ما ثار من الجدل بشأن هذه القضية سواء في تاريخ الفكر الإسلامي ، وبخاصة بين المعتزلة وأهل السنة والمرجئة – أو في تاريخ اللاهوت والفلسفة – وكل القضايا والتعبيرات عنها ، موسومة بطابع المنطق الذهني .

إن تصور هذه الحقيقة يحتاج إلى استخدام منطقة أخرى من مناطق الإدراك البشري وراء منطقة المنطق الذهني . وكذلك يقتضي التعامل مع " الواقع الفعلي " لا مع " القضايا الذهنية " . فالقرآن يصور الحقيقة الفعلية في الكينونة البشرية وفي الوجود الواقع ؛ وهذه الحقيقة يتراءى فيها التشابك بين مشيئة الله وقدره وبين إرادة الإنسان وعمله . في محيط لا يدركه المنطق الذهني كله .

*(114/250)*

فإذا قيل : إن إرادة الله تدفع الإنسان دفعا إلى الهدى أو الضلال . . لم تكن هذه هي الحقيقة الفعلية . وإذا قيل : إن إرادة الإنسان هي التي تقرر مصيره كله . . لم تكن هذه هي الحقيقة الفعلية كذلك ! إن الحقيقة الفعلية تتألف من نسب دقيقة – وغيبية كذلك – بين طلاقة المشيئة الإلهية وسلطانها الفاعل ، وبين اختيار العبد واتجاهه الإرادي .

بلا تعارض بين هذه وتلك ولا تصادم . .

ولكن تصور الحقيقة " الفعلية " كما هي في واقعها هذا لا يمكن أن يتم في حدود المنطق الذهني . وفي شكل القضايا الذهنية والعبارة البشرية عنها . . إن نوع الحقيقة هو الذي يحدد منهج تناولها وأسلوب التعبير عنها . . وهذه الحقيقة لا يصلح لها منهج المنطق الذهني ولا القضايا الجدلية .

كذلك يحتاج تصور هذه الحقيقة كما هي في واقعها الفعلي إلى تذوق كامل في تجربة روحية وعقلية . . إن الذي تتجه فطرته إلى الإسلام يجد في صدره انشراحا له . . هو من صنع الله قطعاً . . فالانشراح حدثٌ لا يقع إلا بقدر من الله يخلقه ويبرزه . والذي تتجه فطرته إلى الضلال يجد في صدره ضيقا وتقبضا وعسرا . . هو من صنع الله قطعا . . لأنه حدث لا يتم وقوعه الفعلي إلا بقدر من الله يخلقه ويجري به كذلك . . وكلاهما من إرادة الله بالعبد . . ولكنها ليست إرادة القهر . إنما هي الإرادة التي أنشأت السنة الجارية النافذة من أن يبتلى هذا الخلق المسمى بالإنسان بهذا القدر من الإرادة . وأن يجري قدر الله بإنشاء ما

يترتب على استخدامه لهذا القدر من الإرادة في الاتجاه للهدى أو للضلال .

وحين توضع قضية ذهنية في مواجهة قضية ذهنية . وحين يتم التعامل مع هذه القضايا . بدون استصحاب الملامسة الباطنية للحقيقة ، والتجربة الواقعية في التعامل معها ، فإنه لا يمكن أبداً أن يتم تصور كامل وصحيح لهذه الحقيقة . . وهذا ما وقع في الجدل الإسلامي . . وفي غيره كذلك !

إنه لا بد من منهج آخر ومن تذوق مباشر للتعامل مع هذه الحقيقة الكبيرة . .

*(115/250)*

---

ثم نعود إلى السياق القرآني :

إن هذه الموجة بجملتها تجيء كالتعقيب على قضية الذبائح التي سبق بيانها ؛ فترتبط هذه بتلك . حزمة واحدة في السياق ، وحزمة واحدة في الشعور ، وحزمة واحدة في بناء هذا الدين . فقضية الذبائح هي قضية التشريع . وقضية التشريع هي قضية الحاكمية . وقضية الحاكمية هي قضية الإيمان . . ومن هنا يكون الحديث عن الإيمان على هذا النحو في موضعه المطلوب .

ثم يجيء التعقيب الأخير في هذا المقطع يربط هذه وتلك الرباط الأخير . . فهذه وتلك

صراط الله المستقيم . والخروج في واحدة منهما هو الخروج عن هذا الصراط المستقيم . والاستقامة عليهما معاً . . العقيدة والشريعة . . هي الاستقامة على الصراط المؤدي إلى دار السلام ، وولاية الله لعباده الذاكرين :

﴿ وهذا صراط ربك مستقيما . قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون . لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون ﴾ . .

هذا هو الصراط . . صراط ربك . . بهذه الإضافة المطمئنة الموحية بالثقة ؛ المبشرة بالنهاية . . هذه هي سنته في الهدى والضلال ؛ وتلك هي شريعته في الحل والحرمة . كلاهما سواء في ميزان الله ، وكلاهما لحمة في سياق قرآنه .

وقد فصل الله آياته وبينها . ولكن الذين يتذكرون ولا ينسون ولا يغفلون هم الذين ينتفعون بهذا البيان وهذا التفصيل . فالقلب المؤمن قلب ذاكر لا يغفل . وقلب منشرح مبسوط مفتوح . وقلب حي يستقبل ويستجيب .

والذين يتذكرون ، لهم دار السلام عند ربهم . . دار الطمأنينة والأمان . . مضمونة عند ربهم لا تضيع . . وهو وليهم وناصرهم وراعيهم وكافلهم . . ذلك بما كانوا يعملون . . فهو الجزاء على النجاح في الابتلاء .

ومرة أخرى نجدنا أمام حقيقة ضخمة من حقائق هذه العقيدة . حيث يتمثل صراط الله المستقيم في الحاكمية والشريعة . ومن ورائهما يتمثل الإيمان والعقيدة . . إنها طبيعة هذا

الدين كما يقررها رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الظلال حـ 3 صـ 1197 .

1205 ﴾

*(116/250)*

---

فصل في أسماء الجنة ومعانيها واشتقاقها

قال ابن القيم ما نصه :

الباب الحادي والعشرون: في أسماء الجنة ومعانيها واشتقاقها

ولها عدة أسماء باعتبار صفاتها ومسماها واحد باعتبار الذات فهي مترادفة من هذا الوجه وتختلف باعتبار الصفات فهي متباينة من هذا الوجه وهكذا أسماء الرب سبحانه وتعالى وأسماء كتابه وأسماء رسله وأسماء اليوم الآخر وأسماء النار

الاسم الأول : الجنة وهو الاسم العام المتناول لتلك الدار وما اشتملت عليه من أنواع النعيم واللذة والبهجة والسرور وقرة الأعين وأصل اشتقاق هذه اللفظة من الستر والتغطية ومنه الجنين لاستتاره في البطن والجان لاستتاره عن العيون والمجن لستره ووقايته الوجه والمجنون لاستتار عقله وتواريه عنه والجان وهي الحية الصغيرة الرقيقة ومنه قول الشاعر :

فدقت وجلت واسبكرت وأكملت . . . فلو جن إنسان من الحسن جنت

أي لو غطى وستر عن العيون لفعل بها ذلك ومنه سمى البستان جنة لأنه يستر داخله بالأشجار ويغطيه فلا يستحق هذا الاسم إلا موضع كثير الأشجار مختلف الأنواع والجنة بالضم ما يستجن به من ترس أو غيره

ومنه قوله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ أي يستترون بها من إنكار المؤمنين عليهم

ومنه صفة الجِنة بالكسر كما قال تعالى: ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ وذهبت طائفة من المفسرين إلى أن الملائكة يسمون جنة واحتجوا بقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً ﴾ قالوا: وهذا النسب قولهم الملائكة بنات الله ورجحوا هذا القول بوجهين

أحدهما: إن النسب الذي جعلوه إنما زعموا أنه بين الملائكة وبينه ولا بين الجن وبينه

الثاني: قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي قد علمت الملائكة أن الذين قالوا هذا القول محضرون للعذاب والصحيح خلاف ما ذهب إليه هؤلاء وإن الجنة هم الجن نفسهم كما قال تعالى: ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ وعلى هذا ففي الآية قولان:

*(117/250)*

---

أحدهما: قول مجاهد قال قالت كفار قريش الملائكة بنات الله فقال لهم أبو بكر فمن أمهاتهم قالوا: سروات الجن وقال الكلبي قالوا تزوج من الجن فخرج من بينهما الملائكة وقال قتادة

قالوا صاهر الجن

والقول الثاني: هو قول الحسن قال أشركوا الشياطين في عبادة الله فهو النسب الذي جعلوه والصحيح قول مجاهد وغيره وما احتج به أصحاب القول الأول ليس بمستلزم لصحة قولهم فإنهم لما قالوا الملائكة بنات الله وهم من الجن عقدوا بينه وبين الجن نسبا بهذا الإيلاد وجعلوا هذا النسب متوالد بينه وبين الجن وأما قوله: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ فالضمير يرجع إلى الجنة أي قد علمت الجنة أنهم لمحضرون الحساب قاله مجاهد أي لو كان بينه وبينهم نسب لم يحضروا للحساب كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ﴾ فجعل سبحانه عقوبتهم بذنوبهم وإحضارهم للعذاب مبطلا لدعواهم الكاذبة وهذا التقدير في الآية أبلغ في إبطال قولهم من التقدير الأول فتأمله والمقصود ذكر أسماء الجنة

فصل

الاسم الثاني: دار السلام وقد سماها الله بهذا الاسم في قوله: ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ وقوله ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾ وهي أحق بهذا

الاسم فإنها دار السلامة من كل بلية وآفة ومكروه وهي دار الله واسمه سبحانه وتعالى السلام الذي سلمها وسلم أهلها ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ ﴾ ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ﴾ والرب تعالى يسلم عليكم من فوقهم كما قال تعالى: ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴾ وسيأتي حديث جابر في سلام الرب تبارك وتعالى عليهم في الجنة وكلامهم كلهم فيها سلام أي لا لغو فيها ولا فحش ولا باطل كما قال تعالى: ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلا سَلاماً ﴾

وأما قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ فأكثر المفسرون حاموا حول المعنى وما وردوه وقالوا أقوالا لا يخفى بعدها عن المقصود وإنما معنى الآية والله أعلم فسلام لك أيها الراحل عن الدنيا حال كونك من أصحاب اليمين أي فسلامه لك كائنا من أصحاب اليمين الذين سلموا من الدنيا وأنكادها ومن النار وعذابها فبشر بالسلامة عند ارتحاله من الدنيا وقدومه على الله كما يبشر الملك روحه عند أخذها بقوله ابشري بروح وريحان ورب غير غضبان وهذا أول البشرى التي للمؤمن في الآخرة

فصل

الاسم الثالث: دار الخلد وسميت بذلك لأن أهلها لا يظعنون عنها أبدا كما قال تعالى: ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ وقال ﴿ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴾ ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾

وقال ﴿ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ وسيأتي إبطال قول من قال من الجهمية والمعتزلة بفنائها أو فناء حركات أهلها أن شاء الله تعالى

فصل

(119/250)

---

الاسم الرابع: دار المقامة قال تعالى حكاية عن أهلها ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ ﴾ قال مقاتل: أنزلنا دار الخلود أقاموا فيها أبدا لا يموتون ولا يتحولون منها أبدا

قال الفراء والزجاج المقامة مثل الإقامة يقال أقمت بالمكان إقامة ومقامة ومقاما

فصل

الاسم الخامس جنة المأوى قال تعالى: ﴿ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴾ والمأوى مفعل من أوى يأوي إذا انضم إلى المكان وصار إليه واستقر به

وقال عطاء عن ابن عباس هي الجنة التي يأوي إليها جبريل والملائكة

وقال مقاتل والكلبي هي جنة تأوي إليها أرواح الشهداء

وقال كعب جنة المأوى جنة فيها طير خضر ترتع فيها أرواح الشهداء

وقالت عائشة رضي الله عنها وزر بن حبيش هي جنة من الجنان

والصحيح أنه اسم من أسماء الجنة كما قال تعالى ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ وقال في النار ﴿ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ وقال: ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ .

فصل

الاسم السادس: جنات عدن فقيل هو اسم جنة من جملة الجنات والصحيح أنه من لجملة الجنان وكلها جنات عدن قال تعالى ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ وقال تعالى: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ والاشتقاق يدل على أن جميعها جنات عدن فإنه من الإقامة والدوام يقال عدن بالمكان إذا أقام به وعدنت البلد توطنته وعدنت الإبل مكان كذا لزمته فلم تبرح منه

*(120/250)*

---

قال الجوهري ومنه جنات عدن أي إقامة ومنه سمى المعدن بكسر الدال لأن الناس يقيمون فيه الصيف والشتاء ومركزه كل شيء معدنه والعادن الناقة المقيمة في المرعى

فصل

الاسم السابع: دار الحيوان قال تعالى ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ والمراد الجنة عند أهل التفسير قالوا وأن الآخرة يعني الجنة لهي الحيوان لهي دار الحياة التي لا موت فيها فقال الكلبي هي حياة لا موت فيها قال وقال الزجاج هي دار الحياة الدائمة وأهل اللغة على أن الحيوان بمعنى الحياة وقال أبو عبيدة وابن قتيبة الحياة الحيوان قال أبو عبيدة الحياة والحيوان والحي بكسر الحاء واحد قال أبو علي يعني أنها مصادر فالحياة فعلة كالحلبة والحيوان كالنزوان والغليان والحي كالعي قال العجاج:

كنا بها إذا الحياة حي

أي إذا الحياة حياة وأما أبو زيد فخالفهم وقال الحيوان ما فيه روح والموتان والموات ما لا روح فيه والصواب أن الحيوان يقع على ضربين أحدهما مصدر كما حكاه أبو عبيدة والثاني وصف كما حكاه أبو زيد وعلى قول أبي زيد الحيوان مثل الحي خلاف الميت ورجح القول الأول بأن الفعلان بابه المصادر كالنزوان والغليان بخلاف الصفات فإن بابها فعلان كسكران وغضبان وأجاب من رجح القول الثاني بإن فعلان قد جاء في الصفات أيضا قالوا رجل ضميان للسريع الخفيف وزفيان قال في الصحاح ناقة زفيان سريعة وقوس زفيان سريعة الارسال للسهم فيحتمل قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ معنيين أحدهما أن الحياة الآخرة هي الحياة لآنها لا تنغيص فيها ولا نفاد لها أي لا يشوبها ما

يشوب الحياة في هذه الدار فيكون الحيوان مصدرا على هذا

والثاني أن يكون المعنى أنها الدار التي تفنى ولا تنقطع ولا تبيد كما يفنى الأحياء في هذه الدنيا فهي أحق بهذا الاسم من الحيوان الذي يفنى ويموت

فصل

*(121/250)*

---

الاسم الثامن الفردوس قال تعالى ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴾ والفردوس اسم يقال على جميع الجنة ويقال على أفضلها وأعلاها كأنه أحق بهذا الاسم من غيره من الجنات وأصل الفردوس البستان والفراديس البساتين قال كعب هو البستان الذي فيه الأعناب وقال الليث الفردوس جنة ذات كروم يقال كرم مفردس أي معرش وقال الضحاك هي الجنة الملتفة بالأشجار وهو اختيار المبرد وقال الفردوس فيما سمعت

من كلام العرب الشجر الملتف والأغلب عليه العنب وجمعه الفراديس قال ولهذا سمى باب الفراديس بالشام وانشد لجرير:

فقلت للركب إذ جد المسير بنا . . . يا بعد يبرين من باب الفراديس

وقال مجاهد هذا البستان بالرومية واختاره الزجاج فقال هو بالرومية منقول إلى لفظ العربية قال وحقيقتة أنه البستان الذي يجمع كل ما يكون في البساتين قال حسان:

وأن ثواب الله كل مخلد . . . جنان من الفردوس فيها مخلد

فصل

الاسم التاسع جنات النعيم قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴾ وهذا أيضا آسم جامع لجميع الجنات لما تضمنته من الأنواع التي يتنعم بها من المأكول والمشروب والملبوس والصور والرائحة الطيبة والمنظر البهيج والمساكن الواسعة وغير ذلك من النعيم الظاهر والباطن

*(122/250)*

---

فصل الاسم العاشر: المقام الأمين قال تعالى ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ والمقام الأمين موضع الإقامة والأمين الآمن من كل سوء وآفة ومكروه وهو الذي قد جمع صفات الأمن كلها فهو آمن من الزوال والخراب وأنواع النقص وأهله آمنون فيه من الخروج والنغص والنكد والبلد الأمين الذي قد أمن من أهله فيه مما يخالف منه سواهم

وتأمل كيف ذكر سبحانه الأمن في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴾ فجمع لهم

بين أمن المكان وأمن الطعام فلا يخافون انقطاع الفاكهة ولا سوء عاقبتها ومضرتها وأمن الخروج منها فلا يخافون ذلك وأمن من الموت فلا يخافون فيها موتا

*(123/250)*

---

فصل الاسم الحادي عشر والثاني عشر مقعد الصدق وقدم الصدق قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ فسمى الجنة مقعد صدق لحصول كل ما يراد من المقعد الحسن فيها كما يقال: مودة صادقة إذا كانت ثابتة تامة وحلاوة صادقة وجملة صادقة ومنه الكلام الصدق لحصول مقصوده منه وموضع هذه اللفظة في كلامهم الصحة والكمال ومنه الصدق في الحديث والصدق في العمل والصديق الذي يصدق قوله بالعمل والصدق بالفتح الصلب من الرماح ويقال للرجل الشجاع أنه لذو مصدق أي صادق الجملة وهذا مصداق هذا: أي ما يصدقه ومنه الصداقة لصفاء المودة والمخالة ومنه صدقني القتال وصدقني المودة ومنه قدم صدق ولسان صدق ومدخل صدق ومخرج صدق وذلك كله للحق الثابت المقصود الذي يرغب فيه بخلاف الكذب الباطل الذي لا شيء

تحته ولا يتضمن أمرا ثابتا وفسر قوم قدم صدق بالجنة وفسر بالأعمال التي تنال بها الجنة وفسر بالسابقة التي سبقت لهم من الله وفسر بالرسول الذي على يده وهدايته نالوا ذلك والتحقيق أن الجميع حق فأنهم سبقت لهم من الله الحسنى بتلك السابقة أي بالأسباب التي قدرها لهم على يد رسوله وأدخر لهم جزاءها يوم لقائه ولسان الصدق وهو لسان الثناء الصادق بمحاسن الأفعال وجميل الطرائق وفي كونه لسان صدق إشارة إلى مطابقته للواقع وأنه ثناء بحق لا بباطل ومدخل الصدق ومخرج الصدق هو المدخل والمخرج الذي يكون صاحبه فيه ضامنا على الله وهو دخول وخروج بالله ولله وهذه الدعوة من أنفع الدعاء للعبد فإنه لا يزال داخلا في أمر وخارجا من أمر فمتى كان دخوله لله وبالله وخروجه كذلك كان قد أدخل مدخل صدق وأخرج مخرج صدق والله المستعان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ حادى الأرواح صـ 94. 101 ﴾

*(124/250)*

---

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا ﴾ [ الأنعام : 112 ]

لتفاوت مراتب أرواحهم في الصفاء والكدورة والنور والظلمة والقرب والبعد .

ومن هنا قيل : والجاهلون لأهل العلم أعداء .

وكلما اشتد التفاوت اشتدت العداوة وزاد الإيذاء الناشيء منها .

ولهذا ورد في بعض الآثار " ما أوذي نبي مثل ما أوذيت " .

وتسبب هذه العداوة مزيد التوجه إلى الحق جل شأنه والإعراض عن الملاذ والحرص على الفضيلة التي يقهر بها العدو والاحتراز عما يوشك أن يكون سبباً للطعن إلى غير ذلك ﴿ وَلِتَصْغَى ﴾ أي تميل ﴿ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ وهم المحجوبون لوجود المناسبة ﴿ وَلِيَرْضَوْهُ ﴾ بمحبتهم إياه ﴿ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [ الأنعام : 113 ] من اسم التعاضد والتظاهر ﴿ أَفَغَيْرَ الله أَبْتَغِى حَكَماً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الذى أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الكتاب ﴾ المعجز الجامع ﴿ مُفَصَّلاً ﴾ [ الأنعام : 114 ] فيه الحق والباطل بحث لا يبقى معه مقال لقائل فطلب ما سواه مما لا يليق بعاقل ولا يميل إليه إلا جاهل ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ أي تم قضاؤه في الأزل بما قضى وقدر ﴿ صِدْقاً ﴾ مطابقاً لما يقع ﴿ وَعَدْلاً ﴾ مناسباً للاستعداد ، وقيل : صدقاً فيما وعد وعدلاً فيما أوعد ﴿ لاَ مُبَدّلَ لكلماته ﴾ [ الأنعام : 115 ] لأنها على طرز ما ثبت في علمه والانقلاب محال ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى الأرض ﴾ أي من الجهة السفلية بالركون إلى الدنيا وعالم النفس والطبيعة ﴿ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ الله ﴾ لأنهم لا يدعون إلا للشهوات المبعدة عن الله تعالى ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ ﴾ أي

ما يتبعون لكونهم محجوبين في مقام النفس بالأوهام والخيالات ﴿ إِلاَّ الظن وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ [ الأنعام : 116 ] بقياس الغائب على الشاهد ﴿ وَذَرُواْ ظاهر الإثم ﴾ من الأقوال والأفعال الظاهرة على الجوارح ﴿ وَبَاطِنَهُ ﴾ [ الأنعام : 120 ] من العقائد الفاسدة والعزائم الباطلة .

*(125/250)*

---

وقال سهل : ظاهر الإثم المعاصي كيف كانت وباطنه حبها ، وقال الشبلي : ظاهر الإثم الغفلة وباطنه نسيان مطالعة السوابق ، وقال بعضهم : ظاهر الإثم طلب الدنيا وباطنه طلب الجنة لأن الأمرين يشغلان عن الحق وكل ما يشغل عنه سبحانه فهو إثم ، وقيل : ظاهر الإثم حظوظ النفس وباطنه حظوظ القلب ، وقيل : ظاهر الإثم حب الدنيا وباطنه حب الجاه ، وقيل : ظاهر الإثم رؤية الأعمال وباطنه سكون القلب إلى الأحوال .

*(126/250)*

---

﴿ وَإِنَّ الشياطين ﴾ وهم المحجوبون بالظاهر عن الباطن ﴿ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيَائِهِمْ ﴾ أي من يواليهم من المنكرين ﴿ ليجادلوكم ﴾ بما يتلقونه من الشبه ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ ﴾ وتركتم ما أنتم عليه من التوحيد ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [ الأنعام : 121 ] مثلهم ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا ﴾ بالجهل وهوى النفس أو الاحتجاب بصفاتها ﴿ فأحييناه ﴾ بالعلم ومحبة الحق أو كشف حجب صفاته ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا ﴾ من هدايتنا وعلمنا أو نوراً من صفاتنا ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا ﴾ بالمجاهدات ﴿ فأحييناه ﴾ بروح المشاهدات أو ميتاً بشهوات النفس ﴿ فأحييناه ﴾ بصفاء القلب أو ميتاً برؤية الثواب فأحييناه برؤية المآب إلى الوهاب وجعلنا له نور الفراسة أو الإرشاد ، وقال جعفر الصادق : المعنى أو من كان ميتاً عنا فأحييناه بنا وجعلناه إماماً يهدي بنور الإجابة ويرجع إليه الضلال ، وقال ابن عطاء : أو من كان ميتاً بحياة نفسه وموت قلبه فأحييناه بإماتة نفسه وحياة قلبه وسهلنا عليه سبل التوفيق وكحلناه بأنوار القرب فلا يرى غيرنا ولا يلتفت إلى سوانا ﴿ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظلمات ﴾ أي ظلمات نفسه وصفاته وأفعاله ﴿ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ لسوء استعداده ﴿ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلكافرين ﴾ المحجوبين ﴿ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [ الأنعام : 122 ] فاحتجبوا به ﴿ وكذلك جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابر مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ﴾ ويكون ذلك سبباً لمزيد كمال العارفين حسبما تقدم في جعل الأعداء للأنبياء عليهم السلام .

ويمكن أن يكون إشارة إلى ما في الأنفس أي ﴿ وكذلك جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ ﴾ وجود الإنسان التي هي البدن ﴿ أَكابر مُجْرِمِيهَا ﴾ من قوى النفس الأمارة ﴿ لِيَمْكُرُواْ فِيهَا ﴾ بإضلال القلب ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [ الأنعام : 123 ] لأن عاقبة مكرهم راجع إليهم ءافاقاً وأنفساً ﴿ وَإِذَا جَاءتْهُمْ ﴾ على يد الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حتى نؤتى مِثْلَ مَا أُوتِىَ رُسُلُ الله الله ﴾ من الرسالة إليهم ﴿ الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ وذلك حيث خزينة الاستعداد عامرة والنفس قدسية ﴿ سَيُصِيبُ الذين أَجْرَمُواْ ﴾ بالاحتجاب عن الحق ﴿ صَغَارٌ عِندَ الله ﴾ أي ذل بذهاب قدرهم حين خراب أبدانهم ﴿ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ [ الأنعام : 124 ] بحرمانهم الملائم ووصول المنافي إليهم في المعاد الجسماني ﴿ فَمَن يُرِدِ الله أَن يَهْدِيَهُ ﴾ إليه ويعرفه به ﴿ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسلام ﴾ بأن يقذف فيه نوراً من أنواره فيعرفه بذلك ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً ﴾ لا يدخل فيه شيء من أنوار شمس العرفان ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السماء ﴾ نبواً وهرباً عن قبول ذلك لأنه خلاف استعداده ، وقيل : المعنى فمن يرد الله أن يهديه للتوحيد يشرح صدره لقبول نور الحق وإسلام الوجود إلى الله سبحانه بكشف حجب صفات نفسه عن وجه قلبه الذي يلي النفس فينفسح لقبول نور الحق ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً باستيلاء النفس عليه وضغطها له كما يصعد في سماء

روحه مع تلك الهيآت البدنية المظلمة وذلك أمر محال ، وقيل : غير ذلك ﴿ كذلك يَجْعَلُ الله الرجس ﴾ أي رجس التلوث بنتن الطبيعة

(128/250)

---

﴿ عَلَى الذين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [ الأنعام : 125 ] وهم المحجوبون عن الحق ﴿ وهذا ﴾ أي طريق التوحيد أو الجعل ﴿ صراط ربّكَ ﴾ أي طريقه الذي ارتضاه أو عادته التي اقتضتها حكمته ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيات لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [ الأنعام : 126 ] المعارف والحقائق المركوزة في استعدادهم ﴿ لَهُمْ دَارُ السلام عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [ الأنعام : 127 ] هي ساحة جلاله وحضائر قدس صفاته ومساقط وقوع أنوار جماله المنزهة عن خطر الحجاب وعلة العتاب وطريان العذاب وهو وليهم بنعت رعايتهم وكشف جماله لهم أو وليهم يحفظهم عن رؤية الغير في البين .

ويجوز أن يكون المعنى لهم دار السلامة من كل خوف وآفة حيث يكون العبد فيها في ظل الذات والصفات وريف البقاء بعد الفناء ؛ والكثير على أن السلام من أسمائه تعالى فما ظنك بدار تنسب إليه جل شأنه

: إذا نزلت سلمى بواد فماؤه . . .

زلال وسلسال وأشجاره ورد

نسأل الله تعالى أن يدخلنا هاتيك الدار بحرمة نبيه المختار صلى الله عليه وسلم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

*(129/250)*

---

قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (128) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما فصل سبحانه أحوال الفريقين ، وحض على التذكر تنبيهاً على أن كل ما في القرآن مما يهدي إليه العقل ، وذكر مآل المتذكرين فأفهم أن غيرهم إلى عطب ، لأنهم تولوا ما يضرهم لأنهم تبعوا شهواتهم ، وكان من المعلوم أنهم يعبدون غير مالكهم ، وأنه ما من عبد يخدم غير سيده بغير أمر سيده إلاّ عاتبه أو عاقبه ، هذا مركوز في كل عقل ؛ ذكر سبحانه ما يتقدم ذلك المآل من الأهوال في الأجل المسمى الذي أخفاه عنده وجعله من أعظم مباني هذه

السورة ، وأبهمه في أولها ، وبيّن في أثنائها بعض أحواله مراراً في وجوه من أفانين البيان ، وهو يوم الحشر ، فذكر هنا سبحانه بعض أحوال الغافلين وبعض ما يقول لهم فيه وما يفعله معهم من عتاب وعقاب ، لطفاً بهم واستعطافاً إلى المتاب ، فقال جامعاً الفريقين ﴿ ويوم ﴾ أي اذكر في تذكرك يوم ﴿ يحشرهم ﴾ أي أهل ولايتنا وأهل عداوتنا ﴿ جميعاً ﴾ لا نذر منهم أحداً ﴿ يا ﴾ أي فنقول على لسان من نشاء من جنودنا لأهل عداوتنا تبكيتاً وتوبيخاً حين لا يكون لهم مدافعة أصلاً : ﴿ معشر الجن ﴾ أي المستترين الموحشين من مردة الشياطين المسلطين على الإنس ، وهم يرونهم من حيث لا ترونهم ﴿ قد استكثرتم ﴾ أي طلبتم وأوجدتم الكثرة ﴿ من الإنس ﴾ أي من إغواء المؤنسين الظاهرين حتى صار أكثرهم أتباعكم ، فالآية من الاحتباك : عبر بما يدل على الستر أولاً دلالة على ضده - وهو الظهور - ثانياً ، وبما معناه الاستئناس والسكون ثانياً دلالة على ضده وهو الإيحاش والنفرة - أولاً .

*(130/250)*

---

﴿ وقال ﴾ هو عطف على جواب الجن المستتر عن العامل في " يا معشر " الذي تقديره كما يهدي إليه الآيات التي تأتي في السورة الآتية في تفصيل هذه المحاورة : فقالوا : ربنا هم

ضلوا ، لأنهم كانوا يستمعون بنا في نفوذهم وسماعهم الأخبار الغريبة منا ، فاستوجبوا العذاب بمفردهم ، وستر جواب الجن لأنه – مع كونه لا يخفى لدلالة المعطوف عليه – مناسب لحالهم في الاستتار مع شهرتهم ، وذكره بلفظ الماضي إشارة إلى تحقق وقوعه ، لأنه خبر من لا يخلف الميعاد ، والمراد بهذه المحاورة ضرب مما يأتي تفصيله بقوله ﴿ قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا ﴾ [ الأعراف : 38 ] – الآية ، وقوله ﴿ فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً ﴾ – الآية ﴿ أولياؤهم ﴾ أي الجن ﴿ من الإنس ﴾ أي الذين تولوهم بالاتباع والطاعة فيما دعوهم إليه من الضلال ، معترفين مستعطفين ﴿ ربنا ﴾ أيها المربي لنا المحسن إلينا ﴿ استمتع ﴾ أي طلب المتاع وأوجده ﴿ بعضنا ببعض ﴾ نحن بهم فيما قالوا ، وهم بنا في طاعتنا لهم وعياذنا بهم ﴿ وبلغنا ﴾ أي نحن وهم ﴿ أجلنا ﴾ وأحالوا الأمر على القدر فقالوا : ﴿ الذي أجلت لنا ﴾ وهو الموت الذي كتبته علينا وسويت بيننا في سوط قهره وتجرع كؤوس حره وقره ، ثم هذا اليوم الذي كنا مشتركين في التكذيب به ، فاستوجبنا العذاب كلنا .

ولما تم ذلك كان كأنه قيل : فما قال الله لهم بعد هذه المحاورة الغريبة التي هي ضرب من كلام أهل الباطن في الدنيا لجلج مضطرب لا حاصل له ؟ فقيل : ﴿ قال ﴾ أي المخاطب لهم عن الله ﴿ النار مثواكم ﴾ أي منزلكم جميعاً من غير أن تنفعكم الإحالة على القدر

﴿ خالدين فيها ﴾ أي إلى ما لا آخر له ، لأن الأعمال بالنية وقد كنتم على عزم ثابت أنكم على هذا الكفر ما بقيتم ولو إلى ما لا آخر له ، فالجزاء من جنس العمل .

*(131/250)*

---

ولما كان من المقرر أنه لا تمام لملك من يجب عليه شيء ويلزمه بحيث لا يقدر على الانفكاك عنه ، بين سبحانه أن ملكه ليس كذلك ، بل هو على غاية الكمال ، لا يجب عليه شيء بل كل فعله جميل ، وجميع ما يبدو منه حسن ، فعلق دوام عذابهم على المشيئة فقال : ﴿ إلا ما شاء ﴾ ولما كان القصد في هذه السورة إلى إظهار العظمة للغيرة على مقام الإلهية ، عبر بالاسم الأعظم فقال : ﴿ الله ﴾ أي الذي له رداء الكبر فلا يستطيع أحد أن يعترض عليه ولا أن يهم بذلك ، هيهات هيهات ! انقطعت دون ذلك الآمال ، فظلت ناكسة أعناق الرجال ، وبيده إزار العز ، فمن اختلج في سره أن يرفع ناكس عنقه ضربه بمقامع الذل ، وأنزله في مهاوي الخزي ، وقد تقرر أنه سبحانه لا يشاء انقطاع شيء من ذلك عنهم في حال من الأحوال ، ونطق الكتاب بذلك في صرائح الأقوال ، وفي سوقه معلقاً هكذا مع ما تقدم زيادة في عذابهم بتعليق رجائهم من انقطاع بلائهم بما لا مطمع فيه .

ولما كان في إظهار الجلال في هذا الحال من عظيم الأهوال ما لا يسعه المقال ، أتبعه اللطف

بالمخاطب به صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ إن ربك ﴾ أي المحسن إليك برفع أوليائك وخفض أعدائك .

ولما كان السياق – في مثل هذه المقاولة في مجمع الحكم – للحكمة والعلم ، وكان النظر إلى الحكمة في تنزيل كل شيء منزلة أعظم ، قدم وصفها فقال : ﴿ حكيم ﴾ أي فلا يعذب المخلص ويترك المشرك ولا يعذب بعض من أشرك ويترك بعضاً ﴿ عليم ﴾ أي بدقائق الأمور وجلائلها من الفريقين ، فلا يخفى عليه عمل أحد فيهمله لذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 714.716 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما بين حال من يتمسك بالصراط المستقيم ، بين بعده حال من يكون بالضد من ذلك لتكون قصة أهل الجنة مردفة بقصة أهل النار ، وليكون الوعيد مذكوراً بعد الوعد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 156 ﴾

*(132/250)*

---

اللغَة :

﴿ مَثْوَاكُمْ ﴾ مأواكم يقال ثوى بالمكان إذا أقام فيه ﴿ يَقُصُّونَ ﴾ يحكون يقال قصَّ الخبر

يقصُّه قصاً أي حكاه ﴿ ذَرَأَ ﴾ خلق ﴿ الحرث ﴾ الزرع ﴿ لِيُرْدُوهُمْ ﴾ الإِرداء : الإِهلاك يقال أرادهُ يرديه أي أهلكه ﴿ حِجْرٌ ﴾ الحِجر : الحرام وأصله المنع يقال حجره أي منعه والحِجْر : العقل سمي به لأنه يمنع عن القبائح قال تعالى ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ [ الفجر : 5 ] ﴿ سَفَهاً ﴾ حماقة وجهالة والسَّفه : خفة العقل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 418 ﴾

(133/250)

---

فصل

قال الفخر :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ منصوب بمحذوف ، أي واذكر يوم نحشرهم ، أو يوم نحشرهم قلنا يا معشر الجن ، أو يوم نحشرهم وقلنا يا معشر الجن ، كان ما لا يوصف لفظاعته .

فائدة :

الضمير في قوله : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ إلى ماذا يعود ؟ فيه قولان : الأول : يعود إلى المعلوم ، لا إلى المذكور ، وهو الثقلان ، وجميع المكلفين الذين علم أن الله يبعثهم .

والثاني : أنه عائد إلى الشياطين الذين تقدم ذكرهم في قوله : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ

عَدُوّاً شياطين الإنس والجن يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول غُرُوراً ﴾ [ الأنعام : 112 ] .

فائدة :

في الآية محذوف والتقدير : يوم نحشرهم جميعاً فنقول : يا معشر الجن ، فيكون هذا القائل هو الله تعالى ، كما أنه الحاشر لجميعهم ، وهذا القول منه تعالى بعد الحشر لا يكون إلا تبكيتاً وبياناً لجهة أنهم وإن تمردوا في الدنيا فينتهي حالهم في الآخرة إلى الاستسلام والانقياد والاعتراف بالجرم .

وقال الزجاج : التقدير فيقال لهم يا معشر الجن ، لأنه يبعد أن يتكلم الله تعالى بنفسه مع الكفار ، بدليل قوله تعالى في صفة الكفار : ﴿ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القيامة ﴾ [ البقرة : 174 ] .

أما قوله تعالى : ﴿ قَدِ استكثرتم مّنَ الإنس ﴾ فنقول : هذا لا بد فيه من التأويل .

لأن الجن لا يقدرون على الاستكثار من نفس الإنس ، لأن القادر على الجسم وعلى الأحياء والفعل ليس إلا الله تعالى ، فوجب أن يكون المراد قد استكثرتم من الدعاء إلى الضلال مع مصادفة القبول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 156 ﴾ .

بتصرف يسير .

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ﴾

أي اذكر يا محمد يوم نحشر المعادلين بالله الأصنام مع أوليائهم من الشياطين يعني نحشر المشركين والشياطين جميعاً يوم القيامة ﴿ يا معشر الجن ﴾ فيه حذف تقديره يقول لهم يا معشر الجن والمعشر الجماعة والمراد من الجن الشياطين ﴿ قد استكثرتم من الإنس ﴾ يعني من إضلالهم وإغوائهم وقال ابن عباس : معناه أضللتم كثيراً من الإنس وهذا التفسر لا بد له من تأويل آخر لأن الجن لا يقدرون على إضلال الإنس وإغوائهم بأنفسهم لأنه لا يقدر على الإجبار أحد إلا الله لأنه هو المتصرف في خلقه بما شاء فوجب أن يكون المعنى : قد استكثرتم من الدعاء إلى الإضلال مع مصادفة القبول من الإنس . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

*(135/250)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾

نصب على الظرفية والعامل فيه مقدر أي أذكر أو نقول أو كان ما لا يذكر لفظاعته ، وجوز أن يكون مفعولاً به لمقدر أيضاً أي أذكر ذلك اليوم ، والضمير المنصوب لمن يحشر من الثقلين ، وقيل : للكفار .

وقرأ حفص عن عاصم وروح عن يعقوب ﴿ يُحْشَرُ ﴾ بالياء والباقون بنون العظمة على الإلتفات لتهويل الأمر .

وقوله سبحانه : ﴿ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الجن ﴾ على إضمار القول ، والمعشر الجماعة أمرهم واحد ، وقال الطبرسي : "الجماعة التامة من القوم التي تشتمل على أصناف الطوائف ومنه العشرة لأنها تمام العقد" ، والمراد بالجن أو بمعشرهم على ما قيل الشياطين ، وذكر بعض الفضلاء أن الجن يقال على وجهين ، أحدهما : للروحانيين المستترين عن الحواس كلها فيدخل فيهم الملائكة والشياطين ، وثانيهما : للروحانيين مما عدا الملائكة ، وقال آخرون : إن الروحانيين ثلاثة أخيار وهم الملائكة وأشرار وهم الشياطين وأوساط فيهم أخيار وأشرار ، وأياً ما كان فالمقصود بالنداء الأشرار الذين يغوون الناس فإنهم أهل للخطاب بقوله سبحانه : ﴿ قَدِ استكثرتم مّنَ الإنس ﴾ أي أكثرتم من إغوائهم وإضلالهم كما قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ومجاهد والزجاج ، فالكلام على حذف مضاف أو منهم بأن جعلتموهم أتباعكم فحشروا معكم كما يقال : استكثر الأمير من الجنود وهذا بطريق التوبيخ والتقريع .

قيل : وإنما ذكر المعشر في جانب الجن دون جانب الإنس لما أن الإغواء كثيراً ما يقتضي التظاهر والتعاون ، وفي المعشر نوع إيماء إليه ولا كذلك الغوى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ﴾

لمّا ذكر ثواب القوم الّذين يتذكّرون بالآيات ، وهو ثواب دار السّلام ، ناسب أن يعطف عليه ذكر جزاء الّذين لا يتذكّرون ، وهو جزاء الآخرة أيضاً ، فجملة : ﴿ ويوم يحشرهم ﴾ إلخ معطوفة على جملة : ﴿ لهم دار السّلام عند ربّهم ﴾ [ الأنعام : 127 ] .

والمعنى : وللآخرين النّار مثواهم خالدين فيها .

وقد صُوّر هذا الخبر في صورة ما يقع في حسابهم يوم الحشر ، ثمّ أُفضي إلى غاية ذلك الحساب ، وهو خلودهم في النّار .

*(136/250)*

---

وانتصب : ﴿ يومَ ﴾ على المفعول به لفعل محذوف تقديره : اذْكُر ، على طريقة نظائره في القرآن ، أو انتصب على الظرفيّة لفعل القول المقدّر .

والضّمير المنصوب بـ ﴿ نحشرهم ﴾ عائد إلى ﴿ الذين أجرموا ﴾ [ الأنعام : 124 ] المذكور في قوله : ﴿ سيصيب الذين آجرموا صغار عند الله ، أو إلى الذين لا يؤمنون ﴾ [ الأنعام : 125 ] في قوله : ﴿ كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ .

وهؤلاء هم مقابل الّذين يتذكّرون ، فإنّ جماعة المسلمين يُعتَبرون مخاطبين لأنّهم فريق واحد مع الرّسول عليه الصّلاة والسّلام ويعتبر المشركون فريقاً مبائناً لهم بعيداً عنهم ، فيتحدّث عنهم بضمير الغيبة ، فالمراد المشركون الّذين ماتوا على الشّرك وأُكّد بـ ﴿ جميعاً ﴾ ليعمّ كلّ المشركين ، وسادتهم ، وشياطينهم ، وسائر عُلَقهم .

ويجوز أن يعود الضّمير إلى الشّياطين وأوليائهم في قوله تعالى : ﴿ وإنّ الشّياطين ليوحون إلى أوليائهم ﴾ [ الأنعام : 121 ] إلخ .

وقرأ الجمهور : ﴿ نحشرهم ﴾ بنون العظمة على الالتفات .

وقرأه حفص عن عاصم ، ورَوْح عن يعقوب بياء الغيبة ولمّا أسند الحشر إلى ضمير الجلالة تعيّن أنّ النداء في قوله : ﴿ يا معشر الجن ﴾ من قِبل الله تعالى ، فتعيّن لذلك إضمار قول صادر من المتكلّم ، أي نقول : يا معشر الجنّ ، لأنّ النّداء لا يكون إلاّ قولاً .

وجملة : ﴿ يا معشر الجن ﴾ إلخ مقول قول محذوف يدلّ عليه أسلوب الكلام ، والتّقدير : نقول أو قائلين .

والمعشر : الجماعة الّذين أمرهم وشأنهم واحد ، بحيث تجمعهم صفة أو عمل ، وهو اسم

جمع لا واحد له من لفظه .

وهو يُجمع على معاشر أيضاً ، وهو بمعناه ، وهو مشتقّ من المعاشرة والمخالطة .

(137/250)

---

والأكثر أن يضاف المعشر إلى اسم يبيّن الصّفة الّتي اجتمع مسمّاه فيها ، وهي هنا صفة كونهم جنّاً ، ولذلك إذا عُطف على ما يضاف إليه كان على تقدير تثنية معشراً وجمْعِه : فالتثنية نحو : ﴿ يا معشر الجنّ والإنس إن استطعتم أن تنفذوا ﴾ [ الرحمن : 33 ] الآية ، أي يا معشر الجنّ ويا معشر الإنس ، والجمع نحو قولك : يا معاشر العرب والعجم والبربر .

والجنّ تقدّم في قوله : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجنّ ﴾ في هذه السّورة ( 100 ) .

والمراد بالجنّ الشّياطين وأعوانهم من بني جنسهم الجنّ ، والإنس تقدّم عند قوله : ﴿ شياطين الإنس والجنّ ﴾ في هذه السّورة ( 112 ) .

والاستكثار : شدّة الإكثار .

فالسّين والتّاء فيه للمبالغة مثل الاستسلام والاستخداع والاستكبار ، ويتعدى بمن البيانية إلى الشيء المتّخذِ كثيرُه ، يقال : استكثر من النّعم أو من المال ، أي أكثر من جمعهما ، واستكثر الأمير من الجند ، ولا يتعدّى بنفسه تفرقة بين هذا المعنى وبين استكثر الّذي

بمعنى عدّ الشّيء كثيراً ، كقوله تعالى: ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ [المدثر : 6] .

وقوله : ﴿ استكثرتم من الإنس ﴾ على حذف مضاف ، تقديره : من إضلال الإنس ، أو من إغوائهم ، فمعنى ﴿ استكثرتم من الإنس ﴾ أكثرتم من اتّخاذهم ، أي من جعلهم أتباعاً لكم ، أي تجاوزتم الحدّ في استهوائهم واستغوائهم ، فطوّعتم منهم كثيراً جداً .

والكلام توبيخ للجنّ وإنكار ، أي كان أكثر الإنس طوعاً لكم ، والجنّ يشمل الشّياطين ، وهم يغوون النّاس ويطوّعونهم : بالوسوسة ، والتخييل ، والإرهاب ، والمسّ ، ونحو ذلك ، حتّى تَوهّم النّاس مقدرتهم وأنّهم محتاجون إليهم ، فتوسّلوا إليهم بالإرضاء وترك اسم الله على ذبائحهم وفي شؤونهم ، وحتّى أصبح المسافر إذا نزل وادياً قال : "أعوذ بسَيِّد هذا الوادي ، أو بربّ هذا الوادي ، يعني به كبير الجنّ ، أو قال : يَا ربّ الوادي إنِّي أستجير بك" يعني سيّدَ الجنّ .

*(138/250)*

---

وكان العرب يعتقدون أنّ الفيافي والأودية المتّسعة بين الجبال معمورة بالجنّ ، ويتخيّلون أصوات الرّياح زَجل الجنّ .

قال الأعشى :

وبلدةٍ مثل ظَهْر التُّرس موحِشةٍ

للجنّ بالليل في حَافَاتها زَجَل . . .

وفي الكلام تعريض بتوبيخ الإنس الّذين اتَّبعوهم ، وأطاعوهم ، وأفرطوا في مرضاتهم ، ولم يسمعوا مَن يدعوهم إلى نبذ متابعتهم ، كما يدلّ عليه قوله الآتي : ﴿ يا معشر الجنّ والإنس ألم يأتكم رسل منكم ﴾ [ الأنعام : 130 ] فإنَّه تدرّج في التّوبيخ وقطعِ المعذرة .

والمراد بأوليائهم أولياء الجنّ : أي الموالون لهم ، والمنقطعون إلى التعلّق بأحوالهم .

وأولياء الشّياطين هم المشركون الّذين وافوا المحشر على الشّرك .

وقيل : أريد به الكفّار والعصاة من المسلمين ، وهذا باطل لأنّ العاصي وإن كان قد أطاع الشّياطين فليس وليّاً لها ﴿ اللَّهُ ولي الذين آمنوا ﴾ [ البقرة : 257 ] ولأنّ الله تعالى قال في آخر الآية : ﴿ ألم يأتكم رسل منكم ﴾ [ الأنعام : 130 ] وقال : ﴿ وشَهِدوا على أنفسهم أنَّهم كانوا كافرين ﴾ .

و﴿ من الإنس ﴾ بيان للأولياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مّنَ الإنس ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله : ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مّنَ الإنس ﴾ فالأقرب أن فيه حذفاً ، فكما قال للجن تبكيتاً ،

فكذلك قال للإنس توبيخاً لأنه حصل من الجن الدعاء ، ومن الإنس القبول ، والمشاركة حاصلة بين الفريقين ، فلما بكت تعالى كلا الفريقين حكى ههنا جواب الإنس ، وهو قولهم : ربنا استمتع بعضنا ببعض فوصفوا أنفسهم بالتوفر على منافع الدنيا ، والاستمتاع بلذاتها إلى أن بلغوا هذا المبلغ الذي عنده أيقنوا بسوء عاقبتهم .

ثم ههنا قولان : الأول : أن قولهم استمتع بعضنا ببعض ، المراد منه أنه استمتع الجن بالإنس والإنس بالجن ، وعلى هذا القول ففي المراد بذلك الاستمتاع قولان :

*(139/250)*

---

القول الأول : أن معنى هذا الاستمتاع هو أن الرجل كان إذا سافر فأمسى بأرض قفر وخاف على نفسه قال : أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه ، فيبيت آمناً في نفسه ، فهذا استمتاع الإنس بالجن ، وأما استمتاع الجن بالإنس فهو أن الإنسي إذا عاذ بالجني ، كان ذلك تعظيماً منهم للجن ، وذلك الجني يقول : قد سدت الجن والإنس ، لأن الإنسي قد اعترف له بأنه يقدر أن يدفع عنه ، وهذا قول الحسن وعكرمة والكلبي وابن جريج واحتجوا على صحته بقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجِنِّ ﴾ [ الجن : 6 ] .

والوجه الثاني : في تفسير هذا الاستمتاع أن الإنس كانوا يطيعون الجن وينقادون لحكمهم فصار الجن كالرؤساء ، والإنس كالأتباع والخادمين المطيعين المنقادين الذين لا يخالفون رئيسهم ومخدومهم في قليل ولا كثير ، ولا شك أن هذا الرئيس قد انتفع بهذا الخادم ، فهذا استمتاع الجن بالإنس .

وأما استمتاع الإنس بالجن ، فهو أن الجن كانوا يدلونهم على أنواع الشهوات واللذات والطيبات ويسهلون تلك الأمور عليهم ، وهذا القول اختيار الزجاج .

قال : وهذا أولى من الوجه المتقدم ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ قَدِ استكثرتم مّنَ الإنس ﴾ ومن كان يقول من الإنس أعوذ بسيد هذا الوادي ، قليل .

والقول الثاني : أن قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا استمتع بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ هو كلام الإنس خاصة ، لأن استمتاع الجن بالإنس وبالعكس أمر قليل نادر لا يكاد يظهر .

أما استمتاع بعض الإنس ببعض ، فهو أمر ظاهر .

فوجب حمل الكلام عليه ، وأيضاً قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مّنَ الإنس رَبَّنَا استمتع بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ كلام الإنس الذين هم أولياء الجن ، فوجب أن يكون المراد من استمتاع بعضهم ببعض استمتاع بعض أولئك القوم ببعض .

ثم قال تعالى حكاية عنهم : ﴿ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الذى أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ فالمعنى : أن ذلك الاستمتاع كان حاصلاً إلى أجل معين ووقت محدود ، ثم جاءت الخيبة والحسرة والندامة

من حيث لا تنفع ، واختلفوا في أن ذلك الأجل أي الأوقات ؟ فقال بعضهم : هو وقت الموت .

وقال آخرون : هو وقت التخلية والتمكين .

وقال قوم : المراد وقت المحاسبة في القيامة ، والذين قالوا بالقول الأول قالوا إنه يدل على أن كل من مات من مقتول وغيره فإنه يموت بأجله ، لأنهم أقروا أنا بلغنا أجلنا الذي أجلت لنا ، وفيهم المقتول وغير المقتول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 156 .

157 ﴾

*(140/250)*

---

وقال الخازن :

﴿ وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض ﴾

يعني استمتع الجن بالإنس والإنس بالجن فأما استمتاع الإنس بالجن فقال الكلبي : كان الرجل في الجاهلية إذا سافر فنزل بأرض فقراء وخاف على نفسه من الجن قال أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه فيبيت في جوارهم .

وأما استمتاع الجن بالإنس فهم أنهم قالوا سدنا الإنس مع الجن حتى عاذوا بنا فيزدادون

بذلك شرفاً في قومهم وعظماً في أنفسهم .

وقيل : استمتاع الإنس بالجن هو ما كانوا يلقون إليهم من الأراجيف والسحر والكهانة وتزيينهم الأمور التي كانوا يهوونها وتسهيل سبيلها عليهم واستمتاع الجن بالإنس طاعة الإنس للجن ، فيما يزينون لهم من الضلالة والمعاصي ، وقيل : استمتاع الإنس بالجن فيما كانوا يدلونهم على أنواع الشهوات وأصناف الطيبات ويسهلونها عليهم واستمتاع الجن بالإنس هي طاعة الإنس للجن ، فيما يأمرونهم به ويناقدون لحكمهم فصاروا كالرؤساء للإنس والإنس كالأتباع .

وقيل : إن قوله ربنا استمتع بعضها ببعض هو من كلام الإنس خاصة لأن استمتاع الجن بالإنس وبالعكس أمر نادر لا يكاد يظهر ، أما استمتاع الإنس بعضهم ببعض فهو ظاهر فوجب حمل الكلام عليه ﴿ وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا ﴾ يعني أن ذلك الاستمتاع كان إلى أجل معين ووقت محدود ثم ذهب وبقيت الحسرة الندامة ، قال الحسن والسدي : لأجل الموت .

وقيل : هو وقت البعث للحساب في يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(141/250)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم ﴾ أي الذين أطاعوهم واتبعوهم ﴿ مِّنَ الإِنسِ ﴾ أي الذين هم من الإنس أو كائنين منهم ، فمن إما لبيان الجنس أو متعلقة بمحذوف وقع حالاً من أولياء ﴿ رَّبَّنَا استمتع بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ أي انتفع الإنس بالجن حيث دلوهم على الشهوات وما يتوصل به إليها والجن بالإنس حيث اتخذوهم قادة ورؤساء واتبعوا أمرهم فادخلوا عليهم السرور بذلك .

وعن الحسن وابن جريج والزجاج وغيرهم أن استمتاع الإنس بهم أنهم كانوا إذا سافر أحدهم وخاف الجن قال : أعوذ بسيد هذا الوادي .

واستمتاعهم بالإنس اعترافهم بأنهم قادرون على إعاذتهم وإجارتهم .

وعن محمد بن كعب أن المراد باستمتاع بعضهم ببعض طاعة بعضهم بعضاً وموافقته له ، وقال البلخي : يحتمل أن يكون الاستمتاع مقصوراً على الإنس فيكون الإنس قد استمتع بعضهم ببعض الجن دون الجن .

﴿ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الذى أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ وهو يوم القيامة على ما قاله غير واحد ، وعن الحسن والسدي وابن جريج أنه الموت والأول أولى ، وإنما قال الأولياء ما قالوا اعترافاً بما فعلوا من

طاعة الشياطين واتباع الهوى وتكذيب البعث وإظهاراً للندامة عليها وتحسراً على حالهم واستسلاماً لربهم وإلا ففائدة الخبر ولازمها مما لا تحقق له .

(142/250)

---

قيل : ولعل الاقتصار على حكاية كلام الضالين للإيذان بأن المضلين قد أفحموا بالمرة فلم يقدروا على التكلم أصلاً .

وقرىء ﴿ آجالنا ﴾ بالجمع و﴿ فَلْيُؤَدّ الذى ﴾ بالتذكير والإفراد ، قال أبو علي : هو جنس أو وقع الذي موقع التي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ﴾

وقد اقتصر على حكاية جواب الإنس لأنّ النّاس المشركين هم المقصود من الموعظة بهذه الآية .

ومعنى : ﴿ استمتع بعضنا ببعض ﴾ انتفع وحَصّل شهوته وملائِمَهُ : أي استمتع الجنّ بالإنس ، وانتفع الإنس بالجنّ ، فكلّ بعض مراد به أحد الفريقين لأنَّه بعض مجموع الفريقين .

وإنَّما قالوا : استمتع بعضنا ببعض ، ولم يكن الإنس هم المخاطبين بالتّوبيخ ، لأنَّهم أرادوا

الاعتذار عن أوليائهم من الجنّ ودفع التّوبيخ عنهم ، بأنّ الجنّ لم يكونوا هم المستأثرين بالانتفاع بتطويع الإنس ، بل نال كلّ من الفريقين انتفاعاً بصاحبه ، وهؤلاء المعتذرون يحتمل أنّهم أرادوا مشاطرة الجناية إقراراً بالحقّ ، وإخلاصاً لأوليائهم ، أو أرادوا الاعتذار عن أنفسهم لما علموا من أن توبيخ الجنّ المُغوين يُعرّض بتوبيخ المغوَّين بفتح الواو .

فأقرّوا واعتذروا بأنّ ما فعلوه لم يكن تمرّداً على الله ، ولا استخفافاً بأمره ، ولكنّه كان لإرضاء الشّهوات من الجانبين ، وهي المراد بالاستمتاع .

ولكونهم ليسوا بمخاطبين ابتداء .

وكون كلامهم دخيلاً في المخاطبة ، لم تفصل جملة قولهم كما تفصل جملة المحاورة في السؤال والجواب ، بل عطفت على جملة القول المقدّر لأنَّها قول آخر عَرض في ذلك اليوم .

*(143/250)*

---

وجيء في حكاية قولهم بفعل ﴿ وقال أولياؤهم ﴾ مع أنّه مستقبل من أجلِ قوله : ﴿ يحشرهم ﴾ تنبيها على تحقيق وقوعه ، فيعلم من ذلك التّنبيه على تحقيق الخبر كلّه ، وأنّه واقع لا محالة ، إذ لا يكون بعضه محقّقاً وبعضه دون ذلك .

واستمتاع الإنس بالجنّ هو انتفاعهم في العاجل : بتيسير شهواتهم ، وفتح أبواب اللّذّات

والأهواء لهم ، وسلامتهم من بطشتهم .

واستمتاع الجنّ بالإنس : هو انتفاع الجنّ بتكثير أتباعهم من أهل الضّلالة ، وإعانتُهم على إضلال النّاس ، والوقوفُ في وجه دعاة الخير ، وقطع سبيل الصّلاح ، فكلّ من الفريقين أعان الآخر على تحقيق ما في نفسه ممّا فيه ملائم طبعه وارتياحه لقضاء وطره .

وقوله : ﴿ وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا ﴾ استسلام لله ، أي : انقضَى زمن الإمهال ، وبلغْنا الأجلَ الذي أجلَّت لنا للوقوع في قبضتك ، فسُدّت الآن دوننا المسالكُ فلا نجد مفرّاً .

وفي الكلام تحسّر وندامة .

عند ظهور عدم إغناء أوليائهم عنهم شيئاً ، وانقضاء زمن طغيانهم وعتوّهم ، ومَحين حِين أن يَلْقَوا جزاء أعمالهم كقوله : ﴿ ووجد الله عنده فوفّاه حسابه ﴾ [ النور : 39 ] .

وقد أفادت الآية : أنّ الجنّ المخاطبين قد أُفحموا ، فلم يجدوا جواباً ، فتركوا أولياءهم يناضلون عنهم ، وذلك مظهر من مظاهر عدم إغناء المتبوعين عن أتباعهم يومئذٍ ﴿ إذ تَبرّأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبَعوا ﴾ [ البقرة : 166 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

فصل

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

الِاسْتِمْتَاعُ بِالشَّيْءِ " هُوَ أَنْ يَتَمَتَّعَ بِهِ فَيَنَالَ بِهِ مَا يَطْلُبُهُ وَيُرِيدُهُ وَيَهْوَاهُ وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ اسْتِمْتَاعُ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ كَمَا قَالَ : ﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ وَمِنْ ذَلِكَ الْفَوَاحِشُ كَاسْتِمْتَاعِ الذُّكُورِ بِالذُّكُورِ وَالْإِنَاثِ بِالْإِنَاثِ . وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الِاسْتِمْتَاعُ بِالِاسْتِخْدَامِ وَأَئِمَّةِ الرِّيَاسَةِ كَمَا يَتَمَتَّعُ الْمُلُوكُ وَالسَّادَةُ بِجُنُودِهِمْ وَمَمَالِيكِهِمْ وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الِاسْتِمْتَاعُ بِالْأَمْوَالِ كَاللِّبَاسِ وَمِنْهُ قَوْلُهُ : ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ ﴾ وَكَانَ مِنْ السَّلَفِ مَنْ يُمَتِّعُ الْمَرْأَةَ بِخَادِمٍ فَهِيَ تَسْتَمْتِعُ بِخِدْمَتِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُمْتِعُ بِكِسْوَةٍ أَوْ نَفَقَةٍ وَلِهَذَا قَالَ الْفُقَهَاءُ : أَعْلَى الْمُتْعَةِ خَادِمٌ وَأَدْنَاهَا كِسْوَةٌ تُجْزِي فِيهَا الصَّلَاةُ . وَفِي " الْجُمْلَةِ " اسْتِمْتَاعُ الْإِنْسِ بِالْجِنِّ وَالْجِنِّ بِالْإِنْسِ يُشْبِهُ اسْتِمْتَاعَ الْإِنْسِ بِالْإِنْسِ قَالَ تَعَالَى : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ : هِيَ الْمَوَدَّاتُ الَّتِي كَانَتْ لِغَيْرِ اللَّهِ وَقَالَ الْخَلِيلُ : ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ

﴿ فَالْمُشْرِكُ يَعْبُدُ مَا يَهْوَاهُ

وَاتِّبَاعُ الْهَوَى هُوَ اسْتِمْتَاعٌ مِنْ صَاحِبِهِ بِمَا يَهْوَاهُ وَقَدْ وَقَعَ فِي الْإِنْسِ وَالْجِنِّ هَذَا كُلُّهُ .

(145/250)

---

وَتَارَةً يَخْدِمُ هَؤُلَاءِ لِهَؤُلَاءِ فِي أَغْرَاضِهِمْ وَهَؤُلَاءِ لِهَؤُلَاءِ فِي أَغْرَاضِهِمْ فَالْجِنُّ تَأْتِيهِ بِمَا يُرِيدُ مِنْ صُورَةٍ أَوْ مَالٍ أَوْ قَتْلِ عَدُوِّهِ وَالْإِنْسُ تُطِيعُ الْجِنَّ فَتَارَةً تَسْجُدُ لَهُ وَتَارَةً تَسْجُدُ لِمَا يَأْمُرُهُ بِالسُّجُودِ لَهُ وَتَارَةً تُمَكِّنُهُ مِنْ نَفْسِهِ فَيَفْعَلُ بِهِ الْفَاحِشَةَ وَكَذَلِكَ الْجِنِّيَّاتُ مِنْهُنَّ مَنْ يُرِيدُ مِنْ الْإِنْسِ الَّذِي يَخْدِمُنَهُ مَا يُرِيدُ نِسَاءُ الْإِنْسِ مِنْ الرِّجَالِ وَهَذَا كَثِيرٌ فِي رِجَالِ الْجِنِّ وَنِسَائِهِمْ فَكَثِيرٌ مِنْ رِجَالِهِمْ يَنَالُ مِنْ نِسَاءِ الْإِنْسِ مَا يَنَالُهُ الْإِنْسِيُّ وَقَدْ يَفْعَلُ ذَلِكَ بِالذُّكْرَانِ . وَصَرْعُ الْجِنِّ لِلْإِنْسِ هُوَ لِأَسْبَابٍ ثَلَاثَةٍ : تَارَةً يَكُونُ الْجِنِّيُّ يُحِبُّ الْمَصْرُوعَ فَيَصْرَعُهُ لِيَتَمَتَّعَ بِهِ وَهَذَا الصَّرْعُ يَكُونُ أَرْفَقَ مِنْ غَيْرِهِ وَأَسْهَلَ وَتَارَةً يَكُونُ الْإِنْسِيُّ آذَاهُمْ إذَا بَالَ عَلَيْهِمْ أَوْ صَبَّ عَلَيْهِمْ مَاءً حَارًّا أَوْ يَكُونُ قَتَلَ بَعْضَهُمْ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَذَى وَهَذَا أَشَدُّ الصَّرْعِ وَكَثِيرًا مَا يَقْتُلُونَ الْمَصْرُوعَ وَتَارَةً يَكُونُ بِطَرِيقِ الْعَبَثِ بِهِ كَمَا يَعْبَثُ سُفَهَاءُ الْإِنْسِ بِأَبْنَاءِ السَّبِيلِ . وَمِنْ اسْتِمْتَاعِ الْإِنْسِ بِالْجِنِّ اسْتِخْدَامُهُمْ فِي الْإِخْبَارِ بِالْأُمُورِ الْغَائِبَةِ كَمَا يُخْبِرُ الْكُهَّانُ فَإِنَّ فِي

الْإِنْسِ مَنْ لَهُ غَرَضٌ فِي هَذَا ؛ لِمَا يَحْصُلُ بِهِ مِنْ الرِّيَاسَةِ وَالْمَالِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَإِنْ كَانَ الْقَوْمُ كُفَّارًا كَمَا كَانَتْ الْعَرَبُ لَمْ تُبَالِ بِأَنْ يُقَالَ : إنَّهُ كَاهِنٌ كَمَا كَانَ بَعْضُ الْعَرَبِ كُهَّانًا وَقَدِمَ

(146/250)

---

النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ وَفِيهَا كُهَّانٌ وَكَانَ الْمُنَافِقُونَ يَطْلُبُونَ التَّحَاكُمَ إلَى الْكُهَّانِ وَكَانَ أَبُو أَبْرَقَ الأسلمي أَحَدَ الْكُهَّانِ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ وَإِنْ كَانَ الْقَوْمُ مُسْلِمِينَ لَمْ يُظْهِرْ أَنَّهُ كَاهِنٌ بَلْ يَجْعَلُ ذَلِكَ مِنْ بَابِ الْكَرَامَاتِ وَهُوَ مِنْ جِنْسِ الْكُهَّانِ فَإِنَّهُ لَا يَخْدِمُ الْإِنْسِيَّ بِهَذِهِ الْأَخْبَارِ إلَّا لِمَا يَسْتَمْتِعُ بِهِ مِنْ الْإِنْسِيِّ بِأَنْ يُطِيعَهُ الْإِنْسِيُّ فِي بَعْضِ مَا يُرِيدُهُ إمَّا فِي شِرْكٍ وَإِمَّا فِي فَاحِشَةٍ وَإِمَّا فِي أَكْلِ حَرَامٍ وَإِمَّا فِي قَتْلِ نَفْسٍ بِغَيْرِ حَقٍّ . فَالشَّيَاطِينُ لَهُمْ غَرَضٌ فِيمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنْ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ وَلَهُمْ لَذَّةٌ فِي الشَّرِّ وَالْفِتَنِ يُحِبُّونَ ذَلِكَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَنْفَعَةٌ لَهُمْ وَهُمْ يَأْمُرُونَ السَّارِقَ أَنْ يَسْرِقَ وَيَذْهَبُونَ إلَى أَهْلِ الْمَالِ فَيَقُولُونَ : فُلَانٌ سَرَقَ مَتَاعَكُمْ ؛ وَلِهَذَا يُقَالُ : الْقُوَّةُ الْمَلَكِيَّةُ وَالْبَهِيمِيَّةُ والسبعية والشيطانية فَإِنَّ الْمَلَكِيَّةَ فِيهَا الْعِلْمُ النَّافِعُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ وَالْبَهِيمِيَّةَ فِيهَا الشَّهَوَاتُ كَالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ والسبعية فِيهَا الْغَضَبُ وَهُوَ دَفْعُ الْمُؤْذِي وَأَمَّا الشَّيْطَانِيَّةُ فَشَرٌّ مَحْضٌ لَيْسَ فِيهَا جَلْبُ مَنْفَعَةٍ وَلَا دَفْعُ مَضَرَّةٍ . وَالْفَلَاسِفَةُ وَنَحْوُهُمْ مِمَّنْ لَا يَعْرِفُ الْجِنَّ وَالشَّيَاطِينَ لَا يَعْرِفُونَ هَذِهِ وَإِنَّمَا يَعْرِفُونَ الشَّهْوَةَ وَالْغَضَبَ

وَالشَّهْوَةُ وَالْغَضَبُ خُلِقَا لِمَصْلَحَةٍ وَمَنْفَعَةٍ ؛ لَكِنَّ الْمَذْمُومَ هُوَ الْعُدْوَانُ فِيهِمَا وَأَمَّا الشَّيْطَانُ فَيَأْمُرُ بِالشَّرِّ الَّذِي لَا مَنْفَعَةَ فِيهِ وَيُحِبُّ ذَلِكَ كَمَا فَعَلَ إبْلِيسُ بِآدَمَ لَمَّا وَسْوَسَ لَهُ وَكَمَا

(147/250)

---

امْتَنَعَ مِنْ السُّجُودِ لَهُ فَالْحَسَدُ يَأْمُرُ بِهِ الشَّيْطَانُ وَالْحَاسِدُ لَا يَنْتَفِعُ بِزَوَالِ النِّعْمَةِ عَنْ الْمَحْسُودِ لَكِنْ يُبْغِضُ ذَلِكَ وَقَدْ يَكُونُ بُغْضُهُ لِفَوَاتِ غَرَضِهِ وَقَدْ لَا يَكُونُ . وَمِنْ اسْتِمْتَاعِ الْإِنْسِ بِالْجِنِّ اسْتِخْدَامُهُمْ فِي إحْضَارِ بَعْضِ مَا يَطْلُبُونَهُ مِنْ مَالٍ وَطَعَامٍ وَثِيَابٍ وَنَفَقَةٍ ؛ فَقَدْ يَأْتُونَ بِبَعْضِ ذَلِكَ وَقَدْ يَدُلُّونَهُ عَلَى كَنْزٍ وَغَيْرِهِ . وَاسْتِمْتَاعُ الْجِنِّ بِالْإِنْسِ اسْتِعْمَالُهُمْ فِيمَا يُرِيدُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ كُفْرٍ وَفُسُوقٍ وَمَعْصِيَةٍ . وَمِنْ اسْتِمْتَاعِ الْإِنْسِ بِالْجِنِّ اسْتِخْدَامُهُمْ فِيمَا يَطْلُبُهُ الْإِنْسُ مِنْ شِرْكٍ وَقَتْلٍ وَفَوَاحِشَ فَتَارَةً يَتَمَثَّلُ الْجِنِّيُّ فِي صُورَةِ الْإِنْسِيِّ فَإِذَا اسْتَغَاثَ بِهِ بَعْضُ أَتْبَاعِهِ أَتَاهُ فَظَنَّ أَنَّهُ الشَّيْخُ نَفْسُهُ وَتَارَةً يَكُونُ التَّابِعُ قَدْ نَادَى شَيْخَهُ وَهَتَفَ بِهِ يَا سَيِّدِي فُلَانٌ فَيَنْقُلُ الْجِنِّيُّ ذَلِكَ الْكَلَامَ إلَى الشَّيْخِ بِمِثْلِ صَوْتِ الْإِنْسِيِّ حَتَّى يَظُنَّ الشَّيْخُ أَنَّهُ صَوْتُ الْإِنْسِيِّ بِعَيْنِهِ ثُمَّ إنَّ الشَّيْخَ يَقُولُ : نَعَمْ وَيُشِيرُ إشَارَةً يَدْفَعُ بِهَا ذَلِكَ الْمَكْرُوهَ فَيَأْتِي الْجِنِّيُّ بِمِثْلِ ذَلِكَ الصَّوْتِ وَالْفِعْلِ فَيَظُنُّ ذَلِكَ الشَّخْصُ أَنَّهُ شَيْخُهُ نَفْسُهُ وَهُوَ الَّذِي أَجَابَهُ وَهُوَ الَّذِي فَعَلَ ذَلِكَ حَتَّى أَنَّ تَابِعَ الشَّيْخِ قَدْ يَكُونُ يَدُهُ فِي إنَاءٍ يَأْكُلُ فَيَضَعُ الْجِنِّيُّ يَدَهُ فِي

صُورَةِ يَدِ الشَّيْخِ وَيَأْخُذُ مِنْ الطَّعَامِ ؛ فَيَظُنُّ ذَلِكَ التَّابِعُ أَنَّهُ شَيْخُهُ حَاضِرٌ مَعَهُ وَالْجِنِّيُّ يُمَثِّلُ لِلشَّيْخِ نَفْسِهِ مِثْلَ ذَلِكَ

(148/250)

---

الْإِنَاءِ ؛ فَيَضَعُ يَدَهُ فِيهِ حَتَّى يَظُنَّ الشَّيْخُ أَنَّ يَدَهُ فِي ذَلِكَ الْإِنَاءِ فَإِذَا حَضَرَ الْمُرِيدُ ذَكَرَ لَهُ الشَّيْخُ أَنَّ يَدِي كَانَتْ فِي الْإِنَاءِ فَيُصَدِّقُهُ وَيَكُونُ بَيْنَهُمَا مَسَافَةُ شَهْرٍ وَالشَّيْخُ مَوْضِعَهُ وَيَدُهُ لَمْ تَطُلْ وَلَكِنَّ الْجِنِّيَّ مَثَّلَ لِلشَّيْخِ وَمَثَّلَ لِلْمُرِيدِ حَتَّى ظَنَّ كُلٌّ مِنْهُمَا أَنَّ أَحَدَهُمَا عِنْدَ الْآخَرِ وَإِنَّمَا كَانَ عِنْدَهُ مَا مَثَّلَهُ الْجِنِّيُّ وَخَيَّلَهُ . وَإِذَا سُئِلَ الشَّيْخُ الْمَخْدُومُ عَنْ أَمْرٍ غَائِبٍ إمَّا سَرِقَةٍ وَإِمَّا شَخْصٍ مَاتَ وَطُلِبَ مِنْهُ أَنْ يُخْبِرَ بِحَالِهِ أَوْ عِلَّةٍ فِي النِّسَاءِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ فَإِنَّ الْجِنِّيَّ قَدْ يُمَثِّلُ ذَلِكَ فَيُرِيهِ صُورَةَ الْمَسْرُوقِ فَيَقُولُ الشَّيْخُ : ذَهَبَ لَكُمْ كَذَا وَكَذَا ثُمَّ إنْ كَانَ صَاحِبُ الْمَالِ مُعَظَّمًا وَأَرَادَ أَنْ يَدُلَّهُ عَلَى سَرِقَتِهِ مَثَّلَ لَهُ الشَّيْخُ الَّذِي أَخَذَهُ أَوْ الْمَكَانَ الَّذِي فِيهِ الْمَالُ فَيَذْهَبُونَ إلَيْهِ فَيَجِدُونَهُ كَمَا قَالَ وَالْأَكْثَرُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يُظْهِرُونَ صُورَةَ الْمَالِ وَلَا يَكُونُ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّ الَّذِي سَرَقَ الْمَالَ مَعَهُ أَيْضًا جِنِّيٌّ يَخْدِمُهُ وَالْجِنُّ يَخَافُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ كَمَا أَنَّ الْإِنْسَ يَخَافُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَإِذَا دَلَّ الْجِنِّيُّ عَلَيْهِ جَاءَ إلَيْهِ أَوْلِيَاءُ السَّارِقِ فَآذَوْهُ وَأَحْيَانًا لَا يَدُلُّ لِكَوْنِ السَّارِقِ وَأَعْوَانِهِ يَخْدِمُونَهُ وَيَرْشُونَهُ كَمَا يُصِيبُ مَنْ يَعْرِفُ اللُّصُوصَ مِنْ

الْإِنْسِ تَارَةً يَعْرِفُ السَّارِقَ وَلَا يُعَرِّفُ بِهِ إمَّا لِرَغْبَةِ يَنَالُهَا مِنْهُ وَإِمَّا لِرَهْبَةِ وَخَوْفٍ مِنْهُ وَإِذَا كَانَ الْمَالُ الْمَسْرُوقُ لِكَبِيرٍ يَخَافُهُ وَيَرْجُوهُ عَرَّفَ سَارِقَهُ فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ مِنْ اسْتِمْتَاعِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مجموع الفتاوى حـ 13 صـ 81.85 ﴾

*(149/250)*

---

قوله تعالى ﴿ قَالَ النار مَثْوَاكُمْ خالدين فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء الله ﴾

فصل

قال الفخر :

المثوى : المقام والمقر والمصير ، ثم لا يبعد أن يكون للإنسان مقام ومقر ثم يموت ويتخلص بالموت عن ذلك المثوى ، فبين تعالى أن ذلك المقام والمثوى مخلد مؤبد وهو قوله : ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ إِلاَّ مَا شَاء الله ﴾ وفيه وجوه : الأول : أن المراد منه استثناء أوقات المحاسبة ، لأن في تلك الأحوال ليسوا بخالدين في النار : الثاني : المراد ، الأوقات التي ينقلون فيها من عذاب النار إلى عذاب الزمهرير .

وروي أنهم يدخلون وادياً فيه برد شديد فهم يطلبون الرد من ذلك البرد إلى حر الجحيم .

الثالث : قال ابن عباس : استثنى الله تعالى قوماً سبق في علمه أنهم يسلمون ويصدقون النبي صلى الله عليه وسلم .

وعلى هذا القول يجب أن تكون "ما" بمعنى "من" قال الزجاج : والقول الأول أولى .

لأن معنى الاستثناء إنما هو من يوم القيامة ، لأن قوله : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾ هو يوم القيامة .

ثم قال تعالى : ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ منذ يبعثون ﴿ إِلاَّ مَا شَاء الله ﴾ من مقدار حشرهم من قبورهم ومقدار مدتهم في محاسبتهم .

الرابع : قال أبو مسلم : هذا الاستثناء غير راجع إلى الخلود ، وإنما هو راجع إلى الأجل المؤجل لهم ، فكأنهم قالوا : وبلغنا الأجل الذي أجلت لنا ، أي الذي سميته لنا إلا من أهلكته قبل الأجل المسمى كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مّن قَرْنٍ ﴾ [ الأنعام : 6 ] وكما فعل في قوم نوح وعاد وثمود ممن أهلكه الله تعالى قبل الأجل الذي لو آمنوا ، لبقوا إلى الوصول إليه فتلخيص الكلام أن يقولوا : استمتع بعضنا ببعض ، وبلغنا ما سميت لنا من الأجل إلا من شئت أن تخترمه فاخترمته قبل ذلك بكفره وضلاله .

واعلم أن هذا الوجه وإن كان محتملاً إلا أنه ترك لظاهر ترتيب ألفاظ هذه الآية ولما أمكن إجراء الآية على ظاهرها فلا حاجة إلى هذا التكلف .

ثم قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ أي فيما يفعله من ثواب وعقاب وسائر وجوه المجازاة ،

وكأنه تعالى يقول : إنما حكمت لهؤلاء الكفار بعذاب الأبد لعلمي أنهم يستحقون ذلك .

والله أعلم .

فائدة :

قال أبو علي الفارسي : قوله : ﴿ النار مَثْوَاكُمْ ﴾ المثوى اسم للمصدر دون المكان لأن قوله : ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ حال واسم الموضع لا يعمل عمل الفعل فقوله : ﴿ النار مَثْوَاكُمْ ﴾ معناه : النار أهل أن تقيموا فيها خالدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 158.157 ﴾ . بتصرف يسير .

*(150/250)*

---

وقال الخازن :

﴿ قال ﴾ يعني قال الله لهؤلاء الذين استمتع بعضهم ببعض من الجن والإنس ﴿ النار مثواكم ﴾ يعني أن النار مقامكم ومقركم فيه ومصيركم إليها ﴿ خالدين فيها ﴾ يعني مقيمين في نار جهنم أبداً ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ اختلفوا في معنى هذا الاستثناء فقيل : معناه خالدين فيها إلا قدر مدة بعثهم ووقوفهم للحساب إلى حين دخولهم إلى النار فإن هذا الوقت ليسوا بخالدين فيه في النار ، وقيل : المراد من الاستثناء هو أوقات نقلتهم من عذاب

إلى عذاب آخر وذلك أنهم يستغيثون من النار فينقلون إلى الزمهرير ثم يستغيثون منه فينقلون إلى النار فكانت مدة نقلتهم هي المراد من هذا الاستثناء .

ونقل جمهور المفسرين عن ابن عباس أنه قال : إن هذا الاستثناء يرجع إلى قوم سبق فيهم علم الله أنهم يسلمون ويصدقون النبي صلى الله عليه وسلم فيخرجون من النار قالوا فعلى هذا التأويل تكون ما في قوله إلا ما شاء الله ، بمعنى من يعني إلا ما شاء الله ونقل الطبري عن ابن عباس أنه كان يتأول هذا الاستثناء بأن الله عز وجل جعل أمر هؤلاء القوم في مبلغ عذابهم إلى مشيئته ، وقال في هذه الآية : إنه لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه أن لا ينزلهم جنة ولا ناراً .

قال الزجاج : والقول الأول أولى لأن معنى الاستثناء إنما هو من يوم القيامة لأن قوله : ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ﴾ هو يوم القيامة ثم قال ﴿ خالدين فيها ﴾ منذ يبعثون ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ من مقدار حشرهم من قبورهم ومقدار مدة محاسبتهم .

﴿ إن ربك حكيم ﴾ يعني في تدبير خلقه وتصريفه إياهم في مشيئته من حال إلى حال وغير ذلك من أفعاله .

وقيل حكيم فيما يفعله من ثواب الطائع وعقاب العاصي وفي سائر وجوه المجازاة ﴿ عليهم ﴾ يعني بعواقب أمور خلقه وما هم إليه صائرون كأنه قال إنما حكمت لهؤلاء الكفار

بالخلود في النار ، لعلمي بأنهم يستحقون ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(151/250)

---

وقال ابن جزى :

﴿ إِلاَّ مَا شَآءَ الله ﴾ قيل : الاستثناء من الكاف والميم في مثواكم فما بمعنى من ، لأنها وقعت على صنف من الجن والإنس والمستثنى على هذا : من آمن منهم ، وقيل : الاستثناء من مدّة الخلود ، وهو الزمان الذي بين حشرهم إلى دخول النار ، وقيل : الاستثناء من النار ، وهو دخولهم الزمهرير ، وقيل : ليس المراد هنا بالاستثناء الإخراج ، وإنما هو على وجه الأدب مع الله ، وإسناد الأمور إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 2 صـ 21 ﴾

وقال الخطيب الشربينى :

﴿ قال ﴾ الله تعالى على لسان الملائكة لهؤلاء الذين استمتع بعضهم ببعض من الجنّ والإنس ﴿ النار مثواكم ﴾ أي : مأواكم ﴿ خالدين فيها ﴾ أي : إلى ما لا آخر له فإنّ الجزاء من جنس العمل ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ أي : من الأوقات التي ينقلون فيها من النار إلى

الزمهرير .

فقد روي أنهم يدخلون وادياً فيه من الزمهرير ما يميز بعض أوصالهم من بعض فيتعاوون ويطلبون الردّ إلى الجحيم ، وقيل : إلا ما شاء الله قبل الدخول قدر مدّة بعثهم ووقوفهم للحساب وقال ابن عباس : الاستثناء يرجع إلى قوم سبق في علم الله أنهم يسلمون فيخرجون من النار ، قال البغوي : فما بمعنى من على هذا التأويل ﴿ إنّ ربك حكيم ﴾ في صنعه ﴿ عليم ﴾ بعواقب أمور خلقه وما هم صائرون إليه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ السراج المنير حـ 2 صـ 156 ﴾

*(152/250)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ قَالَ ﴾ استئناف بياني كأنه قيل : فماذا قال الله تعالى : حينئذ ؟ فقيل قال : ﴿ النار مَثْوَاكُمْ ﴾ أي منزلكم ومحل إقامتكم أو ذات ثوائكم على أن الثوى اسم مكان أو مصدر ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ حال من ضمير الجمع والعامل فيها ( مثوى ) إن كان مصدراً وقدروا عاملاً أي يبوؤن خالدين إن كان مثوى اسم مكان لأنه حينئذ لا يصلح للعمل .

وقال أبو البقاء : إن العامل في الحال على هذا التقدير معنى الإضافة ، وردوه بأن النسبة

الإضافية لا تعمل ولا يصح أن تنصب الحال ﴿ إِلاَّ مَا شَاء اللهُ ﴾ نقل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه تعالى استثنى قوماً قد سبق في علمه أنهم يسلمون ويصدقون النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا مبني على أن

(153/250)

---

الاستثناء ليس من المحكي وأن ما بمعنى من ، ولا يخفى أن استعمال ما للعقلاء قليل فيبعد ذلك كما يبعد شمول ما تقدم للمستثنى ، وقيل : إن ما مصدرية وقتية على ما هو الظاهر ، والمراد إلا الوقت الذين ينقلون فيه إلى الزمهرير ، فقد روي أنهم يدخلون وادياً ( فيه ) من الزمهرير ما يميز بعض أوصالهم من بعض فيتعاوون ويطلبون الرد إلى الجحيم ، ورد بأن فيه صرف النار من معناها العلمي وهو دار العذاب إلى اللغوي ، وأجيب عنه بأنه لا بأس به إذا دعت إليه ضرورة ، وقيل عليه : إن المعترض لا يسلم الضرورة لإمكان غير هذا التأويل مع أن قوله سبحانه : ﴿ مَثْوَاكُمْ ﴾ يقتضي ما ذهب إليه المعترض بحسب الظاهر ، وقيل : إن لهم وقتاً يخرجون فيه من دار العذاب ، وذلك أنه روي أنهم يفتح لهم أبواب الجنة ويخرجون من النار فإذا توجهوا للدخول أغلقت في وجوههم استهزاء بهم ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ فاليوم الذين ءامَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ ﴾ [ المطففين : 34 ] .

وأنت تعلم أن ظواهر الآيات صادحة بعدم تخفيف العذاب عن الكفار بعد دخولهم النار وفي إخراجهم هذا تخفيف أي تخفيف وإن كان بعده ما يشيب منه النواصي ، ولعل الخبر في ذلك غير صحيح ، والمشهور أن المرائين يدنون من الجنة حتى إذا استنشقوا ريحها ورأوا ما أعد الله تعالى لعباده فيها نودوا أن أصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها الخبر بتمامه وقد قدمناه ويكون ذلك قبل إدخالهم النار كما لا يخفى على من راجع الحديث .

*(154/250)*

---

وقيل : المستثنى زمان إمهالهم قبل الدخول كأنه قيل النار مثواكم أبداً إلا ما أمهلكم ، ورده أبو حيان بأنه في الاستثناء يشترط اتحاد زمان المخرج والمخرج منه فإذا قلت قام القوم إلا زيداً فإن معناه إلا زيداً ما قام ولا يصح أن يكون المعنى إلا زيداً ما يقوم في المستقبل .

وكذلك سأضرب القوم إلا زيداً معناه إلا زيداً فإني لا أضربه في المستقبل ولا يصح أن يكون المعنى إلا زيداً فإني ما ضربته ؛ وأجيب بأن هذا إذا لم يكن الاستثناء منقطعاً أما إذا كان منقطعاً فإنه يسوغ كقوله تعالى : ﴿ لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الموت إِلاَّ الموتة الاولى ﴾ [ الدخان : 56 ] أي لكن الموتة الأولى فإنهم ذاقوها فلعل القائل بأن المستثنى زمان إمهالهم يلتزم انقطاع الاستثناء كما في هذه الآية ولا محذور فيه مع ورود مثله في القرآن وفيه نظر ظاهر .

"وذهب الزجاج إلى وجه لطيف إنما يظهر بالبسط فقال : المراد والله تعالى أعلم إلا ما شاء الله من زيادة العذاب ولم يبين وجه استقامة الاستثناء والمستثنى على هذا التأويل ( لم يغاير المستثنى منه في الحكم ) ، قال ابن المنير : ونحن نبينه فنقول : العذاب والعياذ بالله عز وجل على درجات متفاوتة فكأن المراد أنهم مخلدون في جنس العذاب إلا ما شاء ربك من زيادة تبلغ الغاية وتنتهي إلى أقصى النهاية حتى تكاد لبلوغها الغاية ومباينتها لأنواع العذاب في الشدة تعد خارجة عنه ليست من جنس العذاب والشيء إذا بلغ الغاية عندهم عبروا عنه بالضد كما عبروا عن كثرة الفعل برب وقد وهما موضوعان لضد الكثرة من القلة وذلك أمر يعتاد في لغة العرب .

لقد جدت حتى كاد يبخل حاتم . . .

الى المنتهى ومن السرور يكاد

*(155/250)*

---

فكأن هؤلاء اذا نقلوا الى غاية اعذاب ونهاية الشدة فقد وصلوا الى حد الذي يكاد أن يخرج يخرج عن اسم العذاب المطلق حتى تسوغ معاملته في التعبير بمعاملة المغاير وهو وجه حسن لا يكاد يفهم من كلام الزجاج إلا بعد هذا البسط ، وفي تفسير ابن عباس رضي الله

عنهما ما يؤيده" انتهى ، ونقل عن بعضهم أن هذا الاستثناء معذوق بمشيئة الله تعالى رفع العذاب أي يخلدون إلى أن يشاء الله تعالى لو شاء .

وفائدته إظهار القدرة والإذعان بأن خلودهم إنما كان لأن الله تعالى شأنه قد شاءه وكان من الجائز العقلي في مشيئته أن لا يعذبهم ولو عذبهم لا يخلدهم وأن ذلك ليس بأمر واجب عليه وإنما هو مقتضى مشيئته وإرادته عز وجل ، وفي الآية على هذا دفع في صدور المعتزلة الذين يزعمون أن تخليد الكفار واجب على الله تعالى بمقتضى الحكمة وأنه لا يجوز في العقل مقتضى ذلك ، ولعل هذا هو الحق الذي لا محيص عنه ، وفي معناه ما قيل : المراد المبالغة في الخلود بمعنى أنه لا ينتفي إلا وقت مشيئة الله تعالى وهو مما لا يكون مع إيراده في صورة الخروج واطماعهم في ذلك تهكماً وتشديداً للأمر عليهم ، ومن أفاضل العصريين الأكابر من ادعى ذلك الوجه له وانه قد خلت عنه الدفاتر وهو مذكور في غير ما موضع فإن كان لا يدري فتلك مصيبة وإن كان يدري فالمصيبة أعظم ، وسيأتي إن شاء الله تعالى تتمة الكلام في ذلك عند قوله سبحانه : ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ [ هود : 108 ] .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ ﴾ في التعذيب والإثابة أو في كل أفعاله ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأحوال الثقلين وأعمالهم وبما يليق بها من الجزاء أو بكل شيء ويدخل ما ذكر دخولاً أولياً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني حـ 8 صـ ﴾

وقال صاحب روح البيان :

قال في "التأويلات النجمية" : ﴿ إِلا مَا شَآءَ اللَّهُ ﴾ أن يتوب ويرجع إلى الله فلا تكون النار مثواه فالاستثناء راجع إلى أهل التوبة في الدنيا لا إلى أهل الخلود في النار انتهى .

وقال بعضهم : ما مصدرية بتقدير مضاف كما في آتيك خفوق النجم والاستثناء من مضمون الجملة التي قبله ، وهي قوله : ﴿ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَآ ﴾ كأنه قيل يخلدون في عذاب النار الأبد كله إلا أوقات مشيئة الله تعالى أن ينقلوا من النار إلى الزمهرير فقد روي أنهم ينقلون من عذاب النار ويدخلون وادياً فيه من الزمهرير ما يميز بعض أوصالهم من بعض فيتعاوون ويطلبون الرد إلى الجحيم ففي الاستثناء تهكم بهم .

وفي "تفسير الجلالين" : ﴿ إِلا مَا شَآءَ اللَّهُ ﴾ من الأوقات التي يخرجون فيها لشوب من حميم فإنه خارجها ، كما قال الله : ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ ﴾ وقيل : يفتح لهم وهم في النار باب إلى الجنة فيسرعون نحوه حتى إذا صاروا إليه سدّ عليهم الباب ، وقيل : ﴿ إِلا مَا شَآءَ اللَّهُ ﴾ قبل الدخول ، كأنه قيل : النار مثواكم أبداً إلا وقت إمهالكم إلى وقت الإدخال والخلود ، كما ينتقص من الآخر ، كذلك ينتقص من الأول هذا ما ذهب إليه علماء الظاهر في توجيه الاستثناء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 3 صـ 133 ﴾

---

وقال ابن عاشور :

وجملة : ﴿ قال النار مثواكم ﴾ فصلت عن الّتي قبلها على طريقة القول في المحاورة ، كما تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ في سورة البقرة ( 30 ) .

وضمير الخطاب في قوله : النار مثواكم ﴾ موجَّه إلى الإنس فإنَّهم المقصود من الآية ، كما في قوله تعالى : ﴿ بل كانوا يعبدون الجنّ أكثرهم بهم مؤمنون فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفاً ولا ضراً ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النّار التي كنتم بها تكذّبون ﴾ [ سبأ : 41 ، 42 ] وقوله : ﴿ وتمَّت كلمة ربّك لأملأن جهنّم من الجِنّة والنّاسِ أجمعين ﴾ [ هود : 119 ] .

ومجيء القول بصيغة الماضي : للتّنبيه على تحقيق وقوعه وهو مستقبل بقرينة قوله : ﴿ يحشرهم ﴾ كما تقدّم .

وإسناده إلى الغائب نظرٌ لما وقع في كلام الأولياء : ﴿ ربنا استمتع ﴾ إلخ .

والمثوى : اسم مكان من ثَوى بالمكان إذا أقام به إقامةَ سكنى أو إطالة مكث ، وقد بيّن الثّواء بالخلود بقوله : ﴿ خالدين فيها ﴾ .

وقوله : ﴿ خالدين فيها ﴾ هو من تمام ما يقال لهم في الحشر لا محالة ، لأَنَّه منصوب على الحال من ضمير مثواكم ، فلا بدّ أن يتعلّق بما قبله .

وأمّا قوله : ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ فظاهر النظم أنّه من تمام ما يقال لهم .

لأنّ الأصل في الاستثناء أن يكون إخراجاً ممّا قبله من الكلام .

ويجوز أن يكون من مخاطبة الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وقع اعتراضاً بين ما قصّه عليه من حال المشركين وأوليائهم يوم الحشر ، وبين قوله له : ﴿ إن ربك حكيم عليم ﴾ ويكون الوقف على قوله : ﴿ خالدين فيها ﴾ .

والاستثناء في قوله : ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ على التّأويلين استثناء إمَّا من عموم الأزمنة الّتي دلّ عليها قوله : ﴿ خالدين فيها ﴾ إذ الخلود هو إقامة الأبد والأَبد يعمّ الأزمان كلّها ، ف ( ما ) ظرفية مصدرية فلذلك يكون الفعل بعدها في تأويل مَصدر ، أي إلاّ وقت مشيئة الله إزالة خلودكم ، وإمَّا من عموم الخالدين الّذي في ضمير ﴿ خالدين ﴾ أي إلاّ فريقاً شاء الله أن لا يخلدوا في النّار .

*(158/250)*

وبهذا صار معنى الآية موضع إشكال عند جميع المفسّرين ، من حيثُ ما تقرّر في الكتاب والسنّة وإجماع الأمّة ؛ أنّ المشركين لا يُغفر لهم وأنَّهم مخلّدون في النّار بدون استثناء فريق ولا زمان .

وقد أحصَيْتُ لهم عشرة تأويلات ، بعضها لا يتمّ ، وبعضها بعيد إذا جُعل قوله : ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ من تمام ما يقال للمشركين وأوليائهم في الحشر ، ولا يستقيم منها إلاّ واحد ، إذا جعل الاستثناء معترَضاً بين حكاية ما يقال للمشركين في الحشر وبين ما خوطب به النّبي صلى الله عليه وسلم فيكون هذا الاعتراض خطاباً للمشركين الأحياءِ الّذين يسمعون التّهديد ، إعذاراً لهم أن يسلموا ، فتكون ( ما ) مصدرية غير ظرفية : أي إلاّ مشيئة الله عدمَ خلودهم ، أي حالَ مشيئته .

وهي حال توفيقه بعض المشركين للإسلام في حياتهم ، ويكون هذا بياناً وتحقيقاً للمنقول عن ابن عبّاس : استثنى الله قوماً سبق في علمه أنَّهم يُسلمون .

وعنه أيضاً : هذه الآية توجب الوقف في جميع الكفار ، وإذا صح ما نقل عنه وجب تأويله بأنه صدر منه قبل علمه بإجماع أهل العلم على أنّ المشركين لا يغفر لهم .

ولك أن تجعل ( ما ) على هذا الوجه موصولة ، فإنَّها قد تستعمل للعاقل بكثرة .

وإذا جعل قوله : ﴿ خالدين ﴾ من جملة المقول في الحشر كان تأويل الآية : أنّ الاستثناء لا يقصد به إخراج أوقات ولاَ حالةٍ ، وإنَّما هو كناية ، يقصد منه أنّ هذا الخلود قدّره الله

تعالى ، مختاراً لا مكره له عليه ، إظهاراً لتمام القدرة ومحض الإرادة ، كأنَّه يقول : لو شئت لأبطلتُ ذلك .

(159/250)

---

وقد يعْضد هذا بأنّ الله ذكر نظيره في نعيم أهل الجنّة في قوله : ﴿ فأمَّا الذين شَقُوا ففي النّار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السّماوات والأرض إلاّ ما شاء ربّك إنّ ربّك فعّال لما يريد وأمّا الذين سعِدوا ففي الجنّة خالدين فيها ما دامت السّماوات والأرض إلاّ ما شاء ربّك عطاء غير مجذوذ ﴾ [ هود : 106 ، 108 ] فانظر كيف عقّب قوله : ﴿ إلا ما شاء ربّك ﴾ في عقاب أهل الشّقاوة بقوله : ﴿ إنّ ربّك فعّال لما يريد ﴾ [ هود : 107 ] وكيف عقَّب قوله : ﴿ إلا ما شاء ربّك ﴾ في نعيم أهل السّعادة بقوله : ﴿ عَطاء غير مجذوذ ﴾ [ هود : 108 ] فأبطل ظاهر الاستثناء بقوله : ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ فهذا معنى الكناية بالاستثناء ، ثمّ المصير بعد ذلك إلى الأدلّة الدّالة على أنّ خلود المشركين غيرُ مخصوص بزمن ولا بحال .

ويَكونُ هذا الاستثناء من تأكيد الشّيء بما يشبه ضدّه .

وقوله : ﴿ إن ربك حكيم عليم ﴾ تذييل ، والخطاب للنّبي صلى الله عليه وسلم فإن كان

قوله : ﴿ خالدين فيها إلا ما شاء الله ﴾ من بقية المقول لأولياء الجنّ في الحشر كان قوله : ﴿ إن ربك حكيم عليم ﴾ جملة معترضة بين الجمل المقولة ، لبيان أنّ ما رتّبه الله على الشرّك من الخلود رتّبه بحكمته وعِلْمه ، وإن كان قوله : ﴿ خالدين ﴾ إلخ كلاماً مستقلاً معترضاً كان قوله : ﴿ إن ربك حكيم عليم ﴾ تذييلاً للاعتراض ، وتأكيداً للمقصود من المشيئة من جعل استحقاق الخلود في العذاب منوطاً بالموافاة على الشّرك .

وجَعْل النّجاة من ذلك الخلودِ منوطة بالإيمان .

والحكيم : هو الّذي يضع الأشياء في مناسباتها ، والأسباب لمسبّباتها .

والعليم : الّذي يعلم ما انطوى عليه جميع خلقه من الأحوال المستحقّة للثّواب والعقاب .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

(160/250)

---

تحقيق نفيس للعلامة الشنقيطى :

قال عليه الرحمة :

قوله تعالى: ﴿ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ ، هذه الآية الكريمة يفهم منها كون عذاب أهل النار غير باق بقاء لا انقطاع له أبدا ونظيرها قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ

شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ, خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّك ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً ﴾ ، وقد جاءت آيات تدل على أنّ عذابهم لا انقطاع له كقوله: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبداً ﴾ .

والجواب عن هذا من أوجه:

أحدها : أن قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ ﴾ معناه إلا من شاء الله عدم خلوده فيها من أهل الكبائر من الموحدين ، وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أن بعض أهل النار يخرجون منها وهم أهل الكبائر من الموحدين ، ونقل ابن جرير هذا القول عن قتادة والضحاك وأبي سنان وخالد بن معدان واختاره ابن جرير وغاية ما في هذا القول إطلاق ما ورد ونظيره في القرآن ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ .

الثاني: أن المدة التي استثناها الله هي المدة التي بين بعثهم من قبورهم واستقرارهم في مصيرهم قاله ابن جرير أيضا .

الوجه الثالث: أن قوله ﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ ﴾ فيه إجمال وقد جاءت الآيات والأحاديث الصحيحة مصرحة بأنهم خالدون فيها أبداً, وظاهرها أنه خلود لا انقطاع له, والظهور من المرجحات, فالظاهر مقدم على المجمل كما تقرر في الأصول .

ومنها : أنّ "إلاّ" في سورة هود بمعنى: "سوى ما شاء الله من الزيادة على مدة دوام السماوات والأرض" .

وقال بعض العلماء: إن الاستثناء على ظاهره وأنه يأتي على النار زمان ليس فيها أحد ، وقال ابن مسعود: "ليأتين على جهنم زمان تخفق أبوابها ليس فيها أحد ، وذلك بعد ما يلبثون أحقابا" ، وعن ابن عباس: "أنها تأكلهم بأمر الله" .

*(161/250)*

---

قال مقيده – عفا الله عنه –: الذي يظهر لي والله تعالى أعلم أن هذه النار التي لا يبقى فيها أحد يتعين حملها على الطبقة التي كان فيها عصاة المسلمين كما جزم به البغوي في تفسيره؛ لأنه يحصل به الجمع بين الأدلة, وإعمال الدليلين أولى من إلغاء أحدهما ، وقد أطبق العلماء على وجوب الجمع إذا أمكن, أما ما يقول كثير من العلماء من الصحابة ومن بعدهم من أن النار تفنى وينقطع العذاب عن أهلها ، فالآيات القرآنية تقتضي عدم صحته, وإيضاحه أن المقام لا يخلو من إحدى خمس حالات بالتقسيم الصحيح وغيرها راجع إليها:

الأولى: أن يقال بفناء النار وأن استراحتهم من العذاب بسبب فنائها .

الثانية: أن يقال إنهم ماتوا وهي باقية .

الثالثة: أن يقال إنهم أخرجوا منها وهي باقية .

الرابعة: أن يقال: إنهم باقون فيها إلا أن العذاب يخف عليهم .

وذهاب العذاب رأسا واستحالته لذة لم نذكرهما من الأقسام لأنا نقيم البرهان على نفي تخفيف العذاب, ونفي تخفيفه يلزمه نفي ذهابه واستحالته لذة, فاكتفينا به لدلالة نفيه على نفيهما, وكل هذه الأقسام الأربعة يدل القرآن على بطلانه.

أما فناؤها فقد نص تعالى على عدمه بقوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً﴾, وقد قال تعالى: ﴿إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ في خلود أهل الجنة وخلود أهل النار وبيّن عدم الانقطاع في خلود أهل الجنة بقوله: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾, وبقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾, وقوله: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ﴾, وبيّن عدم الانقطاع في خلود أهل النار بقوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً﴾, فمن يقول إن للنار خبوة ليس بعدها زيادة سعير رد عليه بهذه الآية الكريمة.

ومعلوم أن (كُلَّمَا) تقتضي التكرار بتكرر الفعل الذي بعدها, ونظيرها قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا﴾ الآية.

*(162/250)*

---

وأما موتهم فقد نصّ تعالى على عدمه بقوله: ﴿لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾, وقوله: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾, وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم في

الحديث الصحيح أن الموت يجاء به يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح, وإذا ذبح الموت حصل اليقين بأنه لا موت كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ويقال: "يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت" .

وأما إخراجهم منها فنص تعالى على عدمه بقوله: ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ , وبقوله: ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا ﴾ .

وأما تخفيف العذاب عنهم فنص تعالى على عدمه بقوله: ﴿ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ , وقوله: ﴿ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً ﴾ , وقوله: ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ , وقوله: ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾ , وقوله: ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾ , وقوله تعالى: ﴿ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ , وقوله: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ .

ولا يخفى أن قوله: ﴿ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ﴾ وقوله: ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾ كلاهما فعل في سياق النفي فحرف النفي ينفي المصدر الكامن في الفعل فهو في معنى لا تخفيف للعذاب عنهم ولا تفتير له, والقول بفنائها يلزمه تخفيف العذاب وتفتيره المنفيان في هذه الآيات, بل يلزمه ذهابهما رأسا , كما أنه يلزمه نفي ملازمة العذاب المنصوص عليها بقوله: ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾ وإقامته النصوص عليها بقوله: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ .

فظاهر هذه الآيات عدم فناء النار المصرح به في قوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً﴾ وما احتج به بعض العلماء من أنه لو فرض أن الله أخبر بعدم فنائها أن ذلك لا يمنع فناءها لأنه وعيد وإخلاف الوعيد من الحسن لا من القبيح, وأن الله تعالى ذكر أنه لا يخلف وعده ولم يذكر أنه لا يخلف وعيده وأن الشاعر قال:

وإني وإن أوعدته أو وعدته

لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

فالظاهر عدم صحته لأمرين:

الأول: أنه يلزم جواز ألاّ يدخل النار كافر لأن الخبر بذلك وعيد وإخلافه على هذا القول لا بأس به.

الثاني: أنه تعالى صرح بحق وعيده على من كذب رسله حيث قال: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيد﴾, وقد تقرر في مسلك النص من مسالك العلة أن الفاء من حروف التعليل كقولهم "سها فسجد" أي سجد لعلة سهوه, و"سرق فقطعت يده" أي لعلة سرقته فقوله: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيد﴾ أي وجب وقوع الوعيد عليهم لعلة تكذيب الرسل

ونظيرها قوله تعالى: ﴿ إِنْ كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ .

ومن الأدلة الصريحة في ذلك تصريحه تعالى بأن قوله لا يبدل فيما أوعد به أهل النار حيث قال: ﴿ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ , مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ , ويستأنس لذلك بظاهر قوله تعالى: ﴿ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ , وقوله: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ فالظاهر أن الوعيد الذي يجوز إخلافه وعيد عصاة المؤمنين لأن الله بيّن ذلك بقوله: ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ .

*(164/250)*

---

فإذا تبين بهذه النصوص بطلان جميع هذه الأقسام تعيّن القسم الخامس الذي هو خلودهم فيها أبداً بلا انقطاع ولا تخفيف بالتقسيم والسبر الصحيح, ولا غرابة في ذلك لأن خبثهم الطبيعي دائم لا يزول فكان جزاؤهم دائما لا يزول, والدليل على أن خبثهم لا يزول قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ ﴾ الآية ، فقوله: ﴿ خَيْراً ﴾ نكرة في سياق الشرط فهي تعم, فلو كان فيهم خير ما في وقت ما لعلمه الله ، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ ، وعودهم بعد معاينة العذاب لا يستغرب بعده عودهم بعد مباشرة

العذاب لأن رؤية العذاب عيانا كالوقوع فيه لا سيما وقد قال تعالى: ﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ , وقال: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ الآية .

وعذاب الكفار للإهانة والانتقام لا للتطهير والتمحيص كما أشار له تعالى بقوله: ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ , وبقوله: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ . والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 122. 128 ﴾

*(165/250)*

---

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ﴾

﴿ يوم ﴾ نصب بفعل مضمر تقديره واذكر يوم ، ويحتمل أن يكون العامل ﴿ وليهم ﴾ [ الأنعام : 127 ] والعطف على موضع قوله ﴿ بما كانوا ﴾ [ الأنعام : 127 ] ، والضمير في ﴿ يحشرهم ﴾ عائد على الطائفتين الذين يجعل الله الرجس عليهم وهم جميع الكفار جناً وإنساً ، والذين لهم دار السلام جناً ، وإنساً ، ويدل على ذلك التأكيد العام بقوله ﴿ جميعاً ﴾ وقرأ حفص عن عاصم " يحشرهم " بالياء ، وقرأ الباقون بالنون وكلٌّ متجه ، ثم

ذكر عز وجل ما يقال للجن الكفرة ، وفي الكلام فعل مضمر يدل عليه ظاهر الكلام تقديره نقول يا معشر الجن ، وقوله ﴿ قد استكثرتم ﴾ معناه فرطتم ، و﴿ من الإنس ﴾ يريد في إضلالهم وإغوائهم قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة ، وقال الكفار من الإنس وهم أولياء الجن الموبخين على جهة الاعتذار عن الجن ﴿ ربنا استمتع بعضنا ببعض ﴾ أي انتفع .

قال القاضي أبو محمد : وذلك في وجوه كثيرة ، حكى الطبري وغيره أن الإنس كانت تستعيذ بالجن في الأودية ومواضع الخوف وكانت الجن تتعظم على الإنس وتسودها كما يفعل الربي بالكاهن والمجير بالمستجير إذ كان العربي إذا نزل وادياً ينادي يا رب الوادي إني أستجير بك هذه الليلة ثم يرى أن سلامته إنما هي بحفظ جني ذلك الوادي فهذا استمتاع بعضهم ببعض .

*(166/250)*

---

قال القاضي أبو محمد : وهذا مثال في الاستمتاع ولو تتبع لبينت له وجوه أخر كلها دنياوية ، وبلوغ الأجل المؤجل قال السدي هو الموت الذي انتهى الكل منهم إليه ، وقيل هو الحشر ، وقيل هو الغاية التي انتهى جميعهم إليها من الاستمتاع ، كأنهم أشاروا إلى أن ذلك بقدرك وقضائك إذ لكل كتاب أجل ، وقرأ الحسن " وبلِّغنا أجلنا " بكسر اللام مشددة ، وقوله

تعالى : ﴿ قال النار مثواكم ﴾ الآية ، إخبارٌ من الله عز وجل عما يقول لهم يوم القيامة إثر كلامهم المتقدم ، وجاء الفعل بلفظ الماضي وهو في الحقيقة مستقبل لصحة وقوعه ، وهذا كثير من القرآن وفصيح الكلام و ﴿ مثواكم ﴾ أي موضع ثوابكم كمقامكم الذي هو موضع الإقامة ، هذا قول الزجّاج وغيره ، قال أبو علي في الإغفال : المثوى عندي مصدر لا موضع وذلك لعمله في الحال التي هي ﴿ خالدين ﴾ والموضع ليس فيه معنى فعل فيكون عاملاً ، والتقدير النار ذات ثوابكم ، والاستثناء في قوله ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ قالت فرقة ﴿ ما ﴾ بمعنى من ، فالمراد إلا من شاء ممن آمن في الدنيا بعد أن آمن من هؤلاء الكفرة .

قال القاضي أبو محمد : ولما كان هؤلاء صنفاً ساغت في العبارة عنهم ﴿ ما ﴾ ، وقال الفراء ﴿ إلا ﴾ بمعنى سوى ، والمراد سوى ما يشاء من زيادة في العذاب ، ونحا إليه الزجّاج ، وقال الطبري : إن المستثنى هي المدة التي بين حشرهم إلى دخولهم النار .

قال القاضي أو محمد : وساغ هذا من حيث العبارة بقوله ﴿ النار مثواكم ﴾ لا تخص بصيغتها مستقبل الزمان دون غيره ، وقال الطبري عن ابن عباس أنه كان يتناول في هذا الاستثناء أنه مبلغ حال هؤلاء في علم الله ثم أسند إليه أنه قال : إن هذه الآية لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه لا ينزلهم جنة ولا ناراً .

قال القاضي أبو محمد : والإجماع على التخليد الأبدي في الكفار ولا يصح هذا عن ابن عباس رضي الله عنه .

---

قال القاضي أبو محمد : ويتجه عندي في هذا الاستثناء أن يكون مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم وأمته ، وليس مما يقال يوم القيامة ، والمستثنى هو من كان من الكفرة يومئذ يؤمن في علم الله كأنه لما أخبرهم أنه قال للكفار : ﴿ النار مثواكم ﴾ استثنى لهم من يمكن أن يؤمن ممن يرونه يؤمئذ كافراً ، وتقع ﴿ ما ﴾ على صفة من يعقل ، ويؤيد هذا التأويل اتصال قوله ﴿ إن ربك حكيم عليم ﴾ أي بمن يمكن أن يؤمن منهم ، و ﴿ حكيم عليم ﴾ صفتان مناسبتان لهذه الآية ، لأن تخلد هؤلاء الكفرة في النار فعل صادر عن حكم وعلم بمواقع الأشياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد ابن الجوزى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ﴾

يعني : الجن والإنس .

وقرأ حفص عن عاصم : "يحشرهم" بالياء .

قال أبو سليمان : يعني : المشركين وشياطينهم الذين كانوا يوحون إليهم بالمجادلة لكم فيما

حرَّمه الله من الميتة .

قوله تعالى : ﴿ يا معشر الجن ﴾ فيه إضمار ، فيقال لهم : يا معشر ؛ والمعشر : الجماعة أمرهم واحد ، والجمع : المعاشر .

وقوله : ﴿ قد استكثرتم من الإنس ﴾ أي : من إغوائهم وإضلالهم .

﴿ وقال أولياؤهم من الإنس ﴾ يعني : الذين أضلهم الجن .

﴿ ربَّنا استمتع بعضُنا ببعض ﴾ فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن استمتاع الإنس بالجن : أنهم كانوا إذا سافروا ، فنزلوا وادياً ، وأرادوا مبيتاً ، قال أحدهم : أعوذ بعظيم هذا الوادي من شر أهله ؛ واستمتاع الجن بالإنس : أنهم كانوا يفخرون على قومهم ، ويقولون : قد سدنا الإنس حتى صاروا يعوذون بنا ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال مقاتل ، والفراء .

والثاني : أن استمتاع الجن بالإنس : طاعتهم لهم فيما يغرونهم به من الضلالة والكفر والمعاصي .

واستمتاع الإنس بالجن : أن الجن زَيَّنَتْ لهم الأمور التي يهوَوْنَها ، وشَهَّوْها إليهم حتى سهل عليهم فعلها ، روى هذا المعنى عطاء عن ابن عباس ، وبه قال محمد بن كعب ، والزجاج .

والثالث : أن استمتاع الجن بالإنس : إغواؤهم إياهم .

واستمتاع الإنس بالجن : ما يتلقَّون منهم من السحر والكهانة ونحو ذلك .

والمراد بالجن في هذه الآية : الشياطين .

قوله تعالى : ﴿ وبلغنا أجلنا الذي أجَّلْتَ لنا ﴾ فيه قولان .

أحدهما : الموت ، قاله الحسن ، والسدي .

والثاني : الحشر ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ قال النار مثواكم ﴾ قال الزجاج : المثوى : المقام ؛ و"خالدين" منصوب على الحال .

المعنى : النار مقامكم في حال خلود دائم ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ هو استثناء من يوم القيامة ، والمعنى : ﴿ خالدين فيها ﴾ مذ يبعثون ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ من مقدار حشرهم من قبورهم ، ومدتهم في محاسبتهم .

ويجوز أن تكون : ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ أن يزيدهم من العذاب .

وقال بعضهم : إلا ما شاء الله من كونهم في الدنيا بغير عذاب ؛ وقيل في هذا غير قول ، ستجدها مشروحة في ( هود ) إن شاء الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾

نصب على الفعل المحذوف ، أي ويوم نحشرهم نقول .

﴿ جَمِيعاً ﴾ نصب على الحال .

والمراد حشر جميع الخلق في موقف القيامة .

﴿ يَامَعْشَرَ الجن ﴾ نداء مضاف .

﴿ قَدِ استكثرتم مِّنَ الإنس ﴾ أي من الاستمتاع بالإنس ؛ فحذف المصدر المضاف إلى المفعول ، وحرف الجر ؛ يدل على ذلك قوله : ﴿ رَبَّنَا استمتع بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ وهذا يردّ قول من قال : إن الجن هم الذين استمتعوا من الإنس ؛ لأن الإنس قبِلوا منهم .

والصحيح أن كل واحد مستمتع بصاحبه .

والتقدير في العربية : استمتع بعضنا بعضاً ؛ فاستمتاع الجن من الإنس أنهم تلذّذوا بطاعة الإنس إياهم ، وتلذّذ الإنس بقبولهم من الجن حتى زنَوْا وشرِبوا الخمور بإغواءِ الجن إيّاهم .

وقيل : كان الرجل إذا مَرّ بوادٍ في سفره وخاف على نفسه قال : أعوذ برب هذا الوادي من جميع ما أحذر .

وفي التنزيل ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ﴾ [ الجن : 6 ] .

فهذا استمتاع الإنس بالجنّ .

وأما استمتاع الجنّ بالإنس فما كانوا يُلقون إليهم من الأراجيف والكهانة والسحر .

وقيل : استمتاع الجن بالأنس أنهم يعترفون أن الجنّ يقدرون أن يدفعوا عنهم ما يحذرون .

ومعنى الآية تقريع الضالين والمضِلين وتوبيخهم في الآخرة على أعين العالمين .

﴿ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الذي أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ يعني الموت والقبر ، ووافينا نادمين .

﴿ قَالَ النار مَثْوَاكُمْ ﴾ أي موضع مقامكم .

والمَثْوَى المُقام .

﴿ خالدين فِيهَا إِلاَّ مَا شَآءَ الله ﴾ استثناء ليس من الأوّل .

قال الزجاج : يرجع إلى يوم القيامة ، أي خالدين في النار إلا ما شاء الله من مقدار حشرهم من قبورهم ومقدار مدتهم في الحساب ؛ فالاستثناء منقطع .

وقيل : يرجع الاستثناء إلى النار ، أي إلا ما شاء الله من تعذيبكم بغير النار في بعض الأوقات .

وقال ابن عباس : الاستثناء لأهل الإيمان .

ف"ما" على هذا بمعنى مَن .

وعنه أيضاً أنه قال : هذه الآية توجب الوقف في جميع الكفار .

ومعنى ذلك أنها توجب الوقف فيمن لم يمت ، إذْ قد يُسلم .

وقيل : "إلاّ ما شاء الله" من كونهم في الدنيا بغير عذاب .

ومعنى هذه الآية معنى الآية التي في "هود" .

قوله : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ ﴾ [ هود : 106 ] وهناك يأتي مستوفًى إنْ شاء الله .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ ﴾ أي في عقوبتهم وفي جميع أفعاله ﴿ عليم ﴾ بمقدار مجازاتهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

فائدة

قال أبو حيان :

﴿ ويوم يحشرهم ﴾ جميعاً ﴿ يا معشر الجنّ قد استكثرتم من الإنس ﴾ الظاهر العموم في الثقلين لتقدم ذكر الشياطين وهم الجنّ والكفرة أولياؤهم والمؤمنون الذين ﴿ لهم دار السلام ﴾ قال معناه الزمخشري وابن عطية ، قال ابن عطية : ويدل عليه التأكيد العام بقوله : ﴿ جميعاً ﴾ .

وقال التبريزي : وهذا النداء يدل على أن الضمير في يحشرهم دخل فيه الجنّ حين حشرهم ثم ناداهم ، أما الثقلان فحسب أو هما وغيرهما من الخلائق ؛ انتهى .

ومن جعل ويوم معطوفاً على ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ ويوم نحشرهم فالعامل في الظرف وليهم وكان الضمير خاصاً بالمؤمنين وهو بعيد ، والأولى أن يكون الظرف معمولاً لفعل القول المحكى به النداء أي ويوم نحشرهم نقول يا معشر الجن وهو أولى مما أجاز بعضهم من نصبه باذكر مفعولاً به لخروجه عن الظرفية ومما أجاز الزمخشري من نصبه بفعل مضمر غير فعل القول واذكر تقديره عنده ﴿ ويوم نحشرهم ﴾ وقلنا ﴿ يا معشر الجن ﴾ كان ما لا يوصف لفظاعته لاستلزامه حذف جملتين من الكلام جملة وقلنا وجملة العامل ، وقدر الزجاج فعل القول المحذوف مبنياً للمفعول التقدير فيقال لهم لأنه يبعد أن يكلمهم الله شفاها بدليل قوله ﴿ ولا يكلمهم الله ﴾ ونداؤهم نداء شهرة وتوبيخ على رؤوس الأشهاد والمعشر الجماعة ويجمع على المعاشر كما جاء نحن معاشر الأنبياء لا نورث .

وقال الأفوه :

فينا معاشر لن يبنوا لقومهم . . .

وإن بنى قومهم ما أفسدوا وعادوا

ومعنى الاستكثار هنا إضلالهم منهم كثيراً وجعلهم أتباعهم كما تقول : استكثر فلان من

الجنود واستكثر فلان من الأشياع .

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : أفرطتم في إضلالهم وإغوائهم .

وقرأ حفص يحشرهم بالياء وباقي السبعة بالنون .

﴿ وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا ﴾

وقال : أولياء الجن أي الكفار من الإنس ﴿ ربنا استمتع ﴾ انتفع ﴿ بعضنا ببعض ﴾

فانتفاع الإنس بالشياطين حيث دلوهم على الشهوات وعلى التوصلات إليها ، وانتفاع الجن بالإنس حيث أطاعوهم وساعدوهم على مرادهم في إغوائهم روي هذا المعنى عن ابن عباس وبه قال محمد بن كعب والزجاج .

*(171/250)*

---

وقال ابن عباس أيضاً ومقاتل : استمتاع الإنس بالجن قول بعضهم : أعوذ بعظيم هذا الوادي من شر أهله إذا بات بالوادي في سفره ، واستمتاع الجن بالإنس افتخارهم على قومهم وقولهم : قد سدنا الإنس حتى صاروا يعوذون بنا .

قال الكرماني : كانوا يعتقدون أن الأرض مملوءة جناً وأن من لم يدخله جني في جواره خبله الآخرون ، وكذلك كانوا إذا قتلوا صيد استعاذوا بهم لأنهم يعتقدون أن هذه البهائم للجن

منها مراكبهم .

وقيل : في كون عظامهم طعاماً للجن وأرواث دوابهم علفاً واستمتاع الإنس بالجن استعانتهم بهم على مقاصدهم حين يستخدمونهم بالعزائم ، أو يلقون إليهم بالمودة ؛ انتهى .

ووجوه الاستمتاع كثيرة تدخل هذه الأقوال كلها تحتها فينبغي أن يعتقد في هذه الأقوال أنها تمثيل في الاستمتاع لا حصر في واحد منها ، وظاهر قوله : ﴿ استمتع بعضنا ببعض ﴾ أي بعض الإنس بالجن وبعض الجن بالإنس .

وقيل : المعنى استمتع بعض الإنس ببعضه وبعض الجن ببعضه ، جعل الاستمتاع لبعض الصنف لبعض والقول السابق بعض الصنفين ببعض الصنفين والأجل الذي بلغوه الموت قاله الجمهور وابن عباس والسدي وغيرهما .

وقيل : البعث والحشر ولم يذكر الزمخشري غيره .

وقيل : هو الغاية التي انتهى إليها جميعهم من الاستمتاع وهذا القول منهم اعتذار عن الجن في كونهم استكثروا منهم وإشارة إلى أن ذلك بقدرك وقضائك إذ لكل كتاب أجل واعتراف بما كان منهم من طاعة الشياطين واتباع الهوى والتكذيب بالبعث واستسلام وتحسر على حالهم .

وقرىء آجالنا على الجمع الذي على التذكير والإفراد .

قال أبو علي : هو جنس أوقع الذي موقع التي ؛ انتهى .

وإعرابه عندي بدل كأنه قيل : الوقت الذي وحينئذ يكون جنساً ولا يكون إعرابه نعتاً لعدم المطابقة وفي قوله : ﴿ وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا ﴾ دليل على المعتزلة في قولهم : بالأجلين لأنهم أقروا بذلك وفيهم المعقول وغيره .

*(172/250)*

---

﴿ قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله ﴾ أي مكان نوائكم أي إقامتكم قال الزجاج وقال أبو علي : هو عندي مصدر لا موضع وذلك لعمله في الحال التي هي ﴿ خالدين ﴾ والموضع ليس فيه معنى فعل فيكون عاملاً والتقدير النار ذات ثوائكم ؛ انتهى .

ويصح قول الزجاج على إضمار يدل عليه ﴿ مثواكم ﴾ أي يثوون ﴿ خالدين فيها ﴾ والظاهر أن هذا الاستثناء من الجملة التي يليها الاستثناء .

وقال أبو مسلم : هو من قوله : ﴿ وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا ﴾ أي إلا من أهلكته واخترمته .

قيل : الأجل الذي سميته لكفره وضلاله وهذا ليس بجيد ، لأنه لو كان على ما زعم لكان التركيب إلا ما شئت ، ولأن القول بالأجلين أجل الاخترام والأجل الذي سماه الله باطل والفصل بين المستثنى منه والمستثنى بقوله : ﴿ قال النار مثواكم خالدين فيها ﴾ وفي ذلك

تنافر التركيب ، والظاهر أن هذا الاستثناء مراد حقيقة وليس بمجاز .

وقال الزمخشري : أو يكون من قول الموتور الذي ظفر بواتره ولم يزل يخرق عليه أنيابه وقد طلب إليه أن ينفس عنه خناقه أهلكني الله إن نفّست عنك إلا إذا شئت ، وقد علم أنه لا يشاء إلا التشفي منه بأقصى ما يقدر عليه من التعنيف والتشديد فيكون قوله إلا إذا شئت من أشد الوعيد مع تهكم بالموعد لخروجه في صورة الاستثناء الذي فيه إطماع ؛ انتهى .

وإذا كان استثناء حقيقة فاختلفوا في الذي استثنى ما هو ؟ فقال قوم : هو استثناء أشخاص من المخاطبين وهم من آمن في الدنيا بعذاب كان من هؤلاء الكفرة ، ولما كان هؤلاء صنفاً ساغ في العبارة عنهم ما فصار كقوله : ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء ﴾ حيث وقعت على نوع من يعقل وهذا القول بعد لأن هذا خطاب للكفار يوم القيامة فكيف يصح الاستثناء فيمن آمن منهم في الدنيا وشرط من أخرج بالاستثناء اتحاد زمانه وزمان المخرج منه .

*(173/250)*

---

فإذا قلت : قام القوم إلا زيداً فمعناه إلا زيداً فإنه ما قام ، ولا يصح أن يكون المعنى إلا زيداً فإنه ما يقوم في المستقبل وكذلك سأضرب القوم إلا زيداً معناه إلا زيداً فإني لا أضربه في

المستقبل ، ولا يصح أن يكون المعنى إلا زيداً فإني ضربته أمس إلا إن كان الاستثناء منقطعاً فإنه يسوغ ، كقوله تعالى : ﴿ لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ﴾ أي لكن الموتة الأولى في الدنيا فإنهم ذاقوها .

وقال قوم : المستثنى هم العصاة الذين يدخلون النار من أهل التوحيد أي إلا النوع الذي دخلها من العصاة فإنهم لا يخلدون في النار .

وقال قوم : الاستثناء من الأزمان أي ﴿ خالدين فيها ﴾ أبداً إلا الزمان الذي شاء الله أن لا يخلدون فيها ، واختلف هؤلاء في تعيين الزمان .

فقال الطبري : هي المدّة التي بين حشرهم إلى دخولهم النار وساغ هذا من حيث العبارة بقوله : ﴿ النار مثواكم ﴾ لا يخص بصيغتها مستقبل الزمان دون غيره .

وقال الزمخشري : إلا ما شاء الله أي يخلدون في عذاب الأبد كله إلا ما شاء الله أي الأوقات التي ينقلون فيها من عذاب النار إلى عذاب الزمهرير ، فقد روي أنهم يدخلون وادياً من الزمهرير ما يميز بعض أوصالهم من بعض فيتعاوون ويطلبون الردّ إلى الجحيم .

وقال الحسن : إلا ما شاء الله من كونهم في الدنيا بغير عذاب وهذا راجع إلى الزمان أي إلا الزمان الذي كانوا فيه في الدنيا بغير عذاب ، ويرد على هذا القول ما يرد على من جعله استثناء من الأشخاص الذين آمنوا في الدنيا .

وقال الفراء : إلا بمعنى سواء والمعنى سواء ما يشاء من زيادة في العذاب ويجيء إلى هذا الزجاج.

*(174/250)*

---

وقال غيره : إلا ما شاء الله من النكال والزيادة على العذاب وهذا راجع إلى الاستثناء من المصدر يدل عليه معنى الكلام ، إذ المعنى تعذبون بالنار ﴿ خالدين فيها ﴾ إلا ما شاء من العذاب الزائد على النار فإنه يعذبكم به ويكون إذ ذاك استثناء منقطعاً إذ العذاب الزائد على عذاب النار لم يندرج تحت عذاب النار ، والظاهر أن هذا الاستثناء هو من تمام كلام الله للمخاطبين وعليه جاءت تفاسير الاستثناء .

وقال ابن عطية : ويتجه عندي في هذا الاستثناء أن يكون مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم وأمته ، وليس مما يقال يوم القيامة والمستثنى هو من كان من الكفرة يومئذ يؤمن في علم الله كأنه لما أخبرهم أنه يقال للكفار ﴿ مثواكم ﴾ استثنى لهم من يمكن أن يؤمن ممن يرونه يومئذ كافراً ويقع ما على صفة من يعقل ، ويؤيد هذا التأويل اتصال قوله : ﴿ إن ربك حكيم عليم ﴾ أي من يمكن أن يؤمن منهم ؛ انتهى ، وهو تأويل حسن .

وروي عن ابن عباس أنه قال : هذه الآية توجب الوقف في جميع الكفار .

قيل : ومعنى ذلك أنها توجب الوقف فيمن لم يمت إذ قد يسلم وروي عنه أيضاً أنه قال : جعل أمرهم في مبلغ عذابهم ومدّته إلى مشيئته حتى لا يحكم الله في خلقه ، وعنه أيضاً أنه قال في هذه الآية : أنه لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه لا ينزلهم جنة ولا ناراً .

قال ابن عطية : الإجماع على التخليد الأبدي في الكفار ولا يصح هذا عن ابن عباس ؛ انتهى .

وقد تعلق قوم بظاهر هذا الاستثناء فزعموا أن الله يخرج من النار كل بر وفاجر ومسلم وكافر وأن النار تخلو وتخرب ، وقد ذكر هذا عن بعض الصحابة ولا يصح ولا يعتبر خلاف هؤلاء ولا يلتفت إليه .

﴿ إن ربك حكيم عليم ﴾ قال الزمخشري : لا يفعل شيئاً إلا بموجب الحكمة عليهم بأن الكفار يستوجبون عذاب الأبد ؛ انتهى .

وهذا على مذهبه الاعتزالي .

*(175/250)*

---

وقال ابن عطية : صفتان مناسبتان بهذه الآية لأن تخليد هؤلاء الكفرة في النار صادر عن حكمة ، وقال التبريزي : ﴿ حكيم ﴾ في تدبير المبدإ والمعاد ﴿ عليم ﴾ بما يؤول إليه

أمر العباد .

وقال إسماعيل الضرير : ﴿ حكيم ﴾ حكم عليهم بالخلود ﴿ عليم ﴾ بهم وبعقوبتهم .

وقال البغوي : ﴿ عليم ﴾ بالذي استثناه وبما في قلوبهم من البر والتقوى .

وقال القرطبي : ﴿ حكيم ﴾ في عقوبتهم ﴿ عليم ﴾ بمقدار مجازاتهم . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾

*(176/250)*

---

منصوبٌ بمضمر إما على المفعولية أو الظرفية وقرىء بنون العظمة على الالتفات لتهويل الأمرِ ، والضميرُ المنصوبُ لمن يُحشر من الثقلين ، أي واذكر يومَ يَحشُر الثقلين قائلاً : ﴿ يَا مَعْشَرَ الجن ﴾ أو ويوم يحشُرهم يقول : يا معشرَ الجنِّ أو ويوم يحشرهم ويقول : يا معشرَ الجن يكونُ الأحوالُ والأهوالُ ما لا يساعدُه الوصفُ لفظاعته ، والمعشرُ الجماعةُ ، والمرادُ بمعشر الجنِّ الشياطينُ ﴿ قَدِ استكثرتم مّنَ الإنس ﴾ أي من إغوائهم وإضلالِهم أو منهم بأن جعلتموهم

أتباعَكم فحُشِروا معكم كقولهم : استكثر الأميرُ من الجنود ، وهذا بطريق التوبيخِ والتقريع ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم ﴾ أي الذين أطاعوهم ، و( مِن ) في قوله تعالى : ﴿ مّنَ الإنس ﴾ إما لبيان الجنسِ أي أولياؤُهم الذين هم الإنسُ أو متعلقةٌ بمحذوف هو حالٌ من أولياؤهم أي كائنين من الإنس ﴿ رَبَّنَا استمتع بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ أي انتفع الإنسُ بالجن بأن دلُّوهم على الشهوات وما يُتوصَّل به إليها ، وقيل : بأن ألقَوْه إليهم من الأراجيف والسِّحر والكهانة والجن والإنس بأن أطاعوهم وحصّلوا مرادَهم بقَبول ما ألقَوْاه إليهم ، وقيل : استمتاعُ الإنسِ بهم أنهم كانوا يعوذون بهم في المفاوز والمخاوفِ واستمتاعُهم بالإنس اعترافُهم بأنهم قادرون على إجارتهم ﴿ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الذى أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ وهو يومُ القيامة قالوه اعترافاً بما فعلوه من طاعة الشياطينِ واتباعِ الهوى وتكذيبِ البعث ، وإظهاراً للندامة عليها وتحسراً على حالهم واستسلاماً لربهم ، ولعل الاقتصارَ على حكاية كلامِ الضالّين للإيذان بأن المُضلِّين قد أُفحموا بالمرة فلم يقدروا على التكلم أصلاً .

*(177/250)*

---

﴿ قَالَ ﴾ استئنافٌ مبني على سؤال نشأ من حكاية كلامِهم كأنه قيل : فماذا قال الله تعالى حينئذ ؟ فقيل : قال : ﴿ النار مَثْوَاكُمْ ﴾ أي منزِلُكم أو ذاتُ ثوائكم كما أن دارَ

السلام مثوى المؤمنين ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ حال والعامل مُثواكم إن جُعل مصدراً ، ومعنى الإضافة إن جُعل مكاناً ﴿ إِلاَّ مَا شَاء اللهُ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : استثنى الله تعالى قوماً قد سبق في علمه أنهم يُسلمون ويصدّقون النبيَّ عليه الصلاة والسلام ، وهذا مبنيٌّ على أن الاستثناءَ ليس من المحكيّ ، و( ما ) بمعنى مَنْ وقيل : المعنى إلا الأوقاتَ التي يُنقلون فيها من النار إلى الزمهرير ، فقد رُوي أنهم يدخُلون وادياً فيه من الزمهرير ما يميّزُ بعضَ أوصالِهم من بعض فيتعاوَوْن ويطلُبون الردَّ إلى الجحيم وقيل : يفتح لهم وهم في النار بابٌ إلى الجنة فيُسرعون نحوه حتى إذا صاروا إليه سُدَّ عليهم الباب .

وعلى التقديرين فالاستثناءُ تهكّمٌ بهم وقيل : إلا ما شاء الله قبل الدخولِ كأنه قيل : النارُ مثواكم أبداً إلا ما أمهلكم ولا يخفى بعدُه ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ ﴾ في أفاعيله ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأحوال الثقلين وأعمالِهم وبما يليق بها من الجزاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

*(178/250)*

---

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾

أي : اذكر يا محمد فيما تقصه عليهم ، وتنذرهم به ، يوم تحشرهم جميعاً ، يعني الجن وأولياءهم من الإنس الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ، ويعوذون بهم ، ويطيعونهم ، ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً .

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ ﴾ أي : نقول : يا معشر الجن ! يعني : الشياطين . قال المهايمي : خصهم بالنداء لأنهم الأصل في المكر ﴿ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ﴾ أي : من إغوائهم وإضلالهم . أو منهم ، بأن جعلتموهم أتباعكم ، وتسويلكم وتزيينكم الحطام الدنيوية ، واللذات الجسمانية عليهم ، ووسوستكم لهم بالمعاصي ، فحشروا معكم . وهذا بطريق التوبيخ والتقريع . : ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ ﴾ أي : الذين أطاعوهم وتولوهم : ﴿ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ قال الحسن : ما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت ، وعلمت الإنس . أي : فالجن نالت التعظيم منهم فعبدت ، والإنس بوسوستهم تمتعوا بإيثار الشهوات الحاضرة ، على اللذات الغائبة : ﴿ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ أي : بالموت ، أو بالمعاد الجسماني على أقبح صورة ، وأسوأ عيش .

قال أبو السعود : قالوا اعترافاً بما فعلوا من طاعة الشياطين ، واتباع الهوى ، وتكذيب البعث ، وإظهاراً للندامة عليها ، وتحسراً على حالهم ، واستسلاماً لربهم . ولعل الاقتصار على حكاية كلام الضالين ، للإيذان بأن المضلين قد أفحموا بالمرة فلم يقدروا على التكلم أصلاً .

﴿ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ ﴾ أي : منزلكم ، كما أن دار السلام مثوى المؤمنين .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ قال القاشاني : أي : إلا وقت مشيئته أن تخفف ، أو ينجي منكم من لا يكون سبب تعذيبه شركاً راسخاً في اعتقاده .

وقال المهايمي : أي : إلا وقت مشيئته أن ينقلكم منها إلى الزمهرير ، انتقالكم من شهوة إلى أخرى .

وقال الزمخشري : أي : يخلدون في عذاب النار ، الأبد كلَّه ، إلا الأوقات التي ينقلون فيها من عذاب النار إلى عذاب الزمهرير . فقد روي أنهم يدخلون وادياً فيه من الزمهرير ما يميز بعض أوصالهم من بعض ، فيتعاوون ويطلبون الرد إلى الجحيم . أو يكون من قول الموتور الذي ظفر بواتره ، ولم يزل يحرق عليه أنيابه ، وقد طلب إليه أن ينفس عن خناقه : أهلكني الله إن نفست عنك إلا إذا شئت . وقد علم أنه لا يشاء إلا التشفي منه بأقصى ما يقدر عليه من التعنيف والتشديد . فيكون قوله ( إلا إذا شئت ) من أشد الوعيد ، مع تهكم بالموعد ، لخروجه في صورة الاستثناء الذي فيه إطماع . انتهى .

قال الخفاجيّ : لما كان الخطاب للكفرة ، وهم لا يخرجون من النار ، لأن ما قبله بيان حالهم ، فيعبد جعلهم شاملاً للعصاة ، ليصح الاستثناء باعتباره ، مع أن استعمال ( ما ) للعقلاء قليل – وَجَّهُوه بأن المراد النقل من النار إلى الزمهرير ، أو المبالغة في الخلود ، بمعنى أنه لا ينتفي إلا وقت مشيئة الله ، وهو مما لا يكون مع إبرازه في صورة الخروج وإطماعهم في ذلك تهكماً وتشديداً للأمر عليهم . و ( ما ) مصدرية وقتية . أو إن المستثنى زمان إمهالهم قبل الدخول . وردَّ الأول بأن فيه صرف النار من معناها العلميّ ، وهو دار العذاب ، إلى اللغوي . وأجيب عنه بان لا بأس بالصرف إذا دعت إليه ضرورة . وقيل عليه : إن المعترض لا يسلم الضرورة ، لإمكان غير ذلك التأويل . مع أن قوله : ﴿ مَثْوَاكُمْ ﴾ يقتضي ما ذهب إليه المعترض بحسب الظاهر . وردّ الأخير أبو حيّان بأن في الاستثناء يشترط اتحاد زمان المخرج ، والمخرج منه ، فإذا قلت : قام القوم إلا زيداً ، فمعناه : إلا زيدا ما قام . ولا يصح أن يكون المعنى : إلا زيداً ما يقوم في المستقبل . وكذلك سأضرب القوم إلا زيداً ، معناه : إلا زيداً فإني لا أضربه في المستقبل ، ولا يصح أن يكون المعنى : إلا زيداً فإني ما ضربته قبل ، إلا إذا كان استثناء منقطعاً ، فإنه يسوغ ، كقوله : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا

الْمَوْتَةَ الْأُولَى ﴾ . فإنهم ذاقوها . ولك أن تقول : إن القائل بل يلتزم انقطاعه ، كما في الآية التي ذكرها ، ولا محذور فيه ، مع ورود مثله في القرآن ، وفيه نظر . وقيل : إنه غفلة عن تأويل الخلود بالأبد ، والأبد لا يقتضي الدخول . انتهى .

*(181/250)*

---

وقال الناصر في " الانتصاف " : قد ثبت خلود الكفار في العذاب ثبوتاً قطعيّاً ، فمن ثم اعتنى العلماء بالكلام على الاستثناء في هذه الآية ، وفي أختها في سورة هود . فذهب بعضهم إلى أنها شاملة لعصاة الموحدين وللكفار ، والمستثنى العصاة ، لأنهم لا يخلدون – وقد علمت بُعْدَه – .

ثم قال : وذهب بعضهم إلى أن هذا الاستثناء محدود بمشيئة رفع العذاب ، أي : مخلدون إلا أن يشاء الله لو شاء . وفائدته إظهار القدرة ، والإعلان بأن خلودهم إنما كان لأن الله تعالى قد شاءه ، وكان الجائز العقلي في مشيئته أن لا يعذبهم ، ولو عذبهم لا يخلدهم ، وإن ذلك ليس بأمر واجب عليه ، وإنما هو مقتضى مشيئته وإرادته عز وجل . وفيها على هذا الوجه دفع في صدر المعتزلة الذين يزعمون أن تخليد الكفار واجب على الله تعالى بمقتضى الحكمة ، وأنه لا يجوز في العقل أن يشاء خلاف ذلك .

وذهب الزجاج إلى وجه لطيف ، إنما يظهر بالبسط فقال : المراد –والله أعلم –إلا ما يشاء من زيادة العذاب . ولم يبين وجه الاستثناء . والمستثنى على هذا التأويل لم يغاير المستثنى منه في الحكم ، ونحن نبيّنه فنقول : العذاب –والعياذ بالله –على درجات متفاوتة ، كأن المراد أنهم مخلدون في جنس العذاب إلا ما شاء ربك من زيادة تبلغ الغاية ، وتنتهي إلى أقصى النهاية ، حتى تكاد لبلوغها الغاية ، ومباينتها لأنواع العذاب في الشدة ، تعدّ ليس من جنس العذاب ، وخارجة عنه . والشيء إذا بلغ الغاية عندهم عبروا عنه بالضد ، كما تقدم في التعبير عن كثرة الفعل بـ ( رب ) و ( قد ) ، وهما موضوعان لضد الكثرة من القلة ، وذلك أمر يعتاد في لغة العرب . وقد حام أبو الطيب حوله فقال :

~لقد جدتَ حتى كاد يبخل حاتم للمنتهى ومن السرور بكاء

*(182/250)*

---

فكأن هؤلاء إذا نقلوا إلى غاية العذاب ، ونهاية الشدة ، فقد وصلوا إلى الحد الذي يكاد أن يخرج من اسم العذاب المطلق ، حتى يسوغ معاملته في التعبير بمعاملة المغاير . وهو وجه حسن لا يكاد يفهم من كلام الزجاج إلا بعد هذا البسط .

وفي تفسير ابن عباس رضي الله عنه ما يؤيده . انتهى .

وفي الآية تأويلات أخر :

منها : ما نقل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه تعالى استثنى قوماً قد سبق علمه أنهم يسلمون ويصدقون النبيّ صلى الله عليه وسلم . وهذا مبني على أن الاستثناء ليس من المحكيّ ، وأن ( ما ) بمعنى ( من ) .

ومنها : أنهم يفتح لهم أبواب الجنة ، ويخرجون من النار ، فإذا توجهوا للدخول أغلقت في وجوههم استهزاء بهم . وهو معنى قوله : ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ [ المطففين : 34 ] . قال الشريف المرتضى في " الدرر " : فإن قيل : أي : فائدة في هذا الفعل ، وما وجه الحكمة فيه ؟ قلنا : وجه الحكمة فيه ظاهر ، لأن ذلك أغلظ على نفوسهم ، وأعظم في مكروههم ، وهو ضرب من العقاب الذي يستحقونه بأفعالهم القبيحة . لأن من طمع في النجاة والخلاص من المكروه ، واشتد حرصه على ذلك ، ثم حيل بينه وبين الفرج ، وردّ إلى المكروه ، يكون عذابه أصعب وأغلظ من عذاب من لا طريق للطمع عليه – كذا في " العناية " – .

ومنها : إن هذا الاستثناء إشارة إلى فناء النار . أي : إلا وقت مشيئته فناءَها ، وزوال عذابها .

قال السيوطي في " الدار المنثور " : أخرج ابن المنذر عن الحسن قال : قال عمر رضي الله

عنه : لو لبث أهل النار في النار ، كقدر رمل عالج ، لكان لهم يوم على ذلك يخرجون فيه .
وأخرجه عبد بن حميد عن الحسن أيضاً .

*(183/250)*

---

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : ونقل هذا عن عمر وابن مسعود وأبي هريرة وأبي سعيد وغيرهم . انتهى . وقد انتصر لهذا القول جماعة . قالوا : وما ورد من الخلود فيها والتأبيد وعدم الخروج , وأن عذابها مقيم , كله حق مسلم لا نزاع فيه . وذلك يقتضي الخلود في دار العذاب ما دامت باقين , وإنما يخرج منها في حال بقائها أهل التوحيد , ففرق بين من يخرج من الحبس , وهو حبس على حاله , وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس وانتقاضه . وقد بسط البحث في ذلك وجوده الإمام ابن القيم في كتابه " حادي الأرواح " , ومع كونه انتصر لهذا القول انتصاراً عظيماً , وذكر له خمسة وعشرين دليلاً , لم يصححه , حيث قال : أما أبدية الجنة , وأنها لا تفنى ولا تبيد , فمما يعلم بالاضطرار , ولم يقل بفنائها أحد . ومن قال به – كالجهمية –فهو ضال مبتدع منحرف عن الصواب وليس له في ذلك سلف . وأما أبدية النار ففيها قولان معروفان عن السلف والخلف , والأصح عدم فنائها أيضاً . انتهى .

وسيأتي إن شاء الله تعالى بسط هذا المقام في آية هود .

وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في هذه الآية أنه قال : لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه . لا ينزلهم جنة ولا ناراً .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ ﴾ فلا يعذب إلا على ما تقتضيه الحكمة ﴿ عَلِيمٌ ﴾ أي : بمن يعذب بكفره ، فيدوم عذابه . أو بسيئات أعماله ، فيعذب على حسبها ، ثم ينجو منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 498 . 503 ﴾

*(184/250)*

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ﴾

وساعة تسمع " يوم " اعرف أنها " ظرف زمان " ، أي أن هناك حدثاً ، وقوله الحق : " ويوم يحشرهم جميعاً " أي اليوم الذي يقف فيه الجميع ويحشدون ، وحين ننظر إلى ما بعدها نجد أن الحدث لم يأت ، ولكن جاء " يا معشر الجن " وهذا " نداء " . فكأن الحدث هو النداء نفسه ، والنداء يقتضي مناديًا ، وهو الحق سبحانه ، ومنادى وهو معشر الجن والإِنس ،

وقولاً يبرز صورة النداء . فكأن العبارة هي : يوم يحشرهم جميعاً فيقول يا معشر الجن والإِنس ، و" الحشر " هو الجمع ، و" المعشر " هم الجماعة المختلطة اختلاط تعايش ، بمعنى أن يكون فيهم كل عناصر ومقومات الحياة ، وقد يضاف المعشر إلى أهل حرفة بخصوصها ؛ يا معشر التجار ، يا معشر العلماء ، يا معشر الوزراء . لكن إن قلت : يا معشر المصريين فهي جماعة مختلطة اختلاط تعايش ومعاشرة . ﴿ يَامَعْشَرَ الجن قَدِ استكثرتم مِّنَ الإنس [ الأنعام : 128 ]

و" استكثر " أي أخذ منه كثيراً ، كمن استكثر من جمع المال ، أو استكثر من الأصدقاء ؛ فمادة " استكثر " تدل على أنه أخذ كثرة . وماذا يعني استكثارهم من الإنس ؟ . نحن نعلم أن من الجن طائعين ، ومنهم عاصون ، والأصل في العصيان في الجن " إبليس " الذي أقسم : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ ص : 82 ]

*(185/250)*

---

فكأن الحق يوضح : أنكم معشر الجن قد حاولتم جاهدين أن تأخذوا الإنس إلى جانبكم واستكثرتم بهم ، فبعد أن كان العاصون فقط من شياطين الجن وجد عصاة من الإنس أيضاً ، واستكثرتم منهم ، بأن ظننتم ان لكم غلبة وكثرة وعزاً ، لأنهم إذا أطاعوكم في

الوسوسة أصبحت لكم السيادة ، وذلك ما كان يحدث ، فكان الإنسان إذا ما نزل وادياً مثلاً قال : أعوذ بسيد هذا الوادي – من الجن – ويطلب أن يحفظه ويحفظ متاعه ، وحينما يوسوس له شيء يسارع إلى تنفيذه ، وهذا استكثار . ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا استمتع بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ [ الأنعام : 128 ]

وكذلك لم يستمتع الجن والإنس فقط ، بل استمتع أيضاً بالجن ، وهكذا نجد تبادل استمتاع من خلف منهج الله ، لهؤلاء إغواءٍ وسيادة ، يأمرونهم بعمل الأشياء المخالفة لمنهج الله ، وهؤلاء يستمتعون بهم يحققون لهم شهواتهم في صور تدين ، فيقولون لهم : اعبدوا الأصنام ، واعبدوا الشمس ، واعبدوا القمر ، فيفعلون . وذلك يرضي فيهم غريزة الانقياد التديني ؛ لأن كل نفس مفطورة على أن ترتبط بقوة أعلى منها ؛ لأن الإنسان إذا نظر لنفسه وإلى أقرنائه وجدهم أبناء أغيار ؛ الواحد منهم يكون اليوم صحيحاً وغداً مريضاً ، ويكون اليوم غنياً وغداً فقيراً ، فمال الذي يضمن للنفس البشرية حماية من هذه الأغيار ؟ .

إن الإنسان يحبّ أن يلجأ ويرتبط بقَويّ ؛ حتى إذا جاءت هذه الأغيار كانت سنداً له .

*(186/250)*

إلا أن هناك من يصعدهُا في التدين وهؤلاء هم الذين يركنون إلى الإيمانية لله ويعتمدون عليه سبحانه ويقبلون على الإيمان بالله بمطلوبات هذا الإيمان في " افعل " و" ولا تفعل " . لكن الأشياء التي يعبدونها من دون الله ليس لها مطلوبات أو تكاليف إلا أن تكون موافقة لأهواء النفس ، وهذا الإكذاب للنفس أي حمل النفس على الكذب لا يدوم طويلاً ؛ لأن الإنسان لا يغش نفسه ؛ فالإيمان يحمي النفس إذا جاء أمر فوق أسبابك ، وليس هناك من يقول : يا شمس أو يا قمر ، يا شيطان أو يا صخر ! لا يمكن ؛ لأنك لن تكذب على نفسك أبداً . ومثال ذلك قول الحق : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ . . ﴾ [ يونس : 12 ]

وهنا يقول الحق عن الإنس : ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا استمتع بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا الذي أَجَّلْتَ لَنَا . . ﴾ [ الأنعام : 128 ]

أي أن هذا الاستمتاع أمداً ، هو أمد الأجل أي ساعة تنقضي وتنتهي الحياة ، ثم يبدأ الحساب فيسمعون قول الحق : ﴿ . . قَالَ النار مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَآ إِلاَّ مَا شَآءَ الله إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [ الأنعام : 128 ]

و" الثواء " هو الإقامة ، و" مثواكم " أي إقامتكم ، " إلا ما شاء الله " وهذا الاستثناء كان محل نقاش بين العلماء ، دار فيه كلام طويل ؛ فهناك من قال : إن الحق سبحانه وتعالى قال : " إلا ما شاء الله " أي أن له طلاقة القدرة والمشيئة ؛ فيفعل ما يريد لكنه حسم الأمر وحدد

هو " ما شاء " فقال : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ . . ﴾ [ النساء : 48 ]

*(187/250)*

---

وهنا حدد " ما شاء " ، أي أن ما شاء يكون في غير الشرك به فإن الشرك لا يكون محل غفران منه سبحانه . أو يجوز " إلا ما شاء الله " أن بعضاً يفهم أنه بمجرد البعث والحشر ستكون النار مثواهم ، ولكن المثوى في النار لن يكون إلا بعد الحساب ، وهذا استثناء من الزمن الخلودي ، فلن يحدث دخول للجنة أو للنار إلا بعد الحساب . فزمن الحساب والحشر مستثنى وخارج عن زمن الخلود في الجنة أو النار .

ونحن نجد أيضاً ﴿ إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ في سورة هود حيث يقول الحق : ﴿ فَأَمَّا الذين شَقُواْ فَفِي النار لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السماوات والأرض إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الذين سُعِدُواْ فَفِي الجنة خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السماوات والأرض إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [ هود : 106-108 ]

إذن فهناك الاستثناء في النار والاستثناء في الجنة ، فقول الحق : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السماوات والأرض إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ فمجيء الاستثناء بعد الوصف بالخلود ، يدل

على أن الخلود ينقطع مع أنه قد ثبت خلود أهل الجنة في الجنة وخلود أهل النار في النار للأبد من غير استثناء فكيف ذلك ؟

والرد على هذا أن أهل النار لا يخلدون في عذاب النار ، وحده بل يعذبون بالزمهرير وبأنواع من العذاب سوى عذاب النار بما هو أغلظ منها كلها وهو سخط الله عليهم ولعنهم وطردهم وإهانته إياهم .

*(188/250)*

---

وكذلك أهل الجنة لهم سوى الجنة ما أكبر منها واجل موقعا ، وهو رضوان الله كما قال : ﴿ وَعَدَ اللهُ المؤمنين والمؤمنات جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ فلهم ما يتفضل الله به عليهم سوى ثواب الجنة مما لا يعرف كنهه إلا هو ، فهذا هو المراد بالاستثناء ، والدليل عليه قوله : " عطاء غير مجذوذ " ومعنى قوله في مقابلته ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ أن ربك يفعل بأهل النار ما يريد من العذاب ، كما يعطي اهل الجنة الذي لا انقطاع له .

ويذيل الحق الآية بقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ . حكيم في أن يعذب ، عليم بمن

يستحق أن يعذّب ، ومقدار عذابه ، وعليم بمن يستحق ان يثاب وينعم ، وبمقدار ثوابه ونعيمه ، وحكيم في أن يرحم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(189/250)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (128) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ قد استكثرتم من الإِنس ﴾ يقول : في ضلالتكم إياهم ، يعني أضللتم منهم كثيراً . وفي قوله ﴿ قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله ﴾ قال : إن هذه الآية لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه لا ينزلهم جنة ولا ناراً .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن في قوله ﴿ يا معشر الجن قد استكثرتم من الإِنس ﴾ قال : استكثرتم ربكم أهل النار يوم القيامة ﴿

وقال أولياؤهم من الإِنس ربنا استمتع بعضنا ببعض ﴾ قال الحسن : وما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن القيامة ﴿ وقال أولياؤهم من الإِنس ربنا استمتع بعضنا ببعض ﴾ قال الحسن : وما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت وعملت الإِنس .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب في قوله ﴿ ربنا استمتع بعضنا ببعض ﴾ قال : الصحابة في الدنيا ﴿ وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا ﴾ قال : الموت .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج في قوله ﴿ ربنا استمتع بعضنا ببعض ﴾ قال : كان الرجل في الجاهلية ينزل بالأرض فيقول : أعوذ بكبير هذا الوادي . فذلك استمتاعهم فاعتذروا به يوم القيامة ﴿ وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا ﴾ قال : الموت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

*(190/250)*

---

ومن فوائد الشوكانى فى الآيات

قال رحمه الله :

قوله : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسلام ﴾ الشرح : الشق وأصله التوسعة ،

وشرحت الأمر بينته وأوضحته ، والمعنى : من يرد الله هدايته للحق يوسع صدره حتى يقبله بصدر منشرح ، ﴿ وَمَن يُرِدِ ﴾ إضلاله ﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً ﴾ قرأ ابن كثير " ضَيقاً " بالتخفيف مثل هين ولين .

وقرأ الباقون بالتشديد وهما لغتان .

وقرأ نافع " حَرَجاً " بالكسر ، ومعناه الضيق ، كرر المعنى تأكيداً ، وحسن ذلك اختلاف اللفظ .

وقرأ الباقون بالفتح ، جمع حرجة ، وهي شدة الضيق ، والحرجة الغيظة ، والجمع حرج وحرجات ، ومنه فلان يتحرج : أي يضيق على نفسه .

وقال الجوهري : مكان حرج وحرج ، أي ضيق كثير الشجر لا تصل إليه الراعية ، والحرج الإثم .

وقال الزجاج : الحرج أضيق الضيق .

وقال النحاس : حرج اسم الفاعل ، وحرج مصدر وصف به كما يقال : رجل عدل .

قوله : ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السماء ﴾ قرأ ابن كثير بالتخفيف من الصعود ، شبه الكافر في ثقل الإيمان عليه ، بمن يتكلف ما لا يطيقه كصعود السماء .

وقرأ النخعي "يصاعد" وأصله يتصاعد .

وقرأ الباقون ﴿ يصعد ﴾ بالتشديد وأصله يتصعد ، ومعناه : يتكلف ما لا يطيق مرة بعد

مرة ، كما يتكلف من يريد الصعود إلى السماء .

وقيل : المعنى على جميع القراءات : كاد قلبه يصعد إلى السماء نبوّاً على الإسلام ، و" ما " في ﴿ كأنما ﴾ هي المهيئة لدخول كأن على الجمل الفعلية .

قوله : ﴿ كذلك يَجْعَلُ الله الرجس عَلَى الذين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي مثل ذلك الجعل الذي هو جعل الصدر ضيقاً حرجاً يجعل الله الرجس .

والرجس في اللغة : النتن ، وقيل هو العذاب ، وقيل : هو الشيطان يسلطه الله عليهم .

وقيل : هو ما لا خير فيه ؛ والمعنى الأوّل هو المشهور في لغة العرب ، وهو مستعار لما يحلّ بهم من العقوبة وهو يصدق على جميع المعاني المذكورة .

*(191/250)*

---

والإشارة بقوله : ﴿ وهذا صراط ربّكَ ﴾ إلى ما عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن معه من المؤمنين ، أي هذا طريق دين ربك لا اعوجاج فيه .

وقيل الإشارة إلى ما تقدّم مما يدل على التوفيق والخذلان ، أي : هذا هو عادة الله في عباده يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وانتصاب ﴿ مُّسْتَقِيماً ﴾ على الحال كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الحق مُصَدّقًا ﴾ [ البقرة : 91 ] ، ﴿ وهذا بَعْلِى شَيْخًا ﴾ [ هود : 72 ] ﴾

وَقَدْ فَصَّلْنَا الآيات ﴾ أي بيناها وأوضحناها ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ ما فيها ، ويتفهمون معانيها .

﴿ لَهُمْ دَارُ السلام عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي لهؤلاء المتذكرين الجنة ، لأنها دار السلامة من كل مكروه ، أو دار الرب السلام مدخرة لهم عند ربهم ، ويوصلهم إليها ﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُم ﴾ أي ناصرهم ، والباء في ﴿ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ للسببية أي بسبب أعمالهم .

قوله : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾ الظرف منصوب بمضمر يقدر متقدماً ، أي واذكر يوم نحشرهم أو ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ ﴾ نقول : ﴿ يَامَعْشَرَ الجن ﴾ والمراد حشر جميع الخلق في القيامة ، والمعشر الجماعة : أي يوم الحشر نقول ، يا جماعة الجن ﴿ قَدِ استكثرتم مّنَ الإنس ﴾ أي من الاستمتاع بهم ، كقوله : ﴿ رَبَّنَا استمتع بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ وقيل : استكثرتم من إغوائهم وإضلالهم حتى صاروا في حكم الأتباع لكم فحشرناهم معكم ، ومثله قوله : استكثر الأمير من الجنود ، والمراد التقريع والتوبيخ ، وعلى الأوّل ، فالمراد بالاستمتاع : التلذذ من الجن بطاعة الإنس لهم ودخولهم فيما يريدون منهم ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مّنَ الإنس رَبَّنَا استمتع بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ أما استمتاع الجن بالإنس : فهو ما تقدم من تلذذهم باتباعهم لهم ، وأما استمتاع الإنس بالجن فحيث قبلوا منهم تحسين المعاصي ، فوقعوا فيها وتلذذوا بها .

فذلك هو استمتاعهم بالجن ؛ وقيل : استمتاع الإنس بالجن : أنه كان إذا مرّ الرجل بواد في سفره وخاف على نفسه قال : أعوذ بربّ هذا الوادي من جميع ما أحذر ، يعني ربه من الجن ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجن فَزَادوهُمْ رَهَقاً ﴾ [ الجن : 6 ] وقيل : استمتاع الجن بالإنس : أنهم كانوا يصدقونهم فيما يقولون من الأخبار الغيبية الباطلة ، واستمتاع الإنس بالجن : أنهم كانوا يتلذذون بما يلقونه إليهم من الأكاذيب ، وينالون بذلك شيئاً من حظوظ الدنيا كالكهان ﴿ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الذى أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ أي يوم القيامة اعترافاً منهم بالوصول إلى ما وعدهم الله به مما كانوا يكذبون به .

ولما قالوا هذه المقالة أجاب الله عليهم ف ﴿ قَالَ النار مَثْوَاكُمْ ﴾ أي موضع مقامكم .

والمثوى : المقام ، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر .

قوله : ﴿ خالدين فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء الله ﴾ المعنى الذي تقتضيه لغة العرب في هذا التركيب أنهم يخلدون في النار في كل الأوقات ، إلا في الوقت الذي يشاء الله عدم بقائهم فيها .

وقال الزجاج : إن الاستثناء يرجع إلى يوم القيامة ، أي خالدين في النار إلا ما شاء الله من مقدار حشرهم من قبورهم ومقدار مدّتهم في الحساب ، وهو تعسف ، لأن الاستثناء هو من الخلود الدائم ، ولا يصدق على من لم يدخل النار ، وقيل : الاستثناء راجع إلى النار ، أي إلا ما شاء الله من تعذيبهم بغيرها في بعض الأوقات كالزمهرير .

وقيل : الاستثناء لأهل الإيمان ، و" ما " بمعنى من ، أي إلا من شاء الله إيمانه فإنه لا يدخل النار .

وقيل المعنى : إلا ما شاء الله من كونهم في الدنيا بغير عذاب .

*(193/250)*

---

وكل هذه التأويلات متكلفة ، والذي ألجأ إليها ما ورد في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية من خلود الكفار في النار أبداً ، ولكن لا تعارض بين عام وخاص ، لا سيما بعد وروده في القرآن مكرراً كما سيأتي في سورة هود ﴿ خالدين فِيهَا مَا دَامَتِ السموات والأرض إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾

[ هود : 107 ] ولعله يأتي هنالك إن شاء الله زيادة تحقيق .

وقد أخرج ابن المبارك في الزهد ، وعبد الرزاق والفريابي ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن أبي جعفر المدائني رجل من بني هاشم ، وليس هو محمد ابن علي قال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية ﴿ فَمَن يُرِدِ الله أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسلام ﴾ قالوا : كيف يشرح صدره يا رسول الله ؟ قال : " نور يقذف فيه فينشرح

صدره له وينفسح له " ، قالوا : فهل لذلك من أمارة يعرف بها ؟ قال : " الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت " وأخرج عبد بن حميد ، عن فضيل نحوه .

وأخرج ابن أبي الدنيا ، عن الحسن نحوه أيضاً .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن أبي الدنيا ، وابن جرير ، وأبو الشيخ ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب ، من طرق عن ابن مسعود قال : قال رسول الله حين نزلت هذه الآية فذكر نحوه .

وأخرجه ابن مردويه عنه مرفوعاً من طريق أخرى .

وأخرجه سعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، وابن النجار في تاريخه عن عبد الله بن المستورد ، وكان من ولد جعفر بن أبي طالب قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فذكر نحوه .

وهذه الطرق يقوّي بعضها بعضاً ، والمتصل يقوّي المرسل ، فالمصير إلى هذا التفسير النبويّ متعين .

*(194/250)*

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في الآية قال : كما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء ، كذلك لا يقدر على أن يدخل الإيمان والتوحيد قلبه حتى يدخله الله في قلبه .

وأخرج البيهقي في الأسماء والصفات عنه في الآية يقول : من أراد أن يضله يضيق عليه حتى يجعل الإسلام عليه ضيقاً ، والإسلام واسع وذلك حين يقول : ﴿ وَمَّا جَعَلَ عَلَيْكمْ فِى الدين مِنْ حَرَجٍ ﴾ [ الحج : 78 ] يقول : ما جعل عليكم في الإسلام من ضيق .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله ﴿ دَارُ السلام ﴾ قال : الجنة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن جابر بن زيد قال : السلام هو الله .

وأخرج أبو الشيخ ، عن السديّ قال : الله هو السلام ، وداره الجنة .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله : ﴿ قَدِ استكثرتم مّنَ الإنس ﴾ يقول : من ضلالتكم إياهم ، يعني : أضللتم منهم كثيراً ، وفي قوله : ﴿ خالدين فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء الله ﴾ قال : إن هذه الآية لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه ، لا ينزلهم جنة ولا ناراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

*(195/250)*

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " وَيَوْمَ يَحْشُرُهُم " يَجُوز أن يَنْتَصب بِفِعْل مقَدَّر ، فقدَّره أبو البقاءِ تارة بـ " اذْكُرْ " وتارة بالقَوْلِ المَحْذُوف العَامِل في جُمْلَة النّداءِ من قوله : " يَا مَعْشَر " أي : ويقُول : " يا مَعْشَر يَوْمَ نَحْشُرُهُم " ، وقدَّره الزَّمَخْشَرِي : " ويَوْمَ يَحْشُرُهم وقلنا يا معشر كان ما لا يُوصَفُ لفظَاعتِهِ " .

قال أبو حيَّان : " وما قُلْنَاه أوْلَى " يعني : من كَوْنِه مَنْصُوباً بـ " يَقُولُ " المحكي به جُمْلَة النّداء ، قال : " لاسْتِلْزَامِه حذف جُمْلَتَيْن : إحْداهما جُمْلَة " وقُلْنَا " ، والأخْرى العَامِلة في الظَّرْف " وقدَّره الزَّجَّاج بِفِعْل قَول مبْنِي للمفْعُول : " يقال لَهُم : يا مَعْشَر يَوْم نَحْشرهُم " وهو مَعْنًى حَسَن ؛ كأن نَظَر إلى مَعْنَى قوله : " ولا يُكَلِّمُهُم ولا يُزَكِّيهم " فبَنَاه للمفْعُول ، ويجوز أن يَنْتَصب " يَوْمَ " بقوله : " وَلِيُّهُم " لما فِيهِ من مَعْنَى الفِعْل ، أي : " وهُوَ يتولاَّهُم بما كَانُوا يَعْمَلُون ، ويتولاَّهُم يوم يَحْشُرُهُم " ، و " جَمِيعاً " حَالٌ أو تَوْكِيدٌ على قَوْل بَعْض النَّحْوِيِّين .

وقرأ حفص : " يَحْشُرُهُم " بياء الغَيْبَة رداً على قوله : " ربهم " أي : " ويوم يَحْشُرُهُم ربُّهُم " والضَّمِيرُ في " يَحْشُرُهُم " يعود إلى الجنِّ والإنْسِ بجمعهم في يَوْم القِيامَةِ .

وقيل : يعود إلى الشَّيَاطين الَّذِين تقدم ذِكْرُهم في قوله : " وكَذَلِك جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ " .

قوله : " يا مَعْشَرَ " في مَحَلِّ نصْبٍ بذلك القَوْل المضْمَر ، أي : " نقول أو قُلْنَا " ، وعلى تَقْدير الزَّجَّاج يكون في مَحَلِّ رفعٍ ؛ لقيامه مقامَ الفَاعِل المَنُوب عَنْهُ ، والمعشر : الجَمَاعة ؛ قال القائل : [ الوافر ]

2311 - وأَبْغَضُ مَنْ وَضَعْتُ إِليَّ فِيهِ . . .

لِسَانِي مَعْشَرٌ عَنْهُم أَذُودُ

*(196/250)*

---

والجمع : مَعَاشِر ؛ كقوله - عليه الصلاة والسلام - : " نَحْنُ مَعَاشِر الأَنْبيَاء لا نُورَّث " قال الأودي : [ البسيط ]

2312 - فِينَا مَعَاشِرُ لَنْ يَبْنُوا لِقَومِهِمُ . . .

وإِنْ بَنَى قَوْمُهُم مَا أَفْسَدُوا عَادُوا

قوله تعالى : " مِنَ الإِنْس " في محلِّ نصبٍ على الحالِ ، أي : أَوْلِيَاءَهُم كانوا إِنْساً وجِناً ، والتقدير : أَوْلِيَاؤهم الذين هم الإِنْسُ ، و " ربّنا " حُذِفَ منه حَرْف النّداء .

وقوله : " قال أَوْلِيَاؤهُم مِنَ الإِنْس " يعني : أَوْلياء الشَّياطِين الَّذِين أطاعُوهُم من الإِنْسِ ، " ربَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْض " والمَعْنَى : استَكْثَرْتُم من الإِنْسِ بالإِضلالِ والإِغْواء ، أي :

أَضْلَلْتُم كَثِيراً .

قوله : ﴿ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الذي أَجَّلْتَ لَنَا ﴾

قرأ الجمهور : " أجَلَنا " بالإفْرَاد ؛ لقوله : " الَّذِي وقُرِئ : " آجَالَنا " بالجَمْع على أفْعَال " الَّذِي " بالإفْرَاد والتَّذْكير وهو نَعْتٌ للجَمْعِ .

فقال أبو عَلِيّ : هو جنْس أوقع " الَّذِي " مَوْقِع " الَّتِي " .

قال أبو حيَّان : وإعْرابه عِنْدِي بدل ؛ كأنه قيل : " الوَقْتُ الَّذِي " وحينئذٍ يكون جِنْساً ولا يَكُون إعْرَابُه نَعْتاً ؛ لعدم المُطَابَقَة بينَهُمَا ، وفيه نَظَر ؛ لأن المُطَابقة تُشْتَرط في البَدَلِ أيضاً ، وكذلك نصُّ النُّحَاة على قَوْل النَّابغة : [ الطويل ]

2313 - تَوَهَّمْتُ آيَاتٍ لَهَا فَعَرَفْتُهَا . . .

لِسِتَّةِ أعْوَام وَذَا العَامُ سابعُ

رَمَادٌ كَكُحْلِ العَيْنِ لأياً أُبِينُهُ . . .

وَنُوي كجذْمِ الحَوْضِ أثْلَمُ خَاشِعُ

أي : رماد ونَوَى مَقْطُوعان على " هما رمادٌ ونوى " لا بدل من آياتٍ لعَدم المُطَابَقَة ، ولِذلكِ لم يُرْوَيَا إلاَّ مرْفُوعَيْن لا مَنْصُوبَيْن .

قوله : " خَالِدينَ فِيهَا " مَنْصُوبٌ على الحالِ ، وهي حالٌ مُقَدَّرة ، وفي العامل فيها ثلاثة أوْجُه :

---

أحدها : أنه مَثْواكم " لأنه هُنَا مَصْدرٍ لا اسم مكان ، والمعنى : النَّارُ ذات تُوائِكُم ، أي : " النَّار مَكَان ثُوَائِكُم " أي : إقامتكُم .

قال الفَارسِيُّ : " المَثْوى عِنْدي في الآية : اسْمٌ للمصْدرِ دون المكان ؛ لحُصُول الحال مُعْمَلاً فِيهَا واسْمُ المكانِ لا يَعْمَل علم الفِعْلِ ؛ لأنه لا مَعْنَى للفِعْل فيه ، وإذا لم يَكُون مَكَاناً ، ثبت أَنَّه مَصْدر ، والمَعْنَى : " النَّار ذاتِ إقامَتِكُم فيها خَفْضاً بالإضَافة ؛ ومثله قول الشاعر : [ الطويل ]

2314 - ومَا هي إلاَّ في إزَارٍ وعِلْقَةٍ . . .

مَغَارَ ابْنِ هَمَّام عَلَى حَيِّ خَثْعَمَا

وهذا يدلُّ على حَذْفِ المُضافِ ، المعنى : " ومَا هِي إلا إزَارٌ وعِلْقَةٌ وقت إغَارَة ابن همَّام " ، ولذلك عدَّاه بـ " عَلَى " ولو كان مَكَاناً ، لما عدَّاه ؛ فثَبَت أَنَّهُ اسْمُ مصدر لا مَكَان ، فهو كقولك : " آتِيكَ خُفُوقَ النَّجْم ومَقْدِم الحَاجِّ " ، ثم قال " وإنَّما حَسُن ذَلِك في المَصَادِر لمُطَابقتِهَا الزَّمان ، ألا ترى أَنَّه مُنْقض غير باقٍ كما أنَّ الزّمان كَذَلِك " .

والثاني : أن العَامِل فيها فِعْلٌ مَحْذُوف ، أي : يَثُوُون فيها خَالِدِين ، ويَدُلُّ على هذا الفِعْلِ

المقدَّرِ " مَثْوَاكُمْ " ويراد بـ " مَثْوَاكُمْ " مكان التَّواءِ ، وهذا جوابٌ عن قول الفَارِسيَ المعْتَرِض به على الزَّجَّاج.

الثالث : قاله أبو البقاء : أنَّ العَامِل معنى الإضافة ، ومعنى الإضافةِ لا يَصْلُح ان يكون عَامِلاً أَلْبَتَّة ، فليس بشَيْءٍ .

قوله : " إلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ " اختلفُوا في المسْتَثْنَى منه :

فقال : الجُمْهُور : هو الجُمْلَة التي تَلِيها ، وهي قوله : ﴿ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدين فِيهَا ﴾ وسأتي بيانه عن قُرْب .

*(198/250)*

---

وقال أبو مُسْلِم : " هو مستَثْنَى من قوله : " وبَلَغْنا أجَلَنَا الَّذِي أجَّلْتَ لَنَا " أي : إلا مَنْ أهْلَكْتَهُ واخْتَرَمْتَه قبل الأجَلِ الذي سَمَّيْتَه لِكُفْره وضلاله " .

وقد ردَّ النَّاس عليه هذا المَذْهَب من حَيْثُ الصِّناعة ، من حَيْثُ المَعْنى .

أمَّا الصِّناعة فَمِنْ وَجْهَين :

أحدهما : أنَّه لو كان الأمْرُ كذلك ، لكان التَّركيبُ " إلاَّ ما شِئْتَ " ليُطابق قوله : " أجَّلْتَ " .

والثاني : أنه قَدْ فصل بين المُسَتْثَنَى منه بقوله : " قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خالِدينَ فيها " ومثل ذلك لا يَجُوزُ .

وأما المَعْنَى : فلأن القَوْل بالأجَلَيْن : أجل الاخْتِرام ، والأجَل المسَمَّى باطل ؛ لدلائل مقرَّرَة في غَيْر هذا الموضع .

ثم اختلفوا في هذا الاسْتِثْنَاء : هل هو مُتَّصِلٌ أو مُنْقَطِعٌ ؟ على قولين :

والمعنى : " قال النَّار مَثْوَاكُم إلاَّ مَنْ مِنْكُمْ في الدُّنْيَا " كقوله : ﴿ لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا الموت إِلاَّ الموتة الأولى ﴾ [ الدخان : 56 ] أي : لكن الموْتَة الأولى ، فإنهم قَدْ ذَاقُوهَا في الدنيا كذلك هذا ؛ لكن الَّذِين شَاءَهُم الله أن يُؤمِنُوا مِنْكظُم في الدُّنيا ، وفيه بُعْدٌ ، وذهب آخرُون إلى أَنَّه مُتَّصِلٌ ، ثم اخْتَلَفُوا في المسْتَثْنَى منه مَا هُو ؟

فقال قوم : هو ضمير المخَاطَبين في قوله : " مَثْوَاكُمْ " أي : إلا من آمن في الدُّنْيَا بعد أن كان من هؤلاء الكفرة ، عَلله ابن عبَّاسٍ ، و " ما " هُنَا بمعنى " مَنْ " التي لِلْعُقلاءِ ، وساغ وُقُوعها هُنَا ؛ لأن المراد بالمسْتَثْنَى نوع وصنف ، و " ما " تقع على أَنْواعِ من يَعْقِلُ ، وقد تقدَّم تحقيقُ هذا في قوله : ﴿ فانكحوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النسآء ﴾ [ النساء : 3 ] .

ولكن قد استُبعد هذا ؛ من حيث إن المسْتَثْنَى مخالِفٌ للمسْتَثْنَى مِنْه في زمان الحُكْم عليهما ، ولا بُدَّ أن يَشْتركا في الزَّمَانِ ، لو قالت : " قامَ القَوْمُ إلاَّ زَيْداً " ، وكان مَعْنَاه [ إلا زَيْداً فإنه لم يَقُمْ ، ولا يَصِحُّ أن يكون المَعْنَى : فإنه سيَقُومُ في المسْتَقْبل ، ولا يَصِحُّ أن يكون المعنى : فإني ضَرَبْتُه فيما مَضَى اللَّهُم إلا أنْ يُجْعَلَ استثْنَاء منْقَطِعاً كما تقدَّم تَفْسيره .

وذهب قَوْمٌ : إلى أن المسْتَثْنَى منه زمان ، ثم اخْتلف القَائِلُون بذلك :

فمنهم من قال ذلك الزَّمان هو مُدَّة إقامتهم في البَرْزَخِ ، أي : " القُبُور " .

وقيل : " هو المُدَّة التي بَيْن حَشْرِهم إلى دُخُولِهم النَّار " .

وها قول الطَّبري قال : " وساغَ ذلك من حَيْثُ إنّ العِبَارة بقوله : " النَّارُ مَثْوَاكُم " لا يخصُّ بها مسْتَقْبَل الزَّمَان دون غيره " .

وقال الزجاج : " هو مَجْمُوع الزمَانَين ، أي : مدَّة إقامتهم في القُبُور ، ومُدَّة حَشرِهم إلى دخُولهم النَّارِ " .

وقال الزمخشري : " إلا ما شاء الله ، أي : يُخَلّدون في عَذَاب النَّارِ الأبد كُلِّه إلا ما شاء الله إلا الأوْقَات الَّتِي يُنْقَلُون فيها من عذاب النَّارِ إلى عذاب الزَّمْهرير ؛ فقد رُوِيَ : أنهم يَدْخُلون وادياً فيه من الزَّمْهَرير ما يَقْطَعُ أوْصَالَهُم ، فيتعاوَوْن ويطْلُبُون الرَّدَّ إلى الجَحِيم " .

وقال قوم " " إلا ما شاء اللَّه " هم العُصَاةُ الَّذِين يدخُلُون النَّار من أهل التَّوحيد ، ووقعت "

مَا " عليهم ؛ لأَنَّهم نوع كأنه قيل : إلا النَّوع الذي دَخَلَها من العُصَاة ، فإنهم لا يُخَلَّدون فيها ، والظاهر أن هذا استِثْنَاء حَقِيقَة ؛ بل يجب أن يَكُون كذلِك .

(200/250)

---

وزعم الزَّمَخْشَرِيّ : أنه يكون من بابِ قَوْل المْوتُور الذي ظَفَر بواتِره ، ولم يَزَلْ يُحَرِّقِ عليه أَنْيَابَه ، وقد طلب أن يُنَفِّس عن خِنَاقِهِ : " أَهْلَكَنِي الَّه إن نَفَّسْتُ عَنْكَ إلا إذا شِئْت " وقد عَلِم أنه لا يَشَاءُ ذلك التَّشَفِّي منه بأَقْصَى ما يَقْدِر عليه من التَّشْديد والتَّعْنِيفِ ، فكيون قوله : " إلاَّ إذا شِئْت " من أشد الوعيد مع تهَكُم .

قال شهاب الدين : ولا حاجة إلى ادِّعَاء ذلك مع ظُهُور مَعْنَى الاسْتِثْنَاء فيه ، وارتكاب المجازِ وإبْرازِ ما لم يَقَعُ في صُورةِ الواقِعِ .

وقال الحسن البَصْرِيُّ : " إلا ما شَاء اللَّه ؛ أي : من كَونهم في الدُّنْيَا بغير عذابٍ " فجعل المسْتَثْنى زمن حَيَاتهم ، وهو أَبْعد ممَّا تقدَّم .

وقال الفرَّاء – وإليه نحا الزَّمَخْشَري – : " والمعنى : إلا ما شَاءَ اللَّه من زيادة في العذابِ " .

وقال غيره : إلا ما شاء اللَّهُ من النِّكار ، وكُلُّ هذا إنَّما يتمَشَّى على الاسْتِثْنَاء المنقَطِع .

قال أبو حيَّان : " وهذا رَاجِعٌ إلى الاسْتِثْنَاء من المصْدر الذي يَدُلُّ عليه مَعْنَى الكلام ؛ إذ

الْمَعْنَى : يُعَذَّبون في النَّارِ خَالِدين فهيا إلا ما شَاء اللَّهُ من العذاب الزَّائد على النَّارِ ، فإن يُعَذِّبهم ، ويكُون إذ ذاك استِثْنَا منقطعاً ، إذ العذابُ الزَّائد على عذابِ النَّارِ لم يَنْدَرِج تَحْتَ عذاب النَّار " .

*(201/250)*

---

وقال ابن عطيَّة : " ويتَّجه عندي في هذا الاستِثْنَاء أن يكون مُخَاطَبَة للنَّبي صلى الله عليه وسلم وأمته ، ولَيْس مما يُقال يوم القيامة ، والمستثنى هو من كان من الكفرة يومئذ يؤمن في علم اللَّهِ ؛ كأنه لما أخْبَرَهُم أنه يُقَال للكُفَّرا : " النَّارُ مَثْوَاكُم " استثنى لهم من يُمْكِن أن يُؤمِن ممَّن يَرَوْنَهُ يومئذ كافراً ، وتقع " مَا " على صِفَة من يَعْقل ، ويؤيِّ هذا التَّأويل أيضاً قوله : " إنَّ ربّك حَكِيمٌ عَلِيمٌ " أي : بمن يُمْكِنُ أن يُؤمِنَ منهم " .

قال أبو حيان : " وهو تَأويلٌ حسن ، وكان قد قال قبل ذلك : " والظَّاهر أن هذا الاسْتِثْنَاء هو من كلام اللَّه – تعالى – للمخَاطَبين ، وعليه جَاءَت تفاسير الاستِثْنَاء " وقال ابن عطيَّة ثم ساقه إلى أخِره ، فكيف يسْتَحْسِنُ شيئاً حُكِم عليه بأنَّه خلاف الظَّاهِر من غير قَرِينَةٍ قويَّة مُخْرِجة للَّفْظِ عن ظَاهِره ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 428 . 433 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (128) ﴾

يعتذرون فلا يسمع ، ويحتجون بما لا ينفع ، ولقد كانوا من قبل لو أتوا بأقلَّ منه قُبِلَ منهم ، لكنْ سبقت القسمة فحقت لهم الشقوة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 502.503 ﴾

(202/250)

---

كلام نفيس للإمام ابن القيم في أبدية الجنة وأنها لا تفنى ولا تبيد

قال عليه الرحمة ما نصه :

الباب السابع والستون: في أبدية الجنة وأنها لا تفنى ولا تبيد هذا مما يعلم بالاضطرار إن الرسول أخبر به قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ أي مقطوع ولا تنافي بين هذا

وبين قوله إلا ما شاء ربك واختلف السلف في هذا الاستثناء فقال معمر عن الضحاك هو في الذين يخرجون من النار فيدخلون الجنة يقول سبحانه وتعالى أنهم خالدون في الجنة ما دامت السماوات والأرض إلا مدة مكثهم في النار قلت وهذا يحتمل أمرين أحدهما أم يكون الأخبار عن الذين سعدوا وقع عن قوم مخصوصين وهم هؤلاء والثاني وهو الأظهر أن يكون وقع عن جملة السعداء والتخصيص بالمذكورين هو في الاستثناء وما دل عليه وأحسن من هذين التقديرين أن ترد المشيئة إلى الجميع حيث لم يكونوا في الجنة في الموقف وعلى هذا فلا يبقى في الآية تخصيص وقالت فرقة أخرى هو استثناء استثناه الرب تعالى ولا يفعله كما تقول والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك وأنت لا تراه بل تجزم بضربه وقالت فرقة أخرى العرب إذا استثنت شيئا كثيرا مع مثله ومع ما هو أكثر منه كان معنى إلا في ذلك ومعنى الواو سواء والمعنى عى هذا سوا ما شاء الله من الزيادة على مدة دوام السماوات والأرض هذا قول الفراء وسيبويه يجعل إلا بمعنى

لكن قالوا ونظير ذلك لان تقول لي عليك ألف إلا الألفين الذين قبلها أي سوى الألفين

*(203/250)*

قال ابن جرير وهذا أحب الوجهين إلى إن الله تعالى لا خلف لوعده وقد وصل الاستثناء بقوله عطاء غير مجذوذ قالوا ونظيره أن تقول أسكنتك داري حولا إلا ما شئت أي سوى ما شئت أو لكن ما شئت من الزيادة عليه وقالت فرقة أخرى هذا الاستثناء إنما هو مدة احتباسهم عن الجنة ما بين الموت والبعث والبرزخ إلى أن يصيروا إلى الجنة ثم هو الخلود الأبد فلم يغيبوا عن الجنة إلا بمقدار إقامتهم في البرزخ وقالت فرقة أخرى العزيمة قد وقعت لهم من الله بالخلود الدائم إلى أن يشاء الله خلاف ذلك إعلاما لهم بأنهم مع خلودهم في مشيئته وهذا كما قال لنبيه ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك وقوله ﴿ فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ وقوله قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ونظائره واخبر عباده سبحانه وأن الأمور كلها بمشيئته ما شاء الله كان وما شاء لم يكن وقالت فرقة أخرى الرماد بمدة دوام السماوات والأرض في هذا العالم فأخبر سبحانه أنهم خالدون في الجنة مدة دوام السماوات والأرض إلا ما شاء الله أن يزيدهم عليه ولعل هذا قول من قال إن إلا بمعنى سوى ولكن اختلفت عبارته وهذا اختيار بن قتيبة قال المعنى خالدين فيها مدة العالم سوى ما شاء أن يزيدهم من الخلود على مدة العالم وقالت فرقة أخرى ما بمعنى من قوله ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ والمعنى إلا من شاء ربك أن يدخله النار بذنوبه من السعداء والفرق بين هذا القول وبين أول الأقوال أن الاستثناء على هذا القول من المدة وعلى ذلك القول من الأعيان وقالت فرقة أخرى المراد بالسماوات والأرض سماء الجنة وأرضها وهما باقيتان أبدا وقوله

﴿ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ إن كانت ما بمعنى من فهم الذين يدخلون النار ثم يخرجون منها وان كانت بمعنى الوقت فهو مدة احتباسهم في البرزخ والموقف قال

(204/250)

---

الجعفي سألت عبد الله بن وهب عن هذا الاستثناء فقال سمعت فيه أنه قدر وقوفهم في الموقف يوم القيامة إلى أن يقضي بين الناس وقالت فرقة أخرى الاستثناء راجع إلى مدة لبثهم في الدنيا وهذه الأقوال متقاربة ويمكن الجمع بينها بان يقال اخبر سبحانه وعن خلودهم في الجنة كل وقت إلا وقتا يشاء ان لا يكونوا فيها وذلك يتناول وقت كونهم في الدنيا وفي البرزخ وفي موقف يوم القيامة وعلى الصراط وكون بعضهم في النار مدة وعلى كل تقدير فهذه الآية من المتشابه وقوله فيها ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ محكم وكذلك قوله وما هم منها وقوله أن هذا لرزقنا ما له من نفاد وقوله ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ وقوله دمائهم منها بخرجين وقد أكد الله سبحانه وتعالى خلود أهل الجنة بالتأبيد في عدة مواضع من القران واخبر أنهما لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى وهذا الاستثناء منقطع وإذا ضممته إلى الاستثناء في قوله إلا ما شاء ربك تبين لك المراد من الآيتين واستثناء الوقت الذي لم يكونوا فيه في الجنة من مدة الخلود كاستثناء الموتة الأولى من جملة الموت فهذه موتة تقدمت على حياتهم

الأبدية وذاك مفارقة للجنة تقدم على خلودهم فيها وبالله التوفيق وقد تقدم قول النبي صلى الله عليه وسلم من يدخل الجنة ينعم ولا يبؤس ويخلد ولا يموت وقوله ينادي مناد يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وان تشبوا فلا تهرموا أبدا وان تحيوا فلا تموتوا أبدا وثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يجاء بالموت في صورة كبش املح فيوقف بين الجنة والنار ثم يقال يا أهل الجنة فيطلعون مشفقين ويقال يا أهل النار فيطلعون فرحين فيقال هل تعرفون هذا فيقولون نعم هذا الموت فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت"

فصل

*(205/250)*

---

وهذا موضع اختلف فيه المتأخرون على ثلاثة أقوال احدها إن الجنة والنار فانيتان غير أبديتين بل كما هما حادثتان فهما فانيتان والقول الثاني أنهما باقيتان دائمتان لا يفنيان أبدا والقول الثالث أن الجنة باقية أبدية والنار فانية ونحن نذكر هذه الأقوال وما قابلها وما احتج به أرباب كل قوله ونرد ما خالف كتاب الله وسنة رسوله فأما القول بفنائهما فهو قول قاله جهم بن صفوان إمام المعطلة الجهمية وليس له فيه سلف قط من الصحابة ولا من التابعين

ولا أحد من أئمة الإسلام ولا قال به أحد من أهل السنة وهذا القول مما أنكره عليه وعلى أتباعه أئمة الإسلام وكفروهم به وصاحوا بهم من أقطار الأرض كما ذكره عبد الله بن الإمام احمد في كتاب السنة عن خارجة بن مصعب أنه قال كفرت الجهمية بثلاث آيات من كتاب الله عز وجل بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ وهم يقولون لا يدوم وبقول الله تعالى ان هذا لرزقنا ما له من نفاد وهم يقولون ينفد وبقول الله عز وجل ما عندكم ينفد وما عند الله باق قال شيخ الإسلام وهذا قاله جهم لا صلة الذي اعتقده وهو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث وجعلوا ذلك عمدتهم في حدوث العالم فرأى الجهم أن ما يمنع من حوادث لا أول لها في الماضي يمنع في المستقبل كما هو ممتنع عنده عليه في الماضي وأبو الهذيل العلاف شيخ المعتزلة وافقه على هذا الأصل لكن قال: إن هذا

*(206/250)*

---

يقتضي فناء الحركات لكونها متعاقبة شيئًا بعد شيء فقال بفناء حركات أهل الجنة والنار حتى يصيروا في سكون دائم لا يقدر احد منهم على حركة وزعمت فرقة ممن وافقهم على امتناع حوادث لا نهاية لها أن هذا القول مقتضى العقل لكن لما جاء السمع ببقاء الجنة والنار قلنا بذلك وكان هؤلاء لم يعلموا أن ما كان ممتنعا في العقل لا يجيء في الشرع بوقوعه إذ

يستحيل عليه أن يخبر بوجود ما هو ممتنع في العقل وكأنهم لم يفرقوا بين محالات العقول ومجازاتها فالسمع يجيء بالثاني لا بالأول فالسمع يجيء بما يعجز العقل عن إدراكه ولا يستقل به ولا يجيء بما لا يعلم العقل أحالته والأكثرون الذين وافقوا جهما وأبا الهذيل على هذا الأصل فرقوا بين الماضي والمستقبل وقالوا الماضي قد دخل في الوجود بخلاف المستقبل والممتنع إنما هو دخول ما لا يتناهى في الوجود لا تقدير دخوله شيئًا بعد شيء قالوا أو هذا نظير ان يقول القائل لا أعطيك درهما إلا وأعطيتك بعده درهما آخر فهذا ممكن والأول نظير أن يقول لا أعطيك درهما إلا وأعطيك قبله درهما فهذا محال وهؤلاء عندهم وجود ما لا يتناهى في الماضي محال ووجوده في المستقبل واجب ونازعهم في ذلك آخرون فقالوا بل الأمر في الماضي كما هو في المستقبل ولا فرق بينهما بل الماضي والاستقبال أمر نسبي فكل ما يكون مستقبلا يصير ماضيا وكل ماض فقد كان مستقبلا فلا يعقل إمكان الدوام في أحد الطرفين وإحالته في الطرف الآخر قالوا وهذه مسألة دوام فاعلية الرب تبارك وتعالى وهو لم يزل ربا قادرا فاعل فانه لم يزل حيا عليما قديرا ومن المحال أن يكون الفعل ممتنعا عليه لذاته ثم ينقلب فيصير ممكنا لذاته من غير تجدد شيء وليس للأزل حد محدود حتى يصير الفعل ممكنا له عند ذلك الحد ويكون قبله ممتنعا عليه فهذا القول تصوره كاف في الجزم بفساده ويكفي في فساده أن الوقت الذي انقلب فيه الفعل من الإحالة الذاتيه إلى الأماكن الذات إما أن يصح أن يفرض قبله وقت

يمكن فيه الفعل أولا لا يصح فان قلتم لا يصح كان هذا تحكما غير معقول وهو من جنس الهوس وان قلتم يصح قيل وكذلك ما يفرض قبله لا إلى غاية فما من زمن محقق أو مقدر إلا والفعل مكن فيه وهو صفة كمال وإحسان ومتعلق حمد الرب وتعالى وربوبيته وملكه وهو لم يزل ربا حميدا ملكا قادرا لم تتجدد له هذه الأوصاف كما أنه لم يزل حيا مريدا عليما والحياة والإرادة والعلم والقدرة تقتضي آثارها ومتعلقاتها فكيف يعقل حي قدير عليم مريد ليس له مانع ولا قاهر يقهره يستحيل عليه أن يفعل شيئا ألبتة وكيف يجعل هذا اصل من أصول الدين ويجعل معيارا على ما اخبر الله به ورسوله ويفرق به بين جائزات العقول ومحالاتها فإذا كان وهذا شان الميزان فكيف يستقيم الموزون به وأما قول من فرق بان الماضي قد دخل في الوجود دون المستقبل فكلام لا تحقيق وراءه فان الذي يحصره الوجود من الحركات هو المتناهي ثم يعدم فيصير ماضيا كما كان معدوما لما كان مستقبلا فوجوده بين عدمين وكلما انقضت جملة حدثت بعدها جملة أخرى فالذي صار ماضيا هو بعينه الذي كان مستقبلا فان دل الدليل على امتناع ما لا يتناهى شيئا قبل شيء فهو بعينه دال على امتناعه شيئا بعد شيء وأما تفريقكم بقولكم المستقبل نظير قوله ما أعطيك درهما

إلا وأعطيك بعده درهما فهذا ممكن والماضي نظير قوله ما أعطيك درهما إلا وأعطيك قبله درهما فهذا الفرق فيه تلبيس لا يخفى وليس بنظير ما نحن فيه بل نظيره ان يقول ما أعطيك درهما إلا وقد تقدم مني أعطاء درهم قبله فهذا ممكن الدوام في الماضي على حد إمكانه في المستقبل ولا فرق في العقل الصحيح بينهما البتة ولما لم يجد الجهم وأبو الهذيل واتباعهما بين الأمرين فرقا قالوا بوجوب تناهي الحركات في المستقبل كما يجب ابتداؤها عندهم في الماضي

(208/250)

---

وقال أهل الحديث بل هما سواء في الإمكان والوقوع ولم يزل الرب سبحانه تعالى فعالا لما يريد ولم يزل ولا يزال موصوفا بصفات الكمال منعوتا بنعوت الجلال وليس المتمكن من الفعل كل وقت كالذي لا يمكنه الفعل إلا في وقت معين وليس من يخلق كمن لا يخلق ومن يحسن كمن لا يحسن ومن يدبر الأمر كمن

(209/250)

---

لا يدبر وأي كمال في أن يكون رب العالمين معطلا عن الفعل في مدة مقدرة أو محققة لا تتناهى يستحيل منه الفعل وحقيقة ذلك أنه لا يقدر عليه وإن أبيتم هذا الإطلاق وقلتم أن المحال لا يوصف بكونه غير مقدور عليه فجمعتم بين محالين الحكم بإباحة الفعل من غير موجب لإحالته وانقلابه من الإحالة الذاتية إلى الإمكان الذاتي من غير تجدد سبب وزعمتم أن هذا هو الأصل الذي تثبتون به وجود الصانع وحدوث العالم وقيامه الأبدان فجنيتم على العقل والشرع والرب تعالى لم يزل قادرا على الفعل والكلام بمشيئته ولم يزل فعالا لما يريد ولم يزل ربا محسنا والمقصود إن القول بفناء الجنة والنار قول مبتدع لم يقله أحد من الصحابة ولا التابعين ولا أحد من أئمة المسلمين والذين قالوه إنما تلقوه عن قياس فاسد كما اشتبه أصله على كثير من الناس فاعتقدوه حقا وبنوا عليه القول بخلق القران ونفي الصفات وقد دل القرآن والسنة والعقل الصريح على أن كلمات الله وأفعاله لا تتناهى ولا تنقطع بآخر ولا تحد بأول قال تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ فاخبر عن عدم نفاد كلماته لعزته وحكمته وهذان وصفان ذاتيان له سبحانه وتعالى لا يكون إلا كذلك وذكر ابن أبي حاتم في تفسيره عن سليمان بن عامر قال سمعت الربيع بن أنس يقول إن

مثل علم العباد كلهم في علم الله عز وجل كقطرة من هذه البحور كلها وقد انزل الله سبحانه وتعالى في ذلك : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ﴾ الآية

(210/250)

---

وقوله: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً ﴾ الآية يقول سبحانه وتعالى قل لو كان البحر مدادا لكلمات الله والشجر كلها أقلام لانكسرت الأقلام وفني ماء البحر وكلمات الله تعالى باقية لا يفنيها شيء لان أحدا لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يثني عليه كما ينبغي بل هو كما أثنى على نفسه إن ربنا كما يقول وفوق ما يقول ثم إن مثل نعيم الدنيا أوله وآخره وفي نعيم الآخرة كحبة من خردل في خلال الأرض كلها فصل وأما أبدية النار ودوامها فقال فيها شيخ الإسلام فيها قولان معروفان عن السلف والخلف والنزاع في ذلك معروف عن التابعين قلت ها هنا أقوال سبعة احدها ان من دخلها لا يخرج منها أبدا بل كل من دخلها مخلد فيها أبد الآباد بإذن الله وهذا قول الخوارج والمعتزلة والثاني أن أهلها يعذبون فيها مدة ثم تنقلب عليهم وتبقى طبيعة نارية لهم يتلذذون بها لموافقتها لطبيعتهم وهذا قول إمام الاتحادية ابن عربي الطائي قال في فصوصه الثناء بصدق الوعد لا بصدق الوعيد والحضرة الإلهية تطلب الثناء المحمود بالذات فيثني عليها بصدق الوعد لا بصدق الوعيد بل بالتجاوز فلا

تحسين الله مخلف وعده رسله ولم يقل وعيده بل قال ويتجاوز عن سيئاتهم مع أنه توعد على ذلك وأثنى على اسماعيل بانه كان صادق الوعد وقد زال الامكان في حق الحق لما فيه من طلب المرجح

فلم يبق إلا صادق الوعد وحده . . . وما لوعيد الحق عين تعاين

وان دخلوا دار الشقاء فانهم . . . على لذة فيها نعيم مباين

نعيم جنان الخلد والامر واحد . . . وبينهما عند التجلي تباين

يسمى عذابا من عذوبة طعمه . . .

وذاك له كالقشر والقشر صاين

*(211/250)*

---

وهذا في طرف والمعتزلة الذين يقولون لا يجوز على الله أن يخلف وعيده بل يجب عليه تعذيب من توعده بالعذاب في طرف فأولئك عندهم لا ينجو من النار من دخلها أصلا وهذا عنده لا يعذب بها أحد أصلا والفريقان مخالفان لما علم بالاضطرار إن الرسول جاء به واخبر به عن الله عز وجل الثالث قول من يقول إن أهلها يعذبون فيها إلى وقت محدود ثم يخرجون منها ويخلفهم فيها قوم آخرون وهذا القول حكاه اليهود للنبي فأكذبهم فيه وقد

أكذبهم الله تعالى في القرآن فيه فقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ ﴾ يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون فهذا القول إنما هو قول أعداء الله اليهود فهم شيوخ أربابه والقائلين به وقد دل القران والسنة وإجماع الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام على فساده قال تعالى: ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ وقال ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ ﴾ وقال ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ﴾ وقال تعالى: كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقال تعالى: ﴿ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾

*(212/250)*

---

وهذا أبلغ ما يكون في الإخبار عن استحالة دخولهم الجنة الرابع قول من يقول يخرجون منها وتبقى نارا على حالها ليس فيها أحد يعذب حكاه شيخ الإسلام والقران والسنة أيضا يردان على هذا القول كما تقدم الخامس قول من يقول بل تفنى بنفسها لأنها حادثة بعد أن لم

تكن وما ثبت حدوثه استحال بقاؤه وأبديته وهذا قول جهنم بن صفوان وشيعته ولا فرق عنده في ذلك بين الجنة والنار السادس قول من يقول تفنى حياتهم وحركاتهم ويصيرون جمادا لا يتحركون ولا يحسون بألم وهذا قول أبى الهذيل العلاف إمام المعتزلة طردا لامتناع حوادث لا نهاية لها والجنة والنار عنده سواء في هذا الحكم السابع قول من يقول بل يفنيها ربها وخالقها تبارك وتعالى فانه جعل لها أمدا تنتهي إليه ثم تفنى ويزول عذابها قال شيخ الإسلام وقد نقل هذا القول عن عمر وابن مسعود وأبى هريرة وأبى سعيد وغيرهم وقد روى عبد بن حميد وهو من اجل أئمة الحديث في تفسيره المشهور حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن الحسن قال قال عمر: لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه وقال حدثنا حجاج بن منهال عن حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن أن عمر بن الخطاب قال لو لبث أهل النار في النار عدد رمل عالج لكان لهم يوم يخرجون منه ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً ﴾ فقد رواه عبد وهو من الأئمة الحفاظ وعلماء السنة عن هذين الجليلين سليمان بن حرب وحجاج ابن منهال

*(213/250)*

وكلاهما عن حماد بن سلمة وحسبك به وحماد يرويه عن ثابت وحميد وكلاهما يرويه عن الحسن وحسبك بهذا الإسناد جلالة والحسن وإن لم يسمع من عمر فإنما رواه عن بعض التابعين ولو لم يصح عنده ذلك عن عمر لما جزم به وقال عمر بن الخطاب ولو قدر أنه لم يحفظ عن عمر فتداول هؤلاء الأئمة له غير مقابلين له بالإنكار والرد مع أنهم ينكرون على من خالف السنة بدون هذا فلو كان خذا القول عند هؤلاء الأئمة من البدع المخالفة لكتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأئمة لكانوا أول منكر له قال ولا ريب أن من قال هذا القول عن عمر ونقله عنه إنما أراد بذلك جنس أهل النار الذين هم أهلها فأما قوم أصيبوا بذنوبهم فقد علم هؤلاء وغيرهم أنهم يخرجون منها وأنهم لا يلبثون قدر رمل عالج ولا قريبا منه ولفظ أهل النار لا يختص بالموحدين بل يختص بمن عداهم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولا يناقض هذا قوله تعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ وقوله ﴿ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ بل ما أخبر الله به هو الحق والصدق الذي لا يقع خلافه لكن إذا انقضى اجلها وفنيت تفنى الدنيا لم تبق نارا ولم يبق فيها عذاب قال أرباب هذا القول وفي تفسير علي بن أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ قال لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه ولا ينزلهم جنة ولا نارا قالوا وهذا الوعيد في هذه

الآية ليس مختصا بأهل القبلة فانه سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ

(214/250)

---

الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون وأولياء الجن من الإنس يدخل فيه الكفار قطعا فإنهم أحق بموالاتهم من عصاة المسلمين كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ وقال تعالى: ﴿ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ﴾ وقال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ والاستثناء وقع في الآية التي أخبرت عن دخول أولياء

الشياطين النار

فمن هاهنا قال ابن عباس لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه قالوا قول من قال أن إلا بمعنى سوى أي سوى ما شاء الله أن يزيدهم من أنواع العذاب وزمنه لا تخفى منافرته للمستثنى والمستثنى منه وإن الذي يفهمه المخاطب مخالفة ما بعد "إلا" لما قبلها

*(215/250)*

---

قالوا وقول من قال أنه لإخراج ما قبل دخولهم إليها من الزمان كزمان البرزخ والموقف ومدة الدنيا أيضا لا يساعد عليه وجه الكلام فانه استثناء من جملة خبرية مضمونها أنهم إذا دخلوا النار لبثوا فيها مدة دوام السماوات والأرض إلا ما شاء الله وليس المراد الاستثناء قبل الدخول هذا ما لا يفهمه المخاطب ألا ترى أنه سبحانه يخاطبهم بهذا في النار حين يقولون ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا فيقول لهم حينئذ النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله وفي قوله ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا نوع اعتراف واستسلام وتحسر أي استمتع الجن بنا واستمتعنا بهم فاشتركنا في الشرك ودواعيه وأسبابه وآثرنا الاستمتاع على طاعتك وطاعة رسلك وانقضت آجالنا وذهبت أعمارنا في ذلك ولم نكتسب فيها رضاك وإنما كان غاية امرنا في مدة آجالنا

استمتاع بعضنا ببعض فتأمل ما في هذا القول من الاعتراف بحقيقة ما هم عليه وكيف بدت لهم تلك الحقيقة ذلك اليوم وعلموا أن الذي كانوا فيه في مدة آجالهم هو حظهم من استمتاع بعضهم ببعض ولم يستمتعوا بعبادة ربهم ومعرفته وتوحيده ومحبته وإيثار مرضاته وهذا من نمط قولهم لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير وقوله فاعترفوا بذنبهم وقوله فعلموا أن الحق لله ونظائره والمقصود أن قوله إلا ما شاء الله عائد إلى هؤلاء المذكورين مختصا بهم أو شاملا لهم ولعصاة الموحدين وأما اختصاصه بعصاة المسلمين دون هؤلاء فلا وجه له ولما رأت طائفة ضعف هذا القول قالوا الاستثناء يرجع إلى مدة البرزخ والموقف وقد تبين ضعف هذا القول ورأت طائفة أخرى أن الاستثناء يرجع إلى نوع آخر من العذاب غير النار

قالوا والمعنى أنكم في النار أبدا إلا ما شاء الله أن يعذبكم بغيرها وهو الزمهرير

*(216/250)*

---

وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً لِلطَّاغِينَ مَآباً لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً ﴾ قالوا وإلا بد لا يقدر بالأحقاب وقد قال ابن مسعود في هذه الآية ليأتين يوم على جهنم زمان وليس فيها أحد وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقابا وعن أبي هريرة مثله حكاه البغوي عنهما ثم قال

ومعناه عند أهل السنة أن ثبت أنه لا يبقى فيها أحد من أهل الإيمان قالوا قد ثبت ذلك عن أبي هريرة وابن مسعود وعبد الله بن عمر وقد سال حرب اسحق بن راهويه عن هذه الآية فقال سالت إسحاق قلت قول الله تعالى: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ فقال أتت هذه الآية على كل وعيد في القران حدثنا عبيد الله بن معاذ حدثنا معتمر بن سليمان قال قال أبي حدثنا أبو نضرة عن جابر أو أبي سعيد أو بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال هذه الآية تأتي على القران كله إلا ما شاء ربك أن ربك فعال لما يريد قال المعتمر قال أتى على كل وعيد في القران حدثنا عبيد الله بن معاذ حدثنا أبي حدثنا شعبة عن أبي بلخ سمع عمرو بن ميمون يحدث عن عبد الله بن عمرو قال ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقابا حدثنا عبيد الله حدثنا أبي حدثنا شعبة عن يحيى بن أيوب عن أبي زرعة عن أبي هريرة قال ما أنا بالذي لا أقول أنه سيأتي على جهنم يوم لا يبقى فيها أحد وقرا قوله:

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ الآية

*(217/250)*

قال عبيد الله كان أصحابنا يقولون يعني به الموحدين حدثنا أبو معن حدثنا وهب بن جرير حدثنا شعبة عن سليمان التيمي عن أبي نضرة عن جابر ابن عبد الله أو بعض أصحابه في قوله خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك قال هذه الآية تأتي على القران كله وقد حكى ابن جرير هذا القول في تفسيره عن جماعة من السلف فقال وقال آخرون عنى بذلك أهل النار وكل من دخلها ذكر من قال ذلك ثم ذكر الآثار التي نذكرها وقال عبد الرزاق أنبانا ابن التيمي عن أبيه عن أبي نضرة عن جابر أو أبي سعيد أو عن رجل من أصحاب رسول الله في قوله إلا ما شاء ربك أن ربك فعال لما يريد قال هذه الآية تأتي على القران كله يقول حيث كان في القران خالدين فيها تأتي عليه قال وسمعت أبا مجلز يقول جزاؤه فان شاء الله تجاوز عن عذابه وقال ابن جرير حدثنا الحسن بن يحيى أنبانا عبد الرزاق فذكره وقال وحدثت عن المسيّب عمن ذكره عن ابن عباس: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ قال: لا يموتون وما هم منها بمخرجين ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك قال استثنى الله قال أمر الله النار أن تأكلهم قال وقال ابن مسعود ليأتين على جهنم زمان تخفق أبوابها ليس فيها أحد بعد ما يلبثون فيها أحقابا حدثنا ابن حميد حدثنا جرير عن بيان عن الشعبي قال جهنم أسرع الدارين عمرانا وأسرعهما خرابا وحكى ابن جرير في ذلك قولا آخر فقال وقال آخرون اخبرنا الله عز وجل بمشيئته لأهل الجنة فعرفنا معنى ثنياه بقوله عطاء غير مجذوذ وأنها

لفي الزيادة على مقدار مدة السماوات والأرض قالوا ولم يخبرنا بمشيئته في أهل النار وجائز أن يكون مشيئته في الزيادة وجائز أن تكون في النقصان حدثني يونس أنبانا ابن وهب قال اقل ابن زيد في قوله تعالى: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ

(218/250)

---

إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ فقرأ حتى بلغ: ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ فقال اخبرنا بالذي يشاء لأهل الجنة فقال عطاء غير مجذوذ ولم يخبرنا بالذي يشاء لأهل النار وقال ابن مردويه في تفسيره حدثنا سليمان بن احمد حدثنا جبير بن عرفة حدثنا يزيد بن مروان الخلال حدثنا أبو خليد حدثنا سفيان يعني الثوري عن عمرو بن دينار عن جابر قال قرأ رسول الله فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك قال رسول الله أن شاء الله أن يخرج أناسا من الذين شقوا من النار فيدخلهم الجنة فعل وهذا الحديث يدل على أن الاستثناء إنما هو للخروج من النار بعد دخولها خلافا لمن زعم أنه لما قبل الدخول ولكن إنما يدل على إخراج بعضهم من النار وهذا حق بلا ريب وهو لا ينفي انقطاعها وفناء عذابها وآكلها لمن فيها وأنهم يعذبون فيها دائما ما دامت كذلك وما هم منها بمخرجين فالحديث دل على آمرين أحدهما أن بعض الأشقياء

أن شاء الله أن يخرجهم من النار وهي نار فعل وأن الاستثناء إنما هو فيما بعد دخولها لا فيما قبله وعلى هذا فيكون معنى الاستثناء ما شاء ربك من الأشقياء فانهم لا يخلدون فيها ويكون الأشقياء نوعين نوعا يخرجون منها النار ونوعا يخلدون فيها فيكونون من الذين شقوا أولا ثم يصيرون من الذين سعدوا فتجتمع لهم الشقاوة والسعادة في وقتين قالوا وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً لِلطَّاغِينَ مَآباً لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلا شَرَاباً إِلا حَمِيماً وَغَسَّاقاً جَزَاءً وِفَاقاً إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَاباً وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً ﴾ فهذا صريح في وعيد الكفار المكذبين بآياته ولا يقدر إلا بديّ بهذه الأحقاب ولا غيرها كما لا يقدر به القديم ولهذا قال عبد الله بن عمرو فيما رواه شعبة عن أبي بلخ سمع عمرو بن ميمون يحدث عنه" ليأتين على جهنم يوم

(219/250)

---

تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقابا"

فصل والذين قطعوا بدوام النار لهم ست طرق أحدها اعتقاد الإجماع فكثير من الناس يعتقدون أن هذا مجمع عليه بين الصحابة والتابعين لا يختلفون فيه وأن الاختلاف فيه حادث وهو من أقوال أهل البدع الطريق الثاني أن القران دل على ذلك دلالة قطعية فانه

سبحانه وتعالى اخبر أنه عذاب مقيم وانه لا يفتر عنهم وأنه لن يزيدهم إلا عذابا وأنهم خالدين فيها أبدا وما هم بخارجين منها أي من النار وما هم منها بمخرجين وأن الله حرم الجنة على الكافرين وأنهم لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وأنهم لا يقضي عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها وأن عذابها كان غراما أي مقيما لازما قالوا وهذا يفيد القطع بدوامه واستمراره الطريق الثالث أن السنة المستفيضة أخبرت بخروج من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان دون الكفار وأحاديث الشفاعة من أولها إلى آخرها صريحة بخروج عصاة الموحدين من النار وأن هذا حكم مختص بهم فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلتهم ولم يختص الخروج بأهل الإيمان الطريق الرابع أن الرسول وقفنا على ذلك وعلمناه من دينه بالضرورة من غير حاجة بنا إلى نقل معين كما علمنا من دينه دوام الجنة وعدم فنائها الطريق الخامس أن عقائد السلف وأهل السنة مصرحة بان الجنة والنار مخلوقتان وأنهما لا يفنيان بل هما دائمتان وإنما يذكرون فناءهما عن أهل البدع

الطريق السادس أن العقل يقضي بخلود الكفار في النار وهذا مبني على قاعدة وهي أن المعاد وثواب النفوس المطيعة وعقوبة النفوس الفاجرة هل هو مما

يعلم بالعقل أو لا يعلم إلا بالسمع فيه طريقتان لنظار المسلمين وكثير منهم يذهب إلى أن ذلك يعلم بالعقل مع السمع كما دل عليه القران في غير موضع كإنكاره سبحانه على من زعم أنه يسوى بن الأبرار والفجار في المحيا والممات وعلى من زعم أنه خلق خلقه عبثا وأنهم إليها لا يرجعون وأنه يتركهم سدى أي لا يثيبهم ولا يعاقبهم وذلك يقدح في حكمته وكماله وانه نسبه إلى ما لا يليق به وربما قرروه بان النفوس البشرية باقية واعتقاداتها وصفاتها لازمة لها لا تفارقها وأن ندمت عليها لما رأت العذاب فلم تندم عليها لقبحها أو كراهة ربها لها بل لو فارقها العذاب رجعت كما كانت أولا قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فهؤلاء قد ذاقوا العذاب وباشروه ولم يزل سببه ومقتضيه من نفوسهم بل خبثها وكفرها قائم بها لم يفارقها بحيث لو ردوا لعادوا كفارا كما كانوا وهذا يدل على أن دوام تعذيبهم يقضى به العقل كما جاء به السمع قال أصحاب الفناء الكلام على هذه الطرق يبين الصواب في هذه المسالة فأما الطريق الأول فالإجماع الذي ادعيتموه غير معلوم وإنما يظن الإجماع في هذه المسالة من لم يعرف النزاع وقد عرف النزاع فيها قديما وحديثا بل لو كلف مدعي الإجماع أن ينقل عن عشرة من الصحابة فما دونهم إلى الواحد أنه قال إن النار لا تفنى أبدا لم يجد إلى ذلك سبيلا ونحن قد نقلنا عنهم التصريح بخلاف ذلك فما وجدنا عن واحد منهم خلاف ذلك بل التابعون حكوا عنهم هذا

وهذا قالوا والإجماع المعتد به نوعان متفق عليهما ونوع ثالث مختلف فيه ولم يوجد واحد منها في هذه المسالة النوع الأول ما يكون معلوما من ضرورة الدين كوجوب أركان الإسلام وتحريم

(221/250)

---

المحرمات الظاهرة

الثاني ما ينقل عن أهل الاجتهاد التصريح بحكمه والثالث أن يقول بعضهم القول وينشر في الأمة ولا ينكره أحد فأين معكم واحد من هذه الأنواع ولو أن قائلا ادعى الإجماع من هذه الطرق واحتج بان الصحابة صح عنهم ولم ينكر أحد منهم عليه لكان اسعد بالإجماع منكم قالوا وأما الطريق الثاني وهو دلالة القران على بقاء النار وعدم فنائها فأين في القران دليل واحد يدل على ذلك نعم الذي دل عليه القران أن الكفار خالدين في النار أبدا وأنهم غير خارجين منها وانه لا يفتر عنهم عذابها وأنهم لا يموتون فيها وأن عذابهم فيها مقيم وانه غرام لازم لهم وهذا كله مما لا نزاع فيه بين الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وليس هذا مورد النزاع وإنما النزاع في أمر آخر وهو أنه هل النار أبدية أو مما كتب الله عليه الفناء وأما كون الكفار لا يخرجون منها ولا يفتر عنهم من عذابها ولا يقضى عليهم فيموتوا ولا يدخلون

الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط فلم يختلف في ذلك الصحابة ولا التابعون ولا أهل السنة وإنما خالف في ذلك من قد حكينا أقوالهم من اليهود والاتحادية وبعض أهل البدع وهذه النصوص وأمثالها تقتضي خلودهم في دار العذاب ما دامت باقية ولا يخرجون منها مع بقائها البتة كما يخرج أهل التوحيد منها مع بقائها فالفرق بين من يخرج من الحبس وهو حبس على حاله وبين من يبطل جنسه بخراب الحبس وانتقاضه قالوا وأما الطريق الثالث وهو مجيء السنة المستفيضة بخروج أهل الكبائر من النار دون أهل الشرك فهي حق لا شك فيه وهي إنما تدل على ما قلناه من خروج الموحدين منها وهي دار العذاب لم تفن ويبقى المشركون فيها ما دامت باقية والنصوص دلت على هذا وعلى هذا قالوا وأما الطريق الرابع وهو أن رسول الله وقفنا على ذلك ضرورة فلا ريب أنه من المعلوم من دينه بالضرورة أن الكفار باقون فيها

*(222/250)*

---

ما دامت باقية هذا معلوم من دينه بالضرورة وأما كونها أبدية لا انتهاء لها ولا تفنى كالجنة فأين من القران والسنة دليل واحد يدل على ذلك قالوا وأما الطريق الخامس وهو أن في عقائد أهل السنة أن الجنة والنار مخلوقتان لا يفنيان أبدا فلا ريب أن القول بفنائهما قول أهل

البدع من الجهمية والمعتزلة وهذا القول لم يقله أحد من الصحابة ولا التابعين ولا أحد من أئمة المسلمين وأما فناء النار وحدها فقد أوجدنا كم من قال به من الصحابة وتفريقهم بين الجنة والنار فكيف يكون القول به من أقوال أهل البدع مع أنه لا يعرف عن أحد من أهل البدع التفريق بين الدارين فقولكم أنه من أقوال أهل البدع كلام من لا خبرة له بمقالات بني آدم وآرائهم واختلافهم قالوا والقول الذي يعد من أقوال أهل البدع ما خالف كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الأمة أما الصحابة أو من بعدهم وأما قول يوافق الكتاب والسنة وأقوال الصحابة فلا يعد من أقوال أهل البدع وأن دانوا به واعتقدوه فالحق يجب قبوله ممن قاله والباطل يجب رده على من قاله وكان معاذ بن جبل يقول الله حكم قسط هلك المرتابون أن من ورائكم فتنا يكثر فيها المال ويفتح فيها القران حتى يقرؤه المؤمن والمنافق والمرآة والصبي والأسود والأحمر فيوشك أحدهم أن يقول قد قرأت القران فما أظن أن يتبعوني حتى ابتدع بدلهم غيره فإياكم وما ابتدع فان كل بدعة ضلالة وإياكم وزيغة الحكيم فان الشيطان قد يتكلم على لسان الحكيم بكلمة الضلالة وأن المنافق قد يقول كلمة الحق فتلقوا الحق عمن جاء به فان على الحق نورا قالوا وكيف زيغة الحكيم قال هي الكلمة تروعكم وتنكرونها وتقولون ما هذه فاحذروا زيغته ولا تصدنكم عنه فانه يوشك أن يفيء وأن يراجع الحق وأن العلم والإيمان مكانهما إلى يوم القيامة والذي اخبر به أهل السنة في عقائدهم هو الذي دل

عليه الكتاب والسنة واجمع عليه السلف أن الجنة والنار مخلوقتان وأن أهل النار لا يخرجون منها ولا يخفف

(223/250)

---

عنهم من عذابها العذاب ولا يفتر عنهم وأنهم خالدون فيها ومن ذكر منهم أن النار لا تفنى أبدا فإنما قاله لظنه أن بعض أهل البدع قال بفنائها ولم يبلغه تلك الآثار التي تقدم ذكرها قالوا وأما حكم العقل بتخليد أهل النار فيها فأخبار عن العقل بما ليس عنده فان المسالة من المسائل التي لا تعلم إلا بخبر الصادق وأما اصل الثواب والعقاب فهل يعلم بالعقل مع السمع أول لا يعلم إلا بالسمع وحده ففيه قولان لنظار المسلمين من اتباع الأئمة الأربعة وغيرهم والصحيح أن العقل دل على المعاد والثواب والعقاب إجمالا وأما تفصيله فلا يعلم إلا بالسمع ودوام الثواب والعقاب مما لا يدل عليه العقل بمجرده وإنما علم بالسمع وقد دل السمع دلالة قاطعة على دوام ثواب المطيعين وأما عقاب العصاة فقد دل السمع أيضا دلالة قاطعة على انقطاعه في حق الموحدين وأما دوامه وانقطاعه في حق الكفار فهذا معترك النزال فمن كان السمع من جانبه فهو اسعد بالصواب وبالله التوفيق فصل ونحن نذكر الفرق بين دوام الجنة والنار شرعا وعقلا وذلك يظهر من وجوه أحدها أن الله سبحانه وتعالى اخبر ببقاء نعيم

أهل الجنة ودوامه وانه لا نفاد له ولا انقطاع وانه غير مجذوذ وأما النار فلم يخبر عنها بأكثر من خلود أهلها فيها وعدم خروجهم منها وأنهم لا يموتون فيها ولا يحيون وإنها مؤصدة عليهم وأنهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وأن عذابها لازم لهم وانه مقيم عليهم لا يفتر عنهم والفرق بين الخبرين ظاهر الوجه الثاني أن النار قد اخبر سبحانه وتعالى في ثلاث آيات عنها بما يدل على عدم أبديتها الأولى قوله سبحانه وتعالى قال: ﴿ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ والثانية قوله: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ

(224/250)

---

وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ الثالثة قوله ﴿ لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً ﴾ ولولا الأدلة القطعية الدالة على أبدية الجنة ودوامها لكان حكم الإستثنائين في الموضعين واحدا كيف وفي الآيتين من السياق ما يفرق بين الإستثنائين فانه قال في أهل النار ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ فعلمنا أنه الله سبحانه وتعالى يريد أن يفعل فعلا لم يخبرنا به وقال في أهل الجنة عطاء غير مجذوذ فعلمنا أن هذا العطاء والنعيم غير مقطوع عنهم أبدا فالعذاب موقت معلق والنعيم ليس بموقت ولا معلق

الوجه الثالث أنه قد ثبت أن الجنة لم يدخلها من لم يعمل خيرا قط من المعذبين الذين يخرجهم الله من النار وأما النار فلم يدخلها من لم يعمل سوءا قط ولا يعذب إلا من عصاه

الوجه الرابع أنه قد ثبت أن الله سبحانه وتعالى ينشئ للجنة خلقا آخر يوم القيامة يسكنهم إياها ولا يفعل ذلك بالنار وأما الحديث الذي قد ورد في صحيح البخاري من قوله وأما النار فينشئ الله لها خلقا آخرين فغلط وقع من بعض الرواة انقلب عليه الحديث وإنما هو ما ساقه البخاري في الباب نفسه وأما الجنة فينشئ الله لها خلقا آخرين ذكره البخاري رحمه الله مبينا أن الحديث انقلب لفظه على من رواه بخلاف هذا وهذا والمقصود أنه لا تقاس النار بالجنة في التأبيد مع هذه الفروق

يوضحه الوجه الخامس أن الجنة من موجب رحمته ورضاه والنار من غضبه وسخطه ورحمته سبحانه تغلب غضبه وتسبقه كما جاء في الصحيح من حديث أبي هريرة عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو

عنده موضوع على العرش أن رحمتي تغلب غضبي وإذا كان رضاه قد سبق غضبه وهو يغلبه كان التسوية بين ما هو من موجب رضاه وما هو من موجب غضبه ممتنعا"

*(225/250)*

يوضحه الوجه السادس أن ما كان بالرحمة وللرحمة فهو مقصود لذاته قصد الغايات وما كان من موجب الغضب والسخط فهو مقصود لغيره قصد الوسائل فهو مسبوق مغلوب مراد لغيره وما كان بالرحمة فغالب سابق مراد لنفسه يوضحه الوجه السابع وهو أنه سبحانه وتعالى قال للجنة أنت رحمتي ارحم بك من أشاء وقال للنار أنت عذابي أعذب بك من أشاء وعذابه مفعول منفصل وهو ناشئ عن غضبه ورحمته ها هنا هي الجنة وهي رحمة مخلوقة ناشئة عن الرحمة التي هي صفة الرحمن فها هنا أربعة أمور رحمة هي وصفه سبحانه وثواب منفصل هو ناشئ عن رحمه وغضب يقوم به سبحانه وعقاب منفصل ينشا عنه فإذا غلبت صفة الرحمة صفة الغضب فلان يغلب ما كان بالرحمة لما كان بالغضب أولى وأحرى فلا تقاوم النار التي نشأت عن الغضب الجنة التي نشأت عن الرحمة يوضحه الوجه الثامن أن النار خلقت تخويفا للمؤمنين وتطهيرا للخاطئين والمجرمين فهي طهرة من الخبث الذي اكتسبته النفس في هذا العالم فان تطهرت ها هنا بالتوبة النصوح والحسنات الماحية والمصائب المكفرة لم يحتج إلى تطهير هناك وقيل لها مع جملة الطيبين سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين وأن لم نطهر في هذه الدار ووافت الدار الأخرى بدرنها ونجاستها وخبثها أدخلت النار طهرة لها ويكون مكثها في النار بحسب زوال ذلك الدرن والخبث والنجاسة التي لا يغسلها الماء فإذا تطهرت الطهر التام أخرجت من النار والله سبحانه خلق عباده حنفاء وهي فطرة الله التي فطر الناس عليها فلو خلوا وفطرهم لما نشؤا إلا على

التوحيد ولكن عرض لأكثر الفطر ما غيرها ولهذا كان نصيب النار أكثر من نصيب الجنة وكان هذا التغيير مراتب لا يحصيها إلا الله فأرسل الله رسله وانزل كتبه يذكر عباده بفطرته التي فطرهم عليها فعرف الموفقون الذين سبقت لهم من الله الحسنى صحة ما جاءت

(226/250)

---

به الرسل ونزلت به الكتب بالفطرة الأولى فتوافق عندهم شرع الله ودينه الذي أرسل به رسله وفطرته التي فطرهم عليها فمنعتهم الشرعة المنزلة والفطرة المكملة أن تكتسب نفوسهم خبثا ونجاسة ودرنا يعلق بها ولا يفارقها بل كلما ألم بهم شيء من ذلك ومسهم طائف من الشيطان أغاروا عليه بالشرعة والفطرة فأزالوا موجبه وأثره وكمل لهم الرب تعالى ذلك بأقضية يقضيها لهم مما يحبون أو يكرهون تمحص عنهم تلك الآثار التي شوشت الفطرة فجاء مقتضى الرحمة فصادف مكانا قابلا مستعدا لها ليس فيه شيء يدافعه فقال ههنا أمرت وليس لله سبحانه غرض في تعذيب عباده بغير موجب كما قال تعالى: ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً ﴾ واستمر الأشقياء مع تغيير الفطرة ونقلها مما خلقت عليه إلى ضده حتى استحكم الفساد وتم التغيير فاحتاجوا في إزالة ذلك إلى تغيير آخر وتطهير ينقلهم إلى الصحة حيث لم تنقلهم آيات الله المتلوة والمخلوقة

وأقداره المحبوبة والمكروهة في هذه الدار فأتاح لهم آيات آخر وأقضية وعقوبات فوق التي كانت في الدنيا تستخرج ذلك الخبث والنجاسة التي لا تزول بغير النار فإذا زال موجب العذاب وسببه زال العذاب وبقي مقتضى الرحمة لا معارض له فان قيل هذا حق ولكن سبب التعذيب لا يزول إلا إذا كان السبب عارضا كمعاصي الموحدين أما إذا كان لازما كالكفر والشرك فان أثره لا يزول كما لا يزول السبب وقد أشار سبحانه إلى هذه المعنى بعينه في مواضع من كتابه منها قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ فهذا إخبار بان نفوسهم وطبائعهم لا تقتضي غير الكفر والشرك وإنها غير قابلة للإيمان أصلا ومنها قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ فاخبر سبحانه أن ضلالهم وعماهم عن الهدى دائم لا يزول حتى مع معاينة الحقائق التي أخبرت بها الرسل

(227/250)

---

وإذا كان العمى والضلال لا يفارقهم فان موجبه وأثره ومقتضاه لا يفارقهم ومنها قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ وهذا يدل على أنه

(228/250)

ليس فيهم خير يقتضي الرحمة ولو كان فيهم خير لما ضيع عليهم أثره ويدل على أنهم لا خير فيهم هناك أيضا قوله اخرجوا من النار من كان في قلبه أدنى مثقال ذرة من خير فلو كان عند هؤلاء أدنى أدنى مثقال ذرة من خير لخرجوا منها مع الخارجين قيل لعمر الله أن هذا لمن أقوى ما يتمسك به في المسألة وأن الأمر لكما قلتم وأن العذاب يدوم بدوام موجبه وسببه ولا ريب أنهم في الآخرة في عمي وضلال كما كانوا في الدنيا وبواطنهم خبيثة كما كانت في الدنيا والعذاب مستمر عليهم دائم ما داموا كذلك ولكن هل هذا الكفر والتكذيب والخبث أمر ذاتي لهم زواله مستحيل أم هو أمر عارض طارئ على الفطرة قابل للزوال هذا حرف المسألة وليس بأيديكم ما يدل على استحالة زواله وانه أمر ذاتي وقد اخبر سبحانه وتعالى أنه فطر عباده على الحنيفية وأن الشياطين اجتالتهم عنها فلم يفطرهم سبحانه على الكفر والتكذيب كما فطر الحيوان البهيم على طبيعته وإنما فطرهم على الإقرار بخالقهم ومحبته وتوحيده فإذا كان هذا الحق الذي قد فطروا عليه وقد خلقوا عليه قد أمكن زواله بالكفر والشرك الباطل فإمكان زوال الكفر والشرك الباطل بضده من الحق أولى وأحرى ولا ريب أنهم لو ردوا على تلك الحال التي هم عليها لعادوا لما نهوا عنه ولكن من أين لكم أن تلك الحال لا تزول ولا تتبدل بنشأة أخرى ينشئهم فيها تبارك وتعالى إذا أخذت النار مأخذها منهم وحصلت الحكمة المطلوبة من عذابهم فان العذاب لم يكن سدى وإنما كان

لحكمة مطلوبة فإذا حصلت تلك الحكمة لم يبق في التعذيب أمر يطلب ولا غرض يقصد والله سبحانه ليس يشتفي بعذاب عباده كما يشتفى المظلوم من ظالمه وهو لا يعذب عبده لهذا الغرض وإنما يعذبه طهرة له ورحمة به فعذابه مصلحة له وأن تألم به غاية الألم كما أن عذابه بالحدود في الدنيا مصلحة لأربابها

وقد سمى الله سبحانه وتعالى الحد عذابا وقد اقتضت حكمته سبحانه أن جعل لكل



---

داء دواء يناسبه ودواء الضال يكون من اشق الأدوية والطبيب الشفيق يكون المريض بالنار كيا بعد كي ليخرج منه المادة الرديئة الطارئة على الطبيعة المستقيمة وأن رأى قطع العضو أصلح للعليل قطعه وأذاقه اشد الألم فهذا قضاء الرب وقدره في إزالة مادة غريبة طرأت على الطبيعة المستقيمة بغير اختيار العبد فكيف إذا طرا على الفطرة السليمة مواد فاسدة باختيار العبد وإرادته وإذا تأمل اللبيب شرع الله تبارك وتعالى وقدره في الدنيا وثوابه وعقابه في الآخرة وجد ذلك في غاية التناسب والتوافق وارتباط ذلك ببعضه البعض فان مصدر الجميع عن علم تام وحكمة بالغة ورحمة سابغة وهو سبحانه والملك الحق المبين وملكه ملك رحمة وإحسان وعدل الوجه التاسع أن عقوبته للعبد ليست

لحاجته إلى عقوبته لا لمنفعة تعود إليه ولا لدفع مضرة وألم يزول عنه بالعقوبة بل يتعالى عن ذلك ويتنزه كما يتعالى عن سائر العيوب والنقائص ولا هي عبث محض خال عن الحكمة والغاية الحميدة فانه أيضا يتنزه عن ذلك وتعالى عنه فأما أن يكون من تمام نعيم أوليائه وأحبابه وأما أن يكون من مصلحة الأشقياء ومداواتهم أو لهذا ولهذا وعلى التقادير الثلاث فالتعذيب أمر مقصود لغيره قصد الوسائل لا قصد الغايات والمراد أن الوسيلة إذا حصل على الوجه المطلوب زال حكمها ونعيم أوليائه ليس متوقفا في أصله ولا في كماله على استمرار عذاب أعدائه ودوامه مصلحة الأشقياء ليست في الدوام والاستمرار وأن كان في اصل التعذيب مصلحة لهم الوجه العاشر أن رضى الرب تبارك وتعالى ورحمته صفتان ذاتيتان له فلا منتهى لرضاه بل كما قال أعلم الخلق به سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضى نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته فإذا كانت رحمته غلبت غضبه فان رضى نفسه أعلى وأعظم فان رضوانه أكثر من الجنات ونعيمها وكل ما فيها وقد اخبر أهل الجنة أنه يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبدا وأما غضبه تبارك وتعالى وسخطه فليس من

صفاته الذاتية التي يستحيل انفكاكه عنها بحيث لم يزل ولا يزال غضبان والناس لهم في صفة الغضب قولان أحدهما أنه من صفاته الفعلية القائمة به كسائر أفعاله والثاني أنه صفة فعل منفصل عنه غير قائم به وعلى القوانين فليس كالحياة والعلم والقدرة التي يستحيل مفارقتها له والعذاب إنما ينشا من صفة غضبه وما سعرت النار إلا بغضبه وقد جاء في اثر مرفوع أن الله خلق خلقا من غضبه وأسكنهم بالمشرق وينتقم بهم ممن عصاه فمخلوقاته سبحانه نوعان نوع مخلوق من الرحمة وبالرحمة ونوع مخلوق من الغضب وبالغضب فانه سبحانه له الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي يتنزه عن تقدير خلافه ومنها أنه يرضى ويغضب ويثيب ويعاقب ويعطي ويمنع ويعز ويذل وينتقم ويعفو بل هذا موجب ملكه الحق وحقيقة الملك المقرون بالحكمة والرحمة والحمد فإذا زال غضبه سبحانه وتعالى وتبدل برضاه زالت عقوبته وتبدلت برحمته فانقلبت العقوبة إلى رحمة بل لم تزل رحمة وأن تنوعت صفتها وصورتها كما كان عقوبة العصاة رحمة وإخراجهم من النار رحمة فتقلبوا في رحمته في الدنيا وتقلبوا فيها في الآخرة لكن تلك الرحمة يحبونها وتوافق طبائعهم وهذه رحمة يكرهونها وتشق عليهم كرحمة الطبيب الذي يضع لحم المريض ويلقي عليه المكاوي ليستخرج منه المواد الرديئة الفاسدة فان قيل هذا اعتبار غير صحيح فان الطبيب يفعل ذلك بالعليل وهو يحبه وهو راض عنه ولم ينشا فعله به عن غضبه بغضبه عليه ولهذا لا يسمى عقوبة وأما عذاب هؤلاء فانه إنما حصل بغضبه سبحانه عليهم وهو عقوبة محضة قيل هذا حق ولكن

لا ينافي كونه رحمة بهم وأن كان عقوبة لهم وهذا كإقامة الحدود عليهم في الدنيا فانه عقوبة ورحمة وتخفيف وطهرة فالحدود طهرة لأهلها وعقوبة وهم لما أغضبوا الرب تعالى وقابلوه بما لا يليق أن يقابل به وعاملوه أقبح المعاملة وكذبوه وكذبوا رسله وجعلوا اقل خلقه وأخبثهم وامقتهم له ندا

(231/250)

---

له وإلهه معه واثروا رضاهم على رضاه وطاعتهم على طاعته وهو ولي الإنعام عليهم وهو خالقهم ورازقهم ومولاهم الحق اشتد مقته لهم وغضبه عليهم وذلك يوجب كمال أسمائه وصفاته التي يستحيل عيله تقدير خلافها ويستحيل عليه تخلف آثارها ومقتضاها عنها بل ذلك تعطيل لأحكامها كما أن نفيها عنه تعطيل لحقائقها وكلا التعطيلين محال عليه سبحانه وتعالى فالمعطلون نوعان أحدهما عطل صفاته والثاني عطل أحكامها وموجباتها وكان هذا العذاب عقوبة لهم من هذا الوجه ودواء لهم من جهة الرحمة السابقة للغضب فاجتمع فيه الأمران فإذا زال الغضب بزوال المادة الفاسدة بتغيير الطبيعة المقتضية لها في الجحيم بمرور الأحقاب عليها وحصلت الحكمة التي أوجبت العقوبة عملت الرحمة عملها وطلبت أثرها من غير معارض يوضحه الوجه الحادي عشر وهو أن العفو أحب إليه

سبحانه من الانتقام والرحمة أحب إليه من العقوبة والرضا أحب إليه من الغضب والفضل أحب إليه من العدل ولهذا ظهرت آثار هذه المحبة في شرعه وقدره ويظهر كل الظهور لعباده في ثوابه وعقابه وإذا كان ذلك أحب الأمرين إليه وله خلق الخلق وانزل الكتب وشرع الشرائع وقدرته سبحانه صالحة لكل شيء لا قصور فيها بوجه ما وتلك المواد الردية الفاسدة مرض من الأمراض وبيده سبحانه وتعالى الشفاء التام والأدوية الموافقة لكل داء وله القدرة التامة والرحمة السابغة والغنى المطلق بالعبد أعظم حاجة إلى من يداوي علته التي بلغت به غاية الضرر والمشقة وقد عرف العبد أنه عليل وأن دواءه بيد الغني الحميد فتضرع إليه ودخل به عليه واستكان له وانكسر قلبه بين يديه وذل لعزته وعرف أن الحمد كله له وأن الحق كله له وانه هو الظلوم الجهول وان ربه تبارك وتعالى عامله بكل عدله لا ببعض عدله وأن له غاية الحمد فيما فعل به وأن حمده هو الذي أقامه في هذا المقام وأوصله إليه وانه لا خير عنده من نفسه بوجه من الوجوه بل ذلك محض فضل الله وصدقته عليه وانه لا نجاة

*(232/250)*

له مما هو فيه إلا بمجرد العفو والتجاوز عن حقه فنفسه أولى بكل ذم وعيب ونقص وربه تعالى أولى بكل حمد وكمال ومدح فلو أن أهل الجحيم شهدوا نعمته سبحانه ورحمته وكماله وحمده الذي أوجب لهم ذلك فطلبوا مرضاته ولو بدوامهم في تلك الحال وقالوا أن كان ما نحن فيه رضاك فرضاك الذي نريد وما أوصلنا إلى هذه الحال إلا طلب مالا يرضيك فأما إذا أرضاك هذا منا فرضاك غاية ما نقصده وما لجرح إذا أرضاك من ألم وأنت ارحم بنا من أنفسنا واعلم بمصالحنا ولك الحمد كله عاقبت أو عفوت لانقلبت النار عليهم بردا وسلاما وقد روى الإمام احمد في مسنده من حديث الأسود بن سريع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يأتي أربعة يوم القيامة رجل أصم لا يسمع شيئا ورجل أحمق ورجل هرم ورجل مات في فترة فأما الأصم فيقول رب لقد جاء الإسلام وما اسمع شيئا وأما الأحمق فيقول رب لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالبعر وأما الهرم فيقول ربى لقد جاء الإسلام وما اعقل شيئا وأما الذي مات في الفترة فيقول رب ما أتاني لك من رسول فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه فيرسل إليهم أن ادخلوا النار قال فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم بردا وسلاما وفي المسند أيضا من حديث قتادة عن الحسن عن أبي رافع عن أبي هريرة مثله وقال فمن دخلها كانت عليه بردا وسلاما ومن لم يدخلها يسحب إليها فهؤلاء لما رضوا بتعذيبهم وبادروا إليه لما علموا أن فيه رضى ربهم وموافقة أمره ومحبته انقلب في حقهم نعيما ومثل هذا ما رواه عبد الله بن المبارك حدثني رشدين قال

حدثني ابن انعم عن أبي عثمان أنه حدثه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله قال أن رجلين ممن دخلا النار يشتد صياحهما فقال الرب جل جلاله

(233/250)

---

أخرجوهما فإذا أخرجا فقال لهما لأي شيء اشتد صياحكما قال فعلنا ذلك لترحمنا قال رحمتي لكما أن تنطلقا فتلقيا أنفسكما حيث كنتما من النار قال فينطلقان فيلقي أحدهما نفسه فيجعلها الله سبحانه عليه بردا وسلاما ويقوم الآخر فلا يلقي فيقول له الرب تبارك وتعالى ما منعك أن تلقي نفسك كما ألقى صاحبك فيقول رب إني أرجوك أن لا تعيدني فيها بعد ما أخرجتني منها فيقول الرب وتعالى لك رجاؤك فيدخلان الجنة جميعا برحمة الله وذكر الأوزاعي عن بلال بن سعد قال يؤمر بإخراج رجلين من النار فإذا خرجا ووقفا قال الله لهما كيف وجدتما مقيلكما وسوء مصيركما فيقولان شر مقيل وأسوا مصير صار إليه العبد فيقول لهما بما قدمت أيديكما وما أنا بظلام للعبيد قال فيؤمر بصرفهما إلى النار فأما أحدهما فيغدوا في أغلاله وسلاسله حتى يقتحمها وأما الآخر فيتلكا فيؤمر بردهما فيقول للذي غدا في أغلاله وسلاسله حتى اقتحمها ما حملك على ما صنعت وقد خرجت منها فيقول إني خبرت من وبال معصيتك وما لم اكن أتعرض لسخطك ثانيا ويقول للذي تلكأ ما

حملك على ما صنعت فيقول حسن ظني بك حين أخرجتني منها أن لا تردني إليها فيرحمهما جميعا ويأمر بهما إلى الجنة الوجه الثاني عشر أن النعيم والثواب من مقتضى رحمته ومغفرته وبره كرمه ولذلك يضيف ذلك إلى نفسه وأما العذاب والعقوبة فإنما هو من مخلوقاته ولذلك لا يسمى بالمعاقب والمعذب بل يفرق بينهما فيجعل ذلك من أوصافه وهذا من مفعولاته حتى في الآية الواحدة كقوله تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ وقال: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

*(234/250)*

---

ومثلها في آخر الأنعام فما كان مقتضى أسمائه وصفاته فانه يدوم بدوامها ولا سيما إذا كان محبوبا له وهو غاية مطلوبة في نفسها وأما الشر الذي هو العذاب فلا يدخل في أسمائه وصفاته إن ادخل في مفعولاته لحكمة إذا حصلت زال وفنني بخلاف الخير فانه سبحانه وتعالى دائم المعروف لا ينقطع معروفه أبدا وهو قديم الإحسان ابدي الإحسان فلم يزل ولا يزال معاقبا على الدوام غضبان على الدوام منتقما على الدوام فتأمل هذا الوجه تأمل ففيه في باب أسماء الله وصفاته يفتح لك باب من أبواب معرفته ومحبته يوضحه الوجه الثالث

عشر وهو قول اعلم خلقه به واعرفهم بأسمائه وصفاته والشر ليس إليك ولم يقف على المعنى المقصود من قال الشر لا يتقرب به إليك بل الشر لا يضاف إليه سبحانه بوجه لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ولا في أسمائه فان ذاته لها الكمال المطلق من جميع الوجوه وصفاته كلها صفات كمال ويحمد عليها ويثنى عليه بها وأفعاله كلها خير ورحمة وعدل وحكمة لا شر فيها بوجه ما وأسماؤه كلها حسنى فكيف يضاف الشر إليه بل الشر في مفعولاته ومخلوقاته وهو منفصل عنه إذ فعله غير مفعول ففعله خير كله وأما المخلوق المفعول ففيه الخير والشر وإذا كان الشر مخلوقا منفصلا غير قائم بالرب سبحانه فهو لا يضاف إليه وهو لم يقل أنت لا تخلق الشر حتى يطلب تأويل قوله وإنما نفى إضافته إليه وصفا وفعلا وأسماء وإذا عرف هذا فالشر ليس إلا الذنوب وموجباتها وأما الآخر فهو الإيمان والطاعات وموجباتها والإيمان والطاعات متعلقة به سبحانه ولأجلها خلق الله خلقه وأرسل رسله وانزل كتبه وهي ثناء على الرب تبارك وتعالى وإجلاله وتعظيمه وعبوديته وهذه لها آثار تطلبها وتقتضيها فتدوم آثارها بدوام متعلقها

وأما الشرور فليس مقصودة لذاتها ولا هي الغاية التي خلق لها الخلق فهي مفعولات قدرت لأمر محبوب وجعلت وسيلة إليه فإذا حصل ما قدرت له اضمحلت وتلاشت وعاد الأمر إلى الخير المحض الوجه الرابع عشر أنه سبحانه وتعالى اخبر إن رحمته وسعت كل شيء فليس شيء من الأشياء إلا وفيه رحمته ولا ينافي هذا أنت ترحم العبد بمات يشق عليه ويؤلمه وتشتد كراهته له فان ذلك من أيضا كما تقدم وقد ذكرنا حديث أبي هريرة رضي الله عنه آنفا وقوله تعالى: لذينك الرجلين رحمتي لكما إن تنطلقا فتلقيا أنفسكما حيث كنتما من النار وقد جاء في بعض الآثار إن العبد إذا دعى لمبتلى قد اشتد بلاؤه وقال اللهم ارحمه يقول الرب تبارك وتعالى كيف ارحمه من شيء به ارحمه فالابتلاء رحمة منه لعباده وفي اثر الهي يقول الله تعالى أهل ذكر أهل مجالستي وأهل طاعتي أهل كرامتي وأهل شكري أهل زيادتي وأهل معصيتي لأقنطهم من رحمتي إن تأبوا فأنا حبيبهم وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ابتليهم بالمصايب لأطهرهم من المعايب فالبلاء والعقوبة قدرته لإزالة أدواء لا تزول إلا بها والنار هي الدواء الأكبر فمن تداوى في الدنيا أغناه ذلك عن الدواء في الآخرة وإلا فلا بد له من الدواء بحسب دائه ومن عرف الرب تبارك وتعالى بصفات جلاله ونعوت كماله من حكمته ورحمته وبره وإحسانه وغناه وجوده وتحببه إلى عباده وإرادة الأنعام عليهم وسبق رحمته لهم يبادر لا إنكار ذلك إن لم يبادر إلى قبوله

يوضحه الوجه الخامس عشر إن أفعاله سبحانه لا تخرج عن الحكمة والرحمة والمصلحة والعدل فلا يفعل عبثا ولا جورا ولا باطلا بل هو المنزه عن ذلك كما ينزه عن سائر العيوب والنقائص وإذا ثبت ذلك فتعذيبهم إن كان رحمة بهم حتى يزول ذلك الخبث وتكمل الطهارة فظاهر وإن كان لحكمة فإذا حصلت تلك الحكمة المطلوبة زال العذاب وليس في الحكمة دوام العذاب أبدا الآباد بحيث يكون دائما بدوام الرب تبارك وتعالى وإن كان لمصلحة وإن كان لمصلحة فإن كان يرجع إليهم "فليست مصلحتهم



في بقائهم في العذاب كذلك, وإن كانت المصلحة تعود إلى أوليائه فان ذلك أكمل في نعيمهم فهذا لا يقتضي تأبيد العذاب وليس نعيم أوليائه وكماله موقوفا على بقاء آبائهم وأبنائهم وأزواجهم في العذاب السرمد فان قلتم إن ذلك موجب الرحمة والحكمة والمصلحة قلتم ما لا يعقل وإن قلتم إن ذلك عائد إلى محض المشيئة ولا تطلب له حكمة ولا غاية فجوابه من وجهين أحدهما إن ذلك محال على أحكم الحاكمين واعلم العالمين إن تكون أفعاله معطلة عن الحكم والمصالح والغايات المحمودة والقرآن والسنة وأدلة العقول والفطر والآيات

المشهودة شاهدة ببطلان ذلك والثاني أنه لو كان الأمر كذلك لكان بقاؤهم في العذاب وانقطاعه عنهم بالنسبة إلى مشيئته سواء ولم يكن في انقضائه ما ينافي كماله وهو سبحانه لم يخبر بأبدية العذاب وانه لا نهاية له وغاية الأمر على هذا التقدير إن يكون من الجائزات الممكنات الموقوف على حكمها على خبر الصادق فان سلكت طريق التعليل بالحكمة والرحمة والمصلحة لم يقتض الدوام وإن سلكت طريق المشيئة المحضة التي لا تعلل لم تقتضه أيضا وإن وقف الأمر على مجرد السمع فليس فيه متن يقتضيه الوجه السادس عشر أن رحمته سبحانه سبقت غضبه في المعذبين فانه أنشأهم برحمته ورباهم برحمته ورزقهم وعافاهم برحمته وأرسل إليهم الرسل برحمته وأسباب النقمة والعذاب متأخر عن أسباب الرحمة طارئة عليها فرحمته سبقت غضبه فيهم وخلقهم على خلقة تكون رحمته إليهم اقرب من غضبه وعقوبته ولهذا ترى الأطفال الكفار قد آلت عليهم رحمته فمن رآهم رحمهم ولهذا نهى

*(238/250)*

---

عن قتلهم فرحمته سبقت غضبه فيهم فكانت هي السابقة إليهم ففي كل حال هم في رحمته في حال معافاتهم وابتلائهم وإذا كانت الرحمة هي السابقة فيهم لم يبطل أثرها بالكلية وان

عارضها اثر الغضب والسخط فذلك لسبب منهم وأما اثر الرحمة فسببه منه سبحانه وتعالى فما منه يقتضي رحمتهم وما منهم يقتض عقوبتهم والذي منه سابق وغالب وإذا كانت رحمته تغلب غضبه فلان يغلب اثر الرحمة اثر الغضب أولى وأحرى الوجه السابع عشر أنه سبحانه وتعالى يخبر عن العذاب أنه عذاب يوم عقيم وعذاب يوم عظيم وعذاب يوم اليم ولا يخبر عن النعيم أنه نعيم يوم ولا في موضع واحد وقد ثبت في الصحيح تقدير يوم القيامة بخمسين ألف سنة والمعذبون متفاوتون في مدة لبثهم في العذاب بحسب جرائمهم والله سبحانه جعل العذاب على ما كان في الدنيا وأسبابها وما أريد به الدنيا ولم ولك يرد به الله فالعذاب على ذلك وأما إن كان للآخرة وأريد به وجه الله فلا عذاب والدنيا قد جعل لها اجل تنتهي إليه فما انتقل منها إلى تلك الدار مما ليس لله فهو المعذب به وأما ما أريد به وجه الله والدار الآخرة فقد أريد به ما لا يفنى ولا يزول فيدوم بدوام المراد به فان الغاية المطلوبة إذا كانت دائمة لا تزول ما لم يزل ما تعلق بها بخلاف الغاية المضمحلة الفانية فما أريد به غير الله يضمحل ويزول بزوال مراده ومطلوبه وما أريد به وجه الله يبقى ببقاء المطلوب المراد فإذا اضمحلت الدنيا وانقطعت أسبابها وانتقل ما كان فيها لغير الله من الأعمال والذوات وانقلب عذابا وآلاما لم يكن له متعلق يدوم بدوامه بخلاف النعيم الوجه الثامن عشر أنه ليس في حكمة احكم الحاكمين إن يخلق خلقا يعذبهم ابد الآباد عذابا

سرمدا لا نهاية له ولا انقطاع أبدا وقد دلت الأدلة السمعية والعقلية والفطرية على أنه سبحانه وتعالى حكيم وأنه أحكم الحاكمين فإذا عذب خلقه عذبهم

(239/250)

---

بحكمة كما يوجد التعذيب والعقوبة في الدنيا في شرعه وقدره فان فيه من الحكم والمصالح وتطهير العبد ومداواته وإخراج المواد الردية عنه بتلك الآلام ما تشهده العقول الصحيحة وفي ذلك من تزكية النفوس وصلاحها وزجرها وردع نظائرها وتوقيفها على فقرها وضرورتها الى ربها وغير ذلك من الحكم والغايات الحميدة ما لا يعلمه إلا الله ولا ريب إن الجنة طيبة لا يدخلها إلا طيب ولهذا يحاسبون إذا قطعوا الصراط على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا ذهبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة ومعلوم إن النفوس الشريرة الخبيثة المظلمة التي لو ردت إلى الدنيا قبل العذاب لعادت لما نهيت عنه لا يصلح إن تسكن دار السلام في جوار رب العالمين فإذا عذبوا في النار عذابا تخلص نفوسهم من ذلك الخبث والوسخ والدرن كان ذلك من حكمة احكم الحاكمين ورحمته ولا يتنافى الحكمة خلق نفوس فيها شر يزول بالبلاء الطويل والنار كما يزول بها خبث الذهب والفضة والحديد فهذا معقول في الحكمة وهو من لوازم العالم المخلوق على

هذه الصفة أما خلق نفوس لا يزول شرها أبدا وعذابها لا انتهاء له فلا يظهر في الحكمة والرحمة وفي وجود مثل هذا النوع نزاع بين العقلاء أعنى ذواتا هي شر من كل وجه ليس فيها شيء من خير أصلا وعلى تقدير دخوله في الوجود فالرب تبارك وتعالى قادر على قلب الأعيان وإحالتها وإحالة صفاتها فإذا وجدت الحكمة المطلوبة من خلق هذه النفوس والحكمة المطلوبة من تعذيبها فالله سبحانه قادر إن ينشئها نشأة أخرى غير تلك النشأة ويرحمها في النشأة الثانية نوعا آخر من الرحمة

*(240/250)*

---

يوضحه الوجه التاسع عشر وهو أنه قد ثبت إن الله سبحانه وتعالى ينشئ للجنة خلقا آخر يسكنهم إياها ولم يعملوا خيرا قط تكون الجنة جزاء لهم عليه فإذا اخذ العذاب من هذه النفوس مأخذه وبلغت العقوبة مبلغها فانكسرت تلك النفوس وخضعت وذلت واعترفت لربها وفاطرها بالحمد وانه عدل فيها كل العدل وإنها في هذه الحال كانت في تخفيف منه ولو شاء إن يكون عذابهم اشد من ذلك لفعل وشاء كتب العقوبة طلبا لموافقة رضاه ومحبته وعلم إن العذاب أولى بها وانه لا يليق بها سواه ولا تصلح إلا له فذابت منها تلك الخبائث كلها وتلاشت وتبدلت بذل وانكسار وحمد وثناء الرب تبارك وتعالى لم يكن في حكمته إن

يستمر بها في العذاب بعد ذلك إذ قد تبدل شرها بخيرها وشركها بتوحيدها وكبرها بخضوعها وذلها ولا ينتقض هذا بقول الله عز وجل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه فان هذا قبل مباشرة العذاب الذي يزيل تلك الخبائث وإنما هو عند المعاينة قبل الدخول فانه سبحانه وتعالى قال: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فهذا إنما قالوه قبل إن يستخرج العذاب منهم تلك الخبائث فأما إذا لبثوا في العذاب أحقابا والحقب كما رواه الطبراني في معجمه من حديث أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الحقب خمسون ألف سنة فانه من الممتع إن يبقى ذا الكبر والشرك والخبث بعد هذه المدد المتطاولة في العذاب

الوجه العشرون أنه قد ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري في



---

حديث الشفاعة فيقول عز وجل شفعت الملائكة وشفع النبي صلى الله عليه وسلمون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط قد عادوا حمما فيلقيها في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون كما تخرج

الحبة في حمل السيل فيقول الله الجنة هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه فهؤلاء أحرقتهم النار جميعهم فلم يبق في بدن أحدهم موضع لم تمسه النار بحيث صاروا حمما وهو الفحم المحترق بالنار وظاهر السياق أنه لم يكن في قلوبهم مثقال ذرة من خير فان لفظ الحديث هكذا فيقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها خيرا فيقول الله عز وجل شفعت الملائكة وشفع النبي صلى الله عليه وسلمون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا ارحم الراحمين فيقبض الله قبضة من نار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط فهذا السياق يدل على إن هؤلاء لم يكن في قلوبهم مثقال ذرة من خير ومع هذا فأخرجتهم الرحمة ومن هذا رحمته سبحانه وتعالى للذي أوصى أهله إن يحرقوه بالنار ويذروه في البر والبحر زعما منه بأنه يفوت الله سبحانه وتعالى فهذا قد شك في المعاد والقدرة ولم يعمل خيرا قط ومع هذا فقال له ما حملك على ما صنعت قال خشيتك وأنت تعلم فما تلافاه إن رحمه الله فلله سبحانه وتعالى في خلقه حكم لا تبلغه عقول البشر وقد ثبت في حديث أنس رضي الله عنه إن رسول الله قال يقول الله عز وجل اخرجوا من النار من ذكرني يوما أو خافني في مقام قالوا ومن ذا الذي في مدة عمره كلها من أولها إلى آخرها لم يذكر به يوما واحدا ولا خافه ساعة واحدة ولا ريب إن رحمته سبحانه وتعالى إذا أخرجت من

النار من ذكره وقتا أو خافه في مقام ما فغير بدع إن تنفى النار ولكن هؤلاء خرجوا منها وهي نار الوجه الحادي والعشرون إن اعتراف العبد بذنبه حقيقة الاعتراف المتضمن لنسبة السواء والظلم واللوم إليه من كل وجه ونسبة وعدل والحمد والرحمة والكمال المطلق إلى ربه من كل وجه يستعطف ربه تبارك وتعالى عليه ويستدعي رحمته له وإذا أراد إن يرحم عبده ألقى ذلك في قلبه والرحمة معه ولا سيما إذا اقترن بذلك جزم العبد على ترك المعاودة لما يسخط ربه عليه وعلم الله إن ذلك داخل في قلبه وسويدائه فانه لا تتخلف عنه الرحمة مع ذلك وفي معجم الطبراني من حديث يزيد بن سنان الرهاوي عن سليمان بن عامر عن أبي أمامة رضي الله عنه قال قال رسول الله " إن آخر رجل يدخل الجنة رجل يتقلب على الصراط ظهرا لبطن كالغلام يضربه أبوه وهو يفر منه يعجز عنه عمله إن يسعى فيقول يا رب بلغ بي الجنة ونجني من النار فيوحي الله تبارك وتعالى إليه عبدي إن أنا نجيتك من النار وأدخلتك الجنة أتعترف لي بذنوبك وخطاياك فيقول العبد نعم يا رب وعزتك وجلالك إن نجيتني من النار لاعترفن لك بذنوبي وخطاياي فيجوز الجسر فيقول العبد فيما بينه وبين نفسه لئن اعترفت له بذنوبي وخطاياي ليردني إلى النار فيوحي الله إليه عبدي اعترف لي بذنوبك وخطاياك اغفرها لك وأدخلك الجنة فيقول العبد لا وعزتك وجلالك ما أذنبت ذنبا قط ولا أخطأت خطيئة قط فيوحي الله إليه عبدي إن لي عليك بينة

فيلتفت العبد يمينا وشمالا فلا يرى أحدا فيقول أي رب ارني بينتك فينطق الله تعالى جلده بالمحقرات فإذا رأى ذلك العبد يقول يا رب عندي وعزتك العظائم فيوحي الله إليه عبدي أنا اعرف بها منك اعترف لي بها اغفرها لك وأدخلك الجنة فيعترف العبد بذنوبه فيدخل الجنة ثم ضحك رسول الله حتى بدت نواجذه يقول هذا أدنى أهل الجنة منزلة فكيف بالذي فوقه"

*(243/250)*

---

فالرب تبارك وتعالى يريد من عبده الاعتراف والانكسار بين يديه والخضوع والذلة له والعزم على مرضاته فما دام أهل النار فاقدين لهذه الروح لروح فهم فاقدون الرحمة فإذا أراد عز وجل إن يرحمهم أو من يشاء منهم جعل في قلبه ذلك فتدركه الرحمة وقدرة الرب تبارك وتعالى غير قاصرة عن ذلك وليس فيه ما يناقض موجب أسمائه وصفاته وقد اخبر أنه فعال لما يريد الوجه الثاني والعشرون أنه سبحانه وتعالى أوجب الخلود على معاصي الكبائر وقيده بالتأبيد ولم يناف ذلك انقطاعه وانتهاؤه فمنها قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾ ومنها قول النبي صلى الله عليه وسل" من قتل نفسا بحديدة فحديدته في يده يتوجا بها في نار

جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا" وهو حديث صحيح وكذلك قوله في الحديث الآخر في قاتل نفسه فيقول الله تبارك وتعالى بادرني عبدي بنفسه حرمت عليه الجنة وابلغ من هذا قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾ فهذا وعيد مقيد بالخلود والتأبيد مع انقطاعه قطعا بسبب العبد وهو التوحيد فكذلك الوعيد العام لأهل النار لا يمتنع انقطاعه بسبب ممن كتب على نفسه الرحمة وغلبت رحمته غضبه فلو يعلم الكافر بكل ما عنده من الرحمة لما يئس من رحمته كما في صحيح البخاري عنه خلق الله الرحمة يوم خلقها مائة رحمة وقال في آخره فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المسلم بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار

الوجه الثالث والعشرون أنه لو جاء الخبر منه سبحانه وتعالى صريحا بأن عذاب



---

النار لا انتهاء له وانه ابدي لا انقطاع له لكان ذلك وعيدا منه سبحانه وتعالى والله تعالى لا يخلف وعده وأما الوعيد فمذهب أهل السنة كلهم إن إخلافه كرم وعفو وتجاوز يمدح الحرب تبارك وتعالى به ويثنى عليه به فانه حق له إن شاء تركه وإن شاء استوفاه والكريم لا يستوفي حقه فكيف بأكرم الأكرمين وقد صرح سبحانه وتعالى في كتابه في غير موضع بأنه لا

يخلف وعده ولم يقل في موضع واحد لا يخلف وعيده وقد روى أبو يعلى الموصلي ثنا هدبة بن خالد حدثنا سهيل بن أبي حزم ثنا ثابت البنائي عن أنس بن مالك رضي الله عنه إن رسول الله قال من وعده الله على عمل ثوابا فهو منجزه ومن واعده على عمل عقابا فهو فيه بالخيار وقال أبو الشيخ الأصبهاني ثنا محمد بن حمزة ثنا احمد بن الخليل ثنا الأصمعي قال جاء عمرو بن عبيد إلى أبي عمرو بن العلاء فقال يا أبا عمرو يخلف الله ما وعده قال لا قال أفرأيت من أوعده الله على عمله عقابا أيخلف الله وعده عليه فقال أبو عمرو بن العلاء من العجمة أتيت يا أبا عثمان إن الوعد غير الوعيد إن العرب لا تعد عارا ولا خلفا إن تعد شرا ثم لا تفعله ترى ذلك كرما وفضلا وإنما الخلف إن تعد خيرا ثم لا تفعله قال فأوجدني هذا في كلام العرب قال نعم أما سمعت إلى قول الأول:

ولا يرهب ابن العم ما عشت سطوتي . . . ولا اختشي من صولة المتهدد

وإني وإن اوعدته أو وعدته . . . لمخلف ايعادي ومنجز موعدي

قال أبو الشيخ وقال يحيى بن معاذ الوعد والوعيد حق فالوعد حق العباد على الله ضمن لهم إذا فعلوا كذا وإن يعطيهم كذا ومن أولى بالوفاء من الله والوعيد حقه على العباد قال لا تفعلوا كذا فأعذبكم ففعلوا فان شاء عفا وإن

شاء اخذ لان حقه وأولاهما بربنا تبارك وتعالى العفو والكرم أنه غفور رحيم ومما يدل على

ذلك ويؤيده خبر كعب بن زهير حين أوعده رسول الله فقال:

نبئت إن رسول الله أوعدني . . . والعفو عند رسول الله مأمول

(245/250)

---

فإذا كان هذا في وعيد مطلق فكيف بوعيد مقرون باستثناء معقب بقوله إن ربك فعال لما يريد وهذا أخبار منه أنه يفعل ما يريد عقيب قوله إلا ما شاء ربك فهو عائد إليه ولا بد ولا يجوز أن يرجع إلى المستثنى منه وحده بل إما أن يختص بالمستثنى أو يعود إليهما وغير خاف أن تعلقه بقوله إلا ما شاء ربك أولى من تعلقه بقوله خالدين بخالدين فيها وذلك ظاهر للمتأمل وهو الذي فهمه الصحابة فقالوا أتت هذه الآية في وعيد القران ولم يريدوا بذلك الاستثناء وحده فان الاستثناء مذكور في الأنعام أيضا وإنما أرادوا أنه عقب الاستثناء بقوله إن ربك فعال لما يريد وهذا التعقيب نظير قوله في الأنعام خالدين فيها إلا ما شاء ربك إن ربك حكيم عليم فاخبر إن عذابهم في جميع الأوقات ورفعه عنهم في وقت يشاؤه صادر عن كمال علمه وحكمته لا عن مشيئة مجردة عن الحكمة والمصلحة والرحمة والعدل إذ يستحيل تجرد مشيئته عن ذلك الوجه الرابع والعشرون إن جانب الرحمة اغلب في هذه الدار من الباطلة الفانية الزائلة عن قرب من جانب العقوبة والغضب ولولا ذلك لما

عمرت ولا قام لها وجود كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ وقال ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة فلولا سعة رحمته ومغفرته وعفوه لما قام العالم ومع هذا فالذي أظهره من الرحمة في هذه الدار وانزله بين الخلائق جزء من مائة جزء من الرحمة فإذا كان جانب الرحمة

*(246/250)*

---

قد غلب في هذه الدار ونالت البر والفاجر والمؤمن والكافر مع قيام مقتضى العقوبة به ومباشرته له وتمكنه من إغضاب ربه والسعي في مساخطته فكيف لا يغلب جانب الرحمة في دار تكون الرحمة فيها مضاعفة على ما في هذه الدار تسعة وتسعين ضعفا وقد اخذ العذاب من الكفار مأخذه وانكسرت تلك النفوس ونهكها العذاب وأذاب منها خبثا وشرا لم يكن يحول بينها وبين رحمته لها في الدنيا بل كان يرحمها مع قيام مقتضى العقوبة والغضب بها فكيف إذا زال مقتضى الغضب والعقوبة وقوى جانب الرحمة أضعاف أضعاف الرحمة في هذه الدار واضمحل الشر والخبث الذي فيها فأذابته النار وأكلته وسر الأمر إن أسماء الرحمة والإحسان اغلب واظهر وأكثر من أسماء الانتقام وفعل الرحمة أكثر من فعل الانتقام وظهور آثار الرحمة أعظم من ظهور آثار الانتقام والرحمة أحب إليه من

الانتقام وبالرحمة خلق خلقه ولها خلقهم وهي التي سبقت غضبه وغلبته وكتبها على نفسه ووسعت كل شيء وما خلق بها فمطلوب لذاته وما خلق بالغضب فمراد لغيره كما تقدم تقرير ذلك والعقوبة تأديب وتطهير والرحمة إحسان وكرم وجود والعقوبة مداواة والرحمة عطاء وبذل الوجه الخامس والعشرون أنه سبحانه وتعالى لا بد إن يظهر لخلقه جميعهم يوم القيامة صدقه وصدق رسله وإن أعداؤه كانوا هم الكاذبين المفترين ويظهر لهم حكمه الذي هو اعدل حكم في أعدائه وانه حكم فيهم حكما يحمدونه هم عليه فضلا عن أوليائه وملائكته ورسله بحيث ينطق الكون كله بالحمد لله رب العالمين ولذلك قال تعالى: ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فحذف فاعل القول لإرادة الإطلاق وان ذلك جار على لسان كل ناطق وقلبه قال الحسن لقد دخلوا النار وإن قلوبهم لممتلئة من حمده ما وجدوا عليه سبيلا وهذا هو الذي

*(247/250)*

---

حسن حذف الفاعل من قوله ﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ حتى كان الكون كله قائل ذلك لهم إذ هو حكمه العدل فيهم ومقتضى حكمته وحمده وأما أهل الجنة فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ فهم لم يستحقوها

بأعمالهم وإنما استحقوها بعفوه ورحمته وفضله فإذا اشهد سبحانه وتعالى ملائكته وخلقه كلهم حكمه العدل وحكمته الباهرة وضعه العقوبة حيث تشهد العقول والفطر والخليقة أنه أولى المواضع وأحقها بها وإن ذلك من كمال حمده الذي هو مقتضى أسمائه وصفاته وإن هذه النفوس الخبيثة الظالمة الفاجرة لا يليق بها غير ذلك ولا يحسن بها سواه بحيث تعترف بها هي من ذواتها بأنها أهل ذلك وإنها أولى به حصلت الحكمة التي لأجلها وجد الشر وموجباته في هذه الدار وتلك الدار وليس في الحكمة الإلهية إن الشرور تبقى دائما لا نهاية لها ولا انقطاع أبدا فتكون هي والخيرات في ذلك على حد سواء فهذا نهاية أقدام الفريقين في هذه المسألة ولعلك لا تظفر به في غير هذا الكتاب فان قيل فإلي أين أنهى قدمكم في هذه المسألة العظيمة الشأن التي هي اكبر من الدنيا بأضعاف مضاعفة قيل إلى قوله تبارك وتعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ وإلى هنا قدم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فيها حيث ذكر دخول أهل الجنة

الجنة وأهل النار النار وما يلقاه هؤلاء وهؤلاء وقال ثم يفعل الله بعد ذلك ما يشاء

بل وإلى هنا هاهنا انتهت أقدام الخلائق وما ذكرنا في هذه المسألة بل في الكتاب كله من صواب فمن الله سبحانه وتعالى وهو المانّ به وما كان من خطا فمني ومن الشيطان والله ورسوله بريء منه وهو عند لسان كل قائل وقلبه وقصده والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ حادى الأرواح صـ 345 . 388 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والخمسون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الحادى والخمسون بعد المائتين

من الآية ﴿ 129 ﴾ من سورة الأنعام

وحتى الآية ﴿ 132 ﴾ من نفس السورة

*(4/251)*

---

قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (129) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما استبان بهذا أنه ولّى الكفرة من ظالمي الجن ظالمي الإنس وسلطهم عليهم ، أخبر تعالى أن هذا عمله مع كل ظالم من أي قبيل كان سواء كان كافراً أو لا فقال : ﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل تلك التولية التي سلطنا بها الجن على الإنس بما زاد عذاب الفريقين ﴿ نولي ﴾ أي نتبع في جميع الأزمان من جميع الخلق ﴿ بعض الظالمين ﴾ أي الغريقين في الظلم ﴿ بعضاً ﴾ أي بأن نجمع بين الأشكال ، في الأوصاف الباطنة والخصال ، ونسلط بعضهم على بعض في الضلال والإضلال ، والأوجاع والأنكال ﴿ بما كانوا ﴾ بجبلاتهم ﴿ يكسبون ﴾ أي بسبب اجتماعهم في الطباع التي طبعناهم عليها يجتمعون وينقاد بعضهم لبعض ، بحسب

ما سببنا من الأسباب الملائمة لذلك الظلم الذي يسرناه لهم ، حتى صارت أعمالهم كلها في غير مواضعها ، فيظلم بعضهم بعضاً ويهلك بعضهم بعضاً ، وهم لا يزدادون إلا الالتئام حتى يستحق الكل ما كتبنا لهم من عذاب ؛

روى الطبراني في الأوسط ن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله عزّ وجلّ يقول : أنتقم ممن أبغض بمن أبغض ثم أصيّر كلاًّ إلى النار "

وعن مالك بن دينار قال : رأيت في بعض كتب الله المنزلة أن الله تعالى يقول : أفني أعدائي بأعدائي ثم أفنيهم بأوليائي .

أو يقال : فقد أخبرنا أن الله عزّ وجلّ ولى المؤمنين بسبب محاسن أعمالهم ، ومثل ما ولاهم ليعزهم يولي بعض الظلمة بعضاً ليهينهم بسبب ما كانوا يتعاطونه من مساوئ الأعمال ورديء الخلال وغث الخصال فيؤديهم إلى مهلك الأوجاع والأوجال ، أو يقال : فقد بان أن كلاًّ من ظالمي الإنس والجن كان ولياً لكل ، وكما جعلنا بعضهم أولياء بعض في الدنيا نفعل إذا حشرناهم في النار فنجعل بعضهم أولياء – أي أتباع بعض ، ليستمتع بعضهم ببعض وينصر بعضهم بعضاً إن قدروا ، وهيهات منهم ذلك هيهات ! شغلهم البكاء والعويل والندم والنحيب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 716 . 717 ﴾

فصل

قال الفخر :

في الآية فوائد :

الفائدة الأولى : اعلم أنه تعالى لما حكى عن الجن والإنس أن بعضهم يتولى بعضاً بين أن ذلك إنما يحصل بتقديره وقضائه ، فقال : ﴿ وكذلك نُوَلِّي بَعْضَ الظالمين بَعْضاً ﴾ والدليل على أن الأمر كذلك أن القدرة صالحة للطرفين أعني العداوة والصداقة ، فلولا حصول الداعية إلى الصداقة لما حصلت الصداقة ، وتلك الداعية لا تحصل إلا بخلق الله تعالى قطعاً للتسلسل .

فثبت بهذا البرهان أنه تعالى هو الذي يولي بعض الظالمين بعضاً .

وبهذا التقرير تصير هذه الآية دليلاً لنا في مسألة الجبر والقدر .

الفائدة الثانية : أنه تعالى لما بين في أهل الجنة أن لهم دار السلام ، بين أنه تعالى وليهم بمعنى الحفظ والحراسة والمعونة والنصرة ، فكذلك لما بين حال أهل النار ذكر أن مقرهم ومثواهم النار ، ثم بين أن أولياءهم من يشبههم في الظلم والخزي والنكال وهذه مناسبة حسنة لطيفة .

الفائدة الثالثة : كاف التشبيه في قوله : ﴿ وكذلك نُوَلِّي ﴾ تقتضي شيئاً تقدم ذكره ،

والتقدير : كأنه قال كما أنزلت بالجن والإنس الذين تقدم ذكرهم العذاب الأليم الدائم الذي لا مخلص منه ﴿ كذلك نُوَلّي بَعْضَ الظالمين بَعْضاً ﴾ .

الفائدة الرابعة : ﴿ وكذلك نُوَلّي بَعْضَ الظالمين بَعْضاً ﴾ لأن الجنسية علة الضم ، فالأرواح الخبيثة تنضم إلى ما يشاكلها في الخبث ، وكذا القول في الأرواح الطاهرة ، فكل أحد يهتم بشأن من يشاكله في النصرة والمعونة والتقوية . والله أعلم .

فصل :

الآية تدل على أن الرعية متى كانوا ظالمين ، فالله تعالى يسلط عليهم ظالماً مثلهم فإن أرادوا أن يتخلصوا من ذلك الأمير الظالم فليتركوا الظلم وأيضاً الآية تدل على أنه لا بد في الخلق من أمير وحاكم ، لأنه تعالى إذا كان لا يخلي أهل الظلم من أمير ظالم ، فبأن لا يخلي أهل الصلاح من أمير يحملهم على زيادة الصلاح كان أولى .

قال علي رضي الله عنه : لا يصلح للناس إلا أمير عادل أو جائر ، فأنكروا قوله : أو جائر فقال : نعم يؤمن السبيل ، ويمكن من إقامة الصلوات ، وحج البيت .

وروي أن أبا ذر سأل الرسول صلى الله عليه وسلم الإمارة ، فقال له : " إنك ضعيف وإنها أمانة وهي في القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها " وعن مالك بن دينار : جاء في بعض كتب الله تعالى أنا الله مالك الملوك قلوب الملوك ونواصيها بيدي فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة لا تشغلوا أنفسكم بسب

الملوك لكن توبوا إلى أعطفهم عليكم .

أما قوله ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ فالمعنى نولي بعض الظالمين بعضاً بسبب كون ذلك البعض مكتسباً للظلم ، والمراد منه ما بينا أن الجنسية علة للضم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 158 . 159 ﴾ . بتصرف يسير .

*(6/251)*

---

وقال السمرقندى :

﴿ وكذلك نُوَلِّي بَعْضَ الظالمين بَعْضاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ .

هذا كلام لتهديد الظالم لكي يمتنع عن ظلمه .

لأنه لو لم يمتنع يسلط الله عليه ظالماً آخر .

ويدخل في الآية جميع من يظلم ومن ظلم في رعيته أو التاجر يظلم الناس في تجارته أو السارق وغيرهم .

وقال فضيل بن عياض : إذا رأيت ظالماً ينتقم من ظالم فقف وانظر فيه متعجباً .

وقال ابن عباس : إذا رضي الله عن قوم ولّى أمرهم خيارهم .

وإذا سخط الله على قوم ولّى أمرهم شرارهم بما كانوا يكسبون ، ثم تلا قوله ﴿ وكذلك

نُوَلِّى بَعْضَ الظالمين بَعْضاً ﴾ .

وعن مالك بن دينار قال : قرأت في بعض الكتب المنزلة أن الله تعالى يقول : إني أنا الله مالك الملوك قلوب الملوك بيدي ونواصيها بيدي فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك ولكن توبوا إليّ أجعلهم عليكم رحمة .

ثم قال : ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ يعني : يسلط بعضهم على بعض بأعمالهم الخبيثة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وكذلك نُوَلِّي بَعْضَ الظالمين بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

روي عن قتادة : يجعل بعضهم أولياء بعض . والمؤمن ولي المؤمن والكافر ولي الكافر حيث كان .

وروى معمر عن قتادة : تبع بعضهم بعضاً في النار من الموالاة .

وقيل : معناه نولي ظلمة الإنس ظلمة الجن ونولي ظلمة الجن ظلمة الإنس ، يعني نَكِلُ بعضهم إلى بعض كقوله ﴿ نُوَلِّهِ مَا تولى ﴾ [ النساء : 115 ] .

قال ابن زيد : نسلط بعضهم على بعض . يدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم : " من أعان ظالماً سلّطه الله عليه " .

وقال مالك بن دينار : قرأت في كتب اللّه المنزلة : إن اللّه تعالى قال : أُفني أعدائي بأعدائي ثم أُفنيهم بأوليائي .

(7/251)

---

وروى حيان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : تفسيرها : هو أن اللّه تعالى إذا أراد بقوم خيراً ولى أمرهم خيارهم وإذا أراد بقوم شراً ولى أمرهم شرارهم .

وفي الخبر : يقول اللّه : إني أنا اللّه لا إله إلاّ أنا مالك الملوك قلوبهم ونواصيهم فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة ، فلا تشتغلوا بسبّ الملوك ولكن توبوا إلى اللّه تعالى بعطفهم عليكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وكذلك نولي ﴾

قال قتادة ﴿ نولي ﴾ معناه نجعل بعضهم ولي بعض في الكفر والظلم .

قال القاضي أبو محمد : وهذا التأويل ما تقدم من ذكر الجن والإنس " واستمتاع بعضهم ببعض " ، وقال قتادة أيضاً : معنى ﴿ نولي ﴾ نتبع بعضهم بعضاً في دخول النار ، أي نجعل بعضهم يلي بعضاً ، وقال ابن زيد معناه نسلط بعض الظالمين على بعض ونجعلهم أولياء

النقمة منهم .

قال القاضي أبو محمد : وهذا التأويل لا تؤيده ألفاظ الآية المتقدمة ، أما أنه حفظ في استعمال الصحابة والتابعين من ذلك ما روي أن عبد الله بن الزبير لما بلغه أن عبد الملك بن مروان قتل عمرو بن سعيد الأشدق صعد المنبر فقال إن فم الذبان قتل لطيم الشيطان ﴿ وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وكذلك نوِلّي بعض الظالمين بعضاً ﴾

في معناه أربعة اقوال .

أحدها : نجعل بعضهم أولياء بعض ، رواه سعيد عن قتادة .

والثاني : نُتْبِعُ بعضهم بعضاً في النار بأعمالهم من الموالاة ، وهي المتابعة ، رواه معمر عن قتادة .

والثالث : نسلِّط بعضهم على بعض ، قاله ابن زيد .

والرابع : نكل بعضهم إلى بعض ولا نعينهم ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ أي : من المعاصي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وكذلك نُوَلِّي بَعْضَ الظالمين بَعْضاً ﴾

(8/251)

---

المعنى وكما فعلنا بهؤلاء مما وصفته لكم من استمتاع بعضِهم ببعض أجعل بعض الظالمين أولياء بعض ، ثم يتبرأ بعضهم من بعض غداً .

ومعنى "نُوَلِّي" على هذا نجعل وليًّا .

قال ابن زيد : نسلّط ظلمة الجِنّ على ظلمة الإنس .

وعنه أيضاً : نسلّط بعض الظلمة على بعض فيهلكه ويذِلّه .

وهذا تهديد للظالم إن لم يمتنع من ظلمه سلّط الله عليه ظالما آخر .

ويدخل في الآية جميعُ مَن يظلم نفسه أو يظلم الرعية ، أو التاجر يظلم الناس في تجارته أو السارق وغيرهم .

وقال فُضيل بن عِياض : إذا رأيت ظالماً ينتقم من ظالم فقِف ، وانظر فيه متعجّباً .

وقال ابن عباس : إذا رضي الله عن قوم ولّى أمرهم خيارَهم ، وإذا سخِط الله على قوم ولّى أمرهم شرارهم .

وفي الخبر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من أعان ظالماً سلّطه الله عليه " وقيل : المعنى نَكِل بعضهم إلى بعض فيما يختارونه من الكفر ، كما نَكِلهم غداً إلى رؤسائهم الذين لا يقدرون على تخليصهم من العذاب .

أي كما نفعل بهم ذلك في الآخرة كذلك نفعل بهم في الدنيا .

وقد قيل في قوله تعالى : ﴿ نُوَلِّهِ مَا تولى ﴾ [ النساء : 115 ] : نَكله إلى ما وَكَل إليه نفسه .

قال ابن عباس : تفسيرها هو أن الله إذا أراد بقوم شرًّا وَلَّى أمرَهم شرارَهم .

يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [ الشورى : 30 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً ﴾ الكاف في كذلك كاف التشبيه تقتضي شيئاً تقدم ذكره فالتقدير كما أنزلت العذاب بالجن والإنس الذين استمتع بعضهم ببعض كذلك نولي بعض الظالمين بعضاً أي نسلط بعضهم على بعض فنأخذ من الظالم بالظالم كما جاء في الأثر : " من أعان ظالماً سلطه الله عليه " وقال قتادة : نجعل بعضهم أولياء بعض فالمؤمن ولي المؤمن حيث كان وأين كان والكافر ولي الكافر حيث كان وأين كان .

وفي رواية أخرى عن قتادة قال : يتبع بعضهم بعضاً في النار من الموالاة ، وقيل : معناه نولي ظلمة الإنس الجن وظلمة الجن ظلمة الإنس يعني نكل بعضهم إلى بعض .

وقال ابن عباس في تفسير هذه الآية وأن الله تعالى إذا أراد بقوم خيراً ولى عليهم خيارهم وإذا أراد بهم شراً ولي عليهم شرارهم فعلى هذا القول إن الرعية متى كانوا ظالمين سلط الله عز وجل عليهم ظالماً مثلهم فمن أراد أن يخلص من ظلم ذلك الظالم فليترك الظلم .

وقوله تعالى : ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ يعني يسلط عليهم من يظلمهم بسبب أعمالهم الخبيثة التي اكتسبوها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون ﴾

لما ذكر تعالى أنه ولى المؤمنين بمعنى أنه يحفظهم وينصرهم على أن الكافرين بعضهم أولياء بعض في الظلم والخزي .

قال قتادة : يجعل بعضهم ولي بعض في الكفر والظلم ، يريد ما تقدّم من ذكر الجنّ والإنس واستمتاع بعضهم ببعض .

وقال قتادة أيضاً : يتبع بعضهم بعضاً في دخول النار أي يجعل بعضهم يلي بعضاً في الدخول .

وقال ابن زيد : معناه نسلط ﴿ بعض الظالمين ﴾ على بعض ونجعلهم أولياء النقمة منهم ،

وهذا تأويل بعيد وحين قتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد الأشدق قال عبد الله بن الزبير : وصعد المنبر إن فم الذئاب قتل لطيم الشيطان وتلا ﴿ وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً ﴾ الآية .

وقال ابن عباس : تفسيرها أن الله إذا أراد بقوم شراً ولى عليهم شرارهم أو خيراً ولى عليهم خيارهم ، وفي بعض الكتب المنزلة أفني أعدائي بأعدائي ثم أفنيهم بأوليائي .

وقال إسماعيل الضرير : نترك المشركين إلى بعضهم في النصرة والمعونة والحاجة .

وقال الزمخشري : نخليهم حتى يتولى بعضهم بعضاً كما فعل الشياطين وغواة الإنس ، أو يجعل بعضهم أولياء بعض يوم القيامة وقرناءهم كما كانوا في الدنيا ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ من الكفر والمعاصي ؛ انتهى .

*(10/251)*

---

وقوله : نخليهم هو على طريقه الاعتزالي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وكذلك ﴾ أي مثلَ ما سبق من تمكين الجنِّ من إغواء الإنسِ وإضلالِهم ﴿ نُوَلِّى بَعْضَ الظالمين ﴾ من الإنس ﴿ بَعْضًا ﴾ آخرَ منهم أي نجعلهم بحيث يتولَّوْنهم بالإغواء

والإضلالِ أو نجعل بعضَهم قرناءَ بعضٍ في العذاب كما كانوا كذلك في الدنيا عند اقترافِ ما يؤدّي إليه من القبائح ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ بسبب ما كانوا مستمرّين على كسبه من الكفر والمعاصي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(11/251)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وكذلك ﴾ أي مثل ما سبق من تمكين الجن من إغواء الإنس وإضلالهم أو مثل ما سبق ﴿ نُوَلّى بَعْضَ الظالمين ﴾ من الإنس ﴿ بَعْضاً ﴾ آخر منهم أي نجعلهم بحيث يتولونهم ويتصرفون فيهم في الدنيا بالإغواء والإضلال وغير ذلك ، واستدل به على أن الرعية إذا كانوا ظالمين فالله تعالى يسلط عليهم ظالما مثلهم ، وفي الحديث : "كما تكونوا يولى عليكم" أو المعنى نجعل بعضهم قرناء بعض في العذاب كما كانوا كذلك في الدنيا عند اقتراف ما يؤدي إليه من القبائح كما قيل ، وروي مثله عن قتادة ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ أي بسبب ما كانوا مستمرين على كسبه من الكفر والمعاصي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

(12/251)

وقال صاحب روح البيان :

﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ أي : كما خذلنا عصاة الجن والإنس حتى استمتع بعضهم ببعض ﴿ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا ﴾ أي : نسلط بعضم على البعض فنأخذ من الظالم بالظالم ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ بسبب ما كانوا مستمرين على كسبه من الكفر والمعاصي وجاء "من أعان ظالماً سلطه الله عليه" وعن ابن عباس رضي الله عنهما "إذا أراد الله بقوم خيراً ولى أمرهم خيارهم وإذا أراد بقوم شراً ولى أمرهم شرارهم" وجاء في بعض الكتب الإلهية : إني أنا الله ملك الملوك قلوب الملوك بيدي فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة ومن عصاني جعلته عليه نقمة فلا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك ولكن توبوا إلى أعطفهم عليكم ، وفي الحديث : "الظالم عدل الله في الأرض ينتقم به ثم ينتقم منه" وفي المرفوع "يقول الله عز وجل أنتقم ممن أبغض بمن أبغض ثم أصير كلاً إلى النار" وفي الزبور : إني لأنتقم من المنافق بالمنافق ثم أنتقم من المنافقين جميعاً .

وقول القائل : كيف يجوز وصفه بالظلم وينسب إلى أنه عدل من الله تعالى ؟

جوابه أن المراد بالعدل هنا ما يقابل بالفضل ، فالعدل أن يعامل كل أحد بفعله إن خيراً فخير وإن شراً فشر والفضل أن يعفو مثلاً عن المسيء ، وهذا على طريق أهل السنة بخلاف المعتزلة فإنهم يوجبون عقوبة المسيىء ويدعون أن ذلك هو العدل ومن ثمة سموا أنفسهم أهل

العدل وإلى ما صار إليه أهل السنة يشير قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ﴾ (الأنبياء : 112) أي : لا تمهل الظالم ولا تتجاوز عنه ، بل عجل عقوبته لكن الله تعالى يمهل من يشاء ويتجاوز عمن يشاء ويعطي من يشاء لا يسأل عما يفعل كذا في "المقاصد الحسنة" للإمام السخاوي .

*(13/251)*

---

واعلم : أن الظلم مطلقاً مفسد للاستعداد الفطري الروحاني القابل للفيض الرباني ولذا لا ينجع في الظالم الكلام الحق وأكثر ما يكون من أرباب الرياسة للقدرة والغلبة وفي الحديث : "إن من أشراط الساعة إماتة الصلوات واتباع الشهوات وأن تكون الأمراء خونة والوزراء فسقة" فوثب سلمان فقال : بأبي وأمي أهذا كائن قال : "نعم يا سلمان عندها يذوب قلب المؤمن كما يذوب الملح في الماء ولا يستطيع أن يغير" قال أو يكون ذلك قال : "نعم يا سلمان إن أذل الناس يومئذٍ المؤمن يمشي بين أظهرهم بالمخافة إن تكلم أكلوه وإن سكت مات بغيظه" كذا في "روضة الأخبار"

اللهم احفظنا من الظلم والفساد إنك حافظ العباد والبلاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 3 صـ 134.135 ﴾

---

وقال ابن عاشور :

﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

وهو من تمام الاعتراض ، أو من تمام التذييل ، على ما تقدّم من الاحتمالين ، الواو للحال : اعتراضيّة ، كما تقدّم ، أو للعطف على قوله : ﴿ إنّ ربَّك حكيم عليم ﴾ [ الأنعام : 128 ] .

والإشارة إلى التولية المأخوذة من : ﴿ نولى ﴾ ، وجاء اسم الإشارة بالتّذكير لأنّ تأنيث التولية لفظي لا حقيقي ، فيجوز في إشارته مَا جاز في فِعله الرافع للظّاهر ، والمعنى : وكما ولّينا ما بين هؤلاء المشركين وبين أوليائهم نُولّي بين الظّالمين كلّهم بعضِهم مع بعض .

والتولية يجيء من الولاء ومن الوِلاية ، لأنّ كليهما يقال في فعله المتعدّي : ولَّى ، بمعنى جعل ولياً ، فهو من باب أعطى يتعدّى إلى مفعولين ، كذا فسّروه ، وظاهر كلامهم أنّه يقال : ولّيت ضَبَّة تميماً إذا حالفتَ بينهم ، وذلك أنَّه يقال : تَولَّتْ ضبةُ تميماً بمعنى حالفْتهم ، فإذا عدّي الفعل بالتضعيف قيل : ولَّيت ضَبة تميماً ، فهو من قبيل قوله : ﴿ نُوَلِّه ما تولّى ﴾ [ النساء : 115 ] أي نلزمه ما ألزم نفسه فيكون معنى : ﴿ نولى بعض الظالمين بعضاً ﴾ نجعل

بعضهم أولياء بعض ، ويكون ناظراً إلى قوله : ﴿ وقال أولياؤهم من الإنس ﴾ [ الأنعام : 128 ] .

وجعَل الفريقين ظالمين لأنّ الذي يتولّى قوماً يصير منهم ، فإذا جعل الله فريقاً أولياء للظّالمين فقد جعلهم ظالمين بالأخارة ، قال تعالى : ﴿ ولا تَركنوا إلى الذين ظلموا فتمسّكم النّار ﴾ [ هود : 113 ] وقال : ﴿ بعضهم أولياء بعض ومَن يتولَّهم منكم فإنَّه منهم إنّ الله لا يهدي القوم الظّالمين ﴾ [ المائدة : 51 ] .

ويقال : ولَّى ، بمعنى جعل والياً ، فيتعدّى إلى مفعولين من باب أعطى أيضاً ، يقال : وَلَّى عُمَرُ أبا عبيدة الشّام ، كما يقال : أولاه ، لأنَّه يقال : وَلِي أبو عبيدة الشّامَ ، ولذلك قال المفسّرون : يجوز أن يكون معنى : ﴿ نولي بعض الظالمين بعضاً ﴾ نجعل بعضَهم ولاة على بعض ، أي نسلّط بعضهم على بعض ، والمعنى أنّه جعل الجنّ وهم ظالمون مسلّطين على المشركين ، والمشركون ظالمون ، فكلّ يظلِم بمقدار سلطانه .

والمراد : بـ ﴿ الظالمين ﴾ في الآية المشركون ، كما هو مقتضى التّشبيه في قوله : ﴿ وكذلك ﴾ .

(15/251)

وقد تشمل الآية بطريق الإشارة كلّ ظالم ، فتدلّ على أنّ الله سلّط على الظالمِ من يظلمه ، وقد تأوّلها على ذلك عبد الله بن الزُبير أيّام دَعوته بمكّة فإنَّه لمَّا بلغه أنّ عبد الملك بن مروان قَتَل عَمْراً بنَ سعيد الأشدقَ بعد أن خرج عَمرو عليه ، صَعِد المنبر فقال : "ألاَ إنّ ابن الزّرقاء يعني عبدَ الملك بن مروان ؛ لأنّ مروان كان يلقّب بالأزرق وبالزرقاء لأنّه أزرق العينين قد قَتَل لَطِيم الشّيطان ﴿ وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون ﴾ .

ومن أجل ذلك قيل : إنْ لم يُقلع الظّالم عن ظلمه سُلّط عليه ظالم آخر .

قال الفخر : إنْ أراد الرّعيّة أن يتخلّصوا من أمير ظالم ؛ فليتركوا الظّلم .

وقد قيل :

ومَا ظَالمٌ إلاّ سَيُبْلَى بظَالِم

وقوله : ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ الباء للسببية ، أي جزاء على استمرار شركهم .

والمقصود من الآية الاعتبار والموعظة ، والتّحذير مع الاغترار بولاية الظّالمين .

وتوخي الأتباع صلاحَ المتبوعين .

وبيانُ سنّة من سنن الله في العالَمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

(16/251)

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ ﴾

أي : من الإنس : ﴿ بَعْضاً ﴾ أي : نجعلهم بحيث يتولونهم بالإغواء والإضلال ، كما فعل الشياطين وغواة الإنس ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي : بسبب ما كانوا مستمرين على كسبه من الكفر والمعاصي .

قال الرازي :

لأن الجنسية علة الضم . فالأرواح الخبيثة تنضم إلى ما يشاكلها في الخبث . وكذا القول في الأرواح الطاهرة ، فكل أحد يهتم بشأن من يشاكله في النصرة والمعونة والتقوية .

تنبيه :

قال السيوطي في " الإكليل " : الآية معنى حديث <كما تكونون يولَّى عليكم> ، أخرجه بن قانع في معجم الصحابة من حديث أبي بكرة . انتهى .

وأسند في " الجامع الصغير " تخريجه إلى الديلميّ في " الفردوس ) " عن أبي بكرة وإلى البيهقيّ ، عن أبي إسحاق السبيعيّ مرسلاً –ورمز له بالضعف– .

وأسند في " الدر المنثور " عن منصور بن الأسود قال : سألت الأعمش عن قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً ﴾ ما سمعتَهم يقولون فيه ؟ قال : سمعتُهم يقولون :

إذا فَسَدَ الناسُ أُمِّرَ عليهم شرارهم .

وأخرج نحوه عن مالك بن دينار وكعب والحسن .

قال أبو الليث السمرقندي في " تفسيره ) " : ويقال في معنى الآية : نسلط على بعض الظالمين بعضاً فيهلكه أو يذلّه . قال : وهذا كلام لتهديد الظالم ، لكي يمتنع عن ظلمه . ويدخل في الآية جميع من يظلم : من راع في رعيته ، وتاجر في تجارته ، وسارق ، وغيرهم .

قال الفضيل بن عياض : إذا رأيت ظالماً يَنتقم من ظالم ، فقف وانظر فيه متعجباً . انتهى .

*(17/251)*

---

وقال ابن كثير : معنى الآية الكريمة : كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أغوتهم من الجن ، كذلك نفعل بالظالمين ، نسلط بعضهم على بعض ، ونهلك بعضهم ببعض ، وننتقم من بعضهم ببعض ، جزاء على ظلمهم وبغيهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 503.504 ﴾

*(18/251)*

---

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

*(19/251)*

---

(لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ) أَيْ لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْمُتَذَكِّرِينَ السَّالِكِينَ صِرَاطَ رَبِّهِمُ الْمُسْتَقِيمَ - دُونَ غَيْرِهِمْ مِنْ مُتَّبِعِي سُبُلِ الشَّيْطَانِ - دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ بِسُلُوكِهِمْ صِرَاطَهُ الْمُوَصِّلَ إِلَيْهَا ، وَهُوَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَهُ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي آخِرِ الْآيَةِ ، فَهَذَا بَيَانُ جَزَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ ، فِي مُقَابِلِ مَا بَيَّنَ قَبْلَهُ مِنْ جَزَاءِ الْمُجْرِمِينَ بِقَوْلِهِ : (سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ) وَدَارُ السَّلَامِ هِيَ الْجَنَّةُ دَارُ الْجَزَاءِ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ ، أُضِيفَتْ إِلَى اسْمِ اللَّهِ (السَّلَامِ) كَمَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ السُّدِّيِّ وَعَزَاهُ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى الْحَسَنِ وَابْنِ زَيْدٍ أَيْضًا ، وَقِيلَ : إِنَّ السَّلَامَ مَصْدَرُ سَلِمَ كَالسَّلَامَةِ . وَالْإِضَافَةُ عَلَى التَّفْسِيرِ الْأَوَّلِ لِلتَّشْرِيفِ ، وَكَذَا لِلْإِيذَانِ بِسَلَامَةِ تِلْكَ الدَّارِ مِنَ الْعُيُوبِ وَسَلَامَةِ أَهْلِهَا مِنْ جَمِيعِ الْمُنَغِّصَاتِ وَالْكُرُوبِ ، خِلَافًا لِمَنْ زَعَمَ أَنَّ إِفَادَةَ هَذَا الْمَعْنَى خَاصَّةٌ بِجَعْلِ السَّلَامِ مَصْدَرًا كَالسَّلَامَةِ ، وَقَوْلُهُ : (عِنْدَ رَبِّهِمْ) تَقَدَّمَ مَعْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ مُقَابِلِهِ الَّذِي ذَكَرْنَا آنِفًا (وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) الضَّمِيرُ رَاجِعٌ إِلَى رَبِّهِمْ ، أَوِ السَّلَامِ عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّهُ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى . وَوَلِيُّهُمْ

مُتَوَلِّي أُمُورِهِمْ وَكَافِيهِمْ كُلَّ أَمْرٍ يَعْنِيهِمْ ، بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَهُ بِبَاعِثِ الْإِيمَانِ بِهِ وَالْإِذْعَانِ لِمَا

(20/251)

---

جَاءَ بِهِ رَسُولُهُ مِنْ أَعْمَالِ

الصَّلَاحِ الْمُزَكِّيَةِ لِأَنْفُسِهِمْ ، وَالْإِصْلَاحِ الْمُفِيدَةِ لِكُلِّ مَنْ يَعِيشُ مَعَهُمْ ، وَهَذِهِ الْوِلَايَةُ الْإِلَهِيَّةُ لِلْمُتَذَكِّرِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ تَشْمَلُ وِلَايَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَالْآيَةُ نَافِيَةٌ لِلْقَوْلِ بِالْجَبْرِ ، وَمُبْطِلَةٌ لِلْقَوْلِ بِإِنْكَارِ الْقَدَرِ بِصَرَاحَتِهَا بِنَوْطِ الْجَزَاءِ بِالْعَمَلِ ، فَإِسْنَادُ الْعَمَلِ إِلَيْهِمْ يَنْفِي الْجَبْرَ ، وَنَوْطُ الْجَزَاءِ بِهِ يُثْبِتُ الْقَدَرَ الَّذِي هُوَ جَعْلُ شَيْءٍ مُرَتَّبًا عَلَى شَيْءٍ آخَرَ مُقَدَّرًا بِقَدَرِهِ ، وَلَيْسَ خَلْقًا أُنُفًا ، أَيْ مُبْتَدَأً وَمُسْتَأْنَفًا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ .

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ

الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)

(21/251)

اشْتَمَلَ سِيَاقُ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ لِهَذِهِ الْآيَاتِ عَلَى وَعِيدٍ بِمَا أَعَدَّ اللَّهُ مِنَ الْعَذَابِ لِلْمُجْرِمِينَ ، وَوَعْدٍ بِالنَّعِيمِ فِي دَارِ السَّلَامِ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي إِثْرِ بَيَانِ أَحْوَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمُ الَّتِي اسْتَحَقَّ بِهَا كُلٌّ مِنْهُمَا جَزَاءَهُ . وَقَفَّى عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ بِذِكْرِ مَا يَكُونُ قَبْلَ ذَلِكَ الْجَزَاءِ مِنَ الْحَشْرِ ، وَبَعْضِ مَا يَكُونُ فِي يَوْمِهِ مِنَ الْحِسَابِ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَى الْكُفَّارِ ، وَسُنَّةِ اللَّهِ فِي إِهْلَاكِ الْأُمَمِ ، وَجَعْلِ دَرَجَاتِ الْجَزَاءِ بِالْعَمَلِ ، قَالَ : (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ) قَرَأَ حَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ وَرَوْحٌ عَنْ يَعْقُوبَ "يَحْشُرُهُمْ" بِالْيَاءِ وَالْبَاقُونَ "نَحْشُرُهُمْ" بِنُونِ الْعَظَمَةِ . وَالْمَعْشَرُ الْجَمَاعَةُ الَّذِينَ يُعَاشِرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا . وَقَالَ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ : وَمَعْشَرُ الرَّجُلِ أَهْلُهُ . وَالْمَعْشَرُ الْجَمَاعَةُ مُتَخَالِطِينَ كَانُوا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ . قَالَ ذُو الْأُصْبُعِ الْعُدْوَانِيُّ :

وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ زِيدٍ عَلَى مِائَةٍ . . . فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ طُرًّا فَكِيدُونِي

*(22/251)*

---

وَالْمَعْشَرُ وَالنَّفَرُ وَالْقَوْمُ وَالرَّهْطُ مَعْنَاهُمُ الْجَمْعُ لَا وَاحِدَ لَهُمْ مِنْ لَفْظِهِمْ لِلرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ . قَالَ : وَالْعَشِيرَةُ أَيْضًا لِلرِّجَالِ ، وَالْعَالَمُ أَيْضًا لِلرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ . وَقَالَ اللَّيْثُ : الْمَعْشَرُ

كُلُّ جَمَاعَةٍ أَمْرُهُمْ وَاحِدٌ نَحْوُ مَعْشَرِ الْمُسْلِمِينَ وَمَعْشَرِ الْمُشْرِكِينَ ، وَالْمَعْشَرُ جَمَاعَاتُ النَّاسِ انْتَهَى . ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الْمَعْشَرَ يُطْلَقُ عَلَى الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَاسْتَشْهَدَ بِالْآيَةِ (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ) وَإِنَّمَا سُمِّيَ كُلٌّ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لِأَنَّهُمْ جَمَاعَةٌ مِنْ عُقَلَاءِ الْخَلْقِ . وَلَيْسَ الْمَعْنَى أَنَّ لَفْظَ الْمَعْشَرِ مُرَادِفٌ لِلَفْظِ الْإِنْسِ وَلِلَفْظِ الْجِنِّ وَإِنَّمَا يُضَافُ إِلَيْهِ إِضَافَةً بَيَانِيَّةً . وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْمُعَاشَرَةِ . وَنَقَلَ الْآلُوسِيُّ عَنِ الطَّبَرْسِيِّ أَنَّ الْمَعْشَرَ " الْجَمَاعَةُ التَّامَّةُ مِنَ الْقَوْمِ الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَى أَصْنَافِ الطَّوَائِفِ وَمِنْهُ الْعَشَرَةُ لِأَنَّهُ تَمَامُ الْعَقْدِ " انْتَهَى . وَهُوَ قَوْلٌ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ وَلَا نَقْلَ يُثْبِتُهُ فِيمَا نَعْلَمُ .

(23/251)

---

تَكَرَّرَ فِي التَّنْزِيلِ مِثْلُ هَذَا التَّعْبِيرِ فِي التَّذْكِيرِ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالْإِعْلَامِ بِمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْأَهْوَالِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ يُونُسَ : (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ) (10 : 28) وَقَوْلُهُ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ : (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) (25 : 17) الْآيَةَ . وَقَوْلُهُ فِيهَا : (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ 25) الْآيَاتِ . وَقَوْلُهُ فِي سُورَةِ الْقَصَصِ : (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ) (28 : 62 . 65 . 47) الْآيَاتِ . وَجُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ يَجْعَلُونَ كَلِمَةَ "يَوْمٍ" فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْآيَاتِ مَفْعُولًا لِفِعْلٍ

مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ ، " وَاذْكُرْ " ، وَهُوَ خِطَابٌ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَيْ وَاذْكُرْ لَهُمْ فِيمَا تَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ يَكُونُ كَذَا وَكَذَا ، لِأَنَّ هَذَا مَعْهُودٌ وَمَعْرُوفٌ عِنْدَهُمْ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ) (19 : 41) وَأَمْثَالُهُ بَعْدَهُ . وَبَعْضُهُمْ يَجْعَلُهُ ظَرْفًا لِفِعْلٍ مُقَدَّرٍ إِنْ لَمْ يُوجَدْ بَعْدَهُ مَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ عَامِلًا فِيهِ مَذْكُورًا أَوْ مُقَدَّرًا ، وَمِنْهُ فِعْلُ الْقَوْلِ الْمُقَدَّرِ هُنَا قَبْلَ النِّدَاءِ فَيُقَالُ هُنَا :

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَقُولُ لِمَعْشَرِ الْجِنِّ مِنْهُمْ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ .

فَالضَّمِيرُ فِي " يَحْشُرُهُمْ " لِلْجِنِّ وَالْإِنْسِ الَّذِينَ سَبَقَ ذِكْرُهُمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ بِقَوْلِهِ :

*(24/251)*

---

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ) (100) وَقَوْلُهُ : (شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ) (112) وَهُوَ أَقْرَبُ ، وَالشَّيَاطِينُ هُمُ الْأَشْرَارُ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ ، فَهُمُ الْمُرَادُونَ هُنَا لِأَنَّ الْخِطَابَ لَهُمْ لَا لِجَمِيعِ الْجِنِّ . وَفِيمَنْ ضَلَّ مِنَ الْإِنْسِ بِهِمْ لَا فِي جَمِيعِ الْإِنْسِ . قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ : يَعْنِي الْجِنَّ وَأَوْلِيَاءَهُمْ مِنَ الْإِنْسِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَيَعُوذُونَ بِهِمْ وَيُطِيعُونَهُمْ وَيُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا . (قَالَ) وَمَعْنَى قَوْلِهِ : قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ - أَيْ مِنْ إِغْوَائِهِمْ وَإِضْلَالِهِمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ

عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ) (36 : 60 - 62) وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ) يَعْنِي أَضْلَلْتُمْ مِنْهُمْ كَثِيرًا . وَكَذَلِكَ قَالَ مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ . انْتَهَى . فَالِاسْتِكْثَارُ هُنَا أَخْذُ الْكَثِيرِ لَا طَلَبُهُ ، كَقَوْلِهِمُ اسْتَكْثَرَ الْأَمِيرُ مِنَ الْجُنُودِ ، أَيْ أَخَذَ كَثِيرًا ، وَفُلَانٌ مِنَ الطَّعَامِ أَيْ أَكَلَ كَثِيرًا . وَالْمُرَادُ أَنَّهُمُ اسْتَتْبَعُوهُمْ بِسَبَبِ إِضْلَالِهِمْ إِيَّاهُمْ فَحُشِرُوا مَعَهُمْ ؛ لِأَنَّ الْمُكَلَّفِينَ يُحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ مَنِ اتَّبَعُوهُمْ فِي الْحَقِّ وَالْخَيْرِ أَوْ فِي الْبَاطِلِ وَالشَّرِّ .

*(25/251)*

---

(وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ) أَوْلِيَاؤُهُمْ هُمُ الَّذِينَ تَوَلَّوْهُمْ . أَيْ أَطَاعُوهُمْ فِي وَسْوَسَتِهِمْ وَمَا أَلْقَوْهُ إِلَيْهِمْ مِنْ وَحْيِ الْغُرُورِ ، وَالِاسْتِمْتَاعُ طَلَبُ الشَّيْءِ لِجَعْلِهِ مَتَاعًا . أَوْ جَعْلِهِ مَتَاعًا بِالْفِعْلِ . وَالْمَتَاعُ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ انْتِفَاعًا طَوِيلًا مُمْتَدًّا وَإِنْ كَانَ قَلِيلًا ؛ لِأَنَّ أَصْلَ مَعْنَاهُ الطُّولُ وَالِارْتِفَاعُ . أَيْ وَقَالَ الَّذِينَ تَوَلَّوُا الْجِنَّ مِنَ الْإِنْسِ فِي جَوَابِ الرَّبِّ تَعَالَى : يَا رَبَّنَا قَدِ تَمَتَّعَ كُلٌّ مِنَّا بِالْآخَرِ ، أَيْ بِمَا كَانَ لِلْجِنِّ مِنَ اللَّذَّةِ فِي إِغْوَائِنَا بِالْأَبَاطِيلِ وَأَهْوَاءِ الْأَنْفُسِ وَشَهَوَاتِهَا ، وَبِمَا كَانَ لَنَا فِي طَاعَةِ وَسْوَسَتِهِمْ مِنَ اللَّذَّةِ فِي اتِّبَاعِ الْهَوَى وَالِانْغِمَاسِ

فِي اللَّذَّاتِ . قَالَ الْحَسَنُ : وَمَا كَانَ اسْتِمْتَاعُ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ إلَّا أَنَّ الْجِنَّ أَمَرَتْ وَعَمِلَتِ الْإِنْسُ . وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : كَانَ الرَّجُلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَنْزِلُ بِالْأَرْضِ فَيَقُولُ : أَعُوذُ بِكَبِيرِ هَذَا الْوَادِي – فَذَلِكَ اسْتِمْتَاعُهُمْ فَاعْتَذَرُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . انْتَهَى . وَنَقَلَهُ ابْنُ كَثِيرٍ عَنِ ابْنِ جَرِيرٍ بِلَفْظِ : وَأَمَّا اسْتِمْتَاعُ الْجِنِّ بِالْإِنْسِ فَإِنَّهُ كَانَ فِيمَا ذُكِرَ مَا يَنَالُ الْجِنُّ مِنَ الْإِنْسِ مِنْ تَعْظِيمِهِمْ إيَّاهُمْ فِي اسْتِعَاذَتِهِمْ بِهِمْ فَيَقُولُونَ قَدْ سُدْنَا الْإِنْسَ وَالْجِنَّ انْتَهَى . وَمُقْتَضَاهُ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ يَظَلُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى خُرَافَاتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا فِي الدُّنْيَا ،

*(26/251)*

---

إذْ كَانُوا يَخَافُونَ مِنَ الْجِنِّ فِي أَسْفَارِهِمْ

وَيَسْتَعِيذُونَ بِعُظَمَائِهِمْ مِنْ أَذَى دَهْمَائِهِمْ . وَهُوَ مُسْتَبْعَدٌ وَأَبْعَدُ مِنْهُ اعْتِذَارُهُمْ بِهِ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَأَبْعَدُ مِنْهُمَا جَعْلُهُ هُوَ الْمُرَادَ مِنَ الْآيَةِ ، وَهِيَ عَامَّةٌ لِجَمِيعِ مَنِ اسْتَمْتَعَ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ بِالْآخَرِ مِمَّنْ كَانَ يَسْتَعِيذُ بِعُظَمَاءِ الْجِنِّ وَسَادَتِهِمْ مِنْ شِرَارِهِمْ فِي الْأَوْدِيَةِ كَعَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَمِمَّنْ لَا يَعْرِفُ

*(27/251)*

هَذَا مِنْ مُصَدِّقٍ بِوُجُودِ الْجِنِّ وَإِنْ لَمْ يَخَفْ مِنْهُمْ وَلَمْ يَسْتَعِذْ بِسَيِّدٍ مِنْ مَسُودٍ ، وَمِنْ مُكَذِّبٍ بِوُجُودِهِمْ أَوْ غَيْرِ مُصَدِّقٍ وَلَا مُكَذِّبٍ ، فَإِنَّ كُلَّ إِنْسِيٍّ يُوَسْوِسُ لَهُ شَيَاطِينُ الْجِنِّ مِمَّا يُزَيِّنُ لَهُ الْبَاطِلَ وَالشَّرَّ وَيُغْرِيهِ بِالْفِسْقِ وَالْفُجُورِ كَمَا تَقَدَّمَ مُفَصَّلًا . فَإِنَّ هَذَا الْخَلْقَ الْخَفِيَّ الَّذِي هُوَ مِنْ جِنْسِ الْأَرْوَاحِ الْبَشَرِيَّةِ يُلَابِسُهَا بِقَدْرِ اسْتِعْدَادِهَا لِلْبَاطِلِ وَالشَّرِّ ، وَيُقَوِّي فِيهَا دَاعِيَتَهُمَا كَمَا تُلَابِسُ جِنَّةُ الْحَيَوَانِ الْخَفِيَّةُ الْأَجْسَادَ الْحَيَوَانِيَّةَ فَتُفْسِدُ عَلَيْهَا مِزَاجَهَا وَتُوقِعُهَا فِي الْأَمْرَاضِ وَالْأَدْوَاءِ ، وَقَدْ مَرَّ عَلَى الْبَشَرِ أُلُوفٌ مِنَ السِّنِينَ وَهُمْ يَجْهَلُونَ طُرُقَ دُخُولِ هَذِهِ النَّسَمِ الْحَيَّةِ فِي أَجْسَادِهِمْ وَتَقْوِيَةِ الِاسْتِعْدَادِ لِلْأَمْرَاضِ وَالْأَدْوَاءِ فِيهَا ، بَلْ إِحْدَاثِ الْأَمْرَاضِ الْوَبَائِيَّةِ وَغَيْرِهَا بِالْفِعْلِ ، حَتَّى اكْتَشَفَهَا الْأَطِبَّاءُ فِي هَذَا الْعَصْرِ وَعَرَفُوا هَذِهِ الطُّرُقَ وَالْمَدَاخِلَ الْخَفِيَّةَ بِمَا اسْتَحْدَثُوا مِنَ الْمَنَاظِيرِ الَّتِي تُكَبِّرُ الصَّغِيرَ حَتَّى يُرَى أَكْبَرَ مِمَّا هُوَ عَلَيْهِ بِأُلُوفٍ مِنَ الْأَضْعَافِ ، وَلَوْ قِيلَ لِأَكْبَرِ أَطِبَّاءِ قُدَمَاءِ الْمِصْرِيِّينَ أَوِ الْهُنُودِ أَوِ الْيُونَانِ أَوِ الْعَرَبِ : إِنَّ فِي الْأَرْضِ أَنْوَاعًا مِنَ النَّسَمِ الْخَفِيَّةِ تَدْخُلُ الْأَجْسَادَ مِنْ خُرْطُومِ الْبَعُوضَةِ أَوِ الْبُرْغُوثِ أَوِ الْقَمْلَةِ وَمَعَ الْهَوَاءِ وَالْمَاءِ وَالطَّعَامِ ، وَتُنَمَّى فِيهَا بِسُرْعَةٍ عَجِيبَةٍ فَتَكُونُ أُلُوفَ الْأُلُوفِ ،

وَبِكَثْرَتِهَا تَتَوَلَّدُ الْأَمْرَاضُ وَالْأَوْبِئَةُ الْقَاتِلَةُ - لَقَالُوا إنَّ هَذَا الْقَوْلَ مِنْ تَخَيُّلَاتِ الْمَجَانِينِ . وَلَكِنَّ الْعَجَبَ لِمَنْ يُنْكِرُ مِثْلَ هَذَا فِي الْأَرْوَاحِ بَعْدَ اكْتِشَافِ ذَلِكَ فِي الْأَجْسَادِ ، وَأَمْرُ الْأَرْوَاحِ أَخْفَى ، فَعَدَمُ وُقُوفِهِمْ عَلَى مَا يُلَابِسُهَا أُلُوفًا مِنَ السِّنِينَ أَوْلَى . وَقَدْ رُوِيَ فِي الْآثَارِ مَا يَدُلُّ عَلَى جِنَّةِ الْأَجْسَامِ ، وَلَوْ صُرِّحَ بِهِ قَبْلَ اخْتِرَاعِ هَذِهِ الْمَنَاظِيرِ الَّتِي يُرَى بِهَا لَكَانَ فِتْنَةً لِكَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ بِمَا يَزِيدُهُمُ اسْتِبْعَادًا لِمَا جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ خَبَرِ الْجِنِّ . فَفِي الْحَدِيثِ : " تَنَكَّبُوا الْغُبَارَ فَإِنَّ مِنْهُ تَكُونُ النَّسَمَةُ " وَالنَّسَمَةُ فِي اللُّغَةِ كُلُّ مَا فِيهِ رُوحٌ ، وَفَسَّرَهُ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي الْحَدِيثِ بِالنَّفَسِ (بِالتَّحْرِيكِ) أَيْ تَوَاتُرُهُ الَّذِي يُسَمَّى الرَّبْوَ وَالتَّهَيُّجَ وَتَبِعَهُ شَارِحُ الْقَامُوسِ وَغَيْرُهُ ، وَهُوَ تَجَوُّزٌ لَا يُؤَيِّدُ الطِّبُّ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ مِنَ الْحَصْرِ ، وَرُوِيَ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ : اتَّقُوا غُبَارَ مِصْرَ فَإِنَّهُ يَتَحَوَّلُ فِي الصَّدْرِ إلَى نَسَمَةٍ . وَهُوَ بَعِيدٌ عَنْ تَأْوِيلِهِمْ ، وَظَاهِرٌ فِيمَا يَقُولُهُ الْأَطِبَّاءُ الْيَوْمَ ، وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الْحَدِيثِ الَّذِي تَأَوَّلُوهُ وَعَمْرٌو مِنْ فُصَحَاءِ قُرَيْشٍ جَهَابِذَةِ هَذَا اللِّسَانِ .

*(29/251)*

(وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ) أَيْ وَصَلْنَا بَعْدَ اسْتِمْتَاعِ بَعْضِنَا بِبَعْضٍ إلَى الْأَجَلِ الَّذِي حَدَّدْتَهُ لَنَا وَهُوَ يَوْمُ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ ، وَقَدِ اعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ، وَلَكَ الْأَمْرُ فِينَا . فَالْمُرَادُ مِنْ ذِكْرِ بُلُوغِ الْأَجَلِ لَازِمُهُ وَهُوَ إظْهَارُ الْحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ عَلَى مَا كَانَ مِنْ تَفْرِيطِهِمْ فِي الدُّنْيَا ، وَالِاضْطِرَارُ إلَى تَفْوِيضِهِمُ الْأَمْرَ إلَى الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا ، وَلَمْ يَذْكُرْ هُنَا قَوْلًا لِلْمَتْبُوعِينَ مِنَ الشَّيَاطِينِ ، وَعَلَّلَهُ بَعْضُهُمْ بِأَنَّ الِاقْتِصَارَ عَلَى حِكَايَةِ كَلَامِ الضَّالِّينَ دُونَ الْمُضِلِّينَ يُؤْذِنُ بِأَنَّ الْمُضِلِّينَ قَدْ أُفْحِمُوا فَلَمْ يَتَكَلَّمُوا ، وَالصَّوَابُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَذْكُرُ لَنَا بَعْضَ مَا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي آيٍ

مُتَفَرِّقَةٍ مِنْ سُوَرٍ مُتَعَدِّدَةٍ ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِهِ - وَهُوَ الْعِظَةُ وَالِاعْتِبَارُ - يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مُتَفَرِّقًا لِمَا بَيَّنَّاهُ مِنْ حِكْمَتِهِ فِي مَوَاضِعَ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ : وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي الْفَرِيقَيْنِ : (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ) (29 : 25) وَبَيَّنَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ كَيْفَ يَتَبَرَّأُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، وَقَالَ بَعْدَهُ : (كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ) (2 : 167) وَحَكَى فِي " سُورَةِ إبْرَاهِيمَ " أَقْوَالَ كُلٍّ مِنَ الضُّعَفَاءِ التَّابِعِينَ مِنَ النَّاسِ وَقَوْلَ الْمُتَكَبِّرِينَ الْمَتْبُوعِينَ لَهُمْ وَقَوْلَ الشَّيْطَانِ لِلْفَرِيقَيْنِ وَتَنَصُّلَهُ مِنِ اسْتِحْقَاقِ الْمَلَامِ وَكُفْرَهُ بِمَا أَشْرَكُوهُ .

*(30/251)*

بَعْدَ مَا تَقَدَّمَ يَنْتَظِرُ السَّامِعُ وَالْقَارِئُ جَوَابَ اللهِ تَعَالَى لَهُمْ وَقَدْ بَيَّنَهُ بِقَوْلِهِ : (قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ) النَّارُ : اسْمٌ لِدَارِ الْجَزَاءِ الْمُعَدَّةِ لِلْمُشْرِكِينَ وَالْمُجْرِمِينَ .

وَالْمَثْوَى : مَكَانُ الثَّوَاءِ وَالثَّوَاءُ نَفْسُهُ وَهُوَ الْإِقَامَةُ وَالسُّكْنَى . وَالْخُلُودُ : الْمُكْثُ الثَّابِتُ الطَّوِيلُ غَيْرُ الْمُؤَقَّتِ كَمُكْثِ أَهْلِ الْوَطَنِ فِي بُيُوتِهِمُ الْمَمْلُوكَةِ لَهُمْ فِيهِ ، أَيْ تَثْوُونَ فِيهَا ثَوَاءَ خُلُودٍ أَوْ مُقَدِّرِينَ الْخُلُودَ مُوَطِّنِينَ أَنْفُسَكُمْ عَلَيْهِ ، إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ تَعَالَى مِمَّا يُخَالِفُ ذَلِكَ فَكُلُّ شَيْءٍ بِمَشِيئَتِهِ . وَهَذَا الْجَزَاءُ يَقَعُ بِاخْتِيَارِهِ فَهُوَ مُقَيَّدٌ بِهَا ، فَإِنْ شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهُ كُلَّهُ أَوْ بَعْضَهُ عَنْكُمْ أَوْ عَنْ بَعْضِكُمْ فَعَلَ لِأَنَّ مَشِيئَتَهُ نَافِذَةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ تَتَعَلَّقُ بِهِ قُدْرَتُهُ الْكَامِلَةُ وَسُلْطَانُهُ الْأَعْلَى وَلَكِنْ هَلْ يَشَاءُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ أَمْ لَا ؟ ذَلِكَ مِمَّا يَعْلَمُهُ هُوَ سُبْحَانَهُ حَقَّ الْعِلْمِ وَحْدَهُ وَلَا يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ إِلَّا بِإِعْلَامِهِ . وَإِنَّمَا تَتَعَلَّقُ الْإِرَادَةُ بِمَا يَقْتَضِيهِ الْعِلْمُ وَالْحِكْمَةُ ، وَقَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : (إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) أَيْ حَكِيمٌ فِيمَا تَتَعَلَّقُ بِهِ مَشِيئَتُهُ مِنْ جَزَائِهِمُ الْمَنْصُوصِ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ ، عَلِيمٌ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ كُلٌّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ ، وَفِي هَذَا الِاسْتِثْنَاءِ

(31/251)

---

مَدْلُولُهُ وَتَأْوِيلُهُ وَغَايَتُهُ ، وَالْبَشَرُ لَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ . وَإِنَّمَا تَكَلَّمَ مَنْ تَكَلَّمَ فِي الِاسْتِثْنَاءِ هُنَا وَفِي سُورَةِ هُودٍ بِالتَّأَوُّلِ لِلْآيَاتِ الْوَارِدَةِ فِي الْجَزَاءِ وَالْجَمْعِ بَيْنَهَا

لِلْجَزْمِ بِأَنَّ الِاخْتِلَافَ وَالتَّعَارُضَ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى مُحَالٌ . وَكَذَا يُتَأَوَّلُ مَا وَرَدَ فِي الْأَحَادِيثِ الْمُبَيِّنَةِ لِمَا أَنْزَلَهُ تَعَالَى ، وَمِنْهَا أَحَادِيثُ سَبْقِ الرَّحْمَةِ وَغَلَبِهَا عَلَى الْغَضَبِ وَسَعَتِهَا لِكُلِّ شَيْءٍ وَعُمُومِهَا .

أَمَّا مَا وَرَدَ فِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ فِي الِاسْتِثْنَاءِ هُنَا فَيُؤَيِّدُ مَا جَرَيْنَا عَلَيْهِ مِنْ تَفْوِيضِ الْأَمْرِ فِيهِ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَعَدَمِ الْحُكْمِ عَلَى مَشِيئَتِهِ فِي هَذَا الْأَمْرِ الْغَيْبِيِّ ، وَهُوَ مَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَأَبُو الشَّيْخِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ آيَةٌ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَحْكُمَ عَلَى اللهِ فِي خَلْقِهِ ، لَا يُنْزِلُهُمْ جَنَّةً وَلَا نَارًا . وَأَمَّا الِاسْتِثْنَاءُ فِي سُورَةِ هُودٍ فَقَدْ ذَكَرُوا فِي تَأْوِيلِهِ عِدَّةَ رِوَايَاتٍ مِنْهَا قَوْلُ قَتَادَةَ : اللهُ أَعْلَمُ بِثُنْيَاهُ ، وَلِأَهْلِ التَّفْسِيرِ بِاللُّغَةِ وَالْجَمْعِ بَيْنَ النَّقْلِ وَالْعَقْلِ فِيهَا عِدَّةُ آرَاءٍ .

*(32/251)*

---

وَإِنَّنَا نَعْقِدُ لِبَيَانِ مَا وَرَدَ عَنِ السَّلَفِ فِي مَسْأَلَةِ أَبَدِيَّةِ النَّارِ بِالْمَعْنَى الَّذِي عَلَيْهِ الْمُتَكَلِّمُونَ وَهُوَ عَدَمُ النِّهَايَةِ وَالِانْقِضَاءِ ، وَمَا فِيهِ مِنَ الْمَذَاهِبِ وَالْآرَاءِ ، لِأَنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فِيهَا نَظَرِيَّاتٌ دَقِيقَةٌ ، وَرِوَايَاتٌ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ غَرِيبَةٌ ، وَشُبُهَاتٌ لِكَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ خَطِرَةٌ ، فَيَجِبُ التَّوَسُّعُ فِيهَا .

(فَصَلٌ فِي الْخِلَافِ فِي أَبَدِيَّةِ النَّارِ وَعَذَابِهَا) نُلَخِّصُ فِي هَذَا الْفَصْلِ أَوَّلًا مَا وَرَدَ فِي (الدُّرِّ الْمَنْثُورِ فِي التَّفْسِيرِ بِالْمَأْثُورِ) لِلسُّيُوطِيِّ مِنَ الرِّوَايَاتِ فِي آيَةِ هُودٍ ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى بَعْدَ تَقْسِيمِ النَّاسِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ إلَى شِقِّيٍّ وَسَعِيدٍ وَكَوْنِ الْأَشْقِيَاءِ فِي النَّارِ : (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) (11 : 107) وَنَبْدَأُ مِنْهَا بِحَدِيثٍ مَرْفُوعٍ انْفَرَدَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ بِرِوَايَتِهِ عَنْ جَابِرٍ وَهُوَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ الْآيَةَ إلَى قَوْلِهِ : (إلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) وَقَالَ : " إنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُخْرِجَ أُنَاسًا مِنَ الَّذِينَ شَقُوا مِنَ النَّارِ فَيُدْخِلَهُمُ الْجَنَّةَ فَعَلَ " .

(33/251)

---

وَمُقْتَضَاهُ أَنَّ الْوَعِيدَ فِي أَهْلِ النَّارِ مُقَيَّدٌ بِالْمَشِيئَةِ الْمُبْهَمَةِ بِخِلَافِ الْجَنَّةِ كَمَا سَيَأْتِي ، وَمَا ذُكِرَ فِي إخْرَاجِ أُنَاسٍ هَلْ يَجُوزُ فِي الْجَمِيعِ أَمْ لَا ؟ وَهَلِ الَّذِينَ شَقُوا فِي الْآيَةِ هُمُ الْكُفَّارُ أَمْ جَمِيعُ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ أَمْ هُمْ عُصَاةُ الْمُؤْمِنِينَ ؟ أَقُولُ : الْمُتَبَادَرُ فِي الْمَسْأَلَةِ الْأَخِيرَةِ الْأَوَّلُ كَمَا قَالَهُ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ وَسَيَأْتِي بَيَانُهُ ، وَفِيهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الْآيَةَ فِي أَهْلِ الْكَبَائِرِ الَّذِينَ يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ بِالشَّفَاعَاتِ . وَعَنْهُ فِي الِاسْتِثْنَاءِ

(34/251)

قَالَ : فَقَدْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُخَلِّدَ هَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَهَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ . وَعَنْ خَالِدِ بْنِ مَعْدَانَ فِي الِاسْتِثْنَاءِ قَالَ : فِي أَهْلِ التَّوْحِيدِ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ . وَمِثْلُهُ عَنِ الضَّحَّاكِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ وَلَا نَقُولُ كَمَا قَالَ أَهْلُ حَرُورَاءَ (أَيْ مِنَ الْخَوَارِجِ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِخُلُودِ أَصْحَابِ الْكَبَائِرِ) وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ اسْتِثْنَاءَ اللَّهِ أَنْ يَأْمُرَ النَّارَ أَنْ تَأْكُلَهُمْ . وَعَنِ السُّدِّيِّ أَنَّ الْآيَةَ مَنْسُوخَةٌ بِمَا دَلَّ مِنَ الْآيَاتِ الْمَدَنِيَّةِ عَلَى الْخُلُودِ الدَّائِمِ . وَعَنْ أَبِي نَضْرَةَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ أَوْ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَوْ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ : (إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) قَالَ : هَذِهِ الْآيَةُ قَاضِيَةٌ عَلَى الْقُرْآنِ كُلِّهِ ، يَقُولُ حَيْثُ كَانَ فِي الْقُرْآنِ (خَالِدِينَ فِيهَا) تَأْتِي عَلَيْهِ . وَعَنْ أَبِي نَضْرَةَ قَالَ : يَنْتَهِي الْقُرْآنُ كُلُّهُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ : (إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ : لَوْ لَبِثَ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ كَقَدْرِ رَمْلِ عَالِجٍ لَكَانَ لَهُمْ يَوْمٌ عَلَى ذَلِكَ يُخْرَجُونَ فِيهِ . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : سَيَأْتِي عَلَى جَهَنَّمَ يَوْمٌ لَا يَبْقَى فِيهَا أَحَدٌ . وَقَرَأَ (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا) (11 : 106) وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ مَا فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَرْجَى لِأَهْلِ النَّارِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ : (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا

شَاءَ رَبُّكَ) قَالَ : وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ :

لَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا زَمَانٌ تُخْفَقُ أَبْوَابُهَا . زَادَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْهُ : لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَا يَلْبَثُونَ فِيهَا أَحْقَابًا . وَعَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ : جَهَنَّمُ أَسْرَعُ الدَّارَيْنِ عُمْرَانًا وَأَسْرَعُهُمَا خَرَابًا . انْتَهَى التَّلْخِيصُ .

وَنَقَلَ الْآلُوسِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ : يَأْتِي عَلَى جَهَنَّمَ يَوْمٌ مَا فِيهَا مِنِ ابْنِ آدَمَ أَحَدٌ تُصْفَقُ أَبْوَابُهَا كَأَنَّهَا أَبْوَابُ الْمُوَحِّدِينَ .

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ بَعْدَ أَنْ أَوْرَدَ الْأَقْوَالَ فِي الْآيَةِ وَالرِّوَايَاتِ فِي كُلِّ قَوْلٍ ، وَقَالَ آخَرُونَ : أَخْبَرَنَا اللَّهُ بِمَشِيئَتِهِ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ فَعَرَفْنَا ثُنْيَاهُ بِقَوْلِهِ : (عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ) (11 : 108) أَنَّهَا فِي الزِّيَادَةِ عَلَى مُدَّةِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قَالَ : وَلَمْ يُخْبِرْنَا بِمَشِيئَتِهِ فِي أَهْلِ النَّارِ ، وَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ مَشِيئَتُهُ فِي الزِّيَادَةِ ، وَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ فِي النُّقْصَانِ اهـ .

وَقَدْ لَخَّصَ صَاحِبُ (جَلَاءِ الْعَيْنَيْنِ) مَا وَرَدَ فِي الدُّرِّ الْمَنْثُورِ مِنَ الرِّوَايَاتِ فِي انْتِهَاءِ عَذَابِ النَّارِ ثُمَّ قَالَ : وَفِي شَرْحِ عَقِيدَةِ الْإِمَامِ الطَّحَاوِيِّ بَعْدَ كَلَامٍ طَوِيلٍ مَا نَصُّهُ :

(السَّابِعُ) أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يُخْرِجُ مِنْهَا مَنْ شَاءَ كَمَا وَرَدَ فِي السُّنَّةِ ثُمَّ يُبْقِيهَا مَا يَشَاءُ ثُمَّ يُفْنِيهَا ، فَإِنَّهُ جَعَلَ لَهَا أَمَدًا تَنْتَهِي إِلَيْهِ . (الثَّامِنُ) أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُخْرِجُ مِنْهَا مَنْ شَاءَ - كَمَا وَرَدَ فِي السُّنَّةِ - وَيُبْقِي فِيهَا الْكُفَّارَ بَقَاءً لَا لِانْقِضَاءٍ كَمَا قَالَ الشَّيْخُ يَعْنِي الطَّحَاوِيَّ . وَمَا عَدَا هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ مِنَ الْأَقْوَالِ الْمُتَقَدِّمَةِ ظَاهِرُ الْبُطْلَانِ . وَهَذَانِ الْقَوْلَانِ لِأَهْلِ السُّنَّةِ وَلْيُنْظَرْ فِي دَلِيلِهِمَا . ثُمَّ أَوْرَدَ آيَةَ الْأَنْعَامِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِ تَفْسِيرِهَا ثُمَّ آيَةَ هُودٍ الَّتِي لَخَّصْنَا مَا وَرَدَ فِيهَا بِمَا تَقَدَّمَ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَأَقُولُ : عَلَى هَذِهِ الرِّوَايَاتِ بُنِيَتِ الْأَقْوَالُ وَالْمَذَاهِبُ فِي أَبَدِيَّةِ النَّارِ وَعَدَمِ نِهَايَتِهَا ، وَفِي ضِدِّهِ ، وَيَدْخُلُ فِيهِ أَنَّهَا تَفْنَى كَمَا تَقُولُ الْجَهْمِيَّةُ وَيَنْتَهِي عَذَابُهَا ، أَوْ يَتَحَوَّلُ إِلَى نَعِيمٍ كَمَا قَالَ الشَّيْخُ مُحْيِي الدِّينِ بْنُ عَرَبِيٍّ وَعَبْدُ الْكَرِيمِ الْجِيلِيُّ مِنَ الصُّوفِيَّةِ .

تَفْصِيلُ ابْنِ الْقَيِّمِ لِلْمَسْأَلَةِ :

وَقَدِ اسْتَوْفَى ذَلِكَ بِالْإِسْهَابِ الْمُحَقِّقُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي كِتَابِهِ (حَادِي الْأَرْوَاحِ) فَقَالَ :

(فَصْلٌ) وَأَمَّا أَبَدِيَّةُ النَّارِ وَدَوَامُهَا فَقَالَ فِيهَا شَيْخُ الْإِسْلَامِ : فِيهَا قَوْلَانِ مَعْرُوفَانِ عَنِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ وَالنِّزَاعُ فِي ذَلِكَ مَعْرُوفٌ عَنِ التَّابِعِينَ . قُلْتُ هَاهُنَا أَقْوَالٌ سَبْعَةٌ :

(أَحَدُهَا) أَنَّ مَنْ دَخَلَهَا لَا يَخْرُجُ مِنْهَا أَبَدًا ، بَلْ كُلُّ مَنْ دَخَلَهَا لَا يَخْرُجُ مِنْهَا أَبَدًا ، بَلْ كُلُّ مَنْ دَخَلَهَا مُخَلَّدٌ فِيهَا أَبَدَ الْآبَادِ بِإِذْنِ اللهِ وَهَذَا قَوْلُ الْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ .

(وَالثَّانِي) أَنَّ أَهْلَهَا يُعَذَّبُونَ فِيهَا مُدَّةً ثُمَّ تَنْقَلِبُ عَلَيْهِمْ وَتَبْقَى طَبِيعَةً نَارِيَّةً لَهُمْ يَتَلَذَّذُونَ بِهَا لِمُوَافَقَتِهَا لِطَبِيعَتِهِمْ . وَهَذَا قَوْلُ إِمَامِ الِاتِّحَادِيَّةِ ابْنِ عَرَبِيٍّ الطَّائِيِّ (قَالَ فِي فُصُوصِهِ) الثَّنَاءُ بِصِدْقِ الْوَعْدِ لَا بِصِدْقِ الْوَعِيدِ ، وَالْحَضْرَةُ الْإِلَهِيَّةُ تَطْلُبُ الثَّنَاءَ الْمَحْمُودَ بِالذَّاتِ فَيُثْنَى عَلَيْهَا بِصِدْقِ الْوَعْدِ لَا بِصِدْقِ الْوَعِيدِ بَلْ بِالتَّجَاوُزِ (فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ) (47 : 14)

لَمْ يَقُلْ وَعِيدَهُ ، بَلْ قَالَ : (وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ) (46 : 16) مَعَ أَنَّهُ تَوَعَّدَ عَلَى ذَلِكَ ، وَأَثْنَى عَلَى إِسْمَاعِيلَ بِأَنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ، وَقَدْ زَالَ الْإِمْكَانُ فِي حَقِّ الْحَقِّ لِمَا فِيهِ مِنْ طَلَبِ الْمُرَجِّحِ .

فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صَادِقُ الْوَعْدِ وَحْدَهُ وَمَا لِوَعِيدِ الْحَقِّ عَيْنٌ تُعَايِنُ وَإِنْ دَخَلُوا دَارَ الشَّقَاءِ فَإِنَّهُمْ عَلَى لَذَّةٍ فِيهَا نَعِيمٌ مُبَايِنٌ نَعِيمُ جِنَانِ الْخُلْدِ وَالْأَمْرُ وَاحِدٌ وَبَيْنَهُمَا عِنْدَ التَّجَلِّي تَبَايُنٌ يُسَمَّى عَذَابًا مِنْ عُذُوبَةِ طَعْمِهِ وَذَاكَ لَهُ كَالْقِشْرِ وَالْقِشْرُ صَايِنٌ

*(38/251)*

وَهَذَا فِي طَرَفٍ ، وَالْمُعْتَزِلَةُ الَّذِينَ يَقُولُونَ : لَا يَجُوزُ عَلَى اللهِ أَنْ يُخْلِفَ وَعِيدَهُ بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ تَعْذِيبُ مَنْ تَوَعَّدَهُ بِالْعَذَابِ فِي طَرَفٍ ، فَأُولَئِكَ عِنْدَهُمْ لَا يَنْجُو مِنَ النَّارِ مَنْ دَخَلَهَا أَصْلًا ، وَهَذَا عِنْدَهُ لَا يُعَذَّبُ بِهَا أَحَدًا أَصْلًا . وَالْفَرِيقَانِ مُخَالِفَانِ لِمَا عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ أَنَّ الرَّسُولَ جَاءَ بِهِ وَأَخْبَرَ بِهِ عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ .

(39/251)

---

(الثَّالِثُ) قَوْلُ مَنْ يَقُولُ : إنَّ أَهْلَهَا يُعَذَّبُونَ فِيهَا إلَى وَقْتٍ مَحْدُودٍ ثُمَّ يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَيَخْلُفُهُمْ فِيهَا قَوْمٌ آخَرُونَ ، وَهَذَا الْقَوْلُ حَكَاهُ الْيَهُودُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَكْذَبَهُمْ فِيهِ ، وَقَدْ أَكْذَبَهُمُ اللهُ تَعَالَى - فِي الْقُرْآنِ - فِيهِ فَقَالَ تَعَالَى : (وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (2 : 80 ، 81) وَقَالَ تَعَالَى : (أَلَمْ تَرَ إلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) (3 : 23 ، 24) فَهَذَا الْقَوْلُ إنَّمَا هُوَ قَوْلُ أَعْدَاءِ اللهِ الْيَهُودِ فَهُمْ شُيُوخُ أَرْبَابِهِ وَالْقَائِلِينَ بِهِ ، وَقَدْ دَلَّ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ وَإِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ

وَأَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ عَلَى فَسَادِهِ . قَالَ تَعَالَى : (وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ) (2 : 167) وَقَالَ : (وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ) (15 : 48) وَقَالَ : (كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا) (22 : 22) وَقَالَ تَعَالَى : (كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا) (32 : 20) وَقَالَ تَعَالَى : (لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا

*(40/251)*

---

يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا) (35 : 36) وَقَالَ تَعَالَى : (وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ) (7 : 40) وَهَذَا أَبْلَغُ مَا يَكُونُ فِي الْإِخْبَارِ عَنِ اسْتِحَالَةِ دُخُولِهِمُ الْجَنَّةَ .

(الرَّابِعُ) قَوْلُ مَنْ يَقُولُ : يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَتَبْقَى نَارًا عَلَى حَالِهَا لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ يُعَذَّبُ ، حَكَاهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ . وَالْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ أَيْضًا يَرُدَّانِ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ كَمَا تَقَدَّمَ .

(الْخَامِسُ) قَوْلُ مَنْ يَقُولُ : بَلْ تَفْنَى بِنَفْسِهَا لِأَنَّهَا حَادِثَةٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ وَمَا ثَبَتَ حُدُوثُهُ اسْتَحَالَ بَقَاؤُهُ وَأَبَدِيَّتُهُ . وَهَذَا قَوْلُ جَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ وَشِيعَتِهِ وَلَا فَرْقَ عِنْدَهُ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ .

(السَّادِسُ) قَوْلُ مَنْ يَقُولُ : تَفْنَى حَيَاتُهُمْ وَحَرَكَاتُهُمْ وَيَصِيرُونَ جَمَادًا لَا يَتَحَرَّكُونَ وَلَا

يُحِسُّونَ بِأَلَمٍ . وَهَذَا قَوْلُ أَبِي الْهُذَيْلِ الْعَلَّافِ إِمَامِ الْمُعْتَزِلَةِ طَرْدًا لِامْتِنَاعِ حَوَادِثَ لَا نِهَايَةَ لَهَا ، وَالْجَنَّةُ وَالنَّارُ عِنْدَهُ سَوَاءٌ فِي هَذَا الْحُكْمِ .

(السَّابِعُ) قَوْلُ مَنْ يَقُولُ : بَلْ يُفْنِيهَا رَبُّهَا وَخَالِقُهَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَإِنَّهُ جَعَلَ لَهَا أَمَدًا تَنْتَهِي إِلَيْهِ ثُمَّ تَفْنَى وَيَزُولُ عَذَابُهَا ، قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ وَقَدْ نُقِلَ هَذَا الْقَوْلُ عَنْ عُمَرَ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ وَغَيْرِهِمْ ، وَقَدْ رَوَى عَبْدُ

*(41/251)*

---

بْنُ حُمَيْدٍ وَهُوَ مِنْ أَجَلِّ أَئِمَّةِ الْحَدِيثِ فِي تَفْسِيرِهِ الْمَشْهُورِ : حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ ، عَنْ ثَابِتٍ ، عَنِ الْحَسَنِ ، قَالَ قَالَ عُمَرُ : لَوْ لَبِثَ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ كَقَدْرِ رَمْلِ عَالِجٍ لَكَانَ لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ يَوْمٌ يُخْرَجُونَ فِيهِ . وَقَالَ : حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ مِنْهَالٍ ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ ، عَنْ حُمَيْدٍ ، عَنِ الْحَسَنِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ : لَوْ لَبِثَ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ عَدَدَ رَمْلِ عَالِجٍ لَكَانَ لَهُمْ يَوْمٌ يُخْرَجُونَ فِيهِ . ذُكِرَ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ ثَابِتٍ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى : (لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا) (78 : 23) فَقَدْ رَوَاهُ عَبْدٌ وَهُوَ مِنَ الْأَئِمَّةِ الْحُفَّاظِ وَعُلَمَاءِ السُّنَّةِ عَنْ هَذَيْنِ الْجَلِيلَيْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ حَرْبٍ ، وَحَجَّاجِ بْنِ مِنْهَالٍ وَكِلَاهُمَا عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ وَحَسْبُكَ بِهِ ، وَحَمَّادٌ يَرْوِيهِ عَنْ ثَابِتٍ وَحُمَيْدٍ وَكِلَاهُمَا يَرْوِيهِ عَنِ الْحَسَنِ ،

وَحَسْبُكَ بِهَذَا الْإِسْنَادِ جَلَالَةً ، وَالْحَسَنُ وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ عُمَرَ فَإِنَّمَا رَوَاهُ عَنْ بَعْضِ التَّابِعِينَ ، وَلَوْ لَمْ يَصِحَّ عِنْدَهُ ذَلِكَ عَنْ عُمَرَ لَمَا جَزَمَ بِهِ وَقَالَ : قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّهُ لَمْ يَحْفَظْ عَنْ عُمَرَ فَتَدَاوَلَ هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةُ لَهُ غَيْرَ مُقَابِلِينَ لَهُ بِالْإِنْكَارِ وَالرَّدِّ ، مَعَ أَنَّهُمْ يُنْكِرُونَ عَلَى مَنْ خَالَفَ السُّنَّةَ بِدُونِ هَذَا ، فَلَوْ كَانَ هَذَا الْقَوْلُ عِنْدَ هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةِ مِنَ الْبِدَعِ الْمُخَالِفَةِ لِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ وَإِجْمَاعِ

(42/251)

---

الْأَئِمَّةِ لَكَانُوا أَوَّلَ مُنْكِرٍ لَهُ ، قَالَ : وَلَا رَيْبَ أَنَّ مَنْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ عَنْ عُمَرَ وَنَقَلَهُ عَنْهُ إِنَّمَا أَرَادَ بِذَلِكَ جِنْسَ أَهْلِ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا ، فَأَمَّا قَوْمٌ أُصِيبُوا بِذُنُوبِهِمْ فَقَدْ عَلِمَ هَؤُلَاءِ وَغَيْرُهُمْ أَنَّهُمْ يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَأَنَّهُمْ لَا يَلْبَثُونَ قَدْرَ رَمْلِ عَالِجٍ وَلَا قَرِيبًا مِنْهُ ، وَلَفْظُ أَهْلِ النَّارِ لَا يَخْتَصُّ بِالْمُوَحِّدِينَ ، بَلْ يَخْتَصُّ بِمَنْ عَدَاهُمْ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، (أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ) وَلَا يُنَاقِضُ هَذَا قَوْلَهُ تَعَالَى : (خَالِدِينَ فِيهَا) وَقَوْلَهُ : (وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ) بَلْ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ هُوَ الْحَقُّ وَالصِّدْقُ الَّذِي لَا يَقَعُ خِلَافُهُ ، لَكِنْ إِذَا انْقَضَى أَجَلُهَا وَفَنِيَتْ كَمَا تَفْنَى الدُّنْيَا لَمْ تَبْقَ نَارًا وَلَمْ يَبْقَ فِيهَا عَذَابٌ .

(43/251)

قَالَ أَرْبَابُ هَذَا الْقَوْلِ : وَفِي تَفْسِيرِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ الْوَالِبِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) قَالَ : لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَحْكُمَ عَلَى اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَلَا يُنْزِلَهُمْ جَنَّةً وَلَا نَارًا . قَالُوا : وَهَذَا الْوَعِيدُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لَيْسَ مُخْتَصًّا بِأَهْلِ الْقِبْلَةِ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ قَالَ : (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

*(44/251)*

---

وَأَوْلِيَاءُ الْجِنِّ مِنَ الْإِنْسِ يَدْخُلُ فِيهِ الْكُفَّارُ قَطْعًا ، فَإِنَّهُمْ أَحَقُّ بِمُوَالَاتِهِمْ مِنْ عُصَاةِ الْمُسْلِمِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : (إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) (7 : 27) وَقَالَ تَعَالَى : (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ) (16 : 99 ، 100) وَقَالَ تَعَالَى : (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ) (7 :

201 ، 202) وَقَالَ تَعَالَى : (أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ) (18 : 5) وَقَالَ تَعَالَى : (فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ) (4 : 76) وَقَالَ تَعَالَى : (أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (59 : 19) وَقَالَ تَعَالَى : (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ) (121) وَالِاسْتِثْنَاءُ وَقَعَ فِي الْآيَةِ الَّتِي أَخْبَرَتْ عَنْ دُخُولِ أَوْلِيَاءِ الشَّيَاطِينِ النَّارَ ، فَمِنْ هَاهُنَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَحْكُمَ عَلَى اللَّهِ فِي خَلْقِهِ .

*(45/251)*

---

(قَالُوا) : وَقَوْلُ مَنْ قَالَ : إِنَّ (إِلَّا) بِمَعْنَى سِوَى أَيْ سِوَى مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَزِيدَهُمْ مِنْ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ وَزَمَنِهِ لَا تَخْفَى مُنَافَرَتُهُ لِلْمُسْتَثْنَى وَالْمُسْتَثْنَى مِنْهُ ، وَأَنَّ الَّذِي يَفْهَمُهُ الْمُخَاطَبُ مُخَالَفَةُ مَا بَعْدَ (إِلَّا) لِمَا قَبْلَهَا .

(قَالُوا) : وَقَوْلُ مَنْ قَالَ : إِنَّهُ لِإِخْرَاجِ مَا قَبْلَ دُخُولِهِمْ إِلَيْهَا مِنَ الزَّمَانِ كَزَمَانِ الْبَرْزَخِ وَالْمَوْقِفِ وَمُدَّةِ الدُّنْيَا أَيْضًا لَا يُسَاعِدُ عَلَيْهِ وَجْهُ الْكَلَامِ ، فَإِنَّهُ اسْتِثْنَاءٌ مِنْ جُمْلَةٍ خَبَرِيَّةٍ مَضْمُونُهَا أَنَّهُمْ إِذَا دَخَلُوا النَّارَ لَبِثُوا فِيهَا مُدَّةَ دَوَامِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ الِاسْتِثْنَاءَ قَبْلَ الدُّخُولِ ، هَذَا مَا لَا يَفْهَمُهُ الْمُخَاطَبُ ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يُخَاطِبُهُمْ بِهَذَا

فِي النَّارِ حِينَ يَقُولُونَ : (رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا) فَيَقُولُ لَهُمْ حِينَئِذٍ : (النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) وَفِي قَوْلِهِ : (رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا) نَوْعُ اعْتِرَافٍ وَاسْتِسْلَامٍ وَتَحَسُّرٍ ، أَيِ اسْتَمْتَعَ الْجِنُّ بِنَا وَاسْتَمْتَعْنَا بِهِمْ فَاشْتَرَكْنَا فِي الشِّرْكِ وَدَوَاعِيهِ وَأَسْبَابِهِ ، وَآثَرْنَا الِاسْتِمْتَاعَ عَلَى طَاعَتِكَ وَطَاعَةِ رُسُلِكَ ، وَانْقَضَتْ آجَالُنَا وَذَهَبَتْ أَعْمَارُنَا فِي ذَلِكَ وَلَمْ نَكْتَسِبْ فِيهَا رِضَاكَ ، وَإِنَّمَا كَانَ غَايَةُ

(46/251)

---

أَمْرِنَا فِي مُدَّةِ آجَالِنَا اسْتِمْتَاعَ بَعْضِنَا بِبَعْضٍ ، فَتَأَمَّلْ مَا فِي هَذَا مِنَ الِاعْتِرَافِ بِحَقِيقَةِ مَا هُمْ عَلَيْهِ ، وَكَيْفَ بَدَتْ لَهُمْ تِلْكَ الْحَقِيقَةُ ذَلِكَ الْيَوْمَ وَعَلِمُوا أَنَّ الَّذِي كَانُوا فِيهِ فِي مُدَّةِ آجَالِهِمْ هُوَ حَظُّهُمْ مِنِ اسْتِمْتَاعِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ، وَلَمْ يَسْتَمْتِعُوا بِعِبَادَةِ رَبِّهِمْ وَمَعْرِفَتِهِ وَتَوْحِيدِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَإِيثَارِ مَرْضَاتِهِ . وَهَذَا مِنْ نَمَطِ

قَوْلِهِمْ : (لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) (67 : 10) وَقَوْلِهِ : (فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ) (67 : 11) وَقَوْلِهِ : (فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ) (28 : 75) وَنَظَائِرِهِ ، وَالْمَقْصُودُ أَنَّ قَوْلَهُ : (إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ) عَائِدٌ إِلَى هَؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ مُخْتَصًّا بِهِمْ أَوْ شَامِلًا لَهُمْ وَلِعُصَاةِ

الْمُوَحِّدِينَ ، وَأَمَّا اخْتِصَاصُهُ بِعُصَاةِ الْمُسْلِمِينَ دُونَ هَؤُلَاءِ فَلَا وَجْهَ لَهُ .

وَلَمَّا رَأَتْ طَائِفَةٌ ضَعْفَ هَذَا الْقَوْلِ قَالُوا : الِاسْتِثْنَاءُ رَاجِعٌ إلَى مُدَّةِ الْبَرْزَخِ وَالْمَوْقِفِ وَقَدْ تَبَيَّنَ ضَعْفُ هَذَا الْقَوْلِ .

*(47/251)*

---

وَرَأَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى أَنَّ الِاسْتِثْنَاءَ يَرْجِعُ إلَى نَوْعٍ آخَرَ مِنَ الْعَذَابِ غَيْرِ النَّارِ . قَالُوا وَالْمَعْنَى أَنَّكُمْ فِي النَّارِ أَبَدًا إلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَكُمْ بِغَيْرِهَا وَهُوَ الزَّمْهَرِيرُ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِلطَّاغِينَ مَآبًا لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا) (78 : 21 - 23) (قَالُوا) : وَالْأَبَدُ لَا يُقَدَّرُ بِالْأَحْقَابِ ، وَقَدْ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : لَيَأْتِيَنَّ عَلَى جَهَنَّمَ زَمَانٌ وَلَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَا يَلْبَثُونَ فِيهَا أَحْقَابًا ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مِثْلُهُ حَكَاهُ الْبَغَوِيُّ عَنْهُمَا ثُمَّ قَالَ : وَمَعْنَاهُ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ - إنْ ثَبَتَ - أَنَّهُ لَا يَبْقَى فِيهَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ .

*(48/251)*

---

(قَالُوا) : قَدْ ثَبَتَ ذَلِكَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَعَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ، وَقَدْ سَأَلَ حَرْبُ إِسْحَاقَ بْنَ رَاهَوَيْهِ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ فَقَالَ : سَأَلْتُ إِسْحَاقَ قُلْتُ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى : (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ) (11 : 107) فَقَالَ : أَتَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى كُلِّ وَعِيدٍ فِي الْقُرْآنِ . حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ مُعَاذٍ حَدَّثَنَا مُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ قَالَ : قَالَ أَبِي حَدَّثَنَا أَبُو نَضْرَةَ عَنْ جَابِرٍ أَوْ أَبِي سَعِيدٍ أَوْ بَعْضِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : هَذِهِ الْآيَةُ تَأْتِي فِي الْقُرْآنِ كُلِّهِ (إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) قَالَ الْمُعْتَمِرُ قَالَ : أَتَى عَلَى كُلِّ وَعِيدٍ فِي الْقُرْآنِ . حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ مُعَاذٍ حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ أَبِي بَلْجٍ سَمِعَ عَمْرَو بْنَ مَيْمُونٍ يُحَدِّثُ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : لَيَأْتِيَنَّ عَلَى جَهَنَّمَ يَوْمٌ تُصْفَقُ فِيهِ أَبْوَابُهَا لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ ، وَذَلِكَ بَعْدَ مَا يَلْبَثُونَ فِيهَا أَحْقَابًا . حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ ، حَدَّثَنَا أَبِي ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ ، عَنْ يَحْيَى بْنِ أَيُّوبَ ، عَنْ أَبِي زُرْعَةَ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : مَا أَنَا بِالَّذِي لَا أَقُولُ إِنَّهُ سَيَأْتِي عَلَى جَهَنَّمَ يَوْمٌ لَا يَبْقَى فِيهَا أَحَدٌ . وَقَرَأَ قَوْلَهُ : (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ) (11 : 106) الْآيَةَ . قَالَ عُبَيْدُ اللهِ : كَانَ أَصْحَابُنَا يَقُولُونَ : يَعْنِي بِهِ الْمُوَحِّدِينَ .

*(49/251)*

حَدَّثَنَا أَبُو مَعْنٍ ، حَدَّثَنَا وَهَبُ بْنُ جَرِيرٍ ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ ، عَنْ سُلَيْمَانَ التَّيْمِيِّ ، عَنْ أَبِي نَضْرَةَ ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَوْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ فِي قَوْلِهِ : (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ) قَالَ

هَذِهِ الْآيَةُ تَأْتِي عَلَى الْقُرْآنِ كُلِّهِ .

*(50/251)*

---

وَقَدْ حَكَى ابْنُ جَرِيرٍ هَذَا الْقَوْلَ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ السَّلَفِ فَقَالَ : " وَقَالَ آخَرُونَ : عَنَى بِذَلِكَ أَهْلَ النَّارِ وَكُلَّ مَنْ دَخَلَهَا ، ذِكْرُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ " ثُمَّ ذَكَرَ الْآثَارَ الَّتِي نَذْكُرُهَا . وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ : أَنْبَأَنَا ابْنُ التَّيْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي نَضْرَةَ عَنْ جَابِرٍ أَوْ أَبِي سَعِيدٍ أَوْ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ : (إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) قَالَ : هَذِهِ الْآيَةُ تَأْتِي عَلَى الْقُرْآنِ كُلِّهِ . يَقُولُ : حَيْثُ كَانَ فِي الْقُرْآنِ (خَالِدِينَ فِيهَا) تَأْتِي عَلَيْهِ ، قَالَ : وَسَمِعْتُ أَبَا مِجْلِزٍ يَقُولُ : هُوَ جَزَاؤُهُ ، فَإِنْ شَاءَ اللهُ تَجَاوَزَ عَنْ عَذَابِهِ ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ يَحْيَى ، أَنْبَأَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ فَذَكَرَهُ . قَالَ : وَحُدِّثْتُ عَنِ الْمُسَيَّبِ ، عَمَّنْ ذَكَرَهُ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ) قَالَ : لَا يَمُوتُونَ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ

رَبُّكَ ، قَالَ : اسْتَثْنَى اللهُ : قَالَ أَمَرَ اللهُ النَّارَ أَنْ تَأْكُلَهُمْ ، قَالَ وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : لَيَأْتِيَنَّ عَلَى جَهَنَّمَ زَمَانٌ تَخْفِقُ أَبْوَابُهَا لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ بَعْدَ مَا يَلْبَثُونَ فِيهَا أَحْقَابًا . حَدَّثَنَا ابْنُ حُمَيْدٍ ، حَدَّثَنَا جَرِيرٌ ، عَنْ بَيْسَانَ ، عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ : جَهَنَّمُ أَسْرَعُ الدَّارَيْنِ عُمْرَانًا وَأَسْرَعُهُمَا خَرَابًا . وَحَكَى ابْنُ جَرِيرٍ فِي ذَلِكَ قَوْلًا

(51/251)

---

آخَرَ فَقَالَ : وَقَالَ آخَرُونَ : أَخْبَرَنَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِمَشِيئَتِهِ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ فَعَرَفْنَا مَعْنَى ثُنْيَاهُ بِقَوْلِهِ : (عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ) (11 : 108) وَأَنَّهَا فِي الزِّيَادَةِ عَلَى مِقْدَارِ مُدَّةِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَالُوا : وَلَمْ يُخْبِرْنَا بِمَشِيئَتِهِ فِي أَهْلِ النَّارِ وَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ مَشِيئَتُهُ فِي الزِّيَادَةِ وَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ فِي النُّقْصَانِ ، حَدَّثَنِي يُونُسُ ، أَنْبَأَنَا ابْنُ وَهْبٍ ، قَالَ : قَالَ ابْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ) فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ (عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ) فَقَالَ : أَخْبَرَنَا بِالَّذِي يَشَاءُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ فَقَالَ : (عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ) وَلَمْ يُخْبِرْنَا بِالَّذِي يَشَاءُ لِأَهْلِ النَّارِ .

(52/251)

وَقَالَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ فِي تَفْسِيرِهِ : حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ أَحْمَدَ ، حَدَّثَنَا جُبَيْرُ بْنُ عَرَفَةَ ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ مَرْوَانَ الْخَلَّالُ ، حَدَّثَنَا أَبُو خُلَيْدٍ ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ ، يَعْنِي الثَّوْرِيَّ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ ، عَنْ جَابِرٍ قَالَ : قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ) (11 : 106 ، 107) قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنْ شَاءَ اللهُ أَنْ يُخْرِجَ أُنَاسًا مِنَ الَّذِينَ شَقُوا مِنَ النَّارِ فَيُدْخِلَهُمُ الْجَنَّةَ فَعَلَ " وَهَذَا الْحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الِاسْتِثْنَاءَ إِنَّمَا هُوَ لِلْخُرُوجِ مِنَ النَّارِ بَعْدَ دُخُولِهَا : خِلَافًا لِمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ قَبْلَ الدُّخُولِ ، وَلَكِنْ إِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى إِخْرَاجِ بَعْضِهِمْ مِنَ النَّارِ وَهَذَا حَقٌّ بِلَا رَيْبٍ ، وَهُوَ لَا يَنْفِي انْقِطَاعَهَا وَفَنَاءَ عَذَابِهَا وَأَكْلَهَا لِمَنْ فِيهَا وَأَنَّهُمْ يُعَذَّبُونَ

*(53/251)*

---

فِيهَا دَائِمًا مَا دَامَتْ كَذَلِكَ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ، فَالْحَدِيثُ دَلَّ عَلَى أَنَّ بَعْضَ الْأَشْقِيَاءِ إِنْ شَاءَ اللهُ أَنْ يُخْرِجَهُمْ مِنَ النَّارِ وَهِيَ نَارٌ فَعَلَ . وَأَنَّ الِاسْتِثْنَاءَ إِنَّمَا هُوَ فِيمَا بَعْدَ دُخُولِهَا لَا فِيمَا قَبْلَهُ ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ مَعْنَى الِاسْتِثْنَاءِ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ مِنَ الْأَشْقِيَاءِ فَإِنَّهُمْ لَا

يَخْلُدُونَ فِيهَا وَيَكُونُ الْأَشْقِيَاءُ نَوْعَيْنِ : نَوْعًا يَخْرُجُونَ مِنْهَا ، وَنَوْعًا يَخْلُدُونَ فِيهَا ، فَيَكُونُونَ مِنَ الَّذِينَ شَقُوا أَوَّلًا ثُمَّ يَصِيرُونَ مِنَ الَّذِينَ سُعِدُوا فَتَجْتَمِعُ لَهُمُ الشَّقَاوَةُ وَالسَّعَادَةُ فِي وَقْتَيْنِ .

قَالُوا : وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِلطَّاغِينَ مَآبًا لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا جَزَاءً وِفَاقًا إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا) (78 : 21 - 28) فَهَذَا صَرِيحٌ فِي وَعِيدِ الْكُفَّارِ وَالْمُكَذِّبِينَ بِآيَاتِهِ . وَلَا يُقَدَّرُ الْأَبَدِيُّ بِمُدَّةِ الْأَحْقَابِ وَلَا غَيْرِهَا . كَمَا لَا يُقَدَّرُ بِهِ الْقَدِيمُ ; وَلِهَذَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو فِيمَا رَوَاهُ شُعْبَةُ عَنْ أَبِي بَلْجٍ سَمِعَ عَمْرَو بْنَ مَيْمُونٍ يُحَدِّثُ عَنْهُ : لَيَأْتِيَنَّ عَلَى جَهَنَّمَ يَوْمٌ تُصْفَقُ فِيهِ أَبْوَابُهَا لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ وَذَلِكَ بَعْدَ مَا يَلْبَثُونَ فِيهَا أَحْقَابًا .

(فَصْلٌ وَالَّذِينَ قَطَعُوا بِدَوَامِ النَّارِ لَهُمْ سِتَّةُ طُرُقٍ)

*(54/251)*

---

أَحَدُهَا - اعْتِقَادُ الْإِجْمَاعِ فَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ هَذَا مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، وَأَنَّ الِاخْتِلَافَ فِيهِ حَادِثٌ وَهُوَ مِنْ أَقْوَالِ أَهْلِ الْبِدَعِ .

الطَّرِيقُ الثَّانِي - أَنَّ الْقُرْآنَ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ دَلَالَةً قَطْعِيَّةً ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ عَذَابٌ مُقِيمٌ

وَأَنَّهُ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ، وَأَنَّهُ لَنْ يَزِيدَهُمْ إِلَّا عَذَابًا ، وَأَنَّهُمْ خَالِدُونَ فِيهَا أَبَدًا وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ، وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ، وَأَنَّ اللهَ حَرَّمَ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ وَأَنَّهُمْ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ، وَأَنَّهُمْ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا . وَأَنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ، أَيْ مُقِيمًا لَازِمًا ، قَالُوا : وَهَذَا يُفِيدُ الْقَطْعَ بِدَوَامِهِ وَاسْتِمْرَارِهِ .

الطَّرِيقُ الثَّالِثُ – أَنَّ السُّنَّةَ الْمُسْتَفِيضَةَ أَخْبَرَتْ بِخُرُوجِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ دُونَ الْكُفَّارِ ، وَأَحَادِيثُ الشَّفَاعَةِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا صَرِيحَةٌ فِي خُرُوجِ عُصَاةِ الْمُوَحِّدِينَ مِنَ النَّارِ وَأَنَّ هَذَا حُكْمٌ مُخْتَصٌّ بِهِمْ ، فَلَوْ خَرَجَ الْكُفَّارُ مِنْهَا لَكَانُوا بِمَنْزِلَتِهِمْ وَلَمْ يَخْتَصَّ الْخُرُوجُ بِأَهْلِ الْإِيمَانِ .

الطَّرِيقُ الرَّابِعُ – أَنَّ الرَّسُولَ وَقَفَنَا عَلَى ذَلِكَ وَعَلِمْنَاهُ مِنْ دِينِهِ بِالضَّرُورَةِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ بِنَا إِلَى نَقْلٍ مُعَيَّنٍ كَمَا عَلِمْنَا مِنْ دِينِهِ دَوَامَ الْجَنَّةِ وَعَدَمَ فَنَائِهَا .

*(55/251)*

---

الطَّرِيقُ الْخَامِسُ – أَنَّ عَقَائِدَ السَّلَفِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ مُصَرِّحَةٌ بِأَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ مَخْلُوقَتَانِ وَأَنَّهُمَا لَا تَفْنَيَانِ بَلْ هُمْ دَائِمَتَانِ ، وَإِنَّمَا يَذْكُرُونَ فَنَاءَهُمَا عَنْ أَهْلِ الْبِدَعِ .

الطَّرِيقُ السَّادِسُ – أَنَّ الْعَقْلَ يَقْضِي بِخُلُودِ الْكُفَّارِ فِي النَّارِ ، وَهَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى قَاعِدَةٍ ، وَهِيَ أَنَّ الْمَعَادَ وَثَوَابَ النُّفُوسِ الْمُطِيعَةِ وَعُقُوبَةَ النُّفُوسِ الْفَاجِرَةِ هَلْ هُوَ مِمَّا يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ أَوْ لَا يُعْلَمُ إِلَّا بِالسَّمْعِ ؟ فِيهِ طَرِيقَتَانِ لِنُظَّارِ الْمُسْلِمِينَ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَذْهَبُ إِلَى أَنَّ ذَلِكَ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ مَعَ السَّمْعِ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ ، كَإِنْكَارِهِ سُبْحَانَهُ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُسَوِّي بَيْنَ الْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ فِي الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ ، وَعَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ خَلَقَ خَلْقَهُ عَبَثًا وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ لَا يُرْجَعُونَ ، وَأَنَّهُ يَتْرُكُهُمْ سُدًى أَيْ لَا يُثِيبُهُمْ وَلَا يُعَاقِبُهُمْ ، وَذَلِكَ يَقْدَحُ فِي حِكْمَتِهِ وَكَمَالِهِ وَأَنَّهُ نَسَبَهُ إِلَى مَا لَا يَلِيقُ بِهِ . وَرُبَّمَا قَرَّرُوهُ بِأَنَّ النُّفُوسَ الْبَشَرِيَّةَ بَاقِيَةٌ وَاعْتِقَادَاتِهَا وَصِفَاتِهَا لَازِمَةٌ لَهَا لَا تُفَارِقُهَا ، وَإِنْ نَدِمَتْ عَلَيْهَا لَمَّا رَأَتِ الْعَذَابَ فَلَمْ تَنْدَمْ عَلَيْهَا لِقُبْحِهَا أَوْ كَرَاهَةِ رَبِّهَا لَهَا ، بَلْ لَوْ فَارَقَهَا الْعَذَابُ رَجَعَتْ كَمَا كَانَتْ أَوَّلًا ، قَالَ تَعَالَى : (وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) (27 ، 28) فَهَؤُلَاءِ قَدْ ذَاقُوا الْعَذَابَ وَبَاشَرُوهُ وَلَمْ يَزَلْ سَبَبُهُ وَمُقْتَضِيهِ مِنْ نُفُوسِهِمْ ، بَلْ خُبْثُهَا قَائِمٌ بِهَا

لَمْ يُفَارِقْهَا بِحَيْثُ لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا كُفَّارًا كَمَا كَانُوا ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ دَوَامَ تَعْذِيبِهِمْ يَقْضِي بِهِ الْعَقْلُ كَمَا جَاءَ بِهِ السَّمْعُ .

(قَالَ أَصْحَابُ الْفَنَاءِ : الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الطُّرُقِ يُبَيِّنُ الصَّوَابَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ)

(فَأَمَّا الطَّرِيقُ الْأَوَّلُ) فَالْإِجْمَاعُ الَّذِي ادَّعَيْتُمُوهُ غَيْرُ مَعْلُومٍ ، وَإِنَّمَا يَظُنُّ الْإِجْمَاعَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ النِّزَاعَ ، وَقَدْ عُرِفَ النِّزَاعُ بِهَا قَدِيمًا وَحَدِيثًا ، بَلْ لَوْ كُلِّفَ مُدَّعِي الْإِجْمَاعِ أَنْ يَنْقُلَ عَنْ عَشَرَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ فَمَا دُونَهُمْ إلَى الْوَاحِدِ أَنَّهُ قَالَ إنَّ النَّارَ لَا تَفْنَى أَبَدًا لَمْ يَجِدْ إلَى ذَلِكَ سَبِيلًا ، وَنَحْنُ قَدْ نَقَلْنَا عَنْهُمُ التَّصْرِيحَ بِخِلَافِ ذَلِكَ فَمَا وَجَدْنَا عَنْ وَاحِدٍ مِنْهُمْ خِلَافَ ذَلِكَ ، بَلِ التَّابِعُونَ حَكَوْا عَنْهُمْ هَذَا وَهَذَا ، قَالُوا : وَالْإِجْمَاعُ الْمُعْتَدُّ بِهِ نَوْعَانِ ، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِمَا ، وَنَوْعٌ ثَالِثٌ مُخْتَلَفٌ فِيهِ ، وَلَمْ يُوجَدْ وَاحِدٌ مِنْهَا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ .

*(58/251)*

---

النَّوْعُ الْأَوَّلُ – مَا يَكُونُ مَعْلُومًا مِنْ ضَرُورَةِ الدِّينِ كَوُجُوبِ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ وَتَحْرِيمِ الْمُحَرَّمَاتِ الظَّاهِرَةِ . (الثَّانِي) مَا يُنْقَلُ عَنْ أَهْلِ الِاجْتِهَادِ التَّصْرِيحُ بِحُكْمِهِ . (الثَّالِثُ) أَنْ يَقُولَ بَعْضُهُمُ الْقَوْلَ وَيُنْشَرَ فِي الْأُمَّةِ وَلَا يُنْكِرَهُ أَحَدٌ ، فَأَيْنَ مَعَكُمْ وَاحِدٌ مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ ؟ وَلَوْ أَنَّ قَائِلًا

ادَّعَى الْإِجْمَاعَ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقِ وَاحْتَجَّ بِأَنَّ الصَّحَابَةَ صَحَّ عَنْهُمْ وَلَمْ يُنْكِرْ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَيْهِ لَكَانَ أَسْعَدَ بِالْإِجْمَاعِ مِنْكُمْ .

(قَالُوا : وَأَمَّا الطَّرِيقُ الثَّانِي) وَهُوَ دَلَالَةُ الْقُرْآنِ عَلَى بَقَاءِ النَّارِ وَعَدَمِ فَنَائِهَا ، فَأَيْنَ فِي الْقُرْآنِ دَلِيلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ ؟ نَعَمِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ أَنَّ الْكُفَّارَ خَالِدُونَ فِي النَّارِ أَبَدًا

(59/251)

---

وَأَنَّهُمْ غَيْرُ خَارِجِينَ مِنْهَا ، وَأَنَّهُ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ، وَأَنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا ، وَأَنَّ عَذَابَهُمْ فِيهَا مُقِيمٌ ، وَأَنَّهُ غَرَامٌ أَيْ لَازِمٌ لَهُمْ ، وَهَذَا كُلُّهُ مِمَّا لَا نِزَاعَ فِيهِ بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَيْسَ هَذَا مَوْرِدَ النِّزَاعِ وَإِنَّمَا النِّزَاعُ فِي أَمْرٍ آخَرَ ، وَهُوَ أَنَّهُ هَلِ النَّارُ أَبَدِيَّةٌ أَوْ مِمَّا كُتِبَ عَلَيْهِ الْفَنَاءُ ؟ وَأَمَّا كَوْنُ الْكُفَّارِ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا ، وَلَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ، وَلَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ، وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ، فَلَمْ يَخْتَلِفْ فِي ذَلِكَ الصَّحَابَةُ وَلَا التَّابِعُونَ وَلَا أَهْلُ السُّنَّةِ . وَإِنَّمَا خَالَفَ فِي ذَلِكَ مَنْ قَدْ حَكَيْنَا أَقْوَالَهُمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالِاتِّحَادِيَّةِ وَبَعْضِ أَهْلِ الْبِدَعِ ، وَهَذِهِ النُّصُوصُ وَأَمْثَالُهَا تَقْتَضِي خُلُودَهُمْ فِي دَارِ الْعَذَابِ مَا دَامَتْ بَاقِيَةً ، وَلَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا مَعَ بَقَائِهَا أَلْبَتَّةَ كَمَا يُخْرَجُ أَهْلُ التَّوْحِيدِ مِنْهَا مَعَ بَقَائِهَا ، فَالْفَرْقُ كَالْفَرْقِ بَيْنَ مَنْ يَخْرُجُ مِنَ الْحَبْسِ وَهُوَ حَبْسٌ عَلَى حَالِهِ وَبَيْنَ مَنْ يَبْطُلُ

حَبْسُهُ بِخَرَابِ الْحَبْسِ وَانْتِقَاضِهِ .

(قَالُوا : وَأَمَّا الطَّرِيقُ الثَّالِثُ) وَهُوَ مَجِيءُ السُّنَّةِ الْمُسْتَفِيضَةِ بِخُرُوجِ أَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنَ النَّارِ دُونَ أَهْلِ الشِّرْكِ فَهِيَ حَقٌّ لَا شَكَّ فِيهِ ، وَهِيَ إِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى مَا

*(60/251)*

---

قُلْنَاهُ مِنْ خُرُوجِ الْمُوَحِّدِينَ مِنْهَا وَهِيَ دَارُ عَذَابٍ لَمْ تَفْنَ ، وَيَبْقَى الْمُشْرِكُونَ فِيهَا مَا دَامَتْ بَاقِيَةً . وَالنُّصُوصُ دَلَّتْ عَلَى هَذَا وَعَلَى هَذَا .

(قَالُوا : وَأَمَّا الطَّرِيقُ الرَّابِعُ) وَهُوَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَفَنَا عَلَى ذَلِكَ ضَرُورَةً فَلَا رَيْبَ أَنَّهُ مِنَ الْمَعْلُومِ مِنْ دِينِهِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ الْكُفَّارَ بَاقُونَ فِيهَا مَا دَامَتْ بَاقِيَةً ، هَذَا مَعْلُومٌ مِنْ دِينِهِ بِالضَّرُورَةِ ، وَأَمَّا كَوْنُهَا أَبَدِيَّةً لَا انْتِهَاءَ لَهَا وَلَا تَفْنَى كَالْجَنَّةِ فَأَيْنَ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ دَلِيلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ .

(قَالُوا : وَأَمَّا الطَّرِيقُ الْخَامِسُ) وَهُوَ أَنَّ فِي عَقَائِدِ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ مَخْلُوقَتَانِ لَا تَفْنَيَانِ أَبَدًا فَلَا رَيْبَ أَنَّ الْقَوْلَ بِفَنَائِهِمَا قَوْلُ أَهْلِ الْبِدَعِ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ . وَهَذَا الْقَوْلُ لَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَلَا التَّابِعِينَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَمَّا فَنَاءُ النَّارِ وَحْدَهَا فَقَدْ وَجَدْنَا مَنْ قَالَ بِهِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَتَفْرِيقُهُمْ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَكَيْفَ يَكُونُ الْقَوْلُ بِهِ مِنْ أَقْوَالِ

أَهْلِ الْبِدَعِ مَعَ أَنَّهُ لَا يُعْرَفُ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ التَّفْرِيقُ بَيْنَ الدَّارَيْنِ ؟ فَقَوْلُكُمْ إِنَّهُ مِنْ أَقْوَالِ أَهْلِ الْبِدَعِ كَلَامُ مَنْ لَا خِبْرَةَ لَهُ بِمَقَالَاتِ بَنِي آدَمَ وَآرَائِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ .

(61/251)

---

قَالُوا : وَالْقَوْلُ الَّذِي يُعَدُّ مِنْ أَقْوَالِ أَهْلِ الْبِدَعِ مَا خَالَفَ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ وَإِجْمَاعَ الْأُمَّةِ أَوِ الصَّحَابَةِ أَوْ مَنْ بَعْدَهُمْ . وَأَمَّا قَوْلٌ يُوَافِقُ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَأَقْوَالَ الصَّحَابَةِ فَلَا يُعَدُّ مِنْ أَقْوَالِ أَهْلِ الْبِدَعِ وَإِنْ دَانُوا بِهِ وَاعْتَقَدُوهُ ، فَالْحَقُّ يَجِبُ قَبُولُهُ مِمَّنْ قَالَهُ ، وَالْبَاطِلُ يَجِبُ رَدُّهُ عَلَى مَنْ قَالَهُ . وَكَانَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ يَقُولُ : اللَّهُ حَكَمٌ قِسْطٌ هَلَكَ الْمُرْتَابُونَ . إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ فِتَنًا يَكْثُرُ فِيهَا الْمَالُ وَيُفْتَحُ فِيهَا الْقُرْآنُ حَتَّى يَقْرَأَهُ الْمُؤْمِنُ وَالْمُنَافِقُ ، وَالْمَرْأَةُ وَالصَّبِيُّ وَالْأَسْوَدُ وَالْأَحْمَرُ فَيُوشِكُ أَحَدُهُمْ أَنْ يَقُولَ قَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ فَمَا أَظُنُّ أَنْ يَتَّبِعُونِي حَتَّى أَبْتَدِعَ لَهُمْ غَيْرَهُ فَإِيَّاكُمْ وَمَا ابْتُدِعَ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَإِيَّاكُمْ وَزَيْغَةَ الْحَكِيمِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَتَكَلَّمُ عَلَى لِسَانِ الْحَكِيمِ بِكَلِمَةِ الضَّلَالَةِ ، وَإِنَّ الْمُنَافِقَ قَدْ يَقُولُ كَلِمَةَ الْحَقِّ ، فَتَلَقَّوُا الْحَقَّ عَمَّنْ جَاءَ بِهِ فَإِنَّ عَلَى الْحَقِّ نُورًا . قَالُوا : وَكَيْفَ زَيْغَةُ الْحَكِيمِ ؟ قَالَ : هِيَ الْكَلِمَةُ تَرُوعُكُمْ وَتُنْكِرُونَهَا وَتَقُولُونَ مَا هَذَا ؟ فَاحْذَرُوا زَيْغَهُ وَلَا تَصُدَّنَّكُمْ عَنْهُ فَإِنَّهُ يُوشِكُ

أَنْ يَفِيءَ وَأَنْ يُرَاجِعَ الْحَقَّ . وَإِنَّ الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ مَكَانَهُمَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَالَّذِي أَخْبَرَ بِهِ أَهْلُ السُّنَّةِ فِي عَقَائِدِهِمْ هُوَ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ السَّلَفُ أَنَّ

(62/251)

---

الْجَنَّةَ وَالنَّارَ مَخْلُوقَتَانِ ، وَأَنَّ أَهْلَ النَّارِ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا وَلَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَأَنَّهُمْ خَالِدُونَ فِيهَا . وَمَنْ ذَكَرَ

مِنْهُمْ أَنَّ النَّارَ لَا تَفْنَى أَبَدًا فَإِنَّمَا قَالَهُ لِظَنِّهِ أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ الْبِدَعِ قَالَ بِفَنَائِهَا وَلَمْ يَبْلُغْهُ تِلْكَ الْآثَارُ الَّتِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا .

(قَالُوا) : وَأَمَّا حُكْمُ الْعَقْلِ بِتَخْلِيدِ أَهْلِ النَّارِ فِيهَا فَإِخْبَارٌ عَنِ الْعَقْلِ بِمَا لَيْسَ عِنْدَهُ ، فَإِنَّ الْمَسْأَلَةَ مِنَ الْمَسَائِلِ الَّتِي لَا تُعْلَمُ إِلَّا بِخَبَرِ الصَّادِقِ ، وَأَمَّا أَصْلُ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ فَهَلْ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ مَعَ السَّمْعِ أَوْ لَا يُعْلَمُ إِلَّا بِالسَّمْعِ وَحْدَهُ ؟ فَفِيهِ قَوْلَانِ لِنُظَّارِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْعَقْلَ دَلَّ عَلَى الْمَعَادِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ إِجْمَالًا ، وَأَمَّا تَفْصِيلُهُ فَلَا يُعْلَمُ إِلَّا بِالسَّمْعِ ، وَدَوَامُ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ مِمَّا لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْعَقْلُ بِمُجَرَّدِهِ وَإِنَّمَا عُلِمَ بِالسَّمْعِ ، وَقَدْ دَلَّ السَّمْعُ دَلَالَةً قَاطِعَةً عَلَى دَوَامِ ثَوَابِ الْمُطِيعِينَ ، وَأَمَّا عِقَابُ الْعُصَاةِ فَقَدْ دَلَّ السَّمْعُ أَيْضًا دَلَالَةً قَاطِعَةً عَلَى انْقِطَاعِهِ فِي حَقِّ الْمُوَحِّدِينَ . وَأَمَّا دَوَامُهُ وَانْقِطَاعُهُ فِي

حَقِّ الْكُفَّارِ فَهَذَا مُعْتَرَكُ النِّزَالِ ، فَمَنْ كَانَ السَّمْعُ فِي جَانِبِهِ فَهُوَ أَسْعَدُ بِالصَّوَابِ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ .

(فَصْلٌ)

(63/251)

---

وَنَحْنُ نَذْكُرُ الْفَرْقَ بَيْنَ دَوَامِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ شَرْعًا وَعَقْلًا وَذَلِكَ يَظْهَرُ مِنْ وُجُوهٍ : (أَحَدُهَا) أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَخْبَرَ بِبَقَاءِ نَعِيمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَدَوَامِهِ وَأَنَّهُ لَا نَفَادَ لَهُ وَلَا انْقِطَاعَ ، وَأَنَّهُ غَيْرُ مَجْذُوذٍ . وَأَمَّا النَّارُ فَلَمْ يُخْبِرْ عَنْهَا بِأَكْثَرَ مِنْ خُلُودِ أَهْلِهَا فِيهَا وَعَدَمِ خُرُوجِهِمْ مِنْهَا ، وَأَنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ ، وَأَنَّهَا مُؤْصَدَةٌ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَّهُمْ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ، وَأَنَّ عَذَابَهَا لَازِمٌ لَهُمْ وَأَنَّهُ مُقِيمٌ عَلَيْهِمْ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ . وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْخَبَرَيْنِ ظَاهِرٌ .

(64/251)

---

الْوَجْهُ الثَّانِي – أَنَّ النَّارَ قَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي ثَلَاثِ آيَاتٍ عَنْهَا بِمَا يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ أَبَدِيَّتِهَا : الْأُولَى – قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : (قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ

رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) (6 : 128) وَالثَّانِيَةُ قَوْلُهُ : (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) (11 : 107) وَالثَّالِثَةُ قَوْلُهُ : (لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا) (78 : 23) وَلَوْلَا الْأَدِلَّةُ الْقَطْعِيَّةُ الدَّالَّةُ عَلَى أَبَدِيَّةِ الْجَنَّةِ وَدَوَامِهَا لَكَانَ حُكْمُ الِاسْتِثْنَاءِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ وَاحِدًا ، كَيْفَ وَفِي الْآيَتَيْنِ مِنَ السِّيَاقِ مَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الِاسْتِثْنَاءَيْنِ ؟ فَإِنَّهُ قَالَ فِي أَهْلِ النَّارِ : (إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) فَعَلِمْنَا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُرِيدُ أَنْ يَفْعَلَ فِعْلًا لَمْ يُخْبِرْنَا بِهِ ، وَقَالَ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ : (عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ) فَعَلِمْنَا أَنَّ هَذَا الْعَطَاءَ وَالنَّعِيمَ غَيْرُ مَقْطُوعٍ عَنْهُمْ أَبَدًا . فَالْعَذَابُ مُوَقَّتٌ مُعَلَّقٌ وَالنَّعِيمُ لَيْسَ بِمُوَقَّتٍ وَلَا مُعَلَّقٍ .

الْوَجْهُ الثَّالِثُ - أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ أَنَّ الْجَنَّةَ يَدْخُلُهَا مَنْ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ الَّذِينَ يُخْرِجُهُمُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ، وَأَمَّا النَّارُ فَلَمْ يَدْخُلْهَا مَنْ لَمْ يَعْمَلْ سُوءًا قَطُّ وَلَا يُعَذَّبُ إِلَّا مَنْ عَصَاهُ

.

*(65/251)*

---

الْوَجْهُ الرَّابِعُ - أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُنْشِئُ لِلْجَنَّةِ خَلْقًا آخَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُسْكِنُهُمْ إِيَّاهَا وَلَا يَفْعَلُ ذَلِكَ بِالنَّارِ ، وَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي قَدْ وَرَدَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ قَوْلِهِ : " وَأَمَّا النَّارُ فَيُنْشِئُ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا آخَرِينَ " فَغَلَطٌ وَقَعَ مِنْ بَعْضِ الرُّوَاةِ انْقَلَبَ عَلَيْهِ

الْحَدِيثُ وَإِنَّمَا هُوَ مَا سَاقَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْبَابِ نَفْسِهِ " وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَيُنْشِئُ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا آخَرِينَ " ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مُبَيِّنًا أَنَّ الْحَدِيثَ انْقَلَبَ لَفْظُهُ عَلَى مَنْ رَوَاهُ بِخِلَافِ هَذَا وَهَذَا . وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ لَا تُقَاسُ النَّارُ بِالْجَنَّةِ فِي التَّأْبِيدِ مَعَ هَذِهِ الْفُرُوقِ .

يُوَضِّحُهُ الْوَجْهُ الْخَامِسُ أَنَّ الْجَنَّةَ مِنْ مُوجِبِ رَحْمَتِهِ وَرِضَاهُ ، وَالنَّارَ مِنْ غَضَبِهِ وَسُخْطِهِ ، وَرَحْمَتُهُ سُبْحَانَهُ تَغْلِبُ غَضَبَهُ وَتَسْبِقُهُ كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ مَوْضُوعٌ عَلَى الْعَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي " وَإِذَا كَانَ رِضَاهُ قَدْ سَبَقَ غَضَبَهُ وَهُوَ يَغْلِبُهُ كَانَ التَّسْوِيَةُ بَيْنَ مَا هُوَ مِنْ مُوجِبِ رِضَاهُ وَمَا مِنْ مُوجِبِ غَضَبِهِ مُمْتَنِعًا .

*(66/251)*

---

يُوَضِّحُهُ الْوَجْهُ السَّادِسُ - أَنَّ مَا كَانَ بِالرَّحْمَةِ وَلِلرَّحْمَةِ فَهُوَ مَقْصُودٌ لِذَاتِهِ قَصْدَ الْغَايَاتِ ، وَمَا كَانَ مِنْ مُوجِبِ الْغَضَبِ وَالسُّخْطِ فَهُوَ مَقْصُودٌ لِغَيْرِهِ قَصْدَ الْوَسَائِلِ فَهُوَ مَسْبُوقٌ مَغْلُوبٌ مُرَادٌ لِغَيْرِهِ ، وَمَا كَانَ بِالرَّحْمَةِ فَغَالِبٌ سَابِقٌ مُرَادٌ لِنَفْسِهِ .

يُوَضِّحُهُ الْوَجْهُ السَّابِعُ - وَهُوَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَالَ لِلْجَنَّةِ : (أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ - وَقَالَ لِلنَّارِ : أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ) وَعَذَابُهُ مَفْعُولٌ مُنْفَصِلٌ وَهُوَ نَاشِئٌ عَنْ

غَضَبِهِ ، وَرَحْمَتُهُ هَاهُنَا هِيَ الْجَنَّةُ وَهِيَ رَحْمَةٌ مَخْلُوقَةٌ نَاشِئَةٌ عَنِ الرَّحْمَةِ الَّتِي هِيَ صِفَةُ الرَّحْمَنِ . فَهَاهُنَا أَرْبَعَةُ أُمُورٍ : رَحْمَةٌ هِيَ وَصْفُهُ سُبْحَانَهُ ، وَثَوَابٌ مُنْفَصِلٌ وَهُوَ نَاشِئٌ عَنْ رَحْمَتِهِ ، وَغَضَبٌ يَقُومُ بِهِ سُبْحَانَهُ ، وَعِقَابٌ مُنْفَصِلٌ يَنْشَأُ عَنْهُ . فَإِذَا غَلَبَتْ صِفَةُ الرَّحْمَةِ صِفَةَ الْغَضَبِ فَلِأَنْ يَغْلِبَ مَا كَانَ بِالرَّحْمَةِ لَمَا كَانَ بِالْغَضَبِ أَوْلَى وَأَحْرَى ، فَلَا تُقَاوِمُ النَّارُ الَّتِي نَشَأَتْ عَنِ الْغَضَبِ الْجَنَّةَ الَّتِي نَشَأَتْ عَنِ الرَّحْمَةِ .

يُوَضِّحُهُ الْوَجْهُ الثَّامِنُ – أَنَّ النَّارَ خُلِقَتْ تَخْوِيفًا لِلْمُؤْمِنِينَ وَتَطْهِيرًا لِلْخَاطِئِينَ

(67/251)

---

وَالْمُجْرِمِينَ ، فَهِيَ طُهْرَةٌ مِنَ الْخُبْثِ الَّذِي اكْتَسَبَتْهُ النَّفْسُ فِي هَذَا الْعَالَمِ ، فَإِنْ تَطَهَّرَتْ هَاهُنَا بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ وَالْحَسَنَةِ الْمَاحِيَةِ وَالْمَصَائِبِ الْمُكَفِّرَةِ لَمْ تَحْتَجْ إِلَى تَطْهِيرٍ هُنَاكَ ، وَقِيلَ لَهَا مَعَ جُمْلَةِ الطَّيِّبِينَ : (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ) (39 : 73) وَإِنْ لَمْ تَتَطَهَّرْ فِي هَذِهِ الدَّارِ وَوَافَتِ الدَّارَ الْأُخْرَى بِدَرَنِهَا وَنَجَاسَتِهَا وَخَبَثِهَا أُدْخِلَتِ النَّارَ طُهْرَةً لَهَا ، وَيَكُونُ مُكْثُهَا فِي النَّارِ بِحَسَبِ زَوَالِ ذَلِكَ الدَّرَنِ وَالْخُبْثِ وَالنَّجَاسَةِ الَّتِي لَا يَغْسِلُهَا الْمَاءُ ، فَإِذَا تَطَهَّرَتِ الطُّهْرَ التَّامَّ أُخْرِجَتْ مِنَ النَّارِ ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ عِبَادَهُ حُنَفَاءَ ، وَهِيَ فِطْرَةُ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، فَلَوْ خُلُّوا وَفِطْرَهُمْ لَمَا نَشَئُوا إِلَّا عَلَى التَّوْحِيدِ ،

وَلَكِنْ عُرِضَ لِأَكْثَرِ الْفِطَرِ مَا غَيَّرَهَا ; وَلِهَذَا كَانَ نَصِيبُ النَّارِ أَكْثَرَ مِنْ نَصِيبِ الْجَنَّةِ ، وَكَانَ هَذَا التَّغْيِيرُ مَرَاتِبَ لَا يُحْصِيهَا إلَّا اللَّهُ ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ يُذَكِّرُ عِبَادَهُ بِفِطْرَتِهِ الَّتِي فَطَرَهُمْ عَلَيْهَا ، فَعَرَفَ الْمُوَفَّقُونَ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ الْحُسْنَى صِحَّةَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَنَزَلَتْ بِهِ الْكُتُبُ بِالْفِطْرَةِ الْأُولَى ، فَتَوَافَقَ عِنْدَهُمْ شَرْعُ اللَّهِ وَدِينُهُ الَّذِي أَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ وَفِطْرَتُهُ الَّتِي فَطَرَهُمْ عَلَيْهَا ، فَمَنَعَتْهُمُ الشِّرْعَةُ الْمُنَزَّلَةُ وَالْفِطْرَةُ الْمُكَمَّلَةُ أَنْ تَكْتَسِبَ نُفُوسُهُمْ خَبَثًا وَنَجَاسَةً وَدَرَنًا

*(68/251)*

---

يَعْلَقُ بِهَا وَلَا يُفَارِقُهَا ، بَلْ كُلَّمَا أَلَمَّ بِهِمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ وَمَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ أَغَارُوا عَلَيْهِ بِالشِّرْعَةِ وَالْفِطْرَةِ فَأَزَالُوا مُوجِبَهُ وَأَثَرَهُ ، وَكَمَّلَ لَهُمُ الرَّبُّ تَعَالَى ذَلِكَ بِأَقْضِيَةٍ يَقْضِيهَا لَهُمْ مِمَّا يُحِبُّونَ أَوْ يَكْرَهُونَ تُمَحِّصُ عَنْهُمْ تِلْكَ الْآثَارَ الَّتِي شَوَّشَتِ الْفِطْرَةَ ، فَجَاءَ مُقْتَضَى الرَّحْمَةِ فَصَادَفَ مَكَانًا قَابِلًا مُسْتَعِدًّا لَهَا لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ يُدَافِعُهُ فَقَالَ هَا هُنَا أُمِرْتُ .

وَلَيْسَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ غَرَضٌ فِي تَعْذِيبِ عِبَادِهِ بِغَيْرِ مُوجِبٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى : (مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا) (4 : 147)

وَاسْتَمَرَّ الْأَشْقِيَاءُ مَعَ تَغْيِيرِ الْفِطْرَةِ وَنَقْلِهَا مِمَّا خُلِقَتْ عَلَيْهِ إلَى ضِدِّهِ حَتَّى اسْتَحْكَمَ الْفَسَادُ

وَتَمَّ التَّغْيِيرُ ، فَاحْتَاجُوا فِي إزَالَةِ ذَلِكَ إلَى تَغْيِيرٍ آخَرَ وَتَطْهِيرٍ يَنْقُلُهُمْ إلَى الصِّحَّةِ حَيْثُ لَمْ تَنْقُلْهُمْ آيَاتُ اللهِ الْمَتْلُوَّةُ وَالْمَخْلُوقَةُ وَأَقْدَارُهُ الْمَحْبُوبَةُ وَالْمَكْرُوهَةُ فِي هَذِهِ الدَّارِ ، فَأَتَاحَ لَهُمْ آيَاتٍ وَأَقْضِيَةً وَعُقُوبَاتٍ فَوْقَ الَّتِي كَانَتْ فِي الدُّنْيَا تَسْتَخْرِجُ ذَلِكَ الْخُبْثَ وَالنَّجَاسَةَ الَّتِي لَا تَزُولُ بِغَيْرِ النَّارِ ، فَإِذَا زَالَ مُوجِبُ الْعَذَابِ وَسَبَبُهُ زَالَ الْعَذَابُ وَبَقِيَ مُقْتَضَى الرَّحْمَةِ لَا مَعَارِضَ لَهُ .

*(69/251)*

---

فَإِنْ قِيلَ : هَذَا حَقٌّ وَلَكِنَّ سَبَبَ التَّعْذِيبِ لَا يَزُولُ إلَّا إذَا كَانَ السَّبَبُ عَارِضًا كَمَعَاصِي الْمُوَحِّدِينَ ، أَمَّا إذَا كَانَ لَازِمًا كَالْكُفْرِ وَالشِّرْكِ فَإِنَّ أَثَرَهُ لَا يَزُولُ كَمَا لَا يَزُولُ السَّبَبُ ، وَقَدْ أَشَارَ سُبْحَانَهُ إلَى هَذَا الْمَعْنَى بِعَيْنِهِ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ ، مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ) (6 : 28) فَهَذَا إخْبَارٌ بِأَنَّ نُفُوسَهُمْ وَطَبَائِعَهُمْ لَا تَقْتَضِي غَيْرَ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ وَأَنَّهَا غَيْرُ قَابِلَةٍ لِلْإِيمَانِ أَصْلًا . وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا) (17 : 72) فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ ضَلَالَهُمْ وَعَمَاهُمْ عَنِ الْهُدَى دَائِمٌ لَا يَزُولُ حَتَّى مَعَ مُعَايَنَةِ الْحَقَائِقِ الَّتِي أَخْبَرَتْ بِهَا الرُّسُلُ ، وَإِذَا كَانَ الْعَمَى وَالضَّلَالُ لَا يُفَارِقُهُمْ فَإِنَّ مُوجِبَهُ وَأَثَرَهُ ، وَمُقْتَضَاهُ لَا يُفَارِقُهُمْ ، وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَلَوْ

عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) (8 : 23) وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِمْ خَيْرٌ يَقْتَضِي الرَّحْمَةَ ، وَلَوْ كَانَ فِيهِمْ خَيْرٌ لَمَا ضَيَّعَ عَلَيْهِمْ أَثَرَهُ ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ لَا خَيْرَ فِيهِمْ هُنَاكَ أَيْضًا قَوْلُهُ : " أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ كُلَّ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ " فَلَوْ كَانَ عِنْدَ هَؤُلَاءِ أَدْنَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ لَخَرَجُوا مِنْهَا مَعَ الْخَارِجِينَ .

*(70/251)*

---

قِيلَ : لَعَمْرُ اللهِ إنَّ هَذَا لَمِنْ أَقْوَى مَا يُتَمَسَّكُ بِهِ فِي الْمَسْأَلَةِ ، وَإِنَّ الْأَمْرَ لَكَمَا قُلْتُمْ ، وَإِنَّ الْعَذَابَ يَدُومُ بِدَوَامِ مُوجِبِهِ وَسَبَبِهِ ، وَلَا رَيْبَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ فِي عَمًى وَضَلَالٍ كَمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا ، وَبَوَاطِنُهُمْ خَبِيثَةٌ كَمَا كَانَتْ فِي الدُّنْيَا ، وَالْعَذَابُ مُسْتَمِرٌّ عَلَيْهِمْ دَائِمٌ مَا دَامُوا كَذَلِكَ

.

وَلَكِنْ هَلْ هَذَا الْكُفْرُ وَالتَّكْذِيبُ وَالْخُبْثُ أَمْرٌ ذَاتِيٌّ لَهُمْ زَوَالُهُ مُسْتَحِيلٌ أَمْ هُوَ أَمْرٌ عَارِضٌ طَارِئٌ عَلَى الْفِطْرَةِ قَابِلٌ لِلزَّوَالِ ؟ هَذَا حَرْفُ الْمَسْأَلَةِ وَلَيْسَ بِأَيْدِيكُمْ مَا يَدُلُّ عَلَى اسْتِحَالَةِ زَوَالِهِ وَأَنَّهُ أَمْرٌ ذَاتِيٌّ . وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ فَطَرَ عِبَادَهُ عَلَى الْحَنِيفِيَّةِ ، وَأَنَّ الشَّيَاطِينَ اجْتَالَتْهُمْ عَنْهَا ، فَلَمْ يَفْطِرْهُمْ سُبْحَانَهُ عَلَى الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ كَمَا فَطَرَ الْحَيَوَانَ الْبَهِيمَ عَلَى طَبِيعَتِهِ ، وَإِنَّمَا فَطَرَهُمْ عَلَى الْإِقْرَارِ بِخَالِقِهِمْ وَمَحَبَّتِهِ وَتَوْحِيدِهِ ، فَإِذَا كَانَ هَذَا الْحَقُّ الَّذِي

فُطِرُوا عَلَيْهِ وَخُلِقُوا عَلَيْهِ قَدْ أَمْكَنَ زَوَالُهُ بِالْكُفْرِ وَالشِّرْكِ الْبَاطِلِ ، فَإِمْكَانُ زَوَالِ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ الْبَاطِلِ بِضِدِّهِ

(71/251)

---

مِنَ الْحَقِّ أَوْلَى وَأَحْرَى ، وَلَا رَيْبَ أَنَّهُمْ لَوْ رُدُّوا عَلَى تِلْكَ الْحَالِ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ . وَلَكِنْ مِنْ أَيْنَ لَكُمْ أَنَّ تِلْكَ الْحَالَ لَا تَزُولُ وَلَا تَتَبَدَّلُ بِنَشْأَةٍ أُخْرَى يُنْشِئُهُمْ فِيهَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَخَذَتِ النَّارُ مَأْخَذَهَا مِنْهُمْ وَحَصَلَتِ الْحِكْمَةُ الْمَطْلُوبَةُ مِنْ عَذَابِهِمْ ، فَإِنَّ الْعَذَابَ لَمْ يَكُنْ سُدًى وَإِنَّمَا كَانَ لِحِكْمَةٍ مَطْلُوبَةٍ . فَإِذَا حَصَلَتْ تِلْكَ الْحِكْمَةُ لَمْ يَبْقَ فِي التَّعْذِيبِ أَمْرٌ يُطْلَبُ وَلَا غَرَضٌ يُقْصَدُ ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ

(72/251)

---

لَيْسَ يَشْتَفِي بِعَذَابِ عِبَادِهِ كَمَا يَشْتَفِي الْمَظْلُومُ مِنْ ظَالِمِهِ ، وَهُوَ لَا يُعَذِّبُ عَبْدَهُ لِهَذَا الْغَرَضِ ، وَإِنَّمَا يُعَذِّبُهُ طُهْرَةً لَهُ وَرَحْمَةً بِهِ فَعَذَابُهُ مَصْلَحَةٌ لَهُ وَإِنْ تَأَلَّمَ بِهِ غَايَةَ التَّأَلُّمِ ، كَمَا أَنَّ عَذَابَهُ بِالْحُدُودِ فِي الدُّنْيَا مَصْلَحَةٌ لَأَرْبَابِهَا ، وَقَدْ سَمَّى اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْحَدَّ عَذَابًا وَقَدِ اقْتَضَتْ

حِكْمَتُهُ سُبْحَانَهُ أَنَّ جَعْلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً يُنَاسِبُهُ ، وَدَوَاءُ الدَّاءِ الْعُضَالِ يَكُونُ مِنْ أَشَقِّ الْأَدْوِيَةِ ، وَالطَّبِيبُ الشَّفِيقُ يَكْوِي الْمَرِيضَ بِالنَّارِ كَيًّا بَعْدَ كَيٍّ . لِيُخْرِجَ مِنْهُ الْمَادَّةَ الرَّدِيَّةَ الطَّارِئَةَ عَلَى الطَّبِيعَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ ، وَإِنْ رَأَى قَطْعَ الْعُضْوِ أَصْلَحَ لِلْعَلِيلِ قَطَعَهُ وَأَذَاقَهُ أَشَدَّ الْأَلَمِ ، فَهَذَا قَضَاءُ الرَّبِّ وَقَدَرُهُ فِي إِزَالَةِ مَادَّةٍ غَرِيبَةٍ طَرَأَتْ عَلَى الطَّبِيعَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ بِغَيْرِ اخْتِيَارِ الْعَبْدِ ، فَكَيْفَ إِذَا طَرَأَ عَلَى الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ مَوَادُّ فَاسِدَةٌ بِاخْتِيَارِ الْعَبْدِ وَإِرَادَتِهِ . وَإِذَا تَأَمَّلَ اللَّبِيبُ شَرْعَ الرَّبِّ وَقَدَرَهُ فِي الدُّنْيَا وَثَوَابَهُ وَعِقَابَهُ فِي الْآخِرَةِ وَجَدَ ذَلِكَ فِي غَايَةِ التَّنَاسُبِ وَالتَّوَافُقِ وَارْتِبَاطِ ذَلِكَ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ ; فَإِنَّ مَصْدَرَ الْجَمِيعِ عَنْ عِلْمٍ تَامٍّ ، وَحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ ، وَرَحْمَةٍ سَابِغَةٍ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ الْمُبِينُ وَمُلْكُهُ مُلْكُ رَحْمَةٍ وَإِحْسَانٍ وَعَدْلٍ .

*(73/251)*

---

الْوَجْهُ التَّاسِعُ – أَنَّ عُقُوبَتَهُ لِلْعَبْدِ لَيْسَتْ لِحَاجَتِهِ إِلَى عُقُوبَتِهِ ، وَلَا لِمَنْفَعَةٍ تَعُودُ إِلَيْهِ ، وَلَا لِدَفْعِ مَضَرَّةٍ وَأَلَمٍ يَزُولُ عَنْهُ بِالْعُقُوبَةِ ، بَلْ يَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ وَيَتَنَزَّهُ كَمَا يَتَعَالَى عَنْ سَائِرِ الْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ . وَلَا هِيَ عَبَثٌ مَحْضٌ خَالٍ عَنِ الْحِكْمَةِ وَالْغَايَةِ الْحَمِيدَةِ فَإِنَّهُ أَيْضًا يَتَنَزَّهُ عَنْ ذَلِكَ وَيَتَعَالَى عَنْهُ ، فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ تَمَامِ نَعِيمِ أَوْلِيَائِهِ وَأَحِبَّائِهِ ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ مَصْلَحَةِ

الْأَشْقِيَاءِ وَمُدَاوَاتِهِمْ ، أَوْ لِهَذَا وَلِهَذَا ، وَعَلَى التَّقَارِيرِ الثَّلَاثَةِ فَالتَّعْذِيبُ أَمْرٌ مَقْصُودٌ لِغَيْرِهِ قَصْدَ الْوَسَائِلِ لَا قَصْدَ الْغَايَاتِ ، وَالْمُرَادُ مِنَ الْوَسِيلَةِ إذَا حَصَلَ عَلَى الْوَجْهِ الْمَطْلُوبِ زَالَ حُكْمُهَا ، وَنَعِيمُ أَوْلِيَائِهِ لَيْسَ مُتَوَقِّفًا فِي أَصْلِهِ وَلَا فِي كَمَالِهِ عَلَى اسْتِمْرَارِ عَذَابِ أَعْدَائِهِ وَدَوَامِهِ . وَمَصْلَحَةُ الْأَشْقِيَاءِ لَيْسَتْ فِي الدَّوَامِ وَالِاسْتِمْرَارِ وَإِنْ كَانَ فِي أَصْلِ التَّعْذِيبِ مَصْلَحَةٌ لَهُمْ .

الْوَجْهُ الْعَاشِرُ – أَنَّ رِضَاءَ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَرَحِمَتَهُ صِفَتَانِ ذَاتِيَّتَانِ لَهُ فَلَا مُنْتَهَى لِرِضَاهُ ، بَلْ كَمَا قَالَ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِهِ " سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَاءَ نَفْسِهِ وَزِنَةَ



---

عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ " فَإِذَا كَانَتْ رَحْمَتُهُ غَلَبَتْ غَضَبَهُ فَإِنَّ رِضَى نَفْسِهِ أَعْلَى وَأَعْظَمُ ، فَإِنَّ رِضْوَانَهُ أَكْبَرُ مِنَ الْجَنَّاتِ وَنَعِيمِهَا وَكُلِّ مَا فِيهَا ، وَقَدْ أَخْبَرَ عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنَّهُ يُحِلُّ عَلَيْهِمْ رِضْوَانَهُ فَلَا يَسْخَطُ عَلَيْهِمْ أَبَدًا . وَأَمَّا غَضَبُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَسَخَطُهُ



---

فَلَيْسَ مِنْ صِفَاتِهِ الذَّاتِيَّةِ الَّتِي يَسْتَحِيلُ انْفِكَاكُهُ عَنْهَا بِحَيْثُ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ غَضْبَانَ ، وَالنَّاسُ لَهُمْ فِي صِفَةِ الْغَضَبِ قَوْلَانِ : (أَحَدُهُمَا) أَنَّهُ مِنْ صِفَاتِهِ الْفِعْلِيَّةِ الْقَائِمَةِ بِهِ كَسَائِرِ أَفْعَالِهِ . (وَالثَّانِي) أَنَّهُ صِفَةُ فِعْلٍ مُنْفَصِلٍ عَنْهُ غَيْرِ قَائِمٍ بِهِ . وَعَلَى الْقَوْلَيْنِ فَلَيْسَ كَالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ الَّتِي يَسْتَحِيلُ مُفَارَقَتُهَا لَهُ ، وَالْعَذَابُ إنَّمَا يَنْشَأُ مِنْ صِفَةِ غَضَبِهِ وَمَا سُعِّرَتِ النَّارُ إلَّا بِغَضَبِهِ ، وَقَدْ جَاءَ فِي أَثَرٍ مَرْفُوعٍ : (إنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقًا مِنْ غَضَبِهِ وَأَسْكَنَهُمْ بِالْمَشْرِقِ وَيَنْتَقِمُ بِهِمْ مِمَّنْ عَصَاهُ) فَمَخْلُوقَاتُهُ سُبْحَانَهُ نَوْعَانِ : نَوْعٌ مَخْلُوقٌ مِنَ الرَّحْمَةِ وَبِالرَّحْمَةِ ، وَنَوْعٌ مَخْلُوقٌ مِنَ الْغَضَبِ وَبِالْغَضَبِ ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَهُ الْكَمَالُ الْمُطْلَقُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ الَّذِي يَتَنَزَّهُ عَنْ تَقْدِيرِ خِلَافِهِ ، وَمِنْهُ أَنَّهُ يَرْضَى وَيَغْضَبُ وَيُثِيبُ وَيُعَاقِبُ وَيُعْطِي وَيَمْنَعُ وَيُعِزُّ وَيُذِلُّ وَيَنْتَقِمُ وَيَعْفُو ، بَلْ هَذَا مُوجِبُ مُلْكِهِ الْحَقِّ وَهُوَ حَقِيقَةُ الْمُلْكِ الْمَقْرُونِ بِالْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْحَمْدِ ، فَإِذَا زَالَ غَضَبُهُ سُبْحَانَهُ وَتَبَدَّلَ بِرِضَاهُ زَالَتْ عُقُوبَتُهُ وَتَبَدَّلَتْ بِرَحْمَتِهِ فَانْقَلَبَتِ الْعُقُوبَةُ رَحْمَةً ، بَلْ لَمْ تَزَلْ رَحْمَةً وَإِنْ تَنَوَّعَتْ صِفَتُهَا وَصُورَتُهَا كَمَا كَانَ عُقُوبَةُ الْعُصَاةِ رَحْمَةً وَإِخْرَاجُهُمْ مِنَ النَّارِ رَحْمَةً ، فَتَقَلَّبُوا فِي رَحْمَتِهِ فِي الدُّنْيَا وَتَقَلَّبُوا فِيهَا فِي الْآخِرَةِ ، لَكِنْ تِلْكَ

الرَّحْمَةُ يُحِبُّونَهَا وَتُوَافِقُ طَبَائِعَهُمْ ، وَهَذِهِ رَحْمَةٌ يَكْرَهُونَهَا وَتَشُقُّ عَلَيْهِمْ كَرَحْمَةِ الطَّبِيبِ الَّذِي يُبْضِعُ لَحْمَ الْمَرِيضِ وَيُلْقِي عَلَيْهِ الْمَكَاوِيَ لِيَسْتَخْرِجَ مِنْهُ الْمَوَادَّ الرَّدِيَّةَ الْفَاسِدَةَ .

(77/251)

---

فَإِنْ قِيلَ : هَذَا اعْتِبَارٌ غَيْرُ صَحِيحٍ ، فَإِنَّ الطَّبِيبَ يَفْعَلُ ذَلِكَ بِالْعَلِيلِ وَهُوَ يُحِبُّهُ وَهُوَ رَاضٍ عَنْهُ ، وَلَمْ يَنْشَأْ فِعْلُهُ بِهِ عَنْ غَضَبِهِ عَلَيْهِ وَهَذَا لَا يُسَمَّى عُقُوبَةً ، وَأَمَّا عَذَابُ هَؤُلَاءِ فَإِنَّهُ إنَّمَا حَصَلَ بِغَضَبِهِ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ وَهُوَ عُقُوبَةٌ مَحْضَةٌ . (قِيلَ) : هَذَا حَقٌّ وَلَكِنْ لَا يُنَافِي كَوْنَهُ رَحْمَةً بِهِمْ وَإِنْ كَانَ عُقُوبَةً لَهُمْ ، وَهَذَا كَإِقَامَةِ الْحُدُودِ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ عُقُوبَةٌ وَرَحْمَةٌ وَتَخْفِيفٌ وَطُهْرَةٌ فَالْحُدُودُ طُهْرَةٌ لِأَهْلِهَا وَعُقُوبَةٌ ، وَهُمْ لَمَّا أَغْضَبُوا الرَّبَّ تَعَالَى وَقَابَلُوهُ بِمَا لَا يَلِيقُ أَنْ يُقَابَلَ بِهِ وَعَامَلُوهُ أَقْبَحَ الْمُعَامَلَةِ ، وَكَذَّبُوهُ وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ ، وَجَعَلُوا أَقَلَّ أَهْلِهِ وَأَخْبَثَهُمْ وَأَمْقَتَهُمْ لَهُ نِدًّا لَهُ وَآلِهَةً مَعَهُ ، وَآثَرُوا رِضَاءَهُمْ عَلَى رِضَاهُ وَطَاعَتَهُمْ عَلَى طَاعَتِهِ – وَهُوَ وَلِيُّ الْإِنْعَامِ عَلَيْهِمْ وَهُوَ خَالِقُهُمْ وَرَازِقُهُمْ وَمَوْلَاهُمُ الْحَقُّ – اشْتَدَّ مَقْتُهُ لَهُمْ وَغَضَبُهُ عَلَيْهِمْ ، وَذَلِكَ يُوجِبُ كَمَالَ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ الَّتِي يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ تَقْدِيرُ خِلَافِهَا وَيَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ تَخَلُّفُ آثَارِهَا وَمُقْتَضَاهَا عَنْهَا ، بَلْ ذَلِكَ تَعْطِيلٌ لِأَحْكَامِهَا ، كَمَا أَنَّ نَفْيَهَا عَنْهُ تَعْطِيلٌ

لِحَقَائِقِهَا ، وَكِلَا التَّعْطِيلَيْنِ مُحَالٌ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ . فَالْمُعَطِّلُونَ نَوْعَانِ : أَحَدُهُمَا عَطَّلَ صِفَاتِهِ ، وَالثَّانِي عَطَّلَ أَحْكَامَهُ

(78/251)

---

وَمُوجَبَاتِهَا ، وَكَانَ هَذَا الْعَذَابُ عُقُوبَةً لَهُمْ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ وَدَوَاءً لَهُمْ مِنْ وُجْهَةِ الرَّحْمَةِ السَّابِقَةِ لِلْغَضَبِ فَاجْتَمَعَ فِيهِ الْأَمْرَانِ ، فَإِذَا زَالَ الْغَضَبُ بِزَوَالِ سَبَبِهِ وَزَالَتِ الْمَادَّةُ الْفَاسِدَةُ بِتَغْيِيرِ الطَّبِيعَةِ الْمُقْتَضِيَةِ لَهَا فِي الْجَحِيمِ بِمُرُورِ الْأَحْقَابِ عَلَيْهَا ، وَحَصَلَتِ الْحِكْمَةُ الَّتِي أَوْجَبَتِ الْعُقُوبَةَ عَمِلَتِ الرَّحْمَةُ عَمَلَهَا وَطَلَبَتْ أَثَرَهَا مِنْ غَيْرِ مُعَارِضٍ .

(79/251)

---

(يُوَضِّحُهُ الْوَجْهُ الْحَادِي عَشَرَ) وَهُوَ أَنَّ الْعَفْوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ مِنَ الِانْتِقَامِ ، وَالرَّحْمَةَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ ، وَالرِّضَا أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْغَضَبِ ، وَالْفَضْلَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْعَدْلِ ، وَلِهَذَا ظَهَرَتْ آثَارُ هَذِهِ الْمَحَبَّةِ فِي شَرْعِهِ وَقَدَرِهِ ، وَيَظْهَرُ كُلَّ الظُّهُورِ لِعِبَادِهِ فِي ثَوَابِهِ وَعِقَابِهِ ، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ أَحَبَّ الْأَمْرَيْنِ إِلَيْهِ وَلَهُ خَلْقُ الْخَلْقِ وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ وَشَرَعَ الشَّرَائِعَ ، وَقَدَّرَتْهُ

سُبْحَانَهُ صَالِحَةٌ لِكُلِّ شَيْءٍ لَا قُصُورَ فِيهَا بِوَجْهٍ مَا ، وَتِلْكَ الْمَوَادُّ الرَّدِيَّةُ الْفَاسِدَةُ مَرَضٌ مِنَ الْأَمْرَاضِ وَبِيَدِهِ سُبْحَانَهُ الشِّفَاءُ التَّامُّ وَالْأَدْوِيَةُ الْمُوَافِقَةُ لِكُلِّ دَاءٍ ، وَلَهُ الْقُدْرَةُ التَّامَّةُ وَالرَّحْمَةُ السَّابِغَةُ وَالْغِنَى الْمُطْلَقُ ، وَبِالْعَبْدِ أَعْظَمُ حَاجَةٍ إِلَى مَنْ يُدَاوِي عِلَّتَهُ الَّتِي بَلَغَتْ بِهِ غَايَةَ الضَّرَرِ وَالْمَشَقَّةِ ، وَقَدْ عَرَفَ الْعَبْدُ أَنَّهُ عَلِيلٌ وَأَنَّ دَوَاءَهُ بِيَدِ الْغَنِيِّ الْحَمِيدِ فَتَضَرَّعَ إِلَيْهِ وَدَخَلَ بِهِ عَلَيْهِ ، وَاسْتَكَانَ لَهُ وَانْكَسَرَ قَلْبُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَذَلَّ لِعِزَّتِهِ ، وَعَرَفَ أَنَّ الْحَمْدَ كُلَّهُ لَهُ وَأَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُ لَهُ ، وَأَنَّهُ هُوَ الظَّلُومُ الْجَهُولُ ، وَأَنَّ رَبَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - عَامَلَهُ بِكُلِّ عَدْلِهِ لَا بِبَعْضِ عَدْلِهِ ، وَأَنَّ لَهُ غَايَةَ الْحَمْدِ فِيمَا فَعَلَ بِهِ ، وَأَنَّ حَمْدَهُ هُوَ الَّذِي أَقَامَهُ فِي هَذَا الْمَقَامِ وَأَوْصَلَهُ إِلَيْهِ ، وَأَنَّهُ لَا خَيْرَ عِنْدَهُ مِنْ نَفْسِهِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ ، بَلْ ذَلِكَ

(80/251)

---

مَحْضُ فَضْلِ اللهِ وَصَدَقَتِهِ عَلَيْهِ ، وَأَنَّهُ لَا نَجَاةَ لَهُ مِمَّا هُوَ فِيهِ إِلَّا بِمُجَرَّدِ الْعَفْوِ وَالتَّجَاوُزِ عَنْ حَقِّهِ فَنَفْسُهُ أَوْلَى بِكُلِّ ذَمٍّ وَعَيْبٍ وَنَقْصٍ ، وَرَبُّهُ تَعَالَى أَوْلَى بِكُلِّ حَمْدٍ وَكَمَالٍ وَمَدْحٍ ، فَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْجَحِيمِ شَهِدُوا نِعْمَتَهُ سُبْحَانَهُ وَرَحْمَتَهُ وَكَمَالَهُ وَحَمْدَهُ الَّذِي أَوْجَبَ لَهُمْ ذَلِكَ فَطَلَبُوا مَرْضَاتَهُ وَلَوْ بِدَوَامِهِمْ فِي تِلْكَ الْحَالِ ، وَقَالُوا : إِنْ كَانَ مَا نَحْنُ فِيهِ رِضَاكَ فَرِضَاكَ الَّذِي نُرِيدُ ، وَمَا أَوْصَلَنَا إِلَى هَذِهِ الْحَالِ إِلَّا طَلَبُ مَا لَا يُرْضِيكَ ، فَأَمَّا إِذَا أَرْضَاكَ هَذَا مِنَّا

فَرِضَاكَ غَايَةُ مَا نَقْصِدُهُ (وَمَا لِجُرْحٍ إِذَا أَرْضَاكَ مِنْ أَلَمٍ) وَأَنْتَ أَرْحَمُ بِنَا مِنْ أَنْفُسِنَا وَأَعْلَمُ بِمَصَالِحِنَا ، وَلَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ عَاقَبْتَ أَوْ عَفَوْتَ ، لَانْقَلَبَتِ النَّارُ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلَامًا (وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ) فِي مَسْنَدِهِ مِنْ حَدِيثِ الْأَسْوَدِ بْنِ سَرِيعٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : "يَأْتِي أَرْبَعَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : رَجُلٌ أَصَمُّ لَا يَسْمَعُ شَيْئًا ، وَرَجُلٌ أَحْمَقُ ، وَرَجُلٌ هَرِمٌ وَرَجُلٌ مَاتَ فِي فَتْرَةٍ ، فَأَمَّا الْأَصَمُّ فَيَقُولُ : رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَسْمَعُ شَيْئًا ، وَأَمَّا الْأَحْمَقُ فَيَقُولُ : رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَالصِّبْيَانُ يَحْذِفُونِي بِالْبَعْرِ ، وَأَمَّا الْهَرِمُ فَيَقُولُ : رَبِّ لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا

(81/251)

---

أَعْقِلُ شَيْئًا ، وَأَمَّا الَّذِي مَاتَ فِي الْفَتْرَةِ فَيَقُولُ : رَبِّ مَا أَتَانِي لَكَ مِنْ رَسُولٍ ، فَيَأْخُذُ مَوَاثِيقَهُمْ لَيُطِيعُنَّهُ فَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ أَنِ ادْخُلُوا النَّارَ قَالَ : فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ دَخَلُوهَا لَكَانَتْ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلَامًا " (وَفِي الْمُسْنَدِ أَيْضًا)

(82/251)

---

مِنْ حَدِيثِ قَتَادَةَ ، عَنِ الْحَسَنِ ، عَنْ أَبِي رَافِعٍ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مِثْلُهُ وَقَالَ : " فَمَنْ دَخَلَهَا كَانَتْ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا وَمَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا يُسْحَبُ إِلَيْهَا " فَهَؤُلَاءِ لَمَّا رَضُوا بِتَعْذِيبِهِمْ وَبَادَرُوا إِلَيْهِ لَمَّا عَلِمُوا أَنَّ فِيهِ رِضَى رَبِّهِمْ وَمُوَافَقَةَ أَمْرِهِ وَمَحَبَّتَهُ انْقَلَبَ فِي حَقِّهِمْ نَعِيمًا . (وَمِثْلُ هَذَا) مَا رَوَاهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ : حَدَّثَنِي رِشْدِينُ قَالَ حَدَّثَنِي ابْنُ أَنْعُمٍ عَنْ أَبِي عُثْمَانَ أَنَّهُ حَدَّثَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : إِنَّ رَجُلَيْنِ مِمَّنْ دَخَلَ النَّارَ يَشْتَدُّ صِيَاحُهُمَا ؟ فَقَالَ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ : أَخْرِجُوهُمَا فَإِذَا أُخْرِجَا فَقَالَ لَهُمَا : لِأَيِّ شَيْءٍ اشْتَدَّ صِيَاحُكُمَا قَالَا : فَعَلْنَا ذَلِكَ لِتَرْحَمَنَا . قَالَ : رَحْمَتِي لَكُمَا أَنْ تَنْطَلِقَا فَتُلْقِيَا أَنْفُسَكُمَا حَيْثُ كُنْتُمَا مِنَ النَّارِ ، قَالَ فَيَنْطَلِقَانِ فَيُلْقِي أَحَدُهُمَا نَفْسَهُ فَيَجْعَلُهَا اللهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا ، وَيَقُومُ الْآخَرُ فَلَا يُلْقِي نَفْسَهُ فَيَقُولُ لَهُ الرَّبُّ : مَا مَنَعَكَ أَنْ تُلْقِيَ نَفْسَكَ كَمَا أَلْقَى صَاحِبُكَ ؟ فَيَقُولُ : رَبِّ إِنِّي أَرْجُوكَ أَلَّا تُعِيدَنِي فِيهَا بَعْدَ مَا أَخْرَجْتَنِي مِنْهَا . فَيَقُولُ الرَّبُّ تَعَالَى : لَكَ رَجَاؤُكَ . فَيَدْخُلَانِ الْجَنَّةَ جَمِيعًا بِرَحْمَةِ اللهِ " . (وَذَكَرَ الْأَوْزَاعِيُّ) عَنْ بِلَالِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : يُؤْمَرُ بِإِخْرَاجِ رَجُلَيْنِ مِنَ النَّارِ فَإِذَا أُخْرِجَا وَوَقَفَا قَالَ اللهُ لَهُمَا : كَيْفَ وَجَدْتُمَا

*(83/251)*

مَقِيلَكُمَا وَسُوءَ مَصِيرِكُمَا ؟ فَيَقُولَانِ شَرَّ مَقِيلٍ وَأَسْوَأَ مَصِيرٍ صَارَ إِلَيْهِ الْعِبَادُ ، فَيَقُولُ لَهُمَا : ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمَا وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ . قَالَ فَيُؤْمَرُ بِصَرْفِهِمَا إِلَى النَّارِ ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَيَغْدُو فِي أَغْلَالِهِ وَسَلَاسِلِهِ حَتَّى يَقْتَحِمَهَا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيَتَلَكَّأُ فَيُؤْمَرُ بِرَدِّهِمَا فَيَقُولُ لِلَّذِي غَدَا فِي أَغْلَالِهِ وَسَلَاسِلِهِ حَتَّى اقْتَحَمَهَا مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ وَقَدْ أُخْرِجْتَ مِنْهَا ؟ فَيَقُولُ : إِنِّي خُبِّرْتُ مِنْ وَبَالِ مَعْصِيَتِكَ مَا لَمْ أَكُنْ أَتَعَرَّضُ لِسُخْطِكَ ثَانِيًا ، وَيَقُولُ لِلَّذِي تَلَكَّأَ : مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ فَيَقُولُ : حُسْنُ ظَنِّي بِكَ حِينَ أَخْرَجْتَنِي مِنْهَا أَلَّا تَرُدَّنِي إِلَيْهَا فَيَرْحَمُهُمَا جَمِيعًا وَيَأْمُرُ بِهِمَا إِلَى الْجَنَّةِ .

الْوَجْهُ الثَّانِي عَشَرَ - أَنَّ النَّعِيمَ وَالثَّوَابَ مِنْ مُقْتَضَى رَحْمَتِهِ وَمَغْفِرَتِهِ وَبِرِّهِ وَكَرَمِهِ ; وَلِذَلِكَ يُضِيفُ ذَلِكَ إِلَى نَفْسِهِ ، وَأَمَّا الْعَذَابُ وَالْعُقُوبَةُ فَإِنَّمَا هُوَ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ ; وَلِذَلِكَ لَا يُسَمَّى بِالْمُعَاقِبِ وَالْمُعَذِّبِ ، بَلْ يُفَرَّقُ بَيْنَهُمَا فَيُجْعَلُ ذَلِكَ مِنْ أَوْصَافِهِ وَهَذَا مِنْ مَفْعُولَاتِهِ حَتَّى فِي الْآيَةِ الْوَاحِدَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ) (15 : 49 ، 50) وَقَالَ تَعَالَى : (اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ

وَأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (5 : 98) وَقَالَ تَعَالَى : (إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) (7 : 167) وَمِثْلُهَا فِي آخِرِ الْأَنْعَامِ .

فَمَا كَانَ مِنْ مُقْتَضَى أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ فَإِنَّهُ يَدُومُ بِدَوَامِهَا وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ مَحْبُوبًا لَهُ ، وَهُوَ غَايَةٌ مَطْلُوبَةٌ فِي نَفْسِهَا .

وَأَمَّا الشَّرُّ الَّذِي هُوَ الْعَذَابُ فَلَا يَدْخُلُ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ، وَإِنْ دَخَلَ فِي مَفْعُولَاتِهِ لِحِكْمَةٍ إِذَا حَصَلَتْ زَالَ وَفَنِيَ ، بِخِلَافِ الْخَيْرِ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ دَائِمُ الْمَعْرُوفِ لَا يَنْقَطِعُ مَعْرُوفُهُ أَبَدًا وَهُوَ قَدِيمُ الْإِحْسَانِ أَبَدِيُّ الْإِحْسَانِ ، فَلَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ مُحْسِنًا عَلَى الدَّوَامِ وَلَيْسَ مِنْ مُوجِبِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ أَنَّهُ لَا يَزَالُ مُعَاقِبًا عَلَى الدَّوَامِ ، غَضْبَانَ عَلَى الدَّوَامِ ، مُنْتَقِمًا عَلَى الدَّوَامِ ، فَتَأَمَّلْ هَذَا الْوَجْهَ تَأَمُّلَ فَقِيهٍ فِي بَابِ أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ يَفْتَحْ لَكَ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ مَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ .

*(85/251)*

---

يُوَضِّحُهُ الْوَجْهُ الثَّالِثَ عَشَرَ - وَهُوَ قَوْلُ أَعْلَمُ خَلِقِهِ بِهِ وَأَعْرَفُهُمْ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ " وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ " وَلَمْ يَقِفْ عَلَى الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ مَنْ قَالَ الشَّرُّ لَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْكَ . بَلِ الشَّرُّ لَا يُضَافُ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ بِوَجْهٍ لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ وَلَا فِي أَسْمَائِهِ ، فَإِنَّ ذَاتَهُ

لَهَا الْكَمَالُ الْمُطْلَقُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ ، وَصِفَاتِهِ كُلُّهَا صِفَاتُ كَمَالٍ يُحْمَدُ عَلَيْهَا وَيُثْنَى عَلَيْهِ بِهَا ، وَأَفْعَالُهُ كُلُّهَا خَيْرٌ وَرَحْمَةٌ وَعَدْلٌ وَحِكْمَةٌ لَا شَرَّ فِيهَا بِوَجْهٍ مَا ، وَأَسْمَاءُهُ كُلُّهَا حُسْنَى ، فَكَيْفَ يُضَافُ الشَّرُّ إِلَيْهِ ؟ بَلِ الشَّرُّ فِي مَفْعُولَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ وَهُوَ مُنْفَصِلٌ عَنْهُ ، إِذْ فِعْلُهُ غَيْرُ مَفْعُولِهِ ، فَفِعْلُهُ خَيْرٌ كُلُّهُ ، وَأَمَّا الْمَخْلُوقُ الْمَفْعُولُ فَفِيهِ الْخَيْرُ وَالشَّرُّ ، وَإِذَا كَانَ الشَّرُّ مَخْلُوقًا مُنْفَصِلًا غَيْرَ قَائِمٍ بِالرَّبِّ سُبْحَانَهُ فَهُوَ لَا يُضَافُ إِلَيْهِ ، وَهُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَقُلْ أَنْتَ لَا تَخْلُقُ الشَّرَّ حَتَّى يُطْلَبَ تَأْوِيلُ قَوْلِهِ ، وَإِنَّمَا نَفَى إِضَافَتَهُ إِلَيْهِ وَصْفًا وَفِعْلًا وَاسْمًا ، وَإِذَا عُرِفَ هَذَا فَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَّا الذُّنُوبَ وَمُوجِبَاتِهَا ، وَأَمَّا الْخَيْرُ فَهُوَ الْإِيمَانُ وَالطَّاعَاتُ وَمُوجِبَاتُهَا وَالْإِيمَانُ وَالطَّاعَاتُ مُتَعَلِّقَةٌ بِهِ سُبْحَانَهُ ; وَلِأَجْلِهَا خَلَقَ خَلْقَهُ وَأَرْسَلَ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ ، وَهِيَ ثَنَاءٌ عَلَى الرَّبِّ وَإِجْلَالُهُ وَتَعْظِيمُهُ وَعُبُودِيَّتُهُ ، وَهَذِهِ لَهَا آثَارٌ تَطْلُبُهَا

(86/251)

---

وَتَقْتَضِيهَا فَتَدُومُ آثَارُهَا بِدَوَامِ مُتَعَلِّقِهَا . وَأَمَّا الشُّرُورُ فَلَيْسَتْ مَقْصُودَةً لِذَاتِهَا وَلَا هِيَ الْغَايَةَ الَّتِي خُلِقَ لَهَا الْخَلْقُ ، فَهِيَ مَفْعُولَاتٌ قُدِّرَتْ لِأَمْرٍ مَحْبُوبٍ وَجُعِلَتْ وَسِيلَةً إِلَيْهِ ، فَإِذَا حَصَلَ مَا قُدِّرَتْ لَهُ اضْمَحَلَّتْ وَتَلَاشَتْ وَعَادَ الْأَمْرُ إِلَى الْخَيْرِ الْمَحْضِ .

الْوَجْهُ الرَّابِعَ عَشَرَ - أَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّ رَحْمَتَهُ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، فَلَيْسَ شَيْءٌ مِنَ

الْأَشْيَاءِ إِلَّا وَفِيهِ رَحْمَتُهُ ، وَلَا يُنَافِي هَذَا أَنْ يَرْحَمَ الْعَبْدَ بِمَا يَشُقُّ عَلَيْهِ وَيُؤْلِمُهُ وَتَشْتَدُّ كَرَاهَتُهُ لَهُ ; فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ رَحْمَتِهِ أَيْضًا كَمَا تَقَدَّمَ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا حَدِيثَ أَبِي هُرَيْرَةَ آنِفًا وَقَوْلَهُ تَعَالَى لِذَيْنِكَ الرَّجُلَيْنِ ، رَحْمَتِي لَكُمَا أَنْ تَنْطَلِقَا فَتُلْقِيَا أَنْفُسَكُمَا حَيْثُ كُنْتُمَا مِنَ النَّارِ . وَقَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ الْآثَارِ أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا دَعَا لِمُبْتَلًى قَدِ اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ وَقَالَ : اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ –

(87/251)

---

يَقُولُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : " كَيْفَ أَرْحَمُهُ مِنْ شَيْءٍ بِهِ أَرْحَمُهُ " فَالِابْتِلَاءُ رَحْمَةٌ مِنْهُ لِعِبَادِهِ (وَفِي أَثَرٍ إِلَهِيٍّ) يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : " أَهْلُ ذِكْرِي أَهْلُ مُجَالَسَتِي ، وَأَهْلُ طَاعَتِي أَهْلُ كَرَامَتِي ، وَأَهْلُ شُكْرِي أَهْلُ زِيَادَتِي ، وَأَهْلُ مَعْصِيَتِي لَا أُقَنِّطُهُمْ مِنْ رَحْمَتِي ، إِنْ تَابُوا فَأَنَا حَبِيبُهُمْ ، وَإِنْ لَمْ يَتُوبُوا فَأَنَا طَبِيبُهُمْ ، أَبْتَلِيهِمْ بِالْمَصَائِبِ ، لِأُطَهِّرَهُمْ مِنَ الْمَعَايِبِ " فَالْبَلَاءُ وَالْعُقُوبَةُ أَدْوِيَةٌ قُدِّرَتْ لِإِزَالَةِ أَدْوَاءٍ لَا تَزُولُ إِلَّا بِهَا وَالنَّارُ هِيَ الدَّوَاءُ الْأَكْبَرُ ، فَمَنْ تَدَاوَى فِي الدُّنْيَا أَغْنَاهُ ذَلِكَ عَنِ الدَّوَاءِ فِي الْآخِرَةِ ، وَإِلَّا فَلَا بُدَّ لَهُ مِنَ الدَّوَاءِ بِحَسَبِ دَائِهِ . وَمَنْ عَرَفَ الرَّبَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِصِفَاتِ جَلَالِهِ وَنُعُوتِ كَمَالِهِ مِنْ حِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَبِرِّهِ وَإِحْسَانِهِ وَغِنَاهُ وَجُودِهِ ، وَتَحَبُّبِهِ إِلَى عِبَادِهِ وَإِرَادَتِهِ الْإِنْعَامَ عَلَيْهِمْ وَسَبْقِ رَحْمَتِهِ لَهُمْ ، لَمْ يُبَادِرْ إِلَى إِنْكَارِ ذَلِكَ إِنْ لَمْ يُبَادِرْ إِلَى قَبُولِهِ .

يُوَضِّحُهُ (الْوَجْهُ الْخَامِسَ عَشَرَ) أَنَّ أَفْعَالَهُ سُبْحَانَهُ لَا تَخْرُجُ عَنِ الْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْمَصْلَحَةِ وَالْعَدْلِ ، فَلَا يَفْعَلُ عَبَثًا وَلَا جَوْرًا وَلَا بَاطِلًا ، بَلْ هُوَ الْمُنَزَّهُ عَنْ ذَلِكَ كَمَا يُنَزَّهُ عَنْ سَائِرِ الْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ .

*(88/251)*

---

وَإِذَا ثَبَتَ ذَلِكَ فَتَعْذِيبُهُمْ إِنْ كَانَ رَحْمَةً بِهِمْ حَتَّى يَزُولَ ذَلِكَ الْخُبْثُ وَتَكْمُلَ الطَّهَارَةُ فَظَاهِرٌ . وَإِنْ كَانَ لِحِكْمَةٍ فَإِذَا حَصَلَتْ تِلْكَ الْحِكْمَةُ الْمَطْلُوبَةُ زَالَ الْعَذَابُ . وَلَيْسَ فِي الْحِكْمَةِ دَوَامُ الْعَذَابِ أَبَدَ الْآبَادِ بِحَيْثُ يَكُونُ دَائِمًا بِدَوَامِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وَإِنْ كَانَ لِمَصْلَحَةٍ فَإِنْ كَانَ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ فَلَيْسَتْ مَصْلَحَتُهُمْ فِي بَقَائِهِمْ فِي الْعَذَابِ كَذَلِكَ ، وَإِنْ كَانَتِ الْمَصْلَحَةُ تَعُودُ إِلَى أَوْلِيَائِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ أَكْمَلُ فِي نَعِيمِهِمْ فَهَذَا لَا يَقْتَضِي تَأْبِيدَ الْعَذَابِ ، وَلَيْسَ نَعِيمُ أَوْلِيَائِهِ وَكَمَالُهُ مَوْقُوفًا عَلَى بَقَاءِ آبَائِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ

*(89/251)*

---

وَأَزْوَاجِهِمْ فِي الْعَذَابِ السَّرْمَدِ . فَإِنْ قُلْتُمْ إِنَّ ذَلِكَ هُوَ مُوجَبُ الرَّحْمَةِ وَالْحِكْمَةِ وَالْمَصْلَحَةِ قُلْتُمْ مَا لَا يُعْقَلُ ، وَإِنْ قُلْتُمْ إِنَّ ذَلِكَ عَائِدٌ إِلَى مَحْضِ الْمَشِيئَةِ وَلَا تُطْلَبُ لَهُ حِكْمَةٌ وَلَا غَايَةٌ فَجَوَابُهُ مِنْ وَجْهَيْنِ : (أَحَدُهُمَا) أَنَّ ذَلِكَ مُحَالٌ عَلَى أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ وَأَعْلَمِ الْعَالَمِينَ أَنْ تَكُونَ أَفْعَالُهُ مُعَطَّلَةً عَنِ الْحِكَمِ وَالْمَصَالِحِ وَالْغَايَاتِ الْمَحْمُودَةِ . وَالْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ وَأَدِلَّةُ الْعُقُولِ وَالْفِطَرِ وَالْآيَاتِ الْمَشْهُودَةِ شَاهِدَةٌ بِبُطْلَانِ ذَلِكَ . (وَالثَّانِي) أَنَّهُ لَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ لَكَانَ إِبْقَاؤُهُمْ فِي الْعَذَابِ وَانْقِطَاعُهُ عَنْهُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَشِيئَتِهِ سَوَاءً ، وَلَمْ يَكُنْ فِي انْقِضَائِهِ مَا يُنَافِي كَمَالَهُ ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُخْبِرْنَا بِأَبَدِيَّةِ الْعَذَابِ وَأَنَّهُ لَا نِهَايَةَ لَهُ ، وَغَايَةُ الْأَمْرِ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْجَائِزَاتِ الْمُمْكِنَاتِ الْمَوْقُوفِ حُكْمُهَا عَلَى خَبَرِ الصَّادِقِ ، فَإِنْ سَلَكْتَ طَرِيقَ التَّعْلِيلِ بِالْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْمَصْلَحَةِ لَمْ يَقْتَضِ الدَّوَامَ ، وَإِنْ سَلَكْتَ طَرِيقَ الْمَشِيئَةِ الْمَحْضَةِ الَّتِي لَا تُعَلَّلُ لَمْ تَقْتَضِهِ أَيْضًا ، وَإِنْ وَقَفَ الْأَمْرُ عَلَى مُجَرَّدِ السَّمْعِ فَلَيْسَ فِيهِ مَا يَقْتَضِيهِ .

الْوَجْهُ السَّادِسَ عَشَرَ - أَنَّ رَحْمَتَهُ سُبْحَانَهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ فِي الْمُعَذَّبِينَ ، فَإِنَّهُ أَنْشَأَهُمْ بِرَحْمَتِهِ وَرَبَّاهُمْ بِرَحْمَتِهِ وَرَزَقَهُمْ وَعَافَاهُمْ بِرَحْمَتِهِ وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ بِرَحْمَتِهِ .

*(90/251)*

وَأَسْبَابُ النِّقْمَةِ وَالْعَذَابِ مُتَأَخِّرَةٌ عَنْ أَسْبَابِ الرَّحْمَةِ طَارِئَةٌ عَلَيْهَا فَرَحْمَتُهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ فِيهِمْ ، وَخَلَقَهُمْ عَلَى خِلْقَةٍ تَكُونُ رَحْمَتُهُ إلَيْهِمْ أَقْرَبَ مِنْ غَضَبِهِ وَعُقُوبَتِهِ ; وَلِهَذَا تَرَى أَطْفَالَ الْكُفَّارِ قَدْ أُلْقِيَ عَلَيْهِمْ رَحْمَتَهُ فَمَنْ رَآهُمْ رَحِمَهُمْ ، وَلِهَذَا نَهَى عَنْ قَتْلِهِمْ فَرَحْمَتُهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ فِيهِمْ فَكَانَتْ هِيَ السَّابِقَةَ إلَيْهِمْ ، فَفِي كُلِّ حَالٍ هُمْ فِي رَحْمَتِهِ فِي حَالِ مُعَافَاتِهِمْ وَابْتِلَائِهِمْ . وَإِذَا كَانَتِ الرَّحْمَةُ هِيَ السَّابِقَةَ فِيهِمْ لَمْ يَبْطُلْ أَثَرُهَا بِالْكُلِّيَّةِ ، وَإِنْ عَارَضَهَا أَثَرُ الْغَضَبِ وَالسُّخْطِ فَذَلِكَ لِسَبَبٍ مِنْهُمْ ، وَأَمَّا أَثَرُ الرَّحْمَةِ فَسَبَبُهُ مِنْهُ سُبْحَانَهُ ، فَمَا مِنْهُ يَقْتَضِي رَحْمَتَهُمْ ، وَمَا مِنْهُمْ يَقْتَضِي عُقُوبَتَهُمْ ، وَالَّذِي مِنْهُ سَابِقٌ وَغَالِبٌ . وَإِذَا كَانَتْ رَحْمَتُهُ تَغْلِبُ غَضَبَهُ فَلِأَنْ يَغْلِبَ أَثَرُ الرَّحْمَةِ أَثَرَ الْغَضَبِ أَوْلَى وَأَحْرَى .

(91/251)

---

الْوَجْهُ السَّابِعَ عَشَرَ – أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يُخْبِرُ عَنِ الْعَذَابِ أَنَّهُ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ، وَعَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، وَعَذَابُ يَوْمٍ أَلِيمٍ ، وَلَا يُخْبِرُ عَنِ النَّعِيمِ أَنَّهُ نَعِيمُ يَوْمٍ وَلَا فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ تَقْدِيرُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَالْمُعَذَّبُونَ مُتَفَاوِتُونَ فِي مُدَّةِ لَبْثِهِمْ فِي الْعَذَابِ بِحَسَبِ جَرَائِمِهِمْ ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ جَعَلَ الْعَذَابَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَسْبَابِهَا ، وَمَا أُرِيدَ بِهِ الدُّنْيَا وَلَمْ يُرَدْ بِهِ اللَّهُ فَالْعَذَابُ عَلَى ذَلِكَ ، وَأَمَّا مَا كَانَ لِلْآخِرَةِ وَأُرِيدَ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ

فَلَا عَذَابَ عَلَيْهِ ، وَالدُّنْيَا قَدْ جُعِلَ

لَهَا أَجَلٌ تَنْتَهِي إِلَيْهِ ، فَمَا انْتَقَلَ مِنْهَا إِلَى تِلْكَ الدَّارِ مِمَّا لَيْسَ لِلَّهِ فَهُوَ الْمُعَذَّبُ بِهِ .

(92/251)

---

وَأَمَّا مَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُ اللهِ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَقَدْ أُرِيدَ بِهِ مَا لَا يَفْنَى وَلَا يَزُولُ فَيَدُومُ بِدَوَامِ الْمُرَادِ بِهِ ، فَإِنَّ الْغَايَةَ الْمَطْلُوبَةَ إِذَا كَانَتْ دَائِمَةً لَا تَزُولُ لَمْ يَزُلْ مَا تَعَلَّقَ بِهَا ، بِخِلَافِ الْغَايَةِ الْمُضْمَحِلَّةِ الْفَانِيَةِ فَمَا أُرِيدَ بِهِ غَيْرُ اللهِ يَضْمَحِلُّ وَيَزُولُ بِزَوَالِ مُرَادِهِ وَمَطْلُوبِهِ ، وَمَا أُرِيدَ بِهِ وَجْهُ اللهِ يَبْقَى بِبَقَاءِ الْمَطْلُوبِ الْمُرَادِ ، فَإِذَا اضْمَحَلَّتِ الدُّنْيَا وَانْقَطَعَتْ أَسْبَابُهَا وَانْتَقَلَ مَا كَانَ فِيهَا لِغَيْرِ اللهِ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالذَّوَاتِ وَانْقَلَبَ عَذَابًا وَآلَامًا لَمْ يَكُنْ لَهُ مُتَعَلَّقٌ يَدُومُ بِدَوَامِهِ بِخِلَافِ النَّعِيمِ . الْوَجْهُ الثَّامِنَ عَشَرَ – أَنَّهُ لَيْسَ فِي حِكْمَةِ أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقًا يُعَذِّبُهُمْ أَبَدَ الْآبَادِ

(93/251)

---

عَذَابًا سَرْمَدًا لَا نِهَايَةَ لَهُ وَلَا انْقِطَاعَ أَبَدًا ، وَقَدْ دَلَّتِ الْأَدِلَّةُ السَّمْعِيَّةُ وَالْعَقْلِيَّةُ وَالْفِطْرِيَّةُ عَلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ حَكِيمٌ وَأَنَّهُ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ، فَإِذَا عَذَّبَ خَلْقَهُ عَذَّبَهُمْ بِحِكْمَةٍ كَمَا يُوجَدُ التَّعْذِيبُ وَالْعُقُوبَةُ فِي الدُّنْيَا فِي شَرْعِهِ وَقَدَرِهِ فَإِنَّ فِيهِ مِنَ الْحِكَمِ وَالْمَصَالِحِ وَتَطْهِيرِ الْعَبْدِ وَمُدَاوَاتِهِ وَإِخْرَاجِ الْمَوَادِّ الرَّدِيَّةِ عَنْهُ بِتِلْكَ الْآلَامِ مَا تَشْهَدُهُ الْعُقُولُ الصَّحِيحَةُ ، وَفِي ذَلِكَ مِنْ تَزْكِيَةِ النُّفُوسِ وَصَلَاحِهَا وَزَجْرِهَا وَرَدْعِ نَظَائِرِهَا وَتَوْقِيفِهَا عَلَى فَقْرِهَا وَضَرُورَتِهَا إِلَى رَبِّهَا وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْحِكَمِ وَالْغَايَاتِ الْحَمِيدَةِ مِمَّا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ .

(94/251)

---

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةٌ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا طَيِّبٌ ; وَلِهَذَا يُحَاسَبُونَ - إِذَا قَطَعُوا الصِّرَاطَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ - فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ النُّفُوسَ الشِّرِّيرَةَ الْخَبِيثَةَ الْمُظْلِمَةَ الَّتِي لَوْ رُدَّتْ إِلَى الدُّنْيَا قَبْلَ الْعَذَابِ لَعَادَتْ لِمَا نُهِيَتْ عَنْهُ لَا يَصْلُحُ أَنْ تَسْكُنَ دَارَ السَّلَامِ فِي جِوَارِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَإِذَا عُذِّبُوا بِالنَّارِ عَذَابًا يُخَلِّصُ نُفُوسَهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْخُبْثِ وَالْوَسَخِ وَالدَّرَنِ كَانَ ذَلِكَ مِنْ حِكْمَةِ أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ وَرَحْمَتِهِ ، وَلَا يُنَافِي الْحِكْمَةَ خَلْقُ نُفُوسٍ فِيهَا شَرٌّ يَزُولُ بِالْبَلَاءِ الطَّوِيلِ وَالنَّارِ كَمَا يَزُولُ بِهَا خَبَثُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَدِيدِ فَهَذَا مَعْقُولٌ فِي

الْحِكْمَةِ وَهُوَ مِنْ لَوَازِمِ الْعَالَمِ الْمَخْلُوقِ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ ، أَمَّا خَلْقُ نُفُوسٍ لَا يَزُولُ شَرُّهَا أَبَدًا وَعَذَابُهَا لَا انْتِهَاءَ لَهُ ، فَلَا يَظْهَرُ فِي الْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ ، وَفِي وُجُوبِ مِثْلِ هَذَا النَّوْعِ نِزَاعٌ بَيْنَ الْعُقَلَاءِ ، أَعْنِي ذَوَاتًا هِيَ شَرٌّ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ خَيْرٍ أَصْلًا ، وَعَلَى تَقْدِيرِ دُخُولِهِ فِي الْوُجُودِ فَالرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَادِرٌ عَلَى قَلْبِ الْأَعْيَانِ وَإِحَالَتِهَا

(95/251)

---

وَإِحَالَةِ صِفَاتِهَا ، فَإِذَا وُجِدَتِ الْحِكْمَةُ الْمَطْلُوبَةُ مِنْ خَلْقِ هَذِهِ النُّفُوسِ وَالْحِكْمَةُ الْمَطْلُوبَةُ مِنْ تَعْذِيبِهَا فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ أَنْ يُنْشِئَهَا نَشْأَةً أُخْرَى غَيْرَ تِلْكَ النَّشْأَةِ ، وَيَرْحَمَهَا فِي النَّشْأَةِ الثَّانِيَةِ نَوْعًا آخَرَ مِنَ الرَّحْمَةِ .

يُوَضِّحُهُ (الْوَجْهُ التَّاسِعَ عَشَرَ) وَهُوَ أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يُنْشِئُ لِلْجَنَّةِ خَلْقًا آخَرَ يُسْكِنُهُمْ إِيَّاهَا وَلَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا تَكُونُ الْجَنَّةُ جَزَاءً لَهُمْ عَلَيْهِ ، فَإِذَا أَخَذَ الْعَذَابُ مِنْ هَذِهِ النُّفُوسِ مَأْخَذَهُ وَبَلَغَتِ الْعُقُوبَةُ مَبْلَغَهَا ، فَانْكَسَرَتْ تِلْكَ النُّفُوسُ وَخَضَعَتْ وَذَلَّتْ وَاعْتَرَفَتْ لِرَبِّهَا وَفَاطِرِهَا بِالْحَمْدِ ، وَأَنَّهُ عَدْلٌ فِيهَا كُلَّ الْعَدْلِ ، وَأَنَّهَا فِي هَذِهِ الْحَالِ كَانَتْ فِي تَخْفِيفٍ مِنْهُ ، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يَكُونَ عَذَابُهُمْ أَشَدَّ مِنْ ذَلِكَ لَفَعَلَ وَشَاءَ كَتَبَ الْعُقُوبَةَ طَلَبًا لِمُوَافَقَةِ رِضَاهُ وَمَحَبَّتِهِ وَعَلِمَ أَنَّ الْعَذَابَ أَوْلَى بِهَا وَأَنَّهُ لَا يَلِيقُ بِهَا سِوَاهُ وَلَا تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ

فَذَابَتْ مِنْهَا تِلْكَ الْخَبَائِثُ كُلُّهَا وَتَلَاشَتْ وَتَبَدَّلَتْ بِذُلٍّ وَانْكِسَارٍ وَحَمْدٍ وَثَنَاءٍ عَلَى الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى - لَمْ يَكُنْ

(96/251)

---

فِي حِكْمَتِهِ أَنْ يَسْتَمِرَّ بِهَا فِي الْعَذَابِ بَعْدَ ذَلِكَ ; إِذْ قَدْ تَبَدَّلَ شَرُّهَا بِخَيْرِهَا وَشِرْكُهَا بِتَوْحِيدِهَا وَكِبْرُهَا بِخُضُوعِهَا وَذُلِّهَا ، وَلَا يُنْتَقَضُ هَذَا بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ) (28) فَإِنَّ هَذَا قَبْلَ مُبَاشَرَةِ الْعَذَابِ الَّذِي يُزِيلُ تِلْكَ الْخَبَائِثَ ، وَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَ الْمُعَايَنَةِ قَبْلَ الدُّخُولِ ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ قَالَ : (وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) فَهَذَا إِنَّمَا قَالُوهُ قَبْلَ أَنْ يَسْتَخْرِجَ الْعَذَابُ مِنْهُمْ تِلْكَ الْخَبَائِثَ . فَأَمَّا إِذَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ أَحْقَابًا - وَالْحُقْبُ كَمَا رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي مُعْجَمِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : (الْحُقْبُ خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَةٍ) - فَإِنَّهُ مِنَ الْمُمْتَنِعِ أَنْ يَبْقَى ذَلِكَ الْكِبْرُ وَالشِّرْكُ وَالْخُبْثُ بَعْدَ هَذِهِ الْمُدَدِ الْمُتَطَاوِلَةِ فِي الْعَذَابِ .

(97/251)

الْوَجْهُ الْعِشْرُونَ - أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ " فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ قَدْ عَادُوا حُمَمًا فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهَرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ نَهَرُ الْحَيَاةِ فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحَبَّةُ مِنْ حَمِيلِ السَّيْلِ فَيَقُولُ أَهْلُ الْجَنَّةِ : هَؤُلَاءِ عُتَقَاءُ اللهِ الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ اللهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ " فَهَؤُلَاءِ أَحْرَقَتْهُمُ النَّارُ

(98/251)

---

جَمِيعَهُمْ فَلَمْ يَبْقَ فِي بَدَنِ أَحَدِهِمْ مَوْضِعٌ لَمْ تَمَسَّهُ النَّارُ بِحَيْثُ صَارُوا حُمَمًا - وَهُوَ الْفَحْمُ الْمُحْتَرِقُ بِالنَّارِ - . وَظَاهِرُ السِّيَاقِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي قُلُوبِهِمْ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ لَفْظَ الْحَدِيثِ هَكَذَا : " فَيَقُولُ ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْرًا فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَيَقْبِضُ اللهُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ " فَهَذَا السِّيَاقُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ لَمْ يَكُنْ فِي قُلُوبِهِمْ

مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ وَمَعَ هَذَا فَأَخْرَجَتْهُمُ الرَّحْمَةُ ، وَمِنْ هَذَا رَحِمْتُهُ سُبْحَانَهُ لِلَّذِي أَوْصَى أَهْلَهُ أَنْ يُحَرِّقُوهُ بِالنَّارِ وَيَذْرُوهُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ زَعْمًا مِنْهُ بِأَنَّهُ يَفُوتُ اللهَ سُبْحَانَهُ . فَهَذَا قَدْ شَكَّ فِي الْمَعَادِ وَالْقُدْرَةِ وَلَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ ، وَمَعَ هَذَا فَقَالَ لَهُ : مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ قَالَ : خَشْيَتُكَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ ، فَمَا تَلَافَاهُ أَنْ رَحِمَهُ اللهُ فَلِلَّهِ سُبْحَانَهُ فِي خَلْقِهِ حِكَمٌ لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُ الْبَشَرِ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : "يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ ذَكَرَنِي يَوْمًا أَوْ خَافَنِي فِي مَقَامٍ " قَالُوا : وَمَنْ ذَا الَّذِي فِي مُدَّةِ

*(99/251)*

---

عُمْرِهِ كُلِّهَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا لَمْ يَذْكُرْ رَبَّهُ يَوْمًا وَاحِدًا وَلَا خَافَهُ سَاعَةً وَاحِدَةً ؟ وَلَا رَيْبَ أَنَّ رَحْمَتَهُ سُبْحَانَهُ إِذَا أَخْرَجَتْ مِنَ النَّارِ مَنْ ذَكَرَهُ وَقْتًا مَا أَوْ خَافَهُ فِي مَقَامٍ مَا فَغَيْرُ بِدْعٍ أَنْ تَفْنَى النَّارُ وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ خَرَجُوا مِنْهَا وَهِيَ نَارٌ .

الْوَجْهُ الْحَادِي وَالْعِشْرُونَ – أَنَّ اعْتِرَافَ الْعَبْدِ بِذَنْبِهِ حَقِيقَةً الِاعْتِرَافَ الْمُتَضَمِّنَ لِنِسْبَةِ السُّوءِ وَالظُّلْمِ وَاللَّوْمِ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ ، وَنِسْبَةِ الْعَدْلِ وَالْحَمْدِ وَالرَّحْمَةِ وَالْكَمَالِ الْمُطْلَقِ إِلَى رَبِّهِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ ، يَسْتَعْطِفُ رَبَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِ وَيَسْتَدْعِي رَحْمَتَهُ لَهُ ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ

يَرْحَمَ عَبْدَهُ أُلْقِيَ ذَلِكَ فِي قَلْبِهِ وَالرَّحْمَةَ مَعَهُ وَلَا سِيَّمَا إِذَا اقْتَرَنَ بِذَلِكَ جَزْمُ الْعَبْدِ عَلَى تَرْكِ الْمُعَاوَدَةِ لِمَا يُسْخِطُ رَبَّهُ عَلَيْهِ وَعَلِمَ اللهُ أَنَّ ذَلِكَ دَاخِلَ قَلْبِهِ وَسُوَيْدَائِهِ فَإِنَّهُ لَا يَتَخَلَّفُ عَنْهُ الرَّحْمَةُ مَعَ ذَلِكَ .

*(100/251)*

---

وَفِي مُعْجَمِ الطَّبَرَانِيِّ مِنْ حَدِيثِ يَزِيدَ بْنِ سِنَانٍ الرَّهَاوِيِّ ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ عَامِرٍ ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (إِنَّ آخِرَ رَجُلٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ يَتَقَلَّبُ عَلَى الصِّرَاطِ ظَهْرًا لِبَطْنٍ كَالْغُلَامِ يَضْرِبُهُ أَبُوهُ وَهُوَ يَفِرُّ مِنْهُ ، يَعْجَزُ عَنْهُ عَمَلُهُ أَنْ يَسْعَى فَيَقُولُ : يَا رَبِّ بَلِّغْ بِي الْجَنَّةَ وَنَجِّنِي مِنَ النَّارِ . فَيُوحِي اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَيْهِ : عَبْدِي ! إِنْ أَنَا نَجَّيْتُكَ مِنَ النَّارِ وَأَدْخَلْتُكَ الْجَنَّةَ أَتَعْتَرِفُ لِي بِذُنُوبِكَ وَخَطَايَاكَ ؟ فَيَقُولُ الْعَبْدُ : نَعَمْ يَا رَبِّ وَعِزَّتِكَ وَجَلَالِكَ إِنْ نَجَّيْتَنِي مِنَ النَّارِ

*(101/251)*

---

لَأَعْتَرِفَنَّ لَكَ بِذُنُوبِي وَخَطَايَايَ . فَيَجُوزُ الْجِسْرَ وَيَقُولُ الْعَبْدُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ : لَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَهُ بِذُنُوبِي وَخَطَايَايَ لَيَرُدَّنِي إِلَى النَّارِ ، فَيُوحِي اللهُ إِلَيْهِ : عَبْدِي اعْتَرِفْ لِي بِذُنُوبِكَ وَخَطَايَاكَ أَغْفِرْهَا لَكَ وَأُدْخِلْكَ الْجَنَّةَ ، فَيَقُولُ الْعَبْدُ : لَا وَعِزَّتِكَ وَجَلَالِكَ مَا أَذْنَبْتُ ذَنْبًا قَطُّ وَلَا أَخْطَأْتُ خَطِيئَةً قَطُّ ، فَيُوحِي اللهُ إِلَيْهِ : عَبْدِي إِنَّ لِي عَلَيْكَ بَيِّنَةً فَيَلْتَفِتُ الْعَبْدُ يَمِينًا وَشِمَالًا فَلَا يَرَى أَحَدًا ، فَيَقُولُ يَا رَبِّ أَرِنِي بَيِّنَتَكَ ، فَيَسْتَنْطِقُ اللهُ تَعَالَى جِلْدَهُ بِالْمُحَقَّرَاتِ فَإِذَا رَأَى ذَلِكَ الْعَبْدُ يَقُولُ : يَا رَبِّ عِنْدِي وَعِزَّتِكَ الْعَظَائِمُ فَيُوحِي اللهُ إِلَيْهِ : عَبْدِي أَنَا أَعْرِفُ بِهَا مِنْكَ اعْتَرِفْ لِي بِهَا أَغْفِرْهَا لَكَ وَأُدْخِلْكَ الْجَنَّةَ . فَيَعْتَرِفُ الْعَبْدُ بِذُنُوبِهِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ) ثُمَّ ضَحِكَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ – يَقُولُ هَذَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً فَكَيْفَ بِالَّذِي فَوْقَهُ ؟ فَالرَّبُّ تَعَالَى يُرِيدُ مِنْ عَبْدِهِ الِاعْتِرَافَ وَالِانْكِسَارَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَالْخُضُوعَ وَالذِّلَّةَ لَهُ وَالْعَزْمَ عَلَى مَرْضَاتِهِ . فَمَا دَامَ أَهْلُ النَّارِ فَاقِدِينَ لِهَذَا الرُّوحِ فَهُمْ فَاقِدُونَ لِرُوحِ الرَّحْمَةِ ، فَإِذَا أَرَادَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَرْحَمَهُمْ أَوْ مَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ جَعَلَ فِي قَلْبِهِ ذَلِكَ فَتُدْرِكُهُ الرَّحْمَةُ ، وَقُدْرَةُ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى غَيْرُ قَاصِرَةٍ عَنْ ذَلِكَ وَلَيْسَ فِيهِ مَا يُنَاقِضُ مُوجَبَ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ

*(102/251)*

وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ .

الْوَجْهُ الثَّانِي وَالْعِشْرُونَ - أَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ أَوْجَبَ الْخُلُودَ عَلَى مَعَاصِي مِنَ الْكَبَائِرِ وَقَيَّدَهُ بِالتَّأْبِيدِ وَلَمْ يُنَافِ ذَلِكَ انْقِطَاعَهُ وَانْتِهَاءَهُ ، فَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا) (4 : 93) وَمِنْهَا قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا " وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ فِي قَاتِلِ نَفْسِهِ : " فَيَقُولُ اللَّهُ

*(103/251)*

---

تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَادَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ " وَأَبْلَغُ مِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا) (72 : 23) فَهَذَا وَعِيدٌ مُقَيَّدٌ بِالْخُلُودِ وَالتَّأْبِيدِ ، مَعَ انْقِطَاعِهِ قَطْعًا بِسَبَبٍ مِنَ الْعَبْدِ وَهُوَ التَّوْحِيدُ . فَكَذَلِكَ الْوَعِيدُ الْعَامُّ لِأَهْلِ النَّارِ لَا يَمْتَنِعُ انْقِطَاعُهُ بِسَبَبٍ مِمَّنْ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ وَغَلَبَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبَهُ ، فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمَا يَئِسَ مِنْ رَحْمَتِهِ ، كَمَا فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " خَلَقَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ - وَقَالَ فِي آخِرِهِ -

فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْأَسْ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُسْلِمُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ " .

الْوَجْهُ الثَّالِثُ وَالْعِشْرُونَ - أَنَّهُ لَوْ جَاءَ الْخَبَرُ مِنْهُ سُبْحَانَهُ صَرِيحًا بِأَنَّ عَذَابَ النَّارِ لَا انْتِهَاءَ لَهُ وَأَنَّهُ أَبَدِيٌّ لَا انْقِطَاعَ لَهُ ، لَكَانَ ذَلِكَ وَعِيدًا مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَاللهُ تَعَالَى لَا يُخْلِفُ وَعْدَهُ .

*(104/251)*

---

وَأَمَّا الْوَعِيدُ فَمَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ كُلُّهُ أَنَّ إِخْلَافَهُ كَرَمٌ وَعَفْوٌ وَتَجَاوُزٌ يُمَدَحُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِهِ وَيُثْنَى عَلَيْهِ بِهِ فَإِنَّهُ حَقٌّ لَهُ إِنْ شَاءَ تَرَكَهُ وَإِنْ شَاءَ اسْتَوْفَاهُ ، وَالْكَرِيمُ لَا يَسْتَوْفِي حَقَّهُ ، فَكَيْفَ بِأَكْرَمِ الْأَكْرَمِينَ ، وَقَدْ صَرَّحَ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ بِأَنَّهُ لَا يُخْلِفُ وَعْدَهُ ، وَلَمْ يَقُلْ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ لَا يُخْلِفُ وَعِيدَهُ .

*(105/251)*

---

وَقَدْ رَوَى أَبُو يَعْلَى الْمَوْصِلِيُّ ، حَدَّثَنَا هُدْبَةُ بْنُ خَالِدٍ ، حَدَّثَنَا سُهَيْلُ بْنُ أَبِي حَزْمٍ ، حَدَّثَنَا ثَابِتٌ الْبُنَانِيُّ ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : "

مَنْ وَعَدَهُ اللهُ عَلَى عَمَلٍ ثَوَابًا فَهُوَ مُنْجِزُهُ ، وَمَنْ أَوْعَدَهُ عَلَى عَمَلٍ عِقَابًا فَهُوَ فِيهِ بِالْخِيَارِ "

وَقَالَ أَبُو الشَّيْخِ الْأَصْبَهَانِيُّ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حَمْزَةَ حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ الْخَلِيلِ حَدَّثَنَا الْأَصْمَعِيُّ قَالَ : جَاءَ عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ إِلَى أَبِي عَمْرِو بْنِ الْعَلَاءِ فَقَالَ : يَا أَبَا عَمْرٍو أَيُخْلِفُ اللهُ مَا وَعَدَهُ ؟ قَالَ : لَا . قَالَ : أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَوْعَدَهُ اللهُ عَلَى عَمَلِهِ عِقَابًا أَيُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ عَلَيْهِ ؟ فَقَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ الْعَلَاءِ : مِنَ الْعُجْمَةِ أُتِيتَ يَا أَبَا عُثْمَانَ ، إِنَّ الْوَعْدَ غَيْرُ الْوَعِيدِ ، إِنَّ الْعَرَبَ لَا تَعُدُّ عَارًا وَلَا خُلْفًا أَنْ تَعِدَ شَرًّا ثُمَّ لَا تَفْعَلَهُ ، تَرَى ذَلِكَ كَرَمًا وَفَضْلًا ، وَإِنَّمَا الْخُلْفُ أَنْ تَعِدَ خَيْرًا ثُمَّ لَا تَفْعَلَهُ ، قَالَ : فَأَوْجِدْنِي هَذَا فِي كَلَامِ الْعَرَبِ ، قَالَ نَعَمْ أَمَا سَمِعْتَ إِلَى قَوْلِ الْأَوَّلِ :

وَلَا يَرْهَبُ ابْنُ الْعَمِّ مَا عِشْتُ سَطْوَتِي . . . وَلَا أَخْتَنِي مِنْ صَوْلَةِ الْمُتَهَدِّدِ

وَإِنِّي وَإِنْ أَوْعَدْتُهُ وَوَعَدْتُهُ . . . لَمُخْلِفُ إِيعَادِي وَمُنْجِزُ مَوْعِدِي

(106/251)

---

قَالَ أَبُو الشَّيْخِ وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ : الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ حَقٌّ ، فَالْوَعْدُ حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ ضَمِنَ لَهُمْ إِذَا فَعَلُوا كَذَا أَنْ يُعْطِيَهُمْ كَذَا وَمَنْ أَوْلَى بِالْوَفَاءِ مِنَ اللهِ ؟ وَالْوَعِيدُ حَقُّهُ عَلَى الْعِبَادِ . قَالَ : لَا تَفْعَلُوا كَذَا فَأُعَذِّبَكُمْ فَفَعَلُوا فَإِنْ شَاءَ عَفَا وَإِنْ شَاءَ أَخَذَ لِأَنَّهُ حَقُّهُ .

وَأَوْلَاهُمَا بِرِبِّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْعَفْوُ وَالْكَرَمُ إِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ وَيُؤَيِّدُهُ خَبَرُ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ حِينَ أَوْعَدَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ :

نُبِّئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي . . . وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ

فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي وَعِيدٍ مُطْلَقٍ فَكَيْفَ بِوَعِيدٍ مَقْرُونٍ بِاسْتِثْنَاءٍ مُعَقَّبٍ بِقَوْلِهِ : (إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنْهُ أَنَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ عَقِيبَ قَوْلِهِ : (إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ) فَهُوَ عَائِدٌ إِلَيْهِ وَلَا بُدَّ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْمُسْتَثْنَى مِنْهُ وَحْدَهُ ، بَلْ إِمَّا أَنْ

(107/251)

---

يَخْتَصَّ بِالْمُسْتَثْنَى أَوْ يَعُودَ إِلَيْهِمَا ، وَغَيْرُ خَافٍ أَنَّ تَعَلُّقَهُ بِقَوْلِهِ : (إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ) أَوْلَى مِنْ تَعَلُّقِهِ بِقَوْلِهِ : (خَالِدِينَ فِيهَا) وَذَلِكَ ظَاهِرٌ لِلْمُتَأَمِّلِ وَهُوَ الَّذِي فَهِمَهُ الصَّحَابَةُ فَقَالُوا : أَتَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى كُلِّ وَعِيدٍ فِي الْقُرْآنِ . وَلَمْ يُرِيدُوا بِذَلِكَ الِاسْتِثْنَاءَ وَحْدَهُ فَإِنَّ الِاسْتِثْنَاءَ مَذْكُورٌ فِي الْأَنْعَامِ أَيْضًا . وَإِنَّمَا أَرَادُوا أَنَّهُ عَقِبَ الِاسْتِثْنَاءِ بِقَوْلِهِ : (إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) وَهَذَا التَّعْقِيبُ نَظِيرُ قَوْلِهِ فِي " الْأَنْعَامِ " : (خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) فَأَخْبَرَ أَنَّ عَذَابَهُمْ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ وَرَفْعَهُ عَنْهُمْ فِي وَقْتٍ يَشَاؤُهُ صَادِرٌ عَنْ كَمَالِ

عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ ، لَا عَنْ مَشِيئَةٍ مُجَرَّدَةٍ عَنِ الْحِكْمَةِ وَالْمَصْلَحَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْعَدْلِ ، إِذْ يَسْتَحِيلُ تَجَرُّدُ مَشِيئَتِهِ عَنْ ذَلِكَ .

*(108/251)*

---

الْوَجْهُ الرَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ - أَنَّ جَانِبَ الرَّحْمَةِ أَغْلَبُ فِي هَذِهِ الدَّارِ الْبَاطِلَةِ الْفَانِيَةِ الزَّائِلَةِ عَنْ قُرْبٍ مِنْ جَانِبِ الْعُقُوبَةِ وَالْغَضَبِ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا عُمِّرَتْ وَلَا قَامَ لَهَا وُجُودٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى : (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ) (16 : 61) وَقَالَ : (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ) (35 : 45) فَلَوْلَا سَعَةُ رَحْمَتِهِ وَمَغْفِرَتِهِ وَعَفْوِهِ لَمَا قَامَ الْعَالَمُ . وَمَعَ هَذَا فَالَّذِي أَظْهَرُهُ مِنَ الرَّحْمَةِ فِي هَذِهِ الدَّارِ وَأَنْزَلَهُ بَيْنَ الْخَلَائِقِ جُزْءٌ مِنْ مِائَةِ جُزْءٍ مِنَ الرَّحْمَةِ ، فَإِذَا كَانَ جَانِبُ الرَّحْمَةِ قَدْ غَلَبَ فِي هَذِهِ الدَّارِ وَنَالَتِ الْبَرَّ وَالْفَاجِرَ وَالْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ مَعَ قِيَامِ مُقْتَضَى الْعُقُوبَةِ بِهِ وَمُبَاشَرَتِهِ لَهُ وَتَمَكُّنِهِ مِنْ إِغْضَابِ رَبِّهِ وَالسَّعْيِ فِي مُسَاخَطَتِهِ ، فَكَيْفَ لَا يَغْلِبُ جَانِبُ الرَّحْمَةِ فِي دَارٍ تَكُونُ الرَّحْمَةُ فِيهَا مُضَاعَفَةً عَلَى مَا فِي هَذِهِ الدَّارِ تِسْعًا وَتِسْعِينَ ضِعْفًا ، وَقَدْ أَخَذَ الْعَذَابُ مِنَ الْكُفَّارِ مَأْخَذَهُ وَانْكَسَرَتْ تِلْكَ النُّفُوسُ وَأَنْهَكَهَا الْعَذَابُ وَأَذَابَ مِنْهَا خُبْثًا وَشَرًّا لَمْ يَكُنْ يَحُولُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ رَحْمَتِهِ لَهَا فِي الدُّنْيَا . بَلْ كَانَ يَرْحَمُهَا مَعَ قِيَامِ مُقْتَضَى الْعُقُوبَةِ وَالْغَضَبِ بِهَا ، فَكَيْفَ

إِذَا زَالَ مُقْتَضَى الْغَضَبِ وَالْعُقُوبَةِ وَقَوِيَ جَانِبُ الرَّحْمَةِ أَضْعَافَ أَضْعَافِ الرَّحْمَةِ فِي هَذِهِ الدَّارِ . وَاضْمَحَلَّ الشَّرُّ وَالْخُبْثُ الَّذِي فِيهَا

(109/251)

---

فَأَذَابَتْهُ النَّارُ وَأَكَلَتْهُ ؟ ! وَسِرُّ الْأَمْرِ أَنَّ أَسْمَاءَ الرَّحْمَةِ وَالْإِحْسَانِ أَغْلَبُ وَأَظْهَرُ وَأَكْثَرُ مِنْ أَسْمَاءِ الِانْتِقَامِ . وَفِعْلَ الرَّحْمَةِ أَكْثَرُ مِنْ فِعْلِ الِانْتِقَامِ . وَظُهُورَ آثَارِ الرَّحْمَةِ أَعْظَمُ مِنْ آثَارِ الِانْتِقَامِ وَالرَّحْمَةَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ فِعْلِ الِانْتِقَامِ . وَبِالرَّحْمَةِ خَلَقَ خَلْقَهُ وَلَهَا خَلَقَهُمْ ، وَهِيَ الَّتِي سَبَقَتْ غَضَبَهُ وَغَلَبَتْهُ وَكَتَبَهَا عَلَى نَفْسِهِ وَوَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَمَا خَلَقَ بِهَا فَمَطْلُوبٌ لِذَاتِهِ وَمَا خَلَقَ بِالْغَضَبِ فَمُرَادٌ لِغَيْرِهِ كَمَا تَقَدَّمَ تَقْرِيرُ ذَلِكَ ، وَالْعُقُوبَةُ تَأْدِيبٌ وَتَطْهِيرٌ ، وَالرَّحْمَةُ إِحْسَانٌ وَكَرَمٌ وَجُودٌ ، وَالْعُقُوبَةُ مُدَاوَاةٌ . وَالرَّحْمَةُ عَطَاءٌ وَبَذْلٌ .

الْوَجْهُ الْخَامِسُ وَالْعِشْرُونَ – أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا بُدَّ أَنْ يُظْهِرَ لِخَلْقِهِ جَمِيعِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صِدْقَهُ وَصِدْقَ رُسُلِهِ ، وَأَنَّ أَعْدَاءَهُ كَانُوا هُمُ الْكَاذِبِينَ الْمُفْتَرِينَ . وَيُظْهِرَ لَهُمْ حُكْمَهُ الَّذِي هُوَ أَعْدَلُ حُكْمٍ فِي أَعْدَائِهِ ، وَأَنَّهُ حَكَمَ فِيهِمْ حُكْمًا يَحْمَدُونَهُ هُمْ عَلَيْهِ فَضْلًا عَنْ أَوْلِيَائِهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ ، بِحَيْثُ يَنْطِقُ الْكَوْنُ كُلُّهُ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

(110/251)

وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى : (وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (39 : 75) فَحَذَفَ فَاعِلَ الْقَوْلِ لِإِرَادَةِ الْإِطْلَاقِ وَأَنَّ ذَلِكَ جَارٍ عَلَى لِسَانِ كُلِّ نَاطِقٍ وَقَلْبِهِ . قَالَ الْحَسَنُ : لَقَدْ دَخَلُوا النَّارَ وَإِنَّ قُلُوبَهُمْ لَمُمْتَلِئَةٌ مِنْ حَمْدِهِ مَا وَجَدُوا عَلَيْهِ سَبِيلًا . وَهَذَا هُوَ الَّذِي حَسَّنَ حَذْفَ الْفَاعِلِ مِنْ قَوْلِهِ : (قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا) (39 : 72) حَتَّى كَأَنَّ الْكَوْنَ جَمِيعَهُ قَائِلٌ ذَلِكَ لَهُمْ إذْ هُوَ حُكْمُهُ الْعَدْلُ فِيهِمْ وَمُقْتَضَى حِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ . وَأَمَّا أَهْلُ الْجَنَّةِ فَقَالَ تَعَالَى : (وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ) (39 : 73) فَهُمْ لَمْ يَسْتَحِقُّوهَا بِأَعْمَالِهِمْ وَإِنَّمَا اسْتَحَقُّوهَا بِعَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ ، فَإِذَا أَشْهَدَ سُبْحَانَهُ مَلَائِكَتَهُ وَخَلْقَهُ كُلَّهُمْ حُكْمَهُ الْعَدْلَ وَحِكْمَتَهُ الْبَاهِرَةَ وَوَضْعَهُ الْعُقُوبَةَ حَيْثُ تَشْهَدُ الْعُقُولُ وَالْفِطَرُ وَالْخَلِيقَةُ أَنَّهُ أَوْلَى الْمَوَاضِعِ وَأَحَقُّهَا بِهَا ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ كَمَالِ حَمْدِهِ الَّذِي هُوَ مُقْتَضَى أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ، وَأَنَّ هَذِهِ النُّفُوسَ الْخَبِيثَةَ الظَّالِمَةَ الْفَاجِرَةَ لَا يَلِيقُ بِهَا غَيْرُ ذَلِكَ وَلَا يَحْسُنُ بِهَا سِوَاهُ بِحَيْثُ تَعْتَرِفُ هِيَ مِنْ ذَوَاتِهَا بِأَنَّهَا أَهْلُ ذَلِكَ وَأَنَّهَا أَوْلَى بِهِ حَصَلَتِ الْحِكْمَةُ الَّتِي لِأَجْلِهَا وُجِدَ الشَّرُّ وَمُوجِبَاتُهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ وَتِلْكَ الدَّارِ . وَلَيْسَ فِي الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ أَنَّ الشُّرُورَ تَبْقَى دَائِمًا لَا نِهَايَةَ

لَهَا وَلَا انْقِطَاعَ أَبَدًا ، فَتَكُونَ هِيَ وَالْخَيْرَاتُ فِي ذَلِكَ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ . فَهَذَا نِهَايَةُ إِقْدَامِ الْفَرِيقَيْنِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَلَعَلَّكَ لَا تَظْفَرُ بِهِ فِي غَيْرِ هَذَا الْكِتَابِ .

فَإِنْ قِيلَ : فَإِلَى أَيْنَ انْتَهَى قَدَمُكُمْ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ الْعَظِيمَةِ الشَّأْنِ الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ مِنَ الدُّنْيَا بِأَضْعَافٍ مُضَاعَفَةٍ ؟ قِيلَ : إِلَى قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : (إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) وَإِلَى هُنَا انْتَهَى قَدَمُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِيهَا حَيْثُ ذَكَرَ دُخُولَ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلِ النَّارِ النَّارَ وَمَا يَلْقَاهُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ ، وَقَالَ : ثُمَّ يَفْعَلُ اللهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَشَاءُ ، بَلْ وَإِلَى هَاهُنَا انْتَهَتْ أَقْدَامُ الْخَلَائِقِ . وَمَا ذَكَرْنَا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بَلْ فِي الْكِتَابِ كُلِّهِ مِنْ صَوَابٍ فَمِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَهُوَ الْمَانُّ بِهِ . وَمَا كَانَ مِنْ خَطَأٍ فَمِنِّي وَمِنَ الشَّيْطَانِ ، وَاللهُ وَرَسُولُهُ بَرِيءٌ مِنْهُ وَهُوَ عِنْدَ لِسَانِ كُلِّ قَائِلٍ وَقَلْبِهِ وَقَصْدِهِ وَاللهُ أَعْلَمُ اهـ .

هَذَا مَا أَوْرَدَهُ فِي الْمَسْأَلَةِ الْعَلَّامَةُ الْمُحَقِّقُ ابْنُ الْقَيِّمِ ، وَفِيهِ مِنْ دَقَائِقِ الْمَعْرِفَةِ بِاللهِ تَعَالَى وَفَهْمِ

(112/251)

كِتَابِهِ وَالْغَوْصِ عَلَى دُرَرِ حِكَمِهِ فِي أَحْكَامِهِ وَأَسْرَارِهِ فِي أَقْدَارِهِ وَالْإِفْصَاحِ عَنْ سَعَةِ رَحْمَتِهِ وَخَفِيِّ لُطْفِهِ وَجَلِيلِ إِحْسَانِهِ ، مَا لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَيْهِ فِيمَا نَعْلَمُ سَابِقٌ ، وَلَمْ يَلْحَقْهُ بِهِ لَاحِقٌ ، فَنَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يُكَافِئَهُ عَلَى ذَلِكَ أَفْضَلَ مَا يُكَافِئُ الْعُلَمَاءَ الْعَامِلِينَ ، وَالْعَارِفِينَ الْكَامِلِينَ ، وَأَنْ يَحْشُرَنَا وَإِيَّاهُ فِي ثُلَّةِ الْمُقَرَّبِينَ آمِينَ .

*(113/251)*

---

وَقَدْ أَشَارَ إِلَى بَحْثِهِ هَذَا غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَمُؤَلِّفِي الْعَقَائِدِ ، وَإِنَّمَا أَوْرَدْنَاهُ بِنَصِّهِ عَلَى طُولِهِ لِمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ الْحَقَائِقِ الَّتِي نَوَّهْنَا بِهَا ، وَلِأَمْرٍ آخَرَ أَهَمَّ وَهُوَ أَنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّ أَقْوَى شُبُهَاتِ النَّاسِ مِنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ عَلَى الدِّينِ قَوْلُ أَهْلِ كُلِّ دِينٍ مِنَ الْأَدْيَانِ الْمَشْهُورَةِ أَنَّهُمْ هُمُ النَّاجُونَ وَحْدَهُمْ وَأَكْثَرُ الْبَشَرِ يُعَذَّبُونَ عَذَابًا شَدِيدًا دَائِمًا لَا يَنْتَهِي أَبَدًا ، بَلْ تَمُرُّ أُلُوفُ الْأُلُوفِ الْمُكَرَّرَةِ مِنَ الْأَحْقَابِ وَالْقُرُونِ وَلَا يَزْدَادُ إِلَّا شِدَّةً وَقُوَّةً وَامْتِدَادًا ، مَعَ قَوْلِهِمْ – وَلَا سِيَّمَا الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ – إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، وَإِنَّ رَحْمَةَ الْأُمِّ الْعَطُوفِ الرَّءُومِ بِوَلَدِهَا الْوَحِيدِ لَيْسَتْ إِلَّا جُزْءًا صَغِيرًا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ . وَهَذَا الْبَحْثُ جَدِيرٌ بِأَنْ يُزِيلَ شُبْهَةَ هَؤُلَاءِ فَيَرْجِعُ الْمُسْتَعِدُّونَ مِنْهُمْ إِلَى دِينِ اللهِ تَعَالَى مُذْعِنِينَ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ رَاجِينَ رَحْمَتَهُ خَائِفِينَ عِقَابَهُ الَّذِي تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ قَدْرَهُ – فَمَا

أَعْظَمَ ثَوَابَ ابْنِ الْقَيِّمِ عَلَى اجْتِهَادِهِ فِي شَرْحِ هَذَا الْقَوْلِ الْمَأْثُورِ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَإِنْ خَالَفَهُمُ الْجُمْهُورُ الَّذِينَ حَمَلُوا الْخُلُودَ وَالْأَبَدَ اللُّغَوِيَّيْنِ فِي الْقُرْآنِ عَلَى الْمَعْنَى الِاصْطِلَاحِيِّ الْكَلَامِيِّ ، وَهُوَ عَدَمُ النِّهَايَةِ فِي الْوَاقِعِ ، وَنَفْسِ الْأَمْرِ ، لَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى تَعَامُلِ النَّاسِ وَعُرْفِهِمْ

(114/251)

---

فِي عَالَمِهِمْ كَمَا يَقْصِدُ أَهْلُ كُلِّ لُغَةٍ فِي أَوْضَاعِ لُغَتِهِمْ ، فَالْعَرَبُ كَانَتْ تَسْتَعْمِلُ الْخُلُودَ فِي الْإِقَامَةِ الْمُسْتَقِرَّةِ غَيْرِ الْمُؤَقَّتَةِ ، وَيُسَمُّونَ الْأَثَافِيَّ (حِجَارَةَ الْمَوْقِدِ) الْخَوَالِدَ ، وَلَا يَتَضَمَّنُ ذَلِكَ اسْتِحَالَةَ الِانْتِقَالِ وَالنَّقْلِ كَمَا بَيَّنَّاهُ مِنْ قَبْلُ . وَيُعَبِّرُونَ بِالْأَبَدِ عَمَّا يَبْقَى مُدَّةً طَوِيلَةً كَمَا صَرَّحَ بِهِ الرَّاغِبُ فِي مُفْرَدَاتِ الْقُرْآنِ ، وَنَاهِيكَ بِتَدْقِيقِهِ فِي تَحْدِيدِ مَعَانِي الْأَلْفَاظِ ، وَفِي حَقِيقَةِ الْأَسَاسِ . وَتَقُولُ : رَزَقَكَ اللَّهُ عُمْرًا طَوِيلَ الْآبَادِ بَعِيدَ الْآمَادِ . فَهَلْ مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَيْسَ يَنْتَهِي ؟ ! وَيَقُولُ أَهْلُ الْقَضَاءِ وَغَيْرُهُمْ فِي زَمَانِنَا حُكِمَ عَلَى فُلَانٍ بِالسَّجْنِ الْمُؤَبَّدِ أَوِ الْأَشْغَالِ الشَّاقَّةِ الْمُؤَبَّدَةِ – وَهُوَ لَا يُنَافِي عِنْدَهُمُ انْتِهَاءَهَا بِعَفْوِ السُّلْطَانِ مَثَلًا .

وَهَذَا التَّفْصِيلُ قَدْ يَنْفَعُ مَنْ ذَكَرْنَا مِنَ الْمَارِقِينَ وَلَا يَضُرُّ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِ الْجُمْهُورِ مُسْتَدِلِّينَ أَوْ مُقَلِّدِينَ ، وَسَنَعُودُ إِلَى الْمَسْأَلَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى فِي تَفْسِيرِ آيَتَيْ سُورَةِ هُودٍ ، وَنُلَخِّصُ

جَمِيعَ التَّأْوِيلَاتِ مَعَ بَيَانِ الرَّاجِحِ مِنْهَا وَالْمَرْجُوحِ وَدَلَائِلِ الْجُمْهُورِ .

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

*(115/251)*

---

الْمَعْنَى الْعَامُّ لِمَادَّةِ الْوَلَاءِ هُوَ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ أَوِ الْأَشْيَاءِ نَوْعٌ مِنَ الِاتِّصَالِ فِي الْحُصُولِ أَوِ الْعَمَلِ ، بِأَنْ لَا يَفْصِلَ بَيْنَهُمَا أَوْ بَيْنَهَا مَا شَأْنُهُ أَنْ يَفْصِلَ مِنْ حَدَثٍ أَوْ جُثَّةٍ أَوْ زَمَنٍ ، وَوَلِيَ الرَّجُلُ الْعَمَلَ أَوِ الْأَمْرَ قَامَ بِهِ بِنَفْسِهِ ، وَمِنْهُ وِلَايَةُ الْأَحْكَامِ " بِكَسْرِ الْوَاوِ " وَصَاحِبُهَا وَالٍ ، وَوِلَايَةُ الْقَرَابَةِ وَوِلَايَةُ النُّصْرَةِ " وَكِلَاهُمَا بِفَتْحِهَا " وَصَاحِبُهُمَا وَلِيٌّ . وَمِنْهُ الْمُوَالَاةُ فِي الْوُضُوءِ ، وَوَلَّى وَجْهَهُ الْكَعْبَةَ – تَوَجَّهَ إلَيْهَا (فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) (2 : 144) وَوَلَّاهُ الشَّيْءَ أَوِ الْعَمَلَ أَوِ الْقَضَاءَ : جَعَلَهُ إلَيْهِ لِيَقُومَ بِهِ بِنَفْسِهِ فَتَوَلَّاهُ ، وَتَوَلَّى زَيْدٌ عَمْرًا : نَصَرَهُ ، وَكَذَلِكَ الْقَوْمُ (لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ) (60 : 13) – وَأَمَّا تَوْلِيَةُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بَعْضًا فَهُوَ جَعْلُهُمْ أَوْلِيَاءَ وَأَنْصَارًا بَعْضَهُمْ لِبَعْضٍ ، إمَّا بِمُقْتَضَى أَمْرِهِ فِي شَرْعِهِ وَمُقْتَضَى سُنَنِهِ وَقَدَرِهِ مَعًا ، وَإِمَّا بِمُقْتَضَى الثَّانِي فَقَطْ فَالْأَوَّلُ وِلَايَةُ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا فِي الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْمَعْرُوفِ ، فَقَدْ أَمَرَهُمْ بِذَلِكَ فِي شَرْعِهِ وَنَهَاهُمْ عَنْ ضِدِّهِ ، وَهُوَ مُقْتَضَى الْإِيمَانِ الصَّادِقِ وَأَثَرُهُ الَّذِي لَا يَنْفَكُّ عَنْهُ بِحَسَبِ تَقْدِيرِ اللَّهِ الَّذِي مَضَتْ بِهِ سُنَّتُهُ

فِي خَلْقِهِ ، وَالثَّانِي وِلَايَةُ الْكُفَّارِ الْمُجْرِمِينَ وَالْمُنَافِقِينَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا ، فَهُوَ أَثَرٌ مُتَرَتِّبٌ عَلَى الِاعْتِقَادِ

(116/251)

---

وَالْأَخْلَاقِ وَالْمَنْفَعَةِ الْمُشْتَرَكَةِ بَيْنَهُمْ بِحَسَبِ تَقْدِيرِهِ وَسُنَنِهِ فِي نِظَامِ الْحَيَاةِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَهُوَ لَمْ يَأْمُرْهُمْ بِشَيْءٍ مِمَّا يَتَنَاصَرُونَ بِهِ فِي الْبَاطِلِ وَالشَّرِّ وَالْمُنْكَرِ بَلْ نَهَاهُمْ عَنْهُ . وَقَدْ بَيَّنَّا مِرَارًا أَنَّ هَذَا النِّظَامَ الْمُعَبَّرَ عَنْهُ بِالْقَدَرِ وَالتَّقْدِيرِ الشَّامِلِ لِلْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ نَفْيِ مَا زَعَمَتِ الْقَدَرِيَّةُ مِنْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَخْلُقُ كُلَّ مَا وَقَعَ فِي الْكَوْنِ خَلْقًا

(117/251)

---

آنِفًا ، أَيْ مُبْتَدَأً مِنْهُ غَيْرَ جَارٍ عَلَى نِظَامٍ تَكُونُ فِيهِ الْمُسَبَّبَاتُ عَلَى قَدْرِ الْأَسْبَابِ . الْجَبْرُ يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ الْقَدَرِ أَيْضًا . فَتَوْلِيَةُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ لِبَعْضٍ لَيْسَ خَلْقًا مُبْتَدَأً مِنَ اللَّهِ وَلَا وَاقِعًا مِنَ النَّاسِ بِالْإِجْبَارِ وَالِاضْطِرَارِ . وَلَا بِالِاسْتِقْلَالِ الْمُنَافِي لِلْخُضُوعِ لِلسُّنَنِ وَالْأَقْدَارِ ، وَإِنَّمَا جَرَتْ سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْبَشَرِ بِأَنْ يَكُونَ لِكُلِّ عَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ النَّفْسِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ الَّتِي

تَصْدُرُ مِنْهُمْ تَأْثِيرٌ فِي أَنْفُسِهِمْ يَصِيرُ بِالتَّكْرَارِ عَادَةً فَخُلُقًا وَمَلَكَةً ، وَأَنَّ الْأَفْرَادَ وَالْجَمَاعَاتِ يَمِيلُ كُلٌّ مِنْهُمْ إلَى مَنْ عَلَى شَاكِلَتِهِ فِي ذَلِكَ ، وَيَتَوَلَّى بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي التَّعَاوُنِ وَالتَّنَاصُرِ فِيمَا يَشْتَرِكُونَ فِيهِ عَلَى مَنْ يُخَالِفُهُمْ فِيهِ ، وَقَدْ جَهِلَ الْجَبْرِيَّةُ وَالْقَدَرِيَّةُ النُّفَاةُ جَمِيعًا حَقِيقَةَ الْقَدَرِ ، وَصَارَ كُلٌّ مِنْهُمَا يَحْمِلُ الْآيَاتِ عَلَى مَا ذَهَبَ إلَيْهِ كَأَنَّهَا مُخْتَلِفَةٌ مُتَعَارِضَةٌ ، وَهِيَ مُخَالِفَةٌ لِكُلٍّ مِنْهُمَا وَلَا اخْتِلَافَ وَلَا تَعَارُضَ فِيهَا .

(118/251)

---

فَمَعْنَى الْآيَةِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ، وَمِثْلُ ذَلِكَ الَّذِي تَقَدَّمَ - أَيْ فِي الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهَا - مِنْ اسْتِمْتَاعِ أَوْلِيَاءِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ فِي الدُّنْيَا لِمَا بَيْنَهُمْ مِنَ التَّنَاسُبِ وَالْمُشَاكَلَةِ ، نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِلنَّاسِ بَعْضًا بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَهُ بِاخْتِيَارِهِمْ مِنْ أَعْمَالِ الظُّلْمِ الْجَامِعَةِ بَيْنَهُمْ ، أَيْ يَقَعُ ذَلِكَ مِنْهُمْ بِسُنَّتِنَا وَقَدَرِنَا ، الَّذِي قَامَ بِهِ النِّظَامُ الْعَامُّ فِي خَلْقِنَا ، فَلَيْسَ خَلْقًا مُبْتَدَأً كَمَا تَزْعُمُ الْقَدَرِيَّةُ ، وَلَا أَفْعَالًا اضْطِرَارِيَّةً كَمَا تَزْعُمُ الْجَبْرِيَّةُ ، وَيُؤَيِّدُ هَذَا رِوَايَاتٌ فِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ .

(119/251)

رُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ قَالَ فِي الْآيَةِ : إنَّمَا يُوَلِّي اللَّهُ بَيْنَ النَّاسِ بِأَعْمَالِهِمْ ، فَالْمُؤْمِنُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِ مِنْ أَيْنَ كَانَ وَحَيْثُمَا كَانَ ، وَالْكَافِرُ وَلِيُّ الْكَافِرِ مِنْ أَيْنَ كَانَ وَحَيْثُمَا كَانَ ، لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّمَنِّي وَلَا بِالتَّحَلِّي ، وَلَعَمْرِي لَوْ عَمِلْتَ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَلَمْ تَعْرِفْ أَهْلَ طَاعَةِ اللَّهِ مَا ضَرَّكَ ذَلِكَ ، وَلَوْ عَمِلْتَ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ وَتَوَلَّيْتَ أَهْلَ طَاعَةِ اللَّهِ مَا نَفَعَكَ ذَلِكَ شَيْئًا . انْتَهَى . يَعْنِي أَنَّ انْتِمَاءَ الْمَرْءِ إلَى الْمُؤْمِنِينَ وَدُخُولَهُ فِي جَامِعَتِهِمْ وَنُصْرَتَهُ لَهُمْ لَا تَجْعَلُهُ مِنْهُمْ حَقِيقَةً ، إلَّا إذَا كَانَ يَعْمَلُ عَمَلَهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ لِمُشَارَكَتِهِ إيَّاهُمْ فِي ذَلِكَ لَا لِمُجَرَّدِ الْعَصَبِيَّةِ الْجِنْسِيَّةِ أَوِ الْمَنْفَعَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ ، وَأَمَّا الْعَمَلُ بِهَدْيِ دِينِهِمْ فَإِنَّهُ يَنْفَعُهُ بِدُونِ تَوَلِّيهِمْ إذَا كَانَ عَدَمُ تَوَلِّيهِمْ لِعَدَمِ مَعْرِفَتِهِ بِهِمْ ، وَهُوَ لَا يَكُونُ إلَّا كَذَلِكَ لِأَنَّهُ إذَا عَرَفَهُمْ لَا يَسَعُهُ إلَّا أَنْ يَتَوَلَّاهُمْ إذَا كَانَ مُوَافِقًا لَهُمْ فِي الْجَامِعَةِ الِاعْتِقَادِيَّةِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي تَقْتَضِي الْمُشَارَكَةَ بِحَسَبِ قَدَرِ اللَّهِ وَشَرْعِهِ قَالَ تَعَالَى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (8 : 72) الْآيَةَ . ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (8 : 73) أَيْ إنْ لَا تَفْعَلُوا أَيُّهَا

الْمُؤْمِنُونَ هَذَا التَّوَلِّيَ بِالتَّعَاوُنِ وَالتَّنَاصُرِ بَيْنَكُمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ . رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ وَرَجَّحَهُ لِأَنَّ اللَّفْظَ يَدُلُّ عَلَيْهِ دُونَ الْقَوْلِ الْآخَرِ بِأَنَّهُ خَاصٌّ بِوِلَايَةِ الْإِرْثِ . وَقَدْ وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ وَالْفَسَادُ الْكَبِيرُ بِتَرْكِ

الْمُسْلِمِينَ هَذِهِ الْوِلَايَةَ بَيْنَهُمْ وَتَخَاذُلِهِمْ وَتَوَلِّي بَعْضِهِمْ لِمَنْ نَهَاهُمُ اللَّهُ عَنْ وِلَايَتِهِمْ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . وَقَالَ تَعَالَى : (الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ) (9 : 67) إلَخْ . ثُمَّ قَالَ بَعْدَ أَرْبَعِ آيَاتٍ : (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ

بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) (9 : 71) فَالْآيَاتُ كُلُّهَا تَقْرِنُ الْوِلَايَةَ بَيْنَ كُلِّ فَرِيقٍ بِالْعَمَلِ الِاخْتِيَارِيِّ . وَقَدْ قُدِّمَ فِي الْآيَةِ الْأَخِيرَةِ الْعَمَلُ الْمُتَعَلِّقُ بِالْأُمُورِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَهُوَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ ، عَلَى الْعَمَلِ الشَّخْصِيِّ حَتَّى إقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْمُنَاسِبُ لِمَقَامِ التَّعَاوُنِ وَالتَّنَاصُرِ .

*(121/251)*

وَرَوَى أَبُو الشَّيْخِ ، عَنْ مَنْصُورِ بْنِ أَبِي الْأَسْوَدِ ، قَالَ : سَأَلْتُ الْأَعْمَشَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا ) مَا سَمِعْتَهُمْ يَقُولُونَ فِيهِ ؟ قَالَ : سَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ : إِذَا فَسَدَ النَّاسُ أُمِّرَ عَلَيْهِمْ شِرَارُهُمْ . وَالْأَعْمَشُ تَابِعِيٌّ ، فَهُوَ إِنَّمَا يَسْأَلُ عَنْ أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ وَكِبَارِ عُلَمَاءِ التَّابِعِينَ ، وَهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي قَالَهُ يَدْخُلُ فِي عُمُومِ قَوْلِ قَتَادَةَ ، فَإِنَّ الْأُمَّةَ الصَّالِحَةَ لَا تَقْبَلُ الْأُمَرَاءَ وَالْحُكَّامَ الْفَاسِدِينَ الظَّالِمِينَ ، بَلْ تُسْقِطُهُمْ إِذَا نَزَوْا عَلَى مَصَالِحِهَا وَتُوَلِّي الْخِيَارَ ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ صَلَاحُهَا بِقَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ الَّذِي جَعَلَ أَمْرَ النَّاسِ شُورَى بَيْنَهُمْ ، فَأَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ مِنْ زُعَمَاءِ الْأُمَّةِ هُمُ الَّذِينَ يُوَلُّونَ الْإِمَامَ الْأَعْظَمَ ، وَيُرَاقِبُونَ سَيْرَهُ فِي إِقَامَةِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ ، وَيَعْزِلُونَهُ إِذَا اقْتَضَتِ الْمُصْلَحَةُ ذَلِكَ . وَقَدِ اتَّبَعَ السُّيُوطِيُّ رِوَايَةَ الْأَعْمَشِ فِي (الدُّرِّ الْمَنْثُورِ) بِأَثَرٍ مِنَ الزَّبُورِ فِي انْتِقَامِ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْمُنَافِقِ بِالْمُنَافِقِ ، ثُمَّ الِانْتِقَامِ مِنْهُمْ جَمِيعًا ، ثُمَّ قَالَ : وَأَخْرَجَ الْحَاكِمُ فِي التَّارِيخِ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ مِنْ طَرِيقِ يَحْيَى بْنِ أَبِي هَاشِمٍ ، حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "كَمَا تَكُونُونَ كَذَلِكَ يُؤَمَّرُ عَلَيْكُمْ " قَالَ الْبَيْهَقِيُّ : هَذَا مُنْقَطِعٌ وَيَحْيَى ضَعِيفٌ . ثُمَّ نَقَلَ الْبَيْهَقِيُّ

*(122/251)*

آثَارًا إِسْرَائِيلِيَّةً فِي مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ أَوَّلُهَا قَوْلُ كَعْبِ الْأَحْبَارِ : إِنَّ لِكُلِّ زَمَانٍ مَلِكًا يَبْعَثُهُ اللَّهُ عَلَى نَحْوِ قُلُوبِ أَهْلِهِ ، فَإِذَا أَرَادَ صَلَاحَهُمْ بَعَثَ عَلَيْهِمْ مَلِكًا مُصْلِحًا ، وَإِذَا أَرَادَ هَلَكَتَهُمْ بَعَثَ عَلَيْهِمْ مُتْرَفَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّ الْمُلُوكَ يَتَصَرَّفُونَ فِي الْأُمَمِ الْجَاهِلَةِ الضَّالَّةِ تَصَرُّفَ الرُّعَاةِ فِي الْأَنْعَامِ السَّائِمَةِ ، فَالْمَلِكُ الْمُتْرَفُ - وَهُوَ الَّذِي أَكْبَرُ هَمِّهِ التَّمَتُّعُ بِاللَّذَّاتِ الْجَسَدِيَّةِ وَمَظَاهِرِ الْعَظَمَةِ وَالسُّلْطَانِ - يَتَّخِذُ لِنَفْسِهِ الْوُزَرَاءَ وَالْقُوَّادَ وَالْبِطَانَةَ وَالْحَاشِيَةَ مِنْ أَمْثَالِهِ الْمُتْرَفِينَ . فَيُقَلِّدُهُمْ جُمْهُورُ النَّاسِ فِي أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ لِأَنَّ النَّاسَ كَمَا قِيلَ عَلَى دِينِ مُلُوكِهِمْ ، وَبِذَلِكَ يَكُونُ الْفَسَادُ أَغْلَبَ مِنَ الصَّلَاحِ ، وَالْفِسْقُ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ وَسُنَنِهِ فِي الْقُوَّةِ وَالنِّظَامِ أَعَمَّ مِنَ الِاتِّبَاعِ . وَبِهَذَا هَلَكَ مَنْ هَلَكَ مِنَ الْأُمَمِ بِانْقِرَاضِ أَهْلِهَا ، أَوْ بِتَسَلُّطِ الْأُمَمِ الْقَوِيَّةِ عَلَيْهَا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) (17 : 16) وَكَمَا بَيَّنَّاهُ مِنْ قَبْلُ فَأَثَرُ كَعْبِ الْأَحْبَارِ مُفَسِّرٌ لِلْآيَةِ .

*(123/251)*

---

وَلَمَّا كَانَ الْمَلِكُ الْمُتْرَفُ يُفْسِدُ الْأُمَّةَ حَتَّى تَهْلَكَ ، كَانَ الْمَلِكُ الصَّالِحُ يُصْلِحُ الْأُمَّةَ الْفَاسِدَةَ بِاتِّخَاذِ الْوُزَرَاءِ وَالْقُوَّادِ وَالْبِطَانَةِ وَالْحَاشِيَةِ لَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ الْمُصْلِحِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ مِيزَانَ

الْحَقِّ وَالْعَدْلِ ، وَيَكُونُونَ قُدْوَةً لِلنَّاسِ فِي الْعِفَّةِ وَالِاعْتِدَالِ وَالْقَصْدِ ، وَيَأْخُذُونَ عَلَى أَيْدِي أَهْلِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ فَيُقَلِّدُهُمُ الْأَكْثَرُونَ ، وَيَرْهَبُ جَانِبَهُمُ الْأَشْرَارُ وَالْمُفْسِدُونَ فَتَقْوَى دَوْلَتُهُمْ ، وَتَعْتَزُّ أُمَّتُهُمْ ، حَتَّى يُمَكِّنَ اللَّهُ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَيَجْعَلَهُمْ مِنَ الْوَارِثِينَ (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) (21 : 105) أَيِ الصَّالِحُونَ لِتَوَلِّيهَا وَالْقِيَامِ بِشُؤُنِهَا ، وَلَوْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ يُعَارِضُهُمْ فِي ذَلِكَ مِمَّنْ هُوَ دُونَهُمْ صَلَاحِيَّةً ، فَالصَّلَاحُ كَالتَّقْوَى يُفَسَّرُ فِي كُلِّ مَقَامٍ بِحَسَبِهِ .

*(124/251)*

---

وَأَمَّا الْأُمَمُ الْعَالِمَةُ بِسُنَنِ الِاجْتِمَاعِ ذَاتُ الرَّأْيِ الَّذِي يُمَثِّلُهُ الزُّعَمَاءُ الَّذِينَ تَعْتَمِدُ عَلَيْهِمْ فِي الْحَلِّ وَالْعَقْدِ ، فَلَا يَسْتَطِيعُ الْمُلُوكُ أَنْ يَتَصَرَّفُوا فِيهَا كَمَا يَشَاءُونَ كَمَا قُلْنَا آنِفًا ، بَلْ يَكُونُونَ فِيهَا تَحْتَ مُرَاقَبَةِ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهَا . وَقَدْ وَضَعَ الْإِسْلَامُ هَذَا الْأَسَاسَ الْمَتِينَ لِلْإِصْلَاحِ بِجَعْلِهِ أَمْرَ الْأُمَّةِ شُورَى بَيْنَ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ الْمَذْكُورِينَ ، وَأَمْرِهِ الرَّسُولَ نَفْسَهُ بِالْمُشَاوَرَةِ ، وَجَرَيَانِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بِرُجُوعِهِ عَنْ رَأْيِهِ إِلَى رَأْيِ الْأُمَّةِ ، وَجَعْلِهِ الْوِلَايَةَ الْعَامَّةَ وَهِيَ الْإِمَامَةُ أَوِ الْخِلَافَةُ بِالِانْتِخَابِ ، وَقَدْ أَفْصَحَ عَنْ ذَلِكَ الْخَلِيفَةُ الْأَوَّلُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ

(125/251)

---

اللهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ فِي أَوَّلِ خُطْبَةٍ خَطَبَ بِهَا النَّاسَ عَقِبَ مُبَايَعَتِهِ : أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ ، فَإِذَا اسْتَقَمْتُ فَأَعِينُونِي ، وَإِنْ زُغْتُ فَقَوِّمُونِي ، وَاشْتُهِرَ عَنِ الْخَلِيفَةِ الثَّانِي عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ عَلَى الْمِنْبَرِ : مَنْ رَأَى مِنْكُمْ فِيَّ عِوَجًا فَلْيُقَوِّمْهُ . إلَخْ . وَرُوِيَ عَنِ الْخَلِيفَةِ الثَّالِثِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ عَلَى الْمِنْبَرِ فِي أَيَّامِ الْفِتْنَةِ : أَمْرِي لِأَمْرِكُمْ تَبَعٌ ، وَبَعْدَ عَلِيٍّ وَالْحَسَنِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ تَحَوَّلَ أَمْرُ الْإِسْلَامِ مِنْ خِلَافَةِ نُبُوَّةٍ إلَى مُلْكٍ مِصْدَاقًا لِلْحَدِيثِ الصَّحِيحِ " الْخِلَافَةُ بَعْدِي فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ سَنَةً ثُمَّ مُلْكٌ بَعْدَ ذَلِكَ " رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُمْ مِنْ حَدِيثِ سَفِينَةَ . وَقَدْ دَعَّمَ بَنُو أُمَيَّةَ مُلْكَهُمْ بِالْعَصَبِيَّةِ

(126/251)

---

فَلَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ حِينَ ظَهَرَ فِيهِمُ الْفِسْقُ ، فَنَفَرَ مِنْهُمْ مُعْظَمُ الْأُمَّةِ لِغَلَبَةِ الصَّلَاحِ فِيهَا فَسَهُلَ انْتِزَاعُ الْمُلْكِ مِنْهُمْ بِسُرْعَةٍ . وَلَيْسَ التَّطْوِيلُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مِنْ مَوْضِعِنَا هُنَا فَحَسْبُنَا إيضَاحُ مَا

وَرَدَ فِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ عَنِ السَّلَفِ فِي الْآيَةِ وَالتَّذْكِيرُ بِأَنَّ الْأُمَمَ الْأُخْرَى قَدِ اسْتَفَادَتْ مِنْ هِدَايَةِ الْإِسْلَامِ فِي هَذَا الْأَمْرِ – الَّذِي تَرَكَ الْمُسْلِمُونَ هِدَايَةَ دِينِهِمْ فِيهِ – فَلَمْ يَعُدْ أَمْرُ صَلَاحِهَا وَفَسَادِهَا بِأَيْدِي مُلُوكِهَا وَرُؤَسَاءِ حُكُومَاتِهَا وَحْدَهُمْ ، بَلْ فِي أَيْدِي نُوَّابِهَا الَّذِينَ نَخْتَارُهُمْ لِمُرَاقَبَةِ الْحُكُومَةِ وَالسَّيْطَرَةِ عَلَيْهَا . عَلَى أَنَّ الْوُزَرَاءَ كَثِيرًا مَا يَغُشُّونَ جُمْهُورَ نُوَّابِ الْأُمَّةِ وَيَسْتَعِينُونَ بِبَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ .

*(127/251)*

---

وَلَيْسَ لَفْظُ الظَّالِمِينَ فِي الْآيَةِ خَاصًّا بِالْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ وَتَعَاوُنِهِمْ مَعَ عُمَّالِهِمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ ، بَلْ هُوَ عَامٌّ يَشْمَلُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ وَالظَّالِمِينَ لِلنَّاسِ مِنَ الْحُكَّامِ وَغَيْرِهِمْ ، كُلٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ وَأُولَئِكَ يَتَوَلَّى مَنْ يُشَاكِلُهُ فِي أَخْلَاقِهِ وَأَعْمَالِهِ ، وَيَتَنَاصَرُونَ عَلَى مَنْ يُخَالِفُهُمْ فِيهَا وَإِنْ وَافَقَهُمْ فِي غَيْرِهَا مِنَ الرَّوَابِطِ وَالْجَوَامِعِ الْأُخْرَى حَتَّى رَابِطَةِ الدِّينِ وَالْجِنْسِ ، فَإِنَّ كُلَّ جَامِعَةٍ بَيْنَ النَّاسِ لَا يُؤَيِّدُهَا الْعَمَلُ تَضْعُفُ حَتَّى تَكُونَ صُورِيَّةً أَوْ لَفْظِيَّةً ; وَلِذَلِكَ نَرَى الطَّامِحِينَ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْأَقْوِيَاءِ إِلَى السِّيَادَةِ عَلَى الْجُهَلَاءِ الضُّعَفَاءِ يَجِدُّونَ فِي السَّعْيِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى إِفْسَادِ تَرْبِيَتِهِمْ ، وَتَعْلِيمِهِمْ مَا يُضْعِفُ كُلَّ الرَّوَابِطِ الْعَامَّةِ الَّتِي تَرْبِطُ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ، أَوْ يَحُلُّهَا وَيَذْهَبُ بِهَا فَلَا يَكُونُ لِلْأَفْرَادِ مِنْهُمْ هَمٌّ إِلَّا فِي أَشْخَاصِهِمْ وَتَمْتِيعِهَا بِاللَّذَّاتِ وَالشَّهَوَاتِ ،

وَحِينَئِذٍ يَتَوَلَّوْنَ مَنْ يُوصِلُهُمْ إلَيْهَا وَلَوْ بِمُسَاعَدَتِهِ عَلَى أُمَّتِهِمْ إذَا كَانَ يُفِيضُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْضِ مَا يَنْتَزِعُهُ مِنْهَا بِمُؤَازَرَتِهِمْ ، وَلَوْ آزَرُوهَا عَلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ . فَالْمَدَارُ فِي الْوِلَايَةِ بَيْنَ النَّاسِ عَلَى الْمُشَاكَلَةِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي قَرَّرَهَا الْكَسْبُ وَالْعَمَلُ ، لَا الصُّورِيَّةِ أَوِ اللَّفْظِيَّةِ الَّتِي

(128/251)

---

لَمْ يُقَرِّرِ الْكَسْبُ مَعْنَاهَا ; وَلِذَلِكَ قَالَ : (بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) وَلَمْ يَقُلْ بِمَا كَانُوا يُلَقَّبُونَ .

وَسَنَذْكُرُ عِنْدَ مُنَاسَبَةٍ أُخْرَى غَرَائِبَ مِنْ خِذْلَانِ الْأُمَمِ فِي التَّعَاوُنِ عَلَى الظُّلْمِ وَالْفَسَادِ ، مِمَّا هُوَ مُشَاهَدٌ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْبِلَادِ ، وَسِرُّهُ وَأَغْرَبُهُ مُسَاعَدَةُ عَبِيدِ الشَّهَوَاتِ لِلْأَجَانِبِ عَلَى اسْتِعْبَادِ أُمَّتِهِمْ وَالسَّيْطَرَةِ عَلَى بِلَادِهَا لِيَنَالُوا فِي ظِلِّ سِيَادَتِهِمْ عَلَيْهَا مَا لَا يَطْمَعُونَ بِمِثْلِهِ فِي حَالِ حُرِّيَّتِهَا وَاسْتِقْلَالِهَا ، ثُمَّ هُمْ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ يَخْدِمُونَهَا بِذَلِكَ ; لِأَنَّ سُلْطَةَ الْأَجْنَبِيِّ لَا مَنْدُوحَةَ عَنْهَا بِزَعْمِهِمْ ، وَمُشَارَكَتُهُمْ إيَّاهُ وَمُسَاعَدَتُهُمْ لَهُ تُخَفِّفُ عَنِ الْأُمَّةِ ثِقَلَ وَطْأَتِهِ ، وَتَحْفَظُ لَهَا بَعْضَ الْحُقُوقِ وَالْمَنَافِعِ ، وَتُمَهِّدُ لَهُمُ السَّبِيلَ إلَى التَّرَقِّي الَّذِي يُرْجَى أَنْ تَسِيرَ فِيهِ إلَى الْحُرِّيَّةِ وَالِاسْتِقْلَالِ . وَهَذِهِ الدَّعَاوَى مِنَ الْخِدَعِ الَّتِي تَعَلَّمُوهَا مِنْ سَاسَةِ الْأَجَانِبِ قَدْ يَخْدَعُونَ بِهَا أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ، وَمِنْ أَكْبَرِ مَصَائِبِ أُمَّتِهِمْ بِهِمْ قَوْلُهُمْ عَنِ اعْتِقَادٍ أَوْ غَيْرِ اعْتِقَادٍ أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْأُمَّةِ – أَوْ لَا مَنْدُوحَةَ – مِنْ سَيْطَرَةِ الْأَجَانِبِ عَلَيْهَا ، وَانْخِدَاعُ كَثِيرٍ

مِنَ الْعَوَامِّ بِهِمْ وَتَصْدِيقُهُمْ لِقَوْلِهِمْ إِنَّهُمْ يَخْدُمُونَ الْأُمَّةَ بِتَخْفِيفِ الضَّغْطِ الْأَجْنَبِيِّ عَنْ كَاهِلِهَا : وَكَيْفَ لَا يَنْخَدِعُ الْعَوَامُّ بِأَقْوَالِ أُمَرَائِهِمْ وَقُوَّادِهِمْ وَسَادَاتِهِمْ وَكُبَرَائِهِمْ ، وَهُمْ جَاهِلُونَ بِسُنَنِ

(129/251)

---

الِاجْتِمَاعِ ، وَبِمَا أَرْشَدَ إِلَيْهِ الْقُرْآنُ ؟ فَإِنَّ فِيهِ مِنَ الْعِبَرِ ، مَا يَكْفِي لِإِصْلَاحِ جَمِيعِ الْبَشَرِ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ فِي غَفْلَةٍ عَنِ الِاعْتِبَارِ ، وَإِنَّمَا يَعْتَبِرُ أُولُو الْأَبْصَارِ ، نَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يُكْثِرَ فِي أُمَّتِنَا مِنْهُمْ فَإِنَّهُ لَا حَيَاةَ إِلَّا بِذَلِكَ وَإِلَّا فَهِيَ هَالِكَةٌ لَا مَحَالَةَ ، وَهَذَا جَزَاءٌ مُطَّرِدٌ بِسُنَنِ اللهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا ، وَجَزَاءُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ مِنْهُ وَأَنْكَى ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 8 صـ 92.54 ﴾

(130/251)

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (129) ﴾

و"كذلك تشير إلى ما حدث من الجن والإنس من الجدل ، فقال الحق على ألسنة الإنس :

﴿ رَبَّنَا استمتع بَعْضُنَا بِبَعْضٍ . . . ﴾ [الأنعام : 128 ]

ولم يأت بكلام الجن ؛ لأن كلامهم جاء في آيات أخرى ؛ فالحق هو القائل : ﴿ وَقَالَ الشيطان لَمَّا قُضِيَ الأمر إِنَّ الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي فَلاَ تَلُومُونِي ولوموا أَنفُسَكُمْ مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ . . ﴾ [إبراهيم : 22 ]

وكذلك أورد الله ما يجيء عل لسان الشيطان في سورة أخرى : ﴿ كَمَثَلِ الشيطان إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكفر فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بريء مِّنكَ . . . ﴾ [الحشر : 16 ]

وكذلك جاء الحق في آيات أخرى بأقوال الإنس الذين ضلوا : ﴿ رَبَّنَآ أَرِنَا الذين أَضَلاَّنَا مِنَ الجن والإنس نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأسفلين ﴾ [ فصلت : 29 ]

وقوله الحق هنا في سورة الأنعام : ﴿ وكذلك نُوَلِّي بَعْضَ الظالمين بَعْضا ﴾ [ الأنعام : 129 ]

*(131/251)*

أي كما صنعنا مع الجن والإِنس ، باستكثار الجن من الإِنس واستمتاع بعضهم ببعض إضلالا وإغواء ، وطاعة وانقيادا ، نجعل من بينهم ولاية ظالم على ظالم ، ولا نولى عليهم واحداً من أهل الخير ؛ لأن أهل الخير قلوبهم مملوءة بالرحمة ، لا يقوون على أن يؤدبوا الظالم ؛ فهم قد ورثوا النبوة المحمدية في قوله يوم فتح مكة : " اذهبوا فأنتم الطلقاء " ، ولذلك إذا أراد الله أن يؤدب ظالماً لا يأتي له بواحد من أهل الخير ليؤدبه ، إنه – سبحانه – بتكريمه لأهل الخير لم يجعل منهم من يكون في مقام من يؤدب الظالم . إنه – سبحانه – يجعل أهل الخير في موقف المتفرج على تأديب الظالمين بعضهم بعضا .

والتاريخ أرانا ذلك . فقد صنع الظالمون بعضهم في بعض الكثير ، بينما لو تمكن منهم أعداؤهم الحقيقيون لرحموهم ؛ لأن قلوبهم مملوءة بالرحمة .

ولذلك بلغنا عن سيدنا مالك بن دينار وهو من أهل الخير . يقول : قرأت في بعض الآثار حديثاً قدسيا يقول فيه الحق : " أنا ملك الملوك قلوب الملوك بيدي . "

فإياكم أن يظن الطاغية أو الحاكم أو المستبد أنه أخذ الحكم بذكائه أو بقوته ، بل جاء به الحق ليؤدب به الظلمة ، بدليل أنه ساعة يريد الله أن تنتهي هذه المسألة فهو بجلاله ينزع المهابة من قلوب حرّاسه وبدلاً من أن يدفع عنه البندقية ، يصوّب البندقية إليه .

فإياكم أن تظنوا أن ملكا يأخذ الملك قهراً عن الله ، ولكن إذا العباد ظلموا وطغوا يسلط الحق عليهم من يظلمهم ، ولذلك يقال : " الظالم سيف الله في الأرض ينتقم به وينتقم منه " .

﴿ وكذلك نُوَلِّي بَعْضَ الظالمين بَعْضاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [ الأنعام : 129 ]

فكأن ما سلّط على الناس من شرّ عاتٍ هو نتيجة لأعمالهم ؛ ولذلك كان أحد الصالحين يقول : أنا اعرف منزلتي من ربي من خُلُق دابتي ؛ إن جمحت بي أقول ماذا صَنَعْتُ حتى جمحت بي الدابة ؟ ! وكأن المسألة محسوبة .

*(132/251)*

---

وهذه معاملة للأخيار ، عندما يرتكب ذنباً يؤاخذ به على الفور حتى تصير صفحته نظيفة دائماً . قال عليه الصلاة والسلام : " ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كَفّر الله بها عنه ، حتى الشوكة يُشاكها . "

فإذا فعل العبد من أهل الخير بعضاً من السيئات ، يوفّيه الحق جزاءه من مرض في جسمه أو خسارة في ماله ، كذلك المسيء الذي لا يريد له الله النكال في الآخرة . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا حط الله تعالى به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها . "

﴿ وكذلك نُوَلِّي بَعْضَ الظالمين بَعْضاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ هم اعتقدوا أنهم أخذوا شيئاً

من وراء الله وخلصوا به . نقول : لا ، فربك سيحاسبك ثواباً أو عقاباً وذلك بما قدمت يداك من سيئات أو حسنات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(133/251)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (129) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد في قوله ﴿ وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً ﴾ قال : ظالمي الجن وظالمي الإنس ، وقرأ ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ [ الزخرف : 36 ] قال : ونسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً ﴾ قال : يولي الله بعض الظالمين بعضاً في الدنيا ، يتبع بعضهم بعضاً في النار .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً ﴾ قال : إنما يولي الله بين الناس بأعمالهم فالمؤمن ولي المؤمن من أين كان وحيثما كان ، والكافر ولي الكافر من أين كان وحيثما كان ، ليس الإيمان بالله بالتمني

ولا بالتحلي ، ولعمري لو عملت بطاعة الله ولم تعرف أهل طاعة الله ما ضرك ذلك ، ولو عملت بمعصية الله وتوليت أهل طاعة الله ما نفعك ذلك شيئاً .

وأخرج أبو الشيخ عن منصور بن أبي الأسود قال : سألت الأعمش عن قوله ﴿ وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً ﴾ ، ما سمعتهم يقولون فيه ؟ قال : سمعتهم يقولون إذا فسد الناس أُمِّرَ عليهم شرارهم .

وأخرج ابن أبي حاتم أبو الشيخ من مالك بن دينار قال : قرأت في الزبور : إني أنتقم من المنافق بالمنافق ، ثم أنتقم من المنافقين جميعاً ، وذلك في كتاب الله قول الله ﴿ وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون ﴾ .

وأخرج الحاكم في التاريخ والبيهقي في شعب الإيمان من طريق يحيى بن هاشم ، ثنا يونس بن أبي إسحق عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كما تكونون كذلك يؤمر عليكم" قال البيهقي : هذا منقطع ويحيى ضعيف .

*(134/251)*

---

وأخرج البيهقي عن كعب الأحبار قال : إن لكل زمان ملكاً يبعثه الله على نحو قلوب أهله ، فإذا أراد صلاحهم بعث عليهم مصلحاً ، وإذا أراد هلكتهم بعث عليهم مترفهم .

وأخرج البيهقي عن الحسن أن بني إسرائيل سألوا موسى فقالوا : سل لنا ربك يبين لنا علم رضاه عنا وعلم سخطه ، فسأله فقال : يا موسى أنبئهم إن رضاي عنهم أن استعمل عليهم خيارهم ، وأن سخطي عليهم أن استعمل عليهم شرارهم .

وأخرج البيهقي من طريق عبد الملك بن قريب الأصمعي ، ثنا مالك عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب قال : حدثت أن موسى أو عيسى قال : يا رب ما علامة رضاك عن خلقك ؟ قال : أن أنزل عليهم الغيث إبان زرعهم وأحبسه إبان حصادهم ، واجعل أمورهم إلى حلمائهم ، وفيئهم في أيدي سمحائهم . قال : يا رب فما علامة السخط ؟ قال : أن أنزل عليهم الغيث إبان حصادهم وأحبسه إبان زرعهم ، واجعل أمورهم إلى سفهائهم ، وفيئهم في أيدي بخلائهم . والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

*(135/251)*

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (129) ﴾

يعني نجمع بين الأشكال ، فالأولياء مجموعون يستمتع بعضهم ببعض ، والأعداء مجموعون يفرُّ بعضهم من بعض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 503 ﴾

(136/251)

---

ومن فوائد السعدى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ .

وأنه ، أي شيء يمنعهم من أكل ما ذكر اسم الله عليه ، وقد فصل الله لعباده ما حرم عليهم ، وبينه ، ووضحه ؟ فلم يبق فيه إشكال ولا شبهة ، توجب أن يمتنع من أكل بعض الحلال ، خوفا من الوقوع في الحرام ، ودلت الآية الكريمة ، على أن الأصل في الأشياء والأطعمة الإباحة ، وأنه إذا لم يرد الشرع بتحريم شيء منها ، فإنه باق على الإباحة ، فما سكت الله عنه فهو حلال ، لأن الحرام قد فصله الله ، فما لم يفصله الله فليس بحرام .

ومع ذلك ، فالحرام الذي قد فصله الله وأوضحه ، قد أباحه عند الضرورة والمخمصة ، كما قال تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ ﴾ إلى أن قال: ﴿ فَمَنِ

اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

ثم حذر عن كثير من الناس ، فقال: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ ﴾ أي: بمجرد ما تهوى أنفسهم ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ولا حجة . فليحذر العبد من أمثال هؤلاء ، وعلامتهم -كما وصفهم الله لعباده- أن دعوتهم غير مبنية على برهان ، ولا لهم حجة شرعية ، وإنما يوجد لهم شبه بحسب أهوائهم الفاسدة ، وآرائهم القاصرة ، فهؤلاء معتدون على شرع الله وعلى عباد الله ، والله لا يحب المعتدين ، بخلاف الهادين المهتدين ، فإنهم يدعون إلى الحق والهدى ، ويؤيدون دعوتهم بالحجج العقلية والنقلية ، ولا يتبعون في دعوتهم إلا رضا ربهم والقرب منه .

﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ .

*(137/251)*

---

المراد بالإثم: جميع المعاصي ، التي تؤثم العبد ، أي: توقعه في الإثم ، والحرج ، من الأشياء المتعلقة بحقوق الله ، وحقوق عباده . فنهى الله عباده ، عن اقتراف الإثم الظاهر والباطن ، أي: السر والعلانية ، المتعلقة بالبدن والجوارح ، والمتعلقة بالقلب ، ولا يتم للعبد ، ترك المعاصي الظاهرة والباطنة ، إلا بعد معرفتها ، والبحث عنها ، فيكون البحث عنها

ومعرفة معاصي القلب والبدن ، والعلمُ بذلك واجبا متعينا على المكلف .

وكثير من الناس ، تخفى عليه كثير من المعاصي ، خصوصا معاصي القلب ، كالكبر والعجب والرياء ، ونحو ذلك ، حتى إنه يكون به كثير منها ، وهو لا يحس به ولا يشعر ، وهذا من الإعراض عن العلم ، وعدم البصيرة .

ثم أخبر تعالى ، أن الذين يكسبون الإثم الظاهر والباطن ، سيجزون على حسب كسبهم ، وعلى قدر ذنوبهم ، قلَّت أو كثرت ، وهذا الجزاء يكون في الآخرة ، وقد يكون في الدنيا ، يعاقب العبد ، فيخفف عنه بذلك من سيئاته .

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ .

ويدخل تحت هذا المنهي عنه ، ما ذكر عليه اسم غير الله كالذي يذبح للأصنام ، وآلهتهم ، فإن هذا مما أهل لغير الله به ، المحرم بالنص عليه خصوصا .

ويدخل في ذلك ، متروك التسمية ، مما ذبح لله ، كالضحايا ، والهدايا ، أو للحم والأكل ، إذا كان الذابح متعمدا ترك التسمية ، عند كثير من العلماء .

ويخرج من هذا العموم ، الناسي بالنصوص الأخر ، الدالة على رفع الحرج عنه ، ويدخل في هذه الآية ، ما مات بغير ذكاة من الميتات ، فإنها مما لم يذكر اسم الله عليه .

ونص الله عليها بخصوصها ، في قوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾ ولعلها سبب نزول الآية ، لقوله ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ بغير علم .

*(138/251)*

---

فإن المشركين –حين سمعوا تحريم الله ورسوله الميتةَ ، وتحليله للمذكاة ، وكانوا يستحلون أكل الميتة– قالوا –معاندة لله ورسوله ، ومجادلة بغير حجة ولا برهان– أتأكلون ما قتلتم ، ولا تأكلون ما قتل الله ؟ يعنون بذلك: الميتة .

وهذا رأي فاسد ، لا يستند على حجة ولا دليل بل يستند إلى آرائهم الفاسدة التي لو كان الحق تبعا لها لفسدت السماوات والأرض ، ومن فيهن .

فتبا لمن قدم هذه العقول على شرع الله وأحكامه ، الموافقة للمصالح العامة والمنافع الخاصة . ولا يستغرب هذا منهم ، فإن هذه الآراء وأشباهها ، صادرة عن وحي أوليائهم من الشياطين ، الذين يريدون أن يضلوا الخلق عن دينهم ، ويدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير .

﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ ﴾ في شركهم وتحليلهم الحرام ، وتحريمهم الحلال ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ لأنكم اتخذتموهم أولياء من دون الله ، ووافقتموهم على ما به فارقوا المسلمين ، فلذلك كان

طريقكم ، طريقهم .

ودلت هذه الآية الكريمة على أن ما يقع في القلوب من الإلهامات والكشوف ، التي يكثر وقوعها عند الصوفية ونحوهم ، لا تدل -بمجردها على أنها حق ، ولا تصدق حتى تعرض على كتاب الله وسنة رسوله .

فإن شهدا لها بالقبول قبلت ، وإن ناقضتهما ردت ، وإن لم يعلم شيء من ذلك ، توقف فيها ولم تصدق ولم تكذب ، لأن الوحي والإلهام ، يكون من الرحمن ويكون من الشيطان ، فلا بد من التمييز بينهما والفرقان ، وبعدم التفريق بين الأمرين ، حصل من الغلط والضلال ، ما لا يحصيه إلا الله .

*(139/251)*

---

﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ .

يقول تعالى: ﴿ أَوَمَنْ كَانَ ﴾ من قبل هداية الله له ﴿ مَيْتًا ﴾ في ظلمات الكفر، والجهل، والمعاصي، ﴿ فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ بنور العلم والإيمان والطاعة، فصار يمشي بين الناس في النور، متبصرا في أموره، مهتديا لسبيله، عارفا للخير مؤثرا له، مجتهدا في تنفيذه في نفسه وغيره، عارفا بالشر مبغضا له، مجتهدا فيتركه وإزالته عن نفسه وعن غيره. أفيستوي هذا بمن هو في الظلمات، ظلمات الجهل والغي، والكفر والمعاصي.

﴿ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ قد التبست عليه الطرق، وأظلمت عليه المسالك، فحضرها لهم والغم والحزن والشقاء. فنبه تعالى العقول بما تدركه وتعرفه، أنه لا يستوي هذا ولا هذا كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلمة، والأحياء والأموات.

فكأنه قيل: فكيف يؤثر من له أدنى مسكة من عقل، أن يكون بهذه الحالة، وأن يبقى في الظلمات متحيرا: فأجاب بأنه ﴿ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فلم يزل الشيطان يحسن لهم أعمالهم، ويزينها في قلوبهم، حتى استحسنوها ورأوها حقا. وصار ذلك عقيدة في قلوبهم، وصفة راسخة ملازمة لهم، فلذلك رضوا بما هم عليه من الشر والقبائح. وهؤلاء الذين في الظلمات يعمهون، وفي باطلهم يترددون، غير متساوين.

*(140/251)*

فمنهم: القادة ، والرؤساء ، والمتبوعون ، ومنهم: التابعون المرءوسون ، والأولون ، منهم الذين فازوا بأشقى الأحوال ، ولهذا قال:

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا ﴾ أي: الرؤساء الذين قد كبر جرمهم ، واشتد طغيانهم ﴿ لِيَمْكُرُوا فِيهَا ﴾ بالخديعة والدعوة إلى سبيل الشيطان ، ومحاربة الرسل وأتباعهم ، بالقول والفعل ، وإنما مكرهم وكيدهم يعود على أنفسهم ، لأنهم يمكرون ، ويمكر الله والله خير الماكرين .

وكذلك يجعل الله كبار أئمة الهدى وأفاضلهم ، يناضلون هؤلاء المجرمين ، ويردون عليهم أقوالهم ويجاهدونهم في سبيل الله ، ويسلكون بذلك السبل الموصلة إلى ذلك ، ويعينهم الله ويسدد رأيهم ، ويثبت أقدامهم ، ويداول الأيام بينهم وبين أعدائهم ، حتى يدول الأمر في عاقبته بنصرهم وظهورهم ، والعاقبة للمتقين .

وإنما ثبت أكابر المجرمين على باطلهم ، وقاموا برد الحق الذي جاءت به الرسل ، حسدا منهم وبغيا ، فقالوا: ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾ من النبوة والرسالة .

وفي هذا اعتراض منهم على الله ، وعجب بأنفسهم ، وتكبر على الحق الذي أنزله على أيدي رسله ، وتحجر على فضل الله وإحسانه .

فرد الله عليهم اعتراضهم الفاسد ، وأخبر أنهم لا يصلحون للخير ، ولا فيهم ما يوجب أن يكونوا من عباد الله الصالحين ، فضلا أن يكونوا من النبيين والمرسلين ، فقال: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ

حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ فيمن علمه يصلح لها ، ويقوم بأعبائها ، وهو متصف بكل خلق جميل ، ومتبرئ من كل خلق دنيء ، أعطاه الله ما تقتضيه حكمته أصلا وتبعا ، ومن لم يكن كذلك ، لم يضع أفضل مواهبه ، عند من لا يستأهله ، ولا يزكو عنده .

*(141/251)*

---

وفي هذه الآية ، دليل على كمال حكمة الله تعالى ، لأنه ، وإن كان تعالى رحيما واسع الجود ، كثير الإحسان ، فإنه حكيم لا يضع جوده إلا عند أهله ، ثم توعد المجرمين فقال: ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي: إهانة وذل ، كما تكبروا على الحق ، أذلهم الله . ﴿ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ أي: بسبب مكرهم ، لا ظلما منه تعالى .

﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى -مبينا لعباده علامة سعادة العبد وهدايته ، وعلامة شقاوته وضلاله-: إن من انشرح صدره للإسلام ، أي: اتسع وانفسح ، فاستنار بنور الإيمان ، وحيي بضوء اليقين ، فاطمأنت بذلك نفسه ، وأحب الخير ، وطوعت له نفسه فعله ، متلذذا به غير مستثقل ،

فإن هذا علامة على أن الله قد هداه ، ومَنَّ عليه بالتوفيق ، وسلوك أقوم الطريق .

وأن علامة من يرد الله أن يضله ، أن يجعل صدره ضيقا حرجا . أي: في غاية الضيق عن الإيمان والعلم واليقين ، قد انغمس قلبه في الشبهات والشهوات ، فلا يصل إليه خير ، لا ينشرح قلبه لفعل الخير كأنه من ضيقه وشدته يكاد يصعد في السماء ، أي: كأنه يكلف الصعود إلى السماء ، الذي لا حيلة له فيه .

وهذا سببه ، عدم إيمانهم ، هو الذي أوجب أن يجعل الله الرجس عليهم ، لأنهم سدوا على أنفسهم باب الرحمة والإحسان ، وهذا ميزان لا يعول ، وطريق لا يتغير ، فإن من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، يسره الله لليسرى ، ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى ، [ص 273] فسييسره للعسرى .

﴿ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

*(142/251)*

---

أي: معتدلا موصلا إلى الله ، وإلى دار كرامته ، قد بينت أحكامه ، وفصلت شرائعه ، وميز الخير من الشر . ولكن هذا التفصيل والبيان ، ليس لكل أحد ، إنما هو ﴿ لِقَوْمٍ

يَذَّكَّرُونَ ﴾ فإنهم الذين علموا ، فانتفعوا بعلمهم ، وأعد الله لهم الجزاء الجزيل ، والأجر الجميل ، فلهذا قال: ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ وسميت الجنة دار السلام ، لسلامتها من كل عيب وآفة وكدر ، وهم وغم ، وغير ذلك من المنغصات ، ويلزم من ذلك ، أن يكون نعيمها في غاية الكمال ، ونهاية التمام ، بحيث لا يقدر على وصفه الواصفون ، ولا يتمنى فوقه المتمنون ، من نعيم الروح والقلب والبدن ، ولهم فيها ، ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، وهم فيها خالدون .

﴿ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ ﴾ الذي يتولى تدبيرهم وتربيتهم ، ولطف بهم في جميع أمورهم ، وأعانهم على طاعته ، ويسر لهم كل سبب موصل إلى محبته ، وإنما تولاهم ، بسبب أعمالهم الصالحة ، ومقدماتهم التي قصدوا بها رضا مولاهم ، بخلاف من أعرض عن مولاه ، واتبع هواه ، فإنه سلط عليه الشيطان فتولاه ، فأفسد عليه دينه ودنياه .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ *

يقول تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ﴾ أي: جميع الثقلين ، من الإنس والجن ، من ضل منهم ، ومن أضل غيره ، فيقول موبخا للجن الذين أضلوا الإنس ، وزينوا لهم الشر ، وأزُّوهم إلى المعاصي: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ﴾ أي: من إضلالهم ، وصدهم عن سبيل الله ، فكيف أقدمتم على محارمي ، وتجرأتم على معاندة رسلي ؟ وقمتم محاربين لله ، ساعين في صد عباد الله عن سبيله إلى سبيل الجحيم ؟

فاليوم حقت عليكم لعنتي ، ووجبت لكم نقمتي وسنزيدكم من العذاب بحسب كفركم ، وإضلالكم لغيركم . وليس لكم عذر به تعتذرون ، ولا ملجأ إليه تلجأون ، ولا شافع يشفع ولا دعاء يسمع ، فلا تسأل حينئذ عما يحل بهم من النكال ، والخزي والوبال ، ولهذا لم يذكر الله لهم اعتذارا ، وأما أولياؤهم من الإنس ، فأبدوا عذرا غير مقبول فقالوا: ﴿ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ أي: تمتع كل من الجِنّي والإنسي بصاحبه ، وانتفع به .

فالجنّي يستمتع بطاعة الإنسي له وعبادته ، وتعظيمه ، واستعاذته به . والإنسي يستمتع بنيل أغراضه ، وبلوغه بسبب خدمة الجِنّي له بعض شهواته ، فإن الإنسي يعبد الجِنّي ، فيخدمه الجِنّي ، ويحصل له منه بعض الحوائج الدنيوية ، أي: حصل منا من الذنوب ما حصل ، ولا يمكن رد ذلك ، ﴿ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ أي: وقد وصلنا المحل الذي نجازي فيه بالأعمال ، فافعل بنا الآن ما تشاء ، واحكم فينا بما تريد ، فقد انقطعت حجتنا ولم يبق لنا عذر ، والأمر أمرك ، والحكم حكمك . وكأن في هذا الكلام منهم نوع

تضرع وترقق ، ولكن في غير أوانه . ولهذا حكم فيهم بحكمه العادل ، الذي لا جور فيه ، فقال: ﴿ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ .

ولما كان هذا الحكم من مقتضى حكمته وعلمه ، ختم الآية بقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ فكما أن علمه وسع الأشياء كلها وعمّها ، فحكمته الغائية شملت الأشياء وعمتها ووسعتها .

*(144/251)*

---

﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي: وكما ولَّيْنَا الجن المردة وسلطناهم على إضلال أوليائهم من الإنس وعقدنا بينهم عقد الموالاة والموافقة ، بسبب كسبهم وسعيهم بذلك .

كذلك من سنتنا أن نولي كل ظالم ظالما مثله ، يؤزه إلى الشر ويحثه عليه ، ويزهده في الخير وينفره عنه ، وذلك من عقوبات الله العظيمة الشنيع أثرها ، البليغ خطرها .

والذنب ذنب الظالم ، فهو الذي أدخل الضرر على نفسه ، وعلى نفسه جنى ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ ومن ذلك ، أن العباد إذا كثر ظلمهم وفسادهم ، ومنْعهم الحقوق الواجبة ، ولَّى عليهم ظلمة ، يسومونهم سوء العذاب ، ويأخذون منهم بالظلم والجور أضعاف ما

منعوا من حقوق الله ، وحقوق عباده ، على وجه غير مأجورين فيه ولا محتسبين .

كما أن العباد إذا صلحوا واستقاموا ، أصلح الله رعاتهم ، وجعلهم أئمة عدل وإنصاف ، لا ولاة ظلم واعتساف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير السعدى صـ 271. 274 ﴾

*(145/251)*

---

قوله تعالى ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (130) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما انقضت هذه المحاورة وما أنتجته من بغيض الموالاة والمجاورة وكان حاصلها أنها موالاة من ضرت موالاته ، أتبعها سبحانه بمحاورة أخرى حاصلها معاداة من ضرت معاداته ، فقال مبدلاً من الأولى إتماماً للتقريع والتوبيخ والتشنيع : ﴿ يا معشر الجن ﴾ قدمهم لأن السياق لبيان غلبتهم ﴿ والإنس ﴾ وبكتهم بقوله محذراً للسامعين الآن ومستعطفاً لهم إلى

التوبة : ﴿ ألم يأتكم رسل ﴾ ولما صار القبيلان بتوجيه الخطاب نحوهم دفعة كالشيء الواحد قال : ﴿ منكم ﴾ وإن كان الرسل من الإنس خاصة .

*(146/251)*

---

ولما كان النظر في هذه السورة إلى العلم غالباً لإثبات تمام القدرة الذي هو من لوازمه بدليل ﴿ يعلم سركم وجهركم ﴾ [ الأنعام : 3 ] ، ﴿ أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ [ الأنعام : 53 ] ﴿ وعنده مفاتح الغيب ﴾ [ الأنعام : 59 ] وغيرها ، ولذلك أكثر فيها من ذكر التفصيل الذي لا يكون إلاّ للعالم ، كان القص – الذي هو تتبع الأثر – أنسب لذلك فقال ﴿ يقصون ﴾ بالتلاوة والبيان لمواضع الدلائل ﴿ عليكم آياتي ﴾ أي يتبعون بالعلامات التي يحق لها بما لها من الجلال والعظمة أن تنسب إلى مواضع شبهكم ، فيحلونها حلاً مقطوعاً به ﴿ وينذرونكم ﴾ أي يخوفونكم ﴿ لقاء يومكم هذا ﴾ أي بما قالوا لكم أنه يطلبكم طلباً حثيثاً وأنتم صائرون إليه في سفن الأيام ومراكب الآثام وأنتم لا تشعرون سيراً سريعاً ﴿ قالوا ﴾ معذرين من أنفسهم بالذل والخضوع ﴿ شهدنا ﴾ بما فعلت بنا أنت سبحانك من المحاسن وما فعلنا نحن من القبائح ﴿ على أنفسنا ﴾ أي بإتيان الرسل إلينا ونصيحتهم لنا بدليل الآية الأخرى ﴿ قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ [ الزمر :

71 ] وبين أن ضلالهم كان بأردإ الوجوه وأسخفها الدنيا ، بحيث إنهم اغتروا بها مع دناءتها لحصورها عن الآخرة مع شرفها لغيابها فقال : ﴿ وغرتهم ﴾ أي شهدوا هذه الشهادة والحال أنهم قد غرتهم ﴿ الحياة الدنيا ﴾ أي الحاضرة عندهم إذ ذاك الدنية في نفسها لفنائها ، عن اتباع الرسل دأب الجاهل في الرضى بالدون والدابة في القناعة بالحاضر ، فشهادتهم ضارة بهم ، ولكن لم يستطيعوا كتمانها ، بل ﴿ وشهدوا ﴾ أي في هذا الموطن من مواطن القيامة الطوال ﴿ على أنفسهم ﴾ أيضاً بما هو أصرح في الضرر عليهم من هذا ، وهو ﴿ أنهم كانوا ﴾ جبلة وطبعاً ﴿ كافرين ﴾ أي غريقين في الكفر ، ويجوز أن يكون الغرور بأنهم ظنوا أحوال الآخرة تمشي على ما كانوا يألفونه في الدنيا من أن الاعتراف بالذنب والتكلم بالصدق قد ينفع المذنب ويكف من سورة المغضب حتى يترك العقاب ويصفح عن الجريمة ، فلذلك

*(147/251)*

---

شهدوا بإتيان الرسل إليهم وإقامة الحجة عليهم ، وشهدوا على أنفسهم بالكفر ، فما زادهم ذلك إلا وبالاً وحزناً ونكالاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 717 .

718 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أن هذه الآية من بقية ما يذكره الله تعالى في توبيخ الكفار يوم القيامة ، وبين تعالى أنه لا يكون لهم إلى الجحود سبيل ، فيشهدون على أنفسهم بأنهم كانوا كافرين ، وإنهم لم يعذبوا إلا بالحجة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 159 ﴾

فصل

قال الفخر :

قال أهل اللغة : المعشر كل جماعة أمرهم واحد ، ويحصل بينهم معاشرة ومخالطة ، والجمع : المعاشر .

وقوله : ﴿ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ اختلفوا هل كان من الجن رسول أم لا ؟ فقال الضحاك : أرسل من الجن رسل كالإنس وتلا هذه الآية وتلا قوله : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [ فاطر : 24 ] ويمكن أن يحتج الضحاك بوجه آخر وهو قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ جعلناه مَلَكاً لجعلناه رَجُلاً ﴾ [ الأنعام : 9 ] قال المفسرون : السبب فيه أن استئناس الإنسان بالإنسان أكمل من استئناسه بالملك ، فوجب في حكمة الله تعالى أن يجعل رسول الإنس من الإنس ليكمل هذا الاستئناس .

إذا ثبت هذا المعنى ، فهذا السبب حاصل في الجن ، فوجب أن يكون رسول الجن من الجن .

والقول الثاني : وهو قول الأكثرين : أنه ما كان من الجن رسول ألبتة ، وإنما كان الرسل من الأنس .

وما رأيت في تقرير هذا القول حجة إلا ادعاء الإجماع ، وهو بعيد لأنه كيف ينعقد الإجماع مع حصول الاختلاف ، ويمكن أن يستدل فيه بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ اصطفى آدَمَ وَنُوحًا وَءالَ إبراهيم وَءالَ عمران عَلَى العالمين ﴾ [ آل عمران : 33 ] وأجمعوا على أن المراد بهذا الاصطفاء إنما هو النبوة ، فوجب كون النبوة مخصوصة بهؤلاء القوم فقط ، فأما تمسك الضحاك بظاهر هذه الآية ، فالكلام عليه من وجوه :

*(148/251)*

---

الأول : أنه تعالى قال : ﴿ يا معشر الجن والإنس أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ ﴾ فهذا يقتضي أن رسل الجن والإنس تكون بعضاً من أبعاض هذا المجموع ، وإذا كان الرسل من الإنس كان الرسل بعضاً من أبعاض ذلك المجموع ، فكان هذا القدر كافياً في حمل اللفظ على ظاهره ، فلم يلزم من ظاهر هذه الآية إثبات رسول من الجن .

الثاني : لا يبعد أن يقال : إن الرسل كانوا من الأنس إلا أنه تعالى كان يلقي الداعية في قلوب قوم من الجن حتى يسمعوا كلام الرسل ويأتوا قومهم من الجن ويخبرونهم بما سمعوه من الرسل

وينذرونهم به ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الجن ﴾ [ الأحقاف : 29 ] فأولئك الجن كانوا رسل الرسل ، فكانوا رسلاً لله تعالى ، والدليل عليه : أنه تعالى سمى رسل عيسى رسل نفسه .

فقال : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثنين ﴾ [ ياس : 14 ] وتحقيق القول فيه أنه تعالى إنما بكت الكفار بهذه الآية لأنه تعالى أزال العذر وأزاح العلة ، بسبب أنه أرسل الرسل إلى الكل مبشرين ومنذرين ، فإذا وصلت البشارة والنذارة إلى الكل بهذا الطريق ، فقد حصل ما هو المقصود من إزاحة العذر وإزالة العلة ، فكان المقصود حاصلاً .

الوجه الثالث : في الجواب قال الواحدي : قوله تعالى : ﴿ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ أراد من أحدكم وهو الإنس وهو كقوله : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ﴾ [ الرحمن : 22 ] أي من أحدهما وهو الملح الذي ليس بعذب .

واعلم أن الوجهين الأولين لا حاجة معهما إلى ترك الظاهر أما هذا الثالث فإنه يوجب ترك الظاهر ، ولا يجوز المصير إليه إلا بالدليل المنفصل .

أما قوله : ﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءاياتى ﴾ فالمراد منه التنبيه على الأدلة بالتلاوة وبالتأويل ﴿ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هذا ﴾ أي يخوفونكم عذاب هذا اليوم فلم يجدوا عند ذلك إلا الاعتراف ، فلذلك قالوا : شهدنا على أنفسنا .

فإن قالوا : ما السبب في أنهم أقروا في هذه الآية بالكفر وجحدوه في قوله : ﴿ واللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [ الأنعام : 23 ] .

قلنا : يوم القيامة يوم طويل والأحوال فيه مختلفة ، فتارة يقرون ، وأخرى يجحدون ، وذلك يدل على شدة خوفهم واضطراب أحوالهم ، فإن من عظم خوفه كثر الاضطراب في كلامه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا ﴾ والمعنى أنهم لما أقروا على أنفسهم بالكفر ، فكأنه تعالى يقول : وإنما وقعوا في ذلك الكفر بسبب أنهم غرتهم الحياة الدنيا .

ثم قال تعالى : ﴿ وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كافرين ﴾ والمراد أنهم وإن بالغوا في عداوة الأنبياء والطعن في شرائعهم ومعجزاتهم ، إلا أن عاقبة أمرهم أنهم أقروا على أنفسهم بالكفر ، ومن الناس من حمل قوله : ﴿ وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كافرين ﴾ بأن تشهد عليهم الجوارح بالشرك والكفر ، ومقصودهم دفع التكرار عن الآية ، وكيفما كان ، فالمقصود من شرح أحوالهم في القيامة زجرهم في الدنيا عن الكفر والمعصية .

واعلم أن أصحابنا يتمسكون بقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هذا ﴾ على أنه لا يحصل الوجوب ألبتة قبل ورود الشرع ، فإنه لو

حصل الوجوب واستحقاق العقاب قبل ورود الشرع لم يكن لهذا التعليل والذكر فائدة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 159 . 161 ﴾

*(150/251)*

---

وقال السمرقندى :

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾

يعني : يقول لهم ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ قال مقاتل : بعث الله تعالى رسولاً من الجن إلى الجن ومن الإنس إلى الإنس .

ويقال رسل الجن السبعة الذين سمعوا القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجعوا إلى قومهم منذرين .

وقالوا : يا قومنا أجيبوا داعي الله .

ويقال : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ يعني : من الإنس خاصة .

وقال ابن عباس : كانت الرسل تبعث إلى الإنس وأن محمداً صلى الله عليه وسلم بعث إلى الجن والإنس .

ثم قال ﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ﴾ يقول : يقرؤون ويعرضون عليكم ﴿ ءاياتي ﴾ يعني : القرآن

﴿ وَيُنذِرُونَكُمْ ﴾ يعني : يخوّفونكم ﴿ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا ﴾ يعني يقولون بلى أقررنا أنهم قد بلغوا وكفرنا بهم .

ثم قالت الرسل : وذلك بعد ما شهد عليهم سمعهم وأبصارهم يقول الله تعالى : ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا ﴾ يعني : ما في الحياة الدنيا من زهرتها وزينتها ﴿ وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كافرين ﴾ في الدنيا .

ويقول الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يا معشر الجن قَدِ استكثرتم مِّنَ الإنس وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإنس رَبَّنَا استمتع بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا الذى أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النار مَثْوَاكُمْ خالدين فِيهَآ إِلاَّ مَا شَآءَ الله إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [ الأنعام : 128 ] على وجه التقديم والتأخير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ يَا مَعْشَرَ الجن والإنس أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ ﴾ .

قال الأعرج وابن أبي إسحاق : تأتكم بالتاء كقوله : ﴿ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحق ﴾ [ الأعراف : 43 ] .

قرأ الباقون : بالياء كقوله تعالى ﴿ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ ﴾ ﴿ يَقُصُّونَ ﴾ يقرأون ﴿ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذا ﴾ وهو يوم القيامة .

واختلف العلماء في الجن هل أُرسل إليهم رسول أم لا ؟ فقال عبيد بن سليمان : سئل الضحاك عن الجن هل كان فيهم مؤمن قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ألم تسمع قوله تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الجن والإنس أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ ﴾ يعني بذلك رسلاً من الإنس ورسلاً من الجن .

قال الكلبي : كانت الرسل قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم يبعثون إلى الجن والإنس جميعاً .

قال مجاهد : الرسل من الإنس . والنذير من الجن ثم قرأ ﴿ وَلَّوْاْ إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ [ الأحقاف : 29 ] .

قال ابن عباس : هم الذين استمعوا القرآن وأبلغوه قومهم .

وقال أهل المعاني : لم يكن من الجن رسول وإنما الرسل من الإنس خاصة وهذا كقوله تعالى ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ﴾ [ الرحمن : 22 ] وإنما يخرج من المالح دون العذب . وقوله ﴿ وَيَذْكُرُواْ اسم الله في أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ﴾ [ الحج : 28 ] وهي أيام العشر وإنما الذبح في يوم واحد من العشر فهو يوم النحر . وقوله ﴿ وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً ﴾ [ نوح : 16 ] وإنما هو في سماء واحدة ﴿ قَالُواْ شَهِدْنَا على أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا وَشَهِدُواْ ﴾

أقروا ﴿ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

*(152/251)*

---

قوله تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس ﴾ داخل في القول يوم الحشر ، والضمير في ﴿ منكم ﴾ قال ابن جريج وغيره عمم بظاهرة الطائفتين والمراد الواحدة تجوزاً ، وهذا موجود في كلام العرب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ [ الرحمن : 22 ] وذلك إنما يخرج من الأجاج ، وقال الضحاك الضمير عائد على الطائفتين وفي الجن رسل منهم . قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف ، وقال ابن عباس الضمير عائد على الطائفتين ولكن رسل الجن هم رسل الإنس ، فهم رسل الله بواسطة إذ هم رسل رسله ، وهم النذر ، و ﴿ يقصون ﴾ من القصص ، وقرأ عبد الرحمن الأعرج " ألم تكن تأتيكم " بالتاء على تأنيث لفظ " الرسل " وقولهم : ﴿ شهدنا ﴾ إقرار منهم بالكفر واعتراف أي شهدنا على أنفسنا بالتقصير ، وقوله ﴿ وغرتهم الحياة الدنيا ﴾ التفاتة فصيحة تضمنت أن كفرهم كان بأذم الوجوه لهم وهو الاغترار الذي لا يواقعه عاقل ، ويحتمل ﴿ غرتهم ﴾ أن يكون

بمعنى أشبعتهم وأطعمتهم بحلوائها كما يقال غر الطائر فرخه وقوله ﴿ وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ تظهر بينه وبين ما في القرآن من الآيات التي تقتضي إنكار المشركين الإشراك مناقضة ، والجمع بينهما هو إما بأنها طوائف ، وإما طائفة واحدة في مواطن شتى ، وإما ان يريد بقوله ها هنا : ﴿ وشهدوا على أنفسهم ﴾ ، شهادة الأيدي والأرجل والجلود بعد إنكارهم بالألسنة .

قال القاضي أبو محمد : واللفظ ها هنا يبعد من هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإِنس ألم يأتكم ﴾

قرأ الحسن ، وقتادة : "تأتكم" بالتاء ، ﴿ رسل منكم ﴾ .

واختلفوا في الرسالة إلى الجن على أربعة اقوال .

أحدها : أن الرسل كانت تبعث إلى الإِنس خاصة ، وأن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم إلى الإِنس والجن ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

*(153/251)*

والثاني : أن رسل الجن ، هم الذين سمعوا القرآن ، فولَّوا إلى قومهم منذرين ، روي عن ابن عباس أيضاً .

وقال مجاهد : الرسل من الإِنس ، والنذر من الجن ، وهم قوم يسمعون كلام الرسل ، فيبلِّغون الجن ما سمعوا .

والثالث : أن الله تعالى بعث إليهم رسلاً منهم ، كما بعث إلى الإِنس رسلاً منهم ، قاله الضحاك ، ومقاتل ، وأبو سليمان ، وهو ظاهر الكلام .

والرابع : أن الله تعالى لم يبعث إليهم رسلاً منهم ، وإنما جاءتهم رسل الإِنس ، قاله ابن جريج ، والفراء ، والزجاج .

قالوا : ولا يكون الجمع في قوله ﴿ ألم يأتكم رسل منكم ﴾ مانعاً أن تكون الرسل من أحد الفريقين ، كقوله تعالى : ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ [ الرحمن : 22 ] وإنما هو خارج من الملح وحده .

وفي دخول الجن الجنة إذا آمنوا قولان .

أحدهما : يدخلونها ، ويأكلون ويشربون ، قاله الضحاك .

والثاني : أن ثوابهم أن يجاروا من النار ، ويصيروا تراباً ، رواه سفيان عن ليث .

قوله تعالى : ﴿ يقصون عليكم آياتي ﴾ أي : يقرؤون عليكم كتبي .

﴿ وينذرونكم ﴾ أي : يخوِّفونكم بيوم القيامة .

وفي قوله : ﴿ شهدنا على أنفسنا ﴾ قولان .

أحدهما : أقررنا على أنفسنا بانذار الرسل لنا .

والثاني : شهد بعضنا على بعض بانذار الرسل إياهم .

ثم أخبرنا الله تعالى بحالهم ، فقال : ﴿ وغرَّتهم الحياة الدنيا ﴾ أي : بزينتها ، وإمهالهم فيها .

﴿ وشهدوا على أنفسهم ﴾ أي : أقروا أنهم كانوا في الدنيا كافرين .

وقال مقاتل : ذلك حين شهدت عليهم جوارحهم بالشرك والكفر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الجن والإنس أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾

أي يوم نحشرهم نقول لهم ألم يأتكم رسل ، فحذف ؛ فيعترفون بما فيه افتضاحهم .

ومعنى "منكم" في الخلق والتكليف والمخاطبة .

ولما كانت الجن ممن يُخاطب ويعقل قال : "منكم" وإن كانت الرسل من الإنس وغلّب الإنس في الخطاب كما يُغلّب المذكر على المؤنث .

وقال ابن عباس : رسل الجن هم الذين بلّغوا قومَهم ما سمعوه من الوحي ؛ كما قال : ﴿ وَلَّوْاْ إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ [ الأحقاف : 29 ] .

وقال مُقاتِل والضحّاك : أرسل الله رسلاً من الجن كما أرسل من الإنس .

وقال مجاهد : الرسل من الإنس ، والنُّذُر من الجن ؛ ثم قرأ "إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ" .

وهو معنى قولِ ابن عباس ، وهو الصحيح على ما يأتي بيانه في "الأحقاف" .

وقال الكلبيّ : كانت الرسل قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم يُبعثون إلى الإنس والجن جميعاً .

قلت : وهذا لا يصحّ ، بل في صحيح مسلم من حديث جابر ابن عبد الله الأنصاريّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أعطيتُ خمساً لم يُعطهُنّ نبيّ قبلي كان كلّ نبيّ يُبعث إلى قومه خاصّةً وبُعثتُ إلى كل أحمرَ وأسوَد " الحديث .

على ما يأتي بيانه في "الأحقاف" .

وقال ابن عباس : كانت الرسل تُبعث إلى الإنس وإن محمداً صلى الله عليه وسلم بُعث إلى الجن والإنس ؛ ذكره أبو الليث السَّمَرْقَنْدِيّ .

وقيل : كان قوم من الجن استمعوا إلى الأنبياء ثم عادوا إلى قومهم وأخبروهم ؛ كالحال مع نبينا عليه السلام .

فيقال لهم رسل الله ، وإن لم يُنصّ على إرسالهم .

وفي التنزيل : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ﴾ [ الرحمن : 22 ] أي من أحدهما ، وإنما يخرج من المِلح دون العَذْب ، فكذلك الرسل من الإنس دون الجن ؛ فمعنى "منكم" أي من أحدكم .

وكان هذا جائزاً ؛ لأن ذكرهما سبق .

وقيل : إنما صيّر الرسل في مخرج اللفظ من الجميع لأن الثَّقَلين قد ضمتهما عَرْصة القيامة ، والحساب عليهم دون الخلق ؛ فلما صاروا في تلك العَرْصة في حساب واحد في شأن الثواب والعقاب خوطبوا يومئذ بمخاطبة واحدة كأنهم جماعة واحدة ؛ لأن بدء خلقهم للعبودية ، والثوابُ والعِقاب على العبودية ، ولأن الجن أصلهم من مارج من نار ، وأصلنا من تراب ، وخلقهم غير خلقنا ؛ فمنهم مؤمن وكافر .

*(155/251)*

---

وعدوّنا إبليس عدوّ لهم ، يعادي مؤمنهم ويُوالي كافرهم .

وفيهم أهواء : شِيعَةٌ وقدريّة ومُرْجئة يتلون كتابنا .

وقد وصف الله عنهم في سورة "الجن" من قوله : "وَأَنَّا مِنَّا المُسْلِمُونَ وَمِنَّا القَاسِطُونَ" .

﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصالحون وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَداً ﴾ [ الجن : 11 ] على ما يأتي بيانه هناك .

﴿ يَقُصُّونَ ﴾ في موضع رفع نعت لرسل .

﴿ قَالُواْ شَهِدْنَا على أَنْفُسِنَا ﴾ أي شهدنا أنهم بلّغوا .

﴿ وَغَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا ﴾ قيل : هذا خطاب من الله للمؤمنين ؛ أي أن هؤلاء قد غرّتهم الحياة الدنيا ، أي خدعتهم وظنّوا أنها تدوم ، وخافوا زوالها عنهم إن آمنوا .

﴿ وَشَهِدُواْ على أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي اعترفوا بكفرهم .

قال مُقاتل : هذا حين شهدت عليهم الجوارح بالشرك وبما كانوا يعملون . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس ﴾

المعشر كل جماعة أمرهم واحد والجمع معاشر ﴿ ألم يأتكم رسل منكم ﴾ اختلف العلماء في معنى هذه الآية وهل كان من الجن رسل أم لا فذهب أكثر العلماء إلى أنه لم يكن من الجن رسول وإنما كانت الرسل من الإنس وأجابوا عن قوله رسل منكم يعني من أحدكم وهو الإنس فحذف المضاف فهو كقوله : ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ وإنما يخرج من أحدهما وهو الملح دون العذب وإنما جاز ذلك لأن ذكرهما قد جمع في قوله ﴿ مرج البحرين

﴿ وهو جائز في كل ما اتفق في أصله فلذلك لما اتفق ذكر الجن مع الإنس جاز مخاطبتهما بما ينصرف إلى أحد الفريقين وهم الإنس ، وهذا قول الفراء والزجاج ذكر جمهور أهل العلم .

قال الواحدي : وعليه دل كلام ابن عباس لأنه قال يريد أنبياء من جنسهم ولم يكن من جنس الجن أنبياء وذهب قوم إلى أنه أرسل إلى الجن رسلاً منهم كما أرسل إلى الإنس رسلاً منهم .

*(156/251)*

---

قال الضحاك : من الجن رسل كما من الإنس رسل وظاهر الآية يدل على ذلك لأنه تعالى قال : ﴿ ألم يأتكم رسل منكم ﴾ فخاطب الفريقين جميعاً وأجيب عن ذلك بأن الله تعالى قال : ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ﴾ وهذا يقتضي كون الرسل بعضاً من أبعاض هذا المجموع وإذا كان الرسل من الإنس كان الرسل بعضاً من أبعاض هذا المجموع وكان هذا القول أولى من حمل لفظ الآية على ظاهرها فثبت بذلك كون الرسل من الإنس لا من الجن ، ويحتمل أيضاً أن يقال إن كافة الرسل كانوا من الإنس لكن الله تعالى يلقى الداعية في قلوب قوم من الجن حتى يسمعوا كلام الرسل من الإنس ثم يأتوا قومهم من الجن فيخبروهم بما سمعوا من الرسل ينذرهم به كما قال تعالى : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ﴾ -إلى- ﴿ فلما قضى ولّوا إلى قومهم منذرين ﴾ فكان أولئك النفر من الجن

رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قومهم وهذا مذهب مجاهد فإنّ الرسل من الإنس والنذر من الجن ونحو ذلك قال ابن جريج وأبو عبيدة .

وقيل : كانت الرسل يبعثون إلى الجن من الجن ، ولكن بواسطة رسل الإنس والله أعلم بمراده وأسرار كتابه .

*(157/251)*

---

وقوله تعالى : ﴿ يقصون عليكم آياتي ﴾ يعني يخبرونكم بما أوحي إليهم من آياتي الدالة على توحيدي وتصديق رسلي ﴿ وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾ يعني ويحذرونكم ويخوفونكم لقاء عذابي في يومكم هذا وهو يوم القيامة وذلك أن الله تعالى يقول يوم القيامة يوم لكفار الجن والإنس على سبيل التقريع والتوبيخ ما أخبر في كتابه ، وهو قوله تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس ﴾ الآية فيجيبون بما أخبر عنهم في قوله تعالى : ﴿ قالوا ﴾ يعني كفار الجن والإنس ﴿ شهدنا على أنفسنا ﴾ اعترفوا بأن الرسل قد أتتهم وبلغتهم رسالات ربهم وأنذروهم لقاء يومهم هذا وأنهم كذبوا الرسل ولم يؤمنوا بهم وذلك حين شهدت عليهم جوارحهم بالشرك والكفر قال الله تعالى : ﴿ وغرتهم الحياة الدنيا ﴾ إنما كان ذلك بسبب أنهم غرتهم الحياة الدنيا ومالوا إليها : ﴿ وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين

﴿ في الدنيا .

فإن قلت كيف أقروا على أنفسهم بالكفر في هذه الآية وجحدوا الشرك والكفر في قوله : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ قلت : يوم القيامة يوم طويل والأحوال فيه مختلفة فإذا رأوا ما حصل للمؤمنين من الخير والفضل والكرامة أنكروا الشرك لعل ذلك الإنكار ينفعهم ، وقالوا والله ربنا ما كنا مشركين فحينئذٍ يختم على أفواههم وتشهد عليهم جوارحهم بالشرك والكفر فذلك قوله تعالى : ﴿ وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ .

فإن قلت لما كرر شهادتهم على أنفسهم ، قلت : شهادتهم الأولى اعتراف منهم بما كانوا عليه في الدنيا من الشرك والكفر وتكذيب الرسل وفي قوله : ﴿ وشهدوا على أنفسهم ﴾ ذم لهم وتخطئة لرأيهم ووصف لقلة نظرهم لأنفسهم وأنهم قوم غرتهم الحياة الدنيا ولذاتها فكانت عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والمقصود من شرح حالهم تحذير السامعين وضجر لهم عن الكفر والمعاصي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ يا معشر الجنّ والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾

هذا النداء أيضاً يوم القيامة والاستفهام للتوبيخ والتقريع ، حيث أعذر الله إليهم بإرسال الرسل فلم يقبلوا منهم ، والظاهر أن من الجنّ رسلاً إليهم كما أن من الإنس رسلاً لهم .

فقيل : بعث الله رسولاً واحداً من الجنّ إليهم اسمه يوسف .

وقيل : رسل الجنّ هم رسل الإنس فهم رسل الله بواسطة إذ هم رسل رسله ، ويؤيده قوله : ﴿ ولوا إلى قومهم منذرين ﴾ قاله ابن عباس والضحاك .

وروي أن قوماً من الجنّ استمعوا إلى الأنبياء ثم عادوا إلى قومهم فأخبروهم كما جرى لهم مع الرسول ، فيقال لهم رسل الله وإن لم يكونوا رسله حقيقة وعلى هذين القولين يكون الضمير عائداً على ﴿ الجنّ والإنس ﴾ وقد تعلق قوم بهذا الظاهر فزعموا أن الله تعالى بعث إلى الجنّ رسلاً منهم ولم يفرقوا بين مكلفين ومكلفين أن يبعث إليهم رسول من جنسهم لأنهم به آنس وآلف .

وقال مجاهد والضحاك وابن جريج والجمهور : والرسل من الإنس دون الجن ولكن لما كان النداء لهما والتوبيخ معاً جرى الخطاب عليهما على سبيل التجوز المعهود في كلام العرب تغليباً للإنس لشرفهم ، وتأوّله الفراء على حذف مضاف أي من أحدكم كقوله : ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ أي من أحدهما وهو الملح وكقوله : ﴿ وجعل القمر فيهنّ نوراً ﴾

أي في إحداهن وهي سماء الدنيا ﴿ ويذكروا اسم الله في أيام معلومات ﴾ أراد بالذكر التكبير وبالأيام المعلومات العشر أي في أحد أيام وهو يوم النحر .

وقال الكلبي : كان الرسل يبعثون إلى الإنس وبعث محمد صلى الله عليه وسلم إلى الجن والإنس .

*(159/251)*

---

وروي هذا أيضاً عن ابن عباس ومعنى قصص الآيات الإخبار بما أوحى إليهم من التنبيه على مواضع الحج والتعريف بأدلة التوحيد والامتثال لأوامره والاجتناب بمناهيه ، والإنذار الإعلام بالمخوف و ﴿ لقاء يومكم هذا ﴾ أي يوم القيامة والإنذار بما يكون فيه من الأهوال والمخاوف وصيرورة الكفار المكذبين إلى العذاب الأبدي .

وقرأ الأعرج ألم تأتكم على تأنيث لفظ الرسل بالتاء .

﴿ قالوا شهدنا على أنفسنا ﴾ الظاهر أن هذه حكاية لتصديقهم وإلجائهم قوله : ﴿ ألم يأتكم ﴾ لأن الهمزة الداخلة على نفي إتيان الرسل للإنكار فكان تقريراً لهم والمعنى قالوا : شهدنا على أنفسنا بإتيان الرسل إلينا وإنذارهم إيانا هذا اليوم ، وهذه الجملة نابت مناب بلى هنا وقد صرح بها في قوله : ﴿ ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم

وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾ قالوا : بلى أقروا بأن حجة الله لازمة لهم وأنهم محجوجون بها .

وقال ابن عطية : وقوله : ﴿ شهدنا ﴾ إقرار منهم بالكفر واعتراف أي ﴿ شهدنا على أنفسنا ﴾ بالتقصير ؛ انتهى .

والظاهر في ﴿ شهدنا ﴾ شهادة كل واحد على نفسه .

وقيل : شهد بعضنا على بعض بإنذار الرسل .

﴿ وغرتهم الحياة الدنيا ﴾ هذا إخبار عنهم من الله تعالى وتنبيه على السبب الموجب لكفرهم وإفصاح لهم بأذم الوجود الذي هو الخداع .

وقيل : يحتمل أن يكون من غر الطائر فرخه أي أطعمهم وأشبعهم والتوسيع في الرزق والبسط سبب للبغي ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض .

﴿ وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ ظاهره شهادة كل واحد على نفسه بالكفر .

وقيل : شهد بعضهم على بعض .

*(160/251)*

وقيل : شهدت جوارحهم عليهم بعد إنكارهم والختم على أفواههم وهو بعيد من سياق الآية ، وتنافى بين قوله : ﴿ شهدوا على أنفسهم ﴾ وبين الآيات التي تدل على الإنكار لاحتمال أن يكون ذلك من طوائف طائفة تشهد وطائفة تنكر ، أو من طائفة واحدة لاختلاف الأحوال ومواطن القيامة في ذلك المتطاول فيقرون في بعض ويجحدون في بعض .

وقال التبريزي : ﴿ وشهدوا ﴾ أقروا على أنفسهم اضطراراً لا اختياراً ولو أرادوا أن يقولوا غيره ما طاوعتهم أنفسهم .

وقال الزمخشري : ( فإن قلت ) : لم كرر ذكر شهادتهم على أنفسهم ؟ ( قلت ) : الأولى حكاية لقولهم : كيف يقولون ويعترفون ، والثانية ذمّ لهم وتخطئة لرأيهم ووصف لقلة نظرهم لأنفسهم وأنهم قوم غرتهم الحياة الدنيا واللذات الحاضرة ، وكان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام لربهم واستنجاز عذابه ، وإنما قال ذلك تحذيراً للسامعين مثل حالهم ؛ انتهى .

ونقول لم تتكرر الشهادة لاختلاف المخبر ومتعلقها فالأولى إخبارهم عن أنفسهم والثانية : إخباره تعالى عنهم أنهم شهدوا على أنفسهم بالكفر فهذه الشهادة غير الأولى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن كثير :

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ

يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (130) ﴾

(161/251)

---

وهذا أيضا مما يُقرع الله به سبحانه وتعالى كافري الجن والإنس يوم القيامة ، حيث يسألهم - وهو أعلم - : هل بلغتهم الرسل رسالاته ؟ وهذا استفهامُ تقرير : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ أي : من جملتكم . والرسل من الإنس فقط ، وليس من الجن رسل ، كما [قد] نص على ذلك مجاهد ، وابن جُرَيْج ، وغير واحد من الأئمة ، من السلف والخلف .

وقال ابن عباس : الرسل من بني آدم ، ومن الجن نُذُر .

وحكى ابن جرير ، عن الضحاك بن مُزاحم : أنه زعم أن في الجن رسلا واحتج بهذه الآية الكريمة وفي الاستدلال بها على ذلك نظر ؛ لأنها محتملة وليست بصريحة ، وهي - والله أعلم - كقوله [تعالى] ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ ﴾ إلى أن قال : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن : 19 - 22] ، ومعلوم أن اللؤلؤ والمرجان إنما

يستخرج من الملح لا من الحلو . وهذا واضح ، ولله الحمد . وقد نص هذا الجواب بعينه ابن جرير .

*(162/251)*

---

والدليل على أن الرسل إنما هم من الإنس قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ [وَأَوْحَيْنَا ] ﴾ إلى أن قال : ﴿ رُسُلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ [بَعْدَ الرُّسُلِ ] ﴾ [النساء : 163 - 165] ، وقال تعالى عن إبراهيم : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ [العنكبوت : 27] ، فحصر النبوة والكتاب بعد إبراهيم في ذريته ، ولم يقل أحد من الناس : إن النبوة كانت في الجن قبل إبراهيم الخليل [عليه السلام] ثم انقطعت عنهم ببعثته . وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان : 20] ، وقال [تعالى] : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ [يوسف : 109] ، ومعلوم أن الجن تبع للإنس في هذا الباب ؛ ولهذا قال تعالى إخبارًا عنهم : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ . قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى

الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ [الأحقاف: 29 - 32].

*(163/251)*

---

وقد جاء في الحديث - الذي رواه الترمذي وغيره - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا عليهم سورة الرحمن (1) وفيها قوله تعالى: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الآيتان: 31، 32].

وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا ﴾ أي: أقررنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتك، وأنذرونا لقاءك، وأن هذا اليوم كائن لا محالة.

قال تعالى: ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أي: وقد فرطوا في حياتهم الدنيا، وهلكوا بتكذيبهم الرسل، ومخالفتهم للمعجزات، لما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها، ﴿ وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ أي: في الدنيا، بما جاءتهم به الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم [أجمعين]. انتهى انتهى. اهـ

﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 340. 341 ﴾

---

(1) سنن الترمذي برقم (3291) .

*(164/251)*

---

وقال أبو السعود :

﴿ يَا مَعْشَرَ الجن والإنس ﴾

شروعٌ في حكاية ما سيكون من توبيخ المعشَرَين وتقريعِهم بتفريطهم فيما يتعلق بخاصة أنفسِهم إثرَ حكايةِ توبيخِ معشر الجنّ بإغواء الإنسِ وإضلالِهم وبيانِ مآلِ أمرِهم ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾ أي في الدنيا ﴿ رُسُلٌ ﴾ أي من عند الله عز وجل لكن لا على أن يأتيَ كلُّ رسولٍ كلَّ واحدة من الأمم ، بل على أن يأتي كلَّ أمة رسولٌ خاصٌّ بها ، أي ألم يأتِ كلَّ أمة منكم رسولٌ معين ؟ وقوله تعالى : ﴿ مّنكُمْ ﴾ متعلقٌ بمحذوف وقع صفةً لرسل أي كائنةٌ من جملتكم لكن لا على أنهم من جنس الفريقين معاً بل من الإنس خاصةً ، وإنما جُعلوا منهما إما لتأكيد وجوبِ اتباعِهم والإيذانِ بتقاربهما ذاتاً واتحادِهما تكليفاً وخطاباً ، كأنّهما جنسٌ واحد ، ولذلك تمكن أحدُهما من إضلال الآخَر ، وإما لأن المرادَ بالرسل ما يعمُّ رسلَ الرسلِ وقد ثبت أن الجن قد استمعوا القرآن وأنذروا به قومَهم حيث نطق به قوله

تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الجن يَسْتَمِعُونَ القرءان ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَّوْا إلى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾

(165/251)

---

وقوله تعالى : ﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءاياتى ﴾ صفةٌ أُخرى لرسلٌ محققةٌ لما هو المرادُ من إرسال الرسل من التبليغ والإنذار ، وقد حصل ذلك بالنسبة إلى الثقلين ﴿ وَيُنذِرُونَكُمْ ﴾ بما في تضاعيفها من القوارع ﴿ لِقَاء يَوْمِكُمْ هذا ﴾ يومِ الحشرِ الذي قد عاينوا فيه ما أُعدَّ لهم من أفانين العقوباتِ الهائلة ﴿ قَالُواْ ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ من الكلام السابقِ كأنه قيل : فماذا قالوا عند ذلك التوبيخِ الشديد ؟ فقيل : قالوا : ﴿ شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا ﴾ أي بإتيان الرسلِ وإنذارِهم وبمقابلتهم إياهم بالكفر والتكذيب وباستحقاقهم بسبب ذلك للعذاب المخلّد حسبما فُصّل في حكاية جوابِهم عن سؤال خَزَنَةِ النار ، حيث قالوا : ﴿ بلى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ الله مِن شَىْء إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِى ضلال كَبِيرٍ ﴾ وقد أُجمل هاهنا في الحكاية كما أُجمل في حكاية جوابِهم حيث قالوا : ﴿ بلى ولكن حَقَّتْ كَلِمَةُ العذاب عَلَى الكافرين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا ﴾ مع ما عُطف عليه اعتراضٌ لبيان ما أداهم في الدنيا إلى ارتكابهم للقبائح التي ارتكبوها وإلجائِهم

بعد ذلك في الآخرة إلى الاعتراف بالكفر واستيجاب العذابِ ، وذمٌّ لهم بذلك ، أي واغتروا في الدنيا بالحياة الدنيئةِ واللذات الخسيسةِ الفانية وأعرضوا عن النعيم المقيم الذي بشرت به الرسلُ ، واجترأوا على ارتكاب ما يجُرّهم إلى العذاب المؤبّد الذي أنذروهم إياه ﴿ وَشَهِدُواْ ﴾ في الآخرة ﴿ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ ﴾ في الدنيا ﴿ كافرين ﴾ أي بالآيات والنذر التي أتى بها الرسلُ على التفصيل المذكور آنفاً واضطُرّوا إلى الاستسلام لأشد العذابِ كما ينبىء عنه ما حُكي عنهم بقوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أصحاب السعير ﴾ وفيه من تحسيرهم وتحذيرِ السامعين عن مثل صنيعِهم ما لا مزيد عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

*(166/251)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾

شروع في حكاية ما سيكون من توبيخ المعشرين وتقريعهم بتفريطهم فيما يتعلق بخاصة أنفسهم ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾ في الدنيا ﴿ رُسُلٌ ﴾ من عند الله عز وجل كائنة ﴿ مّنكُمْ ﴾ أي من جملتكم لكن لا على أن يأتي كل رسول كل واحدة من الأمم ولا على أن أولئك الرسل

عليهم السلام من جنس الفريقين معاً بل على أن يأتي كل أمة رسول خاص بها وعلى أن تكون من الإنس خاصة إذ المشهور أنه ليس من الجن رسل وأنبياء ، ونظيره في هذا قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ﴾ (الرحمن ؛ 22 ) فإنهما إنما يخرجان من الملح فقط كما سيأتي تحقيقه إن شاء الله تعالى .

والفراء قدر هنا مضافاً لذلك أي من أحدكم ، وقال غير واحد : المراد بالرسل ما يعم رسل الرسل ، وقد ثبت أن الجن استمعوا القرآن وأنذروا به قومهم فقد قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الجن يَسْتَمِعُونَ القرءان ﴾ إلى قوله عز وجل : ﴿ وَلَّوْاْ إِلى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ [ الأحقاف : 29 ] .

وعن الضحاك وغيره أن الله تعالى أرسل للجن رسلاً منهم وصرح بعضهم أن رسولاً منهم يسمى يوسف ، وظاهر الآية يقتضي إرسال الرسل إلى كل من المعشرين من جنسهم وادعى بعض قيام الإجماع على أنه لم يرسل إلى الجن رسول منهم وإنما أرسل إليهم من الإنس وهل كان ذلك قبل بعثة نبينا عليه الصلاة والسلام أم لا ؟ الذي نص عليه الكلبي الثاني قال : كان الرسل يرسلون إلى الإنس حتى بعد محمد صلى الله عليه وسلم إلى الإنس والجن ﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءاياتى ﴾ التي أوحيتها إليهم ، والجملة صفة أخرى لرسل محققة لما هو المراد من إرسالهم من التبليغ والإنذار وقد حصل ذلك بالنسبة إلى الثقلين ﴿ وَيُنذِرُونَكُمْ

﴿ أي يخوفونكم بما في تضاعيفها من القوارع ﴿ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذا ﴾ أي يوم الحشر الذي قد عاينوا فيه ما عاينوا .

(167/251)

---

﴿ قَالُواْ ﴾ استئناف بياني ، والمقصود منه حكاية قولهم : كيف يقولون وكيف يعترفون ﴿ شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا ﴾ أي بإتيان الرسل وقصهم وإنذارهم وبمقابلتهم إياهم بالكفر والتكذيب ، وقوله سبحانه : ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا ﴾ مع ما عطف عليه اعتراض لبيان ما أداهم في الدنيا إلى ارتكاب القبائح التي ارتكبوها وألجاهم في الآخرة إلى الاعتراف بالكفر واستيجاب العذاب وذم لهم بذلك وتسفيه لرأيهم فلا تكرار في الشهادتين أي واغتروا في الدنيا بالحياة الدنيئة واللذات الخسيسة الفانية وأعرضوا عن النعيم المقيم الذي بشرت به الرسل عليهم السلام واجترأوا على ارتكاب ما يجرهم إلى العذاب المؤبد الذي أنذروهم إياه ﴿ وَشَهِدُواْ ﴾ في الآخرة ﴿ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ ﴾ في الدنيا ﴿ كَافِرِينَ ﴾ بالآيات والنذر واضطروا إلى الاستسلام لأشد العذاب ، وفي ذلك من تحسرهم وتحذير السامعين عن مثل صنيعهم ما لا مزيد عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ﴾

هذا من جملة المقاولة الّتي تجري يوم الحشر ، وفصلت الجملة لأنَّها في مقام تعداد جرائمهم التي استحقّوا بها الخلود ، إبطالاً لمعذرتهم ، وإعلاناً بأنَّهم محقوقون بما جُزوا به ، فأعاد نداءهم كما ينادَى المندّد عليه الموبَّخ فيزداد روْعاً .

*(168/251)*

---

والهمزة في ﴿ ألم يأتيكم ﴾ للاستفهام التّقريري ، وإنَّما جعل السؤال عن نفي إتيان الرّسل إليهم لأنّ المقرّر إذا كان حاله في ملابسة المقرّر عليه حالَ من يُظنّ به أن يجيب بالنَّفي ، يؤتى بتقريره داخلاً على نفي الأمر الّذي المراد إقراره بإثباته ، حتّى إذا أقرّ بإثباته كان إقراره أقطع لعُذره في المؤاخذة به ، كما يقال للجاني : أَلَسْت الفاعل كذا وكذا ، وألست القائل كذا ، وقد يسلك ذلك في مقام اختبار مقدار تمكّن المسؤول المقرّر من اليقين في المقرّر عليه ، فيؤتى بالاستفهام داخلاً على نفي الشّيء المقرّر عليه ، حتّى إذا كانت له شبهة فيه ارتبك وتلعثم .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وأشهدهم على أنفسهم ألست بربّكم ﴾ [ الأعراف : 172 ] ،

ولمّا كان حال هؤلاء الجنّ والإنس في التمرّد على الله ، ونبذ العمل الصّالح ظهرياً ، والإعراض عن الإيمان ، حالَ من لم يطرق سمعه أمر بمعروف ولا نهي عن منكر ، جيء في تقريرهم على بعثَة الرّسل إليهم بصيغة الاستفهام عن نفي مجيء الرّسل إليهم ، حتّى إذا لم يجدوا لإنكار مجيء الرّسل مساغاً ، واعترفوا بمجيئهم ، كان ذلك أحرى لأخذهم بالعقاب .

والرّسل : ظاهره أنّه جمع رسول بالمعنى المشهور في اصطلاح الشّرع ، أي مرسل من الله إلى العباد بما يرشدهم إلى ما يجب عليهم : من اعتقاد وعمل ، ويجوز أن يكون جمع رسول بالمعنى اللّغوي وهو من أرسله غيره كقوله تعالى : ﴿ إذْ جاءها المرسلون ﴾ [ يس : 13 ] وهم رسل الحواريين بعد عيسى .

*(169/251)*

---

فوَصْف الرّسل بقوله : ﴿ منكم ﴾ لزيادة إقامة الحجّة ، أي رسل تعرفونهم وتسمعونهم ، فيجوز أن يكون ( مِن ) اتّصالية مثل الّتي في قولهم : لَسْتُ منك ولستَ مِنّي ، وليست للتّبعيض ، فليست مثل الّتي في قوله : ﴿ هو الذي بعث في الأمّيين رسولاً منهم ﴾ [ الجمعة : 2 ] وذلك أنّ رسل الله لا يكونون إلاّ من الإنس ، لأنّ مقام الرّسالة عن الله لا يليق أن يجعل

إلاّ في أشرف الأجناس من الملائكة والبشر ، وجنسُ الجنّ أحَطّ من البشر لأَنَّهم خلقوا من نار .

وتكون ( من ) تبعيضية ، ويكون المراد بضمير : ﴿ منكم ﴾ خصوص الإنس على طريقة التغليب ، أو عود الضّمير إلى بعض المذكور قَبله كما في قوله تعالى : ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ [ الرحمن : 22 ] وإنما يخرج اللؤلؤ والمرجان من البحر الملح .

*(170/251)*

---

فأمّا مؤاخذة الجنّ بمخالفة الرّسل فقد يخلق الله في الجنّ إلهاماً بوجوب الاستماع إلى دعوة الرّسل والعمل بها ، كما يدلّ عليه قوله تعالى في سورة الجنّ : ﴿ قُل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجنّ فقالوا إنَّا سمعنا قُرآناً عجبا ﴾ [ الجن : 1 ] الآية ، وقال في سورة الأحقاف ( 30 ، 31 ) : ﴿ قالوا يا قَوْمنا إنَّا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدّقا لما بين يديه يهدي إلى الحقّ وإلى طريق مستقيم يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويُجركم من عذاب أليم ﴾ ذلك أن الظواهر تقتضي أنّ الجنّ لهم اتّصال بهذا العالم واطّلاع على أحوال أهله : ﴿ إنَّه يَراكم هو وقبيلُه من حيث لا ترونهم ﴾ [ الأعراف : 27 ] فضعف قول من قال بوُجود رسل من الجنّ إلى جنسهم ، ونُسب إلى الضحاك ، ولذلك فقوله : ﴿ ألم

يأتيكم ﴾ مصروف عن ظاهره من شموله الإنس والجنّ ، ولم يرد عن النّبيء صلى الله عليه وسلم ما يثبت به أنّ الله أرسل رسلاً من الجنّ إلى جنسهم ، ويجوز أن يكون رسل الجنّ طوائف منهم يستمعون إلى الأنبياء ويفهمون ما يَدْعون إليه ويبلّغون ذلك إلى أقوامهم ، كما تقتضيه الآية في سورة الأحقاف ؛ فمؤاخذة الجنّ على الإشراك بالله يقتضيها بلوغ توحيد الله إلى علمهم لأنّ أدلّة الوحدانيّة عقليّة لا تحتاج إلاّ إلى ما يُحرّك النّظر .

فلمّا خلق الله للجنّ علماً بما تجيء به رسل الله من الدّعاء إلى النّظر في التّوحيد فقد توجَّهت عليهم المؤاخذة بترك الإيمان بوحدانيّة الله تعالى فاستحقّوا العذاب على الإشراك دون توقف على توجيه الرّسل دعوتهم إليهم .

ومن حسن عبارات أيمّتنا أنَّهم يقولون : الإيمان واجب على مَن بلَغَتْه الدّعوة ، دون أن يقولوا : على مَن وُجّهت إليه الدّعوة .

*(171/251)*

---

وطرق بلوغ الدّعوة عديدة ، ولم يثبت في القرآن ولا في صحيح الآثار أنّ النّبيء محمّداً صلى الله عليه وسلم ولا غيرَه من الرّسل ، بُعث إلى الجنّ لانتفاء الحكمة من ذلك ، ولعدم المناسبة بين الجنسين ، وتعذّر تخالطهما ، وعن الكلبي أنّ محمّداً صلى الله عليه وسلم بعث

إلى الإنس والجنّ ، وقاله ابن حزم ، واختاره أبو عُمر ابن عبد البرّ ، وحكَى الاتّفاق عليه : فيكون من خصائص النّبيء محمّد صلى الله عليه وسلم تشريفاً لقدره .

والخوض في هذا ينبغي للعالم أن يربأ بنفسه عنه لأنَّه خوض في أحوال عالَم لا يدخل تحت مُدْركاتنا ، فإنّ الله أنبأنا بأنّ العوالم كلّها خاضعة لسلطانه .

حقيق عليها طاعته ، إذا كانت مدركة صالحة للتكليف .

والمقصود من الآية الّتي نتكلّم عليها إعلامُ المشركين بأنَّهم مأمورون بالتّوحيد والإسلام وأنّ أولياءهم من شياطين الإنس والجن غير مفلتين من المؤاخذة على نبذ الإسلام .

بلْهَ أتْباعهم ودهمائهم .

فذكر الجنّ مع الإنس في قوله : ﴿ يا معشر الجن والإنس ﴾ يوم القيامة لتبكيت المشركين وتحْسيرهم على ما فرط منهم في الدّنيا من عبادة الجنّ أو الالتجاءِ إليهم ، على حدّ قوله تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم وما يَعبدون من دون الله فيقول أنتم أضللتم عبادي هؤلاء ﴾ [ الفرقان : 17 ] وقوله : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنتَ قلتَ للنّاس اتَّخذوني وأمّيَ إلهين من دون الله ﴾ [ المائدة : 116 ] .

والقَصّ كالقَصَص : الإخبار ، ومنه القصّة للخبر ، والمعنى : يخبرونكم الأخْبار الدالّة على وحدانيّة الله وأمره ونهيه ووعده ووعيده ، فسمّى ذلك قَصّاً ؛ لأنّ أكثره أخبار عن صفات الله تعالى وعن الرّسل وأممهم وما حلّ بهم وعن الجزاء بالنّعيم أو العذاب .

فالمراد من الآيات آيات القرآن والأقوال الّتي تتلى فيفهمها الجنّ بإلهام ، كما تقدّم آنفاً ، ويفهمها الإنس ممّن يعرف العربيّة مباشرة ومن لا يعرف العربيّة بالتّرجمة .

(172/251)

---

والإنذار : الإخبار بما يُخِيف ويُكره ، وهو ضدّ البشارة ، وتقدّم عند قوله تعالى : ﴿ إنّا أرسلناك بالحقّ بشيراً ونذيراً ﴾ في سورة البقرة ( 119 ) ، وهو يتعدّى إلى مفعول بنفسه وهو الملقى إليه الخبر ، ويتعدّى إلى الشّيء المخبر عنه : بالباء ، وبنفسه ، يقال : أنذرته بكذا وأنذرته كَذا ، قال تعالى : ﴿ فأنذرتكم ناراً تلظّى ﴾ [ الليل : 14 ] ، ﴿ فقُل أنذرتكم صاعقة ﴾ [ فصلت : 13 ] ، ﴿ وتُنْذِرَ يومَ الجمع ﴾ [ الشورى : 7 ] ولمّا كان اللّقاء يوم الحشر يتضمّن خيراً لأهل الخير وشرّاً لأهل الشرّ ، وكان هؤلاء المخاطبون قد تمحّضوا للشرّ ، جُعل إخبار الرّسل إيّاهم بلقاء ذلك اليوم إنذاراً لأنّه الطّرف الّذي تحقّق فيهم من جملة إخبار الرّسل إيّاهم ما في ذلك اليوم وشرّه .

ووصف اليوم باسم الإشارة في قوله : ﴿ يومكم هذا ﴾ لتهويل أمر ذلك بما يشاهد فيه ، بحيث لا تحيط العبارة بوصفه ، فيعدل عنها إلى الإشارة كقوله : ﴿ هذه النّار التي كنتم بها تكذّبون ﴾ [ الطور : 14 ] .

ومعنى قولهم : ﴿ شهدنا على أنفسنا ﴾ الإقرارُ بما تضمّنه الاستفهام من إتيان الرّسل إليهم ، وذلك دليل على أن دخول حرف النّفي في جملة الاستفهام ليس المقصود منه إلاّ قطع المعذرة وأنّه أمر لا يسع المسؤولَ نفيُه ، فلذلك أجملوا الجواب : ﴿ قالوا شهدنا على أنفسنا ﴾ ، أي أقررنا بإتيان الرّسل إلينا .

واستعملت الشّهادة في معنى الإقرار لأنّ أصل الشّهادة الإخبار عن أمر تحقّقه المخبر وبيَّنه ، ومنه : ﴿ شهد الله أنَّه لا إله إلا هو والملائكةُ وأولوا العلم قائماً بالقسط ﴾ [ آل عمران : 18 ] .

وشهد عليه ، أخبر عنه خبرَ المتثبت المتحقّق ، فلذلك قالوا : ﴿ شهدنا على أنفسنا ﴾ أي أقررنا بإتيان الرّسل إلينا .

ولا تنافي بين هذا الإقرار وبين إنكارهم الشّرك في قوله : ﴿ إلاّ أن قالوا والله ربّنا ما كنّا مشركين ﴾ [ الأنعام : 23 ] لاختلاف المخبر عنه في الآيتين .

*(173/251)*

---

وفُصِلت جملة : ﴿ قالوا ﴾ لأنَّها جارية في طريقة المحاورة .

وجملة ﴿ وغرتهم الحياة الدنيا ﴾ معطوفة على جملة : ﴿ قالوا شهدنا ﴾ باعتبار كون

الأولى خبراً عن تبيّن الحقيقة لهم ، وعلمهم حينئذ أنَّهم عَصوا الرّسل ومَن أرسلهم .

وأعرضوا عن لقاء يومهم ذلك .

فعلموا وعلم السّامع لخبرهم أنَّهم ما وقعوا في هذه الربقة إلاّ لأنَّهم غرّتهم الحياة الدّنيا ، ولولا ذلك الغرور لما كان عملهم ممّا يرضاه العاقل لنفسه .

والمراد بالحياة أحوالها الحاصلة لهم : من اللّهو ، والتّفاخر ، والكبر ، والعناد .

والاستخفاف بالحقائق ، والاغترار بما لا ينفع في العاجل والآجل .

والمقصود من هذا الخبر عنهم كشف حالهم ، وتحذير السّامعين من دوام التورّط في مثله .

فإنّ حالهم سواء .

وجملة : ﴿ وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ معطوفة على جملة : ﴿ وغرتهم الحياة الدنيا ﴾ وهو خبر مستعمل في التعجيب من حالهم ، وتخطئة رأيهم في الدّنيا .

وسوء نظرهم في الآيات ، وإعراضهم عن التدبّر في العواقب .

وقد رُتّب هذا الخبرُ على الخبر الّذي قبله ، وهو اغترارهم بالحياة الدّنيا ، لأنّ ذلك الاغترار كان السبب في وقوعهم في هذه الحال حتّى استسلموا وشهدوا على أنفسهم أنَّهم كانوا في الدّنيا كافرين بالله ، فأمّا الإنس فلأنَّهم أشركوا به وعبدوا الجنّ ، وأمّا الجنّ فلأنَّهم أغروا الإنس بعبادتهم ووضعوا أنفسهم شركاء لله تعالى ، فكِلا الفريقين من هؤلاء كافر ، وهذا مثل ما أخبرَ الله عنهم أو عن أمثالهم بمثل هذا الخبر التعجيبي في قوله : ﴿ وقالوا لو

كنّا نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم ﴾ [ الملك : 10 ، 11 ] .

فانظر كيف فرّع على قولهم أنَّهم اعترفوا بذنبهم ، مع أنّ قولهم هو عين الاعتراف ، فلا يفرّع الشّيء عن نفسه ، ولكن أريد من الخبر التّعجيب من حالهم ، والتسميع بهم ، حين ألجئوا إلى الاعتراف في عاقبة الأمر .

وشهادتهم على أنفسهم بالكفر كانت بعد التّمحيص والإلجاء ، فلا تنافي أنَّهم أنكروا الكفر في أوّل أمر الحساب ، إذ قالوا : ﴿ والله ربّنا ما كنّا مشركين ﴾ [ الأنعام : 23 ] .

قال سعيد بن جبير : قال رجل لابن عبّاس : "إنِّي أجد أشياء تختلف عليّ قال اللَّهُ : ﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ [ النساء : 42 ] ، وقال : ﴿ إلاّ أن قالوا واللَّهِ ربّنا ما كنّا مشركين ﴾ [ الأنعام : 23 ] ، فقد كَتَموا .

فقال ابن عبّاس : إنّ الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم ، فقال المشركون : تَعالوا نقل : ما كنّا مشركين ، فختم الله على أفواههم فتنطق أيديهم" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير جـ 7 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾

ونلاحظ أنه قال هنا : ﴿ يَامَعْشَرَ الجن والإنس ﴾ لأنه يريد أن يقيم عليهم الحُجة بأنه سبحانه لم يجرم أعمالهم ولم يضع لهم العقوبات إلا بعد بلغهم بواسطة الرسل ؛ فقد أعطاهم بلاغاً بواسطة الرسل عما يجب أن يفعل ، وما يجب أن يترك . فلم يأخذهم – سبحانه – ظلماً .

وهنا وقفة ؛ فالخطاب للجن والإنس ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ ﴾ فقال بعض العلماء : إن الجن لهم رسل ، والإنس لهم رسل ، وقال آخرون : الرسل من الإنس خاصة ؛ لأن القرآن جاء فيه على لسانهم : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِن بَعْدِ موسى ﴾ .

إذن فقد احتج الجن بكتاب أنزل من بعد موسى عليه السلام وعندهم خبر عن الكتاب الذي جاء بعده ، كأن الجن يأخذون رسالتهم من الإنس ؛ فكأن الله قد ارسل رسلاً من الإنس فقط وبلغ الجن ما قاله الرسول ، وهو هنا يقول سبحانه : ﴿ يَامَعْشَرَ الجن والإنس أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ . . ﴾ [ الأنعام : 130 ]

وأنت حين تأتي إلى اثنين : أولهما معه مائه جنيه ، والثاني يسير معه وليس معه شيء وتقول : " هذان معهما مائه جنيه " فهذا قول صحيح . فقوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ

رُسُلٌ مِّنْكُمْ ﴾ أي من مجموعكم . أو أن الرسل تأتي للإنس ، وبعد ذلك من الجن من يأخذ عن الرسول ليكون رسولاً مبلغاً إلى أخوانه من الجن : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الجن يَسْتَمِعُونَ القرآن فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالوا أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إلى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ [ الأحقاف : 29 ]

*(175/251)*

---

فكأن المنذرين من الجن يأخذون من الرسل من الأنس وبعد ذلك يتوجهون إلى الجن . ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي . . ﴾ [ الأنعام : 130 ]

والآيات تطلق على المعجزات التي تثبت صدق الرسل ، وما يكون من شرح الأدلة الكونية الدالة على صدق الرسل . وكلمة ﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ﴾ أي يروون لهم الموكب الرسالي من أول " آدم " إلى أن انتهى إلى " محمد " صلى الله عليه وسلم . و ﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ﴾ قول يدل على دقة الأداء التاريخي ؛ لأن " قص " مأخوذ من قص الأثر ، ومعناها تتبع القدم بدون انحراف عن كذا وكذا ، وهكذا نجد أن المفروض في القصة أن تكون مستلهمة واقع التاريخ . ﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هذا . . ﴾ [ الأنعام : 130 ]

وهو اليوم المخزي حيث سيقفون أمام الله ويذكرهم الحق أنه قد نبههم وقد أعذر من أنذر . ﴿ . . . قَالُواْ شَهِدْنَا على أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا وَشَهِدُواْ على أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ ﴾ [الأنعام: 130]

وقولهم: ﴿ شَهِدْنَا على أَنْفُسِنَا ﴾ إقرار منهم على أنفسهم؛ فقد شهدوا على أنفسهم، ولكن ما الذي منعهم أن ينضموا إلى الإيمان بمواكب النبوة؟ . تأتي الإجابة من الحق: ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الحياة الدنيا ﴾ .

والذي يغرّ هو الشيء الذي يكون له تأثير، وهو موصوف بأنه "دنيا"!! لذلك فالغرور الذي يأتي بالدنيا هو قلة تبصّر .

﴿ وَشَهِدُواْ على أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ ﴾ . ومن يستقرئ آيات القرآن يجد آية تقول: ﴿ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: 23]

*(176/251)*

---

فمرة ينفون عن أنفسهم أنهم كفروا، ومرة يثبتون أنهم كافرون، وهذا لاضطراب المواقف أو اختلافها . أو أنهم ﴿ وَشَهِدُواْ على أَنْفُسِهِمْ ﴾؛ بمعنى أن أبعاضهم شهدت عليهم؛ لأن الإنسان في الدنيا له إرادة، وهذه الإرادة مسيطرة على ما له من جوارح وطاقات

مخلوقة لله ؛ لأن الله جعل للإِرادة في الإِنسان ولاية على الأبعاض التي تقوم بالأعمال الاختيارية . لكن الأعمال الاضطرارية القهرية ليس للإِنسان إرادة فيها ؛ فلا أحد يملك أن يقول للقلب انبض كذا دقة في الساعة ، ولا أن يقول للأمعاء : تحركي الحركة الدّودية هكذا . لكنه يقدر أن يمشي برجليه إلى المسجد ، أو يمشي إلى الخّمارة . ويستطيع أن يقرأ القرآن أو يقرأ في كتاب يضر ولا يفيد .

إذن فإرادة الإِنسان مسيطرة على الأبعاض لتحقق الاختيار المصحح للتكليف . لكن يوم القيامة تسلب الإِرداة التي للإِنسان على أبعاضه ، وتبقى الأبعاض كلها حُرّة ، وحين تصير الأبعاض حُرّة فالأشياء التي كانت تقبلها في الدنيا بقانون تسخيرها لإِرادتك قد زالت وانتهت ، فهي في الآخرة تشهد على صاحبها ؛ تشهد الجلود والأيدي والأرجل : ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قالوا أَنطَقَنَا الله الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ . . . ﴾ [ فصلت : 21 ]

وحين يقولون لربنا : ما كنا مشركين ، فهذا كلامهم هم ، لكن جوارحهم تقول لهم : يا كذابون ، أنتم عملتم كذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(177/251)*

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (130) ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ﴾ قال : ليس في الجن رسل إنما الرسل في الإنس والنذارة في الجن ، وقرأ ﴿ فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين ﴾ [ الأحقاف : 29 ] .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ رسل منكم ﴾ قال : رسل الرسل ﴿ ولوا إلى قومهم منذرين ﴾ [ الأحقاف : 29 ] .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك . أنه سئل عن الجن هل كان فيهم نبي قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال : ألم تسمع إلى قول الله ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ﴾ يعني بذلك أن رسلاً من الإنس ورسلاً من الجن ﴿ قالوا بلى ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

فائدة

قال الشيخ الشنقيطي :

قوله تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الجن والإنس أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ ﴾ الآية .

قال بعض العلماء : المراد بالرسل من الجن نذرهم الذين يسمعون كلام الرسل ، فيبلغونه إلى قومهم ، ويشهد لهذا أن الله ذكر أنهم منذرون لقومهم في قوله : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الجن يَسْتَمِعُونَ القرآن فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالوا أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إلى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ [ الأحقاف : 29 ] ؟

وقال بعض العلماء : ﴿ رُسُلٌ مِّنْكُمْ ﴾ أي من مجموعكم الصادق بخصوص الإنس : لأنه لا رسل من الجن ، ويستأنس لهذا القول بأن القرآن ربما أطلق فيه المجموع مراداً بعضه ، كقوله : ﴿ وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً ﴾ [ نوح : 16 ] ، وقوله : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ [ الشمس : 14 ] ، مع أن العاقر واحد منهم ، كما بينه بقوله : ﴿ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فتعاطى فَعَقَرَ ﴾ [ القمر : 29 ] . واعلم أن ما ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله وغيره من أجلاء العلماء في تفسير هذه الآية : من أن قوله : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ﴾ [ الرحمن : 22 ] يراد به البحر الملح خاصة دون العذب غلط كبير ، لا يجوز القول به . لأنه مخالف مخالفة صريحة لكلام الله تعالى ، لأن الله ذكر البحرين الملح والعذب ، بقوله : ﴿ وَمَا

يَسْتَوِي البحران هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُ وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ [ فاطر : 12 ] ، ثم صرح باستخراج اللؤلؤ والمرجان منها جميعاً بقوله : ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ [ فاطر : 12 ] والحلية المذكورة هي اللؤلؤ والمرجان ، فقصره على الملح مناقض للآية صريحاً ، كما ترى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 1 صـ ﴾

*(179/251)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قال أهل اللُّغة : المَعْشَر كُل جماعةِ أمْرُهُم واحد ، ويَحصُل بنيهم مُعَاشَرة ومُخالطة ، والجَمْع : مَعَاشر .

قوله : " مِنْكُم " في محلِّ رفعٍ صلة لرسُل ، فيتعلَّق بمحْذُوفٍ ، وقوله : " يَقُصُّونَ " يحتمل أن يكون صِفَة ثَانِيةَ ، وجاءت كذا مَجيئاً حَسَناً ، حيث تَقدَّم ما هو قَرِيبٌ من المُفْرَد على الجُمْلَة ، ويحْتَمل أن يكُون في مَحَلِّ نصب على الحالِ ، وفي صَاحِبها وجهان :

أحدهما : هو رُسُل وجَازَ ذِلك وإن كان نَكِرَة ؛ لتخَصُّصِه بالوَصْفِ .

والثاني : أنه الضَّمير المسْتَتِر في " مِنْكُم "

(180/251)

---

وقوله : " رُسُلٌ مِنْكم " زعم الفرَّاء : أن في هذه الآيَةِ حَذْف مُضَافٍ ، أي : " ألم يَأتِكُم رُسُلٌ من أحَدِكم ، يعني : من جِنْس الإنْس " قال : كقوله – تعالى – : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ ﴾ [ الرحمن : 22 ] ، وإنما يَخْرُجَان من المِلْح ﴿ وَجَعَلَ القمر فِيهِنَّ نُوراً ﴾ [ نوح : 16 ] وإنما هو في بَعْضِها ، فالتَّقدير : يَخْرُجُ من أحدهما ، وجعل القمر في إحْدَاهُنَّ فحذف للعِلْم به ، وإنما احْتَاج الفرَّاء إلى ذلك ؛ لأن الرُّسُل عنده مُخْتَصَّة بالإنْسِ ، يعني : أنه لم يعْتَقِد أنَّ الله أرْسَل للجنِّ رَسَولاً مِنْهُم ، بل إنما أرْسَل إليهم الإنْس ، كما يُرْوَى في التَّفْسير ، وعليه قَامَ الإجْمَاع أن النَّبي محمداً صلى الله عليه وسلم مرسلٌ للإنْسِ والجِنِّ ، وهذا هو الحَقُّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 434.435 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ

يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (130) ﴾

عرَّفهم أنه أزاح لهم العِلَلَ من حيث التزام الحجة ، لكنه حكم لهم بالشقوة في الأزل ، ( فَلَبَّسَ ) عليهم المحجة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 503 ﴾

*(181/251)*

---

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (122) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (130) ﴾

التفسير : إنه سبحانه بعد أن ذكر أن المشركين يجادلون المؤمنين ضرب مثلاً للفريقين فبيّن أن

المؤمن المهتدي بمنزلة من كان ميتاً فجعله الله حياً وأعطاه نوراً يهتدي به في مصالحه ، وأن الكافر بمنزلة من هو في الظلمات منغمس فيها لا خلاص له منها فيكون متحيراً على الدوام ، وهل هما خاصان أو عامان فيه قولان : الأول قال ابن عباس : يريد حمزة بن عبد المطلب وأبا جهل ؛ وذلك أن أبا جهل رمى رسول الله صلى الله عليه وآله بفرث وحمزة ولم يؤمن بعد ، فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل وهو راجع من قنصه وبيده قوس ، فأقبل غضبان حتى علا أبا جهل بالقوس وهو يتضرع إليه ويقول : يا أبا يعلي أما ترى ما جاء به سفه عقولنا وسب آلهتنا وخالف آباءنا ؟ فقال حمزة : ومن أسفه منكم تعبدون الحجارة من دون الله ، أشهد أن لا إله إلا الله لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله فنزلت الآية . وعن مقاتل : نزلت في النبي صلى الله عليه وآله وأبي جهل ؛ وذلك أنه قال : زاحمنا بني عبد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يوحى إليه . والله لا نؤمن به إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه فنزلت ، وعن عكرمة أنها في عمار بن ياسر وأبي جهل ، وعن الضحاك هي في عمر بن الخطاب وأبي جهل . والقول الثاني أنها عامة في كل مؤمن وكافر لحصول المعنى في الكل . وإنما جعل الكفر موتاً لأنه جهل والجهل يوجب الحيرة والوقفة فهو كالموت الذي يوجب السكون . وأيضاً الميت لا يهتدي إلى شيء وكذلك الجاهل ، والهدى علم وبصيرة وهما يوجبان الفوز بالمطالب كالحياة والنور ، قال بعض العلماء : قوله : ﴿ أو من كان ميتاً

﴿ إشارة إلى أول مراتب النفس الإنسانية وهي الاستعداد المحض المسماة بالعقل الهيولاني عند الحكيم .

(182/251)

---

وقوله : ﴿ فأحييناه ﴾ إشارة إلى ثانية مراتبها المسماة بالعقل بالملكة وهي أن يحصل لها العلوم الكلية الأولية . وقوله ﴿ وجعلنا له نوراً ﴾ إشارة إلى ثالثة المراتب وهي التي قد حصلت لها المعقولات المكتسبة ولكنها لا تكون حاضرة بالفعل بل تكون بحيث متى شاء صاحبها استرجاعها واستحضارها قدر عليه ولهذا يسمى عقلاً بالفعل أي الفعل القريب ، وقوله : ﴿ يمشي به في الناس ﴾ إشارة إلى رابعة المراتب وهي النهاية المسماة بالعقل المستفاد ، وقد حصلت المعارف القدسية والجلايا الروحانية للنفس حاضرة بالفعل وصار جوهر الروح مشرقاً بتلك المعارف مستضيئاً بها . ويمكن أن يقال : الحياة عبارة عن الاستعداد القائم بجوهر الروح ، والنور عبارة عن اتصال نور الوحي والتنزيل فإنه لا بد في الإبصار من أمرين : سلامة الحاسة والنور الخارجي من الشمس والسراج ، فكذلك البصيرة لا بد لها في الإدراك من سلامة حاسة العقل ومن طلوع نور الوحي فلهذا قال جمع من المفسرين : المراد بهذا النور القرآن ، ومنهم من قال : نور الدين أو نور الحكمة .

والأقوال متقاربة ، وأما مثل الكافر فهو ﴿ كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ وفيه أن ظلمات الجهل والأخلاق الذميمة صارت كالصفة اللازمة له لا تكاد تزول عنه فيبقى متحيراً خائفاً فزعاً نعوذ بالله من هذه الحالة . ومعنى المثل ههنا الصفة الغريبة أي كمن صفته هذه والمراد كمن هو في الظلمات . ثم قال : ﴿ كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون ﴾ والمزين هو الله بالتحقيق عند الأشاعرة . والشيطان بالحقيقة أو الله مجازاً عند المعتزلة ، والإضافة إلى الله بالحقيقة أو المجاز أولى بدليل قوله : ﴿ وكذلك جعلنا ﴾ أي وكما جعلنا في مكة صناديدها ليمكروا فيها كذلك جعلنا ، أو وكما زينا للكافرين أعمالهم كذلك جعلنا ﴿ في كل قرية أكابر ﴾ وهي جمع الأكبر و﴿ مجرميها ﴾ مضاف إليه والظرف مفعول ثانٍ قدم ليعود الضمير إلى القرية . وقيل : التقدير

(183/251)

---

جعلنا مجرميها أكابر . قال الزجاج : إنما جعل المجرمين أكابر لأنهم لأجل رياستهم أقدر على الغدر والمكر وترويج الأباطيل على الناس من غيرهم ، ولأن كثرة المال وقوّة الجاه تحمل الناس على المبالغة في حفظهما وذلك لا يتم إلا باستعمال بعض الأخلاق الذميمة من المكر والغدر والكذب والغيبة والنميمة والشح والأيمان الكاذبة وكفى بهذه الأمور دليلاً

على خساسة المال والجاه . واللام في ﴿ ليمكروا ﴾ على أصله عند الأشاعرة ، واستدلوا به على أن الشر بإرادة الله تعالى . وحمله المعتزلة على لام العاقبة مجازاً حملوا الجعل في قوله : ﴿ وكذلك جعلنا ﴾ على التخلية والخذلان . ثم قال في معرض التهديد ﴿ وما يمكرون إلا بأنفسهم ﴾ لأن وباله يعود عليهم ﴿ وما يشعرون ﴾ وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وتقديم موعد بالنصرة ، ثم إنه سبحانه حكى قول أبي جهل وأضرابه " زاحمنا بني عبد مناف في الشرف إلى آخره " وقول الوليد بن المغيرة " لو كانت النبوّة حقاً لكنت أولى بها منك لأني أكبر منك سناً وأكثر منك مالاً " فقال : ﴿ وإذا جاءتهم آية ﴾ أي معجزة قاهرة أو وحي .

*(184/251)*

---

﴿ قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله ﴾ قال الضحاك : أراد كل واحد منهم ذلك كما في الآية الأخرى . ﴿ بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشرة ﴾ [ المدثر : 52 ] ويشبه أن يكون هذا الكلام الخبيث هو المراد بالمكر المذكور في الآية المتقدمة ، وللمفسرين في مقترحهم قولان : أحدهما - وهو الأشهر - أنهم أرادوا أن تحصل لهم النبوّة والرسالة كما حصلت للنبي صلى الله عليه وسلم وأن يكونوا متبوعين لا تابعين ومخدومين لا

خادمين . وثانيهما عن ابن عباس والحسن أن المعنى وإذا جاءتهم آية من القرآن تأمرهم باتباع محمد صلى الله عليه وآله ﴿ قالوا لن نؤمن حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ [ الإسراء : 90 ] إلى قوله : ﴿ حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ﴾ [ الإسراء : 93 ] من الله تعالى إلى أبي جهل وفلان وفلان فالقوم ما طلبوا النبوّة وإنما طلبوا آيات قاهرة ومعجزات ظاهرة مثل معجزات الأنبياء المتقدمين تدل على صحة نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم . فقوله سبحانه في جوابهم على سبيل الاستئناف ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ على القول الأول ظاهر ، وأما على القول الثاني فوجهه أن القوم إذا اقترحوا تلك الآيات فلو أظهر الله تعالى تلك المعجزات على وفق التماسهم لكانوا قد قربوا من منصب الرسالة . قال بعض العقلاء : الأرواح متساوية في تمام الماهية فحصول النبوّة والرسالة لبعضها دون بعض تشريف من الله تعالى وإحسان وتفضل . وقال آخرون : بل النفوس مختلفة بجواهرها وماهياتها فبعضها خيرة طاهرة من علائق الجسمانيات مشرقة بالأنوار الإلهية مستعلية منورة ، وبعضها خبيثة كدرة محبة للجسمانيات ، فالنفس ما لم تكن من القسم الأول لم تصلح لقبول الوحي والرسالة . ومراتب الرسل مختلفة فمنهم ذو معجزة واحدة وذو معجزتين أو أكثر ، ومنهم من له تبع قليل ومنهم من آمن به جم غفير ، ومنهم من كان الرفق غالباً عليه ومنهم من كان مدار أمره على التغليظ والتشديد . وفي

الآية تعريض بأن حصول النبوّة والرسالة لا بد فيه من قلب سليم ، والمقترحون فيهم من المكر والحسد ما فيهم فكيف يعقل حصول الرسالة لهم وإنما يحصل لهم ما يناسب أخلاقهم وأحوالهم ولهذا قال تعالى : ﴿ سيصيب الذين أجرموا صغار ﴾ ذل وهوان ﴿ عند الله ﴾ أي في الآخرة أو في الدنيا بحكم الله وإيجابه من الأسر والقتل . أو المراد من عند الله فحذف " من " .

*(186/251)*

---

أو قوله : ﴿ عند الله ﴾ مستأنف أي معدّ لهم ذلك ، واعلم أن كمال العقاب لا بد فيه من أمرين : الضرر ، والإهانة . ثم إن القوم لما تردوا عن طاعة محمد صلى الله عليه وآله طلباً للعز والكرامة فالله تعالى بيّن أنه يقابلهم بضد مقصودهم ، فأول ما يوصل إليهم الذل والهوان وبعده عذاب شديد جميع ذلك بسبب مكرهم ونكرهم ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ يقال : شرح فلان أمره ، إذا أظهره وأوضحه ومنه شرح المسأله إذا بينها . وقال الليث : شرح الله صدره فانشرح أي وسعه لقبول ذلك الأثر . ولا شك أن توسيع الصدر غير ممكن على سبيل الحقيقة ولكن ههنا معنى وهو أنه إذا اعتقد الإنسان في

عمل من الأعمال أن نفعه زائد وخيره راجح مال طبعه إلي وقوي طلبه ورغبته في حصوله وظهر في القلب استعداد شديد لتحصيله فسميت هذه الحالة سعة الصدر ، وإن حصل في القلب علم أو اعتقاد أو ظن يكون ذلك العمل مشتملاً على ضرر زائد ومفسدة راجحة دعاه ذلك إلى تركه وحصل في النفس نبوّة عن قبوله فيقال لهذه الحال ضيق الصدر ، لأن المكان إذا كان ضيقاً لم يتمكن الداخل من الدخول فيه ، وإذا كان واسعاً قدر على الدخول فيه . وأكثر استعمال شرح الصدر في جانب الحق والإسلام وقد ورد في الكفر أيضاً قال تعالى : ﴿ ولكن من شرح بالكفر صدراً ﴾ [ النحل : 106 ] قال المفسرون : " لما نزلت هذه الآية سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل له : كيف يشرح الله صدره ؟ فقال صلى الله عليه وآله : يقذف الله تعالى فيه نوراً حتى ينفسخ وينشرح ، فقيل له : وهل لذلك من أمارة يعرف بها ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : " الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزوله " " وهذا البيان مناسب لما ذكرنا فإن الإنابة إلى دار الخلود لا بد أن تترتب على اعتقاد أن عمل الآخرة زائد النفع والخير ، والتجافي عن دار الغرور إنما ينبعث عن اعتقاد كون عمل الدنيا زائد الضر والضير ،

*(187/251)*

والاستعداد للموت قبل نزوله نتيجة مجموع الأمرين الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة . أما قوله : ﴿ حرجاً ﴾ فمن قرأ بكسر الراء فعلى النعت ، ومن قرأ بالفتح فعلى الوصف بالمصدر للمبالغة . قال الزجاج : الحرج في اللغة أضيق الضيق . وقيل : الحرج بالفتح جمع حرجة وهو الموضع الكثير الأشجار الذي لا تناله الراعية . حكى الواحدي بإسناده عن ابن عباس أنه قرأ هذه الآية وقال : هل ههنا أحد من بني بكر ؟ قال رجل : نعم . قال : ما الحرجة فيكم ؟ قال : الوادي الكثير الأشجار المشتبك الذي لا طريق فيه . فقال : كذلك قلب الكافر . ومعنى : ﴿ يصعد في السماء ﴾ كأنما يزاول أمراً غير ممكن لأن صعود السماء مثل فيما يمتنع ويبعد عن الاستطاعة فكأن الكافر في نفوره من الإسلام وثقله عليه بمنزلة من يتكلف الصعود إلى السماء .

*(188/251)*

---

وقيل : المراد أن قلبه يتباعد عن الإسلام وقبوله تباعد ما بين الأرض والسماء . ﴿ كذلك يجعل ﴾ أي كما جعل ضيق الصدر في قلوبهم كذلك يجعل الرجس عليهم . وقال الزجاج : أي مثل ما قصصنا عليك يجعل الله الرجس . عن ابن عباس هو الشيطان يسلطه الله عليهم . وقال مجاهد : الرجس ما لا خير فيه . وعن عطاء : الرجس هو العذاب . وقال

الزجاج : هو اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة . قالت الأشاعرة : في الآية دلالة على أن الهداية والضلال من الله تعالى ؛ بيانه أن العبد قادر على الإيمان وعلى الكفر وقدرته بالنسبة إلى الأمرين سواء ولا يترجح إلا لداعية ، ولا معنى للداعية إلى علمه أو اعتقاده أو ظنه بكون ذلك الفعل مشتملاً على مصلحة زائدة ، ومجموع القدرة مع الداعي يوجب الفعل ، ولا بد أن تنتهي تلك الداعية إلى تخليق الله وتكوينه دفعاً للتسلسل فإذا خلق الله تعالى في قلبه اعتقاد أن الإيمان راجح المنفعة – وهو المراد بشرح الصدر – مال القلب إليه ، وإذا خلق في قلبه اعتقاد أن الإيمان بمحمد سبب للمفسدة الدينية والدنيوية نبا طبعه عنه وبقي على الكفر . فحاصل الآية أن من أراد الله منه الإيمان قوى دواعيه إليه ، ومن أراد منه الكفر قوى صوارفه عن الإيمان . وقالت المعتزلة : إنه لا دلالة في الآية على قولكم لأنه ليس فيها أكثر من أنه إذا أراد أن يهدي إنساناً أو يضله فعل به كيت وكيت ، وليس فيها أنه أراد ذلك أو لم يرده نظيره قوله : ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا ﴾ [ الأنبياء : 17 ] فبيّن أنه كيف يفعل اللهو لو أراده ، ثمّ إنه لم يرد ذلك بالاتفاق وأيضاً لم قلتم إنه أراد ومن يرد أن يضله عن الإيمان بل المراد من يرد الله أن يهديه يوم القيامة إلى طريق الجنة يشرح صدره للإسلام حتى يثبت عليه ، وتفسير الشرح هو أنه يفعل به ألطافاً تدعوه إلى البقاء على الإيمان والثبات عليه . ومن يرد أن يضله عن طريق الجنة فعند ذلك يلقي في صدره الضيق

(189/251)

---

والحرج لا في كل الأوقات بل في بعضها كيلا يمكن دفعه وخصوصاً عند ظهور نصرة المؤمنين وبدوّ الذل والصغار في الكافرين . وأيضاً لم لا يجوز أن يقال : المعنى فمن يرد الله أن يهديه إلى الجنة يشرح صدره للإسلام في ذلك الوقت الذي يهديه فيه إلى الجنة لما رأى من فوائد الإيمان ونتائجه من الدرجات العالية والمراتب الشريفة فتزداد رغبته فيه ، ومن يرد أن يضله يوم القيامة عن طريق الجنة ففي ذلك الوقت يضيق صدره للحزن الشديد الذي ناله عند الحرمان من الجنّة والدخول في النار ؟ وقال في الكشاف : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه ﴾ أن يلطف به ولا يريد أن يلطف إلا بمن له لطف ﴿ يشرح صدره ﴾ للإسلام يلطف به حتى يرغب في الإسلام وتسكن إليه نفسه ويحب الدخول فيه ﴿ ومن يرد أن يضله ﴾ أي يخذله ويخليه وشأنه وهو الذي لا لطف له ﴿ يجعل صدره ضيقاً حرجاً ﴾ يمنعه ألطافه حتى يقسو قلبه وينبو عن قبول الحق وينسد فلا يدخله الإيمان .

(190/251)

---

وأجيب عن قولهم " ليس في الآية أنه أراد ذلك أو لم يرده " بأن قوله في آخر الآية : ﴿ كذلك يجعل الله الرجس ﴾ تصريح بأنه فعل به ذلك الإضلال لأن الكاف للتشبيه والتقدير : كما جعلنا ذلك الضيق والحرج في صدره كذلك يجعل . وفيه أيضاً دلالة على أن المراد من قوله : ﴿ ومن يرد أن يضله ﴾ هو أنه يضله عن الدين ، وتفسير الضيق والحرج باستيلاء الغم والحزن على قلب الكافر بعيد لأن أكثر من يعتريه الحزن في الدنيا هو المؤمن ولهذا قال صلى الله عليه وعلى آله : " خص البلاء بالأنبياء ثم بالأولياء ثم الأمثل فالأمثل " ولو خص ذلك بالآخرة كان من إيضاح الواضحات . فمن المعلوم لكل أحد أن من يضله الله عن طريق الجنة فإنه يضيق قلبه في ذلك الوقت . والجواب على قول صاحب الكشاف مما مر من أن فعل الإيمان يتوقف على أن تحصل في القلب داعية جازمة إلى الإيمان ، وفاعل تلك الداعية هو الله تعالى وكذا القول في جانب الكفر ، فإن سمى الداعيتين أحد باللطف والخذلان فلا مشاحة في الأسامي . قال القاضي في تفسيره : روي عن محمد بن كعب القرظي أنه قال : تذاكرنا أمر القدرية عند ابن عمر فقال : لعنت القدرية على لسان سبعين نبياً فإذا كان يوم القيامة نادى منادٍ وقد جمع الناس بحيث يسمع الكل أين خصماء الله ؟ فتقوم القدرية . قال : ولا يخفى أنهم الذين ينسبون أفعال العباد إلى الله قضاءً وقدراً وخلقاً لأنهم يقولون الذنب لله فأي ذنب لنا حتى تعاقبنا أنت الذي خلقته فينا وأردته منا وقضيته علينا ولم تخلقنا إلا له ولا يسرت لنا غيره ، فهؤلاء لا بد أن يكونوا خصماء الله . أما الذين قالوا إن الله

تعالى مكن وأزاح العلة وإنما أتى العبد من قبل نفسه فكلامه موافق لما يعامل به من إنزال العقوبة ، فهؤلاء منقادون لله تعالى لا خصماؤه . هذا كلام القاضي وتعجب منه الأشاعرة فقالوا : كيف يكون خصم الله من يقول ليس للعبد على الله حجة ولا استحقاق بوجه من الوجوه وإن كل ما يفعله

*(191/251)*

---

الرب في العبد فهو حكمة وصواب وليس للعبد على ربه اعتراض ولا مناظرة وكل ما يصل منه إلى عباده حتى الملائكة والأنبياء فهو تفضل منه وإحسان ، لكن الخصم من يدعي عليه وجوب الثواب والعوض ويقول لو لم تعطني ذلك لخرجت عن الإلهية وصرت معزولاً عن الربوبية وكنت من السفهاء وأن من واظب على الكفر سبعين سنة ثم إنه في آخر زمن حياته قال لا إله إلا الله محمد رسول الله عن القلب ثم مات ، فإن رب العالمين أعطاه النعم الفائقة سنين غير محصورة ، ثم إنه لو ترك لحظة واحدة قال العبد له إنك معزول عن الإلهية ، يحكى أن الشيخ أبا الحسن الأشعري لما فارق مجلس أستاذه أبي علي الجبائي وترك مذهبه وكثر اعتراضه على أقاويله ، عظمت الوحشة بينهما فاتفق أن أبا علي عقد مجلس التذكير وحضر عنده جم غفير ، فذهب الشيخ أبو الحسن إلى ذلك المجلس مختفياً عن

الجبائي وقال لبعض من حضر هناك من العجائز : إني أعلمك مسألة فاذكريها لهذا الشيخ

.

(192/251)

---

قولي له كان لي ثلاثة من البنين واحد في غاية الزهد ، وآخر في غاية الفسق ، الثالث كان صبياً لم يبلغ فماتوا على هذه الصفات فأخبرني أيها الشيخ عن أحوالهم . فقال الجبائي : أما الزاهد ففي درجات الجنة ، وأما الكافر ففي دركات النار ، وأما الصبي فما أهل السلامة . فقال : قولي له إن الصبي لو أراد أن يذهب إلى تلك الدرجات العالية التي حصل فيها أخوه الزاهد فهل يمكن منه ؟ قال الجبائي : لا لأن الله تعالى يقول له إنما أخوك وصل إلى تلك الدرجات لأنه أتعب نفسه في العلم والعمل وأنت فليس معك ذلك . فقال أبو الحسن : قولي له لو أن الصبي يقول : يا رب العالمين ليس الذنب لي لأنك أمتني قبل بلوغي ، ولو أبلغتني فربما زدت على أخي الزاهد في الزهد ، فقال الجبائي : يقول الله تعالى له علمت أنك لو عشت لطغيت وكفرت وكنت تستوجب النار فراعيت مصلحتك . فقال لها أبو الحسن . قولي له لو أن الأخ الكافر الفاسق رفع رأسه من الدرك الأسفل من النار وقال : يا رب العالمين ويا أحكم الحاكمين ويا أرحم الراحمين ، لم راعيت حال الأخ الصغير وما راعيت

حالي ومصلحتي ؟ قال الراوي : فانقطع الجبائي فنظر فرأى أبا الحسن فعلم أن المسألة منه لا من العجوز . ثم إن أبا الحسين البصري جاء بعد أربعة أدوار وأكثر مجيباً عن الجبائي قائلاً : نحن لا نرضى بهذا الجواب وإنما نقول : الجواب مبني على مسألة اختلف شيوخنا فيها ، وهي أنه هل يجب على الله تعالى أن يكلف العبد أم لا ؟ فقال البصريون : إنه غير واجب ولكنه تفضل وإحسان . وقال البغداديون : إنه واجب وعلى الأول لله تعالى أن يقول لذلك الصبي إني طولت عمر الأخ الزاهد وكلفته على سبيل التفضل ولم يلزم من كوني متفضلاً على أحد بشيء أن أتفضل على غيره بمثله ، وعلى قول البغداديين فللَّه أن يقول : إن إطالة عمر أخيك وتوجيه التكليف في حقه لم يستلزم مفسدة الغير فلا جرم فعلته ، أما إطالة عمرك وتوجيه التكليف عليك فكان يلزم منه

*(193/251)*

---

عود مفسدة إلى غيرك فلهذا ما فعلته وظهر الفرق .

وأورد على القسم الأول أنه تعالى لما أوصل التفضل إلى أحدهما فالامتناع من إيصاله إلى الثاني قبيح منه عقلاً لأنه ليس فعلاً شاقاً عليه ولا ينقص بذلك شيء من ملكه ، والصبي محتاج إلى الإحسان إليه ومثل هذا الامتناع قبيح في الشاهد كمن منع غيره من النظر في

مرآته المنصوبة على الجواد لعامة الناس . فإن كان حكم العقل في التحسين والتقبيح مقبولاً فليكن ههنا أيضاً مقبولاً وإلا فلا يقبل في شيء من الصور وتبطل كلية مذهبكم . وأورد على الشق الثاني أن قولنا : " تكليفه يتضمن مفسدة " ليس معناه أن ذات التكليف تتضمن المفسدة وإلا لم ينفك تكليف عن المفسدة وأنه باطل بالاتفاق ، فمعناه إذاً أنه تعالى علم أنه إذا كلف هذا الشخص فإن إنساناً آخر يختار من قبل نفسه فعلاً قبيحاً ، فإن اقتضى هذا القدر أن يترك الله تعالى تكليفه وجب أن يقبح تكليف كل من علم الله من حاله أنه يكفر وإلا لزم محض التحكم . هذا تمام مناظرة الفريقين ، ولعلك قد عرفت التحقيق هنا فيما سلف فتذكر .

*(194/251)*

---

ثم قال : ﴿ وهذا صراط ربك ﴾ في المشار إليه وجوه منها : أنه المذكور في الآية المتقدمة . أما على مذهب الأشاعرة وهو أن الفعل يتوقف على الداعي وحصول تلك الداعية من الله تعالى فيكون الفعل من الله ، ويلزم استناد الكل إلى قضائه وقدره . وأما على مذهب المعتزلة فالمراد هذا الذي قررنا طريقته التي اقتضتها الحكمة وعادته الجارية في عباده من التوفيق والخذلان . ومعنى ﴿ مستقيماً ﴾ عادلاً مطرداً . وانتصابه على الحال المؤكدة

والعامل ما في اسم الإشارة من معنى الفعل . أو هو محذوف أي أحقه . وعن ابن عباس : يريد هذا الذي أنت عليه يا محمد دين ربك . وقال ابن مسعود : يعني القرآن : ﴿ قد فصلنا الآيات ﴾ ذكرناها فصلاً فصلاً بحيث لا يختلط واحد منها بالآخر . قال في التفسير الكبير : قد بيّن الله تعالى صحة القول بالقضاء والقدر في آيات من هذه السورة متوالية متعاقبة بطرق كثيرة ووجوه مختلفة . وختم الآية بقوله : ﴿ لقوم يذكرون ﴾ لأنه تقرر في عقل كل واحد أن أحد طرفي الممكن لا يترجح عن الآخر إلا لمرجح فكأنه يقول للمعتزلي : تذكر ما تقرر في عقلك أن الممكن لا يترجح أحد طرفيه إلا لمرجح حتى تزول الشبهة عن قلبك فإن حصول الفعل عن القادر لو لم يتوقف على الداعي مع تساوي طرفيه وجب أن يحصل هذا الاستغناء في كل الممكنات والمحدثات وحينئذٍ يلزم نفس الصانع وإبطال القول والفعل والفاعل والتأثير والمؤثر . ثم لما بيّن عظمة نعمته في الصراط المستقيم بيّن ما أعد وهيىء للمتذكرين فقال : ﴿ لهم دار السلام ﴾ أي دار الله يعني الجنة ، والإضافة للتشريف والتعظيم كما قيل : الكعبة بيت الله : أو دار السلامة من كل آفة وكرب والسلام والسلامة مثل : الضلال والضلالة والرضاع والرضاعة كلاهما مصدر .

*(195/251)*

وقيل : السلام جمع السلامة لأن أنواع السلامة حاصلة في الجنة . ومعنى ﴿ عند ربهم ﴾ أنها معدة عنده وفي ضمانه كما يقال لفلان عندي حق لا ينسى وذلك نهاية في بيان وصولهم إليها وكونهم على ثقة من حصولها ﴿ وهو وليهم ﴾ أي قريب منهم بالرحمة والرضوان أو مواليهم ومحبهم أو ناصرهم على أعدائهم ، وذلك أن القوم قد عرفوا أن المدبر والمقدر ليس إلا هو جل جلاله ، وأن النافع والضار ليس إلا هو سبحانه ، فانقطعوا عن كل ما سواه فما كان رجوعهم إلا إليه ، وما كان توكلهم إلا عليه ، ولم يكن أنسهم إلا به ، فلما صاروا بالكلية له لا جرم قال سبحانه : ﴿ وهو وليهم ﴾ على أنه متكفل لجميع مصالحهم ديناً ودنيا . ثم قال : ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ أي بسبب أعمالهم ، أو متوليهم بجزاء ما كانوا يعملون لئلا يقطعوا العمل ولا يتكلوا ، وذلك أن بين النفس والبدن تعلقاً شديداً وكما أن الهيآت النفسانية قد تؤثر في البدن كحمرة الخجل وصفرة الوجل فالهيآت البدنية قد تصعد من البدن إلى النفس ، فإذا واظب الإنسان على أعمال الخير ظهرت الآثار المناسبة لها في جوهر النفس فلا بد للسالك من العمل بعد كمال العلم والمعرفة . ثم لما بين حال من تمسك بالصراط المستقيم أردفها بذكر من تعلق بضده فقال : ﴿ ويوم نحشرهم ﴾ والمراد واذكر يوم كذا ، أو يوم نحشرهم قلنا ، أو متعلقة محذوف والتقدير : ويوم نحشرهم وقلنا يا معشر الجن كان ما لا يوصف لفظاعته ، والضمير إما أن يعود إلى الشياطين الذين تقدم ذكرهم في قوله : ﴿ شياطين الإنس والجن ﴾ أو يعود إلى جميع المكلفين الذين علموا أن الله تعالى

يبعثهم من الثقلين وغيرهم ، ويكون القائل على تقدير حذف القول هو الله تعالى كما أنه الحاشر لجميعهم . وهذا القول منه تعالى بعد الحشر لا يكون إلا للتبكيت وإنهم وإن تمردوا في الدنيا انتهى حالهم في الآخرة إلى الاستسلام والانقياد والاعتراف . وقال الزجاج : التقدير فيقال لهم : ﴿ يا معشر الجن ﴾

(196/251)

---

لأنه يبعد أن يتكلم الله تعالى بنفسه مع الكفار لقوله : ﴿ ولا يكلمهم الله ﴾ [ البقرة : 174 ] ﴿ قد استكثرتم من الإنس ﴾ لا بد فيه من إضمار لأن الجن أي الشياطين لا يقدرون على الاستكثار من نفس الإنس ، فالمراد قد استكثرتم من إضلال الإنس واستتباعهم فحشر معكم منهم الجم الغفير كما يقال : استكثر الأمير من الجنود . أما قوله : ﴿ وقال أولياؤهم من الإنس ﴾ فالأقرب عند بعضهم أن فيه حذفاً فكما قال للجن تبكيتاً ناسب أن يقول للإنس أيضاً مثل ذلك توبيخاً لأنه حصل من الجن الدعاء ومن الإنس القبول .

(197/251)

ولما بكت الله كلا الفريقين حكى جواب الإنس وهو قوله : ﴿ ربنا استمتع بعضنا ببعض ﴾ وفيه قولان : الأول أن المراد استمتع الجن بالإنس والإنس بالجن وعلى هذا ففي الاستمتاع وجهان : أحدهما أن الرجل كان إذا سافر فأمسى بأرض منفرداً وخاف على نفسه قال : أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه . فيبيت آمناً في نفسه . فهذا استمتاع الإنس بالجن ، وأما استمتاع الجن بالإنس فهو أن الإنسي إذا عاذ بالجني كان ذلك تعظيماً منهم للجن ؛ وذلك الجني يقول : قد سدت الجن والإنس لأن الإنسي قد اعترف له بأنه يقدر أن يدفع عنه . وهذا قول الحسن وعكرمة والكلبي وابن جريج ويعضده قوله سبحانه : ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن ﴾ [ الجن : 6 ] وثاني الوجهين أن الإنس كانوا ينقادون للجن ويطيعون حكمهم فصار الجن كالرؤساء والإنس كالأتباع فانتفعوا بالإنس انتفاع الرئيس بالخادم ، وأما انتفاع الإنس بالجن فهو أن دلوهم على الشهوات واللذات إلى أن بلغوا هذا المبلغ الذي أيقنوا أنه يسوء عاقبتهم وهذا اختيار الزجاج . والقول الثاني أن البعضين كليهما من الإنس لأن استمتاع الجن بالإنس وبالعكس أمر قليل نادر ﴿ وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا ﴾ أي ذلك الاستمتاع كان حاصلاً إلى وقت محدود ثم جاءت الحسرة والندامة من حيث لا ينفع . وما ذلك الإجل ؟ قيل : هو وقت الموت وعلى هذا فكل من مات من مقتول وغيره فإنه يموت بأجله لأنهم أقروا بأنهم

بلغوا أجلهم وفيهم المقتول وغير المقتول . وقيل : هو وقت التخلية والتمكين وقيل : وقت المحاسبة في القيامة ﴿ قال ﴾ الله تعالى في جوابهم ﴿ النار مثواكم ﴾ مقامكم ومقرّكم من ثوى بالمكان يثوي ثوياً إذا أقام به . قال أبو علي الفارسي : المثوى اسم للمصدر دون المكان لأن قوله تعالى : ﴿ خالدين فيها ﴾ حال واسم الموضع لا يعمل عمل الفعل فالمعنى النار أهل أن يقيموا فيها خالدين . ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ قيل : المراد منه أوقات المحاسبة ووقت



---

كونهم في المحشر كأنه قيل : خالدين فيها منذ يبعثون إلا ما شاء الله من مقدار حشرهم من قبورهم ومقدار مدتهم في محاسبتهم . وقال ابن عباس : استثنى الله قوماً سبق في علمه أنهم يسلمون ويصدقون النبي صلى الله عليه وآله . وعلى هذا يلزم أن يكون " ما " بمعنى " من " وفيه خلل آخر وهو أن الاستثناء إنما هو من يوم القيامة الذي يحشرون فيه ، وقيل : المراد الأوقات التي ينقلون فيها من عذاب النار إلى عذاب الزمهرير . روي أنهم يدخلون وادياً فيه برد شديد فهم يطلبون الرد من ذلك البرد الشديد إلى حر الجحيم . وقال في الكشاف : أو يكون هذا من قول الموتور الذي ظفر بواتره ولم يزل يحرق عليه أنيابه وقد

طلب إليه أن ينفس عن خناقه أهلكني الله ، إن نفست عنك إلا إذا شئت ، فيكون قوله : " إلا إذا شئت " من أشد الوعيد مع تهكم لأن إطماع محض ويأس كلي .

*(199/251)*

---

وقال أبو مسلم : هذا الاستثناء غير راجع إلى الخلود وإنما هو راجع إلى الأجل المؤجل لهم كأنهم قالوا : وبلغنا أجلنا الذي سميته لنا إلا من أهلكته قبل الأجل المسمى يعني الآجال الاخترامية ﴿ إن ربك حكيم ﴾ فيما يفعله من ثواب وعقاب وسائر وجوه المجازاة . ﴿ عليم ﴾ بما يستأهله كل طائفة فكأنه تعالى يقول : إنما حكمت لهؤلاء بعذاب الأبد لعلمي أنهم يستحقون ذلك . ثم لما حكى عن الجن أن بعضهم يتولى بعضاً بين أن ذلك إنما حصل بتقديره وقضائه فقال : ﴿ وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً ﴾ وذلك أن القدرة صالحة للعداوة والصداقة فترجيح أحد الجانبين لا يكون إلا بداعية خلقها الله قطعاً للتسلسل ، وأيضاً لما بين أنه سبحانه ولي أهل الجنة بقوله : ﴿ هو وليهم ﴾ ذكر أن أولياء أهل النار من يشبههم في الظلم والخزي والنكال وأشار إليه بقوله : ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ أي بسبب كون ذلك البعض مكتسباً للظلم وهذه في مناسبة في غاية اللطف لأن الجنسية علة الضم فالطيبات للطيبين والخبيثات للخبيثين . وفي الآية دلالة على أن الرعية متى كانوا ظلمة فإن

الله تعالى يسلط عليهم ظالماً مثلهم ، فإن أرادوا الخلاص منه فليتركوا الظلم وعن مالك بن دينار قال : جاء في بعض الكتب السموية " أنا الله مالك الملوك ، قلوب الملوك بيدي فمن أطاعني جعلتهم عليهم رحمة ، ومن عصاني جعلتهم عليهم نقمة ، لا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك لكن توبوا إليّ أعطفهم عليكم " .

*(200/251)*

---

ثم بيّن أن كفار الثقلين لا يكون لهم إلى الجحود يوم القيامة سبيل وأنهم لا يعذبون إلا بالحجة فقال : ﴿ يا معشر الجن والإنس ﴾ قال أهل اللغة : المعشر كل جماعة مختلطة يجمعهم أمير واحد ﴿ ألم يأتكم رسل منكم ﴾ استفهام على سبيل التقدير فلا جرم استدل الضحاك بالآية ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ [ فاطر : 24 ] على أن من الجن رسلاً كالإنس ، ولأن استئناس الجنس بالجنس أكمل ولهذا قال سبحانه : ﴿ ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ﴾ [ الأنعام : 9 ] والأكثرون على أنه ما كان من الجن رسول ألبتة إنما كانت الرسل من بني آدم وزعموا أن ذلك مجمع عليه . ورد بأنه كيف ينعقد الإجماع مع حصول الاختلاف ؟ واستدل بعضهم على المطلوب بقوله تعالى : ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ﴾ [ آل عمران : 33 ] والمراد بالاصطفاء ههنا

النبوّة بالإجماع . وأجيب عن قول الضحاك بأن الآية تقتضي أن رسل الجن والإنس تكون بعضاً من أبعاض هذا المجموع فكان هذا القدر كافياً في حمل اللفظ على ظاهره فلا يلزم إثبات رسول من الجن . وأيضاً لا يبعد أن يقال : إن الرسل كانوا من الإنس ، ثم كان من الجن نفر يستمعون من رسول الإنس وينذرون قومهم بذلك قال :

*(201/251)*

---

﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن ﴾ [ الأحقاف : 29 ] الآية . وقد يسمى رسول الرسول رسولاً كما أنه تعالى سمى رسل عيسى رسل نفسه فقال : ﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين ﴾ [ يس : 14 ] ثم إنه سبحانه يكون قد بكت كفار الثقلين بهذه الآية لأنه أزال العذر وأزاح العلة بسبب أنه أرسل الرسل إليهم فإذا وصلت البشارة والنذارة إلى الكل بهذا الطريق فقد حصل المقصود . وقال الواحدي : أراد رسل من أحدكم وهو الإنس كقوله : ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ ﴾ [ الرحمن : 22 ] أي من أحدهما وهو الملح الذي ليس بعذب . وعن الكلبي كانت الرسل قبل أن يبعث محمد يبعثون إلى الإنس ورسول الله صلى الله عليه وآله بعث إلى الجن والإنس . أما قوله : ﴿ يقصون عليكم آياتي ﴾ فالمراد منه التنبيه على الأدلة بالتأويل وبالتلاوة ﴿ وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾ يخوفونكم عذاب هذا اليوم

فلم يجدوا بداً من الاعتراف فلذلك ﴿ قالوا شهدنا على أنفسنا ﴾ والسبب في أنهم أقروا في هذه الآية وجحدوا في قوله : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ [ الأنعام : 23 ] هو أنهم مختلفو الأحوال في يوم القيامة مضطربون ؛ فتارة يقرّون وأخرى يجحدون . ومنهم من حمل هذه الشهادة على شهادة الجوارح عليهم . ثم أخبر الله تعالى عن حالهم في الدنيا بقوله : ﴿ وغرتهم الحياة الدنيا ﴾ وعن حالهم في الآخرة بقوله : ﴿ وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ والمقصود من شرح أحوالهم في القيامة زجر أمثالهم في الدنيا عن الكفر والمعصية . وقد يستدل بالآية على أن لا وجوب قبل ورود الشرع وإلا لم يكن لهذا التوبيخ والتبكيت فائدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 156 . 167 ﴾

*(202/251)*

---

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ أو من كان ميتاً ﴾ في حالة العدم ﴿ فأحييناه ﴾ بالحياة الحقيقية أي بالحي الذي لا يموت ﴿ وجعلنا له ﴾ نور الوجود الحقيقي الذي ﴿ يمشي به في الناس ﴾ وبه يسمع وبه يبصر ﴿ كمن هو ﴾ محبوس ﴿ في ظلمات ﴾ الطبيعة ﴿ وكذلك جعلنا في

كل قرية ﴾ أي كل قالب ﴿ أكابر مجرميها ﴾ من النفس والهوى والشيطان ﴿ ليمكروا فيها ﴾ بمخالفات الشرع وموافقات الطبع . ﴿ ما أوتي رسل الله ﴾ من القلب والسر والروح . ﴿ يشرح صدره ﴾ أي ينظر إلى قلبه بنظر العناية فينوّره بنور جماله وهو نور الإيمان ، فيشرح الصدر بضوء النور الواقع في القلب وهذا الضوء هو المسمى بنور الإسلام . وهذا النور يقبل الزيادة والاشتداد إلى أن يصير الإيمان إيقاناً والإيقان عياناً والعيان عيناً . ﴿ ضيقاً ﴾ لتزاحم ظلمات صفات البشرية ﴿ حرجاً ﴾ لتعلقاته بالدنيا وشهواتها ﴿ كأنما يصعد في السماء ﴾ لأنه سفلي بالطبع لا يصعد إلا بالتصعيد والقسر . ﴿ وهذا ﴾ الذي بينا من الهداية والضلالة ﴿ صراط ربك ﴾ باللطف والقهر فبجذبات اللطف يهدي السعيد وبسطوات القهر يضل الشقي . ﴿ لهم دار السلام ﴾ أي السلامة عن القطيعة في مقام العندية بالوصول إلى الوحدة بعد الخروج عن ظلمات الاثنينية .

*(203/251)*

---

﴿ ويوم يحشرهم ﴾ في موقف القالب البشري بالحكمة البالغة والقدرة الكاملة ﴿ يا معشر الجن ﴾ أي الصفات الشيطانية ﴿ قد استكثرتم من الإنس ﴾ أي غلبتم على الصفات الإنسانية ﴿ وقال أولياؤهم من الإنس ﴾ يعني النفس الأمارة ﴿ ربنا استمتع

بعضنا ببعض ﴾ واستمتاع النفس الأمارة بالشيطان هو أن يستعين بصفات مكره على تحصيل شهواتها ولذاتها العاجلة وحظوظها ، واستمتاع الشيطان بالإنس هو أن يستعين به على إضلال الحق وإغوائها كما استعان بحواء على إغواء آدم . ﴿ وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا ﴾ يعني أن مدة الاستمتاع وما جرى بيننا إنما كان بمقتضى قضائك وقدرك فأجابهم بأن الثوى في النار أيضاً بقضاء الله ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ فيتوب عليهم ﴿ إن ربك حكيم ﴾ في تقدير الاستمتاع ﴿ عليم ﴾ بأهل الجنة وبأهل النار ، ﴿ وكذلك ﴾ أي كما جعلنا مردة الجن والإنس بعضهم أولياء بعض فكذلك نجعل بعض الظالمين أولياء بعض بما كانوا يكسبون من إفساد الاستعداد الفطري ﴿ ألم يأتكم رسل منكم ﴾ يعني الإلهامات الربانية . وشهدوا على أنفسهم أقروا عند الحرمان عن السعادة العظمى أنهم بذواتهم كانوا صدأ مرآة قلوبهم ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ﴾ [ النجم : 39 ، 40 ] وما التوفيق إلا منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 167.168 ﴾

*(204/251)*

قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (131) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر سبحانه إقامة الحجة على الكافر في المعاد بالرسل عليهم السلام ، علل إرسالهم ترغيباً وحثاً في اتباعهم في أيام المهلة بعد ترهيب ، وتنبيهاً وإرشاداً في صادع تخويف وتأديب فقال : ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر العظيم الجدوى هو أن أرسلنا الرسل ﴿ أن ﴾ أي لأجل أنه ﴿ لم يكن ربك ﴾ أي المحسن إليك بتشريف قومك ﴿ مهلك ﴾ أي ثابتاً إهلاكه ﴿ القرى بظلم ﴾ أي بسبب ظلم ارتكبوه ﴿ وأهلها غافلون ﴾ أي غريقون في الغفلة عما يجب عليهم مما لا تستقل به عقولهم ، أي بما ركب فيهم من الشهوات وغلب عليهم من اللذات ، فأوقف عقولهم عن نافذ المعرفة بما يراد بهم ، فأرسلنا إليهم الرسل حتى أيقظوهم من رقدتهم وأنبهوهم من غفلتهم ، فصار تعذيبهم بعد تكذيبهم هو الحق الواجب والعدل الصائب ، ويجوز أن يكون المعنى : مهلكهم ظالماً ، فيكون المنفي من الظلم كالمنفي في قوله تعالى ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ [ فاطر : 46 ] وعلى الأول المنفي ظلمهم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 718 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما بين أنه ما عذب الكفار إلا بعد أن بعث إليهم الأنبياء والرسل بين بهذه الآية

أن هذا هو العدل والحق والواجب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 161 ﴾

(205/251)

---

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ عما تعملون ﴾ بتاء الخطاب : ابن عامر ﴿ مكاناتكم ﴾ بالجمع حيث كان : أبو بكر وحماد . الباقون ﴿ مكانتكم ﴾ على التوحيد . ﴿ من يكون ﴾ بالياء التحتانية : حمزة وعلي وخلف . الباقون : بتاء التأنيث . ﴿ بزعمهم ﴾ بضم الزاي علي وكذلك ما بعده الباقون : بالفتح ﴿ زين ﴾ على البناء للمفعول ﴿ قتل ﴾ بالرفع ﴿ أولادهم ﴾ بالنصب ﴿ شركائهم ﴾ بالجر ابن عامر . الآخرون ﴿ زين ﴾ على البناء للفاعل ﴿ قتل ﴾ بالنصب ﴿ أولادهم ﴾ بالجر ﴿ شركاؤهم ﴾ بالرفع ﴿ وإن تكن ﴾ بتاء التأنيث : ابن عامر ويزيد وأبو بكر وحماد ﴿ ميتة ﴾ بالرفع : ابن كثير وابن عامر ويزيد ، وقرأ ﴿ ميتة ﴾ بالتشديد ابن كثير وابن عامر : الباقون : بالتخفيف .

الوقوف : ﴿ غافلون ﴾ ه ﴿ مما عملوا ﴾ ط ﴿ يعملون ﴾ ه ﴿ ذو الرحمة ﴾ ط ﴿

آخرين ﴾ ه ﴿ لآت ﴾ لا لأن الواو بعده للحال ﴿ بمعجزين ﴾ ه ﴿ عامل ﴾ ج لابتداء التقرير مع فاء التعقيب ﴿ تعملون ﴾ ه لا لأن ما بعده مفعول سواء كان من استفهامية أو موصولة ﴿ عاقبة الدار ﴾ ط ﴿ الظالمون ﴾ ه ﴿ لشركائنا ﴾ ج للشرط مع الفاء ﴿ إلى الله ﴾ ج للفصل بين المتضادين معنى مع الاتفاق حكماً ﴿ شركائهم ﴾ ط ﴿ يحكمون ﴾ ه ﴿ دينهم ﴾ ط ﴿ يفترون ﴾ ه ﴿ افتراء عليه ﴾ ط ﴿ يفترون ﴾ ه ﴿ أزواجنا ﴾ ج للشرط مع العطف . ﴿ شركاء ﴾ ط ﴿ وصفهم ﴾ ط ﴿ عليم ﴾ ه ﴿ على الله ﴾ ط ﴿ مهتدين ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 169.168 ﴾

*(206/251)*

---

فصل

قال الفخر :

قال صاحب "الكشاف" : قوله : ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما تقدم من بعثة الرسل إليهم وإنذارهم سوء العاقبة وهو خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير : الأمر ذلك .

وأما قوله : ﴿ أَن لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ ﴾ ففيه وجوه :

أحدها : أنه تعليل ، والمعنى : الأمر ما قصصنا عليك لانتفاء كون ربك مهلك القرى بظلم ، وكلمة "أن" ههنا هي التي تنصب الأفعال ، وثانيها : يجوز أن تكون مخففة من الثقيلة ، والمعنى لأنه لم يكن ربك مهلك القرى بظلم والضمير في قوله لأنه ضمير الشأن والحديث والتقدير ، لأن الشأن والحديث لم يكن ربك مهلك القرى بظلم .

*(207/251)*

---

وثالثها : أن يجعل قوله : ﴿ أَن لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ ﴾ بدلاً من قوله : ﴿ ذلك ﴾ كقوله : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأمر أَنَّ دَابِرَ هَؤُلآء مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ [ الحجر : 66 ] .

وأما قوله : ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ ففيه وجهان : الأول : أن يكون المعنى ، وما كان ربك مهلك القرى بسبب ظلم أقدموا عليه .

والثاني : أن يكون المراد وما كان ربك مهلك القرى ظلماً عليهم ، وهو كقوله : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [ هود : 117 ] في سورة هود .

فعلى الوجه الأول يكون الظلم فعلاً للكفار ، وعلى الثاني يكون عائداً إلى فعل الله تعالى ، والوجه الأول أليق بقولنا ، لأن القول الثاني يوهم أنه تعالى لو أهلكهم قبل بعثة الرسل كان ظالماً ، وليس الأمر عندنا كذلك ، لأنه تعالى يحكم ما يشاء ، ويفعل ما يريد ، ولا اعتراض

عليه لأحد في شيء من أفعاله .

وأما المعتزلة : فهذا القول الثاني مطابق لمذهبهم موافق لمعتقدهم .

وأما أصحابنا فمن فسر الآية بهذا الوجه الثاني قال : إنه تعالى لو فعل ذلك لم يكن ظالماً لكنه يكون في صورة الظالم فيما بينا ، فوصف بكونه ظالماً مجازاً ، وتمام الكلام في هذين القولين مذكور في سورة هود عند قوله : ﴿ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ .

وأما قوله : ﴿ وَأَهْلُهَا غافلون ﴾ فليس المراد من هذه الغفلة أن يتغافل المرء عما يوعظ به ، بل معناها أن لا يبين الله لهم كيفية الحال ، ولا أن يزيل عذرهم وعلتهم .

واعلم أن أصحابنا يتمسكون بهذه الآية في إثبات أنه لا يحصل الوجوب قبل الشرع ، وأن العقل المحض لا يدل على الوجوب ألبتة .

قالوا : لأنها تدل على أنه تعالى لا يعذب أحداً على أمر من الأمور إلا بعد البعثة للرسول .

والمعتزلة قالوا : إنها تدل من وجه آخر على أن الوجوب قد يتقرر قبل مجيء الشرع ، لأنه تعالى قال : ﴿ أَن لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غافلون ﴾ فهذا الظلم إما أن يكون عائداً إلى العبد أو إلى الله تعالى ، فإن كان الأول ، فهذا يدل على إمكان أن يصدر منه الظلم قبل البعثة ، وإنما يكون الفعل ظلماً قبل البعثة ، لو كان قبيحاً وذنباً قبل بعثة الرسل ، وذلك هو المطلوب ، وإن كان الثاني فذلك يقتضي أن يكون هذا الفعل قبيحاً من الله تعالى

، وذلك لا يتم إلا مع الاعتراف بتحسين العقل وتقبيحه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 161.162 ﴾

(208/251)

---

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ ذلك أَن لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ القرى بِظُلْمٍ ﴾

يعني : ذلك السؤال والشهادة ويقال ﴿ ذلك ﴾ يعني : إرسال الرسل إلى الجن والإنس ليعلم أن لم يكن الله مهلك القرى يعني : معذب أهل القرى بغير ذنب في الدنيا ﴿ وَأَهْلُهَا غافلون ﴾ عن الرسل .

ويقال : غافلون عن العذاب لأنه قد بيّن لهم وأخذ عليهم الحجة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ ذلك أن لم يكن ﴾ الآية ، ﴿ ذلك ﴾ يصح أن يكون في موضع رفع على الابتداء والخبر محذوف تقديره ذلك الأمر ، ويصح أن يكون في موضع نصب بتقدير فعلنا و ﴿ أن ﴾ مفعول من أجله و ﴿ القرى ﴾ المدن ، والمراد أهل القرى ، و ﴿ بظلم ﴾

يتوجه فيه معنيان ، أحدهما أن الله عز وجل لم يكن ليهلك المدن دون نذارة ، فيكون ظلماً لهم إذا لم ينذرهم ، والله ليس بظلام للعبيد ، والآخر أن الله عز وجل لم يهلك أهل القرى بظلم إذ ظلموا دون أن ينذرهم ، وهذا هو البين القويّ ، وذكر الطبري رحمه الله التأويلين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم ﴾ قال الزجاج : ذلك الذي قصصنا عليك من أمر الرسل ، وأمر عذاب من كذب ، لأنه لم يكن ربك مهلك القرى بظلم ، أي : لا يهلككم حتى يبعث إليهم رسولاً .

قال ابن عباس : "بظلم" أي : بشرك ﴿ وأهلها غافلون ﴾ لم يأتهم رسول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ في موضع رفع عند سيبويه ؛ أي الأمر ذلك .

و "أنْ" مخفّفة من الثقيلة ؛ أي إنما فعلنا هذا بهم لأني لم أكن أهلك القرى بظلمهم ؛ أي بشركهم قبل إرسال الرسل إليهم فيقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير .

وقيل : لم أكن أهلك القرى بشرك من أشرك منهم ؛ فهو مثل : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى

﴿ [الأنعام: 164] .

ولو أهلكهم قبل بعثة الرسل فله أن يفعل ما يريد .

(209/251)

---

وقد قال عيسى : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ [المائدة: 118] وقد تقدّم .

وأجاز الفراء أن يكون "ذِلك" في موضع نصب ، المعنى : فعل ذلك بهم ؛ لأنه لم يكن يهلك القرى بظلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

وقوله عز وجل : و ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره من بعثة الرسل إليهم وإنذارهم سوء العاقبة ، وقال الزجاج : معناه ذلك الذي قصصنا عليك من أمر الرسل وأمر عذاب من كذبهم ﴿ أن لم يكن ربك ﴾ يعني لأنه لم يكن ربك ﴿ مهلك القرى بظلم ﴾

قال الكلبي : معناه لم يكن ليهلكهم بذنوبهم من قبل أن يأتيهم الرسل فتنهاهم فإن رجعوا وإلا أتاهم العذاب ، وهذا قول جمهور المفسرين قال الفراء : يجوز أن يكون المعنى لم يكن ليهلكهم بظلم منه ﴿ وأهلها غافلون ﴾ أي : وهم غافلون فعلى قول الجمهور : يكون الظلم فعلاً للكفار وهو شركهم وذنوبهم التي عملوها ، وعلى قول الفراء : إنه لو أهلكهم قبل بعثة

الرسل لكان ظالماً والله عز وجل يتعالى عن الظلم .

والقول الأول : أصح ، لأنه تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا اعتراض لأحد عليه في شيء من أفعاله ، غير أنه أخبر أنه لا يعذب قبل بعثة الرسل ولو فعل ذلك لم يكن ظلماً منه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ﴾ الإشارة بذلك إلى أقرب مذكور دل عليه الكلام وهو إتيان الرسل قاصين الآيات ومنذرين بالحشر والحساب والجزاء بسبب انتفاء إهلاك القرى بظلم وأهلها لم ينتهوا ببعثة الرسل إليهم والإعذار إليهم والتقدم بالأخبار بما يحل بهم ، إذا لم يتبعوا الرسل وفي الحديث : " ليس أحد أحب إليه العذر من الله " .

فمن أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل .

وقال الزجاج قريباً من هذا أي ذلك الذي قصصنا عليك من أمر الرسل وأمر عذاب من كذب لأنه لم يكن كذا أي لا يهلكهم حتى يبعث إليهم رسولاً .

*(210/251)*

وقيل : الإشارة بذلك إلى السؤال وهو ﴿ ألم يأتكم ﴾ أن لم يكن أي لبيان أن لم يكن حكاه التبريزي .

وقال الماتريدي : الإشارة إلى ما وجد منهم من التكذيب والمعاصي ويحتمل أن يشار به إلى الهلاك الذي كان بالأمم الخالية ؛ انتهى .

ولا يستقيم هذان القولان مع قوله ﴿ أن لم يكن ﴾ لأن المعاصي أو الإهلاك ليس معللاً بأن لم يكون وجوّزوا في ذلك الرفع على أنه مبتدأ محذوف الخبر أي ذلك الأمر ، وخبر محذوف المبتدأ أي الأمر ذلك والنصب على فعلنا ذلك وإن لم يكن تعليل ويحتمل أن تكون أن الناصبة للمضارع والمخففة من الثقيلة أي لأن الشأن لم يكن ربك وأجاز الزمخشري أن لا يكون ﴿ أن لم يكن ﴾ تعليلاً فأجاز فيه أن يكون بدلاً من ذلك كقوله : ﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع ﴾ فإذا كان تعليلاً فهو على إسقاط حرف العلة على الخلاف أموضعه نصب أو جر وإن كان بدلاً فهو في موضع رفع ، لأن الزمخشري لم يذكر في ذلك إلا أنه مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي الأمر ذلك وبظلم يحتمل أن يكون مضافاً إلى الله أي ظالماً لهم كقوله : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ ومعنى ﴿ وأهلها غافلون ﴾ أي دون أن يتقدم إليهم بالنذارة ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ ويحتمل أن يكون مضافاً إلى القرى أي ظالمة دون أن ينذرهم وهذا معنى قول القشيري أي لا يهلكهم بذنوبهم ما لم يبعث إليهم الرسل وهذا الوجه أليق لأن الأول يوهم أنه تعالى لو

آخذهم قبل بعثة الرسل كان ظالماً وليس الأمر كذلك عندنا لأنه تعالى يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد ، وعند المعتزلة لو أهلكهم وهم غافلون لم ينتهوا بكتاب ولا رسول لكان ظالماً وهو متعال عن الظلم وعن كل قبيح .

وقيل : ﴿ بظلم ﴾ بشرك من أشرك منهم فهو مثل ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾

(211/251)

---

وقال الماتريدي : أي لم يكن يهلكهم بظلم أنفسهم إهلاك استئصال وتعذيب لا بعد تقدم وعيد أو سؤالهم العذاب ، ولا يهلكهم مع الغفلة عن الظلم والعصيان لأنه يجوز له ذلك بل سنته هكذا لئلا يقولوا : لولا أرسلت إلينا وكل ذلك فضل منه ورحمة .

وقال مجاهد : لا يهلكهم بظلم بعضهم بعضاً وقيل : بظلم واحد منهم .

وقيل : بجنس الظلم حتى يرتكبوا مع الظلم غيره مما لا يرضاه الله من سائر القبائح ذكره التبريزي .

ومعنى ﴿ وأهلها غافلون ﴾ أي لا يبين لهم كيفية الحال ولا يزيل عددهم وليس المعنى أنهم غافلون عما يوعظون به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن كثير :

يقول تعالى : ﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ أي : إنما أعذرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، لئلا يعاقب أحد بظلمه ، وهو لم تبلغه دعوة ، ولكن أعذرنا إلى الأمم ، وما عذبنا أحدًا إلا بعد إرسال الرسل إليهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : 24] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : 36] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا ﴾ [الإسراء : 15] ، وقال تعالى : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا ﴾ [الملك : 8 ، 9] والآيات في هذا كثيرة .

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير : ويحتمل قوله تعالى : ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ وجهين :

*(212/251)*

---

أحدهما : ذلك من أجل أن ربك مهلك القرى بظلم أهلها بالشرك ونحوه ، وهم غافلون ، يقول : لم يكن يعاجلهم بالعقوبة حتى يبعث إليهم مَنْ ينبههم على حجج الله عليهم ، وينذرهم عذاب الله يوم معادهم ، ولم يكن بالذي يؤاخذهم غفلة فيقولوا : ﴿ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ ﴾ [المائدة : 19] .

والوجه الثاني : أن ﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ ﴾ يقول : لم يكن [ربك] ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرسل والآيات والعبر ، فيظلمهم بذلك ، والله غير ظلام لعبيده .

ثم شرع يرجح الوجه الأول ، ولا شك أنه أقوى ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 341.342 ﴾

*(213/251)*

---

وقال أبو السعود :

﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكر من شهادتهم على أنفسهم بالكفر واستيجابِ العذابِ والخطابُ للرسول صلى الله عليه وسلم بطريق التلوين ، وهو مبتدأٌ خبرُه قوله تعالى : ﴿ أَن لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ القرى ﴾ بحذف اللام على أنّ ( أن ) مصدرية أو مخففة من أنّ وضمير الشأن الذي هو اسمُها محذوفٌ وقوله تعالى : ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ متعلقٌ إما بمهلك أي بسبب ظلمٍ أو بمحذوف وقع حالاً من القُرى أي ملتبسةً بظلم فإن ملابسةَ أهلِها للظلم ملابسةٌ للقرية له بواسطتهم ، أوما كونُه حالاً من ربك أو من ضميره في مُهلكَ كما قيل فيأباه أن غفلةَ أهلِها مأخوذةٌ في معنى الظلمِ وحقيقتِه لا محالة ، فلا يحسُن تقييدُه بقوله تعالى : ﴿ وَأَهْلُهَا

غافلون ﴾ والمعنى ذلك ثابتٌ لانتفاء كونِ ربّك أو لأن الشأنَ لم يكن ربُّك مُهلكَ القرى بسبب أي ظلم فعلوه من أفراد الظلمِ قبل أن يُنْهَوْا عنه ويُنَبَّهوا على بُطلانه برسول وكتابٍ وإن قضَى به بديهةُ العقولِ ، ويُنذَروا عاقبةَ جناياتِهم أي لولا انتفاءُ كونِه تعالى معذباً لهم قبل إرسالِ الرسلِ وإنزالِ الكتبِ لَما أمكن التوبيخُ بما ذُكر ولَما شهدوا على أنفسهم بالكفر واستيجابِ العذاب ، ولا اعتذروا بعدم إتيانِ الرسل كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا أهلكناهم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءاياتك مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ ونخزى ﴾ وإنما عُلّل ما ذُكر بانتفاء التعذيبِ الدنيويِّ الذي هو إهلاكُ القرى قبل الإنذارِ مع أن التقريبَ في تعليله بانتفاء مطلقِ التعذيب من غير بعث الرسلِ أتمُّ على ما نطق به قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ لبيان كمالِ نزاهتِه سبحانه وتعالى عن كلا التعذيبين الدنيوي والأخروي معاً من غير إنذارٍ على أبلغ وجهٍ وآكدِه حيث اقتُصِر على نفي التعذيبِ الدنيوي عنه تعالى ليثبُتَ نفيُ

(214/251)

---

التعذيبِ الأخروي عنه تعالى على الوجه البرهانيّ بطريق الأولوية ، فإنه تعالى حيث لم يعذِّبهم بعذاب يسيرٍ منقطعٍ بدون إنذارٍ فلأن لا يعذِّبَهم بعذاب شديد مخلدٍ أولى وأجلي ،

ولو عُلل بما ذكر من نفي التعذيبِ لانصرف بحسب المقام إلى ما فيه الكلامُ من نفي التعذيبِ الأخروي ، ونفذُ التعذيب الدنيويّ غيرُ متعرَّضٍ له لا صريحاً ولا دلالةً ضرورةَ أن نفذَ الأعلى لا يدل على نفذ الأدنى ولأن ترتبَ التعذيبِ الدنيويّ على الإنذار عند عدمِ تأثرِ المنذَرين منه معلومٌ مشاهدٌ عند السامعين فيستدلون بذلك على أن التعذيبَ الأخرويَّ أيضاً كذلك فينزجرون عن الإخلال بمواجب الإنذارِ أشدَّ انزجارٍ ، هذا هو الذي تستدعيه جزالةُ النظمِ الكريم ، وأما جعلُ ذلك إشارةً إلى إرسال الرسلِ عليهم السلام وإنذارِهم ، وخبرُ المبتدأ محذوفٌ كما أطبق عليه الجمهورُ فبمعزل من مقتضى المقامِ ، والله سبحانه أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(215/251)

---

وقال الآلوسى :

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى إتيان الرسل أو السؤال المفهوم من ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾ [ الأنعام : 130 ] أو ما قص من أمرهم أعني شهادتهم على أنفسهم بالكفر واستيجاب العذاب ، وهو إما مرفوع على أنه خبر مبتدأ مقدر أي الأمر ذلك أو مبتدأ خبره مقدر أو خبره قوله سبحانه : ﴿ أَن لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ القرى ﴾ بحذف اللام على أنَّ ( أَنْ ) مصدرية أو

مخففة من أن وضمير الشأن الذي هو اسمها ، وإما منصوب على أنه مفعول به لفعل مقدر كخذ وفعلنا ونحو ذلك ، وجوز أن يكون ﴿ إِن لَّمْ ﴾ الخ بدلا من اسم الإشارة ، وقوله تعالى : ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ متعلق إما بمهلك أي بسبب ظلم أو بمحذوف وقع حالا من القرى أي متلبسة بظلم أو حالا من ﴿ رَبَّكَ ﴾ أو من ضمير في ﴿ مُهْلِكَ ﴾ ، والمراد مهلك أهل القرى إلا أنه تجوز في النسبة أو حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، ولا يأباه قوله تعالى : ﴿ وَأَهْلُهَا غافلون ﴾ لأن أصله وهم غافلون فلما حذف المضاف أقيم الظاهر مقام ضميره .

(216/251)

---

واعترض شيخ الإسلام على جعل ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ حالاً من ﴿ رَبَّكَ ﴾ أو من ضميره بأنه يأباه أن غفلة أهلها مأخوذة في معنى الظلم وحقيقته لا محالة فلا يحسن تقييده بالجملة بعد ، وأورد عليه أنه قد يتصور الظلم مع عدم الغفلة بأن يكون حال التيقظ ومقارنة الإنقياد ، وإن كان المراد ههنا هو الإهلاك حال الغفلة ففائدة التقييد تعيين المراد ولا يخفى حسنه ولا يخفى ما فيه ، واختار قدس سره من احتمالات المشار إليه وأوجه إعراب اسم الإشارة الثالث من كل قال : والمعنى ذلك ثابت لانتفاء كون ربك أو لأن الشأن لم يكن ربك مهلك

القرى بسبب أي ظلم فعلوه من أفراد الظلم قبل أن ينهوا عنه وينبهوا على بطلانه برسول وكتاب وإن قضى به بداهة العقول وينذروا عاقبة جناياتهم أي لولا انتفاء كونه تعالى معذباً لهم قبل إرسال الرسل وإنزال الكتب لما أمكن التوبيخ بما ذكر ولما شهدوا على أنفسهم بالكفر واستيجاب العذاب ولا اعتذروا بعدم إتيان الرسل إليهم كما في قوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّا أهلكناهم بِعَذَابٍ مّن قَبْلِهِ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءاياتك مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ ونخزى ﴾ [ طه : 134 ] وإنما علل ما ذكر بانتفاء التعذيب الدنيوي الذي هو إهلاك القرى قبل الإنذار مع أن التقريب في تعليله بانتفاء مطلق التعذيب من غير بعث الرسل أتم على ما نطق به قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [ الإسراء : 15 ] على ما اختاره أهل السنة في معناه لبيان كمال نزاهته سبحانه على كلا التعذيبين من غير إنذار على أبلغ وجه وآكده .

*(217/251)*

---

ولا يخفى أن لما اختاره وجهاً وجيهاً خلا أن قوله فيما بعد إن جعل ذلك إشارة إلى ارسال الرسل عليهم السلام وإنذارهم وخبر المبتدأ محذوف كما أطبق عليه الجمهور بمعزل عن مقتضى المقام ممنوع وعلى سائر الاحتمالات الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم بطريق

تلوين الخطاب ، والظاهر أن انتفاء الإهلاك قبل الإنذار لا يختص بالإنس بل الجن أيضاً لا يهلكون قبل إنذارهم وإن لم يشع إطلاق أهل القرى عليهم ، وهذا مبني على محض فضل الله تعالى عندنا ، والمعتزلة يقولون : يجب على الله تعالى أن لا يعذب قبل الإنذار وقيام الحجة وبنوه على قاعدة الحسن والقبح العقليين ، وأئمتنا يثبتون ذلك لكنهم لا يجعلونه مناط الحكم كما زعم المعتزلة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾

استئناف ابتدائي ، تهديد وموعظة ، وعبرة بتفريط أهل الضّلالة في فائدة دعوة الرّسل ، وتنبيه لجدوى إرسال الرّسل إلى الأمم ليعيد المشركون نظراً في أمرهم ، ما داموا في هذه الدار ، قبل يوم الحشر ، ويعلموا أنّ عاقبة الإعراض عن دعوة الرّسول صلى الله عليه وسلم خسرى ، فيتداركوا أمرهم خشية الفوات ، وإنذار باقتراب نزول العذاب بهم ، وإيقاظٌ للمشركين بأنّ حالهم كحال المتحدّث عنهم إذا ماتوا على شركهم .

والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى مذكور في الكلام السّابق ، وهو أقرب مذكور ، كما هو شأن الإشارة إلى غير مَحسوس ، فالمشار إليه هو المذكور قبلُ ، أو هو إتيان الرّسل الّذي جَرى الكلام عليه في حكاية تقرير المشركين في يوم الحشر عن إتيان رسلهم إليهم ، وهو المصدر المأخوذ من قوله : ﴿ أَلَم يَأتكم رسلٌ منكم ﴾ [ الأنعام : 130 ] فإنَّه لمّا حكى

ذلك القول للنّاس السّامعين ، صار ذلك القول المحكي كالحاضر ، فصحّ أن يشار إلى شيء يؤخذ منه .

(218/251)

---

واسم الإشارة إمّا مبتدأ أو خبر لمحذوف تقديره : ذلك الأمر أو الأمر ذلك ، كما يدلّ عليه ضمير الشأن المقدّر بعد ( أنْ ) .

و﴿ أن ﴾ مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير شأن محذوف ، كما هو استعمالها عند التّخفيف ، وذلك لأنّ هذا الخبر له شأن يجدر أن يُعرَف والجملة خبر ﴿ أن ﴾ ، وحذفت لام التّعليل الداخلة على ﴿ أن ﴾ : لأنّ حذف جارّ ﴿ أن ﴾ كثير شائع ، والتّقدير : ذلك الأمر ، أو الأمر ذلك ، لأَنَّه أي الشأن لم يكن ربّك مُهلك القرى .

وجملة : ﴿ لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ﴾ هو شأن عظيم من شؤون الله تعالى ، وهو شأن عَدله ورحمته ، ورضاه لعباده الخير والصّلاح ، وكراهيته سوء أعمالهم ، وإظهاره أثر ربوبيته إياهم بهدايتهم إلى سبل الخير ، وعدم مباغتتهم بالهلاك قبل التقدّم إليهم بالإنذار والتنبيه .

وفي الكلام إيجاز إذ عُلم منه : أنّ الله يهلك القرى المسترسِلَ أهلُها على الشّرك إذا أعرضوا

عن دعوة الرّسل ، وأنّه لا يهلكهم إلاّ بعد أن يرسل إليهم رسلاً منذرين ، وأنّه أراد حمل تَبعَة هلاكهم عليهم ، حتى لا يبقى في نفوسهم أن يقولوا : لولا رحمنا ربّنا فانبأنا وأعذر إلينا ، كما قال تعالى : ﴿ ولو أنَّا أهلكناهم بعذاب من قبله ﴾ (أي قبل محمّد صلى الله عليه وسلم أو قبل القرآن) ﴿ لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾ [ طه : 134 ] فاقتصر من هذا المعنى على معنى أنّ علّة الإرسال هي عدم إهلاك القرى على غفلة ، فدلّ على المعنى المحذوف .

والإهلاك : إعدام ذات الموجود وإماتةُ الحيّ .

قال تعالى : ﴿ ليَهْلِك من هلك عن بيّنة ويَحْيَى من حَيِيَ عن بيّنة ﴾ [ الأنفال : 42 ] فإهلاك القرى إبادة أهلها وتخريبها ، وإحياؤها إعادةُ عُمرانها بالسكّان والبناء ، قال تعالى : ﴿ أنَّى يحيي هذه (أي القريةَ) الله بعد موتها ﴾ [ البقرة : 259 ] .

*(219/251)*

---

وإهلاك النّاس : إبادتهم ، وإحياؤهم إبقاؤهم ، فمعنى إهلاك القرى هنا شامل لإبادة سكّانها .

لأنّ الإهلاك تعلّق بذات القرى ، فلا حاجة إلى التمجّز في إطلاق القرى على أهل القرى كما

في : و﴿ اسأل القرية ﴾ [ يوسف : 82 ] لصحّة الحقيقة هنا ، ولأنَّه يمنع منه قوله : ﴿ وأهلُها غافلون ﴾ .

ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمّرناها تدميراً ﴾ [ الإسراء : 16 ] فجعل إهلاكها تدميرها ، وإلى قوله : ﴿ ولقد أَتَوْا على القرية التي أُمطرت مَطَر السَّوْء أفلم يكونوا يرونها ﴾ [ الفرقان : 40 ] .

والباء في : ﴿ بِظلم ﴾ للسّببيّة ، والظلم : الشّرك ، أي مهلكهم بسبب شرك يَقع فيها فيهلكها ويهلك أهلها الّذين أوقعوه ، ولذلك لم يقل : بظلم أهلها ، لأنَّه أريد أن وجود الظلم فيها سببُ هلاكها ، وهلاكُ أهلها بالأحرى لأنَّهم المقصود بالهلاك .

وجملة : ﴿ وأهلها غافلون ﴾ حال من ﴿ القرى ﴾ .

وصرح هنا بـ ﴿ أهلها ﴾ تنبيها على أنّ هلاك القُرى من جراء أفعال سكّانها ، ﴿ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ﴾ [ النمل : 52 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

*(220/251)*

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (131) ﴾

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما تقدم ، وهو إرسال الرسل مبلغين عن الله ؛ حتى لا يكون لأحد حُجة بعد الرسل ، وقد أقروا بأن الله أرسل إليهم رسلاً ، وشهدوا على أنفسهم ، وماداموا قد أقرّوا على أنفسهم بأن الله أرسل لهم رسلاً وشهدوا على أنفسهم بذلك ، إذن فهذا إقرار جديد بأن الله لم يكن مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قبل أن يعاقب على جُرم ، وقبل أن يجرّم ينزل النص بواسطة الرسل . أي أن الله لا يهلكهم بسبب ظلم وقع منهم إلا بعد ذلك البلاغ .

﴿ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾ ، و" الغفلة " ضد اليقظة ، فاليقظة ، هي تنبّه الذهن الدائم ، و" الغفلة " أن تغيب بعض الحقائق عن الذهن ، ومعنى أن ربنا لا يهلك القرى بظلم وأهلها غافلون أي غير يقظين ؛ فلو أنهم كانوا يقظين ومتنبهين لما احتاجوا إلى الرسل ؛ لأن الله عندما خلق الخلق أرسل آدم إلى ذريته ، وكان المفروض كما يلقن الآباء الأبناء وسائل حياتهم أن يلقنوهم مع ذلك قيم دينهم . فكما أن الآباء يعلمون ذريتهم وسائل حياتهم ، ثم ينقلونها ويزيدون عليها بابتكاراتهم ، كان من الواجب على الآباء أن يقوموا بهذا العمل بالنسبة للقيم فتعيش القيم في الناس كما عاشت وسائل حياتهم .

ولماذا – إذن – عاشت وسائل حياتهم وتوارثوها وزادوا عليها أشياء ؟ ! لأن زاوية

الدين هي التي يغفل الناس عنها ، بسبب أنها تقيد حركتهم في " افعل " و" لا تفعل " ، ولكنهم يريدون الترف في وسائل حياتهم . لماذا إذن أيها الإِنسان تحرص على الترقي في ترف الحياة ولا تحرص على الترقي في القيم ؟ . لقد كنت – على سبيل المثال – تشرب من الماء أو النبع بيدك ثم صنعت كوباً لتشرب منه ، ونقيت الماء من الشوائب ونقلته من المنابع في صهاريج . أنت ترفه حياتك المادية والمعيشية فأين إذن الاهتمام بقيم الدين ؟ ! !

*(221/251)*

---

ولو كانوا متيقظين لكان كل أب قد علم ابنه ما ورثه من آبائه من القيم ، وعلى الرغم من ذلك رحم الحق سبحانه وتعالى هذه الغفلة ، وكرّر التنبيه بواسطة الرسل . وكلما انطمست معالم القيم التي يحملها المنهج فهو – جل وعلا – يرسل رسولاً رحمة منه وفضلاً وعدالة ، ولم يكن يهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ، والغفلة ضد اليقظة .

إذن لو كانوا متيقظين لما كانت هناك ضرورة للرسل ؛ لأن الآباء كانوا سينقلون لأبنائهم القيم كما ينقلون إليهم وسائل حياتهم ، وهذا الأمر مستمر معنا حتى الآن ؛ إن الأب – مثلاً – إن غاب ابنه عن المدرسة يوماً يلوم الابن ، وإن أهمل في دروسه أو رسب فهو يعاقب الابن ، وهذه هي الغيرة على المستقبل المادي للابن ، ولا غيرة على أدائه لفروض الدين ، لماذا ؟ .

إن الناس لو عنوا بمسائل قيمهم كما يعنون دائماً بمسائل حياتهم لاستقام منهج الخير في الناس وأصبح أمراً رتيباً .

وعرفنا أن الغفلة ضدها اليقظة ، كما أن السهو ضده التذكر ، والغروب ضده الشروق ، والغياب ضده الحضور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(222/251)*

---

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : "ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون " وفى سورة هود : "وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها صالحون " فقال فى الأولى "وأهلها غافلون " وقال فى الثانية "وأهلها مصلحون " فللسائل أن يسأل عن الفرق بين الموضعين ؟

والجواب والله أعلم أنه لما تقدم هنا قوله تعالى : "يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم " ، فقدم سبحانه ذكر بعثة الرسل للجن والإنس وإنذارهم وتذكيرهم بالآيات وتعريف الخلق بالجزاء الأخراوى على مقتضى قوله تعالى : "وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا " فلا عذر لأحد وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى

: "أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير " فلم يتركوا سدى ولا عذر لمغض ولا متغافل بعد تنبيهه "ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون " فهذا مناسب وتقدم آية هود قوله تعالى : "فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم " ولو كانوا ينهون عن الفساد فى الأرض لكانوا مصلحين فلم يكونوا ليؤخذوا بالعقاب "وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون " فقد ناسب كلا من الآيتين ما أعقبت به ولم يكن ليناسب آية الأنعام "وأهلها مصلحون " ولا آية هود "وأهلها غافلون " ، والله أعلم بما أراد وسيذكر إن شاء الله فرق ما بين قوله "مهلك " فبر باسم الفاعل وقوله "ليهلك " بلام الجحود الداخلة على الفعل المستقبل فى سورة هود إن شاء الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 170 . 171 ﴾

*(223/251)*

---

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (131) ﴾

النفي في هذه الآية الكريمة منصب على الجملة الحالية ، والمعنى أنه لا يهلك قوماً في حال

غفلتهم ، أي عدم إنذارهم ، بل لا يهلك أحداً إلا بعد الإعذار والإنذار على ألسنة الرسل عليهم صلوات الله وسلامه ، كما بين هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [ الإسراء : 15 ] ، وقوله ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرسل ﴾ [ النساء : 165 ] ، وقوله ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [ فاطر : 24 ] ، وقوله ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ [ النحل : 36 ] إلى غير ذلك من الآيات . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أضواء البيان حـ 1 صـ ﴾

(224/251)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ ذلك أَن لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدهما : أنه مُبْتَدأ مَحْذُوف الخَبَر ، أي : ذَلِك الأمر .

الثاني : عكس ذلك الأمر .

الثالث : أنه مَنْصُوب فِعْل ، أي : فَعَلْنَا ذلك ، وإنما يَظْهَر المَعْنَى إذا عُرِف المُشَارُ إليه ، وهو يُحْتَمل أن يكُون إتْيَات الرُّسُل وأمْر من كذَّب ، ويحتمل أن يكون إشَارَةً إلى السُّؤال المَفْهُوم من قوله : " أَلَمْ يَأْتِكُمْ " وقوله : " أنْ لَمْ يَكُنْ " يَجُوز فيه وجهان :

أحدهما : أنه على حَذْفِ لام العِلَّة أي : ذلك الأمر الَّذي قَصَصْنا ، أو ذلك الإتْيان ، أو ذلك السُّؤال لأجْل " أنْ لَمْ يَكُن " فلما حُذِفَت اللاَّم احتمل مَوْضِعُها الجَرّ والنَّصْب كما عُرِف مِرَاراً .

والثاني : أن يكُونَ بدلاً من ذلك .

قال الزَّمَخْشَري : ولك أن تَجْعَله بَدَلاً من ذلك ؛ كقوله : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأمر أَنَّ دَابِرَ هَؤُلآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ [ الحجر : 66 ] .

فيجوز أن يَكُون في محلِ رفع أو نصب على ما تقدَّم في ذلك ، إلاَّ أنَّ الزَّمَخْشَري القائل بالبَدليَّة لم يَذْكُر لأجْل ذلك إلاَّ الرَّفْع على خَبَر مُبْتَدأ مُضْمَر ، و " أنْ " يجوز أن تكثون النَّاصِبَة للمُضَارع ، وأن تكُون مُخَفَّفَة ، واسْمُهَا ضَمِير الشَّأن ، و " لَمْ يَكُنْ " في محلِّ رفع خبرها ، وهو نظير قوله : ﴿ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ ﴾ [ طه : 89 ] .

وقوله : [ البسيط ]

2315 - في فِتْيَةٍ كَسُيُوفِ الهِنْدِ قَدْ عَلِمُوا . . .

أنْ هَالِكٌ كُلُّ مَنْ يَحْفَى وَيَنْتَعِلُ

و" بِظُلْم " يجُوز فيه وجهان :

أظهرهما : أنه مُتعلّق بمَحْذُوف على أنَّه حالٌ من " ربُّطَ " أو من الضَّمير في " مُهْلِكَ " أي : لم يَكُون مُهْلِك القُرى مُلْتبساً بِظُلْمٍ ، ويجُوز أن يكُون حالاً من القُرَى ، أي : مُلْتَبِسَة بذنُوبها ، والمعْنَيَان منْقُولان في التَّفْسِير .

والثاني : أن يتعلَّق بـ " مُهْلِكَ على أنَّه مَفْعُول وهو بَعِيد ، وقد ذكرَهُ أبو البقاء .

وقوله : " وأهْلُهَا غَافِلُون " جُمْلَة حالية أي : لم يُنْذَرُوا حتى يَبْعَث إليهم رُسُلاً تُنْذرهُم ، وقال الكَلْبِي : يُهْلِكُهم بذنُوبِهم من قَبْل أنْ يَأتيهمُ الرُّسُل .

(225/251)

---

وقيل : مَعْنَاه لم يَكُن لِيُهْلِكَهُم دون التَّنْبيه والتَّذْكِير بالرُّسُل ، فيكون قد ظَلَمَهُم ؛ لأن الله – تبارك وتعالى – أجْرى السُّنَّة ألا يَأخذ أحداً إلا بعد وُجُود الذَّنب ، وإنما يَكُون مُذْنِباً إذا أمِر فَلَمْ يأتَمِر ، ونُهِيَ فلم يَنْتَهِ ، وذلك إنما يكون بعد إنْذَار الرُّسُل ، وهذه الآية تدلُّ على أنَّه لا وُجُوب ولا تَكْلِيف قِبْلَ ورود الشَّرْع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 437.436 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (131) ﴾

متى يصحُّ في وصفة توهم الظلم والمُلكُ مُلكه والخَلْقُ خلقُه ؟

ومتى يقبح منه تصرُّفٌ في شخصٍ بما أراد ، والعبد عبده والحكم حكمه ؟ انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 503 ﴾

*(226/251)*

---

قوله تعالى ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (132) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بيّن سبحانه أن لأحد الفريقين دار السلام ، والآخر دار الملام ، قال جامعاً للفريقين عاطفاً على قوله ﴿ لهم دار السلام عند ربهم ﴾ [ الأنعام : 127 ] : ﴿ ولكل ﴾ أي عامل من الفريقين صالح أو طالح في قبيلي الجن والإنس في الدارين ﴿ درجات ﴾ أي يعليهم الله بها ﴿ مما ﴾ أي من أجل ما ﴿ عملوا ﴾ ودركات يهويهم فيها كذلك .

ولما تقدم أنه تعالى لا يهلك المجرمين إلاّ بعد الإعذار إليهم ، وتضمن ذلك إمهالهم ، وختم

أحوالهم بأنهم موضع لثبوت الغفلة ودوامها ، نفى أن يسلم شيء من ذلك بجناب عظمته على وجه أثبت له ذلك إحاطة العلم بجميع أعمالهم فقال : ﴿ وما ربك ﴾ أي المحسن إليك بإعلاء أوليائك وإسفال أعدائك ، وأغرق في النفي لإثبات مزيد العلم فقال : ﴿ بغافل عما يعملون ﴾ أي عن شيء يعمله أحد من الفريقين ، بل هو عالم بكل شيء من ذلك وبما يستحقه العامل قادر على جزائه ، فلا يقع في وهم أن الإمهال لخفاء الاستحقاق بخفاء الموجب له ، فالآية من النصوص في كتابة الصالحين من الجن . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 718.719 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال أهل الثواب والدرجات ، وأحوال أهل العقاب والدركات ذكر كلاماً كلياً ، فقال : ﴿ وَلِكُلٍّ درجات مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ وفي الآية قولان :

القول الأول : أن قوله : ﴿ وَلِكُلٍّ درجات مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ عام في المطيع والعاصي ، والتقدير :

ولكل عامل عمل فله في عمله درجات ، فتارة يكون في درجة ناقصة ، وتارة يترقى منها إلى درجة كاملة ، وأنه تعالى عالم بها على التفصيل التام ، فرتب على كل درجة من تلك الدرجات ما يليق به من الجزاء ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

والقول الثاني : أن قوله : ﴿ وَلِكُلٍّ درجات مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ مختص بأهل الطاعة ، لأن لفظ الدرجة لا يليق إلا بهم .

وقوله : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بغافل عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ مختص بأهل الكفر والمعصية والصواب هو الأول .

واعلم أن هذه الآية تدل أيضاً على صحة قولنا في مسألة الجبر والقدر ، وذلك لأنه تعالى حكم لكل واحد في وقت معين بحسب فعل معين بدرجة معينة ، وعلم تلك الدرجة بعينها وأثبت تلك الدرجة المعينة في اللوح المحفوظ وأشهد عليه زمر الملائكة المقربين ، فلو لم تحصل تلك الدرجة لذلك الإنسان لبطل ذلك الحكم ، ولصار ذلك العلم جهلاً ، ولصار ذلك الإشهاد كذباً وكل ذلك محال فثبت أن لكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما تعملون ، وإذا كان الأمر كذلك ، فقد جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة ، والسعيد من سعد في بطن أمه والشقي من شقي في بطن أمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 162 . 163 ﴾ . بتصرف يسير .

*(227/251)*

وقال السمرقندى :

﴿ وَلِكُلٍّ درجات مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾

يعني : ولكل واحد من المؤمنين فضائل في الجنة بعضهم أرفع درجة من بعض ، وللكافرين درجات بعضهم أشد عذاباً من بعض .

﴿ وَمَا رَبُّكَ بغافل عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ يعني : لمن ينسى الطاعة من المطيعين ، ولا المعصية من العاصين ، ويجازي كل نفس بما عملت .

قرأ ابن عامر ﴿ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ على معنى المخاطبة .

وقرأ الباقون : ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ بالياء على معنى المغايبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولكلٍ درجاتٌ مما عملوا ﴾ أي : لكل عامل بطاعة الله أو بمعصيته درجات ، أي : منازل يبلغها بعمله ، إن كان خيراً فخيراً ، وإن كان شراً فشراً .

وإنما سميت درجات لتفاضلها في الارتفاع والانحطاط ، كتفاضل الدرج .

قوله تعالى : ﴿ عما يعملون ﴾ قرأ الجمهور بالياء ؛ وقرأ ابن عامر بالتاء على الخطاب .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ أي من الجن والإنس ؛ كما قال في آية أخرى : ﴿ أولئك الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول في أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ الجن والإنس إِنَّهُمْ كَانُواْ خَاسِرِينَ ﴾ [ الأحقاف : 18 ] ثم قال : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ [ الأحقاف : 19 ] .

وفي هذا ما يدل على أن المطيع من الجن في الجنة ، والعاصي منهم في النار ؛ كالإنس سواء .

وهو أصح ما قيل في ذلك فاعلمه .

ومعنى "وِلِكلٍّ درجاتٌ" أي ولكل عامل بطاعةٍ درجاتٌ في الثواب .

ولكلّ عاملٍ بمعصية دركاتٌ في العقاب .

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ ﴾ أي ليس بلاهٍ ولا ساهٍ .

والغفلة أن يذهب الشيء عنك لاشتغالك بغيره .

﴿ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ قرأه ابن عامر بالتاء ، الباقون بالياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾

يعني ولكل عامل بطاعة الله أو بمعصيته درجات ، يعني منازل يبلغها بعمله إن كان خيراً فخير وإن كان شراً فشر .

وإنما سميت درجات لتفاضلها في الارتفاع والانحطاط كتفاضل الدرج وهذا إنما يكون في الثواب والعقاب على قدر أعمالهم في الدنيا فمنهم من هو أعظم ثواباً ومنهم من هو أشد عقاباً ، وهو قول جمهور المفسرين وقيل : إن قوله تعالى ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾ ، مختص بأهل الطاعة لأن لفظ الدرجة لا يليق إلا بهم .

وقوله تعالى : ﴿ وما ربك بغافل عما يعملون ﴾ مختص بأهل الكفر والمعاصي ففيه وعيد وتهديد لهم .

والقول الأول أصح ، لأن علمه تعالى شامل لكل المعلومات فيدخر فيه المؤمن والكافر والطائع والعاصي وأنه عالم بأعمالهم على التفصيل التام فيجزي كل عامل على قدر عمله وما يليق به من ثواب أو عقاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾ أي ولكل من المكلفين مؤمنهم وكافرهم درجات متفاوتة من جزاء أعمالهم وتفاوتها بنسبة بعضهم إلى بعض أو بنسبة عمل كل عامل فيكون هو في درجة فيترقى إلى أخرى كاملة ثم إلى أكمل ، والظاهر اندراج الجن في العموم في الجزاء كما

اندرجوا في التكليف وفي إرسال الرسل إليهم .

قال الضحاك : مؤمنو الجن في الجنة كمؤمني الإنس .

وقيل : لا يدخلون الجنة ولا النار يقال لهم كونوا تراباً فيصيرون تراباً كالبهائم .

وقال ابن عباس : جزاء مؤمني الجن إجارتهم من النار .

وقال أبو حنيفة : ليس للجن ثواب لأن الثواب فضل من الله فلا يقال به لهم إلا ببيان من الله ولم يذكر الله في حقهم إلا عقوبة عاصيهم لا ثواب طائعهم وخالفه صاحباه أبو يوسف ومحمد فقالا : لهم ثواب على الطاعات وعقاب على المعاصي ودليلهما عموم الكتاب والسنة .

وقيل : ولكل من المؤمنين خاصة .

*(229/251)*

---

وقال الماتريدي : ولكل من الكفار خاصة درجات دركات ومراتب من العقاب مما عملوا من الكفر والمعاصي ، لأنه جاء عقيب خطاب الكفار فيكون راجعاً عليهم .

﴿ وما ربك بغافل عما يعملون ﴾ أي ليس بساه يخفيّ عليه مقادير الأعمال وما يترتب عليها من الأجور وفي ذلك تهديد ووعيد .

وقرأ ابن عامر : تعملون بالتاء على الخطاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن كثير :

قوله : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ أي : ولكل عامل من طاعة الله أو معصيته منازل ومراتب من عمله يبلغه الله إياها ، ويثيبه بها ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر .

قلت : ويحتمل أن يعود قوله : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ [أي] من كافري الجن والإنس ، أي : ولكل درجة في النار بحسبه ، كقوله [تعالى] ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ [وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ] ﴾ [الأعراف : 38] ، وقوله : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ [النحل : 88] .

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ قال ابن جرير : أي وكل ذلك من عملهم ، يا محمد ، بعلم من ربك ، يحصيها ويثبتها لهم عنده ، ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه ومعادهم إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 342 ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَلِكُلٍّ ﴾ أي من المكلفين من الثقلين ﴿ درجات ﴾ متفاوتةٌ وطبقاتٌ متباينة ﴿ مّمَّا عَمِلُواْ ﴾ من أعمالهم صالحةً كانت أو سيئةً فإن أعمالَهم درجاتٌ في أنفسها أو من جزاء أعمالِهم فإن كلَّ جزاءٍ مرتبةٌ معينةٌ لهم أو من أجل أعمالِهم ﴿ وَمَا رَبُّكَ بغافل عَمَّا يَعْمَلُونَ

﴿ فيخفى عليه عملٌ من أعمالهم أو قدْرُ ما يستحقون بها من ثواب أو عقاب ، وقرىء بالتاء تغليباً للخطاب على الغَيْبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(230/251)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَلِكُلٍّ ﴾ من المكلفين جناً كانوا أو إنساً ﴿ درجات ﴾ أي مراتب فيتناول الدركات حقيقة أو تغليباً ﴿ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ أي من أعمالهم صالحة كانت أو سيئة أو من أجل أعمالهم أو من جزائها ، فمن إما ابتدائية أو تعليلية أو بيانية بتقدير مضاف ﴿ وَمَا رَبُّكَ بغافل عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ فلا يخفى عليه سبحانه عمل عامل أو قدر ما يستحق به من ثواب أو عقاب .

وقرأ ابن عامر ﴿ تَعْمَلُونَ ﴾ بالتاء على تغليب الخطاب على الغيبة ولو أريد شمول ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ بالتحتية للمخاطب بأن يراد جميع الخلق فلا مانع من اعتبار تغليب الغائب على المخاطب سوى أن ذلك لم يعهد مثله في كلامهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

احتراس على قوله : ﴿ ذلك أن لم يكن ربّك مهلك القرى بظلم ﴾ [ الأنعام : 131 ]

للتنبيه على أنّ الصّالحين من أهل القرى الغالبِ على أهلها الشركُ والظّلم لا يُحرمون جزاء صلاحهم .

والتّنوين في : ﴿ ولكل ﴾ عوض عن المضاف إليه : أي ولكلّهم ، أي كلّ أهل القرى المهلَكة درجات .

يعني أنّ أهلها تتفاوت أحوالهم في الآخرة .

*(231/251)*

---

فالمؤمنون منهم لا يضاع إيمانهم .

والكافرون يحشرون إلى العذاب في الآخرة .

بعد أن عُذّبوا في الدّنيا .

فالله قد ينجي المؤمنين من أهل القُرى قبل نزول العذاب .

فتلك درجة نالوها في الدّنيا ، وهي درجة إظهار عناية الله بهم ، وتُرفع درجتهم في الآخرة .

والكافرون يحيق بهم عذاب الإهلاك ثمّ يصيرون إلى عذاب الآخرة .

وقد تهلك القرية بمؤمنيها ثمّ يصيرون إلى النّعيم فيظهر تفاوت درجاتهم في الآخرة ، وهذه حالة أخرى وهي المراد بقوله تعالى : ﴿ واتَّقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصّة ﴾ [ الأنفال : 25 ] روى البخاري ، ومسلم ، عن ابن عمر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذَا أنزل الله بقوم عذاباً أصاب العذابُ من كان فيهم ثمّ بُعثوا على أعمالهم " .

وفي حديث عائشة رضي الله عنها عند البيهقي في "الشُعب" مرفوعاً أنّ الله تعالى إذا أنزل سطوته بأهلِ نقمته وفيهم الصّالحون قُبضوا معهم ثمّ بُعثوا على نياتهم وأعمالهم ، صحّحه ابن حِبّان .

وفي "صحيح البخاري" ، من حديث زينب بنت جحش أمّ المؤمنين رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ويلٌ للعرب من شرّ قد اقترب فتح اليوم من رَدْم ياجوج وماجوج هكذا وعقد تسعين ( أي عقد أصبعين بعلامة تسعين في الحساب المعبر عنه بالعُقَد بضم العين وفتح القاف ) قِيل : أنهلك وفينا الصّالحون ، قال : نَعَم إذا كثر الخُبْث " .

والدّرجات هي ما يرتقى عليه من أسفل إلى أعلى ، في سُلم أو بناء ، وإن قصد بها النّزول إلى محلّ منخفض من جبّ أو نحوه فهي دركات ، ولذلك قال تعالى : ﴿ يرفع اللَّهُ الذين آمنوا منكم والذينَ أوتوا العلم درجات ﴾ [ المجادلة : 11 ] وقال : ﴿ إنّ المنافقين في الدرك الأسفل من النّار ﴾ [ النساء : 145 ] ولمّا كان لفظ ( كلّ ) مراداً به جميع أهل القرية ، وأتى بلفظ ﴿ الدّرجات ﴾ كان إيماء إلى تغليب حال المؤمنين لِتَطمئنّ نفوسُ المسلمين من أهل مكّة بأنّهم لا بأس عليهم من عذاب مشركيها ، ففيه إيماء إلى أنّ الله منجيهم من العذاب : في الدّنيا بالهجرة ، وفي الآخرة بحشرهم على أعمالهم ونياتهم لأنَّهم لم يقصروا في الإنكار على المشركين ، ففي هذه الآية إيذان بأنَّهم سيخرجون من القرية الّتي حقّ على أهلها العذاب ، فإنّ الله أصاب أهل مكّة بالجوع والخوف ثمّ بالغزو بعد أن أنجى رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين .

وقدْ عُلم من الدّرجات أنّ أسافلها دركات فغلب درجات لنكتة الإشعار ببشارة المؤمنين بعدِ نذارة المشركين .

و﴿ مِن ﴾ في قوله ﴿ مما عملوا ﴾ تعليلية ، أي من أعمالهم أي بسبب تفاوت أعمالهم .

وقوله : ﴿ وما ربك بغافل عما يعملون ﴾ خطاب للرّسول صلى الله عليه وسلم

وقرأ الجمهور : ﴿ يعلمون ﴾ بياء الغيبة فيعود الضّمير إلى أهل القرى ، والمقصود مشركو مكّة ، فهو للتّسليّة والتّطمين لئلا يستبطىء وعد الله بالنّصر ، وهو تعريض بالوعيد

للمشركين من باب : واسمعي يا جارة .

وقرأه ابن عامر بتاء الخطاب ، فالخطاب للرّسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المسلمين ، فهو وعد بالجزاء على صالح أعمالهم ، ترشيحاً للتّعبير بالدّرجات حسبما قدّمناه ، ليكون سَلاً لهم من وعيد أهل القرى أصحاب الظّلم ، وكلتا القراءتين مراد الله تعالى فيما أحسب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

*(233/251)*

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (132) ﴾

﴿ وَلِكُلٍّ ﴾ ، وجاءت بالتنوين أي لكلٍّ من الإنس والجن درجات مما عملوا ، فكأن الأعمال تتفاوت ؛ فقد تكون في ظاهرها قوالب متحدة ، لكن التفاوت إنما ينشأ بكثرة العمل ، أو بإخلاص المقارف للعمل والمكتسب والفاعل له ، فهناك من يخلص بكل طاقته ، وهناك من يؤدي عمله بنصف إخلاص ، ومسألة الإخلاص هذه لا تحددها لوائح ولا قوانين إنما يحددها الحق سبحانه وتعالى ، ولذلك يقول محمد صلى الله عليه وسلم مبلغاً عن رب العزة هذا الحديث القدسي : " الإخلاصُ سر من سري استودعته قلب من أحببت من

عبادي . "

إذن فمقاييس الإِخلاص لا يعرفها إلا ربنا سبحانه وتعالى ، وعلى مقدار ذلك تكون الدرجات . وتكون الدرجات على مقدار ما يزيده العبد من جنس ما فرضه الله عليه ؛ فالحق قد فرض صلوات خمساً ، فيزيد العبد عشر ركعات في الليلة مثلاً . والله قد فرض الصيام شهراً ، فيصوم العبد يومي الاثنين والخميس .

والذي يقف عند ما فرض الله يجازيه الله على إخلاصه في أداء ما عليه ، وحينما سأل أعرابي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن موقف الذي لا يؤدي إلا الفروض فقط ، قال له : " أفلح إن صدق ، " فالذي يزيد عما فرض الله من جنس ما فرض الله أشد فلاحاً . ولا يصل الإِنسان إلى المرتبة التي هي أشد فلاحاً إلا إذا كان في درجة أعلى ، وكلمة ﴿ دَرَجَاتٌ ﴾ تفيد العُلّو ، وكلمة " دركات " تفيد الهبوط ، والحق لا يغفل عن ظاهر وباطن كل عمل لأي عبد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(234/251)*

---

فائدة

قال التسترى :

وقال : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ [ 132 ] ، وقال في صفة المريد : شغل المريد إقامة الفرض والاستغفار من الذنب وطلب السلامة من الخلق . وقال سهل : إن الله عزَّ وجلَّ ينظر في القلوب والقلوب عنده ، فما كان أشدها تواضعاً له خصه بما شاء ثم بعد ذلك ما كان أسرعها رجوعاً ، وهما هاتان الخصلتان . وقال : ما اطلع الله على قلب فرأى فيه همّ الدنيا إلاَّ مقته ، والمقت أن يتركه ونفسه . والقلب لا يملكه أحد إلاَّ الله تعالى ، ولا يطيع أحداً إلاَّ الله ، فإذا ذكرت به فضع سرك مع الله ، فإنه ليس من أحد وضعت سرك عنده إلاَّ هتكه ، إلاَّ الله عزَّ وجلَّ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير التستري صـ 62 ﴾

*(235/251)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " مِمَّا عَمِلُوا " في محلِّ رفع نعتاً لـ " دَرَجَات " .

وقيل : ولكلٍّ من المؤمنين خاصَّة .

وقيل : ولكلٍّ من الكُفَّار خاصَّة ؛ لأنها جَاءَت عَقِيب خطاب الكُفَّارِ ؛ إلاَّ أنَّه يبعده قوله : " دَرَجَاتٌ " وقد يُقَال : إن المُرَاد به هُنَا المراتب ، وإن غلب استِعْمَالُها في الخير " وما ربُّكَ

بغافلٍ عمَّا يعمَلونَ " قرأ العامّة بالغيبة رَدّاً على قوله : " ولكُلٍّ درَجَاتٌ " وقرأ ابن عامرٍ بالخطابِ مُراعَاةً لما بَعْدَهُ في قوله : "يُذْهبْكم " ، " مِنْ بَعْدِكُمْ " ، كما " أنشأكم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 437 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (132) ﴾

المحسن في روْح الثواب متنعِّم ، والمذنب في نوْح العذاب متألم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 504 ﴾

*(236/251)*

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثاني والخمسون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/252)

---

الجزء الثالث والخمسون بعد المائتين

من الآية ﴿ 133 ﴾ من سورة الأنعام

وحتى الآية ﴿ 137 ﴾ من نفس السورة

(4/252)

---

قوله تعالى ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (133) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان طلب العبادة للائتمار والانتهاء ربما أوهم الحاجة إليها لنفع في الطاعة أو ضرر يلحقه سبحانه من المعصية ، وكان الإمهال مع المبارزة ربما ظن أنه عن عجز ، قال مرغباً مرهباً : ﴿ وربك ﴾ أي المحسن إليك وإليهم بإرسالك ، وحصر الخبر في المبتدإ بقوله : ﴿ الغني ﴾ أي وحده الغني المطلق عن كل عابد وعبادته ، فليعمل العامل لنفع نفسه أو ضرها ﴿ ذو الرحمة ﴾ أي وحده بالإمهال والإرسال للتنبيه على ما يستحقه من الأعمال ؛ وملا كان اختصاصه بالغنى والرحمة فلا رحمة إلا منه ولا غنى إلا عنه ، وأنه ما رتب الثواب والعقارب إلا رحمة منه وجوداً ، استأنف بيان ذلك ، وأخبر عن هذا المبتدإ بوصفيه عند من جعلها وصفين بقوله مصرحاً بما أفاده : ﴿ إن يشأ يذهبكم ﴾ أي جميعاً بالإهلاك ، فلا يقع في ظن أحد منكم أن الإهلاك متوقف على شيء غير مشيئته ، ولكنه قضى بإمهالكم إلى آجالكم رحمة لكم وإكراماً لنبيكم صلى الله عليه وسلم ؛ ثم قال تحقيقاً لغناه أيضاً : ﴿ ويستخلف ﴾ .

ولما كان لم يجعل لأحد الخلد ، أدخل الجار فقال : ﴿ من بعدكم ﴾ أي بعد هلاككم ﴿ ما

يشاء ﴾ أي يبدع غيركم من الخلق من جنسكم أو غير جنسكم كما أبدع أباكم آدم من التراب والتراب من العدم وفرعكم منه ﴿ كما أنشأكم من ذرية ﴾ أي نسل ﴿ قوم آخرين ﴾ أي بعد أن أهلكهم أجمعين ، وهم أهل السفينة وقد كنتم نطفاً في أصلابهم ، لم يكن في واحدة منها حياة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 719 ﴾

فصل

قال الفخر :

(5/252)

---

اعلم أنه تعالى لما بين ثواب أصحاب الطاعات وعقاب أصحاب المعاصي والمحرمات وذكر أن لكل قوم درجة مخصوصة ومرتبة معينة ، بين أن تخصيص المطيعين بالثواب ، والمذنبين بالعذاب ، ليس لأجل أنه محتاج إلى طاعة المطيعين أو ينتقص بمعصية المذنبين فإنه تعالى غني لذاته عن جميع العالمين ، ومع كونه غنياً فإن رحمته عامة كاملة ، ولا سبيل إلى ترتيب هذه الأرواح البشرية والنفوس الإنسانية وإيصالها إلى درجات السعداء الأبرار ، إلا بترتيب الترغيب في الطاعات والترهيب عن المحظورات فقال : ﴿ وَرَبُّكَ الغنى ذُو الرحمة ﴾ ومن رحمته على الخلق ترتيب الثواب والعقاب على الطاعة والمعصية ، فنفتقر

ههنا إلى بيان أمرين : الأول : إلى بيان كونه تعالى غنياً .

فنقول : إنه تعالى غني في ذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه عن كل ما سواه ، لأنه لو كان محتاجاً لكان مستكملاً بذلك الفعل ، والمستكمل بغيره ناقص بذاته ، وهو على الله محال ، وأيضاً فكل إيجاب أو سلب يفرض ، فإن كان ذاته كافية في تحققه ، وجب دوام ذلك الإيجاب أو ذلك السلب بدوام ذاته وإن لم تكن كافية ، فحينئذ يتوقف حصول تلك الحالة وعدمها على وجود سبب منفصل أو عدمه ، فذاته لا تنفك عن ذلك الثبوت والعدم وهما موقوفان على وجود ذلك السبب المنفصل وعدمه ، والموقوف على الموقوف على الشيء موقوف على ذلك الشيء ، فيلزم كون ذاته موقوفة على الغير ، والموقوف على الغير ممكن لذاته ، فالواجب لذاته ممكن لذاته وهو محال فثبت أنه تعالى غني على الإطلاق .

واعلم أن قوله : ﴿ وَرَبُّكَ الغنى ﴾ يفيد الحصر ، معناه : أنه لا غني إلا هو والأمر كذلك ، لأن واجب الوجود لذاته واحد ، وما سواه ممكن لذاته والممكن لذاته محتاج ، فثبت أنه لا غني إلا هو فثبت بهذا البرهان القاطع صحة قوله سبحانه : ﴿ وَرَبُّكَ الغنى ﴾ وأما إثبات أنه ﴿ ذُو الرحمة ﴾ فالدليل عليه أنه لا شك في وجود خيرات وسعادات ولذات وراحات .

إما بحسب الأحوال الجسمانية ، وإما بحسب الأحوال الروحانية فثبت بالبرهان الذي ذكرناه أن كل ما سواه فهو ممكن لذاته ، وإنما يدخل في الوجود بإيجاده وتكوينه وتخليقه فثبت أن كل ما دخل في الوجود من الخيرات والراحات والكرامات والسعادات فهو من الحق سبحانه ، وبإيجاده وتكوينه .

ثم إن الاستقراء دل على أن الخير غالب على الشر فإن المريض وإن كان كثيراً فالصحيح أكثر منه ، والجائع وإن كان كثيراً فالشبعان أكثر منه ، والأعمى وإن كان كثيراً ، إلا أن البصير أكثر منه .

فثبت أنه لا بد من الاعتراف بحصول الرحمة والراحة ، وثبت أن الخير أغلب من الشر والألم والآفة .

وثبت أن مبدأ تلك الراحات والخيرات بأسرها هو الله تعالى فثبت بهذا البرهان أنه تعالى هو ﴿ ذُو الرحمة ﴾ .

واعلم أن قوله : ﴿ وَرَبُّكَ الغنى ذُو الرحمة ﴾ يفيد الحصر ، فإن معناه : أنه لا رحمة إلا منه ، والأمر كذلك لأن الموجود إما واجب لذاته أو ممكن لذاته ، والواجب لذاته واحد فكل ما سواه فهو منه ، والرحمة داخلة فيما سواه فثبت أنه لا رحمة إلا من الحق ، فثبت بهذا البرهان صحة هذا الحصر فثبت أنه لا غني إلا هو فثبت أنه لا رحيم إلا هو .

فإن قال قائل : فكيف يمكننا إنكار رحمة الوالدين على الولد والمولى على عبده ، وكذلك سائر أنواع الرحمة ؟

فالجواب : أن كلها عند التحقيق من الله ويدل عليه وجوه : الأول : لولا أنه تعالى ألقى في قلب هذا الرحيم داعية الرحمة ، لما أقدم على الرحمة ، فلما كان موجد تلك الداعية هو الله ، كان الرحيم هو الله ألا ترى أن الإنسان قد يكون شديد الغضب على إنسان قاسي القلب عليه ، ثم ينقلب رؤوفاً رحيماً عطوفاً فانقلابه من الحالة الأولى إلى الثانية ليس إلا بانقلاب تلك الدواعي فثبت أن مقلب القلوب هو الله تعالى بالبرهان قطعاً للتسلسل ، وبالقرآن وهو قوله : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وأبصارهم ﴾ [ الأنعام : 110 ] فثبت أنه لا رحمة إلا من الله .

*(7/252)*

---

والثاني : هب أن ذلك الرحيم أعطى الطعام والثوب والذهب ، ولكن لا صحة للمزاج والتمكن من الانتفاع بتلك الأشياء ، وإلا فكيف الانتفاع ؟ فالذي أعطى صحة المزاج والقدرة والمكنة هو الرحيم في الحقيقة .

والثالث : أن كل من أعطى غيره شيئاً فهو إنما يعطي لطلب عوض ، وهو إما الثناء في الدنيا

، أو الثواب في الآخرة ، أو دفع الرقة الجنسية عن القلب ، وهو تعالى يعطي لا لغرض أصلاً ، فكان تعالى هو الرحيم الكريم فثبت بهذه البراهين اليقينية القطعية صحة قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَرَبُّكَ الغنى ذُو الرحمة ﴾ بمعنى أنه لا غني ولا رحيم إلا هو .

فإذا ثبت أنه غني عن الكل .

ثبت أنه لا يستكمل بطاعات المطيعين ولا ينتقص بمعاصي المذنبين وإذا ثبت أنه ذو الرحمة ثبت أنه ما رتب العذاب على الذنوب ، ولا الثواب على الطاعات ، إلا لأجل الرحمة والفضل والكرم والجود والإحسان ، كما قال في آية أخرى : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [ الإسراء : 7 ] فهذا البيان الإجمالي كاف في هذا الباب . وأما تفصيل تلك الحالة وشرحها على البيان التام ، فمما لا يليق بهذا الموضع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 163 . 164 ﴾

*(8/252)*

---

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ الغنى ذُو الرحمة ﴾

يعني : غني عن عبادة خلقه ، ﴿ ذُو الرحمة ﴾ بتأخير العذاب عنهم ويقال : ﴿ ذُو

الرحمة ﴾ يعني : ذو التجاوز عمن تاب ورجع إليه بالتوبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وربك الغني ذو الرحمة ﴾

لما ذكر تعالى من أطاع ومن عصى والثواب والعقاب ذكر أنه هو الغني من جميع الجهات لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية ، ومع كونه غنياً هو ذو الرحمة أي التفضل التام .

قال ابن عباس : ﴿ ذو الرحمة ﴾ بأوليائه وأهل طاعته .

وقيل : بكل خلقه ومن رحمته تأخير الانتقام من العصاة .

وقيل : ﴿ ذو الرحمة ﴾ جاعل نفع الخلائق بعضهم ببعض .

وقال الزمخشري : ﴿ ذو الرحمة ﴾ يترحم عليهم بالتكليف ليعرضهم للمنافع الدائمة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال البيضاوى :

﴿ وَرَبُّكَ الغنى ﴾ عن العباد والعبادة . ﴿ ذُو الرحمة ﴾ يترحم عليهم بالتكليف تكميلاً لهم ويمهلهم على المعاصي ، وفيه تنبيه على أن ما سبق ذكره من الإرسال ليس لنفعه بل لترحمه على العباد وتأسيس لما بعده وهو قوله : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ أي ما به إليكم حاجة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 454 ﴾

وقال الشوكاني :

قوله : ﴿ وَرَبُّكَ الغنى ﴾ أي عن خلقه لا يحتاج إليهم ولا إلى عبادتهم لا ينفعه إيمانهم ، ولا يضرّه كفرهم ، ومع كونه غنياً عنهم ، فهو ذو رحمة بهم لا يكون غناه عنهم مانعاً من رحمته لهم ، وما أحسن هذا الكلام الرباني وأبلغه ، وما أقوى الاقتران بين الغنى والرحمة في هذا المقام ، فإن الرحمة لهم مع الغنى عنهم هي غاية التفضل والتطوّل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

*(9/252)*

---

وقال الآلوسي :

﴿ وَرَبُّكَ الغنى ﴾ أي لا غنى عن كل شيء كائناً ما كان إلا هو سبحانه فلا احتياج له عز شأنه إلى العباد ولا إلى عبادتهم ، ولا يخفى ما في التعرض لعنوان الربوبية مع الإظهار في مقام الإضمار والإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام من اللطف الجزيل ، والكلام مبتدأ وخبر .

وقوله سبحانه : ﴿ ذُو الرحمة ﴾ خبر آخر ، وجوز أن يكون هو الخبر و ﴿ الغنى ﴾ صفة أي الموصوف بالرحمة العامة فيترحم على العباد بالتكليف تكميلاً لهم ويمهلهم على

المعاصي إلى ما شاء ، وفي ذلك تنبيه على أن ما تقدم ذكره من الإرسال ليس لنفعه بل لترحمه على العباد وتوطئة لقوله سبحانه : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَرَبُّكَ الغنى ذُو الرحمة ﴾ .

عُطفْت جملة : ﴿ وربك الغني ﴾ على جملة : ﴿ وما ربُّك بغافل عمّا يعملون ﴾ [ الأنعام : 132 ] إخباراً عن علمه ورحمته على الخبر عن عمله ، وفي كلتا الجملتين وعيد ووعد ، وفي الجملة الثّانية كناية عن غناه تعالى عن إيمان المشركين وموالاتهم كما في قوله : ﴿ إن تكفروا فإنّ الله غنيّ عنكم ﴾ [ الزمر : 7 ] ، وكناية عن رحمته إذْ أمهل المشركين ولم يعجّل لهم العذاب ، كما قال : ﴿ وربُّك الغفور ذو الرّحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجّل لهم العذاب ﴾ في سورة الكهف ( 58 ) .

وقوله : وربك ﴾ إظهار ، في مقام الإضمار ، ومقتضى الظاهر أن يقال : وهو الغنيّ ذو الرّحمة ، فخولف مقتضى الظاهر لما في اسم الربّ من دلالة على العناية بصلاح المربوب ، ولتكون الجملة مستقلّة بنفسها فتسير مسرى الأمثال والحِكَم ، وللتنويه بشأن النبي صلى الله عليه وسلم

والغنيّ : هو الّذي لا يحتاج إلى غيره ، والغنيّ الحقيقي هو الله تعالى لأَنَّه لا يحتاج إلى غيره

بحال ، وقد قال علماء الكلام : إنّ صفة الغِنَى الثّابتة لله تعالى يَشمل معناها وجوب الوجود ، لأنّ افتقار الممكن إلى الموجد المختارِ ، الّذي يرجح طَرف وجوده على طرف عدمه ، هو أشدّ الافتقار ، وأحسب أنّ معنى الغِنى لا يثبت في اللّغة للشّيء إلاّ باعتبار أنّه موجود فلا يشمل معْنى الغنى صفة الوجود في متعارف اللّغة .

إلاّ أن يكون ذلك اصطلاحاً للمتكلّمين خاصّاً بمعنى الغِنى المطلق .

وممّا يدلّ على ما قُلتهُ أنّ من أسمائه تعالى المغني ، ولم يُعتبر في معناه أنّه موجد الموجودات .

وتقدّم الكلام على معنى الغنيّ عند قوله تعالى : ﴿ إن يكن غنياً أو فقيراً ﴾ في سورة النّساء ( 135 ) .

*(10/252)*

---

وتعريف المسند باللاّم مقتض تخصيصه بالمسند إليه ، أي قصر الغنى على الله ، وهو قصرٌ ادّعائي باعتبار أنّ غنى غير الله تعالى لمّا كان غنى ناقصاً نُزّل منزلة العدم ، أي ربّك الغنيّ لا غيره ، وغناه تعالى حقيقي .

وذكر وصف الغنيّ هنا تمهيد للحكم الوارد عقبه ، وهو : إن يشأ يذهبكم ﴾ فهو من تقديم الدّليل بين يدي الدّعوى ، تذكيراً بتقريب حصول الجزم بالدّعوى .

و﴿ ذو الرحمة ﴾ خبر ثان .

وعدل عن أن يوصف بوصف الرّحيم إلى وصفه بأنّه : ﴿ ذو الرحمة ﴾ : لأنّ الغنيّ وصف ذاتي لله لا ينتفع الخلائق إلاّ بلوازم ذلك الوصف ، وهي جوده عليهم ، لأنَّه لا ينقص شيئاً من غناه ، بخلاف صفة الرّحمة فإنّ تعلّقها ينفع الخلائق ، فأوثرت بكلمة ﴿ ذو ﴾ لأنّ ﴿ ذو ﴾ كلمة يتوصّل بها إلى الوصف بالأجناس ، ومعناها صاحب ، وهي تشعر بقوّة أو وفرة ما تضاف إليه ، فلا يقال ذو إنصاف إلاّ لمن كان قوي الإنصاف ، ولا يقال ذُو مال لمن عنده مال قليل ، والمقصُود من الوصف بذي الرّحمة ، هنا تمهيد لمعنى الإمهال الّذي في قوله : ﴿ إن يشأ يذهبكم ﴾ ، أي فلا يقولنّ أحد لماذا لم يُذهب هؤلاء المكذّبين ، أي أنَّه لرحمته أمهلهم إعذاراً لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

أما المعتزلة فقالوا : هذه الآية إشارة إلى الدليل الدال على كونه عادلاً منزهاً عن فعل القبيح ، وعلى كونه رحيماً محسناً بعباده .

أما المطلوب الأول فقال : تقريره أنه تعالى عالم بقبح القبائح وعالم بكونه غنياً عنه ، وكل من كان كذلك فإنه يتعالى عن فعل القبيح .

أما المقدمة الأولى ، فتقريرها إنما يتم بمجموع مقدمات ثلاثة .

أولها : أن في الحوادث ما يكون قبيحاً ، نحو : الظلم ، والسفه ، والكذب ، والغيبة : وهذه المقدمة غير مذكورة في الآية لغاية ظهورها .

(11/252)

---

وثانيها : كونه تعالى عالماً بالمعلومات ، وإليه الإشارة بقوله قبل هذه الآية : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بغافل عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [ الأنعام : 132 ] وثالثها : كونه تعالى غنياً عن الحاجات وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَرَبُّكَ الغنى ﴾ وإذا ثبت مجموع هذه المقدمات الثلاثة ، ثبت أنه تعالى عالم بقبح القبائح وعالم بكونه غنياً عنها ، فإذا ثبت هذا امتنع كونه فاعلاً لها ، لأن المقدم على فعل القبيح إنما يقدم عليه إما لجهله بكونه قبيحاً ، وإما لاحتياجه ، فإذا كان عالماً بالكل امتنع كونه جاهلاً بقبح القبائح وإذا كان غنياً عن الكل امتنع كونه محتاجاً إلى فعل القبائح ، وذلك يدل على أنه تعالى منزه عن فعل القبائح متعال عنها ، فحينئذ يقطع بأنه لا يظلم أحداً ، فلما كلف عبيده الأفعال الشاقة وجب أن يثيبهم عليها ، ولما رتب العقاب والعذاب على فعل المعاصي ، وجب أن يكون عادلاً فيها ، فبهذا الطريق ثبت كونه تعالى عادلاً في الكل .

فإن قال قائل : هب أن بهذا الطريق انتفى الظلم عنه تعالى ، فما الفائدة في التكليف ؟

فالجواب : أن التكليف إحسان ورحمة على ما هو مقرر في "كتب الكلام" فقوله : ﴿ وَرَبُّكَ الغنى ﴾ إشارة إلى المقام الأول وقوله : ﴿ ذُو الرحمة ﴾ إشارة إلى المقام الثاني فهذا تقرير الدلائل التي استنبطها طوائف العقلاء من هذه الآية على صحة قولهم .

*(12/252)*

---

واعلم يا أخي أن الكل لا يحاولون إلا التقديس والتعظيم ، وسمعت الشيخ الإمام الوالد ضياء الدين عمر بن الحسين رحمه الله قال : سمعت الشيخ أبا القاسم سليمان بن ناصر الأنصاري ، يقول : نظر أهل السنة على تعظيم الله في جانب القدرة ونفاذ المشيئة ، ونظر المعتزلة على تعظيم الله في جانب العدل والبراءة عن فعل ما لا ينبغي ، فإذا تأملت علمت أن أحداً لم يصف الله إلا بالتعظيم والإجلال والتقديس والتنزيه ، ولكن منهم من أخطأ ومنهم من أصاب ، ورجاء الكل متعلق بهذه الكلمة وهي قوله : ﴿ وَرَبُّكَ الغنى ذُو الرحمة ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 164 . 165 ﴾

قوله تعالى ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاء ﴾

فصل

قال الفخر :

المعنى أنه تعالى لما وصف نفسه بأنه ذو الرحمة فقد كان يجوز أن يظن ظان أنه وإن كان ذا الرحمة إلا أن لرحمته معدناً مخصوصاً وموضعاً معيناً فبين تعالى أنه قادر على وضع الرحمة في هذا الخلق ، وقادر على أن يخلق قوماً آخرين ويضع رحمته فيهم وعلى هذا الوجه يكون الاستغناء عن العالمين أكمل وأتم والمقصود التنبيه على أن تخصيص الرحمة بهؤلاء ليس لأجل أنه لا يمكنه إظهار رحمته إلا بخلق هؤلاء .

أما قوله : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ فالأقرب أن المراد به الإهلاك ويحتمل الإماتة أيضاً ويحتمل أن لا يبلغهم مبلغ التكليف وأما قوله : ﴿ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم ﴾ يعني من بعد إذهابكم لأن الاستخلاف لا يكون إلا على طريق البدل من فائت .

*(13/252)*

---

وأما قوله : ﴿ مَا يَشَاء ﴾ فالمراد منه خلق ثالث ورابع ، واختلفوا فقال بعضهم : خلقاً آخر من أمثال الجن والإنس يكونون أطوع ، وقال أبو مسلم : بل المراد أنه قادر على أن يخلق خلقاً ثالثاً مخالفاً للجن والإنس قال القاضي : وهذا الوجه أقرب لأن القوم يعلمون بالعادة أنه تعالى قادر على إنشاء أمثال هذا الخلق فمتى حمل على خلق ثالث ورابع يكون أقوى في دلالة القدرة ، فكأنه تعالى نبه على أن قدرته ليست مقصورة على جنس دون جنس من

الخلق الذين يصلحون لرحمته العظيمة التي هي الثواب ، فبين بهذا الطريق أنه تعالى لرحمته لهؤلاء القوم الحاضرين أبقاهم وأمهلهم ولو شاء لأماتهم وأفناهم وأبدل بهم سواهم .

ثم بين تعالى علة قدرته على ذلك فقال : ﴿ كَمَا أَنشَأَكُمْ مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴾ لأن المرء العاقل إذا تفكر علم أنه تعالى خلق الإنسان من نطفة ليس فيها من صورته قليل ولا كثير ، فوجب أن يكون ذلك بمحض القدرة والحكمة ، وإذا كان الأمر كذلك فكما قدر تعالى على تصوير هذه الأجسام بهذه الصورة الخاصة ، فكذلك يقدر على تصويرهم بصورة مخالفة لها .

وقرأ القراء كلهم ﴿ ذُرِّيَّةِ ﴾ بضم الذال وقرأ زيد بن ثابت بكسر الذال .

قال الكسائي : هما لغتان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 165 .

166 ﴾

*(14/252)*

---

وقال الثعلبى :

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ ثم يميتكم ويهلككم ﴿ وَيَسْتَخْلِفْ ﴾ يخلق ﴿ مِن بَعْدِكُمْ مَّا يَشَآءُ ﴾ خلقاً غيركم أمثل وأطوع منكم .

وقال عطاء : يريد الصحابة والتابعين ﴿ كَمَآ أَنشَأَكُمْ مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ قرناً بعد قرن ، وقال مقاتل : يعني أهل سفينة نوح . وقرأ زيد بن ثابت : ذرية بكسر الذال مشدّدة . وقال أبان بن عثمان : ذرية بفتح الذال وكسر الراء خفيفة على قدر فعله ، الباقون : بضم الذال مشددة ، وهي لغات صحيحة . وقال ثعلب : الذرية بالكسر الأصل ، والذرية بالضم الولد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ إن يشأ يذهبكم ﴾ يعني يهلككم .

الخطاب لأهل مكة ففيه وعيد وتهديد لهم ﴿ ويستخلف ﴾ يعني وينشئ ويخلق ﴿ من بعدكم ﴾ يعني من بعد إهلاككم ﴿ ما يشاء ﴾ يعني خلقاً غيركم أمثل وأطوع منكم ﴿ كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ﴾

اختلفت عبارات المفسرين في هذه اللفظة فقال البغوي : يعني آباءهم الماضين قرناً بعد قرن ، ونحوه قال الواحدي وصاحب الكشاف : يعني من أولاد قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم وهم أهل سفينة نوح عليه السلام .

وقال الإمام فخر الدين الرازي في قوله تعالى : ﴿ ويستخلف من بعدكم ﴾ يعني من بعد إذهابكم لأن الاستخلاف لا يكون إلا على طريق البدل من فائت .

وأما قوله ﴿ ما يشاء ﴾ فالمراد منه خلق ثالث أو رابع واختلفوا فيه ، فقال بعضهم : خلقاً آخر من أمثال الجن والإنس .

(15/252)

---

قال القاضي : وهو الوجه الأقرب لأن القوم يعلمون بالعادة أنه تعالى قادر على إنشاء أمثال هذا الخلق فمتى كمل خلق ثالث ورابع أقوى في دلالة القدرة فكأنه تعالى نبه على أن قدرته ليست مقصورة على جنس دون جنس من الخلق الذين يصلحون لرحمته العظيمة التي هي الثواب فبين بهذا الطريق أنه تعالى لرحمته لهؤلاء الأقوام الحاضرين أبقاهم وأمهلهم ولو شاء لأماتهم وأفناهم وأبدل منهم سواهم ثم بيَّن الله تعالى قوة قدرته على ذلك فقال : ﴿ كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ﴾ لأن المرء إذا تفكر علم أنه تعالى خلق الإنسان من نطفة ليس فيها من صورته قليل ولا كثير فوجب أن يكون ذلك بمحض القدرة والحكمة وإذا كان كذلك فكما قدر على تصوير هذه الأجسام بهذه الخاصة فكذلك يقدر على تصويرهم خلقاً آخر مخالفاً لها هذا آخر كلامه .

وقال الطبري في قوله ﴿ كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ﴾ يقول كما أحدثكم وابتدعكم من بعد خلق آخرين كانوا قبلكم ومعنى من في هذا الموضع التعقيب كما يقال في الكلام

أعطيتك من دينارك ثوباً يعني مكان الدينار ثوباً لا أن الثوب من الدينار بعض .

كذلك الذين خوطبوا بقوله ﴿ كما أنشأكم ﴾ لم يرد بإخبارهم هذا الخبر أنهم أنشئوا من أصلاب قوم آخرين ولكن معنى ذلك ما ذكرنا أنهم أنشئوا مكان قوم آخرين قد أهلكوا قبلهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ﴾

هذا فيه إظهار القدرة التامة والغنى المطلق والخطاب عام للخلق كلهم ، كما قال : ﴿ إن يشأ يذهبكم ﴾ أيها الناس ويأت بآخرين فالمعنى إن يشأ إفناء هذا العالم واستخلاف ما يشاء من الخلق غيرهم فعل ، والإذهاب هنا الإهلاك إهلاك الاستئصال لا الإماتة ناساً بعد ناس لأن ذلك واقع فلا يعلق الواقع على ﴿ إن يشأ ﴾ .

وقيل : الخطاب لأهل مكة .

وقال عطاء : يعني الأنصار والتابعين .

*(16/252)*

وقيل : ﴿ يذهبكم ﴾ أيها العصاة ﴿ ويستخلف من بعدكم ما يشاء ﴾ من النوع الطائع و ﴿ كما أنشأكم ﴾ في موضع مصدر على غير الصدر لقوله : ﴿ ويستخلف ﴾ لأن معناه وينشىء والمعنى إن يشأ الإذهاب والاستخلاف يذهبكم ويستخلف فكل من الإذهاب والاستخلاف معذوق بمشيئته و ﴿ من ﴾ لابتداء الغاية .

وقال ابن عطية : للتبعيض .

وقال الطبري : وتبعه مكي هي بمعنى أخذت من ثوبي ديناراً بمعنى عنه وعوضه ؛ انتهى ، يعني إنها بدلية والمعنى من أولاد قوم متقدّمين أصلهم آدم عليه السلام .

وقال الزمخشري : من أولاد ﴿ قوم آخرين ﴾ لم يكونوا على مثل صفتكم وهم أهل سفينة نوح ؛ انتهى .

ويعني أنكم ﴿ من ذرية قوم ﴾ صالحين فلو شاء أذهبكم أيها العصاة ويستخلف بعدكم طائعين ، كما أنكم عصاة أنشأكم من قوم طائعين وما في قوله : ﴿ ما يشاء ﴾ قيل بمعنى من والأولى إن كان المقدار استخلافه من غير العاقل فهي واقعة موقعها وإن كان عاقلاً فيكون قد أريد بها النوع .

وقرأ زيد بن ثابت ﴿ ذرية ﴾ بفتح الذال وكذا في آل عمران وأبان بن عثمان ﴿ ذرية ﴾ بفتح الذال وتخفيف الراء المكسورة وعند ﴿ ذرية ﴾ على وزن ضربة وتضمنت هذه

الآية التحذير من بطش الله في التعجيل بذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(17/252)

---

وقال الآلوسى :

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ أي ما به حاجة إليكم أصلاً إن يشأ يذهبكم أيها العصاة أو أيها الناس بالإهلاك ، وفي تلوين الخطاب من تشديد الوعيد ما لا يخفى ﴿ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم ﴾ أي وينشىء من بعد إذهابكم ﴿ مَا يَشَاء ﴾ من الخلق ، وإيثار ( ما ) على من لإظهار كمال الكبرياء وإسقاطهم عن رتبة العقلاء ﴿ كَمَا أَنشَأَكُمْ مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءاخَرِينَ ﴾ أي من نسل قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم وهم أهل سفينة نوح عليه السلام لكنه سبحانه أبقاكم ترحماً عليكم ، وما في ﴿ كَمَا ﴾ مصدرية ومحل الكاف النصب على المصدرية أو الوصفية لمصدر الفعل السابق أي وينشىء إنشاء كإنشائكم أو يستخلف استخلافاً كائناً كإنشائكم ، و ﴿ مِنْ ﴾ لابتداء الغاية ، وقيل : هي بمعنى البدل والشرطية استئناف مقرر لمضمون ما قبلها من الغنى والرحمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُمْ مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴾ .

استئناف لتهديد المشركين الّذين كانوا يكذّبون الإنذار بعذاب الإهلاك ، فيقولون : ﴿ متى هذا الفتح إن كنتم صادقين ﴾ [ السجدة : 28 ] وذلك ما يؤذن به قوله عقبه : ﴿ إِنَّ مَا توعدون لآتٍ وما أنتم بمعجزين ﴾ [ الأنعام : 134 ] .

فالخطاب يجوز أن يكون للنبيء صلى الله عليه وسلم والمقصود منه التعريض بمن يغفل عن ذلك من المشركين ، ويجوز أن يكون إقبالاً على خطاب المشركين فيكون تهديداً صريحاً .

والمعنى : إن يشأ الله يعجّل بإفنائكم ويستخلفْ من بعدكم من يشاءُ ممّن يؤمن به كما قال : ﴿ وإن تَتَوَلَّوْا يستبدِلْ قوما غيركم ثمّ لا يكونوا أمثالكم ﴾ [ محمد : 38 ] أي فما إمهاله إيّاكم إلاّ لأنّه الغنيّ ذو الرّحمة .

وجملة الشّرط وجوابه خبرٌ ثالث عن المبتدأ .

ومفعول : ﴿ يشأ ﴾ محذوف على طريقته المألوفة في حذف مفعول المشيئة .

*(18/252)*

والإذهاب مجاز في الإعدام كقوله : ﴿ وإنَّا على ذهاب به لقادرون ﴾ [ المؤمنون : 18 ] .

والاستخلاف : جعل الخَلف عن الشّيء ، والخَلَف : العوض عن شيء فائت ، فالسّين والتّاء فيه للتّأكيد ، و﴿ مَا ﴾ موصولة عامّة ، أي : ما يشاء من مؤمنين أو كافرين على ما تقتضيه حكمته ، وهذا تعريض بالاستئصال لأنّ ظاهر الضّمير يفيد العموم .

والتّشبيه في قوله : ﴿ كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ﴾ تشبيه في إنشاء موجودات بعد موجودات أخرى ، لا في كون المنشَأات مُخرجة من بقايا المعدومات ، ويجوز أن يكون التّشبيه في إنشاء موجودات من بقايا معدومات كما أنشأ البشر نشأة ثانية من ذرّية من أنجاهم الله في السّفينة مع نوح عليه السّلام ، فيكون الكلام تعريضاً بإهلاك المشركين ونجاة المؤمنين من العذاب .

وكاف التّشبيه في محلّ نصب نيابة عن المفعول المطلق ، لأنَّها وصف لمحذوف تقديره : استخلافاً كما أنشأكم ، فإنّ الإنشاء يصف كيفية الاستخلاف .

و﴿ مِنْ ﴾ ابتدائية ، ومعنى الذرّية واشتقاقها تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ قال ومن ذريتي ﴾ في سورة البقرة ( 124 ) .

ووصف قوم ﴾ بـ ﴿ آخرين ﴾ للدّلالة على المغايرة ، أي قوم ليسوا من قبائل العرب ، وذلك تنبيه على عظيم قدرة الله تعالى أن ينشيء أقواماً من أقوام يخالفونهم في اللّغة

والعوائد والمواطن ، وهذا كناية عن تباعد العصور ، وتسلسل المنشآت لأنّ الاختلاف بين الأصول والفروع لا يحدث إلاّ في أزمنة بعيدة ، فشتّان بين أحوال قوم نوح وبين أحوال العرب المخاطَبين ، وبين ذلك قرون مختلفة متباعدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

(19/252)

---

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَرَبُّكَ الغنى ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ أي هو المعروفُ بالغني عن كل ما سواه كائناً مَنْ كان وما كان ، فيدخُل فيه غناه عن العباد وعن عبادتهم ، وفي التعرُّض لوصف الربوبيةِ في الموضعين لا سيما في الثاني لكونه موقعَ الإضمار مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام من إظهار اللطفِ به عليه السلام وتنزيهِ ساحتِه عن توهم شمولِ الوعيدِ الآتي لها أيضاً ما لا يخفى ، وقوله تعالى : ﴿ ذُو الرحمة ﴾ خبرٌ آخرُ أو هو الخبرُ ، والغنيُّ صفةٌ أي يترحم عليهم بالتكليف تكميلاً لهم ويُمهلهم على المعاصي ، وفيه تنبيهٌ على أن ما سلف ذكرُه من الإرسال ليس لنفعه بل لترحمه على العباد وتمهيدٌ لقوله تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ

﴿ أي ما به حاجةٌ إليكم إن يشأ يذهبْكم أيها العصاةُ ، وفي تلوين الخطابِ من تشديد الوعيد ما لا يخفى ﴿ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم ﴾ أي من بعد إذهابِكم ﴿ مَا يَشَاء ﴾ من الخلق ، وإيثارُ ما على مَنْ لإظهار كمالِ الكبرياءِ وإسقاطِهم عن رتبة العقلاءِ ﴿ كَمَا أَنشَأَكُمْ مّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءاخَرِينَ ﴾ أي من نسل قومٍ آخرين لم يكونوا على مثل صفتِكم وهم أهلُ سفينةِ نوحٍ عليه الصلاة والسلام لكنه أبقاكم ترحماً عليكم ، و( ما ) في كما مصدريةٌ ومحلُّ الكافِ النصبُ على أنه مصدرٌ تشعيبي على غير المصدرِ فإن يستخلف في معنى ينشىء كأنه قيل : وينشىء إنشاءً كائناً كإنشائكم الخ أو نعتٌ لمصدر الفعل المذكور أي يستخلف استخلافاً كائناً كإنشائكم الخ والشرطيةُ استئنافٌ مقررٌ لمضمون ما قبلها من الغنى والرحمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(20/252)

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾

وهنا يحنننا الله سبحانه وتعالى إلى عبادته ، وإلى تكاليفه ؛ يحنننا إلى فضيلة الطاعة ،

وكل ذلك لمصلحتنا وهذا مطلق الربوبية الرحيمة ، فيحسن لنا الجزاء ، ويفخم لنا فيه لنعمل لصالحنا نحن ؛ لأن كل أعمالنا – كما قلنا – لا تزيد في ملك الله قدر جناح بعوضة ، وكل معصياتنا لا تنتقص من ملك الله قدر جناح بعوضة ؛ لأن الله بكل صفات الكمال خلقنا ، ولم نزده نحن شيئاً . لقد أوجد الدنيا من عدم ، وفرق بين الصفة القائمة بذات الله ، وإيجاد متعلق الصفة . فالله خالق ؛ والله رحمن ، والله رحيم ، والله قهار ، وسبحانه رحمن ورحيم وقهار وخالق حتى قبل أن يبرز ويظهر ما يخلقه ؛ لأنه بصفة الخالق فيه خلق ، وهو رزاق قبل أن يخلق المرزوق ، فالصفة موجودة فيه قائمة به ، وبهذه الصفة رزق ، وبوجود هذه الصفات فيه يقول للشيء كن فيكون ، وله هذا الكون كله ، وهو غني عن العباد وله كل الملك ، وكذلك خلق التوبة ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : " لَلَّهُ أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة . " ﴿ وَرَبُّكَ الغني ذُو الرحمة إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُمْ مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُمْ مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ [ الأنعام : 133 ]

إذن فالخلق مستمر الإيجاد من العدميات وهو دليل على أن صفة الخالقية موجودة .

وما آدم في منطق العقل واحد . . . ولكنه عند القياس أو ادم

فالكون كله من أول آدم موجود ، وكل الكون المسخر لآدم كخليفة في الأرض خاضع لله ، فإن شاء اذهب الخلق وأتى بخلق جديد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (132) وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (133) ﴾

أخرج ابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة عن الضحاك قال : الجن يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون .

وأخرج ابن المنذر عن ليث قال : بلغني أن الجن ليس لهم ثواب .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن ليث بن أبي سليم قال : مسلمو الجن لا يدخلون الجنة ولا النار ، وذلك أن الله أخرج أباهم من الجنة فلا يعيده ولا يعيد ولده .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن أبي ليلى قال : للجن ثواب ، وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن وهب بن منبه . مثله .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : الخلق أربعة : فخلق في الجنة كلهم ، وخلق في النار كلهم ، وخلقان في الجنة والنار . فأما الذين في الجنة كلهم فالملائكة ، وأما الذين في النار كلهم فالشياطين ، وأما الذين في الجنة والنار فالجن والإِنس ، لهم الثواب وعليهم العقاب .

وأخرج الحكيم والترمذي في نوادر الأصول وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبراني والحاكم واللالكلائي في السنة والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي ثعلبة الخشني . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " الجن على ثلاثة أصناف : صنف لهم أجنحة يطيرون في الهواء ، وصنف حيات وكلاب ، وصنف يحلون ويظعنون " .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن قال : الجن ولد إبليس ، والإِنس ولد آدم ، ومن هؤلاء مؤمنون ومن هؤلاء مؤمنون ، وهم شركاؤهم في الثواب والعقاب ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمناً فهو ولي الله ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافراً فهو شيطان .

*(22/252)*

---

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن أنعم قال : الجن ثلاثة أصناف : صنف لهم الثواب وعليهم العقاب ، وصنف طيارون فيما بين السماء والأرض ، وصنف حيات وكلاب . والإِنس ثلاثة أصناف : صنف يظلهم الله بظل عرشه يوم القيامة ، وصنف هم كالأنعام بل هم أضل

سبيلاً ، وصنف في صور الناس على قلوب الشياطين .

وأخرج ابن جرير عن وهب بن منبه . أنه سئل عن الجن هل يأكلون ويشربون ويموتون ويتناكحون ؟ فقال : هم أجناس ، فأما خالص الجن فهم ريح لا يأكلون ولا يشربون ولا يموتون ولا يتوالدون ، ومنهم أجناس يأكلون ويشربون ويتناكحون ويموتون ، وهي هذه التي منها السعالي والغول وأشباه ذلك .

وأخرج أبو الشيخ عن يزيد بن جابر قال : ما من أهل بيت من المسلمين إلا وفي سقف بيتهم أهل بيت من الجن من المسلمين ، إذا وضع غداؤهم نزلوا فتغدوا معهم ، وإذا وضع عشاؤهم نزلوا فتعشوا معهم .

قوله تعالى : ﴿ كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ﴾ .

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبان بن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : الذرية الأصل ، والذرية النسل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

*(23/252)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " وربُّك الغِنِيُّ " يجوز أن يكون الغَنِيُّ والرَّحْمَة خَبَرَيْن أو وصفين ، و" إن يشأ " وما بَعْدَهُ خبرا لأوّل ، أو يكون " الغَنِيّ " وصْفاً و" ذُو الرَّحْمَة " خبراً ، والجُمْلَة الشَّرطيَّة خبر ثاني أو مُسْتَأنَف .

قوله : " مَا يَشَاءُ " يجُوز أن تكُون " مَا " واقِعَة على ما هُو من جِنْسِ الآدَميّين ، وإنَّما أتى بـ " مَا " وهي لِغَيْر العَاقِل للإبْهَام الحَاصِل ، ويجُوز أن تكُون وَاقِعَة على غَيْر العَاقِل وأنَّه يأتي بجِنْسٍ آخر ، ويجُوز أن تكُون وَاقِعَة على النَّوْع من العُقَلاء كَمَا تقدَّم .

قوله : "كَمَا أَنْشَأَكُمْ " في هو جهان :

أحدهما : أنه مَصْدَر على غِيْرِ المَصْدَر ؛ لقوله : " ويَسْتَخْلِفْ " لأن مَعْنَى "يَسْتَخْلِفْ " : يُنْشِئُ .

والثاني : أنها نَعْتُ مَصْدَر مَحْذُوف ، تقديره : استِخْلافاً مثل ما أَنْشَأَكُم .

وقوله : " مِنْ ذُرِّيَّةِ " متعلق بـ " أَنْشَأَكُم " وفي " مَنْ " هذه وجْه : أحدها : أنها لابتداء الغايةِ ، أي : ابْتَدأ إنْشَاءَكُم من ذُرِّيَّة قَوْم .

الثاني أنَّها تَبْعِيضيَّة ، قاله ابن عطيَّة .

الثالث : بمعنى البدل ، قال الطبري وتبعه مكي بن أبي طالب : هي كقولك : " أَخَذْتُ من ثَوْبِي دِرْهَماً " أي : بَدَله وعوضه ، وكون " مِنْ " بمعنى البدل قَلِيلٌ أو مُمْتَنِعٌ ، وما ورد منع مُؤوَّل ؛ كقوله – تعالى – : ﴿ لَجَعَلْنَا مِنكُمْ مَّلَائِكَةً ﴾ [ الزخرف : 60 ] أي : بَدَلَكُم .

وقوله : [ الزجر ]

2316 - جَارِيَةٌ لَمْ تَأْكُلِ المُرَقَّقَا . . .

وَلَمْ تَذُقْ مِنَ البُقُولِ الفُسْتُقَا

أي : بدل البُقُول ، والمعنى : من أوْلاد قوم مُتقدّمين أصْلهم آدَمُ .

وقال الزَّمَخْشَرِي : من أولاد قَوم آخرين لم يكُونُوا على مِثْلِ صِفَتِكُم ، وهم أهْلُ سَفِينَةِ نُوح .

وقرأ أبيُّ بنُ كَعْب : " ذَرِّيَة " بفتح الذَّالِ ، وأبان بني عُثْمَان : " ذَرِّيَة " بتخفيف الرَّاء مَكْسُور ، ويروى عَنْه أيضاً : " ذَرْيَة " .

بزنة ضَرْبَة ، وقد تقدَّم تحقيقه ، وقرأ زَيْد بن ثَابِت : " ذِرِّيَة " بكسر الذال ، قال الكسائي هُمَا لُغَتَان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 438.439 ﴾ .

باختصار .

*(24/252)*

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ

مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (133) ﴾

الغنيُّ يشير إلى كشفه وذو الرحمة يشير إلى لطفه .

أخبرهم بقوله الغني عن جلاله ، وبقوله : ذو الرحمة عن أفضاله ؛ فبجلاله يكاشفهم فيُفْنِيهم ، وبأفضاله يلاطفهم فيحييهم .

ويقال سماع غِنَاه يوجِب محوَهم ، وسماعه رحمته يوجب صحوهم ، فهم في سماع هذه الآية مترددون بين بقاء وبين فناءٍ ، وبين إكرام وبين اصطلام ، وبين تقريبٍ وبين تذويب ، وبين اجتياح وبين ارتياح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 504 ﴾

(25/252)

---

قوله تعالى ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (134) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تقرر أن له الوصفين الملزومين للقدرة ، أنتج ذلك قوله جواباً لاستعجالهم بالعذاب استهزاء : ﴿ إن ما توعدون ﴾ أي من البعث وغيره ﴿ لآت ﴾ أي لا بد من وقوعه لأن المتوعد لا يبدل القول لديه ولا كفوء له يعارضه فيه ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ أي بثابت لكم

الإتيان بشيء يعجز عنه الخصم ، فتمهد الأمر من جهته ومن جهتكم لوجود المقتضي وانتفاء المانع ، وفي ذلك تقرير لأمر رحمته لأن القادر إذا اراد النقمة أخذ على غرة ولم يهدد ، وإذا أراد الرحمة تقدم بالوعيد ليحذر الفائزون ويستسلم الخاسرون . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 719 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ﴾

قال الحسن : أي من مجيء الساعة ، لأنهم كانوا ينكرون القيامة ، وأقول فيه احتمال آخر : وهو أن الوعد مخصوص بالإخبار عن الثواب ، وأما الوعيد فهو مخصوص بالإخبار عن العقاب فقوله : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ﴾ يعني كل ما تعلق بالوعد بالثواب فهو آت لا محالة ، فتخصيص الوعد بهذا الجزم يدل على أن جانب الوعيد ليس كذلك ويقوي هذا الوجه آخر الآية ، وهو أنه قال : ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ يعني لا تخرجون عن قدرتنا وحكمنا ، فالحاصل أنه لما ذكر الوعد جزم بكونه آتياً ، ولما ذكر الوعيد ، ما زاد على قوله : ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ وذلك يدل على أن جانب الرحمة والإحسان غالب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 166 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ﴾ يعني : الوعيد الذي أوعد في الآخرة من العذاب لآتٍ ، يقول : لكائن لا خلف فيه ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ يعني : بسابقين الله بأعمالكم الخبيثة التي يجازيكم بها .

هذا قول مقاتل .

وقال الكلبي : ﴿ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي : بفائتين أن يدرككم .

ويقال في اللغة : أعجزني الشيء أي : فاتني وسبقني . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ﴾ لجائي كائن ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ بفائتين سابقين أي حيث كنتم يدرككم . والإعجاز أن يأتي بالشيء يعجز عنه خصمه ويقصر دونه فيكون قد قهره وجعله عاجزاً عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ﴾ يحتمل أن يكون من "أوعدت" في الشرّ ، والمصدر الإيعاد .

والمراد عذاب الآخرة .

ويحتمل أن يكون من "وعدت" على أن يكون المراد الساعة التي في مجيئها الخير والشر فغلّب الخير .

روي معناه عن الحسن .

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي فائتين ؛ يقال : أعجزني فلان ، أي فاتني وغلبني . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ إن ما توعدون لآت ﴾

ظاهر ما العموم في كل ما يوعد به .

وقال الحسن : من مجيء الساعة لأنهم كانوا يكذبون بها .

وقيل : من الوعد والوعيد .

وقيل : من النصر للرسول لكائن .

وقيل : من العذاب ﴿ لآت ﴾ يوم القيامة .

وقيل : من الوعد يوم القيامة لقرينة ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ والإشارة إلى هذا الوعيد المتقدّم خصوصاً وإما أن يكون للعموم مطلقاً فذلك يتضمن إنفاذ الوعيد والعقائد ترى ذلك ؛ انتهى .

---

وقال أبو عبد الله الرازي : الوعد مخصوص بالإخبار عن الثواب فهو آت لا محالة ، فتخصيص الوعد بهذا الجزم يدل على أن جانب الوعيد ليس كذلك ويقوي هذا الوجه أنه قال : ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ أي لا تخرجون عن قدرتنا وحكمتنا فلما ذكر الوعد جزم ، ولما ذكر الوعيد ما زاد على ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ وذلك يدل على أن جانب الرحمة غالب فتلخص في قوله : ﴿ ما توعدون ﴾ العموم ويخرج منه ما خرج بالدليل أو يراد به الخصوص من الحشر أو النصر أو الوعيد أو الوعد أي بلازمهما من الثواب أو العقاب أو مجموعهما ستة أقوال .

وكتبت أن مفصولة من ما وما بمعنى الذي وفي هذه الجملة إشعار بقصر الأمل وقرب الأجل والمجازاة على العمل .

﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ أي فائتين أعجزني الشيء : فاتني أي لا يفوتنا عن ما أردنا بكم .

قال ابن عطية : معناه بناجين وهنا تفسير باللازم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن كثير :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي : أخبرهم يا محمد أن الذي يوعدون به من أمر المعاد كائن لا محالة ، ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي : ولا تعجزون الله ، بل هو قادر على إعادتكم ، وإن صرتم ترابًا رفاتًا وعظامًا هو قادر لا يعجزه شيء .

وقال ابن أبي حاتم في تفسيرها : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن المصفى ، حدثنا محمد بن حمير ، عن أبي بكر بن أبي مريم ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن أبي سعيد الخدُرْي ، رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يا بني آدم ، إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى . والذي نفسي بيده إنما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين" (1) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 343 ﴾

---

(1) ورواه البيهقي في شعب الإيمان برقم (10564) وأبو نعيم في الحلية (91/6) من طريق محمد بن المصفى ، عن محمد بن حمير به ، قال أبو نعيم : "غريب من حديث عطاء ، وأبي بكر تفرد به محمد بن حمير" .

*(28/252)*

---

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ ﴾ أي الذي توعدونه من البعث وما يتفرّع عليه من الأمور الهائلةِ ،

وصيغةُ الاستقبال للدِلالة على الاستمرار التجددي ﴿ لآتٍ ﴾ لواقعٌ لا محالة كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لواقع ﴾ وإيثارُه عليه لبيان كمالِ سرعةِ وقوعِه بتصويره بصورة طالبٍ حثيثٍ لا يفوته هاربٌ حسبما يُعرب عنه قولُه تعالى : ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي بفائتين ذلك وإن ركِبتم في الهرب متنَ كلِّ صَعْبٍ وذَلولٍ كما أن إيثارَ صيغةِ الفاعلِ على المستقبل للإيذان بكمال قربِ الإتيان ، والمرادُ بيانُ دوامِ انتفاءِ الإعجازِ لا بيانُ انتفاءِ دوامِ الإعجاز فإن الجملة الاسمية كما تدل على دوام الثبوتِ تدل بمعونة المقام إذا دخل عليها حرفُ النفذِ على دوام الانتفاءِ لا على انتفاء الدوامِ كما حُقق في موضعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(29/252)

---

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ ﴾ أي إن الذي توعدونه من القيامة والحساب والعقاب والثواب وتفاوت الدرجات والدركات ، وصيغة الاستقبال للدلالة على الإستمرار التجددي ، و ﴿ مَا ﴾ اسم ( إنَّ ) ولا يجوز أن تكون الكافة لأن قوله سبحانه : ﴿ لآتٍ ﴾ يمنع من ذلك كما قال أبو البقاء ، وهو خبر ( إنَّ ) ، والمراد : إن ذلك لواقع لا محالة ، وإيثار آت على

واقع لبيان كمال سرعة وقوعه بتصويره بصورة طالب حثيث لا يفوته هارب حسبما يعرب عنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي جاعلي من طلبكم عاجزاً عنكم غير قادر على إدراككم .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن المعنى وما أنتم بسابقين ، وإيثار صيغة الفاعل على المستقبل للإيذان بقرب الإتيان والدوام الذي يفيده العدول عن الفعلية إلى الإسمية متوجه إلى النفي فالمراد دوام انتفاء الإعجاز لا بيان دوام انتفائه ، وله نظائر في الكتاب الكريم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾

هذه الجملة بدل اشتمال من جملة : ﴿ إن يشأ يذهبكم ﴾ [ الأنعام : 133 ] فإنّ المشيئة تشتمل على حالين : حالِ ترك إهلاكهم ، وحالِ إيقاعه ، فأفادت هذه الجملة أنّ مشيئة الله تعلّقت بإيقاع ما أوعدهم به من الإذهاب ، ولك أن تجعل الجملة استئنافاً بيانياً : جواباً عن أن يقول سائل من المشركين ، متوركاً بالوعيد : إذا كنّا قد أُمهلنا وأُخّر عنّا الاستئصال فقد أُفلتنا من الوعيد ، ولعلّه يلقاه أقوام بعدنا ، فورد قوله : ﴿ إن ما توعدون لأت ﴾ مورد الجواب عن هذا السّؤال النّاشىء عن الكلام السّابق بتحقيق أنّ مَا أُوعد به المشركون ، واقع لا محالة وإنْ تأخّر .

والتّأكيد بـ ﴿ أنّ ﴾ مناسب لمقام المتردّد الطالب ، وزيادة التّأكيد بلام الابتداء لأنَّهم متوغّلون في إنكار تحقّق ما أوعدوا به من حصول الوعيد واستسخارهم به ، فإنَّهم قالوا : ﴿ اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السّماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ [ الأنفال : 32 ] إفحاماً للرّسول صلى الله عليه وسلم وإظهاراً لتخلّف وعيده .

وبناء ﴿ توعدون ﴾ للمجهول يصحح أن يكون الفعل مضارع وَعد يَعِد ، أو مضارع أوْعد ، يُوعد والمتبادر هو الأوّل .

ومن بديع الفصاحة اختيار بنائه للمجهول ، ليصلح لفظه لحال المؤمنين والمشركين ، ولو بني للمعلوم لتعيّن فيه أحد الأمرين : بأن يقال : إنّ ما نعدكم ، أو إنّ ما نُوعدكم ، وهذا من بديع التّوجيه المقصود منه أن يأخذ منه كلّ فريق من السّامعين ما يليق بحاله ، ومعلوم أنّ وعيد المشركين يستلزم وعْداً للمؤمنين ، والمقصود الأهمّ هو وعيد المشركين ، فلذلك عقّب الكلام بقوله : ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ فذلك كالتّرشيح لأحد المحتمَلين من الكلام الموجَّه .

*(30/252)*

---

والإتيان مستعار للحصول تشبيها للشيء الموعودِ به المنتظر وقوعه بالشّخص الغائب المنتظرِ إتيانُه ، كما تقدّم في قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذابُ الله بغتة أو جهرة في

هذه السورة .

وحقيقة المُعجز هو الّذي يَجعل طالب شيءٍ عاجزاً عن نواله ، أي غير قادرين ، ويستعمل مجازاً في معنى الإفلات من تَناوُل طالبِه كما قال إياس بن قبيصَة الطائي :

ألم تَرَ أنّ الأرضَ رحْب فسيحة

فهَل تُعْجزَنِّي بُقعة من بِقاعها . . .

أي فلا تُفلت منّي بقعة منها لا يصل إليها العدوّ الّذي يطالبني .

فالمعنى : وما أنتم بمعجزي أي : بمفلتين من وعيدي ، أو بخارجين عن قدرتي ، وهو صالح للاحتمالين .

ومجيء الجملة اسميّة في قوله : وما أنتم بمعجزين ﴾ لإفادة الثّبات والدّوام ، في نسبة المسند للمسند إليه ، وهي نسبة نُفيه عن المسند إليه ، لأنّ الخصوصيات الّتي تعتبر في حالة الإثبات تعتبر في حالة النّفي إذ النّفي إنَّما هو كيفيّة للنّسبة .

والخصوصياتُ مقتضياتُ أحوالِ التّركيب ، وليس يختلف النّفي عن الإثبات إلاّ في اعتبار القيود الزائدة على أصل التّركيب ، فإنّ النّفي يعتبر متوجّهاً إليها خاصّة وَهي قيود مفاهيم المخالفة ، وإلاّ لبطلت خصوصيات كثيرة مفروضة مع الإثبات ، إذا صار الكلام المشتمل عليها منفياً ، مثل إفادة التجدّد في المسند الفعلي في قول جؤية بن النضر :

لا يألفُ الدرهمُ المضروب صرّتَنا

لكن يمرّ عليها وهو منطق . . .

إذ لا فرق في إفادة التّجدّد بين هذا المصراع ، وبين أن تقول : أَلِفَ الدّرهم صرّتنا .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ لاَ هُنّ حِلّ لهم ولا هُم يحِلّون لهنّ ﴾ [ الممتحنة : 10 ] فإنّ الأول يفيد أنّ نفي حِلّهنّ لهم حكم ثابت لا يختلف ، والثّاني يفيد أنّ نفي حِلّهم لهُنّ حكم متجدّد لا ينسخ ، فهما اعتباران ، وقد أشرت إلى بعض هذا عند تفسير قوله تعالى : ﴿ واللَّه لا يحبّ كلّ كفّار أثيم ﴾ في سورة البقرة ( 276 ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

*(31/252)*

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (134) ﴾

والحق سبحانه وتعالى لأنه لا إله إلا هو ، إذا وعد فلابد أن يتحقق وعده ، وإذا أوعد فلابد أن يأتي وعبده . والوعد إذا أطلق فهو في الخير ، والوعيد يكون في الشر . والذي يخلف الوعد أو الوعيد من الخلق فهذا أمر متوقع لأنه من الأغيار ، فيتغير رأيه فلم يعد أهلاً لهذا الوعد ؛ لأنه ربما يكون قد وعد بشيء كان يظن أنه في مكنته ، وبعد ذلك خرج عن

مكنته ، فليس له سيطرة على الأشياء ، لكن إذا كان من وعد قادراً ، ولا يوجد إله آخر يناقضه فيما وعد أو أوعد به فلابد أن يتحقق الوعد أو يأتي الوعيد . . ولذلك حينما يحكم الله حكماً فالمؤمن يأخذ هذا الحكم قضية مسلمة ؛ لأنه لا إله مع الله سيغير الحكم ، وسبحانه ليس من الأغيار ، والمثال أنه قال : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وامرأته حَمَّالَةَ الحطب * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ [المسد : 1-5]

وهذا وعيد في أمر لهم فيه اختيار ، ومع ذلك لم يسلموا . وجاء بعدها ما يؤكد لكل مسلم : إياك أن تأخذ هذه القضية مأخذ الشك ، وتقول : قد يتوب أبو لهب هذا وزوجه ويسلمان ، ألم تتب هند ؟ ! ألم يسلم أبو سفيان ؟ ! . لكنه سبحانه عالم بما يصير إليه اختيار أبي لهب واختيار زوجه ، وإن كان كل منهما مختاراً ، ولا يوجد إله سواه ليغير الأمر عما قال . ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ . . . ﴾ [الإخلاص : 1]

أي لا يوجد إله أخر ليعدل هذا الأمر . ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [الأنعام : 134]

(32/252)

قد يظن بعض الناس أن الله قد يأتي بما وعد به لكنهم قد يهربون منه ، ولكن ليس الأمر كما يظنون ؛ فالوعد آت وأنتم لا تستطيعون الهرب منه ، ولا أحد بقادر على أن يمنع الله عن تحقيق ما وعد أو أوعد ، ولن تفروا من وعده أو وعيده ، ولن تغلبوا الله أو تفوتوه وتعجزوه ؛ فالله غالب على أمره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(33/252)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (134) ﴾

أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الأمل وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن أبي سعيد الخدري قال : اشترى أسامة بن زيد وليدة بمائة دينار إلى شهر ، فسمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهر ، إن أسامة لطويل الأمل . . . ! والذي نفسي بيده ما طرفت عيناي وطننت أن شفري يلتقيان حتى أقبض ، ولا رفعت طرفي وظننت إني واضعة حتى أقبض ، ولا لقمت لقمة فظننت أني أسيغها حتى أغص بالموت . يا بني آدم إن كنتم تعقلون فَعِدُوا أنفسكم في الموتى ، والذي نفسي بيده ﴿ إن ما

توعدون لآت وما أنتم بمعجزين ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ قال : بسابقين .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

*(34/252)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " إنَّ تُوعدون لآتٍ " " مَا " بِمَعْنَى الَّذِي وليست الكَافَّة ، و " تُوعَدُون " صلتها ، والعَائِد مَحْذُوف ، أي : إنَّ ما تُوعدُونَهُ و " لآتٍ " خبر مؤكَّد باللاَّمِ .

قال الحسن : " ما تُوعَدُون " من مَجِيء السَّاعة ؛ لأنهم كَانُوا يُنْكِرُون الحَشْر . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 439 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (134) ﴾

الإشارة من هذه الآية إلى قِصَر الأمل ، ومَنْ قصُرَ أملُه حَسُنَ عملُه ، وكل ما هو آتٍ فقريبٌ أجَلُه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 504 ﴾

*(35/252)*

---

قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (135) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تقرر ذلك من التهديد على إنكار البعث وتحرر ، فأنتج الاجتهاد للعاقل – ولا بد – في العمل ، وكان أكثر الخلق أحق ، أمره سبحانه بالنصيحة بقوله : ﴿ قل يا قوم ﴾ أي يا أقرب الخلق إليّ وأعزهم عليّ ومن لهم قيام في الأمور وكفاية عند المهمات ﴿ اعملوا ﴾ وأشار إلى مزيد القوة بعد التعبير بالقوم بحرف الاستعلاء فقال : ﴿ على مكانتكم ﴾ أي على ما لكم من القدرة على العمل والمكنة قبل أن تأتي الدواهي وتسبقكم القواصم بخفوق الأجل ، وفيه مع النصيحة تخويف أشد مما قبله ، لأن تهديد الحاضر على لسان الغير مع الإعراض أشد من مواجهته بالتهديد ، أي أنكم لم تقبلوا بذلك التهديد الأول كنتم أهلاً للإعراض

والبعد .

ولما كان أدل شيء على النصيحة مبادرة الناصح إلى مباشرة ما نصح به ودعا إليه ، قال مستانفاً أو معللاً : ﴿ إني عامل ﴾ أي على مكانتي وبقدر استطاعتي قبل الفوت بحادث الموت ، ويمكن أن يكون متمحضاً للتهديد ، فيكون المعنى : اعملوا بما أنتم تعملونه الآن من مخالفتي بغاية ما لكم من القوة ، إني كذلك أعمل فيما جئت به .

ولما كان وقوع المتوعد به سبباً للعلم بالعاقبة ، وكان السياق لعدم تذكرهم وغرورهم وقلة فطنتهم ، حسن إثبات الفاء في قوله : دون إسقاطها لأن الاستئناف يتعطف للسؤال فقال : ﴿ فسوف تعلمون ﴾ أي يقع لكم بوعد لا خلف فيه العلم ، فكأنه قيل : أيّ علم ؟ فقيل : ﴿ من تكون له ﴾ كوناً كأنه جبل عليه ﴿ عاقبة الدار ﴾ أي بيني وبينكم ، وهذا في إثبات الفاء بخلاف ما في قصة شعيب عليه السلام من سورة هود عليه السلام في حذفها ؛ ولما كان التقدير جواباً لما تقرر من سؤالهم : عاقبة الدار للعامل العدل ، استأنف قوله : ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ أي الغريقون في الظلم كائنين من كانوا ، فلا يكون لهم عاقبة الدار ، فالآية من الاحتباك : ذكرُ العاقبة أولاً دليل على حذفها ثانياً ، وذكر الظلم ثانياً دليل على حذف العدل أولاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 719 . 720 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه لما بين بقوله : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَآتٍ ﴾ أمر رسوله من بعده أن يهدد من ينكر البعث عن الكفار ، فقال ﴿ قُلْ يا قوم اعملوا على مَكَانَتِكُمْ ﴾ وفيه مباحث :

البحث الأول : قرأ أبو بكر عن عاصم ﴿ مكاناتكم ﴾ بالألف ، على الجمع في كل القرآن ، والباقون ﴿ مَكَانَتِكُمْ ﴾ قال الواحدي : والوجه الإفراد ، لأنه مصدر ، والمصادر في أكثر الأمر مفردة ، وقد تجمع أيضاً في بعض الأحوال ، إلا أن الغالب هو الأول .

البحث الثاني : قال صاحب "الكشاف" : المكانة تكون مصدراً ، يقال : مكن مكانة إذا تمكن أبلغ التمكن ، وبمعنى المكان ، يقال : مكان ومكانة ، ومقام ومقامة ، فقوله : ﴿ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ ﴾ يحتمل اعملوا على تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم ، ويحتمل أيضاً أن يراد اعملوا على حالتكم التي أنتم عليها يقال للرجل إذا أمر أن يثبت على حالة : على مكانتك يا فلان ، أي اثبت على ما أنت عليه لا تنحرف عنه ﴿ إِنِّى عامل ﴾ أي أنا عامل على مكانتي ، التي عليها ، والمعنى : اثبتوا على كفركم وعداوتكم ، فأني ثابت على الإسلام ، وعلى مضارتكم ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أيناله العاقبة المحمودة ، وطريقة هذا الأمر طريقة قوله : ﴿ اعملوا مَا شِئْتُمْ ﴾ وهي تفويض الأمر إليهم على سبيل التهديد .

البحث الثالث : من في قوله : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عاقبة الدار ﴾ ذكر الفراء في موضعه من الإعراب وجهين : الأول : أنه نصب لوقوع العلم عليه .

الثاني : أن يكون رفعاً على معنى : تعلمون أينا تكون له عاقبة الدار ، كقوله تعالى : ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ ﴾ [ الكهف : 12 ] .

البحث الرابع : قوله : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عاقبة الدار ﴾ يوهم أن الكافر ليست له عاقبة الدار ، وذلك مشكل .

قلنا : العاقبة ، تكون على الكافر ولا تكون له ، كما يقال : له الكثرة ولهم الظفر ، وفي ضده يقال : عليكم الكثرة والظفر .

البحث الخامس : قرأ حمزة والكسائي ﴿ مَّن يَكُونُ ﴾ بالياء وفي القصص أيضاً والباقون بالتاء في السورتين .

قال الواحدي : العاقبة مصدر كالعافية ، وتأنيثه غير حقيقي ، فمن أنث ، فكقوله : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصيحة ﴾ [ المؤمنون : 41 ] ومن ذكر فكقوله : ﴿ وَأَخَذَ الذين ظَلَمُواْ الصيحة ﴾ [ هود : 67 ] وقال : ﴿ قَدْ جَاءتْكُمْ مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [ يونس : 57 ] وفي آية أخرى : ﴿ فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ ﴾ [ البقرة : 275 ] .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ والغرض منه بيان أن قوله : ﴿ اعملوا على

مَكَانَتِكُمْ ﴾ تهديد وتخويف لا أنه أمر وطلب ، ومعناه : أن هؤلاء الكفار لا يفلحون ولا يفوزون بمطالبهم ألبتة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 166.167 ﴾

(37/252)

---

وقال السمرقندى :

﴿ قُلْ يا قوم اعملوا على مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي : على موضعكم .

يقال : مكان ومكانة مثل منزل ومنزلة .

ومعناه اعملوا على ما أنتم عليه .

ويقال : معناه اجتهدوا في إهلاكي ما استطعتم ويقال : اعملوا في منازلكم من الخير والشر فإنكم تجزون بهما لا محالة .

﴿ إِنِّى عامل ﴾ بما أوحى الله إلي ويقال : اعملوا بمكاني وأنا عامل بمكانكم .

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عاقبة الدار ﴾ فهذا وعيد من الله تعالى .

يقول : نبيّن لكم من تكون له عاقبة الأمر في الدنيا ، ومن تكون له الجنة في الآخرة .

ثم قال : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ مخاطباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم أي : في الآخرة ، ولا يأمن المشركون .

قرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ ﴾ في جميع القرآن بلفظ الجماعة .

وقرأ الباقون ﴿ مَكَانَتِكُمْ ﴾ .

وقرأ حمزة والكسائي ﴿ مَّن يَكُونُ ﴾ بالياء لأنه انصرف إلى المعنى وهو الثواب والباقون قرؤوا بالتاء لأن لفظ العاقبة لفظ مؤنث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهم ﴿ يَا قَوْمِ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ ﴾ .

قال ابن عباس : على ناحيتكم . قال ابن زيد : على حيالكم . يمان : على مذاهبكم .

عطاء : على حالتكم التي أنتم عليها . مقاتل : على جديلتكم . مجاهد : على وتيرتكم .

الكلبي : على منازلكم . وقيل : إعملوا ما أمكنكم .

قرأ السلمي وعاصم : مكاناً لكم على الجمع في كل القرآن .

﴿ إِنِّي عَامِلٌ ﴾ يقول اعملوا ما أنتم عاملون فإني عامل ما أمرني ربي ، وهذا أمر وعيد وتهديد لا أمر إباحة وإطلاق كقوله ﴿ اعملوا مَا شِئْتُمْ ﴾ [ فصلت : 40 ] .

وقال الكلبي : معناه إعملوا ما أمكنكم من أمري فإني عامل في أموركم بإهلاك .

*(38/252)*

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ ﴾ قرأ مجاهد وأهل الكوفة : يكون بالياء ، الباقون : بالتاء ، ﴿ لَهُ عَاقِبَةُ الدار ﴾ يعني الجنة ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ أي لا يأمن الكافرون .

قال عطاء : لا يبعد . وقال الضحاك : لا يفوز . وقال عكرمة : لا يبقى في الثواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ على مكانتكم ﴾ وقرأ أبو بكر عن عاصم "مكاناتكم" على الجمع .

قال ابن قتيبة : أي : على موضعكم يقال : مكان ومكانة ، ومنزل ومنزلة ، وقال الزجاج : اعملوا على تمكنكم .

قال : ويجوز أن يكون المعنى : اعملوا على ما أنتم عليه .

تقول للرجل إذا أمرته أن يثبت على حال : كن على مكانتك .

قوله تعالى : ﴿ إني عامل ﴾ أي : عامل ما أمرني به ربي ﴿ فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم ، "تكون" بالتاء وقرأ حمزة ، والكسائي : بالياء .

وكذلك خلافهم في [ القصص : 37 ] ، ووجه التأنيث : اللفظ ، ووجه التذكير : أنه ليس بتأنيث حقيقي .

وعاقبة الدار : الجنة ، والظالمون هاهنا : المشركون .

فإن قيل : ظاهر هذه الآية أمرهم بالإقامة على ما هم عليه ، وذلك لا يجوز .

فالجواب : أن معنى هذا الأمر المبالغة في الوعيد ؛ فكأنه قال : أقيموا على ما أنتم عليه ، إن رضيتم بالعذاب ، قاله الزجاج .

فصل

وفي هذه الآية قولان .

أحدهما : أن المراد بها : التهديد ، فعلى هذا : هي محكمة .

والثاني : أن المراد بها ترك القتال ؛ فعلى هذا : هي منسوخة بآية السيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ ﴾

قرأ أبو بكر بالجمع "مكاناتكم" .

والمكانة الطريقة .

والمعنى : اثبتوا على ما أنتم عليه فأنا أثبت على ما أنا عليه .

فإن قيل : كيف يجوز أن يؤمروا بالثبات على ما هم عليه وهم كفار .

فالجواب أن هذا تهديد ؛ كما قال عز وجل : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً ﴾ [ التوبة : 82 ] .

ودلّ عليه "فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ" أي العاقبة المحمودة التي يحمد صاحبها عليها ، أي من له النصر في دار الإسلام ، ومن له وراثة الأرض ، ومن له الدار الآخرة ، أي الجنة .

قال الزجاج : "مكانتكم" تمكّنكُم في الدنيا .

ابن عباس والحسن والنخَعيّ : على ناحيتكم .

القُتَبيّ : على موضعكم .

﴿ إِنِّي عَامِلٌ ﴾ على مكانتي ، فحذف لدلالة الحال عليه .

"ومَنْ" مِن قوله "مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ" في موضع نصب بمعنى الذي ؛ لوقوع العلم عليه .

ويجوز أن تكون في موضع رفع ؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله فيكون الفعل معلقاً .

أي تعلمون أيّنا تكون له عاقبة الدّار ؛ كقوله : ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أحصى ﴾ [ الكهف : 12 ] وقرأ حمزة والكِسائيّ "من يكون" بالياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ قل ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم أي قل يا محمد ﴿ يا قوم ﴾ أي قل لقومك من كفار قريش ﴿ اعملوا على مكانتكم ﴾ وقرئ مكاناتكم على الجمع والمكانة تكون مصدراً يقال : مكن مكانة إذا تمكن أبلغ التمكن وبمعنى المكان يقال مكان ومكانة كما يقال مقام ومقامة فقوله اعملوا على مكانتكم يحتمل أن يكون معناه اعملوا على تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم ويحتمل أن يكون معناه اعملوا على حالتكم التي أنتم عليها كما يقال للرجل إذا أمر أن يثبت على حالة : مكانتك يا فلان أي أثبت على ما أنت عليه لا تتغير عنه .

وقال ابن عباس معناه اعملوا على ناحيتكم ﴿ إني عامل ﴾ يعني إني عامل على مكانتي التي أنا عليها وما أمرني به ربي والمعنى اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والعداوة فإني ثابت على الإسلام والمصابرة .

*(40/252)*

---

فإن قلت ظاهر الآية يدل على أمر الكفار بالإقامة على ما هم عليه من الكفر وذلك لا يجوز .

قلت : معنى هذا الأمر الوعيد والتهديد والمبالغة في الزجر عما هم عليه من الكفر فكأنه

قال أقيموا على ما أنتم عليه من الكفر إن رضيتم لأنفسكم بالعذاب الدائم فهو كقوله تعالى :

﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ ففيه تفويض أمر العمل إليهم على سبيل الزجر والتهديد وليس فيه إطلاق لهم في عمل ما أرادوه من الكفر والمعاصي .

وقوله تعالى : ﴿ فسوف تعلمون ﴾ يعني لمن العاقبة المحمودة لنا أو لكم .

وقيل معناه فسوف تعلمون عند نزول العذاب بكم أينا كان على الحق في عمله نحن أم أنتم

﴿ من تكون له عاقبة الدار ﴾ يعني فسوف تعلمون غداً القيامة لمن تكون عاقبة الدار وهي الجنة ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ قال ابن عباس : معناه أنه لا يسعد من كفر بي وأشرك .

ثم في هذه الآية قولان :

أحدهما : أنهما محكمة وهذا على قول من يقول إن المراد بقوله اعملوا على مكانتكم الوعيد التهديد .

والقول الثاني : أنها منسوخة بآية السيف وهذا على قول من يقول إن المراد بها ترك القتال .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون ﴾

قرأ أبو بكر على مكاناتكم على الجمع حيث وقع فمن جمع قابل جمع المخاطبين بالجمع ومن أفرد فعلى الجنس والمكانة ، مصدر مكن فالميم أصلية وبمعنى المكان ويقال : المكان والمكانة مفعل ومفعلة من الكون فالميم زائدة فيحتمل أن يكون المعنى على تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم ، قال معناه الزجاج ، ويحتمل أن يكون المعنى على جهتكم وحالكم التي أنتم عليها ، يقال : على مكانتك يا فلان إذا أمرته أن يثبت على حاله أي اثبت على ما أنت عليه لا تنحرف عنه .

وقال ابن عباس : على ناحيتكم والمعنى ما تنحون أي ما تقصدون من صالح وطالح .

وقال ابن زيد : على حالكم .

وقال يمان : على مذاهبكم .

*(41/252)*

---

وقال إسماعيل الضرير : على دينكم في منازلكم لهلاكي خطاباً لكفار مكة ﴿ إني عامل ﴾ لهلاككم ؛ انتهى .

وهي ألفاظ متقاربة وهذا الأمر أمر تهديد ووعيد كقوله : ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ وهي التخلية والتسجيل على المأمور بأنه لا يأتي منه إلا الشر فكأنه مأمور به وهو واجب عليه

حتم ليس له أن يتفصى عنه ويعمل بخلافه ، ومعنى ﴿ إني عامل ﴾ أي على مكانتي التي أنا عليها .

قال الزمخشري : اثبتوا على كفركم وعداوتكم فيّ فإني ثابت على الاسلام وعلى مصابرتكم ؛ انتهى .

والظاهر أن ﴿ من ﴾ مفعول تعلمون ﴾ وأجازوا أن يكون مبتدأ اسم استفهام وخبره ﴿ يوم تكون ﴾ والفعل معلق والجملة في موضع المفعول إن كان يعلمون معدّى إلى واحد أو في موضع المفعولين إن كان يتعدّى إلى مفعولين ، و﴿ عاقبة الدار ﴾ مآلها وما تنتهي إليه والدار يظهر منه أنها دار الآخرة .

قال ابن عطية : ويحتمل أن يراد مآل الدنيا بالنصر والظهور ففي الآية إعلام بغيب .

وقال الزمخشري : العاقبة الحسنى التي خلق الله هذه الدار لها وهذا طريق من الإنذار لطيف المسلك فيه إنصاف في المقال وأدب حسن مع تضمن شدّة الوعيد والوثوق بأن المنذر محق وأن المنذر مبطل .

وقيل : معنى ﴿ من تكون له عاقبة الدار ﴾ أي من له النصرة في دار الإسلام ومن له الدار الآخرة أي الجنة وفي قوله : ﴿ فسوف تعلمون ﴾ من التهديد والوعيد ما لا يخفى كقوله : ﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان ﴾ ﴿ من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم ﴾ وقال الشاعر :

إذا ما التقينا والتقى الرسل بيننا . . .

فسوف ترى يا عمر وما الله صانع

وقال آخر :

ستعلم ليلى أي دين تداينت . . .

وأي غريم للتقاضي غريمها

﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ أي لا يفوزون قاله الضحاك .

وقال عكرمة : لا يبقون .

وقال عطاء : لا يسعد من كفر نعمتي .

*(42/252)*

---

وقيل : لا يأمنون ولا ينجون من العذاب وفيه إشعار بأنهم هم الظالمون الذين لا يفلحون ،

وفي قوله : ﴿ فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار ﴾ ترديد بينه عليه السلام وبينهم ،

ومعلوم أن هذا التهديد والوعيد مختص بهم وأن عاقبة الدار الحسنى هي له عليه السلام

ولكنه أجرى مجرى قوله : فشركما لخيركما الفداء .

وقوله :

فأيي ما وأيك كان شرا . . .

فسيق إلى المقادة في هوان

وقد علم ما هو شر وما هو خير ولكنه أبرز في صورة الترديد إظهاراً لصورة الإنصاف ورمياً بالكلام على جهة الاشتراك اتكالاً على فهم المعنى .

وقرأ حمزة والكسائي من يكون بالياء على التذكير وكذا في القصص . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن كثير :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ هذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد ، أي : استمروا على طريقكم وناحيتكم إن كنتم تظنون أنكم على هدى ، فأنا مستمر على طريقتي ومنهجي ، كما قال تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ * وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ [هود : 121 ، 122] .

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي : ناحيتكم .

*(43/252)*

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي : أتكون لي أو لكم . وقد أنجز موعده له ، صلوات الله عليه ، فإنه تعالى مكن له في البلاد ، وحكمه في نواصي مخالفيه من العباد ، وفتح له مكة ، وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه وناوأه ، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب ، وكذلك اليمن والبحرين ، وكل ذلك في حياته . ثم فتحت الأمصار والأقاليم والرساتيق بعد وفاته في أيام خلفائه ، رضي الله عنهم أجمعين ، كما قال الله تعالى : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ [المجادلة : 20] ، وقال ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ . يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر : 51 ، 52] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء : 105] ، وقال تعالى إخبارًا عن رسله : ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ . وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم : 13 ، 14] ، وقال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ الآية [النور : 55] ، وقد فعل الله [تعالى] ذلك بهذه الأمة ، وله الحمد والمنة أولا وآخرًا ، باطنًا وظاهرًا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 343 ﴾

---

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ يا قوم اعملوا على مَكَانَتِكُمْ ﴾ إثرَ ما بيّن لهم حالَهم ومآلَهم بطريق الخطاب أُمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بطريق التلوينِ بأن يواجِهَهم بتشديد التهديد وتكريرِ الوعيد ، ويظهر لهم ما هو عليه من غاية النصاب في الدين ونهايةِ الوثوقِ بأمره وعدم المبالاةِ بهم أي اعملوا على غاية تمكّنِكم واستطاعتِكم ، يقال : مكُن مكانةً إذا تمكّن أبلغَ التمكّن ، أو على جهتكم وحالتِكم التي أنتم عليها ، من قولهم : مكانٌ ومكانةٌ كمقامٌ ومقامة ، وقرىء مكاناتِكم والمعنى اثبُتوا على كفركم ومعاداتكم ﴿ إنّي عامل ﴾ ما أُمرت به من الثبات على الإسلام والاستمرارِ على الأعمال الصالحةِ والمصابرة ، وإيرادُ التهديد بصيغة الأمرِ مبالغةٌ في الوعيد كأن المهددَ يريد تعذيبَه مجمِعاً عليه فيحمِله بالأمر على ما يؤدي إليه ، وتسجيلٌ بأن المهدّد لا يتأتّى منه إلا الشرُّ كالذي أُمر به بحيث لا يجد إلى التقصّي عنه سبيلاً ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عاقبة الدار ﴾ سوف لتأكيد مضمون الجملة ، والعلمُ عرفانيٌّ و( من ) إما استفهاميةٌ معلّقةٌ بفعل العلم محلُّها الرفعُ على الابتداء و( تكون ) باسمها وخبرها خبرٌ لها وهي مع خبرها في محل نصبٍ لسدها مسدَّ مفعول تعلمون أي

فسوف تعلمون أيُّنا تكون له العاقبةُ الحسنى التي خلق الله تعالى هذه الدارَ لها ، وإما موصولةٌ فمحلُّها النصبُ على أنها مفعولٌ لتعلمون أي فسوف تعلمون الذي له عاقبةُ الدارِ ، وفيه مع الإنذار إنصافٌ في المقال وتنبيهٌ على كمال وثوقِ المنذِرِ بأمره ، وقرىء بالياء لأن تأنيثَ العاقبةِ غيرُ حقيقي ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي الشأنَ ﴿ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ وُضع الظلمُ موضِعَ الكفرِ إيذاناً بأن امتناعَ الفلاحِ يترتب على أي فردٍ كان من أفراد الظلمِ فما ظنُّك بالكفر الذي هو أعظمُ أفرادِه ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

*(45/252)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ يا قَوْمِ ﴾ أمر له صلى الله عليه وسلم أن يواجه الكفار بتشديد التهديد وتكرير الوعيد ويظهر لهم ما هو عليه من غاية التصلب في الدين ونهاية الوثوق بأمره وعدم المبالاة بهم أصلاً إثر ما بين لهم حالهم ومآلهم أي قل يا محمد لهؤلاء الكفار .

﴿ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي على غاية تمكنكم واستطاعتكم على أن المكانة مصدر مكن إذا تمكن أبلغ التمكن ؛ وجوز أن يكون ظرفاً بمعنى المكان كالمقام والمقامة ، ومن هنا فسره ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كما رواه ابن المنذر عنه بالناحية وتجوز به عن

ذلك من فسره بالحالة أي اعملوا على حالتكم التي أنتم عليها .

وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿ مكاناتكم ﴾ على الجمع في كل القرآن ، وزعم الواحدي أن الوجه الإفراد وفيه نظر ، والمعنى أثبتوا على كفركم ومعاداتكم لي ﴿ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عامل ﴾ على مكانتي أي ثابت على الإسلام وعلى مصابرتكم .

والأمر للتهديد .

*(46/252)*

---

وإيراده بصيغة الأمر كما قال غير واحد مبالغة في الوعيد كأن المهدد يريد تعذيبه مجمعاً عازماً عليه فيحمله بالأمر على ما يؤدي إليه وتسجيل بأن المهدد لا يتأتى منه إلا الشر كالمأمور به الذي لا يقدر أن يتفصى عنه .

وجعل العلامة الثاني ذلك من قبيل الاستعارة التمثيلية تشبيهاً لذلك المعنى بالمعنى المأمور به الواجب الذي لا بد أن يكون ممن ضربت عليه الشقوة .

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عاقبة الدار ﴾ أي إنكم لتعلمون ذلك لا محالة فسوف لتأكيد مضمون الجملة .

والعلم عرفاني فيتعدى إلى واحد ، و( من ) استفهامية معلقة لفعل العلم محلها الرفع على

الابتداء .

والجملة بعدها خبرها ومجموعهما ساد مسد مفعول العلم .

والمراد بالدار الدنيا لا دار السلام كما قيل ، وبالعاقبة العاقبة الحسنى أي عاقبة الخير لأنها الأصل فإنه تعالى جعل الدنيا مزرعة الآخرة وقنطرة المجاز إليها وأراد من عباده أعمال الخير لينالوا حسن الخاتمة .

وأما عاقبة الشر فلا اعتداد بها لأنها من نتائج تحريف الفجار أي فسوف تعلمون أينا تكون له العاقبة الحسنى التي خلق الله تعالى هذه الدار لها ويجوز أن تكون ما موصولة فمحلها النصب على أنها مفعول ﴿ تَعْلَمُونَ ﴾ أي فسوف تعلمون الذي له عاقبة الدار ، وفيه مع الإنذار المستفاد من التهديد إنصاف في المقال وتنبيه على كمال وثوق المنذر بأمره .

وقرأ حمزة والكسائي ﴿ يَكُونَ ﴾ بالتحتية لأن تأنيث العاقبة غير حقيقي .

﴿ إِنَّهُ ﴾ أي الشأن ﴿ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ أي لا يظفروا بمطلوبهم ، وإنما وضع الظلم موضع الكفر لأنه أعم منه وهو أكثر فائدة لأنه إذا لم يفلح الظالم فكيف الكافر المتصف بأعظم أفراد الظلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ﴾

استئناف ابتدائي بعد قوله : ﴿ إنَّما توعدون آتٍ ﴾ [ الأنعام : 134 ] فإنّ المقصود الأوّل منه هو وعيد المشركين ، كما مرّ ، فأعقبه بما تمحّض لوعيدهم : وهو الأمر المستعمل في الإنذار والتّهديد ، لِيُمْلِيَ لَهُمْ في ضلالهم إملاء يشعر ، في متعارف التّخاطُب ، بأنّ المأمور به ممّا يزيد المأمور استحقاقاً للعقوبة ، واقترابا منها .

أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يُناديهم ويُهَدّدهم .

وأمر أن يبتدىء خطابهم بالنّداء للاهتمام بما سيقال لهم ، لأنّ النّداء يسترعي إسماع المنادَين ، وكان المنادي عنوانَ القوم لما يشعر به من أنّه قد رقّ لحالهم حين توعدهم بقوله : ﴿ إنَّما توعدون لآتٍ وما أنتم بمعجزين ﴾ [ الأنعام : 134 ] لأنّ الشأن أنّه يحبّ لقومه ما يحبّ لنفسه .

والنّداء : للقوم المعاندين بقرينة المقام ، الدالّ على أنّ الأمر للتّهديد ، وأنّ عملهم مخالف لعمله ، لقوله : ﴿ اعملوا ﴾ مع قوله ﴿ إني عامل ﴾ .

فالأمر في قوله : ﴿ اعملوا ﴾ للتسوية والتخلية لإظهار اليأس من امتثالهم للنّصح بحيث يغيّر ناصِحهم نُصحهم إلى الإطلاق لهم فيما يحبّون أن يفعلوا ، كقوله تعالى : ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ [ فصلت : 40 ] وهذا الاستعمال استعارة إذ يشبَّه المغضوب عليه المأيوس من ارعوائِهِ بالمأمور بأن يَفعل ما كان يُنهى عنه ، فكأنّ ذلك المنهي صار واجباً ، وهذا تهكّم .

والمكانة : المَكان ، جاء على التّأنيث مثل ما جاء المقامة للمقام ، والدارةُ اسماً للدار ، والماءة للماءِ الذّي يُنزل حوله ، يقال : أهل الماء وأهل المَاءة .

(48/252)

---

والمكانة هنا مستعارة للحالة الّتي تلبّس بها المرء ، تشبَّه الحالة في إحاطتها وتلبّس صاحبها بها بالمكان الّذي يحوي الشّيء ، كما تقدّم اطلاق الدّار آنفاً في قوله تعالى : ﴿ لهم دار السّلام ﴾ [ الأنعام : 127 ] ، أو تكون المكانة كناية عن الحالة لأنّ أحوال المرء تظهر في مكانه ومقرّه ، فلذلك يقال : "يا فلان على مَكانتك" أي أثبت على ما أنت عليه لا تنحرفْ عنه .

ومفعول ﴿ اعملوا ﴾ محذوف لأنّ الفعل نزّل منزلة اللاّزم ، أي اعملوا عملكم المألوف الّذي هو دأبكم ، وهو الإعراض والتّكذيب بالحقّ .

و ﴿ عَلَى ﴾ مستعملة في التمكّن على وجه الاستعارة التّبعيّة ، وهي مناسبة لاستعارة المكانة للحالة .

لأنّ العلاوة تناسب المكان ، فهي ترشيح للاستعارة ، مستعار من ملائم المشبه به لملائم المشبه .

والمعنى : الزموا حالكم فلا مَطمع لي في اتِّباعكم .

وقرأ الجمهور : ﴿ على مكانتكم ﴾ بالإفراد .

وقرأه أبو بكر عن عاصم : ﴿ مَكانَاتِكم ﴾ جمعَ مكانة .

والجمع باعتبار جمع المضاف إليه .

وجملة : ﴿ إني عامل ﴾ تعليل لمفاد التّسوية من الأمر في قوله : ﴿ اعملوا ﴾ أي لا يضرّني تصميمكم على ما أنتم عليه ، لكنّي مستمرّ على عملي ، أي أنِّي غير تارك لما أنا عليه من الإيمان والدّعاء إلى الله .

وحذف متعلّق : ﴿ إني عامل ﴾ للتّعميم مع الاختصار ، وسيأتي تفصيله في نظيره من سورة الزمر .

ورُتِّب على عملهم وعَمَلِه الإنذارُ بالوعيد ﴿ فسوف تعلمون ﴾ بفاء التّفريع للدّلالة على أنّ هذا الوعيد متفرّع على ذلك التّهديد .

وحرف التّنفيس مراد منه تأكيد الوقوع لأنّ حرفَي التّنفيس يؤكّدان المستقبل كما تؤكّد ( قَدْ ) الماضي ، ولذلك قال سيبويه في الكلام على ( لَن ) : إنَّها لنفي سَيفعل ، فأخذ منه الزمخشري إفادتها تأكيد النّفي .

وهذا صريح في التّهديد ، لأنّ إخبارهم بأَنَّهم سيعلمون يفيد أنّه يعلم وقوع ذلك لا محالة ، وتصميمه على أَنَّه عامل على مكانته ومخالف لعملهم يدلّ على أنّه موقن بحسن عقباه وسوء عقباهم ، ولولا ذلك لعَمِل عملهم ، لأنّ العاقل لا يرضى الضرّ لنفسه ، فدلّ قوله : ﴿ فسوف تعلمون ﴾ على أنّ علمهم يقع في المستقبل ، وأمّا هُو فعَالِم من الآن ، ففيه كناية عن وثوقه بأَنَّه مُحِقّ ، وأَنَّهم مبطلون ، وسيجيء نظِير هذه الآية في قصّة شعيب من سورة هود .

وقوله : ﴿ من تكون له عاقبة الدار ﴾ استفهام ، وهو يُعلّق فعل العِلم عن العمل ، فلا يعطَى مفعولين استغناء بمُفاد الاستفهام ؛ إذ التّقديرُ : تعلمون أحدَنا تكون له عاقبة الدار .

وموضع : ﴿ من ﴾ رفع على الابتداء ، وجملة : ﴿ تكون له عاقبة الدار ﴾ خبره .

والعاقبة ، في اللّغة : آخر الأمر ، وأثر عمل العامل ، فعاقبة كلّ شيء هي ما ينجلي عنه الشّيء ويظهرُ في آخره من أثر ونتيجة ، وتأنيثه على تأويل الحالة فلا يقال : عاقب الأمر ، ولكن عاقبة وعُقْبى .

وقد خصّص الاستعمال لفظ العاقبة بآخرة الأمر الحَسَنَةِ ، قال الراغب : العاقبة والعقبى يختصّان بالثّواب نحو ﴿ والعاقبة للمتّقين ﴾ [ الأعراف : 128 ] ، وبالإضافة قد يستعمل في العقوبة نحو ﴿ ثمّ كان عاقبة الّذين أساءوا السُّوأى ﴾ [ الروم : 10 ] وقَلّ من

نبَّه على هذا ، وهو من تدقيقه ، وشواهدُه في القرآن كثيرة .

والدّار الموضع الّذي يحلّ به النّاس من أرض أو بناء ، وتقدّم آنفاً عند قوله تعالى : ﴿ لهم دار السّلام ﴾ [ الأنعام : 127 ] ، وتعريف الدّار هنا تعريف الجنس .

(50/252)

---

فيجوز أن يكون لفظ ﴿ الدار ﴾ مطلقاً ، على المعنى الحقيقي ، فإضافةُ ﴿ عاقبة ﴾ إلى ﴿ الدار ﴾ إضافة حقيقية ، أي حُسن الأخارة الحاصلُ في الدّار ، وهي الفوز بالدّار ، والفلج في النّزاع عليها ، تشبيهاً بما كان العرب يتنازعون على المنازل والمَراعي ، وبذلك يكون قوله : ﴿ من تكون له عاقبة الدار ﴾ استعارة تمثيلية مكنية ، شُبّهت حالة المؤمنين الفائزين في عملهم ، مع حالة المشركين ، بحالة الغالب على امتلاك دار عَدُوّه ، وطُوي المركَّب الدالّ على الهيئة المشبَّه بها ، ورُمز إليه بذكر ما هو من رَوادفه ، وهو ﴿ عاقبة الدار ﴾ ، فإنّ التّمثيليّة تكون مصرّحة ، وتكون مكنية ، وإن لم يُقسِّمُوهَا إليهما ، لكنّه تقسيم لا محيص منه .

ويجوز أن تكون ﴿ الدار ﴾ مستعارة للحالة الّتي استقرّ فيها أحد ، تشبيها للحالة بالمكان في الاحتواء ، فتكون إضافة عاقبَة إلى الدار إضافة بيانية ، أي العاقبة الحسنى

الّتي هي حالُه ، فيكون الكلام استعارة مصرّحة .

ومن محاسنها هنا : أنّها بنت على استعارة المكانة للحالة في قوله : ﴿ اعملوا على مكانتكم ﴾ فصار المعنى : اعملوا في داركم ما أنتم عاملون فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار .

وفي الكلام مع ذلك إيماء إلى أنّ عاقبة تلك الدار ، أي بلد مكة ، أن تكون للمسلمين ، كقوله تعالى : ﴿ أنّ الأرض يرثها عبادي الصّالحون ﴾ [ الأنبياء : 105 ] وقد فسّر قوله : ﴿ من تكون له عاقبة الدار ﴾ بغير هذا المعنى .

وقرأ الجمهور : ﴿ مَن تكون ﴾ بتاء فوقيّة وقرأه حمزة ، والكسائي ، بتحتيّة ، لأنّ تأنيث عاقبة غير حقيقي ، فلمّا وقع فاعلاً ظاهراً فيجوز فيه أن يقرن بعلامة التّأنيث وبدونها .

وجملة : ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ تذييل للوعيد يتنزّل منزلة التّعليل ، أي لأنّه لا يفلح الظّالمون ، ستكون عقبى الدار للمسلمين ، لا لكم ، لأنّكم ظالمون .

والتّعريف في ﴿ الظالمون ﴾ للاستغراق ، فيشمل هؤلاء الظّالمين ابتداء ، والضّمير المجعول اسم ( إنّ ) ضميرُ الشأن تنبيها على الاهتمام بهذا الخبر وأنّه أمر عظيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ) .

هَذَا بَيَانٌ لِمَا يَخْطُرُ فِي بَالِ مَنْ يَقْرَأُ مَا قَبْلَهُ أَوْ يَسْمَعُهُ ، فَإِنَّهُ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ : يَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ يَكُونُ حَالُ هَؤُلَاءِ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَتَوَلَّى بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي الدُّنْيَا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ مِنَ الْأَوْزَارِ إِذَا قَدِمُوا عَلَى اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ فَجَاءَ الْجَوَابُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِأَنَّهُمْ يُنَادَوْنَ وَيُسْأَلُونَ عَنْ دَعْوَةِ الرُّسُلِ لِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِهَا فِيمَا يَتَرَتَّبُ مِنَ الْجَزَاءِ عَلَى مُخَالَفَتِهَا ، وَقَدْ حَقَّقْنَا مَعْنَى الْمَعْشَرِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ 130 فَمَا الْعَهْدُ بِهَا بِبَعِيدٍ . وَالِاسْتِفْهَامُ هُنَا لِلتَّقْرِيرِ التَّوْبِيخِيِّ ، وَقَوْلُهُ : (رُسُلٌ مِنْكُمْ) ظَاهِرُهُ أَنَّ كُلًّا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ قَدْ أَرْسَلَ اللهُ مِنْهُمْ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ ، وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّ

(52/252)

الرُّسُلَ كُلَّهُمْ مِنَ الْإِنْسِ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ الْآيَاتِ ، كَحَصْرِ الرِّسَالَةِ فِي الرِّجَالِ وَجَعْلِهَا فِي ذُرِّيَّةِ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ ; وَلِذَلِكَ صَرَفُوا النَّظْمَ عَنْ ظَاهِرِهِ وَقَالُوا : إِنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ : (مِنْكُمْ) مِنْ

جُمْلَتِكُمْ - لَا مِنْ كُلٍّ مِنْكُمْ ، وَهُوَ يُصَدِّقُ بِرُسُلِ الْإِنْسِ الَّذِينَ تَثْبُتُ رِسَالَتُهُمْ إِلَى الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ، وَذَكَرُوا لَهُ شَاهِدًا مِنَ الْقُرْآنِ قَوْلَهُ تَعَالَى : (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ) (55 : 22) بَعْدَ قَوْلِهِ : (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ) (55 : 19) إِلَخْ . أَيِ الْمِلْحُ وَالْحُلْوُ وَهُوَ الْبُحَيْرَاتُ وَكِبَارُ الْأَنْهَارِ ، وَهَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى زَعْمِهِمْ أَنَّ الْبِحَارَ الْحُلْوَةَ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا لُؤْلُؤٌ وَلَا مَرْجَانٌ . وَالصَّوَابُ أَنَّ اللُّؤْلُؤَ يَخْرُجُ مِنْ بَعْضِهَا كَبَعْضِ أَنْهَارِ الْهِنْدِ ، ثَبَتَ ذَلِكَ قَطْعًا وَاسْتَدْرَكَهُ (سَايِلْ) مُتَرْجِمُ الْقُرْآنِ بِالْإِنْكِلِيزِيَّةِ عَلَى الْبَيْضَاوِيِّ . وَهُوَ مِمَّا أَخْبَرَ بِهِ الْقُرْآنُ مِنْ حَقَائِقِ الْأَكْوَانِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَعْرُوفَةً عِنْدَ الْعَرَبِ حَتَّى فِي أَيَّامِ حَضَارَتِهِمْ وَاسْتِعْمَارِهِمْ لِلْأَقْطَارِ . ذَكَرَ هَذَا الشَّاهِدَ ابْنُ جَرِيرٍ وَتَبِعَهُ بِهِ مَنْ بَعْدَهُ . وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ أَنَّهُ قَالَ فِي الْآيَةِ : جَمَعَهُمْ كَمَا جَمَعَ قَوْلَهُ : (وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا) (35 : 12) وَلَا يَخْرُجُ مِنَ الْأَنْهَارِ حِلْيَةٌ انْتَهَى . وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ هَذَا خَطَأٌ ، وَلَفْظُ هَذِهِ الْآيَةِ أَبْعَدُ عَنْ هَذَا التَّأْوِيلِ مِنْ آيَةِ الرَّحْمَنِ بَلْ هُوَ

*(53/252)*

---

يُبْطِلُهُ ، وَخَرَّجَهُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَابِ التَّغْلِيبِ كَقَوْلِهِمْ : أَكَلْتُ تَمْرًا وَلَبَنًا . (قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هُمُ الْجِنُّ الَّذِينَ لَقُوا قَوْمَهُمْ وَهُمْ رُسُلٌ إِلَى قَوْمِهِمْ . انْتَهَى . يَعْنِي أَنَّ الرُّسُلَ مِنَ

الْجِنِّ هُمُ الَّذِينَ تَلَقَّوْا مِنْهُمُ الدَّعْوَةَ مِنْ رُسُلِ الْإِنْسِ وَبَلَّغُوهَا لِقَوْمِهِمْ مِنَ الْجِنِّ كَالَّذِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ قَوْلَهُ فِي سُورَةِ الْأَحْقَافِ : (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ) (46 : 29) الْآيَاتِ . وَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى جَوَازِ تَسْمِيَةِ رَسُولٍ

(54/252)

---

الرَّسُولِ رَسُولًا . وَذَكَرُوا أَنَّ مِنْهُ رُسُلَ أَصْحَابِ الْقَرْيَةِ فِي أَوَائِلِ سُورَةِ " يس " (36 : 13 - 20) وَذَكَرَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ الْمَسْأَلَةَ خِلَافِيَّةٌ ، وَرُوِيَ أَنَّ الضَّحَّاكَ سُئِلَ عَنِ الْجِنِّ هَلْ كَانَ فِيهِمْ نَبِيٌّ قَبْلَ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لِلسَّائِلِ : أَلَمْ تَسْمَعْ إلَى قَوْلِ اللَّهِ : (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا) فَقَالُوا : بَلَى ؟ وَذَكَرَ أَنَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِقَوْلِ الضَّحَّاكِ يَرُدُّونَ التَّأْوِيلَ السَّابِقَ بِأَنَّهُ خِلَافُ الْمُتَبَادَرِ مِنَ اللَّفْظِ ، وَلَوْ صَدَقَ فِي رُسُلِ الْجِنِّ لَصَدَقَ فِي رُسُلِ الْإِنْسِ لِعَدَمِ الْفَرْقِ . وَذَكَرَ غَيْرُهُ أَنَّ الضَّحَّاكَ اسْتَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) (35 : 24) وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ : (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ) (10 : 47) وَقَوْلُهُ : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي

(55/252)

كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) (16 : 36) مَعَ ضَمِيمَةِ إِطْلَاقِ لَفْظِ الْأُمَّةِ عَلَى جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْأَحْيَاءِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ) (6 : 38) وَتَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِهِ أَنَّ بَعْضَ الصُّوفِيَّةِ قَالَ بِتَكْلِيفِ الْحَيَوَانَاتِ وَاسْتَدَلُّوا بِآيَةِ (35 : 24) وَأَنَّ الشَّعْرَانِيَّ ذَكَرَ فِي الْجَوَاهِرِ أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ نَذْرُهَا مِنْهَا وَأَنْ يَكُونُوا مِنْ غَيْرِهَا ، وَاسْتَدَلَّ أَيْضًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا) (6 : 9) أَيْ بِنَاءً عَلَى اسْتِئْنَاسِ الْجِنْسِ بِالْجِنْسِ وَفَهْمِهِ عَنْهُ ، وَقَدْ يُرَدُّ هَذَا بِأَنَّهُ ثَبَتَ فِي الْقُرْآنِ أَنَّ الْجِنَّ يَفْهَمُونَ مِنْ رُسُلِ الْإِنْسِ . وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ فِي الْخِلَافِ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْمَسْأَلَةِ نَصٌّ قَطْعِيٌّ ، وَالظَّوَاهِرُ الَّتِي اسْتَدَلَّ بِهَا الْجُمْهُورُ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ خَاصَّةً بِرُسُلِ الْإِنْسِ لِأَنَّ الْكَلَامَ مَعَهُمْ ، وَلَيْسَتْ أَقْوَى مِنْ ظَاهِرِ الْآيَاتِ الَّتِي اسْتُدِلَّ بِهَا عَلَى كَوْنِ الرُّسُلِ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ وَالْجِنُّ عَالَمٌ غَيْبِيٌّ لَا نَعْرِفُ عَنْهُ إِلَّا مَا وَرَدَ بِهِ النَّصُّ ، وَقَدْ دَلَّ الْقُرْآنُ – وَكَذَا الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ – عَلَى رِسَالَةِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ ، وَحَكَى تَعَالَى عَنِ الَّذِينَ اسْتَمَعُوا الْقُرْآنَ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا : (إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى) (46 : 30) فَظَاهِرُهُ أَنَّهُ كَانَ مُرْسَلًا إِلَيْهِمْ . فَنَحْنُ نُؤْمِنُ بِمَا وَرَدَ

وَنُفَوِّضُ الْأَمْرَ فِيمَا عَدَا ذَلِكَ إِلَى اللهِ تَعَالَى ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى وَصَفَ الرُّسُلَ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ إِلَى الْفَرِيقَيْنِ مِنْهُمْ بِقَوْلِهِ : (يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا) أَيْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي الَّتِي أَنْزَلْتُهَا عَلَيْكُمُ الْمُبَيِّنَةَ لِأُصُولِ الْإِيمَانِ ، وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَحَسَنَاتِ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا صَلَاحُ الْأَحْوَالِ وَسَلَامَةُ الْمَآلِ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا بِإِعْلَامِكُمْ مَا يَقَعُ فِيهِ مِنَ الْحِسَابِ وَالْعِقَابِ عَلَى مَنْ كَفَرَ عَنْ جُحُودٍ أَوِ ارْتِيَابٍ .

(قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا) هَذَا مَا حَكَاهُ تَعَالَى مِنْ جَوَابِهِمْ عَنِ السُّؤَالِ عِنْدَمَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فِي مَوَاقِفِ الْقِيَامَةِ بِالْكَلَامِ ، وَثَمَّ مَوَاقِفُ أُخْرَى لَا يَنْطِقُونَ فِيهَا وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ، وَمَوَاقِفُ يُكَذِّبُونَ فِيهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِمَا يُنْكِرُونَ مِنْ كُفْرِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ ، وَتَقَدَّمَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ، وَجَوَابُهُمْ هَذَا وَجِيزٌ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِكُفْرِهِمْ وَيُقِرُّونَ بِإِتْيَانِ الرُّسُلِ وَبُلُوغِهِمْ دَعْوَتَهُمْ مِنْهُمْ أَوْ مِمَّنْ نَقَلَهَا عَنْهُمْ . وَأَنَّهُمْ كَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ; وَلِذَلِكَ قَالَ : (وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) أَيْ غَرَّهُمْ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الشَّهَوَاتِ وَالْمَالِ وَالْجَاهِ وَحُبِّ

الرِّيَاسَةِ وَالسُّلْطَانِ عَلَى النَّاسِ ، وَرَأَوْا مِنْ دَعْوَةِ الرُّسُلِ فِي عَصْرِهِمْ أَنَّ اتِّبَاعَهُمْ إِيَّاهُمْ يَجْعَلُ الرَّئِيسَ مِنْهُمْ مَرْءُوسًا وَمُسَاوِيًا لِضُعَفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ فِي جَمِيعِ الْحُقُوقِ وَالْمُعَامَلَاتِ . وَقَدْ يُكْرَمُونَ عَلَيْهِ بِمَا يَفْضُلُونَهُ بِهِ مِنَ التَّقْوَى وَصَالِحِ الْأَعْمَالِ ، وَكَذَلِكَ حَالُ مَنْ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنَ الرُّؤَسَاءِ وَالزُّعَمَاءِ بِشَجَاعَتِهِمْ أَوْ ثَرْوَتِهِمْ أَوْ عَصَبِيَّتِهِمْ ، فَهَؤُلَاءِ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِالرُّسُلِ كُفْرَ كِبْرٍ وَعِنَادٍ يُقَلِّدُهُمْ فِيهِ كَثِيرٌ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ تَقْلِيدًا ، فَيَغْتَرُّ كُلٌّ مِنْهُمْ بِمَا يَعْتَزُّ بِهِ مِنَ التَّعَاوُنِ مَعَ الْآخَرِ . وَكَانَ عَصْرُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ نَحْوًا مِنْ عَصْرِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذِهِ الْمُسَاوَاةِ ، وَلَكِنَّهُ اخْتَلَفَ عَنْهُ بِمَا تَجَدَّدَ لِلْإِسْلَامِ مِنَ الْمُلْكِ وَالثَّرْوَةِ وَالْقُوَّةِ ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَانِعًا لِجَبَلَةَ بْنِ الْأَيْهَمِ مِنَ الِارْتِدَادِ عَنْهُ لَمَّا عَلِمَ أَنَّ عُمَرَ يَقْتَصُّ مِنْهُ لِأَحَدِ السُّوقَةِ .

(58/252)

---

وَأَمَّا غُرُورُ أَهْلِ هَذِهِ الْأَعْصَارِ بِالدُّنْيَا الْمَانِعِ لَهُمْ مِنِ اتِّبَاعِ الرُّسُلِ ، فَهُوَ مَا غَلَبَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْإِسْرَافِ فِي الشَّهَوَاتِ الْمُحَرَّمَةِ وَالْجَاهِ الْبَاطِلِ الْمَذْمُومَيْنِ فِي كُلِّ دِينٍ ، وَقَدْ زَالَتْ مِنْ أَكْثَرِ الْبِلَادِ الْحُكُومَاتُ الدِّينِيَّةُ الَّتِي كَانَ أَهْلُ الدِّينِ يَعْتَزُّونَ بِهَا ، وَحَلَّ مَحَلَّهَا حُكُومَاتٌ مَادِّيَّةٌ لَا يَرْتَقِي فِيهَا وَلَا يَنَالُ الْحُظْوَةَ عِنْدَ أَهْلِهَا مَنْ يَتَّبِعُ الرُّسُلَ ، بَلْ لَمْ يَعُدْ هَذَا الِاتِّبَاعُ سَبَبًا مِنْ أَسْبَابِ نَعِيمِ الدُّنْيَا وَرِيَاسَتِهَا الْمَشْرُوعَيْنِ ، فَمَا الْقَوْلُ بِالْمَحْظُورَيْنِ . وَهَذَا عَلَى خِلَافِ

الْأَصْلِ فِي الدِّينِ فَإِنَّهُ شُرِعَ لِيَكُونَ سَبَبًا لِسَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَلَكِنَّ النَّاسَ لَبِسُوهُ مَقْلُوبًا حَتَّى جَهِلُوا حَقِيقَتَهُ ، وَلَا سِيَّمَا دِينُ الْإِسْلَامِ الْكَامِلُ الْمُكَمِّلُ الْمُتَمِّمُ بِجَمْعِهِ بَيْنَ حَاجَةِ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ وَجَمِيعِ مَصَالِحِ الِاجْتِمَاعِ وَالسِّيَادَةِ بِالْحَقِّ . وَلَوْ كَانَ لِلْإِسْلَامِ مُلْكٌ قَوِيٌّ فِي هَذَا الْعَصْرِ لَقَلَّ فِي اللَّابِسِينَ لِبَاسَهُ النِّفَاقُ وَالْفُسُوقُ - دَعِ الْكُفْرَ وَالْمُرُوقَ - وَلَدَخَلَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ أَفْوَاجًا .

*(59/252)*

---

(وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ) أَيْ وَشَهِدُوا فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ مِنْ مَوَاقِفِ ذَلِكَ الْيَوْمِ إِذْ تَقُومُ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا كَافِرِينَ بِتِلْكَ الْآيَاتِ وَالنُّذُرِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الرُّسُلُ ؛ إِذْ لَا يَجِدُونَ فِيهِ مَجَالًا لِلْكَذِبِ وَالْمُكَابَرَةِ وَلَا لِلتَّأْوِيلِ . وَلَيْسَ الْكُفْرُ بِمَا جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ مَحْصُورًا فِي تَكْذِيبِهِمْ بِالْقَوْلِ ، بَلْ مِنْهُ عَدَمُ الْإِذْعَانِ النَّفْسِيِّ الَّذِي يَتْبَعُهُ الْعَمَلُ بِحَسَبِ سُنَّةِ اللهِ تَعَالَى فِي الطِّبَاعِ وَالْأَخْلَاقِ وَتَرَتُّبِ الْأَعْمَالِ عَلَيْهَا ، فَالْكُفْرُ نَوْعَانِ : عَدَمُ الْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ، وَعَدَمُ الْإِسْلَامِ لَهُ بِالْإِذْعَانِ وَالْعَمَلِ . وَالذَّنْبُ الْعَارِضُ لَا يُنَافِي الْإِسْلَامَ كَمَا فُصِّلَ مِرَارًا .

(ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ) أَيْ ذَلِكَ الَّذِي ذُكِرَ مِنْ

إِتْيَانِ الرُّسُلِ يَقُصُّونَ عَلَى الْأُمَمِ آيَاتِ اللهِ تَعَالَى فِي الْإِصْلَاحِ الرُّوحِيِّ وَالِاجْتِمَاعِيِّ ، وَيُنْذِرُونَهُمْ يَوْمَ الْحَشْرِ وَالْجَزَاءِ ، بِسَبَبِ أَنَّ رَبَّكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ الْمَبْعُوثُ بِالْإِصْلَاحِ الْأَكْمَلِ لِبَقِيَّةِ الْأُمَمِ كُلِّهَا ، لَمْ يَكُنْ مِنْ شَأْنِهِ وَلَا مِنْ سُنَنِهِ فِي تَرْبِيَةِ خَلْقِهِ أَنْ يُهْلِكَ الْقُرَى أَيِ الْأُمَمَ بِعَذَابِ الِاسْتِئْصَالِ الَّذِي أَوْعَدَ بِهِ مُكَذِّبِي الرُّسُلِ ، وَلَا بِعَذَابِ فَقْدِ الِاسْتِقْلَالِ الَّذِي أَوْعَدَ بِهِ مُخَالِفِي هِدَايَتِهِمْ بَعْدَ قَبُولِهَا بِظُلْمٍ مِنْهُ لَهُمْ ، أَوْ بِظُلْمٍ مِنْهُمْ وَهُمْ غَافِلُونَ عَمَّا يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَّقُوا بِهِ هَذَا الْهَلَاكَ ، بَلْ يَتَقَدَّمُ هَلَاكَ كُلِّ أُمَّةٍ إِرْسَالُ رَسُولٍ يُبَلِّغُهَا مَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ مِنَ الصَّلَاحِ وَالْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْفَضَائِلِ بِمَا يَقُصُّهُ عَلَيْهَا مِنْ آيَاتِ الْوَحْيِ فِي عَصْرِهِ ، أَوْ بِمَا يَنْقُلُ إِلَيْهَا مَنْ يُبَلِّغُونَهَا دَعْوَتَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، فَإِنَّمَا الْعِبْرَةُ بِالدَّعْوَةِ الَّتِي تُنَبِّهُ أَهْلَ الْغَفْلَةِ ، فَلَا يَكُونُ أَخْذُهُمْ عَلَى غِرَّةٍ ؛ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْ حِكْمَةِ اللهِ تَعَالَى فِي الْأُمَمِ جَعْلَ جَمِيعِ مَا يَنْزِلُ بِهِمْ مِنْ عِقَابٍ جَزَاءً عَلَى عَمَلٍ اسْتَحَقُّوهُ بِهِ ، فَيَكُونُ عِقَابُهُمْ تَرْبِيَةً لِمَنْ يُسْلِمُ مِنْهُمْ وَلِكُلِّ مَنْ عَرَفَ سُنَّةَ اللهِ فِي ذَلِكَ وَلِهَذَا عَبَّرَ بِلَفْظِ الرَّبِّ ، وَمِنْهُ يُعْلَمُ أَنَّ لَهُ تَعَالَى الْحُجَّةَ الْبَالِغَةَ عَلَى خَلْقِهِ بِأَنَّهُ لَا يَظْلِمُهُمْ شَيْئًا ، وَإِنَّمَا هُمُ الَّذِينَ يَظْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ . وَأَنَّ الْإِهْلَاكَ

وَالتَّعْذِيبَ لَيْسَ صِفَةً مِنْ صِفَاتِهِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي لَا بُدَّ مِنْ وُقُوعِ مُتَعَلِّقِهَا سَوَاءٌ أَذْنَبَ الْمُكَلَّفُونَ أَمْ لَمْ يُذْنِبُوا ، بَلْ هُوَ مِنْ أَفْعَالِهِ الَّتِي يُرَبِّي بِهَا عِبَادَهُ .

أَشَرْنَا إِلَى أَنَّ قَوْلَهُ : (بِظُلْمٍ) فِيهِ وَجْهَانِ لِلْمُفَسِّرِينَ بَيَّنَّاهُمَا بِمَا رَأَيْتَ ، وَقَدْ سَبَقَ إِلَى ذَلِكَ شَيْخُهُمُ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ وَلَخَّصَ قَوْلَهُ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ وَشَايَعَهُ عَلَيْهِ قَالَ : قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرِ بْنُ جَرِيرٍ : وَيَحْتَمِلُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (بِظُلْمٍ) وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمِ أَهْلِهَا بِالشِّرْكِ وَنَحْوِهِ وَهُمْ غَافِلُونَ . يَقُولُ : لَمْ يَكُنْ يُعَاجِلُهُمْ بِالْعُقُوبَةِ حَتَّى يَبْعَثَ إِلَيْهِمْ مَنْ يُنَبِّهُهُمْ عَلَى حُجَجِ اللهِ عَلَيْهِمْ ، وَيُنْذِرُهُمْ عَذَابَ اللهِ يَوْمَ مَعَادِهِمْ ، وَلَمْ يَكُنْ بِالَّذِي يَأْخُذُهُمْ غَفْلَةً فَيَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ، وَالْوَجْهُ الثَّانِي : ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ يَقُولُ لَمْ يَكُنْ لِيُهْلِكَهُمْ دُونَ التَّنْبِيهِ وَالتَّذْكِيرِ بِالرُّسُلِ وَالْآيَاتِ وَالْعِبَرِ فَيَظْلِمَهُمْ بِذَلِكَ وَاللهُ غَيْرُ ظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ثُمَّ شَرَعَ يُرَجِّحُ الْوَجْهَ الْأَوَّلَ وَلَا شَكَّ أَنَّهُ أَقْوَى وَاللهُ أَعْلَمُ اهـ .

(62/252)

وَتَقُولُ : إِنَّ كُلًّا مِنَ الْمَعْنَيَيْنِ صَحِيحٌ فِي نَفْسِهِ ، وَمَذْهَبُنَا أَنَّهُ لَا مَانِعَ مِنْ إِرَادَةِ اللهِ تَعَالَى لِكُلِّ مَا يَحْتَمِلُهُ نَظْمُ كِتَابِهِ مِنْ مَعْنًى صَحِيحٍ . وَقَدْ وَرَدَ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ عِدَّةُ آيَاتٍ مِنْهَا مَا هُوَ نَصٌّ فِي إِهْلَاكِ الْقُرَى بِظُلْمِهَا ، وَمِنْهَا مَا هُوَ بَيَانٌ لِسُنَّتِهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ كَهَذِهِ الْآيَةِ . وَمِنَ الْأَوَّلِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ هُودٍ : (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) (11 : 102) وَمِنَ الثَّانِي قَوْلُهُ فِيهَا : (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) (117)

(63/252)

---

وَقَدْ جَزَمَ بَعْضُهُمْ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِالظُّلْمِ هُنَا الشِّرْكُ ، وَاسْتَدَلُّوا عَلَيْهِ بِمَا صَحَّ مَرْفُوعًا مِنْ تَفْسِيرِهِ بِهِ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) (6 : 82) الْآيَةَ . وَاسْتِشْهَادُ الْحَدِيثِ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِ لُقْمَانَ الَّذِي حَكَاهُ اللهُ عَنْهُ : (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) (31 : 13) وَقَدْ بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِ تِلْكَ الْآيَةِ أَنَّ الظُّلْمَ إِنَّمَا صَحَّ تَفْسِيرُهُ فِيهَا بِالشِّرْكِ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ الظُّلْمِ - وَهُوَ نَكِرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ - لِأَنَّهُ وَارِدٌ فِي الظُّلْمِ الَّذِي يُلْبَسُ بِهِ الْإِيمَانُ فَصَحَّ فِيهِ الْعُمُومُ الْمُقَيَّدُ الَّذِي وَرَدَ فِيهِ ؛ لِأَنَّ قَلِيلَ الشِّرْكِ يُفْسِدُ الْإِيمَانَ كَكَثِيرِهِ . وَأَمَّا الظُّلْمُ فِي الْآيَةِ الَّتِي نُفَسِّرُهَا الْآنَ وَفِي آيَةِ هُودٍ الْمُمَاثِلَةِ لَهَا فَقَدْ وَرَدَ نَكِرَةً فِي سِيَاقِ النَّفْيِ فِي مَقَامِ بَيَانِ

سَبَبِ إِهْلَاكِ الْقُرَى ، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْعُمُومُ فِيهِ مُطْلَقًا لِمَا ثَبَتَ فِي الْآيَاتِ الْأُخْرَى الْمُؤَيِّدَةِ بِوَقَائِعِ التَّارِيخِ مِنْ هَلَاكِ الْأُمَمِ بِالظُّلْمِ فِي الْأَعْمَالِ وَالْأَحْكَامِ ، وَبَقَائِهَا زَمَنًا طَوِيلًا مَعَ الشِّرْكِ إِذَا كَانَتْ مُصْلِحَةً فِيهِمَا كَمَا هُوَ ظَاهِرُ آيَةِ هُودٍ . وَلِلَّهِ دَرُّ الْحَافِظِ ابْنِ كَثِيرٍ فَإِنَّهُ نَقَلَ عِبَارَةَ الْإِمَامِ ابْنِ جَرِيرٍ بِالْمَعْنَى فَقَالَ فِي الْوَجْهِ الْأَوَّلِ : بِالشِّرْكِ وَنَحْوِهِ ، أَيْ وَمَا يُشْبِهُهُ مِنَ الظُّلْمِ فِي الْأَعْمَالِ وَالْأَحْكَامِ ، فَأَشَارَ إِلَى الْعُمُومِ ، وَعِبَارَةُ ابْنِ جَرِيرٍ : بِشِرْكِ مَنْ أَشْرَكَ وَكُفْرِ مَنْ كَفَرَ

(64/252)

---

مِنْ أَهْلِهَا كَمَا قَالَ لُقْمَانُ : (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) ، وَهِيَ تُنَافِي صِيغَةَ الْعُمُومِ وَسُبْحَانَ مَنْ لَا يُخْطِئُ وَلَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ شَيْءٌ .

هَذَا وَإِنَّنَا قَدْ فَصَّلْنَا مِنْ قَبْلُ مَا ذَكَرْنَاهُ آنِفًا بِالْإِجْمَالِ مِنْ أَنَّ عِقَابَ اللهِ تَعَالَى لِلْأُمَمِ وَكَذَا لِلْأَفْرَادِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَنْوَاعٌ ، وَأَنَّ مِنْهُ مَا يُسَمَّى عَذَابَ الِاسْتِئْصَالِ لِمَنْ عَانَدُوا الرُّسُلَ بَعْدَ أَنْ جَاءُوهُمْ بِمَا اقْتَرَحُوا عَلَيْهِمْ مِنَ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ وَأُنْذِرُوهُمُ الْهَلَاكَ إِذَا لَمْ يُؤْمِنُوا بَعْدَ تَأْيِيدِ اللهِ إِيَّاهُمْ بِهَا كَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ لُوطٍ ، فَسُنَّةُ اللهِ فِي ذَلِكَ خَاصَّةٌ وَقَدِ انْقَطَعَتْ بِانْقِطَاعِ إِرْسَالِ الرُّسُلِ إِذْ لَيْسَتْ جَارِيَةً عَلَى سَائِرِ سُنَنِ الِاجْتِمَاعِ .

وَمِنْهُ هَلَاكُ الْأُمَمِ بِمَا يَغْلِبُ عَلَيْهَا مِنَ الظُّلْمِ أَوِ الْفِسْقِ وَالْفُجُورِ الَّذِي

يُفْسِدُ الْأَخْلَاقَ وَيَقْطَعُ رَوَابِطَ الِاجْتِمَاعِ ، وَيَجْعَلُ بَأْسَ الْأُمَّةِ بَيْنَهَا شَدِيدًا فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا اجْتِمَاعِيًّا لِسَلْبِ اسْتِقْلَالِهَا وَذَهَابِ مُلْكِهَا بِحَسَبِ سُنَنِ الِاجْتِمَاعِ ، وَقَدْ أَنْذَرَنَا اللهُ هَذَا فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ كَمَا شَرَحْنَاهُ مِنْ قَبْلُ فَيُرَاجَعُ تَفْصِيلُ ذَلِكَ فِيمَا مَضَى مِنَ التَّفْسِيرِ .

(65/252)

---

ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ وَمَا فِي مَعْنَاهَا مِنَ الْآيَاتِ - كَآيَةِ هُودٍ - مِنْ قَوَاعِدِ عِلْمِ الِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ الَّذِي لَا يَزَالُ فِي طَوْرِ الْوَضْعِ وَالتَّدْوِينِ ; وَهُوَ الْعِلْمُ بِسُنَنِ اللهِ تَعَالَى فِي قُوَّةِ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ وَضَعْفِهَا وَعِزِّهَا وَذُلِّهَا وَغِنَاهَا وَفَقْرِهَا وَبَدَاوَتِهَا وَحَضَارَتِهَا وَأَعْمَالِهَا وَنَحْوِ ذَلِكَ .

وَفَائِدَةُ هَذَا الْعِلْمِ فِي الْأُمَمِ كَفَائِدَةِ عِلْمِ النَّحْوِ وَالْبَيَانِ فِي حِفْظِ اللُّغَةِ ، وَفِي الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ أَهَمُّ قَوَاعِدِهِ وَأُصُولِهِ

(66/252)

---

وَقَدْ سَبَقَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى بَيَانِ بَعْضِهَا ، وَبَدَأَ ابْنُ خَلْدُونَ بِجَعْلِهِ عِلْمًا مُدَوَّنًا يَرْتَقِي بِالتَّدْرِيجِ كَغَيْرِهِ مِنَ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ ، وَلَكِنِ اسْتَفَادَ غَيْرُ الْمُسْلِمِينَ بِمَا كَتَبَهُ فِي ذَلِكَ وَبَنَوْا عَلَيْهِ وَوَسَّعُوهُ فَكَانَ مِنَ الْعُلُومِ الَّتِي سَادُوا بِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ كَمَا كَانَ يَجِبُ ؛ لِأَنَّهُ كُتِبَ فِي طَوْرِ تَدَنِّيهِمْ وَانْحِطَاطِهِمْ ، بَلْ لَمْ يَسْتَفِيدُوا مِنْ هِدَايَةِ الْقُرْآنِ الْعُلْيَا فِي إِقَامَةِ أَمْرِ مُلْكِهِمْ وَحَضَارَتِهِمْ عَلَى مَا أَرْشَدَهُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْقَوَاعِدِ وَسُنَنِ اللهِ تَعَالَى فِيمَنْ قَبْلَهُمْ . وَلَا يَزَالُونَ مُعْرِضِينَ عَنْ هَذَا الرُّشْدِ وَالْهِدَايَةِ عَلَى شِدَّةِ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا بِسَبَبِ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ تَنَازُعُ الْبَقَاءِ بَيْنَ الْأُمَمِ فِي هَذَا الْعَصْرِ ، وَإِنَّا نَرَى بَعْضَهُمْ يُعَزِّي نَفْسَهُ عَنْ ضَعْفِ أُمَّتِهِ وَيَعْتَذِرُ عَنْ تَقْصِيرِهَا بِالْقَدَرِ الَّذِي يَفْهَمُهُ مَقْلُوبًا بِمَعْنَى الْجَبْرِ أَوْ يُسَلِّيهَا بِأَنَّ هَذَا مِنْ عَلَامَاتِ السَّاعَةِ وَارْتَكَسَ بَعْضُهُمْ فِي حَمْأَةِ جَهْلِهِ بِالْإِسْلَامِ حَتَّى ارْتَدُّوا عَنْهُ سِرًّا أَوْ جَهْرًا زَاعِمِينَ أَنَّ تَعَالِيمَهُ هِيَ الَّتِي أَضْعَفَتْهُمْ وَأَضَاعَتْ عَلَيْهِمْ مُلْكَهُمْ ، وَالْتَمَسُوا هِدَايَةً غَيْرَ هِدَايَتِهِ لِيُقِيمُوا بِهَا دُنْيَاهُمْ فَخَسِرُوا الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ وَذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ .

*(67/252)*

---

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا) أَيْ وَلِكُلٍّ مِنْ مَعْشَرَيِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ الَّذِينَ بَلَغَتْهُمْ دَعْوَةُ الرُّسُلِ دَرَجَاتٌ وَمَنَازِلُ مِنْ جَزَاءِ أَعْمَالِهِمْ تَتَفَاوَتُ بِتَفَاوُتِهِمْ فِيهَا (وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) بَلْ

هُوَ عَالِمٌ بِهِ وَمُحْصِيهِ عَلَيْهِمْ . فَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ، وَيُضَاعِفُ اللَّهُ الْحَسَنَاتِ دُونَ السَّيِّئَاتِ ؛ لِأَنَّ الْفَضْلَ مَا كَانَ فَوْقَ

(68/252)

---

الْعَدْلِ . فَإِنْ أُرِيدَ بِكُلٍّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ آخِرُ مَنْ ذُكِرَ مِنْهُمْ وَهُمُ الْكَافِرُونَ عَلَى مَا هُوَ الْأَكْثَرُ فِي الِاسْتِعْمَالِ - فَالدَّرَجَاتُ بِمَعْنَى الدَّرَكَاتِ كَالدَّرْجِ وَالدَّرْكِ ، وَالْأَصْلُ فِي الْأَوَّلِ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي الْخَيْرِ وَجَزَائِهِ ، وَالثَّانِي فِي مُقَابِلِهِ وَمِنْهُ : (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) (4 : 145) وَالرَّاغِبُ يُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا بِأَنَّ الدَّرْجَ يُقَالُ بِاعْتِبَارِ الصُّعُودِ وَالدَّرْكَ بِاعْتِبَارِ الْحُدُورِ وَالْهُبُوطِ ، وَجُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ جَعَلُوا كِلَاهُمَا عَامًّا لِفَرِيقَيِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ فَيَكُونُ اسْتِعْمَالُ الدَّرَجَاتِ مِنْ بَابِ تَغْلِيبِ الْمُؤْمِنِينَ . وَشَذَّ مَنْ قَالَ : إِنَّ مُسْلِمِي الْجِنِّ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِذْ لَيْسَ لَهُمْ ثَوَابٌ ، وَأَشَدُّ مِنْهُ شُذُوذًا مَنْ زَعَمَ أَنَّهُمْ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا النَّارَ نَقَلَ ذَلِكَ السُّيُوطِيُّ عَنْ لَيْثِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ وَهُوَ مُخَالِفٌ لِنُصُوصِ الْقُرْآنِ وَلَيْثٌ هَذَا مُضْطَرِبُ الْحَدِيثِ ، وَإِنْ رَوَى عَنْهُ مُسْلِمٌ وَقَدِ اخْتَلَطَ عَقْلُهُ فِي آخِرِ عُمْرِهِ وَلَعَلَّهُ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ وَغَيْرَهُ مِمَّا أُنْكِرَ عَلَيْهِ بَعْدَ اخْتِلَاطِهِ .

(69/252)

هَذَا وَإِنَّنَا وَإِنْ بَيَّنَّا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مُبْطِلَةٌ لِلْقَوْلِ بِالْجَبْرِ الْبَاطِلِ الْهَادِمِ لِلشَّرَائِعِ وَالْأَدْيَانِ الَّذِي أَلْبَسُوهُ ثَوْبَ الْقَدَرِ الثَّابِتِ بِالْعِلْمِ الْمُؤَيِّدِ لِلْقُرْآنِ ، فَإِنَّنَا نَرَى أَنْ نُصَرِّحَ بِأَنَّ الْفَخْرَ الرَّازِيَّ – عَفَا اللَّهُ عَنْهُ – قَدْ صَرَّحَ فِي تَفْسِيرِهَا بِأَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى الْجَبْرِ وَأَنْ نَذْكُرَ عِبَارَتَهُ بِنَصِّهَا وَنُبَيِّنَ بُطْلَانَهَا وَإِنْ سَبَقَ لَنَا مِثْلُ ذَلِكَ فِي غَيْرِهَا حَتَّى لَا يَغْتَرَّ بِهَا مَنْ يَنْخَدِعُ بِلَقَبِهِ وَكِبَرِ شُهْرَتِهِ قَالَ :

" اعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَدُلُّ أَيْضًا عَلَى صِحَّةِ قَوْلِنَا فِي مَسْأَلَةِ الْجَبْرِ وَالْقَدَرِ ; وَذَلِكَ لِأَنَّهُ تَعَالَى حَكَمَ لِكُلِّ وَاحِدٍ فِي وَقْتٍ مُعَيَّنٍ بِحَسَبِ فِعْلٍ مُعَيَّنٍ بِدَرَجَةٍ مُعَيَّنَةٍ ، وَعَلِمَ تِلْكَ الدَّرَجَةَ بِعَيْنِهَا وَأَثْبَتَ تِلْكَ الدَّرَجَةَ الْمُعَيَّنَةَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ وَأَشْهَدَ عَلَيْهِ زُمْرَةَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ ، فَلَوْ لَمْ تَحْصُلْ تِلْكَ الدَّرَجَةُ لِذَلِكَ الْإِنْسَانِ لَبَطَلَ ذَلِكَ الْحُكْمُ وَلَصَارَ ذَلِكَ الْعِلْمُ جَهْلًا وَلَصَارَ ذَلِكَ الْإِشْهَادُ كَذِبًا وَكُلُّ ذَلِكَ مُحَالٌ ، فَثَبَتَ أَنَّ لِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا (وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) (132) وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَقَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَالسَّعِيدُ مَنْ سَعِدَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَالشَّقِيُّ مَنْ شَقِيَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ " اهـ .

*(70/252)*

وَنَقُولُ : إنَّ حُكْمَ اللهِ تَعَالَى الْقَدَرِيَّ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ نَاقِضًا وَمُبْطِلًا لِحُكْمِهِ الشَّرْعِيِّ وَمُكَذِّبًا لِوَحْيِهِ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : إنَّ الدَّرَجَاتِ تَكُونُ لِلْمُكَلَّفِينَ بِأَعْمَالِهِمْ . وَإِذَا كَانَ الرَّازِيُّ قَدْ صَرَّحَ بِأَنَّهُ تَعَالَى " قَدْ حَكَمَ لِكُلِّ وَاحِدٍ فِي وَقْتٍ مُعَيَّنٍ بِحَسَبِ فِعْلٍ مُعَيَّنٍ بِدَرَجَةٍ مُعَيَّنَةٍ " إلَخْ . فَمِنْ أَيْنَ عَلِمَ أَنَّهُ قَدْ جَعَلَهُ مَجْبُورًا عَلَى هَذَا الْفِعْلِ وَهُوَ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ مُخْتَارٌ ، وَالْقُرْآنُ قَدْ صَدَّقَ الْوِجْدَانَ بِإِثْبَاتِ الْمَشِيئَةِ وَالْإِرَادَةِ لِلْإِنْسَانِ . وَنَوْطُ مَشِيئَتِهِ بِمَشِيئَةِ اللهِ مَعْنَاهُ أَنَّهُ تَعَالَى شَاءَ أَنْ يَكُونَ فَاعِلًا بِالْإِرَادَةِ وَالِاخْتِيَارِ ، وَلَوْ لَمْ يَشَأْ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ وَلَكِنْ شَاءَهُ فَكَانَ ، وَعَلِمَ ذَلِكَ وَكَتَبَهُ وَرَتَّبَ عَلَيْهِ دِينَهُ وَشَرْعَهُ .

*(71/252)*

---

(وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ إنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) هَذِهِ الْآيَاتُ الثَّلَاثُ مُؤَيِّدَةٌ لِلثَّلَاثِ الَّتِي قَبْلَهَا وَمُتَمِّمَةٌ لِبَيَانِ الْمُرَادِ مِنْهَا . أَمَّا تِلْكَ فَبَيَانٌ لِحُجَّةِ اللهِ تَعَالَى عَلَى الْمُكَلَّفِينَ الَّذِينَ بَلَغَتْهُمْ دَعْوَةُ الرُّسُلِ فَجَحَدُوا بِهَا ، وَتَقْرِيرٌ لَهُمْ يَشْهَدُونَ بِهِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ، وَأَنَّ عِقَابَهُمْ هُنَالِكَ حَقٌّ وَعَدْلٌ – وَبَيَانٌ لِسُنَّتِهِ تَعَالَى فِي إهْلَاكِ الْأُمَمِ فِي

الدُّنْيَا بِجِنَايَتِهَا عَلَى أَنْفُسِهَا لَا بِظُلْمٍ مِنْهُ بَلْ بِظُلْمِهَا لِأَنْفُسِهَا ظُلْمًا لَا عُذْرَ لَهَا فِيهِ – وَبَيَانُ أَنَّ لِكُلٍّ مِنَ الْمُكَلَّفِينَ جَمَاعَاتٍ وَأَفْرَادٍ دَرَجَاتٌ فِي الْجَزَاءِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ ، وَحَاصِلُ الثَّلَاثِ أَنَّ الْأَعْمَالَ النَّفْسِيَّةَ وَالْبَدَنِيَّةَ هِيَ الَّتِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا الْجَزَاءُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

(72/252)

---

وَأَمَّا هَذِهِ الْآيَاتُ الَّتِي قَفَّى بِهَا عَلَيْهَا فَهِيَ أَيْضًا فِي بَيَانِ عِقَابِ الْأُمَمِ فِي الدُّنْيَا بِالْهَلَاكِ الصُّورِيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ وَتَحْقِيقِ وَعِيدِ الْآخِرَةِ ، وَكَوْنِ كُلٍّ مِنْهُمَا مُرَتَّبًا عَلَى أَعْمَالِ الْمُكَلَّفِينَ لَا بِظُلْمٍ مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَلَا لِحَاجَةٍ لَهُ تَعَالَى فِيهِ لِأَنَّهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ، بَلْ هُوَ مَعَ كَوْنِهِ مُقْتَضَى الْحَقِّ وَالْعَدْلِ ، مَقْرُونٌ بِالرَّحْمَةِ وَالْفَضْلِ ، وَهَاكَ تَفْصِيلُهُ بِالْقَوْلِ الْفَصْلِ .

خَتَمَ الْآيَاتِ السَّابِقَةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) أَيْ بَلْ هُوَ مُحِيطٌ بِهَا وَمُجَازٍ عَلَيْهَا وَبَدَأَ هَذِهِ بِقَوْلِهِ : (وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ) لِإِثْبَاتِ غِنَاهُ تَعَالَى عَنْ تِلْكَ الْأَعْمَالِ وَالْعَامِلِينَ لَهَا وَعَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَرَحْمَتِهِ فِي التَّكْلِيفِ

(73/252)

---

وَالْجَزَاءِ وَغَيْرِهِمَا . وَالْجُمْلَةُ تُفِيدُ الْحَصْرَ أَوِ الْقَصْرَ كَمَا قَالُوا . أَيْ وَرَبُّكَ غَيْرُ الْغَافِلِ عَنْ تِلْكَ الْأَعْمَالِ هُوَ الْغَنِيُّ الْكَامِلُ الْغِنَى ، وَذُو الرَّحْمَةِ الْكَامِلَةِ الشَّامِلَةِ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ . أَمَّا الْأَوَّلُ : فَبَيَانُهُ أَنَّ الْغِنَى هُوَ عَدَمُ الْحَاجَةِ وَإِنَّمَا يَكُونُ عَلَى إِطْلَاقِهِ وَكَمَالِ مَعْنَاهُ ، بَلْ أَصْلُ مَعْنَاهُ لِوَاجِبِ الْوُجُودِ ، وَالصِّفَاتُ الْكَمَالِيَّةُ بِذَاتِهِ ، وَهُوَ الرَّبُّ الْخَالِقُ ; إِذْ كُلُّ مَا عَدَاهُ فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ فِي وُجُودِهِ وَبَقَائِهِ ، وَمُحْتَاجٌ بِالتَّبَعِ لِذَلِكَ إِلَى الْأَسْبَابِ الَّتِي جَعَلَهَا تَعَالَى قِوَامَ وُجُودِهِ . وَإِنَّمَا يُقَالُ فِي الْخَلْقِ هَذَا غَنِيٌّ إِذَا كَانَ وَاجِدًا لِأَهَمِّ هَذِهِ الْأَسْبَابِ ، فَغِنَى النَّاسِ مَثَلًا إِضَافِيٌّ عُرْفِيٌّ لَا حَقِيقِيٌّ مُطْلَقٌ ، فَإِنَّ ذَا الْمَالِ الْكَثِيرِ الَّذِي يُسَمَّى غَنِيًّا كَثِيرَ الْحَاجَاتِ فَقِيرٌ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ كَالزَّوْجِ وَالْخَادِمِ وَالْعَامِلِ وَالطَّبِيبِ وَالْحَاكِمِ ، دَعْ حَاجَتَهُ إِلَى خَالِقِهِ وَخَالِقِ كُلِّ شَيْءٍ ، الَّتِي قَالَ تَعَالَى فِيهَا : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) (35 : 15) وَقَدْ "كَانَ اللَّهُ تَعَالَى وَلَا شَيْءَ مَعَهُ" غَنِيًّا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ " وَهُوَ الْآنَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَى عَمَلِ الطَّائِعِينَ لِأَنَّهُ لَا يَنْفَعُهُ بَلْ يَنْفَعُهُمْ ، وَلَا إِلَى دَفْعِ عَمَلِ الْعَاصِينَ لِأَنَّهُ لَا يَضُرُّهُ بَلْ يَضُرُّهُمْ ، فَالتَّكْلِيفُ وَالْجَزَاءُ عَلَيْهِ رَحْمَةٌ مِنْهُ سُبْحَانَهُ بِهِمْ يَكْمُلُ

بِهِ نَقْصُ الْمُسْتَعِدِّ لِلْكَمَالِ .

رَوَى أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ (مِمَّا يُسَمَّى بِالْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ) أَنَّهُ قَالَ : "يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي ، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ

إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا دَخَلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا

(75/252)

فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ تَعَالَى ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ " وَالْمُرَادُ بِإِطْعَامِهِ تَعَالَى وَكَسْوِهِ لِعِبَادِهِ خَلْقُهُ لَهُمْ مَا يَأْكُلُونَ وَمَا يَصْنَعُونَ مِنْهُ لِبَاسَهُمْ ، وَبِاسْتِطْعَامِهِ وَاسْتِكْسَائِهِ طَلَبَ ذَلِكَ مِنْهُ بِالْعَمَلِ بِمَا هَدَاهُمْ إِلَيْهِ مِنْ سُنَنِهِ فِي أَسْبَابِ الْمَعَاشِ .

وَالْحَدِيثُ حُجَّةٌ عَلَى الْجَبْرِيَّةِ كَالْآيَاتِ .

(76/252)

---

وَأَمَّا كَوْنُهُ تَعَالَى ذَا الرَّحْمَةِ الْكَامِلَةِ وَحْدَهُ فَجَلِيٌّ ظَاهِرٌ عَقْلًا وَفِعْلًا وَنَقْلًا ، فَنَحْنُ نَعْلَمُ مِنْ أَنْفُسِنَا أَنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ مِنَّا إِلَّا وَيَقْسُو وَيَظْلِمُ نَفْسَهُ وَغَيْرَهُ أَحْيَانًا ، حَتَّى أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيْهِ وَأَقْرَبَهُمْ مِنْهُ كَالزَّوْجِ وَالْوَلَدِ وَالْوَالِدِ فَمَا الْقَوْلُ بِمَنْ دُونَهُمْ ، عَلَى أَنَّ كُلَّ ذِي رَحْمَةٍ فَرَحْمَتُهُ مِنْ فَيْضِ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى خَالِقِ الْأَحْيَاءِ وَوَاهِبِ الْغَرَائِزِ وَالصِّفَاتِ . رَوَى الشَّيْخَانِ فِي صَحِيحَيْهِمَا مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَدِمَ عَلَيَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَبْيٍ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ تَحْلِبُ ثَدْيَهَا بِسَقْيٍ إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ وَأَرْضَعَتْهُ فَوَجَدَتْ صَبِيًّا فَأَخَذَتْهُ فَالْتَزَمَتْهُ – وَفِي رِوَايَةٍ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا – فَأَرْضَعَتْهُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " أَتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ ؟ – قُلْنَا : لَا وَهِيَ قَادِرَةٌ عَلَى أَلَّا تَطْرَحَهُ – فَقَالَ : اللهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا " . وَرَوَيَا

أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : " جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ فِي مِائَةِ جُزْءٍ فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ " رَوَيَاهُ مِنْ عِدَّةِ طُرُقٍ مِنْهَا " إِنَّ اللهَ خَلَقَ

(77/252)

---

الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً وَأَرْسَلَ فِي الْخَلْقِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً ، فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْأَسْ مِنَ الْجَنَّةِ وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ " وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ أَنَّ الرَّحْمَةَ رَحْمَتَانِ : صِفَةُ ذَاتٍ قَائِمَةٌ بِذَاتِ اللهِ تَعَالَى وَهِيَ لَا تَتَعَدَّدُ وَصِفَةُ فِعْلٍ وَهِيَ الَّتِي جُعِلَتْ مِائَةَ قِسْمٍ ، وَالْمُتَبَادَرُ أَنَّ الْحَدِيثَ فِي نِسْبَةِ رَحْمَةِ جَمِيعِ الْخَلْقِ إِلَى رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى لِبَيَانِ تَعْظِيمِ قَدْرِهَا ، فَيَا حَسْرَةً عَلَى مَنْ لَمْ يَقْدِرْهَا قَدْرَهَا وَيَا حَسْرَةً عَلَى مَنِ اغْتَرَّ بِهَا فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ وَنَسِيَ حِكْمَتَهُ فِي الْجَزَاءِ وَهَذِهِ الرِّوَايَةُ فِي الْحَدِيثِ لِبَيَانِ وُجُوبِ الْجَمْعِ

بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ ، وَقَدْ سَبَقَ فِيمَا نَقَلْنَاهُ عَنْ حَادِي الْأَرْوَاحِ كَلَامٌ حَافِلٌ فِي رَحْمَةِ اللهِ

تَعَالَى فِي التَّكْلِيفِ وَالْجَزَاءِ ثَوَابًا وَعِقَابًا يُغْنِي عَنْ إِعَادَةِ الْقَوْلِ فِيهَا هُنَا .

وَقَدْ بَيَّنَ " الرَّازِيُّ " وَجْهَ حَصْرِ الْغِنَى وَالرَّحْمَةِ فِي اتِّصَافِ الرَّبِّ بِهِمَا وَحْدَهُ عَلَى

(78/252)

---

طَرِيقَةِ الْمُتَكَلِّمِينَ مِنَ الْأَشْعَرِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ ثُمَّ قَالَ : " وَاعْلَمْ يَا أَخِي أَنَّ الْكُلَّ لَا يُحَاوِلُونَ إِلَّا التَّقْدِيسَ وَالتَّعْظِيمَ ، وَسَمِعْتُ الشَّيْخَ الْإِمَامَ الْوَالِدَ ضِيَاءَ الدِّينِ عُمَرَ بْنَ الْحُسَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ : سَمِعْتُ الشَّيْخَ أَبَا الْقَاسِمِ سُلَيْمَانَ بْنَ نَاصِرٍ الْأَنْصَارِيَّ يَقُولُ : نَظَرَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى تَعْظِيمِ اللَّهِ فِي جَانِبِ الْقُدْرَةِ وَنَفَاذِ الْمَشِيئَةِ ، وَنَظَرَ الْمُعْتَزِلَةُ عَلَى تَعْظِيمِ اللَّهِ فِي جَانِبِ الْعَدْلِ وَالْبَرَاءَةِ عَنْ فِعْلِ مَا لَا يَنْبَغِي ، وَلَكِنْ مِنْهُمْ مَنْ أَخْطَأَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَصَابَ وَرَجَاءُ الْكُلِّ مُتَعَلِّقٌ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ : (وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ) اهـ .

(79/252)

---

أَقُولُ : إِنَّهُ يَعْنِي بِأَهْلِ السُّنَّةِ هُنَا الْأَشْعَرِيَّةَ لِأَنَّ كَلَامَهُ فِي عُلَمَاءِ النَّظَرِ ، فَالْأَشْعَرِيَّةُ يُبَالِغُونَ فِي قَصْرِ نَظَرِيَّاتِهِمْ عَلَى تَعَلُّقِ الْمَشِيئَةِ ، حَتَّى إِنَّهُمْ يُجَوِّزُونَ تَعْذِيبَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ وَتَنْعِيمَ

الْكُفَّارِ الْمُجْرِمِينَ ، وَالْمُعْتَزِلَةُ يُبَالِغُونَ فِي قَصْرِ نَظَرِيَّاتِهِمْ عَلَى عَدْلِ اللهِ وَحِكْمَتِهِ وَتَنَزُّهِهِ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِكَمَالِهِ ، حَتَّى عَطَّلُوا بَعْضَ الصِّفَاتِ الثَّابِتَةِ بِالنَّصِّ وَأَوْجَبُوا عَلَى اللهِ مَا أَوْجَبُوا ، وَتَقَدَّمَ شَرْحُ الْفَرِيقَيْنِ ، وَأَنَّ عُلَمَاءَ الْأَثَرِ الْمُحَقِّقِينَ الْمُتَّبِعِينَ لِلسَّلَفِ أَكْمَلُ مِنْ كُلٍّ مِنْهُمَا عِلْمًا وَإِيمَانًا ؛ لِجَمْعِهِمْ بَيْنَ كُلِّ مَا ثَبَتَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى وَعَدَمِ تَأْوِيلِ بَعْضِهَا بِرَدِّهِ إِلَى مَذْهَبٍ يَلْتَزِمُ لِطَائِفَةٍ مُعَيَّنَةٍ ، وَهُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهٍ ، أَوْ بِكُلِّ مَعْنَى الْكَلِمَةِ - كَمَا يُعَبِّرُ كُتَّابُ هَذَا الْعَصْرِ - ثُمَّ رَتَّبَ عَلَى ذَلِكَ قَوْلَهُ :

*(80/252)*

---

(إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ) أَيْ إِنْ يَشَأْ إِذْهَابَكُمْ أَيُّهَا الْكَافِرُونَ بِرَسُولِهِ الْمُعَانِدُونَ لَهُ وَاسْتِخْلَافَ غَيْرِكُمْ بَعْدَكُمْ يُذْهِبْكُمْ بِعَذَابٍ يُهْلِكُكُمْ بِهِ ، كَمَا أَهْلَكَ أَمْثَالَكُمْ مِنْ مُعَانِدِي رُسُلِهِ كَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ لُوطٍ ، وَيَسْتَخْلِفُ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ مِنَ الْأَفْرَادِ أَوِ الْأَقْوَامِ ، فَإِنَّهُ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَقَادِرٌ عَلَى إِهْلَاكِكُمْ وَإِنْشَاءِ قَوْمٍ آخَرِينَ مِنْ ذُرِّيَّتِكُمْ أَوْ ذُرِّيَّةِ غَيْرِكُمْ أَحَقَّ بِرَحْمَتِهِ مِنْكُمْ كَمَا قَدَرَ عَلَى إِنْشَائِكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ . وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ الْخُلَفَاءَ يَكُونُونَ خَيْرًا مِنْكُمْ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَيُقِيمُونَ الْحَقَّ وَالْعَدْلَ فِي الْأَرْضِ .

وَقَدْ أَهْلَكَ تَعَالَى أُولَئِكَ الَّذِينَ عَادَوْا خَاتَمَ رُسُلِهِ كِبْرًا وَعِنَادًا وَجَحَدُوا بِمَا جَاءَ بِهِ مَعَ اسْتِيقَانِهِمْ صِدْقَهُ ، وَاسْتَخْلَفَ فِي الْأَرْضِ غَيْرَهُمْ مِمَّنْ كَانَ كُفْرُهُمْ عَنْ جَهْلٍ أَوْ تَقْلِيدٍ لِمَنْ قَبْلَهُمْ ، لَمْ يَلْبَثْ أَنْ ذَهَبَتْ بِهِ آيَاتُ اللهِ فِي كِتَابِهِ وَفِي الْأَنْفُسِ وَالْآفَاقِ بِإِرْشَادِهِ فَكَانُوا أَكْمَلَ النَّاسِ إِيمَانًا وَإِسْلَامًا وَإِحْسَانًا وَهُمُ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ وَذُرِّيَّاتُهُمُ الَّذِينَ كَانُوا أَعْظَمَ مُظْهِرٍ لِرَحْمَةِ اللهِ لِلْبَشَرِ بِالْإِسْلَامِ ، حَتَّى فِي حُرُوبِهِمْ وَفُتُوحِهِمْ كَمَا شَهِدَ بِذَلِكَ الْمُنْصِفُونَ مِنْ مُؤَرِّخِي الْإِفْرِنْجِ حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ : مَا عَرَفَ التَّارِيخُ

(81/252)

---

فَاتِحًا أَعْدَلَ وَلَا أَرْحَمَ مِنَ الْعَرَبِ . وَشَذَّ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ فَقَالُوا : إِنَّ الْمُرَادَ بِهَؤُلَاءِ الْمُسْتَخْلَفِينَ الْجِنُّ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّهُمْ لَيْسُوا مِنَ الْإِنْسِ وَلَا الْجِنِّ لِأَنَّهُ أَبْلَغُ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْقُدْرَةِ وَهُوَ تَصَوُّرٌ بَاطِلٌ إِذْ لَيْسَ الْمَقَامُ مَقَامَ بَيَانِ عَجَائِبِ آثَارِ الْقُدْرَةِ ، وَلَا الْإِبْهَامِ لِأَجْلِ ذَهَابِ الْخَيَالِ كُلَّ مَذْهَبٍ فِيهِ ، بَلْ مَقَامَ الْإِنْذَارِ بِالسُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ الْمُؤَيَّدَةِ بِمَحْفُوظِ التَّارِيخِ وَبَقَايَا الْعَادِيَاتِ وَالْآثَارِ ، فَهَذِهِ الْآيَةُ الْوَارِدَةُ بَعْدَ وَصْفِهِ تَعَالَى بِالْغِنَى وَالرَّحْمَةِ عَلَى وَجْهِ الْكَمَالِ الَّذِي لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ ، هِيَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى بَعْدَ وَصْفِهِ النَّاسَ بِالْفَقْرِ وَوَصْفِ نَفْسِهِ بِالْغَنِيِّ الْحَمِيدِ بِصِيغَةِ الْحَصْرِ : (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ) وَقَوْلِهِ فِي آخِرِ

سُورَةِ الْقِتَالِ : (وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) (47 : 38) .

(82/252)

---

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى بَعْدَ أَنْ أَنْذَرَهُمْ عَذَابَ الدُّنْيَا وَهَلَاكَهُمْ فِيهَا أَنْذَرَهُمْ عَذَابَ الْآخِرَةِ بِقَوْلِهِ : (إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) عَلَى سُنَّةِ الْقُرْآنِ فِي الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا ، أَيْ إِنَّمَا تُوعَدُونَ مِنْ جَزَاءِ الْآخِرَةِ بَعْدَ الْبَعْثِ لَآتٍ لَا مَرَدَّ لَهُ ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ لِلَّهِ بِهَرَبٍ وَلَا مَنْعٍ مِمَّا يُرِيدُ ، فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِكُمْ كَمَا قَدَرَ عَلَى بَدْءِ خَلْقِكُمْ . وَهَذَا بُرْهَانٌ جَلِيٌّ كُرِّرَ فِي الْقُرْآنِ مِرَارًا . وَقَدْ قَرَّبَ الْعِلْمُ فِي هَذَا الْعَصْرِ أَمْرَ الْبَعْثِ مِنَ الْعُقُولِ . بِمَا قَرَّرَهُ مِنْ كَوْنِ كُلِّ مَا فِي الْعَالَمِ ثَابِتٌ أَصْلُهُ لَا يَزُولُ ، وَإِنَّمَا هَلَاكُ الْأَشْيَاءِ وَفَنَاؤُهَا عِبَارَةٌ عَنْ تَحَلُّلِ مَوَادِّهَا وَتَفَرُّقِهَا ، وَبِمَا أَثْبَتَهُ مِنْ تَرْكِيبِ الْمَوَادِّ الْمُتَفَرِّقَةِ وَإِرْجَاعِهَا إِلَى تَرْكِيبِهَا الْأَوَّلِ فِي غَيْرِ الْأَحْيَاءِ ، بَلْ تَصَدَّى بَعْضُ عُلَمَاءِ الْأَلْمَانِ لِإِيجَادِ الْبَشَرِ بِطَرِيقَةٍ عِلْمِيَّةٍ صِنَاعِيَّةٍ بِتَنْمِيَةِ الْبَذْرَةِ الَّتِي يُولَدُ مِنْهَا الْإِنْسَانُ إِلَى أَنْ صَارَتْ عَلَقَةً فَمُضْغَةً ، وَزَعَمَ أَنَّهُ يُمْكِنُ بِاتِّخَاذِ وَسَائِلَ أُخْرَى لِتَغْذِيَةِ الْمُضْغَةِ فِي حَرَارَةٍ كَحَرَارَةِ الرَّحِمِ أَنْ تَتَوَلَّدَ فِيهَا الْأَعْضَاءُ حَتَّى تَكُونَ إِنْسَانًا تَامًّا . وَقَدْ بَيَّنَ

تَجْرِبَتَهُ فِي ذَلِكَ وَمَا أَرَنَاهُ مِنَ النَّظَرِيَّاتِ لِإِتْمَامِ الْعَمَلِ بِإِيجَادِ مَعَامِلَ لِإِيجَادِ النَّاسِ كَمَعَامِلِ التَّفْرِيخِ لِإِيجَادِ الدَّجَاجِ فِي خِطَابٍ قَرَأَهُ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ أَشْهَرِ الْأَطِبَّاءِ وَعُلَمَاءِ

(83/252)

---

الْكَوْنِ فَأُعْجِبُوا بِنَظَرِيَّاتِهِ ، وَلَمْ يُنْكِرْ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِمْكَانَ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا يُنْكِرُ الْكَثِيرُ وُصُولَ الْعِلْمِ الْبَشَرِيِّ إِلَى إِخْرَاجِهِ مِنْ حَيِّزِ الْإِمْكَانِ إِلَى حَيِّزِ الْوُجُودِ بِالْفِعْلِ . وَإِنَّ الْمُخْتَرِعَ الشَّهِيرَ إِدِيصُونَ أَكْبَرَ عُلَمَاءِ الْكَهْرَبَاءِ يُحَاوِلُ اخْتِرَاعَ آلَةٍ كَهْرَبَائِيَّةٍ لِأَجْلِ اتِّصَالِ النَّاسِ بِأَرْوَاحِ مَنْ يَمُوتُ وَاسْتِفَادَتِهِمْ مِنْهُمْ إِنْ كَانَ ذَلِكَ مِمَّا تُعْنَى الْأَرْوَاحُ بِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ . فَيَكُونُ هَذَا هُوَ الَّذِي يُبَيِّنُ حَقِيقَةَ مَا يَدَّعِيهِ

الرُّوحِيُّونَ مِنْ رُؤْيَةِ مَنْ يُسَمُّونَهُمُ الْوُسَطَاءَ لِلْأَرْوَاحِ وَتَجَسُّدِهَا وَتَلَقِّيهِمْ عَنْهَا هَلْ هُوَ صَحِيحٌ كَمَا يَقُولُونَ أَوْ خِدَاعٌ كَمَا يَقُولُ الْمُنْكِرُونَ عَلَيْهِمْ ؟ وَغَرَضُنَا مِنْ ذِكْرِ هَذَا أَنَّ أَمْثَالَ هَذَا الْعَالِمِ الْمُخْتَرِعِ الْكَبِيرِ يَرَى أَنَّ ذَلِكَ جَائِزٌ مُمْكِنٌ ، وَإِنْ لَمْ يَثْبُتْ عِنْدَهُ أَنَّهُ وَقَعَ

(84/252)

---

بِالْفِعْلِ . فَأَيْنَ هَذَا مِمَّنْ يَكْفُرُونَ بِالْبَعْثِ تَقْلِيدًا لِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ لِظَنِّهِمْ أَنَّهُمْ يُعِدُّونَ هَذَا مُحَالًا لَا يُمْكِنُ تَحَقُّقُهُ . وَإِذَا كَانَ هَذَا جَائِزًا وَيَرَى أَكْبَرُ عُلَمَاءِ الْمَادَّةِ أَنَّهُ يُمْكِنُ وُصُولُهُمْ إلَيْهِ فِعْلًا فَهَلْ يَعْجِزُ عَنْهُ خَالِقُ الْبَشَرِ وَكُلِّ شَيْءٍ (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلَا إنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ) (41 : 53 : 54) . هَذَا وَإِنَّ كَلِمَةَ (تُوعَدُونَ) مُضَارِعٌ مَجْهُولٌ لِوَعَدَ الثُّلَاثِيِّ الَّذِي غَلَبَ اسْتِعْمَالُهُ فِي الْخَيْرِ وَالنَّفْعِ ، وَهُوَ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ وَفِي اسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِ شَامِلٌ لَهُمَا - وَلِأَوْعَدَ الرُّبَاعِيِّ الْخَاصِّ اسْتِعْمَالُهُ فِي الشَّرِّ أَوِ الضُّرِّ . وَرَجَّحَ الثَّانِي فِي الْآيَةِ لِأَنَّ الْخِطَابَ فِي إنْذَارِ الْكَافِرِينَ وَنَفْيِ الْإِعْجَازِ فِيهِ لِلتَّهْدِيدِ . وَهُوَ ظَاهِرُ مَا جَرَى عَلَيْهِ جُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ قَالَ " الرَّازِيُّ " وَفِيهِ احْتِمَالٌ آخَرُ ، وَهُوَ أَنَّ الْوَعْدَ مَخْصُوصٌ بِالْإِخْبَارِ عَنِ الثَّوَابِ . وَأَمَّا الْوَعِيدُ فَهُوَ مَخْصُوصٌ بِالْإِخْبَارِ عَنِ الْعِقَابِ ، فَقَوْلُهُ : (إنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ) يَعْنِي كُلَّ مَا تَعَلَّقَ بِالْوَعْدِ وَالثَّوَابِ فَهُوَ آتٍ لَا مَحَالَةَ فَتَخْصِيصُ الْوَعْدِ بِهَذَا الْجَزْمِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ جَانِبَ الْوَعِيدِ لَيْسَ كَذَلِكَ . وَيُقَوِّي هَذَا الْوَجْهَ آخِرُ الْآيَةِ وَهُوَ أَنَّهُ قَالَ : (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) يَعْنِي لَا

*(85/252)*

تَخْرُجُونَ عَنْ قُدْرَتِنَا وَحُكْمِنَا . فَالْحَاصِلُ أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ الْوَعْدَ جَزَمَ بِكَوْنِهِ آتِيًا ، وَلَمَّا ذَكَرَ الْوَعِيدَ مَا زَادَ عَلَى قَوْلِهِ : (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ) وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ جَانِبَ الرَّحْمَةِ وَالْإِحْسَانِ غَالِبٌ اهـ .

وَنَقُولُ : إِنَّ هَذَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْأَوْجُهِ الَّتِي أَوْرَدَهَا الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي تَرْجِيحِ فَنَاءِ النَّارِ . وَلَكِنَّنَا نَرَاهُ ضَعِيفًا وَإِنْ كُنَّا نَقُولُ بِأَنَّ جَانِبَ الرَّحْمَةِ وَالْإِحْسَانِ سَابِقٌ وَغَالِبٌ فِي أَفْعَالِ اللهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَوَجْهُ ضَعْفِهِ أَنَّ الْمَقَامَ مَقَامُ الْوَعِيدِ وَالتَّهْدِيدِ لِلْكُفَّارِ ، وَأَنَّ اللَّفْظَ لَيْسَ نَصًّا فِي الْوَعِيدِ ، كَمَا أَنَّ الْوَعْدَ لَيْسَ خَاصًّا بِالثَّوَابِ ، كَمَا تَقَدَّمَ وَمِنِ اسْتِعْمَالِهِ فِي الْعِقَابِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا) (22 : 72) وَقَوْلُهُ : (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ) (22 : 47) . وَقَدْ خَتَمَ اللهُ هَذَا الْوَعِيدَ وَالتَّهْدِيدَ بِقَوْلِهِ لِرَسُولِهِ : (قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ

*(86/252)*

---

إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) فِي هَذَا النِّدَاءِ ضَرْبٌ مِنَ الِاسْتِمَالَةِ لِلْكُفَّارِ الَّذِينَ خُوطِبُوا بِالدَّعْوَةِ أَوَّلًا ، بِمَا يُذَكِّرُهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمُ الرَّسُولِ الَّذِينَ يُحِبُّهُمْ وَيَحْرِصُ عَلَى خَيْرِهِمْ وَمَنْفَعَتِهِمْ بِبَاعِثِ الْفِطْرَةِ وَالتَّرْبِيَةِ وَالْمَنَافِعِ الْمُشْتَرَكَةِ ،

وَقَدْ كَانَتِ النَّعَرَةُ الْقَوْمِيَّةُ عِنْدَ الْعَرَبِ أَقْوَى مِنْهَا عِنْدَ الْمَعْرُوفِ حَالُهُمُ الْيَوْمَ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ ، فَكَانَ نِدَاؤُهُمْ بِقَوْلِهِ : "يَا قَوْمِي " جَدِيرًا بِأَنْ يُحَرِّكَ هَذِهِ الْعَاطِفَةَ فِي قُلُوبِهِمْ فَتَحْمِلُ الْمُسْتَعِدَّ عَلَى الْإِصْغَاءِ لِمَا يَقُولُ وَالتَّأَمُّلِ فِيهِ ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ بِمِثْلِ هَذَا فِي آخِرِ سُورَةِ " هُودٍ " وَأَوَاسِطَ سُورَةِ " الزُّمَرِ " وَحُكِيَ مِثْلُهُ عَنْ شُعَيْبٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ .

وَالْمَكَانَةُ فِي اللُّغَةِ حِسِّيَّةٌ وَهِيَ الْمَكَانُ الَّذِي يَتَبَوَّأُهُ الْإِنْسَانُ ، وَمَعْنَوِيَّةٌ وَهِيَ الْحَالُ النَّفْسِيَّةُ أَوِ الِاجْتِمَاعِيَّةُ الَّتِي تَكُونُ فِيهَا . وَالْمَعْنَى اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ وَشَاكِلَتِكُمُ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا . إِنِّي عَامِلٌ عَلَى مَكَانَتِي وَشَاكِلَتِي الَّتِي هَدَانِي رَبِّي إِلَيْهَا وَأَقَامَنِي فِيهَا . فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ بَعْدَ حِينٍ مَنْ تَكُونُ لَهُ الْعَاقِبَةُ الْحُسْنَى فِي هَذِهِ الدَّارِ بِتَأْثِيرِ عَمَلِهِ . نَبَّهَهُمْ بِذَلِكَ إِلَى الِاسْتِدْلَالِ الْعِلْمِيِّ الِاجْتِمَاعِيِّ فِي تَرَتُّبِ أَحْوَالِ الْأُمَمِ عَلَى أَعْمَالِهَا الْمُنْبَعِثَةِ عَلَى عَقَائِدِهَا وَصِفَاتِهَا النَّفْسِيَّةِ

*(87/252)*

---

لِيَسْتَدِلُّوا بِهِ ، ثُمَّ صَرَّحَ لَهُمْ بِمَا يُرْشِدُهُمْ إِلَى تِلْكَ الْعَاقِبَةِ كَمَا سَنُفَصِّلُهُ .

وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي الْكَشَّافِ : الْمَكَانَةُ تَكُونُ مَصْدَرًا . يُقَالُ : مُكِّنَ مَكَانَةً إِذَا تَمَكَّنَ أَبْلَغَ التَّمَكُّنِ ، وَبِمَعْنَى الْمَكَانِ يُقَالُ : مَكَانٌ وَمَكَانَةٌ وَمُقَامٌ وَمُقَامَةٌ . وَقَوْلُهُ : (اعْمَلُوا عَلَى

مَكَانَتِكُمْ) يَحْتَمِلُ اعْمَلُوا عَلَى تَمَكُّنِكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ وَأَقْصَى اسْتِطَاعَتِكُمْ وَإِمْكَانِكُمْ أَوِ اعْمَلُوا عَلَى جِهَتِكُمْ وَحَالِكُمُ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا . يُقَالُ لِلرَّجُلِ إِذَا أُمِرَ أَنْ يَثْبُتَ عَلَى حَالِهِ : عَلَى مَكَانَتِكَ يَا فُلَانُ : أَيِ اثْبُتْ عَلَى مَا أَنْتَ عَلَيْهِ لَا تَنْحَرِفْ عَنْهُ (إِنِّي عَامِلٌ) عَلَى مَكَانَتِي الَّتِي أَنَا عَلَيْهَا . الْمَعْنَى اثْبُتُوا عَلَى كُفْرِكُمْ وَعَدَاوَتِكُمْ فَإِنِّي ثَابِتٌ عَلَى الْإِسْلَامِ وَعَلَى مُصَابَرَتِكُمْ (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) أَيُّنَا تَكُونُ لَهُ الْعَاقِبَةُ الْمَحْمُودَةُ . وَطَرِيقَةُ هَذَا الْأَمْرِ طَرِيقَةُ قَوْلِهِ : (اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ) (41 : 40) وَهِيَ التَّخْلِيَةُ وَالتَّسْجِيلُ عَلَى الْمَأْمُورِ بِأَنَّهُ لَا يَأْتِي مِنْهُ إِلَّا الشَّرُّ فَكَأَنَّهُ مَأْمُورٌ بِهِ وَهُوَ وَاجِبٌ عَلَيْهِ حَتْمٌ لَيْسَ لَهُ أَنْ يَتَقَصَّى عَنْهُ وَيَعْمَلَ بِخِلَافِهِ اهـ .

*(88/252)*

---

وَقَدْ أَشَارَ فِيهِ إِلَى تَرْجِيحِ كَوْنِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ) اسْتِفْهَامًا كَقَوْلِهِ : (لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى) (18 : 12) إِلَخْ . ثُمَّ بَيَّنَهُ وَذَكَرَ فِيهِ وَجْهًا آخَرَ وَهُوَ أَنَّ (مَنْ) بِمَعْنَى الَّذِي ، أَيْ فَسَوْفَ تَعْرِفُونَ الْفَرِيقَ الَّذِي تَكُونُ لَهُ الْعَاقِبَةُ الْحُسْنَى الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ هَذِهِ الدَّارَ (الدُّنْيَا) لَهَا . قَالَ : وَهَذَا طَرِيقٌ مِنَ الْإِنْذَارِ لَطِيفُ الْمَسْلَكِ

فِيهِ إنْصَافٌ فِي الْمَقَالِ وَأَدَبٌ حَسَنٌ مَعَ تَضَمُّنِ شِدَّةِ الْوَعِيدِ وَالْوُثُوقِ بِأَنَّ الْمُنْذِرَ (بِكَسْرِ الذَّالِ) مُحِقٌّ ، وَالْمُنْذَرَ (بِفَتْحِ الذَّالِ) مُبْطِلٌ اهـ .

(89/252)

---

وَأَقُولُ : إنَّ غَايَةَ هَذَا الْإِنْذَارِ وَرُوحَهُ الْإِحَالَةُ عَلَى الْمُسْتَقْبَلِ فِي صِدْقِ وَعْدِ اللَّهِ لِرَسُولِهِ بِنَصْرِهِ ، وَوَعِيدِهِ لِأَعْدَائِهِ بِقَهْرِهِمْ فِي الدُّنْيَا إذْ كَانَ هَذَا شَيْئًا لَا بُدَّ أَنْ يَرَاهُ جُمْهُورُ الْمُخَاطَبِينَ بِأَعْيُنِهِمْ فَيَكُونَ حُجَّةً عَلَى صِدْقِ وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ فِي أَمْرِ الْآخِرَةِ إذْ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا فِي كَوْنِ الْإِخْبَارِ بِهِمَا مِنَ الْإِنْبَاءِ بِالْغَيْبِ ، وَلَا فِي السَّبَبِ الَّذِي لِأَجْلِهِ كَانَتْ عَاقِبَةُ الرَّسُولِ وَمَنِ اتَّبَعَهُ هِيَ الْحُسْنَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَجَعَلَ عَاقِبَةَ مَنْ كَفَرَ بِهِ وَنَاوَأَهُ هِيَ السُّوءَى . وَقَدْ أَشَارَ إلَى هَذَا السَّبَبِ بِفَاصِلَةِ الْآيَةِ : (إنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) أَيْ لِأَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ بِنِعَمِ اللَّهِ وَاتِّخَاذِ الشُّرَكَاءِ لَهُ فِي أُلُوهِيَّتِهِ بِالتَّوَجُّهِ إلَيْهِمْ فِيمَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إلَيْهِ تَعَالَى ، أَوْ فِيمَا لَا يُطْلَبُ إلَّا مِنْهُ وَهُوَ كُلُّ مَا أَعْيَتِ الْمَرْءَ أَسْبَابُهُ أَوْ كَانَتْ مَجْهُولَةً عِنْدَهُ ، فَيَجِبُ أَنْ يُتَوَجَّهَ إلَيْهِ وَيُدْعَى فِي هَذَا وَحْدَهُ . وَأَمَّا

(90/252)

مَا عُرِفَ سَبَبُهُ فَيُطْلَبُ مِنْ طَرِيقِ السَّبَبِ ، مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ خَالِقَ الْأَسْبَابِ وَمُسَخِّرَهَا هُوَ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ : (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) (31 : 13) - فَهَذَا شَرُّ الظُّلْمِ وَأَشَدُّهُ إفْسَادًا لِلْعُقُولِ وَالْآدَابِ وَالْأَعْمَالِ - فَيَلْزَمُهُ إذًا سَائِرُ أَنْوَاعِ الظُّلْمِ الْحَقِيقِيِّ وَالْإِضَافِيِّ . وَقَدْ تَقَدَّمَ شَرْحُ هَذَا الْمَعْنَى فِي تَفْسِيرِ : (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) (: 82) مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ . وَإِذَا كَانَ فَلَاحُ الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِلنَّاسِ بِالْأَوْلَى مُنْتَفِيًا بِشَرْعِ اللَّهِ وَسُنَّتِهِ الْعَادِلَةِ ، انْحَصَرَ الْفَلَاحُ وَالْفَوْزُ فِي أَهْلِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ الَّذِينَ يَقُومُونَ بِحُقُوقِ اللَّهِ وَحُقُوقِ أَنْفُسِهِمْ وَمَنْ يَرْتَبِطُ مَعَهُمْ فِي شُئُونِ الْحَيَاةِ ، وَهَذَا لَا يَكْمُلُ إلَّا لِرُسُلِ اللَّهِ وَجُنْدِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ ، أَلَمْ تَرَ كَيْفَ نَصَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ عَلَى الظَّالِمِينَ مِنْ قَوْمِهِ أَوَّلًا كَأَكَابِرِ مُجْرِمِي مَكَّةَ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِهِ ؟ ثُمَّ عَلَى سَائِرِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ ، ثُمَّ نَصَرَ أَصْحَابَهُ عَلَى أَعْظَمِ أُمَمِ الْأَرْضِ وَأَقْوَاهَا جُنْدًا وَأَعْظَمِهَا مُلْكًا وَأَرْقَاهَا نِظَامًا كَالرُّومَانِ وَالْفُرْسِ ؟ ثُمَّ نَصَرَ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ وَشَعْبٍ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ وَقَاتَلَهُمْ مِنْ أَهْلِ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ فِي الْحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ وَالْفُتُوحِ الْعُثْمَانِيَّةِ وَغَيْرِهَا بِقَدْرِ حَظِّهِمْ مِنْ اتِّبَاعِ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ . فَلَمَّا

ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَظَلَمُوا النَّاسَ وَصَارَ حَظُّهُمْ مِنْ هِدَايَةِ دِينِهِمْ نَحْوًا مِمَّا كَانَ مِنْ حَظِّ أَهْلِ الْكِتَابِ قَبْلَهُمْ مِنْ هِدَايَةِ رُسُلِهِمْ أَوْ أَقَلَّ ، وَلَمْ يَعُدْ لَهُمْ مَزِيَّةٌ ثَابِتَةٌ فِي هَذَا السَّبَبِ الْمَعْنَوِيِّ لِلنَّصْرِ وَالْفَلَاحِ ، بَلِ انْحَصَرَ الْفَوْزُ فِي الْأَسْبَابِ الْمَادِّيَّةِ وَالْفَنِّيَّةِ ، وَسَائِرِ الْأَسْبَابِ الْمَعْنَوِيَّةِ ، كَالصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ . وَالْعَدْلِ وَالنِّظَامِ وَنَرَى

كَثِيرًا مِنَ الْجَاهِلِينَ بِالْإِسْلَامِ يَقُولُونَ : مَا بَالُ الْمُسْلِمِينَ قَدْ أَضَاعُوا مُلْكَهُمْ إِذَا كَانَ اللهُ قَدْ وَعَدَ بِنَصْرِهِمْ ؟ وَجَوَابُهُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَعِدْ قَطُّ بِنَصْرِ مَنْ يُسَمَّوْنَ مُسْلِمِينَ كَيْفَمَا كَانَتْ حَالُهُمْ . وَإِنَّمَا وَعَدَ بِنَصْرِ مَنْ يَنْصُرُهُ وَيُقِيمُ مَا شَرَعَهُ مِنَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ ، وَبِإِهْلَاكِ الظَّالِمِينَ مَهْمَا تَكُنْ أَسْمَاؤُهُمْ وَأَلْقَابُهُمْ . إِذَا نَازَعَهُمُ الْبَقَاءُ مَنْ هُمْ أَقْرَبُ إِلَى الْحَقِّ وَالْعَدْلِ أَوِ النِّظَامِ مِنْهُمْ (فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ) (14 : 13 ، 14) وَقَدْ سَبَقَ تَفْصِيلٌ لِهَذَا الْبَحْثِ غَيْرَ مَرَّةٍ .

*(92/252)*

---

قَرَأَ أَبُو بَكْرٍ عَنْ عَاصِمٍ (مَكَانَاتِكُمْ) بِالْجَمْعِ فِي كُلِّ الْقُرْآنِ وَالْبَاقُونَ بِالْإِفْرَادِ ، وَالْأَصْلُ فِي الْمَكَانَةِ أَلَّا تُجْمَعَ لِأَنَّهَا مَصْدَرٌ ، وَنُكْتَةُ جَمْعِهَا فِي هَذِهِ الْقِرَاءَةِ إِفَادَةُ أَنَّ لِلْكُفَّارِ مَكَانَاتٍ

مُتَفَاوِتَةً ، لِتَعَدُّدِ الْبَاطِلِ وَوَحْدَةِ الْحَقِّ . وَقَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ (مَنْ يَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ) بِالتَّحْتِيَّةِ وَالْبَاقُونَ (تَكُونُ) بِالْفَوْقِيَّةِ وَذَلِكَ أَنَّ تَأْنِيثَ الْعَاقِبَةِ لَفْظِيٌّ غَيْرُ حَقِيقِيٍّ ، وَقَدْ فُصِلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَامِلِ فَحَسُنَ تَذْكِيرُ الْفِعْلِ كَتَأْنِيثِهِ ، وَفِي حَالِ الْفَصْلِ يَجُوزُ تَذْكِيرُ الْعَامِلِ وَإِنْ كَانَ الْمَعْمُولُ مُؤَنَّثًا حَقِيقِيًّا .

وَمِنْ مَبَاحِثِ الْبَلَاغَةِ اقْتِرَانُ سَوْفَ بِالْفَاءِ هُنَا وَفِي سُورَةِ الزُّمَرِ لِأَنَّهَا فِي جَوَابِ الشَّرْطِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْمَقَامُ وَتُرِكَتِ الْفَاءُ فِي آيَةِ هُودٍ (11 : 93) لِأَنَّهَا فِي جَوَابِ شُعَيْبٍ لِقَوْمِهِ عَنْ قَوْلِهِمْ : (مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ) (11 : 91) إِلَخْ . فَهُوَ إِخْبَارٌ لَهُمْ بِأَنَّهُمْ سَوْفَ يَعْلَمُونَ عَاقِبَةَ مَا قَالُوا إِنَّهُمْ لَا يَفْقَهُونَ . انْتَهَى مُلَخَّصًا مِنْ دُرَّةِ التَّنْزِيلِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار جـ 8 صـ 92. 106 ﴾

(93/252)

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ﴾

والقوم هم الجماعة ، وعادة يطلق على الرجال لأنهم أهل القيام للمهمات ؛ لأن الشأن والأصل في المرأة الستر والبيتوتة والاستقرار في البيت للقيام على أمره ورعايته . وحين

تقرأ القرآن تجد كلمة " قوم " وتفهم أن المقصود منها الجماعة التي تجمعهم رابطة ، وأنها للرجال خاصة ، والمثال هو قول الحق : ﴿ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عسى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ . . . ﴾ [ الحجرات : 11 ]

وما دام قد جاء بمقابل ﴿ قَوْمٌ ﴾ : ﴿ وَلاَ نِسَآءٌ ﴾ ، ف ﴿ قَوْمٌ ﴾ هذه للرجال ومأخوذ منها " القيام للمهمات " ، ومأخوذ منها " القيامة " . ولذلك الشاعر يقول :

ولا أدري ولست أخال أدري . . . أقوم آل حصن أم نساء

يعني أرجال أم نساء . ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ ﴾ [ الأنعام : 135 ]

و " المكان " هو الحيز الذي يأخذه جسم الإنسان ؛ فكل كائن له مكان ، إن وقف له مكان ، إن قعد له مكان ، والمكان هو المملوك والمخصص لك من الأرض ، فحين تقف في مكان لا يقدر آخر أن يقف فيه وأنت واقف ، بل يجب أن يزحزحك عنه ، وحين تزحزح من هو واقف ، فهو يروح إلى مكان ثانٍ ، ويمتنع التداخل بين اثنين في حيز لا يسع إلا واحداً ، وهذا أمر فطري ؛ فتجد الولد الصغير الذي لم يدرك أي شيء ويقدر أن يقف فقط ، ثم يريد أن يقعد على الكرسي الذي تجلس عليه أخته أو أخوه ، فقبل أن يقعد على الكرسي يشد من يجلس عليه ؛ لأنه يعرف بالفطرة أن اثنين لا يوجدان في حيز واحد .

وترى ذلك أيضاً في غير الجرم المرئي ، فأنت حين تأتي قارورة وتضعها في ماء لتمتلئ تسمع صوت الهواء الخارج منها في بقبقة ؛ لأن الماء لا يمكن أن يدخل إلا أن خرج الهواء ، ولأن المياه أكثف فهي تضغط ليخرج الهواء ، وهذا ما يؤكد عدم التداخل . أي لا يوجد شيئان اثنان في حيز واحد . ومكانتك هي الموقع الذي تستولي عليه ، ولذلك حتى في الجيوش وفي الحرب توضع الخطط من أسلحة مختلفة ، لتستولي على الأماكن .

و﴿ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ ﴾ هو قول موجه إلى الجماعة الذين عارضوا النبوة ووقفوا منها هذه المواقف ، فيقول لهم الحق تهديدا لهم وتيئيسا من أنهم لن يصلوا إلى النيل من رسول الله : اعملوا على قدر استطاعتكم من التمكن ، أو أثبتوا على ما أنتم عليه من الخلاف والمناهضة ، لماذا ؟ ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم عامل أيضاً : فلن يكون ثباتكم مانعاً لي من العمل ؛ أنتم تعملون وأنا أعمل ، أنتم تعملون على طاقاتكم ، وأنا أعمل على طاقاتي الإيمانية ومدد ربي الأعلى من الطاقة . ﴿ قُلْ يَاقَوْمِ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدار إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون ﴾ [ الأنعام : 135 ]

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدار ﴾ و" له " تعطي دلالة إلى أن الإيمان ستكون عاقبة الدار لصالحه ؛ لأن الآخرين لن تكون لهم بل عليهم ، وساعة ترى " اللام " اعرف أن

الأمر لهم لا عليهم . فكأن الظالمين إن تنلهم عاقبة فهي ليست لهم ، وإنما عاقبتهم عليهم ، ولن يفلح الظالمون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(95/252)

---

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون " ، وكذا فى سورة الزمر وفى قصة شعيب عليه السلام من سورة هود "ويا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون " فأفردت آية هود هذه بمجئ حرف التسويف عريا عن اقتران فاء التعقيب به بخلاف الأخريين مع اتفاق الآيات الثلاث فى التهديد وحرف التسويف للسائل أن يسأل عن ذلك ؟

والجواب عن ذلك والله أعلم : أن هذه الآيات الثلاث وعيد لمن كفر وكذب وآية الأنعام وآية الزمر منها أريد بهما كفار العرب من هذه الأمة وقد افتتحنا بأمره سبحانه نبيه عليه السلام بوعيدهم فى قوله سبحانه وتعالى : "قل يا قوم اعملوا على مكانتكم " فقوى فى هاتين الآيتين تقدير معنى الشرط المنجر تقديره فى الأوامر نحو قوله تعالى : "قل لعبادى الذين

آمنوا يقيموا الصلاة " لافتتاحها بأمره تعالى نبيه عليه السلام ثم أمره عليه السلام لهم فى قوله "اعملوا " فاعتضد ما يستدعى الجوابية بالفاء فوردت فى الجواب المبنى على الشرط المقدر بعد هذا الأمر على أحد مأخذى النحويين أو الذى تضمنته الجملة ونابت منابه على القول الآخر ، ولما كانت آية هود إخبارا لنبينا عليه الصلاة والسلام فضعف فيها تقدير الشرط فلم تدخل الفاء وجاء كل على ما يجب والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ ملاك التأويل صـ 172.171 ﴾

(96/252)

---

فصل

قال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (128) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا

يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (135) ﴾

هذا المقطع بجملته ليس منفصلا عن الدرس السابق . إنما هو امتداد له . من جنس الموجات المتعاقبة التي يتضمنها . . فهو من ناحية استطراد في بيان مصائر شياطين الإنس والجن – بعد ما بين مصير الذين يستقيمون على صراط الله – وهو من ناحية استطراد في قضية الإيمان والكفر التي تذكر في هذا الموضع من السورة بمناسبة قضية الحاكمية والتشريع . وربط لهذه القضية الأخيرة بالحقائق الأساسية في العقيدة الإسلامية ؛ ومنها حقيقة الجزاء في الآخرة على الكسب في الدنيا – بعد النذارة والبشارة – وحقيقة سلطان الله القادر على الذهاب بالشياطين وأوليائهم وبالناس جميعا واستبدال غيرهم بهم ، وحقيقة ضعف البشر جملة أمام بأس الله . وكلها حقائق عقيدية تذكر في معرض الحديث عن التحليل والتحريم في الذبائح – قبلها – ثم يجيء بعدها الحديث في الحلقة التالية عن النذور من الثمار والأنعام والأولاد ؛ وعن تقاليد الجاهلية وتصوراتها في هذه الشؤون ؛ فيلتحم الحديث عن هذه القضايا جميعاً ؛ وتبدو في وضعها الطبيعي الذي يضعها فيه هذا الدين . وهي أنها كلها مسائل اعتقادية على السواء . لا فرق بينها في ميزان الله ، كما يقيمه في كتابه الكريم .

لقد مضى في الحلقة السابقة حديث عن الذين يشرح الله صدورهم للإسلام ؛ فتبقى قلوبهم ذاكرة لا تغفل ؛ وأنهم ماضون إلى دار السلام ، منتهون إلى ولاية ربهم وكفالته . . فالآن يعرض الصفحة المقابلة في المشهد – على طريقة القرآن الغالبة في عرض " مشاهد القيامة " – يعرض شياطين الإنس والجن ، الذين قضوا الحياة يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً وخداعاً وإضلالا ؛ ويقف بعضهم بمساندة بعض عدوا لكل نبي ؛ ويوحي بعضهم إلى بعض ليجادلوا المؤمنين في ما شرعه الله لهم من الحلال والحرام . . يعرضهم في مشهد شاخص حي ، حافل بالحوار والاعتراف والتأنيب والحكم والتعقيب ، فائض بالحياة التي تزخر بها مشاهد القيامة في القرآن .

﴿ ويوم يحشرهم جميعا : يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس ! وقال أولياؤهم من الإنس : ربنا استمتع بعضنا ببعض ، وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا ! قال : النار مثواكم خالدين فيها – إلا ما شاء الله – إن ربك حكيم عليم . . وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون . . يا معشر الجن والإنس ، ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : شهدنا على أنفسنا ! وغرتهم الحياة الدنيا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ . .

إن المشهد يبدأ معروضاً في المستقبل ، يوم يحشرهم جميعا . . ولكنه يستحيل واقعا

للسامع يتراءى له مواجهة . وذلك بحذف لفظة واحدة في العبارة . فتقدير الكلام ، ﴿ ويوم يحشرهم جميعا ﴾ – فيقول – ﴿ يا معشر الجن والإنس . . . ﴾ ولكن حذف كلمة – يقول – ينتقل بالتعبير المصور نقلة بعيدة ؛ ويحيل السياق من مستقبل ينتظر ، إلى واقع ينظر ! وذلك من خصائص التصوير القرآني العجيب .

. .

فلنتابع المشهد الشاخص المعروض :

﴿ يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس ! ﴾ . .

*(98/252)*

---

استكثرتم من التابعين لكم من الإنس ، المستمعين لإيحائكم ، المطيعين لوسوستكم ، المتبعين لخطواتكم . . وهو إخبار لا يقصد به الإخبار فالجن يعلمون أنهم قد استكثروا من الإنس ! إنما يقصد به تسجيل الجريمة – جريمة إغواء هذا الحشد الكبير الذي نكاد نلمحه في المشهد المعروض ! – ويقصد به التأنيب على هذه الجريمة التي تتجمع قرائنها الحية في هذا الحشد المحشود ! لذلك لا يجيب الجن على هذا القول بشيء . . ولكن الأغرار الأغمار من الإنس المستخفين بوسوسة الشياطين يجيبون :

﴿ وقال أولياؤهم من الإنس : ربنا استمتع بعضنا ببعض ، وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا ! ﴾ . .

وهو جواب يكشف عن طبيعة الغفلة والخفة في هؤلاء الأتباع ؛ كما يكشف عن مدخل الشيطان إلى نفوسهم في دار الخداع . . لقد كانوا يستمتعون بإغواء الجن لهم وتزيينه ما كان يزين لهم من التصورات والأفكار ، ومن المكابرة والاستهتار ، ومن الإثم ظاهره وباطنه ! فمن منفذ الاستمتاع دخل إليهم الشيطان ! وكانت الشياطين تستمتع بهؤلاء الأغرار الأغفال . . كانت تستهويهم وتعبث بهم ؛ وتسخرهم لتحقيق هدف إبليس في عالم الإنس ! وهؤلاء الأغرار المستخفون يحسبون أنه كان استمتاعا متبادلا ، وأنهم كانوا يمتعون فيه ويتمتعون ! ومن ثم يقولون :

﴿ ربنا استمتع بعضنا ببعض ! ﴾ . .

ودام هذا المتاع طوال فترة الحياة ، حتى حان الأجل ، الذي يعلمون اليوم فقط أن الله هو الذي أمهلهم إليه ؛ وأنهم كانوا في قبضته في أثناء ذلك المتاع :

﴿ وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا ﴾ !

عند ذلك يجيء الحكم الفاصل ، بالجزاء العادل :

﴿ قال : النار مثواكم خالدين فيها – إلا ما شاء الله – ﴾

فالنار مثابة ومأوى . والمثوى للإقامة . وهي إقامة الدوام . . ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ لتبقى

صورة المشيئة الطليقة هي المسيطرة على التصور الاعتقادي . فطلاقة المشيئة الإلهية قاعدة من قواعد هذا التصور . والمشيئة لا تنحبس ولا تتقيد . ولا في مقرراتها هي . ﴿ إن ربك حكيم عليم ﴾ .

(99/252)

---

يمضي قدره بالناس عن حكمة وعن علم ؛ ينفرد بهما الحكيم العليم . .

وقبل استئناف الحوار لإتمام المشهد ، يتحول السياق للتعقيب على شطر المشهد المنتهي :

﴿ وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون ﴾ . .

بمثل هذا الذي قام بين الجن والإنس من ولاء ؛ وبمثل ما انتهى إليه هذا الولاء من مصير . .

بمثل ذلك ، وعلى قاعدته ، نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون . نجعل بعضهم أولياء بعض ؛ بحكم ما بينهم من تشابه في الطبع والحقيقة ؛ وبحكم ما بينهم من اتفاق في الوجهة والهدف . وبحكم ما ينتظرهم من وحدة في المصير .

وهو تقرير عام أبعد مدى من حدود المناسبة التي كانت حاضرة ، إنه يتناول طبيعة الولاء بين الشياطين من الإنس والجن عامة .

فإن الظالمين – وهم الذين يشركون بالله في صورة من الصور – يتجمع بعضهم إلى بعض في

مواجهة الحق والهدى ؛ ويعين بعضهم بعضا في عداء كل نبي والمؤمنين به . إنهم فضلا على أنهم من طينة واحدة – مهما اختلفت الأشكال – هم كذلك أصحاب مصلحة واحدة ، تقوم على اغتصاب حق الربوبية على الناس ، كما تقوم على الانطلاق مع الهوى بلا قيد من حاكمية الله .

ونحن نراهم في كل زمان كتلة واحدة يساند بعضهم بعضا – على ما بينهم من خلافات وصراع على المصالح – إذا كانت المعركة مع دين الله ومع أولياء الله . . فبحكم ما بينهم من اتفاق في الطينة ، واتفاق في الهدف يقوم ذلك الولاء . . وبحكم ما يكسبون من الشر والإثم تتفق مصائرهم في الآخرة على نحو ما رأينا في المشهد المعروض !

وإننا لنشهد في هذه الفترة – ومنذ قرون كثيرة – تجمعا ضخما لشياطين الإنس من الصليبيين والصهيونيين والوثنيين والشيوعيين – على اختلاف هذه المعسكرات فيما بينها – ولكنه تجمع موجه إلى الإسلام ، وإلى سحق طلائع حركات البعث الإسلامي في الأرض كلها .

*(100/252)*

وهو تجمع رهيب فعلا ، تجتمع له خبرة عشرات القرون في حرب الإسلام ، مع القوى المادية والثقافية ، مع الأجهزة المسخرة في المنطقة ذاتها للعمل وفق أهداف ذلك التجمع وخططه الشيطانية الماكرة . . وهو تجمع يتجلى فيه قول الله سبحانه : ﴿ وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون ﴾ . . كما ينطبق عليه تطمين الله لنبيه – صلى الله عليه وسلم : ﴿ ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون ﴾ ولكن هذا التطمين يقتضي أن تكون هناك العصبة المؤمنة التي تسير على قدم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وتعلم أنها تقوم مقامه في هذه المعركة المشبوبة على هذا الدين ، وعلى المؤمنين . .

ثم نعود مع السياق إلى شطر المشهد الأخير :

﴿ يا معشر الجن والإنس ، ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا شهدنا على أنفسنا ، وغرتهم الحياة الدنيا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ . .

وهو سؤال للتقرير والتسجيل . فالله – سبحانه – يعلم ما كان من أمرهم في الحياة الدنيا . والجواب عليه إقرار منهم باستحقاقهم هذا الجزاء في الآخرة . .

والخطاب موجه إلى الجن كما هو موجه إلى الإنس . . فهل أرسل الله إلى الجن رسلا منهم كما أرسل إلى الإنس ؟ الله وحده يعلم شأن هذا الخلق المغيب عن البشر . ولكن النص يمكن تأويله بأن الجن كانوا يسمعون ما أنزل على الرسل ، وينطلقون إلى قومهم منذرين به .

كالذي رواه القرآن الكريم من أمر الجن في سورة الأحقاف : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن . فلما حضروه قالوا : أنصتوا . فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا : يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه ، يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به ، يغفر لكم من ذنوبكم ، ويجركم من عذاب أليم . ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض ، وليس له من دونه أولياء . أولئك في ضلال مبين ﴾

*(101/252)*

---

فجائز أن يكون السؤال والجواب للجن مع الإنس قائمين على هذه القاعدة . . والأمر كله مما اختص الله سبحانه بعلمه ؛ والبحث فيما وراء هذا القدر لا طائل وراءه !

وعلى أية حال فقد أدرك المسؤولون من الجن والإنس ، أن السؤال ليس على وجهه . إنما هو سؤال للتقرير والتسجيل ؛ كما أنه للتأنيب والتوبيخ ؛ فأخذوا في الاعتراف الكامل ؛ وسجلوا على أنفسهم استحقاقهم لما هم فيه :

﴿ قالوا : شهدنا على أنفسنا ﴾ :

وهنا يتدخل المعقب على المشهد ليقول :

﴿ وغرتهم الحياة الدنيا ؛ وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ ؛

وهو تعقيب لتقرير حقيقة حالهم في الدنيا . فقد غرتهم هذه الحياة ؛ وقادهم الغرور إلى الكفر . ثم ها هم أولاء يشهدون على أنفسهم به ؛ حيث لا تجدي المكابرة والإنكار . .

فأي مصير أبأس من أن يجد الإنسان نفسه في هذا المأزق ، الذي لا يملك أن يدفع عن نفسه فيه ، ولا بكلمة الإنكار ! ولا بكلمة الدفاع !

ونقف لحظة أمام الأسلوب القرآني العجيب في رسم المشاهد حاضرة ؛ ورد المستقبل المنظور واقعاً مشهوداً ؛ وجعل الحاضر القائم ماضياً بعيداً !

إن هذا القرآن يتلى على الناس في هذه الدنيا الحاضرة ؛ وفي هذه الأرض المعهودة . ولكنه يعرض مشهد الآخرة كأنه حاضر قريب ؛ ومشهد الدنيا كأنها ماض بعيد ! فننسى أن ذلك مشهد سيكون يوم القيامة ؛ ونستشعر أنه أمامنا اللحظة ماثل ! وأنه يتحدث عن الدنيا التي كانت كما يتحدث عن التاريخ البعيد !

﴿ وغرتهم الحياة الدنيا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم - كانوا - كافرين ﴾ . .

وذلك من عجائب التخييل !

*(102/252)*

وعلى ختام المشهد يلتفت السياق بالخطاب إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومن وراءه من المؤمنين ؛ وإلى الناس أجمعين ، ليعقب على هذا الحكم الصادر بجزاء الشياطين من الإنس والجن ؛ وبإحالة هذا الحشد الحاشد إلى النار ؛ وعلى إقرارهم بأن الرسل قد جاءت إليهم ، تقص عليهم آيات الله ، وتنذرهم لقاء يومهم هذا . . ليعقب على هذا المشهد وما كان فيه ، بأن عذاب الله لا ينال أحدا إلا بعد الإنذار ؛ وأن الله لا يأخذ العباد بظلمهم ( أي بشركهم ) إلا بعد أن ينبهوا من غفلتهم ؛ وتقص عليهم الآيات ، وينذرهم المنذرون :

﴿ ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى – بظلم – وأهلها غافلون ﴾ . .

لقد اقتضت رحمة الله بالناس ألا يؤاخذهم على الشرك والكفر حتى يرسل إليهم الرسل ، على الرغم مما أودعه فطرتهم من الاتجاه إلى ربها – فقد تضل هذه الفطر – وعلى الرغم مما أعطاهم من قوة العقل والإدراك – فالعقل قد يضل تحت ضغط الشهوات – وعلى الرغم مما في كتاب الكون المفتوح من آيات – فقد تتعطل أجهزة الاستقبال كلها في الكيان البشري .

لقد ناط بالرسل والرسالات مهمة استنقاذ الفطرة من الركام ، واستنقاذ العقل من الانحراف ، واستنقاذ البصائر والحواس من الانطماس . وجعل العذاب مرهونا بالتكذيب والكفر بعد البلاغ والإنذار .

وهذه الحقيقة كما أنها تصور رحمة الله بهذا الإنسان وفضله ، كذلك تصور قيمة المدارك

البشرية من فطرة وعقل ؛ وتقرر أنها – وحدها – لا تعصم من الضلال ، ولا تهدي إلى يقين ، ولا تصبر على ضغط الشهوات . . ما لم تساندها العقيدة وما لم يضبطها الدين . .

ثم يقرر السياق حقيقة أخرى في شأن الجزاء . . للمؤمنين وللشياطين سواء :

﴿ ولكل درجات مما عملوا . وما ربك بغافل عما يعملون ﴾ . .

فللمؤمنين درجات : درجة فوق درجة . وللشياطين درجات : درجة تحت درجة ! وفق الأعمال . والأعمال مرصودة لا يغيب منها شيء :

﴿ وما ربك بغافل عما يعملون ﴾ .

*(103/252)*

---

على أن الله – سبحانه – إنما يرسل رسله رحمة بالعباد ، فهو غني عنهم ؛ وعن إيمانهم به وعبادتهم له . وإذا أحسنوا فإنما يحسنون لأنفسهم في الدنيا والآخرة . كذلك تتجلى رحمته في الإبقاء على الجيل العاصي الظالم المشرك ، وهو القادر على أن يهلكه ، وينشئ جيلا آخر يستخلفه :

﴿ وربك الغني ذو الرحمة . إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء . كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ﴾ .

فلا ينس الناس أنهم باقون برحمة الله ؛ وأن بقاءهم معلق بمشيئة الله ؛ وأن ما في أيديهم من سلطان إنما خولهم الله إياه . فليس هو سلطاناً أصيلا ؛ ولا وجودا مختارا . فما لأحد في نشأته ووجوده من يد ؛ وما لأحد فيما أعطيه من السلطان من قدرة . وذهابهم واستخلاف غيرهم هين على الله . كما أنه أنشأهم من ذرية جيل غبر . واستخلفوا هم من بعده بقدر من الله .

إنها طرقات قوية وإيقاعات عنيفة على قلوب الظالمين من شياطين الإنس والجن الذين يمكرون ويتطاولون ، ويحرمون ويحللون ، ويجادلون في شرع الله بما يشرعون . . وهم هكذا في قبضة الله يبقيهم كيف شاء ، ويذهب بهم أنى شاء ، ويستخلف من بعدهم ما يشاء . . كما أنها إيقاعات من التثبيت والطمأنينة والثقة في قلوب العصبة المسلمة ، التي تلقى العنت من كيد الشياطين ومكرهم ؛ ومن أذى المجرمين وعدائهم . . . فهؤلاء هم في قبضة الله ضعافا حتى وهم يتجبرون في الأرض ويمكرون !

ثم إيقاع تهديدي آخر :

﴿ إن ما توعدون لآت ، وما أنتم بمعجزين ﴾ .

إنكم في يد الله وقبضته ، ورهن مشيئته وقدره . فلستم بمفلتين أو مستعصين . . ويوم الحشر الذي شاهدتم منه مشهدا منذ لحظة ينتظركم ؛ وأنه لآت لا ريب فيه ، ولن تفلتوا يومها ، ولن تعجزوا الله القوي المتين . وتنتهي التعقيبات بتهديد آخر ملفوف ، عميق

الإيحاء والتأثير في القلوب :

﴿ قل : يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل ، فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار ، إنه لا يفلح الظالمون ﴾ .

*(104/252)*

---

إنه تهديد الواثق من الحق الذي معه ، والحق الذي وراءه ؛ ومن القوة التي في الحق ، والقوة التي وراء الحق . . التهديد من الرسول – صلى الله عليه وسلم – بأنه نافض يديه من أمرهم ، واثق مما هو عليه من الحق ، واثق من منهجه وطريقه ، واثق كذلك مما هم عليه من الضلال ، وواثق من مصيرهم الذي هم إليه منتهون :

﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ . .

فهذه هي القاعدة التي لا تتخلف . . إنه لا يفلح المشركون ، الذين يتخذون من دون الله أولياء . وليس من دون الله ولي ولا نصير . والذين لا يتبعون هدى الله . وليس وراءه إلا الضلال البعيد وإلا الخسران المبين . .

وقبل أن نمضي مع سياق السورة حلقة جديدة ، نقف وقفة سريعة مع هذه الحلقة الوسيطة بين حديث عن تشريع الذبائح – ما ذكر اسم الله عليه وما لم يذكر اسم الله عليه –

وحديث عن النذور من الثمار والأنعام والأولاد . . هذه الحلقة التي تضمنت تلك الحقائق الأساسية من حقائق العقيدة البحتة ؛ كما تضمنت مشاهد وصوراً وتقريرات عن طبيعة الإيمان وطبيعة الكفر ؛ وعن المعركة بين الشياطين من الإنس والجن وبين أنبياء الله والمؤمنين بهم ؛ كما تضمنت ذلك الحشد من المؤثرات الموحية التي سبقت نظائرها في سياق السورة وهو يواجه ويعرض حقائق العقيدة الكبرى في محيطها الشامل . .

نقف هذه الوقفة السريعة مع هذه الحلقة الوسيطة ؛ لنرى كم يحفل المنهج القرآن بهذه الواقعيات العملية ، وهذه الجزيئات التطبيقية في الحياة البشرية ؛ وكم يحفل بانطباقها على شريعة الله ؛ وعلى تقرير الأصل الذي يجب أن تستند إليه ؛ وهو حاكمية الله . . أو بتعبير آخر ربوبية الله .

فلماذا يحفل المنهج القرآني هكذا بهذه القضية ؟

*(105/252)*

---

يحفل بها لأنها من ناحية المبدأ تلخص قضية " العقيدة " في الإسلام ؛ كما تلخص قضية " الدين " . فالعقيدة في الإسلام تقوم على أساس شهادة : إن لا إله إلا الله . وبهذه الشهادة يخلع المسلم من قلبه ألوهية كل أحد من العباد ويجعل الألوهية لله . ومن ثم يخلع الحاكمية

عن كل أحد ويجعل الحاكمية كلها لله . . والتشريع للصغيرة هو مزاولة لحق الحاكمية كالتشريع للكبيرة . فهو من ثَمَّ مزاولة لحق الألوهية . يأباه المسلم إلا لله . . والدين في الإسلام هو دينونة العباد في واقعهم العملي – كما هو الأمر في العقيدة القلبية – لألوهية واحدة هي ألوهية الله ، ونفض كل دينونة في هذا الواقع لغير الله من العباد المتألهين ! والتشريع هو مزاولة للألوهية ، والخضوع للتشريع هو الدينونة لهذه الألوهية . . ومن ثم يجعل المسلم دينونته في هذا لله وحده ؛ ويخلع ويرفض الدينونة لغير الله من العباد المتألهين !

من هنا ذلك الاحتفال كله في القرآن كله بتقرير هذه الأصول الاعتقادية ، والاتكاء عليها على هذا النحو الذي نرى صورة منه في سياق هذه السورة المكية . . والقرآن المكي – كما أسلفنا في التقديم لهذه السورة في الجزء السابع – لم يكن يواجه قضية النظام والشرائع في حياة الجماعة المسلمة ؛ ولكنه كان يواجه قضية العقيدة والتصور . ومع هذا فإن السورة تحفل هذا الاحتفال بتقرير هذا الأصل الاعتقادي في موضوع الحاكمية . . ولهذا دلالته العميقة الكبيرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 3 صـ 1206 . 1212 ﴾

*(106/252)*

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قرأ أبو بكر عن عَاصِم " مَكَانَاتِكُمْ " بالجَميع في كُلِّ القُرْآن ، أي : على تَمَكُّنِكُمْ .

وقال عطاء : على حَالاتِكُم التي أَنْتُم عليها ، والباقون : مَكَانَتِكُمْ .

قال الواحدي : والوَجْه الإفْرَادُ ؛ لأنه مَصْدر ، والمصادِرُ في أكْثر الأمْر مفْرَدة ، وقد يُجْمَع في بعض الأحوالِ إلا أنَّ الغالبَ هو الأوَّل ، فمن أفْرَد فلإرادة الجِنْسِ ، ومن جَمَع فَلِيُطَابق ما بَعْدَه ، فإن المخَاطِبين جماعة ، وقد أُضِيفَت إلَيْهم ، وقد علم أن الكُلَّ وَاحِد مَكانه .

قال الزمخشري : المكانَةُ تكون مَصْدراً ؛ يقال : مكَنَ مَكَانَةً إذا تمكَّنَ أبْلَغ التمكّن ، وبعنى المكان ؛ يقال : مكان ومكانة ، ومقام ومقامة ، فقوله : " اعْملُوا على مَكَانِتكُم " يحتمل " اعْملُوا " على تمكُّنِكُم من أمْرِكُم وأقْصَى اسْتِطَاعَتِكُم وإمكَانِكُم وإمْكانكم ، قال معْنَاه أبو إسحاق الزَّجَّاج ، وعلى الثاني : أعْمَلُوا على جِهْتِكم وحَالِكُم التي أَنْتُم عليها .

قوله : " إني عامل " على مَكَانتي الَّتِي أنا عليها ، والمعنى : أَثْبُتُوا على عَدَاوَتِكُم وكُفْرِكُم ، فإني ثابتٌ على الإسلام وعلى مَضَارَّتِكُم ، " فَسوْفَ تَعْلَمُون " أَيُّنَا يَنَال العَاقِبة المحمُودة ، وهذا أمْر تَهْدِيد ؛ كقوله : " اعملُوا ما شِئْتُم " .

قوله : " مَنْ تَكُونُ لَهُ " يَجُوز في " مَنْ " هذه وجهان : أحدهما : أن تكون موصولة وهو الظَّاهِر ، فهي في محلِّ نَصْب مفْعُولاً به ، و " عَلِمَ هنا مُتَعَدِّية لواحد ؛ لأَنَّها بمعنى العِرْفَان .

---

الثاني : أن تكون استِفْهَاميَّة ، فتكون في محلِّ رفع بالابتداء ، و" تكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ " تكون واسْمُهَا وخَبَرُهَا في محلِّ رفع خبراً لها ، وهي خبرها في محلِّ نَصْبٍ : إمَّا لسَدِّها مَسَدَّ مَفْعُول وَاحِدٍ إن كانت " عَلِمَ " عِرْفَانيَّة ، وإمَّا لسدِّها مسدَّ اثنين إن كان يقينيّة . وقرأ الأخوان : " مَنْ يكُون لَهُ عَاقِبةُ الدَّارِ " هنا ، وفي " القصص " [ الآية : 37 ] بالياء ، والباقون : بالتاء من فوق ، وهما واضحتان ، فإن تأنيثها غير حَقِيقِيّ ، وقد تقدم ذلِك في قوله : ﴿ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ ﴾ [ البقر : 123 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 440. 441 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (135) ﴾

هذا غاية الزجر لأنه تهديد وإن كان في صيغة الأمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 504 ﴾

---

قوله تعالى ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (136) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تمت هذه الآيات من قبح طريقتهم في إنكار البعث وحسن طريقة الإسلام على هذا الأسلوب البديع والمثال البعيد المنال الرفيع وختمت بحال الظالم ، شرع في تفصيل قوله ﴿ أغير الله أتخذ ولياً فاطر السماوات والأرض ﴾ [ الأنعام : 14 ] على أسلوب آخر ابتدأه ببيان ظلمهم وجهالاتهم وأباطيلهم تنبيهاً على سخافة عقولهم تنفيراً عنهم بوضعهم الأشياء في غير مواضعها وإخراجها عمن هي له ونسبتها إلى من لا يملك شيئاً وقتل الأولاد وتسييب الأنعام وغير ذلك ، فقال عاطفاً على ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن ﴾ [ الأنعام : 100 ] : ﴿ وجعلوا ﴾ أي المشركون العادلون بربهم الأوثان ﴿ لله ﴾ أي الملك الأعلى الذي لا كفوء له ﴿ مما ذرأ ﴾ أي خلق وأنشأ وبث ولم يشركه في خلقه أحد ﴿ من الحرث

والأنعام نصيباً ﴾ أي وجعلوا لشركائهم نصيباً ؛ ولما كان الجعل لا يعرف إلا بالقول ، سبب عنه قوله : ﴿ فقالوا ﴾ أي بألسنتهم بعد أن قالوا بأفئدتهم ﴿ هذا لله ﴾ أي الملك الأعلى ﴿ بزعمهم ﴾ أي ادعائهم الباطل وتصرفهم بكذب ادعائهم التخصيص بالله ، ولذا أسقط الزعم من قوله : ﴿ وهذا لشركائنا ﴾ أي وليس لهم سند في هذه القسمة إلا أهوائهم .

ولما كان هذا سفهاً بتسويتهم من لا يملك شيئاً بمن يملك كل شيء ، بين من فعلهم ما هو أشد سفهاً منه بشرح ما لوح إليه التعبير بالزعم فقال مسبباً عن ذلك ومفرعاً : ﴿ فما كان لشركائهم ﴾ أي بزعمهم أنهم شركاء ﴿ فلا يصل إلى الله ﴾ أي الذي هو المالك مع اتصافه بصفات الجلال والجمال ﴿ وما كان لله ﴾ أي على ما له من الكبر والعظمة والجلال والعزة ﴿ فهو يصل إلى شركائهم ﴾ فإذا هلك ما سموا لشركائهم أو أجدب وكثر ما لله قالوا : ليس لآلهتنا بد من نفقة ، فأخذوا ما لله فأنفقوه على آلهتهم ، وإذا أجدب الذي لله وكثر ما لآلهتهم قالوا : لو شاء الله لأزكى الذل له ، فلا يردون عليه شيئاً مما للآلهة .

*(109/252)*

ولما بلغ هذا غاية السفه قال : ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ أي حكمهم هذا أسوأ حكم ؛ ذكر الإمام أبو الربيع سليمان بن سالم الكلاعي في سيرته في وفد خولان أنه كان لهم صنم يسمى عم أنس ، وأنهم لما وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم ذكروا له أنهم كانوا يجعلون من أنعامهم وحروثهم جزءاً له وجزءاً لله بزعمهم ، قالوا : كنا نزرع الزرع فنجعل له وسطه فنسميه له ونسمي زرعاً آخر حجرة لله عزّ وجلّ ، فإذا مالت الريح بالذي سميناه لله جعلناه لعم أنس ، وإذا مالت الريح بالذي جعلناه لعم أنس لم نجعله لله ، فذكر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله عزّ وجلّ أنزل عليه في ذلك ﴿ وجعلوا لله ﴾ الآية ، قالوا : وكنا نتحاكم إليه فيتكلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تلك الشياطين تكلمكم " ، قالوا : فأصبحنا برسول الله وقلوبنا تعرف أنه كان لا يضر ولا ينفع ولا يذري من عبده ممن لم يعبده .

*(110/252)*

---

وقال ابن هشام في مقدمة السيرة إنهم كانوا يقسمون له ، فما دخل في حق عم أنس من حق الله الذي سموه له تركوه له ، وما دخل في حق الله من حق عم أنس ردوه عليه ، قال : وهم بطن من خولان يقال لهم الأديم ؛ وقال عبد الرزاق في تفسيره : أخبرنا معمر عن قتادة قال :

كانوا يعزلون من أموالهم شيئاً فيقولون : هذا لله وهذا لأصنامهم ، فإن ذهب شيء مما جعلوا لشركائهم يخالط شيئاً مما جعلوه ردوه ، وإن ذهب شيء مما جعلوه لله يخالط شيئاً مما جعلوه لشركائهم تركوه ، وإن أصابتهم سنة أكلوا مما جعلوا لله وتركوا ما جعلوا لشركائهم ، فقال عزّ وجلّ ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ وقال البغوي : كانوا يجعلون لله من حروثهم وأنعامهم وثمارهم وسائر أموالهم نصيباً وللأوثان نصيباً ، فما جعلوه لله صرفوه للضيفان والمساكين ، وما جعلوه للأصنام أنفقوه على الأصنام وخدمها ، فإن سقط شيء مما جعلوه لله في نصيب الأوثان تركوه وقالوا : إن الله غني عن هذا ، وإن سقط شيء من نصيب الأوثان فيما جعلوه لله ردوه إلى الأوثان وقالوا : إنها محتاجة ، وكان إذا هلك أو انتقص شيء مما جعلوه لله لم يبالوا به ، وإذا هلك أو انتقص شيء مما جعلوه للأصنام جبروه بما جعلوه لله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 720 . 722 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما بين قبح طريقتهم في إنكارهم البعث ، والقيامة ذكر عقيبه أنواعاً من جهالاتهم وركاكات أقوالهم تنبيهاً على ضعف عقولهم ، وقلة محصولهم ، وتنفيراً للعقلاء عن الالتفات إلى كلماتهم ، فمن جملتها أنهم يجعلون لله من حروثهم ، كالتمر والقمح ، ومن أنعامهم كالضأن والمعز والإبل والبقر ، نصيباً ، فقالوا : ﴿ هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ ﴾ يريد

بكذبهم .

فإن قيل : أليس أن جميع الأشياء لله فكيف نسبوا إلى الكذب في قولهم : هذا لله ؟

قلنا : إفرازهم النصيبين نصيباً لله ؛ ونصيباً للشيطان هو الكذب .

*(111/252)*

---

قال الزجاج : وتقدير الكلام جعلوا لله نصيباً ولشركائهم نصيباً ودل على هذا المحذوف تفصيله القسمين فيما بعد ، وهو قوله : ﴿ هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وهذا لِشُرَكَائِنَا ﴾ وجعل الأوثان شركاءهم لأنهم جعلوا لها نصيباً من أموالهم ينفقونها عليها .

ثم قال تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ ﴾

وفي تفسيره وجوه : الأول : قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان المشركون يجعلون لله من حروثهم وأنعامهم نصيباً ، وللأوثان نصيباً ، فما كان للصنم أنفقوه عليه ، وما كان لله أطعموه الصبيان والمساكين ، ولا يأكلون منه ألبتة .

ثم إن سقط مما جعلوه لله في نصيب الأوثان تركوه وقالوا : إن الله غني عن هذا ، وإن سقط مما جعلوه للأوثان في نصيب الله أخذوه وردوه إلى نصيب الصنم ، وقالوا : إنه فقير .

الثاني : قال الحسن والسدي : كان إذا هلك ما لأوثانهم أخذوا بدله مما لله ، ولا يفعلون مثل

ذلك فيما لله عز وجل .

الثالث : قال مجاهد : المعنى أنه إذا انفجر من سقي ما جعلوه للشيطان في نصيب الله سدوه ، وإن كان على ضد ذلك تركوه .

الرابع : قال قتادة : إذا أصابهم القحط استعانوا بما لله ووفروا ما جعلوه لشركائهم .

*(112/252)*

---

الخامس : قال مقاتل : إن زكا ونما نصيب الآلهة ولم يزك نصيب الله تركوا نصيب الآلهة لها ، وقالوا لو شاء زكى نصيب نفسه وإن زكا نصيب الله ولم يزك نصيب الآلهة ، قالوا لا بد لآلهتنا من نفقة ، فأخذوا نصيب الله فأعطوه السدنة ، فذلك قوله : ﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ ﴾ يعني من نماء الحرث والأنعام ﴿ فَلاَ يَصِلُ إِلَى الله ﴾ يعني المساكين وإنما قال : ﴿ إِلَى الله ﴾ لأنهم كانوا يفرزونه لله ويسمونه نصيب الله ، وما كان لله فهو يصل إليهم ، ثم إنه تعالى ذم هذا الفعل فقال : ﴿ سَاء مَا يَحْكُمُونَ ﴾ وذكر العلماء في كيفية هذه الإساءة وجوهاً كثيرة : الأول : أنهم رجحوا جانب الأصنام في الرعاية والحفظ على جانب الله تعالى ، وهو سفه .

الثاني : أنهم جعلوا بعض النصيب لله وجعلوا بعضه لغيره مع أنه تعالى الخالق للجميع ،

وهذا أيضاً سفه .

الثالث : أن ذلك الحكم حكم أحدثوه من قبل أنفسهم ، ولم يشهد بصحته عقل ولا شرع ، فكان أيضاً سفهاً .

الرابع : أنه لو حسن إفراز نصيب الأصنام لحسن إفراز النصيب لكل حجر ومدر ،

الخامس : أنه لا تأثير للأصنام في حصول الحرث والأنعام ، ولا قدرة لها أيضاً على الانتفاع بذلك النصيب فكان إفراز النصيب لها عبثاً ، فثبت بهذا الوجوه أنه ﴿ سَاء مَا يَحْكُمُونَ ﴾ والمقصود من حكاية أمثال هذه المذاهب الفاسدة ، أن يعرف الناس قلة عقول القائلين بهذه المذاهب ، وأن يصير ذلك سبباً لتحقيرهم في أعين العقلاء ، وأن لا يلتفت إلى كلامهم أحد ألبتة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 167 . 168 ﴾

*(113/252)*

---

وقال الثعلبى :

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحرث والأنعام نَصِيباً ﴾ .

قال المفسرون : كانوا يجعلون لله من حروثهم وأنعامهم وثمارهم وسائر أموالهم نصيباً

وللأوثان نصيباً فما كان للصنم أنفق عليه ، وما كان للّه أطعم الضيفان والمساكين ولا يأكلون من ذلك كله شيئاً فما سقط مما جعلوا للّه في نصيب الأوثان تركوه . وقالوا : إن اللّه غني عن هذا ، وإن سقط مما جعلوه للأوثان في نصيب اللّه التقطوه فردوه إلى نصيب الصنم وقالوا : إنه فقير . وكانوا إذا بذروا ما وقع من بذر اللّه في حصة الصنم تركوه ، وما وقع من حصّة الصنم في حصّة اللّه تعالى ردوه وإن انفجر من سقي ماء جعلوه للشيطان في نصيب اللّه ، شدّوه ، وإن انفجر من سقي ماء جعلوه للّه في نصيب الشيطان تركوه . فإذا هلك الذي سموا لشركائهم أو أجدب وكثر الذي للّه ، قالوا : ليس لآلهتنا بدّ من نفقة فأخذوا الذي للّه وأنفقوا على الهتهم فإذا أجدب الذي للّه وكثر الذي لآلهتهم قالوا : لو شاء اللّه لأزكى الذي له فلا يردون عليه شيئاً مما للآلهة فإذا أصابتهم السنة استعانوا بما جزوا منه ووفروا ما يجزون لشركائهم وذلك قوله تعالى مما ﴿ ذَرَأَ مِنَ الحرث والأنعام نَصِيباً ﴾ أي مما خلف من الحرث والأنعام نصيباً ، وفيه إضمار واختصار مجازه : وجعلوا للّه نصيباً ولشركائهم نصيباً ﴿ فَقَالُواْ هذا للَّهِ بِزَعْمِهِمْ ﴾ .

يحيى بن رئاب والسلمي والأعمش والكسائي : بالضم .

وقرأ الباقون : بالفتح . وهما لغتان وهو القول من غير حقيقة .

سمعت الحسين يقول : سمعت العنبري عن أبي العباس الأزهري عن أبي حاتم إنه قال : قال شريح القاضي : إن لكل شيء كنية وكنية الكذب زعموا ، والزعم أيضاً في الطمع ﴿ وهذا لِشُرَكَآئِنَا ﴾ يعني الأوثان ﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي بئس ما كانوا يقضون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ ﴾ قال ابن قتيبة : ذرأ : بمعنى : خلق .

﴿ من الحرث ﴾ وهو الزرع .

﴿ والأنعام ﴾ : الإبل والبقر والغنم .

وكانوا إذا زرعوا ، خطوا خطاً ، فقالوا : هذا لله ، وهذا لآلهتنا ، فإذا حصدوا ما جعلوه لله ، فوقع منه شيء فيما جعلوه لآلهتهم ، تركوه ، وقالوا : هي إليه محتاجة ؛ وإذا حصدوا ما جعلوه لآلهتهم ، فوقع منه شيء في مال الله ، أعادوه ، إلى موضعه .

وكانوا يجعلون من الأنعام شيئاً لله ، فإذا ولدت إناثها ميّتاً ، أكلوه ، وإذا ولدت أنعام آلهتهم ميّتاً عظموه فلم يأكلوه .

وقال الزجاج : معنى الآية : وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيباً ، وجعلوا لشركائهم

نصيباً ، يدل عليه قوله تعالى : ﴿ فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ﴾ ، فدل بالإِشارة إلى النصيبين على نصيب الشركاء ؛ وكانوا إذا زكا ما لله ، ولم يزكُ ما لشركائهم ، ردوا الزاكي على أصنامهم ، وقالوا : هذه أحوج ، والله غني ؛ وإذا زكا ما للأصنام ، ولم يزكُ ما لله ، أقروه على ما به .

قال المفسرون : وكانوا يَصرفون ما جعلوا لله إلى الضِّيفان والمساكين .

فمعنى قوله : ﴿ فلا يصل إلى الله ﴾ أي : إلى هؤلاء .

ويصرفون نصيب آلهتهم في الزرع إلى النفقة على خُدَّامها .

فأما نصيبها في الأنعام ففيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه كان للنفقة عليها أيضاً .

والثاني : أنهم كانوا يتقربون به ، فيذبحونه لها .

والثالث : أنه البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام .

*(115/252)*

---

وقال الحسن : كان إذا هلك ما لأوثانهم غَرِموه ، وإذا هلك ما لله لم يَغْرَمُوه .

وقال ابن زيد : كانوا لا يأكلون ما جعلوه لله حتى يذكروا عليه اسم أوثانهم ، ولا يذكرون

الله على ما جعلوه للأوثان .

فأما قوله "بزَعمهم" فقرأ الجمهور : بفتح الزاي ؛ وقرأ الكسائي ، والأعمش : بضمها .

وفي الزعم ثلاث لغات : ضم الزاي ، وفتحها ، وكسرها .

ومثله : السُّقط والسَّقط والسِّقط ؛ والفَتْك ، والفُتْك ، والفِتْك : والزَّعم والزُّعم والزِّعم .

قال الفراء : فتح الزاي في الزَّعم لأهل الحجاز ؛ وضمها لأسد ؛ وكسرها لبعض قيس فيما يحكي الكسائي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ للَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحرث والأنعام نَصِيباً ﴾

فيه مسألة واحدة :

ويقال : ذرأ يذرأ ذرءاً ، أي خلق .

وفي الكلام حذف واختصار ، وهو وجعلوا لأصنامهم نصيباً ؛ دلّ عليه ما بعده .

وكان هذا مما زيّنه الشيطان وسوّله لهم ، حتى صَرَفُوا من مالهم طائفةً إلى الله بزعمهم وطائفةً إلى أصنامهم ؛ قاله ابن عباس والحسن ومجاهد وقَتادة .

والمعنى متقارب .

جعلوا لله جزءاً ولشركائهم جزءاً ، فإذا ذهب ما لشركائهم بالإنفاق عليها وعلى سَدَنَتها عوّضوا منه ما لله ، وإذا ذهب ما لله بالإنفاق على الضِّيفان والمساكين لم يعوّضوا منه شيئاً

، وقالوا : اللهُ مُستغْن عنه وشركاؤنا فقراء .

وكان هذا من جهالاتهم وبزعمهم .

والزعم الكذب .

قال شُرَيح القاضي : إن لكل شيء كُنْية وكُنْيةُ الكذب زعموا .

وكانوا يكذبون في هذه الأشياء لأنه لم ينزل بذلك شرع .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : من أراد أن يعلم جهل العرب فليقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام إلى قوله : "قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ" .

(116/252)

---

قال ابن العربيّ : وهذا الذي قاله كلام صحيح ، فإنها تصرفت بعقولها العاجزة في تنويع الحلال والحرام سفاهةً بغير معرفة ولا عدل ، والذي تصرّفت بالجهل فيه من اتخاذ الآلهة أعظمُ جهلاً وأكبرُ جُرْماً ؛ فإن الإعتداء على الله تعالى أعظمُ من الاعتداء على المخلوقات .

والدليل في أن الله واحد في ذاته واحد في صفاته واحد في مخلوقاته أبْيَنُ وأوضحُ من الدليل على أن هذا حلال وهذا حرام .

وقد رُوي أن رجلاً قال لعمرو بن العاص : إنكم على كمال عقولكم ووفور أحلامكم عبدتم الحجر ! فقال عمرو : تلك عقول كادها باريها .

فهذا الذي أخبر الله سبحانه من سخافة العرب وجهلها أمر أذهبه الإسلام ، وأبطله الله ببعثه الرسول عليه السلام .

فكان من الظاهر لنا أن نميته حتى لا يَظهر ، وننساه حتى لا يُذكر ؛ إلا أن ربنا تبارك وتعالى ذكره بنصه وأورده بشرحه ، كما ذكر كفر الكافرين به .

وكانت الحكمة في ذلك والله أعلم أن قضاءه قد سبق ، وحكمه قد نفذ بأن الكفر والتخليط لا ينقطعان إلى يوم القيامة .

وقرأ يحيى بن وثّاب والسُّلَميّ والأعمش والكسائيّ "بزُعمِهم" بضمه الزاي .

والباقون بفتحها ، وهما لغتان .

﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي إلى المساكين .

﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي ساء الحُكْم حكمهم .

قال ابن زيد : كانوا إذا ذبحوا ما لله ذكروا عليه اسم الأوثان ، وإذا ذبحوا ما لأوثانهم لم يذكروا عليه اسم الله ، فهذا معنى "فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ" .

فكان تركهم لذكر الله مذموماً منهم وكان داخلاً في ترك أكل ما لم يذكر اسم الله عليه . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ﴾ الآية

*(117/252)*

---

لما بين الله عز وجل قبح طريقه الكفار وما كانوا عليه من إنكار البعث وغير ذلك عقبه بذكر أنواع من جهالاتهم وأحكامهم الفاسدة تنبيهاً على ضعف عقولهم وفساد ما كانوا عليه في الجاهلية فقال تعالى : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ ﴾ يعني مما خلق من الحرث يعني الزرع والثمر والأنعام ، يعني ومن الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم نصيباً يعني قسماً وجزءاً .

قال المفسرون : كان المشركون في الجاهلية يجعلون لله من حروثهم وثمارهم وأنعامهم وسائر أموالهم نصيباً وللأصنام نصيباً فما جعلوه من ذلك لله صرفوه إلى الضيفان والمساكين وما جعلوه للأصنام أنفقوه عليها وعلى خدمتها فإن سقط شيء مما جعلوه لله في نصيب الأوثان تركوه ، وقالوا : إن الله غني عن هذا وإن سقط شيء من نصيب الأوثان فيما جعلوه لله ردوه إلى الأوثان .

وقالوا : إنها محتاجة إليه .

وكانوا إذا هلك شيء مما جعلوه لله لم يبالوا به وإذا انتقص شيء مما جعلوه للأوثان جبروه مما جعلوه لله فذلك قوله : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ﴾ وفيه اختصار تقديره وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً وللأصنام نصيباً ﴿ فقالوا هذا لله بزعمهم ﴾ يعني قولهم الذي هو بغير حقيقة لأن معنى زعم حكاية قول يكون مظنة الكذب ولذلك لا يجيء إلا في موضع ذم لقائليه وإنما نسبوا إلى الكذب في قولهم هذا الله بزعمهم وإن كانت الأشياء كلها لله لإضافتهم نصيب الأصنام مع نصيب الله وهو قولهم : ﴿ وهذا لشركائنا ﴾ يعني الأصنام وإنما سموا الأصنام شركاء لأنهم جعلوا لها نصيباً من أموالهم ينفقونه عليها : ﴿ فما كان لشركائهم ﴾ يعني وما جعلوا لها من الحرث والأنعام ﴿ فلا يصل إلى الله ﴾ يعني فلا يعطونه المساكين ولا ينفقونه على الضيفان ﴿ وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ﴾ والمعنى أنهم كانوا يقرون ما جعلوه للأصنام مما جعلوه لله ولا يقرون ما جعلوه لله مما جعلوه للأصنام ، وقال قتادة : كانوا إذا أصابتهم سنة قحط وشدة استعانوا بما جعلوه لله وأكلوا منه ووفروا مما جعلوه لشركائهم ولم يأكلوا منه شيئاً .

وقال الحسن والسدي : كانوا إذا هلك ما جعلوا لشركائهم أخذوا بدله مما جعلوه لله ولا

يفعلون ذلك فيما جعلوه لشركائهم فلذلك ذمهم الله تعالى فقال : ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ يعني : بئس ما يحكمون ويقضون وذلك أنهم رجحوا جانب الأصنام على جانب الله تعالى في الرعاية والحفظ وهذا سفه منهم .

وقيل : إن الأشياء كلها لله عز وجل وهو خلقها فلما جعلوا للأصنام جزءاً من المال وهي لا تملك ولا تخلق ولا تضر ولا تنفع نسبوا إلى الإساءة في الحكم والمقصود من ذلك بيان ما كانوا عليه في الجاهلية من هذه الأحكام الفاسدة التي لم يرد بها شرع ولا نص ولا يحسنها عقل .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

*(119/252)*

---

﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون ﴾

روي عن ابن عباس ومجاهد والسدّي أن العرب كانت تجعل من غلاتها وزروعها وأثمارها وأنعامها جزءاً تسميه لله وجزءاً تسميه لأصنامها وكانت عادتها تبالغ وتجتهد في إخراج نصيب الأصنام أكثر منها في نصيب الله ، إذ كانوا يعتقدون أن الأصنام بها فقر وليس ذلك

بالله فكانوا إذا جمعوا الزرع فهبت الريح فحملت من الذي لله إلى الذي لشركائهم تركوه ولم يردوه إلى نصيب الله ويفعلون عكس هذا ، وإذا تفجر من سقي ما جعلوه لله في نصيب شركائهم تركوه وبالعكس سدوه وإذا لم ينجح شيء من نصيب آلهتهم جعلوا نصيب الله لها ، وكذا في الأنعام .

وإذا أجدبوا أكلوا نصيب الله وتركوا نصيبها لما ذكر تعالى قبح طريقة مشركي العرب في إنكارهم البعث ذكر أنواعاً من جهالاتهم تنبيهاً على ضعف عقولهم وفي قوله تعالى : ﴿ مما ذرأ ﴾ أنه تعالى كان أولى أن يجعل له الأحسن والأجود وأن يكون جانبه تعالى هو الأرجح ، إذ كان تعالى هو الموجد لما جعلوا له منه نصيباً والقادر على تنميته دون أصنامهم العاجزة عن ما يحل بها فضلاً عن أن تخلق شيئاً أو تنميه وفي قوله ﴿ مما ﴾ بمن التبعيضية دليل على قسم ثالث وهو ما بقي لهم من غير النصيبين ، وفي الكلام حذف دل عليه التقسيم أي ونصيباً ﴿ لشركائهم ﴾ ألا ترى إلى قولهم ﴿ هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ﴾ و ﴿ الحرث ﴾ قيل هنا : الزرع .

وقيل : الزرع والأشجار وما يكون من الأرض ، ﴿ والأنعام ﴾ الإبل والبقر والغنم يتقربون بذبح ذلك .

وقيل : إنه البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي .

وقيل : النصيب من الأنعام هو النفقة عليها وفي قوله : ﴿ فقالوا ﴾ تأكيد للفعل الذي هو الجعل بالقول ليتطابق ويتظافر الفعل بالقول ، ثم إنهم أخلفوا ذلك واعترض أثناء الكلام قوله : ﴿ بزعمهم ﴾ وجاء أثر قولهم : ﴿ هذا لله ﴾ لأنه إخبار كذب حيث أخلف ما جعلوه وأكدوه بالقول ولم يأت ذلك إثر قولهم : ﴿ وهذا لشركائنا ﴾ لتحقيق ما لشركائهم أنه لهم والزعم في أكثر كلام العرب أقرب إلى غير اليقين والحق نبه على أنهم فعلوا ذلك من غير أن يأمرهم الله بذلك ولا أن يشرعه لهم ، وذلك جرى على عادتهم في شرع أحكام لم يأذن فيها ولم يشرعها .

وقرأ الكسائي : ﴿ بزعمهم ﴾ فيهما بضم الزاي وهي لغة بني أسد والفتح لغة الحجاز وبه قرأ باقي السبعة وهما مصدران .

وقيل : الفتح في المصدر والضم في الاسم .

وقرأ ابن أبي عبلة : بفتح الزاي والعين فيهما والسكر لغة لبعض قيس وتميم ، ولم يقرأ به

ويتعلق ﴿ بزعمهم ﴾ بقالوا .

وقيل : بما تعلق به ﴿ لله ﴾ من الاستقرار وشركاؤهم آلهتهم والشركاء من الشرك والإضافة إضافة تخصيص أي : الشركاء الذين أشركوا بينهم وبين الله في القربة وليس معناه الإضافة إلى فاعل ولا مفعول .

وقيل : سموا شركاء لأنهم نزلوها منزلة الشركاء في أموالهم فتكون إضافة إما إلى الفاعل فالتقدير وهذا لأصنامنا التي تشركنا في أموالنا ، وإما إلى المفعول فالتقدير التي شركناها في أموالنا .

وقال ابن عطية : سموهم شركاء على معتقدهم فيهم أنهم يساهمونهم في الخير والشر ، ومعنى ﴿ فلا يصل إلى الله ﴾ أي لا يقع موقع ما يصرف في وجوه البر من الصدقة على المساكين وزوّار بيت الله ونحوها ، ولو فعلوا ذلك لم ينفع لأنهم أشركوا أو لا يصل البتة إلى تلك الوجوه المقصود بها التقرب إلى الله .

وقال الحسن : كانوا إذا هلك الذي لأوثانهم أخذوا بدله مما لله ولا يفعلون مثل ذلك لله .

*(121/252)*

---

وقيل : كانوا يصرفون مما جعلوه لله إلى سدنة الأصنام ولا يتصدّقون بشيء مما جعلوه للأوثان ، ومعنى ﴿ فهو يصل إلى شركائهم ﴾ بإنفاق عليها بذبح نسائك عندها والآخر للنفقة على سدنتها .

وقال ابن عطية : جمهور المتأوّلين أن المراد بقوله : ﴿ فلا يصل ﴾ وقوله : ﴿ يصل ﴾ ما قدمنا ذكره من حمايتهم نصيب آلهتهم في هبوب الريح وغير ذلك .

وقال ابن زيد : إنما ذلك في أنهم كانوا إذا ذبحوا لله وذكروا آلهتهم على ذلك الذبح ، وإذا ذبحوا لآلهتهم لم يذكروا الله قال : ﴿ فلا يصل ﴾ إلى ذكر وقال : ﴿ فهو يصل ﴾ إلى ذكر الله ؛ انتهى .

وظاهر الآية يدل على أن ما جعلوه نصيباً لشركائهم فلا يصرف منه شيء في وجوه البر الذي يقتضيها وجهه ، وما جعلوه نصيباً لله أنفق في مصاريف آلهتهم ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ هذه ذمّ بالغ عام لأحكامهم فيندرج فيه حكمهم هذا السابق وغيره .

وقال الزمخشري : في إيثارهم آلهتهم على الله وعملهم ما لم يشرع لهم .

وقال الماتريدي : أي بئس الحكم حكمهم حيث قرنوا حقي بحق الأصنام وبخسوني .

وقيل : ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ لأنفسهم ، والظاهر أن ﴿ ساء ﴾ هنا مجراة مجرى بئس في الذمّ كقوله : ﴿ قل بئسما يأمركم ﴾ والخلاف الجاري في ﴿ بئسما ﴾ وإعراب ما جاريا هنا وتقدم ذلك مستوفى في قوله : ﴿ بئسما اشتروا به أنفسهم ﴾ في البقرة وعلى أن حكمهما حكم ﴿ بئسما ﴾ فسرها الماتريدي فقال : بئس الحكم حكمهم وأعربها الحوفي وجعل ما موصولة بمعنى الذي قال والتقدير ساء الذي يحكمون حكمهم ، فيكون حكمهم رفعاً بالابتداء وما قبله الخبر وحذف لدلالة ﴿ يحكمون ﴾ عليه .

ويجوز أن يكون ما تمييزاً على مذهب من يجيز ذلك في ﴿ بئسما ﴾ فيكون في موضع

نصب التقدير ﴿ ساء ﴾ حكماً حكمهم ولا يكون ﴿ يحكمون ﴾ صفة لما لأن الغرض الإبهام ولكن في الكلام حذف يدل ما عليه والتقدير سا ما ﴿ ما يحكمون ﴾ .

(122/252)

---

وقال ابن عطية : و﴿ ما ﴾ في موضع رفع كأنه قال : ساء الذي يحكمون ولا يتجه عندي أن تجري هنا ﴿ ساء ﴾ مجرى نعم وبئس لأن المفسر هنا مضمر ولا بد من إظهاره باتفاق من النحاة ، وإنما اتجه أن يجري مجرى بئس في قوله : ﴿ ساء مثلاً القوم ﴾ لأن المفسر ظاهر في الكلام ؛ انتهى .

وهذا قول من شدا يسيراً من العربية ولم يرسخ قدمه فيها بل إذا جرى ساء مجرى نعم وبئس كان حكمها حكمها سواء لا يختلف في شيء البتة من فاعل مضمر أو ظاهر وتمييز ، ولا خلاف في جواز حذف المخصوص بالمدح والذمّ والتمييز فيها لدلالة الكلام عليه فقوله : لأن المفسر هنا مضمر ولا بد من إظهاره باتفاق النحاة إلى آخره كلام ساقط ودعواه الاتفاق مع أن الاتفاق على خلاف ما ذكر عجب عجاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(123/252)

وقال أبو السعود :

﴿ وَجَعَلُواْ ﴾ شروعٌ في تقبيح أحوالِهم الفظيعةِ بحكاية أقوالِهم وأفعالِهم الشنيعةِ ( وهم مشركو العربِ كانوا يُعيّنون أشياءَ من حرث ونتاج لله تعالى وأشياءَ منهما لآلهتهم فإذا رأوا ما جعلوه لله تعالى زاكياً نامياً يزيد في نفسه خيراً رجَعوا فجعلوه لآلهتهم ، وإذا زكا ما جعلوه لآلهتهم تركوه معتلّين بأن الله تعالى غنيٌّ وما ذاك إلا لحب آلهتِهم وإيثارِهم لها ) ، والجعلُ إما متعدٍ إلى واحد فالجارّان في قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ ﴾ متعلقان به ، ومِنْ في قوله تعالى : ﴿ مِنَ الحرث والانعام ﴾ بيانٌ لما ، وفيه تنبيهٌ على فرط جهالتِهم حيث أشركوا الخالقَ في خلقه جماداً لا يقدِر على شيء ثم رجّحوه عليه بأن جعلوا الزكيَّ له ، أي عيَّنوا له تعالى مما خلقه من الحرث والأنعام ﴿ نَصِيباً ﴾ يصرفونه إلى الضِيفان والمساكين ، وتأخيرُه عن المجرورَيْن لما مرَّ مراراً من الاهتمام بالمقدَّمِ والتشويقِ إلى المؤخر ، وإما إلى مفعولين أولُهما مما ذرأ على أن مِنْ تبعيضيةٌ أي جعلوا بعضَ ما خلقه نصيباً له وما قيل من أن الأولَ نصيباً والثاني لله لا يساعده سَدادُ المعنى ، وحكايةُ جعلِهم له تعالى نصيباً تدل على أنهم جعلوا لشركائهم أيضاً نصيباً ، ولم يُذْكر اكتفاءً بقوله تعالى : ﴿ فَقَالُواْ هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وهذا لِشُرَكَائِنَا ﴾ وقُرِىء بضم الزاءِ ، وهو لغةٌ فيه ، وإنما قُيِّد به الأولُ للتنبيه على أنه في الحقيقة ليس بجعلٍ لله تعالى ، غيرُ مستتبِعٍ لشيء من الثواب كالتطوعات التي يُبتغى بها وجهُ الله

تعالى لا لما قيل من أنه للتنبيه على أن ذلك مما اخترعوه ولم يأمرهم الله تعالى به فإن ذلك مستفادٌ من الجعل ، ولذلك لم يقيَّدْ به الثاني ، ويجوز أن يكون ذلك تمهيداً لما بعده على معنى أن قولَهم هذا لله مجرَّدُ زعمٍ منهم لا يعملون بمقتضاه الذي هو اختصاصُه به تعالى فقوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ

(124/252)

---

لِشُرَكَائِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ ﴾ بيانٌ وتفصيلٌ له أي فما عيَّنوه لشركائهم لا يُصرَف إلى الوجوه التي يُصرف إليها ما عيّنوه لله تعالى من قِرى الضِيفان والتصدقِ على المساكين وما عيَّنوه لله تعالى إذا وجدوه زاكياً يُصرف إلى الوجوه التي يُصرف إليها ما عيّنوه لآلهتهم من إنفاق عليها وذبحِ نسائِكَ عندها والإجراءِ على سَدَنتها ونحو ذلك ﴿ سَاء مَا يَحْكُمُونَ ﴾ فيما فعلوا من إيثار آلهتِهم على الله تعالى وعملهم بما لم يُشرَعْ لهم و( ما ) بمعنى الذي ، والتقديرُ ساء الذي يحكُمون حكمَهم فيكون حكمُهم مبتدأً وما قبله الخبرُ وحُذف لدِلالة يحكُمون عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(125/252)

وقال الآلوسى :

﴿ وَجَعَلُواْ ﴾ أي مشركو العرب ﴿ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ ﴾ أي خلق .

قال الراغب : "الذرء ، إظهار الله تعالى ما ( أبدعه ) يقال : ذرأ الله تعالى الخلق أي أوجد أشخاصهم" ، وقال الطبرسي : "الذرء الخلق على وجه الاختراع وأصله الظهور ومنه ملح ذرْآني ( وذرَآني ) لظهور بياضه" .

و( من ) متعلقة بجعل و( ما ) موصولة وجملة ﴿ ذَرَأَ ﴾ صلته والعائد محذوف .

وقوله سبحانه : ﴿ مِنَ الحرث والأنعام ﴾ متعلق بذرأ .

وجوز أبو البقاء أن يكون ﴿ مّمَّا ﴾ متعلقاً بمحذوف وقع حالاً من قوله تعالى : ﴿ نَصِيباً ﴾ وأن يكون ﴿ مِنَ الحرث ﴾ حالاً أيضاً من ما أو من العائد المحذوف .

و ﴿ نَصِيباً ﴾ على كل تقدير مفعول جعل وهو متعد لواحد ، وجوز أن يكون متعدياً لاثنين أولهما ﴿ مِمَّا ذَرَأَ ﴾ على أن من تبعيضية وثانيهما ﴿ نَصِيباً ﴾ ، وقيل : الأمر بالعكس .

واعترض بأنه لا يساعده سداد المعنى ، وأياً ما كان فهذا شروع في تقبيح أحوالهم الفظيعة بحكاية أقوالهم وأفعالهم الشنيعة .

أخرج ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال في الآية :

إنهم كانوا إذا احترثوا حرثاً أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله تعالى منه جزءاً وجزءاً للوثن فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه فإن سقط شيء مما سمي للصمد ردوه إلى ما جعلوه للوثن وإن سبقهم الماء الذي جعلوه للوثن فسقي شيئاً مما جعلوه لله تعالى جعلوه للوثن وإن سقط شيء من الحرث والثمرة الذي جعلوه لله تعالى فاختلط بالذي جعلوه للوثن قالوا : هذا فقير ولم يردوه إلى ما جعلوا لله تعالى وإن سبقهم الماء الذي سموا لله تعالى فسقي ما سموا للوثن تركوه للوثن ، وكانوا يحرمون من أنعامهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي فيجعلونه للأوثان ويزعمون أنهم يحرمون لله سبحانه .

*(126/252)*

---

وروي أنهم كانوا يعينون شيئاً من حرث ونتاج لله تعالى فيصرفونه إلى الضيفان والمساكين وأشياء منهما لآلهتهم فينفقون منها لسدنتها ويذبحون عندها فإذا رأوا ما جعلوه لله تعالى زاكياً نامياً يزيد في نفسه خيراً رجعوا فجعلوه لآلهتهم وإذا زكا ما جعلوه لآلهتهم تركوه معتلين بأن الله تعالى غني وما ذاك إلا لفرط جهلهم حيث أشركوا الخالق القادر جماداً لا يقدر على شيء ثم رجحوه عليه سبحانه بأن جعلوا الزاكي له ، واختار هذه الرواية الزجاج وغيره .

وأصل النظم الكريم وجعلوا لله الخ ولشركائهم فطوى ذكر الشركاء لأنه على ما قيل أمر

محقق عندهم وأشير إلى تقديره بالتصريح به في قوله تعالى : ﴿ فَقَالُواْ هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وهذا لِشُرَكَائِنَا ﴾ أي الأوثان ، وسموهم شركاءهم لأنهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم فهم شركاؤهم فيها : ويحتمل أن الإضافة لأدنى ملابسة حيث إنهم زعموا كونهم شركاء لله تعالى .

وقرأ الكسائي ويحيى بن وثاب والأعمش ﴿ بِزَعْمِهِمْ ﴾ بضم الزاي وهو لغة فيه ، وجاء الكسر أيضاً فهو مثلث كالود وقد تقدم معناه ، وإنما قيد به الأول للتنبيه على أنه في الحقيقة ليس يجعل لله سبحانه غير مستتبع لشيء من الثواب كالتطوعات التي يبتغى بها وجه الله تعالى ، وقيل : للإيذان بأن ذلك مما اخترعوه لم يأمرهم الله تعالى به .

ورد بأن ذلك مستفاد من الجعل ولذلك لم يقيد به الثاني .

وجوز أن يكون ذلك تمهيداً لما بعده على أن معنى قولهم : ﴿ هذا لِلَّهِ ﴾ مجرد زعم منهم لا يعلمون بمقتضاه الذي هو اختصاصه به تعالى .

*(127/252)*

---

فقوله سبحانه : ﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى الله وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكَائِهِمْ ﴾ بيان وتفصيل له أي فما عينوه لشركائهم لا يصرف إلى الوجوه التي يصرف إليها ما عينوه

لله تعالى وما عينوه لله تعالى يصرف إلى الوجوه التي يصرف إليها ما عينوه لآلهتهم ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ فيما فعلوا من إيثار مخلوق عاجز عن كل شيء على خالق قادر على كل شيء وعملهم بما لم يشرع لهم ، و﴿ سَاءَ ﴾ يجري مجرى بئس ، فما سواء كانت موصولة أو موصوفة فاعل ، والمخصوص بالذم محذوف أي حكمهم هذا ، وقيل : إن ﴿ سَاءَ ﴾ هنا غير الجارية مجرى بئس فلا تحتاج إلى مخصوص بالذم بل إلى فاعل فقط فإن فاعل الجارية يجب أن يكون معرفاً باللام أو مضافاً في الأشهر ، واختاره بعض المحققين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ﴾

عَطفٌ على نظائره ممّا حكيت فيه أقوالهم وأعمالهم من قوله : ﴿ وما قدروا الله حقّ قدره إذ قالوا ما أنزل اللَّه على بشر من شيء ﴾ [ الأنعام : 91 ] وقوله : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجنّ ﴾ [ الأنعام : 100 ] وقوله : ﴿ وأقسموا بالله جَهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنُنّ بها ﴾ [ الأنعام : 109 ] وقوله : ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله ﴾ [ الأنعام : 124 ] وما تخلّل ذلك فهو إبطال لأقوالهم ، ورد لمذاهبهم ، وتمثيلات ونظائر ، فضمير الجماعة يعود على المشركين الّذين هم غرض الكلام من أوّل السّورة من قوله : ﴿ ثم الذين كفروا بربّهم يعدلون ﴾ [ الأنعام : 1 ] .

وهذا ابتداءُ بيان تشريعاتهم الباطلة ، وأوّلُها مَا جعلوه حقّاً عليهم في أموالهم للأصنام : ممّا يشبه الصّدقات الواجبة ، وإنَّما كانوا يوجبونها على أنفسهم بالالتزام مثل النّذور ، أو بتعيين من الّذين يشرعون لهم كما سيأتي .

*(128/252)*

---

والجعل هنا معناه الصّرف والتّقسيم ، كما في قول عمر في قضيّة : ما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم المختصم فيها العبّاس وعليّ رضي الله عنهم "فيجعَلُه رسولُ اللَّه مجعل مالِ اللَّه" أي يضعه ويصرفه ، وحقيقة معنى الجعل هو التّصيير ، فكما جاء صيّر لمعان مجازية ، كذلك جاء ( جعل ) ، فمعنى ﴿ وجعلوا لله ﴾ : صرفوا ووضعوا لله ، أي عيّنوا له نصيباً ، لأنّ في التّعيين تصييراً تقديرياً ونقلاً .

وكَذلِك قول النّبي صلى الله عليه وسلم في حديث أبي طلحةَ : " أرى أن تجعلَها في الأقربِين " أي أن تصرفها إليهم ، و﴿ جعل ﴾ هذا يتعدّى إلى مفعول واحد ، وهذه التّعدية هي أكثر أحوال تعديته ، حتّى أنّ تعديته إلى مفعولين إنَّما ما في الحقيقة مفعولٌ وحالٌ منه .

ومعنى : ﴿ ذرأ ﴾ أنشأ شيئاً وكثّره .

فأطلق على الإنماء لأنّ إنشاء شيء تكثير وإنماء .

و﴿ ممّا ذرأ ﴾ متعلّق بـ ﴿ جَعلوا ﴾ ، و﴿ من ﴾ تبعيضية ، فهو في معنى المفعول ، و﴿ مَا ﴾ موصولة ، والإتيان بالموصول لأجل دلالة صلته على تسفيه آرائهم ، إذ ملَّكوا الله بعض مَلْكه ، لأنّ ما ذرأه هو مِلْكُه ، وهو حقيق به بلا جَعْل منهم .

واختيار فعل : ﴿ ذرأ ﴾ هنا لأنّه الّذي يدلّ على المعنى المراد ، إذ المقصود بيان شرائعهم الفاسدة في نتائج أموالهم .

ثمّ سيبيّن شرعهم في أصول أموالهم في قوله : ﴿ وقالوا هذه أنعام وحرث حجر ﴾ [ الأنعام : 138 ] الآية .

و﴿ من الحرث والأنعام ﴾ بيان ﴿ ما ﴾ الموصولة .

والحرثُ مراد به الزّرع والشّجر ، وهو في الأصل من إطلاق المصدر على اسم المفعول ، ثمّ شاع ذلك الإطلاق حتّى صار الحرث حقيقة عرفية في الجنّات والمزارع ، قال تعالى : ﴿ أن اغْدُوا على حرثكم إن كنتم صارمين ﴾ [ القلم : 22 ] .

*(129/252)*

---

والنّصيب : الحظ والقِسْم وتقدّم في قوله تعالى : ﴿ أولئك لهم نصيب ممّا كسبوا ﴾ في سورة البقرة ( 202 ) ، والتّقدير : جعلوا لله نصيباً ولغيره نصيباً آخر ، وفهم من السّياق

أنّ النّصيب الآخر لآلهتهم .

وقد أفصح عنه في التّفريع بقوله : فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ﴾ .

والإشارتان إلى النّصيب المعيّن لله والنّصيب المعيّن للشركاء ، واسما الإشارة مشار بكلّ واحد منهما إلى أحد النّصيبين على الإجمال إذ لا غرض في المقام في تعيين ما جعلوه لله وما جعلوه لشركائهم .

والزّعم : الاعتقاد الفاسد ، أو القريب من الخطأ ، كما تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنّهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك في سورة النساء ( 60 ) ، وهو مثلّث الزاي ، والمشهور فيه فتح الزاي ، ومثله الرّغم بالرّاء مثلّث الراء .

"

وقرأ الجمهور بفتح الزاي وقرأه الكسائي بضمّ الزاي ويتعلّق قولهم : بزعمهم ﴾ بـ ﴿ قالوا ﴾ وجُعل قوله : ﴿ بزعمهم ﴾ مواليا لبعض مقول القول ليكون متّصلاً بما جعلوه لله فيرتَّبُ التّعجيب من حكمهم بأنّ ما كان لله يصل إلى شركائهم ، أي ما اكتفوا بزعمهم الباطل حتّى نكلوا عنه وأشركوا شركاؤهم فيما جعلوه لله بزعمهم .

والباء الداخلة على ﴿ بزعمهم ﴾ إمّا بمعنى ﴿ مِن ﴾ أي ، قالوا ذلك بألسنتهم ، وأعلنوا به قولاً ناشئاً عن الزعم ، أي الاعتقاد الباطل ، وإمّا للسببيّة ، أي قالوا ذلك بسبب أنّهم زعموا .

ومحلّ الزّعم هو ما اقتضته القسمة بين الله وبين الآلهة ، وإلاّ فإنّ القول بأنّه ملك لله قول حقّ ، لكنّهم لما قالوه على معنى تعيين حقّ الله في ذلك النّصيب دون نصيب آخر .

كان قولهم زعماً باطلاً .

*(130/252)*

---

والشّركاء هنا جمع شريك ، أي شريك الله سبحانه في الإلهية ، ولمّا شاع ذلك عندهم صار كالعَلم بالغلبة ، فلذلك استغنى عن الإضافة إلى ما فيه المعنى المشتقّ منه أعني الشّركة ثمّ لأجل غلبته في هذا المعنى صار بمنزلة اللّقب ، فلذلك أضافوه إلى ضميرهم ، فقالوا : لشركائنا ، إضافة معنوية لا لفظيّة ، أي للشّركاء الّذين يُعرفون بنا .

قال ابن عبّاس وأصحابه : كان المشركون يجعلون لله من حروثهم ( يعني زرعهم وشجرهم ) وأنعامهم نصيباً وللأوثان نصيباً فما كان للأصنام أنفقوه عليها وما كان لله أطعموه الضيفان والمساكين ولا يأكلون منه البتة .

وكانوا يجعلون البَحيرة والسائبة والوصيلة والحامي للأصنام .

وذكر ابن إسحاق : أنّ ( خَوْلاَن ) كان لهم صنم اسمه ( عَمّ أَنَس ) يقسمون له من أنعامهم وحروثهم قِسَما بينه وبين الله ، فما دخل في حق ( عَمّ أنس ) من حَقّ الله الّذي سَمَّوه له

تركوه للصّنم وما دخل في حقّ الله من حقّ ( عَمّ أنس ) ردّوه عليه ، ومنهم بطن يقال لهم ( الأدِيم ) قال : وفيهم نزل قوله تعالى : وجعلوا لله مما ذرأ الآية .

وقوله : ﴿ فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ﴾ .

قال ابن عبّاس وقتادة : كانوا إذا جمعوا الزرع فهبت الرّيح فحملت من الّذي لله إلى الّذي لشركائهم أقَرّوه وقالوا : إنّ الله غنيّ عنه ، وإذا حملت من الّذي لشركائهم إلى الّذي للَّهِ ردّوه ، وإذا هلك ما لأصنامهم بقحط أخذوا بدله ممّا لله ، ولا يفعلون ذلك فيما لله ، وإذا انفجر من سقي ما جعلوه لله فساح إلى ما للّذي للأصنام تركوه وإذا انفجر من سقي ما للأصنام فدخل في زرع الّذي لله سَدّوه .

*(131/252)*

---

وكانوا إذا أصابتهم سَنَةٌ استعانوا بما جعلوه لله فأنفقوه على أنفسهم وأقرّوا ما جعلوه لشركائهم للشركاء ، وإذا هلك الّذي جعلوه للأصنام وكثر الّذي جعلوه لله قالوا : ليس لآلهتنا بدّ من نفقة وأخذوا الّذي جعلوه لله فأنفقوه عليها ، وإذا أجدب الّذي لله وكثر الّذي لآلهتهم قالوا : لو شاء الله أزكى الّذي له فلا يردّون على ما جعلوه لله شيئاً ممّا لآلهتهم ، فقوله : ﴿ فلا يصل إلى الله ﴾ مبالغة في صونه من أن يعطى لما لله لأنَّه إذا كان لا يصل فهو لا يُتْرك

إذا وَصل بالأوْلى .

وعدّي ﴿ يصل ﴾ إلى اسم الجلالة وإلى اسم شركائهم .

والمراد لا يصل إلى النّصيب المجعول لله أو إلى لشركائهم لأنَّهم لما جعلوا نصيباً لله ونصيباً لشركائهم فقد استشعروا ذلك النّصيب محوزاً لمن جُعل إليه وفي حرزه فكأنّه وصل إلى ذاته .

وجملة : ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ استئناف لإنشاء ذمّ شرائعهم .

وساء هنا بمعنى بِئس : و﴿ مَا هي فاعل ساء ﴾ وهي موصولة وصلتها ﴿ يحكمون ﴾ ، وحذف العائد المنصوب ، وحذف المخصوص بالذّم لدلالة : ﴿ جعلوا ﴾ عليه ، أي : ساء ما يحكمون جَعْلُهم ، وسمَّاه حكماً تهكّما ، لأنَّهم نصبوا أنفسهم لتعيين الحقوق ، ففَصَلوا بحكمهم حقّ الله من حقّ الأصنام ، ثمّ أباحوا أن تأخذ الأصنام حقّ الله ولا يَأخذ الله حقّ الأصنام ، فكان حكماً باطلاً كقوله : ﴿ أفحكم الجاهليّة يبغون ﴾ [ المائدة : 50 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

(132/252)

فائدة

قال الإمام تقى الدين السبكى :

قَوْله تَعَالَى ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنْ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ﴾ قَالَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ رَحِمَهُ اللَّهُ : لَا شَكَّ أَنَّ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا لِلَّهِ تَعَالَى فَقَوْلُهُ " بِزَعْمِهِمْ " إمَّا أَنْ يَكُونَ مُتَعَلِّقًا بِمَا اقْتَضَاهُ كَلَامُهُمْ مِنْ التَّقْسِيمِ ، وَكَأَنَّهُمْ قَالُوا : هَذَا لِلَّهِ وَحْدَهُ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ؛ فَلَمَّا أَشْعَرَ صَدْرُ كَلَامِهِمْ بِالْقِسْمَةِ الْبَاطِلَةِ أَرْدَفَ الصَّدْرَ بِقَوْلِهِ " بِزَعْمِهِمْ " أَوْ لِأَنَّهُمْ جَعَلُوا الَّذِي لِلَّهِ هُوَ الْأَرْدَأُ ، فَلَوْ خَطَرَ فِي قُلُوبِهِمْ هَذَا ذَلِكَ مَعَ الْوَصْفِ الرَّدِيءِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ جَعْلِهِمْ وَقَوْلِهِمْ .

وَقَدْ يَتَعَلَّقُ بِهِ مَنْ يَقُولُ : الصِّفَةُ إذَا تَوَسَّطَتْ تَعَلَّقَتْ بِالْجَمِيعِ لِأَنَّ " بِزَعْمِهِمْ " حُكْمُهُ حُكْمُ الصِّفَةِ ؛ وَقَدْ تَوَسَّطَ بَيْنَ قَوْلِهِمْ ( هَذَا لِلَّهِ ) وَقَوْلِهِمْ ( هَذَا لِشُرَكَائِنَا ) وَهُوَ ضَعِيفٌ ، وَالصَّوَابُ اخْتِصَاصُ الصِّفَةِ الْمُتَوَسِّطَةِ بِمَا قَبْلَهَا وَكَذَا مَفْهُومُ اللَّقَبِ ضَعِيفٌ .

وَإِنَّمَا سَبَبُهُ مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ التَّقْسِيمِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ : ظَنُّوا أَنَّهُ إنَّمَا صَارَ لِلَّهِ بِقَوْلِهِمْ ، وَيَكُونُ ذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِهِ " بِزَعْمِهِمْ " وَهُوَ لِلَّهِ هُوَ وَغَيْرُهُ مِنْ غَيْرِ قَوْلِهِمْ .

*(133/252)*

فَقَوْلُهُمْ لَمْ يَفْدِ شَيْئًا إلَّا وَبَالًا عَلَيْهِمْ وَتَقْسِيمًا بَاطِلًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ وَاعْلَمْ أَنَّ قَوْلَهُ " بِزَعْمِهِمْ " لَمْ يُتَوَسَّطْ بَيْنَ كَلَامِهِمْ مِنْ لَفْظِهِمْ حَتَّى يَكُونَ كَالصِّفَةِ الْمُتَوَسِّطَةِ بَيْنَ كَلَامِ الشَّخْصِ الْوَاحِدِ ، لِأَنَّ " بِزَعْمِهِمْ " لَيْسَ مِنْ كَلَامِهِمْ وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى مُتَعَلِّقًا بِقَوْلِهِ ( فَقَالُوا ) مُتَوَسِّطًا بَيْنَ جُزْأَيْ مَفْعُولِ " قَالُوا " اللَّذَيْنِ هُمَا " هَذَا لِلَّهِ " وَ " هَذَا لِشُرَكَائِنَا " فَيَكُونُ نَظِيرَ قَوْلِك : قَالَ زَيْدٌ هَذَا الدِّرْهَمُ لِي بِزَعْمِهِ وَهَذَا لِشَرِيكِي وَيَكُونُ زَيْدٌ كَاذِبًا فِي قَوْلِهِ : هَذَا لِشَرِيكِي وَصَادِقًا فِي الْآخَرِ ، فَهُوَ مُتَأَخِّرٌ عَنْ الْفِعْلِ الَّذِي هُوَ مُتَعَلِّقُهُ مُتَوَسِّطٌ بَيْنَ جُزْأَيْ مَعْمُولِهِ ، فَلَيْسَ نَظِيرُ الْمَسْأَلَةِ الَّتِي وَقَعَ الْخِلَافُ فِيهَا .

*(134/252)*

---

وَإِنَّمَا هِيَ مَسْأَلَةٌ أُخْرَى ، وَالْجَارُّ وَالْمَجْرُورُ فِيهَا مُتَعَلِّقٌ بِالْفِعْلِ ، فَيَتَّجِهُ أَنْ يَكُونَ الْمَفْعُولُ بِهِ كُلُّهُ مُتَعَلِّقًا بِهِ وَيَكُونُ لِتَوَسُّطِهِ مَعْنًى لِأَجْلِهِ لَمْ يَتَقَدَّمْ وَلَمْ يَتَأَخَّرْ وَالَّذِي يَظْهَرُ مِنْ مَعْنَى الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : أَنَّ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا لَمَّا كَانَتْ لِلَّهِ تَعَالَى مِلْكًا وَاسْتِحْقَاقًا وَخَلْقًا وَجَعَلُوا هُمْ لَهُ مِمَّا ذَرَأَ مِنْ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا هُوَ إرَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَنْهُ ، ثُمَّ إنَّهُمْ إذَا صَارَ جَيِّدًا نَقَلُوهُ إلَى آلِهَتِهِمْ وَإِذَا صَارَ الَّذِي لِآلِهَتِهِمْ بِزَعْمِهِمْ رَدِيئًا نَقَلُوهُ إلَى اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ، وَذَكَرَ سُبْحَانَهُ عَنْهُمْ هَذِهِ الْقَبَائِحَ فَكَانَ جَعْلُهُمْ ذَلِكَ قَبِيحًا وَقَوْلُهُمْ قَبِيحًا ، فَتَوَسَّطَتْ النِّسْبَةُ إلَى

زَعْمِهِمْ فِي وَسَطِ كَلَامِهِمْ لِيَعْطِفَ عَلَى أَوَّلِهِ آخِرَهُ ، وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ . انْتَهَى .

انتهى . اهـ ﴿ فتاوى السبكى حـ 1 صـ 52.51 ﴾

*(135/252)*

---

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ ﴾

أي : خلق : ﴿ مِنَ الْحَرْثِ ﴾ أي : الزرع : ﴿ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ﴾ يصرفونه إلى الضيفان والمساكين . أي : ولأصنامهم يصيباً يصرفونه إلى التنسك والسدنة . وإنما لم يذكر اكتفاء بما بعده .

﴿ فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ ﴾ بالفتح والضم ( وقال الشهاب : الزعم مثلث كالودّ ) . أي : هذا مستقر له الآن , من غير استقرار له في المستقبل العارض ﴿ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ﴾ وهو مستقر لهم , بل يستقر لهم ما ليس لهم أيضاً ,فكانوا إذا سقط في نصيب الله شيء من نصيبها التقطوه , أو في نصيبها شيء من نصيبه تركوه كما قال تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أي : عند نمائه أو سقوطه فيما هو لله . أو هلاك ما هو لله لا يصل إلى

الوجوه التي كانوا يصرفونه إليها من قرى الضيفان والتصدق على المساكين ﴿ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ ﴾ أي : عند نماءه أو سقوطه فيما هو للأصنام , أو هلاك مالها , فينفقون عليها , بذبح نسائك عندها , والإجراء على سدنتها , ونحو ذلك . وعللوا ذلك بأن الله غني , وهي محتاجة : ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي : ما يقسمون , لأنهم أولاً عملوا ما لم يشرع لهم , وضلوا في القسم . لأنه تعالى رب كل شيء ومليكه وخالقه , لا إله غيره ,ولا رب سواه . ثم لما قسموا فيما زعموا القسمة الفاسدة , لم يحفظوها , بل جاروا فيها , إذ رجحوا جانب الأصنام في الحفظ والرعاية سفهاً .

*(136/252)*

---

وقال المهايني : ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي : من ترجيح جانب الأصنام على جانب الله , بعلة تقتضي ترجيح جانب الله لإلهيته , وعدم صلاحيتها للإلهية مع الحاجة .

وما ذكرناه في الآية هو الذي قاله أئمة التفسير .

فقد روى علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس أنه قال في تفسير هذه الآية : إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً , أو كانت لهم ثمرة , جعلوا لله منه جزءاً , وللوثن جزءاً , فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه . وإن سقط منه شيء فيما

سمي للصمد , رَدّوه إلى ما جعلوه للوثن , وإن سبقهم الماء الذي جعلوه للوثن , فسقى شيئاً جعلوه لله , جعلوا ذلك للوثن . وإن سقط شيء من الحرث والثمرة الذي جعلوه لله , فاختلط بالذي جعلوه للوثن قالوا : هذا فقير , ولم يردوه إلى ما جعلوه لله , فسقى ما سمّي للوثن تركوه للوثن , وكانوا يحرمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام . فيجعلونه للأوثان , ويزعمون أنهم يحرمونه قربة لله تعالى , فقال تعالى : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمّا ذَرَأَ ﴾ . . . الآية .

قال ابن كثير : وهكذا قال مجاهد وقتادة والسدّي وغير واحد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 509 . 511 ﴾

(137/252)

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ ﴾

وهنا رجوع إلى كلام عن الذين يناهضون منهج الله .

و" ذرأ " أي خلق ، وبث ، وبشر ، والحرث يراد به الزرع ، وسمى الزرع حرثاً ؛ لأنه يأتي بالحرث ، و" الأنعام " وهي تتمثل في ثمانية أزواج في آية تأتي بعد ذلك ، وهي الأبل ، والبقر ،

والضأن والمعز .

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحرث والأنعام نَصِيباً ﴾ أي مما خلق ، وهم قد حرثوا فقط ؛ لأن الذي يزرع هو الله ، فسبحانه الذي أعطى للبذرة قوتها لتربي لها جذراً ، وتمتص عناصر الغذاء من الأرض ، وهو الذي جاء بعناصر الأرض كلها ، وهو الذي جعل البذرة تتوجه إلى العناصر الصالحة لها ، وتترك غير صالح بقانون ﴿ الذي خَلَقَ فسوى * والذي قَدَّرَ فهدى ﴾ . والذي صنعه الله الحرث وفي الأنعام تتخيلون أنكم تتصرفون فيه على رغم أنه هو الذي ذرأ وخلق . إنه – سبحانه – هو المتصرف .

*(138/252)*

---

هم جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا : هذا لله " بزعمهم " وهذا لشركائنا ، أي جاءوا بالحرث وقسموه قسمين . وقالوا : هذا لله ، وهذا للأصنام . وكذلك قسموا الأنعام وجعلوا منها قسماً لله ، وقسماً لهم ، ألم يكن من العدل أن يقسم الذي خلق بدلاً من هذا الزعم منكم لأنكم أخذتم غير حقكم ، ويا ليتكم أنصفتم فنرضى بقسمتكم فيذهب القسم الذي لله للصدقات على الفقراء ، والذي للشركاء يذهب للأصنام وللسدنة الحجاب عليها والخادمين والذين يضربون لكم الأقداح ، ويا ليتكم عرفتم العدل في القسمة

بل أن ما صنعتموه هي قسمة ضيزى جائرة وظالمة ، لماذا ؟ . تأتي الإجابة من الحق : ﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ . . ﴾ [ الأنعام : 136 ]

أنتم قسمتم وقلتم : هذا لله وهذا لشركائنا . فاصدقوا مع أنفسكم في هذه النسبة ، لكنهم كانوا يسرقون حق الله ، وكان لهم في الهلاك تقسيم معين ، وفي الزيادة لهم تقسيم آخر . فإذا ما جاءت آفة للزرع وأهلكته أخذوا ما خصصوه لله وأعطوه للشركاء وقالوا : إن ربنا غني ! وبرغم أنكم قسمتم ولكنكم لم توفوا بالقسمة التي فرضتموها ورضيتم بها .

وكذلك في الأنعام يقدرون عدداً من الأنعام ويقولون : هذه لله ، وتلك للشركاء ، فإن ماتت بهيمة من النذور لله لم يعوضوها ، وإن ماتت بهيمة منذورة للأصنام يعوضونها ويأخذوا بدلاً منها من القسم الذي نذروه لله . وأيضاً لنفترض أن عيناً جارية ساحت فيها المياه لتروي الزرع المقسوم لله ، فيأخذوا منها للأرض المزروعة للأصنام . إذن هي قسمة ضيزى من البداية ، وليتهم وفوا بهذه القسمة ، وهكذا ساء حكمهم وفسد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(139/252)*

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (136) ﴾

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ ﴾ الآية . قال : جعلوا لله من ثمارهم ومائهم نصيباً وللشيطان والأوثان نصيباً ، فأن سقط من ثمرة ما جعلوا لله في نصيب الشيطان تركوه ، وإن سقط مما جعلوا للشيطان في نصيب الله ردوه إلى نصيب الشيطان ، فإن انفجر من سقى ما جعلوا لله في نصيب الشيطان تركوه ، وإن انفجر من سقى ما جعلوا للشيطان في نصيب الله سرحوه ، فهذا ما جعل لله من الحرث وسقي الماء ، وأما ما جعلوه للشيطان من الأنعام فهو قول الله ﴿ ما جعل الله من بحيرة ﴾ [ المائدة : 103 ] الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ﴾ الآية . قال : كانوا إذا احترثوا حرثاً أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منه جزأ وجزأ للوثن ، فما كان من حرث أو ثمرة ، أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه ، فإن سقط منه شيء مما سمي للصمد ردوه إلى ما جعلوه للوثن ، وإن سبقهم الماء

الذي جعلوه للوثن فسقي شيئاً مما جعلوه لله جعلوه للوثن وإن سقط شيء من الحرث والثمرة الذي جعلوه لله فاختلط بالذي جعلوه للوثن قالوا : هذا فقير ولم يردوه إلى ما جعلوا لله ، وإن سبقهم الماء الذي سموا لله فسقي ما سموا للوثن تركوه للوثن ، وكانوا يحرمون من أنعامهم البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحامي ، فيجعلونه للأوثان ويزعمون أنهم يحرمونه لله .

(140/252)

---

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث ﴾ قال : يسمون لله جزأ من الحرث ، ولشركائهم وأوثانهم جزأ فما ذهبت به الريح مما سموا لله إلى جزء أوثانهم وتركوه وقالوا : إن الله عن هذا غني ، وما ذهبت به الريح من جزء أوثانهم إلى جزء الله أخذوه ، والأنعام التي سموا لله : البحيرة والسائبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(141/252)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

" جَعَل " هنا بمعنى " صيَّر " فيتعدَّى لاثْنَيْن : أولهما : " نَصِيباً ، والثاني : قوله " لِلَّه " ط و " ممَّا ذَرَأ " يجُوز أن يتعلَّق بـ " الجَعْل " وأن يتعلَّق بمحذُوف ؛ لأنه كان في الأصْلِ صِفَة لـ " نَصِيباً " فلما قُدِّم عليه انْتَصب حالاً ، والتقدير : وجَعَلُوا نصيباً مما ذَرَأ [ اللَّه ] و " مِنْ الحَرْثِ " يجُوز أن يكُون بدلاً " ممَّا ذَرَا " بإعادة العَامِل ؛ كأنه قيل وجعلُوا لِلَّه من الحَرْث والأنْعَام نَصِيباً ، ويجُوز أن يتعلَّق بـ " ذَرَأ " وأن يتعلَّق بمَحْذُوفٍ على أنه حال : إمَّا من " مَا " الموصُولة ، وأو مِنْ عَائِدِها المحْذُوف ، وفي الكلام حَذْف مَفْعُول اقْتَضَاه [ التقْسِيم ] ، والتقدير : وجَعَلُوا للَّه نَصيباً من كذا ، ولشُركَائِهم نَصيباً منه يدلُّ عليه ما بَعْدَه من قوله : ﴿ فَقَالُواْ هذا للَّهِ بِزَعْمِهِمْ وهذا لِشُرَكَآئِنَا ﴾ [ و " هذا لِلَّه " جملة مَنْصُوبة المَحَلِّ بالقولِ ، وكذلك قوله : " وهَذَا لِشُرَكَائِنَا " ] وقوله : " بزَعْمِهِم " فيه وجهان :

أحدهما : أن يتعلَّق بـ " قَالُوا " أي : فقالُوا ذلك القَوْل بزَعْم لا بيقينٍ واسْتِبْصَار .

وقيل : هو متعلِّق بما تعلَّق به الاسْتِقْرَار من قوله : " لِلَّهِ " .

وقرأ العامَّة بفتح الزَّاي من " زَعْمِهِم " في المَوْضَعيْن ، وهذه لغة الحَجَاز ويه الفُصْحَى ، وقرأ الكَسَائيّ : " بِزُعْمِهِم " بالضَّمِّ وهو لُغة بني أسَد ، وهل الفَتْح والضَّمُّ بمعْنًى واحد ، أو المفْتُوح مَصْدَر والمضْمُوم اسْم ؟ خلاف مشهور .

وقرأ ابن أبي عبلة " بزعَمِهم " بفتح الزَّاي والعين .

وفيه لُغَةٌ رابِعَةٌ لبعض قَيْس ، وبني تَميم وهي كَسْر الزَّاي ، ولم يُقْرأ بِهَذِه اللُّغة فيما علمنا ، وقد تقدَّم تَحْقِيقُ " الزَّعْم " [ في النساء آية 60 ] .

وقوله : " لِشُرَكَائِنَا " يجوز فيه وجهان :

(142/252)

---

أحدهما : أن الشُّرَكَاء من الشِّرْك ، ويعنون بهم : آلِهَتَهُم التي أشْرَكُوا بَيْنَها وبين البَاري - تعالى - في العِبادة ، وليست الإضَافةُ إلى فاعِل ولا إلى مَفْعُولٍ ، بل هي إضافَة تَخْصِيص ، والمعْنى : الشركاء الذين أشْرَكُوا بَيْنَهُم وبين الله - تعالى - في العِبَادة .

والثاني : أن الشُّرَكاء من الشركةِ ، ومعنى كَوْنهم سَمُّوا آلِهَتَهُم شُرَكَاءهُم : أنهم جَعَلُوهم شُرَكَاء في أمْوَالِهم ، وزرُعِهم ، وأنْعَامهم ، ومَتَاجرهم وغير ذلك ، فتكون الإضافَةُ إضافَة لَفْظِيَّة : إما إلى المفعُول أي : شُرَكَائِنا الَّذِين شَارَكُونا في أمْوَالِنَا ، وإما إلى الفَاعِل ، أي : الَّذِين أشْرَكْنَاهُم في أمْوَالِنا .

قوله : " سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ " قد تَقَدَّم نَظِيرُه ، وقد أعْرَبَها الحُوفِي هُنَا ، فقال : " ما " بمعنى الَّذي ، والتقدير : ساء الَّذِي يحْكُمُون حُكْمهم ، فيكون " حُكْمُهُمُ " مبتدأ وما قَبْلَه الخبر ،

وحذف لدلالة "يَحْكُمُون" عليه ويجُوز أن تكون "ما" تَمْيِيزاً، على مَذْهَبِ من يُجيز ذلك في "بِئْسَمَا" فتكون في مَوْضع نَصْبٍ، التقدير: ساء حُكْماً حُكْمُهُم، ولا يكون "يَحْكُمُون" صِفَة لـ "مَا" لأن الغرضَ الإبهام، ولكن في الكلامِ حَذْف يدلُّ عليه "مَا" والتقدير: ساء ما يَحْكُمُون فحذف "ما" الثانية.

قال شهاب الدّين: و"ما" هذه إن كان مَوْصُولة، فمذْهَبُ البَصْرِيّين أن حَذْف الموصُول لا يجُوز وقد عُرِف ذلك، وإن كانَتْ نكرة موْصُوفة، فَفِيه نَظَر؛ لأنه لم يُعْهَدْ حَذْفُ "مَا" نَكِرة مَوْصُوفة.

(143/252)

---

وقال ابن عطية: و"مَا" في مَوْضع رَفْع؛ كأنه قال: سَاءَ الذي يَحْكُمُون ولا يَتّجِه عِنْدي أن تَجْري "سَاءَ" هنا مُجْرَى "نِعْم" و"بِئْسَ"؛ لأن المفسّر هنا مُضْمَر، ولا بُد من إظْهَارِه باتّفَاق من النُّحاة وإنَّما اتَّجَه أن يَجْرِي مُجْرى "بِئْسَ" في قوله: ﴿ سَآءَ مَثَلاً القوم ﴾ [ الأعراف: 177 ] لأن المفسّر ظاهر في الكلام.

قال أبو حيَّان: "وهذا كلامٌ من لم تَرْسَخْ قدمُهُ في العربيَّة، بل شذَّ فيها شَيْئاً يسيراً؛ لأنه إذا جَرَت "سَاءَ" مَجْرَى "بِئْسَ" كان حُكْمُها كحكْمِها سواءً لا يَخْتَلِفُ في شيء أَلْبَتَّة من

فَاعِل ظاهِر أو مُضمَر ، أو تمييز ولا خلاف في جواز حَذْفِ المخْصُوصُ بالمَدْحِ أو الذَّمِّ ، والتمييز بها لِدلالة الكلام عليه " .

فقوله : " لأن المفسّر هنا مُضْمَر ، ولا بُدَّ من إظْهَار باتّفَاق " قوله سَاقِط ودعْوَاه الاتّفاق على ذلك – مع أن الاتّفاق على خلافه – عجبٌ عُجابٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 441.443 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (136) ﴾

لما بَنَوا قاعدة أمرِهم على موجب الهوى صارت فروعُهم لائقةً بأصولهم ؛ فهو كما قيل : إذا كان القضاءُ إلى ابن آوى . . . فتعويل الشهود إلى القرود انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 505 ﴾

قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (137) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان هذا متضمناً لأنهم نقصوا أموالهم بأنفسهم في غير طائل فجعلوها لمن لا يستحقها ، نبه تعالى على أن ذلك تزيين من أضلهم من الشياطين من سدنة الأصنام وغيرهم من الإنس ومن الجن المتكلمين من أجواف الأصنام وغيرهم ، فقال منبهاً على أنهم زينوا لهم ما هو أبين منه ﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل ما زين لجميع المشركين تضييع أموالهم والكفر بربهم شركاؤهم ﴿ زين لكثير من المشركين ﴾ .

ولما كان المزين لخسته أهل لأن لا يقبل تزيينه ولا يلتفت إليه ، فكان امتثال قوله غريباً ، وكان الإقدام على فعل الأمر المزين أشد غرابة ، قدمه تنبيهاً على ذلك فقال : ﴿ قتل أولادهم ﴾ أي بالوأد خشية الإملاق والنحر لآلهتهم ، وشتان بين من يوجد لهم الولد ويرزقه والرزق ويخلقه وبين من لا يكون إلا سبباً في إعدامه ؛ ولما كان في هذا غاية الغرابة تشوفت النفس إلى فاعل التزيين فقال : ﴿ شركاؤهم ﴾ أي وهم أقل منهم بما يخاطبون به من أجواف الأصنام وبما يحسن لهم السدنة والأهوية بسبب الأصنام .

ولما كان هذا أمراً معجباً ، كان الأمر في قراءة ابن عامر المولود في زمان النبي صلى الله عليه

وسلم المشمول ببركة ذلك العصر الآخذ عن جلة من الصحابة الموصوف بغزارة العلم ومتانة الدين وقوة الحفظ والضبط وحجة النقل في إسناد الفعل إلى الشركاء بإضافة المصدر إلى فاعله أعجب ، وفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول – وهو الأولاد – لأن وقوع القتل فيهم كما تقدم أعجب .

*(145/252)*

---

ولما كان ذلك ربما كان لفائدة استهين لها هذا الفعل العظيم ، ذكر أنه ليس له فائدة إلا الهلاك في الدنيا والدين الذي هو هلاك في الآخرة ليكون ذلك أعجب فقال : ﴿ ليردوهم ﴾ أي ليهلكوهم هلاكاً لا فائدة فيه بوجه ﴿ وليلبسوا ﴾ أي يخلطوا ويشبهوا ﴿ عليهم دينهم ﴾ أي وهو دين إبراهيم الذي أمره الله بذبح ولده إسماعيل عليهما السلام فما أقدم عليه إلاّ بأمر الله ثم إنه فداه ولم يمض ذبحه ، فخالف هؤلاء عن أمر الشركاء الأمرين معاً فجمعوا لهم بذلك بين إهلاكين : في النفس والدين ، فان القتل في نفسه عظيم جداً ، ووقوعه تديناً بغير أصل ولا شبهة أعظم ، فلا أضل ممن تبع من كان سبباً لإهلاك نفسه ودينه .

ولما كان العرب يدعون الأذهان الثاقبة والأفكار الصافية والآراء الصائبة والعقول الوافرة النافذة ، ذكر لهم ذلك على سبيل التعليل استهزاء بهم ، يعني أنهم فعلوا ذلك لهذه العلة فلم

يفطنوا بهم ولم يدركوا ما أرادوا بكم مع أنهم حجارة ، فأنتم أسفل منهم ؛ ولما أثبت للشركاء فعلاً هو التزيين ، وكان قد نفي سابقاً عنهم وعن سائر أعداء الأنبياء الاستقلال به ، وأناط الأمر هناك – لأن السياق للأعداء – بصفة الربوبية المقتضية للحياطة والعناية ، وكان الكلام هنا في خصوص الشركاء ، علق الأمر باسم الذات الدال على الكمال المقتضي للعظمة والجبروت والكبر وسائر الأسماء الحسنى على وجه الإحاطة الجلال فقال : ﴿ ولو شاء الله ﴾ أي بما له من العظمة والإحاطة بجميع أوصاف الكمال المقتضية للعلو عن الأنداد والتنزه عن الشركاء والأولاد أن لا يفعله المشركون ﴿ ما فعلوه ﴾ أي ذلك الذي زين لهم ، بل ذلك إنما هو بإرادته ومشيئه احتراساً من ظن أنهم يقدرون على شيء استقلالاً ، وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتخفيفاً ، وأكد التسلية بقوله : ﴿ فذرهم وما يفترون ﴾ أي يتقولون من الكذب ويتعمدونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 722 . 723 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أن هذا هو النوع الثاني من أحكامهم الفاسدة ، ومذاهبهم الباطلة ، وقوله :

﴿ وكذلك ﴾ عطف على قوله : ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحرث والأنعام ﴾ [ الأنعام : 136 ] أي كما فعلوا ذلك ، فكذلك زين لكثير منهم شركاؤهم قتل الأولاد ، والمعنى : أن جعلهم لله نصيباً ، وللشركاء نصيباً ، نهاية في الجهل بمعرفة الخالق المنعم ، وإقدامهم على قتل أولاد أنفسهم نهاية في الجهالة والضلالة ، وذلك يفيد التنبيه على أن أحكام هؤلاء وأحوالهم يشاكل بعضها بعضاً في الركاكة والخساسة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 169 ﴾

فصل

قال الفخر :

كان أهل الجاهلية يدفنون بناتهم أحياء خوفاً من الفقر أو من التزويج ، وهو المراد من هذه الآية .

واختلفوا في المراد بالشركاء ، فقال مجاهد : شركاؤهم شياطينهم أمروهم بأن يئدوا أولادهم خشية العيلة ، وسميت الشياطين شركاء ، لأنهم أطاعوهم في معصية الله تعالى ، وأضيفت الشركاء إليهم ، لأنهم اتخذوها كقوله تعالى : ﴿ أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [ الأنعام : 22 ] وقال الكلبي : كان لآلهتهم سدنة وخدام ، وهم الذين كانوا يزينون للكفار قتل أولادهم ، وكان الرجل يقوم في الجاهلية فيحلف بالله لئن ولد له كذا

وكذا غلاماً لينحرن أحدهم كما حلف عبد المطلب على ابنه عبد الله ، وعلى هذا القول : الشركاء هم السدنة ، سموا شركاء كما سميت الشياطين شركاء في قول مجاهد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 169 ﴾

*(147/252)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ وكذلك ﴾ أي ومثل ذلك التزيين وهو تزيين الشرك في قسمة القربان من الحرث والأنعام بين الله تعالى وبين شركائهم أو مثل ذلك التزيين البليغ المعهود من الشياطين ﴿ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ المشركين ﴾ أي مشركي العرب ﴿ قَتْلَ أولادهم ﴾ فكانوا يئدون البنات الصغار بأن يدفنونهن أحياء ، وكانوا في ذلك على ما قيل فريقين أحدهما يقول : إن الملائكة بنات الله سبحانه فألحقوا البنات بالله تعالى فهو أحق بها .

والآخر يقتلهن خشية الإنفاق ، وقيل : خشية ذلك والعار وهو المروي عن الحسن وجماعة ، وقيل : السبب في قتل البنات أن النعمان بن المنذر أغار على قوم فسبى نساءهم وكانت فيهن بنت قيس بن عاصم ثم اصطلحوا فأرادت كل امرأة منهن عشيرتها غير ابنة قيس فإنها أرادت من سباها فحلف قيس لا تولد له بنت إلا وأدها فصار ذلك سنة فيما بينهم ،

وقيل : إنهم كانوا ينذر أحدهم إذا بلغ بنوه عشرة نحر واحد منهم كما فعله عبد المطلب في قصته المشهورة ، وإليها أشار صلى الله عليه وسلم بقوله : " أنا ابن الذبيحين " و ﴿ قَتْلَ ﴾ مفعول ﴿ زُيِّنَ ﴾ مضاف إلى ﴿ أولادهم ﴾ من إضافة المصدر إلى مفعوله .

وقوله سبحانه : ﴿ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ فاعل له ، والمراد بالشركاء إما الجن أو السدنة ، ووسموا بذلك لأنهم شركاء في أموالهم كما مر آنفاً أو لإطاعتهم له كما يطاع الشريك لله عز اسمه .

ومعنى تزيينهم لهم ذلك تحسينه لهم وحثهم عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾

عطفٌ على جملة : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ﴾ [ الأنعام : 136 ]

والتقدير : جَعَلوا وزيَّنَ لهم شركاؤُهم قتلَ أولادِهم فقتلوا أولادَهم ، فهذه حكاية نوع من أنواع تشريعاتهم الباطلة ، وهي راجعة إلى تصرّفهم في ذُرِّيَّاتهم بعد أن ذكر تصرّفاتهم في نتائج أموالهم .

ولقد أعظم الله هذا التّزيين العجيب في الفساد الّذي حَسَّن أقبح الأشياء وهو قتْلهم أحبّ النّاس إليهم وهم أبناؤهم ، فشبه بنفس التزيين للدّلالة على أنّه لو شاء أحد أن يمثّله بشيء في الفظاعة والشّناعة لم يَسَعْه إلاّ أن يشبهه بنفسه لأنَّه لا يبلغ شيء مبلغ أن يكون أظهرَ منه في بابه ، فيلجأ إلى تشبيهه بنفسه ، على حدّ قولهم "والسّفاهة كاسمها" .

والتّقدير : وزيّن شركاء المشركين لكثير فيهم تزييناً مثل ذلك التّزيين الّذي زيّنوه لهم ، وهُو هُو نفسه ، وقد تقدّم تفصيل ذلك عند قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً ﴾ في سورة [ البقرة : 143 ] .

ومعنى التّزيين التّحسين ، وتقدّم عند قوله تعالى : ﴿ كذلك زيّنّا لكلّ أمّة عملهم ﴾ في هذه السورة [ 108 ] .

ومعنى تزيين ذلك هنا أنَّهم خيَّلوا لهم فوائد وقُرَباً في هذا القتل ، بأن يُلقوا إليهم مَضرّة الاستجداء والعار في النّساء ، وأنّ النّساء لا يرجى منهنّ نفع للقبيلة ، وأنَّهنّ يُجَبّنّ الآباء عند لقاء العدوّ ، ويؤثرن أزواجهن على آبائهن ، فقتلهنّ أصلَحُ وأنفع من استبقائهن ، ونحوَ هذا من الشّبه والتّمويهات ، فيأتونهم من المعاني الّتي تروج عندهم ، فإنّ العرب كانوا مُفرطين في الغيرة ، والجموح من الغلب والعار كما قال النّابغة :

حِذَاراً على أنْ لاَ تُنَالَ مَقَادَتِي

ولا نسوتي حتَّى يَمُتْنَ حَرائراً . . .

وإنَّما قال : ﴿ لكثير من المشركين ﴾ لأنّ قتل الأولاد لم يكن يأتيه جميع القبائل ، وكان في ربيعة ومضر ، وهما جمهرة العرب ، وليس كلّ الآباء من هاتين القبيلتين يفعله .

(149/252)

---

وأسند التّزيين إلى الشّركاء : إمّا لإرادة الشّياطين الشّركاءِ ، فالتّزيين تزيين الشّياطين بالوسوسة ، فيكون الإسناد حقيقة عقليّة ، وإمّا لأنّ التّزيين نشأ لهم عن إشاعة كبرائهم فيهم ، أو بشرع وضعه لهم مَن وضَع عبادة الأصنام وفرض لها حقوقاً في أموالهم مثل عَمْرو بن لُحَي ، فيكون إسناد التّزيين إلى الشّركاء مجازاً عقلياً لأنّ الأصنام سبب ذلك بواسطةٍ أو بواسطتين ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ فما أغنت عنهم آلِهَتُهم التي يَدْعُون من دون الله من شيء لمّا جاء أمر ربّك وما زادوهم غير تتبيب ﴾ [ هود : 101 ] .

والمعنيّ بقتل الأولاد في هذه الآية ونحوها هو الوأْد ، وهو دفن البنات الصغيرات أحياء فيمتن بغمّة التّراب ، كانوا يفعلون ذلك خشية الفقر ، كما قال تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خَشيةَ إملاق ﴾ [ الإسراء : 31 ] ، وخشيةَ أن تفتضح الأنثى بالحاجة إذا هلك أبوها ، أو مخافة السّباء ، وذكر في "الروض الأُنُف" عن النّقّاش في "تفسيره" : أنَّهم كانوا يئدون من

البنات من كانت زَرقاء أو برشاء ، أو شَيْماء ، أو رَسْحاءَ ، تشاؤما بِهنّ وهذا من خَوَر أوْهَامهم وأنّ ذلك قوله تعالى:

﴿ وإذا الموءودة سُئِلت بأي ذنب قتلت ﴾ [ التكوير : 8 ، 9 ] ، وقيل : كانوا يفعلون ذلك من شدّة الغيرة خشية أن يأتين ما يَتعيَّر منه أهلهنّ .

*(150/252)*

---

وقد ذكر المبرّد في "الكامل" ، عن أبي عبيدة : أنّ تميماً مَنَعت النّعمانَ بن المُنذر الإتاوة فوجّه إليهم أخاه الريان بن المنذر فاستاق النّعم وسبَى الذّراري ، فوفدت إليه بنو تميم فأنابوا وسألوه النّساء فقال النّعمان : كلّ امرأة اختارت أباها رُدّت إليه وإن اختارت صاحبها ( أي الّذي صارت إليه بالسبي ) تُركت عليه فكُلّهنّ اختارت أباها إلاّ ابنة لقيس بن عاصم اختارت صاحبَها عمرو بن المشمرِج ، فنذر قيس أن لا تولد له ابنة إلاّ قتلها فهذا شيء يَعتلّ به مَنْ وأدوا ، يقولون : فعلناه أنفة ، وقد أكذب الله ذلك في القرآن ، أي بقوله : ﴿ قد خَسِر الذين قتلوا أولادهم سَفَهاً ﴾ [ الأنعام : 140 ] .

وذكر البخاري ، أنّ أسماء بنت أبي بكر ، قالت : كان زيدُ بن عَمرو بن نُفَيل يُحيي الموءودة ، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته : لا تقتُلْها أنا أكفيكَ مؤونتها ، فيأخذها فإذا ترعرعت

قال لأبيها : إن شئتَ دفعتُها إليك وإن شئتَ كفيتك مؤونتها .

والمعروف أنَّهم كانوا يئدون البنت وقت ولادتها قبل أن تراها أُمّها ، قال الله تعالى : ﴿ وإذَا بشّرِ أحدهم بالأُنْثى ظَلّ وجهه مُسْوَدّا وهو كظيم يتوارى من القوم من سُوء ما بشّرِ به أيُمْسِكه على هُون أم يدسّه في التّراب ألاَ ساء ما يحكمون ﴾ [ النحل : 58 ، 59 ] .

وكان صعصعة بن معاوية من مجاشع ، وهو جدّ الفرزدق ، يفدي الموءودة ، يفعل مثل فعل زيد بن عمرو بن نفيل .

وقد افتخر الفرزدق بذلك في شعره في قوله :

ومنّا الّذي منع الوائداتْ

وأحيا الوئيد فلم توءَد . . .

وقد أدرك جدّه الإسلام فأسلم .

ولا يعرف في تاريخ العرب في الجاهليّة قتل أولادهم غير هذا الوأد إلاّ ما ورد من نذر عبد المطّلب الّذي سنذكره ، ولا ندري هل كان مثل ذلك يقع في الجاهليّة قبل عبد المطّلب أو أنّه هو الذي ابتكر ذلك ولم يتابَع عليه .

*(151/252)*

ولا شكّ أنّ الوأد طريقة سنّها أئمّة الشّرك لقومهم ، إذ لم يكونوا يصدرون إلاّ عن رأيهم ، فهي ضلالة ابتدعوها لقومهم بعلّة التخلّص من عوائق غزوهم أعداءَهم ، ومن معرّة الفاقة والسباء ، وربّما كان سدنة الأصنام يحرّضونهم على إنجاز أمر الموءودة إذا رأوا من بعضهم تثاقلا ، كما أشار إليه "الكشاف" إذ قال : "والمعنى أنّ شركاؤهم من الشّياطين أو من سدنة الأصنام زيَّنوا لهم قتل أولادهم بالوأد أو بالنّحر" .

وقال ابن عطيّة : والشّركاء على هذه القراءة هم الّذين يتناولون وأد بنات الغير فهم القاتلون .

وفي قصّة عبد المطّلب ما يشهد لذلك فإنَّه نذر إن رزقه الله عشرة أولاد ذكور ، ثمّ بلغوا معه أن يمنعوه من عدوّه ، لينحرنّ أحدهم عند الكعبة ، فلمّا بلغ بنوه عشرة بهذا المبلغ دَعاهم إلى الوفاء بنذره فأطاعوه واستقسم بالأزلام عند ( هُبل ) الصّنم وكان ( هبل ) في جوف الكعبة ، فخرج الزلم على ابنه عبد الله فأخذه ليذبحه بين ( إساف ) و( نائلة ) فقالت له قريش : لا تذبحْه حتّى تُعذِر فيه ، فإن كان له فداء فديناه ، وأشاروا عليه باستفتاء عَرّافة بخيبرَ فركبوا إليها فسألوها وقصّوا عليها الخبر فقالت : قَرّبوا صاحبكم وقَرّبوا عشراً من الإبل ثمّ اضربوا عليها وعليه بالقداح فإن خرجتْ على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتّى يرضى ربّكم ، وكذلك فعلوا فخرج القِدح على عبد الله ، فلم يزل عبد المطلب يزيد عشراً من الإبل ويضرب عليها بالقداح ويخرج القِدح على عبد الله حتّى بلغت

الإبل مائة فضرب عليها فخرج القِدح على الإبل فنحرها .

ولعلّ سدنة الأصنام كانوا يخلطون أمر الموءودة بقصد التقرّب إلى أصنام بعض القبائل ( كما كانت سنّة موروثة في الكنعانيين من نَبط الشّام يقرّبون صبيانهم إلى الصنم ملوك ، فتكون إضافة القتل إلى الشّركاء مستعملة في حقيقتها ومجازها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

فصل

قال الفخر :

(152/252)

---

قرأ ابن عامر وحده ﴿ زُيِّنَ ﴾ بضم الزاء وكسر الياء ، وبضم اللام من ﴿ قَتْلَ ﴾ و ﴿ أولادهم ﴾ بنصب الدال ﴿ شُرَكَائِهِمْ ﴾ بالخفض والباقون ﴿ زَيّنَ ﴾ بفتح الزاي والياء ﴿ قَتْلَ ﴾ بفتح اللام ﴿ أولادهم ﴾ بالجر ﴿ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ بالرفع .

أما وجه قراءة ابن عامر فالتقدير : زين لكثير من المشركين قتل شركائهم أولادهم ، إلا أنه فصل بين المضاف ، والمضاف إليه بالمفعول به وهو الأولاد ، وهو مكروه في الشعر كما في قوله :

فزججتها بمزجة . . زج القلوصَ أبي مزاده

وإذا كان مستكرهاً في الشعر فكيف في القرآن الذي هو معجز في الفصاحة .

قالوا : والذي حمل ابن عامر على هذه القراءة أنه رأى في بعض المصاحف ﴿ شُرَكَائِهِمْ ﴾ مكتوباً بالياء ، ولو قرأ بجر الأولاد والشركاء ، لأجل أن الأولاد شركاؤهم في أموالهم لوجد في ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب . (1)

وأما القراءة المشهورة : فليس فيها إلا تقديم المفعول على الفاعل ، ونظيره قوله : ﴿ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا ﴾ [ الأنعام : 158 ] وقوله : ﴿ وَإِذِ ابتلى إبراهيم رَبُّهُ ﴾ [ البقرة : 124 ] والسبب في تقديم المفعول هو أنهم يقدمون الأهم ، والذي هم بشأنه أعنى وموضع التعجب ههنا إقدامهم على قتل أولادهم ، فلهذا السبب حصل هذا التقدير .

---

(1) سيأتى تفصيل ذلك وبيان صحة قراءة الإمام ابن عامر ـ رحمه الله ـ وهى قراءة متواترة لا يلتفت إلا اعتراض بعضهم عليها . والله أعلم .

*(153/252)*

---

ثم قال تعالى : ﴿ لِيُرْدُوهُمْ ﴾ والإرداء في اللغة الإهلاك ، وفي القرآن ﴿ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾ [ الصافات : 56 ] قال ابن عباس : ليردوهم في النار ، واللام ههنا محمولة على

لام العاقبة كما في قوله : ﴿ فالتقطه ءال فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ [ القصص : 8 ] ﴿ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ أي ليخلطوا ، لأنهم كانوا على دين إسمعيل ، فهذا الذي أتاهم بهذه الأوضاع الفاسدة ، أراد أن يزيلهم عن ذلك الدين الحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 169 ﴾

*(154/252)*

---

وقال الطبرى :

واختلفت القرأة في قراءة ذلك .

فقرأته قرأة الحجاز والعراق : ( وَكَذَلِكَ زَيَّنَ ) ، بفتح الزاي من " زين " ، ( لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ ) ، بنصب " القتل " ، ( شُرَكَاؤُهُمْ ) ، بالرفع بمعنى أن شركاء هؤلاء المشركين ، الذين زينوا لهم قتل أولادهم فيرفعون " الشركاء " بفعلهم ، وينصبون " القتل " ، لأنه مفعول به .

وقرأ ذلك بعض قرأة أهل الشام : " وَكَذَلِكَ زُيِّنَ " بضم الزاي " لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلُ " بالرفع " أَوْلادَهُمْ " بالنصب " شُرَكَائِهِمْ " بالخفض بمعنى : وكذلك زُيِّن لكثير من المشركين قتلُ شركائهم أولادَهم ، ففرّقوا بين الخافض والمخفوض بما عمل فيه من الاسم . وذلك في

كلام العرب قبيح غير فصيح . وقد روي عن بعض أهل الحجاز بيت من الشعر يؤيِّد قراءة من قرأ بما ذكرت من قرأة أهل الشام ، رأيتُ رواة الشعر وأهل العلم بالعربية من أهل العراق ينكرونه ، وذلك قول قائلهم :

فَزَجَجْتُهُ مُتَمَكِّنًا . . . زَجَّ القَلُوصَ أَبِي مَزَادَهْ (1)

قال أبو جعفر : والقراءة التي لا أستجيز غيرها : ( وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ ) ، بفتح الزاي من " زين " ، ونصب " القتل " بوقوع " زين " عليه ، وخفض " أولادهم " بإضافة " القتل " إليهم ، ورفع " الشركاء " بفعلهم ، لأنهم هم الذين زينوا للمشركين قتلَ أولادهم ، على ما ذكرتُ من التأويل .

---

(1) معاني القرآن للفراء 1 : 358 ، الإنصاف : 179 ، الخزانة 2 : 251 ، والعيني ( بهامش الخزانة ) 3 : 468 ، وغيرها كثير . ( زج ) : دفع بالزج ، وهو الحديدة التي في أسفل الرمح . و( القلوص ) الناقة الفتية ، و( أبو مزادة ) اسم رجل . وهذا البيت شاهد على ما ذهب إليه الكوفيون من جواز الفصل بين المضاف والمضاف إليه بغير الظرف وحرف الخفض ، لضرورة الشعر . والتقدير : زج أبي مزادة القلوص ، ففصل بين المضاف والمضاف إليه بالقلوص ، وهو مفعول ، وليس بظرف ولا حرف خفض . وهذا وإن كان مقالة الكوفيين ، فإن الفراء قد رده في معاني القرآن 1 : 358 ، وقال هو ليس بشيء .

وإنما قلت : " لا أستجيز القراءة بغيرها " ، لإجماع الحجة من القرأة عليه (1) ، وأن تأويل أهل التأويل بذلك ورد ، ففي ذلك أوضح البيان على فساد ما خالفها من القراءة .

ولولا أن تأويل جميع أهل التأويل بذلك ورد ، ثم قرأ قارئ : " وَكَذَلِكَ زَيِّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلُ أَوْلادَهُمْ شُرَكَائِهِمْ " ، بضم الزاي من " زين " ، ورفع " القتل " ، وخفض " الأولاد " و" الشركاء " ، على الأولاد " شركاء آبائهم في النسب والميراث كان جائزًا .

ولو قرأه كذلك قارئ ، غير أنه رفع " الشركاء " وخفض " الأولاد " ، كما يقال : " ضُرِبَ عبدُ الله أخوك " ، فيظهر الفاعل ، بعد أن جرى الخبر بما لم يسمَّ فاعله كان ذلك صحيحًا في العربية جائزًا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الطبرى حـ 11 صـ 137 . 139 ﴾

(1) بل الإجماع على خلاف ذلك ، وسيأتى رد العلماء المحققين علي هذا الكلام .

كلام نفيس لصاحب إبراز المعاني من حرز الأماني في القراءات السبع

فى شرح قراءة الإمام ابن عامر :

(670)

وَزَيَّنَ فِي ضَمٍّ وَكَسْرٍ وَرَفْعُ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ بِالنَّصْبِ شَامِيُّهُمْ تَلاَ

(671)

وَيُخْفَضُ عَنْهُ الرَّفْعُ فِي شُرَكَاؤُهُمْ وَفِي مُصْحَفِ الشَّامِينَ بِالْيَاءِ مُثِّلاَ

*(157/252)*

---

يعني قوله تعالى (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم) ، قراءة الجماعة على أن شركاؤهم فاعل زين والمفعول قتل المضاف إلى أولادهم وقراءة ابن عامر على أن زين فعل لم يسم فاعله وقتل بالرفع على أنه أقيم مقام الفاعل وأولادهم بالنصب مفعول قتل لأنه مصدر وشركائهم بالجر على إضافة قتل إليه أي قتل شركائهم أولادهم كقولك عرف ضرب زيد عمرا أضيف المصدر إلى الفاعل فانجر وبقي المفعول منصوبا لكن في قراءة ابن عامر زيادة على هذا وهو تقديم المفعول على الفاعل المجرور بالإضافة وسيأتي توجيه ذلك فقوله وزين مبتدأ وفي ضم وكسر في موضع الحال أي كائنا في ضم الزاي وكسر الياء

ورفع قتل عطف على وزين أولادهم كذلك على حذف حرف العطف وبالنصب في موضع الحال أي منصوبا وشاميهم تلا جملة من مبتدأ ثان وخبر هي خبر وزين وما بعده أي تلا على هذه الصورة أو يكون وزين وما بعده مفعولا لقوله تلا مقدما عليه أي ابن عامر تلا ذلك وكان التعبير على هذا التقدير يقتضي أن يقول وقتل بالرفع فلم يتزن له فقلب اللفظ لأمن الإلباس لأن من تلا قتل بالرفع فقد تلا الرفع وقيل ورفع قتل مبتدإ خبره محذوف أي وله رفع قتل وله أولادهم بالنصب وقوله وفي مصحف الشامين حذف منه ياء النسبة المشددة وهذا سنتكلم عليه إن شاء الله تعالى في باب التكبير في قوله وفيه عن المكين أراد أن مصحف أهل الشام الذي أرسله عثمان رضي الله عنه إليهم رسم فيه شركائهم بالياء فدل ذلك على أنه مخفوض فهو شاهد لقراءته كذلك ولكن لا دلالة فيه على نصب أولادهم فهو الذي استنكر من قراءته فيحتمل أن يكون أولادهم مجرورا بإضافة المصدر إلى مفعوله وشركائهم صفة له قال أبو عمرو الداني في مصاحف أهل الشام (أولادهم شركائهم) ، بالياء وفي سائر المصاحف شركاؤهم بالواو قال أبو البرهسم في سورة الأنعام في إمام أهل الشام وأهل الحجاز أولادهم شركائهم وفي إمام أهل العراق شركاؤهم قلت ولم ترسم كذلك إلا باعتبار

قراءتين فالمضموم عليه قراءة معظم القراء ويحتمل أيضا قراءة أبي عبد الرحمن السلمي على إسناد زين إلى القتل كما فعل ابن عامر ولكنه خفض الأولاد بالإضافة ورفع شركاؤهم على إضمار فعل كأنه قيل من زينه فقال شركاؤهم فهو مثل ما يأتي في سورة النور -يسبح له فيها- بفتح الياء ثم قال رجال أي يسبحه رجال وهي قراءة ابن عامر وأبي بكر وأما خفض شركائهم فيحتمل قراءة ابن عامر ويحتمل أن يكون نعتا للأولاد وعلى قراءة أبي عبد الرحمن السلمي السابقة وهذا أوجه من القراءة لا استبعاد فيه لفظا ولا معنى قال الزجاج وقد رويت شركائهم بالياء في بعض المصاحف ولكن لا يجوز إلا على أن يكون شركاؤهم من نعت أولادهم لأن نعت أولادهم شركاؤهم في أموالهم وقال ابن النحاس فيها أربع قراءات فذكر ما ذكرناه ونسب قراءة السلمي إلى الحسن أيضا ونسب القراءة الرابعة إلى أهل الشام فقال وحكى غير أبي عبيد عن أهل الشام أنهم قرءوا زين بالضم قتل بالرفع وخفض أولادهم شركائهم بالخفض أيضا على أن يبدل شركائهم من أولدهم لأنهم شركاؤهم في النسب والميراث وذكر الفراء القراءتين الأوليين برفع شركائهم ثم قال وفي بعض مصاحف أهل الشام شركائهم بالياء فإن تكن مثبتة عن الأولين فينبغي أن يقرأ زين ويكون الشركاء هم الأولاد لأنهم منهم في النسب والميراث فإن كانوا يقرءون زين بفتح الزاي فلست أعرف جهتها إلا أن يكونوا فيها آخذين بلغة قوم يقولون أتيتها عشايا

ويقولون في تثنية حمراء حمرايان فهذا وجه أن يكونوا أرادوا (زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم) ، يعني بياء مضمومة لأن شركائهم فاعل زين كما هو في القراءة العامة قال وإن شئت جعلت زين فعلا إذا فتحته لا يلبس ثم يخفض الشركاء باتباع الأولاد قلت يعني تقدير الكلام زين مزين فقد اتجه شركائهم بالجر أن يكون نعتا للأولاد سواء قريء زين بالفتح أو بالضم وتفسير الشركاء على قراءة الجماعة هم خدم الأصنام أو الشياطين زينوا للكفرة أن

*(159/252)*

---

يقتلوا أولادهم بالوأد وبالنحر للآلهة وعلى قراءة ابن عامر يكون الشركاء هم القاتلين لأنهم لما زينوا للمشركين قتل أولادهم صاروا كأنهم كانوا هم القاتلين في المعنى والله أعلم

(672)

وَمَفْعُولُهُ بَيْنَ الْمُضَافَيْنِ فَاصِلٍ وَلَمْ يُلْفَ غَيْرُ الظَّرْفِ فِي الشِّعْرِ فَيْصَلاَ

يعني أن المفعول في قراءة ابن عامر وهو –أولادهم– الذي هو مفعول القتل وقع فاصلا بين المضاف والمضاف إليه لأن قتل مضاف إلى شركائهم وأكثر النحاة على أن الفصل بين المضافين لا يجوز إلا بالظرف في الشعر خاصة فهذا معنى قوله ولم يلف أي لم يوجد غير

الظرف فيصلا بين المضاف والمضاف إليه وأما في كلام غير الشعر فلم يوجد الفصل بالظرف فكيف بغيره ذكر الناظم -رحمه الله- ما اعترض به على قراءة ابن عامر ثم مثل بالظرف فقال

(673)

كَلِلَّهِ دَرُّ الْيَوْمَ مَنْ لاَمَهَا فَلاَ تَلُمْ مِنْ سُلَيمِي النَّحْوِ إِلاَّ مُجَهِّلاَ

*(160/252)*

---

أراد بيتا أنشده سيبويه وغيره وهو لعمرو بن قميئة ، (لما رأت ساتيذ ما استعبرت لله در اليوم من لامها ) ، يريد لله در من لامها اليوم أنشد سيبويه أيضا لأبي حية النميري ، (كما خط الكتاب بكف يوما يهودي ) ، أي بكف يهودي يوما وأنشد لدرنا بنت عتبة ، (هما أخوا في الحرب من لا أخا له ) ، أي أخوا من لا أخا له في الحرب قال وقال ذو الرمة ، (كأن أصوات من إيغالهن بنا أواخر الميس أصوات الفراريخ) ، أي كأن أصوات أواخر الميس وكل هذه الأبيات فصل فيها بالظرف الصريح وبالجار والمجرور بين المضاف والمضاف إليه ولا يجوز ذلك في غير الشعر قال سيبويه في قوله (يا سارق الليلة أهل الدار ) بخفض الليلة على التجوز ونصب أهل على المفعولية ولا يجوز يا سارق الليلة أهل الدار إلا في شعر

كراهية أن يفصلوا بين الجار والمجرور ثم وقال مما جاء في الشعر قد فصل بينه وبين المجرور قول عمرو بن قميئة فذكر الأبيات المتقدمة وغيرها ثم قال وهذا قبيح ويجوز في الشعر على هذا مررت بخير وأفضل من ثم قال أبو الفتح ابن جني الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالظرف وحرف الجر كثير لكنه من ضرورة الشاعر وقوله مليم هو اسم فاعل من ألام الرجل إذا أتى بما يلام عليه أي من مليم أهل النحو وهو اسم جنس هكذا وقع في روايتنا بلفظ المفرد ولو كان بلفظ الجمع كان أحسن أي من مليمي النحو ثم حذفت الياء لالتقاء الساكنين وتقع كذلك في بعض النسخ وهو الأجود وحذفها إنما جاء من الكاتب لأن الناظم أملى فخفيت الياء على الكاتب لأنها ساقطة في اللفظ أي الذين تعرضوا لإنكار قراءة ابن عامر هذه من النحاة على قسمين منهم من ضعفها ومنهم من جهل قارئها وكلهم قد أتى بما يلام عليه لأنه أنكر قراءة قد صحت عن إمام من أئمة المسلمين لكن من نفى ذلك ولم يجهل فأمره أقرب إذ لم يبلغ علة أكثر من ذلك ومن جهل فقد تعدى طوره فبين أمره ولمه وجهله بما قد خفي عنه فإن هذه القراءة قد نقلها ابن عامر عمن قرأها

*(161/252)*

عليه ولم يقرأها من تلقاء نفسه وسيأتي توجيهها ، قال أبو عبيد وكان عبد الله بن عامر وأهل الشام يقرءونها –زين– بضم الزاي ، (قتل) ، بالرفع –أولادهم– بالنصب ، (شركائهم) ، بالخفض ويتأولونه –قتل شركائهم أولادهم– فيفرقون بين الفعل وفاعله قال أبو عبيد ولا أحب هذه القراءة لما فيها من الاستكراه والقراءة عندنا هي الأولى لصحتها في العربية مع إجماع أهل الحرمين والبصرتين بالعراق عليها وقال أبو علي فصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول والمفعول به مفعول المصدر وهذا قبيح قليل في الاستعمال ولو عدل عنها إلى غيرها كان أولى ألا ترى أنه إذا لم يفصل بين المضاف والمضاف إليه بالظرف في الكلام وحال السعة مع اتساعهم في الظروف حتى أوقعوها مواقع لا يقع فيها غيرها نحو (إن فيها قوما جبارين) ، تلقون للهجر حولا كميلا ، (ولا تلحني فيها فإني لحبها أخاك مصاب القلب جم بلابله) ، ألا ترى أنه قد فصل بين أن واسمها بما يتعلق بخبرها ولو كان بغير الظرف لم يجز ذلك فإذا لم يجيزوا الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالظرف في الكلام مع اتساعهم في الظرف في الكلام وإنما جاء في الشعر فأن لا يجوز في المفعول به الذي لم يتسع فيه بالفصل به أجدر وقال الزمخشري وأما قراءة ابن عامر بالفصل بينهما بغير الظرف فشيء لو كان في مكان الضرورات وهو الشعر لكان سمجا مردودا فكيف به في الكلام المنثور فكيف به في القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته ، قال والذي حمله على ذلك أنه رأى في بعض المصاحف– شركائهم– مكتوبا بالياء ولو قريء بجر الأولاد والشركاء لأن الأولاد شركاؤهم في أموالهم

لوجد في ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب ، قلت فإلى هذا الكلام وشبهه أشار الناظم يلوم قائله ثم ذكر وجه هذه القراءة فقال

(674)

وَمَعْ رَسْمِهِ زَجَّ الْقَلُوصَ أَبِي مَزَادَةَ الْأَخْفَشُ النَّحْوِيُّ أَنْشَدَ مُجْمِلاَ

*(162/252)*

---

أي ومع كون الرسم شاهدا لقراءة ابن عامر وهو جر -شركائهم- وأما نصب الأولاد فليس فيه إلا النقل المحض لأن الرسم كما يحتمل نصب الأولاد يحتمل أيضا جرها كما سبق وهو الذي رجحه أهل النحو على القول باتباع هذا الرسم أي مع شهادة هذا البيت الذي ورد أيضا بالفصل بين المضافين بالمفعول به وهو ما أنشده الأخفش ولعله أبو الحسن سعد بن مسعدة النحوي صاحب الخليل وسيبويه ، (فزججتها بمزجة زج القلوص أبي مزادة) ، أي زج أبي مزادة القلوص فالقلوص مفعول ويروي فزججتها متمكنا ويروي فتدافعت قال الفراء في كتاب المعاني بعد إنشاده لهذا البيت وهذا مما كان يقوله نحويو أهل الحجاز ولم نجد مثله في العربية وقال في موضع آخر ونحويو أهل المدينة ينشدون هذا البيت والصواب زج القلوص بالخفض وقال أبو العلاء أحمد بن سليم المعري في كتاب شرح الجمل واختار قوم أن

يفصلوا بين المضاف والمضاف إليه بالمصدر كما يفصل بينهما بالظرف قال وليس ذلك ببعيد وقد حكى أن بعض القراء قرأ (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله) ، على تقدير مخلف رسله وعده قال وزعموا أن عيسى ابن عمر أنشد هذا البيت ، (فزججته متعرضا زج القلوص أبي مزاح) ، قال هكذا الرواية عنه وقد روي أبي مزادة قال أبو علي الفارسي وجه ذلك على ضعفه وقلة الاستعمال له أنه قد جاء في الشعر الفصل على حد ما قرأ قال الطرماح ، (يطفن بحوزي المراتع لم ترع بواديه من قرع لقسي الكتائن) ، قال وزعموا أن أبا الحسن أنشد زج القلوص أبي مزادة فهذان البيتان مثل قراءة ابن عامر قال ابن جني في بيت الطرماح لم نجد فيه بدا من الفصل لأن القوافي مجرورة قال في زج القلوص فصل بينهما بالمفعول به هذا مع قدرته على أن يقول زج القلوص أبو مزادة كقولك سرني أكل الخبز زيد قال وفي هذا البيت عندي دليل على قوة إضافة المصدر إلى الفاعل عندهم وأنه في نفوسهم أقوى من إضافته إلى المفعول ألا تراه ارتكب هنا الضرورة مع تمكنه من ترك ارتكابها لا لشيء غير

*(163/252)*

الرغبة في إضافة المصدر إلى الفاعل دون المفعول قال أبو الحسن الحوفي احتج ابن الأنباري لهذه القراءة فقال قد جاء عن العرب هو غلام إن شاء الله أخيك ففرق بإن شاء الله ويروى أن عبد الله بن ذكوان قال سألني الكسائي عن هذا الحرف وما بلغه من قرائتنا فرأيته كأنه أعجبه ونزع بهذا البيت ، (تنفى يداها الحصى في كل هاجرة نفي الدراهم تنقاد الصياريف) ، فنصب الدراهم ورواه غيره بخفض الدراهم ورفع تنقاد على الصحة قلت وإنما أعجب الكسائي لأنه وافق عنده ما بلغه من جوازه لغة ومثله ما أنشده غيره (فداسهم دوس الحصاد الدائس ) ، أي دوس الدائس الحصاد وفي شعر أبي الطيب (سقاها الحجى سقي الرياض السحائب ) ، أي سقى السحائب الرياض قال أبو الحسن ابن خروف يجوز الفصل بين المصدر والمضاف إليه بالمفعول لكونه في غير محله فهو في نية التأخير ولا يجوز بالفاعل لكونه في محله وعليه قراءة ابن عامر ، قلت وقد أنشد الشيخ أبو العلاء المعري في شرحه بيتا فيه الفصل بالفاعل وبالجار والمجرور معا وهو ، (تمر على ما تستمر وقد شفت غلائل عبد القيس منها صدورها ) ، أي شفت عبد القيس غلائل صدورها منها ، وجاء الفصل أيضا بالمنادى المضاف أنشد ابن جني في كتاب الخصائص ، (كأن برذون أبا عصام زيد حمار دق باللجام) ، قال أي كأن برذون زيد يا أبا عصام حمار دق باللجام ، قلت ووجدت في شعر أسند إلى الفرس معاوية يخاطب به عمرو بن العاص رحمهما الله تعالى ، (نجوت وقد بل المرادى سيفه من ابن أبي شيخ الأباطح طالب) ، أي

من ابن أبي طالب شيخ الأباطح ففصل بين مضاف ومضاف إليه وهو صفة لذلك المضاف والمضاف إليه وابن أبي طالب هو علي رضي الله عنه ولا يعد فيما استبعده أهل النحو من جهة المعنى وذلك أنه قد عهد تقدم المفعول على الفاعل المرفوع لفظا فاستمرت له هذه المرتبة مع الفاعل المرفوع تقديرا فإن المصدر لو كان منونا لجاز تقدم المفعول على فاعله نحو أعجبني ضرب عمرا زيد فكذا في

*(164/252)*

---

الإضافة وقد ثبت جواز الفصل بين حرف الجر ومجروره مع شدة الاتصال بينهما أكثر من شدته بين المضاف والمضاف إليه في نحو قوله تعالى (فبما نقضهم ميثاقهم) -(فبما رحمة من الله) ، فإن قالوا ما زائدة فكأنها ساقطة في اللفظ لسقوطها في المعنى ، قلت والمفعول المقدم هو في غير موضعه معنى فكأنه مؤخر لفظا ولا التفات إلى قول من زعم أنه لم يأت في الكلام المنثور مثله لأنه ناف ومن أسند هذه القراءة مثبت والإثبات مرجح على النفي بإجماع ولو نقل لي هذا الزاعم عن بعض العرب أنه استعمله في النثر لرجع عن قوله فما باله لا يكتفي بناقلي القراءة عن التابعين عن الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ثم الذي حكاه ابن الأنباري فيه الفصل في غير الشعر بجملة مستقلة مركبة من فعل وفاعل مع حرف شرط مما

يقوي ما ذكرناه أنهم التزموا أن الفصل بالجار والمجرور لم يأت إلا في الشعر وقد روت الرواة في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم الفصل بهما وهو نحو قوله صلى الله عليه وسلم فهل أنتم تاركوا لي صاحبي وتاركوا لي أمرائي ، أي تاركوا صاحبي لي وتاركوا أمرائي لي فلم يبق لهم تعلق بأنه لم يأت في الكلام المنثور فصل بالمفعول ولا بالظرف ونحوه والله أعلم ، قال أبو القاسم الكرماني في لباب التفاسير قراءة ابن عامر وإن ضعفت في العربية للإحالة بين المضاف والمضاف إليه فقويت في الرواية عالية وفي كتاب الخصائص لابن جني بأن ما يرد عن العربي مخالفا للجمهور إذا اتفق شيء من ذلك نظر في حال العربي وفيما جاء به فإن كان فصيحا وكان ما أورده مما يقبله القياس فإن الأولى أن يحسن الظن به وقد يمكن أن يكون ذلك وقع إليه من لغة قديمة قد طال عهدها وعفا رسمها أخبرنا أبو بكر جعفر بن محمد بن أبي الحجاج عن أبي خليفة الفضل ابن الحباب قال قال ابن عون عن ابن سيرين قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب بالجهاد وغزو فارس

*(165/252)*

والروم ولهيت عن الشعر وروايته فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب في الأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يثوبوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب وألفوا ذلك وقد هلك من هلك من العرب بالموت والقتل فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم كثيره قال وحدثنا أبو بكر عن أبي خليفة قال قال يونس بن حبيب قال أبو عمرو بن العلاء ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير قال أبو الفتح إذا كان الأمر كذلك لم يقطع على الفصيح يسمع منه ما يخالف الجمهور بالخطأ ما وجد طريق إلى تقبل ما يورده إذا كان القياس يعاضده ، قلت وقد بينا وجه القياس في هذه القراءة وقد حان نقلها من طريق صحيح وبالله التوفيق ، وقول الناظم رحمه الله أبي مزادة الأخفش بفتح الهاء من مزادة أراد أن يأتي بلفظ الشاعر فأبقى الهاء ساكنة فلقيها سكون اللام في الأخفش فلزم تحريكها ففتحها على حد قوله سبحانه (الم الله) ، في أول آل عمران ولو أبدل الهاء تاء على الأصل وفتحها لكان له وجه لأنه واصل وشاعرها أبدلها هاء للوقف ولكن كان يفوت لفظ الحكاية وكان بعض الشيوخ يجيزوا قراءته بالتاء ولم نسمعه من الشيخ أبي الحسن رحمه الله إلا بالهاء واتفق أني رأيت الشيخ الشاطبي رحمه الله في المنام وسألته عنه أهو بالتاء أو بالهاء فقال بالهاء والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إبراز المعاني من حرز الأماني في القراءات السبع / للإمام عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم حـ 2 صـ 461. 467 ﴾

(166/252)

وقال السمرقندى :

قرأ ابن عامر ومن تابعه من أهل الشام ﴿ وكذلك زُيِّنَ ﴾ بضم الزاي ﴿ قَتْلَ ﴾ بضم اللام ﴿ أولادهم ﴾ بفتح الدال ﴿ شُرَكَائِهِمْ ﴾ بالخفض .

وإنما قرىء ﴿ زُيِّنَ ﴾ بالضم على فعل ما لم يسم فاعله ومعناه : قتل شركائهم على معنى التقديم ، وهم أولادهم لأن أولادهم شركاؤهم في أموالهم ، فصار شركاؤهم نعتاً للأولاد ، وصار الأولاد نصباً على وجه التفسير .

وقرأ الباقون ﴿ زَيَّنَ ﴾ بالنصب لأنه فعل ماض ﴿ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ بالضم لأنه جعل الشركاء على وجه الفاعل .

ثم قال : ﴿ لِيُرْدُوهُمْ ﴾ يعني : ليهلكوهم بذلك ﴿ وَلِيَلْبِسُواْ ﴾ يعني : ليخلطوا وليشبهوا ﴿ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ يعني : دين إبراهيم وإسماعيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الخطيب الشربينى :

وقرأ ابن عامر بضم الزاي وكسر الياء ورفع لام قتل ونصب دال أولادهم وشركائهم بالياء مكسورة الهمزة بإضافة القتل إليه مفصولاً بينهما بمفعوله قال البيضاوي تبعاً للزمخشري : وهو ضعيف في العربية معدود من ضرورة الشعر . اه .

وقد أنكر جماعة على الزمخشري في ذلك بأن القراءة المذكورة صحيحة متواترة وتركيبها صحيح في العربية فلا يجوز الطعن فيها ولا في ناقلها .

قال التفتازاني : وهذا على عادته يطعن في متواتر القراآت السبع ويسند الخطأ تارة إليهم كما هنا وتارة إلى الرواية عنهم وكلاهما خطأ لأنّ القراآت متواترة ، وكذا الروايات عنهم ، وأطال في بيان ذلك وقال ابن مالك في كافيته : إضافة المصدر إلى الفاعل مفصولاً بينهما بمفعول المصدر جائزة في الاختيار إذ لا محذور فيها مع أنّ الفاعل كجزء من عامله فلا يضر فصله وإضافة القتل إلى الشركاء لأمرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 2 صـ 159 ﴾

*(167/252)*

---

وقال الشوكانى :

قرأ الجمهور ﴿ زين ﴾ بالبناء للفاعل ونصب ﴿ قتل ﴾ على أنه مفعول زيَّن ، وجرّ أولاد بإضافة قتل إليه ، ورفع شركاؤهم على أنه فاعل زين ، وقرأ الحسن بضم الزاي ورفع قتل وخفض أولاد ، ورفع شركاؤهم على أن قتل هو نائب الفاعل ، ورفع شركاؤهم بتقدير يجعل يرجعه ، أي زينه شركاؤهم ، ومثله قول الشاعر :

ليبك يزيد ضارع لخصومة . . . ومختبط ما تطيح الطوائح

أي يبكيه ضارع ، وقرأ ابن عامر ، وأهل الشام بضم الزاي ، ورفع قتل ، ونصب أولاد ، وخفض شركائهم على أن قتل مضاف إلى شركائهم ، ومعموله أولادهم ، ففيه الفصل بين المصدر وما هو مضاف إليه بالمفعول ، ومثله في الفصل بين المصدر وما أضيف إليه ، قول الشاعر :

تمرّ على ما تستمرّ وقد شفت . . . غلائل عبد القيس منها صدورها

بجر صدورها ، والتقدير : شفت عبد القيس غلائل صدورها .

قال النحاس : إن هذه القراءة لا تجوز في كلام ولا في شعر ، وإنما أجاز النحويون التفريق بين المضاف والمضاف إليه بالظرف في الشعر لاتساعهم في الظروف ، وهو أي الفصل بالمفعول به في الشعر بعيد ، فإجازته في القرآن أبعد .

*(168/252)*

---

وقال أبو غانم أحمد بن حمدان النحوي : إن قراءة ابن عامر لا تجوز في العربية وهي زلة عالم ، وإذا زلّ العالم لم يجز اتباعه ، وردّ قوله إلى الإجماع ، وإنما أجازوا في الضرورة للشاعر أن يفرّق بين المضاف والمضاف إليه بالظرف ، كقول الشاعر :

كما خط الكتاب بكف يوما . . . يهودي يقارب أو يزيل

وقول الآخر :

لله درّ اليوم من لامها . . . وقال قوم ممن انتصر لهذه القراءة : إنها إذا ثبتت بالتواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فهي فصيحة لا قبيحة .

قالوا : وقد ورد ذلك في كلام العرب ، وفي مصحف عثمان رضي الله عنه "شركايهم" بالياء .

وأقول : دعوى التواتر باطلة بإجماع القراء المعتبرين ، كما بينا ذلك في رسالة مستقلة ، فمن قرأ بما يخالف الوجه النحوي فقراءته ردّ عليه ، ولا يصح الاستدلال لصحة هذه القراءة بما ورد من الفصل في النظم كما قدّمنا ، وكقول الشاعر :

فزججتها بمزجَة . . . زج القلوص أبي مزاده

فإن ضرورة الشعر لا يقاس عليها ، وفي الآية قراءة رابعة وهي جرّ الأولاد والشركاء ، ووجه ذلك أن الشركاء بدل من الأولاد لكونهم شركاءهم في النسب والميراث . (1)

قوله : ﴿ لِيُرْدُوهُمْ ﴾ اللام لام كي ، أي لكي يردوهم ، من الإرداء وهو الإهلاك ﴿ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ معطوف على ما قبله ، أي فعلوا ذلك التزيين لإهلاكهم ولخلط دينهم عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

---

(1) هذا تخبط من الشوكاني ـ رحمه الله وغفر له ـ فقراءة الإمام ابن عامر متواترة قرأ بها

رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) فكيف لا يرتضيها ؟ ؟ ؟ ! ! ! ، والإجماع قائم على تواترها خلافا لما ادعاه من عدم تواترها ، ومن العجيب أنه يرد هذه القراءة المتواترة وفى مواضع أخرى يصحح الروايات الواهية والموضوعة على رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) كما فى قصة هاروت وماروت . والله أعلم .

*(169/252)*

---

وقال الآلوسى :

وقرأ ابن عامر ﴿ زُيِّنَ ﴾ بالبناء للمفعول الذي هو القتل ، ونصب الأولاد وجر الشركاء بإضافة القتل إليه مفصولاً بينهما بمفعوله .

وعقب ذلك الزمخشري "بأنه شيء لو كان في مكان الضرورات وهو الشعر لكان سمجاً مردوداً كما سمج ورد

زج القلوص أبي مزادة . . .

فكيف به في الكلام المنثور فكيف به في الكلام المعجز ، ثم قال : والذي حمله على ذلك أنه رأى في بعض المصاحف ﴿ شُرَكَائِهِمْ ﴾ مكتوباً بالياء ، ولو قرأ بجر الأولاد والشركاء لكان الأولاد شركاؤهم لوجد في ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب" اه .

"وقد ركب في هذا ( الفصل متن ) عمياي وتاه في تيهاء ، فقد تخيل أن القراء أئمة الوجوه السبعة اختار كل منهم حرفاً قرأ به اجتهاداً لا نقلاً وسماعاً كما ذهب إليه بعض الجهلة فلذلك غلط ابن عامر في قراءته هذه وأخذ يبين منشأ غلطه ، وهذا غلط صريح يخشى منه الكفر والعياذ بالله تعالى فإن القراآت السبعة متواترة جملة وتفصيلاً عن أفصح من نطق بالضاد صلى الله عليه وسلم فتغليط شيء منها في معنى تغليط رسول الله صلى الله عليه وسلم بل تغليط الله عز وجل نعوذ بالله سبحانه من ذلك ، وقال أبو حيان : "أعجب لعجمي ضعيف في النحو يرد على عربي صريح محض قراءة متواترة ( موجود ) نظيرها في كلام العرب في غير ما بيت ، وأعجب ( لسوء ظن ) هذا الرجل بالقراء الأئمة الذين تخيرتهم هذه الأمة لنقل كتاب الله تعالى شرقاً وغرباً ، وقد اعتمد المسلمون على نقلهم لضبطهم ومعرفتهم وديانتهم" اه .

وقد شنع عليه أيضاً غير واحد من الأئمة ، ولعل عذره في ذلك جهله بعلمي القراءة والأصول .

وقد يقال : إنه لم يفرق بين المضاف الذي لم يعمل وبين غيره ومحققو النحاة قد فرقوا بينهما بأن الثاني يفصل فيه بالظرف ، والأول إذا كان مصدراً أو نحوه يفصل بمعموله مطلقاً لأن إضافته في نية الانفصال ومعموله مؤخر رتبة ففصله كلا فصل فلذا ساغ ذلك فيه ولم يخص بالشعر كغيره .

وممن صرح بذلك ابن مالك ، وخطأ الزمخشري بعدم التفرقة وقال في "كافيته :

وظرف أو شبيهه قد يفصل . . .

جزئي إضافة وقد يستعمل فصلان

في اضطرار بعض الشعرا . . .

وفي اختيار قد أضافوا المصدرا

لفاعل من بعد مفعول حجز . . .

كقول بعض القائلين للرجز

بفرك حب السنبل الكنافج . . .

بالقاع فرك القطن المحالج

وعمدتي قراءة ابن عامر . . .

وكم لها من عاضد وناصر

انتهى .

(170/252)

وبعد هذا كله لو سلمنا أن قراءة ابن عامر منافية لقياس العربية لوجب قبولها أيضاً بعد أن تحقق صحة نقلها كما قبلت أشياء نافت القياس مع أن صحة نقلها دون صحة القراءة المذكورة بكثير ، وما ألطف قول الإمام على ما حكاه عنه الجلال السيوطي ، وكثيراً ما أرى النحويين متحيرين في تقرير الألفاظ الواردة في القرآن ، فإذا استشهد في تقريره ببيت مجهول فرحوا به وأنا شديد التعجب منهم لأنهم إذا جعلوا ورود ذلك البيت المجهول على وفقه دليلاً على صحته فلأن يجعلوا ورود القرآن به دليلاً على صحته كان أولى ، ومما ذكرنا يعلم ما في قول السكاكي : لا يجوز الفصل بين المضاف والمضاف إليه بغير الظرف ، ونحو قوله :

بين ذراعي وجبهة الأسد . . .

محمول على حذف المضاف إليه من الأول ، ونحو قراءة من قرأ ﴿ قَتْلَ أولادهم شُرَكَائِهِمْ ﴾ لاستنادها إلى الثقات وكثرة نظائرها ، ومن أرادها فعليه "بخصائص" ابن جني محمولة عندي على حذف المضاف إليه من الأول واضمار المضاف في الثاني كما في قراءة من قرأ ﴿ واللهُ يُرِيدُ الآخرة ﴾ [ الأنفال : 67 ] بالجر أي عرض الآخرة ، وما ذكرت وإن كان فيه نوع بعد إلا أن تخطئة الثقات والفصحاء أبعد اه .

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ببناء ﴿ زُيِّنَ ﴾ للمفعول ورفع ﴿ قَتْلَ ﴾ وجر ﴿ أولادهم ﴾ ورفع ﴿ إلى شُرَكَائِهِمْ ﴾ بإضمار فعل دليل عليه ﴿ زُيِّنَ ﴾ كما في قوله :

ليبك يزيد ضارع لخصومة . . .

ومختبط مما تطيح الطوائح

كأنه لما قيل : زين لهم قتل أولادهم قيل من زينه ؟ شركاؤهم .

﴿ لِيُرْدُوهُمْ ﴾ أي ليهلكوهم بالإغواء ﴿ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ أي ليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام حتى زلوا عنه إلى الشرك أو دينهم الذي وجب أن يكونوا عليه .

*(171/252)*

---

وقيل : المعنى ليوقعوهم في دين ملتبس ، واللام للتعليل إن كان التزيين من الشياطين لأن مقصودهم من إغوائهم ليس إلا ذلك ، وللعاقبة إن كان من السدنة إذ ليس محط نظرهم ذلك لكنه عاقبته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقرأ الجمهور : ﴿ زَيَّنَ ﴾ بفتح الزاي ونصب : ﴿ قتل ﴾ على المفعوليّة ل ﴿ زَيَّن ﴾ ، ورفعِ شركاؤهم على أنّه فاعل : ﴿ زين ﴾ ، وجرّ ﴿ أولادهم ﴾ بإضافة قَتْل إليه من إضافة المصدر إلى مفعوله .

وقرأه ابن عامر : ﴿ زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائِهم ﴾ ببناء فعل ﴿ زين

﴿ للنّائب ، ورفع ﴿ قتل ﴾ على أنه نائب الفاعل ، ونصب ﴿ أولادهم ﴾ على أنَّه مفعول ﴿ قتل ﴾ ، وجرّ ﴿ شركائهم ﴾ على إضافة ﴿ قتل ﴾ إليه من إضافة المصدر إلى فاعله ، وكذلك رسمت كلمة ﴿ شركائهم ﴾ في المصحف العثماني الّذي ببلاد الشّام ، وذلك دليل على أنّ الّذين رَسموا تلك الكلمة راعوا قراءة ﴿ شركائهم ﴾ بالكسر وهم من أهل الفصاحة والتّثبت في سند قراءات القرآن ، إذا كتب كلمة ﴿ شركائهم ﴾ بصورة الياء بعد الألف ، وذلك يدلّ على أنّ الهمزة مكسورة ، والمعنى ، على هذه القراءة : أنّ مزيِّنا زيَّن لكثير من المشركين أن يَقْتُلَ شركاؤُهم أولادَهم ، فإسناد القتل إلى الشّركاء على طريقة المجاز العقلي إمّا لأنّ الشّركاء سبب القتل إذا كان القتل قُرباناً للأصنام ، وإمَّا لأنّ الّذين شرعوا لهم القتل هم القائمون بديانة الشّرك مثل عمرو بن لُحي ومن بعده ، وإذا كان المراد بالقتل الوأْدَ ، فالشركاء سببَ وإن كان الوأد قُرباناً للأصنام وإن لم يكن قرباناً لهم ( وهو المعروف ) فالشركاء سبب السبب ، لأنه من شرائع الشرك .

*(172/252)*

---

وهذه القراءة ليس فيها ما يناكد فصاحة الكلام لأنّ الإعراب يُبيِّن معاني الكلمات ومواقعها ، وإعرابها مختلف من رفع ونصب وجرّ بحيث لا لبس فيه ، وكلماتها ظاهرٌ

إعرابها عليها ، فلا يعدّ ترتيب كلماتها على هذا الوصف من التّعقيد المخلّ بالفصاحة ، مثل التّعْقيد الّذي في قول الفرزدق :

وما مِثْلُه في النّاس إلاّ مُمَلَّكاً

أبو أمّه حَيّ أبوهُ يقاربهْ . . .

لأنَّه ضَمَّ إلى خلل ترتيب الكلام أنَّه خَلل في أركان الجملة وما حفّ به من تعدّد الضّمائر المتشابهة وليس في الآية ممّا يخالف متعارف الاستعمال إلاّ الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول ، والخَطْبُ فيه سهل : لأنّ المفعول ليس أجنبياً عن المضاف والمضاف إليه ، وجاء الزمخشري في ذلك بالتّهويل ، والضّجيج والعويل ، كيف يفصَل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول وزاد طنبور الإنكار نغمة .

فقال : والذي حَمَله على ذلك أنّه رأى في بعض المصاحف : ﴿ شركائهم ﴾ مكتوباً بالياء ، وهذا جري على عادة الزمخشري في توهين القراءات المتواترة ، إذا خالفت ما دُوّن عليه علم النّحو ، لتوهّمه أنّ القراءات اختيارات وأقيسة من القُرّاء ، وإنَّما هي روايات صحيحة متواترة وفي الإعراب دلالة على المقصود لا تناكد الفصاحة .

ومُدوّناتُ النّحو ما قصد بها إلاّ ضبط قواعد العربيّة الغالبة ليجري عليها النّاشئون في اللّغة العربيّة ، وليست حاصرة لاستعمال فصحاء العرب ، والقرّاءُ حجّة على النّحاة دون العكس ، وقواعد النّحو لا تمنع إلاّ قياس المولَّدين على ما ورد نادراً في الكلام الفصيح ،

والنّدرة لا تنافي الفصاحة ، وهل يظنّ بمثل ابن عامر أنّه يَقرأ القرآن متابعة لصورة حروف التهجّي في الكتابة .

ومثل هذا لا يروج على المبتدئين في علم العربيّة ، وهلاّ كان رسم المصحف على ذلك الشّكل هادياً للزمخشري أن يتفطّن إلى سبب ذلك الرسم .

*(173/252)*

---

أمّا ابن عطيّة فقال : "هي قراءة ضعيفة في استعمال العَرب" يريد أنّ ذلك الفصل نادر ، وهذا لا يُثبت ضعف القراءة لأنّ الندور لا ينَافي الفصاحة .

وبَعّد ابنُ عطيّة هذه القراءة بعدم مناسبتها للتّعليل بقوله : ﴿ ليردوهم ﴾ وتبعيد ابن عطيّة لها تَوَهُّمٌ : إذ لا منافاة بين أن يُزيّنوا لهم قتلَ أولادهم وبين التّعليل فإنّ التّعليل يستعمل في العاقبة مجازاً مثل قوله تعالى : ﴿ فالتقطه آلُ فرعون ليكونَ لهم عدوّاً وحَزَناً ﴾ [ القصص : 8 ] .

ومن العجيب قول الطّبري : والقراءَة الّتي لا أستجيز غيرها بفتح الزاي ونصب : ﴿ القتل ﴾ وخفض : ﴿ أولادهم ﴾ ورفع : ﴿ شركائهم ﴾ .

وذلك على عادته في نصب نفسه حكماً في التّرجيح بين القراءات .

واللاّم في : ﴿ ليردوهم ﴾ لام العاقبة إن كان المراد بالشّركاء الأصنام ، أي زيّنوا لهم ذلك قصداً لنفعهم ، فانكشف عن أضرارٍ جهلوها .

وإن كان المراد بالشّركاء الجنّ ، أي الشّياطين فاللاّم للتّعليل : لأنّ الإيقاع في الشرّ من طبيعة الوسواس لأنَّه يستحسن الشرّ وينسَاق إليه انسياق العقرب للَّسع من غير قصد إلى كون ما يدعونهم إليه مردِيا ومُلْبِساً فإنَّهم أولياؤهم لا يقصدون إضرارهم ولكنّهم لمّا دعوهم إلى أشياء هي في نفس الأمر مضارّ كان تزيينهم مُعلّلاً بالإرداء والإلباس وإن لم يفقهوه بخلاف من دعا لسبب فتبيّن خلافه ، والضّمير للشّركاء والتّعليل للتّزيين .

والإرْدَاء : الإيقاع في الرّدى ، والردَى : الموت ، ويستعمل في الضرّ الشّديد مجازاً أو استعارة وذلك المراد هنا .

ولَبَس عليه أوقعه في اللّبس ، وهو الخلط والاشتباه ، وقد تقدّم في قوله تعالى : ﴿ ولا تَلبسوا الحقّ بالباطل ﴾ في سورة [ البقرة : 42 ] ، وفي قوله : ﴿ وللبَسْنا عليهم ما يلبسون ﴾ في هذه السّورة [ 9 ] .

أي أن يخلطوا عليهم دينهم فيوهموهم الضّلال رشداً وأنّه مراد الله منهم ، فهم يتقرّبون إلى الله وإلى الأصنام لتقرّبهم إلى الله ، ولا يفرّقون بين ما يرضاه الله وما لا يرضاه ، ويخيّلون إليهم أنّ وأد البنات مصلحة .

ومن أقولهم : دَفْن البناهْ من المَكْرمَاهْ ( البناه .

والمكرماه .

بالهاء ساكنة في آخرهما .

وأصلها تاء جمع المؤنث فغيّرت لتخفيف المثَل ) وهكذا شأن الشّبه والأدلّة الموهومة التي لا تستند إلى دليل .

فمعنى : ﴿ وليلبسوا عليهم دينهم ﴾ أنَّهم يحدثون لهم ديناً مختلطاً من أصناف الباطل ، كما يقال : وسِّعْ الجبّة ، أي اجعلها واسعة ، وقيل : المراد ليدخلوا عليهم اللّبس في الدّين الّذي كانوا عليه وهو دين إسماعيل عليه السّلام ، أي الحنيفيّة ، فيجعلوا فيه أشياء من الباطل تختلط مع الحقّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾

قال الفخر :

قال أصحابنا : إنه يدل على أن كل ما فعله المشركون فهو بمشيئة الله تعالى .

قالت المعتزلة : إنه محمول على مشيئة الإلجاء ، وقد سبق ذكره مراراً ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا

يَفْتَرُونَ ﴾ [ الأنعام : 112 ] وهذا على قانون قوله تعالى : ﴿ اعملوا مَا شِئْتُمْ ﴾ [ فصلت : 40 ] وقوله : ﴿ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ يدل على أنهم كانوا يقولون : إن الله أمرهم بقتل أولادهم ، فكانوا كاذبين في ذلك القول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 170.169 ﴾

(175/252)

---

وقال السمرقندى :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾

يعني : لو شاء الله لمنعهم من ذلك منع اضطرار وقهر وأهلكهم ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ يعني : دعهم وما يكذبون بأن الله أمرهم بذلك ، ومعناه : أن الله مع قدرته عليهم قد تركهم إلى وقت قدرهم ، فاتركهم أنت أيضاً إلى الوقت الذي تؤمر بقتالهم .

ويقال : معناه دعهم فإنّ لهم موعداً بين يدي الله فيحاسبهم ويجازيهم بها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

(176/252)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَوْ شاء الله ﴾ أي عدم فعلهم ذلك ﴿ مَّا فَعَلُوهُ ﴾ أي ما فعل المشركون ما زين لهم من القتل أو ما فعل الشركاء من التزيين أو الإرداء واللبس أو ما فعل الفريقان جميع ذلك على إجراء الضمير المفرد مجرى اسم الإشارة ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ الفاء فصيحة أي إذا كان ما كان بمشيئة الله تعالى فدعهم وافتراءهم أو ما يفترونه من الكذب ولا تبال بهم فإن في ما يشاء الله تعالى حكماً بالغة وفيه من شدة الوعيد ما لا يخفى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

والقول في معنى : ﴿ ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفسرون ﴾ كالقول في قوله آنفاً ﴿ ولو شاء ربك ما فعلوه ﴾ [ الأنعام : 112 ] وضمير الرّفع في : ﴿ فعلوه ﴾ يعود إلى المشركين ، أي : لو شاء الله لعصمهم من تزيين شركائهم ، أو يعود إلى الشّركاء ، أي : لو شاء الله لصدّهم عن إغواء أتباعهم ، وضمير النّصب يعود إلى القتل أو إلى التّزيين على التوزيع ، على الوجهين في ضمير الرّفع .

والمراد : بـ ﴿ ما يَفترون ﴾ ما يفترونه على الله بنسبة أنّه أمرهم بما اقترفوه ، وكان افتراؤهم اتِّباعاً لافتراء شركائهم ، فسمّاه افتراء لأنَّهم تقلّدوه عن غير نظر ولا استدلال ،

فكأنَّهم شاركوا الّذين افتروه من الشّياطين ، أو سدنة الأصنام ، وقادة دين الشّرك ، وقد كانوا يموّهون على النّاس أنّ هذا ممّا أمر الله به كما دلّ عليه قوله في الآية بعد هذه : ﴿ افتراء عليه ﴾ [ الأنعام : 138 ] وقوله في آخر السّورة : ﴿ قل هلمّ شهداءكم الذين يشهدون أنّ الله حرّم هذا ﴾ [ الأنعام : 150 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

*(177/252)*

---

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

( بصيرة فى الزين )

الزِّينة : ما يُتزيَّن به .

وكذلك الزِّيان .

والزَّين : ضدّ الشَيْن ، والجمع أَزيان .

وزانة وأَزانَه وأَزْيَنه بمعنى ، فتزَّين هو وازدان وازَّيَّنَ وازْيَانَّ وازْيَنَّ .

وقمرٌ زَيَانٌ : حَسَنٌ ، وامرأةٌ زائن : متزّينة .

والزِّينة فى الحقيقة : ما لا يَشين الإِنسانَ فى شىءٍ من أَحواله ، لا فى الدُّنيا ولا فى الآخرة .

فأَمّا ما يزينه فى حالة دون حالة فهو من وجهٍ شَيْن .

والزِّينة بالقول المجمل ثلاث : زينة نفسيّة ؛ كالعلم والاعتقادات الحسنة ، وزينة بدنيَّة ، كالقوّة وطول القامة وتناسب الأَعضاءِ .

وزينة خارجيّة ؛ كالمال والجاه .

وقوله تعالى : ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ هو من الزينة النفسيّة .

وقوله : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾ حُمِل على الزِّينة الخارجيَّة ، وذلك أَنَّه قد رُوى أَنَّ أَقواماً كانوا يطوفون بالبيت عُراةً ، فنُهوا عن ذلك بهذا الآية .

وقيل : بل زينة الله فى هذه الآية هى الكَرَم المذكور فى قوله : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ .

وقوله : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ هى الزينة الدّنيوية : من الأَثاث والمال والجاه .

وقد نسب الله – تعالى – تزيين الأَشياءِ إلى نفسه فى مواضع ، وإلى الشيطان فى مواضع ، وفى أَماكن ذكره عن مُسَمَّى فاعله .

قال – تعالى – فى الإِيمان : ﴿ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ ، وفى الكفر : ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ .

وممّا نسبه إلى الشيطان : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ .

ممّا لم يسمَّ فاعله : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ﴾ ، ﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾ أَى زَيَّنَهُ شركاؤهم .

(178/252)

---

وقوله : ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ ، ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾ ، ﴿ وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ إِشارة إِلى الزِّينة المدركة بالبصر للخاصّة والعامّة ، وإِلى الزينة المعقولة الَّتى تعرفها الخاصّة ، وذلك إِحكامها وسيرها .

وتزيين الله تعالى للأَشياءِ قد يكون بإِداعها مزيَّنة كذلك .

قال الشاعر :

*الرّوض يزدان بالأَنوار فاغِمة * والحُرّ بالبرّ والإِحسان يزدانُ*

وقال آخر :

*وإِذا الدُرّ زان حُسْنَ وجوهٍ * كان للدُرّ حسنُ وجهك زينا *

وقال :

*لكلّ شيى حسن زينة * وزينة العاقل حسن الأَدب*

*قد يشرِّف المرءُ بآدابه * يوماً وإِن كان وضيع النَّسب*

وقد وردت الزِّينة فى القرآن على عشرين وجها (1) :

الأَول : زينة الدّنيا : ﴿ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ ﴾ .

الثَّانى : زينة بالملابس : ﴿ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ أَى ثيابها .

الثالث : زينة ستر العورة : ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ .

الرّابع : زينة قارُون بماله ورجاله : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ .

الخامس : زينة النّساء بالْحُلِىّ : ﴿ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾ ، ﴿ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ .

السادس : زينة العجائز بالثياب الفاخرة : ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴾ .

السابع : زينة العيد : ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ ﴾ .

الثامن : زينة عاريّة القِبْط : ﴿ حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ ﴾ .

التاسع : زينة آل فرعون : ﴿ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً ﴾ .

العاشر : زينة أَهل الدّنيا فيها : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ .

الحادى عشر : زينة المسافرين بالمراكب : ﴿ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ .

الثانى عشر : زينة حبّ الشّهوات : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ﴾ , أَى حُسِّنَ فى أَعينهم وقلوبهم .

---

(1) بل على اثنين وعشرين وجها ، كما سيذكر رحمه الله ، ولعله سقط . والله أعلم .

---

الثانى عشر أيضا : زينة العصيان فى أَعين ذو الخذلان : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ﴾ .

الثالث عشر : زينة قتل الولدان : ﴿ وَكَذلك زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾ .

الرابع عشر : زينة الحياة لذوي الطغيان : ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ .

الخامس عشر : زينة أَحوال الماضين والباقين فى عيون الكفَّار استدراجاً لهم : ﴿ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ .

السادس عشر : زينة الشَّيطان الضلال لمتَّبعيه : ﴿ لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ ﴾ .

﴿ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ .

السابع عشر : زينة الله لأَعدائه خذلانهم : ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ .

الثامن عشر : زينة السّماء لأُولى الأَبصار : ﴿ وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ .

التاسع عشر : زينة الأَرض بالنّبات والرياحين : ﴿ أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ ﴾ أَى تلوّنت بالأَلوان .

العشرون : زينة الفَلَك بالكواكب : ﴿ زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾ .

الحادى والعشرون : زينة الأَفلاك السّبع بالسّيّارات السّبع : ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ .

[الثانى والعشرون] : زينة الإِيمان فى قلوب العارفين : ﴿ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ .

أُنشِدنا لبعض المحدَثين :

*سبحان مَنْ زيّن الأَفلاك بالقمر * وزيّن الأَرض بالأَنهار والشَجَر*

*لا كالسّراج والا كالشَّمس زاهرة * لا كالجواهر والياقوت والدُررِ*

*وجَنَّة الخلد بالأَنوار زيَّنها * والقصرُ زيَّنه بالحُور والسُرُور*

*وزيَّن النفس بالأَعضاءِ مستويا * والرأْس زيَّنه بالسمع والبصر*

*وزيَّن القلبَ بالأَنوار نوّره * لا كالنجوم ولا كالشمس والقمر* . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 155.160 ﴾

(180/252)

---

ومن فوائد ابن عطية فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وكذلك زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ المشركين قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾

" الكثير " في هذه الآية يراد به من كان يئد من مشركي العرب ، و" الشركاء " ها هنا الشياطين الآمرون بذلك المزينون له والحاملون عليه أيضاً من بني آدم الناقلين له عصراً بعد عصر إذ كلهم مشتركون في قبح هذا الفعل وتباعته في الآخرة ، ومقصد هذه الآية الذم للوأد والإنجاء على فعَلته ، واختلفت القراءة فقرأت الجماعة سوى ابن عامر " وكذلك زَين " بفتح الزاي " قتلَ " بالنصب " أولادِهم " بكسر الدال " شركاؤهم " ، وهذا أبين قراءة ، وحكى سيبويه أنه قرأت فرقة " وكذلك زُين " بضم الزاي " قتل أولادِهم " بكسر الدال " شركاؤهم " بالرفع .

قال القاضي أبو محمد : وهي قراءة أبي عبد الرحمن السلمي والحسن وأبي عبد الملك قاضي الجند صاحب ابن عامر ، كأنه قال : زينه شركاؤهم قال سيبيويه : وهذا كما قال الشاعر : [ الطويل ]

ليبك يزيد ضارعٌ لخصومة . . . ومختبط مما يطيح الطوائح

كأنه قال يبكيه ضارع لخصومة ، وأجاز قطرب أن يكون الشركاء في هذه القراءة ارتفعوا بالقتل كأن المصدر أضيق إلى المفعول ، ثم ذكر بعده الفاعل كأنه قال إن قتل أولادهم شركاؤهم كما تقول حبب إليَّ ركوب الفرس زيد أي ركب الفرس زيد .

قال القاضي أبو محمد : والفصيح إذا أضيف مصدر إلى مفعول أن لا يذكر الفاعل ، وأيضاً فالجمهور في هذه الآية على أن الشركاء مزينون لا قاتلون ، والتوجيه الذي ذكر سيبويه هو الصحيح ، ومنه قوله عز وجل على قراءة من قرأ ﴿ يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال ﴾ [ النور : 36 ] بفتح الباء المشددة أي " يسبَّح رجال " وقرأ ابن عامر " وكذلك زُين " بضم الزاي " قتلُ " بالرفع " أولادَهم " بنصب الدال " شركائِهم " بخفض الشركاء ، وهذه قراءة ضعيفة في استعمال العرب ، وذلك أنه أضاف القتل إلى الفاعل وهو الشركاء ، ثم فصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول ورؤساء العربية لا يجيزون الفصل بالظروف في مثل هذا إلا في الشعر كقوله [ أبو حية النميري ] : [ الوافر ]

كما خُطَّ بكفِّ يوماً . . . يهوديٍّ يقاربُ أو يزيلُ

فكيف بالمفعول في أفصح الكلام ؟ ولكن وجهها على ضعفها أنها وردت شاذة في بيت أنشده أبو الحسن الأخفش وهو : [ مجزوء الكامل ]

فَزَجَجْتُهُ بِمِزَجَّةٍ . . . زَجَّ القُلُوصَ أبي مزادة

وفي بيت الطرماح وهو قوله : [ الطويل ]

يطفن بحوزيِّ المرابعِ لَمْ يُرَعْ . . . بواديهِ من قَرْعِ القِسِيِّ الكنائِن

والشركاء على هذه القراءة هم الذين يتأولون وأد بنات الغير فهم القاتلون ، والصحيح من

المعنى أنهم المزينون لا القاتلون ، وذلك مضمن قراءة الجماعة .

وقرأ بعض أهل الشام ورويت عن ابن عامر " زِيْن " بكسر الزاي وسكون الياء على الرتبة المتقدمة من الفصل بالمفعول ، وحكى الزهراوي أنه قرأت فرقة من أهل الشام " وكذلك زُين " بضم الزاي " قتلُ " بالرفع " أولادِهم " بكسر الدال " وشركائِهم " بالخفض والشركاء على هذه القراءة هم الأولاد الموءودون لأنهم شركاء في النسب والمواريث ، وكأن وصفهم بأنهم شركاء يتضمن حرمة لهم وفيها بيان لفساد الفعل إذ هو قتل من له حرمة .

*(182/252)*

---

و ﴿ ليردوهم ﴾ معناه ليهلكوهم من الردى ، ﴿ وليلبسوا ﴾ معناه ليخلطوا ، والجماعة على كسر الباء ، وقرأ إبراهيم النخعي " وليَلبسوا " بفتح الباء ، قال أبو الفتح : هي استعارة من اللباس عبارة عن شدة المخالطة ، وهذان الفعلان يؤيدان أول قراءة في ترتيبنا في قوله ﴿ وكذلك زين ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ ولو شاء الله ما فعلوه ﴾ يقتضي أن لا شيء إلا بمشيئة الله عز وجل ، وفيها رد على من قال بأن المرء يخلق أفعاله ، وقوله تعالى : ﴿ فذرهم ﴾ وعيد محض ، و ﴿ يفترون ﴾ معناه يختلقون من الكذب في تشرعهم بذلك واعتقادهم أنها مباحات لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد ابن الجوزى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وكذلك زين ﴾ أي : ومثل ذلك الفعل القبيح فيما قسموا بالجهل زيَّن .

قال ابن الأنباري : ويجوز أن يكون "وكذلك" مستأنفاً ، غير مشارٍ به إلى ما قبله ، فيكون المعنى : وهكذا زيَّن .

وقرأه الجمهور : "زَيَّن" بفتح الزاي والياء ، ونصب اللام من "قَتْلَ" ، وكسر الدال من "أولادِهم" ، ورفع "الشركاءُ" ؛ وجه هذه القراءة ظاهر .

وقرأ ابن عامر : بضم زاي "زُيِّن" ، ورفع اللام [ من "قتلُ" ] ونصب الدال من "أولادهم" ، وخفض "الشركاء" .

قال أبو علي : ومعناها : قتلُ شركائهم أولادَهمُ ؛ ففصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول به ، وهذا قبيح ، قليل في الاستعمال .

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، والحسن : "زُيِّن" بالرفع ، "قتلُ" بالرفع أيضاً .

"أولادِهم" بالجر ، "شركاؤُهم" رفعاً .

قال الفراء : رَفَعَ القتل إذ لم يسمَّ فاعله ؛ ورفع الشركاء بفعل نواه ، كأنه قال : زيَّنه لهم شركاؤهم .

وكذلك قال سيبويه في هذه القراءة ؛ قال : كأنه قيل : مَن زيَّنه ؟ فقال : شركاؤهم .

قال مكي بن أبي طالب : وقد روي عن ابن عامر أيضاً أنه قرأ بضم الزاي ، ورفع اللام ، وخفض الأولاد والشركاء ؛ فيصير الشركاء اسماً للأولاد ، لمشاركتهم للآباء في النسب والميراث والدِّين .

(183/252)

---

وللمفسرين في المراد بشركائهم أربعة أقوال :

أحدها : أنهم الشياطين ، قاله الحسن ، ومجاهد ، والسدِّي .

والثاني : شركاؤهم في الشرك ، قاله قتادة .

والثالث : قوم كانوا يخدمون الاوثان ، قاله الفراء : والزجاج .

والرابع : أنهم الغُواة من الناس ، ذكره الماوردي .

وإنما أضيف الشركاء إليهم ، لأنهم هم الذين اختلقوا ذلك وزعموه .

وفي الذي زيَّنوه لهم من قتل أولادهم قولان .

أحدهما : أنه وأدُ البنات أحياءً خيفة الفقر ، قاله مجاهد .

والثاني : أنه كان يحلف أحدهم أنه إن ولد له كذا وكذا غلاماً أن ينحر أحدهم ، كما حلف عبد المطلب في نحر عبد الله ، قاله ابن السائب ، ومقاتل .

قوله تعالى : ﴿ لِيُرْدُوهم ﴾ أي : ليهلكوهم .

وفي هذه اللام قولان .

أحدهما : أنها لام "كي" .

والثاني : أنها لام العاقبة كقوله : ﴿ ليكون لهم عدواً ﴾ [ القصص : 8 ] أي : آل أمرهم إلى الردى ، لا أنهم قصدوا ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وليَلبسوا عليهم دينهم ﴾ أي : ليخلطوا .

قال ابن عباس : ليُدخلوا عليهم الشك في دينهم ؛ وكانوا على دين إسماعيل ، فرجعوا عنه بتزيين الشياطين .

قوله تعالى : ﴿ فذرهم وما يفترون ﴾ قال ابن عباس : كان أهل الجاهلية إذا دفنوا بناتهم قالوا : إن الله أمرنا بذلك ؛ فقال : ﴿ فذرهم وما يفترون ﴾ ؛ أي : يكذبون ؛ وهذا تهديد ووعيد ، فهو محكم .

وقال قوم : مقصوده ترك قتالهم ، فهو منسوخ بآية السيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وكذلك زَيَّنَ لكَثِيرٍ مِّنَ المشركين قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾ المعنى : فكما

زَيّن لهؤلاء أن جعلوا لله نصيباً ولأصنامهم نصيباً كذلك زَيّن لكثير من المشركين قَتلَ أولادِهم شركاؤُهم .

قال مجاهد وغيره : زيّنت لهم قتل البنات مخافة العَيْلَة .

قال الفراء والزجاج : شركاؤهم ها هنا هم الذين كانوا يخدُمون الأوثان .

وقيل : هم الغُوَاة من الناس .

وقيل : هم الشياطين .

*(184/252)*

---

وأشار بهذا إلى الوَأد الخفِيّ وهو دفن البنت حية مخافةَ السِّبَاء والحاجة ، وعدم ما حُرِمْن من النصرة .

وسمى الشياطين شركاء لأنهم أطاعوهم في معصية الله فأشركوهم مع الله في وجوب طاعتهم .

وقيل : كان الرجل في الجاهلية يحلف بالله لئن وُلد له كذا وكذا غلاماً لينحرَنّ أحدهم ؛ كما فعله عبد المطلب حين نذر ذبح ولده عبدِ الله .

ثم قيل : في الآية أربع قراءات ، أصحها قراءة الجمهور : "وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ" وهذه قراءة أهل الحرمين وأهل الكوفة وأهل البصرة .

"شركاؤهم" رفع بـ "زين" ؛ لأنهم زَيّنوا ولم يقتلوا .

"قَتْل" نصب ب"زين" و"أولادهم" مضاف إلى المفعول ، والأصل في المصدر أن يضاف إلى الفاعل ؛ لأنه أحدثه ولأنه لا يستغنى عنه ويستغنى عن المفعول ؛ فهو هنا مضاف إلى المفعول لفظاً مضافٌ إلى الفاعل معنًى ؛ لأن التقدير زَيّن لكثير من المشركين قتلهم أولادهم شركاؤهم ، ثم حذف المضاف وهو الفاعل كما حذف من قوله تعالى : ﴿ لَّا يَسْأَمُ الإنسان مِن دُعَآءِ الخير ﴾ [ فصلت : 49 ] أي من دعائه الخير .

فالهاء فاعلة الدعاء ، أي لا يسأم الإنسان من أن يدعو بالخير .

وكذا قوله : زيّن لكثير من المشركين في أن يقتلوا أولادهم شركاؤهم .

قال مكيّ : وهذه القراءة هي الاختيار ؛ لصحة الإعراب فيها ولأن عليها الجماعة .

القراءة الثانية "زُيِّن" ( بضم الزاي ) .

"لكثير من المشركين قتلُ" ( بالرفع ) .

"أولادِهم" بالخفض .

"شركاؤهم" ( بالرفع ) قراءة الحسن .

ابن عامر وأهل الشام "زُيِّنَ" بضم الزاي "لكثير من المشركين قتلَ أولادَهم برفع "قتل" ونصب "أولادهم" .

"شركائهم" بالخفض فيما حكى أبو عبيد ؛ وحكى غيره عن أهل الشام أنهم قَرءوا "وكذلك زُيِّنَ" بضم الزاي "لكثير من المشركين قتلُ" بالرفع "أولادِهم" بالخفض "شركائهم" بالخفض أيضاً .

*(185/252)*

---

فالقراءة الثانية قراءة الحسن جائزة ، يكون "قتل" اسم ما لم يُسم فاعله ، "شركاؤهم" ؛ رفع بإضمار فعل يدل عليه "زَيَّنَ" ، أي زيّنه شركاؤهم .

ويجوز على هذا ضُرِب زيدٌ عمروٌ ، بمعنى ضربه عمرو ، وأنشد سيبويه :

لِيُبْك يَزِيدُ ضارِعٌ لخصومةٍ . . .

أي يبكيه ضارع .

وقرأ ابن عامر وعاصم من رواية أبي بكر ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والآصال * رِجَالٌ ﴾ [ النور : 36-37 ] التقدير يسبحه رجال .

وقرأ إبراهيم بن أبي عَبْلَة ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأخدود * النار ذَاتِ الوقود ﴾ [ البروج : 4 5 ] بمعنى قتلهم النار .

قال النحاس : وأما ما حكاه أبو عبيد عن ابن عامر وأهل الشام فلا يجوز في كلام ولا في

شعر ، وإنَّمَا أجاز النحويون التفريق بين المضاف والمضاف إليه بالظرف لأنه لا يَفصِل ، فأما بالأسماء غير الظروف فلَحْنٌ .

قال مَكِّيّ : وهذه القراءة فيها ضعف للتفريق بين المضاف والمضاف إليه ؛ لأنه إنما يجوز مثل هذا التفريق في الشعر مع الظروف لاتساعهم فيها وهو في المفعول به في الشعر بعيد ، فإجازته في القراءة أبعد .

وقال المهدوِيّ : قراءة ابن عامر هذه على التفرقة بين المضاف والمضاف إليه ، ومثله قول الشاعر :

فزَجَجْتُها بِمزجّة . . .

زَجَّ القَلوصَ أبي مَزاده

يريد : زجّ أبي مزادة القَلوصَ .

وأنشد :

تَمُرّ على ما تستمر وقد شفت . . .

غلائلَ عبدُ القيس منها صُدُورِها

يريد شفت عبدُ القيس غلائل صدورها .

وقال أبو غانم أحمد بن حمدان النحوي : قراءة ابن عامر لا تجوز في العربية ؛ وهي زلّة عالم ، وإذا زل العالم لم يجز اتباعه ، ورُدّ قوله إلى الإجماع ، وكذلك يجب أن يُرَدّ من زلّ منهم أو سها

إلى الإجماع؛ فهو أولى من الإصرار على غير الصواب.

وإنما أجازوا في الضرورة للشاعر أن يفرق بين المضاف والمضاف إليه بالظرف؛ لأنه لا يفصل.

كما قال:

كما خُطّ الكتاب بكفّ يوماً . . .

يَهودِيٍّ يُقَارِبُ أو يُزيلُ

وقال آخر:

(186/252)

---

كأنّ أصواتَ مِن إيغالهن بنا . . .

أواخِرِ المَيْسِ أصواتُ الفَراريجِ

وقال آخر:

لمّا رأت سَاتيدَما استعبرت . . .

لِلّهِ دَرُّ اليومَ مَن لامَها

وقال القشيري: وقال قوم هذا قبيح، وهذا محال، لأنه إذا ثبتت القراءة بالتواتر عن النبيّ

صلى الله عليه وسلم فهو الفصيح لا القبيح .

وقد ورد ذلك في كلام العرب وفي مصحف عثمان "شركائهم" بالياء وهذا يدل على قراءة ابن عامر .

وأضيف القتل في هذه القراءة إلى الشركاء ؛ لأن الشركاء هم الذين زيّنوا ذلك وَدَعَوْا إليه ؛ فالفعل مضاف إلى فاعله على ما يجب في الأصل ، لكنه فرق بين المضاف والمضاف إليه ، وقدّم المفعول وتركه منصوباً على حاله ؛ إذْ كان متأخراً في المعنى ، وأخر المضاف وتركه مخفوضاً على حاله ؛ إذْ كان متقدّماً بعد القتل .

والتقدير : وكذلك زُيِّن لكثير من المشركين قَتْلُ شركائهم أولادَهم .

أي أَنْ قتلَ شركاؤهم أولادَهم .

قال النحاس : فأما ما حكاه غير أبي عبيد ( وهي القراءة الرابعة ) فهو جائز .

على أن تبدل شركاءهم من أولادهم ؛ لأنهم شركاؤهم في النسب والميراث .

﴿ لِيُرْدُوهُمْ ﴾ اللام لام كيّ .

والإرداء الإهلاك .

﴿ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ الذي ارتضى لهم .

أي يأمرونهم بالباطل ويشككونهم في دينهم .

وكانوا على دين إسماعيل ، وما كان فيه قتل الولد ؛ فيصير الحق مغطًّى عليه ؛ فبهذا

يلبسون .

﴿ وَلَوْ شَآءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ بيّن تعالى أن كفرهم بمشيئة الله .

وهو ردٌّ على القدرية .

﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ يريد قولهم إن لله شركاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ﴾

أي ومثل تزيين قسمة القربان بين الله وآلهتهم وجعلهم آلهتهم شركاء لله في ذلك .

*(187/252)*

---

قال الزمخشري : أو مثل ذلك التزيين البليغ الذي علم من الشياطين وقال ابن الأنباري : ويجوز أن يكون ﴿ وكذلك ﴾ مستأنفاً غير مشار به إلى ما قبله فيكون المعنى وهكذا زين ؛ انتهى .

و﴿ كثير ﴾ يراد به من كان من مشركي العرب .

قال مجاهد : ﴿ شركاؤهم ﴾ شياطينهم أمروهم أن يدفنوا بناتهم أحياء خشية العيلة .

وقال الكلبي : ﴿ شركاؤهم ﴾ سدنتهم وخزنتهم التي لآلهتهم كانوا يزينون لهم دفن البنات أحياء .

وقيل : رؤساؤهم كانوا يقتلون الإناث تكبراً والذكور خوف الفقر .

وقال الزمخشري : ﴿ قتل أولادهم ﴾ بالوأد أو بنحرهم للآلهة ، وكان الرجل يحلف في الجاهلية لئن ولد لي كذا غلاماً لينحرن أحدهم كما حلف عبد المطلب .

وقرأ الجمهور : ﴿ زين ﴾ مبنياً للفاعل ونصب ﴿ قتل ﴾ مضافاً إلى ﴿ أولادهم ﴾ ورفع ﴿ شركاؤهم ﴾ فاعلاً بزين وإعراب هذه القراءة واضح ، وقرأت فرقة منهم السلمي والحسن وأبو عبد الملك قاضي الجند صاحب ابن عامر ﴿ زين ﴾ مبنياً للمفعول ﴿ قتل ﴾ مرفوعاً مضافاً إلى ﴿ أولادهم شركاؤهم ﴾ مرفوعاً على إضمار فعل أي زينه شركاؤهم هكذا خرجه سيبويه ، أو فاعلاً بالمصدر أي ﴿ قتل أولادهم شركاؤهم ﴾ كما تقول : حبب لي ركوب الفرس زيد هكذا خرجه قطرب ، فعلى توجيه سيبويه الشركاء مزينون لا قاتلون كما ذلك في القراءة الأولى ، وعلى توجيه قطرب الشركاء قاتلون .

ومجازه أنهم لما كانوا مزينين القتل جعلوا هم القاتلين وإن لم يكونوا مباشري القتل ، وقرأت

فرقة كذلك إلا أنهم خفضوا شركائهم وعلى هذا الشركاء هم الموءودون لأنهم شركاء في النسب والمواريث ، أو لأنهم قسيمو أنفسهم وأبعاض منها .

(188/252)

---

وقرأ ابن عامر : ﴿ كذلك ﴾ إلا أنه نصب ﴿ أولادهم ﴾ وجر شركائهم فصل بين المصدر المضاف إلى الفاعل بالمفعول وهي مسألة مختلف في جوازها ، فجمهور البصريين يمنعونها متقدموهم ومتأخروهم ولا يجيزون ذلك إلا في ضرورة الشعر ، وبعض النحويين أجازها وهو الصحيح لوجودها في هذه القراءة المتواترة المنسوبة إلى العربي الصريح المحض ابن عامر الآخذ القرآن عن عثمان بن عفان قبل أن يظهر اللحن في لسان العرب ، ولوجودها أيضاً في لسان العرب في عدة أبيات قد ذكرناها في كتاب منهج السالك من تأليفنا ولا التفات إلى قول ابن عطية وهذه قراءة ضعيفة في استعمال العرب ، وذلك أنه أضاف الفعل إلى الفاعل وهو لشركاء ثم فصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول ورؤساء العربية لا يجيزون الفصل بالظروف في مثل هذا إلا في الشعر كقوله :

كما خط الكتاب بكف يوماً . . .

يهودي يقارب أو يزيل

فكيف بالمفعول في أفصح كلام ولكن وجهها على ضعفها أنها وردت شاذة في بيت أنشده أبو الحسن الأخفش :

فزججته بمزجة . . .

زج القلوص أبي مزاده

وفي بيت الطرماح وهو قوله :

يطفن بجوزي المراتع لم يرع . . .

بواديه من قرع القسيّ الكنائن

انتهى كلام ابن عطية ، ولا التفات أيضاً إلى قول الزمخشري : إن الفصل بينهما يعني بين المضاف والمضاف إليه فشا لو كان في مكان الضرورات وهو الشعر أكان سمجاً مردوداً فكيف به في القرآن المعجز لحسن نظمه وجزالته ؟ والذي حمله على ذلك أن رأى في بعض المصاحف شركائهم مكتوباً بالياء ، ولو قرأ بجر الأولاد والشركاء لأن الأولاد شركاؤهم في أموالهم لوجد في ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب ؛ انتهى ما قاله .

*(189/252)*

وأعجب لعجمي ضعيف في النحو يرد على عربي صريح محض قراءة متواترة موجود نظيرها في لسان العرب في غير ما بيت وأعجب لسوء ظن هذا الرجل بالقراء الأئمة الذين تخيرتهم هذه الأمة لنقل كتاب الله شرقاً وغرباً ، وقد اعتمد المسلمون على نقلهم لضبطهم ومعرفتهم وديانتهم ولا التفات أيضاً لقول أبي علي الفارسي : هذا قبيح قليل في الاستعمال ولو عدل عنها يعني ابن عامر كان أولى لأنهم لم يجيزوا الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالظرف في الكلام مع اتساعهم في الظرف وإنما أجازوه في الشعر ؛ انتهى .

وإذا كانوا قد فصلوا بين المضاف والمضاف إليه بالجملة في قول بعض العرب هو غلام إن شاء الله أخيك فالفصل بالمفرد أسهل ، وقد جاء الفصل في اسم الفاعل في الاختيار .

قرأ بعض السلف : مخلف وعده رسله بنصب وعده وخفض رسله وقد استعمل أبو الطيب الفصل بين المصدر المضاف إلى الفاعل بالمفعول اتباعاً لما ورد عن العرب فقال :

بعثت إليه من لساني حديقة . . .

سقاها الحيا سقي الرياض السحائب

وقال أبو الفتح : إذا اتفق كل شيء من ذلك نظر في حال العربي وما جاء به فإن كان فصيحاً وكان ما أورده يقبله القياس فالأولى أن يحسن به الظن ، لأنه يمكن أن يكون ذلك وقع إليه من لغة قديمة قد طال عهدها وعفا رسمها .

وقال أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافراً لجاءكم

علم وشعر كثير ونحوه ما روى ابن سيرين عن عمر بن الخطاب أنه حفظ أقل ذلك وذهب عنهم كثيره يعني الشعر في حكاية فيها طول .

وقال أبو الفتح : فإذا كان الأمر كذلك لم نقطع على الفصيح إذا سمع منه ما يخالف الجمهور بالخطأ ؛ انتهى ، ملخصاً مقتصراً على بعض ما قاله .

*(190/252)*

---

وقرأ بعض أهل الشام ورويت عن ابن عامر ﴿ زين ﴾ بكسر الزاي وسكون الياء على القراءة المتقدمة من الفصل بالمفعول ، ومعنى ﴿ ليردوهم ﴾ ليهلكوهم من الردى وهو الهلاك ﴿ وليلبسوا ﴾ ليخلطوا و ﴿ دينهم ﴾ ما كانوا عليه من دين إسماعيل حتى زلوا عنه إلى الشرك .

وقيل ﴿ دينهم ﴾ الذي وجب أن يكونوا عليه .

وقيل : معناه وليوقعوهم في دين ملتبس .

وقرأ النخعي ﴿ وليلبسوا ﴾ بفتح الياء .

قال أبو الفتح : استعارة من اللباس عبارة عن شدة المخالطة واللام متعلقة ب ﴿ زين ﴾ .

وقال الزمخشري : إن كان التزيين من الشياطين فهي على حقيقة التعليل ، وإن كان من

السدنة فعلى معنى الصيرورة .

﴿ ولو شاء الله ما فعلوه ﴾ الظاهر عود الضمير على القتل لأنه المصرّح به والمحدّث عنه والواو في ﴿ فعلوه ﴾ عائد على الكثير .

وقيل : الهاء للتزيين والواو للشركاء .

وقيل : الهاء للبس وهذا بعيد .

وقيل : لجميع ذلك إن جعلت الضمير جار مجرى الإشارة وهذه الجملة ردّ على من زعم أنه يخلق أفعاله .

وقال الزمخشري : ﴿ ولو شاء الله ﴾ مشيئة قسر ؛ انتهى ، وهو على مذهبه الاعتزالي .

﴿ فذرهم وما يفترون ﴾ أي ما يختلقون من الإفك على الله والأحكام التي يشرعونها وهو أمر تهديد ووعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(191/252)

---

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وكذلك ﴾ ومثلَ ذلك التزيينِ وهو تزيينُ الشرك في قسمة القُربانِ بين الله تعالى وبين

آلهتهم ، أو مثلَ ذلك التزيينِ البليغِ المعهودِ من الشياطين ﴿ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ المشركين قَتْلَ أولادهم ﴾ بوأدهم ونحْرِهم لآلهتهم . كان الرجل يحلِف في الجاهلية لئن وُلد له كذا غلاماً لينحَرَنّ أحدهم كما حلف عبدُ المطلب وهو مشهور ﴿ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ أي أولياؤهم من الجن أو من السَّدَنة وهو فاعل زُيِّن أُخِّر عن الظرف والمفعولِ لما مر غيرَ مرةٍ ، وقرىء على البناء للمفعول الذي هو القتلُ ونصبِ الأولاد وجرِّ الشركاء بإضافة القتلِ إليه مفصولاً بينهما بمفعوله وقرىء على البناء للمفعول ورفعِ قتل وجرِّ أولادِهم ورفعِ شركاؤهم بإضمار فعل دل عليه زُيِّن كأنه لما قيل : زُيِّن لهم قتلُ أولادِهم قيل : مَنْ زيَّنه ؟ فقيل : زينَّه شركاؤُهم ﴿ لِيُرْدُوهُمْ ﴾ أن يهلكوهم بالإغواء ﴿ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ وليخلِطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيلَ عليه السلام أو ما وجب عليهم أن يتدينوا به واللامُ للتعليل إن كان التزيينُ من الشياطين وللعاقبة إن كان من السدنة ﴿ وَلَوْ شَاء الله ﴾ أي عدمَ فعلهم ذلك ﴿ مَّا فَعَلُوهُ ﴾ أي ما فعل المشركون ما زُيِّن لهم من القتل أو الشركاءُ من التزيين أو الإرداء واللبس ، أو الفريقان جميعَ ذلك على إجراء الضميرِ مُجرى اسمِ الإشارة ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ الفاءُ فصيحة أي إذا كان ما فعلوه بمشيئة الله تعالى فدعهم وافتراءَهم أو وما يفترونه من الإفك فإن فيما شاء الله تعالى حِكَماً بالغة إنما نُملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين ، وفيه من شدة الوعيد ما لا يخفى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

---

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾

أي : مثل ذلك التزيين , وهو تزيين الشرك في القسمة المتقدمة , زين لهم أولياؤهم من الشياطين ما هو أشد منه قبحاً في باب القربان , وهو قتل أولادهم خشية الإملاق , ووأد البنات خشية العار , وإنما سميت الشياطين شركاء , لأنهم أطاعوهم فيما أمروهم به من قتل أولادهم , فأشركوهم مع الله في وجوب طاعتهم , : ﴿ لِيُرْدُوهُمْ ﴾ أي : يهلكوهم بالشرك وقتل الولد . من ( الإرداء . وهو , لغة , الإهلاك ) , : ﴿ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ أي : ليخلطوا عليهم ما هم عليه , بدين إبراهيم في ذبح إسماعيل عليهما السلام . أو ما وجب عليهم أن يتدينوا به ، لأنهم كانوا على دين إسماعيل . فهذا الذي أتاهم بهذه الأوضاع الفاسدة أراد أن يزيلهم عن ذلك الدين الحق ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ أي : فلا تحزن على هلاكهم بما يفعلونه ، لأنه بمشيئة الله ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ أي : لأن له فيما شاءه حكماً بالغة : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ [ آل عِمْرَان

178 ] ، وفيه من شدة الوعيد ما لا يخفى .

تنبيه :

(193/252)

---

﴿ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾ فاعل : ﴿ زَيَّنَ ﴾ أُخِّر عن الظرف والمفعول اعتناء بالمقدَّم ، واهتماماً به ، لأنه موضع التعجب ، لأنهم يقدمون الأهمَّ ، والذين هم بشأنه أَعْنَى . وقرأ ابن عامر وَحْدَهُ : ﴿ زُيِّن ﴾ على البناء للمفعول الذي هو القتل ، ونصب الأولاد ، وجر الشركاء بإضافة القتل إليه ، مفصولاً بينهما بمفعوله . وقد زيف الزمخشريّ ، عفا الله عنه ، هذه القراءة ، وعد ذلك من كبائر كشافه : حيث قال : وأما قراءة ابن عامر ، فشيء لو كان في مكان الضرورات ، وهو الشعر ، لكان سمجاً مردوداً ، كما سمج ورُدَّ :

~زَجَّ الْقَلُوصَ أَبِي مَزَادَهْ

(194/252)

---

فكيف به في الكلام المنثور ؟ فكيف به في القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته ؟ قال :

والذي حمله على ذلك أنه رأى في بعض المصاحف : ﴿ شُرَكَآئِهِمْ ﴾ مكتوباً بالياء ، ولو قرأ بجر الأولاد والشركاء -لأن الأولاد شركاؤهم في أموالهم - لوجد في ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب . انتهى . قال الناصر في " الانتصاف " : لقد ركب الزمخشريّ متن عمياء ، وتاه في تيهاء ، وأنا أبرأ إلى الله ، وأبرئ حملة كتابه ، وحفظة كلامه ، مما رماهم به ، فإنه تخيل أن القراء أئمة الوجوه السبعة ، اختار كل منهم حرفاً قرأ به اجتهاداً ، لا نقلاً وسماعاً ، فلذلك غلط ابن عامر في قراءته هذه ، وأخذ يبين أن وجه غلطه رؤيته الياء ثابتة في ( شركائهم ) ، فاستدل بذلك على أنه مجرور ، وتعين عنده نصب ( أولادهم ) بالقياس ، إذ لا يضاف المصدر إلى أمرين معاً فقرأه منصوباً . قال : وكانت له مندوحة من نصبه إلى جره بالإضافة ، وإبدال الشركاء منه ، وكان ذلك أولى مما ارتكبه . فهذا كله كما ترى ظنٌّ من الزمخشري أن ابن عامر قرأ قراءته هذه رأياً منه ، وكان الصواب خلافه ، والفصيح سواه . ولم يعلم الزمخشريّ أن هذه القراءة بنصب الأولاد ، والفصل بين المضاف والمضاف إليه بها . يعلم ضرورة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأها على جبريل ، كما أنزلها عليه ، ثم تلاها النبيّ صلى الله عليه وسلم على عدد التواتر من الأئمة ، ولم يزل عدد التواتر يتناقلونها ، ويقرؤون بها ، خلفاً عن سلف ، إلى أن انتهت إلى ابن عامر ، فقرأها أيضاً كما سمعها . فهذا معتقد أهل الحق في جميع الوجوه السبعة أنها متواترة جملة وتفصيلاً عن أفصح من نطق

بالضاد صلى الله عليه وسلم . فإذا علمت العقيدة الصحيحة ، فلا مبالاة بعدها بقول الزمخشريّ ، ولا بقول أمثاله ممن لحَّن ابن عامر ، فإن المنكر عليه إنما أنكر ما ثبت أنه براء منه قطعاً وضرورة . ولولا عذر أن المنكر ليس من أهل الشأنين : أعنى علم القراءة وعلم

(195/252)

---

الأصول ، ولا يعدّ من ذوي الفنين المذكورين ، لخيف عليه الخروج من ربقة الدين . وإنه على هذا العذر لفي عهدة خطرة ، وزلة منكرة ، تزيد على زلة من ظن أن تفاصيل الوجوه السبعة ، فيها ما ليس متواتراً ، فإن هذا القائل لم يثبتها بغير النقل . وغايته أنه ادعى أن نقلها لا يشترط فيه التواتر . وأما الزمخشري فظن أنها تثبت بالرأي ، غير موقوفة على النقل ، وهذا لم يقل به أحد من المسلمين . وما حمله على هذا الخيال إلا التغالي في اعتقاد اطراد الأقيسة النحوية ، فظنها قطعية ، حتى يردّ ما خالفها . ثم إذا تنزل معه اطراد القياس الذي ادعاه مطرداً ، فقراءة ابن عامر هذه لا تخالفه . وذلك أن الفصل بين المضاف إليه ، وإن كان عسراً ، إلا أن المصدر إذا أضيف إلى معموله ، فهو مقدر بالفعل ، وبهذا التقدير عمل . وهو وإن لم تكن إضافته غير محضة ، إلا أنه شبه بما إضافته غير محضة . حتى قال بعض النحاة : إن إضافته ليست محضة ، لذلك . فالحاصل أن اتصاله بالمضاف إليه ليس

كاتصال غيره ، وقد جاء الفصل بين المضاف غير المصدر ، وبين المضاف إليه بالظرف ، فلا أقل من أن يتميز المصدر على غيره ، لما بيناه من انفكاكه في التقدير ، وعدم توغله في الاتصال ، بأن يفضل بينه وبين المضاف إليه , بما ليس أجنبياً عنه , وكأنه بالتقدير : فكّه بالفعل , ثم قدم المفعول على الفاعل , أضافه إلى الفاعل , وبقي المفعول مكانه حين الفك . ويسهل ذلك أيضاً تغاير حال المصدر , إذ تارة يضاف إلى الفاعل , وتارة يضاف إلى المفعول . وقد التزم بعضهم اختصاص الجواز بالفصل بالمفعول بينه وبين الفاعل , لوقوعه في غير مرتبته , إذ ينوي به التأخير , فكأنه لم يفصل . كما جاز تقدم المضمر على الظاهر إذا حلّ في غير رتبته , لأن النية به التأخير , وأنشد أبو عبيدة :

~فَدَاسَهُمْ دَوْسَ الحَصَادَ الدَّائِسِ

وأنشد أيضاً :

(196/252)

---

~يَفْرُكْنَ حَبَّ السُّنْبُلِ الكُنَافِجِ بِالْقَاعِ فَرْكَ الْقُطُنَ الْمَحَالِجِ

ففصل كما ترى بين المصدر وبين الفاعل بالمفعول . ومما يقويّ عدم توغله في الإضافة جواز العطف على موضع مخفوضه رفعاً ونصباً . فهذه كلها نكت مؤيدة بقواعد , منظرة

بشواهد من أقيسة العربية , تجمع شمل القوانين النحوية , لهذه القراءة . وليس غرضنا تصحيح القراءة بقواعد العربية , بك تصحيح قواعد العربية بالقراءة . وهذا قدر كاف إن شاء الله في الجمع بينهما – والله الموفق – وما أجريناه في أدراج الكلام من تقريب إضافة المصدر من غير المحضة , إنما أردنا انضمامه إلى غيره من الوجوه التي يدل باجتماعها على أن الفصل غير منكر في إضافته , ولا مستبعد من القياس , ولم نفرده في الدلالة المذكورة . إذ المتفق على عدم تمحضها لا يسوغ فيها الفصل , فلا يمكن استقلال الوجه المذكور بالدلالة –الله الموفق –انتهى كلام الناصر رحمه الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 514.511 ﴾

*(197/252)*

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ ﴾

وأيضاً نقلوا تلك القسمة الضيزى إلى ما يتعلق بذواتهم في الإنجاب والإنسال ؛ فشركاؤهم زينوا لهم قتل أولادهم ، و" التزيين " هو إدخال عنصر التحسين على التزيين أمراً عرضياً

طارئاً ، ووجه التزيين أنهم كانوا إما أغنياء ، وإما فقراء ، فإن كانوا فقراء يقل الواحد منهم لماذا أجلب لنفسي هّما على همّ ، وإن كانوا أغنياء يقل الواحد منهم : إن الأبناء سيأخذون منك ويفقرونك . إذن ففيه أمران : إما فقر موجود بالفعل ، وإما فقر مخوَّف منه ، ولذلك تجد الآيات التي تعرضت لهذا المعنى ، تأتي على أسلوبين اثنين ؛ فالعَجُز مختلف باختلاف الصدر ، والذين يحبون أن يستدركوا على أساليب القرآن لأنه مرة يقول :

﴿ وَلاَ تقتلوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم . . . ﴾ [الإسراء : 31]

ومرة ثانية يقول : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ . . . ﴾ [الأنعام : 151]

فما الفرق بين العبارتين ؟

*(198/252)*

---

ونقول لمثل هذا القائل : أنت تقارن بين التذييل ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ ، و ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم ﴾ . هذا تذييل لآية ، وهذه تذييل لآية ثانية . هات ذيل الآية مع صدرها نجد أن ذيل كل آية مناسب لصدرها . ومادام قد اختلف في الصدر فلابد أن يختلف في الختام ، ففي الآية الأولى يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلاَ تقتلوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ﴾ فالإملاق وهو الفقر واقع موجود . إذن فشغل الإنسان برزقه أولى من شغله برزق من يعوله

من الأولاد ، فيقول الحق لهؤلاء : ﴿ وَلاَ تقتلوا أَوْلاَدَكُمْ مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ . . . ﴾ [الأنعام : 151]

فالإملاق موجود ، وشغلهم برزق أنفسهم يملأ نفوسهم . لذلك يقول لهم : ﴿ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ فيطمئنهم سبحانه نحن نرزقكم ثم نرزقهم . أما إن كان الإملاق غير موجود فالحق يقول : ﴿ وَلاَ تقتلوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم . . . ﴾ [الإسراء : 31]

(199/252)

---

أي لا تقتلوا أولادكم خوفاً من فقر ، فأنتم تملكون رزقكم ، وحين يأتي الأولاد نرزقهم ونرزقكم معهم . وهكذا نرى أن الصدر مختلف في الآيتين ، وكذلك العجز ، والشركاء كانوا يزينون قتل الأولاد ، وهذه مسألة تحتاج إلى تزيين قاس ؛ لأن حب الأبناء غريزة في النفس البشرية ، والنفس تحب أن يكون لها ذرية ؛ لأن الإنسان يفهم أنه مهما طال عمره فسوف يموت فيحب أن يظل اسمه في الأجيال المتتابعة . ونجد الإنسان وهو ممتلئ بالسعادة حين يأتيه حفيد ، ويقول : لقد ضمنت ذكري لجيلين قادمين ، وينسى أن الذكر الحقيقي هو الذي يقدمه الإنسان من عمل ، لا ذكرى الأبناء وحب امتداد الذات . وقتل

الأبناء يحتاج إلى تزيين شديد ، كأن يقال : إن أنجبت أبناء فسيفقرونك ويذلونك ، فأنتم أمة غارات وأمة حروب وكل يوم يدخلك أبناؤك في قتال ونزال فتكون بين فقد لأبنائك أو انتهاب لمالك ، وإن كانوا بنات فسيتم سبيهن من بعدك ، وهكذا تكون المبالغة في الإغراء لعملية تناقض الفطرة السليمة في امتداد النسل . ﴿ وكذلك زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ المشركين قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ .

. ﴾ [الأنعام : 137]

و﴿ لِكَثِيرٍ مِّنَ المشركين ﴾ تفيد أن بعضهم كان يرفض قتل الأولاد ، و" يردوهم " من الردى ، وهو الهلاك ، والموت . ﴿ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ . . ﴾ [الأنعام : 137] أي يخلطوا عليهم الدين ، فهل كان عندهم دين ؟ لقد ورث هؤلاء من أمر قيم الدين ما كان سابقاً وهو ما كانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام حتى مالوا وزالوا عنه إلى الشرك ، إنهم زينوا لهم أعمالا ليوردوهم موارد الهلكة . وحاولوا أن يخلطوا عليهم ما بقي لهم من دين . ﴿ . . . وَلَوْ شَآءَ الله مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام : 137] لأن وأد الأولاد وقتلهم إنما ينافي فكرة خلق الله ، فهل يخلق الله لتقتل أنت ؟ !

كأنهم يصادمون إرادة الإِيجاد من الحق سبحانه وتعالى ، لكنّه – سبحانه – لو شاء ما فعلوا ذلك ، فهو قد أعطاهم الاختيار ، ومن باب الاختيار ينفذون إلى كل مراد لهم ، ولو لم يخلق الله فيهم اختياراً ما فعلوا ذلك ؛ لأنه لو أراد ألا يضلوا لما فعلوا ، وقد أراد الله أن يوجد خلقاً لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وهم الملائكة .

إذن فهذه المسألة ليست عزيزة على الله ، وسبحانه ساعة يقهر على مراد له ، إنما يكون ذلك لمصلحة المخلوق ، وساعة يتركه مختاراً فمن إمداد الخالق له بالاختيار ولا يفعل المختار شيئاً غصباً عن الله ؛ لأن الألوهية تقتضي أمرين اثنين : تقتضي قدرة تتجلى في الأشياء القهرية التي لا يستطيع العباد أن يقفوا أمامها ، والإِنسان هو الكائن الوحيد الذي له حق الاختيار بين البديلات في مراداته ، أما بقية الكون فسائر بقانون التسخير وليس له اختيار .

والكائنات المسخرة أثبتت لله طلاقة القدرة ، ولكنها لا تثبت لله محبوبية المخلوق ؛ لأن المحبوبية تنشأ من أنك تكون حرّاً في أن تفعل ، ولكنك تؤثر فعلاً مراد لله على مرادك . ﴿ وَلَوْ شَآءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ .

و" الافتراء " هو الاختلاق والكذب المتعمد ، وهم مفترون ، لأنهم أرادوا أن يغيروا صدق الواقع في الإِنجاب ، فقد خلق الله الزوجين – الذكر والأنثى – من أجل الإِنجاب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (137) ﴾

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس في قوله ﴿ وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ﴾ قال : زينوا لهم من قتل أولادهم .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ﴾ قال : شياطينهم يأمرونهم أن يئدوا أولادهم خيفة العيلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾



---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " وكذلِكَ زَيَّنَ " هذا في محلِّ نصب نعتاً لمصدرٍ محذُوف كنظائره ، فقدَّره الزمخشري تقديرين ، فقال : " ومِثْل ذلك التَّزْيين وهو تَزْيين الشِّرْك في قِسْمَة القُرْبان بين اللَّهِ والآلهة ، أو : ومثل ذلك التَّزيين البَليغ الذي عُلِم من الشَّياطين " .

قال أبو حيَّان : قال ابن الأَنْبَاري : ويجُوز أن يكون " كَذَلِكَ " مستأنفاً غير مُشَارٍ به إلى ما قَبْله ، فيكون المَعْنَى : وهكذا زَيَّن .

قال شهاب الدِّين : والمنْقُول عن ابن الأنْبَاري أن مُشَارٌ به إلى ما قبله ، نقل الواحِدِي عنه ؛ أنه قال : " ذَلِكَ " إشارةٌ إلى ما نَعَاه اللَّه عليهم من قَسْمِهم ما قَسَمُوا بالجَهْل ، فكأنه قِيلَ : ومثل ذلك الذي أتَوْه في القَسْم جهلاً وخطأً زيِّن لكَثِير من المُشْركين ، فشبَّه تَزْيين الشرُّكَاء بخطَابهم في القَسْمِ وهذا معنى قول الزَّجَّاج ، وفي هذه الآية قراءات كَثِيرة ، والمُتواتِر منها ثِنْتَان .

الأولى : قرأ العامّة " زَيَّنَ " مبنياً للفَاعِل و " قَتْلَ " نصب على المفعُوليَّة و " أوْلادَهُم " نَصْباً على المفعُول بالمصْدَر ، " شُركَائِهم " خفضاً على إضافة المصدر إلأيه فَاعِلاً ، وهذه القراءة مُتواتِرة صحيحة ، وقد تجرأ كَثِيرٌ من النَّاسِ على قَارِئهَا بما لا يَنْبَغي ، وهو أعلى القُرَّاء السَّبْعَة سَنَداً وأقدمهم هِجْرَة .

أمَّا عُلُوّ سنده : فإنَّه قرأ على أبي الدَّرْدَاء ، وواثلة بن الأسْقَع ، وفَضَالَةِ بن عُبَيْد ، ومعاوية بن أبي سُفْيَان ، والمُغِيرَة المَخْزُومِي ، ونقل يَحْيَى الذُّماري أنه قرأ على عُثْمَان نفسه .

وأما قَدَم هِجْرَته فإنَّه وُلد في حَيَاة رسُول اللَّه صلى الله عليه وسلم ونَاهِيك به أن هشام بن عمَّار أحد شُيُوخ البُخَارِيّ أخذ عن أصْحاب أصحابه وتَرْجَمَته مُتَّسِعَة ذكرتُها في " شرح القصيد " .

(203/252)

---

وإنَّما ذكرت هُنَا هَذِه العُجَالة تَنْبيهاً على خَطَإٍ من رَدَّ قراءته ونَسَبَه إلى لَحْنٍ ، أو اتِّبَاع مجرَّد المَرْسُوم فقط .

قال أبو جَعْفَر النحاس : وهذا يَعْني أنّ الفَصْل بين المُضَافِ والمضافِ إليه بالظَّرْفِ أو غيره لا يجُوز في شِعْرٍ ولا غيره ، وهذا خطأ من أبي جَعْفَر ؛ لما سنذكره من لسَان العرب .

وقال أبو علي الفارسيّ : هذا قَبيحٌ قليل في الاسْتِعْمَال ، ولو عَدَل عَنْهَا - يعني ابن عامر - ، كان أولى ؛ لأنهم لم يَفْصِلُوا بين المُضَافِ والمُضافِ إليه بالظَّرف في الكلام مع اتِّساعهم في الظُّرُوفِ ، وإنَّما أجَازُوه في الشِّعْر " قال : " وقد فَصَلُوا به - أي بالظَّرف - في كَثِير من المواضع ، نحو قوله تعالى ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ ﴾ [ المائدة : 22 ] ؛ وقال الشاعر في

ذلك : [ المتقارب ]

2317 - عَلَى أَنِّنِي بَعْدَمَا قَدْ مَضَى . . .

ثلاثُونَ - لِلْهَجْرِ - حَوْلاً كَمِيلاً

وقول الآخر في هذا البيت : [ الطويل ]

2318 - فَلاَ تَلْحَنِي فيها فإنَّ - بِحُبِّهَا - . . .

أَخَاكَ مُصَابُ القَلْبِ جَمٌّ بلابِلُهْ

ففصل بين " إنَّ " واسْمَها بما يتعلَّق بخَبَرِهَا ، ولو كان بغَيْر الظرف ، لم يَجُزْ ، ألا تَرَى أنَّك لو قُلْتَ : " إنَّ زَيْداً عَمْراً ضَارِب " على أن يكون " زَيْداً " منصُوباً بـ " ضَارِب " لم يَجز ، فإذا لم يُجِيزُوا الفَصْل بين المُضَافِ والمُضافِ إلَيْهِ في الكلامِ بالظرفِ مع اتِّساعهم فيه في الكلام ، وإنما يجُوزُ في الشّعْر ؛ كقوله : [ الوافر ]

2319 - كَمَا خُطَّ الكِتَاب بِكَفِّ - يَوْماً - . . .

يَهُودِيٍّ يُقَارِبُ أَوْ يُزِيلُ

فأن لا يجوز بالمفعُول الذي لم يُتَّسعْ فيه بالفَصْلِ أجْدَر ، ووجه ذلك على ضَعْفَه وقلَّة الاسْتِعَمال : أنه قد جَاءَ في الشّعْر على حدّ ما قَرَأْهُ قال الطِّرِمَّاح : [ الطويل ]

2320 - يَطُفْنَ بِحُوزِيِّ المَرَاتِعِ لم تَرُعْ . . .

بِوَادِيهِ مِنْ قَرْعِ - القِسيِّ - الكَنَائِنِ

وأنشد أبو الحسن : [ مجزوء الكامل ]

2321 - . . .

زَجَّ - القَلُوصَ - أَبِي مَزَادَه

وقال أبو عُبَيْد : وكان عبْدُ اللَّه بن عَامِر ، وأهل الشام يَقْرءُونها : " زُيِّن " بضم الزَّاي " قَتْلُ " بالرَّفْع ، " أولادَهُم " بالنَّصْب ، " شُرَكَائهم " بالخَفْضِ ، ويتأولون " قَتْلَ شُرَكَائِهِم أوْلادَهم " فيفرقون بين الفِعْل وفاعله .

قال أبو عبيد : " ولا أحِبُّ هذه القراءة ؛ لما فيها من الاسْتِكْرَاه والقِراءة عِنْدنَا هي الأولَى ؛ لصحّتِها في العربيّة ، مع إجْماع أهْل الحَرْمَيْن والمِصْرَين بالعراق عَلَيْهَا " .

وقال سيبويْه في قولهم :

2322 - يا سَارِقَ اللَّيْلَةِ أهْلَ الدَّارْ . . .

بخفض " اللَّيْلَةِ " على التَّجُّوز وبنصب " الأهْلِ " على المَفْعُولِيَّة ، ولا يجُوز " يا سَارِقَ اللَّيْلَة أهْلَ الدَّار " إلاَّ في شِعْر ؛ كراهة أن يَفْصِلُوا بين الجَارِّ والمجْرُور ، ثم قال : وممَّا جَاء في الشّعْر قد فُصِل بَيْنَهُ وبين المَجْرُور قول عمرو بن قميئة : [ السريع ]

2323 - لَمَّا رَأَتْ سَاتِيدَمَا اسْتَعْبَرَتْ . . .

لِلَّهِ دَرُّ – اليَومَ – مَنْ لاَمَهَا

وذكر أبْيَاتاً أُخَر .

وقال أبو الفتح بن جني : " الفَصْل بين المُضَافِ والمُضَافِ إليه بالظَّرْف والجَارّ والمَجْرُور كَثِيرٌ ، لكنه من ضَرُورَة الشَّاعِر " .

وقال مكي بن أبي طالب : " ومن قَرَأ هذه القراءة ونَصَب " الأوْلادَ " وخفض " الشُّركاء " فيه قراءة بعيدةٌ ، وقد رُوِيَتْ عن ابْن عامر ، ومجازها على التَّفْرِقَة بين المُضَافِ والمُضافِ إليه بالمفعُول ، وذلك إنَّما يجُوزُ عند النَّحويِّين في الشِّعْر ، وأكثر ما يَكُون بالظَّرْفِ " .

*(205/252)*

---

قال ابن عطيَّة – رحمه الله – : وهذه قراءةٌ ضَعِيفَة في اسْتِعْمَال العرب ، وذلك أنَّه أضاف الفِعْلَ إلى الفاعل ، وهو الشُّرَكَاء ، ثُمَّ فصل بين المُضافِ والمُضافِ إليه بالمفْعُول ، ورُؤسَاء العربيَّة لا يُجيزُون الفَصْل بالظُّرُوف في مِثْل هذا إلا في شِعْرٍ ؛ كقوله : [ الوافر ]

2324 – كَمَا خُطَّ – الكِتَابُ بِكَفِّ يَوْماً . . .

يَهُودِيٍّ . . . . . .

البَيْت فكيف بالمَفْعُول في أفْصح كلام ؟ ولكنْ وجهُها على ضَعْفِها : أنَّها وردت في بَيْتٍ

شّاذ أنْشَدَهُ أبو الحَسَن الأخْفَش ، فقال : [ مجزوء الكامل ]

2325 - فَزَجَجْتُهَا بِمَزجَّةٍ . . .

زَجَّ - القلُوصَ - أبي مَزَادَهْ

وفي بيت الطِّرِمَّاح ، وهو قوله : [ الطويل ]

2326 - يَطُفْنَ بِحُوزِيِّ المَرَاتِعِ لَمْ تَرُعْ . . .

بِوَادِيهِ مِنْ قَرْعٍ - القِسِيَّ - الكَنَائِنِ

وقال الزَّمخشري - فأغْلظ وأسَاء في عبارتِهِ - " وأم قِرَاءة ابن عامرٍ - فذكرها - فشيء لو كان في مكان الضرُورة وهو الشِّعْر ، لكان سَمِجاً مرْدُوداً كما سَمُج وورود :

[ مجزوء الكامل ]

2327 - . . . . . .

زَجَّ - القلُوصَ - أبِي مَزَادَهْ

فكيف به في الكلام المَنْثُور ؟ كيف به في القُرْآن المُعْجِز بحُسْن نَظْمِه وجَزَالَتِه ؟ الذي حمله على ذلك : أنْ رأى في بَعْض المَصَاحف " شُرَكَائِهِم " مكْتُوباً بالياءِ ، ولو قرأ بجرّ " الأوْلاد " و" الشُّركاء " - لأن الأولاد شُرَكَاؤهم في أموالهم - لوجَد في ذلك مَنْدُوحة عن هذا الارتكاب " .

قال شهاب الدين : " سَيَأتي بيان ما تمنّى أبو القاسِم أن يَقْرَأه ابن عَامرٍ ، وأنه قد قرأ به ، فكأنَّ الزَّمَخْشَرِيّ لم يَطَّلِعْ على ذلك ، فلهذا تَمَنَّاه " .

(206/252)

---

وهذه الأقوال التي ذكرتها جَمِيعاً لا يَنْبَغِي أن يُلْتَفَت إليها ؛ لأنها طَعْن في المُتَواتِر ، وإن كانت صَادِرةً عن أئِمَّةٍ أكَابِر ، وأيضاً فقد انْتصَر لها من يُقَابِلُهُم وأوْرَد من لسانِ العربِ نَظْمِهِ ونَثْرِه ما يَشْهَد لصِحَّة هذه القراءة لُغَة .

قال أبو بَكْر بن الأنْبَاريّ : " هذه قِرَاءة صَحيحَةٌ وإذا كانت العرب قد فَصَلَتْ بني المُتَضَايفين بالجُمْلَة في قولهم : " هُو غُلامُ – إن شَاءَ اللَّه – أخِيكَ " يُرِيدون : هو غلام أخِيكَ ، فأنْ يُفْصَل بالمفْرَد أسْهَل " انتهى .

وسمع الكَسَائِي قول بعضهم : " إن الشَّاةُ لتجترُّ فتَسْمع صَوْت واللَّه ربِّهَا " ، أي : صَوْت ربِّها واللَّه ، ففصل بالقسم وهو في قُوَّة الجُمْلَة ، وقرأ بَعْض السَّلَف : ﴿ فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ [ إبراهيم : 47 ] بنصب " وَعْدَهُ " وخفض " رُسُلِهِ " وفي الحديث عنه – عليه الصلاة والسلام – : " هَلْ أنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي ، تَارِكُوا لِي امْرَأتِي " أي تاركو صَاحِبِي لِي ، تَارِكُو امْرَأتِي لِي .

وقال ابن جِنّي في كتاب " الخصائص " : باب ما يَرِدُ عن العَرَبيّ مُخَالِفاً للجُمْهُور ، إذا اتَّفق شَيْءٌ من ذلك ، نُظِر في ذلك العربي وفيما جَاءَ بِهِ : فإن كان فَصِيحاً وكان مَا جَاء به يَقْبَلُه القِيَاسُ ، فَيَحْسُن الظَّنُّ به ؛ لأنه يمكن أن يَكُون قَدْ وَقَع إليه ذَلِك من لُغَةٍ قديمة ، قد طَال عَهْدُها وعَفَا رَسْمُهَا .

(207/252)

---

أخرنا أبو بكْر جعفر بن مُحَمَّد بن أبي الحَجَّاج ، عن أبي خَلِيفَة الفَضْل بن الحباب ، قال : قال ابن عَوْف عن ابن سيرين : قال عُمر بن الخطَّاب – رضي الله عنه – : "كان الشّعْر عِلْمَ قَوْم لم يَكُونْ لَهُم عِلْمٌ منه ؛ فجاء الإسْلام فتشاغَلَت عَنْه العَرَب بالجِهَاد وغَزْو فَارِس والرُّوم ، ولَهَت عن الشّعر وروايته ، فلما كَثُر الإسلام وجاءت الفُتُوح ، وأَطْمَأَنَّت العرب في الإمْصَارِ ، راجَعُوا رواية الشّعْرِ فلم يَئُولوا إلى دِيوانٍ مُدَوَّن ، ولا إلى كِتَاب مكْتُوب ، وأَلِفُوا ذلك وقد هَلَك مَنْ هَلَك من العربِ بالموت والقَتْلِ ، فَحَفِظُوا أقل ذلك وذهب عَنْهُم كَثِيرُه ".

قال : وحدّثنا أبو بكر ، عن أبي خَلِيفَة عن يُونُس بن حَبِيب ، عن أبي عَمْرو بن العلاء . قال : " ما انْتَهى إليكم مما قالت العَرَب إلا أَقَلُّه ، ولو جَاءَكُم وافراً لَجَاءَكُم عِلْمٌ وشِعْر كَثِير

" .

وقال أبو الفَتْح : " فإذا كان الأمْر كَذَلِك ، لم نَقْطَع على الفَصِيح إذا سُمِع مِنْه ما يُخَال الجُمْهُور بالخَطَإ ، ما وُجِد طَرِيقٌ إلى تَقَبُّل ما يُورِدُه ، إلا إذا كان القِيَاس يُعَاضِدُه " .

قال شهاب الدِّين : وقراءة هذا الإمام بهذه الحيثيَّة ، بل بطريق الأولَى والأحْرَى لو لم تكُن مُتَوَاتِرة ، فكيف وهي مُتواتِرَة ؟ وقال ابن ذَكْوَان : سألَني الكَسَائِي عن هذا الحَرْفِ وما بَلَغَهُ من قِرَاْتنا ، فرأيْتُه كأنه أعْجَبَه وتَرَنَّم بهذا البيت : [ البسيط ]

2328 - تَنْفِي يَدَهَا الحَصَى فِي كُلِّ هَاجِرَةٍ . . .

نَفْيَ - الدَّرَاهِيمَ - تَنْقَادِ الصَّيَارِيفِ

بنصب " الدَّرَاهِيم " [ وجَرّ " تَنْقَاد " ، وقد رُوِي بخفض " الدَّرَاهِيم " ورفع " تَنْقَادُ " وهو الأصْل ، وهو المَشْهُور في الرِّواية ] .

*(208/252)*

---

وقال الكرمَانِيّ : " قراءة ابن عَامرٍ وإن ضَعُفَتْ في العَرَبِيَّة للإحَالَة بين المُضَافِ والمُضَافِ إليه فَقَوِيَّةٌ في الرِّوَاية عَالِيَةٌ " انتهى .

وقد سُمِعَ مِمَّنْ يُوثَق بعربيَّته : " تَرْكُ يَوْماً نَفْسِك وهَوَاهَا سَعْيٌ في رَادَاهَا " أي : تَرْكُ نَفْسِك

يَوْماً مع هَوَاهَا سَعْيٌ فِي هَلاكِهَا .

وأما ما ورد في النَّظْمِ من الفَصْلِ بين المُتَضَايفين بالظَّرْف ، وحَرْف الجرِّ ، وبالمفعول فكَثِيرٌ ، وبغير ذلك قَلِيل ، فمن الفَصْل بالظَّرْفِ قول الآخر : [ الوافر ]

2330 - كَمَا خُطَّ الكِتَابُ بِكَفِّ - يَوْماً - . . .

يَهُودِيٍّ . . .

وقول الآخر : [ السريع ]

2331 قَدْ سَأَلَتْنِي أُمُّ عَمْرٍو عَنِ ال . . .

أَرْضِ الَّتِي تَجْهَلُ أَعلامَهَا

لَمَّا رَأَتْ سَاتِيدَمَا اسْتَعْبَرَتْ . . .

لِلّهِ دَرُّ - اليَوْمَ - مَنْ لامَهَا

تَذَكَّرَتْ أَرْضاً بِهَا أَهْلُهَا . . .

أَخْوالَهَا فِيهَا وأَعْمَامَهَا

يريد : للَّه دَرُّ مَنْ لامَهَا اليَوْمَ ، و" ساتِيدمَا " قيل : هو مركَّب والأَصْل : " سَاتِي دَما " ثم سمِّي به هذا الجبل ؛ أنه قُتِل عِنْدَه ، قيل : ولا تَبْرح القَتْلَى عند ، وقيل : " سَاتِيد " كله اسْمٌ و" مَا " مَزِيدة ؛ ومثال الفَصْل بالجار قوله : [ الطويل ]

2332 - هُمَا أَخَوَا - فِي الحرْب - مَنْ لا أَخَا لَهُ . . .

إذا خَافَ يَوْمَاً نَبْوَةً فَدَعَاهُمَا

وقال الآخر في ذلك : [ البسيط ]

2333 - لأَنْتَ مُعْتَادُ - فِي الهَيْجَا - مُصَابَرَةٍ . . .

يَصْلَى بِهَا كُلُّ مَنْ عَادَاكَ نِيرَانَا

وقوله أيضاً : [ البسيط ]

2334 - كَأَنَّ أَصْوَات - مِنْ إِيغَالِهِنَّ بِنَا - . . .

أَوَاخِرِ المَيْسِ أَصْوَاتُ الفَرَارِيجِ

قوله أيضاً : [ الطويل ]

2335 - تَمُرُّ على ما تَسْتَمِرُّ وَقَدْ شَفَتْ . . .

غَلائِلَ - عَبْدُ القَيْسِ مِنْهَا - صُدُورِهَا

(209/252)

---

يريد : هما أَخَوَا مَنْ لا أَخَا لَهُ في الحربِ ، ولأَنْتَ مُعْتَادُ مُصَابرةٍ في الهَيْجاء ، وكأن أصوات أواخر الميس وغَلائِل صُدُورها ، ومن الفَصْل بالمفعُول قول الشاعر في ذلك : [ مجزوء الكامل ]

2336 - فَزَجَحْتُهَا بِمَزَجَّةٍ . . .

زَجَّ - القَلُوصَ - أبي مَزادَهْ

ويروي : فَزَجَجْتُها فتدافعتْ ، ويروى : فزجَجْتُهَا متمكِّنًا ، وهذا البيت كما تقدم أُنْشَده الأَخْفَش بِنَصْب " القَلُوصَ " فاصلاً بين المصدر وفاعل المعْنويّ ، إلا أن القرَّاء قال بعد إنشاده لهذا البيتِ : أهل المدينة يُنْشِدون هذا البَيْتَ يعني : بِنَصْب " القَلُوص " .

قال : " والصَّواب : زَجَّ القَلُوصِ بالخَفْض " .

قال شهاب الدِّين : وقوله : " والصَّواب يُحْتَمل أن يكُون من حَيْث الرِّوَاية الصَّحيحة وأن يكُون من حَيْثُ القياس ، وإن لم يُرْوَ إلا بالنَّصْب ، وقال في مَوْضِع آخر من كتابه " مَعَانِي القُرْآن " : " وهذا ممَّا كان يقُولُه نَحْوِيُّو أهل الحِجَاز ، ولم نَجِد مِثْلَه في العربيَّة ط وقال أبو الفَتْح : " في هذا البيت فُصِل بينهُمَا بالمفعُول به هذا مع قُدْرته على أنْ يقُول : زَجَّ القَلُوص أبو مزادة ؛ كقولك : " سَرَّنِي أكلُ الخُبْزِ زَيْدٌ " بمعنى : أنه كان يَنْبَغِي أن يُضِيفَ المَصْدَر إلى مَفْعُوله ، فَيَبْقى الفاعل مَرْفُوعاً على أصْلِه ، وهذا مَعْنَى قول الفرَّاء الأوَّل " والصَّواب جر القَلُوص " سيعني ورفع الفاعل " .

ثم قال ابن جِيني : وفي هذا البَيْت عِنْدي دَلِيلٌ على قُوَّة إضافَةِ المَصْدَر إلى الفَاعِل عِنْدَهُم ، وأنه في نُفُوسِهِم أقْوَى من إضافته إلى المَفْعُول ؛ ألا تراه ارْتَكب هذه الضَّرُورة مع تمكُّنِهِ من تركِهَا لا لِشَيْءٍ غير الرَّغْبة في إضافة المصْدَرِ إلى الفاعل دُون المَفْعُول ، ومن الفَصْلِ بالمفعُول

به أيضاً قول الآخر في ذلك : [ الرجز ]

2337 - وحِلَقِ المَاذِيِّ والقَوانِسِ . . .

(210/252)

---

فَدَاسَهُمْ دَوْسَ الحَصَادَ الدَّائِسِ

أي : دوس الدائس الحصادَ .

ومثله قول الآخر : [ الرجز ]

2338 - يَفْرُكُ حَبَّ السُّنْبُلِ الكُنَافِجِ . . .

بالقَاعِ فَرْكَ - القُطُنَ - المُحَالِجِ

يريد : فَرْكَ المُحَالِجِ القُطْنَ ، وقول الطِّرِمَّاحِ في ذلك : [ الطويل ]

2339 - . . . . . .

بِوَادِيهِ مِنْ قَرْعِ - القِسِيَّ - الكَنَائِنِ

يريد : قَرْعَ الكَنَائِنِ القِسِيَّ .

قال ابن جِنّي في هذا البيت : " لم نَجِد فيه بُداً من الفَصْلِ ؛ لأن القوافي مَجْرُورَة " وقال في " زَجِّ القَلُوصِ " فصل بَيْنَهُما بالمَفْعُول به ، هذا ما قُدْرَته إلى آخَر كلامِهِ المتقدِّم ، يعني : أَنَّه لو

أُنْشَد بَيْت الطِّرِمَّاح بخَفْضِ " القِسِيّط ورفع " الكَنَائِنِ " لم يَجُز ؛ لأن القَوافِي مَجْرُورة بخِلاف بَيْت الأَخْفَش ؛ فإنه لو خفض " القَلُوص " ورَفع " أَبُو مَزَادَة " لم تَخْتَلِف فيه قَافِيتَه ولم يَنْكَسِر وَزْنُه .

قال شهاب الدّين : ولو رفع " الكَنَائِن " في البيت ، لكان جَائِزاً وإن كانتِ القوافي مَجْرُورة ، ويكُون ذلك إقْوَاءً ، وهو أن تكُون بَعْضُ القَوَافِي مَجْرُورة وبَعْضُها مَرْفُوعة ؛ كقول امرئ القيس : [ الكامل ]

2341 - جَالَتْ لِتَصْرَعَنِي فَقُلْتُ لَهَا اقْصِرِي . . .

إنّ امْرُؤٌ صَرْعِي عَلَيْكِ حَرَامُ

فالميمُ مَخْفُوضة في الأوّل ، مَرْفُوعة في الثَّاني .

فإن قيل : هذا عَيْبٌ في الشّعْر .

قيل : لا يتقاعد ذلك عن أنْ يَكُون مِثْل هذه للضَّرُورَة ، والحقُّ أن الإقْواء أفْحَشُ وأكثر عَيْباً من الفَصْل المَذْكُور ، ومن ذلك أيضاً : [ الوافر ]

2342 - فإنْ يَكُنِ النِّكَاحُ أَحَلَّ شَيءٍ . . .

فإنَّ نِكَاحَهَا مَطَرٍ حَرَامُ

أي : فإنَّ نِكَاحَ مطرٍ إيَّاها ، فلما قدَّم المفْعُول فَاصِلاً بين المَصْدَر وفاعله ، اتَّصَل بعامِلِهِ ؛ أنه قدر عليه مُتَّصِلاً فلا يَعْدل إليه مُنْفَصِلاً ، وقد وقع في شِعْر أبي الطَّيِّب الفَصْل بني المَصْدَر المُضافِ على فَاعِلِهِ بالمَفْعُول ؛ كقوله : [ الطويل ]

2343 - بَعَثْتُ إِلَيْهِ مِنْ لِسَانِي حَدِيقَةً . . .

سَقَهَا الحَيَا سَقْيِ - الرِّياضَ - السَّحائبِ

أي : سقي السَّحائب الرِّياضَ ، وأما الفَصْل بغير ما تقدَّم فهو قَلِيلٌ ، فمنه الفَصْل بالفاعل . كقوله : [ الطويل ]

2344 - . . . . . .

غَلائِلَ عَبْدُ القَيْسِ مِنْهَا صُدورِهَا

فَفَصَل بين " غَلائِلَ " وبين " صُدُورَهَا " بالفاعل وهو " عبْدُ القَيْسِ " ، وبالجار وهو " مِنْهَا : كما تقدَّم بيانه ؛ ومثله قول الآخر : [ الطويل ]

2345 - نَرى أسْهُماً لِلْمَوْتِ تُصْمِي وَلاَ تُنْمي . . .

ولا تَرْعَوِي عَنْ نَقْضِ - أَهْوَاؤِنَا - العَزْوِمِ

فأَهْوَاؤنا فاعل بالمصدر ، وهو " نَقْض " وقد فصل به بين المَصْدَر وبين المُضَاف إلَيْه وهو العَزم ؛ ومثله قول الآخر : [ المنسرح ]

2346 - أَنْجَبَ أيَّام - والدهُ بِهِ - . . .

إذْ نَجَلاهُ فَنِعْمَ مَا نَجَلا

يريد : أيَّام إذ نجلاه ، ففصل بالفاعل وهو " والدهُ " المرفوع بـ " أَنْجَبَ " بين المُتضايفين وهما " أيَّام - إذْ ولداه " .

قال ابن خَرُوف : " يجوزُ الفصل بين المصْدَر والمضاف إليه بالمفعُول ؛ لكوْنِهِ في غير محلِّه ، ولا يُجُوزُ بالفاعل لكوْنِهِ في محلَّه وعليه قراءة ابن عَامِر " .

قال شهاب الدِّين : هذا فَرْقٌ بين الفاعل والمفعُول حيث اسْتَحْسن الفَصْل بالمفْعُول دون الفاعل ، ومن الفَصْل بغير ما تقدَّم أيضاً الفَصْل بالنِّداء ؛ كقوله : [ البسيط ]

2347 - وفَاقُ - كَعْبُ - بُجَيْر مُنْقِذٌ لَكَ مِنْ . . .

تَعْجِيلِ مُهْلَكَةٍ والخُلْدِ في سَقَرِ

وقول الآخر : [ الطويل ]

(212/252)

---

2348 - إذَا مَا - أَبَا حَفْصٍ - أَتَتْكَ رَأَيْتَهَا . . .

عَلَى شُقْرَاءِ النَّاسِ يَعْلُو قَصِيدُهَا

وقول الآخر في ذلك : [ الزجر ]

2349 - كأنَّ برْذَوْنَ - أبَا عِصَامِ - . . .

زَيْدٍ حِمَارٌ دُقَّ باللِّجَامِ

يريد : " وفاق يجَيْر يا كَعْب " و " إذا ما أَتَتْكَ يا أبَا حَفْصٍ " و " كأن برْذَوْنَ زَيْد يا أبا عِصَام " .

ومن الفَصْل أيضاً الفَصْل بالنَّعْتِ ؛ كقول مُعَاوِيةُ يُخاطِب به عَمْرو بن العَاص : [ الطويل ]

2350 - نَجَوْتَ وَقَدْ بَلَّ المُرَادِيُ سَيْفَهُ . . .

مِن ابْنِ أبِي شَيْخِ الأَبَاطِح طَالبِ

وقول الآخر في ذلك : [ الكامل ]

2351 - وَلَئِنْ حَلَفْتُ عَلَى يَدَيْكَ لأَحْلِفَنْ . . .

بيَمِينِ أصْدَقَ مِنْ يَمينكَ مُقْسِمِ

يريد : من ابن أبي طَالِب شَيْخ الأَبَاطِح ، فشيخ الأباطح نعْت لأبي طالب ، فصل به بَيْن أبي ، وبَيْن طالب ، ويريد : لأحْلِفَن بيمين مُقْسِم أصْدَق من يَمِينك ؛ ف " أصدق " نعت لَقَوْله بيمين ، فصل به بَيْن " يَمِين " وبَيْن " مُقْسِمِ " ومن الفَصْل أيضاً الفَصْل بالفِعْل المُلْغَى ؛ كقوله في ذلك : [ الوافر ]

2352 - ألا يَا صَاحِبَيَّ قِفَا المَهَارَى . . .

نُسَائِلْ حَيَّ بَثْنَةَ أيْنَ سَارَا ؟ بأيِّ تَرَاهُم الأرَضِين حَلُّوا

أألدَّبَرَانِ أمْ عَسَفُوا الكِفَارَا ؟ . . .

يريد : بأي الأرضين تراهم حَلُّوا ، ففصل بقوله " تَرَاهُمُ " بين " أيّ " وبين الأرضين .

ومن الفَصْل أيضاً الفَصْل بمفْعُول " لَيْس " معمولاً للمصدر المُضاف إلى فاعل ؛ كقول الشاعر : [ البيسط ]

2353 - تَسْقِي ندى ريقتها المِسْوَاكُ ف " المِسْواكَ ريقَتها . . .

كَمَا تَضَمَّن مَاءَ المُزْنَةِ الرَّصِفُ

(213/252)

---

أي : تسْقِي ندى ريقتها المِسْوَاكُ ف " المِسْوَالك " مفْعُول به نَاصبة " تَسْقِي " فصل به بين " نَدَى " وبين " ريقتَهَا " ، وإذ قد عَرَفْت هذا ، فاعْلَم أنَّ قِرَاءة ابن عَامِر صحيحَة ؛ من حيث اللُّغَةِ كما هي صَحيحة من حَيْث النَّقْل ، ولا التِفَات إلى قَوْل من قال : إنه اعْتَمَد في ذلك على رسْم مُصْحَفِ الشَّام الذي أرْسَلَه عُثْمَان بن عفَّان - رضي الله عنه - : لأنه لم يُوجَد فيه إلا كَتَابة " شُرَكَائِهم " بالياء وهذا وإن كافياً في الدَّلالة على جَرّ " شُرَكَائِهم " ، فليس فيه ما يَدُلُّ على نَصْب " أوْلادَهُم " ؛ إذا المصْحَفُ مُهْمَلٌ من شكْل ونقط ، فلم يَبْقَ

له حُجَّة في نَصْب الأولاد إلاَّ النَّقْل المحض .

وقد نقد عن ابن عامرٍ ؛ أنه قرأ بجَرّ " الأوْلاد " كما سيأتي بَيَانَهُ وتَخْريجُه ، وأيضاً فليس رسْمها " شُرَكَائِهم " بالياء مخْتَصاً بمصْحَف الشَّامِ ، بل هي كذلك أيضاً في مُصْحَف أهْل الحِجَاز .

قال أبو البرهسم : " فِي سُورة الأنْعَام في إمَام أهْل الشَّم وأهْل الحجاز : " أوْلادَهُم شُرَكَائِهم " بالياء ، وفي إمان أهل العراق " شُرَكَاؤهُم " ولم يَقْرَأ أهل الحجاز بالخفضِ في " شُرَكَائِهم " لأن الرَّسءم سُنَّةٌ مُتَّبعة قد تُوافِقُهَا التّلاوة وقَدء لا تُوَافِقُ " .

إلاَّ أن الشيخ أبا شَامَةَ قال : " ولم تُرْسم كذلك إلا باعتبار قراءَتَيْن : فالمضموم عليه قِراءة معْظم القُرَّاء " ثم قال : " وأمَّا " شُرَكَائهم " بالخَفْضِ ؛ فيحتلم قراءة ابن عمر " قال شهاب الدين : وسيأتي كلام أبِي شَامَ هذا بتَمَامة في موْضِعه ، وإما أخَذْتُ منه [ بقَدر ] الحَاجَة هُنَا .

فقوله : " إن كُلَّ قراءة تَابعَة لرسءم مُصْحَفِها " تُشْكِلُ بما ذكرنا لك من أنَّ مصحَفَ الحِجَازِيّين بالياءِ ، [ مع أنَّهم لم يَقْرءُوا بذلِك ] .

(214/252)

وقد نقل أبو عَمْرو والدَّاني أن : " شُرَكَائِهِم " بالياء ] ، إنَّما هو في مُصْحف الشَّامِ دون مَصَاحِف الأمْصَار ؛ فقال : " في مَصَحِف أهْل الشَّامِ " أوْلادَهُم شُرَكَائِهم " بالياء ، وفي سائر المصاحف شُرَكَاؤُهُم بالواوِ " .

قال شهاب الدين : هذا هو المَشْهُور عند النَّاس ، أعني اختصاص الياءِ بمصاحفِ الشَّام ، ولكن أبو البرهسم ثِقَة أيضاً ، فنَقْبَل ما ينقله .

وقد تقدَّم قول الزَّمَخْشَري : و " الذي حَمَلَه على ذِلك أنْ رَأى في بعض المَصاحِف " شُرَكَائِهِم " مكتوباً بالياء " .

وقال الشَّيْخ [ شهاب الدِّين ] أبو شامة : " ولا بُعْد فيما اسْتَبْعَده أهل النَّحْو من جهَة المَعْنَى ؛ وذلك أنه قَدْ عُهِد المفعُول على الفاعل المَرْفُوع تقديراً ، فإنَّ المَصْدر لو كان مُنَوّناً لجاز تَقْدِيم المفعُول على فاعله ، نحو : " أعْجَبَنِي ضَرْب عَمْراً زَيْدٌ " فكذا في الإضَافَة ، وقد ثبت جواز الفَصْل بين حَرْف الجرّ ومجْرُوره مع شِدَّة الاتّصال بَيْنَهُمَا أكْثَر من شِدَّته بني المُضَافِ والمُضافِ إليه ؛ كقوله - تعالى - : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِّيثَاقَهُمْ ﴾ [ النساء : 155 ] ، ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ ﴾ [ آل عمران : 159 ] ف " مَا " زائده في اللَّفْظِ ، فكأنه مؤخَّر لَفْظاً ، ولا التِفَات إلى قَوْل من زَعَم أنه لم يَأتِ في الكلام المَنْثُور مثله ؛ لأنه نَافٍ ، ومن أسْنَد هذه القِراءة مُثْبِت ، والإثْبات مُرَجَّح على النَّفْي بإجْمضاع ، ولو نقل إلى هذا الزّاعِم عن بَعْضِ العرب أنه اسْتَعَمَلَهُ في النَّثْر ، لرجع إلَيْه ، فما بالُه لا يكْتَفِي بناقل القراءة من التَّابعين عن

الصَّحابَةِ ؟ ثم الذي حَكَاه ابن الأَنْبَاري يَعْني مِمَّا تقدَّم حِكاتيه من قوله : " هو غُلامُ إن شاء اللَّه أخيك " فيه الفَصْل من غير الشِّعْر بجُمْلَة " .

(215/252)

---

وقرأ أبو عبد الرَّحْمن السلمي ، والحسن البصري ، وعبد الملك قَاضِي الجند صَاحِب أن عامِر : " زُيِّن " مبْنِياً للمفعُول ، " قَتْلُ " رفعاً على ما تقدَّم ، " أوْلادِهم " خفْضاً بالإضافة ، " شُرَكَاؤهم " رفْعاً ، وفي رفْعِه تخريجان :

أحدهما - وهو تَخْرِيج سيبويه - : أنه مَرْفُوع بفعل مُقَدَّر ، تقديره : زَيَّنَه شركَاؤهُم ، [ فهو جوابِ لسُؤال ] مقدر كأَنَّه قيل : مَنْ زَيَّنة لَهُم ؟ فقيل : " شركَاؤُهُم " ؛ وهذا كقوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بالغدو والآصال رجَالٌ ﴾ [ النور : 36 ] أي : يُسَبِّحُهُ .

وقال الآخر : [ الطويل ]

2354 - لِيُبْكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِخُصُومَةٍ . . .

والثاني : خرجه قُطْرُب - أن يكُون " شُرَكَاؤهُم " رفعاً على الفاعليَّة بالمَصْدَر ، والتقدير : زُيِّن للمشركِين أن قَتْلَ أوْلادهم شُرَكَاؤُهُم ؛ كما تَقُول : " حُبِّب لِي رُكوبُ الفرسِ زَيْدٌ " تقديره : حُبِّب لِي أنْ ركب الفَرَس زَيْد ، والفرق بني التَّخْرِيجَيْن : أن التَّخريج الأوَّل يؤدِّي

إلى أن تكُونَ هذه القِرَاءةُ في المَعْنَى ، كالقراءة المَنْسُوبة للعَامَّة في كون الشُّركَاء مُزَيِّين للقَتْلِ ، وليسوا قَاتِلين .

[ والثاني : أن يكون الشُّركاء قَاتِلين ] ، ولكن ذلك على سبيل المجازِ ؛ لأنهم لما زَيَّنُوا قَتْلَهم لآبائِهم ، وكانوا سَبَاً فيه ، نُسِبَ إليهم القَتْل مجازاً .

(216/252)

---

وقال أبو البقاء : " ويمكن أن يَقَع القَتْل منهم حَقِيقَة " ، وفي نظر ؛ لقوله – تبارك وتعالى – : " زَيَّن " والإنْسَان إنما يُزَيَّن له فِعْل نَفْسِه ؛ كقوله – تعالى – : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سواء عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ﴾ [ فاطر : 8 ] وقال غير أبي عُبَيْد : " وقرأ أهْل الشام كقِرَاءة ابن عامر ، إلا أنهم خفَضُوا " الأولاد " أيضاً ، وتخريجها سَهْل ؛ وهو أن تَجْعَل " شُرَكَائِهم " بدلاً من " أولادِهِم " بمعنى أنهم يُشْرِكُونهم في النَّسب ، والمالِ ، وغير ذلك " .

قال الزَّجَّاج : " وقد رُوِيت " شُرَكَائِهم " بالياء في بَعْض المصاحفِ ، ولكن لا يَجُوز إلاَّ على أن يكُون " شُرَكَاؤُهم " من نَعْت الأولاد ؛ لأن أولادهم شُرَكَاؤهُم في أمْوالهم " .

وقال الفراء بعد أنْ ذكر قِرَاءة العامَّة وهي " زَيَّن " مبنياً للفاعل ، " شركَاؤُهُم " مرفوعاً على أنَّه فاعِل – " وقراءة " زُيِّن " مبنياً للمفعُول ، " شركَاؤُهُم " رَفْعاً على ما تقدَّم من أنه

بإضْمار فعل ، وفي مُصْحَف أهْل الشّام " شُرَكَايهم " بالياء ، فإن تكُن مُثْبتة عن الأوّلين ، فينبغي أن تقرأ " زُيِّن " ويكون الشُّرَكَاء هم الأوْلاَد ؛ لأنهم مِنْهُم في النَّسْب والمِيراث .

وإن كانوا يَقْرَءُون : " زَيِّن " – يعني بفتح الزاي – فَلَسْت أعرف جِهَتَهَا إلا أن يكُونُوا فيها آخِذِين بلُغَة قَوْم يَقُولون : أَتَيْتُها عَشَايَانَا ، ويقولون في تثنية حَمْرَاء : حَمْرَايَان فهذا وَجْه أن يكُونُوا أرَادُوا : زَيَّن لكثير من المشْرِكين قتل أوْلادهم شُرَكَايُهم ، يعني بياء مَضْمُومة ؛ لأن " شركَاؤُهُم " فاعل كما مَرَّ في قرَاءة العَامَّة .

قال : " وإن شِئْتَ جَعَلْتَ " زَيَّن " فعلاً إذا فَتَحْتَهُ لا يُلبس ، ثم تَخْفِض الشركاء بإتباع الأولاد " .

(217/252)

---

قال أبو شامة : " يعني تَقْدير الكلام : " زَيَّن مُزَيِّنٌ " فقد أَتَّجَه " شركَائِهم " بالجرّ أن يكون نعتاً للأوْلاَد ، سواءٌ قُرِئ زَيَّن بالفتح أو الضم " .

وقرأت فِرْقة من أهْل الشّام – ورُوِيَتْ عن ابن عامر أيضاً – " زِينَ " بكسر الزاي بعدها ياء سَاكِنة ؛ على أنه فِعْل مبْنِيّ للمْجُهول على حَدّ قِيلَ وبيعَ .

وقيل : مَرْفُوع على ما يُسَمَّ فَاعِله ، و" أولادهُم " بالنصب ، و" شُرَكَائِهم " بالخَفْض ،

والتَّوْجه واضح مما تقدَّم ، فهي [ و] القراءة الأولى سواء ، غاية ما في البابِ :

أَنَّه أُخذ مِنْ زَانَ الثُّلاثِي ، وبين للمَفْعُول ، فاعِلٌ بما قد عَرَفْتَهُ في أول البَقَرة .

واللام من قوله " لِكثير من المشْركينَ " متعلّقة بـ " زَيَّن " ، وكذلك اللاَّمُ في قوله : " لِيُرْدُهُم " .

فإن قيل : كيف تُعَلَّق حرفَيْ جر بلفْظٍ واحِد وبمعنى واحد بعامل واحد ، من غَيْر بَدَلِيَّة ولا عَطْف ؟ .

فالجواب : أن مَعْنَاها مختلِفٌ ؛ فإن الأولى للتَعْدِيَة والثَّانية للعِلّيَّة .

قال الزمخشري : " إن كان التَّزيين من الشَّياطين ، فهي على حقيقةِ التَّعْليل ، وإن كان من السَّدَنَةِ ، فهي للصَّيْرُورة " يعني : ان الشَّيْطَان يَفْعَل التَّزْيين وغرضُه بذلك الإرْدَاءُ ، فالتعْلِيل فيه واضِحٌ ، وأمَا السَّدَنَةُ فإنهم لم يُزَيِّنوا لهم ذَلِك ، وغرضهم إهْلاكُهم ، ولكن لما مآل حَالِهم إلى الإرْدَاءِ ، أتى باللاَّم الدَّالَّة على العَاقِبة والمآل .

فصل في بيان ما كان عليه أهل الجاهلية

كان أهْل الجَاهِلِيَّة يدْفِنُون بَنَاتَهم أحْياء خَوْفاً من الفَقْر والتَّزْويج ، واخْتلفُوا في المراد بالشُّركَاءِ .

فقال مجاهد : شُرَكَاؤُهم شَيَاطينُهم أمَرُوهم بأن يَقْتُلوا أولادَهم خَشْيَةَ الغِيلَة ، وسمّيت الشَّياطين شُرَكَاء ؛ لأنهم اتخذوها شُرَكَاء لقوله – تبارك وتعالى – : ﴿ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الذين كُنتُمْ تَزْعُمُونَ مِن دُونِ اللهِ ﴾ [ الأنعام : 22 ] .

وقال الكَلْبِيّ : الشركاء سَدَنَة آلِهَتِهم وخُدَّامهم ، وهُمُ الَّذِين كَانُوا يُزَيِّنُون للكُفَّار قَتْل أولادهم ، وكان الرَّجُل يَقُوم في الجَاهِلِيَّة فيحلف باللَّه إن ولد له كَذَا غُلاماً لَيَنْحَرَنَّ أحدهم ، كما حلف عَبْد المُطَّلِب على ابْنه عبد الله ، وسُمِّيت السَّدَنَة شُرَكَاء كما سُمِّيت الشَّياطِين شُرَكَاء في قَوْل مُجَاهِد ، وقوله " لِيُرْدُوهُم " الإرْدَاء في لُغة القُرْآن الإهلاك ﴿ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾ [ الصافات : 56 ] .

قال ابن عبَّاس : " لِيُرْدُوهم في النَّار " واللاَّم هَهُنَا لام العَاقِبة ؛ كقوله : ﴿ فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ [ القصص : 8 ] .

" ولِيلبِسُوا عَلَيْهِم دِينَهُم " أي : يَخْلِطُوا عليه دِينَهُم .

قال ابن عبَّاس – رضي الله عنهما – لِيُدْخِلُوا عليهم الشَّك في دينهم ، وكانوا على دِين إسْمَاعيل فَرَجَعُوا عنه بلبس الشَّياطين .

قوله : " ولِيَلْبِسُوا " عطف على " لِيُرْدُوا " علل التَّزْيين بشَيْئَيْن :

بالإرداء وبالتخليط وإدْخَال الشُّبْهَة عليهم في دينهم .

والجمهور على " ولِيَلْبِسُوا " بكسر الباء مِنْ لَبَسْتُ عليه الأمْر أَلْبِسُه ، بفتح العَيْن في

المَاضِي وكَسْرِها في المُضَارِع؛ إذا أدْخَلْتَ عليه فيه الشُّبْهَة وخَلَطْتَهُ فيه.

وقد تقدَّم بَيَانُه في قوله: ﴿ وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام: 9].

(219/252)

---

وقرأ النخعي: "وليلبسوا" بفتح الباء فقيل: هي لغة في المعنى المذْكُور، تقول: "لَبِسْتُ عليه الأمْر بفتح الباء وكسرها أَلْبَسه وألبَسَهُ" والصَّحِيح أن لَبِس بالكَسْر بمعنى لَبِس الثياب، وبالفَتْح بمعْنى الخَلْط، فالصَّحيح أنه اسْتَعار اللِّبَاس لشِدَّة المخالطة الحَاصِلَة بَيْنَهم وبين التَخْليط؛ حتى كأَنَّهم لَبِسُوا كالثياب، وصارت مُحِيطة بهم.

قوله: ﴿ وَلَوْ شَآءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ والضَّمير المرفُوع لكَثِير والمنصُوب للقَتْل للتصريح به، ولأَنَّه المسُوق للحديث عنه.

وقيل: المَرْفُوع للشُّركاء والمنْصُوب للتَّزيين.

وقيل: المَنْصُوب لِلَّبْس المَفْهُوم من الفِعْل قَبْله وهو بَعِيد.

وقال الزَّمَخْشَري: "لما فَعَل المُشْرِكُون ما زُيِّن لَهُم من القَتْل، أو لما فَعَل الشَّياطين أو السَّدَنَة التَّزْيين أو الإرْدَاء أو اللِّبْس، أو جَمِيع ذلِك إن جَعلْتَ الضمير جَارياً مَجْرَى اسم الإشارة".

قوله : " فَذَرْهُم وما يَفْتَرُون " تقدَّم نظيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 458.444 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (137) ﴾

وسوست إليهم شياطينهم بالباطل فقبلت نفوسهم ذلك ؛ إذْ الأشكالُ يتناصرون ، فالنَّفْسُ لا تدعو إلا إلى الأجنبية ، لأنها مُدَّعيةٌ تتوهم أن منها شيئاً ، وأصل كُلِّ شرْكٍ الدعوى ، والشيطان لا يوسوس إلا بالباطل والكفر ، فهم أعوانٌ يتناصرون .

ثم قال : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ ﴾ صرَّح بأن المراد على المشيئة ، والاعتبار ( بسابق ) القضية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 505 ﴾

*(220/252)*

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والخمسون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾



---

الجزء الثالث والخمسون بعد المائتين

من الآية ﴿ 138 ﴾ من سورة الأنعام

وحتى الآية ﴿ 140 ﴾ من نفس السورة

قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (138) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر إقدامهم على ما قبحه الشرع ، ولامه على تقبيحه العقلُ من قتل الأولاد ، أتبعه إحجامهم عما حسنه الشرع من ذبح بعض الأنعام لنفعهم ، وضم إليه جملة مما منعوا أنفسهم منه ودانوا به لمجرد أهوائهم فقال : ﴿ وقالوا ﴾ أي المشركون سفهاً وجهلاً ﴿ هذه ﴾ إشارة إلى قطعة من أموالهم عينوها لآلهتهم ﴿ أنعام وحرث حجر ﴾ أي حرام محجور عليه فلا يصل أحد إليه ، وهو وصف يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، لأن حكمه حكم الأسماء غير الصفات ﴿ لا يطعمها ﴾ أي يأكل منها ﴿ إلا من نشاء ﴾ أي من السدنة ونحوهم ﴿ بزعمهم ﴾ أي بتقولهم بمجرد الهوى من غير سند عن الله الذي له ملكوت السماوات والأرض ، وهم كاذبون في هذا الزعم في أصل التحريم وفي نفوذ المنع ، فلو أراد الله أن تؤكل لأكلت ولم يقدروا على منع ﴿ وأنعام ﴾ .

ولما كان ذمهم على مجرد التجريم لا على كونه من معين ، بني للمجهول قوله : ﴿ حرمت

ظهورها ﴾ يعني البحائر وما معها فلا تركب ﴿ وأنعام لا يذكرون ﴾ أي هؤلاء المتقولون على الله ﴿ اسم الله ﴾ الذي حاز جميع العظمة ﴿ عليها ﴾ أي في الذبح أو غيره ﴿ افتراء ﴾ أي تعمداً للكذب ﴿ عليه ﴾ .

ولما كان هذا لعظمه من جهة أنه تعمد للكذب على ملك الملوك موضع تشوف السامع إلى ما يكون عنه ، استأنف قوله : ﴿ سيجزيهم ﴾ أي بوعد صادق لا خلف فيه ﴿ بما ﴾ أي بسبب ما ﴿ كانوا ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ يفترون ﴾ أي يتعمدون من الكذب ، أما بعد إظهار الحق فواضح ، وأما قبله فلكونه في غاية ما يكون من ظهور الفساد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 723.724 ﴾

فصل

قال الفخر :

(5/253)

---

اعلم أن هذا نوع ثالث من أحكامهم الفاسدة ، وهي أنهم قسموا أنعامهم أقساماً : فأولها : إن قالوا : ﴿ هذه أنعام وَحَرْثٌ حِجْرٌ ﴾ فقوله : ﴿ حجر ﴾ فعل بمعنى مفعول ، كالذبح والطحن ، ويستوي في الوصف به المذكر والمؤنث والواحد والجمع ، لأن حكمه حكم

الأسماء غير الصفات ، وأصل الحجر المنع ، وسمى العقل حجراً لمنعه عن القبائح ، وفلان في حجر القاضي : أي في منعه ، وقرأ الحسن وقتادة ﴿ حجر ﴾ بضم الحاء وعن ابن عباس ﴿ حَرَجٌ ﴾ وهو من الضيق ، وكانوا إذا عينوا شيئاً من حرثهم وأنعامهم لآلهتهم قالوا : ﴿ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاء ﴾ يعنون خدم الأوثان ، والرجال دون النساء .

والقسم الثاني : من أنعامهم الذي قالوا فيه : ﴿ وأنعام حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ﴾ وهي البحائر والسوائب والحوامي ، وقد مر تفسيره في سورة المائدة .

والقسم الثالث : ﴿ أنعام لاَّ يَذْكُرُونَ اسم الله عَلَيْهَا ﴾ في الذبح ، وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام ، وقيل لا يحجون عليها ولا يلبون على ظهورها .

ثم قال : ﴿ افتراء عَلَيْهِ ﴾ فانتصابه على أنه مفعول له أو حال أو مصدر مؤكد ، لأن قولهم ذلك في معنى الافتراء .

ثم قال تعالى : ﴿ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ والمقصود منه الوعيد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 170 ﴾

*(6/253)*

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ هذه أنعام وَحَرْثٌ ﴾

وهي البحيرة والسائبة والوصيلة والحرث وهو نوع من الزرع حرموها على النساء .

﴿ حِجْرٍ ﴾ يعني : حرام والحجر يكون عبارة عن العقل كقوله تعالى : ﴿ هَلْ فِى ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ " [ الفجر : 5 ] أي : لذي لب وعقل ويكون عبارة عن الحرام كقوله : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الملائكة لاَ بشرى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ [ الفرقان : 22 ] يعني : حراماً محرماً وكقوله ﴿ وَقَالُواْ هذه أنعام وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَآ إِلاَّ مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وأنعام حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وأنعام لاَّ يَذْكُرُونَ اسم الله عَلَيْهَا افترآء عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [ الأنعام : 138 ] يعني : حراماً ﴿ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاء بِزَعْمِهِمْ ﴾ من الرجال دون النساء ، وهو مالك بن عوف كان يفتيهم بالحل والحرمة .

وكان يقول : هذا يجوز وهذا لا يجوز لأشياء كانوا حرموها برأيهم .

ثم قال ﴿ وأنعام حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ﴾ وهي الحام من الإبل كانوا يتركونها ولا يركبونها ﴿ وأنعام لاَّ يَذْكُرُونَ اسم الله عَلَيْهَا ﴾ يعني : عند الذبيحة ويقال : عند الركوب وهي البحيرة ﴿ افتراء عَلَيْهِ ﴾ يعني : اختلاقاً وكذباً على الله بأنه أمرهم بذلك ﴿ سَيَجْزِيهِم ﴾ يعني : سيعاقبهم ﴿ بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ يعني : يكذبون على الله بأنه أمرهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ وَقَالُواْ ﴾ يعني المشركين ﴿ هذه أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ ﴾ يعني ما كانوا جعلوه للّه ولآلهتهم التي قد مضى ذكرها .

وقال مجاهد : يعني بالأنعام ، البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، والحجر : الحرام . قال اللّه تعالى ويقولون ﴿ حِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ [ الفرقان : 22 ] أي حراماً حراماً .

قال الليث :

(7/253)

---

حنّت إلى النخلة القصوى فقلت لها . . . حجر حرام ألا تلك الدهاريس

وأصله من الحجر وهو المنع والحظر ، ومنه : حجر القاضي على المفسد .

وقرأ الحسن وقتادة : وحرث حجر بضم الحاء وهما لغتان . وقرأ أُبي بن كعب وابن عباس وابن الزبير وأبي طلحة والأعمش : وحرث حرج بكسر الحاء والراء قبل الجيم وهي لغة أيضاً مثل جذب وجبذ .

وأنشد أبو عمرو :

ألم تقتلوا الحرجين إذ أعرضا لكم . . . يمران بالأيدي اللحاء المضفرا

﴿ لاَّ يَطْعَمُهَآ إِلاَّ مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ ﴾ يعنون الرجال دون النساء ﴿ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ﴾ يعني الحامي إذا ركب ولد ولده . قالوا : حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ﴿ وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسم الله عَلَيْهَا ﴾ .

قال مجاهد : كانت لهم من أنعامهم طائفة لا يذكرون اسم اللّه عليها ولا في شيء من شأنها لا أن ركبوا ولا أن حلبوا ولا أن نتجوا ولا أن باعوا ولا أن حملوا .

وقال أبو عاصم : قال لي أبو وائل : أتدري ما أنعامٌ حرمت ظهورها ؟ قلت : لا . قال : لا يحجّون عليها .

وقال الضحاك : هي التي إذا ذكوها أهلوا عليها بأصنامهم ولا يذكرون اسم اللّه عليها ﴿ افتراء عَلَيْهِ ﴾ يعني إنهم كانوا يفعلون ذلك ويزعمون إن اللّه أمرهم به ﴿ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ ﴾

هذه الآية تتضمن تعديد ما شرعوه لأنفهسم والتزموه على جهة القربة كذباً منهم على الله وافتراء عليه ، فوصف تعالى أنهم عمدوا إلى بعض أنعامهم وهي الإبل والبقر والغنم أو الإبل بانفرادها ، وما غيرها إذا انفرد فلا يقال له أنعام ، وإلى بعض زروعهم وثمارهم ، وسمي ذلك " حرثاً " إذ عن الحرث يكون ، وقالوا هذه حجر أي حرام ، وقرأ جمهور الناس " حِجْر " بكسر الحاء وسكون الجيم ، وقرأ قتادة والحسن والأعرج " حُجْر " بضم الحاء وسكون الجيم ، وقرأ ابن عباس وأبيّ وابن مسعود وابن الزبير والأعمش وعكرمة وعمرو بن دينار " جِرْج " بكسر الحاء وتقديم الراء على الجيم وسكونها ، فالأولى والثانية بمعنى التحجير وهو المنع والتحريم ، والأخيرة من الحرج وهو التضييق والتحريم ، وكانت هذه الأنعام على ما قال ابن زيد محللة للرجال محرمة على النساء ، وقيل كانت وقفاً لمطعم سدنة بيوت الأصنام وخدمتها ، حكاه المهدوي ، فذلك المراد بقوله ﴿ من نشاء ﴾ وقوله ﴿ بزعمهم ﴾ أي بتقولهم الذي هو أقرب إلى الباطل منه إلى الحق ، و" زعمهم " هنا هو في قولهم " حجر " وتحريمهم بذلك ما لم يحرم الله تعالى ، وقرأ ابن أبي عبلة " بزَعَمهم " بفتح الزاي والعين ، وكذلك في الذي تقدم ، ﴿ وأنعام حرمت ظهورها ﴾ كانت للعرب سنن ، إذا فعلت الناقة كذا من جودة النسل والمواصلة بين الإناث ونحوه حرم ظهورها فلم تركب وإذا فعل الفحل كذا وكذا حرم فعدد الله ذلك على جهة الرد عليهم إذ شرعوا بذلك برأيهم وكذبهم ، ﴿ وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها ﴾ قيل كانت لهم سنة في أنعام ما أن لا يحج

عليها فكانت تركب في كل وجه إلا في الحج ، فذلك قوله ﴿ وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها ﴾ هذا قول جماعة من المفسرين .

(9/253)

---

ويروى ذلك عن أبي وائل ، وقالت فرقة : بل ذلك في الذبائح يريد أنهم جعلوا لآلهتهم منها نصيباً لا يذكرون الله على ذبحها ، وقوله ﴿ افتراء ﴾ مصدر نصب على المفعول من أجله أو على إضمار فعل تقديره يفترون ذلك ، و ﴿ سيجزيهم ﴾ وعيد بمجازاة الآخرة ، والضمير في ﴿ عليه ﴾ عائد على اسم الله ، و ﴿ يفترون ﴾ أي يكذبون ويختلفون .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وقالوا هذه أنعام وحرث حجر ﴾

الحرث : الزرع ، والحجر : الحرام .

والمعنى : أنهم حرَّموا أنعاماً وحرثاً جعلوه لأصنامهم .

قال ابن قتيبة : وإنما قيل للحرام : حجر ، لأنه حُجر على الناس أن يصيبوه .

وقرأ الحسن ، وقتادة : "حُجْر" بضم الحاء .

قال الفراء : يقال : حِجْر ، وحُجْر ، بكسر الحاء وضمها ؛ وهي في قراءة ابن مسعود : "حرج" ، مثل : "جذب" و"جبذ" .

وفي هذ الأنعام التي جعلوها للأصنام قولان .

أحدهما : أنها البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام .

والثاني : أنها الذبائح التي للأوثان ؛ وقد سبق ذكرهما .

قوله تعالى : ﴿ لا يطعمها إلا من نشاء ﴾ هو كقولك : لا يذوقها إلا من نريد .

وفيمن أطلقوا له تناولها قولان .

أحدهما : أنهم منعوا منها النساء ، وجعلوها للرجال ، قاله ابن السائب .

والثاني : عكسه ، قاله ابن زيد .

قال الزجاج : أعلم الله تعالى أن هذا التحريم زعم منهم ، لا حجة فيه ولا برهان .

وفي قوله : ﴿ وأنعام حُرِّمت ظهورها ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها الحام ، قاله ابن عباس .

والثاني : البحيرة ، كانوا لا يحجُّون عليها ، قاله أبو وائل .

والثالث : البحيرة ، والسائبة ، والحام ، قاله السدي .

قوله تعالى : ﴿ وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها ﴾ هي قربان آلهتهم ، يذكرون عليها اسم الأوثان خاصة .

وقال أبو وائل : هي التي كانوا لا يحجُّون عليها ، وقد ذكرنا هذا عنه في قوله : ﴿ حرِّمت ظهورها ﴾ ، فعلى قوله : الصفتان لموصوف واحد .

(10/253)

---

وقال مجاهد : كان من إبلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها في شيء ؛ لا إن رُكبوا ، ولا إن حملوا ، ولا إن حلبوا ، ولا إن نُتِجوا .

وفي قوله : ﴿ افتراءً على الله ﴾ قولان .

أحدهما : أن ذكر أسماء أوثانهم ، وترك ذكر الله هو الافتراء .

والثاني : أن إضافتهم ذلك إلى الله تعالى هو الافتراء ، لأنهم كانوا يقولون : هو حرم ذلك .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ ﴾

ذكر تعالى نوعاً آخر من جهالتهم .

وقرأ أبان بن عثمان "حُجُرٍ" بضم الحاء والجيم .

وقرأ الحسن وقتادة ""حَجْر" بفتح الحاء وإسكان الجيم ، لغتان بمعنًى .

وعن الحسن أيضاً "حُجر" بضم الحاء .

قال أبو عبيد عن هارون قال : كان الحسن يضم الحاء في "حِجر" في جميع القرآن إلا في قوله : ﴿ بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ [ الفرقان : 53 ] فإنه كان يكسرها هاهنا .

ورُوي عن ابن عباس وابن الزبير "وَحَرْثٌ حِرْجٌ" الراء قبل الجيم ؛ وكذا في مصحف أُبَيٍّ ؛ وفيه قولان : أحدهما أنه مثل جبَذ وجذب .

والقول الآخر وهو أصح أنه من الحِرج ؛ فإن الحِرج ( بكسر الحاء ) لغة في الحَرَج ( بفتح الحاء ) وهو الضيق والإثم ؛ فيكون معناه الحرام .

ومنه فلان يتحرّج أي يضيق على نفسه الدخولَ فيما يشتبه عليه من الحرام .

والحِجر : لفظ مشترك .

وهو هنا بمعنى الحرام ، وأصله المنع .

وسُمِّيَ العقل حجراً لمنعه عن القبائح .

وفلان في حِجْر القاضي أي منعه .

حجرت على الصبيّ حِجْراً .

والحِجر العقل ؛ قال الله تعالى : ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ [ الفجر : 5 ]

والحِجر الفرس الأنثى .

والحِجر القرابة .

قال :

يريدون أن يُقصُوه عنّي وإنه . . .

لذُو حَسَبٍ دانٍ إليّ وذو حِجْرِ

وحِجر الإنسان وحَجره لغتان ، والفتح أكثر .

(11/253)

---

أي حَرّموا أنعاماً وحَرْثاً وجعلوها لأصنامهم وقالوا : ﴿ لاَّ يَطْعَمُهَآ إِلاَّ مَن نَّشَآءُ ﴾ وهم خدّام الأصنام .

ثم بيّن أن هذا تحكّم لم يَرِد به شرع ؛ ولهذا قال : "بِزعْمِهِمْ" .

﴿ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ﴾ يريد ما يسيبونه لآلهتهم على ما تقدّم من النصيب .

وقال مجاهد : المراد البَحِيرة والوصِيلة والحام .

﴿ وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسم الله عَلَيْهَا ﴾ يعني ما ذبحوه لآلهتهم .

قال أبو وائل : لا يحجّون عليها .

﴿ افتراء ﴾ أي للإفتراء ﴿ عَلَى الله ﴾ [ الأعراف : 169 ] ؛ لأنهم كانوا يقولون : الله أمرنا بهذا .

فهو نصبٌ على المفعول له .

وقيل : أي يفترون افتراء ؛ وانتصابه لكونه مصدراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ وقالوا ﴾ يعني المشركين ﴿ هذه أنعام وحرث حجر ﴾ أي حرام وأصله المنع لأنه منع من الانتفاع منه بتحريمه .

وقيل : هو من التضييق والحبس لأنهم كانوا يحبسون أشياء من أنعامهم وحروثهم لآلهتهم .

قال مجاهد : يعني بالأنعام البحيرة ولاسائبة والوصيلة والحامي ﴿ لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم ﴾ يعني يأكلها خدام الأصنام والرجال دون النساء : ﴿ وأنعام حرمت ظهورها ﴾ يعني الحوامي وهي الأنعام التي حموا ظهورها عن الركوب فكانوا لا يركبونها ﴿ وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها ﴾ يعني لا يذكرون اسم الله عليها عند الذبح وإنما كانوا يذكرون عليها أسماء الأصنام : وقيل معناه لا يحجون عليها ولا يركبونها لفعل الخير لأنه لما جرت العادة بذكر الله على فعل كل خير ذم هؤلاء على ترك فعل الخير ﴿ افتراء عليه ﴾ يعني أنهم كانوا يفعلون هذه الأفعال ويزعمون أن الله أمرهم بها وذلك اختلاق وكذب على الله عز وجل : ﴿ سيجزيهم بما كانوا يفترون ﴾ فيه وعيد وتهديد لهم على افترائهم على الله الكذب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم ﴾

(12/253)

---

أعلم تعالى بأشياء مما شرعوها وتقسيمات ابتدعوها والتزموها على جهة الفرية والكذب منهم على الله ، أفردوا من أنعامهم وزروعهم وثمارهم شيئاً وقالوا : هذا حجر أي حرام ممنوع .

وقرأ أبان بن عثمان : نعم على الإفراد .

وقرأ باقي السبعة بكسر الحاء وسكون الجيم والحجر بمعنى المحجور كالذبح والطحن يستوي في الوصف به الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، لأن حكمه حكم الأسماء غير الصفات قاله الزمخشري .

وقرأ الحسن وقتادة والأعرج بضم الحاء وسكون الجيم .

وقال القرطبي : قرأ الحسن وقتادة بفتح الحاء وإسكان الجيم ، وعن الحسن أيضاً ﴿ حجر ﴾ بضم الحاء .

وقرأ أبان بن عثمان وعيسى بن عمر بضم الحاء والجيم ، وقال هارون : كان الحسن يضم

الحاء من ﴿ حجر ﴾ حيث وقع وقع إلا وحجراً محجوراً فيكسرها وقرأ أبيّ وعبد الله وابن عباس وابن الزبير وعكرمة وعمرو بن دينار والأعمش حرج بكسر الحاء وتقديم الراء على الجيم وسكونها ، وخرج على القلب فمعناه معنى ﴿ حجر ﴾ أو من الحرج وهو التضييق ﴿ لا يطعمها ﴾ ﴿ لا يأكلها ﴾ ﴿ إلا من نشاء ﴾ وهم الرجال دون النساء ، أو سدنة الأصنام ﴿ بزعمهم ﴾ أي بتقولهم الذي هو أقرب إلى الباطل منه إلى الحق .

﴿ وأنعام حرّمت ظهورها ﴾ هي البحائر والسوائب والحوامي وتقدّم تفسيرها في المائدة .

﴿ وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها ﴾ أي عند الذبح .

وقال أبو وائل : وجماعة لا يحجون عليها ولا يلبون كانت تركب في كل وجه إلا في الحج .

﴿ افتراء عليه ﴾ اختلاقاً وكذباً على الله حيث قسموا هذه الأنعام هذا التقسيم ونسبوا ذلك إلى الله وانتصب ﴿ افتراء ﴾ على أنه مفعول من أجله أو مصدر على إضمار فعل ، أي يفترون أو مصدر على معنى وقالوا : لأنه في معنى افتروا أو مصدر في موضع الحال .

﴿ سيجزيهم بما كانوا يفترون ﴾ تهديد شديد ووعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَقَالُواْ ﴾ حكايةٌ لنوعٍ آخرَ من أنواع كفرِهم ﴿ هذه ﴾ إشارةٌ إلى ما جعلوه لآلهتهم والتأنيثُ للخبر ﴿ أنعام وَحَرْثٌ حِجْرٌ ﴾ أي حرام ، فِعْلٌ بمعنى مفعول كالذِبح يستوي فيه الواحد والكثير والذكر والأنثى لأن أصله المصدر ، ولذلك وقع صفةً لأنعامٌ وحرثٌ ، وقرىء حُجُر بالضم وبضمتين وحَرَجٌ أي ضيق وأصله حرج وقيل : هو مقلوب من حجر ﴿ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاء ﴾ يعنون خدمَ الأوثانِ من الرجال دون النساءِ والجملةُ صفةٌ أخرى لأنعامٌ وحرثٌ ﴿ بِزَعْمِهِمْ ﴾ متعلقٌ بمحذوف وهو حال من فاعل قالوا أي قالوه ملتبسين بزعمهم الباطلِ من غير حجة ﴿ وأنعام ﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ والجملةُ معطوفةٌ على قوله تعالى : ﴿ هذه أنعام ﴾ الخ ، أي قالوا مشيرين إلى طائفة أخرى من أنعامهم وهذه أنعامٌ ﴿ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ﴾ يعنون بها البحائرَ والسوائبَ والحواميَ ﴿ وأنعام ﴾ أي وهذه أنعام كما مرَّ وقوله تعالى : ﴿ لاَّ يَذْكُرُونَ اسم الله عَلَيْهَا ﴾ صفةٌ لأنعام لكنه غيرُ واقعٍ في كلامهم المحكيِّ كنظيره بل مَسوقٌ من جهته تعالى تعييناً للموصوف وتمييزاً له عن غيره كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ رَسُولَ الله ﴾ على أحد التفاسير ، كأنه قيل : وأنعامٌ ذُبحت على الأصنام فإنها التي لا يُذكر عليها اسمُ الله وإنما يُذكر عليها اسمُ الأصنام ، وقيل : لا يحجّون عليها فإن الحجَّ لا يعرى عن ذكر الله

تعالى . وقال مجاهد : كانت لهم طائفةٌ من أنعامهم لا يذكرون اسمَ الله عليها ولا في شيء من شأنها لا إن ركِبوا ولا إن حلَبوا ولا إن نُتجوا ولا إن باعوا ولا إن حمَلوا ﴿ افتراء عَلَيْهِ ﴾ نُصب على المصدر إما على أن ما قالوه تقوُّلٌ على الله تعالى ، وإما على تقدير عاملٍ من لفظه ، أي افترَوا افتراءً والجارُّ متعلقٌ بقالوا أو بافترَوا المقدّر ، أو بمحذوف هو صفةٌ له لا بافتراءً لأن المصدرَ

(14/253)

---

المؤكد لا يعمل ، أو على الحال من فاعل قالوا ، أي مفترين أو على العلة أي للافتراء فالجارُّ متعلق به ﴿ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ أي بسببه أو بدله وفي إبهام الجزاءِ من التهويل ما لا يخفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(15/253)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالُواْ ﴾ حكاية لنوع آخر من أنواع كفر أولئك الكفار ، وقيل : تتمة لما تقدم ﴿ هذه

﴿ أي ما جعلوه لآلهتهم والتأنيث للخبر ﴿ أنعام وَحَرْثٌ ﴾ أي زرع ﴿ حِجْرٍ ﴾ أي ممنوع منها وهو فعل بمعنى مفعول كالذبح يستوي فيه الواحد والكثير والذكر والأنثى لأن أصله المصدر ولذلك وقع صفة لأنعام وحرث .

وقرأ الحسن وقتادة ﴿ حِجْرٍ ﴾ بضم الحاء ، وقرأ أيضاً بفتح الحاء وسكون الجيم وبضم الحاء والجيم معا .

ويحتمل في هذا أن يكون مصدراً كالحلم ، وأن يكون جمعا كسقف ورهن .

وعن ابن عباس وابن الزبير رضي الله عنهما ﴿ حَرَجٌ ﴾ بكسر الحاء وتقديم الراء على الجيم أي ضيق وأصله حرج بفتح الحاء وكسر الراء ، وقيل : هو مقلوب من حجر كعميق ومعيق .

﴿ لاَّ يَطْعَمُهَا ﴾ أي يأكلها ﴿ إِلاَّ مَن نَّشَاء ﴾ يعنون كما روي عن ابن زيد الرجال دون النساء ، وقيل : يعنون ذلك وخدم الأوثان ، والجملة صفة أخرى لأنعام وحرث ، وقوله سبحانه ﴿ بِزَعْمِهِمْ ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل ﴿ قَالُواْ ﴾ أي قالوا ذلك متلبسين بزعمهم الباطل من غير حجة ﴿ وأنعام ﴾ خبر مبتدأ محذوف والجملة معطوفة على قوله سبحانه : ﴿ هذه أنعام ﴾ أي قالوا مشيرين إلى طائفة من أنعامهم وهذه أنعام .

وقيل : إن الإشارة أولاً إلى ما جعل لآلهتهم السابق وما بينهما كالاعتراض وهذا عطف على ﴿ أنعام ﴾ [ الأنعام : 136 ] المتقدم إدخاله فيما تقدم لأن المراد به السوائب

ونحوها وهي بزعمهم تعتق وتعفى لأجل الآلهة ﴿ حرمات ﴾ أي منعت ﴿ ظُهُورُهَا ﴾ فلا تركب ولا يحمل عليها ﴿ وأنعام ﴾ أي وهذه أنعام على ما مر .

وقوله سبحانه : ﴿ لاَّ يَذْكُرُونَ اسم الله عَلَيْهَا ﴾ صفة لأنعام مسوق من قبله تعالى تعييناً للموصوف وتمييزاً له عن غيره كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا المسيح عِيسَى ابن مَرْيَمَ رَسُولَ الله ﴾ [ النساء : 157 ] في رأي لا أنه واقع في كلامهم المحكي كنظائره كأنه قيل : وأنعام ذبحت على الأصنام فإنها التي لا يذكر اسم الله تعالى عليها وإنما يذكر عليها اسم الأصنام .

وأخرج ابن المنذر وغيره عن أبي وائل أن المعنى لا يحجون عليها ولا يلبون .

وعن مجاهد كانت لهم طائفة من أنعامهم لا يذكرون اسم الله تعالى عليها ولا في شيء من شأنها لا إن ركبوا ولا أن حلبوا ولا ولا .

*(16/253)*

---

﴿ افتراء عَلَيْهِ ﴾ أي على الله سبحانه وتعالى ، ونصب ﴿ افتراء ﴾ على المصدر إما على أن قولهم المحكي بمعنى الافتراء ، وإما على تقدير عامل من لفظه أي افتروا افتراء أو على الحال من فاعل ﴿ قَالُواْ ﴾ أي مفترين أو على العلة أي للافتراء وهو بعيد معنى ،

و﴿ عَلَيْهِ ﴾ قيل : متعلق بقالوا أو بافتروا المقدر على الاحتمالين الأولين وبافتراء على الاحتمالين الأخيرين .

ولا يخفى بعد تعلقه بقالوا ، والذي دعاهم إليه ومنعهم من تعلقه بالمصدر على ما قيل أن المصدر إذا وقع مفعولاً مطلقاً لا يعمل لعدم تقديره بأن والفعل ، وفيه نظر لأن تأويله بذلك ليس بلازم لتعلق الجار به فإنه مما يكفيه رائحة الفعل .

وجوز أبو البقاء أن يكون الجار متعلقاً بمحذوف وقع صفة لافتراء أي افتراء كائناً عليه ﴿ سَيَجْزِيهِم ﴾ ولا بد ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أي بسببه أو بدله ، وأبهم الجزاء للتهويل .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ ﴾

عطف على جملة : ﴿ وكذلك زَيَّن لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤُهم ﴾ [ الأنعام : 137 ] وهذا ضرب آخر من دينهم الباطل ، وهو راجع إلى تحجير التّصرّف على أنفسهم في بعض أموالهم ، وتعيين مصارفه ، وفي هذا العطف إيماء إلى أنّ ما قالوه هو من تلقين شركائهم وسدنة أصنامهم كما قلنا في مَعْنى زيّن لهم شركاؤُهم .

والإشارة بهذه وهذه إلى حاضر في ذهن المتكلّمين عند صدور ذلك القول : وذلك أن يقول

أحدهم هذه الأصناف مصرفها كذا ، وهذه مصرفها كذا ، فالإشارة من مَحكِيّ قولهم حين يَشْرعون في بيان أحكام دينهم ، كما يقول القَاسم : هذا لفلان ، وهذا للآخر .

*(17/253)*

---

وأجمل ذلك هنا إذ لا غرض في بيانه لأنّ الغرض التّعجيب من فساد شرعهم ، كما تقدّم في قوله تعالى : ﴿ فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ﴾ [ الأنعام : 136 ] وقد صنّفوا ذلك ثلاثة أصناف:

صنف محجّر على مالكه انتفاعه به ، وإنَّما ينتفع به من يعّينه المالك .

والّذي يؤخذ ممّا روي عن جابر بن زيد وغيره : أنَّهم كانوا يعيّنون مِن أنعامهم وزرعهم وثمارهم شيئاً يحجّرون على أنفسهم الانتفاع به ، ويعيّنونه لمن يشاءون من سدنة بيوت الأصنام ، وخدمتها ، فتنحر أو تذبح عندما يرى من عُيِّنَت له ذلك ، فتكون لحاجة النّاس والوافدين على بيوت الأصنام وإضافتهم ، وكذلك الزّرع والثّمار تدفع إلى من عُيِّنت له ، يصرفها حيث يتعيّن .

ومن هذا الصّنف أشياء معيَّنة بالاسم ، لها حكم منضبط مثل البَحِيرة : فإنَّها لا تُنحر ولا تُؤكل إلاّ إذا ماتَت حتف أنفها ، فيحلّ أكلها للرّجال دون النّساء ، وإذا كان لها دَرّ لا يشربه

إلاّ سدنة الأصنام وضيوفهم ، وكذلك السائبة يَنتفع بدَرّها أبناءُ السَّبيل والسَدنة ، فإذا ماتت فأَكْلُهَا كالبَحِيرة ، وكذلك الحامي ، كما تقدّم في سورة المائدة .

فمعنى ﴿ لا يطعمها ﴾ لا يأكل لحمها ، أي يَحرم أكل لحمها .

ونون الجماعة في ﴿ نشاء ﴾ مراد بها القائلون ، أي يقولون لا يطعمها إلاّ من نشاء ، أي من نُعيِّن أن يطعمها ، قال في "الكشاف" : يعنون خدَم الأوثان والرّجال دون النّساء .

والحرث أصله شق الأرض بآلة حديديّة ليزرع فيها أو يغرس ، ويطلق هذا المصدر على المكان المحروث وعلى الأرض المزروعة والمغروسة وإن لم يكن بها حرث ومنه قوله تعالى : ﴿ أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ﴾ [ القلم : 22 ] فسمّاه حرثاً في وقت جذاذ الثّمار .

والحِجْر : اسم للمحجّر الممنوع ، مثل ذبح للمذبوح ، فمنع الأنعام منع أكل لحومها ، ومنع الحرث منع أكل الحبّ والتّمر والثّمار ، ولذلك قال : ﴿ لا يطعمها إلا من نشاء ﴾ .

*(18/253)*

---

وقوله : ﴿ بزعمهم ﴾ معترض بين ﴿ لا يطعمها إلاّ من نشاء ﴾ وبين : ﴿ وأنعام حرمت ظهورها ﴾ .

والباء في : ﴿ بزعمهم ﴾ بمعنى ( عن ) ، أو للملابسة ، أي يقولون ذلك باعتقادهم الباطل ، لأنَّهم لمّا قالوا : ﴿ لا يطعمها ﴾ لم يريدوا أنَّهم منعوا النّاس أكلها إلاّ من شاءوه ، لأنّ ذلك من فعلهم وليس من زعمهم .

وإنَّما أرادوا بالنَّفي نفي الإباحة ، أي لا يحلّ أن يطعمها إلاّ من نشاء ، فالمعنى : اعتقدوها حراماً لغير من عيّنوه ، حتّى أنفسهم ، وما هي بحرام ، فهذا موقع قوله : ﴿ بزعمهم ﴾ .

وتقدّم القول على الباء من قوله : ﴿ بزعمهم ﴾ آنفاً عند قوله تعالى : ﴿ فقالوا هذا لله بزعمهم ﴾ [ الأنعام : 136 ] .

والصّنف الثّاني : أنعام حُرّمت ظهورها ، أي حُرّم ركوبها ، منها الحامي : لا يَركبه أحد ، وله ضابط متّبع كما تقدّم في سورة المائدة ، ومنها أنعام يحرّمون ظهورها ، بالنّذر ، يقول أحدهم : إذا فعلتْ النّاقةُ كذا من نسلٍ أو مواصلة بين عِدة من إناث ، وإذا فعل الفحل كذا وكذا ، حَرم ظهره .

وهذا أشار إليه أبو نواس في قوله مادحاً الأمين :

وإذا المَطيُّ بنا بلغّن محمداً

فظهورهن على الرجال حرام . . .

فقوله : ﴿ وأنعام حرمت ظهورها ﴾ معطوف على : ﴿ أنعام وحرث حجر ﴾ فهو كخبر عن اسم الإشارة .

وعُلم أنَّه عطف صنف لوروده بعد استيفاء الأوصاف الّتي أجريت على خبر اسم الإشارة والمعطوف عليه عقبه .

والتّقدير : وقالوا هذه أنعام وحرث حجر وهذه أنعام حرّمت ظهورها وبُني فعل : ﴿ حرمت ﴾ للمجهول : لظهور الفاعل ، أي حرّم الله ظهورها بقرينة قوله : ﴿ افتراء عليه ﴾ .

(19/253)

---

والصّنف الثّالث : أنعام لا يذكرون اسم الله عليها ، أي لا يذكرون اسم الله عند نحرها أو ذبحها ، يزعمون أنّ ما أهدي للجنّ أو للأصنام يُذكر عليه اسم مَا قُرّب له ، ويزعمون أنّ الله أمر بذلك لتكون خالصَة القربان لما عُيّنت له ، فلأجل هذا الزعم قال تعالى : ﴿ افتراء عليه ﴾ إذ لا يعقل أن ينسب إلى الله تحريمُ ذِكر اسمه على ما يقرّب لغيره لولا أنَّهم يزعمون أنّ ذلك من القربان الّذي يُرضي الله تعالى ، لأنَّه لشركائه ، كما كانوا يقولون : "لَبَّيْك لا شريكْ لك ، إلاّ شريكاً هُوَ لكْ ، تَمْلِكُه ومَا مَلكْ" .

وعن جماعة من المفسّرين ، منهم أبو وائل ، الأنعام التي لا يذكرون اسم الله عليها كانت لهم سنّة في بعض الأنعام أن لا يُحجّ عليها ، فكانت تُركب في كلّ وجه إلاّ الحجّ ، وأنَّها المراد بقوله

: ﴿ وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها ﴾ لأنّ الحجّ لا يخلو من ذكر الله حين الكون على الرّاحلة من تلبية وتكبير ، فيكون : ﴿ لا يذكرون اسم الله عليها ﴾ كناية عن منع الحجّ عليها ، والظاهر أنّ هذه هي الحامي والبحيرة والسّائبة ، لأنَّهم لمّا جعلوا نفعها للأصنام لم يجيزوا أن تستعمل في غير خدمة الأصنام .

وقوله : ﴿ وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها ﴾ معطوف على قوله : ﴿ وأنعام حرمت ظهورها ﴾ وهو عطف صنف على صنف ، بقرينة استيفاء أوصاف المعطوف عليه ، كما تقدّم في نظيره .

وانتصب : ﴿ افتراء عليه ﴾ على المفعولية المطلقة ل ﴿ قالوا ﴾ ، أي قالوا ذلك قولَ افتراء ، لأنّ الافتراء بعض أنواع القول ، فصحّ أن ينتصب على المفعول المطلق المبين لنوع القول ، والافتراء الكذب الّذي لا شبهة لقائله فيه وتقدّم عند قوله تعالى : ﴿ فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون ﴾ في سورة آل عمران ( 94 ) ، وعند قوله : ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب في سورة العقود ( 103 ) .

وإنَّما كان قولهم افتراء : لأنَّهم استندوا فيه لشيء ليس وارداً لهم من جانب الله ، بل هو من ضلال كبرائهم .

وجملة : سيجزيهم بما كانوا يفترون ﴾ استئناف بياني ، لأنّ الافتراء على الخالق أمر شنيع عند جميع الخلق ، فالإخبار به يثير سؤال من يسأل عمّا سيلقونه من جزاء افترائهم ،

فأجيب بأنّ الله سيجزيهم بما كانوا يفترون .

وقد أبهم الجزاء للتهويل لتذهب النّفوس كلّ مذهب ممكن في أنواع الجزاء على الإثم ، والباء بمعنى ( عن ) ، أو للبدلية والعوض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

(20/253)

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ ﴾

وهذا تمادٍ في الشرك ؛ لأنهم قسموا الحيوانات والحرث وحجزوا قسماً للأصنام ، وهذه الأنعام المرصودة للأصنام لا يتصرف فيها أحد ، فلا يؤخذ لبنها ولا يستخدمها أحد كمطايا ، ولا يتعدى نفعها للناس . ولم يتنبهوا إلى أن هذه الأنعام نعمة من الله ، ولابد من الانتفاع بها ، وليس من حسن التعقل أن تترك حيواناً تستطيع أن تستفيد من تسخيره لك ولا تفعل ، هم قد فعلوا ذلك وحكى الحق عنهم فقال : ﴿ وَقَالُواْ هذه أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَآ إِلاَّ مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ . . ﴾ [ الأنعام : 138 ]

أي هي أنعام محرم استخدامها ، وحرموا أيضاً ركوبها . ﴿ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا . . ﴾ [ الأنعام : 138 ]

وتمادوا في الكفر فذكروا أسماء الأصنام عليها : ﴿ وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسم الله عَلَيْهَا افتراء عَلَيْهِ . . ﴾ [ الأنعام : 138 ]

وهذا لون من الافتراءات قد فعلوه ونسبوه إلى أنه متلقَّى من الله ، ومأمور به منه- سبحانه- ولو قالوا : إن هذه الأمور من عندهم لكان وقع الافتراء أقل حدة ، لكنه افتراء شديد لأنهم جاءوا بهذه الأشياء ونسبوها إلى الله ، وهم قد انحلوا عن الدين وقالوا على بعض من سلوكهم إنه من الدين ، ولذلك يجازيهم الله بما افتروا مصداقاً لقوله : ﴿ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [ الأنعام : 138 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(21/253)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (138) ﴾

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس في قوله ﴿ وقالوا هذه أنعام وحرث حجر ﴾ قال : الحجر ما حرموا من الوصيلة ، وتحريم ما حرموا .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ وقالوا هذه أنعام وحرث حجر ﴾ قال : ما جعلوا لله ولشركائهم .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة ﴿ وحرث حجر ﴾ قال : حرام .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ وقالوا هذه أنعام وحرث حجر ﴾ قال : إنما احتجروا ذلك الحرث لآلهتهم . وفي قوله ﴿ لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم ﴾ قالوا : يحتجرها عن النساء ويجعلها للرجال ، وقالوا : إن شئنا جعلنا للبنات فيه نصيباً وإن شئنا لم نجعل ، وهذا أمر افتروه على الله .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم ﴾ يقولون : حرام أن نطعم إلا من شئنا ﴿ وأنعام حرمت ظهورها ﴾ قال : البحيرة والسائبة والحامي ﴿ وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها ﴾ قال : لا يذكرون اسم الله عليها إذا ولدوها ولا إن نحروها .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي وائل في قوله ﴿ وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها ﴾ قال : لم يكن يحج عليها وهي البحيرة .

وأخرج أبو الشيخ عن أبان بن عثمان . أنه قرأها ﴿ هذه أنعام وحرث حجر ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس . أنه كان يقرأها " وحرث

حرج" .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن ابن الزبير أنه قرأ " أنعام وحرث حرج" .

(22/253)

---

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم أنه قرأ ﴿ بزعمهم ﴾ بنصب الزاي فيهما .

وأخرج أبو عبيد وابن الأنباري في المصاحف عن هرون قال : في قراءة عبد الله " هذه أنعام وحرث حرج" .

وأخرج ابن الأنباري عن الحسن أنه كان يقرأ " وحرث حجر " بضم الحاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(23/253)

---

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

( بصيرة فى الحرام )

وهو الممنوع منه ، إمّا بتَسْخير إلهى ، وإمَّا بمنع بَشَرىّ ، وإما بمنع من جهة العقل أَو من جهة الشرع أَو من جهة من يُرْتَسم أَمره .

أَما قوله تعالى ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ ﴾ فذلك تحريم بتسخير ، وقد حُمِل على ذلك قوله تعالى ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ وقوله تعالى ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ﴾ وقيل بل كان حراماً عليهم من جهة القهر [لا] بالتخسير الإلهى .

وقوله تعالى ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ ﴾ فهذا من جهة القهر .

والمحرم من جهة الشرع ما أُشِير إليه بقوله ﴿ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾ هذا كان محرَّماً عليهم بحكم شرعهم .

وقوله تعالى ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ الآية .

وقيل : ورد الحرام فى القرآن على عشرة أَوجه :

الأَول : حرام الصّحبة والمناكحة ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾ الآية .

الثانى : حرام الفسق والمعصية ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ ﴾ ﴿ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ .

الثالث : حرام العجائب والمعجزة ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ .

الرابع : حرام العذاب والعقوبة ﴿ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ﴿ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ ﴾ .

الخامس : حرام فسخ الشريعة ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾ إلى قوله : ﴿ ذَلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ .

السادس : حرام الحرمان والهلكة ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ .

السابع : حرام الهوى والشهوة ﴿ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا ﴾ ﴿ وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا ﴾ .

(24/253)

---

الثامن : حرام النذر والمصلحة ﴿ يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ أَي لِمَ تحكم بتحريم ذلك ﴿ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ .

التاسع : حرام الحظْر والإباحة ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ﴾ .

العاشر : حرام التوقير والْحُرْمَة ﴿ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا ﴾ وهذا النوع يأْتى على وجوه :

الأَول : وصف المسجد بالحرام ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ .

الثانى : نعت الأَشهر بالحرام ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ ﴾ .

الثالث : دعاءُ البيت بالحرام ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ﴾ .

وسُمِّيَ الحَرَم حَرَماً لتحريم الله تعالى فيه كثيراً مما ليس بمحرَّم فى غيره من المواضع .

ورجلٌ حرام وحلال ومُحِلٌّ ومُحْرِم .

وكلّ تحريم ليس من قِبَل الله تعالى فليس بشئ .

وقوله تعالى ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أَى ممنوعون من جهة الجَدّ .

وقوله تعالى ﴿ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ أَى الذى لم يوسَّع عليه فى الرِّزق كما وُسِّع على غيره .

ومن قال : (أَراد به) الْكَلْب ، فلم يَعْنِ اَن ذلك اسمٌ للكلب كما ظنه بعض من رَدّ عليه ، وإنما ذلك منه مثال لشئ كثيرا ما يَحْرِمُه الناس أَى يمنعونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 454.456 ﴾

(25/253)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قرا الجمهور " أَنْعَام " بصِيغَة الجَمْعِ وأبان بن عثمان " نَعَمٌ " بالإفْرَاد ، وهو قَرِيبٌ لأن اسْم الجِنْس يقُوم مقام الجَمْعِ ، وقرأ الجمهور : " حِجْر " بكسر الحاء المهملة وسكون الجيم .

وقرأ الحسن وقتادة والأعْرَج : بضم الحَاءِ وسُكُون الجيم .

ونقل عن الحسن وقتادة أيضاً : فتح الحضاءِ وسكن الجيم ، ونقل عن أبان بن عُثْمَان : ضمُّ الحاء الجيم معاً .

وقال هَارُون : كان الحسن يَضمُّ الحاء من " حِجْر " حيث وقع في القُرْآن إلاَّ موضعاً واحداً [ وهو ] : ﴿ وَحِجْراً مَّحْجُوراً ﴾ [ الفرقان : 53 ]

والحاصل : أن هذه المادَّة تدل على المَنْع والحَصْر ؛ ومنه : فلان في حِجْر القَاضِي أي : في مَنْعِه ، وفي حِجْري ، أي : ما يَمْنَع من الثَّوْاب أن ينْفَلِت منه شَيْءٌ ، وقد تقدم تَحْقِيق ذلك في النِّسَاء .

فقوله : " وحَرْث حِجْر " أي : مَمْنُوع ف " فِعْل " بمعنى مَفْعُول ؛ كالذَّبْح والنَّطْح بمعنى مَذْبُوح ومَنْطُوح .

فإن قيل : قد تقدَّم شيئان : وهما أنْعَام وحَرْث ، وجيء بالصِّفَة مفردة .

فالجواب : أنه في الأصْل يُذكَّر ويُوحَّد مطلقاً .

(26/253)

---

قال الزَّمَخْشَري : " ويستوي في الوَصْف به المذكَّر والمؤنَّث والواحد والجمع ؛ لأن حكمه حكم الأسْمَاء غير الصِّفاتِ " يعني بكونه حُكْمُه حكم الأسْمَاء : انه في الأصْل مصْدَر لا صِفَة ، فالاسم هنا يُرَادُ به المَصْدَر ، وهو مُقَابِل الصِّفة .

وأما بقية القراءات : فقال أبو البقاء : " إنها لُغَاتٌ في الكَلِمَةِ " وفسر معناها بالممْنُوع .

قال شهاب الدين : ويجوز أن يكُون المَضْمُوم الحاء والجيم مَصْدراً ، وقد جاء من المصادر للثُّلاثي ما هُو عل وَزْن " فُعُل " بضمِّ الفاء والعَيْن ، نحو حُلُم ، ويجُوز أن يكون جَمْع " حَجْر " بفتح الحاءِ وسكون الجيم ، و" فُعُل " قد جاء قَلِيلاً جمعاً " لفَعْل " نحو : سَقْف وسُقُف ، ورَهْن ورُهُن ، وأن يكون جَمْعاً لـ " فِعْل " بكسر الفاء ، و" فُعُل " أيضاً قد جَاء جمعاً " لِفعْل " بكسر الفاءِ وسُكُون العين ، حو : حِدْج وحُدُج ، وأما حُجْر بضمِّ الحاء وسُكون الجيم : فهو مخَفَّفٌ من المضمُمة ، فيجوز أن يكُون وأن يكون جَمْعاً لحَجْر أو حِجْر .

وقرأ أَبيّ بن كَعْب ، وعبد الله بن العبَّاس ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد اللَّه بن الزُّبَيْر ، وعِكْرِمَة ، وعمرو بن دِينَار ، والأعمش : حِرِج بكسْر الحاَء وراء سَاكِنَة مقدَّمة على الجيم ، وفيها تأويلان :

أحدهما : أنَّهَا من مادة الحَرَج وهُو التَّضْييق .

قال أبو البقاء : واصلُه " حَرِج " بفتح الحاء وكسر الراء ، ولكنه خُفِّف ونُقِل ؛ مثل فَخْذ في فَخِذ .

قال شهاب الدِّين : ولا حَاجَة إلى ادِّعاء ذلك ، بل هذا جَاءَ بطَريق الأَصَالة على وَزْن فِعْل .

والثاني : أنه مَقْلُوب من حجر ، قُدِّمَتْ لامُ الكَلِمَة على عَيْنها ، ووزنه " فِلْع " ؛ كقولهم : نَاء

في نَأى ، ومعيق في عَمِيق ، والقَلْب قليل في لسانهم ، وقد قدَّمت منه جُمْلَة في المائدة عند قوله – تبارك وتعالى – : ﴿ أَشْيَآءَ ﴾ [ المائدة : 101 ] .

(27/253)

---

قوله : " لا يَطْعَمُهُما إلى مَنْ نَشَاءُ " هذه الجُمْلَة في محلِّ رفْع نَعْتًا لـ " أنعام " وصفوه بوَصْفَيْن :

أحدهما : أنه حِجْرٌ .

والثاني : أنه لا يَأكُلُه إلا من شَاءُوا وهم الرِّجال دُون النِّساء ، أو سَدَنَه الأصْنَام .

قوله : " افْتِرَاءٌ " فيه أربعة أوجه :

أحدها – وهو مذهب سيبويه – : أنه مَفْعُول من أجْلِه ، أي : قالوا ما تقدَّم لأجْل الافْتِرَاء على البَاري – تبارك وتعالى – أي : يزْعُمُون أن الله أمرهُم به افْتِرَاء عليه .

الثاني : مَصْدر على غير الصَّدْر ؛ لأن قَوْلَهُم المحْكي عنهم افْتِرَاء ن فهو نَظير " قَعَد القُرْفُصَاء " وهو قول الزَّجَّاج .

الثالث : أنه مصدر عامله من لَفْظِه مُقَدَّر ، أي : افْتَروا ذلك افْتِرَاء .

الرابع : أنه مَصْدَر في موضع الحال ، أي : قالوا ذلك حَال افْتِرَائهم ، وهي تُشْبِه الحال المؤكِّدة ؛ لأن هذا القَوْل المَخْصُوص لا يَكُون قَائِله إلا مُفْتَرِياً .

وقوله : " عَلَى اللَّه " يجوز تعلُّقه بـ " افْتِرَاءً " على القول الأوَّل والرَّابع ، وعلى الثاني والثَّالث بـ " قالوا " لا بـ " افْتِرَاءً " ؛ لأن المصدر المؤكد لا يَعْمَل ، ويجُوز ان يتعلَّق بمحذُوف صِفَة لـ " افْتِراءً " وهذا جَائِزٌ على كل الأقوال .

قوله : ﴿ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ والمقصود منه الوعيد ، و" الباء " في قوله : " بِمَا " سببيّة ، و" مَا " مَصْدَرِيَّة ، أو موصُوفة ، أو بمَعْنَى الَّذِي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 459 . 461 ﴾ . باختصار .

(28/253)

---

قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (139) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر من سفههم ما فيه إقدام محض وما فيه إحجام خالص محت ، أتبعه ما هو مختلط منهما فقال : ﴿ وقالوا ﴾ أي المشركون أو بعضهم وأقره الباقون ﴿ ما في بطون هذه ﴾ إشارة إلى ما اقتطعوه لآلهتهم ، وبينوه بقولهم : ﴿ الأنعام ﴾ أي من الأجنة ﴿ خالصة ﴾

أي خلوصاً لا شوب فيه ، أنث للحمل على معنى الأجنة ، أو تكون التاء للمبالغة أو تكون مصدراً كالعافية ، أي ذو خالصة ﴿ لذكورنا ﴾ ؛ ولما كان المراد العراقة في كل صفة ، أتى بالواو فقال : ﴿ ومحرم ﴾ وحذف الهاء إما حملاً على اللفظ أو تحقيقاً لأن المراد ب " خالصة " المبالغة ﴿ على أزواجنا ﴾ أي إناثنا ، وكأنه عبر بالأزواج بياناً لموضع السفه بكونهن شقائق الرجال ، هذا إن ولد حياً ﴿ وإن يكن ﴾ أي ما في بطونها ﴿ ميتة ﴾ وكأنه أثبت هاء التأنيث مبالغة ، وأنث الفعل أبو جعفر وابن عامر وأبو بكر عن عاصم حملاً على معنى " ما " ورفع الاسم على التمام ابن كثير وأبو جعفر وابن عامر ، وذكر ابن كثير لأن التأنيث غير حقيقي ، ونصب الباقون على جعلها ناقصة مع التذكير حملاً على لفظ " ما " ﴿ فهم ﴾ أي ذكورهم وإناثهم ﴿ فيه ﴾ أي ذلك الكائن الذي في البطون ﴿ شركاء ﴾ أي على حد سواء .

ولما كان ذلك كله وصفاً منهم للأشياء في غير مواضعها التي يحبها الله قال : ﴿ سيجزيهم وصفهم ﴾ أي بأن يضع العذاب الأليم في كل موضع يكرهون وصفه فيه ، حتى يكون مثل وصفهم الذي لم يزالوا يتابعون الهوى فيه حتى صار خلقاً لهم ثابتاً فهو يريهم وخيم أثره ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إنه حكيم ﴾ أي لا يجازى على الشيء إلا بمثله ويضعه في أحق مواضعه وأعدلها ﴿ عليم ﴾ أي بالمماثلة ومن يستحقها وعلى أيّ وجه يفعل ، وعلى أيّ كيفية يكون أتم وأكمل ، وفي ذلك أتم إشارة إلى أن هذه الأشياء في غاية البعد عن الحكمة ،

فهو متعال عن أن يكون شرعها وهي سفه محض لا يفعلها إلاّ ظالم جاهل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 724 . 725 ﴾

وقال الفخر :

(29/253)

---

هذا نوع رابع من أنواع قضاياهم الفاسدة كانوا يقولون في أجنة البحائر والسوائب ما ولد منها حياً فهو خالص لذكور لا تأكل منها الأناث ، وما ولد ميتاً اشترك فيه الذكور والإناث سيجزيهم وصفهم ، والمراد منه الوعيد ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ ليكون الزجر واقعاً على حد الحكمة وبحسب الاستحقاق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 171 ﴾

فصل

قال الفخر :

ذكر ابن الأنباري في تأنيث ﴿ خَالِصَةٌ ﴾ ثلاثة أقوال :

قولين للفراء وقولاً للكسائي :

أحدها : أن الهاء ليست للتأنيث وإنما هي للمبالغة في الوصف كما قالوا : راوية ، وعلامة

، ونسابة ، والداهية ، والطاغية كذلك يقول ؛ هو خالصة لي ، وخالص لي .

هذا قول الكسائي .

والقول الثاني : أن ﴿ مَا ﴾ في قوله : ﴿ مَا فِى بُطُونِ هذه الأنعام ﴾ عبارة عن الأجنة ، وإذا كان عبارة عن مؤنث جاز تأنيثه على المعنى ، وتذكيره على اللفظ ، كما في هذه الآية ، فإنه أنث خبره الذي هو ﴿ خَالِصَةٌ ﴾ لمعناه ، وذكر في قوله : ﴿ وَمُحَرَّمٌ ﴾ على اللفظ .

والثالث : أن يكون مصدراً والتقدير : ذو خالصة كقولهم : عطاؤك عافية ، والمطر رحمة ، والرخص نعمة .

فائدة :

قرأ ابن عامر ﴿ وإنْ تَكُنْ ﴾ بالتاء و ﴿ مَيْتَةً ﴾ بالنصب وقرأ ابن كثير ﴿ يَكُنِ ﴾ بالياء ﴿ مَيْتَة ﴾ بالرفع ، وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿ تَكُنْ ﴾ بالتاء ﴿ مَيْتَةً ﴾ بالنصب ، والباقون ﴿ يَكُنِ ﴾ بالياء ﴿ مَيْتَةً ﴾ بالنصب .

أما قراءة ابن عامر ، فوجهها أنه ألحق الفعل علامة التأنيث لما كان الفاعل مؤنثاً في اللفظ

وأما قراءة ابن كثير فوجهها أن قوله : ﴿ مَيْتَةً ﴾ اسم ﴿ يَكُنِ ﴾ وخبره مضمر .

والتقدير : وإن يكن لهم ميتة أو وإن يكن هناك ميتة .

وذكر لأن الميتة في معنى الميت .

قال أبو علي : لم يلحق الفعل علامة التأنيث لما كان الفاعل المسند إليه تأنيثه غير حقيقي ، ولا يحتاج الكون إلى خبر ، لأنه بمعنى حدث ووقع .

وأما قراءة عاصم ﴿ تَكُنْ ﴾ بالتاء ﴿ مَيْتَةً ﴾ بالنصب فالتقدير وإن تكن المذكور ميته فأنث الفعل لهذا السبب وأما قراءة الباقين ﴿ وَإِن يَكُنْ ﴾ بالياء ﴿ مَيْتَةً ﴾ بالنصب فتأويلها ، وإن يكن المذكور ميتة ذكروا الفعل لأنه مسند إلى ضمير ما تقدم في قوله : ﴿ مَا فِى بُطُونِ هذه الأنعام ﴾ وهو مذكر ، وانتصب قوله ﴿ مَيْتَةً ﴾ لما كان الفعل مسنداً إلى الضمير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 171 ﴾ . بتصرف يسير .

*(30/253)*

---

وقال السمرقندى :

﴿ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هذه الأنعام خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا ﴾

قال الكلبي يعني : البحيرة والوصيلة حلال لذكورنا ما دامت في الأحياء ، وليس للنساء فيه شركة ولا نصيب .

فذلك قوله : ﴿ وَمُحَرَّمٌ على أزواجنا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً ﴾ يعني : من هذه الأنعام ﴿ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء ﴾ يعني : الرجال والنساء في أكلها .

وقال الضحاك : كانت الناقة إذا ولدت فصيلاً ذكراً حرموا لحم الفصيل ولبن الناقة على النساء دون الرجال ، وإن وضعت فصيلاً ميتاً اشتركت الرجال والنساء في لحم الفصيل ولبن الناقة .

ذكر في أول الكلام ﴿ خَالِصَةٌ ﴾ لفظ التأنيث ، لأنه انصرف إلى المعنى ، ومعناه : حمله ما في بطون هذه الأنعام .

ثم قال ﴿ وَمُحَرَّمٌ على أزواجنا ﴾ ذكر بلفظ التذكير ، لأنّه انصرف إلى قوله : ﴿ مَا فِى بُطُونِ ﴾ قرأ عاصم في رواية أبي بكر ﴿ وَأَنْ تَكُنْ ﴾ بالتاء على معنى التأنيث ﴿ مَيْتَةً ﴾ بالنصب يعني : وإن تكن الجماعة ميتة صارت الميتة خبر كان .

وقرأ ابن عامر ﴿ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً ﴾ بالضم يعني : وإن كانت ميتة جعلها اسم كان رفعاً وقرأ ابن كثير ﴿ وَإِن يَكُنْ ﴾ بالياء ﴿ مَيْتَةً ﴾ بالضم يعني وإن : كان ما فيه ميتة بلفظ التذكير وجعل الميتة اسم كان .

وقرأ الباقون ﴿ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً ﴾ جعلوا الميتة خبر كان بلفظ التذكير .

ثم قال : ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ صار نصباً لنزع الخافض يعني : سيعاقبهم بكذبهم ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ عليهم بالعذاب ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بهم .

وفي الآية دليل أن العالم ينبغي أن يتعلم قول من خالفه وإن لم يأخذ به حتى يعلم فساد قوله ، ويعلم كيف يرد عليه لأن الله تعالى أعلم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه قول من

خالفهم في زمانهم ، ليعرفوا فساد قولهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هذه الأنعام خَالِصَةٌ لّذُكُورِنَا ﴾ .

(31/253)

---

قال ابن عباس والشعبي وقتادة : يعني ألبان النحائر كانت للذكور دون النساء فإذا ماتت اشترك في لحمها ذكورهم وإناثهم .

وقال السدي : يعني أخذ النحائر ما ولد منها أُخذ خالص للرجل دون النساء [ وأما ما ولد ميت فيأكله ] الرجال والنساء ، ودخل الهاء في ( خالصة ) على التأكيد والمبالغة ، كما فعل ذلك بالراوية والنسابة والعلامة .

قال الفراء : أُهلت الهاء لتأنيث الأنعام ، لأن ما في بطنها مثلها ، فأنث لتأنيثها قال : وقد يكون الخالصة كالعاقبة ومنه قوله ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدار ﴾ [ ص : 46 ] ، وقرأ عبد الله والأعمش : خالص لذكورنا بغير الهاء ردّاً إلى ما ، وقرأ ابن عبّاس : خالصة بالإضافة [ ويخلص ] والخالصة والخليصة والخلصان واحد . قال الشاعر :

كنت أميني وكنت خالصتي . . . وليس كل إمرىء بمؤتمن

﴿ وَمُحَرَّمٌ على أَزْوَاجِنَا ﴾ يعني النساء ﴿ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً ﴾ قرأ أهل المدينة : تكن بالتاء ، ميتةٌ بالرفع على معنى : وإن تقع الأنعام ميتة ، وقرأ أهل مكّة : يكن بالياء ، ميتة بالرفع على معنى : وإن يقع ما في بطون الأنعام ميتةً ، وقرأ الأعمش : تكن بالتاء ، ميتة نصباً على معنى : وإن يكن [ ما في بطون الأنعام ميتة ] وقرأ الباقون : يكن بالياء ، ميتة بالنصب ، ردّوه إلى ما يؤيّد ذلك قوله : ﴿ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ﴾ ولم يقل : فيها . ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ أي بوصفهم وعلى وصفهم الكذب على الله كقوله ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكذب ﴾ [ النحل : 62 ] والوصف والصفة واحد كالوزن والزنة والوعد والعدة ، ﴿ إِنَّهُ حِكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هذه الأنعام خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا ﴾

(32/253)

---

هذه الآية تتضمن تعديد مذاهبهم الفاسدة ، وكانت سنتهم في بعض الأنعام أن يحرموا ما ولدت على نسائهم ويخصصونه لذكورهم ، والهاء في ﴿ خالصة ﴾ قيل هي للمبالغة كما هي في رواية غيرها ، وهذا كما تقول فلان خالصتي وإن كان باب هاء المبالغة أن يلحق بناء

مبالغة كعلامة ونسابة وبصيرة ونحوه ، وقيل هي لتأنيث الأنعام إذ ما في بطونها أنعام أيضاً ، وقيل هي على تأنيث لفظ ﴿ ما ﴾ لأن ﴿ ما ﴾ واقعة في هذا الموضع موقع قولك جماعة وجملة ، وقرأ جمهور القراء والناس " خالصةٌ " بالرفع ، وقرأ عبد الله بن مسعود وابن جبير وابن أبي عبلة والأعمش " خالصُ " دون هاء ورفع هاتين القراءتين على خبر الابتداء .

وقرأ ابن عباس بخلاف والأعرج وقتادة وسفيان بن حسين " خالصةً " بالنصب ، وقرأ سعيد بن جبير فيما ذكر أبو الفتح " خالصاً " ونصب هاتين القراءتين على الحال من الضمير الذي في قوله ﴿ في بطون ﴾ ، وذلك أن تقدير الكلام : وقالوا ما استقر هو في بطون هذه الأنعام فحذف الفعل وحمل المجرور الضمير ، والحال من الضمير والعامل فيها معنى الاستقرار ، قال أبو الفتح ويصح أن يكون حالاً من ﴿ ما ﴾ على مذهب أبي الحسن في إجازته تقديم الحال على العامل فيها ، وقرأ ابن عباس أيضاً وأبو حيوة والزهري " خالصه " بإضافة " خالص " إلى ضمير يعود على ﴿ ما ﴾ ، ومعناه ما خلص وخرج حياً ، والخبر على قراءة من نصب " خالصة " في قوله ﴿ لذكورنا ﴾ والمعنى المراد بما في قوله ﴿ ما في بطون ﴾ قال السدي : هي الأجنة ، وقال ابن عباس وقتادة والشعبي : هو اللبن ، قال الطبري واللفظ يعمهما ، وقوله ﴿ ومحرم ﴾ يدل على أن الهاء في ﴿ خالصة ﴾ للمبالغة ، ولو كانت لتأنيث لقال ومحرمة ، و ﴿ أزواجنا ﴾ يريد به جماعة النساء التي هي معدة

أن تكون أزواجاً ، قال مجاهد ، وحكى الطبري عن ابن زيد أن المراد ب ﴿ أزواجنا ﴾ البنات .

(33/253)

---

قال القاضي أبو محمد : وهذا يبعد تحليقه على المعنى ، وقوله ﴿ إن يكن ميتة ﴾ كان من سنتهم أن ما خرج من الأجنة ميتاً من تلك الأنعام الموقوفة فهو حلال للرجال والنساء جميعاً وكذلك ما مات من الأنعام الموقوفة نفسها ، وقرأ ابن كثير " وإن يكن " بالياء " ميتةٌ " بالرفع فلم يلحق الفعل علامة التأنيث لما كان تأنيث الفاعل المسند إليه غير حقيقي ، والمعنى وإن وقع ميتة أو حدث ميتة ، وقرأ ابن عامر " وإن تكن " بالتاء " ميتةٌ " بالرفع فألحق الفعل علامة التأنيث لما كان الفاعل في اللفظ مؤنثاً ، وأسند الفعل إلى الميتة كما فعل ابن كثير ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر عنه " تكن " بالتاء " ميتةً " بالنصب فأنث وإن كان المتقدم مذكراً لأنه حمله على المعنى .

قال القاضي أبو محمد : فالتقدير وإن تكن النسمة أو نحوها ميتة ، وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص " يكن " بالياء " ميتةً " بالنصب ، فذكروا الفعل لأنهم أسندوه إلى ضميرها تقدم من قوله ﴿ ما في بطون هذه الأنعام ﴾ وهو مذكر ،

وانتصبت الميتة على الخبر ، قال أبو عمرو بن العلاء ويقوي هذه القراءة قوله ﴿ فهم فيه ﴾ ولم يقل فيها ، وقرأ يزيد بن القعقاع " وإن تكن ميّتة " بالتشديد ، وقرأ عبد الله بن مسعود " فهم فيه سواء " ثم أعقب تعالى بوعيدهم على ما وصفوا أنه من القربات إلى الله تعالى وشرعوه من الباطل والإفك ﴿ إنه حكيم ﴾ أي في عذابهم على ذلك ﴿ عليم ﴾ بقليل ما تقوّلوه من ذلك وكثيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وقالوا ما في بطون هذه الأنعام ﴾

يعني بالأنعام : المحرمات عندهم ، من البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة .

وللمفسرين في المراد بما في بطونها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه اللبن ، قاله ابن عباس ، وقتادة .

والثاني : الأجنَّة ، قاله مجاهد .

والثالث : الولد واللبن ، قاله السدي ، ومقاتل .

*(34/253)*

قوله تعالى : ﴿ خالصة لذكورنا ﴾ قرأ الجمهور "خالصة" على لفظ التأنيث ، وفيها أربعة أوجه .

أحدها : أنه إنما أُنثت ، لأن الأنعام مؤنثة ، وما في بطونها مثلها ، قاله الفراء .

والثاني : أن معنى "ما" التأنيث ، لأنها في معنى الجماعة ؛ فكأنه قال : جماعة ما في بطون هذه الأنعام خالصة ، قاله الزجاج .

والثالث : أن الهاء دخلت للمبالغة في الوصف ، كما قالوا : "علاّمة" و"نسّابة" .

والرابع : أنه أُجري مجرى المصادر التي تكون بلفظ التأنيث عن الأسماء المذكَّرة ، كقولك : عطاؤك عافية ، والرخص نعمة ، ذكرهما ابن الأنباري .

وقرأ ابن مسعود ، وأبو العالية ، والضحاك ، والأعمش ، وابن أبي عبلة : "خالصٌ" بالرفع ، من غير هاء .

قال الفراء : وإنما ذُكِّر لتذكير "ما" .

وقرأ ابن عباس ، وأبو رزين ، وعكرمة ، وابن يعمر "خالصُهُ" برفع الصاد والهاء على ضمير مذكَّر ، قال الزجاج : والمعنى : ما خلص حياً .

وقرأ قتادة : "خالصةً" بالنصب ، فأما الذكور : فهم : الرجال ، والأزواج : والنساء .

قوله تعالى : ﴿ وإن يكن ميتة ﴾ قرأ الأكثرون "يكن" بالياء ، "ميتة" بالنصب ؛ وذلك مردود على لفظ "ما" المعنى : وإن يكن ما في بطون هذه الأنعام ميتة .

وقرأ ابن كثير : "يكن" بالياء ، "ميتةٌ" بالرفع .

وافقه ابن عامر في رفع الميتة ؛ غير أنه قرأ "تكن" بالتاء .

والمعنى : وإن تحدث وتقع ، فجعل "كان" : تامة لا تحتاج إلى خبر .

وقرأ أبو بكر عن عاصم : "تكن" بالتاء ، "ميتةً" بالنصب .

والمعنى : وإن تكن الأنعام التي في البطون ميتة .

قوله تعالى : ﴿ فهم فيه شركاء ﴾ يعني : الرجال والنساء .

﴿ سيجزيهم وصفهم ﴾ قال الزجاج : أراد جزاء وصفهم الذي هو كذب . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هذه الأنعام خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا ﴾

هذا نوع آخر من جهلهم .

قال ابن عباس : هو اللبن ، جعلوه حلالاً للذكور وحراماً على الإناث .

(35/253)

وقيل : الأجِنّة ؛ قالوا : إنها لذكورنا .

ثم إنْ مات منها شيء أكله الرجال والنساء .

والهاء في "خالِصة" للمبالغة في الخلوص ؛ ومثله رجل علامة ونسابة ؛ عن الكِسائيّ والأخفش .

و"خالِصةٌ" بالرفع خبر المبتدأ الذي هو "ما" .

وقال الفراء : تأنيثها لتأنيث الأنعام .

وهذا القول عند قوم خطأ ؛ لأن ما في بطونها ليس منها ؛ فلا يشبه قوله ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السيارة ﴾ [ يوسف : 10 ] لأن بعض السَّيارة سَيّارة ، وهذا لا يلزم قال الفراء : فإن ما في بطون الأنعام أنعام مثلها ؛ فأنّث لتأنيثها ، أي الأنعام التي في بطون الأنعام خالصة لذكورنا .

وقيل : أي جماعة ما في البطون .

وقيل : إن "ما" ترجع إلى الألبان أو الأجِنّة ؛ فجاء التأنيث على المعنى والتذكير على اللفظ .

ولهذا قال : "وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا" على اللفظ .

ولو راعى المعنى لقال ومحرّمة .

ويَعْضُد هذا قراءة الأعمش "خالِص" بغير هاء .

قال الكسائي : معنى خالص وخالصة واحد ، إلا أن الهاء للمبالغة ؛ كما يقال ؛ رجل

داهية وعلامة ؛ كما تقدمّ .

وقرأ قَتادة "خالِصةً" بالنصب على الحال من الضمير في الظرف الذي هو صلة ل"ما" .

وخبر المبتدأ محذوف ؛ كقولك : الذي في الدار قائماً زيد .

هذا مذهب البصريين .

وانتصب عند الفرّاء على القطع .

وكذا القول في قراءة سعيد بن جبير "خالِصاً" .

وقرأ ابن عباس "خالِصهُ" على الإضافة فيكون ابتداء ثانياً ؛ والخبر "لذكورِنا" والجملة خبر "ما" .

ويجوز أن يكون "خالصِه" بدلاً من "ما" .

فهذه خمس قراءات .

﴿ وَمُحَرَّمٌ على أَزْوَاجِنَا ﴾ أي بناتنا ؛ عن ابن زيد .

وغيره : نساؤهم .

﴿ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً ﴾ قرىء بالياء والتاء ؛ أي إن يكن ما في بطون الأنعام ميتة ﴿ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ﴾ أي الرجال والنساء .

وقال "فيه" لأن المراد بالميتة الحيوان ، وهي تقوّي قراءة الياء ، ولم يقل فيها .

"مَيْتَةٌ" بالرفع بمعنى تقع أو تحدث .

"ميتةً" بالنصب ؛ أي وإن تكن النَّسمة ميتة .

﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ أي كذبهم وافتراءهم ؛ أي يعذبهم على ذلك .

وانتصب "وَصْفَهُمْ" بنزع الخافض ؛ أي بوصفهم .

وفي الآية دليل على أن العالم ينبغي له أن يتعلّم قول من خالفه وإن لم يأخذ به ، حتى يعرف فساد قوله ، ويعلم كيف يردّ عليه ؛ لأن الله تعالى أعلم النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه قول من خالفهم من أهل زمانهم ؛ ليعرفوا فساد قولهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ﴾ يعني نساءنا ، قال ابن عباس وقتادة والشعبي : أراد أجنة البحائر والنساء جميعاً وهو قوله تعالى : ﴿ وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء ﴾ ودخلت الهاء في خالصة للتأكيد والمبالغة ، كقولهم رجل علاَّمة ونسَّابه .

وقال الفراء : دخلت الهاء لتأنيث الأنعام لأن ما في بطونها مثلها فأنث بتأنيثها .

وقال الكسائي : خالص وخاصة واحد مثل وعظ وموعظة وقيل : إذا كان اللفظ عبارة عن مؤنث جاز تأنيثه على المعنى وتذكيره على اللفظ كما في هذه الآية فإنه أنث خالصة على المعنى وذكر ومحرم على اللفظ ﴿ سيجزيهم وصفهم ﴾ يعني سيكافئهم وصفهم على الله الكذب ﴿ إنه حكيم عليم ﴾ فيه وعيد وتهديد يعني أنه تعالى حكيم فيما يفعله عليم بقدر استحقاقهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرّم على أزواجنا ﴾

الذي في بطونها هو الأجنة قاله السدّي .

وقال الزمخشري : كانوا يقولون في أجنة البحائر والسوائب ما ولد منها حياً فهو خالص لذكورنا ولا تأكل منه الإناث ، وما ولد ميتاً اشترك فيه الذكور والإناث .

وقال ابن عباس وقتادة والشعبي : الذي في بطونها هو اللبن .

وقال الطبري : اللفظ يعم الأجنة واللبن ؛ انتهى .

والظاهر الأجنة لأنها التي في البطن حقيقة ، وأما اللبن : ففي الضرع لا في البطن إلا بمجاز بعيد .

وقرأ عبد الله وابن جبير وأبو العالية والضحاك وابن أبي عبلة : خالص بالرفع بغير تاء وهو خبر ما و ﴿ لذكورنا ﴾ متعلق به .

وقرأ ابن جبير فيما ذكر ابن جني خالصاً بالنصب بغير تاء ، وانتصب على الحال من الضمير الذي تضمنته الصلة أو على الحال من ما على مذهب أبي الحسن في إجازته تقديم الحال على العامل فيها ؛ انتهى ملخصاً .

ويعني بقوله : على الحال من ﴿ ما ﴾ أي من ضمير ﴿ ما ﴾ الذي تضمنه خبر ﴿ ما ﴾ وهو ﴿ لذكورنا ﴾ ويعني بقوله : في إجازته إلى آخره على العامل فيها إذا كان ظرفاً أو مجروراً نحو زيد قائماً في الدار ، وخبر ﴿ ما ﴾ على هذه القراءة هو ﴿ لذكورنا ﴾ .

وقرأ ابن عباس والأعرج وقتادة وابن جبير أيضاً ﴿ خالصة ﴾ بالنصب وإعرابها كإعراب خالصاً بالنصب وخرّج ذلك الزمخشري على أنه مصدر مؤكد كالعافية .

وقرأ ابن عباس أيضاً وأبو رزين وعكرمة وابن يعمر وأبو حيوة والزهري ﴿ خالصة ﴾ على الإضافة وهو بدل من ﴿ ما ﴾ أو مبتدأ خبره ﴿ لذكورنا ﴾ والجملة خبر ما .

وقرأ الجمهور ﴿ خالصة ﴾ بالرفع وبالتاء وهل التاء للمبالغة كراوية أو حملاً على معنى ما لأنها أجنة والعام أو هو مصدر يبنى على فاعلة كالعافية والعافية أي ذو خلوص ؟ أقوال : وكان قد سبق لنا أن شيخنا علم الدين العراقي رحمه الله ذكر أنه لم يوجد في القرآن حمل

على المعنى أولاً ثم حمل على اللفظ بعده إلا في هذه الآية ، ووعدنا أن نحرر ذلك في مكان وما ذكره قاله مكي ، قال : الآية في قراءة الجماعة أتت على خلاف نظائرها في القرآن لأن كل ما يحمل على اللفظ مرة وعلى المعنى مرة إنما يبتدأ أولاً بالحمل على اللفظ ، ثم يليه الحمل على معنى نحو ﴿ من آمن بالله ﴾ ثم قال : ﴿ فلهم أجرهم ﴾ هكذا يأتي في القرآن وكلام العرب .

*(38/253)*

---

وهذه الآية تقدم فيها الحمل على المعنى فقال : ﴿ خالصة ﴾ ثم حمل على اللفظ فقال : و﴿ محرم ﴾ ومثله كل ذلك كان سيئة في قراءة نافع ومن تابعه فأنث على معنى كل لأنها اسم لجمع ما تقدّم مما نهي عنه من الخطايا ، ثم قال : ﴿ عند ربك مكروهاً ﴾ فذكر على لفظ كل ، وكذلك ﴿ ما تركبون لتستووا على ظهوره ﴾ حملاً على ما ، ووحد الهاء حملاً على لفظ ما .

وحكي عن العرب هذا الجراد قد ذهب فأراحنا من أنفسه جمع الأنفس ووحد الهاء وذكرها انتهى وفيه بعض تلخيص .

ومن ذهب إلى أن الهاء للمبالغة أو التي في المصدر كالعافية فلا يكون التأنيث حملاً على

معنى ما ، وعلى تسليم أنه حمل على المعنى فلا يتعين أن يكون بدأ أولاً بالحمل على المعنى ثم بالحمل على اللفظ لأن صلة ما متعلقة بفعل محذوف وذلك الفعل مسند إلى ضمير ما ولا يتعين أن يكون وقالوا : ما استقرت في بطون الأنعام ، بل الظاهر أن يكون التقدير ما استقر فيكون حمل أولاً على التذكير ثم ثانياً على التأنيث ، وإذا احتمل هذا الوجه وهو الراجح لم يكن دليلاً على أنه بدأ بالحمل على التأنيث أولاً ثم بالحمل على اللفظ وقول مكي هكذا يأتي في القرآن وكلام العرب ، أما القرآن فكذلك هو ، وأما كلام العرب فجاء فيه الحمل على اللفظ أولاً ثم على المعنى وهو الأكثر وجاء الحمل على المعنى أولاً ثم على اللفظ ، وأما قوله : ومثله كل ذلك كان سيئة فليس مثله ، بل حمل أولاً على اللفظ في قوله : كان ألا ترى أنه أعاد الضمير مذكراً ثم على المعنى فقال : سيئة وأما قوله : وكذلك ما تركبون فليس مثله ، لأنه يحتمل أن يكون التقدير ما تركبونه فيكون قد حمل أولاً على اللفظ ثم على المعنى في قوله : ظهوره ثم على اللفظ في إفراد الضمير ، وأما هذا الجراد قد ذهب فقد حمل أولاً على إفراد الضمير على اللفظ ثم جمع على المعنى ثم على اللفظ في إفراد الضمير ، ومعنى لأزواجنا : لنسائنا أي معدّة أن تكون أزواجاً قاله مجاهد .

*(39/253)*

وقال ابن زيد : لبناتنا .

﴿ وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء ﴾ كانوا إذا خرج الجنين ميتاً اشترك في أكله الرجال والنساء ، وكذلك ما مات من الأنعام الموقوفة نفسها .

وقرأ أبو بكر : وإن تكن بتاء التأنيث ﴿ ميتة ﴾ بالنصب أي وإن تكن الأجنة التي تخرج ميتة .

وقرأ ابن كثير : وإن يكن ﴿ ميتة ﴾ بالتذكير وبالرفع على كان التامة وأجاز الأخفش أن تكون الناقصة وجعل الخبر محذوفاً التقدير وإن تكن في بطونها ميتة وفيه بعد .

وقال الزمخشري : وقرأ أهل مكة وإن تكن ﴿ ميتة ﴾ بالتأنيث والرفع ؛ انتهى .

فإن عنى ابن كثير فهو وهم وإن عنى غيره من أهل مكة فيمكن أن يكون نقلاً صحيحاً وهذه القراءة التي عزاها الزمخشري لأهل مكة هي قراءة ابن عامر .

وقرأ باقي السبعة ﴿ وإن يكن ﴾ التذكير ﴿ ميتة ﴾ بالنصب على تقدير وإن يكن ما في بطونها ميتة .

قال أبو عمرو بن العلاء : ويقوي هذه القراءة قوله : ﴿ فهم فيه شركاء ﴾ ولم يقل فيها ؛ انتهى .

وهذا ليس بجيد لأن الميتة لكل ميت ذكراً كان أو أنثى فكأنه قيل : وإن يكن ميتاً ﴿ فهم فيه شركاء ﴾ .

وقرأ يزيد : ﴿ ميتة ﴾ بالتشديد .

وقرأ عبد الله ﴿ فهم فيه ﴾ سواء .

﴿ سيجزيهم وصفهم ﴾ أي جزاء ﴿ وصفهم ﴾ الكذب على الله في التحليل والتحريم من قوله ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام ﴾ ﴿ إنه حكيم عليم ﴾ أي ﴿ حكيم ﴾ في عذابهم ﴿ عليم ﴾ بأحوالهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(40/253)

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَقَالُواْ ﴾ حكايةٌ لفن آخَرَ من فنون كفرهم ﴿ مَا فِى بُطُونِ هذه الأنعام ﴾ يعنون به أجنة البحائرِ والسوائبِ ﴿ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا ﴾ حلالٌ لهم خاصةً والتاء للنقل إلى الاسمية أو للمبالغة ، أو لأن الخالصة مصدرٌ كالعافية وقع موقعَ الخالصِ مبالغةً أو بحذف المضافِ أي ذو خالصة ، أو للتأنيث بناء على أن ( ما ) عبارةٌ عن الأجنة والتذكير في قوله تعالى : ﴿ وَمُحَرَّمٌ على أزواجنا ﴾ أي جنس أزواجِنا وهن الإناثُ باعتبار اللفظ ، وفيه كما ترى حملٌ للنظم الكريم على خلاف المعهودِ الذي هو الحملُ على اللفظ أولاً وعلى المعنى

ثانياً كما في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ ﴾ الخ ونظائرِه ، وإما العكسُ فقد قالوا إنه لا نظيرَ له في القرآن ، وهذا الحكمُ منهم إن وُلد ذلك حيا وهو الظاهر المعتادُ ﴿ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً ﴾ أي إن ولدت ميتة ﴿ فَهُمْ ﴾ أي الذكورُ والإناث ﴿ فِيهِ ﴾ أي فيما في بطون الأنعامِ ، وقيل : المرادُ بالميتة ما يعُمّ الذكرَ والأنثى فغلب الأولُ على الثاني ﴿ شُرَكَاء ﴾ يأكلون منه جميعاً وقرىء خالصةً بالنصب على أنه مصدرٌ مؤكد ، والخبرُ لذكورنا ، أو حالٌ من الضمير الذي في الظرف لا من الذي في ذكورنا ولا من الذكور لأنه لا يتقدم على العامل المعنويِّ ولا على صاحبه المجرورِ وقرىء خالصُهُ بالرفع والإضافة إلى الضمير على أنه بدل من ( ما ) أو مبتدأٌ ثانٍ ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ أي جزاءَ وصفِهم الكذبَ على الله تعالى في أمر التحليلِ والتحريمِ من قوله تعالى : ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكذب ﴾ ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ تعليلٌ للوعيد بالجزاء ، فإن الحكيمَ العليمَ بما صدر عنهم لا يكاد يترك جزاءَهم الذي هو من مقتضَيات الحكمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(41/253)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقَالُواْ ﴾ حكاية لفن آخر من فنون كفرهم .

﴿ مَا فِى بُطُونِ هذه الأنعام ﴾ يعنون به أجنة البحائر والسوائب كما روي عن مجاهد والسدي وروى ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم يعنون به الألبان ، و"ما" مبتدأ خبره قوله سبحانه : ﴿ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا ﴾ أي حلال لهم خاصة لا يشركهم فيه أحد من الإناث ، والتاء للنقل إلى الإسمية أو للمبالغة كراوية الشعر أي كثير الرواية له أو لأن الخالصة مصدر كما قال الفراء كالعافية وقع موقع الخالص مبالغة أو بتقدير ذو وهذا مستفيض في كلام العرب تقول : فلان خالصتي أي ذو خلوصي ، قال الشاعر :

كنت أميني وكنت خالصتي . . .

وليس كل امرىء بمؤتمن

نعم قيل : مجيء المصدر بوزن فاعل وفاعلة قليل ، وقيل : إن التاء للتأنيث بناء على أن "ما" عبارة عن الأجنة .

*(42/253)*

والتذكير في قوله تعالى : ﴿ وَمُحَرَّمٌ على أزواجنا ﴾ أي على جنس أزواجنا وهن الإناث باعتبار اللفظ ، واستبعد ذلك بأن فيه رعاية المعنى أولاً واللفظ ثانياً وهو خلاف المعهود في الكتاب الكريم من العكس ، وادعى بعض أن له نظائر فيه ، منها قوله تعالى : ﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [ الإسراء : 38 ] إذ أنث فيه ضمير "كل" أولاً مراعاة للمعنى ثم ذكر حملاً على اللفظ ، وقيل : إن ما هنا جار على المعهود من رعاية اللفظ أولاً لأن صلة "ما" جار ومجرور تقدير متعلقه استقر لا استقرت ولا وجه لذلك لأن المتعلق والضمير المستتر فيه لا يعلم تذكيره وتأنيه حتى يكون مراعاة لأحد الجانبين ، والذي يقتضيه الإنصاف أن الحمل على اللفظ بعد المعنى قليل وغيره أولى ما وجد إليه سبيل ، وذكر بعضهم أن ارتكاب خلاف المعهود ههنا لا يخلو عن لطف معنوي ولفظي ، أما الأول فموافقة القول الفعل حيث إن المعهود من ذوي المروءة جبر قلوب الإناث لضعفهن . ولذا يندب للرجل إذا أعطى شيئاً لولده أن يبدأ بإنثاهم ، وأما الثاني فمراعاة ما يشبه الطباق بوجه بين خالصة وذكورنا وبين محرم وأزواجنا وهو كما ترى .

﴿ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً ﴾ عطف على ما يفهم من الكلام أي ذلك حلال للذكور محرم على الإناث إن ولد حياً وإن ولدت ميتة ﴿ فَهُمْ ﴾ أي الذكور والإناث ﴿ فِيهِ ﴾ أي فيما في بطون الأنعام ، وقيل : الضمير للميتة إلا أنه لما كان المراد بها ما يعم الذكر والأنثى غلب الذكر فذكر الضمير كما فعل ذلك فيما قبله ﴿ شُرَكَاء ﴾ يأكلون منه جميعاً ، وهذا الذي

ذكر في هذه الشرطية إنما يظهر على القول الأول في تفسير الموصول ، وأما على القول الثاني فيه فلا .

(43/253)

---

ولعل الذي يقول به يقرأ الآية بإحدى الأوجه الآتية أو يتأول الضمير ، وقرأ الأعرج وقتادة ﴿ خَالِصَةٌ ﴾ بالنصب وخرج ذلك على أنه مصدر مؤكد وخبر المبتدأ ﴿ لِّذُكُورِنَا ﴾ ، وقال القطب الرازي : يجوز أن يكون حالاً من الضمير في الظرف الواقع صلة أي في حال خلوصه من البطون أي خروجه حياً ، والتزم جعلها حالاً مقدرة ولعله ليس باللازم ، ومنع غير واحد جعله حالاً من الضمير فيما بعده أو من ذكورنا نفسه لأن الحال لا تتقدم على العامل المعنوي كالجار والمجرور واسم الإشارة وها التنبيه العاملة بما تضمنته من معنى الفعل ولا على صاحبها المجرور كما تقرر في محله ، وقرأ ابن جبير ﴿ خَالِصًا ﴾ بدون تاء من النصب أيضاً ؛ والكلام فيه نظير ما مر ، وقرأ ابن عباس وابن مسعود والأعمش ﴿ خَالِصَةٌ ﴾ بالرفع والإضافة إلى الضمير على أنه بدل من ما أو مبتدأ ثان ، وقرأ ابن عامر وأبو جعفر "وإن تكن" بالتاء "ميتة" بالرفع ، وابن كثير "يكن" بالياء وميتة بالرفع .

وأبو بكر عن عاصم "تكن" بالتاء كابن عامر "ميتة" بالنصب .

قال الإمام : "وجه قراءة ابن عامر أنه ألحق الفعل علامة التأنيث لما كان الفاعل مؤنثاً في اللفظ ، ووجه قراءة ابن كثير أن ﴿ مَيْتَةً ﴾ اسم ﴿ يَكُنِ ﴾ وخبره مضمر أي إن يكن لهم أو هناك ميتة ، وذكر لأن الميتة في معنى الميت" .

وقال أبو علي : لم يلحق الفعل علامة التأنيث لأن تأنيث الفاعل المسند إليه غير حقيقي ولا تحتاج كان إلى خبر لأنها بمعنى وقع وحدث ، ووجه القراءة الأخيرة أن المعنى وإن تكن الأجنة أو الأنعام ميتة .

*(44/253)*

---

﴿ سَيَجْزِيهِم ﴾ ولا بد ﴿ وَصْفَهُمْ ﴾ الكذب على الله تعالى في أمر التحليل والتحريم من قوله تعالى : ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكذب ﴾ [ النحل : 62 ] وهو كما قال بعض المحققين من بليغ الكلام وبديعه فإنهم يقولون : وصف كلامه الكذب إذا كذب ، وعينه تصف السحر أي ساحر ، وقده يصف الرشاقة بمعنى رشيق مبالغة حتى كان من سمعه أو رآه وصف له ذلك بما يشرحه له ، قال المعري

: سرى برق المعرة بعد وهن . . .

فبات برامة يصف الملالا

ونصب ﴿ وَصْفَهُمْ ﴾ على ما ذهب إليه الزجاج لوقوعه موقع مصدر "يجزيهم" فالكلام على تقدير المضاف أي جزاء وصفهم ، وقيل : التقدير سيجزيهم العقاب بوصفهم أي بسببه فلما سقط الباء نصب ﴿ وَصْفَهُمْ ﴾ .

﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ تعليل للوعد بالجزاء فإن الحكيم العليم بما صدر عنهم لا يكاد يترك جزاءهم الذي هو من مقتضيات الحكمة .

واستدل بالآية على أنه لا يجوز الوقف على أولاده الذكور دون الإناث وأن ذلك الوقف يفسخ ولو بعد موت الواقف لأن ذلك من فعل الجاهلية ، واستدل بذلك بعض المالكية على مثل ذلك في الهبة ، وأخرج البخاري في "التاريخ" عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : يعمد أحدكم إلى المال فيجعله للذكور من ولده إن هذا إلا كما قال الله تعالى : ﴿ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ على أزواجنا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا ﴾

عطف على قوله : ﴿ وقالوا هذه أنعام وحرث حجر ﴾ [ الأنعام : 138 ] .

وأعيد فعل : ﴿ قالوا ﴾ لاختلاف غرض المقول .

والإشارة إلى أنعام معروفة بينهم بصفاتها ، كما تقدّم ، أو إلى الأنعام المذكورة قبل .

ولا يتعلّق غرض في هذه الآية بأكثر من إجمال الأشياء الّتي حرموها لأنّ المقصود التّعجيب من فساد شرعهم كما تقدّم آنفاً ، وهذا خبر عن دينهم في أجنّة الأنعام التي حجروها أو حرّموا ظهورها ، فكانوا يقولون في أجنّة البحيرة والسّائبة : إذا خرجت أحياء يحلّ أكلها للذكور دون النّساء ، وإذا خرجت ميّتة حلّ أكلها للذّكور والنّساء ، فالمراد بما في البطون الأجنة لا محالة لقوله : ﴿ وإن يكن ميتة ﴾ وقد كانوا يقولون في ألبان البحيرة والسّائبة : يشربها الرّجال دون النّساء ، فظنّ بعض المفسّرين أنّ المراد بما في بطون الأنعام ألبانها ، وروي عن ابن عَبّاس ، ولا ينبغي أن يكون هو معنى الآية ولكن محمل كلام ابن عبّاس أنّ ما في البطون يشمل الألبان لأنَّها تابعة للأجنّة وناشئة عن ولادتها .

والخالصة : السّائغة ، أي المباحة ، أي لا شائبةَ حَرَج فيها ، أي في أكلها ، ويقابله قوله : ﴿ ومحرم ﴾ .

وتأنيث ﴿ خالصة ﴾ لأنّ المراد بمَا الموصولة ﴿ الأجِنَّة ﴾ فروعي معنى ( ما )

وروعي لفظ ( ما ) في تذكير ﴿ محرّم ﴾ .

والمحرّم : الممنوع ، أي ممنوع أكله ، فإسناد الخلوص والتّحريم إلى الذّوات بتأويل تحريم ما تقصد له وهو الأكل أو هو والشرب بدلالة الاقتضاء .

والأزواج جمع زوج ، وهو وصف للشّيء الثّاني لغيره ، فكلّ واحد من شيئين اثنين هو زوج

، ولذلك سمّي حليل المرأة زوجاً وسمّيت المرأة حليلةُ الرّجل زوجاً ، وهو وصف يلازم حالة واحدة فلا يُؤنث ولا يثنّى ولا يجمع .

وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنّة ﴾ في سورة البقرة ( 35 ) .

وظاهر الآية أن المراد أنّه محرّم على النساء المتزوّجات لأنّهم سمّوهنّ أزواجاً ، وأضافوهنّ إلى ضميرهم ، فتعيّن أنَّهن النّساء المتزوّجات بهم كما يقال : امرأة فلان .

*(46/253)*

---

وإذا حملناه على الظاهر وهو الأوْلى عندي كان ذلك دالاً على أنّهم كانوا يتشاءمون بأكل الزّوجات لشيء ذي صفة كانوا يكرهون أن تصيب نساءَهم : مثلِ العقم ، أو سوءِ المعاشرة مع الأزواج ، والنّشوز ، أو الفراق ، أو غير ذلك من أوهام أهل الجاهليّة وتكاذيبهم ، أو لأنّه نَتاج أنعام مقدّسة ، فلا تحلّ للنّساء ، لأنّ المرأة مرموقة عند القدماء قبل الإسلام بالنّجاسة والخباثة ، لأجل الحيض ونحو ذلك ، فقد كانت بنو إسرائيل يمنعون النّساء دخول المساجد ، وكان العرب لا يؤاكلون الحائض ، وقالت كبشة بنت معديكرب تعيّر قومها :

ولا تَشرَبُوا إلاّ فُضُولَ نسائكم

إذا ارتَمَلَتْ أعقابُهن منَ الدّم . . .

وقال جمهور المفسّرين : أطلق الأزواج على النّساء مطلقاً ، أي فهو مجاز مرسل بعلاقة الإطلاق والتّقييد ، فيشمل المرأة الأيم ولا يشمل البناتِ ، وقال بعضهم : أريد به البنات أي بمجاز الأوْل فلعلّهم كانوا يتشاءمون بأكل البنات منه أن يصيبهن عسر التّزوّج ، أو ما يتعيَّرون منه ، أو نحو ذلك .

وكانت الأحوال الشّائعة بينهم دالّة على المراد .

وأمّا قوله : وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء ﴾ أي إنْ يولدْ ما في بطون الأنعام ميّتا جاز أكله للرّجال والأزواج ، أو للرّجال والنّساء ، أو للرّجال والنّساء والبنات ، وذلك لأنّ خروجه ميّتا يبطل ما فيه من الشّؤم على المرأة ، أو يذهب قداسته أو نحو ذلك .

وقرأ الجمهور : ﴿ وإن يكن ﴾ بالتحتيّة ونصب ﴿ ميتة ﴾ .

وقرأ ابنُ كثير برفع ﴿ ميتة ﴾ ، على أنّ كان تامّة ، وقد أجري ضمير : ﴿ يَكُن ﴾ على التّذكير : لأنّه جائز في الخبر عن اسم الموصول المفرد اعتبار التّذكير لتجرّد لفظه عن علامة تأنيث ، وقد يراعى المقصود منه فيجري الإخبار على اعتباره ، وقد اجتمعا في قوله تعالى : ﴿ ومنهم من يستمع إليك حتّى إذا خرجوا من عندك ﴾ [ محمد : 16 ] .

وقرأ ابنُ عامر بالفوقيّة على اتّباع تأنيث ﴿ خالصة ﴾ ، أي إن تكن الأجنّة ، وقرأ ﴿ ميتة ﴾ بالنّصب ، وقرأه أبو بكر عن عاصم بالتّأنيث والنّصب .

وجملة : ﴿ سيجزيهم وصفهم ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً ، كما قلتُ في جملة : ﴿ سيجزيهم بما كانوا يفترون ﴾ [ الأنعام : 138 ] آنفاً .

والوصف : ذكر حالات الشّيء الموصوف وما يتميّز به لمن يريد تمييزه في غرض ما ، وتقدّم في قوله : ﴿ سبحانه وتعالى عمّا يصفون ﴾ في هذه السّورة ( 100 ) .

والوصف ، هنا : هو ما وصفوا به الأجنّة من حِلّ وحرمَة لفريق دون فريق ، فذلك وصف في بيان الحرام والحلال منه كقوله تعالى : ﴿ ولا تَقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام ﴾ [ النحل : 116 ] .

وجزاؤهم عنه هو جزاء سوءٍ بقرينة المقام ، لأنّه سمّى مزاعمهم السّابقة افتراء على الله .

وجُعل الجزاء متعدّيا للوصف بنفسه على تقدير مضاف ، أي : سيجْزيهم جزاءَ وصفهم .

ضمّن ﴿ يجزيهم ﴾ معنى يُعطيهم ، أي جزاء وفاقاً له .

وجملة : ﴿ إنه حكيم عليم ﴾ تعليل لكون الجزاء موافقا لجرُم وصفهم .

وتؤذن ( إنّ ) بالربط والتّعليل ، وتُغني غناء الفاء ، فالحكيم يضع الأشياء مواضعها ،

والعليم يطّلع على أفعال المجزيين ، فلا يضيع منها ما يستحقّ الجزاء . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

(48/253)

---

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ ﴾

يعنون أجنة البحائر والسوائب : ﴿ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا ﴾ يعنون أنه حلال للذكور دون الإناث ، إن ولد حيّاً لقوله سبحانه : ﴿ وَإِنْ يَكُنْ ﴾ أي : ما في بطونها : ﴿ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ﴾ فالذكور والإناث ، فيه سواء .

وفي رواية العوفيّ عن ابن عباس أن المعني بـ ( مَا فِي بُطُونِهَا ) هو اللبن . كانوا يحرمونه على إناثهم ، ويشبه ذكرانهم . وكانت الشاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه . وكان للرجال دون النساء . وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح ، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء .

وقال الشعبيّ : البحيرة ، لا يأكل من لبنها إلا الرجال ، وإن مات منها شيء أكله الرجال والنساء . وكذا قال عِكْرِمَة وقتادة وابن أسلم .

﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ أي : بالتحليل والتحريم على سبيل التحكم ونسبته إلى الله تعالى : ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ أي : حكيم في أفعاله وأقواله وشرعه ، عليم بأعمال عباده من خير أو شر ، وسيجزيهم عليها .

تنبيه :

قال السيوطي في " الإكليل " : استدل مالك بقوله : ﴿ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا ﴾ على أنه لا يجوز الوقف على أولاده الذكور دون البنات ، وأن ذلك الوقف يفسخ ، ولو بعد موت الواقف ، لأن ذلك من فعل الجاهلية . واستدل به بعض المالكية على مثل ذلك في الهبة . انتهى .

لطائف :

*(49/253)*

---

( التاء ) في : ﴿ خَالِصَةٌ ﴾ إما للنقل إلى الاسمية ، أو للمبالغة ، أو لأن ( الخالصة ) مصدر كالعافية ، وقع موقع ( الخالص ) مبالغة ، أو بحذف المضاف . أي : ذو خالصة ، أو للتأنيث بناء على أن ( ما ) عبارة عن الأجنة . والتذكير في ( محرم ) باعتبار اللفظ . وقرئ ( خَالِصَةً ) بالنصب على أنه مصدر مؤكد ، والخبر : ﴿ لِّذُكُورِنَا ﴾ . ووصفهم واقع موقع

مصدر : ﴿ سَيَجْزِيهِمْ ﴾ بتقدير مضاف . أي : جزاء وصفهم بالكذب عليه تعالى في التحريم والتحليل من قوله تعالى : ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ ﴾ [ النحل : 62 ] .

قال الشهاب : وهذا من بليغ الكلام وبديعه ، فإنهم يقولون : وصف كلامه الكذب ، إذا كذب ، وعينه تصف السحر ، أي : ساحرة ، وقد يصف الرشاقة ، بمعنى رشيق ، مبالغةً . حتى كأنَّ من سمعه أو رآه وصف له ذلك بما يشرحه له . قال المعرّي :

~ سَرَى برقُ المَعَرَّةِ بعد وَهْنٍ فَبَاتَ بِرَامَةٍ يَصِفُ الْكَلاَلاَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 515.517 ﴾

(50/253)

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا ﴾

ويقودهم الباطل إلى باطل آخر فادعوا أن ما في بطون هذه الأنعام من اللبن ومن الأجنة إذا نزلت حيّة فهي للذكور منهم فقط ، ولا تأكل النساء من ذلك شيئاً ، وإن مات منها شيء أكله الرجال والنساء وهذا يدل على التشقيق في القسمة .

ويذيل الحق الآية بالقول الكريم : ﴿ . . سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [ الأنعام :

[ 139

أي سيجزيهم على كذبهم وافترائهم بما يليق عقاباً للكاذبين ؛ لأنه- سبحانه- ( حكيم ) في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ( عليم ) بما يفعلونه من خير وشر ، وإنه سيجازيهم على ما فعلوه أتم الجزاء وأكمله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(51/253)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (139) ﴾

أخرج الفريابي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ﴾ قال : اللبن . وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ﴾ قال : السائبة والبحيرة ﴿ ومحرم على أزواجنا ﴾ قال : النساء ﴿ سيجزيهم وصفهم ﴾ قال : قولهم الكذب في

ذلك .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ﴾ قال : ألبان البحائر كانت للذكور دون النساء ، وإن كانت ميتة اشترك فيها ذكرهم وأنثاهم ﴿ سيجزيهم وصفهم ﴾ أي كذبهم .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ﴾ قال : كانت الشاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه فكان للرجال دون النساء ، وإن كانت أنثى تركوها فلم تذبح ، وإن كانت ميتة كانوا فيه شركاء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ وقالوا ما في بطون هذه الأنعام ﴾ الآية قال : اللبن كانوا يحرمونه على إناثهم ويشربونه ذكرانهم ، كانت الشاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه فكان للرجال دون النساء ، وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح ، وإن كانت ميتة فهم شركاء .

وأخرج عبد بن حميد عن عاصم . أنه قرأ ﴿ وإن تكن ميتة ﴾ بالتاء منصوبة منوّنة .

وأخرج البخاري في تاريخه عن عائشة قالت : يعمد أحدكم إلى المال فيجعله للذكور من ولده ، إن هذا إلا كما قال الله ﴿ خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ﴾ . انتهى .

اهـ ﴿الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

والجمهور على " خَالِصَة " بالتَّأنيث مَرْفُوعاً على أنه خَبَرَ " مَا " الموصُولة ، والتَّأنيث : إمَّا حَمْلاً على المَعْنَى ؛ لأن الذي في بُطُونِ الأنْعَام أنْعَامٌ ، ثم حمل على لَفْظِها في قوله : " ومُحَرَّمٌ " وإمَّا لأنَّ التَّأنيث للمُبالغة كهو في " عَلاَّمَة " و " نسَّابَة و " رَاوِيَة " و " الخاصَّة " و " العامَّة " وإما لأنَّ " خَالِصَة " مصْدَر على وَزْنَ " فَاعِلة " كالعَاقِبة والعَافِية ؛ وقال – تبارك وتعالى – : ﴿ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدار ﴾ [ ص : 46 ] وهذا القَوْل قول الفرَّاء والأوَّل لَهُ ولأبي إسْحاق الزَّجَّاج ، والثاني للكسَائِي ، وإذا قيل : إنها مَصْدرٌ كان ذلك على حَذْف مُضَافٍ ، أي : ذُو خُلُوصٍ ، أو على المُبَالَغَة ، أو على وقُوعِ المصدر مَوْقِع اسْمِ الفاعلِ ؛ كَنَظَائِره كقول الشاعر :

2355 – وكُنْتِ أمنِيَّتِي وكُنْتِ خَالِصَتِي . . .

وَلَيْس كلُّ امْرِىءٍ بمُؤتَمَنِ

قال الكسائي : خَالِص وخَالِصَة واحد ، مثل وَعْظ ومَوْعِظَة .

وهو مستفيض في لسانهم : فلان خَالِصَتِي ، أي : ذُو خُلُوصي .

و " لِذكُرونا " مُتعلِّق به ، ويجوز أن يتعلَّق بمحذُوف على أنَّه وَصْف لـ " خَالِصَة " ، وليس

بالقَوِيّ.

وقرأ عبد الله وابن جُبَيْر، وأبو العالية والضَّحَّاك، وابن أبي عَبْلَة: "خَالِصٌ" مَرْفُوعاً على ما تقدَّم من غير هَاءٍ، و"لِذُكُورِنَا" متعلّق به، أو بمَحْذُوف كما تقدَّم، وقرأ ابن جُبَيْر، نقله عنه ابن جنّي: "خَالِصاً" نصباً من غير تَاءٍ، ونصبه على الحَالِ وفي صاحبه وجهان:

أظهرهما: أنه الضَّمير المستتر في الصِّلة.

(53/253)

---

الثاني: أنه الضَّمِير المسْتَتِر في "لِذُكُورِنَا" فإن "لِذُكُورِنَا" على هذه القراءة خَبَر المُبْتَدأ، وهذا إنَّما يَجُوز على مَذْهَب أبي الحَسَن؛ لأنه يُجيزُ تَقْدِيم الحال على عَامِلِها المَعْنَوِيّ، نحو: "زَيْدٌ مستَقِرٌّ في الدَّارِ" والجمهور يَمْنَعُونَه، وقد تقدَّم تحقيقُهُ.

وقرأ ابن عباس أيضاً والأعرج، وقتادة: "خَالِصَةً" نصاباً بالتَّأنيث، والكلام في نصْبِه وتأنيثِه كما تقدَّم في نَظِيره، وخرَّجه الزمخشري على أنه مَصْدَر مُؤكّد كالعَاقِبَة.

وقرأ ابن عبَّاس أيضاً، وأبو رَزِين، وعِكْرمة، وأبو حَيْوة: "خَالِصة" برَفْع "خالص"

مُضَافَا إلى ضَمِير " مَا " ورفعُه على أحد وجهين :

إما على البدل من الموصُول ، بلد بَعْضَ من كُلٍّ ، وم " لِذكُورِنَا " خبر المَوْصُول .

(54/253)

---

وإما على أَنَّه مُبْتَدأ ، و " لِذكُورنَا " خبره ، والجُمْلة خبر الموصُول ، وقد عَرَفْتَ مِمَّا تقدَّم أنه حَيْثَ قُلْنَا : إن " خَالِصة " مصدر أو هي للمُبَالغَة ، فليس في الكلام حَمْل على مَعْنَى ثم على لَفْظ ، وإن قلنا : إن التَّأنثِ ما فِي البُطُونِ ، كان في الكلام الحَمْلُ على المَعْنَى أوّلاً [ ثم على اللَّفْظ في قوله : " مُحَرَّمٌ " ثانياً ، وليس لِذلك في القُرْآن نَظِير ، أعني : الحَمْل على المَعْنَى أوّلاً ] ثم على اللَّفْظِ ثانياً ، إلاَّ أن مَكّياً زعم فير غَيْر إعْراب القُرْآن الكَريم ، له : أنَّ لِهَذِه الآيَةِ نظائِر فذكرها وأما في إعرابه : فلم يَذْكُر أنَّ غيرها في القُرْآن شَارَكها في ذلك ؛ فقال في إعرابه : " وإنَّما أَنَّثَ الخَبَر ؛ لأن مَا فِي بُطُون الأَنْعَام أَنْعَام ؛ فحلم التأنيث على المَعْنَى ، ثم قال : " ومُحَرَّم " فذكَّر حَمْلاً على لَفْظِ " مَا " وهذا نَادِر لا نَظِير له ، وإنَّما يَأْتِي في " مَنْ " حَمْل الكلام أوّلاً على اللَّفْظِ ثم على المَعْنَى بعد ذلك ، فاعرفه فإنه قَلِيلٌ " .

(55/253)

وقال في غير " الإعْرَاب " : " هذه الآيةُ في قراءة الجماعة أَتَتْ على خلاف نظائِرِهَا في القُرْآن ؛ أن كلما يُحْمل على اللفظِ مرة وعلى المَعْنَى مرَّة ، إنما يبتَدِئ أولاً بالحَمْل على اللَّفْظِ ثم يليه الحَمْل على المَعْنِى ، نحو : ﴿ مَنْ آمَنَ بالله ﴾ [ البقرة : 62 ] [ ثم قال ] : " فَلَهُم أجرُهم " هكذا يأيت في القُرْآن وكلام العرب ، وهذه الآيةُ تقدَّم فيها الحملُ على المَعْنِى ، فقال : " خَالِصَة " ثم حَمَل على اللَّفظِ ، فقال : " وحُرِّمَ " ومثله ﴿ كُلُّ ذلك كَانَ سَيِّئُهُ ﴾ [ الإسراء : 38 ] في قراءة نافع ومن تابعه ، فأَنَّث على معنى " كُلَ " لأنها اسْم لجَمِيع ما تقدَّم ممَّا نهى عنه من الخَطَايَا ، ثم قال : " عند ربِّك مَكْرُوهاً " فذكر على لَفْظِ " كُلّ " وكذلك ﴿ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُواْ على ظُهُورِهِ ﴾ [ الزخرف : 12 ، 13 ] جَمَعَ الظُّهُور حملاً على مَعْنَى " ما " [ ووحَّد الهاء حَمْلاً على لَفْظ " مَا " ، وحُكي عن العرب : " هذا الجَرَادُ قد ذَهَب فأراحَنَا مِنْ أَنْفُسِهِ جمع الأَنْفُس ] ووحد الهَاء وذكَّرها " .

قال شهاب الدين : أما قوله : " هكذا أتى في القُرْآنِ " فصحيح ، وأمَّا قوله : " وكلام العرب " فليس ذلك بمُسَلَّم ؛ إذ في كلام العرب البداية بالحَمْل على المَعْنَى ثم على اللَّفْظِ ، وإن كان عَكْسُه هو الكَثِير ، وأمَّا ما جعله نَظِير هذه الآية في الحَمْل على المَعْنَى أوَّلاً ثم على اللَّفْظ ثانياً ، فلي بمُسَلَّم أيضاً ، وكذلك لا نُسَلِّم أن هذه الآية مما حُمِل فيها على المَعْنَى أولاً ثم على اللفظِ ثانياً .

وبيان ذلك : أن لقَائِل أن يَقُول : صِلَة " مَا " جارّ ومجرور وهُو مُتعلّق بمحْذُوف ، فتقديره مُسْنَداً لضمير مذكر ، أي : ما ستقرَّ في بُطُون هذه الأنْعَام ، ويبعد تَقْديرهُ باسْتَقَرَّت ، إذا عرف هذا ، فيكُون قد حُمَل أوّلاً على اللَّفْظ في الصّلة المقدَّرة ثم على المَعْنَى ثانياً ، وأما " كُلُّ ذَلك كان سَيّئَة " فَبدأ فيه أيضاً بالحَمْل على اللَّفْظِ في قوله : " كَانَ " فإنه ذكر ضَميرَهُ المسْتَتِر في " كَانَ " ، ثم حمل على المعنى في قوله : " سَيّئُهُ " فأَنَّث ، وكذلك ﴿ لِتَسْتَوُواْ على ظُهُورِهِ ﴾ [ الزخرف : 13 ] فإن قبله " مَا تَرْكَبُون " والتقدير : ما تركَبُونه ، فحلم العِائد المحذُوف على اللَّفْظ أوّلاً ثم حُمِل على المَعْنَى ثانياً ، وكذلك في قولهم : " هذا الجَرادُ قَدْ ذَهَب " حَمَل على اللَّفْظ فأَفْرَد الضمير في " ذَهَبَ " ثم حمل على المعْنَى ثَانِياً ، فجمع في قوله : " انْفُسِهِ " وفي هذه المواضع يكون قد حَمَل فيها أوّلاً على اللَّفْظ ، ثم على المَعْنَى ثم على اللَّفْظ ، وكُنْتُ قد قدَّمْتُ أن في القُرْآن من ذلك أيضاً ثلاثة مواضع : آية المَائدة : ﴿ وَعَبَدَ الطاغوت ﴾ [ المائدة : 60 ] ، ولقمان : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحديث ﴾ [ لقمان : 6 ] ، والطلاق : ﴿ مَن يُؤْمِن بالله ﴾ [ الطلاق : 11 ] .

قوله " : " وإن يكن مَيْتَةً " قرأ ابن كَثِير : "يَكُنْ " بياء الغَيبة " مَيْتَةٌ رفعاً ، وابن عامر : " تكُنْ " بتاء التَّأنيث ، " مَيْتَةٌ " رفعاً ، وعاصم في رواية أبي بكر " تَكُنْ " بتاء التَّأنيث ، " مَيْتَةً " نصباً ، والباقون " تكن " كابن كَثِير " مَيْتَةً " كأبي بكر والتَّذكير والتَّأنيث واضحان ؛ لأن المَيْتَة تأنيث مَجَازِيّ ؛ أنها تقع على الذَّكَر والأنثى من الحيوان فَمَنْ أنَّث فباغْتِبَار اللَّفْظِ ، ومن ذَكَّر فباعْتِبار المَعْنَى ، ها عند من يرفع " مَيْتَةٌ " بـ " تَكُنْ " أمَّا " من يَنْصِبُها ، فإنه يسند الفِعْل حينئذٍ إلى ضَمير فيذكر باعْتِبار لَفْظ " مَا " في قوله : " مَا فِي بُطُون " ويؤنِّث باعتِبَار مَعْنَاها ، ومن نصب " مَيْتَةً " فعلى خبر " كان " النَّاقِصة ، ومن رفع فَيْحْتَمل وجهين :

أحدهما : أن تكون التَّامَّة ، وهذا هو الظَّاهر ، أي : وإن وُجِدَ مَيْتَةٌ أو حَدَثَتْ ، وأن تكون الناقصة وحنيئذٍ يكون خَبَرُوها مَحْذُوفاً ، أي : وإن تكُون هُناكَ أو فِي البُطُون مَيْتَة وهذا رأي الأخْفَش ، فيكون تَقْدير قراءة ابن كَثِير : وإن يَحْدُثْ حيوانٌ مَيْتَةٌ ، أو وإن يَكُن في البُطُون مَيْتَةٌ على حَسَب التقديرين تماماً ونقصاناً ، وتقدير قراءة ابن عَامِر كتقدير قراءته ، إلا أنه أنَّث الفِعْل باعْتِبَار لفظ مَرْفُوعه ، وتقدير قِراءة أبِي بكر : وإن تكُون الأنْعَام أو الأجنَّة مَيْتَة ، فأنَّث حَمْلاً على المَعْنَى ، وقراءة البَاقِين كتقدير قراءته ، إلا أنَّهم ذكروا باعتبار اللَّفْظِ .

(58/253)

---

قال أبو عمرو بن العلاء : ويُقَوِّي هذه القراءة – يعني قراءة التَّذْكِير والنَّصْب – قوله : " فَهْمْ فِيهِ " ولم يَقُل : " فِيها " ورُدَّ على أبي عَمْرو : بأن المَيْتَة لكل مَيّتٍ ذكراً كان أو أُنْثَى ، فكأنه قيل : وإن يَكُون مَيّتاً فهم فيه ، يعني : فَلَمْ يَصِر له في تَذْكِير الضَّمير في " فِيهِ " حُجَّةٌ .

ونقل الزَّمَخْشَرِي قراءة ابن عَامِرٍ عن أهْل مكَّة ، فقال : " قرأ أهْل مكَّة " وإن تكنْ مَيْتَةٌ " بالتأنيث والرَّفْع " فإن عنى بأهل مَكَّة ابن كَثِير 0 ولا أظنه عَنَاهُ – فليس كذلك ، وإن عنى غيره ، فَيَجُوز على أنه يُجَوِز أن يكُون ابن كَثِير قرأ بالتَّأنيث أيضاً لكن لم يَشْتَهِر عنه اشْتِهَار التَّذْكِير .

وقرأ يزيد " مَيِّتَة " بالتَّشْدِيد ; وقرأ عبد الله : " فَهُمْ فيه سَوَاء " قال شهاب الدِّين : وأظنُّها تفسير لا قراءة ، لمخالفتها السَّواد ، وقوله : " وهُمْ فِيهِ " أي : أن الرِّجَال والنساء فيه شُرَكَاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 461 . 464 ﴾ . باختصار .

(59/253)

---

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

( بصيرة فى وصف )

وَصَفْتُ الشىءَ وَصْفاً وصِفَةً ، والهاء عِوَض عن الواوِ .

وقوله تعالى : ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ﴾ أَى جَزاءَ وَصْفِهم الذى هو كَذِبٌ .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ ، أَى تَكْذِبُون .

وفى حديث عُمَرَ : "لا تُلْبسوا نِساءَكُم الكَتَّانَ أَو القَباطِىّ ، إِلاَّ يَشِفَّ فإِنَّه يَصِفُ" أَى يَصِفُها الثوبُ الرّقيق كما يَصِفُ الرّجل سِلْعَته .

والصّفة كالعِلْم والجَهْل والسَّواد والبَياض .

وقيل : الصّفة الحالةُ التى عليها الشىءُ من حِلْيَته ونَعْتِه .

والْوَصفُ قد يكون حَقّاً وباطلاً ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ ﴾ تنبيهاً على كون ما يذكرونَه كَذِباً .

وقول الشمّاخ يصف ناقته :

*إِذا ما أَدْلَجَت وَصَفَت يَداها * لها الإِدلاجَ لَيْلَةَ لا هُجُوعُ*

يريد أَجادت السَّيْر .

وقيل : معناه : إِذا أَدْلَجَت سارت اللَّيل كَلَّه ، فذلك وَصْفُها يديها .

والوَصِيفُ : الخادِمُ غلاماً كان أَو جارِية ، وربّما قالوا للجارِية وَصِيفَةٌ ، والجمع الوَصائِف .

والإِيصافُ : الوصافة ، يقال : جارية بيّنة [الوصافة والإِيصاف] .

وتَواصَفُوا الشيءَ من الوصف .

واتَّصَفَ الشيءُ : صار موصوفاً بالحُسْن قال طَرَفَة بنُ العَبْد :

*إِنَّى كَفانِىَ من أَمْر هَمَمْتُ بِهِ * جارٌ كجار الحُذاقىّ الذى اتَّصَفا *

ونُهِىَ عن بيع/ المُواصَفَة ، وهو أَن يبيع ما ليس عندَه ، ثم يَبْتَاعَهُ فيَدْفَعَه إِلى المشترى ، قيل له ذلك لأَنَّه باعَه الصّفَةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 223 .

224 ﴾

(60/253)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيتين

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (138) وَقَالُوا مَا

فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (139) ﴾

أخبر عن أشياء ابتدعوها على ما أرادوا ، وأمورٍ شرعوها على الوجه الذي اعتادوا ، ثم أضافوا ذلك إلى الحق بغير دليل ، وشرعوها بلا حجةٍ من إذن رسول ، والإشارة فيه أن من ( نحا نحوهم ) في زيادة شيء في الدين ، أو نقصان شيءٍ من شرع المسلمين فمضاهٍ لهم في البطلان ، ينخرط في سلكهم في الطغيان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 506 ﴾

*(61/253)*

---

قوله تعالى ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (140) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر تعالى تفاصيل سفههم ، وأشار إلى معانيها ، جمعها – وصرح بما أثمرته من الخيبة – في سبع خلال كل واحدة منها سبب تام في حصول الندم فقال : ﴿ قد خسر ﴾ وأظهر في

موضع الإضمار تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف فقال : ﴿ الذين قتلوا ﴾ قرأها ابن عامر وابن كثير بالتشديد لإرادة التكثير والباقون بالتخفيف ﴿ أولادهم سفهاً ﴾ أي خفة إلى الفعل المذموم وطيشاً ، تؤزهم الشياطين الذين يتكلمون على ألسنة الأصنام أو سدنتها إلى ذلك أزاً .

ولما كان السفه منافياً لرزانة العلم الذي لا يكون الفعل الناشئ عنه إلا عن تأن وتدبر وتفكر وتبصر ، قال مصرحاً بما أفهمه : ﴿ بغير علم ﴾ أي وأما من قتل ولده بعلم - كما إذا كان كافراً أو قاتلاً أو محصناً زانياً - فليس حكمه كذلك ؛ ولما ذكر عظيم ما أقدموا عليه ، ذكر جليل ما أحجموا عنه فقال : ﴿ وحرموا ما رزقهم الله ﴾ أي الذي لا ملك سواه رحمة لهم ، من تلك الأنعام والغلات ، بغير شرع ولا نفع بوجه ﴿ افتراء ﴾ أي تعمداً للكذب ﴿ على الله ﴾ أي الذي له جميع العظمة .

ولما كانوا قد خسروا ثلاث خسرات مع ادعائهم غاية البصر بالتجارات : النفس بقتل الأولاد ، والمال بتحريم ما رزقهم الله ، فأفادهم ذلك خسارة الدين ، كانت نتيجته قوله : ﴿ قد ضلوا ﴾ أي جاوزوا وحادوا عن الحق وجاروا ؛ ولما كان الضال قد تكون ضلالته فلتة عارضة له ، وتكون الهداية وصفاً أصيلاً فيه ، نبه على أن الضلال وصفهم الثابت بقوله : ﴿ وما كانوا ﴾ أي في شيء من هذا من خلق من الأخلاق ﴿ مهتدين ﴾ أي لم يكن في كونهم وصف الهداية ، بل زادوا بذلك ضلالاً ؛ قال البخاري في المناقب من

صحيحه : حدثنا أبو النعمان حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام ﴿ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً ﴾ - إلى قوله : ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾ .

وله في وفد بني حنيفة من المغازي عن مهدي بن ميمون قال : سمعت أبا رجاء العطاردي يقول : كنا نعبد الحجر فإذا وجدنا حجراً أحسن منه ألقيناه فأخذنا الآخر ، وإذا لم نجد حجراً جمعنا جثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به ، فإذا دخل شهر رجب قلنا : منصل الأسنة ، فلا ندع رمحاً فيه حديدة ولا سهماً فيه حديدة إلا نزعناه فألقيناه شهر رجب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 725 . 726 ﴾

فصل

قال الفخر :

إنه تعالى ذكر فيما تقدم قتلهم أولادهم وتحريمهم ما رزقهم الله .

ثم إنه تعالى جمع هذين الأمرين في هذه الآية وبين ما لزمهم على هذا الحكم ، وهو الخسران والسفاهة ، وعدم العلم ، وتحريم ما رزقهم الله ، والافتراء على الله ، والضلال وعدم الاهتداء ، فهذه أمور سبعة وكل واحد منها سبب تام في حصول الذم .

أما الأول : وهو الخسران ، وذلك لأن الولد نعمة عظيمة من الله على العبد ، فإذا سعى في

إبطاله ، فقد خسر خسراناً عظيماً لا سيما ويستحق على ذلك الإبطال الذم العظيم في الدنيا ، والعقاب العظيم في الآخرة .

*(62/253)*

---

أما الذم في الدنيا فلأن الناس يقولون قتل ولده خوفاً من أن يأكل طعامه وليس في الدنيا ذم أشد منه .

وأما العقاب في الآخرة ، فلأن قرابة الولادة أعظم موجبات المحبة فمع حصولها إذا أقدم على إلحاق أعظم المضار به كان ذلك أعظم أنواع الذنوب ، فكان موجباً لأعظم أنواع العقاب .

والنوع الثاني : السفاهة وهي عبارة عن الخفة المذمومة ، وذلك لأن قتل الولد إنما يكون للخوف من الفقر ، والفقر وإن كان ضرراً إلا أن القتل أعظم منه ضرراً ، وأيضاً فهذا القتل ناجز وذلك الفقر موهوم فالتزام أعظم المضار على سبيل القطع حذراً من ضرر قليل موهوم ، لا شك أنه سفاهة .

والنوع الثالث : قوله : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ فالمقصود أن هذه السفاهة إنما تولدت من عدم العلم ولا شك أن الجهل أعظم المنكرات والقبائح .

والنوع الرابع : تحريم ما أحل الله لهم ، وهو أيضاً من أعظم أنواع الحماقة ، لأنه يمنع نفسه تلك المنافع والطيبات ، ويستوجب بسبب ذلك المنع أعظم أنواع العذاب والعقاب .

والنوع الخامس : الافتراء على الله ، ومعلوم أن الجراءة على الله ، والافتراء عليه أعظم الذنوب وأكبر الكبائر .

والنوع السادس : الضلال عن الرشد في مصالح الدين ومنافع الدنيا .

والنوع السابع : أنهم ما كانوا مهتدين ، والفائدة فيه أنه قد يضل الإنسان عن الحق إلا أن يعود إلى الاهتداء ، فبين تعالى أنهم قد ضلوا ولم يحصل لهم الاهتداء قط فثبت أنه تعالى ذم الموصوفين بقتل الأولاد وتحريم ما أحله الله تعالى لهم بهذه الصفات السبعة الموجبة لأعظم أنواع الذم ، وذلك نهاية المبالغة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 171 . 172 ﴾

*(63/253)*

---

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الذين قَتَلُواْ أولادهم ﴾

يعنى : دفنوا بناتهم أحياء وقتلوهن ﴿ سَفَهاً ﴾ صار نصباً لنزع الخافض يعني : جهلاً

منهم ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ يعني : بغير حجة منهم في قتلهن وهم ربيعة ومضر كانوا يقتلون بناتهم لأجل الحمية .

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رجلاً من أصحابه كان لا يزال مغتماً بين يديه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم " مَا لَكَ تَكن مَحْزُوناً " ؟ فقال : يا رسول الله إني قد أذنبت في الجاهلية ذنباً ، فأخاف أن لا يغفر لي وإني أسلمت فقال له : " أَخْبِرْنِي عَنْ ذَنْبِكَ " فقال : يا رسول الله : إني كنت من الذين يقتلون بناتهم فولدت لي بنت ، فتشفعت إليَّ امرأتي بأن أتركها فتركتها حتى كبرت ، وأدركت فصارت من أجمل النساء فخطبوها ، فدخلت عليَّ الحمية ولم يحتمل قلبي أن أزوجها أو أتركها في البيت بغير زوج . فقلت للمرأة : إني أريد أن أذهب بها إلى قبيلة كذا وكذا في زيارة أقربائي فابعثيها معي فسرت بذلك وزيّنتها بالثياب والحلي ، وأخذت عليَّ المواثيق بأن لا أخونها فذهبت بها إلى رأس بئر ، فنظرت إلى البئر ففطنت الجارية أني أريد أن ألقيها في البئر ، فالتزمت بي وجعلت تبكي وتقول : يا أبت أي شيء تريد أن تفعل بي فرحمتها ، ثم نظرت في البئر فدخلت عليّ الحمية ، ثم التزمتني وجعلت تقول : يا أبت لا تضيع أمانة أمي فجعلت مرة أنظر في البئر ، ومرة أنظر إليها ، وأرحمها حتى غلبني الشيطان فأخذتها وألقيتها في البئر منكوسة وهي تنادي في البئر يا أبت قتلتني .

فمكثت هناك حتى انقطع صوتها .

فرجعت فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقال " لَوْ أُمِرْتُ أَنْ أعَاقِبَ أَحَداً بِمَا فَعَلَ فِي الجَاهِلِيَّةِ لَعَاقَبْتُكَ بِمَا فَعَلْتَ "

(64/253)

---

ثم قال : ﴿ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ الله ﴾ يعني : ما أعطاهم ﴿ افتراء ﴾ يعني : كذباً ﴿ عَلَى الله ﴾ بأنه قد حرم ذلك عليهم ﴿ قَدْ أَضَلُّواْ ﴾ عن الهدى ﴿ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ يعني : وما هم بمهتدين ويقال : ﴿ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ من قبل فخذلهم الله بذلك قرأ ابن كثير وابن عامر ﴿ قاتلوا ﴾ بالتشديد لتكثير الفعل والباقون بالتخفيف . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

هذا لفظ يتضمن التشنيع بقبح فعلهم والتعجب من سوء حالهم في وأدهم البنات وحجرهم الأنعام والحرث ، وقال عكرمة : وكان الوأد في ربيعة ومضر .

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : وكان جمهور العرب لا يفعله ، ثم إن فاعليه كان منهم من يفعله خوف العيلة والاقتار وكان منهم من يفعله غيرة مخافة السباء وقرأ ابن عامر وابن

كثير : " قتّلوا " بتشديد التاء على المبالغة وقرأ الباقون : " قتلوا " بتخفيفها و ﴿ ما رزقهم الله ﴾ : هي تلك الأنعام والغلات التي توقف بغير شرع ولا مثوبة في معاد بل بالافتراء على الله والكذب و ﴿ قد ضلوا ﴾ إخباراً عنهم بالحيرة وهو من التعجيب بمنزلة قوله ﴿ قد خسر ﴾ ، ﴿ وما كانوا ﴾ يريد في هذه الفعلة ويحتمل أن يريد : وما كانوا قبل ضلالهم بهذه الفعلة مهتدين لكنهم زادوا بهذه الفعلة ضلالاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

أخبر بخسرانهم لوَأْدِهِم البنات وتحريمهم البَحِيرة وغيرها بعقولهم ؛ فقتلوا أولادهم سَفَهاً خوف الإملاق ، وحجروا على أنفسهم في أموالهم ولم يخشُوا الإملاق ؛ فأبان ذلك عن تناقض رأيهم .

قلت : إنه كان من العرب من يقتل ولده خَشْية الإملاق ؛ كما ذكر الله عز وجل في غير هذا الموضع .

وكان منهم من يقتله سَفهاً بغير حجة منهم في قتلهم ؛ وهم ربيعة ومُضَر ، كانوا يقتلون بناتهم لأجل الحَمِيّة .

ومنهم من يقول : الملائكة بنات الله ؛ فألحقوا البنات بالبنات .

" ورُوِي أن رجلاً من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم كان لا يزال مغتماً بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مالك تكون محزوناً" ؟ فقال : يا رسول الله ، إني أذنبت ذنباً في الجاهلية فأخاف ألاّ يغفره الله لي وإن أسلمتا فقال له : "أخبرني عن ذنبك" .

فقال : يا رسول الله ، إني كنت من الذين يقتلون بناتهم ، فوُلِدَت لي بِنت فتشفّعْت إليّ امرأتي أن أتركها فتركتها حتى كبِرْت وأدركتْ ، وصارت من أجمل النساء فخطبوها ؛ فدخلتني الحَمِيّة ولم يحتمل قلبي أن أزوّجها أو أتركها في البيت بغير زوج ، فقلت للمرأة : إني أريد أن أذهب إلى قبِيلة كذا وكذا في زيارة أقربائي فابعثيها معي ، فسُرّت بذلك وزينتها بالثياب والحُلِيّ ، وأخذت عليّ المواثيق بألاّ أخونها ، فذهبتُ بها إلى رأس بئر فنظرت في البئر ففطِنت الجارية أني أريد أن ألقِيها في البئر ؛ فالتزمتني وجعلت تبكي وتقول : يا أبتا أيشِ تريد أن تفعل بي فرحمتها ، ثم نظرتُ في البئر فدخلت عليّ الحمِيّة ، ثم التزمتني وجعلت تقول : يا أبت لا تضيّع أمانة أمّي ؛ فجعلت مرةً أنظر في البئر ومرّة أنظر إليها فأرحمها ، حتى غلبني الشيطان فأخذتها وألقيتها في البئر منكوسةً ، وهي تنادي في البئر :

يا أبت ، قتلتني .

فمكثتُ هناك حتى انقطع صوتُها فرجعتُ .

فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقال : "لو أُمِرْتُ أن أعاقب أحداً بما فعل في الجاهلية لعاقبتك" " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم ﴾

*(66/253)*

---

قال عكرمة : نزلت فيمن يئد البنات من ربيعة ومضر وكان الرجل يقاضي الرجل على أن يستحيي جارية ويئد أخرى فإذا كانت الجارية التي توأد غدا الرجل أو راح من عندها امرأته وقال لها أنت عليّ كظهر أمي إن رجعت إليك ولم تئديها فتخدّ لها في الأرض خداً وترسل إلى نسائها فيجتمعن عندها ثم يتداولنها بينهن حتى إذا أبصرته راجعاً دستها في حفرتها ثم سوت عليها التراب .

وقال قتادة : هذا من صنيع أهل الجاهلية كان أحدهم يقتل ابنه مخافة السبي والفاقة ويفدو كلبه .

أما سبب الخسران المذكور في قوله قد خسر الذين قتلوا أولادهم : أن الولد نعمة عظيمة أنعم الله بها على الوالد فإذا تسبب الرجل في إزالة هذه النعمة عنه وإبطالها فقد استوجب الذم وخسر في الدنيا والآخرة ، أما اخسارته في الدنيا فقد سعى في نقص عدده وإزالة ما أنعم الله به عليه .

وأما خسارته في الآخرة فقد استحق بذلك العذاب العظيم .

وقوله ﴿ سفها بغير علم ﴾ يعني فعلوا ذلك للسفاهة وهي الخفة والجهالة المذمومة وسبب حصول هذه السفاهة هو قلة العلم بل عدمه لأن الجهل كان هو الغالب عليهم قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا سموا جاهلية وقوله تعالى : ﴿ وحرموا ما رزقهم الله ﴾ يعني البحائر والسوائب والحامي وبعض الحروث وبعض ما في بطون الأنعام ، وهذا أيضاً من أعظم الجهالة ﴿ افتراء على الله ﴾ يعني أنهم فعلوا هذه الأفعال المذمومة وزعموا أن الله أمرهم بذلك وهذا افتراء على الله وكذب وهذا أيضاً من أعظم الجهالة لأن الجرأة على الله والكذب عليه من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر ولهذا قال تعالى : ﴿ قد ضلوا ﴾ يعني في فعلهم عن طريق الحق والرشاد ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾ يعني إلى طريق الحق والصواب في فعلهم (خ) .

عن ابن عباس قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم إلى قوله ﴿ قد ضلوا وما كانوا مهتدين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين ﴾ كان جمهور العرب لا يئدون بناتهم وكان بعض ربيعة ومضر يئدوهنّ وهو دفنهن أحياء ، فبعضهم يئد خوف العيلة والإقتار وبعضهم خوف السبي فنزلت هذه الآية .

*(68/253)*

---

في ذلك إخباراً بخسران فاعل ذلك ولما تقدّم تزيين قتل الأولاد وتحريم ما حرموه في قولهم ﴿ هذه أنعام وحرث حجر ﴾ جاء هنا تقديم قتل الأولاد وتلاه التحريم وفي قوله : ﴿ سفهاً بغير علم ﴾ إشارة إلى خفة عقولهم وجهلهم بأن الله هو الرزاق والمقدّر السبي وغيره ، ما رزقهم الله إظهار لإباحته لهم فقابلوا إباحة الله بتحريمهم هم وما رزقهم الله يعم

السوائب والبحائر والزروع ، وترتب على قتلهم أولادهم الخسران معللاً بالسفه والجهل وعلى تحريم ﴿ ما رزقهم ﴾ الخسران معللاً بالافتراء ثم الإخبار بالضلال وانتفاء الهداية ؛ وكل واحدة من هذه السبعة سبب تام في حصول الذم فأما الخسران فلأن الولد نعمة عظيمة من الله فإذا سعى في إبطال تلك النعمة والهبة فقد خسر واستحق الذم في الدنيا بقولهم : قتل ولده خوف أن يأكل معه وفي الآخرة العقاب لأن ثمرة الولد المحبة ، ومع حصولها ألحق به أعظم المضار وهو القتل كان أعظم الذنوب فيستحق أعظم العقاب ، وأما السفه وهي الخفة المذمومة فقتل الولد لخوف الفقر وإن كان ضرراً فالقتل أعظم منه ؛ وأيضاً فالقتل ناجز والفقر موهوم ، وأما الجهل فيتولد عنه السفاهة والجهل أعظم القبائح ، وأما تحريم ما أحل الله فهو من أعظم الجنايات وأما الافتراء فجراءة على الله وهو من أعظم الذنوب ، وأما الضلال فهو أن لا يرشدوا في مصالح الدنيا ولا الآخرة ، وأما انتفاء الهداية فتنبيه على أنهم لم يكونوا قط فيما سلكوه من ذلك ذوي هداية .

وقرأ الحسن والسلمي وأهل مكة والشام ومنهما ابن كثير وابن عامر : ﴿ قتلوا ﴾ بالتشديد .

وقرأ اليمني سفهاء على الجمع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن كثير :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (140) ﴾

(69/253)

---

يقول تعالى : قد خسر الذين فعلوا هذه الأفعال في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم ، وضيقوا عليهم في أموالهم ، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم ، وأما في الآخرة فيصيرون إلى شر المنازل بكذبهم على الله وافترائهم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس : 69 ، 70] .

وقال الحافظ أبو بكر بن مَرْدُوَيه في تفسير هذه الآية : حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم ، حدثنا محمد بن أيوب ، حدثنا عبد الرحمن بن المبارك ، حدثنا أبو عَوَانة ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جُبَيْر ، عن ابن عباس ، رضي الله عنهما قال : إذا سَرَّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ، ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾

وهكذا رواه البخاري منفردًا في كتاب "مناقب قريش" من صحيحه ، عن أبي النعمان

محمد بن الفضل عارم ، عن أبي عوَانة – واسمه الوَضَّاح بن عبد الله اليَشْكُرِي – عن أبي بشر – واسمه جعفر بن أبي وَحْشِيَّة بن إياس ، به (1) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 347 ﴾

---

(1) صحيح البخاري برقم (3524) .

*(70/253)*

---

وقال أبو السعود :

﴿ قَدْ خَسِرَ الذين قَتَلُواْ أولادهم ﴾

جوابُ قسمٍ محذوفٍ وقرىء بالتشديد وهم ربيعةُ ومضرُ وأضرابُهم من العرب الذين كانوا يئدون بناتِهم مخافةَ السبْي والفقر أي خسِروا دينَهم ودنياهم ﴿ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ متعلقٌ بقتلوا على أنه علة له أي لِخفة عقلهم وجهلِهم بأن الله هو الرزاقُ لهم ولأولادهم ، أو نُصب على الحال ويؤيده أنه قرىء سفهاءَ ، أو مصدر ﴿ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ الله ﴾ من البحائر والسوائب ونحوهما ﴿ افتراء عَلَى الله ﴾ نُصب على أحد الوجوه المذكورة ، وإظهارُ الاسم الجليل في موقع الإضمار لإظهار كمالِ عُتوّهم وطغيانهم ﴿ قَدْ ضَلُّواْ ﴾ عن الطريق المستقيم ﴿ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ إليه وإن هُدوا بفنون الهدايات أو وما كانوا

مهتدين من الأصل لسوء سيرِتهم فالجملةُ حينئذ اعتراضٌ ، وعلى الأول عطف على ضلوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(71/253)

---

وقال الآلوسى :

﴿ قَدْ خَسِرَ الذين قَتَلُواْ أولادهم ﴾ وهم العرب الذين كانوا يقتلون أولادهم على ما مر ، وأخرج ابن المنذر عن عكرمة أنها نزلت فيمن كان يئد البنات من ربيعة ومضر أي هلكت نفوسهم باستحقاقهم على ذلك العقاب أو ذهب دينهم ودنياهم .

وقرأ ابن كثير وابن عامر ﴿ قاتلوا ﴾ بالتشديد لمعنى التكثير أي فعلوا ذلك كثيراً ﴿ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي لخفة عقلهم وجهلهم بصفات ربهم سبحانه ، ونصب ﴿ سَفَهاً ﴾ على أنه علة لقتلوا أو على أنه حال من فاعله ، ويؤيده أنه قرىء ﴿ سفهاء ﴾ أو على المصدرية لفعل محذوف دل عليه الكلام ، والجار والمجرور إما صفة أو حال .

﴿ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ الله ﴾ من البحائر والسوائب ونحوهما ﴿ افتراء عَلَى الله ﴾ نصب على أحد الأوجه المذكورة ، وإظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لإظهار كمال عتوهم وطغيانهم ﴿ قَدْ ضَلُّواْ ﴾ عن الطريق السوي ﴿ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ إليه وإن

هدوا بفنون الهدايات أو ما كانوا مهتدين من الأصل ، والمراد المبالغة في نفي الهداية عنهم لأن صيغة الفعل تقتضي حدوث الضلال بعد أن لم يكن فأردف ذلك بهذه الحال لبيان عراقتهم في الضلال وأن ضلالهم الحادث ظلمات بعضها فوق بعض ، وصرح بعض المحققين بأن الجملة عطف على ﴿ ضَلُّواْ ﴾ على الأول واعتراض على الثاني ، وقرأ ابن رزين ﴿ قَدْ ضَلُّواْ قَبْلَ ذَلِكَ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

تذييل جُعل فذلكة للكلام السّابق ، المشتمل على بيان ضلالهم في قتل أولادهم ، وتحجير بعض الحلال على بعض من أحلّ له .

وتحقيق الفعل بـ ﴿ قد ﴾ للتّنبيه على أنّ خسرانهم أمر ثابت ، فيفيد التّحقيق التّعجيب منهم كيف عَمُوا عمّا هم فيه من خسرانهم .

وعن سعيد بن جبير قال ابن عبّاس : إذا سرّك أن تعلم جهلَ العرب فاقرأ ما فوق الثّلاثين ومائة من سورة الأنعام : ﴿ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفاهاً بغير علم إلى وما كانوا مهتدين .

أي من قوله تعالى : ﴿ وجعلوا لله ممّا ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ﴾ [ الأنعام : 136 ]

وجعلها فوق والثّلاثين ومائة تقريباً ، وهي في العدّ السادسة والثلاثون ومائة .

ووصف فعلهم بالخسران لأنّ حقيقة الخسران نقصان مال التّاجر ، والتّاجر قاصد الرّبح وهو الزّيادة ، فإذا خسر فقد باء بعكس ما عَمِل لأجلِه ( ولذلك كثر في القرآن استعارة الخسران لعمل الّذين يعملون طلباً لمرضاة الله وثوابه فيقعون في غضبه وعقابه ، لأنَّهم اتّعبوا أنفسهم فحصلوا عكس ما تعبوا لأجله ) ذلك أنّ هؤلاء الّذين قتلوا أولادهم قد طلبوا نفع أنفسهم بالتخلّص من أضرارٍ في الدّنيا مُحْتَمَلٍ لَحَاقُها بهم من جراء بَناتهم ، فوقعوا في أضرار محقّقة في الدّنيا وفي الآخرة ، فإنّ النّسل نعمة من الله على الوالدين يأنسون به ويجدونه لكفاية مهمّاتهم ، ونعمة على القبيلة تكثر وتعتزّ ، وعلى العالَم كلّه بكثرة من يعمره وبما ينتفع به النّاس من مواهب النّسل وصنائعه ، ونعمة على النّسل نفسِه بما يناله من نعيم الحياة وملذاتها .

ولتلك الفوائد اقتضت حكمة الله إيجاد نظام التّناسل ، حفظاً للنّوع ، وتعميراً للعالم ، وإظهاراً لما في الإنسان من مواهبَ تنفعه وتنفع قومه ، على ما في عملهم من اعتداء على حقّ البنت الّذي جعله الله لها وهو حقّ الحياة إلى انقضاء الأجل المقدّر لها وهو حقّ فطري لا يملكه الأب فهو ظلم بيّن لرجاء صلاح لغير المظلوم ولا يُضَرّ بأحد ليَنتفع غيره .

فلما قتل بعض العرب بناتِهم بالوأْد كانوا قد عطّلوا مصالحَ عظيمة محقّقة ، وارتكبوا به أضراراً حاصلة ، من حيث أرادوا التخلّص من أضرار طفيفة غير محقّقة الوقوع ، فلا جرم أن كانوا في فعلهم كالتّاجر الّذي أراد الرّبح فباء بضياع أصل ماله ، ولأجل ذلك سمَّى الله فعلهم : سفهاً ، لأنّ السّفه هو خفّة العقل واضطرابه ، وفعلهم ذلك سفه محض ، وأيُّ سفه أعظم من إضاعة مصالح جمّة وارتكاب أضرار عظيمة وجناية شنيعة ، لأجل التخلّص من أضرار طفيفة قد تحصُل وقد لا تحصل .

وتعريف المسند إليه بالموصولية للإيماء إلى أنّ الصّلة علّة في الخبر فإنّ خسرانهم مسبّب عن قتل أولادهم .

وقوله : ﴿ سفهاً ﴾ منصوب على المفعول المطلق المبين لنوع القتل : أنّه قتلُ سفه لا رأي لصاحبه ، بخلاف قتل العَدوّ وقتْل القاتل ، ويجوز أن ينتصب على الحال من ﴿ الذين قتلوا ﴾ ، وصفوا بالمصدر لأنّهم سفهاءُ بالغون أقصى السفه .

والباء في قوله : ﴿ بغير علم ﴾ للملابسة ، وهي في موضع الحال إمَّا منْ ﴿ سفهاً ﴾ فتكون حالاً مؤكّدة ، إذ السفه لا يكون إلاّ بغير علم ، وإمَّا من فاعل ﴿ قتلوا ﴾ ، فإنَّهم لمّا

فعلوا القتل كانوا جاهلين بسفاهتهم وبشناعة فعلهم وبعاقبة ما قدّروا حصوله لهم من الضرّ ، إذ قد يحصل خلاف ما قدّروه ولو كانوا يزنون المصالح والمفاسد لما أقدموا على فعلتهم الفظيعة .

والمقصود من الإخبار عن كونه بغير علم ، بعد الإخبار عنه بأنّه سفَه .

التّنبيه على أنَّهم فعلوا ذلك ظنّا منهم أنَّهم أصابوا فيما فعلوا ، وأنَّهم علموا كيف يَرأُبون ما في العالم من المفاسد ، وينظمون حياتهم أحسن نظام ، وهم في ذلك مغرورون بأنفسهم ، وجاهلون بأنَّهم يجهلون ﴿ الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدّنيا وهم يحسبون أنّهم يُحسنون صُنعا ﴾ [ الكهف : 104 ] .

وتقدّم الكلام على الوأد آنفاً ، ويأتي في سورة الإسراء عند قوله : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ﴾ [ الإسراء : 31 ] .

*(74/253)*

---

وقرأ الجمهور : ﴿ قَتَلوا أولادهم ﴾ بتخفيف التّاء وقرأه ابن عامر بتشديد التّاء لأنّه قتْل بشدّة ، وليست قراءة الجمهور مفيتة هذا المعنى ، لأنّ تسليط فعل القتل على الأولاد يفيد أنَّه قتل فظيع .

وقوله : ﴿ وحرموا ما رزقهم الله ﴾ نَعَى عليهم خسرانهم في أن حرّموا على أنفسهم بعض ما رزقهم الله ، فحُرِموا الانتفاع به ، وحَرَموا النّاس الانتفاع به ، وهذا شامل لجميع المشركين ، بخلاف الّذين قتلوا أولادهم .

والموصول الّذي يراد به الجماعة يصحّ في العطف على صلته أن تكون الجمل المتعاطفة مع الصّلة موزّعة على طوائف تلك الجماعة كقوله تعالى : ﴿ إنّ الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النّبيين بغير حقّ ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من النّاس فبشّرهم بعذاب أليم ﴾ [آل عمران : 21] .

وانتصب ﴿ افتراء ﴾ على المفعول المطلق ل ﴿ حرّموا ﴾ : لبيان نوع التّحريم بأنَّهم نسبوه لله كذباً .

وجملة ﴿ قد ضلوا ﴾ استئناف ابتدائي لزيادة النّداء على تحقّق ضلالهم .

والضّلال : خطأ الطّريق الموصِّل إلى المقصود ، فهم راموا البلوغ إلى مصالح دنيوية ، والتّقرب إلى الله وإلى شركائهم ، فوقعوا في المفاسد العظيمة ، وأبعدهم الله بذنوبهم ، فلذلك كانوا كمن رام الوصول فسلك طريقاً آخر .

وعَطْف ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾ على ﴿ قد ضلوا ﴾ لقصد التّأكيد لمضمون جملة ﴿ ضلوا ﴾ لأنّ مضمون هذه الجملة ينفي ضدّ الجملة الأولى فتؤول إلى تقرير معناها .

والعرب إذا أكّدوا بمثل هذا قد يأتون به غير معطوف نظراً لمآل مُفاد الجملتين ، وأنَّهما

باعتباره بمعنى واحد ، وذلك حقّ التّأكيد كما في قوله تعالى : ﴿ أموات غيرُ أحياء ﴾ [ النحل : 21 ] وقوله : ﴿ فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير ﴾ [ المدثر : 9 ، 10 ] .

وقول الأعشى :

إمَّا تَرَيْنَا حُفَاة لا نِعَالَ لنا

وقد يأتون به بالعطف وهو عطف صوري لأنَّه اعتداد بأنّ مفهوم الجملتين مختلف ، ولا اعتداد بمآلهما كما في قوله تعالى : ﴿ وأضلّ فرعون قومَه وما هَدى ﴾ [ طه : 79 ] وقوله : ﴿ قد ضللتُ إذنْ وما أنا من المهتدين ﴾ [ الأنعام : 56 ] وقول المتنبّي :

والبَيْنُ جارَ على ضُعفي وما عَدَلا

وكذلك جاء في هذه الآية ليفيد ، بالعطف ، أنَّهما خبران عن مساويهم .

و( كان ) هنا في حكم الزائدة : لأنَّها زائدة معنى ، وإن كانت عاملة ، والمراد : وما هم بمهتدين ، فزيادة ( كان ) هنا لتحقيق النّفي مثلَ موقعها مع لام الجحود ، وليس المراد أنَّهم ما كانوا مهتدين قبل أن يقتلوا أولادهم ويُحرّموا ما رزقهم الله ، لأنّ هذا لا يتعلّق به غرض بليغ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)

*(76/253)*

بَعْدَ مُحَاجَّةِ مُشْرِكِي مَكَّةَ وَسَائِرِ الْعَرَبِ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ وَآخِرُهَا الْبَعْثُ وَالْجَزَاءُ ذَكَرَ بَعْضَ عِبَادَاتِهِمُ الشِّرْكِيَّةِ فِي الْحَرْثِ وَقَتْلِ الْأَوْلَادِ وَالتَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ بِبَاعِثِ الْأَهْوَاءِ النَّفْسِيَّةِ . وَالْخُرَافَاتِ الْوَثَنِيَّةِ . فَقَالَ : (وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا) أَيْ وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمُ الْعَمَلِيَّةِ أَنْ جَعَلُوا لِلَّهِ نَصِيبًا مِمَّا ذَرَأَ وَخَلَقَ لَهُمْ مِنْ ثَمَرِ الزَّرْعِ وَغَلَّتِهِ كَالتَّمْرِ وَالْحُبُوبِ وَنِتَاجِ الْأَنْعَامِ ، وَنَصِيبًا لِمَنْ أَشْرَكُوا مَعَهُ مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ

(77/253)

---

وَقَدْ حُذِفَ ذِكْرُ هَذَا النَّصِيبِ إِيجَازًا لِدَلَالَةِ مَا بَعْدَهُ عَلَيْهِ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا) أَيْ فَقَالُوا فِي الْأَوَّلِ : هَذَا لِلَّهِ ، أَيْ نَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْهِ . وَفِي الثَّانِي : هَذَا لِشُرَكَائِنَا ، أَيْ مَعْبُودَاتُهُمْ يَتَقَرَّبُونَ بِهِ إِلَيْهَا . وَقَوْلُهُ فِي الْأَوَّلِ بِزَعْمِهِمْ مَعْنَاهُ بِتَقَوُّلِهِمْ وَوَضْعِهِمُ الَّذِي لَا عِلْمَ لَهُمْ بِهِ وَلَا هُدًى مِنَ اللَّهِ ؛ لِأَنَّ جَعْلَهُ قُرْبَةً لِلَّهِ يَجِبُ أَلَّا يُشْرَكَ مَعَهُ غَيْرُهُ فِي مِثْلِهِ وَأَنْ يَكُونَ بِإِذْنٍ مِنْهُ تَعَالَى لِأَنَّهُ دِينٌ ، وَإِنَّمَا الدِّينُ لِلَّهِ وَمِنَ اللَّهِ وَحْدَهُ . وَأَمَّا كَوْنُهُ لِلَّهِ خَلْقًا وَمُلْكًا فَغَيْرُ مُرَادٍ فِي هَذِهِ الْقِسْمَةِ ، فَإِنَّ لَهُ تَعَالَى كُلَّ شَيْءٍ لِأَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي الْخَلْقِ وَهَذَا لَا خِلَافَ فِيهِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّمَا الْخِلَافُ فِي التَّقَرُّبِ إِلَى

غَيْرِهِ تَعَالَى بِمَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْهِ مِنْ دُعَاءٍ وَصَدَقَةٍ وَذَبَائِحِ نُسُكٍ ، وَأَنْ يُطَاعَ غَيْرُهُ طَاعَةَ خُضُوعٍ فِي التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ لِذَاتِهِ بِغَيْرِ إِذْنٍ مِنْهُ تَعَالَى وَغَيْرِ ذَلِكَ . فَهَذَا شِرْكٌ جَلِيٌّ .

وَمِنْهُ هَذِهِ الْقِسْمَةُ بَيْنَ اللهِ تَعَالَى وَبَيْنَ مَا أَشْرَكُوا مَعَهُ .

رُوِيَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَجْعَلُونَ نَصِيبَ اللهِ تَعَالَى لِقِرَى الضِّيفَانِ وَإِكْرَامِ الصِّبْيَانِ

(78/253)

---

وَالتَّصَدُّقِ عَلَى الْمَسَاكِينِ ، وَنَصِيبَ آلِهَتِهِمْ لِسَدَنَتِهَا وَقَرَابَتِهَا وَمَا يُنْفَقُ عَلَى مَعَاهِدِهَا فَإِنْ قِيلَ : لِمَ قُرِنَ الْأَوَّلُ بِالزَّعْمِ الَّذِي يُعَبَّرُ بِهِ عَنْ قَوْلِ الْكَذِبِ وَالْبَاطِلِ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الْبِرِّ وَالْخَيْرِ ، دُونَ الثَّانِي الَّذِي هُوَ شَرٌّ مَحْضٌ وَبَاطِلٌ بَحْتٌ وَبِهِ كَانَ الْأَوَّلُ شِرْكًا فِي الْقِسْمَةِ وَدُونَ جَعْلِهِ لِكُلٍّ مِنْهُمَا ؟ نَقُولُ : إِنَّ الْأَوَّلَ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَحْسِنَهُ الْمُؤْمِنُ أَوِ الْعَاقِلُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا ، فَاحْتِيجَ إِلَى قَرْنِهِ بِكَوْنِهِ زَعْمًا مُخْتَرَعًا لَهُمْ لَا دِينًا مُشْتَرَعًا لِلَّهِ تَعَالَى ، فَكَانَ بِهَذَا بَاطِلًا فِي نَفْسِهِ فَوْقَ كَوْنِهِ مَقْرُونًا بِالشِّرْكِ إِذْ جَعَلُوا مِثْلَهُ لِمَا اتَّخَذُوا لِلَّهِ مِنَ الْأَنْدَادِ مَعَ أَحْكَامٍ أُخْرَى لَهُمْ فِيهِ فَصَّلَهَا بِقَوْلِهِ : (فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللهِ) أَيْ فَمَا كَانَ مِنْهُ لِلتَّقَرُّبِ إِلَى شُرَكَائِهِمُ الَّتِي جَعَلُوهَا لِلَّهِ فَلَا يَصِلُ إِلَى الْوُجُوهِ الَّتِي جَعَلُوهَا لِلَّهِ لَا بِالتَّصَدُّقِ وَلَا بِالضِّيَافَةِ وَلَا غَيْرِهِمَا ، بَلْ يَعْنُونَ بِحِفْظِهِ لَهَا بِإِنْفَاقِهِ عَلَى سَدَنَتِهَا وَذَبْحِ

النّسَائِكِ عِنْدَهَا وَنَحْوِ ذَلِكَ (وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ) أَيْ وَمَا جَعَلُوهُ لِلَّهِ فَهُوَ يُحَوِّلُ أَحْيَانًا إِلَى التَّقَرُّبِ بِهِ إِلَيْهَا فِيمَا ذُكِرَ آنِفًا وَفِي غَيْرِهِ مِمَّا سَيَأْتِي (سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) أَيْ قَبُحَ حُكْمُهُمْ هَذَا أَوْ مَا يَحْكُمُونَ بِهِ . وَقُبْحُهُ مِنْ وُجُوهٍ ، مِنْهَا أَنَّهُ اعْتِدَاءٌ عَلَى اللهِ بِالتَّشْرِيعِ .

(79/253)

---

وَمِنْهَا الشِّرْكُ فِي عِبَادَتِهِ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِ اللهِ أَدْنَى نَصِيبٍ مِمَّا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْهِ . وَمِنْهَا تَرْجِيحُ مَا جَعَلُوهُ لِشُرَكَائِهِمْ عَلَى مَا جَعَلُوهُ لِخَالِقِهَا وَخَالِقِهِمْ فِيمَا فُصِّلَ آنِفًا وَهُوَ أَدْنَى الْوُجُوهِ الثَّلَاثَةِ الْمُحْتَمَلَةِ فِي الْقِسْمَةِ . وَالثَّانِي : الْمُسَاوَاةُ بَيْنَ مَا لِشُرَكَائِهِمْ وَمَا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ . وَالثَّالِثُ : تَرْجِيحُ مَا لِلَّهِ تَعَالَى ، وَمِنْهَا أَنَّ هَذَا الْحُكْمَ لَا مُسْتَنَدَ لَهُ مِنَ الْعَقْلِ ، كَمَا أَنَّهُ لَا هِدَايَةَ لَهُ مِنَ الشَّرْعِ . وَهَذَا مِمَّا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى أَنَّ الْعُقُولَ تُدْرِكُ حُسْنَ الْأَحْكَامِ وَقُبْحَهَا وَيُحْتَجُّ بِهَا فِيهَا . وَلَمَّا كَانَ مَوْرِدُ هَذَا هُوَ الرِّوَايَةَ وَقَدْ رُوِيَ عَنْهُمْ سَخَافَاتٌ أُخْرَى فِي هَذِهِ الْقِسْمَةِ الْجَائِرَةِ ، اخْتَرْنَا أَنْ نَنْقُلَ مَا أَوْرَدَهُ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ قَالَ :

(80/253)

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ ، وَالْعُوفِيُّ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ : إِنَّ أَعْدَاءَ اللَّهِ كَانُوا إِذَا حَرَثُوا حَرْثًا أَوْ كَانَتْ لَهُمْ ثَمَرَةٌ جَعَلُوا لِلَّهِ مِنْهُ جُزْءًا وَلِلْوَثَنِ جُزْءًا ، فَمَا كَانَ مِنْ حَرْثٍ أَوْ ثَمَرَةٍ أَوْ شَيْءٍ مِنْ نَصِيبِ الْأَوْثَانِ حَفِظُوهُ وَأَحْصَوْهُ وَإِنْ سَقَطَ مِنْهُ شَيْءٌ فِيمَا سُمِّيَ لِلصَّمَدِ . رَدُّوهُ إِلَى مَا جَعَلُوهُ لِلْوَثَنِ . وَإِنْ سَبَقَهُمُ الْمَاءُ الَّذِي جَعَلُوهُ لِلْوَثَنِ فَسَقَى شَيْئًا جَعَلُوهُ لِلَّهِ جَعَلُوا ذَلِكَ لِلْوَثَنِ . وَإِنْ سَقَطَ شَيْءٌ مِنَ الْحَرْثِ وَالثَّمَرَةِ الَّذِي جَعَلُوهُ لِلَّهِ فَاخْتَلَطَ بِالَّذِي جَعَلُوهُ لِلْوَثَنِ قَالُوا هَذَا فَقِيرٌ وَلَمْ

(81/253)

يَرُدُّوهُ إِلَى مَا جَعَلُوهُ لِلَّهِ . وَإِنْ سَبَقَهُمُ الْمَاءُ الَّذِي جَعَلُوهُ لِلَّهِ فَسَقَى مَا سُمِّيَ لِلْوَثَنِ تَرَكُوهُ لِلْوَثَنِ . وَكَانُوا يُحَرِّمُونَ مِنْ أَمْوَالِهِمُ الْبَحِيرَةَ وَالسَّائِبَةَ وَالْوَصِيلَةَ وَالْحَامِيَ فَيَجْعَلُونَهُ لِلْأَوْثَانِ وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يُحَرِّمُونَهُ قُرْبَةً لِلَّهِ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا) الْآيَةَ . وَهَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ ، وَقَتَادَةُ ، وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ ، وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فِي الْآيَةِ : كُلُّ شَيْءٍ يَجْعَلُونَهُ لِلَّهِ مِنْ ذَبْحٍ يَذْبَحُونَهُ لَا يَأْكُلُونَهُ أَبَدًا حَتَّى يَذْكُرُوا مَعَهُ أَسْمَاءَ الْآلِهَةِ وَمَا كَانَ لِلْآلِهَةِ لَمْ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ مَعَهُ ، وَقَرَأَ الْآيَةَ حَتَّى بَلَغَ (سَاءَ مَا

يَحْكُمُونَ) أَيْ سَاءَ مَا يَقْسِمُونَ ; لِأَنَّهُمْ أَخْطَئُوا أَوَّلًا فِي الْقَسْمِ ; لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَخَالِقُهُ وَلَهُ الْمُلْكُ وَكُلُّ شَيْءٍ لَهُ وَفِي تَصَرُّفِهِ وَتَحْتَ قُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ . ثُمَّ لَمَّا قَسَمُوا فِيمَا زَعَمُوا الْقِسْمَةَ الْفَاسِدَةَ لَمْ يَحْفَظُوهَا بَلْ جَارُوا فِيهَا بِقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا : (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ) (16 : 57) وَقَالَ تَعَالَى : (وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ) (43 : 15) وَقَالَ تَعَالَى : (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى) (53 : 21 ، 22) اهـ .

*(82/253)*

---

(وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ) هَذَا حُكْمٌ آخَرُ مِمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِ الشِّرْكِ الَّتِي لَا يَسْتَحْسِنُهَا عَقْلٌ سَلِيمٌ ، وَلَمْ تَسْتَنِدْ إِلَى شَرْعٍ إِلَهِيٍّ قَوِيمٍ ، أَيْ وَمِثْلُ ذَلِكَ التَّزْيِينِ لِقِسْمَةِ الْقَرَابِينِ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ بَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى وَبَيْنَ آلِهَتِهِمْ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شُرَكَاؤُهُمْ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ . فَأَمَّا الشُّرَكَاءُ هُنَا فَقِيلَ : هُمْ سَدَنَةُ الْآلِهَةِ وَخَدَمُهَا وَقِيلَ : بَلْ هُمُ الشَّيَاطِينُ الَّذِينَ يُوَسْوِسُونَ لَهُمْ مَا يُزَيِّنُ ذَلِكَ فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ كُلٌّ مِنْهُمَا شَرِيكًا لِأَنَّهُ يُطَاعُ وَيُدَانُ لَهُ فِيمَا لَا يُطَاعُ بِهِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى ، وَلِهَذَا التَّزْيِينِ وُجُوهٌ : (أَحَدُهَا) اتِّقَاءُ الْفَقْرِ الْوَاقِعِ أَوِ الْمُتَوَقَّعِ ، فَالْأَوَّلُ هُوَ مَا بَيَّنَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : (وَلَا تَقْتُلُوا

أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ) (6 : 151) وَالثَّانِي مَا بَيَّنَهُ بِقَوْلِهِ : (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ) (17 : 31) وَقَدَّمَ فِي الْأَوَّلِ رِزْقَ الْوَالِدَيْنِ عَلَى رِزْقِ الْأَوْلَادِ لِأَنَّ الْوَلَدَ الصَّغِيرَ تَابِعٌ لِوَالِدِهِ فِي الرِّزْقِ الْحَالِّ ، وَقَدَّمَ فِي الثَّانِي رِزْقَ الْأَوْلَادِ عَلَى رِزْقِ الْوَالِدَيْنِ لِتَعَلُّقِهِ بِالْمُسْتَقْبَلِ ، وَكَثِيرًا مَا يَعْجَزُ فِيهِ الْآبَاءُ عَنْ كَسْبِ الرِّزْقِ وَيَحْتَاجُونَ إلَى إنْفَاقِ أَوْلَادِهِمْ عَلَيْهِمْ :

*(83/253)*

---

(وَالْوَجْهُ الثَّانِي) اتِّقَاءُ الْعَارِ وَهُوَ خَاصٌّ بِوَأْدِ الْبَنَاتِ – أَيْ دَفْنُهُنَّ حَيَّاتٍ – خَشْيَةَ أَنْ يَكُنَّ سَبَبًا لِلْعَارِ إذَا كَبُرْنَ ; فَهُمْ يُصَوِّرُونَ الْبِنْتَ لِوَالِدِهَا الْجَبَّارِ الْعَاتِي تَرْتَكِبُ الْفَاحِشَةَ أَوْ تَقْتَرِنُ بِزَوْجٍ دُونَهُ فِي الشَّرَفِ وَالْكَرَامَةِ فَتَلْحَقُهُ الْخِسَّةُ ، أَوْ تُسْبَى فِي الْقِتَالِ .

*(84/253)*

---

(وَالْوَجْهُ الثَّالِثُ) التَّدَيُّنُ بِنَحْرِ الْأَوْلَادِ لِلْآلِهَةِ تَقَرُّبًا إلَيْهَا بِنَذْرٍ أَوْ بِغَيْرِ نَذْرٍ ، وَكَانَ الرَّجُلُ يَنْذِرُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَئِنْ وُلِدَ لَهُ كَذَا غُلَامًا لَيَنْحَرَنَّ أَحَدَهُمْ ، كَمَا حَلَفَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ وَخَبَرُهُ

مَعْرُوفٌ يُذْكَرُ فِي قَصَصِ الْمَوْلِدِ النَّبَوِيِّ . وَلَوْلَا الشِّرْكُ الَّذِي يُفْسِدُ الْعُقُولَ لَمَا رَاجَتْ هَذِهِ الْوَسْوَسَةُ عِنْدَهُمْ ; وَلِذَلِكَ عَبَّرَ عَنْهُمْ هُنَا بِوَصْفِ (الْمُشْرِكِينَ) فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ لِأَنَّ الْكَلَامَ السَّابِقَ فِيهِمْ ، وَسَمَّى الْمُزَيِّنِينَ لَهُمْ ذَلِكَ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ كَالسَّدَنَةِ أَوِ الْجِنِّ شُرَكَاءَ وَإِنْ لَمْ يُسَمُّوهُمْ هُمْ آلِهَةً أَوْ شُرَكَاءَ ; لِأَنَّهُمْ أَطَاعُوهُمْ طَاعَةَ إِذْعَانٍ دِينِيٍّ فِي التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ وَهُوَ خَاصٌّ بِالرَّبِّ الْمَعْبُودِ كَمَا وَرَدَ مَرْفُوعًا فِي تَفْسِيرِ (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) (9 : 31) فَإِنَّ مُقْتَضَى الْفِعْلِ الْإِذْعَانِيِّ أَقْوَى دَلَالَةً مِنْ مَدْلُولِ الْقَوْلِ اللِّسَانِيِّ لِكَثْرَةِ الْكَذِبِ فِي هَذَا دُونَ ذَاكَ ، وَإِنَّنَا نَرَى كَثِيرًا مِنَ الَّذِينَ يَدَّعُونَ التَّوْحِيدَ يَدْعُونَ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْمَوْتَى تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً خَاشِعِينَ عِنْدَ قُبُورِهِمْ بَاكِينَ مُتَضَرِّعِينَ ، وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِمْ بِالصِّفَاتِ وَذَبَائِحِ النُّسُكِ مَنْذُورَةً أَوْ غَيْرَ مَنْذُورَةٍ ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يُسَمُّونَهُمْ شُرَكَاءَ لِلَّهِ وَلَا يُسَمُّونَ عِبَادَتَهُمْ هَذِهِ شِرْكًا وَلَا عِبَادَةً ، وَقَدْ يُسَمُّونَهَا تَوَسُّلًا . وَالْأَسْمَاءُ لَا تُغَيِّرُ الْحَقَائِقَ وَالْأَفْعَالَ ،

*(85/253)*

---

وَمِنْهَا الْأَقْوَالُ كَالدُّعَاءِ أَدَلُّ عَلَى الْحَقَائِقِ مِنَ التَّسْمِيَةِ الِاصْطِلَاحِيَّةِ وَالتَّأْوِيلَاتِ الْجَدَلِيَّةِ ، فَهَذِهِ أَفْعَالُ عِبَادَةٍ لِغَيْرِ اللَّهِ حَقِيقَةً لُغَةً وَشَرْعًا لَا مَجَازًا .

وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ (زَيَّنَ) بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ الَّذِي هُوَ (قَتْلُ) وَنَصَبَ (أَوْلَادَهُمْ) مَفْعُولًا لِلْقَتْلِ وَجَرَّ الشُّرَكَاءَ بِإِضَافَةِ الْقَتْلِ إِلَيْهِ مَعَ الْفَصْلِ بَيْنَهُمْ بِمَفْعُولِهِ ، وَهُوَ غَيْرُ فَصِيحٍ فِي عُرْفِ النُّحَاةِ وَإِنْ أَجَازُوهُ حَتَّى فِي غَيْرِ الشِّعْرِ ; وَلِذَلِكَ أَنْكَرَ الْقِرَاءَةَ الزَّمَخْشَرِيُّ وَغَلِطَ ابْنُ عَامِرٍ لِظَنِّهِ أَنَّهُ اسْتَنْبَطَهَا مِنْ كِتَابَةِ بَعْضِ الْمَصَاحِفِ ، وَانْتَصَرَ لَهَا ابْنُ مَالِكٍ فِي الْأَلْفِيَّةِ وَشَنَّعُوا عَلَى الزَّمَخْشَرِيِّ فِي إِنْكَارِهَا وَكَانُوا يُكَفِّرُونَهُ بِهِ ، وَلَكِنْ سَبَقَهُ بِهِ إِمَامُ الْمُفَسِّرِينَ ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ وَالْقُرْآنُ مِنْ جَمِيعِ رِوَايَاتِهِ الثَّابِتَةِ بِالتَّوَاتُرِ حُجَّةٌ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ ، وَقَدْ تَكُونُ الْقِرَاءَةُ فَصِيحَةً عَلَى لُغَةِ الْقَبِيلَةِ الَّتِي وَرَدَتْ بِبَيَانِ عَمَلِهَا وَإِنْ لَمْ تَكُنْ فَصِيحَةً عِنْدَ مَنْ رَاعَى جُمْهُورُ النُّحَاةِ لُغَاتِهِمْ فِي الْقَوَاعِدِ ، وَقَدْ يَكُونُ وُرُودُ الْقِرَاءَةِ بِغَيْرِ الشَّائِعِ فِي الِاسْتِعْمَالِ هُوَ مَا يُسَمِّيهِ النُّحَاةُ شَاذًّا ; لِنُكْتَةٍ تَجْعَلُهَا مِنَ الْبَلَاغَةِ بِمَكَانٍ كَإِفَادَةِ مَعْنًى جَدِيدٍ مَعَ مُنْتَهَى الْإِيجَازِ ، كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ مَعْنَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ وَكَثِيرٌ مِنَ الْقِرَاءَاتِ . وَمَعْنَاهَا زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ شُرَكَائِهِمْ لِأَوْلَادِهِمْ أَيِ اسْتَحْسَنُوا مَا تُوَسْوِسُهُ شَيَاطِينُ الْإِنْسِ مِنْ سَدَنَةِ الْأَصْنَامِ وَشَيَاطِينِ الْجِنِّ مِنْ قَتْلِ الْأَوْلَادِ

فَكَأَنَّ هَؤُلَاءِ الشُّرَكَاءَ هُمُ الَّذِينَ قَتَلُوهُمْ . فَفَائِدَةُ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ إذَا تَذْكِيرُ أُولَئِكَ السُّفَهَاءِ بِقُبْحِ طَاعَةِ أُولَئِكَ الشُّرَكَاءِ فِي أَفْظَعِ الْجَرَائِمِ وَالْجِنَايَاتِ وَهُوَ قَتْلُ الْأَوْلَادِ .

(88/253)

ثُمَّ عَلَّلَ هَذَا التَّزْيِينَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ) أَيْ زَيَّنُوا لَهُمْ هَذِهِ الْمُنْكَرَاتِ لِيُرْدُوهُمْ ، أَيْ يُهْلِكُوهُمْ بِالْإِغْوَاءِ وَهُوَ إفْسَادُ الْفِطْرَةِ ، الَّذِي يُذْهِبُ بِمَا أُودِعَ فِي قُلُوبِ الْوَالِدَيْنِ مِنْ عَوَاطِفِ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ ، بَلْ يَقْلِبُهَا إلَى مُنْتَهَى الْوَحْشِيَّةِ وَالْقَسْوَةِ ، حَتَّى يَنْحَرَ الْوَالِدُ رَيْحَانَةَ قَلْبِهِ بِمُدْيَتِهِ . وَيَدْفِنَ بِنْتَهُ الضَّعِيفَةَ وَهِيَ حَيَّةٌ بِيَدِهِ . فَهَذَا إرْدَاءٌ نَفْسِيٌّ مَعْنَوِيٌّ فَوْقَ الْإِرْدَاءِ الْحِسِّيِّ وَهُوَ الْقَتْلُ وَتَقْلِيلُ النَّسْلِ . وَأَمَّا لَبْسُ دِينِهِمْ عَلَيْهِمْ فَالْمُرَادُ بِالدِّينِ فِيهِ مَا كَانُوا يَتَّبِعُونَهُ مِنْ دِينِ إبْرَاهِيمَ وَمِلَّةِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، وَقَدِ اشْتَبَهَ وَاخْتَلَطَ عَلَيْهِمْ بِمَا ابْتَدَعُوهُ مِنْ هَذِهِ التَّقَالِيدِ الشِّرْكِيَّةِ ، حَتَّى لَمْ يَعُدْ يُعْرَفُ الْأَصْلُ الَّذِي كَانَ يُتَّبَعُ مِنْ هَذِهِ الْإِضَافَاتِ الشِّرْكِيَّةِ الَّتِي لَا تَزَالُ تُبْتَدَعُ ، فَاللَّبْسُ : الْخَلْطُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ أَوِ الْأَشْيَاءِ الَّذِي يَشْتَبِهُ فِيهِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ، وَقِيلَ : إنَّ الْمُرَادَ دِينُهُمُ الَّذِي وَجَبَ أَنْ يَكُونُوا عَلَيْهِ ، وَقِيلَ : لِيُوقِعُوهُمْ فِي دِينٍ مُلْتَبِسٍ مُشْتَبِهٍ لَا تَتَجَلَّى فِيهِ حَقِيقَةٌ ، وَلَا تَخْلُصُ فِيهِ هِدَايَةٌ .

وَهَذَا التَّعْلِيلُ ظَاهِرٌ عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ الشُّرَكَاءَ شَيَاطِينُ الْجِنِّ ، وَتَزْيِينُهُمْ وَسْوَسَتُهُمْ . وَأَمَّا عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ الشُّرَكَاءَ هُمْ سَدَنَةُ الْآلِهَةِ فَاللَّامُ لِلْعَاقِبَةِ وَالصَّيْرُورَةِ ؛ لِأَنَّ

(89/253)

---

السَّدَنَةَ لَا تَقْصِدُ الْإِرْدَاءَ لَهُمْ وَلَبْسَ الدِّينِ عَلَيْهِمْ كَذَا قِيلَ : وَهُوَ ظَاهِرٌ فِي الْإِرْدَاءِ ، وَلَا يَصِحُّ عَلَى إطْلَاقِهِ فِي لَبْسِ الدِّينِ ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ السَّدَنَةِ وَالْكَهَنَةِ يَقْصِدُونَ الْعَبَثَ بِدِينِ مَنْ يَتَّبِعُهُمْ وَيَدِينُ لَهُمُ الْتِذَاذًا بِطَاعَتِهِمْ وَاسْتِعْلَاءً بِالرِّيَاسَةِ فِيهِمْ .

قَالَ تَعَالَى : (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ) أَيْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى أَلَّا يَفْعَلَ الشُّرَكَاءُ ذَلِكَ التَّزْيِينَ ، أَوِ الْمُشْرِكُونَ ذَلِكَ الْقَتْلَ لَمَا فَعَلُوهُ ، وَذَلِكَ بِأَنْ يُغَيِّرَ خَلْقَهُمْ وَسُنَنَهُ الْحَكِيمَةَ فِيهِمْ . وَلَكِنَّهُ أَخْبَرَنَا بِأَنَّهُ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِهِ وَلَا لِسُنَنِهِ أَوْ بِأَنْ يَخْلُقَ النَّاسَ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ مَطْبُوعِينَ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى طَبْعًا لَا يَسْتَطِيعُونَ غَيْرَهُ كَالْمَلَائِكَةِ ، فَلَا يُؤَثِّرُ فِيهِمْ إغْوَاءٌ ، بَلْ لَا تَتَوَجَّهُ إلَيْهِمْ وَسْوَسَةٌ لِعَدَمِ اسْتِعْدَادِهِمْ لِقَبُولِهَا ، وَلَكِنَّهُ شَاءَ أَنْ يَخْلُقَ النَّاسَ مُسْتَعِدِّينَ لِلتَّأَثُّرِ بِكُلِّ مَا يَرِدُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ الْحِسِّيَّةِ وَالْفِكْرِيَّةِ ، وَلِاخْتِيَارِ مَا يَتَرَجَّحُ فِي أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُ خَيْرٌ لَهُمْ عَلَى مَا يُقَابِلُهُ وَلِأَجْلِ هَذَا يَغْلِبُ عَلَى كُلِّ إنْسَانٍ مَا رَسَخَ فِي

نَفْسِهِ بِالتَّعْلِيمِ وَالِاسْتِنْبَاطِ ، وَتَأْثِيرِ الْمُعَاشَرَةِ وَالِاخْتِلَاطِ ، فَيَكُونُ عَلَيْهِ اعْتِمَادُهُ فِي تَرْجِيحِ بَعْضِ الْأَعْمَالِ عَلَى بَعْضٍ

(90/253)

---

وَالنَّاسُ مُتَفَاوِتُونَ فِي هَذَا اسْتِعْدَادًا وَاسْتِفَادَةً ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونُوا عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ أَوْ رَأْيٍ وَاحِدٍ ، فَدَعْ أَيُّهَا الرَّسُولُ هَؤُلَاءِ الْمُفْتَرِينَ عَلَى اللهِ بِانْتِحَالِ مَا لَمْ يُشَرِّعْهُ لَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَهُ مِنَ الْعَقَائِدِ وَالْأَعْمَالِ الْمُسْتَنِدَةِ إِلَيْهَا وَعَلَيْكَ بِمَا أُمِرْتَ بِهِ مِنَ التَّبْلِيغِ

وَلِلَّهِ تَعَالَى سُنَنٌ فِي الِاهْتِدَاءِ لَا تَتَغَيَّرُ وَلَا تَتَبَدَّلُ ، فَلَا يُحْزِنْكَ أَمْرُهُمْ ، فَإِنَّ مِنْ سُنَّتِهِ أَنْ يَغْلِبَ حَقُّكَ بَاطِلَهُمْ .

هَذَا مَعْنَى الْآيَةِ الْمُوَافِقِ لِكِتَابِ اللهِ وَمُقْتَضَى صِفَاتِهِ وَسُنَنِهِ فِي خَلْقِهِ الَّتِي أَخْبَرَ بِأَنَّهَا لَا تَبْدِيلَ لَهَا وَلَا تَحْوِيلَ ، وَلَيْسَ مَعْنَاهَا أَنَّ مَشِيئَةَ اللهِ تَعَالَى قَدْ تَعَلَّقَتْ بِأَنْ يَقْتُلَ هَؤُلَاءِ أَوْلَادَهُمْ تَعَلُّقًا ابْتِدَائِيًّا بِأَنْ يَكُونَ أَمْرًا خَلْقِيًّا كَدَوَرَانِ الدَّمِ فِي الْبَدَنِ لَا اخْتِيَارَ لَهُمْ فِيهِ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا إِلَى تَرْكِهِ ، كَيْفَ وَقَدْ وَصَفَهُمْ فِي الْآيَةِ الْآتِيَةِ بِأَنَّهُمْ يَفْعَلُونَهُ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَقَدْ تَرَكُوا هَذَا السَّفَهَ بِهِدَايَةِ الْإِسْلَامِ ، فَلَا حُجَّةَ فِي الْآيَةِ لِلْجَبْرِيَّةِ وَإِنْ لَهِجَ بِهَا خَوَاصُّهُمْ وَعَوَامُّهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا فَهْمٍ .

(وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا) هَذِهِ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ أُخْرَى مِنْ أَحْكَامِهِمُ الْمُخْتَرَعَةِ الْمَبْنِيَّةِ عَلَى غِوَايَةِ شِرْكِهِمْ . (فَالْأَوَّلُ) أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتَطِعُونَ بَعْضَ أَنْعَامِهِمْ وَأَقْوَاتِهِمْ مِنَ الْحُبُوبِ وَغَيْرِهَا وَيَمْنَعُونَهُ التَّصَرُّفَ فِيهَا إِلَّا فِيمَا يَخُصُّونَهَا لَهُ تَعَبُّدًا وَيَقُولُونَ : (هِيَ حِجْرٌ) وَهُوَ بِالْكَسْرِ بِمَعْنَى الْمَحْجُورِ الْمَمْنُوعِ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِيهِ ، كَالذِّبْحِ بِمَعْنَى الْمَذْبُوحِ وَالطَّحْنِ بِمَعْنَى الْمَطْحُونِ ، وَيَجْرِي وَصْفًا لِلْمُذَكَّرِ وَالْمُؤَنَّثِ وَالْمُفْرَدِ وَالْمُثَنَّى وَالْجَمْعِ ؛ لِأَنَّ حُكْمَهُ - حُكْمَ الْأَسْمَاءِ - غَيْرُ الصِّفَاتِ ، وَأَصْلُهُ مَا أُحِيطَ بِالْحِجَارَةِ وَمِنْهُ حِجْرُ الْكَعْبَةِ وَسُمِّيَ الْعَقْلُ حِجْرًا لِأَنَّهُ يَمْنَعُ صَاحِبَهُ مِمَّا يَضُرُّ وَيُقَبِّحُ مِنَ الْأَعْمَالِ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَمُجَاهِدٌ ، وَالضَّحَّاكُ ، وَالسُّدِّيُّ : الْحِجْرُ الْحَرَامُ مِمَّا حَرَّمُوا مِنَ الْوَصِيلَةِ وَتَحْرِيمِ مَا حَرَّمُوا انْتَهَى أَيْ وَمَا حَرَّمُوا مِنْ غَيْرِهَا . وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ : حِجْرٌ أَيِ احْتَجَرُوهَا لِآلِهَتِهِمْ . وَقَالَ قَتَادَةُ : حِجْرٌ عَلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ مِنَ الشَّيَاطِينِ وَتَغْلِيظٌ وَتَشْدِيدٌ وَلَمْ يَكُنْ مِنَ اللَّهِ . أَيْ وَلِهَذَا قَالَ بِزَعْمِهِمْ . قَالُوا : وَكَانُوا يَحْتَجِرُونَهَا عَنِ النِّسَاءِ وَيَجْعَلُونَهَا لِلرِّجَالِ ، وَقَالُوا : إِنْ شِئْنَا جَعَلْنَا لِلْبَنَاتِ فِيهِ نَصِيبًا وَإِنْ شِئْنَا لَمْ نَجْعَلْ .

وَهَذَا أَمْرٌ افْتَرَوْهُ عَلَى اللهِ (وَالثَّانِي) أَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا : أَيْ أَنْ تُرْكَبُ . قَالَ السُّدِّيُّ : هِيَ الْبَحِيرَةُ وَالسَّائِبَةُ وَالْحَامِي . وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ

(مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) (5 : 103) . (وَالثَّالِثُ) أَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا فِي الذَّبْحِ ، بَلْ يُهِلُّونَ بِهَا لِآلِهَتِهِمْ وَحْدَهَا . وَعَنْ أَبِي وَائِلٍ : كَانُوا لَا يَحُجُّونَ عَلَيْهَا فَلَا يُلَبُّونَ عَلَى ظُهُورِهَا ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : كَانَ مِنْ إِبِلِهِمْ طَائِفَةٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا وَلَا فِي شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهَا ، لَا إِنْ رَكِبُوا وَلَا إِنْ حَلَبُوا وَلَا إِنْ حَمَلُوا وَلَا إِنْ سَحَبُوا وَلَا إِنْ عَمِلُوا شَيْئًا اهـ .

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّهُمْ قَسَّمُوا أَنْعَامَهُمْ هَذَا التَّقْسِيمَ الَّذِي جَعَلُوهُ مِنْ أَحْكَامِ الدِّينِ فَنَسَبُوهُ إِلَى اللهِ تَعَالَى حُكْمًا وَدِيَانَةً (افْتِرَاءً عَلَيْهِ) أَيْ قَالُوهُ أَوْ فَعَلُوهُ مُفْتَرِينَ إِيَّاهُ أَوِ افْتَرَوْهُ افْتِرَاءً

وَاخْتَلَقُوهُ اخْتِلَاقًا وَاللهُ بَرِيءٌ مِنْهُ لَمْ يُشَرِّعْهُ لَهُمْ ، وَمَا كَانَ لِغَيْرِ اللهِ أَنْ يُحَلِّلَ أَوْ يُحَرِّمَ عَلَى الْعِبَادِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ كَمَا قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ) (10 : 59) أَيْ بَلْ أَنْتُمْ تَفْتَرُونَ عَلَيْهِ .

وَلَا يَزَالُ بَعْضُ النَّاسِ يُحِلُّونَ وَيُحَرِّمُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَعَلَى النَّاسِ بِأَهْوَائِهِمْ أَوْ تَقْلِيدِ بَعْضِ الْمُصَنِّفِينَ مِنْ أَوْلِيَائِهِمْ وَالْمُنْتَحِلِينَ لِمَذَاهِبِهِمْ ، إِمَّا مُوَقَّتًا بِيَمِينٍ أَوْ نَذْرٍ أَوْ تَنَسُّكٍ تَصَوُّفٍ ، وَإِمَّا تَحْرِيمًا مُطْلَقًا دَائِمًا ، وَهُمْ يَجْهَلُونَ عَلَى ادِّعَائِهِمْ لِلْعِلْمِ وَالدِّينِ ، أَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ بِذَلِكَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ بَيَّنَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ سُوءَ حَالِهِمْ ، وَذُيِّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِبَيَانِ سُوءِ مَآلِهِمْ . وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) أَيْ سَيُجْزَوْنَ الْجَزَاءَ الشَّدِيدَ الْأَلِيمَ بِسَبَبِ هَذَا الِافْتِرَاءِ الْقَبِيحِ .

*(94/253)*

---

(وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ) هَذَا ضَرْبٌ آخَرُ مِنْ أَحْكَامِهِمُ السَّخِيفَةِ فِي التَّحْرِيمِ وَالتَّحْلِيلِ ، وَهُوَ خَاصٌّ بِمَا فِي بُطُونِ بَعْضِ الْأَنْعَامِ مِنَ اللَّبَنِ وَالْأَجِنَّةِ ، رُوِيَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْأَنْعَامِ هُنَا الْبَحَائِرُ وَحْدَهَا أَوْ هِيَ وَالسَّوَائِبُ ، كَانُوا يَجْعَلُونَ لَبَنَهَا لِلذُّكُورِ وَيُحَرِّمُونَهُ عَلَى الْإِنَاثِ ، وَكَانَتْ إِذَا وَلَدَتْ ذَكَرًا

حَيًّا جَعَلُوهُ خَالِصًا لِلذُّكُورِ لَا تَأْكُلُ مِنْهُ الْإِنَاثُ وَإِذَا كَانَ مَيْتًا اشْتَرَكَ فِيهِ الذُّكُورُ وَالْإِنَاثُ ، وَإِذَا وَلَدَتْ أُنْثَى تَرَكُوهَا لِأَجْلِ النِّتَاجِ . وَبَعْضُ مُفَسِّرِي السَّلَفِ لَمْ يُقَيِّدُوا هَذِهِ الْأَنْعَامَ بِالْبَحَائِرِ وَالسَّوَائِبِ ، فَيُمْكِنُ حَمْلُ الْمُطْلَقِ عَلَى الْمُقَيَّدِ ، يُحْتَمَلُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ ذَلِكَ فِي أَنْعَامٍ أُخْرَى يُعَيِّنُونَهَا بِغَيْرِ وَصْفِ الْبَحِيرَةِ أَيْ مَشْقُوقَةِ الْأُذُنِ ، وَالسَّائِبَةُ الَّتِي تُسَيَّبُ وَتُتْرَكُ لِلْآلِهَةِ فَلَا يَتَعَرَّضُ لَهَا أَحَدٌ .

وَعَنِ الشَّعْبِيِّ وَعِكْرِمَةَ وَقَتَادَةَ وَغَيْرِهِمْ أَنَّ الْبَحِيرَةَ لَا يَأْكُلُ مِنْ لَبَنِهَا إلَّا الرِّجَالُ وَإِنْ مَاتَ مِنْهَا شَيْءٌ أَكَلَهُ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ . فَإِنْ قِيلَ : إنَّ الْآيَةَ فِي شَأْنِ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ لَا فِي نَفْسِهَا فَلَا يَصِحُّ إدْخَالُ قَوْلِ هَؤُلَاءِ فِي تَفْسِيرِهَا - قُلْنَا يَصِحُّ ذَلِكَ بَلْ هُوَ الْمُتَبَادِرُ مِنْ بَعْضِ الْقِرَاءَاتِ .

(95/253)

---

قَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ " وَإِنْ تَكُنْ " بِالتَّاءِ " وَمَيْتَةٌ " بِالرَّفْعِ ، وَابْنُ كَثِيرٍ : " يَكُنْ " بِالْيَاءِ وَ " مَيْتَةٌ " بِالرَّفْعِ ، وَأَبُو بَكْرٍ عَنْ عَاصِمٍ " يَكُنْ " بِالْيَاءِ وَ " مَيْتَةً " بِالنَّصْبِ . فَأَمَّا الْأَوَّلُ فَلَيْسَ فِي قِرَاءَتِهِ إلَّا تَأْنِيثُ الْفِعْلِ " تَكُنْ " لِتَأْنِيثِ خَبَرِهِ ، وَأَمَّا قِرَاءَةُ ابْنِ كَثِيرٍ فَقَالُوا : إنَّ فِيهَا حَذْفَ الْخَبَرِ ، وَالتَّقْدِيرُ : وَإِنْ يَكُنْ لَهُمْ مَيْتَةٌ - أَوْ - وَإِنْ يَكُنْ هُنَاكَ مَيْتَةٌ ، وَتَذْكِيرُ الْفِعْلِ لِأَنَّ الْمَيْتَةَ

بِمَعْنَى الْمَيِّتِ ، وَهَذَا يُصَدِّقُ بِتِلْكَ الْأَنْعَامِ نَفْسِهَا وَبِأَجِنَّتِهَا الَّتِي فِي بُطُونِهَا وَمِثْلُ ذَلِكَ مَا إذَا جُعِلَتْ "يَكُنْ" بِمَعْنَى يُوجَدُ أَيْ فِعْلًا تَامًّا . وَقَالُوا فِي تَقْدِيرِ قِرَاءَةِ عَاصِمٍ : وَإِنْ تَكُنِ الْمَذْكُورَةُ مَيْتَةً ، وَهُوَ يَشْمَلُ تِلْكَ الْأَنْعَامَ وَمَا فِي بُطُونِهَا أَيْضًا . بَلْ قَالَ بَعْضُهُمْ مِثْلَ هَذَا فِي قِرَاءَةِ الْبَاقِينَ ، وَلَكِنَّ الَّذِي يَتَبَادَرُ إلَى ذِهْنِ الْعَرَبِيِّ الْفَصِيحِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً) بِالنَّصْبِ أَنَّ الْمُرَادَ : وَإِنْ يَكُنْ مَا فِي بُطُونِ تِلْكَ الْأَنْعَامِ مَيْتَةً . فَالْفَائِدَةُ الْمَعْنَوِيَّةُ فِي اخْتِلَافِ الْقِرَاءَاتِ مَا ذَكَرْنَا وَمَا عَدَاهُ فَاخْتِلَافُ وُجُوهٍ جَائِزَةٍ فِي اللُّغَةِ .

(96/253)

---

وَمِنْ مَبَاحِثِ اللَّفْظِ فِي الْآيَةِ أَنَّ قَوْلَهُ : (خَالِصَةٌ) فِيهِ وُجُوهٌ . أَحَدُهَا : أَنَّ التَّاءَ فِيهِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي الْوَصْفِ كَرَاوِيَةٍ وَدَاهِيَةٍ وَطَاغِيَةٍ فَلَا يُقَالُ إنَّهُ غَيْرُ مُطَابِقٍ لِلْمُبْتَدَأِ عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّهُ خَبَرٌ ، وَثَانِيهَا : أَنَّ الْمُبْتَدَأَ وَهُوَ (مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ) مُذَكَّرُ اللَّفْظِ مُؤَنَّثُ الْمَعْنَى لِأَنَّهُ الْمُرَادُ بِهِ الْأَجِنَّةُ ، فَيَجُوزُ تَذْكِيرُ خَبَرِهِ بِاعْتِبَارِ اللَّفْظِ وَتَأْنِيثُهُ بِاعْتِبَارِ الْمَعْنَى – وَثَالِثُهَا : أَنَّهُ مَصْدَرٌ فَتَكُونُ الْعِبَارَةُ مِثْلَ قَوْلِهِمْ : عَطَاؤُك عَافِيَةٌ ، وَالْمَطَرُ رَحْمَةٌ ، وَالرُّخْصَةُ نِعْمَةٌ ، وَرَابِعُهَا أَنَّهُ مَصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ أَوْ حَالٌ مِنَ الْمُسْتَكِنِّ فِي الظَّرْفِ وَخَبَرُ الْمُبْتَدَأِ (لِذُكُورِنَا) .

(سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) يُقَالُ : جَزَاهُ كَذَا وَبِكَذَا – أَيْ جَعَلَهُ جَزَاءً لَهُ عَلَى

عَمَلٍ عَمِلَهُ ، قَالَ تَعَالَى : (أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا) (25 : 75) إلخ وَقَالَ : (فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ) (21 : 29) وَقَالَ : (هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ) (10 : 52) وَقَالَ : (هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (27 : 90) وَجَعْلُ الْجَزَاءِ عَيْنَ الْعَمَلِ قَدْ تَكَرَّرَ فِي سُورَةٍ أُخْرَى وَقَدَّرُوا لَهُ كَلِمَةَ جَزَاءٍ أَوْ ثَوَابٍ وَعِقَابٍ بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْعَمَلَ هُوَ مَا يُجَازَى عَلَيْهِ لَا مَا يُجَازَى بِهِ ، وَلَكِنَّ تَعْبِيرَ الْكُتَّابِ لَا يَكُونُ إِلَّا لِنُكْتَةٍ

*(97/253)*

---

عَالِيَةٍ فِي الْبَلَاغَةِ ، وَهِيَ عِنْدَنَا الْإِيذَانُ بِأَنَّ الْجَزَاءَ لَمَّا كَانَ أَثَرًا لِمَا يُحْدِثُهُ الْعَمَلُ فِي النَّفْسِ مِنْ تَزْكِيَةٍ أَوْ تَدْسِيَةٍ كَانَ كَأَنَّهُ عَيْنُ الْعَمَلِ ، فَإِنَّ النَّفْسَ تُنَعَّمُ أَوْ تُعَذَّبُ بِالصِّفَةِ الَّتِي تَطْبَعُهَا فِيهَا الْأَعْمَالُ ، وَبِهَذَا يَتَجَلَّى لَكَ هُنَا مَعْنَى جَعْلِ جَزَاءِ الْمُفْتَرِينَ عَلَى اللهِ فِي التَّشْرِيعِ وَصْفَهُمْ ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا جُعِلَ الْوَصْفُ هُنَا بِمَعْنَى الصِّفَةِ الَّتِي هِيَ حَالَةُ النَّفْسِ وَصُورَتُهَا ، وَقَدْ بَيَّنَّا هَذَا الْمَعْنَى فِي التَّفْسِيرِ مِرَارًا . وَمَعْنَى الْجُمْلَةِ مَعَ تَعْلِيلِهَا : سَيَجْزِيهِمُ اللهُ بِمُقْتَضَى حِكْمَتِهِ فِي الْخَلْقِ وَعِلْمِهِ بِشُؤُونِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ وَمَنَاشِئِهَا مِنْ صِفَاتِهِمْ ، بِأَنْ يَجْعَلَ عِقَابَهُمْ عَيْنَ مَا يَقْتَضِيهِ وَصْفُهُمْ وَنَعْتُهُمُ الرُّوحِيُّ ، فَإِنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ فِي الْآخِرَةِ صِفَاتٍ تَجْعَلُهَا فِي مَكَانٍ مُعَيَّنٍ مِنْ عِلِّيِّينَ ، أَوْ سِجِّينٍ فِي أَسْفَلِ سَافِلِينَ ، كَمَا أَنَّ صِفَةَ الْجِسْمِ السَّائِلِ

الْخَفِيفِ تَقْتَضِي بِسُنَنِ اللهِ أَنْ يَكُونَ فَوْقَ الْجِسْمِ الثَّقِيلِ كَمَا تَرَى فِي الزَّيْتِ إذَا وُضِعَ فِي إنَاءٍ مَعَ الْمَاءِ ، وَمَا يَعْرِفُ النَّاسُ مِنْ دَرَجَاتِ الْحَرَارَةِ فِي مَوَازِينِهَا الْمَعْرُوفَةِ مِثَالٌ مُوَضِّحٌ لِلْمُرَادِ ، فَمَنْشَأُ الْجَزَاءِ نَفْسُ الْإِنْسَانِ بِاعْتِبَارِ عَقَائِدِهَا وَسَائِرِ صِفَاتِهَا الَّتِي يَطْبَعُهَا الْعَمَلُ عَلَيْهَا . وَإِذَا جُعِلَ الْوَصْفُ مَصْدَرًا فَلَا بُدَّ مِنْ تَقْدِيرِ مَعْمُولِهِ كَأَنْ يُقَالَ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفُهُمْ لِرَبِّهِمْ بِمَا جَعَلُوا لَهُ مِنَ الشُّرَكَاءِ فِي

(98/253)

---

الْعِبَادَةِ وَالتَّشْرِيعِ ، أَوْ وَصْفَ أَلْسِنَتِهِمُ الْكَذِبَ بِمَا افْتَرَوْا عَلَيْهِ فِيهِمَا : (وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ) (16 : 116) الْآيَةُ . قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي مَادَّةِ وَصْفِ الْأَسَاسِ : وَمِنَ الْمَجَازِ وَجْهُهَا يَصِفُ الْحُسْنَ ، وَلِسَانُهُ يَصِفُ الْكَذِبَ ، وَذَكَرَ هَذِهِ الْآيَةَ ثُمَّ قَالَ : وَهَذِهِ نَاقَةٌ تَصِفُ الْإِدْلَاجَ . قَالَ الشَّمَّاخُ :

إذَا مَا أَدْلَجَتْ وَصَفَتْ يَدَاهَا . . . لَهَا الْإِدْلَاجَ لَيْلَةَ لَا هُجُوعَ

وَفِي رَوْحِ الْمَعَانِي أَنَّ الْجُمْلَةَ كَمَا قَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ بَلِيغِ الْكَلَامِ وَبَدِيعِهِ ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ : وَصَفَ كَلَامُهُ الْكَذِبَ ، إذَا كَذَبَ ، وَعَيْنُهُ تَصِفُ السِّحْرَ أَيْ سَاحِرَةٌ ، وَقَدُّهُ يَصِفُ الرَّشَاقَةَ ، بِمَعْنَى رَشِيقٍ مُبَالَغَةً حَتَّى كَأَنَّ مَنْ سَمِعَهُ أَوْ رَآهُ وَصَفَ لَهُ ذَلِكَ بِمَا يَشْرَحُهُ لَهُ :

قَالَ الْمَعَرِّيُّ :

سَرَى بَرْقُ الْمَعَرَّةِ بَعْدَ وَهْنٍ . . . فَبَاتَ بِرَامَةٍ يَصِفُ الْمَلَالَا

(99/253)

---

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) حَاصِلُ مَا أَنْكَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مُشْرِكِي الْعَرَبِ فِي هَذَا السِّيَاقِ يَرْجِعُ إلَى الْأَمْرَيْنِ الْفَظِيعَيْنِ اللَّذَيْنِ نَعَتَهُمَا عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْآيَةُ وَحَكَمَتْ عَلَيْهِمْ فِيهِمَا حُكْمًا حَقًّا وَعَدْلًا ، وَهُوَ أَنَّهُمْ خَسِرُوا بِقَتْلِ أَوْلَادِهِمْ وَبِوَأْدِ الْبَنَاتِ - الَّتِي بَيَانُهُ وَغَيْرُهُ - خُسْرَانًا عَظِيمًا دَلَّ عَلَيْهِ حَذْفُ مَفْعُولِ خَسِرُوا الدَّالِّ عَلَى الْعُمُومِ فِي بَابِهِ

لِيَتَرَوَّى السَّامِعُ فِيهِ ، وَيَتَأَمَّلَ مَا وَرَاءَ قَوَادِمِهِ مِنْ خَوَافِيهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ خُسْرَانَ الْأَوْلَادِ يَسْتَلْزِمُ خُسْرَانَ كُلِّ مَا كَانَ يُرْجَى مِنْ فَوَائِدِهِمْ مِنَ الْعِزَّةِ وَالنُّصْرَةِ ، وَالْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْفَخْرِ وَالزِّينَةِ وَالسُّرُورِ وَالْغِبْطَةِ ، كَمَا يَسْتَلْزِمُ خُسْرَانَ الْوَالِدِ الْقَاتِلِ لِعَاطِفَةِ الْأُبُوَّةِ وَرَأْفَتِهَا ، وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ مِنَ الْقَسْوَةِ وَالْغِلْظَةِ وَالشَّرَاسَةِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَسَاوِئِ الْأَخْلَاقِ الَّتِي يَضِيقُ بِهَا الْعَيْشُ فِي الدُّنْيَا وَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا الْعِقَابُ فِي الْآخِرَةِ ; وَلِذَلِكَ عُلِّلَ هَذَا الْجُرْمُ بِسَفَهِ النَّفْسِ وَهُوَ اضْطِرَابُهَا وَحَمَاقَتُهَا ، وَبِالْجَهْلِ أَيْ عَدَمِ الْعِلْمِ بِمَا يَنْفَعُ وَيَضُرُّ وَمَا يَحْسُنُ وَيَقْبُحُ .

ثُمَّ بَيَّنَ بَعْدِ هَذَا أَنَّهُمْ حَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَهَذَا سَفَهٌ وَجَهْلٌ أَيْضًا وَلَكِنَّهُ دُونَ مَا سَبَقَهُ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ ; وَلِذَلِكَ اقْتَصَرَ عَلَى تَعْلِيلِهِ بِشَرِّ مَا فِيهِ مِنَ الْقُبْحِ وَهُوَ الِافْتِرَاءُ عَلَى اللهِ بِجَعْلِهِ دِينًا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْهِ . ثُمَّ بَيَّنَ نَتِيجَةَ الْأَمْرَيْنِ بِأَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا فِيهِمَا ، وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْحَقِّ وَالصَّوَابِ مِنْ طَرِيقِ الْعَقْلِ وَلَا مِنْ طَرِيقِ الشَّرْعِ ، وَلَا مِنْ مَنَافِعِ الدُّنْيَا وَلَا مِنْ سَعَادَةِ الْآخِرَةِ ، فَهَذِهِ الْأَعْمَالُ أَقْبَحُ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ الْعَرَبُ مِنْ غِوَايَةِ الشِّرْكِ وَقَدْ عَادَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ شَيْءٌ مِنْهُ بِتَحْرِيمِ مَا لَمْ يُحَرِّمِ اللهُ وَجَعْلِهِ دِينًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : إِذَا سَرَّكَ أَنْ تَعْلَمَ جَهْلَ الْعَرَبِ فَاقْرَأْ مَا فَوْقَ الثَّلَاثِينَ وَمِائَةٍ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا) إِلَى قَوْلِهِ : (وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَأَبُو الشَّيْخِ عَنْ عِكْرِمَةَ فِي الْآيَةِ قَالَ : نَزَلَتْ

فِيمَنْ كَانَ يَئِدُ الْبَنَاتِ مِنْ مُضَرَ وَرَبِيعَةَ . كَانَ الرَّجُلُ يَشْتَرِطُ عَلَى امْرَأَتِهِ أَنَّكِ تَئِدِينَ جَارِيَةً (أَيْ بِنْتًا) وَتَسْتَحْيِينَ (أَيْ تُبْقِينَ) أُخْرَى ، فَإِذَا كَانَتِ الْجَارِيَةُ الَّتِي تُوءَدُ غَدَا مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ أَوْ رَاحَ وَقَالَ : أَنْتِ عَلَيَّ كَأُمِّي (أَيْ مُحَرَّمَةً) إِنْ رَجَعْتُ إِلَيْكِ وَلَمْ تَئِدِيهَا ، فَتُرْسِلُ إِلَى نِسْوَتِهَا فَيَحْفُرْنَ لَهَا حُفْرَةً فَيَتَدَاوَلْنَهَا بَيْنَهُنَّ فَإِذَا بَصُرْنَ بِهِ مُقْبِلًا دَسَسْنَهَا فِي حُفْرَتِهَا وَيُسَوِّينَ عَلَيْهَا التُّرَابَ - أَيْ وَهِيَ حَيَّةٌ - وَهَذَا هُوَ الْوَأْدُ . وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، وَأَبُو الشَّيْخِ ، عَنْ قَتَادَةَ فِي الْآيَةِ قَالَ : هَذَا صُنْعُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ ، كَانَ أَحَدُهُمْ يَقْتُلُ ابْنَتَهُ مَخَافَةَ السِّبَاءِ وَالْفَاقَةِ وَيَغْذُو كَلْبَهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار جـ 8 صـ 106. 115 ﴾

*(102/253)*

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

وجْه الخسران أنهم لم يلتفتوا إلى أن الله يرزقهم ويرزق أبناءهم أيضاً ، ولعلك أيها الأب قتلت ولداً ، كنت ستعيش أنت في رحاب رزقه ، وكثيراً ما يكون البعض من الأولاد صاحب رزق وفير ، ويقال عن مثل هذا الابن : إن وجهه وجه الخير والسعد والبركة ، فمن يوم أن

وُلد ولد معه الخير ، وذلك حتى لا يتأبى الإنسان على عطاء الله ؛ لأنك حين تتأبى على عطاء الله تحرم نفسك العطاء فيما تظنه غير عطاء ، وهذا خسران كبير .

إننا نلحظ أن العرب كانوا في بيئة تستجيب وتلبي الصريخ ، فساعد يصرخ من في شدة نزلت به واستنجد ، يجد من ينقذه ، والأولى بالنجدة أهل الرجل وأولاده . والمثال على ذلك ما حدث من جد رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما ذهب ليحفر البئر ، وجاءت قريش ووقفت له حتى لا يحفر . فقال : لو أن لي عشرة أبناء سأضحي بواحد منهم . إذن فكثرة الأولاد في هذه المسائل تعطي العزوة وتكثر الصريخ ، ولا يفعل ذلك إلا المفطور على النجدة .

وإن قتلت ابناً خوفاً من الفقر فقد تخسر رزقاً قد يكون في طي من تقتل من الذرية ، وفوق ذلك تفقد مباهج الشأن أو العزوة أو الآل . أو على الأقل أنهم قد خسروا الا أنهم عاكسوا مرادات الله في الإيجاد بالإنجاب . ﴿ قَدْ خَسِرَ الذين قتلوا أَوْلاَدَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ . . ﴾ [ الأنعام : 140 ]

و﴿ سَفَهاً ﴾ تعني طيشاً ، وحمقاً ، وجهلاً . ﴿ . . وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ الله افتراآء عَلَى الله قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [ الأنعام : 140 ]

وهم حين يحرمون على أنفسهم ما رزقهم الله من الأنعام ، فهم أهل حمق وضلال وخسران فلو تركوها لانتفعوا منها في حمل أثقالهم أو فيما تدره من لبن ، أو في أكل لحمها . إنهم بحمقهم وجهلهم قد خسروا كثيراً ، وهم مع ذلك فعلوا ما فعلوا بكذب متعمد على الله ، وهم قد ضلوا ولم يكونوا أهلاً للهداية ، وكان يكفي أن يصفهم بقوله : ﴿ قَدْ ضَلُّواْ ﴾ ؛ لكنه أضاف : ﴿ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ لأن الضلال هو عدم الذهاب إلى المقصد الموصل للغاية ، وقد يكون ذلك عن جهل بالطريق ، لكن الحق سبحانه رسم لهم طريق الحق فآثروا الذهاب إلى الضلال مع وجود طريق الحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(104/253)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (140) ﴾

أخرج البخاري وعبد بن حميد وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : إذا سرك أن

تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام ﴿ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً ﴾ إلى قوله ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾ .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن عكرمة في قوله ﴿ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم ﴾ قال : نزلت فيمن كان يئد البنات من مضر وربيعة ، كان الرجل يشترط على امرأته إنك تئدين جارية وتستحيين أخرى ، فإذا كانت الجارية التي توأد غداً من عند أهله أو راح وقال : أنت علي كأمي إن رجعت إليك ولم تئديها ، فترسل إلى نسوتها فيحفرن لها حفرة فيتداولنها بينهن ، فإذا بصرن به مقبلاً دسسنها في حفرتها وسوّين عليها التراب .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم ﴾ قال : هذا صنع أهل الجاهلية ، كان أحدهم يقتل ابنته مخافة السباء والفاقة ويغذو كلبه . وفي قوله ﴿ وحرموا ما رزقهم الله ﴾ قال : جعلوا بحيرة وسائبة ووصيلة وحامياً تحكماً من الشيطان في أموالهم ، وجزأوا من مواشيهم وحروثهم ، فكان ذلك من الشيطان افتراء على الله .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي رزين أنه قرأ ﴿ قد ضلوا قبل ذلك وما كانوا مهتدين ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

" فوائد بلاغية "

قال الشيخ الصابونى :

البَلاَغَة : 1 - ﴿ قَدِ استكثرتم مِّنَ الإنس ﴾ أي أفرطتم في إِضلال وإِغواء الإِنس ، ففيه إِيجاز بالحذف ومثله ﴿ استمتع بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ أي استمتع بعض الإِنس ببعض الجن ، وبعضُ الجن ببعض الإِنس .

2 - ﴿ النار مَثْوَاكُمْ ﴾ تعريف الطرفين لإِفادة الحصر .

3 - ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع .

4 - ﴿ وَلِكُلٍّ ﴾ أي لكل من العاملين فالتنوين عوضٌ عن محذوف .

5 - ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ ﴾ صيغة الاستقبال ﴿ تُوعَدُونَ ﴾ للدلالة على الاستمرار التجددى ، ودخول إِنَّ واللام على الجملة للتأكيد لأن المخاطبين منكرون للبعث لذا أكّد الخبر بمؤكدين .

6 - ﴿ مَا رَزَقَهُمُ الله افترآء عَلَى الله ﴾ إظهار الاسم الجليل في موضع الإِضمار لإِظهار كمال عتوهم وضلالهم أفاده أبو السعود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 423.422 ﴾

(106/253)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

هذا جواب قسم مَحْذُوف وقرأ ابن كثير وابن عامر ، وهي قراءة الحسن وأبي عبد الرحمن : " قَتَّلُوا " بالتشديد ؛ مُبَالغَة وتكثيراً ، والباقون بالتّخْفِيفِ .

و " سَفَهاً " نصب على الحالِ ، أي : ذوي سَفَهٍ أو على المَفْعُول من أجْلِه ، وفيه بَعْدٌ ؛ لأنه ليس عِلَّة بَاعِثة أو عَلَى أنه مصدر لِفعْل مقدَّر ، أي : سَفَهُوا سَفَهاً أو على أنه مَصْدر على غير الصَّدْر ؛ لأن هذا القَتْل سَفَهٌ .

وقرأ اليماني " سُفَهاء " على الجَمْع ، وهي حال وهذه تقوّي كون قراءة العامَّة مَصْدراً في موضع الحال ، حيث صرّح بها ، و " بِغَيْر عِلمٍ " : إما حالٌ أيضاً وإما صِفَة لـ " سَفَهاً " وليس بِذَلكَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 465 ﴾

(107/253)

---

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (140) ﴾

فسدت عليهم طريقة الثقة بالله فحملتهم خشيةُ الفقر على قتل الأولاد ، ولذلك قال أهل التحقيق : من أمارات اليقين وحقائقه كثرة العيال على بساط التوكل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 506 ﴾

*(108/253)*

---

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ﴾

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ منصوب بمحذوف ، أى واذكر يوم نحشرهم ، أو ويوم نحشرهم قلنا يا مَعْشَرَ الْجِنِّ أو ويوم نحشرهم وقلنا يا معشر الجن كان مالا يوصف لفظاعته ، والضمير لمن يحشر من الثقلين وغيرهم ، والجن هم الشياطين قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ أضللتم منهم كثيراً أو

جعلتموهم أتباعكم فحشر معكم منهم الجم الغفير ، كما تقول : استكثر الأمير من الجنود ، واستكثر فلان من الأشياع وَقالَ أَوْلِياؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ الذين أطاعوهم واستمعوا إلى وسوستهم رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ أى انتفع الإنس بالشياطين حيث دلوهم على الشهوات

*(109/253)*

---

وعلى أسباب التوصل إليها ، وانتفع الجن بالإنس حيث أطاعوهم وساعدوهم على مرادهم وشهوتهم في إغوائهم ، وقيل استمتاع الإنس بالجن ما في قوله وَأَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ وأن الرجل كان إذا نزل واديا وخاف قال : أعوذ بربّ هذا الوادي ، يعنى به كبير الجن . واستمتاع الجن بالإنس : اعترف الإنس لهم بأنهم يقدرون على الدفع عنهم وإجارتهم لهم وَبَلَغْنا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنا يعنون يوم البعث . وهذا الكلام اعتراف بما كان منهم من طاعة الشياطين واتباع الهوى والتكذيب بالبعث واستسلام لربهم وتحسر على حالهم خالِدِينَ فِيها إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ أى يخلدون في عذاب النار الأبد كله «1» ، إلا ما شاء اللّه ، إلا الأوقات التي ينقلون فيها من عذاب النّار إلى عذاب الزمهرير ، فقد روى أنهم يدخلون واديا فيه من الزمهرير ما يميز بعض أوصالهم من

بعض ، فيتعاوون ويطلبون الردّ إلى الجحيم . أو يكون من قول الموتور «2» الذي ظفر بواتره ولم يزل يحرق عليه أنيابه وقد طلب إليه أن ينفس عن خناقه .

أهلكنى اللّه إن نفست عنك إلا إذا شئت ، وقد علم أنه لا يشاء إلا التشفي منه بأقصى ما يقدر

---

(1) . قال محمود : «معنى هذا الاستثناء أنهم يخلدون في عذاب النار الأبد كله . . . الخ» قال أحمد : قد ثبت خلود الكفار في العذاب ثبوتا قطعياً ، فمن ثم اعتنى العلماء بالكلام على الاستثناء في هذه الآية وفي أختها في سورة هود ، فذهب بعضهم إلى أنها شاملة لعصاة الموحدين وللكفار ، والمستثنى العصاة لأنهم لا يخلدون ، وهذا تأويل أهل السنة . وقد غلط الزمخشري في إنكاره في آية هود وتناهى إلى ما نعوذ باللّه منه ، فقدح في عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضى اللّه عنه راوى الحديث الشاهد لهذا التأويل ، ونحن نبرأ إلى اللّه تعالى من القدح في مثل عبد اللّه وهو من جلة الصحابة رضوان اللّه عليهم وفقهائهم وزهادهم . وذهب بعضهم إلى أن هذا الاستثناء محدود بمشيئة رفع العذاب ، أى مخلدون إلا أن يشاء اللّه لو شاء . وفائدته إظهار القدرة والإعلان بأن خلودهم إنما كان لأن اللّه تعالى قد شاءه ، وكان من الجائز العقلي في مشيئته أن لا يعذبهم ، ولو عذبهم لا يخلدهم ، وأن ذلك ليس بأمر واجب عليه وإنما هو مقتضى مشيئته وإرادته عز وجل . وفيها على هذا الوجه دفع في صدر المعتزلة الذين يزعمون أن تخليد الكفار واجب على

اللّه تعالى بمقتضى الحكمة ، وأنه لا يجوز في العقل أن يشاء خلاف ذلك .

وذهب الزجاج إلى وجه لطيف إنما يظهر بالبسط فقال : المراد - واللّه أعلم - إلا ما شاء من زيادة العذاب ، ولم يبين وجه استقامة الاستثناء ، والمستثنى على هذا التأويل لم يغاير المستثنى منه في الحكم ، ونحن نبينه فنقول : العذاب - والعياذ باللّه - على درجات متفاوتة ، فكأن المراد أنهم مخلدون في جنس العذاب ، إلا ما شاء ربك من زيادة تبلغ الغاية وتنتهي إلى أقصى النهاية ، حتى تكاد لبلوغها الغاية ومباينتها لأنواع العذاب في الشدة تعد ليس من جنس العذاب وخارجة عنه ، والشيء إذا بلغ الغاية عندهم عبروا عنه بالضد كما تقدم في التعبير عن كثرة الفعل برب وقد ، وهما موضوعان لضرر الكثرة من القلة ، وذلك أمر يعتاد في لغة العرب . وقد حام أبو الطيب حوله فقال :

لقد جدت حتى كاد يبخل حاتم إلى المنتهى ومن السرور يكاد

فكان هؤلاء إذا بلغوا إلى غاية العذاب ونهاية الشدة فقد وصلوا إلى الحد الذي يكاد أن يخرج من اسم العذاب المطلق ، حتى يسوغ معاملته في التعبير بمعاملة المغاير ، وهو وجه حسن لا يكاد يفهم من كلام الزجاج إلا بعد هذا البسط . وفي تفسير ابن عباس رضى اللّه عنه ما يؤيده ، واللّه الموفق .

(2) . قوله «قوله الموتور» الموتور : المظلوم . (ع)

عليه من التعنيف والتشديد ، فيكون قوله : إلا إذا شئت ، من أشد الوعيد ، مع تهكم بالموعد لخروجه في صورة الاستثناء الذي فيه إطماع إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ لا يفعل شيئاً إلا بموجب الحكمة عَلِيمٌ بأن الكفار يستوجبون عذاب الأبد .

[سورة الأنعام (6) : آية 129]

وَكَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (129)

نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً نخليهم حتى يتولى بعضهم بعضاً كما فعل الشياطين وغواة الإنس ، أو يجعل بعضهم أولياء بعض يوم القيامة وقرناءهم كما كانوا في الدنيا بِما كانُوا يَكْسِبُونَ بسبب ما كسبوا من الكفر والمعاصي .

[سورة الأنعام (6) : آية 130]

يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَشَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ (130)

يقال لهم يوم القيامة على جهة التوبيخ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ

واختلف في أن الجن هل بعث إليهم رسل منهم ، فتعلق بعضهم بظاهر الآية ولم يفرق بين مكلفين ومكلفين أن يبعث إليهم رسول من جنسهم ، لأنهم به آنس وله آلف . وقال آخرون

: الرسل من الإنس خاصة ، وإنما قيل رسل منكم لأنه لما جمع الثقلان في الخطاب صحّ ذلك وإن كان من أحدهما ، كقوله يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ وقيل : أراد رسل الرسل من الجنّ إليهم ، كقوله تعالى وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ وعن الكلبي : كانت الرسل قبل أن يبعث محمد صلى اللّه عليه وسلم يبعثون إلى الإنس ، ورسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بعث إلى الإنس والجن الُوا شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا

حكاية لتصديقهم وإيجابهم قوله لَمْ يَأْتِكُمْ

لأن الهمزة الداخلة على نفى إتيان الرسل للإنكار ، فكان تقريراً لهم . وقولهم هِدْنا عَلى أَنْفُسِنا

إقرار منهم بأن حجة اللّه لازمة لهم ، وأنهم محجوجون بها . فإن قلت : ما لهم مقرّين في هذه الآية جاحدين في قوله وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ ؟ قلت :

تتفاوت الأحوال والمواطن في ذلك اليوم المتطاول ، فيقرّون في بعضها ، ويجحدون في بعضها أو أريد شهادة أيديهم وأرجلهم وجلودهم حين يختم على أفواههم . فإن قلت : لم كرّر ذكر شهادتهم على أنفسهم ؟ قلت : الأولى حكاية لقولهم كيف يقولون ويعترفون ؟ والثانية : ذمّ لهم ، وتخطئة لرأيهم ، ووصف لقلة نظرهم لأنفسهم ، وأنهم قوم غرتهم الحياة الدنيا واللذات الحاضرة ، وكان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام لربهم واستيجاب عذابه وإنما قال ذلك تحذيراً للسامعين من مثل حالهم .

---

[سورة الأنعام (6) : الآيات 131 إلى 132]

ذِلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها غافِلُونَ (131) وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (132)

ذِلِكَ إشارة إلى ما تقدم من بعثة الرسل إليهم وإنذارهم سوء العاقبة ، وهو خبر مبتدإ محذوف : أى الأمر ذلك . وأَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى تعليل ، أى الأمر ما قصصناه عليك لانتفاء كون ربك مهلك القرى بظلم ، على أن «أن» هي التي تنصب الأفعال . ويجوز أن تكون مخففة من الثقيلة ، على معنى : لأن الشأن والحديث لم يكن ربك مهلك القرى بظلم . ولك أن تجعله بدلا من ذلك ، كقوله وَقَضَيْنا إِلَيْهِ ذِلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ ، بِظُلْمٍ بسبب ظلم قدموا عليه . أو ظالما ، على أنه لو أهلكهم وهم غافلون لم ينبهوا برسول وكتاب ، لكان ظلماء وهو متعال عن الظلم وعن كل قبيح وَلِكُلٍّ من المكلفين دَرَجاتٌ منازل مِمَّا عَمِلُوا من جزاء أعمالهم وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ بساه عنه يخفى عليه مقاديره وأحواله وما يستحق عليه من الأجر .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 133 إلى 134]

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ ما يَشاءُ كَما أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (133) إِنَّ ما تُوعَدُونَ لَآتٍ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (134)

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ عن عباده وعن عبادتهم ذُو الرَّحْمَةِ يترحم عليهم بالتكليف ليعرّضهم المنافع الدائمة إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أيها العصاة وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ ما يَشاءُ من الخلق المطيع كَما أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ من أولاد قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم، وهم أهل سفينة نوح عليه السلام.

[سورة الأنعام (6) : آية 135]

قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (135)

«المكانة» تكون مصدراً يقال: مكن مكانة إذا تمكن أبلغ التمكن. وبمعنى المكان، يقال: مكان ومكانة، ومقام ومقامة. وقوله اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ يحتمل: اعملوا على تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم. أو اعملوا على جهتكم وحالكم التي أنتم عليها. يقال للرجل إذا

أمر أن يثبت على حاله : على مكانتك يا فلان ، أى اثبت على ما أنت عليه لا تنحرف عنه إِنِّي عامِلٌ أى عامل على مكانتى التي أنا عليها . والمعنى اثبتوا على كفركم وعداوتكم لي ، فإنى ثابت على الإسلام وعلى مصابرتكم فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ أينا تكون له العاقبة المحمودة . وطريقة هذا الأمر طريقة قوله اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ وهي التخلية ، والتسجيل على المأمور «1» بأنه لا يأتى منه إلا الشر ، فكأنه مأمور به وهو واجب عليه حتم ليس له أن يتفصى عنه ويعمل بخلافه . فإن قلت : ما موضع مَنْ ؟ قلت الرفع إذا كان بمعنى «أى» وعلق عنه فعل العلم . أو النصب إذا كان بمعنى «الذي» وعاقِبَةُ الدَّارِ العاقبة الحسنى التي خلق اللّه تعالى هذه الدار لها . وهذا طريق من الإنذار لطيف المسلك ، فيه إنصاف في المقال وأدب حسن ، مع تضمن شدّة الوعيد ، والوثوق بأنّ المنذر محق والمنذر مبطل .

[سورة الأنعام (6) : آية 136]

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعامِ نَصِيباً فَقالُوا هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهذا لِشُرَكائِنا فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ (136)

كانوا يعينون أشياء من حرث ونتاج للّه ، وأشياء منها لآلهتهم ، فإذا رأوا ما جعلوه للّه زاكياً ناميا يزيد في نفسه خيراً رجعوا فجعلوه للآلهة ، وإذا زكا ما جعلوه للأصنام تركوه لها واعتلوا بأنّ اللّه غنىّ ، وإنما ذاك لحبهم آلهتهم وإيثارهم لها : وقوله مِمَّا ذَرَأَ فيه أن اللّه كان

أولى بأن يجعل له الزاكي ، لأنه هو الذي ذرأه وزكاه ، ولا يرد إلى ما لا يقدر على ذرء ولا تزكية بِزَعْمِهِمْ وقرى بالضم ، أى قد زعموا أنه للّه واللّه لم يأمرهم بذلك ولا شرع لهم تلك القسمة التي هي من الشرك ، لأنهم أشركوا بين اللّه وبين أصنامهم في القربة فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ أى لا يصل إلى الوجوه التي كانوا يصرفونه إليها من قرى الضيفان والتصدق على المساكين فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ من إنفاق عليها بذبح النسائك عندها والإجراء على سدنتها ونحو ذلك ساءَ ما يَحْكُمُونَ في إيثار آلهتهم على اللّه تعالى وعملهم ما لم يشرع لهم .

[سورة الأنعام (6) : آية 137]

وَكَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ (137)

---

(1) . قوله «و التسجيل على المأمور» في الصحاح «السجل» الصك . وقد سجل الحاكم تسجيلا . وفيه أيضا : هي مسجلة البر والفاجر . قال الأصمعي : أى مرسلة ، يقال أسجلت الكلام أى أرسلته . (ع)

وَكَذِلكَ ومثل ذلك التزيين وهو تزيين الشرك في قسمة القربان بين اللّه تعالى والآلهة ، أو ومثل ذلك التزيين البليغ «1» الذي هو علم من الشياطين . والمعنى : أن شركاءهم من الشياطين ، أو من سدنة الأصنام زينوا لهم قتل أولادهم «2» بالوأد ، أو بنحرهم للآلهة وكان الرجل في الجاهلية

---

(1) . قوله «و مثل ذلك التزيين البليغ الذي» لعله التزيين الذي . (ع) [ . . . . . ]

(2) . قال محمود : «المعنى أن شركاءهم من الشياطين أو من سدنة الأصنام زينوا لهم قتل أولادهم . . . الخ» قال أحمد رحمه اللّه : لقد ركب المصنف في هذا الفصل متن عمياء ، وتاه في تيهاء . وأنا أبرأ إلى اللّه وأبرئ حملة كتابه وحفظة كلامه مما رماهم به «فانه تخيل أن القراء أئمة الوجوه السبعة اختار كل منهم حرفا قرأ به اجتهاداً ، لا نقلا وسماعا فلذلك غلط ابن عامر في قراءته هذه ، وأخذ يبين أن وجه غلطه رؤيته الياء ثابتة في شركائهم ، فاستدل بذلك على أنه مجرور ، وتعين عنده نصب أولادهم بالقياس ، إذ لا يضاف المصدر إلى أمرين معاً فقرأه منصوبا ، قال المصنف : وكانت له مندوحة عن نصبه إلى جره بالاضافة وإبدال الشركاء منه ، وكان ذلك أولى مما ارتكبه يعنى ابن عامر من الفصل بين المضاف والمضاف إليه الذي يسمج في الشعر فضلا عن النثر فضلا عن المعجز . فهذا كله كما ترى ظن من الزمخشري أن ابن عامر قرأ قراءته هذه رأيا منه ، وكان الصواب خلافه والفصيح سواه ، ولم يعلم الزمخشري أن هذه القراءة بنصب الأولاد والفعل بين المضاف

والمضاف إليه ، بها يعلم ضرورة أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قرأها على جبريل كما أنزلها عليه كذلك ، ثم تلاها النبي صلى اللّه عليه وسلم على عدد التواتر من الأئمة ، ولم يزل عدد التواتر يتناقلونها ويقرؤن بها خلفاً عن سلف ، إلى أن انتهت إلى ابن عامر فقرأها أيضاً كما سمعها . فهذا معتقد أهل الحق في جميع الوجوه السبعة أنها متواترة جملة وتفصيلا عن أفصح من نطق بالضاد صلى اللّه عليه وسلم .

فإذا علمت العقيدة الصحيحة فلا مبالاة بعدها بقول الزمخشري ، ولا بقول أمثاله ممن لحن ابن عامر ، فان المنكر عليه إنما أنكر ما ثبت أنه براء منه قطعا وضرورة . ولولا عذر أن المنكر ليس من أهل الشأنين ، أعنى علم القراءة وعلم الأصول ، ولا يعد من ذوى الفنين المذكورين ، لخيف عليه الخروج من ربقة الدين . وأنه على هذا العذر لفي عهدة خطرة وزلة منكرة تزيد على زلة من ظن أن تفاصيل الوجوه السبعة فيها ما ليس متواتراً ، فان هذا القائل لم يثبتها بغير النقل .

وغايته أنه ادعى أن نقلها لا يشترط فيه التواتر . وأما الزمخشري فظن أنها تثبت بالرأى غير موقوفة على النقل .

وهذا لم يقل به أحد من المسلمين . وما حمله على هذا الخيال إلا التغالى في اعتقاد اطراد الأقيسة النحوية ، فظنها قطعية حتى يرد ما خالفها ، ثم إذا تنزل معه على اطراد القياس الذي ادعاه مطرداً ، فقراءة ابن عامر هذه لا تخالفه . وذلك أن الفصل بين المضاف

والمضاف إليه وإن كان عسراً ، إلا أن المصدر إذا أضيف إلى معموله فهو مقدر بالفعل ، وبهذا التقدير عمل ، وهو أن لم تكن إضافته غير محضة ، إلا أنه شبه بما إضافته غير محضة حتى قال بعض النحاة :

إن إضافته ليست محضة لذلك . فالحاصل أن اتصاله بالمضاف إليه ليس كاتصال غيره .

وقد جاء الفصل بين المضاف غير المصدر وبين المضاف إليه بالظرف ، فلا أقل من أن يتميز المصدر على غيره لما بيناه من انفكاكه في التقدير وعدم توغله في الاتصال بأن يفصل بينه وبين المضاف إليه بما ليس أجنبياً عنه ، وكأنه بالتقدير فكة بالفعل ، ثم قدم المفعول على الفاعل وأضافه إلى الفاعل وبقي المفعول مكانه حين الفك ، ويسهل ذلك أيضا تغاير حال المصدر ، إذ تارة يضاف إلى الفاعل وتارة يضاف إلى المفعول . وقد التزم بعضهم اختصاص الجواز بالفصل بالمفعول بينه وبين الفاعل لوقوعه في غير مرتبته ، إذ ينوى به التأخير ، فكأنه لم يفصل ، كما جاز تقدم المضمر على الظاهر إذا حل في غير رتبته ، لأن النية به التأخير .

وأنشد أبو عبيدة

فداسهم دوس الحصاد الدائس

وأنشد أيضاً :

يفرك حب السنبل الكنافج بالقاع فرك القطن المحالج

ففصل كما ترى بين المصدر وبين الفاعل بالمفعول . ومما يقوى عدم توغله في الاضافة جواز

العطف على موضع مخفوضه رفعاً ونصباً ، فهذه كلها نكت مؤيدة بقواعد منظرة .

بشواهد من أقيسة العربية . تجمع شمل القوانين النحوية لهذه القراءة ، وليس غرضنا تصحيح القراءة بقواعد العربة ، بل تصحيح قواعد العربية بالقراءة . وهذا القدر كاف إن شاء اللّه في الجمع بينهما واللّه الموفق . وما أجريناه في أدراج الكلام من تقريب إضافة المصدر من غير المحضة ، إنما أردنا انضمامه إلى غيره من الوجوه التي يدل باجتماعها على أن الفصل غير منكر في إضافته ، ولا مستبعد من القياس ، ولم يفرده في الدلالة المذكورة إذ المتفق على عدم تمحضها لا يسوغ فيها الفصل ، فلا يمكن استقلال الوجه المذكور بالدلالة ، واللّه الموفق .

*(114/253)*

---

يحلف : لئن ولد له كذا غلاماً لينحرنّ أحدهم ، كما حلف عبد المطلب . وقرئ : زين ، على البناء للفاعل الذي هو شركاؤهم ، ونصب قَتْلَ أَوْلادِهِمْ وزين ، على البناء للمفعول الذي هو القتل ، ورفع شركاؤهم بإضمار فعل دل عليه زين ، كأنه قيل : لما قيل زين لهم قتل أولادهم من زينه ؟

فقيل : زينه لهم شركاؤهم . وأما قراءة ابن عامر : قتل أولادهم شركائهم برفع القتل ونصب

الأولاد وجرّ الشركاء على إضافة القتل إلى الشركاء ، والفصل بينهما بغير الظرف ، فشيء لو كان في مكان الضرورات وهو الشعر ، لكان سمجاً مردوداً ، كما سمج وردّ . زجّ القلوص أبى مزاده «1»

فكيف به في الكلام المنثور ، فكيف به في القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته . والذي حمله على ذلك أن رأى في بعض المصاحف شركائهم مكتوباً بالياء . ولو قرأ بجر الأولاد والشركاء - لأن الأولاد شركاؤهم في أموالهم - لوجد في ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب لِيُرْدُوهُمْ ليهلكوهم بالإغواء وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وليخلطوا ، عليهم ويشبهوه . ودينهم : ما كانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام حتى زلوا عنه إلى الشرك . وقيل : دينهم الذي وجب أن يكونوا عليه . وقيل : معناه وليوقعوهم في دين ملتبس . فان قلت : ما معنى اللام ؟ قلت : إن كان التزيين من الشياطين فهي على حقيقة التعليل ، وإن كان من السدنة فعلى معنى الصيرورة وَلَوْ شاءَ اللَّهُ مشيئة قسر ما فَعَلُوهُ لما فعل المشركون ما زين لهم من القتل . أو لما فعل الشياطين أو السدنة التزيين أو الإرداء أو اللبس أو جميع ذلك ، إن جعلت الضمير جارياً مجرى اسم الاشارة وَما يَفْتَرُونَ وما يفترونه من الإفك . أو وافتراؤهم .

[سورة الأنعام (6) : آية 138]

وَقالُوا هذِهِ أَنْعامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُها إِلَّا مَنْ نَشاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها وَأَنْعامٌ

لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِراءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِما كانُوا يَفْتَرُونَ (138)

---

(1) فزججتها بمزجة زج القلوص أبى مزاده

الزج: الطعن: والمزجة: الرمح القصير، لأنه آلة للزج. والقلوص: الناقة الشابة، وهو مفعول فاصل بين المضاف والمضاف إليه شذوذاً. يقول: فطعنت الناقة أو الجماعة برمح قصير، كطعن أبى مزادة القلوص في السير.

*(115/253)*

---

حِجْرٌ فعل بمعنى مفعول كالذبح والطحن، ويستوي في الوصف به المذكر والمؤنث والواحد والجمع، لأن حكمه حكم الأسماء غير الصفات: وقرأ الحسن وقتادة «حجر» بضم الحاء.

وقرأ ابن عباس: حرج، وهو من التضييق وكانوا إذا عينوا أشياء من حرثهم وأنعامهم لآلهتهم قالوا لا يَطْعَمُها إِلَّا مَنْ نَشاءُ يعنون خدم الأوثان، والرجال دون النساء وَأَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها وهي البحائر والسوائب والحوامي وَأَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا في الذبح، وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام. وقيل: لا يحجون عليها ولا يلبون على ظهورها. والمعنى:

أنهم قسموا أنعامهم فقالوا : هذه أنعام حجر ، وأنعام محرّمة الظهور ، وهذه أنعام لا يذكر عليها اسم اللّه . فجعلوها أجناسا بهواهم ، ونسبوا ذلك التجنيس إلى اللّه افْتِراءً عَلَيْهِ أى فعلوا ذلك كله على جهة الافتراء - تعالى اللّه عما يقول الظالمون علواً كبيراً - وانتصابه على أنه مفعول له : أو حال ، أو مصدر مؤكد ، لأنّ قولهم ذلك في معنى الافتراء .

[سورة الأنعام (6) : آية 139]

وَقالُوا ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (139)

كانوا يقولون في أجنة البحائر والسوائب : ما ولد منها حيا فهو خالص للذكور لا تأكل منه الإناث ، وما ولد منها ميتا اشترك فيه الذكور والإناث . وأنث خالِصَةٌ للحمل على المعنى ، لأنّ ما في معنى الأجنة «1» وذكر مُحَرَّمٌ للحمل على اللفظ . ونظيره وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ ويجوز أن تكون التاء للمبالغة مثلها في رواية الشعر . وأن تكون مصدراً وقع موقع الخالص ، كالعاقبة أى ذو خالصة . ويدل عليه قراءة من قرأ خالِصَةٌ بالنصب على أنّ قوله لِذُكُورِنا هو الخبر ، وخالصة مصدر مؤكد ، ولا يجوز أن يكون حالا متقدمة ، لأن المجرور لا يتقدم عليه حاله . وقرأ ابن عباس : خالصة على الإضافة .

وفي مصحف عبد اللّه : خالص . وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً وإن يكن ما في بطونها ميتة . وقرئ : وإن

(1) . قال محمود : «وأنث خالصة للحمل على المعنى لأن ما في معنى الأجنة . . . الخ»

قال أحمد : ليسا سواء ، لأنه في الآية الأولى رجوع إلى اللفظ بعد المعنى وفيه إجمال ، وبينهما بون اقتضى أن أنكر جماعة من متأخرى الفن وقوعه في الكتاب العزيز ، وادعوا أن جميع ما ورد فيه يعود على المعنى بعد اللفظ ، وقد التزم غيرهم إجازة ذلك ، وعدوا في الكتاب العزيز منه موضعين يمكن صرف الكلام فيهما إلى غير الموصول . وعلى الجملة فالحمل على اللفظ بعد المعنى قليل وغيره أولى ما وجد إليه سبيل . وقد ذكر المصنف وجهين آخرين سوى ذلك فقال : ويجوز أن تكون الهاء للمبالغة مثلها في راوية الشعر ، وأن يكون مصدرا وقع موقع الخالص كالعافية أى ذو خالصة . ويدل عليه قراءة من قرأ خالصة بالنصب ، على أن قوله لِذُكُورِنا هو الخبر ، وخالِصَةٌ مصدر مؤكد . ولا يجوز أن يكون حالا متعدمة ، لأن المجرور لا يتقدم عليه حاله ، ولقد أحسن في الاحتراز بمنع الحال من المجرور حتى يتعين المصدر .

*(116/253)*

---

تكن ، بالتأنيث ، على : وإن تكن الأجنة ميتة . وقرأ أهل مكة : وإن تكن ميتة بالتأنيث والرفع على كان التامّة وتذكير الضمير في قوله فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ لأن الميتة لكل ميت ذكر أو

أنثى ، فكأنه قيل : وإن يكن ميت فهم فيه شركاء سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ أى ، زاء وصفهم الكذب على اللّه في التحليل والتحريم من قوله تعالى تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَهذا حَرامٌ .

[سورة الأنعام (6) : آية 140]

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِراءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَما كانُوا مُهْتَدِينَ (140)

نزلت في ربيعة ومضر والرب الذين كانوا يئدون بناتهم مخافة السبي والفقر سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ لخفة أحلامهم ، وجهلهم بأنّ اللّه هو رازق أولادهم ، لا هم . وقرئ «قتلوا» بالتشديد ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ من البحائر والسوائب وغيرها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 2 صـ 64. 72﴾

*(117/253)*

---

وقال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها غافِلُونَ (131) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (140) ﴾

التفسير : ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما تقدم من بعثة الرسل إليهم وإنذارهم سوء العاقبة وهو خبر مبتدأ محذوف أي الأمر ذلك ويحتمل أن يكون مبتدأ خبره ﴿ أن لم يكن ﴾ وهو للتعليل والمعنى الأمر ما قصصنا عليك ، أو ذلك الذي ذكر لانتفاء كون ربك مهلك القرى و" أن " هي الناصبة للأفعال أو مخففة من الثقيلة ، وعلى هذا يكون ضمير الشأن محذوفاً أي أن الحديث كذا ، ويجوز أن يكون ، ﴿ أن لم يكن ﴾ بدلاً من ﴿ ذلك ﴾ كقوله : ﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع ﴾ [ الحجر : 66 ] ومعنى قوله : ﴿ بظلم ﴾ أي بسبب ظلم أقدموا عليه وهذا أليق بأصول الأشاعرة . أو المراد ظالماً لكم فيكون من فعل الله وهذا أنسب بأصول المعتزلة . ومعناه أنه تعالى لو أهلكهم قبل بعثة الرسل ولم ينبهوا برسول ولا كتاب كان ظالماً . وعلى هذا التفسير يمكن للأشاعرة أن يقولوا إنه لو فعل ذلك لم يكن ظلماً ولكنه يكون في صورة الظلم فأطلق الظلم على نفسه مجازاً وإلا فهو تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ولا اعتراض عليه لأحد في شيء من أفعاله . وأما قوله : ﴿ وأهلها غافلون ﴾ فليس المراد من هذه الغفلة أن يتغافل المرء عما يوعظ به وإنما معناه أنه لا يبين لهم كيفية الحال وأن لا يزيل عذرهم وعلتهم . قالت الأشاعرة : في الآية دلالة على أنه

لا يحصل الوجوب قبل الشرع ، وأن العقل المحض لا يدل على الوجوب ألبتة لأنها تدل على أنه تعالى ما يعذب أحداً على أمر من الأمور قبل بعثة الرسل لكن بعدها .

(118/253)

---

والمعتزلة قالوا : إنها تدل من وجه آخر على تقرير الوجوب قبل الشرع لأن قوله : ﴿ بظلم ﴾ إن كان عائداً إلى العبد دل على أنه يمكن أن يصدر منه الظلم والقبيح قبل البعثة ، وإن كان عائداً إلى الله تعالى فقد تم الاعتراف بتحسين العقل وتقبيحه . ثم لما شرح أحوال أهل الثواب والعقاب ذكر كلاماً كلياً فقال : ﴿ ولكل درجات ﴾ أي ولكل عامل في عمله درجات ، وعلى حسب تلك الدرجات يكون الجزاء إن خيراً فخير وإن شراً فشر . ومعنى ﴿ مما عملوا ﴾ أي من جزاء أعمالهم . وقيل : إن أول الآية مختصة بأهل الطاعات لأن لفظ الدرجة يليق بهم ولأهل المعصية تكون الدركات وإليه الإشارة بقوله ﴿ وما ربك بغافل عما يعملون ﴾ قالت الأشاعرة : في الآية دليل على مسألة الجبر والقدر فإنه تعالى حكم لكل واحد بدرجة معينة في وقت معين وبحسب فعل معين ، وأثبت تلك الدرجة في اللوح المحفوظ وأشهد عليها الملائكة وخلاف علمه وإثباته وإشهاده محال . ثم بين أنه ليس يحتاج إلى طاعة المطيعين ولا يدخل عليه نقص بمعصية العاصين فقال : ﴿

وربك الغني ذو الرحمة ﴾ أما أنه غني في ذاته وصفاته وأفعاله وفي أحكامه عن كل ما سواه فلوجوب وجوده ، وأن ما سواه ممكن لذاته مفتقر في الوجود وفي الأمور التابعة للوجود إليه فلا غنيّ إلا هو ، وأما أنه ذو الرحمة فلأن كل ما دخل في الوجود من الخيرات والراحات والكرامات والسعادات من الروحانيات ومن الجسمانيات فهو من الحق وبإيجاده وتخليقه ، والاستقراء دل على أن الخير غالب كالصحة والشبع والسمع والبصر وما ذلك إلا لرحمته الكاملة ورأفته الشاملة . والذي يتصوّر من رحمة الوالدين وغيرهما فإنما ذلك بإيجاد داعية ذلك فيهم ومع ذلك فتمكن الشخص من الانتفاع بها ليس إلا منه تعالى . ومن هذا يعلم تنزهه تعالى عن الظلم والسفه والكذب والعبث . ومن رحمته تكليف الخلائق ليعرضهم للمنافع الباقيات الدائمات . ثم لما وصف نفسه بأنه ذو الرحمة كان لظانّ أن يظن أن

*(119/253)*

---

للرحمة معدناً مخصوصاً وموضعاً معيناً فبين تعالى بقوله تعالى : ﴿ إن يشأ يذهبكم ﴾ أنه قادر على وضع الرحمة في هذا الخلق وقادر على أن يخلق قوماً آخرين ويضع رحمته فيهم ، وعلى هذا الوجه يكون الاستغناء عن العالمين أكمل وأتم . ومعنى الإذهاب الإهلاك وأن لا

يبلغهم مبلغ التكليف ﴿ ويستخلف من بعدكم ﴾ أي : من بعد ذهابكم لأن الاستخلاف لا يكون ، إلا على طريق البدل من فائت ، وقوله : ﴿ ما يشاء ﴾ أي خلق ثالث ورابع . ثم اختلفوا فقال بعضهم : خلقاً آخرين من أمثال الجن والإنس لكن أطوع ، وقال أبو مسلم : يعني خلقاً ثالثاً مخالفاً للثقلين ليكون أقوى في دلالة القدرة .

*(120/253)*

---

ثم بيّن سبب قدرته على ذلك فقال ﴿ كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ﴾ لأن من قدر على تصوير النطفة المتشابهة الأجزاء بهذه الصور المخصومة قدر على تصويرها بصور أخرى مخالفة لها . وقال في الكشاف : المعنى كما أنشأكم من أولاد قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم وهم أهل سفينة نوح عليه السلام ، ثم ذكر حال المعاد فقال : ﴿ إنما توعدون لآت ﴾ قال الحسن : أي من مجيء الساعة لأنهم كانوا ينكرون القيامة ، ويحتمل أن يقال : ﴿ إنما توعدون لآت ﴾ إشارة إلى لطفه أي ما يتعلق بالوعد والثواب فهو آت لا محالة . وقوله : ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ أي خارجين عن قدرتنا وحكمنا إشارة إلى قهره ، يقال : أعجزه الشيء أي فاته . فالجزم في جانب الوعد والتعريض في جانب الوعيد دليل على أن جانب الرحمة والإحسان أغلب . ثم أمر نبيه صلى الله عليه وآله بتهديد منكري

البعث فقال : ﴿ قل يا قوم اعملوا على مكانتكم ﴾ قال الواحدي : قراءة الإفراد أوجه لأن المصدر لا يجمع في أغلب الأحوال ، وقال في الكشاف : المكانة تكون مصدراً . يقال : مكن مكانة إذا تمكن أبلغ التمكين . وبمعنى المكان يقال مكان ومكانة ومقام ومقامة ، فمعنى الآية اعملوا على تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم ، أو اعملوا على جهتكم وحالكم التي أنتم عليها . يقال للرجل : على مكانتك يا فلان أي اثبت على ما أنت عليه لا تنحرف عنه ﴿ إني عامل ﴾ على مكانتي التي أنا عليها . والمعنى اثبتوا على كفركم وعداوتكم لي فإني ثابت على الإسلام وعلى مصابرتكم ، والغرض تفويض الأمر إليهم على سبيل التهديد كقوله ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ [ فصلت : 40 ] ﴿ فسوف تعلمون ﴾ أينا تكون له العاقبة المحمودة ، والفاء لتعقيب الجزاء ألا يعادي أي قل اعملوا فستجزون وهكذا في سورة الزمر بخلاف سورة هود حيث لم يقل هناك " قل " فصار استئنافاً ومحل " من " نصب إن كان بمعنى " الذي " أو رفع والجملة مفعول تعلمون إن كان بمعنى أيّ

*(121/253)*

و ﴿ عاقبة الدار ﴾ العاقبة الحسنى التي خلق الله هذه الدار لها وهي مصدر كالعافية .

وهذا طريق من الإنذار لطيف المسلك فيه إنصاف وأدب ووثوق بأن المنذر محق ولهذا قيل له فإن الكافر تكون العاقبة عليه لا له .

ثم حكى أنواعاً من جهالاتهم وركاكات أقوالهم تنبيهاً على ضعف عقولهم وقلة محصولهم وتنفيراً للعقلاء عن الالتفات إلى أقوال أمثالكم فقال : ﴿ وجعلوا لله ﴾ قال الزجاج : وجعلوا لله نصيباً ولشركائهم نصيباً بدليل قوله : ﴿ فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ﴾ وجعل الأوثان شركاء لأنهم جعلوا لها نصيباً من أموالهم ينفقونها عليها . ثم قال : ﴿ فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ﴾ وفي تفسيره وجوه : قال ابن عباس : كان المشركون يجعلون لله تعالى من حروثهم وأنعامهم نصيباً وللأوثان نصيباً ، فما كان للصنم أنفقوه عليه وما كان لله أطعموه الضيفان والمساكين ولا يأكلون منه ألبتة .

*(122/253)*

---

ثم إن سقط شيء مما جعلوه لله في نصيب الأوثان تركوه وقالوا إن الله غنيّ عن هذا ، وإن سقط شيء مما جعلوا للأوثان في نصيب الله تعالى أخذوه وردّوه إلى نصيب الصنم وقالوا :

إنه فقير . وإنما ذلك لحبهم آلهتهم وإيثارهم لها . وعن الحسن والسدي : كان إذا هلك لأوثانهم شيء أخذوا بدله مما لله ولا يفعلون مثل ذلك فيما لله تعالى . وقال مجاهد : إنه إذا انفجر من سقى ما جعلوه للشيطان في نصيب الله عز وجل سدوه وإن كان على ضد ذلك تركوه ، وقال قتادة : إذا أصابهم شدة استعانوا بالله وإذا أصابتهم حسنة نسبوها إلى شركائهم . وقال مقاتل : إن زكا ونما نصيب الآلهة ولم يزك نصيب الله تركوا نصيب الآلهة . وقالوا : لو شاء زكى نصيب نفسه . وأما إن زكا نصيب الله ولم يزك نصيب الآلهة قالوا لا بدّ لآلهتنا من نفقة وأخذوا نصيب الإله تعالى فأعطوه السدنة . فمعنى ﴿ فلا يصل إلى الله ﴾ أنه لا يصل إلى الوجوه التي كانوا يصرفونه إليها من قرى الضيفان والتصدق على المساكين ، ومعنى الوصول إلى شركائهم أنهم ينفقونه عليها بذبح نسائك عندها والأجراء على سدنتها ونحو ذلك . وقوله : ﴿ مما ذرأ ﴾ فيه أن الله تعالى كان أولى بأن يجعل له الزاكي لأنه هو الذي ذرأه أي خلقه . ثم إنه سبحانه ذم فعلهم فقال : ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ وذكر العلماء فيه وجوهاً : الأول أنهم رجحوا جانب الأصنام في الرعاية والحفظ على جانبه وهو سفه . الثاني جعلوا بعض الحرث لله وبعضه لغيره مع أنه تعالى هو الخالق للجميع . الثالث أن ذلك حكم أحدثوه من قبل أنفسهم ولم يشهد بصحته عقل ولا شرع وأشار إليه بقوله ﴿ بزعمهم ﴾ الرابع لو حسن إفراز نصيب الأصنام لحسن إفراز نصيب لكل حجر ومدر . الخامس لا تأثير للأصنام في حصول الحرث والأنعام ولا قدرة لها على الانتفاع

بذلك النصيب ، فإفراز النصيب لها عبث . النوع الثاني من أحكامهم الفاسدة قوله : ﴿ وكذلك زين ﴾ كان أهل الجاهلية يدفنون بناتهم أحياءً خوفاً من

(123/253)

---

الفقر أو من التزويج ، وكان الرجل يحلف بالله إن ولد له كذا غلاماً لينحرن أحدهم كما فعل عبد المطلب على ابنه عبد الله ، والشركاء على الوجه الأول الشياطين الذين أطاعوهم في معصية الله تعالى ، وعلى الثاني هم السدنة والخدام ، والأول قول مجاهد ، والثاني للكلبي . وتقدير الكلام ومثل ذلك التزيين وهو تزيين الشرك في قسمة القربان بين الله والآلهة ، أو مثل ذلك التزيين البليغ الذي علم من الشياطين زين لهم شركاؤهم من الشياطين أو من سدنة الأصنام ﴿ قتل أولادهم ﴾ بالوأد أو بالنحر . ثم إن وجه القراءة الأكثري ظاهر وليس فيها إلا تقديم المفعول وذلك لشدة الاعتناء به ، وأما قراءة أبن عامر فخطأها الزمخشري من جهة الفصل بين المضاف والمضاف إليه بغير الظرف فإن ذلك قد جوز بالظرف كقوله :

لله در اليوم من لامها . . . وضعف بغير الظرف كقوله :

فزججتها بمزجة . . . زج القلوص أبي مزادة

وحملوه على ضرورة الشعر مع الاستكراه ، والحق عندي في هذا المقام أن القرآن حجة على غيره وليس غيره حجة عليه ، والقراءات السبع كلها متواترة فكيف يمكن تخطئة بعضها ؟ فإذا ورد في القرآن المعجز مثل هذا التركيب لزم القول بصحته وفصاحته وأن لا يلتفت إلى أنه هل ورد له نظير في أشعار العرب وتراكيبهم أم لا ، وإن ورد فكثير أم لا ؟ ومع ذلك فقد وجهه بعض الفضلاء بأن المضاف إليه من الأول محذوف على نحو قوله :

*(124/253)*

---

بين ذراعي وجبهة الأسد . . . والمضاف مضمر مع الثاني كقراءة من قرأ ﴿ والله يريد الآخرة ﴾ [ الأنفال : 67 ] بالجر على تقدير غرض الآخرة ، فتقدير الآية : قتل شركائهم أولادهم قتل شركائهم . ومعنى ﴿ ليردوهم ﴾ ليهلكوهم بالإغواء . قال ابن عباس : ليردوهم في النار . واللام محمول على العاقبة إن كان التزيين من السدنة ، وعلى حقيقة التعليل إن كان من الشيطان ﴿ وليلبسوا عليهم دينهم ﴾ ليخلطوه عليهم ويشبهوه ودينهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل فهذا الذي أتاهم بهذه الأوضاع الفاسدة أراد أن يزيلهم عن ذلك الدين الحق . وقيل : دينهم الذي وجب أن يكونوا عليه ، وقيل : وليوقعوهم في دين ملتبس ﴿ ولو شاء الله ما فعلوه ﴾ لما فعل المشركون ما زين لهم ، أو لما فعل الشياطين

والسدنة التزيين أو الإرداء أو اللبس أو جميع ما ذكر إن جعل الضمير جارياً مجرى اسم الإشارة . والمعتزلة حملوا هذه المشيئة على مشيئة الإلجاء والقسر . ثم قال : ﴿ فذرهم وما يفترون ﴾ على قانون قوله : ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ [ فصلت : 40 ] وفيه مع التهديد التسجيل على المأمور بأنه لا يأتي منه إلا الشر والشرك . قيل : إنما قال في هذه الآية ﴿ ولو شاء الله ما فعلوه ﴾ ليكون مناسباً لقوله : ﴿ وجعلوا لله ﴾ وقال فيما قبل : ﴿ ولو شاء ربك ما فعلوه ﴾ [ الأنعام : 112 ] لأنه وقع عقيب آيات فيها ذكر الرب كقوله : ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم ﴾ [ الأنعام : 104 ] الآيات . النوع الثالث من أحكامهم الباطلة أنهم قسموا أنعامهم أقساماً فأوّلها أن قولوا ﴿ هذه أنعام وحرث حجر ﴾ وحجر " فعل " بمعنى " مفعول " كالذبح والطحن ويستوي في الوصف به المذكر والمؤنث والواحد والجمع لأن حكمه حكم الأسماء غير الصفات ، وأصل الحجر المنع وسمي العقل الحجر لمنعه من القبائح ، وفلان في حجر القاضي أي في منعه . كانوا إذا عينوا شيئاً من حرثهم وأنعامهم لآلهتهم قالوا : ﴿ لا يطعمها إلا من نشاء ﴾ يعنون خدم الأوثان والرجال دون النساء ﴿ و ﴾ ثانيها أن قالوا : ﴿ هذه أنعام حرمت ظهورها ﴾ وهي البحائر والسوائب والحوامي وقد سبق في المائدة .

﴿ و ﴾ ثالثها : ﴿ أنعام لا يذكرون اسم الله عليها ﴾ في الذبح وإنما يذكرون عليها أسماء الأصنام . وقيل : هي أنعام لا يحجون عليها ولا يلبون على ظهورها وإنما فعلوا ذلك كله من غير حكم من الله وشرع منه بل ﴿ افتراء عليه ﴾ وانتصابه على أنه مفعول له أو حال أو مصدر مؤكد لأن قولهم ذلك في معنى الافتراء . ثم قال : ﴿ سيجزيهم بما كانوا يفترون ﴾ والمقصود منه الوعيد ، ﴿ و ﴾ النوع الرابع من قضاياهم الفاسدة أن ﴿ قالوا ما في بطون هذه الأنعام ﴾ يعنون أجنة البحائر والسوائب ﴿ خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ﴾ هذا إن ولد حياً ﴿ وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء ﴾ أي اشترك فيه الذكور والإناث ، من قرأ بنصب ميتة فتقديره وإن يكن ما في بطونها ميتة ، ومن قرأ بالرفع فعلى أن "كان تامة" ، أو لأن التقدير : وإن يكن لهم أو هناك ميتة . وإنما جاز تذكير الفعل وتأنيثه لأن تأنيث الميتة غير حقيقي ، أو لأن الميتة لكل ميت ذكر أو أنثى فكأنه قيل : ميت ولهذا جاز عود الضمير إليه مذكراً في قوله : ﴿ فهم فيه شركاء ﴾ وتذكير الضمير في قوله : ﴿ فهم ﴾ للتغليب ﴿ سيجزيهم وصفهم ﴾ أي جزاء وصفهم على الله الكذب في التحليل والتحريم ﴿ إنه حكيم عليم ﴾ ليكون الزجر واقعاً على حد الحكمة وبحسب الاستحقاق . فإن قيل : كيف أنث ﴿ خالصة ﴾ وذكر ﴿ محرماً ﴾ ؟ قلنا : الأول حمل على المعنى لأن ما في بطون الأنعام في معنى الأجنة ، والثاني حمل على اللفظ ، وفي

الأول وجهان آخران : أن تكون التاء للمبالغة مثل رواية الشعر وأن يكون مصدراً كالعاقبة أي ذو خالصة . ثم إنه سبحانه جمع قبائح أحكامهم وأفعالهم وحكم عليهم بالخسران والسفاهة وعدم العلم والضلال وعدم الاهتداء فقال ﴿ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم ﴾ الآية . وذلك أن الولد نعمة عظيمة من الله تبقي ذكره ونسله فالسعي في إبطال مثل هذه النعمة لضرر مظنون هو الفقر أو نحوه ، أو لفائدة موهومة هي القربة إلى الأصنام

(126/253)

---

دليل خفة العقل وعدم العلم وأنه موجب لخسران الدارين . وكذا تحريم ما أحل الله من الطيبات بالهوى والتقليد بل لمحض الافتراء على الله وإن ذلك من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر ، ولهذا سجل عليهم آخراً بالضلال ثم بعدم الاهتداء ليحصل كلا الأمرين لهم بالمطابقة كما حصل بالتضمن والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 175.169 ﴾

(127/253)

فصل

قال الشيخ سيد قطب في الآيات السابقة :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (136)

إلى قوله تعالى :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (140) ﴾

هذا الشوط الطويل كله – بالإضافة إلى الشوط الذي سبقه والتعقيبات عليه – في سياق سورة مكية ، من القرآن المكي الذي كان موضوعه هو العقيدة ؛ والذي لم يتعرض لشيء من الشريعة – إلا ما يختص بتأصيل أصلها الاعتقادي – حيث لم تكن للإسلام دولة تنفذ شريعته ؛ فصان الله هذه الشريعة أن تصبح حديث ألسن ، وموضوعات دراسة ؛ قبل أن يهيئ لها المجتمع الذي يدخل في السلم كافة ، ويسلم نفسه لله جملة ، ويعبد الله بالطاعة لشريعته ؛ وقبل أن يهيئ لها الدولة ذات السلطان ، التي تحكم بهذه الشريعة بين الناس فعلا ؛ وتجعل معرفة الحكم مقرونة بتنفيذه ، كما هي طبيعة هذا الدين ، وكما هو منهجه ،

الذي يكفل له الجدية والحرارة والوقار . .

نقول : هذا الشوط الطويل كله في سورة مكية ؛ يتناول قضية التشريع والحاكمية . فيدل على طبيعة هذه القضية – إنها قضية عقيدية . . ويدل على جدية هذه القضية في هذا الدين . . إنها قضيته الرئيسية . .

وقبل أن نمضي في مواجهة النصوص تفصيلا ، نحب أن نعيش في ظلال السياق القرآني بجملته . . لنرى محتوياته على وجه الإجمال . ولنرى دلالته وإيحاءاته كذلك . .

*(128/253)*

---

إنه يبدأ بعرض مجموعة التصورات والمزاعم الجاهلية حول ما كانوا يزاولونه في شأن الثمار والأنعام والأولاد – أي في شأن المال والاجتماع – في جاهليتهم . فنجد هذه التصورات والمزاعم تتمثل في :

1 – تقسيمهم ما رزقهم الله من رزق ، وأنشأ لهم من زروع وأنعام ، إلى قسمين : قسم يجعلونه لله – زاعمين أن هذا مما شرعه الله – وقسم يجعلونه لشركائهم – وهي الآلهة المدعاة التي يشركونها في أنفسهم وأموالهم وأولادهم من دون الله : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا . فقال : هذا لله – بزعمهم – وهذا لشركائنا ﴾ !

2- أنهم بعد ذلك ، يجورون على النصيب الذي قسموه لله . فيأخذون جانبا منه ويضمونه إلى ما قسموه لشركائهم ، ولا يفعلون مثل ذلك فيما قسموه للشركاء ! : ﴿ فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ﴾ !

3- أنهم يقتلون أولادهم بتزيين من الشركاء - وهم في هذه الحالة إنما هم الكهان والمشترعون فيهم - ممن يصنعون التقاليد التي يخضع لها الأفراد في المجتمع ، بحكم الضغط الاجتماعي من ناحية ، وحكم التأثير بالأساطير الدينية من ناحية - وكان هذا القتل يتناول البنات مخافة الفقر والعار . كما قد يتناول الذكور في النذور ، كالذي نذره عبد المطلب أن لو رزقه الله عشرة أبناء يحمونه ليذبحن أحدهم للآلهة ! ﴿ وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ، ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ﴾ !

4- أنهم كانوا يحجزون بعض الأنعام وبعض الزروع ؛ فيزعمون أنها لا تطعم إلا بإذن خاص من الله - هكذا يزعمون ! - كما كانوا يمنعون ظهور بعض الأنعام من الركوب .

ويمنعون أن يذكر اسم الله على بعضها عند الذبح أو الركوب أو لا يركبونها في الحج لأن فيه ذكر الله . مع الزعم بأن هذا كله قد أمر الله به : ﴿ وقالوا : هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء - بزعمهم - وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها - افتراء عليه - ! ﴾ .

5- وأنهم كانوا يسمون ما في بطون بعض الأنعام من الحمل لذكورهم ، ويجعلونه محرما على إناثهم . إلا أن ينزل الحمل ميتا فعندئذ يشترك فيه الذكور والإناث ! مع نسبة هذه الشريعة المضحكة إلى الله : ﴿ وقالوا : ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء . سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم ﴾ . .

هذه هي مجموعة التصورات والمزاعم والتقاليد التي كانت تصبغ وجه المجتمع العربي في الجاهلية ، والتي يتصدى هذا السياق القرآني الطويل - في سورة مكية - للقضاء عليها ، وتطهير النفوس والقلوب منها ، وإبطالها كذلك في الواقع الاجتماعي .

ولقد سلك السياق القرآني هذا المنهج في خطواته البطيئة الطويلة الدقيقة :

* لقد قرر ابتداء خسران الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله - افتراء على الله - وأعلن ضلالهم المطلق في هذه التصورات والمزاعم التي ينسبونها إلى الله بغير علم .

* ثم لفت أنظارهم إلى أن الله هو الذي أنشأ لهم هذه الأموال التي يتصرفون فيها هذه التصرفات . . هو الذي أنشأ لهم جنات معروشات وغير معروشات . وهو الذي خلق لهم هذه الأنعام . . والذي يرزق هو وحده الذي يملك ، وهو وحده الذي يشرع للناس فيما رزقهم من هذه الأموال . . وفي هذه اللفتة استخدم حشدا من المؤثرات الموحية من

مشاهد الزروع والثمار والجنات المعروشات وغير المعروشات ، ومن نعمة الله عليهم في الأنعام التي جعل بعضها حمولة لهم يركب ويحمل وبعضها فرشاً ، يؤكل لحمه ويفرش جلده وصوفه وشعره . . كما استخدم ذكرى العداء المتأصل بين بني آدم والشيطان . فكيف يتبعون خطوات الشيطان ، وكيف يستمعون لوسوسته وهو العدو المبين ؟ !

*(130/253)*

---

* بعد ذلك استعرض في تفصيل شديد سخافة تصوراتهم فيما يختص بالأنعام ، وخلوها من كل منطق ، وألقى الأضواء على ظلمات التصورات حتى لتبدو تافهة مهلهلة متهافتة . . وفي نهاية هذا الاستعراض يسأل : علام ترتكنون في هذه التشريعات الخالية من كل حجة ومنطق : ﴿ أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ؟ ﴾ فكان ذلك سرا تعلمونه أنتم ووصية خاصة بكم ! ويشنع بجريمة الافتراء على الله ، وإضلال الناس بغير علم . ويجعل هذا التشنيع أحد المؤثرات المتنوعة التي يستخدمها . .

* وهنا يقرر السلطة صاحبة الحق في التشريع . ويبين ما حرمته هذه السلطة فعلا من المطاعم . سواء ما حرم على المسلمين وما حرم على اليهود خاصة وأحله الله للمسلمين .

* ثم يناقش إحالتهم هذه الجاهلية – الممثلة في الشرك بالله وتحريم ما أحل الله وكلاهما في

مستوى الآخر من ناحية دلالته ووصفه الشرعي عند الله – على إرادة الله وقولهم : ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ﴾ . . فيقرر أن هذه المقالة هي مقالة كل كافر مكذب من قبل ، وقد قالها المكذبون حتى جاءهم بأس الله : ﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ﴾ فالشرك كالتحريم بدون شرع الله ، كلاهما سمة المكذبين بآيات الله . ويسألهم في استنكار علام تحيلون هذه المقررات التي تقررونها : ﴿ قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا . إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون ﴾ !

*(131/253)*

---

* ثم ينهي مناقشتهم في هذا الشأن بدعوتهم إلى موقف الإشهاد والمفاصلة – تماماً كما دعاهم إلى هذا الموقف في أول السورة في شأن أصل الاعتقاد – مع استخدام نفس العبارات والأوصاف ، بل نفس الألفاظ ، للدلالة على أن القضية واحدة : قضية الشرك بالله ، وقضية التشريع بغير إذن من الله : ﴿ قل : هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا ، فإن شهدوا فلا تشهد معهم . ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون ﴾ . . ونرى من الآية إلى جانب وحدة المشهد والعبارة واللفظ ، أن الذين يزاولون هذه التشريعات هم الذين يتبعون أهواءهم . وهم الذين كذبوا

بآيات الله . وهم الذين لا يؤمنون بالآخرة . فلو أنهم صدقوا بآيات الله وآمنوا بالآخرة واتبعوا هدى الله ما شرعوا لأنفسهم وللناس من دون الله . وما حرموا وحللوا بغير إذن من الله .

* وفي نهاية الشوط يدعوهم ليبين لهم ما حرمه الله حقاً . . وهنا نرى جملة من المبادئ الأساسية للحياة الاجتماعية ، في مقدمتها توحيد الله . وبعضها أوامر وتكاليف ولكن التحريمات أغلب ، فجعلها عنواناً للكل :

لقد نهى الله عن الشرك . وأمر بالإحسان للوالدين . ونهى عن قتل الأولاد من الفقر مع طمأنتهم على الرزق . ونهى عن القرب من الفواحش ما ظهر منها وما بطن . ونهى عن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق . ونهى عن مس مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده . وأمر بإيفاء الكيل والميزان بالقسط . وأمر بالعدل في القول – في الشهادة والحكم – ولو كان ذا قربى . وأمر بالوفاء بعهد الله كله . وجعل هذا جميعه وصية من الله كررها عقب كل جملة من الأوامر والنواهي .

هذا الحشد كله الذي يتضمن قاعدة العقيدة ومبادئ الشريعة ؛ اللتين تتجمعان هذا التجمع في السياق ، وتمتزجان هذا الامتزاج ؛ وتعرضان جملة واحدة ، وكتلة واحدة ، بصورة لا تخفى دلالتها على من يطالع هذا القرآن على النهج الذي بيناه . . هذا الحشد كله يقال عنه في نهاية الشوط الطويل :

﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ . .

وذلك لإبراز تلك الدلالة المستفادة من السياق كله ؛ وصوغها في تقرير واحد واضح حاسم :

إن هذا الدين شريعته كعقيدته في تقرير صفة الشرك أو صفة الإسلام . بل إن شريعته من عقيدته في هذه الدلالة . . بل إن شريعته هي عقيدته . . إذ هي الترجمة الواقعية لها . . كما تتجلى هذه الحقيقة الأساسية من خلال النصوص القرآنية ، وعرضها في المنهج القرآني . .

وهذه هي الحقيقة التي زُحزح مفهوم " الدين " في نفوس أهل هذا الدين عنها زحزحة مطردة خلال قرون طويلة ، بشتى الأساليب الجهنمية الخبيثة . . حتى انتهى الأمر بأكثر المتحمسين لهذا الدين – ودعك من أعدائه والمستهترين الذين لا يحفلونه – أن تصبح قضية الحاكمية في نفوسهم قضية منفصلة عن قضية العقيدة ! لا تجيش لها نفوسهم كما تجيش للعقيدة ! ولا يعدون المروق منها مروقاً من الدين ، كالذي يمرق من عقيدة أو عبادة ! وهذا الدين لا يعرف الفصل بين العقيدة والعبادة والشريعة . إنما هي الزحزحة التي زاولتها أجهزة مدربة ، قروناً طويلة ، حتى انتهت مسألة الحاكمية إلى هذه الصورة الباهتة ؛ حتى في حس أشد المتحمسين لهذا الدين ! وهي هي القضية التي تحتشد لها سورة مكية – موضوعها ليس هو النظام وليس هو الشريعة ، إنما موضوعها هو العقيدة – وتحشد لها كل هذه المؤثرات ، وكل هذه التقريرات ؛ بينما هي تتصدى لجزئية تطبيقية من تقاليد الحياة الاجتماعية . ذلك أنها تتعلق بالأصل الكبير . . أصل الحاكمية . . وذلك أن هذا الأصل الكبير يتعلق بقاعدة هذا الدين وبوجوده الحقيقي . .

إن الذين يحكمون على عابد الوثن بالشرك ، ولا يحكمون على المتحاكم إلى الطاغوت بالشرك . ويتحرجون من هذه ولا يتحرجون من تلك . . إن هؤلاء لا يقرأون القرآن ، ولا يعرفون طبيعة هذا الدين . . فليقرأوا القرآن كما أنزله الله ؛ وليأخذوا قول الله بجد : ﴿ وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ وإن بعض هؤلاء المتحمسين لهذا الدين ليشغلون بالهم

وبال الناس ببيان إن كان هذا القانون ، أو هذا الإجراء ، أو هذا القول ، منطبقاً على شريعة الله أو غير منطبق . . وتأخذهم الغيرة على بعض المخالفات هنا وهناك . . كأن الإسلام كله قائم ، فلا ينقص وجوده وقيامه وكماله إلا أن تمتنع هذه المخالفات !

*(134/253)*

---

هؤلاء المتحمسون الغيورون على هذا الدين ، يؤذون هذا الدين من حيث لا يشعرون . بل يطعنونه الطعنة النجلاء بمثل هذه الاهتمامات الجانبية الهزيلة . . إنهم يفرغون الطاقة العقيدية الباقية في نفوس الناس في هذه الاهتمامات الجانبية الهزيلة . . إنهم يؤدون شهادة ضمنية لهذه الأوضاع الجاهلية . شهادة بأن هذا الدين قائم فيها ، لا ينقصه ليكمل إلا أن تصحح هذه المخالفات . بينما الدين كله متوقف عن " الوجود " أصلا ، ما دام لا يتمثل في نظام وأوضاع ، الحاكمية فيها لله وحده من دون العباد .

إن وجود هذا الدين هو وجود حاكمية الله . فإذا انتفى هذا الأصل انتفى وجود هذا الدين . . وإن مشكلة هذا الدين في الأرض اليوم ، لهي قيام الطواغيت التي تعتدي على ألوهية الله ، وتغتصب سلطانه ، وتجعل لأنفسها حق التشريع بالإباحة والمنع في الأنفس والأموال والأولاد . . وهي هي المشكلة التي كان يواجهها القرآن الكريم بهذا الحشد من

المؤثرات والمقررات والبيانات ، ويربطها بقضية الألوهية والعبودية ، ويجعلها مناط الإيمان أو الكفر ، وميزان الجاهلية أو الإسلام .

*(135/253)*

---

إن المعركة الحقيقية التي خاضها الإسلام ليقرر " وجوده " لم تكن هي المعركة مع الإلحاد ، حتى يكون مجرد " التدين " هو ما يسعى إليه المتحمسون لهذا الدين ! ولم تكن هي المعركة مع الفساد الاجتماعي أو الفساد الأخلاقي – فهذه معارك تالية لمعركة " وجود " هذا الدين ! . . لقد كانت المعركة الأولى التي خاضها الإسلام ليقرر " وجوده " هي معركة " الحاكمية " وتقرير لمن تكون . . لذلك خاضها وهو في مكة . خاضها وهو ينشئ العقيدة ، ولا يتعرض للنظام والشريعة . خاضها ليثبت في الضمير أن الحاكمية لله وحده ؛ لا يدعيها لنفسه مسلم ؛ ولا يقر مدعيها على دعواه مسلم . . فلما أن رسخت هذه العقيدة في نفوس العصبة المسلمة في مكة ، يسر الله لهم مزاولتها الواقعية في المدينة . . . فلينظر المتحمسون لهذا الدين ما هم فيه وما يجب أن يكون . بعد أن يدركوا المفهوم الحقيقي لهذا الدين !

وحسبنا هذا القدر لنواجه النصوص بالتفصيل .

﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً . فقالوا : هذا لله - بزعمهم - وهذا لشركائنا . فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم . ساء ما يحكمون ! ﴾ . .

يقرر السياق - وهو يصف تصورات الجاهلية وتقاليدها في الحرث والأنعام - أن الله هو الذي أنشأ لهم هذه الزروع والأنعام ؛ فما من أحد غير الله يرزق الناس من الأرض والسماء . . ثم يذكر بعد هذا التقرير ما يفعلونه بما رزقهم . إذا يجعلون له منه سبحانه جزءا ، ويجعلون لأوثانهم وأصنامهم جزءا ( وطبيعي أن سدنة الأوثان هم الذين ينتهي إليهم هذا الجزء الأخير ! ) . ثم هم بعد ذلك يجورون على الجزء الذي جعلوه لله . على النحو الذي تقرره الآية !

*(136/253)*

---

عن ابن عباس قال : كانوا إذا أدخلوا الطعام فجعلوه حزما ، جعلوا منه لله سهما وسهما لآلهتم . وكانت إذا هبت الريح من نحو الذي جعلوه لآلهتهم إلى الذي جعلوه لله ، ردوه إلى الذي جعلوه لآلهتهم . وإذا هبت الريح من نحو الذي جعلوه لله إلى الذي جعلوه لآلهتهم ، أقروه ولم يردوه . فذلك قوله : ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ .

وعن مجاهد قال : يسمون لله جزءا من الحرث ، ولشركائهم وأوثانهم جزءا . فما ذهبت به الريح مما سموا لله إلى جزء أوثانهم تركوه .

وما ذهب من جزء أوثانهم إلى جزء الله ردوه . وقالوا : " الله عن هذا غني " ! والأنعام : السائبة والبحيرة التي سموا .

وعن قتادة قال : عمد ناس من أهل الضلالة فجزأوا من حروثهم ومواشيهم جزءاً لله وجزءاً لشركائهم وكانوا إذا خالط شيء مما جزأوا لله فيما جزأوا لشركائهم خلوه . فإذا خالط شيء مما جزأوا لشركائهم فيما جزأوا لله ردوه على شركائهم . وكانوا إذا أصابتهم السنة ( يعني الجدب ) استعانوا بما جزأوا لله ، وأقروا ما جزأوا لشركائهم . قال الله ، ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ .

وعن السدي قال : كانوا يقسمون من أموالهم قسما فيجعلونه لله ، ويزرعون زرعا فيجعلونه لله . ويجعلون لآلهتهم مثل ذلك . . فما خرج للآلهة أنفقوه عليها ، وما خرج لله تصدقوا به . فإذا هلك الذي يصنعون لشركائهم ، وكثر الذي لله ، قالوا : " ليس بد لآلهتنا من نفقة " ! وأخذوا الذي لله فأنفقوه على آلهتهم . وإذا أجدب الذي لله ، وكثر الذي لآلهتهم ، قالوا : " لو شاء أزكى الذي له " ! فلا يردون عليه شيئا مما للآلهة . قال الله . . لو كانوا صادقين فيما قسموا لبئس إذن ما حكموا : أن يأخذوا مني ولا يعطوني ! فذلك حين يقول : ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ .

وعن ابن جرير : وأما قوله : ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ فإنه خبر من الله جل ثناؤه عن فعل هؤلاء المشركين الذين وصف صفتهم . يقول جل ثناؤه : قد أساءوا في حكمهم ، إذ أخذوا من نصيبي لشركائهم ، ولم يعطوني من نصيب شركائهم . وإنما عنى بذلك – تعالى ذكره – الخبر عن جهلهم وضلالتهم ، وذهابهم عن سبيل الحق . بأنهم لم يرضوا أن عدلوا بمن خلقهم وغذاهم ، وأنعم عليهم بالنعم التي لا تحصى ، ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، حتى فضلوه في أقسامهم عن أنفسهم بالقسم عليه !

هذا هو ما كان شياطين الإنس والجن يوحون به إلى أوليائهم ليجادلوا به المؤمنين في الأنعام والزروع . وظاهر في هذه التصورات والتصرفات أثر المصلحة للشياطين في هذا الذي يزينونه لأوليائهم . فأما مصلحة شياطين الإنس – من الكهنة والسدنة والرؤساء – فهي متمثلة أولا في الاستيلاء على قلوب الأتباع والأولياء ، وتحريكهم على هواهم وفق ما يزينونه لهم من تصورات باطلة وعقائد فاسدة ! ومتمثلة ثانيا في المصالح المادية التي تتحقق لهم من وراء هذا التزيين والاستهواء لجماهير الناس ؛ وهو ما يعود عليهم مما يقسمه هؤلاء الأغرار المغفلون للآلهة ! . . وأما مصلحة شياطين الجن فتتمثل في نجاح الإغواء

والوسوسة لبني آدم حتى يفسدوا عليهم حياتهم ، ويفسدوا عليهم دينهم ، ويقودوهم ذللاً إلى الدمار في الدنيا والنار في الآخرة !

وهذه الصورة التي كانت تقع في جاهلية العرب ، وكانت تقع نظائرها في الجاهليات الأخرى : للإغريق والفرس والرومان ، والتي ما تزال تقع في الهند وإفريقية وآسيا . . . هذه الصور كلها ليست إلا صورا من التصرف في المال لا تقتصر عليها الجاهلية ! فالجاهلية الحاضرة تتصرف كذلك في الأموال بما لم يأذن به الله .

*(138/253)*

---

وعندئذ تلتقي في الشرك مع تلك الجاهليات القديمة . تلتقي في الأصل والقاعدة .

فالجاهلية هي كل وضع يتصرف في شؤون الناس بغير شريعة من الله ، ولا عبرة بعد ذلك باختلاف الأشكال التي يتمثل فيها هذا التصرف . . فإن هي إلا أشكال . . ﴿ وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم ، وليلبسوا عليهم دينهم . ولو شاء الله ما فعلوه . فذرهم وما يفترون ﴾ .

يقول : وكما زين الشركاء والشياطين لهم ذلك التصرف في أموالهم كذلك زينوا لهم قتل أولادهم . . وذلك ما كانوا يفعلونه من وأد البنات خشية الإملاق – أو خشية السبي والعار

- ومن قتل بعض الأبناء في النذر للآلهة كالذي روي عن عبد المطلب من نذره ذبح أحد ولده ، إن رزقه الله بعشرة منهم يحمونه ويمنعونه !

وظاهر أن هذا وذاك كان يوحي به عرف الجاهلية . العرف الذي وضعه الناس للناس .

والشركاء المذكورون هنا هم شياطين الإنس والجن . . من الكهنة والسدنة والرؤساء من الإنس ، ومن القرناء الموسوسين من الجن ، بالتعاون والموالاة فيما بينهم !

والنص يصرح بالهدف الكامن وراء التزيين :

﴿ ليردوهم ، وليلبسوا عليهم دينهم ﴾ .

ليهلكوهم وليجعلوا دينهم عليهم ملتبسا غامضا لا يقفون منه على تصور واضح . . فأما الهلاك فيتمثل ابتداء في قتلهم لأولادهم ؛ ويتمثل أخيراً في فساد الحياة الاجتماعية بجملتها ، وصيرورة الناس ماشية ضالة يوجهها رعاتها المفسدون حيثما شاءوا ، وفق أهوائهم ومصالحهم ! حتى ليتحكمون في أنفسهم وأولادهم وأموالهم بالقتل والهلاك ، فلا تجد هذه الغنم الضالة لها مفرا من الخضوع . لأن التصورات المتلبسة بالدين والعقيدة - وما هي منها - بكل ثقلها وعمقها ، تتعاون مع العرف الاجتماعي المنبثق منها ، وتنشئ ثقلا ساحقا لا تقف له جماهير الناس . وما لم تعتصم منه بدين واضح ؛ ما لم ترجع في أمرها كله إلى ميزان ثابت .

وهذه التصورات المبهمة الغامضة ؛ وهذا العرف الاجتماعي الذي ينبثق منها ، ويضغط على جمهرة الناس بثقله الساحق . . لا ينحصر في تلك الصور التي عرفتها الجاهليات القديمة . فنحن نشهده اليوم بصورة أوضح في الجاهليات الحديثة . . هذه العادات والتقاليد التي تكلف الناس العنت الشديد في حياتهم ، ثم لا يجدون لأنفسهم منها مفرا . . هذه الأزياء والمراسم التي تفرض نفسها على الناس فرضا ، وتكلفهم أحيانا ما لا يطيقون من النفقة ، وتأكل حياتهم واهتماماتهم ، ثم تفسد أخلاقهم وحياتهم . ومع ذلك لا يملكون إلا الخضوع لها . . أزياء الصباح ، وأزياء بعد الظهر ، وأزياء المساء . . الأزياء القصيرة ، والأزياء الضيقة ، والأزياء المضحكة ! وأنواع الزينة والتجميل والتصفيف . . . إلى آخر هذا الاسترقاق المذلّ . . من الذي يصنعه ومن الذي يقف وراءه ؟ تقف وراءه بيوت الأزياء . وتقف وراءه شركات الإنتاج ! ويقف وراءه المرابون في بيوت المال والبنوك من الذين يعطون أموالهم للصناعات ليأخذوا هم حصيلة كدها ! ويقف وراءه اليهود الذين يعملون لتدمير البشرية كلها ليحكموها ! .

. ولكنهم لا يقفون بالسلاح الظاهر والجند المكشوف ، إنما يقفون بالتصورات والقيم التي ينشئونها ، ويؤصلونها بنظريات وثقافات ؛ ويطلقونها تضغط على الناس في صورة ( عرف اجتماعي ) . فهم يعلمون أن النظريات وحدها لا تكفي ما لم تتمثل في أنظمة حكم ،

وأوضاع مجتمع ، وفي عرف اجتماعي غامض لا يناقشه الناس ، لأنه ملتبس عليهم متشابكة جذوره وفروعه !

إنه فعل الشياطين . . شياطين الإنس والجن . . وإنها الجاهلية تختلف أشكالها وصورها ، وتتحد جذورها ومنابعها ، وتتماثل قوائمها وقواعدها . .

وإننا لنبخس القرآن قدره ، إذا نحن قرأناه وفهمناه على أنه حديث عن جاهليات كانت ! إنما هو حديث عن شتى الجاهليات في كل أعصار الحياة . ومواجهة للواقع المنحرف دائماً ورده إلى صراط الله المستقيم . .

*(140/253)*

---

ومع ضخامة الكيد ، وثقل الواقع ، فإن السياق القرآني يهوّن أمر الجاهلية ، ويكشف عن الحقيقة الكبرى التي قد يخدع عنها هذا الجانب الظاهر . . إن هؤلاء الشياطين وأولياءهم لفي قبضة الله وسلطانه . وهم لا يفعلون ما يفعلونه بقدرة ذاتية فيهم . ولكن بترك الحبل ممدوداً لهم قليلا ؛ بمشيئة الله وقدره ، تحقيقاً لحكمة الله في ابتلاء عباده . ولو شاء ألا يفعلوه ما فعلوه . ولكنه شاء للابتلاء فلا على النبي – صلى الله عليه وسلم – ولا على المؤمنين . فليمضوا في طريقهم وليدعوا له الشياطين وما يفترون على الله وما يكيدون :

﴿ ولو شاء الله ما فعلوه . فذرهم وما يفترون ﴾ . .

ولا بد أن نذكر أنهم ما كانوا يجرؤون على أن يقولوا : إن هذه التصورات والتصرفات من عند أنفسهم . إنما يفترون على الله ، فيزعمون أنه هو شرعها لهم . . ينسبونها بذلك إلى شريعة إبراهيم وإسماعيل – بزعمهم !

كذلك يفعل الشياطين اليوم في الجاهلية الحديثة . . إن معظمهم لا يستطيع أن يتبجح تبجح الشيوعيين الملحدين ؛ فينفي وجود الله جملة ويتنكر للدين علانية . إنما يلجأ إلى نفس الأسلوب الذي كان يلجأ إليه الشياطين في جاهلية العرب ! يقولون : إنهم يحترمون الدين ! ويزعمون أن ما يشرعونه للناس له أصل من هذا الدين ! . . إنه أسلوب ألأم وأخبث من أسلوب الشيوعيين الملحدين ! إنه يخدر العاطفة الدينية الغامضة التي لا تزال تعيش في قرارات النفوس – وإن لم تكن هي الإسلام . فالإسلام منهج واضح عملي واقع وليس هذه العاطفة المبهمة الغامضة – ويفرغ الطاقة الفطرية الدينية في قوالب جاهلية لا إسلامية . وهذا أخبث الكيد وألأم الأساليب !

*(141/253)*

ثم يجيء " المتحمسون " لهذا الدين ؛ فيفرغون جهدهم في استنكار جزئيات هزيلة على هامش الحقيقة الإسلامية ، لا تروق لهم في هذه الأوضاع الجاهلية المشركة ، المغتصبة لألوهية الله وسلطانه بالجملة . وبهذه الغيرة الغبية يسبغون على هذه الأوضاع الجاهلية المشركة طابع الإسلام . ويشهدون لها شهادة ضمنية خطيرة بأنها تقوم على أصل من الدين حقا ، ولكنها تخالف عنه في هذه الجزئيات الهزيلة !

ويؤدي هؤلاء المتحمسون دورهم لتثبيت هذه الأوضاع وتطهيرها .

وهو نفس الدور الذي تؤديه الأجهزة الدينية المحترفة ، التي تلبس مسوح الدين ! وإن كان الإسلام بالذات لا يعرف المسوح ولا ينطق باسمه كاهن ولا سادن !

﴿ وقالوا : هذه أنعام وحرث حجر ، لا يطعمها إلا من نشاء – بزعمهم – وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها – افتراء عليه – سيجزيهم بما كانوا يفترون ﴾ . .

قال ابو جعفر بن جرير الطبري : " وهذا خبر من الله – تعالى ذكره – عن هؤلاء الجهلة من المشركين . إنهم كانوا يحرمون ويحللون من قبل أنفسهم ، من غير أن يكون الله أذن لهم بشيء من ذلك " .

والحجر : الحرام . . فهؤلاء المعتدون على سلطان الله ، الذين يدعون – مع ذلك – أن ما يشرعونه هو شريعة الله ، قد عمدوا إلى بعض الزروع وبعض الأنعام ، فعزلوها لآلهتم – كما

تقدم – وقالوا : هذه الأنعام وهذه الثمار محرمة عليهم لا يطعمونها . لا يطعمها إلا من شاء الله ! – بزعمهم ! – والذي يقرر ما يقرر في هذا الشأن هم بطبيعة الحال الكهنة والسدنة والرؤساء ! وعمدوا إلى أنعام قيل : إنها هي الأنواع المسماة في آية المائدة : ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ﴾ فجعلوا ظهورها حراما على الركوب . كما عمدوا إلى أنعام فقالوا : هذه لا يذكر اسم عليها عند ركوبها ولا عند حلبها ، ولا عند ذبحها . . إنما تذكر أسماء الآلهة وتخلص لها ! كل ذلك ﴿ افتراء على الله ﴾ !

*(142/253)*

---

قال أبو جعفر بن جرير : " وأما قوله ﴿ افتراء على الله ﴾ فإنه يقول : فعل هؤلاء المشركون ما فعلوا من تحريمهم ما حرموا ، وقالوا ما قالوا من ذلك ، كذبا على الله ، وتخرصاً بالباطل عليه ، لأنهم أضافوا ما كانوا يحرمون من ذلك ، على ما وصفه عنهم جل ثناؤه في كتابه ، إلى أن الله هو الذي حرمه ، فنفى الله ذلك عن نفسه ، وأكذبهم . وأخبر نبيه والمؤمنين أنهم كذبة فيما يدعون " .

وهنا كذلك تبدو لنا أساليب الجاهلية ، التي تتكرر في معظم الجاهليات ، وذلك قبل أن يبلغ التبجح بناس من البشر أن يقولوا بمادية الوجود ! وقبل أن يبلغ التبجح ببعض من لا

ينكرون الله ألبتة ، أن يجهروا بأن " الدين " مجرد " عقيدة " وليس نظاما اجتماعيا أو اقتصاديا أو سياسيا ، يهيمن على الحياة !

وإن كان ينبغي أن ندرك دائماً أن أسلوب الجاهلية التي تقيم نظاماً أرضياً ، الحاكمية فيه للبشر لا لله ، ثم تزعم أنها تحترم الدين وتستمد منه أوضاعها الجاهلية . . أن ندرك أن هذا الأسلوب هو أخبث الأساليب وأمهرها على الإطلاق ! ولقد عمدت الصليبية العالمية والصهيونية العالمية إلى هذا الأسلوب في المنطقة التي كانت يوما دار إسلام تحكم بشريعة الله .

*(143/253)*

---

بعد ما تبين لها فشل التجربة التركية التي قام بها البطل الذي صنعوه هناك ! . . لقد أدت لهم هذه التجربة دورا هاما في تحطيم الخلافة كآخر مظهر للتجمع الإسلامي في الأرض ، ولكنها بعلمانيتها السافرة قد عجزت عن أن تكون نموذجا يؤثر في بقية المنطقة . لقد انخلعت من الدين ، فأصبحت أجنبية عن الجميع ، الذين ما يزال الدين عاطفة غامضة في قرارات نفوسهم . . ومن ثم عمدت الصليبية العالمية والصهيونية في التجارب التالية ، التي تستهدف نفس الهدف ، أن تتدارك غلطة التجربة الكمالية التركية . فتضع على هذه

التجارب ستاراً من الدين وتقيم له أجهزة دينية تضفي عليه هذه الصفة ، سواء بالدعاية المباشرة ؛ أو باستنكار جزئيات هزيلة يوهم استنكارها أن ما عداها سليم ! وكان هذا من أخبث الكيد الذي تكيده شياطين الإنس والجن لهذا الدين . .

على أن الأجهزة الصليبية والصهيونية التي تعمل بكل ثقلها في هذه الفترة ، وبكل تضامنها وتجمعها ، وبكل تجاربها وخبرتها ، تحاول أو تسترد الغلطة في التجربة التركية ذاتها ، بأن تزعم أن هذه التجربة ذاتها كانت حركة من حركات البعث الإسلامي ! وأننا يجب ألا نصدقها فيما أعلنته عن نفسها من أنها ( علمانية ) تنبذ الدين وتعزله عن الحياة عزلاً !

*(144/253)*

---

ويجهد المستشرقون ( وهم الأداة الفكرية للاستعمار الصليبي الصهيوني ) في تطهير التجربة الكمالية من تهمة الإلحاد جهداً كبيراً . . ذلك أن انكشاف إلحادها جعلها تؤدي دورا محدودا . . وهو سحق آخر مظهر للتجمع الإسلامي في الأرض . . ولكنها عجزت بعد ذلك أن تؤدي الدور الآخر – الذي تحاول أن تؤديه التجارب التالية في المنطقة – من تفريغ المفهومات الدينية والحماسة الدينية في أوضاع وأشكال جاهلية ! ومن تبديل الدين باسم الدين ! ومن إفساد الخلق والمقومات الفطرية الأصلية باسم الدين أيضا . ومن إلباس

الجاهلية ثوب الإسلام لتؤدي به دورها في كل البقاع التي ما يزال فيها عاطفة دينية غامضة ؛ وقيادتها بهذا الخطام المزور الخادع إلى محاضن الصليبية والصهيونية . . الأمر الذي عجزت عنه الحملات الصليبية والصهيونية طوال ألف وثلاث مائة عام من الكيد للإسلام ! . . ﴿ سيجزيهم بما كانوا يفترون ﴾ . .

﴿ وقالوا : ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء . سيجزيهم وصفهم ، إنه حكيم عليم ﴾ . .

لقد استطردوا في أوهام التصورات والتصرفات ، النابعة من انحرافات الشرك والوثنية ، ومن ترك أمر التحليل والتحريم للرجال ؛ مع الادعاء بأن ما يشرعه الرجال هو الذي شرعه الله . استطردوا في هذه الأوهام فقالوا عن الأجنة التي في بطون بعض الأنعام – ولعلها تلك المسماة البحيرة والسائبة والوصيلة – إنها خالصة للذكور منهم حين تنتج ، محرمة على الإناث ، إلا أن تكون ميتة فيشارك فيها الإناث الذكور . . هكذا بلا سبب ولا دليل ولا تعليل ، إلا أهواء الرجال التي يصوغون منها دينا غامضاً ملتبسا في الأفهام .

ويعقب السياق القرآني تعقيب التهديد ؛ لمن صاغوا هذه الشرائع وكذبوا على الله فوصفوها بأنها من شرع الله :

﴿ سيجزيهم وصفهم ﴾ . .

﴿ إنه حكيم عليم ﴾ . .

يعلم حقائق الأحوال ، ويتصرف فيها بحكمة ، لا كما يتصرف هؤلاء المشركون الجهال .

*(145/253)*

---

وإن الإنسان ليعجب ، وهو يستعرض مع السياق القرآني هذه الضلالات ، وما تحمله أصحابها من أعباء وخسائر وتضحيات . . يعجب لتكاليف الانحراف عن شرع الله ونهجه ، تلك التي يتحملها المنحرفون عن صراط الله المستقيم . ولأثقال الخرافة والغموض والوهم التي يتبعها الضالون . ولأغلال العقيدة الفاسدة في المجتمع والضمير . . نعم يعجب للعقيدة المنحرفة تكلف الناس حتى فلذات أكبادهم ، فوق ما تكلفهم من تعقيد الحياة واضطرابها ، والسير فيها بلا ضابط ، سوى الوهم والهوى والتقليد . وأما مهم التوحيد البسيط الواضح ؛ يطلق الضمير البشري من أوهام الوهم والخرافة ؛ ويطلق العقل البشري من عقال التقليد الأعمى ؛ ويطلق المجتمع البشري من الجاهلية وتكاليفها ؛ ويطلق " الإنسان " من العبودية للعبيد – سواء فيما يشترعونه من قوانين ، وما يصنعونه من قيم وموازين – ويحل محل هذا كله عقيدة واضحة مفهومة مضبوطة ، وتصورا واضحا ميسرا مريحا ، ورؤية لحقائق الوجود والحياة كاملة عميقة ، وانطلاقا من العبودية للعبيد ،

وارتفاعا إلى مقام العبودية لله وحده . . المقام الذي لا يرتقي إلى أعلى درجاته إلا الأنبياء !

ألا إنها الخسارة الفادحة – هنا في الدنيا قبل الآخرة – حين تنحرف البشرية عن صراط الله المستقيم ؛ وتتردى في حمأة الجاهلية ؛ وترجع إلى العبودية الذليلة لأرباب من العبيد :

﴿ قد خسر الذين قتلوا أولادهم – سفها بغير علم – وحرموا ما رزقهم الله – افتراء على الله – قد ضلوا وما كانوا مهتدين ﴾ . .

خسروا الخسارة المطلقة . خسروا في الدنيا والآخرة . خسروا أنفسهم وخسروا أولادهم . خسروا عقولهم وخسروا أرواحهم . خسروا الكرامة التي جعلها الله لهم بإطلاقهم من العبودية لغيره ؛ وأسلموا أنفسهم لربوبية العبيد ؛ حين أسلموها لحاكمية العبيد ! وقبل ذلك كله خسروا الهدى بخسارة العقيدة ، خسروا الخسارة المؤكدة ، وضلوا الضلال الذي لا هداية فيه :

﴿ قد ضلوا وما كانوا مهتدين ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال حـ 3 صـ 1213 . 1222 ﴾

*(146/253)*

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ مهلك القرى ﴾ أي قرى أشخاص الإنسان ﴿ بظلم ﴾ وهو صرف الاستعداد الفطري في استيفاء اللذات الفانية ﴿ وأهلها غافلون ﴾ لم يبلغوا مبلغ التكليف بعد . ﴿ وربك الغني ﴾ عن كل مخلوق عامة وعن الإنسان خاصة ﴿ ذو الرحمة ﴾ خلقهم ليربحوا عليه لا ليربح عليهم . ﴿ واعملوا على مكانتكم ﴾ أي على ما جبلتم عليه ﴿ إني عامل ﴾ على ما جبلت عليه ﴿ قتل أولادهم شركاؤهم ﴾ من الشياطين والنفس والهوى والدنيا ﴿ سيجزيهم بما كانوا يفترون ﴾ لأنهم ذهبوا مذهب الطبع لا مذهب الشرع ، والعمل بالطبع وإن كان فيه نوع مجاهدة النفس لا يكون له نور إذا لم يكن لامتثال الشرع ﴿ قد خسر الذين قتلوا أولادهم ﴾ لأن ذلك نتيجة انتزاع الرحمة عن قلوبهم وحرموا ما رزقهم الله صورة وهو ظاهر ، ومعنى وهو استعداد حصول مراتب أهل القرب ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾ لأن خشية الفقر حملتهم على قتل الأولاد . وقال أهل التحقيق : من أمارات اليقين وحقائقه كثرة العيال على بساط التوكل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 175 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والخمسون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الرابع والخمسون بعد المائتين

من الآية ﴿ 141 ﴾ من سورة الأنعام

وحتى الآية ﴿ 144 ﴾ من نفس السورة

*(4/254)*

---

قوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (141) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان مدار القرآن على تقرير التوحيد والنبوة وتوابعها والمعاد والقضاء والقدر والفعل بالاختيار ، وأتقن تقرير هذه الأصول لا سيما في هذه السورة ، وانتهى إلى شرح أحوال السعداء والأشقياء ، وعجب سبحانه ممن أشرك وأنكر البعث وفعل أفعال المشركين تعجيباً بعد تعجيب ، وهجن طريقتهم ووبخهم توبيخاً في إثر توبيخ بتكذيبهم

للداعي من غير حجة ، وحكى أقوالهم الباطلة ودعاويهم الفاسدة مع ادعائهم أنهم أنصف الناس ، ومخالفتهم للهادي

(5/254)

---

بغير ثبت ولا بينة مع ادعائهم أنهم أبصر الناس ، وبطلبهم للآيات تعنتاً مع ادعائهم أنهم أعقل الناس ، وإخلاصهم في الشدة وإشراكهم في الرخاء مع ادعائهم أنهم أشكر الناس ، وعبادتهم للجن وتعوذهم بهم مع ادعائهم أنهم أشجع الناس - إلى أن عجب منهم فيما شرعوه لأنفسهم فيما رزقهموه سبحانه من حيوان وجماد ومضوا عليه خلفاً عن سلف ، تنبيهاً على ضعف عقولهم وقلة علومهم تنفيراً للناس عن الالتفات إليهم واغترار بأقوالهم ، قال في موضع الحال من ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام ﴾ [ الأنعام : 136 ] مبيناً عظيم ملكه وشمول قدرته وباهر اختياره وعظمته ، زيادة في التعجيب منهم في تصرفهم في ملكه بغير إذنه سبحانه وشرعهم ما لم يأذن فيه في سياق كافل بإقامة الحجة على تقرير التوحيد عوداً على بدء وعللاً بعد نهل ، لأنه المدار الأعظم والأصل الأقوم : ﴿ وهو ﴾ أي لا غيره ﴿ الذي أنشأ ﴾ أي من العدم ﴿ جنات ﴾ أي من العنب وغيره ﴿ معروشات ﴾ أي مرفوعات عن الأرض على الخشب ونحوه ، أي لا تصلح إلا معروشة

، ومتى لم ترفع عن الأرض تلف ثمرها ﴿ وغير معروشات ﴾ أي غير مرفوعات على الخشب ، أي لا تصلح إلا مطروحة على الأرض مثقلة بما يحكم وصولها إليها ، ومتى ارتفعت عن الأرض تلفت ، فما ذلك لطبيعة ولا غيرها وإلاّ لاستوت الجنات كلها لأن نسبتها إلى السماء والأرض واحدة ، فما اختلف إلا بفاعل مختار واحد لا شريك له ، لا يكون إلا ما يريد .

*(6/254)*

---

ولما ذكر الجنات الجامعة ، خص أفضلها وأدلها على الفعل بالاختيار ، وبدأ بأشهرها عند المخاطبين بهذه الآيات فقال : ﴿ والنخل ﴾ أي وأنشأ النخل ﴿ والزرع ﴾ حال كونه ﴿ مختلفاً أكله ﴾ أي أكل أحد النوعين ، وهو ثمره الذي يؤكل بالنسبة إلى الآخر ، وأكل كل نوع بالنسبة إلى الأشجار وغيرها في الحمل والطعم وغيره ، بل ويوجد في العذق الواحد الاختلاف ، وأما اختلاف مقداره بكون هذا في غاية الطول وهذا في غاية القصر فأمر واضح جداً ﴿ والزيتون والرمان ﴾ .

ولما كان معظم القصد في هذا السياق نفي الشريك وإثبات الفعل بالاختيار ، لم يدع الحال إلى ذكر كمال الشبه فاكتفى بأصل الفعل فقيل : ﴿ متشابهاً ﴾ أي كذلك ﴿ وغير

متشابه ﴾ أي في اللون والطعم والفساد وعدمه والتفكه والاقتيات والدهن والماء - إلى غير ذلك من أحوال وكيفيات لا يحيط بها حق الإحاطة إلا بارئها سبحانه وعز شأنه ، ولعله جمع الأولين لأن كلاً منهما يدخر للاقتيات ولا يسرع فساده مع المفارقة في الشكل ، والاختلاف في النوع بالشجر والنجم ، والتفاوت العظيم في المقدار ، والأخيرين لأن الأول لا يفسد بوجه ، والثاني يسرع فساده ، ويدخر كل منهما على غير الهيئة التي يدخر عليها الآخر مع كونهما من الأشجار وتقاربهما في المقدار وتفاوت ثمرتهما في الشكل والقدر وغير ذلك .

*(7/254)*

---

ولما كان قوله ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء ﴾ [ الأنعام : 99 ] في سياق الاستدلال على أنه لا فاعل إلا الله ، أمر فيه بالنظر إلى الثمر والينع ليعتبر بحالهما ، وكانت هذه الآية في سياق التعنيف لمن حرم ما رزقه الله والأمر بالأكل من حلال ما أنعم به والنهي عن تركه تديناً فقال تعالى هنا : ﴿ كلوا ﴾ وقدم الأولى المستدل بها على وجود البارئ وتفرده بالأمر لأن اعتقاد ذلك سعادة روحانية أبدية ؛ وقال أبو حيان في النهر : لما كان مجيء تلك الآية في معرض الاستدلال بها على الصانع وقدرته والحشر وإعادة الأرواح إلى الأجساد

بعد العدم وإبراز الجسد وتكوينه من العظم الرميم وهو عجب الذنب ، قال ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾ [ الأنعام : 99 ] إشارة إلى الإيجاد أولاً وإلى غايته ، وهنا لما كان في معرض الامتنان وإظهار الإحسان بما خلق لنا قال : كلوا ، ودل على أن الرزق أكثر من خلقه بقوله : ﴿ من ثمره ﴾ ، ولما كان هذا الأمر للإباحة لا للارادة ، قيده لئلا يقتضي إيجاد الثمر في كل جنة في كل وقت فقال : ﴿ إذا أثمر ﴾ فحصل بمجموعها الحياة الأبدية والحياة الدنياوية السريعة الانقضاء وتقدم النظر وهو الفكر على الأكل لهذا السبب .

انتهى .

وعبر بـ " إذا " دون " إن " تحقيقاً لرجاء الناس في الخصب وتسكيناً لآمالهم رحمة لهم ورفقاً بهم إعلاماً أنه إن وقع جدب كان في ناحية دون أخرى وفي نوع دون آخر ، وإباحة للأكل في جميع أحوال الثمرة نضيجة وغير نضيجة .

*(8/254)*

---

ولما كان في الآيات الحاكية مذاهب الكفار تقبيح أن يجعلوا شيئاً من أموالهم لأحد بأهوائهم ، أشار هنا إلى أنه فرض فيها حقاً وجعل له مصارف بقوله : ﴿ وآتوا حقه ﴾ ولما أباح سبحانه أكله ابتداء وانتهاء ، بين أنه خفف عنهم الوجوب قبل الانتهاء فقال : ﴿ يوم

حصاده ﴾ أي قطعه جذاذاً كان أو حصاداً ، فكذلك أول وقت نصاب الأمر وهو موسع ، والحق أعم من الواجب والمندوب ، فإن أريد الندب عم الأنواع الخمسة الماضية : العنب المشار إليه بالعرش وما بعده ، وإن أريد الوجوب فقد أشير بالتعبير بالحصاد إلى أن الأصل في ذلك الحبوب المقتاتة ، وأما غيرها فتابع علمه ببيان النبي صلى الله عليه وسلم فيطلق عليه الحصاد مجازاً .

ولما أمر الله بالأكل من ثمره وبإيتاء حقه ، نهى عن مجاوزة الحد في البسط أو القبض فقال : ﴿ ولا تسرفوا ﴾ وهذا النهي يتضمن أفراد الإسراف ، فيدخل فيه الإسراف في أكل الثمرة حتى لا يبقى شيء منها للزكاة ، والإسراف في الصدقة حتى لا يبقى لنفسه ولا لعياله شيئاً ، ويؤيده ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ [ الأعراف : 31 ] ، ﴿ ولا تبسطها كل البسط ﴾ [ الإسراء : 29 ] ، ثم علله بقوله : ﴿ إنه لا يحب المسرفين ﴾ أي لا يعاملهم معاملة المحب فلا يكرمهم ، وقيل لحاتم الطائي : لا خير في السرف فقال : ولا سرف في الخير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 726 . 728 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى جعل مدار هذا الكتاب الشريف على تقرير التوحيد والنبوة والمعاد وإثبات القضاء والقدر ، وأنه تعالى بالغ في تقرير هذه الأصول ، وانتهى الكلام إلى شرح أحوال

السعداء والأشقياء ، ثم انتقل منه إلى تهجين طريقة من أنكر البعث والقيامة ، ثم أتبعه بحكاية أقوالهم الركيكة ، وكلماتهم الفاسدة في مسائل أربعة .

(9/254)

---

والمقصود التنبيه على ضعف عقولهم ، وقلة محصولهم ، وتنفير الناس عن الالتفات إلى قولهم ، والاغترار بشبهاتهم فلما تمم هذه الأشياء عاد بعدها إلى ما هو المقصود الأصلي ، وهو إقامة الدلائل على تقرير التوحيد فقال : ﴿ وَهُوَ الذى أَنشَأَ جنات معروشات ﴾ .

واعلم أنه قد سبق ذكر هذا الدليل في هذه السورة ، وهو قوله : ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ [ الأنعام : 99 ] فالآية المتقدمة ذكر تعالى فيها خمسة أنواع ، وهي : الزرع والنخل ، وجنات من أعناب والزيتون والرمان ، وفي هذه الآية التي نحن في تفسيرها ذكر هذه الخمسة بأعيانها لكن على خلاف ذلك الترتيب لأنه ذكر العنب ، ثم النخل ، ثم الزرع ، ثم الزيتون ثم الرمان وذكر في الآية المتقدمة ﴿ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ متشابه ﴾ وفي هذه الآية ﴿ متشابها وَغَيْرَ متشابه ﴾

ثم ذكر في الآية المتقدمة ﴿ انظروا إلى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ فأمر تعالى هناك بالنظر في أحوالها والاستدلال بها على وجود الصانع الحكيم ، وذكر في هذه الآية ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ فأذن في الانتفاع بها ، وأمر بصرف جزء منها إلى الفقراء ، فالذي حصل به الامتياز بين الآيتين أن هناك أمر بالاستدلال بها على الصانع الحكيم وههنا أذن في الانتفاع بها ، وذلك تنبيه على أن الأمر بالاستدلال بها على الصانع الحكيم مقدم على الإذن في الانتفاع بها لأن الحاصل من الاستدلال بها سعادة روحانية أبدية والحاصل من الانتفاع بهذه سعادة جسمانية سريعة الانقضاء ، والأول أولى بالتقديم ، فلهذا السبب قدم الله تعالى الأمر بالاستدلال بها على الإذن بالانتفاع بها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 173 ﴾ . بتصرف يسير .

اللغَة : ﴿ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ مرفوعات على ما يحملها من العيدان ﴿ حَصَادِهِ ﴾ الحصاد : جمع الثمر كالجُذاذ ﴿ حَمُولَةً ﴾ الحمولة : الإبل التي تحمل الأثقال على ظهورها ﴿ فَرْشاً ﴾ الفرش : الصغا التي لا تصلح للحمل كالفُصلان والعجاجيل قال الزجاج : الفرشُ صغار الإبل قال الشاعر :

أورثني حمولةً وفرْشاً . . . أمُشُّها في كلِّ يومٍ مَشَاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 423.424 ﴾

(11/254)

---

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ وَهُوَ الذى أَنشَأَ ﴾ أي خلق ، يقال : نشأ الشيء ينشأ نشأة ونشاءة إذا ظهر وارتفع والله ينشئه إنشاء أي يظهره ويرفعه وقوله : ﴿ جنات معروشات ﴾ يقال عرشت الكرم أعرشه عرشاً وعرشته تعريشاً ، إذا عطفت العيدان التي يرسل عليها قضبان الكرم ، والواحد عرش ، والجمع عروش ، ويقال : عريش وجمعه عرش ، واعترش العنب العريش اعتراشاً إذا علاه .

إذا عرفت هذا فنقول : في قوله : ﴿ معروشات وَغَيْرَ معروشات ﴾ أقوال :

الأول : أن المعروشات وغير المعروشات كلاهما الكرم ، فإن بعض الأعناب يعرش وبعضها لا يعرش ، بل يبقى على وجه الأرض منبسطاً .

والثاني : المعروشات العنب الذي يجعل لها عروش ، وغير المعروشات كل ما ينبت

منبسطاً على وجه الأرض مثل القرع والبطيخ .

والثالث : المعروشات ما يحتاج إلى أن يتخذ له عريش يحمل عليه فيمسكه ، وهو الكرم وما يجري مجراه ، وغير المعروش هو القائم من الشجر المستغني باستوائه وذها به علواً لقوة ساقه عن التعريش .

والرابع : المعروشات ما يحصل في البساتين والعمرانات مما يغرسه الناس واهتموا به فعرشوه ﴿ وَغَيْرَ معروشات ﴾ مما أنبته الله تعالى وحشياً في البراري والجبال فهو غير معروش

وقوله : ﴿ والنخل والزرع ﴾ فسر ابن عباس ﴿ الزرع ﴾ ههنا بجميع الحبوب التي يقتات بها ﴿ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ ﴾ أي لكل شيء منها طعم غير طعم الآخر ﴿ والأكل ﴾ كل ما أكل ، وههنا المراد ثمر النخل والزرع ، ومضى القول في ﴿ الأكل ﴾ عند قوله : ﴿ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾ [ البقرة : 265 ] وقوله : ﴿ مُخْتَلِفًا ﴾ نصب على الحال أي أنشأه في حال اختلاف أكله ، وهو قد أنشأه من قبل ظهور أكله وأكل ثمره .

الجواب : أنه تعالى أنشأها حال اختلاف ثمرها وصدق هذا لا ينافي صدق أنه تعالى أنشأها قبل ذلك أيضاً وأيضاً نصب على الحال مع أنه يؤكل بعد ذلك بزمان ، لأن اختلاف أكله مقدر كما تقول : مررت برجل معه صقر صائداً به غداً ، أي مقدراً للصيد به غداً .

وقرأ ابن كثير ونافع ﴿ أَكَلَهُ ﴾ بتخفيف الكاف والباقون ﴿ أُكُلَهُ ﴾ في كل القرآن وأما توحيد الضمير في قوله : ﴿ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ ﴾ فالسبب فيه : أنه اكتفى بإعادة الذكر على أحدهما من إعادته عليهما جميعاً كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تجارة أَوْ لَهْواً انفضوا إِلَيْهَا ﴾ [ الجمعة : 11 ] والمعنى : إليهما وقوله : ﴿ والله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [ التوبة : 62 ].

وأما قوله : ﴿ متشابها وَغَيْرَ متشابه ﴾ فقد سبق تفسيره في الآية المتقدمة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 173.174 ﴾

*(13/254)*

---

وقال السمرقندى :

﴿ وَهُوَ الذى أَنشَأَ جنات معروشات ﴾

يعني : خلق البساتين يعني : الكروم وما يعرش وهو الذي يبسط مثل القرع ونحو ذلك ﴿ وَغَيْرَ معروشات ﴾ يعني : كل شجرة قائمة على أصولها ﴿ والنخل والزرع ﴾ يعني : خلق النخل والزرع ﴿ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ ﴾ يعني : طعمه مثل الحامض والحلو والمر ﴿ والزيتون

والرمان متشابها ﴾ يعني : المنظر ﴿ وَغَيْرَ متشابه ﴾ يعني : في الطعم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾

مسموكات مرفوعات وغير مرفوعات قال ابن عباس : معروشات ما انبسط على وجه الأرض وأنتشر ممّا يعرش مثل الكرم والقرع والبطيخ وغيرها ، وغير معروشات ما كان على ساق مثل النخيل وسائر الأشجار وما كان على نسق ، ومثل [ البروج ] ، وقال الضحاك : معروشات وغير معروشات الكرم خاصة منها ما عرش ومنها ما لم يعرش .

وروي عن ابن عباس إيضاً أنَّ المعروشات ما عرش الناس ، وغير معروشات ما خرج في البراري والجبال من الثمار .

يدلّ عليه قراءة علي ( معروشات وغير معروشات ) بالغين والسين . ( والنخل ) يعني وأنشأ ﴿ والنخل والزرع مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ ﴾ ثمره وطعمه الحامض والمرّ والحلو والجيّد والرديء وارتفع معنى الأكل [ ومختلفاً نعته ] إلاّ أنّه لمّا تقدّم النعت على الاسم وولي منصوباً نصب ، كما تقول : عندي طبّاخاً غلام وأنشد :

الشر منتشر لقاك ( من مرض ) . . . والصالحات عليها مغلقاً باب

﴿ والزيتون والرمان مُتَشَابِهاً ﴾ في المنظر ﴿ وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ في الطعم مثل الرمانتين

لونهما واحد وطعمهما مختلف ، إحداهما حلوة والأخرى حامضة وقد مرّ القول فيه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(14/254)

---

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وهو الذي أنشأ جنات معروشات ﴾ الآية هذا تنبيه على مواضع الاعتبار و ﴿ أنشأ ﴾ معناه خلق واخترع " والجنة " مأخوذة من جن إذا ستر ، و ﴿ معروشات ﴾ قال ابن عباس : ذلك في ثمر العنب ، ومنها ما عرش وسمك ومنها ما لم يعرش وقال السدي " المعروشات " ما عرش كهيئة الكرم ، وغيره البساتين وقيل : المعروش هو ما يعترشه بنو آدم من أنواع الشجر وغير المعروش ما يحدث في الجبال والصحراء ونحو ذلك وقيل : المعروش ما خلق بحائط وغير المعروش ما لم يخلق ، و ﴿ مختلفاً ﴾ : نصب على الحال على تقدير حصول الاختلاف في ثمرها لأنها حين الإنشاء لا ثمرة فيها فهي حال مقدرة تجيء بعد الإنشاء ، و ﴿ متشابهاً ﴾ يريد في المنظر ، ﴿ وغير متشابه ﴾ في المطعم قاله ابن جريج وغيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(15/254)

وقال الآلوسى :

﴿ وَهُوَ الذى أَنشَأَ جنات معروشات ﴾

تمهيد لما سيأتي من تفصيل أحوال الأنعام .

وقال الإمام : "إنه عود إلى ما هو المقصود الأصلي وهو إقامة الدلائل على تقرير التوحيد" أي وهو الذي خلق وأظهر تلك الجنات من غير شركة لأحد في ذلك بوجه من الوجوه ، والمعروشات من الكرم ما يحمل على العريش وهو عيدان تصنع كهيئة السقف ويوضع الكرم عليها ﴿ وَغَيْرَ معروشات ﴾ وهي الملقيات على وجه الأرض من الكرم أيضاً ، وهذا قول من قال : إن المعروشات وغيرها كلاهما للكرم ، وعن أبي مسلم أن المعروش ما يحتاج إلى أن يتخذ له عريش يحمل عليه فيمسكه من الكرم وما يجري مجراه ، وغير المعروش هو القائم من الشجر المستغني باستوائه وقوة ساقه عن التعريش ، وفي رواية عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن المعروش ما يحصل في البساتين والعمرانات مما يغرسه الناس وغير المعروش ما نبت في البراري والجبال ، وقيل : المعروش العنب الذي يجعل له عريش وغير المعروش كل ما نبت منبسطاً على وجه الأرض مثل القرع والبطيخ ، وقال عصام الدين : ولا يبعد أن يراد بالمعروش المعروش بالطبع كالأشجار التي ترتفع وبغير المعروش ما ينبسط على وجه الأرض كالكرم ، ويكون قوله سبحانه : ﴿ والنخل والزرع

﴿ تخصيصاً بعد التعميم وهو عطف على ﴿ جنات ﴾ أي أنشأهما ﴿ مُخْتَلِفًا ﴾ في الهيئة والكيفية ﴿ أُكُلُهُ ﴾ أي ثمره الذي يؤكل منه .

وقرأ ابن كثير ونافع ﴿ أُكَلَهُ ﴾ بسكون الكاف وهو لغة فيه على ما يشير إليه كلام الراغب ، والضمير إما أن يرجع إلى أحد المتعاطفين على التعيين ويعلم حكم الآخر بالمقايسة إليه أو إلى كل واحد على البدل أو إلى الجميع والضمير بمعنى اسم الإشارة ، وعن أبي حيان "أن الضمير لا يجوز إفراده مع العطف بالواو . . .

*(16/254)*

---

فالظاهر عوده على أقرب مذكور وهو ﴿ الزرع ﴾ ويكون قد حذف حال النخل لدلالة هذه الحال عليها ، والتقدير والنخل مختلفاً أكله والزرع مختلفاً أكله" ، وجوز وجهاً آخر وهو أن في الكلام مضافاً مقدراً والضمير راجع إليه أي ثمر جنات ، والحال المشار إليها على كل حال مقدرة إذ لا اختلاف وقت الإنشاء .

وزعم أبو البقاء أنها كذلك إن لم يقدر مضاف أي ثمر النخل وحب الزرع وحال مقارنة إن قدر .

﴿ والزيتون والرمان ﴾ أي أنشأهما ﴿ متشابها وَغَيْرَ متشابه ﴾ أي يتشابه بعض

أفرادهما في اللون أو الطعم أو الهيئة ولا يتشابه في بعضها ، وأخرج ابن المنذر .

وأبو الشيخ عن ابن جريج أنه قال : متشابهاً في المنظر وغير متشابه في المطعم ، والنصب على الحالية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَهُوَ الذى أَنشَأَ جنات معروشات وَغَيْرَ معروشات والنخل والزرع مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ والزيتون والرمان متشابها وَغَيْرَ متشابه ﴾ .

الواو في : ﴿ وهو الذي أنشأ ﴾ للعطف ، فيكون عطف هذه الجملة على جملة ﴿ وحرّموا ما رزقهم الله ﴾ [ الأنعام : 140 ] تذكيراً بمنة الله تعالى على النّاس بما أنشأ لهم في الأرض ممّا ينفعهم ، فبعد أن بيّن سوء تصرّف المشركين فيما مَنّ به على النّاس كلّهم مع تسفيه آرائهم في تحريم بعضها على أنفسهم ، عطف عليه المنّة بذلك استنزالاً بهم إلى إدراك الحقّ والرّجوعِ عن الغي ، ولذلك أعيد في هذه الآية غالب ما ذكر في نظيرتها المتقدّمة في قوله : ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كلّ شيء فأخرجنا منه خَضِراً نُخرِج منه حبّاً متراكباً ومن النّخل من طلعها قنوان دانية وجنّات من أعناب والزّيتون والرمّان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾ [ الأنعام : 99 ] لأنّ المقصود من الآية الأولى الاستدلال على أنّه الصّانع ، وأنّه المنفرد بالخلق ، فكيف يشركون به غيره .

ولذلك ذيّلها بقوله : ﴿ إنّ في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ [ الأنعام : 99 ] ، وعطف عليها قوله : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجنّ ﴾ [ الأنعام : 100 ] الآيات .

والمقصود من هذه : الامتنانُ وإبطالُ ما ينافي الامتنان ولذلك ذيّلت هذه بقوله : ﴿ كلوا من ثمره إذا أثمر ﴾ .

والكلام موجّه إلى المؤمنين والمشركين ، لأَنّه اعتبار وامتنان ، وللمؤمنين الحظّ العظيم من ذلك ، ولذلك أعقب بالأمر بأداء حق الله في ذلك بقوله : ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ إذ لا يصلح ذلك الخطاب للمشركين .

وتعريف المسند يفيد الاختصاص ، أي هو الّذي أنشأ لا غيره ، والمقصود من هذا الحصرِ إبطالُ أن يكون لغيره حظّ فيها ، لإبطال ما جعلوه من الحرث والأنعام من نصيب أنصامهم مع أنّ الله أنشأه .

والإنشاءُ : الإيجاد والخلق ، قال تعالى : ﴿ إنَّا أنشأناهنّ إنشاءً ﴾ [ الواقعة : 35 ] أي نساء الجنّة .

والجنّات هي المكان من الأرض النّابت فيه شجر كثير بحيث يَجِنّ أي يَستر الكائن فيه ،

وقد تقدّم عند قوله : ﴿ كمثل جنّة بربْوة ﴾ في سورة البقرة ( 265 ) .

وإنشاؤها إنباتها وتيسير ذلك بإعطائها ما يعينها على النماء ، ودفعِ ما يفسدها أو يقطع نبتها ، كقوله : ﴿ أنتم تزرعونه أم نحن الزّارعون ﴾ [ الواقعة : 64 ] .

والمعروشات : المرفوعات .

يقال : عرش الكرمة إذا رفعها على أعمدة ليكون نماؤها في ارتفاع لا على وجه الأرض ، لأنّ ذلك أجود لعنبها إذ لم يكن ملقى على وجه الأرض .

وعَرش فعل مشتقّ من العَرْش وهو السقف ، ويقال للأعمدة التي تُرفع فوقها أغصان الشّجر فتصير كالسّقف يَستظلّ تحته الجالسُ : العَريشُ .

ومنه ما يذكر في السيرة : العريش الّذي جُعل للنّبيء صلى الله عليه وسلم يومَ بدر ، وهو الّذي بني على بقعته مسجد بعد ذلك هو اليوم موجود ببدر .

ووصف الجنّات بمعروشات مجاز عقلي ، وإنَّما هي معروش فيها ، والمعروش أشجارها .

*(18/254)*

---

وغير المعروشات المبقاة كرومها منبسطة على وجه الأرض وأرفع بقليل ، ومن محاسنها أنَّها تزيّن وجه الأرض فيرى الرائي جميعها أخضر .

وقوله : ﴿ معروشات وغير معروشات ﴾ صفة : ل ﴿ جنّات ﴾ قصد منها تحسين الموصوف والتّذكيرُ بنعمة الله أن أُلْهَم الإنسان إلى جعلها على صفتين ، فإنّ ذكر محاسن ما أنشأه الله يزيد في المنّة ، كقوله في شأن الأنعام ﴿ ولكم فيها جَمَالٌ حين تريحون وحين تسرحون ﴾ [ النحل : 6 ] .

و ﴿ مختلفا أكلهُ ﴾ حال من الزّرع ، وهو أقرب المذكورات إلى اسم الحال ، ويعلم أنّ النّخل والجنّات كذلك ، والمقصود التّذكير بعجيب خلق الله ، فيفيد ذكرُ الحال مع أحد الأنواع تذكّر مثله في النوع الآخر ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضّوا إليها ﴾ [ الجمعة : 11 ] أي وإليه ، وهي حال مقدّرة على ظاهر قول النّحويين لأنَّها مستقبلة عن الإنشاء ، وعندي أنّ عامل الحال إذا كان ممّا يحصل مَعناه في أزمنة ، وكانت الحال مقارنة لبعض أزمنة عاملها ، فهي جديرة بأن تكون مقارنة ، كما هنا .

( والأُكْل ) بضمّ الهمزة وسكون الكاف لنافع وابن كثير ، وبضمّهما قرأه الباقون ، هو الشّيء الّذي يؤكل ، أي مختلفا مَا يؤكل منه .

وعُطف : ﴿ والزيتون والرمان ﴾ على : ﴿ جنّاتتٍ . . .

والنّخلَ والزّرعَ ﴾ .

والمراد شجر الزّيتون وشجر الرمّان .

وتقدّم القول في نظيره عند قوله تعالى : ﴿ وهو الذي أنزل من السّماء ماء ﴾ الآية في هذه

السّورة ( 99 ) .

إلاّ أنَّه قال هناك : ﴿ مُشْتَبِها ﴾ [ الأنعام : 99 ] وقال هنا : ﴿ متشابها ﴾ وهما بمعنى واحد لأنّ التّشابه حاصل من جانبين فليست صيغة التّفاعل للمبالغة ألا ترى أنَّهما استويا في قوله : ﴿ وغير متشابه ﴾ في الآيتين .

*(19/254)*

---

غُيِّر أسلوبُ الحكاية عن أحوال المشركين فأُقبل على خطاب المؤمنين بهذه المنّة وهذا الحكم ؛ فهذه الجمل معترضة وهي تعريض بتسفيه أحلام المشركين لتحريمهم على أنفسهم ما مَنّ الله به عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾

فصل

قال الفخر :

فيه مباحث .

البحث الأول : إنه تعالى لما ذكر كيفية خلقه لهذه الأشياء ذكر ما هو المقصود الأصلي من خلقها ، وهو انتفاع المكلفين بها ، فقال : ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ ﴾ واختلفوا ما الفائدة منه ؟

فقال بعضهم : الإباحة .

وقال آخرون : بل المقصود منه إباحة الأكل قبل إخراج الحق ، لأنه تعالى لما أوجب الحق فيه ، كان يجوز أن يحرم على المالك تناوله لمكان شركة المساكين فيه ، بل هذا هو الظاهر فأباح تعالى هذا الأكل ، وأخرج وجوب الحق فيه من أن يكون مانعاً من هذا التصرف .

وقال بعضهم : بل أباح تعالى ذلك ليبين أن المقصد بخلق هذه النعم إما الأكل وإما التصدق ، وإنما قدم ذكر الأكل على التصدق ، لأن رعاية النفس مقدمة على رعاية الغير .

قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدنيا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ الله إِلَيْكَ ﴾ [ القصص : 77 ] .

البحث الثاني : تمسك بعضهم بقوله : ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ بأن الأصل في المنافع الإباحة والإطلاق ، لأن قوله : ﴿ كُلُواْ ﴾ خطاب عام يتناول الكل ، فصار هذا جارياً مجرى قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأرض جَمِيعاً ﴾ [ البقرة : 29 ] وأيضاً يمكن التمسك به على أن الأصل عدم وجوب الصدقة ، وأن من ادعى إيجابه كان هو المحتاج إلى الدليل ، فيتمسك به في أن المجنون إذا أفاق في أثناء الشهر ، لا يلزمه قضاء ما مضى ، وفي أن الشارع في صوم النفل لا يجب عليه الإتمام .

البحث الثالث : قوله : ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ ﴾ يدل على أن صيغة الأمر قد ترد في غير موضع الوجوب وفي غير موضع الندب ، وعند هذا قال بعضهم : الأصل في الاستعمال الحقيقة ، فوجب جعل هذه الصيغة مفيدة لرفع الحجر ، فلهذا قالوا : الأمر مقتضاه الإباحة ، إلا أنا نقول : نعلم بالضرورة من لغة العرب أن هذه الصيغة تفيد ترجيح جانب الفعل ، وأن حملها على الإباحة لا يصار إليه إلا بدليل منفصل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 174 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ وإنما ذكر ثمره بلفظ التذكير ، لأنه انصرف إلى المعنى يعني : ثمره الذي ذكرها ﴿ وَهُوَ الذى أَنشَأَ جنات ﴾ يعني : أعطوا زكاته يوم كيله ورفعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ كُلُواْ ﴾ أمر إباحة كما نص عليه غير واحد ﴿ مِن ثَمَرِهِ ﴾ الكلام في مرجع الضمير على طرز ما تقدم آنفاً ﴿ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ وإن لم ينضج وينيع بعد ففائدة التقييد إباحة الأكل قبل الإدراك ، وقيل : فائدته رخصة المالك في الأكل منه قبل أداء حق الله تعالى وهو اختيار الجبائي وغيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

والثَمَر : بفتح الثّاء والميم وبضمّهما وقرىء بهما كما تقدّم بيانه في نظيرتها .

والأمر للإباحة بقرينة أن الأكل من حقّ الإنسان الّذي لا يجب عليه أن يفعله ، فالقرينة ظاهرة .

والمقصود الردّ على الّذين حجّروا على أنفسِهم بعض الحرث .

و﴿ إذا ﴾ مفيدة للتّوقيت لأنها ظرف ، أي : حين إثماره ، والمقصود من التّقييد بهذا الظّرف إباحة الأكل منه عند ظهوره وقبل حصاده تمهيداً لقوله : ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ أي : كلوا منه قبل أداء حقّه .

وهذه رخصة ومنّة ، لأنّ العزيمة أن لا يأكلوا إلاّ بعد إعطاء حقّه كيلا يستأثروا بشيء منه على أصحاب الحقّ ، إلاّ أنّ الله رخّص للنّاس في الأكل توسعة عليهم أن يأكلوا منه أخضر قبل يبسه لأنَّهم يستطيبونه كذلك ، ولذلك عقّبه بقوله : ﴿ ولا تسرفوا ﴾ كما سيأتي .

وإفراد الضّميرين في قوله : ﴿ من ثمره إذا أثمر ﴾ على اعتبار تأويل المعاد بالمذكور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

*(21/254)*

قوله تعالى ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾

ففيه أبحاث :

البحث الأول : قرأ ابن عامر وأبو عمرو وعاصم ﴿ حَصَادِهِ ﴾ بفتح الحاء والباقون بكسر الحاء قال الواحدي : قال جميع أهل اللغة يقال : حصاد وحصاد ، وجداد وجداد ، وقطاف وقطاف ، وجذاذ وجذاذ ، وقال سيبويه جاؤا بالمصادر حين أرادوا انتهاء الزمان على مثال فعال ، وربما قالوا فيه فعال .

البحث الثاني : في تفسير قوله : ﴿ وآتوا حقه ﴾ ثلاثة أقوال .

القول الأول : قال ابن عباس في رواية عطاء يريد به العشر فيما سقت السماء ، ونصف العشر فيما سقي بالدواليب ، وهو قول سعيد بن المسيب والحسن وطاوس والضحاك .

فإن قالوا : كيف يؤدي الزكاة يوم الحصاد والحب في السنبل ؟ وأيضاً هذه السورة مكية ، وإيجاب الزكاة مدني .

قلنا : لما تعذر إجراء قوله : ﴿ وآتوا حقه ﴾ على ظاهره بالدليل الذي ذكرتم لا جرم حلمناه على تعلق حق الزكاة به في ذلك الوقت ، والمعنى : اعزموا على إيتاء الحق يوم

الحصاد ولا تؤخروه عن أول وقت يمكن فيه الإيتاء .

والجواب عن السؤال الثاني : لا نسلم أن الزكاة ما كانت واجبة في مكة ، بل لا نزاع أن الآية المدنية وردت بإيجابها ، إلا أن ذلك لا يمنع أنها كانت واجبة بمكة .

وقيل أيضاً : هذه الآية مدنية .

والقول الثاني : أن هذا حق في المال سوى الزكاة .

وقال مجاهد : إذا حصدت فحضرت المساكين فاطرح لهم منه ، وإذا درسته وذريته فاطرح لهم منه ، وإذا كربلته فاطرح لهم منه ، وإذا عرفت كيله فاعزل زكاته .

والقول الثالث : أن هذا كان قبل وجوب الزكاة ، فلما فرضت الزكاة نسخ هذا ، وهذا قول سعيد بن جبير ، والأصح هو القول الأول ، والدليل عليه أن قوله تعالى : ﴿ وآتوا حقه ﴾ إنما يحسن ذكره لو كان ذلك الحق معلوماً قبل ورود هذه الآية لئلا تبقى هذه الآية مجملة وقد قال عليه الصلاة والسلام : " ليس في المال حق سوى الزكاة " فوجب أن يكون المراد بهذا الحق حق الزكاة .

*(22/254)*

البحث الثالث : قوله تعالى : ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ بعد ذكر الأنواع الخمسة ، وهو العنب والنخل ، والزيتون ، والرمان ؛ يدل عى وجوب الزكاة في الكل ، وهذا يقتضي وجوب الزكاة في الثمار ، كما كان يقوله أبو حنيفة رحمه الله .

فإن قالوا : لفظ الحصاد مخصوص بالزرع فنقول : لفظ الحصد في أصل اللغة غير مخصوص بالزرع ، والدليل عليه ، أن الحصد في اللغة عبارة عن القطع ، وذلك يتناول الكل وأيضاً الضمير في قوله حصاده يجب عوده إلى أقرب المذكورات وذلك هو الزيتون والرمان ، فوجب أن يكون الضمير عائداً إليه .

البحث الرابع : قال أبو حنيفة رحمه الله : العشر واجب في القليل والكثير .

وقال الأكثرون إنه لا يجب إلا إذا بلغ خمسة أوسق .

واحتج أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية ، فقال : قوله : ﴿ وآتو حقه يوم حصاده ﴾ يقتضي ثبوت حق في القليل والكثير ، فإذا كان ذلك الحق هو الزكاة وجب القول بوجوب الزكاة في القليل والكثير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 174 . 175 ﴾

*(23/254)*

وقال السمرقندى :

قرأ أبو عمرو وعاصم وابن عامر ﴿ حَصَادِهِ ﴾ بنصب الحاء .

وروى الحكم عن مقسم عن ابن عباس قال : ﴿ وَهُوَ الذى أَنشَأَ جنات ﴾ قال : العُشْر ونصف العشر .

وروى سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : ﴿ وَهُوَ الذى أَنشَأَ جنات ﴾ قال : عند الزرع أي يعطي القبض وهو بأطراف الأصابع ، ويعطي عند الصرام القبض ، ويدعهم يتتبعون آثار الصرام .

وعن الربيع بن أنس ﴿ وَهُوَ الذى أَنشَأَ جنات ﴾ قال : لقاط السنبل .

وقال الحسن : نسختها آية الزكاة .

وقال إبراهيم : نسختها العشر ونصف العشر : وقال الضحاك : نسخت آية الزكاة كل صدقة في القرآن وهكذا قال عكرمة .

وقال سفيان .

سألت السدي عن قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى أَنشَأَ جنات ﴾ قال : هذه السورة مكية نسختها العشر ونصف العشر قلت عمن ؟ قال عن العلماء .

قال الفقيه الذي قال إنه صار منسوخاً يعني : أداؤه يوم الحصاد بغير تقدير صار منسوخاً ولكن أصل الوجوب لم يصر منسوخاً .

وبيّن النبي صلى الله عليه وسلم التقدير وهو العشر أو نصف العشر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ قرأ أهل مكّة والمدينة والكوفة حِصاده بكسر الحاء والباقون بالفتح ، وهما واحدة كالجَداد والجِداد [ والصَرام والصِرام ] واختلف العلماء في حكم هذه الآية ، فقال ابن عباس وطاووس والحسن وجابر بن زيد ومحمد ابن الحنفية وسعيد بن المسيب والضحاك وابن زيد : [ هي الزكاة ] المفروضة العُشْر ونصف العشر .

وقال عليّ بن الحسين وعطاء وحمّاد والحكم : هو حق في المال سوى الزكاة .

قال مجاهد : إذا حصدت فحضرك المساكين فاطرح لهم من السنبل ، وإذا جذذت فألف لهم من الشماريخ ، وإذا درسته ودسته وذرّيته فاطرح لهم منه ، وإذا كدسته ونقيته فاطرح لهم منه ، وإذا عرفت كيله فاعزل زكاته .

(24/254)

---

وقال إبراهيم : هو الضغث ، قال الربيع : لقاط السنبل . قال مجاهد : كانوا يعلّقون العذق عند الصرام فيأكل منه الضيف [ ومن مرَّ به ] .

قال زيد بن الأصم : كان أهل [ الجاهليّة ] إذا صرموا يجيئون بالعذق فيُعلّقونه في جانب المسجد فيجيء المسكين فيضربه بعصاه فيسقط منه ويأخذه .

وقال سعيد بن جبير وعطيّة : كان هذا قبل الزكاة فلمّا فرض الزكاة نسخ هذا .

وقال سفيان والسدي : سألت عن هذه الآية فقال : نسخها العشر ونصف العشر ، قلت : ممّن ؟ فقال : من العلماء مقسّم عن ابن عباس : نسخت الزكاة كلّ [ صدقة ] في القرآن .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ فقالت طائفة من أهل العلم : هي في الزكاة المفروضة منهم ابن عباس وأنس بن مالك والحسن بن أبي الحسن وطاوس وجابر بن زيد وسعيد بن المسيب وقتادة ومحمد بن الحنفية والضحاك وزيد بن أسلم وابنه ، وقاله مالك بن أنس .

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : وهذا قول معترض بأن السورة مكية وهذه الآية على قول الجمهور غير مستثناة ، وحكى الزجّاج أن هذه الآية قيل فيها إنها نزلت بالمدينة ، ومعترض أيضاً بأنه لا زكاة فيما ذكر من الرمان وجميع ما هو في معناه ، وقال ابن الحنفية أيضاً وعطاء ومجاهد وغيرهم من أهل العلم : بل قوله ﴿ وآتوا حقه ﴾ ندب إلى إعطاء حقوق من المال غير الزكاة ، والسنة أن يعطي الرجل من زرعه عند الحصاد وعند الذرو وعند تكديسه في البيدر ، فإذا صفا وكال أخرج من ذلك الزكاة ، وقال الربيع بن أنس حقه

وإباحة لقط السنبل ، وقالت طائفة كان هذا حكم صدقات المسلمين حتى نزلت الزكاة المفروضة فنسختها .

وروي هذا عن ابن عباس وابن الحنفية وإبراهيم والحسن ، وقال السدي في هذه السورة مكية نسختها الزكاة فقال له سفيان عمن قال عن العلماء .

(25/254)

---

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : والنسخ غير مترتب في هذه الآية ، لأن هذه الآية وآية الزكاة لا تتعارض بل تنبني هذه على الندب وتلك على الفرض ، وقرأ ابن كثير ونافع وحمزة والكسائي " حِصاده " وقرأ عاصم وأبو عمرو وابن عامر " حَصاده " بفتح الحاء وهما لغتان في المصدر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

(26/254)

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَءَاتُواْ حَقَّهُ ﴾ الذي أوجبه الله تعالى فيه ﴿ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ وهو على ما في رواية

عطاء عن ابن عباس العشر ونصف العشر ، وإليه ذهب الحسن وسعيد بن المسيب وقتادة وطاوس وغيرهم ، والظرف قيد لما دل عليه الأمر بهيئته من الوجوب لا لما دل عليه بمادته من الحدث إذ ليس الأداء وقت الحصاد والحب في سنبله كما يفهم من الظاهر بل بعد التنقية والتصفية .

وادعى علي بن عيسى أن الظرف متعلق بالحق فلا يحتاج إلى ما ذكر من التأويل .

وفي رواية أخرى عن الحبر أنه ما كان يتصدق به يوم الحصاد بطريق الوجوب من غير تعيين المقدار ثم نسخ بالزكاة ، وإلى ذلك ذهب سعيد بن جبير والربيع بن أنس وغيرهما ، قيل : ولا يمكن أن يراد به الزكاة المفروضة لأنها فرضت بالمدينة والسورة مكية ، وأجاب الإمام عن ذلك بأنا "لا نسلم أن الزكاة ما كانت واجبة في مكة وكون آيتها مدنية لا يدل على ذلك ، على أنه قد قيل : إن هذه الآية مدنية أيضاً" ، وعن الشعبي أن هذا حق في المال سوى الزكاة ، وأخرج ابن منصور وابن المنذر ، وغيرهما عن مجاهد أنه قال في الآية إذا حصدت فحضرك المساكين فاطرح لهم من السنبل فإذا دسته فحضرك المساكين فاطرح لهم فإذا ذريته وجمعته وعرفت كيله فاعزل زكاته وقرأ ابن كثير ونافع وحمزة والكسائي ﴿ حَصَادِهِ ﴾ بكسر الحاء وهي لغة فيه ، وعدل عن حصده وهو المصدر المشهور لحصد إليه لدلالته على حصد خاص وهو حصد الزرع إذا انتهى وجاء زمانه كما صرح به سيبويه وأشار إليه الراغب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

والأمر في قوله : ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ خطاب خاصّ بالمؤمنين كما تقدم .

وهذا الأمر ظاهر في الوجوب بقرينة تسمية المأمور به حقّاً .

وأضيف الحقّ إلى ضمير المذكور لأدنى ملابسة ، أي الحقّ الكائن فيه .

وقد أُجمل الحقّ اعتماداً على ما يعرفونه ، وهو : حقّ الفقير ، والقربى ، والضّعفاء ، والجيرة .

فقد كان العرب ، إذا جَذّوا ثمارهم ، أعطوا منها من يحضر من المساكين والقرابة .

وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ فانطلقوا وهم يتخافتون أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ﴾ [ القلم : 23 ، 24 ] .

*(27/254)*

---

فلمّا جاء الإسلام أوجب على المسلمين هذا الحقّ وسمّاه حقاً كما في قوله تعالى : ﴿ والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ﴾ [ المعارج : 24 ، 25 ] ، وسمّاه الله زكاة في آيات كثيرة ولكنّه أجمل مقداره وأجمل الأنواعَ الّتي فيها الحقّ ووكلهم في ذلك إلى حرصهم على الخير ، وكان هذا قبل شرع نصُبُها ومقاديرها .

ثمّ شرعت الزّكاة وبيّنت السنّة نصبها ومقاديرها .

والحِصاد بكسر الحاء وبفتحها قطع الثّمر والحبّ من أصوله ، وهو مصدر على وزنِ الفِعال أو الفَعال .

قال سيبويه "جاءوا بالمصادر حين أرادوا انتهاء الزّمان على مثال فِعال وذلك الصِّرام والجِزاز والجِدَاد والقِطاع والحِصاد ، وربَّما دخلتِ اللّغة في بعض هذا (أي اختلفت اللّغاتُ فقال بعض القبائل حَصاد بفتح الحاء وقال بعضهم حصاد بكسر الحاء ) فكان فيه فعال وفَعال فإذا أرادوا الفعل على فَعَلْت قالوا حَصَدته حَصْداً وقَطَعْته قطعاً إنَّما تريد العمل لا انتهاء الغاية" .

وقرأه نافع ، وابن كثير ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو جعفر ، وخلف بكسر الحاء .

وقرأ أبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر ، ويعقوب بفتح الحاء .

وقد فرضت الزّكاة في ابتداء الإسلام مع فرض الصّلاة ، أو بعده بقليل ، لأنّ افتراضها ضروري لإقامة أود الفقراء من المسلمين وهم كثيرون في صدر الإسلام ، لأنّ الّذين أسلموا قد نبذهم أهلوهم ومواليهم ، وجحدوا حقوقهم ، واستباحوا أموالهم ، فكان من الضّروري أن يسدّ أهل الجدة والقوّة من المسلمين خَلَّتهم .

وقد جاء ذكر الزّكاة في آيات كثيرة ممّا نزل بمكّة مثل سورة المزمّل وسورة البيّنة وهي من أوائل سور القرآن ، فالزّكاة قرينة الصّلاة .

وقول بعض المفسّرين : الزّكاة فرضت بالمدينة ، يحمل على ضبط مقاديرها بآية ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ [ التوبة : 103 ] وهي مدنيَّة ، ثمّ تطرّقوا فمنعوا أن يكون المراد بالحقّ هنا الزّكاة ، لأنّ هذه السّورة مكّيّة بالاتّفاق ، وإنَّما تلك الآية مؤكّدة للوجوب بعد الحلول بالمدينة ، ولأنّ المراد منها أخذها من المنافقين أيضاً ، وإنَّما ضبطت الزّكاة .

ببيان الأنواع المزكاة ومقدار النُّصب والمُخْرَج منه ، بالمدينة ، فلا ينافي ذلك أن أصل وجوبها في مكّة ، وقد حملها مالك على الزّكاة المعيّنة المضبوطة في رواية ابن القاسم وابن وهب عنه وهو قول ابن عبّاس ، وأنس بن مالك ، وسعيد بن المسيّب ، وجمع من التّابعين كثير .

ولعلّهم يرون الزّكاة فرضت ابتداء بتعيين النّصب والمقادير ، وحَملها ابنُ عمر ، وابنُ الحنفية ، وعليّ بن الحسين ، وعطاء ، وحمَّاد ، وابن جبير ، ومجاهد ، على غير الزّكاة وجعلوا الأمر للنّدب ، وحملها السُدّي ، والحسن ، وعطيّة العوفي ، والنّخعي ، وسعيد بن جبير ، في رواية عنه ، على صدقة واجبة ثمّ نسختها الزّكاة .

وإنَّما أوجب الله الحقّ في الثّمار والحبّ يوم الحصاد : لأنّ الحصاد إنَّما يراد للادّخار وإنَّما يَدّخِر المرء ما يريده للقوت ، فالادّخار هو مظنة الغني الموجبة لإعطاء الزّكاة ، والحصاد مبدأ تلك المظنة ، فالّذي ليست له إلاّ شجرة أو شجرتان فإنَّما يأكل ثُمرها مخضوراً قبل أن ييبس ، فلذلك رخَّصت الشّريعة لصاحب الثّمرة أن يأكل من الثّمر إذا أثمر ، ولم توجب عليه إعطاء حقّ الفقراء إلاّ عند الحصاد .

ثمّ إنّ حصاد الثّمار ، وهو جذاذها ، هو قطعها لادّخارها ، وأمَّا حصاد الزّرع فهو قطع السّنبل من جذور الزّرع ثمّ يُفرك الحبّ الّذي في السّنبل ليدّخر ، فاعتبر ذلك الفرك بقيّة للحصاد .

(29/254)

---

ويظهر من هذا أنّ الحقّ إنَّما وجب فيما يحصد من المذكورات مثل الزّبيب والتَّمر والزّرع والزّيتون ، من زيته أو من حبّه ، بخلاف الرمّان والفواكه .

وعلى القول المختار : فهذه الآية غير منسوخة ، ولكنّها مخصّصة ومبيَّنة بآيات أخرى وبما يبيّنه النَّبيء صلى الله عليه وسلم فلا يُتعلّق بإطلاقها ، وعن السدّي أنَّها نسخت بآية الزّكاة يعني : ﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾ [ التوبة : 103 ] وقد كان المتقدّمون يسمّون

التّخصيص نسخاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المسرفين ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن لأهل اللغة في تفسير الإسراف قولين : الأول : قال ابن الأعرابي : السرف تجاوز ما حد لك .

الثاني : قال شمر : سرف المال ، ما ذهب منه من غير منفعة .

إذا عرفت هذا فنقول : للمفسرين فيه أقوال : الأول : أن الإنسان إذا أعطى كل ماله ولم يوصل إلى عياله شيئاً فقد أسرف ، لأنه جاء في الخبر ، " ابدأ بنفسك ثم بمن تعول " وروي أن ثابت بن قيس بن شماس عمد إلى خمسمائة نخلة فجذها ، ثم قسمها في يوم واحد ولم يدخل منها إلى منزله شيئاً فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ أي ولا تعطوا كله .

والثاني : قال سعيد بن المسيب : ﴿ لا تُسْرِفُواْ ﴾ أي لا تمنعوا الصدقة ، وهذان القولان يشتركان في أن المراد من الإسراف مجاوزة الحد ، إلا أن الأول مجاوزة في الإعطاء ، والثاني : مجاوزة في المنع .

الثالث : قال مقاتل : معناه : لا تشركوا الأصنام في الحرث والأنعام ، وهذا أيضاً من باب

المجاوزة ، لأن من أشرك الأصنام في الحرث والأنعام ، فقد جاوز ما حد له .

الرابع : قال الزهري معناه : لا تنفقوا في معصية الله تعالى .

قال مجاهد : لو كان أبو قبيس ذهباً ، فأنفقه رجل في طاعة الله تعالى لم يكن مسرفاً .

ولو أنفق درهماً في معصية الله كان مسرفاً .

وهذا المعنى أراده حاتم الطائي حين قيل له : لا خير في السرف فقال لا سرف في الخير ،

وهذا على القول الثاني في معنى السرف ، فإن من أنفق في معصية الله ، فقد أنفق فيما لا نفع فيه .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المسرفين ﴾ والمقصود منه الزجر ، لأن كل مكلف لا يحبه الله تعالى فهو من أهل النار ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ اليهود والنصارى نَحْنُ أَبْنَاء الله وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فِلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ [ المائدة : 18 ] فدل هذا على أن كل من أحبه الله فليس هو من أهل النار وذلك يفيد من بعض الوجوه أن من لم يحبه الله فهو من أهل النار .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 175 . 176 ﴾

*(30/254)*

وقال السمرقندى :

﴿ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المسرفين ﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما : عمد ثابت بن قيس إلى خمسمائة نخلة فصرمها وقسمها في يوم واحد فأمسى ولم يكن لأهله شيء فنزل ﴿ وَلاَ تُسْرِفُواْ ﴾ يعني : ولا تتصدقوا بكله ، ودعوا لعيالكم شيئاً .

وروى عبد الرزاق عن ابن جريج قال : جد لمعاذ بن جبل نخله فلم يزل يتصدق حتى لم يبق منه شيء .

فنزل ﴿ وَلاَ تُسْرِفُواْ ﴾ ويقال : ﴿ وَلاَ تُسْرِفُواْ ﴾ يعني : ولا تنفقوا في المعصية .

قال مجاهد : لو أنفقت مثل أبي قبيس ذهباً في طاعة الله تعالى ما يكون إسرافاً ، ولو أنفقت درهماً في طاعة الشيطان كان إسرافاً .

وروي عن معاوية بن أبي سفيان أنه سئل عن قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُسْرِفُواْ ﴾ قال : الإسراف ما قصرت عن حق الله تعالى .

ويقال : ﴿ وَلاَ تُسْرِفُواْ ﴾ يقول : لا تشركوا الآلهة في الحرث والأنعام .

وقد ذكر قوله : ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ ﴾ بلفظ التذكير لأنه انصرف إلى المعنى يعني : من ثمر ما ذكرنا .

ثم قال : ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المسرفين ﴾ يعني : المشركين الذين يشركون الآلهة في الحرث

والأنعام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبي :

﴿ وَلاَ تسرفوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المسرفين ﴾ كان رجال [ ينفقونها بالحرام ] فيقول الرجل لا أمنع سائلا حتّى [ أمسي ] فعمد ثابت بن قيس بن شمّاس إلى خمس مائة نخلة فجذها ثمّ قسّمها في يوم واحد ولم يترك لأهله شيّئاً فنزلت ( ولا تُسرفوا ) أي لا تعطوا كلّه ، وقال السدي : لا تُسرفوا لا تعطوا أموالكم فتقعدوا فقراء ، وقال سعيد بن المسيّب : لا تمنعوا الصدقة ، وقال [ يمان بن رئاب ] : ولا تُبذّروا تبذيراً ، مجاهد وعطية العوفي : ولا تتركوا الأصنام في الحرث والأنعام .

*(31/254)*

---

وقال الزهري : [ فوقعوا في ] المعصية ، وقال مجاهد : لو كان أبو قبيس ذهباً لرجل فأنفقه في طاعة الله لم يكن مسرفاً ولو أنفق درهماً أو مدّاً في معصية الله [ كان ] مسرفاً ، وفي هذا المعنى قيل لحاتم الطائي : لا خير في السرف فقال : لا سرف في الخير .

وقال محمد بن كعب : السرف أن لا يعطي في حق ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الإسراف ما لا يقدر على ردّه إلى الصلاح ، والفساد ما يقدر على ردّه إلى الصلاح .

قال النضر بن شميل : الإسراف التبذير والإفراط ، والسرف الغفلة والجهل . قال الشاعر :

أعطوا هنيدة يحدوها ثمانية . . . ما في عطائهم منٌ ولا سرف

قال إياس بن معاوية : ما تجاوز أمر الله فهو سرف ، وروى ابن وهب عن ابن زيد قال : الخطاب [ للمساكين ] يقول : لا تأخذوا فوق حقّكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ ولا تسرفوا ﴾ الآية ، من قال إن الآية في الزكاة المفروضة جعل هذا النهي عن الإسراف إما للناس عن التمنع عن أدائها لأن ذلك إسراف من الفعل وقاله سعيد بن المسيب ، وإما للولاة عن التشطط على الناس والإذاية لهم فذلك إسراف من الفعل ، وقاله ابن زيد ، ومن جعل الآية على جهة الندب إلى حقوق غير الزكاة ترتب له النهي عن الإسراف في تلك الحقوق لما في ذلك من الإجحاف بالمال وإضاعته .

وروي أن الآية نزلت بسبب لأن ثابت بن قيس بن شماس حصد غلة له فقال والله لا جاءني اليوم أحد إلا أطعمته فأمسى وليس عنده ثمرة ، فنزلت هذه الآية ، وقال أبو العالية كانوا يعطون شيئاً عند الحصاد ثم تباروا وأسرفوا فنزلت الآية ، ومن قالها إنها منسوخة ترتب له النهي في وقت حكم الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ أي لا تتجاوزوا الحد فتبسطوا أيديكم كل البسط في الإعطاء .

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن جريج قال : نزلت في ثابت بن قيس بن شماس جذ نخلاً فقال : لا يأتين اليوم أحد إلا أطعمته فأطعم حتى أمسى وليست له ثمرة فأنزل الله تعالى ذلك ، وروي مثله عن أبي العالية .

وعن أبي مسلم أن المراد ولا تسرفوا في الأكل قبل الحصاد كيلا يؤدي إلى بخس حق الفقراء ، وأخرج عبد الرزاق عن ابن المسيب أن المعنى لا تمنعوا الصدقة فتعصوا ، وقال الزهري : المعنى لا تنفقوا في معصية الله تعالى .

ويروى نحوه عن مجاهد .

فقد أخرج ابن أبي حاتم عنه أنه قال : لو كان أبو قبيس ذهباً فأنفقه رجل في طاعة الله تعالى لم يكن مسرفاً ولو أنفق درهماً في معصية الله تعالى كان مسرفاً ، وقال مقاتل : المراد لا تشركوا الأصنام في الحرث والأنعام .

والخطاب على جميع هذه الأقوال لأرباب الأموال ، وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم أن الخطاب للولاة أي لا تأخذوا ما ليس لكم بحق وتضروا أرباب الأموال .

واختار الطبرسي أنه خطاب للجميع من أرباب الأموال والولاة أي لا يسرف رب المال في الإعطاء ولا الإمام في الأخذ والدفع .

(33/254)

---

﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المسرفين ﴾ بل يبغضهم من حيث إسرافهم ويعذبهم عليه إن شاء جل شأنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ ولا تسرفوا ﴾ عطف على ﴿ كلوا ﴾ ، أي : كلوا غيرَ مسرفين .

والإسراف والسّرف : تجاوز الكافي من إرضاء النّفس بالشّيء المشتهى .

وتقدّم عند قوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوها إسرافاً في سورة النّساء ( 6 ) .

وهذا إدماج للنّهي عن الإسراف ، وهو نهي إرشاد وإصلاح ، أي : لا تسرفوا في الأكل وهذا كقوله : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ [ الأعراف : 31 ] .

والإسراف إذا اعتاده المرء حمله على التّوسّع في تحصيل المرغوبات ، فيرتكب لذلك مَذمّات كثيرة ، وينتقل من ملذّة إلى ملذّة فلا يقف عند حدّ .

وقيل عطف على ﴿ وآتوا حقه ﴾ أي ولا تسرفوا فيما بقي بعد إتيان حقّه فتنفقوا أكثر

ممّا يجب ، وهذا لا يكون إلاّ في الإنفاق والأكل ونحوه ، فأمّا بذله في الخيرْ ونفع النّاس فليس من السّرف ، ولذلك يعدّ من خطأ التّفسير : تفسيرُها بالنّهي عن الإسراف في الصّدقة ، وبما ذكروه أنّ ثابتَ بن قيس صَرَم خمسمائة نخلة وفرّق ثمرها كلّه ولم يدخل منه شيئاً إلى منزله ، وأنّ الآية نزلت بسبب ذلك .

وقوله : ﴿ إنه لا يحب المسرفين ﴾ استئناف قصد به تعميم حكم النّهي عن الإسراف . وأكّد بـ ﴿ إنّ ﴾ لزيادة تقرير الحكم ، فبيّن أنّ الإسراف من الأعمال التي لا يحبّها ، فهو من الأخلاق الّتي يلزم الانتهاء عنها ، ونفي المحبّة مختلف المراتب ، فيعلم أنّ نفي المحبّة يشتدّ بمقدار قوّة الإسراف ، وهذا حكم مجمل وهو ظاهر في التّحريم ، وبيان هذا الإجمال هو في مطاوي أدلّة أخرى والإجمال مقصود .

ولغموض تأويل هذا النّهي وقوله : ﴿ إنَّه لا يحبّ المسرفين ﴾ تفرّقت آراء المفسّرين في تفسير معنى الإسراف المنهي عنه ، ليعينوه في إسراف حرام ، حتّى قال بعضهم : إنَّها منسوخة ، وقد علمت المنجى من ذلك كلّه .

*(34/254)*

فوجه عدم محبّة الله إيّاهم أنّ الإفراط في تناول اللّذّات والطّيّبات ، والإكثار من بذل المال في تحصيلها ، يفضي غالباً إلى استنزاف الأموال والشّره إلى الاستكثار منها ، فإذا ضاقت على المسرف أمواله تطلب تحصيل المال من وجوه فاسدة ، ليخمد بذلك نهمته إلى اللّذات ، فيكون ذلك دأبه ، فربَّما ضاق عليه ماله ، فشقّ عليه الإقلاع عن معتاده ، فعاش في كرب وضيق ، وربَّما تطلّب المال من وجوه غير مشروعة ، فوقع فيما يؤاخذ عليه في الدّنيا أو في الآخرة ، ثمّ إنّ ذلك قد يعقب عياله خصاصة وضنك معيشة .

وينشأ عن ذلك مَلام وتوبيخ وخصومات تفضي إلى ما لا يحمد في اختلال نظام العائلة .

فأمَّا كثرة الإنفاق في وجوه البرّ فإنَّها لا توقع في مثل هذا ، لأنّ المنفق لا يبلغ فيها مبلغ المنفق لمحبّة لَذّاته ، لأنّ داعي الحكمة قابل للتأمّل والتّحديد بخلاف داعي الشّهوة .

ولذلك قيل في الكلام الّذي يصحّ طَرْداً وعكساً : "لاَ خَيْرَ في السَّرف ، ولا سرف في الخير" وفي معنى هذه الآية قوله في سورة الأعراف ( 31 ) : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ [ الأعراف : 31 ] وقول النَّبيء صلى الله عليه وسلم " ويُكره لكم قيل وقال وكثرة السُّؤال وإضاعة المال " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

*(35/254)*

ومن فوائد الماوردى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله عز وجل : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ . . . ﴾ أما الجنات فهي البساتين يحفها الشجر ، وأما الروضة فهي الخضراء بالنبات ، وأما الزهرة فهي باختلاف الألوان الحسنة .

وفي قوله : ﴿ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ أربعة أقاويل :

أحدها : أنه تعريش الناس الكروم وغيرها ، بأن ترفع أغصانها ، قاله ابن عباس ، والسدي .

والثاني : أن تعريشها هو رفع حظارها وحيطانها .

والثالث : أنها المرتفعة عن الأرض لعلو شجرها ، فلا يقع ثمرها على الأرض ، لأن أصله الارتفاع ولذلك سُمِّيَ السرير عرشاً لارتفاعه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ خاوية على عروشها ﴾ [ الكهف : 42 ] و[ الحج : 45 ] أي على أعاليها وما ارتفع منها .

والرابع : أن المعروشات ما عرشه الناس ، وغير المعروشات ما نبت في البراري والجبال .

﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ وإنما قدم ذكر الأكل لأمرين :

أحدهما : تسهيلاً لإيتاء حقه .

والثاني : تغليباً لحقهم وافتتاحاً بنفعهم بأموالهم .

وفي قوله : ﴿ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾ ثلاثة أقاويل :

أحدها : الصدقة المفروضة فيه : العُشْر فيما سقي بغير آلة ، ونصف العشر فيما سقي بآلة ، وهذا قول الجمهور .

والثاني : أنها صدقة غير الزكاة ، مفروضة يوم الحصاد والصرام وهي إطعام من حضر وترك ما تساقط من الزرع والثمر ، قاله عطاء ومجاهد .

والثالث : أن هذا كان مفروضاً قبل الزكاة ثم نسخ بها ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وإبراهيم .

﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ فيه خمسة أقاويل :

أحدها : أن هذا الإسراف المنهي عنه هو أن يتجاوز رب المال إخراج القدر المفروض عليه إلى زيادة تجحف به ، قاله أبو العالية ، وابن جريج .

*(36/254)*

---

وقد روى سعد بن سنان عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " المُعْتَدِي فِي الصَّدَقَةِ كَمَانِعِهَا " وقيل : إنها نزلت في ثابت بن قيس بن شماس وقد تصدق بجميع ثمرته حتى لم يبق فيها ما يأكله .

والثاني : هو أن يأخذ السلطان منه فوق الواجب عليه ، قاله ابن زيد .

والثالث : هو أن يمنع رب المال من دفع القدر الواجب عليه ، قاله سعيد بن والمسيب .

والرابع : أن المراد بهذا السرف ما كانوا يشركون آلهتهم فيه من الحرث والأنعام ، قاله الكلبي .

والخامس : هو أن يسرف في الأكل منها قبل أن يؤدي زكاتها ، قاله ابن بحر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

*(37/254)*

---

ومن فوائد ابن الجوزى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ﴾

فيه أربعة أقوال .

أحدها : أن المعروشات : ما انبسط على وجه الأرض ، فانتشر مما يعرَّش ، كالكرم ، والقرع ، والبِطيخ ، وغير معروشات : ما قام على ساق كالنخل ، والزرع ، وسائر الأشجار .

والثاني : أن المعروشات : ما أنبته الناس ؛ وغير معروشات : ما خرج في البراري والجبال من الثمار ، رويا عن ابن عباس ،

والثالث : أن المعروشات ، وغير المعروشات : الكرم ، منه ما عرش ، ومنه ما لم يعرش ، قاله الضحاك .

والرابع : أن المعروشات الكروم التي قد عُرّش عنبها ، وغير المعروشات : سائر الشجر التي لا تُعَرّش ، قاله أبو عبيدة .

والأُكُلُ : الثمر .

﴿ والزيتون والرمان متشابهاً ﴾ قد سبق تفسيره .

قوله تعالى : ﴿ كلوا من ثمره إذا أثمر ﴾ هذا أمر إباحة ؛ وقيل : إنما قدَّم الأكل لينهى عن فعل الجاهلية في زروعهم من تحريم بعضها .

قوله تعالى : ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ قرأ ابن عامر ، وعاصم ، وأبو عمرو : بفتح الحاء ، وهي لغة أهل نجد ، وتميم .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وحمزة ، والكسائي : بكسرها وهي لغة أهل الحجاز ، ذكره الفراء .

وفي المراد بهذا الحق قولان .

أحدهما : أنه الزكاة ، روي عن أنس بن مالك ، وابن عباس ، وسعيد بن المسيب ،

والحسن ، وطاووس ، وجابر بن زيد ، وابن الحنفية ، وقتادة في آخرين ؛ فعلى هذا : الآية محكمة .

والثاني : أنه حق غير الزكاةُ فرض يوم الحصاد ، وهو إطعام من حضر ، وترك ما سقط من الزرع والثمر ، قاله عطاء ، ومجاهد .

وهل نُسخ ذلك ، أم لا ؟ إن قلنا : إنه أمر وجوب ، فهو منسوخ بالزكاة ؛ وإن قلنا : إنه أمر استحباب ، فهو باقي الحكم .

فإن قيل : هل يجب إيتاء الحق يوم الحصاد ؟ فالجواب : إن قلنا : إنه إطعام من حضر من الفقراء ، فذلك يكون يوم الحصاد ؛ وإن قلنا : إنه الزكاة ، فقد ذُكرت عنه ثلاثة أجوبة .

*(38/254)*

---

أحدها : أن الأمر بالإِيتاء محمول على النخيل ، لأن صدقتها تجب يوم الحصاد .

فأما الزروع : فالأمر بالإيتاء منها : محمول على وجوب الإخراج ؛ إلا أنه لا يمكن ذلك عند الحصاد ، فيؤخَّر إلى زمان التنقية ، ذكره بعض السلف .

والثاني : أن اليوم ظرف للحق ، لا للايتاء ، فكأنه قال : وآتوا حقه الذي وجب يوم حصاده بعد التنقية .

والثالث : أن فائدة ذكر الحصاد أن الحق لا يجب فيه بنفس خروجه وبلوغه ؛ إنما يجب يوم حصوله في يد صاحبه .

وقد كان يجوز أن يتوهم أن الحق يلزم بنفس نباته قبل قطعه ، فأفادت الآية أن الوجوب فيما يحصل في اليد ، دون ما يتلف ، ذكر الجوابين القاضي أبو يعلى .

وفي قوله : ﴿ ولا تسرفوا ﴾ ستة أقوال .

أحدها : أنه تجاوز المفروض في الزكاة إلى حد يُجحف به ، قاله أبو العالية ، وابن جريج .

وروى أبو صالح عن ابن عباس : أن ثابت بن قيس بن شماس صرم خمسمائة نخلة ، ثم قسمها في يوم واحد ، فأمسى ولم يترك لأهله شيئًا ، فكره الله تعالى له ذلك ، فنزلت : ﴿ ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ .

والثاني : أن الإسراف منع الصدقة الواجبة ، قاله سعيد بن المسيب .

والثالث : أنه الإِنفاق في المعصية ، قاله مجاهد ، والزهري .

والرابع : أنه إشراك الآلهة في الحرث والأنعام ، قاله عطية العوفي ، وابن السائب .

والخامس : أنه خطاب للسلطان لئلا يأخذ فوق الواجب من الصدقة ، قاله ابن زيد .

والسادس : أنه الإسراف في الأكل قبل أداء الزكاة ، قاله ابن بحر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد الخازن فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله عز وجل : ﴿ وهو الذي أنشأ جنات معروشات ﴾ يعني والله الذي ابتدع وخلق جنات يعني بساتين معروشات ﴿ وغير معروشات ﴾ يعني مسموكات مرتفعات وغير مرتفعات وأصل العرش في اللغة شيء مسقف يجعل عليه الكرم وجمعه عروش يقال عرشت الكرم أعرشه عرشاً وعرشته تعريشاً إذا جعلته كهيئة السقف واعترش العنب العريش إذا علاه وركبه .

*(39/254)*

---

واختلفوا في معنى قوله ﴿ معروشات وغير معروشات ﴾ فقال ابن عباس : المعروشات ما انبسط على الأرض وانتشر مما يعرش مثل الكرم والقرع والبطيخ ونحو ذلك وغير معروشات ما قام على ساق ونسق كالنخل والزرع وسائر الشجر .

وقال الضحاك : كلاهما في الكرم خاصة لأن منه ما يعرش ومنه ما لم يعرش بل يلقى على وجه الأرض منبسطاً ، وقيل : المعروشات ما غرسه الناس في البساتين واهتموا به فعرشوه من كرم وغيره وغير معروشات وهو ما أنبته الله في البراري والجبال من كرم أو شجر ﴿ والنخل والزرع ﴾ يعني وأنشأ النخل والزرع وهو جميع الحبوب التي تقتات وتدخر ﴿

مختلفاً أكله ﴾ يعني به اختلاف الطعوم في الثمار كالحلو والحامض والجيد والرديء ونحو ذلك ﴿ والزيتون والرمان متشابهاً ﴾ يعني في المنظر ﴿ وغير متشابه ﴾ يعني في المطعم كالرمانتين لونهما واحد وطعمهما مختلف ، وقيل : إن ورق الزيتون يشبه ورق الرمان ولكن ثمرتهما مختلفة في الجنس والطعم ﴿ كلوا من ثمره إذا أثمر ﴾ لما ذكر ما أنعم الله به على عباده من خلق هذه الجنات المحتوية على أنواع من الثمار ذكر ما هو المقصود الأصلي وهو الانتفاع بها ، فقال تعال : كلوا من ثمره إذا أثمر ، وهذا أمر إباحة .

وتمسك بهذا بعضهم فقال : الأمر قد يرد إلى غير الوجوب لأن هذه الصيغة مفيدة لدفع الحجر .

وقال بعضهم : المقصود منه إباحة الأكل قبل إخراج الحق لأنه تعالى لما أوجب الزكاة في الحبوب والثمار كان يحتمل أن يحرم على المالك أن يأكل منها شيئاً قبل إخراج الواجب فيها لمكان شركة الفقراء والمساكين معه فأباح الله أن يأكل قبل إخراجه لأن رعاية حق النفس مقدمة على رعاية حق الغير وقيل إنما قال تعالى كلوا من ثمره إذا أثمر بصيغة الأمر ليعلم أن المقصود من خلق هذه الأشياء التي أنعم الله بها على عباده وهو الأكل ﴿ وآتوا حقّه يوم حصاده ﴾ يعني يوم جذاذه وقطعه .

واختلفوا في هذا الحق المأمور بإخراجه ، فقال ابن عباس وأنس بن مالك : هو الزكاة المفروضة .

وهذا قول طاوس والحسن وجابر بن زيد وسعيد بن المسيب ومحمد بن الحنفية وقتادة .

قال قتادة في قوله ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ أي من الصدقة المفروضة ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم سن فيما سقت السماء والعين السائحة أو سقاه النيل والندى أو كان بعلاً العشر كاملاً وإن سقي بنضح أو سانية فنصف العشر وهذا فيما يكال من الثمرة أو الزرع وبلغ خمسة أوسق وذلك ثلمثائة صاع فقد وجب فيها حق الزكاة وفي رواية عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ قال هو العشر ونصف العشر .

فإن قلت على هذا التفسير إشكال وهو أن فرض الزكاة كان بالمدينة وهذه السورة مكية فكيف يمكن حمل قوه وآتوا يوم حصاده على الزكاة المفروضة ، قلت : ذكر ابن الجوزي في تفسيره عن ابن عباس وقتادة : إن هذه الآية نزلت بالمدينة فعلى هذا القول تكون الآية محكمة نزلت في حكم الزكاة وإن قلنا إن هذه الآية مكية تكون منسوخة بآية الزكاة ، لأنه قد روي عن ابن عباس أنه قال : نسخت آية الزكاة كل صدقة في القرآن وقيل في قوله تعالى : ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ أنه حق سوى الزكاة فرض يوم الحصاد وهو إطعام من حضر وترك ما سقط من الزرع والثمر ، وهذا قول علي بن الحسن وعطاء ومجاهد وحماد .

قال إبراهيم : هو الضغث ، وقال الربيع : هو لقاط السنبل ، وقل مجاهد : كانوا يجيئون بالعذق عند الصرام فيأكل منه من مر .

وقال يزيد بن الأصم : كان أهل المدينة إذا صرموا النخل يجيئون بالعذق فيعلقونه في جانب المسجد فيجيء المسكين فيضربه بعصاه فما سقط منه أكله فعلى هذا القول هل هذا الأمر أمر وجوب أو استحباب وندب فيه قولان :

أحدهما : أنه أمر وجوب فيكون منسوخاً بآية الزكاة .

وبقوله صلى الله عليه وسلم في حديث الأعرابي هل علي غيرها قال إلا أن تطوع .

*(41/254)*

---

والقول الثاني : إنه أمر ندب واستحباب فتكون الآية محكمة ، وقال سعيد بن جبير : كان هذا حقاً يؤمر بإخراجه في ابتداء الإسلام ثم صار منسوخاً بإيجاب العشر ، ولقول ابن عباس : نسخت آية الزكاة كل صدقة في القرآن واختار هذا القول الطبري وصححه واختار الواحدي والرازي القول الأول وصححاه .

فإن قلت : فعلى القول الأول كيف تؤدى الزكاة يوم الحصاد والحب في السنبل وإنما يجب الإخراج بعد التصفية والجفاف ، قلت : معناه قدروا أداء إخراج الواجب منه يوم الحصاد

فإنه قريب من زمان التنقية والجفاف ولأن النخل يجب إخراج الحق منه يوم حصاده وهو الصرام والزرع محمول عليه إلا أنه لا يمكن إخراج الحق منه إلا بعد التصفية .

وقيل معناه وآتوا حقه الذي وجب يوم حصاده بعد التصفية ، وقيل : إن فائدة ذكر الحصاد أن الحق لا يجب بنفس الزرع وبلوغه إنما يجب يوم حصاده وحصوله في يد مالكه لا فيما يتلف من الزرع قبل حصوله في يد مالكه .

قوله تعالى : ﴿ ولا تسرفوا ﴾ الإسراف تجاوز الحد فيما يفعله الإنسان وإن كان في الإنفاق أشهر وقيل السراف تجاوز ما حد لك وسرف المال إنفاقه في غير منفعة .

ولهذا قال سفيان : ما أنفقت في غير طاعة الله فهو سرف وإن كان قليلاً .

قال ابن عباس في رواية عنه : عمد ثابت بن قيس بن شماس فصرم خمسمائة نخلة فقسمها في يوم واحد ولم يترك لأهله شيء فأنزل الله هذه الآية ﴿ ولا تسرفوا ﴾ قال السدي : معناه لا تعطوا أموالكم وتقعدوا فقراء .

*(42/254)*

---

قال الزجاج فعلى هذا لو أعطى الإنسان كل ماله ولم يوصل إلى عياله شيئاً فقد أسرف لأنه قد صح في الحديث " أبدأ بمن تعول " وقال سعيد بن المسيب : معناه لا تمنعوا الصدقة

فتأويل الآية على هذا القول لا تجاوزوا الحد في البخل والإمساك حتى تمنعوا الواجب من الصدقة وهذان القولان يشتركان في أن المراد من الإسراف مجاوزة الحد إلا أن الأول في البذل والإعطاء والثاني في الإمساك والبخل ، وقال مقاتل : معناه لا تشركوا الأصنام في الحرث والأنعام وهذا القول أيضاً يرجع إلى مجاوزة الحد لأن من شرك الأصنام في الحرث والأنعام فقد جاوز ما حد له .

وقال الزهري : معناه لا تنفقوا في معصية الله عز وجل .

وقال مجاهد : الإسراف ما قصرت به في حق الله تعالى ولو كان أبو قبيس ذهباً فأنفقته في طاعة الله لم تكن مسرفاً ولو أنفقت درهماً أو مداً في معصية الله كنت مسرفاً .

وقال ابن زيد : إنما خوطب بهذا السلطان نهي أن يأخذ من رب المال فوق الذي ألزم الله ماله .

يقول الله عز وجل للسلاطين : لا تسرفوا أي لا تأخذوا بغير حق فكانت الآية بين السلطان وبين الناس .

وقوله تعالى : ﴿ إنه لا يحب المسرفين ﴾ فيه وعيد وزجر عن الإسراف في كل شيء لأن من لا يحبه الله فهو من أهل النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (141) ﴾

فيه ثلاث وعشرون مسألة :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ أَنْشَأَ ﴾ أي خلق .

﴿ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ أي بساتين ممسوكات مرفوعات .

﴿ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ غير مرفوعات .

قال ابن عباس : "مَعْرُوشَاتٍ" ما انبسط على الأرض مما يفْرِشُ مثل الكروم والزروع والبَطّيخ .

"وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ" ما قام على ساق مثل النخل وسائر الأشجار .

وقيل : المعروشات ما ارتفعت أشجارها .

وأصل التعريش الرفع .

وعن ابن عباس أيضاً : المعروشات ما أثبته ورفعه الناس .

وغير المعروشات ما خرج في البراري والجبال من الثمار .

يدل عليه قراءة عليّ رضي الله عنه "مَغْرُوسَاتٍ وَغَيْرَ مَغْرُوسَاتٍ" بالغين المعجمة والسين المهملة .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ والنخل والزرع ﴾ أفردهما بالذكر وهما داخلان في الجنات لما فيهما من الفضيلة ؛ على ما تقدم بيانه في "البقرة" عند قوله : ﴿ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلَّهِ وملائكته ﴾ [ البقرة : 98 ] الآية .

﴿ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ ﴾ يعني طعمه منه الجيّد والدُّون .

وسمّاه أكلاً لأنه يؤكل .

و"أُكُلُهُ" مرفوع بالابتداء .

و"مُخْتَلِفاً" نعته ؛ ولكنه لما تقدم عليه وولي منصوباً نُصب .

كما تقول : عندي طباخاً غلام .

قال :

الشَّرُّ مُنْتَشِرٌ يَلقاك عن عُرُض . . .

والصالحاتُ عليها مُغلقاً بابُ

وقيل : "مُخْتَلِفاً" نصب على الحال .

قال أبو إسحاق الزجاج : وهذه مسألة مُشْكِلة من النحو ؛ لأنه يقال : قد أنشأها ولم يختلف أكلها وهو ثمرها ؛ فالجواب أن الله سبحانه أنشأها بقوله : "خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ" فأعلم أنه أنشأها مختلفاً أكلها ؛ أي أنه أنشأها مقدّراً فيه الاختلاف ؛ وقد بيّن هذا سيبويه بقوله : مررت برجل معه صَقْرٌ صائداً به غداً ، على الحال ؛ كما تقول : لتدخلُنّ الدار آكلين شاربين ؛ أي مقدّرين ذلك .

جواب ثالث : أي لما أنشأه كان مختلفاً أكله ، على معنى أنه لو كان له أُكُلٌ لكان مختلفاً أكله . ولم يقل أكلهما ؛ لأنه اكتفى بإعادة الذكر على أحدهما ؛ كقوله : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفضوا إِلَيْهَا ﴾ [ الجمعة : 11 ] أي إليهما .

وقد تقدّم هذا المعنى .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ والزيتون والرمان ﴾ عطف عليه ﴿ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ نصب على الحال ، وقد تقدم القول فيه .

وفي هذه أدلة ثلاثة ؛ أحدها : ما تقدم من قيام الدليل على أن المتغيرات لا بدّ لها من مغيّر . الثاني : على المِنّة منه سبحانه علينا ؛ فلو شاء إذ خلقنا ألاّ يخلق لنا غذاء ، وإذا خلقه ألاّ يكون جميل المَنْظر طيّب الطعم ، وإذْ خلقه كذلك ألاّ يكون سهل الجَنْيِ ؛ فلم يكن عليه أن يفعل ذلك ابتداء ؛ لأنه لا يجب عليه شيء .

الثالث : على القدرة في أن يكون الماء الذي من شأنه الرّسوب يصعَد بقدرة الله الواحِد عَلاّمِ الغيوب من أسافل الشجرة إلى أعاليها ، حتى إذا انتهى إلى آخرها نشأ فيها أوراقٌ ليست من جنسها ، وثمرٌ خارج من صفته الجِرْم الوافر ، واللون الزاهر ، والجَنَى الجديد ، والطعم اللذيذ ؛ فأين الطبائع وأجناسها ، وأين الفلاسفة وأُناسُها ، هل في قدرة الطبيعة أن تتقن هذا الإتقان ، أو ترتّب هذا الترتيب العجيب ! كلا ! لا يتم ذلك في العقول إلا لِحَيّ عالمٍ قديرٍ مُريدٍ .

فسبحان من له في كل شيء آية ونهاية !

*(45/254)*

---

ووجه اتصال هذا بما قبله أن الكفار لما افتَرَوْا على الله الكذب وأشركوا معه وحَلّلوا وحرّموا دَلّهُم على وحدانيته بأنه خالق الأشياء ، وأنه جعل هذه الأشياء أرزاقاً لهم .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ فهذان بناءان جاءا بصيغة افعل ؛ أحدهما مباح كقوله : ﴿ فانتشروا فِي الأرض ﴾ [ الجمعة : 10 ] والثاني واجب .

وليس يمتنع في الشريعة اقتران المباح والواجب ، وبدأ بذكر نعمة الأكل قبل الأمر بإيتاء الحق

ليبيّن أن الابتداء بالنعمة كان من فضله قبل التكليف .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ اختلف الناس في تفسير هذا الحق ما هو ؛ فقال أنس بن مالك وابن عباس وطاوس والحسن وابن زيد وابن الحنفية والضّحاك وسعيد بن المسيب : هي الزكاة المفروضة ، العُشْر ونِصْفُ العُشْر .

ورواه ابن وَهْب وابن القاسم عن مالك في تفسير الآية ، وبه قال بعض أصحاب الشافعيّ .

وحكى الزجاج أن هذه الآيةَ قيل فيها أنها نزلت بالمدينة .

وقال عليّ بن الحسين وعطاء والحَكَم وحمّاد وسعيد بن جُبير ومجاهد : هو حقٌّ في المال سوى الزكاة ، أمر الله به نَدْباً .

وروي عن ابن عمر ومحمد بن الحنفية أيضاً ، ورواه أبو سعيد الخُدْرِيّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

قال مجاهد : إذا حَصَدت فحضرك المساكين فاطرح لهم من السُّنْبل ، وإذا جَذَذت فألق لهم من الشماريخ ، وإذا درسته ودسته وذَرَّيْته فاطرح لهم منه ، وإذا عرفت كيله فأخرج منه زكاته .

وقول ثالث هو منسوخ بالزكاة ؛ لأن هذه السورة مكية وآية الزكاة لم تنزل إلا بالمدينة : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ [ التوبة : 103 ] ، ﴿ وَأَقِيمُواْ الصلاة وَآتُواْ الزكاة ﴾ [ البقرة

: 43 ] .

روي عن ابن عباس وابن الحنفية والحسن وعطية العَوْفي والنَّخَعِيّ وسعيد بن جبير .

*(46/254)*

---

وقال سفيان : سألت السُّدّي عن هذه الآية فقال : نسخها العُشْر ونصف العُشر .

فقلت عمّن ؟ فقال عن العلماء .

السادسة : وقد تعلّق أبو حنيفة بهذه الآية وبعموم ما في قوله عليه السلام : " فيما سَقَتِ السماءُ العُشْر وفيما سُقِي بنَضْح أو دَالِية نصفُ العُشْر " في إيجاب الزكاة في كل ما تُنبت الأرض طعاماً كان أو غيره .

وقال أبو يوسف عنه : إلا الحطب والحشيش والقَضْب والتِّين والسعف وقصَب الذرِيرة وقصب السكر .

وأباه الجمهور ، معوّلين على أن المقصود من الحديث بيان ما يؤخذ منه العشر وما يؤخذ منه نصف العشر .

قال أبو عمر : لا اختلاف بين العلماء فيما علمت أن الزكاة واجبة في الحنطة والشعير والتمر والزبيب .

وقالت طائفة : لا زكاة في غيرها .

رُوي ذلك عن الحسن وابن سِيرين والشَّعْبيّ .

وقال به من الكوفيين ابن أبي لَيْلَى والثّورِيّ والحسن بن صالح وابن المبارك ويحيى بن آدم ، وإليه ذهب أبو عبيد .

ورُوي ذلك عن أبي موسى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهو مذهب أبي موسى ، فإنه كان لا يأخذ الزكاة إلا من الحنطة والشعير والتمر والزبيب ؛ ذكره وكيع عن طلحة بن يحيى عن أبي بُرْدة عن أبيه .

وقال مالك وأصحابه : الزكاة واجبة في كل مُقتات مدخر ؛ وبه قال الشافعيّ .

وقال الشافعيّ : إنما تجب الزكاة فيما يَيْبس ويُدَّخر ويقتات مأكولاً .

ولا شيء في الزيتون لأنه إدام .

وقال أبو ثور مثله .

وقال أحمد أقوالاً أظهرها أن الزكاة إنما تجب في كل ما قاله أبو حنيفة إذا كان يُوسق ؛ فأوجبها في اللَّوْز لأنه مكيل دون الجَوْز لأنه معدود .

واحتج بقوله عليه السلام : " ليس فيما دون خمسة أوْسُق من تمر أو حب صدقة " قال : فبيّن النبيّ صلى الله عليه وسلم أن محل الواجب هو الوَسْقُ ، وبيّن المقدار الذي يجب إخراج الحق منه .

وذهب النَّخَعِيّ إلى أن الزكاة واجبة في كل ما أخرجته الأرض ، حتى في عشر دَسَاتِج من بقل دستجةُ بقل .

(47/254)

---

وقد اختلف عنه في ذلك ، وهو قول عمر بن عبد العزيز فإنه كتب أن يؤخذ مما تنبت الأرض من قليل أو كثير العُشْر ؛ ذكره عبد الرازق عن مَعْمَر عن سِماك بن الفضل ، قال : كتب عمر . . .

؛ فذكره .

وهو قول حماد بن أبي سليمان وتلميذِه أبي حنيفة .

وإلى هذا مال ابن العربيّ في أحكامه فقال : وأما أبو حنيفة فجعل الآية مرآته فأبصر الحق ، وأخذ يَعْضُد مذهب الحنفِيّ ويقوّيه .

وقال في كتاب ( القبس بما عليه الإمام مالك بن أنس ) فقال : قال الله تعالى : ﴿ والزيتون والرمان مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ .

واختلف الناس في وجوب الزكاة في جميع ما تضمنته أو بعضه ، وقد بيّنا ذلك ، في ( الأحكام ) لُبَابُه ، أن الزكاة إنما تتعلق بالمقْتات كما بيّنا دون الخضراوات ؛ وقد كان

بالطائف الرمان والفِرسِك والأُتْرُجُّ فما اعترضه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ذكره ولا أحد من خلفائه .

قلت : هذا وإن لم يذكره في الأحكام هو الصحيح في المسألة ، وأن الخضراوات ليس فيها شيء .

وأما الآية فقد اختلف فيها ، هل هي محكمة أو منسوخة أو محمولة على النَّدْب .

ولا قاطع يبين أحد مَحَامِلها ، بل القاطع المعلوم ما ذكره ابن بكير في أحكامه : أن الكوفة افتتحت بعد موت النبيّ صلى الله عليه وسلم وبعد استقرار الأحكام في المدينة ، أفيجوز أن يتوهّم متوهمٌ أو من له أدنى بصيرة أن تكون شريعة مثل هذه عُطّلت فلم يُعمل بها في دار الهجرة ومُستقَر الوحي ولا في خلافة أبي بكر ، حتى عمِل بذلك الكوفيون ؟ .

إن هذه لمصيبة فيمن ظن هذا وقال به ! .

*(48/254)*

---

قلت : ومما يدلّ على هذا من معنى التنزيل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الرسول بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [ المائدة : 67 ] أتراه يكتم شيئاً أُمِر بتبليغه أو ببيانه ؟ حاشاه عن ذلك وقال تعالى : ﴿ اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي

﴿ [المائدة : 3 ] ومن كمال الدّين كونه لم يأخذ من الخضراوات شيئاً .

وقال جابر بن عبد الله فيما رواه الدّارَقُطْنِيّ : إن المقاثىء كانت تكون عندنا تُخرج عشرة آلاف فلا يكون فيها شيء .

وقال الزُّهْرِيّ والحسن : تُزكى أثمان الخضر إذا بيعت وبلغ الثمن مائتي درهم ؛ وقاله الأوزاعيّ في ثمن الفواكه .

ولا حجة في قولهما لما ذكرنا .

وقد روى الترمذيّ " عن معاذ أنه كتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله عن الخضراوات وهي البقول فقال : "ليس فيها شيء" " وقد رُوي هذا المعنى عن جابر وأنس وعليّ ومحمد بن عبد الله بن جحش وأبي موسى وعائشة .

ذكر أحاديثهم الدّارَقُطْنِيّ رحمه الله .

قال الترمذيّ : ليس يصح في هذا الباب عن النبي صلى الله عليه وسلم شيء .

واحتج بعض أصحاب أبي حنيفة بحديث صالح بن موسى عن منصور عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فيما أنبتت الأرض من الخضر زكاة " قال أبو عمر : وهذا حديث لم يروه من ثقات أصحاب منصور أحد هكذا ، وإنما هو من قول إبراهيم .

قلت : وإذا سقط الاستدلال من جهة السُّنّة لضعف أسانيدها فلم يبق إلا ما ذكرناه من

تخصيص عموم الآية ، وعموم قوله عليه السلام : " فيما سقت السماء العُشْر " بما ذكرنا .

وقال أبو يوسف ومحمد : ليس في شيء من الخضر زكاة إلا ما كانت له ثمرة باقية ، سوى الزعفران ونحوه مما يوزن ففيه الزكاة .

(49/254)

---

وكان محمد يعتبر في العُصْفر والكَتّان البزر ، فإذا بلغ بزرهما من القرطم والكتان خمسة أوسق كان العُصْفر والكتان تبعاً للبزر ، وأخذ منه العشر أو نصف العشر .

وأما القطن فليس فيه عنده دون خمسة أحمال شيء ؛ والحمل ثلثمائة مَنٍّ بالعراقيّ .

والوَرْس والزعفران ليس فيما دون خمسة أمْنَان منها شيء .

فإذا بلغ أحدهما خمسة أمنان كانت فيه الصدقة ، عُشْراً أو نصف العشر .

وقال أبو يوسف : وكذلك قصب السكر الذي يكون منه السكر ، ويكون في أرض العُشْر دون أرض الخرَاج ، فيه ما في الزعفران .

وأوجب عبد الملك بن الماجِشُون الزكاة في أصول الثمار دون البقول .

وهذا خلاف ما عليه مالك وأصحابه ، لا زكاة عندهم لا في اللَّوز ولا في الجَوْز ولا في الجلَّوْز وما كان مثلها ، وإن كان ذلك يدّخَر .

كما أنه لا زكاة عندهم في الإجّاص ولا في التفاح ولا في الكُمَّثْرَى ، ولا ما كان مثل ذلك كله مما لا ييبس ولا يُدّخر .

واختلفوا في التين ؛ والأشهر عند أهل المغرب ممن يذهب مذهب مالك أنه لا زكاة عندهم في التّين .

إلا عبد الملك بن حبيب فإنه كان يرى فيه الزكاة على مذهب مالك ، قياساً على التمر والزبيب .

وإلى هذا ذهب جماعة من أهل العلم البغداديين المالكيين ، إسماعيل بن إسحاق ومن اتبعه .

قال مالك في الموطّأ : السنّة التي لا اختلاف فيها عندنا ، والذي سمعته من أهل العلم ، أنه ليس في شيء من الفواكه كلها صدقة : الرمّان والفِرْسَك والتّين وما أشبه ذلك .

وما لم يشبهه إذا كان من الفواكه .

قال أبو عمر : فأدخل التّين في هذا الباب ، وأظنه ( والله أعلم ) لم يعلم بأنه يُيْبَس ويُدّخَر ويُقتات ، ولو علم ذلك ما أدخله في هذا الباب ؛ لأنه أشبه بالتمر والزبيب منه بالرمان .

وقد بلغني عن الأبهَرِيّ وجماعة من أصحابه أنهم كانوا يُفتون بالزكاة فيه ، ويرونه مذهب مالك على أصوله عندهم .

والتين مكيل يراعى فيه الخمسة الأوْسُق وما كان مثلها وَزْناً ، ويُحكم في التين عندهم بحكم التمر والزبيب المجتمع عليهما .

وقال الشافعيّ : لا زكاة في شيء من الثمار غير التمر والعنب ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ الصدقة منهما وكانا قوتاً بالحجاز يدّخر .

قال : وقد يدخر الجوز واللوز ولا زكاة فيهما ؛ لأنهما لم يكونا بالحجاز قوتاً فيما علمت ، وإنما كانا فاكهة .

ولا زكاة في الزيتون ؛ لقوله تعالى : ﴿ والزيتون والرمان ﴾ .

فقرنه مع الرمان ، ولا زكاة فيه .

وأيضاً فإن التين أنفع منه في القوت ولا زكاة فيه .

وللشافعيّ قول بزكاة الزيتون قاله بالعراق ، والأوّل قاله بمصر ؛ فاضطرب قول الشافعيّ في الزيتون ، ولم يختلف فيه قول مالك .

فدلّ على أن الآية محكمة عندهما غير منسوخة .

واتفقا جميعاً على أن لا زكاة في الرمّان ، وكان يلزمهما إيجاب الزكاة فيه .

قال أبو عمر : فإن كان الرمّان خرج باتفاق فقد بان بذلك المراد بأن الآية ليست على عمومها ، وكان الضمير عائداً على بعض المذكور دون بعض .

والله أعلم.

قلت: بهذا استدل من أوجب العشر في الخضراوات فإنه تعالى قال: ﴿ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ والمذكور قبله الزيتون والرمّان، والمذكور عقيب جملة ينصرف إلى الأخير بلا خلاف؛ قاله الكِيَا الطبريّ.

ورُوي عن ابن عباس أنه قال: ما لَقِحت رمّانة قط إلا بقطرة من ماء الجنة.

وروي عن عليّ كرّم الله وجهه أنه قال: إذا أكلتم الرمّانة فكلوها بشحمها فإنها دباغ المعدة.

وذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق عن ابن عباس قال: لا تكسروا الرمانة من رأسها فإن فيها دُودةً يعتري منها الْجُذام.

وسيأتي منافع زيت الزيتون في سورة "المؤمنون" إن شاء الله تعالى.

وممن قال بوجوب زكاة الزيتون الزُّهْرِي والأوزاعيّ والليث والثوريّ وأبو حنيفة وأصحابُه وأبو ثور.

قال الزهريّ والأوزاعيّ والليث: يُخْرَصُ زيتوناً ويؤخذ زيتاً صافياً.

*(51/254)*

وقال مالك : لا يخرص ، ولكن يؤخذ العُشر بعد أن يُعصر ويبلُغ كيله خمسة أوْسق .

وقال أبو حنيفة والثورِيّ : يؤخذ من حبه .

السابعة : قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ قرأ أبو عمرو وابن عامر وعاصم "حَصَادِهِ" بفتح الحاء ، والباقون بكسرها ، وهما لغتان مشهورتان ؛ ومثله الصِّرام والصَّرام والجَذاذ والجِذاذ والقَطَاف والقِطاف .

واختلف العلماء في وقت الوجوب على ثلاثة أقوال :

الأوّل : أنه وقت الجذاذ ؛ قاله محمد بن مَسْلمة ؛ لقوله تعالى : "يَوْم حَصَادِهِ" .

الثاني : يوم الطِّيب ؛ لأن ما قبل الطيب يكون عَلفاً لا قُوتاً ولا طعاماً ؛ فإذا طاب وحان الأكل الذي أنعم الله به وجب الحقّ الذي أمر الله به ، إذ بتمام النعمة يجب شكر النعمة ، ويكون الإيتاء وقت الحصاد لما قد وجب يوم الطِّيب .

الثالث : أنه يكون بعد تمام الخَرْص ؛ لأنه حينئذ يتحقق الواجب فيه من الزكاة فيكون شرطاً لوجوبها .

أصله مجيء الساعي في الغنم ؛ وبه قال المُغيرة .

والصحيح الأوّل لنص التنزيل .

والمشهور من المذهب الثاني ، وبه قال الشافعي .

وفائدة الخلاف إذا مات بعد الطِّيب زكّيت على ملكه ، أو قبل الخَرْص على ورثته .

وقال محمد بن مسلمة : إنما قدّم الخرص توسعةً على أرباب الثمار ، ولو قدّم رجل زكاته بعد الخَرْص وقبل الجذاذ لم يُجْزه ؛ لأنه أخرجها قبل وجوبها .

وقد اختلف العلماء في القول بالخرص وهي :

الثامنة : فكرِهه الثوريّ ولم يُجْزِه بحال ، وقال : الخرص غير مستعمل .

قال : وإنما على ربِّ الحائط أن يؤدّيَ عشر ما يصير في يده للمساكين إذا بلغ خمسة أوْسُق .

وروى الشيبانِيّ عن الشعبيّ أنه قال : الخرص اليومَ بدعةٌ .

والجمهور على خلاف هذا ، ثم اختلفوا فالمعظم على جوازه في النخل والعنب ؛ لحديث عَتَّاب بن أَسِيد : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه وأمره أن يَخْرُص العنب كما يَخْرُص النخل وتؤخذ زكاته زبيباً كما تؤخذ زكاة النخل تمراً .

رواه أبو داود .

(52/254)

---

وقال داود بن عليّ : الخرص للزكاة جائز في النخل ، وغير جائز في العنب ؛ ودفع حديث عتّاب بن أَسِيد لأنه منقطع ولا يتّصل من طريق صحيح ، قاله أبو محمد عبد الحق .

التاسعة : وصفة الخرص أن يُقَدّر ما على نخله رطباً ويقدّر ما ينقص لو يُتَمّر ، ثم يعتدّ بما

بقي بعد النقص ويضيف بعض ذلك إلى بعض حتى يكمل الحائط ، وكذلك في العنب في كل دالية .

العاشرة : ويكفي في الخرص الواحدُ كالحاكم .

فإذا كان في التمر زيادة على ما خرص لم يلزم ربَّ الحائط الإخراجُ عنه ، لأنه حكمٌ قد نفذ ؛ قاله عبد الوهاب .

وكذلك إذا نقص لم تنقص الزكاة .

قال الحسن : كان المسلمون يُخْرَص عليهم ثم يؤخذ منهم على ذلك الخرص .

الحادية عشرة : فإن استكثر ربّ الحائط الخرص خيّره الخارص في أن يعطيَه ما خَرَص وأخذ خرصه ؛ ذكره عبد الرزاق أخبرنا ابن جُريج عن أبي الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : خَرَص ابن رواحة أربعين ألف وَسْق ، وزعم أن اليهود لما خيّرهم أخذوا التمر وأعطوه عشرين ألف وَسْق .

قال ابن جريج فقلت لعطاء : فحقٌّ على الخارص إذا استكثر سَيِّدُ المال الخَرْص أن يخيّره كما خيّر ابنُ رواحة اليهودَ ؟ قال : أي لعمري ! وأيّ سُنّة خيرٌ من سنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الثانية عشرة : ولا يكون الخرص إلا بعد الطِّيب ؛ لحديث عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث ابن رواحة إلى اليهود فَيَخْرُص عليهم النخلَ حين تطيب أوّل

التمرة قبل أن يؤكل منها ، ثم يخيّر يهوداً يأخذونها بذلك الخرص أو يدفعونها إليه .

وإنما كان أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخرص لكي تحصى الزكاة قبل أن تؤكل الثمار وتُفَرّق .

أخرجه الدّارَقُطْنِيّ من حديث ابن جريج عن الزهريّ عن عروة عن عائشة .

قال : ورواه صالح بن أبي الأخضر عن الزهرِيّ عن ابن المسيّب عن أبي هريرة ، وأرسله مالك ومَعْمر وعقيل عن الزهريّ عن سعيد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

(53/254)

---

الثالثة عشرة : فإذا خَرص الخارص فحكمه أن يُسقط من خرصه مقداراً مَا ؛ لما رواه أبو داود والترمذيّ والبُسْتِيّ في صحيحه عن سهل بن أبي حَثْمة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يقول : " إذا خرصتم فخذوا ودَعُوا الثلث فإن لم تدَعوا الثلث فدعوا الرّبع " لفظ الترمذي .

قال أبو داود : الخارص يدع الثلث للخُرْفة .

وكذا قال يحيى القَطّان .

وقال أبو حاتم البُسْتِيّ : لهذا الخبر صفتان : أحدهما أن يترك الثلث أو الربع من العشر ،

والثاني أن يترك ذلك من نفس التمر قبل أن يُعشر ، إذا كان ذلك حائطاً كبيراً يحتمله .

الخُرْفة بضم الخاء : ما يُخْتَرَف من النخل حين يُدْرِك ثمره ، أي يُجْتَنَى .

يقال : التمر خرفةُ الصائم ؛ عن الجوهرِيّ والهَرويّ .

والمشهور من مذهب مالك أنه لا يَترك الخارصُ شيئاً في حين خَرصه من تمر النخل والعنب إلا خَرَصه .

وقد روى بعض المدنيين أنه يخفف في الخرص ويترك للعَرايا والصّلة ونحوها .

الرابعة عشرة : فإن لَحِقت الثمرة جائحةٌ بعد الخرص وقبل الجذاذ سقطت الزكاة عنه بإجماع من أهل العلم ، إلا أن يكون فيما بقي منه خمسة أوْسق فصاعداً .

الخامسة عشرة : ولا زكاة في أقل من خمسة أوْسق ، كذا جاء مبيَّناً عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وهو في الكتاب مُجْمَل ، قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أَنْفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرض ﴾ [ البقرة : 267 ] .

وقال تعالى : "وَآتُوا حَقَّهُ" .

ثم وقع البيان بالعُشر ونصف العُشر .

ثم لما كان المقدار الذي إذا بلغه المال أخذ منه الحق مُجملاً بيّنه أيضاً فقال : " ليس فيما دون خمسة أوْسق من تمر أو حب صدقة "

وهو ينفي الصدقة في الخضراوات ، إذ ليس مما يُوسق ؛ فمن حصل له خمسة أوْسق في نصيبه من تمر أو حب وجبت عليه الزكاة ، وكذلك من زبيب ؛ وهو المسمَّى بالنصاب عند العلماء .

(54/254)

---

يقال : وِسْق ووَسْق ( بكسر الواو وفتحها ) وهو ستون صاعاً ، والصاع أربعة أمداد ، والمد رطل وثلث بالبغداديّ ومبلغ الخمسة الأوْسق من الأمداد ألف مدّ ومائتا مدّ ، وهي بالوزن ألف رِطل وستمائة رِطل .

السادسة عشرة : ومن حصل له من تمر وزبيب معاً خمسةُ أوْسُق لم تلزمه الزكاة إجماعاً ؛ لأنهما صنفان مختلفان .

وكذلك أجمعوا على أنه لا يضاف التمر إلى البُر ولا البر إلى الزبيب ؛ ولا الإبل إلى البقر ، ولا البقر إلى الغنم .

ويضاف الضأن إلى المَعْز بإجماع .

واختلفوا في ضم البُرّ إلى الشعير والسُّلْت وهي :

السابعة عشرة : فأجازه مالك في هذه الثلاثة خاصّةً فقط ؛ لأنها في معنى الصِّنف الواحد

لتقاربها في المنفعة واجتماعها في المنبت والمحصد ، وافتراقها في الاسم لا يوجب افتراقها في الحكم كالجواميس والبقر ، والمعز والغنم .

وقال الشافعيّ وغيره : لا يجمع بينها ؛ لأنها أصناف مختلفة ، وصفاتها متباينة ، وأسماؤها متغايرة ، وطعمها مختلف ؛ وذلك يوجب افتراقها .

والله أعلم .

قال مالك : والقَطَانيّ كلها صِنف واحد ، يُضَمّ بعضها إلى بعض .

وقال الشافعيّ : لا تُضم حبة عُرفت باسم منفرد دون صاحبتها ، وهي خلافها مباينة في الخلقة والطعم إلى غيرها .

ويُضَمُّ كل صنف بعضه إلى بعض ، رَدِيئُهُ إلى جَيّده ؛ كالتمر وأنواعه ، والزبيب أسودِه وأحمره ، والحنطةِ وأنواعها من السمراء وغيرها .

وهو قول الثَّوْرِيّ وأبي حنيفة وصاحبيه أبي يوسف ومحمد وأبي ثور .

وقال اللّيث : تُضم الحبوب كلها : القُطنية وغيرها بعضها إلى بعض في الزكاة .

وكان أحمد بن حنبل يَجبُن عن ضم الذهب إلى الوَرِق ، وضم الحبوب بعضها إلى بعض ، ثم كان في آخر أمره يقول فيها بقول الشافعيّ .

الثامنة عشرة : قال مالك : وما استهلكه منه ربُّه بعد بُدُوِّ صلاحه أو بعد ما أفْرك حسِب

عليه ، وما أعطاه ربُّه منه في حصاده وجذاذه ، ومن الزيتون في التقاطه ، تَحَرّى ذلك وحُسب عليه .

(55/254)

---

وأكثر الفقهاء يخالفونه في ذلك ، ولا يوجبون الزكاة إلا فيما حصل في يده بعد الدَّرْس .

قال الليث في زكاة الحبوب : يُبدأ بها قبل النفقة ، وما أكل من فرِيك هو وأهله فلا يحسب عليه ، بمنزلة الرّطب الذي يترك لأهل الحائط يأكلونه فلا يُخْرَص عليهم .

وقال الشافعيّ : يترك الخارِصُ لربّ الحائط ما يأكله هو وأهله رطباً ، لا يَخْرصه عليهم .

وما أكله وهو رطب لم يُحسب عليه .

قال أبو عمر : احتج الشافعيّ ومن وافقه بقول الله تعالى : ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ .

واستدلوا على أنه لا يُحتسب بالمأكول قبل الحصاد بهذه الآية .

واحتجوا بقوله عليه السلام :

" إذا خرصتم فدعوا الثلث فإن لم تدعوا الثلث فدعوا الربع " وما أكلت الدواب والبقر منه عند الدّرس لم يُحسب منه شيء على صاحبه عند مالك وغيره .

التاسعة عشرة : وما بيع من الفول والحِمّص والجُلبان أخضر ؛ تحرّى مقدار ذلك يابساً وأخرجت زكاته حبًّا .

وكذا ما بيع من الثمر أخضر اعتبر وتُوُخّي وخرص يابساً وأخرجت زكاته على ذلك الخرص زبيباً وتمراً .

وقيل : يخرج من ثمنه .

الموفية عشرين : وأما ما لا يتتمّر من ثمر النخل ولا يتزبّب من العنب كعنب مصر ( وبلحها ) ، وكذلك زيتونها الذي لا يُعصر ، فقال مالك : تخرج زكاته من ثمنه ، لا يكلّف غير ذلك صاحبه ، ولا يراعَى فيه بلوغ ثمنه عشرين مثقالاً أو مائتي درهم ، وإنما ينظر إلى ما يرى أنه يبلغه خمسة أوسق فأكثر .

وقال الشافعيّ : يخرج عشره أو نصف عشره من وسطه تمراً إذا أكله أهله رطباً أو أطعموه .

الحادية والعشرون : روى أبو داود عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فيما سقت السماء والأنهار والعيون أو كان بَعْلاً العشر ، وفيما سُقي بالسواني أو النَّضْح نصف العشر وكذلك إن كان يشرب سَيْحاً فيه العشر " وهو الماء الجاري على وجه الأرض ؛ قاله ابن السِّكِّيت .

ولفظ السَّيْح مذكور في الحديث ، خرّجه النَّسائيّ .

فإن كان يشرب بالسّيح لكن ربّ الأرض لا يملك ماء وإنما يكتريه له فهو كالسماء ؛ على المشهور من المذهب .

ورأى أبو الحسن اللخميّ أنه كالنضح ؛ فلو سُقي مرّة بماء السماء ومَرّة بدالِية ؛ فقال مالك : يُنظر إلى ما تمّ به الزرع وحيي وكان أكثر ؛ فيتعلّق الحكم عليه .

هذه رواية ابن القاسم عنه .

ورَوى عنه ابن وهب : إذا سُقي نصف سنة بالعيون ثم انقطع فسُقي بقيّة السنة بالناضح فإنّ عليه نصف زكاته عشراً ، والنصف الآخر نصف العشر .

وقال مَرّة : زكاته بالذي تمت به حياته .

وقال الشافعيّ : يُزَكَّى كلُّ واحد منهما بحسابه .

مثاله أن يشرب شهرين بالنضح وأربعة بالسماء ؛ فيكون فيه ثلثا العشر لماء السماء وسدس العشر للنضح ! وهكذا ما زاد ونقص بحسابه .

وبهذا كان يفْتي بكّار بن قتيبة .

وقال أبو حنيفة وأبو يوسف : يُنظر إلى الأغلب فيزكّى ، ولا يلتفت إلى ما سوى ذلك .

وروي عن الشافعيّ .

قال الطحاوِيّ : قد اتفق الجميع على أنه لو سقاه بماء المطر يوماً أو يومين أنه لا اعتبار به ، ولا يجعل لذلك حصّة ؛ فدلّ على أن الاعتبار بالأغلب ، والله أعلم .

قلت : فهذه جملة من أحكام هذه الآية ، ولعلّ غيرنا يأتي بأكثَر منها على ما يفتح الله له .

وقد مضى في "البقرة" جملة من معنى هذه الآية ، والحمد لله .

الثانية والعشرون : وأمّا قوله صلى الله عليه وسلم : " ليس في حب ولا تمر صدقة " فخرّجه النَّسائيّ .

قال حمزة الكِنانيّ : لم يذكر في هذا الحديث "في حب" غير إسماعيل بن أُمَيّة ، وهو ثقة قرشِيّ من ولد سعيد بن العاص .

قال : وهذه السّنة لم يروها أحد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من أصحابه غير أبي سعيد الخُدْرِيّ .

قال أبو عمر : هو كما قال حمزة ، وهذه سنة جليلة تلقّاها الجميع بالقبول ، ولم يروها أحد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من وجه ثابت محفوظٍ غيرُ أبي سعيد .

*(57/254)*

وقد روى جابر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم مثل ذلك ، ولكنه غريب .

وقد وجدناه من حديث أبي هريرة بإسناد حسن .

الثالثة والعشرون : قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تسرفوا ﴾ الإسراف في اللغة الخطأ .

وقال أعرابي أراد قوماً : طلبتكم فَسَرِفْتكم ؛ أي أخطأت موضعكم .

وقال الشاعر :

وقال قائلهم والخيلُ تخبِطُهم . . .

أسرفتم فأجبنا أننا سَرَف

والإسراف في النفقة : التبذير .

ومُسرف لقب مسلم بن عُقْبَةَ المُرِّي صاحب وقعة الحَرَّة ؛ لأنه قد أسرف فيها .

قال عليّ بن عبد الله بن العباس :

هُمُ منعوا ذِمارِي يوم جاءت . . .

كتائبُ مُسْرِفٍ وبني اللَّكِيعهْ

والمعنى المقصود من الآية : لا تأخذوا الشيء بغير حقه ثم تضعوه في غير حقه ؛ قاله أصْبَغ بن الفرج .

ونحوه قول إياس بن معاوية : ما جاوزتَ به أمر الله فهو سَرَف وإسراف .

وقال ابن زيد : هو خطاب للوُلاة ، يقول : لا تأخذوا فوق حقكم وما لا يجب على الناس .

والمعنيان يحتملهما قوله عليه السلام : " المُعْتَدِي في الصدقة كمانِعها " وقال مجاهد : لو كان أبو قُبيس ذهباً لرجل فأنفقه في طاعة الله لم يكن مُسْرفاً ، ولو أنفق درهماً أو مُدّاً في معصية الله كان مسرفاً .

وفي هذا المعنى قيل لحاتم : لا خير في السّرف ؛ فقال : لا سَرَف في الخير .

قلت : وهذا ضعيف ؛ يردّه ما رَوى ابن عباس أن ثابت بن قَيس بن شَمّاس عَمَد إلى خمسمائة نخلة فجذّها ثم قسّمها في يوم واحد ولم يترك لأهله شيئاً ؛ فنزلت : "وَلاَ تُسْرِفُوا" أي لا تعطوا كلّه .

وروى عبد الرزاق عن ابن جريج قال : جَذّ معاذ بن جبل نخله فلم يزل يتصدّق حتى لم يبق منه شيء : فنزل "ولا تسرفوا" .

قال السدّي : "ولا تسرفوا" أي لا تعطوا أموالكم فتقعدوا فقراء .

ورُوي عن معاوية بن أبي سفيان أنه سئل عن قوله تعالى : "وَلاَ تُسْرِفُوا" قال : الإسراف ما قصّرتَ عن حق الله تعالى .

*(58/254)*

قلت : فعلى هذا تكون الصدقة بجميع المال ومنع إخراج حق المساكين داخلين في حكم السرف ، والعدل خلاف هذا ؛ فيتصدق ويُبقي كما قال عليه السلام : " خير الصدقة ما كان عن ظَهْرِ غِنًى " إلا أن يكون قوِيّ النفس غنيًّا بالله متوكّلاً عليه منفرداً لا عيال له ، فله أن يتصدّق بجميع ماله ، وكذلك يخرج الحق الواجب عليه من زكاة وما يَعُنّ في بعض الأحوال من الحقوق المتعيّنة في المال .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الإسراف ما لم يقدر على ردّه إلى الصلاح .

والسّرَف ما يقدر على ردّه إلى الصلاح .

وقال النّضْر بن شُميل : الإسراف التبذير والإفراط ، والسرف الغفلة والجهل .

قال جرير :

أعْطَوْا هُنيدةَ يحدُوها ثمانية . . .

ما في عطائِهمُ مَنٌّ ولا سَرَفُ

أي إغفال ، ويقال : خطأ .

ورجلٌ سَرِف الفؤاد ، أي مخطىء الفؤاد غافله .

قال طَرفة :

إنّ امرأ سَرِفَ الفُؤاد يرى . . .

عَسلاً بماء سحابة شَتْمِي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

من فوائد الإمام الجصاص فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾

قَالَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالسُّدِّيُّ : ﴿ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ مَا عَرَشَ النَّاسُ مِنْ الْكُرُومِ وَنَحْوِهَا ، وَهُوَ رَفْعُ بَعْضِ أَغْصَانِهَا عَلَى بَعْضٍ .

وَقِيلَ إنَّ تَعْرِيشَهُ أَنْ يُحْظَرَ عَلَيْهِ بِحَائِطٍ ، وَأَصْلُهُ الرَّفْعُ ، وَمِنْهُ : ﴿ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ أَيْ عَلَى أَعَالِيهَا وَمَا ارْتَفَعَ مِنْهَا ، وَالْعَرْشُ السَّرِيرُ لِارْتِفَاعِهِ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى الزَّرْعَ وَالنَّخْلَ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ ثُمَّ قَالَ : ﴿ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ وَهُوَ عَطْفٌ عَلَى جَمِيعِ الْمَذْكُورِ ، فَاقْتَضَى ذَلِكَ إيجَابَ الْحَقِّ فِي سَائِرِ الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ وَقَدْ اخْتُلِفَ فِي الْمُرَادِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ فَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَجَابِرِ بْنِ زَيْدٍ وَمُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ وَالْحَسَنِ وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ وَطَاوُسٍ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَقَتَادَةَ وَالضَّحَّاكِ : أَنَّهُ الْعُشْرُ وَنِصْفُ الْعُشْرِ .

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رِوَايَةٌ أُخْرَى وَمُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ وَالسُّدِّيِّ وَإِبْرَاهِيمَ : نَسَخَهَا الْعُشْرُ وَنِصْفُ الْعُشْرِ .

وَعَنْ الْحَسَنِ قَالَ : نَسَخَتْهَا الزَّكَاةُ .

وَقَالَ الضَّحَّاكُ : نَسَخَتْ الزَّكَاةُ كُلَّ صَدَقَةٍ فِي الْقُرْآنِ وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ وَمُجَاهِدٍ : أَنَّهَا مُحْكَمَةٌ وَأَنَّهُ حَقٌّ وَاجِبٌ عِنْدَ الصِّرَامِ غَيْرُ الزَّكَاةِ .

*(60/254)*

---

وَرُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أَنَّهُ نَهَى عَنْ جِدَادِ اللَّيْلِ وَعَنْ صِرَامِ اللَّيْلِ ، ﴾ قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ : هَذَا لِأَجْلِ الْمَسَاكِينِ كَيْ يَحْضُرُوا قَالَ مُجَاهِدٌ : إذَا حَصَدْت طَرَحْت لِلْمَسَاكِينِ مِنْهُ ، وَكَذَلِكَ إذَا نَقَّيْت وَإِذَا كَدَّسْت ، وَيُتْرَكُونَ يَتَّبِعُونَ آثَارَ الْحَصَّادِينَ ، وَإِذَا أَخَذْت فِي كَيْلِهِ حَثَوْت لَهُمْ مِنْهُ ، وَإِذَا عَلِمْت كَيْلَهُ عَزَلْت زَكَاتَهُ ، وَإِذَا أَخَذْت فِي جِدَادِ النَّخْلِ طَرَحْت لَهُمْ مِنْهُ ، وَكَذَلِكَ إذَا أَخَذْت فِي كَيْلِهِ ، وَإِذَا عَلِمْت كَيْلَهُ عَزَلْت زَكَاتَهُ وَمَا رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ وَإِبْرَاهِيمَ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ مَنْسُوخٌ بِالْعُشْرِ وَنِصْفِ الْعُشْرِ ، يُبَيِّنُ أَنَّ مَذْهَبَهُمْ تَجْوِيزُ نَسْخِ الْقُرْآنِ بِالسُّنَّةِ .

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِيمَا يَجِبُ فِيهِ الْعُشْرِ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : فِي الصِّنْفِ الْمُوجَبِ فِيهِ ، وَالْآخَرُ فِي مِقْدَارِهِ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَزُفَرُ : ﴿ فِي جَمِيعِ مَا تُخْرِجُهُ الْأَرْضُ الْعُشْرُ إِلَّا الْحَطَبَ وَالْقَصَبَ وَالْحَشِيشَ ﴾ .

وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ : ﴿ لَا شَيْءَ فِيمَا تُخْرِجُهُ الْأَرْضُ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ ثَمَرَةٌ بَاقِيَةٌ ﴾ .

وَقَالَ مَالِكٌ : ﴿ الْحُبُوبُ الَّتِي تَجِبُ فِيهَا الزَّكَاةُ الْحِنْطَةُ وَالشَّعِيرُ وَالسُّلْتُ وَالذُّرَةُ وَالدُّخْنُ وَالْأُرْزُ وَالْحِمَّصُ وَالْعَدَسُ وَالْجُلْبَانُ وَاللُّوبْيَاءُ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنْ الْحُبُوبِ وَفِي الزَّيْتُونِ ﴾ .

*(61/254)*

---

وَقَالَ ابْنُ أَبِي لَيْلَى وَالثَّوْرِيُّ : ﴿ لَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْ الزَّرْعِ زَكَاةٌ إِلَّا التَّمْرَ وَالزَّبِيبَ وَالْحِنْطَةَ وَالشَّعِيرَ ﴾ ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ بْنُ صَالِحٍ ، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : ﴿ إِنَّمَا تَجِبُ فِيمَا يَيْبَسُ وَيُقْتَاتُ وَيُدَّخَرُ مَأْكُولًا ، وَلَا شَيْءَ فِي الزَّيْتُونِ لِأَنَّهُ إِدَامٌ ﴾ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَعُمَرَ وَمُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ وَعَمْرِو بْنِ دِينَارٍ : أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْخُضَرِ صَدَقَةٌ .

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ كَانَ يَأْخُذُ مِنْ دَسَاتِجِ الْكُرَّاثِ الْعُشْرَ بِالْبَصْرَةِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ اخْتِلَافِ السَّلَفِ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ وَفِي بَقَاءِ

حُكْمِهِ أَوْ نَسْخِهِ ، وَالْكَلَامُ بَيْنَ السَّلَفِ فِي ذَلِكَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ : أَحَدُهَا : هَلْ الْمُرَادُ زَكَاةُ الزَّرْعِ وَالثِّمَارِ وَهُوَ الْعُشْرُ وَنِصْفُ الْعُشْرِ أَوْ حَقٌّ آخَرُ غَيْرُهُ ؟ وَهَلْ هُوَ مَنْسُوخٌ أَوْ غَيْرُ مَنْسُوخٍ ؟ فَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ مَنْسُوخٍ اتِّفَاقُ الْأُمَّةِ عَلَى وُجُوبِ الْحَقِّ فِي كَثِيرٍ مِنْ الْحُبُوبِ وَالثِّمَارِ وَهُوَ الْعُشْرُ وَنِصْفُ الْعُشْرِ ، وَمَتَى وَجَدْنَا حُكْمًا قَدْ اسْتَعْمَلَتْهُ الْأُمَّةُ وَلَفْظُ الْكِتَابِ يَنْتَظِمُهُ وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ عِبَارَةً عَنْهُ ، فَوَاجِبٌ أَنْ يُحْكَمَ أَنَّ الِاتِّفَاقَ إنَّمَا صَدَرَ

(62/254)

---

عَنْ الْكِتَابِ وَأَنَّ مَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ هُوَ الْحُكْمُ الْمُرَادُ بِالْآيَةِ ، وَغَيْرُ جَائِزٍ إثْبَاتُهُ حَقًّا غَيْرَهُ ثُمَّ إثْبَاتُ نَسْخِهِ بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ فِيمَا سَقَتْ السَّمَاءُ الْعُشْرُ ﴾ ؛ إذْ جَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْحَقُّ هُوَ الْعُشْرُ الَّذِي بَيَّنَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَكُونُ قَوْلُهُ : ﴿ فِيمَا سَقَتْ السَّمَاءُ الْعُشْرُ ﴾ بَيَانًا لِلْمُرَادِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ كَمَا أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ فِي مِائَتَيْ دِرْهَمٍ خَمْسَةُ دَرَاهِمَ ﴾ بَيَانٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنْ الْأَرْضِ ﴾ وَغَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ : ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ مَنْسُوخًا بِالْعُشْرِ وَنِصْفِ الْعُشْرِ ؛ لِأَنَّ النَّسْخَ إنَّمَا يَقَعُ بِمَا لَا يَصِحُّ اجْتِمَاعُهُمَا ، فَأَمَّا مَا يَصِحُّ اجْتِمَاعُهُمَا مَعًا فَغَيْرُ جَائِزٍ وُقُوعُ النَّسْخِ بِهِ ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ يَصِحُّ أَنْ

يَقُولَ : وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَهُوَ الْعُشْرُ ؟ فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ لَمْ يَجُزْ أَنْ يَكُونَ مَنْسُوخًا بِهِ وَأَمَّا مَنْ جَعَلَ هَذَا الْحَقَّ ثَابِتَ الْحُكْمِ غَيْرَ مَنْسُوخٍ وَزَعَمَ أَنَّهُ حَقٌّ آخَرُ غَيْرُ الْعُشْرِ يَجِبُ عِنْدَ الْحَصَادِ وَعِنْدَ الدِّيَاسِ وَعِنْدَ الْكَيْلِ ، فَإِنَّهُ لَا يَخْلُو قَوْلُهُ هَذَا مِنْ أَحَدِ مَعْنَيَيْنِ : إمَّا أَنْ يَكُونَ مُرَادُهُ عِنْدَهُ الْوُجُوبَ ، أَوْ النَّدْبَ ؛ فَإِنْ كَانَ نَدْبًا عِنْدَهُ لَمْ يَسُغْ لَهُ ذَلِكَ إلَّا بِإِقَامَةِ الدَّلَالَةِ عَلَيْهِ ، إذْ غَيْرُ جَائِزٍ صَرْفُ

(63/254)

---

الْأَمْرِ عَنْ الْإِيجَابِ إلَى النَّدْبِ إلَّا بِدَلَالَةٍ ، وَإِنَّ رَأْيَهُ وَاجِبًا ، فَلَوْ كَانَ كَمَا زَعَمَ لَوَجَبَ أَنْ يَرِدَ النَّقْلُ بِهِ مُتَوَاتِرًا لِعُمُومِ الْحَاجَةِ إلَيْهِ ، وَلَكَانَ لَا أَقَلَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ نَقْلُهُ فِي نَقْلِ وُجُوبِ الْعُشْرِ وَنِصْفِ الْعُشْرِ ، فَلَمَّا لَمْ يَعْرِفْ ذَلِكَ عَامَّةُ السَّلَفِ وَالْفُقَهَاءِ عَلِمْنَا أَنَّهُ غَيْرُ مُرَادٍ ، فَثَبَتَ أَنَّ هَذَا الْحَقَّ هُوَ الْعُشْرُ وَنِصْفُ الْعُشْرِ الَّذِي بَيَّنَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

(64/254)

---

فَإِنْ قِيلَ : الزَّكَاةُ لَا تُخْرَجُ يَوْمَ الْحَصَادِ وَإِنَّمَا تُخْرَجُ بَعْدَ التَّنْقِيَةِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ بِهِ الزَّكَاةَ قِيلَ لَهُ : الْحَصَادُ اسْمٌ لِلْقَطْعِ ، فَمَتَى قَطَعَهُ فَعَلَيْهِ إخْرَاجُ عُشْرِ مَا صَارَ فِي يَدِهِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَالْخُضَرُ كُلُّهَا إنَّمَا يَخْرُجُ الْحَقُّ مِنْهَا يَوْمَ الْحَصَادِ غَيْرَ مُنْتَظَرٍ بِهِ شَيْءٌ غَيْرُهُ وَقِيلَ : إنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ لَمْ يَجْعَلْ ﴿ الْيَوْمَ ﴾ ظَرْفًا لِلْإِيتَاءِ الْمَأْمُورِ بِهِ وَإِنَّمَا هُوَ ظَرْفٌ لِحَقِّهِ ، كَأَنَّهُ قَالَ : وَآتُوا الْحَقَّ الَّذِي وَجَبَ يَوْمَ حَصَادِهِ بَعْدَ التَّنْقِيَةِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَلَمَّا ثَبَتَ بِمَا ذَكَرْنَا أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ هُوَ الْعُشْرُ ، دَلَّ عَلَى وُجُوبِ الْعُشْرِ فِي جَمِيعِ مَا تُخْرِجُهُ الْأَرْضُ إلَّا مَا خَصَّهُ الدَّلِيلُ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ ذَكَرَ الزَّرْعَ بِلَفْظِ عُمُومٍ يَنْتَظِمُ لِسَائِرِ أَصْنَافِهِ ، وَذَكَرَ النَّخْلَ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ ثُمَّ عَقَّبَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ وَهُوَ عَائِدٌ إلَى جَمِيعِ الْمَذْكُورِ ، فَمَنْ ادَّعَى خُصُوصَ شَيْءٍ مِنْهُ لَمْ يَسْلَمْ لَهُ ذَلِكَ إلَّا بِدَلِيلٍ ، فَوَجَبَ بِذَلِكَ إيجَابُ الْحَقِّ فِي الْخُضَرِ وَغَيْرِهَا وَفِي الزَّيْتُونِ وَالرُّمَّانِ .

*(65/254)*

---

فَإِنْ قِيلَ : إنَّمَا أَوْجَبَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الْحَقَّ فِيمَا ذَكَرَ يَوْمَ حَصَادِهِ ، وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إلَّا بَعْدَ اسْتِحْكَامِهِ وَمَصِيرِهِ إلَى حَالٍ تَبْقَى ثَمَرَتُهُ ، فَأَمَّا مَا أُخِذَ مِنْهُ قَبْلَ بُلُوغِ وَقْتِ الْحَصَادِ مِنْ

الْفَوَاكِهِ الرَّطْبَةِ فَلَمْ يَتَنَاوَلْهُ اللَّفْظُ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ لَا يُحْصَدَانِ فَلَمْ يَدْخُلَا فِي عُمُومِ اللَّفْظِ قِيلَ لَهُ : الْحَصَادُ اسْمٌ لِلْقَطْعِ وَالِاسْتِيصَالِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

(66/254)

---

وَسَلَّمَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ : ﴿ تَرَوْنَ أَوْبَاشَ قُرَيْشٍ اُحْصُدُوهُمْ حَصْدًا ﴾ ، فَيَوْمَ حَصَادِهِ هُوَ يَوْمُ قَطْعِهِ ، فَذَلِكَ قَدْ يَكُونُ فِي الْخُضَرِ وَفِي كُلِّ مَا يُقْطَعُ مِنْ الثِّمَارِ عَنْ شَجَرَةٍ سَوَاءٌ كَانَ بَالِغًا أَوْ أَخْضَرَ رَطْبًا وَأَيْضًا قَدْ أَوْجَبَ الْآيَةُ الْعُشْرَ فِي ثَمَرِ النَّخْلِ عِنْدَ جَمِيعِ الْفُقَهَاءِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ يَوْمُ قَطْعِهِ لِشُمُولِ اسْمِ الْحَصَادِ لِقَطْعِ ثَمَرِ النَّخْلِ ، وَفَائِدَةُ ذِكْرِ الْحَصَادِ هَهُنَا أَنَّ الْحَقَّ غَيْرُ وَاجِبٍ إخْرَاجُهُ بِنَفْسِ خُرُوجِهِ وَبُلُوغِهِ حَتَّى يَحْصُلَ فِي يَدِ صَاحِبِهِ فَحِينَئِذٍ يَلْزَمُهُ إخْرَاجُهُ ، وَقَدْ كَانَ يَجُوزُ أَنْ يُتَوَهَّمَ أَنَّ الْحَقَّ قَدْ لَزِمَهُ بِخُرُوجِهِ قَبْلَ قَطْعِهِ وَأَخْذِهِ ، فَأَفَادَ بِذَلِكَ أَنَّ عَلَيْهِ زَكَاةَ مَا حَصَلَ فِي يَدِهِ دُونَ مَا تَلِفَ مِنْهُ وَلَمْ يَحْصُلْ مِنْهُ فِي يَدِهِ وَيَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ الْعُشْرِ فِي جَمِيعِ الْخَارِجِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنْ الْأَرْضِ ﴾ وَذَلِكَ عُمُومٌ فِي جَمِيعِ الْخَارِجِ .

فَإِنْ قِيلَ : النَّفَقَةُ لَا تُعْقَلُ مِنْهَا الصَّدَقَةُ قِيلَ لَهُ : هَذَا غَلَطٌ مِنْ وُجُوهٍ : أَحَدُهَا أَنَّ النَّفَقَةَ لَا يُعْقَلُ مِنْهَا غَيْرُ الصَّدَقَةِ ، وَبِهَذَا وَرَدَ الْكِتَابُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ الْآيَةُ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ الْآيِ الْمُوجِبَةِ لِمَا ذَكَرْنَا .

وَأَيْضًا فَإِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ أَمْرٌ ، وَهُوَ يَقْتَضِي الْوُجُوبَ ، وَلَيْسَ هَهُنَا نَفَقَةٌ وَاجِبَةٌ غَيْرُ الزَّكَاةِ وَالْعُشْرِ ؛ إذْ النَّفَقَةُ عَلَى عِيَالِهِ وَاجِبَةٌ وَأَيْضًا فَإِنَّ النَّفَقَةَ عَلَى نَفْسِهِ وَأَوْلَادِهِ مَعْقُولَةٌ غَيْرُ مُفْتَقِرَةٍ إلَى الْأَمْرِ ، فَلَا مَعْنَى لِحَمْلِ الْآيَةِ عَلَيْهِ .

فَإِنْ قِيلَ : الْمُرَادُ صَدَقَةُ التَّطَوُّعِ .

قِيلَ لَهُ : هَذَا غَلَطٌ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ الْأَمْرَ عَلَى الْوُجُوبِ فَلَا يُصْرَفُ إلَى النَّدْبِ إلَّا بِدَلِيلٍ ، وَالثَّانِي : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ قَدْ دَلَّ عَلَى الْوُجُوبِ ؛ لِأَنَّ الْإِغْمَاضَ إنَّمَا يَكُونُ فِي اقْتِضَاءِ الدَّيْنِ الْوَاجِبِ ، فَأَمَّا مَا لَيْسَ بِوَاجِبٍ فَكُلُّ مَا أَخَذَهُ مِنْهُ فَهُوَ فَضْلٌ وَرِبْحٌ فَلَا إغْمَاضَ فِيهِ ؛ وَمِنْ جِهَةِ السُّنَّةِ حَدِيثُ مُعَاذٍ وَابْنِ عُمَرَ وَجَابِرٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ مَا سَقَتْ السَّمَاءُ فَفِيهِ الْعُشْرُ وَمَا سُقِيَ بِالسَّانِيَةِ فَنِصْفُ الْعُشْرِ ﴾ ، وَهَذَا خَبَرٌ قَدْ تَلَقَّاهُ النَّاسُ بِالْقَبُولِ وَاسْتَعْمَلُوهُ ، فَهُوَ فِي حَيِّزِ التَّوَاتُرِ وَعُمُومُهُ يُوجِبُ الْحَقَّ فِي جَمِيعِ أَصْنَافِ الْخَارِجِ .

*(69/254)*

---

فَإِنَّ احْتَجُّوا بِحَدِيثِ يَعْقُوبَ بْنِ شَيْبَةَ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو كَامِلٍ الْجَحْدَرِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَارِثُ بْنُ شِهَابٍ عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ عَنْ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ لَيْسَ فِي الْخَضْرَاوَاتِ صَدَقَةٌ ﴾ قِيلَ لَهُ : قَدْ قَالَ يَعْقُوبُ بْنُ شَيْبَةَ إنَّ هَذَا حَدِيثٌ مُنْكَرٌ ، وَكَانَ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ يَقُولُ : حَدِيثُ الْحَارِثِ بْنِ شِهَابٍ ضَعِيفٌ ، قَالَ يَحْيَى : وَقَدْ رَوَى عَبْدُ السَّلَامِ بْنُ حَرْبٍ هَذَا الْحَدِيثَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ عَنْ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ مُرْسَلًا ، وَعَبْدُ السَّلَامِ ثِقَةٌ ؛ وَإِنَّمَا أَصْلُ حَدِيثِ مُوسَى بْنِ

طَلْحَةَ مَا رَوَاهُ يَعْقُوبُ بْنُ شَيْبَةَ قَالَ : حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ عَوْنٍ قَالَ : حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ بْنِ مُوهَبٍ عَنْ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ أَنَّ بَعْضَ الْأُمَرَاءِ بَعَثَ إلَيْهِ فِي صَدَقَةِ أَرْضِهِ فَقَالَ : لَيْسَ عَلَيْهَا صَدَقَةٌ وَإِنَّمَا هِيَ أَرْضُ خُضَرٍ

وَرِطَابٍ ، إنَّ مُعَاذًا إنَّمَا أَمَرَ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ النَّخْلِ وَالْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ وَالْعِنَبِ .

(70/254)

---

فَهَذَا أَصْلُ حَدِيثِ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ ، وَهُوَ تَأْوِيلٌ لِحَدِيثِ مُعَاذٍ أَنَّهُ أَمَرَ بِالْأَخْذِ مِنْ الْأَصْنَافِ الَّتِي ذَكَرَ ، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ لَوْ ثَبَتَ دَلَالَةٌ عَلَى نَفْيِ الْحَقِّ عَمَّا سِوَاهَا ؛ لِأَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُعَاذٌ إنَّمَا اسْتَعْمَلَ عَلَى هَذِهِ الْأَصْنَافِ دُونَ غَيْرِهَا وَأَيْضًا فَلَوْ اسْتَقَامَ سَنَدُ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ وَصَحَّتْ طَرِيقَتُهُ لَمْ يَجُزْ الِاعْتِرَاضُ بِهِ عَلَى خَبَرِ مُعَاذٍ فِي الْعُشْرِ وَنِصْفِ الْعُشْرِ ؛ لِأَنَّهُ خَبَرٌ تَلَقَّاهُ النَّاسُ بِالْقَبُولِ وَاسْتَعْمَلُوهُ وَهُمْ مُخْتَلِفُونَ فِي اسْتِعْمَالِ حَدِيثِ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ ، وَمَتَى وَرَدَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبَرَانِ فَاتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى اسْتِعْمَالِ أَحَدِهِمَا وَاخْتَلَفُوا فِي اسْتِعْمَالِ الْآخَرِ كَانَ الْمُتَّفَقُ عَلَى اسْتِعْمَالِهِ قَاضِيًا عَلَى الْمُخْتَلَفِ فِيهِ مِنْهُمَا خَاصًّا كَانَ ذَلِكَ أَوْ عَامًّا ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ : ﴿ فِيمَا سَقَتْ السَّمَاءُ الْعُشْرُ ﴾ قَاضِيًا عَلَى خَبَرِ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ : ﴿ لَيْسَ فِي الْخَضْرَاوَاتِ صَدَقَةٌ

﴿ وَأَيْضًا يُمْكِنُ اسْتِعْمَالُ هَذَا الْخَبَرِ فِيمَا يَمُرُّ بِهِ عَلَى الْعَاشِرِ عَلَى مَا يَقُولُ أَبُو حَنِيفَةَ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَأْخُذُ مِنْهُ الْعُشْرَ ، وَيَكُونُ خَبَرُ مُعَاذٍ : ﴿ فِيمَا سَقَتْ السَّمَاءُ الْعُشْرُ ﴾ مُسْتَعْمَلًا فِي الْجَمِيعِ وَمِنْ جِهَةِ النَّظَرِ أَنَّ الْأَرْضَ يُقْصَدُ طَلَبُ نَمَائِهَا بِزِرَاعَتِهَا الْخَضْرَاوَاتِ كَمَا يُطْلَبُ نَمَاؤُهَا بِزِرَاعَتِهَا الْحَبَّ ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ فِيهَا الْعُشْرُ كَالْحُبُوبِ ، وَلَا يَلْزَمُ عَلَيْهِ الْحَطَبُ وَالْقَصَبُ وَالْحَشِيشُ ؛

(71/254)

---

لِأَنَّ ذَلِكَ يَنْبُتُ فِي الْعَادَةِ إذَا صَادَفَهُ الْمَاءُ مِنْ غَيْرِ زِرَاعَةٍ وَلَيْسَ يَكَادُ يُقْصَدُ بِهَا الْأَرْضُ ، فَلِذَلِكَ لَمْ يَجِبْ فِيهَا شَيْءٌ ، وَلَا خِلَافَ فِي نَفْيِ وُجُوبِ الْحَقِّ عَنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ .

وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِيمَا يَأْكُلُهُ رَبُّ النَّخْلِ

مِنْ التَّمْرِ ، فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَزُفَرُ وَمَالِكٌ وَالثَّوْرِيُّ : ﴿ يُحْسَبُ عَلَيْهِ مَا أَكَلَهُ صَاحِبُ الْأَرْضِ ﴾ .

وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ : ﴿ إذَا أَكَلَ صَاحِبُ الْأَرْضِ وَأَطْعَمَ جَارَهُ وَصَدِيقَهُ أُخِذَ مِنْهُ عُشْرُ مَا بَقِيَ مِنْ ثَلَاثِمِائَةِ الصَّاعُ الَّتِي تَجِبُ فِيهَا الزَّكَاةُ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهُ مِمَّا أَكَلَ أَوْ أَطْعَمَ ، وَلَوْ أَكَلَ الثَّلَاثَمِائَةِ صَاعٍ وَأَطْعَمَهَا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ عُشْرٌ ، فَإِنْ بَقِيَ مِنْهَا قَلِيلٌ أَوْ كَثِيرٌ فَعَلَيْهِ عُشْرُ مَا بَقِيَ

أَوْ نِصْفُ الْعُشْرِ ﴾ .

وَقَالَ اللَّيْثُ فِي زَكَاةِ الْحُبُوبِ : ﴿ يُبْدَأُ بِهَا قَبْلَ النَّفَقَةِ ، وَمَا أَكَلَ مِنْ فَرِيكٍ هُوَ وَأَهْلُهُ فَإِنَّهُ لَا يُحْتَسَبُ عَلَيْهِ ، بِمَنْزِلَةِ الرُّطَبِ الَّذِي يُتْرَكُ لِأَهْلِ الْحَائِطِ مَا يَأْكُلُهُ هُوَ وَأَهْلُهُ لَا يُخْرَصُ عَلَيْهِ ﴾ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : ﴿ يُتْرَكُ الْخَارِصُ لِرَبِّ الْحَائِطِ مَا يَأْكُلُهُ هُوَ وَأَهْلُهُ لَا يَخْرُصُهُ عَلَيْهِ ، وَمَنْ أَكَلَ مِنْ نَخْلِهِ وَهُوَ رُطَبٌ لَمْ يُحْتَسَبْ عَلَيْهِ ﴾ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ يَقْتَضِي وُجُوبَ الْحَقِّ فِي جَمِيعِ الْمَأْخُوذِ ، وَلَمْ يُخَصِّصْ اللَّهُ تَعَالَى مَا أَكَلَهُ هُوَ وَأَهْلُهُ ، فَهُوَ عَلَى الْجَمِيعِ .

(72/254)

---

فَإِنْ قِيلَ : إنَّمَا أُمِرَ بِإِيتَاءِ الْحَقِّ يَوْمَ الْحَصَادِ ، فَلَا يَجِبُ الْحَقُّ فِيمَا أُخِذَ مِنْهُ قَبْلَ الْحَصَادِ قِيلَ لَهُ : الْحَصَادُ اسْمٌ لِلْقَطْعِ ، فَكُلَّمَا قَطَعَ مِنْهُ شَيْئًا لَزِمَهُ إخْرَاجُ عُشْرِهِ ؛ وَأَيْضًا فَلَيْسَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ دَلِيلٌ عَلَى نَفْيِ الْوُجُوبِ عَمَّا أُخِذَ قَبْلَ الْحَصَادِ ؛ لِأَنَّهُ جَائِزٌ أَنْ يُرِيدَ : وَآتُوا حَقَّ الْجَمِيعِ يَوْمَ حَصَادِهِ الْمَأْكُولِ مِنْهُ وَالْبَاقِي وَاحْتَجَّ مَنْ لَمْ

يَحْتَسِبْ بِالْمَأْكُولِ بِمَا رَوَى شُعْبَةُ عَنْ خُبَيْبِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ : سَمِعْت عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ : جَاءَ سَهْلُ بْنُ أَبِي حَثْمَةَ إلَى مَجْلِسِنَا ، فَحَدَّثَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

(73/254)

---

وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ إذَا خَرَصْتُمْ فَخُذُوا وَدَعُوا الثُّلُثَ فَإِنْ لَمْ تَدَعُوا الثُّلُثَ فَالرُّبُعَ ﴾ ، وَهَذَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ مَا رَوَى سَهْلُ بْنُ أَبِي حَثْمَةَ أَنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ أَبَا حَثْمَةَ خَارِصًا ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إنَّ أَبَا حَثْمَةَ قَدْ زَادَ عَلَيَّ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إنَّ ابْنَ عَمِّك يَزْعُمُ أَنَّك قَدْ زِدْت عَلَيْهِ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ تَرَكْت لَهُ قَدْرَ عَرِيَّةِ أَهْلِهِ وَمَا يُطْعِمُ الْمَسَاكِينَ وَمَا يُصِيبُ الرِّيحُ ، فَقَالَ : قَدْ زَادَك ابْنُ عَمِّك وَأَنْصَفَك ﴾ ، وَالْعَرَايَا هِيَ الصَّدَقَةُ ؛ فَإِنَّمَا أَمَرَ بِذَلِكَ الثُّلُثِ صَدَقَةً وَيَدُلُّ عَلَيْهِ حَدِيثُ جَرِيرِ بْنِ حَازِمٍ عَنْ قَيْسِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ مَكْحُولٍ الشَّامِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ خَفِّفُوا فِي الْخَرْصِ فَإِنَّ فِي الْمَالِ الْعَرِيَّةَ وَالْوَصِيَّةَ ﴾ فَجَمَعَ بَيْنَ الْعَرِيَّةِ وَالْوَصِيَّةِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ الصَّدَقَةَ .

وَرَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ لَيْسَ فِي الْعَرَايَا

صَدَقَةٌ ﴾ ، فَلَمْ يُوجِبْ فِيهَا صَدَقَةً لِأَنَّ الْعَرِيَّةَ نَفْسَهَا صَدَقَةٌ ، وَإِنَّمَا فَائِدَةُ الْخَبَرِ أَنَّ مَا تَصَدَّقَ بِهِ صَاحِبُ الْعُشْرِ يُحْتَسَبُ لَهُ وَلَا تَجِبُ فِيهَا صَدَقَةٌ وَلَا يَضْمَنُهَا .

(74/254)

---

ذِكْرُ الْخِلَافِ فِي اعْتِبَارِ مَا يَجِبُ فِيهِ الْحَقُّ فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَزُفَرُ : يَجِبُ الْعُشْرُ فِي قَلِيلِ مَا تُخْرِجُهُ الْأَرْضُ وَكَثِيرِهِ إلَّا مَا قَدَّمْنَا ذِكْرَهُ .

وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ وَمَالِكٌ وَابْنُ أَبِي لَيْلَى وَاللَّيْثُ وَالشَّافِعِيُّ : ﴿ لَا يَجِبُ حَتَّى يَبْلُغَ مَا يَجِبُ فِيهِ الْحَقُّ خَمْسَةَ أَوْسُقٍ ﴾ وَذَلِكَ إذَا كَانَ مَا يَجِبُ فِيهِ الْحَقُّ مَكِيلًا ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَكِيلًا فَإِنَّ أَبَا يُوسُفَ اعْتَبَرَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ خَمْسَةُ أَوْسُقٍ مِنْ أَدْنَى الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَدْخُلُ فِي الْوَسْقِ مِمَّا يَجِبُ فِيهِ الْعُشْرُ إلَّا فِي الْعَسَلِ ، فَإِنَّهُ رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ اعْتَبَرَ عَشْرَةَ أَرْطَالٍ ، وَرُوِيَ أَنَّهُ اعْتَبَرَ عَشْرَ قِرَبٍ ، وَرُوِيَ أَنَّهُ اعْتَبَرَ قِيمَةَ خَمْسَةِ أَوْسُقٍ مِنْ أَدْنَى مَا يَدْخُلُ فِي الْوَسْقِ .

(75/254)

---

وَأَمَّا مُحَمَّدٌ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى أَعْلَى مَا يُقَدَّرُ بِهِ ذَلِكَ الشَّيْءُ فَيُعْتَبَرُ مِنْهُ أَنْ يَبْلُغَ خَمْسَةَ أَمْثَالٍ ، وَذَلِكَ نَحْوُ الزَّعْفَرَانِ ، فَإِنَّ أَعْلَى مَقَادِيرِهِ مَنًّا فَيُعْتَبَرُ بُلُوغُهُ خَمْسَةَ أَمْنَاءٍ ؛ لِأَنَّ مَا زَادَ عَلَى الْمَنِّ فَإِنَّهُ يُضَاعَفُ أَوْ يُنْسَبُ إِلَيْهِ فَيُقَالُ مَنَوَانِ وَثَلَاثَةٌ وَنِصْفُ مَنٍّ وَرُبْعُ مَنٍّ ، وَيُعْتَبَرُ فِي الْقُطْنِ خَمْسَةُ أَحْمَالٍ لِأَنَّ الْحِمْلَ أَعْلَى مَقَادِيرِهِ وَمَا زَادَ فَتَضْعِيفٌ لَهُ ، وَفِي الْعَسَلِ خَمْسَةُ أَفْرَاقٍ لِأَنَّ الْفِرَقَ أَعْلَى مَا يُقَدَّرُ بِهِ وَيُحْتَجُّ لِأَبِي حَنِيفَةَ فِي ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ وَذَلِكَ عَائِدٌ إِلَى جَمِيعِ الْمَذْكُورِ ، فَهُوَ عُمُومٌ فِيهِ وَإِنْ كَانَ مُجْمَلًا فِي الْمِقْدَارِ الْوَاجِبِ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ حَقَّهُ ﴾ مُجْمَلٌ مُفْتَقِرٌ إِلَى الْبَيَانِ ، وَقَدْ وَرَدَ الْبَيَانُ فِي مِقْدَارِ الْوَاجِبِ وَهُوَ الْعُشْرُ أَوْ نِصْفُ الْعُشْرِ وَيُحْتَجُّ فِيهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ وَذَلِكَ عَامٌّ فِي جَمِيعِ الْخَارِجِ ؛ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُ

(76/254)

---

النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ فِيمَا سَقَتْ السَّمَاءُ الْعُشْرُ ﴾ وَلَمْ يَفْصِلْ بَيْنَ الْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ وَمِنْ جِهَةِ النَّظَرِ اتِّفَاقُ الْجَمِيعِ عَلَى سُقُوطِ اعْتِبَارِ الْحَوْلِ فِيهِ ، فَوَجَبَ أَنْ يَسْقُطَ اعْتِبَارُ الْمِقْدَارِ كَالرِّكَازِ وَالْغَنَائِمِ وَاحْتَجَّ مُعْتَبِرُو الْمِقْدَارِ بِمَا رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ الطَّائِفِيُّ قَالَ : أَخْبَرَنَا عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ : ﴿ لَا صَدَقَةَ فِي شَيْءٍ مِنْ الزَّرْعِ أَوْ الْكَرْمِ أَوْ النَّخْلِ حَتَّى يَبْلُغَ خَمْسَةَ أَوْسُقٍ ﴾ .

وَرَوَى لَيْثُ بْنُ أَبِي سُلَيْمٍ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ لَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسَةِ أَوْسُقٍ صَدَقَةٌ ﴾ وَرَوَاهُ أَيُّوبُ بْنُ مُوسَى عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ مَوْقُوفًا عَلَيْهِ وَرَوَى ابْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ سُهَيْلِ بْنِ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَهُ .

*(77/254)*

---

وَالْجَوَابُ عَنْ هَذَا لِأَبِي حَنِيفَةَ مِنْ وُجُوهٍ : أَحَدُهَا : أَنَّهُ إذَا رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبَرَانِ أَحَدُهُمَا عَامٌّ وَالْآخَرُ خَاصٌّ وَاتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى اسْتِعْمَالِ أَحَدِهِمَا وَاخْتُلِفَ فِي اسْتِعْمَالِ الْآخَرِ ، فَالْمُتَّفَقُ عَلَى اسْتِعْمَالِهِ قَاضٍ عَلَى الْمُخْتَلَفِ فِيهِ ، فَلَمَّا كَانَ خَبَرُ الْعُشْرِ مُتَّفَقًا عَلَى اسْتِعْمَالِهِ وَاخْتَلَفُوا فِي خَبَرِ الْمِقْدَارِ كَانَ اسْتِعْمَالُ خَبَرِ الْعُشْرِ عَلَى عُمُومِهِ أَوْلَى وَكَانَ قَاضِيًا عَلَى الْمُخْتَلَفِ فِيهِ ، فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الْآخَرُ مَنْسُوخًا أَوْ يَكُونَ تَأْوِيلُهُ مَحْمُولًا عَلَى مَعْنًى لَا يُنَافِي شَيْئًا مِنْ خَبَرِ الْعُشْرِ وَأَيْضًا فَإِنَّ قَوْلَهُ : ﴿ فِيمَا سَقَتْ السَّمَاءُ الْعُشْرُ ﴾ عَامٌّ فِي إيجَابِهِ فِي الْمَوْسُوقِ وَغَيْرِهِ ، وَخَبَرُ الْخَمْسَةِ أَوْسُقٍ خَاصٌّ فِي الْمَوْسُوقِ دُونَ غَيْرِهِ ، فَغَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَكُونَ بَيَانًا لِمِقْدَارِ

مَا يَجِبُ فِيهِ الْعُشْرُ ؛ لِأَنَّ حُكْمَ الْبَيَانِ أَنْ يَكُونَ شَامِلًا لِجَمِيعِ مَا اقْتَضَى الْبَيَانُ ، فَلَمَّا كَانَ خَبَرُ الْأَوْسَاقِ مَقْصُورًا عَلَى ذِكْرِ مِقْدَارِ الْوَسْقِ دُونَ غَيْرِهِ وَكَانَ خَبَرُ الْعُشْرِ عُمُومًا فِي الْمَوْسُوقِ وَغَيْرِهِ عَلِمْنَا أَنَّهُ لَمْ يَرِدْ مَوْرِدَ الْبَيَانِ لِمِقْدَارِ مَا يَجِبُ فِيهِ الْعُشْرُ وَأَيْضًا فَإِنَّ ذَلِكَ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ مَا يُوسَقُ يُعْتَبَرُ فِي إِيجَابِ الْحَقِّ بُلُوغُ مِقْدَارِهِ خَمْسَةَ أَوْسُقٍ ، وَمَا لَيْسَ بِمَوْسُوقٍ يَجِبُ فِي قَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ فِيمَا سَقَتْ السَّمَاءُ الْعُشْرُ .

(78/254)

---

﴿ وَفَقْدُ مَا يُوجِبُ تَخْصِيصَ مِقْدَارِ مَا لَا يَدْخُلُ فِي الْأَوْسَاقِ ، وَهَذَا قَوْلٌ مَطْرُوحٌ وَالْقَائِلُ بِهِ سَاقِطٌ مَرْذُولٌ لِاتِّفَاقِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ عَلَى خِلَافِهِ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ فِي الرِّقَةِ رُبْعُ الْعَشْرِ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ لَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسِ أَوَاقٍ زَكَاةٌ ، ﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا شَيْءَ مِنْ الرِّقَةِ إلَّا وَهُوَ دَاخِلٌ فِي الْوَزْنِ ، وَالْأَوَاقِي مَذْكُورَةٌ لِلْوَزْنِ ، فَجَازَ أَنْ يَكُونَ بَيَانًا لِمِقْدَارِ جَمِيعِ الرِّقَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْخَبَرِ الْآخَرِ وَأَيْضًا فَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ لِلَّهِ حُقُوقًا وَاجِبَةً فِي الْمَالِ غَيْرَ الزَّكَاةِ ثُمَّ نُسِخَتْ بِالزَّكَاةِ ، كَمَا رُوِيَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ وَالضَّحَّاكِ قَالَا : ﴿ نَسَخَتْ الزَّكَاةُ كُلَّ صَدَقَةٍ فِي الْقُرْآنِ ﴾ ، فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ هَذَا التَّقْدِيرُ مُعْتَبَرًا فِي

الْحُقُوقِ الَّتِي كَانَتْ وَاجِبَةً فَنُسِخَتْ ، نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ ﴾ وَنَحْوُ مَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ : إذَا حَصَدْت طَرَحْت لِلْمَسَاكِينِ وَإِذَا كَدَّسْت وَإِذَا نَقَّيْت ، وَإِذَا عَلِمْت كَيْلَهُ عَزَلْت زَكَاتَهُ ، وَهَذِهِ الْحُقُوقُ غَيْرُ وَاجِبَةِ الْيَوْمَ ، فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مَا رُوِيَ مِنْ تَقْدِيرِ الْخَمْسَةِ الْأَوْسُقِ كَانَ مُعْتَبَرًا فِي تِلْكَ الْحُقُوقِ

(79/254)

---

، وَإِذَا احْتَمَلَ ذَلِكَ لَمْ يَجُزْ تَخْصِيصُ الْآيَةِ وَالْأَثَرِ الْمُتَّفَقِ عَلَى نَقْلِهِ بِهِ وَأَيْضًا فَقَدْ رُوِيَ : ﴿ لَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسَةِ أَوْسُقٍ زَكَاةٌ ﴾ ، فَجَائِزٌ أَنْ يُرِيدَ بِهِ زَكَاةَ التِّجَارَةِ بِأَنْ يَكُونَ سَأَلَ سَائِلٌ عَنْ أَقَلَّ مِنْ خَمْسَةِ أَوْسُقِ طَعَامٍ أَوْ تَمْرٍ لِلتِّجَارَةِ ، فَأَخْبَرَ أَنْ لَا زَكَاةَ فِيهِ لِقُصُورِ قِيمَتِهِ عَنْ النِّصَابِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، فَنَقَلَ الرَّاوِي كَلَامَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَرَكَ ذِكْرَ السَّبَبِ كَمَا يُوجَدُ ذَلِكَ فِي كَثِيرٍ مِنْ الْأَخْبَارِ .

ذِكْرُ الْخِلَافِ فِي اجْتِمَاعِ الْعُشْرِ وَالْخَرَاجِ فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ وَزُفَرُ : ﴿ لَا يَجْتَمِعَانِ ﴾ .

وَقَالَ مَالِكٌ وَالثَّوْرِيُّ وَالْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ وَشَرِيكٌ وَالشَّافِعِيُّ : ﴿ إذَا كَانَتْ أَرْضُ خَرَاجٍ فَعَلَيْهِ الْعُشْرُ فِي الْخَارِجِ وَالْخَرَاجُ فِي الْأَرْضِ ﴾ .

(80/254)

---

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُمَا لَا يَجْتَمِعَانِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ لَمَّا فَتَحَ السَّوَادَ وَضَعَ عَلَى الْأَرْضِ الْخَرَاجَ وَلَمْ يَأْخُذْ الْعُشْرَ مِنْ الْخَارِجِ وَذَلِكَ بِمُشَاوَرَةِ الصَّحَابَةِ وَمُوَافَقَتِهِمْ إيَّاهُ عَلَيْهِ ، فَصَارَ ذَلِكَ إجْمَاعًا مِنْ السَّلَفِ وَعَلَيْهِ مَضَى الْخَلَفُ ، وَلَوْ جَازَ اجْتِمَاعُهُمَا لَجَمَعَهُمَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ فِيمَا سَقَتْ السَّمَاءُ الْعُشْرُ وَفِيمَا سُقِيَ بِالنَّاضِحِ نِصْفُ الْعُشْرِ ﴾ وَذَلِكَ إخْبَارٌ بِجَمِيعِ الْوَاجِبِ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ، فَلَوْ وَجَبَ الْخَرَاجُ مَعَهُ لَكَانَ ذَلِكَ بَعْضَ الْوَاجِبِ لِأَنَّ الْخَرَاجَ قَدْ يَكُونُ الثُّلُثَ أَوْ الرُّبُعَ وَقَدْ يَكُونُ قَفِيزًا وَدِرْهَمًا وَأَيْضًا فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ رَدَّ الْعُشْرَ إلَى النِّصْفِ لِأَجْلِ الْمُؤْنَةِ الَّتِي لَزِمَتْ صَاحِبَهَا ، فَلَوْ لَزِمَ الْخَرَاجُ فِي الْأَرْضِ لَزِمَ سُقُوطُ نِصْفِ الْعُشْرِ الْبَاقِي لِلُزُومِ مُؤْنَةِ الْخَرَاجِ ، وَلَكَانَ يَجِبُ أَنْ يَخْتَلِفَ حُكْمُ مَا تَغْلُظُ فِيهِ الْمُؤْنَةُ وَمَا تَخِفُّ فِيهِ كَمَا خَالَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ مَا سَقَتْهُ السَّمَاءُ وَبَيْنَ مَا سُقِيَ بِالنَّاضِحِ لِأَجْلِ الْمُؤْنَةِ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ حَدِيثُ سُهَيْلِ بْنِ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ

النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ مَنَعَتْ الْعِرَاقُ قَفِيزَهَا وَدِرْهَمَهَا ﴾ وَمَعْنَاهُ : سَتَمْنَعُ ؛ وَلَوْ كَانَ الْعُشْرُ وَاجِبًا لَاسْتَحَالَ أَنْ يَكُونَ الْخَرَاجُ مَمْنُوعًا

(81/254)

---

مِنْهُ وَالْعُشْرُ غَيْرُ مَمْنُوعٍ ؛ لِأَنَّ مَنْ مَنَعَ الْخَرَاجَ كَانَ لِلْعُشْرِ أَمْنَعَ ، وَفِي تَرْكِهِ ذِكْرَ الْعُشْرِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنْ لَا عُشْرَ فِي أَرْضِ الْخَرَاجِ وَرُوِيَ أَنَّ دِهْقَانَةَ نَهْرِ الْمُلْكِ أَسْلَمَتْ ، فَكَتَبَ عُمَرُ أَنْ يُؤْخَذَ مِنْهَا الْخَرَاجُ إنْ اخْتَارَتْ أَرْضَهَا وَرُوِيَ أَيْضًا أَنَّ رَفِيلًا أَسْلَمَ ، فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ : ﴿ إنْ أَقَمْت عَلَى أَرْضِك أَخَذْنَا مِنْك الْخَرَاجَ ﴾ ؛ وَلَوْ كَانَ الْعُشْرُ وَاجِبًا مَعَ ذَلِكَ لَأَخْبَرَ بِوُجُوبِهِ وَلَمْ يُخَالِفْهُمَا فِي ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْ الصَّحَابَةِ وَأَيْضًا لَمَّا كَانَ الْعُشْرُ وَالْخَرَاجُ حَقَّيْنِ لِلَّهِ تَعَالَى لَمْ يَجُزْ اجْتِمَاعُهُمَا عَلَيْهِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ اتِّفَاقُ الْجَمِيعِ عَلَى امْتِنَاعِ وُجُوبِ زَكَاةِ السَّائِمَةِ وَزَكَاةِ التِّجَارَةِ .

فَإِنْ قِيلَ : إنَّ الْخَرَاجَ بِمَنْزِلَةِ الْأُجْرَةِ ، وَالْعُشْرُ صَدَقَةٌ ، فَكَمَا جَازَ اجْتِمَاعُ أُجْرِ الْأَرْضِ وَالْعُشْرِ فِي الْخَارِجِ كَذَلِكَ يَجُوزُ اجْتِمَاعُ الْخَرَاجِ وَالْعُشْرِ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ أَرْضَ الْخَرَاجِ مُبْقَاةٌ عَلَى حُكْمِ الْفَيْءِ ، وَإِنَّمَا أُبِيحَ لِزَارِعِهَا الِانْتِفَاعُ بِهَا بِالْخَرَاجِ وَهُوَ أُجْرَةُ الْأَرْضِ ، فَلَا يَمْنَعُ ذَلِكَ وُجُوبَ الْعُشْرِ مَعَ الْخَرَاجِ .

قِيلَ لَهُ : هَذَا غَلَطٌ مِنْ وُجُوهٍ : أَحَدُهَا : أَنَّ عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ لَا يَجْتَمِعُ الْعُشْرُ وَالْأُجْرَةُ عَلَى الْمُسْتَأْجِرِ ، وَمَتَى لَزِمَتْهُ الْأُجْرَةُ سَقَطَ عَنْهُ الْعُشْرُ فَكَانَ الْعُشْرُ عَلَى رَبِّ الْأَرْضِ الْآخِذِ لِلْأُجْرَةِ ؛ فَهَذَا الْإِلْزَامُ سَاقِطٌ عَنْهُ وَقَوْلُ الْقَائِلِ إنَّ أَرْضَ الْخَرَاجِ غَيْرُ مَمْلُوكَةٍ لِأَهْلِهَا وَإِنَّهَا مُبْقَاةٌ عَلَى حُكْمِ الْفَيْءِ خَطَأٌ ؛ لِأَنَّهَا عِنْدَنَا مَمْلُوكَةٌ لِأَهْلِهَا ، وَالْكَلَامُ فِيهَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَقَوْلُهُ : ﴿ إنَّ الْخَرَاجَ أُجْرَةٌ ﴾ خَطَأٌ أَيْضًا مِنْ وُجُوهٍ : أَحَدُهَا : أَنَّهُ لَا خِلَافَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ اسْتِئْجَارُ النَّخْلِ وَالشَّجَرِ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْخَرَاجَ يُؤَدَّى عَنْهُمَا ، فَثَبَتَ أَنَّهُ لَيْسَ بِأُجْرَةٍ وَأَيْضًا فَإِنَّ الْإِجَارَةَ لَا تَصِحُّ إلَّا عَلَى مُدَّةٍ

مَعْلُومَةٍ ، وَلَمْ يَعْتَقِدْ أَحَدٌ مِنْ الْأَئِمَّةِ عَلَى أَرْبَابِ أَرَاضِي الْخَرَاجِ مُدَّةً مَعْلُومَةً وَأَيْضًا فَإِنْ كَانَتْ أَرْضُ الْخَرَاجِ وَأَهْلُهَا مُقِرُّونَ عَلَى حُكْمِ الْفَيْءِ فَغَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يُؤْخَذَ مِنْهُمْ جِزْيَةُ رُءُوسِهِمْ لِأَنَّ الْعَبْدَ لَا جِزْيَةَ عَلَيْهِ .

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى انْتِفَاءِ اجْتِمَاعِ الْخَرَاجِ وَالْعُشْرِ تَنَافِي سَبَبَيْهِمَا وَذَلِكَ لِأَنَّ الْخَرَاجَ سَبَبُهُ الْكُفْرُ لِأَنَّهُ يُوضَعُ مَوْضِعَ الْجِزْيَةِ ، وَسَائِرُ أَمْوَالِ الْفَيْءِ وَالْعُشْرِ سَبَبُهُ الْإِسْلَامُ ، فَلَمَّا تَنَافَى سَبَبَهُمَا تَنَافَى مُسَبَّبَاهُمَا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

ومن فوائد ابن العربى فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ .

فِيهَا خَمْسَ عَشْرَةَ مَسْأَلَةً :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَنْشَأَ ﴾ : أَيْ : ابْتَدَأَ الْفِعْلَ مِنْ غَيْرِ احْتِذَاءِ مِثَالٍ ؛ وَكَانَ ذَلِكَ فِي يَوْمِ الِاثْنَيْنِ عَلَى مَا وَرَدَ فِي الْخَبَرِ الصَّحِيحِ ، وَأَوْضَحْنَاهُ فِي كِتَابِ الْمُشْكِلَيْنِ ، وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ أَنْشَأَ فِي كُلِّ فِعْلٍ كَانَ عَلَى مِثَالٍ أَوْ لَمْ يَكُنْ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : الْجَنَّاتُ : هِيَ : الْبَسَاتِينُ الَّتِي يَجُنُّهَا الشَّجَرُ ، أَيْ : يَسْتُرُهَا ؛ وَمِنْهُ جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ، وَمِنْهُ سُمِّيَ الْجِنُّ ، لِاجْتِنَانِهِمْ عَنْ الْأَبْصَارِ ، وَكَذَلِكَ الْجِنَّةُ فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ ؛ سُمُّوا بِذَلِكَ لِاجْتِنَانِهِمْ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ يَعْنِي : رُفِعَتْ عَلَى

الْأَعْوَادِ ، وَصِينَتْ عَنْ تَدَلِّي الثَّمَرِ عَلَى الْأَرْضِ ، وَأُظْهِرَتْ لِلْإِدْرَاكِ ، وَسَهُلَ جَمْعُهَا دُونَ انْحِنَاءٍ .

وَالْعَرْشُ : كُلُّ مَا ارْتَفَعَ فَوْقَ غَيْرِهِ .

وَقِيلَ : تَعْرِيشُهَا حِيَاطَتُهَا بِالْجُدُرِ ، وَمَا قَامَ مَقَامَهَا ، حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهَا مَدْخَلٌ لِأَحَدٍ ؛ وَالْأَوَّلُ أَقْوَى فِي الِاشْتِقَاقِ .

(84/254)

---

وَقَدْ قِيلَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ : يَعْنِي عَلَى أَعَالِيهَا ، وَلَعَلَّهُ عَلَى جُدْرَانِهَا ، وَأَشَارَ بِذَلِكَ إلَى حَدَائِقِ الْأَعْنَابِ الَّتِي هِيَ الْكُرُومُ فِي أَلْسِنَةِ الْعَرَبِ ، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : ﴿ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ ﴾ وَفَرَّقَ بَيْنَهُمَا ؛ لِأَنَّهُمَا أَصْلَا الْمَعَاشِ ، وَعِمَادَا الْقُوتِ ، ثُمَّ فَرَّقَ بَيْنَ الزَّيْتُونِ وَالرُّمَّانِ فِي وِزَانٍ آخَرَ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : وَوَصْفُهَا بِأَنَّهَا مُتَشَابِهَةٌ وَغَيْرُ مُتَشَابِهَةٍ ؛ يَعْنِي : أَنَّ مِنْهَا مَا يَتَشَابَهُ فِي الظَّاهِرِ ، وَيُخَالِفُهُ فِي الْبَاطِنِ ؛ وَمِنْهَا مَا يَشْتَبِهُ فِي اللَّوْنِ ، وَيَخْتَلِفُ فِي الطَّعْمِ ؛ وَفِي ذَلِكَ دَلِيلَانِ عَظِيمَانِ : أَحَدُهُمَا : عَلَى الْمِنَّةِ مِنْهُ سُبْحَانَهُ عَلَيْنَا وَالنِّعْمَةِ الَّتِي هَيَّأَهَا لَنَا وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : فَلَوْ شَاءَ رَبُّنَا إنْ خَلَقَنَا أَحْيَاءً أَلَّا يَخْلُقَ لَنَا غِذَاءً ، أَوْ

إذَا خَلَقَهُ أَلَّا يَكُونَ جَمِيلَ الْمَنْظَرِ طَيِّبَ الطَّعْمِ ، أَوْ إذَا خَلَقَهُ كَذَلِكَ أَلَّا يَكُونَ سَهْلَ الْجَنْيِ ، فَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ ابْتِدَاءً لِأَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ شَيْءٌ ، وَإِنْ فَعَلَهُ فَبِفَضْلِهِ ، كَابْتِدَاءِ خَلْقِهِ : فِي تَعْدِيدِ النِّعَمِ وَتَقْرِيرِ الْفَضْلِ وَالْكَرَمِ وَالشَّهَادَةِ عَلَى الِابْتِدَاءِ بِالثَّوَابِ قَبْلَ الْعِقَابِ ، وَبِالْعَطَاءِ قَبْلَ الْعَمَلِ .

*(85/254)*

---

الدَّلِيلُ الثَّانِي عَلَى الْقُدْرَةِ فِي أَنْ يَكُونَ الْمَاءُ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ الرُّسُوبُ يَصْعَدُ بِقُدْرَةِ الْوَاحِدِ الْقَادِرِ عَلَّامِ الْغُيُوبِ مِنْ أَسَافِلِ الشَّجَرِ إلَى أَعَالِيهَا ، وَيَتَرَقَّى مِنْ أُصُولِهَا إلَى فُرُوعِهَا ، حَتَّى إذَا انْتَهَى إلَى آخِرِهَا نَشَأَ فِيهَا أَوْرَاقٌ لَيْسَتْ مِنْ جِنْسِهَا ، وَثِمَارٌ خَارِجَةٌ عَنْ صِفَتِهَا ، فِيهَا الْجِرْمُ الْوَافِرُ ، وَاللَّوْنُ الزَّاهِرُ ، وَالْجَنْيُ الْجَدِيدُ ، وَالطَّعْمُ اللَّذِيذُ ؛ فَأَيْنَ الطَّبَائِعُ وَأَجْنَاسُهَا ؟ وَأَيْنَ الْفَلَاسِفَةُ وَأُنَاسُهَا ؟ هَلْ فِي قُدْرَةِ الطَّبِيعَةِ إذَا سَلَّمْنَا وَقُلْنَا لَهَا قُدْرَةٌ عَلَى طَرِيقِ الْجَدَلِ أَنْ تُتْقِنَ هَذَا الْإِتْقَانَ الْبَدِيعَ ، أَوْ تُرَتِّبَ هَذَا التَّرْتِيبَ الْعَجِيبَ ؟ كَلَّا ، لَا يَتِمُّ ذَلِكَ فِي الْمَعْقُولِ إلَّا لِحَيٍّ عَالِمٍ قَادِرٍ مُرِيدٍ ، فَقَدْ عَلِمَ الْأَلِبَّاءُ أَنَّ أُمِّيًّا لَا يَنْظِمُ سُطُورَ الْكِتَابَةِ ، وَأَنَّ سَوَادِيًّا لَا يَقْدِرُ عَلَى مَا فِي الدِّيبَاجِ مِنْ التَّزْيِينِ وَالنِّسَاجَةِ ؛ فَسُبْحَانَ مَنْ لَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ آيَةٌ بِدَايَةٍ وَنِهَايَةٍ ، فَمِنْ اللَّهِ الِابْتِدَاءُ ، وَإِنَّ إلَى رَبِّك الْمُنْتَهَى ، تَقَدَّسَ وَتَعَالَى .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ فَهَذَانِ بِنَاءَانِ جَاءَا بِصِيغَةِ أَفْعَلَ ، وَأَحَدُهُمَا مُبَاحٌ لِقَوْلِهِ : ﴿ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ .

(86/254)

---

وَالثَّانِي : وَاجِبٌ عَلَى مَا يَأْتِي تَفْصِيلُهُ إنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَلَيْسَ يَمْتَنِعُ فِي الشَّرِيعَةِ اقْتِرَانُ الْمُبَاحِ وَالْوَاجِبِ ؛ لِمَا يَأْتِي فِي ذَلِكَ مِنْ الْفَوَائِدِ ، وَيَتَرَكَّبُ عَلَيْهِ مِنْ الْأَحْكَامِ ، فَأَمَّا الْأَكْلُ فَلِقَضَاءِ اللَّذَّةِ ، وَأَمَّا إيتَاءُ الْحَقِّ فَلِقَضَاءِ حَقِّ النِّعْمَةِ ، فَلِلَّهِ تَعَالَى عَلَى الْعَبْدِ نِعْمَةٌ فِي الْبَدَنِ بِالصِّحَّةِ ، وَاسْتِقَامَةِ الْأَعْضَاءِ ، وَسَلَامَةِ الْحَوَاسِّ ، وَنِعْمَةٌ فِي الْمَالِ بِالتَّمْلِيكِ وَالِاسْتِغْنَاءِ ، وَقَضَاءِ اللَّذَّاتِ ، وَبُلُوغِ الْآمَالِ ؛ فَفَرْضُ الصَّلَاةِ كِفَاءُ نِعْمَةِ الْبَدَنِ ، وَفَرْضُ الزَّكَاةِ كِفَاءُ نِعْمَةِ الْمَالِ ، وَبَدَأَ بِذِكْرِ نِعْمَةِ الْأَكْلِ قَبْلَ الْأَمْرِ بِإِيتَاءِ الْحَقِّ ؛ لِيُبَيِّنَ أَنَّ الِابْتِدَاءَ بِالنِّعْمَةِ كَانَ مِنْ فَضْلِهِ قَبْلَ التَّكْلِيفِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ ﴾ اُخْتُلِفَ فِي تَفْسِيرِ هَذَا الْحَقِّ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهُ الصَّدَقَةُ الْمَفْرُوضَةُ ؛ قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ وَغَيْرُهُ ، وَرَوَاهُ ابْنُ وَهْبٍ ، وَابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ .

الثَّانِي : أَنَّهَا الصَّدَقَةُ غَيْرُ الْمَفْرُوضَةِ تَكُونُ يَوْمَ الْحَصَادِ وَعِنْدَ الصِّرَامِ ؛ وَهِيَ إطْعَامُ مَنْ

حَضَرَ وَالْإِيتَاءُ لِمَنْ غَبَرَ ؛ قَالَهُ مُجَاهِدٌ .

الثَّالِثِ : أَنَّ هَذَا مَنْسُوخٌ بِالزَّكَاةِ ؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ .

(87/254)

---

وَقَدْ زَعَمَ قَوْمٌ أَنَّ هَذَا اللَّفْظَ مُجْمَلٌ وَلَمْ يَخْلُصُوا الْقَوْلَ فِيهِ ، وَحَقِيقَةُ الْكَلَامِ عَلَيْهِ أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ آتُوا ﴾ مُفَسَّرٌ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ حَقَّهُ ﴾ مُفَسَّرٌ فِي الْمُؤْتَى ، مُجْمَلٌ فِي الْمِقْدَارِ ؛ إنَّمَا يَقَعُ النَّظَرُ فِي رَفْعِ الْإِشْكَالِ الَّذِي أَنْشَأَهُ احْتِمَالُ هَذِهِ الْأَقْوَالِ

: وَقَدْ بَيَّنَّا فِيمَا سَبَقَ وَجْهَ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْمَالِ حَقٌّ سِوَى الزَّكَاةِ ، وَتَحْقِيقُهُ فِي الْقِسْمِ الثَّانِي مِنْ عُلُومِ الْقُرْآنِ ، وَفِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ هَذَا التَّأْلِيفِ ، وَثَبَتَ أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ هَاهُنَا الصَّدَقَةُ الْمَفْرُوضَةُ .

وَقَدْ أَفَادَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وُجُوبَ الزَّكَاةِ فِيمَا سَمَّى اللَّهُ سُبْحَانَهُ ، وَأَفَادَتْ بَيَانَ مَا يَجِبُ فِيهِ مِنْ مُخْرَجَاتِ الْأَرْضِ الَّتِي أَجْمَلَهَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنْ الْأَرْضِ ﴾ ، وَفَسَّرَهَا هَاهُنَا ؛ فَكَانَتْ آيَةُ الْبَقَرَةِ عَامَّةً فِي الْمُخْرَجِ كُلِّهِ مُجْمَلَةً فِي الْقَدْرِ ؛ وَهَذِهِ الْآيَةُ خَاصَّةٌ فِي مُخْرَجَاتِ الْأَرْضِ مُجْمَلَةٌ فِي الْقَدْرِ ، فَبَيَّنَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي أُمِرَ بِأَنْ يُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إلَيْهِمْ ، فَقَالَ : ﴿ فِيمَا سَقَتْ السَّمَاءُ الْعُشْرُ ، وَمَا سُقِيَ

بِنَضْحٍ أَوْ دَالِيَةٍ نِصْفُ الْعُشْرِ ﴾ ؛ فَكَانَ هَذَا بَيَانًا لِمِقْدَارِ الْحَقِّ الْمُجْمَلِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ .

وَقَالَ أَيْضًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسَةِ أَوْسُقٍ مِنْ حَبٍّ أَوْ تَمْرٍ صَدَقَةٌ ﴾ .

(88/254)

---

خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ ، فَكَانَ هَذَا بَيَانًا لِلْمِقْدَارِ الَّذِي يُؤْخَذُ مِنْهُ الْحَقُّ ، وَالَّذِي يُسَمَّى فِي أَلْسِنَةِ الْعُلَمَاءِ نِصَابًا .

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي ذَلِكَ اخْتِلَافًا مُتَبَايِنًا قَدِيمًا وَحَدِيثًا ؛ فَرُوِيَ عَنْ مَالِكٍ وَأَصْحَابِهِ : أَنَّ الزَّكَاةَ فِي كُلِّ مُقْتَاتٍ لَا قَوْلَ لَهُ سِوَاهُ .

وَقَدْ أَوْرَدْنَاهُ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ وَشَرَحْنَاهُ ، وَبِهِ قَالَ الشَّافِعِيُّ .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : تَجِبُ فِي كُلِّ مَا تُنْبِتُهُ الْأَرْضُ مِنْ الْمَأْكُولَاتِ مِنْ الْقُوتِ وَالْفَاكِهَةِ وَالْخُضَرِ ، وَبِهِ قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ الْمَاجِشُونِ فِي أُصُولِ الثِّمَارِ دُونَ الْبُقُولِ .

وَقَالَ أَحْمَدُ أَقْوَالًا ؛ أَظْهَرُهَا أَنَّ الزَّكَاةَ تَجِبُ فِي كُلِّ مَا قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ إذَا كَانَ يُوسَقُ ، فَأَوْجَبَهَا فِي اللَّوْزِ ؛ لِأَنَّهُ مَكِيلٌ دُونَ الْجَوْزِ

لِأَنَّهُ مَعْدُودٌ ، مُعَوِّلًا عَلَى قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسَةِ

أَوْسُقٍ مِنْ تَمْرٍ أَوْ حَبٍّ صَدَقَةٌ ﴾ ؛ فَبَيَّنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ مَحَلَّ الْوَاجِبِ هُوَ الْمُوسَقُ ، وَبَيَّنَ الْقَدْرَ الَّذِي يَجِبُ إخْرَاجُ الْحَقِّ مِنْهُ .

وَتَعَلَّقَ الشَّافِعِيُّ بِالْقُوتِ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ التَّوْسِيقَ إنَّمَا يَكُونُ فِي الْمُقْتَاتِ غَالِبًا دَائِمًا .

وَأَمَّا الْخُضَرُ فَأَمْرُهَا نَادِرٌ .

وَأَمَّا الْمَالِكِيَّةُ ﴿ فَتَعَلَّقَتْ بِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَأْخُذْ مِنْ خُضَرِ الْمَدِينَةِ صَدَقَةً ﴾ .

*(89/254)*

---

وَأَمَّا أَبُو حَنِيفَةَ فَجَعَلَ الْآيَةَ مِرْآتَهُ فَأَبْصَرَ الْحَقَّ ، وَقَالَ : إنَّ اللَّهَ أَوْجَبَ الزَّكَاةَ فِي الْمَأْكُولِ قُوتًا كَانَ أَوْ غَيْرَهُ وَبَيَّنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ فِي عُمُومِ قَوْلِهِ : ﴿ فِيمَا سَقَتْ السَّمَاءُ الْعُشْرُ ﴾ : وَقَدْ أَشَرْنَا فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ إلَى مَسَالِكِ النَّظَرِ فِيهَا فِي كِتَابِ الْإِنْصَافِ وَالتَّخْلِيصِ .

وَقَدْ آنَ تَحْدِيدُ النَّظَرِ فِيهَا كَمَا يَلْزَمُ كُلَّ مُجْتَهِدٍ .

فَالَّذِي لَاحَ بَعْدَ التَّرَدُّدِ فِي مَسَالِكِهِ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمَّا ذَكَّرَ الْإِنْسَانَ بِنِعَمِهِ فِي الْمَأْكُولَاتِ الَّتِي هِيَ قِوَامُ الْأَبْدَانِ وَأَصْلُ اللَّذَّاتِ فِي الْإِنْسَانِ ، عَلَيْهَا تَنْبَنِي الْحَيَاةُ ، وَبِهَا يَتِمُّ طِيبُ

الْمَعِيشَةِ عَدَّدَ أُصُولَهَا تَنْبِيهًا عَلَى تَوَابِعِهَا ، فَذَكَرَ مِنْهَا خَمْسَةً : الْكَرْمَ ، وَالنَّخْلَ ، وَالزَّرْعَ ، وَالزَّيْتُونَ ، وَالرُّمَّانَ .

فَالْكَرْمُ وَالنَّخْلُ : يُؤْكَلُ فِي حَالَيْنِ فَاكِهَةً وَقُوتًا .

وَالزَّرْعُ يُؤْكَلُ فِي نَوْعَيْنِ : فَاكِهَةً وَقُوتًا .

وَالزَّيْتُ : يُؤْكَلُ قُوتًا وَاسْتِصْبَاحًا .

وَالرُّمَّانُ : يُؤْكَلُ فَاكِهَةً مَحْضَةً .

وَمَا لَمْ يُذْكَرْ مِمَّا يُؤْكَلُ لَا يَخْرُجُ عَنْ هَذِهِ الْأَقْسَامِ الْخَمْسَةِ .

فَقَالَ تَعَالَى : هَذِهِ نِعْمَتِي فَكُلُوهَا طَيِّبَةً شَرْعًا بِالْحِلِّ طَيِّبَةً حِسًّا بِاللَّذَّةِ ، وَآتُوا الْحَقَّ مِنْهَا يَوْمَ

(90/254)

---

الْحَصَادِ ، وَكَانَ ذَلِكَ بَيَانًا لِوَقْتِ الْإِخْرَاجِ ، وَجَعَلَ كَمَا أَشَرْنَا إلَيْهِ الْحَقَّ الْوَاجِبَ مُخْتَلِفًا بِكَثْرَةِ الْمُؤْنَةِ وَقِلَّتِهَا ، فَمَا كَانَ خَفِيفَ الْمُؤْنَةِ قَدْ تَوَلَّى اللَّهُ سَقْيَهُ فَفِيهِ الْعُشْرُ ، وَمَا عَظُمَتْ مُؤْنَتُهُ بِالسَّقْيِ الَّذِي هُوَ أَصْلُ الْإِتْيَانِ فَفِيهِ نِصْفُ الْعُشْرِ .

فَأَمَّا قَوْلُ أَحْمَدَ : إنَّهُ فِيمَا يُوسَقُ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسَةِ

أَوْسُقٍ مِنْ حَبٍّ أَوْ تَمْرٍ صَدَقَةٌ ﴾ ، فَضَعِيفٌ ؛ لِأَنَّ الَّذِي يَقْتَضِي ظَاهِرَ الْحَدِيثِ أَنْ يَكُونَ النِّصَابُ مُعْتَبَرًا فِي التَّمْرِ وَالْحَبِّ .

فَأَمَّا سُقُوطُ الْحَقِّ عَمَّا عَدَاهَا فَلَيْسَ فِي قُوَّةِ الْكَلَامِ .

وَأَمَّا التَّعْلِيقُ بِالْقُوتِ فَدَعْوَى وَمَعْنًى لَيْسَ لَهُ أَصْلٌ يَرْجِعُ إلَيْهِ ؛ وَإِنَّمَا تَكُونُ الْمَعَانِي مُوجِبَةً لِأَحْكَامِهَا بِأُصُولِهَا عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ فِي كِتَابِ الْقِيَاسِ .

وَكَيْفَ يَذْكُرُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ النِّعْمَةَ فِي الْقُوتِ وَالْفَاكِهَةِ ، وَأَوْجَبَ الْحَقَّ مِنْهَا كُلِّهَا فِيمَا تَنَوَّعَ حَالُهُ كَالْكَرْمِ وَالنَّخِيلِ ، وَفِيمَا تَنَوَّعَ جِنْسُهُ كَالزَّرْعِ ، وَفِيمَا يَنْضَافُ إلَى الْقُوتِ مِنْ الِاسْتِرْوَاحِ الَّذِي بِهِ تَمَامُ النِّعْمَةِ فِي الْمَتَاعِ بِلَذَّةِ الْبَصَرِ إلَى اسْتِيفَاءِ النِّعَمِ فِي الظُّلَمِ .

فَإِنْ قِيلَ : إنَّمَا تَجِبُ الزَّكَاةُ فِي الْمُقْتَاتِ الَّذِي يَدُومُ ، فَأَمَّا فِي الْخُضَرِ فَلَا بَقَاءَ لَهَا ؛ وَلِذَلِكَ لَمْ تُؤْخَذْ الزَّكَاةُ فِي الْأَقْوَاتِ مِنْ أَخْضَرِهَا ، وَإِنَّمَا أُخِذَتْ مِنْ يَابِسِهَا .

(91/254)

---

قُلْنَا : إنَّمَا تُؤْخَذُ الزَّكَاةُ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ عِنْدَ انْتِهَائِهِ ، بِالْيُبْسِ ، وَانْتِهَاءُ الْيَابِسِ وَالطَّيِّبِ انْتِهَاءُ الْأَخْضَرِ ؛ وَلِذَلِكَ إذَا كَانَ الرَّطْبُ لَا يُثْمِرُ ، وَالْعِنَبُ لَا يَتَزَبَّبُ تُؤْخَذُ الزَّكَاةُ مِنْهُمَا عَلَى حَالِهِمَا ، وَلَوْ لَمْ تَكُنْ الْفَاكِهَةُ الْخُضَرِيَّةُ أَصْلًا فِي اللَّذَّةِ وَرُكْنًا فِي النِّعْمَةِ مَا وَقَعَ الِامْتِنَانُ بِهَا

فِي الْجَنَّةِ .

أَلَا تَرَاهُ وَصَفَ جَمَالَهَا وَلَذَّتَهَا ،

فَقَالَ : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ فَذَكَرَ النَّخْلَ أَصْلًا فِي الْمُقْتَاتِ ، وَالرُّمَّانَ أَصْلًا فِي الْخَضْرَاوَاتِ .

أَوَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى وَجْهِ امْتِنَانِهِ عَلَى الْعُمُومِ لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ .

فَإِنْ قِيلَ : فَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ .

وَالَّذِي يُحْصَدُ الزَّرْعُ .

قُلْنَا : جَهِلْتُمْ ؛ بَلْ هُوَ عَامٌّ فِي كُلِّ نَبْتٍ فِي الْأَرْضِ .

وَأَصْلُ الْحَصَادِ إِذْهَابُ الشَّيْءِ عَنْ مَوْضِعِهِ الَّذِي هُوَ فِيهِ ؛ قَالَ تَعَالَى : ﴿ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ .

وَقَالَ : ﴿ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ .

وَقَالَ : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ﴾ .

وَفِي الْحَدِيثِ : ﴿ وَهَلْ يُكِبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ ﴾ .

فَإِنْ قِيلَ : هَذَا مَجَازٌ ؛ وَأَصْلُهُ فِي الزَّرْعِ .

قُلْنَا : هَذَا كُلُّهُ حَقِيقَةٌ ؟ وَأَصْلُهَا الذَّهَابُ .

(92/254)

---

فَإِنْ قِيلَ : أَلَيْسَ يُقَالُ جِدَادُ النَّخْلِ ، وَحَصَادُ الزَّرْعِ ، جُذَاذُ الْبَقْلِ ؟ قُلْنَا : الِاسْمُ الْعَامُّ الْحَصَادُ ؛ وَهَذِهِ خَوَاصُّ الْعَامِّ عَلَى بَعْضِ مُتَنَاوَلَاتِهِ .

وَقَدْ أَجَابَ عَنْهُ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ بِأَنَّهُ ذَكَرَ الْحَصَادَ فِيمَا يُحْصَدُ دَلِيلًا عَلَى الْجِدَادِ فِيمَا يُجَدُّ ؛ لِأَنَّ أَحَدَهُمَا يَكْفِي عَنْ الْآخَرِ ، وَلَكِنَّ النَّبَاتَ كَانَ أَصْلًا لِقَوْلِهِ : فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ [ فَجَعَلَهَا قِسْمًا ] وَحَبَّ الْحَصِيدِ ، فَجَعَلَهُ قِسْمًا آخَرَ ؛ فَلَمَّا عَادَلَ الْجَمِيعَ اكْتَفَى بِذِكْرِهِ عَنْ ذِكْرِ غَيْرِهِ .

فَإِنْ قِيلَ : فَلَمْ يُنْقَلْ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ أَخَذَ الزَّكَاةَ مِنْ خُضَرِ الْمَدِينَةِ وَلَا خَيْبَرَ .

قُلْنَا : كَذَلِكَ عَوَّلَ عُلَمَاؤُنَا .

وَتَحْقِيقُهُ أَنَّهُ عَدَمُ دَلِيلٍ لَا وُجُودُ دَلِيلٍ .

فَإِنْ قِيلَ : لَوْ أَخَذَهَا لَنُقِلَ .

قُلْنَا : وَأَيُّ

حَاجَةٍ إلَى نَقْلِهِ ، وَالْقُرْآنُ يَكْفِي عَنْهُ .

فَإِنْ قِيلَ : الْآيَةُ مَنْسُوخَةٌ بِأَنَّهَا مَكِّيَّةٌ وَ [ آيَةُ ] الزَّكَاةِ مَدَنِيَّةٌ .

قُلْنَا : قَدْ قَالَ مَالِكٌ : إنَّ الْمُرَادَ بِهِ الزَّكَاةُ الْمَفْرُوضَةُ .

وَتَحْقِيقُهُ : فِي نُكْتَةٍ بَدِيعَةٍ ؛ وَهِيَ أَنَّ الْقَوْلَ فِي أَنَّهَا مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ يَطُولُ .

(93/254)

---

فَهَبْكُمْ أَنَّهَا مَكِّيَّةٌ ؛ إنَّ اللَّهَ أَوْجَبَ الزَّكَاةَ بِهَا إيجَابًا مُجْمَلًا فَتَعَيَّنَ فَرْضُ اعْتِقَادِهَا ، وَوَقَفَ الْعَمَلُ بِهَا عَلَى بَيَانِ الْجِنْسِ وَالْقَدْرِ وَالْوَقْتِ ، فَلَمْ تَكُنْ بِمَكَّةَ حَتَّى تَمَهَّدَ الْإِسْلَامُ بِالْمَدِينَةِ ؛ فَوَقَعَ الْبَيَانُ ، فَتَعَيَّنَ الِامْتِثَالُ ، وَهَذَا لَا يَفْقَهُهُ إلَّا الْعُلَمَاءُ بِالْأُصُولِ .

فَإِنْ قِيلَ : قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ فِيمَا سَقَتْ السَّمَاءُ الْعُشْرُ وَفِيمَا سُقِيَ بِنَضْحٍ أَوْ دَالِيَةٍ نِصْفُ الْعُشْرِ ﴾ كَلَامٌ جَاءَ لِبَيَانِ تَفْصِيلِ قَدْرِ الْوَاجِبِ بِحَالِ الْمُوجَبِ فِيهِ ، وَلَيْسَ الْقَصْدُ مِنْهُ الْعُمُومَ حَتَّى يَقَعَ التَّعْوِيلُ عَلَيْهِ فِي اسْتِعْمَامِ مَا سَقَتْ السَّمَاءُ .

قُلْنَا : هَذَا هُوَ كَلَامُ إمَامِ الْحَرَمَيْنِ ، وَهُوَ مِنْ مُذْهَبَاتِهِ الَّتِي بَنَى عَلَيْهَا كِتَابَ الْبُرْهَانِ ، وَظَنَّ أَنَّهَا لَمْ تُدْرَكْ فِي غَابِرِ الْأَزْمَانِ ، وَلَيْسَ لَهَا فِي الدَّلَائِلِ مَكَانٌ .

نَحْنُ نَقُولُ : إنَّ الْحَدِيثَ جَاءَ لِلْعُمُومِ فِي كُلِّ مَسْقِيٍّ ، وَلِتَفْصِيلِ قَدْرِ الْوَاجِبِ بِاخْتِلَافِ حَالِ الْمُوجِبِ فِيهِ ، وَلَا يَتَعَارَضُ ذَلِكَ ؛ فَيَمْتَنِعُ اجْتِمَاعُهُ ، وَقَدْ مَهَّدْنَاهُ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ .

فَإِنْ قِيلَ : فَقَدْ خَصَّصْتُمْ الْحَدِيثَ فِي الْمَأْكُولَاتِ مِنْ الْمُقْتَاتِ ، فَنَحْنُ نَخُصُّهُ فِي الْمَأْكُولَاتِ أَيْضًا .

قُلْنَا : نَحْنُ خَصَّصْنَاهُ فِي الْمَأْكُولَاتِ مِنْ الْمُقْتَاتِ بِدَلِيلِ الْإِجْمَاعِ ، وَلَا دَلِيلَ لَكُمْ عَلَى تَخْصِيصِهِ فِي الْمُقْتَاتِ ؛ فَإِنْ أَعَادُوا لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَقْوَالِهِمْ أَعَدْنَا مَا سَبَقَ عَلَيْهَا مِنْ الْأَجْوِبَةِ .

(94/254)

---

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : لَا زَكَاةَ فِي الزَّيْتُونِ فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ ؛ قَالَ : لِأَنَّهُ يُؤْكَلُ إدَامًا ، وَأَيْضًا فَإِنَّ التِّينَ أَنْفَعُ مِنْهُ فِي الْقُوتِ وَلَا زَكَاةَ فِيهِ .

قُلْنَا لَهُ : الزَّكَاةُ تَجِبُ عِنْدَنَا فِي التِّينِ ، فَلَا قَوْلَ لَك فِي ذَلِكَ ، وَأَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ التِّينِ وَالزَّبِيبِ ، وَالزَّيْتُونُ قُوتٌ يُدَّخَرُ ذَاتُهُ وَيُدَّخَرُ زَيْتُهُ ؛ فَلَا كَلَامَ عَلَيْهِ .

الْمَسْأَلَةُ الْعَاشِرَةُ : قَالَ مَالِكٌ فِي أَظْهَرِ قَوْلَيْهِ : إنَّمَا تَكُونُ الزَّكَاةُ فِيمَا يُقْتَاتُ فِي حَالِ الِاخْتِيَارِ دُونَ مَا يُقْتَاتُ بِهِ فِي حَالِ الضَّرُورَةِ ، فَلَا زَكَاةَ فِي الْقَطَانِي ، وَبِهِ قَالَ الْحَسَنُ وَالشَّعْبِيُّ وَابْنُ

سِيرِينَ وَابْنُ أَبِي لَيْلَى وَالْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ وَالثَّوْرِيُّ وَابْنُ الْمُبَارَكِ وَيَحْيَى بْنُ آدَمَ وَأَبُو عُبَيْدٍ ، وَلِذَلِكَ اخْتَلَفَ قَوْلُهُ فِي التِّينِ ، فَكَانَ لَا يُوجِبُ فِيهِ الزَّكَاةَ ، لِأَنَّهُ لَا يَدْرِيهِ ، فَإِذَا أُخْبِرَ عَنْهُ وَرَأَى مَوْقِعَهُ فِي بِلَادِهِ أَوْجَبَ فِيهِ الزَّكَاةَ ؛ وَهَذَا بِنَاءٌ عَلَى أَصْلٍ مِنْ أُصُولِ الْفِقْهِ ؛ وَهُوَ أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى إذَا وَرَدَ ، هَلْ يُحْمَلُ عَلَى الْعُمُومِ الْمُطْلَقِ أَوْ الْغَالِبِ مِنْ الْمُتَنَاوَلِ فِيهِ ؟

وَالصَّحِيحُ حَمْلُهُ : عَلَى الْعُمُومِ الْمُطْلَقِ حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي مَوْضِعِهِ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

(95/254)

---

الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ : اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي وَقْتِ وُجُوبِ الزَّكَاةِ فِي هَذِهِ الْأَمْوَالِ النَّبَاتِيَّةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهَا تَجِبُ وَقْتَ الْجِدَادِ ؛ قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ ؛ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ .

الثَّانِي : أَنَّهَا تَجِبُ يَوْمَ الطِّيبِ لِأَنَّ مَا قَبْلَ الطِّيبِ يَكُونُ عَلَفًا لَا قُوتًا وَلَا طَعَامًا ؛ فَإِذَا طَابَتْ وَكَانَ الْأَكْلُ الَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ وَجَبَ الْحَقُّ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ، إذْ بِتَمَامِ النِّعْمَةِ يَجِبُ شُكْرُ النِّعْمَةِ ، وَيَكُونُ الْإِيتَاءُ يَوْمَ الْحَصَادِ لِمَا قَدْ وَجَبَ يَوْمَ الطِّيبِ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ يَكُونُ بَعْدَ تَمَامِ الْخَرْصِ ؛ قَالَهُ الْمُغِيرَةُ ؛ لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ يَتَحَقَّقُ الْوَاجِبُ فِيهِ مِنْ

الزَّكَاةِ ، فَيَكُونُ شَرْطًا لِوُجُوبِهَا ، أَصْلُهُ مَجِيءُ السَّاعِي فِي الْغَنَمِ .

وَلِكُلِّ قَوْلٍ وَجْهٌ كَمَا تَرَوْنَ ؛ لَكِنَّ الصَّحِيحَ وُجُوبُ الزَّكَاةِ بِالطِّيبِ ، لِمَا بَيَّنَّاهُ مِنْ الدَّلِيلِ ؛ وَإِنَّمَا خَرَصَ عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمَ قَدْرَ الْوَاجِبِ فِي ثِمَارِهِمْ .

وَالْأَصْلُ فِي الْخَرْصِ حَدِيثُ الْمُوَطَّإِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ إلَى أَهْلِ خَيْبَرَ فَخَرَصَ عَلَيْهِمْ وَخَيَّرَهُمْ بَيْنَ أَنْ يَأْخُذُوا وَلَهُ مَا قَالَ ، أَوْ يَنْخَلُوا وَلَهُمْ مَا قَالَ : فَقَالُوا : بِهَذَا قَامَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ .

(96/254)

---

وَيَا وَيْحَ الْبُخَارِيِّ يَتَخَيَّرُ عَلَى مَالِكٍ ، وَلَا يُدْخِلُ هَذَا الْحَدِيثَ فِي بَابِ الْخَرْصِ ، وَيُدْخِلُ مِنْهُ حَدِيثَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَنَّهُ مَرَّ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ بِحَدِيقَةٍ فَقَالَ : اُخْرُصُوا هَذِهِ فَخَرَصُوا ؛ فَلَمَّا رَجَعَ عَنْ الْغَزْوِ وَسَأَلَ الْمَرْأَةَ كَمْ جَاءَتْ حَدِيقَتُك ؟ فَأَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا جَاءَتْ كَمَا قَالَ ؟ ﴾ فَكَانَتْ إحْدَى مُعْجِزَاتِهِ فِي قَوْلٍ .

فَإِنْ تَلِفَتْ بَعْدَ الطِّيبِ فَلَا شَيْءَ فِيهَا عَلَى الْمَالِكِ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ : إنَّ اللَّهَ ذَهَبَ بِمَالِهِ وَمَا عَلَيْهِ ، وَلَمْ يُلْزِمْهُ أَنْ يُخْرِجَهَا مِنْ غَيْرِهِ ، وَإِنْ تَلِفَتْ بَعْدَ الْخَرْصِ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ : فَلَا بُدَّ لَهُ أَنْ يُقِيمَ الْبَيِّنَةَ عَلَى تَلَفِهَا .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : يَحْلِفُ لِأَنَّهَا أَمَانَةٌ عِنْدَهُ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ؛ بَلْ هِيَ وَاجِبَةٌ عَلَيْهِ ، فَلَا يُبَرِّئُهُ مِنْهَا إلَّا إيجَادُ الْبَرَاءَةِ ؛ وَإِنَّمَا ذَلِكَ فِي الْأَمَانَاتِ الَّتِي تَكُونُ مُسْتَحْفَظَةً عِنْدَهُ مِنْ غَيْرِهِ ، وَفِي ذَلِكَ تَفْصِيلٌ ذَكَرَهُ : فِي الْفُرُوعِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ : تَرَكَّبَتْ عَلَى هَذِهِ الْأُصُولِ مَسْأَلَةٌ ؛ وَهِيَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْجَبَ الزَّكَاةَ فِي الْكَرْمِ وَالْفُرُوعِ وَالنَّخْلِ مُطْلَقًا ، ثُمَّ فَسَّرَ النِّصَابَ بِقَوْلِهِ : لَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسَةِ أَوْسُقٍ مِنْ تَمْرٍ وَلَا حَبٍّ صَدَقَةٌ .

(97/254)

---

فَمَنْ حَصَلَ لَهُ مِنْ تَمْرٍ وَزَبِيبٍ مَعًا خَمْسَةُ أَوْسُقٍ ، أَوْ مِنْ زَبِيبٍ خَمْسَةُ أَوْسُقٍ وَجَبَتْ عَلَيْهِ الزَّكَاةُ فِيهَا ، فَإِنْ حَصَلَ لَهُ مِنْ تَمْرٍ وَزَبِيبٍ مَعًا خَمْسَةُ أَوْسُقٍ لَمْ تَلْزَمْهُ زَكَاتُهُ إجْمَاعًا فِي الْوَجْهَيْنِ ؛ لِأَنَّهُمَا صِنْفَانِ مُخْتَلِفَانِ .

فَإِنْ حَصَلَ لَهُ مِنْ طَعَامِ بُرٍّ وَشَعِيرٍ مَعًا خَمْسَةُ أَوْسُقٍ زَكَّاهُمَا [ مَعًا ] عِنْدَ مَالِكٍ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : لَا يُجْمَعَانِ ، وَكَذَلِكَ غَيْرُهُمَا ، وَإِنَّمَا هِيَ أَنْوَاعٌ كُلُّهَا يُعْتَبَرُ النِّصَابُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَلَى الِانْفِرَادِ ؛ لِأَنَّهُمَا يَخْتَلِفَانِ فِي الِاسْمِ الْخَاصِّ ؛ وَفِي حَالَةِ الطَّعْمِ .

وَالصَّحِيحُ ضَمُّهُمَا ؛ لِأَنَّهُمَا قُوتَانِ يَتَقَارَبَانِ ، فَلَا يَضُرُّ اخْتِلَافُ الِاسْمِ .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي كُتُبِ الْفُرُوعِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا إنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ الْإِسْرَافُ : هُوَ الزِّيَادَةُ ، فَقِيلَ لَهُمْ : لَا تُسْرِفُوا فِي الْأَكْلِ بِزِيَادَةِ الْحَرَامِ عَلَى مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تُسْرِفُوا فِي أَخْذِ زِيَادَةٍ عَلَى حَقِّكُمْ ، وَهُوَ التِّسْعَةُ الْأَعْشَارُ ، حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ ، وَأَدُّوا مَا يَتَعَيَّنُ عَلَيْكُمْ بِالْخَرْصِ أَوْ بِالْجِذَاذِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

*(98/254)*

---

وقال العلامة الماوردى :

بَابُ صَدَقَةِ الزَّرْعِ

قَالَ الشَّافِعِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ، [ الْأَنْعَامِ : ] ، دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ إنَّمَا جَعَلَ الزَّكَاةَ عَلَى الزَّرْعِ " . أَمَّا الزُّرُوعُ فَمِنَ الْأَمْوَالِ الْمُزَكَّاةِ وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي أَجْنَاسِ مَا تَجِبُ فِيهَا الزَّكَاةُ من الزروع ، فَلِلْفُقَهَاءِ فِي ذَلِكَ سَبْعَةُ مَذَاهِبَ : أَحَدُهَا : وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ أَنَّ الزَّكَاةَ وَاجِبَةٌ فِيمَا زَرَعَهُ الْآدَمِيُّونَ قُوتًا مُدَّخَرًا ، وَبِهِ قَالَ الْأَئِمَّةُ الْأَرْبَعَةُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ . وَالْمَذْهَبُ الثَّانِي : أَنَّ الزَّكَاةَ وَاجِبَةٌ فِي الْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ لَا غَيْرَ ، قَالَ بِهِ الْحَسَنُ وَابْنُ

سِيرِينَ وَالشَّعْبِيُّ وَالْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ . وَالْمَذْهَبُ الثَّالِثُ : أَنَّ الزَّكَاةَ وَاجِبَةٌ فِي الْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ وَالذُّرَةِ لَا غَيْرَ ، قَالَ بِهِ أَبُو ثَوْرٍ . وَالْمَذْهَبُ الرَّابِعُ : أَنَّهَا وَاجِبَةٌ فِي كُلِّ زَرْعٍ نَبَتَ مِنْ بَزْرِهِ وَأُخِذَ بَزْرُهُ مِنْ زَرْعِهِ قَالَ بِهِ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ . وَالْمَذْهَبُ الْخَامِسُ : أَنَّهَا وَاجِبَةٌ فِي الْحُبُوبِ الْمَأْكُولَةِ غَالِبًا مِنَ الزُّرُوعِ قَالَ بِهِ مَالِكٌ . وَالْمَذْهَبُ السَّادِسُ : أَنَّهَا وَاجِبَةٌ مِنَ الْحُبُوبِ الْمَأْكُولَةِ . وَالْقُطْنِ أَيْضًا قَالَ بِهِ أَبُو يُوسُفَ . وَالْمَذْهَبُ السَّابِعُ : أَنَّهَا وَاجِبَةٌ فِي كُلِّ مَزْرُوعٍ وَمَغْرُوسٍ مِنْ فَوَاكِهَ وَبِقَالٍ وَحُبُوبٍ وَخُضَرٍ ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ اسْتِدْلَالًا بِعُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ [ الْبَقَرَةِ : ] . وَبِعُمُومِ

(99/254)

---

قَوْلِهِ : وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ ، [ الْأَنْعَامِ : ] إِلَى قَوْلِهِ : وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ [ الْأَنْعَامِ : ] . وَبِمَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : فِيمَا سَقَتِ السَّمَاءُ الْعُشْرُ وَهُوَ عَلَى عُمُومِهِ ، وَلِأَنَّهُ مَزْرُوعٌ فَاقْتَضَى أَنْ يَجِبَ عُشْرُهُ كَالْبُرِّ وَالشَّعِيرِ . وَالدَّلَالَةُ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الشَّافِعِيُّ مَا رَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ عَنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ

(100/254)

السَّلَامُ وَرَوَاهُ مُوسَى بْنُ طَلْحَةَ عَنْ أَبِيهِ طَلْحَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : لَيْسَ فِي الْخَضْرَاوَاتِ صَدَقَةٌ . وَرَوَى أَبَانٌ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : لَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْبُقُولِ زَكَاةٌ . وَرَوَى الْأَسْوَدُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : لَيْسَ فِيمَا أَنْبَتَتِ الْأَرْضُ مِنَ الْخَضْرَاوَاتِ زَكَاةٌ وَرَوَى مُوسَى بْنُ طَلْحَةَ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : مَا سَقَتْهُ السَّمَاءُ فَفِيهِ الْعُشْرُ وَمَا سُقِيَ بِنَضْحٍ أَوْ غَرْبٍ ، فَفِيهِ نِصْفُ الْعُشْرِ ، يَكُونُ ذَلِكَ فِي التَّمْرِ وَالْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ وَالْحُبُوبِ ، فَأَمَّا الْبِطِّيخُ وَالْقِثَّاءُ وَالْخَضْرَاوَاتُ فَعَفْوٌ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ، وَلِأَنَّهُ نَبْتٌ لَا يُقْتَاتُ غَالِبًا فَاقْتَضَى أَنْ لَا يَجِبَ فِيهِ الْعُشْرُ كَالْحَشِيشِ وَالْحَطَبِ ، وَلِأَنَّ الزَّكَاةَ إِذَا وَجَبَتْ فِي جِنْسٍ فِيهِ الْعُشْرُ كَالْحَشِيشِ وَالْحَطَبِ ، وَلِأَنَّ الزَّكَاةَ إِذَا وَجَبَتْ فِي جِنْسٍ تَعَلَّقَتْ بِأَعْلَى نَوْعَيْهِ وَسَقَطَتْ عَنْ أَدْوَنِهِمَا ، كَالْحَيَوَانِ لَمْ تَجِبِ الزَّكَاةُ إِلَّا فِي أَعْلَى نَوْعَيْهِ وَهُوَ النَّعَمُ السَّائِمَةُ ، وَكَالْمَعَادِنِ لَا تَجِبُ الزَّكَاةُ إِلَّا فِي أَعْلَى نَوْعَيْهَا وَهِيَ الْفِضَّةُ وَالذَّهَبُ ، وَكَالْعُرُوضِ وَلَمْ تَجِبِ الزَّكَاةُ إِلَّا فِي أَعْلَى نَوْعِهَا وَهِيَ عُرُوضُ التِّجَارَاتِ ، فَاقْتَضَى أَنْ تَكُونَ زَكَاةُ الزُّرُوعِ مُتَعَلِّقَةٌ بِأَعْلَى نَوْعَيْهِ دُونَ الْآخَرِ ، وَتَحْرِيرُ ذَلِكَ قِيَاسًا : أَنَّهُ جِنْسُ مَالٍ تَجِبُ فِيهِ الزَّكَاةُ فَوَجَبَ أَنْ تَخْتَصَّ الزَّكَاةُ بِأَعْلَى نَوْعَيْنِ مِنْ جِنْسِهِ كَالْحَيَوَانِ .

فَأَمَّا الْجَوَابُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ [ الْبَقَرَةِ : ] ، فَهِيَ عَامَّةٌ وَلَا بُدَّ مِنْ دَعْوَى الْإِضْمَارِ فِيهَا ، فَأَمَّا أَبُو حَنِيفَةَ يَقُولُ : إِلَّا الْفِضَّةَ وَنَحْنُ نَقُولُ إِلَّا مَا يُقْتَاتُ ، وَلَيْسَ أَحَدُ الْإِضْمَارَيْنِ أَوْلَى مِنَ الْآخَرِ فَتَعَارَضَا ، عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ لَيْسَ فِي الْخَضْرَوَاتِ شَيْءٌ يَخُصُّهُ ، وَبِهَذَا الْجَوَابِ يَنْفَصِلُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ [ الْأَنْعَامِ : ] ، وَيَنْفَصِلُ عَنْهُ أَيْضًا بِجَوَابَيْنِ آخَرِينَ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى غَيْرِ الزَّكَاةِ مِنْ صَدَقَةٍ يَتَطَوَّعُ بِهَا يَوْمَ الْحَصَادِ لِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ أَمَرَ بِإِيتَاءِ حَقِّهِ ، وَلَمْ يَقُلْ حَقَّ اللَّهِ مِنْهُ ، وَلَيْسَ لِشَيْءٍ مِمَّا ذُكِرَ حَقٌّ ، وَإِنَّمَا الْحَقُّ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَيْنَا . وَالثَّانِي : أَنَّهُ أَمَرَنَا بِإِخْرَاجِهِ يَوْمَ حَصَادِهِ ، وَالزَّكَاةُ لَا يَجِبُ إِخْرَاجُهَا يَوْمَ الْحَصَادِ إِلَّا بَعْدَ الْجَزِّ وَالدِّيَاسِ ، فَبِهَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ سَقَطَ الِاسْتِدْلَالُ بِظَاهِرِ الْآيَةِ ، فَهَذَا أَحَدُ الْجَوَابَيْنِ . وَالْجَوَابُ الثَّانِي : أَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى الزَّكَاةِ إِلَّا أَنَّهُ عَلَّقَ الزَّكَاةَ بِمَا كَانَ مِنْهُ مَحْصُودًا ، وَالْحَصَادُ غَيْرُ مُسْتَعْمَلٍ فِي الْأَشْجَارِ وَالْقِثَّاءِ وَالْخِيَارِ ، فَإِنْ قِيلَ الْحَصَادُ هُوَ الِاسْتِعْمَالُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ [ الْأَنْبِيَاءِ : ] ، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : احْصُدْهُمْ حَصِيدًا حَتَّى تَلْقَنِي عَلَى الصَّفَا .

وَإِذَا كَانَ الْحَصْدُ هُوَ الِاسْتِئْصَالُ صَارَ تَقْدِيرُ الْآيَةِ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ اسْتِئْصَالِهِ ، وَهَذَا لَا يَخْتَصُّ بِزَرْعٍ مِنْ غَيْرِهِ ، قِيلَ : عَنْ هَذَا جَوَابَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ حَقِيقَةَ الْحَصَادِ فِي الزُّرُوعِ ، وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ مَجَازًا فِي غَيْرِهِ ، يُقَالُ : حَصْدُ الزَّرْعِ وَجَذُّ التَّمْرِ ، وَقَطْفُ الْعِنَبِ وَجَدُّ الْبَقْلِ وَجَنَى الْفَاكِهَةِ قَالَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : هَذَا جَنَايَ وَخِيَارُهُ فِيهِ إذْ كُلُّ جَانٍ يَدُهُ إلَى فِيهِ وَقَالَ الشَّاعِرُ : إذَا لَمْ يَكُنْ فِيكُنَّ ظِلٌّ وَلَا جَنًا فَأَبْعَدَ كُنَّ اللَّهُ مِنْ شَجَرَاتِ وَالْجَوَابُ الثَّانِي : أَنَّا وَإِنْ سَلَّمْنَا أَنَّ الْحَصَادَ هُوَ الِاسْتِئْصَالُ فَلَا دَلَالَةَ فِي الْآيَةِ : لِأَنَّ الثِّمَارَ لَا تُسْتَأْصَلُ بَلْ تُتْرَكُ أُصُولُهَا وَتُجْنَى ثِمَارُهَا ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ ظَاهِرُ الْآيَةِ مُسْتَعْمَلًا تَكَافَأَ النِّزَاعُ فِيهَا وَسَقَطَ الِاحْتِجَاجُ بِهَا ، فَأَمَّا قَوْلُهُ : فِيمَا سَقَتِ السَّمَاءُ الْعُشْرُ فَجَوَابُهُ كَجَوَابِ الْآيَةِ الْأُولَى فَنَقُولُ قَدْ رَوَاهُ مُعَاذٌ تَامًّا فَقَالَ : وَأَمَّا الْبِطِّيخُ وَالْقِثَّاءُ وَالْخَضْرَاوَاتُ فَعَفْوٌ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ، فَكَانَ هَذَا مُخَصِّصًا لِعُمُومِ مَا تَقَدَّمَ . وَأَمَّا قِيَاسُهُ عَلَى الْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ فَالْمَعْنَى فِيهِ : أَنَّهُ مُقْتَاتٌ فَلِذَلِكَ وَجَبَتْ فِيهِ الزَّكَاةُ ، وَالْخَضْرَاوَاتُ لَمَّا كَانَتْ غَيْرَ مُقْتَاتَةٍ شَابَهَتِ الْحَشِيشَ وَالْحَطَبَ فَلَمْ تَجِبْ فِيهَا الزَّكَاةُ .

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " فَمَا جَمَعَ أَنْ يَزْرَعَهُ الْآدَمِيُّونَ وَيَيْبَسُ وَيُدَّخَرُ وَيُقْتَاتُ مَأْكُولًا خُبْزًا وَسَوِيقًا أَوْ بِطِّيخًا فَفِيهِ الصَّدَقَةُ وَرُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ الصَّدَقَةَ مِنَ الْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ وَالذُّرَةِ وَهَذَا مِمَّا يُزْرَعُ وَيُقْتَاتُ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : وَهَذَا كَمَا قَالَ . إذَا ثَبَتَ بِمَا ذَكَرْنَا وُجُوبُ الزَّكَاةِ فِي الزُّرُوعِ الْمُقْتَاتَةِ فَوُجُوبُهَا مُعْتَبَرٌ بِأَرْبَعَةِ شُرُوطٍ : أَحَدُهَا : أَنْ يَزْرَعَهُ الْآدَمِيُّونَ . وَالثَّانِي : أَنْ يَكُونَ مِمَّا يَيْبَسُ بَعْدَ حَصَادِهِ . وَالثَّالِثُ : أَنْ يَكُونَ مِمَّا يُدَّخَرُ بَعْدَ يُبْسِهِ . وَالرَّابِعُ : أَنْ يَكُونَ مِمَّا يُقْتَاتُ حَالَ ادِّخَارِهِ وَإِنِ اخْتَلَفَ وَجْهُ اقْتِنَائِهِ بِخُبْزٍ أَوْ طَبِيخٍ ، فَإِذَا اجْتَمَعَتْ هَذِهِ الشَّرَائِطُ الْأَرْبَعُ فِي زَرْعٍ وَجَبَتِ الزَّكَاةُ فِيهِ ، وَهِيَ تَجْتَمِعُ فِي الْبُرِّ وَالشَّعِيرِ وَالْعَلَسِ ، وَالسُّلْتِ وَالذُّرَةِ وَالْأَرُزِّ وَالدُّخْنِ وَالْجَاوْرَسِ وَالْبَاقِلِّي وَاللُّوبِيَاءِ وَالْحِمَّصِ وَالْعَدَسِ وَالْمَاشِ وَالْجُلْبَانِ وَهُوَ كَالْمَاشِ ، فَهَذِهِ الْأَصْنَافُ الَّتِي تَجِبُ فِيهَا الزَّكَاةُ دُونَ سِوَاهَا لِاجْتِمَاعِ الشَّرَائِطِ فِيهَا .

*(104/254)*

---

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " وَيُؤْخَذُ مِنَ الْعَلَسِ وَهُوَ الْحِنْطَةُ ، وَالسُّلْتِ وَالْقُطْنِيَّةِ كُلِّهَا إذَا بَلَغَ الصِّنْفُ الْوَاحِدُ خَمْسَةَ أَوْسُقٍ ، وَالْعَلَسُ وَالْقَمْحُ صِنْفٌ وَاحِدٌ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : وَهَذَا

كَمَا قَالَ . لَا زَكَاةَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْحُبُوبِ الْمُزَكَّاةِ نصاب الزكاة فيها إلَّا أَنْ يَبْلُغَ الصِّنْفُ مِنْهَا خَمْسَةَ أَوْسُقٍ ، وَأَوْجَبَ أَبُو حَنِيفَةَ الزَّكَاةَ فِي قَلِيلِهَا وَكَثِيرِهَا وَقَدْ مَضَى الْكَلَامُ مَعَهُ فِي الثِّمَارِ فَلَا مَعْنَى لِإِعَادَتِهِ ، فَإِنْ كَانَ الصِّنْفُ دُونَ خَمْسَةِ أَوْسُقٍ فَلَا زَكَاةَ فِيهِ ، وَإِنْ كَانَ خَمْسَةَ أَوْسُقٍ ، فَفِيهِ الزَّكَاةُ إلَّا الْعَلَسَ فَإِنَّهُ صِنْفٌ مِنَ الْبُرِّ وَعَلَيْهِ قِشْرَتَانِ تَذْهَبُ بِالدِّيَاسِ إحْدَاهُمَا وَتَبْقَى الْأُخْرَى ، لَا تَذْهَبُ إلَّا أَنْ يُدَقَّ بِالْمِهْرَاسِ ، قَالَ الشَّافِعِيُّ : وَأَخْبَرَنِي بَعْضُ أَصْحَابِنَا مِمَّنْ أَثِقُ بِهِ أَنَّ الْقِشْرَةَ الَّتِي عَلَيْهِ مِثْلُ ضِعْفِهِ ، فَلَا تَجِبُ فِيهِ الزَّكَاةُ حَتَّى يَبْلُغَ عَشَرَةَ أَوْسُقٍ مَعَ قِشْرِهِ ، وَقَدْ مَنَعَ أَصْحَابُنَا مِنَ السَّلَمِ فِيهِ وَمِنْ بَيْعِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ ، وَأَمَّا الْأَرُزُّ فَعَلَيْهِ قِشْرَتَانِ ، الْقِشْرَةُ الْأُولَى الَّتِي لَا يُطْبَخُ بِهَا ، وَلَا يُؤْكَلُ مَعَهَا لِاحْتِسَابٍ بِهَا كَقِشْرَةِ الْعَلَسِ الَّتِي لَا يُطْبَخُ بِهَا وَالْقِشْرَةُ السُّفْلَى الْحَمْرَاءُ اللَّاصِقَةُ بِهِ ، فَقَدْ كَانَ أَبُو عَلِيِّ بْنُ أَبِي هُرَيْرَةَ يَجْعَلُهَا كَقِشْرَةِ الْعَلَسِ لَا يُحْتَسَبُ بِهَا ، وَيَجْعَلُ فِيهِ الزَّكَاةَ حَتَّى يَبْلُغَ عَشَرَةَ أَوْسُقٍ . وَقَالَ سَائِرُ أَصْحَابِنَا : لَا تَأْثِيرَ لِهَذِهِ

(105/254)

---

الْقِشْرَةِ ، وَإِذَا بَلَغَ خَمْسَةَ أَوْسُقٍ وَجَبَتْ فِيهِ الزَّكَاةُ ، لِالْتِصَاقِ هَذِهِ الْقِشْرَةِ بِهَا ، وَإِنَّهُ رُبَّمَا طُحِنَ مَعَهَا بِخِلَافِ قِشْرَةِ الْعَلَسِ الْجَافِيَةِ عَنْهَا ، وَلَمْ تَجْرِ الْعَادَةُ بِطَحْنِهَا مَعَهُ ، وَأَمَّا الذُّرَةُ

الْبَيْضَاءُ وَالْحَمْرَاءُ فَقَدْ قَالَ الشَّافِعِيُّ أَخْبَرَنِي مَنْ أَثِقُ بِهِ أَنَّ قِشْرَةً خَفِيفَةً لَاصِقَةً بِهَا تُطْحَنُ مَعَهَا ، فَلَا تَأْثِيرَ لَهَا وَلَا اعْتِبَارَ بِهَا ، وَهَذَا يُوَضِّحُ مَا ذَكَرْنَا فِي الْأَرُزِّ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

*(106/254)*

---

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " وَلَا يُضَمُّ صِنْفٌ مِنَ الْقُطْنِيَّةِ انْفَرَدَ بِاسْمٍ إلَى صِنْفٍ ، وَلَا شَعِيرٍ إلَى حِنْطَةٍ ، وَلَا حَبَّةٍ عُرِفَتْ بِاسْمٍ مُنْفَرِدٍ إلَى غَيْرِهَا فَاسْمُ الْقُطْنِيَّةِ يَجْمَعُ الْعَدَسَ وَالْحِمَّصَ قِيلَ : ثُمَّ يَنْفَرِدُ كُلُّ وَاحِدٍ بِاسْمٍ دُونَ صَاحِبِهِ وَقَدْ يَجْمَعُهَا اسْمُ الْحُبُوبِ فَإِنْ قِيلَ : فَقَدْ أَخَذَ عُمَرُ الْعُشْرَ مِنَ النَّبَطِ فِي الْقُطْنِيَّةِ قِيلَ : وَأَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعُشْرَ مِنَ التَّمْرِ وَالزَّبِيبِ وَأَخَذَ عُمَرُ الْعُشْرَ مِنَ الْقُطْنِيَّةِ وَالزَّبِيبِ فَيُضَمُّ ذَلِكَ كُلُّهُ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : أَمَّا الْقُطْنِيَّةُ وَهِيَ الْحُبُوبُ الْمُقْتَاتَةُ سِوَى الْبُرِّ وَالشَّعِيرِ كَالْحِمَّصِ وَالْبَاقِلِّي وَالْعَدَسِ وَاللُّوبْيَاءِ ، وَالْأَرُزِّ الزكاة فيها وَمَا ذَكَرْنَا ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا قَاطِنَةٌ فِي الْمَنْزِلِ مَعَ أَرْبَابِهَا إذَا ادُّخِرَتْ أَيْ : مُقِيمَةٌ . وَحُكِيَ عَنْ مَالِكٍ : أَنَّهُ ضَمَّ الْقُطْنِيَّةَ بَعْضَهَا إلَى بَعْضٍ وَجَعَلَهَا جِنْسًا وَاحِدًا ، وَاعْتَبَرَ خَمْسَةَ أَوْسُقٍ مِنْ جَمِيعِهَا وَجَعَلَ الْبُرَّ وَالشَّعِيرَ جِنْسًا وَاحِدًا أَوْ اعْتَبَرَ خَمْسَةَ أَوْسُقٍ مِنْهَا تَعَلُّقًا ، بِأَنَّ اسْمَ الْقُطْنِيَّةِ جَامِعٌ ، وَإِنْ كَانَتْ أَنْوَاعًا كَمَا أَنَّ اسْمَ التَّمْرِ جَامِعٌ وَإِنْ

كَانَ أَنْوَاعًا ثُمَّ ثَبَتَ أَنَّ أَنْوَاعَ التَّمْرِ يُضَمُّ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ فَكَذَلِكَ أَنْوَاعُ الْقُطْنِيَّةِ يَجِبُ ضَمُّ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ ، وَأَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَخَذَ الْعُشْرَ مِنَ الْقُطْنِيَّةِ ، وَهَذَا خَطَأٌ لِمَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ

*(107/254)*

---

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : " لَا زَكَاةَ فِي الزَّرْعِ إِلَّا فِي أَرْبَعَةٍ الْبُرِّ وَالشَّعِيرِ وَالتَّمْرِ وَالزَّبِيبِ وَلَا تَجِبُ الزَّكَاةُ فِيهَا حَتَّى يَبْلُغَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا خَمْسَةَ أَوْسُقٍ ، وَلِأَنَّهَا جِنْسَانِ لَا يَحْرُمُ التَّفَاضُلُ فِي بَيْعِ أَحَدِهِمَا بِالْآخَرِ فَلَمْ يَجُزْ ضَمُّ أَحَدِهِمَا إِلَى الْآخَرِ كَالتَّمْرِ وَالزَّبِيبِ ، وَلِأَنَّ الزَّكَوَاتِ لَا تَخْلُو مِنْ أَنْ تَكُونَ مُتَعَلِّقَةً بِالْأَسَامِي الْجَامِعَةِ أَوِ الْأَسَامِي الْخَاصَّةِ ، فَإِنْ كَانَتْ بِالْأَسَامِي الْجَامِعَةِ وَجَبَ أَنْ تُضَمَّ الْحُبُوبُ كُلُّهَا : لِأَنَّ اسْمَ الْحُبُوبِ يَجْمَعُهَا ، وَالْمَاشِيَةُ كُلُّهَا : لِأَنَّ اسْمَ الْحَيَوَانَاتِ يَجْمَعُهَا ، وَالتَّمْرُ وَالزَّبِيبُ : لِأَنَّ اسْمَ الثَّمَرِ يَجْمَعُهَا ، فَلَمَّا بَطَلَ هَذَا ثَبَتَ أَنَّهَا مُتَعَلِّقَةٌ بِالْأَسَامِي الْخَاصَّةِ الَّتِي تَجْمَعُ أَنْوَاعًا مُخْتَلِفَةً كَالتَّمْرِ يَجْمَعُ أَنْوَاعًا مُخْتَلِفَةً يَقَعُ عَلَى جَمِيعِهَا اسْمُ التَّمْرِ ، وَالْعِنَبِ يَجْمَعُ أَنْوَاعًا مُخْتَلِفَةً يَقَعُ عَلَى جَمِيعِ اسْمُ الْعِنَبِ ، كَذَا كُلُّ صِنْفٍ مِنَ الْقُطْنِيَّةِ لَهُ اسْمٌ خَاصٌّ يَجْمَعُ أَنْوَاعًا مُخْتَلِفَةً ، وَبِهَذَا يَفْسُدُ مَا اسْتَدَلَّ بِهِ وَمَا رَوَاهُ عَنْ عُمَرَ فَلَا دَلَالَةَ فِيهِ : لِأَنَّهُ قَدْ أَخَذَ الزَّكَاةَ مِنَ الْمَاشِيَةِ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى ضَمِّ بَعْضِهَا

إِلَى بَعْضٍ ، فَكَذَا فِي الْقُطْنِيَّةِ فَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فَالْبُرُّ وَأَنْوَاعُهُ صِنْفٌ ، وَالْعَلَسُ نَوْعٌ مِنْهُ وَالشَّعِيرُ وَأَنْوَاعُهُ صِنْفٌ ، وَالسُّلْتُ نَوْعٌ مِنْهُ وَمِنْ أَصْحَابِنَا مَنْ قَالَ هُوَ صِنْفٌ عَلَى حِيَالِهِ ، وَالدُّخْنُ

(108/254)

---

وَأَنْوَاعُهُ صِنْفٌ ، وَالْجَاوَرْسُ نَوْعٌ مِنْهُ ، ثُمَّ مَا سِوَى هَذِهِ مِمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ أَصْنَافٌ مُخْتَلِفَةٌ ، وَإِنْ تَنَوَّعَتْ فَلَا ضَمَّ صِنْفٌ مِنْهَا إِلَى صِنْفٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحاوى فى الفقه الشافعى حـ 3 صـ 238.242 ﴾

(109/254)

---

ومن فوائد أبى حيان فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمّان متشابهاً وغير متشابه ﴾

مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما أخبر عنهم أنه حرموا أشياء مما رزقهم الله ، أخذ يذكر تعالى ما امتنّ به عليهم من الرزق الذي تصرّفوا فيه بغير إذنه تعالى افتراء منهم عليه واختلافاً فذكر نوعي الرزق النباتي والحيواني فبدأ بالنباتي كما بدأ به في الآية المشبهة لهذا ، واستطرد منه إلى الحيواني إذ كانوا قد حرّموا أشياء من النوعين و ﴿ معروشات ﴾ اسم مفعول يقال : عرّشت الكرم إذا جعلت له دعائم وسمكاً ينعطف عليه القضبان .

*(110/254)*

---

وهل المعروشات ما غرسه الناس وعرّشوه وغيرها ما نبت في الصحاري والبراري ؟ وهو قول ابن عباس ، أو كل شجر ذي ساق كالنخل والكرم وكل ما نجم غير ذي ساق كالزرع أو ما يثمر وما لا يثمر أو الكرم قسمت إلى ما عرش فارتفع وإلى ما كان منها منبسطاً على الأرض ؟ قاله ابن عباس ، أو ما حوله حائط وما لا حائط حوله وما انبسط على وجه الأرض وانتشر كالكرم والقرع والبطيخ ، وما قام على ساق كالنخل والزرع والأشجار قاله ابن عباس ، أو الكرم الذي عرش عنبه وسائر الشجر الذي لا يعرش أو ما يرتفع بعض أغصانه على بعض وما لا يحتاج إلى ذلك ، أو ما عادته أن يعرش كالكرم وما يجري مجراه وما لا يعرش كالنخل وما أشبهه ؟ تسعة أقوال : والظاهر أن المعروش ما جعل له عرش

كرماً كان أو غيره ، وغير المعروش ما لم يجعل له ذلك ، ولما كانت هذه الآية واردة في معنى ذكر المنة والإحسان قدم ما حاجة العرب إليه أشد وما هو أكثر فيه ، كما قال تعالى : ﴿ بواد غير ذي زرع ﴾ وهو غالب قوتهم ، فقال : ﴿ والنخل والزرع ﴾ ولما كانت تلك الآية جاءت عقب إنكار الكفار التوحيد وجعلهم معه آلهة ، استطرد من ذلك إلى المعاد الأخروي واستدل عليه بقوله : ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ﴾ فاندرج فيه ﴿ النخل والزرع ﴾ كان الابتداء في التقسيم بذكر الزرع لصغر حبه وهو أدل على التوحيد ، والقدرة التامّة وأبلغ في الاعتبار وأسرع في الانتفاع من ما هو فوقه في الجرم ، والظاهر دخول ﴿ والنخل ﴾ وما بعده في قوله : ﴿ جنات معروشات وغير معروشات ﴾ فاندرج في ﴿ جنات ﴾ وخص بالذكر وجرد تعظيماً لمنفعته والامتنان به ، ومن خص الجنات بقسمها بالكرم قال : ذكر النخل وما بعده ذكر أنواع أخبر تعالى بأنه أنشأها واختلاف أكله وهو المأكول ، هو بأن كل نوع من أنواع النخل والزرع طعماً ولوناً وحجماً ورائحة يخالف به النوع الآخر والمعنى مختلفاً أكل ثمره وانتصب مختلفاً على أنه حال مقدرة ، لأنه لم

يكن وقت الإنشاء مختلفاً .

وقيل : هي حال مقارنة وذلك بتقدير حذف مضاف قبله تقديره وثمر النخل وحب الزرع والضمير في ﴿ أكله ﴾ عائد على ﴿ النخل والزرع ﴾ وأفرد لدخوله في حكمه بالعطفية قال معناه الزمخشري وليس بجيد لأن العطف بالواو لا يجوز إفراد ضمير المتعاطفين .

وقال الحوفي : والهاء في ﴿ أكله ﴾ عائدة على ما تقدّم من ذكر هذه الأشياء المنشآت ؛ انتهى .

وعلى هذا لا يكون ذو الحال ﴿ النخل والزرع ﴾ فقط بل جميع ما أنشأ لاشتراكها كلها في اختلاف المأكول ، ولو كان كما زعم لكان التركيب مختلفاً أكلها إلا إن أخذ ذلك على حذف مضاف أي ثمر جنات وروعي هذا المحذوف فقيل : ﴿ أكله ﴾ بالإفراد على مراعاته فيكون ذلك نحو قوله : ﴿ أو كظلمات في بحر لجيّ يغشاه موج ﴾ أو كذي ظلمات ، ولذلك أعاد الضمير في ﴿ يغشاه ﴾ عليه ، والظاهر عوده على أقرب مذكور وهو ﴿ الزرع ﴾ ويكون قد حذفت حال ﴿ النخل ﴾ لدلالة هذه الحال عليها ، التقدير ﴿ والنخل مختلفاً أكله ﴾ والزرع مختلفاً أكله كما تأول بعضهم في قولهم : زيد وعمرو قائم أي زيد قائم وعمرو قائم ، ويحتمل أن يكون الحال مختصة بالزرع لأن أنواعه مختلفة الشكل جدّاً كالقمح والشعير والذرة والقطينة والسلت والعدس والجلبان والأرز وغير ذلك ، بخلاف

النخل فإن الثمر لا يختلف شكله إلا بالصغر والكبر ، وتقدّم الكلام على قوله : ﴿ والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه ﴾ فأغني عن إعادته .

(112/254)

---

﴿ كلوا من ثمره إذا أثمر ﴾ لما كان مجيء تلك الآية في معرض الاستدلال بها على الصانع وقدرته والحشر وإعادة الأرواح إلى الأجساد بعد العدم وإبراز الجسد وتكوينه من العظم الرميم وهو عجب الذنب ، قال : انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إشارة إلى الإيجاد أولاً وإلى غايته وهنا لما كان معرض الغاية الامتنان وإظهار الإحسان بما خلق لنا قال : ﴿ كلوا من ثمره ﴾ فحصل بمجموعهما الحياة الأبدية السرمدية والحياة الدنيوية السريعة الانقضاء ، وتقدّم النظر وهو الفكر على الأكل لهذا السبب وهذا أمر بإباحة الأكل ويستدل به على أن الأصل في المنافع الإباحة والإطلاق وقيده بقوله : ﴿ إذا أثمر ﴾ وإن كان من المعلوم أنه إذا لم يثمر فلا أكل تنبيهاً على أنه لا ينتظر به محل إدراكه واستوائه ، بل متى أمكن الأكل منه فعل .

﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ والذي يظهر عود الضمير على ما عاد عليه من ثمره وهو جميع ما تقدّم ذكره مما يمكن أن يؤكل إذا أثمر .

وقيل : يعود على ﴿ النخل ﴾ لأنه ليس في الآية ما يجب أن يؤتى حقه عند جذاذه إلا النخل .

وقيل : يعود على ﴿ الزيتون والرمان ﴾ لأنهما أقرب مذكور .

وأفرد الضمير للوجوه التي ذكرناها في قوله ﴿ مختلفاً أكله ﴾ ﴿ وآتوا ﴾ أمر على الوجوب وتقدّم الأمر بالأكل على الأمر بالصدقة ، لأن تقديم منفعة الإنسان بما يملكه في خاصة نفسه مترجحة على منفعة غيره كما قال تعالى : ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ " وأحسن كما أحسن الله إليك وابدأ بنفسك ثم بمن تعول ، إنما الصدقة عن ظهر غنى " والحق هنا مجمل واختلف فيه أهو الزكاة أم غيرها ؟ فقال ابن عباس وأنس بن مالك والحسن وطاوس وجابر بن زيد وابن المسيب وقتادة ومحمد بن الحنفية وابن طاوس والضحاك وزيد بن أسلم وابنه ومالك بن أنس : هو الزكاة واعترض هذا القول بأن السورة مكية وهذه الآية على قول الجمهور غير مستثناة .

وحكى الزجاج : أن هذه الآية قيل فيها إنها نزلت بالمدينة .

*(113/254)*

وقال محمد بن علي بن الحسين وهو الباقر وعطاء وحماد ومجاهد وإبراهيم وابن جبير ومحمد بن كعب والربيع بن أنس ويزيد بن الأصم والحكم : هو حق غير الزكاة .

وقال مجاهد : إذا حضر المساكين فاطرح لهم عند الجذاذ وعند التكديس وعند الدرس وعند التصفية ، وعنه أيضاً كانوا يعلقون العذق عند الصرام فيأكل منه من مس .

وعن إبراهيم هو الضغث يطرحه للمساكين ولفظ ما يسقط منك من السنبل لا يمنعهم منه .

وروي عن ابن عباس وابن الحنفية وإبراهيم والحسن وعطية العوفي والسدّي : أنها منسوخة نسخها العشر ونصف العشر .

قال سفيان : قلت للسدّي نسخها عن من قال عن العلماء .

وقال أبو جعفر النحاس ما ملخصه : هل أريد بها الزكاة أو نسخت بالزكاة المفروضة أو بالعشر ونصف العشر أو هي محكمة يراد بها غير الزكاة أو ذلك على الندب ؟ خمسة أقوال : وإذا كان معنياً به الزكاة فالظاهر إخراجه من كل ما سبق ذكره ، فيعم جميع ما أخرجته الأرض وبه قال أبو حنيفة وزفر إلا الحطب والقصب والحشيش .

وقال أبو يوسف ومحمد : لا شيء فيما أخرجته الأرض إلا ما كان له ثمرة باقية .

وقال مالك : الزكاة في الثمار والحبوب فمن الثمار العنب والزيتون ومن الحب القمح والشعير والسلت والذرة والدخن والحمص والعدس واللوبيا والجلبان والأرز وما أشبه ذلك إذا كان خمسة أوسق .

وقال الشافعي وأبو ثور : يجب في يابس مقتات مدخر لا في زيتون لأنه إدام .

وقال الثوري وابن أبي ليلى والحسن بن صالح وابن المبارك ويحيى بن آدم : لا يجب إلا في الحنطة والشعير والتمر والزبيب .

وعن أحمد أقوال : أظهرها : كمذهب أبي حنيفة إذا كان يوثق فأوجبها في اللوز لأنه مكيل ولم يوجبها في الجوز لأنه معدود .

وروي عن جماعة من السلف منهم عمرو بن دينار لا صدقة في الخضر .

وعن ابن عباس : كان يأخذ من دساتيح الكراث العشر بالبصرة .

وعن إبراهيم في كل ما أخرجت الأرض حتى في كل عشر دساتح من بقل واحد .

*(114/254)*

---

وقال الزهري والحسن : يزكى اثنان الخضر والفواكه إذا أينعت وبلغ ثمنها مائتي درهم ، وقاله الأوزاعي في ثمن الفواكه .

وأما مقدار ما يجب فيه الزكاة فقال أبو حنيفة : في قليل ما تخرجه الأرض وكثيره .

وقال مالك والليث وابن أبي ليلى وأبو يوسف ومحمد والشافعي : لا يخرج حتى يبلغ خمسة أوسق إذا كان مكيلاً فإن كان غير مكيل ، فعن أبي يوسف ومحمد : اختلاف فيما يعتبر

وذكروا هنا فروعاً قالوا : لا زكاة عند أصحاب مالك في الجوز واللوز والحلوز وما أشبهها وإن كان مدّخراً ، كما لا زكاة عندهم في الإجاص والتفاح والكمثرى والمشمش ونحوه مما ييبس ولا يدخر ، وعدّ مالك التين في الفواكه .

وقال ابن حبيب : فيه الزكاة وإليه ذهب جماعة من أتباع مالك إسماعيل بن إسحاق وأبو بكر الأبهري وغيرهم .

وقال مالك : لا زكاة في الزيتون .

وقال هو والشافعي ولا في الرمان .

وقال الزهري والأوزاعي والثوري والليث : تجب الزكاة في الزيتون .

وعن مالك لا يخرص الزيتون ولكن يؤخذ العشر من زيته إذا بلغ مكيله خمسة أوسق .

وأبو حنيفة في هذه كلها على أصله وما خصصوه به من عموم الآية يحتاج إلى دليل ، والأدلة مذكورة في كتب الفقهاء .

والظاهر أن ﴿ يوم حصاده ﴾ معمول لقوله : ﴿ وآتوا ﴾ والمعنى واقصدوا الإيتاء واهتموا به وقت الحصاد فلا يؤخر عن وقت إمكان الإيتاء فيه .

ويجوز أن يكون معمولاً لقوله : ﴿ حقه ﴾ أي ﴿ وآتوا ﴾ ما استحق ﴿ يوم حصاده ﴾ فيكون الاستحقاق بإيتاء يوم الحصاد والأداء بعد التصفية ولذلك قال بعضهم في الكلام : محذوف تقديره ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ إلى تصفيته قال : فيكون الحصاد سبباً

للوجوب الموسع والتصفية سبب للأداء ، والظاهر وجوب إخراج الحق منه كله ما أكل صاحبه وأهله منه وما تركوه وبه قال أبو حنيفة ومالك .

وقال جماعة : لا يدخل ما أكل هو وأهله منه في الحق ، والظاهر أنه أمر بأن يؤتى ﴿ حقه يوم حصاده ﴾ فلا يخرص عليه .

قال النخعي : الخرص اليوم بدعة .

*(115/254)*

---

وقال الثوري : الخرص غير مستعمل ولا يجوز بحال وإنما على رب الحائط أن يؤدّي عشر ما يصل في يده للمساكين إذا بلغ خمسة أوسق .

وقرأ العربيان وعاصم : حصاده بفتح الحاء .

وقرأ باقي السبعة بكسرها .

﴿ ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ لما أمر تعالى بالأكل من ثماره وبإيتاء حقه ، نهى عن مجاوزة الحد فقال : ﴿ لا تسرفوا ﴾ وهذا النهي يتضمن إفراد الإسراف فيدخل فيه الإسراف في أكل الثمرة حتى لا يبقى منها شيء للزكاة ، والإسراف في الصدقة بها حتى لا يبقى لنفسه ولا لعياله شيئاً وقيده أبو العالية وابن جريج بالصدقة بجميع المال فيبقى هو

وعياله كلاًّ على الناس .

وقال ابن جريج : أيضاً : هو نهي في الأكل فيأكل حتى لا يبقى ما تجب فيه .

وقال الزهري : هو نهي عن النفقة في المعصية .

وقيل : في صرف الصدقة إلى غير الجهة التي افترضت ، كما صرف المشركون إلى جهة أصنامهم .

وقيل : نهي للعاملين على الصدقة عن أخذ الزائد .

وروي عن ابن عباس أن ثابت بن قيس بن شماس جذ خمسمائة نخلة وقسمها في يوم واحد ولم يترك لأهله شيئاً فنزلت ﴿ ولا تسرفوا ﴾ أي لا تعطوا كله ، وعن ابن جريج جذ معاذ بن جبل فلم يزل يتصدق حتى لم يبق منها شيئاً فنزلت ﴿ لا تسرفوا ﴾ .

وقال أبو العالية : كانوا يعطون شيئاً عند الجذاذ فتماروا فيه فأسرفوا فنزلت .

وقال مجاهد : لو كان أبو قبيس لرجل ذهباً فأنفقه في طاعة الله لم يكن مسرفاً ولو أنفق درهماً واحداً في معصية الله كان مسرفاً .

وقال إياس بن معاوية : كل ما جاوزت فيه أمر الله فهو سرف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَهُوَ الذى أَنشَأَ جنات معروشات ﴾

تمهيد لما سيأتي من تفصيل أحوال الأنعامِ أي هو الذي أنشأهن من غير شركة لأحد في ذلك بوجه من الوجوه والمعروشاتُ من الكروم المرفوعاتُ على ما يحملها ﴿ وَغَيْرَ معروشات ﴾ وهن المُلْقَياتُ على وجه الأرض وقيل : المعروشاتُ ما غرسه الناسُ وعرّشوه وغيرُ المعروشات ما نبت في البوادي والجبال ﴿ والنخل والزرع ﴾ عطفٌ على جناتٍ أي أنشأهما ﴿ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ ﴾ وقرىء أُكْله بسكون الكاف أي ثمرُه الذي يُؤكل في الهيئة والكيفية ، والضميرُ إما للنخل والزرعُ داخلٌ في حكمه أو للزرع والباقي مَقيسٌ عليه ، أو للجميع على تقدير كلِّ ذلك أو كلِّ واحد منهما ومختلفاً حالٌ مقدرة إذ ليس كذلك وقت الإنشاء ﴿ والزيتون والرمان ﴾ أي أنشأهما وقوله تعالى : ﴿ متشابها وَغَيْرَ متشابه ﴾ نُصب على الحالية أي يتشابه بعضُ أفرادِهما في اللون والهيئةِ أو الطعم ولا يتشابه بعضها ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ ﴾ أي من ثمر كل واحدٍ من ذلك ﴿ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ وإن لم يدرك ولم ينع بعد وقيل : فائدته رخصة المالك في الأكل منه قبل أداء حق الله تعالى ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ أريد به ما كان يُتصدّق به يوم الحصاد بطريق الواجب من غير تعيين المقدارِ لا الزكاةُ

المقدرةُ فإنها فُرِضت بالمدينة والسورةُ مكية وقيل : الزكاةُ والآيةُ مدنيةٌ والأمر بإيتائها يوم الحصادِ لِيُهتمَّ به حينئذ حتى لا يؤخَّر عن وقت الأداء وليعلم أن الوجوبَ بالإدراك لا بالتصفية ، وقرىء يومَ حِصاده بكسر الحاء وهو لغةٌ فيه ﴿ وَلاَ تُسْرِفُواْ ﴾ أي في التصدق كما رُوي عن ثابت بن قيس أنه صرَم خمسَمائة نخلةٍ ففرَّق ثمرَها كلَّها ولم يُدخل منه شيئاً إلى منزله . كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط ﴾ الآية ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المسرفين ﴾ أي لا يرتضي إسرافَهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

*(117/254)*

---

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾

وقول الحق : ﴿ أَنشَأَ ﴾ أي أوجد على إبداع لم يسبق له مثيل فلم يكن هناك نماذج توضيحية تدل الله سبحانه ، وإنما ابتدأها على غير مثال سابق ؛ لأنه لا يوجد خالق سواه . والخالق إذا لم يكن هناك سواه من شريك أو ندٍ فإنه حين يخلق إنما ينشىء خلقاً على غير نظام أو مثالٍ كان قد سبقه .

وكلمة ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ تؤدي ما نعرفه من المكان المحدد الذي يجمع صنوف الزروع والثمار مما نقتات ، ومما نتفكه به ، وتسمى جَنَّة وتسمى جَنَّات ؛ لأن المادة كلها تدل على الستر وعلى التغطية ، ومنه الجُنون لأن فيه ستراً للعقل ، ومنها الجنّ لأنهم مستورون عن رؤية العين ، وكذلك " المِجَنّ " لأنه الذي يستر عن الإنسان طعنات الخصم .

والجَنَّة هي المكان الممتلئ بالزرع والثمار وتعلو الأشجار فيه وتكثف وتلتف أغصانها وفروعها بحيث تستر من يكون بداخلها وتستره أيضاً عن بقية الأمكنة ؛ لأنه لا حاجة له إلى الأمكنة الأخرى ؛ ففي الجنة كل مقومات الحياة من غذاء وفاكهة ومرعى ، وماء وخضرة ومتعة ، وفيها كل شيء . كما تسمى البيت العظيم المكتمل الذي يضم ويشتمل على كل المرافق " قصراً " لأنَّه قَصَرَكَ على أي مكان سواه ؛ لأن فيه الأشياء التي تحتاج إليها كلها ، فلا تحتاج إلى شيء بعده . ﴿ وَهُوَ الذي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ . . ﴾ [ الأنعام : 141 ]

ومادة العرش تدل على العلو ، ومنه قيل للسقف " عرش " ويطلق العرش أيضاً على السرير ؛ مثل قوله الحق " ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العرش ﴾ .

*(118/254)*

ويطلق العرش على الملك مثل قوله الحق : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ .

كل ذلك يدل على " العلو " وقوله الحق هنا : ﴿ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ ، أي أن الزرع من نوع العنب ، حين نعني به نجعل له القوائم والقواعد التي يقوم عليها ؛ لأن امتداد أغصانه اللينة لا تنهض أن تقوم وحدها ، ولكن هناك نوع أيضاً يقوم وحده نسميه العنب الأرضي ، وكأن الكلام فيما يختص بالكَرْم . أي : أنك إذا ما نظرت إلى الزرع الذي لا ساق له كالبطيخ ، والشمام ، وكالكوسة ، وكل الزروع التي ليس لها ساق تجدها مفروشة في الأرض أي غير قائمة على قواعد وقوائم وعروش . وإن كنا الآن نحاول أن نرفعها لنعطي لها قوة الإنتاج . والكلام جاء على ما كان موجوداً عند العرب أيام بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَهُوَ الذي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ والنخل والزرع ﴾ .

والزرع يطلق ويراد به ما نقتات به من الحبوب .

﴿ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ والزيتون والرمان مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ . . ﴾ [ الأنعام : 141 ]

وحين ننظر إلى هذه الآية نجد أنه قد سبقتها آية فيها كل هذه المعاني يقول سبحانه : ﴿ وَهُوَ الذي أَنزَلَ مِنَ السماء مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النخل مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ والزيتون والرمان مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظروا إلى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذلكم لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

[ الأنعام : 99 ]

وبعض الناس يحاولون نقد القرآن فيقولون : إنه يكرر المعاني الواحدة ؛ لأنهم لا يمتلكون فطنة أن المتكلم هو الله ، وسبحانه يتكلم في كل شيء لأمر حكيم ، فهو هنا يتكلم عن هذه الأشياء كدليل على الخالق ووحدانيته بدليل أنه ذيل الآية بقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، ولكن الكلام في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها قد جاء بقصد الحديث عن الانتفاع بها فيقول : ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ . . . ﴾ [ الأنعام : 141 ]

ولا شك أن استقامة العقيدة بالإيمان بالإله الواحد تحتاج إلى الدليل أولاً ؛ لأن فائدتها أشمل ، وأعم ، وأعمق ، وأخلد من الأكل ، لأن الأكل قصارى ما فيه أنه يقوتنا هذه الحياة ، ولكن الأدلة الأولى تعطينا الثواب الباقي والنعيم المقيم ؛ لذلك فالآية الأولى متعلقة بالدليل ، وهذه الآية متعلقة بالانتفاع ، وهنا نلاحظ أنه قال : ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ ﴾ ، وفي هذه إباحة لتناول الأشياء منه قبل أن تنضج دون أن يترتب على ذلك لون من الضرر وإلا عالجناها بما يزيل وينفي عنا الضرر ، فإذا ما وجدت ثماراً لم تنضج لك أن تأكل منها ، ولم يجعل الحق لنا حرجاً فيما نحرث ونبذر ونروي ولكن الله سبحانه هو الذي يزرع ونحن نأكل

منه ، ونجد أهل الريف يشوون الذرة قبل أن تنضج ويقول سبحانه : ﴿ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ .

لقد قالوا إن الآية مختصة بما يُحصَد وهي الزروع ، أما الأشياء التي لا يقال فيها : حصد فهي خارجة عن ذلك مثل الفواكه ، لكن الإِمام أبا حنيفة يرفض ذلك ويرى : أن كل ما تنبته الأرض ينطبق عليه هذا النص ؛ لأنه لا يصح أن تأخذ معنى الحصاد على العرف ، ولكن بفهم اللغة .

*(120/254)*

---

ما معنى الحصاد في اللغة ؟ . الحصاد في اللغة القطع ، فحينما تفصل الثمرة المطلوبة فهذا هو الحصاد . ولكن يوم الحصاد للحبوب ؛ تكون الغلال في السنابل ، ويرى الإِمام أبو حنيفة أن تعطي من البداية لمن حضر القسمة ، وكذلك حينما تدرسه وتذريه تعطي ، وعندما تغربل الحبوب أعط أيضاً ، ويبتدئ الحصاد من ساعة أن تُكيل ، وما تقدم غير محسوب ، ما تأتيه من الحق يوم حصاده هو غير المفروض ؛ لأنه لم يقل الحق المعلوم ، وفي هذا اتساع لدائرة امتداد الخير إلى غير الزارعين . ﴿ . . . وَلاَ تسرفوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المسرفين ﴾ [ الأنعام : 141 ]

والإسراف هو مجاوزة الحد ، والبعض قد فسّر الإِسراف بالزيادة فقط ، ولكن الحقيقة أن أي تجاوز للحد زيادة أو نقصاً يسمى إسرافا ؛ لأنه مأخوذ من " سرف الماء " ، وهو أن يُطلق الماء ويذهب في غير نفعٍ ، وسيدنا مجاهد يقول : لو أن للإِنسان مثل جبل أبي قبيس ذهباً ثم أنفقه في حلّ ما عُدَّ سرفاً ، ولو صرف درهماً واحداً في معصية يعد سرفاً .

إذن فمعنى : " ولا تسرفوا " أمران اثنان بمعنى لا تتجاوزوا الحدود التي شرعها الحق فتستعملوا هذا في معصية ، أو لا تسوفوا في أن تعطوا للفقير أقل مما يستحق .

وكان حاتم الطائي كريماً جداً ، وقعدوا يلومونه على هذا الكرم ، فقال واحد له : لا خير في السرف . رد عليه فقال له : ولا سرف في الخير . أي أنه مادام في الخير فلا يكون سرفاً .

*(121/254)*

---

وإذا كنا سنأخذ الأمر على المعنيين الاثنين : النقص والزيادة ، فما المانع أن نعطي للفقير أكثر ؟ . ويحكي الأثر أن أناساً قد تأخذهم الأريحية والنشاط للبذل والعطاء ساعة يرون كثرة غلتهم ، وما أفاء الله عليهم من ريع أرضهم . إنهم يعطون الكثير مثلما عمل ثابت بن قيس ، وكان عنده خمسون نخلة وجزها وأعطاها كلها للفقراء ، ولم يترك لأولاده شيئاً . فلما رُفِع الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : أعط ولا تسرف ، لماذا ؟

مخافة أن تحتاج بعد ذلك إلى ما أعطيت فتندم على أنك أعطيت . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(122/254)

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (141) ﴾

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس في قوله ﴿ وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ﴾ قال : المعروشات ما عرش الناس ﴿ وغير معروشات ﴾ ما خرج في الجبال والبرية من الثمرات .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ معروشات ﴾ قال : بالعيدان والقصب ﴿ وغير معروشات ﴾ قال : الضاحي .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ معروشات ﴾ قال : الكرم خاصة .

وأخرج من وجه آخر عن ابن عباس ﴿ معروشات ﴾ ما يعرش من الكرم وغير ذلك ﴿ وغير معروشات ﴾ ما لا يعرش منها .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج في قوله ﴿ متشابهاً ﴾ قال : في المنظر ﴿ وغير متشابه ﴾ قال : في المطعم .

وأخرج ابن المنذر والنحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ قال : ما سقط من السنبل .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس والبيهقي في سننه عن ابن عباس ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ قال : نسخها العشر ونصف العشر .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن عطية العوفي في قوله ﴿ وأتوا حقه يوم حصاده ﴾ قال : كانوا إذا حصدوا وإذا ديس وإذا غربل أعطوا منه شيئاً ، فنسخها العشر ونصف العشر .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو داود في ناسخه وابن المنذر عن سفيان قال : سألت السدي عن هذه الآية ﴿ وأتوا حقه يوم حصاده ﴾ قال : هي مكية نسخها العشر ونصف العشر . قلت له : عمن ؟ قال : عن العلماء .

وأخرج النحاس وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ قال : كان هذا قبل أن تنزل الزكاة ، الرجل يعطى زرعه ، ويعلف الدابة ، ويعطى اليتامى والمساكين ، ويعطى الضغث .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : نسخت الزكاة كل صدقة في القرآن .

وأخرج أبو عبيد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن الضحاك قال : نسخت الزكاة كل صدقة في القرآن .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر والنحاس وأبو الشيخ والطبراني وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عمر ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ قال : كانوا يعطون من اعتريهم شيئاً سوى الصدقة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي عن مجاهد في قوله ﴿ وأتوا حقه يوم حصاده ﴾ قال : إذا حصدت فحضرك المساكين فاطرح لهم من السنبل ، فإذا طيبته وكرسته فحضرك المساكين فاطرح لهم منه ، فإذا دسته وذريته فحضرك المساكين فاطرح لهم منه ، فإذا ذريته وجمعته وعرفت كيله فاعزل زكاته ، وإذا بلغ النخل فحضرك المساكين فاطرح لهم من التفاريق والبسر ، فإذا جددته فحضرك المساكين فاطرح له منه ، فإذا جمعته وعرفت كيله فاعزل

زكاته .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن ميمون بن مهران ويزيد بن الأصم قال : كان أهل المدينة إذا صرموا النخل يجيئون بالعذق فيضعونه في المسجد ، فيجيء السائل فيضربه بالعصا فيسقط منه . فهو قوله ﴿ وأتوا حقه يوم حصاده ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن حماد بن أبي سليمان في قوله وأتوا حقه يوم حصاده قال كانوا يطعمون منه رطباً .

وأخرج أبو عبيد وأبو داود في ناسخه وابن المنذر عن الحسن في قوله ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ قال : هو الصدقة من الحب والثمار .

*(124/254)*

---

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن أنس . أن رجلاً من بني تميم قال : يا رسول الله أنا رجل ذو مال كثير وأهل وولد وحاضرة ، فأخبرني كيف أنفق وكيف أصنع ؟ قال " تخرج زكاة مالك فإنها طهرة تطهرك ، وتصل أقاربك ، وتعرف حق السائل والجار والمسكين " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن الشعبي قال : إن في المال حقاً سوى الزكاة .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي العالية في قوله ﴿ وآتوا

حقه يوم حصاده ﴾ قال : كانوا يعطون شيئاً سوى الزكاة ، ثم إنهم تباذروا واسرفوا ، فأنزل الله ﴿ ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن جريج قال : نزلت في ثابت بن قيس بن شماس ، وجد نخلاً فقال : لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته ، فاطعم حتى أمسى وليست له ثمرة ، فأنزل الله ﴿ ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عمر مولى غفرة قال : ليس شيء أنفقته في طاعة الله اسرافاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال : لو أنفقت مثل أبي قيس ذهباً في طاعة الله لم يكن إسرافاً ولو أنفقت صاعاً في معصية الله كان إسرافاً .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب في قوله ﴿ ولا تسرفوا ﴾ قال : لا تمنعوا الصدقة فتعصوا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عون بن عبد الله في قوله ﴿ إنه لا يحب المسرفين ﴾ قال : الذي يأكل مال غيره .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في قوله ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ قال : عشوره . وقال للولاة ﴿ لا تسرفوا ﴾ لا تأخذوا ما ليس لكم بحق ﴿ إنه لا يحب المسرفين ﴾ فأمر هؤلاء أن يؤدوا حقه وأمر الولاه أن لا يأخذوا إلا بالحق .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله : ﴿ ولا تسرفوا ﴾ قال : لا تعطوا أموالكم وتقعدوا فقراء .

(125/254)

---

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب في قوله ﴿ كلوا من ثمره إذا أثمر ﴾ قال : من رطبه وعنبه وما كان ، فإذا كان يوم الحصاد فاعطوا حقه يوم حصاده ﴿ ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ قال : السرف أن لا يعطى في حق .

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير عن أبي بشر قال : أطاف الناس بإياس بن معاوية فقالوا : ما السرف ؟ قال : ما تجاوزت به أمر الله فهو سرف . قال سفيان بن حسين : وما قصرت به عن أمر الله فهو سرف .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ قال : الصدقة التي فيه " ذكر لنا نبي الله صلى الله عليه وسلم سن فيما سقت السماء ، أو العين السائحة ، أو سقى النيل ، أو كان بعلاً : العشر كاملاً ، وفيما سقى بالرشا نصف العشر ، وهذا فيما يكال من الثمر . قال : وكان يقال : إذا بلغت الثمرة خمسة أوسق وهو ثلثمائة صاع فقد حقت فيه الزكاة . قال : وكانوا يستحبون أن يعطى مما لا يكال من الثمرة على نحو ما يكال منها " .

وأخرج ابن أبي حاتم والنحاس وابن عدي والبيهقي في سننه عن أنس بن مالك ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ قال : الزكاة المفروضة .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ يعني الزكاة المفروضة يوم يكال ويعلم كيله .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود في ناسخه والبيهقي عن طاووس ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ قال : الزكاة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(126/254)

---

ومن فوائد الشيخ الشنقيطى فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ .

اختلف العلماء في المراد بهذا الحق المذكور هنا ، وهل هو منسوخ أو لا ؟ فقال جماعة من العلماء : هذا الحق هو الزكاة المفروضة ، وممن قال بهذا أنس بن مالك ، وابن عباس وطاوس ، والحسن وابن زيد وابن الحنفية ، والضحاك وسعيد بن المسيب ، ومالك ، نقله عنهم القرطبي ، ونقله ابن كثير عن أنس وسعيد وغيرهما ، ونقله ابن جرير عن ابن عباس

وأنس والحسن وجابر بن زيد ، وسعيد بن المسيب وقتادة وطاوس ومحمد ابن الحنفية ، والضحاك وابن زيد .

وقال قوم : ليس المراد به الزكاة ، وإنما المراد به أنه يعطي من حضر من المساكين يوم الحصاد القبضة والضغث ونحو ذلك ، وحمله بعضهم على الوجوب ، وحمله بعضهم على الندب قال القرطبي : وقال علي بن الحسي ، وعطاء والحكم ، وحماد وسعيد بن جبير ، ومجاهد : هو حق في المال سوى الزكاة أمر الله به ندباً ، وروي عن ابن عمر ومحمد ابن الحنفية أيضاً ، ورواه أبو سعيد الخدري عنه صلى الله عليه وسلم ، قال مجاهد : إذا حصدت فحضرك المساكين فاطرح لهم من السنبل ، وإذا جذذت فألق لهم من الشماريخ ، وإذا درسته وذريته فاطرح لهم منه ، وإذا عرفت كيله فأخرج منه زكاته .

وقال قوم : هو حق واجب غير الزكاة ، وهو غير محدد بقدر معين ، وممن قال به عطاء كما نقله عنه ابن جرير .

وقال قوم : هي منسوخة بالزكاة ، واختاره ابن جرير ، وعزاه الشوكاني في تفسيره لجمهور العلماء ، وأيده بأن هذه السورة مكية ، وآية الزكاة نزلت بالمدينة في السنة الثانية بعد الهجرة .

وقال ابن كثير في القول بالنسخ نظر ، لأنه قد كان شيئاً واجباً في الأصل ، ثم إنه فصل بيانه ،

وبين مقدار المخرج وكميته ، قالوا : وكان هذا في السنة الثانية من الهجرة . والله أعلم .

انتهى من ابن كثير .

*(127/254)*

---

ومراده أن شرع الزكاة بيان لهذا الحق لا نسخ له ، وممن روى عنه القول بالنسخ ابن عباس ومحمد بن الحنفية ، والحسن والنخعي وطاوس ، وأبو الشعثاء وقتادة والضحاك وابن جريج ، نقله عنهم الشوكاني والقرطبي أيضاً ، ونقله عن السدي وعطية ، ونقله ابن جرير أيضاً عن ابن عباس وابن الحنفية ، وسعيد بن جبير وإبراهيم والحسن ، والسدي وعطية ، واستدل ابن جرير للنسخ بالإجماع على أن زكاة الحرث لا تؤخذ إلا بعد التذرية والتنقية ، وزكاة التمر لا تؤخذ إلا بعد الجذاذ ، فدل على عدم الخذ يوم الحصاد فعلم أن الآية منسوخة ، أو أنها على سبيل الندب ، فالأمر واضح .

وعلى أن المراد بها الزكاة ، فقد اشير إلى أن هذا الحق المذكور هو جزء المال الواجب في النصاب في آيات الزكاة ، وهو المذكور في قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أَنْفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأرض ﴾

[ البقرة : 267 ] الآية ، وبينته السنة ، فإذا علمت ذلك ، فاعلم أنه يحتاج هنا إلى بيان

ثلاثة اشياء :

الأول : تعيين ما تجب فيه الزكاة مما تنبته الأرض .

الثاني : تعيين القدر الذي تجب فيه الزكاة منه .

الثالث : تعيين القدر الواجب فيه وسنبينها إن شاء الله مفصلة .

اعلم أولاً أنه لا خلاف بين العلماء في وجوب الزكاة في الحنطة ، والشعير والتمر والزبيب .

واختلف فيما سواها مما تنبته الأرض فقال قوم : لا زكاة في غيرها من جميع ما تنبته الأرض ، وروي ذلك عن الحسن ، وابن سيرين والشعبي .

وقال به من الكوفيين ابن أبي ليلى ، والثوري ، والحسن بن صالح ، وابن المبارك ، ويحيى بن آدم ، وإليه ذهب ابو عبيد .

وروي ذلك عن أبي موسى عن النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وهو مذهب أبي موسى ، فإنه كان لا يأخذ الزكاة إلا من الحنطة ، والشعير والتمر والزبيب . ذكره وكيع عن طلحة بن يحيى ، عن أبي بردة ، عن أبيه ، كما نقله عنهم القرطبي .

*(128/254)*

واستدل أهل هذا القول بما رواه الدارقطني عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن عبد الله بن عمرو ، أنه قال : إنما سن رسول الله صلى الله عليه وسلم الزكاة في الحنطة ، والشعير ، والتمر ، والزبيب ، وفي رواية عن أبيه عن جده عن النَّبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : " والعشر في التمر والزبيب والحنطة والشعير " ، وعن موسى بن طلحة عن عمر أنه قال : " إنما سن رسول الله صلى الله عليه وسلم الزكاة في هذه الأربعة : الحنطة ، والشعير ، والتمر ، والزبيب " . وعن أبي بردة عن أبي موسى ، ومعاذ " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثهما إلى اليمن يعلمان الناس أمر دينهم ، فأمرهم ألا يأخذوا الصدقة إلا من هذه الأربعة ، الحنطة ، والشعير ، والتمر ، والزبيب " رواها كلها الدارقطني ، قاله ابن قدامة في المغني .

قال مقيده عفا الله عنه : أما ما رواه الدارقطني عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده من أنه صلى الله عليه وسلم إنما سن الزكاة في الأربعة المذكورة ، فإسناده واه لأنه من رواية محمد بن عبيد الله العزرمي ، وهو متروك ، قاله ابن حجر في ( التلخيص ) ، وما رواه الدارقطني من حديث موسى بن طلحة ، عن عمر أنه صلى الله عليه وسلم إنما سن الزكاة في الأربعة المذكورة ، قال فيه أبو زرعة : موسى عن عمر : مرسل ، قاله ابن حجر أيضاً ، وما عزاه للدارقطني عن أبي بردة عن أبي موسى ، ومعاذ رواه الحاكم والبيهقي عن أبي بردة عنهما .

وقال البيهقي : رواته ثقات ، وهو متصل ، قاله ، قاله ابن حجر أيضاً ، وقال مالك

وأصحابه : تجب الزكاة في كل مقتات مدخر ، وذلك عنده في ثمار الأشجار ، إنما هو التمر والزبيب فقط ، ومشهور مذهبه وجوب الزكاة في الزيتون إذا بلغ حبه خمسة أوسق .

(129/254)

---

ولكنها تخرج من زيته بعد العصر ، فيخرج عشره أو نصف عشره على ما سيأتي ، فإن لم يبلغ حبه خمسة أوسق فلا زكاة عنده في زيته : وحكم السمسم وبزر الفجل الأحمر والقرطم حكم الزيتون في مشهور مذهبه يخرج من زيتها إن بلغ حبها النصاب .

وقال اللخمي : لا يضم زيت بعضها إلى بعض لاختلاف أجناسها ، ومشهور مذهبه عدم وجوبها في التين ، وأوجبها فيه جماعة من أصحابه بمقتضى أصوله وقال ابن عبد البر : أظن مالكاً ما كان يعلم أن التين ييبس ويقتات ويدخر . ولو كان يعلم ذلك لجعله كالزبيب ، ولما عده مع الفواكه التي لا تيبس ، ولا تدخر كالرمان والفرسك ، والذي تجب فيه من الحبوب عنده هو ما يقتات ويدخر ، وذلك الحنطة والشعير والسلت والعس والدخن والذرة والأرز والعدس والجلبان واللوبيا والجلجلان والترمس والفول والحمص والبسيلة .

ومشهور مذهبه أن الكرسنة لا زكاة فيها ، لأنها علف ، وعن أشهب وجوب الزكاة فيها ، وهي من القطاني على مشهور مذهبه في باب الربا ، دون باب الزكاة .

وقيل هي البسيلة ، وجميع أنواع القطاني عند مالك جنس واحد في الزكاة ، فلو حصد وسقا من فول ووسقاً من حمص ، وآخر من عدس وآخر من جلبان ، وآخر من لوبيا وجب عليه أن يضم بعضها إلى بعض ، ويخرج الزكاة منها كل واحد يحسبه ، وكذلك يضم عنده القمح والشعير والسلت بعضها إلى بعض كالصنف الواحد ، وتخرج الزكاة منها كل بحسبه ، ولا يضم عنده تمر إلى زبيب ولا حنطة إلى قطنية ، ولا تمر إلى حنطة ولا أي جنس إلى جنس آخر غير ما ذكرنا عنه ضمه لتقارب المنفعة فيه عنده ، والنوع الواحد كالتمر والزبيب ، والحنطة يضم بعض انواعه إلى بعض كصيحاني وبرني وسمراء ومحمولة وزبيب أسود وزبيب أحمر ونحو ذلك .

*(130/254)*

---

ولا زكاة عند مالك رحمه الله في شيء من الفواكه غير ما ذكرنا ، كالرمان والتفاح والخوخ والإجاص ، والكمثري ، واللوز ، والجوز ، والجلوز ، ونحو ذلك كما لا زكاة عنده في شيء من الخضراوات . قال في الموطأ : السنة التي لا اختلاف فيها عندنا ، والذي سمعت من أهل العلم أنه ليس في شيء من الفواكه كلها صدقة ، الرمان والفرسل والتين ، وما أشبه ذلك ، وما لم يشبهه إذا كان من الفواكه .

قال : ولا في القضب ، ولا في البقول كلها صدقة ، ولا في أثمانها إذا بيعت صدقة حتى يحول على أثمانها الحول من يوم بيعها ، ويقبض صاحبها ثمنها وهو نصاب اه .

والفرسك – بكسر الفاء والسين بينها راء ساكنة آخره كاف – الخوخ ، وهي لغة يمانية ، وقيل : نوع مثله في القدر ، وهو أجرد أملس أحمر وأصفر جيد ، وقيل : ما ليس ينفلق عن نواة من الخوخ ، وإذا كان الزرع أو الثمر مشتركاً بين اثنين فأكثر ، فقد قال فيه مالك في الموطأ : في النخيل يكون بين الرجلين فيجذان منه ثمانية أوسق من التمر أنه لا صدقة عليهما فيها ، وأنه إن كان لأحدهما منها ما يجذ منه خمسة أوسق ، وللآخر ما يجذ أربعة أوسق أو أقل من ذلك في أرض واحدة ، كانت الصدقة على صاحب الخمسة الأوسق ، وليس على الذي جذ أربعة أوسق أو أقل منها صدقة ، وكذلك العمل في الشركاء كلهم في كل زرع من الحبوب كلها يحصد ، أو النخل يجذ أو الكرم يقطف ، فإنه إذا كان كل رجل منهم يجذ من التمر ، أو يقطف من الزبيب خمسة أوسق ، أو يحصد من الحنطة خمسة أوسق ، فعليه الزكاة ، ومن كان حقه أقل من خمسة أوسق فلا صدقة عليه .

وإنما تجب الصدقة على من بلغ جذاذه أو قطافه أو حصاده خمسة أوسق ، انتهى من موطأ مالك رحمه الله .

*(131/254)*

وإذا أمسك ذلك الحب أو التمر الذي أخرج زكاته سنين ، ثم باعه فحكمه عند مالك ما ذكره في موطئه حيث قال : السنة عندنا أن كل ما أخرجت زكاته من هذه الأصناف كلها الحنطة والتمر والزبيب والحبوب كلها ، ثم أمسكه صاحبه بعد أن أدى صدقته سنين ثم باعه ، أنه ليس عليه في ثمنه زكاة حتى يحول على ثمنه الحول من يوم باعه ، إذا كان أصل تلك الأصناف من فائدة أو غيرها ، وأنه لم يكن للتجارة .

وإنما ذلك بمنزلة الطعام والحبوب والعروض يفيدها الرجل ، ثم يمسكها سنين ، ثم يبيعها بذهب أو ورق فلا يكون عليه في ثمنها زكاة حتّى يحول عليها الحول من يوم باعها ، فإن كان أصل تلك العروض للتجارة فعلى صاحبها فيها الزكاة حين يبيعها ، إذا كان حبسها سنة من يوم زكى المال الذي ابتاعها به ، انتهى في الموطأ ، وهذا في المحتكر ، أما المدير فإنه يقومها بعد حول من زكاته ، كما في المدونة عن ابن القاسم .

هذا هو حاصل مذهب مالك رحمه الله فيما تجب فيه الزكاة من الثمار والحبوب ،

ومذهب الشافعي رحمه الله ، أنه لا تجب الزكاة في شيء من ثمار الأشجار أيضاً ، إلا فيما كان قوتاً يدخر ، وذلك عنده التمر والزبيب فقط ، كما تقدم عن مالك ، ولا تجب عنده في سواهما من الثمار كالتين والتفاح والسفرجل والرمان ، ونحو ذلك ، لأنه ليس من الأقوات ولا من الأموال المدخرة ، ولا تجب عنده في طلع الفحال ، لأنه لا يجيء منه الثمار .

واختلف قوله في الزيتون ، فقال في القديم ، تجب فيه الزكاة لما روي عن عمر رضي الله عنه أنه جعل في الزيت العشر ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : في الزيتون الزكاة ، وقال في الجديد : لا زكاة في الزيتون .

لأنه ليس بقوت فهو كالخضراوات .

*(132/254)*

---

واختلف قول الشافعي رحمه الله أيضاً في الورس ، فقال في القديم : تجب فيه الزكاة ، ملا روي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كتب إلى بني خفاش ، أن أدوا زكاة الذرة والورس ، وقال في الجديد : لا زكاة فيه ، لأنه نبت لا يقتات ، فأشبه الخضراوات ، وقال الشافعي رحمه الله من قال : لا عشر في الورس لم يوجب في الزعفران ، ومن قال : يجب في الورس ، فيحتمل أن يوجب في الزعفران ، لأنهما طيبان ، ويحتمل ألاّ يوجب في الزعفران ويفرق بينهما بأن الورس شجر له ساق والزعفران نبات ، واختلف قوله أيضاً في العسل فقال في القديم : يحتمل أن تجب فيه ، ووجهه ما روي أن بني شَبَابة بطن من فَهْم ، كانوا يؤدون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من نحل كان عندهم الُشر من عشر قرب قربة ، وقال في الجديد : لا تجب لأنه ليس بقوت فلا يجب فيه العشر كالبيض .

واختلف قوله أيضاً في القرطم ، وهو حب العصفر ، فقال في القديم : تجب إن صح فيه حديث أبي بكر رضي الله عنه ، وقال في الجديد : لا تجب لأنه ليس بقوت ، فأشبه الخضراوات ، قاله كله صاحب ( المهذب ) ، وقال النووي في شرح المهذب : الأثر المروي عن عمر " أنه جعل في الزيت العشر " ضعيف ، رواه البيهقي ، وقال : إسناده منقطع ، وراويه ليس بقوي ، قال : وأصحّ ما روي في الزيتون قول الزهري مضت السنة في زكاة الزيتون ، أن يؤخذ ممن عصر زيتونه حين يعصره ، فيما سقت السماء أن كان بعلا العشر ، وفيما سقي برش الناضح نصف العشر ، وهذا موقوف لا يعلم اشتهاره ، ولا شحتج به على الصحيح .

وقال البيهقي : وحديث معاذ بن جبل ، وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما أعلى ، وأولى أن يؤخذ به ، يعني روايتهما " أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال لهما ، لما بعثهما إلى اليمن : " لا تأخذا في الصدقة إلا من هذه الأصناف الأربعة : الشعير ، والحنطة ، والتمر ، والزبيب " .

*(133/254)*

وأما الأثر المذكور عن ابن عباس فضعيف أيضاً ، والأثر المذكور عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ضعيف أيضاً ، ذكره الشافعي وضعفه هو وغيره ، واتفق الحفاظ على ضعفه ، واتفق أصحابنا في كتب المذهب على ضعفه ، قال البيهقي : ولم يثبت في هذا إسناد تقوم به حجة ، قال : والأصل عدم الوجوب فلا زكاة فيما لم يرد فيه حديث صحيح ، أو كان في معنى ما ورد به حديث صحيح ، وأما حديث بني شبابة في العسل فرواه أبو داود ، والبيهقي ، وغيرهما من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه ، عن جده بإسناد ضعيف ، قال الترمذي في جامعه : لا يصح عن النَّبي صلى الله عليه وسلم في هذا كبير شيء ، قال البيهقي : قال الترمذي في كتاب العلل : قال البخاري : ليس في زكاة العسل شيء يصح . فالحاصل أن جميع الآثار ، والأحاديث التي في هذا الفصل ضعيفة ، انتهى كلام النووي .

وقال ابن حجر في ( التلخيص ) في أثر عمر المذكور في الزيتون : رواه البيهقي بإسناد منقطع ، والراوي له عثمان بن عطاء ضعيف . قال : وأصح ما في الباب قول ابن شهاب : " مضت السنة في زكاة الزيتون " الخ .

وقال في ( التلخيص ) أيضاً في أثر ابن عباس المذكور في الزيتون : ذكره صاحب ( المهذب ) ، عن ابن عباس ، وضعفه النووي ، وقد أخرجه ابن أبي شيبة ، وفي إسناده ليث بن أبي سليم .

وقال ابن حجر ايضاً : روى الحاكم في تاريخ " نيسابور " من طريق عروة ، عن عائشة

مرفوعاً " الزكاة في خمس : في البر ، والشعير . والأعناب والنخيل ، والزيتون " ، وفي إسناده عثمان بن عبد الرحمن ، وهو الوقاصي : متروك الحديث .

*(134/254)*

---

وقال ابن حجر في الأثر المذكور عن أبي بكر : أنه كان يأخذ الزكاة من حب العصفر ، وهو القرطم ، لم أجد له أصلاً ، وقال في ( التلخيص ) أيضاً في خبر أخذه صلى الله عليه وسلم زكاة العسل ، أخرجه الترمذي من حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " في العسل في كل عشرة أزقاق زق " ، وقال في إسناده مقال ، ولا يصح ، وفي إسناده صدقة السمين ، وهو ضعيف الحفظ .

وقد خولف ، وقال النسائي : هذا حديث منكر ، ورواه البيهقي ، وقال : تفرد به صدقة ، وهو ضعيف ، وقد تابعه طلحة بن زيد عن موسى بن يسار ، ذكره المروزي ، ونقل عن أحمد تضعيفه ، وذكر الترمذي أنه سأل البخاري عنه فقال : هو عن نافع ، عن النَّبي صلى الله عليه وسلم مرسل ، ونقل الحاكم في تاريخ " نيسابور " ، عن ابن أبي حاتم ، عن أبيه ، قال : حدث محمد بن يحيى الذهلي بحديث كاد أن يهلك ، حدث عن عارم ، عن ابن المبارك ، عن أسامة بن زيد ، عن أبيه ، عن ابن عمر مرفوعاً " أخذ من العسل العشر " .

قال أبو حاتم : وإنما هو عن أسامة بن زيد ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده كذلك : حدثناه عارم ، وغيره قال : ولعله سقط من كتابه عمرو بن شعيب ، فدخله هذا الوهم .

قال الترمذي : وفي الباب عن عبد الله بن عمرو ، قلت : رواه أبو داود والنسائي من رواية عمرو بن الحارث المصري ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : " جاء هلال أحد بني متعان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعشور نحل له ، وسأله أن يحمي وادياً له يقال له " سلبة " فحماه له ، فلما ولى عمر كتب إلى سفيان بن وهب ، إن أدى إليك ما كان يؤدي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من عشور نحله فاحم له سلبة ، وإلا فإنما هو ذباب غيث يأكله من يشاء .

*(135/254)*

---

قال الدارقطني : يروى عن عبد الرحمن بن الحارث ، وابن لهيعة ، عن عمرو بن شعيب مسنداً ، ورواه يحيى بن سعيد الأنصاري ، عن عمرو بن شعيب ، عن عمر مرسلاً قلت : فهذه علته ، وعبد الرحمن ، وابن لهيعة ليسا من أهل الاتقان ، ولكن تابعهما عمرو بن الحارث أحد الثقات ، وتابعهما أسامة بن زيد ، عن عمرو بن شعيب عند ابن ماجه ،

وغيره كما مضى .

قال الترمذي : وفيه عن أبي سيارة ، قلت : هو المتعي ، قال : " قلت يا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إن لي نحلاً ، قال : " أد العشور " ، قال : قلت يا رسول الله أحم لي جبلها " ، رواه أبو داود ، وابن ماجه ، والبيهقي من رواية سليمان بن موسى ، عن أبي سيارة ، وهو منقطع .

قال البخاري : لم يدرك سليمان أحداً من الصحابة ، وليس في زكاة العسل شيء يصح ، وقال أبو عمر : لا تقوم بهذا حجة . قال وعن أبي هريرة قلت : رواه البيهقي ، وفي إسناده عبد الله بن محرر ، وهو متروك ، ورواه أيضاً من حديث سعد بن أبي ذباب : " أن النَّبي صلى الله عليه وسلم استعمله على قومه ، وأنه قال لهم : " أدّوا العشر في العسل " ، وأتى به عمر ، فقبضه ، فباعه ، ثم جعله في صدقات المسلمين " ، وفي إسناده منير بن عبد الله ضعفه البخاري ، والأزدي ، وغيرهما .

قال الشافعي : وسعد بن أبي ذباب ، يحكي ما يدل على أن النَّبي صلى الله عليه وسلم لم يأمر فيه بشيء . وأنه شيء رآه هو فتطوع له به قومه ، وقال الزعفراني عن الشافعي : الحديث في أن في العسل العشر ضعيف ، واختياري أنه لا يؤخذ منه ، وقال البخاري : لا يصح فيه شيء .

وقال ابن المنذر : ليس فيه شيء ثابت ، وفي ( الموطأ ) عن عبد الله بن أبي بكر قال : "

جَاء كتاب عمر بن عبد العزيز إلى أبي ، وهو بمنى ألا تأخذ من الخيل ، ولا من العسل صدقة " ، انتهى كلام ابن حجر بلفظه .

*(136/254)*

---

وقال في ( التلخيص ) أيضاً : إن حديث معاذ ، أنه لم يأخذ زكاة العسل ، وأنه قال : " لم يأمرني فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء " ، أخرجه أبو داود في ( المراسيل ) ، والحميدي في ( مسنده ) ، وابن أبي شيبة ، والبيهقي من طريق طاوس عنه ، وفيه انقطاع بين طاوس ومعاذ ، لكن قال البيهقي : هو قوي . لأن طاوساً كان عارفاً بقضايا معاذ .

قال مقيده ، عفا الله عنه : ولا شك أن إخراج زكاته أحوط ، وهو مذهب الإمام أحمد – رحمه الله – ونقله صاحب ( المغني ) عن مكحول ، والزهري ، وسليمان بن موسى ، والأوزاعي ، وإسحاق .

وحجتهم الأحاديث التي رأيت ، ولا شيء فيه عند مالك ، والشافعي في ( الجديد ) ، وابن أبي ليلى ، والحسن بن صالح ، وابن المنذر ، وغيرهم .

وحجتهم عدم صحة ما ورد فيه ، وأن الأصل براءة الذمة ، وأنه مائع خارج من حيوان فأشبه اللبن .

وقال أبو حنيفة : إن كان في أرض للعشر ففيه الزكاة ، وإلا فلا زكاة فيه ، ونصاب العسل ، قبل : خمسة أفراق ، وهو قول الزهري ، وقيل : خمسة أوسق ، وبه قال أبو يوسف ، ومحمد .

وقال أبو حنيفة : تجب في قليله وكثيره . والفرق ستة عشر رطلاً بالعراقي ، وقيل : ستون رطلاً ، وقيلك مائة وعشرون رطلاً ، وقيل : ثلاثة آصع ، وقيل : غير ذلك . قاله في ( المغني ) .

وأما الحبوب : فلا تجب الزكاة عند الشافعي إلا فيما يقتات ، ويدخر منها ، ولا زكاة عنده في شيء من الفواكه التي لا تقتات ، ولا تدخر ، ولا في شيء من الخضراوات ، فمذهبه يوافق مذهب مالك ، كما قدمنا ، إلا أن الشافعي لا يضم بعض الأنواع إلى بعض ، ومالك يضم القطاني بعضها إلى بعض في الزكاة ، وكذلك القمح والشعير والسلت ، كما تقدم .

*(137/254)*

---

وأما مذهب الإمام أحمد – رحمه الله – فهو وجوب الزكاة فيما تنبته الأرض ، مما ييبس ، ويبقى . مما يكال . فأوصاف المزكي عنده مما تنبته الأرض ثلاثة : وهي الكيل ، والبقاء ، واليبس . فما كان كذلك من الحبوب والثمار وجبت فيه عنده ، سواء كان قوتاً أم لا ، وما

لم يكن كذلك لم تجب فيه . فتجب عنده في الحنطة ، والشعير ، والسلت ، والأرز ، والذرة ، والدخن ، والقطاني ، كالباقلا ، والعدس ، والحمص ، والأبازير . كالكمون ، والكراويا ، والبزر كبزر ، الكتاب ، والقثاء ، والخيار . وحب البقول ، كالرشاد ، وحب الفجل ، والقرطم ، والسمسم ، ونحو ذلك من سائر الحبوب . كما تجب عنده أيضاً فيما جمع الأوصاف المذكورة من الثمار ، كالتمر والزبيب واللوز ، والفستق والبندق . ولا زكاة عنده في شيء من الفواكه : كالخوخ والإجاص والكمثري والتفاح والتين والجوز ، ولا في شيء من الخضر : كالقثاء ، والخيار ، والباذنجان ، واللفت ، والجزر ، ونحو ذلك .

ويروى نحو ما ذكرنا عن أحمد في الحبوب ، عن عطاء ، وأبي يوسف ومحمد ، وقال أبو عبد الله بن حامد : لا شيء في الأبازير ، ولا البزر . ولا حب البقول .

قال صاحب ( المغني ) : ولعله لا يوجب الزكاة إلا فيما كان قوتاً ، أو أدماً . لأن ما عداه لا نص فيه ، ولا هو في معنى المنصوص فيبقى على النفس الأصلي ، ولا زكاة في مشهور مذهب أحمد – رحمه الله – فيما ينبت من المباح الذي لا يملك ، إلا بأخذه : البطم ، وشعير الجبل ، وبزر قطوناً ، وبزر البقلة ، وحب النمام ، وبزر الأشنان ، ونحو ذلك ، وعن القاضي انه تجب فيه الزكاة ، إذا نبت بأرضه .

والصحيح الأول : فإن تساقط في أرضه حب كحنطة مثلاً فنبت ففيه الزكاة . لأنه يملكه ،

ولا تجب الزكاة فيما ليس بحب ، ولا ثمر سواء وجد فيه الكيل ، والإدخار ، أو لم يوجدا ، فلا تجب في ورق مثل ورق السدر ، والخطمي ، والأشنان ، والصعتر ، والآس ، ونحوه .

(138/254)

---

لأنه ليس بمنصوص عليه ، ولا في معنى المنصوص ، ولا زكاة عنده في الأزهار : كالزعفران ، والعصفر ، والقطن . لأنها ليست بحب ، ولا ثمر ، ولا هي بمكيل ، فلم تجب فيها زكاة . كالخضراوات .

قال الإمام أحمد : رحمه الله ليس في القطن شيء ، وقالك ليس في الزعفران زكاة ، وهو ظاهر كلام الخرقي ، واختيار أبي بكر . قاله ابن قدامة في ( المغني ) .

واختلفت عن أحمد – رحمه الله – الرواية في الزيتون : فروى عنه ابنه صالح أن فيه الزكاة وروي عنه أنه لا زكاة فيه وهو اختيار أبي بكر وظاهر كلام الخرقي يقتضيه . قاله أيضاً صاحب المغني ، وأما أبو حنيفة – رحمه الله – فإنه قائل بوجوب الزكاة في كل ما تنبته الأرض طعاماً كان أو غيره ، وقال أبو يوسف عنه إلا الحطب والحشيش ، والقصب والتبن ، والسعف وقصب الذريرة ، وقصب السكر اه . والذريرة : قصب يجاء به من الهند ، كقصب النشاب ، أحمر يتداوى به ، وممن قال مثل قول أبي حنيفة النخعي ، وروي نحوه عن

عمر بن عبد العزيز ، وهو قول حماد بن ابي سليمان شيخ أبي حنيفة ونصره ابن العربي المالكي في أحكامه . قال : وأما أبو حنيفة فجعل الآية مرآته فأبصر الحق . هذا هو حاصل مذاهب الأئمة الأربعة رضي الله عنهم . في تعيين ما تجب فيه الزكاة مما تنبته الأرض ، وسنشير غن شاء الله إلى دليل كل واحد منهم فيما ذهب إليه .

*(139/254)*

---

أما أبو حنيفة : فقد احتج على وجوب الزكاة في كل ما تنبته الأرض من قليل وكثير بعموم هذه الآية الكريمة التي نحن بصددها . لأن الله قال فيها ﴿ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [ الأنعام : 141 ] الآية وبعموم قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا أَنْفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأرض ﴾ [ البقرة : 267 ] الآية . وبعموم قوله صلى الله عليه وسلم " فيما سقت السماء العُشْر " الحديث ولم يقبل تخصيصه بحديث " ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة " لأن القاعدة المقررة في أصوله رحمه الله أن العام قطعي الشمول ، والتناول لجميع أفراده كما أشار له في " مراقي السعود " بقوله :

وهو على فرد يدل حتما . . . وفهم الاستغراق ليس جزما

بل هو عند الجل بالرجحان . . . والقطع فيه مذهب النعمان

فما كان أقل من خمسة أوسق يدخل عنده دخولاً مجزوماً به في عموم الآيات المذكورة في والحديث . فلا يلزم عنده تخصيص العام بالخاص ، بل يتعارضان . وتقديم ما دل على الوجوب أولى من تقديم ما دل على غيره للاحتياط في الخروج من عهدة الطلب .

وأما مالك والشافعي – رحمهما الله تعالى – فحجتهما في قولهما : إنه لا زكاة غير النخل والعنب عن الأشجار ، ولا في شيء من الحبوب إلا فيما يقتات ويدخر .

ولا زكاة في الفواكه ولا الخضراوات ، لأن النص والإجماع دلا على وجوب الزكاة في الحنطة والشعير ، والتمر والزبيب . وكل واحد منهما مقتات مدخر فألحقوا بها كل ما كان في معناها لكونه مقتاتاً ومدخراً غير التمر مقتاتاً ومدخراً . ولم يريا أن في الأشجار مقتاتاً ولا مدخراً غير التمر والزبيب ، فلم يشاركهما في العلة غيرهما من الثمار ، ولذا قال جماعة من أصحاب مالك بوجوبها في التين على أصول مذهب مالك لأنه كالزبيب في الاقتيات والإدخار .

*(140/254)*

---

وقال ابن عبد البر : الظاهر أن مالكاً ما كان يعلم أن التين كذلك وأما الحبوب فيوجد فيها الاقتيات والإدخار فألحقا بالحنطة والشعير كل ما كان مقتاتاً مدخراً كالأرز والذرة

والدخن والقطاني ونحو ذلك . – فهو إلحاق منهما – رحمهما الله – للمسكوت بالمنطوق بجامع العلة التي هي عندهما الاقتيات والإدخار . لأن كونه مقتاتاً مدخراً مناسب لوجوب الصدقة فيه . لاحتياج المساكين إلى قوت يأكلون منه ويدخرون .

وأما أحمد – رحمه الله – فحجته في قوله إن الزكاة تجب فيما يبقى وييبس ويكال : أن ما لا ييبس ولا يبقى كالفواكه والخضراوات لم تكن تؤخذ منه الزكاة في زمنه صلى الله عليه وسلم ، ولا زمن الخلفاء الراشدين .

ودليله في اشتراطه الكيل قوله صلى الله عليه وسلم " ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة " قال : فبين النَّبي صلى الله عليه وسلم أن محل الواجب في الوسق ، وهو خاص بالمكيل كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

أما دليل الجمهور منهم مالك والشافعي وأحمد رحمهم الله على أن الفواكه والخضراوات . لا زكاة فيها فظاهر . لأن الخضراوات كانت كثيرة بالمدينة جداً والفواكه كانت كثيرة بالطائف ، ولم ينقل عنه صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من أصحابه أنه أخذ الزكاة من شيء من ذلكز

*(141/254)*

قال القرطبي : في تفسير هذه الآية . وقد كان بالطائف الرمان والفرسك والأترج ، فما اعترضه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا ذكره ، ولا أحد من خلفائه ، قلت : وهذا وإن لم يذكره في الأحكام هو الصحيح في المسالة ، وأن الخضراوات ليس فيها شيء ، وأما الآية فقد اختلف فيها : هل هي محكمة أو منسوخة ، أو محمولة على الندب ؟ ولا قاطع يبين أحد محاملها ، بل القاطع المعلوم ما ذكره ابن بكير في أحكامه أن الكوفة افتتحت بعد موت النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وبعد استقرار الأحكام بالمدينة . أفيجوز أن يتوهم متوهم ، أو من له أدنى بصيرة أن تكون شريعة مثل هذه عطلت فلم يعمل بها في دار الهجرة ومستقر الوحي ، ولا خلافه أبي بكر حتى عمل بذلك الكوفيون ؟ إن هذه لمصيبة فيمن ظن هذا ، أو قال به . قلت : ومما يدل على هذا من معنى التنزيل قوله تعالى :

﴿ يا أيها الرسول بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [ المائدة : 67 ] أتراه يكتم شيئاً أمر بتبليغه أو بيانه – حاشاه من ذلك – وقال تعالى : ﴿ اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [ المائدة : 3 ] ، ومن كمال الدين كونه لم يأخذ من الخضراوات شيئاً . وقال جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – فيما رواه الدارقطني : إن المقاثئ كانت تكون عندنا تخرج عشرة آلاف فلا يكون فيها شيء . وقال الزهري والحسن : تزكى أثمان الخضر إذا أينعت وبلغ الثمن مائتي درهم ، وقاله الأوزاعي في ثمن الفواكه ، ولا حجة في قولهما لما ذكرنا .

(142/254)

---

وقد روى الترمذي عن معاذ : أنه كتب إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم يساله عن الخضراوات وهي البقول فقال : ليس فيها شيء وقد روي هذا المعنى عن جابر وأنس وعلي ومحمد بن عبد الله بن جحش وأبي موسى وعائشة : ذكر أحاديثهم الدارقطني – رحمه الله – وقال الترمذي ليس يصح في هذا الباب عن النَّبي صلى الله عليه وسلم شيء ، واحتج بعض أصحاب أبي حنيفة – رحمه الله – بحديث صالح بن موسى عن منصور عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فيما أنبتت الأرض من الخضر زكاة " قال أبو عمر : وهذا حديث لم يروه من ثقات أصحاب منصور أحد هكذا ، وإنما هو من قول إبراهيم قلت وإذا سقط الإستدلال من جهة السنة لضعف أسانيدها لم يبق إلا ما ذكرناه من تخصيص عموم الآية ، وعموم قوله صلى الله عليه وسلم " فيما سقت السماء العشر " بما ذكرنا اه . كلام القرطبي .

(143/254)

---

وحجة من قال : بأنه لا زكاة في غير الأربعة المجمع عليها التي هي الحنطة والشعير والتمر والزبيب هي الأحاديث التي قدمنا في أول هذا المبحث ، وفيها حديث معاذ وأبي موسى الذي تقدم عن البيهقي أنه قوي متصل . وقال أبو يوسف ومحمد : ليس في شيء من الخضر زكاة إلا ما كانت له ثمرة باقية ، سوى الزعفران ونحوه مما يوزن ففيه الزكاة وكان محمد يعتبر في العصفر ، والكتان البزر . فإذا بلغ بزرهما من القرطم والكتاب خمسة أوسق . كان العصفر والكتان تبعاً للبزر وأخذ منه العشر أو نصف العشر ، وأما القطن فليس عنده فيما دون خمسة أحمال شيء ن والحمل ثلاثمائة من بالعراقي ، والورس والزعفران ليس فيما دون خمسة أمنان منهما شيء . فإذا بلغ احدهما خمسة أمنان كانت فيه الصدقة ، وقال أبو يوسف وكذلك قصب السكر الذي يكون فيه منه السكر ، ويكون في أرض العشر دون أرض الخراج فيه ما في الزعفران ، وأوجب عبد الملك بن الماجشون الزكاة في أصول الثمار دون البقول ، وهو مخالف لما عليه أهل مذهبه مالك وأصحابه . قاله القرطبي .

تنبيه

من قال لا زكاة في الرمان وهم جمهور العلماء ، ومن قال لا زكاة في الزيتون يلزم على قول كل منهم ، أن تكون الآية التي نحن بصددها التي هي قوله تعالى : ﴿ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [ الأنعام : 141 ] منسوخة أو مراداً بها غير الزكاة لأنها على تقدير أنها محكمة ، وأنها في

الزكاة المفروضة لا يمكن معها القول بعدم الزكاة الزيتون والرمان ، لأنها على ذلك صريحة فيها .

(144/254)

---

لأن المذكورات في قوله تعالى : ﴿ والنخل والزرع مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ والزيتون والرمان مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ [ الأنعام : 141 ] يرجع إلى كلها الضمير في قوله : ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ ﴾ [ الأنعام : 141 ] ، وقوله : ﴿ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [ الأنعام : 141 ] كما هو واضح لا لبس فيه فيدخل فيه الزيتون والرمان دخولاً أولياً لا شك فيه ، فقول أكثر أهل العلم بعدم الزكاة في الرمان يقوي القول بنسخ الآية ، أو أنها في غير الزكاة المفروضة – والله تعالى أعلم – وعن أبي يوسف أنه أوجب الزكاة في الحناء ، واعلم أن مذهب داود بن علي الظاهري في هذه المسألة قوي جداً من جهة النظر . لأنه قال ما أنبتته الأرض ضربان موسق وغير موسق فما كان موسقاً وجبت الزكاة فيما بلغ منه خمسة أوسق لقوله صلى الله عليه وسلم : " ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة ولا زكاة فيما دونها منه " وما كان غير موسق ففي قليله وكثيره الزكاة لعموم قوله صلى الله عليه وسلم : " فيما سقت السماء العشر " ولا يخصص بحديث ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة لأنه غير موسق أصلاً .

قال مقيده – : عفا الله عنه – وهذا القول هو اسعد الأقوال بظاهر النصوص وفيه نوع من الجمع بينها إلا أنه يرد عليه ما قدمنا من أنه صلى الله عليه وسلم لم يتعرض للخضراوات مع كثرتها في المدينة ولا الفواكه مع كثرتها بالطائف ، ولو كان العموم شاملاً لذلك لبينه صلى الله عليه وسلم ، وإذا رفت كلام العلماء في تعيين ما تجب فيه الزكاة وأدلة اقوالهم مما ذكرنا . فاعلم أن جمهور العلماء قالوا لا تجب الزكاة إلا في خمسة أوسق فصاعداً لقوله صلى الله عليه وسلم : " ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة " الحديث . أخرجه الشيخان من حديث أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – ومسلم من حديث جابر – رضي الله عنه – .

*(145/254)*

---

وممن قال بهذا الأئمة الثلاثة : مالك والشافعي وأحمد – رحمهم الله – وأصحابهم ، وهو قول ابن عمر ، وجابر وأبي أمامة بن سهل ، وعمر بن عبد العزيز وجابر بن زيد ، والحسن وعطاء ومكحول الحكم والنخعي ، وأهل المدينة والثوري والأوزاعي وابن أبي ليلى ، وأبي يوسف ومحمد وسائر أهل العلم ، كما نقله عنهم ابن قدامة وغيره .

وقال ابن قدامة في المغني : لا نعلم أحداً خالف فيه غلا أبا حنيفة ، ومن تابعه ، ومجاهداً ،

وقد اجمع جميع العلماء على أن الوسق ستون صاعاً .

وهو بفتح الواو وكسرها والفتح أشهر وأفصح . وقيل : هو بالكسر اسم وبالفتح مصدر ، ويجمع على أوسق في القلة وأوساق وعلى وسوق في الكثرة . واعلم أن الصاع أربعة أمداد بمده صلى الله عليه وسلم . والمد بالتقريب : ملء اليدين المتوسطتين لا مقبوضتين ولا مبسوطتين ، وتحديده بالضبط وزن رطل وثلث بالبغدادي فمبلغ الخمسة الأوسق من الأمداد ألف مد ومائتا مد ، ومن الصيعان ثلاثمائة ، وهي بالوزن ألف رطل وستمائة رطل . والرطل : وزن مائة وثمانية وعشرين درهماً مكياً . وزاد بعض أهل العلم : أربعة أسباع درهم ، كل درهم وزن خمسين وخمسي حبة من مطلق الشعير كما حرره علماء المالكية ومالك – رحمه الله – من أدرى الناس بحقيقة المد والصاع كما هو معلوم ، وقيل فيه : غير ما ذكرنا .

*(146/254)*

---

وأما الحكم الثالث من أحكام هذه المسالة الثلاثة المذكورة في أول هذا المبحث وهو تعيين القدر الواجب إخراجه . فلا خلاف فيه بين العلماء وهو العشر فيما ليس في سقيه مشقة . كالذي يسقيه المطر أو النهر أو عروقه في الأرض ، وأما ما يسقى بالآلة كالذي يسقى

بالنواضح ففيه نصف العشر ، وهذا ثابت عنه صلى الله عليه وسلم من حديث جابر وابن عمر ، فإن سقى تارة بمطر السماء مثلا وتارة بالسانية فإن استويا فثلاثة أرباع العشر بلا خلاف بين العلماء وإن كان أحد المرين أغلب . فقيل : يغلب الأكثر ويكون الأقل تبعاً له ، وبه قال أحمد وأبو حنيفة والثوري وعطاء ، وهو أحد قولي الشافعي ، وقيل : يؤخذ بالتقسيط ، وهذان القولان كل منهما شهره بعض المالكية ، وحكى بعضهم رواية عن مالك أن المعتبر ما حيي به الزرع وتم ، وممن قال بالتقسيط من الحنابلة : ابن حامد ، فإن جهل المقدار وجب العشر احتياطاً ، كما نص عليه الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله – في رواية عبد الله . قاله في المغني . وعلله بأن الأصل وجوب العشر وإنما يسقط نصفه بتحقق الكلفة . وإذا لم يتحقق المسقط وجب البقاء على الأصل وهو ظاهر جداً . وإن اختلف الساعي ورب المال في أيهما سقى به أكثر ؟ فالقول : قول رب المال بغير يمين ، لأن الناس لا يستحلفون على صدقاتهم ، ولا وقص في الحبوب والثمار ، بل كل ما زاد على النصاب أخرج منه بحسبه . مسائل تتعلق بهذا المبحث

المسالة الأولى : قد قدمنا إجماع العلماء على وجوب الزكاة في التمر والزبيب . وجمهورهم على أنهما يخرصان إذا بدا صلاحهما ، لأن المالكين يحتاجون إلى أكل الرطب والعنب . فبسبب ذلك شرع خرص التمر والعنب ، ويخرص كل واحد منهما شجرة شجرة – حتى

يعلم قدر ما في الجميع الآن من الأوساق ، ثم يسقط منه قدر ما ينقصه الجفاف . فلو كان فيه خمسة أوسق من العنب أو الرطب وإذا جف كانت أربعة أوسق مثلاً .

(147/254)

---

فلا زكاة فيه ، لأن النصاب معتبر من التمر والزبيب اليابسين ، لا من الرطب والعنب وإذا خرص على الوجه الذي ذكرنا خلى بين مالكيه ، وبينه ، وبعد الجذاذ يأتون بقدر الزكاة على الخرص المذكور تمراً أو زبيباً ، وبذلك يحصل الجمع بين الاحتياط للفقراء والرفق بأرباب الثمار ، فإن اصابته بعد الخرص جائحة اعتبرت وسقطت زكاة ما اجتاحته الجائحة ، فإن بقي بعدها خمسة أوسق فصاعداً أخرج الزكاة وإلا فلا ، ولا خلاف في اعتبار الجائحة بعد الخرص بين العلماء .

وممن قال بخرص النخيل والأعناب : الأئمة الثلاثة : مالك ، والشافعي ، وأحمد – رحمهم الله تعالى – وعمر بن الخطاب وسهل بن أبي حثمة ، ومروان والقاسم بن محمد ، والحسن وعطاء والزهري ، وعمرو بن دينار وعبد الكريم بن أبي المخارق ، وأبو عبيد ، وأبو ثور : وأكثر أهل العلم كما نقله عنهم ابن قدامة في المغني ، وحكي عن الشعبي ، أن الخرص بدعة ، ومنعه الثوري ، وقال أبو حنيفة وأصحابه : الخرص ظن وتخمين لا يلزم به حكم ، وإنما

كان الخرص تخويفاً للقائمين على الثمار لئلا يخونوا ، فأما أن يلزم به حكم فلا .

قال مقيده عفا الله عنه : لا يخفى أن هذا القول تبطله نصوص السنة الصحيحة الصريحة ، فمن ذلك ما أخرجه الشيخان في صحيحيهما من حديث أبي حميد الساعدي رضي الله عنه ، قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة " تبوك " فأتينا وادي القرى على حديقة لامرأة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اخرصوها " ، فخرصناها ، وخرصها رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة أوسق " وقال : أحصيها حتى نرجع إليك ، إن شاء الله ، وانطلقنا حتى قدمنا تبوك ، فذكر الحديث .

قالك " ثم أقبلنا حتى قدمنا وادي القرى ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم المرأة عن حديقتها كم بلغ ثمرها ؟ قالت : بلغ عشرة أوسق " فهذا الحديث المتفق عليه دليل واضح على مشروعية الخرص ، كما ترى .

*(148/254)*

---

وعن عتاب بن أسيد رضي الله عنه : " أن النَّبي صلى الله عليه وسلم كان يبعث على الناس من يخرص عليهم كرومهم وثمارهم " أخرجه أبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه وابن حبان .

وعن عتاب رضي الله عنه أيضاً قال : " أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرص العنب ، كما يخرص النخل فتؤخذ زكاته زبيباً كما تؤخذ صدقة النّخل تمراً " أخرجه أيضاً أبو داود ، والنسائي ، وابن حبان ، والدارقطني .

والتحقيق في حديث عتاب هذا ، أنه من مراسيل سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى ، لأنه لم يدرك عتاباً ، لأن مولد سعيد في خلافة عمر ، وعتاب مات يوم مات أبو بكر رضي الله عنهما ، وقد أثبت الحجة بمراسيل سعيد كثير ممن يقولون بعدم الاحتجاج بالمرسل ، وقال النووي في شرح المهذب : إن من أصحابنا : من قال يحتج بمراسيل ابن السيب مطلقاً ، والأصح أنه إنما يحتج بمراسيله ، إذا اعتضدت بأحد أربعة أمور : أن يسند أو يرسل من جهة أخرى ، أو يقول به بعض الصحابة ، أو أكثر العلماء ، وقد وجد ذلك هنا .

فقد أجمع العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم على وجوب الزكاة في التمر ، والزبيب .

قال مقيده عفا الله عنه : وبما ذكره النووي تعلم اتفاق الشافعية على الاحتجاج بهذا المرسل ، والأئمة الثلاثة يحتجون بالمرسل مطلقاً فظهر إجماع المذاهب الأربعة على الاحتجاج بمثل هذا المرسل ، وروى هذا الحديث الدارقطني بسند فيه الواقدي متصلاً فقال عن سعيد بن المسيب ، عن المسور بن مخرمة عن عتاب بن أسيد .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث عبد الله بن رواحة فيخرص النخل حين يطيب قبل أن يوكل منه ، ثم يخير يهود يأخذونه بذلك الخرص ، أو يدفعونه إليهم بذلك الخرص ، لكي يحصي الزكاة قبل أن تؤكل الثمار وتفرق " أخرجه أحمد وأبو داود ، وقد أعل بأن فيه واسطة بين ابن جريج والزهري ، ولم يعرف ، وقد رواه عبد الرزاق والدارقطني بدون الواسطة المذكورة ، وابن جريج مدلس فلعله تركها تدليساً قاله ابن حجر ، وقال ذكر الدارقطني الاختلاف فيه قالك فرواه صالح بن أبي الأخضر عن الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة ، وأرسله معمر ومالك ، وعقيل : فلم يذكروا ابا هريرة ، وأخرج أبو داود من طريق ابن جريج : أخبرني ابو الزبير أنه سمع جابراً يقول خرصها ابن رواحة أربعين ألف وسق .

وقال ابن حجر في التلخيص : أيضاً روى أحمد من حديث ابن عمر " أنه صلى الله عليه وسلم بعث عبد الله بن رواحة إلى خيبر يخرص عليهم " الحديث .

وروى أبو داود والدارقطني من حديث جابر " لما فتح الله على رسول خيبر أقرهم ، وجعلها بينه وبينهم ، فبعث عبد الله بن رواحة فخرصها عليهم " الحديث ورواه ابن ماجه من حديث ابن عباس .

وروى الدارقطني عن سهل بن أبي خيثمة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أباه

خارصاً فجاء رجل ، فقال : يا رسول الله إن أبا خيثمة قد زاد علي " الحديث ، ثم ذكر ابن حجر حديث عتاب ، وحديث عائشة اللذين قدمناهما ، ثم قال وفي الصحابة ، لأبي نعيم من طريق الصلت بن زبيد بن الصلت عن أبيه عن جده " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمله على الخرص ، فقال : " أثبت لنا النصف ، وأبق لهم النصف ، فإنهم يسرقون ، ولا نصل إليهم " .

*(150/254)*

---

فبهذا الحديث ذكرنا كله تعلم أن الخرص حكم ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ظن وتخمين باطل ، بل هو اجتهاد ورد به الشرع في معرفة قدر الثمر وإدراكه بالخرص الذي هو نوع من المقادير والمعايير ، فهو كتقويم المتلفات ووقت الخرص حتى يبدو صلاح الثمر ، كما قدمنا لما قدمنا ، من الرواية " بأنه صلى الله عليه وسلم كان يبعث الخارص فيخرص عليهم النخل حين يطيب قبل أن يؤكل " ، ولا خلاف في ذلك بين العلماء .

والجمهور القائلون بالخرص اختلفوا في حكمه ، فقيلك هو سنة ، لأن النَّبي صلى الله عليه وسلم ، كان يأمر به ، وقيل : واجب لما تقدم في حديث عتاب من قوله " أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرص العنب " الحديث المتقدم ، قالوا : الأمر للوجوب ، ولأنه إن

ترك الخرص قد يضيع شيء من حق الفقراء ، والأظهر عدم الوجوب ، لأن الحكم بأن هذا الأمر واجب يستوجب تركه العقاب يحتاج إلى دليل ظاهر قوي ، والله تعالى اعلم .

واختلف العلماء القائلون بالخرص هل على الخارص أن يترك شيئاً ، فقال بعض العلماء : عليه أن يترك الثلث أو الربع ، لما رواه الإمام أحمد ، وأصحاب السنن إلا ابن ماجه ، وابن حبان ، والحاكم وصححاه عن سهل ابن أبي حثمة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا خرصتم فخذوا ، ودعوا الثلث ، فإن لم تدعوا الثلث فدعوا الربع " فإن قيل في إسناده عبد الرحمن بن مسعود بن نيار الراوي عن سهل بن أبي حثمة . وقد قال البزار : إنه انفرد به ، وقال ابن القطان لا يعرف حاله ، فالجواب أن له شاهداً بإسناد متفق عليه على صحته " أن عمر بن الخطاب أمر به ، قاله الحاكم ، ومن شواهده ما رواه ابن عبد البر عن جابر مرفوعاً " خففوا ، في الخرص " الحديث ، وفي إسناده ابن لهيعة .

وممن قال بهذا القول الإمام أحمد ، وإسحاق ، والليث ، وأبو عبيد وغيرهم ، ومشهور مذهب مالك . والصحيح في مذهب الشافعي أن الخارص لا يترك شيئاً .

*(151/254)*

قال مقيده عفا الله عنه : والقول بأنه يترك الثلث أو الربع هو الصواب لثبوت الحديث الذي صححه ابن حبان ، والحاكم بذلك ، ولم يثبت ما يعارضه ، ولأن الناس يحتاجون إلى أن يأكلوا ويطعموا جيرانهم وضيوفهم ، وأصدقاءهم ، وسؤالهم ، ولأن بعض الثمر يتساقط وتنتابه الطير وتأكل منه المارة ، فإن لم يترك لهم الخارص شيئاً . فالظاهر أن لهم الأكل بقدر ما كان يلزم إسقاطه ، ولا يحسب عليهم .

وهذا مذهب الإمام أحمد رحمه الله ، وهو مقتضى ما دل عليه الحديث المذكور ، فإن زاد الثمر أو نقص عما خرصه به الخارص ، فقال بعض العلماء : لا زكاة عليه فيما زاد ، وتلزمه فيما نقص ، لأنه حكم مضى .

وقال بعضهم : يندب الإخراج في الزائد ، ولا تسقط عنه زكاة ما نقص .

قال مقيده عفا الله عنه ، أما فيما بينه وبين الله ، فلا شك أنه لا تجب عليه زكاة شيء لم يوجد ، وأما فيما بينه وبين الناس ، فإنها قد تجب عليه قال خليل بن إسحاق المالكي في مختصره ، وإن زادت على تخريص عارف فالأحب الإخراج ، وهل على ظاهره أو الوجوب تأويلان .

قال شارحه المواق من المدونة : قال مالك : من خرص عليه اربعة أوسق فرفع خمسة أوسق أحببت له أن يزكي ابن يونس ، قال بعض شيوخنا : لفظة أحببت ها هنا على الإيجاب ، وهو صواب كالحاكم يحكم بحكم ، ثم يظهر أنه خطأ صراح ابن عرفة ، على هذا

حملها الأكثر ، وحملها ابن رشد ، وعياض على الاستحباب .

قال مقيده عفا الله عنه : ووجوب الزكاة في الزائد هو الأظهر ، وعليه أكثر المالكية ، وهو الصحيح عند الشافعية ، وأما النقص ، فإذا ثبت ببينة أنها نقصت عما خرصت به ، فالظاهر أنه تسقط عنه زكاة ما نقصت به ، وإن ادعى غلط الخارص .

*(152/254)*

---

فقد قال بعض أهل العلم : لم تقبل دعواه لأن الخارص أمين ، وقال بعض العلماء : تقبل دعواه غلط الخارص ، إذا كانت مشبهة ، أما إذا كانت بعيدة ، كدعواه زيادة النصف ، أو الثلثين فلا يقبل قوله في الجميع ، وهذا التفصيل هو مذهب الشافعي ، وأحمد إلا أن بعض الشافعية قال ، يسقط عنه من الكثير الذي ادعى قدر النقص الذي تقبل دعواه فيه ، وأما إن ادعى أن الخارص جار عليه عمداً ، فلا تقبل دعواه عليه بلا خلاف ، كما لو ادعى جور الحاكم ، أو كذب الشاهد ، وكذا أذا ادعى أنه غلط في الخرص ، ولم يبين قدر ما زاد لم يقبل منه نص عليه علماء الشافعية ، وإن ادعى رب الثمر أنه أصابته جائحة أذهبت بعضه ، فالظاهر تصديقه فيما يشبه قوله ، كما لو ادعى أن بعضه سرق بالليل مثلاً قيل بيمين .

وقيل : لا وإن أضاف هلاك الثمرة إلى سبب يكذبه الحس ، كأن يقول هلكت بحريق وقع في البحرين في وقت كذا ، وعلمنا أنه لم يحترق في ذلك الوقت لم يلتفت إلى كلامه ، فإن علم وقوع السبب الذي ذكر ، وعموم أثره صدق بلا يمين ، وإن اتهم حلف ، قيل : وجوباً ، وقيل : استحباباً ، وإن لم يعرف عدم السبب المذكور ولا وجوده ، فالصحيح أنه يكلف بالبينة على وجود أصل السبب ، ثم القول قوله في الهلاك به ، وهذا التفصيل الأخير للشافعية ذكره النووي في شرح المهذب ، ووجهه ظاهر ، والله تعالى أعلم .

وجمهور العلماء على أنه لا يخرص غير التمر ، والزبيب ، فلا يخرص الزيتون والزرع ولا غيرهما ، وأجازه بعض العلماء في الزيتون ، وأجازه بعضهم في سائر الحبوب . والصحيح أنه لا يجوز إلا في التمر والعنب لثلاثة أمور :

الأول : أن النص الدال على الخرص لم يرد إلا فيهما كما تقدم في حديث عتاب بن أسيد وغيره من الأحاديث .

*(153/254)*

---

الثاني : أن غيرهما ليس في معناهما ، لأن الحاجة تدعو غالباً إلى أكل الرطب قبل أن يكون تمراً ، والعنب قبل أن يكون زبيباً ، وليس غيرهما كذلك الثالث أن ثمرة النخل ظاهرة

مجتمعة في عذوقها ، والعنب ظاهر أيضاً مجتمع في عناقيده ، فحزرهما ممكن بخلاف غيرهما من الحبوب ، فإنه متفرق في شجره والزرع مستتر في سنبله .

والظاهر أن ما جرت العادة بالحاجة إلى أكله لا يحسب ، لما قدمنا ، وقال المالكية يحسب عليهم كلما أكلوه من الحب ، ولا يحسب ما تأكله الدواب في درسها .

المسالة الثانية : لا يجوز إخراج زكاة الثمار إلا من التمر اليابس والزبيب اليابس ، وكذلك زكاة الحبوب لا يجوز إخراجها ، إلا من الحب اليابس بعد التصفية ، وهذا لا خلاف فيه بين العلماء ، وأجرة القيام على الثمار والحبوب حتى تيبس وتصفى من خالص مال رب الثمرة والزرع ، فإن دفع زكاة التمر بسراً أو رطباً أو دفع مكاة الزبيب عنباً لم يجزه ذلك ، لأنه دفع غير الواجب ، لأن الواجب تمر وزبيب يابسان إجماعاً .

وقد قال ابن قدامة في المغني : فإن كان المخرج للرطب رب المال لم يجزه ولزمه إخراج الفضل بعد التجفيف ، لأنه أخرج غير الفرض فلم يجزه ، كما لو أخرج الصغير عن الماشية الكبار ، وهو نص صريح منه في أن الرطب غير الواجب ، وأن منزلته من التمر الذي هو الواجب كمنزلة صغار الماشية من الكبار التي هي الواجبة في زكاة الماشية .

وقال النووي في شرح المهذب ما نصه فلو أخرج الرطب والعنب في الحال لم يجزئه بلا خلاف ، ولو أخذه الساعي غرمه بلا خلاف ، لأنه قبضه بغير حق ، وكيف يغرمه فيه وجهان

مشهوران ذكرهما المصنف في آخر الباب : الصحيح : الذي قطع به الجمهور ، ونص عليه الشافعي رضي الله عنه ، أنه يلزمه قيمته .

(154/254)

---

والثاني : يلزمه مثله وهما مبنيان على أن الرطب والعنب مثليان أم لا ، والصحيح المشهور أنهما ليسا مثليين ولو جف عند الساعي ، فإن كان قدر الزكاة أجزأ ، وإلا رد التفاوت أو أخذه كذا قاله العراقيون وغيرهم ، وحكى ابن كج وجهاً أنه لا يجزئ بحال لفساد القبض ، قال الرافعي : وهذا الوجه أولى والمختار ما سبق انتهى كلام النووي بلفظه ، وهو صريح في عدم إجزاء الرطب والعنب بلا خلاف عند الشافعية .

وقال صاحب المهذب ما نصه : فإن أخذ الرطب وجب رده ، وإن فات وجب رد قيمته ، ومن أصحابنا من قال : يجب رد مثله ، والمذهب الأول لأنه لا مثل له ، لأنه يتفاوت ، ولهذا لا يجوز بيع بعضه ببعض اه . منه بلفظه ، وهو صريح في عدم إجزاء الرطب في زكاة التمر ، وهذا الذي ذكرنا عن عامة العلماء من أن الزكاة لا تؤخذ إلا من التمر والزبيب اليابسين ، هو مذهب مالك وعامة أصحابه وفي الموطأ ما نصه .

قال مالك : الأمر المجتمع عليه عندنا أن النخل تخرص على أهلها وثمرها في رؤوسها إذا

طاب وحل بيعه ، ويؤخذ منه صدقته تمراً عند الجذاذ إلى أن قال : وكذلك العمل في الكرم انتهى محل الفرض منه بلفظه ، وفيه تصريح مالك رحمه الله بأن الأمر المجتمع عليه من علماء زمنه ، أن الزكاة تخرج تمراً ، وهو يدل دلالة واضحة على أن من ادعى جواز إخراجها من الرطب أو البسر ، فدعواه مخالفة للأمر المجتمع عليه عند مالك وعلماء زمنه .

ومن أوضح الأدلة على ذلك ، أن البلح الذي لا يتتمر والعنب الذي لا يتزبب كبلح مصر وعنبها ، لا يجوز الإخراج منه مع تعذر الواجب الذي هو التمر والزبيب اليابسان ، بل تدفع الزكاة منه ثمنه أو قيمته عند مالك وأصحابه ، فلم يجعلوا العنب والرطب أصلاً ، ولم يقبلوهما بدلاً عن الأصل ، وقالوا : بوجوب الثمن إن بيع ، والقيمة إن أكل .

*(155/254)*

---

قال خليل في مختصره : وثمن غير ذي الزيت وما لا يجف ومراده بقوله : وما لا يجف أن الرطب والعنب اللذين لا ييبسان يجب الإخراج من ثمنهما لا من نفس الرطب والعنب ، وفي المواق في شرح قول خليل ، وإن لم يجف ما نصه .

قال مالك إن كان رب هذا النخل لا يكون تمراً ، ولا هذا العنب زبيباً فليخرص أن لو كان ذلك فيه ممكناً ، فإن صح في التقدير خمسة أوسق أخذ من ثمنه انتهى محل الغرض منه

بلفظه ، وهو نص صريح عن مالك أنه لا يرى إخراج الرطب ، والعنب في الزكاة لعدوله عنهما إلى الثمن في حال تعذر التمر والزبيب اليابسين ، فكيف بالحالة التي لم يتعذرا فيها .

والحاصل أن إخراج الرطب والعنب عما يبس من رطب وعنب ، لم يقل به أحد من العلماء ، ولا دل عليه دليل من كتاب ولا سنة ولا قياس وأما الذي لا ييبس كبلح مصر وعنبها ففيه قول مرجوح عند المالكية بإجزاء الرطب والعنب ، ونقل هذا القول عن ابن رشد ، وسترى إن شاء الله في آخر هذا المبحث كلام الشافعية والحنابلة فيه ، فإن قيل : فما الدليل على أنه لا يجزئ إلا التمر والزبيب اليابسان دون الرطب والعنب ؟

فالجواب : أن ذلك دلت عليه عدة أدلة الأول : هو ما قدمنا من حديث عتاب بن أسيد رضي الله عنه قال : " أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخرص العنب كما يخرص النخل فتؤخذ زكاته زبيباً كما تؤخذ صدقة النخل تمراً " وقد قدمنا أن هذا الحديث أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان والدارقطني ، وقد قدمنا أنه ن مراسيل سعيد بن المسيب ، وقدمنا أيضاً أن الاحتجاج بمثل هذا المرسل من مراسيل سعيد صحيح عند الأئمة الأربعة ، فإذا علمت صحة الاحتجاج بحديث سعيد بن المسيب هذا .

فاعلم أنه نص صريح في " أن النَّبي صلى الله عليه وسلم أمر بخرص العنب والنخل ، وأن تؤخذ زكاة العنب زبيباً ، وصدقة النخل تمراً ، فمن ادعى جواز أخذ زكاة النخل رطباً أو بسراً " فدعواه مخالفة لما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه أمر بأخذها في حال كونها تمراً في النخل وزبيباً في العنب ، ومعلوم أن الحال وصف لصاحبها قيد لعاملها .

فكون زكاة النخل تمراً وصف لها أمر النَّبي صلى الله عليه وسلم بإخراجها في حال كونها متصفة به . وكذلك ككونها تمراً قيد لأخذها ، فهو تقييد من النَّبي صلى الله عليه وسلم لأخذها بأن يكون في حال كونها تمراً ، فيفهم منه أنها لا تؤخذ على غير تلك الحال ككونها رطباً مثلاً وإذا اتضح لك أن أخذها رطباً – مثلاً – مخالف لما أمر به صلى الله عليه وسلم ، فاعلم أنه قال في الحديث المتفق عليه " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه ، فهو رد " ، وفي الكتاب العزيز ﴿ فَلْيَحْذَرِ الذين يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ [ النور : 63 ] الآية .

ومما يوضح لك أن إخراج الرطب مثلاً في الزكاة مخالف لما سنه وشرعه صلى الله عليه وسلم من أخذها تمراً ، وزبيباً يابسين ما ذكره البيهقي في السنن الكبرى في باب "كيف تؤخذ زكاة النخل والعنب " فإنه قال فيه وأخبرنا أبو الحسن بن أبي المعروف الفقيه المهرجاني . أنبأ بشر بن أحمد . أنبأ أحمد بن الحسين بن نصر الحذاء . ثنا علي ابن عبد الله – ثنا يزيد بن زريع ، ثنا عبد الرحمن بن إسحاق ، أخبرني الزهري عن سعيد بن المسيب

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم " أمر عتاب بن أسيد أن يخرص العنب كما يخرص النخل " ثم تؤدى زكاته زبيباً كما تؤدى زكاة النخل تمراً " قال : فتلك سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في النخل والعنب – اه . منه بلفظه ، وفيه التصريح بأن إخراج التمر والزبيب : هو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمخرج الرطب والعنب مخالف لسننه صلى الله عليه وسلم كما ترى .

*(157/254)*

---

الدليل الثاني : إجماع المسلمين على أن زكاة الثمار والحبوب من نوع ما تجب الزكاة في عينه ، والعين الواجبة فيها الزكاة هي : التمر والزبيب اليابسان . لا الرطب والعنب بدليل إجماع القائلين بالنصاب في الثمار . على أن خمسة الأوسق التي هي النصاب لا تعتبر من الرطب ، ولا من العنب ، فمن كان عنده خمسة أوسق من الرطب أو العنب ، ولكنها إذا جفت نقصت عن خمسة أوسق فلا زكاة عليه . لأن النصاب معتبر من التمر والزبيب اليابسين ، فلو أخرج الزكاة من الرطب أو العنب لكان مخرجاً من غير ما تجب في عينه الزكاة كما ترى ، ويدل له ما ذكره الزرقاني في شرح الموطأ ، فإنه قال فيه في شرح قول مالك .

ثم يؤدون الزكاة على ما خرص عليهم ما نصه ، ومبنى التخريص أن يحزر ما في النخل أو

العنب من التمر اليابس إذا جذ على حسب جنسه ، وما علم من حاله أنه يصير غليه عند الإتمار . لأن الزكاة إنما تؤخذ منه تمراً . انتهى محل الفرض منه بلفظه .

وقد تقرر عند جماهير العلماء أن لفظة إنما للحصر وهو الحق . فقول الزرقاني لأن الزكاة إنما تؤخذ منه تمراً معناه حصر أخذ زكاة النخل في خصوص التمر دون غيره من رطب ونحوه ، معللاً بذلك اعتبار النصاب من التمر اليابس . لأن الإخراج مما تجب في عينه الزكاة من الثمار والحبوب وهو واضح ، ولا يرد على ما ذكرناه أن وقت وجوب الزكاة : هو وقت طيب الثمر قبل أن يكون يابساً ، لإجماع العلماء على أنه لا يجب إخراجها بالفعل إلا بعد أن يصير تمراً يابساً ولإجماعهم أيضاً على أنه إن أصابته جائحة اعتبرت ، فتسقط زكاة ما أجيح ، كما تسقط زكاة الكل إن لم يبق منه نصاب . وسيأتي له زيادة إيضاح .

*(158/254)*

---

الدليل الثالث : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم كان يأخذها تمراً بعد الجذاذ لا بلحاً ولا رطباً ، والله جل وعلا يقول : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [ الأحزاب : 21 ] الآية ، ويقول : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ ﴾ [ الحشر : 7 ] الآية ، ويقول : ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله ﴾ [ النساء : 80 ] الآية ، ويقول : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ

الله فاتبعوني ﴾ [آل عمران : 31 ] الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

قال البخاري في صحيحه : " باب أخذ صدقة التمر عند صرام النخل وهل يترك الصبي فيمس الصدقة " حدثنا عمر بن محمد بن الحسن الأسدي . حدثنا أبي ، حدثنا إبراهيم بن طهمان عن محمد بن زياد ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤتى بالتمر عند صرام النخل فيجيء هذا بتمره وهذا من تمره حتى يصير عنده كوماً من تمر ، فجعل الحسن والحسين رضي الله عنهما يلعبان بذلك التمر ، فأخذ أحدهما تمرة فجعلها في فيه ، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخرجها من فيه . فقال : " أما علمت أن آل محمد – صلى الله عليه وسلم – لا يأكلون الصَّدقة " اه .

فهذا الحديث الصحيح نص صريح في أنه صلى الله عليه وسلم كان يأخذ صدقة النخل تمراً بعد الجذاذ ، وقد تقرر في الأصول أن صيغة المضارع بعد لفظة كان في نحو كان يفعل كذا : تدل على كثرة التكرار والمداومة على ذلك الفعل ، فقول أبي هريرة في هذا الحديث المرفوع الصحيح : كان صلى الله عليه وسلم :

" يؤتى بالتمر عند صرام النخل " .

الحديث يدل دلالة واضحة على أن إخراج التمر عند الجذاذ هو الذي كان يفعل دائماً في زمنه صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي يأخذ في الزكاة ذلك التمر اليابس ، فمن ادعى

جواز إخراج زكاة النخل رطباً أو بلحاً فهو مخالف لما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

*(159/254)*

---

وقال ابن حجر في " فتح الباري " في شرح هذا الحديث المذكور آنفاً ما نصه " قال الإسماعيلي : قوله عند صرام النخل . أي بعد أن يصير تمراً ، لأن النخل قد يصرم وهو رطب ، فيتمر في المريد ، ولكن ذلك لا يتطاول فحسن أن ينسب إلى الصرام كما في قوله تعالى : ﴿ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [ الأنعام : 141 ] فإن المراد بعد أن يداس وينقى والله تعالى أعلم " اه . منه بلفظه وهو واضح فيما ذكرنا .

وبما ذكرنا تعلم أن ما يدعيه بعض أهل العلم من المتاخرين من جواز إخراج زكاة النخل رطباً وبسراً غير صحيح ، ولا وجه له ، ولا دليل عليه ، وأما إن كان التمر لا ييبس ، كبلح مصر وعنبها فقد قدمنا عن مالك وأصحابه أن الزكاة تخرج من ثمنه إن بيع ، أو قيمته إن أكل ، لا من نفس الرطب أو العنب .

وقد قدمنا عن ابن رشد قولاً مرجوحاً بإجزاء الرطب والعنب في خصوص ما لا ييبس .

ومذهب الشافعي رحمه الله في زكاة ما لا ييبس : أنه على القول بأن القسمة تمييز حق لا بيع

، فيجوز القسم ويجعل العشر أو نصفه متميزاً في نخلات ، ثم ينظر المصدق : فإن رأى أن يفرق عليهم فعل ، وإن رأى البيع وقسمة الثمن فعل ، وأما على القول بأن القسمة بيع فلا تجوز في الرطب والعنب ، ويقبض المصدق عشرها مشاعاً ، بالتخلية بينه وبينها ، ويستقر عليه ملك المساكين ، ثم يبيعه ويأخذ ثمنه ويفرقه عليهم ، وهكذا الحكم عنده فيما إذا احتيج إلى قطع الثمرة رطباً خوفاً عليها من العطش ونحوه .

وحكم هذه المسألة في المذهب الحنبلي فيه قولان .

أحدهما : أنه يخير الساعي بين أن يقاسم رب المال الثمرة قبل الجذاذ بالخرص ، ويأخذ نصيبهم نخلة مفردة ، وياخذ ثمرتها . وبين أن يجذها ويقاسمه إياها بالكيل ، ويقسم الثمرة في الفقراء ، وبين أن يبيعها من رب المال أو غيره قبل الجذاذ أو بعده ، ويقسم ثمنها في الفقراء .

*(160/254)*

---

القول الثاني : أن عليه الزكاة من تمر وزبيب يابسين ، قاله أبو بكر . وذكر أن أحمد – رحمه الله – نص عليه . قاله صاحب المغني ، وهذا الذي ذكرنا هو حاصل مذهب أحمد – رحمه الله – في المسالتين . أعني الثمر الذي لا ييبس ، والذي احتيج لقطعه قبل اليبس .

المسألة الثالثة : اختلف في وقت وجوب الزكاة فيما تنبته الأرض من ثمر وحب .

فقال جمهور العلماء : تجب في الحب إذا اشتد ، وفي الثمر إذا بدا صلاحه فتعلق الوجوب عند طيب التمر . ووجوب الإخراج بعد الجذاذ .

وفائدة الخلاف أنه لو تصرف في الثمر والحب قبل الوجوب لم يكن عليه شيء ، وإن تصرف في ذلك بعد وجوب الزكاة لم تسقط الزكاة عنه .

ومن فوائده أيضاً : أنه إذا مات بعد وقت الوجوب زكيت على ملكه ، وإن مات قبل الوجوب زكيت على ملك الورثة ، وقال القرطبي في تفسير هذه الآية : واختلف العلماء في وقت الوجوب على ثلاثة أقوال .

الأول : أنه وقت الجذاذ . قاله محمد بن مسلمة : لقوله تعالى :

﴿ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [ الأنعام : 141 ] .

الثاني : يوم الطيب . لأن ما قبل الطيب يكون علفاً لا قوتاً ولا طعاماً ، فإذا طاب وحان الأكل الذي أنعم الله به ، وجب الحق الذي أمر الله به ، إذ بتمام النعمة يجب شكر النعمة ، ويكون الإيتاء وقت الحصاد لما قد وجب يوم الطيب .

الثالث : أنه يكون بعد تمام الخرص . لأنه حينئذ يتحقق الواجب فيه من الزكاة فيكون شرطاً لوجوبها كمجيء الساعي في الغنم ، وبه قال المغيرة ، والصحيح الأول لنص التنزيل ، والمشهور في المذهب الثاني ، وبه قال الشافعي . اه منه .

وقد قدمنا أن مالكاً – رحمه الله – يقول : بأن كل ما أكله المالك أو تصدق به يحسب عليه ، وجمهور العلماء يخالفونه – رحمه الله – في ذلك . واحتجوا لأن ما يأكله لا يحسب عليه بقوله تعالى ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [ الأنعام : 141 ] . وبالحديث المتقدم . أن على الخارص أن يدع الثلث أو الربع . وقوله تعالى ﴿ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ قرأه ابن عامر وأبو عمرو وعاصم بفتح الحاء ، والباقون بكسرها ، وهما لغتان مشهورتان كالصرام والصرام والجذاذ والجذاذ والقطاف والقطاف .

فائدة : ينبغي لصاحب الحائط إذا اراد الجذاذ ألا يمنع المساكين من الدخول ، وأن يتصدق عليهم لقوله تعالى في ذم أصحاب أهل الجنة المذكورة في سورة القلم ﴿ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ [ القلم : 17 ] الآيات ، والعلم عند الله تعالى قوله تعالى ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَآ أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً ﴾ [ الأنعام : 145 ] الآية . هذه الآية الكريمة صريحة في أنه لم يحرم من المطعومات إلا هذه الأربعة المذكورة فيها ، التي هي : الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما أهل به لغير الله ، ولكنه تعالى بين في بعض المواضع تحريم غير المذكورات كتصريحه بتحريم الخمر في سورة المائدة بقوله

تعالى ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ إِنَّمَا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان فاجتنبوه لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: 90].

وقال بعض العلماء لا يحرم مطعوم إلا هذه الأربعة المذكورة، وهو قول يروى عن ابن عمر وابن عباس وعائشة قال القرطبي: ويروى عنهم أيضاً خلافه، وقال البخاري في صحيحه: حدثنا علي بن عبد الله.

*(162/254)*

---

حدثنا سفيان. قال عمرو: قلت لجابر بن زيد: يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر الأهلية فقال: " قد كان يقول ذلك الحكم بن عمرو الغفاري عندنا بالبصرة، ولكن أبى ذلك البحر ابن عباس، وقرأ ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً ﴾ [الأنعام: 145] اه. وقال ابن خويز منداد من المالكية: تضمنت هذه الآية تحليل كل شيء من الحيوان وغيره إلا ما استثنى في الآية من الميتة، والدم، ولحم الخنزير.

ولهذا قلنا: إن لحوم السباع وسائر الحيوان ما سوى الإنسان، والخنزير مباحة.

وقال القرطبي: روي عن عائشة وابن عباس وابن عمر إباحة أكل لحوم السباع، والحمر، والبغال، وذكر حديث البخاري الذي قدمنا آنفاً.

ثم قال : وروي عن ابن عمر أنه سئل عن لحوم السباع فقال : لا بأس بها . فقيل له حديث أبي ثعلبة الخشني . فقال : لا ندع كتاب ربنا لحديث أعرابي يبول على ساقيه .

وسئل الشعبي عن لحم الفيل ، والأسد . فتلا هذه الآية .

وقال القاسم : كانت عائشة تقول : لما سمعت الناس يقولون حرم كل ذي ناب من السباع . ذلك حلال . وتتلو هذه الآية :

﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ ﴾ [ الأنعام : 145 ] الآية .

قال مقيده : – عفا الله عنه – اعلم أنا نريد في هذا المبحث أن نبين حجة من قال بعدم تحريم لحوم السباع والحمير ونحوها ، وحجة من قال بمنعها ، ثم نذكر الراجح بدليله .

واعلم أولاً : أن دعوى أنه لا يحرم مطعوم غير الأربعة المذكورة في هذه الآية باطلة . بإجماع المسلمين لإجماع جميع المسلمين ، ودلالة الكتاب والسنة على تحريم الخمر فهو دليل قاطع على تحريم غير الأربعة .

*(163/254)*

---

ومن زعم أن الخمر حلال لهذه الآية . فهو كافر بلا نزاع بين العلماء ، وإذا عرفت ذلك فاعلم أن الذين استدلوا بهذه الآية على عدم تحريم ما ذكر قالوا : إن الله حصر المحرمات فيها في

الأربعة المذكورة ، وحصرها أيضاً في النحل فيها في قوله : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمَ الخنزير وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ ﴾ [ النحل : 115 ] لأن إنما أداة حصر عند الجمهور ، والنحل بعد الأنعام ، بدليل قوله في النحل ﴿ وعلى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ [ النحل : 118 ] الآية . والمقصوص المحال عليه هو المذكور في الأنعام في قوله ﴿ وَعَلَى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ﴾ [ الأنعام : 146 ] الآية ، ولأنه تعالى قال في الأنعام : ﴿ سَيَقُولُ الذين أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ الله مَآ أَشْرَكْنَا ﴾ [ الأنعام : 148 ] الآية . ثم صرح في النحل بأنهم قالوا ذلك بالفعل في قوله : ﴿ وَقَالَ الذين أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ الله مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ ولا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ [ النحل : 35 ] الآية . فدل ذلك على أن النحل بعد الأنعام ، وحصر التحريم أيضاً في الأربعة المذكورة في سورة البقرة في قوله :

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمَ الخنزير وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ الله ﴾ [ البقرة : 173 ]

فقالوا : هذا الحصر السماوي الذي ينزل به الملك مرة بعد مرة في مكة في الأنعام ، والنحل ، وفي المدينة عند تشريع الأحكام في البقرة لا يمكننا معارضته ، ولا إخراج شيء منه إلا بدليل قطعي المتن . متواتر كتواتر القرآن العظيم .

فالخمر مثلاً دل القرآن على أنها محرمة فحرمناها ، لأن دليلها قطعي . أما غيرها ، كالسباع والحمر والبغال : فأدلة تحريمها أخبار آحاد يقدم عليها القاطع وهو الآيات المذكورة

آنفاً .

تنبيه

(164/254)

---

اعلم أن ما ذكره القرطبي وغيره من أن زيادة تحريم السباع والحمر مثلاً بالسنة على الأربعة المذكورة في الآيات – كزيادة التغريب بالسنة على جلد الزاني مائة الثابت بالقرآن – وزيادة الحكم بالشاهد واليمين في الأموال الثابت بالسنة على الشاهدين ، أو الشاهد والمرأتين المذكور في قوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وامرأتان ﴾ [ البقرة : 282 ] الآية . غير ظاهر عندي . لوضوح الفرق بين الأمرين ، لأن زيادة التغريب والحكم بالشاهد واليمين على آية : ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ﴾ [ النور : 2 ] الآية . في الأول ، وآية : ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وامرأتان ﴾ الآية . في الثاني زيادة شيء لم يتعرض له القرآن بنفي ولا إثبات ، ومثل هذه الزيادة لا مانع منه عند جمهور العلماء ، لأن الزيادة على النص ليست نسخاص له عند الجمهور ، خلافاً لأبي حنيفة – رحمه الله .

وبناء على ذلك منع التغريب والحكم بالشاهد واليمين ، لأن الزيادة عنده نسخ ، والقرآن لا ينسخ بأخبار الآحاد ، لأنه قطعي المتن وليست كذلك ، أما زيادة محرم آخر على قوله : ﴿

قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ ﴾ [ الأنعام : 145 ] الآية . فليست زيادة شيء سكت عنه القرآن كالأول ، وإنما هي زيادة شيء نفاه القرآن لدلالة الحصر القرآني على نفي التحريم عن غير الأربعة المذكورة ، وبين الأمرين فرق واضح ، وبه تعلم أن مالكاً – رحمه الله – ليس ممن يقول : بأن الزيادة على النص نسخ ، اللهم إلا إذا كانت الزيادة أثبتت ما كان منفياً بالنص قبلها ، فكونها إذن ناسخة واضح ، وهناك نظر آخر ، قال به بعض العلماء : وهو أن إباحة غير الربعة المذكورة من الإباحة العقلية المعروفة عند أهل الأصول بالبراءة الأصلية ، وهي استصحاب العدم الأصلي ، لأن الأصل عدم تحريم شيء إلا بدليل ، كما قاله جمع من أهل الأصول .

*(165/254)*

---

وإذا كانت إباحته عقلية : فرفعها ليس بنسخ حتّى يشترط في ناسخها التواتر ، وعزا ابن كثير في تفسيره هذا القول بعدم النسخ للأكثرين من المتأخرين .

قال مقيده – عفا الله عنه – وكونه نسخاً أظهر عندي ، لأن الحصر في الآية يفهم منه إباحة ما سوى الأربعة شرعاً فتكون إباحة شرعية لدلالة القرآن عليها ، ورفع الإباحة الشرعية نسخ بلا خلاف ، وأشار في ( مراقي السعود ) إلى أن الزيادة التي لا تناقض الحكم الأول

ليست نسخاً بقوله :

وليس نسخاً كل ما أفادا فيما رسا بالنص الازديادا

وهذا قول جمهور العلماء ، ووجهوه بعدم منافاة الزيادة للمزيد وما لا ينافي لا يكون ناسخاً ، وهو ظاهر .

واعلم أن مالك بن أنس – رحمه الله – اختلفت عنه الرواية في لحوم السباع ، فروي عنه أنها حرام ، وهذا القول هو الذي اقتصر عليه في الموطأ : لأنه ترجم فيه بتحريم أكل كل ذي ناب من السباع ، ثم ساق حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه بإسناده عن النَّبي صلى الله عليه وسلم " أنه نهى عن أكل كل ذي ناب من السباع " ثم ساق بإسناده حديث أبي هريرة مرفوعاً : " أكل كل ذي ناب من السباع حرام " ثم قال : وهو الأمر عندنا وهذا صريح في أن الصحيح عنده تحريمها ، وجزم القرطبي بأن هذا هو الصحيح من مذهبه ، وروي عنه أيضاً أنها مكروهة وهو ظاهر المدونة وهو المشهور عند أهل مذهبه ، ودليل هذا القول هو الآيات التي ذكرنا ، ومن جملتها الآية التي نحن بصددها .

وما روى عن ابن عباس وابن عمر وعائشة من إباحتها ، وهو قول الأوزاعي . قال مقيده – عفا الله عنه – الذي يظهر رجحانه بالدليل هو ما ذهب إليه الجمهور من أن كل ما ثبت تحريمه بطريق صحيحة من كتاب أو سنة فو حرام ، ويزاد على الأربعة المذكورة في الآيات ، ولا يكون في ذلك أي مناقضة للقرآن لأن المحرمات المزيدة عليها حرمت بعدها .

---

وقد قرر العلماء أنه لا تناقض يثبت بين القضيتين إذا اختلف زمنهما لاحتمال صدق كل منهما في وقتها ، وقد اشترط عامة النظار في التناقض : اتحاد الزمان ، لأنه إن اختلف جاز صدق كل منهما في وقتها ، كما لو قلت : لم يستقبل بيت المقدس قد استقبل بيت المقدس ، وعنيت بالأولى ما بعد النسخ ، وبالثانية ما قبله ، فكلتاهما تكون صادقة ، وقد أشرت في أرجوزتي في فن المنطق إلى أنه يشترط في تناقض القضيتين اتحادهما فيما سوى الكيف . أعني الإيجاب والسلب ، من زمان ومكان ، وشرط وإضافة ، وقوة وفعل ، وتحصيل وعدول ، وموضوع ومحمول ، وجزء وكل ، بقولي :

والاتحاد لازم بينهما . . . فيما سوى الكيف كشرط علما

والجزء والكل مع المكان . . . والفعل والقوة والزمان

إضافة تحصيل أو عدول . . . ووحدة الموضوع والمحمول

فوقت نزول الآيات المذكورة لم يكن حراماً غير الأربعة المذكورة ، فحصرها صادق قبل تحريم غيرها بلا شك ، فإذا طرأ تحريم شيء آخر بأمر جديد . فذلك لا ينافي الحصر الأول لتجدده بعده ، وهذا هو التحقيق إن شاء الله تعالى ، وبه يتضح أن الحق جواز نسخ المتواتر

بالسنة الصحيحة الثابت تأخرها عنه ، وإن منعه أكثر أهل الاصول .

وإذا عرفت ذلك : فسنفصل لك إن شاء الله تعالى المحرمات التي حرمت بعد هذا ، وأقوال العلماء فيها .

فمن ذلك كل ذي ناب من السباع ، فالتحقيق تحريمه لما قدمنا من حديث أبي هريرة ، وأبي ثعلبة الخشني من النهي عنها ، وتحريمها ، أما حديث أبي ثعلبة ، فمتفق عليه ، وأما حديث أبي هريرة ، فقد أخرجه مسلم في صحيحه عنه عن النَّبي صلى الله عليه وسلم : بلفظ " كل ذي ناب من السباع ، فأكله حرام " .

والأحاديث في الباب كثيرة ، وبه تعلم أن التحقيق هو تحريم أكل كل ذي ناب من السباع .

*(167/254)*

---

والتحقيق أن أكل كل ذي مخلب من الطير منهي عنه ، ولا عبرة بقول من قال من المالكية وغيرهم : أنه لم يثبت النهي عنه صلى الله عليه وسلم ، لما ثبت في صحيح مسلم من حديث ابن عباس ، أنه صلى الله عليه وسلم : " نهى عن كل ذي ناب من السباع ، وذي مخلب من الطير " اه .

فقرن في الصحيح بما صرح بأنه حرام مع أن كلاً منهما ذو عداء وافتراس ، فدل كل ذلك

على أنه منهي عنه .

والأصل في النهي التحريم ، وبتحريم ذي الناب من السباع ، وذي المخلب من الطير . قال جمهور العلماء منهم الأئمة الثلاثة وداود .

وقد قدمنا أنه الصحيح عن مالك في السباع ، وأن مشهور مذهبه الكراهة ، وعنه قول بالجواز وهو أضعفها ، والحق التحريم لما ذكرنا .

ومن ذلك الحمر الأهلية ، فالتحقيق أيضاص أنها حرام ، وتحريمها لا ينبغي أن يشك فيه منصف : لكثرة الأحاديث الصحيحة الواردة بتحريمها ، وقد روى البخاري ومسلم تحريمها من حديث علي بن أبي طالب ، وجابر بن عبد الله ، وسلمة بن الأكوع ، وعبد الله بن عمر ، والبراء بن عازب ، وعبد الله بن أبي أوفى ، وأنس ، وأبي ثعلبة الخشني رضي الله عنهم ، وأحاديثهم دالة دلالة صريحة على التحريم ، فلفظ حديث أبي ثعلبة عند البخاري ، ومسلم : " حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوم الحمر الأهلية " وهذا صريح صراحة تامة في التحريم ، ولفظ حديث أنس عندهما أيضاً " إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهلية فإنها رجس " ، وفي رواية لمسلم " فإنها رجس من عمل الشيطان " وفي رواية له أيضاً " فإنها رجس أو نجس " .

قال مقيده – عفا الله عنه – حديث أنس هذا المتفق عليه الذي صرح فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن لحوم الحمر الأهلية رجس . صريح في تحريم أكلها ، ونجاسة لحمها

، وأن علة تحريمها ليست لأنها لم يخرج خمسها ، ولا أنها حمولة كما زعمه بعض أهل العلم .

والله تعالى أعلم- .

(168/254)

---

ولا تعارض هذه الأحاديث الصحيحة المتفق عليها بما رواه أبو داود من حديث غالب بن أبجر المزني رضي الله عنه قال : أتيت النَّبي صلى الله عليه وسلم : فقلت يا رسول الله : أصابتنا السنة ولم يكن في مالي ما أطعم أهلي إلا سمان حمر ، وإنك حرمت الحمر الأهلية فقال :

" أطعم أهلك من سمين حمرك ، فإنما حرمتها من أجل جوال القرية " اه .

والجوال : جمع جالة ، وهي التي تأكل الجلة ، وهي في الأصل البعر ، والمراد به هنا أكل النجاسات كالعذرة .

قال النووي في شرح المهذب : اتفق الحفاظ على تضعيف هذا الحديث .

قال الخطابي : والبيهقي : هو حديث يختلف في إسناده . يعنون مضطرباً ، وما كان كذلك لا تعارض به الأحاديث المتفق عليها .

وأما البغال فلا يجوز أكلها أيضاً . لما رواه أحمد والترمذي من حديث جابر قال : " حرَّم

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، - يعني يوم خيبر - لحوم الحمر الإنسية ، ولحوم البغال ، وكل ذي ناب من السباع ، وكل ذي مخلب من الطَّير " أصل حديث جابر هذا في الصحيحين كما تقدم . وهو بهذا اللفظ : بسند لا بأس به . قاله ابن حجر والشوكاني .

وقال ابن كثير في تفسيره : وروى الإمام أحمد وأبو داود بإسنادين كل منهما على شرط مسلم عن جابر قال : " ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير ، فنهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البغال والحمير ، ولم ينهنا عن الخيل " ، وهو دليل واضح على تحريم البغال ، ويؤيده أنها متولدة عن الحمير وهي حرام قطعاً . لصحة النصوص بتحريمها .

وأما الخيل فقد اختلف في جواز أكلها العلماء .

فمنعها مالك - رحمه الله - في أحد القولين ، وعنه أنها مكروهة ، وكل من القولين صححه بعض المالكية ، والتحريم أشهر عندهم .

وقال أبو حنيفة - رحمه الله - أكره لحم الخيل ، وحمله أبو بكر الرازي على التنزيه . وقال : لم يطلق ابو حنيفة فيها التحريم ، وليست عنده كالحمار الأهلي .

*(169/254)*

وصحح عنه صاحب المحيط ، وصاحب الهداية ، وصاحب الذخيرة : التحيرم ، وهو قول أكثر الحنفية .

وممن رويت عنه كراهة لحوم الخيل الأوزاعي ، وأبو عبيد وخالد بن الوليد رضي الله عنه ، وابن عباس والحكم .

ومذهب الشافعي وأحمد – رحمهما الله تعالى – جواز أكل الخيل ، وبه قال أكثر أهل العلم .

وممن قال به عبد الله بن الزبير ، وفضالة بن عبيد ، وأنس بن مالك ، وأسماء بنت أبي بكر ، وسويد بن غفلة ، وعلقمة ، والأسود ، وعطاء ، وشريح ، وسعيد بن جبير ، والحسن البصري ، وإبراهيم النخعي ، وحماد بن أبي سليمان ، وإسحاق وأبو يوسف ، ومحمد ، وداود ، وغيرهم .

كما نقله عنهم النووي ، في " شرح المهذب " وسنبين – إن شاء الله – حجج الجميع وما يقتضي الدليل رجحانه .

اعلم أن من منع أكل لحم الخيل احتج بآية وحديث :

أما الآية فقوله تعالى : ﴿ والخيل والبغال والحمير لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ [ النحل : 8 ] الآية .

فقال : قد قال تعالى

﴿ والأنعام خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [ النحل : 5 ] فهذه للأكل .

وقال : ﴿ والخيل والبغال والحمير لِتَرْكَبُوهَا ﴾ فهذه للركوب لا للأكل ، وهذا تفصيل من خلقها وامتن بها ، وأكد ذلك بأمور :

أحدها أن اللام للتعليل ، أي خلقها لكم لعلة الركوب والزينة ، لأن العلة المنصوصة تفيد الحصر ، فإباحة أكلها يقتضي خلف ظاهر الآية .

ثانيها : عطف البغال والحمير عليها ، فدل على اشتراكها معهما في حكم التحريم .

ثالثها : أن الآية الكريمة سيقت للامتنان ، وسورة النحل تسمى سورة الامتنان . والحكيم لا يمتن بأدنى النعم ، ويترك أعلاها ، لا سيما وقد وقع الامتنان بالأكل في المذكورات قبلها .

رابعها : لو أبيح أكلها لفاقت المنفعة بها فيما وقع به الامتنان من الركوب والزينة .

*(170/254)*

---

وأما الحديث : فهو ما رواه الإمام أحمد وأبو داود ، والنسائي وابن ماجه ، عن خالد بن الوليد رضي الله عنه قال : " نَهَى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل لُحُوم الخيل والبغال والحَمِير " .

ورد الجمهور الاستدلال بالآية الكريمة . بأن آية النحل نزلت في مكة اتفاقاً ، والإذن في أكل الخيل يوم خيبر كان بعد الهجرة من مكة بأكثر من ست سنين ، فلو فهم النَّبي صلى الله عليه

وسلم المنع من الآية لما أذن في الأكل ، وأيضاً آية النحل ليست صريحة في منع أكل الخيل ، بل فهم من التعليل ، وحديث جابر ، وحديث أسماء بنت أبي بكر المتفق عليهما . كلاهما صريح في جواز أكل الخيل . والمنطوق مقدم على المفهوم كما تقرر في الأصول .

وأيضاً فالآية على تسليم صحة دلالتها المذكورة ، فهي إنما تدل على ترك الأكل ، والترك أعم من أن يكون للتحريم أو للتنزيه ، أو خلاف الأولى ، وإذا لم يتعين واحد منهما بقي التمسك بالأدلة المصرحة بالجواز .

وأيضاً فلو سلمنا أن اللام للتعليل ، لم نسلم إفادة الحصر في الركوب والزينة . فإنه ينتفع بالخيل في غيرهما ، وفي غير الأكل اتفاقاً ، وإنما ذكر الركوب والزينة لكونهما أغلب ما تطلب له الخيل .

ونظيره حديث البقرة المذكور في الصحيحين حين خاطبت راكبها فقالت : " إنا لم نخلق لهذا . إنا خلقنا للحرث " فإنه مع كونه أصرح في الحصر لم يقصد به إلا الأغلب ، وإلا فهي تؤكل وينتفع بها في أشياء غير الحرث اتفاقاً .

وأيضاً فلو سلم الاستدلال المذكور للزم منع حمل الأثقال على الخيل والبغال والحمير للحصر المزعوم في الركوب والزينة . ولا قائل بذلك .

وأما الاستدلال بعطف الحمير والبغال عليها . فهو استدلال بدلالة الاقتران ، وقد ضعفها

أكثر العلماء من أهل الأصول . كما أشار له في ( مراقي السعود ) بقوله :

أما قران اللفظ في المشهور . . . فلا يساوي في سوى المذكور

(171/254)

---

وأما الاستدلال بأن الآية الكريمة سيقت للامتنان : فيجاب عنه بأنه قصد به ما كان الانتفاع به أغلب عند العرب . فخوطبوا بما عرفوا وألفوا ، ولم يكونوا يألفون أكل الخيل لعزتها في بلادهم ، وشدة الحاجة إليها في القتال ، بخلاف الأنعام : فأكثر انتفاعهم بها كان لحمل الأثقال ، وللأكل .

فاقتصر في كل من الصنفين على الامتنان بأغلب ما ينتفع به فيه .

فلو لزم من ذلك الحصر في هذا الشق للزم مثله في الشق الآخر كما قدمنا .

وأما الاستدلال بأن الإذن في أكلها . سبب لفنائها وانقراضها :

فيجاب عنه : بأنه أذن في أكل الأنعام ولم تنقرض ، ولو كان الخوف عن ذلك علة لمنع في الأنعام لئلا تنقرض ، فيتعطل الانتفاع بها في غير الأكل .

قاله ابن حجر ، وأما الاستدلال بحديث خالد بن الوليد رضي الله عنه : فهو مردود من وجهين :

الأول : أنه ضعفه علماء الحديث . فقد قال ابن حجر في ( فتح الباري ) في باب " لحوم الخيل " ما نصه : " وقد ضعف حديث خالد أحمد والبخاري وموسى بن هارون ، والدارقطني ، والخطابي ، وابن عبد البر ، وعبد الحق ، وآخرون " .

وقال النووي : في " شرح المهذب " واتفق العلماء من أئمة الحديث وغيرهم . على أن حديث خالد المذكور حديث ضعيف ، وذكر أسانيد بعضهم بذلك . وحديث خالد المذكور مع أنه مضطرب . في غسناده صالح بن يحيى ابن المقدام بن معد يكرب . ضعفه غير واحد ، وقال فيه ابن حجر في " التقريب " : لين . وفيه أيضاً : والده يحيى المذكور الذي هو شيخه في هذا الحديث . قال فيه في " التقريب " : مستور .

*(172/254)*

---

الوجه الثاني : أنا لو سلمنا عدم ضعف حديث خالد . فإنه معارض بما هو أقوى منه كحديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : " نهى النَّبي صلى الله عليه وسلم يوم خيبر عن لحوم الحمر ، ورخص في لحوم الخيل " ، وفي لفظ في الصحيح " وأذن في لحوم الخيل " ، وكحديث أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها قالت : " نحرنا فرساً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكلناه " متفق عليهما .

ولا شك في أنهما أقوى من حديث خالد ، وبهذا كله تعلم أن الذي يقتضي الدليل الصريح رجحانه إباحة أكل لحم الخيل ، والعلم عند الله تعالى ، ولا يخفى أن الخروج من الخلاف أحوط ، كما قال بعض أهل العلم .

وإن الأورع الذي يخرج من . . . خلافهم ولو ضعيفاً فاستبن

ومن ذلك الكلب : فإن أكله حرام عند عامة العلماء ، وعن مالك قول ضعيف جداً بالكراهة .

ولتحريمه أدلة كثيرة . منها : ما تقدم في ذي الناب من السباع . لأن الكلب سبع ذو ناب ، ومنها أنه لو جاز أكله لجاز بيعه ، وقد ثبت النهي عن ثمنه في الصحيحين من حديث أبي مسعود الأنصاري ، مقروناً بحلوان الكاهن ، ومهر البغي ، وأخرجه البخاري من حديث أبي جحيفة ، وأخرجه مسلم من حديث رافع بن خديج ، رضي الله عنه ، بلفظ " ثمن الكلب خبيث " الحديث .

وذلك نص في التحريم لقوله تعالى : ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ ﴾ [ الأعراف : 157 ] الآية .

فإن قيل : ما كل خبيث يحرم لما ورد في الثوم أنه خبيث ، وفي كسب الحجام أنه خبيث . مع أنه لم يحرم واحد منهما .

فالجواب : أن ما ثبت بنص أنه خبيث كان ذلك دليلاً على تحريمه ، وما أخرجه دليل يخرج

، ويبقى النص حجة فيما لم يقم دليل على إخراجه ، كما هو الحكم في جل عمومات الكتاب ، والسنة يخرج منها بعض الأفراد بمخصص ، وتبقى حجة في الباقي . وهذا مذهب الجمهور ، وإليه أشار في ( مراقي السعود ) بقوله :

وهو حجة لدى الأكثر إن . . . مخصص له معيناً بين

(173/254)

---

فإن قيل : تحريم الخبائث لعلة الخبث ، وإذا وجد خبيث غير محرم كان ذلك نقضاً في العلة تخصيصاً له .

فالجواب : أن أكثر العلماء على أن النقض تخصيص للعلة ، لا إبطال لها . قال في ( مراقي السعود ) :

منها وجود الوصف دون الحكم . . . سماه بالنقض وعاة العلم

والأكثرون عندهم لا يقدح بل هو تخصيص وذا مصحح

إلخ . . . كما حررناه في غير هذا الموضع .

ومن الأدلة على تحريم الكلب : ما ثبت في الصحيحين من الأحاديث الصريحة في تحريم اقتنائه ، وأن اقتناءه ينقص أجر مقتنيه كل يوم ، فلو كان أكله مباحاً ، لكان اقتناؤه مباحاً .

وإنما رخص صلى الله عليه وسلم ، في كلب الصيد ، والزرع ، والماشية للضرورة . فمن ذلك ما أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة ، رضي الله عنه قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من اتخذ كلباً إلا كلب صيد ، أو زرع ، أو ماشية انتقص من أجره كل يوم قيراط " ، ومنه أيضاً ما أخرجه الشيخان في صحيحيهما من حديث سفيان بن أبي زهير الشنائي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه سولم ، يقول : " من اقتنى كلباً لا يغنى عنه زرعاً ، ولا ضرعاً نقص من عمله كل يوم قيراط " ، ورواه البخاري عن ابن عمر بثلاث طرق بلفظ " نقص كل يوم من عمله قيراطان " ، وأخرجه مسلم أيضاً عن ابن عمر من طرق : في بعضها قيراط ، وفي بعضها قيراطان .

والأحاديث في الباب كثيرة وهذا أوضح دليل على أن الكلب لا يجوز أكله ، إذ لو جاز أكله لجاز اقتناؤه للأكل وهو ظاهر ، ومن ذلك ما ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن المغفل ، رضي الله عنهم . من أنه صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الكلاب ، ولو كانت مباحة الأكل لما أمر بقتلها ، ولم يرخص صلى الله عليه وسلم فيها إلا لضرورة الصيد ، أو الزرع ، أو الماشية .

*(174/254)*

وإذا عرفت أن في كلب الصيد ، وما ذكر معه بعض المنافع المباحة ، كالانتفاع بصيده ، أو حراسته الماشية ، أو الزرع ، فاعلم أن العلماء اختلفوا في بيعه .

فمنهم من قال : بيعه تابع للحمه ، ولحمه حرام ، فبيعه حرام ، وهذا هو أظهر الأقوال دليلاً لما قدمنا من أن ثمن الكلب خبيث ، وأن النَّبي صلى الله عليه وسلم نهى عنه مقروناً بحلوان الكاهن ، ومهر البغي ، وهو نص صحيح صريح في منع بيعه .

ويؤيده ما رواه أبو داود بإسناد صحيح من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً قال : " نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ثمن الكلب " ، وقال : إن جاء يطلب ثمن الكلب ، فاملأ كفه تراباً .

قال النووي في ( شرح المهذب ) : ، وابن حجر في ( الفتح ) : إسناده صحيح ، وروى أبو داود أيضاً من حديث أبي هريرة مرفوعاً : " لا يحل ثمن الكلب ، ولا حلوان الكاهن ، ولا مهر البغي " قال ابن حجر في ( الفتح ) : إسناده حسن ، وقال النووي في ( شرح المهذب ) : إسناده حسن صحيح .

وإذا حققت ذلك ، فاعلم أن القول بمنع بيع الكلب الذي ذكرنا أنه هو الحق . عام في المأذون في اتخاذه وغيره لعموم الأدلة ، وممن قال بذلك : أبو هريرة ، والحسن البصري ، والأوزاعي ، وربيعة ، والحكم ، وحماد ، والشافعي ، وأحمد ، وداود ، وابن المنذر وغيرهم ، وهو المشهور الصحيح من مذهب مالك . خلافاً لما ذكره القرطبي في ( المفهم ) من أن مشهور

مذهبه الكراهة ، وروي عن مالك أيضاً جواز بيع كلب الصيد . ونحوه دون الذي لم يؤذن في اتخاذه ، وهو قول سحنون . لأنه قال : ابيع كلب الصيد وأحج بثمنه .

وأجاز بيعه أبو حنيفة مطلقاً إن كانت فيه منفعة من صيد ، أو حراسة لماشية مثلا ، وحكى نحوه ابن المنذر عن جابر ، وعطاء ، والنخعي قاله النووي .

وإن قتل الكلب المأذون فيه ككلب الصيد ، ففيه القيمة عند مالك ، ولا شيء فيه عند أحمد والشافعي ، وأوجبها فيه أبو حنيفة مطلقاً إن كانت فيه منفعة .

*(175/254)*

---

وحجة من قال لا قيمة فيه : أن القيمة ثمن والنص الصحيح نهى عن ثمن الكلب ، وجاء فيه التصريح بأن طالبه تملأ كفه تراباً ، وذلك أبلغ عبارة في المنع منه .

واحتج من أوجبها بأنه فوت منفعة جائزة فعليه غرمها .

واحتج من أجاز بيع الكلب ، وألزم قيمته إن قتل بما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النَّبي صلى الله عليه وسلم " نهى عن ثمن الكلب إلا كلب صيد " ، وعن عمر رضي الله عنه أنه غرم رجلاً عن كلب قتله عشرين بعيراً وعن عبد الله ابن عمرو بن العاص أنه قضى في كلب صيد قتله رجل بأربعين درهماً ، وقضى في كلب ماشية بكبش .

واحتجوا أيضاً بأن الكلب المأذون فيه تجوز الوصية به والانتفاع به فأشبه الحمار .

وأجاب الجمهور بأن الأحاديث والآثار المروية في جواز بيع كلب الصيد ولزوم قيمته كلها ضعيفة :

قال النووي في " شرح المهذب " ما نصه " وأما الجواب عما احتجوا به من الأحاديث والآثار فكلها ضعيفة باتفاق المحدثين " ، وهكذا أوضح الترمذي والدارقطني والبيهقي ضعفها ، والاحتجاج بجواز الوصية به وشبهه بالحمار مردود بالنصوص الصحيحة المصرحة بعدم حلية ثمنه ، وما ذكره ابن عاصم المالكي في " تحفته " من قوله :

واتفقوا أن كلاب البادية . . . يجوز بيعها ككلب الماشية

فقد رده عليه رحمه الله علماء المالكية ، وقد قدمنا أنه قول سحنون .

واعلم أن ما روي عن جابر وابن عمر مرفوعاً مما يدل على جواز بيع كلب الصيد كله ضعيف كما بين تضعيفه ابن حجر في ( فتح الباري ) في باب " ثمن الكلب " .

قال القرطبي : وقد زعم ناس أنه لم يكن في العرب من يأكل لحم الكلب إلا قوم من فقعس .

ومن ذلك القرد : فإنه لا يجوز أكله ، قال القرطبي في تفسيره : قال أبو عمر يعني ابن عبد البر : أجمع المسلمون على أنه لا يجوز أكل القرد لنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكله ، ولا يجوز بيعه لأنه لا منفعة فيه .

قال : وما علمت أحداً رخص في أكله إلا ما ذكره عبد الرزاق عن معمر عن أيوب سئل مجاهد عن أكل القرد فقال : ليس من بهيمة الأنعام . قلت : ذكر ابن المنذر أنه قال : روينا عن عطاء أنه سئل عن القرد يقتل في الحرم . قال : يحكم به ذوا عدل . قال : فعلى مذهب عطاء يجوز أكل لحمه لأن الجزاء لا يجب على من قتل غير الصيد ، وفي " بحر المذهب " للروياني على مذهب الشافعي .

وقال الشافعي : يجوز بيع القرد لأنه يعلم وينتفع به لحفظ المتاع اه .

وقال النووي في " شرح المهذب " : القرد حرام عندنا ، وبه قال عطاء وعكرمة ومجاهد ، ومكحول والحسن وابن حبيب المالكي .

وقال ابن قدامة في ( المغني ) : وقال ابن عبد البر : لا أعلم بين علماء المسلمين خلافاً أن القرد لا يؤكل ولا يجوز بيعه ، وروي عن الشعبي : أن النَّبي صلى الله عليه وسلم " نهى عن لحم القرد " ، ولأنه سبع ، فيدخل في عموم الخبر ، ولأنه مسخ ايضاً فيكون من الخبائث المحرمة .

وقد قدمنا جزم ابن حبيب ، وابن عبد البر من المالكية : بأنه حرام ، وقال الباجي : الأظهر عندي من مذهب مالك وأصحابه . أنه ليس بحرام .

ومن ذلك الفيل : فالظاهر فيه أنه من ذوات الناب من السباع ، وقد قدمنا أن التحقيق فيها

التحريم لثبوته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مذهب الجمهور .

وممن صححه من المالكية : ابن عبد البر والقرطبي .

وقال بعض المالكية كراهته أخف من كراهة السبع ، وأباحه أشهب ، وعن مالك في المدونة كراهة الانتفاع بالعاج : وهو سن الفيل .

وقال ابن قدامة في ( المغني ) : والفيل محرم . قال أحمد : ليس هو من أطعمة المسلمين ، وقال الحسن : هو مسخ وكرهه أبو حنيفة ، والشافعي ، ورخص في أكله الشعبي ، ولنا نهى النَّبي صلى الله عليه وسلم عن أكل كل ذي ناب من السباع ، وهو من أعظمها ناباً ، ولأنه مستخبث فيدخل في عموم الآية المحرمة للخبائث اه .

*(177/254)*

---

وقال النووي في شرح المهذب : الفيل حرام عندنا ، وعند أبي حنيفة والكوفيين ، والحسن . وأباحه الشعبي ، وابن شهاب ، ومالك في رواية .

وحجة الأولين أنه ذو ناب اهز

ومن ذلك الهر ، والثعلب ، والدب : فهي عند مالك من ذوات الناب من السباع . وعنه رواية أخرى أنها مكروهة كراهة تنزيه ، ولا تحريم فيها قولاً واحداً . والهر الأهلي

والوحشي عنده سواء .

وفرق بينهما غيره من الأئمة كالشافعي وأحمد وأبي حنيفة : فمنعوا الأهلي .

قال ابن قدامة في ( المغني ) : فأما الأهلي فمحرم في قول إمامنا ومالك وأبي حنيفة والشافعي .

وقد روي عن النَّبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن أكل الهر ، وقال ابن قدامة في ( المغني ) أيضاً :

واختلفت الرواية في الثعلب : فأكثر الروايات عن أحمد تحريمه . وهذا قول أبي هريرة ومالك وأبي حنيفة لأنه سبع ، فيدخل في عموم النهي ، ونقل عن أحمد إباحته ، واختاره الشريف أبو جعفر ، ورخص فيه عطاء وطاوس وقتادة والليث ، وسفيان بن عيينة والشافعي ، لأنه يفدى في الإحرام والحرم إلى أن قالك واختلفت الرواية عن أحمد في سنور البر ، والقول فيه كالقول في الثعلب .

وحكى النووي : اتفاق الشافعية على إباحة الثعلب . وقال صاحب ( المهذب ) : وفي سنور الوحش وجهان :

أحدهما : لا يحل . لأنه يضطاد بنابه فلم يحل كالأسد والفهد .

والثاني : يحل . لأنه حيوان ينتوع إلى حيوان وحشي وأهلي ، فيحرم الأهلي منه ، ويحل الوحشي كالحمار .

وأما الدب : فهو سبع ذو ناب عند مالك والشافعي ، وأصحاب أبي حنيفة . وقال أحمد : إن كان الدب ذا ناب منع أكله ، وإن لم يكن ذا ناب فلا بأس بأكله .

*(178/254)*

---

واختلف العلماء في جواز أكل الضبع : وهو عند مالك كالثعلب . وقد قدمنا عنه أنه سبع في رواية ، وفي أخرى أنه مكروه ، ولا قول فيه بالتحريم ، والأحاديث التي قدمناها في سورة المائدة بأن الضبع صيد تدل على إباحة أكلها ، وروي عن سعد بن أبي وقاص أنه كان يأكل الضباع . قاله القرطبي ، ورخص في أكلها الشافعي وغيره ، وقال البيهقي في السنن الكبرى : قال الشافعي : وما يباع لحم الضباع بمكة إلا بين الصفا والمروة .

وحجة مالك في مشهور مذهبه : أن الضبع من جملة السباع ، فيدخل في عموم النهي عن أكل كل ذي ناب من السباع ، ولم يخص سبعاص منها عن سبع ، قال القرطبي : وليس حديث الضبع الذي خرجه النسائي في إباحة أكلها مما يعارض به حديث النهي : لأنه حديث انفرد به عبد الرحمن بن أبي عمار ، وليس مشهوراً بنقل العلم ولا ممن يحتج به إذا خالفه من هو أثبت منه .

قال أبو عمر : وقد روي النهي عن أكل كل ذي ناب من السباع من طرق متواترة ، روى ذلك

جماعة من الأئمة الثقات الأثبات ، ومحال أن يعارضوا بمثل حديث ابن أبي عمار اه .

قال مقيده – عفا الله عنه – للمخالف أن يقول أحاديث النهي عامة في كل ذي ناب من السباع ، ودليل غباحة الضبع خاص ، ولا يتعارض عام وخاص : لأن الخاص يقضي على العام فيخصص عمومه به كما هو مقرر في الأصول .

ومن ذلك القنفذ : فقد قال بعض العلماء بتحريمه ، وهو مذهب الإمام أحمد ، وأبي هريرة ، وأجاز أكله الجمهور . منهم مالك والشافعي والليث وأبو ثور وغيرهم .

واحتج من منعه بما رواه أبو داود والبيهقي عن أبي هريرة أنه قال : ذكر القنفذ لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : " هو خبيث من الخبائث " .

واحتج من إباحه – وهم الجمهور – بأن الحديث لم يثبت ، ولا تحريم إلا بدليل . قال البيهقي في السنن الكبرى : – بعد أن ساق حديث أبي هريرة المذكور في خبث القنفذ – هذا حديث لم يرو إلا بهذا الإسناد ، وهو إسناد فيه ضعف .

*(179/254)*

---

وممن كره أكل القنفذ . أبو حنيفة وأصحابه . قاله القرطبي وغيره .

ومن ذلك حشرات الأرض ، كالفأرة ، والحيات ، والأفاعي ، والعقارب ، والخنفساء :

والعظاية ، والضفادع ، والجرذان ، والوزغ ، والصراصير ، والعناكب ، وسام أبرص ، والجعلان ، وبنات وردان ، والديدان ، وحمار قبان ، ونحو ذلك .

فجمهور العلماء على تحريم أكل هذه الأشياء لأنها مستخبثة طبعاً ، والله تعالى يقول : ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ ﴾ [ الأعراف : 157 ] .

ومن قال بذلك الشافعي وابو حنيفة ، وأحمد وابن شهاب وعروة وغيرهم – رحمهم الله تعالى – .

ورخص في أكل ذلك : مالك ، واشترط في جواز أكل الحيات أن يؤمن سمها .

وممن روي عنه الترخيص في أكل الحشرات ، الأوزاعي ، وابن أبي ليلى ، واحتجوا بما رواه أبو داود والبيهقي ، من حديث ملقام بن تلب ، عن أبيه تلبِّ بن ثعلبة بن ربيعة التميمي العنبري ، رضي الله عنه قال : صحبت النَّبي صلى الله عليه وسلم ، فلم أسمع لحشرة الأرض تحريماً .

واحتجوا أيضاً بأن الله حرم أشياء ، وأباح أشياء ، فما حرم فهو حرام ، وما أباح فهو مباح ، وما سكت عنه فهو عفو .

وقالت عائشة ، رضي الله عنها في الفأرة : ما هي بحرام ، وقرأت قوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَآ أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً ﴾ [ الأنعام : 145 ] الآية .

ويجاب عن هذا بأن ملقام بن تلبّ مستور لا يعرف حاله ، وبأن قول أبيه تلبّ بن ثعلبة ،

رضي الله عنه ، لم أسمع لحشرة الأرض تحريماً لا يدل على عدم تحريمها ، كما قاله الخطابي ، والبيهقي .

لأن عدم سماع صحابي لشيء لا يقتضي انتفاءه كما هو معلوم ، وبأنه تعالى لم يسكت عن هذا . لأنه حرم الخبائث ، وهذه خبائث لا يكاد طبع سليم يستسيغها ، فضلاً عن أن يستطيبها ، والذين يأكلون مثل هذه الحشرات من العرب ، إنما يدعوهم لذلك شدة الجوع ، كما قال أحد شعرائهم :

أكلنا الربى يا أم عمرو ومن يكن . . . غريباً لديكم يأكل الحشرات

*(180/254)*

---

والربى جمع ربية ، وهي الفأرة . قاله القرطبي ، وفي اللسان أنها دويبة بين الفأرة وأم حبين ، ولتلك الحاجة الشديدة لما سئل بعض العرب عما يأكلون . قال : كل ما دب ودرج ، إلا أم حبين ، فقال : لتهن أم حبين العافية .

وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أن النَّبي صلى الله عليه وسلم أباح قتل الفأرة ، وما ذكر معها من الفواسق ، فدل ذلك على عدم إباحتها .

واعلم أن ما ذكره بعض أهل العلم كالشافعي . من أن كل ما يستخبثه الطبع السليم من

العرب الذين نزل القرآن عليهم في غير حال ضرورة الجوع حرام . لقوله تعالى : ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخبآئث ﴾ [ الأعراف : 157 ] الآية .

استدلال ظاهر لا وجه لما رده به أهل الظاهر من أن ذلك أمر لا يمكن أن يناط به حكم . لأنه لا ينضبط . لأن معنى الخبث معروف عندهم ، فما اتصف به فهو حرام ، للآية .

ولا يقدح في ذلك النص على غباحة بعض المستخبثات ، كالثوم . لأن ما أخرجه الدليل يخصص به عموم النص ، ويبقى حجة يما لم يخرجه دليل ، كما قدمنا .

ويدخل فيه أيضاً كل ما نص الشرع على أنه خبيث ، إلا لدليل يدل على إباحته ، مع إطلاق اسم الخبث عليه .

واستثنى بعض أهل العلم من حشرات الأرض الوزغ ، فقد ادعى بعضهم الإجماع على تحريمه ، كما ذكره ابن قدامة في ( المغني ) عن ابن عبد البر .

*(181/254)*

---

قال مقيده – عفا الله عنه – : ويدل له حديث أم شريك المتفق عليه أنه صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الأوزاغ ، وكذلك روى الشيخان أيضاً من حديث سعد بن أبي وقاص ، رضي الله عنه ، موصولاً عند مسلم ، ومحتملاً للإرسال عند البخاري ، فإن قوله : وزعم

سعد بن أبي وقاص أنه أمر بقتله ، محتمل لأن يكون من قول عائشة ، ومحتمل لأن يكون من قول عروة ، وعليهما ، فالحديث متصل ، ويحتمل أن يكون من قول الزهري ، فيكون منقطعاً ، واختاره ابن حجر في ( الفتح ) ، وقال : كأن الزهري وصله لمعمر وصله لمعمر ، وأرسله ليونس . اه ، ومن طريق يونس رواه البخاري ، ومن طريق معمر رواه مسلم ، وروى مسلم في ( صحيحه ) من حديث أبي هريرة مرفوعاً ، الترغيب في قتل الوزغ ، وكل ذلك يدل على تحريمه .

واختلف العلماء أيضاً في ابن آوى : وابن عرس : فقال بعض العلماء : بتحريم أكلهما ، وهو مذهب الإمام أحمد ، وأبي حنيفة – رحمهما الله تعالى – قال في ( المغني ) : سئل أحمد عن ابن آوى ، وابن عرس .

فقال : كل شيء ينهش بأنيابه من السباع ، وبهذا قال أبو حنيفة ، وأسحابه اه .

ومذهب الشافعي – رحمه الله – الفرق بينهما ، فابن عرس حلال عند الشافعية بلا خلاف ، لأنه ليس له ناب قوي ، فهو كالضب ، واختلف الشافعية في ابن آوى .

فقال بعضهم : يحل أكله ، لأنه لا يتقوى بنابه فهو كالأرنب .

والثاني : لا يحل . لأنه مستخبث كريه الرائحة ، ولأنه من جنس الكلاب ، قاله النووي ، والظاهر من مذهب مالك كراهتهما .

وأما الوبر ، واليربوع ، فأكلهما جائز عند مالك وأصحابه . وهو مذهب الشافعي ، وعليه

عامة أصحابه ، إلا أن في الوبر وجهاً عندهم بالتحريم .

وقد قدمنا أن عمر أوجب في اليربوع جفرة ، فدل ذلك على أنه صيد ، ومشهور مذهب الإمام أحمد أيضاً جواز أكل اليربوع ، والوبر .

وممن قال بغباحة الوبر عطاء : وطاوس ، ومجاهد ، وعمرو بن دينار ، وابن المنذر ، وأبو يوسف .

*(182/254)*

---

وممن قال بإباحة اليربوع أيضاً : عروة ، وعطاء الخراساني ، وأبو ثور ، وابن المنذر ، كما نقله عنهم صاحب ( المغني ) .

وقال القاضي من الحنابلة بتحريم الوبر ، قال : في ( المغني ) ، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه ، إلا أبا يوسف ، وقال أيضاً : إن أبا حنيفة . قال : في اليربوع أيضاً هو حرام ، وروي ذلك عن أحمد أيضاً ، وعن ابن سيرين والحكم ، وحماده . لأنه يشبه الفأر ، ونقل النووي في ( شرح المهذب ) عن صاحب البيان عن أبي حنيفة تحريم الوبر ، واليربوع ، والضب ، والقنفذ ، وابن عرس .

وممن قال بإباحة الخلد والضربوب مالك وأصحابه .

وأما الأرنب : فالتحقيق أن أكلها مباح لما ثبت في الصحيحين عن أنس ، رضي الله عنه ، أنه صلى الله عليه وسلم " أهدي له عضو من أرنب فقبله " ، وفي بعض الروايات " فأكل منه " ، وقال ابن قدامة : في ( المغني ) أكل الأرنب سعد بن أبي وقاص ، ورخص فيها أبو سعيد ، وعطاء ، وابن المسيب ، والليث ، ومالك ، والشافعي ، وأبو ثور ، وابن المنذر . ولا نعلم أحداً قائلاً بتحريمها ، إلا شيئاً روي عن عمرو بن العاص . اه .

وأما الضب : فالتحقيق أيضاً جواز أكله لما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم قال : "كلوا أو أطعموا فإنه حلال " . وقال : " لا بأس به ، ولكنه ليس من طعامي " يعني الضب ، ولما ثبت أيضاً في الصحيحين من حديث خالد ، رضي الله عنه : " أنه أكل ضباً في بيت ميمونة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليه " ، وقد قدمنا قول صاحب البيان عن أبي حنيفة بتحريم الضب .

*(183/254)*

---

ونقله في ( المغني ) عن أبي حنيفة أيضاً ، والثوري تحريم الضب ، ونقل عن علي النهي عنه ، ولم نعلم لتحريمه مستنداً ، إلا ما رواه مسلم في الصحيح من حديث جابر ، رضي الله عنه ، أن النَّبي صلى الله عليه وسلم " أتي بضب ، فأبى أن يأكله " قال : " إني لا أدري لعله من

القُرون الأولى التي مسخت " ، وأخرج مسلم نحوه أيضاً من حديث أبي سعيد مرفوعاً ، فكأنه في هذا الحديث علل الامتناع منه باحتمال المسخ ، أو لأنه ينهش ، فأشبه ابن عرس ، ولكن هذا لا يعارض الأدلة الصحيحة الصريحة التي قدمناها بإباحة أكله ، وكان بعض العرب يزعمون أن الضب من الأمم التي مسخت ، كما يدل له قول الراجز :

قالت – وكنت رجلاً فطيناً – . . . هذا – لعمر الله – إسرائينا

فإن هذه المرأة العربية أقسمت على أن الضب إسرائيلي مسخ .

وأما الجراد : فلا خلاف بين العلماء في جواز أكله ، وقد ثبت في الصحيحين من حديث عبد الله بن أبي أوفى أنه قال : " غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع غزوات نأكل الجراد " اه .

وميتة الجراد من غير ذكاة حلال عند جماهير العلماء لحديث " أحلت لنا ميتتان ودَمان " الحديث .

وخالف مالك الجمهور ، فاشترط في جواز أكله ذكاته ، وذكاته عنده ما يموت به بقصد الزكاة ، وهو معنى قول خليل بن إسحاق المالكي في مختصره ، وافتقر نحو الجراد لها بما يموت به ، ولو لم يعجل كقطع جناح .

واحتج له المالكية بعدم ثبوت حديث ابن عمر المذكور " أحلت لنا ميتتان " الحديث . لأن طرقه لا تخلو من ضعف في افسناد ، أو وقف ، والأصل الاحتياج إلى الذكاة لعموم ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾ [ المائدة : 3 ] ، وقال ابن كثير في تفسير آية المائدة . ما نصه وقد قال أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي : حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن ابن عمر مرفوعاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أحل لنا ميتتان ودمان . فأما الميتتان فالسمك والجراد ، وأما الدمان : فالكبد والطحال : " ، وكذا رواه أحمد بن حنبل وابن ماجه ، والدارقطني والبيهقي من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وهو ضعيف .

قال الحافظ البيهقي : ورواه إسماعيل بن أبي إدريس عن أسامة ، وعبد الله وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن ابن عمر مرفوعاً . قلت : وثلاثتهم كلهم ضعفاء ، ولكن بعضهم أصلح من بعض ، وقد رواه سليمان بن بلال أحد الأثبات ، عن زيد بن أسلم ، عن ابن عمر فوقفه بعضهم عليه . قال الحافظ أبو زرعة الرازي : وهو أصح . اه من ابن كثير ، وهو دليل لما قاله المالكية ، والله تعالى أعلم .

قال مقيده – عفا الله عنه – : لكن للمخالف أن يقول : إن الرواية الموقوفة على ابن عمر من طريق سليمان ابن بلال عن زيد بن أسلم عنه صحيحة ، ولها حكم الرفع . لأن قول

الصحابي : أحل لنا ، أو حرم علينا له حكم الرفع .

لأنه من المعلوم أنهم لا يحل لهم ، ولا يحرم عليهم ، إلا النَّبي صلى الله عليه وسلم . كما تقرر في علوم الحديث ، وأشار النووي في ( شرح المهذب ) إلى أن الرواية الصحيحة الموقوفة على ابن عمر لها حكم الرفع ، كما ذكرنا وهو واضح ، وهو دليل لا لبس فيه على إباحة ميتة الجراد من غير زكاة .

*(185/254)*

---

والمالكية قالوا : لم يصح الحديث مرفوعاً ، وميتة الجراد داخلة في عموم قوله ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾ [ المائدة : 3 ] الآية ، وافتقار الجراد إلى الزكاة بما يموت به ، كقطع رأسه بنية الذكاة أو صلقه أو قليه .

كذلك رواية أيضاً عن الإمام أحمد نقلها عنه النووي في ( شرح مسلم ) ( وشرح المهذب ) ، والله تعالى أعلم .

وأما الطير : فجميع أنواعه مباحة الأكل إلا أشياء منها اختلف فيها العلماء .

فمن ذلك كل ذي مخلب من الطير يتقوى به ويصطاد : كالصقر والشاهين والبازي والعقاب والباشق ، ونحو ذلك .

وجمهور العلماء على تحريم كل ذي مخلب من الطير كما قدمنا ، ودليلهم ثبوت النهي عنه في صحيح مسلم وغيره ، وهو مذهب الشافعي وأحمد وأبي حنيفة .

ومذهب مالك – رحمه الله – إباحة أكل ذي المخلب من الطير لعموم قوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ ﴾ [ الأنعام : 145 ] الآية . ولأنه لم يثبت عنده نص صريح في التحريم .

وممن قال كقول مالك : الليث والأوزاعي ويحيى بن سعيد ، وقال مالك : لم أر أحداً من أهل العلم يكره سباع الطير ، وقال ابن القاسم : لم يكره مالك أكل شيء من الطير كله الرخم والعقبان والنسور والحدأة والغربان ، وجميع سباع الطير وغير سباعها ، ما أكل الجيف منها ، وما لم يأكلها .

ولا بأس بأكل الهدهد والخطاف ، وروى على كراهة أكل الخطاف ابن رشد لقلة لحمها مع تحرمها بمن عششت عنده ، انتهى من المواق في شرحه لقول خليل في مختصره وطير ، ولو جلالة .

ومن ذلك الحدأة والغراب الأبقع : لما تقدم من أنهما من الفواسق التي يحل قتلها في الحل والحرم ، وإباحة قتلها دليل على منع أكلها ، وهو مذهب الجمهور خلافاً لمالك ، ومن وافقه كما ذكرنا آنفاً .

وقالت عائشة رضي الله عنها : إني لأعجب ممن يأكل الغراب ، وقد أذن صلى الله عليه وسلم في قتله ، وقال صاحب " المهذب " بعد أن ذكر تحريم أكل الغراب الأبقع ، ويحرم الغراب الأسود الكبير لأنه مستخبث يأكل الجيف فهو كالأبقع .

وفي الغداف ، وغراب الزرع وجهان :

أحدهما : لا يحل : للخبر .

والثاني : يحل : لأنه مستطاب يلقط الحب فهو كالحمام والدجاج ، وقال ابن قدامة في " المغني " ويحرم منها ما يأكل الجيف كالنسور والرخم وغراب البين وهو أكبر الغربان والأبقع .

قال عروة : ومن يأكل الغراب ، وقد سماه النَّبي صلى الله عليه وسلم فاسقاً ؟ والله ما هو من الطيبات اهز

قال مقيده – عفا الله عنه – : الظاهر المتبادر أن كل شيء أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتله بغير الذكاة الشرعية أنه محرم الأكل ، إذ لو كان الانتفاع بأكله جائزاً لما أذن صلى الله عليه وسلم في إتلافه كما هو واضح .

وقال النووي : الغراب الأبقع حرام بلا خلاف للأحاديث الصحيحة ، والأسود الكبير فيه طريقان :

إحداهما : أنه حرام .

والأخرى : أن فيه وجهين : أصحهما التحريم .

وغراب الزرع فيه وجهان مشهوران : أصحهما أنه حلال ، وهو الزاغ ، وهو أسود صغير ، وقد يكون محمر المنقار والرجلين اه ، منه بالمعنى في ( شرح المهذب ) .

ومن ذلك الصرد . والهدهد . والخطاف . والخفاش : وهو الوطواط .

ومذهب الشافعي : تحريم أكل الهدهد والخطاف .

*(187/254)*

---

قال صاحب " المهذب " : ويحرم أكل الهدهد والخطاف . لأن النَّبي صلى الله عليه وسلم نهى عن قتلهما ، وقال النووي في " شرح المهذب " أما حديث النهي عن قتل الهدهد فرواه عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس أن النَّبي صلى الله عليه وسلم " نهى عن قتل أربع من الدواب : النملة والنخلة ، والهدهد والصرد " رواه أبو داود بإسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم ذكره في آخر كتابه ، ورواه ابن ماجه في كتاب الصيد بإسناد على شرط البخاري ، وأما النهي عن قتل الخطاف فهو ضعيف ومرسل ، رواه البيهقي بإسناده عن أبي الحويرث عبد الرحمن بن معاوية ، وهو من تابعي التابعين ، أو من التابعين عن النَّبي صلى الله عليه وسلم " أنه نهى عن قَتل الخطاطيف " ، ثم قال : قال البيهقي : هذا منقطع . قال :

وروى حمزة النصيبي فيه حديثاً مسنداً إلا أنه كان يرمى بالوضع اه . ومما ذكره النووي تعلم أن الصرد والهدهد لا يجوز أكلهما في مذهب الشافعي لثبوت النهي عن قتلهما ، وقال النووي أيضاً : وصح عن عبد الله بن عمرو بن العاص موقوفاً عليه أنه قال : " لا تقتلوا الضفادع فإن نقيقها تسبيح ، ولا تقتلوا الخفاش فإنه لما خرب بيت المقدس قال : يا رب سلطني على البحر حتى أغرقهم ، قال البيهقي إسناده صحيح .

قال مقيده – عفا الله عنه – : والظاهر في مثل هذا الذي صح عن عبد الله بن عمرو من النهي عن قتل الخفاش والضفدع أنه في حكم المرفوع لأنه لا مجال للرأي فيه . لأن علم تسبيح الضفدع وما قاله الخفاش لا يكون بالرأي ، وعليه فهو يدل على منع أكل الخفاش والضفدع .

وقال ابن قدامة في " المغني " : ويحرم الخطاف والخشاف أو الخفاش وهو الوطواط ، قال الشاعر :

مثل النهار يزيد أبصار الورى . . . وراً ويعمي أعين الخفاش

قال أحمد : ومن يأكل الخشاف ؟ وسئل عن الخطاف فقال : لا أدري ، وقال النخعي : أكل الطير حلال إلا الخفاش ، وإنما حرمت هذه لأنها مستخبثة لا تأكلها العرب اه .

*(188/254)*

من المغني . والخشاف هو الخفاش ، وقد قدمنا عن مالك وأصحابه جواز أكل جميع أنواع الطير : واستثنى بعضهم من ذلك الوطواط .

وفي الببغا والطاوس وجهان للشافعية : قال البغوي وغيره وأصحهما التحريم .

وفي العندليب والحمرة لهم أيضاً وجهان : والصحيح إباحتهما ، وقال أبو عاصم العبادي : يحرم ملاعب ظله وهو طائر يسبح في الجو مراراً كأنه ينصب على طائر ، وقال أبو عاصم أيضاً : والبوم حرام كالرخم ، قال : والضوع بضم الضاد المعجمة وفتح الواو وبالعين المهملة حرام على أصح القولين ، قال الرافعي : هذا يقتضي أن الضوع غير البوم ، قال : لكن في صحاح الجوهري أن الضوع طائر من طير الليل من جنس الهام ، وقال المفضل : هو ذكر البوم ، قال الرافعي : فعلى هذا إن كان في الضوع قول لزم إجراؤه في البوم لأن الذكر والأنثى من الجنس الواحد لا يفترقان ، قاله النووي : ثم قال : قلت : الأشهر أن الضوع من جنس الهام فلا يلزم اشتراكهما في الحكم .

وأما حشرات الطير ، كالنحل ، والزنانير ، والذباب ، والبعوض ، ونحو ذلك : فأكلها حرام عند الشافعي وأحمد ، وأكثر العلماء لأنها مستخبثة طبعاً ، والله تعالى يقول : ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ ﴾ [ الأعراف : 157 ] .

ومن ذلك الجلالة : وهي التي تأكل النجس ، وأصلها التي تلتقط الجلة بتثليث الجيم : وهي البعر ، والمراد بها عند العلماء : التي تأكل النجاسات من الطير والدواب .

ومشهور مذهب الإمام مالك جواز أكل لحم الجلالة مطلقاً ، أما لبنها وبولها فنجسان في مشهور مذهبه ما دام النجس باقياً في جوفها ، ويطهر لبنها وبولها عنده إن أمسكت عن أكل النجس ، وعلفت علفاً طاهراً مدة يغلب على الظن فيها عدم بقاء شيء في جوفها من الفضلات النجسة ، وكره كثير من العلماء لحم لجلالة ولبنها ، وحجتهم حديث ابن عباس أن النَّبي صلى الله عليه وسلم نهى عن ألبان الجلالة : قال النووي في " شرح المهذب " : حديث ابن عباس صحيح رواه أبو داود والترمذي والنسائي بأسانيد صحيحة ، قال الترمذي : هو حديث حسن صحيح اه .

وقال النووي في حد الجلالة : والصحيح الذي عليه الجمهور أنه لا اعتبار بالكثرة ، وإنما الاعتبار بالرائحة والنتن ، فإن وجد في عرقها وغيره ريح النجاسة فجلالة ، وإلا فلا ، وأكل لحم الجلالة وشرب لبنها مكروه عند الشافعية ، والصحيح عندهم أنها كراهة تنزيه ، وقيل : كراهة تحريم .

وقال ابن قدامة في " المغني " : قال أحمد : أكره لحوم الجلالة وألبانها . قال القاضي في المجرد : هي التي تأكل القذر ، فإذا كان أكثر علفها النجاسة حرم لحمها ولبنها .

وفي بيضها روايتان : وإن كان أكثر علفها الطاهر لم يحرم أكلها ولا لبنها ، وتحديد الجلالة بكون أكثر علفها النجاسة لم نسمعه عن أحمد ، ولا هو ظاهر كلامه ، لكن يمكن تحديده بما يكون كثيراً في مأكولها ويعفى عن اليسير ، وق لالليث إنما كانوا يكرهون الجلالة التي لا طعام لها إلا الرجيع وما أشبهه ، وقال ابن أبي موسى في الجلالة روايتان :

إحداهما : أنها محرمة .

*(190/254)*

---

والثانية : أنها مكروهة غير محرمة ، وهذا قول الشافعي ، وكره أبو حنيفة لحومها والعمل عليها حتّى تحبس ، ورخص الحسن في لحومها وألبانها . لأن الحيوانات لا تتنجس بأكل النجاسات . بدليل أن شارب الخمر لا يحكم بتنجيس أعضائه ، والكافر الذي يأكل الخنزير والمحرمات لا يكون ظاهره نجساً ، ولو نجس لما طهر بالإسلام ولا الاغتسال ، ولو نجست الجلالة لما طهرت بالحبس اه .

والظاهر كراهة ركوب الجلالة ، وهو مكروه عند الشافعي ، وأحمد وعمر وابنه عبد الله ، وروي عن ابن عمر مرفوعاً كراهة ركوب الجلالة ، أخرجه البيهقي وغيره .

والسخلة المرباة بلبن الكلبة حكمها حكم الجلالة فيما يظهر ، فيجري فيها ما جرى فيها ،

والله تعالى أعلم .

ومن ذلك الزروع والثمار التي سقيت بالنجاسات أو سمدت بها فأكثر العلماء على أنها طاهرة ، وأن ذلك لا ينجسها ، وممن قال بذلك مالك والشافعي وأصحابهما خلافاً للإمام أحمد ، وقال ابن قدامة في " المغني " وتحرم الزروع والثمار التي سقيت بالنجاسات ، أو سمدت بها ، وقال ابن عقيل يحتمل أن يكره ذلك ولا يحرم . ولا يحكم بتنجيسها ، لأن النجاسة تستحيل في باطنها فتطهر بالاستحالة . كالدم يستحيل في أعضاء الحيوان لحماً ، ويصير لبناً . وهذا قول أكثر الفقهاء . منهم أبو حنيفة والشافعي ، وكان سعد بن أبي وقاص يدمل أرضه بالعرة ويقول : مكتل عرة مكتل بر ، والعرة : عذرة الناس ، ولنا ما روي عن ابن عباس : كنا نكري أراضي رسول الله صلى الله عليه وسلم ونشترط عليهم ألا يدملوها بعذرة الناس ، ولأنها تتغذى بالنجاسات ، وتترقى فيها أجزاؤها والاستحالة لا تطهر ، فعلى هذا تطهر إذا سقيت الطاهرات . كالجلالة إذا حبست وأطعمت الطاهرات " . اهـ من المغني بلفظه . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 1 صـ ﴾

*(191/254)*

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله – تعالى – : ﴿ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ ﴾ : مَنْصُوب على الحَالِ وفيها قولان :

أحدهما : أنها حَالٌ مُقَدَّرة ؛ أن النَّخْل والزرع وَقْت خروجهما لا أَكْلَ فِيهمَا ؛ حتى يقال فيه : مُتَّفِقٌ أو مُخْتَلِف ؛ فهو كقوله – تبارك وتعالى – : ﴿ فادخلوها خَالِدِينَ ﴾ [ الزمر : 73 ] ، كقولهم : " مَرَرْت برجُلٍ معه صَقْرٌ صَائِداً به غداً " أي : مُقَدّراً الاصطِيَاد به .

والثاني : أنها حَالٌ مُقَارِنَة ، وذلك على حَذْفِ مُضَافٍ ، أي : وثمر النَّخْل وحَبُّ الزَّرع ، و" أُكُله " مَرْفُوعٌ بـ " مُخْتَلِفاً " [ لأنه اسْم فاعل ، وشروط الإعْمَال مَوْجُودة ، والأُكُل : الشَّيْء المَأْكُول ، وق تقدَّم أنه يُقْرأ بضمّ الكافِ وسُكُونها ، ومضى تحقيقُه في البقرة : [ 265 ] والضَّمِير في " أُكُله " الظاهر أَنَّه يَعُودُ على الزَّرْعِ فقط :

إمَّا لأَنَّه حذف حالاً من النَّخْلِ ؛ لدلالة هذه عَلَيْه ، تقديره : والنَّخْل مُخْتَلِفاً أُكُله ، والزَّرْع مُخْتَلِفاً ] أكله .

وإمَّا لأن الزَّرع هو الظَّاهِر فيه الاخْتِلافُ بالنِّسْبَة إلى المأْكُول مِنْه ؛ كالقَمْح والشَّعِير والفول والحِمص والعَدس وغير ذلك .

وقيل : إنها تعود عليهما .

قال الزَّمَخْشَرِيُّ : والضَّمِير للنَّخْل والزَّرع داخل في حُكْمِهِ ، لكونه مَعْطُوفاً عليه .

وقال أبو حيَّان : وليس بجيّد ؛ لأن العَطْف بالواو ، ولا يَجُوز إفْرَاد ضَمير المتَعَاطِفين .

وقال الحُوفِيُّ : " والهاءُ في " أُكُله " عائدة على ذِكْر ما تقدَّم من هذه الاشْيَاء المُنْشَآت "

وعلى هذا الذي ذكرَهُ الحوفي : لا تَخْتَصُّ الحَالُ بالنخل والزَّرْعِ ، بل يكُون لِمَا تقدَّم جَمِيعه .

قال أبو حيَّان : " ولو كَانَ كما زَعَم ، لكان التَّرْكيب : " أُكُلُهَا " إلا إنْ أُخِذ ذَلك على حَذْفِ مُضَافِ ، أي : ثَمَرَ جَنَّات ، وروعي هذا المَحْذُوف فقيل : " أُكُله " بالإفْرَاد على مُرَعَاته ، فيكون ذِلك كَقَوْله : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ ﴾ [ النور : 40 ] أي : أو كَذَا ظُلُمات ، ولذلك أعَادَ الضمير في يَغْشَاهُ عليه " .

قال شهابُ الدّين : فَيَبْقَى التَّقْدِير : مُخْتَلِفاً أُكُل ثمر الجنَّاتِ وما بعدها ، [ وهذا ] يلْزَمُ منه إضَافَة الشَّيءِ إلى نَفْسِه ؛ لأن الأكل كما تقدَّم غير مرَّة أنه الثَّمَر المأكُول .

*(192/254)*

---

قال الزمخشري في الأُكُل : " وهُوَ ثمره الذي يُؤكَل " .

وقال ابن الأنْبَاريّ : إن " مُخْتَلِفاً " نصبٌ على القَطْع ، فكأنه قال : " والنَّخْل والزَّرْع المختلفُ أُكُلُها " وهذا راي الكُوفيّين ، وقد تقدم إيضاحُه غير مرَّةٍ .

وقوله : ﴿ والزيتون والرمان مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظروا إلى ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي

ذلكم لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ وقد تقدَّم إيضاحه [ الأنعام : 99 ] .

قال القرطبُّي : " والزَّيْتُون والرُّمَّان " عَطفٌ عليه ، " مُتَشَابِهاً وغير مُتَشَابِه " نصب على الحالِ ، وفي هذه أدلَّة ثلاثة :

أحدهما : ما تقدَّم من إقَامَة الدِّليل على أنَّ المتغيّرات لا بُدَّ لها من مُغَيِّر .

الثاني : أن الدَّلالة على المِنَّة منه – سبحانه وتعالى – علينا ، فلو شَاءَ إذ خَلَقَنَا ألاَّ يَخْلُق لنا غِذَاءً ، وإذا خَلَقَهُ ألاّ يَكُون جميلَ المَنْظَر طيّب الطَّعْم ، وإذا خلقَهُ كذلك ألاَّ يكون سَهْل الجَنْي ، فلم يَكُن عليه أن يَفْعَل ذلك ابتداء ؛ لأنه لا يَجب عليه شَيْء .

الثالث : الدَّلالة على القُدْرَة في أن يكُون الماءُ الذي مِنْ شَأنه الرسوب ، يصعد بقُدْرَةِ علاَّم الغُيُوب من اسَافِل الشَّجَرة إلى أعاليها ، حتى إذا انْتَهَى إلى آخِرها ، نشأ فيها أوْرَاق لَيْست من جِنْسِها ، وثمر خَارجٌ من الجِرمْ الوَافِر ، واللَّوْن الزَّاهِر ، والجَنَى الجَديد ، والطَّعم اللذيذ ؛ فأين الطِّبَاع وأجْنَاسُها ؟ وأين الفلاسفة أَنسُها ؟ هل في قُدْرة الطَّبيعة أن تُتْقِن هذا الإتْقَان ، أو تُرَتِّب هذا التَّرْتيب العجيب ؟ كلاَّ لم يَتمَّ ذلك في العُقُول إلاَّ بتَدبير عالمٍ قديرٍ مريدٍ ، فسبحان من لَهُ في كل شيء آية ونهايةَ ! .

قوله " وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ "

قرأ أبو عمرو وابن عامر وعاصم بفتح الحاء والباقون بكسرها ، وهما لُغَتَان في المَصْدَر ؛ كقولهم ؛ جَداد وجِدَاد ، وقَطَاف وقِطَاف ، وحَرَان وحِرَان والصِّرَام والصَّرَام .

قال سيبويه : جاءوا بالمَصْدَر حين أرَادُوا انْتِهاء الزَّمَان على مثال : " فِعَال " وربما قَالُوا فيه : " فَعَال " يعني : أنَّ مَصْدر خَاصٌّ دالٌّ على مَعْنى زَائِد على مُطْلَق المَصْدَر ؛ فإن المَصْدَر الأصْلِيُّ إنما هو الحَصْد ، فالحَصْد ليس فيه دلالة على انْتِهَاء زَمَان ولا عدمها ؛ بخلاف الحَصَاد والحِصَاد .

ونسب الفرَّاء الكَسْر لأهل الحِجَاز ، والفتح لـ " تميم " و " نَجْد " ، واخْتَار أبو عُبَيْد الفَتْحَ ؛ قال : للفخامةِ ، وإن كان الأخرى " فَاشِيَةً غير مَدفُوعة " ، ومكي الكَسْر ؛ قال : " لأَنَّه الأصْل ، وعليه أكثر الجماعة " .

وقوله : " يَوْم حصاده فيه وجهان :

أحدهما : أنه مَنْصُوب بـ " آتُوا أي : أعْطُوا واجبة يوم الحَصَادِ ، واستَشْكَل بعض النَّاس ذلك بأنَّ الإيتاء إنما يكون بعد التَّصْفِيَة ، فيكيف يُوجب الأيتَاء في يَوْم الحَصْد ؟

وأجيبُ : بأنّ ثَمَّ مَحْذُوفاً ، والتّقْدير : إلى تَصْفِيتِهِ ، قالوا : فيكون الحَصاد سَبباً للوُجُوب المُوسَّع ، التَّصْفِيَة سَبَبٌ للإدَاءِ ، وأحسن من هَذَا أن يَكُونَ المَعْنَى : واهتمُّوا بإيتاءِ الواجِبَة فيه واقْصُدُوه في ذلك اليَوْم .

الثاني : أنه مَنْصُوب بلفظ " حَقَّهُ " على معنى : وأعطوا ما اسْتِحقَّ منه يوم حَصَادِه ، فيكون الاستِحْقَاق ثابتاً يوم الحَصَاد والأدَاء بعد التَّصْفِيَة ؛ ويؤيد ذلك تَقْدير المَحْذُوف عند بَعْضِهم كما قَدَّمْتُه ، وقال في نَظِير هذه الآية : ﴿ انظروا إلى ثَمَرِه ﴾ [ بالأنعام : 99 ] ، وفي هذه : " كُلُوا " قيل : لأن الأولى سيقت للدّلالة على كَمَال قُدْرَته ، وعلى إعْادة الأجْسام من عجب الذنب ، فأمر بالنظر والتَّفَكُّر في البدَاية والنّهاية ، وهذه سيقت في مَعْرِض كما لا الامْتِنَان فناسب الأمْر بالأكْلِ ، وتحصَّل من مجموع الآيتيْنِ : الانتِفَاعُ الأخْرَوِيّ والدُّنْيَوي ، وهذا هو السَّبَب لتقدُّم النَّظَر على الأمْر بالأكْل كما قدمنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 468 . 471 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَآ أَثْمَرَ ﴾ .

يعني كما أنشأ في الظاهر جناتٍ وبساتينَ كذلك أنشأ في السِّر جناتٍ وبساتين ، ونزهة

القلوب أثم من جنات الظاهر ؛ فأزهار القلوب موِنقة ، وشموس الأسرار مشقة ، وأنهار المعارف زاخرة .

ويقال كما تتشابه الثمار كذلك تتماثل الأحوال ، وكما تختلف طعومها وروائحها مع تشاكلها من وجه ، فكذلك الأحوال مختلفة القضايا ، وإن اشتركت في كونها أحوالاً .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ .

حَقُّ الواجبِ يومَ الحصاد إقامة الشكر ، فأمَّا إخراج البعض فبيانه على لسانه العلم ، وشهودُ المِنعم في عين النعمة أتمُّ من الشكر على وجود النعمة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ .

(195/254)

---

الإسراف – على لسان العلم – مجاوزة الحد .

وعلى بيان الإشارة فالإسرافُ كلُّ ما أَنْفَقْتَه في حظِّ نفسِكَ – ولو كانت سمسمة ، وما أنفقته في سبيله – سبحانه – فليس بإسراف ، ولو أربى على الآلاف . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 506. 507 ﴾

(196/254)

قوله تعالى ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (142) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان السياق للمآكل من الحرث والأنعام من حلال وحرام ، وفرغ من تقرير أمر الحرث الذي قدم في الجملة الأولى لأنه مادة الحيوان ، قال : ﴿ ومن ﴾ أي وأنشأ من ﴿ الأنعام حمولة ﴾ أي ما يحمل الأثقال ﴿ وفرشاً ﴾ أي وما يفرش للذبح أو للتوليد ، ويعمل من وبره وشعره فرش ؛ ولما استوفى القسمين أمر بالأكل من ذلك كله على وجه يشمل غيره مخالفة للكفار فقال : ﴿ كلوا مما رزقكم الله ﴾ أي لأنه الملك الأعظم الذي لا يسوغ رد عطيته ﴿ ولا تتبعوا ﴾ ولعله شدد إشارة إلى العفو عن صغيرة إذا ذكّر الإنسان فيها رجع ولم يعتد في هواه ﴿ خطوات الشيطان ﴾ أي طريقه في التحليل والتحريم كما قال في البقرة ﴿ كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ [ البقرة : 168 ] وعبر بذلك لأنه – مع كونه من مادة الخطيئة دال على أن شرائعه شريعة الأندراس ، لولا مزيد الاعتناء من الفسقة بالتتبع في كل خطوة حال تأثيرها لبادر إليها المحو لبطلانها في نفسها ، فلا أمر من الله يحييها ولا كتاب يبقيها ، وإنما أسقط هنا ﴿ حلالاً طيباً ﴾ لبيانه سابقاً في قوله

﴿ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ﴾ [ الأنعام : 118 ] ، ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ [ الأنعام : 121 ] ، ولاحقاً في قوله ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً ﴾ [ الأنعام : 125 ] ؛ ثم علل نهيه عن اتباعه فقال : ﴿ إنه لكم عدو ﴾ أي فهو لذلك لا يأمركم بخير ﴿ مبين ﴾ أي ظاهر العداوة لأن أمره مع أبيكم شهير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 728 . 729 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما ذكر كيفية إنعامه على عباده بالمنافع النباتية أتبعها بذكر إنعامه عليهم بالمنافع الحيوانية .

فقال : ﴿ وَمِنَ الإنعام حَمُولَةً وَفَرْشًا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 177 ﴾

*(197/254)*

---

فصل

قال الفخر :

"الواو" في قوله : ﴿ وَمِنَ الأنعام حَمُولَةً وَفَرْشًا ﴾ توجب العطف على ما تقدم من قوله :

﴿ وَهُوَ الذى أَنشَأَ جنات معروشات ﴾ [ الأنعام : 141 ] والتقدير : وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ، وأنشأ من الأنعام حمولة وفرشاً وكثر أقوالهم في تفسير الحمولة والفرش وأقربها إلى التحصيل وجهان : الأول : أن الحمولة ما تحمل الأثقال والفرش ما يفرش للذبح أو ينسج من وبره وصوفه وشعره للفرش .

والثاني : الحمولة الكبار التي تصلح للحمل ، والفرش الصغار كالفصلان والعجاجيل والغنم لأنها دانية من الأرض بسبب صغر أجرامها مثل الفرش المفروش عليها .

ثم قال تعالى : ﴿ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله ﴾ يريد ما أحلها لكم .

قالت المعتزلة : إنه تعالى أمر بأكل الرزق ، ومنع من أكل الحرام ، ينتج أن الرزق ليس بحرام .

ثم قال : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خطوات الشيطان ﴾ أي في التحليل والتحريم من عند أنفسكم كما فعله أهل الجاهلية ﴿ خطوات ﴾ جمع خطوة وهي ما بين القدمين قال الزجاج : وفي ﴿ خطوات الشيطان ﴾ ثلاثة أوجه : بضم الطاء وفتحها وبإسكانها ، ومعناه : طرق الشيطان أي لا تسلكوا الطريق الذي يسوله لكم الشيطان .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي بين العداوة ، أخرج آدم من الجنة ، وهو القائل ﴿ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [ الإسراء : 62 ] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 177 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ وَمِنَ الأنعام حَمُولَةً وَفَرْشًا ﴾

يعني : أنشأ لكم وخلق لكم من الأنعام حمولة وفرشاً أي : مما يحمله عليه من الإبل والبقر وفرشاً مثل الغنم وصغار الإبل .

وقال القتبي : الفرش ما لا يطيق الحمل عليه ، وهي ما دون الحفاف التي لا تصلح للركوب .

﴿ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله ﴾ أي : من الحرث والأنعام حلالاً طيباً ﴿ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خطوات الشيطان ﴾ يعني : لا تسلكوا الطريق الذي يدعوكم إليه الشيطان ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ ظاهر العداوة غير ناصح لكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَمِنَ الأنعام ﴾ يعني أنشأ من الأنعام ﴿ حَمُولَةً ﴾ بمعنى كلّ ما محمّل عليها ويركب مثل كبار الإبل والبقر والخيل والبغال والحمير ، سمّيت بذلك لأنّها تحمل أثقالهم ، قال عنترة :

ما دعاني إلا حمولة أهلها . . . وسط الديار ( تسف ) حب الخمخم

والحمولة الأحمال .

وقال أهل اللغة : الفعولة بفتح الفاء إذا كانت [ يعني ] الفاعل استوى فيه المذكّر والمؤنّث نحو

قولك : رجل فروقة وامرأة فروقة للجبان والخائف ، ورجل صرورة وامرأة صرورة إذا لم يحجا ، وإذا كانت بمعنى المفعول فرّق بين الذكر والأُنثى بالهاء كالخلوّية والزكوّية ﴿ وَفَرْشاً ﴾ والفرش ما يؤكل ويحلب ولا يحمل عليه مثل الغنم والفصلان والعجاجيل ، سمّيت فرشاً للطافة أجسامها وقربها من الفرش . هي الأرض المستوية ، وأصل الفرش الخفة واللطافة ومنه فراشة العقل وفراش العظام ، والفرش أيضاً نبت ملتصق بالأرض ( تأكله ) الإبل قال الراجز :

كمفشر الناب تلوك الفرشا . . . والفرش : صغار الأولاد من الأنعام

وقال الراجز :

أورثني حمولة وفرشاً . . . أمشها في كلّ يوم مشاً

﴿ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشيطان ﴾ ما حرم الحرث الأنعام ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

*(199/254)*

---

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن الحمولة كبار الإبل التي يُحْمَلُ عليها ، والفرش صغارها التي لا يحمل عليها ، مأخوذ من افتراش الأرض بها على الاستواء كالفرش .

وقال ابن بحر الافتراش الإضجاع للنحر ، فتكون الحمولة كبارها ، والفرش صغارها ، قال الراجز :

أورثني حمولة وفرشا . . . أمشّها في كل يوم مشّا

أي أمسحها ، قاله ابن مسعود ، والحسن ، ومجاهد .

والثاني : أن الحَمُولة ما حُمِلَ عليه من الإبل والبقر ، والفرش : الغنم ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، ومنه قول ابن مسلمة :

وحوينا الفرش من أنعامكم . . . والحمولات وربات الحجل

والثالث : أن الحملة ما حمل من الإبل ، والبقر ، والخيل ، والبغال ، الحمير ، والفرش ما خلق لهم من أصوافها وجلودها .

﴿ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : من الحمولة ليبين أن الانتفاع بظهرها لا يمنع من جواز أكلها .

والثاني : أنه إذن منه في عموم أكل المباح من أموالهم ، ونهى عن أكل ما لا يملكونه .

﴿ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ فيها قولان :

أحدهما : أنها طريقه التي يدعوكم إليها من كفر وضلال .

والثاني : أنها تخطيه إلى تحريم الحلال وتحريم الحرام ، وقد ذكرنا ما في ذلك من زيادة التأول ومن الاحتمال ، وأنه الانتقال من معصية إلى أخرى حتى يستوعب جميع المعاصي ، مأخوذ من خطو القدم : انتقالها من مكان إلى مكان .

﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه ما بان لكم من عداوته لأبيكم آدم .

والثاني : ما بان لكم من عداوته لأوليائه من الشياطين ، قاله الحسن . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(200/254)

---

وقال ابن عطية :

﴿ حمولة ﴾ عطف على ﴿ جنات معروشات ﴾ [ الأنعام : 141 ] التقدير وأنشأنا من الأنعام حمولة ، وبالحمولة ما تحمل الأثقال من الإبل والبقر عند من عادته أن يحمل عليها والهاء في ﴿ حمولة ﴾ للمبالغة ، وقال الطبري هو اسم جمع لا واحد من لفظه ، و" الفرش " ما لا يحمل ثقلاً كالغنم وصغار البقر والإبل ، هذا هو المروي عن ابن مسعود وابن عباس والحسن وغيرهم ، يقال له الفرش ويفرش ، وذهب بعض الناس إلى أن تسميته ﴿ فرشاً

﴿ إنما هي لوطاءته وأنه مما يمتهن ويتوطأ ويتمكن من التصرف فيه إذ قرب جسمه من الأرض .

وروي عن ابن عباس أنه قال : " الحمولة " الإبل والخيل والبغال والحمير ، ذكره الطبري .

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : وهذا منه تفسير لنفس اللفظة لا من حيث هي في هذه الآية ، ولا تدخل في الآية لغير الأنعام وإنما خصت بالذكر من جهة ما شرعت فيها العرب ، وقوله ﴿ مما رزقكم ﴾ نص إباحة وإزالة ما سنه الكفار من البحيرة والسائبة وغير ذلك ، ثم تابع النهي عن تلك السنن الآفكة بقوله اختلاف القراء في " خطوات " ، ومن شاذها قراءة علي رضي الله عنه والأعرج وعمرو بن عبيد " خُطُؤات " بضم الخاء والطاء وبالهمزة ، قال أبو الفتح وذلك جمع خطأة من الخطأ ومن الشاذ قراءة أبي السمال " خطوات " بالواو دون همزة وهو جمع خطوة وهي ذرع ما بين قدمي الماشي ، ثم علل النهي عن ذلك بتقرير عداوة الشيطان لابن آدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ومن الأنعام حمولة وفرشاً ﴾ هذا نسق على ما قبله ، والمعنى : أنشأ جنّاتٍ ، وأنشأ حمولة وفرشاً ، وفي ذلك خمسة أقوال .

أحدها : أن الحمولة : ما حمل من الإبل ، والفرشَ : صغارها ، قاله ابن مسعود ، والحسن ، ومجاهد ، وابن قتيبة .

والثاني : أن الحمولة ، ما انتفعت بظهورها ، والفرش : الراعية ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

(201/254)

---

والثالث : أن الحمولة : الإبل والخيل ، والبغال ، والحمير ، وكل شيء يُحمَل عليه .

والفرش : الغنم ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والرابع : الحمولة : من الإبل ، والفرش : من الغنم ، قاله الضحاك .

والخامس : الحمولة : الإبل والبقر .

والفرش : الغنم وما لا يحمل عليه من الإبل ، قاله قتادة .

وقرأ عكرمة ، وأبو المتوكل ، وأبو الجوزاء : ﴿ حُمولة ﴾ بضم الحاء .

قوله تعالى : ﴿ كلوا مما رزقكم الله ﴾ قال الزجاج : المعنى : لا تحرِّموا ما حرمتم مما جرى ذكره ، ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ أي : طرقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ ومن الأنعام ﴾ يعني وأنشأ من الأنعام ﴿ حمولة ﴾ وهي كل ما يحمل عليها من الإبل

﴿ وفرشاً ﴾ يعني صغار الإبل التي لا تحمل .

قال ابن عباس : الحمولة هي الكبار من الإبل والفرش هي الصغار من الإبل ، وقال في رواية أخرى عنه ذكرها الطبري .

أما الحمولة : فالإبل والخيل والبغال والحمير وكل شيء يحمل عيه وأما الفرش فالغنم .

وقال الربيع بن أنس : الحملة : الإبل والبقر والفرش والمعز والضان فالحمولة كل ما يحمل عليها من الأنعام والفرش ما لا يصلح للحمل سمي فرشاً لأنه يفرش للذبح ولأنه قريب من الأرض لصغره ﴿ كلوا مما رزقكم الله ﴾ يعني كلوا مما أحله الله لكم من هذه الأنعام والحرث ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ يعني لا تسلكوا طريقه وآثاره في تحريم الحرث والأنعام كما فعله أهل الجاهلية ﴿ إنه ﴾ يعني الشيطان ﴿ لكم عدو مبين ﴾ يعني أنه مبين العداوة لكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

*(202/254)*

---

وقال أبو حيان :

﴿ ومن الأنعام حمولة وفرشاً ﴾

هذا معطوف على ﴿ جنات ﴾ أي وأنشأ ﴿ من الأنعام حمولة وفرشاً ﴾ وهل الحمولة

ما قاله ابن عباس ما حمل عليه من الإبل والبقر والخيل والبغال والحمير والفرش الغنم ؟ أو ما قاله أيضاً ما انتفع به من ظهورها والفرش الراعية ؟ أو ما قاله ابن مسعود والحسن ومجاهد وابن قتيبة : ما حمل من الإبل والفرش صغارها ؟ أو ما قاله الحسن أيضاً : الإبل والفرش الغنم ؟ أو ما قاله ابن زيد : ما يركب والفرش ما يؤكل لحمه ويجلب من الغنم والفصلان والعجاجيل ؟ أو ما قاله الماتريدي : مراكب النساء والفرش ما يكون للنساء أو ما قاله أيضاً : كل شيء من الحيوان وغيره يقال له فرش ؟ تقول العرب : أفرشه الله كذا أي جعله له أو ما قاله بعضهم : ما كان معدّاً للحمل من الحيوانات ، والفرش : ما خلق لهم من أصوافها وجلودها التي يفترشونها ويجلسون عليها ، أو ما يحمل الأثقال .

والفرش : ما يفرش للذبح أو ينسج من وبره وصوفه وشعره للفرش .

أو ما قاله الضحاك : واختاره النحاس الإبل والبقر والفرش الغنم ورجح هذا بإبدال ثمانية أزواج منه عشرة أقوال ، وقدّم الحمولة على الفرش لأنها أعظم في الانتفاع إذ ينتفع بها في الحمل والأكل .

﴿ كلوا مما رزقكم الله ﴾ أي مما أحله الله لكم ولا تحرموا كفعل الجاهلية وهذا نص في الإجابة وإزالة لما سنه الكفار من البحيرة والسائبة .

﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ أي في التحليل والتحريم من عند أنفسكم وتعلقت بها

المعتزلة في أن الحرام ليس برزق وتقدّم تفسير ﴿ ولا تتبعوا ﴾ إلى آخره في البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(203/254)

---

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الأنعام حَمُولَةً وَفَرْشاً ﴾

عطف ( على ما تقدّم ) .

أي وأنشأ حمولة وفرشاً من الأنعام .

وللعلماء في الأنعام ثلاثة أقوال : أحدها : أن الأنعام الإبل خاصّة ؛ وسيأتي في "النحل" بيانه .

الثاني : أن الأنعام الإبل وحدها ، وإذا كان معها بقر وغنم فهي أنعام أيضاً .

الثالث : وهو أصحها قاله أحمد بن يحيى : الأنعام كل ما أحله الله عز وجل من الحيوان .

ويدلّ على صحة هذا قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأنعام إِلاَّ مَا يتلى عَلَيْكُمْ ﴾ [ المائدة : 1 ] وقد تقدّم .

والحَمُولة ما أطاق الحِمْل والعمل ؛ عن ابن مسعود وغيره .

ثم قيل : يختص اللفظ بالإبل .

وقيل : كل ما احتمل عليه الحيَّ من حمار أو بغل أو بعير ؛ عن أبي زيد ، سواء كانت عليه الأحمال أو لم تكن .

قال عنترة :

ما رَاعنِي إلا حَمولةُ أهلِها . . .

وسْط الدِّيارِ تَسُفُّ حَبَّ الْحِمْحِم

وفَعولة بفتح الفاء إذا كانت بمعنى الفاعل استوى فيها المؤنّث والمذكر ؛ نحو قولك : رجل فَروقة وامرأة فَروقة للجبان والخائف .

ورجل صَرورة وامرأة صرورة إذا لم يَحُجَّا ؛ ولا جمع له .

فإذا كانت بمعنى المفعول فرق بين المذكر والمؤنث بالهاء كالحَلُوبة والرَّكوبة .

والحمُولة ( بضم الحاء ) : الأحمال .

وأما الحمُول ( بالضم بلا هاء ) فهي الإبل التي عليها الهوادج ، كان فيها نساء أو لم يكن ؛ عن أبي زيد .

"وَفَرْشاً" قال الضحاك : الحمولة من الإبل والبقر .

والفرش : الغنم .

النحاس : واستشهد لصاحب هذا القول بقوله : "ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ" قال : ف"ثَمَانِيَةَ" بدل من

قوله : "حَمُولَةً وَفَرْشاً" .

وقال الحسن : الحَمولة الإبل .

والفَرْش : الغنم .

وقال ابن عباس : الحمولة كل ما حَمل من الإبل والبقر والخيل والبغال والحمير .

والفَرْش : الغنم .

(204/254)

---

وقال ابن زيد : الحمولة ما يركب ، والفرش ما يؤكل لحمه ويحلب ؛ مثل الغنم والفِصلان والعجاجيل ؛ سُمّيت فَرْشاً للطافة أجسامها وقربها من الفرش ، وهي الأرض المستوية التي يتوطأها الناس .

قال الراجز :

أورثني حَمولة وفَرْشاً . . .

أَمُشُّها في كلّ يومٍ مَشّا

وقال آخر :

وَحَوَّيْنَا الفَرْش من أنعامكم . . .

والحَمُولات وربَّاتِ الحَجَل

قال الأصمعي : لم أسمع له بجمع .

قال : ويحتمل أن يكون مصدراً سُمِّيَ به ؛ من قولهم : فرشها الله فرشاً ، أي بَثّها بَثًّا .

والفَرْش : المفروش من متاع البيت .

والفَرْش : الزرع إذا فرش .

والفرش : الفضاء الواسع .

والفَرْش في رجل البعير : اتساع قليل ، وهو محمود .

وافترش الشيءُ انبسط ؛ فهو لفظ مشترك .

وقد يرجع قوله تعالى : "وَفَرْشاً" إلى هذا .

قال النحاس : ومن أحسن ما قيل فيهما أن الحمولة المسخرة المذلّلة للحمل .

والفَرْش ما خلقه الله عز وجل من الجلود والصّوف مما يُجلس عليه ويُتَمَهّد .

وباقي الآية قد تقدّم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

*(205/254)*

وقال أبو السعود :

﴿ وَمِنَ الأنعام حَمُولَةً وَفَرْشًا ﴾

شروعٌ في تفصيل حال الأنعامِ وإبطالِ ما تقوّلوا على الله تعالى في شأنها بالتحريم والتحليل ، وهو عطفٌ على مفعول أنشأ ، ومِنْ متعلقةٌ به أي وأنشأ من الأنعام ما يُحمل عليه الأثقالُ وما يُفرش للذبح أو ما يُفرش المصنوعُ من شعره وصوفِه ووبرِه ، وقيل : الكبارُ الصالحةُ للحمل والصغارُ الدانيةُ من الأرض كأنها فُرشٌ مفروشٌ عليها ﴿ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله ﴾ ( ما ) عبارةٌ عما ذُكر من الحَمولة والفَرْش ومِنْ تبعيضيةٌ أي كلوا بعضَ ما رزقكم الله تعالى أي حلالَه ، وفيه تصريحٌ بأن إنشاءَها لأجلهم ومصلحتِهم ﴿ وَلاَ تَتَّبِعُواْ ﴾ في أمر التحليلِ والتحريمِ بتقليد أسلافِكم المجازفين في ذلك من تلقاء أنفسِهم المفترين على الله سبحانه ﴿ خطوات الشيطان ﴾ فإن ذلك منهم بإغوائه واستتباعِه إياهم ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ ظاهرُ العداوة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

*(206/254)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَمِنَ الأنعام حَمُولَةً وَفَرْشًا ﴾ شروع في تفصيل حال الأنعام وإبطال ما تقوّلوا على الله

تعالى في شأنها بالتحريم والتحليل ، وهو عطف على ﴿ جنات ﴾ [ الأنعام : 141 ]

والجهة الجامعة إباحة الانتفاع بهما .

والجار والمجرور متعلق بأنشأ .

والحمولة ما يحمل عليه لا واحد له كالركوبة .

والمراد به ما يحمل الأثقال من الأنعام وبالفرش ما يفرش للذبح أو ما يفرش المنسوج من صوفه وشعره ووبره ، وإلى الأول ذهب أبو مسلم وروي عن الربيع بن أنس .

وإلى الثاني ذهب الجبائي ، وقيل : الحمولة الكبار الصالحة للحمل والفرش الصغار الدانية من الأرض مثل الفرش المفروش عليها ، وروي ذلك عن ابن مسعود لكنه رضي الله تعالى عنه خص ذلك بكبار الإبل وصغارها وهو إحدى روايات عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، وفي رواية أخرى الحمولة الإبل والخيل والبغال والحمير وكل شيء يحمل عليه والفرش الغنم .

﴿ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله ﴾ أي كلوا بعض ما رزقكم الله تعالى وهو الحلال فمن تبعيضية .

والرزق شامل للحلال والحرام ، والمعتزلة خصوه بالحلال كما تقدم أوائل الكتاب وادعوا أن هذه الآية أحد أدلتهم على ذلك وركبوا شكلاً منطقياً أجزاؤه سهلة الحصول تقديره الحرام ليس بمأكول شرعاً وهو ظاهر والرزق ما يؤكل شرعاً لقوله تعالى : ﴿ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله ﴾ [ الأنعام : 142 ] فالحرام ليس برزق .

وأنت تعلم أن هذا إنما يفيد لو صدق كل رزق مأكول شرعاً ، والآية لا تدل عليه ، أما إذا كانت تبعيضية فظاهر ، وأما إن كانت ابتدائية فلأنه ليس فيها ما يدل على تناول الجميع ، وقيل : معنى الآية استحلوا الأكل مما أعطاكم الله تعالى .

﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ ﴾ في أمر التحليل والتحريم بتقليد أسلافكم المجازفين في ذلك من تلقاء أنفسهم المفترين على الله سبحانه : ﴿ خطوات الشيطان ﴾ أي طرقه فإن ذلك منهم بإغوائه واستتباعه إياهم ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهر العداوة فقد أخرج آدم عليه السلام من الجنة وقال : ﴿ لاحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [ الإسراء : 62 ] أعاذنا الله تعالى والمسلمين من شره إنه الرحمن الرحيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ﴾

(207/254)

---

عُطف : ﴿ حمولة ﴾ على : ﴿ جنات معروشات ﴾ [ الأنعام : 141 ] أي : وأنشأ من الأنعام حمولة وفَرْشاً ، فينسحب عليه القصر الّذي في المعطوف عليه ، أي هو الّذي

أنشأ من الأنعام حمولة وفرشاً لا آلهة المشركين ، فكان المشركون ظالمين في جعلهم للأصنام حقّاً في الأنعام .

و( مِنْ ) في قوله : ﴿ ومن الأنعام ﴾ ابتدائيّة لأنّ الابتداء معنى يصلح للحمولة وللفرش لأنَّه أوسع معاني ( مِن ) .

والمجرور : إمَّا متعلّق بـ ﴿ أنشأ ﴾ [ الأنعام : 141 ] ، وإمَّا حال من ﴿ حمولة ﴾ أصلها صفة فلمّا قدمت تحوّلت .

وأيًّا ما كان فتقديم المجرور على المفعول الّذي هو أولى بالتّقديم في ترتيب المتعلّقات ، أو تقديمُ الصّفة على الموصوف ، لقصد الاهتمام بأمر الأنعام ، لأنَّها المقصود الأصلي من سياق الكلام ، وهو إبطال تحريم بعضها ، وإبطالُ جعل نصيب منها للأصنام ، وأمَّا الحمل والفَرْش فذلك امتنان أُدمج في المقصود توفيراً للأغراض ، ولأنّ للامتنان بذلك أثراً واضحاً في إبطال تحريم بعضها الّذي هو تضييق في المنّة ونبذ للنّعمة ، وليتمّ الإيجاز إذ يغني عن أن يقول : وأنشأ لكم الأنعام وأنشأ منها حمولة وفرشاً ، كما سيأتي .

والأنعام : الإبل ، والبقر ، والشّاء ، والمعز ، وقد تقدّم في صدر سورة العقود ، والحمولة بفتح الحاء ما يحمل عليه المتاع أو النّاس يقال : حمل المتاع وحمل فلاناً ، قال تعالى : ﴿ إذا ما أتَوْك لتحملهم ﴾ [ التوبة : 92 ] ويلزمها التّأنيث ، والإفراد مثل ( صَرورة ) للّذي لم يحجّ يقال : امرأة صَرورة ورجل صَرورة .

والفرش : اختلف في تفسيره في هذه الآية .

فقيل : الفرش ما لا يُطيق الحَمل من الإبل أي فهو يركب كما يُفرش الفَرش ، وهذا قول الراغب .

وقيل : الفَرش الصّغار من الإبل أو من الأنعام كلّها ، لأنَّها قريبة من الأرض فهي كالفرش ، وقيل : الفرش ما يذبح لأنّه يفرش على الأرض حين الذبح أو بعده ، أي فهو الضان والمعز والبقر لأنَّها تذبح .

*(208/254)*

---

وفي "اللّسان" عن أبي إسحاق : أجمع أهل اللّغة على أنّ الفرش هو صغار الإبل .

زاد في "الكشاف" : "أو الفَرْش : ما يُنْسَج من وبره وصوفه وشَعْره الفرْش" يريد أنه كما قال تعالى : ﴿ ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ﴾ [ النحل : 80 ] ، وقال : ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دِفْءٌ ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم ﴾ [ النحل : 75 ] الآية ، ولأنَّهم كانوا يفترشون جلود الغنم والمعز للجلوس عليها .

ولفظ ﴿ فرشا ﴾ صالح لهذه المعاني كلّها ، ومحامله كلّها مناسبة للمقام ، فينبغي أن

تكون مقصودة من الآية ، وكأنّ لفظ الفرش لا يوازنه غيره في جمع هذه المعاني ، وهذا من إعجاز القرآن من جانب فصاحته ، فالحمولة الإبل خاصّة ، والفَرش يكون من الإبل والبقر والغنم على اختلاف معاني اسم الفرش الصّالحة لكلّ نوع مع ضميمته إلى كلمة ( من ) الصالحة للابتداء .

فالمعنى : وأنشأ من الأنعام ما تحملون عليه وتركبونه ، وهو الإبل الكبيرة والإبل الصّغيرة ، وما تأكلونه وهو البقر والغنم ، وما هو فرش لكم وهو ما يُجزّ منها ، وجلودها .

وقد علم السّامع أنّ الله لمّا أنشأ حمولة وفرشاً من الأنعام فقد أنشأ الأنعام أيضاً ، وأول ما يتبادر للنّاس حين ذكر الأنعام أن يتذكّروا أنَّهم يأكلون منها ، فحصل إيجاز في الكلام ولذلك عقّب بقوله : ﴿ كلوا مما رزقكم الله ﴾ .

وجملة : ﴿ كلوا مما رزقكم الله ﴾ معترضة مثل آية : ﴿ كلوا من ثمره إذا أثمر ﴾ [ الأنعام : 141 ] .

ومناسبة الأمر بالأكل بعد ذكر الأنعام : أنَّه لمّا كان قوله : ﴿ وفرشا ﴾ شيئاً ملائماً للذّبح ، كما تقدّم ، عقّب بالإذن بأكل ما يصلح للأكل منها .

(209/254)

واقتصر على الأمر بالأكل لأنَّه المقصود من السّياق إبطالاً لتحريم ما حرّموه على أنفسهم ، وتمهيداً لقوله : ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ فالأمر بالأكل هنا مستعمل في النَّهي عن ضدّه وهو عدم الأكل من بعضها ، أي لا تحرّموا ما أحلّ لكم منها اتّباعاً لتغرير الشّيطان بالسوسوسة لزعماء المشركين الّذين سنّوا لهم تلك السّنن الباطلة ، وليس المراد بالأمر الإباحة فقط .

وعدل عن الضّمير بأن يقول : كلوا مِنها : إلى الإتيان بالموصول ، ﴿ مما رزقكم الله ﴾ لما في صلة الموصول من الإيماء إلى تضليل الّذين حرّموا على أنفسهم ، أو على بعضهم ، الأكل من بعضها ، فعطّلوا على أنفسهم بعضاً ممّا رزقهم الله .

ومعنى : ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ النّهي عن شؤون الشّرك فإنّ أول خطوات الشّيطان في هذا الغرض هي تسويلهُ لهم تحريم بعض ما رزقهم الله على أنفسهم .

وخطوات الشّيطان تمثيل ، وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ يا أيها النّاس كلوا ممّا في الأرض حلالاً طيّباً ولا تتّبعوا خطوات الشّيطان ﴾ في سورة البقرة ( 168 ) .

وجملة : إنه لكم عدوٌ مبين ﴾ تعليل للنّهي ، وموقع ( إنّ ) فيه يغني عن فاء التّفريع كما تقدّم غير مرّة ، وقد تقدّم بيانه في آية البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

(210/254)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ﴾

وبعد أن تكلم سبحانه عن نعمه علينا في الزراعة ونعمه علينا في الماشية قال : ﴿ وَمِنَ الأنعام ﴾ وهي الإبل والبقر والغنم ، ﴿ حَمُولَةً ﴾ والحمولة هي التي تحمل ، فيقال : " فلان حَمول " أي يتحمل كثيراً . والحق يقول : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفس . . . ﴾ [ النحل : 7 ]

والذي تحمله فوق ظهرها يسمى " حُمُولة " . ولذلك نقول عن السيارة التي تنتقل " حمولة كذا طن " . " ومن الأنعام حمولة وفرشاً " .

والإبل نحمل عليها الرحال ، وكل متطلباتنا ، و" فرشا " معناها : مقابل الحمولة . فالحمولة هي المشتدة التي تقوى على أن تحمل . وكل ما لا يستطيع الحمل لصغره ، أو لأنه لم يعد لذلك ، إذا ما نظرت إليه نظرة سطحية تجده وكأنه فارش للأرض . أو " ومن الأنعام حمولة " ؛ وهي التي تحمل متاعكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس . " وفرشا " أي ومن ما تتخذون منه فرشاً بأن ننسج من وبره وصوفه وشعره ما نفرشه . ﴿ وَمِنَ الأنعام حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشيطان إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [ الأنعام : 142 ]

وفي الحديث عن الأنعام ، جاء بالحمولة والفرش ويأتي أيضاً بسيرة الأكل ؛ لأننا نأكل لحمها وألبانها ومشتقات الألبان كلها ، وهكذا تتعدد المنافع ، فهي تحملنا ونأخذ من أصوافها وأوبارها وشعورها الفرش ، والوبر وهو شعر الجمال ، والصوف وهو شعر الغنم ، وشعر الماعز يتميز بلمعة وانفصالية بين شعيراته .

*(211/254)*

---

ونلحظ أنه سبحانه قال في الآية الأولى : "كلوا " وفي الثانية : "كلوا " ؛ لأن ذلك جاء بعد الكلام عما حرموه على أنفسهم من أرزاق الله في الأرض . فكان ولابد أن يؤكد هذا المعنى ، ويوضح : إن الذي خلق هو الله ، والذي كلف هو الله ، فلا تأخذوا تحليلاً لشيء ولا تحريماً لشيء إلا ممن خلق وممن كلف .

﴿ . . . كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشيطان إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ .

الشيطان هو الذي يوسوس لهم بالمخالفة لمنهج الله ، وعداوة الشيطان ظاهرة . فإذا ما كنت العداوة سابقة ، فقد أنزل آدم وحواء من رتبة الطاعة إلى رتبة المعصية وجرأهما على المخالفة فخرجا من الجنة ، كان من الواجب أن نحتاط في قبول هذه الوسوسة .

ثم يفصل الحق لنا الأنعام التي نتخذها حمولة ، أو نأخذ منها فرشاً فقال : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضأن . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(212/254)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (142) ﴾

أخرج الفريابي وعبد بن حميد وأبو عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبراني والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : الحمولة ما حمل عليه من الإبل ، والفرش صغار الإبل التي لا تحمل .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : الحمولة الكبار من الإبل ، والفرش الصغار من الإبل .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ ومن الأنعام حمولة وفرشاً ﴾ قال : الإبل خاصة ، والحمولة ما حمل عليه ، والفرش ما أكل منه .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل ﴿ حمولة وفرشاً ﴾ قال : الفرش الصغار من الأنعام . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت أمية بن أبي الصلت وهو يقول :

ليتني كنت قبل ما قد رآني . . . في قلال الجبال أرعى الحمولا

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الحمولة الإِبل والخيل والبغال والحمير وكل شيء يحمل عليه ، والفرش الغنم .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي العالية في قوله ﴿ حمولة وفرشاً ﴾ قال : الحمولة الإِبل والبقر ، والفرش الضان والمعز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(213/254)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله – تعالى – ﴿ حَمُولَةً وَفَرْشا ﴾

مَنْصُوبان على أَنَّهُما نُسِقَا على " جَنَّاتٍ " أي : وأنشأ من الأَنْعام حَمُولَة ، و " الأَنْعَام " قيل : هي من الإبل خَاصَّة ، وقيل : الإبل والبَقَر والغَنَم .

وقيل : ما أحَلَّه الله – تعالى – من الحيوانِ ؛ قاله أحمد بن يَحْيَى ، قال القُرْطُبيُّ : وهذا أصَحُّهَا .

وقال القُرْطُبِي : فَعُوله بفتح الفَاءِ ، إذَا كانت بمعنى الفَاعِل اسْتَوى فيها المُذَكَّر والمؤنَّث ؛ نحو قولك : رَجُل فَرُوقَه للجبَان والخَائِفِ ، ورجل صَرُورَة وامرأة صرورة إذا لم يَحُجَّا ؛ ولا جَمْع له فإذا كانت بِمَعْنَى ، فرق بين المُذَكَّر والمؤنَّث بالهَّاء ، كالحَلُوبة والرَّكُوبة ، والحَمُولة بضم الحاءِ : أحْمَال وأما الحُمُول : بالضَّمِّ بغير هاء فهي الإبل الَّتِي عليه الهَوَادِجُ كان فيها نِساءٌ أو لم يَكُنّ ؛ قاله أبو زَيْد .

والحَمُولة : ما أطاق الحمل عَلَيْه من الإبل ، والفَرْش : صِغَار هذا هو المشْهُور في اللُّغَة .

وقيل الحَمُولة : كبارُ الأنْعَام ، أعني : الإبل والبَقَر والغَنَم ، والفَرْشُ : صغارها قال : " ويدُلُ له أنَّهُ أبدل منه قوله بعد ذلك : " ثَمَانِيَة أزْوَاجٍ من الضَّأنِ " كما سيأتِي لأنها دَانِية من الأرْض بسبب صغَر أجْرَامِها مثل الفَرْشِ وهي الأرْض المَفْرُوشُ عليها " .

وقال الزَّجَّاج : أجمع أهْل اللُّغَة على أنّ الفَرْشَ صِغَار الإبل ، وأنشد القَائِل : [ الزجر ]

1257 – أوْرَثَنِي حَمُولَةً وَفَرْشَا . . .

أمُشُّهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مَشّا

وقال الآخر : [ الرمل ]

2358 – وَحَوَيْنَا الفَرْشَ مِنْ أنْعَامِكُمْ . . .

والحَمُولاتِ وَرَبَّاتِ الحِجَالْ

قال أبو زَيْد : " يحتمل أن يكون سُمِّيَتْ بالمَصْدَر ؛ لأن الفَرْشَ في الأصْل مصدر " والفَرْش لفظ مُشْتَرك بين مَعَانٍ كثيرة : منها ما تقدَّم ، ومنها : مَتَاع البَيْت والفَضَاء الوَاسِع ، واتِّسَاع خُفِّ البَعير قليلاً ، والأرْض الملساء ، عن أبي عَمْرو بن العَلاء ، ونباتٌ يلْتَصِق بالأرْضِ ،

ومنه قول الشاعر : [ الزجر ]

2359 - كَمِشْفَرِ النَّابِ تلُوكُ الفَرْشَا . . .

وقيل الحَمُولة : كل ما حُمِل عليه من إبل وبَقَر وبَغْل وحِمَار .

*(214/254)*

---

والفَرْشُ هنا : ما اتُّخِذَ من صُوفه ووبَرِه وشَعْرِه ما يُفْتَرَشُ ، وأنشدوا للنَّابغة : [ الطويل ]

2360 - وَحَلَّتْ بُيُوتِي فِي يَفَاعٍ مُمَنَّعٍ . . .

تَخَالُ بِهِ راعِي الحَمُولَةِ طَائِرا

وقال عنترة : [ الكامل ]

2361 - مَا رَاعَنِي إلاَّ حَمُولَةُ أَهْلِهَا . . .

وَسْط الدِّيار تَسَفُّ حَبَّ الخِمْخِمِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ﴾ في عين الجمع المطلق قائلاً ﴿ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الجن ﴾ أي القوى النفسانية : ﴿ قَدِ استكثرتم مّنَ الإنس ﴾ أي من الحواس والأعضاء الظاهرة أو من الصور الإنسانية بأن جعلتموهم أتباعكم بإغوائكم إياهم وتزيين اللذائذ الجسمانية لهم ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مّنَ الإنس رَبَّنَا استمتع بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ وانتفع كل منا في صورة الجمعية الإنسانية بالآخر ﴿ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الذى أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ بالموت أو المعاد على أقبح الهيآت وأسوأ الأحوال ﴿ قَالَ النار ﴾ أي نار الحرمان ووجدان الآلام ﴿ مَثْوَاكُمْ خالدين فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء الله ﴾ ولا يشاء إلا ما يعلم ولا يعلم سبحانه الشيء إلا على ما هو عليه في نفسه ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ ﴾ [ الأنعام : 128 ] لا يعذبكم إلا بهيئات نفوسكم على ما تقتضيه الحكمة عليهم بها تيك الهيئات فيعذب على حسبها ﴿ وكذلك نُوَلّى بَعْضَ الظالمين بَعْضاً ﴾ أي نجعل بعضهم ولي بعض أو إليه وقرينه في العذاب ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ ( الأنعام ؛ 129 ) من المعاصي حسب استعدادهم .

﴿ يَكْسِبُونَ يا معشر الجن والإنس أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مّنْكُمْ ﴾ [ الأنعام : 130 ] وهي عند

كثير من أرباب الإشارة العقول وهي رسل خاصة ذاتية إلى ذويها مصححة لإرسال الرسل الآخر وهي رسل خارجية .

*(215/254)*

---

وبعض المعتزلة حمل الرسول في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [ الإسراء : 15 ] على العقل أيضاً .

وهذه الأسئلة عند بعض المؤولين والأجوبة والشهادات كلها بلسان الحال وإظهار الأوصاف ﴿ ذلك أَن لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ القرى ﴾ أي الأبدان أو القلوب ﴿ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غافلون ﴾ [ الأنعام : 131 ] بل ينبهم بالعقل وإرشاده إقامة للحجة ولله تعالى الحجة البالغة ﴿ وَلِكُلٍّ درجات ﴾ [ الأنعام : 132 ] مراتب في القرب والبعد ﴿ وَرَبُّكَ الغنى ﴾ لذاته عن كل ما سواه ﴿ ذُو الرحمة ﴾ العامة الشاملة فخلق العباد ليربحوا عليه لا ليربح عليهم ، والغني عند الكثير مشير إلى نعت الجلال وذو الرحمة إلى صفة الجمال ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ﴾ لغناه الذاتي عنكم ﴿ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاء ﴾ [ الأنعام : 133 ] من أهل طاعته برحمته ﴿ قُلْ اعملوا على مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي جهتكم من الاستعداد ﴿ إِنِّى عامل ﴾ [ الأنعام : 135 ] على مكانتي من ذلك ﴿ وَهُوَ الذى أَنشَأَ

﴿ في قلوب عباده ﴿ جنات معروشات ﴾ ككرم العشق والمحبة ﴿ وَغَيْرَ معروشات ﴾ وهي الصفات الروحانية التي جبلت القلوب عليها كالسخاء والوفاء والعفة والحلم .

(216/254)

---

والشجاعة ﴿ والنخل ﴾ أي نخل الإيمان ﴿ والزرع ﴾ أي زرع إرادات الأعمال الصالحة ﴿ والزيتون ﴾ أي زيتون الإخلاص ﴿ والرمان ﴾ أي رمان شجر الإلهام ، وقيل في كل غير ذلك وباب التأويل واسع ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ ﴾ وهو المشاهدات والمكاشفات ﴿ وَهُوَ الذى أَنشَأَ ﴾ المريدين ﴿ حَقَّهُ ﴾ وهو الإرشاد والموعظة الحسنة ﴿ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ أوان وصولكم فيه إلى مقام التمكين والاستقامة ﴿ وَلاَ تُسْرِفُواْ ﴾ بالكتمان عن المستحقين أو بالشروع في الكلام في غير وقته والدعوة قبل أوانها ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المسرفين ﴾ [ الأنعام : 141 ] لا يرتضي فعلهم ﴿ وَمِنَ الأنعام ﴾ أي قوى الإنسان ﴿ حَمُولَةً ﴾ ما هو مستعد لحمل الأمانة وتكاليف الشرع ﴿ وَفَرْشًا ﴾ ما هو مستعد لإصلاح القالب وقيام البشرية ﴿ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله ﴾ وهو مختلف فرزق القلب هو التحقيق من حيث البرهان ورزق الروح هو المحبة بصدق التحرز عن الأكوان . ورزق السر هو شهود العرفان بلحظ العيان ﴿ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خطوات الشيطان ﴾ بالميل إلى

الشهوات الفانية والاحتجاب بالسوي ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [ الأنعام : 142 ] يريد أن يحجبكم عن مولاكم والله تعالى الموفق لسلوك الرشاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

*(217/254)*

---

قوله تعالى ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (143) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما رد دين المشركين وأثبت دينه ، وكانوا قد فصلوا الحرمة بالنسبة إلى ذكور الآدمي وإناثه ، ألزمهم تفصيلها بالنسبة إلى ذكور الأنعام وإناثه ، ففصل أمرها في أسلوب أبان فيها أن فعلهم رث القوى هلهل النسيج بعيد من قانون الحكمة ، فهو موضع للاستهزاء وأهل للتهكم ، فقال بياناً ل ﴿ حمولة وفرشاً ﴾ ﴿ ثمانية أزواج ﴾ أي أصناف ، لا يكمل صنف منها إلا بالآخر ، أنشأها بزواج كل من الذكر والأنثى الآخر ، ولحق بتسميتهم الفرد بالزوج - بشرط أن يكون آخر من جنسه - تسميتهم الزجاجة كأساً بشرط أن يكون فيها خمر .

ولما كان الزوج يطلق على الاثنين وعلى ما معه آخر من نوعه ، قال مبيناً أن هذا هو المراد لا الاثنان مفصلاً لهذه الثمانية : ﴿ من الضأن ﴾ جمع ضائن وضائنة كصاحب وصحب ﴿ اثنين ﴾ أي ذكراً وأنثى كبشاً ونعجة ﴿ ومن المعز ﴾ جمع ماعز وماعزة كخادم وخدم في قراءة ابن كثير وأبي عمرو وابن عامر ، وتاجر وتجر في قراءة غيرهم ﴿ اثنين ﴾ أي زوجين ذكراً وأنثى تيساً وعنزاً .

ولما كان كأنه قيل : ما المراد بهذا التفصيل قبل سؤالهم عن دينهم ، قال : ﴿ قل ﴾ أي لهم مستفهماً ؛ ولما كان هذا الاستفهام بمعنى التوبيخ والتهكم والإنكار ، أتى فيه ب " ام " التي هي مع الهمزة قبلها بمعنى " أيّ " ليتفهم بها عما يعلم ثبوت بعضه وإنما يطلب تعيينه ، فقال معترضاً بين المعدودات تأكيداً للتوبيخ ، لأن الاعتراضات لا تساق إلاّ للتأكيد : ﴿ ءآلذكرين ﴾ .

ولما كان المستفهم عنه بنصبه ما بعده لا ما قبله ، قال : ﴿ حرم ﴾ أي الله ، فإن كان كذلك لزمكم تحريم جميع الذكور ﴿ أم الأنثيين ﴾ ليلزمكم تحريم جميع الإناث ، واستوعب جميع ما يفرض من سائر الأقسام في قوله : ﴿ أما ﴾ أي أم حرم ما ﴿ اشتملت ﴾ أي انضمت ﴿ عليه ﴾ وحملته ﴿ أرحام الأنثيين ﴾ أي من الذكور والإناث ، ومتى كان كذلك لزمكم تحريم الكل فلم تلزموا شيئاً مما أوجبه هذا التقسيم فلم تمشوا على نظام .

ولما علم أنه لا نظام لهم فعلم أنهم جديرون بالتوبيخ ، زاد في توبيخهم فقال : ﴿ نبئوني ﴾ أي أخبروني عما حرم الله من هذا إخباراً جليلاً عظيماً ؛ ولما كان هذا الإخبار الموصوف لا يكون بشيء فيه شك ، قال : ﴿ بعلم ﴾ أي أمر معلوم من جهة الله لا مطعن فيه ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أي إن كان لكم هذا الوصف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 729.730 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى ﴿ ثمانية أزواج ﴾

فيه بحثان :

البحث الأول : في انتصاب قوله : ﴿ ثمانية ﴾ وجهان : الأول : قال الفراء : انتصب ثمانية بالبدل من قوله : ﴿ حَمُولَةً وَفَرْشًا ﴾ والثاني : أن يكون التقدير : كلوا مما رزقكم الله ثمانية أزواج.

البحث الثاني : الواحد إذا كان وحده فهو فرد ، فإذا كان معه غيره من جنسه سمي زوجاً ، وهما زوجان بدليل قوله : ﴿ خَلَقَ الزوجين الذكر والأنثى ﴾ [ النجم : 45 ] وبدليل قوله : ﴿ ثمانية أزواج ﴾ ثم فسرها بقوله : ﴿ مِّنَ الضأن اثنين وَمِنَ المعز اثنين . . .

وَمِنَ الإبل اثنين وَمِنَ البقر اثنين ﴾ .

ثم قال : ﴿ وَمِنْ الضأن اثنين ﴾ يعني الذكر والأنثى ، والضأن ذوات الصوف من الغنم .

قال الزجاج : وهي جمع ضائن وضائنة مثل تاجر وتاجرة ويجمع الضأن أيضاً على الضئين بكسر الضاد وفتحها وقوله : ﴿ وَمِنَ المعز اثنين ﴾ قرىء ﴿ وَمِنَ المعز ﴾ بفتح العين ، والمعز ذوات الشعر من الغنم ويقال للواحد : ماعز وللجمع : معزى .

فمن قرأ ﴿ المعز ﴾ بفتح العين فهو جمع ماعز ، مثل خادم وخدم وطالب وطلب ، وحارس وحرس .

ومن قرأ بسكون العين فهو أيضاً جمع ماعز كصاحب وصحب ، وتاجر وتجر ، وراكب وركب .

وأما انتصاب اثنين فلأن تقدير الآية أنشأ ثمانية أزواج أنشأ من الضأن اثنين ومن المعز اثنين وقوله : ﴿ قُلْ ءآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأنثيين ﴾ نصب الذكرين بقوله : ﴿ حَرَّمَ ﴾ والاستفهام يعمل فيه ما بعده ولا يعمل فيه ما قبله .

*(219/254)*

قال المفسرون : إن المشركين من أهل الجاهلية كانوا يحرمون بعض الأنعام ، فاحتج الله تعالى على إبطال قولهم بأن ذكر الضأن والمعز والإبل والبقر وذكر من كل واحد من هذه الأربعة زوجين ، ذكراً وأنثى .

ثم قال إن كان حرم منها الذكر وجب أن يكون كل ذكورها حراماً وإن كان حرم الأنثى ، وجب أن يكون كل إناثها حراماً ، وقوله : ﴿ أَمَّا اشتملت عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأنثيين ﴾ تقديره : إن كان حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين وجب تحريم الأولاد كلها لأن الأرحام تشتمل على الذكور والإناث ، هذا ما أطبق عليه المفسرون في تفسير هذه الآية ، وهو عندي بعيد جداً ، لأن لقائل أن يقول : هب أن هذه الأنواع الأربعة ، أعني : الضأن ، والمعز ، والإبل ، والبقر ، محصورة في الذكور والإناث ، إلا أنه لا يجب أن تكون علة تحريم ما حكموا بتحريمه محصورة في الذكورة والأنوثة ، بل علة تحريمها كونها بحيرة أو سائبة أو وصيلة أو حاماً أو سائر الاعتبارات ، كما أنا إذا قلنا : أنه تعالى حرم ذبح بعض الحيوانات لأجل الأكل .

فإذا قيل : إن ذلك الحيوان إن كان قد حرم لكونه ذكراً وجب أن يحرم كل حيوان ذكر ، وإن كان قد حرم لكونه أنثى وجب أن يحرم كل حيوان أنثى ، ولما لم يكن هذا الكلام لازماً علينا ، فكذا هذا الوجه الذي ذكره المفسرون في تفسير هذه الآية ، ويجب على العاقل أن يذكر في تفسير كلام الله تعالى وجهاً صحيحاً فأما تفسيره بالوجوه الفاسدة فلا يجوز والأقرب عندي فيه وجهان :

أحدهما : أن يقال : إن هذا الكلام ما ورد على سبيل الاستدلال على بطلان قولهم ، بل هو استفهام على سبيل الإنكار يعني أنكم لا تقرون بنبوة نبي ، ولا تعرفون شريعة شارع ، فكيف تحكمون بأن هذا يحل وأن ذلك يحرم ؟ وثانيهما : أن حكمهم بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام مخصوص بالإبل ، فالله تعالى بين أن النعم عبارة عن هذه الأنواع الأربعة ، فلما لم تحكموا بهذه الأحكام في الأقسام الثلاثة ، وهي : الضأن والمعز والبقر ، فكيف خصصتم الإبل بهذا الحكم على التعيين ؟ فهذا ما عندي في هذه الآية والله أعلم بمراده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 177.178 ﴾

*(220/254)*

---

وقال السمرقندى :

﴿ ثمانية أزواج ﴾ يعني : ثمانية أفراد لكم : يقال لكل فرد معه آخر زوج يقول : خلقت لكم ثمانية أصناف .

ويقال : كلوا مما رزقكم الله ثمانية أزواج نزلت الآية في مالك بن عوف وأصحابه حيث قالوا : ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا .

ففي هذه الآية دليل إثبات المناظرة في العلم ، لأن الله تعالى أمر النبي صلى الله عليه وسلم

بأن يناظرهم ويبيّن فساد قولهم .

وفيها إثبات القول بالنظر والقياس ، وفيها دليل أن القياس إذا ورد عليه النص بطل القول به ، ويروى إذا ورد عليه النقض لأن الله تعالى أمرهم بالمقايسة الصحيحة ، وأمرهم بطرد علّتهم ، وأمرهم بأن يثبتوا وجه الحرمة إن كان سبب الحرمة الأنوثة والذكورة أو اشتمال الرحم .

فإن كان سبب الحرمة الأنوثة ينبغي أن يكون كل أنثى حراماً لوجود العلة .

وإن كان سبب الحرمة الذكورة ينبغي أن يكون كل ذكر حراماً لوجود العلة وإن كان محرماً لاشتمال الرحم وقد حرم الأولاد كلها ووجهت حرمتها لوجود العلة فيها فبّين انتقاض علتهم وفساد قولهم ، وذلك قوله : ﴿ ثمانية أزواج ﴾ يعني : ثمانية أصناف ﴿ مّنَ الضأن اثنين ﴾ يعني : قولهم وذلك قوله : ﴿ وَمِنَ المعز اثنين ﴾ يعني : الذكر والأنثى ﴿ قُلْ ءآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأنثيين ﴾ يعني : قل لهم من أين جاء هذا التحريم من قبل الذكرين حُرِّمَ أم من قبل الأُنثيين ؟ ﴿ أَمَّا اشتملت عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأنثيين ﴾ يعني : أم من قبل اشتمال الرحم فإنها لا تشتمل إلا على الذكر والأنثى .

﴿ نَبّئُونِي بِعِلْمٍ ﴾ يعني : أخبروني بسبب التحريم ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ أن الله حرم ما تقولون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبي :

ثمّ بيّن الحمولة والفرش فقال : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ نصبها على البدل من الحمولة [ بالفرض ] يعني [ واحد من ] الأنعام ثمانية أزواج أي أصناف ﴿ مِّنَ الضأن اثنين ﴾ فالذكر زوج والأُنثى زوج والضأن والنعاج جمعه ، واحده : ضائن ، والأُنثى : ضائنة ، والجمع : ضوائن .

قرأ الحسن وطلحة بن مصرف : الضأن مفتوحة الهمزة ، والباقون ساكنة الهمزة ، تميم بهمزة وسائر لا بهمزة ﴿ وَمِنَ المعز اثنين ﴾ والمعز المعزى لا واحد له من لفظه ، وأمّا الماعز فجمعه معيزة وجمع الماعزة مواعز ، وقرأ أهل المدينة والكوفة : من المعز ساكنة العين والباقون بالفتح ، وفي مصحف أُبيّ : من المعزى ، وقرأ أبان بن عثمان : من الضأن اثنان ومن المعز اثنين ، قل يا محمد : ﴿ ءَآلذَّكَرَيْنِ ﴾ حرّم الله عليكم ؟ ذكر الضأن ﴿ حَرَّمَ أَمِ الأنثيين ﴾ والمعز ؟ أم أُنثييهما [ والنصب ] قوله ﴿ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأنثيين أَمَّا اشتملت عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأنثيين ﴾ منهما ﴿ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

---

قوله تعالى ﴿ ثمانية ﴾ اختلف في نصبها فقال الأخفش علي بن سليمان بفعل مضمر تقديره كلوا لحم ثمانية أزواج فحذف الفعل والمضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، وقيل نصب على البدل من ما في قوله ﴿ كلوا مما رزقكم الله ﴾ ، وقيل نصبت على الحال ، وقيل نصبت على البدل من قوله ﴿ حمولة وفرشاً ﴾ ، وهذا أصوب الأقوال وأجراها مع معنى الآية ، وقال الكسائي نصبها ﴿ أنشأ ﴾ [ الأنعام : 141 ] والزوج الذكر والزوج الأنثى كل واحد منهما زوج صاحبه ، وهي أربعة أنواع فتجيء ثمانية أزواج ، و ﴿ الضأن ﴾ جمع ضائنة وضائن ، وقرأ طلحة بن مصرف وعيسى بن عمر والحسن من " الضأن " بفتح الهمزة ، وقرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائي " ومن المعْز " بسكون العين وهو جمع ماعز وماعزة ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر " ومن المعَز " بفتح العين فضأن ومعز كراكب وركب وتاجر وتجر وضان ومعز كخادم وخدم ونحوه ، وقرأ أبان بن عثمان " من الضأن اثنان " على الابتداء والخبر المقدم ، ويقال في جمع ماعز معز ومعز ومعيز وأمعوز وقوله تعالى : ﴿ قل آلذكرين ﴾ هذا تقسيم على الكفار حتى يتبين كذبهم على الله أي لا بد أن يكون حرم الذكرين فيلزمكم تحريم الذكور أو الأنثيين فيلزمكم تحريم جميع الإناث ، أم ما اشتملت

عليه أرحام الأنثيين فيلزمكم تحريم الجميع وأنتم لم تلتزموا شيئاً مما يوجبه هذا التقسيم ، وفي هذه السؤالات تقرير وتوبيخ ثم اتبع تقريرهم وتوبيخهم بقوله ﴿ نبئوني ﴾ أخبروني ﴿ بعلم ﴾ أي من جهة نبوءة أو كتاب من كتب الله ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ و ﴿ إن ﴾ شرط وجوابه في ﴿ نبئوني ﴾ ، وجاز تقديم جواب هذا الشرط لما كانت ﴿ إن ﴾ لا يظهر لها عمل في الماضي ، ولو كانت ظاهرة العمل لما جاز تقدم الجواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله : ﴿ ثمانية أزواج ﴾ بدل من قوله : ﴿ حمولة وفرشا ﴾ والزوج ، في اللغة : الواحد الذي يكون معه آخر .

(223/254)

---

قال المصنف : وهذا كلام يفتقر إلى تمام ، وهو أن يقال الزوج : ما كان معه آخر من جنسه ، فحينئذ يقال : لكل واحد منهما : زوج .

قوله تعالى : ﴿ من الضأن اثنين ﴾ : الضأن : ذوات الصوف من الغنم ، والمعز : ذوات الشعر منها ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر : "المعَز" بفتح العين .

وقرأ نافع ، وحمزة ، وعاصم ، والكسائي : بتسكين العين .

والمراد بالأنثيين : الذكر والأنثى .

﴿ قل آلذكرين ﴾ من الضأن والمعز حرم الله عليكم ﴿ أم الأنثيين ﴾ منها ؟ المعنى : فإن كان ما حرم عليكم الذكرين ، فكل الذكور حرام ، وإن كان حرم الأنثيين ، فكل الإناث حرام ، وإن كان حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، فهي تشتمل على الذكور ، وتشتمل على الإناث ، وتشتمل على الذكور والإناث ، فيكون كل جنين حراماً .

وقال ابن الأنباري : معنى الآية : أَلحِقَكم التحريم من جهة الذكرين ، أم من جهة الأنثين ؟ فإن قالوا : من جهة الذكرين ، حَرُم عليهم كل ذكر ، وإن قالوا : من جهة الأنثيين ، حرمت عليهم كل أُنثى ؛ وإن قالوا : من جهة الرحم ، حَرُمَ عليهم الذكر والأنثى .

وقال ابن جرير الطبري : إن قالوا : حَرَّم الذكرين ، أوجبوا تحريم كل ذكر من الضأن والمعز ، وهم يستمتعون بلحوم بعض الذكران منها وظهوره ، وفي ذلك فساد دعواهم .

وإن قالوا : حرَّم الأنثيين ، أوجبوا تحريم لحوم كل أُنثى من ولد الضأن والمعز ، وهم يستمتعون بلحوم بعض ذلك وظهوره .

وإن قالوا : ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، فقد كانوا يستمتعون ببعض ذكورها وإناثها ، قال المفسرون : فاحتج الله تعالى عليهم بهذه الآية والتي بعدها ، لأنهم كانوا يحرِّمون أجناساً من النعم ، بعضها على الرجال والنساء ، وبعضها على النساء دون الرجال .

وفي قوله : ﴿ آلذَّكرين حرَّم أم الأنثيين ﴾ إبطال لما حرَّموه من البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام .

(224/254)

---

وفي قوله : ﴿ أمَّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين ﴾ إبطال قولهم : ﴿ ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرَّم على أزواجنا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ نبئوني بعلم ﴾ قال الزجاج : المعنى : فسروا ما حرمتم بعلم ، أي : أنتم لا علم لكم ، لأنكم لا تؤمنون بكتاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

ثم بين الحمولة والفرش فقال عز وجل : ﴿ ثمانية أزواج ﴾ يعني وأنشأ من الأنعام ثمانية أزواج يعني ثمانية أصناف والزوج في اللغة الفرد إذا كان معه آخر من جنسه لا ينفك عنه فيطلق لفظ الزوج على الواحد كما يطلق على الاثنين فيقال للذكر زوج وللأنثى زوج ﴿ من الضأن اثنين ﴾ يعني الذكر والانثى والضأن ذوات الصوف من الغنم والواحد ضائن والأنثى ضائنة والجمع ضوائن ﴿ ومن المعز اثنين ﴾ يعني الذكر والأنثى والمعز ذوات الشعر من الغنم والواحد ماعز والجمع معزى : ﴿ قل آلذكرين حرم أم الأنثيين ﴾ استفهام

إنكار ، أي : قل يا محمد لهؤلاء الجهلة الذكرين من الضأن والمعز حرم عليكم أم الأنثيين منهما ، فإن كان حرم الذكرين من الغنم فكل ذكورها حرام وإن كان حرم الأنثيين منهما فكل إناثها حرام ﴿ أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ﴾ يعني أم حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين من الضأن والمعز فإنها لا تشتمل إلا على ذكر أو أنثى ﴿ نبئوني ﴾ أي أخبروني وفسروا لي ما حرمتم ﴿ بعلم إن كنتم صادقين ﴾ يعني أن الله حرم ذلك عليكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل آلذكرين حرّم أم الأنثيين أمّا اشتملت عليه أرحام الأنثيين ﴾

*(225/254)*

---

تقدّم تفسير المشركين فيما أحلوا وما حرموا ونسبتهم ذلك إلى الله ، فلما قام الإسلام وثبتت الأحكام جادلوا النبي صلى الله عليه وسلم وكان خطيبهم مالك بن عوف بن أبي الأحوص الجشمي فقال : يا محمد بلغنا أنك تحل أشياء فقال له : " إنكم قد حرمتم أشياء على غير أصل ، وإنما خلق الله هذه الأزواج الثمانية للأكل والانتفاع بها فمن أين جاء هذا

التحريم أمن قبل الذكر أم من قبل الأنثى " ؟ فسكت مالك بن عوف وتحير ؛ فلو علل بالذكورة وجب أن يحرم الذكر أو بالأنوثة فكذلك أو باشتمال الرحم وجب أن يحرما لاشتمالها عليهما ، فأما تخصيص التحريم بالولد الخامس أو السابع أو ببعض دون بعض فمن أين ؟ وروي أنه قال لمالك : " ما لك لا تتكلم " فقال له مالك : بل تكلم وأسمع منك والزوج ما كان مع آخر من جنسه وهما زوجان قال : ﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ﴾ فإن كان وحده فهو فرد ويعني باثنين ذكراً وأنثى أي كبشاً ونعجة وتيساً وعنزاً وهذا الاستفهام هو استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع ، حيث نسبوا ما حرموه إلى الله تعالى وكانوا مرة يحرمون الذكور ومرة الإناث ومرة أولادها ذكوراً أو إناثاً أو مختلطة ، فبين تعالى أن هذا التقسيم هو من قبل أنفسهم لا من قبله تعالى وانتصب ﴿ ثمانية أزواج ﴾ على البدل في قول الأكثرين من قوله : ﴿ حمولة وفرشاً ﴾ وهو الظاهر .

وأجازوا نصبه ب ﴿ كلوا مما رزقكم الله ﴾ وهو قول عليّ بن سليمان وقدره كلوا لحم ثمانية وبأنشأ مضمرة قاله الكسائي ، وعلى البدل من موضع ما من قوله : ﴿ مما رزقكم ﴾ وب ﴿ كلوا ﴾ مضمرة وعلى أنها حال أي مختلفة متعددة .

وقرأ طلحة بن مصرّف والحسن وعيسى بن عمر : ﴿ من الضأن ﴾ بفتح الهمزة .

وقرأ الابنان وأبو عمرو : ﴿ ومن المعز ﴾ بفتح العين .

وقرأ أبي ومن المعزى .

وقرأ أبان بن عثمان : اثنان بالرفع على الابتداء والخبر المقدم وتقديم المفعول وتأخير الفعل دل على وقوع تحريمهم الذكور تارة والإناث أخرى ، وما اشتملت عليه الرحم أخرى ، فأنكر تعالى ذلك عليهم حيث نسبوه إليه تعالى فقال : ﴿ حرم ﴾ أي حرم الله أي لم يحرم تعالى شيئاً من ذلك لا ذكورها ولا إناثها ولا مما تحمله أرحام إناثهما ، وقدم في التقسيم الفرش على الحمولة لقرب الذكر وهما طريقان للعرب تارة يراعون القرب وتارة يراعون التقديم ، ولأنهما أيسر ما يتملكه ويقتنيه الفقير والغني كما قال الشاعر :

ألا إن لا تكن إبل فمعزى . . .

وقدّم الضأن على المعز لغلاء ثمنه وطيب لحمه وعظم الانتفاع بصوفه .

﴿ نبئوني بعلم إن كنتم صادقين ﴾ أي ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في نسبة ذلك التحريم إلى الله ، فأخبروني عن الله بعلم لا بافتراء ولا بتخرص وأنتم لا علم لكم بذلك إذ لم يأتكم بذلك وحي من الله تعالى ، فلا يمكن منكم تنبئة بذلك وفصل بهذه الجملة المعترضة بين المتعاطفين على سبيل التقريع لهم والتوبيخ حيث لم يستندوا في تحريمهم إلا إلى الكذب البحت والافتراء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

---

وقال أبو السعود :

﴿ ثمانية أزواج ﴾ الزوجُ ما معه آخَرُ من جنسه يُزاوجُه ويحصُل منهما النسلُ والمرادُ بها الأنواعُ الأربعةُ ، وإيرادُها بهذا العنوان وهذا العددِ تمهيدٌ لما سيق له الكلامُ من الإنكار المتعلّقِ بتحريم كلِّ واحدٍ من الذكر والأنثى وبما في بطنها ، وهو بدلٌ من حَمولةً وفرشاً منصوبٌ بما نَصَبهما ، وجعلُه مفعولاً لكلوا على أن قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ ﴾ الآية ، معترِضٌ بينهما ، أو حالٌ مِنْ ما بمعنى مختلفةً أو متعددةً يأباه جزالةُ النظمِ الكريم لظهور أنه مَسوقٌ لتوضيح حالِ الأنعام بتفصيلها أولاً إلى حمولةٍ وفرْشٍ ثم بتفصيلها إلى ثمانية أزواجٍ حاصلةٍ من تفصيل الأولى إلى الإبل والبقر وتفصيلِ الثاني إلى الضأن والمَعَز ثم تفصيلِ كلٍّ من الأقسام الأربعة إلى الذكر والأنثى كلُّ ذلك لتحرير الموادِّ التي تقوّلوا فيها عليه سبحانه وتعالى .

﴿ مّنَ الضأن اثنين ﴾ بدلٌ من ثمانيةَ أزواج منصوبٌ بناصبه وهو العاملُ في مِنْ ، أي أنشأ من الضأن زوجين الكبشَ والنعجة وقرىء اثنان على الابتداء ، والضأنُ اسمُ جنس كالإبل وجمعُه ضَئِين كأمير أو جمعُ ضائن كتاجر وتجْرٍ وقرىء بفتح الهمزة ﴿ وَمِنَ المعز

اثنين ﴾ عطفٌ على مثله شريكٌ له في حكمه أي وأنشأ من المعز زوجين التيسَ والعنز وقرىء بفتح العين وهو جمعُ ماعز كصاحب وصحْب وحارس وحرَس ، وقرىء ومن المِعْزى ، وهذه الأزواجُ الأربعةُ تفصيلٌ للفَرْش ولعل تقديمَها في التفصيل مع تأخر أصلِها في الإجمال لكون هذين النوعين عرضةً للأكل الذي هو معظمُ ما يتعلق به الحِلُّ والحُرمة ، وهو السرُّ في الاقتصار على الأمر به في قوله تعالى : ﴿ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله ﴾ من غير تعرضٍ للانتفاع بالحمل والركوب وغيرِ ذلك مما حرموه في السائبة وأخواتِها .

(228/254)

---

﴿ قُلْ ﴾ تلوينٌ للخطاب وتوجيهٌ له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إثرَ تفصيلِ أنواعِ الأنعامِ التي أنشأها ، أي قل تبكيتاً لهم وإظهاراً لانقطاعهم عن الجواب ﴿ آلذكرين ﴾ من ذَيْنك النوعين وهما الكبشُ والتيسُ ﴿ حَرَّمَ ﴾ أي الله عز وجل كما تزعُمون أنه هو المحرّمُ ﴿ أَمِ الأنثيين ﴾ وهما النعجةُ والعنزُ ؟ ونُصب الذكرين والأنثيين بحَرَّم وهو مؤخّرٌ عنهما بحسب المعنى وإن توسط بينهما صورةً ، وكذا قوله تعالى : ﴿ أَمْ مَّا اشتملت عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأنثيين ﴾ أي أم ما حملت إناثُ النوعين حَرَّم ذكراً كان أو أنثى ؟ وقوله تعالى : ﴿ نَبّئُونِي بِعِلْمٍ ﴾ الخ ، تكريرٌ للإلزام وتثنيةٌ للتبكيت والإفحام أي أخبروني بأمر معلومٍ من جهة الله

تعالى من الكتاب أو أخبارِ الأنبياءِ يدل على أنه تعالى حرم شيئاً مما ذُكر ، أو نبئوني تنبئةً ملتبسةً بعلم صادرةً عنه ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ أي في دعوى التحريمِ عليه سبحانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(229/254)

---

وقال الآلوسى :

﴿ ثمانية أزواج ﴾

الزوج يقال لكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجة ويطلق على مجموعهما ، والمراد به هنا الأول وإلا كانت أربعة .

وإيرادها بهذا العنوان وهذا العدد أوفق لما سيق له الكلام .

و ﴿ ثمانية ﴾ على ما قاله الفراء واختاره غير واحد من المحققين بدل من ﴿ حَمُولَةً وَفَرْشًا ﴾ [ الأنعام : 142 ] منصوب بما نصبهما وهو ظاهر على تفسير الحمولة والفرش بما يشمل الأزواج الثمانية أما لو خص ذلك بالإبل ففيه خفاء .

وجوز أن يكون التقدير وأنشأ ثمانية وأنه معطوف على ﴿ جنات ﴾ [ الأنعام : 141 ] وحذف الفعل وحرف العطف ، وضعفه أبو البقاء ووجهه لا يخفى .

وأن يكون مفعولاً لكلوا الذي قبله والتقدير كلوا لحم ثمانية أزواج ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ ﴾ [ الأنعام : 142 ] جملة معترضة .

وأن يكون حالاً من ما مراداً بها الأنعام ويؤول بنحو مختلفة أو متعددة ليكون بياناً للهيئة ، وهو عند من يشترط في الحال أن يكون مشتقاً أو مؤولاً به ظاهر .

*(230/254)*

---

وتعقب ذلك شيخ الإسلام "بأنه يأباه جزالة النظم الكريم لظهور أنه مسوق لتوضيح حال الأنعام بتفصيلها أولاً إلى حمولة وفرش ثم تفصيلها إلى ثمانية أزواج حاصلة من تفصيل الأول إلى الإبل والبقر وتفصيل الثاني إلى الضأن والمعز ثم تفصيل كل من الأقسام الأربعة إلى الذكر والأنثى كل ذلك لتحرير المواد التي تقولوا فيها عليه سبحانه بالتحليل والتحريم ثم تبكيتهم بإظهار كذبهم وافترائهم في كل مادة مادة من تلك المواد بتوجيه الإنكار إليها مفصلة" انتهى .

وفيه منع ظاهر .

وقوله سبحانه : ﴿ مِّنَ الضأن اثنين ﴾ على معنى زوجين اثنين الكبش والنعجة .

ونصب ﴿ اثنين ﴾ قيل : على أنه بدل من ﴿ ثمانية أزواج ﴾ بدل بعض من كل أو كل من كل إن لوحظ العطف عليه منصوب بناصبه والجار متعلق به .

وقال العلامة الثاني : الظاهر أن ﴿ مّنَ الضأن ﴾ بدل من ﴿ الأنعام ﴾ [ الأنعام : 142 ] و﴿ اثنين ﴾ من ﴿ حَمُولَةً وَفَرْشًا ﴾ [ الأنعام : 142 ] أو من ﴿ ثمانية أزواج ﴾ إن جوزنا أن يكون للبدل بدل ، وجوز أن يكون البدل ﴿ اثنين ﴾ ومن الضأن حال من النكرة قدمت عليها .

وقرىء ﴿ اثنان ﴾ على أنه مبتدأ خبره الجار والمجرور ، والجملة بيانية لا محل لها من الإعراب ، والضأن اسم جنس كالإبل جمع ضئين كأمير وكعبيد أو جمع ضائن كتاجر وتجر ، وقرىء بفتح الهمزة وهو لغة فيه .

﴿ وَمِنَ المعز ﴾ زوجين ﴿ اثنين ﴾ التيس والعنز .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر بفتح العين وهو جمع ماعز كصاحب وصحب وحارس وحرس .

*(231/254)*

---

وقرأ أبي ﴿ وَمِنْ ﴾ وهو اسم جمع معز ، وهذه الأزواج الأربعة على ما اختاره شيخ الإسلام تفصيل للفرش قال : "ولعل تقديمها في التفصيل مع تأخر أصلها في الإجمال لكون هذين النوعين عرضة للأكل الذي هو معظم ما يتعلق به الحل والحرمة وهو السر في الاقتصار

على الأمر به في قوله تعالى : ﴿ وَفَرْشًا كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ ﴾ [ الأنعام : 142 ] من غير تعرض للانتفاع بالحمل والركوب وغير ذلك مما حرموه في السائبة وأخواتها .

ومن الناس من علل التقديم بأشرفية الغنم ولهذا رعاها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهو لا يناسب المقام كما لا يخفى .

﴿ قُلْ ﴾ تبكيتاً لهم وإظهاراً لعجزهم عن الجواب ﴿ ءآلذَّكَرَيْنِ ﴾ ذكر الضأن وذكر المعز ﴿ حَرَّمَ ﴾ الله تعالى ﴿ أَمِ الأنثيين ﴾ أي أنثى ذينك الصنفين ، ونصب الذكرين والأنثيين بحرم ﴿ أَمَّا اشتملت عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأنثيين ﴾ أي أم الذي حملته إناث النوعين ذكراً كان أو أنثى .

﴿ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ ﴾ أي أخبروني بأمر معلوم من جهته تعالى جاءت به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يدل على أنه تعالى حرم شيئاً مما ذكر أو نبئوني تنبئة متلبسة بعلم صادرة عنه ﴿ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ في دعوى التحريم عليه سبحانه وتعالى ، والأمر تأكيد للتبكيت وإظهار الانقطاع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

جملة : ﴿ ثمانية أزواج ﴾ حال من ﴿ من الأنعام ﴾ [ الأنعام : 142 ] .

ذكر توطئة لتقسيم الأنعام إلى أربعة أصناف الّذي هو توطئة للردّ على المشركين لقوله : ﴿

قل ءآلذكرين حرم أم الأنثيين إلى قوله أم كنتم شهداء أي أنشأ من الأنعام حمولة إلى آخره حالة كونها ثمانية أزواج.

*(232/254)*

---

والأزواج جمع زوج، والزوج اسم لذات منضمَّة إلى غيرها على وجه الملازمة، فالزّوج ثان لواحد، وكلّ من ذيْنِك الاثنين يقال له: زوج، باعتبار أنّه مضموم، وقد تقدّم ذلك عند قوله تعالى: ﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجَنَّة ﴾ في سورة البقرة (35)، ويطلق الزوج غالباً على الذّكر والأنثى من بني آدم المتلازمين بعقدة نكاح، وتوسّع في هذا الإطلاق فأطلق بالاستعارة على الذّكر والأنثى من الحيوان الّذي يتقارن ذكره وأنثاه مثل حمار الوحش وأتانه، وذكر الحمام وأنثاه، لشبهها بالزوجين من الإنسان.

ويطلق الزّوج على الصنف من نوع كقوله تعالى: ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين في سورة الرّعد (3).

وكلا الإطلاقين الأخيرين صالح للإرادة هنا لأنّ الإبل والبقر والضأن والمعز أصناف للأنعام، ولأنّ كلّ ذلك منه ذكر وأنثى.

إذ المعنى أنّ الله خلق من الأنعام ذكرها وأنثاها، فالأزواج هنا أزواج الأصناف، وليس

المراد زوْجاً بعينه ، إذ لا تعرف بأعيانها ، فثمانية أزواج هي أربعة ذكور من أربعة أصناف وأربعُ إناث كذلك .

وقوله : من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ﴾ أُبدل ﴿ اثنين ﴾ من قوله : ﴿ ثمانية أزواج ﴾ قوله : ﴿ اثنين ﴾ : بدلَ تفصيل ، والمراد : اثنين منها أي من الأزواج ، أي ذَكَرٌ وأنثى كلّ واحد منهما زوج للآخر ، وفائدة هذا التّفصيل التوصّل لذكر أقسام الذّكور والإناث توطئة للاستدلال الآتي في قوله : ﴿ قل ءآلذكرين حرم أم الأنثيين ﴾ الآية .

وسُلك في التّفصيل طريق التّوزيع تمييزاً للأنواع المتقاربة ، فإنّ الضأن والمعز متقاربان ، وكلاهما يذبح ، والإبلَ والبقرَ متقاربة ، والإبلُ تنحر ، والبقر تذبح وتُنحر أيضاً .

ومن البقر صنف له سنام فهو أشبه بالإبل ويوجد في بلاد فارس ودخل بلاد العرب وهو الجاموس ، والبقرُ العربي لا سنام له وثَورها يسمّى الفريش .

(233/254)

---

ولمّا كانوا قد حرّموا في الجاهليّة بعض الغنم ، ومنها ما يسمّى بالوصيلة كما تقدّم ، وبعض الإبل كالبَحيرة والوصيلة أيضاً ، ولم يحرّموا بعض المعز ولا شيئاً من البقر ، ناسب أن يؤتى بهذا التّقسيم قبل الاستدلال تمهيداً لتحكّمهم إذْ حرّموا بعض أفراد من أنواع ، ولم يحرّموا

بعضاً من أنواع أخرى ، وأسباب التّحريم المزعومة تتأتى في كلّ نوع فهذا إبطال إجمالي لما شرعوه وأنَّه ليس من دين الله ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .

وهذا الاستدلال يسمى في علم المناظرة والبحث بالتحكّم .

والضأن بالهمز اسم جمع للغَنم لا واحد له من لفظه ، ومفرد الضأن شاة وجمعها شاءٌ .

وقيل هو جمع ضَائن .

والضأن نوع من الأنعام ذواتِ الظلف له صوف .

والمعز اسم جمع مفرده ماعِز ، وهو نوع من الأنعام شبيه بالضأن من ذوات الظلف له شعر مستطيل ، ويقال : مَعْز بسكون العين ومَعز بفتح العين وبالأول قرأ نافع .

وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو جعفر ، وخلف .

وقرأ بالثّاني الباقون .

وبعد أن تمّ ذكر المنّة والتّمهيد للحجّة ، غيرّ أسلوب الكلام ، فابتدىء بخطاب الرّسول عليه الصّلاة والسلام بأن يجادل المشركين ويظهر افتراءهم على الله فيما زعموه من تحريم ما ابتدعوا تحريمه من أنواع وأصناف الأنعام على من عيّنوه من النّاس بقوله : ﴿ قل ءآلذكرين حرم ﴾ الآيات .

فهذا الكلام ردّ على المشركين ، لإبطال ما شرعوه بقرينة قوله : ﴿ نبئوني بعلم إن كنتم صادقين ﴾ وقوله : ﴿ أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ﴾ الآية .

فقوله : قل ءآلذكرين حرم أم الأنثيين إلى آخرها في الموضعين ، اعتراض بعد قوله : ﴿ ومن المعز اثنين ﴾ وقوله : ﴿ ومن البقر اثنين ﴾ .

وضمير : ﴿ حرّم ﴾ عائد إلى اسم الله في قوله : ﴿ كلوا مما رزقكم الله ﴾ [ الأنعام : 142 ] ، أو في قوله : ﴿ وحرموا ما رزقهم الله ﴾ [ الأنعام : 140 ] الآية .

(234/254)

---

وفي تكرير الاستفهام مرّتين تعريض بالتّخطئة ، فالتّوبيخ والتّقريع الّذي يعقبه التّصريح به في قوله : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ وقوله : ﴿ أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن أفترى على الله كذباً ﴾ الآية .

فلا تردّد في أنّ المقصود من قوله : ﴿ قل ءآلذكرين حرم ﴾ في الموضعين إبطال تحريم ما حرّم المشركون أكله ، ونفي نسبة ذلك التّحريم إلى الله تعالى .

وإنَّما النظر في طريق استفادة هذا المقصود من نظم الكلام .

وهو من المعضلات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

(235/254)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ﴾

وكلمة ﴿ أَزْوَاجٍ ﴾ ، جمع زوج ، و" الزوج " يطلق على الشيء معه ما يقارنه مثل " زوج النعل " ، ونحن في أعرافنا نأخذها على الاثنين ، لكنها في الأصل تطلق على الواحد ومعه ما يقارنه ، إلا أنه إذا لم يكن هناك فارق بين الاثنين بحيث لا يتم الانتفاع بأحدهما إلا مع الآخر ولكن لا تميز لأحدهما على الآخر كالجورب مثلا ، ففي مثل هذا نستسمح اللغة في أن نسمي الاثنين زوجا ، لكن إذا كان هناك خلاف بين الاثنين لا نقول على الاثنين : زوج . والذكر والأنثى من البشر ، صحيح أنهما يقترنان في أن كل واحد منهما إنسان ، لكن للذكر مهمة وللأنثى مهمة مختلفة . أما الجوارب فكل " فردة " منها نضعها في أي قدم لأنه فارق بينهما ، إذن كلمة " زوج " تطلق ويراد بها الشيء الواحد الذي معه ما يقارنه . والحق يقول : ﴿ اسكن أَنتَ وَزَوْجُكَ الجنة . . . ﴾ [ البقرة : 35 ]

وكلمة " زوج " هنا أطلقت على حواء ؛ فآدم زوج وحواء زوج ، والحق هو القائل : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزوجين الذكر والأنثى ﴾ [ النجم : 45 ]

ولم يقل عن الاثنين : إنهما " زوج " وإلا لقال : خلق الزوج الذكر والأنثى . إذن فكلمة " زوج " تطلق على واحد معه ما يقارنه ، مثلها كمثل كلمة " توأم " وهي لا تقال للاثنين ، بل تقال

لواحد معه آخر . لكن الاثنين يقال لهما : توأمان . ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضأن اثنين وَمِنَ المعز اثنين ﴾ [ الأنعام : 143 ]

(236/254)

---

و " من الضأن اثنين " أي ذكرها وأنثاها فتسمى الذكر كبشا والأنثى " نعجة " . ومن المعز اثنين ، والذكر نسميه " تيساً " ، والأنثى نسميها " عنزة " ، وبذلك يكون معنا أربعة ، ومن هنا نفهم أن الزوج مدلوله فرد ومعه ما يقارنه .

﴿ . . . قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأنثيين أَمَّا اشتملت عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأنثيين نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [ الأنعام : 143 ]

ومادمتم أنتم تحرمون وتحللون ، وتقولون : إن هذا من عند الله فقولوا لنا أحرّم الذكرين أم حرّم الأنثيين ؟ ولا يجدون جواباً ؛ لأنه سبحانه لا حرّم هذا ولا حرّم ذاك ، ولذلك أبرزت المسألة إبراز الاستفهام ، والشيء إذا أبرز الاستفهام فمعناه أنه أمر مقرر بحيث إذا سألت الخصم لا يقول إلا ما تتوقعه ، واسمه السؤال أو الاستفهام التقريري . ويقول الحق : ﴿ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي أخبروني بعلم ذلك في التحريم إن كنتم أهل صدق ؛ لأنكم لستم أهلاً للتحريم ، إنما يحرم ويحلل من خلق وشرع . فإن كان عندكم علم قولوا لنا

هذا العلم .

ثم يأتي الحق بخبر الأربعة الباقية من الأنعام فيقول : ﴿ وَمِنَ الإبل اثنين . . . ﴾ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(237/254)*

---

قوله تعالى ﴿ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (144) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما فصل الغنم إلى ضان ومعز ، أغنى ذلك عن تنويع الإبل إلى العراب والبخت والبقر إلى العراب والجواميس ، – ولأن هذه يتناتج بعضها من بعض بخلاف الغنم فإنها لا يطرق أحد نوعيها الآخر – نقله الشيخ بدر الدين الزركشي في كتاب الوصايا من شرح المنهاج عن كتاب الأعداد لابن سراقة فقال : ﴿ ومن الإبل اثنين ﴾ أي ذكراً وأنثى ﴿ ومن البقر اثنين ﴾ أي كذلك ﴿ قل ﴾ أي لهؤلاء الذين اختلقوا جهلاً وسفهاً ما تقدم عنهم

﴿ ءآلذكرين ﴾ أي من هذين النوعين ﴿ حرم ﴾ أي حرمهما الله ﴿ أم الأنثيين ﴾ أي حرمهما ﴿ أما ﴾ أي الذي ﴿ اشتملت عليه ﴾ أي ذلك المحرم على زعمكم ﴿ أرحام الأنثيين ﴾ أي حرمهما الله .

ولما كان التقدير : أجاءكم هذا عن الله الذي لا حكم لغيره على لسان نبي ؟ عادله توبيخاً لهم وإنكاراً عليهم بقوله : ﴿ أم كنتم شهدآء ﴾ أي حاضرين ﴿ إذ وصاكم الله ﴾ أي الذي لا ملك غيره فلا حكم لسواه ﴿ بهذا ﴾ أي كما جزمتم عليه به ، أو جزمتم بالحرمة فيما حرمتموه والحل فيما أحللتموه ، ولا محرم ولا محلل غير الله ، فكنتم بذلك ناسبين الحكم إليه ؛ ولما كان التقدير كما أنتجه السياق : لقد كذبتم على الله حيث نسبتم إليه ما لم تأخذوه عنه لا بواسطة ولا بغير واسطة ، سبب عنه قوله معمماً ليعلم أن هذا إذا كان في التحريم والتحليل كان الكذب في أصول الدين أشد : ﴿ فمن أظلم ﴾ ووضع موضع " منكم " قوله معمماً ومعلقاً للحكم بالوصف : ﴿ ممن افترى ﴾ أي تعمد ﴿ على الله ﴾ أي الذي لا أعظم منه لأنه ملك الملوك ﴿ كذباً ﴾ كعمرو بن لحي الذي غير شريعة إبراهيم عليه السلام ، وكل من فعل مثل فعله .

ولما كان يلزم من شرعهم لهذه الأمور إضلال من تبعهم فيها عن الصراط السوي ، وكانوا يدعون أنهم أفطن الناس وأعرفهم بدقائق الأمور في بداياتها ونهاياتها وما يلزم عنها ، جعل غاية فعلهم مقصوداً لهم تهكماً بهم فقال : ﴿ ليضل الناس ﴾ ولما كان الضلال قد يقع من

العالم الهادي خطأ ، قال : ﴿ بغير علم ﴾ .

ولما كان هذا محل عجب ممن يفعل هذا ، كشفه سبحانه بقوله استئنافاً : ﴿ إن الله ﴾ وهو الذي لا حكم لأحد سواه لا يهديهم ، هكذا كان الأصل ولكنه أظهر تعميماً بما هو أعم من وصفهم ليكون الحكم عليهم بطريق الأولى فقال : ﴿ لا يهدي القوم الظالمين ﴾ أي الذين يضعون الأشياء في غير مواضعها فكيف بالأظلمين ! وما أحسن هذا الختم لأحكامهم وأنسبه لما بناها عليه من قوله ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ [ الأنعام : 21 ] .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 730 . 731 ﴾

*(238/254)*

---

" فصل "

قوله تعالى ﴿ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ ﴾

قال ابن عطية :

القول في هذه الآية في المعنى وترتيب التقسيم كالقول المتقدم في قوله ﴿ من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ﴾ [ الأنعام : 143 ] وكأنه قال أنتم الذين تدعون أن الله حرم خصائص من

هذه الأنعام لا يخلو تحريمه من أن يكون في ﴿ الذكرين ﴾ أو فيما ﴿ اشتملت عليه أرحام الأنثين ﴾ لكنه لم يحرم لا هذا ولا هذا فلم يبق إلا أنه لم يقع تحريم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ﴾

انتقل من توبيخهم في نفي علمهم بذلك إلى توبيخهم في نفي شهادتهم ذلك وقت توصية الله إياهم بذلك ، لأن مدرك الأشياء المعقول والمحسوس فإذا انتفيا فكيف يحكم بتحليل أو بتحريم ؟ وكيفية انتفاء الشهادة منهم واضحة وكيفية انتفاء العلم بالعقل إن ذلك مستند إلى الوحي وكانوا لا يصدّقون بالرسل ، ومع انتفاء هذين كانوا يقولون : إن الله حرم كذا افتراء عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

*(239/254)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَمِنَ الإبل ﴾ زوجين ﴿ اثنين ﴾ الجمل والناقة ، وهذا عطف على قوله سبحانه :

﴿ وَمِنْ الضأن اثنين ﴾ [ الأنعام : 143 ] "والإبل كما قال الراغب يقع على البُعْران الكثيرة ولا واحد له من لفظه" ويجمع كما في "القاموس" على آبال والتصغير أُبَيْلة" .

﴿ وَمِنَ البقر اثنين ﴾ هما الثور وأنثاه ﴿ قُلْ ﴾ إفحاماً لهم في أمر هذين النوعين أيضاً ﴿ ءآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ ﴾ الله تعالى منهما ﴿ أَمِ الأنثيين أَمَّا اشتملت عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأنثيين ﴾ من ذينك النوعين ، والمعنى كما قال كثير من أجلة العلماء إنكار أن الله تعالى حرم عليهم شيئاً من هذه الأنواع الأربعة وإظهار كذبهم في ذلك وتفصيل ما ذكر من الذكور والإناث وما في بطونها للمبالغة في الرد عليهم بإيراد الإنكار على كل مادة من مواد افترائهم فإنهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة وإناثها تارة وأولادها كيفما كانت تارة أخرى مسندين ذلك كله لله سبحانه ، وإنما لم يل المنكر وهو التحريم الهمزة والجاري في الاستعمال أن ما نكر وليها لأن ما في النظم الكريم أبلغ .

وبيانه على ما قال السكاكي أن إثبات التحريم يستلزم إثبات محله لا محالة فإذا انتفى محله وهو الموارد الثلاثة لزم انتفاء التحريم على وجه برهاني كأنه وضع الكلام موضع من سلم أن ذلك قد كان ثم طالبه ببيان محل كي يتبين كذبه ويفتضح عند المحاقة ، وإنما لم يورد سبحانه الأمر عقيب تفصيل الأنواع الأربعة بأن يقال : قل آلذكور حرم أم الإناث أما اشتملت عليه أرحام الإناث لما في ( التثنية و) التكرير من المبالغة أيضاً في الإلزام والتبكيت . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

---

قوله تعالى ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وصاكم الله بهذا ﴾

فصل

قال الفخر :

المراد هل شاهدتم الله حرم هذا إن كنتم لا تؤمنون برسول ؟ وحاصل الكلام من هذه الآية : أنكم لا تعترفون بنبوة أحد من الأنبياء ، فكيف تثبتون هذه الأحكام المختلفة ؟ ولما بين ذلك قال : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِبًا لِيُضِلَّ الناس بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ قال ابن عباس : يريد عمرو بن لحي ، لأنه هو الذي غير شريعة إسمعيل ، والأقرب أن يكون هذا محمولاً على كل من فعل ذلك ، لأن اللفظ عام والعلة الموجبة لهذا الحكم عامة ، فالتخصيص تحكم محض .

قال المحققون : إذا ثبت أن من افترى على الله الكذب في تحريم مباح استحق هذا الوعيد الشديد ، فمن افترى على الله الكذب في مسائل التوحيد ومعرفة الذات والصفات والنبوات والملائكة ومباحث المعاد كان وعيده أشد وأشق .

قال القاضي : ودل ذلك على أن الإضلال عن الدين مذموم ، لا يليق بالله ، لأنه تعالى إذا ذم

الإضلال الذي ليس فيه إلا تحريم المباح ، فالذي هو أعظم منه أولى بالذم .

وجوابه : أنه ليس كل ما كان مذموماً منا كان مذموماً من الله تعالى ألا ترى أن الجمع بين العبيد والإماء وتسليط الشهوة عليهم وتمكينهم من أسباب الفجور مذموم منا وغير مذموم من الله تعالى فكذا ههنا .

ثم قال : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى القوم الظالمين ﴾ قال القاضي : لا يهديهم إلا ثوابه وإلى زيادات الهدى التي يختص المهتدي بها .

وقال أصحابنا : المراد منه الإخبار بأنه تعالى لا يهدي أولئك المشركين ، أي لا ينقلهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، والكلام في ترجيح أحد القولين على الآخر معلوم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 178 ﴾

*(241/254)*

---

وقال السمرقندى :

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء ﴾ يعني : إذا لم تقدروا على إثبات تحريم ذلك بالعقل فهل لكم كتاب يشهد على تحريم هذا ؟ فذلك قوله : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء ﴾ ﴿ إِذْ وصاكم الله بهذا ﴾ يعني : أمركم الله بهذا التحريم فسكت مالك بن عوف وتحير فقال له النبي صلى الله عليه

وسلم : " مَا لَكَ لاَ تتكلم " فقال : بل تكلم أنت فأسمع قال الله عز وجل : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِبًا ﴾ بغير حجة وبيان ﴿ لِيُضِلَّ الناس بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ يعني : ليصرف الناس عن حكم الله تعالى بالجهل ﴿ إِنَّ الله لاَ يَهْدِى القوم الظالمين ﴾ يعني : لا يرشدهم إلى الحجة ويقال لا يوفقّهم إلى الهدى مجازاةً لكفرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ﴾ الآية استفهام على جهة التوبيخ ، إذ لم يبق لهم الادعاء المحال والتقوّل أنهم شاهدوا وصية الله لهم بهذا ، و ﴿ شهداء ﴾ جمع شهيد ، ثم تضمن قوله تعالى : ﴿ فمن أظلم ﴾ ذكر حال مفتري الكذب على الله وتقرير إفراط ظلمه ، وقال السدي : كان الذي سيبوا وبحروا يقولون : الله أمرنا بهذا ثم بيّن تعالى سوء مقصدهم بالافتراء لأنه لو افترى أحد فرية على الله لغير معنى لكان ظلماً عظيماً فكيف إذا قصد بهما إضلال أمة ، وقد يحتمل أن تكون اللام في ﴿ ليضل ﴾ لام صيرورة ، ثم جزم الحكم لا رب غيره بأنه ﴿ لا يهدي القوم الظالمين ﴾ ، أي لا يرشدهم ، وهذا عموم في الظاهر وقد تبين تخصيصه مما يقتضيه الشرع أن الله يهدي ظلمة كثيرة بالتوبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

قال الزمخشري : فتهكم بهم في قوله : ﴿ أم كنتم شهداء ﴾ على معنى أعرفتم التوصية به مشاهدين لأنكم لا تؤمنون بالرسل ؛ انتهى .

(242/254)

---

وقدم الإبل على البقر لأنها أغلى ثمناً وأغنى نفعاً في الرحلة ، وحمل الأثقال عليها وأصبر على الجوع والعطش وأطوع وأكثر انقياداً في الإناخة والإثارة .

﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم ﴾ أي لا أحد ﴿ أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ فنسب إليه تحريم ما لم يحرمه الله تعالى ، فلم يقتصر على افتراء الكذب في حق نفسه وضلالها حتى قصد بذلك ضلال غيره فسنّ هذه السنة الشنعاء وغايته بها إضلال الناس فعليه وزرها ووزر من عمل بها .

﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ نفى هداية من وجد منه الظلم وكان من فيه الأظلمية أولى بأن لا يهديه وهذا عموم في الظاهر ، وقد تبين تخصيصه من ما يقتضيه الشرع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(243/254)

وقال الآلوسى :

ونقل الإمام عن المفسرين أنهم قالوا : "إن المشركين من أهل الجاهلية كانوا يحرمون بعض الأنعام فاحتج الله سبحانه على إبطال ذلك بأن للضأن والمعز والإبل والبقر ذكراً وأنثى فإن كان قد حرم سبحانه منها الذكر وجب أن يكون كل ذكورها حراماً ، وإن كان حرم جل شأنه الأنثى وجب أن يكون كل إناثها حراماً .

وإن كان حرم الله تعالى شأنه ما اشتملت عليه أرحام الإناث وجب تحريم الأولاد كلها لأن الأرحام تشتمل على الذكور والإناث .

وتعقبه بأنه بعيد جداً لأن لقائل أن يقول : هب أن هذه الأجناس الأربعة محصورة في الذكور والإناث إلا أنه لا يجب أن تكون علة تحريم ما حكموا بتحريمه محصورة في الذكورة والأنوثة بل علة تحريمها كونها بحيرة أو سائبة أو وصيلة أو غير ذلك من الاعتبارات كما إذا قلنا : إنه تعالى حرم ذبح بعض الحيوانات لأجل الأكل فإذا قيل : إن ذلك الحيوان إن كان قد حرم لكونه ذكراً وجب أن يحرم كل حيوان ذكر ، وإن كان قد حرم لكونه أنثى وجب أن يحرم كل حيوان أنثى .

ولما لم يكن هذا الكلام لازماً علينا فكذا هذا الوجه الذي ذكره المفسرون" ، ثم ذكر في الآية وجهين من عنده وفيما ذكرنا غني عن نقلهما .

ومن الناس من زعم أن المراد من الاثنين في الضأن والمعز والبقر الأهلي والوحشي وفي الإبل العربي والبُخْتي وهو مما لا ينبغي أن يلتفت إليه ، وما روي عن ليث بن سليم لا يدل عليه ، وقول الطبرسي : "إنه المروى عن أبي عبد الله رضي الله تعالى عنه" كذب لا أصل له وهو شنشنة أعرفها من أخزم .

وقوله سبحانه : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء ﴾ تكرير للإفحام والتبكيت ، و( أم ) منقطعة ، والمراد بل أكنتم حاضرين مشاهدين ﴿ إِذْ وصاكم الله ﴾ أي أمركم وألزمكم ﴿ بهذا ﴾ التحريم إذ العلم بذلك إما بأن يبعث سبحانه رسولاً يخبركم به وإما بأن تشاهدوا الله تعالى وتسمعوا كلامه جل شأنه فيه .

*(244/254)*

---

والأول مناف لما أنتم عليه لأنكم لا تؤمنون برسول فيتعين المشاهدة والسماع بالنسبة إليكم وذلك محال ففي هذا ما لا يخفى من التهكم بهم .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِبًا ﴾ فنسب إليه سبحانه تحريم ما لم يحرم ، والمراد به على ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عمرو بن لحي بن قمعة الذي بحر البحائر وسيب السوائب وتعمد الكذب على الله تعالى ، وقيل : كبراؤهم المقررون لذلك

، وقيل : الكل لاشتراكهم في الافتراء عليه سبحانه وتعالى ، والمراد فأي فريق أظلم ممن الخ ، واعترض بأن قيد التعمد معتبر في معنى الافتراء .

ومن تابع عمراً من الكبراء يحتمل أنه أخطأ في تقليده فلا يكون متعمداً للكذب فلا ينبغي تفسير الموصول به ، والفاء لترتيب ما بعدها على ما سبق من تبكيتهم وإظهار كذبهم وافترائهم ، ونصب ﴿ كَذِبًا ﴾ قيل على المفعولية ، وقيل : على المصدرية من غير لفظ الفعل ، وجعله حالاً أي كاذباً جوزه بعض كمل المتأخرين وهو بعيد لا خطأ خلافاً لمن زعمه .

﴿ لِيُضِلَّ الناس ﴾ متعلق بالافتراء ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالاً من ضمير ( افترى ) أي افترى عليه سبحانه جاهلاً بصدور التحريم عنه جل شأنه ، وإنما وصف بعدم العلم مع أن المفتري عالم بعدم الصدور إيذاناً بخروجه في الظلم عن الحدود والنهايات فإن من افترى عليه سبحانه بغير علم بصدور ذلك عنه جل جلاله مع احتمال صدوره إذا كان في تلك الغاية من الظلم فما الظن بمن افترى وهو يعلم عدم الصدور .

وجوز كونه حالاً من فاعل ( يضل ( على معنى متلبساً بغير علم بما يؤدي به إليه من العذاب العظيم .

وقيل : معنى الآية عليه أنه عمل عمل القاصد إضلال الناس من أجل دعائهم إلى ما فيه الضلال وإن لم يقصد الإضلال وكان جاهلاً بذلك غير عالم به ، وهو ظاهر في أن اللام

للعاقبة وله وجه .

وجوز أن يكون الجار متعلقاً بمحذوف وقع حالاً من ﴿ الناس ﴾ وما تقدم أظهر وأبلغ في الذم .

(245/254)

---

واستدل القاضي بالآية على أن الإضلال عن الدين مذموم لا يليق بالله تعالى لأنه سبحانه إذا ذم الإضلال الذي ليس فيه إلا تحريم المباح فالذي هو أعظم منه أولى بالذم ، وفيه أنه ليس كل ما كان مذموماً من الخلق كان مذموماً من الخالق .

﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى القوم الظالمين ﴾ إلى طريق الحق ، وقيل : إلى دار الثواب لاستحقاقهم العقاب واختاره الطبرسي ، وإلى نحوه ذهب القاضي بناء على مذهبه وليس بالبعيد على أصولنا أيضاً .

وقيل : إلى ما فيه صلاحهم عاجلاً وآجلاً وهو أتم فائدة وأنسب بحذف المعمول ، ونفي الهداية عن الظالم يستدعي نفيها عن الأظلم من باب أولى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

قال الفخر : "أطبق المفسّرون على أنّ تفسير هذه الآية أنّ المشركين كانوا يحرّمون بعض الأنعام فاحتجّ الله على إبطال قولهم بأنْ ذكَرَ الضأن والمعز والإبل والبقر .

وذكر من كلّ واحد من هذه الأربعة زوجين ذكراً وأنثى ، ثمّ قال : إن كان حُرّم منها الذّكر وجب أن يكون كلّ ذكورها حراماً ، وإن كان حُرم الأنثى وجب أن يكون كلّ إناثها حراماً ، وأنَّه إن كان حرّم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين وجب تحريم الأولاد كلّها" .

حاصل المعنى نفي أن يكون الله حرّم شيئاً ممّا زعموا تحريمه إياه بطريق السبّر والتّقسيم وهو من طريق الجدل .

قلت : هذا ما عزاه الطّبري إلى قتادة ، ومجاهد ، والسدّي ، وهذا لا يستقيم لأنّ السبر غير تامّ إذ لا ينحصر سبب التّحريم في النّوعيّة بل الأكثر أنّ سببه بعض أوصاف الممنوع وأحواله .

5

*(246/254)*

---

وقال البغوي : قالوا : ﴿ هذه أنعَام وحرث حجر ﴾ [ الأنعام : 138 ] وقالوا : ﴿ ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرّم على أزواجنا ﴾ [ الأنعام : 139 ] وحرّموا

البحيرة والسّائبة والوصيلة والحامي ، فلمّا قام الإسلام جَادَلوا النّبيء صلى الله عليه وسلم وكان خطيبهم مالكَ بن عوف الجُشَمي قالوا : يا محمّد بلغَنا أنَّك تحرّم أشياء ممّا كان آباؤنا يفعلونه .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إنَّكم قد حرّمتم أصنافاً من النّعم على غير أصل ، وإنَّما خلق الله هذه الأزواج الثّمانية للأكل والانتفاع بها ، فمِن أين جاء هذا التّحريم أمِن قِبلَ الذّكر أم من قِبَل الأنثى .

فسكت مالك بن عوف وتحيَّر انتهى انتهى . ا هـ ( أي وذلك قبل أن يُسلم مالك بن عوف ) ولم يعزه البغوي إلى قائل وهو قريب ممّا قاله قتادة والسّدي ومجاهد فتبيّن أنّ الحجاج كلّه في تحريم أكل بعض هذه الأنواع من الأنعام ، وفي عدم التّفرقة بين ما حرّموا أكله وما لم يحرّموه مع تماثل النّوع أو الصنف .

والّذي يؤخذ من كلام أئمَّة العربيّة في نظم الاستدلال على المشركين أنّ الاستفهام في قوله : ﴿ ءآلذكرين حرم ﴾ في الموضعين .

استفهام إنكاري ، قال في "الكشاف" الهمزة في ﴿ ءآلذكرين ﴾ للإنكار .

والمعنى : إنكار أن يحرّم الله تعالى من جنسي الغنم شيئاً من نوعي ذكورها وإناثها وما تحمل إناثها وكذلك في جنسي الإبل والبقر ، وبيّنه صاحب "المفتاح" في باب الطلب بقوله : وإن أردتَ به ( أي بالاستفهام ) الإنكا فانسجه على منوال النّفي فَقُل ( في إنكار نفس

الضرب ) أضربت زيداً ، وقل ( في إنكار أن يكون للمخاطب مضروبٌ ) أزيداً ضربت أم عمراً ، فإنَّك إذا أنكرت من يُردّد الضّرب بينهما ( أي بزعمه ) تولّد منه ( أي من الإنكار عليه ) إنكار الضرب على وجه بُرهاني ومنه قوله تعالى : ﴿ ءآلذكرين حرم أم الأنثيين ﴾ .

*(247/254)*

---

قال شارحه القطب الشّيرازي : لاستلزام انتفاء محلّ التّحريم انتفاءَ التّحريم لأنَّه عرض يمتنع وجوده ، أي التّحريم ، دون محلّ يقوم به فإذا انتفى ( أي محلّه ) انتفى هو أي التّحريم ا ه .

أقول وجه الاستدلال : أنّ الله لو حرّم أكل بعض الذّكور من أحد النّوعين لحرّم البعضَ الآخر ، ولو حرّم أكل بعض الإناث لحرّم البعض الآخر .

لأنّ شأن أحكام الله أن تكون مطّردة في الأشياء المتّحدة بالنّوع والصّفة ، ولو حَرّم بعض ما في بطون الأنعام على النّساء لحرّم ذلك على الرّجال ، وإذْ لم يحرّم بعضها على بعض مَع تماثل الأنواع والأحوال .

أنتجَ أنَّه لم يحرّم البعض المزعوم تحريمُه ، لأنّ أحكام الله منوطة بالحكمة ، فدلّ على أنّ ما حرّموه إنَّما حرّموه من تلقاء أنفسهم تحكّماً واعتباطاً ، وكان تحريمهم ما حرّموه افتراءً على

الله .

ونهضت الحجّة عليهم ، الملجئةُ لهم ، كما أشار إليه كلام النّبيء صلى الله عليه وسلم لمالك بن عوف الجُشمي المذكورُ آنفاً ، ولذلك سَجّل عليهم بقوله : ﴿ نبئوني بعلم إن كنتم صادقين ﴾ فقوله : ﴿ ءآلذكرين حرم ﴾ أي لو حرّم الله ءآلذكرين لسوّى في تحريمهما بين الرّجال والنّساء .

وكذلك القول في الأنثيين ، والاستفهام في قوله : ﴿ ءآلذكرين حرم ﴾ في الموضعين مُستعمل في التّقرير والإنكار بقرينة قوله قبله : ﴿ سيجزيهم وصفهم إنَّه حكيم عليم ﴾ [ الأنعام : 139 ] .

وقوله : ﴿ ولا تتَّبعوا خطوات الشّيطان ﴾ [ البقرة : 168 ] .

ومعلوم أنّ استعمال الاستفهام في غير معنى طلب الفهم هو إما مجاز أو كناية .

ولذلك تعيَّن أن تكون ﴿ أم ﴾ منقطعة بمعنى ( بل ) ومعناها الإضراب الانتقالي تعديداً لهم ويُقَدّر بعدها استفهام .

فالمفرد بعد ﴿ أم ﴾ مفعول لفعل محذوف ، والتّقدير : أم أحرّم الأنثيين .

وكذلك التّقدير في قوله : ﴿ أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ﴾ وكذلك التّقدير في نظيره .

وقوله : ﴿ من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ﴾ مع قوله : ﴿ ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين ﴾ من مسلك السبر والتقسيم المذكور في مسالك العلة من علم أصول الفقه .

وجملة : ﴿ نبئوني بعلم إن كنتم صادقين ﴾ بدل اشتمال من جملة ؛ ﴿ ءآلذكرين حرم أم الأنثيين ﴾ لأنّ إنكار أن يكون الله حرّم شيئاً من ذكور وإناث ذينك الصنفين يقتضي تكذيبهم في زعمهم أنّ الله حرّم ما ذكروه فيلزم منه طلبُ الدّليل على دعواهم .

فموقع جملة ﴿ ءآلذكرين ﴾ بمنزلة الاستفسار في علم آداب البحث .

وموقع جملة : ﴿ نبئوني بعلم إم كنتم صادقين ﴾ بمنزلة المنع .

وهذا تهكّم لأَنَّه لا يَطلب تلقّي علم منهم .

وهذا التَّهكّم تابع لصورة الاستفهام وفرعٌ عنها .

وهو هنا تجريد للمجاز أو للمعنى الملزوم المنتقل منه في الكناية .

وتثنية ءآلذكرين والأنثيين : باعتبار ذكور وإناث النّوعين .

وتعدية فعل : ﴿ حَرّم ﴾ إلى ﴿ الذّكرين ﴾ و ﴿ الأنثيين ﴾ وما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، على تقدير مضاف معلوم من السّياق ، أي : حرّم أكل ءآلذكرين أم الأنثيين إلى آخره .

والتّعريف في قوله : ﴿ ءآلذكرين ﴾ وقوله : ﴿ أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ﴾

تعريف الجنس كما في "الكشاف" .

والباء في ﴿ بعلم ﴾ : يحتمل أن تكون لتعدية فعل الإنباء ، فالعلم بمعنى المعلوم .

ويحتمل أن تكون للملابسة ، أي نبّئوني إنباء ملابساً للعلم ، فالعلم ما قابل الجهل أي إنباء عالم .

ولَمَّا كانوا عاجزين عن الإنباء دلّ ذلك على أَنَّهم حرّموا ما حرّموه بجهالة وسوء عقل لا بعلم ، وشأن من يتصدّى للتحريم والتّحليل أن يكون ذا علم .

وقوله : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أي في قولكم : إنّ الله حرّم ما ذكرتم أَنَّه محرّم ، لأَنَّهم لو كانوا صادقين في تحريم ذلك لاستطاعوا بيان ما حرّمه الله ، ولأبدوا حكمة تحريم ما حرّموه ونسبوا تحريمه إلى الله تعالى .

*(249/254)*

---

وقوله : ﴿ ومن الإبل اثنين ﴾ إلى قوله ﴿ أرحام الأنثيين ﴾ عطف على : ﴿ ومن المعز اثنين ﴾ لأَنَّه من تمام تفصيل عدد ثمانية أزواج ، والقول فيه كالقول في سابقه ، والمقصود إبطال تحريم البحيرة والسّائبة والحامي وما في بطون البحائر والسّوائب .

و ﴿ أم ﴾ في قوله : ﴿ أم كنتم شهداء ﴾ منقطعة للإضراب الانتقالي .

فتؤذن باستفهام مقدّر بعدها حيثما وقعت .

وهو إنكاري تقريري أيضاً بقرينة السّياق .

والشّهداء : الحاضرون جمعُ شَهيد وهو الحاضر ، أي شُهداء حين وصّاكم الله ، ف ﴿ إذْ ﴾ ظرف ل ﴿ شهداء ﴾ مضاف إلى جملة : ﴿ وصاكم ﴾ .

والإيصاء : الأمر بشيء يُفعل في غيبة الآمر فيؤكَّد على المأمور بفعله لأنّ شأن الغائب التّأكيد .

وأطلق الإيصاء على ما أمر الله به لأنّ النّاس لم يشاهدوا الله حين فعلهم ما يأمرهم به ، فكانَ أمر الله مؤكَّداً فعبّر عنه بالإيصاء تنبيهاً لهم على الاحتراز من التّفويت في أوامر الله ، ولذلك أطلق على أمر الله الإيصاءُ في مواضع كثيرة من القرآن ، كقوله : ﴿ يوصيكم الله في أولادكم ﴾ [ النساء : 11 ] .

والإشارة في قوله : ﴿ بهذا ﴾ إلى التحريم المأخوذ من قوله : ﴿ حرم ﴾ وذلك لأنّ في إنكار مجموع التّحريم تضمُّنا لإبطال تحريم معيَّن ادّعوه .

وهم يعرفونه .

فلذلك صحّت الإشارة إلى التّحريم على الإجمال ، وخصّ بالإنكار حالة المشاهدة ، تهكّماً بهم ، لأنَّهم كانوا يكذّبون الرّسول صلى الله عليه وسلم فحالهم حَال من يضع نفسه موضع من يحضر حضرة الله تعالى لسماع أوامره .

أو لأنّ ذلك لمّا لم يكن من شرع إبراهيم ولا إسماعيل عليهم السّلام ، ولم يأت به رسول من الله ، ولم يدّعوه ، فلم يبق إلاّ أنّ يدّعوا أنّ الله خاطبهم به مباشرة .

*(250/254)*

---

وقوله : ﴿ فمن أظلم ممن أفترى على الله كذباً ﴾ مترتّب على الإنكار في قوله : ﴿ ءآلذكرين حرم أم الأنثيين ﴾ إلى قوله ﴿ إذ وصاكم الله بهذا ﴾ ، أي فيترتّب على ذلك الإبطال والإنكار أن يتوجّه سؤال من المتكلّم مشوبٌ بإنكار .

عمّن اتّصف بزيادة ظلم الظّالمين الّذين كذبوا على الله ليضلّوا النّاس ، أي : لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً ، فإذا ثبت أنّ هؤلاء المخاطبين قد افتروا على الله كذباً ، ثبت أنَّهم من الفريق الّذي هو أظلم الظالمين .

والمشركون إمّا أن يكونوا ممّن وضع الشّرك وهم كبراء المشركين : مثل عَمرو بن لُحي ، واضعِ عبادة الأصنام ، وأولِ من جعل البحيرة والسّائبة والوصيلة والحامي ، ومن جاء بعده من طواغيت أهل الشّرك الّذين سنّوا لهم جعل شيء من أموالهم لبيوت الأصنام وسدنتها ، فهؤلاء مُفترون ، وإمَّا أن يكونوا ممّن اتَّبع أولئك بعزم وتصلّب وشاركوهم فهم اتَّبعوا أناساً ليسوا بأهل لأنّ يُبلِّغوا عن الله تعالى ، وكان حقّهم أن يتوخَّوا من يتَّبعون ومن

يظنّون أنَّه مبلّغ عن الله وهم الرّسل ، فمن ضلالهم أنَّهم لمّا جاءهم الرّسول الحقّ عليه الصلاة والسلام كذّبوه ، وقد صدّقوا الكَذَبَة وأيّدوهم ونصروهم .

ويستفاد من الآية أنّ من الظلم أن يُقدِم أحد على الإفتاء في الدّين ما لم يكن قد غلب على ظنّه أنَّه يفتي بالصّواب الّذي يُرضي الله ، وذلك إنْ كان مجتهداً فبالاستناد إلى الدّليل الّذي يغلب على ظنّه مصادفته لمراد الله تعالى ، وإن كان مقلّداً فبالاستناد إلى ما يغلب على ظنّه أنَّه مذهب إمامه الّذي قلّده .

وقوله : ﴿ بغير علم ﴾ تقدّم القول في نظيره آنفاً .

*(251/254)*

---

وقوله : ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ يجوز أن يكون تعليلاً لكونهم من أظلم النّاس ، لأنّ معنى الزّيادة في الظلم لا يتحقّق إلاّ إذا كان ظلمهم لا إقلاع عنه ، لأنّ الضّلال يزداد رسوخاً في النّفس بتكرّر أحواله ومظاهره ، لأنَّهم لمّا تعمّدوا الإضلال أو اتَّبعوا متعمّديه عن تصلّب ، فهم بمعزل عن تطلب الهدى وإعادة النّظر في حال أنفسهم ، وذلك يغريهم بالازدياد والتملّي من تلك الأحوال ، حتّى تصير فيهم ملكة وسجيّة ، فيتعذّر إقلاعهم عنها ، فعلى هذا تكون ﴿ إنّ ﴾ مفيدة معنى التّعليل .

ويجوز أن تكون الجملة تهديداً ووعيداً لهم ، إن لم يقلعوا عمّا هم فيه ، بأنّ الله يحرمهم التّوفيق ويذرهم في غيّهم وعمههم ، فالله هَدى كثيراً من المشركين هم الّذين لم يكونوا بهذه المثابة في الشّرك ، أي لم يكونوا قادة ولا متصلّبين في شركهم ، والّذين كانوا بهذه المثابة هم الّذين حرمهم الله الهدى ، مثل صناديد قريش أصحاب القليب يوم بدر ، فأمّا الّذين اتَّبعوا الإسلام بالقتال مثل معظم أهل مكّة يوم الفتح ، وكذلك هوازن ومَن بعدها ، فهؤلاء أسلموا مذعنين ثمّ علموا أنّ آلهتهم لم تغن عنهم شيئاً فحصل لهم الهدى بعد ذلك ، وكانوا من خيرة المسلمين ونصروا الله حقّ نصره .

فالمراد من نفي الهدى عنهم : إمَّا نفيه عن فريق من المشركين ، وهم الّذين ماتُوا على الشّرك ، وإمَّا نفي الهدى المحض الدالّ على صفاء النّفس ونور القلب ، دون الهدى الحاصل بعد الدّخول في الإسلام ، فذلك هدى في الدرجة الثّانية كما قال تعالى : ﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتَل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى ﴾ [ الحديد : 10 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

*(252/254)*

ومن فوائد الخازن فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين ﴾

وهذه أربعة أزواج أخر بقية الثمانية ﴿ قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ﴾ وتفسير هذه الآية نحو ما تقدم وفي هاتين الآيتين تقريع وتوبيخ من الله تعالى لأهل الجاهلية بتحريمهم ما لم يحرمه الله وذلك أنهم كانوا يقولون : هذه أنعام وحرث حجر . وقالوا : ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وحرموا البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي وكانوا يحرمون بعضها على الرجال والنساء وبعضها على النساء دون الرجال كما أخبر الله عنهم في كتابه فلما جاء الإسلام وثبتت الأحكام جادلوا النبي صلى الله عليه وسلم وكان خطيبهم مالك بن عوف الجشمي فقال : يا محمد بلغنا إنك تحرم أشياء مما كان أباؤنا يفعلونه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد حرمتم أصنافاً من النعم على غير أصل وإنما خلق الله هذه الأزواج الثمانية للأكل والانتفاع فمن أين جاء هذا التحريم من قبل الذكر أم من قبل الأنثى ؟ فسكت مالك بن عوف وتحير ولم يتكلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم " يا مالك ألا تتكلم " ؟ فقال : بل أنت تتكلم وأسمع منك ، قال المفسرون : فلو قال جاء التحريم من قبل الذكر بسبب الذكورة وجب أن يحرم جميع الذكور ولو قال بسبب الأنوثة وجب أن يحرم جميع الإناث وإن كان باشتمال الرحم عليه

فينبغي أن يرحم الكل لأن الرحم لا يشتمل إلا على ذكر أو أنثى .

وأما تخصيص التحريم بالولد الخامس أو السابع بالبعض دون البعض فمن أين ذلك التحريم ؟ فاحتج الله على بطلان دعواهم بهاتين الآيتين وأعلم نبيه صلى الله عليه وسلم أن كل ما قالوه من ذلك وأضافوه إلى الله فهو كذب على الله وأنه لم يحرم شيئاً من ذلك وأنهم اتبعوا في ذلك أهواءهم وخالفوا أمر ربهم .

*(253/254)*

---

وذكر الإمام فخر الدين في معنى الآية وجهين آخرين ونسبهما إلى نفسه ، فقال : إن هذا الكلام ما ورد على سبيل الاستدلال على بطلان قولهم بل هو استفهام على سبيل الإنكار يعني إنكم لا تقرون بنبوة نبي ولا تعترفون بشريعة شارع فكيف تحكمون بأن هذا يحل وهذا يحرم .

والوجه الثاني : إنكم حكمتم بالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي مخصوصاً بالإبل فالله تعالى بيّن أن النعم عبارة عن هذه الأنواع الأربعة وهي : الضأن والمعز والبقر والإبل فلم لم تحكموا بهذه الأحكام في هذه الأنواع الثلاثة وهي الضأن والمعز والبقر فكيف خصصتم الإبل بهذا الحكم دون هذه الأنواع الثلاثة .

قوله تعالى : ﴿ أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ﴾ يقول الله لنبيه صلى الله عليه وسلم قل لهؤلاء الجهلة من المشركين الذين يزعمون أنا لله حرم عليهم ما حرموا على أنفسهم من الأنعام والحرث هل شاهدتم الله حرم هذا عليكم ووصاكم به فإنكم لا تقرون بنبوة أحد من الأنبياء فكيف تثبتون هذه الأحكام وتنسبونها إلى الله عز وجل .

*(254/254)*

---

ولما احتج الله عليهم بهذه الحجة وبين أنه لا مستند لهم في ذلك قال تعالى : ﴿ فمن أظلم ممن أفترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم ﴾ يعني فمن أشد ظلماً وأبعد عن الحق ممن يكذب على الله ويضيف تحريم ما لم يحرمه الله إلى الله ليضل الناس بذلك ويصدهم عن سبيل الله جهلاً منه إذ ليس هو على بصيرة وعلم في ذلك الذي ابتدعه ونسبه إلى الله ويقول إن الله أمرنا بهذا ، قيل : أراد به عمرو بن لحي لأنه أول من بحر البحائر وسيب السوائب وغير دين إبراهيم عليه السلام ويدخل في هذا الوعيد كل من كان على طريقته أو ابتدع شيئاً لم يأمر الله به ولا رسوله ونسب ذلك إلى الله تعالى لأن اللفظ عام فلا وجه للتخصيص فكل من أدخل في دين الله ما ليس فيه فهو داخل في هذا الوعيد ﴿ إن الله لا يهدي القوم

الظالمين ﴾ يعني أن الله لا يرشده ولا يوفق من كذب على الله وأضاف إليه ما لم يشرعه لعباده. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

(255/254)

---

ومن فوائد أبى السعود فى الآية

قال عليه الرحمة :

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الإبل اثنين ﴾

عطفٌ على قوله تعالى : ﴿ مّنَ الضأن اثنين ﴾ أي وأنشأ من الإبل اثنين هما الجمل والناقة ﴿ وَمِنَ البقر اثنين ﴾ ذكر وأنثى ﴿ قُلْ ﴾ إفحاماً لهم في أمر هذين النوعين أيضاً ﴿ ءآلذَّكَرَيْنِ ﴾ منهما ﴿ حَرَّمَ أَمِ الانثيين أَمَّا اشتملت عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأنثيين ﴾ من ذينك النوعين ، والمعنى إنكارُ أن الله سبحانه حرَّم عليهم شيئاً من الأنواع الأربعةِ وإظهارُ كذبِهم في ذلك وتفصيلُ ما ذكر من الذكور والإناثِ وما في بطونها للمبالغة في الرد عليهم بإيراد الإنكارِ على كل مادةٍ من موادّ افترائِهم فإنهم كانوا يحرِّمون ذكورَ الأنعامِ تارةً وإناثَها تارة وأولادَها كيفما كانت تارة أخرى مسندين ذلك كلَّه إلى الله سبحانه ، وإنما عُقّب تفصيلُ كلِّ واحدٍ من نوعي الصغارِ ونوعي الكبارِ بما ذكر من الأمر بالاستفهام والإنكارِ مع حصول

التبكيتِ بإيراد الأرمِ عقيبَ تفصيلِ الأنواعِ الأربعةِ بأن يقال : قل آلذكورَ حرّم أم الإناثَ أم ما اشتملت عليه أرحامُ الإناث لما في التثنية والتكريرِ من المبالغة في التبكيت والإلزام وقوله تعالى : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء ﴾ تكريرٌ للإفحام كقوله تعالى : ﴿ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ ﴾ وأمْ منقطعة ، ومعنى الهمزةِ الإنكارُ والتوبيخُ ومعنى بل الإضراب عن التوبيخ بما ذكر إلى التوبيخ بوجه آخرَ أي بل أكنتم حاضرين مشاهدين ﴿ إِذْ وصاكم الله بهذا ﴾ أي حين وصّاكم بهذا التحريمِ إذ أنتم لا تؤمنون بنبيَ فلا طريقَ لكم حسبما يقود إليه مذهبُكم إلى معرفة أمثالِ ذلك إلا المشاهدةُ والسماعُ ، وفيه من تركيك عقولِهم والتهكمِ بهم ما لا يخفى ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِبًا ﴾ فنسبَ إليه تحريمَ ما لم يحرّم ، والمراد كُبراؤهم المقرّرون لذلك ، أو عمْرُو بنُ لُحيّ بنِ قُمعةَ وهو المؤسسُ لهذا الشرّ ، أو الكلُّ لاشتراكهم في الافتراء عليه سبحانه وتعالى أي فأيُّ فريقٍ أظلمُ من فريقٍ افتروا الخ ،

(256/254)

---

ولا يقدح في أظلمية الكلِّ كونُ بعضِهم مخترعين له وبعضِهم مقتدين بهم ، والفاءُ لترتيب ما بعدها على ما سبق من تبكيتهم وإظهارِ كذِبهم وافترائِهم أي هو أظلم من كل ظالمٍ وإن كان المنفيُّ صريحاً في الأظلمية دون المساواةِ كما مر غيرَ مرة ﴿ لِيُضِلَّ الناس ﴾ متعلق

بالافتراء ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ متعلقٌ بمحذوف وقع حالاً من فاعل افترى ، أي افترى عليه تعالى جاهلاً بصدور التحريمِ عنه تعالى ، وإنما وُصفوا بعدم العلمِ بذلك مع أنهم علمون بعدم صدورِه عنه تعالى إيذاناً بخروجهم في الظلم عن الحدود والنهاياتِ فإن من افترى عليه تعالى بغير علم بصدوره عنه تعالى مع احتمال الصدورِ عنه إذا كان أظلمَ كان أظلمَ من كل ظالمٍ فما ظنُّك بمن افترى عليه تعالى وهو يعلم أنه لم يصدُرْ عنه ويجوز أن يكون حالاً من فاعل يُضِلّ أي ملتبساً بغير علم بما يؤدي بهم إليه ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى القوم الظالمين ﴾ كائناً من كان إلى ما فيه صلاحُ حالهم عاجلاً أو آجلاً وإذا كان هذا حالُ المتصفين بالظلم في الجملة فما ظنُّك بمن هو في أقصى غاياتِه ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

*(257/254)*

---

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآيتين

قال رحمه الله :

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (143) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ

قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (144) ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ "ثمانِيةَ" منصوب بفعل مضمر ، أي وأنشأ "ثمانية أزواج" ؛ عن الكسائي .

وقال الأخفش سعيد : هو منصوب على البدل من "حَمُولَةً وَفَرْشاً" .

وقال الأخفش عليّ بن سليمان : يكون منصوباً ب"كُلُوا" ؛ أي كلوا لَحم ثمانية أزواج .

ويجوز أن يكون منصوباً على البدل من "ما" على الموضع .

ويجوز أن يكون منصوباً بمعنى كلوا المباح "ثمانية أزواج من الضأن اثنين" .

ونزلت الآية في مالك بن عوف وأصحابه حيث قالوا : "مَا فِي بطون هذهِ الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا" فنبّه الله عز وجل نبيّه والمؤمنين بهذه الآية على ما أحلّه لهم ؛ لئلا يكونوا بمنزلة من حرّم ما أحله الله تعالى .

والزوج خلاف الفَرْد ؛ يقال : زَوْج أو فَرْد .

كما يقال : خَساً أو زَكاً ، شفع أو وتر .

فقوله : "ثمانية أزواج" يعني ثمانية أفراد .

وكل فَرْد عند العرب يحتاج إلى آخر يُسَمَّى زوجاً ، فيقال للذكر زوج وللأنثى زوج .

ويقع لفظ الزوج للواحد وللاثنين ؛ يقال هما زوجان ، وهما زوج ، كما يقال : هما سيّان وهما سواء .

وتقول : اشتريت زَوْجي حمام .

(258/254)

---

وأنت تعني ذكراً وأنثى .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ مِّنَ الضأن اثنين ﴾ أي الذكر والأنثى .

والضأن : ذوات الصوف من الغنم ، وهي جمع ضائن .

والأنثى ضائنة ، والجمع ضوائن .

وقيل : هو جمعٌ لا واحد له .

وقيل في جمعه : ضئين ؛ كعَبْد وعَبِيد .

ويقال فيه : ضِئين .

كما يقال في شَعير : شِعير ، كسرت الضاد اتباعا .

وقرأ طلحة ابن مُصَرِّف "من الضَّأَنِ اثنين" بفتح الهمزة ، وهي لغة مَسموعة عند

البصريين .

وهو مطّرد عند الكوفيين في كل ما ثانيه حرفُ حلق .

وكذلك الفتح والإسكان في المعز .

وقرأ أَبَان بن عثمان "مِن الضَّأْن اثنان ومِن المعز اثنان" رفعاً بالابتداء .

وفي حرف أُبَيّ .

"وَمِنَ الْمعز اثنان" وهي قراءة الأكثر .

وقرأ ابن عامر وأبو عمرو بالفتح .

قال النحاس : الأكثر في كلام العرب المعْز والضّأْن بالإسكان .

ويدل على هذا قولهم في الجمع : معيز ؛ فهذا جمع معْز .

كما يقال : عبد وعبيد .

قال امرؤ القيس :

وَيَمْنَحُها بنو شَمَجَى بن جَرْم . . .

مَعِيزَهُم حَنانَكَ ذا الحَنانِ

ومثله ضأن وضئين .

والمعز من الغنم خلاف الضأن ، وهي ذوات الأشعار والأذناب القصار ، وهو اسم جنس ، وكذلك المَعَز والمِعيزُ والأُمعُوز والمِعزى .

وواحد المَعْز ماعز ؛ مثل صاحب وصَحْب وتاجر وتَجْر .

والأنثى ماعزة وهي العَنز ، والجمع مواعز .

وأمعز القومُ كثرت معزاهم .

والمعّاز صاحب المعزى .

قال أبو محمد الفَقْعَسِيّ يصف إبلاً بكثرة اللبن ويفضلها على الغنم في شدة الزمان :

يَكِلْنَ كَيْلاً ليس بالْمَمحُوقِ . . .

إذْ رَضِيَ المعَّاز باللعُوقِ

والمَعَز الصلابة من الأرض .

والأَمْعَز : المكان الصُّلب الكثير الحصى ؛ والمعْزَاء أيضاً .

واستمعز الرجل في أمره : جَدّ .

﴿ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ ﴾ منصوب ب "حرّم" .

﴿ أَمِ الأنثيين ﴾ عطف عليه .

وكذا ﴿ أَمَّا اشتملت ﴾ .

وزيدت مع ألف الوصل مَدّة للفرق بين الاستفهام والخبر .

ويجوز حذف الهمزة لأن "أم" تدل على الاستفهام .

كما قال :

---

تَرُوحُ من الحَيِّ أم تَبْتَكِرْ . . .

الثالثة : قال العلماء : الآية احتجاج على المشركين في أمر البَحيرة وما ذُكر معها .

وقولهم : "مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا" .

فدلّت على إثبات المناظرة في العلم ؛ لأن الله تعالى أمر نبيّه عليه السلام بأن يناظرهم ، ويبيّن لهم فساد قولهم .

وفيها إثبات القول بالنظر والقياس .

وفيها دليل بأن القياس إذا ورد عليه النص بطل القول به .

ويروى : "إذا ورد عليه النقض" ؛ لأن الله تعالى أمرهم بالمقايسة الصحيحة ، وأمرهم بطرد علتهم .

والمعنى : قل لهم إن كان حرّم الذكور فكل ذكر حرام .

وإن كان حرم الإناث فكل أنثى حرام .

وإن كان حرّم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، يعني من الضأن والمعز ، فكل مولود حرام ، ذكراً كان أو أنثى .

وكلها مولود فكلها إذاً حرام لوجود العلة فيها ، فبيّن انتقاض علّتهم وفساد قولهم ؛ فأعلم الله سبحانه أن ما فعلوه من ذلك افتراء عليه ﴿ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ ﴾ أي بعلم إن كان عندكم ، مِن أين هذا التحريم الذي افتعلتموه ؟ ولا علم عندهم ؛ لأنهم لا يقرءون الكتب .

والقول في : ﴿ وَمِنَ الإبل اثنين ﴾ وما بعده كما سبق ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ ﴾ أي هل شاهدتم الله قد حرّم هذا .

ولمّا لزمتهم الحجة أخذوا في الافتراء فقالوا : كذا أمر الله .

فقال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً لِيُضِلَّ الناس بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ بيّن أنهم كذبوا ؛ إذ قالوا ما لم يقم عليه دليل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

(260/254)

---

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ ﴾

هَذِهِ الْآيَاتُ إِلَى تَمَامِ الْعَشْرِ بَعْدَهَا فِي تَتِمَّةِ سِيَاقِ مَسْأَلَةِ تَحْرِيمِ الْمُشْرِكِينَ مَا لَمْ يُحَرِّمِ اللهُ تَعَالَى مِنَ الْأَنْعَامِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَغْذِيَةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ ، وَقَدْ قُلْنَا : إِنَّهُ ذُكِرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ

الْمُنَزَّلَةِ فِي أُصُولِ الدِّينِ وَمَا يُقَابِلُهَا مِنْ أُصُولِ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ هَذِهِ الْأُصُولِ لَا لِمُجَرَّدِ كَوْنِهِ مِنْ جِهَاتِهِمْ وَضَلَالَاتِهِمُ الْعَمَلِيَّةِ ، ذَلِكَ أَصْلُ الدِّينِ الْأَعْظَمُ تَوْحِيدُ اللَّهِ تَعَالَى بِاعْتِقَادِ الْأُلُوهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ لَهُ وَإِفْرَادُهُ بِالْعِبَادَةِ ، وَحَقِّ التَّشْرِيعِ بِأَنْ نُؤْمِنَ بِأَنَّهُ لَا رَبَّ وَلَا خَالِقَ غَيْرُهُ وَلَا إِلَهَ يُعْبَدُ مَعَهُ أَوْ مِنْ دُونِهِ ، وَلَا شَارِعَ سِوَاهُ لِعِبَادَةٍ وَلَا حَلَالٍ وَلَا حَرَامٍ ، وَفِي هَذِهِ الْعَقِيدَةِ مُنْتَهَى تَكْرِيمِ الْإِنْسَانِ . فَتَأَمَّلْ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ .

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ) الْإِنْشَاءُ إِيجَادُ الْأَحْيَاءِ وَتَرْبِيَتُهَا ، وَكَذَا كُلُّ مَا يَكْمُلُ بِالتَّدْرِيجِ كَإِنْشَاءِ السَّحَابِ وَكُتُبِ الْعِلْمِ وَالشِّعْرِ وَالدُّوَرِ وَالْجَنَّاتِ الْبَسَاتِينَ وَالْكُرُومِ الْمُلْتَفَّةِ الْأَشْجَارِ بِحَيْثُ تَجُنُّ الْأَرْضَ وَتَسْتُرُهَا . وَالْمَعْرُوشَاتُ الْمَسْمُوكَاتُ عَلَى الْعَرَائِشِ وَهِيَ مَا يُرْفَعُ مِنَ الدَّعَائِمِ وَيُجْعَلُ عَلَيْهَا مِثْلُ السُّقُوفِ مِنَ الْعِيدَانِ وَالْقَصَبِ . وَمَادَّةُ عَرَشَ تَدُلُّ عَلَى الرَّفْعِ وَمِنْهَا

(261/254)

---

عَرْشُ الْمَلِكِ . وَالْمَعْرُوشَاتُ مَعْرُوفَةٌ عِنْدَ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ ، يُقَالُ : عَرَّشَ دَوَالِيَ الْعِنَبِ عَرْشًا وَعُرُوشًا وَعَرَّشَهَا تَعْرِيشًا إِذَا رَفَعَهَا عَلَى الْعَرِيشِ . وَيُقَالُ : عَرَّشَتِ الدَّوَالِي تُعَرِّشُ (بِكَسْرِ الرَّاءِ) إِذَا ارْتَفَعَتْ بِنَفْسِهَا . وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّ الْمَعْرُوشَاتِ مَا يُعَرِّشُ مِنَ الْكَرْمِ

وَغَيْرِهِ ، وَغَيْرَ الْمَعْرُوشَاتِ مَا لَا يُعَرَّشُ مِنْهَا ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ أَنَّ الْأَوَّلَ : مَا عَرَّشَ النَّاسُ أَيْ فِي الْأَرْيَافِ وَالْعُمْرَانِ . وَالثَّانِي مَا خَرَجَ فِي الْجِبَالِ وَالْبَرِّيَّةِ مِنَ الثَّمَرَاتِ . وَالْمَعْهُودُ أَنَّ الْكَرْمَ مِنْهُ مَا يُعَرَّشُ وَمِنْهُ مَا يُتْرَكُ مُنْبَسِطًا عَلَى الْأَرْضِ ، وَكُلُّهُ مِنْ جِنْسِ الْمَعْرُوشَاتِ الَّتِي أَوْدَعَ اللَّهُ فِيهَا خَاصِّيَّةَ التَّسَلُّقِ وَالِاسْتِمْسَاكِ بِمَا تَتَسَلَّقُ عَلَيْهِ مِنْ عَرِيشٍ مَصْنُوعٍ أَوْ شَجَرٍ أَوْ جِدَارٍ وَنَحْوِهِ ، فَالْمُتَبَادِرُ مِنْ صِيغَةِ الْجَمْعِ فِي الْقِسْمَيْنِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْأَوَّلِ أَنْوَاعُ الْمَعْرُوشَاتِ بِالْقُوَّةِ كَالْكَرْمِ وَإِنْ لَمْ يُوجَدْ مَا تُعَرَّشُ عَلَيْهِ بِالْفِعْلِ ، وَبِالثَّانِي غَيْرُ الْمَعْرُوشَاتِ مِنْ سَائِرِ أَنْوَاعِ الشَّجَرِ الَّذِي يَسْتَوِي عَلَى سُوقِهِ وَلَا يَتَسَلَّقُ عَلَى غَيْرِهِ ، وَخَصَّهُمَا بَعْضُهُمْ بِالْكَرْمِ . وَعَلَى هَذَا يَكُونُ عَطْفُ النَّخْلِ عَلَيْهِ وَقَرْنُهُ بِهِ لِأَنَّهُ قَسِيمُهُ فِي كَوْنِ ثَمَرِهِمَا مِنْ أُصُولِ الْأَقْوَاتِ وَقَرِينَهُ فِيمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالشَّبَهِ . وَأَمَّا عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ النَّخْلَ مِنْ قِسْمِ الْجَنَّاتِ غَيْرِ الْمَعْرُوشَاتِ فَيَكُونُ ذِكْرُهُ

(262/254)

---

تَخْصِيصًا لَهُ مِنْ إِفْرَادِ الْعَامِّ لِمَا فِيهِ مِنَ الْمَنَافِعِ الْكَثِيرَةِ وَلَا سِيَّمَا لِلْعَرَبِ ، فَإِنَّ بُسْرَهُ وَرُطَبَهُ فَاكِهَةٌ وَغِذَاءٌ وَتَمْرَهُ مِنْ أَفْضَلِ الْأَقْوَاتِ الَّتِي تُدَّخَرُ ، وَأَيْسَرُهَا تَنَاوُلًا فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ ، لَيْسَ فِيهِ مُؤْنَةٌ وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى طَبْخٍ وَلَا مُعَالَجَةٍ ، وَنَوَاهُ عَلَفٌ لِلرَّوَاحِلِ ، وَلَهُمْ مِنْهُ شَرَابٌ

حَلَالٌ لَذِيذٌ إِذَا نُبِذَ فِي الْمَاءِ زَمَنًا قَلِيلًا - وَهُوَ النَّبِيذُ أَيِ النَّقُوعِ - وَكَانَ أَكْثَرُ خَمْرِهِمْ مِنْهُ وَمَنْ بُسْرِهِ (وَلَا مِنَّةَ فِي الرِّجْسِ) دَعْ مَا فِي جَرِيدِ النَّخْلِ وَلِيفِهِ مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْفَوَائِدِ ، فَهُوَ بِمَجْمُوعِ هَذِهِ

الْمَزَايَا يُفَضَّلُ الْكَرْمُ الَّذِي هُوَ أَقْرَبُ الشَّجَرِ مِنْهُ وَأَشْبَهُهُ بِهِ شَكْلًا وَلَوْنًا فِي عِنَبِهِ وَزَبِيبِهِ وَمَنَافِعِهِ تَفَكُّهًا وَتَغَذِّيًا وَتَحَلِّيًا وَشُرْبًا :

(263/254)

---

ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهِ الزَّرْعَ وَهُوَ النَّبَاتُ الَّذِي يَكُونُ بِحَرْثِ النَّاسِ ، وَهُوَ عَامٌّ لِكُلِّ مَا يُزْرَعُ عَلَى الْقَوْلِ بِالْعُمُومِ فِيمَا قَبْلَهُ . وَأَمَّا عَلَى الْقَوْلِ بِتَخْصِيصِ الْجَنَّاتِ بِالْكَرْمِ فَيَنْبَغِي أَنْ يُخَصَّ بِمَا يَأْتِي مِنْهُ الْقُوتُ كَالْقَمْحِ وَالشَّعِيرِ ، وَيَكُونُ تَرْتِيبُ الْمَعْطُوفَاتِ عَلَى طَرِيقَةِ التَّرَقِّي مِنَ الْأَدْنَى فِي التَّغْذِيَةِ وَاقْتِيَاتِ النَّاسِ إِلَى الْأَعْلَى وَالْأَعَمِّ ، فَإِنَّ الْحُبُوبَ هِيَ الَّتِي عَلَيْهَا مُعَوَّلُ أَكْثَرِ الْبَشَرِ فِي أَقْوَاتِهِمْ ، وَهَذَا عَكْسُ التَّرْتِيبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا

(264/254)

قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ) (99) فَتَرْتِيبُ الْأَقْوَاتِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى طَرِيقِ التَّدَلِّي مِنَ الْأَعْلَى فِي الِاقْتِيَاتِ إِلَى الْأَدْنَى فَالْأَدْنَى ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ هَذِهِ جَاءَتْ فِي مَقَامِ سَرْدِ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ ، وَقَبْلَهَا آيَاتٌ فِي آيَاتِهِ فِي الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَفِي خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَهُوَ دُونَهُ ، وَعَالَمُ النَّبَاتِ أَدْنَى مِنْهُمَا ، فَرُوعِيَ التَّدَلِّي فِي أَنْوَاعِهِ كَمَا رُوعِيَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا قَبْلَهُ . وَالْمَقَامُ فِي الْآيَةِ الَّتِي نُفَسِّرُهَا وَمَا بَعْدَهَا مَقَامُ ذِكْرِ الْأَقْوَاتِ لِبَيَانِ شَرْعِ مَنْشَئِهَا فِي إِبَاحَتِهَا ، فِي مُقَابَلَةِ ضَلَالِ الْمُشْرِكِينَ فِيمَا ذُكِرَ قَبْلَهَا مِنَ التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ بِأَهْوَاءِ الشِّرْكِ وَهُوَ قَوْلُهُ : (وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ) إِلَخْ فَقَدَّمَ هُنَالِكَ الْحَرْثَ عَلَى الْأَنْعَامِ لِأَنَّ ضَلَالَهُمْ فِيهِ أَقَلُّ مِنْ ضَلَالِهِمْ فِيهَا . وَجَرَى هُنَا عَلَى هَذَا التَّرْتِيبِ فَذَكَرَ الْحَرْثَ أَوَّلًا لِمَا ذُكِرَ ، وَتَرَقَّى إِلَى ذِكْرِ الْأَنْعَامِ لِكَثْرَةِ ضَلَالِهِمْ فِيهَا وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ تَفْصِيلِ الْقَوْلِ الْحَقِّ فِي ذَلِكَ ، وَهُوَ انْتِقَالٌ مِنَ الْمُهِمِّ إِلَى الْأَهَمِّ فِي الْمَعْنَى الْمُرَادِ ، وَتَأْخِيرٌ لَمَّا اقْتَضَتِ الْحَالُ إِطَالَةَ الْقَوْلِ فِيهِ عَلَى الْأَصْلِ . فَحَسُنَ التَّرَقِّي فِي ذِكْرِ أَنْوَاعِ الْأَقْوَاتِ النَّبَاتِيَّةِ تَفْصِيلًا كَمَا حَسُنَ

فِيمَا بَيْنَهَا بِجُمْلَتِهَا وَبَيْنَ الْأَقْوَاتِ الْحَيَوَانِيَّةِ ، وَلِمَا ذَكَرْنَا مِنِ اخْتِلَافِ الْمَقَامِ فِي الْآيَتَيْنِ قَالَ فِي آيَةِ : (انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ) (99) وَقَالَ هُنَا : (كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ) وَلَمْ أَرَ أَحَدًا تَعَرَّضَ لِهَذِهِ النُّكَتِ هُنَا .

أَنْشَأَ تَعَالَى مَا ذَكَرَ (مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ) الْأُكُلُ مَا يُؤْكَلُ وَفِيهِ لُغَتَانِ : ضَمُّ الْهَمْزَةِ وَالْكَافِ وَبِهِ قَرَأَ جُمْهُورُ الْقُرَّاءِ ، وَسُكُونُ الْكَافِ مَعَ ضَمِّ الْهَمْزَةِ وَبِهِ قَرَأَ نَافِعٌ وَابْنُ كَثِيرٍ ، وَالضَّمِيرُ فِيهِ قِيلَ : إِنَّهُ رَاجِعٌ إِلَى الزَّرْعِ وَمِنْهُ يُعْلَمُ حُكْمُ مَا قَبْلَهُ ، وَقِيلَ : بِالْعَكْسِ ، وَالْأَرْجَحُ أَنَّهُ رَاجِعٌ إِلَى كُلِّ مَا قَبْلَهُ ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ أَنْشَأَ مَا ذَكَرَ مِنَ الْجَنَّاتِ وَالنَّخْلِ وَالزَّرْعِ حَالَ كَوْنِهِ مُخْتَلِفًا ثَمَرُهُ الَّذِي يُؤْكَلُ مِنْهُ فِي شَكْلِهِ وَلَوْنِهِ وَطَعْمِهِ وَرِيحِهِ عِنْدَمَا يُوجَدُ ، أَيْ قَدَّرَ الِاخْتِلَافَ فِيهِ عِنْدَ إِنْشَائِهِ ، فَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ يس بَعْدَ ذِكْرِ الْحَبِّ وَجَنَّاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ : (لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ) (36 : 35)

أَيْ ثَمَرِ الْمَذْكُورِ . قَالَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ وَجَهًا وَاسْتَشْهَدَ لَهُ وَلِمَثَلِهِ فِي آيَاتٍ أُخْرَى بِقَوْلِ رُؤْبَةَ بْنِ الْعَجَّاجِ :

فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَلَقْ . . . كَأَنَّهُ فِي الْجِلْدِ تَوْلِيعُ الْبَهَقْ

وَقَالَ إِنَّهُ قِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، أَيْ لِمَ قَالَ : "كَأَنَّهُ" وَلَمْ يَقُلْ "كَأَنَّهَا" وَهِيَ جَمْعٌ مُؤَنَّثٌ ؟ فَقَالَ : أَرَدْتُ كَأَنَّ ذَلِكَ . وَالَّذِي رَاجَعَهُ فِيهِ هُوَ الرَّاوِيَةُ أَبُو عُبَيْدَةَ .

(266/254)

---

(وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ) أَيْ وَأَنْشَأَ الزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا فِي الْمَنْظَرِ وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ فِي الْمَطْعَمِ قَالَهُ ابْنُ جُرَيْجٍ ، قِيلَ : إنَّ الْمُرَادَ التَّشَابُهُ بَيْنَ الزَّيْتُونِ وَالرُّمَّانِ فِي شَكْلِ الْوَرَقِ دُونَ الثَّمَرِ ، وَقِيلَ : بَلِ الْمُرَادُ مَا بَيْنَ أَنْوَاعِ الرُّمَّانِ مِنَ التَّشَابُهِ فِي الشَّجَرِ وَالتَّمْرِ ، مَعَ التَّفَاوُتِ فِي الطَّعْمِ مِنْ حُلْوٍ وَحَامِضٍ وَمُرٍّ ، وَفِي لَوْنِ الْحَبِّ مِنْ أَحْمَرَ قَانِئٍ قُمُدٍّ أَوْ فُقَاعِيٍّ وَأَبْيَضَ نَاصِعٍ أَوْ أَزْهَرَ مُشْرَبٍ بِحُمْرَةٍ . وَيُرَاجَعُ فِي هَذَا وَفِي مَكَانِ الزَّيْتُونِ وَالرُّمَّانِ مِمَّا ذُكِرَ قَبْلَهُ تَفْسِيرُ الْآيَةِ (99) مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ وَمِنْهُ تَعْلَمُ وَجْهَ تَخْصِيصِ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ بِالذِّكْرِ .

(267/254)

---

(كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إذَا أَثْمَرَ) أَيْ كُلُوا مِنْ ثَمَرِ ذَلِكَ الَّذِي ذُكِرَ مِنْ أَوَّلِ الْآيَةِ عَلَى مَا اخْتَرْنَاهُ فِي قَوْلِهِ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَسَيَأْتِي مَعْنَى هَذَا الشَّرْطِ . وَقَدْ قَالُوا : إنَّ الْأَمْرَ هُنَا لِلْإِبَاحَةِ ، أَيْ بَعْدَ أَنْ آذَنَ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ مِنَ الشَّجَرِ وَالنَّبَاتِ الَّذِي يَسْتَغِلُّونَ

مِنْهُ أَقْوَاتَهُمْ ، آذَنَهُمْ بِأَنَّهُ أَبَاحَهُ كُلَّهُ لَهُمْ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ غَيْرِهِ أَنْ يُحَرِّمَ شَيْئًا مِنْهُ عَلَيْهِمْ ؛ لِأَنَّ التَّحْرِيمَ حَقٌّ لِلرَّبِّ الْخَالِقِ لِلْعِبَادِ وَلِلْأَقْوَاتِ جَمِيعًا ، فَمَنِ انْتَحَلَهُ لِنَفْسِهِ فَقَدْ جَعَلَ نَفْسَهُ شَرِيكًا لَهُ تَعَالَى ، وَمَنْ أَذْعَنَ لِتَحْرِيمِ غَيْرِ اللهِ وَأَطَاعَهُ فِيهِ فَقَدْ أَشْرَكَهُ مَعَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، كَمَا عُلِمَ مِنْ تَفْسِيرِ الْآيَاتِ الَّتِي قَبْلَ هَذِهِ ، وَيُؤَكِّدُهُ مَا فِي الْآيَاتِ بَعْدَهَا ، وَالْكَلَامُ فِي التَّحْرِيمِ الدِّينِيِّ كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ . وَأَمَّا مَنْعُ بَعْضِ النَّاسِ مِنْ بَعْضِ هَذَا الثَّمَرِ لِسَبَبٍ غَيْرِ التَّشْرِيعِ الدِّينِيِّ فَلَا شِرْكَ فِيهِ ، وَقَدْ يُوَافِقُ بَعْضَ أَدِلَّةِ الشَّرْعِ فَيَكُونُ مَنْعًا شَرْعِيًّا ، أَيْ تَحْرِيمًا كَمَنْعِ الطَّبِيبِ بَعْضَ الْمَرْضَى مِنْ أَكْلِ الْخُبْزِ أَوِ الثَّمَرِ لِأَنَّهُ يَضُرُّهُ ، فَمَنْ ثَبَتَ عِنْدَهُ بِشَهَادَةِ الطَّبِيبِ الثِّقَةِ أَنَّ التَّمْرَ يَضُرُّهُ مَثَلًا حُرِّمَ عَلَيْهِ أَنْ يَأْكُلَهُ ، وَهَذَا التَّحْرِيمُ لَيْسَ تَشْرِيعًا مِنَ الطَّبِيبِ بَلِ اللهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي حَرَّمَ كُلَّ ضَارٍّ ، وَإِنَّمَا الطَّبِيبُ مُعَرِّفٌ لِلْمَرِيضِ بِأَنَّهُ ضَارٌّ

(268/254)

---

، فَلَا فَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ يُخْبِرُ بِأَنَّ هَذَا الطَّعَامَ قَدْ طُبِخَ بِلَحْمِ الْخِنْزِيرِ أَوْ لَحْمِ كَبْشٍ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَيَحْرُمُ عَلَى كُلِّ مَنْ صَدَّقَهُ أَكْلُهُ مَا لَمْ يَكُنْ مُضْطَرًّا إِلَيْهِ . وَكَذَلِكَ مَنْعُ السُّلْطَانِ مِنْ صَيْدِ بَعْضِ الطَّيْرِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ لِلْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ ، كَالْحَاجَةِ إِلَى كَثْرَتِهِ فِي حِفْظِ بَعْضِ الزَّرْعِ لِأَنَّهُ يَأْكُلُ الْحَشَرَاتِ الْمُهْلِكَةَ لَهُ مَثَلًا . وَلَكِنْ مِثْلُ هَذَيْنِ لَيْسَ تَحْرِيمًا ذَاتِيًّا لِمَا ذُكِرَ يَدُومُ

بِدَوَامِهِ بَلْ مُوَقَّتًا بِدَوَامِ

سَبَبِهِ ، وَلَا هُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ لِلسُّلْطَانِ أَنْ يُحَرِّمَ شَيْئًا بِمَحْضِ إرَادَتِهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ مُكَلَّفٌ شَرْعًا بِصِيَانَةِ الْمَصَالِحِ وَدَرْءِ الْمَفَاسِدِ ، فَإِذَا أَخْطَأَ فِي اجْتِهَادِهِ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَجَبَ عَلَى الْأُمَّةِ الْإِنْكَارُ عَلَيْهِ وَوَجَبَ عَلَيْهِ الرُّجُوعُ إلَى الْحَقِّ .

وَقَوْلُهُ : (إذَا أَثْمَرَ) لِإِفَادَةِ أَنَّ أَوَّلَ وَقْتِ إبَاحَةِ الْأَكْلِ وَقْتَ إطْلَاعِ الشَّجَرِ الثَّمَرَ وَالزَّرْعِ الْحَبَّ لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ أَنَّهُ لَا يُبَاحُ إلَّا إذَا أَدْرَكَ وَأَيْنَعَ ، وَفِي آيَةٍ أُخْرَى (انْظُرُوا إلَى ثَمَرِهِ إذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ) فَالْكَرْمُ يُنْتَفَعُ بِثَمَرِهِ حِصْرِمًا فَعِنَبًا فَزَبِيبًا ، وَالنَّخْلُ يُؤْكَلُ ثَمَرُهُ بُسْرًا فَرُطَبًا فَتَمْرًا ، وَالْقَمْحُ يُؤْكَلُ حَبُّهُ فَرِيكًا قَبْلَ يُبْسِهِ ، وَأَكْلُهُ بُرًّا مَطْبُوخًا أَوْ طَحْنُهُ وَجَعْلُهُ خُبْزًا . وَقِيلَ : إنَّ الْمُرَادَ إبَاحَةُ الْأَكْلِ مِنْهُ قَبْلَ أَدَاءِ حَقِّهِ الَّذِي أَمَرَ بِهِ فِي قَوْلِهِ :

*(269/254)*

---

(وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ) أَيْ وَأَعْطُوا الْحَقَّ الْمَعْلُومَ مِنَ الزَّرْعِ وَغَيْرِهِ لِمُسْتَحِقِّيهِ مِنْ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ زَمَنَ حَصَادِهِ فِي جُمْلَتِهِ بِحَسَبِ الْعُرْفِ ، لَا كُلَّ طَائِفَةٍ مِنْهُ وَلَا بَعْدَ تَنْقِيَتِهِ وَفِيهِ تَغْلِيبُ الْحَصَادِ الْخَاصِّ بِالزَّرْعِ فِي الْأَصْلِ فَيَدْخُلُ فِيهِ جَنْيُ الْعِنَبِ وَصَرْمُ

النَّخْلِ ، كَتَغْلِيبِ الثَّمَرِ فِيمَا قَبْلَهُ لِإِدْخَالِ حَبِّ الْحَصِيدِ فِيهِ وَهُوَ فِي الْأَصْلِ خَاصٌّ بِالشَّجَرِ ، وَهَذِهِ مُقَابَلَةٌ تُشْبِهُ الِاحْتِبَاكَ جَدِيرَةٌ بِأَنْ تُعَدَّ نَوْعًا خَاصًّا مِنْ أَنْوَاعِ الْبَدِيعِ .

(270/254)

---

أَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَالنَّحَّاسُ وَأَبُو الشَّيْخِ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ : (وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ) قَالَ : " مَا سَقَطَ مِنَ السُّنْبُلِ " وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِيهِ : إِذَا حَصَدْتَ فَحَضَرَكَ الْمَسَاكِينُ فَاطْرَحْ لَهُمْ مِنَ السُّنْبُلِ ، فَإِذَا طَيَّبْتَهُ وَكَرَّمْتَهُ فَحَضَرَكَ الْمَسَاكِينُ فَاطْرَحْ لَهُمْ مِنْهُ ، فَإِذَا دُسْتَهُ وَذَرَّيْتَهُ فَحَضَرَكَ الْمَسَاكِينُ فَاطْرَحْ لَهُمْ مِنْهُ فَإِذَا ذَرَّيْتَهُ وَجَمَعْتَهُ وَعَرَفْتَ كَيْلَهُ فَاعْزِلْ زَكَاتَهُ . وَإِذَا بَلَغَ النَّخْلُ وَحَضَرَكَ الْمَسَاكِينُ فَاطْرَحْ لَهُمْ مِنَ التَّفَارِيقِ وَالْبُسْرِ ، فَإِذَا جَدَدْتَهُ (أَيْ قَطَعْتَهُ) فَحَضَرَكَ الْمَسَاكِينُ فَاطْرَحْ لَهُمْ مِنْهُ فَإِذَا جَمَعْتَهُ وَعَرَفْتَ كَيْلَهُ فَاعْزِلْ زَكَاتَهُ . وَعَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ وَيَزِيدَ بْنِ الْأَصَمِّ : أَنَّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ كَانُوا إِذَا صَرَمُوا النَّخْلَ يَجِيئُونَ بِالْعَذْقِ فَيَضَعُونَهُ فِي الْمَسْجِدِ فَيَجِيءُ السَّائِلُ فَيَضْرِبُهُ بِالْعَصَا فَيُسْقِطُ مِنْهُ فَهُوَ قَوْلُهُ : (وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ) وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ : كَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ تَنْزِلَ الزَّكَاةُ ، الرَّجُلُ يُعْطِي مِنْ زَرْعِهِ وَيَعْلِفُ الدَّابَّةَ وَيُعْطِي الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَيُعْطِي الضِّغْثَ . يَعْنِي أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ فِي الصَّدَقَةِ الْمُطْلَقَةِ غَيْرِ

الْمَحْدُودَةِ الْمُعَيَّنَةِ وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ وَالزَّكَاةَ الْمَحْدُودَةَ فُرِضَتْ بِالْمَدِينَةِ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ . وَقِيلَ : إِنَّهُ فِي الزَّكَاةِ

(271/254)

---

الْمَفْرُوضَةِ

الْمَحْدُودَةِ فِي الْأَقْوَاتِ الَّتِي هِيَ الْعُشْرُ وَرُبْعُ الْعُشْرِ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ وَهُوَ إِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ ، وَطَاوُسٍ ، وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَغَيْرِهِمْ وَيَرُدُّ عَلَيْهِ الْإِجْمَاعُ

عَلَى أَنَّ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ وَلَمْ يَصِحَّ اسْتِثْنَاءُ هَذِهِ الْآيَةِ مِنْهَا إلَّا أَنْ يُقَالَ : مُرَادُهُمْ أَنَّ الْإِطْلَاقَ فِيهَا قُيِّدَ بَعْدَ الْهِجْرَةِ بِالْمَقَادِيرِ الَّتِي بَيَّنَتْهَا الزَّكَاةُ كَأَمْثَالِهَا مِنَ الْآيَاتِ الْمَكِّيَّةِ الَّتِي وَرَدَ فِيهَا الْأَمْرُ بِالزَّكَاةِ ، وَقَدْ صَرَّحَ بَعْضُهُمْ بِأَنَّ الزَّكَاةَ الْمُقَيَّدَةَ الْمَعْرُوفَةَ نَسَخَتْ فَرْضِيَّةَ الزَّكَاةِ الْمُطْلَقَةِ ، وَالنَّسْخُ عِنْدَ السَّلَفِ أَعَمُّ مِنَ النَّسْخِ فِي عُرْفِ الْأُصُولِيِّينَ فَيَدْخُلُ فِيهِ تَخْصِيصُ الْعَامِّ .

(272/254)

---

أَخْرَجَ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ ، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، وَالنُّحَّاسُ ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي سُنَنِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ) قَالَ : نَسَخَهَا الْعُشْرُ وَنِصْفُ الْعُشْرِ . وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، عَنْ عَطِيَّةَ الْعَوْفِيِّ فِيهَا قَالَ : كَانُوا إِذَا حُصِدَ وَإِذَا دُرِسَ وَإِذَا غُرْبِلَ أَعْطَوْا مِنْهُ شَيْئًا فَنَسَخَهَا الْعُشْرُ وَنِصْفُ الْعُشْرِ . وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ ، وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ ، وَأَبُو دَاوُدَ فِي نَاسِخِهِ وَابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْ سُفْيَانَ قَالَ : سَأَلْتُ السُّدِّيَّ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ : هِيَ مَكِّيَّةٌ نَسَخَهَا الْعُشْرُ وَنِصْفُ الْعُشْرِ . قُلْتُ لَهُ عَمَّنْ ؟ قَالَ : عَنِ الْعُلَمَاءِ أَيْ عُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ وَمَعْنَاهُ نَسْخُ فَرْضِيَّتِهَا الْمُطْلَقَةِ فَلَمْ يَبْقَ بَعْدَ فَرْضِ الزَّكَاةِ الْمَحْدُودَةِ إِلَّا صَدَقَةُ التَّطَوُّعِ كَمَا هُوَ صَرِيحُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْأَعْرَابِيِّ لَمَّا سَأَلَهُ بَعْدَ أَنْ أَخْبَرَهُ بِالزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ : هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا ؟ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَا إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ) عَلَى أَنَّ الزَّكَاةَ الْمَحْدُودَةَ الْمُعَيَّنَةَ لَا يُمْكِنُ أَدَاؤُهَا يَوْمَ الْحَصَادِ ، وَمَا تَأَوَّلُوهُ فِي ذَلِكَ فَهُوَ تَكَلُّفٌ فَإِنْ قُلْتَ : أَلَيْسَ إِطْعَامُ الْمُعْدَمِ الْمُضْطَرِّ وَاجِبًا عَلَى مَنْ عَلِمَ بِحَالِهِ ؟ قُلْنَا الْكَلَامُ فِي الْحَقِّ الْوَاجِبِ عَلَى الْأَعْيَانِ فِي الْأَمْوَالِ بِشُرُوطِهَا الْمَعْرُوفَةِ ،

(273/254)

وَإِغَاثَةُ الْمُضْطَرِّ مِنَ الْوَاجِبَاتِ الْكِفَائِيَّةِ الْعَارِضَةِ لَا الْعَيْنِيَّةِ الثَّابِتَةِ . وَالْحَصَادُ - بِفَتْحِ الْحَاءِ وَكَسْرِهَا - مَصْدَرُ حَصَدَ الزَّرْعَ إذَا جَزَّهُ أَيْ قَطَعَهُ كَمَا قَالَ فِي الْأَسَاسِ ، قَرَأَهُ ابْنُ كَثِيرٍ وَنَافِعٌ وَحَمْزَةُ بِالْكَسْرِ وَالْبَاقُونَ بِالْفَتْحِ .

وَاسْتَدَلَّ الرَّازِيُّ عَلَى زَعْمِهِ أَنَّ حَمْلَ الْآيَةِ عَلَى الزَّكَاةِ الْمَحْدُودَةِ أَصَحُّ بِأَنَّهُ إنَّمَا يَحْسُنُ ذِكْرُ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَآتُوا حَقَّهُ) إذَا كَانَ ذَلِكَ الْحَقُّ مَعْلُومًا قَبْلَ نُزُولِهِ ، لِئَلَّا تَبْقَى الْآيَةُ مُجْمَلَةً .

(قَالَ) : وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : " لَيْسَ فِي الْمَالِ حَقٌّ سِوَى الزَّكَاةِ " فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَذَا الْحَقِّ حَقَّ الزَّكَاةِ اهـ .

وَنَقُولُ : إنَّ الْحَقَّ الْمُرَادَ بِهَا كَانَ مَعْلُومًا عِنْدَهُمْ وَهُوَ الصَّدَقَةُ الْمُطْلَقَةُ الْمُعْتَادَةُ الَّتِي ذَكَرْنَا بَعْضَ الرِّوَايَاتِ عَنِ السَّلَفِ فِيهَا ، وَالْحَدِيثُ الَّذِي ذَكَرَهُ رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ

بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ لَا يُحْتَجُّ بِهِ عَلَى أَنَّهُ صَرِيحٌ فِي أَنَّهُ وَرَدَ بَعْدَ فَرْضِ الزَّكَاةِ بِالْمَدِينَةِ ، فَلَا يُمْكِنُ تَحْكِيمُهُ فِي تَفْسِيرِ آيَةٍ مَكِّيَّةٍ نَزَلَتْ قَبْلَ فَرْضِ الزَّكَاةِ الْمَذْكُورَةِ .

*(274/254)*

ثُمَّ قَالَ الرَّازِيُّ : قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ) بَعْدَ ذِكْرِ الْأَنْوَاعِ الْخَمْسَةِ وَهُوَ الْعِنَبُ وَالنَّخْلُ وَالزَّرْعُ وَالزَّيْتُونُ وَالرُّمَّانُ يَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ الزَّكَاةِ فِي الْكُلِّ ، وَهَذَا يَقْتَضِي وُجُوبَ الزَّكَاةِ فِي الثِّمَارِ كَمَا كَانَ يَقُولُهُ أَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ . فَإِنْ قَالُوا لَفْظُ الْحَصَادِ مَخْصُوصٌ بِالزَّرْعِ فَنَقُولُ : لَفْظُ الْحَصْدِ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ غَيْرُ مَخْصُوصٍ بِالزَّرْعِ ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّ الْحَصْدَ فِي اللُّغَةِ عِبَارَةٌ عَنِ الْقَطْعِ وَذَلِكَ يَتَنَاوَلُ الْكُلَّ ، وَأَيْضًا الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ : (يَوْمَ حَصَادِهِ) يَجِبُ عَوْدُهُ إلَى أَقْرَبِ الْمَذْكُورَاتِ وَذَلِكَ هُوَ الزَّيْتُونُ وَالرُّمَّانُ ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ عَائِدًا إلَيْهِ . انْتَهَى بِعِبَارَتِهِ السَّقِيمَةِ ، وَخَطَأُ الْمَعْنَى فِيهَا أَشْنَعُ مِنْ خَطَأِ الْعِبَارَةِ ، فَلَيْسَتِ الْآيَةُ فِي الزَّكَاةِ ، وَالْحَصْدُ فِي اللُّغَةِ : جَزُّ الزَّرْعِ لَا مُطْلَقُ الْقَطْعِ ، وَإِنَّمَا يُطْلَقُ عَلَى غَيْرِهِ مَجَازًا أَوْ تَغْلِيبًا ، فَجَنْيُ الزَّيْتُونِ لَيْسَ مِنَ الْحَصْدِ وَلَا الْقَطْعُ ، وَلَيْسَ عَوْدُ الضَّمِيرِ إلَى آخِرِ مَا ذُكِرَ فِي الْآيَةِ وَاجِبًا ، وَالْآخِرُ هُوَ الرُّمَّانُ ، فَإِنْ لَمْ يَعُدِ الضَّمِيرُ إلَيْهِ وَحْدَهُ لِاسْتِحَالَةِ أَنْ يَكُونَ هُوَ الَّذِي ثَبَتَ الْحَقُّ فِيهِ وَحْدَهُ ، فَالظَّاهِرُ رُجُوعُهُ إلَى جُمْلَةِ الْمَذْكُورَاتِ بِتَقْدِيرِ اسْمِ الْإِشَارَةِ كَمَا مَرَّ قَرِيبًا ، أَوْ إلَى مَا يُحْصَدُ مِنْهُ حَقِيقَةً لَا تَغْلِيبًا وَهُوَ الزَّرْعُ ، وَالْأَوَّلُ هُوَ الَّذِي يُرِيدُهُ التَّفْسِيرُ الْمَأْثُورُ . ثُمَّ

(275/254)

إِنَّ إِيجَابَهُ رُجُوعَ الضَّمِيرِ إِلَى الْأَخِيرِ يُبْطِلُ أَصْلَ دَعْوَاهُ وَهُوَ أَنَّ الْآيَةَ تَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ الزَّكَاةِ فِي الْأَنْوَاعِ الْخَمْسَةِ بِالنَّصِّ لِذِكْرِ الْحَقِّ بَعْدَهَا ، فَمَا أَضْعَفَ دَلَائِلَ هَذَا (الْإِمَامِ) الشَّهِيرِ ، وَلَا سِيَّمَا فِي هَذَا التَّفْسِيرِ الْمُلَقَّبِ بِالْكَبِيرِ .

وَسَنُبَيِّنُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) (9 : 103) مَا تَجِبُ فِيهِ الزَّكَاةُ بِبَيَانِ السُّنَّةِ ، وَمِنْهَا الْأَحَادِيثُ الَّتِي تَحْصُرُ زَكَاةَ الزَّرْعِ وَالثَّمَرِ بِالْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ وَالتَّمْرِ وَالزَّبِيبِ وَكَذَا الذُّرَةُ فِي حَدِيثٍ مَرْفُوعٍ فِيهِ مَتْرُوكٌ يُعَضِّدُهُ مُرْسَلُ لِمُجَاهِدٍ وَالْحَسَنِ . وَأَنَّ الْحِكْمَةَ فِيهَا كَوْنُهَا الْقُوتَ الْغَالِبَ ، فَإِنْ جَازَ أَنْ يُقَالَ عَلَيْهَا فَإِنَّمَا يَكُونُ فِيمَا يَكُونُ قُوتًا يُدَّخَرُ عِنْدَهُ مَنِ اتَّخَذُوهُ قُوتًا غَالِبًا كَالْأُرْزِ عِنْدَ بَعْضِ الْعَرَبِ وَأَهْلِ الْيَابَانِ أَوْ مُطْلَقًا وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ .

وَقَوْلُهُ : (وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) فِيهِ ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ :

*(276/254)*

---

تَقْدِيرُ الْأَوَّلِ : كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تُسْرِفُوا فِي الْأَكْلِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ : (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) (7 : 31) وَهُوَ فِي مَعْنَى مَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا

يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) (5 : 90) فَالْإِسْرَافُ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ وَالِاعْتِدَاءُ كَذَلِكَ ،

وَالْحَدُّ الَّذِي يُنْهَى

عَنْ تَجَاوُزِهِ إمَّا شَرْعِيٌّ كَتَجَاوُزِ الْحَلَالِ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِمَا إلَى الْحَرَامِ ،

وَإِمَّا فِطْرِيٌّ طَبْعِيٌّ وَهُوَ تَجَاوُزُ حَدِّ الشِّبَعِ إلَى الْبِطْنَةِ الضَّارَّةِ .

*(277/254)*

---

(الْوَجْهُ الثَّانِي) لَا تُسْرِفُوا فِي الصَّدَقَةِ أَيْ فِي أَمْرِهَا ، قَالَ السُّدِّيُّ : أَيْ لَا تُعْطُوا أَمْوَالَكُمْ وَتَقْعُدُوا فُقَرَاءَ ، وَعَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ : نَزَلَتْ فِي ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ جَذَّ نَخْلًا فَقَالَ : لَا يَأْتِينِي الْيَوْمَ أَحَدٌ إلَّا أَطْعَمْتُهُ ، فَأَطْعَمَ حَتَّى أَمْسَى وَلَيْسَ لَهُ ثَمَرَةٌ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : (وَلَا تُسْرِفُوا إنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) وَلَكِنَّ ثَابِتًا مِنَ الْأَنْصَارِ ، وَمَعْنَى الرِّوَايَةِ أَنَّهَا نَزَلَتْ يَوْمَ نَزَلَتْ بِمَكَّةَ فِي حُكْمِ مِثْلِ هَذَا الْعَمَلِ - كَمَا تَقَدَّمَ نَظِيرُهُ مِرَارًا - وَمِثْلُهُ قَوْلُ أَبِي الْعَالِيَةِ : كَانُوا يُعْطُونَ شَيْئًا سِوَى الزَّكَاةِ ، ثُمَّ إنَّهُمْ تَبَاذَرُوا وَأَسْرَفُوا فَأَنْزَلَ اللَّهُ (وَلَا تُسْرِفُوا) إلَخْ . وَجَعَلَ بَعْضُهُمُ الْإِسْرَافَ فِي أَمْرِ الصَّدَقَةِ مَنْعَهَا . فَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ فِي قَوْلِهِ : (وَلَا تُسْرِفُوا) قَالَ : لَا تَمْنَعُوا الصَّدَقَةَ فَتَعْصُوا . وَجَعَلَهُ بَعْضُهُمْ خَاصًّا بِالْحُكَّامِ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ الصَّدَقَاتِ . فَعَنْ زَيْدِ ابْنِ أَسْلَمَ فِي قَوْلِهِ : (وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ) قَالَ : عُشُورُهُ . وَقَالَ لِلْوُلَاةِ : (وَلَا تُسْرِفُوا)

لَا تَأْخُذُوا مَا لَيْسَ لَكُمْ بِحَقٍّ . فَأَمَرَ هَؤُلَاءِ بِأَنْ يُؤَدُّوا حَقَّهُ ، وَأَمَرَ الْوُلَاةَ بِأَنْ لَا يَأْخُذُوا إلَّا الْحَقَّ .

(278/254)

---

(الْوَجْهُ الثَّالِثُ) أَنَّ النَّهْيَ عَامٌّ يَشْمَلُ الْإِسْرَافَ فِي أَكْلِ الْإِنْسَانِ مِنْ مَالِهِ بِغَيْرِ سَرَفٍ ، وَفِي إنْفَاقِهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ صَدَقَةٍ وَغَيْرِهَا ، فَالْإِسْرَافُ مَذْمُومٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ عَطَاءٌ وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَنَقَلَهُ ابْنُ كَثِيرٍ عَنْهُ وَقَالَ : لَا شَكَّ أَنَّهُ صَحِيحٌ أَيْ فِي نَفْسِهِ لَا فِي عِبَارَةِ الْآيَةِ ، فَإِنَّهُ اخْتَارَ فِيهَا أَنَّ الْوَجْهَ الْأَوَّلَ هُوَ الظَّاهِرُ - وَهُوَ كَمَا قَالَ بِالنَّظَرِ إلَى مَوْرِدِ الْآيَةِ وَسِيَاقِهَا ; وَلِذَلِكَ قَدَّمْنَاهُ وَأَيَّدْنَاهُ بِآيَتَيِ الْأَعْرَافِ وَالْمَائِدَةِ وَهَذَا لَا يَمْنَعُ دَلَالَةَ اللَّفْظِ بِعُمُومِهِ مَعَ صَرْفِ النَّظَرِ عَنْ مَوْقِعِهِ عَلَى النَّهْيِ عَنْ كُلِّ إسْرَافٍ ، وَنَاهِيكَ بِتَعْلِيلِ النَّهْيِ بِكَوْنِهِ تَعَالَى لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ . وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ عِبَادَهُ الصَّالِحِينَ بِقَوْلِهِ : (وَالَّذِينَ إذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) (25 : 67) وَقَالَ : (وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا) (17 : 26) وَقَالَ : (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا) (17 : 29) .

(279/254)

(وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا) أَيْ وَأَنْشَأَ مِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً ، وَهِيَ مَا يَحْمِلُ عَلَيْهِ النَّاسُ الْأَثْقَالَ مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَهُوَ كِبَارُهَا - وَهِيَ كَالرَّكُوبَةِ لِمَا يُرْكَبُ لَا وَاحِدًا لَهُ مِنْ لَفْظِهِ - وَفَرْشًا : وَهُوَ مَا يُفْرَشُ لِلذَّبْحِ مِنَ الضَّأْنِ وَالْمَعِزِ وَكَذَا صِغَارُ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ ، أَوْ مَا يُتَّخَذُ الْفَرْشُ مِنْ صُوفِهِ وَوَبَرِهِ وَشَعْرِهِ ، وَقَدْ رُوِيَ نَحْوُ هَذَا عَنْ

(280/254)

عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ ، وَرُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ الْحَمُولَةَ مَا حُمِلَ عَنِ الْإِبِلِ وَالْفَرْشُ صِغَارُهَا ، وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَتِلْمِيذِهِ مُجَاهِدٍ ، وَالرِّوَايَةُ الْأُخْرَى عَنْهُ أَنَّ الْحَمُولَةَ الْإِبِلُ وَالْخَيْلُ وَالْبِغَالُ وَالْحَمِيرُ وَكُلُّ شَيْءٍ يُحْمَلُ عَلَيْهِ ، وَالْفَرْشُ الْغَنَمُ ، وَهَذَا التَّفْسِيرُ لِلْحَمُولَةِ لُغَوِيٌّ ، فَإِنَّ الْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لَيْسَتْ مِنَ الْأَنْعَامِ ، وَعَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ الْحَمُولَةُ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ ، وَالْفَرْشُ الضَّأْنُ وَالْمَعِزُ ، ذَكَرَهُ فِي الدُّرِّ الْمَنْثُورِ مِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ بْنِ حُمَيْدٍ عَنْهُ . قَالَ بَعْضُهُمْ : وَهَذَا ظَاهِرٌ عَلَى الْقَوْلِ أَنَّ الْفَرْشَ سُمِّيَتْ فَرْشًا لِصِغَرِهَا وَدُنُوِّهَا مِنَ الْأَرْضِ . وَقَالَ الرَّاغِبُ فِي مُفْرَدَاتِهِ : وَالْفَرْشُ مَا يُفْرَشُ مِنَ الْأَنْعَامِ ، أَيْ يُرْكَبُ . وَكُنِّيَ بِالْفِرَاشِ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الزَّوْجَيْنِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ

" وَفُلَانٌ كَرِيمُ الْمَفَارِشِ . انْتَهَى . وَفِي مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ آيَاتٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنِ : (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ) (40 : 79 ، 80) وَمِثْلُهُمَا فِي سُورَةِ يس وَفِي سُورَةِ النَّحْلِ .

(281/254)

---

(كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ) مِنْ هَذِهِ الْأَنْعَامِ وَغَيْرِهَا وَانْتَفِعُوا بِسَائِرِ أَنْوَاعِ الِانْتِفَاعِ مِنْهَا (وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ) بِتَحْرِيمِ مَا لَمْ يُحَرِّمْهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَلَا بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ إغْوَائِهِ ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ هُوَ الْمُنْشِئُ وَالْمَالِكُ لَهَا حَقِيقَةً ، وَقَدْ أَبَاحَهَا لَكُمْ وَهُوَ رَبُّكُمْ ، فَأَنَّى لِغَيْرِهِ أَنْ يُحَرِّمَ عَلَيْكُمْ مَا لَيْسَ لَهُ خَلْقًا وَإِنْشَاءً وَلَا مُلْكًا ، وَلَا هُوَ بِرَبٍّ لَكُمْ فَيَتَعَبَّدَكُمْ بِهِ تَعَبُّدًا ، وَالْخُطُوَاتُ جَمْعُ خُطْوَةٍ بِالضَّمِّ وَهِيَ الْمَسَافَةُ الَّتِي بَيْنَ الْقَدَمَيْنِ ، وَمَنْ بَالَغَ فِي اتِّبَاعِ مَاشٍ يَتْبَعُ خُطُوَاتِهِ كُلَّمَا انْتَقَلَ تَأَثَّرَهُ فَوَضَعَ خَطْوَهُ مَكَانَ خَطْوِهِ ، وَتَحْرِيمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ مِنْ أَقْبَحِ الْمُبَالَغَةِ فِي اتِّبَاعِ إغْوَاءِ الشَّيْطَانِ ؛ لِأَنَّهُ ضَلَالٌ فِي حِرْمَانٍ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَا فِي تَمَتُّعٍ بِالشَّهَوَاتِ كَمَا هُوَ أَكْثَرُ إغْوَائِهِ .

(282/254)

(إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) هَذَا تَعْلِيلٌ لِلنَّهْيِ ، أَيْ لَا تَتَّبِعُوهُ لِأَنَّهُ عَدُوٌّ لَكُمْ مِنْ دُونِ الْخَلْقِ مُظْهِرٌ لِلْعَدَاوَةِ ، أَوْ بَيِّنُهَا أَيْ ظَاهِرُهَا بِكَوْنِهِ لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِمَا يَفْحُشُ قُبْحُهُ وَيَسُوءُ فِعْلُهُ أَوْ أَثَرُهُ فِي الْحَالِ أَوِ الِاسْتِقْبَالِ ، وَبِالِافْتِرَاءِ الْمَحْضِ عَلَى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى : (إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (2 : 169) وَهَذَا حَقٌّ بَيِّنٌ لِكُلِّ مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ وَأَقَامَ الْمِيزَانَ لِخَوَاطِرِهَا ، وَمَنْ أَجْهَلُ مِمَّنْ يَتَّبِعُ خُطُوَاتِ عَدُوِّهِ حَتَّى فِي حِرْمَانِ نَفْسِهِ مِنْ مَنَافِعِهَا !

(ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ) نَصَبَ ثَمَانِيَةً عَلَى أَنَّهُ بَدَلٌ مِنْ حَمُولَةٍ وَفَرْشًا بِنَاءً عَلَى كَوْنِهِمَا



قِسْمَيْنِ لِجَمِيعِ الْأَنْعَامِ عَلَى الْقَوْلِ الرَّاجِحِ . وَالزَّوْجُ يُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْقَرِينَيْنِ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى فِي الْحَيَوَانَاتِ الْمُتَزَاوِجَةِ ، وَعَلَى كُلِّ قَرِينَيْنِ فِيهَا وَفِي غَيْرِهَا كَالْخُفِّ ، وَالنَّعْلِ ، وَعَلَى كُلِّ مَا يَقْتَرِنُ بِآخَرَ مُمَاثِلًا لَهُ أَوْ مُضَادًّا . قَالَ الرَّاغِبُ : وَالِاثْنَانِ زَوْجَانِ . يُقَالُ : لَهُ زَوْجَا حَمَامٍ (وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى) (53 : 54) وَقَوْلُهُ : (مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ) شُرُوعٌ فِي بَيَانِ هَذِهِ الْأَزْوَاجِ الثَّمَانِيَةِ ، وَتَبْكِيتِهِمْ

وَتَجْهِيلِهِمْ عَلَى تَحْرِيمِ بَعْضِهَا دُونَ بَعْضٍ بِغَيْرِ مُخَصِّصٍ ، أَيْ مِنَ الضَّأْنِ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ هُمَا الْكَبْشُ وَالنَّعْجَةُ ، وَمِنَ الْمَعِزِ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ هُمَا التَّيْسُ وَالْعَنَزُ ، وَفِي الْمَعِزِ لُغَتَانِ قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو وَابْنُ عَامِرٍ وَيَعْقُوبُ بِفَتْحِ الْعَيْنِ وَالْبَاقُونَ بِسُكُونِهَا - وَقَدْ بَدَأَ فِي هَذَا التَّفْصِيلِ بِنَوْعِ الْفَرْشِ عَلَى أَحَدِ الْأَقْوَالِ فِيهِ ، وَبِمَا لَا يَصْلُحُ إِلَّا لِلْأَكْلِ مِنْهُ عَلَى الْقَوْلِ بِشُمُولِهِ لِصِغَارِ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْمُنَاسِبُ فِي مَقَامِ إِنْكَارِ تَحْرِيمِ أَكْلِ بَعْضِهِ دُونَ بَعْضٍ بِغَيْرِ مُخَصِّصٍ ، بَعْدَ أَنْ قُدِّمَ فِي الْإِجْمَالِ ذِكْرُ الْحَمُولَةِ لِأَنَّهَا أَهَمُّ مَقَامِ الْخَلْقِ وَالْإِنْشَاءِ وَالْمِنَّةِ بِكَوْنِ خَلْقِهَا أَعْظَمَ وَالِانْتِفَاعِ بِهَا أَعَمَّ ، فَإِنَّهَا كَمَا يُحْمَلُ عَلَيْهَا يُؤْكَلُ مِنْهَا ، وَنَاهِيكَ بِسَائِرِ مَنَافِعِهَا وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى تَعْجِيبًا

(284/254)

---

بِخَلْقِ أَعْظَمِ صِنْفَيْهَا : (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) (88 : 17) .

(قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ) أَيْ قُلْ لَهُمْ أَيُّهَا الرَّسُولُ : أَحَرَّمَ اللَّهُ الذَّكَرَيْنِ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الزَّوْجَيْنِ وَحْدَهُمَا كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ تَقْدِيمُ الْمَفْعُولِ عَلَى عَامِلِهِ ، أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ وَحْدَهُمَا ، أَمِ الْأَجِنَّةَ الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا أَرْحَامُ إِنَاثِ الزَّوْجَيْنِ كِلَيْهِمَا سَوَاءٌ أَكَانَتْ ذُكُورًا أَمْ إِنَاثًا ؟ وَالِاسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ ، أَيْ أَنَّهُ لَمْ يُحَرِّمْ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثِ .

وَبِهَذَا السُّؤَالِ التَّفْصِيلِيِّ يَظْهَرُ لِلْمُتَفَكِّرِ فِيهِ مِنْهُمْ أَنَّهُ لَا وَجْهَ يُعْقَلُ لِقَوْلِهِمْ ; لِأَنَّ تَرْتِيبَ الْحُكْمِ عَلَى الْوَصْفِ بِالذُّكُورَةِ أَوِ الْأُنُوثَةِ أَوِ الْحَمْلِ يَكُونُ لَغْوًا أَوْ جَهَالَةً فَاضِحَةً إذَا لَمْ يَكُنْ تَعْلِيلًا ، وَالتَّعْلِيلُ بِهَذِهِ الْأَوْصَافِ لَا وَجْهَ لَهُ وَيَلْزَمُهُ مَا لَا يَقُولُونَ بِهِ ، وَبِعَدَمِهِ يَلْزَمُهُمُ التَّحَكُّمُ فِي أَحْكَامِ اللَّهِ وَكَوْنُ الِافْتِرَاءِ عَلَيْهِ بِغَيْرِ أَدْنَى عِلْمٍ وَلَا عَقْلٍ ، وَلِذَلِكَ قَالَ : (نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) أَيْ خَبِّرُونِي بِعِلْمٍ يُؤْثَرُ عَنْ أَحَدِ رُسُلِ اللَّهِ أَوْ بِبَيِّنَةٍ مُتَلَبِّسَةٍ بِعِلْمٍ يَرْكَنُ إلَيْهِ الْعَقْلُ بِأَنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَيْكُمْ ، وَإِلَّا كَانَ تَخْصِيصُ مَا حَرَّمْتُمْ دُونَ أَمْثَالِهِ جَهْلًا مَحْضًا كَمَا أَنَّهُ افْتِرَاءُ كَذِبٍ .

*(285/254)*

---

(وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ) الْإِبِلُ اسْمُ جَمْعٍ لِجِنْسِ الْأَبَاعِرِ ، وَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ لِأَنَّ اسْمَ الْجَمْعِ الَّذِي لَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ إذَا كَانَ لِمَا لَا يُعْقَلُ لَزِمَهُ التَّأْنِيثُ ، وَتَدْخُلُهُ الْهَاءُ إذَا صُغِّرَ نَحْوُ أُبَيْلَةٍ وَغُنَيْمَةٍ ، وَتُسَكَّنُ يَاؤُهُ لُغَةً لِلتَّخْفِيفِ . وَمُفْرَدُهُ بَعِيرٌ وَهُوَ يَقَعُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ عَلَى الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى مِثْلُ الْإِنْسَانِ وَلَكِنَّهُ غَلَبَ فِي عُرْفِ الْمُوَلِّدِينَ عَلَى الذَّكَرِ ، وَإِنَّمَا الْجَمَلُ اسْمٌ لِلذَّكَرِ كَالرَّجُلِ فِي النَّاسِ ، وَالنَّاقَةُ لِلْأُنْثَى كَالْمَرْأَةِ . وَالْبَقَرُ اسْمُ جِنْسٍ وَتُطْلَقُ الْبَقَرَةُ عَلَى الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى كَمَا قَالَ

الْجَوْهَرِيُّ كَالشَّاةِ مِنَ الْغَنَمِ وَإِنَّمَا الْهَاءُ لِلْوَحْدَةِ ، وَالثَّوْرُ الذَّكَرُ مِنَ الْبَقَرِ وَالْأُنْثَى ثَوْرَةٌ وَالْجَمْعُ ثِيرَانٌ وَأَثْوِرَةٌ وَثِيرَةٌ (كَعِنَبَةٍ) وَالْبَقَرُ الْأَهْلِيَّةُ صِنْفَانِ عِرَابٌ وَجَوَامِيسُ وَيُقَابِلُهَا بَقَرُ الْوَحْشِ ، وَلَيْسَتْ مِنَ الْأَنْعَامِ وَإِنْ كَانَتْ تُؤْكَلُ ، وَالْمُرَادُ بِالذَّكَرَيْنِ وَالْأُنْثَيَيْنِ وَمَا حَمَلَتْ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ مِثْلُ مَا تَقَدَّمَ فِي الْغَنَمِ وَالْمَعِزِ إِذْ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا فِي طَرِيقِ الْإِنْكَارِ الْمُرَادِ مِنَ الِاسْتِفْهَامِ . وَقَدْ لَخَّصَ السَّيِّدُ الْآلُوسِيُّ أَقْوَالَ الْمُفَسِّرِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَحْسَنَ تَلْخِيصٍ بِقَوْلِهِ فِي رُوحِ الْمَعَانِي :

(286/254)

---

وَالْمَعْنَى كَمَا قَالَ كَثِيرٌ مِنْ أَجِلَّةِ الْعُلَمَاءِ : إِنْكَارُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَرَّمَ عَلَيْهِمْ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ الْأَرْبَعَةِ وَإِظْهَارُ كَذِبِهِمْ فِي ذَلِكَ ، وَتَفْصِيلُ مَا ذُكِرَ مِنَ الذُّكُورِ وَالْإِنَاثِ وَمَا فِي بُطُونِهَا لِلْمُبَالَغَةِ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ بِإِيرَادِ الْإِنْكَارِ عَلَى كُلِّ مَادَّةٍ مِنْ مَوَادِّ افْتِرَائِهِمْ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُحَرِّمُونَ ذُكُورَ الْأَنْعَامِ تَارَةً وَإِنَاثَهَا تَارَةً وَأَوْلَادَهَا كَيْفَمَا كَانَتْ تَارَةً أُخْرَى ، مُسْنِدِينَ ذَلِكَ كُلَّهُ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ ، وَإِنَّمَا لَمْ يَلِ الْمُنْكَرُ وَهُوَ التَّحْرِيمُ الْهَمْزَةَ ، وَالْجَارِي فِي الِاسْتِعْمَالِ أَنَّ مَا نُكِّرَ وَلِيَهَا لِأَنَّ مَا فِي النَّظْمِ الْكَرِيمِ أَبْلَغُ ، وَبَيَانُهُ عَلَى مَا قَالَهُ السَّكَّاكِيُّ : إِنَّ إِثْبَاتَ التَّحْرِيمِ يَسْتَلْزِمُ إِثْبَاتَ مَحَلِّهِ لَا مَحَالَةَ ، فَإِذَا انْتَفَى مَحَلُّهُ وَهُوَ الْمَوَارِدُ الثَّلَاثَةُ لَزِمَ انْتِفَاءُ التَّحْرِيمِ عَلَى وَجْهٍ بُرْهَانِيٍّ ،

كَأَنَّهُ وَضَعَ الْكَلَامَ مَوْضِعَ مَنْ سَلَّمَ أَنَّ ذَلِكَ قَدْ كَانَ ثُمَّ طَالَبَهُ بِبَيَانِ مَحَلِّهِ كَيْ يَتَبَيَّنَ كَذِبُهُ وَيَفْتَضِحَ عِنْدَ الْمُحَاقَّةِ ، وَإِنَّمَا لَمْ يُورِدْ سُبْحَانَهُ الْأَمْرَ عَقِيبَ تَفْصِيلِ الْأَنْوَاعِ الْأَرْبَعَةِ بِأَنْ يُقَالَ : قُلْ آلذُّكُورَ حَرَّمَ أَمِ الْإِنَاثَ ؟ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإِنَاثِ لِمَا فِي التَّكْرِيرِ مِنَ الْمُبَالَغَةِ أَيْضًا فِي الْإِلْزَامِ وَالتَّبْكِيتِ . وَنَقَلَ الْإِمَامُ عَنِ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّهُمْ قَالُوا : إِنَّ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يُحَرِّمُونَ بَعْضَ الْأَنْعَامِ

(287/254)

---

فَاحْتَجَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى إِبْطَالِ ذَلِكَ بِأَنَّ لِلضَّأْنِ وَالْمَعِزِ وَالْإِبِلِ وَالْبَقَرِ ذَكَرًا وَأُنْثَى ، فَإِنْ كَانَ قَدْ حَرَّمَ سُبْحَانَهُ مِنْهَا الذَّكَرَ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ ذُكُورِهَا حَرَامًا ، وَإِنْ كَانَ حَرَّمَ جَلَّ شَأْنُهُ الْأُنْثَى وَجَبَ

(288/254)

---

أَنْ يَكُونَ إِنَاثُهَا حَرَامًا ، وَإِنْ كَانَ حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإِنَاثِ وَجَبَ تَحْرِيمُ الْأَوْلَادِ كُلِّهَا لِأَنَّ الْأَرْحَامَ تَشْتَمِلُ عَلَى الذُّكُورِ وَالْإِنَاثِ . وَتَعَقَّبَهُ بِأَنَّهُ بَعِيدٌ جِدًّا لِأَنَّ

لِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ : هَبْ أَنَّ هَذِهِ الْأَجْنَاسَ الْأَرْبَعَةَ مَحْصُورَةٌ فِي الذُّكُورِ وَالْإِنَاثِ إلَّا أَنَّهُ لَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ عِلَّةُ تَحْرِيمِ مَا حَكَمُوا بِتَحْرِيمِهِ مَحْصُورَةً فِي الذُّكُورَةِ وَالْأُنُوثَةِ ، بَلْ عِلَّةُ تَحْرِيمِهَا كَوْنُهَا بَحِيرَةً أَوْ سَائِبَةً أَوْ وَصِيلَةً أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الِاعْتِبَارَاتِ ، كَمَا إذَا قُلْنَا : إنَّهُ تَعَالَى حَرَّمَ ذَبْحَ بَعْضِ الْحَيَوَانَاتِ لِأَجْلِ الْأَكْلِ ، فَإِذَا قِيلَ : إنَّ ذَلِكَ الْحَيَوَانَ إنْ كَانَ قَدْ حُرِّمَ لِكَوْنِهِ ذَكَرًا وَجَبَ أَنْ يُحَرَّمَ كُلُّ حَيَوَانٍ ذَكَرٍ ، وَإِنْ كَانَ قَدْ حُرِّمَ لِكَوْنِهِ أُنْثَى وَجَبَ أَنْ يُحَرَّمَ كُلُّ حَيَوَانٍ أُنْثَى ، وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ هَذَا الْكَلَامُ لَازِمًا عَلَيْهِ فَكَذَا هُوَ الْوَجْهُ الَّذِي ذَكَرَهُ الْمُفَسِّرُونَ . ثُمَّ ذَكَرَ فِي الْآيَةِ وَجْهَيْنِ مِنْ عِنْدِهِ وَفِيمَا ذَكَرْنَا غِنًى عَنْ نَقْلِهِمَا ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْأُنْثَيَيْنِ فِي الضَّأْنِ وَالْمَعِزِ وَالْبَقَرِ : الْأَهْلِيُّ وَالْوَحْشِيُّ ، وَفِي الْإِبِلِ : الْعَرَبِيُّ وَالْبُخْتِيُّ ، وَهُوَ مِمَّا لَا يَنْبَغِي أَنْ يُلْتَفَتَ إلَيْهِ ، وَمَا رُوِيَ عَنْ لَيْثِ بْنِ سُلَيْمٍ لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ ، وَقَوْلُ الطَّبَرْسِيِّ إنَّهُ الْمَرْوِيُّ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ كَذِبٌ لَا أَصْلَ لَهُ وَهُوَ " شِنْشِنَةٌ

(289/254)

---

أَعْرِفُهَا مِنْ أَخْزَمَ " اهـ .

وَأَقُولُ : إنَّ قَوْلَ الرَّازِيِّ إنَّ عِلَّةَ تَحْرِيمِ مَا حَرَّمُوا مِنَ الْأَنْعَامِ هِيَ كَوْنُهَا بَحِيرَةً أَوْ سَائِبَةً أَوْ وَصِيلَةً لَا كَوْنُهَا ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى أَوْ حَمْلًا لَهَا - فِيهِ أَنَّ الْإِنْكَارَ عَلَيْهِمْ فِي جَعْلِهِمْ إيَّاهَا كَذَلِكَ كَمَا

هُوَ صَرِيحُ آيَةِ الْمَائِدَةِ فَهُوَ جَهْلٌ لَا يُعْقَلُ أَنْ يَكُونَ عِلَّةَ التَّحْرِيمِ فَالْحَرَامُ مِنْهُ مِثْلُ الْحَلَالِ ، وَمَا ذُكِرَ فِي التَّفْصِيلِ فِي الْإِنْكَارِ يُذَكِّرُ الْمُفَكِّرَ الْمُسْتَقِلَّ بِأَنَّ مَا قَالُوهُ عَيْنُ الْجَهْلِ ، وَهُوَ مَا انْفَرَدْنَا بِبَيَانِهِ آنِفًا .

(290/254)

---

وَقَوْلُهُ : (أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا) بَعْدَ تَعْجِيزِهِمْ عَنِ الْإِتْيَانِ بِعِلْمٍ يُؤْثَرُ عَنْ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ بِتَحْرِيمِ مَا زَعَمُوا ، أَلْزَمَهُمْ هُنَا ادِّعَاءَ تَحْرِيمِ اللَّهِ إِيَّاهُ عَلَيْهِمْ بِوَصِيَّةٍ سَمِعُوهَا مِنْهُ ; لِأَنَّ الْعِلْمَ عَنِ اللَّهِ إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِرِوَايَةِ رَسُولٍ لَهُ يُخْبِرُ بِوَصِيَّةٍ عَنْهُ ، أَوْ يُتَلَقَّى ذَلِكَ مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِغَيْرِ وَاسِطَةِ رَسُولٍ ، وَالشُّهَدَاءُ هُمُ الْحُضُورُ الْمُشَاهِدُونَ لِلشَّيْءِ وَهُوَ جَمْعُ شَهِيدٍ . وَالْمَعْنَى : أَعِنْدَكُمْ عِلْمٌ يُؤْثَرُ عَنْ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ فَنَبِّئُونِي بِهِ ، أَمْ شَاهَدْتُمْ رَبَّكُمْ فَوَصَّاكُمْ بِهَذَا التَّحْرِيمِ كِفَاحًا بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ ؟ وَهُمْ لَا يَدَّعُونَ هَذَا وَلَا ذَاكَ وَإِنَّمَا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ بِدَعْوَى التَّحْرِيمِ افْتِرَاءً مُجَرَّدًا مِنْ كُلِّ عِلْمٍ ، وَيُقَلِّدُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي قَوْلِهِ : إِنَّ اللَّهَ أَمَرَكُمْ بِتَحْرِيمِ مَا حَرَّمُوا وَاقْتِرَافِ كُلِّ مَا اقْتَرَفُوا كَمَا قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ : (وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا

(291/254)

بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (7 : 28) وَالِاسْتِفْهَامُ الْإِنْكَارِيُّ هُنَا يَتَضَمَّنُ التَّهَكُّمَ بِهِمْ ، إذْ كَانُوا بِعَدَمِ اتِّبَاعِ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ كَالْمُدَّعِينَ عَلَى إنْكَارِهِمْ لِلرِّسَالَةِ بِأَنَّهُمْ يُشَاهِدُونَ اللَّهَ وَيَتَلَقَّوْنَ مِنْهُ أَحْكَامَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، وَمَا اسْتَبْعَدَتْهُ أَنْظَارُهُمُ السَّقِيمَةُ مِنَ الْوَحْيِ أَقْرَبُ مِنْ هَذَا الَّذِي يَقَعُونَ فِيهِ بِإِنْكَارِهِمْ لَهُ بِمِثْلِ قَوْلِهِمْ : (مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ) (91) وَإِلَّا لَزِمَهُمُ الِافْتِرَاءُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى لِإِضْلَالِ عِبَادِهِ وَهُوَ أَشَدُّ الظُّلْمِ الَّذِي يَجْنِيهِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى تَعْقِيبًا عَلَى مَا تَقَدَّمَ : (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ) أَيْ وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ وَقَامَتْ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةُ بِهِ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا بِتَحْرِيمِ مَا لَمْ يُشَرِّعْهُ وَشَرْعِ مَا لَمْ يُشَرِّعْهُ ، لِيُضِلَّ النَّاسَ بِهِ بِحَمْلِهِمْ عَلَى اتِّبَاعِهِ فِيهِ مَعَ نِسْبَتِهِ إلَى اللَّهِ تَعَالَى بِغَيْرِ عِلْمٍ مَا يَكُونُ حُجَّةً لَهُ فِيهِ . وَالِاسْتِفْهَامُ إنْكَارِيٌّ وَالْمَعْنَى لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِنْكُمْ لِأَنَّكُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُفْتَرِينَ عَلَى اللَّهِ بِقَصْدِ الْإِضْلَالِ عَنْ جَهْلٍ عَامٍّ تَامٍّ . فَالْعِلْمُ الْمَنْفِيُّ يَشْمَلُ مَا يُؤْثَرُ أَوْ يُعْقَلُ وَيُسْتَنْبَطُ كَالنَّظَرِ الْعَقْلِيِّ وَالتَّجَارِبِ الْعَمَلِيَّةِ ، وَطُرُقِ دَرْءِ الْمَفَاسِدِ وَالشُّرُورِ وَالْمَضَارِّ

وَتَقْدِيرِ الْمَصَالِحِ وَالْمَنَافِعِ وَعَمَلِ الْبِرِّ وَالْخَيْرِ ، كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ تَنْكِيرُهُ فِي حَيِّزِ النَّفْيِ الْمُسْتَفَادِ مِنْ كَلِمَةِ غَيْرِ ، فَإِنْ قِيلَ : مَا حِكْمَةُ نَفْيِ كُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِلْمِ فِي أَمْرِ التَّشْرِيعِ الدِّينِيِّ الَّذِي لَيْسَ لَهُ مَصْدَرٌ غَيْرُ وَحْيِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ ؟ قُلْنَا : هِيَ تَسْجِيلُ الْجَهْلِ الْعَامِّ الْمُطْلَقِ عَلَيْهِمْ عَامَّةً . وَسُوءُ النِّيَّةِ عَلَى مُفْتَرِي ذَلِكَ لَهُمْ خَاصَّةً بِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ أَثَارَةٌ مِنْ عِلْمٍ ، وَلَا قَصْدٌ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْهُدَى إِلَى حَقٍّ أَوْ خَيْرٍ ، وَتَسْجِيلُ الْغَبَاوَةِ وَعَمَى الْبَصِيرَةِ عَلَى مُتَّبِعِيهِ بِمَحْضِ التَّقْلِيدِ مِنْ غَيْرِ عَقْلٍ وَلَا هُدًى .

وَقَدْ وُجِدَ فِي الْبَشَرِ أُنَاسٌ آخَرُونَ تَفَكَّرُوا وَبَحَثُوا فِي الْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ وَمَا يَجِبُ أَنْ يُشْكَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ تَعَبُّدًا مِنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَفِعْلِ الْخَيْرَاتِ الَّتِي يَدُلُّ عَلَيْهَا الْعَقْلُ ، وَفِيمَا يَنْبَغِي

(293/254)

---

اجْتِنَابُهُ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ ضَارٍّ بِالْبَدَنِ أَوِ الْعَقْلِ – وَهُمُ الْحُكَمَاءُ – فَأَصَابُوا فِي بَعْضِ مَا هَدَتْهُمْ إِلَيْهِ عُقُولُهُمْ وَتَجَارِبُهُمْ ، وَأَخْطَئُوا فِي بَعْضٍ ، فَكَانُوا خَيْرَ النَّاسِ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِلنَّاسِ فِي فَتَرَاتِ الرُّسُلِ الَّتِي فُقِدَتْ فِيهَا هِدَايَةُ الْوَحْيِ . وَهُمُ الْمُشَارُ إِلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) (3 : 21) فَالَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ وَهُوَ الْعَدْلُ وَالِاعْتِدَالُ فِي

الْأَخْلَاقِ وَالْآرَاءِ وَالْأَعْمَالِ وَبِشُكْرِ الْمُنْعِمِ هُمْ حُكَمَاءُ الْبَشَرِ وَعُقَلَاؤُهُمْ ، وَقَدْ وَضَعَ قُصَيٌّ لِلْعَرَبِ سُنَنًا حَسَنَةً لِسِقَايَةِ الْحَاجِّ وَرِفَادَتِهِمْ وَإِطْعَامِهِمْ وَلِلشُّورَى فِي الْخُطُوبِ ، وَمِنْ أَعْمَالِ قُرَيْشٍ

الْحَسَنَةِ حِلْفُ الْفُضُولِ لِمَنْعِ الظُّلْمِ وَقَدْ مَدَحَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ الْإِسْلَامِ لِأَنَّهُ مِنَ الْأَمْرِ بِالْقِسْطِ بِسَائِقِ الْعَقْلِ وَسَلَامَةِ الْفِطْرَةِ وَمِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ مَنْ حَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ الْخَمْرَ لِمَفَاسِدِهَا . وَيَدُلُّ هَذَا الْقَيْدُ عَلَى تَعْظِيمِ الْإِسْلَامِ لِشَأْنِ الْعِلْمِ وَلَهُ نَظَائِرُ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ عَمْرَو بْنَ لُحَيٍّ الْخُزَاعِيَّ هُوَ أَوَّلُ مَنْ سَيَّبَ لَهُمُ السَّوَائِبَ وَبَحَّرَ الْبَحَائِرَ وَغَيَّرَ دِينَ إِسْمَاعِيلَ فَاتَّبَعُوهُ ، وَسَنَعْقِدُ لِهَذَا فَصْلًا خَاصًّا وَفَاءً بِمَا وَعَدْنَا فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْمَائِدَةِ .

(294/254)

---

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) إِلَى الْحَقِّ وَالْعَدْلِ . لَا مِنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ وَلَا مِنْ طَرِيقِ الْعِلْمِ . فَإِنَّهُمْ مَا دَامُوا مُتَّصِفِينَ بِالظُّلْمِ مُتَعَاوِنِينَ عَلَيْهِ فَهُوَ يَصُدُّهُمْ عَنِ اسْتِعْمَالِ عُقُولِهِمْ ، فِيمَا يَهْدِيهِمْ إِلَى صَوَابِهِمْ ، وَإِذَا كَانَ هَذَا شَأْنَ الظَّالِمِينَ مَهْمَا تَكُنْ دَرَجَةُ ظُلْمِهِمْ فَكَيْفَ يَكُونُ

أَظْلَمُ النَّاسِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَهُمُ الَّذِينَ وَصَفَتِ الْآيَةُ ظُلْمَهُمْ بِالِافْتِرَاءِ عَلَى اللهِ لِإِضْلَالِ عِبَادِهِ

!.

(295/254)

---

(فَصْلٌ فِي تَارِيخِ وَثَنِيَّةِ الْعَرَبِ الْإِسْمَاعِيلِيِّينَ وَمَا تَبِعَهَا مِنْ هَذِهِ الضَّلَالَةِ) رَوَى أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا " رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرٍ الْخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قَصَبَهُ فِي النَّارِ ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ - زَادَ مُسْلِمٌ - وَبَحَرَ الْبَحِيرَةَ وَغَيَّرَ دِينَ إِسْمَاعِيلَ " وَرَوَى نَحْوَهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ . وَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي بَابِ قِصَّةِ خُزَاعَةَ مِنْ كِتَابِ الْمَنَاقِبِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَبْلَ حَدِيثِهِ الْمَذْكُورِ آنِفًا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " عَمْرُو بْنُ لُحَيِّ بْنِ قَمَعَةَ بْنِ خِنْدِفٍ أَبُو خُزَاعَةَ " قَالَ الْحَافِظُ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ مِنَ الْفَتْحِ : وَأَوْرَدَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي السِّيرَةِ الْكُبْرَى عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ أَتَمَّ مِنْهُ . وَلَفْظُهُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لِأَكْثَمَ بْنِ الْجَوْنِ : " رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ لُحَيٍّ يَجُرُّ قَصَبَهُ فِي النَّارِ ؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إِسْمَاعِيلَ فَنَصَبَ الْأَوْثَانَ وَسَيَّبَ السَّائِبَةَ وَبَحَرَ الْبَحِيرَةَ وَوَصَلَ الْوَصِيلَةَ وَحَمَى الْحَامِيَ " ثُمَّ قَالَ الْحَافِظُ : وَذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ أَنَّ سَبَبَ عِبَادَةِ لُحَيٍّ لِلْأَصْنَامِ أَنَّهُ خَرَجَ إِلَى

الشَّامِ وَبِهَا يَوْمَئِذٍ الْعَمَالِيقُ وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ فَاسْتَوْهَبَهُمْ وَاحِدًا مِنْهَا وَجَاءَ إِلَى مَكَّةَ فَنَصَبَهُ إِلَى الْكَعْبَةِ (وَهُوَ هُبَلُ) وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ قَدْ فَجَرَ رَجُلٌ

(296/254)

---

يُقَالُ لَهُ أَسَافٌ بِامْرَأَةٍ يُقَالُ لَهَا نَائِلَةُ فِي الْكَعْبَةِ فَمَسَخَهُمَا اللهُ جَلَّ وَعَلَا حَجَرَيْنِ فَأَخَذَهُمَا عَمْرُو بْنُ لُحَيٍّ فَنَصَبَهُمَا حَوْلَ الْكَعْبَةِ فَصَارَ مَنْ يَطُوفُ يَتَمَسَّحُ بِهِمَا يَبْدَأُ بِأَسَافٍ وَيَخْتِمُ بِنَائِلَةَ .

(297/254)

---

وَفِي تَفْسِيرِ سُورَةِ نُوحٍ مِنْ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ عَنْ عَطَاءٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ الْأَوْثَانِ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ وَدٍّ وَسُوَاعٍ وَيَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرٍ - أَنَّهَا كَانَتْ أَسْمَاءَ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ ، فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَنُسِخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ . وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ فِيهِمْ قَالَ : كَانُوا

قَوْمًا صَالِحِينَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ ، فَنَشَأَ قَوْمٌ بَعْدَهُمْ يَأْخُذُونَ كَأَخْذِهِمْ فِي الْعِبَادَةِ ، فَقَالَ لَهُمْ إِبْلِيسُ : لَوْ صَوَّرْتُمْ صُوَرَهُمْ فَكُنْتُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيْهَا فَصَوَّرُوا ثُمَّ مَاتُوا فَنَشَأَ قَوْمٌ بَعْدَهُمْ . فَقَالَ لَهُمْ إِبْلِيسُ : إِنَّ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَهَا ، فَعَبَدُوهَا . وَمَعْنَى قَوْلِ إِبْلِيسَ وَحْيُهُ وَوَسْوَسَتُهُ . وَكَانَتِ الْعِبَادَةُ لَهُمْ تَوَسُّلًا بِهِمْ وَاسْتِشْفَاعًا وَتَقَرُّبًا إِلَى اللهِ وَذَبَائِحَ تُذْبَحُ لَهُمْ مَنْذُورَةً أَوْ غَيْرَ مَنْذُورَةٍ ، وَطَوَافًا بِتَمَاثِيلِهِمْ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا يَفْعَلُ الْآنَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَمَنِ اتَّبَعَ سُنَنَهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ مِصْدَاقًا لِلْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ ، فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَا يَتَّخِذُونَ لِلْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ صُوَرًا وَلَا تَمَاثِيلَ يُعَظِّمُونَهَا وَيَطُوفُونَ بِهَا وَيَذْبَحُونَ عِنْدَهَا ، وَإِنَّمَا اسْتَبْدَلُوا

(298/254)

---

الْقُبُورَ الْمُشَيَّدَةَ وَمَا يَضَعُونَهُ عَلَيْهَا بِالتَّمَاثِيلِ . وَقَدْ تَسَاهَلَ بَعْضُ مُقَلِّدَةِ الْفُقَهَاءِ فِي إِنْكَارِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ ، بَلْ قَالُوا أَقْوَالًا جَرَّأَتِ النَّاسَ عَلَى اسْتِحْسَانِ هَذِهِ الْبِدَعِ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ إِنَّ قُبُورَ الصَّالِحِينَ تُزَارُ لِلتَّبَرُّكِ بِهَا . وَإِجَازَةِ بَعْضِهِمْ تَشْرِيفَهَا بِالْبِنَاءِ وَكِسْوَتِهَا كَالْكَعْبَةِ وَاتِّخَاذَهَا مَسَاجِدَ خِلَافًا لِلْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ ، وَتَشْرِيعًا شِرْكِيًّا لِتَرْوِيجِ الشِّرْكِ ، وَقَدْ ذَكَرَ السُّهَيْلِيُّ فِي التَّعْرِيفِ أَنَّ وُدًّا وَسُوَاعًا وَيَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا كَانُوا يَتَبَرَّكُونَ بِدُعَائِهِمْ ،

وَذَكَرَ غَيْرُهُمْ أَنَّهُمْ صَوَّرُوهُمْ لِيَتَذَكَّرُوا بِصُوَرِهِمْ وَتَمَاثِيلِهِمْ مَا كَانَ مِنْ عِبَادَتِهِمْ لِلَّهِ تَعَالَى فَيَقْتَدُوا بِهِمْ ، وَهَكَذَا فَعَلَ النَّصَارَى بِصُوَرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَمَا زَالَ بَعْضُهُمْ إلَى الْآنَ يَقُولُونَ : إنَّهُمْ لَا يَعْبُدُونَ هَذِهِ الصُّوَرَ الَّتِي يَتَّخِذُونَهَا فِي كَنَائِسِهِمْ ، بَلْ يُرِيدُونَ بِوَضْعِهَا فِيهَا تُذَكِّرَ أَصْحَابَهَا لِلِاقْتِدَاءِ بِهِمْ ، وَتَعْظِيمَهُمْ بِالتَّبَرُّكِ بِهَذِهِ الذِّكْرَى ، وَلَا أَزَالُ أَذْكُرُ كَلِمَةَ رَاهِبٍ قَالَهَا لِي فِي كَنِيسَةِ دَيْرِ الْبَلْمَنْدِ فِي جَبَلِ لُبْنَانَ ، وَهِيَ أَوَّلُ كَنِيسَةٍ دَخَلْتُهَا لِأَجْلِ التَّفَرُّجِ وَالِاخْتِبَارِ وَكُنْتُ غُلَامًا يَافِعًا ، وَكَانَ ذَلِكَ الرَّاهِبُ يُخْبِرُنِي أَنَا وَمَنْ مَعِي بِمَا فِي الْكَنِيسَةِ وَبِأَسْمَاءِ أَصْحَابِ الصُّوَرِ الَّتِي فِي جُدُرِهَا وَقَدْ قَالَ غَيْرَ مَرَّةٍ إنَّهُمْ لَا يَعْبُدُونَهَا وَلَكِنَّهَا " تِذْكَارٌ " وَكَانَ يُكَرِّرُ

(299/254)

---

كَلِمَةَ " تِذْكَارٌ " وَلَعَلَّهُ كَانَ يَجْهَلُ كَمَا يَجْهَلُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَقِيقَةَ مَعْنَى الْعِبَادَةِ ، فَيَظُنُّ أَنَّ تَعْظِيمَ تِلْكَ الصُّوَرِ وَوَضْعَهَا فِي الْكَنَائِسِ وَدُعَاءَهَا وَنِدَاءَهَا وَالنَّذْرَ لَهَا وَالتَّوَسُّلَ وَالِاسْتِشْفَاعَ بِهَا إلَى اللَّهِ

(300/254)

لَا يُسَمَّى عِبَادَةً لَهَا وَلِأَصْحَابِهَا ، وَأَمَّا مُشْرِكُو الْعَرَبِ فِي زَمَنِ الْبَعْثَةِ فَلَمْ يَكُونُوا يَجْهَلُونَ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ يُسَمَّى عِبَادَةً ; لِأَنَّ اللُّغَةَ لُغَتُهُمْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عُرْفٌ دِينِيٌّ مُخَصِّصٌ لِعُمُومِ الْعِبَادَةِ اللُّغَوِيِّ وَلَا بَاعِثٌ عَلَى التَّأْوِيلِ أَوِ التَّحْرِيفِ ، فَكَانُوا يُصَرِّحُونَ بِأَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ أَصْنَامَهُمْ وَيُسَمُّونَهَا آلِهَةً ; لِأَنَّ الْإِلَهَ هُوَ الْمَعْبُودُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَبًّا خَالِقًا ، وَيَقُولُونَ كَمَا أَخْبَرَ اللهُ عَنْهُمْ : (هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ) (10 : 18) وَيُسَمُّونَهُمْ أَوْلِيَاءَ أَيْضًا (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى) (39 : 3) الْآيَةَ . وَقَدْ فَعَلَ أَهْلُ الْكِتَابِ وَمَنِ اتَّبَعَ سُنَنَهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ ذَلِكَ وَلَكِنْ سَمَّوْهُ تَوَسُّلًا وَأَنْكَرُوا تَسْمِيَتَهُ عِبَادَةً وَالتَّسْمِيَةُ لَا تُغَيِّرُ الْحَقَائِقَ وَكَذَلِكَ تَغْيِيرُ الْمَعْبُودَاتِ مِنَ الْبَشَرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَمَا يُذَكَّرُ بِهَا مِنْ صُورَةٍ وَتِمْثَالٍ أَوْ قَبْرٍ أَوْ تَابُوتٍ كَالتَّابُوتِ الَّذِي يَتَّخِذُهُ بَعْضُ أَهْلِ الْهِنْدِ لِلشَّيْخِ الصَّالِحِ عَبْدِ الْقَادِرِ الْجِيلَانِيِّ ، فَكُلُّ تَعْظِيمٍ دِينِيٍّ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ أَوِ الْأَشْخَاصِ بِمَا ذُكِرَ أَوْ غَيْرِهِ مِمَّا لَمْ يَرِدْ بِهِ شَرْعٌ عِبَادَةٌ لَهَا وَإِشْرَاكٌ مَعَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ حَيْثُ ذَاتِهِ وَمِنْ حَيْثُ كَوْنِهِ شَرْعًا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار جـ 8 صـ 115. 129 ﴾

*(301/254)*

ومن فوائد الشيخ الشعراوى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ﴾

ومن البقر اثنين : ذكر وأنثى أيضاً ، والذكر من البقر نسميه ثوراً ، ويخطئ بعض الناس في تسمية الأنثى من البقر " بقرة " ، إن البقرة اسم لكل واحد منهما : للذكر والأنثى ، والتاء في بقرة للواحدة ، واسم الأنثى " ثورة " ﴿ وَمِنَ الإبل اثنين وَمِنَ البقر اثنين قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأنثيين ﴾ أنتم تقولون : إنكم لم تتبعوا رسولاً ، وكنتم على فترةٍ من الرُّسل ، ولم يأت لكم رسول ، إذن فلا تحريم إلا من الله ، ولا يبلغكم تحريم الله إلا عن طريق رسول . بل أكنتم شهداء مسألة التحريم ، أي أشاهدتم ربكم ورأيتموه حين أمركم بهذا التحريم ، أم أنتم الأنبياء ؟ . إنكم تتعمدون الكذب على الله لإِضلال الناس . إذن ، فالحق لا يهدي من يظلم نفسه ويظلم الناس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

*(302/254)*

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (143) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (144) ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه من طرق عن ابن عباس قال : الأزواج الثمانية من الإبل والبقر والضأن والمعز .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ ثمانية أزواج . . . ﴾ الآية . يقول : أنزلت لكم ثمانية أزواج الآية ، من هذا الذي عددن ذكراً وأنثى .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ ثمانية أزواج ﴾ قال : الذكر والأنثى زوجان .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ ثمانية أزواج ﴾ قال : في شأن ما نهى الله عنه عن البحيرة والسائبة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ليث بن أبي سليم قال : الجاموس والبختي من الأزواج الثمانية .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس في قوله ﴿ ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ﴾ قال : فهذه أربعة أزواج ﴿ قل ءآلذكرين حرم أم الأنثيين ﴾ يقول : لم أحرم شيئاً من ذلك ﴿ أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ﴾ يعني هل تشتمل الرحم إلا

على ذكر أو أنثى ، فلم تحرمون بعضاً وتحلون بعضاً ؟ ﴿ نبئوني بعلم إن كنتم صادقين ﴾ يقول : كله حلال : يعني ما تقدم ذكره مما حرمه أهل الجاهلية .

(303/254)

---

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن في قوله ﴿ أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ﴾ قال : ما حملت الرحم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ ءآلذكرين حرم . . . ﴾ الآية . قال : إنما ذكر هذا من أجل ما حرموا من الأنعام ، وكانوا يقولون : الله أمرنا بهذا . فقال ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(304/254)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله تعالى : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ في نصبه ستة أوجه :

أحسنها : أن يكُون بدلاً من " حملوة وفَرْشاً لولا ما نَقَله الزَّجَّاج من الإجماع المُتقدّم ، ولكن ليس فيه أنَّ ذلك مَحْصُول في الإبل ، والقَوْل بالبدل هو قَوْل الزَّجَّاج والفرَّاء .

والثاني : أنه مَنْصُوب بـ " كُلُوا " الذي قَبْلَه أي : كُلُوا ثمانية أزْوَاج ، ويكن قوله – تعالى – : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعُوا ﴾ إلى آخره كالمُعَتَرِض بين الفِعْل ومَنْصُوبه ، وهو قول عَلِيّ بن سُلَيْمَان وقدَّرَه : كُلُوا لَحْم ثَمَانِية .

وقال أبو البَقَاء – رحمها الله – : هو مَنْصُوب بـ " كُلُوا " تقديره : كلوا مِمَّا رزقَكُم اللَّه ثمانية أزْوَاج ، " ولا تسرفوا " مُعْتَرِض بَيْنَهُما .

قال شهاب الدِّين : صوابه أن يقول : " ولا تَتَّبِعُوا " بدل " ولا تُسْرِفُوا " ؛ لأن كُلُوا – الذي يَلِيه " ولا تُسْرِفوا " – ليس مُنْصَبًّا على هذا ؛ لأنه بعيد منه ، ولأن بَعْده ما هو أوْلَى منه بالعمل ، ويحتمل أن يَكُون الناسخ غَلَط عَلَيْه ، وإنما قال هو : " ولا تَتَّبِعُوا " ؛ ويدل على ذلك أنه قال : " تقديره : كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُم اللَّه " و " كُلُوا " الأوَّل ليس بَعْدَه " مِمَّا رَزقكُم " ، إنما هو بَعْد الثَّاني .

الثالث : أنه عَطْف على " جَنَّاتٍ " أي : أنْشَا ثَمَانِية أزْوَاج ، ثم حُذِفَ الفِعْل وحَرْف العَطْفِ ؛ وهو مذهب الكسَائِيّ .

قال أبو البقاء : " وهو ضعيف " .

قال شهاب الدين : الأمْر كذلك وقد سُمِع ذلك في كلامهم نَثْراً ونَظْماً : ففي النثر قوله : " أكلتُ لَحْماً سمَكاً تَمْراً " وفي نَظْمِهم قول الشاعر : [ الخفيف ]

2362 - كَيْفَ أصْبحْتَ كَيْف أمْسَيْتَ مِمَّا . . .

يَزْرَعُ الوُدَّ في فؤادِ الكَرِيم

أي : أكلت لَحْماً وسمكاً وتمراً ، وكيف أصْبَحْت وكيف أمْسَيْت ، وهذا على أحَدِ القولين في ذلك .

*(305/254)*

---

والقول الثاني : أنه بدل بداء ؛ ومنه الحديث : " إنَّ الرَّجُل لَيصَلَّى الصَّلاة ، وما كُتِبَ له نِصْفُهَا ثلثُهَا رُبْعُها " إلى أنْ وَصَلَ إلى العُشْرِ .

الرابع : انه مَنْصُوبٌ بفعل مَحْذُوفٍ مدلول عليه بما في اللَّفْظِ ، تقديره : كُلُوا ثمانية أزْوَاج ؛ وهذا أضْعَفُ مما قبله .

الخامس : أنه مَنْصُوب على الحالِ ، تقديره : مُخْتَلفة أو متعدّدَة ، وصاحب الحال : " الأنْعَام " فالعَامِل في الحال ما تعلَّق به الجَارُّ وهو " مِنْ "

السادس : أنه مَنْصُوب على البدل من محلِّ " مِمَّا رَزَقَكُم اللَّه " .

فصل في بيان كلمة " زَوْج "

الوَاحِد إذا كان وَحده فهو فَرْد ، وإذا كان مَعَهُ غيره من جِنْسِه سُمِّي زَوْجاً وهما زَوْجَان ؛ قال – تعالى _ : ﴿ خَلَقَ الزوجين الذكر والأنثى ﴾ [ النجم : 45 ] وقال : " ثَمَانِيَةَ أَزْوَاج " ثم فَسَّرها بقوله : " من الضَّأنِ اثْنَيْنِ ومِن المَعْزِ اثْنَيْنِ ومِنَ البَقَرِ اثْنَيْنِ " .

قال القرطبي : والزَّوْج : خلاف الفَرْد ؛ يقال : زَوْج أو فَرْد كما يقال خَسا أو ذَكا ، شفع ، أو وتر فقوله : " ثَمَانِيَةَ أَزْواجِ " يعني ثمانية أفراد وكُلُّ فرد عنه العرب يحتاج على آخر يُسَمَّى زوجاً ، يقال للذكر : زوج وللأنثى زَوْجٌ ، ويقع لَفْظُ الزَّوْج للواحد والاثْنَيْن ، يقال : هما زَوْجَان وهما : زوْجٌ ؛ كما يقال : هما سِيَّان وهما سَوَاء ، وتقول : اشْتَرَيْت زَوْجِيْ حَمَام وأنت تعني : ذكراً وأُنْثَى .

قوله : " مِنَ الضَّأنِ اثْنَيْن " في نصب " اثْنَيْنِ " وجهان :

أحدهما : أنه بَدَلٌ من " ثَمَانِيَةَ أَزْوَاج " وهو ظَاهِر قول الزَّمَخْشَري ؛ فإنه قال : والدَّلِيلُ عليه " ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ " ثم فسَّرها بقوله : " مِنَ الضَّأنِ اثْنَيْنِ الآية ؛ وبه صرح أبو البقاءِ فقال : " واثْنَيْنِ بدل من الثَّمانية وقد عُطِف عَلَيْه بقيَّة الثمانية " .

*(306/254)*

والثاني : أنه مَنْصُوب بـ " أُنْشَا " مقدَّراً ؛ وهو قول الفَارِسيِّ و " مِنْ " تتعلَّق بما نَصَب " اثْنَيْنِ " .

والجُمْهُور على تسْكِين همزة " الضَّأْن " وهو جَمْع ضَائِن وضائنه ؛ كتاجرٍ وتارجة وتَجْر ، وصَاحِبٍ وصَاحِبَة وصَحْب ، وراكب ورَكْب .

وقرأ الحسن وطلحة بن مُصَرِّف وعيسى نب عمر : " الضَّأَن " بفتحها ؛ وهو إمَّا جمع تكْسِير لضَائِنٍ ؛ كما يقال : خَادِم وخَدَمن وحَارِس وحَرَس ، وطَالِب وطَلَب ، وإما اسْمُ جمعٍ ، ويجمع الضَّأْنُ على ضَئِين ؛ كما يقال : كَلْب وكَلِيبٌ ؛ قال القائل : [ الطويل ]

2364 - أَسِرْبَ القَطَا هَلْ مَنْ يُعِيرُ جَنَاحَهُ . . .

لَعَلِّي إلى أَرْضِ الحَبيبِ أَطِير

وقرا أبان بن عُثْمَان : اثنان بالرَّفْع على الابتداء ، والخَبَر الجَارُّ قَبْلَه ، وقرأ بان كثير وأبو عمرو وابنُ عامر : " المَعَز " بفتح العين والباقون بسُكُونِها ، وهما لُغَتَان في جَمْع مَاعِز ، وقد تقدَّم أن فَاعِلاً يجمع على فَعْلٍ تارة ، وعلى فَعَل أخرى ؛ كتَاجِر وتَجْر وخَادِم وخَدْم ، وتقدَّم تحقيقه ، ويُجْمَع أيضاً على مِعْزَى وبها قرأ أُبَيٌّ ، قال امْرُؤ القيس : [ الوافر ]

2365 - أَلا إنْ لا تَكُنْ إبلٌ فَمِعْزَى . . .

كَأَنَّ قُرُونَ جِلَّتِهَا العصِيُّ

وقال أبو زَيْد : إنه يَجْمَع على أَمْعُوزٍ ؛ وأنشد : [ الكامل ]

2366 - . . . . . .

كالتّيْسِ فِي أمْعُوزِهِ المُتَرَبِّل

ويُجْمَع أيضاً على مَعْيز ؛ وأنْشَدُوا لامرئ القيس : [ الوافر ]

2367 - ويَمْنَحُهَا بَنُوا شَمَجَى بْنِ جَرْمٍ . . .

مَعِيزَهُم حَنَانَكَ ذَا الحَنَانِ

*(307/254)*

---

قال القُرْطُبِيُّ : والمعْزُ من الغَنَمِ خلاف الضَّأنِ ، وهي ذَوَات الأشْعَار والأذْنَاب القِصَار ، وهو اسم جِنْسٍ ، وكذلك المَعَزَ والمعيزُ والأمعُوز والمِعْزى ، وواحد المِعْزَ ، ماعز ؛ مثل صَاحِب وصَحْبٍ ، والأنْثى ماعِزَة وهي العنز والجَمع مَوَاعِز ، وأمْعز القَوْمُ : كثرة مَعْزَاهُم ، والمعّاز : صَاحِبُ المِعْزى والمَعَز : الصَّلابة من الأرْضِ ، والأمْعَز : المكان الصُّلب الكَثِير الحَصَى ، والمعزاء أيضاً ، واستمعز الرَّجُل في امْر ، جَدَّ ، والأبل : اسمُ جَمْع لا وَاحِد له من لَفْظِه بل وَاحِده جَمَلٌ نَاقَةٌ وبَعِير ، ولم يَجِيْ اسْم على " فِعِل " عند سيبويه غيره ، وزاج غير سبويه بكِراً وإطِلاً ووِتداً ومِشِطاً ، وسيأتي لهَذا مَزيد بيان في [ سورة ] الغَاشِيَةِ - إن شاء الله تعالى - والنِّسبَة إليه إبَلِيّ بِفَتْح البَاءِ يَتوالى كَسْرَتَانِ مع ياءَيْن .

قوله : " آلذَّكرين حَرَّمَ " آلذّكرَيْن : منصوب بما بَعْدَه ؛ وسبب إيلائه الهمزة ما تقدَّم في قوله : ﴿ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ ﴾ [ المائدة : 116 ] و" أم " عاطفة للأنْثَيَيْن على الذَّكَرَيْن ؛ وكذلك " أمْ " الثانية عَاطِفة " مَا " الموْصُولة على ما قَبْلَها ، فمحلُّها نصب ، تقديرُه : أم الَّذِي اشْتَمَلت عليه أرْحَام ، فلما التقت الميم سَاكِنَةً مع ما بَعْدَها ، وجب الإدْغَام .

قال القُرْطُبي : ووردَت المدَة مع أل الوصْل ؛ لتفرق بين الاسْتِفْهَام والخبر ، ويجوز حَذْف الهَمْزة ؛ لأن " أم " تَدُلُّ على الاسْتِفْهَام ؛ كقوله : [ المتقارب ]

2368 - تَرُوحُ مِنَ الحَيِّ أمْ تَبْتَكِرْ . . .

ومَاذَا يَضيرُكَ لَوْ تَنْتَظِرْ

(308/254)

---

و " أمْ " في قوله - تعالى - : " أمْ كُنْتُم شُهَداءَ " مُنْقَطِعة ليست عَاطِفَة ؛ لأن ما بَعْدَها جُمْلة مستقِلَّةٌ بنفسها فتُقَدَّر بـ " بَلْ " والهمزة ، والتَّقْدِير : بل أكُنْتُم شُهَدَاء ، و" إذا " : مَنْصُوب بـ " شُهَدَاء " أنكر عَلَيْهم ما ادَّعُوه ، وتهكَّم بهم في نِسْبتهم إلى الحُضُور في وَقْتِ الإيصَاءِ بذلك ، و" بهذا " : إشارة إلى جَمِيع ما تقدَّم ذكره من المُحَرَّمات عندهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 476 . 408 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآيات

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً ﴾ .

يعني تسخير الحيوانات للإنسان آية مزية في الفضيلة على المخلوقات . وكما سخَّر الأعيان للإنسان كذلك سخر الأزمان في تصريف الحدثان لخواصّ الإنسان .

قوله جلّ ذكره : ﴿ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ المَعْزِ اثْنَيْنِ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى القَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

الرزق لا يتخصص بالمأكولات بل هو شائعٌ في جميع ما يحصل به الانتفاع . وينقسم الرزق إلى رزق الظواهر ورزق السرائر ، ذلك وجود النعم وهذا شهود الكَرَم بل الخمود في وجود القِدَم .

وللقلب رزق وهو التحقيق من حيث العرفان ، وللروح رزق وهو المحبة بصدق التحرر عن الأكوان ، وللسّر رزق وهو الشهود الذي يكون للعبد وهو قرين العيان .

قوله ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ ﴾ الإشارة من ذكر الضأن أن يتأدَّب العبدُ باستدامة السكون والتزام حُسْنِ الخُلُق ، فإنَّ الضانية مستسلمةٌ لمن يلي عليها ، فلا بصياحها تُؤذِي ولا ( ب . . . . وها ) ، يعني كذلك سبيل من وَطِئَ هذا البساط .

وكذلك "في الإبل آيات" منها انقيادها لمن جَرَّ زِمَامَها ، واستناختها حيثما تُنَاخ ، بلا نزاع ولا اختيار . ومنها ركوبها عند الحَمْل ، ومنها صبرها على مقاساة العطش ، وذوبانها في السير . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 507.508 ﴾

(309/254)

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والخمسون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/255)

---

الجزء الخامس والخمسون بعد المائتين

من الآية ﴿ 145 ﴾ من سورة الأنعام

وحتى الآية ﴿ 147 ﴾ من نفس السورة

(4/255)

---

قوله تعالى ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (145) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تضمن قوله افتراء عليه افتراء على الله والتعبير في ذلك كله بالاسم الأعظم أن كون التحريم ليس إلاّ من الله أمر معلوم ليس موضعاً للشك لأنه الملك الأعظم ولا حكم لغير الملك ، ومن حكم عن غير أمره عذب ؛ حسن بعد إبطال دينهم والبيان لأن من حرم شيئاً بالتشهي مضل وظالم قولُه مبيناً البيان الصحيح لما يحل ويحرم جواباً لمن يقول : فما الذي حرمه سبحانه وما الذي أحله : ﴿ قل ﴾ معلماً بأن التحريم لا يثبت إلاّ بوحي من الله ﴿ لآ أجد ﴾ أي الآن ولا فيما يستقبل من الزمان ، فإن " لا " كلمة لا تدخل على مضارع إلاّ وهو بمعنى الاستقبال ﴿ في ما ﴾ .

ولما كان ما آتاه صلى الله عليه وسلم قد ثبت بعجزهم عن معارضته أنه من الله ، بني للمفعول قوله : ﴿ أوحي إليّ ﴾ أي من القرآن والسنة شيئاً مما تقدم مما حرمتموه مطلقاً أو على حال دون حال وعلى ناس دون آخرين طعاماً ﴿ محرماً على طاعم ﴾ أيّ طاعم كان من ذكر أو أنثى ﴿ يطعمه ﴾ أي يتناوله أكلاً وشرباً أو دواء أو غير ذلك ﴿ إلا أن يكون ﴾ أي ذلك الطعام ﴿ ميتة ﴾ أي شرعاً ، والميتة الشرعية هي ما لا يقبل التذكية ، وهو كل ما زالت حياته بغير ذكاة شرعية ﴿ أو دماً مسفوحاً ﴾ أي مراقاً من شأنه السيلان لا من شأنه الجمود كالكبد والطحال .

ولما كان النصارى قد اتخذوا أكل الخنزير ديناً ، نص عليه وإن كان داخلاً في قوله " ميتة " على ما قررته في المراد بها ، وقال : ﴿ أو لحمِ خنزير ﴾ ليفيد تحريمه على كل حال سواء ذبح أم لا ، ولو قيل : أو خنزيراً لاحتمل أن يراد تحريم ما أخذ منه حياً فقط ، وقال : ﴿ فإنه ﴾ أي الخنزير ﴿ رجس ﴾ ليفيد نجاسة عينه وهو حي ، فلحمه وكذا سائر أجزائه بطريق الأولى ، وكل ما وافقه في هذه العلة كان نجساً ، لا يعاد الضمير على اللحم لأنه قد علمت نجاسته من تحريمه لعينه ، فلو عاد عليه كان تكراراً .

(6/255)

ولما ذكر المحرم لعينه ذكر المحرم لعارض ، فقال مبالغاً في النفي عنه بأن جعله نفس المعنى الذي وقع النهي لأجله : ﴿ أو فسقاً ﴾ أي أو كان الطعام خروجاً مما ينبغي القرار فيه من فسيح جناب الله الذي من توطنه أمن واهتدى وسلم من ضيق الهوى في ذكر الغير الذي من خرج إليه خاف وضل ، وهلك وتوى ؛ ثم قال مفسراً له مقدماً لما هو داخل في الفسق من الالتفات إلى الغير : ﴿ أهل لغير الله ﴾ أي الذي له كل شيء لأن له الكمال كله ﴿ به ﴾ أي ذكر غير اسمه عليه بأن ذبح له تديناً ؛ ثم ذكر لطفه بهذه الأمة في إباحته لهم في حال

الضرورة كل محرم رحمة منه لهم وستراً لتقصيرهم فقال : ﴿ فمن اضطر ﴾ أي حصل له جوع خشي منه التلف ، وبني للمفعول لأن المعتبر حصول الاضطرار لا كونه من معين ، ومن التعبير بذلك تؤخذ حرمة ما زاد على سد الرمق لأنه حينئذٍ لا يكون مضطراً ﴿ غير باغ ﴾ أي على غيره بمكيدة ﴿ ولا عاد ﴾ أي على غيره بقوته ولا متجاوز سد الضرورة ﴿ فإن ربك ﴾ أي المحسن إليك بإرسالك وإلى أمتك الضعيفة بجعل دينها الحنيفية السمحة ﴿ غفور ﴾ أي يمحو الذنب إذا أراد ﴿ رحيم ﴾ أي يكرم المذنب بعد الغفران بأنواع الكرامات ، فهو جدير بأن يمحو عن هذا المضطر أثر تلك الحرمة التي كدرها ويكرمه بأن يجعل له – في حفظه بذلك لنفسه إذا صحت فيه نيته – أجراً عظيماً ، وقد تكلفت الآية على وجازتها بجميع المحرمات من المأكولات مع الإشارة بلفظ الرجس والفسق إلى جميع أصناف المحرمات وإلى أن ارتكابها موجب للخبث والانسلاخ من الخير ، وذلك هو سبب تحريمها ؛ قال الأستاذ أبو الحسن الحرالي في كتاب العروة : وجه إنزال هذا الحرف – أي حرف الحرام – طهرة الخلق من مضار أبدانهم ورجاسة نفوسهم ومجهلة قلوبهم ، فما اجتمعت فيه كان أشد تحريماً وما وجد فيه شيء منها كان تحريمه بحسب تأكد الضرورة إلى طهرته ، وكما اختلف أحوال بني آدم بحسب اختلاف طينتهم من بين خبيث وطيب وما بين ذلك ، اختلف أحوالهم فيما به تجدد

خلقهم من رزقهم ، فمن اغتذى بدنه من شيء ظهرت أخلاق نفس ذلك المغتذى به وأوصافه في نفسه ، ورين على القلب أو صفاء ، لتقويه بما يسمى عليه من ذكر الله أو كفر به بذكر غيره ، وجامع منزله على حده من استثناء قليله من متسع الحلال قوله تعالى

(8/255)

---

﴿ قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرماً على طاعم يطعمه إلاّ أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً ﴾ [ الأنعام : 125 ] هذا لمضرته بالبدن ﴿ أو لحم خنزير ﴾ وهذا لتخبيثه للنفس وترجيسه لها كما قال تعالى ﴿ فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به ﴾ وهذا لرينه على القلب ، وهذه الآية مدنية وأثبتها تعالى في سورة مكية إشعاراً بأن التحريم كان مستحقاً في أول الدين ولكن أخر إلى حين اجتماع جمة الإسلام بالمدينة تأليفاً لقلوب المشركين وتيسيراً على ضعفاء الدين الذين آمنوا واكتفاء للمؤمنين بتنزههم عن ذلك وعما يشبهه استبصاراً منهم حتى أن الصديق رضي الله عنه كان قد حرم الخمر على نفسه في زمن الجاهلية لما رأى فيها من نزف العقل ، فكيف بأحوالهم بعد الإسلام ! وألحق بها في سورة ﴿ الذين آمنوا ﴾ ما كان قتله سطوة من غير ذكر الله عليه من المنخنقة والموقوذة

والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلاّ ما أدرك بالتذكية المنهرة للدم الموصل في التحريم لفساد مسفوحه بما هو خارج عن حد الطعام في الابتداء والأعضاء في الانتهاء المستدركة ببركة التسمية أثر ما أصابها من مفاجأة السطوة ، وألحق بها أيضاً في هذه السورة تحريم الخمر لرجسها كالخنزير كما ألحقت المقتولة بالميتة ، وكما حرم الله ما فيه جماع الرجس من الخنزير وجماع الإثم من الخمر حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان فيه حظ من ذلك ، فألحق بالخنزير السباع حماية من سورة غضبها لشدة المضرة في ظهور الغضب من العبيد لأنه لا يصلح إلاّ لسيدهم ، وحرم الحمر الأهلية حماية من بلادتها وحرانها الذي هو علم غريزة الخرق في الخلق ، وألحق صلى الله عليه وسلم بتحريم الخمر التي سكرها مطبوع تحريمَ المسكر الذي سكره مصنوع ، وكما حرم الله ما يغر العبد في ظاهره وباطنه حرم عليه فيما بينه وبينه ما يقطعه عنه من أكل الربا ، والربا بضع وسبعون باباً والشرك مثل ذلك ، وجامع منزله في قوله تعالى ﴿ الذين يأكلون الربا ﴾ إلى قوله : ﴿ وأحل

(9/255)

---

الله البيع وحرم الربا ﴾ [ البقرة : 275 ] إلى انتهاء ذكره إلى ما ينتظم من ذلك في قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ﴾ [ آل عمران : 113 ] - الآية ما

يلحق بذلك في قوله : ﴿ وما آتيتم من ربا ﴾ [ الروم : 39 ] - الآية ، هكذا قال : إن هذه الآية مدنية ، وهو - مع كوني لم أره لغيره - مشكل بقوله ﴿ وقد فصل لكم ما حرم عليكم ﴾ [ الأنعام : 119 ] - الآية .

*(10/255)*

---

ولما كان تحريم الربا بين الرب والعبد ، كان فيه الوعيد بالإيذان بحرب من الله ورسوله ، ولذلك حمت الأئمة ذرائعه أشد الحماية ، وكان أشدهم في ذلك عالم المدينة حتى أنه حمي من صورته من الثقة بسلامة الباطن منه ، وعمل بضد ذلك في محرمات ما بين العبد ونفسه ، وكما حرم الله الربا فيما بينه وبين عبده من هذا الوجه الأعلى كذلك حرم أكل المال بالباطل فيما بين العبد وبين غيره من الطرف الأدنى ، وجامع منزله في قوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام ﴾ [ البقرة : 188 ] - الآية إلى ما ينتظم به من قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ﴾ [ النساء : 29 ] إلى ما ينتظم به من قوله تعالى : ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ﴾ [ النسا : 2 ] - الآيات في أموال اليتامى ، فحرمه تعالى من جهة الأعلى والمثيل والأدنى ، وانتظم التحرير في ثلاثة أصول : من جهة ما بين الله وبين عبده ومن جهة ما بين

العبد وبين نفسه ، ومن جهة ما بين العبد وبين غيره ، مما تستقرأ جملة آية في القرآن وأحاديثه في السنة ومسائله في فقه الأئمة ؛ ولما كان له متسع ، وقع فيما بين الحلال البين والحرام البين أمور متشابهات لا يعلمها كثير من الناس ، لأنها تشبه الحلال من وجه وتشبه الحرام من وجه ، فلوقوعها بينهما يختلف فيها ولعرضه في الأولى ، وعن حماية الله عباده عن وبيل الحرام تحقق لهم اسمه " الطيب " ، فلم يتطبب بطب الله من لم يحتم عن محرماته ومتشابهاتها ، وهو الورع الذي هو ملاك الدين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ثم قال فيما تحصل به قراءة حرف الحرام تماماً في العلم والحال والعمل : اعلم أن الإنسان لما كان خلقاً جامعاً كانت فيه بزرتان : بزرة للخير وبزرة للشر ، وبحسب تطهره وتخلصه من مزاحمة نبات بزرة الشر تنمو فيه وتزكو بزرة الخير ، ولكل واحدة من البزرتين منبت في جسمه

*(11/255)*

---

ونفسه وفؤاده ، فأول الحروف في الترتيب العمل ، والأساس لما بعده هو قراءة حرف الحرام ، لتحصل به طهرة البدن الذي هو السابق في وجود الإنسان فمن غذي بالحرام في طفولته لم يقدر على اجتناب الآثام في كهولته إلا أن يطهر الله بما شاء من نار الورود في الدنيا من الأمراض والضراء ، فهو الأساس الذي ينبني عليه تطهر النفس من المناهي وتطهر الفؤاد من

العمه والمجاهل ، والذي تحصل به قراءة هذا الحرف هو الورع الحاجز عما يضر بالجسم ويؤذي النفس وما يكره الخلق وما يغضب الرب ، فمن أصاب شيئاً من ذلك ولم يبادر إليه بالتوبة عذب بكل آية قرأها وهو مخالف لحكمها " من لم يبال من أيّ باب دخل عليه رزقه لم يبال الله من أيّ باب أدخله النار " .

ولما كان الورع كف اليد ظاهراً عن الشيء الضار ، وكانت الجوارح لا تنقاد إلا عن تأثر من النفس ، لم يصح الورع ظاهراً إلا أن يقع في النفس روعة باطنه من تناول ذلك الشيء ؛ ولما كانت النفس لا تتأثر إلا عن تبصر القلب في الضار كما لا ينكف اليد إلا عند تقذر النفس لما تدرك العين قذره حتى أن النفس الرضية تأنف من المحرمات كما يأنف المستنطف من المستقذرات ، فأكلة الحرام هم دود جيفة الدنيا يستقذرهم أهل البصائر كما يستقذرون هم دود جيف المزابل .

*(12/255)*

---

ولما كان الحرام ما يضر العبد في نفسه كالميتة ، تيسر على المستبصر كف يده عنها لما يدري من مضرتها بجسمه ، وكذلك الدم المسفوح لأنه ميتة بانفصاله عن الحي ومفارقته لروح الحياة التي تخالطه في العروق ، قلت : وسيأتي قريباً تعليله في التوراة بما يقتضي أنه أكثر فعلاً

في النفس وتطبيعاً لها بخلق ما هو دمه من اللحم – والله الموفق ؛ وكذلك ما يضر بنفسه كلحم الخنزير لأنه رجس ، والرجس هو خبائث الأخلاق التي هي عند العقلاء أقبح من خبائث الأبدان ، وذلك لأن من اعتذى جسمه بلحم حيوان اغتذت نفسه بنفسانية ذلك الحيوان وبخلق من أخلاقه ، وفي نفس الخنزير مجامع رذائل الأخلاق من الإباء والحران والمكر والإقدام على ما يعانيه فيه الهلاك ومتابعة الفساد ، والانكباب على ما تقبل عليه في أدنى الأشياء على ما أظهرت في خلقته آياته فإنه ليس له استشراف كذوات الأعناق ، وكذلك ما يضر بهما وبالعقل كالخمر في نزفها للعقل وتصديعها للرأس وإيقاعها العداوة والبغضاء في خلق النفس ، ولذلك هي جماع الإثم ، فالمتبصر في المحرمات يأنف منها لما يدري من مضرتها وأذاها في الوقت الحاضر وفي معيبها في يوم الدنيا إلى ما أخبر به من سوء عقباها في يوم الدين ، ومن شرب الخمر ومات ولم يتب منها كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال ، وهي عصارة أهل النار ، ولو هدد شاربها في الدنيا من له أمر بأن يسقيه من بوله ورجيعه لوجد من الروع ما تحمله على الورع عنها ، وإذا استبصر ذو دراية فيما يضره في ذاته فأنف منه رعاية نفسه لحق له بذلك التزام رعايتها عما يتطرق له منه درك من جهة غيره فيتورع من أكل أموال الناس بالباطل لما يدري من المؤاخذة عليها في العاجل وما أخبر به من المعاقبة عليها في الآجل ، ولها في ذاته مضرة في الوقت بتعرفها من موارد القرآن بنور

الإيمان ﴿ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً ﴾ [ النساء : 10 ]

وإن لم يحس بها ، وليس

(13/255)

---

تأويله الوعد بالنار لأن ذلك إنباء عند قوله تعالى ﴿ وسيصلون سعيراً ﴾ [ النساء : 10 ] ، وكذلك إذا أنف مما يضره في نفسه وخاف مما يتطرق إليه ضره من غيره ، أعظم أن يقرب حمى ما يتطرق إليه السطوة من ربه لأجله ، وذلك فيما حرم عليه حماية لعظيم ملكه وعدم التفاوت في أمر رحمانيته في محرم الربا ، ولما فيه أيضاً من مضرة وقته الحاضر التي يقيدها بالإيمان من تعريف ربه ، فإنه تعالى كما عرف أن أكل مال الغير بالباطل نار في البطن ، عرف أن أكل مال الربا جنون في العقل وخبال في النفس ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ﴾ [ البقرة : 275 ] وأعظم من ذلك ما حرمه الله لعرائه عن اسمه عند إزهاق روحه ، لأنه مأخوذ عن غير الله ، وما أخذ عن غير الله كان أكله فسقاً وكفراً لأنه تناول الروح من يد من لا يملكها ، ولذلك فرضت التسمية في التذكية ونفلت فيما سوى ذلك ، فلا تصح قراءة هذا الحرف إلا بتبصرة القلب فيه وروعة النفس منه وورع اليد عنه ، وإلا فهو من الذين يقرؤون حروفه ويضيعون حدوده ، الذين قال فيهم

رسول الله صلى الله عليه وسلم "كثر هؤلاء من القراء ، لا كثّرهم الله ! " ومن لم تصح له قراءة هذا الحرف لم تصح له قراءة حرف دعاؤه " الرجل يطلب الله مطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام ، يقول : يا رب ! يا رب ! فأنى يستجاب لذلك ! " فهذه قراءة هذا الحرف وشرطه – والله ولي التوفيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 736.731 ﴾

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما بين فساد طريقة أهل الجاهلية فيما يحل ويحرم من المطعومات أتبعه بالبيان الصحيح في هذا الباب ، فقال : ﴿ قُل لا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 179 ﴾

فصل

قال الفخر :

قرأ ابن كثير وحمزة ﴿ إِلا أَن تَكُونَ ﴾ بالتاء ﴿ مَيْتَةً ﴾ بالنصب على تقدير : إلا أن تكون العين أو النفس أو الجثة ميتة .

*(14/255)*

وقرأ ابن عامر إلا أن تكون بالتاء ﴿ مَيْتَةً ﴾ بالرفع على معنى إلا أن تقع ميتة أو تحدث ميتة والباقون ﴿ إِلا أَن يَكُونَ مَيْتَةً ﴾ أي إلا أن يكون المأكول ميتة ، أو إلا أن يكون الموجود ميتة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 179 ﴾

فصل

قال الفخر :

لما بين الله تعالى أن التحريم والتحليل لا يثبت إلا بالوحي قال : ﴿ قُل لا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ أي على آكل يأكله ، وذكر هذا ليظهر أن المراد منه هو بيان ما يحل ويحرم من المأكولات .

ثم ذكر أموراً أربعة .

أولها : الميتة ، وثانيها : الدم المسفوح ، وثالثها : لحم الخنزير فإنه رجس ، ورابعها : الفسق وهو الذي أهل به لغير الله ، فقوله تعالى : ﴿ قُل لا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ﴾ إلا هذه الأربعة مبالغة في بيان أنه لا يحرم إلا هذه الأربعة وذلك لأنه لما ثبت أنه لا طريق إلى معرفة المحرمات والمحللات إلا بالوحي ، وثبت أنه لا وحي من الله تعالى إلا إلى محمد عليه الصلاة والسلام ، وثبت أنه تعالى يأمره أن يقول : إني لا أجد فيما أوحي إلي محرماً من المحرمات إلا هذه الأربعة كان هذا مبالغة في بيان أنه لا يحرم إلا هذه الأربعة .

واعلم أن هذه السورة مكية ، فبين تعالى في هذه السورة المكية أنه لا محرم إلا هذه الأربعة ثم أكد ذلك بأن قال في سورة النحل : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمَ الخنزير وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ فَمَنِ اضطر غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ الله غَفورٌ رَحيم ﴾ [ النحل : 115 ] وكلمة ﴿ إِنَّمَا ﴾ تفيد الحصر فقد حصلت لنا آيتان مكيتان يدلان على حصر المحرمات في هذه الأربعة ، فبين في سورة البقرة وهي مدنية أيضاً أنه لا محرم إلا هذه الأربعة فقال : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمَ الخنزير وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ الله ﴾ [ البقرة : 173 ] وكلمة ﴿ إِنَّمَا ﴾ تفيد الحصر فصارت هذه الآية المدنية مطابقة لتلك الآية المكية لأن كلمة ﴿ إِنَّمَا ﴾ تفيد الحصر ، فكلمة ﴿ إِنَّمَا ﴾ في الآية المدنية مطابقة لقوله : ﴿ قُل لا أَجِدُ فِيمَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ﴾ إلا كذا وكذا في الآية المكية ، ثم ذكر تعالى في سورة المائدة قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأنعام إِلاَّ مَا يتلى عَلَيْكُمْ ﴾ [ المائدة : 1 ] وأجمع المفسرون على أن المراد بقوله : ﴿ إِلاَّ مَا يتلى عَلَيْكُمْ ﴾ هو ما ذكره بعد هذه الآية بقليل ، وهو قوله : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمُ الخنزير وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وَمَا أَكَلَ السبع إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾ [ المائدة : 3 ] وكل هذه الأشياء أقسام الميتة وأنه تعالى إنما أعادها بالذكر لأنهم كانوا يحكمون عليها بالتحليل ، فثبت أن الشريعة من أولها إلى آخرها كانت مستقرة على هذا الحكم وعلى هذا الحصر .

فإن قال قائل : فيلزمكم في التزام هذا الحصر تحليل النجاسات والمستقذرات ، ويلزم عليه أيضاً تحليل الخمر ، وأيضا فيلزمكم تحليل المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة مع أن الله تعالى حكم بتحريمها .

*(16/255)*

---

قلنا : هذا لا يلزمنا من وجوه : الأول : أنه تعالى قال في هذه الآية : ﴿ أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ ﴾ ومعناه أنه تعالى إنما حرم لحم الخنزير لكونه نجساً ، فهذا يقتضي أن النجاسة علة لتحريم الأكل فوجب أن يكون كل نجس يحرم أكله ، وإذا كان هذا مذكوراً في الآية كان السؤال ساقطاً .

والثاني : أنه تعالى قال في آية أخرى : ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخبائث ﴾ [ الأعراف : 157 ] وذلك يقتضي تحريم كل الخبائث ، والنجاسات خبائث ، فوجب القول بتحريمها .

الثالث : أن الأمة مجمعة على حرمة تناول النجاسات ، فهب أنا التزمنا تخصيص هذه السورة بدلالة النقل المتواتر من دين محمد في باب النجاسات فوجب أن يبقى ما سواها على وفق الأصل تمسكاً بعموم كتاب الله في الآية المكية والآية المدنية ، فهذا أصل مقرر كامل في باب ما يحل وما يحرم من المطعومات ، وأما الخمر فالجواب عنه : أنها نجسة فيكون

من الرجس فيدخل تحت قوله : ﴿ رِجْسٌ ﴾ وتحت قوله : ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخبائث ﴾ وأيضاً ثبت تخصيصه بالنقل المتواتر من دين محمد صلى الله عليه وسلم في تحريمه ، وبقوله تعالى : ﴿ فاجتنبوه ﴾ [ المائدة : 90 ] وبقوله : ﴿ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [ البقرة : 219 ] والعام المخصوص حجة في غير محل التخصيص ، فتبقى هذه الآية فيما عداها حجة .

وأما قوله ويلزم تحليل الموقوذة والمتردية والنطحية ، فالجواب عنه من وجوه : أولها : أنها ميتات فكانت داخلة تحت هذه الآية .

وثانيها : أنا نخص عموم هذه الآية بتلك الآية ، وثالثها : أن نقول إنها إن كانت ميتة دخلت تحت هذه الآية ، وإن لم تكن ميتة فنخصصها بتلك الآية .

فإن قال قائل : المحرمات من المطعومات أكثر مما ذكر في هذه الآية فما وجهها ؟

*(17/255)*

---

أجابوا عنه من وجوه : أحدها : أن المعنى لا أجد محرماً مما كان أهل الجاهلية يحرمه من البحائر والسوائب وغيرها إلا ما ذكر في هذه الآية ، وثانيها : أن المراد أن وقت نزول هذه الآية لم يكن تحريم غير ما نص عليه في هذه الآية ثم وجدت محرمات أخرى بعد ذلك .

وثالثها : هب أن اللفظ عام إلا أن تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد جائز فنحن نخصص هذا العموم بأخبار الآحاد .

ورابعها : أن مقتضى هذه الآية أن نقول إنه لا يجد في القرآن ، ويجوز أن يحرم الله تعالى ما سوى هذه الأربعة على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام .

ولقائل أن يقول : هذه الأجوبة ضعيفة .

أما الجواب الأول : فضعيف لوجوه :

أحدها : لا يجوز أن يكون المراد من قوله : ﴿ قُل لا أَجِدُ فِيمَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ﴾ ما كان يحرمه أهل الجاهلية من السوائب والبحائر وغيرها إذ لو كان المراد ذلك لما كانت الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح على النصب داخلة تحته ، ولو لم تكن هذه الأشياء داخلة تحت قوله : ﴿ قُل لا أَجِدُ فِيمَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ﴾ لما حسن استثناؤها ، ولما رأينا أن هذه الأشياء مستثناة عن تلك الكلمة ، علمنا أنه ليس المراد من تلك الكلمة ما ذكروه .

وثانيها : أنه تعالى حكم بفساد قولهم في تحريم تلك الأشياء ، ثم إنه تعالى في هذه الآية خصص المحرمات في هذه الأربعة وتحليل تلك الأشياء التي حرمها أهل الجاهلية لا يمنع من تحليل غيرها ، فوجب إبقاء هذه الآية على عمومها لأن تخصيصها يوجب ترك العمل بعمومها من غير دليل ، وثالثها : أنه تعالى قال في سورة البقرة : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ﴾ [ البقرة : 173 ] وذكر هذه الأشياء الأربعة ، وكلمة ﴿ إِنَّمَا ﴾ تفيد الحصر وهذه الآية في

سورة البقرة غير مسبوقة بحكاية أقوال أهل الجاهلية في تحريم البحائر والسوائب فسقط هذا العذر .

وأما جوابهم الثاني : وهو أن المراد أن وقت نزول هذه الآية لم يكن محرماً إلا هذه الأربعة .

(18/255)

---

فجوابه من وجوه : أولها : أن قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمَ الخنزير وَمَا أُهِلَّ بِهِ لغَيْرِ الله ﴾ [ البقرة : 173 ] آية مدنية نزلت بعد استقرار الشريعة ، وكلمة ﴿ إِنَّمَا ﴾ تفيد الحصر فدل هاتان الآيتان على أن الحكم الثابت في شريعة محمد عليه الصلاة والسلام من أولها إلى آخرها ليس إلا حصر المحرمات في هذه الأشياء ، وثانيها : أنه لما ثبت بمقتضى هاتين الآيتين حصر المحرمات في هذه الأربعة كان هذا اعترافاً بحل ما سواها ، فالقول بتحريم شيء خامس يكون نسخاً ، ولا شك أن مدار الشريعة على أن الأصل عدم النسخ ، لأنه لو كان احتمال طريان الناسخ معادلاً لاحتمال بقاء الحكم على ما كان ، فحينئذ لا يمكن التمسك بشيء من النصوص في إثبات شيء من الأحكام لاحتمال أن يقال : إنه وإن كان ثابتاً إلا أنه زال ، ولما اتفق الكل على أن الأصل عدم النسخ ، وأن القائل به والذاهب إليه هو المحتاج إلى الدليل علمنا فساد هذا السؤال .

وأما جوابهم الثالث : وهو أنا نخصص عموم القرآن بخبر الواحد .

فنقول : ليس هذا من باب التخصيص ، بل هو صريح النسخ ، لأن قوله تعالى : ﴿ قُل لا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ مبالغة في أنه لا يحرم سوى هذه الأربعة ، وقوله في سورة البقرة : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الميتة ﴾ وكذا وكذا ، تصريح بحصر المحرمات في هذه الأربعة ، لأن كلمة ﴿ إِنَّمَا ﴾ تفيد الحصر ، فالقول بأنه ليس الأمر كذلك يكون دفعاً لهذا الذي ثبت بمقتضى هاتين الآيتين أنه كان ثابتاً في أول الشريعة بمكة ، وفي آخرها بالمدينة ، ونسخ القرآن بخبر الواحد لا يجوز .

*(19/255)*

---

وأما جوابهم الرابع : فضعيف أيضاً ، لأن قوله تعالى : ﴿ قُل لا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾ يتناول كل ما كان وحياً ، سواء كان ذلك الوحي قرآناً أو غيره ، وأيضاً فقوله في سورة البقرة : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الميتة ﴾ يزيل هذا الاحتمال .

فثبت بالتقرير الذي ذكرنا قوة هذا الكلام ، وصحة هذا المذهب ، وهو الذي كان يقول به مالك بن أنس رحمه الله ، ومن السؤالات الضعيفة أن كثيراً من الفقهاء خصصوا عموم هذه الآية بما نقل أنه عليه الصلاة والسلام قال : " ما استخبثه العرب فهو حرام " وقد علم أن

الذي يستخبثه العرب فهو غير مضبوط ، فسيد العرب بل سيد العالمين محمد صلوات الله عليه ، لما رآهم يأكلون الضب قال : " يعافه طبعي " ثم إن هذا الاستقذار ما صار سبباً لتحريم الضب .

وأما سائر العرب فمنهم من لا يستقذر شيئاً ، وقد يختلفون في بعض الأشياء ، فيستقذرها قوم ويستطيبها آخرون ، فعلمنا أن أمر الاستقذار غير مضبوط ، بل هو مختلف باختلاف الأشخاص والأحوال ، فكيف يجوز نسخ هذا النص القاطع بذلك الأمر الذي ليس له ضابط معين ولا قانون معلوم ؟

واعلم أنا قد ذكرنا المسائل المتعلقة بهذه الأشياء الأربعة في سورة البقرة على سبيل الاستقصاء ، فلا فائدة في الإعادة .

فأولها : الميتة ، ودخلها التخصيص في قوله عليه الصلاة والسلام : " أحلت لنا ميتتان السمك والجراد " وثانيها : الدم المسفوح ، والسفح الصب يقال : سفح الدم سفحاً ، وسفح هو سفوحاً إذا سال وأنشد أبو عبيدة لكثير :

أقول ودمعي واكف عند رسمها . . عليك سلام الله والدمع يسفح

قال ابن عباس : يريد ما خرج من الأنعام وهي أحياء ، وما يخرج من الأوداج عند الذبح ، وعلى هذا التقدير : فلا يدخل فيه الكبد والطحال لجمودهما ، ولا ما يختلط باللحم من

الدم فإنه غير سائل ، وسئل ابن مجلز عما يتلطخ من اللحم بالدم .

وعن القدر : يرى فيها حمرة الدم ، فقال لا بأس به ، إنما نهي عن الدم المسفوح .

(20/255)

---

وثالثها : لحم الخنزير فإنه رجس .

ورابعها : قوله : ﴿ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ وهو منسوق على قوله : ﴿ إِلا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا ﴾ فسمى ما أهل لغير الله به فسقاً لتوغله في باب الفسق كما يقال : فلان كرم وجود إذا كان كاملاً فيهما ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ [ الأنعام : 121 ] .

وأما قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فالمعنى أنه لما بين في هذه الأربعة أنها محرمة ، بين أن عند الاضطرار يزول ذلك التحريم ، وهذه الآية قد استقصينا تفسيرها في سورة البقرة .

وقوله عقيب ذلك : ﴿ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يدل على حصول الرخصة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 182 ﴾

(21/255)

وقال السمرقندى :

﴿ قُل لا أَجِدُ فِى مَا أُوْحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا ﴾

يعني : لا أجد فيما أنزل علي من القرآن شيئاً محرماً ﴿ على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ .

يعني : على آكل ﴿ إِلا أَن يَكُونَ مَيْتَةً ﴾ .

قرأ ابن عامر ﴿ إِلا أَن تَكُون مَيْتَةً ﴾ بالتاء على لفظ التأنيث لأن الميتة مؤنث وقرأ ﴿ مَيْتَةً ﴾ بالضم لأنه اسم كان .

وقرأ حمزة وابن كثير ﴿ إِلا أَن تَكُونَ ﴾ بالتاء بلفظ التأنيث ﴿ مَيْتَةً ﴾ بالنصب فجعل الميتة خبراً لكان ، والاسم فيه مضمر .

وقرأ الباقون ﴿ إِلا أَن يَكُونَ ﴾ بلفظ التذكير ﴿ الميتة ﴾ بالنصب ، وإن جعلوه مذكراً لأنه انصرف إلى المعنى ومعناه إلا أن يكون المأكول ميتة ﴿ أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا ﴾ يعني : سائلاً جارياً ﴿ أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ ﴾ أي : حرام ﴿ أَوْ فِسْقًا ﴾ يعني : معصية ﴿ أُهِلَّ ﴾ يعني : ذبح ﴿ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ ﴾ يعني : لغير اسم الله وقال بعضهم : في الآية تقديم .

ومعناه : إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير أو فسقاً أهل لغير الله به فإنه رجس أي حرام .

يعني : جميع ما ذكر في الآية هو رجس .

ويقال : الرجس هو نعت للحم الخنزير خاصة .

وروى عمر بن دينار عن أبي الشعثاء عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء ، فبعث الله نبيه وأنزل كتابه ، وأحلّ حلاله ، وحرّم حرامه فما أحل فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ، وتلا هذه الآية ﴿ قُل لا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ الآية يعني : ما لم يبيّن تحريمه فهو مباح بظاهر هذه الآية .

وروى أبو بكر الهذلي عن الحسن أنه قال : الله لولا حديث سلمة بن المحبق ما لبسنا خفافكم ، ولا نعالكم ، ولا فراكم ، حتى نعلم ما هي .

قال أبو بكر : فذكرت ذلك للزهري ، فقال : صدق الحسن ذلك عندي أوسع من هذا .

(22/255)

---

حدثني عبيد الله بن عبد الله عن عبد الله بن عباس أنه قرأ ﴿ قُل لا أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ﴾ الآية .

قال : إنما حرم من الميتة أكلها وما يؤكل منها ، وهو اللحم ، أما الجلد والعظم والشَّعر والصوف فحلال .

قال : وقد احتج بعض الناس بهذه الآية ، على أن ما سوى هذه الأشياء التي ذكر في الآية مباح.

ولكن نحن نقول قد حرم أشياء سوى ما ذكر في الآية .

وقد بيّن على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك كل ذي ناب من السباع ، وكل ذي مخلب من الطير .

وقد قال تعالى : ﴿ مَّآ أَفَآءَ الله على رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كَى لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأغنياء مِنكُمْ وَمَآ ءاتاكم الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نهاكم عَنْهُ فانتهوا واتقوا الله إِنَّ الله شَدِيدُ العقاب ﴾ [ الحشر : 7 ] .

ثم قال : ﴿ فَمَنِ اضطر غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقد ذكرنا تأويل هذه الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

[ ثمّ بيّن ] المحرمات فقال ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَآ أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً ﴾ أي شيئاً محرّماً ﴿ على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ آكل يأكله . وقرأ علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه : يطعمه مثقلة بالطاء أراد يتطعّمه فأدغم ، وقرأت عائشة على طاعم طعمه ﴿ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً ﴾ [ مهراقاً ] سائلاً . قال عمران بن جرير : سألت أبا مجلز عمّا يتلطخ من اللحم بالدم وعن القدر تعلوها حمرة الدم . قال : لا بأس به إنّما نهى الله سبحانه عن الدم

المسفوح.

وقال إبراهيم : لا بأس الدم في عروق أو مخ إلاّ المسفوح الذي تعمّد ذلك ، قال عكرمة : لولا هذه الآية لأتّبع المسلمون من العروق ما تتبّع اليهود ﴿ أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ ﴾ خبيث ﴿ أَوْ فِسْقاً ﴾ معصية ﴿ أُهِلَّ ﴾ ذُبح ﴿ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضطر غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(23/255)

---

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً ﴾

يعني أن ما حرموه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام لم يحرمه الله تعالى ولا أوحى إليَّ بتحريمه ، ثم بيَّن المحرَّم على وجه الاستثناء لأن نفي التحريم خرج مخرج العموم ، فقال : ﴿ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً ﴾ وهي التي خرجت روحها بغير ذكاة .

﴿ أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً ﴾ يعني مهراقاً مصبوباً ومنه سمي الزنا سفاحاً لصب الماء فيه ضائعاً ، وقال طرفة بن العبد :

إني وجدّك ما هجوتك والأن . . . صاب يسفح فوقهن دم

فأما الدم غير مسفوح فإن كان ذا عروق يجمد عليها كالكبد والطحال فهو حلال لقوله صلى الله عليه وسلم : " أُحِلَّتْ لَنَا مِيْتَتَانِ وَدَمَانِ ، فَالمِيْتَتَانِ : الحُوتُ وَالجَرَادُ ، وَالدَّمَانِ : الكَبِدُ وَالطُّحَالُ

" . وإن كان غير ذي عروق يجمد عليها وإنما هو مع اللحم وفيه ، ففي تحريمه قولان :

أحدهما : لا يحرم لتخصيص التحريم بالمسفوح ، وهو قول عائشة ، وعكرمة ، وقتادة ، قال عكرمة : لولا هذه الآية لتتبع المسلمون عروق اللحم كما تتبعها اليهود .

والثاني : أنه حرام لأنه من جملة المسفوح وبعضه ، وإنما ذكر المسفوح لاستثناء الكبد والطحال منه .

﴿ أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ ﴾ يعني نجساً حراماً .

﴿ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ يعني ما ذبح للأوثان والأصنام ، سماه فسقاً لخروجه عن أمر الله .

فإن قيل : لم اقتصر هنا على تحريم هذه الأربعة وقد ذكر في المائدة غيرها من المنخنقة والموقوذة والمتردية ؟ قيل : لأن هذا كله من جملة الميتة فذكره هناك مفصلاً وها هنا في الجملة .

وفي هذه الآية قولان :

أحدهما : أنها مشتملة على جميع المحرمات فلا يحرم من الحيوان ما عدا هذا المذكور فيها ، وهذا قول ابن عباس ، وعائشة .

(24/255)

---

والثاني : أنا تشتمل على تحريم ما تضمنها وليست مستوعبة لجميع المحرمات لما جاءت به السنة من تحريم كل ذي ناب من السباع وذي مخلب من الطير ، وهذا قول الجمهور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا ﴾

هذا أمر من الله عز وجل بأن يشرع للناس جميعاً ويبين عن الله ما أوحي إليه ، وهذه الآية نزلت بمكة ولم يكن في الشريعة في ذلك الوقت شيء محرم غير هذه الأشياء ، ثم نزلت سورة المائدة بالمدينة وزيد في المحرمات كالمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة ، فإن هذه وإن كانت في حكم الميتة فكان في النظر احتمال أن تلحق بالمذكيات لأنها بأسباب وليست حتف الأنف ، فلما بين النص إلحاقها بالميتة كانت زيادة في المحرمات ، ثم نزل النص على

رسول الله صلى الله عليه وسلم في تحريم الخمر بوحي غير مُنْجَز ، وبتحريم كل ذي ناب من السباع ، فهذه كلها زيادات في التحريم ولفظة التحريم إذا وردت على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنها صالحة أن تنتهي بالشيء المذكور إلى غاية المنع والحظر ، وصالحة بحسب اللغة أن تقف دون الغاية في حيز الكراهية ونحوها ، فما اقترنت به قرينة التسليم من الصحابة المتأولين وأجمع عليه الكل منهم ولم يضطرب فيه ألفاظ الأحاديث وأمضاه الناس على إذلاله وجب بالشرع أن يكون تحريمه قد وصل الغاية من الحظر والمنع ولحق بالخنزير والميتة ، وهذه صفة تحريم الخمر وما اقترنت به قرينة ألفاظ الحديث واختلفت الأمة فيه مع علمهم بالأحاديث كقوله عليه السلام "كل ذي ناب من السباع حرام ".

(25/255)

---

وقد روي عنه نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل كل ذي ناب من السباع ثم اختلف الصحابة ومن بعدهم في تحريم ذلك فجاز لهذه الوجوه لمن ينظر أن يحمل لفظ التحريم على المنع الذي هو الكراهية ونحوها ، وما اقترنت به قرينة التأويل كتحريمه عليه السلام لحوم الحمر الإنسية فتأول بعض الصحابة الحاضرين ذلك لأنهم لم تخمس ، وتأول

بعضهم أن ذلك لئلا تفنى حمولة الناس ، وتأول بعضهم التحريم المحض وثبت في الأمة الاختلاف في تحريم لحمها فجائز لمن ينظر من العلماء أن يحمل لفظ التحريم بحسب اجتهاده وقياسه على كراهية أو نحوها .

وروي عن ابن عامر أنه قرأ " فيما أَوحَى إلي " بفتح الهمزة والحاء وقرأ جمهور الناس يطعمه وقرأ أبو جعفر محمد بن علي " يطّعِمه " بتشديد الطاء وكسر العين ، وقرأ محمد بن الحنفية وعائشة وأصحاب عبد الله " طعمه " بفعل ماض ، وقرأ نافع والكسائي وأبو عمر وعاصم " إلا أن يكون " بالياء على تقدير إلا أن يكون المطعوم ، وقرأ ابن كثير وحمزة وأبو عمرو وأيضاً " إلا أن تكون " بالتاء من فوق " ميتة " على تقدير إلا أن تكون المطعومة ، وقرأ ابن عامر وحده وذكرها مكي عن ابي جعفر " إلا أن تكون " بالتاء " ميتةٌ " بالرفع على أن تجعل " تكون " بمعنى تقع ، ويحتاج على هذه القراءة أن يعطف ﴿ أو دماً ﴾ على موضع " أن تكون " ، لأنها في موضع نصب بالاستثناء ، والمسفوح الجاري الذي يسيل وجعل الله هذا فرقاً بين القليل والكثير ، والمنسفح ، السائل من الدم ونحوه ، ومنه قول الشاعر وهو طرفة :

إذا ما عَادهُ مِنّا نِساءٌ . . . سَفَحْنَ الدَّمْعَ مِنْ بعْدِ الرَّنِينِ

وقول امرىء القيس :

وإن شفائي عبرة إن سفحتها . . . فالدم المختلط باللحم والدم الخارج من مرق اللحم وما

شاكل هذا حلال والدم غير المسفوح هو هذا وهو معفوّ عنه ، وقيل لأبي مجلز في القدر تعلوها الحمرة من الدم قال : إنما حرم الله المسفوح ، وقالت نحوه عائشة وغيرها وعليه إجماع العلماء .

(26/255)

---

وقيل : الدم حرام لأنه إذا زايل فقد انسفخ ، و" الرجس " النتن والحرام ، يوصف بذلك الأجرام والمعاني كما قال عليه السلام : " دعوها فإنها منتنة " ؛ الحديث ، فكذلك قيل في الأزلام والخمر رجس ، والرجس أيضاً العذاب لغة بمعنى الرجز ، وقوله ﴿ أو فسقاً ﴾ يريد ذبائحهم التي يختصون بها أصنامهم ، وقوله تعالى : ﴿ فمن اضطر ﴾ الآية ، أباح الله فيها مع الضرورة ركوب المحظور دون بغي .

واختلف الناس فيم ذا فقالت فرقة دون أن يبغي الإنسان في أكله فيأكل فوق ما يقيم رمقه وينتهي إلى حد الشبع وفوقه ، وقالت فرقة : بل دون أن يبغي في أن يكون سفره في قطع طريق أو قتل نفس أو يكون تصرفه في معصية فإن ذلك لا رخصة له ، وأما من لم يكن بهذه الأحوال فاضطر فله أن يشبع ويتزود ، وهذا مشهور قول مالك بن أنس رحمه الله ، وقال بالأول الذي هو الاقتصار على سد الرمق عبد المالك بن حبيب رحمه الله ، وقوله ﴿ فإن

ربك غفور رحيم ﴾ إباحة تعطيها قوة للفظ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قل لا أجد فيما أُوحيَ إلي محرماً على طاعم يطعمه ﴾

نبْههم بهذا على أن التحريم والتحليل ، إنما يثبت بالوحي .

وقال طاووس ، ومجاهد : معنى الآية : لا أجد محرماً مما كنتم تستحلون في الجاهلية إلا هذا .

والمراد بالطاعم : الآكل .

﴿ إلا أن يكون ميتة ﴾ أي : إلا أن يكون المأكول ميتة .

قرأ ابن كثير ، وحمزة : "إلا أن يكون" بالياء ، "ميتة" نصبا وقرأ ابن عامر : "إلا أن تكون" بالتاء ، "ميتةٌ" بالرفع ، على معنى : إلا أن تقع ميتةٌ ، أو تحدث ميتةٌ .

﴿ أو دماً مسفوحاً ﴾ قال قتادة : إنما حُرِّمَ المسفوحُ ، فأما اللحم إذا خالطه دم ، فلا بأس به .

قال الزجاج : المسفوح : المصبوب .

وكانوا إذا ذَكَّوا يأكلون الدم كما يأكلون اللحم .

والرجس : اسم لما يُستقذَر ، وللعذاب .

﴿ أو فسقاً ﴾ المعنى : أو أن يكون المأكول فسقا .

(27/255)

---

﴿ أُهل لغير الله به ﴾ أي : رُفع الصوت على ذبحه باسم غير الله ، فسمي ما ذُكر عليه غير اسم الله فسقاً ؛ والفسق : الخروج من الدين .

فصل

اختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية على قولين .

أحدهما : أنها محكمة .

ولأرباب هذا القول في سبب إحكامها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها خبر ، والخبر لا يدخله النسخ .

والثاني : أنها جاءت جواباً عن سؤال سألوه ؛ فكان الجواب بقدر السؤال ، ثم حُرِّم بعد ذلك ما حُرِّم .

والثالث : أنه ليس في الحيوان محرم إلا ما ذُكر فيها .

والقول الثاني : أنها منسوخة بما ذكر في ( المائدة ) من المنخنقة والموقوذة ، وفي السُنَّةِ من

تحريم الحمر الأهلية ، وكل ذي ناب من السباع ، ومخلب من الطير .

وقيل : إن آية ( المائدة ) داخلة في هذه الآية ، لأن تلك الأشياء كلها ميتة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله عز وجل : ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرماً على طاعم يطعمه ﴾

*(28/255)*

---

اعلم أنه لما بين الله تعالى فساد طريقة أهل الجاهلية وما كانوا عليه من التضليل والتحريم من عند أنفسهم واتباع أهوائهم فيما أحلوه وحرموه من المطعومات أتبعه بالبيان الصحيح في ذلك وبيَّن أن التحريم والتحليل لا يكون إلا بوحي سماوي وشرع نبوي ، فقال تعالى : قل أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الجاهلين الذي يحللون ويحرمون من عند أنفسهم لا أجد فيما أوحي إليّ ، وقيل إنهم قالوا فما المحرم إذاً فنزل ؟ ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرماً ﴾ يعني شيئاً محرماً على طاعم يطعمه يعني على آكل يأكله ﴿ إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً ﴾ يعني سائلاً مصبوباً ﴿ أو لحم خنزير فإنه رجس ﴾ أي نجس ﴿ أو فسقاً أهلّ لغير الله به ﴾ يعني ما ذبح على غير اسم الله تعالى فبين الله تعالى في هذه الآية أن

التحريم والتحليل لا يكون إلا بوحي منه وأن المحرمات محصورة في الأربعة الأشياء المذكورة في هذه الآية وهي : الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وما ذبح على غير اسم الله ، وهذا مبالغة في أن التحريم لا يخرج عن هذه الأربعة وذلك أنه ثبت أنه لا طريق إلى معرفة المحرمات إلا بالوحي وثبت أن الله تعالى نص في هذه الآية على هذه الأربعة الأشياء ولهذا اختلف العلماء في حكم هذه الآية فذهب بعضهم إلى ظاهرها وأنه لا يحرم شيء من سائر المطعومات والحيوان إلا ما ذكر في هذه الآية ؛ ويروى ذلك عن ابن عباس وعائشة وسعيد بن جبير وهو ظاهر مذهب مالك واحتجوا على ذلك بأن هذه الآية محكمة لأنها خبر والخبر لا يدخله النسخ واحتجوا بأن هذه الآية وإن كانت مكية لكن يعضدها آية مدنية وهي قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلَّ به لغير الله ﴾ ، وكلمة إنما تفيد الحصر فصارت هذه الآية المدنية مطابقة للآية المكية في الحكم ، وذهب جمهور العلماء إلى أن هذا التحريم لا يختص بهذه الأشياء المنصوص عليها في هذه الآية فإن المحرم بنص الكتاب هو

(29/255)

ما ذكر في هذه الآية .

وقد حرمت السنة أشياء فوجب القول بها : منها تحريم الحمر الأهلية وكل ذي ناب من السباع ومخلب الطير .

عن المقدام بن معديكرب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عني وهو متكئ على أريكته فيقول بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه وما وجدنا فيه حراماً حرمناه وإنما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم الله تعالى " أخرجه الترمذي وقال حديث حسن غريب .

ولأبي داود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي ولا كل ذي ناب من السباع ولا لقطة معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه "

عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذراً فبعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم وأنزل كتابه وأحل حلاله وحرم حرامه فما أحل فهو حلال وما حرم فهو حرام وما سكت عنه فهو معفو وتلا : ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة ﴾ الآية أخرجه أبو داود ( م ) عن ابن عباس قال " نهى النبي صلى

الله عليه وسلم عن كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير " ( م ) عن أبي هريرة " أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى يوم خيبر عن أكل لحوم الحمر الأهلية " ( ق ) عن جابر " أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر الأهلية وأذن في الخيل " وفي رواية : " أكلنا من خيبر الخيل وحمر الوحش " ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحمار الأهلي عن جابر " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن أكل الهر وأكل ثمنه " وقد استثنى الشارع من الميتة السمك والجراد ومن الدم الكبد والطحال وأباح أكل ذلك وقد تقدم دليله .

*(30/255)*

---

والأصل في ذلك عند الشافعي أن كل ما لم يرد فيه نص بتحريم أو تحليل فما كان أمر الشرع بقتله كام ورد في الصحيح " خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم وهي الحية والعقرب والفأرة والحدأة والكلب العقور " وروي عن سعد بن أبي وقاص " أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر قتل الوزغ " أخرجه البخاري ومسلم ، وسماه فويسقاً .

وعن ابن عباس قال " نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل أربع من الدواب : النملة والنحلة والهدهد والصرد " أخرجه أبو داود فهذا كله حرام لا يحل أكله وما سوى ذلك

فالمرجع فيه إلى الأغلب من عادة العرب فما يستطيبه الأغلب منهم فهو حلال وما يستخبثه الأغلب منهم ولا يأكلونه فهو حرام لأن الله خاطبهم بقوله : ﴿ أحل لكم الطيبات ﴾ فما استطابوه فهو حلال فهذا تقرير ما يحل ويحرم من المطعومات .

وأما الجواب عن هذه الآية الكريمة فمن وجوه :

أحدها : أن يكون المعنى لا أجد محرماً مما أهل الجاهلية يحرمونه من البحائر والسوائب وغيرها إلا ما أوحي إليّ في هذه الآية .

الوجه الثاني : أن يكون المراد وقت نزول هذه الآية لم يكن محرماً غير ما ذكر ونص عليه في هذه الآية ثم حرم بعد نزولها أشياء أخر .

الوجه الثالث : يحتمل أن هذا اللفظ العام خصص بدليل آخر ، وهو ما ورد في السنة .

الوجه الرابع : أن ما ذكر في هذه الآية محرم على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ما ورد في السنة من المحرمات والله أعلم .

بقي في الآية أحكام في قوله تعالى : ﴿ أو دماً مسفوحاً ﴾ وهو ما سال من الحيوان في حال الحياة أو عند الذبح فإن ذلك الدم حرام نجس وما سوى ذلك كالكبد والطحال فإنهما حلال لأنهما دمان جامدان .

وقد ورد الحديث بإباحتهما وكذا ما اختلط باللحم من الدم لأنه غير سائل ، قال عمران بن

جرير : سألت أبا مجلز عما يختلط باللحم من الدم وعن القدر يُرى فيها حمرة الدم فقال لا بأس بذلك وإنما نهي عن الدم المسفوح.

(31/255)

---

وقال إبراهيم النخعي : لا بأس بالدم في عرق أو مخ إلا المسفوح ، وقال عكرمة : لولا هذه الآية لتتبع المسلمون الدم من العروق ما تتبع اليهود .

وقوله تعالى : ﴿ فمن اضطر غير باغ ولا عاد ﴾ لما بين الله المحرمات في هذه الآية أباح أكلها عند الاضطرار من غير بغي ولا عدوان ، وفي قوله : ﴿ فإن ربك غفور رحيم ﴾ دليل على الرخصة والإباحة عند الاضطرار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أُهلّ لغير الله به ﴾

لما ذكر أنهم حرموا ما حرموا افتراء على الله ، أمره تعالى أن يخبرهم بأن مدرك التحريم إنما هو بالوحي من الله تعالى وبشرعه لا بما تهوي الأنفس وما تختلقه على الله تعالى ، وجاء

الترتيب هنا كالترتيب الذي في البقرة والمائدة وجاء هنا هذه المحرمات منكرة والدم موصوف بقوله : ﴿ مسفوحاً ﴾ والفسق موصوفاً بقوله : ﴿ أهلَّ لغير الله به ﴾ وفي تينك السورتين معرفاً لأن هذه السورة مكية فعلق بالتنكير ، وتانك السورتان مدنيتان فجاءت تلك الأسماء معارف بالعهد حوالة على ما سبق تنزيله في هذه السورة .

وروي عن ابن عامر ﴿ فيما أوحي ﴾ بفتح الهمزة والحاء جعله فعلاً ماضياً مبنياً للفاعل و ﴿ محرماً ﴾ صفة لمحذوف تقديره مطعوماً ودل عليه قوله ﴿ على طاعم يطعمه ﴾ ويطعمه صفة لطاعم .

وقرأ الباقر ﴿ يطعمه ﴾ بتشديد الطاء وكسر العين والأصل يطتعمه أبدلت تاؤه طاء وأدغمت فيها فاء الكلمة .

وقرأت عائشة وأصحاب عبد الله ومحمد بن الحنفية تطعمه بفعل ماض وإلا أن يكون استثناء منقطع لأنه كون وما قبله عين ، ويجوز أن يكون نصبه بدلاً على لغة تميم ونصباً على الاستثناء على لغة الحجاز .

وقرأ الابنان وحمزة إلا أن تكون بالتاء وابن كثير وحمزة ﴿ ميتة ﴾ بالنصب واسم ﴿ يكون ﴾ مضمر يعود على قوله : ﴿ محرماً ﴾ وأنث لتأنيث الخبر .

وقرأ ابن عامر ﴿ ميتة ﴾ بالرفع جعل كان تامة .

وقرأ الباقون بالياء ونصب ﴿ ميتة ﴾ واسم كان ضمير مذكر يعود على ﴿ محرماً ﴾ أي ﴿ إلا أن يكون ﴾ المحرم ﴿ ميتة ﴾ وعلى قراءة ابن عامر وهي قراءة أبي جعفر فيما ذكر مكي يكون قوله : ﴿ أو دماً ﴾ معطوفاً على موضع ﴿ أن يكون ﴾ وعلى قراءة غيره ، يكون معطوفاً على قوله : ﴿ ميتة ﴾ ومعنى ﴿ مسفوحاً ﴾ مصبوباً سائلاً كالدم في العروق لا كالطحال والكبد ، وقد رخص في دم العروق بعد الذبح .

وقيل لأبي مجلز : القدر تعلوها الحمرة من الدم .

فقال : إنما حرم الله تعالى المسفوح وقالت نحوه عائشة وعليه إجماع العلماء .

وقيل : الدم حرام لأنه إذا زايل فقد سفح .

والظاهر أن الضمير في ﴿ فإنه ﴾ عائد على ﴿ لحم خنزير ﴾ وزعم أبو محمد بن حزم أنه عائد على ﴿ خنزير ﴾ فإنه أقرب مذكور ، وإذا احتمل الضمير العود على شيئين كان عوده على الأقرب أرجح وعورض بأن المحدث عنه إنما هو اللحم ، وجاء ذكر ﴿ الخنزير ﴾ على سبيل الإضافة إليه لا أنه هو المحدث عنه المعطوف ، ويمكن أن يقال : ذكر اللحم تنبيهاً على أنه أعظم ما ينتفع به من الخنزير وإن كان سائره مشاركاً له في التحريم بالتنصيص على العلة من كونه رجساً أو لإطلاق الأكثر على كله أو الأصل على التابع لأن الشحم

وغيره تابع للحم .

واختلفوا في هذه الآية أهي محكمة ؟ وهو قول الشعبي وابن جبير فعلى هذا لا شيء محرم من الحيوان إلا فيها وليس هذا مذهب الجمهور .

وقيل : هي منسوخة بآية المائدة ، وينبغي أن يفهم هذا النسخ بأنه نسخ للحصر فقط .

*(33/255)*

---

وقيل : جميع ما حرم داخل في الاستثناء سواء كان بنص قرآن أو حديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم بالاشتراك في العلة التي هي الرجسية والذي نقوله : إن الآية مكية وجاءت عقيب قوله : ﴿ ثمانية أزواج ﴾ وكان أهل الجاهلية يحرمون ما يحرمون من البحائر والسوائب والوصائل والحوامي من هذه الثمانية ، فالآية محكمة وأخبر فيها أنه لم يجد فيما أوحي إليه إذ ذاك من القرآن سوى ما ذكر ولذلك أتت صلة ﴿ ما ﴾ جملة مصدرة بالفعل الماضي فجميع ما حرّم بالمدينة لم يكن إذ ذاك سبق منه وحي فيه بمكة فلا تعارض بين ما حرم بالمدينة وبين ما أخبر أنه أوحي إليه بمكة تحريمه ، وذكر ﴿ الخنزير ﴾ وإن لم يكن من ثمانية الأزواج لأن من الناس من كان يأكله إذ ذاك ولأنه أشبه شيء بثمانية الأزواج في كونه ليس سبعاً مفترساً يأكل اللحوم ويتغذى بها ، وإنما هو من نمط الثمانية في كونه يعيش

بالنبات ويرعى كما ترعى الثمانية .

وذكر المفسرون هنا أشياء مما اختلف أهل العلم فيه ونلخص من ذلك شيئاً ، فنقول : أما الحمر الأهلية : مذهب الشعبي : وابن جبير إلى انه يجوز أكلها وتحريم رسول الله لها إنما كان لعلة واما لحوم الخيل فاختلف فيها السلف وأباحها الشافعي وابن حنبل وأبو يوسف ومحمد بن الحسن ، وعن أبي حنيفة الكراهة .

فقيل : كراهة تنزيه .

وقيل : كراهة تحريم وهو قول مالك والأوزاعي والحكم بن عيينة وأبي عبيد وأبي بكر الأصم وقال به من التابعين مجاهد ومن الصحابة ابن عباس ، وروى عنه خلافه وقد صنف في حكم لحوم الخيل جزءاً أقاضي القضاة شمس الدين أحمد بن ابراهيم بن عبد الغني السروجي الحنفي رحمه الله قرأناه عليه وأجمعوا على تحريم البغال ، وأما الحمار الوحشي إذا تأنس فذهب أبو حنيفة وأصحابه والحسن بن صالح والشافعي إلى جواز أكله وروى ابن القاسم عن مالك أنه إذا دجن وصار يعمل عليه كما يعمل على الأهلي أنه لا يؤكل .

*(34/255)*

وقال أبو حنيفة وأبو يوسف وزفر ومحمد : لا يحل أكل ذي الناب من السباع وذي المخلب من الطير .

وقال مالك : لا يؤكل سباع الوحش ولا البر وحشياً كان أو أهلياً ولا الثعلب ولا الضبع ولا بأس بأكل سباع الطير الرخم والعقاب والنسور وغيرها ما أكل الجيفة وما لم يأكل .

وقال الأوزاعي : الطير كله حلال إلا أنهم يكرهون الرخم .

وقال الشافعي : ما عدا على الناس من ذي الناب كالأسد والذئب والنمر وعلى الطيور من ذي المخلب كالنسر والبازي لا يؤكل ، ويؤكل الثعلب والضبع وكره أبو حنيفة الغراب الأبقع لا الغراب الزرعي والخلاف في الحدأة كالخلاف في العقاب والنسر وكره أبو حنيفة الضب .

وقال مالك والشافعي : لا بأس به والجمهور على أنه لا يؤكل الهر الإنسي وعن مالك جواز أكله إنسياً كان أو وحشياً وعن بعض السلف جواز أكل إنسيه .

وقال ابن أبي ليلى : لا بأس بأكل الحية إذا ذكيت .

وقال الليث : لا بأس بأكل القنفذ وفراخ النحل ودود الجبن ودود التمر ونحوه وكذا قال ابن القاسم عن مالك في القنفذ .

وقال أبو حنيفة والشافعي : لا تؤكل الفأرة .

وقال أبو حنيفة : لا يؤكل اليربوع .

وقال الشافعي : يؤكل وعن مالك في الفأر التحريم والكراهة والإباحة ، وذهب أبو حنيفة والشافعي وأصحابهما إلى كراهة أكل الجلالة .

وقال مالك والليث : لا بأس بأكلها .

وقال صاحب التحرير والتحبير : وأما المخدرات كالبنج والسيكران واللفاح وورق القنب المسمى بالحشيشة فلم يصرح فيها أهل العلم بالتحريم وهي عندي إلى التحريم أقرب ، لأنها إن كانت مسكرة فهي محرّمة بقوله صلى الله عليه وسلم : " ما أسكر كثيره فقليله حرام "

وبقوله : " كل مسكر حرام " وإن كانت غير مسكرة فإدخال الضرر على الجسم حرام .

*(35/255)*

---

وقد نقل ابن بختيشوع في كتابه : إن ورق القنب يحدث في الجسم سبعين داءً وذكر منها أنه يصفر الجلد ويسوّد الأسنان ويجعل فيها الحفر ويثقب الكبد ويحميها ويفسد العقل ويضعف البصر ويحدث الغم ويذهب الشجاعة والبنج ، والسيكران كالورق في الضرر وأما المرقدات كالزعفران والمازريون فالقدر المضر منها حرام ، وقال جمهور الأطباء : إذا استعمل من الزعفران كثير قتل فرحاً ؛ انتهى ، وفيه بعض تلخيص .

وقال أبو بكر الرازي في قوله : ﴿ على طاعم يطعمه ﴾ دلالة على أن المحرّم من الميتة ما يتأتى فيه الأكل منها وإن لم يتناول الجلد المدبوغ ولا القرن ولا العظم ولا الظلف ولا الريش ونحوها ، وفي قوله : ﴿ أو دماً مسفوحاً ﴾ دلالة على أن دم البق والبراغيث والذباب ليس بنجس ؛ انتهى ﴿ أو فسقاً ﴾ الظاهر أنه معطوف على المنصوب قبله سمى ما أهلّ لغير الله به فسقاً لتوغله في باب الفسق ومنه ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ وأنه لفسق و﴿ أهل ﴾ صفة له منصوبة المحل وأجاز الزمخشري أن ينتصب ﴿ فسقاً ﴾ على أنه مفعول من أجله مقدم على العامل فيه وهو أهلّ لقوله :

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب . . .

وفصل به بين ﴿ أو ﴾ و﴿ أهل ﴾ بالمفعول له ويكون ﴿ أو أهل ﴾ معطوفاً على ﴿ يكون ﴾ والضمير في ﴿ به ﴾ يعود على ما عاد عليه في ﴿ يكون ﴾ وهذا إعراب متكلف جداً وتركيب على هذا الإعراب خارج عن الفصاحة وغير جائز في قراءة من قرأ ﴿ إلا أن يكون ميتة ﴾ بالرفع فيبقى الضمير في ﴿ به ﴾ ليس له ما يعود عليه ، ولا يجوز أن يتكلف محذوف حتى يعود الضمير عليه فيكون التقدير أو شيء ﴿ أهل لغير الله به ﴾ لأن مثل هذا لا يجوز إلا في ضرورة الشعر .

(36/255)

﴿ فمن اضطر غير باغ ولا عادٍ فإن ربك غفور رحيم ﴾ تقدّم تفسير مثل هذا ولما كان صدر الآية مفتتحاً بخطابه تعالى بقوله : ﴿ قل لا أجد ﴾ اختتم الآية بالخطاب فقال : ﴿ فإن ربك ﴾ ودلّ على اعتنائه به تعالى بتشريف خطابه افتتاحاً واختتاماً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط جـ 4 صـ ﴾

(37/255)

---

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ ﴾ أُمرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعد إلزامِ المشركين وتبكيتِهم وبيانِ أن ما يتقوّلونه في أمر التحريمِ افتراءٌ بحتٌ لا أصلَ له قطعاً بأن يُبيّن لهم ما حرّمه عليهم وفي قوله تعالى : ﴿ لا أَجِدُ فِيمَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ﴾ إيذانٌ بأن مناطَ الحلِّ والحُرمةِ هو الوحيُ وأنه صلى الله عليه وسلم قد تتبع جميعَ ما أوحيَ إليه وتفحّص عن المحرمات فلم يجد غيرَ ما فُصِّل ، وفيه مبالغةٌ في بيان انحصارِها في ذلك و( محرّماً ) صفةٌ لمحذوف أي لا أجد ريثما تصفحْتُ ما أوحيَ إلى طعاماً محرماً من المطاعم التي حرَّموها ﴿ على طَاعِمٍ ﴾ أي أيِّ طاعمٍ كان من ذكر أو أنثى رداً على قولهم : ﴿ مُحَرَّمٌ على أزواجنا ﴾ وقولُه تعالى

: ﴿ يَطْعَمُهُ ﴾ لزيادة التقريرِ ﴿ إلا أَن يَكُونَ ﴾ أي ذلك الطعامُ ﴿ مَيْتَةً ﴾ وقرىء تكونَ بالتاء لتأنيث الخبرِ وقرىء ميتةٌ بالرفع على أن كان تامةٌ وقوله تعالى : ﴿ أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا ﴾ حينئذ عطفٌ على أنْ مع ما في حيزه ، أي إلا وجودَ ميتةٍ أو دماً مسفوحاً أي مصبوباً كالدماء التي في العروق لا كالطحال والكبد ﴿ أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ ﴾ أي الخنزيرَ ﴿ رِجْسٌ ﴾ أي لحمُه قذرٌ لتعوده أكلَ النجاسات أو خبيثٌ ﴿ أَوْ فِسْقًا ﴾ عطف على لحمَ خنزيرٍ وما بينهما اعتراضٌ مقرّرٌ لحرمته ﴿ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ صفةٌ له موضّحة أي ذُبح على اسم الأصنامِ ، وإنما سُمّي ذلك فسقاً لتوغله في الفسق ، ويجوز أن يكون فسقاً مفعولاً له لأُهِلَّ وهو عطف على يكون والمستكن راجعٌ إلى ما رجع إليه المستكن في يكون .

*(38/255)*

---

﴿ فَمَنِ اضطر ﴾ أي أصابته الضَّرورةُ الداعيةُ إلى أكل الميتة بوجه من الوجوه المضطرة ﴿ غَيْرَ بَاغٍ ﴾ في ذلك على مضطر آخرَ مثلِه ﴿ وَلاَ عَادٍ ﴾ قدرَ الضرورة ﴿ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ مبالغٌ في المغفرة والرحمة لا يؤاخذه بذلك ، وليس التقييدُ بالحال الأولى لبيان أنه لو لم يوجَد القيدُ لتحققت الحرمة المبحوثُ عنها بل للتحذير من حرام آخرَ هو أخذُه

حقِّ مضطرٍ آخرَ فإن من أخذ لحمَ الميتة من يد مضطرٍ آخرَ فأكله فإن حرمتَه ليست باعتبار كونِه لحمَ الميتة بل باعتبار كونه حقاً للمضطر الآخرِ ، وأما الحالُ الثانيةُ فلتحقيق زوالِ الحرمةِ المبحوثِ عنها قطعاً ، فإن التجاوزَ عن القدر الذي يُسدّ به الرمقُ حرامٌ من حيث إنه لحمُ الميتة ، وفي التعرض لوصفي المغفرةِ والرحمةِ إيذانٌ بأن المعصيةَ باقيةٌ لكنه تعالى يغفرُ له ويرحمه ، والآيةُ محكمةٌ لأنها تدل على أنه صلى الله عليه وسلم لم يجد فيما أوحيَ إليه إلى تلك الغاية غيرَه ، ولا ينافيه ورودُ التحريمِ بعد ذلك في شيء آخرَ فلا يصِحُّ الاستدلالُ بها على نسخ الكتابِ بخبر الواحدِ ولا على حل الأشياءِ التي هي غيرُها إلا مع الاستصحاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 3 صـ ﴾

(39/255)

---

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ ﴾ أمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد إلزام المشركين وتبكيتهم وبيان أن ما يتقولونه في أمر التحريم افتراء بحت بأن يبين لهم ما حرم عليهم .

وقوله سبحانه : ﴿ لا أَجِدُ فِى مَا أُوْحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا ﴾ الخ كناية عن عدم الوجود ، وفيه إيذان بأن طريق التحريم ليس إلا التنصيص من الله تعالى دون التشهي والهوى ، وتنبيه كما

قيل على أن الأصل في الأشياء الحل ، و﴿ مُحَرَّمًا ﴾ صفة لمحذوف دل عليه ما بعد وقد قام مقامه بعد حذفه فهو مفعول أول لأجد ومفعوله الثاني ﴿ فِيمَا أُوحِيَ ﴾ قدم للاهتمام لا لأن المفعول الأول نكرة لأنه نكرة عامة بالنفي فلا يجب تقديم المسند الظرف ، وليس المفعول الأول محذوفاً أي لا أجد ريثما تصفحت ما أوحي إلي قرآناً وغيره على ما يشعر به العدول عن أنزل إلى ﴿ أُوحِيَ ﴾ أو ما أوحي إليّ من القرآن طعاماً محرماً من المطاعم التي حرمتموها ﴿ على طَاعِمٍ ﴾ أي طاعم كان من ذكر أو أنثى رداً على قولهم : ﴿ مُحَرَّمٌ على أزواجنا ﴾ [ الأنعام : 139 ] وقوله تعالى : ﴿ يَطْعَمُهُ ﴾ في موضع الصفة لطاعم جيء به كما في قوله سبحانه : ﴿ طَائِرٍ يَطِيرُ ﴾ [ الأنعام : 38 ] قطعاً للمجاز . وقرئ ﴿ يَطَّعَمُهُ ﴾ بالتشديد وكسر العين ، والأصل يطتعمه فأبدلت التاء طاء وأدغمت فيها الأولى ، والمراد بالطعم تناول الغذاء ، وقد يستعمل طعم في الشراب أيضاً كما تقدم الكلام عليه ، والمتبادر هنا الأول ، وقد يراد به مطلق النفع ، ومنه ما في حديث بدر " ما قتلنا أحداً به طعم ما قتلنا إلا عجازاً طلعاً " أي قتلنا من لا منفعة له ولا اعتداد به ، وإرادة هذا المعنى هنا بعيد جداً ولم أر من قال به ، نعم قيل : المراد سائر أنواع التناولات من الأكل والشرب وغير ذلك ، ولعل إرادة غير الأكل فيه بطريق القياس ، وكذا حمل الطاعم على الواجد من قولهم : رجل طاعم أي حسن الحال مرزوق وإبقاء ﴿ يَطْعَمُهُ ﴾

على ظاهره أي على واجد يأكله فلا يكون الوصف حينئذٍ لزيادة التقرير على ما أشرنا إليه .

(40/255)

---

﴿ إِلاَّ أَن يَكُونَ ﴾ ذلك الطعام أو الشيء المحرم ﴿ مَيْتَةً ﴾ المراد بها ما لم يذبح ذبحاً شرعياً فيتناول المنخنقة ونحوها .

وقرأ ابن كثير وحمزة ﴿ تَكُونُ ﴾ بالتاء لتأنيث الخبر ، وقرأ ابن عامر وأبو جعفر ﴿ يَكُونَ مَيْتَةً ﴾ بالياء ورفع ﴿ مَيْتَةً ﴾ وأبو جعفر يشدد أيضاً على أن كان هي التامة ﴿ أَوْ دَمًا ﴾ عطف على ﴿ مَيْتَةً ﴾ أو على أن مع ما في حيزه .

وقوله سبحانه : ﴿ مَّسْفُوحًا ﴾ أي مصبوباً سائلاً كالدم في العروق صفة له خرج به الدم الجامد كالكبد والطحال .

وفي الحديث " أحلت لنا ميتتان السمك والجراد ودمان الكبد والطحال " وقد رخص في دم العروق بعد الذبح ، وإلى ذلك ذهب كثير من الفقهاء .

وعن عكرمة أنه قال : لولا هذا القيد لاتبع المسلمون من العروق ما اتبع اليهود .

﴿ أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ ﴾ أي اللحم كما قيل لأنه المحدث عنه أو الخنزير لأنه الأقرب ذكراً .

وذكر اللحم لأنه أعظم ما ينتفع به منه فإذا حرم فغيره بطريق الأولى ، وقيل وهو خلاف الظاهر : الضمير لكل من الميتة والدم ولحم الخنزير على معنى فإن المذكور ﴿ رِجْسٌ ﴾ أي قذر أو خبيث مخبث ﴿ أَوْ فِسْقًا ﴾ عطف على ﴿ لَحْمَ خِنزِيرٍ ﴾ على ما اختاره كثير من المعربين وما بينهما اعتراض مقرر للحرمة ﴿ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ صفة له موضحة .

وأصل الإهلال رفع الصوت .

والمراد الذبح على اسم الأصنام .

وإنما سمي ذلك فسقاً لتوغله في الفسق .

وجوز أن يكون ( فسقاً ) مفعولاً له لأهل وهو عطف على ﴿ يَكُونَ ﴾ و ﴿ بِهِ ﴾ قائم مقام الفاعل .

والضمير راجع إلى ما رجع إليه المستكن في ﴿ يَكُونَ ﴾ .

*(41/255)*

---

قال أبو حيان : "وهذا إعراب متكلف جداً ( والنظم عليه ) خارج عن الفصاحة وغير جائز على قراءة من قرأ ﴿ إِلا أَن يَكُونَ مَيْتَةً ﴾ بالرفع ( لأن ) ضمير ﴿ بِهِ ﴾ ليس له ما

يعود عليه ، ولا يجوز أن يتكلف ( له موصوف ) محذوف يعود عليه الضمير ( أي ) شيء أهل لغير الله به لأن مثل هذا لا يجوز إلا في ضرورة الشعر " اه .

وعنى بذلك كما قال الحلبي أنه لا يحذف الموصوف والصفة جملة إلا إذا كان في الكلام من التبعيضية نحو منا أقام ومنا ظعن أي فريق أقام وفريق ظعن فإن لم يكن فيه من كان ضرورة كقوله

: ترمى بكفي كان من أرمى البشر . . .

أراد بكفي رجل كان الخ .

وهذا كما حقق في موضعه رأي بعض ، وأما غيره فيقول : متى دل دليل على الموصوف حذف مطلقاً فيجوز أن يرى المجوز هذا الرأي ومنعه من حيث رفع الميتة كما قال السفاقسي فيه نظر لأن الضمير يعود على ما يعود عليه بتقدير النصب والرفع لا يمنع من ذلك ، نعم الإعراب الأول أولى كما لا يخفى .

﴿ فَمَنِ اضطر ﴾ أي أصابته الضرورة الداعية إلى تناول شيء من ذلك ﴿ غَيْرَ بَاغٍ ﴾ أي طالب ما ليس له طلبه بأن يأخذ ذلك من مضطر آخر مثله .

وإلى هذا ذهب كثير من المفسرين .

وقال الحسن : أي غير متناول للذة ؛ وقال مجاهد : غير باغ على إمام ﴿ وَلَا عَادٍ ﴾ أي متجاوز قدر الضرورة ﴿ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ مبالغ في المغفرة والرحمة لا يؤاخذه

بذلك .

وهذا جزاء الشرط لكن باعتبار لازم معناه وهو عدم المؤاخذة .

وبعضهم قال بتقدير جزاء يكون هذا تعليلاً له ولا حاجة إليه .

ونصب ﴿ غَيْرِ ﴾ على أنه حال .

وكذا ما عطف عليه .

وليس التقييد بالحال الأولى لبيان أنه لو لم يوجد القيد بالمعنى السابق لتحققت الحرمة المبحوث عنها بل للتحذير من حرام آخر وهو أخذه حق مضطر آخر فإن من أخذ لحم ميتة مثلاً من مضطر آخر فأكله فإن حرمته ليست باعتبار كونه لحم الميتة بل باعتبار كونه حقاً للمضطر الآخر .

(42/255)

---

وأما الحالة الثانية : فلتحقيق زوال الحرمة المبحوث عنها قطعاً فإن التجاوز عن القدر الذي يسد به الرمق حرام من حيث إنه لحم الميتة .

وفي التعرض لوصفي المغفرة والرحمة إيذان بأن المعصية باقية لكن الله تعالى يغفر له ويرحمه وقد تقدم الكلام في ذلك فتذكر ولا تغفل .

واستشكلت هذه الآية بأنها حصرت المحرمات من المطعومات في أربعة : الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير والفسق الذي أهل لغير الله تعالى به ، ولا شك أنها أكثر من ذلك .

وأجيب بأن المعنى لا أجد محرماً مما كان أهل الجاهلية يحرمونه من البحائر والسوائب كما أشرنا إليه .

وحينئذ يكون استثناء الأربعة منه منقطعاً أي لا أجد ما حرموه لكن أجد الأربعة محرمة .

وهذا لا دلالة فيه على الحصر .

والاستثناء المنقطع ليس كالمتصل في الحصر كما نبهوا عليه وهو مما ينبغي التنبه له .

فإن قلت : المستثنى ليس ميتة بل كونه ميتة وذلك ليس من جنس الطعام فيكون الاستثناء منقطعاً لا محالة فلا حاجة إلى ذلك التقييد .

قال القطب : نعم كذلك إلا أن المقصود إخراج الميتة من الطعام المحرم يعني لا أجد محرماً إلا الميتة فلولا التقييد كان في الحقيقة استثناء متصلاً وورد الإشكال .

وضعف ذلك الجواب بأوجه .

منها أنه تعالى قال في سورة البقرة ( 173 ) وسورة النحل ( 115 ) ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمَ الخنزير وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ ﴾ وإنما تفيد الحصر ، وقال سبحانه في سورة المائدة : ( 1 ) ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأنعام إِلاَّ مَا يتلى عَلَيْكُمْ ﴾ وأجمع المفسرون على أن المراد بقوله عز وجل : ﴿ إِلاَّ مَا يتلى عَلَيْكُمْ ﴾ قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة

والدم وَلَحْمُ الخنزير وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ ﴾ [المائدة : 3 ] وأما المنخنقة والموقوذة وغيرهما فهي أقسام الميتة .

(43/255)

---

وإنما أعيدت بالذكر لأنهم كانوا يحكمون عليها بالتحليل فالآيتان تدلان على أن لا محرم إلا الأربعة وحينئذ يجب القول بدلالة الآية التي نحن بصددها على الحصر لتطابق ذلك وأن لا تقييد مع أن الأصل عدم التقييد .

وأجيب عن الإشكال بأن الآية إنما تدل على أنه عليه الصلاة والسلام لم يجد فيما أوحي إليه إلى تلك الغاية محرماً غير ما نص عليه فيها ، وذلك لا ينافي ورود التحريم في شيء آخر قيل : وحينئذ يكون الاستثناء من أعم الأوقات أو أعم الأحوال مفرغاً بمعنى لا أجد شيئاً من المطاعم محرماً في وقت من الأوقات أو حال من الأحوال إلا في وقت أو حال كون الطعام أحد الأربعة فإني أجد حينئذ محرماً فالمصدر المتحصل من أن يكون للزمان أو الهيئة .

واعترض الإمام هذا الجواب بأن ما يدل على الحصر من الآيات نزل بعد استقرار الشريعة فيدل على أن الحكم الثابت في الشريعة المحمدية من أولها إلى آخرها ليس إلا حصر المحرمات في هذه الأشياء وبأنه لما ثبت بمقتضى ذلك حصر المحرمات في الأربعة كان هذا

اعترافاً بحل ما سواها والقول بتحريم شيء خامس يكون نسخاً .

ولا شك أن مدار الشريعة على أن الأصل عدم النسخ لأنه لو كان احتمال طريان النسخ معادلاً لاحتمال بقاء الحكم على ما كان فحينئذ لا يمكن التمسك بشيء من النصوص في إثبات شيء من الأحكام لاحتمال أن يقال : إنه وإن كان ثابتاً إلا أنه زال .

وما قيل في الاستثناء يرد عليه أن المصدر المؤول من أن والفعل لا ينصب على الظرفية ولا يقع حالاً لأنه معرفة وبعضهم قال لاتصال الاستثناء : إن التقدير إلا الموصوف بأن يكون أحد الأربعة على أنه بدل من ﴿ مُحَرَّمًا ﴾ وفيه تكلف ظاهر ، وقيل : التقدير على قراءة الرفع إلا وجود ميتة والإضافة فيه من إضافة الصفة إلى الموصوف أي ميتة موجودة .

وأجيب أيضاً عن الإشكال بأن الآية وإن دلت على الحصر إلا أنا نخصصها بالأخبار .

*(44/255)*

---

وتعقبه الإمام أيضاً "بأن هذا ليس من باب التخصيص بل هو صريح النسخ لأنها لما كان معناها أن لا محرم سوى الأربعة فإثبات محرم آخر قول بأن الأمر ليس كذلك وهو رفع للحصر ونسخ القرآن بخبر الواحد غير جائز" .

وأجاب عن ذلك القطب الرازي بأنه لا معنى للحصر ههنا إلا أن الأربعة محرمة وما عداها

ليس بمحرم وهذا عام فإثبات محرم آخر تخصيص لهذا العام وتخصيص العام بخبر الواحد جائز .

وقد احتج بظاهر الآية كثير من السلف فأباحوا ما عدا المذكور فيها فمن ذلك الحمر الأهلية .

أخرج البخاري عن عمرو بن دينار قلت لجابر بن عبد الله : أنهم يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر فقال : قد كان يقول ذلك الحكم بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن أبى ذلك البحر يعني ابن عباس وقرأ ﴿ قُل لا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ الآية .

وأخرج أبو داود عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه سئل عن أكل القنفذ فقرأ الآية ، وأخرج ابن أبي حاتم وغيرهم بسند صحيح عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها كانت إذا سئلت عن كل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير قالت ﴿ قُل لا أَجِدُ ﴾ الخ .

وأخرج عن ابن عباس قال : ليس من الدواب شيء حرام إلا ما حرم الله تعالى في كتابه ﴿ قُل لا أَجِدُ ﴾ الآية ، وقوى الإمام الرازي القول بالظاهر فإنه قال بعد كلام "فثبت بالتقرير الذي ذكرناه قوة هذا الكلام وصحة هذا المذهب وهو الذي كان يقول به مالك بن أنس ؛ ثم قال : ومن السؤالات الضعيفة أن كثيراً من الفقهاء خصصوا عموم هذه الآية بما نقل أنه صلى الله عليه وسلم قال : " ما استخبثته العرب فهو حرام " وقد علم أن الذي تستخبثه

غير مضبوط فسيد العرب بل سيد العالمين عليه الصلاة والسلام لما رآهم يأكلون الضب قال : " يعافه طبعي " ولم يكن ذلك سبباً لتحريمه .

*(45/255)*

---

وأما سائر العرب ففيهم من لا يستقذر شيئاً وقد يختلفون في بعض الأشياء فيستقذرها قوم ويستطيبها آخرون فعلم أن أمر الاستقذار غير مضبوط بل هو مختلف باختلاف الأشخاص والأحوال فكيف يجوز نسخ هذا النص القاطع بذلك الأمر الذي ليس له ضابط معين ولا قانون معلوم" انتهى .

ولا يخفى ما فيه .

واستدل النبي صلى الله عليه وسلم بقوله سبحانه ﴿ على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ على أنه إنما حرم من الميتة أكلها وأن جلدها يطهر بالدبغ ، أخرج أحمد وغيره عن ابن عباس قال : ماتت شاة لسودة بنت زمعة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو أخذتم مسكها فقالت نأخذ مسك شاة قد ماتت ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : إنما قال الله تعالى ﴿ قُل لا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلا أَن يَكُونَ مَيْتَةً ﴾ وإنكم لا تطعمونه أن تدبغوه تنتفعوا به " .

واستدل الشافعية بقوله سبحانه : ﴿ فَإِنَّهُ رِجْسٌ ﴾ على نجاسة الخنزير بناء على عود الضمير على خنزير لأنه أقرب مذكور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا . . . الآية ﴾

استئناف بياني نشأ عن إبطال تحريم ما حرّمه المشركون ، إذ يتوجّه سؤال سائل من المسلمين عن المحرّمات الثابتة ، إذْ أبطلت المحرّمات الباطلة ، فلذلك خوطب الرّسول صلى الله عليه وسلم ببيان المحرّمات في شريعة الإسلام بعد أن خوطب ببيان ما ليس بمحرّم ممّا حرّمه المشركون في قوله : ﴿ قل ءآلذّكرين حرم أم الأنثيين ﴾ [ الأنعام : 144 ] الآيات .

*(46/255)*

---

وافتُتح الكلام المأمورُ بأن يقوله بقوله : ﴿ لا أجد ﴾ إدماجاً للردّ على المشركين في خلال بيان ما حُرّم على المسلمين ، وهذا الردّ جار على طريقة كناية الإيماء بأن لم يُنْفَ تحريم ما ادّعوا تحريمه صريحاً ، ولكنّه يقول لا أجده فيما أوحي إليّ ويستفاد من ذلك أنَّه ليس تحريمه

من الله في شرعه ، لأنَّه لا طريق إلى تحريم شيء ممّا يتناوله النّاس إلاّ بإعلام من الله تعالى ، لأنّ الله هو الّذي يُحلّ ما شاء ويحرّم ما شاء على وفق علمه وحكمته ، وذلك الإعلام لا يكون إلاّ بطريق الوحي أو ما يُستنبط منه ، فإذا كان حكم غير موجود في الوحي ولا في فروعه فهو حكم غير حقّ ، فاستفيد بطلان تحريم ما زعموه بطريقة الإيماء ، وهي طريقة استدلالية لأنّ فيها نفي الشّيء بنفي ملزومه .

و﴿ أجد ﴾ بمعنى : أظفر ، وهو الّذي مصدره الوَجد والوجدانُ ، وهو هنا مجاز في حصول الشّيء وبلوغه ، يقال : وجَدْت فلاناً ناصراً ، أي حصلت عليه ، فشبّه التّحصيل للشّيء بالظفَر وإلْفاءِ المطلوب ، وهو متعدّ إلى مفعول واحد .

والمراد ، بـ ﴿ ما أوحي ﴾ ما أعلمه الله رسوله صلى الله عليه وسلم بوحي غير القرآن لأنّ القرآن النّازل قبل هذه الآية ليس فيه تحريم الميتة والدّم ولحم الخنزير وإنَّما نزل القرآن بتحريم ما ذكر في هذه الآية ثمّ في سورة المائدة .

والطاعم : الآكِلُ ، يقال : طَعِم كَعَلِم ، إذا أكل الطَّعام ، ولا يقال ذلك للشَّارب ، وأمَّا طَعِم بمعنى ذاق فيستعمل في ذوق المطعومات والمشروبات ، وأكثر استعماله في النّفي ، وتقدّم بيانه عند قوله تعالى : ﴿ ومن لم يطعَمْه فإنَّه منّي ﴾ في سورة البقرة ( 249 ) ، وبذلك تكون الآية قاصرة على بيان محرّم المأكولات .

وقوله : يطعمه ﴾ صفة لطاعم وهي صفة مؤكّدة مثل قوله : ﴿ ولا طائر يطير بجناحيه

﴿ [الأنعام: 38] .

والاستثناء من عموم الأكوان الّتي دلّ عليها وقوع النّكرة في سياق النّفي .

(47/255)

---

أي لا أجد كائناً محرّماً إلاّ كونه ميتة إلخ أي : إلاّ الكائن ميتة إلخ ، فالاستثناء متّصل .

والحصر المستفاد من النّفي والاستثناء حقيقي بحسب وقت نزول هذه الآية .

فلم يكن يومئذ من محرّمات الأكل غير هذه المذكورات لأنّ الآية مكّيّة ثمّ نزلت سورة المائدة بالمدينة فزيد في المحرمات كما يأتي قريباً .

والمسفوح : المصبوب السائل ، وهو ما يخرج من المذبح والمَنْحَر .

أو من الفصد في بعض عروق الأعضاء فيسيل .

وقد كان العرب يأكلون الدّم الّذي يسيل من أوداج الذّبيحة أو من منحَر المنحورة ويجمعونه في مَصير أو جِلد ويجفّفونه ثمّ يشْوونه ، وربّما فصدوا من قوائم الإبل مَفصدا فأخذوا ما يحتاجون من الدّم بدون أن يهلك البعير ، وربّما خلطوا الدّم بالوَبَر ويسمّونه ( العِلْهِز ) ، وذلك في المجاعات .

وتقييد الدّم بالمسفوح للتّنبيه على العفو عن الدمّ الّذي ينزّ من عروق اللّحم عند طبخه فإنّه

لا يمكن الاحتراز عنه .

وقوله : ﴿ فإنه رجس ﴾ جملة معترضة بين المعطوفات ، والضّمير قيل : عائد إلى لحم الخنزير ، والأظهر أن يعود إلى جميع ما قبله ، وأنّ افراد الضّمير على تأويله بالمذكور ، أي فإنّ المذكور رجس ، كما يفرد اسم الإشارة مثل قوله : ﴿ ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ﴾ [ الفرقان : 68 ] .

والرّجس : الخبيث والقَذر .

وقد مضى بيانه عند قوله تعالى : ﴿ كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ في هذه السورة ( 125 ) .

فإن كان الضّمير عائداً إلى لحم الخنزير خاصّة فوصفه برجس تنبيه على ذمّه .

وهو ذمّ زائد على التّحريم ، فوَصفه به تحذير من تناوله .

وتأنيس للمسلمين بتحريمه ، لأنّ معظم العرب كانوا يأكلون لحم الخنزير بخلاف الميتة والدّم فما يأكلونها إلاّ في الخصاصة .

وخباثة الخنزير علمها الله تعالى الّذي خلَقه .

وتبيّن أخيراً أنّ لحمه يشتمل على ذرّات حيوانية مضرّة لآكِله أثبتها علم الحيوان وعلم الطبّ .

وقيل : أريد أنَّه نجس لأنَّه يأكل النّجاسات وهذا لا يستقيم لأنّ بعض الدّواب تأكل النّجاسة وتُسمّى الجلاّلة وليست محرّمة الأكلِ في صحيح أقوال العلماء .

وإن كان الضّمير عائداً إلى الثلاثة بتأويل المذكور كان قوله : فإنه رجس ﴾ تنبيهاً على علّة التّحريم وأنَّها لدفع مفسدة تحصل من أكل هذه الأشياء .

وهي مفسدة بدنيّة .

فأمَّا الميتة فلما يتحوّل إليه جسم الحيوان بعد الموت من التعفّن ، ولأنّ المرض الّذي كان سبب موته قد يَنتقل إلى آكله .

وأمَّا الدّم فلأنّ فيه أجزاء مضرّة .

ولأنّ شُربه يورث ضراوة .

والفسق : الخروج عن شَيْء .

وهو حقيقة شرعية في الخروج عن الإيمان ، أو عن الطّاعة الشّرعية ، فلذلك يوصف به الفعل الحرام باعتبار كونه سبباً لفسق صاحبه عن الطّاعة .

وقد سمّى القرآن ما أهلّ به لغير الله فسقاً في الآية السالفة وفي هذه الآية ، فصار وصفاً مشهوراً لِمّا أهلّ به لغير الله ، ولذلك أتبعه بقوله : ﴿ أهل لغير الله به ﴾ .

فتكون جملة : ﴿ أهل لغير الله به ﴾ صفة أو بياناً ل ﴿ فسقاً ﴾ ، وفي هذا تنبيه على

أنّ تحريم ما أهلّ لغير الله به ليس لأنّ لحمه مضرّ بل لأنّ ذلك كفر بالله .

وقد دلّت الآية على انحصار المحرّمات من الحيوان في هذه الأربعة ، وذلك الانحصار بحسب ما كان مُحرّماً يوم نزول هذه الآية ، فإنَّه لم يحرّم بمكّة غيرها من لحم الحيوان الّذي يأكلونه ، وهذه السّورة مكّيّة كلّها على الصّحيح ، ثمّ حرّم بالمدينة أشياء أخرى ، وهي : المنخنقة والموقوذة والمتردّية والنّطيحة وأكيلة السّبع بآية سورة العقود ( 3 ) .

*(49/255)*

---

وحُرّم لحم الحُمر الإنسيّة بأمر النّبيء صلى الله عليه وسلم على اختلاف بين العلماء في أنّ تحريمه لذاته كالخنزير ، أو لكونها يومئذ حَمولة جيش خيبر ، وفي أنّ تحريمه عند القائلين بأنّه لذاته مستمرّ أو منسوخ ، والمسألة ليست من غرض التّفسير فلا حاجه بنا إلى ما تكلّفوه من تأويل حصر هذه الآية المحرّمات في الأربعة .

وكذلك مسألة تحريم لحم كلّ ذي ناب من السّباع ولحم سباع الطّير وقد بسطها القرطبي وتقدّم معنى : ﴿ أهِلّ لغير الله به ﴾ في تفسير سورة المائدة ( 3 ) .

وقرأ الجمهور : إلاّ أن يكون ﴿ بياء تحتيّة ونصب ﴿ ميتة ﴾ وما عطف عليها وقرأه ابن كثير ، وابن عامر ، وحمزة بتاء فوقيّة ونصب ﴿ ميتة ﴾ وما عطف عليه عند من عَدا

ابن عامر .

وقرأه ابن عامر وأبو جعفر بتاء فوقيّة ورفع ﴿ ميتةٌ ﴾ ويشكل على هذه القراءة أنّ المعطوف على ميتة منصوبات وهي : ﴿ أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به ﴾ .

ولم يعرّج عليها صاحب "الكشاف" ، وقد خُرّجت هذه القراءة على أن يكون : ﴿ أو دماً مسفوحاً ﴾ عطفاً على ﴿ أنْ ﴾ وصلتها لأنَّه محلّ نصب بالاستثناء فالتّقدير : إلاّ وجود ميتة ، فلمّا عبّر عن الوجود بفعل ﴿ يكون ﴾ التّامّ ارتفع ما كان مضافاً إليه .

وقوله : ﴿ فمن اضطر غير باغ ولا عاد ﴾ تقدّم القول في نظيره في سورة البقرة ( 173 ) في قوله : ﴿ فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه ﴾ .

*(50/255)*

---

وإنَّما جاء المسند إليه في جملة الجزاء وهو ربك ﴾ معرّفاً بالإضافة دون العلميّة كما في آية سورة البقرة ( 192 ) : ﴿ فإنّ الله غفور رحيم ﴾ لما يؤذن به لفظ الربّ من الرأفة واللّطف بالمربوب والولاية ، تنبيها على أنّ الله جعل هذه الرّخصة للمسلمين الّذين عبدوه ولم يشركوا به ، وأنَّه أعرض عن المشركين الّذين أشركوا معه غيره لأنّ الإضافة تشعر

بالاختصاص ، لأنَّها على تقدير لام الاختصاص ، فلمّا عبر عن الغفور تعالى بأنَّه ربّ النّبيء عليه الصّلاة والسّلاة علم أنَّه ربّ الَّذين اتَّبعوه ، وأنَّه ليس ربّ المشركين باعتبار ما في معنى الربّ من الولاية ، فهو في معنى قوله تعالى : ﴿ ذلك بأنّ الله مولى الذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم ﴾ [ محمد : 11 ] أي لا مولى يعاملهم بآثار الولاية وشعارها ، ذلك لأنّ هذه الآية وقعت في سياق حجاج المشركين بخلاف آية البقرة ( 172 ) فإنَّها مفتتحة بقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيّبات ما رزقناكم .

﴾ والإخبار بأنَّه غفور رحيم ، مع كون ذلك معلوماً من مواضع كثيرة ، هو هنا كناية عن الإذن في تناول تلك المحرّمات عند الاضطرار ورفع حرج التّحريم عنها حينئذ فهو في معنى قوله في سورة البقرة ( 182 ) : ﴿ فلا إثم عليه إنّ الله غفور رحيم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

*(51/255)*

---

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً ﴾

أي : طعاماً محرماً من المطاعم : ﴿ عَلَى طَاعِمٍ ﴾ أي : أي : طاعم كان من ذكر أو أنثى . رداً على قولهم : ﴿ مُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا ﴾ وقوله : ﴿ يَطْعَمُهُ ﴾ لزيادة التقرير : ﴿ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ﴾ أي : ذلك الطعام : ﴿ مَيْتَةً ﴾ . قال المهايمي : والموت سبب الفساد . فهو منجس ، إلا أن يمنع من تأثيره مانع من ذكر اسم الله ، أو كونه من الماء ، أو غيرهما : ﴿ أَوْ دَماً مَسْفُوحاً ﴾ أي : سائلاً لا كبداً أو طحالاً : ﴿ أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ ﴾ لتعوده أكل النجاسات : ﴿ أَوْ فِسْقاً ﴾ أي : خروجاً عن الدين الذي هو كالحياة المطهّرة : ﴿ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ أي : ذبح على اسم الأصنام ورفع الصوت على ذبحه باسم غير الله . وإنما سمي ( مَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ ) فسقاً ، لتوغله في باب الفسق ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ ﴾ أي : أصابته الضرورة الداعية إلى تناول شيء مما ذكر : ﴿ غَيْرَ بَاغٍ ﴾ أي : على مضطر مثله ، تارك لمواساته : ﴿ وَلاَ عَادٍ ﴾ متجاوز قدر حاجته من تناوله : ﴿ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ لا يؤاخذه . وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة والمائدة بما فيه كفاية .

تنبيهات :

الأول –قال ابن كثير : الغرض من سياق هذه الآية الكريمة الردّ على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوا من تحريم البَحِيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك . فأمر تعالى رسوله أن يخبرهم أنه لا يجد فيما أوحاه إليه أن ذلك محرم . وأن الذي حرمه هو الميتة وما ذكر معها . وما عدا ذلك فلم يحرم . وإنما هو عفو مسكوت عنه . فكيف تزعمون أنه حرام ؟ ومن أين حرمتموه ولم يحرمه تعالى ؟ وعلى هذا ، فلا ينفي تحريم أشياء أُخَر فيما بعد هذا . كما جاء النهي عن لحوم الحمر الأهلية ولحوم السباع وكل ذي مخلب من الطير – انتهى – وبالجملة فالآية تدل على أنه صلى الله عليه وسلم لم يجد فيما أوحي إليه إلى تلك الغاية غيره . ولا ينافيه ورود التحريم بعد ذلك في شيء آخر ، كالموقوذة والمنخنقة والمتردية والنطيحة وغيرها . وذلك لأن هذه السورة مكية . فما عدا ما ذكر تحريمه فيها مما حرم أيضاً ، طارئ . قيل : إذا حرم غير ما ذكر كان نسخاً لما اقتضته هذه الآية من تحليله . وجوابه أن ذلك زيادة تحريم وليس بنسخ لما في الآية . فصحّ تحريم كل ذي ناب من السبع ومخلب من الطير . ومن الناس من يسمي هذا نسخاً بالمعنى السلفيّ . وقد بيّناه مراراً . قال بعض الزيدية : وقد تعلق ابن عباس بالآية في تحليل لحم الحمر الأهلية . وعائشة في لحوم السباع . وعكرمة في إباحة كل شيء سوى ما في الآية . وعن الشعبي ؛ أنه كان يبيح لحم الفيل ويتلو هذه الآية .

ولا تعلق لجميعهم بالآية . لأنه تعالى بين ما يحرم في تلك الأحوال . انتهى .

وقال السيوطي في " الإكليل " : أحتج بها كثير من السلف في إباحة ما عدا المذكور فيها .

فمن ذلك الحمر الأهلية ، أخرجه البخاري عن عَمْرو بن دينار قال : قلت لجابر بن يزيد : يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن حُمرُ الأهلية . فقال : قد كان يقول ذلك الحكم بن عَمْرو الغفاريّ عندنا بالبصرة . ولكن أبى ذلك البحرُ ( ابن عباس ) وقرأ : ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ ﴾ الآية . وأخرج أبو داود عن ابن عمر أنه سئل عن أكل القنفذ ؟ فقرأ : ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ ﴾ الآية . وأخرج ابن أبي حاتم وغيره . بسند صحيح عن عائشة أنها كانت إذا سئلت عن كل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير ؟ تَلَتْ : ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ ﴾ الآية . وأخرج عن ابن عباس أنه قال : ليس من الدواب شيء حرام إلا ما حرم الله في كتابه ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ ﴾ الآية . انتهى .

وأخرج أبو داود عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذراً . فبعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم وأنزل كتابه وأحل حلاله وحرم حرامه . فما أحل فهو حلال وما حرّم فهو حرام . وما سكت عنه فهو معفوّ . وتلا : ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ ﴾ الآية .

وذكرنا ضعف التعلق بهذه الآية على ما ذهبوا إليه .

قال في " فتح البيان " : معنى الآية أنه تعالى أمره صلى الله عليه وسلم بأن يخبرهم أنه لا يجد في شيء مما أوحي إليه محرّماً غير هذه المذكورات . فدل على انحصار المحرمات فيها ، لولا أنها مكية . وقد نزل بعدها بالمدينة سورة المائدة وزيد فيها على هذه المحرمات : المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة . وصحّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تحريم كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير وتحريم الحمر الأهلية والكلاب ، ونحو ذلك .

*(54/255)*

---

بالجملة ، فهذا العموم إن كان بالنسبة إلى ما يؤكل من الحيوانات ، كما يدل عليه السياق ويفيده الاستثناء ، فيضم إليه كل ما ورد بعده في الكتاب أو السنة مما يدل على تحريم شيء من الحيوانات . وإن كان هذا العموم هو بالنسبة إلى كل شيء حرمه الله من حيوان وغيره ، فإنه يضم إليه كل ما ورد بعده مما فيه تحريم شيء من الأشياء . وقد روي عن ابن عباس وابن عمر وعائشة ؛ أنه لا حرام إلا ما ذكره الله في هذه الآية وروي ذلك عن مالك . وهو قول ساقط ومذهب في غاية الضعف لاستلزامه لإهمال غيرها , مما نزل بعدها من القرآن , وإهمال ما صح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال بعد نزول هذه الآية . بلا سبب

يقتضي ذلك ولا موجب يوجبه . وقول جابر ( لكن أبى ذلك البحر ابن عباس ) في رواية البخاريّ المتقدمة , أقول : وإن أبى ذلك البحر , فقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . والتمسك بقول صحابيٍّ في مقابلة قول النبيّ صلى الله عليه وسلم من سوء الاختيار وعدم الإنصاف . انتهى كلام الفتح .

وفي " نيل الأوطار " : الاستدلال بهذه الآية إنما يتمّ في الأشياء التي لم يرد النصّ بتحريمها . وأمّا الحمر الإنسية فقد تواترت النصوص على ذلك . والتنصيص على التحريم مقدم على عموم التحليل , وعلى القياس . وأيضاً الآية مكية . انتهى .

وقد ثبت عن ابن عمر رجوعه عن التعلق بعمومها .

روى سيعد بن منصور والإمام أحمد وأبو داود عن نميلة الفزازي قال : كنت عند ابن عمر , وإنه سئل عن أكل القنفذ فقرأ عليه : ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ ﴾ . . الآية . فقال شيخ عنده : سمعت أبا هريرة يقول : ذُكِرَ عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : خبيث من الخبائث . فقال ابن عمر : إن كان النبيّ صلى الله عليه وسلم قاله فهو كما قال .

أي والخبائث محرّمة بنص القرآن , فهو مخصص لعموم هذه الآية .

وعن المقدام بن معدي كرب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عني وهو متكئ على أريكته فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله . فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه . وما وجدنا فيه حراما حرمناه . وإن ما حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حرم الله تعالى . أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن غريب .

ولأبي داود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه . لا يوشك رجل شبعانُ على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن , فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه . وما وجدتم فيه حرام فحرموه . ألا لا يحل لكم (لحم) الحمار الأهليّ ولا كل ذي ناب من السبع ولا لُقَطَةُ معاهد ألا أن يستغني عنها صاحبها . ومن نزل بقوم فعليهم أن يَقْرُوه . فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه . (أي : يأخذ منهم عوضاً عما حَرَموه من القرى) .

هذا والزمخشري فسر محرماً بـ (طعاماً محرماً من المطاعم التي حرمتموها ) وجعل الاستثناء منطقاً . أي : لا أجد ما حرمتوه لكم أجد الأربعة محرّمة . وهذا لا دلالة فيه على الحصر حتى ترد المحرمات الأخر . إذ الاستثناء المنقطع ليس كالمتصل في الحصر . وغير الزمخشري لم يقيّده بما ذكر . لأن الأصل الاتصال وعدم التقييد وأوّلوها بما قدمنا قبل . وحينئذ يكون الاستثناء من أعم الأوقات أو أعم الأحوال مفرغاً . بمعنى : لا أجد

شيئاً من المطاعم المحرمات في وقت من الأوقات ، أو حال من الأحوال , إلا في وقت أو حال كون الطعام أحد الطعام أحد الأربعة . فإني أجد حينئذ محرماً . فالمصدر للزمان أو الهيئة . وفيه أن المصدر المؤول من ( أن والفعل ) لا ينصب على الظرفية . ولا يقع حالاً , لأنه معرفة . والله أعلم .

(56/255)

---

الثاني –في قوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً ﴾ إيذان التحريم إنما بالوحي لا بالهوى . قال الشهاب : كني بعدم الوجدان عن عدم الوجود . ومبنى هذه الكناية على أن طريق التحريم التنصيص منه تعالى . وتفسيره بمطلق الوحي استظهروه . ولذا قال : أوحي ولم يقل : أنزل .

الثالث –قال السيوطي في " الإكليل " : استدل النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ على أنه إنما حرم من الميتة أكلها . وأن جلدها يطهر بالدبغ . فأخرج أحمد وغيره عن ابن عباس قال : ماتت شاة لسودة بنت زَمْعَة فقالت : يا رسول الله ! ماتت فلانة ( يعني الشاة ) فقال : فلولا أخذتم مَسْكها ؟ فقالت : نأخذ مسك شاة قد ماتت ؟ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما قال الله عز وجل : ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ

فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ ﴾ . فإنكم لا تطعمونه . إن تدبغوه تنتفعوا به . فأرسلت إليها فسلختْ مسكها فدبغته , فاتخذت منه قربة , حتى تخرَّقت عندها .

الرابع – استدل بقوله تعالى : ﴿ مَّسْفُوحاً ﴾ على إباحة غيره . وذلك لأن الدم المسفوح هو ما سال من الحيوان في حال الحياة , أو عند الذبح – لا كالكبد والطحال – وكذا ما اختلط باللحم من الدم لأنه غير سائل . قال عِمْرَان بن جدير : سألت أبا مجلز عما يختلط باللحم من الدم , وعن القدر يرى فيها حمرة الدم فقال : لا بأس بذلك ! إنما نهى عن الدم المسفوح .

وقال إبراهيم النَّخَعِي : لا بأس بالدم في عِرقٍ أو مخّ , إلاّ المسفوح .

وقال عِكْرِمَة : لولا هذه الآية لتتبع المسلمون الدم من العروق ما تتبع اليهود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 524.528 ﴾

(57/255)

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلْ لاَ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا

مَسْفُوحًا ﴾

والحق سبحانه وتعالى قد تكلم عن التحريم في آيات كثيرة ؛ فهناك الآية التي قال فيها : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة والدم ولَحْمُ الخنزير وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وَمَا أَكَلَ السبع إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النصب . . . ﴾ [ المائدة : 3 ]

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها نجد الحصر في أربعة فقط ، فيقول سبحانه :

﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ . . ﴾ [ الأنعام : 145 ]

فكيف يتفق هذا النص مع النص الآخر ؟ !

من يقول ذلك نقول له : أنت لا تفرق بين إيجاز وإطناب ، ولا تفرق بين إجمال وتفصيل ؛ فالذي تُرِك في هذه الآية داخل في الميتة ؛ لأن المنخقة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع ، والذي ذُبح على النصب وما أهلّ به لغير الله موجود وداخل في كلمة " الميتة " .

ثم : من قال : إن القرآن هو المصدر الوحيد للتشريع ؟ التشريع أيضاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بتفويض من الله في قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا . . . ﴾ [ الحشر : 7 ]

فلا تقل إن المحرمات فقط محصورة في هذه الآية لأن فيه محرمات كثيرة ، بدليل أن الله مرّة يُجْملها ، فيحرّم علينا الخبائث ؛ فكل خبيث مُحرّم . وقلنا من قبل : إن الدم المسفوح مُحرّم ، والدم المسفوح هو السائل الذي ينهال ويجري وينصب ساعة الذبح ، وهل هناك دم غير مسفوح ؟ نعم ، وهو الدم الذي بلغ من قوة تماسكه أن كون عضواً في الجسم كالكبد أو الطحال . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " أحلت لنا ميتتان ودمان : فأما الميتتان فالحوت والجراد ، وأما الدمان فالكبد والطحال " وفي رواية أخرى : السمك والجراد .

وعلى منطق التحريم للميتة والدم كان لابد ألا نأكل الميتة من السمك . ولا الكبد والطحال ، ولكن الله أحل السمك والجراد والكبد والطحال لأنها لا تضر الجسم ، فالسمك والجراد ليس لهما نفسٌ سائلة أي دم يجري ؛ فإذا ما ذبحنا أحدهما لا يسيل له دم ، أما الكبد والطحال فهما من دم وصل من الصلاحية أنه يكوّن عضواً في الجسم ، ولا يتكوّن عضو في الجسم يؤدي مهمة من دم فاسد ، بل لا بد أن يكون من دمٍ نقي .

والحق الذي شرّع يقدر الظروف المواتية للمكلَّفين ، وقد تمر بهم ظروف وحالات لا يجدون فيها إلا الميتة ، وهنا يأكلون أكل ضرورة على قدر دفع الضر والجوع . لكن على المسلم ألا

يملأ بطنه من تلك الأشياء . ﴿ . . فَمَنِ اضطر غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: 145]

(59/255)

---

وأنواع الإضطرار : ألا تجد ما يؤكل من الحلال ، أو أن يكون ما يؤكل من الحلال موجوداً إلا أن هناك من يكرهك على أن تأكل هذا المحرم ، فالإكراه داخل في الاضطرار ، والاضطرار يحملك ويدفعك إلى أن تمنع عن نفسك الهلاك ؛ فتأخذ من طعام حتى تقتات فلا تموت من الجوع ، فإذا كان الله قد أباح لك أن تأكل من الميتة في حال مظنة أن تموت من الجوع فما لك من الإِكراه بالموت العاجل ؛ إنه أولى بذلك ؛ لأنه سبحانه هو الذي رخّص ، وهو الذي شرع الرخصة ، ومعنى ذلك أنها دخلت التكليف ؛ لأن الله يحب أن تؤتى رخصة كما يحب أن تؤتى عزائمه ، وما دامت قد دخلت في دائرة التكليف فهنا يكون الغفران والرحمة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(60/255)

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (145) ﴾

أخرج عبد بن حميد عن طاوس قال : إن أهل الجاهلية كانوا يحرمون أشياء ويستحلون أشياء ، فنزلت ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً ﴾ الآية .

وأخرج عبد بن حميد وأبو داود وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذرا ، فبعث الله نبيه ، وأنزل كتابه ، وأحل حلاله ، وحرم حرامه ، فما أحل فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو منه ، ثم تلا هذه الآية ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً ﴾ إلى آخر الآية .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن ابن عباس أنه تلا هذه الآية ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً ﴾ فقال : ما خلا هذا فهو حلال .

وأخرج البخاري وأبو داود وابن المنذر والنحاس وأبو الشيخ عن عمرو بن دينار قال : قلت لجابر بن زيد : إنهم يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر

الأهلية زمن خيبر ؟ فقال : قد كان يقول ذلك الحكم بن عمرو الغفاري عندنا بالبصرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن أبى ذلك البحر ابن عباس ، وقرأ ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إلى . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ليس من الدواب شيء حرام إلا ما حرم الله في كتابه ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً . . . ﴾ الآية .

*(61/255)*

---

وأخرج سعيد بن منصور وأبو داود وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عمر . أنه سئل عن أكل القنفذ ؟ فقرأ ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً ﴾ الآية . فقال شيخ عنده : سمعت أبا هريرة يقول : ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال " خبيث من الخبائث . فقال ابن عمر : إن كان النبي صلى الله عليه وسلم قاله فهو كما قال " .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن عائشة . أنها كانت إذا سُئلت عن كل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير تلت ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً ﴾ الآية .

وأخرج أحمد والبخاري والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن

ابن عباس . أن شاة السودة بنت زمعة ماتت ، فقالت : يا رسول الله ماتت فلانة تعني الشاة قال : فلولا أخذتم مسكها ؟ قالت : يا رسول الله أنأخذ مسك شاة قد ماتت . . . ! فقرأ النبي صلى الله عليه وسلم قل ﴿ لا أجد فيما أوحي إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة ﴾ وإنكم لا تطعمونه ، وإنما تدبغونه حتى تنتفعوا به ، فأرسلت إليها فسلختها ثم دبغته ، فاتخذت منه قربة حتى تخرقت عندها " .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس . أنه قرأ هذه الآية ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة ﴾ إلى آخر الآية . وقال : إنما حرم من الميتة ما يؤكل منها وهو اللحم ، فاما الجلد ، والقد ، والسن ، والعظم ، والشعر ، والصوف ، فهو حلال .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية إذا ذبحوا أودجوا الدابة ، وأخذوا الدم فأكلوه ، قالوا : هو دم مسفوح .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة قال : حرم الدم ما كان مسفوحاً ، فأما لحم يخالطه الدم فلا بأس به .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة قال : لولا هذه الآية ﴿ أو دماً مسفوحاً ﴾ لاتبع المسلمون من العروق ما تتبع منه اليهود .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ أو دماً مسفوحاً ﴾ قال : المسفوح الذي يهراق ، ولا بأس بما كان في العروق منها .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال له : آكل الطحال ؟ قال : نعم . قال : إن عامتها دم ؟ قال : إنما حرم الله الدم المسفوح .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن أبي مجلز . في الدم يكون في مذبح الشاة ، أو الدم يكون على أعلى القدر ؟ قال : لا بأس ، إنما نهى عن الدم المسفوح .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمر وعائشة قالا : لا بأس بأكل كل ذي شيء إلا ما ذكر الله في هذه الآية ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً ﴾ الآية .

وأخرج أبو الشيخ عن الشعبي . أنه سئل عن لحم الفيل والأسد ، فتلا ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو الشيخ عن ابن الحنفية . أنه سئل عن أكل الجريت فقال ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه سئل عن ثمن الكلب والذئب والهر وأشباه ذلك ؟

فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء أن تبد لكم تسؤكم ﴾ [المائدة : 101 ] كان ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرهون أشياء فلا يحرمونه ، وأن الله أنزل كتاباً فأحل فيه حلالاً وحرم فيه حراماً ، وأنزل في كتابه ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والنسائي عن ابن عمر قال " نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر " .

*(63/255)*

---

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والنسائي عن أبي ثعلبة قالة " حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم لحوم الحمر الأهلية " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم عن أنس " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءه جاءٍ فقال : أكلت الحمر ، ثم جاءه جاء فقال : أفنيت الحمر ؟ فأمر منادياً فنادى في الناس : إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهلية فإنها رجس ، فاكفئت القدور وانها لتفور باللحم " .

وأخرج مالك والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة عن أبي ثعلبة

الخشني " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن أكل كل ذي ناب من السباع " .

وأخرج مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة عن ابن عباس قال " نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر عن كل ذي ناب من السباع ، وعن كل ذي مخلب من الطير " .

وأخرج أبو داود عن خالد بن الوليد قال : غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر ، فأتوا اليهود فشكوا أن الناس قد أشرفوا إلى حظائرهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ألا لا تحل أموال المعاهدين إلا بحقها ، حرام عليكم حمير الأهلية وخيلها وبغالها ، وكل ذي ناب من السباع ، وكل ذي مخلب من الطير " .

وأخرج ابن أبي شيبة والترمذي وحسنة عن جابر قال " حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر الحمر الإِنسية ، ولحوم البغال ، وكل ذي ناب من السباع ، وذي مخلب من الطير ، والمجثمة ، والحمار الإِنسي " .

وأخرج ابن أبي شيبة والترمذي وحسنه عن أبي هريرة " أن النبي صلى الله عليه وسلم حرم يوم خيبر كل ذي ناب من السباع ، وحرم المجثمة ، والخلسة ، والنهبة " .

وأخرج الترمذي عن العرباض ابن سارية " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى يوم خيبر عن كل ذي ناب من السبع ، وعن كل ذي مخلب من الطير ، وعن لحم الحمر الأهلية " .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن مكحول قال " نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية ، وعن الحبالى أن يقربن ، وعن بيع المغانم يعني حتى تقسم وعن أكل كل ذي ناب من السباع " .

وأخرج ابن أبي شيبة من طريق القاسم ومكحول عن أبي أمامة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى يوم خيبر عن أكل الحمار الأهلي ، وعن أكل كل ذي ناب من السباع ، وأن توطأ الحبالى حتى تضعن ، وعن أن تباع السهام حتى تقسم ، وأن تباع التمرة حتى يبدو صلاحها ، ولعن يومئذ الواصلة ، والموصولة ، والواشمة ، والموشومة ، والخامشة وجهها ، والشاقة جيبها " .

وأخرج أبو داود والترمذي وابن ماجة عن جابر بن عبد الله " أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن أكل الهرة وأكل ثمنها " .

وأخرج أبو داود عن عبد الرحمن بن شبل " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن أكل الضب " .

وأخرج مالك والشافعي وابن أبي شيبة والبخاري والترمذي والنسائي وابن ماجة عن ابن عمر قال : " سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الضب ؟ فقال " لست آكله ولا أحرمه " " .

وأخرج مالك والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة عن خالد بن الوليد " أنه دخل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت ميمونة ، فأتى بضب محنوذ ، فأهوى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ، فقال : بعض النسوة أخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يريد أن يأكل ، فقالوا : هو ضب يا رسول الله ، فرفع يده فقلت : أحرام هو يا رسول الله ؟ قال : لا ولكن لم يكن بأرض قومي فاجدني أعافه . قال خالد : فاجترته فأكلته ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر " .

*(65/255)*

---

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والنسائي وابن ماجة عن ثابت بن وديعة قال : "كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جيش فأصبنا ضباباً ، فشويت منها ضباً فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعته بين يديه ، فأخذ عوداً فعد به أصابعه ، ثم قال " إن أمة من بن إسرائيل مسخت دواب في الأرض ، وإني لا أدري أي الدواب هي ، فلم يأكل ولم ينه " " .

وأخرج أبو داود عن خالد بن الحويرث " أن عبد الله بن عمرو كان بالصفاح ، وأن رجلاً جاء بأرنب قد صادها فقال له : ما تقول ؟ قال : قد جيء بها إلى رسول الله صلى الله

عليه وسلم وهو جالس فلم يأكلها ولم ينه عن أكلها ، وزعم أنها تحيض " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة عن أنس قال : انفجنا أرنباً ونحن بمر الظهران ، فسعى القوم فلغبوا وأخذتها ، فجئت بها إلى أبي طلحة فذبحها ، فبعث بوركيها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقبلها .

وأخرج ابن أبي شيبة والترمذي وضعفه وابن ماجة عن خزيمة بن جزيء السلمي قال " سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل الضبع فقال : ويأكل الضبع أحد ؟ وسألته عن أكل الذئب قال : ويأكل الذئب أحد في خير ؟ وفي لفظ لابن ماجة : قلت يا رسول الله جئتك لأسألك عن أجناس الأرض ما تقول في الثعلب ؟ قال : ومن يأكل الثعلب ؟ قلت : ما تقول في الضب ؟ قال : لا آكله ولا أحرمه . قلت : ولم يا رسول الله ؟ قال : فقدت أمة من الأمم ورأيت خلقاً رابني . قلت : يا رسول الله ما تقول في الأرنب ؟ قال : لا آكله ولا أحرمه . قلت ولم يا رسول الله ؟ قال : نبئت أنها تدمى " .

وأخرج ابن ماجة عن ابن عمر قال : من يأكل الغراب وقد سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاسقاً والله ما هو من الطيبات .

وأخرج أبو داود والترمذي من طريق إبراهيم بن عمر بن سفينة عن أبيه عن جده قال " أكلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لحم حباري " .

وأخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي موسى قال : " رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل لحم دجاج " .

وأخرج أبو داود والترمذي وصححه النسائي وابن ماجة عن عبد الرحمن بن أبي عمار قال : قلت لجابر : الضبع أصيد هي ؟ قال : نعم قلت : آكلها ؟ قال : نعم قلت : أقاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(67/255)

---

ومن فوائد الإمام القرطبى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (145) ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَآ أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً ﴾ أعلم الله عز وجل في هذه الآية بما حرم .

والمعنى : قل يا محمد لا أجد فيما أوحي إليّ محرّماً إلا هذه الأشياء ، لا ما تحرمونه بشهوتكم .

والآية مكية .

ولم يكن في الشريعة في ذلك الوقت محرم غير هذه الأشياء ، ثم نزلت سورة "المائدة" بالمدينة .

وزيد في المحرمات كالمنخنِقة والْموْقُوذَة وَالْمُتَرَدِّيَةِ وَالنَّطِيحَة والخمر وغير ذلك .

وحرّم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة أكل كلِّ ذي ناب من السباع وكلِّ ذي مِخْلب من الطير .

وقد اختلف العلماء في حكم هذه الآية وتأويلها على أقوال : الأوّل : ما أشرنا إليه من أن هذه الآية مكية ، وكلّ محرّم حرّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم أو جاء في الكتاب مضموم إليها ؛ فهو زيادة حكم من الله عز وجل على لسان نبيه عليه السلام .

على هذا أكثر أهل العلم من أهل النظر ، والفقه والأثر .

ونظيره نكاح المرأة على عمتها وعلى خالتها مع قوله : ﴿ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَّا وَرَاءَ ذَلِكُمْ ﴾ [ النساء : 24 ] وكحكمه باليمين مع الشاهد مع قوله : ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ

وامرأتان ﴾ [البقرة: 282] وقد تقدم.

وقد قيل: إنها منسوخة بقوله عليه السلام: "أَكْلُ كلِّ ذي ناب من السباع حرام" أخرجه مالك، وهو حديث صحيح.

وقيل: الآية مُحكَمة ولا يحرم إلا ما فيها.

وهو قول يُرْوى عن ابن عباس وابن عمر وعائشة، وروي عنهم خلافه.

(68/255)

---

قال مالك: لا حرام بيّنٌ إلا ما ذُكِرَ في هذه الآية.

وقال ابن خُوَيْز مَنْدَاد: تضمنت هذه الآية تحليل كلِّ شيء من الحيوان وغيره إلا ما استثنى في الآية من الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير.

ولهذا قلنا: إن لحوم السباع وسائر الحيوان ما سوى الإنسان والخنزير مباح.

وقال الكِيَا الطبريّ: وعليها بنى الشافعيّ تحليل كلّ مسكوت عنه؛ أخْذاً من هذه الآية، إلا ما دلّ عليه الدليل.

وقيل: إن الآية جواب لمن سأل عن شيء بعينه فوقع الجواب مخصوصاً.

وهذا مذهب الشافعيّ.

وقد روى الشافعي عن سعيد بن جُبير أنه قال : في هذه الآية أشياء سألوا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجابهم عن المحرّمات من تلك الأشياء .

وقيل : أي لا أجد فيما أوحي إليّ أي في هذه الحال حال الوحي ووقت نزوله ، ثم لا يمتنع حدوث وَحْيٍ بعد ذلك بتحريم أشياء أخر .

وزعم ابن العربي أن هذه الآية مدنية وهي مكية في قول الأكثرين ، نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم يوم نزل عليه "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ" ولم ينزل بعدها ناسخ فهي مُحْكَمة ، فلا مُحَرَّم إلا ما فيها ، وإليه أميل .

قلت : وهذا ما رأيته قاله غيره .

وقد ذكر أبو عمر بن عبد البر الإجماعَ في أن سورة "الأنعام" مكية إلا قوله تعالى : "قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ" الثلاث الآيات ، وقد نزل بعدها قرآن كثير وسُنَن جمّة .

فنزل تحريم الخمر بالمدينة في "المائدة" .

وأجمعوا على أن نهيه عليه السلام عن أكل كلّ ذي ناب من السباع إنما كان منه بالمدينة .

قال إسماعيل بن إسحاق : وهذا كله يدل على أنه أمرٌ كان بالمدينة بعد نزول قوله : "قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً" لأن ذلك مَكيّ .

قلت : وهذا هو مَثار الخلاف بين العلماء .

فعدل جماعة عن ظاهر الأحاديث الواردة بالنهي عن أكل كل ذي ناب من السباع ؛ لأنها متأخرة عنها والحصر فيها ظاهر فالأخذ بها أولى ؛ لأنها إما ناسخة لما تقدمها أو راجحة على تلك الأحاديث .

وأما القائلون بالتحريم فظهر لهم وثبت عندهم أن سورة "الأنعام" مكية ؛ نزلت قبل الهجرة ، وأن هذه الآية قصد بها الرد على الجاهلية في تحريم البحيرة والسائبة والوَصِيلة والحامي ، ثم بعد ذلك حرّم أموراً كثيرة كالحُمر الإنسية ولحوم البغال وغيرها ، وكل ذي ناب من السباع وكلّ ذي مخلب من الطير .

قال أبو عمر : ويلزم على قول من قال : "لا محرم إلا ما فيها" ألا يحرّم ما لم يذكر اسم الله عليه عمداً ، وتُستحلّ الخمر المحرمة عند جماعة المسلمين .

وفي إجماع المسلمين على تحريم خمر العنب دليل واضح على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وجد فيما أوحيّ إليه محرماً غير ما في سورة "الأنعام" مما قد نزل بعدها من القرآن .

وقد اختلفت الرواية عن مالك في لحوم السباع والحمير والبغال فقال ( مرة ) : هي محرمة ؛ لما ورد من نهيه عليه السلام عن ذلك ، وهو الصحيح من قوله على ما في الموطأ .

وقال مَرّة : هي مكروهة ، وهو ظاهر المدَوّنة ؛ لظاهر الآية ؛ ولما روي عن ابن عباس وابن

عمر وعائشة من إباحة أكلها ، وهو قول الأوزاعيّ .

روى البخاري من رواية عمرو ابن دينار قال : قلت لجابر بن زيد : إنهم يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحُمُر الأهلية ؟ فقال : قد كان يقول ذلك الحكَم بن عمرو الغفاريّ عندنا بالبصرة ؛ ولكن أبى ذلك البحرُ ابن عباس ، وقرأ "قُلْ لاَ أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً" .

وروي عن ابن عمر أنه سئل عن لحوم السباع فقال : لا بأس بها .

فقيل له : حديث أبي ثعلبة الخُشَني فقال : لا نَدَع كتابَ الله ربِّنا لحديث أعرابيّ يبول على ساقيه .

*(70/255)*

---

وسئل الشعبي عن لحم الفيل والأسد فتلا هذه الآية : وقال القاسم : كانت عائشة تقول لما سمعت الناس يقولون حَرُم كل ذي ناب من السباع : ذلك حلال ، وتتلوا هذه الآية ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً ﴾ ثم قالت : أن كانت البُرْمة ليكون ماؤها أصفر من الدم ثم يراها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يحرّمها .

والصحيح في هذا الباب ما بدأنا بذكره ، وأن ما ورد من المحرمات بعد الآية مضموم إليها

معطوف عليها .

وقد أشار القاضي أبو بكر بن العربيّ إلى هذا في قَبسه خلاف ما ذكر في أحكامه قال : رُوي عن ابن عباس أن هذه الآية من آخر ما نزل ؛ فقال البغداديون من أصحابنا : إن كل ما عداها حلال ، لكنه يكره أكل السباع .

وعند فقهاء الأمصار منهم مالك والشافعي وأبو حنيفة وعبد الملك أن أكل كل ذي ناب من السباع حرام ، وليس يمتنع أن تقع الزيادة بعد قوله : ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً ﴾ بما يَرِدُ من الدليل فيها ؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث " فذكر الكفر والزنى والقتل .

ثم قال علماؤنا : إن أسباب القتل عشرة بما ورد من الأدلة ، إذ النبي صلى الله عليه وسلم إنما يخبر بما وصل إليه من العلم عن الباري تعالى ؛ وهو يمحُو ما يشاء ويُثبت ويَنْسَخ ويقدّر .

وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أكل كل ذي ناب من السباع حرام " وقد رُوي أنه نهى عن أكل كلّ ذي ناب من السباع وذي مخلب من الطير .

وروى مسلم عن مَعْن عن مالك : " نُهِيَ عن أكل كل ذي مخلب من الطير " والأول أصح وتحريم كل ذي ناب من السباع هو صريح المذهب وبه ترجم مالك في الموطأ حين قال : تحريم أكل كلّ ذي ناب من السباع .

ثم ذكر الحديث وعقبه بعد ذلك بأن قال : وهو الأمر عندنا .

فأخبر أن العمل اطرد مع الأثر .

(71/255)

---

قال القشيريّ : فقول مالك "هذه الآية من أواخر ما نزل" لا يمنعنا من أن نقول : ثبت تحريم بعض هذه الأشياء بعد هذه الآية ، وقد أحل الله الطيبات وحرّم الخبائث ، ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل كلّ ذي ناب من السباع ، وعن أكل كلّ ذي مخلب من الطير ، ونهى عن لحوم الحمر الأهلية عام خيْبَر .

والذي يدل على صحة هذا التأويل الإجماعُ على تحريم العَذِرة والبَوْل والحشرات المستقْذرة والحُمُر مما ليس مذكوراً في هذه الآية .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ مُحَرَّماً ﴾ قال ابن عطية : لفظة التحريم إذا وردت على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنها صالحة أن تنتهي بالشيء المذكور غاية الحظْر والمنع ، وصالحة أيضاً بحسب اللغة أن تقف دون الغاية في حيّز الكراهة ونحوها ؛ فما اقترنت به قرينة التسليم من الصحابة المتأولين وأجمع الكل منهم ولم تضطرب فيه ألفاظ الأحاديث وجب بالشرع أن يكون تحريمه قد وصل الغاية من الحظر والمنع ، ولحِق بالخنزير والميتة والدّم

، وهذه صفة تحريم الخمر .

وما اقترنت به قرينة اضطراب ألفاظ الأحاديث واختلفت الأئمة فيه مع علمهم بالأحاديث كقوله عليه السلام : " أكل كلّ ذي ناب من السباع حرام " وقد ورد نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل كل ذي ناب من السباع ، ثم اختلفت الصحابة ومن بعدهم في تحريم ذلك ، فجاز لهذه الوجوه لمن ينظر أن يحمل لفظ التحريم على المنع الذي هو الكراهة ونحوها .

وما اقترنت به قرينة التأويل كتحريمه عليه السلام لحوم الحمر الإنسية فتأول بعض الصحابة الحاضرين ذلك لأنه نَجَس ، وتأول بعضهم ذلك لئلا تفنى حَمولة الناس ، وتأول بعضهم التحريم المحض .

وثبت في الأمة الاختلاف في تحريم لحمها ؛ فجائز لمن ينظر من العلماء أن يحمل لفظ التحريم ( على المنع الذي هو الكراهة ونحوها ) بحسب اجتهاده وقياسه .

قلت : وهذا عقد حَسَن في هذا الباب وفي سبب الخلاف على ما تقدم .

*(72/255)*

وقد قيل : إن الحمار لا يؤكل ، لأنه أبدى جوهره الخبيث حيث نزا على ذكر وتلوّط ؛ فسمّي رِجْساً .

قال محمد بن سيرين : ليس شيء من الدواب يعمل عمل قوم لوط إلا الخنزير والحمار ؛ ذكره الترمذيّ في نوادر الأصول .

الثالثة : روى عمرو بن دينار عن أبي الشَّعثاء عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء ، فبعث الله نبيه عليه السلام وأنزل كتابه وأحلّ حلاله وحرّم حرامه ؛ فما أحلّ فهو حلال وما حرّم فهو حرام وما سكت عنه فهو عَفْوٌ ، وتلا هذه الآية "قُلْ لاَ أَجِدُ" الآية .

يعني ما لم يبيّن تحريمه فهو مباح بظاهر هذه الآية .

وروى الزُّهريّ عن عبيد الله بن عبد الله بن عباس أنه قرأ "قُلْ لاَ أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً" قال : إنما حرّم من الميتة أكلها ، ما يؤكل منها وهو اللحم ؛ فأما الجلد والعظم والصوف والشعر فحلال وروى أبو داود عن مِلْقام بن تَلِب عن أبيه قال : صحبت النبيّ صلى الله عليه وسلم فلم أسمع لحَشَرة الأرض تحريماً .

الْحَشَرة : صغار دواب الأرض كاليَرابيع والضِّباب والقنافذ .

ونحوها ؛ قال الشاعر :

أكلنا الرُّبَى يا أمَّ عمرو ومن يَكُنْ . . .

غَريباً لَديْكُم يأكُلِ الحشرات

أي ما دبّ ودَرج.

والرُّبَى جمع رُبْية وهي الفأرة.

قال الخطابي: وليس في قوله "لم أسمع لها تحريماً" دليل على أنها مباحة؛ لجواز أن يكون غيره قد سمعه.

وقد اختلف الناس في اليَرْبوع والوَبْر والجمع وِبَارٌ ونحوهما من الحشرات؛ فرخص في اليَرْبُوع عروةُ وعطاء والشافعيّ وأبو ثور.

قال الشافعي: لا بأس بالوَبْر وكرهه ابن سيرين والحَكَم وحمّاد وأصحاب الرأي.

وكره أصحاب الرأي القُنْفد.

وسئل عنه مالك بن أنس فقال: لا أدري.

وحكى أبو عمرو: وقال مالك لا بأس بأكل القنفذ.

وكان أبو ثَوْر لا يرى به بأساً؛ وحكاه عن الشافعيّ.

(73/255)

وسئل عنه ابن عمر فتلا ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَآ أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً ﴾ الآية ؛ فقال شيخ عنده سمعت أبا هريرة يقول : ذُكر عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " خبيثة من الخبائث " فقال ابن عمر : إن كان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا فهو كما قال . ذكره أبو داود .

وقال مالك : لا بأس بأكل الضبّ واليربوع والوَرَل .

وجائز عنده أكل الحيات إذا ذكّيت ؛ وهو قول ابن أبي ليلى والأوزَاعِيّ .

وكذلك الأفاعي والعقارب والفأر والعَظاية والقُنْفُذ والضِّفْدَعِ .

وقال ابن القاسم : ولا بأس بأكل خشاش الأرض وعقاربها ودودها في قول مالك ؛ لأنه قال : موته في الماء لا يفسده .

وقال مالك : لا بأس بأكل فراخ النحل ودود الجبن والتمر ونحوه .

والحجة له حديث مِلْقام بن تَلِب ، وقول ابن عباس وأبي الدرداء : ما أحل الله فهو حلال وما حرّم فهو حرام وما سكت عنه فهو عَفْو .

وقالت عائشة في الفأرة : ما هي بحرام ، وقرأت "قل لا أجِد فِيما أوحِي إليّ محرماً" .

ومن علماء أهل المدينة جماعةٌ لا يجيزون أكل كل شيء من خِشاش الأرض وهَوَامِّها ؛ مثل الحيات والأوزاغ والفأر وما أشبهه .

وكل ما يجوز قتله فلا يجوز عند هؤلاء أكله ، ولا تعمَل الذكاة عندهم فيه .

وهو قول ابن شهاب وعُروة والشافعيّ وأبي حنيفة وأصحابه وغيرهم .

ولا يؤكل عند مالك وأصحابه شيء من سباع الوحش كلّها ، ولا الهِرّ الأهلي ولا الوحشي لأنه سَبُع .

وقال : ولا يؤكل الضبع ولا الثعلب ، ولا بأس بأكل سباع الطير كلها : الرّخم والنُّسور والعِقبان وغيرها ، ما أكل الجِيف منها وما لم يأكل .

وقال الأوزاعي الطير كله حلال ، إلا أنهم يكرهون الرَّخم .

*(74/255)*

---

وحجة مالك أنه لم يجد أحداً من أهل العلم يكره أكل سباع الطير ، وأنكر الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أنه نهى عن أكل كلّ ذي مِخلب من الطير " ورُوي عن أشهب أنه قال : لا بأس بأكل الفيل إذا ذُكّي ؛ وهو قول الشَّعْبِيّ ، ومنع منه الشافعي .

وكره النعمان وأصحابُه أكل الضَّبُع والثعلب .

ورخّص في ذلك الشافعيّ ، ورُوي عن سعد بن أبي وَقّاص أنه كان يأكل الضِّباع .

وحجة مالكٍ عموم النهي عن أكل كل ذي ناب من السباع ، ولم يخص سَبُعاً من سَبُع .

وليس حديث الضّبع الذي خرّجه النّسائي في إباحة أكلها مما يعارض به حديث النهي ؛ لأنه

حديث انفرد به عبد الرحمن بن أبي عمّار ، وليس مشهوراً بنقل العلم ، ولا ممن يحتج به إذا خالفه من هو أثبت منه .

قال أبو عمر : وقد رُوي النهي عن أكل كل ذي ناب من السباع من طرق متواترة .

وروى ذلك جماعة من الأئمة الثقات الأثبات ، ومُحالٌ أن يعارَضوا بمثل حديث ابن أبي عمار .

قال أبو عمر : أجمع المسلمون على أنه لا يجوز أكل القرد لنهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكله ، ولا يجوز بيعه لأنه لا منفعة فيه .

قال : وما علمت أحداً رخّص في أكله ، إلا ما ذكره عبد الرزاق عن مَعمر عن أيوب .

سئل مجاهد عن أكل القرد فقال : ليس من بهيمة الأنعام .

قلت : ذكر ابن المنذر أنه قال : روينا عن عطاء أنه سئل عن القرد يُقتل في الحَرَم فقال : يحكم به ذوا عَدْل .

قال : فعلى مذهب عطاء يجوز أكل لحمه ؛ لأن الجزاء لا يجب على من قتل غير الصّيد .

وفي ( بحر المذهب ) للرُّويانِيّ على مذهب الإمام الشافعي : وقال الشافعيّ يجوز بيع القرد لأنه يُعلَّم وينتفع به لحفظ المتاع .

وحكى الكَشْفَلِيّ عن ابن شريح يجوز بيعه لأنه ينتفع به .

فقيل له : وما وجه الانتفاع به ؟ قال تفرح به الصبيان .

قال أبو عمر : والكلب والفيل وذو الناب كله عندي مثل القِرد .

والحجة في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لا في قول غيره .

(75/255)

---

وقد زعم ناس أنه لم يكن في العرب من يأكل لحم الكلب إلا قوم من فَقْعَس .

وروى أبو داود عن ابن عمر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل الجَلاّلة وألبانها .

في رواية : عن الجَلاّلة في الإبل أن يُركب عليها أو يُشرب من ألبانها .

قال الحَلِيمِيّ أبو عبد الله : فأما الجَلاّلة فهي التي تأكل العِذرة من الدواب والدَّجاج المُخَلاّة .

ونهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن لحومها .

وقال العلماء : كل ما ظهر منها ريح العَذِرة في لحمه أو طعمه فهو حرام ، وما لم يظهر فهو حلال .

وقال الخَطّابيّ : هذا نَهْيُ تَنَزُّهٍ وتَنَظُّف ، وذلك أنها إذا اغتذت الجِلّة وهي العذرة وُجد نتن رائحتها في لحومها ، وهذا إذا كان غالب علفها منها ؛ فأما إذا رعت الكلأ واعتلفت الحَب وكانت تنال مع ذلك شيئاً من الجلة فليست بجلاّلة ؛ وإنما هي كالدّجاج المُخَلاّة ، ونحوها

من الحيوان الذي ربما نال الشيء منها وغالب غذائه وعلفه من غيره فلا يكره أكلها .

وقال أصحاب الرأي والشافعي وأحمد : لا تؤكل حتى تُحبس أياماً وتعلف عَلَفاً غيرها ؛ فإذا طاب لحمها أكلت .

وقد روي في حديث : " أن البقر تُعلف أربعين يوماً ثم يؤكل لحمها " وكان ابن عمر يحبس الدجاج ثلاثاً ثم يذبح .

وقال إسحاق : لا بأس بأكلها بعد أن يغسل لحمها غسلاً جيداً .

وكان الحسن لا يرى بأساً بأكل لحم الجلاّلة ؛ وكذلك مالك بن أنس .

ومن هذا الباب نُهي أن تلقى في الأرض العذرة .

روى عن بعضهم قال : كنا نَكْري أرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ونشترط على من يكريها ألا يلقى فيها العذرة .

وعن ابن عمر أنه كان يكري أرضه ويشترط ألا تُدْمَن بالعذرة .

وروي أن رجلاً كان يزرع أرضه بالعذرة فقال له عمر : أنت الذي تطعم الناس ما يخرج منهم .

واختلفوا في أكل الخيل ؛ فأباحها الشافعيّ ، وهو الصحيح ، وكرهها مالك .

وأما البغل فهو متولّد من بين الحمار والفرس ، وأحدهما مأكول أو مكروه وهو الفرس ، والآخر محرّم وهو الحمار ؛ فغلّب حكم التحريم ؛ لأن التحليل والتحريم إذا اجتمعا في عين واحدة غلّب حكم التحريم .

وسيأتي بيان هذه المسألة في "النحل" إن شاء الله بأوْعَبَ من هذا .

وسيأتي حكم الجراد في "الأعراف" .

والجمهور من الخَلَف والسّلَف على جواز أكل الأرنب .

وقد حكي عن عبد الله بن عمرو بن العاص تحريمه .

وعن ابن أبي ليلى كراهته .

قال عبد الله بن عمرو : جيء بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا جالس فلم يأكلها ولم يَنْه عن أكلها .

وزعم أنها تحيض .

ذكره أبو داود .

وروى النسائي مُرْسلاً عن موسى بن طلحة قال : " أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم بأرنب قد شواها رجل وقال : يا رسول الله ، إني رأيت بها دماً ؛ فتركها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يأكلها ، وقال لمن عنده : "كُلُوا فإني لو اشتهيتها أكلتها" " .

قلت : وليس في هذا ما يدل على تحريمه ، وإنما هو نحوٌ من قوله عليه السلام : " إنه لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه " وقد روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قال : " مررنا بمَرّ الظهران فاسْتَنْفَجْنا أرْنَبا فَسَعَوْا عليه فَلَغَبُوا .

قال : فسعيت حتى أدركتها ، فأتيت بها أبا طلحة فذبحها ، فبعث بوركها وفَخذها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتيت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقَبِله " .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ أي آكل يأكله .

وروي عن ابن عامر أنه قرأ "أَوْحى" بفتح الهمزة .

وقرأ علي بن أبي طالب "يَطَّعِمه" مثقل الطاء ، أراد يتطعمه فأدغم .

وقرأت عائشة ومحمد بن الحنفية "على طاعم طعمه" بفعل ماض ﴿ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً ﴾ قرىء بالياء والتاء ؛ أي إلا أن تكون العين أو الجثة أو النفس ميتةً .

وقرىء "يكون" بالياء "ميتة" بالرفع بمعنى تقع وتحدث ميتة .

والمسفوح : الجاري الذي يسيل وهو المحرّم .

(77/255)

وغيره مَعْفُوٌّ عنه .

وحكى الماورديّ أن الدم غير المسفوح أنه إن كان ذا عروق يُجمد عليها كالكبد والطحال فهو حلال ؛ لقوله عليه السلام : " أحِلّت لنا ميتتان ودمان " الحديثَ .

وإن كان غير ذي عروق يجمد عليها ، وإنما هو مع اللحم ففي تحريمه قولان : أحدهما أنه حرام ؛ لأنه من جملة المسفوح أو بعضه .

وإنما ذكر المسفوح لاستثناء الكبد والطحال منه .

والثاني أنه لا يحرّم ؛ لتخصيص التحريم بالمسفوح .

قلت : وهو الصحيح .

قال عمران بن حُدير : سألت أبا مِجْلَز عما يتلطخ من اللحم بالدم ، وعن القِدر تعلوها الحمرة من الدّم فقال : لا بأس به ، إنما حرّم الله المسفوح .

وقالت نحوه عائشة وغيرُها ، وعليه إجماع العلماء .

وقال عكرمة : لولا هذه الآية لاتبع المسلمون من العروق ما تتبع اليهود .

وقال إبراهيم النَّخَعِيّ : لا بأس بالدم في عرق أو مخ .

وقد تقدّم هذا وحكم المضطر في "البقرة" والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

ومن فوائد الإمام الجصاص فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ الْآيَةُ

رُوِيَ عَنْ طَاوُسٍ أَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يَسْتَحِلُّونَ أَشْيَاءَ وَيُحَرِّمُونَ أَشْيَاءَ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ﴾ مِمَّا تَسْتَحِلُّونَ ﴿ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً ﴾ الْآيَةُ

وَسِيَاقَةُ الْمُخَاطَبَةِ تَدُلُّ عَلَى مَا قَالَ طَاوُسٌ وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ قَدَّمَ ذِكْرَ مَا كَانُوا يُحَرِّمُونَ مِنْ الْأَنْعَامِ وَذَمَّهُمْ عَلَى تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّهُ وَعَنَّفَهُمْ وَأَبَانَ بِهِ عَنْ جَهْلِهِمْ لِأَنَّهُمْ حَرَّمُوا بِغَيْرِ حُجَّةٍ ، ثُمَّ عَطَفَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ﴾ يَعْنِي تُحَرِّمُونَهُ إلَّا مَا ذُكِرَ

وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ تَقْدِيرَ الْآيَةِ لَمْ يَجُزْ الِاسْتِدْلَالُ بِهَا عَلَى إبَاحَةِ مَا خَرَجَ عَنْ الْآيَةِ .

فَإِنْ قِيلَ : قَدْ ذُكِرَ فِي أَوَّلِ الْمَائِدَةِ تَحْرِيمُ الْمُنْخَنِقَةِ وَالْمَوْقُوذَةِ وَمَا ذُكِرَ مَعَهُمَا ، وَهِيَ خَارِجَةٌ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ قِيلَ لَهُ : فِي ذَلِكَ جَوَابَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ الْمُنْخَنِقَةَ وَمَا ذُكِرَ مَعَهَا قَدْ دَخَلَتْ فِي الْمَيْتَةِ ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى تَحْرِيمَ الْمَيْتَةِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ ﴾ ثُمَّ فَسَّرَ وُجُوهَهَا وَالْأَسْبَابَ الْمُوجِبَةَ لِكَوْنِهَا مَيْتَةً فَقَدْ اشْتَمَلَ اسْمُ الْمَيْتَةِ عَلَى الْمُنْخَنِقَةِ وَنَظَائِرِهَا .

(79/255)

---

وَالثَّانِي : أَنَّ سُورَةَ الْأَنْعَامِ مَكِّيَّةٌ ، وَجَائِزٌ أَنْ لَا يَكُونَ قَدْ حَرَّمَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ إلَّا مَا قَدْ ذُكِرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، وَالْمَائِدَةُ مَدَنِيَّةٌ وَهِيَ مِنْ آخِرِ مَا نَزَلَ مِنْ الْقُرْآنِ ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ ( أَوْ ) إذَا دَخَلَتْ عَلَى النَّفْيِ ثَبَتَ كُلُّ وَاحِدٍ مِمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ عَلَى حِيَالِهِ وَأَنَّهَا لَا تَقْتَضِي تَخْيِيرًا ؛ لِأَنَّ قَوْله تَعَالَى : ﴿ إلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ ﴾ قَدْ أَوْجَبَ تَحْرِيمَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ ذَلِكَ عَلَى حِيَالِهِ .

(80/255)

---

وَقَدْ احْتَجَّ كَثِيرٌ مِنْ السَّلَفِ فِي إبَاحَةِ مَا عَدَا الْمَذْكُورَةَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِهَا ، فَمِنْهَا لُحُومُ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ وَرَوَى سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ قَالَ : قُلْت لِجَابِرِ بْنِ زَيْدٍ : إنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ نَهَى عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ قَالَ : قَدْ كَانَ يَقُولُ ذَلِكَ الْحَكَمُ بْنُ عَمْرٍو الْغِفَارِيُّ عِنْدَنَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴾ ، وَلَكِنْ أَبَى ذَلِكَ الْبَحْرُ يَعْنِي عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ وَقَرَأَ : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ

يَطْعَمُهُ ﴾ الْآيَةُ رَوَى حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ عَنْ الْقَاسِمِ عَنْ عَائِشَةَ : أَنَّهَا كَانَتْ لَا تَرَى بِلُحُومِ السِّبَاعِ وَالدَّمِ الَّذِي يَكُونُ فِي أَعْلَى الْعُرُوقِ بَأْسًا ، وَقَرَأَتْ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ الْآيَةُ فَأَمَّا لُحُومُ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ فَإِنَّ أَصْحَابَنَا وَمَالِكًا وَالثَّوْرِيَّ وَالشَّافِعِيَّ يَنْهَوْنَ عَنْهُ .

(81/255)

---

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَا ذَكَرْنَا مِنْ إبَاحَتِهِ ، وَتَابَعَهُ عَلَى ذَلِكَ قَوْمٌ ، وَقَدْ وَرَدَتْ أَخْبَارٌ مُسْتَفِيضَةٌ فِي النَّهْيِ عَنْ أَكْلِ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ ، مِنْهَا حَدِيثُ الزُّهْرِيِّ عَنْ الْحَسَنِ وَعَبْدِ اللَّهِ ابْنَيْ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ عَنْ أَبِيهِمَا أَنَّهُ سَمِعَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ يَقُولُ لِابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَكْلِ لُحُومِ الْحُمُرِ الْإِنْسِيَّةِ وَعَنْ مُتْعَةِ النِّسَاءِ يَوْمَ خَيْبَرَ ﴾ .

وَقَدْ رَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَالِمٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ الْمَخْزُومِيِّ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ نَهَى يَوْمَ خَيْبَرَ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْإِنْسِيَّةِ ﴾ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمَّا سَمِعَ عَلِيًّا يَرْوِي النَّهْيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجَعَ عَمَّا كَانَ يَذْهَبُ إلَيْهِ مِنْ الْإِبَاحَةِ .

وَرَوَى أَبُو حَنِيفَةَ وَعَبْدُ اللَّهِ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : ﴿ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ خَيْبَرَ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ ﴾ .

وَرَوَى ابْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ عَنْ جَابِرٍ : أَنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ ، ﴾ وَرَوَاهُ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ عَنْ جَابِرٍ : أَنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ .

(82/255)

---

﴿ وَرَوَى شُعْبَةُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ سَمِعَهُ مِنْهُ قَالَ : ﴿ أَصَبْنَا حُمُرًا يَوْمَ خَيْبَرَ فَطَبَخْنَاهَا ، فَنَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ أَكْفِئُوا الْقُدُورَ ﴾ .

وَرَوَى النَّهْيَ عَنْهَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابْنُ أَبِي أَوْفَى وَسَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ وَأَبُو هُرَيْرَةَ وَأَبُو ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيُّ فِي آخَرِينَ ، فِي بَعْضِهَا ابْتِدَاءُ نَهْيٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَعْضُهَا ذِكْرُ قِصَّةِ خَيْبَرَ وَالسَّبَبُ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ نَهَى عَنْهَا ، فَقَالَ قَائِلُونَ : ﴿ إنَّمَا نَهَى عَنْهَا لِأَنَّهَا كَانَتْ نُهْبَةً انْتَهَبُوهَا ﴾ .

وَقَالَ آخَرُونَ : ﴿ لِأَنَّهُ قِيلَ لَهُ إِنَّ الْحُمْرَ قَدْ قَلَّتْ ﴾ .

وَقَالَ آخَرُونَ : ﴿ لِأَنَّهَا كَانَتْ جَلَّالَةً ﴾ .

فَتَأَوَّلَ مَنْ أَبَاحَهَا نَهْيَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَحَدِ هَذِهِ الْوُجُوهِ ، وَمَنْ حَظَرَهَا أَبْطَلَ هَذِهِ التَّأْوِيلَاتِ بِأَشْيَاءَ : أَحَدُهَا مَا رَوَاهُ جَمَاعَةٌ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ لَا يَحِلُّ الْحِمَارُ الْأَهْلِيُّ ﴾ مِنْهُمْ الْمِقْدَادُ بْنُ مَعْدِي كَرِبَ وَأَبُو ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيُّ وَغَيْرُهُمَا ؛ وَالثَّانِي مَا رَوَاهُ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ أَيُّوبَ

(83/255)

---

السَّخْتِيَانِيِّ عَنْ ابْنِ سِيرِينَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : ﴿ لَمَّا فَتَحَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْبَرَ أَصَابُوا حُمُرًا فَطَبَخُوا مِنْهَا ، فَنَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَلَا إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَنْهَاكُمْ عَنْهَا ، فَإِنَّهَا نَجَسٌ فَاكْفَئُوا الْقُدُورَ ﴾ وَرَوَى عَبْدُ الْوَهَّابِ الثَّقَفِيِّ عَنْ أَيُّوبَ بِإِسْنَادِهِ مِثْلَهُ ، قَالَ ﴿ : فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنَادِيًا فَنَادَى : إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَنْهَاكُمْ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ فَإِنَّهَا رِجْسٌ ، قَالَ : فَأُكْفِئَتْ الْقُدُورُ وَإِنَّهَا لَتَفُورُ ﴾ .

وَهَذَا يُبْطِلُ تَأْوِيلَ مَنْ تَأَوَّلَ النَّهْيَ عَلَى النُّهْبَةِ وَتَأْوِيلَ مَنْ تَأَوَّلَهُ عَلَى خَوْفِ فَنَاءِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ

بِالذَّبْحِ ؛ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهَا نَجَسٌ ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي تَحْرِيمَ عَيْنِهَا لَا لِسَبَبٍ غَيْرِهَا وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّهُ أَمَرَ بِالْقُدُورِ فَأُكْفِئَتْ ، وَلَوْ كَانَ النَّهْيُ لِأَجْلِ مَا ذَكَرُوا لَأَمَرَ بِأَنْ يُطْعَمَ الْمَسَاكِينُ كَمَا أَمَرَ بِذَلِكَ فِي الشَّاةِ الْمَذْبُوحَةِ بِغَيْرِ أَمْرِ أَصْحَابِهَا بِأَنْ يُطْعَمَ الْأَسْرَى .

(84/255)

---

وَفِي حَدِيثِ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ أَنَّهُ ﴿ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَمَّا يَحْرُمُ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : لَا تَأْكُلْ الْحِمَارَ الْأَهْلِيَّ وَلَا كُلَّ ذِي نَابٍ مِنْ السِّبَاعِ ﴾ ، فَبِهَذَا أَيْضًا يَبْطُلُ سَائِرُ التَّأْوِيلَاتِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا عَنْ مُبِيحِهَا وَقَدْ رُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ يَوْمَ خَيْبَرَ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَأْكُلُ الْعَذِرَةَ ، ﴾ فَإِنْ صَحَّ هَذَا التَّأْوِيلُ لِلنَّهْيِ الَّذِي كَانَ مِنْهُ يَوْمَ خَيْبَرَ فَإِنَّ خَبَرَ أَبِي ثَعْلَبَةَ وَغَيْرَهُ فِي سُؤَالِهِمْ عَنْهَا فِي غَيْرِ يَوْمِ خَيْبَرَ يُوجِبُ إيهَامَ تَحْرِيمِهَا لَا لِعِلَّةٍ غَيْرِ أَعْيَانِهَا وَقَدْ رُوِيَ فِي حَدِيثٍ يُرْوَى عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ

مُغَفَّلٍ عَنْ رَجُلٍ مِنْ مُزَيْنَةَ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : غَالِبُ بْنُ الْأَبْجَرِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : الْحُرُّ بْنُ غَالِبٍ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ يَا رَسُولَ اللَّهِ إنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مَالِي شَيْءٌ أَسْتَطِيعُ أَنْ أُطْعِمَ فِيهِ أَهْلِي غَيْرَ حُمُرَاتٍ لِي ، قَالَ : فَأَطْعِمْ أَهْلَك مِنْ سَمِينِ مَالِكِ فَإِنَّمَا كَرِهْت لَكُمْ جَوَّالَ الْقَرْيَةِ ﴾ ؛ فَاحْتَجَّ مَنْ أَبَاحَ

الْحُمُرَ الْأَهْلِيَّةَ بِهَذَا الْخَبَرِ وَهَذَا الْخَبَرُ يَدُلُّ عَلَى النَّهْيِ عَنْهَا ؛ لِأَنَّهُ قَالَ : ﴿ كَرِهْت لَكُمْ جَوَّالَ الْقَرْيَةِ ﴾ وَالْحُمُرُ الْأَهْلِيَّةُ كُلُّهَا جَوَّالُ الْقُرَى ، وَالْإِبَاحَةُ عِنْدَنَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ إنَّمَا انْصَرَفَتْ إلَى الْحُمُرِ الْوَحْشِيَّةِ .

(85/255)

---

وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي الْحِمَارِ الْوَحْشِيِّ إذَا دُجِّنَ فَقَالَ أَصْحَابُنَا وَالْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ وَالشَّافِعِيُّ فِي الْحِمَارِ الْوَحْشِيِّ إذَا دُجِّنَ وَأُلِفَ : ﴿ إنَّهُ جَائِزٌ أَكْلُهُ ﴾ ، وَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ : ﴿ إذَا دُجِّنَ وَصَارَ يُعْمَلُ عَلَيْهِ كَمَا يُعْمَلُ عَلَى الْأَهْلِيِّ فَإِنَّهُ لَا يُؤْكَلُ ﴾ .

وَقَدْ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ الْوَحْشَ الْأَهْلِيَّ لَا يُخْرِجُهُ عَنْ حُكْمِ جِنْسِهِ فِي تَحْرِيمِ الْأَكْلِ كَذَلِكَ مَا أُنِسَ مِنْ الْوَحْشِ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي ذِي النَّابِ مِنْ السِّبَاعِ وَذِي الْمِخْلَبِ مِنْ الطَّيْرِ ، فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَبُو يُوسُفَ وَزُفَرُ وَمُحَمَّدٌ : ﴿ لَا يَحِلُّ أَكْلُ ذِي النَّابِ مِنْ السِّبَاعِ وَذِي الْمِخْلَبِ مِنْ الطَّيْرِ ﴾ .

وَقَالَ مَالِكٌ : ﴿ لَا يُؤْكَلُ سِبَاعُ الْوَحْشِ وَلَا الْهِرُّ الْوَحْشِيُّ وَلَا الْأَهْلِيُّ وَلَا الثَّعْلَبُ وَلَا الضَّبُعُ وَلَا شَيْءٌ مِنْ السِّبَاعِ ، وَلَا بَأْسَ بِأَكْلِ سِبَاعِ الطَّيْرِ الرُّخَمِ وَالْعُقْبَانِ وَالنُّسُورِ وَغَيْرِهَا مَا أَكَلَ

الْجيفَ مِنْهَا وَمَا لَا يَأْكُلُ ﴾ .

وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ : ﴿ الطَّيْرُ كُلُّهُ حَلَالٌ إِلَّا أَنَّهُمْ يَكْرَهُونَ الرَّخَمَ ﴾ .

وَقَالَ اللَّيْثُ : ﴿ لَا بَأْسَ بِأَكْلِ الْهِرِّ وَأَكْرَهُ الضَّبُعَ ﴾ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : ﴿ لَا يُؤْكَلُ ذُو النَّابِ مِنْ السِّبَاعِ الَّتِي تَعْدُو عَلَى النَّاسِ الْأَسَدُ وَالنَّمِرُ وَالذِّئْبُ ، وَيُؤْكَلُ الضَّبُعُ وَالثَّعْلَبُ ، وَلَا يُؤْكَلُ النِّسْرُ وَالْبَازِيُّ وَنَحْوُهُ لِأَنَّهَا تَعْدُو عَلَى طُيُورِ النَّاسِ ﴾ .

(86/255)

---

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : حَدَّثَنَا حَجَّاجٌ قَالَ : حَدَّثَنَا حَمَّادٌ قَالَ : حَدَّثَنَا عِمْرَانُ بْنُ جُبَيْرٍ أَنَّ عِكْرِمَةَ سُئِلَ عَنْ الْغُرَابِ قَالَ : دَجَاجَةٌ سَمِينَةٌ ، وَسُئِلَ عَنْ الضَّبُعِ فَقَالَ : نَعْجَةٌ سَمِينَةٌ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا الْقَعْنَبِيُّ عَنْ مَالِكٍ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ : ﴿ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ أَكْلِ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنْ السِّبَاعِ .

﴿ وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو

عَوَانَةَ عَنْ أَبِي بِشْرٍ عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : ﴿ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَكْلِ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنْ السِّبَاعِ وَعَنْ كُلِّ ذِي مِخْلَبٍ مِنْ الطَّيْرِ ﴾ ، وَرَوَاهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَالْمِقْدَادُ بْنُ مَعْدِي كَرِبَ وَأَبُو هُرَيْرَةَ وَغَيْرُهُمَا .

(87/255)

---

فَهَذِهِ آثَارٌ مُسْتَفِيضَةٌ فِي تَحْرِيمِ ذِي النَّابِ مِنْ السِّبَاعِ وَذِي الْمِخْلَبِ مِنْ الطَّيْرِ ، وَالثَّعْلَبِ وَالْهِرِّ وَالنِّسْرِ وَالرَّخَمُ دَاخِلَةٌ فِي ذَلِكَ ، فَلَا مَعْنَى لِاسْتِثْنَاءِ شَيْءٍ مِنْهَا إلَّا بِدَلِيلٍ يُوجِبُ تَخْصِيصَهُ ، وَلَيْسَ فِي قَبُولِهَا مَا يُوجِبُ نَسْخَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ لِأَنَّهُ إنَّمَا فِيهِ إخْبَارٌ بِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ الْمُحَرَّمُ غَيْرَ الْمَذْكُورِ وَأَنَّ مَا عَدَاهُ كَانَ بَاقِيًا عَلَى أَصْلِ الْإِبَاحَةِ ، وَكَذَلِكَ الْأَخْبَارُ الْوَارِدَةُ فِي لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ هَذَا حُكْمُهَا ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ خَاصَّةٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى تَحْرِيمِ أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ غَيْرِ مَذْكُورَةٍ فِي الْآيَةِ فَجَازَ قَبُولُ الْأَخْبَارِ الْآحَادِ فِي تَخْصِيصِهَا وَكَرِهَ أَصْحَابُنَا الْغُرَابَ الْأَبْقَعَ لِأَنَّهُ يَأْكُلُ الْجِيَفَ ، وَلَمْ يَكْرَهُوا الْغُرَابَ الزَّرْعِيَّ لِمَا رَوَى قَتَادَةُ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ عَائِشَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ﴿ خَمْسٌ فَوَاسِقُ يَقْتُلُهُنَّ الْمُحْرِمُ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ ﴾ وَذَكَرَ أَحَدُهَا الْغُرَابُ الْأَبْقَعُ ، فَخَصَّ الْأَبْقَعَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يَأْكُلُ الْجِيَفَ ، فَصَارَ

أَصْلًا فِي كَرَاهَةِ أَشْبَاهِهِ مِمَّا يَأْكُلُ الْجِيَفَ وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ خَمْسٌ يَقْتُلُهُنَّ الْمُحْرِمُ ﴾ يَدُلُّ عَلَى تَحْرِيمِ أَكْلِ هَذِهِ الْخَمْسِ وَأَنَّهَا لَا تَكُونُ إلَّا مَقْتُولَةً غَيْرَ مُذَكَّاةٍ ، وَلَوْ كَانَتْ مِمَّا يُؤْكَلُ لَأُمِرَ بِذَبْحِهَا وَذَكَاتِهَا لِئَلَّا

(88/255)

---

تَحْرُمَ بِالْقَتْلِ .

فَإِنْ قِيلَ بِمَا حَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا إسْمَاعِيلُ بْنُ الْفَضْلِ قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حَاتِمٍ قَالَ : حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ مُسْلِمٍ قَالَ : حَدَّثَنِي إسْمَاعِيلُ بْنُ أُمَيَّةَ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ ﴿

سَأَلْت جَابِرًا : هَلْ يُؤْكَلُ الضَّبُعُ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قُلْت : أَصَيْدٌ هِيَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قُلْت : أَسَمِعْتَ هَذَا مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ﴾ .

قِيلَ لَهُ : مَا رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ نَهْيِهِ عَنْ أَكْلِ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنْ السِّبَاعِ وَكُلِّ ذِي مِخْلَبٍ مِنْ الطَّيْرِ قَاضٍ عَلَى ذَلِكَ لِاتِّفَاقِ الْفُقَهَاءِ عَلَى اسْتِعْمَالِهِ وَاخْتِلَافِهِمْ فِي اسْتِعْمَالِ ذَلِكَ .

وَاخْتُلِفَ فِي أَكْلِ الضَّبِّ ، فَكَرِهَهُ أَصْحَابُنَا ، وَقَالَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ : ﴿ لَا بَأْسَ بِهِ ﴾ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ قَوْلِنَا مَا رَوَى الْأَعْمَشُ عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ الْجُهَنِيِّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَسَنَةَ قَالَ : ﴿ نَزَلْنَا أَرْضًا كَثِيرَةَ الضِّبَابِ ، فَأَصَابَتْنَا مَجَاعَةٌ فَطَبَخْنَا مِنْهَا ، فَإِنَّ الْقُدُورَ لَتَغْلِي بِهَا ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ فَقُلْنَا ضِبَابٌ أَصَبْنَاهَا ، فَقَالَ : إِنَّ أُمَّةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُسِخَتْ دَوَابَّ الْأَرْضِ وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَكُونَ هَذِهِ فَأَكْفِئُوهَا ﴾ وَهَذَا يَقْتَضِي حَظْرَهُ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مُبَاحَ الْأَكْلِ لَمَا أَمَرَ بِإِكْفَاءِ الْقُدُورِ ، لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَهَى عَنْ إِضَاعَةِ الْمَالِ وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَوْنٍ الطَّائِيُّ أَنَّ الْحَكَمَ بْنَ نَافِعٍ حَدَّثَهُمْ قَالَ : حَدَّثَنَا ابْنُ عَيَّاشٍ عَنْ ضَمْضَمِ بْنِ زُرْعَةَ عَنْ شُرَيْحِ بْنِ عُبَيْدٍ عَنْ أَبِي رَاشِدٍ الْحُبْرَانِيِّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شِبْلٍ : ﴿ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ أَكْلِ لَحْمِ الضَّبِّ ﴾ وَرَوَى أَبُو حَنِيفَةَ عَنْ حَمَّادٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ ﴿ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهُ أُهْدِيَ لَهَا ضَبٌّ ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلَتْهُ عَنْ أَكْلِهِ فَنَهَاهَا عَنْهُ ، فَجَاءَ سَائِلٌ فَقَامَتْ لِتُنَاوِلَهُ إِيَّاهُ ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَتُطْعِمِينَهُ مَا لَا تَأْكُلِينَ .

﴿ فَهَذِهِ الْأَخْبَارُ تُوجِبُ النَّهْيَ عَنْ أَكْلِ الضَّبِّ وَقَدْ رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ ﴾ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَأْكُلْ مِنْ الضَّبِّ وَأُكِلَ عَلَى مَائِدَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴾ وَلَوْ كَانَ حَرَامًا مَا أُكِلَ عَلَى مَائِدَتِهِ ، وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنَّمَا تَرَكَ أَكْلَهُ تَقَذُّرًا .

وَفِي بَعْضِ

الْأَخْبَارِ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ لَمْ يَكُنْ بِأَرْضِ قَوْمِي فَأَجِدُنِي أَعَافُهُ ﴾ ، وَأَنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ أَكَلَهُ بِحَضْرَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يَنْهَهُ .

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ مُوسَى قَالَ : حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ سَهْلٍ قَالَ : حَدَّثَنَا إسْحَاقُ بْنُ الرَّبِيعِ عَنْ الْحَسَنِ قَالَ : قَالَ عُمَرُ : إنَّ هَذِهِ الضِّبَابَ طَعَامُ عَامَّةِ هَذِهِ الرِّعَاءِ وَإِنَّ اللَّهَ لَيَمْنَعُ غَيْرَ وَاحِدٍ وَلَوْ كَانَ عِنْدِي مِنْهَا شَيْءٌ لَأَكَلْته ، إنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُحَرِّمْهُ وَلَكِنَّهُ قَذِرُهُ .

*(91/255)*

---

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ مُوسَى قَالَ : حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ سَهْلٍ قَالَ : حَدَّثَنَا بَحْرٌ عَنْ أَبِي هَارُونَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : ﴿ إنْ كَانَ أَحَدُنَا لَتُهْدَى إلَيْهِ

الضَّبَّةُ الْمَكْنُونَةُ أَحَبُّ إلَيْهِ مِنْ الدَّجَاجَةِ السَّمِينَةِ ﴾ فَاحْتَجَّ مُبِيحُوهُ بِهَذِهِ الْأَخْبَارِ ، وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى حَظْرِهِ ؛ لِأَنَّ فِيهَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرَكَهُ تَقَذُّرًا وَأَنَّهُ قَذِرَهُ ، وَمَا قَذِرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ نَجِسٌ وَلَا يَكُونُ نَجِسًا إلَّا وَهُوَ مُحَرَّمُ الْأَكْلِ .

وَلَوْ ثَبَتَتْ الْإِبَاحَةُ بِهَذِهِ الْأَخْبَارِ لَعَارَضَتْهَا أَخْبَارٌ وَمَتَى وَرَدَ الْخَبَرَانِ فِي شَيْءٍ وَأَحَدُهُمَا مُبِيحٌ وَالْآخَرُ حَاظِرٌ فَخَبَرُ الْحَظْرِ أَوْلَى ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْحَظْرَ وَارِدٌ لَا مَحَالَةَ بَعْدَ الْإِبَاحَةِ ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ كَانَ الْإِبَاحَةُ وَالْحَظْرُ طَارِئٌ عَلَيْهَا وَلَمْ يَثْبُتْ وُرُودُ الْإِبَاحَةِ عَلَى الْحَظْرِ فَحُكْمُ الْحَظْرِ ثَابِتٌ لَا مَحَالَةَ .

وَاخْتُلِفَ فِي هَوَامِّ الْأَرْضِ ، فَكَرِهَ أَصْحَابُنَا أَكْلَ هَوَامِّ الْأَرْضِ الْيَرْبُوعِ وَالْقُنْفُذِ وَالْفَأْرِ وَالْعَقَارِبِ وَجَمِيعِ هَوَامِّ الْأَرْضِ .

وَقَالَ ابْنُ أَبِي لَيْلَى : لَا بَأْسَ بِأَكْلِ الْحَيَّةِ إذَا ذُكِّيَتْ ، وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ وَالْأَوْزَاعِيِّ إلَّا أَنَّهُ لَمْ يَشْتَرِطْ مِنْهُ الذَّكَاةَ وَقَالَ اللَّيْثُ : لَا بَأْسَ بِأَكْلِ الْقُنْفُذِ وَفِرَاخِ النَّحْلِ وَدُودِ الْجُبْنِ وَالتَّمْرِ وَنَحْوِهِ .

(92/255)

وَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ : ﴿ لَا بَأْسَ بِأَكْلِ الضِّفْدَعِ ﴾ ، قَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ : وَقِيَاسُ قَوْلِ مَالِكٍ أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِأَكْلِ خُشَاشِ الْأَرْضِ وَعَقَارِبِهَا وَدُودِهَا ؛ لِأَنَّهُ قَالَ : مَوْتُهُ فِي الْمَاءِ لَا يُفْسِدُهُ

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : ﴿ كُلُّ مَا كَانَتْ الْعَرَبُ تَسْتَقْذِرُهُ فَهُوَ مِنْ الْخَبَائِثِ ، كَالذِّئْبِ وَالْأَسَدِ وَالْغُرَابِ وَالْحَيَّةِ وَالْحِدَأَةِ وَالْعَقْرَبِ وَالْفَأْرَةِ لِأَنَّهَا تَقْصِدُ بِالْأَذَى فَهِيَ مُحَرَّمَةٌ مِنْ الْخَبَائِثِ ، وَكَانَتْ تَأْكُلُ الضَّبُعَ وَالثَّعْلَبَ لِأَنَّهُمَا لَا يَعْدُوَانِ عَلَى النَّاسِ بِأَنْيَابِهِمَا فَهُمَا حَلَالٌ ﴾ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ ﴾ قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا إبْرَاهِيمُ بْنُ خَالِدٍ أَبُو ثَوْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ عِيسَى بْنِ نُمَيْلَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : كُنْت عِنْدَ ابْنِ عُمَرَ فَسُئِلَ عَنْ أَكْلِ الْقُنْفُذِ ، فَتَلَا : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ الْآيَةَ ، فَقَالَ شَيْخٌ عِنْدَهُ : سَمِعْت أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ : ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : ﴿ خَبِيثَةٌ مِنْ الْخَبَائِثِ ﴾ فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : إنْ كَانَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا فَهُوَ كَمَا قَالَ فَسَمَّاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبِيثَةً مِنْ الْخَبَائِثِ فَشَمِلَهُ حُكْمُ التَّحْرِيمِ

(93/255)

بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ وَالْقُنْفُذُ مِنْ حَشَرَاتِ الْأَرْضِ ، فَكُلُّ مَا كَانَ مِنْ حَشَرَاتِهَا فَهُوَ مُحَرَّمٌ قِيَاسًا عَلَى الْقُنْفُذِ .

وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ قَالَ : أَخْبَرَنِي ابْنُ أَبِي ذِئْبٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ خَالِدٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ : ﴿ ذُكِرَ طَبِيبُ الدَّوَاءِ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذُكِرَ الضِّفْدَعُ يَكُونُ فِي الدَّوَاءِ ، فَنَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَتْلِهِ ﴾ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى تَحْرِيمِهِ لِأَنَّهُ نَهَاهُ أَنْ يَقْتُلَهُ فَيَجْعَلَهُ فِي الدَّوَاءِ ، وَلَوْ جَازَ الِانْتِفَاعُ بِهِ لَمَا كَانَ مَنْهِيًّا عَنْ قَتْلِهِ لِلِانْتِفَاعِ بِهِ .

(94/255)

---

وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَارٌ مُسْتَفِيضَةٌ رَوَاهَا ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ عُمَرَ وَأَبُو سَعِيدٍ وَعَائِشَةُ وَغَيْرُهُمْ ﴿ أَنَّهُ قَالَ : يَقْتُلُ الْمُحْرِمُ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَامِ الْحِدَأَةَ وَالْغُرَابَ وَالْفَأْرَةَ وَالْعَقْرَبَ ﴾ وَفِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ : ﴿ وَالْحَيَّةَ ﴾ ، فَفِي أَمْرِهِ بِقَتْلِهِنَّ دَلَالَةٌ عَلَى تَحْرِيمِ أَكْلِهِنَّ ؛ لِأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ مِمَّا تُؤْكَلُ لَأَمَرَ بِالتَّوَصُّلِ إلَى ذَكَاتِهَا فِيمَا تَتَأَتَّى فِيهِ الذَّكَاةُ مِنْهَا ، فَلَمَّا أَمَرَ بِقَتْلِهَا وَالْقَتْلُ إنَّمَا يَكُونُ لَا عَلَى وَجْهِ الذَّكَاةِ ثَبَتَ أَنَّهَا غَيْرُ مَأْكُولَةٍ ، وَلَمَّا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الْغُرَابِ وَالْحِدَأَةِ كَانَ سَائِرُ مَا يَأْكُلُ الْجِيَفَ مِثْلَهَا ، وَدَلَّ عَلَى أَنَّ مَا كَانَ مِنْ حَشَرَاتِ

الْأَرْضِ فَهُوَ مُحَرَّمٌ كَالْعَقْرَبِ وَالْحَيَّةِ ، وَكَذَلِكَ الْيَرْبُوعُ لِأَنَّهُ جِنْسٌ مِنْ الْفَأْرِ .

وَأَمَّا قَوْلُ الشَّافِعِيِّ فِي اعْتِبَارِهِ مَا كَانَتْ الْعَرَبُ تَسْتَقْذِرُهُ وَأَنَّ مَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ مِنْ الْخَبَائِثِ ، فَلَا مَعْنَى لَهُ مِنْ وُجُوهٍ : أَحَدُهَا : أَنَّ نَهْيَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَكْلِ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنْ السِّبَاعِ وَذِي مِخْلَبٍ مِنْ الطَّيْرِ قَاضٍ بِتَحْرِيمِ جَمِيعِهِ ،

(95/255)

---

وَغَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَزِيدَ فِيهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ وَلَا يَخْرُجُ مِنْهُ مَا قَدْ تَنَاوَلَهُ الْعُمُومُ ، وَلَمْ يَعْتَبِرْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا ذَكَرَهُ الشَّافِعِيُّ وَإِنَّمَا جَعَلَ كَوْنَهُ ذَا نَابٍ مِنْ السِّبَاعِ وَذَا مِخْلَبٍ مِنْ الطَّيْرِ عِلْمًا لِلتَّحْرِيمِ ، فَلَا يَجُوزُ الِاعْتِرَاضُ عَلَيْهِ بِمَا لَمْ تَثْبُتْ بِهِ الدَّلَالَةُ .

وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى أَنَّ خِطَابَ اللَّهِ تَعَالَى لِلنَّاسِ بِتَحْرِيمِ الْخَبَائِثِ عَلَيْهِمْ لَمْ يَخْتَصَّ بِالْعَرَبِ دُونَ الْعَجَمِ ، بَلْ النَّاسُ كُلُّهُمْ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ مِنْ أَهْلِ التَّكْلِيفِ دَاخِلُونَ فِي الْخِطَابِ ، فَاعْتِبَارُ مَا يَسْتَقْذِرُهُ الْعَرَبُ دُونَ غَيْرِهِمْ قَوْلٌ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ خَارِجٌ عَنْ مُقْتَضَى الْآيَةِ .

وَمَعَ ذَلِكَ فَلَيْسَ يَخْلُو مِنْ أَنْ يُعْتَبَرَ مَا كَانَتْ الْعَرَبُ يَسْتَقْذِرُونَهُ جَمِيعُهُمْ أَوْ بَعْضُهُمْ ، فَإِنْ كَانَ اُعْتُبِرَ الْجَمِيعُ فَإِنَّ جَمِيعَ الْعَرَبِ لَمْ يَكُنْ يَسْتَقْذِرُ الْحَيَّاتِ وَالْعَقَارِبَ وَلَا الْأَسَدَ وَالذِّئَابَ وَالْفَأْرَ وَسَائِرَ مَا ذُكِرَ ، بَلْ عَامَّةُ الْأَعْرَابِ تَسْتَطِيبُ أَكْلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ

الْمُرَادُ مَا كَانَ جَمِيعُ الْعَرَبِ يَسْتَقْذِرُونَهُ .

وَإِنْ أَرَادَ مَا كَانَ بَعْضُ الْعَرَبِ يَسْتَقْذِرُهُ فَهُوَ فَاسِدٌ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ الْخِطَابَ إذَا كَانَ لِجَمِيعِ الْعَرَبِ فَكَيْفَ يَجُوزُ اعْتِبَارُ بَعْضِهِمْ دُونَ بَعْضٍ ؟ وَالثَّانِي : أَنَّهُ لَمَّا صَارَ الْبَعْضُ الْمُسْتَقْذِرُ كَذَلِكَ كَانَ أَوْلَى بِالِاعْتِبَارِ مِنْ الْبَعْضِ الَّذِي يَسْتَطِيبُهُ .

فَهَذَا قَوْلٌ مُنْتَقَضٌ مِنْ جَمِيعِ وُجُوهِهِ .

(96/255)

---

وَزَعَمَ أَنَّهُ أَبَاحَ الضَّبُعَ وَالثَّعْلَبَ لِأَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَأْكُلُهُ ، وَقَدْ كَانَتْ الْعَرَبُ تَأْكُلُ الْغُرَابَ وَالْحِدَأَةَ وَالْأَسَدَ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ مَنْ يَمْتَنِعُ مِنْ أَكْلِ ذَلِكَ .

وَأَمَّا اعْتِبَارُهُ مَا يَعْدُو عَلَى النَّاسِ ، فَإِنْ أَرَادَ بِهِ يَعْدُو عَلَى النَّاسِ فِي سَائِرِ الْأَحْوَالِ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُوجَدُ فِي الْحِدَأَةِ وَالْحَيَّةِ

وَالْغُرَابِ وَقَدْ حَرَّمَهَا ، وَإِنْ أَرَادَ بِهِ الْعَدْوَ عَلَيْهِمْ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ فَإِنَّ الضَّبُعَ قَدْ يَعْدُو عَلَى الْإِنْسَانِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ وَقَدْ يَتْرُكُ الْأَسَدُ الْعَدْوَ عَلَيْهِمْ فِي حَالٍ إذَا لَمْ يَكُنْ جَائِعًا ، وَالْجَمَلُ الْهَائِجُ قَدْ يَعْدُو عَلَى الْإِنْسَانِ وَكَذَلِكَ الثَّوْرُ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ ، وَلَمْ يَعْتَبِرْ ذَلِكَ هُوَ وَلَا غَيْرُهُ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فِي تَحْرِيمِ الْأَكْلِ وَإِبَاحَتِهِ ، وَالْكَلْبُ وَالسِّنَّوْرُ لَا يَعْدُوَانِ عَلَى

النَّاسِ وَهُمَا مُحَرَّمَانِ .

وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي لُحُومِ الْإِبِلِ الْجَلَّالَةِ ، فَكَرِهَهَا أَصْحَابُنَا وَالشَّافِعِيُّ إِذَا لَمْ يَكُنْ يَأْكُلُ غَيْرَ الْعَذِرَةِ .

وَقَالَ مَالِكٌ وَاللَّيْثُ : ﴿ لَا بَأْسَ بِلُحُومِ الْجَلَّالَةِ كَالدَّجَاجِ ﴾ ؛ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدَةُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : ﴿ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَكْلِ الْجَلَّالَةِ وَأَلْبَانِهَا ﴾ .

(97/255)

---

وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا ابْنُ الْمُثَنَّى قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو عَامِرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا هِشَامُ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ لَبَنِ الْجَلَّالَةِ .

﴿ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَكُلُّ مَنْ خَالَفَ فِي هَذِهِ الْمَسَائِلِ الَّتِي ذَكَرْنَا مِنْ ابْتِدَائِنَا بِأَحْكَامِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ وَأَبَاحَ أَكْلَ مَا ذَهَبَ أَصْحَابُنَا فِيهِ إِلَى حَظْرِهِ ، فَإِنَّهُمْ يَحْتَجُّونَ فِيهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ

مُحَرَّمًا ﴾ الْآيَةُ .

وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ ذَلِكَ خَرَجَ عَلَى سَبَبٍ فِيمَا كَانَ يُحَرِّمُهُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ مِمَّا حَكَاهُ اللَّهُ عَنْهُمْ قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ مِمَّا كَانُوا يُحَرِّمُونَهُ مِنْ الْأَنْعَامِ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ نُزُولُهُ عَلَى السَّبَبِ الَّذِي ذَكَرْنَا وَكَانَ خَبَرًا مُبْتَدَأً لَمْ يَمْتَنِعْ بِذَلِكَ قَبُولُ أَخْبَارِ الْآحَادِ فِي تَحْرِيمِ أَشْيَاءَ لَمْ تَنْتَظِمْهَا الْآيَةُ وَلَا اسْتِعْمَالُ الْقِيَاسِ فِي حَظْرِ كَثِيرٍ مِنْهُ ؛ لِأَنَّ أَكْثَرَ مَا فِيهِ الْإِخْبَارُ بِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ الْمُحَرَّمُ مِنْ طَرِيقِ الشَّرْعِ إلَّا الْمَذْكُورَ فِي الْآيَةِ ، وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ قَدْ كَانَتْ مُبَاحَةً قَبْلَ وُرُودِ السَّمْعِ ، وَقَدْ كَانَ قَبُولُ أَخْبَارِ الْآحَادِ جَائِزًا

(98/255)

---

وَاسْتِعْمَالُ الْقِيَاسِ سَائِغًا فِي تَحْرِيمِ مَا هَذَا وَصْفُهُ ، وَكَذَلِكَ إخْبَارُ اللَّهِ بِأَنَّهُ لَمْ يُحَرِّمْ بِالشَّرْعِ إلَّا الْمَذْكُورَ فِي الْآيَةِ غَيْرَ مَانِعٍ تَحْرِيمَ غَيْرِهِ مِنْ طَرِيقِ خَبَرِ الْوَاحِدِ وَالْقِيَاسِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُحَرَّمَ مِنْ الْمَيْتَةِ مَا يَتَأَتَّى فِيهِ الْأَكْلُ مِنْهَا ، فَلَمْ يَتَنَاوَلْ الْجِلْدَ الْمَدْبُوغَ وَلَا الْقَرْنَ وَالْعَظْمَ وَالظِّلْفَ وَالرِّيشَ وَنَحْوَهَا ، وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ فِي شَاةِ مَيْمُونَةَ : إنَّمَا حُرِّمَ أَكْلُهَا ﴾ وَفِي بَعْضِ الْأَلْفَاظِ : ﴿ إنَّمَا حُرِّمَ لَحْمُهَا ﴾ .

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُحَرَّمَ مِنْ الدَّمِ مَا كَانَ مَسْفُوحًا وَأَنَّ مَا يَبْقَى فِي الْعُرُوقِ مِنْ أَجْزَاءِ الدَّمِ غَيْرُ مُحَرَّمٍ ، وَكَذَلِكَ رُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ وَغَيْرِهَا فِي الدَّمِ الَّذِي فِي الْمَذْبَحِ أَوْ فِي أَعْلَى الْقِدْرِ أَنَّهُ لَيْسَ بِمُحَرَّمٍ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِمَسْفُوحٍ .

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ دَمَ الْبَقِّ وَالْبَرَاغِيثِ وَالذُّبَابِ لَيْسَ بِنَجِسٍ ؛ إذْ لَيْسَ بِمَسْفُوحٍ .

(99/255)

---

فَإِنْ قِيلَ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ وَإِنْ كَانَ إخْبَارًا بِأَنَّهُ لَيْسَ الْمُحَرَّمُ فِي شَرِيعَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْمَأْكُولَاتِ غَيْرَ الْمَذْكُورِ فِي الْآيَةِ ، فَإِنَّهُ قَدْ نَسَخَ بِهِ كَثِيرًا مِنْ الْمَحْظُورَاتِ عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ ، فَلَا يَكُونُ سَبِيلُهُ سَبِيلَ بَقَاءِ الشَّيْءِ عَلَى حُكْمِ الْإِبَاحَةِ الْأَصْلِيَّةِ بَلْ يَكُونُ فِي حُكْمِ مَا قَدْ نَصَّ عَلَى إبَاحَتِهِ شَرْعًا ، فَلَا يَجُوزُ الِاعْتِرَاضُ عَلَيْهِ بِخَبَرِ الْوَاحِدِ وَلَا بِالْقِيَاسِ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ قَدْ نَسَخَ بِذَلِكَ كَثِيرًا مِنْ الْمَحْظُورَاتِ عَلَى لِسَانِ غَيْرِهِ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ ، قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنْ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ﴾ وَشُحُومُهُمَا مُبَاحَةٌ لَنَا ، وَكَذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ الْحَيَوَانَاتِ ذَوَاتِ الْأَظْفَارِ .

قِيلَ لَهُ : مَا ذَكَرْت لَا يُخْرِجُ مَا عَدَا الْمَذْكُورَ فِي الْآيَةِ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِي حُكْمِ الْمُبَاحِ عَلَى الْأَصْلِ وَذَلِكَ لِأَنَّ مَا حُرِّمَ عَلَى أُولَئِكَ مِنْ ذَلِكَ وَأُبِيحَ لَنَا لَمْ يَصِرْ شَرِيعَةً لِنَبِيِّنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَيَّنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ حُكْمَ ذَلِكَ التَّحْرِيمُ ، إنَّمَا كَانَ مُوَقَّتًا إلَى هَذَا الْوَقْتِ وَأَنَّ مُضِيَّ الْوَقْتِ أَعَادَهُ إلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ حُكْمِ الْإِبَاحَةِ ، فَلَا فَرْقَ بَيْنَهُ فِي هَذَا الْوَجْهِ وَبَيْنَ مَا لَمْ يُحْظَرْ قَطُّ .

(100/255)

---

وَأَيْضًا فَلَوْ سَلَّمْنَا لَك مَا ادَّعَيْت كَانَ مَا ذَكَرْنَا مِنْ قَبُولِ خَبَرِ الْوَاحِدِ وَاسْتِعْمَالِ الْقِيَاسِ فِيمَا وَصَفْنَا سَائِغًا لِأَنَّ ذَلِكَ مَخْصُوصٌ بِالِاتِّفَاقِ ، أَعْنِي قَوْله تَعَالَى : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ لِاتِّفَاقِ الْجَمِيعِ مِنْ الْفُقَهَاءِ عَلَى تَحْرِيمِ أَشْيَاءَ غَيْرِ مَذْكُورَةٍ فِي الْآيَةِ كَالْخَمْرِ وَلَحْمِ الْقِرَدَةِ

وَالنَّجَاسَاتِ وَغَيْرِهَا ، فَلَمَّا ثَبَتَ خُصُوصُهُ بِالِاتِّفَاقِ سَاغَ قَبُولُ خَبَرِ الْوَاحِدِ وَاسْتِعْمَالُ الْقِيَاسِ فِيهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(101/255)

ومن فوائد ابن العربى فى الآية

قال رحمه الله :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

فِيهَا سَبْعُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ﴾ قَدْ بَيَّنَّا فِي كُتُبِ الْحَدِيثِ أَنَّ الْوَحْيَ يَنْقَسِمُ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَقْسَامٍ : مِنْهَا مَجِيءُ الْمَلَكِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ اللَّهِ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْخَبَرِ ؛ فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ الْمَلَكَ لَمْ يَأْتِ إِلَيْهِ الْآنَ إِلَّا بِهَذَا ؛ إِذْ قَدْ جَاءَ إِلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ بِالْمُحَرَّمَاتِ وَقَدْ ثَبَتَ ذَلِكَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : هَذِهِ الْآيَةُ مَدَنِيَّةٌ مَكِّيَّةٌ فِي قَوْلِ الْأَكْثَرِ ، نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ نَزَلَ عَلَيْهِ قَوْلُهُ : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ وَذَلِكَ يَوْمُ عَرَفَةَ ، وَلَمْ يَنْزِلْ بَعْدَهَا نَاسِخٌ ؛ فَهِيَ مُحْكَمَةٌ .

.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ عَلَى طَاعِمٍ ﴾ الْمُحَرَّمَاتُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : مَطْعُومَاتٌ

، وَمَنْكُوحَاتٌ ، وَمَلْبُوسَاتٌ .

فَأَمَّا الْمَطْعُومَاتُ وَالْمَنْكُوحَاتُ فَقَدْ اسْتَوْفَى اللَّهُ بَيَانَهَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرًا ، وَمِنْهَا فِي السُّنَّةِ تَوَابِعُ .

(102/255)

---

وَأَمَّا الْمَلْبُوسَاتُ فَمِنْهَا فِي الْقُرْآنِ إشَارَاتٌ وَتَمَامُ ذَلِكَ فِي السُّنَّةِ ؛ وَقَالَ اللَّهُ : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ الْآيَةَ .

فَأَمَّا الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ فَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِمَا فِي الْبَقَرَةِ وَالْمَائِدَةِ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ﴾ .

وَكَانَ وُرُودُ ذِكْرِ الدَّمِ مُطْلَقًا هُنَالِكَ وَوَرَدَ هَاهُنَا مُقَيَّدًا بِالسَّفْحِ .

وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي حَمْلِ الْمُطْلَقِ هَاهُنَا عَلَى الْمُقَيَّدِ عَلَى قَوْلَيْنِ : فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إنَّ كُلَّ دَمٍ مُحَرَّمٌ إلَّا الْكَبِدَ وَالطِّحَالَ ، بِاسْتِثْنَاءِ السُّنَّةِ كَمَا تَقَدَّمَ .

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إنَّ التَّحْرِيمَ يَخْتَصُّ بِالْمَسْفُوحِ ؛ قَالَتْهُ عَائِشَةُ ، وَعِكْرِمَةُ ، وَقَتَادَةُ .

وَرُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ : لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ قَالَ : ﴿ أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا ﴾ لَتَتَبَّعَ النَّاسُ مَا فِي الْعُرُوقِ .

قَالَ الْإِمَامُ الْحَافِظُ : الصَّحِيحُ أَنَّ الدَّمَ إذَا كَانَ مُفْرَدًا حَرُمَ مِنْهُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَإِنْ خَالَطَ اللَّحْمَ جَازَ ؛ لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ الِاحْتِرَازُ مِنْهُ ، وَإِنَّمَا حَرُمَ الدَّمُ بِالْقَصْدِ إلَيْهِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهَا مَنْسُوخَةٌ بِالسُّنَّةِ ، وَحَرَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لُحُومَ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ ، وَحَرَّمَ كُلَّ ذِي نَابٍ مِنْ السِّبَاعِ وَذِي مِخْلَبٍ مِنْ الطَّيْرِ ؛ خَرَّجَهُ الْأَئِمَّةُ كُلُّهُمْ .

الثَّانِي : أَنَّهَا مُحْكَمَةٌ لَا حَرَامَ فِيهَا إلَّا فِيمَا قَالَتْهُ عَائِشَةُ .

(103/255)

---

الثَّالِثِ : قَالَ الزُّهْرِيُّ وَمَالِكٌ فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ : هِيَ مُحْكَمَةٌ ، وَيَضُمُّ إلَيْهَا بِالسُّنَّةِ مَا فِيهَا مِنْ مُحَرَّمٍ ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهَا مَنْسُوخَةٌ بِالسُّنَّةِ فَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ كَمَا اخْتَلَفُوا فِي نَسْخِ السُّنَّةِ بِهَا .

وَالصَّحِيحُ جَوَازُ ذَلِكَ كُلِّهِ : كَمَا فِي تَفْصِيلِ الْأُصُولِ ، لَكِنْ لَوْ ثَبَتَ بِالسُّنَّةِ مُحَرَّمٌ غَيْرُ هَذِهِ لَمَا كَانَ ذَلِكَ نَسْخًا ؛ لِأَنَّ زِيَادَةَ مُحَرَّمٍ عَلَى الْمُحَرَّمَاتِ أَوْ فَرْضٍ عَلَى الْمَفْرُوضَاتِ لَا يَكُونُ نَسْخًا بِإِجْمَاعٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ ، لَا سِيَّمَا وَمَا وَرَدَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ مُخْتَلَفٌ فِي تَأْوِيلِهِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهَا مُحَرَّمَةٌ كَمَا قَالُوا .

الثَّانِي : أَنَّهَا حُرِّمَتْ بِعِلَّةِ ﴿ أَنَّ جَائِيًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : فَنِيَتْ الْحُمُرُ .

فَنِيَتْ الْحُمُرُ .

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يُنَادَى بِتَحْرِيمِهَا ﴾ لِعِلَّةٍ مِنْ خَوْفِ الْفَنَاءِ عَلَيْهَا ؛ فَإِذَا كَثُرَتْ وَلَمْ يَضُرَّ فَقْدُهَا بِالْحُمُولَةِ جَازَ أَكْلُهَا ؛ فَإِنَّ الْحُكْمَ يَزُولُ بِزَوَالِ الْعِلَّةِ .

الثَّالِثِ : أَنَّهَا حُرِّمَتْ لِأَنَّهَا طُبِخَتْ قَبْلَ الْقِسْمَةِ .

الرَّابِعِ : أَنَّهَا حُرِّمَتْ لِأَنَّهَا كَانَتْ جَلَّالَةً خَرَّجَهُ أَبُو دَاوُد .

وَقَدْ ﴿ نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَكْلِ جَلَّالَةِ الْبَقَرِ ﴾ .

وَهَذَا بَدِيعٌ فِي وَجْهِ الِاحْتِجَاجِ بِهَا ، وَقَدْ اسْتَوْفَيْنَاهُ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ .

(104/255)

---

وَكَذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنْهُ فِي كُلِّ ذِي نَابٍ مِنْ السِّبَاعِ وَمِخْلَبٍ مِنْ الطَّيْرِ إنَّمَا وَرَدَ فِي الْمُسْنَدِ الصَّحِيحِ بِقَوْلِهِ نَهَى ، وَيَحْتَمِلُ ذَلِكَ النَّهْيُ التَّحْرِيمَ ، وَيَحْتَمِلُ الْكَرَاهِيَةَ ، مَعَ اخْتِلَافِ أَحْوَالِ السِّبَاعِ فِي الِافْتِرَاسِ .

أَلَا تَرَى إلَى الْكَلْبِ وَالْهِرِّ وَالضَّبُعِ فَإِنَّهَا سِبَاعٌ ، وَقَدْ وَقَعَ الْأُنْسُ بِالْهِرِّ مُطْلَقًا وَبِبَعْضِ الْكِلَابِ ،

وَجَاءَ الْحَدِيثُ عَنْ جَابِرٍ أَنَّ الضَّبُعَ صَيْدٌ ، وَفِيهَا كَبْشٌ .

وَلَسْنَا نَمْنَعُ أَنْ يُضَافَ

إِلَيْهَا بِالسُّنَّةِ مَا صَحَّ سَنَدُهُ ، وَتَبَيَّنَ مَوْرِدُهُ ، وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ : رَجُلٌ زَنَى بَعْدَ إِحْصَانٍ ، أَوْ كَفَرَ بَعْدَ إِيمَانٍ ، أَوْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ .

وَهَذَا كُلُّهُ عَلَى أَنَّ مَوْرِدَ الْآيَةِ مَجْهُولٌ .

فَأَمَّا إِذَا تَبَيَّنَّا أَنَّ مَوْرِدَهَا يَوْمُ عَرَفَةَ فَلَا يَحْرُمُ إِلَّا مَا فِيهَا ، وَإِلَيْهِ أَمِيلُ ، وَبِهِ أَقُولُ .

قَالَ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ : قُلْتُ لِجَابِرِ بْنِ زَيْدٍ : إِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ ﴾ .

قَالَ : قَدْ كَانَ يَقُولُ ذَلِكَ الْحَكَمُ بْنُ عَمْرٍو الْغِفَارِيُّ ، وَلَكِنْ أَبَى ذَلِكَ الْحَبْرُ يَعْنِي ابْنَ عَبَّاسٍ ، وَقَرَأَ : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ ﴾ الْآيَةَ ، وَكَذَلِكَ يُرْوَى عَنْ عَائِشَةَ مِثْلُهُ .

وَقَرَأَتْ الْآيَةَ كَمَا قَرَأَهَا ابْنُ عَبَّاسٍ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : قَالَ أَصْحَابُ الشَّافِعِيِّ : تَقْدِيرُ الْآيَةِ : قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا مِمَّا كُنْتُمْ تَسْتَحْبِثُونَهُ وَتَجْتَنِبُونَهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ [ مَيْتَةً ] الْآيَةَ .

فَأَمَّا غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ الْمُحَرَّمَاتِ فَلَا ؛ بِدَلِيلِ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ أَشْيَاءَ مِنْهَا الْمُنْخَنِقَةُ وَأَخَوَاتُهَا .

وَأَجْمَعَتْ الْأُمَّةُ عَلَى تَحْرِيمِ أَشْيَاءَ غَيْرِ ذَلِكَ ، مِنْهَا الْقَاذُورَاتُ ، وَمِنْهَا الْخَمْرُ وَالْآدَمِيُّ .

الْجَوَابُ عَنْهُ مِنْ سَبْعَةِ أَوْجُهٍ : الْجَوَابُ الْأَوَّلُ : أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَدْ رَدَّ هَذَا وَأَوْضَحَ الْمُرَادَ مِنْهُ وَالْحَقَّ فِيهِ ، وَهُوَ الْحَبْرُ الْبَحْرُ التُّرْجُمَانُ .

الْجَوَابُ الثَّانِي : دَعْوَى وُرُودِ الْآيَةِ عَلَى سُؤَالٍ لَا يُقْبَلُ مِنْ غَيْرِ نَقْلٍ يُعَوَّلُ عَلَيْهِ .

الْجَوَابُ الثَّالِثُ : لَوْ صَحَّ السُّؤَالُ لَمَا آثَرَ خُصُوصَ السُّؤَالِ فِي عُمُومِ الْجَوَابِ الْوَارِدِ عَلَيْهِ .

وَقَدْ أَجْمَعْنَا عَلَيْهِ وَبَيَّنَّاهُ فِيمَا قَبْلُ .

الْجَوَابُ الرَّابِعُ : وَأَمَّا قَوْلُهُمْ : إِنَّ

اللَّهَ حَرَّمَ غَيْرَ ذَلِكَ كَالْمُنْخَنِقَةِ وَأَخَوَاتِهَا فَإِنَّ ذَلِكَ دَاخِلٌ فِي الْمَيْتَةِ إِلَّا أَنَّهُ بَيَّنَ أَنْوَاعَ الْمَيْتَةِ وَشَرَحَ مَا يُسْتَدْرَكُ ذَكَاتُهُ مِمَّا تَفُوتُ ذَكَاتُهُ لِئَلَّا يَشْكُلَ أَمْرُهُ وَيُمْزَجَ الْحَلَالُ بِالْحَرَامِ فِي حُكْمِهَا .

الْجَوَابُ الْخَامِسُ : وَأَمَّا قَوْلُهُمْ : أَجْمَعَتْ الْأُمَّةُ عَلَى تَحْرِيمِ الْقَاذُورَاتِ فَلَا قَاذُورَ مُحَرَّمٌ عِنْدَنَا إلَّا أَنْ يَكُونَ رِجْسًا فَيَدْخُلُ فِي عِلَّةِ تَحْرِيمِ لَحْمِ الْخِنْزِيرِ ، وَكَذَلِكَ الْخَمْرُ ، وَهُوَ :

الْجَوَابُ السَّادِسُ : دَخَلَتْ فِي تَعْلِيلِ الرِّجْسِيَّةِ .

وَأَمَّا الْجَوَابُ السَّابِعُ : عَنْ الْآدَمِيِّ فَهَيْهَاتَ أَيُّهَا الْمُتَكَلِّمُ ، لَقَدْ حَطَطْت مُسَمَّاك إذْ أَبْعَدْت مَرْمَاك ، مَنْ أَدْخَلَ الْآدَمِيَّ فِي هَذَا ؟ وَهُوَ الْمُحَلَّلُ لَهُ الْمُحَرَّمُ ، الْمُخَاطَبُ الْمُثَابُ الْمُعَاقَبُ ، الْمُمْتَثِلُ الْمُخَالِفُ ، فَبَيْنَمَا كَانَ مُتَصَرِّفًا جَعَلْته مُصَرَّفًا ، انْصَرِفْ عَنْ الْمَقَامِ فَلَسْت فِيهِ بِإِمَامٍ ، فَإِنَّ الْإِمَامَ هَاهُنَا وَرَاءٌ ، وَالْوَرَاءُ أَمَامٌ ، وَقَدْ انْدَرَجَتْ : الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : فِي هَذَا الْكَلَامِ .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ : رَوَى مُجَاهِدٌ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَرِهَ مِنْ الشَّاءِ سَبْعًا : الدَّمَ ، وَالْمِرَارَ ، وَالْحَيَاءَ ، وَالْغُدَّةَ ، وَالذَّكَرَ ، وَالْأُنْثَيَيْنِ .

﴾ وَهَذِهِ زِيَادَاتٌ عَلَى هَذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ .

قُلْنَا : عَنْهُ جَوَابَانِ : الْأَوَّلُ : أَنَّ الْكَرَاهِيَةَ غَيْرُ التَّحْرِيمِ ، وَهُوَ بِالنِّسْبَةِ إلَيْهِ كَالنَّدْبِ بِالنِّسْبَةِ إلَى الْوُجُوبِ .

الثَّانِي : أَنَّ هَذِهِ الْكَرَاهِيَةَ إنَّمَا هِيَ عِيَافَةُ نَفْسٍ ، وَتَقَزُّزُ جِبِلَّةٍ ، وَتَقَذُّرُ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْمُحَلَّلِ .

فَإِنْ قِيلَ : فَقَدْ قَالَ الدَّمَ .

قُلْنَا : عَنْهُ جَوَابَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ هَذَا اسْتِدْلَالٌ بِالْقَرَائِنِ ، فَكَمْ مِنْ مَكْرُوهٍ قُرِنَ بِمُحَرَّمٍ ، كَقَوْلِهِ : ﴿ نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ كُلِّ مُسْكِرٍ وَمُفْتِرٍ ﴾ .

وَكَمْ مِنْ غَيْرِ وَاجِبٍ قُرِنَ

بِوَاجِبٍ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ .

الثَّانِي : أَنَّهُ أَرَادَ الدَّمَ الْمُخَالِطَ لِلَّحْمِ الَّذِي عُفِيَ عَنْهُ لِلْخَلْقِ وَأَمَّا الْمِرَارُ الْمَذْكُورُ فِي الْحَدِيثِ فَهُوَ مِنْ قَوْلِ بَعْضِهِمْ الْأَمَرُّ ، وَهُوَ الْمَصَارِينُ ، وَلَا أُرَاهُ أَرَادَ إلَّا الْمِرَارَ بِعَيْنِهِ ، وَنَبَّهَ بِذِكْرِهِ عَلَى عِلَّةِ كَرَاهَةِ غَيْرِهِ بِأَنَّهُ مَحَلُّ الْمُسْتَخْبَثِ ؛ فَكُرِهَ لِأَجْلِهِ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

*(108/255)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " مُحَرَّماً " منصوب بقوله : " لا أجِدُ " وهو صِفَة لِمَوْصُوف محذوف ؛ حذف لدلال

قوله : " على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ " ، والتقدير : لا أجد طعاماً مُحَرّماً ، و" عَلَى طَاعِمٍ " متعلّق بـ " مُحَرَّماً " ، و" يَطْعَمُهُ " في محل جرّ صِفَة لـ " طَاعِم " .

وقرأ الباقر ونقها مكيّ عن أبي جَعْفَر - : " يَطَّعِمُهُ " بتشديد الطَّاءِ ، وأصلها " يتطعمه " افتعال من الطعم ، فأبدلت التاء طاءً لوقوعها بعد طاء للتقارب ، فوجب الإدغام .

وقرأت عائشة ، ومحمَّد بن الحَنَفِيَّة ، وأصحاب عَبْد اللَّه بن مَسْعُود رضي الله عنهم : " تَطَعَّمه " بالتاء من فَوْق وتشديد العَيْن فعلاً مَاضِياً .

قوله : " إلاَّ أنْ كَكُون مَنْصُوب على الاسْتِثْنَاء ، وفيه وجهان :

أحدهما : أنه مُتَّصِل قال أبو البقاء : " استثناء من الجنْس ، وموضعُه نَصْب ، أي : لا أجد مُحَرَّماً إلا المَيْتَة " .

والثاني : أنه مُنْقَطِع ، قال مكّي : " وأن يكُون في مَوْضِع نَصْب على الاستِثْناء المُنْقَطع " .

وقال أبو حيان : و" إلاَّ أنْ يكون " استثناء مُنْقَطِع ؛ دلالته كَوْن ، وما قَبْلَه عين ، ويَجُوز أنْ يكُون مَوْضِعُه نَصْباً بدلاً على لُغَة تَمِيم ، ونَصْباً على الاستثناء على لُغَة الحِجَاز ، يعني أن الآستثْناء المُنْقَطِع في لُغَتان :

إحداهما : لغة الحَجَاز ، وهو وُجُوب النَّصْب مطلقاً .

وثانيتهما : لغة التَّمِيمِيّن - يجعلونه كالمُتَّصِل ، فإن كان في الكلامِ نَفْيٌ أو شبْهُه ، رُجِّح البدل ، وهُنَا الكلام نَفْيٌ فيترَجَّحُ نَصْبُه عند التَّميميّين على البدل ، دُون النَّصْب على الاسْتِثْنَاء

؛ فنصْبه من وَجْهَين ، وأمَّا الحِجَاز : فنصبه عِنْدهم من وجْهٍ وَاحِد ، وظاهِر كلام أبي القَاسِم الزَّمَخْشَرِيّ أن مُتَّصِل ؛ فإنه قال : " مُحَرَّماً " أي : طعَاماً مُحَرَّماً من المطاعِم التي حَرَّمْتُمُوهَا إلاَّ أن يكُون مَيْتَة ، أي : إلاَّ أن يكون الشَّيء المُحَرَّم مَيْتة .

وقرأ ابن عامر في روايةٍ : " أوحَى " بفتح الهمزة والحَاءِ منبيا للفَاعِل ؛ وقوله تعالى : ﴿ قُل ءَآلذَّكَرَيْنِ ﴾ وقوله : " نَبِّئُونِي " ، وقوله أيضاً : " آلذَّكَرَيْن " ثانياً ، وقوله : " أَمْ كُنْتُم شُهَدَاء " جمل اعْتِرَاض بين المَعْدُودَات الَّتِي وَقَعت تَفْصِيلاً لِثَمانِيَة أزْواج .

قال الزَّمَخْشَرِيُّ : " فإن قُلْت : كيف فَصَل بين المَعْدُود وبين بَعْضِه ولم يُوَالِ بَيْنَه ؟ .

(109/255)

---

قلت : قد وقع الفَاصِل بَيْنَهُما اعْتِرَاضاً غير أجْنَبِيّ من المَعْدُود ؛ وذلك أنَّ الله – عزَّ وجلَّ – مَنَّ على عِبَاده بإنْشَاء الأنْعام لمَنَافِعِهم وبإباحتها لَهُم ، فاعترض بالاحْتِجَاج على مَنْ حَرَّمها ، والاحْتِجَاجُ على مَنْ حَرَّمَها تأكيدٌ وتَشديدٌ للتَّحْلِيل والاعْتِرَاضَات في الكلامِ لا تُسَاقُ إلا للتَّوْكِيد " .

وقرأ ابن عامر : " إلاَّ أنْ تكُون مَيْتَةٌ " بالتَّأنيث ورفع " مَيْتَةٌ " يعني : إلا أن يوجَد مَيْتَةٌ ، فتكون تَامَّة عِنْدَه ، ويَجُوز أن تكون النَّاقِصَة والخبرُ محذوف ، تقديرهُ : إلا أنْ يَكُون هُنَاك

مَيْتَة ، وقد تقدَّم أن هذا مَنْقُولٌ عن الأخْفَشِ في قوله قبل ذلك ﴿ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً ﴾ [ الأنعام : 139 ] .

وقال أبو البقاء : " ويقرأ برفع " مَيْتَةٌ " على أن تكون تامَّة ، وهو ضعيف ؛ لأن المَعْطُوف مَنْصُوب " .

قال شهاب الدِّين : كيف يُضعَّف قراءة مُتواتِرة ؟ وأما قوله : " لأن المَعْطُوف مَنْصُوب " فذلك غير لازم ؛ لأن النَّصْب على قِرَاءة مَنْ رَفَع " مَيْتَة " يكون نَسَاً على مَحَلِّ " أنْ تكُون " الواقِعَة مسْتَثْنَاة ، تقديره : إلاَّ أن يَكُون مَيْتَة ، وإلا دماً مَسْفُوحاً ، وإلاَّ لَحْم خِنْزِير .

وقال مكِّي : وقرأ أبو جعفر : " إلاَّ أنْ تكُون " بالتَّاء ، " مَيْتَةٌ " بالرفع ثم قال : وكان يَلْزَم أبَا جَعْفَر أن يَقْرَأ " أوْ دَمٌ " بالرفع ، وكذلك ما بَعْدَه .

قال شهاب الدين : هذه قِراءة ابن عامر ، نَسَبَها لأبي جَعْفَر يزيد بن القَعْقاع المَدَنِي شَيْخُ نَافِع ؛ وهو مُحْتَمل ، وقوله : " كان يَلْزَمُه " إلى آخره هو مَعْنى ما ضَعَّفَ به أبو البقاء هذه القراءة ، وتقدَّم جواب ذلك ، واتَّفَق أنَّ ابن عامرٍ يقرأ : ﴿ وَإِن تَكُنْ مَيْتَةٌ ﴾ بالتَّأنيث والرَّفْع وهنا كذلك .

(110/255)

وقرأ ابن كثير وحمزة: "تَكُون" بالتَّأنيث، "مَيْتَة" بالنَّصْب على أن اسْم "تكُونَ" مُضْمَر عَائِدٌ على مُؤنَّث أي: إلا أن يكُون المَأكُول أو النَّفْسُ أو الجُثَّةُ مَيْتَة، ويجوز أن يَعُود الضَّمِير من "تكُون" على "مُحَرَّماً" وإنَّما أنَّث الفعل لتأنيث الخبر؛ كقوله: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن ﴾ [الأنعام: 23] بنصب "فِتْنَتِهم" وتأنيث "تَكُنْ".

وقرأ الباقون: "يَكُونَ" بالتَّذْكير، "مَيْتَةً" نصباً، واسم "يَكُون" يعود على قوله: "مُحَرَّماً" أي: إلاَّ أنْ يَكُون ذلك المُحَرَّم، وقدّره أبو البقاء ومَكِّي وغيرُهما: "إلاَّ أنْ يكُون المَأكولُ"، أو "ذلِك مَيْتَةً".

قوله: "أوْ دَماً مَسْفُوحاً" "دماً" على قراءة العامَّة: معطوفٌ على خبر "يَكُون" وهو "مَيْتَة" وعلى قراءة ابن عامرٍ وأبي جعفر ك معطوف على المُسْتَثْنَى، وهو "أنْ يَكُون" وقد تقدَّم تحرير ذلك.

و"مَسْفُوحاً" صفة لـ "دَماً" والسَّفْحُ: الصبُّ، وقيل: "السَّيَلان"، وهو قريبٌ من الأول، و"سَفَحَ" يستعمل قاصِراً ومتعدِّياً؛ يقال: سَفَحَ زيدٌ دَمْعَه ودَمَهُ، أي: أهْرَاقَه، وسَفَح هُو، إلاَّ أن الفَرق بينهما وَقَع باخْتِلاف المَصدر، ففي المُتعدِّي يقال: سَفْح وفي اللاَّزِم يقال: سُفُوح، ومن التَّعدِّي قوله تعالى: ﴿ أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً ﴾؛ فإن اسْم المفعُول التَّام لا يُبْنَى إلا مِنْ مُتَعَدٍّ، ومن اللُّزُوم ما أنْشَده أبو عبيدة لِكُثَيِّرَة عَزَّة: [الطويل]

2369 - أقُولُ وَدَمْعِي وَاكِفٌ عِنْدَ رَسْمِهَا . . .

عَلَيْك سلامُ اللَّهِ والدَّمْعُ يَسْفَحُ

وقوله : " فإنَّهُ رِجْسٌ " إمَّا على المُبَالغَة بأن جُعِل نَفْسَ الرِّجْس ، أو على حَذْف مضافٍ ، وله نَظَائر .

قوله : " أوْ فِسْقاً " فيه ثلاثة أوجُه :

(111/255)

---

أحدها : انه عَطْف على خَبَر "يَكُون" أيضاً ، أي : إلا أن يكُون فِسْقاً .

و" أهلَّ " في محل نصب ؛ لأنه صِفَة له ؛ كأنه قيل : أو فِسْقاً مُهَلاً به لِغَيْر اللَّه ، جعل العَيْن المُحَرَّمَة نَفْس الفِسْق ؛ مُبَالغَة ، أو على حَذْف مُضَافٍ ، ويُفَسِّره ما تقدَّم من قوله : ﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسم الله عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ [ الأنعام : 21 ]

الثاني : أنه مَنْصُوب عَطْفا على محلِّ المسْتَثْنَى ، أي : إلا أنْ يكون مَيْتَة أو إلاَّ فِسْقاً ، وقوله : " فإنَّه رِجْسٌ " اعْتِرَاض بين المُتعاطِفَيْن .

والثالث : أن يكون مَفْعُولاً من أجْلِه ، والعَامِل فيه قوله : " أهِلَّ " مقدَّمٌ عليه ، ويكون قد فَصَل بين حَرْف العَطْفِ وهو " أوْ " وبَيْن المَعْطُوف وهو اجملة من قوله : " أهِلَّ " بهذا المَفْعُول من أجْلِه ؛ ونظيره في تَقْدِيم المَفْعُول له على عَامِلِه قوله : [ الطويل ]

2370 - طَرِبْتُ وَمَا شَوْقاً إلى البيضِ أطْرَبُ . . .

وَلاَ لِعِباً مِنّي وذُو الشَّيْبِ يَلْعَبُ

و" أهِلَّ " على هذا الإعْرَاب عَطْفٌ على " يكون " والضَّمِير في " به " عائدٌ على ما عَادَ عليه الضَّمِيرُ المُسْتَتِر في "يَكُون" ، وقد تقدم تَحْقِيقه ، قاله الزمخشري .

إلاَّ أن أبا حيَّان تعقَّب عليه ذلك ؛ فقال : " وهذا إعْرَاب متكَلِّفٌ جداً ، وتركِيبُه على هذا الإعارب خارج عن الفَصَاحةِ ، وغير جَائزٍ على قراءة من قرأ " إلا أنْ يكُون مَيْتَةٌ " بالرَّفْع ، فيبقى الضَّمير في " به " لَيْس له ما يَعُود عليه ، ولا يجوز أن يُتكَلَّف مَحْذُوف حتى يَعُود الضَّمير علي ، فيكون التَّقْدير : أو شَيءٌ أهِلَّ لغَيْر الله به ، لأن مِثْل هذا لا يَجُوز إلاَّ في ضَرُورة الشِّعْر " .

*(112/255)*

---

قال شهاب الدّين : يَعْنِي بذلك : أنَّه لا يُحْذَف الموصُوف والصِّفَة جُمْلَةً ، إلا إذا كان في الكلام " مِنْ " التَّبْعِيضيَّة ؛ كقولهم " " مِنَّا ظَعَنَ ومنَّا أقَام " أي : منا فَرِيقٌ ظعن ، ومنَّا فَرِيقٌ أقَام فإن لم يكن فيه " مِنْ " كان ضَرورة ؛ كقوله : [ الزجر ]

2371 - تَرْمِي بِكَفِّي كَانَ مِنْ أرْمَى البَشَرْ . . .

أي : بكفَّي رَجُلٍ ؛ وهذا رأي بَعضهم ، وأما غَيْرَه فيَقُول : متى دلَّ على المَوْصُوف ، حُذِف مُطْلقاً ، فقد يجُوز أن يَرَى الزَّمَخْشَري هذا الرَّأي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 482.486 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (145) ﴾

بيَّن أَنَّ الشارعَ اللهُ ، والمانعَ عن الخَلْق هو الله ، وما كان من غير الله فضائعٌ باطلٌ عند الله .

بيَّن أنه إذا جاء الاضطرارُ زال حكمُ الاختيار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 508 ﴾

*(113/255)*

---

قوله تعالى ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا

لَصَادِقُونَ (146) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان قوله ﴿ طاعم ﴾ نكرة في سياق النفي ، يعم كل طاعم من أهل شرعنا وغيرهم ، وكان سبحانه قد حرم على اليهود أشياء غير ما تقدم ، اقتضت إحاطة العلم أن قال مبيناً لإحاطة علمه وتكذيباً لليهود في قولهم : لم يحرم الله علينا شيئاً ، إنما حرمنا على أنفسنا ما حرم إسرائيل على نفسه : ﴿ وعلى الذين هادوا ﴾ أي اليهود ﴿ حرمنا ﴾ بما لنا من العظمة التي لا تدافع ﴿ كل ذي ظفر ﴾ أي على ما هو كالإصبع للآدمي من الإبل والسباع والطيور التي تتقوى بأظفارها ﴿ ومن البقر والغنم ﴾ أي التي هي ذوات الأظلاف ﴿ حرمنا ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ عليهم شحومهما ﴾ أي الصنفين ؛ ثم استثنى فقال : ﴿ إلا ما حملت ظهورهما ﴾ أي من الشحوم مما علق بالظهر والجنب من داخل بطونهما ﴿ أو الحوايا ﴾ وهي الأمعاء التي هي متعاطفة متلوية ، جمع حوية فوزنها فعائل كسفينة وسفائن ، وقيل : جمع حاوية أو حاوياء كقاصعاء ﴿ أو ما اختلط ﴾ أي من الشحوم ﴿ بعظم ﴾ مثل شحم الألية فإن ذلك لا يحرم ، وهذا السياق بتقدم الجار وبناء الكلام عليه يدل على أن ما عدا المذكور من الصنفين حلال لهم .

ولما كان كأنه قيل : لم حرم عليهم هذه الطيبات ؟ قيل : ﴿ ذلك ﴾ أي التحريم العظيم والجزاء الكبير وهو تحريم الطيبات ﴿ جزيناهم ﴾ أي بما لنا من العظمة ﴿ ببغيهم ﴾ أي في أمورهم التي تجاوزوا فيها الحدود ، وفي إيلاء هذه الآية – التي فيها ما حرم على اليهود – لما قبلها مع الوفاء بالمقصود من حصر محرمات المطاعم على هذه الأمة وغيرها أمران جليلان : أحدهما بيان اطلاعه صلى الله عليه وسلم على تفصيل ما أوحي إلي من تقدمه ولما يشامم أحداً من أتباعهم ولا دارس عالماً ولا درس علماً قط ، فلا دليل على صدقه على الله أعظم من ذلك ، والثاني تفضيله هذه الأمة بأنه أحل لها الخبائث عند الضرورة رحمة لهم ، وأزال عنها في تلك الحالة ضرها ولم يفعل بها كما فعل باليهود في أنه حرم عليهم طائفة من الطيبات ولم يحلها لهم في حال من الأحوال عقوبة لهم ، وفي ذلك أتم تحذير لهذه الأمة من أن يبغوا فيعاقبوا كما عوقب من قبلهم على ما نبه عليه في قوله ﴿ غير محلي الصيد وأنتم حرم ﴾ [ المائدة : 1 ] فبان الصدق وحصحص الحق ولم يبق لمتعنت كلام ، فحسن جداً ختم ذلك بقوله ﴿ وإنا لصادقون ﴾ أي ثابت صدقنا أزلاً وأبداً كما اقتضاه ما لنا من العظمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 736 . 737 ﴾

فصل

قال الفخر :

ثم بين تعالى أنه حرم على اليهود أشياء أخرى سوى هذه الأربعة ، وهي نوعان : الأول : أنه تعالى حرم عليهم كل ذي ظفر .

وفيه مباحث :

البحث الأول : قال الواحدي : في الظفر لغات ظفر بضم الفاء ، وهو أعلاها وظفر بسكون الفاء ، وظفر بكسر الظاء وسكون الفاء ، وهي قراءة الحسن وظفر بكسرهما وهي قراءة أبي السمال .

البحث الثاني : قال الواحدي : اختلفوا في كل ذي ظفر الذي حرمه الله تعالى على اليهود روي عن ابن عباس : أنه الإبل فقط وفي رواية أخرى عن ابن عباس : أنه الإبل والنعامة ، وهو قول مجاهد .

وقال عبد الله بن مسلم : إنه كل ذي مخلب من الطير وكل ذي حافر من الدواب .

*(115/255)*

---

ثم قال : ﴿كذلك﴾ قال المفسرون وقال : وسمى الحافر ظفراً على الاستعارة .

وأقول : أما حمل الظفر على الحافر فبعيد من وجهين : الأول : أن الحافر لا يكاد يسمى ظفراً .

والثاني : أنه لو كان الأمر كذلك لوجب أن يقال إنه تعالى حرم عليهم كل حيوان له حافر ، وذلك باطل لأن الآية تدل على أن الغنم والبقر مباحان لهم من حصول الحافر لهما .

وإذا ثبت هذا فنقول : وجب حمل الظفر على المخالب والبراثن لأن المخالب آلات الجوارح في الاصطياد والبراثن آلات السباع في الاصطياد ، وعلى هذا التقدير : يدخل فيه أنواع السباع والكلاب والسنانير ، ويدخل فيه الطيور التي تصطاد لأن هذه الصفة تعم هذه الأجناس .

إذا ثبت هذا فنقول : قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ يفيد تخصيص هذه الحرمة بهم من وجهين : الأول : أن قوله : ﴿ وَعَلَى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا ﴾ كذا وكذا يفيد الحصر في اللغة .

والثاني : أنه لو كانت هذه الحرمة ثابتة في حق الكل لم يبق لقوله ، ﴿ وَعَلَى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا ﴾ فائدة فثبت أن تحريم السباع وذوي المخالب من الطير مختص باليهود ، فوجب أن لا تكون محرمة على المسلمين ، فصارت هذه الآية دالة على هذه الحيوانات على المسلمين ، وعند هذا نقول : ما روي أنه صلى الله عليه وسلم حرم كل ذي ناب من السباع وذي مخلب من الطيور ضعيف لأنه خبر واحد على خلاف كتاب الله تعالى ، فوجب أن لا يكون مقبولاً ، وعلى هذا التقدير : يقوى قول مالك في هذه المسألة .

النوع الثاني : من الأشياء التي حرمها الله تعالى على اليهود خاصة ، قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ البقر والغنم حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا ﴾ فبين تعالى أنه حرم على اليهود شحوم البقر والغنم ، ثم في الآية قولان : الأول : إنه تعالى استثنى عن هذا التحريم ثلاثة أنواع : أولها : قوله : ﴿ إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ﴾ قال ابن عباس : إلا ما علق بالظهر من الشحم ، فإني لم أحرمه وقال قتادة : إلا ما علق بالظهر والجنب من داخل بطونها ، وأقول ليس على الظهر والجنب شحم إلا اللحم الأبيض السمين الملتصق باللحم الأحمر على هذا التقدير : فذلك اللحم السمين الملتصق مسمم بالشحم ، وبهذا التقدير : لو حلف لا يأكل الشحم ، وجب أن يحنث بأكل ذلك اللحم السمين .

والاستثناء الثاني : قوله تعالى : ﴿ أَوِ الحوايا ﴾ قال الواحدي : وهي المباعر والمصارين ، واحدتها حاوية وحوية .

قال ابن الأعرابي : هي الحوية أو الحاوية ، وهي الدوارة التي في بطن الشاة .

وقال ابن السكيت : يقال حاوية وحوايا ، مثل رواية وروايا .

إذا عرفت هذا : فالمراد أن الشحوم الملتصقة بالمباعر والمصارين غير محرمة .

والاستثناء الثالث : قوله : ﴿ وَمَا اختلط بِعَظْمٍ ﴾ قالوا : إنه شحم الإلية في قول جميع المفسرين .

وقال ابن جريج : كل شحم في القائم والجنب والرأس ، وفي العينين والأذنيين يقول : إنه اختلط بعظم فهو حلال لهم ، وعلى هذا التقدير : فالشحم الذي حرمه الله عليهم هو الثرب وشحم الكلية .

القول الثاني : في الآية أن قوله : ﴿ أَوِ الحوايا ﴾ غير معطوف على المستثنى ، بل على المستثنى منه والتقدير : حرمت عليهم شحومهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم إلا ما حملت ظهورهما فإنه غير محرم قالوا : ودخلت كلمة "أو" كدخولها في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ ءاثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ [ الإنسان : 24 ] والمعنى كل هؤلاء أهل أن يعصى ، فاعص هذا واعص هذا ، فكذا ههنا المعنى حرمنا عليهم هذا وهذا .

*(117/255)*

---

ثم قال تعالى : ﴿ ذلك جزيناهم بِبَغْيِهِمْ ﴾ والمعنى : أنا إنما خصصناهم بهذا التحريم جزاء على بغيهم ، وهو قتلهم الأنبياء ، وأخذهم الربا ، وأكلهم أموال الناس بالباطل ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مّنَ الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طيبات أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [ النساء : 160 ] .

ثم قال تعالى : ﴿ وإِنَّا لصادقون ﴾ أي في الإخبار عن بغيهم وفي الإخبار عن تخصيصهم

بهذا التحريم بسبب بغيهم .

قال القاضي : نفس التحريم لا يجوز أن يكون عقوبة على جرم صدر عنهم ، لأن التكليف تعريض للثواب ، والتعريض للثواب إحسان فلم يجز أن يكون التكليف جزاء على الجرم المتقدم .

فالجواب : أن المنع من الانتفاع يمكن أن يكون لمزيد استحقاق الثواب ، ويمكن أيضاً أن يكون للجرم المتقدم ، وكل واحد منهما غير مستبعد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 182.184 ﴾

*(118/255)*

---

وقال السمرقندى :

﴿ وَعَلَى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا ﴾

يعني : أن هذه الأشياء التي ذكرنا في الآية كانت حراماً في الأصل وقد حرّم الله أشياء كانت حلالاً في الأصل على اليهود بمعصيتهم .

﴿ كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ يعني : الإبل والنعامة والبط والأوز .

وكل شيء له خفّ وقال القتبي : ﴿ كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ يعني : كل ذي مخلب من الطيور ، وكل

ذي حافر من الدواب ، وسمي ظفراً على الاستعارة .

وقال الكلبي : ﴿ كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ يعني : ليس بمنشق ولا مجتر فهو حرام عليهم ﴿ وَمِنَ البقر والغنم حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا ﴾ يعني : شحوم البطون .

ثم استثنى فقال : ﴿ إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ﴾ وقال الضحاك : إلا ما كان على اللحوم من الشحوم .

وقال الكلبي : يعني : ما تعلق بالظهر من الشحم من الكليتين .

ويقال : حرم عليهم الثروب وأحلّ ما سواها .

وواحد الثروب ثرب وهو الشحم الرقيق الذي يكون على الكرش ﴿ أَوِ الحوايا ﴾ وهو المباعر واحدتها حاوية ﴿ أَوْ مَا اختلط بِعَظْمٍ ﴾ مثل الإلية .

وروى جويبر عن الضحاك قال : ما التزق بالعظم .

ويقال : هو المخ ﴿ ذلك جزيناهم بِبَغْيِهِمْ ﴾ يعني : ذلك التحريم عاقبناهم بشركهم وظلمهم ﴿ وإِنَّا لصادقون ﴾ أن هذه الأشياء كانت حلالاً في الأصل ، وحرمناها على اليهود بمعصيتهم ، لأن اليهود كانوا يقولون : إن هذه الأشياء كانت حراماً في الأصل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَعَلَى الذين هَادُواْ ﴾ يعني اليهود ﴿ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ﴾ ، وهو ما لم يكن مشقوق

الأصابع من البهائم والطير . مثل الإبل والنعّام والأوزة والبط .

قال ابن زيد : هو الإبل فقط . وقال القتيبي : هو كلّ ذي مخلب من الطيور وكل ذي حافر من الدواب ، وقد حكاه عن بعض المفسّرين ، وقيل : سمّي الحافر ظفراً على الاستعارة وأنشد قول طرفة :

فما رقد الولدان حتّى رأيته . . . على البكر يمريه بساق وحافر

فجعل الحافر موضع القدم .

وقرأ الحسن كل ذي ظفر مكسورة الظاء مسكنة الفاء . وقرأ [ أبو سماك ] ظِفِر بكسر الظاء والفاء وهي لغة .

﴿ وَمِنَ البقر والغنم حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ ﴾ يعني [ الشروب ] وشحم الكليتين ﴿ إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ﴾ أي ما علق بالظهر والجانب إلاّ منْ داخل بطونها ﴿ أَوِ الحوايآ ﴾ يعني الماعز ﴿ أَوْ مَا اختلط بِعَظْمٍ ﴾ مثل لحم الإلية ﴿ ذلك ﴾ التحريم ﴿ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ ﴾ بظلمهم عقوبة لهم بقتلهم الأنبياء وصدهم عن سبيل الله وأخذهم الربا واستحلالهم أموال الناس بالباطل ﴿ وإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ في أخبارنا عن هؤلاء اليهود وعمّا حرّمنا عليهم من اللحوم والشحوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

(119/255)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ﴾

هذا التحريم على الذين هادوا إنما هو تكليف بلوى وعقوبة ، فأول ما ذكره من المحرمات عليهم ﴿ كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ﴾ وفيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه ما ليس منفرج الأصابع كالإبل والنعام والأوز والبط ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي .

والثاني : أنه عنى أنواع السباع كلها .

والثالث : أنه كل ذي مخلب من الطير ، وكل ذي حافر من الدواب .

ثم قال : ﴿ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها شحوم الثّرْب خاصة ، قاله قتادة .

والثاني : أنه كل شحم لم يكن مختلطاً بعظم ولا على عظم ، قاله ابن جريج .

والثالث : أنه شحم الثرب والكلى ، قاله السدي وابن زيد .

ثم قال : ﴿ إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ﴾ يعني شحم الجنب وما علق بالظهر فإنه لم يحرم عليهم .

ثم قال : ﴿ أَوْ الْحَوَايَآ ﴾ وفيها أربعة تأويلات :

أحدها : أنها المباعر ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، ومجاهد ، والسدي .

والثاني : أنها بنات اللبن ، قاله عبد الرحمن بن زيد .

والثالث : أنها الأمعاء التي عليها الشحم من داخلها ، قاله بعض المتأخرين .

والرابع : أنها كل ما تحوّى في البطن واجتمع واستدار ، قاله علي بن عيسى .

﴿ أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه شحم الجنب .

والثاني : أنه شحم الجنب والأليه ، لأنه على العصعص ، قاله ابن جريج ، والسدي .

﴿ ذَالِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : ببغيهم على موسى عليه السلام فيما اقترحوه وعلى ما خالفوه .

والثاني : ببغيهم على أنفسهم في الحلال الذي حرموه .

﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ فيما حكاه عنهم وحرمه عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ﴾

لما ذكر الله عز وجل ما حرم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم أعقب ذلك بذكر ما حرم على اليهود لما في ذلك من تكذيبهم في قولهم إن الله لم يحرم علينا شيئاً وإنما حرمنا على أنفسنا ما حرمه إسرائيل على نفسه ، وقد تقدم القول في سورة البقرة في ﴿ هادوا ﴾ ومعنى تسميتهم يهوداً ، و﴿ كل ذي ظفر ﴾ يراد به الإبل والنعام والإوز ونحوه من الحيوان الذي هو غير منفرج الأصابع وله ظفر ، وقال أبو زيد : المراد الإبل خاصة وهذا ضعيف التخصيص ، وذكر النقاش عن ثعلب أن كل ما لا يصيد فهو ذو ظفر وما يصيد فهو ذو مخلب .

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : وهذا غير مطرد لأن الأسد ذو ظفر ، وقرأ جمهور الناس " ظُفُر " بضم الظاء والفاء ، وقرأ الحسن والأعرج " ظفْر " بسكون الفاء ، وقرأ أبو السمال قعنب " ظِفْر " بكسر الظاء وسكون الفاء .

وأخبرنا الله عز وجل في هذه الآية بتحريم الشحوم على بني إسرائيل وهي الثروب وشحم الكلى وما كان شحماً خالصاً خارجاً عن الاستثناء الذي في الآية .

(121/255)

---

واختلف العلماء في تحريم ذلك على المسلمين من ذبائح اليهود فحكى ابن المنذر في الأشراف عن مالك وغيره منع أكل الشحم من ذبائح اليهود وهو ظاهر المدونة .

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : وهذا على القول في قوله عز وجل : ﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ﴾ [ المائدة : 5 ] بأنه المطعوم من ذبائحهم وأما ما لا يحل لهم فلا تقع عليه ذكاة بل هو كالدم في ذبائح المسلمين ، وعلى هذا القول يجيء قول مالك رحمه الله في المدونة فيما ذبحه اليهودي مما لا يحل لهم كالجمل والأرنب أنه لا يؤكل .

وروي عن مالك رحمه الله كراهية الشحم من ذبائح أهل الكتاب دون تحريم وأباح بعض الناس الشحم من ذبائح أهل الكتاب وذبحهم ما هو عليهم حرام إذا أمرهم بذلك مستنيباً أو نحوه .

(122/255)

---

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : وهذا على أن يجعل قوله ﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ﴾ [ المائدة : 5 ] يراد به الذبائح فمتى وقع الذبح على صفته وقعت الإباحة ، وهذا قول ضعيف لأنه جرد لفظة . ﴿ وطعام ﴾ من معنى أن تكون مطعوماً لأهل الكتاب وخلصها لمعنى الذبح وذلك حرج لا يتوجه ، وأما الطريق فحرمه قوم وكرهه وأباحه قوم وخففه مالك في المدونة ثم رجع إلى منعه ، وقال ابن حبيب ما كان محرماً عليهم وعلمنا ذلك من كتابنا فلا يحل لنا من ذبائحهم ، وما لم نعلم تحريمه إلا من أقوالهم فهو غير محرم علينا من ذبائحهم ، وقوله ﴿ إلا ما حملت ظهورهما ﴾ يريد ما اختلط باللحم في الظهر والأجناب ونحوه ، قال السدي وأبو صالح : الأليات مما حملت ظهورهما ﴿ أو الحوايا ﴾ قال هو جمع حوية على وزن فعلية ، فوزن ، " حوايا " على هذا فعائل كسفينة وسفائن ، وقيل هو جمع حاوية على وزن فاعلة ، فحوايا على هذا فواعل كضاربة وضوارب وقيل جمع حاوياء ، فوزنها على هذا أيضاً فواعل كقاصعاء وقواصع وأما " الحوايا " على الوزن الأول فأصلها حوايي فقلب الياء الأخيرة ألفاً فانفتحت لذلك الهمزة ثم بدلت ياء ، وأما على الوزنين الأخيرين فأصل " حوايا " حواوي وبدلت الوو الثانية همزة ، والحوية ما تحوى في البطن واستدار وهي المصارين والحشوة ونحوهما ، وقال مجاهد وقتادة وابن عباس والسدي وابن زيد : " الحوايا " المباعر وقال بعضهم : هي المرابط التي تكون فيها الأمعاء وهي بنات اللبن ، وقوله ﴿ أو ما اختلط بعظم ﴾ يريد في سائر الشخص ،

و﴿ الحوايا ﴾ معطوف على ﴿ ما ﴾ في قوله ﴿ إلا ما حملت ﴾ فهي في موضع نصب عطفاً على المنصوب بالاستثناء ، وقال الكسائي ﴿ الحوايا ﴾ معطوف على الظهور ، كأنه قال " إلا ما حملت ظهورهما أو حملت الحوايا " ، وقال بعض الناس ﴿ الحوايا ﴾ معطوف على الشحوم .

*(123/255)*

---

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : وعلى هذا تدخل ﴿ الحوايا ﴾ في التحريم ، وهذا قول لا يعضده اللفظ ولا المعنى بل يدفعانه ، وقوله تعالى : ﴿ ذلك جزيناهم ببغيهم ﴾ ، ﴿ ذلك ﴾ في موضع رفع و﴿ جزيناهم ببغيهم ﴾ يقتضي أن هذا التحريم إنما كان عقوبة لهم على ذنوبهم وبغيهم واستعصائهم على الأنبياء ، وقوله ﴿ وإنَّا لصادقون ﴾ إخبار يتضمن التعريض بكذبهم في قولهم ما حرم الله علينا شيئاً وإنما اقتدينا بإسرائيل فيما حرم على نفسه ويتضمن إدحاض قولهم ورده عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وعلى الذين هادوا حرّمنا كل ذي ظفر ﴾

وقرأ الحسن ، والأعمش : ﴿ ظُفْرٍ ﴾ بسكون الفاء ؛ وهذا التحريم تحريم بلوى وعقوبة

وفي ذي الظفر ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه ما ليس بمنفرج الأصابع ، كالإبل ، والنعام ، والإوَزِّ ، والبط ، قاله ابن عباس ،

وابن جبير ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي .

والثاني : الإبل فقط ، قاله ابن زيد .

والثالث : كل ذي حافر من الدواب ، ومخلب من الطير ، قاله ابن قتيبة .

قال : وسمي الحافر ظفراً على الإستعارة ؛ والعرب تجعل الحافر والأظلاف موضع القدم ،

استعارة ؛ وأنشدوا :

سَأَمْنَعُها أَوْ سَوْفَ أَجْعَلُ أَمْرَهَا . . .

إلى مَلِكٍ أظلافُه لم تُشَقَّق

أراد : قدميه ، وإنما الأظلاف : للشاء والبقر .

قال ابن الأنباري : الظفر هاهنا ، يجري مجرى الظفر للانسان .

وفيه ثلاث لغات .

أعلاهن : ظُفُر ؛ ويقال : ظُفْر ، وأُظفور .

وقال الشاعر :

ألم تر أنَّ الموتَ أدْرَكَ مَنْ مَضَى . . .

فلم يُبْقِ منه ذا جناح وذا ظُفُر

وقال الآخر :

لقد كنتُ ذا نابٍ وظُفْرٍ على العِدَى . . .

فأصبحتُ ما يَخْشَوْنَ نابي ولا ظُفْري

وقال الآخر :

ما بين لُقمته الأولى إذا انحَدَرَتْ . . .

وبين أخرى تليها قِيْدُ أُظْفُور

وفي شحوم البقر والغنم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه إنما حرّم من ذلك شحوم الثروب خاصة ، قاله قتادة .

(124/255)

---

والثاني : شحوم الثروب والكلى ، قاله السدي ، وابن زيد .

والثالث : كل شحم لم يكن مختلطا بعظم ، ولا على عظم ، قاله ابن جريج : وفي قوله : ﴿ إلا ما حملت ظهورهما ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه ما علق بالظهر من الشحوم ، قاله ابن عباس .

والثاني : الأَلْيَةَ ، قاله أبو صالح ، والسدي .

والثالث : ما علق بالظهر والجنب من داخل بطونهما ، قاله قتادة .

فأما الحوايا فللمفسرين فيها أقوال تتقارب معانيها .

قال ابن عباس ، والحسن ، وابن جبير ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي ، وابن قتيبة : هي المباعر .

وقال ابن زيد : هي بنات اللبن ، وهي المرابض التي تكون فيها الأمعاء .

وقال الفراء : الحوايا : هي المباعر ، وبنات اللبن .

وقال الاصمعي : هي بنات اللبن ، واحدها : حاوياء ، وحاوية ، وحَوّية .

قال الشاعر :

أقْتُلُهم ولا أرى مُعاويه . . .

الجاحِظَ العَيْنِ العَظيمَ الحاويهْ

وقال الآخر :

كأنَّ نقيق الحَبِّ في حاويائه . . .

فحيحُ الأفاعي أو نقيقُ العقارِب

وقال أبو عبيدة : الحوايا : ما تحوّى من البطن ، أي : ما استدار منها .

وقال الزجاج : الحوايا : اسم لجميع ما تحوّى من الأمعاء أي : استدار .

وقال ابن جرير الطبري : الحوايا : ما تحوّى من البطن فاجتمع واستدار ، وهي بنات اللبن ، وهي المباعر ، وتسمى : المرابض ، وفيها الأمعاء .

قوله تعالى : ﴿ أو ما اختلط بعظم ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنه شحم البطن والأَلْيَة ، لأنهما على عظم ، قاله السدي .

والثاني : كل شحم في القوائم ، والجنب ، والرأس ، والعينين ، والأذنين ، فهو مما اختلط بعظم ، قاله ابن جريج .

واتفقوا على أن ما حملت ظهورها حلال ، بالاستثناء من التحريم .

فأما ما حملت الحوايا ، أو ما اختلط بعظم ، ففيه قولان .

أحدهما : أنه داخل في الاستثناء ، فهو مباح ؛ والمعنى : وأُبيح لهم ما حملت الحوايا من الشحم وما اختلط بعظم ، هذا قول الأكثرين .

*(125/255)*

---

والثاني : أنه نسق على ما حرِّم ، لا على الاستثناء ؛ فالمعنى : حرَّمنا عليهم شحومهما ، أو الحوايا ، أو ما اختلط بعظم ، إلا ما حملت الظهور ، فانه غير محرم ، قاله الزجاج .

فأما "أو" المذكورة هاهنا ، فهي بمعنى الواو كقوله : ﴿ آثما أو كفوراً ﴾ [ الدهر : 24 ] .

قوله تعالى : ﴿ ذلك جزيناهم ﴾ أي : ذلك التحريم عقوبة لهم على بغيهم .

وفي بغيهم قولان .

أحدهما : أنه قتلهم الأنبياء ، وأكلهم الربا .

والثاني : أنه تحريم ما أحل لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ وعلى الذين هادوا ﴾ يعني اليهود ﴿ حرمنا كل ذي ظفر ﴾ قال ابن عباس : هو البعير والنعامة ونحو ذلك من الدواب .

وقيل كل ما لم يكن مشقوق الأصابع من البهائم والطير مثل البعير والنعامة والإوز والبط .

قال القتيبي هو كل ذي مخلب من الطير وكل ذي حافر من الدواب وسمي الحافر ظفراً على الاستعارة ﴿ ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما ﴾ يعني شحم الجوف وهي الثروب وشحم الكليتين ﴿ إلا ما حملت ظهورهما ﴾ يعني إلا ما علق بالظهر والجنب من داخل بطونهما من الشحم فإنه غير محرم عليها ، وقال السدي وأبو صالح : الألية مما حملت ظهورهما وهذا القول مختص بالغنم لأن البقر ليس لها ألية ﴿ أو الحوايا ﴾ وهي المباعر ، في قول ابن عباس وجمهور المفسرين واحدتها حاوية وحوية ، وقيل : الحوايا المباعر والمصارين وهي الدوائر التي تكون في بطن الشاة والمعنى أن الشحم المتلصق بالمباعر والمصارين غير محرم على اليهود ﴿ أو ما اختلط بعظم ﴾ يعني من شحم الألية لأنه

اختلط بالعصعص وكذا الشحم المختلط بالعظام التي تكون في الجنب والرأس والعين فكل هذا حلال على اليهود فحاصل هذا أن الذي حرم عيلها شحم الثرب وشحم الكلية وما عدا ذلك فهو حلال عليهم ( ق ) .

*(126/255)*

---

عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عام الفتح بمكة " إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام " فقيل يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنها يطلى بها السن ويدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس ؟ فقال : " لا هو حرام " ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك " قاتل اليهود إن الله لما حرم عليهم شحومها جملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه " قوله : جملوه يعني أذابوه يقال أجملت الشحم وجملته إذا أذبته وجملته أكثر وأفصح .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك جزيناهم ﴾ أي ذلك التحريم جزيناهم عقوبة ﴿ ببغيهم ﴾ يعني بسبب بغيهم وظلمهم وهو قتل الأنبياء وأخذ الربا واستحلالهم أموال الناس بالباطل ﴿ وإنا لصادقون ﴾ يعني في الإخبار عن بغيهم وفي الإخبار عن تخصيصهم بهذا التحريم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ﴾

مناسبة هذه لما قبلها أنه لما بين أن التحريم إنما يستند للوحي الإلهي أخبر أنه حرّم على بعض الأمم السابقة أشياء ، كما حرّم على أهل هذه الملة أشياء مما ذكرها في الآية قبل فالتحريم إنما هو راجع إلى الله تعالى في الأمم جميعها وفي قوله : ﴿ حرمنا ﴾ تكذيب اليهود في قولهم : إن الله لم يحرم علينا شيئاً وإنما حرمنا على أنفسنا ما حرمه إسرائيل على نفسه .

قال ابن عباس ومجاهد وابن جبير وقتادة والسدّي : هي ذوات الظلف كالإبل والنعام وما ليس بذي أصابع منفرجة كالبط والأوز ونحوهما ، واختاره الزجاج .

وقال ابن زيد : هي الإبل خاصة وضعف هذا التخصيص .

وقال الضحاك : هي النعامة وحمار الوحش وهو ضعيف لتخصيصه .

وقال الكلبي : كل ذي مخلب من الطير وذي حافر من الدواب وذي ناب من السباع .

وقال القتبي : الظفر هنا بمنزلة الحافر يدخل فيه كل ذي حافر من الدواب سمي الحافر ظفر استعارة .

وقال ثعلب : كل ما لا يصيد فهو ذو ظفر وما يصيد فهو ذو مخلب .

قال النقاش : هذا غير مطرد لأن الأسد ذو ظفر .

وقال الزمخشري : ما له أصبع من دابة أو طائر ، وكان بعض ذوات الظفر حلالاً لهم فلما ظلموا حرم ذلك عليهم فعم التحريم كل ذي ظفر بدليل قوله : ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ﴾ وقال أبو عبد الله الرازي : حمل الظفر على الحافر ضعيف لأن الحافر لا يكاد يسمى ظفراً ولأنه لو كان كذلك لقيل : حرم عليهم كل حيوان له حافر وذلك باطل لدلالة الآية على إباحة البقر والغنم مع أنها لها حافر ، فوجب حمل الظفر على المخالب والبراثن لأن المخالب آلات لجوارح الصيد في الاصطياد فيدخل فيه أنواع السباع والكلاب والسنانير والطيور التي تصطاد ويكون هذا مختصاً باليهود لدلالة ﴿ وعلى الذين هادوا ﴾ على الحصر فيختص التحريم باليهود ولا تكون محرمة على المسلمين وما روي من تحريم ذي الناب من السباع وذي المخلب من الطير ضعيف ، لأنه خبر واحد على خلاف كتاب الله فلا يقبل ويقوي مذهب مالك ؛ انتهى ، ملخصاً وفيه منوع .

أحدها : لا نسلم تخصيص ذي الظفر بما قاله .

الثاني : لا نسلم الحصر الذي ادّعاه .

الثالث : لا نسلم الاختصاص .

الرابع : لا نسلم إن خبر الواحد في تحريم ذي الناب وذي المخلب على خلاف كتاب الله

وكل من فسر الظفر بما فسره من ذوي الأقوال السابقة بذاهب إلى تحريم لحم ما فسره وشحمه وكل شيء منه .

وذهب بعض المفسرين إلى أن ذلك على حذف مضاف وليس المحرم ذا الظفر وإنما المراد ما صاده ذو الظفر أي ذو المخلب الذي لم يعلم وهذا خلاف الظاهر .

وقرأ أبي الحسن والأعرج ﴿ ظفر ﴾ بسكون الفاء والحسن أيضاً وأبو السمال قعنب بسكونها وكسر الطاء .

*(128/255)*

---

﴿ ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومها ﴾ أي شحوم الجنسين ويتعلق ﴿ من ﴾ بحرمنا المتأخرة ولا يجب تقدمها على العامل ، فلو كان التركيب وحرمنا عليهم من البقر والغنم شحومها لكان تركيباً غريباً ، كما تقول : من زيد أخذت ماله ويجوز أخذت من زيد ماله ، والإضافة تدل على تأكيد التخصيص والربط إذ لو أتى في الكلام من البقر والغنم حرمنا عليهم الشحوم لكان كافياً في الدلالة على أنه لا يراد إلا شحوم البقر والغنم ، ويحتمل أن يكون ﴿ من البقر والغنم ﴾ معطوفاً على ﴿ كل ذي ظفر ﴾ فيتعلق ﴿ من ﴾ بحرمنا الأولى ثم جاءت الجملة الثانية مفسرة ما أبهم في من التبيعيضة من المحرم فقال : ﴿

حرّمنا عليهم شحومها ﴾ .

وقال أبو البقاء : لا يجوز أن يكون ﴿ من البقر ﴾ متعلقاً بحرمنا الثانية بل ذلك معطوف على كل ﴿ وحرمنا عليهم ﴾ تبيين للمحرّم من البقر والغنم وكأنه يوهم أن عود الضمير مانع من التعلق إذ رتبة المجرور بمن التأخير ، لكن عن ماذا أما عن الفعل فمسلم وأما عن المفعول فغير مسلم وإن سلمنا أن رتبته التأخير عن الفعل والمفعول ليس بممنوع ، بل يجوز ذلك كما جاز ضرب غلام المرأة أبوها وغلام المرأة ضرب أبوها وإن كانت رتبة المفعول التأخير ، لكنه وجب هنا تقديمه لعود الضمير الذي في الفاعل الذي رتبته التقديم عليه فكيف بالمفعول الذي هو والمجرور في رتبة واحدة أعني في كونهما فضلة فلا يبالي فيهما بتقديم أيهما شئت على الآخر .

وقال الشاعر :

وقد ركدت وسط السماء نجومها . . .

فقدّم الظرف وجوباً لعود الضمير الذي اتصل بالفاعل على المجرور بالظرف واختلف في تحريم ذلك على المسلمين من ذبائح اليهود ، فعن مالك منع أكل الشحم من ذبائحهم وروي عنه الكراهة ، وأباح ذلك بعض الناس من ذبائحهم ومن ذبحهم ما هو عليهم حرام إذا أمرهم بذلك مسلم .

وقال ابن حبيب : ما كان معلوماً تحريمه عليهم من كتابنا فلا يحل لنا من ذبائحهم ، وما لم نعلمه إلا من أقوالهم فهو غير محرم علينا من ذبائحهم ؛ انتهى .

فظاهر قوله : ﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ﴾ أن الشحم الذي هو من ذبائحهم لا يحل لنا أنه ليس من طعامهم فلا يدخل تحت عموم ﴿ وطعام الذين ﴾ وحمل قوله : ﴿ وطعام الذين ﴾ على الذبائح فيه بعد وهو خلاف الظاهر .

﴿ إلا ما حملت ظهورهما ﴾ أي إلا الشحم الذي حملته ظهورهما البقر والغنم .

قال ابن عباس : هو مما علق بالظهر من الشحم وبالجنب من داخل بطونهما .

وقيل : سمين الظهر وهي الشرائح التي على الظهر من الشحم فإن ذلك لم يحرم عليهم .

وقال السديّ وأبو صالح : الاليات مما حملت ظهورهما .

﴿ أو الحوايا ﴾ هو معطوف على ﴿ ظهورهما ﴾ قاله الكسائي ، وهو الظاهر أي والشحم الذي حملته ﴿ الحوايا ﴾ .

قال ابن عباس وابن جبير والحسن وقتادة ومجاهد والسدّي وابن زيد : هي المباعر .

وقال علي بن عيسى : هو كل ما تحويه البطن فاجتمع واستدار .

وقال ابن زيد أيضاً : هي بنات اللبن .

وقيل : الأمعاء والمصارين التي عليها الشحم .

﴿ أو ما اختلط بعظم ﴾ هو معطوف على ﴿ ما حملت ظهورهما ﴾ بعظم هو شحم الإلية لأنه على العصعص قاله السدّي وابن جريج ، أو شحم الجنب أو كل شحم في القوائم والجنب والرأس والعينين والأذنين قاله ابن جريج أيضاً ، أو مخ العظم والظاهر أن هذه الثلاثة مستثناة من الشحم فهي حلال لهم .

قيل : بالمحرم أذب شحم الثرب والكلى .

وقيل : أو الحوايا أو ما اختلط بعظم معطوف على قوله ﴿ شحومهما ﴾ فتكون داخلة في المحرم أي حرمنا عليهم شحومهما ﴿ أو الحوايا ﴾ أو ما اختلط بعظم إلا ما حملت ظهورهما وتكون أو كهي في قوله ﴿ ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً ﴾ يراد بها نفي ما يدخل عليه بطريق الانفراد ، كما تقول : هؤلاء أهل أن يعصوا فاعص هذا أو هذا فالمعنى حرم عليهم هذا وهذا .

*(130/255)*

---

قال الزمخشري : وأو بمنزلتها في قولهم : جالس الحسن أو ابن سيرين ؛ انتهى .

وقال النحويون : أو في هذا المثال للإباحة فيجوز له أن يجالسهما معاً وأن يجالس أحدهما ، والأحسن في الآية إذا قلنا إن ذلك معطوف على شحومهما أن تكون أو فية للتفصيل فصل

بها ما حرم عليهم من البقر والغنم .

وقال ابن عطية : وقال بعض الناس ﴿ أو الحوايا ﴾ معطوف على الشحوم .

قال : وعلى هذا يدخل الحوايا في التحريم وهذا قول لا يعضده اللفظ ولا المعنى بل يدفعانه ؛ انتهى .

ولم يبين دفع اللفظ والمعنى لهذا القول .

﴿ ذلك جزيناهم ببغيهم ﴾ قال ابن عطية : ﴿ ذلك ﴾ في موضع رفع وقال الحوفي : ﴿ ذلك ﴾ في موضع رفع على إضمار مبتدإ تقديره الأمر ذلك ، ويجوز أن يكون نصب ب ﴿ جزيناهم ﴾ لأنه يتعدّى إلى مفعولين والتقدير جزيناهم ذلك .

وقال أبو البقاء : ﴿ ذلك ﴾ في موضع نصب ب ﴿ جزيناهم ﴾ لأنه يتعدّى إلى مفعولين والتقدير جزيناهم ذلك .

وقال أبو البقاء : ﴿ ذلك ﴾ في موضع نصب ب ﴿ جزيناهم ﴾ ولم يبين على أيّ شيء انتصب هل على المصدر أو على المفعول بإذ ؟ وقيل : مبتدأ والتقدير جزيناهموه ؛ انتهى ، وهذا ضعيف لضعف زيد ضربت .

وقال الزمخشري : ذلك الجزاء ﴿ جزيناهم ﴾ وهو تحريم الطيبات ؛ انتهى .

وظاهره أنه منتصب انتصاب المصدر ، وزعم ابن مالك أن اسم الإشارة لا ينتصب مشاراً به إلى المصدر إلا واتبع بالمصدر فتقول : قمت هذا القيام وقعدت ذلك العقود ، ولا يجوز

قمت هذا ولا قعدت ذلك ، فعلى هذا لا يصح انتصاب ذلك على أنه إشارة إلى المصدر ، والبغي هنا الظلم .

وقال الحسن : الكفر .

وقال أبو عبد الله الرازي : هو قتلهم الأنبياء بغير حق وأخذهم الربا وأكلهم أموال الناس بالباطل ، ونظيره ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرّمنا ﴾ وهذا يقتضي أن هذا التحريم كان عقوبة لهم على ذنوبهم واستعصائهم على الأنبياء .

*(131/255)*

---

قال القاضي : نفس التحريم لا يكون عقوبة على جرم صدر منهم ، لأن التكليف تعريض للثواب والتعريض للثواب إحسان .

والجواب : أن المنع من الانتفاع يمكن لمن يرى استحقاق الثواب ، ويمكن أن يكون للجرم المتقدم وكل واحد منهما غير مستبعد .

﴿ وإنا لصادقون ﴾ في الإخبار عما ﴿ حرّمنا عليهم ﴾ .

وقال ابن عطية : إخبار يتضمن التعريض بكذبهم في قولهم : ما حرم الله علينا وإنما اقتدينا بإسرائيل فيما حرم على نفسه ، ويتضمن إدحاض قولهم ورده عليهم .

وقال التبريزي : ﴿ وإنا لصادقون ﴾ في اتمام جزائهم في الآخرة الذي سبق الوعيد فيكون التحريم من الجزاء لمعجل لهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم وقال الزمخشري ﴿ وإنا لصادقون ﴾ فيما أوعدنا به العصاة لا نخلفه كما لا نخلف ما وعدناه أهل الطاعة ، فلما عصوا وبغوا ألحقنا بهم الوعيد وأحللنا بهم العقاب ؛ انتهى ، وهو على طريقة الاعتزال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

*(132/255)*

---

وقال القرطبى :

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (146) ﴾

فيه ست مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ﴾ لما ذكر الله عز وجل ما حرّم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم عقّب ذلك بذكر ما حرّم على اليهود ؛ لما في ذلك من تكذيبهم في قولهم : إن الله لم يحرّم علينا شيئاً ، وإنما نحن حرمنا على أنفسنا ما حرّمه

إسرائيل على نفسه .

وقد تقدّم في "البقرة" معنى "هادوا" .

وهذا التحريم على الذين هادوا إنما هو تكليف بَلْوَى وعقوبة .

فأوّل ما ذكر من المحرّمات عليهم كلّ ذي ظُفر .

وقرأ الحسن "ظُفْر" بإسكان الفاء .

وقرأ أبو السِّمَال "ظِفْر" بكسر الظاء وإسكان الفاء .

وأنكر أبو حاتم كسر الظاء وإسكان الفاء ، ولم يذكر هذه القراءة وهي لغة .

"وظِفِر" بكسرهما .

والجمع أظفار وأظفور وأظافير ؛ قاله الجوهريّ .

وزاد النحاس عن الفراء أظافير وأظافرة ؛ قال ابن السِّكِّيت : يقال رجل أظفر بين الظَّفَر إذا كان طويل الأظفار ؛ كما يقال : رجل أشعر للطويل الشعر .

قال مجاهد وقتادة : "ذِي ظُفُرٍ" ما ليس بمنفرج الأصابع من البهائم والطير ؛ مثل الإبل والنَّعام والإِوَزِّ والبَطّ .

وقال ابن زيد : الإبل فقط .

وقال ابن عباس : "ذِي ظُفُرٍ" البعير والنعامة ؛ لأن النعامة ذات ظفر كالإبل .

وقيل : يعني كل ذي مِخلب من الطير وذي حافر من الدواب .

ويسمى الحافر ظفراً استعارة.

وقال الترمِذيّ الحكيم: الحافر ظفر، والمِخلب ظفر؛ إلا أن هذا على قدره، وذاك على قدره وليس ههنا استعارة؛ ألا ترى أن كليهما يُقص ويؤخذ منهما وكلاهما جنس واحد: عَظْمٌ لَيِّن رِخْوٌ.

(133/255)

---

أصله من غذاء ينبت فيُقَصّ مثل ظفر الإنسان، وإنما سمي حافراً لأنه يحفر الأرض بوقعه عليها.

وسُمِّي مِخلَباً لأنه يخلب الطير برؤوس تلك الإبر منها.

وسمِي ظُفْراً لأنه يأخذ الأشياء بظفره، أي يظفر به الآدمي والطير.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ البقر والغنم حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ ﴾ قال قتادة: يعني الثُّرُوب وشحم الكُلْيَتَيْن؛ وقاله السدي.

والثُّرُوب جمع الثَّرْب، وهو الشحم الرقيق الذي يكون على الكَرِش.

قال ابن جريج: حرم عليهم كل شحم غير مختلط بعظم أو على عظم، وأحل لهم شحم الجنب والأَلْية؛ لأنه على العُصْعُص.

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ﴾ "ما" في موضع نصب على الاستثناء "ظُهُورُهُمَا" رفع ب"حَمَلَتْ" .

﴿ أَوِ الحوايآ ﴾ في موضع رفع عطف على الظهور أي أو حملت حوايا هما ، والألف واللام بدل من الإضافة .

وعلى هذا تكون الحوايا من جملة ما أحل .

﴿ أَوْ مَا اختلط بِعَظْمٍ ﴾ "ما" في موضع نصب عطف على "مَا حَمَلَتْ" أيضاً هذا أصح ما قيل فيه .

وهو قول الكسائِي والفراء وأحمد بن يحيى .

والنظر يوجب أن يعطف الشيء على ما يليه ، إلا ألاَّ يصح معناه أو يدل دليل على غير ذلك .

وقيل : إن الإستثناء في التحليل إنما هو ما حملت الظهور خاصّةً ، وقوله : "أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اختلط بِعَظْمٍ" معطوف على المحرم .

والمعنى : حرمت عليهم شحومها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ؛ إلا ما حملت الظهور فإنه غير محرم .

وقد احتج الشافعيّ بهذه الآية في أن من حلف ألاّ يأكل الشحم حِنث بأكل شحم الظهور ؛ لاستثناء الله عز وجل ما على ظهورهما من جملة الشحم .

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ أَوِ الحوايآ ﴾: الحوايا: هي المباعر، عن ابن عباس وغيره.

وهو جمع مَبْعَر، سمي بذلك لاجتماع البَعْر فيه.

وهو الزبل.

وواحد الحوايا حاوياء؛ مثل قاصِعاء وقواصع.

وقيل: حاوية مثل ضاربة وضوارب.

(134/255)

---

وقيل: حَوِيَّة مثل سُفينة وسفائن.

قال أبو عبيدة: الحوايا ما تَحوّى من البطن أي استدار.

وهي مُنْحَوِية أي مستديرة.

وقيل: الحوايا خزائن اللبن، وهو يتصل بالمباعر وهي المصارين.

وقيل: الحَوايا الأمْعاء التي عليها الشحوم.

والحوايا في غير هذا الموضع: كساء يحوّى حول سنام البعير.

قال امرؤ القيس:

جعلْنَ حَوَايَا واقْتَعَدْنَ قعائداً . . .

وخفّفن من حَوْك العِراق المُنَمَّقِ

فأخبر الله سبحانه أنه كتب عليهم تحريم هذا في التوراة ردًّا لكذبهم .

ونصُّه فيها : "حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وكلّ دابّة ليست مشقوقة الحافر وكلّ حوت ليس فيه سفاسق" أي بياض .

ثم نسخ الله ذلك كلّه بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم .

وأباح لهم ما كان محرماً عليهم من الحيوان ، وأزال الحرج بمحمد عليه السلام ، وألزم الخليقة دين الإسلام بحلّه وحِرْمه وأمره ونَهْيه .

الخامسة : لو ذَبحوا أنعامهم فأكلوا ما أحلّ الله لهم في التوراة وتركوا ما حَرّم عليهم فهل يحلّ لنا ؛ قال مالك في كتاب محمد : هي محرّمة .

وقال في سماع المبسوط : هي محللة وبه قال ابن نافع .

وقال ابن القاسم : أكرهه .

وجه الأول أنهم يدينون بتحريمها ولا يقصدونها عند الذكاة ، فكانت محرّمة كالدم .

ووجه الثاني وهو الصحيح أن الله عز وجل رفع ذلك التحريم بالإسلام ، واعتقادهم فيه لا يؤثّر ؛ لأنه اعتقاد فاسد ؛ قاله ابن العربي .

قلت : ويدلّ على صحته ما رواه الصحيحان عن عبد الله بن مُغَفَّل قال : كنا محاصِرين قصر خَيْبَر ، فرمَى إنسان بِجِراب فيه شحم فَنَزَوْتُ لآخذه فالتفتُّ فإذا النبيّ صلى الله

عليه وسلم فاستحيَيْت منه .

لفظ البخاريّ .

ولفظ مسلم .

قال عبد الله بن مُغَفّل : أصبت جِراباً من شحم يومَ خَيْبر ، قال فالتزمته وقلت : لا أعطِي اليوم أحداً من هذا شيئاً ، قال : فالتفتُّ فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم متبَسماً .

*(135/255)*

---

قال علماؤنا : تبسّمه عليه السلام إنما كان لما رأى من شدة حرص ابن مُغَفّل على أخذ الجِراب ومن ضنته به ، ولم يأمره بطرحه ولا نهاه .

وعلى جواز الأكل مذهب أبي حنيفة والشافعيّ وعامة العلماء ؛ غير أن مالكاً كرهه للخلاف فيه .

وحكى ابن المنذر عن مالك تحريمها ؛ وإليه ذهب كبراء أصحاب مالك .

ومُتَمسّكهم ما تقدم ، والحديثُ حجةٌ عليهم ؛ فلو ذبحوا كلّ ذي ظفر قال أصْبَغ : ما كان محرماً في كتاب الله من ذبائحهم فلا يحلّ أكله ؛ لأنهم يدينون بتحريمها .

وقاله أشهب وابن القاسم ، وأجازه ابن وهب .

وقال ابن حبيب : ما كان محرّماً عليهم ، وعلمنا ذلك من كتابنا فلا يحلّ لنا من ذبائحهم ، وما لم نعلم تحريمه إلا من أقوالهم واجتهادهم فهو غير محرم علينا من ذبائحهم .

السادسة : قوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ أي ذلك التحريم .

فذلك في موضع رفع ، أي الأمر ذلك .

﴿ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ ﴾ أي بظلمهم ، عقوبة لهم لقتلهم الأنبياء وصدّهم عن سبيل الله ، وأخذهم الربا واستحلالهم أموال الناس بالباطل .

وفي هذا دليل على أن التحريم إنما يكون بذنب ؛ لأنه ضيق فلا يُعْدَل عن السَّعة إليه إلا عند المؤاخذة .

﴿ وإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ في إخبارنا عن هؤلا اليهود عما حرّمنا عليهم من اللحوم والشحوم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

*(136/255)*

---

وقال أبو السعود :

﴿ وَعَلَى الذين هَادُواْ ﴾ خاصة لا على مَنْ عداهم من الأولين والآخِرين ﴿ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ أي كلَّ ما له أصبَعٌ من الإبل والسباعِ والطيورِ وقيل : كلَّ ذي مِخْلبٍ وحافرٍ ،

وسُمّيَ الحافرُ ظفُراً مجازاً والمسبَّبُ عن الظلم هو تعميمُ التحريمِ حيث كان بعضُ ذواتِ الظفرِ حلالاً لهم فلما ظلموا عم التحريمُ كلَّها وهذا تحقيقٌ لما سلف من حصر المحرَّماتِ فيما فُصِّل بإبطال ما يخالِفُه من فرية اليهودِ وتكذيبِهم في ذلك فإنهم كانوا يقولون : لسنا أولَ من حرُمت عليه وإنما كانت محرمةً على نوح وإبراهيمَ ومَنْ بعدَهما حتى انتهى الأمر إلينا .

﴿ وَمِنَ البقر والغنم حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا ﴾ لا لحومَهما فإنها باقيةٌ على الحل ، والشحومُ الثروبُ وشحومُ الكلى والإضافةُ لزيادة الربطِ ﴿ إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ﴾ استثناءٌ من الشحوم مُخرِّجٌ لما عِلق من الشحم بظهورهما عن حكم التحريم .

*(137/255)*

---

﴿ أَوِ الحوايا ﴾ عطفٌ على ظهورهما أي ما حملته الحوايا وهي جمعُ حاوية أو حاوِياء كقاصِعاء وقواصِعَ أو حَواية كسفينة وسفائن ﴿ أَوْ مَا اختلط بِعَظْمٍ ﴾ عطف على ما حَمَلَتْ وهو شحمُ الأَلْيةِ واختلاطُه بالعظم اتصالُه بعُجْب الذنب ، وقيل : هو كلُّ شحمٍ متصلٍ بالعظم من الأضلاع وغيرِها ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الجزاء أو التحريم ، فهو على الأول نُصب على أنه مصدرٌ مؤكدٌ لما بعده وعلى الثاني على أنه مفعولٌ ثانٍ له أي ذلك التحريمُ ﴿ جزيناهم بِبَغْيِهِمْ ﴾ بسبب ظلمِهم وهو قتلُهم الأنبياءَ بغير حق وأكلُهم الربا

وقد نُهوا عنه وأكلُهم أموالَ الناس بالباطل ، كقوله تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طيبات أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ وكانوا كلما أتَوْا بمعصية عُوقبوا بتحريم شيءٍ مما أحل لهم وهم ينكرون ذلك ويدّعون أنها لم تزَلْ محرمةً على الأمم ، فرُدَّ ذلك عليهم وأُكّد بقوله تعالى : ﴿ وإِنَّا لصادقون ﴾ أي في جميع أخبارِنا التي من جملتها هذا الخبرُ ، ولقد ألقمهم الحجرَ قوله تعالى : ﴿ كُلُّ الطعام كَانَ حِلاًّ لِّبَنِى إسراءيل إِلاَّ مَا حَرَّمَ إسراءيل على نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التوراة قُلْ فَأْتُواْ ﴾ روي أنه صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك بُهتوا ولم يجسُروا أن يُخرِجوا التوراة ، كيف وقد بُيِّن فيها جميعُ ما يحذرون أوضحَ بيان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

*(138/255)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ وَعَلَى الذين هَادُواْ ﴾

أي اليهود خاصة لا على من عداهم من الأولين والآخرين ﴿ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ أي ما ليس منفرج الأصابع كالإبل والنعام والأوز والبط قاله ابن عباس وابن جبير وقتادة ومجاهد والسدي ، وعن ابن زيد أنه الإبل فقط ، وقال الجبائي : يدخل فيه كل السباع

والكلام والسنانير وما يصطاد بظفره ، وعن القتبي والبلخي أنه ذو المخلب من الطير وذو الحافر من الدواب وسمي الحافر ظفراً مجازاً .

واستبعد ذلك الإمام ، ولعل المسبب عن الظلم هو تعميم التحريم لأن البعض كان حراماً قبله .

ويحتمل أن يراد كل ذي ظفر حلال بقرينة ﴿ حَرَّمْنَا ﴾ وهذا كما قيل تحقيق لما سلف من حصر المحرمات فيما فصل بإبطال ما يخالفه من فرية اليهود وتكذيبهم في ذلك فإنهم كانوا يقولون : لسنا أول من حرمت عليه وإنما كانت محرمة على نوح وإبراهيم ومن بعدهما عليهما السلام حتى انتهى التحريم إلينا ، وقال بعض المحققين : إن ذلك تتميم لما قبله لأن فيه رفع أنه تعالى حرم على اليهود جميع هذه الأمور فكذلك حرم البحيرة والسائبة ونحوهما بأن ذلك كان على اليهود خاصة غضباً عليهم .

وقرأ الحسن ﴿ ظُفُرٍ ﴾ بكسر الظاء وسكون الفاء .

وقرأ أبو السماك بكسرهما .

وقرىء كما قال أبو البقاء ﴿ ظُفُرٍ ﴾ بضم الظاء وسكون الفاء .

﴿ وَمِنَ البقر والغنم حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا ﴾ لا لحومهما فإنها باقية على الحل ، والمراد بالشحوم ما يكون على الأمعاء والكرش من الشحم الرقيق وشحوم الكلى ، وقيل : هو عام استثني منه ما سيأتي .

و﴿ مِنْ البقر ﴾ متعلق بحرمنا بعده وكان يكفي حينئذ أن يقال : الشحوم لكنه أضيف لزيادة الربط والتأكيد كما يقال : أخذت من زيد ماله وهو متعارف في كلامهم ، وجوز أبو البقاء وظاهر صنيعه اختياره مع أنه خلاف الظاهر أن ﴿ مِنْ البقر ﴾ عطف على ﴿ كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ على معنى وبعض البقر وجعل ﴿ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا ﴾ تبييناً للمحرم من ذلك وحينئذ الإضافة للربط المحتاج إليه .

﴿ إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ﴾ أي ما علق بظهورهما .

والاستثناء منقطع أو متصل من الشحوم .

وإلى الانقطاع ذهب الإمام الأعظم رضي الله تعالى عنه فقد نقل عنه لو حلف لا يأكل شحماً يحنث بشحم البطن فقط .

وخالفه في ذلك صاحباه فقالا يحنث بشحم الظهر أيضاً لأنه شحم وفيه خاصية الذوب بالنار .

وأيد ذلك بهذا الاستثناء بناء على أن الأصل فيه الاتصال .

*(139/255)*

وللإمام رضي الله تعالى عنه أنه لحم حقيقة لأنه ينشأ من الدم ويستعمل كاللحم في اتخاذ الطعام والقلايا ويؤكل كاللحم ولا يفعل ذلك بالشحم ولهذا يحنث بأكله لو حلف لا يأكل لحماً وبائعه يسمى لحاماً لا شحاماً .

والاتصال وإن كان أصلاً في الاستثناء إلا أن هنا ما يدل على الانقطاع وهو قوله تعالى : ﴿ أَوِ الحوايا ﴾ فإنه عطف على المستثنى وليس بشحم بل هو بمعنى المباعر كما روي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما أن المرابض وهي نبات اللبن كما روي عن ابن زيد أو المصارين والإمعاء كما قال غير واحد من أهل اللغة .

وللقائل بالاتصال أن يقول : العطف على تقدير مضاف أي شحوم الحوايا أو يؤول ذلك بما حمله الحوايا من شحم على أنه يجوز أن يفسر الحوايا بما اشتملت عليه الأمعاء لأنه من حواه بمعنى اشتمل عليه فيطلق على الشحم الملتف على الأمعاء .

وجوز غير واحد أن يكون العطف على ﴿ ظُهُورُهُمَا ﴾ وأن يكون على ﴿ شُحُومَهُمَا ﴾ وحينئذ يكون ما ذكر محرماً وإليه ذهب بعض السلف .

وهو يعطف قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا اختلط بِعَظْمٍ ﴾ وهو شحم الألية لاتصالها بالعصعص ، وقيل : هو المخ ولا يقول أحد أنه شحم عليه ويقول بتحريمه أيضاً .

والحوايا قيل جمع حاوية كزاوية وزوايا ووزنه فواعل وأصله حواوي فقلبت الواو التي هي عين الكلمة همزة لأنها ثاني حرفي لين اكتنفا مدة مفاعل ثم قلبت الهمزة المكسورة ياء ثم

فتحت لثقل الكسرة على الياء فقلبت الياء الأخيرة ألفاً لتحركها بعد فتحة فصارت حوايا أو قلبت الواو همزة مفتوحة ثم الياء الأخيرة ألفاً ثم الهمزة ياء لوقوعها بين ألفين كما فعل بخطايا ؛ وقيل : جمع حاوياء كقاصعاء وقواصع ووزنه فواعل أيضاً وإعلاله كما علمت ، وقيل : جمع حوية كظريفة وظرائف ووزنه فعائل وأصل حوائي فقلبت الهمزة ياء مفتوحة والياء التي هي لام ألفاً فصار حوايا .

وجوز الفارسي أن يكون جمعاً لكل واحد من هذه الثلاثة وقد سمع في مفرده أيضاً .

*(140/255)*

---

و ﴿ أَوْ ﴾ بمعنى الواو .

وقال أبو البقاء لتفصيل مذاهبهم نظيرها في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نصارى ﴾ [ البقرة : 135 ] وقال الزجاج : هي فيما إذا كان العطف على الشحوم للإباحة كما في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ ءاثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ [ الإنسان : 24 ] أي كل هؤلاء أهل أن يعصى فاعص هذا أو اعص هذا .

و ﴿ أَوْ ﴾ بليغة في هذا المعنى لأنك إذا قلت : لا تطع زيداً وعمراً فجائز أن تكون نهيت عن طاعتهما معاً فإن أطيع زيد على حدته لم يكن معصية فإذا قلت : لا تطع زيداً أو عمراً

أو خالداً كان المعنى هؤلاء كلهم أهل أن لا يطاع فلا تطع واحداً منهم ولا تطع الجماعة ، ومنه جالس الحسن أو ابن سيرين أو الشعبي فليس المعنى الأمر بمجالسة واحد منهم بل المعنى كلهم أهل أن يجالس فإن جالست واحداً منهم فأنت مصيب وإن جالست الجماعة فأنت مصيب .

واختاره العلامة الثاني وقال : الوجه أن يقال إن كلمة ﴿ أَوْ ﴾ في العطف على المستثنى من قبيل جالس الحسن أو ابن سيرين كما في العطف على المستثنى منه يعني أنها لإفادة التساوي في الكل فيحرم الكل .

وتحقيقه أن مرجع التحريم إلى النهي كأنه قيل لا تأكلوا أحد الثلاثة وهو معنى العموم ، وهذا مراد الزمخشري فيما نقل عنه من أن الجملة لما دخلت في حكم التحريم فوجه العطف بحرف التخيير أنها بليغة بهذا المعنى ثم قال : وبهذا يتبين فساد ما يتوهم أنه يريد أنه على تقدير العطف على المستثنى منه يكون المعنى حرمنا عليهم شحومهما أو حرمنا عليهم الحوايا أو حرمنا عليهم ما اختلط بعظم فيجوز لهم ترك أيها كان وأكل الآخرين وادعى أن الظاهر أن مثل هذا وإن كان جائزاً فليس من الشرع أن يحرم أو يحلل واحد مبهم من أمور معينة وإنما ذلك في الواجب فقط .

(141/255)

وهذه الدعوى من العجب فإن الحرام المخير والمباح المخير مما صرح به الفقهاء وأهل الأصول قاطبة ويحتاج الأمر إلى إمعان نظر فليمعن ، وذكر الطيبي في حاصل كلام بعض المحققين في ﴿ أَوْ ﴾ هنا أنك إذا عطفت على الشحوم دخلت الثلاثة تحت حكم النفي فيحرم الكل سوى ما استثنى منه وإذا عطفت على المستثنى لم يحرم سوى الشحوم و ﴿ أَوْ ﴾ على الوجه الأول للإباحة وعلى الثاني للتنويع .

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى الجزاء أو التحريم فهو على الأول : نصب على أنه مصدر مؤكد لما بعده .

وعلى الثاني : على أنه مفعول ثان له أي ذلك التحريم ﴿ جزيناهم ﴾ وجزى يتعدى بالباء وبنفسه كما ذكره الراغب وغيره .

وما نقل عن ابن مالك أن اسم الإشارة لا ينتصب مشاراً به إلى المصدر إلا ويتبع بالمصدر نحو قمت هذا القيام وقعدت ذلك القعود ولا يجوز قمت هذا ولا قعدت ذاك رده أبو حيان والحلبي وصححا ورود اسم الإشارة مشاراً به إلى المصدر غير متبوع به .

وجوز كون ذلك خبر مبتدأ مقدر أي الأمر ذلك أو مبتدأ خبره ما بعده والعائد محذوف أي جزيناهم إياه ﴿ بِبَغْيِهِمْ ﴾ أي بسبب ظلمهم وهو قتلهم الأنبياء بغير حق وأكلهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل .

وكانوا كلما أتوا بمعصية عوقبوا بتحريم شيء مما أحل لهم وهم ينكرون ذلك ويدعون أنها لم تزل محرمة على الأمم .

وقيل : المراد ببغيهم على فقرائهم بناء على ما نقل علي بن إبراهيم في "تفسيره" أن ملوك بني إسرائيل كانوا يمنعون فقراءهم من أكل لحوم الطير والشحوم فحرم الله تعالى عليهم ذلك بسبب هذا المنع وهو تابع للمصلحة أيضاً ولا بعد في أن يكون المنع من الانتفاع لمزيد استحقاق الثواب وأن يكون لجرم متقدم .

﴿ وإِنَّا لصادقون ﴾ في جميع أخبارنا التي من جملتها الأخبار بالتحريم وبالبغي .

وعد منها واقتصر عليه بعضهم الوعد والوعيد .

*(142/255)*

---

وقوى الإمام بهذه الآية "ما ذهب إليه الإمام مالك وكثير من السلف وهو القول بما يقتضيه ظاهر الآية السابقة من حل ما عدا الأربعة المذكورة فيها وذلك أنه أوجب حمل الظفر على المخلب لبعد حمله على الحافر لوجهين ، الأول : أن الحافر لا يكاد يسمى ظفراً .

والثاني : أن الأمر لو كان كذلك لوجب أن يقال : إنه تعالى حرم عليهم كل حيوان له حافر وهو باطل لأن الآية تدل على أن الغنم والبقر مباحان لهم مع حصول الحافر لهم وإذاً وجب

حمله على المخلب .

والآية تفيد تخصيص هذه الحرمة باليهود كما أشرنا إليه من وجهين ، الأول : إفادة التركيب الحصر لغة ، والثاني : أنها لو كانت ثابتة في حق الكل لم يبق للاقتصار على ذكرهم فائدة ووجب أن لا تكون السباع وذوات المخلب من الطير محرمة على المسلمين بل يكون تحريمها مختصاً باليهود وحينئذ فما روي أنه صلى الله عليه وسلم حرم كل ذي ناب من السباع وذي مخلب من الطير ضعيف لأنه خبر واحد على خلاف كتاب الله تعالى فلا يكون مقبولاً" فيتقرر قول الجماعة السابق وفيه نظر لا يخفى فتدبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

جملة : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا ﴾ عَطْف على جملة : ﴿ قُل ﴾ [ الأنعام : 145 ] عطفَ خبر على إنشاء ، أي بيِّن لهم ما حرّم في الإسلام ، واذكُرْ لهم ما حرّمنا على الّذين هادوا قبل الإسلام ، والمناسبة أنّ الله لمّا أمر نبيّه عليه الصلاة والسلام أن يبيّن ما حَرّم الله أكله من الحيوان ، وكان في خلال ذلك تنبيه على أنّ ما حرّمه الله خبيث بعضُه لا يصلح أكله بالأجساد الّذي قال فيه ﴿ فإنه رجس ﴾ [ الأنعام : 145 ] ، ومنه ما لا يلاقي واجب شكر الخالق وهو الّذي قال فيه : ﴿ أو فِسقاً أهل لغير الله به ﴾ [ الأنعام : 145

] أعقب ذلك بذكر ما حرّمه على بني إسرائيل تحريماً خاصّاً لحكمة خاصّة بأحوالهم ، وموقَّتة إلى مجيء الشّريعة الخاتمة .

(143/255)

---

والمقصود من ذكر هذا الأخير : أن يظهر للمشركين أنّ ما حرّموه ليس من تشريع الله في الحال ولا فيما مضى ، فهو ضلال بحت .

وتقديم المجرور على متعلَّقة في قوله : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا ﴾ لإفادة الاختصاص ، أي عليهم لا على غيرهم من الأمم .

والظفر : العظم الذي تحت الجلد في منتهى أصابع الإنسان والحيوان والمخالب ، وهو يقابل الحافر والظلف ويكون للإبل والسّبع والكلب والهرّ والأرنب والوبْر ونحوها ؛ فهذه محرّمة على اليهود بنص شريعة موسى عليه السّلام ففي الإصحاح الرابع عشر من سفر التّثنية : "الجمل والأرنب والوَبْر فلا تأكلوها" .

والشّحوم : جمع شحم ، وهو المادّة الدُهنية التي تكون مع اللّحم في جسد الحيوان ، وقد أباح الله لليهود أكل لحوم البقر والغنم وحرم عليهم شحومهما إلاّ ما كان في الظهر .

و﴿ الحوايا ﴾ معطوف على ﴿ ظهورهما ﴾ .

فالمقصود العطف على المباح لا على المحرّم ، أي : أو ما حملت الحوايا ، وهي جمع حَوِيَّة ، وهي الأكياس الشَّحميّة التي تحوي الأمعاء .

﴿ أو ما اختلط بعظم ﴾ هو الشّحم الذي يكون ملتفّاً على عَظْم الحيوان من السِّمَن فهو معفو عنه لعسر تجريده عن عظمه .

والظّاهر أنّ هذه الشّحوم كانت محرّمة عليهم بشريعة موسى عليه السّلام ، فهي غير المحرّمات التي أجملتها آية سورة النّساء ( 160 ) بقوله تعالى : ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيّبات أحلّت لهم ، كما أشرنا إليه هنالك لأنّ الجرائم التي عدّت عليهم هنالك كلّها ممّا أحدثوه بعد موسى عليه السّلام .

فقوله تعالى : ذلك جزيناهم ببغيهم ﴾ يراد منه البغي الذي أحدثوه زمن موسى .

في مدّة التيه ، ممّا أخبر الله به عنهم : مثل قولهم : ﴿ لن نصبرَ على طعام واحد ﴾ [ البقرة : 61 ] وقولهم : ﴿ فاذْهَب أنت وربّك فقاتلا ﴾ [ المائدة : 24 ] وعبادتِهم العِجْل .

وقد عدّ عليهم كثير من ذلك في سورة البقرة .

*(144/255)*

ومناسبة تحريم هذه المحرّمات للكون جزاءً لبغيهم : أنّ بغيهم نشأ عن صلابة نفوسهم وتغلّب القوّة الحيوانيّة فيهم على القوّة المَلكيّة ، فلعلّ الله حرّم عليهم هذه الأمور تخفيفاً من صلابتهم ، وفي ذلك إظهار منّته على المسلمين بإباحة جميع الحيوان لهم إلاّ ما حرّمه القرآن وحرّمته السنّة ممّا لم يختلف فيه العلماء وما اختلفوا فيه .

ولم يذكر الله تحريم لحم الخنزير ، مع أنّه ممّا شمله نصّ التّوراة ، لأنّه إنّما ذكر هنا ما خُصّوا بتحريمه ممّا لم يحرّم في الإسلام ، أي ما كان تحريمه موقّتاً .

وتقديم المجرور على عامله في قوله : ﴿ ومن البقر والغنم حرمنا عليهم ﴾ للاهتمام ببيان ذلك ، لأنّه ممّا يلتفت الذّهن إليه عند سماع تحريم كلّ ذي ظُفُر فيترقّب الحكم بالنّسبة إليهما فتقديم المجرور بمنزلة الافتتاح بـ ( أمّا ) .

وجملة : ﴿ ذلك جزيناهم ببغيهم ﴾ تذييل يبيّن علّة تحريم ما حرّم عليهم .

واسم الإشارة في قوله : ﴿ ذلك جزيناهم ﴾ مقصود به التّحريم المأخوذ من قوله : ﴿ حرمنا ﴾ فهو في موضع مفعول ثان : ل ﴿ جزيناهم ﴾ قدّم على عامله ومفعوله الأوّل للاهتمام به والتّثبيت على أنّ التّحريم جزاء لبغيهم .

وجملة : ﴿ وإنا لصادقون ﴾ تذييل للجملة التي قبلها قصداً لتحقيق أنّ الله حرّم عليهم ذلك ، وإبطالاً لقولهم : إنّ الله لم يحرّم علينا شيئاً وإنّما حرّمنا ذلك على أنفسنا اقتداء بيعقوب فيما حرّمه على نفسه لأنّ اليهود لمّا انتبزوا بتحريم الله عليهم ما أحلّه لغيرهم مع

أنَّهم يزعمون أنَّهم المقرّبون عند الله دون جميع الأمم ، أنكروا أن يكون الله حرّم عليهم ذلك وأنَّه عقوبة لهم فكانوا يزعمون أنّ تلك المحرّمات كان حرّمها يعقوب على نفسه نذراً لله فاتَّبعه أبناؤه اقتداء به .

وليس قولهم بحقّ : لأنّ يعقوب إنَّما حرّم على نفسه لحوم الإبل وألبانها ، كما ذكره المفسّرون وأشار إليه قوله تعالى : ﴿ كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزّل التوراة ﴾ في سورة آل عمران ( 93 ) .

وتحريم ذلك على نفسه لنذر أو مصلحة بدنية لا يسرى إلى من عداه من ذرّيته .

وأنّ هذه الأشياء التي ذكر الله تحريمها على بني إسرائيل مذكور تحريمها في التّوراة فكيف ينكرون تحريمها .

فالتّأكيد للردّ على اليهود ونظيرُ قوله هنا : ﴿ وإنَّا لصادقون ﴾ قولُه في سورة آل عمران ( 93 ) .

عقب قوله : ﴿ كلّ الطعام كان حلا لبني إسرائيل .

قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين إلى قوله : ﴿ قل صدق الله ﴾ [ آل عمران : 93 95 ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ﴾

هنا يأتي الحق بالتحريم الثاني ، وهو التحريم للتهذيب والتأديب ، مثلما قال من قبل : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ . . . ﴾ [ النساء : 160 ]

ف " الظُفُر " هو ما يظهر عندما ننظر إلى أقدام بعض الحيوانات أو الطيور ، فهناك حيوانات نجد تشقق إصبعها ظاهراً والأصابع مفصلة ومنفرجة بعضها عن بعض ، فهذه ليست حراما عليهم ، ونوع آخر نجد أصابعها غير مفصولة وغير منفرجة مثل الإبل ، والنعام ، والبط ، والأوز وهي ذو الظفر . فكل ذي ظُفُر حرم على اليهود ، وقد حرم عليهم لا لخبث وضرر في المأكول ، ولكن تأديبا لهم لأنهم ظلموا في أخذ غير حقوقهم ؛ لذلك يحرمهم الله من بعض ما كان حلالا لهم ؛ فالأب يعاقب ابنه الذي أخذ حاجة أخيه اعتداء ؛ فيمنع عنه المصروف ، والمصروف في ذاته ليس حراماً ، ولكن المنع هنا للتأديب . والحق هو القائل : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ الله كَثِيراً * وَأَخْذِهِمُ الربا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ الناس بالباطل . . . ﴾ [ النساء : 160-161 ]

ولأنهم فعلوا كل ذلك يأتي لهم التحريم عقاباً وتأديباً ﴿ وَعَلَى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي

ظُفُرٍ وَمِنَ البقر والغنم حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الحوايا أَوْ مَا اختلط بِعَظْمٍ ذلك جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ [ الأنعام : 146 ]

(146/255)

---

وأنت حينما تذبح الذبيحة تجد بعضاً من الدهن على الكلى ، ونجد في داخلها ما يسمونه " منديل الدهن " وكذلك " ألية الخروف " ، وحين تقطع الرأس تجد فيها نوعاً من الدهون ، وقد حرّم الحق عليهم في البقر والغنم شحومهما . وكذلك ﴿ كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ﴾ محرم كله . وهناك استثناء في البقر والغنم هو : ﴿ إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الحوايا ﴾ .

أي أحل لهم ما هو فوق الظهر من الشحم ، وأحل لهم ما حملته الحوايا من الشحوم و" الحوايا " جمع حوية أو حاوية أو حاوياء أو حاويا ء وهي ما تحوّي من الأمعاء أي تجمع واستدار ، وفي الريف تقول المرأة عن قطعة القماش التي تبرمها وتلفها وتصنع منها دائرة مستديرة تضعها على رأسها لتحميه عندما تحمل فوقه الأشياء ؛ تقول : صنعت " حواية " والحواية هنا هي الأمعاء الغليظة ، وطولها كذا متر ، ومن حكمة تكوينها الربانية نجدها تلتف على بعضها ، ولذلك اسمها " الحوايا " ، وهي ما نسميه " الممبار " . وكذلك حلل لهم ما اختلط بعظم في القوائم والجنب والرأس والعين ، وكذلك أحل لهم شحما اختلط بعظم منه

الأَلية ، لأن الأَلية تمسك بعَجْب الذنب . أي أصله ، وهو الجُزْء في أصل الذّنب عند رأس العُصْعُص . ولأنه رحيم فهو ينزل عقوبة فيها الرحمة فيبيح له شيئًا ويحرم شيئًا آخر .

ويذيل الحق الآية بقوله : ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ .

(147/255)

---

وليس هذا التحريم تعدِّيًا عليهم ، أو تعنتاً في معاملتهم ، بل لأنهم بَغَوْا ، والباغي يجب أن يأخذ حظه من الجزاء ؛ حتى يفكر ماذا يحقق له البغي من النفع ، وماذا يمنع عنه من النفع أيضاً ، وحين يقارن بين الاثنين قد يعدل عن بغيه ، وهم قد صدّوا عن سبيل الله ، وأخذوا ربا لينمّوا أموالهم وأكلوا أموال الناس بالباطل ، لذلك حرّم عليهم الحق بعض الحلال .

وسبحانه صادق في كل بلاغ عنه ، ونعرف بذلك أن علة التحريم لبعض الحلال كانت بسبب ظلمهم وما بدر منهم من المعاصي فكان التحريم عقوبة لهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(148/255)

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (146) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ﴾ قال : هو الذي ليس بمنفرج الأصابع ، يعني ليس بمشقوق الأصابع منها الإبل والنعام .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عباس ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ﴾ قال : هو البعير والنعامة .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ حرمنا كل ذي ظفر ﴾ قال : كان يقول : هو البعير والنعامة في أشياء من الطير والحيتان .

وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد ﴿ حرمنا كل ذي ظفر ﴾ قال : كل شيء لم تفرج قوائمه من البهائم ، وما انفرج أكلته اليهود . قال : أنفذت قوائم الدجاج والعصافير فيهود تأكله ، ولم تفرج قائمة البعير خفه ، ولا خف النعامة ، ولا قائمة الورينة ، فلا تأكل اليهود الإبل ولا النعام ولا الورينة ، ولا كل شيء لم تفرج قائمته ، كذلك ولا تأكل حمار الوحش .

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ﴾ قال :

الديك منه .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن جريج ﴿ حرمنا كل ذي ظفر ﴾ قال : كل شيء لم تفرج قوائمه من البهائم ، وما انفرجت قوائمه أكلوه ، ولا يأكلون البعير ، ولا النعامه ، ولا البط ، ولا الوزر ، ولا حمار الوحش .

أخرج البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن مردويه عن جابر بن عبد الله " سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قال : قاتل الله اليهود ، لما حرم عليهم شحومها جملوه ثم باعوه فأكلوها " .

*(149/255)*

---

وأخرج ابن مردويه عن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لعن الله اليهود ، حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها " .

وأخرج البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة وابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لعن الله اليهود ، حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " قاتل الله

اليهود ، حرم الله عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها " .

وأخرج أبو داود وابن مردويه عن ابن عباس " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لعن الله اليهود ثلاثاً ، إن الله حرم عليهم الشحوم ثلاثاً ، إن الله حرم عليهم الشحوم ، فباعوها وأكلوا أثمانها ، وإن الله لم يحرم على قوم أكل شيء إلا حرم عليهم ثمنه " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله ﴿ ومن الإِبل والبقر حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما ﴾ يعني ما علق بالظهر من الشحم ﴿ أو الحوايا ﴾ هو المبعر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما ﴾ قال : حرم الله عليهم الثرب وشحم الكليتين .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : إنما حرم عليهم الثرب ، وشحم الكلية ، وكل شحم كان ليس في عظم .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي صالح في قوله ﴿ إلا ما حملت ظهورهما ﴾ قال : الإِلية ﴿ أو الحوايا ﴾ قال : المبعر ﴿ أو ما اختلط بعظم ﴾ قال : الشحم .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ أو الحوايا ﴾ قال : المباعر .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله ﴿ أو الحوايا ﴾ قال : المرابض والمباعر ﴿ أو ما اختلط بعظم ﴾ قال : ما ألزق بالعظم .

(150/255)

---

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : الحوايا المرابض التي تكون فيها الامعاء تكون وسطها وهي بنات اللبن ، وهي في كلام العرب تدعى : المرابض .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ أو ما اختلط بعظم ﴾ قال : الإِلية اختلط شحم الالية بالعصعص فهو حلال ، وكل شحم القوائم والجنب والرأس والعين والإذن ، يقولون ، قد اختلط ذلك بعظم فهو حلال لهم ، إنما حرم عليهم الثرب وشحم الكلية ، وكل شيء كان كذلك ليس في عظم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ ذلك جزيناهم ببغيهم ﴾ قال : إنما حرم الله ذلك عليهم عقوبة ببغيهم ، فشدد عليهم بذلك وما هو بخبيث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(151/255)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " وَعَلى الَّذين هَادُوا " متعلَّق بـ " حَرَّمْنَا " وقد يُفيد الاخْتِصاص عند بعضهم ؛ كالزَّمْخَشَري والرَّازي ، وقد صرّح به الرَّازي هنا ، أعني : تَقْديم المَعْمُول على عَامِلِهِ .

وفي " ظفُر " خمس لغات :

أعلاها : " ظُفُر " بضم الظَّاءِ والفَاءِ ، وهي قرءاة العامَّة .

و " ظُفْر " بسكون العين ، وهي تَخْفِيف لمَضْمُومِها ، وبها قرأ الحسن في رواية وأبيُّ بن كَعْب والأعْرَج .

و " ظِفِر " بكسرا لظَّاء والفاء ، ونسبها الوَاحِدي قراءة لأبي السَّمال .

و " ظِفْر " تكسر الظَّاء وسكون الفَاء ، وهي تَخْفيفٌ لمكْسُورها ، ونسبها النَّاس للحسن أيضاً قراءة واللغة الخامسة : " أظْفُور " ولم يُقْرأ بها فيما عَلِمْنَا ؛ وأ ، شدوا على ذلك قول الشاعر : [ البسيط ]

2372 - مَا بَيْنَ لُقْمِتِهَا الأولَى إذَا انْحَدَرَتْ . . .

وبَيْنَ أُخْرَى تَلِيها قِيدُ أظْفُورِ

وجمع الثُّلاثي : أظْفَار ، وجمع أظْفُور : أظافير وهو القياس وأظافِر من غير مَدّ ، وليس بِقياس ؛ وهذا كقوله : [ الزجر ]

(152/255)

---

2373 - العَيْيَيْنِ والعَوَاوِر . . .

وقد تقدَّم تَحْقِيق ذلك في قوله : ﴿ مَفَاتِحُ الغيب ﴾ [ الأنعام : 59 ] .

قوله : " وَمَنَ البَقَرِ " فيه وجهان :

أحدهما : أنه مَعْطُوف على " كُلِّ ذي " فتتعلَّق " مِنْ " بـ " حَرَّمْنَا " الأولى لا الثانية ، وإنَّما جيء بالجُمْلَة الثانية مُفسِّرة لما أُبهم في " مِنْ " التَّبْعيضيَّة من المُحَرَّم ؛ فقال : " حَرَّمْنَا عَلَيْهم شُحُومَهُمَا " .

والثاني : أن يتعلَّق بـ " حَرَّمْنَا " المُتَأَخِّرة ، والتقدير : وحرَّمْنا على الذين هَادُوا من البَقَر والغَنَم وشُحُومَهُمَا ، فلا يَجب هنا تَقْديم المجرُور بها على الفِعْل ؛ فيقال : حَرَّمْنا عليهم شُحُومَهما من البَقَر والغَنَم ؛ لئلا يَعُود الضَّمِير على متأخِّر لفظاً ورُتْبَة .

وقال أبو البقاء : " ولا يجوز أن يكُون " مِنْ البَقَرِ " متعلّقاً بـ " حَرَّمْنَا الثانية " .

قال أبو حيَّان : " وكأنه قد توهَّم أن عَوْد الضَّمير مانِعٌ من التعَلُّق ؛ إذ رُتْبَة المجرُور بـ " مِن "

التَّأخِير ، لكن عن ماذا ؛ أما عن الفعل فَمُسَلَّم ، وأما عن المَفْعُول فغير مُسَلَّم " يعني : أنه إن أراد أنَّ رُتْبَة قوله : " مِنَ البَقَر " التأخير عن شُحُومَهُمَا ن فيصير التقدير : حرمنا عليهم شُحُومَهُما من البقر ؛ فغير مُسَلَّم ، ثم قال أبو حيَّان : " وإن سَلَّمْنا أن رُتْبَته التَّأخير عن الفِعْل والمفعُول ، فليس بِمَمْنُوع ، بل يَجُوز ذلك كما جَازَ : " ضربَ غُلامَ المْرأة أُبوهَا " و" غُلامَ المرأة ضَرَبَ أبوها " ، وإن كانت رُتْبَة المفْعُول التَّأخير ، لكنه وَجَبَ هنا تَقْدِيمُه ؛ لعود الضَّمِير الذي في الفاعل الذي رُتْبَتُه التَّقْديم عليه ، فكيف بالمَفْعُول الذي هُو والمَجْرُور في رُتْبَةٍ واحِدَةٍ ؟ أعني في كَوْنَها فَضْلَه ، فلا يبالي فيهما بتَقْدِيم أيُّها شِئْت على الآخَر ؛ قال الشاعر : [ الطويل ]

2374 - . . . . . .

*(153/255)*

---

وَقَدْ رَكَدَتْ وَسَطَ السَّماءِ نُجُومُهَا

فقدَّم الظَّرْف وجوباً ؛ لعود الضَّمير الذي اتَّصل بالفَاعِل على المجْرُور بالظَّرْف " .

قال شهاب الدِّين : " لقائل أن يقُول : لا نُسَلِّم أن أبَا البقاء إنما مَنَع لما ذكرت ، حتى يُلْزَم بما أَلْزَمْتَه ، بل قَدْ يَكُون منعه لأمر مَعْنَوِيّ " .

والإضافة في قوله : " شُحُومَهُما " تُفِيد الدَّلالة على تأكيد التَّخْصيص والرَّبْط ، إذ لو أتى في الكلام : " مِن البَقَر والغنم حرَّمْنَا عليْهم الشُّحُوم " لكان في الدَّلالة على أنَّه لا يراد إلاَّ شُحُومُ البَقَر والغَنَم ؛ هذا كلام أبي حيَّان وهو بَسْط ما قاله الزَّمَخْشَري ؛ فإنه قال : " ومن البَقَر والغَنَم حَرَّمْنا عليهم شُحُومَهُما " ؛ كقولك : " مِنْ زَيْد أخَذْت مَالَهُ " تريد بالإضافة زيَادة الرَّبْط .

قوله : " إلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورهُمَا " " ما " مَوْصُولة في محل نَصْب على الاستِثْنَاء المُتَّصِل من الشُّحُوم ، أي : إن لم يُحَرِّم الشَّحْم المَحْمُول على الظَّهْر ، ثم إن شِئت جعَلْت هذا المَوْصُول نعتاً لِمَحْذُوف ، أي : إلا الشَّحْم الذي حَمَلَتْهُ ظهورُهُمَا ؛ كذا قدَّره أبو حيان ، وفيه نظر ، لأنه قد نصَّ على أنَّه بذلك غَيْره بذلك في مِثْل هذا التقدير : وإن شِئْت جعلْتَهُ موصُوفاً بشَيْءٍ محذوف ، أي : إلاَّ الذي حملَتْه ظُهُورُهُما من الشَّحْم ، وهذا الجَارُّ هو وَصْفٌ معنوي لا صناعي ، فإنَّه لو أظْهَر كذا ، لكان إعرابُه حالاً .

وقوله : " ظُهُورهما " يحتمل أن يكُون من باب قوله : ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ [ التحريم : 4 ] ، بالنسبة إلى ضَمِير [ البَقَر ] والغَنَم من غير نَظَر إلى جَمْعِيَّتهما في المَعْنَى ، ويحتمل أن يَكُون جَمَع " الظُّهُور " لأنَّ المُضَافَ إليه جَمْعٌ في المَعْنَى ؛ فهو مثل : " قَطَعْتُ رُؤُوس الخرفان " فالتَّثْنِيَة في مثل هذا مُمْتَنِعَة .

قوله : " أو الحَوَايَا " في موضعها من الإعْراب ثلاثة أوجُه :

أحدها – وهو قول الكسائي : أنَّها في مَوْضع رفْع عَطْفاً على " ظُهُورُهما " أي : وإلاَّ الَّذي حملَتْه الحَوَايَا من الشَّحْم ، فإنه أيضاً غير مُحَرَّم ، وهذا هو الظّاهِر .

الثاني أنَّها في محل نَصْبٍ نَسَقاً على " شُحُومَهُمَا " أي : حَرَّمْنا عليهم الحَوَايَا أيضاً ، أو ما اخْتَلَط بعَظْم ، فتكون الحوايا والمُخْتَلط مُحَرَّمين ، وإلى هذا ذَهَب جماعةٌ قِليلَةٌ ، وتكون " أوْ " فيه كَالَّتِي في قوله – تعالى – : ﴿ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ [ الإنسان : 24 ] يُراد بها : نَفْي ما يدخُل عليه بطريق الانفِرَاد ؛ كما تقول : " هؤلاءِ أهْلٌ أن يُعْصَمُوا فاعْصِ هذا أو هذا " فالمعنى : حرم عليهم هذا وهذا .

وقال الزَّمَخْشَرِي : " أو بمنزلتها في قولهم : جَالِس الحسن أو ابن سيرين " .

قال أبو حيَّان : " وقال النَّحْوِيُّون " " أو " في هذا المثال للإباحَةِ ، فيجوز له أن يُجَالِسَهُمَا وأن يُجَالِس أحدهُمَا ، والأحْسَن في الآية إذا قُلْنَا : إن " الحوايا " معطوفٌ على " شُحُومَهُمَا " ، وأن تكون " أوْ " فيه للتفصيل ؛ فصَّل بها ما حرَّم عليهم من البقر والغنم " .

*(155/255)*

قال شهاب الدّين : هذه العِبارة التي ذكرها الزَّمَخْشَري سبقه إليها الزَّجَّاج فإنه قال : وقال قوم : حُرِّمَت عليهم الثُّرُوب ، وأحِلَّ لهم ما حَمَلَت الظُّهُور ، وصارت الحوايا أو ما اخْتَلَط بعَظْم نَسَقاً على ما حَرَّم لا على الاستثناء ، والمَعْنَى على هذا القول : حُرِّمت عليهم شُحُومَهُمَا أو الحوايا أو ما اختلط بعَظْمٍ ، إلا ما حملت الظُّهُور فإن غير محرَّم ، وأدخلت " أو " على سَبِيل الإِبَاحَة ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً ﴾ [ الإنسان : 24 ] والمعنى : كل هؤلاء أهْلٌ أن يُعْصَى فاعْص هذا أو اعْص هذا و " أو " بَلِغة في هذا المَعْنَى ؛ لأنَّك إذا قُلْتَ : " لا تُطِعْ زَيْداً وعَمْراً " فجائز أن تكُون نَهْيَتَي عن طَاعَتهما معاً في حالةٍ ، فإذا أطعْتُ زيداً على حَدَته ، لم أكُن عَاصياً ، وإذا قلت : لا تُطِع زَيْداً أو عمراً أو خالداً ، فالمعنى : أن كُلَّ هؤلاءِ أهْلٌ ألاَّ يُطَاع ، فلا تُطِع واحداً منهم ، ولا تُطِع الجماعة ؛ ومثله : جَالِس الحَسَنَ أو ابْنَ سيرين أو الشَّعْبي ، فليس المَعنى : أني آمُرُكَ بمجَالَسَة واحدٍ منهم ، فإن جَالَسْتَ واحِداً منهم فأنْتَ مُصِيبٌ ، وإن جَالَسْتَ الجماعة فأنت مُصِيبٌ .

وأمَّا قوله : " فالأحْسَنُ أن تكُون " أو " فيه للتَّفْصِيل " فقد سبقه إلى ذلك أبو البقاء فإنه قال : و " أوْ " هنا بِمَعْنة الواو ، لتفصِيل مذاهبهم أو لاخْتِلاف أماكنها ، وقد ذَكَرنَاه في قوله : ﴿ كُونُواْ هُوداً أَوْ نصارى ﴾ [ البقرة : 135 ] .

وقال ابن عطيَّة ردّاً على هذا القول – أعين كون " الحَوَايَا نَسَقاً على شُحُومهما – : " وعلى

هذا تَدْخُل " الحَوَايَا " في التَّحْريم ، وهذا قَوْلٌ لا يعضدُه لا اللَّفْظ ولا المَعْنَى بل يَدْفَعَانه " ولم يبيّن وجْه الدَّفْع فيها .

(156/255)

---

الثالث : أن " الحَوَايَا " في محلّ نَصْب عطفاً على المسْتَثْنَى وهو " ما ملت ظُهُورهُمَا " كأنه قيل : إلا ما حَمَلَت الظُّهُور أو الحَوَايا أو إلا ما اختَلَط ، نقله مكّ ، وأبو البقاء بدأ به ثم قال : " وقيل " هو مَعْطُوف على الشُّحُوم " .

ونقل الواحدي عن الفراء ؛ أنَّه قال : يَجُوز أن يكُون في موضع نَصْب بتقدير حذف المضاف على أن يُريدك أو شُحُوم الحَوَايَا فَيَحذِف الشُّحُوم ويكتفي بالحوايا ؛ كما قال – تعالى – ﴿ واسأل القرية ﴾ [ يوسف : 82 ] يريد أهلها ، وحكى ابن الأَنْبارِي عن أبي عبيد ، أنه قال : قلت للفرَّاء : هو بمنزلة قول الشَّاعِر :

2375 – لا يَسْمَعُ المَرْءُ فِيهَا مَا يُؤَنِّسُه . . .

باللَّيْلِ إلاَّ نَئِيمَ البُوم والضُّوَعَا

فقال لي : نَعَم ، يذهب إلى أن " الضُّوَع " عَطْف على " النَّئِيم " ولم يُعْطَف على " البُوم " كما عُطِفت الحَوَايَا على " مَا " ولم تُعْطَفْ على الظُّهُور .

قال شهاب الدّين : فمقتضى ما حكاه ابن الأَنْبَارِيّ : أن تكون الحَوَايَا " عَطْفاً على " مَا " المسْتَثْنَاه " وفي مَعْنَى ذلك قلقٌ بيّنٌ .

و" الحَوَايَا " قيل : هي المَبَاعِر ، وقيل : المصَارين والأَمْعَاء ، وقيل : كل ما تَحْويه البَطْن فاجْتَمع واسْتَدَار ، وقيل : هي الدَّوَّارة الَّتِي في بَطْن الشَّاةِ .

واختلف في مُفْرد " الحَوَايَا " فقيل : حَاوِيَة كـ" ضَارِبة " ، وقيل : حَوِيَّة كـ" طَرِيفَة " ، وقيل : حَاوِيَاء كـ" قَاصِعَاء " .

وجوَّز الفَارِسيُّ أن يكون جَمْعاً لكلِّ واحدٍ من الثلاثة ، يعني : أنه صَالِحٌ لذلك ، وقال ابن الأَعْرَابِيّ : هي الحَوِيَّة والحَاوِيَة " ولم يَذْكر الحَاوِيَاء .

*(157/255)*

---

وذكر ابن السِّكِّيت الثلاثة فقال : " يقال : " حَاوِيَة " و" حَوَايَا " مثل " زَاوِيَا " و" رَاوِيَة " و" رَوَايَا " ومهم من يَقُول : " حَوِيَّة " و" حَوَايَا " ؛ مثل الحَوية التي تُوضَع على البَعِير ويُرْكَبُ فَوْقَها ، ومنهم من يَقُول لواحِدَتها : " حَاوِيَاء " وأنشد قول جَرِير : [ البسيط ]

2376 - تَضْغُو الخَنَانِيصُ والغُولُ الَّتِي أَكَلَتْ . . .

فِي حَاوِيَاء رَدُومِ اللَّيل مِجْعَار

وأنشد ابن الأَنْبَاري : [ الطويل ]

2377 - كَأَنَّ نَفِيقَ الحَبِّ فِي حَاوِيَائِهِ . . .

فَحِيحُ الأَفَاعِي أَوْ نَقِيقُ العَقَارِبِ

فإن كان مُفْرَدُها حَاوِيَة ، فوزنها فواعِلٌ ؛ كَضَارِبة وضَوارب ونظيرها في المُعْتَلِّ : هي عَيْن الكَلِمة هَمْزة ؛ لأنها ثاني حَرْفي لين ، اكتنفا مَدّة مفَاعِل ، فاستُثْقَلت هَمْزَة مكْسُورة فَقُلبت يَاءً ، فاسْتَثْقلت الكَسْرة على اليَاءِ فجُعِلَتْ فَتْحَة ، فَتَحرَّك حَرْف العِلَّة وهو اليَاءُ الَّتِي هي لامُ الكلمة بعد فَتْحَةٍ ، فقُلبت أِلفاً [ فصارت " حَوَايَا " ، وإن شِئْتَ قلت : قُلِبَت الواوُ هَمْزة مَفْتُوحة ، فتحركت اليَاءُ وانفتح ما قَبْلَها فقُلبَت أِلفاً ] فصارت هَمْزَة مَفْتُوحة بين أِلفين يُشْبِهَانِها فقلبت الهَمْزَة ياءً ، وقد تقدَّم تَحْقِيق هذا في قول : ﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ﴾ [ البقرة : 58 ] واخْتِلاف أهل التَّصْرِيف في ذَلِك .

وإن قلنا : إن مُفْرَدها " حَوِيَة " فوزنها فعائل كَطَرائف ، والأصل : حَوَائِي فقُلبت الهَمْزَة ياءً مَفْتُوحة ، وقلبت اليَاءُ التي هِيَ لامٌ أِلفاً ، فصار اللَّفْظُ " حَوَايَا " أيضاً ، فاللَّفْظ مُتَّحِد والعَمَل مُخْتَلِف .

قوله : " أَوْ مَا اخْتَلَطَ بَعَظْم " فيه ما تقدّم في " حَوَايَا " ورأيُ الفرَّاء فيه : أَنَّه مَنْصوب نَسَاقً على " ما " المسْتَثْنَاة في قوله : " إلاَّ ما حَمَلَتْ ظُهُورهُما " المُرَاد به الأَلْيَة .

وقيل : هو كلُّ شَحْمٍ في الجَنْب والعَيْن والأُذُن والقَوَائم ، والمحرَّم الثَّرْبُ وشَحْم الكُلْيَة .

قوله : " ذَلِك جَزَيْنَاهُمْ " فيه أربعة أوْجُه :

أحدهما : أنه خبر مُبْتَدأ مَحْذُوف ، أي : الأمْر ذلك ، قاله الحُوفِيُّ ؛ ومكِّي وأبو البقاء .

الثاني : أنه مُبْتَدأ ، والخبر ما بعده ، والعَائِد مَحْذُوفٌ ، أي : ذلك جَزَيْنَاهُمُوه ، قاله أبو البقاء – رضي الله عنه – وفيه ضَعْف ؛ من حيث إنه حَذَف العَائِد المَنْصُوب ، وقد تقدّم ما فيه في المَائدة في قوله – تعالى ﴿ أَفَحُكْمَ الجاهلية يَبْغُونَ ﴾ [ المائدة : 50 ] وأيضاً فقدَّر العَائِد مُتَّصِلاً ، ويَنْبَغي ألا يُقدَّر إلا مُنْفَصِلاً ولكنه يَشْكُل حذفه ، وقد تقدَّم تحقيقُهُ في أوّل البقرة .

وقال ابن عطيَّة : " ذلك في مَوْضِع رَفْعٍ " ولم يُبَيِّنْ على أيِّ الوَجْهَيْن المتقدِّمَيْن ، ويَنْبَغي أن يُحمَل على الأوَّل ؛ لضعف الثَّاني .

الثالث : أنه مَنْصُوب على المَصْدَر ، وهو ظاهر كلام الزَّمْخَشَري ؛ فإنه قال : " ذلك الجَزَاء جزيْنَاهُم وتَحْرِيمُ الطِّيبات " ، وإلا أن هذا قَدْ يَنْخَدِشُ بما نقله ابن مالك ، وهو أنَّ المَصْدَر إذا أشِير إليه ، وجب أنْ يُتْبَع بذلك المَصْدَرُ ؛ فيقال : " ضَرَبْتُ ذِلك الضَّرْبَ " و " قُمْتُ هذا القِيَامَ " ولو قُلْت : " ضَرَبْت زَيْداً ذَلِك " و " قُمْت هذا " لم يَجزْ ، ذكر ذلك في الرَّدِّ على من أجَابَ عن قَوْل المُتَنَبِّي : [ الكامل ]

2378 - هَذِي ، بَرَزْتِ لَنَا فَهِجْتِ رَسِيسا . . .

ثُمَّ انْصَرَفْتِ وَمَا شَفَيْتِ نَسِيسا

فإنهم لَحَّنوا المُتَنَبِي ، من حيث إنه حَذَف حَرْف النِّدَاء من اسْم الإشَارة ، إذ الأَصْل : يَا هَذِي .

فأجابوا عنه : بأَنَّا لا نُسَلِّم أن " هَذِي " مُنَادى ، بل [ اسْم ] إشارة إلى المَصْدَر ، كأَنَّه قال : بَرَزْتِ هَذِي البَرْزَة .

*(159/255)*

---

فردّ ابن مالك هذا الجواب : بأَنَّه لا يَنْتَصب اسْمُ الإشَارة مُشَاراً به إلى المَصْدَر إلا وهو متبوعٌ بالمَصْدَر .

وإذا سُلِّم هذا فيكُون ظاهر قَوْل الزَّمَخْشَري : " إنه مَنْصُوب على المَصْدَر " مردوداً بما رُدَّ به الجوابُ عن بَيْت أبي الطَّيب ، إلا أن ردّ ابن مالكٍ ليس بِصَحيح ؛ لورود اسْم الإشارة مشاراً به إلى المَصْدَر غير مَتْبُوع به ؛ قال الشاعر : [ الطويل ]

2379 - يَا عمْرُو إنَّكَ قَدْ مَلِلْت صَحَابَتِي . . .

وصَحَابَتِيكَ إخَالُ ذَالكَ قَليل

قال النّحْويُّون : " ذالك " إشارةٌ إلى مَصْدَر " خال " المؤكّد له ، وقد أُنْشَده هُوَ عَلَى ذلك .

الرابع : أنه مَنْصُوبٌ على أنه مَفْعُول ثانٍ قُدِّم على عَامِله ؛ لأن " جَزَى " يتعدّى لاثْنَين ، والتَّقْدير : جَزَيْنَاهم ذلك التَّحْرِيم ، وقال أبو القاء ومكّي إنَّه في مَوْضع نَصْب بـ " جَزَيْنَاهُم " ولم يُبَيِّنَا على أيِّ وَجْهٍ أنتَصَب : هل على المَفْعُول الثَّانِي أو المصدر ؟ .

قوله : " وإنَّا لَصَادِقُونَ " مَعْمُولة مَحْذُوف ، أي : لصادِقُون في إتمام جَزَائِهم في الآخِرَة ؛ إذا هو تَعْرِيضٌ بكَذبهم حَيْث قالُوا : نحن مُقْتَدُون في تَحْرِيم هذه الأشْيَاء بإسْرَائيل ، والمعنى : الصَّادقون في إخْبَارنا عنهم ذلك ، ولا يُقَدَّر له مَعْمُول ، أي : من شأنِنَا الصِّدْق . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 487.495 ﴾ . باختصار .

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (146) ﴾

بيَّن أن ما حرَّم عليهم ضيَّعوه ؛ إذ لمَّا لم يعاقبهم عليه لم يشهدوا مَكْرَه العظيم فيما ابتدعوه من قِبَلِ نفوسهم – فأهملوه ولم يحافظوا عليه ، فاستوجبوا عظيم الوِزْر وأليم الهجر . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 509 ﴾

---

قوله تعالى ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (147) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

﴿ وإنا لصادقون ﴾ أي ثابت صدقنا أزلاً وأبداً كما اقتضاه ما لنا من العظمة ، وتعقيبه بقوله : ﴿ فإن ﴾ أي وتسبب عن هذا الإيحاء الجامع الوجيز الدال على الصدق الذي لا شبهة فيه أنا نقول ذلك : ﴿ كذبوك فقل ﴾ والتعبير بأداة الشك مشير إلى أن الحال يقتضي أن يستبعد أن يقع منهم تكذيب بعد هذا ﴿ ربكم ﴾ أي المحسن إليكم بالبيان والإمهال مع كل امتنان ﴿ ذو رحمة واسعة ﴾ أي فهو مع اقتداره قضى أنه يحلم عنكم بالإمهال إلى أجل يعلمه .

ولما أخبر عن رحمته ، نوه بعظيم سطوته فقال : ﴿ ولا يرد بأسه ﴾ أي إذا أراد الانتقام ﴿ عن القوم المجرمين ﴾ أي القاطعين لما ينبغي وصله ، فلا يغتر أحد بإمهاله في سوء أعماله وتحقيق ضلاله ، وفي هذه الآية من شديد التهديد ما لطيف الاستعطاف ما هو مسبوك

على الحد الأقصى من البلاغة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 737 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ ﴾ يعني إن كذبوك في ادعاء النبوة والرسالة ، وكذبوك في تبليغ هذه الأحكام ﴿ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسعة ﴾ فلذلك لا يعجل عليكم بالعقوبة ﴿ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ ﴾ أي عذابه إذا جاء الوقت ﴿ عَنِ القوم المجرمين ﴾ يعني الذين كذبوك فيما تقول ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 184 ﴾

فائدة

قال محمد بن أبى بكر الرازى :

فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾ والموضع موضع العقوبة فكان يحسن أن يقال فيه : ذو عقوبة شديدة أو عظيمة أو نحو ذلك ؟

قلنا : إنما قال ذلك نفيا للاغترار بسعة رحمته فى الاجتراء على معصيته ، وذلك أبلغ فى التهديد ؛ معناه لا تغتروا بسعة رحمته فإنه مع ذلك لا يرد عذابه عنكم .

وقيل : معناه : فقل ربكم ذو رحمة واسعة للمطيعين ولا يرد عذابه عن العاصين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الرازى صـ 143 . 144 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ ﴾ يعني : فيما تقول من التحريم والتحليل ﴿ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسعة ﴾ يعني : رحمته وسعت كل شيء لا يعجل عليهم بالعقوبة ﴿ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ ﴾ يعني : عذابه ﴿ عَنِ القوم المجرمين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾

يريد ﴿ فإن كذبوك ﴾ فيما أخبرت به أن الله حرمه عليهم وقالوا لم يحرم الله علينا شيئاً وإنما حرمنا ما حرم إسرائيل على نفسه ، قال السدي وهذه كانت مقالتهم ﴿ فقل ﴾ يا محمد على جهة التعجب من حالهم والتعظيم لفريتهم في تكذيبهم لك مع علمهم بحقيقة ما قلت ، ﴿ ربكم ذو رحمة واسعة ﴾ ، إذ لا يعاجلكم بالعقوبة مع شدة جرمكم .

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : وهذا كما تقول عند رؤية معصية أو أمر مبغي ما أحلم الله ، وأنت تريد لإمهاله على مثل ذلك في قوله ﴿ ربكم ذو رحمة واسعة ﴾ قوة وصفهم بغاية الاجترام وشدة الطغيان ، ثم أعقب هذه المقالة بوعيد في قوله ﴿ ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين ﴾ فكأنه قال : ولا تغتروا أيضاً بسعة رحمته فإن له بأساً لا يرد عن المجرمين إما في الدنيا وإما في الآخرة ، وهذه الآية وما جانسها من آيات مكة مرتفع حكمه

بالقتال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فإن كذبوك ﴾ قال ابن عباس : " لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمشركين : "هذا ما أُوحي إليَّ أنَّه محرَّم على المسلمين وعلى اليهود" قالوا : فانك لم تصب ، فنزلت هذه الآية " ، .

وفي المكذبين قولان .

أحدهما : المشركون ، قاله ابن عباس .

والثاني : اليهود ، قاله مجاهد .

والمراد بذكر الرحمة الواسعة : أنه لا يعجل بالعقوبة ، والبأس : العذاب .

وفي المراد بالمجرمين قولان .

أحدهما : المشركون .

والثاني : المكذبون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين ﴾

الظاهر عود الضمير على أقرب مذكور وهم اليهود وقاله مجاهد والسدّي أي ﴿ فإن كذبوك ﴾ فيما أخبرت به أنه تعالى حرمه عليهم وقالوا : لم يحرمه الله وإنما حرمه إسرائيل قبل متعجباً من قولهم : ومعظماً لافترائهم مع علمهم بما قلت : ﴿ فقل ربكم ذو رحمة واسعة ﴾ حيث لم يعاجلكم بالعقوبة مع شدّة هذا الجرم كما تقول عند رؤية معصية عظيمة .

ما أحلم الله وأنت تريد لإمهاله العاصي .

وقيل : الضمير للمشركين الذين كان الكلام معهم في قوله : ﴿ نبئوني ﴾ وقوله : ﴿ أم كنتم شهداء ﴾ أي ﴿ فإن كذبوك ﴾ في النبوة والرسالة وتبليغ أحكام الله .

وقال الزمخشري : ﴿ فإن كذبوك ﴾ في ذلك وزعموا أن الله واسع المغفرة وأنه لا يؤاخذنا بالبغي ويخلف الوعيد جوداً وكرماً ﴿ فقل لهم ربكم ذو رحمة واسعة ﴾ لأهل طاعته ﴿ ولا يردّ بأسه ﴾ مع سعة رحمته ﴿ عن القوم المجرمين ﴾ فلا تغترّ برجاء رحمته عن خوف نقمته ؛ انتهى ، وهو على طريقة الاعتزال و ﴿ القوم المجرمين ﴾ عام يندرج فيه مكذبو الرسل وغيرهم من المجرمين ، ويحتمل أن يكون من وقوع الظاهر موقع المضمر أي ﴿ ولا يرد بأسه ﴾ عنكم وجاء معمول ﴿ قل ﴾ الأول جملة اسمية لأنها أبلغ في الإخبار من الجملة الفعلية ، فناسبت الأبلغية في الله تعالى بالرحمة الواسعة وجاءت الجملة الثانية فعلية

ولم تأت اسمية فيكون التركيب وذو بأس لئلا يتعادل الإخبار عن الوصفين وباب الرحمة واسع فلا تعادل .

وقال الماتريدي : ﴿ فإن كذبوك ﴾ فيما تدعوهم إليه من التصديق والتوحيد ﴿ فقل ربكم ذو رحمة واسعة ﴾ إذا رجعتم عن التكذيب ؛ انتهى .

وقيل : ﴿ ذو رحمة ﴾ لا يهلك أحداً وقت المعصية ولكن يؤخر ﴿ ولا يرد بأسه ﴾ إذا نزل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(163/255)

---

وقال أبو السعود :

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ ﴾ قيل : الضمير لليهود لأنهم أقربُ ذِكراً ولذكر المشركين بعد ذلك بعنوان الإشراك ، وقيل : للمشركين ، فالمعنى على الأول إن كذبتْك اليهودُ في الحكم المذكورِ وأصروا على ما كانوا عليه من ادعاء قِدَم التحريم ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم ﴿ رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسعة ﴾ لا يؤاخذكم بكل ما تأتونه من المعاصي ويُمهلكم على بعضها ﴿ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ ﴾ بالكلية ﴿ عَنِ القوم المجرمين ﴾ فلا تنكروا ما وقع منه تعالى من تحريمِ بعضِ الطيبات عليكم عقوبةً وتشديداً ، وعلى الثاني فإن كذبك المشركون فيما فُصل من أحكام التحليل

والتحريمِ فقل لهم : ربُكم ذو رحمةٍ واسعة لا يعاجلكم بالعقوبة على تكذيبكم فلا تغتروا بذلك فإنه إمهالٌ لا إهمالٌ ، وقيل : ذو رحمةٍ للمطيعين وذو بأس شديد على المجرمين فأقيم مُقامَه قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ ﴾ الخ ، لتضمنه التنبيهَ على إنزال البأسِ عليهم مع الدلالة على أنه لا حقّ بهم ألبتةَ من غير صارفٍ يصرِفه عنهم أصلاً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(164/255)

---

وقال الآلوسى :

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ ﴾

أي اليهود كما قال مجاهد والسدي وغيرهما وهو الذي يقتضيه الظاهر لأنهم أقرب ذكراً ولذكر المشركين بعد بعنوان الإشراك ، وقيل : الضمير للمشركين .

فالمعنى على الأول : إن كذبك اليهود في الحكم المذكور وأصروا على ما كانوا عليه من ادعاء قدم التحريم ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم ﴿ رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ ﴾ عظيمة ﴿ وَاسِعَةٌ ﴾ لا يؤاخذكم بكل ما تأتونه من المعاصي ويمهلكم على بعضها ﴿ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ ﴾ أي لا يدفع عذابه بالكلية ﴿ عَنِ القوم المجرمين ﴾ فلا تنكروا ما وقع منه تعالى من تحريم بعض

الطيبات عليكم عقوبة وتشديداً .

وعلى الثاني : فإن كذبك المشركون فيما فصل من أحكام التحليل والتحريم فقل لهم ربكم ذو رحمة واسعة ولا يعاجلكم بالعقوبة على تكذيبكم فلا تغتروا بذلك فإنه إمهال لا إهمال .

وقيل يحتمل أن يكون المراد أنه تعالى ذو رحمة واسعة فهو يرحمني بتوفيق كثير لتصديقي فلا يضرني تكذيبكم ويضركم لأنه لا يرد بأسه عن المجرمين المكذبين أو سيرحمني بالانتقام منكم ولا يرد بأسه عنكم وفيه بعد ، وقيل : المراد ذو رحمة للمطيعين وذو بأس شديد على المجرمين فأقيم مقامه قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُرَدُّ ﴾ الخ لتضمنه التنبيه على إنزال البأس عليهم مع الدلالة أنه لاحق بهم ألبتة من غير صارف يصرفه عنهم أصلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾

تفريع على الكلام السّابق الذي أبطل تحريم ما حرّموه ، ابتداء من قوله : ﴿ ثمانية أزواج ﴾ [ الأنعام : 143 ] الآيات أي : فإن لم يرعَوُوا بعد هذا البيان وكذّبوك في نفي تحريم الله ما زعموا أنَّه حرّمه فذكِّرهم ببأس الله لعلّهم ينتهون عمّا زعموه ، وذكِّرهم برحمته الواسعة لعلّهم يبادرون بطلب ما يخوّلهم رحمته من اتّباع هَدي الإسلام ، فيعود ضمير : ﴿ كذبوك

﴿ إلى المشركين وهو المتبادر من سياق الكلام : سابِقِه ولاحقه ، وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون في قوله : ﴿ فقل ربكم ذو رحمة واسعة ﴾ تنبيه لهم بأنّ تأخير العذاب عنهم هو إمهال داخل في رحمة الله رحمة مؤقّته ، لعلّهم يسلمون .

*(165/255)*

---

وعليه يكون معنى فعل : ﴿ كذبوك ﴾ الاستمرار ، أي إن استمرّوا على التّكذيب بعد هذه الحجج .

ويجوز أن يعود الضّمير إلى ﴿ الذين هادوا ﴾ [ الأنعام : 146 ] ، تكملة للاستطراد وهو قول مجاهد والسُدّي : أنّ اليهود قالوا لم يُحرّم الله علينا شيئاً وإنَّما حرّمنا ما حرّم إسرائيل على نفسه ، فيكون معنى الآية : فَرْض تكذيبهم قوله : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا ﴾ [ الأنعام : 146 ] إلخ ، لأنّ أقوالهم تخالف ذلك فهم بحيث يكذّبون ما في هذه الآية ، ويشتبه عليهم الإمهال بالرّضى ، فقيل لهم : ﴿ ربكم ذو رحمة واسعة ﴾ .

ومن رحمته إمهاله المجرمين في الدّنيا غالباً .

وقوله : ﴿ ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين ﴾ فيه إيجاز بحذف تقديره : وذو بأس ولا يُردّ بأسه عن القوم المجرمين إذا أراده .

وهذا وعيد وتوقّع وهو تذييل ، لأنّ قوله : ﴿ عن القوم المجرمين ﴾ يعمّهم وغيرهم وهو يتضمّن أنهم مجرمون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

(166/255)

---

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ)

تَقَرَّرَ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ أَنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُحَرِّمَ عَلَى أَحَدٍ شَيْئًا مِنَ الطَّعَامِ - وَكَذَا غَيْرُهُ - إِلَّا بِإِذْنٍ مِنَ اللَّهِ فِي وَحْيِهِ إِلَى رُسُلِهِ . وَأَنَّ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ مُفْتَرٍ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مُعْتَدٍ عَلَى مَقَامِ الرُّبُوبِيَّةِ ، إِذْ لَا يُحَرِّمُ عَلَى الْعِبَادِ إِلَّا رَبُّهُمْ . وَأَنَّ مَنْ أَطَاعَهُ فِي ذَلِكَ فَقَدِ اتَّخَذَهُ شَرِيكًا لِلَّهِ تَعَالَى فِي رُبُوبِيَّتِهِ ، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ . وَأَنَّ مِنْ هَذَا الشِّرْكِ وَالِافْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مَا حَرَّمَتِ الْجَاهِلِيَّةُ مِنَ الْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ كَمَا فُصِّلَ فِي الْآيَاتِ الَّتِي قَبْلَ هَذِهِ ،

(167/255)

وَقَدْ خَتَمَ اللهُ تَعَالَى هَذَا السِّيَاقَ بِبَيَانِ مَا حَرَّمَهُ عَلَى عِبَادِهِ مِنَ الطَّعَامِ عَلَى لِسَانِ خَاتَمِ رُسُلِهِ وَشَرْعِ مَنْ قَبْلَهُ فَقَالَ : (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ) أَيْ قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ لِهَؤُلَاءِ الْمُفْتَرِينَ عَلَى اللهِ تَعَالَى فِيمَا يَضُرُّهُمْ مِنْ تَحْرِيمِ مَا لَمْ يُحَرِّمْ عَلَيْهِمْ وَلِغَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ : لَا أَجِدُ فِيمَا أَوْحَاهُ اللهُ تَعَالَى إِلَيَّ طَعَامًا مُحَرَّمًا عَلَى آكِلٍ يُرِيدُ أَنْ يَأْكُلَهُ ، بَلِ الْأَصْلُ فِي جَمِيعِ مَا شَأْنُهُ أَنْ يُؤْكَلَ أَنْ يَكُونَ مُبَاحًا لِذَاتِهِ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً ، أَيْ بَهِيمَةً مَاتَتْ حَتْفَ أَنْفِهَا وَلَوْ بِسَبَبِ غَيْرِ التَّذْكِيَةِ بِقَصْدِ الْأَكْلِ ، أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا ، أَيْ مَصْبُوبًا كَالدَّمِ الَّذِي يَجْرِي مِنَ الْمَذْبُوحِ أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ ، فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ خَبِيثٌ تَعَافُهُ الطِّبَاعُ السَّلِيمَةُ وَضَارٌّ بِالْأَبْدَانِ الصَّحِيحَةِ ، أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ ، وَهُوَ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى غَيْرِهِ تَعَبُّدًا وَيُذْكَرُ اسْمُ ذَلِكَ الْغَيْرِ عَلَيْهِ عِنْدَ ذَبْحِهِ ، وَجَعَلَ بَعْضُهُمُ الْوَصْفَ بِالرِّجْسِ لِلَحْمِ الْخِنْزِيرِ خَاصَّةً وَاسْتَدَلُّوا بِهِ عَلَى نَجَاسَةِ عَيْنِهِ حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ بِنَجَاسَةِ شَعْرِهِ . وَمَا اخْتَرْنَاهُ مِنْ كَوْنِ الْوَصْفِ لِجَمِيعِ مَا ذُكِرَ مِنَ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ هُوَ الْمُتَبَادِرُ وَهُوَ أَظْهَرُ فِي الْمَيْتَةِ وَالدَّمِ الْمَسْفُوحِ مِنْهُ فِي لَحْمِ

الْخِنْزِيرِ ، وَلَا سِيَّمَا إذَا أُرِيدَ بِالرِّجْسِ الْحِسِّيُّ مِنْهُ فَإِنَّ طِبَاعَ أَكْثَرِ الْبَشَرِ تَسْتَقْذِرُهُمَا وَتَعَافُهُمَا ، وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ مِنْ أَجْمَلِ اللُّحُومِ مَنْظَرًا فَلَا يَعَافُهُ إلَّا مَنْ يَعْتَقِدُ حُرْمَتَهُ وَذَلِكَ اسْتِقْذَارٌ مَعْنَوِيٌّ لَا حِسِّيٌّ ، وَإِنَّمَا يُسْتَقْذَرُ الْخِنْزِيرُ حَيًّا بِمُلَازَمَتِهِ لِلْأَقْذَارِ وَأَكْلِهِ مِنْهَا .

وَالْأَرْجَحُ أَنَّ سَبَبَ تَحْرِيمِ لَحْمِهِ مَا فِيهِ مِنَ الضَّرَرِ لَا كَوْنُهُ مِنَ الْقَذَرِ ، وَتَقَدَّمَ بَيَانُ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْمَائِدَةِ .

قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَحَمْزَةُ (تَكُونُ مَيْتَةً) بِالتَّاءِ لِتَأْنِيثِ مَيْتَةٍ ، وَابْنُ عَامِرٍ بِالتَّاءِ مَعَ رَفْعِ مَيْتَةٍ عَلَى مَعْنَى إلَّا أَنْ تُوجَدَ مَيْتَةٌ ، وَالْبَاقُونَ بِالْيَاءِ مَعَ نَصْبِ مَيْتَةٍ وَهَذِهِ وُجُوهٌ فِي الْعَرَبِيَّةِ كُلُّهَا جَائِزَةٌ فَصِيحَةٌ .

(فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) أَيْ فَمَنْ دَفَعَتْهُ ضَرُورَةُ الْمَجَاعَةِ وَفَقْدِ الْحَلَالِ إلَى أَكْلِ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْمُحَرَّمَاتِ حَالَ كَوْنِهِ غَيْرَ بَاغٍ ، أَيْ مُرِيدٌ لِذَلِكَ قَاصِدٌ لَهُ وَلَا مُتَعَدٍّ فِيهِ قَدْرَ الضَّرُورَةِ ، فَإِنَّ رَبَّكَ الَّذِي لَمْ يُحَرِّمْ مَا ذُكِرَ إلَّا لِضَرَرِهِ . غَفُورٌ رَحِيمٌ فَلَا

يُؤَاخِذُهُ بِأَكْلِ مَا يَسُدُّ رَمَقَهُ وَيَدْفَعُ بِهِ الْهَلَاكَ عَنْ نَفْسِهِ . وَقِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ بِالْبَاغِي مَنْ يَبْغِي عَلَى مُضْطَرٍّ مِثْلِهِ فَيَنْزِعُ مِنْهُ مَا هُوَ مُضْطَرٌّ إِلَيْهِ إِيثَارًا لِنَفْسِهِ عَلَيْهِ . وَهَذَا مِمَّا يُعْلَمُ حَظْرُهُ مِنْ أَدِلَّةٍ أُخْرَى وَقِيلَ : هُوَ مَنْ يَبْغِي عَلَى الْإِمَامِ الْحَقِّ وَيَخْرُجُ عَلَيْهِ . وَهَذِهِ مَعْصِيَةٌ لَا دَخْلَ لَهَا فِي حِلِّ الطَّعَامِ وَحُرْمَتِهِ .

*(170/255)*

---

وَظَاهِرُ الْآيَةِ مَعَ عَطْفِ مَا حُرِّمَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهَا أَنَّ حَصْرَ مُحَرَّمَاتِ الْأَطْعِمَةِ فِي الْأَنْوَاعِ الْأَرْبَعَةِ أَصْلٌ مِنْ أُصُولِ شَرَائِعِ جَمِيعِ رُسُلِ اللهِ تَعَالَى ، وَالْمَعْنَى : لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مِنْ أَخْبَارِ الْأَنْبِيَاءِ وَشَرَائِعِهِمْ وَلَا فِيمَا شُرِعَ عَلَى لِسَانِي أَنَّ اللهَ حَرَّمَ طَعَامًا مَا عَلَى طَاعِمٍ مَا يَطْعَمُهُ إِلَّا هَذِهِ الْأَنْوَاعَ الْأَرْبَعَةَ ، وَمَا حَرَّمَهُ عَلَى الْيَهُودِ تَحْرِيمًا مُوَقَّتًا عُقُوبَةً لَهُمْ وَهُوَ مَا ذُكِرَ جُمْلَتُهُ أَوْ أَهَمُّهُ فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ ، وَدَلِيلُ كَوْنِهِ مُوَقَّتًا مَا فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ حِكَايَةً عَنْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ (وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ) (3 : 50) وَمَا سَيَأْتِي فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ فِيمَنْ يَتَّبِعُ خَاتَمَ الْمُرْسَلِينَ مِنْهُمْ : (وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ) (7 : 157) وَدَلِيلُ كَوْنِهِ عُقُوبَةً لَا لِذَاتِهِ

مَا سَيَأْتِي وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ) (3 : 93) .

(171/255)

---

الْآيَةُ وَرَدَتْ بِصِيغَةِ الْحَصْرِ الْقَطْعِيِّ ، فَهِيَ نَصٌّ قَطْعِيٌّ فِي حِلِّ مَا عَدَا الْأَنْوَاعَ الْأَرْبَعَةَ الَّتِي حُصِرَ التَّحْرِيمُ بِهَا فِيهَا ، وَقَدْ بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْمَائِدَةِ أَنَّ الْمُنْخَنِقَةَ وَالْمَوْقُوذَةَ وَالْمُتَرَدِّيَةَ وَأَكِيلَةَ السَّبُعِ اللَّاتِي تَمُوتُ بِذَلِكَ وَلَا تُدْرَكُ تَذْكِيَتُهَا قَبْلَ الْمَوْتِ مِنْ نَوْعِ الْمَيْتَةِ ، فَهِيَ تَفْصِيلٌ لَهَا لَا أَنْوَاعٌ حُرِّمَتْ بَعْدَ ذَلِكَ حَتَّى تُعَدَّ نَاسِخَةً لِآيَةِ الْأَنْعَامِ وَتَحْرِيمُ الْخَبَائِثِ لَا يَدُلُّ عَلَى مُحَرَّمَاتٍ أُخْرَى فِي الطَّعَامِ غَيْرِ هَذِهِ فَيُجْعَلَ نَاسِخًا لِلْحَصْرِ فِيهَا ، فَإِنَّ لَفْظَ الْخَبَائِثِ يَشْمَلُ مَا لَيْسَ مِنَ الْأَطْعِمَةِ كَالْأَقْذَارِ وَأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَكُلِّ شَيْءٍ رَدِيءٍ . قَالَ تَعَالَى : (وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ) (2 : 267) فَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ نَاسِخٌ لِهَذِهِ الْآيَةِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا مِنَ الْآيَاتِ الْمُؤَكِّدَةِ لَهَا وَلَا مُخَصِّصٌ لِعُمُومِهَا ، وَمَا يُرِيدُ اللَّهُ نَسْخَهُ أَوْ تَخْصِيصَهُ لَا يَجْعَلُهُ بِصِيغَةِ الْحَصْرِ الْمُؤَكَّدَةِ كُلَّ هَذَا التَّأْكِيدِ الَّذِي نَشْرَحُهُ بَعْدُ . وَلَكِنْ وَرَدَ فِي الْأَحَادِيثِ تَحْرِيمُ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ

وَكُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ وَمِخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ الْجَوَارِحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَأْتِي ; وَلِذَلِكَ .

اخْتَلَفَتْ أَقْوَالُ مُفَسِّرِي السَّلَفِ وَالْخَلَفِ فِي الْآيَةِ . وَهَاكَ مُلَخَّصُ الْمَأْثُورِ فِيهَا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالْآثَارِ نَقْلًا عَنْ كِتَابِ الدُّرِّ الْمَنْثُورِ :

(172/255)

---

أَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ ، عَنْ طَاوُسٍ قَالَ : إِنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يُحَرِّمُونَ أَشْيَاءَ وَيَسْتَحِلُّونَ أَشْيَاءَ فَنَزَلَتْ (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا) الْآيَةُ .

وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ ، وَأَبُو دَاوُدَ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، وَأَبُو الشَّيْخِ ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ ، وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَأْكُلُونَ أَشْيَاءَ وَيَتْرُكُونَ أَشْيَاءَ تَقَذُّرًا فَبَعَثَ اللَّهُ نَبِيَّهُ وَأَنْزَلَ كِتَابَهُ وَأَحَلَّ حَلَالَهُ وَحَرَّمَ حَرَامَهُ ، فَمَا أَحَلَّ فَهُوَ حَلَالٌ وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَفْوٌ مِنْهُ ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ .

وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ ، وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا) فَقَالَ : مَا خَلَا هَذَا فَهُوَ حَلَالٌ .

وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ ، وَأَبُو دَاوُدَ ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ ، وَالنَّحَّاسُ ، وَأَبُو الشَّيْخِ ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ قَالَ : قُلْتُ لِجَابِرِ بْنِ زَيْدٍ : إِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ لُحُومِ

الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ زَمَنَ خَيْبَرَ ، فَقَالَ : قَدْ كَانَ يَقُولُ ذَلِكَ الْحَكَمُ بْنُ عَمْرٍو الْغِفَارِيُّ عِنْدَنَا بِالْبَصْرَةِ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَكِنْ أَبَى ذَلِكَ الْبَحْرُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَرَأَ (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا) الْآيَةُ .

*(173/255)*

---

وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : لَيْسَ مِنَ الدَّوَابِّ شَيْءٌ حَرَامٌ إِلَّا مَا حَرَّمَ اللهُ فِي كِتَابِهِ (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا) الْآيَةُ .

وَأَخْرَجَ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ ، وَأَبُو دَاوُدَ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ أَكْلِ الْقُنْفُذِ فَقَرَأَ (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا) الْآيَةَ فَقَالَ شَيْخٌ عِنْدَهُ : سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ : ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : خَبِيثٌ مِنَ الْخَبَائِثِ ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : إِنْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَهُ ، فَهُوَ كَمَا قَالَ .

وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، وَالنَّحَّاسُ ، وَأَبُو الشَّيْخِ ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا كَانَتْ إِذَا سُئِلَتْ عَنْ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ وَمِخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ تَلَتْ (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا) الْآيَةَ .

وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَالطَّبَرَانِيُّ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ شَاةً لِسَوْدَةَ بِنْتِ زَمْعَةَ مَاتَتْ فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ

(174/255)

---

مَاتَتْ فُلَانَةُ - تَعْنِي الشَّاةَ - قَالَ : " فَلَوْلَا أَخَذْتُمْ مَسْكَهَا " قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَأْخُذُ مَسْكَ شَاةٍ قَدْ مَاتَتْ ؟ فَقَرَأَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً) " وَإِنَّكُمْ لَا تَطْعَمُونَهُ وَإِنَّمَا تَدْبُغُونَهُ حَتَّى تَنْتَفِعُوا بِهِ " فَأُرْسِلَتْ إِلَيْهَا فَسَلَخَتْهَا ثُمَّ دَبَغَتْهُ فَاتَّخَذَتْ مِنْهُ قِرْبَةً حَتَّى تَخَرَّقَتْ عِنْدَهَا .

وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ وَقَالَ : إِنَّمَا حُرِّمَ مِنْ الْمَيْتَةِ مَا يُؤْكَلُ مِنْهَا وَهُوَ اللَّحْمُ ، فَأَمَّا الْجِلْدُ وَالْقَدُّ وَالسِّنُّ وَالْعَظْمُ وَالشَّعْرُ وَالصُّوفُ فَهُوَ حَلَالٌ .

وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، وَأَبُو الشَّيْخِ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا ذَبَحُوا أَوْدَجُوا الدَّابَّةَ وَأَخَذُوا الدَّمَ فَأَكَلُوهُ . قَالُوا : هُوَ دَمٌ مَسْفُوحٌ .

وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ ، وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، عَنْ قَتَادَةَ قَالَ : حُرِّمَ مِنَ الدَّمِ مَا

كَانَ مَسْفُوحًا فَأَمَّا لَحْمٌ يُخَالِطُهُ الدَّمُ فَلَا بَأْسَ بِهِ .

وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ ، عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ فِي قَوْلِهِ : (أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا) قَالَ : الْمَسْفُوحُ الَّذِي يُهْرَاقُ وَلَا بَأْسَ بِمَا كَانَ فِي الْعُرُوقِ مِنْهَا .

*(175/255)*

---

وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، وَأَبُو الشَّيْخِ ، عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَقَالَ لَهُ : آكُلُ الطِّحَالَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : إِنَّ عَامَّتَهَا دَمٌ ، قَالَ : إِنَّمَا حَرَّمَ اللَّهُ الدَّمَ الْمَسْفُوحَ .

وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ ، وَأَبُو الشَّيْخِ ، عَنْ أَبِي مِجْلَزٍ فِي الدَّمِ يَكُونُ فِي مَذْبَحِ الشَّاةِ أَوِ الدَّمِ يَكُونُ عَلَى أَعْلَى الْقِدْرِ ؟ قَالَ : لَا بَأْسَ إِنَّمَا نُهِيَ عَنِ الدَّمِ الْمَسْفُوحِ .

وَأَخْرَجَ أَبُو الشَّيْخِ ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ وَعَائِشَةَ قَالَا : لَا بَأْسَ بِأَكْلِ كُلِّ ذِي شَيْءٍ إِلَّا مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا) الْآيَةَ .

وَأَخْرَجَ أَبُو الشَّيْخِ ، عَنِ الشَّعْبِيِّ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ لَحْمِ الْفِيلِ وَالْأَسَدِ - فَتَلَا (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ) الْآيَةَ .

وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ ، وَأَبُو الشَّيْخِ ، عَنِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ أَكْلِ الْجِرِّيثِ فَقَالَ : (قُلْ

لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ) الْآيَةَ .

وَأَخْرَجَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ ثَمَنِ الْكَلْبِ وَالذِّئْبِ وَالْهِرِّ

(176/255)

---

وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ فَقَالَ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ) (5 : 101) كَانَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكْرَهُونَ أَشْيَاءَ فَلَا يُحَرِّمُونَهَا وَأَنَّ اللهَ أَنْزَلَ كِتَابًا فَأَحَلَّ فِيهِ حَلَالًا وَحَرَّمَ فِيهِ حَرَامًا وَأَنْزَلَ فِي كِتَابِهِ : (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ) .

وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ ، وَالْبُخَارِيُّ ، وَمُسْلِمٌ ، وَالنَّسَائِيُّ ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ يَوْمَ خَيْبَرَ .

وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ ، وَمُسْلِمٌ ، وَالنَّسَائِيُّ ، عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ قَالَ : حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لُحُومَ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ .

وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ ، وَالْبُخَارِيُّ ، وَمُسْلِمٌ ، عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَاءَهُ جَاءٍ فَقَالَ : أُكِلَتِ الْحُمُرُ ، ثُمَّ جَاءَهُ جَاءٍ فَقَالَ : أُفْنِيَتِ الْحُمُرُ ، فَأَمَرَ مُنَادِيًا فَنَادَى

فِي النَّاسِ " إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ يَنْهَيَانِكُمْ عَنْ لُحُومِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ فَإِنَّهَا رِجْسٌ " فَأُكْفِئَتِ الْقُدُورُ وَإِنَّهَا لَتَفُورُ بِاللَّحْمِ .

*(177/255)*

---

وَأَخْرَجَ مَالِكٌ ، وَالْبُخَارِيُّ ، وَمُسْلِمٌ ، وَأَبُو دَاوُدَ ، وَالتِّرْمِذِيُّ ، وَالنَّسَائِيُّ ، وَابْنُ مَاجَهْ ، عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ وَكُلِّ ذِي مِخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ .

وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ عَنْ جَابِرٍ قَالَ : حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ خَيْبَرَ الْحُمُرَ الْإِنْسِيَّةَ وَلُحُومَ الْبِغَالِ وَكُلَّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ وَكُلَّ ذِي مِخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ وَالْمُجَثَّمَةَ وَالْحِمَارَ الْإِنْسِيَّ .

وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَرَّمَ يَوْمَ خَيْبَرَ كُلَّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ وَحَرَّمَ الْمُجَثَّمَةَ وَالْخِلْسَةَ وَالنُّهْبَةَ .

وَأَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ ، وَالتِّرْمِذِيُّ . وَابْنُ مَاجَهْ ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ أَكْلِ الْهِرَّةِ وَأَكْلِ ثَمَنِهَا .

وَأَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شِبْلٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ أَكْلِ لَحْمِ الضَّبِّ . وَأَخْرَجَ مَالِكٌ ، وَالشَّافِعِيُّ ، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ ، وَالْبُخَارِيُّ ،

(178/255)

---

وَالتِّرْمِذِيُّ ، وَالنَّسَائِيُّ ، وَابْنُ مَاجَهْ ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الضَّبِّ فَقَالَ : " لَسْتُ آكُلُهُ وَلَا أُحَرِّمُهُ " وَأَخْرَجَ مَالِكٌ ، وَالْبُخَارِيُّ ، وَمُسْلِمٌ ، وَالنَّسَائِيُّ ، وَابْنُ مَاجَهْ ، عَنْ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ أَنَّهُ دَخَلَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْتَ مَيْمُونَةَ (وَهِيَ خَالَتُهُ) فَأُتِيَ بِضَبٍّ مَحْنُوذٍ (مَشْوِيٍّ بِالْحِجَارَةِ الْمُحْمَاةِ) فَأَهْوَى إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ ، فَقَالَ بَعْضُ النِّسْوَةِ : أَخْبِرُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا يُرِيدُ أَنْ يَأْكُلَ ، فَقَالُوا : هُوَ ضَبٌّ يَا رَسُولَ اللهِ ، فَرَفَعَ يَدَهُ فَقُلْتُ : أَحَرَامٌ هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : " لَا وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ بِأَرْضِ قَوْمِي فَأَجِدُنِي أَعَافُهُ " قَالَ خَالِدٌ : فَاجْتَرَرْتُهُ فَأَكَلْتُهُ وَرَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْظُرُ .

(179/255)

---

هَذِهِ جُمْلَةُ الْأَحَادِيثِ وَالْآثَارِ الَّتِي أَوْرَدَهَا السُّيُوطِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ مِمَّا يُؤَيِّدُ الْحَصْرَ فِي الْآيَةِ وَيُخَالِفُهُ . وَتَرَكْتُ أَضْعَفَ الْمُكَرَّرِ مِنْهَا وَإِنْ كَانَتْ فِيهِ زِيَادَةٌ كَحَدِيثِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ فِيمَا حُرِّمَ يَوْمَ خَيْبَرَ وَفِيهِ الْخَيْلُ وَالْبِغَالُ وَهُوَ ضَعِيفٌ وَإِنَّمَا أَسْلَمَ خَالِدٌ بَعْدَ خَيْبَرَ . وَفِي أَصَحِّهَا أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ كَانَ يَحْتَجُّ بِالْآيَةِ عَلَى حَصْرِ مُحَرَّمَاتِ الطَّعَامِ فِيمَا حَرَّمَتْهُ بِالنَّصِّ وَإِبَاحَةِ مَا عَدَاهُ وَلَا يَرَى مَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ وَغَيْرِهَا نَاسِخًا لَهَا وَلَا مُخَصِّصًا لِعُمُومِهَا عَلَى أَنَّ السَّلَفَ كَانُوا يُسَمُّونَ التَّخْصِيصَ نَسْخًا وَكَذَلِكَ ابْنُ عُمَرَ وَعَائِشَةُ وَهَؤُلَاءِ مِنْ أَعْلَمِ عُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ . وَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ الْقَطْعِيُّ الْمُجْمَعُ عَلَيْهِ فِي هَذَا الْبَابِ وَمَا عَدَاهُ فَهُوَ مُخْتَلَفٌ فِيهِ .

*(180/255)*

---

أَمَّا الْحُمُرُ الْأَهْلِيَّةُ أَوِ الْإِنْسِيَّةُ (وَيُقَابِلُهَا الْحُمُرُ الْوَحْشِيَّةُ وَهِيَ مُجْمَعٌ عَلَى حِلِّهَا) فَمَا وَرَدَ فِي حَظْرِهَا بِلَفْظِ النَّهْيِ يُحْتَمَلُ كَوْنُهُ لِلْكَرَاهَةِ كَمَا قَالَ مَنْ لَمْ يُحَرِّمْهَا ، وَأَقْوَاهَا مَا وَرَدَ بِلَفْظِ التَّحْرِيمِ مَعَ تَعْلِيلِهِ بِأَنَّهَا رِجْسٌ ، إِذْ صَرَّحَ بَعْضُهُمْ بِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا مُحَرَّمَةٌ لِنَجَاسَتِهَا وَهِيَ صِفَةٌ لَازِمَةٌ لَهَا كَالْخِنْزِيرِ وَسَتَعْلَمُ مَا فِيهِ . وَقَدْ يَكُونُ رِوَايَةً بِالْمَعْنَى مِمَّنْ فَهِمَ أَنَّ النَّهْيَ لِلتَّحْرِيمِ ، وَسَيَأْتِي أَنَّهُمُ اخْتَلَفُوا فِي فَهْمِهِ وَتَعْلِيلِهِ . وَمِثْلُهُ النَّهْيُ عَنْ أَكْلِ الضَّبِّ وَقَدْ فَهِمَ

بَعْضُهُمْ أَنَّهُ لِلتَّحْرِيمِ مَعَ صِحَّةِ الْحَدِيثِ بِحِلِّهِ وَهُوَ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لَسْتُ آكُلُهُ وَلَا أُحَرِّمُهُ " وَأَكْلِهِ فِي بَيْتِهِ بِحَضْرَتِهِ ، وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ سَبَبَ التَّحْرِيمِ قَوْلُ مَنْ قَالَ : أُكِلَتِ الْحُمُرُ ، ثُمَّ قَوْلُهُ : أُفْنِيَتِ الْحُمُرُ . وَإِنَّا نَنْقُلُ خُلَاصَةَ مَا قَالَ الْعُلَمَاءُ فِي الْمَسْأَلَةِ وَنَبْنِي عَلَيْهِ التَّحْقِيقَ فِيهَا فَنَقُولُ :

*(181/255)*

---

ذَكَرَ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ تَوَقَّفَ فِي النَّهْيِ عَنِ الْحُمُرِ ، هَلْ كَانَ لِمَعْنًى خَاصٍّ أَوْ لِلتَّأْبِيدِ وَاسْتَشْهَدَ بِقَوْلِ الشَّعْبِيِّ عَنْهُ : لَا أَدْرِي أَنْهَى عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ كَانَ حَمُولَةً لِلنَّاسِ فَكَرِهَ أَنْ تَذْهَبَ حَمُولَتُهُمْ ، أَوْ حَرَّمَهَا أَلْبَتَّةَ يَوْمَ خَيْبَرَ (قَالَ) : وَهَذَا التَّرَدُّدُ أَصَحُّ مِنَ الْخَبَرِ الَّذِي جَاءَ عَنْهُ بِالْجَزْمِ بِالْعِلَّةِ الْمَذْكُورَةِ ، وَكَذَا فِيمَا أَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ مِنْ طَرِيقِ شَقِيقِ بْنِ سَلَمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : إِنَّمَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْحُمُرَ الْأَهْلِيَّةَ مَخَافَةَ قِلَّةِ الظَّهْرِ ، وَسَنَدُهُ ضَعِيفٌ وَتَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ ابْنِ أَبِي أَوْفَى فَتَحَدَّثْنَا أَنَّهُ إِنَّمَا نَهَى عَنْهَا لِأَنَّهَا لَمْ تُخَمَّسْ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لِأَنَّهَا كَانَتْ تَأْكُلُ الْعَذِرَةَ . (قَالَ الْحَافِظُ) : وَقَدْ أَزَالَ هَذِهِ الِاحْتِمَالَاتِ مِنْ كَوْنِهَا لَمْ تُخَمَّسْ أَوْ كَانَتْ جَلَّالَةً (أَيْ تَأْكُلُ الْجِلَّةَ وَالْعَذِرَةَ) أَوْ كَانَتِ انْتُهِبَتْ حَدِيثُ أَنَسٍ حَيْثُ جَاءَ فِيهِ : " فَإِنَّهَا رِجْسٌ "

وَكَذَا الْأَمْرُ بِغَسْلِ الْإِنَاءِ فِي حَدِيثِ سَلَمَةَ ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : قَوْلُهُ : " فَإِنَّهَا رِجْسٌ " ظَاهِرٌ فِي عَوْدِ الضَّمِيرِ عَلَى الْحُمُرِ لِأَنَّهَا الْمُتَحَدَّثُ عَنْهَا الْمَأْمُورُ بِإِكْفَائِهَا مِنَ الْقُدُورِ وَغَسْلِهَا ، وَهَذَا حُكْمُ الْمُتَنَجِّسِ ، فَيُسْتَفَادُ مِنْهُ تَحْرِيمُ أَكْلِهَا وَهُوَ دَالٌّ عَلَى تَحْرِيمِهَا لِعَيْنِهَا لَا لِمَعْنًى خَارِجٍ . وَقَالَ ابْنُ

(182/255)

---

دَقِيقِ الْعِيدِ : الْأَمْرُ بِإِكْفَاءِ

الْقُدُورِ ظَاهِرٌ أَنَّهُ سَبَبُ تَحْرِيمِ لَحْمِ الْحُمُرِ ، وَقَدْ وَرَدَتْ عِلَلٌ أُخْرَى إِنْ صَحَّ شَيْءٌ مِنْهَا وَجَبَ الْمَصِيرُ إِلَيْهِ ، لَكِنْ لَا مَانِعَ أَنْ يُعَلَّلَ الْحُكْمُ بِأَكْثَرَ مِنْ عِلَّةٍ . وَحَدِيثُ أَبِي ثَعْلَبَةَ صَرِيحٌ فِي التَّحْرِيمِ فَلَا مَعْدِلَ عَنْهُ .

وَأَمَّا التَّعْلِيلُ بِخَشْيَةِ قِلَّةِ الظَّهْرِ فَأَجَابَ عَنْهُ الطَّحَاوِيُّ بِالْمُعَارَضَةِ بِالْخَيْلِ ، فَإِنَّ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ النَّهْيَ عَنِ الْحُمُرِ وَالْإِذْنَ فِي الْخَيْلِ مَقْرُونًا ، فَلَوْ كَانَتِ الْعِلَّةُ لِأَجْلِ الْحَمُولَةِ لَكَانَتِ الْخَيْلُ أَوْلَى بِالْمَنْعِ لِقِلَّتِهَا عِنْدَهُمْ وَشِدَّةِ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا .

(183/255)

وَالْجَوَابُ عَنْ آيَةِ الْأَنْعَامِ أَنَّهَا مَكِّيَّةٌ وَخَبَرَ التَّحْرِيمِ مُتَأَخِّرٌ جِدًّا فَهُوَ مُقَدَّمٌ وَأَيْضًا فَنَصُّ الْآيَةِ خَبَرٌ عَنْ حُكْمِ الْمَوْجُودِ عِنْدَ نُزُولِهَا ، فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ لَمْ يَكُنْ نَزَلَ فِي تَحْرِيمِ الْمَأْكُولِ إلَّا مَا ذُكِرَ فِيهَا وَلَيْسَ فِيهَا مَا يَمْنَعُ أَنْ يَنْزِلَ بَعْدَ ذَلِكَ غَيْرُ مَا فِيهَا ، وَقَدْ نَزَلَ بَعْدَهَا فِي الْمَدِينَةِ أَحْكَامٌ بِتَحْرِيمِ أَشْيَاءَ غَيْرِ مَا ذُكِرَ فِيهَا كَالْخَمْرِ فِي آيَةِ الْمَائِدَةِ وَفِيهَا أَيْضًا تَحْرِيمُ مَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، وَالْمُنْخَنِقَةِ إلَى آخِرِهِ . وَكَتَحْرِيمِ السِّبَاعِ وَالْحَشَرَاتِ . قَالَ النَّوَوِيُّ : قَالَ بِتَحْرِيمِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ مِنَ الصَّحَابَةِ فَمَنْ بَعْدَهُمْ ، وَلَمْ نَجِدْ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ فِي ذَلِكَ خِلَافًا إلَّا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعِنْدَ الْمَالِكِيَّةِ ثَلَاثُ رِوَايَاتٍ ثَالِثَتُهَا الْكَرَاهَةُ .

وَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ ، عَنْ غَالِبِ بْنِ أَبْجَرَ قَالَ : أَصَابَتْنَا سَنَةٌ

*(184/255)*

---

فَلَمْ يَكُنْ فِي مَالِي مَا أُطْعِمُ أَهْلِي إلَّا سِمَانَ حُمُرٍ فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ : إنَّكَ حَرَّمْتَ لُحُومَ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ ، وَقَدْ أَصَابَتْنَا سَنَةٌ قَالَ : " أَطْعِمْ أَهْلَكَ مِنْ سَمِينِ حُمُرِكَ فَإِنَّمَا حَرَّمْتُهَا مِنْ أَجْلِ جَوَالِّ الْقَرْيَةِ " يَعْنِي الْجَلَّالَةَ ، وَإِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ وَالْمَتْنُ شَاذٌّ مُخَالِفٌ لِلْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ فَلَا اعْتِمَادَ عَلَيْهَا . وَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي أَخْرَجَهُ الطَّبَرَانِيُّ

عَنْ أُمِّ نَصْرٍ الْمُحَارِبِيَّةِ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ فَقَالَ : " أَلَيْسَ تَرْعَى الْكَلَأَ وَتَأْكُلُ الشَّجَرَ ؟ " قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : " فَأَصِبْ مِنْ لُحُومِهَا " وَأَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ مِنْ طَرِيقِ رَجُلٍ مِنْ بَنِي مُرَّةَ قَالَ : سَأَلْتُ . فَذَكَرَ نَحْوَهُ – فَفِي السَّنَدَيْنِ مَقَالٌ وَلَوْ ثَبَتَا احْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ قَبْلَ التَّحْرِيمِ . قَالَ الطَّحَاوِيُّ : لَوْ تَوَاتَرَ الْحَدِيثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتَحْرِيمِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ لَكَانَ النَّظَرُ يَقْتَضِي حِلَّهَا ; لِأَنَّ كُلَّ مَا حُرِّمَ مِنَ الْأَهْلِيِّ أُجْمِعَ عَلَى تَحْرِيمِهِ إذَا كَانَ وَحْشِيًّا ، وَقَدْ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى حِلِّ الْحِمَارِ الْوَحْشِيِّ فَكَانَ النَّظَرُ يَقْتَضِي حِلَّ الْحِمَارِ الْأَهْلِيِّ وَالْوَحْشِيِّ مِنْهُ (وَرَدَّهُ الْحَافِظُ بِمَنْعِ دَعْوَى الْإِجْمَاعِ وَسَنَدُهُ أَنَّ بَعْضَ الْأَهْلِيِّ مُخْتَلَفٌ فِي وَحْشِيِّهِ كَالْهِرِّ) اهـ .

*(185/255)*

---

أَقُولُ : هَذَا مَا أَوْرَدَهُ الْحَافِظُ فِي شَرْحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ تَلْخِيصِ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ فِي مَسْأَلَةِ أَكْلِ الْحَمِيرِ وَعُلِمَ مِنْهُ أَنَّ عُمْدَةَ الْجَازِمِينَ بِالتَّحْرِيمِ حَدِيثُ أَنَسٍ الْمُعَلَّلُ لَهُ بِأَنَّهَا رِجْسٌ . وَنَقُولُ إنَّ هَذَا التَّعْلِيلَ هُوَ الرَّاجِحُ الْمُخْتَارُ عِنْدَنَا ، وَلَكِنَّهُ بِمَعْنَى حَدِيثِ غَالِبِ بْنِ أَبْجَرَ الْمَذْكُورِ آنِفًا لَا بِالْمَعْنَى الَّذِي رَدُّوهُ بِهِ وَجَعَلُوهُ شَاذًّا بِمُخَالَفَتِهِ ; إذْ فَسَّرُوا وَصْفَهَا بِالرِّجْسِ بِأَنَّهَا نَجِسَةُ الْعَيْنِ

كَالْخِنْزِيرِ بِالْمَعْنَى الْفِقْهِيِّ لِلنَّجَاسَةِ وَهُوَ مَا يَجِبُ غَسْلُهُ شَرْعًا ، وَيَمْنَعُ صِحَّةَ الصَّلَاةِ إذَا كَانَ فِي بَدَنِ الْمُصَلِّي أَوْ ثَوْبِهِ . وَحَدِيثُ غَالِبِ بْنِ أَبْجَرَ يُفَسِّرُ كَوْنَهَا رِجْسًا بِأَنَّهَا كَانَتْ هُنَالِكَ (أَيْ فِي خَيْبَرَ) تَأْكُلُ الْعَذِرَةَ وَغَيْرَهَا مِنَ النَّجَاسَاتِ ; وَبِذَلِكَ فَسَّرَ بَعْضُ الْمُدَقِّقِينَ كَالْبَيْضَاوِيِّ كَوْنَ الْخِنْزِيرِ رِجْسًا أَيْضًا . وَلَكِنَّ الْخِنْزِيرَ مُلَازِمٌ لِلْأَقْذَارِ دَائِمُ التَّغَذِّي مِنْهَا ، وَأَمَّا الْحُمُرُ فَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ أَمْرًا عَارِضًا لَهَا كَمَا يَعْرِضُ لِغَيْرِهَا مِنَ الدَّوَاجِنِ كَالدَّجَاجِ ، فَجَوَالٌّ مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إنَّمَا حَرَّمْتُهَا مِنْ أَجْلِ جَوَالِّ الْقَرْيَةِ " بِتَشْدِيدِ اللَّامِ جَمْعُ جَالَّةٍ كَهَوَامَّ جَمْعُ هَامَّةٍ وَدَوَابَّ جَمْعُ دَابَّةٍ ، وَهِيَ الْجَلَّالَةُ الَّتِي تَأْكُلُ الْعَذِرَةَ فَيَخْبُثُ لَحْمُهَا ، وَقَدْ صَحَّ النَّهْيُ عَنْهَا ، وَفَسَّرَهُ الشَّافِعِيَّةُ وَغَيْرُهُمْ بِتَحْرِيمِهَا تَحْرِيمًا عَارِضًا مُوَقَّتًا ، أَيْ مَا دَامَ لَحْمُهَا وَلَبَنُهَا مُتَغَيِّرًا مِنَ النَّجَاسَةِ بِالنَّتَنِ وَتَغَيُّرِ الرَّائِحَةِ ، وَهَذَا هُوَ الْعُمْدَةُ كَمَا جَزَمَ بِهِ النَّوَوِيُّ فِي الرَّوْضَةِ تَبَعًا لِلرَّافِعِيِّ ، وَقِيلَ : هِيَ مَا كَانَ أَكْثَرُ

عَلَفِهَا نَجِسًا ، فَحَدِيثُ أَنَسٍ شَاهِدٌ يُقَوِّي حَدِيثَ غَالِبِ بْنِ أَبْجَرَ لِأَنَّهُ بِمَعْنَاهُ لَا مُعَارِضَ لَهُ فَيُجْعَلُ شَاذًّا بِمُخَالَفَتِهِ إِيَّاهُ ، فَلَا يَضُرُّهُ اضْطِرَابُ سَنَدِهِ إِذًا مَعَ عَدَمِ الطَّعْنِ بِرِجَالِهِ .

وَحَدِيثُ أُمِّ نَصْرٍ الْمُحَارِبِيَّةِ يُقَوِّي مَا ذَكَرْنَاهُ بِتَعْلِيلِهِ حِلَّ لُحُومِ الْحُمُرِ بِكَوْنِهَا تَأْكُلُ الْكَلَأَ وَوَرَقَ الشَّجَرِ أَيْ لَا النَّجَاسَةَ – فَالْحَدِيثَانِ مُتَّفِقَانِ فِي الْمَعْنَى مَعَ حَدِيثِ أَنَسٍ الَّذِي هُوَ عُمْدَةُ الْقَائِلِينَ بِتَحْرِيمِ الْحُمُرِ ، وَإِنَّمَا يُجْمَعُ بَيْنَ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ وَبَيْنَ الْآيَةِ بَلِ الْآيَاتِ الْقَطْعِيَّةِ اللَّفْظِ وَالدَّالَّةِ عَلَى الْإِبَاحَةِ بِأَنَّ التَّحْرِيمَ كَانَ عَارِضًا مُوَقَّتًا فَيُقْصَرُ عَلَى وُجُودِ الْعِلَّةِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ وَيُبَاحُ فِي سَائِرِ الْأَحْوَالِ عَلَى الْأَصْلِ وَمُقْتَضَى النَّصِّ الْقَطْعِيِّ ، وَهَذَا لَا يَمْنَعُ صِحَّةَ تَعْلِيلِ بَعْضِ الصَّحَابَةِ إِيَّاهُ بِقِلَّةِ الظَّهْرِ أَيْ مَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ كَانَ سَبَبَ النَّهْيِ فِي حَدِيثِ أَنَسٍ وَتَلَاهُ قَوْلُهُ : فَإِنَّهَا رِجْسٌ . وَمَا قِيلَ مِنْ مُعَارَضَتِهِ بِحِلِّ الْخَيْلِ مَرْدُودٌ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِالْحَاجَةِ إِلَى الْحَمْلِ هِيَ حَمْلُ الْمَتَاعِ مِنَ الْغَنَائِمِ وَغَيْرِهَا وَلَمْ تَكُنِ الْخَيْلُ تُسْتَعْمَلُ لِهَذَا وَلَا تَفِي بِهِ ، وَقَدْ صَرَّحُوا بِأَنَّهَا كَانَتْ عَزِيزَةً وَقْتَئِذٍ . وَلَوْ كَانَتِ الْحَمِيرُ نَجِسَةَ الْعَيْنِ شَرْعًا لَوَرَدَ ذَلِكَ صَرِيحًا مِنْ أَوَّلِ الْإِسْلَامِ وَتَوَفَّرَتْ دَوَاعِي نَقْلِهِ وَتَوَاتُرِ الْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهُ ، وَإِكْفَاءُ الْقُدُورِ وَغَسْلُهَا لَوْ

لَمْ يَكُنْ لِلرِّجْسِ الْعَارِضِ مِنْ أَكْلِهَا الْعَذِرَةَ لَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ لِمَحْضِ النَّظَافَةِ كَمَا يَفْعَلُ جَمِيعُ النَّاسِ فِي جَمِيعِ الْقُدُورِ الَّتِي يَطْبُخُونَ فِيهَا لُحُومَ الْأَنْعَامِ وَغَيْرَهَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَإِنَّهُمْ يَغْسِلُونَهَا بَعْدَ فَرَاغِهَا .

وَأَمَّا جَوَابُهُمْ عَنِ الْآيَةِ بِأَنَّهَا مَكِّيَّةٌ بَيَّنَتْ مَا كَانَ مُحَرَّمًا وَقْتَ نُزُولِهَا وَلَيْسَ فِيهَا مَا يَمْنَعُ تَحْرِيمَ غَيْرِهِ بَعْدَهَا كَتَحْرِيمِ الْحُمُرِ وَالْمُنْخَنِقَةِ وَالْمَوْقُوذَةِ إِلَخْ . فَهُوَ غَفْلَةٌ وَقَعَ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الْحُفَّاظِ وَالْمُفَسِّرِينَ وَالْفُقَهَاءِ وَجَلَّ مَنْ لَا يَنْسَى وَلَا يُخْطِئُ .

الْآيَةُ قَدْ أَكَّدَتْهَا آيَةٌ بَعْدَهَا فِي سُورَةِ النَّحْلِ وَآيَةٌ مَدَنِيَّةٌ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ كَمَا ذَكَرْنَا وَسَيَأْتِي شَرْحُهُ . وَتَحْرِيمُ الْحُمُرِ لَيْسَ زَائِدًا عَلَى مَفْهُومِ الْآيَةِ لِأَنَّ الْآيَةَ فِي الْأَطْعِمَةِ وَالْأَغْذِيَةِ

(189/255)

---

وَبِهَذَا يُرَدُّ قَوْلُ مَنْ أَوْرَدَ عَلَى الْحَصْرِ أَكْلَ النَّجَاسَاتِ وَالسُّمُومِ فَإِنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ لَيْسَتْ أَطْعِمَةً فَتَدْخُلُ فِي عُمُومِ الْآيَةِ وَكَذَلِكَ الْحُمُرُ . وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْمُنْخَنِقَةَ وَمَا عُطِفَ عَلَيْهَا فِي آيَةِ الْمَائِدَةِ مِنَ الْمَيْتَةِ ، وَأَمَّا تَحْرِيمُ السِّبَاعِ وَالْحَشَرَاتِ فَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ ، وَمَا وَرَدَ فِي السُّنَّةِ مِنْهُ فَهُوَ مَوْضُوعُ الْبَحْثِ كَالْحُمُرِ الْإِنْسِيَّةِ وَقَدْ عَلِمْتَ الْمُخْتَارَ الْقَوِيَّ فِيهِ ، فَهَذَا بَيَانُ بُطْلَانِ مَا أَجَابُوا بِهِ عَنْهَا بِالْإِجْمَالِ وَسَيَأْتِي تَفْصِيلٌ فِيهِ قَرِيبٌ . وَمِنْ غَرَائِبِ السَّهْوِ ذِكْرُ

الْحَافِظِ أَنَّ مَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ مِمَّا حُرِّمَ بَعْدَهَا

وَهُوَ فِيهَا .

(190/255)

---

وَأَمَّا مَا وَرَدَ فِي أَكْلِ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ وَمِخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ بِلَفْظِ النَّهْيِ فَلَيْسَ نَصًّا فِي التَّحْرِيمِ لِاحْتِمَالِهِ الْكَرَاهَةَ ، وَتَرْجِيحُ الِاحْتِمَالِ بِدَفْعِ التَّعَارُضِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَصْرِ فِي الْآيَاتِ الثَّلَاثِ مُتَعَيِّنٌ عَلَى أَنَّهُ يُرَدُّ عَلَى الْحَدِيثِ أَنَّهُ كَانَ غَيْرَ مَعْرُوفٍ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْحَدِيثِ فِي الْحِجَازِ ، وَلَوْ حُرِّمَ تَحْرِيمًا قَطْعِيًّا فِي غَزْوَةٍ مَشْهُورَةٍ لَنُقِلَ بِالتَّوَاتُرِ . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ شِهَابٍ الزُّهْرِيِّ أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ هَذَا النَّهْيَ فِي الْحِجَازِ حَتَّى إذَا جَاءَ الشَّامَ سَمِعَهُ مِنْ أَبِي إدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ وَفِي بَعْضِ طُرُقِهِ مَالِكٌ ، وَهُوَ يَقُولُ بِكَرَاهَةِ أَكْلِ السِّبَاعِ لَا بِتَحْرِيمِهَا ، فَالظَّاهِرُ أَنَّ سَبَبَ حَمْلِهِ النَّهْيَ عَلَى الْكَرَاهَةِ الْآيَاتُ وَاسْتِبَاحَةُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لِأَكْلِ السِّبَاعِ إذْ كَانَ يُحْتَجُّ بِعَمَلِهِمْ فِي مِثْلِ هَذَا – وَأَمَّا حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ الَّذِي انْفَرَدَ بِهِ مُسْلِمٌ بِلَفْظِ " فَأَكْلُهُ حَرَامٌ " فَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ مِنَ الرِّوَايَةِ بِالْمَعْنَى ، أَيْ أَنَّهُ فَهِمَ مِنَ النَّهْيِ التَّحْرِيمَ فَعَبَّرَ بِهِ وَهَذَا كَثِيرٌ فِي أَحَادِيثَ كَكَثْرَةِ مَرَاسِيلِهِ . وَمِمَّا يُعِلُّ بِهِ الْحَدِيثَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ أَنْ يَكُونَ رَاوِيهِ فَقِيهًا وَمَذْهَبُهُ مُخَالِفٌ لِرِوَايَتِهِ ، فَالْحَنَفِيَّةُ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ يَرَى أَنَّ الْحَدِيثَ لَا يُحْتَجُّ بِهِ لَمَا

خَالَفَهُ ، وَنَاهِيكَ بِمِثْلِ الْإِمَامِ مَالِكٍ فِي عِلْمِ الْحَدِيثِ وَفِقْهِهِ وَهُوَ مِنْ رُوَاتِهِ . وَحَدِيثَا جَابِرٍ وَالْعِرْبَاضِ

(191/255)

---

الْمُصَرِّحَانِ بِالتَّحْرِيمِ لَيْسَا صَحِيحَيْنِ وَإِنَّمَا حُسِّنَا لِمُوَافَقَتِهِمَا لِأَحَادِيثِ الصَّحِيحَيْنِ وَلَا سِيَّمَا حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ . عَلَى أَنَّهُمَا قَالَا : حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ كَذَا وَكَذَا ، فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ تَعْبِيرٌ عَمَّا فَهِمَا مِنْ كَوْنِ النَّهْيِ لِلتَّحْرِيمِ ، فَلَيْسَ لَهُ قُوَّةُ الْمَرْفُوعِ . وَقَدْ عُلِمَ مِنْ سَائِرِ الرِّوَايَاتِ الْوَارِدَةِ فِيمَا نَهَى عَنْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي خَيْبَرَ أَنَّ الصَّحَابَةَ قَدِ اخْتَلَفُوا فِي هَذَا النَّهْيِ فَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّهُ عَارِضٌ مُوَقَّتٌ وَفَهِمَ آخَرُونَ أَنَّهُ قَطْعِيٌّ فَالْمَسْأَلَةُ خِلَافِيَّةٌ

.

قَالَ الْحَافِظُ فِي شَرْحِ حَدِيثِ أَبِي ثَعْلَبَةَ مِنَ الْفَتْحِ : قَالَ التِّرْمِذِيُّ : الْعَمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ ، وَعَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ لَا يُحَرِّمُ ، وَحَكَى ابْنُ وَهْبٍ ، وَابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ عَنْ مَالِكٍ كَالْجُمْهُورِ ، وَقَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ : الْمَشْهُورُ عَنْهُ الْكَرَاهَةُ . وَقَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ : اخْتُلِفَ فِيهِ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَائِشَةَ ، وَجَاءَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ مِنْ وَجْهٍ ضَعِيفٍ وَهُوَ قَوْلُ الشَّعْبِيِّ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ (يَعْنِي عَدَمَ التَّحْرِيمِ) وَاحْتَجُّوا بِعُمُومِ (قُلْ لَا أَجِدُ) وَالْجَوَابُ أَنَّهَا مَكِّيَّةٌ وَحَدِيثُ

التَّحْرِيمِ بَعْدَ الْهِجْرَةِ ثُمَّ ذَكَرَ نَحْوَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّ نَصَّ الْآيَةِ عَدَمُ تَحْرِيمِ غَيْرِ مَا ذُكِرَ إذًا فَلَيْسَ فِيهَا نَفْيُ مَا سَيَأْتِي ، وَعَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّ آيَةَ الْأَنْعَامِ خَاصَّةٌ بِبَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ لِأَنَّهُ تَقَدَّمَ قَبْلَهَا حِكَايَةٌ عَنِ الْجَاهِلِيَّةِ أَنَّهُمْ

(192/255)

---

كَانُوا يُحَرِّمُونَ أَشْيَاءَ مِنَ الْأَزْوَاجِ الثَّمَانِيَةِ بِآرَائِهِمْ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ : (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ) أَيْ مِنَ الْمَذْكُورَاتِ إلَّا الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ الْمَسْفُوحَ

وَلَا يَرِدُ كَوْنُ لَحْمِ الْخِنْزِيرِ ذُكِرَ مَعَهَا لِأَنَّهَا قَرَنَتْ بِهِ عِلَّةَ تَحْرِيمِهِ وَهُوَ كَوْنُهُ نَجِسًا ، وَنَقَلَ إمَامُ الْحَرَمَيْنِ عَنِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ يَقُولُ بِخُصُوصِ السَّبَبِ إذَا وَرَدَتْ مِثْلُ هَذِهِ الْقِصَّةِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَجْعَلِ الْآيَةَ حَاصِرَةً لِمَا يُحَرَّمُ مِنَ الْمَأْكُولَاتِ مَعَ وُرُودِ صِيغَةِ الْعُمُومِ فِيهَا ، وَذَلِكَ أَنَّهَا وَرَدَتْ فِي الْكُفَّارِ الَّذِينَ يُحِلُّونَ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ، وَيُحَرِّمُونَ كَثِيرًا مِمَّا أَبَاحَهُ الشَّرْعُ ، فَكَانَ الْغَرَضُ مِنَ الْآيَةِ إبَانَةَ حَالِهِمْ وَأَنَّهُمْ يُضَادُّونَ الْحَقَّ فَكَأَنَّهُ قِيلَ : لَا حَرَامَ إلَّا مَا حَلَّلْتُمُوهُ مُبَالَغَةً فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ . وَحَكَى الْقُرْطُبِيُّ عَنْ قَوْمٍ أَنَّ آيَةَ الْأَنْعَامِ الْمَذْكُورَةَ نَزَلَتْ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ فَتَكُونُ نَاسِخَةً ، وَرُدَّ بِأَنَّهَا مَكِّيَّةٌ كَمَا صَرَّحَ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَيُؤَيِّدُهُ مَا تَقَدَّمَ قَبْلَهَا مِنَ الْآيَاتِ مِنَ الرَّدِّ عَلَى مُشْرِكِي الْعَرَبِ فِي تَحْرِيمِهِمْ مَا حَرَّمُوهُ مِنَ الْأَنْعَامِ ،

وَتَخْصِيصِهِمْ بَعْضَ ذَلِكَ بِآلِهَتِهِمْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا سَبَقَ لِلرَّدِّ عَلَيْهِمْ وَذَلِكَ كُلُّهُ قَبْلَ الْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ اهـ .

(193/255)

---

أَقُولُ : هَذَا أَقْوَى وَأَوْسَعُ مَا أَجَابُوا بِهِ عَنِ الْآيَةِ قَدْ لَخَّصَهُ أَحْفَظُ الْحُفَّاظِ وَأَوْسَعُهُمُ اطِّلَاعًا ، وَكُلُّهُ سَاقِطٌ عَلَى جَلَالَةِ قَائِلِيهِ ، وَفِي سُقُوطِهِ أَكْبَرُ حُجَّةٍ عَلَى الْمُقَلِّدِينَ الَّذِينَ يَتْرُكُونَ الْعِلْمَ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ بِالِاسْتِقْلَالِ وَالْإِنْصَافِ ، بِزَعْمِ أَنَّ مَشَايِخَهُمْ وَأَئِمَّتَهُمْ أَحَاطُوا بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ، حَتَّى فِيمَا خَالَفَهُمْ فِيهِ أَمْثَالُهُمْ مِنَ الْمُجْتَهِدِينَ وَمَنْ فَوْقَهُمْ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ : وَلَسْنَا نُسْقِطُهُ بِنَظَرِيَّاتٍ اجْتِهَادِيَّةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِنَا ، وَإِنَّمَا نُسْقِطُهُ بِمَا غَفَلُوا عَنْهُ مِنْ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى عِنْدَ الْبَحْثِ فِي تَأْيِيدِ مَذْهَبِهِمْ وَالِاحْتِجَاجِ لَهُ – وَذَلِكَ أَظْهَرُ مَوَاضِعِ الْعِبْرَةِ – وَهُوَ مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ مِنْ أَنَّ آيَةَ الْأَنْعَامِ قَدْ تَقَرَّرَ مَضْمُونُ مَعْنَى الْحَصْرِ فِيهَا فِي آيَةِ النَّحْلِ الْمَكِّيَّةِ (16 : 115) وَآيَةِ الْبَقَرَةِ الْمَدَنِيَّةِ بِالْإِجْمَاعِ . وَالْخِطَابُ فِي هَذِهِ لِلْمُؤْمِنِينَ حَتْمًا فَلَا يَصِحُّ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ التَّأْوِيلَاتِ الَّتِي نَقَلَهَا الْحَافِظُ آنِفًا عَلَى عِلَّاتِهَا ، وَلَعَلَّهُ لَوْلَا نَصْرُ الْمَذْهَبِ لَمَا نَسِيَ الْحَافِظُ هَذَا عِنْدَ النَّقْلِ ، وَلَا تَأْيِيدُ الْفَخْرِ الرَّازِيِّ لِلْحَصْرِ فِيهَا

وَرَدُّهُ عَلَى الْجُمْهُورِ ، وَهَذَا نَصُّ آيَةِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَالْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهَا فِي خِطَابِ الْمُؤْمِنِينَ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ

(194/255)

---

الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (2 : 172 ، 173) لَفْظُ (إِنَّمَا) يُفِيدُ الْحَصْرَ وَلَا يَأْتِي فِيهِ شَيْءٌ مِنَ التَّأْوِيلَاتِ الَّتِي تَكَلَّفُوهَا فِي آيَةِ الْأَنْعَامِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِ تَفْسِيرِهَا حَتَّى جَعَلُوا الْعِبْرَةَ بِخُصُوصِ السَّبَبِ لَا بِعُمُومِ اللَّفْظِ عَلَى عَكْسِ الْقَاعِدَةِ الْأُصُولِيَّةِ الْمَشْهُورَةِ الَّتِي يُؤَيِّدُ جَرَيَانَهَا فِي الْآيَةِ تَفْسِيرُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ مِنْ عُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ . وَهَاهُنَا نُكْتَةٌ دَقِيقَةٌ فِي التَّعْبِيرِ بِآيَةِ الْمَائِدَةِ عَنِ الْحَصْرِ بِالْإِثْبَاتِ بَعْدَ النَّفْيِ الْعَامِّ الْمُسْتَغْرِقِ ، وَفِي آيَتَيِ النَّحْلِ وَالْبَقَرَةِ بِـ (إِنَّمَا) لَمْ أَرَ أَحَدًا مِنَ الْمُفَسِّرِينَ تَعَرَّضَ لَهَا ، وَإِنَّمَا أَخَذْتُهَا مِنْ دَلَائِلِ الْإِعْجَازِ لِإِمَامِ عُمُومِ الْبَلَاغَةِ وَوَاضِعِهَا الشَّيْخِ عَبْدِ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيِّ فَنُلَخِّصُ قَوْلَهُ فِيهَا مَزِيدًا فِي الْبَيَانِ ، وَدَقَائِقِ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ . قَالَ :

قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ الزَّجَّاجُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ) النَّصْبُ فِي الْمَيْتَةِ هُوَ الْقِرَاءَةُ وَيَجُوزُ (إِنَّمَا حَرُمَ عَلَيْكُمْ) قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ : وَالَّذِي أَخْتَارُهُ أَنْ تَكُونَ " مَا " هِيَ

الَّتِي تَمْنَعُ " إِنَّ " مِنَ الْعَمَلِ وَيَكُونُ الْمَعْنَى : مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا الْمَيْتَةَ لِأَنَّ " إِنَّمَا " تَأْتِي إِثْبَاتًا لِمَا يُذْكَرُ بَعْدَهَا وَنَفْيًا لِمَا سِوَاهُ .

(195/255)

---

ثُمَّ ذَكَرَ الشَّيْخُ عَبْدُ الْقَاهِرِ أَنَّ بَيْنَ الْحَصْرَيْنِ فَرْقًا لَا يُنَافِيهِ مَا قَالَهُ الزَّجَّاجُ وَغَيْرُهُ مِنْ أَئِمَّةِ اللُّغَةِ فِي كَوْنِ كُلٍّ مِنَ الصِّيغَتَيْنِ لِلْحَصْرِ وَأَوْرَدَ أَمْثِلَةً لِذَلِكَ يَظْهَرُ مِنْهَا أَنَّهُ لَا يَصِحُّ أَنْ يَقَعَ كُلٌّ مِنْهُمَا فِي مَكَانِ الْآخَرِ . ثُمَّ قَالَ : اعْلَمْ أَنَّ مَوْضُوعَ " إِنَّمَا " عَلَى أَنْ تَجِيءَ لِخَبَرٍ لَا يَجْهَلُهُ الْمُخَاطَبُ وَلَا يَدْفَعُ صِحَّتَهُ أَوْ لِمَا يَنْزِلُ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ . تَفْسِيرُ ذَلِكَ أَنَّكَ تَقُولُ لِلرَّجُلِ : إِنَّمَا هُوَ أَخُوكَ وَإِنَّمَا هُوَ صَاحِبُكَ الْقَدِيمُ . لَا تَقُولُهُ لِمَنْ يَجْهَلُ ذَلِكَ وَيَدْفَعُ صِحَّتَهُ وَلَكِنْ لِمَنْ يَعْلَمُهُ وَيُقِرُّ بِهِ إِلَّا أَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تُنَبِّهَهُ لِلَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ حَقِّ الْأَخِ وَحُرْمَةِ الصَّاحِبِ . . .

. . .

(196/255)

---

وَمِثَالُهُ مِنَ التَّنْزِيلِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ) (36) وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : (إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ) (36 : 11) وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا) (79 : 45) كُلُّ ذَلِكَ تَذْكِيرٌ بِأَمْرٍ مَعْلُومٍ ، وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ عَاقِلٍ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا تَكُونُ اسْتِجَابَةٌ إلَّا مِمَّنْ يَسْمَعُ وَيَعْقِلُ مَا يُقَالُ لَهُ وَيُدْعَى إلَيْهِ ، وَأَنَّ مَنْ لَمْ يَسْمَعْ وَلَمْ يَعْقِلْ لَمْ يَسْتَجِبْ وَكَذَلِكَ مَعْلُومٌ أَنَّ الْإِنْذَارَ إنَّمَا يَكُونُ إنْذَارًا وَيَكُونُ لَهُ تَأْثِيرٌ إذَا كَانَ مَعَ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَخْشَاهُ وَيُصَدِّقُ بِالْبَعْثِ وَالسَّاعَةِ ، فَأَمَّا الْكَافِرُ الْجَاهِلُ فَالْإِنْذَارُ وَتَرْكُ الْإِنْذَارِ مَعَهُ وَاحِدٌ ثُمَّ قَالَ بَعْدَ أَمْثِلَةٍ أُخْرَى :

وَأَمَّا الْخَبَرُ بِالنَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ نَحْوُ : مَا هَذَا إلَّا كَذَا ، وَإِنْ هُوَ إلَّا كَذَا ، فَيَكُونُ لِلْأَمْرِ يُنْكِرُهُ الْمُخَاطَبُ وَيَشُكُّ فِيهِ . فَإِذَا قُلْتَ : مَا هُوَ إلَّا مُصِيبٌ ، أَوْ مَا هُوَ إلَّا مُخْطِئٌ - قُلْتَهُ لِمَنْ يَدْفَعُ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ عَلَى مَا قُلْتَهُ . وَإِذَا رَأَيْتَ شَخْصًا مِنْ بَعِيدٍ فَقُلْتَ : مَا هُوَ إلَّا زَيْدٌ - لَمْ تَقُلْهُ إلَّا وَصَاحِبُكَ يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ لَيْسَ بِزَيْدٍ وَأَنَّهُ

*(197/255)*

---

إنْسَانٌ آخَرُ وَيَجِدُ فِي الْإِنْكَارِ أَنْ يَكُونَ زَيْدًا ثُمَّ بَيَّنَ بَعْدَ أَمْثِلَةٍ ظَاهِرَةٍ فِي الْقَاعِدَةِ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى حِكَايَةً لِقَوْلِ الْكُفَّارِ لِرُسُلِهِمْ : (إِنْ أَنْتُمْ إلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا) (14 : 10) إنَّمَا جَاءَ بِالنَّفْيِ

وَالْإِثْبَاتِ دُونَ " إِنَّمَا " مَعَ أَنَّهُ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْفَرِيقَيْنِ لِأَنَّهُمْ جَعَلُوا الرُّسُلَ كَأَنَّهُمْ بِادِّعَائِهِمُ النُّبُوَّةَ قَدْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَهُمْ عَنْ كَوْنِهِمْ بَشَرًا مِثْلَهُمْ وَادَّعَوْا أَمْرًا لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لِمَنْ هُوَ بَشَرٌ . وَلَمَّا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ أُخْرِجَ اللَّفْظُ مَخْرَجَهُ حَيْثُ يُرَادُ أَمْرٌ يَدْفَعُهُ الْمُخَاطَبُ وَيَدَّعِي خِلَافَهُ . ثُمَّ جَاءَ الْجَوَابُ مِنَ الرُّسُلِ الَّذِي هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ) (14 : 11) كَذَلِكَ بِـ " إِنْ " وَ " إِلَّا " دُونَ " إِنَّمَا " –

لِأَنَّ مِنْ حِكَمِ مَنِ ادَّعَى عَلَيْهِ خَصْمُهُ الْخِلَافَ فِي أَمْرٍ هُوَ لَا يُخَالِفُ فِيهِ أَنْ يُعِيدَ كَلَامَ الْخَصْمِ عَلَى وَجْهِهِ وَيَحْكِيهِ كَمَا هُوَ اهـ . مُلَخَّصًا مِنَ الْفَصْلِ الْأَوَّلِ فِي مَسَائِلِ " إِنَّمَا " وَصَرَّحَ فِي الْفَصْلِ الثَّانِي بِأَنْ " إِنَّمَا " تُفِيدُ فِي الْكَلَامِ بَعْدَهَا إِيجَابَ الْفِعْلِ لِشَيْءٍ وَنَفْيَهُ عَنْ غَيْرِهِ ، وَأَطَالَ فِي الْأَمْثِلَةِ وَشَرْحِهَا كَعَادَتِهِ .

*(198/255)*

---

وَهَذَا التَّحْقِيقُ يَنْطَبِقُ عَلَى الْآيَاتِ الثَّلَاثِ فِي حَصْرِ مُحَرَّمَاتِ الطَّعَامِ فِي الْأَنْوَاعِ الْأَرْبَعَةِ فَآيَةُ الْأَنْعَامِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِ تَفْسِيرِهَا جَاءَتْ فِي سِيَاقِ الرَّدِّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِيمَا افْتَرَوْهُ مِنْ تَحْرِيمِ مَا لَمْ يُحَرِّمِ اللَّهُ ، مَعَ ادِّعَائِهِمْ أَنَّهُ حَرَّمَهُ افْتِرَاءً عَلَيْهِ تَعَالَى . كَمَا تَقَدَّمَ شَرْحُهُ – فَجَاءَ حَصْرُ التَّحْرِيمِ فِيمَا ذُكِرَ فِيهَا بِالنَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَجْهَلُونَهُ وَيُنْكِرُونَهُ ، عَلَى أَنَّ

الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَهُ أَيْضًا لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَا نَزَلَ فِي الْمَسْأَلَةِ ; وَلِذَلِكَ فَسَّرَ بِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى قَبْلَهُ مِنَ السُّورَةِ : (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ) (6 : 119) وَلَمْ يُفَسَّرْ بِآيَةِ النَّحْلِ مَعَ أَنَّهَا مَكِّيَّةٌ ، لِأَنَّ الْمَرْوِيَّ أَنَّ الْأَنْعَامَ نَزَلَتْ قَبْلَ النَّحْلِ ، ثُمَّ جَاءَتْ آيَةُ النَّحْلِ بِـ " إِنَّمَا " عَلَى قَاعِدَتِهِ كَمَا سَيَأْتِي ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْخِطَابَ فِيهَا لِلنَّاسِ كَافَّةً مُؤْمِنِهِمْ وَكَافِرِهِمْ وَإِنْ جَاءَتْ فِي سِيَاقِ الْكَلَامِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ، وَإِلَّا كَانَ جَعْلُهَا الْتِفَاتًا إِلَى مُخَاطَبَةِ الْمُؤْمِنِينَ أَرْجَحَ مِنْ جَعْلِهَا خَاصَّةً بِخِطَابِ الْمُشْرِكِينَ ، فَإِنَّهَا مَعَ الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهَا كَآيَتَيِ الْبَقَرَةِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ بَيَانَ الْمُحَرَّمَاتِ فِي السُّورَتَيْنِ جَاءَ بَعْدَ الْأَمْرِ بِأَكْلِ الْحَلَالِ الطَّيِّبِ وَالشُّكْرِ لِلَّهِ الَّذِي يَقْتَضِي إِفْرَادَهُ بِالْعِبَادَةِ . وَهَذَا نَصُّهُمَا (فَكُلُوا مِمَّا

*(199/255)*

---

رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (16 : 114 ، 115) وَإِنَّمَا اخْتَرْنَا أَنَّهَا خِطَابٌ لِلنَّاسِ كَافَّةً لِمُنَاسَبَةِ السِّيَاقِ ، وَلِأَنَّ آيَتَيِ الْبَقَرَةِ قَدْ جَاءَتَا بَعْدَ آيَةٍ فِي خِطَابِ النَّاسِ كَافَّةً وَهِيَ :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا
وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (168)

(200/255)

---

فَتَكُونُ آيَتَا النَّحْلِ بِمَعْنَى الْآيَاتِ الثَّلَاثِ فِي الْبَقَرَةِ بِمَعُونَةِ السِّيَاقِ وَالْإِيجَازِ فِي السُّورَةِ الْمَكِّيَّةِ كَالْإِطْنَابِ فِي السُّوَرِ الْمَدَنِيَّةِ كُلٌّ مِنْهُمَا مَعْهُودٌ ، وَبَيَّنَّا سَبَبَهُ مِنْ قَبْلُ فَعَلَى هَذَا تَكُونُ الْآيَةُ الْأُولَى مِنَ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ فِي تَحْرِيمِ مُحَرَّمَاتِ الطَّعَامِ أُنْزِلَتْ بَيَانًا لِحُكْمِ اللهِ فِي سِيَاقِ الِاحْتِجَاجِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الْمُنْكِرِينَ لِمَضْمُونِهِ . بِمَا كَانُوا يُحِلُّونَ وَيُحَرِّمُونَ بِأَهْوَائِهِمْ وَيَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ تَعَالَى - كَمَا تَقَدَّمَ ، وَلَمْ يَكُنْ سَبَقَهَا بَيَانٌ مِنَ الْوَحْيِ فِي ذَلِكَ فَجَاءَتْ بِحَصْرِ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ عَلَى الْقَاعِدَةِ ، ثُمَّ أُنْزِلَتْ آيَةُ النَّحْلِ مُؤَكِّدَةً لِمَضْمُونِهَا فِي خِطَابِ النَّاسِ كَافَّةً وَهُمْ أُمَّةُ الدَّعْوَةِ فِي سِيَاقِ مِنَّةِ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ وَمُطَالَبَتِهِمْ بِشُكْرِهَا فَإِنَّ سُورَةَ النَّحْلِ هِيَ السُّورَةُ الَّتِي خُصَّ أُسْلُوبُهَا بِسَرْدِ نِعَمِ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ ثُمَّ أُنْزِلَتْ آيَةُ الْبَقَرَةِ بَعْدَ الْهِجْرَةِ مُؤَكِّدَةً لِمَضْمُونِ آيَةِ النَّحْلِ فِي خِطَابِ الْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً ، وَعُبِّرَ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا عَنِ الْحَصْرِ بِـ " إِنَّمَا " عَلَى الْقَاعِدَةِ لِأَنَّ هَذَا الْحَصْرَ كَانَ مَعْرُوفًا وَمُقَرَّرًا بِآيَةِ الْأَنْعَامِ .

(201/255)

وَإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا فَهُوَ حُجَّةٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ بَعْدَ هَذَا التَّأْكِيدِ الْمُكَرَّرِ بِصِيغَتَيِ الْحَصْرِ وَمِمَّا سَيَأْتِي أَيْضًا أَنْ يَكُونَ الْحُكْمُ قَابِلًا لِلنَّسْخِ وَالتَّبْدِيلِ ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْأُصُولِ الثَّابِتَةِ الْعَامَّةِ الَّتِي لَا تَقْبَلُ النَّسْخَ وَلَا التَّخْصِيصَ ، فَهِيَ نَفْسُهَا مُخَصِّصَةٌ لِلْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى إِبَاحَةِ مَنَافِعِ الْأَرْضِ كُلِّهَا لِلنَّاسِ ، وَأَنَّ الْأَصْلَ فِي الِانْتِفَاعِ بِالْأَشْيَاءِ كُلِّهَا الْحِلُّ ، وَلَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَخْصِيصٌ آخَرُ لِذَلِكَ وَلَا فِي الْأَخْبَارِ الْمُتَوَاتِرَةِ عَنْ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنَّمَا هُنَالِكَ أَخْبَارٌ آحَادٌ لَيْسَتْ قَطْعِيَّةَ النَّصِّ وَلَا الدَّلَالَةِ عَلَى التَّحْرِيمِ كَمَا عَلِمْتَ - وَأَشْهَرُهَا وَأَقْوَاهَا حَدِيثُ تَحْرِيمِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ الَّذِي قَالَ فِيهِ الزُّهْرِيُّ - أَحَدُ أَرْكَانِ رُوَاتِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ التَّابِعِينَ بِالسُّنَّةِ فِي وَطَنِهَا الْأَعْظَمِ وَهُوَ الْحِجَازُ - إِنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ بِهِ فِي الْحِجَازِ حَتَّى إِذَا جَاءَ الشَّامَ سَمِعَهُ مِنْ أَحَدِ فُقَهَائِهَا فَكَيْفَ حُرِّمَ ذَلِكَ فِي الْحِجَازِ وَبُلِّغَ لِلنَّاسِ فِي جَيْشٍ عَظِيمٍ فِيهِ وَبَقِيَ إِلَى زَمَنِ الرِّوَايَةِ وَالتَّدْوِينِ خَفِيًّا عَنْ مِثْلِ الزُّهْرِيِّ فِي سَعَةِ عِلْمِهِ وَعِنَايَتِهِ بِالرِّوَايَةِ ؟ وَمَذْهَبُ جَمَاهِيرِ عُلَمَاءِ الْأُصُولِ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ أَنَّ الْأَصْلَ عَدَمُ النَّسْخِ وَأَنَّ أَخْبَارَ الْآحَادِ لَا يَنْسَخُ الْقُرْآنَ ؛ لِأَنَّ النَّاسِخَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُسَاوِيًا لِلْمَنْسُوخِ فِي الْقُوَّةِ أَوْ أَقْوَى مِنْهُ . قَالَ إِلْكِيَا

الْهَرَّاسِيُّ : وَهَذَا مِمَّا قَضَى بِهِ الْعَقْلُ ، بَلْ دَلَّ عَلَيْهِ الْإِجْمَاعُ ، فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَنْسَخُوا نَصَّ الْقُرْآنِ بِخَبَرِ الْوَاحِدِ ، وَنَقَلَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمُ الْإِجْمَاعَ عَلَى عَدَمِ وُقُوعِهِ ، مِنْهُمُ ابْنُ السَّمْعَانِيِّ وَصَاحِبُ التَّقْرِيبِ وَأَبُو إِسْحَاقَ الشِّيرَازِيُّ فِي اللُّمَعِ وَالْقَاضِي أَبُو الطَّيِّبِ فِي الْكِفَايَةِ ، وَلَكِنْ حَكَى ابْنُ حَزْمٍ وُقُوعَهُ ، وَهِيَ رِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ .

(203/255)

---

وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ أَخْبَارَ الْآحَادِ فِي تَحْرِيمِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ وَالسِّبَاعِ مُخَصِّصَةً لِعُمُومِ حِلِّ مَا عَدَا الْأَرْبَعَةَ الْمَنْصُوصَ عَلَى حَصْرِ التَّحْرِيمِ فِيهَا ، وَالْجُمْهُورُ يَقُولُونَ بِتَخْصِيصِ خَبَرِ الْوَاحِدِ لِلْكِتَابِ ، وَمَنَعَهُ بَعْضُ الْحَنَابِلَةِ مُطْلَقًا ، وَأُنَاسٌ آخَرُونَ بِقُيُودٍ مَعْرُوفَةٍ فِي مَوَاضِعِهَا . وَرُدَّ بِأَنَّ هَذَا نَسْخٌ لَا تَخْصِيصٌ ، وَجَزَمَ بِذَلِكَ الرَّازِيُّ وَيُؤَيِّدُهُ بَعْضُ مَا ذَكَرُوهُ مِنَ الْفُرُوقِ بَيْنَهُمَا كَكَوْنِ التَّخْصِيصِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَى الْفَوْرِ وَلَا يَجُوزُ تَأْخِيرُهُ عَنْ وَقْتِ الْعَمَلِ بِالْمَخْصُوصِ وَالنَّسْخُ بِخِلَافِ ذَلِكَ ، وَأَنَّهُ عِبَارَةٌ عَنْ بَيَانِ مَا أُرِيدَ بِالْعُمُومِ ، وَأَنَّهُ يُؤْذِنُ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِالْعُمُومِ عِنْدَ الْخِطَابِ مَا عَدَاهُ ، وَلَا يَصِحُّ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي فِي مَسْأَلَتِنَا ، فَإِنَّ عُمُومَ إِبَاحَةِ مَا عَدَا الْأَنْوَاعَ الْأَرْبَعَةَ كَانَ فِي أَوَائِلِ الْإِسْلَامِ بِمَكَّةَ ، وَمَا ذُكِرَ مِنْ تَحْرِيمِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ وَالسِّبَاعِ

كَانَ فِي أَوَاخِرِ سِنِي الْهِجْرَةِ بِخَيْبَرَ سَنَةَ سَبْعٍ ، وَلَوْ أَرَادَ اللهُ تَخْصِيصَهُ عِنْدَ إِنْزَالِ آيَةِ الْمَائِدَةِ لَمَا عَبَّرَ عَنْهُ بِصِيغَةِ الْحَصْرِ ، وَلَمَا أَكَّدَهُ بَعْدَهَا مِرَارًا .

(204/255)

---

وَقَدْ أَطْنَبَ الرَّازِيُّ فِي تَقْرِيرِ دَلَالَةِ الْآيَةِ عَلَى الْحَصْرِ وَكَوْنِهَا مُحْكَمَةً بَاقِيَةً عَلَى عُمُومِهَا وَدَفْعِ مَا أَوْرَدُوهُ عَلَيْهَا ، وَزَادَ عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ مِنْ كَوْنِ التَّحْرِيمِ لَا يُعْرَفُ إِلَّا مِنَ الْوَحْيِ ، وَكَوْنُ الْوَحْيِ قَرَّرَ هَذَا الْحَصْرَ ، وَأَكَّدَ آيَةَ الْأَنْعَامِ فِيهِ بِآيَتَيِ النَّحْلِ وَالْبَقَرَةِ - أَنْ جَعَلَ آيَةَ أَوَّلِ الْمَائِدَةِ مُؤَكِّدَةً لِتَقْرِيرِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ) مَعَ إِجْمَاعِ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى الْمُرَادِ بِهَذَا الِاسْتِثْنَاءِ قَوْلُهُ بَعْدَ آيَةٍ أُخْرَى : (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ) إِلَخْ . (قَالَ) : فَثَبَتَ أَنَّ الشَّرِيعَةَ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا كَانَتْ مُسْتَقِرَّةً عَلَى هَذَا الْحُكْمِ وَعَلَى هَذَا الْحَصْرِ .

(205/255)

---

وَأَقُولُ : إنَّنَا مَا تَرَكْنَا ذِكْرَ آيَةِ الْمَائِدَةِ فِيمَا كَتَبْنَا قَبْلَ مُرَاجَعَةِ كَلَامِهِ نِسْيَانًا لَهَا ، بَلْ لِأَنَّهُ لَمْ يَخْطُرْ فِي بَالِنَا حِينَئِذٍ مِنْ مَعْنَاهَا إلَّا الْمَشْهُورُ فِي تَفْسِيرِ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ وَهُوَ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا نَفْسُ الْأَنْعَامِ ؛ لِأَنَّ الْإِضَافَةَ فِيهَا مِنْ قَبِيلِ شَجَرِ الْأَرَاكِ أَوْ بِمَعْنَى الْبَهِيمَةِ الْمُشَابِهَةِ لِلْأَنْعَامِ ، قَالُوا : أَيْ فِي الِاجْتِرَارِ وَعَدَمِ الْأَنْيَابِ كَالظِّبَاءِ وَبَقَرِ الْوَحْشِ وَهُوَ لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا فِي تَفْسِيرِ الْإِضَافَةِ ، وَبَعْدَ مُرَاجَعَةِ كَلَامِهِ تَذَكَّرْنَا أَنَّنَا قَدِ اخْتَرْنَا فِي تَفْسِيرِهَا أَنَّ الْمُرَادَ بِالتَّشْبِيهِ كَوْنُهَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، أَيْ مَا يَسْتَطِيبُهُ النَّاسُ فِي مَجْمُوعِهِمْ وَإِنْ عَافَهُ أَفْرَادٌ أَوْ طَوَائِفُ مِنْهُمْ ، فَقَدْ عَافَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكْلَ الضَّبِّ وَلَمْ يُحَرِّمْهُ كَمَا ثَبَتَ فِي حَدِيثِ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ وَغَيْرِهِ

(206/255)

---

; وَبِهَذَا تَكُونُ آيَةُ الْمَائِدَةِ مُؤَيِّدَةً لِلْحَصْرِ فِي الْآيَاتِ الثَّلَاثِ ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ الَّذِي لَا خِلَافَ فِيهِ أَنَّ سُورَةَ الْمَائِدَةِ آخِرُ السُّوَرِ نُزُولًا ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِيهَا مَنْسُوخٌ ، فَكُلُّ مَا خَالَفَ حُكْمًا مِنْ أَحْكَامِهَا فَهُوَ الْمَنْسُوخُ بِمَا فِيهَا ؛ إذْ كَانَ نُزُولُهَا فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ مِنَ السَّنَةِ الْعَاشِرَةِ ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْحُمُرِ الْأَهْلِيَّةِ وَالسِّبَاعِ كَانَ فِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ سَنَةَ سَبْعٍ كَمَا تَقَدَّمَ ، فَإِنْ جَازَ أَنْ يَكُونَ

مُخَصِّصًا لِعُمُومِ آيَةِ الْبَقَرَةِ - إنْ صَحَّ أَنَّهُ بَعْدَهَا وَأَنَّ الْمَقَامَ مَقَامُ التَّخْصِيصِ لَا النَّسْخِ - تَكُونُ آيَةُ الْمَائِدَةِ نَاسِخَةً لَهُ لِأَنَّهَا مُتَأَخِّرَةٌ حَتْمًا .

(207/255)

---

وَالْأَرْجَحُ الْمُخْتَارُ عِنْدَنَا : أَنَّ كُلَّ مَا صَحَّ مِنَ الْأَحَادِيثِ فِي النَّهْيِ عَنْ طَعَامٍ غَيْرِ الْأَنْوَاعِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي حَصَرَتِ الْآيَاتُ مُحَرَّمَاتِ الطَّعَامِ فِيهَا ، فَهُوَ إمَّا لِلْكَرَاهَةِ وَإِمَّا مُؤَقَّتٌ لِعِلَّةٍ عَارِضَةٍ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْحَمِيرِ ، وَمَا وَرَدَ مِنْهُ بِلَفْظِ التَّحْرِيمِ فَهُوَ مَرْوِيٌّ بِالْمَعْنَى لَا بِلَفْظِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ . وَلَيْسَ مُرَادُ مَنْ رَدَّ تِلْكَ الْأَحَادِيثَ بِآيَةِ الْأَنْعَامِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ تَحْرِيمَ مَا حَرَّمَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا لَمْ يَكُنْ مَنْصُوصًا فِي الْقُرْآنِ ، بَلْ مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُحَرِّمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا جَاءَ نَصُّ الْقُرْآنِ الْمُؤَكِّدُ بِحِلِّهِ . وَاعْتُبِرَ هَذَا بِمَا أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ عَنْ عِيسَى بْنِ نُمَيْلَةَ الْفَزَارِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : كُنْتُ عِنْدَ ابْنِ عُمَرَ فَسُئِلَ عَنْ أَكْلِ الْقُنْفُذِ فَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ : (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إلَيَّ مُحَرَّمًا) . . . . . فَقَالَ شَيْخٌ عِنْدَهُ : سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : " خَبِيثَةٌ مِنَ الْخَبَائِثِ " فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : إنْ كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَهُ فَهُوَ كَمَا قَالَ اهـ . فَقَوْلُهُ : " إنْ كَانَ " مُشْعِرٌ بِشَكِّهِ فِيهِ ، وَأَنَّهُ

إِنْ فُرِضَ أَنَّهُ قَالَهُ وَجَبَ قَبُولُهُ لِأَنَّ اللهَ أَمَرَ بِاتِّبَاعِهِ ، وَلَكِنْ بِمَعْنَى أَنَّهُ خَبِيثٌ غَيْرُ مُحَرَّمٍ كَالثُّومِ وَالْبَصَلِ . عَلَى أَنَّ

(208/255)

---

الْحَدِيثَ ضَعِيفٌ كَمَا قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي بُلُوغِ الْمَرَامِ . وَيَكْثُرُ فِي أَحَادِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ الرِّوَايَةُ بِالْمَعْنَى وَالْإِرْسَالِ ، لِأَنَّ الْكَثِيرَ مِنْهَا قَدْ سَمِعَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَكَذَا مِنْ بَعْضِ التَّابِعِينَ لَا مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِهَذَا تَكْثُرُ فِيهَا الْعَنْعَنَةُ .

وَذَهَبَ بَعْضُ أَئِمَّةِ الْفِقْهِ إِلَى تَحْرِيمِ مَا ثَبَتَ فِي الْأَحَادِيثِ الْأَمْرُ بِقَتْلِهِ لِضَرَرِهِ كَالْحَيَّةِ وَالْعَقْرَبِ وَالْغُرَابِ الْأَبْقَعِ وَالْفَأْرَةِ وَالْكَلْبِ الْعَقُورِ وَهُنَّ الْفَوَاسِقُ الْخَمْسُ ، وَكَذَا الْحِدَأَةُ وَالْوَزَغُ ، أَوِ النَّهْيُ عَنْ قَتْلِهِ كَالنَّمْلِ وَالنَّحْلِ وَالْهُدْهُدِ وَالصُّرَدِ وَالضُّفْدَعِ وَالصَّوَابُ مَا عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ مِنْ عَدَمِ دَلَالَةِ الْأَمْرِ بِالنَّهْيِ فِي هَذَا الْمَقَامِ عَلَى تَحْرِيمِ الْأَكْلِ ؛ إِذِ الْأَمْرُ بِقَتْلِ الْحَيَوَانِ الضَّارِّ لِاتِّقَاءِ ضَرَرِهِ لَا يُنَافِي جَوَازَ قَتْلِهِ لِأَجْلِ الِانْتِفَاعِ بِهِ بِالْأَكْلِ وَلَا بِغَيْرِهِ وَلَوْ لَمْ تَدُلَّ الدَّلَائِلُ الْعَامَّةُ الْقَطْعِيَّةُ عَلَى إِبَاحَةِ ذَلِكَ ، فَكَيْفَ وَقَدْ دَلَّتْ !

(209/255)

وَكَذَلِكَ النَّهْيُ عَنْ قَتْلِهِ عَبَثًا أَوْ لِغَرَضٍ غَيْرِ شَرْعِيٍّ لَا يُنَافِي جَوَازَ قَتْلِهِ لِلِانْتِفَاعِ بِهِ بِالْأَكْلِ وَغَيْرِهِ ، وَمِنْ أُصُولِ الشَّرِيعَةِ الْقَطْعِيَّةِ الْمُجْمَعِ عَلَيْهَا حَظْرُ تَعْذِيبِ الْحَيَوَانِ وَالتَّمْثِيلِ بِهِ ، فَفِي حَدِيثِ الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا أَنَّ ابْنَ عُمَرَ مَرَّ بِفِتْيَانٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ نَصَبُوا طَيْرًا أَوْ دَجَاجَةً يَتَرَامُونَهَا وَقَدْ جَعَلُوا لِصَاحِبِ الطَّيْرِ كُلَّ خَاطِئَةٍ مِنْ نَبْلِهِمْ فَلَمَّا رَأَوُا ابْنَ عُمَرَ تَفَرَّقُوا فَقَالَ : مَنْ فَعَلَ هَذَا ؟ لَعَنَ اللَّهُ مَنْ فَعَلَ هَذَا إنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعَنَ مَنِ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا . وَالْغَرَضُ بِالتَّحْرِيكِ مَا يَنْصِبُهُ الرُّمَاةُ وَيَرْمُونَ إلَيْهِ لِلتَّمَرُّنِ عَلَى الْإِصَابَةِ بِالسِّهَامِ وَالرَّصَاصِ وَنَحْوِهِ . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنِ الضَّرْبِ فِي الْوَجْهِ وَعَنِ الْوَسْمِ فِيهِ ، وَأَنَّهُ مَرَّ عَلَيْهِ حِمَارٌ قَدْ وُسِمَ فِي وَجْهِهِ فَقَالَ : " لَعَنَ اللَّهُ الَّذِي وَسَمَهُ " وَفِي سُنَنِ النَّسَائِيِّ وَصَحِيحِ ابْنِ حِبَّانَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : " مَنْ قَتَلَ عُصْفُورًا عَبَثًا عَجَّ إلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ : يَا رَبِّ إنَّ فُلَانًا قَتَلَنِي عَبَثًا وَلَمْ يَقْتُلْنِي مَنْفَعَةً " وَرَوَى النَّسَائِيُّ أَيْضًا وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ مَرْفُوعًا " مَا مِنْ إنْسَانٍ يَقْتُلُ عُصْفُورًا فَمَا فَوْقَهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا إلَّا سَأَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ " قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا

حَقَّهَا ؟ قَالَ "يَذْبَحُهَا فَيَأْكُلُهَا وَلَا يَقْطَعُ رَأْسَهَا فَيَرْمِي بِهَا " وَالْأَحَادِيثُ فِي الرِّفْقِ بِالْحَيَوَانِ وَدَفْعِ الْأَذَى عَنْهُ - دَعْ تَرْكَ إيقَاعِهِ بِهِ - كَثِيرَةٌ فِي الصِّحَاحِ وَالسُّنَنِ ، وَمِنْهَا فِي الصَّحِيحَيْنِ حَدِيثُ الْمَرْأَةِ الَّتِي عَذَّبَهَا اللَّهُ فِي النَّارِ بِحَبْسِ الْهِرَّةِ حَتَّى مَاتَتْ ، وَحَدِيثُ الْبَغِيِّ (الْمُومِسِ) الَّتِي غَفَرَ اللَّهُ لَهَا إذْ رَحِمَتْ كَلْبًا عَطْشَانَ بِإِخْرَاجِ الْمَاءِ مِنَ الْبِئْرِ بِنَعْلِهَا حَتَّى سَقَتْهُ . وَلَا بُدَّ لِكُلِّ نَهْيٍ خَاصٍّ عَنْ قَتْلِ حَيَوَانٍ مُعَيَّنٍ مِنْ سَبَبٍ خَاصٍّ أَوْ عَامٍّ ، فَالْعَامُّ كَتَعَوُّدِ النَّاسِ قَتْلَ بَعْضِ الْحَشَرَاتِ احْتِقَارًا لَهَا بِأَدْنَى سَبَبٍ كَقَتْلِ النَّحْلِ إذَا وَقَعَ عَلَى الْعَسَلِ أَوِ السُّكَّرِ وَكَذَا النَّمْلُ ، وَالْخَاصُّ كَالَّذِي قَالَهُ

أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ وَغَيْرُهُ فِي سَبَبِ النَّهْيِ عَنْ قَتْلِ الصُّرَدِ وَهُوَ أَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَتَشَاءَمُ بِهِ فَنُهِيَ عَنْ قَتْلِهِ لِيَزُولَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنِ اعْتِقَادِ التَّشَاؤُمِ .

وَأَقُولُ : إنَّ الْهُدْهُدَ - وَهُوَ مَعْرُوفٌ - يَأْكُلُ الْحَشَرَاتِ الضَّارَّةَ بِالزَّرْعِ وَالشَّجَرِ فَالظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا هُوَ سَبَبُ النَّهْيِ عَنْ قَتْلِهِ ، كَمَا تَنْهَى الْحُكُومَةُ الْمِصْرِيَّةُ عَنْ قَتْلِهِ وَصَيْدِهِ لِأَجْلِ ذَلِكَ . وَحَدِيثُ حَظْرِ قَتْلِ الضِّفْدَعِ لِجَعْلِهِ دَوَاءً مُعَارِضٌ بِالْقَاعِدَةِ الْعَامَّةِ الْقَطْعِيَّةِ فِي إبَاحَةِ الْمَنَافِعِ وَبِمَفْهُومِ حَدِيثِ جَابِرٍ فِي قَتْلِ الْعُصْفُورِ عَبَثًا وَهُوَ أَصَحُّ مِنْهُ .

وَجَعْلُ الْأَمْرِ بِقَتْلِ الْحَيَوَانِ وَالنَّهْيِ عَنْهُ وَاسْتِخْبَاثِ الْعَرَبِ إيَّاهُ دَلَائِلَ عَلَى تَحْرِيمِ أَكْلِهِ هُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيَّةِ وَالزَّيْدِيَّةِ قَالَ الْمَهْدِيُّ (مِنْ أَئِمَّةِ الزَّيْدِيَّةِ فِي كِتَابِهِ الْبَحْرِ) : أُصُولُ التَّحْرِيمِ إمَّا بِنَصِّ الْكِتَابِ أَوِ السُّنَّةِ أَوِ الْأَمْرِ بِقَتْلِهِ كَالْخَمْسَةِ (أَيِ الْفَوَاسِقُ الْخَمْسُ الَّتِي وَرَدَ إبَاحَةُ قَتْلِهَا فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ) أَوِ النَّهْيِ عَنْ قَتْلِهِ كَالْهُدْهُدِ وَالْخُطَّافِ وَالنَّحْلَةِ وَالنَّمْلَةِ وَالصُّرَدِ – أَوِ اسْتِخْبَاثِ الْعَرَبِ إيَّاهُ كَالْخُنْفُسَاءِ وَالضُّفْدَعِ . . . لِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ) (7 : 157) وَهِيَ مُسْتَخْبَثَةٌ عِنْدَهُمْ ، وَالْقُرْآنُ نَزَلَ بِلُغَتِهِمْ فَكَانَ اسْتِخْبَاثُهُمْ طَرِيقَ تَحْرِيمٍ فَإِنِ اسْتَخْبَثَهُ الْبَعْضُ اعْتُبِرَ الْأَكْثَرُ وَالْعِبْرَةُ بِاسْتِطَابَةِ أَهْلِ السَّعَةِ لَا ذَوِي الْفَاقَةِ اهـ . وَنَحْوُهُ قَوْلُ النَّوَوِيِّ فِي الْمِنْهَاجِ : وَمَا لَا نَصَّ فِيهِ إنِ اسْتَطَابَهُ أَهْلُ يَسَارٍ وَطِبَاعٍ سَلِيمَةٍ مِنَ الْعَرَبِ فِي حَالِ رَفَاهِيَةٍ حَلَّ وَإِنِ اسْتَخْبَثُوهُ فَلَا . . . . وَاشْتَرَطَ شُرَّاحُهُ أَنْ يَكُونُوا حَضَرًا لَا بَدْوًا .

(212/255)

---

وَنَقُولُ : أَمَّا الْأَمْرُ بِالْقَتْلِ وَالنَّهْيُ عَنْهُ فَقَدْ عَلِمْتَ مَا فِيهِ . وَأَمَّا اسْتِخْبَاثُ الْعَرَبِ إيَّاهُ فَقَدْ رَدَّهُ الْمُخَالِفُونَ لَهُ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ وَكَذَا بَعْضُ الشَّافِعِيَّةِ ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الرَّازِيُّ فِي أَحْكَامِ الْقُرْآنِ

مَا مُلَخَّصُهُ : إنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَعْتَبِرِ اسْتِخْبَاثَ الْعَرَبِ فِي تَحْرِيمِ ذِي النَّابِ مِنَ السِّبَاعِ وَالْمِخْلَبِ مِنَ الطَّيْرِ بَلْ كَوْنُهَا كَذَلِكَ ، وَإِنَّ الْخِطَابَ بِتَحْرِيمِ الْخَبَائِثِ لَمْ يَخْتَصَّ بِالْعَرَبِ ، فَاعْتِبَارُ مَا تَسْتَقْذِرُهُ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ . ثُمَّ إنَّهُ إنِ اعْتُبِرَ اسْتِقْذَارُ جَمِيعِ الْعَرَبِ فَجَمِيعُهُمْ لَمْ يَسْتَقْذِرُوا الْحَيَّاتِ وَالْعَقَارِبَ وَالْأَسَدَ وَالذِّئْبَ وَالْفَأْرَ ، بَلِ الْأَعْرَابُ يَسْتَطِيبُونَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ ، وَإِنِ اعْتُبِرَ بَعْضُهُمْ فَفِيهِ أَمْرَانِ (أَحَدُهُمَا) أَنَّ الْخِطَابَ لِجَمِيعِهِمْ فَكَيْفَ يُعْتَبَرُ بَعْضُهُمْ . (وَثَانِيهِمَا) لِمَ كَانَ الْبَعْضُ الْمُسْتَقْذِرُ أَوْلَى مِنِ اعْتِبَارِ الْبَعْضِ الْمُسْتَطِيبِ ؟ وَقَالَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ فِي تَقْرِيرِ مَا ذَهَبَ إلَيْهِ مِنْ أَنَّ الْحَصْرَ فِي الْآيَةِ هُوَ الْحُكْمُ الْمُسْتَقِرُّ فِي الشَّرِيعَةِ مِنْ أَوَّلِهَا إلَى آخِرِهَا مَا نَصُّهُ : وَمِنَ السُّؤَالَاتِ الضَّعِيفَةِ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْفُقَهَاءِ

*(213/255)*

---

خَصَّصُوا عُمُومَ هَذِهِ الْآيَةِ بِمَا نُقِلَ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ : " مَا اسْتَخْبَثَهُ الْعَرَبُ فَهُوَ حَرَامٌ " وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ الَّذِي يَسْتَخْبِثُهُ الْعَرَبُ فَهُوَ غَيْرُ مَضْبُوطٍ ، فَسَيِّدُ الْعَرَبِ بَلْ سَيِّدُ الْعَالَمِينَ مُحَمَّدٌ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لَمَّا رَآهُمْ يَأْكُلُونَ الضَّبَّ قَالَ : يَعَافُهُ طَبْعِي . ثُمَّ إنَّ هَذَا الِاسْتِقْذَارَ مَا صَارَ سَبَبًا لِتَحْرِيمِ الضَّبِّ ، وَأَمَّا سَائِرُ الْعَرَبِ فَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَسْتَقْذِرُ شَيْئًا ، وَقَدْ يَخْتَلِفُونَ فِي بَعْضِ الْأَشْيَاءِ فَيَسْتَقْذِرُهَا قَوْمٌ

وَيَسْتَطِيبُهَا آخَرُونَ فَعَلِمْنَا أَنَّ أَمْرَ الِاسْتِقْذَارِ غَيْرُ مَضْبُوطٍ بَلْ هُوَ مُخْتَلِفٌ بِاخْتِلَافِ الْأَشْخَاصِ وَالْأَحْوَالِ ، فَكَيْفَ يَجُوزُ نَسْخُ هَذَا النَّصِّ الْقَاطِعِ بِهَذَا الْأَمْرِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ ضَابِطٌ مُعَيَّنٌ وَلَا قَانُونٌ مَعْلُومٌ ؟ اهـ .

(214/255)

---

أَقُولُ : إنَّ الْحَدِيثَ الَّذِي ذَكَرَهُ الرَّازِيُّ فِي تَحْرِيمِ مَا اسْتَخْبَثَتْهُ الْعَرَبُ لَا أَصْلَ لَهُ فَلَمْ يَبْقَ لِأَصْحَابِ هَذَا الْقَوْلِ مُسْتَنَدٌ إلَّا مَفْهُومَ الْأَمْرِ بِأَكْلِ الطَّيِّبَاتِ وَإِحْلَالِهَا ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْيَهُودِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . (وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ) (7 : 157) فَأَمَّا الْأَوَّلُ فَهُوَ مَفْهُومُ مُخَالَفَةٍ مَنْعَ الِاحْتِجَاجِ بِهِ الْحَنَفِيَّةُ وَبَعْضُ الشَّافِعِيَّةِ مُطْلَقًا وَبِمَفْهُومِ الصِّفَةِ مِنْهُ كَالطَّيِّبَاتِ هُنَا آخَرُونَ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَبَعْضِ أَئِمَّةِ اللُّغَةِ كَالْأَخْفَشِ وَابْنِ فَارِسٍ وَابْنِ جِنِّيٍّ ، وَاشْتَرَطَ لَهُ الْمُحْتَجُّونَ بِهِ شُرُوطًا لَا تَتَحَقَّقُ هُنَا ، أَقْوَاهَا أَلَّا يُعَارِضَهُ مَا هُوَ أَقْوَى مِنْهُ مِنْ مَنْطُوقٍ أَوْ مَفْهُومٍ وَقَدْ عَارَضَتْهُ هُنَا الْآيَاتُ الْقَطْعِيَّةُ ، عَلَى أَنَّ كُلَّ مَا أَبَاحَهُ الشَّرْعُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الطَّيِّبَاتِ . وَأَمَّا الثَّانِي فَمَعْنَاهُ : يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ الَّتِي كَانَتْ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمْ عُقُوبَةً لَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ فَقَطْ وَهِيَ مَا كَانُوا يَسْتَحِلُّونَهُ مِنْ أَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ بِالرِّبَا وَغَيْرِهِ وَمَا كَانَ خَبِيثًا مِنَ الطَّعَامِ

كَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ كَمَا تَقَدَّمَ لَنَا ، وَهَذَا هُوَ الْمَرْوِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِهَا . وَالْخَبِيثُ يُطْلَقُ عَلَى الْمُحَرَّمِ وَعَلَى الْقَبِيحِ وَالرَّدِيءِ ; وَبِهَذَا فُسِّرَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ

(215/255)

---

تُنْفِقُونَ) (2 : 267) وَكُلُّ مُحَرَّمٍ خَبِيثٌ وَمَا كُلُّ خَبِيثٍ بِمُحَرَّمٍ ; فَقَدْ صَحَّ فِي الْحَدِيثِ تَسْمِيَةُ الثُّومِ وَالْبَصَلِ بِالشَّجَرَتَيْنِ الْخَبِيثَتَيْنِ وَأَكْلُهُمَا مُبَاحٌ بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ . وَفِي الْأَحَادِيثِ إطْلَاقُ كَلِمَةِ خَبِيثٍ عَلَى مَهْرِ الْبَغِيِّ وَثَمَنِ الْكَلْبِ وَكَسْبِ الْحَجَّامِ ، وَهَذَا الْأَخِيرُ مَكْرُوهٌ لَا مُحَرَّمٌ .

فَبِهَذِهِ الشَّوَاهِدِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ يُهْدَمُ هَذَا الْأَصْلُ الِاجْتِهَادِيُّ مِنْ أُصُولِ التَّحْرِيمِ الَّذِي عَرَّفُوهُ بِأَنَّهُ حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى الْمُقْتَضِي لِلتَّرْكِ اقْتِضَاءً جَازِمًا ، وَإِنْ لَمْ يُطَبِّقُوا هَذَا التَّعْرِيفَ عَلَى كُلِّ مَا ادَّعَوْا حُرْمَتَهُ بِاجْتِهَادِهِمْ ، وَإِنَّمَا الِاجْتِهَادُ بَذْلُ الْجَهْدِ لِتَحْصِيلِ الظَّنِّ بِحُكْمٍ شَرْعِيٍّ عَمَلِيٍّ . وَمِنَ الثَّابِتِ مِنْ أَخْلَاقِ الْبَشَرِ وَطِبَاعِهِمْ أَنَّ لِلْبِيئَةِ الَّتِي يَعِيشُونَ فِيهَا تَأْثِيرًا فِي اجْتِهَادِهِمْ وَفَهْمِهِمْ فَالَّذِينَ حَرَّمُوا عَلَى عِبَادِ اللَّهِ مَا لَا يُحْصَى مِنَ الْمَنَافِعِ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ لَهُمْ وَامْتَنَّ بِهَا عَلَيْهِمْ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ : (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) (2 : 29)

كَانُوا عَائِشِينَ فِي حَضَارَةٍ

يَتَمَتَّعُ أَهْلُهَا بِخَيْرَاتِ مُلْكِ الْأَكَاسِرَةِ وَالْقَيَاصِرَةِ فِي مَدَائِنَ كَجَنَّاتِ النَّعِيمِ كَبَغْدَادَ وَمِصْرَ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْأَمْصَارِ

(216/255)

---

فَكَانَ مِنْ تَأْثِيرِهَا فِي أَنْفُسِهِمْ أَنْ جَعَلُوا مَا يَسْتَقْذِرُهُ مُتْرَفُو الْعَرَبِ فِي حَضَارَتِهِمْ مُحَرَّمًا عَلَى الْبَدْوِ الْبَائِسِينَ وَعَلَى خَلْقِ اللهِ أَجْمَعِينَ ، وَلَوْلَا تَأْثِيرُ هَذِهِ الْحَضَارَةِ لَرَاعَوْا فِي اجْتِهَادِهِمُ الْأُصُولَ الْقَطْعِيَّةَ فِي يُسْرِ الشَّرِيعَةِ وَعُمُومِهَا ، وَلَا يُعْقَلُ أَنْ يُكَلِّفَ اللهُ جَمِيعَ الْأُمَمِ الْتِزَامَ ذَوْقِ مُنَعَّمِي الْعَرَبِ فِي طَعَامِهِمْ – وَلْتَذْكُرُوا أَنَّ هَذَا التَّشَدُّدَ فِي التَّحْرِيمِ يُضَيِّقُ عَلَى أَكْثَرِ النَّاسِ وَهُمُ الْفُقَرَاءُ وَالْمُعْوِزُونَ أَمْرَ مَعِيشَتِهِمْ ، وَالتَّوَسُّعُ فِي أَصْلِ الْإِبَاحَةِ يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّ غَيْرَهُمْ مِنَ الْمُتْرَفِينَ وَالْمُوسِرِينَ كَمَا رَاعَى ذَلِكَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِيمَا رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ قَالَ : سَأَلْتُ جَابِرًا عَنِ الضَّبِّ فَقَالَ : لَا تَطْعَمُوهُ وَقَذَّرَهُ وَقَالَ : قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُحَرِّمْهُ ، إِنَّ اللهَ يَنْفَعُ بِهِ غَيْرَ وَاحِدٍ ، وَإِنَّمَا طَعَامُ عَامَّةِ الرِّعَاءِ مِنْهُ وَلَوْ كَانَ عِنْدِي طَعِمْتُهُ اهـ . ثُمَّ لِتَذْكُرُوا مَعَ هَذَا وَذَاكَ مَا عَظَّمَ اللهُ مِنْ أَمْرِ التَّحْرِيمِ ، وَقَدْ كُنَّا نَأْخُذُ كَلَامَ هَؤُلَاءِ الْمُشَدِّدِينَ بِالتَّسْلِيمِ

وَنَجِدُهُ غَنِيًّا عَنِ الْبَحْثِ فِيهِ لِمُوَافَقَتِهِ لِأَذْوَاقِنَا وَعِيشَتِنَا . فَقَدْ نَشَأْنَا فِي بَيْتٍ لَا يَكَادُ يَأْكُلُ أَهْلُهُ مِنْ لُحُومِ الْأَنْعَامِ إِلَّا الضَّأْنَ ; وَيَعَافُونَ لَحْمَ الْبَقَرِ وَمَا تَعَوَّدْنَا أَكْلَهُ إِلَّا فِي السَّفَرِ ، وَإِنَّ لِلْمُجْتَهِدِينَ

(217/255)

---

ثَوَابًا حَتَّى فِيمَا أَخْطَئُوا فِيهِ لِحُسْنِ نِيَّتِهِمْ فِي اجْتِهَادِهِمْ ، وَلَكِنْ لَا عُذْرَ لِلْمُقَلِّدِينَ فِي اتِّبَاعِ كُلِّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ لِمَذْهَبٍ فِي كُلِّ مَا يَقُولُهُ عُلَمَاؤُهُ وَتَرْكِ النَّظَرِ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَرْكِ الْعَمَلِ بِهِمَا إِذَا دُعُوا إِلَيْهِمَا وَالْإِعْرَاضِ عَمَّنْ يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ بَلِ الطَّعْنِ فِيهِ وَمَا كَانَ أَحَدٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ الْمُجْتَهِدِينَ يُجِيزُ هَذَا التَّقْلِيدَ . وَيَرْضَى أَنْ يُتَّخَذَ شَرِيكًا لِلَّهِ تَعَالَى فِي التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ وَسَائِرِ أَنْوَاعِ التَّشْرِيعِ .

وَلَيْسَ فِيمَا أَطَلْنَا بِهِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ اسْتِطْرَادٌ وَلَا خُرُوجٌ عَنِ الْمَوْضُوعِ ، وَلَوْ تَتَبَّعْنَا كُلَّ مَا قَالَ الْفُقَهَاءُ بِتَحْرِيمِهِ مُنَافِيًا لَهَا وَبَيَّنَّا بُطْلَانَ أَدِلَّتِهِمْ عَلَيْهِ لَمْ نَكُنْ خَارِجِينَ عَنْ حَدِّ تَفْسِيرِهَا وَلَكِنْ مَا تَرَكْنَا ذِكْرَهُ أَضْعَفُ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ دَلِيلًا كَالنَّهْيِ عَنْ أَكْلِ الْهِرِّ وَالْخَيْلِ وَكَلَاهُمَا لَا يَصِحُّ رِوَايَةً وَيُعَارِضُهُ مَا هُوَ أَصَحُّ مِنْهُ .

(218/255)

وَمُلَخَّصُ مَا تَقَدَّمَ أَنَّ آيَةَ الْأَنْعَامِ - الَّتِي فَسَّرْنَاهَا بِمَا تَقَدَّمَ - هِيَ أَصْلُ الشَّرِيعَةِ الْمُحْكَمُ فِيمَا يَحِلُّ وَيَحْرُمُ مِنَ الطَّعَامِ كَمَا فَهِمَهَا حَبْرُ الْأُمَّةِ وَإِمَامُ الْمُفَسِّرِينَ الْأَعْظَمُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ مِنْ عُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ وَالْفَخْرُ الرَّازِيُّ مِنْ مُفَسِّرِي أَهْلِ النَّظَرِ وَمَنْ وَافَقَهُ كَالنَّيْسَابُورِيِّ وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى لَوْ عَلِمَ عِنْدَ إِنْزَالِهَا - وَهُوَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ - أَنَّهُ سَيَنْسَخُهَا أَوْ يُخَصِّصُ عُمُومَهَا لَمَا أَنْزَلَهَا بِصِيغَةِ الْحَصْرِ وَلَمَا أَكَّدَهَا الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ قَبْلَ الْهِجْرَةِ وَبَعْدَهَا وَأَيَّدَهَا بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ مُؤَكِّدَاتِهَا وَمُؤَيِّدَاتِهَا وَهِيَ أَنْوَاعٌ :

(الْأَوَّلُ) الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا ثُمَّ آيَةُ النَّحْلِ ثُمَّ آيَةُ الْبَقَرَةِ . ثُمَّ أَوَّلُ الْمَائِدَةِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي بَيَّنَّاهُ فَهَذِهِ أَرْبَعُ آيَاتٍ فِي مَوْضُوعِ الطَّعَامِ خَاصَّةً .

(الثَّانِي) إِحْلَالُ طَعَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَالنَّصَارَى مِنْهُمْ لَا يَكَادُونَ يُحَرِّمُونَ شَيْئًا مِنْ نَوْعِ الْحَيَوَانِ مِمَّا يَدُبُّ عَلَى الْأَرْضِ أَوْ يَطِيرُ فِي الْهَوَاءِ .

*(219/255)*

---

(الثَّالِثُ) الْآيَاتِ الدَّالَّةُ عَلَى إِبَاحَةِ مَنَافِعِ الْعَالَمِ عَامَّةً كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) (2 : 29) وَقَوْلِهِ : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ

تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ) (22 : 65) وَفِي مَعْنَاهُ بَعْدَ ذِكْرِ تَسْخِيرِ الْبَحْرِ : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ) (45 : 13) وَصَرَّحَ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ بِذِكْرِ الْأَكْلِ فِي تَسْخِيرِ الْبَحْرِ فَقَالَ : (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا) (16 : 14) إلَخْ . (الرَّابِعُ) مَا يُؤَيِّدُ هَذَا الْأَصْلَ فِيمَا يَحِلُّ وَيَحْرُمُ مِنَ الطَّعَامِ ، وَهُوَ مَا وَرَدَ مِنَ التَّشْدِيدِ فِي حَظْرِ تَحْرِيمِ أَيِّ شَيْءٍ عَلَى عِبَادِ اللهِ غَيْرَ مَا حَرَّمَهُ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ كَالْآيَاتِ السَّابِقَةِ لِآيَةِ الْأَنْعَامِ كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِهَا ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى بَعْدَ آيَةِ النَّحْلِ فِي الْحَصْرِ : (وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ) (16 : 116) وَقَالَ بَعْدَهَا بِآيَةٍ : (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (118) فَآيَاتُ النَّحْلِ بِمَعْنَى آيَاتِ الْأَنْعَامِ فِي جُمْلَتِهَا . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ) نَصٌّ فِي نُزُولِ النَّحْلِ بَعْدَ الْأَنْعَامِ كَمَا قَالَ أَهْلُ الْأَثَرِ . وَمِنْ هَذَا النَّوْعِ قَوْلُهُ تَعَالَى :

*(220/255)*

---

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ) (9 : 31) قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي تَفْسِيرِهَا : " أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ وَإِذَا

حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ " رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ الطَّبَرَانِيُّ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي سُنَنِهِ وَأَكْثَرُ رُوَاةِ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ مِنْ حَدِيثِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ الطَّائِيِّ الشَّهِيرِ بِالْجُودِ ، وَكَانَ عَدِيٌّ قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَفَرَّ بَعْدَ بُلُوغِ الدَّعْوَةِ إلَى الشَّامِ ، فَأُسِرَتْ أُخْتُهُ وَمَنَّ عَلَيْهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَعْطَاهَا ، فَلَحِقَتْ بِهِ وَرَغَّبَتْهُ فِي الْإِسْلَامِ فَقَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِي عُنُقِهِ صَلِيبٌ مِنْ فِضَّةٍ وَهُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ . قَالَ فَقُلْتُ : إنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُوهُمْ فَقَالَ : " بَلَى إنَّهُمْ حَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ وَأَحَلُّوا لَهُمُ الْحَرَامَ فَاتَّبَعُوهُمْ فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إيَّاهُمْ " ثُمَّ دَعَاهُ إلَى الْإِسْلَامِ فَأَسْلَمَ . وَرَوَوْا مِثْلَهُ مِنْ حَدِيثِ حُذَيْفَةَ ، وَمَعْنَى رِوَايَةِ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ : أَنَّهُمْ لَمْ يَتَّخِذُوهُمْ آلِهَةً ، فَالْإِلَهُ هُوَ الْمَعْبُودُ وَلَكِنَّهُمْ اتَّخَذُوهُمْ

*(221/255)*

---

أَرْبَابًا بِمَعْنَى شَارِعِينَ ، وَهَذِهِ عِبَادَةُ رُبُوبِيَّةٍ لَا أُلُوهِيَّةٍ ، فَالشَّرْعُ لِلرَّبِّ وَحْدَهُ وَالرُّسُلُ مُبَلِّغُونَ عَنْهُ وَهُمْ مَعْصُومُونَ فِي تَبْلِيغِهِمْ وَفِي بَيَانِهِمْ لِمَا بَلَغُوهُ ، وَالْعُلَمَاءُ وَرَثَتُهُمْ فِي التَّبْلِيغِ وَلَكِنَّهُمْ غَيْرُ مَعْصُومِينَ ، فَلَا يَجُوزُ لِمُؤْمِنٍ بِاللَّهِ أَنْ يَتَّبِعَ عَالِمًا فِي قَوْلِهِ هَذَا حَرَامٌ إلَّا إذَا جَاءَهُ بِبَيِّنَةٍ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ فَعَقَلَهَا وَاعْتَقَدَ صِحَّتَهَا . قَالَ الرَّبِيعُ : قُلْتُ لِأَبِي الْعَالِيَةِ : كَيْفَ كَانَتْ

تِلْكَ الرُّبُوبِيَّةُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالَ : إِنَّهُمْ رُبَّمَا وَجَدُوا فِي كِتَابِ اللهِ مَا يُخَالِفُ أَقْوَالَ الْأَحْبَارِ فَكَانُوا يَأْخُذُونَ بِأَقْوَالِهِمْ وَمَا كَانُوا يَقْبَلُونَ حُكْمَ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى .

(222/255)

---

قَالَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ بَعْدَ مَا نَقَلَ حَدِيثَ عَدِيٍّ وَهَذَا الْأَثَرُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ قَالَ شَيْخُنَا وَمَوْلَانَا خَاتِمَةُ الْمُحَقِّقِينَ وَالْمُجْتَهِدِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : قَدْ شَاهَدْتُ جَمَاعَةً مِنْ مُقَلِّدَةِ الْفُقَهَاءِ قَرَأْتُ عَلَيْهِمْ آيَاتٍ كَثِيرَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى فِي بَعْضِ الْمَسَائِلِ ، وَكَانَتْ مَذَاهِبُهُمْ بِخِلَافِ تِلْكَ الْآيَاتِ فَلَمْ يَقْبَلُوا تِلْكَ الْآيَاتِ وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهَا وَبَقُوا يَنْظُرُونَ إِلَيَّ كَالْمُتَعَجِّبِ . يَعْنِي كَيْفَ يُمْكِنُ الْعَمَلُ بِظَوَاهِرِ هَذِهِ الْآيَاتِ مَعَ أَنَّ الرِّوَايَةَ عَنْ سَلَفِنَا وَرَدَتْ عَلَى خِلَافِهَا ! وَلَوْ تَأَمَّلْتَ حَقَّ التَّأَمُّلِ وَجَدْتَ هَذَا الدَّاءَ سَارِيًا فِي عُرُوقِ الْأَكْثَرِينَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا اهـ . وَأَقُولُ : إِنَّ شَيْخَهُ رَحِمَهُ اللهُ كَانَ مُجْتَهِدًا بِحَقٍّ ، وَأَمَّا هُوَ فَعَلَى تَوَسُّعِهِ فِي فَنِّ الِاسْتِدْلَالِ يُؤَيِّدُ الْمَذْهَبَ تَارَةً بِالتَّأْوِيلِ وَالْجَدَلِ وَيَسْتَقِلُّ بِالِاسْتِدْلَالِ أُخْرَى . وَقَدْ جَاءَ بَعْدَ شَيْخِهِ كَثِيرٌ مِنَ الْمُجْتَهِدِينَ مِثْلُهُ وَلَكِنَّ كَثْرَةَ الْمُقَلِّدِينَ وَتَأْيِيدَ الْحُكَّامِ لَهُمْ قَدْ نَصَرَ بَاطِلَهُمْ عَلَى حَقِّ أُولَئِكَ الْأَئِمَّةِ ، وَلَوْلَا الْحُكَّامُ الْجَاهِلُونَ وَالْأَوْقَافُ الَّتِي وَقَفَتْ عَلَى فِقْهِ الْمَذَاهِبِ لَمْ يَتَفَرَّقِ

الْمُسْلِمُونَ فِي دِينِهِمْ شِيَعًا ، حَتَّى صَدَقَ عَلَيْهِمْ مَا وَرَدَ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ قَبْلَهُمْ إِلَّا مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ وَوَفَّقَهُ لِإِيثَارِ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ .

(223/255)

---

ثُمَّ إِنَّ ذَلِكَ الْأَصْلَ الَّذِي قُرِّرَ فِي آيَةِ الْأَنْعَامِ وَأَيَّدَتْهُ جُنُودُ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ تِلْكَ الْأَنْوَاعِ مِنَ الْآيَاتِ تُؤَيِّدُهُ السُّنَّةُ الصَّحِيحَةُ وَحِكْمَةُ التَّشْرِيعِ الرَّجِيحَةُ – أَمَّا السُّنَّةُ فَكَحَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ الْمَرْفُوعِ عِنْدَ الْبَزَّارِ وَقَالَ : سَنَدُهُ صَالِحٌ وَالْحَاكِمِ وَصَحَّحَهُ " مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ حَلَالٌ وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَفْوٌ فَاقْبَلُوا مِنَ اللَّهِ عَافِيَتَهُ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ لِيَنْسَى شَيْئًا " وَتَلَا (وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ) (19 : 64) وَحَدِيثُ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ عِنْدَ الدَّارَقُطْنِيِّ مَرْفُوعًا " إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا ، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا ، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا " حَسَّنَهُ الْحَافِظُ

أَبُو بَكْرٍ السَّمْعَانِيُّ فِي أَمَالِيهِ وَالنَّوَوِيُّ فِي الْأَرْبَعِينَ . وَفِي مَعْنَاهُمَا أَحَادِيثُ أُخْرَى .

(224/255)

وَأَمَّا حِكْمَةُ التَّشْرِيعِ فِي دِينٍ عَامٍّ يُطَالِبُ جَمِيعَ الْبَشَرِ فِي جَمِيعِ الْأَقْطَارِ بِالِاهْتِدَاءِ بِهِ فَهِيَ مَأْخُوذَةٌ مِمَّا وَرَدَ مِنْ يُسْرِ شَرِيعَتِهِ وَعَدَمِ إِعْنَاتِهَا لِلْبَشَرِ ، وَمَبْنِيَّةٌ عَلَى بُلُوغِ هَذَا النَّوْعِ فِي جُمْلَتِهِ دَرَجَةَ الرُّشْدِ الَّذِي يَسْتَقِلُّ بِهِ فِي شُئُونِ حَيَاتِهِ الْمَعَاشِيَّةِ وَالْمَعَادِيَةِ فَلَا تُقَيِّدُهُ فِيهَا إِلَّا بِمَا يَزِيدُ فِي الصَّلَاحِ وَالتَّقْوَى وَتَزْكِيَةِ الْأَنْفُسِ وَلَيْسَ فِي تَحْرِيمِ مَا حَرَّمُوهُ مِنْ غَيْرِ الْأَنْوَاعِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي فِي الْآيَةِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ .

ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى مَا حَرَّمَهُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ " خَاصَّةً عُقُوبَةً لَهُمْ ، لَا عَلَى أَنَّهُ مِنْ أُصُولِ شَرْعِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ قَبْلَهُمْ أَوْ بَعْدَهُمْ ، فَكَانَ مِنَ الْمُلْحَقِ بِالْمُسْتَثْنَى " فِي الْآيَةِ بِالْعَطْفِ عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ بَعْدَ نَفْيِ تَحْرِيمِ أَيِّ طَعَامٍ عَلَى أَيِّ طَاعِمٍ اسْتَثْنَى مِنْ هَذَا الْعَامِّ مَا حَرَّمَهُ تَحْرِيمًا عَامًّا مُؤَبَّدًا عَلَى غَيْرِ الْمُضْطَرِّ ثُمَّ مَا حَرَّمَهُ تَحْرِيمًا عَارِضًا عَلَى قَوْمٍ مُعَيَّنِينَ لِسَبَبٍ خَاصٍّ إِلَى أَنْ يَجِيءَ رَسُولٌ آخَرُ يُبِيحُهُ لَهُمْ بِاتِّبَاعِهِمْ إِيَّاهُ وَهُوَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ :

*(225/255)*

---

(وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ) الَّذِينَ هَادُوا هُمُ الْيَهُودُ مِنْ قَوْلِهِمُ الْآتِي فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ : (إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ) (7 : 156) أَيْ رَجَعْنَا وَتُبْنَا ، وَأَصْلُ الْهُودِ الرُّجُوعُ بِرِفْقٍ قَالَهُ

الرَّاغِبُ ، أَيْ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا - دُونَ غَيْرِهِمْ مِنْ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ - حَرَّمْنَا فَوْقَ مَا ذُكِرَ مِنَ الْأَنْوَاعِ الْأَرْبَعَةِ كُلَّ ذِي ظُفُرٍ إِلَخْ . وَقَوْلُنَا : " دُونَ غَيْرِهِمْ " هُوَ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ تَقْدِيمُ الْمَعْمُولِ عَلَى عَامِلِهِ . وَالظُّفُرُ مِنَ الْأَصَابِعِ مَعْرُوفٌ ، وَيَكُونُ لِلْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ مِنْ طَائِرٍ وَغَيْرِهِ ; وَلِذَلِكَ فَسَّرُوا الْمِخْلَبَ بِظُفُرِ سِبَاعِ الْوَحْشِ وَالطَّيْرِ ، فَالظُّفُرُ عَامٌّ وَالْمِخْلَبُ خَاصٌّ بِمَا يَصِيدُ كَالْبُرْثُنِ لِلسَّبُعِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ فِي الِاسْتِعَارَةِ : أَنْشَبَتِ الْمَنِيَّةُ أَظْفَارَهَا فِي فُلَانٍ - وَفِي اللِّسَانِ عَنِ اللَّيْثِ الظُّفُرُ ظُفُرُ الْأُصْبُعِ وَظُفُرُ الطَّائِرِ ، وَفِيهِ : وَقَالُوا : الظُّفُرُ لِمَا لَا يَصِيدُ وَالْمِخْلَبُ لِمَا يَصِيدُ أَيْ خَاصٌّ بِمَا يَصِيدُ مِنَ الطَّيْرِ ثُمَّ ذَكَرَ الْآيَةَ وَقَالَ : " دَخَلَ فِي ذِي الظُّفُرِ ذَوَاتُ الْمَنَاسِمِ مِنَ الْإِبِلِ وَالنَّعَامِ لِأَنَّهَا لَهَا كَالْأَظْفَارِ . وَهَذَا تَوْجِيهٌ لُغَوِيٌّ لِمَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ تَفْسِيرِ كُلِّ ذِي ظُفُرٍ بِالْبَعِيرِ وَالنَّعَامَةِ . وَظَاهِرٌ أَنَّهُ مَجَازٌ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : هُوَ كُلُّ شَيْءٍ لَمْ تُفْرَجْ قَوَائِمُهُ مِنَ الْبَهَائِمِ ، وَمَا انْفَرَجَ أَكَلَتْهُ الْيَهُودُ . وَمِثْلُهُ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ : وَذَكَرُوا مِنْ ذَلِكَ الْإِبِلَ وَالنَّعَامَ وَالْوَرَنِيَّةَ

(226/255)

---

وَالْبَطَّ وَالْوَزَّ وَحِمَارَ الْوَحْشِ . وَنَقَلَ الرَّازِيُّ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مُسْلِمٍ قَالَ : إِنَّهُ كُلُّ ذِي مِخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ وَكُلُّ ذِي حَافِرٍ مِنَ الدَّوَابِّ ، ثُمَّ قَالَ :

كَذَلِكَ قَالَ الْمُفَسِّرُونَ ، وَقَالَ : وَسُمِّيَ الْحَافِرُ ظُفُرًا عَلَى الِاسْتِعَارَةِ . وَتَعَقَّبَهُ بِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ تَسْمِيَةُ الْحَافِرِ ظُفُرًا ، وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ الْحَافِرَ لَذَكَرَهُ ، وَجَزَمَ بِوُجُوبِ حَمْلِ الظُّفُرِ عَلَى الْمَخَالِبِ وَالْبَرَاثِنِ . قَالَ : وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ يَدْخُلُ فِيهِ أَنْوَاعُ السِّبَاعِ وَالْكِلَابِ وَالسَّنَانِيرِ وَيَدْخُلُ فِيهِ الطُّيُورُ الَّتِي تُصْطَادُ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ تَعُمُّ هَذِهِ الْأَجْنَاسَ . ثُمَّ قَالَ :

(227/255)

---

إذَا ثَبَتَ هَذَا فَنَقُولُ : قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ) يُفِيدُ تَخْصِيصَ هَذِهِ الْحُرْمَةِ بِهِمْ مِنْ وَجْهَيْنِ : (الْأَوَّلُ) أَنَّ قَوْلَهُ : وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كَذَا وَكَذَا يُفِيدُ الْحَصْرَ فِي اللُّغَةِ (وَالثَّانِي) أَنَّهُ لَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْحُرْمَةُ ثَابِتَةً فِي حَقِّ الْكُلِّ لَمْ يَبْقَ لِقَوْلِهِ : (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا) فَائِدَةٌ - فَثَبَتَ أَنَّ تَحْرِيمَ السِّبَاعِ وَذِي الْمِخْلَبِ مِنَ الطَّيْرِ مُخْتَصٌّ بِالْيَهُودِ فَوَجَبَ أَلَّا تَكُونَ مُحَرَّمَةً عَلَى الْمُسْلِمِينَ . وَعِنْدَ هَذَا نَقُولُ : مَا رُوِيَ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَرَّمَ كُلَّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ ، وَذِي مِخْلَبٍ مِنَ الطُّيُورِ ، ضَعِيفٌ لِأَنَّهُ خَبَرٌ وَاحِدٌ عَلَى خِلَافِ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَوَجَبَ أَلَّا يَكُونَ مَقْبُولًا وَعَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ يَقْوَى قَوْلُ مَالِكٍ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ اهـ .

وَأَقُولُ : " إنَّ تَضْعِيفَهُ الْحَدِيثَ مَعَ صِحَّةِ رِوَايَتِهِ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا إنَّمَا هُوَ مِنْ

جِهَةِ الْمَتْنِ ، وَقَدْ قَالُوا : إنَّ مِنْ عَلَامَةِ وَضْعِ الْحَدِيثِ مُخَالَفَتَهُ لِلْقُرْآنِ وَكُلِّ مَا هُوَ قَطْعِيٌّ ، وَهَذَا إنَّمَا يُصَارُ إلَيْهِ إذَا تَعَذَّرَ الْجَمْعُ بَيْنَ الْحَدِيثِ الظَّنِّيِّ وَالْقُرْآنِ الْقَطْعِيِّ ، وَقَدْ جَمَعْنَا بَيْنَهُمَا بِحَمْلِ النَّهْيِ عَلَى الْكَرَاهَةِ فِي حَالِ الِاخْتِيَارِ ، وَهُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ كَمَا تَقَدَّمَ تَفْصِيلُهُ .

*(228/255)*

---

وَقَدْ فَسَّرُوا بِهَذِهِ الْآيَةِ قَوْلَهُ تَعَالَى : (فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ) (4 : 160) وَعَلَى هَذَا تَكُونُ ذَوَاتُ الْأَنْيَابِ مِنَ السِّبَاعِ وَالْمَخَالِبِ مِنَ الطَّيْرِ طَيِّبَاتٍ بِالنَّصِّ . وَقَدْ بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ سُورَةِ النِّسَاءِ أَنَّ التَّحْقِيقَ فِيهَا إبْقَاءُ قَوْلِهِ تَعَالَى : (بِظُلْمٍ) وَقَوْلِهِ (طَيِّبَاتٍ) عَلَى نَكَارَتِهِمَا ، وَإِبْهَامِهِمَا ، وَأَنَّ آيَةَ : (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إسْرَائِيلَ إلَّا مَا حَرَّمَ إسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ) (3 : 93) مَعْنَاهَا : أَنَّ كُلَّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لَهُمْ وَلِمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ كَإِبْرَاهِيمَ وَذُرِّيَّتِهِ ، إلَّا مَا حَرَّمُوا هُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِسَبَبِ الظُّلْمِ الَّذِي ارْتَكَبُوهُ وَكَانَ سَبَبًا لِشَدِيدِ أَحْكَامِ التَّوْرَاةِ عَلَيْهِمْ - وَأَنَّ مَا يُرْوَى عَنْ مُفَسِّرِي السَّلَفِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ وَأَمْثَالِهَا مَأْخُوذٌ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ الَّتِي كَانَ الْيَهُودُ يَقُصُّونَهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ . وَفِيهَا الْغَثُّ وَالسَّمِينُ ، وَكَانَ فِيهِمْ مَنْ يَصْدُقُ فِي بَيَانِ مَا فِي

كُتُبِهِمْ وَمَنْ يَمِينُ وَالْمُحَرَّمَاتُ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَاةِ كَثِيرَةٌ مُفَصَّلَةٌ فِي سِفْرِ اللَّاوِيِينَ ، (الْأَحْبَارِ)

فَفِي الْفَصْلِ الْحَادِي عَشَرَ مِنْهُ بَيَانُ

(229/255)

---

أَنَّ مَا يَحِلُّ لَهُمْ مِنَ الْحَيَوَانِ هُوَ ذُو الْأَظْلَافِ الْمَشْقُوقَةِ الَّذِي يَجْتَرُّ دُونَ غَيْرِهِ كَالْجَمَلِ وَالْوَبَرِ وَالْأَرْنَبِ فَإِنَّهُ نَجِسٌ لِعَدَمِ انْشِقَاقِ ظِلْفِهِ وَإِنْ كَانَ يَجْتَرُّ وَالْخِنْزِيرِ لِأَنَّهُ لَا يَجْتَرُّ وَإِنْ كَانَ مَشْقُوقَ الظِّلْفِ – وَيَدْخُلُ فِي الْمُحَرَّمِ جَمِيعُ أَنْوَاعِ السِّبَاعِ كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ – ثُمَّ بَيَانُ مَا يَحِلُّ مِنْ حَيَوَانِ الْمَاءِ وَهُوَ مَا لَهُ زَعَانِفُ . ثُمَّ بَيَانُ مَا يَحْرُمُ عَلَيْهِمْ مِنَ الطَّيْرِ وَهِيَ النَّسْرُ وَالْأُنُوقُ وَالْعُقَابُ وَالْحِدَأَةُ وَالْبَاشِقُ عَلَى أَجْنَاسِهِ وَكُلُّ غُرَابٍ عَلَى أَجْنَاسِهِ وَالنَّعَامَةُ وَالظَّلِيمُ وَالسَّأْفُ وَالْبَازِي عَلَى أَجْنَاسِهِ وَالْبُومُ وَالْغَوَّاصُ وَالْكُرْكِيُّ وَالْبَجَعُ وَالْقُوقُ وَالرَّخَمُ وَاللَّقْلَقُ وَالْبَبَّغَاءُ عَلَى أَجْنَاسِهِ وَالْهُدْهُدُ وَالْخُفَّاشُ وَكُلُّ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ ذَوَاتُ أَظَافِرَ وَأَكْثَرُهَا مِمَّا تُسَمَّى أَظَافِرُهُ مَخَالِبَ . وَهُوَ مَا يَصِيدُ وَيَأْكُلُ اللُّحُومَ . وَكُلُّ مَا حُرِّمَ عَلَيْهِمْ فَهُوَ نَجِسٌ لَهُمْ كَمَا صُرِّحَ بِهِ مِرَارًا . وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْآيَةَ لَيْسَتْ نَصًّا فِي إِحْصَاءِ كُلِّ مَا هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْهِمْ . وَمَجْمُوعُ الْآيَاتِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَا حُرِّمَ عَلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ الْأَنْوَاعِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي حُرِّمَتْ عَلَى

الْمُسْلِمِينَ كَافَّةً فَهُوَ مِنَ الطَّيِّبَاتِ . وَقَدْ غَفَلَ عَنِ الْجَمْعِ بَيْنَ الْآيَاتِ وَدَلَالَةِ جُمْلَتِهَا عَلَى مَا ذَكَرَ الْفُقَهَاءُ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ جُزْئِيَّةٍ عَلَى حِدَتِهَا .

(230/255)

---

(وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ) قَالَ ابْنُ سِيدَهْ : الشَّحْمُ جَوْهَرُ السِّمَنِ – أَيِ الْمَادَّةُ الدُّهْنِيَّةُ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْحَيَوَانُ سَمِينًا

(231/255)

---

وَفِي مَعَاجِمِ اللُّغَةِ أَنَّ الْعَرَبَ تُسَمِّي سَنَامَ الْبَعِيرِ وَبَيَاضَ الْبَطْنِ شَحْمًا ، وَشَحَمَ شَحَامَةً سَمِنَ وَكَثُرَ شَحْمُهُ فَهُوَ شَحِيمٌ ، وَيَغْلِبُ الشَّحْمُ فِي عُرْفِنَا عَلَى الْمَادَّةِ الدُّهْنِيَّةِ الْبَيْضَاءِ الَّتِي تَكُونُ عَلَى كِرْشِ الْحَيَوَانِ وَكُلْيَتَيْهِ وَأَمْعَائِهِ وَفِيهَا وَفِي سَائِرِ الْجَوْفِ ، وَلَا يُطْلَقُ عَلَى الْأَلْيَةِ وَمَا عَلَى ظَاهِرِ اللَّحْمِ مِنَ الْمَادَّةِ الْبَيْضَاءِ ، وَهُوَ تَخْصِيصٌ مُوَلَّدٌ لَا نَدْرِي مَتَى حَدَثَ . وَالْحَوَايَا جَمْعُ حَاوِيَةٍ كَزَاوِيَةٍ وَزَوَايَا أَوْ حَوِيَّةٍ كَقَضِيَّةٍ وَقَضَايَا ، وَفُسِّرَتْ بِالْمَبَاعِرِ

وَبِالْمَرَابِضِ وَبِالْمَصَارِينِ وَالْأَمْعَاءِ ، وَالْمَرَابِضُ مُجْتَمَعُ الْأَمْعَاءِ فِي الْبَطْنِ . قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ : إنَّمَا حُرِّمَ عَلَيْهِمُ الثَّرْبُ وَشَحْمُ الْكِلْيَةِ وَكُلُّ شَحْمٍ كَانَ لَيْسَ فِي عَظْمٍ . وَالثَّرْبُ كَفَلْسٍ الشَّحْمُ الرَّقِيقُ الَّذِي يَكُونُ عَلَى الْكِرْشِ وَالْأَمْعَاءِ . وَقَوْلُهُ : (إلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يَعْنِي مَا عَلَقَ بِالظَّهْرِ مِنَ الشَّحْمِ . وَالْحَوَايَا : الْمَبَاعِرُ (أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ) قَالَ : الْأَلْيَةُ إذَا اخْتَلَطَ شَحْمُ الْأَلْيَةِ بِالْعُصْعُصِ فَهُوَ حَلَالٌ وَكُلُّ شَحْمِ الْقَوَائِمِ وَالْجَنْبِ وَالرَّأْسِ وَالْعَيْنِ وَالْأُذُنِ . يَقُولُونَ : قَدِ اخْتَلَطَ ذَلِكَ بِعَظْمٍ فَهُوَ حَلَالٌ لَهُمْ إنَّمَا حُرِّمَ عَلَيْهِمُ الثُّرُوبُ وَشَحْمُ الْكُلْيَةِ وَكُلُّ شَيْءٍ كَانَ كَذَلِكَ لَيْسَ فِي عَظْمٍ .

(232/255)

---

وَقَدْ يُقَالُ إنَّ الْآيَةَ أَوْجَزَتْ أَبْلَغَ الْإِيجَازِ فِي بَيَانِ مَا حُرِّمَ عَلَيْهِمْ مِنَ الشُّحُومِ وَمَا أُحِلَّ لَهُمْ ، فَلِمَ لَمْ يَكُنْ مِنْ مُقْتَضَى الْإِيجَازِ أَنْ يَكُونَ التَّعْبِيرُ : وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَشُحُومَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ إلَّا كَذَا وَكَذَا مِنْهَا ؟ وَمَا نُكْتَةُ هَذَا التَّعْبِيرِ الْخَاصِّ فِيهَا ؟ نَقُولُ : قَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ صَاحِبُ الْكَشَّافِ بِجَعْلِهِ "كَقَوْلِكَ : مِنْ زَيْدٍ أَخَذْتُ مَالَهُ – تُرِيدُ بِالْإِضَافَةِ زِيَادَةَ الرَّبْطِ ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ حُرِّمَ عَلَيْهِمْ لَحْمُ كُلِّ ذِي ظُفُرٍ وَشَحْمُهُ وَكُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ وَتُرِكَ الْبَقَرُ

وَالْغَنَمُ عَلَى التَّحْلِيلِ لَمْ يُحَرَّمْ مِنْهُمَا إلَّا الشُّحُومُ الْخَالِصَةُ وَهِيَ الثُّرُوبُ وَشُحُومُ الْكُلَى " اهـ

.

(233/255)

---

وَأَقُولُ : إنَّ الْمَعْنَى الْمُتَبَادِرَ الَّذِي تَظْهَرُ فِيهِ النُّكْتَةُ هُوَ : وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ دُونَ غَيْرِهِمَا مِمَّا أُحِلَّ لَهُمْ مِنْ حَيَوَانِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا الزَّائِدَةَ الَّتِي تُنْتَزَعُ بِسُهُولَةٍ لِعَدَمِ اخْتِلَاطِهَا بِلَحْمٍ وَلَا عَظْمٍ ، وَأَمَّا مَا حَمَلَتِ الظُّهُورُ أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ فَلَمْ يُحَرَّمْ عَلَيْهِمْ . فَتَقْدِيمُ ذِكْرِ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ لِبَيَانِ الْحَصْرِ ، وَاخْتُلِفَ فِي الِاسْتِثْنَاءِ هُنَا هَلْ هُوَ مُنْقَطِعٌ أَوْ مُتَّصِلٌ مِنَ الشُّحُومِ ، وَبَنَوْا عَلَيْهِ أَحْكَامًا فِيمَنْ يَحْلِفُ لَا يَأْكُلُ شَحْمًا فَأَكَلَ مِمَّا اسْتُثْنِيَ ، وَالصَّوَابُ أَنَّ مَبْنَى الْإِيمَانِ عَلَى الْعُرْفِ لَا عَلَى حَقِيقَةِ مَدْلُولِ اللُّغَةِ وَكُلٌّ مِنْهُمَا مَعْرُوفٌ عِنْدَ أَهْلِهِ ، وَسَبَبُ تَخْصِيصِ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ بِالْحُكْمِ هُوَ أَنَّ الْقَرَايِينَ عِنْدَهُمْ لَا تَكُونُ إلَّا مِنْهُمَا ، وَكَانَ يُتَّخَذُ مِنْ شَحْمِهِمَا الْمَذْكُورِ الْوَقُودُ لِلرَّبِّ كَمَا هُوَ مُفَصَّلٌ فِي الْفَصْلِ الثَّالِثِ مِنْ سِفْرِ اللَّاوِيِينَ ، وَقَدْ صَرَّحَ فِيهِ بِأَنَّهُ الشَّحْمُ الَّذِي يَغْشَى الْأَحْشَاءَ وَالْكُلْيَتَيْنِ وَالْأَلْيَةَ مِنْ عِنْدِ الْعُصْعُصِ (أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ) وَقَالَ بَعْدَ التَّفْصِيلِ فِي قَرَايِينِ السَّلَامَةِ مِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ

بِقِسْمَيْهِ الضَّأْنِ وَالْمَعِزِ مَا نَصُّهُ : " 3 : 16 كُلُّ الشَّحْمِ لِلرَّبِّ 17 فَرِيضَةٌ فِي أَجْيَالِكُمْ فِي جَمِيعِ مَسَاكِنِكُمْ لَا تَأْكُلُوا شَيْئًا مِنَ الشَّحْمِ وَلَا مِنَ الدَّمِ " اهـ .

*(234/255)*

---

(ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ) الْإِشَارَةُ إِلَى التَّحْرِيمِ أَوِ الْجَزَاءِ الْمَأْخُوذِ مِنْ فِعْلِهِ ، أَيْ جَزَيْنَاهُمْ إِيَّاهُ بِسَبَبِ بَغْيِهِمْ وَظُلْمِهِمْ . قَالَ قَتَادَةُ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ : إِنَّمَا حَرَّمَ اللَّهُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ عُقُوبَةً بَغْيِهِمْ فَشَدَّدَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ وَمَا هُوَ بِخَبِيثٍ ، وَقَدْ سَبَقَ تَفْصِيلُ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ (كُلُّ الطَّعَامِ) أَوَّلَ الْجُزْءِ الرَّابِعِ وَتَفْسِيرِ : (فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا) (4 : 160) فِي أَوَاخِرِ سُورَةِ النِّسَاءِ مِنْ أَوَائِلِ الْجُزْءِ السَّادِسِ [ص49 وَمَا بَعْدَهَا ج6 ط الْهَيْئَةِ] .

وَلَمَّا كَانَ هَذَا الْخَبَرُ عَنْ شَرِيعَةِ الْيَهُودِ مِنَ الْأَنْبَاءِ الَّتِي لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا قَوْمُهُ يَعْلَمُونَ مِنْهَا شَيْئًا لِأُمِّيَّتِهِمْ ، وَكَانَ مَظِنَّةَ تَكْذِيبِ الْمُشْرِكِينَ لِعَدَمِ إِيمَانِهِمْ بِالْوَحْيِ وَجَزْمِهِمْ بِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بِأَعْلَمَ مِنْهُمْ بِشَرْعِ الْيَهُودِ ، وَمَظِنَّةَ تَكْذِيبِ الْيَهُودِ

إِنَّ تَحْرِيمَ اللَّهِ تَعَالَى ذَلِكَ عَلَيْهِمْ عُقُوبَةٌ لَهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَظُلْمِهِمُ الْمُبَيَّنِ فِي آيَاتٍ أُخْرَى قَالَ تَعَالَى بَعْدَهُ : (وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) فَأَكَّدَ حَقِيقَةَ الْخَبَرِ وَصِدْقَ الْمُخْبِرِ بِـ " إِنَّ " وَالْجُمْلَةِ الْإِسْمِيَّةِ

الْمُعَرَّفَةِ الطَّرَفَيْنِ وَلَامِ الْقَسَمِ ، أَيْ صَادِقُونَ فِي هَذِهِ الْأَخْبَارِ عَنِ التَّحْرِيمِ وَعِلَّتِهِ ، لِأَنَّ أَخْبَارَنَا صَادِرَةٌ عَنِ الْعِلْمِ الْمُحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ وَالْكَذِبُ مُحَالٌ عَلَيْنَا لِاسْتِحَالَةِ كُلِّ نَقْصٍ عَلَى الْخَالِقِ .

(235/255)

---

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) أَيْ فَإِنْ كَذَّبُوكَ كُفَّارُ قَوْمِكَ أَوِ الْيَهُودُ فِي هَذَا وَهُوَ الْمَرْوِيُّ عَنْ مُجَاهِدٍ وَالسُّدِّيِّ قِيلَ : وَهُوَ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الظَّاهِرُ لِأَنَّهُمْ أَقْرَبُ ذِكْرًا . وَالصَّوَابُ أَنَّهُ خِلَافُ الظَّاهِرِ مِنْ جِهَةِ السِّيَاقِ . فَإِنَّ الْكَلَامَ فِي مُحَاجَّةِ الْمُشْرِكِينَ الْجَاهِلِينَ فَهُمُ الْمَقْصُودُونَ بِالْخِطَابِ بِالذَّاتِ . إِلَّا أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَقْوَى بِالْجَوَابِ ، وَهُوَ أَنَّ الْيَهُودَ لَمَّا كَانَ يَثْقُلُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَكُونَ بَعْضُ شَرْعِهِمْ عِقَابًا لَهُمْ ، لِلتَّشْدِيدِ فِي تَرْبِيَتِهِمْ عَلَى مَا كَانَ مِنْ بَغْيِهِمْ عَلَى النَّاسِ وَظُلْمِهِمْ لَهُمْ وَلِأَنْفُسِهِمْ وَتَمَرُّدِهِمْ عَلَى رَسُولِهِمْ ، يُنْتَظَرُ مِنْهُمْ أَنْ يُكَذِّبُوا الْخَبَرَ مِنْ حَيْثُ تَعْلِيلِهِ بِمَا ذُكِرَ ، وَيَحْتَجُّوا عَلَى إِنْكَارِ كَوْنِهِ عُقُوبَةً بِكَوْنِ الشَّرْعِ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ ; وَلِذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ أَنْ يُجِيبَهُمْ بِمَا يَدْحَضُ هَذِهِ الشُّبْهَةَ بِإِثْبَاتِهِ لَهُمْ أَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى وَاسِعَةٌ حَقِيقَةً وَلَكِنَّ سَعَتَهَا لَا تَقْتَضِي أَنْ يُرَدَّ بَأْسُهُ وَيُمْنَعَ عِقَابُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ . وَالْبَأْسُ الشِّدَّةُ وَالْمَكْرُوهُ ، وَإِصَابَةُ النَّاسِ بِالْمَكَارِهِ وَالشَّدَائِدِ

عِقَابًا عَلَى جَرَائِمَ ارْتَكَبُوهَا قَدْ يَكُونُ رَحْمَةً بِهِمْ ، وَقَدْ يَكُونُ عِبْرَةً وَمَوْعِظَةً لِغَيْرِهِمْ ، لِيَنْتَهُوا عَنْ مِثْلِهَا أَوْ لِيَتَرَبَّوْا عَلَى تَرْكِ التَّرَفِ وَالْخُنُوثَةِ فَتَقْوَى عَزَائِمُهُمْ وَتَعْلُو هِمَمُهُمْ فَيَرْبَئُوا

(236/255)

---

بِأَنْفُسِهِمْ عَنِ الْجَرَائِمِ وَالْمُنْكَرَاتِ ، وَهَذَا الْعِقَابُ مِنْ سُنَنِ اللهِ تَعَالَى الْمُطَّرِدَةِ فِي الْأَقْوَامِ وَالْأُمَمِ وَإِنْ لَمْ يَطَّرِدْ فِي الْأَفْرَادِ لِقِصَرِ أَعْمَارِهِمْ وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي التَّفْسِيرِ مِرَارًا كَثِيرَةً .

وَلِذَلِكَ قَالَ : (عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) وَلَمْ يَقُلْ عَنِ الْمُجْرِمِينَ . وَذَهَبَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ تَكْذِيبَ الْيَهُودِ لِهَذَا الْخَبَرِ إِنَّمَا هُوَ بِزَعْمِهِمْ أَنَّ يَعْقُوبَ هُوَ الَّذِي حَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ الْإِبِلَ أَوْ عِرْقَ النَّسَا كَمَا قَالُوهُ فِي تَفْسِيرِ : (إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ) (3 : 93) وَهُوَ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ الَّتِي كَانَ بَعْضُ الْيَهُودِ يَغُشُّ بِهَا الْمُسْلِمِينَ

عِنْدَمَا خَالَطُوهُمْ وَعَاشَرُوهُمْ كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِ تِلْكَ الْآيَةِ وَجَرَيْنَا عَلَيْهِ آنِفًا فِي تَفْسِيرِ آيَةِ التَّحْرِيمِ هُنَا .

وَيُمْكِنُ تَوْجِيهُ هَذَا الْجَوَابِ فِي تَكْذِيبِ مُشْرِكِي مَكَّةَ بِأَنَّهُ تَهْدِيدٌ لَهُمْ إِذَا أَصَرُّوا

(237/255)

عَلَى كُفْرِهِمْ ، وَمَا يَتْبَعُهُ مِنَ الِافْتِرَاءِ عَلَى اللهِ بِتَحْرِيمِ مَا حَرَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَإِطْمَاعٌ لَهُمْ فِي رَحْمَةِ اللهِ الْوَاسِعَةِ إِذَا رَجَعُوا عَنْ إِجْرَامِهِمْ ، وَآمَنُوا بِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُهُمْ ؛ إِذْ يَكُونُونَ سُعَدَاءَ فِي الدُّنْيَا بِحِلِّ الطَّيِّبَاتِ وَسَائِرِ مَا يَتْبَعُ الْإِسْلَامَ مِنَ السَّعَادَةِ وَالسِّيَادَةِ ، وَسُعَدَاءَ فِي الْآخِرَةِ بِالنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ ، وَدُخُولِ الْجَنَّةِ مَعَ الْأَبْرَارِ ، جَعَلَنَا اللهُ مِنْهُمْ بِكَمَالِ الِاتِّبَاعِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى تَوْفِيقِهِ وَعَلَى كُلِّ حَالٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 8 صـ 154.129 ﴾

*(238/255)*

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (147) ﴾

وكان مقتضى أنهم يكذبونك فيما أخبرت به عن الله ، أن يجعل الله لهم بالعذاب ؛ لكن الحق لم يعجل لهم بالعذاب لأنه ذو رحمة واسعة . ﴿ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾ [ الأنعام : 147 ]

ولكن إياكم أن تطمعوا في الرحمة الدائمة ؛ إنها تأجيل فقط . ولن يفوتكم عذابه ، وهنا

يحننهم ايضاً فيقول سبحانه : ﴿ رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾ وكأنه يقول لهم : راجعوا أنفسكم واستحوا من الله ولا يغرنّكم انه ربّ ، خلق من عَدَم وأمدَّ من عُدْم ، وتولّى التربية ، لكنه لن يرد ويمنع بأسه وعذابه عن القوم المجرمين منكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (147) ﴾

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ فإن كذبوك ﴾ قال : اليهود .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : كانت اليهود يقولون في اللحم : إنما حرمه إسرائيل فنحن نحرمه . فذلك قوله ﴿ فإن كذبوك فقل ربكم . . ﴾ الآية . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

ومن فوائد البيضاوى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَهُوَ الذى أَنشَأَ جنات ﴾ من الكروم. ﴿ معروشات ﴾ مرفوعات على ما يحملها . ﴿ وَغَيْرَ معروشات ﴾ ملقيات على وجه الأرض . وقيل المعروشات ما غرسه الناس فعرشوه وغير معروشات ما نبت في البراري والجبال . ﴿ والنخل والزرع مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ ﴾ ثمره الذي يؤكل في الهيئة والكيفية ، والضمير للزرع والباقي مقيس عليه ، أو النخل والزرع داخل في حكمه لكونه معطوفاً عليه ، أو للجميع على تقدير أكل ذلك أو كل واحد منهما ومختلفاً حالاً مقدرة لأنه لم يكن ذلك عند الإنشاء . ﴿ والزيتون والرمان متشابها وَغَيْرَ متشابه ﴾ يتشابه بعض أفرادهما في اللون والطعم ولا يتشابه بعضها . ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ ﴾ من ثمر كل واحد من ذلك . ﴿ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ وإن لم يدرك ولم يينع بعد . وقيل فائدته رخصة المالك في الأكل منه قبل أداء حق الله تعالى . ﴿ وَهُوَ الذى أَنشَأَ جنات ﴾ يريد به ما كان يتصدق به يوم الحصاد لا الزكاة المقدرة لأنها فرضت بالمدينة والآية مكية . وقيل الزكاة والآية مدنية والأمر بإيتائها يوم الحصاد ليهتم به حينئذ حتى لا يؤخر عن وقت الأداء وليعلم أن الوجوب بالإدراك لا بالتنقية . وقرأ ابن كثير ونافع وحمزة والكسائي ﴿ حَصَادِهِ ﴾ بكسر الحاء وهو لغة فيه . ﴿ وَلاَ تُسْرِفُواْ ﴾ في التصدق كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط ﴾ ﴿ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المسرفين ﴾ لا يرتضي فعلهم .

وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (142)

﴿ وَمِنَ الأنعام حَمُولَةً وَفَرْشًا ﴾ عطف على جنات أي وأنشأ من الأنعام ما يحمل الأثقال وما يفرش للذبح ، أو ما يفرش المنسوج من شعره وصوفه ووبره . وقيل الكبار الصالحة للحمل والصغار الدانية من الأرض مثل الفرش المفروش عليها . ﴿ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله ﴾ كلوا مما أحل لكم منه . ﴿ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خطوات الشيطان ﴾ في التحليل والتحريم من عند أنفسكم . ﴿ إِنَهُ لَكُمْ عَدُو مُبِينٌ ظاهر العداوة .

ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (143)

﴿ ثمانية أزواج ﴾ بدل من حمولة وفرشاً ، أو مفعول كلوا ، ولا تتبعوا معترض بينهما أو فعل دل عليه أو حال من ما بمعنى مختلفة أو متعددة والزوج ما معه آخر من جنسه يزاوجه وقد يقال لمجموعهما والمراد الأول . ﴿ مّنَ الضأن اثنين ﴾ زوجين اثنين الكبش والنعجة ، وهو بدل من ثمانية وقرىء "اثنان" على الابتداء . و ﴿ الضأن ﴾ اسم جنس كالإبل وجمعه ضئين أو جمع ضائن كتاجر وتجر . وقرىء بفتح الهمزة وهو لغة فيه . ﴿ وَمِنَ المعز اثنين ﴾ التيس والعنز ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب بالفتح وهو جمع ماعز كصاحب وصحب وحارس وحرس ، وقرىء "المعزى" . ﴿ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ ﴾ ذكر الضأن وذكر المعز . ﴿ حَرَّمَ أَمِ الأنثيين ﴾ أم أنثييهما ونصب الذكرين والانثيين بحرم ﴿ أَمَّا اشتملت عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأنثيين ﴾ أو ما حملت إناث الجنسين ذكراً كان أو أنثى ﴿ نَبّئُونِي بِعِلْمٍ ﴾ بأمرٍ معلوم يدل على أن الله تعالى حرم شيئاً من ذلك ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ دعوى التحريم عليه .

وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (144) قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (145)

﴿ وَمِنَ الإبل اثنين وَمِنَ البقر اثنين قُلْ ءآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأنثيين أَمَّا اشتملت عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأنثيين ﴾ كما سبق والمعنى إنكار أن الله حرم شيئاً من الأجناس الأربعة ذكراً كان أو أنثى أو ما تحمل إناثها رداً عليهم ، فإنهم كانوا يحرمون ذكور الأنعام تارة وإناثها تارة أخرى وأولادها كيف كانت تارة زاعمين أن الله حرمها . ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء ﴾ بل أكنتم شاهدين حاضرين . ﴿ إِذْ وصاكم الله بهذا ﴾ حين وصاكم بهذا التحريم إذ أنتم لا تؤمنون بنبي فلا طريق لكم إلى معرفة أمثال ذلك إلا المشاهدة والسماع . ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِبًا ﴾ فنسب إليه تحريم ما لم يحرم ، والمراد كبراؤهم المقررون لذلك ، أو عمرو بن لحي بن قمعة المؤسس لذلك . ﴿ لِيُضِلَّ الناس بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ الله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ﴾ .

﴿ قُل لا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ أي في القرآن ، أو فيما أوحي إلَّي مطلقاً ، وفيه تنبيه على أن التحريم إنما يعلم بالوحي لا بالهوى . ﴿ مُحَرَّمًا ﴾ طعاماً محرماً . ﴿ على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلا أَن يَكُونَ مَيْتَةً ﴾ أن يكون الطعام ميتة ، وقرأ ابن كثير وحمزة تكون بالتاء لتأنيث الخبر ، وقرأ ابن عامر بالياء ، ورفع ال ﴿ مَيْتَةً ﴾ على أن كان هي التامة وقوله : ﴿ أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا ﴾ عطف على أن مع ما في حيزه أي : إلا وجود ميتة أو دماً مسفوحاً ، أي مصبوباً كالدم في العروق لا كالكبد والطحال . ﴿ أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ ﴾ فإن الخنزير أو لحمه قذر لتعوده أكل النجاسة أو خبيث محنث ﴿ أَوْ فِسْقًا ﴾ عطف على لحم خنزير . وما بينهما اعتراض للتعليل . ﴿ أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ ﴾ صفة له موضحة وإنما سمي ما ذبح على اسم الصنم فسقاً لتوغله في الفسق ، ويجوز أن يكون فسقاً مفعولاً له من أهل وهو عطف على يكون والمستكن فيه راجع إلى ما رجع إليه المستكن في يكون . ﴿ فَمَنِ اضطر ﴾ فمن دعته الضرورة . ﴿ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لا يؤاخذه ، والآية محكمة لأنها تدل على أنه لم يجد فيما أوحي إلى تلك الغاية محرماً غير هذه ، وذلك لا ينافي ورود التحريم في شيء آخر فلا يصح الاستدلال بها على نسخ الكتاب بخبر الواحد ولا على حل الأشياء غيرها إلا مع الاستصحاب .

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا

حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (146)

(244/255)

---

﴿ وَعَلَى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ كل ماله أصبع الإبل والسباع والطيور . وقيل كل ذي مخلب وحافر وسمي الحافر ظفراً مجازاً ولعل المسبب عن الظلم تعميم التحريم . ﴿ وَمِنَ البقر والغنم حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا ﴾ الثروب وشحوم الكلى والإضافة لزيادة الربط . ﴿ إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ﴾ إلا ما علقت بظهورهما . ﴿ أَوِ الحوايا ﴾ أو ما اشتمل على الأمعاء جمع حاوية ، أو حاوياء كقاصعاء وقواصع ، أو حوية كسفينة وسفائن . وقيل هو عطف على شحومهما وأو بمعنى الواو . ﴿ أَوْ مَا اختلط بِعَظْمٍ ﴾ هو شحم الإلية لاتصالها بالعصعص . ﴿ ذلك ﴾ التحريم أو الجزاء . ﴿ جزيناهم بِبَغْيِهِمْ ﴾ بسبب ظلمهم . ﴿ وإِنَّا لصادقون ﴾ في الإخبار أو الوعد والوعيد .

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (147)

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسعة ﴾ يمهلكم على التكذيب فلا تغتروا بإمهاله فإنه لا يهمل . ﴿ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ القوم المجرمين ﴾ حين ينزل ، أو ذو رحمة واسعة على

المطيعين وذو بأس شديد على المجرمين ، فأقام مقامه ولا يرد بأسه لتضمنه التنبيه على إنزال البأس عليهم مع الدلالة على أنه لازب بهم لا يمكن رده عنهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير البيضاوى حـ 2 صـ 458.462 ﴾

(245/255)

---

ومن فوائد ابن جزى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (141) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (142) ﴾

﴿ جنات معروشات ﴾ مرفوعات على دعائم وشبهها ﴿ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ متروكات على وجه الأرض ، وقيل : المعروشات على ما غرسه الناس في العمران وغير معروشات : ما أنبته الله في الجبال والبراري ﴿ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ ﴾ في اللون والطعم والرائحة والحجم ، وذلك دليل على أن الخالق مختار مريد ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ في اللون

والطعم والرائحة والحجم ، وذلك دليل على أن الخالق مختار مريد ﴿ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ قيل : حقه هنا الزكاة وهو ضعيف لوجهين : أحدهما : أن الآية مكية ، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة ، والآخر : أن الزكاة لا تعطى يوم الحصاد ، وإنما تعطى يوم ضم الحبوب والثمار ، وقيل : حقه ما يصدق به على المساكين يوم الحصاد ، وكان ذلك واجباً ثم نسخ بالعشر ، وقيل : هو ما يسقط من السنبل ، والأمر على هذا للندب ﴿ حَمُولَةً وَفَرْشاً ﴾ عطف على جنات ، والحمولة الكبار ، والفرش الصغار : كالعجاجيل جمع عجل والفصلان وقيل : الحمولة الإبل لأنها يحمل عليها ، والفرش : الغنم لأنها تفرش للذبح ويفرش ما ينسج من صوفها .

(246/255)

---

ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (143) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (144)

﴿ ثمانية أزواج ﴾ بدل من حمولة وفرشاً ، وسماها أزواجاً ، لأن الذكر زوج للأنثى والأنثى زوج للذكر ﴿ مِّنَ الضأن اثنين ﴾ يريد الذكر والأنثى ، وكذلك فيما بعده ﴿ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ ﴾ يعني الذكر من الضأن والذكر من المعز ، ويعني بالأنثيين الأنثى من الضأن ، والأنثى من المعز ، وكذل فيما بعده من الإبل والبقر والهمزة للإنكار ﴿ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ ﴾ تعجيز وتوبيخ ﴿ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِباً ﴾ يعني في تحريم ما لم يحرم الله ، وذلك إشارة إلى العرب في تحريمهم أشياء كالبحيرة وغيرها .

*(247/255)*

---

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (145) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (146)

*(248/255)*

﴿ قُل لاَّ أَجِدُ ﴾ الآية تقتضي حصر المحرمات فيما ذكر ، وقد جاء في السنة تحريم أشياء لم تذكر هنا كلحوم الحمر الأهلية فذهب قوم إلى أن السنة نسخت هذا الحصر ، وذهب آخرون إلى أن الآية وردت على سبب فلا تقتضي الحصر ، وذهب آخرون إلى أن ما عدا ما ذكر إنما نهى عنه على وجه الكراهة ، لا على وجه التحريم ﴿ أَوْ فِسْقاً ﴾ معطوف على المنصوبات قبله ، وهو ما أُهِلَّ به لغير الله سماه فسقاً لتوغله في الفسق ، وقد تقدم الكلام على هذه المحرمات في [ البقرة : 173 ] ﴿ كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ﴾ هو ما له أصبع من دابة وطائر قاله الزمخشري وقال ابن عطية : يراد به الإبل والأوز والنعام ونحوه ؛ من الحيوان الذي هو غير منفرج الأصابع ، أو له ظفر وقال الماوردي مثله ، وحكى النقاش عن ثعلب : أن كل ما لا يصيد فهو ذو ظفر ، وما يصيد فهو ذو مخلب ، وهذا غير مطرد ، لأن الأسد ذو ظفر ﴿ إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ﴾ يعني ما في الظهور والجُنوب من الشحم ﴿ أَوِ الحوايآ ﴾ هي المباعر ، وقيل : المصارين والحشوة ونحوهما مما يتحوّى في البطن ، وواحد حوايا على هذا فعائل كصحيفة وصحائف ، وقيل : واحدها حاوية على وزن فاعله فحوايا على هذا فواعل : كضاربة وضوارب ، وهو معطوف على ما في قوله : إلا ما حملت الظهور ، فهو من المستثنى من التحريم ، وقيل : عطف على الظهور ، فالمعنى إلا ما حملت الظهور ، أو حملت الحوايا ، وقيل : عطف على الشحوم ، فهو من المحرم ﴿ أَوْ مَا اختلط

بِعَظْمٍ ﴾ يريد ما في جميع الجسد ﴿ وإِنَّا لصادقون ﴾ أي فيما أخبرنا به من التحريم ، وفي ذلك تعريض بكذب من حرم ما لم يحرم الله .

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (147)

(249/255)

---

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسعة ﴾ أي إن كذبوك فيما أخبرت به من التحريم فقل لهم : ربكم ذو رحمة واسعة إذ لا يعاجلكم بالعقوبة على شدة جرمكم ، وهذا كما تقول عند رؤية معصية : ما أحلم الله ! تريد لإمهاله عن مثل ذلك ثم أعقب وصفه بالرحمة الواسعة بقوله ﴿ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ القوم المجرمين ﴾ أي لا تغتروا بسعة رحمته ، فإنه لا يرد بأسه عن مثلكم إما في الدنيا أو في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 2 صـ 24 ﴾

(250/255)

---

ومن فوائد الشوكاني في الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (141) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (142) ﴾

هذا فيه تذكير لهم ببديع قدرة الله وعظيم صنعه ﴿ أَنشَأَ ﴾ أي خلق ، والجنات : البساتين ﴿ معروشات ﴾ مرفوعات على الأعمدة ﴿ وَغَيْرَ معروشات ﴾ غير مرفوعات عليها .

وقيل المعروشات ما انبسط على وجه الأرض مما يعرش مثل الكرم والزرع والبطيخ ، وغير المعروشات : ما قام على ساق مثل النخل وسائر الأشجار .

وقيل المعروشات : ما أنبته الناس وعرشوه ، وغير المعروشات : ما نبت في البراري والجبال .

قوله : ﴿ والنخل والزرع ﴾ معطوف على جنات ، وخصهما بالذكر مع دخولهما في الجنات لما فيها من الفضيلة ﴿ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ ﴾ أي حال كونه مختلفاً أكله في الطعم والجودة والرداءة .

قال الزجاج: وهذه مسألة مشكلة في النحو، يعني انتصاب ﴿ مختلفاً ﴾ على الحال لأنه يقال قد أنشأها ولم يختلف أكلها، فالجواب أن الله سبحانه أنشأها مقدّراً فيها الاختلاف، وقد بين هذا سيبويه بقوله: مررت برجل معه صقر صائداً به غداً، أي مقدّراً للصيد به غداً، كما تقول: لتدخلنّ الدار آكلين شاربين، أي مقدّرين ذلك، وهذه هي الحال المقدرة المشهورة عند النحاة المدوّنة في كتب النحو.

*(251/255)*

---

وقال ﴿ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ ﴾ ولم يقل أكلهما، اكتفاء بإعادة الذكر على أحدهما كقوله: ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تجارة أَوْ لَهْواً انفضوا إِلَيْهَا ﴾ [الجمعة: 11] أو الضمير بمنزلة اسم الإشارة، أي أكل ذلك.

قوله: ﴿ والزيتون والرمان ﴾ معطوف على جنات، أي وأنشأ الزيتون والرمان حال كونه متشابهاً وغير متشابه، وقد تقدم الكلام على تفسير هذا ﴿ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ ﴾ أي: من ثمر كل واحد منهما، أو من ثمر ذلك ﴿ إِذَا أَثْمَرَ ﴾ أي إذا حصل فيه الثمر وإن لم يدرك ويبلغ حدّ الحصاد.

قوله: ﴿ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾.

وقد اختلف أهل العلم هل هذه محكمة أو منسوخة أو محمولة على الندب ؟ فذهب ابن عمر ، وعطاء ، ومجاهد وسعيد بن جبير ، إلى أن الآية محكمة ، وأنه يجب على المالك يوم الحصاد أن يعطي من حضر من المساكين القبضة والضغث ونحوهما .

وذهب ابن عباس ، ومحمد بن الحنفية ، والحسن ، والنخعي ، وطاووس ، وأبو الشعثاء ، وقتادة ، والضحاك وابن جريج ، أن هذه الآية منسوخة بالزكاة .

واختاره ابن جرير ، ويؤيده أن هذه الآية مكية ، وآية الزكاة مدنية في السنة الثانية بعد الهجرة ، وإلى هذا ذهب جمهور أهل العلم من السلف والخلف .

وقالت طائفة من العلماء : إن الآية محمولة على الندب لا على الوجوب .

قوله : ﴿ وَلَا تُسْرِفُواْ ﴾ أي في التصدق ، وأصل الإسراف في اللغة : الخطأ .

والإسراف في النفقة : التبذير .

وقيل : هو خطاب للولاة يقول لهم لا تأخذوا فوق حقكم .

وقيل المعنى : لا تأخذوا الشيء بغير حقه وتضعونه في غير مستحقه .

قوله : ﴿ وَمِنَ الأنعام حَمُولَةً وَفَرْشًا ﴾ معطوف على جنات ، أي وأنشأ لكم من الأنعام حمولة وفرشاً ، والحمولة ما يحمل عليها ، وهو يختص بالإبل فهي فعولة بمعنى فاعلة ، والفرش ما يتخذ من الوبر والصوف والشعر ، فراشاً يفترشه الناس .

وقيل : الحمولة الإبل ، والفرش : الغنم .

---

وقيل الحمولة : كل ما حمل عليه من الإبل والبقر والخيل والبغال والحمير ، والفرش : الغنم ، وهذا لا يتم إلا على فرض صحة إطلاق اسم الأنعام على جميع هذه المذكورات .

وقيل الحمولة : ما تركب ، والفرش : ما يؤكل لحمه ﴿ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ﴾ من هذه الأشياء ﴿ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خطوات الشيطان ﴾ كما فعل المشركون من تحريم ما لم يحرمه الله ، وتحليل ما لم يحلله ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي الشيطان ﴿ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ مظهر للعداوة ومكاشف بها .

وقد أخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَهُوَ الذى أَنشَأَ جنات معروشات ﴾ قال : المعروشات ما عرش الناس ﴿ وَغَيْرَ معروشات ﴾ ما خرج في الجبال والبرّية من الثمار .

وأخرج عبد بن حميد ، عن قتادة قال : معروشات بالعيدان والقصب وغير معروشات قال : الضاحي .

وأخرج أبو الشيخ ، عن ابن عباس ﴿ معروشات ﴾ قال : الكرم خاصة .

وأخرج ابن المنذر ، والنحاس ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ قال : " ما سقط من

السنبل " وأخرج أبو عبيد ، وابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، والنحاس ، والطبراني ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه ، عن ابن عمر في قوله ﴿ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ قال : كانوا يعطون من اعتزّ بهم شيئاً سوى الصدقة .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والبيهقي عن مجاهد في الآية قال : إذا حصدت فحضرك المساكين فاطرح لهم من السنبل .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، عن ميمون بن مهران ويزيد الأصم قال : كان أهل المدينة إذا صرموا النخل يجيئون بالعذق فيضعونه في المسجد فيجيء السائل ، فيضربه بالعصا فيسقط منه ، فهو قوله : ﴿ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ .

*(253/255)*

---

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن حماد بن أبي سليمان ، في الآية قال : كانوا يطعمون منه رطباً .

وأخرج أحمد ، وأبو داود في سننه ، من حديث جابر بن عبد الله : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أمر من كل حادي عشرة أوسق من التمر بقنو يعلق في المسجد للمساكين .

وإسناده جيد .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والنحاس ، والبيهقي في سننه ، عن ابن عباس ، قال : ﴿ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ نسخها العشر ، ونصف العشر .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وأبو داود في ناسخه ، وابن المنذر عن السديّ نحوه .

وأخرج النحاس ، وأبو الشيخ ، والبيهقي ، عن سعيد بن جبير نحوه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن عكرمة نحوه .

وأخرج أبو عبيد ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، عن الضحاك نحوه .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، عن الشعبي قال : إن في المال حقاً سوى الزكاة .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن أبي العالية قال : ما كانوا يعطون شيئاً سوى الزكاة ، ثم إنهم تبادروا وأسرفوا ، فأنزل الله ﴿ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المسرفين ﴾ .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن ابن جريج قال : نزلت في ثابت بن قيس بن شماس جذّ نخلاً فقال : لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته ، فأطعم حتى أمسى وليس له تمرة ، فأنزل الله ﴿ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المسرفين ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال : لو أنفقت مثل أبي قبيس ذهباً في طاعة الله لم يكن إسرافاً .

ولو أنفقت صاعاً في معصية الله كان إسرافاً ، وللسلف في هذا مقالات طويلة .

وأخرج الفريابي ، وأبو عبيد ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، عن ابن مسعود قال : الحمولة ما حمل عليه من الإبل ، والفرش صغار الإبل التي لا تحمل .

*(254/255)*

---

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : الحمولة الكبار من الإبل ، والفرش الصغار من الإبل .

وأخرج أبو الشيخ عنه قال : الحمولة ما حمل عليه ، والفرش ما أكل منه .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عنه أيضاً قال : الحمولة الإبل والخيل والبغال والحمير ، وكل شيء يحمل عليه ، والفرش الغنم .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي العالية قال : الحمولة الإبل والبقر ، والفرش الضأن والمعز .

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (143) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ

قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (144) ﴾

اختلف في انتصاب ﴿ ثمانية ﴾ على ماذا ؟ فقال الكسائي : بفعل مضمر ، أي وأنشأ ثمانية أزواج ، وقال الأخفش سعيد : هو منصوب على البدل من حمولة وفرشاً ؛ وقال الأخفش علي بن سليمان : هو منصوب ب ﴿ كلوا ﴾ ، أي كلوا لحم ثمانية أزواج.

وقيل : منصوب على أنه بدل من "ما" في "مما رزقكم الله" والزوج خلاف الفرد ، يقال زوج أو فرد ، كما يقال شفع أو وتر ، فقوله : ﴿ ثمانية أزواج ﴾ يعني ثمانية أفراد ، وإنما سمي الفرد زوجاً في هذه الآية لأن كل واحد من الذكر والأنثى زوج بالنسبة إلى الآخر ، ويقع لفظ الزوج على الواحد ، فيقال هما زوج ، وهو زوج ، ويقول اشتريت زوجي حمام ، أي ذكرا وأنثى .

*(255/255)*

---

والحاصل أن الواحد إذا كان منفرداً سواء كان ذكراً أو أنثى ، قيل له فرد ، وإن كان الذكر مع أنثى من جنسه قيل لهما زوج ، ولكل واحد على انفراده منهما زوج ، ويقال لهما أيضاً

زوجان ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزوجين الذكر والأنثى ﴾ [ القيامة : 39 ] .

قوله : ﴿ مِنْ الضأن اثنين ﴾ بدل من ثمانية منتصب بناصبه على حسب الخلاف السابق ، والضأن ذوات الصوف من الغنم ، وهو جمع ضائن ، ويقال للأنثى ضائنة ، والجمع ضوائن .

وقيل : هو جمع لا واحد له .

وقيل : في جمعه ضئين كعبد وعبيد .

وقرأ طلحة بن مصرف "الضأن" بفتح الهمزة ، وقرأ الباقون بسكونها .

وقرأ أبان بن عثمان ﴿ وَمِنْ الضأن اثنان وَمِنَ المعز اثنان ﴾ رفعاً بالابتداء .

قوله : ﴿ وَمِنَ المعز اثنين ﴾ معطوف على ما قبله مشارك له في حكمه .

وقرأ ابن عامر ، وأبو عمرو ، وابن كثير ، وأهل البصرة ، بفتح العين ﴿ من المعز ﴾ .

وقرأ الباقون بسكونها .

قال النحاس : الأكثر في كلام العرب المعز والضأن بالإسكان ، والمعز من الغنم خلاف الضأن ، وهي ذوات الأشعار والأذناب القصار ، وهو اسم جنس ، وواحد المعز ماعز ، مثل صحب وصاحب ، وركب وراكب ، وتجر وتاجر ، والأنثى ماعزة .

والمراد من هذه الآية : أن الله سبحانه بين حال الأنعام وتفاصيلها إلى الأقسام المذكورة توضيحاً للامتنان بها على عباده ، ودفعاً لما كانت الجاهلية تزعمه من تحليل بعضها

وتحريم بعضها ، تقوّلاً على الله سبحانه وافتراء عليه ، والهمزة في ﴿ قُلْ ءآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الانثيين ﴾ للإنكار .

والمراد بالذكرين الكبش والتيس ، وبالأنثيين النعجة والعنز ، وانتصاب الذكرين بحرّم ، والأنثيين معطوف عليه منصوب بناصبه .

والمعنى : الإنكار على المشركين في أمر البحيرة وما ذكر معها .

(256/255)

---

وقولهم : ﴿ مَا فِى بُطُونِ هذه الأنعام خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ على أزواجنا ﴾ أي قل لهم إن كان حرّم الذكور فكل ذكر حرام ، وإن كان حرّم الإناث فكل أنثى حرام ، وإن كان حرّم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، يعني من الضأن والمعز ، فكل مولود حرام ، ذكراً كان أو أنثى وكلها مولود .

فيستلزم أن كلها حرام .

وقوله : ﴿ نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ أي أخبروني بعلم لا بجهل إن كنتم صادقين .

والمراد من هذا التبكيت لهم وإلزام الحجة ؛ لأنه يعلم أنه لا علم عندهم ، وهكذا الكلام في قوله : ﴿ وَمِنَ الإبل اثنين وَمِنَ البقر اثنين ﴾ إلى آخره .

قوله : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وصاكم الله بهذا ﴾ أم هي المنقطعة ، والإستفهام للإنكار ، وهي بمعنى بل والهمزة ، أي بل أكنتم شهداء حاضرين مشاهدين إذ وصاكم الله بهذا التحريم ؟ والمراد التبكيت وإلزام الحجة كما سلف قبله .

قوله : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله كَذِبًا ﴾ أي لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً فحرّم شيئاً لم يحرّمه الله ، ونسب ذلك افتراء عليه كما فعله كبراء المشركين ، واللام في ﴿ لِيُضِلَّ الناس بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ للعلة ، أي لأجل أن يضل الناس بجهل ، وهو متعلق ب ﴿ افترى ﴾ ﴿ إِنَّ الله لاَ يَهْدِى القوم الظالمين ﴾ على العموم .

وهؤلاء المذكورون في السياق داخلون في ذلك دخولاً أوّلياً ، وينبغي أن ينظر في وجه تقديم المعز والضأن على الإبل والبقر مع كون الإبل والبقر أكثر نفعاً وأكبر أجساماً وأعود فائدة ، لا سيما في الحمولة والفرش اللذين وقع الإبدال منهما على ما هو الوجه الأوضح في إعراب ثمانية .

وقد أخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في سننه ، من طرق عن ابن عباس قال : الأزواج الثمانية من الإبل والبقر والضأن والمعز .

*(257/255)*

وليت شعري ما فائدة نقل هذا الكلام عن ابن عباس من مثل هؤلاء الأئمة ، فإنها لا تتعلق به فائدة ، وكون الأزواج الثمانية هي المذكورة ، هو هكذا في الآية مصرحاً به تصريحاً لا لبس فيه .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة قال : الذكر والأنثى زوجان .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد في قوله : ﴿ ثمانية أزواج ﴾ قال : في شأن ما نهى الله عنه من البحيرة والسائبة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ليث بن أبي سليم قال : الجاموس والبختيّ من الأزواج الثمانية .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، من طرق عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ ثمانية أزواج مّنَ الضأن اثنين ومِنَ المعز اثنين ﴾ قال : فهذه أربعة ﴿ قُلْ ءآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأنثيين ﴾ يقول : لم أحرّم شيئاً من ذلك ﴿ أَمَّا اشتملت عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأنثيين ﴾ يعني : هل تشتمل الرحم إلا على ذكر أو أنثى فلم يحرّمون بعضاً ويحلون بعضاً ؟ ﴿ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صادقين ﴾ يقول كلها حلال ، يعني ما تقدّم ذكره مما حرّمه أهل الجاهلية .

﴿ قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (145) ﴾

أمره الله سبحانه بأن يخبرهم أنه لا يجد في شيء مما أوحي إليه محرّماً غير هذه المذكورات ،

فدلّ ذلك على انحصار المحرّمات فيها لولا أنها مكية ، وقد نزل بعدها بالمدينة سورة المائدة وزيد فيها على هذه المحرّمات : المنخنقة والموقوذة والمتردّية والنطيحة ، وصحّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تحريم كل ذي ناب من السباع ، وكل ذي مخلب من الطير ، وتحريم الحمر الأهلية والكلاب ونحو ذلك .

*(258/255)*

---

وبالجملة فهذا العموم إن كان بالنسبة إلى ما يؤكل من الحيوانات كما يدلّ عليه السياق ويفيده الاستثناء ، فيضم إليه كل ما ورد بعده في الكتاب أو السنة مما يدل على تحريم شيء من الحيوانات .

وإن كان هذا العموم هو بالنسبة إلى كل شيء حرّمه الله من حيوان وغيره ، فإنه يضمّ إليه كل ما ورد بعده مما فيه تحريم شيء من الأشياء .

وقد روي عن ابن عباس ، وابن عمر ، وعائشة ، أنه لا حرام إلا ما ذكره الله في هذه الآية ، وروى ذلك عن مالك وهو قول ساقط ، ومذهب في غاية الضعف ؛ لاستلزامه لإهمال غيرها مما نزل بعدها من القرآن ، وإهمال ما صح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قاله بعد نزول هذه الآية ، بلا سبب يقتضي ذلك ولا موجب يوجبه .

قوله : ﴿ مُحَرَّمًا ﴾ صفة لموصوف محذوف ، أي طعاماً محرّماً " على " أي ﴿ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ ﴾ من المطاعم ، وفي ﴿ يَطْعَمُهُ ﴾ زيادة تأكيد وتقرير لما قبله ﴿ إِلا أَن يَكُونَ مَيْتَةً ﴾ أي ذلك الشيء أو ذلك الطعام أو العين أو الجثة أو النفس .

وقرىء ﴿ يكون ﴾ بالتحتية والفوقية ، وقرىء "ميتة" بالرفع على أن يكون تامة .

والدم المسفوح : الجاري ، وغير المسفوح معفوّ عنه ، كالدم الذي يبقى في العروق بعد الذبح ، ومنه الكبد والطحال ، وهكذا ما يتلطخ به اللحم من الدم .

وقد حكى القرطبي الإجماع على هذا .

قوله : ﴿ أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ ﴾ ظاهر تخصيص اللحم أنه لا يحرم الانتفاع منه بما عدا اللحم ، والضمير في ﴿ فَإِنَّهُ ﴾ راجع إلى اللحم ، أو إلى الخنزير .

والرجس : النجس ، وقد تقدّم تحقيقه .

قوله : ﴿ أَوْ فِسْقًا ﴾ عطف على لحم خنزير ، و ﴿ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ﴾ صفة فسق ، أي ذبح على الأصنام ، وسمي فسقاً لتوغله في باب الفسق .

*(259/255)*

قيل : ويجوز أن يكون ﴿ فِسْقًا ﴾ مفعولاً له لأهلّ ، أي أهلّ به لغير الله ، فسقاً ، على عطف أهلّ على يكون ، وهو تكلف لا حاجة إليه ﴿ فَمَنِ اضطر غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ ﴾ قد تقدم تفسيره في سورة البقرة ، فلا نعيده ﴿ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي كثير المغفرة والرحمة ، فلا يؤاخذ المضطرّ بما دعت إليه ضرورته .

وقد أخرج عبد بن حميد عن طاووس قال : إن أهل الجاهلية كانوا يحرّمون أشياء ويحلون أشياء ، فنزلت ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ ﴾ الآية .

وأخرج عبد بن حميد ، وأبو داود ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تعذراً ، فبعث الله نبيه ، وأنزل كتابه ، وأحلّ حلاله وحرّم حرامه ، فما أحلّ فهو حلال ، وما حرّم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ ﴾ إلى آخرها .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، عنه أنه تلا هذه الآية فقال : ما خلا هذا حلال .

وأخرج البخاري ، وأبو داود ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، عن عمرو بن دينار قال : قلت لجابر بن زيد : إنهم يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر ، فقال قد كان يقول ذلك الحكم ابن عمرو الغفاري عندنا بالبصرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن أبى ذلك البحر ابن عباس ، وقرأ ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ ﴾ الآية .

وأقول : وإن أبى ذلك البحر ، فقد صحّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتمسك بقول صحابي في مقابلة قول النبي صلى الله عليه وسلم ، من سوء الاختيار ، وعدم الإنصاف .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس قال : ليس شيء من الدوابّ حرام إلا ما حرّم الله في كتابه : ﴿ قُل لا أَجِدُ فِيمَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ﴾ الآية .

(260/255)

---

وأخرج سعيد بن منصور ، وأبو داود ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن ابن عمر : أنه سئل عن أكل القنفد ، فقرأ : ﴿ قُل لا أَجِدُ فِيمَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ﴾ الآية ، فقال شيخ عنده : سمعت أبا هريرة يقول : ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " خبيثة من الخبائث " ، فقال ابن عمر : إن كان النبي صلى الله عليه وسلم قاله ، فهو كما قال .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والنحاس ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن عائشة : أنها كانت إذا سئلت عن كل ذي ناب من السباع ، ومخلب من الطير ، تلت ﴿ قُل لا أَجِدُ فِيمَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ﴾ الآية .

وأخرج أحمد ، والبخاري ، والنسائي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن

مردويه ، عن ابن عباس أن شاة لسودة بنت زمعة ماتت فقالت : يا رسول الله ماتت فلانة : تعني الشاة ، قال : " فلولا أخذتم مسكها ؟ " قالت : يا رسول الله أنأخذ مسك شاة قد ماتت ؟ فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ﴿ قُل لا أَجِدُ فِيمَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلا أَن يَكُونَ مَيْتَةً ﴾ وأنتم لا تطعمونه ، وإنما تدبغونه حتى تستنفعوا به " ، فأرسلت إليها فسلختها ثم دبغته ، فاتخذت منه قربة حتى تخرّقت عندها .

ومثل هذا حديث شاة ميمونة ، وهو في الصحيح .

ومثله حديث " إنما حرم من الميتة أكلها " وهو أيضاً في الصحيح .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا ﴾ قال : مهراقاً .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عنه قال : كان أهل الجاهلية إذا ذبحوا أودجوا الدابة وأخذوا الدم فأكلوه ، قال : هو دم مسفوح .

وأخرج أبو الشيخ عن الشعبي : أنه سئل عن لحم الفيل والأسد فتلا : ﴿ قُل لا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَمَاً ﴾ الآية .

*(261/255)*

والأحاديث الواردة بتحريم كل ذي ناب من السباع ، ومخلب من الطير ، والحمر الأهلية ، ونحوها مستوفاة في كتب الحديث .

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (146) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (147) ﴾

قدّم ﴿ عَلَى الذين هَادُواْ ﴾ على الفعل للدلالة على أن هذا التحريم مختص بهم لا يجاوزهم إلى غيرهم .

والذين هادوا : اليهود ، ذكر الله ما حرّمه عليهم عقب ذكر ما حرّمه على المسلمين .

والظفر : واحد الأظفار ، ويجمع أيضاً على أظافير ، وزاد الفراء في جموع ظفر : أظافر وأظافرة ، وذو الظفر : ما له أصبع من دابة أو طائر ، ويدخل فيه الحافر والخف والمخلب ، فيتناول الإبل والبقر ، والغنم والنعام ، والأوز والبط ، وكل ما له مخلب من الطير ، وتسمية الحافر والخف ظفراً مجاز .

والأولى حمل الظفر على ما يصدق عليه اسم الظفر في لغة العرب ، لأن هذا التعميم يأباه ما سيأتي من قوله : ﴿ وَمِنَ البقر والغنم ﴾ فإن كان في لغة العرب بحيث يقال على البقر والغنم كان ذكرهما من بعد تخصيصاً حرّم الله ذلك عليهم عقوبة لهم على ما وقعوا فيه من

الظلم كما قال تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طيبات أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [ النساء : 160 ] .

قوله : ﴿ وَمِنَ البقر والغنم حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا ﴾ لا غير هذه المذكورات كلحمهما ، والشحوم يدخل فيها الثروب وشحم الكلية .

*(262/255)*

---

وقيل الثروب جمع ثرب ، وهو الشحم الرقيق الذي يكون على الكرش ، ثم استثنى الله سبحانه من الشحوم ما حملت ظهورهما من الشحم ، فإنه لم يحرمه الله عليهم ، و" مَا " في موضع نصب على الاستثناء ﴿ أَوِ الحوايا ﴾ معطوف على ظهورهما ، أي إلا ما حملت ظهورهما أو حملت الحوايا ، وهي المباعر التي يجتمع البعر فيها ، فما حملته من الشحم غير حرام عليهم ، وواحدها حاوية ، مثل ضاربة وضوارب .

وقيل : واحدها حاوياء مثل قاصعاء وقواصع ، وقيل حوية : كسفينة وسفائن .

وقال أبو عبيدة : الحوايا ما تحوّى من البطن : أي استدار ، وهي متحوية : أي مستديرة .

وقيل الحوايا : خزائن اللبن ، وهي تتصل بالمباعر .

وقيل الحوايا : الأمعاء التي عليها الشحوم .

قوله : ﴿ أَوْ مَا اختلط بِعَظْمٍ ﴾ معطوف على "ما" في ﴿ مَا حَمَلَتْ ﴾ كذا قال الكسائي والفراء وثعلب .

وقيل : إن الحوايا وما اختلط بعظم معطوفة على الشحوم .

والمعنى : حرّمنا عليهم شحومهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ، إلا ما حملت ظهورهما فإنه غير محرّم ، ولا وجه لهذا التكلف ، ولا موجب له ، لأنه يكون المعنى إن الله حرّم عليهم إحدى هذه المذكورات .

والمراد بما اختلط بعظم : ما لصق بالعظام من الشحوم في جميع مواضع الحيوان ، ومنه الإلية فإنها لاصقة بعجب الذنب ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى التحريم المدلول عليه بحرّمنا ، أي ذلك التحريم جزيناهم به بسبب بغيهم .

وقيل : إن الإشارة إلى الجزاء المدلول عليه بقوله : ﴿ جزيناهم ﴾ أي ذلك الجزاء جزيناهم ، وهو تحريم ما حرّمه الله عليهم ﴿ وإِنَّا لصادقون ﴾ في كل ما نخبر به ، ومن جملة ذلك هذا الخبر ، وهو موجود عندهم في التوراة ، ونصها "حرّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وكل دابة ليست مشقوقة الحافر ، وكل حوت ليس فيه سفاسف" أي بياض انتهى .

(263/255)

والضمير في ﴿ كَذَّبُوكَ ﴾ لليهود أي فإن كذبك اليهود فيما وصفت من تحريم الله عليهم تلك الأشياء ﴿ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسعة ﴾ ومن رحمته حلمه عنكم ، وعدم معاجلته لكم بالعقوبة في الدنيا ، وهو وإن أمهلكم ورحمكم ف ﴿ لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ﴾ إذا أنزله بهم واستحقوا المعاجلة بالعقوبة .

وقيل المراد : لا يردّ بأسه في الآخرة عن القوم المجرمين ، والأوّل أولى ، فإنه سبحانه قد عاجلهم بعقوبات منها تحريم الطيبات عليهم في الدنيا .

وقيل الضمير يعود إلى المشركين الذين قسموا الأنعام إلى تلك الأقسام ، وحللوا بعضها وحرّموا بعضها .

وقيل المراد : أنه ذو رحمة للمطيعين ﴿ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ القوم المجرمين ﴾ ولا مُلجىء لهذا .

وقد أخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ قال : هو الذي ليس بمنفرج الأصابع ، يعني ليس بمشقوق الأصابع .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في سننه ، عنه ﴿ كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ قال : البعير والنعامة .

وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال : هو كل شيء لم تنفرج قوائمه من البهائم ، وما انفرج أكلته

اليهود ، قال : انفرجت قوائم الدجاج ، والعصافير ، فيهود تأكله ، ولم ينفرج خفّ البعير ولا النعامة ، ولا قائمة الوزينة ، فلا تأكل اليهود الإبل ولا النعام ولا الوزينة ، ولا كل شيء لم تنفرج قائمته كذلك ، ولا تأكل حمار الوحش .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في سننه ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَمِنَ البقر والغنم حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ﴾ يعني : ما علق بالظهر من الشحم ﴿ أَوِ الحوايا ﴾ هي المبعر .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن أبي صالح ، في قوله : ﴿ إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ﴾ قال : الإلية ﴿ أَوِ الحوايا ﴾ قال : المبعر ﴿ أَوْ مَا اختلط بِعَظْمٍ ﴾ قال : الشحم .

(264/255)

---

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، عن مجاهد في قوله : ﴿ أَوِ الحوايا ﴾ قال : المباعر .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن أبي حاتم ، عن الضحاك ﴿ أَوِ الحوايا ﴾ قال : المرائض والمباعر .

وأخرج ابن المنذر ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ﴿ أَوْ مَا اختلط بِعَظْمٍ ﴾ قال : الإلية

اختلط شحم الإلية بالعصعص ، فهو حلال ، وكل شحم القوائم ، والجنب ، والرأس ، والعين ، والأذن ، يقولون قد اختلط ذلك بعظم فهو حلال لهم ، إنما حرّم عليهم الثرب وشحم الكلية ، وكل شيء كان كذلك ليس في عظم .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ ﴾ قال : اليهود .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السديّ قال : كانت اليهود يقولون : إن ما حرّمه إسرائيل فنحن نحرّمه ، فلذلك قوله : ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ ﴾ الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(265/255)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " فإنْ كَذَّبُوكَ " [ الضَّمِير في " كَذَّبُوك " ] الظاهر عودُه على اليَهود ؛ لأَنَّهم أقرب مذكور .

وقيل : يعود على المُشْركين ، لتقدُّم الكلام معهم في قوله : ﴿ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ ﴾ [ الأنعام :

143 ] و﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ ﴾ [ الأنعام : 144 ] والمعنى : فإن كذَّبوك في ادّعَاء النُّبُوة والرِّسَالة " فَقُلْ ربُّكُم ذو رَحْمَة واسِعَة " فلذلك لا يُعَجِّل عليكم بالعُقوبة ، ثم أخبرهم بما أعَدَّ لهم ، من العذاب في الآخرة ، و" لا يردُّ بأسه " أي إذا جَاء الوَقْت .

وقوله : " ذُو رَحْمةٍ " جيء بهَذه الجُمْلَة اسمِيَّة ، وبقوله " ولا يُرَدُّ بأسُهُ " فِعْلِيَّة [ تَنْبيهاً على مُبَالَغة سعَة الرَّحْمة ؛ لأن الاسْمِيَّة أدلُّ على الثُّبوت والتَّوكيد من الفِعْلِيَّة .

قوله : " عن القَوْم المُجْرِمين " يحتمل أن يكُون من وَضْع الظَّاهِر موضع المُضْمَر ] تنبيهاً على التَّسْجِيل عليهم بذلك ، والأصل : ولا يُرَد بَأسُه عنكم .

وقال أبو البقاء : " فإن كَذَّبُوك " شُرْطٌ ، جوابه : " فَقُل ربُّكُم ذُو رَحمَة وَاسِعَةٍ " والتقديرُ : " فقل يَصْفَح عَنْكُم بِتَأخير العُقُوبَة " وهذا تفسير معنى لا إعراب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 495 . 496 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (147) ﴾

الإشارة منه بيان تخصيص الأولياء بالرحمة وتخصيص الأعداءِ بالطرد واللعنة . والصورة الإنسانية جامعة ولكن القسمة الأزلية فاصلةٌ بينهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 509 ﴾

(266/255)

---

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى ( جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ )

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والخمسون بعد المائتين

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/256)

---

الجزء السادس والخمسون بعد المائتين

من الآية ﴿ 148 ﴾ من سورة الأنعام

وحتى الآية ﴿ 150 ﴾ من نفس السورة

*(4/256)*

---

قوله تعالى ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تم ذلك فعلم أن إقدامهم على الأحكام الدينية بغير حجة أصلاً ، اقتضى الحال أن يقال : قد بطل بالعقل والنقل جميع ما قالوه في التحريم على وجه أبطل شركهم ، فهل بقي لهم مقال ؟ فأخبر سبحانه بشبهة يقولونها اعتذاراً عن جهلهم على وجه هو وحده كاف في الدلالة على حقية ما يقوله من الرسالة ، فوقع طبق ما قال عن أهل الضلال ، فقال مخبراً بما سيقولونه قبل وقوعه دلالة على صدق رسله وكذب المشركين فيما يخالفونهم فيه :

﴿ سيقول ﴾ أي في المستقبل ، وأظهر موضع الإضمار تنصيصاً عليهم وتبكيتاً لهم فقال : ﴿ الذين أشركوا ﴾ تكذيباً منهم ﴿ لو شاء الله ﴾ أي الذي له جميع الكمال عدم إشراكنا وتحريمنا ﴿ ما أشركنا ﴾ أي بصنم ولا غيره ﴿ ولا آباؤنا ﴾ أي ما وقع من إشراك ﴿ ولا حرمنا من شيء ﴾ أي ما تقدم من البحائر والسوائب والزروع وغيرها أي ولكنه لم يشأ الترك وشاء الفعل ففعلنا طوع مشيئته ، وهو لا يشاء إلا الحق والحكمة لأنه قادر ، فلو لم يكن حقاً يرضاه لمنعنا منه ، وهو لم يمنعنا منه فهو حق .

(5/256)

---

ولما كان هذا عناداً منهم ظاهراً بعد وضوح الأمر بما أقام على صدق رسله من البينات ، كان كأنه قيل تعجباً منهم : هل فعل أحد غيرهم مثل فعلهم هذا أو قال مثل ما قالوا ؟ فقيل : نعم ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك التكذيب البعيد عن الصواب ﴿ كذب الذين ﴾ ولما لم يكن التكذيب عاماً أدخل الجار فقال : ﴿ من قبلهم ﴾ من الأمم الخالية بما أوقعوا من نحو هذه المجادلة في قولهم إذا كان الكل بمشيئة الله كان التكليف عبثاً ، فكانت دعوى الأنبياء باطلة ، وهذا القول من المشركين عناد بعد ثبوت الرسالات بالمعجزات وإخبار الرسل بأنه يشاء الشيء ويعاقب عليه لأن ملكه تام ومِلكه عام ، فهو لا يسأل عما يفعل ، وتمادى بهم

غرور التكذيب ﴿ حتى ذاقوا بأسنا ﴾ أي عذابنا لما لنا من العظمة ، فإن من له الأمر كله لا يسأل عما يفعل ، فلم ينفعهم عنادهم عند ذوق البأس ، بل انحلت عزائم هممهم فخضعوا لنا وآمنوا برسلنا ، فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، فالآية من الاحتباك : أثبت أولاً الإشراك دليلاً على حذفه ثانياً ، وثانياً التكذيب دليلاً على حذفه أولاً ، وسيأتي توجيه أنه لا بد من تضليل إحدى الطائفتين المتعاندتين وإن كان الكل بمشيئة الله ، لأنه لا مانع من إتيان الأمر على خلاف الإرادة .

ولما كان ما قالوه شبهة بعيدة عن العلم ، أعلى درجاتها أن يكون من أنواع الخطابة فتفيد الظن في أعظم مسائل علم الأصول الذي لا يحل الاعتماد فيه إلا على القواطع ، أمره أن يقول لهم ما ينبههم على ذلك فقال : ﴿ قل ﴾ أي لهؤلاء الذين تلقوا ما يلقيه الشيطان إليهم – كما أشير إليه في سورة الحج – تهكماً بهم في بعدهم عن العلم وجدالهم بعد نهوض الحجج ﴿ هل عندكم ﴾ أيها الجهلة ، وأغرق في السؤال فقال : ﴿ من علم ﴾ أي يصح الاحتجاج به في مثل هذا المقام الضنك ﴿ فتخرجوه لنا ﴾ أي لي ولأتباعي وإن كان مما يجب أن يكون مكنوناً مضنوناً به على غير أهله مخزوناً ، فهو تهكم بهم .

*(6/256)*

ولما كان جوابهم عن هذا السكوت لأنه لا علم عندهم ، قال دالاً على ذلك : ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ تتبعون ﴾ أي في قولكم هذا وغالب أموركم ﴿ إلا الظن ﴾ أي في أصول دينكم وهي لا يحل فيها قول إلا بقاطع ﴿ وإن ﴾ ي وما ﴿ أنتم إلا تخرصون ﴾ أي تقولون تارة بالحزر والتخمين وتارة بالكذب المحض اليقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 739.737 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما حكى عن أهل الجاهلية إقدامهم على الحكم في دين الله بغير حجة ولا دليل ، حكى عنهم عذرهم في كل ما يقدمون عليه من الكفريات ، فيقولون : لو شاء الله منا أن لا نكفر لمنعنا عن هذا الكفر ، وحيث لم يمنعنا عنه ، ثبت أنه مريد لذلك فإذا أراد الله ذلك منا امتنع منا تركه فكنا معذورين فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 184 ﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن المعتزلة زعموا أن هذه الآية تدل على قولهم في مسألة إرادة الكائنات من سبعة أوجه :

فالوجه الأول : أنه تعالى حكى عن الكفار صريح قول المجبرة وهو قولهم : لو شاء الله منا أن لا نشرك لم نشرك ، وإنما حكى عنهم هذا القول في معرض الذم والتقبيح ، فوجب كون هذا المذهب مذموماً باطلاً .

والوجه الثاني : أنه تعالى قال : ﴿كَذَّبَ﴾ وفيه قراءتان بالتخفيف وبالتثقيل .

أما القراءة بالتخفيف فهي تصريح بأنهم قد كذبوا في ذلك القول ، وذلك يدل على أن الذي تقوله المجبرة في هذه المسألة كذب .

*(7/256)*

---

وأما القراءة بالتشديد ، فلا يمكن حملها على أن القوم استوجبوا الذم بسبب أنهم كذبوا أهل المذاهب ، لأنا لو حملنا الآية عليه لكان هذا المعنى ضداً لمعنى الذي يدل عليه قراءة ﴿كَذَّبَ﴾ بالتخفيف ، وحينئذ تصير إحدى القراءتين ضداً للقراءة الأخرى ، وذلك يوجب دخول التناقض في كلام الله تعالى ، وإذا بطل ذلك وجب حمله على أن المراد منه أن كل من كذب نبياً من الأنبياء في الزمان المتقدم ، فإنه كذبه بهذا الطريق ، لأنه يقول الكل بمشيئة الله تعالى ، فهذا الذي أنا عليه من الكفر ، إنما حصل بمشيئة الله تعالى ، فلم يمنعني منه ، فهذا طريق متعين لكل الكفار المتقدمين والمتأخرين في تكذيب الأنبياء ، وفي دفع

دعوتهم عن أنفسهم ، فإذا حملنا الآية على هذا الوجه صارت القراءة بالتشديد مؤكدة للقراءة بالتخفيف ويصير مجموع القراءتين دالاً على إبطال قول المجبرة .

الوجه الثالث : في دلالة الآية على قولنا قوله تعالى : ﴿ حتى ذَاقُواْ بَأْسَنَا ﴾ وذلك يدل على أنهم استوجبوا الوعيد من الله تعالى في ذهابهم إلى هذا المذهب .

الوجه الرابع : قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فتخرجوه لَنَا ﴾ ولا شك أنه استفهام على سبيل الإنكار ، وذلك يدل على أن القائلين بهذا القول ليس لهم به علم ولا حجة ، وهذا يدل على فساد هذا المذهب ، لأن كل ما كان حقاً كان القول به علماً .

الوجه الخامس : قوله تعالى : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن ﴾ مع أنه تعالى قال في سائر الآيات : ﴿ إِنَّ الظن لاَ يُغْنِى مِنَ الحق شَيْئًا ﴾ [ يونس : 36 ] .

والوجه السادس : قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ والخرص أقبح أنواع الكذب ، وأيضاً قال تعالى : ﴿ قُتِلَ الخارصون ﴾ [ الذاريات : 10 ] .

*(8/256)*

---

والوجه السابع : قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الحجة البالغة ﴾ وتقريره : أنهم احتجوا في دفع دعوة الأنبياء والرسل على أنفسهم بأن قالوا : كل ما حصل فهو بمشيئة الله تعالى ، وإذا

شاء الله منا ذلك ، فكيف يمكننا تركه ؟ وإذا كنا عاجزين عن تركه ، فكيف يأمرنا بتركه ؟ وهل في وسعنا وطاقتنا أن نأتي بفعل على خلاف مشيئة الله تعالى ؟ فهذا هو حجة الكفار على الأنبياء ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الحجة البالغة ﴾ وذلك من وجهين :

الوجه الأول : أنه تعالى أعطاكم عقولاً كاملة ، وأفهاماً وافية ، وآذاناً سامعة ، وعيوناً باصرة ، وأقدركم على الخير والشر ، وأزال الأعذار والموانع بالكلية عنكم ، فإن شئتم ذهبتم إلى عمل الخيرات ، وإن شئتم إلى عمل المعاصي والمنكرات ، وهذه القدرة والمكنة معلومة الثبوت بالضرورة ، وزوال الموانع والعوائق معلوم الثبوت أيضاً بالضرورة ، وإذا كان الأمر كذلك كان ادعاؤكم أنكم عاجزون عن الإيمان والطاعة دعوى باطلة فثبت بما ذكرنا أنه ليس لكم على الله حجة بالغة ! بل لله الحجة البالغة عليكم .

والوجه الثاني : أنكم تقولون : لو كانت أفعالنا واقعة على خلاف مشيئة الله تعالى ، لكنا قد غلبنا الله وقهرناه ، وأتينا بالفعل على مضادته ومخالفته ، وذلك يوجب كونه عاجزاً ضعيفاً ، وذلك يقدح في كونه إلهاً .

فأجاب تعالى عنه : بأن العجز والضعف إنما يلزم إذا لم أكن قادراً على حملهم على الإيمان والطاعة على سبيل القهر والإلجاء ، وأنا قادر على ذلك وهو المراد من قوله : ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ إلا أني لا أحملكم على الإيمان والطاعة على سبيل القهر والإلجاء ، لأن ذلك يبطل الحكمة المطلوبة من التكليف ، فثبت بهذا البيان أن الذي يقولونه من أنا لو أتينا

بعمل على خلاف مشيئة الله ، فإنه يلزم منه كونه تعالى عاجزاً ضعيفاً ، كلام باطل فهذا أقصى ما يمكن أن يذكر في تمسك المعتزلة بهذه الآية .

(9/256)

---

والجواب المعتمد في هذا الباب أن نقول : إنا بينا أن هذه السورة من أولها إلى آخرها تدل على صحة قولنا ومذهبنا ، ونقلنا في كل آية ما يذكرونه من التأويلات وأجبنا عنها بأجوبة واضحة قوية مؤكدة بالدلائل العقلية القاطعة .

وإذا ثبت هذا ، فلو كان المراد من هذه الآية ما ذكرتم ، لوقع التناقض الصريح في كتاب الله تعالى فإنه يوجب أعظم أنواع الطعن فيه .

إذا ثبت هذا فنقول : إنه تعالى حكى عن القوم أنهم قالوا ﴿ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا ﴾ ثم ذكر عقيبه ﴿ كذلك كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ فهذا يدل على أن القوم قالوا لما كان الكل بمشيئة الله تعالى وتقديره ، كان التكليف عبثاً ، فكانت دعوى الأنبياء باطلة ، ونبوتهم ورسالتهم باطلة ، ثم إنه تعالى بين أن التمسك بهذا الطريق في إبطال النبوة باطل ، وذلك لأنه إله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، ولا اعتراض عليه لأحد في فعله ، فهو تعالى يشاء الكفر من الكافر ، ومع هذا فيبعث إليه الأنبياء ويأمره بالإيمان ، وورود الأمر على خلاف الإرادة

غير ممتنع .

فالحاصل : أنه تعالى حكى عن الكفار أنهم يتمسكون بمشيئة الله تعالى في إبطال نبوة الأنبياء ، ثم إنه تعالى بين أن هذا الاستدلال فاسد باطل ، فإنه لا يلزم من ثبوت المشيئة لله في كل الأمور دفع دعوة الأنبياء ، وعلى هذا الطريق فقط سقط هذا الاستدلال بالكلية ، وجميع الوجوه التي ذكرتموها في التقبيح والتهجين عائد إلى تمسككم بثبوت المشيئة لله على دفع دعوة الأنبياء ، فيكون الحاصل : أن هذا الاستدلال باطل ، وليس فيه ألبتة ما يدل على أن القول بالمشية باطل .

فإن قالوا : هذا العذر إنما يستقيم إذ قرأنا قوله تعالى : ﴿كذلك كَذَّبَ﴾ بالتشديد .

وأما إذا قرأناه بالتخفيف ، فإنه يسقط هذا العذر بالكلية فنقول فيه وجهان .

*(10/256)*

---

الأول : أنا نمنع صحة هذه القراءة ، والدليل عليه أنا بينا أن هذه السورة من أولها إلى آخرها تدل على قولنا : فلو كانت هذه الآية دالة على قولهم ، لوقع التناقض ، ولخرج القرآن عن كونه كلاماً لله تعالى ، ويندفع هذا التناقض بأن لا تقبل هذه القراءة ، فوجب المصير إليه .

الثاني : سلمنا صحة هذه القراءة لكنا نحملها على أن القوم كذبوا في أنه يلزم من ثبوت مشيئة الله تعالى في كل أفعال العباد سقوط نبوة الأنبياء وبطلان دعوتهم ، وإذا حملناه على هذا الوجه لم يبق للمعتزلة بهذه الآية تمسك ألبتة ، والحمد لله الذي أعاننا على الخروج من هذه العهدة القوية ، ومما يقوي ما ذكرناه ما روي أن ابن عباس قيل له بعد ذهاب بصره ما تقول فيمن يقول : لا قدر ، فقال إن كان في البيت أحد منهم أتيت عليه ويله أما يقرأ ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خلقناه بِقَدَرٍ ﴾ [ القمر : 49 ] ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الموتى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءاثَارَهُمْ ﴾ [ ياس : 12 ] وقال ابن عباس : أول ما خلق الله القلم ، قال له اكتب القدر ، فجرى بما يكون إلى قيام الساعة ، وقال صلوات الله عليه : " المكذبون بالقدر مجوس هذه الأمة " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 184 . 187 ﴾

فصل

قال الفخر :

زعم سيبويه أن عطف الظاهر على المضمر المرفوع في الفعل قبيح ، فلا يجوز أن يقال : قمت وزيد ، وذلك لأن المعطوف عليه أصل ، والمعطوف فرع ، والمضمر ضعيف ، والمظهر قوي ، وجعل القوي فرعاً للضعيف ، لا يجوز .

إذا عرفت هذا الأصل فنقول : إن جاء الكلام في جانب الإثبات ، وجب تأكيد الضمير فنقول : قمت أنا وزيد ، وإن جاء في جانب النفي قلت ما قمت ولا زيد .

إذا ثبت هذا فنقول قوله : ﴿ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا ﴾ فعطف قوله : ﴿ وَلاَ آبَاؤُنَا ﴾ على الضمير في قوله : ﴿ مَا أَشْرَكْنَا ﴾ إلا أنه تخلل بينهما كلمة لا فلا جرم حسن هذا العطف .

(11/256)

---

قال في جامع الأصفهاني : إن حرف العطف يجب أن يكون متأخراً عن اللفظة المؤكدة للضمير حتى يحسن العطف ويندفع المحذور المذكور من عطف القوي على الضعيف ، وهذا المقصود إنما يحصل إذا قلنا : ﴿ مَا أَشْرَكْنَا نَّحْنُ وَلا ءآبَاؤُنَا ﴾ حتى تكون كلمة ﴿ لا ﴾ مقدمة على حرف العطف .

أما ههنا حرف العطف مقدم على كلمة ﴿ لا ﴾ وحينئذ يعود المحذور المذكور .

فالجواب : أن كلمة ﴿ لا ﴾ لما أدخلت على قوله : ﴿ ءآبَاؤُنَا ﴾ كان ذلك موجباً إضمار فعل هناك ، لأن صرف النفي إلى ذوات الآباء محال ، بل يجب صرف هذا النفي إلى فعل يصدر منهم ، وذلك هو الإشراك ، فكان التقدير : ما أشركنا ولا أشرك آباؤنا ، وعلى هذا التقدير فالإشكال زائل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 187 ﴾

(12/256)

وقال السمرقندى :

﴿ سَيَقُولُ الذين أَشْرَكُواْ ﴾ مع الله ﴿ لَوْ شَاء الله مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا ﴾ يعني : ولا أشرك آباؤنا ، ولكن شاء لنا ذلك وأمرنا به ﴿ وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ﴾ أي : من هذه الأشياء .

ويقال : مذهبهم مذهب الجبرية .

قال الله تعالى : ﴿ كذلك كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعني : الأمم الخالية كذبوا رسلهم كما كذبك قومك .

وإنما كذبهم الله لأنهم قالوا ذلك على وجه السخرية لا على وجه التحقيق كما قال المنافقون : نشهد أنك لرسول الله فكذبهم الله في مقالتهم ، لأنهم قالوا على وجه السخرية .

ثم قال : ﴿ حتى ذَاقُواْ بَأْسَنَا ﴾ يعني : الأمم الخالية أتاهم عذابنا فهذا تهديد لهم ليعتبروا .

ثم قال : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهم قل : ﴿ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ ﴾ يعني : بيان من الله ﴿ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ فبينوه لنا بتحريم هذه الأشياء التي كانوا يحرمونها ، ثم بيّن الله أنهم قالوا ذلك بغير حجة وبيان فقال : ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن ﴾ يعني : ما تقولون إلا بالظن من غير يقين وعلم ﴿ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ ﴾ يعني : قل لهم ما أنتم إلا تكذبون على الله . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

(13/256)

---

﴿ سَيَقُولُ الذين أَشْرَكُواْ ﴾ [ لمّا الزمنا بينهم ] الحجّة وتبيّنوا وتيقنوا باطل ما كانوا عليه ﴿ لَوْ شَآءَ الله مَآ أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا ﴾ ما حرّمنا من التغاير والسوايب وغير ذلك لأَنَّه قادر على أن يحمل بيننا وبين ذلك حتّى لا نفعله ولكنّه رضي منا ما نحن عليه من عبادة الأصنام وتحريم الحرث والأنعام وأراد منّا وأمرنا به فلم يحل بيننا وبين ذلك فقال الله تعالى تكذيباً لهم وردّاً عليهم ﴿ كذلك كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِم ﴾ ولو كان كذلك خيراً من الله تعالى عن مَنْ كذّبهم في قولهم ﴿ لَوْ شَآءَ الله مَآ أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا ﴾ لقال كذلك ( كذّب الذين من قبلهم ) بتخفيف الذال وكان نسبهم إلى الكذب لا إلى التكذيب .

وقال الحسن بن الفضل : [ لمّا خبّروا بهذه المقالة ] تعظيماً وإجلالا لله سبحانه وتعالى وصفة منهم به لمّا عابهم ذلك ، لأن الله قال ﴿ وَلَوْ شَآءَ الله مَآ أَشْرَكُواْ ﴾ وقال سبحانه : ﴿ مَّا كَانُواْ ليؤمنوا إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله ﴾ وقال ﴿ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ والمؤمنون يقولون هذا ولكنّهم قالوا ذلك تكذيباً وتخرصاً وبدلاً من غير معرفة بالله تعالى وبما [ يقولون

] نظيره قوله ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ الرحمن مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾ [ الزخرف : 20 ] ، قال الله تعالى ﴿ مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ [ الزخرف : 20 ] بقولهم هذا من غير علم بيّنهم بآية ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ وبقوله و ﴿ عِلْمٍ ﴾ منهم بالله عزّ وجلّ ثمّ قال ﴿ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ ﴾ من حظ وحجّة على ما يقولون من غير علم ويقين ﴿ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ ﴾ تكذّبون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا ﴾

*(14/256)*

---

أخبر الله عز وجل نبيه عليه السلام : أن المشركين سيحتجون لصواب ما هم عليه من شركهم وتدينهم بتحريم تلك الأشياء بإمهال الله تعالى وتقريره حالهم وأنه شاء غير ذلك لما تركهم على تلك الحال .

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : وبين أن المشركين لا حجة لهم فيما ذكروه لأنّا نحن نقول : إن الله عز وجل لو شاء ما أشركوا ولكنه عز وجل شاء إشراكهم وأقدرهم على اكتساب الإشراك والمعاصي ومحبته والاشتغال به ثم علق العقاب والثواب على تلك

الأشياء والاكتسابات ، وهو الذي يقتضيه ظواهر القرآن في قوله ﴿ جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ [ التوبة : 82-95 ] ونحو ذلك ، ويلزمهم على احتجاجهم أن تكون كل طريقة وكل نحلة صواباً ، إذ كلها لو شاء الله لم تكن .

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : وقال بعض المفسرين : إنما هذه المقالة من المشركين على جهة الاستهزاء ، وهذا ضعيف ، وتعلقت المعتزلة بهذه الآية فقالت : إن الله قد ذم لهم هذه المقالة وإنما ذمها لأن كفرهم ليس بمشيئة الله تعالى بل هو خلق لهم .

*(15/256)*

---

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : وليس الأمر على ما قالوا ، وإنما ذم الله تعالى ظن المشركين أن ما شاء الله لا يقع عليه عقاب وأما أنه ذم قولهم : لولا المشيئة لم نكفر فلا ، ثم قال ﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم ﴾ وفي الكلام حذف يدل عليه تناسق الكلام ، كأنه قال : سيقول المشركون كذا وكذا وليس في ذلك حجة لهم ، ولا شيء يقتضي تكذيبك ولكن ﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم ﴾ بنحو هذه الشبهة من ظنهم أن ترك الله لهم دليل على رضاه بحالهم ، وفي قوله ﴿ حتى ذاقوا بأسنا ﴾ وعيد بيّن ، وليس في الآية رد منصوص على قولهم : لو شاء الله ما أشركنا ، وإنما ترك الرد عليهم مقدراً في الكلام

لوضوحه وبيانه ، وقوله ﴿ ولا آباؤنا ﴾ معطوف على الضمير المرفوع في ﴿ أشركنا ﴾ والعطف على الضمير المرفوع لا يرده قياس ، بخلاف المظنون ، لكن سيبويه قد قبح العطف على الضمير المرفوع ، ووجه قبحه أنه لما بني الفعل صار كحرف من الفعل فقبح العطف عليه لشبهه بالحرف ، وكذلك كقولك : قمت وزيد ، لأن تأكيده فيه يبين معنى الاسمية ، ويذهب عنه شبه الحرف ، وحسن عند سيبويه العطف في قوله ﴿ وما أشركنا ولا آباؤنا ﴾ لما طال الكلام ، ب ﴿ لا ﴾ ، فكان معنى الاسمية اتضح واقتضت – لا ما يعطف بعدها وقوله تعالى : ﴿ قل هل عندكم من علم ﴾ الآية : المعنى قل يا محمد للكفرة : هل عندكم من علم من قبل الله تعالى فتبينوه حتى تقوم به الحجة ، و ﴿ من ﴾ في قوله ﴿ من علم ﴾ زائدة مؤكدة وجاءت زيادتها لأن الاستفهام داخل في غير الواجب ، ﴿ إن تتبعون إلا الظن ﴾ أي لا شيء عندكم إلا الظن وهو أكذب الحديث . وقرأ جمهور الناس : " تتبعون " على المخاطبة ، وقرأ النخعي وإبراهيم وابن وثاب : " إن يتبعوا " بالياء حكاية عنهم .

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : وهذه قراءة شاذة يضعفها قوله ﴿ وإن أنتم ﴾ و ﴿ تخرصون ﴾ معناه : تقدرون وتظنون وترجمون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

---

قوله تعالى : ﴿ سيقول الذين أشركوا ﴾

أي : إذا لزمتْهم الحجة ، وتيقَّنوا باطل ما هم عليه من الشرك ، وتحريم ما لم يحرِّمه الله : ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ﴾ فجعلوا هذا حجة لهم في إقامتهم على الباطل ؛ فكأنهم قالوا : لو لم يرض ما نحن عليه ، لحال بيننا وبينه ، وإنما قالوا ذلك مستهزئين ، ودافعين للاحتجاج عليهم ، فيقال لهم : لم تقولون عن مخالفيكم إنهم ضالُّون ، وإنما هم على المشيئة أيضاً ؟ فلا حجة لهم ، لأنهم تعلَّقوا بالمشيئة ، وتركوا الأمر ؛ ومشيئة الله تعم جميع الكائنات ، وأمره لا يعمّ مراداته ، فعلى العبد اتباع الأمر ، وليس له أن يتعلَّل بالمشيئة بعد ورود الأمر .

قوله تعالى : ﴿ كذلك كذَّب الذين من قبلهم ﴾ قال ابن عباس : أي : قالوا لرسلهم مثلما قال هؤلاء لك ﴿ حتى ذاقوا بأسنا ﴾ أي : عذابنا .

﴿ قل هل عندكم من علم ﴾ أي : كتاب نزل من عند الله في تحريم ما حرَّمتم ﴿ إن تتبعون إلا الظَّن ﴾ لا اليقين ؛ و"إن" بمعنى "ما" .

و"تخرصون" : تكذبون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الذين أَشْرَكُواْ ﴾

قال مجاهد : يعني كفار قريش .

قالوا : ﴿ لَوْ شَآءَ الله مَآ أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ يريد البَحِيرة والسَّائبة والوصيلة .

أخبر الله عز وجل بالغيب عما سيقولونه ؛ وظنوا أن هذا متمسَّكٌ لهم لما لزمتهم الحجة وتيقّنوا باطل ما كانوا عليه .

والمعنى : لو شاء الله لأرسل إلى آبائنا رسولاً فنهاهم عن الشِّرْك وعن تحريم ما أحلّ لهم فينتهوا فأتبعناهم على ذلك .

فردّ الله عليهم ذلك فقال : ﴿ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ﴾ أي أعندكم دليل عل أن هذا كذا ؟ : ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن ﴾ في هذا القول .

﴿ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ ﴾ لتُوهِموا ضعفتكم أن لكم حجّة .

وقوله "وَلاَ آبَاؤُنَا" عطف على النون في "أَشْرَكْنَا" .

*(17/256)*

ولم يقل نحن ولا آباؤنا ؛ لأن قوله "ولا" قام مقام توكيد المضمر ؛ ولهذا حسن أن يقال : ما قمت ولا زيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

لما لزمتهم الحجة وتيقنوا بطلان ما كانوا عليه من الشرك بالله وتحريم ما لم يحرمه الله أخبر الله تعالى عنهم بما سيقولونه فقال تعالى : ﴿ سيقول الذين أشركوا ﴾ يعني مشركي قريش والعرب ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ﴾ يعني من قبل ، قال المفسرون : جعلوا قولهم لو شاء الله ما أشركنا حجة على إقامتهم على الكفر والشرك .

وقالوا : إن الله قادر على أن يحول بيننا وبين ما نحن عليه حتى لا نفعله فلولا أنه رضي ما نحن عليه وأراده منا وأمرنا به لحالَ بيننا وبين ذلك ﴿ ولا حرمنا من شيء ﴾ يعني ما حرموه من البحائر والسوائب وغير ذلك ، فقال الله عز وجل رداً وتكذيباً لهم ﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم ﴾ يعني من كفار الأمم الخالية الذي كانوا قبل قومك كذبوا أنبياءهم وقالوا مثل قول هؤلاء ﴿ حتى ذاقوا بأسنا ﴾ يعني عذابنا .

( فصل )

*(18/256)*

استدل القدرية والمعتزلة بهذه الآية فقالوا : إن القوم لما قالوا لو شاء الله ما أشركنا كذبهم الله ورد عليهم بقوله ﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم ﴾ وأيضاً فإن الله تعالى حكى عن هؤلاء الكفار صريح مذهب الجبرية وهو قولهم لو شاء الله منا أن لا نشرك لم نشرك ولمنعنا عن هذا الكفر وحيث لم يمنعنا عنه ثبت أنه مريد له وإذا أراده منا امتنع تركه منا وأجيب عن هذا بأن الله تعالى حكى عن هؤلاء الكفار أنهم قالوا لو شاء الله ما أشركنا ثم ذكر عقيبة كذلك كذب الذين من قبلهم وهذا التكذيب ليس هو في قولهم لو شاء الله ما أشركنا ، بل ذلك القول حق وصدق ولكن الكذب في قولهم إن الله أمرنا به ورضي ما نحن عليه كما أخبر عنهم في سورة الأعراف ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ﴾ فرد الله تعالى عليهم بقوله ﴿ قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ والدليل أن التكذيب في قولهم إن الله أمرنا بهذا ورضيه منا لا في قولهم لو شاء الله ما أشركنا قوله ﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم ﴾ بالتشديد ولو كان خبراً من الله عن كذبهم في قولهم لو شاء الله ما أشركنا لقال كذلك كذب الذين من قبلهم بالتخفيف فكان ينسبهم إلى الكذب لا إلى التكذيب وقال الحسن بن الفضل : لو قالوا هذه المقالة تعظيماً لله وإجلالاً له ومعرفة بحقه وبما يقولون لما عابهم بذلك ، ولكنهم قالوا هذه المقالة تكذيباً وجدلاً من غير معرفة بالله وبما يقولون .

وقيل في معنى الآية : إنهم كانوا يقولون الحق بهذه الكلمة وهو قوله : ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ﴾ إلا أنهم كانوا يعدونه عذراً لأنفسهم ويجعلونه حجة لهم في ترك الإيمان والرد عليهم في ذلك أن أمر الله بمعزل عن مشيئته وإرادته فإن الله تعالى مريد لجميع الكائنات غير آخر بجميع ما يريد ، فعلى العبد أن يتبع أمره وليس له أن يتعلق بمشيئته فإن مشيئته لا تكون عذراً لأحد عليه في فعله فهو تعالى يشاء الكفر من الكافر ولا يرضى به ولا يأمر به ومع هذا فيبعث الرسل إلى العبد ويأمر بالإيمان ، وورود الأمر على خلاف الإرادة غير ممتنع .

فالحاصل أنه تعالى حكى عن الكفار أنهم يتمسكون بمشيئة الله تعالى في شركهم وكفرهم ، فأخر الله تعالى أن هذا التمسك فاسد باطل فإنه لا يلزم من ثبوت المشيئة لله تعالى في كل الأمور دفع دعوة الأنبياء عليهم السلام والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ قل هل عندكم من علم ﴾ أي : قل يا محمد لهؤلاء المشركين القائلين لو شاء الله ما أشركنا ولكنه رضي ما نحن عليه من الشرك هل عندكم يعني بدعواكم ما تدعون من علم يعني من حجة وكتاب يوجب اليقين من العلم ﴿ فتخرجوه لنا ﴾ يعني فتظهروا ذلك العلم لنا وتبينوه كما بيّنا لكم خطأ قولكم وفعلكم وتناقض ذلك واستحالته في العقول ﴿ إن تتبعون إلا الظن ﴾ يعني فيما أنتم عليه من الشرك وتحريم ما لم يحرمه الله عليكم وتحسبون أنكم على حق وإنما هو باطل ﴿ وإن أنتم إلا تخرصون ﴾ يعني وما أنتم

في ذلك كله إلا تكذبون وتقولون على الله الباطل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شيء ﴾

*(20/256)*

---

هذا إخبار بمستقبل ، وقد وقع وفيه إخبار بمغيب معجزة للرسول فكان كما أخبر به تعالى وهذا القول منهم ورد حين بطل احتجاجهم وثبت الرد عليهم فعدلوا إلى أمر حق وهو أنه لو أراد الله أن لا يقع من ذلك شيء ، وأوردوا ذلك على سبيل الحوالة على المشيئة والمقادير مغالطة وحيدة عن الحق وإلحاداً لا اعتقاداً صحيحاً وقالوا : ذلك اعتقاداً صحيحاً حين قارفوا تلك الأشياء استمساكاً بأن ما شاء الله هو الكائن كما يقول الواقع في معصية إذا بين له وجهها : هذا قدر الله لا مهرب ولا مفر من قدر الله أو قالوا ذلك وهو حق على سبيل الاحتجاج على تلك الأشياء ، أي لو لم يرد الله ما نحن عليه لم يقع ولحال بيننا وبينه .

وقال الزمخشري : يعنون بكفرهم وتمردهم أن شركهم وشرك آبائهم وتحريمهم ما أحل الله بمشيئة الله وإرادته ولولا مشيئته لم يكن شيء من ذلك كمذهب المجبرة بعينه ؛ انتهى ، وهو

على طريقة الاعتزال .

وقال الماتريدي : يحتمل أن تكون المشيئة بمعنى الرضا أو بمعنى الأمر والدعاء لأنهم قالوا : إن الله أمرنا بذلك ، ويحتمل أن قالوه استهزاء وسخرية انتهى .

ولا تعلق للمعتزلة بذلك مع هذه الاحتمالات .

قال ابن عطية : وتعلقت المعتزلة بهذه الآية فقالوا : إن الله قد ذم لهم هذه المقالة وإنما ذمها لأن كفرهم ليس بمشيئة الله بل هو خلق لهم قال : وليس الأمر على ما قالوا ، وإنما ذم الله ظنّ المشركين إن ما شاء الله لا يقع عليه عقاب وأما أنه ذم قولهم : لولا المشيئة لم نكفر فلا ؛ انتهى .

و﴿ الذين أشركوا ﴾ مشركو قريش أو مشركو العرب قولان ، ﴿ ولا آباؤنا ﴾ معطوف على الضمير المرفوع وأغني الفصل بلا بين حرف العطف والمعطوف على الفصل بين المتعاطفين بضمير منفصل يلي الضمير المتصل أو بغيره .

وعلى هذا مذهب البصريين لا يجيزون ذلك بغير فصل إلا في الشعر ومذهب الكوفيين جواز ذلك وهو عندهم فصيح في الكلام .

*(21/256)*

وجاء في سورة النحل ﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء ﴾ فقال : من دونه مرتين وقال : نحن فأكد الضمير لأن لفظ العبادة يصح أن ينسب إلى إفراد الله بها وهذا ليس بمستنكر ، بل المستنكر عبادة شيء غير الله أو شيء مع الله فناسب هنا ذكر من دونه مع العبادة ، وأما لفظ ﴿ ما أشركنا ﴾ فالإشراك يدل على إثبات شريك فلا يتركب مع هذا الفعل لفظ من دونه لو كان التركيب في غير القرآن ﴿ ما أشركنا ﴾ من دونه لم يصح معناه ، وأما من دونه الثانية فالإشراك يدل على تحريم أشياء وتحليل أشياء ، فلم يحتج إلى لفظ من دونه وأما لفظ العبادة فلا يدل على تحريم شيء كما دل عليه لفظ أشرك فقيد بقوله : من دونه ولما حذف من دونه هنا ناسب أن يحذف نحن ليطرد التركيب في التخفيف .

﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ﴾ أي مثل ذلك التكذيب المشار إليه في قوله : ﴿ فإن كذبوك ﴾ فقد كذبت الأمم السالفة ، فمتعلق التكذيب هو غير قولهم : ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ﴾ الآية أي بنحو هذه الشبهة من ظنهم أن ترك الله لهم دليل على رضاه بحالهم وحتى ذاقوا بأسنا غاية لامتداد التكذيب إلى وقت العذاب ، لأنه إذا حلّ العذاب لم يبق تكذيب وجعلت المعتزلة التكذيب راجعاً إلى قوله ﴿ ولو شاء الله ﴾ الجملة التي هي محكية بالقول وقالوا : كذبهم الله في قولهم ويؤيده قراءة بعض الشواذ كذب .

وقال الزمخشري : أي جاؤوا بالتكذيب المطلق لأن الله عز وجل ركب في العقول وأنزل في

الكتب ما دل على غناه وبراءته من مشيئة القبائح وإرادتها والرسل أخبرت بذلك ، فمن علق وجوه القبائح من الكفر والمعاصي بمشيئة الله وإرادته فقد كذب التكذيب كله وهو تكذيب الله وكتبه ورسله ونبذ أدلة العقل والسمع وراء ظهره ؛ انتهى ، وهو على طريقة الاعتزال .

(22/256)

---

﴿ قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظنّ وإن أنتم إلا تخرصون ﴾

استفهام على معنى التهكم بهم وهو إنكار ، أي ليس عندكم من علم تحتجون به فتظهرونه لنا ما تتبعون في دعاواكم إلا الظنّ الكاذب الفاسد ، وما أنتم إلا تكذبون أو تقدرون وتحزرون .

وقرأ النخعيّ وابن وثاب : إن يتبعون بالياء .

قال ابن عطية : وهذه قراءة شاذة يضعفها قوله ﴿ وإن أنتم ﴾ لأنه يكون من باب الالتفات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(23/256)

وقال أبو السعود :

﴿ سَيَقُولُ الذين أَشْرَكُواْ ﴾ حكاية لفن آخرَ من كفرهم ، وإخبارُه قبل وقوعِه ثم وقوعُه حسبما أُخبر به كما يحكيه قوله تعالى عند وقوعِه : ﴿ وَقَالَ الذين أَشْرَكُواْ لَوْ شَآء الله مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَىْءٍ ﴾ صريحٌ في أنه من عند الله تعالى ﴿ لَوْ شَاء الله مَا أَشْرَكْنَا ﴾ أي لو شاء خلافَ ذلك مشيئةَ ارتضاءٍ لما فعلنا الإشراك نحن ﴿ وَلاَ ءَابَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ﴾ أرادوا به أن ما فعلوه حقٌّ مرضيٌّ عند الله تعالى لا الاعتذارَ من ارتكاب هذه القبائحِ بإرادة الله تعالى إياها منهم حتى ينتهض ذمُّهم به دليلاً للمعتزلة ، ألا يُرى إلى قوله تعالى : ﴿ كذلك كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي مثلَ ما كذّبك هؤلاءِ في أنه تعالى منَع من الشرك ولم يحرِّم ما حرموه كذّب متقدّموهم الرسلَ فإنه صريحٌ فيما قلنا ، وعطفُ آباؤنا على الضمير للفصل بلا ﴿ حتى ذَاقُواْ بَأْسَنَا ﴾ الذي أنزلنا عليهم بتكذيبهم ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ ﴾ من أمر معلوم يصِحّ الاحتجاجُ به على ما زعمتم ﴿ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ أي فتُظهروه لنا ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن ﴾ أي ما تتبعون في ذلك إلا الظنَّ الباطلَ الذي لا يغني من الحق شيئاً ﴿ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ ﴾ تكذِبون على الله عز وجل وليس فيه دلالةٌ على المنع من اتباع الظنِّ على الإطلاق فيما يعارضه قطعي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

---

وقال الآلوسى :

﴿ سَيَقُولُ الذين أَشْرَكُواْ ﴾

حكاية لفن آخر من أباطيلهم والإخبار قبل وقوعه ثم وقوعه حسبما أخبر كما يحكيه قوله تعالى عند وقوعه : ﴿ وَقَالَ الذين أَشْرَكُواْ لَوْ شَآء الله مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَىْء ﴾ [ النحل : 35 ] صريح في أنه من عند الله تعالى ، وقد نص غير واحد على أن وقوع ما أخبر الله تعالى به من المغيبات من وجوه الإعجاز لكلامه وإن لم يكن الإعجاز به فقط كما في قول مضعف ﴿ لَوْ شَاء الله ﴾ عدم إشراكنا وعدم تحريمنا شيئاً ﴿ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ ءابَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَىْء ﴾ لم يريدوا بهذا الكلام الاعتذار عن ارتكاب القبيح إذ لم يعتقدوا قبح أفعالهم وهي أفعى لهم بل هم كما نطقت به الآيات ﴿ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [ الكهف : 104 ] وأنهم إنما يعبدون الأصنام ليقربوهم إلى الله زلفى وأن التحريم إنما كان من الله عز وجل فما مرادهم بذلك إلا الاحتجاج على أن ما ارتكبوه حق ومشروع ومرضي عند الله تعالى بناء على أن المشيئة والإرادة تساوق الأمر وتستلزم الرضا كما زعمت المعتزلة فيكون حاصل كلامهم أن ما نرتكبه من الشرك والتحريم وغيرهما تعلقت

به مشيئة الله تعالى وإرادته ، وكل ما تعلق به مشيئته سبحانه وإرادته فهو مشروع ومرضي عنده عز وجل فينتج أن ما نرتكبه من الشرك والتحريم مشروع ومرضي عند الله تعالى .

وبعد أن حكى سبحانه ذلك عنهم رد عليهم بقوله عز من قائل ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ما ذكب هؤلاء ﴿ كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ وهم أسلافهم المشركون .

وحاصله أن كلامهم يتضمن تكذيب الرسل عليهم السلام وقد دلت المعجزة على صدقهم .

ولا يخفى أن المقدمة الأولى لا تكذيب فيها نفسها بل هي متضمنة لتصديق ما تطابق فيه العقل والشرع من كون كل كائن بمشيئة الله تعالى وامتناع أن يجري في ملكه خلاف ما يشاء .

*(25/256)*

---

فمنشأ التكذيب هو المقدمة الثانية لأن الرسل عليهم السلام يدعونهم إلى التوحيد ويقولون لهم : إن الله تعالى لا يرضى لعباده الكفر ديناً ولا يأمر بالفحشاء فيكون قولهم : إن ما نرتكبه مشروع ومرضي عنده تعالى تكذيب لهذا القول ، وحيث كان فساد هذه الحجة باعتبار المقدمة الثانية تعين أنها ليست بصادقة وحينئذ يصدق نقيضها وهي أنه ليس كل ما تعلقت به المشيئة والإرادة بمشروع ومرضي عنده سبحانه بناء على أن الإرادة لا

تساوق الأمر والرضا على ما هو مذهب أهل السنة إذ المشيئة ترجح بعض الممكنات على بعض مأموراً كان أو منهياً حسناً كان أو قبيحاً .

وعلى هذا فلا حجة في الآية للمعتزلة بل قد انقلب الأمر فصارت الآية حجة لنا عليهم لأنهم لم يفرقوا بين المأمور والمراد واعتقدوا كالمشركين بأن كل مراد مأمور ومرضي ، ويجوز أيضاً أن يقال : مقصود المشركين من قولهم ذلك رد دعوة الأنبياء عليهم السلام ورفع البعثة والتكليف وهو المذكور في كثير من الكتب الكلامية .

وحاصله حينئذ أن ما شاء الله تعالى يجب وما لم يشأ يمتنع وكل ما هذا شأنه فلا يكلف به لكونه مشروطاً بالاستطاعة فينتج أن ما نرتكبه من الشرك وغيره لم نكلف بتركه ولم يبعث له نبي فرد الله تعالى عليهم بأن هذه كلمة صدق أريد بها باطل لأنهم أرادوا بها أن الرسل عليهم السلام في دعواهم البعثة والتكليف كاذبون وقد ثبت صدقهم بالدلائل القطعية ولكون ذلك صدقاً أريد به باطل ذمهم الله تعالى بالتكذيب ، ووجوب وقوع متعلق المشيئة لا ينافي صدق دعوى البعثة والتكليف لأنهما لإظهار المحجة وإبلاغ الحجة .

وسيأتي توجيه آخر إن شاء الله تعالى قريباً للآية .

*(26/256)*

وعطف ﴿ ءابَاؤُنَا ﴾ على الضمير المرفوع في ﴿ أَشْرَكْنَا ﴾ وساغ ذلك عند البصريين وإن لم يؤكد الضمير لأنه يكفي عندهم أي فاصل كان ، وقد فصل بلا ههنا ، والكوفيون لا يشترطون في ذلك شيئاً ويستدلون بما هنا ولا يعتبرون هذا الفصل لأنه ينبغي أن يتقدم حرف العطف ليدفع الهجنة ولا يكفي عندهم الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه ، وتوقف أبو علي في كفاية الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه وإن لم يفصل حرف العطف .

وادعى الإمام "أن في الكلام تقديراً لأن النفي لا يصرف إلى ذوات الآباء بل يجب صرفه إلى فعل صدر منهم وذلك هو الإشراك فيكون التقدير ما أشركنا ولا أشرك آباؤنا وحينئذ فلا إشكال .

﴿ حتى ذَاقُواْ بَأْسَنَا ﴾ أي نالوا عذابنا الذي أنزلناه عليهم بتكذيبهم ، وفيه على ما قيل إيماء إلى أن لهم عذاباً مدخراً عند الله تعالى لأن الذوق أول إدراك الشيء .

﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ ﴾ أي من أمر معلوم يصح الاحتجاج به على زعمكم ﴿ فَتُخْرِجُوهُ ﴾ أي فتظهروه ﴿ لَنَا ﴾ على أتم وجه وأوضح بيان ، وقيل : المراد هل لكم من اعتقاد ثابت مطابق فيما ادعيتم أن الإشراك وسائر ما أنتم عليه مرضي لله تعالى فتظهروه لنا بالبرهان ، وجعل إمام الحرمين في "الإرشاد" هذا وما بعده دليلاً على أن المشركين إنما استوجبوا التوبيخ على قولهم ذلك لأنهم كانوا يهزؤن بالدين ويبغون رد دعوة

الأنبياء عليهم السلام حيث قرع مسامعهم من شرائع الرسل عليهم السلام تفويض الأمور إليه سبحانه فحين طالبوهم بالإسلام والتزام الأحكام احتجوا عليهم بما أخذوه من كلامهم مستهزئين بهم عليهم الصلاة والسلام ولم يكن غرضهم ذكر ما ينطوي عليه عقدهم كيف لا والإيمان بصفات الله تعالى فرع الإيمان به عز شأنه وهو عنهم مناط العيوق .

*(27/256)*

---

﴿ إِن تَتَّبِعُونَ ﴾ أي ما تتبعون في ذلك ﴿ إِلاَّ الظن ﴾ الباطل الذي لا يغني من الحق شيئاً أو المراد إن عادتكم وجل أمركم أنكم لا تتبعون إلا الظن ﴿ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ ﴾ تكذبون على الله تعالى ، وقد تقدم الكلام في حكم اتباع الظن على التفصيل فتذكر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا ﴾

استئناف رجع به الكلام إلى مجادلة المشركين بعد أن اعترض بينها بقوله : ﴿ قل لا أجد في ما أوحي إليّ محرماً على طاعم يطعمه إلى قوله فإنّ ربّك غفور رحيم ﴾ [ الأنعام : 145 ] ، فلمّا قطع الله حجّتهم في شأن تحريم ما حرّموه ، وقسمة ما قسموه ، استقصى ما بقي

لهم من حجّة وهي حجّة المحجوج المغلوب الذي أعيته المجادلة ولم تبق له حجّة ، إذ يتشبّث بالمعاذير الواهية لترويج ضلاله ، بأن يقول : هذا أمر قضي وقدّر .

فإن كان ضمير الرّفع في قوله : ﴿ فإن كذبوك ﴾ [ الأنعام : 147 ] عائداً إلى المشركين كان قوله تعالى هنا : ﴿ سيقول الذين أشركوا ﴾ إظهاراً في مقام الإضمار لزيادة تفظيع أقوالهم ، فإخبار الله عنهم بأنَّهم سيقولون ذلك إن كان نزول هذه الآية قبلَ نزول آية سورة النّحل ( 35 ) : ﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء ﴾ وهو الأرجح ، فإنّ سورة النّحل معدودة في النّزول بعد سورة الأنعام ، كان الإخبار بأنَّهم سيقولونه اطلاعاً على ما تُكنّه نفوسهم من تزوير هذه الحجّة ، فهو معجزة من معجزات القرآن من نوع الإخبار بالغيب كقوله تعالى : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ﴾ [ البقرة : 24 ] .

وإن كان نزول هذه الآية بعد نزول آية سورة النّحل فالإخبار بأنَّهم سيقولونه معناه أنَّهم سيعيدون معذرتهم المألوفة .

*(28/256)*

وحاصل هذه الحجّة : أنَّهم يحتجّون على النّبيء صلى الله عليه وسلم بأنّ ما هم عليه لو لم يكن برضى الله تعالى لصَرَفَهم عنه ولَمَا يسَّره لهم ، يقولون ذلك في معرض إفحام الرّسول عليه الصّلاة والسّلام وإبطال حُكمه عليهم بالضّلالة ، وهذه شبهة أهل العقول الأفِنة الذين لا يُفرّقون بين تصرّف الله تعالى بالخَلْق والتّقدير وحفظِ قوانين الوجود ، وهو التصرّف الذي نسمّيه نحن بالمشيئة وبالإرادة ، وبين تصرّفه بالأمر والنّهي ، وهو الذي نسمّيه بالرّضى وبالمحبّة ، فالأوّل تصرّف التّكوين والثّاني تصرف التّكليف ، فهم يحسبون أنّ تمكّنهم من وضع قواعد الشّرك ومن التّحريم والتّحليل ما هو إلاَّ بأن خلق الله فيهم التمكّن من ذلك ، فيحسبون أنَّه حين لم يمسك عِنان أفعالهم كان قد رضي بما فعلوه ، وأنَّه لو كان لا يرضى به لما عجز عن سلب تمكّنهم ، يحسبون أنّ الله يُهمّه سوءُ تصرّفهم فيما فطرهم عليه ، ولو كان كما يتوهَّمون لكان الباطل والحقّ شيئاً واحداً ، وهذا ما لا يفهمه عقل حَصيف ، فإنّ أهل العقول السّخيفة حين يتوهَّمون ذلك كانوا غير ملتفتين إلاّ إلى جانب نحلتهم ومعرضين عن جانب مخالفهم ، فإنَّهم حين يقولون : ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ﴾ غافلون عن أن يقال لهم .

من جانب الرّسول : لو شاء الله ما قلتُ لكم أنّ فعلكم ضلال ، فيكون الله على حسب شبهتهم قد شاء الشّيء ونقيضه إذ شاء أنَّهم يشركون وشاء أن يقول لهم الرّسول لا تشركوا .

وسبب هذه الضّلالة العارضة لأهل الضّلال من الأمم ، التي تلوح في عقول بعض عوام المسلمين في معاذيرهم للمعاصي والجرائم أن يقولوا : أمْرُ الله أو مَكْتُوبُ عند الله أو نحو ذلك ، هو الجهل بأنّ حكمة الله تعالى في وضع نظام هذا العالم اقتضت أن يجعل حجاباً بين تصرّفه تعالى في أحوال المخلوقات ، وبين تصرّفهم في أحوالهم بمقتضى إرادتهم ، وذلك الحجاب هو ناموس ارتباط المسبّبات بأسبابها ، وارتباطِ أحوال الموجودات في هذا العالم بعضِها ببعض ، ومنه ما يسمّى بالكَسب والاستطاعة عند جمهور الأشاعرة ، ويسمّى بالقدرة عند المعتزلة وبعضِ الأشاعرة ، وذلك هو مورد التّكليف الدالّ على ما يرضاه الله وما لا يرضى به ، وأنّ الله وضع نظام هذا العالم بحكمة فجعل قِوامه هو تدبير الأشياء أمورَها من ذواتها بحسب قوى أودعها في الموجودات لتسعى لما خُلقت لأجله ، وزاد الإنسانَ مزيّةً بأن وضع له عقلاً يمكّنه من تغيير أحواله على حسب احتياجه ، ووضّع له في عقله وسائل الاهتداء إلى الخير والشرّ ، كما قيّض له دعاة إلى الخير تنبّهه إليه إن عرته غفلة ، أو حجبته شهوة ، فإن هو لم يرعوِ غيّهْ ، فقد خَانَ بساطَ عقله بطَيّهْ .

وبهذا ظهر تخليط أهل الضّلالة بين مشيئة العباد ومشيئة الله ، فلذلك ردّ الله عليهم هنا

قولهم : ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ﴾ لأنَّهم جعلوا ما هو مشيئة لهم مشيئة لله تعالى ، ومع ذلك فهو قد أثبت مشيئته في قوله : ﴿ ولو شاء الله ما أشركوا ﴾ [ الأنعام : 107 ] فهي مشيئة تكوين العقول وتكوين نظام الجماعة .

*(30/256)*

---

فهذه المشيئة التي اعتلّوا بها مشيئة خفيّة لا تتوصّل إلى الاطّلاع على كنهها عقول البشر ، فلذلك نعى الله عليهم استنادهم إليها على جهلهم بكنهها ، فقال : كذلك كذب الذين من قبلهم فَشَبَّه بتكذيبِهم تكذيبَ المكذّبين الذين من قبلهم ، فكنّى بذلك عن كون مقصد المشركين من هذه الحجّة تكذيب النّبيء صلى الله عليه وسلم وقد سبق لنا بيان في هذا المعنى في هذه السّورة ( 107 ) عند قوله تعالى : ﴿ ولو شاء الله ما أشركوا .

﴿ وليس في هذه الآية ما ينهض حجّة لنا على المعتزلة ، ولا للمعتزلة علينا ، وإن حاول كلا الفريقين ذلك لأنّ الفريقين متّفقان على بطلان حجّة المشركين .

وفي الآية حجّة على الجبرية .

وقوله تعالى : ﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم ﴾ أي كذّب الذين من قبلهم أنبياءهم مثل ما كذّبك هؤلاء .

وهذا يدلّ على أنّ الذين أشركوا قصدوا بقولهم : ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ﴾ تكذيب النّبيء صلى الله عليه وسلم إذ دعاهم إلى الإقلاع عمّا يعتقدون بحجّة أنّ الله رضيه لهم وشاءه منهم مشيئة رضى ، فكذلك الأمم قبلهم كذّبوا رسلهم مستندين إلى هذه الشبهة فسمّى الله استدلالهم هذا تكذيباً ، لأنَّهم ساقوه مساق التّكذيب والإفحام ، لا لأنّ مقتضاه لا يقول به الرّسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، فإنَّا نقول ذلك كما قال تعالى: ﴿ ولو شاء الله ما أشركوا ﴾ [ الأنعام : 107 ] نريد به معنى صحيحاً فكلامهم من باب كلام الحقّ الذي أريد به باطل ، ووقع في "الكشاف" أنّه قرىء : ﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم ﴾ بتخفيف ذال كذب وقال الطّيبي : هي قراءة موضوعة أو شاذّة يعني شاذّة شذوذاً شديداً ولم يروها أحد عن أحد من أهل القراءات الشاذّة ، ولعلّها من وضع بعض المعتزلة في المناظرة كما يؤخذ من كلام الفخر .

وقوله : ﴿ حتى ذاقوا بأسنا ﴾ غاية للتكذيب مقصود منها دوامهم عليه إلى آخر أوقات وجودهم .

*(31/256)*

فلمّا ذاقوا بأس الله هلكوا واضمحلّوا ، وليست الغاية هنا للتّنهية : والرّجوع عن الفعل لظهور أنَّه لا يتصوّر الرّجوع بعد استئصالهم .

والذّوق مجاز في الإحساس والشّعور ، فهو من استعمال المقيّد في المطلق ، وقد تقدّم الكلام عليه عند قوله تعالى : ﴿ ليذوقَ وبال أمره في سورة العقود ( 95 ) .

والبأس تقدّم الكلام عليه في سورة البقرة وإضافته إلى ضمير الله تعالى لتعظيمه وتهويله .

وأمَرَ الله رسولَه بالجواب عن مقالهم الواقع أو المتوقّع بقوله : قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ﴾ ، ففصل جملة : ﴿ قل ﴾ لأنَّها جارية مجرى المقاولة والمجاوبة كما تقرّر غير مرّة ، وجاء بالاستفهام المقصود منه الإفحَام والتهكّم بما عُرف من تشبّثُهم بمثل هذا الاستدلال .

وجُعل الاستفهام بـ ﴿ هَلْ ﴾ لأنَّها تدلّ على طلب تحقيق الإسناد المسؤول عنه ، لأنّ أصل ﴿ هل ﴾ أنَّها حرف بمعنى "قد" لاختصاصها بالأفعال ، وكثرَ وقوعها بعد همزة الاستفهام ، فغلب عليها معنى الاستفهام ، فكثر حذف الهمزة معها حتّى تنوسيت الهمزة في مشهور الكلام ولم تظهر معها إلا في النّادر ، وقد تقدّم شيء من هذا عند قوله تعالى : ﴿ فهل أنتم منتهون في سورة العقود ( 91 ) .

فدلّ هل ﴾ على أنَّه سائل عن أمر يريد أن يكون محقّقا كأنَّه يرغب في حصوله فيغريهم بإظهاره حتّى إذا عجزوا كان قطعاً لدعواهم .

والمقصود من هذا الاستفهام التهكّم بهم في قولهم : ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ألى ولا حرمنا ﴾ ، فأظهر لهم من القول من يظهره المعجَب بكلامهم .

وقرينة التّهكّم بادية لأَنَّه لا يظنّ بالرّسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين أن يطلبوا العلم من المشركين ، كيف وهو يصارحهم بالتّجهيل والتّضليل صباحَ مساءَ .

(32/256)

---

والعِلم : ما قابل الجهل ، وإخراجه الإعلام به ، شبهت إفادة المعلوم لمن يجهله بإخراج الشّيء المخبوء ، وذلك مثل التّشبيه في قول النّبي صلى الله عليه وسلم "وعلم بثّه في صدور الرّجال" ولذلك كان للإتيان : بـ ﴿ عندكم ﴾ موقع حسن ، لأنّ ( عند ) في الأصل تدلّ على المكان المختصّ بالذي أضيف إليه لفظُها ، فهي ممّا يناسب الخفاء ، ولولا شيوع استعمالها في المعنى المجازي حتّى صارت كالحقيقة لقلْتُ : إنّ ذكر ( عند ) هنا ترشيح لاستعارة الإخراج للإعلام .

وجعل إخراج العلم مرتَّباً بفاء السَّببيّة على العندية للدّلالة على أنّ السّؤال مقصود به ما يتسبّب عليه .

واللاّم في : ﴿ فتخرجوه لنا ﴾ للأجْل والاختصاص ، فتؤذن بحاجة مجرورها لمتعلّقها ،

أي فتخرجوه لأجلنا : أي لنفعنا ، والمعنى : لقد أبدعتم في هذا العلم الذي أبديتموه في استفادتكم أنّ الله أمركم بالشّرك وتحريم ما حرّمتموه بدلالة مشيئة على ذلك إذ لو شاء لما فعلتم ذلك فزيدونا من هذا العلم .

وهذا الجواب يشبه المنع في اصطلاح أهل الجدل ، ولمّا كان هذا الاستفهام صورياً وكان المتكلّم جازماً بانتفاء ما استَفْهَم عنه أعقبه بالجواب بقوله : ﴿ إن تتبعون إلا الظن ﴾ .

وجملة : ﴿ إن تتبعون إلا الظن ﴾ مستأنفة لأنَّها ابتداء كلام بإضراب عن الكلام الذي قبله ، فبعد أن تهكّم بهم جدّ في جوابهم ، فقال : ﴿ إن تتبعون إلا الظن ﴾ أي : لا علم عندكم .

وقصارى ما عندكم هو الظنّ الباطل والخَرْص .

وهذا يشبه سند المنع في عرف أهل الجدل .

والمراد بالظنّ الظنّ الكاذب وهو إطلاق له شائع كما تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ في هذه السّورة ( 116 ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

*(33/256)*

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ﴾

وكلمة تقرأ آية فيها " سيقول " فاعلم أنها تنطوي على سر إعجازي للقرآن ، والذي يعطي هذا السر هو الخصم حتى تعرف كيف يؤدي عدو الله الدليل على صدق الله ، مما يدل على أنه في غفلة . ومن قبل قال الحق سبحانه : ﴿ سيقول السفهآء من الناس ﴾ [ البقرة : 142 ]

و" سيقول " معناها أنهم لم يقولوا الآن ، ويخبر القرآن أنهم سيقولون ، ولم يخبئ ويستر القرآن هذه الآية ، بل قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم قرآنا يقرأ ويصلى به . ولو أن عندهم شيئا من الفكر لكانوا يسترون القول حتى يظهروا المتكلم بالقرآن بمظهر أنه لا يقول الكلام الصحيح ، أو على الأقل يقولون إنه يقول : " سيقول السفهاء " ، ونحن لسنا بسفهاء فلا نقول هذا القول . لكنهم يقولون القول السفيه برغم أن الآية قد سبقتهم بالتنبؤ بما سوف يقولون ؛ لأن الذي أخبر هو الله ، ولا يمكن أن يجيء احتياط من خلق الله ليستدرك به على صدق الله . هم سمعوا الكلمة ، ومع ذلك لم يسكتوا بل سبقتهم ألسنتهم إليها ليؤيدوا القرآن .

*(34/256)*

وكل مسرف على نفسه في عدم اتباع منهج الله يقول : إن ربنا هو الذي يهدي وهو الذي يضل ، ويقول ذلك بتبجح ووقاحة لتبرير ما يفعل من سفه . وسيظل المسرفون على أنفسهم وكذلك المشركون يقولون ذلك وسيحاولون تحليل ما حرم الله . وقد جاء المشركون بقضيتين : قضية في العقيدة ، وقضية في التكليف ؛ قالوا في قضية العقيدة : ﴿ لو شآء الله ما أشركنا ﴾ ، وكأنهم أشركوا بمشيئة الله . وجاءوا إلى ما حرموا من حلال الله وقالوا إنهم قد فعلوا ذلك بمشيئة الله أيضا ؛ ليوجدوا لأنفسهم مبررا ، وهذا القول ليس قضية عقلية ؛ لأنها لو كانت وقفة عقلية لكانت في الملحظين : الخير والشر ، فالواحد منهم يقول : كتب ربنا علينا – والعياذ بالله – الشر ، لماذا يعذبني إذن ؟ ! ولا يقول هذ الإنسان " وكتب الله لي الخير " . هذا ما كان يفرضه ويقتضيه المنطق لكنهم تحدثوا عن الشر وسكتوا عما يعطى لهم من خير .

وقولهم ﴿ لو شآء الله ما أشركنا ﴾ صحيح المعنى ؛ لأنه سبحانه لو شاء أن يجعل الناس كلهم مهديين لفعل ، لكنه شاء أن يوجد لنا اختيارا ، وفي إطار هذا الاختيار لا يخرج أمر عن مشيئته الكونية . بل يخرج الكفر والشر عن مراده الشرعي . وعلمنا من قبل أن هناك فرقا بين الكونية والشرعية ؛ فكفر الكافر ليس غصبا عن الله أو قهرا عنه سبحانه ، إنما حصل وحدث بما أعطاه الله لكل إنسان من اختيار ، فالإنسان صالح للاختيار بين البديلات : ﴿ فمن شآء فليؤمن ومن شآء فليكفر . . . ﴾ [ الكهف : 29 ]

فالإنسان قادر على توجيه الطاقة الموهوبة له من الله الصالحة للخير أو الشر .

إذن فأختيار الإنسان إما ان يدخله إلى الإيمان وإما أن يتجه به إلى الكفر ، لذلك يقول الحق عن الذين يدعون أن كفرهم كان بمشيئة الله : ﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا . . ﴾ [ الأنعام : 148 ]

(35/256)

---

والسابقون لهم قالوا ذلك وفعلوا مثل ما يفعل هؤلاء من التكذيب ؛ وجاءهم بأس وعذاب من الله شديد ، ولذلك يأمر الحق محمدا صلى الله عليه وسلم : ﴿ . . . قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا آن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ﴾ [ الأنعام : 148 ]

ويسألهم محمد صلى الله عليه وسلم عن علم يؤكدون به صحة ما يدعونه . . ويزعمونه أي هل عندكم بلاغ من الله ، والحق أنهم لا علم لديهم ولا دليل ، إنهم يتبعون الظن ، ويخرصون ، أي ان كلامهم غير واضح الدلالة على المراد منه ، إنه تخمين وظن وكذب .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ قل فلله الحجة البالغة . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(36/256)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : "سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا كذلك كذب الذين من قبلهم " ، وفى سورة النحل : "لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شئ كذلك فعل الذين من قبلهم " .

للسائل أن يسأل عما اختلف فى هاتين الآيتين مع أن المقصود واحد ؟

والجواب عن ذلك والله أعلم أنه لما تقدم آية الأنعام قوله تعالى : "وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر " وهذا إخبار عن بنى إسرائيل فيما حرم عليهم ثم ورد بعدها قوله تعالى : "قل هلم شهدائكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا " وهو خطاب لهم أيضا ، فقد اكتنف الآية المذكورة ما مرجعه إلى بنى إسرائيل فيما حرم عليهم وما ألحقوه بذلك تحريفا وتبديلا ووردت الآية المتكلم فيها مورد ما يرد من الجمل الاعتراضية لاتصال ما بعدها بما قبلها ، فلم يكن ليلائم ذلك الاسهاب وطول الكلام إذ الوجه فيما يرد اعتراضا أن يؤخر وأما آية النحل فلم يتقدمها خطاب لغير العرب مؤمنهم وكافرهم وقد أطنب فى تذكيرهم ووعظهم ، وقد بسط لهم ذكر نعم ودلائل ، فناسب ذلك الاسهاب الوارد فيها من قوله : "لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شئ " ولم يكن ليناسب آية

الأنعام ما ورد هنا ، ولا الوارد هنا ذلك الإيجاز ، والله سبحانه أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ ملاك التأويل صـ 172 ﴾

(37/256)

---

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴾ الآية

هذا الكلام الذي قالوه بالنظر إلى ذاته كلام صدق لا شك فيه ؛ لأن الله لو شاء لم يشركوا به شيئا ولم يحرموا شيئا مما لم يحرمه كالبحائر والسوائب وقد قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ﴾ , وقال: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ , وقال: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ﴾ , وإذا كان هذا الكلام الذي قاله الكفار حقا فما وجه تكذيبه تعالى لهم بقوله: ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ ﴾ ، ونظير هذا الإشكال بعينه في سورة الزخرف في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ

إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ .

والجواب أن هذا الكلام الذي قاله الكفار كلام حق أريد به باطل فتكذيب الله لهم واقع على باطلهم الذي قصدوه بهذا الكلام الحق ، وإيضاحه: أن مرادهم أنهم لما كان كفرهم وعصيانهم بمشيئة الله وأنه لو شاء لمنعهم من ذلك فعدم منعه لهم دليل على رضاه بفعلهم فكذبهم الله في ذلك مبيّنا أنه لا يرضى بكفرهم كما نص عليه بقوله: ﴿ وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ , فالكفار زعموا أن الإرادة الكونية يلزمها الرضى وهو زعم باطل بل الله يريد بإرادته الكونية ما لا يرضاه بدليل قوله: ﴿ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ مع قوله: ﴿ وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ والذي يلازم الرضى حقا إنما هو الإرادة الشرعية والعلم عند الله تعالى .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 128 . 129 ﴾

*(38/256)*

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " وَلاَ آبَاؤُنَا " عَطْف على الضَّمِير المَرْفُوع المتَّصِل ، وزعم سيبويه : أن عطف الظَّاهر على المُضْمَر المْفُوع في الفِعل قبيحٌ ، فلا يَجُوز أن يُقال : " قمت وزيْد " ؛ لأن المَعْطُوف عليه

أصْلٌ والعَطْف فَرْع المُضْمَر ، والمُظْمَر ، والمُظْهَر قويٌّ فجعله فَرْعاً للضَّعِيف لا يَجُوز ، وإذا عُرِف هذا فَنَقُول : إن جَاء الكلامُ في جَانِب الإثْبَاتِ ؛ وجب تأكيد المُضْمَر فنقول : " أنا وَزَيْد " ، وإن جاء في جَانِب النَّفْي قلت : " ما قُمْتُ ولا زَيْد " وإذا ثَبَتَ هذا ؛ فنقول : قوله : ﴿ لَوْ شَآءَ اللهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ آبَاؤُنَا ﴾ فعطف قوله : " ولا آباؤُنَا " على فَاعِل الضَّمِير في قوله : " ما أشْرَكْنَا " ولم يأتِ هنا بتأكيد بِضَمِير رَفْع مُنْفَصِل ، ولا فَاصِل بين المُتعاطِفَيْن اكتفاء بُوجُو " لا " الزَّائدة للتَّأكيد فَاصِلة بين حَرْف العَطْفِ والمَعْطُوف ، وهذا هو على قَوَاعِد البَصْرِيِّين ، وأمّا الكُوفِيُّون فلا يَشْتَرِطُون شَيْئاً من ذلك ، وقد تقدَّم إتْقَان هذه المَسْألة .

وفي هذه الآية لم يُؤكّد الضمير ، وفي آية النَّحْل أكّدَ ؛ فقال تعالى : ﴿ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ آبَاؤُنَا ﴾ [ النحل : 35 ] وهناك أيضاً قال : " مِن دُونِه " مَرَّتَين وهنا قَالَها مرة واحدة ، فقال أبُو حيَّان : " لأن لَفْظ " العِبَادة " يَصِحُّ أن يُنْسَب إلى إفْرَاد اللَّه بها ، وهذا لَيْس بِمُسْتَنْكر ، بل المُسْتَنْكِر عبادة غَيْر اللَّه ، أو شيء مع اللَّه ، فناسب هنا ذِكْر " مِن دُونه " مع العِبَادة ، وأمّا لَفْظ " مَا أشْرَكْنَا " فالإشْرَاك يدلُّ على إثْبَات شَرِيكٍ ، فلا يتركَّبُ مع هذا الفِعْل لَفْظ " مِن دُونِه " لو كان التَّرْكِيب في غَيْر القُرْآن : " ما أشْرَكْنا من دُونه " [ لم يَصِحَّ المَعْنَى .

وأمّا "مِن دُونه" الثَّانية، فالإشْرَاك يَدُلُّ على تَحْرِيم اشْياء وتحليل أشياء، فلمْ يَحْتَج إلى لفظ "مِن دُونِهِ" ] وأمّا لفظ العِبَادة فلا يَدُلُّ على تَحْرِيم شَيْءٍ كما يدلُّ عليه لفظ "أشْرَك" فَقُيِّد بقوله: "مِنْ دُونِهِ" ولما حَذَف "مِن دُونِهِ" هنا نَاسب أن يُحْذَف "نَحْن" ليطرد التَّرْكيب في التَخفيف".

قال شهاب الدِّين: "وفي هذا الكلام نَظَر لا يَخْفَى".

قوله: "مِن شَيْءٍ" "مِنْ" زائدة في المَفْعُول، أي: ما حَرَّمْنا شَيئاً، و"من دُونه" متعلِّق بـ "حرّمنا" أي: ما حَرَّمنا من غير إذْنه لَنَا في ذِلك.

قوله: "وكذالك" نعت لِمَصْدر مَحْذُوف، أي: مثل التَّكْذِيب المُشَار إليه في قوله: "فإن كَذَّبُوك".

وقُرِئ: "كَذَب" بالتَّخْفِيف.

وقوله: "حَتَّى ذَاقُوا" جاء به لامْتِداد التكْذيبن وقوله: "مِنْ عِلْم" يحتمل أن يَكُون مُبْتَدأ و"عِنْدكم" خبر مُقدَّم، وأن يكون فَاعِلاً بالظَّرْف؛ لاعتماده على الاسْتِفْهام، و"مِنْ" زائدة على كِلاَ التَّقْدِيرْين.

وقرأ النَّخْعِي وابن وثاب: "إن يتّبعُون" بياء الغَيْبَة.

قال ابن عطيَّة وهذه قِرَاءة شاذَّة يُضَعِّفها قوله: "وإنْ أنْتُم إلا تَخْرُصُونَ" يعني: أنه أتى

بَعْدَهَا بالخِطَاب فبعُدت الغَيْبَة ، وقد يُجَاب عنه بأنَّ ذلك من بَابِ الالتِفَات . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 499. 500 ﴾

*(40/256)*

---

قوله تعالى ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (149) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما انتفى أن يكون لهم حجة ، وثبت أن الأمر إنما هو لله ، ثبت أنه المختص بالحجة الواضحة ، فقال مسبباً عن ذلك : ﴿ قل فلله ﴾ أي الإله الأعظم وحده ﴿ الحجة البالغة ﴾ أي التي بلغت أعلى درجات الحق قوة ومتانة وبياناً ووضوحاً ورصانة بسبب أنه شامل العلم كامل القدرة كما أقررتم بذلك حين قلتم " ولو شاء الله ما أشركنا " وإن كنتم قلتموه على سبيل الإلزام والعناد لا لأجل التدين والاعتقاد ﴿ فلو شاء ﴾ أي الله ﴿ لهداكم ﴾ أي أنتم ومخالفيكم ﴿ أجمعين ﴾ ولكنه لم يشأ ذلك ، بل شاء هداية بعض وضلال آخرين ، فوقع ذلك على الوجه الذي شاءه ، فلزم على قولكم أن يكون الفريقان محقين ، فيكون الشيء الواحد حقاً غير حق في حال واحد ، وهذا لا يقوله عاقل ،

ويلزمكم على ذلك أيضاً أن توالوا أخصامكم ولا تعادوهم وإن فعلوا ما فعلوا ، لأنه حق رضى الله لأنه بمشيئته وأنتم لا تقولون ذلك ، فبطل قولكم فثبت أنه قد يشاء الباطل لأنه لا يسأل عما يفعل ويرسل الرسل إليكم لإزالته ليقيم بهم الحجة على من يريد عقابه على ما يتعارفه الناس بينهم ، وورود الأمر على خلاف الإرادة غير ممتنع . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 739 ﴾

فصل

قال الفخر :

احتج أصحابنا على قولهم الكل بمشيئة الله تعالى بقوله : ﴿ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فكلمة "لو" في اللغة تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره ، فدل هذا على أنه تعالى ما شاء أن يهديهم ، وما هداهم أيضاً .

وتقريره بحسب الدليل العقلي ، أن قدرة الكافر على الكفر إن لم تكن قدرة على الإيمان فالله تعالى على هذا التقدير ما أقدره على الإيمان ، فلو شاء الإيمان منه ، فقد شاء الفعل من غير قدرة على الفعل ، وذلك محال ومشيئة المحال محال ، وإن كانت القدرة على الكفر قدرة على الإيمان توقف رجحان أحد الطرفين على حصول الداعية المرجحة .

فإن قلنا : إنه تعالى خلق تلك الداعية فقد حصلت الداعية المرجحة مع القدرة ، ومجموعهما موجب للفعل ، فحيث لم يحصل الفعل علمنا أن تلك الداعية لم تحصل ، وإذا لم تحصل امتنع منه فعل الإيمان ، وإذا امتنع ذلك منه ، امتنع أن يريده الله منه ، لأن إرادة المحال محال ممتنع ، فثبت أن ظاهر القرآن دل على أنه تعالى ما أراد الإيمان من الكافر ، والبرهان العقلي الذي قررناه يدل عليه أيضاً ، فبطل قولهم من كل الوجوه ، وأما قوله : تحمل هذه الآية على مشيئة الإلجاء فنقول : هذا التأويل إنما يحسن المصير إليه لو ثبت بالبرهان العقلي امتناع الحمل على ظاهر هذا الكلام ، أما لو قام البرهان العقلي على أن الحق ليس إلا ما دل عليه هذا الظاهر ، فكيف يصار إليه ؟ ثم نقول : هذا الدليل باطل من وجوه : الأول : أن هذا الكلام لا بد فيه من إضمار ، فنحن نقول : التقدير : لو شاء الهداية لهداكم ، وأنتم تقولون التقدير : لو شاء الهداية على سبيل الإلجاء لهداكم ، فإضماركم أكثر فكان قولكم مرجوحاً .

الثاني : أنه تعالى يريد من الكافر الإيمان الاختياري ، والإيمان الحاصل بالإلجاء غير الإيمان الحاصل بالاختيار ، وعلى هذا التقدير يلزم كونه تعالى عاجزاً عن تحصيل مراده ، لأن مراده هو الإيمان الاختياري ، وأنه لا يقدر ألبتة على تحصيله ، فكان القول بالعجز لازماً .

الثالث : أن هذا الكلام موقوف على الفرق بين الإيمان الحاصل بالاختيار ، وبين الإيمان

الحاصل بالإلجاء .

أما الإيمان الحاصل بالاختيار .

فإنه يمتنع حصوله إلا عند حصول داعية جازمة ، وإرادة لازمة فإن الداعية التي يترتب عليها حصول الفعل ، إما أن تكون بحيث يجب ترتب الفعل عليها أو لا يجب .

فإن وجب فهي الداعية الضرورية ، وحينئذ لا يبقى بينها وبين الداعية الحاصلة بالإلجاء فرق وإن لم تجب ترتب الفعل عليها ، فحينئذ يمكن تخلف الفعل عنها ، فلنفرض تارة ذلك الفعل متخلفاً عنها ، وتارة غير متخلف ، فامتياز أحد الوقتين عن الآخر لا بد وأن يكون لمرجح زائد فالحاصل قبل ذلك ما كان تمام الداعية ، وقد فرضناه كذلك ، وهذا خلف ، ثم عند انضمام هذا القيد الزائد إن وجب الفعل لم يبق بينه وبين الضرورية فرق ، وإن لم يجب افتقر إلى قيد زائد ولزم التسلسل ، وهو محال فثبت أن الفرق الذي ذكروه بين الداعية الاختيارية وبين الداعية الضرورية وإن كان في الظاهر معتبراً ، إلا أنه عند التحقيق والبحث لا يبقى له محصول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 187 .

188 ﴾

*(42/256)*

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الحجة البالغة ﴾

يعني : الحجة الوثيقة وهو محمد عليه السلام والقرآن .

فبيّن لهم ما أحلّ لهم وما حرم عليهم ﴿ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ يعني : لو شاء لوفَّقكم لدينه ، وأكرمكم بالهدى لو كنتم أهلاً للإسلام ، ولكن لم يوفقهم لأنهم لم يجاهدوا في الله حق جهاده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

ثم أعقب تعالى أمره نبيه صلى الله عليه وسلم بتوقيف المشركين على موضع عجزهم بأمره إياه بأن يقول مبيناً مفصحاً ﴿ فلله الحجة البالغة ﴾ يريد البالغة غاية المقصد في الأمر الذي يحتج فيه ، ثم أعلم بأنه لو شاء لهدى العالم بأسره .

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : وهذه الآية ترد على المعتزلة في قولهم إن الهداية والإيمان إنما هي من العبد لا من الله ، فإن قالوا معنى ﴿ لهداكم ﴾ لاضطركم إلى الهدى فسد ذلك بمعتقدهم أن الإيمان الذي يريد الله من عباده ويثيب عليه ليس الذي يضطر إليه العبد ، وإنما هو عندهم الذي يقع من العبد وحده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قل فلله الحجة البالغة ﴾ قال الزجاج : حجَّته البالغة : تبيينه أنه الواحد ، وإرساله الأنبياء بالحجج المعجزة ، قال السدي : ﴿ فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ يوم أخذ الميثاق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الحجة البالغة ﴾

أي التي تقطع عذر المحجوج ؛ وتزيل الشك عمن نظر فيها .

فحجَّته البالغة على هذا تبيينه أنه الواحد ، وإرسالُه الرسل والأنبياء ؛ فبيّن التوحيد بالنظر في المخلوقات ، وأيد الرسل بالمعجزات ، ولزم أمره كلّ مكلَّف .

فأما علمه وإرادته وكلامه فغَيْب لا يطّلع عليه العبد ، إلا من ارتضى من رسول .

ويكفي في التكليف أن يكون العبد بحيث لو أراد أن يفعل ما أُمر به لأمكنه .

*(43/256)*

---

وقد لَبَّست المعتزلة بقوله : "لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا" فقالوا : قد ذم الله هؤلاء الذين جعلوا شركهم عن مشيئته .

وتعلّقهم بذلك باطل ؛ لأن الله تعالى إنما ذمّهم على ترك اجتهادهم في طلب الحق .

وإنما قالوا ذلك على جهة الهزء واللّعب .

نظيره ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ الرحمن مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾ [ الزخرف : 20 ] .

ولو قالوه على جهة التعظيم والإجلال والمعرفة به لما عابهم ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَلَوْ شَآءَ الله مَآ أَشْرَكُواْ ﴾ [ الأنعام : 107 ] .

و ﴿ مَّا كَانُواْ ليؤمنوا إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله ﴾ [ الأنعام : 111 ] .

﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ النحل : 9 ] .

ومثله كثير .

فالمؤمنون يقولونه لعلم منهم بالله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ قل فلله الحجة البالغة ﴾ يعني : قل يا محمد لهؤلاء المشركين حين عجزوا عن إظهار علم الله أو حجة لهم فللّه الحجة البالغة يعني التامة على خلقه بإنزال الكتاب وإرسال الرسل .

قال الربيع بن أنس : لا حجة لأحد عصى الله أو أشرك به على الله ولكن لله الحجة البالغة على عباده ﴿ فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ يعني فلو شاء الله لوفقكم أجمعين للهداية ولكنه لم يشأ ذلك وفيه دليل على أنه تعالى لم يشأ إيمان الكافر ولو شاء لهداه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قل فللّه الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾

بين ﴿ قل ﴾ والفاء محذوف قدره الزمخشري فإن كان الأمر كما زعمتم إن ما أنتم عليه بمشيئة الله فللّه الحجة البالغة عليكم وعلى ردّ مذهبكم ، ﴿ لو شاء لهداكم أجمعين ﴾ منكم ومن مخالفيكم فإن تعليقكم دينكم بمشيئة الله يقتضي أن تعلقوا دين من يخالفكم أيضاً بمشيئته فتوالوهم ولا تعادوهم وتوقروهم ولا تخالفوهم ، لأن المشيئة تجمع بين ما أنتم عليه وبين ما هم عليه ؛ انتهى .

*(44/256)*

---

وهذا تفسير للآية على ما تقرر قبل في الآيات السابقة من مذهب الاعتزال والذي قدّره الزمخشري من شرط محذوف و ﴿ فلله الحجة البالغة ﴾ في جوابه بعد والأولى تقديره أنتم لا حجة لكم أي على إشراككم ولا على تحريمكم من قبل أنفسكم غير مستندين إلى وحي ولا على افترائكم على الله إنه حرم ما حرمتم ، ﴿ فلله الحجة البالغة ﴾ في الاحتجاج الغالبة كل حجة حيث خلق عقولاً يفكر بها وأسماعاً يسمع بها وأبصاراً يبصر بها وكل هذه مدارك للتوحيد ولاتباع ما جاءت به الرسل عن الله .

قال أبو نصر القشيري : ﴿ الحجة البالغة ﴾ تبيين للتوحيد وإيداء الرسل بالمعجزات فألزم أمره كل مكلف ، فأما علمه وإرادته فغيب لا يطلع عليه العبد ويكفي في التكليف أن يكون العبد لو أراد أن يفعل ما أمر به مكنه ، وخلاف المعلوم مقدور فلا يلتحق بما يكون محالاً في نفسه ؛ انتهى ، وفي آخر كلامه نظر .

قال الكرماني : ﴿ فلو شاء لهداكم ﴾ هداية إلجاء واضطرار ؛ انتهى ، وهذه نزعة اعتزالية .

وقال أبو نصر بن القشيري : هذا تصريح بأن الكفر واقع بمشئة الله تعالى .

وقال البغوي : هذا يدل إنه لم يشأ إيمان الكافر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الحجة البالغة ﴾ الفاء جوابُ شرطٍ محذوفٍ أي وإذ قد ظهر أن لا حجةَ لكم فللَّه الحجةُ البالغة أي البينةُ الواضحة التي بلغت غايةَ المتانةِ والثباتِ أو بلغ بها صاحبُها صحةَ دعواه ، والمرادُ بها الكتابُ والرسولُ والبيانُ ، وهي من الحج بمعنى القصدَ كأنها تقصُد إثباتَ الحُكم وتطلُبه ﴿ فَلَوْ شَاء ﴾ هدايتَكم جميعاً ﴿ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ بالتوفيق لها والحملِ عليها ولكن لم يشأْ هدايةَ الكلِّ بل هدايةَ البعضِ الصارفين هِممَهم إلى

سلوك طريقِ الحقّ وضلال آخرين صرفوا اختيارَهم إلى خلاف ذلك من غير صارفٍ يَلْويهم ولا عاطفٍ يَثْنيهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

*(45/256)*

---

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ﴾ خاصة ﴿ الحجة البالغة ﴾ أي البينة الواضحة التي بلغت غاية المتانة والقوة على الإثبات أو بلغ بها صاحبها صحة دعواه ك ﴿ عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [ القارعة : 7 ] ، والمراد بها في المشهور الكتاب والرسول والبيان ، وقال شيخ مشايخنا الكوراني : ( الحجة البالغة ) إشارة إلى أن العلم تابع للمعلوم وأن إرادة الله تعالى متعلقة بإظهار ما اقتضاه استعداد المعلوم في نفسه مراعاة للحكمة جوداً ورحمة لا وجوباً .

وهي من الحج بمعنى القصد كأنها يقصد بها إثبات الحكم وتطلبه أو بمعنى الغلبة وهو المشهور ، والفاء جواب شرط محذوف أي إذ ظهر أن لا حجة لكم قل فللَّه الحجة .

﴿ فَلَوْ شَاء ﴾ هدايتكم جميعاً ﴿ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ بالتوفيق لها والحمل عليها ولكن شاء هداية البعض الصارفين اختيارهم إلى سلوك طريق الحق وضلال آخرين صرفوه إلى خلاف ذلك .

وقال الكوراني : المراد لكنه لم يشأ إذ لم يعلم أن لكم هداية يقتضيها استعدادكم بل المعلوم له عدم هدايتكم وهو مقتضى استعدادكم الأزلي الغير المجعول .

(46/256)

---

وهذا تحقيق للحق ولا ينافي ما في صدر الآية لما علمت من مرادهم به ، وفائدة إرسال الرسل على القول بالاستعداد تحريك الدواعي للفعل والترك باختيار المكلف الناشيء من ذلك الاستعداد وقطع اعتذار الظالمين ، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل فتذكر .

وذكر ابن المنير وجهاً آخر في توجيه ما في الآية وهو "أن الرد عليهم إنما كان لاعتقادهم أنهم مسلوبون اختيارهم وقدرتهم وأن إشراكهم إنما صدر منهم على وجه الإضطرار وزعموا أنهم يقيمون الحجة على الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام بذلك فرد الله تعالى قولهم ( وكذبهم ) في دعواهم عدم الإختيار لأنفسهم وشبههم بمن اغتر قبلهم بهذا الخيال فكذب الرسل وأشرك بالله عز وجل واعتمد على أنه إنما يفعل ذلك ( كله ) ( 2 ) بمشيئة الله تعالى ورام إفحام الرسل بهذه الشبهة ، ثم بين سبحانه أنهم لا حجة لهم في ذلك وأن الحجة البالغة له جل وعلا لا لهم ، ثم أوضح سبحانه أن كل واقع واقع بمشيئته وأنه لم يشأ منهم إلا ما صدر عنهم وأنه تعالى لو شاء منهم الهداية لاهتدوا أجمعون .

والمقصود من ذلك أن يتمحض وجه الرد عليهم ويتخلص عقيدة نفوذ المشيئة وعموم تعلقها بكل كائن عن الرد وينصرف الرد إلى دعواهم بسلب الاختيار لأنفسهم وإلى إقامتهم الحجة بذلك خاصة ، وإذا تدبرت الآية وجدت صدرها دافعاً بصدور الجبرية وعجزها معجزاً للمعتزلة إذ الأول : مثبت أن للعبد اختياراً وقدرة على وجه يقطع حجته وعذره في المخالفة والعصيان .

والثاني : مثبت نفوذ مشيئة الله تعالى في العبد وأن جميع أفعاله على وفق المشيئة الإلهية" ، وبذلك تقوم الحجة البالغة لأهل السنة على المعتزلة والحمد لله رب العالمين .

*(47/256)*

---

ووجه القطب الآية بأن مرادهم رد دعوة الأنبياء عليهم السلام على معنى أن الله تعالى شاء شركنا وأراده منا وأنتم تخالفون إرادته حيث تدعونا إلى الإيمان فوبخهم سبحانه بوجوه عد منها قوله سبحانه : ﴿ فَلِلَّهِ الحجة البالغة ﴾ فإنه بتقدير الشرط أي إذا كان الأمر كما زعمتم فللَّه الحجة .

وقوله سبحانه : ﴿ فَلَوْ شَاء ﴾ الخ بدل منه على سبيل البيان أي لو شاء لدل كلاً منكم ومن مخالفيكم على دينه فلو كان الأمر كما تزعمون لكان الإسلام أيضاً بالمشيئة فيجب أن

لا تمنعوا المسلمين من الإسلام كما وجب بزعمكم أن لا يمنعكم الأنبياء عن الشرك فيلزمكم أن لا يكون بينكم وبين المسلمين مخالفة ومعاداة بل موافقة وموالاة ، ثم قال : وربما يوجه هذا الاحتجاج بأن ما خالف مذهبكم من النحل يجب أن يكون عندكم حقاً لأنه بمشيئة الله تعالى فيلزم تصحيح الأديان المتناقضة ، وفيه منع لأن الصحة إنما تكون بالجريان على منهج الشرع ولا يلزم من تعليق مشيئته تعالى بشيء جريان ذلك عليه ، ولا يخفى أن التوجيه الأول كهذا التوجيه لا يخلو عن دغدغة فتدبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

جواب عن قولهم : ﴿ لو شاء الله ما أشركْنا ولا آباؤنا ﴾ [ الأنعام : 148 ] تكملة للجواب السّابق لأنَّه زيادة في إبطال قولهم ، وهو يشبه المعارضة في اصطلاح أهل الجدل . وأعيد فعل الأمر بالقول لاسترعاء الأسماع لما سيرد بعد فعل : ﴿ قل ﴾ وقد كرّر ثلاث مرات متعاقبة بدون عطف ، والنكتة ما تقدم من كون القول جارياً على طريقة المقاولة . والفاء فصيحة تؤذن بكلام مقدّر هو شرط ، والتّقدير : فإن كان قولكم لمجرّد اتّباع الظنّ والخرص وسوء التّأويل فللّه الحجّة البالغة .

وتقديم المجرور على المبتدأ لإفادة الاختصاص ، أي : لله لا لكم ، ففهم منه أنّ حجتّهم داحضة .

(48/256)

---

والحجّة : الأمر الذي يدلّ على صدق أحد في دعواه وعلى مصادفة المستدلّ وجه الحقّ ، وتقدّم القول فيها عند قوله تعالى : ﴿ لئلا يكون للنّاس عليكم حجّة ﴾ في سورة البقرة ( 150 ) .

والبالغة هي الواصلة : أي الواصلة إلى ما قُصدت لأجله ، وهو غَلَب الخصم ، وإبطالُ حجّته ، كقوله تعالى : ﴿ حِكْمة بالغة ﴾ [ القمر : 5 ] ، فالبلوغ استعارة مشهورة لحصول المقصود من الشّيء فلا حاجة إلى إجراء استعارة مكنيّة في الحجّة بأن تشبّه بسائر إلى غاية ، وقرينتها إثباتُ البلوغ ، ولا حاجة أيضاً إلى جعل إسناد البلوغ إلى الحجّة مجازاً عقلياً ، أي بالغاً صاحبُها قَصْدَه ، لأنَّه لا محيصّ من اعتبار الاستعارة في معنى البلوغ ، فالتّفسير به من أوّل وهلة أولى ، والمعنى : لله الحجّة الغالبة لكم ، أي وليس استدلالُكم بحجّة .

(49/256)

والفاء في قوله : ﴿ فلو شاء ﴾ فاء التّفريع على ظهور حجّة الله تعالى عليهم : تفرع على بطلان استدلالهم أنّ الله لو شاء لهداهم ، أي لو شاء هدايتهم بأكثر من إرسال الرّسول عليه الصّلاة والسّلام بأن يغيّر عقولهم فتأتيَ على خلاف ما هُيِّئَتْ له لَكَان قد فعل ذلك بوجه عناية خاصّة بهم أو خارق عادة لأجلهم ، إذ لا يعجزه شيء ، ولكن حكمته قضت أن لا يعمّم عنايته بل يختصّ بها بعض خاصّته ، وأن لا يعدل عن سنّته في الهداية بوضع العقول وتنبيهها إلى الحقّ بإرسال الرّسل ونصب الأدلّة والدّعاء إلى سبيله بالحكمة والموعظة ، فالمشيئة المقصودة في قوله : فلو شاء لهداكم غير المشيئة المقصودة فيما حكى الله عنهم من قولهم : ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ﴾ [ الأنعام : 148 ] وإلاّ لكان ما أُنكر عليهم قد أثبت نظيره عقب الإنكار فتتناقض المُحَاجَّة ، لأنّ الهداية تساوي عدم الإشراك وعدمَ التحريم ، فلا يصدُق جعل كليهما جواباً للَوْ الامتناعيّة ، فالمشيئة المقصودة في الردّ عليهم هي المشيئة الخفيّة المحجوبة ، وهي مشيئة التّكوين ، والمشيئة المنكرة عليهم هي ما أرادوه من الاستدلال بالواقع على الرّضى والمحبّة .

هذا وجه تفسير هذه الآية التي كلَّها من الإيجاز ما شتَّت أفهاماً كثيرة في وجه تفسيرها لا يَخفى بُعدها عن مُطالع التّفاسير والموازنةُ بينها وبين ما هنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

ومن فوائد القاسمى فى الآية

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾

البينة الواضحة التي بلغت غاية المتانة والقوة على الإثبات . ومنه : ( أيمان بالغة ) أي : مؤكدة . أو ( البالغة ) التي بلغ بها صاحبها صحة دعواه فهي ( كعيشة راضية ) ﴿ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي : ولكنه لم يشأ ذلك . بل شاء هداية بعضٍ صرفوا اختيارهم إلى سلوك طريق الحقّ . وضلال آخرين صرفوا كسبهم إلى خلاف ذلك , من غير صارفٍ يلويهم ولا عاطف يثنيهم , فوقع ذلك على الوجه الذي شاءه .

قال الإمام أبو منصور الماتريدي في " تأويلاته " : قيل : الآية في مشركي العرب . قالوا ذل حين لزمتهم المناقضة وانقطع حجاجهم في تحريم ما حرّموا من الأشياء . وأضافوا ذلك إلى الله , وهو صلة قوله : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ -إلى قوله- : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا ﴾ [ الأنعام : 143 - 144 ] . فلما لزمتهم المناقضة وانقطع حجاجهم فزعوا إلى هذا القول : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ﴾ [ الأنعام 148 ] . انتهى .

والقصد : الاعتذار عن كل ما يقدمون عليه من الإشراك وتحريم الحلال . أي : ولكنه لم يشأ الترك وشاء الفعل , ففعلنا طوع مشيئته , وهو لا يشاء إلا الحق , لأنه قادر . فلو لم يكن حقّاً يرضاه لمنعنا منه . وهو لم يمنعنا منه فهو حقّ . وفي حكاية هذه المناظرة والمجادلة بيانٌ لنوع من كفرهم شنيع جداً . . !

تنبيه :

هذه الآية تكرر نظيرها في التنزيل الكريم في عدة سور , وهي من الآيات الجديرة بالتدبر لتمحيص الحق في المراد منها .

*(51/256)*

---

فقد زعم المعتزلة أن فيها دلالة واضحة لمذهبهم من أن الله لا يشاء المعاصي والكفر , كما تبجّح بذلك منهم الطبرسي الشيعي في " تفسيره " وقال : إن فيها تكذيباً ظاهراً لمن أضاف مشيئة ذلك إلى الله سبحانه ؛ وكذا الزمخشري في " تفسيره " .

ومعلومٌ أنّ عقيدة الفرقة الناجية , الإيمانُ بأن : ما شاء الله كان , وما لم يشأ لم يكن , وأنه ما في السماوات والأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه , لا يكون في ملكه إلاّ ما يريد , وهو خالقٌ لأفعال العباد . !

وقد خالف في ذلك عامة القدرية – الذين سماهم النبي صلى الله عليه وسلم مجوس هذه الأمة – فقالوا : لا إرادة إلا بمعنى المشيئة , وهو لم يرد إلا ما أمر به , ولم يخلق شيئاً من أفعال العباد . فعندهم أكثر ما يقع من أفعال العباد على خلاف أرادته تعالى . ولما كان قولهم هذا في غاية الشناعة . تبرأ منهم الصحابة . وأصل بدعتهم – كما قال ابن تيمية – كانت من عجز عقولهم عن الإيمان بقدر الله والإيمان بأمره ونهيه . وسنبيّن تحقيق ذلك بعد أن نورد شبهتهم في هذه الآية وندمغها –بعونه تعالى –بعدة وجوه فنقول :

قالوا : إن الله تعالى حكى عن المشركين أنهم قالوا : أشركنا بإرادة الله تعالى . ولو أراد عدم إشراكنا لما أشركنا ، ولَمَا صدر عنا تحريم المحللات فقد أسندوا كفرهم وعصيانهم إلى إرادته تعالى كما تزعمون أنتم . ثم إنه تعالى ردّ عليهم مقالتهم وبيّن بطلانها وذمّهم عليها وأوعدهم عليها وعيداً شديداً . فلو كان يجوز إضافة المشيئة إلى الله تعالى في ذلك ، على ما تضيفون أنتم ، لم يكن يرد ذلك عليهم ويتوعّدهم ؟

قلنا : إن المشيئة في الآية تتخرّج على وجوه :

*(52/256)*

أحدهما : ما قال الحسن والأصمّ -إن المشيئة ههنا الرضا -فمرادهم : أنّ الله رضي بفعلنا وصنيعنا - حيث فعل آباؤنا ما فعلنا - فلم يَحُل الله بينهم وبين ذلك ، ولا أخذ على أيديهم ، ولا منعهم عن ذلك ؛ فلو لم يرض بذلك عنهم لكان يمنعهم عنه !

قال أبو منصور : وإنما استدلوا بالرضا من الله والإذن فيما كانوا فيه ، أنهم كانوا يخوفون بالهلاك والعذاب على صنيعهم ، ثم رأوا آباءهم ماتوا على ذلك ولم يأتهم العذاب ، فاستدلوا بتأخير نزول العذاب عليهم على أنّ الله رضي بذلك .

وبالجملة ، أرادوا بقولهم ذلك . أنهم على الحق المشروع المرضي عند الله . ولما كانت حجتهم داحضة باطلة -لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ودمّر عليهم وأدال عليهم رسله الكرام - قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ أي : بأن الله راض عليكم فيما أنتم فيه ! وهذا من التَهكّمِ والشهادة بأن مثل قولهم محال أن يكون له حجة .

وفي " الوجيز " : الحاصل أن المشركين اعتقدوا عدم التفرقة بين المأمور المرضيّ والمشيئة ، كما اعتقدت المعتزلة ، فاحتجوا على حقيّة الإشراك . وينادي على ذلك قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ﴾ فإنه لو كان المراد أنّ ذلك ليس بمشيئة الله تعالى لقال ( كَذَلِكَ كَذَبَ ) بالتخفيف لا التشديد . وهذه الآية - عند من له أذن واعية -تصيح على المعتزلة بالويل والثبور ، لكن في آذانهم وقر ، ومن لم يهده الله فلا هادي له . انتهى .

الوجه الثاني : إن المشيئة في الآية بمعنى الأمر والدعاء إلى ذلك . أي : يقولون : إن الله أمرهم بذلك ودعاهم إليه ، كما أخبر عنهم في سورة الأعراف بقوله : ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ فردّ تعالى عليهم بقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء ﴾ .

*(53/256)*

---

الوجه الثالث : إن قولهم ذلك كان على سبيل الاستهزاء والسخرية دافعاً لدعوته صلى الله عليه وسلم ، وتعللاً لعدم إجابته وانقياده ، لا تفويضاً للكائنات إلى مشيئة الله تعالى . فما صدر عنهم كلمةُ حقّ أريد بها باطل . ولذلك ذمَّهم الله بالتكذيب لأنهم قصدوا به تكذيب النبيّ صلى الله عليه وسلم في وجوب اتباعه والمتابعة ، فقال : ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ ﴾ بالتشديد ، ولم يذمهم بالكذب في قولهم ذلك ، وإلا لقال ( كَذَلِكَ كَذَبَ ) بالتخفيف ، إشارة إلى أن ذلك الكلام في نفسه حق وصدق .

وقال آخر : ﴿ قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فأشار إلى صدق مقالتهم وفساد غرضهم . فالعتاب الذي لحقهم والوعيد الذي أوعدهم ، إنما كان لاستهزائهم .

كما ذكر في قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً ﴾ [ مريم : 66 ] . وهي كلمة حقّ . لكن قالها استهزاء فلحقه الذم .

وهذا الوجه اقتصر عليه العضد في " المواقف " وقرره أيضاً أبو منصور في " تأويلاته " .

قال الحسن بن الفضيل : لو قالوا هذه المقالة تعظيماً لله وإجلالاً له ومعرفةً بحقه وبما يقولون ، لما عابهم بذلك . ولكنهم قالوا هذه المقالة تكذيباً وجَدَلاً . من غير معرفة بالله وبما يقولون .

الوجه الرابع : ما يستفاد من قول الإمام : إنّ في كلام المشركين مقدمتين :

إحداهما : أن الكفر بمشيئة الله تعالى .

والثانية : أنه يلزم منه اندفاع دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم . وما ورد من الذمّ والتوبيخ إنما هو على الثانية ، إذ الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، فله أن يشاء من الكافر الكفر ويأمره بالإيمان ويعذبه على خلافه ويبعث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دعاة إلى دار السلام ، وإن كان لا يهدي إلاَّ من يشاء .

الوجه الخامس : إن قولهم ذلك كان على سبيل العناد والعتوّ .

قال البقاعي في قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ : أي : بما أوقعوا من نحو هذه المجادلة في قولهم : إذا كان الكل بمشيئة الله كان التكليف عبثاً ، فكانت دعوى الأنبياء باطلة . وهذا القول من المشركين عناد بعد ثبوت الرسالات بالمعجزات وإخبار الرسل بأنه يشاء الشيء ويعاقب عليه لأن ملكه تامّ ، لا يسأل عما يفعل .

وقال الإمام القاشاني قدس الله سره ، في قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي : كذب المنكرون الرسل من قبلهم بتعليق كفرهم بمشيئة الله ، عناداً وعتوّاً ، فعذّبوا بكفرهم .

(55/256)

---

ثم قال في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ أي : إن كان لكم علمٌ بذلك وحجةّ ، فبيّنوا . وإنما قال ذلك ، إشارة إلى قولهم : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ﴾ لأنهم لو قالوا ذلك عن علمٍ ، لعلموا أن إيمان الموحدين وكل شيء ، لا يقع إلا بإرادة الله . فلم يعادوهم ولم ينكروهم بل والوْهم ، ولم يبق بينهم وبين المؤمنين خلاف . ولعمري إنهم لو قالوا ذلك عن علمٍ ، لما كانوا مشركين بل كانوا موحّدين ، ولكنهم اتبعوا الظن في ذلك ، وبنوا على التقدير والتخمين لغرض التكذيب والعناد ، وعلى ما سمعوا من الرسل إلزاماً لهم وإثباتاً

لعدم امتناعهم عن الرسل . لأنهم محجوبون في مقام النفس . وأَنَّى لهم اليقين ؟ ومن أين لهم الاطلاع على مشيئة الله ؟ وقوله تعالى : ﴿ قل فللَّه الحجة البالغة ﴾ أي : إن كان ظنكم صدقاً في تعليق شرككم بمشيئة الله ، فليس لكم حجة على المؤمنين وعلى غيركم من أهل دين ، لكون كل دين حينئذٍ بمشيئة الله ، فيجب أن توافقوهم وتصدقوهم ، بل لله الحجة عليكم في وجوب تصديقهم وإقراركم بأنكم أشركتم ، بمن لا يقع أمرٌ إلا بإرادته ، ما لا أثر لإرادته أصلاً . فأنتم أشقياء في الأزل مستحقّون للبعد والعقاب . وقوله تعالى : ﴿ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي : بلى ، صدقتم . ولكن كما شاء كفركم لو شاء لهداكم كلكم ، فبأي شيءٍ علمتم أنه لم يشأ هدايتكم حتى أصررتم ؟ وهذا تهييج لمن عسى أن يكون له استعداد منهم فيقمع ويهتدي فيرجع عن الشرك ويؤمن . انتهى .

*(56/256)*

---

الوجه السادس : ما في " لباب التأويل " من أنه قيل في معنى الآية : أنهم كانوا يقولون الحق بهذه الكلمة – وهو قولهم : ﴿ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا ﴾ –إلاّ أنهم كانوا يعدّونه عذراً لأنفسهم ، ويجعلونه حجّة لهم في ترك الإيمان ، والردّ عليهم في ذلك : أن أمر الله بمعزل عن مشيئته وإرادته ؛ فإن الله تعالى مريد لجميع الكائنات غير آمرٍ بجميع ما يريد ، فعلى العبد

أن يتبع أمره وليس له أن يتعلق بمشيئته ، فإن مشيئته لا تكون عذراً لأحد عليه في فعله ، فهو تعالى يشاء الكفر من الكافر ولا يرضى به ولا يأمر به ، ومع هذا فيبعث الرسل إلى العبد ويأمره بالإيمان . وورود الأمر على خلاف الإرادة غير ممتنع . فالحاصل : أنه تعالى حكى عن الكفار أنهم يتمسكون بمشيئة الله تعالى في شركهم وكفرهم ، فأخبر الله تعالى أن هذا التمسك فاسدٌ باطل ، فإنه لا يلزم من ثبوت المشيئة لله تعالى في كلّ الأمور دفع دعوة الأنبياء عليهم السلام . انتهى .

*(57/256)*

---

الوجه السابع : ما قرره الناصر في " الانتصاف " : إنّ الرد عليهم إنَّما كان لاعتقادهم أنهم مسلوبون اختيارهم وقدرتهم ، وإن إشراكهم إنما صدر منهم على وجه الاضطرار ، وزعموا أنهم يقيمون الحجَّة على الله ورسله بذلك . فرد الله قولهم وكذبهم في دعواهم – عدم الاختيار لأنفسهم –وشبَّهَهُمْ بمن اغترّ قبلهم بهذا الخيال فكذب الرسل . وأشرك بالله ، واعتمد على أنه إنما يفعل ذلك كلّه بمشيئة الله ، ورامّ إفحامّ الرسل بهذه الشبهة . ثم بيَّن الله تعالى أنهم لا حجّة لهم في ذلك وأن الحجة البالغة له لا لهم ، بقوله : ﴿ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ . ثم أوضح تعالى أنّ كل واقع بمشيئته ، وإنه لم يشأ منهم إلا ما صدر عنهم . وأنه

لو شاء منهم الهداية لاهتدوا أجمعون بقوله : ﴿ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ : والمقصود من ذلك : أن يتمحّض وجه الردّ عليهم ، ويتخلص عقيدة نفوذ المشيئة ، وعموم تعلقها بكل كائن عن الرّد ؛ وينصرف الرّد إلى دعواهم بسلب الاختيار لأنفسهم ، وإلى إقامتهم الحجة بذلك خاصة . وإذا تدبّرت هذه وجدتها كافية في الرد على من زعم من أهل القبلة أن العبد لا اختيار له ولا قدرة البتة . بل هو مجبور على أفعاله مقهورٌ عليها . وهم الفرقة المعروفون بـ ( المجبرة ) . والزمخشري يغالط في الحقائق فيسمي أهل السنة مجبرة وإن أثبتوا للعبد اختياراً وقدرةً ، لأنهم يسلبون تأثير قدرة العبد ويجعلونها مقارنة لأفعاله الاختيارية مميزة بينها وبين أفعاله القسرية . فمن هذه الجهة سوّى بينهم وبين المجبرة ، ويجعله لقباً عاماً لأهل السنة . وبإجماع الرد على المجبرة – الذين ميزناهم عن أهل السنة – في قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ – إلى قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ . وتتمة الآية ردٌّ صراح على ( طائفة الاعتزال ) القائلين بأنّ الله تعالى شاء الهداية منهم أجمعين . فلم تقع من أكثرهم !

*(58/256)*

ووجه الردّ : أن ( لو ) إذا دخلت على فعل مثبت نفته ؛ فيقتضي ذلك أن الله تعالى لما قال : ﴿ فَلَوْ شَاءَ ﴾ لم يكن الواقع أنه شاء هدايتهم . ولو شاءها لوقعت . فهذا تصريح ببطلان زعمهم ومحلّ عقدهم . فإذا ثبت اشتمال الآية على ردّ عقيدة الطائفتين المذكورتين – المجبرة في أوّلها والمعتزلة في آخرها – فاعلم أنها جامعة لعقيدة السنة منطبقة عليها . فإن أوّلها – كما بيّنا – يثبت للعبد اختياراً وقدرةً على وجه يقطع حجته وعذره في المخالفة والعصيان ، وآخرها يثبت نفوذ الله في العبد ، وأنّ جميع أفعاله على وفق المشيئة الإلهية ، خيراً أو غيره . وذلك عين عقيدتهم . فإنهم –كما يثبتون للعبد مشيئةً وقدرة –يسلبون تأثيرها ، ويعتقدون أن ثبوتهما قاطع لحجّته ، ملزم له بالطاعة على وفق اختياره . ويثبتون نفوذ مشيئة الله أيضاً وقدرته في أفعال عباده فهم –كما رأيت –تبعٌ للكتاب العزيز : يثبتون ما أثبت ، وينفون ما نفى ، مؤيدون بالعقل والنقل . والله الموفق . انتهى .

وقد أخرج الحاكم عن ابن عباس أنه قيل له : إن ناساً يقولون : ليس الشرّ بقَدَرَ . فقال ابن عباس : بيننا وبين أهل القدر هذه الآية : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ [ الأنعام 148 ] – إلى قوله : ﴿ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

وبتحقيق هذه الوجوه يسقط قول الطبرسي المعتزلي : لو كان الأمر على ما قاله أهل الجبر – من أن الله تعالى شاء منهم الكفر – لكانت الحجة للكفّار على الله ، من حيث فعلوا ما شاء الله ، ولكانوا بذلك مطيعين له . لأن الطاعة هي امتثال الأمر المراد ، ولا تكون الحجة

لله عليهم على قولهم ، من حيث إنه خلق فيهم الكفر وأراد منهم الكفر . فأيّ حجّة له عليهم مع ذلك ؟ انتهى .

(59/256)

---

وكذا قول الزمخشري : ما حكي عن المشركين كمذهب المجبرة بعينه . ولذا قال النحرير : نعم ! هو كمذهبهم في كون كل كائن بمشيئة الله . لكن الكفرة يحتجّون بذلك على حقية الإشراك وتحريم الحلال وسائر ما يرتكبون من القبائح . وكونها ليست بمعصية لكونها موافقة للمشيئة التي تساوي معنى الأمر ، على ما هو مذهب القدرية : من عدم التفرقة بين المأمور والمراد ، وأنّ كلّ ما هو مرادٌ لله فهو ليس بمعصية منهي عنها . والمجبرة – اعتقدوا أن الكلّ بمشيئة الله – لكنهم يعتقدون أن الشرك وجميع القبائح معصية ومخالفة للأمر يلحقها العذاب بحكم الوعيد ، ويعفو عن بعضها بحكم الوعد . فهم – في ذلك – يصدّقون الله فيما دلّ عليها العقل والشرع من امتناع أن يكون أكثر ما يجري في ملكه على خلاف ما يشاء . والكفرة يكذّبونه في لحوق الوعيد على ما هو بمشيئته تعالى . انتهى .

فصل

قال الإمام شمس الدين ابن القيّم الدمشقي رحمه الله في كتابه " طريق الهجرتين " بعد أن

أطال في سرد أحاديث القدرة وآثاره ، ما نصّه :

فالجواب أنّ ههنا مقامين : مقام إيمانٍ وهدىً ونجاة ، ومقام ضلالٍ وردى وهلاك ، زلت فيه أقدام فهوت بأصحابها إلى دار الشقاء .

فأما مقام الإيمان والهدى والنجاة ، فمقام إثبات القدر والإيمان به ، وإسناد جميع الكائنات إلى مشيئة ربها وبارئها وفاطرها ، وأن ما شاء كان وإنْ لم يشأ الناس . وما لم يشأ لم يكن ، وإن شاء الناس . وهذه الآثار – التي كلها تحقق هذا المقام – تبيّن أن من لم يؤمن بالقدر فقد انسلخ من التوحيد ، ولبس جلباب الشرك ، بل لم يؤمن بالله ولم يعرفه . وهذا في كل كتاب أنزله الله على رسله .

وأما المقام الثاني وهو مقام الضلال والردى والهلاك فهو الاحتجاج به على الله ، وحمل العبد ذنبه على ربّه ، وتنزيه نفسه الجاهلة الظالمة الأمّارة بالسوء ، حتى يقول قائل هؤلاء :

~ألقاه في اليمّ مكتوفاً وقال له : إيّاك ! إيّاك ! أن تبتلّ بالماء

ويقول قائلهم :

(60/256)

~دعاني وسدَّ الباب دوني . فهل إلى دخولي سبيلٌ ؟ بيّنوا لي قصّتي

ثم ساق –رحمه الله –قصصاً غريبة في ذلك ، ثم قال :

وسمعته –يعني شيخ الإسلام ابن تيميّة –يقول :

القدرية المذمومون في السنة وعلى لسان السلف هم هؤلاء الفرق الثلاثة : نفاة القدر وهم ( القدرية المجوسيّة ) . والمعارضون به للشريعة الذين قالوا : ﴿ لَوْ شَاءَ اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا ﴾ وهم ( القدرية المشركية ) . والمخاصمون به للربّ سبحانه وتعالى وهم أعداء الله وخصومه وهم ( القدرية الإبليسية ) وشيخهم إبليس . وهو أول من احتج على الله بالقدر فقال : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ [ الأعراف 16 ] . ولم يعترف بالذنب ويُبوْء به كما اعترف به آدم . فمن أقرّ بالذنب وباء به ونزّه ربَّه فقد أشبه أباه آدم ، ومن أشبه أباه فما ظلم . ومن برّأ نفسه واحتجّ على ربّه بالقدر فقد أشبه إبليس . ولا ريب أن هؤلاء القدرية الإبليسية والمشركية شر من القدرية النفاة . لأن النفاة إنما نفوه تنزيهاً للرب وتعظيماً له أن يقدّر الذنب ثم يلوم عليه ويعاقب . ونزهوه أن يعاقب العبد على ما لا صنع للعبد فيه البتة . بل هو بمنزلة طوله وقصره وسواده وبياضه . . ونحو ذلك . كما يحكى عن بعض الجبرية إنه حضر مجلس بعض الولاة . فأتى بطرّار ( وهو الذي يقطع الهمايين أو الأكمام ويستلّ ما فيها ) . أحولَ . فقال له الوالي : ما ترى فيه ؟ فقال : اضربه خمسة عشر – يعني سوطاً –فقال له بعض الحاضرين –ممن ينفي الجبر– بل ينبغي أن يضرب ثلاثين سوطاً :

خمسة عشر لطرّه ومثلها لحَولِه . فقال الجبريّ : كيف يضرب على الحَولَ ولا صنع له فيه ؟ فقال كما يضرب على الطرّ ولا صنع له ليه ، عندك . . فبُهتَ الجبري .

*(61/256)*

---

وأما ( القدرية الإبليسية والمشركية ) فكثير منهم منسلخ عن الشرع ، عدوّ لله ورسوله ، لا يقرّ بأمر ولا نهي ، وتلك وراثة عن شيوخه الذي قال الله فيهم : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴾ [ الأنعام 148 ] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [ النحل : 35 ] . وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [ الزخرف : 20 ] . وقال : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [ يس : 47 ] ، فهذه أربعة مواضع في القرآن بَيَّنَ سبحانه فيها أن الاحتجاج بالقدر من فعل المشركين للرسل .

وقد افترق الناس في الكلام على هذه الآيات أربع فرق :

الفرقة الأولى : جعلت هذه الحجة حجة صحيحة ، وأنّ للمحتج بها الحجة على الله . ثم افترق هؤلاء فرقتين : ( فرقة ) كذبت بالأمر والوعد والوعيد ، وزعمت أن الأمر والنهي والوعد والوعيد ، بعد هذا ، يكون ظلماً ، والله لا يظلم من خلقه أحداً ! و ( فرقة ) صدقت بالأمر والنهي والوعد والوعيد وقالت : ليس ذلك بظلم . والله يتصرف في ملكه كيف يشاء ويعذب العبد على ما لا صنع له فيه ، بل يعذبه على فعله هو سبحانه لا على فعل عبده . إذ العبد فعل له ، والملك ملكه ولا يسأل عما يفعل وهم يُسأَلُونَ . فإنَّ هؤلاء الكفار إنما قالوا هذه المقالة – التي حكاها الله عنهم – استهزاء منهم ، ولو قالوا – اعتقاداً للقضاء والقدر ، وإسناداً لجميع الكائنات إلى مشيئته وقدرته – لم ينكر عليهم . ومضمون قول هذه الفرقة إنّ هذه حجة صحيحة إذا قالوها على وجه الاعتقاد – لا على جهة الاستهزاء – فيكون للمشركين على الله الحجّة ، وكفى بهذا القول فساداً وبطلاناً .

الفرقة الثانية : جعلت هذه الآيات حجة لها في إبطال القضاء والقدر والمشيئة العامة إذْ لو صحت المشيئة العامة – وكان الله قد شاء منهم الشرك والكفر وعبادة الأوثان – لكانوا قد قالوا الحق ، وكان الله يصدقهم عليه ولم ينكر عليهم . فحيث وصفه بالخرص – الذي

هو الكذب- ونفى عنهم العلم , دلّ على أن هذا الذي قالوه ليس بصحيح , وأنهم كاذبون فيه ؛ إذْ لو كان علماً لكانوا صادقين في الإخبار به , ولم يقل لهم : هل عندكم من علم .

(63/256)

---

وجعلت هذه الفرقة هذه الآيات حجة لها على التكذيب بالقضاء والقدر , وزعمت بها أن يكون في ملكه ما لا يشاء , ويشاء ما لا يكون , وإنه لا قدرة له على أفعال عبادة من الإنس والجن والملائكة , ولا على أفعال الحيوانات . وإنه لا يقدر أن يضل أحداً , ولا يهديه , ولا يوافقه أكثر مما فعل به , ولا يعصمه من الذنوب والكفر , ولا يلهمه رشدَه , ولا يجعل في قلبه الإيمان , ولا هو الذي جعل المصلي مصلياً والبرَّ برّاً والفاجر فاجراً والمؤمن مؤمناً والكافر كافراً . بل هم جعلوا أنفسهم كذلك .

فهذه الفرقة شاركت الفرقة التي قبلها في إلقاء الحرب والعداوة بين الشرع والقدر . فالأولى تحيزت إلى القدر وحاربت الشرع . والثانية تحيزت إلى الشرع, وكذبت القدر .

والطائفتان ضالتان , وإحداهما أَضلّ من الأخرى .

والفرقة الثالثة : آمنت بالقضاء والقدر وأقرت بالأمر والنهي . ونزّلوا كلّ واحدٍ منزله : فالقضاء والقدر يُؤمن به ولا يُحتجّ به , والأمر والنهي يمتثل ويطاع . فالإيمان بالقضاء

والقدر –عندهم –من تمام التوحيد وشهادة أن لا إله إلاَّ الله . والقيام بالأمر . والنهي موجب شهادة أن محمداً رسول الله . وقالوا : من لم يقرّ بالقضاء والقدر , ويقم بالأمر والنهي فقد كذَّب بالشهادتين وإنْ نطق بهما بلسانه . ثمّ افترقوا في وجه هذه الآيات فرقتين : ( فرقة ) قالت : إنما أنكر عليهم استدلالهم بالمشيئة العامة والقضاء والقدر على رضاه ومحبته لذلك . فجعلوا مشيئته له وتقديره له , دليلاً على رضاه به ومحبته له . إذ لو كرهه وأبغضه لحال بينه وبينهم . فإنّ الحكيم إذا كان قادراً على دفع ما يكرهه ويبغضه . دفعه ومنع من وقوعه . وإذا لم يمنع من وقوعه , لزم إما عدم قدرته وإما عدم حكمته . وكلاهما ممتنع في حق الله . فعلم محبته لما نحن عليه من عبادة غيره ومن الشرك به .

(64/256)

---

وقد وافق هؤلاء من قال : إن الله يحب الكفر والفسوق والعصيان ويرضى بها . ولكن خالفهم في أنه نهى عنها وأمر بأضدادها ويعاقب عليها , فوافقهم في نصف قولهم وخالفهم في الشطر الآخر .

وهذه الآيات من أكبر الحجج على بطلان قول الطائفتين , وإن مشيئة الله تعالى وقضاءه وقدره لا تستلزم محبته ورضاه لكل ما شاءه وقدّره .

وهؤلاء المشركون – لمّا استدلوا بمشيئته على محبته ورضاه – كذبهم وأنكرَ عليهم , وأخبر أنه لا علم لهم بذلك , وأنهم خارصون مفترون . فإن محبة الله للشيء ورضاه به , إنما يعلم بأمره به على لسان رسوله , لا بمجرد خلقه . فإنه خلق إبليس وجنوده –وهم أعداؤه– وهو سبحانه يبغضهم ويلعنهم وهم خلقه . . فهكذا في الأفعال . خلق خيرها وشرها وهو يحبّ خيرها ويأمر به ويثيب عليه . ويبغض شرها وينهى عنه ويعاقب عليه . وكلاهما خلقه . ولله الحكمة البالغة التامة في خلقه ما يبغضه ويكرهه , من الذوات والصفات والأفعال , كلٌّ صادر عن حكمته وعلمه , كما هو صادر عن قدرته ومشيئته .

.

وقالت الفرقة الثانية : إنما أنكر عليهم معارضة الشرع بالقدر , ودفع الأمر بالمشيئة . فلما قامت عليهم حجة الله ولزمهم أمره ونهيه دفعوه بقضائه وقدره . فجعلوا القضاء والقدر إبطالاً لدعوة الرسل , ودفعاً لما جاءوا به . وشاركهم في ذلك إخوانهم وذريتهم الذين يحتجون بالقضاء والقدر على المعاصي والذنوب في نصف أقوالهم , وخالفوهم في النصف الآخر وهو إقرارهم بالأمر والنهي .

*(65/256)*

فانظر كيف انقسمت هذه المواريث على هذه السهام , وورث كلّ قوم أئمتهم وأسلافهم , إما في جميع تركتهم , وإما في كثير منها , وإما في جزء منها . وهدى الله بفضله ورثة أنبيائه ورسله لميراث بينهم وأصحابه , فلم يؤمنوا ببعض الكتاب ويكفروا ببعض, بل آمنوا بقضاء الله وقدره ومشيئته العامة النافذة , وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن , وأنه مقلب القلوب ومصرفها كيف أراد , وأنه هو الذي جعل المؤمن مؤمناً والمصلي مصلياً والمتقي متقياً , وجعل أئمة الهدى يهدون بأمره , وأئمة الضلالة يدعون إلى النار ، وأنه ألهم كلّ نفس فجورها وتقواها ، وأنه يهدي من يشاء بعدله وحكمته ، وأنه هو الذي وفق أهل الطاعة لطاعته فأطاعوه ولو شاء لخذلهم فقصوه ، وأنه حال بين الكفار وقلوبهم – فإنه يحول بين المرء وقلبه– فكفروا به . ولو شاء لوفقهم فآمنوا به وأطاعوه ، وأنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأنه لو شاء ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ .

و( القضاء والقدر ) عندهم أربع مراتب جاء بها نبيهم وأخبر بها عن ربه تعالى :

الأولى – علمه السابق بما هم عاملوه قبل إيجادهم .

الثانية – كتابة ذلك في الذكر عنده قبل خلق السماوات والأرض .

الثالثة – مشيئته المتناولة لكل موجود ، فلا خروج لكائن عن مشيئته ، كما لا خروج له عن علمه .

الرابعة – خلقه له وإيجاده وتكوينه ، فإنه لا خالق إلا الله ، والله خالق كل شيء . فالخالق –عندهم– واحد وما سواه فمخلوق . ولا واسطة – عندهم– بين الخالق والمخلوق . ويؤمنون – مع ذلك – بحكمته ، وأنه حكيم في كل ما فعله وخلقه . وأن مصدر ذلك جميعه عن حكمة تامة هي التي اقتضت صدور ذلك وخلقه . وأن حكمته حكمة حق عائدة إليه قائمة به كسائر صفاته ، وليست عبارة عن مطابقة علمه لمعلومه وقدرته لمقدوره – كما تقوله نفاة الحكمة الذين يقرّون بلفظها دون حقيقتها – بل هي أمر وراء ذلك ، هي الغاية المحبوبة له المطلوبة التي هي متعلق محبته وحمده ولأجلها خلق فسوى وقدّر فهدى ، وأمات وأحيى ، وأشقى وأضلّ وهدى ، ومنع وأعطى . وهذه الحكمة هي الغاية والفعل وسيلة إليها ، فإثبات الفعل مع نفيها إثبات للوسائل ونفي للغايات ، وهو محال ، إذ نفي الغاية مستلزم لنفي الوسيلة . فنفي الوسيلة –وهي الفعل– لازم لنفي الغاية وهي الحكمة . ونفي قيام الفعل والحكمة به نفي لهما في الحقيقة ؛ إذ فعلٌ لا يقوم بفاعله ، وحكمةٌ لا تقوم بالحكيم– شيء لا يعقل . وذلك يستلزم إنكار ربوبيته وإلهيته . وهذا لازم لمن نفى ذلك ولا محيد له عنه ، وإن أبى التزامه . وأما من أثبت حكمته وأفعاله على الوجه المطابق

للعقل والفطرة وما جاءت به الرسل ، لم يلزم من قوله محذور البتة ، بل قوله حق ، ولازم الحق حق ، كائناً ما كان . والمقصود : أن ورثة الرسل وخلفاءهم -لكمال ميراثهم لنبيهم- آمنوا بالقضاء والقدر والحِكَم والغايات المحدودة في أفعال الرب وأوامره ، وقاموا - مع ذلك بالأمر والنهي ، وصدّقوا بالوعد : فآمنوا بالخلق الذي من تمام الإيمان به إثبات القدر والحكمة . وبالأمر الذي من تمام الإيمان به الإيمان بالوعد والوعيد وحشر الأجساد والثواب والعقاب ؛ فصدّقوا بالخلق والأمر ولم ينفوهما بنفي لوازمهما -كما فعلت القدرية المجوسية والقدرية المعارضة للأمر بالقدر- وكانوا أسعد الناس

(67/256)

---

بالخلق وأقربهم عصبة في هذا الميراث النبويّ ، و : ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

واعلم أن الإيمان بحقيقة القدر والشرع والحكمة ، لا يجتمع إلا في قلوب خواص الخلق ولبّ العالم ، وليس الشأن في الإيمان بألفاظ هذه المسميات وجحد حقائقها كما يفعل كثير من طوائف الضلالاّ . فإن القدرية تؤمن بلفظ ( القدر ) ، ومنهم من يرده إلى العلم ، ومنهم من يرده إلى الأمر الدينيّ ويجعل قضاءه وقدره هو نفس أمره ونهيه ونفس مشيئة الله لأفعال

عباده بأمره لهم بها ، وهذا حقيقة إنكار القضاء والقدر . وكذلك ( الحكمة ) فإن الجبرية تؤمن بلفظها ويجحدون حقيقتها ، فإنهم يجعلونها مطابقة علمه تعالى لمعلومه تعالى وإرادته لمراده تعالى ، فهي –عندهم– وقوع الكائنات على وفق علمه وإرادته . . والقدرية النفاة لا يرضون بهذا ، بل يرتفعون عنه طبقة ، ويثبتون حكمة زائدة على ذلك ، لكنهم ينفون قيامها بالفاعل الحكيم ، ويجعلونها مخلوقاً من مخلوقاته ، كما قالوا في كلامه وإرادته .

فهؤلاء كلهم أقروا بلفظ ( الحكمة ) وجحدوا معناها وحقيقتها . وكذلك ( الأمر ) و ( الشرع ) فإن من أنكر كلام الله وقال : إن الله لم يتكلم ولا يتكلم ، ولا قال ولا يقول ، ولا يحب شيئاً ولا يبغض شيئاً ، وجميع الكائنات محبوبة له ، وما لم يكن فهو مكروه له ، ولا يحب ولا يرضى ولا يغضب ولا فرق في نفس الأمر بين الصدق والكذب والفجور والسجود للأصنام والشمس والقمر . ولا ريب أن هذا يرفع الشرائع والأمر والنهي بالكلية . ولولا تناقض القائلين به لكانوا منسلخين من دين الرسل ، ولكن مشى الحال بعض الشيء بتناقضهم ، وهو خير لهم من طرد أصولهم والقول بموجبها .

والمقصود : أنه لم يؤمن بالقضاء والقدر والحكمة والأمر والنهي والوعد والوعيد ، حقيقة الإيمان ، إلا أتباع الرسل وورثتهم .

والقضاء والقدر منشؤه عن علم الرب وقدرته . ولهذا قال الإمام أحمد : القدر قدرة الله . واستحسن ابن عقيل هذا الكلام من أحمد غاية الاستحسان وقال : إنه شفى بهذه الكلمة وأفصح بها عن حقيقة القدر .

ولهذا ، كان المنكرون للقدر فرقتين : فرقة كذبت بالعلم السابق ونَفَتْهُ ، وهم غلاتهم الذين كفّرهم السلف والأئمة وتبرّأ منهم الصحابة . وفرقة جحدت كمال القدرة ، وأنكرت أن تكون أفعال العباد مقدورة لله تعالى ، وصرّحت بأنّ الله لا يقدر عليها . فأنكر هؤلاء قدرة الرب ، وأنكرت الأخرى كمال علمه . وقابلهم الجبرية : فجاءت على إثبات القدرة والعلم ، وأنكرت الحكمة والرحمة .

*(69/256)*

---

ولهذا ، كان مصدر الخلق والأمر والقضاء والشرع عن علم الربّ وعزته وحكمته . ولهذا يقرن تعالى بين الاسمين والصفتين من هذه الثلاثة كثيراً كقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [ النمل : 6 ] ، وقال : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [ غافر : 2 ] ، وقال : ﴿ حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [ الجاثية : 2 ] ، وقال في (

حم فصّلت ، بعد ذكر تخليق العالم ) : ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [ فصلت 12 ] ، وذكر نظير هذا في ( الأنعام ) فقال : ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [ الأنعام : 96 ] . فارتباط الخلق بقدرته التامة يقتضي أن لا يخرج موجود عن قدرته . وارتباطه بعلمه التام يقتضي إحاطته به وتقدّمه عليه . وارتباطه بحكمته يقتضي وقوعه على أكمل الوجوه وأحسنها ، واشتماله على الغاية المحمودة المطلوبة للربّ سبحانه . وكذلك أمره بعلمه وحكمته وعزته ، فهو عليم بخلقه وأمره ، حكيم في خلقه وأمره . ولهذا كان ( الحكيم ) من أسمائه الحسنى .

فالحكمة من صفاته العُلَى ، والشريعة الصادرة عن أمره مبناها على الحكمة ، والرسول المبعوث بها مبعوث بالكتاب والحكمة . والحكمة هي سنة الرسول ، وهي تتضمّن العلم بالحق والعمل به والخبر عنه والأمر به . فكلّ هذا يسمّى حكمة . وفي الأثر : الحكمة ضالّة المؤمن . وفي الحديث : < إنّ من الشعر الحكمة > . فكما لا يخرج مقدور عن علمه وقدرته ومشيئته ، فهكذا لا يخرج عن حكمته وحمده . وهو محمود على جميع ما في الكون من خير وشرٍّ حمداً استحقه لذاته ، وصدر عنه خلقُه وأمرُه . فمصدر ذلك كله عن الحكمة فإنكار الحكمة إنكار لحمده في الحقيقة ، والله أعلم . انتهى .

(70/256)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، في خلال بعض فتاويه ، في حقيقة الاحتجاج بالقضاء والقدر ، ما نصّه :

وإن هؤلاء القدرية الجبرية الجهمية أهل الفناء في توحيد الربوبية . حقيقة قولهم من جنس قول المشركين الذين قالوا : ﴿ لَوْ شَاءَ اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا ﴾ الآية ؛ فإن هؤلاء المشركين لما أنكروا ما بعثت به الرسل من الأمر والنهي ، وأنكروا التوحيد –الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له– وهم يقرّون بتوحيد الربوبية وأن الله خالق كل شيء ، ما بقي عندهم من فرق ، من جهة الله تعالى ، بين مأمور ومحظور فقالوا : ﴿ لَوْ شَاءَ اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ ، وهذا حق فإن الله لو شاء أن لا يكون هذا لم يكن . ولكن أي : فائدة لهم في هذا ؟ غايته أن هذا الشرك والتحريم بقدر ، ولا يلزم إذا كان مقدراً أن يكون محبوباً مرضيّاً لله . ولا علم عندهم بأن الله أمر به ولا أحبه ولا رضيه ، بل ليسوا في ذلك إلاّ على ظنّ وخَرْص . انتهى .

وقال بعض المحققين في حقيقة العقيدة :

(71/256)

ثبت بالبرهان أنّ قدرة الله تعالى متصرفة في الممكنات عن إرادة واختيار . وأن الإرادة لا تخرج عما ينكشف بالعلم من مواقع الحكمة ، ووجوه النظام . وأنه خالق كلّ شيء وإليه يرجع الأمر كله . ومن الممكنات التي اقتضاها الحكمة والنظام وجودُ مخلوقٍ ذي قدرةٍ وإرادةٍ وعلمٍ ، يعمل بقدرته ما تنبعث إليه إرادته بمقتضى علمه بوجوه المصلحة والمنفعة لنفسه ، وهو الإنسان . وهذا – عند البعض – هو معنى كونه خليفة الله في الأرض يعمرها ويظهر حكمة الله وبدائع أسراره فيها ، ويقيم سننه الحكيمة حتى يعرف كماله بمعرفة كمال صنعه . ولا يزال الإنسان يظهر الآيات من هذه المكونات آناً بعد آن ، ولا يعلم مبلغه من ذلك إلاّ الله تعالى . والمشهور أن الخلافة خاصة بأفراد من الإنسان وهم الأنبياء عليهم السلام . ولا يستلزم واحد من القولين أن الله تعالى استخلفهم لحاجة به إلى ذلك . حاشاه .

قال البيضاوي في " بيان أن كلّ نبيٍّ خليفة " : استخلفهم في عُمارة الأرض ، وسياسة الناس ، وتكميل نفوسهم ، وتنفيذ أمره فيهم –لا لحاجة به تعالى إلى من ينوبه –بل لقصور المستخلف عليه من قبول فيضه وتلقي أمره بغير وسط . ولذلك لم يستنبئ مَلَكاً كما قال : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً ﴾ [ الأنعام 9 ] . انتهى . وكذلك إذا قلنا : إن كل النوع خليفة في العوالم الأرضية .

فعلم من كلٍّ من القولين ؛ أن في الإنسان معنى ليس في غيره . فإذا كانت خلقة المَلَك لا

تساعد على إرشاد الناس ، لأنه ليس من جنسهم ولا يمكن لكلّ واحد التلقّي منه ، فكذلك لا تساعد خلقته . وليس من وظيفتها ، إظهار خواص الأجسام وقواها ووجوه الانتفاع بها . ولو كان إيجاد مخلوقٍ – على ما ذكرنا في خلق الإنسان – غير ممكن لما وجد . ولا ينكر كونه على ما ذكرنا إلاّ من ينكر الحسّ والوجدان ، وهما أصل كلّ برهان . ومثل هذا لا يخاطب ولا يطلب منه التصديق بشيءٍ ما .

*(72/256)*

---

إذن ، معنا قضيّتان قطعيّتا الثبوت :

إحداهما : كون الْإِنْسَانْ يعمل بقدرة وإرادة يبعثها علمه على الفعل أو الترك والكف ، وهي بديهية .

والثانية : هي أن الله هو الخالق الذي بيده ملكوت كلّ شيءٍ ، وهي نظرية ويتولّد من هاتين القضيتين القطعيّتين مسألتان نظريتان :

الأولى : ما الفرق بين علم الله تعالى وإرادته وقدرته ، وبين علم الإنسان وإرادته وقدرته ؟

والجواب من وجوه :

إحداها : أن صفات الله قديمة بقدمه فهي ثابتة له لذاته . وصفات الإنسان حادثة

بحدوثه وهي موهوبة له من الله تعالى كذاته .

ثانيها : أن علم الله محيط بكلّ شيءٍ : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ [ البقرة 255 ] . وأما الإنسان فما أوتي : ﴿ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [ الإسراء 85 ] ! وإرادة الله تعالى لا تتغيّر ولا تقبل الفسخ لأنها عن علمٍ تامٍّ .

بخلاف إرادة الإنسان فإنها تتردد لتردّده في العلم بالشيء . وتفسخ لظهور الخطأ في العلم الذي بنيت عليه . وتتجدّد لتجدد علمٍ لمن لم يكن له من قبل . وقدرةُ الله تعالى متصرّفة في كلّ ممكن . فيفعل كلّ ما يعلم أنّ فيه الحكمة . وقدرة الإنسان لا تصرّف لها ولا كسب إلاّ في أقلّ القليل من الممكنات . فكم من أمرٍ يعلم أن فيه مصلحته ومنفعةً له وهو لا يقدر على القيام به .

ثالثها : أن صفات الإنسان عرضة للضعف والزوال ، وصفات الله تعالى أبدية كما أنّها أزلية . وبالجملة : إنّ المشاركة بين صفات الله تعالى وصفات عباده إنّما هي في الاسم ، لا في الجنس كما زعم بعضهم ، فبطل زعم من قال : إن إثبات كون الأفعال التي تصدر من الإنسان هي بقدرته وإرادته –يقتضي أن يكون شريكاً لله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [ الصافات : 180 ] .

المسألة الثانية : – وهي عضلة العقد ومحكّ المنتقد – أن القضاء عبارة عن تعلّق علم الله تعالى أو إرادته في الأزل ؛ بأنّ الشيء يكون على الوجه المخصوص من الوجوه الممكنة ، والقدر وقوع الأشياء فيما لا يزال على وفق ما سبق في الأزل .

ومن الأشياء التي يتعلق بها القضاء والقدر أفعال العباد الاختيارية . فإذا كان قد سبق القضاء المبرم –بأن زيداً يعيش كافراً ويموت كافراً –فما معنى مطالبته بالإيمان وهو ليس في طاقته ؟ ولا يمكن في الواقع ونفس الأمر أن يصدر منه . لأنه في الحقيقة مجبور على الكفر في صورة مختار له ؟ كما قال بعضهم .

والجواب عن هذا : أن تعلق العلم والإرادة بأن فلاناً يفعل كذا ، لا ينافي أن يفعله باختيار ، إلا إذا تعلق العلم بأن يفعله مضطراً كحركة المرتعش مثلاً . ولكن أفعال العباد الاختيارية قد سبق في القضاء بأنها تقع اختيارية ، أي : بإرادة فاعليها لا رغماً عنهم . وبهذا صح التكليف ولم يكن التشريع عبثاً ولا لغواً .

وثم وجه آخر في الجواب ، وهو : لو كان سبق العلم أو الإرادة بأن فاعلاً يفعل كذا ، يستلزم أن يكون ذلك الفاعل مجبوراً على فعله ، لكان الواجب ، تعالى وتقدس ، مجبوراً على أفعاله كلها . لأن العلم الأزليّ قد تعلق بذلك ، وكل ما تعلق به العلم الصحيح لا بد من وقوعه .

فتبين –بهذا –أن الجبرية ومن تلا تلوهم قد غفلوا عن معنى الاختيار ، واشتبهت عليهم الأنظار ، فكابروا الحسّ والوجدان ، ودابروا الدليل والبرهان ، وعطلوا الشرائع والأديان ، وتوهموا أنهم يعظمون الله ولكنهم ما قدروه حق قدره ، ولا فقهوا سر نهيه وأمره ، حيث جرّؤا الجهال على التنصل من تبعة الذنوب والأوزار ، وادعاء البراءة لأنفسهم والإحالة باللوم على القضاء والقدر ، وذلك تنزيه لأنفسهم من دون الله ولا حول ولا قوة إلاّ بالله . بل ذلك إغراء للإنسان بالانغماس في الفسوق والعصيان . فيا عجباً لهم كيف جعلوا أعظم الزواجر من الإغراء ، وهو الاعتقاد بإحاطة علم الله بالأشياء ! أليس من شأن من لم يفسد الجبر فطرته ، ويظلم الجهل بصيرته ، أن يكون أعظم مهذب لنفسه ، ومؤدب لعقله وحسه ، اعتقاده بأن الله عليهم بما يسر ويعلن ، ويظهر ويبطن ، وأنه ناظر إليه ومطلع عليه . ؟ بلى ! إن الإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، وأما الذين ضلوا السبيل ، واتبعوا فاسد التأويل ، فيقولون كما قال من قبلهم وقص الله علينا ذلك بقوله عزّ وجلّ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا ﴾ [ وفي المطبوع : سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا . . ] الآية . فانظر كيف رماهم العليم الحكيم بالجهل ،

وجعل احتجاجهم بالقدر من أسباب وقوع البأس والبلاء بهم .

وفي هذا القدر كفاية لمن لم ينطمس نور الفطرة من قبله ، والله عليم حكيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 6 صـ 530.545 ﴾

(75/256)

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين (149) ﴾

نعم فلو شاء سبحانه لقسرهم على الهداية وما استطاع واحد منهم أن يخرج عن الهداية ، ولكنه لم يشأ ذلك ، بل أراد أن يكون الإقبال على الإيمان به ، واتباع التكاليف أمرا داخلا في اختيارهم . ألم يخلق سبحانه خلقا لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ؟ ألم يخلق الكون كله مؤتمرا بأمره ؟ ! ﴿ قل فلله الحجة البالغة . . ﴾ [ الأنعام : 149 ] و " الحجة " هي الدليل الذي تقيمه لتأييد قولك في الجدل ، ولذلك نسمى عقودنا حجة على الملكية . أو " الحجة البالغة " أي التي لا ينفذ منها شيء أبدا يعطل المراد منها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(76/256)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (149) ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في الأسماء والصفات عن مجاهد في قوله ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله . . . ﴾ الآية .

قال : هذا قول قريش : إن الله حرم هذا يعنون البحيرة والسائبة والوصيلة والحام .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس . أنه قيل له : إن ناساً يقولون : إن الشر ليس بقدر . فقال ابن عباس : بيننا وبين أهل القدر هذه الآية ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ﴾ إلى قوله ﴿ قل فللّه الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ قال ابن عباس : والعجز والكيس من القدر .

وأخرج أبو الشيخ عن علي بن زيد قال : انقطعت حجة القدرية عند هذه الآية ﴿ فللّه

الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة ﴿ قل فللّه الحجة البالغة ﴾ قال : السلطان . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(77/256)

---

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : " قُلْ فَلِلَّهِ " بين " قُلْ " وبين " فَلِلَّهِ " شيء مَحْذُوف ، فقدّره الزمخشري شرطاً ؛ جوابه : فَلِلَّهِ ؛ قال : " فإن كان الأمر كما زَعَمْتُم من كَوْنِكُم على مشِيئَة اللَّه فللَّه الحُجَّة " . وقدّره غيره جُمْلة اسميَّة ، والتقدير : قل أَنْتُم لا حُجَّة لكم على ما ادَّعَيْتُم فَلِلَّهِ الحُجَّة البَالِغَة عليكم ، والحدة البالغة : هي التي تَقْطَعُ عذر المَحْجُوج ، وتطرد الشَّكَ عمن نَظَر فيها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 500 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (149) ﴾

صَرَّحَ بان إرادته – سبحانه – لا تتقاصر عن مراد ، وليس عليه اعتراض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 509 ﴾

(78/256)

---

كلام نفيس للإمام ابن القيم

قال عليه الرحمة ما نصه :

فصل : فى بيان أن المنفعة والمضرة لا تكون إلا من الله وحده

وجماع هذا أَنك إذا كنت غير عالم بمصلحتك ولا قادر عليها ولا مريد لها كما ينبغى فغيرك أَولى أَن لا يكون عالماً بمصلحتك ولا قادراً عليها ولا مريداً لها ، والله سبحانه هو يعلم ولا تعلم ويقدر ولا تقدر ، ويعطيك من فضله لا لمعوضة ولا لمنفعة يرجوها منك ، ولا لتكثر بك ولا لتعززَّ بك ولا يخاف الفقر ولا تنقص خزائنه على سعة الإنفاق ، ولا يحبس فضله عنك لحاجة منه إليك واستغناه بحيث إذا أَخرجه أَثر ذلك فى غناه ، وهو يحب الجود والبذل والعطاءَ والإحسان أَعظم مما تحب أَنت الأَخذ والانتفاع بما سأَلته ، فإذا حبسه عنك فاعلم أَن هناك أمرين لا ثالث لهما : أَحدهما أن تكون أنت الواقف فى طريق مصالحك وأنت المعوِّق لوصول فضله إليك وأَنت حجر فى طريق نفسك ، وهذا هو

الأَغلب على الخليقة ، فإِن الله سبحانه فيما قضى قضى به أَن ما عنده لا ينال إِلا بطاعته ، وأَنه ما استجلبت نعم الله بغير طاعته ، ولا استديمت بغير شكره ، ولا عوقت وامتنعت بغير معصيته ، وكذلك إِذا أَنعم عليك ثم سلبك النعمة فإِنه لم يسلبها لبخل منه ولا استئثار بها عليك وإِنما أَنت المسبب فى سلبها عنك ، فإِن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأَنفسهم : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : 53] ، فما أُزيلت نعم الله بغير معصيته :

إِذا كُنْتَ فِى نِعْمَةٍ فَارْعَهَا . . . فَإِنَّ المعاصِى تُزِيلُ النِّعَم

فآفتك من نفسك ، وبلاؤك من نفسك ، وأَنت فى الحقيقة الذى بالغت فى عداوتك ، وبلغت من معاداة نفسك ما لا يبلغ العدو منك ، كما قيل :

مَا يَبْلُغُ الأَعْدَاءُ مِنْ جَاهِلٍ . . . مَا يَبْلُغُ الْجَاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ

(79/256)

---

ومن العجب أَن هذا شأْنك مع نفسك وأَنت تشكو المحسن البريء عن الشكاية ، وتتهم أَقداره وتعانيها وتلومها ، فقد ضيعت فرصتك وفرطت فى حظك ، وعجز رأَيك عن معرفة أَسباب سعادتك وإِرادتها ، ثم قعدت تعاتب القدر بلسان الحال والقال ، فأَنت

المعنى بقول القائل :

وعاجز الرأى مضياع لفرصته . . . حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

ولو شعرت برأيك ، وعلمت من أين دهيت ومن أين أُصبت ، لأمكنك تدارك ذلك ، ولكن قد فسدت الفطرة وانتكس القلب وأطفأ الهوى مصابيح العلم والإيمان منه فأعرضت عمن هو أصل بلائك ومصيبتك منه وأقبلت تشكو من كل إحسان دقيق أو جليل وصل إليك فمنه فإذا شكوته إلى خلقه كنت كما قال بعض العارفين – وقد رأى رجلاً يشكو إلى آخر ما أصابه ونزل به – فقال : يا هذا تشكو من يرحمك ، إلى من لا يرحمك .

وإذا أتتْكَ مصيبة فاصبر لها . . . صبر الكريم فإنه بك أرحم

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما . . . تشكو الرحيم إلى الذى لا يرحم

وإذا علم العبد حقيقة الأمر ، وعرف من أين أُتى ومن أى الطرق أُغير على سرحه ومن أى ثغرة سرق متاعه وسلب استحى من نفسه – إن لم يستح من الله – أن يشكو أحداً من خلقه أو يتظلمهم أو يرى مصيبته وآفته من غيره ، قال تعالى ﴿ وَمَآ أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : 30] ، وقال : ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران : 165] ، وقال : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء : 79] .

(80/256)

---

فإِن أَصررت على اتهام القدر وقلت : فالسبب الذى أُصبتُ منه وأُتيت منه ودهيت منه قد سبق به القدر والحكم وكان فى الكتاب مسطوراً ، فلا بد منه على الرغم منى ، وكيف لى أَن أَنفك منه وقد أُودع الكتاب الأَول قبل بدءِ الخليقة والكتاب الثانى قبل خروجى إِلى هذا العلم وأنا فى ظلمات الأحشاء حين أمر الملك بكتب الرزق

(81/256)

---

والأَجل والسعادة والشقاوة فلو [جريت] إِلى سعادتى ما جريت حتى بقى بينى وبينها شبر لغلب على الكتاب فأَدركتنى الشقاوة ، فما حيلة من قلبه بيد غيره يقلبه كيف يشاءُ ويصرفه كيف أَراد ، إِن شاء أَن يقيمه أقامه ، وإِن شاءَ أَن يزيغه أَزاغه ، وهو الذى يحول بين عوارى المرءِ وقلبه ، وهو الذى يثبت قلب العبد إِذا شاءَ ويزلزله إِذا شاءَ ، فالقلب مربوب مقهور تحت سلطانه لا يتحرك إِلا بإِذنه ومشيئته ، قال أَعلم الخلق بربه صلوات وسلامه عليه : "ما من قلب إِلا وهو بين إِصبعين من أَصابع الرحمن ، إِن شاءَ أَن يقيمه أَقامه

، وإِن شاءَ أَن يزيغه أَزاغه" ، ثم قال : "اللَّهم مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك" ، وكان أَكثر يمينه : "لا ومقلب القلوب" وقال بعض السَلَف : "مثل القلب مثل الريشة فى أَرض فلاة تقلبها الرياح ظهراً لبطن" ، فما حيلة قلب هو بيد مقلبه ومصرفه ، [وقل] له مشيئة بدون مشيئته ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللّهُ رَبّ الْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير : 29] ، وروى عن عبد العزيز ابن أبى حازم عن أَبيه عن سهل بن سعد قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىَ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد : 24] ، وغلام جالس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : بلى والله يا رسول الله ، إِن عليها لأَقفالها ، ولا يفتحها إِلا الذى أَقفلها . فلما ولَى عمر بن الخطاب طلبه ليستعمله وقال : "لم يقل ذلك إِلا من عقل" ، قال طاوس : أدركت ثلاثمائة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : كل شيء بقدر . وقال أَيوب السختيانى : أَدركت الناس وما كلامهم إِلا : إِن قضى ، إِن قدر . وقال عطاءُ عن ابن عباس فى قوله تعالى :

*(82/256)*

---

﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية : 29] ، قال : كتب الله أَعمال بنى آدم وما هم عاملون إِلى يوم القيامة . قال : والملائكة تستنسخ ما يعمل بنو آدم يوماً بيوم فذلك قوله :

﴿ إِنَّ كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية 29] وفى الآية قول آخر : إن استنساخ الملائكة هو كتابتهم لما يعمل بنو آدم بعد أن يعملوه وقد يقال وهو الأظهر : إن الآية تعم الأمرين ، فيأمر الله ملائكته فتستنسخ من أم الكتاب أعمال بنى آدم ثم يكتبونها عليهم إذا عملوها فلا تزيد على ما نسخوه من أم الكتاب ذرة ولا تنقصها ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : 49] ، خلق الله الخلق كلهم بقدر ، وخلق الخير والشر ، فخير الخير السعادة وشر الشر الشقاوة .

*(83/256)*

---

وفى صحيح مسلم عن أبى الأسود الدؤلى قال : قال لى عمران بن حصين : أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون ، أشيء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق ، أو فيما يستقبلون ممن أتاهم به نبيهم وثبتت به الحجة ؟ قال : قلت : لا ، بل فيما قضى عليهم ومضى قال : أفيكون ذلك ظلماً ؟ قال : ففزعت فزعاً شديداً ، وقلت : إنه ليس شيء إلا خلقه وملكه : ﴿ وَلاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ، وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء : 23] ، فقال : سددك الله إنما سألتك لأحرز عقلك . إن رجلاً من مزينة – أو جهينة – أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أرأيت ما يعمل الناس ويتكادحون فيه ، أشيء قضى

عليهم ومضى ، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ؟ قال : فيما قضى عليهم ومضى .

فقال الرجل : ففيم العمل ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من كان خلقه الله لإحدى المنزلتين فسيستعمله لها" ، وتصديق ذلك فى كتاب الله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس : 7 – 8] ، وقال مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُون ﴾ [البقرة : 30] ، قال : علم إبليس المعصية وخلقه لها . وقال تعالى : ﴿ فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ ﴾ [الأعراف : 30] ، قال ابن عباس : إن الله سبحانه بدأ خلق ابن آدم مؤمناً وكافراً ثم قال : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِن ﴾ [التغابن : 2] ، ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمن وكافر . وقال سعيد بن جبير : عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ [الأنفال : 24] ، قال : يحول بين المؤمن والكفر ومعاصى الله ، ويحول بين الكافر والإيمان وطاعة الله . وقال ابن عباس ومالك وجماعة من السَلَف فى قوله تعالى : ﴿ وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلا مَن

رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود : 118 - 119] ، قالوا : خلق أَهل الرحمة للرحمة ، وأَهل الاختلاف للاختلاف . وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا ﴾ [البقرة : 253 ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ [السجدة : 13] ، ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ﴾ [يونس : 99] ، ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ﴾ [الأنعام : 35] ، ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ [الأنعام : 112] ، وقال تعالى :

(85/256)

---

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ [الأعراف : 37] أَى نصيبهم مما كتب لهم . وقال : ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الشعراء : 200] ، قال الحسن وغيره : الشرك والتكذيب . وقال تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ [المطففين : 7] ، قال محمد بن كعب القرظى : رقم الله سبحانه كتاب الفجار فى أَسفل الأَرض ، فهم عاملون بما قدر رقم عليهم فى ذلكَ الكتاب ورقم كتاب الأَبرار فجعله فى عليين ، فهم يؤتى بهم حتى يعملوا ما قدر رقم عليهم فى ذلك الكتاب . وقال ابن عباس : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ [المسد : 1] ، بما جرى من القلم فى اللوح المحفوظ ، وقال مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ

خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾ [يس : 9] ، قال : عن الحق . وفى قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ [الإسراء : 46] ، قال : فالجعبة فيها السهام ، وقال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ [الجاثية : 23] ، قال : أَضله فى سابق علمه ، وقال فى قوله تعالى حكاية عن عدوه إبليس : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ [الأعراف : 16] ، قال : أَضللتنى ، وقال فى قوله : ﴿ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ إِلا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات : 162 - 163] ، قال : من قضيت له أَنه صال الجحيم . وقال عمر بن عبد العزيز : لو أَراد الله أن لا يعصى لم يخلق إبليس ، وقد فصل لكم وبين لكم ما أَنتم عليه بفاتنين إلا من قدّر أَن يصلى الجحيم . وقال وهيب بن خالد : أَنبأنا خالد قال : قلت للحسن : أَلهذه خلق آدم - يعنى السماءَ - أَم للأَرض ؟ فقال : لا بل للأَرض .

*(86/256)*

---

قال : قلت أَرأَيت لو اعتصم من الخطيئة فلم يعملها ، أَكان ترك فى الجنة ؟ قال : سبحانه الله أَكان له بد من أَن يعملها ؟ وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ [الأنبياء : 73] ، وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ [القصص : 41] ، وقال : ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ [الفرقان : 74] ، أَى أَئمة يهتدى بنا ، ولا تجعلنا أَئمة ضالين

يدعون إلى النار ، وقال : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ [الأنعام : 28] ، وقال : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : 110] ، وقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللّهُ ﴾ [الأنعام : 111] ، وقال زيد بن أسلم : والله ما قالت القدرية كما قال الله ولا كما قال رسله ولا كمال قال أَهل الجنة ولا كما قال أَهل النار ولا كما قال أَخوهم إبليس ، قال الله عز وجل : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ ﴾ [الإنسان : 30] [التكوير : 29] ، وقالت الملائكة : ﴿ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ [البقرة : 32] ، وقال شعيب : ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللّهُ ﴾ [الأعراف : 89] ، وقال أَهل الجنة : ﴿ الْحَمْدُ للّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلآ أَنْ هَدَانَا اللّهُ ﴾ [الأعراف : 43] ، وقال أَهل النار : ﴿ غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴾ [المؤمنون : 106] ، وقال أَخوهم إبليس : ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ [الحجر : 39] ،

*(87/256)*

---

وقال مجاهد فى قوله : ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ [الإسراء : 13] ، قال : مكتوب فى عنقه شقى أَو سعيد . وقال ابن عباس فى قوله : ﴿ وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن

تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً ﴾ [المائدة : 41] يقول : ومن يرد الله ضلالته لم تغن عنه شيئاً .

وذكر الطبرى وغيره من حديث سويد بن سعدٍ عن سوار بن مصعب عن أبى حمزة عن مقسم عن ابن عباس : صعد النبى صلى الله عليه وسلم المنبر ، فحمد الله وأَثنى عليه ، ثم بسط يده اليمنى فقال : "بسم الله الرحمن الرحيم ، كتاب من الله الرحمن الرحيم لأَهل الجنة بأَسمائهم ، وأَسماءِ آبائهم وقبائلهم وعشائرهم ، فجمل أولهم على آخرهم ، لا ينقص منهم ولا يزاد فيهم ، فرغ ربكم وقد يسلك بأهل السعادة طريق الشقاءِ حتى يقال [لا ينقض منهم ولا يزاد فيهم . فرغ ربكم . وقد يسلك بأهل السعادة طريق الشقاء حتى يقال] كأَنهم هم بل هم هم ، ما أَشبههم بهم بل هم هم فيردهم ما سبق لهم من الله من السعادة ، فيعمل بعمل أَهل الجنة فيدخلها قبل موته بفواق ناقة ، وقد يسلك بأَهل الشقاءِ طريق السعادة حتى يقال كأَنهم هم بل هم هم ، ما أَشبههم بهم بل هم هم ، فيردهم ما سبق لهم من الله ، فيعمل بعمل أَهل النار فيدخلها ولو قبل موته بفواق ناقة ، فصاحب الجنة مختوم له بعمل أَهل الجنة وإِن عمل عمل أَهل النار ، وصاحب النار مختوم له بعمل أَهل النار وإِن عمل بعمل أَهل الجنة ، ثم قال رسول الله : "الأَعمال بخواتيمها" ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة : 6] ، وفى قوله : ﴿ وَلَوْ شَآءَ اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىَ ﴾ [الأنعام : 35] ، وفى قوله ﴿ فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ

يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً ﴾ [الأَنعام : 125] ، وفى قوله : ﴿ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللهُ ﴾ [الأنعام : 111] ، وفى قوله : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ [السجدة : 13] ، وقوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِى الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ﴾ [يونس : 99] ، وقوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِى أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً ﴾ [يس : 8] ، وقوله : ﴿ وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ﴾ [الكهف : 28] ، ونحو هذا من القرآن ، إن رسول الله كان يحرص أَن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى ، فأَخبره الله أَنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة فى الذكر الأَول ، ثم قال لنبيه : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَن لا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 3] ، ويقول : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَآءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء : 4] ، ثم قال : ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ﴾ [فاطر : 2] ، ويقول : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران : 128] ، وفى صحيح مسلم عن طاووس : أَدركت ناساً من أَصحاب رسول الله يقولون : كل شيء بقدر . وسمعت عبد الله بن عمر يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كل شيء بقدر ، حتى العجز والكيس" ، وفى صحيح مسلم [أيضاً] عن

عبد الله بن [عمر] قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "كتب الله مقادير الخلق قبل أَن يخلق السماوات والأَرض بخمسين أَلف سنة وعرشه على الماءِ" ، وفى صحيحه أَيضاً عن أَبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "المؤمن القوى خير وأَحب إِلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير . فاحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وإِن أصابك شيء فلا تقل : لو أَنى فعلت كذا وكذا ، ولكن قل :

*(89/256)*

---

قدر الله وما شاءَ الله فعل . فإِن لو تفتح عمل الشيطان" ، وفى صحيحه أَيضاً عن أَبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إِنَّ النّذْرَ لا يُقَدِّرُ لابن آدمَ شَيئاً لَمْ يَكُنِ اللهُ قَدَّرَهُ وَلَكِنِ النَّذْرُ يُوافِقُ الْقَدَرَ فَيُخْرِجُ ذَلِكَ مِنَ الْبَخِيلِ مَا لَمْ يَكُنْ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَهُ" وفي حديث جبرائيل وسؤاله النبى صلى الله عليه وسلم عن الإِيمان قال : "الإِيمانُ أَنْ تؤمنَ بالله وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ" ، وفى الصحيحين حديث ابن مسعود فى التخليق وفيه : "فوالذى لا إِله غيره إِن أَحدكم ليعمل بعمل أَهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إِلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أَهل النار فيدخل النار ، وإِن أَحدكم ليعمل بعمل أَهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إِلا ذراع فيسبق عليه الكتاب ،

فيعمل بعمل أَهل الجنة فيدخلها" ، وذكر الطبرى الحسن بن على الطوسى أَنبأَنا محمد بن يزيد الأَسفاطى البصرى محدّث البصرة قال : رأَيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم فقلت : يا رسول الله ، حديث عبد الله بن مسعود حدثنى الصادق المصدوق – أَعنى حديث القدر – فقال : إى والله الذى لا إِله إِلا هو حدثت به ، رحم الله عبد الله بن مسعود حيث حدث به ، ورحم الله حيث حدث به ، ورحم الله الأَعمش حيث حدث به ، ورحم الله من حدث به قبل الأَعمش ، ورحم الله من يحدث به بعد الأَعمش .

(90/256)

---

وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود : "الشقى من شقى فى بطن أُمه ، والسعيد من وعظ بغيره" ، وقد روى حديث تقدير السعادة والشقاوة فى بطن الأُم من حديث عبد الله بن مسعود ، وأَنس بن مالك ، وعبد الله بن عمر ، وعائشة أُم المؤمنين ، وحذيفة بن أُسيد ، وأَبى هريرة . وقال أَبو الحسن بن عبيد الحافظ : سمعت أَبا عبد الله بن أَبى خيثمة يقول : سمعت عمرو بن على الفلاس يقول : انحدرت من سرَّ من رأَى إِلى بغداد فى حاجة لى فبينما أَنا أَمشى فى بعض الطريق إِذا بجمجمة قد نحرت فأَخذتها ، فإِذا على الجبهة مكتوب "شقى" والياءُ مكسورة إِلى خلف . وهؤلاءِ كلهم أَئمة حفاظ ، ذكره الطبرى فى

السنة . وفى الصحيحين حديث [على عن] النبى صلى الله عليه وسلم : "ما منكم من أحد إلا كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة" ، فقالوا : يا رسول الله ، أَفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ؟ فقال : "اعملوا ، فكل ميسر لما خلق له : أَما من كان من أَهل السعادة فييسر لعمل أَهل السعادة ، وأَما من كان من أَهل الشقاوة فييسر لعمل أَهل الشقاوة" ، ثم قرأ : ﴿ فأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَي ﴾ [الليل : 5 – 10]

وفى الصحيحين عن عمران بن حصين أَن النبى صلى الله عليه وسلم سئل : أَعلم أَهل الجنة من أَهل النار ؟ قال : "نعم" ، قيل [له] : ففيم يعمل [العالمون] ؟ قال : "نعم ، كل ميسر لما خلق له" . وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت : "دعى رسول الله [صلى الله عليه وسلم] إلى جنازة غلام من الأَنصار ، فقلت : يا رسول الله ، طوبى لهذا ، عصفور من عصافير الجنة ، لم يدرك السوءَ ولم يعمله ، قال : "أَو غير ذلك ، إن الله تعالى خلق للجنة أَهلا ، خلقهم

*(91/256)*

لها وهم فى أصلاب آبائهم وخلق للنار أَهلا خلقهم لها وهم فى أَصلاب آبائهم" ، وفى الصحيحين عن ابن عباس عن أُبى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "الغلام الذى قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً ، ولو عاش لأَرهق أَبويه طغياناً وكفراً" وفى مسند الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فِى [ظُلْمَةٍ ثم ألقى عليهم من نوره وفى لفظ فجعلهم فى] وَاحِدَةٍ ، فَأَخَذَ مِنْ نُورِهِ فَأَلْقَاهُ عَلَى تِلْكَ الظُّلْمَةِ ، فَمَنْ أَصَابَهُ النُّورُ اهْتَدَى ، ومَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ : جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللهِ" ، وذكر راشد بن سعد عن أبى عبد الرحمن السلمى أن أَبا قتادة سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : "خَلَقَ اللهُ آدَمَ وَأَخْرَجَ الْخَلْقَ مِنْ ظَهْرِهِ فَقَالَ : هَؤُلاءِ فِى الْجَنَّةِ وَلا أُبَالِى ، وَهَؤُلاءِ فِى النَّارِ وَلا أُبَالِى" ، قال : قيل : على ما نعمل ؟ قال : "عَلَى مَوَاقِعِ الْقَدَرِ" ، وذكر أبو داود فى كتاب القدر عن عبد الله بن مسعود أَنه مر على رجل فقالوا : هذا هذا . . ونالوا منه ، فقال عبد الله : أَرأَيتم لو قطعتم يده ، كنتم تستطيعون أن تخلقوا له يداً ؟ قالوا : لا [قال فلو قطع رجله أكنتم تستطيعون أن تخلقوا له رجلاً ؟ قالوا لا] . قال : فلو قطع رأْسه ، كنتم تستطيعون أن تخلقوا له رأَساً ؟ قالوا : لا ، قال : فكما لا تستطيعون أن تغيروا خلقه لا تستطيعون أَن تغيروا خُلقه ، إِن النطفة إذا وقعت فى الرحم بعث الله ملكاً فكتب أَجله وعمله ورزقه وشقى أَو سعيد .

وذكر فيه عن ابن مسعود مرفوعاً : " إِنَّمَا هُمَا اثْنَتَان : الْهَدْى وَالْكَلام فَأَحْسَنُ الْكَلامِ كَلامُ اللهِ ، وَأَحْسَنُ الْهَدْى هَدْى مُحَمَّد ، وَشَرُّ الأُمُورِ مُحَدَثَاتُهَا ، وَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ ،

(92/256)

---

وَإِنَّ كُلَّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيب وَإِنَّ الشَّقِى مَنْ شَقِى فِى بَطْنِ أُمِّهِ وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ " ،

وقال ابن وهب : أخبرنى يونس عن ابن شهاب أن عبد الرحمن ابن هنيدة حدثه أَن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إِذَا أَرَاد اللهُ أَنْ يَخْلُقَ النَّسَمَة قَالَ مَلَكُ الأَرْحَام تَعْرُّفاً : يَا رَبّ ، أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى ؟ فَيَقْضِى اللهُ أَمْرَهُ [ثم يقول : يا رب أشقى أم سعيد ؟ فيقضى الله أمره] ، ثُمَّ يَكْتُبُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ مَا هُوَ لاقٍ حَتَّى النَّكْبَةُ يُنْكَبُهَا "

وقال الليث عن عقيل عن ابن شهاب : أخبرنى أَبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فذكره سواء . قال الزهرى : وحدثنى عبد الرحمن بن أُذينة عن ابن عمر . . مثل ذلك . وذكر أَبو داود أيضاً عن عائشة يرفعه : "إِن

(93/256)

---

الله حين يريد أَن يخلق الْخلق يبعث ملكاً فيدخل على الرحم فيقول : أَى رب ماذا ؟ فيقول : غلام ، أَو جارية ، أَو ما شاءَ الله أَن يخلق فى الرحم . فيقول : أَى رب ، أَشقى أم سعيد ؟ فيقول : شقى أو سعيد . فيقول : أى رب ، ما أضله ، فيقول كذا وكذا . فتقول أى رب ، ما خلقه ؟ فيقول : كذا وكذا ، قال : فيقول : يا رب ، ما خلائقه ؟ فيقول : كذا وكذا ، قال : فمَا من شيء إِلا وهو يخلق معه فى الرحم" وذكر ابن وهب عن ابن لهيعة عن بكر بن سوادة عن أَبى تميم الجيشانى عن أبى ذر أن المنى إِذا مكث فى الرحم أربعين ليلة أَتاه ملك النفوس فعرج به إِلى الرب [تعالى] فى راحته فيقول : يا رب عبدك ذكر أم أُنثى ؟ فيقضى الله ما هو قاض . أَشقى أَم سعيد ؟ فيكتب ما هو لاق بين عينية . قال أَبو تميم : وقرأ أَبو ذر من فاتحة سورة التغابن خمس آيات . وقال ابن وهب : أَخبرنى ابن لهيعة عن كعب بن علقمة عن عيسى بن هلال عن عبد الله ابن عمرو بن العاص أَنه قال : إِذا مكثت النطفة فى رحم المرأَة أَربعين يوماً جاءَها ملك فاختلجها ، ثم عرج بها إلى الرحمن عز وجل فقال : اخلق يا أَحسن الخالقين . فيقضى الله فيها بما يشاءُ من أَمره ، ثم يدفع إِلى الملك ، فيسأَل الملك عن ذلك فيقول : يا رب ، سقط أَم تم ؟ فيبين له ، ثم يقول : يا رب واحد أَو توأَم ؟ فيبين له ، ثم يقول : يا رب ذكر أَم أُنثى ؟ فيبين له ، فيقول : يا رب ، أناقص الأجل أم تام الأجل ؟ فيبين له ذلك ، ثم يقول : يا رب ، أشقى أَم سعيد ؟ فيبين له ، ثم يقول : يا رب ،

اقطع رزقه مع [خلقه] ، فيهبط بهما جميعاً . فوالذى نفسى بيده ما ينال من الدنيا إلا ما قسم له ، فإذا أكل رزقه قبض" .

(94/256)

---

وفى صحيح مسلم : عن حذيفة بن أُسيد يبلغ به النبى صلى الله عليه وسلم قال : "يدخُلُ الْمَلَكُ على النطفة بعد ما تستقر فى الرحم بأَربعين أَو خمس وأَربعين ليلة فيقول : يا رب ، أشقى أَم سعيد ؟ فيكتبان ، فيقول : يا رب أَذكر أَم أُنثى ؟ فيكتبان ، ويكتب عمله وأَثره ورزقه ، ثم تطوى الصحف ولا يزاد فيها ولا ينقص" . وفى الصحيحين عن أَنس بن مالك – ورفع الحديث – قال : "إِنَّ اللهَ وَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَكاً فَيَقُولُ : أَى رَبِ نُطْفَة ، أَى رَب عَلَقَة ، أَى رَب مُضْغَة ، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَقْضِى خَلْقاً قَالَ الْمَلَكُ : أَى رب ذكر أَو أُنثى ؟ شقى أَو سعيد ، فما الرزق ، فما الأَجل ؟ فيكتب ذلك فى بطن أُمِّه" . وفى الصحيحين من حديث

ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم : "إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِى بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً ثُم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم ينفخ فيه الروح ، ويبعث إليه الملك فيؤمر بأَربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أَو سعيد" . وفى حديث

ابن مسعود أَن هذا التقدير وهذه الكتابة فى الطور الرابع من أَطوار التخليق عند نفخ الروح فيه ، وفى الأَحاديث التى ذكرت أَيضا آنفاً أَن ذلك فى الأَربعين الأُولى قبل كونه علقة ومضغة ، وفى رواية صحيحة : "إِذا مر بالنطفة ثنتان وأَربعون ليلة بعث الله إِليها ملكاً فصورها ، وخلق سمعها وبصرها وجلدها" وفى رواية : "إِن ذلك يكون فى بضع وأَربعين ليلة" والله أعلم .

فصل : فى الجمع بين الروايات المتقدمة

(95/256)

---

الجمع بين هذه الروايات أَن للملك ملازمة ومراعاة بحال النطفة ، وأنه يقول : يا رب هذه نطفة ، هذه علقة ، هذه مضغة فى أوقاتها . فكل وقت يقول فيه ما صارت إليه بأمر الله [تعالى] ، وهو أعلم بها وبكلام الملك ، فتصرفه فى أوقات : أحدها حين يخلقها الله نطفة ثم ينقلها علقة ، وهو أول أوقات علم الملك بأنه ولد ، لأنه ليس كل نطفة تصير ولداً ، وذلك بعد الأربعين الأُولى فى أول الطور الثانى . ولهذا – والله أعلم – وقعت الإشارة إليه فى أول سورة أنزلها على رسوله : ﴿ إِقرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذى خَلَقَ خلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العلق : 1 – 2] إذ خلقه من علقة هو أول مبدء الإِنسانية ، وحينئذ يكتب رزقه وأجله

وعمله وشقاوته وسعادته ثم للملك فيه تصرُّف آخر [فى وقت آخر] وهو تصويره وتخليق سمعه وبصره وجلده وعظمه ولحمه وذكوريته وأُنوثيته وهذا إنما يكون فى الأربعين الثالثة قبل نفخ الروح فيها فإن نفخ الروح لا يكون إلا بعد تمام تصويره . فها هنا تقديران وكتابان : التقدير الأول عند ابتداء تعليق التخليق فى النطفة وهو إذا مضى عليها أربعون ودخلت فى طور العلقة . ولهذا فى إحدى الروايات : "إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة" . والتقدير الثانى الكتابة [الثانية] إذا كمل تصويره وتخليقه وتقدير أعضائه وكونه ذكراً أو أنثى . فالتقدير الأول تقدير لما يكون للنطفة بعد الأربعين ، والتقدير الثانى تقدير لما يكون للجنين بعد تصويره ، ثم إذا ولد قدر مع ولادته كل سنة ما يلقاه فى تلك السنة ، وهو ما يقدر ليلة القدر

*(96/256)*

---

من العام إلى العام فهذا التقدير أخص من التقدير الثانى ، والثانى أخص من الأول ونظير هذا أيضاً أن الله [سبحانه] قدر مقادير الخلائق قبل أَن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، ثم قدر مقادير هذا الخلق حين خلقهم وأوجدهم ثم يقدر كل سنة فى ليلة القدر ما يكون فى ذلك العام . وهكذا تقدير أمر النطفة وشأنها يقع بعد تعلقها بالرحم ، وبعد كمال

تصوير الجنين ، وقد تقدم ذكر تقدير شأنها قبل خلق السموات والأرض فهو تقدير بعد تقدير . ونظير هذا أيضاً رفع الأعمال وعرضها على الله فإن عمل العام يرفع فى شعبان كما أخبر به الصادق المصدوق أنه شهر ترفع فيه الأعمال ، قال : "فَأُحِبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِى وَأَنَا صَائِمٌ" ، ويعرض عمل الأُسبوع يوم الاثنين والخميس كما ثبت ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ويعرض عمل اليوم فى آخره والليلة فى آخرها كما فى حديث أبى موسى الذى رواه البخارى عن النبى صلى الله عليه وسلم : "أن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل" ، فهذا الرفع والعرض اليومى أخص من العرض يوم الاثنين والخميس ، والعرض فيها أخص من العرض فى شعبان ، ثم إذا انقضى الأجل رفع العمل كله وعرض على الله وطويت الصحف ، وهذا عرض آخر . وهذه المسائل العظيمة القدر من أَهم فإن قيل : ما تقولون فى قوله : "إِذَا مَرّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا مَلَكاً فَصَوَّرَهَا وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعَظْمَهَا ثُمَّ قَالَ : يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى ؟ فيقضى ربك ما شاءَ ويكتب الملك . ثم يقول : يا رب أَجله ؟ فيقول ربك ما شاءَ ويكتب الملك" ، وهذه بعض أَلفاظ مسلم فى الحديث ، وهذا يوافق الرواية الأُخرى : "يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر فى الرحم بأَربعين أَو خمس وأَربعين ليلة فيقول : يا رب أشقى

[أم] سعيد ؟ "

ويوافق مسائل الإيمان بالقدر ، فصلوات الله وسلامه على كاشف الغمة وهادى الأُمة محمد صلى الله عليه وسلم .

الرواية الأُخرى : "إن النطفة تقع فى الرحم أربعين ليلة ثم يتسور عليها الملك ، وهذا يدل على أن تصويرها عقيب الأربعين الأُولى . قيل : لا ريب أن التصوير المحسوس وخلق الجلد والعظم واللحم إنما يقع فى الأَربعين الثالثة ، لا يقع عقيب الأُولى ، هذا أمر معلوم بالضرورة ، فأما أن يكون المراد بالأَربعين فى هذه الألفاظ الأربعين الثالثة وسمى المضغة فيها نطفة اعتباراً

(98/256)

---

بأول أحوالها وما كانت عليه ، أو يكون المراد بها الأربعين الأولى وسمى كتابة [تصويرها وتخليقها] وتقديره اعتباراً بما يئول ، فيكون قوله : "صورها وخلق سمعها وبصرها" أى قدر ذلك وكتبه وأعلم به ، ثم يفعله به بعد الأربعين الثالثة أو يكون المراد به – أى الأربعين – الأربعين الأولى وحقيقة التصوير فيها ، فيتعين حمله على تصوير خفى لا يدركه إحساس

البشر ، فإن النطفة إذا جاوزت الأربعين انتقلت علقة ، وحينئذ يكون أول مبدإ التخليق فيكون مع هذا المبدإ مبدأ التصوير الخفى الذى لا يناله الحس ثم إذا مضت الأربعون الثالثة صورت التصوير المحسوس المشاهد فأحد التقديرات الثلاثة يتعين ولا بد ، ولا يجوز غير هذا البتة ، إذ العلقة لا سمع فيها ولا بصر ولا جلد ولا عظم ، وهذا التقدير الثالث أليق بألفاظ الحديث وأشبه وأدل على القدر ، والله أعلم بمراد رسوله ، غير أنا لا نشك أن التخليق المشاهد والتقسيم إلى الجلد والعظم واللحم إنما يكون بعد الأربعين الثالثة والمقصود أن كتابة الشقاوة والسعادة وما هو لاق ، [كان] عند أول تخليقه . ويحتمل وجهاً رابعاً وهو أن النطفة فى الأربعين الأولى لا يتعرض إليها ولا يعتنى بشأنها ، فإذا جاوزتها وقعت فى أطوار التخليق طوراً بعد طور ، ووقع حينئذ التقدير والكتابة . فحديث ابن مسعود صريح بأن وقوع ذلك بعد الطور الثالث عند تمام كونها مضغة ، وحديث حذيفة بن أُسيد وغيره من الأحاديث المذكورة إنما فيه وقوع ذلك بعد الأربعين ، ولم يوقت فيها البعدية بل أطلقها ، وقد قيدها ووقتها فى حديث ابن مسعود ، والمطلق فى مثل هذا يحمل على المقيد بلا ريب ، فأخبر بما تكون النطفة بعد الطور الأول من تفاصيل شأنها وتخليقها وما يقدر لها وعليها ، وذلك يقع فى أوقات متعددة ، وكله بعد الأربعين الأُولى ، وبعضه متقدم على بعض ، كما أن كونها علقة يتقدم على كونها مضغة وكونها مضغة متقدم على تصويرها والتصوير متقدم على نفخ الروح مع

ذلك ، فيصح أن يقال : إن النطفة بعد الأَربعين تكون علقة ومضغة ، ويصور خلقها ، وتركب فيها العظام والجلد ، ويشق لها السمع والبصر ، وينفخ فيها الروح ويكتب شقاوتها وسعادتها . وهذا لا يقتضى وقوع ذلك كله عقيب الأربعين الأولى من غير فصل . وهذا وجه حسن جداً .

والمقصود أن تقدير الشقاوة والسعادة والخلق والرزق سبق خروج العبد إلى دار الدنيا ، فأسكنه الجنة أو النار وهو فى بطن أمه . وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لا مَحَالَةَ" الحديث . وفى صحيح البخارى عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِى وَلا اسْتَخْلَفَ مَنْ خَلِيفَةٍ إِلا كَانَ لَهُ بِطَانَتَانِ : بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ"

وفى سنن ابن ماجه عن عدى بن حاتم أنه قال : أَتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقال : "يَا عدِى أَسْلِمْ تَسْلَم" قلت : وما الإسلام ؟ قال : "تَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَأَنِّى رَسُولُ اللهِ ، وَتُؤْمِنُ بِالأَقْدَارِ كُلِّهَا خَيْرِها وَشَرِّهَا وَحُلْوَهَا وَمُرِّهَا" وفى صحيح البخارى من حديث

الحسن عن عمرو بن تغلب قال : أتى النبى صلى الله عليه وسلم مال ، فأعطى قوماً ومنع آخرين فبلغه أنهم عتبوا ، فقال : "إِنِى أَعْطِى الرَّجُل وَأَدَعُ الرَّجُلَ ، وَالَّذِى أَدَعُ أَحَبُّ إِلَى مِنَ الَّذِى أَعْطِى ، أَعْطِى أَقْوَاماً لِمَا فِى قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجَزَعِ وَالهَلَع ، وَأَكِل أَقْوَاماً إِلَى مَا جَعَلَ اللهُ فِى قُلُوبِهِمْ مِنَ الْقَنَاعَةِ وَالْخَيْرِ الحديث .

*(100/256)*

---

وفى الصحيحين من حديث عمران بن حصين عن النبى صلى الله عليه وسلم : "كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيءٍ قَبْلَهُ ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَكَتَبَ فِى الذِكْرِ كُلَّ شَيءٍ" .

وفى الصحيح عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأشجّ عبد القيس : "إِنَّ فِيك لَخُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ : الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ" قال : يا رسول الله خلقين تخلقت بهما ، أم جبلت عليهما ؟ قال : "بَلْ جُبِلْتَ عَلَيْهِمَا" قال : الْحمد لله الَّذى جبلنى على خلقين يحبهما اللهُ . وقال أبو هريرة : قال النبى صلى الله عليه وسلم : "جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا أَنْتَ لاقٍ" رواه البخارى تعليقاً .

وذكر البخارى أيضاً عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ

لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون : 61] قال : سبقت لهم السعادة .

وفى سنن أبى داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن مسعود ، وحذيفة بن اليمان ، وأُبَى بن كعب ، وزيد بن ثابت : "أَن الله لو عذب أَهل سماواته وأَهل أَرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم كانت رحمته لهم خيراً لهم من أعمالهم ، ولو أنفقت مثل أحد ذهباً فى سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقْدَر ، وتعلم أَن ما أَصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأَك لم يكن ليصيبك ، ولو مت على غير هذا لدخلتَ النار"

وقاله زيد بن ثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم .

وفى سنن أبى داود عن أبى

*(101/256)*

---

حفص الشامى قال : قال عبادة بن الصامت : يا بنى ، إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ : اكتب ، قال : يا رَبِّ وَمَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ : اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِ شَيءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ" يا بنى ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّى" .

وفى الصحيحين عن على رضى الله عنه قال : كنا فى جنازة فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ببقيع الغرقد ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس ومعه مخصرة ، فجعل ينكت بالمخصرة فى الأرض ، ثم رفع رأسه فقال : "مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلا قَدْ كُتِبَ مَكَانُهَا من النَّارِ أَوْ الْجَنَّةِ ، إِلا قَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةٌ" . قال : فقال رجل من القوم : يا نبى الله أو لا نتكل على كتابنا وندع العمل ، فمن كان من أهل السعادة ليكونن إلى السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة ليكونن إلى الشقاوة ؟ قال : "اعْمَلُوا ، فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ ، أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِلسَّعَادَةِ ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِلشَّقَاوَةِ" ، ثم قرأ نبى الله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ [الليل : 5 – 10] .

وفى السنن الأربعة عن مسلم بن يسار الجهنى أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الأعراف : 172] ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سئل عنها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خَلَقَ اللهُ آدَمَ ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً فَقَالَ : خَلَقْتُ هَؤُلاءِ لِلْجَنَّةِ ،

وَبِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَعْمَلُونَ ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً فَقَالَ : خَلَقْتُ هَؤُلاءِ لِلنَّارِ ، وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ" قال رجل : يا رسول الله ، ففيم العمل ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ

(103/256)

---

حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُدْخِلَهُ بِهِ الْجَنَّةَ ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنَّارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ فَيُدْخِلَهُ بِهِ النَّارَ"

وفى الترمذى عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ مِن قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الأرض ، فجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الأَرْضِ ، جَاءَ مِنْهُم الأَحْمَرُ وَالأَبْيَض وَالأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ وَالسَّهْل والْحزْن وَالْخَبِيث وَالطَّيِّب" . قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

وذكر الطبرى من حديث مالك بن عبد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لابن مسعود : "لا [تكثر] هَمُّكَ ، ما يُقَدَّرْ يَكُنْ ، وَمَا تُرْزَق يَأْتِكَ"

وذكر عن طارق بن شهاب عن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بُعِثْتُ

دَاعِياً وَمُبَلِّغاً ، وَلَيْسَ إِلَى مِنْ الْهُدَى شَيءٌ . وَخُلِقَ إِبْلِيس مُزَيِّناً ، وَلَيْسَ إِلَيْهِ مِنَ الضَلالَةِ شَيءٌ" ،

وقال ابن وهب : [أخبرنا] عبد الرحمن بن سليمان عن عقيل عن عكرمة عن ابن عباس قال : خرج النبى صلى الله عليه وسلم فسمع ناساً من أصحابه يذكرون القدر فقال : إِنَّكُمْ قَدْ أَخَذْتُمْ فِى شُعْبَتَيْنِ بَعِيدَتَى الغَوْرِ ، فِيهِمَا هَلَكَ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِكُمْ" ، ولقد أخرج يوماً كتاباً فقال : "هَذَا كِتَابٌ مِن اللهِ الرَّحمن الرَّحيم فيه تَسْمِيَةُ أَهْلِ الجَنَّةِ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ وقَبَائِلِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ فَحَمَلَ عَلَى آخِرِهِمْ لا يَنْقُصُ مِنْهُمْ أَحَدٌ : فَرِيقٌ فِى الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ" .

*(104/256)*

---

وفى الترمذى عن ابن عباس قال : ردفت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فقال : "يا غُلامُ ، أَلا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهِنَّ ؟ احْفَظ اللهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظ اللهَ تَجِدهُ أَمَامَكَ ، تَعَرَّف إِلَى اللهِ فِى الرَّخاءِ يَعْرِفكَ فِى الشِّدَّةِ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَل اللهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ ، رُفِعَت الأَقْلامُ وَجَفَّت الصُحُف ، لَوْ جَهدت الأُمَّة عَلَى أَنْ يَنفعُوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَنْفعُوكَ إِلا بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لك ولو جهدت الأمة على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا

بشيء قد كتبه الله عَلَيْكَ ، وَاعْلَم أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً" . وفى بعض روايات الحديث فى غير الترمذى : "فَلَوْ أَنَّ النَّاسَ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَعْطُوكَ شَيئاً لَمْ يُعْطِهِ اللهُ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ ، وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَمْنَعُوكَ شَيئاً قَدَّرَهُ اللهُ لَكَ مَا اسْتَطَاعُوا ، فَاعْبُدِ اللهَ مَعَ الصَّبْرِ عَلَى الْيَقِينِ"

وقال على بن الجعد : أَنبأَنا عبد الواحد بن سليم البصرى عن عطاء بن أبى رباح قال : سألت [الوليد بن] عبادة بن الصامت : كيف كانت وصية أبيك حين حضره الموت ؟ قال : جعل يقول : يَا بنى اتق الله ، واعلم أنك لن تتقى الله ولن تبلغ العلم حتى تعبد الله وحده وتؤمن بالقدر خيره وشره . قلت : يا أبت كيف لى أن أُؤمن بالقدر خيره وشره ؟ قال : تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما [أخطأك] لم يكن ليصيبك ، فإن مت على غير هذا دخلت النار ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ [فَقَالَ] لَهُ : اكْتُبْ ، فَقَالَ : مَا أَكْتُبُ ؟ فَجَرَى تِلْكَ السَّاعَةَ بِمَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الأَبَدِ"

*(105/256)*

وذكر الطبرى من حديث بقية أَنبأَنَا أبو بكر العنسى عن يزيد بن أبى حبيب ومحمد بن يزيد قالا : حدثنا نافع عن ابن عمر قال : قالت أُم سلمة : يا رسول الله ، لا تزال نفسك فى كل عام وجعة من تلك الشاة الْمسمومة التى أَكلتها ؟ ، قال :

"ما أَصابَنِى [من] شَيْء مِنْهَا إِلا وَهُوَ مَكْتُوبٌ عَلَى وَآدَمُ فِى طِينَتِهِ" .

وفى صحيح مسلم من حديث ابن عباس فى خطبة النبى صلى الله عليه وسلم : " الْحَمْدُ للهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ ، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضَلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِى لهُ ، وَأَشْهَدُ أَن لا إِلَهَ إِلا الله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ" .

وفى صحيحه أيضاً عن زيد بن أرقم : كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول : "اللَّهُمَ آت نَفْسِى تَقْوَاهَا ، وَزَكِّها أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا ، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاهَا " . وفى صحيحه أيضاً عن على [رضى الله عنه] عن النبى صلى الله عليه وسلم فى دعاءِ الاستفتاح :

"اللهم اهْدِنِى لأَحْسَنِ الأَخلاق ، لا يَهْدِى لأَحْسَنِهَا إِلا أَنْتَ ، وَاصْرِفْ عَنِّى سَيِّئَ الأَخْلاقِ ، لا يَصْرِفُ عَنِّى سَيِّئَهَا إِلا أَنْتَ" ، وفى الترمذى والمسند من حديث عمران بن حصين أن النبى صلى الله عليه وسلم علم أباه هذا الدعاء : "اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِى رُشْدِى ، وَقِنِى شرّ نَفْسِى " .

وروى سفيان الثورى عن خالد الحذاء عن عبد الله بن الحارث قال : قام عمر بن الخطاب [بالجابية] خطيباً فقال فى خطبته : "مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ وَمَن يُضْلِلْ فَلا هَادِى لَهُ"

وعنده الجاثليق يسمع ما يقول ، قال : فنفض ثوبه كهيئة المنكر ، فقال عمر : ما تقولون ؟ قالوا : يا أمير المؤمنين يزعم أنَّ الله لا يضل أحداً ، قال : كذبت يا عدو

(106/256)

---

الله خلقك وهو أضلك ، وهو يدخلك النار إن شاء الله ، أما والله لولا عهد لك لضربت عنقك ، إن الله خلق الخلق فخلق أهل الجنة وما هم عاملون ، وخلق أهل النار وما هم عاملون قال : هؤلاء لهذه وهؤلاء لهذه . وذكر الطبرى عن أبى بكر الصديق قال : خلق الله الخلق فكانوا فى قبضته ، فقال لمن فى يمينه : ادخلوا الجنة بسلام ، وقال لمن فى يده الأُخرى : ادخلوا النار ولا أُبالى ، فذهبت إلى يوم القيامة ، وقال ابن عمر : جاءَ رجل إلى أبى بكر فقال : أرأيت الزنا بقدر الله ؟ فقال : نعم . قال : فإن الله قدره على ثم يعذبنى ؟ قال : نعم يا ابن اللخناءِ ، أما والله لو كان عندى إنسان أمرت أَن يجأَ أَنفك . وذكر عن علي رضى الله عنه أَنه ذكر عنده القدر يوماً فأَدخل إصبعيه السبابة والوسطى فى فيه فرقم بهما باطن يده فقال : [أشهد] أن هاتين الرقمتين كانتا فى أُم الكتاب . وذكر عنه أيضاً أَنه قال : إن أحدكم لن يخلص الإيمان إلى قلبه حتى يستيقن يقيناً غير ظن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أَخطأَه لم يكن ليصيبه ويقر بالقدر كله .

وذكر البخارى عن ابن مسعود أنه قال فى خطبته :

الشقى من شقى فى بطن أُمه ، والسعيد من وعظ بغيره . وقال ابن مسعود : لأن أعض على جمرة أو أن أقبض عليها حتى تبرد فى يدى أحب إلى من أن أقول لشيءٍ قضاه الله : ليته لم يكن . وقال : لا يطعم رجل طعم الإيمان حتى يؤمن بالقدر ويعلم أنه ميت ، وأنه مبعوث من بعد الموت ، وقال الأعمش عن [خثمة عن] ابن مسعود : إنَّ العبد ليهمّ بالأمر من التجارة والإمارة حتى يتيسر له ، نظر الله إليه من فوق سبع سمواتٍ فيقول للملائكة : اصرفوه عنه ، فإنى إن يسرته له أدخلته النار . قال : فيصرفه الله عنه ، قال : فيقول : من أين دهيت ؟ أو نحو هذا وما هو إلا فضل الله [عز وجل] .

*(107/256)*

---

وذكر الزهرى عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف أن عبد الرحمن بن عوف مرض مرضاً شديداً ، واغمى عليه وأفاق فقال : أغمى على ؟ قالوا نعم قال أنه أتانى رجلان غليظان فأخذا بيدى فقالا : أنطلق نحاكمك إلى العزيز الأمين فنطلقا بى فتلقهما رجل فقال : أين تريدان به ؟ قالا : نحاكمه إلى العزيز الأمين فقال : دعاه فإن هذا ممن سبقت له السعاده وهو فى بطن أمه

وقال ابن جريج عن أنبأنا طاوس عن ابيه قال : أشهد [أنى]سمعت ابن عباس يقول : العجز والكيس بقدر

وقال مجاهد : قيل لابن عباس : إن ناساً يقولون فى القدر : قال : يكذبون بالكتاب إن أحدث أحدهم شعراً لاتصونه إن الله عزوجل كان على عرشه قبل أن يخلق شيئاً ، فخلق القلم ، فكتب ماهو كائن إلى يوم القيامة ، فإنه يجرى الناس على أمر قد فرغ منه وقال ابن عباس أيضاً : القدر نظام التوحيد ، فمن وحد الله ولم يؤمن بالقدر كان كفره بالقضاء نقضاً للتوحيد ، ومن وحد الله وآمن بالقدر كانت العروة الوثقى لا انفصام لها

وقال عطاء بن رباح : كنت عند ابن عباس ، فجاءه رجل فقال : يا ابن عباس ، أرأيت من صدنى عن الهدى وأوردنى دار الضلالة وارداً ، إلا تراه قد ظلمنى ؟ فقال : إن كان الهدى شئ كان لك عنده فمنعكه فقد ظلمك ، وإن كان الهدى هو له يؤتيه من يشاء فلا يظلمك . قم ولا تجالسنى .

قال عكرمة عن ابن عباس : كان الهدهد يدل سليمان على الماء فقلت له : فكيف ذاك ؟ الهدهد ينصب له الفخ عليه التراب فقال أعضك الله بهن أبيك ن إذا جاء القضاء ذهب البصر

وقال الإمام أحمد : أنبأنا إسماعيل ، أنبأنا أبا هارون الغنوى ، أنبأنا [ابو] سليمان الذدى عن أبى يحيى "مولى بنى

---

عفراء" قال اتيت ابن عباس ، ومعى رجلان من الذين يذكرون القدر – أو ينكرونه – فقلت يا ابن عباس ما تقول فى القدر ؟ فإن هؤلاء يسألونك عن القدر ، إن زنى وإن سرق وإن شرب فحسر قميصه حتى أخرج منكبيه وقال : يا يحيى لعلك من الذين ينكرون القدر ويكذبوون به ، والله لو أعلم أنك منهم وهذين معك لجاهدتكم ، إن زنى بقدر ، وإن سرق بقدر وإن شرب الخمر فبقدر

وصح عن ابن عمر أن يحيى ابن يعمر قال له : إن ناساً يقولون : لا قدر ، وأن الأمر أنف فقال : إذا لقيت هؤلاء فأخبرهم أن ابن عمر برئ منهم وأنهم براء منه ، وقد تقدم قول أبي ابن كعب ، وحذيفة وابن مسعود ، وزيد ابن ثابت : لو أنفقت مثل جبل أحداً ذهباً فى سبيل الله ما قبل منك حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطأك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وإن مت على غير ذلك دخلت النار وتقدم قول عبادة ابن الصامت : لن تؤمن حتى تؤمن بالقدر خيره وشره ، وتؤمن أنه ما أصابك لم يكن ليخطأك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك

وقال قتادة عن أبى السوار عن الحسن بن على قال : قضى القضاء وجف القلم ، وأمور

بقظاء قد خلا

وقال عمرو بن العاص : انتهى عجبى إلى ثلاث : المرء يفر من القدر وهو لقيه ، ويرى فى عين أخيه الفذة ويكون فى عينه مثل الجذع فلا يعيبها ، ويكون فى دابته الطفر فيقومه جهده ويكون فى نفسه الطفر فلا يقومها

قال أبو الدرداء : ذروة الإيمان أربع الصبر للحكم ، والرضا بالقدر ، والإخلاص للتوكل ، والاستسلام للرب

*(109/256)*

---

وقال الحجاج الأزدى : سألنا سلمان ما الإيمان بالقدر ؟ فقال : أن تعلم إن ما أصابك لم يكن ليخطأك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وقال سلمان أيضاً : إن الله لم خلق أدم مسح ظهره فأخرج منها زرارى إلى يوم القيامة ، وكتب الأجال والأعمال والأرزاق والشقاوة والسعادة فمن علم السعادة فعل الخير ومجالس الخير ومن علم الشقاوة فعل الشر ومجالس الشر ، وقال جابر ابن عبد الله : لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وقال هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه عن عائشة : إن العبد ليعمل

الزمان بعمل أهل الجنة وإنه عند الله مكتوب من أهل النار ، والأثار فى ذلك أكثر من أن تذكر ، وإنما أشرنا إلى بعضها إشارة

فصل

فالجواب : أن هاهنا مقامين : مقام إيمان وهدى ونجاة ، ومقام ضلال وردى وهلاك زلت فيه أقدام فهوت بصاحبها إلى دار الشقاء

فأما مقام الإيمان والهدى والنجاة فمقام إثبات القدر والإيمان به ، وإسناد جميع الكائنات إلى مشيئة ربها وبارئها وفاطرها ، وأن ماشاء كان وإن لم يشأ الناس ، وما لم يشأ لم يكن وإن شاء الناس ، وهذه الأثار كلها تحقق هذا المقام وتبين أن من لم يؤمن بالقدر فقد أنسلخ من التوحيد ولبس جلباب الشرك ، بل لم يؤمن بالله ولم يعرفه ، وهذا فى كل كتاب انزله الله على رسله

وأما المقام الثانى : وهو مقام الهدى وهو مقام الضلال والردى والهلاك فهو الاحتجاج به على ذنبه على الله وحمل العبد ذنبه على ربه وتنزيه النفس الجاهلة الظالمة الأمارة بالسوء وجعل أرحم الراحمين وأعدل العادلين وأحكم الحاكمين وأغنى الأغنياء أضر على العباد من أبليس ، كما صرح به بعضهم واحتج عليه بما خصمه فيه من لا تدحض حجته ولا تطاق مغالبته حتى يقول قائل هؤلاءِ :

ما حيلة العبد والأقدار جارية . . . عليه فى كل حال أيها الرائي

ألقاه فى اليم مكتوفاً وقال له . . . إياك إياك أن تبتل بالماء

ويقول قائلهم :

(110/256)

---

دعانى وسد الباب دونى فهل إلى . . . دخولى سبيل ؟ بينوا لى قصتي

ويقول الآخر :

وضعوا اللحم للبزاة . . . على ذروتى عدن

ثم لاموا البزاة إذ . . . خلعوا عنهم الرسن

لو أرادوا صيانتى . . . سَتروا وَجْهَك الحسن

وقال بعضهم – وقد ذكر له ما يخاف من إفساده – فقال : لى خمس بنات لا أخاف على إفسادهن غيره وصعد رجل يوماً على سطح دار له ، فأشرف على غلام له يفجر بجاريته فنزل وأخذهما ليعاقبهما ، فقال الغلام : إن القضاء والقدر لم يدعانا حتى فعلنا ذلك . فقال : لعلمك بالقضاء والقدر أحب إلى من كل شيء ، أنت حر لوجه الله . ورأى آخر رجلاً يفجر بامرأته ، فبادر ليأخذه فهرب ، فأقبل يضرب المرأة وهى تقول : القضاءُ والقدر . فقال : يا عدوة الله أتزنين وتعتذرين بمثل هذا ؟ فقالت : أو تركت السنة

وأخذت بمذهب ابن عباس ، فتنبه ورمى بالسوط من يده واعتذر إليها وقال : لولاك لضللت ، ورأى آخر رجلاً آخر يفجر بامرأته فقال : ما هذا ؟ فقالت : هذا قضاءُ الله وقدره . فقال : الخيرة فيما قضى الله ، فلقب بالخيرة فيما قضى الله ، وكان إذا دعى به غضب ، وقيل لبعض هؤلاء : أليس [الله عز وجل] يقول : ﴿ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ [الزمر : 7] فقال : دعنا من هذا ، رضيه وأحبه وأراده ، وما أفسدنا غيره ، ولقد بالغ بعضهم فى ذلك حتى قال : القدر عذر لجميع العصاة ، وإنما مثلنا فى ذلك كما قيل :

إذا مرضنا أَتيناكم نعودكم . . . وتذنبون فنأْتيكم فنعتذر

(111/256)

---

وبلغ بعض هؤلاء أن علياً مر بقتلى النهروان فقال : بؤساً لكم ، لقد ضركم من غركم . فقيل : من غرّهم ؟ فقال : الشيطان ، والنفس الأمارة بالسوءِ ، والأمانى ، فقال هذا القائل : كان على قدرياً ، وإلا فالله غرهم وفعل بهم ما فعل وأوردهم تلك الموارد . واجتمع جماعة من هؤلاء يوماً فتذاكروا القدر ، فجرى ذكر الهدهد وقوله : ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [النمل : 24] فقال : كان الهدهد قدرياً أضاف العمل إليهم والتزيين إلى الشيطان ، وجميع ذلك فعل الله . وسئل بعض هؤلاء عن قوله تعالى لإبليس : ﴿ مَا مَنَعَكَ

أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدِي ﴾ [سورة ص : 75] : أيمنعه ، ثم يسأله ما منعه ؟ قال : نعم ، قضى

(112/256)

---

عليه في السر ما منعه في العلانية ولعنه عليه ، قال له : فما معنى قوله : ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ ﴾ [النساء : 39] إذا كان هو الذي منعهم ؟ قال : استهزاءً بهم . قال : فما معنى قوله : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ﴾ [النساء : 147] قال : قد فعل ذلك بهم من غير ذنب جنوه ، بل ابتدأهم بالكفر ثم عذبهم عليه ، وليس للآية معنى ، وقال بعض هؤلاء – وقد عوتب على ارتكابه معاصي الله فقال : إن كنت عاصياً لأمره فأنا مطيع لإرادته . وجرى عند بعض هؤلاء ذكر إبليس وإبائه وامتناعه من السجود لآدم ، فأخذ الجماعة يلعنونه ويذمونه ، فقال : إلى متى هذا اللوم ؟ ولو خلي لسجد ، ولكن منع . وأخذ يقيم عذره فقال بعض الحاضرين : تباً لك سائر اليوم ، أتذب عن الشيطان وتلوم الرحمن ؟ وجاء جماعة إلى منزل رجل من هؤلاء فلم يجدوه ، فلما رجع قال : كنت أصلح بين قوم فقيل له : وأصلحت بينهم ؟ قال : أصلحت ، إن لم يفسد الله . فقيل له : بؤساً لك ، أتحسن الثناء على نفسك وتسيء الثناء على ربك ؟ ومُرَّ بلصّ مقطوع اليد على بعض

هؤلاء فقال : مسكين ، مظلوم ، أجبره على السرقة ثم قطع يده عليها ، وقيل لبعضهم : أترى الله كلف عباده ما لا يطيقون ثم يعذبهم عليه ؟ قال : والله قد فعل ذلك ، ولكن لا نجسر أن نتكلم . وأراد رجل من هؤلاء السفر ، فودع أهله وبكى . فقيل : استودعهم الله واستحفظهم إياه . فقال : ما أخاف عليهم غيره ، وقال بعض هؤلاء : ذنبة أذنبها أحب إلى من عبادة الملائكة . قيل : ولم ؟ قال : لعلمى بأن الله قضاها على وقدرها ، ولم يقضها إلا والخيرة لى فيها وقال بعض هؤلاء : العارف لا ينكر منكراً ، لاستبصاره بسر الله فى القدر . ولقد دخل شيخ من هؤلاء بلداً ، فأول ما بدأ به من الزيارات زيارة المواخير المشتملة على البغايا والخمور ، فجعل يقول : كيف أنتم فى قدر الله .

*(113/256)*

---

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : عاتبت بعض شيوخ هؤلاء فقال لى : المحبة نار تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب والكون كله مراده ، فأى شيء أبغض منه ؟ قال : فقلت له إذا كان المحبوب قد أبغض بعض من فى الكون وعاداهم ولعنهم ، فأحببتهم أنت وواليتهم ، أكنت ولياً للمحبوب أو عدواً له ؟ قال : فكأنما ألقم حجراً . وقرأ قاريء بحضرة بعض هؤلاء : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص : 75]

، فقال : هو والله منعه ، ولو قال إبليس ذلك لَكَانَ

صادقاً ، وقد أخطأ إبليس الحجة ، ولو كنت حاضراً لقلت له : أنت منعته ، وسمع بعض

هؤلاء قارئاً يقرأ : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ [فصلت :

17] فقال : ليس من هذا شئ ، بل أضلهم وأعماهم . قالوا : فما معنى الآية ؟ قال :

مخرقة يمخرق بها .

فيقال : الله أكبر على هؤلاء الملاحدة أعداء الله حقاً الذين ما قدروا الله حق قدره ، ولا

عرفوه حق معرفته ، ولا عظموه حق تعظيمه ، ولا نزهوه عما لا يليق به ، وبغضوه إلى عباده

وبغضوهم إليه سبحانه ، وأساؤوا الثناء عليه جهدهم وطاقتهم ، وهؤلاء خصماءُ الله

حقاً الذين جاء فيهم الحديث : "يُقَالُ يَوْمَ الْقِيَامَةَ : أَيْنَ خُصَمَاءُ الله ؟ فَيُؤمَرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ"

. قال شيخ الإسلام ابن تيمية فى تائيته :

ويدعى خصوم الله يوم معاده . . . إلى النار طراً فرقة القدرية

سواءٌ نفوه أو سعوا ليخاصموا . . . به الله أو ماروا به للشريعة

*(114/256)*

وسمعته يقول : القدرية المذمومون فى السنة وعلى لسان السلف هم هؤلاء الفرق الثلاث : نفاته ، وهم القدرية المجوسية ، والمعارضون به للشريعة الذين قالوا : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ﴾ [الأنعام : 148] ، وهم القدرية الشركية والمخاصمون به للرب سبحانه وهم أعداءُ الله وخصومه وهم القدرية الإبليسية . وشيخهم إبليس ، وهو أول من احتج على الله بالقدر فقال : ﴿ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ [الحجر : 39] ، ولم يعترف بالذنب يَبُوءُ به كما اعترف به آدم ، فمن أقر بالذنب وباءَ به ونزّه ربه فقد أشبه أباه آدم ، ومن أشبه أباه فما ظلم . ومن برأ نفسه واحتج على ربه بالقدر فقد أشبه إبليس . ولا ريب أن هؤلاء القدرية الإبليسية والشركية شر من القدرية النفاة ، لأن النفاة إنما نفوه تنزيهاً للرب [تعالي] وتعظيماً له أن يقدر الذنب ثم يلوم عليه ويعاقب ، ونزهوه أن يعاقب العبد على ما لا صنع للعبد فيه البتة بل هو بمنزلة طوله وقصره وسواده وبياضه [وحوله] ونحو ذلك ، كما يحكى عن بعض الجبرية أنه حضر مجلس بعض الولاة فأتى

*(115/256)*

---

بطرّار أحول فقال له الوالى : ما ترى فيه ؟ فقال : اضربه خمسة عشر – يعنى سوطاً – فقال له بعض الحاضرين ممن ينفى الجبر : بل ينبغى أن يضرب ثلاثين سوطاً [خمسة عشر]

لطره ، [ومثلها] لحوله . فقال الجبرى : كيف يضرب على الحول ولا صنع له فيه ؟ فقال : كما يضرب على الطر ولا صنع له فيه عندك ، فبهت الجبرى . وأما القدرية الإبليسية والشركية فكثير منهم منسلخ عن الشرع ، عدو لله ورسله ، لا يقر بأمر ولا نهى ، وتلك وراثة عن شيوخهم الذين قال الله فيهم : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام : 148] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [النحل : 35] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الزخرف : 20] ، وقال : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس : 47] ، فهذه أربعة مواضع فى القرآن بين سبحانه فيها أن الاحتجاج بالقدر من فعل المشركين المكذبين للرسل .

وقد افترق الناس فى الكلام على هذه [الآيات] أربعة فرق :

الفرقة الأولى : جعلت هذه الآيات حجة صحيحة ، وأن للمحتج بها الحجة على الله . ثم افترق هؤلاء فرقتين : فرقة كذبت بالأمر والوعد والوعيد ، وزعمت أن الأمر والنهى والوعد والوعيد بعد هذا يكون ظلماً ، والله لا يظلم من خلقه أحداً وفرقة صدقت بالأمر والنهى والوعد والوعيد وقالت : ليس ذلك بظلم ، والله يتصرف فى ملكه [كما] يشاءُ ، ويعذب العبد على ما لا صنع له فيه ، بل يعذبه على فعله هو سبحانه لا على فعل عبده ، إذ العبد لا فعل له ، والملك ملكه ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون . فإن هؤلاء الكفار إنما قالوا هذه المقالة التى حكاها الله عنهم استهزاءً منهم ، ولو قالوها اعتقاداً للقضاء والقدر وإسناداً لجميع الكائنات إلى مشيئته وقدرته لم ينكر [ذلك] عليهم ،

ومضمون قول هذه الفرقة أن هذه حجة صحيحة إذا قالوها على وجه الاعتقاد لا على جهة الاستهزاء فيكون للمشركين على الله الحجة ، وكفى بهذا القول فساداً وبطلاناً .

*(117/256)*

---

الفرقة الثانية : جعلت هذه الآيات حجة لها فى إبطال القضاء والقدر والمشيئة العامة إذ لو صحت المشيئة العامة وكان الله عز وجل قد شاء منهم الشرك والكفر وعبادة الأوثان

لكانوا قد قالوا الحق وكان الله [عز وجل] يصدقهم عليه ولم ينكر عليهم ، فحيث وصفهم بالخرص الذى هو الكذب ، ونفى عنهم العلم ، دل على أن هذا الذى قالوه ليس بصحيح ، وأنهم كاذبون فيه إذ لو كان علماً لكانوا صادقين فى الإخبار به ولم يقل لهم : ﴿ هَلْ عِندَكُمْ مِنْ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام : 148] ، وجعلت هذه الفرقة هذه الآيات حجة لها على التكذيب بالقضاء والقدر ، وزعمت بها أن يكون فى ملكه ما لا يشاءُ ، ويشاء ما لا يكون ، وأنه لا قدرة له على أفعال عباده من الإنس والجن والملائكة ولا على أفعال الحيوانات ، وأنه لا يقدر أن يضل أحداً ولا يهديه ولا يوفقه أكثر مما فعل به ، ولا يعصمه من الذنوب والكفر ولا يلهمه رشده ، ولا يجعل فى قلبه الإيمان ، ولا هو الذى جعل المصلى مصلياً والبر براً والفاجر فاجراً والمؤمن مؤمناً والكافر كافراً ، بل هم الذين جعلوا أنفسهم كذلك . فهذه الفرقة شاركت الفرقة التى قبلها فى إلقاء الحرب والعداوة بين الشرع والقدر : فالأولى تحيزت إلى القدر وحاربت الشرع ، والثانية تحيزت إلى الشرع وكذبت القدر .

والطائفتان ضالتان ، وإحداهما أضل من الأخرى .

*(118/256)*

والفرقة الثالثة : آمنت بالقضاء والقدر ، وأقرت بالأمر والنهى ، ونزلوا كل واحد منزلته . فالقضاءُ والقدر يؤمن به ولا يحتج به ، والأمر والنهى يمتثل ويطاع . فالإيمان بالقضاء والقدر عندهم من تمام التوحيد وشهادة أن لا إلَه إلا الله ، والقيام بالأمر والنهى موجب شهادة أن محمداً رسول الله . وقالوا : من لم يقر بالقضاء والقدر ويقوم بالأمر والنهى فقد كذب بالشهادتين وإن نطق بهما بلسانه . ثم افترقوا فى وجه هذه الآيات فرقتين : فرقة قالت : إنما أنكر عليهم استدلالهم بالمشيئة العامة والقضاء والقدر على رضاه ومحبته لذلك ، فجعلوا مشيئته له وتقديره له دليلاً على رضاه به ومحبته له ، إذ لو كرهه وأبغضه لحال بينهم وبينه ، فإن الحكيم إذا كان قادراً على دفع ما يكرهه ويبغضه دفعه ومنع من وقوعه وإذا لم يمنع من وقوعه لزم إما عدم

*(119/256)*

---

قدرته وإما عدم حكمته ، وكلاهما ممتنع فى حق الله ، فعلم محبته لما نحن عليه من عبادة غيره ومن الشرك به ، وقد وافق هؤلاء من قال : إن الله يحب الكفر والفسوق والعصيان ويرضى بها ، ولكن خالفهم فى أنه نهى عنها وأمر بأضدادها ويعاقب عليها ، فوافقهم فى نصف قولهم وخالفهم فى الشطر الآخر ، وهذه الآيات من أكبر الحجج على بطلان قول

الطائفتين ، وأن مشيئة الله تعالى العامة وقضاءَه وقدره لا يستلزم محبته ورضاه لكل ما شاءَه وقدَّره . وهؤلاء المشركون لما استدلوا بمشيئته على محبته ورضاه كذبهم وأنكر عليهم وأخبر أنه لا علم لهم بذلك وأنهم خارصون مفترون فإن محبة الله [تعالى] للشيء ورضاه به إنما يعلم بأمره به على لسان رسوله لا بمجرد خلقه له ، فإنه خلق إبليس وجنوده وهم أعداؤه وهو تعالى يبغضهم ويلعنهم وهم خلقه ، فهكذا فى الأفعال خلق خيرها وشرها ، وهو يحب خيرها ويأمر به ويثيب عليه ويبغض شرها وينهى عنه ويعاقب عليه وكلاهما خلقه ولله تعالى الحكمة البالغة التامة فى خلقه ما يبغضه ويكرهه من الذوات والصفات والأفعال ، كل صادر عن حكمته وعلمه كما هو صادر عن قدرته ومشيئته .

وقالت الفرقة الثانية : إنما أنكر عليهم معارضة الشرع بالقدر ودفع الأمر بالمشيئة ، فلما قامت عليهم حجة الله ولزمهم أمره ونهيه دفعوه بقضائه وقدره ، فجعلوا القضاءَ والقدر إبطالاً لدعوة الرسل ودفعاً لما جاؤوا به ، وشاركهم فى ذلك إخوانهم وذريتهم الذين يحتجون بالقضاء والقدر على المعاصى والذنوب فى نصف أقوالهم وخالفوهم فى النصف الآخر وهو إقرارهم بالأمر والنهى .

*(120/256)*

فانظر كيف انقسمت هذه المواريث على هذه السهام وورث كل قوم أئمتهم وأسلافهم ، إما فى جميع تركتهم وإما فى كثير منها . وإما فى جزء منها . وهدى الله بفضله ورثة أنبيائه ورسله لميراث نبيهم وأصحابه فلم يؤمنوا ببعض الكتاب ويكفروا ببعض ، بل آمنوا بقضاء الله وقدره ومشيئته العامة النافذة ، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه مقلب القلوب ومصرفها كيف أراد ، وأنه هو الذى جعل المؤمن مؤمناً والمصلى مصلياً والمتقى متقياً ، وجعل أئمة الهدى يهدون بأمره وأئمة الضلالة يدعون إلى النار ، وأنه ألهم كل نفس فجورها وتقواها ؛ وأنه يهدى من يشاءُ بفضله ورحمته ويضل من يشاءُ بعدله وحكمته ، وأنه هو الذى وفق أهل الطاعة

لطاعته فأطاعوه ولو شاء لخذلهم فعصوه وأنه حال بين الكفار وقلوبهم فإنه يحول بين المرء وقلبه فكفروا به ولو شاء لوفقهم فآمنوا به وأطاعوه ، وأنه من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ، وأنه لو شاء لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً إيماناً يثابون عليه ويقبل منهم ويرضى به عنهم ، وأنه لو شاء ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام : 112] .

*(121/256)*

والقضاءُ والقدر عندهم أربع مراتب جاءَ بها نبيهم وأخبر بها عن ربه تعالى : الأولى : علمه السابق بما هم عاملوه قبل إيجادهم . الثانية كتابة ذلك فى الذكر عنده قبل خلق السموات والأرض . الثالثة مشيئته المتناولة لكل موجود ، فلا خروج لكائن عن مشيئته كما لا خروج له عن علمه . الرابعة خلقه له وإيجاده وتكوينه ، فإنه لا خالق إلا الله ، والله خالق كل شيء . فالخالق عندهم واحد وما سواه فمخلوق ولا واسطة عندهم بين الخالق والمخلوق ، ويؤمنون مع ذلك بحكمته ، وأنه حكيم فى كل ما فعله وخلقه ، وأن مصدر ذلك جميعه عن حكمة تامة هى التى اقتضت صدور ذلك وخلقه ، وإن حكمته حكمة حق عائدة إليه قائمة به كسائر صفاته ، وليست عبارة عن مطابقة علمه لمعلومه وقدرته لمقدوره كما يقوله نفاة الحكمة الذين يقرون بلفظها دون حقيقتها ، بل هى أمر وراء ذلك ، وهى الغاية المحبوبة له المطلوبة التى هى متعلق محبته وحمده ، ولأجلها خلق فسوَّى وقَدَّر فهدى ، وأمات وأحيا وأسعد وأشقى ، وأضل وهدى ومنع وأعطى ، وهذه الحكمة هى الغاية ، والفعل وسيلة إليها ، فإثبات الفعل مع نفيها إثبات للوسائل ونفى للغايات وهو محال ، إذ نفي الغاية مستلزم لنفى الوسيلة ، فنفي الوسيلة

وهى الفعل لازم لنفى الغاية وهى الحكمة ، ونفى قيام الفعل والحكمة به نفى لهما فى الحقيقة ، إذ فعل لا يقوم بفاعله وحكمة لا تقوم بالحكيم شيء لا يعقل ، وذلك يستلزم إنكار ربوبيته وإلهيته ، وهذا لازم لمن نفى ذلك ، ولا محيد له عنه وإن أبى التزامه ، وأما من أثبت

حكمته وأفعاله على الوجه المطابق للعقل والفطرة وما جاءت به الرسل لم يلزم من قوله محذور البتة ، بل قوله حق ، ولازم الحق حق كائناً ما كان

(122/256)

---

والمقصود أن ورثة الرسل وخلفاءَهم – لكمال ميراثهم لنبيهم – آمنوا بالقضاء والقدر والحكم والغايات المحمودة فى أفعال الرب وأوامره ، وقاموا مع ذلك بالأمر والنهى ، وصدقوا بالوعد والوعيد ، فآمنوا بالخلق الذى من تمام الإيمان به إثبات القدر والحكمة ، وبالأمر الذى من تمام الإيمان به الإيمان بالوعد والوعيد وحشر الأجساد والثواب والعقاب ، فصدقوا بالخلق والأمر ، ولم ينفوهما بنفى لوازمهما كما فعلت القدرية المجوسية والقدرية المعارضة للأمر بالقدر ، وكانوا أسعد الناس بالخلق وأقربهم عصبة فى هذا الميراث النبوى ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

واعلم أن الإيمان بحقيقة القدر والشرع والحكمة لا يجتمع إلا فى قلوب خواص الخلق ولب العالم ، وليس الشأن فى الإيمان بألفاظ هذه المسميات وجحد حقائقها كما يفعل كثير من طوائف الضلال ، فإن القدرية تؤمن بلفظ القدر ، ومنهم من يرده إلى العلم ، ومنهم من يرده إلى الأمر الدينى ويجعل قضاءه وقدره هو نفس أمره ونهيه ونفس مشيئة الله لأفعال عباده

بأمره لهم بها وهذا حقيقة إنكار القضاءِ والقدر . وكذلك الحكمة ، فإن الجبرية تؤمن بلفظها ويجحدون حقيقتها ، فإنهم يجعلونها مطابقة علمه تعالى لمعلومه تعالى ، وإرادته لمراده تعالى ، فهى عندهم وقوع الكائنات على وفق علمه وإرادته . والقدرية النفاة لا يرضون بهذا ، بل يرتفعون عنه طبقة ويثبتون حكمة زائدة على ذلك ، لكنهم ينفون قيامها بالفاعل الحكيم ويجعلونها مخلوقاً من مخلوقاته كما قالوا فى كلامه وإرادته فهؤلاء كلهم أقروا بلفظ الحكمة وجحدوا معناها وحقيقتها . وكذلك الأمر والشرع ، فإن من أنكر كلام الله وقال : إن الله لم يتكلم ولا يتكلم ، ولا قال ولا يقول ، ولا يحب شيئاً ولا يبغض شيئاً ، وجميع الكائنات محبوبة له وما لم يكن فهو مكروه له ، ولا يحب ولا يرضى ولا يغضب ، ولا فرق فى نفس الأمر بين الصدق

*(123/256)*

---

والكذب [والبر] والفجور ، والسجود للأصنام والشمس والقمر والسجود له ، ولم يكلف أحداً ما يقدر عليه بل كل تكليفه [تكليف] ما لا يطاق ولا قدرة للمكلف عليه البتة ، ويجوز أن يعذب رجالاً إذ لم يكونوا نساءً ويعذب نساءً إذ لم يكونوا رجالاً وسوداً حيث لم يكونوا بيضاً وبيضاً حيث لم يكونوا سوداً ، ويجوز أن يظهر المعجزة على أيدى الكذابين

ويرسل رسولاً يدعو إلى الباطل وعبادة الأوثان ، ويأمر بقتل النفوس وأنواع الفجور . ولا ريب أن هذا يرفع الشرائع والأمر والنهى بالكلية ، ولولا تناقض القائلين به لكانوا منسلخين من دين الرسل [صلوات الله وسلامه عليه] ولكن مشى الحال بعض المشى بتناقضهم وهو خير لهم من طرد أصولهم والقول بموجبها .

والمقصود أنه لم يؤمن بالقضاء والقدر والحكمة والأمر والنهى والوعد والوعيد حقيقة [الإيمان] إلا أتباع الرسل وورثتهم ، والقضاءُ والقدر منشؤُه عن علم الرب وقدرته ، ولهذا قال الإمام أحمد : القدر قدرة الله ، واستحسن ابن عقيل هذا الكلام من أحمد غاية الاستحسان وقال : إنه شفى بهذه الكلمة وأفصح بها عن حقيقة القدر

*(124/256)*

---

المنكرون للقدر فرقتين : فرقة كذبت بالعلم السابق ونفته ، وهم غلاتهم الذين كفرهم السلف والأئمة وتبرأ منهم الصحابة . وفرقة جحدت كمال القدرة وأنكرت أن تكون أفعال العباد مقدورة لله تعالى وصرحت بأن الله لا يقدر عليها ، فأنكر هؤلاء كمال قدرة الرب ، وأنكرت الأخرى كمال علمه ، وقابلتهم الجبرية فجاءت على إثبات [القدرة] والعلم وأنكرت الحكمة والرحمة ، ولهذا كان مصدر الخلق والأمر والقضاءِ والشرع عن علم الرب

وعزته وحكمته ، ولهذا يقرن تعالى بين الاسمين [والصفتين] من هذه الثلاثة كثيراً كقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [النمل : 6] ، وقال : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ ﴾ [الحكيم] [الزمر : 1] ، وقال : ﴿ حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [غافر : 1 - 2] وقال : فى حم فصلت بعد ذكر تخليق العالم : ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [فصلت : 12]

وذكر نظير هذا [فى الأنعام] فقال : ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام : 96] .

فارتباط الخلق بقدرته التامة يقتضى أن لا يخرج موجود عن قدرته ، وارتباطه بعلمه

*(125/256)*

---

التام يقتضى إحاطته به وتقدمه عليه ، وارتباطه بحكمته يقتضى وقوعه على أكمل الوجوه وأحسنها واشتماله على الغاية المحمودة المطلوبة للرب [تعالى] . وكذلك [ارتباط] أمره بعلمه وحكمته وعزته ، فهو عليم بخلقه وأمره حكيم فى خلقه عزيز فى خلقه وأمره .

ولهذا كان الحكيم من أسمائه الحسنى والحكمة من صفاته العلى ، والشريعة الصادرة عن أمره مبناها على الحكمة ، والرسول المبعوث بها مبعوث بالكتاب والحكمة ، والحكمة هى

سنة الرسول صلى الله عليه وسلم وهى تتضمن العلم بالحق [والعمل] به [والخبر] عنه والأمر به ، فكل هذا يسمى حكمة وفى الأثر "الحكمة ضالة المؤمن" ، وفى الحديث : "إن من الشعر حكمة" ، فكما لا يخرج مقدور عن علمه وقدرته ومشيئته فهكذا لا يخرج عن حكمته وحمده وهو محمود على جميع ما فى الكون من خير وشر حمداً استحقه لذاته وصدر عنه خلقه وأمره ، فمصدر ذلك كله عن الحكمة ، فإنكار الحكمة إنكار لحمده فى الحقيقة والله أعلم .

فصل : فى تفصيل ما أجمل فيما مر وتوضيحه

. . .

وإنما يتبين هذا ببيان وجود الحكمة فى كل ما خلقه الله وأمر به

*(126/256)*

---

، وبيان أنه كله خير من جهة إضافته إليه سبحانه ، وأنه من تلك الإضافة خير وحكمة ، وأن جهة الشر منه من جهة إضافته إلى العبد ، كما قال [النبى] صلى الله عليه وسلم فى دعاءِ الاستفتاح : "لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ ، وَالْخَيْرُ فِى يديك ، والشر ليس إليك" ، فهذا النفى يقتضى امتناع إضافة الشر إليه تعالى بوجه ، فلا يضاف إلى ذاته ولا صفاته ولا أسمائه ولا

أفعاله ، فإن ذاته تعالى منزهة عن كل شر ، وصفاته كذلك إذ كلها صفات كمال ونعوت جلال لا نقص فيها بوجه من الوجوه ، وأسماؤه كلها حسنى ليس فيها اسم ذم ولا عيب ، وأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وإحسان وعدل لا تخرج عن ذلك البتة ، وهو المحمود على ذلك كله فيستحيل إضافة الشر إليه ، وتحقيق ذلك أن الشر ليس هو إلا الذنوب وعقوباتها كما فى خطبته صلى الله عليه وسلم : "الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا" ، فتضمن ذلك الاستعاذة من شرور النفوس ومن سيئات الأعمال وهى عقوباتها . وعلى هذا فالإضافة على معنى "اللام" من باب إضافة المتغايرين ، أو يقال : المراد السيئات من الأعمال ، فعلى هذا الإضافة بمعنى "من" وهى من باب إضافة النوع إلى

*(127/256)*

---

جنسه ، ويدل على الأول قوله تعالى : ﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴾ [غافر : 9] قال شيخنا : وهذا أشبه [أنه] إذا أريد السيئات من الأعمال ، فإن أريد ما وقع منها فالاستعاذة إنما تكون من عقوباتها ، إذ الواقع [لا يمكن دفعه وإن استعاذه منها قبل وقوعها لئلا تقع فهذا هو الاستعاذة] من شر النفس . وأيضاً فلا يقال فى

هذه التى لم توجد بعد سيئات أعمالنا فإنها لم تكن بعد أعمالاً فضلاً عن أن تكون سيئات ، وإضافة الأعمال إلينا تقتضى وجودها إذ لم يوجد بعد ليس هو من أعمالنا إلا أن يقال : من سيئات الأعمال التى إذا [عملناها] كانت سيئات . ولمن رجح التقدير الثانى أن يقول : العقوبات ليست لجميع الأعمال ، بل للمحرمات منها ، والأعمال أعم وحملها على المحرمات خاصة خلاف ظاهر اللفظ ، بخلاف ما إذا كانت الإضافة على معنى "من" فتكون الأعمال على عمومها والسيئات بعضها ، فتكون السيئات على عمومها . ويترجح أيضاً أن الاستعاذة تكون قد اشتملت على أصول الشر كله ، وهو شر النفس الكامن فيها الذى لم يخرج إلى العمل ، وشر العمل الخارج الذى سولته النفس فالأول شر الطبيعة والصفة التى فى النفس والثانى شر العمل المتعلق بالكسب والإرادة ، ويلزم من المعافاة من هذين الشرين المعافاة من موجبهما وهو العقوبة ، فتكون الاستعاذة قد شملت جميع أنواع الشر بالمطابقة واللزوم ، وهذا هو اللائق بمن أوتى جوامع الكلم ، فإن هذا من جوامع [كلمة] البديعة العظيمة الشأن التى لا يعرف قدرها إلا أهل العلم والإيمان .

*(128/256)*

وإذا عرف هذا وأنه ليس فى الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها ، وكونها ذنوباً تأتى من نفس العبد ، فإن سبب الذنب الظلم والجهل وهما من نفس العبد ، كما أن سبب الخير الحمد والعلم والحكمة والغنى وهى أمور ذاتية للرب [تعالى] وذات الرب [تعالى] مستلزمة للحكمة والخير والجود ، وذات العبد مستلزمة للجهل والظلم ، وما فيه من العلم والعدل فإنما حصل له بفضل الله عليه وهو أمر خارج عن نفسه ، فمن أراد الله به خيراً أعطاه هذا الفضل فصدر منه بوحيه من الإحسان والبر والطاعة ، ومن أراد به شراً أمسكه عنه وخلاه ودواعى نفسه وطبعه وموجبها فصدر منه موجب الجهل والظلم من كل شر وقبيح ، وليس منعه لذلك ظلماً منه [تعالى] ، فإنه فضله ، وليس من منع فضله ظالماً ، لا سيما إذا منعه عن محل لا يستحقه ولا يليق به . وأيضا فإن هذا الفضل هو توفيقه وإرادته من نفسه أن يلطف بعبده ويوفقه ويعينه ولا يخلى بينه وبين نفسه ، وهذا محض فعله وفضله ، وهو سبحانه أعلم بالمحل الذى يصلح لهذا الفضل ويليق به ويثمر [فيه] ويزكو به . وقد أشار الله تعالى إلى هذا المعنى بقوله ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام : 53] ، فأخبر سبحانه أنه أعلم بمن يعرف قدر هذه النعمة ويشكره عليها .

(129/256)

عليها فإن أصل الشكر هو الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع له والذل والمحبة ، فمن لم يعرف النعمة ، بل كان جاهلاً بها لم يشكرها ، ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها لم يشكرها أيضاً ، ومن عرف النعمة والمنعم لكن جحدها كما يجحد المنكر لنعمة المنعم عليه بها فقد كفرها ، ومن عرف النعمة والمنعم وأقر بها ولم يجحدها ولكن لم يخضع له ويحبه ويرض به وعنه لم يشكرها أيضاً ، ومن عرفها وعرف المنعم بها وأقر بها وخضع للمنعم بها وأحبه ورضى به وعنه واستعملها فى محابه وطاعته فهذا هو الشاكر لها . فلا بد فى الشكر من علم القلب ، وعمل يتبع العلم – وهو الميل إلى المنعم ومحبته والخضوع له – كما فى صحيح البخارى عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أَنْ يَقُولَ العَبْدُ : اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّى لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ ، خَلَقْتَنِى وأَنَا عَبْدُكَ ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ أَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ مَا صَنَعْتُ ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَى ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِى ، فَاغْفِرْ لِى فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا أَنْتَ ، مَنْ قَالَهَا إِذَا أَصْبَحَ مُوقِناً بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ ومن قالها إذا أمسى موقناً بها فمات من ليلته دخل الجنة ، فقوله : "أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَى" يتضمن الإقرار والإنابة إلى الله بعبوديته ، فإن المباءَة هى التى يبوءُ إليها الشخص – أى يرجع إليها رجوع استقرار – والمباءَة هى المستقر ، ومنه قوله [صلى الله عليه وسلم] : " مَنْ كَذِبَ عَلَى مُتَعَمِداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ" ، أى ليتخذ مقعده من النار

مباءَة يلزمه ويستقر فيه ، لا كالمنزل الذى ينزله ثم يرحل عنه . فالعبد يبوءُ إلى الله [عز وجل] بنعمته عليه ، ويبوءُ بذنبه ، ويرجع إليه بالاعتراف بهذا وبهذا رجوع مطمئن إلى ربه منيب إليه ،

*(130/256)*

---

ليس رجوع من أقبل عليه ثم أعرض عنه ، بل رجوع من لا يعرض عن ربه بل لا يزال مقبلاً عليه إذا كان لا بد له منه ، فهو معبوده وهو مستغاثه ، لا صلاح له إلا بعبادته ، فإن لم يكن معبوده هلك وفسد ، ولا يمكن أن يعبده إلا بإعانته . وفى الحديث : "مَثَلُ الْمُؤْمِنِ مَثَلُ الْفَرَسِ فِى آخِيَتِهِ يَجُولُ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى آخِيَتِهِ ، كَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ يَجُولُ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى الإِيمَانِ" . فقوله : "أبوءُ" يتضمن أنى وإن جلت كما يجول الفرس – إما بالذنب وإما بالتقصير فى الشكر – فإنى راجع منيب أوّاب إليك ، رجوع من لا غنى له عنك . وذكر النعمة والذنب لأن العبد دائماً يتقلب بينهما ، فهو بين نعمة من ربه وذنب منه هو ، كما فى الأثر الإلهى : "ابنَ آدم خيرى إليك نازل ، وشرك إلى صاعد ، كم أتحبب إليك بالنعم وأنا غنى عنك ، وكم تتبغض إلى بالمعاصى وأنت فقير إلى ولا يزال الملك الكريم يعرج إلى منك بعمل قبيح" وكان فى زمن الحسن البصرى شاب لا يرى إلا ه ، وحد فسأله الحسن عن ذلك فقال : إنى

أجدنى بين نعمة من الله وذنب منى فأريد أن أُحدث للنعمة شكراً وللذنب استغفاراً ، فذلك الذى شغلنى عن الناس أو كما قال . فقال له : أنت أفقه [عندى] من الحسن .

*(131/256)*

---

فالخير كله من الله كما قال تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّنْ نِعمَةٍ فَمِنَ الله ﴾ [النحل : 53] ، وقال تعالى ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضْلاً مِّنَ الله وَنِعْمَةً ﴾ [الحجرات : 7 – 8] ، وقال : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لاَّ تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ بَلِ اللّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات : 17] ، وقال تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة : 6 – 7] ، وهؤلاء المنعم عليهم هم المذكورون فى قوله : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً ﴾ [النساء : 69] فالنعم كلها [من نعم الدين والدنيا وهو أن الأعمال فى الدنيا والآخرة] من نعم الله ومنه وفضله على عبده وهو سبحانه – وإن كان أجود الأجودين وأرحم الراحمين وأكرم الأكرمين – فإنه أحكم الحاكمين وأعدل العادلين ، لا يضع الأشياء إلا

فى مواضعها اللائقة بها ولا يناقض جوده ورحمته وفضله حكمته وعدله . ولو رأى العقلاءُ واحداً منهم قد وضع المسك فى الحشوس والأخلية ووضع النجاسات والقاذورات فى مواضع الطيب والنظافة لاشتد نكيرهم عليه والقدح فى عقله ونسبوه إلى السفه وخلاف الحكمة ،

وكذلك لو وضع العقوبة موضع الإحسان والإحسان موضع العقوبة لسفهوه وقدحوا فى عقله ، كما قال القائل :

ووضع الندى موضع السيف بالعلا . . . مضر كوضع السيف فى موضع الندي

*(132/256)*

---

وكذلك لو وضع الدواء موضع الغذاء والغذاء موضع الدواء ، والاستفراغ حيث يكون اللائق به عدمه والإمساك حيث يليق الاستفراغ وكذلك وضع الماءَ موضع الطعام والطعام موضع الماءِ ، وأَمثال ذلك مما يخل بالحكمة ، بل لو أقبل على الحيوان البهيم يريد تعليمه ما لم يخلق له من العلوم والصنائع ، فمن بهرت حكمته العقول والألباب كيف ينبغى له أن يضع الأشياء فى غير مواضعها اللائقة بها ؟ ومن المعلوم أن أَجلَّ نعمة على عبده نعمة الإيمان به ومعرفته ومحبته وطاعته والرضا به والإنابة إليه والتوكل عليه والتزام عبوديته . ومن المعلوم

أيضاً أن الأرواح منها الخبيث الذى لا أخبث منه ، ومنها الطيب ، وبين ذلك ، وكذلك القلوب منها القلب الشريف الزكى ، والقلب الخسيس الخبيث ، وهو سبحانه خلق الأضداد كما خلق الليل والنهار والبرد والحر والداء والدواء والعلو والسفل وهو أعلم بالقلوب الزاكية والأرواح الطيبة التى تصلح لاستقرار هذه النعم فيها ، وإيداعها عندها ، ويزكو [بذروها] فيها ، فيكون تخصيصه لها بهذه النعم كتخصيص الأرض الطيبة القابلة [للبذر] بالبذر ، فليس من الحكمة أن يبذر البذر فى الصخور والرمال والسباخ ، وفاعل ذلك غير حكيم فما الظن ببذر الإيمان والقرآن والحكمة ونور المعرفة والبصيرة فى المحال التى هى أخبث المحال .

فالله [عز وجل] أعلم حيث يجعل رسالاته أصلاً وميراثاً فهو أعلم بمن يصلح لتحمل رسالته فيؤديها إلى عباده بالأمانة والنصيحة وتعظيم المرسل والقيام بحقه والصبر على أوامره والشكر لنعمه والتقرب إليه ، ومن لا يصلح لذلك . وكذلك هو سبحانه أعلم بمن يصلح من الأُمم لوراثة رسله والقيام بخلافتهم وحمل ما بلغوه عن ربهم

قال عبد الله بن مسعود : إن الله نظر فى قلوب العباد فرأى قلب محمد صلى الله عليه وسلم خير

قلوب أهل الأرض فاختصه برسالته ، ثم نظر فى قلوب العباد فرأى قلوب أصحابه خير قلوب العباد فاختارهم لصحبته .

وفى أثر بنى إسرائيل أن الله تعالى قال لموسى : أتدرى لم اخترتك لكلامى ؟ قال : لا يا رب . قال : إنى نظرت فى قلوب العباد فلم أر فيها أخضع من قلبك لى . أو نحو هذا . فالرب سبحانه إذا علم من محل أهلية لفضله ومحبته ومعرفته وتوحيده حبب إليك ذلك ووضعه فيه وكتبه فى قلبه ووفقه له وأعانه عليه ويسر له طرقه وأغلق دونه الأبواب التى تحول بينه وبين ذلك ، ثم تولاه بلطفه وتدبيره وتيسيره وتربيته أعظم من تربية الوالد الشفيق الرحيم المحسن لولده الذى هو أحب شئ إليه ، فلا يزال يعامله بلطفه ويختصه بفضله ويؤثره برحمته ويمده بمعونته ويؤيده بتوفيقه ويريه مواقع إحسانه إليه وبره به ، فيزداد العبد به معرفة وله محبته وإليه إنابة وعليه توكلاً ، ولا يتولى معه غيره ولا يعبد معه سواه ، وهذا هو الذى عرف قدر النعمة وعرف المنعم وأقر بنعمته وصرفها فى مرضاته . واقتضت حكمة الرب [تعالى] وجودُه وكرمه وإحسانه أن بذر فى هذا القلب بذر الإيمان والمعرفة . وسقاه ماء العلم النافع والعمل الصالح ، وأطلع عليه من نوره شمس الهداية ، وصرف عنه الآفات المانعة من حصول الثمرة ، فأنبتت أرضه الزاكية من كل زوج كريم ، كما فى الصحيح من حديث أبى موسى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "مَثَلُ مَا بَعَثَنِى اللهُ مِنَ الْهُدَى

وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضاً ، فَكَانَ منها طَائِفَة طَيِّبَة قبلت الْمَاء فَأَنْبَتَتْ الْكلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ ، وكَانَ مِنْهَا طَائِفَةٌ أَجَادِبُ أَمْسَكَت الماءِ فَسُقِى النَّاسُ وَزَرَعُوا ، وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِى قِيعَانٌ لا تَمْسِكُ مَاءً وَلا تُنْبِتُ كَلأً ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِى دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِى اللهُ بِهِ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْساً وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ"

*(134/256)*

---

فمثّل القلوب بالأرض التى هى محل النبات والثمار ومثل الوحى الذى وصل إليها من بارئها وفاطرها بالماءِ الذى ينزله على الأرض ، فمن الأَرض أرض طيبة قابلة للماءِ والنبات ، فلما أصابها الماءُ أنبتت ما انتفع به الآدميون والبهائم وأَقوات المكلفين وغيرهم ، وهذه بمنزلة القلب القابل لهدى الله ووحيه المستعد لزكائه فيه وثمرته ونمائه ، وهذا خير قلوب العالمين . ومن الأرض أرض صلبة منخفضة غير مرتفعة ولا رابية ، قابلة لحفظ الماءِ واستقراره فيها ، ففيها قوة الحفظ وليس فيها قوة النبات فلما حصل فيها الماءُ أَمسكته وحفظته فورده الناس

لشربهم وشرب مواشيهم وسقوا منه زروعهم ، وهذا بمنزلة القلب الذى حفظ الوحى

وضبطه وأَداه إلى من هو أفهم له منه وأَفقه منه وأَعرف بمراده ، وهذا فى الدرجة الثانية .

ومن الأرض أرض قيعان – وهى المستوية التى لا تنبت إما لكونها سبخة أو [رمالاً] ، ولا يستقر فيها الماء – فإذا وقع عليها الماءُ ذهب ضائعاً لم تمسكه لشرب الناس ولم تنبت به كلأَ لأنها غير قابلة لحفظ الماءِ ولا لنبات الكلإِ والعشب وهذا حال أَكثر الخلق وهم الأَشقياءُ الذين لم يقبلوا هدى الله ولم يرفعوا به رأْساً ، ومن كان بهذه المثابة فليس من المسلمين ، بل لا بد لكل مسلم أن يزكو الوحى فى قلبه فينبت من العمل الصالح والكلم الطيب ونفع نفسه وغيره بحسب قدرته ، فمن لم ينبت قلبه شيئاً من الخير البتة فهذا من أشقى الأشقياءِ . فصلوات الله وسلامه على من الهدى والبيان والشفاءُ والعصمة فى كلامه وفى أمثاله .

*(135/256)*

---

والمقصود أن الله سبحانه أَعلم بمواقع فضله ورحمته وتوفيقه ، ومن يصلح لها ومن لا يصلح ، وأَن حكمته تأْبى أَن يضع ذلك عند غير أَهله ، كما تأْبى أن يمنعه من يصلح له . وهو سبحانه الذى جعل المحل صالحاً وجعله أَهلاً وقابلاً ، فمنه الإعداد والإمداد ، ومنه السبب والمسبب . ومن اعترض بقوله : فهلا جعل المحالّ كلها كذلك ، وجعل القلوب على

قلب واحد ، فهو من أَجهل الناس وأضَلهم وأسفههم ، وهو بمنزلة من يقول : لم خلق الأَضداد ، وهلا جعلها كلها شيئاً واحداً ، فلم خلق الليل والنهار والفوق والتحت والحر والبرد والدواءَ والداءَ والشياطين والملائكة والروائح الطيبة والكريهة والحلو والمر والحسن والقبيح ؟ وهل يسمح خاطر من له أَدنى مسكة من عقل بمثل هذا السؤال الدَّالّ على حمق سائله وفساد عقله ؟ وهل ذلك إلا موجب ربوبيته وإلاهيته وملكه وقدرته ومشيئته وحكمته ، ويستحيل أن يتخلف موجب صفات كماله عنها ؟ وهل حقيقة الملك إلا بإكرام الأولياءِ وإهانة الأَعداءِ ؟ وهل تمام الحكمة وكمال القدرة إلا بخلق المتضادات والمختلفات وترتيب آثارها عليها وإيصال ما يليق بكل منها إليه ؟ وهل ظهور آثار أَسمائه وصفاته فى العالم إلا من لوازم ربوبيته وملكه ؟ فهل يكون رزّاقاً وغفاراً وعفوّاً ورحيماً وحليماً ولم يوجد من يرزقه ، ولا من يغفر له ويعفو عنه ويحلم عنه ويرحمه ؟ وهل انتقامه إلا من لوازم ربوبيته وملكه ؟ فممن ينتقم إن لم يكن له أعداء ينتقم منهم ، ويرى أولياءه كمال



---

نعمته عليهم واختصاصه إياهم دون غيرهم بكرامته وثوابه ؟ وهل فى الحكمة الإلهية تعطيل الخير الكثير لأجل شر جزئى يكون من لوازمه ؟ فهذا الغيث الذى يحيى به الله

البلاد والعباد والشجر والدواب . كم يحبس من مسافر ، ويمنع من قصاد ، ويهدم من بناءٍ ، ويعوق [عن] مصلحة ؟ ولكن أين هذا مما يحصل به من المصالح ؟ وهل هذه المفاسد فى جنب مصالحه إلا كتفلة فى بحر ؟ وهل تعطيله لئلا تحصل به هذه المفاسد إلا موجباً لأعظم المفاسد والهلاك ؟ وهذه الشمس التى سخرها الله لمنافع عباده وإنضاج ثمارهم وأقواتهم وتربية أبدانهم وأبدان الحيوانات والطير ، وفيها من المنافع والمصالح ما فيها كم تؤذى مسافراً وغيره بحرّها ، وكم تجفف رطوبة وكم تعطش حيواناً ، وكم تحبس عن مصلحة ، وكم [تشف] من مورد وتحرق من زرع ؟ ولكن أين يقع هذا فى جنب ما فيها من المنافع والمصالح الضرورية المكملة ؟ فتعطيل الخير الكثير لأجل الشر اليسير شر كثير ، وهو خلاف موجب الحكمة الذى تنزه الله سبحانه عنه .

*(137/256)*

---

قلت لشيخ الإسلام : فقد كان من الممكن خلق هذه الأمور مجردة عن المفاسد مشتملة على المصلحة الخالصة فقال : خلق هذه الطبيعة بدون لوازمها ممتنع ، فإن وجود الملزوم بدون لازمه محال ، ولو خلقت على غير هذا الوجه لكانت غير هذه ، ولكان عالماً آخر غير هذا . قال : ومن الأشياء ما تكون ذاته مستلزمة لنوع من الأمور لا ينفك عنه –

كالحركة مثلاً المستلزمة لكونها لا تبقى – فإذا قيل : لما لم تخلق الحركة المعينة باقية ؟ قيل : لأن ذات الحركة تتضمن النقلة من مكان إلى مكان والتحول من حال إلى حال ، فإذا قدر ما ليس كذلك لم يكن حركة . ونفس الإنسان هى فى ذاتها جاهلة عاجزة فقيرة كما قال تعالى : ﴿ وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ [النحل : 78] ، وإنما [يأتيها] العلم والقدرة والغنى من الله بفضله ورحمته ، فما حصل لها من كمال وخير فمن الله ، وما حصل لها من عجز وفقر وجهل يوجب الظلم والشر فهو منها ومن حقيقتها . وهذه أمور عدمية ، وليس لها من نفسها وجود ولا كمال والأمور العدمية من لوازم وجودها ، ولو جعلت على غير ذلك لم تكن هى هذه النفس الإنسانية بل مخلوقاً آخر .

*(138/256)*

---

فحقيقة نفس الإنسان جاهلة ظالمة فقيرة محتاجة ، والشر الذى يحصل لها نوعان : عدم ، ووجود . فالأول كعدم العلم والإيمان والصبر وإرادة الخيرات وعدم العمل بها ، وهذا العدم ليس له فاعل إذ العدم المحض لا يكون له فاعل ، لأن تأثير الفاعل إنما هو فى أمر وجودى ، وكذلك عدم استعدادها للخيرات والكمالات هو عدم محض ليس له فاعل ، فإن العدم ليس بشئ أصلاً ، وما ليس بشيء لا يقال إنه مفعول لفاعل ، فلا يقال إنه من الله ، إنما يحتاج

إلى الفاعل الأمور الوجودية ، ولهذا من قول المسلمين كلهم : "ما شاءَ الله كان ، وما لم يشأ لم يكن" فكل كائن فبمشيئته كان وما لم يكن فلعدم مشيئته . والعدم يعلل بعدم السبب أو الشرط تارة ، وبوجود المانع أخرى . وقد يقال علة العدم عدم العلة . وبعض الناس يقول : الممكن لا يترجح أحد طرفيه إلا بمرجح ، فلا يوجد إلا بسبب ، ولا يعدم إلا بسبب قال : والتحقيق فى هذا أن العدم ليس له فاعل ولا علة فاعلة أصلاً [بل] ، إذا أضيف إلى عدم السبب أو عدم الشرط فمعناه الملازمة ، أى عدم العلة استلزم عدم المعلول وعدم الشرط استلزم عدم المشروط . فإذا قيل : عدم لعدم [عليه أى عدم عليه] مستلزمة لعدمه ، والنفس تطلب سبب العدم ، فتقول : لما لم يوجد كذا ؟ فيقال : لعدم كذا ، فيضاف عدم المعلوم إلى عدم علته ، لا إضافة تأثير ولكن إضافة استلزام وتعريف ، وأما التعليل بالمانع فلا يكون إلا مع قيام السبب إذا جعل المانع مقتضياً للعدم ، وأما إذا أريد قياس الدلالة فوجود المانع يستلزم عدم الحكم سواءٌ كان المقتضى موجوداً أو لم يكن .

*(139/256)*

---

والمقصود أن ما عدمته النفس من كمالها فمنها فإنها لا تقتضى إلا [العدم] ، أى عدم استعداد نفسها وقوتها هو السبب فى عدم هذا الكمال ، فإنه كما يكون أحد الوجودين

سبباً للآخر فكذلك أَحد العدمين يكون سبباً لعدم الآخر ، والموجود الحادث يضاف إلى السبب المقتضى لإيجاده وأما المعدوم فلا يحتاج استمراره على العدم إلى فاعل يحدث العدم ، بل يكفى فى استمراره عدم مشيئة الفاعل المختار له ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، لانتفاءِ مشيئته ، فانتفاء مشيئة كونه سبب عدمه ، وهذا معنى قولهم : عدم علة الوجود علة العدم ، وبهذا الاعتبار الممكن القابل للوجود والعدم لا يترجح أحد طرفيه على الآخر إلا بمرجح ، فمرجح عدمه عدم مرجحه ، ومعنى الترجيح والسببية [هاهنا] الاستلزام لا التأثير كما تقدم ، فظهر استحالة إضافة هذا الشر إلى الله عز وجل .

*(140/256)*

---

وأما الشر الثانى ، وهو الشر الوجودى – كالعقائد الباطلة والإرادات الفاسدة – فهو من لوازم ذلك العدم ، فإنه متى عدم ذلك العلم النافع والعمل الصالح من النفس لزم أن يخلفه الشر والجهل وموجبهما ولا بد ، لأن النفس لا بد لها من أحد الضدين ، فإذا لم تشتغل بالضد النافع الصالح اشتغلت بالضد الضار الفاسد ، وهذا الشر الوجودى هو من خلقه تعالى إذ لا خالق سواه ، وهو خالق كل شيء ، لكن كل ما خلقه الله فلا بد أن يكون له فى خلقه حكمة لأجلها خلقه ، لو لم يخلقه فاتت تلك الحكمة ، وليس فى الحكمة تفويت هذه

الحكمة التى هى أحب إليه سبحانه من الخير الحاصل بعدمها ، فإن فى وجودها من الحكمة والغايات التى يحمد عليها سبحانه أضعاف ما فى عدمها من ذلك ، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع ، وليس فى الحكمة تفويت هذه الحكمة العظيمة لأجل ما يحصل للنفس من الشر مع ما حصل من الخيرات التى لم تكن تحصل بدون هذا الشر ، ووجود الشيء لا يكون إلا مع وجود لوازمه وانتفاء أضداده ، فانتفاء لوازمه يكون ممتنعاً لغيره ، وحينئذ فقد يكون هدى هذه النفوس الفاجرة [وسعادتها] مشروطاً بلوازم لم تحصل ، أو بانتفاء أضداد لم تنتف .

*(141/256)*

---

فإن قيل : فهلا حصلت تلك اللوازم وانتفت تلك الأضداد ، فهذا هو السؤال الأول ، وقد بينا أن لوازم هذا الخلق وهذه النشأة وهذا العالم لا بد منها ، فلو قدر عدمها لم يكن هذا العالم بل عالماً آخر ونشأة أخرى وخلقاً آخر ، وبينا أن هذا السؤال بمنزلة أن يقال : هلا تجرد الغيث والأنهار عما يحصل به من تغريق [وتعويق] وتخريب وأذى ؟ وهلا تجردت الشمس عما يحصل منها من حر وسموم وأذى ؟ وهلا تجردت طبيعة الحيوان عما يحصل له من ألم وموت وغير ذلك ؟ وهلا تجردت الولادة عن مشقة الحمل والطلق وألم الوضع ، هلا

تجرد بدن الإنسان عن قبوله للآلام والأوجاع واختلاف الطبائع الموجبة لتغير أحواله ؟ وهلا تجردت فصول العام عما [يحدث] فيها من البرد الشديد القاتل والحر الشديد المؤذى ؟ فهل يقبل عاقل هذا السؤال أو يورده ؟ وهل هذا إلا بمنزلة أن يقال : لم كان المخلوق فقيراً محتاجاً والفقر والحاجة صفة نقص ، فهلا تجرد منها

*(142/256)*

---

وخلعت عليه خلعة الغنى المطلق والكمال المطلق ؟ فهل يكون مخلوقاً إذا كان غنياً غنى مطلقاً ؟ ومعلوم أن لوازم الخلق لا بد منها فيها ، ولا بد للعلو من سفل ، والسفل من مركز ولوازم العلو من السعة والإضاءة والبهجة والخيرات وما هناك من الأرواح العلوية النيرة المناسبة لمحلها وما يليق بها ويناسبها من الابتهاج والسرور والفرح والقوة والتجرد من علائق المواد العلية لا بد منها ، ولوازم السفل والمركز من الضيق والحصر ولوازم ذلك من [الظلمة والغلط] والشر وما هنالك من الأرواح السفلية المظلمة الشريرة وأعمالها وآثارها لا بد منها ، فهما عالمان علوى وسفلى ومحلان وساكنان تناسبهما مساكنهما وأعمالهما وطبائعهما ، وقد خلق كلا من المحلين معموراً بأهليه وساكنيه حكمة بالغة وقدرة قاهرة ، وكل من هذه الأرواح لا يليق بها غير ما خلقت له مما يناسبها ويشاكلها قال تعالى : ﴿ قُلْ

كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ﴾ [الإسراء : 84] أى على ما يشاكله ويناسبه ويليق به ، كما يقول الناس : "كل إناءٍ بالذى فيه ينضح" ، فمن أرادت من الأرواح الخبيثة السفلية أن تكون مجاورة للأرواح الطيبة العلوية فى مقام الصدق بين الملأ الأعلى فقد أراد ما تأباه حكمة أحكم الحاكمين ، ولو أن ملكاً من ملوك الدنيا جعل خاصته وحاشيته سفلة الناس وسقطهم وغرتهم الذين تتناسب أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم فى القبح والرداءة والدناءة لقدح الناس فى ملكه وقالوا : لا يصلح للملك ، فما الظن بمجاورى الملك الأعظم مالك الملوك فى داره وتمتعهم برؤية وجهه وسماع كلامه ومرافقتهم للملأ الأعلى الذين هم أطيب خلقه وأزكاهم وأشرفهم ، أفيليق بذلك الرفيق الأعلى والمحل الأسنى والدرجات العلى روح سفلية أرضية قد أخلدت إلى الأرض وعكفت على ما تقتضيه طبائعها مما [تشاركها] فيه بل قد تزيد على الحيوان البهيم وقصرت همتها عليه وأقبلت بكليتها عليه لا ترى نعيماً ولا لذة ولا سروراً إلا ما وافق طباعها

*(143/256)*

---

من كل مأكل ومشرب ومنكح من أين كان وكيف اتفق ، فالفرق بينها وبين الحمير والكلاب والبقر بانتصاب القامة ونطق اللسان والأكل باليد ، وإلا فالقلب والطبع على [شاكله]

قلوب هذه الحيوانات وطباعها ، وربما كانت طباع الحيوانات خيراً من طباع هؤلاء وأسلم وأقبل للخير ولهذا جعلهم الله سبحانه شر الدواب فقال تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال : 22 – 23] ، فهل يليق بحكمة العزيز الحكيم أن يجمع بين خير البرية وأزكى الخلق وبين شر البرية وشر الدواب فى دار واحدة يكونون فيها على حال واحدة من النعيم أو العذاب ؟ قال الله تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم : 35 – 36] ، فأنكر عليهم الحكم بهذا وأخرجه مخرج الإنكار لا مخرج الإخبار لينبه العقول على هذا مما تحيله الفطر وتأباه العقول السليمة ، وقال تعالى : ﴿ لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [الحشر : 20] ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص : 28] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر : 9] بل الواحد من الخلق لا تستوى أعاليه وأسافله ، فلا يستوى عقبه وعينه ، ولا رأسه ورجلاه ، ولا يصلح أحدهما لما يصلح له الآخر فالله عز وجل قد خلق الخبيث والطيب والسهل والحزن والضار والنافع ، وهذه أجزاء الأرض : منها ما يصلح جلاءً للعين ومنها ما يصلح للأتون والنار .

وبهذا ونحوه يعرف كمال القدرة وكمال الحكمة : فكمال القدرة بخلق الأضداد . وكمال الحكمة تنزيلها منازلها ووضع كل منها فى موضعه والعالم من لا يلقى الحرب بين قدرة الله وحكمته – فإن آمن بالقدرة قدح فى الحكمة وعطلها وإن آمن بالحكمة قدح فى القدرة ونقصها – بل يربط القدرة بالحكمة ، ويعلم شمولها لجميع ما خلقه الله ويخلقه ، فكما أنه لا يكون إلا بقدرته ومشيئته فكذلك لا يكون إلا بحكمته . وإذا كان لا سبيل للعقول البشرية إلى الإحاطة بهذا تفصيلاً ، فيكفيها الإيمان بما تعلم وتشاهد منه ، ثم تستدل على الغائب بالشاهد وتعتبر ما علمت بما لم تعلم . وقد ضرب الله الأمثال لعباده فى كتابه وبَيَّن لهم ما فى لوازم ما خلقه لهم وأنزله عليهم من الغيث الذى به حياتهم وأقواتهم وحياة الأرض والدواب وما خلقه لهم من المعادن التى بها صلاح أبدانهم وأقواتهم وصنائعهم من الشر والخير وبين المغمور بالإضافة إلى الخير الحاصل بذلك فقال تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ

يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقّ وَالْبَاطِلَ فَأَمّا الزّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمّا مَا يَنفَعُ النّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ ﴾ [الرعد : 17] فأخبر سبحانه أن الماء [سبب] بمخالطته الأرض إذا سال فلا بد من أن يحمل السيل من الغثاءِ والوسخ وغيره زبداً عالياً على وجه السيل ، فالذى لا يعرف ما تحت الزبد يقصر نظره عليه ولا يرى إلا غثاءً ووسخاً ونحو ذلك ولا يرى ما تحته من مادة الحياة ، وكذلك ما يستخرج من المعادن من الذهب والفضة والحديد والنحاس وغيرها إذا أوقد عليها فى النار ليتهيأ الانتفاع بها خرج منها خبث ليس من جوهرها ولا ينتفع به ، وهذا لا بد منه فى هذا وهذا يجاوزه بصره .

*(146/256)*

---

وقد ذم تعالى من ضعفت بصيرته من المنافقين ، وعمى عما فى القرآن مما به ينال كل سعادة وعلم وهدى وصلاح وخير فى الدنيا والآخرة لمن لم يجاوز بصره وسمعه وعود وعيده وبروقها وصواعقها وما أعد الله لأعدائه من عذابه ونكاله وخزيه وعقابه [الذى هو – بالإضافة إلى ما فيه من حياة القلوب] والأرواح ومن المعارف الإلهية يبين طريق العبودية التى هى غاية كمال العبد ، وهو مقصود لتكميل ذلك وتمامه . قال تعالى ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ

الّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاّ يُبْصِرُونَ صُمّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ أَوْ كَصَيّبٍ مّنَ السّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مّنَ الصّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلّمَا أَضَآءَ لَهُمْ مّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ ﴾ [البقرة : 17 – 20] ،

فهكذا حال كل من قصر نظره فى بعض مخلوقات الرب سبحانه على ما لا بد منه من شر جزئى جداً بالإضافة إلى الخير الكثير ، ولو لم تكن فى هذه النشأة الإنسانية إلا خاصته وأولياؤه من رسله وأنبيائه وأتباعهم لكفى بها خيراً ومصلحة ، ومن عاداهم – وإن كانوا أضعاف أضعاف أضعافهم – فهم كالقش والزبالة وغثاءِ السيل ، لا يعبأُ بكثرتهم ولا يقدح فى الحكمة الإلهية ، بل وجود الواحد الكامل من هذا النوع يغتفر معه [آلاف] مؤلفة من النوع الآخر فإنه إذا وجد واحد يوازن البرية ويرجح عليها كان الخير الحاصل بوجوده والحكمة والمصلحة أضعاف الشر الحاصل من وجود أضداده ، وأثبت وأنفع وأحب إلى الله من فواته

*(147/256)*

بتفويت ذلك الشر المقابل له ، وهذا كالشمس : فإن الخير الحاصل بها أنفع للخلق وأكثر وأثبت وأصلح من تفويته بتفويت الشر المقابل له بها ، وأين نفع الشمس وصلاح النبات والحيوان بها من نفع الرسل وصلاح [القلوب] الوجود بهم ؟ بل أين ذلك من نفع سيد ولد آدم وصلاح الأبدان والدين والدنيا والآخرة به ؟

*(148/256)*

---

وقد ضرب للنفس الإنسانية وما فيها من الخير والشر مثل بدولاب أَو طاحون شديد الدوران ، أَى شيء خطفه أَلقاه تحته وأَفسده ، وعنده قيِّمة الذى يديره وقد أَحكم أَمره لينتفع به ولا يضر أَحداً ، فربما جاءَ الغر الذى لا يعرف فيتقرب منه فيخرق ثوبه [أوبدنه] أَو يؤذيه ، فإذا قيل لصاحبه : لم لم تجعله ساكناً لا يؤذى من اقترب منه ؟ قال : هذه الصفة اللازمة التى كان بها دولاباً وطاحوناً ، ولو [جعل] على غير هذه الصفة لم تحصل به الحكمة المطلوبة منه . وكذلك إذا أوقدنا نار الأَتون التى تحرق ما وقع فيها وعندها وقاد حاذق يحشوها ، فإذا غفل عنها أَفسدت وإذا أَراد أحد أَن يقرب منها نهاه وحذره ، فإذا استغفله من قرب منها حتى أَحرقته لم يقل لصاحب النار : هلا قللت حرها لئلا تفسد من يقرب منها وتحرقه ؟ فإنه يقول : هذه صفتها التى لا يحصل المقصود منها إلا بها ، ولو

جعلتها دون ذلك لم تحرق أَحجار الكلس ، ولم تطبخ الآجر ، ولم تنضج الأَطعمة الغليظة ونحو ذلك ، فما يحصل من الدولاب والطاحون ومن النار من نفعها هو من فضل الله ورحمته ، وما يحصل بها من شر هو من طبيعتها التى خلقت عليها والتى لا تكون ناراً إلا بها ، فلو خرجت عن تلك الطبيعة لم تكن ناراً ، وكذلك النفس : فما يحصل لها من شر فهو منها ومن طبيعتها ولوازم نقصها وعدمها وما يحصل لها من خير فهو من فضل الله ورحمته ، والله خالقها وخالق كل شيء قام بها من قدرة وإرادة وعلم وعمل وغير ذلك ، فأَما الأُمور العدمية فهى باقية على ما [كانت] عليه من العدم ، والإِنسان جاهل ظالم بالضرورة كما قال تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ [الأحزاب : 72] ، فإن الله أَخرجه من بطن أُمه لا يعلم شيئاً [والظلم هو النقص ، كما قال تعالى : ﴿ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً ﴾ [الكهف : 33] أى ما نقص منه شيئاً] ، وهى ظالمة نفسها فهى الظالمة والمظلومة ،

*(149/256)*

---

إِذ كانت منقوصة من كمالها بعدم الكمالات أَو أَكثرها بها ، وتلك أُخرى فصار عدمها مستلزماً لعدم تلك الكمالات [فعظم النقص والتعب كسبه وفقدت من لذاتها وسرورها

ونعيمها وبهجتها وروحها بحسب ما فعلت من تلك الكمالات] التى لا سعادة لها بدونها ، فإن أَحد الموجودين قد يكون مشروطاً بالآخر فيستحيل وجوده بدونه ، لأَن عدم الشرط يستلزم عدم المشروط ، فإذا عدمت النفس هذا الكمال المستلزم لكمال آخر مثله أَو أَعلى منه وهى – موصوفة بالنقص الذى هو الظلم والجهل ولوازمها من أَصل الخلقة – صارت متسلزمة للشر ، وقوة شرها وضعفه بحسب قوتها وضعفها فى ذاتها . وتأَمل أَول نقص دخل على أَبى البشر وسرى إلى أَولاده كيف كان من عدم العلم والعزم . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ [طه : 115] والنسيان سواءٌ كان عدم العلم أَو عدم الصبر كما فسر بهما [هاهنا] فهو أَمر عدمى ، ولهذا قال آدم لما رأَى ما دخل عليه من ذلك : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : 23] ، فإنه إذا اعترف خص نفسه – بما حصل لها من عدم العلم والصبر – بالنسيان الذى أَوجب فوات حظه من الجنة ، ثم قال : ﴿ وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : 23] ، فإنه سبحانه لم يغفر السيئات الوجودية فيمنع أَثرها وعقابها [ونقى] العبد من ذلك وإلا ضرته آثارها ولا بد ، [كآثار] الطعام المسموم إن لم يتداركه المداوى بشرب الترياق ونحوه وإلا ضره ولا بد ، وإن لم يرحمه سبحانه بإيجاد ما به يصلح النفس وتصير عالمة [بالحق عاملة به] وإلا خسر .

، والمغفرة تمنع الشر ، والرحمة توجب الخير ، والرب سبحانه إن لم يغفر للإنسان فيقيه السيئات ويرحمه فيؤتيه الحسنات وإلا هلك ولا بد ، إذ كان ظالماً لنفسه ظلوماً بنفسه ، فإن نفسه ليس عندها خير يحصل لها منها ، وهى متحركة بالذات فإن لم تتحرك إلى الخير تحركت إلى الشر فضرت صاحبها ، وكونها متحركة بالذات من لوازم كونها نفساً لأَن ما ليس حساساً متحركاً بالإرادة فليس نفساً ، [فى] الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم "أَصْدَقُ الأَسْمَاءِ حَارِثٌ وَهَمَّام" ، فالحارث الكاسب العامل ، والهمام الكثير الهم والهم مبدأُ [الإرادة فالنفس لا تكون إلا مريدة عاملة ، فإن لم توفق] [للإرادة] الصالحة وإلا وقعت فى الإرادة الفاسدة والعمل الضار ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً إِلا الْمُصَلِّينَ ﴾ [المعارج : 19 – 22] ، فأَخبر [تعالى] أَن الإنسان خلق على هذه الصفة ، وإن من كان على غيرها فلأَجل ما زكاه الله به من فضله وإحسانه .

وقال تعالى : ﴿ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً ﴾ [النساء : 28] ،

قال طاووس ومقاتل وغيرهما : لا يصبر عن النساءِ . وقال الحسن : هو خلقه من ماءٍ مهينٍ .

وقال الزجاج : ضعف عزمه عن قهر الهوى .

والصواب أَن ضعفه يعم هذا كله ، وضعفه أَعظم من هذا وأَكثر : فَإنه ضعيف البنية ، ضعيف القوة ، ضعيف الإرادة ، ضعيف العلم ضعيف الصبر ، والآفات إليه [مع] هذا الضعف أَسرع من السيل فى صيب الحدود . فبالإِضطرار لا بد له من حافظ معين يقويه ويعينه وينصره ويساعده ، فإن تخلى عنه هذا المساعد المعين فالهلاك أَقرب إليه من نفسه . وخلقه على هذه الصفة هو من الأُمور التى يحمد عليها الرب [جل جلاله] ويثنى عليه بها . وهو موجب حكمته وعزته ، فكل ما يحدث من هذه الخلقة ويلزم عنها فهو بالنسبة إلى الخالق [عز وجل] خير وعدل وحكمة ، إِذ مصدر هذه الخلقة عن صفات كماله من غناه وعلمه وعزته وحكمته ورحمته ، وبالنسبة إِلى العبد تنقسم إِلى خير وشر وحسن وقبيح ، كما تكون بالنسبة إليه طاعة ومعصية وبراً وفجوراً ، بل أَخص من ذلك ، مثل كونها صلاة وصياماً وحجاً [وزكاة] وسرقة وأُكلاً وشرباً ، إِذ [ذلك] موجب حاجته وظلمه وجهله وفقره وضعفه ، وموجب أَمر الله له ونهيه ، ولله سبحانه الحكمة البالغة والنعمة السابغة والحمد المطلق على تجميع ما خلقه وأَمر به ، وعلى ما لم يخلقه مما لو شاءه لخلقه ، وعلى توفيقه الموجب لطاعته وعلى خذلانه الموقع فى معصيته ، وهو

سبقت رحمته غضبه وكتب على نفسه الرحمة ، وأحسن كل شيء خلقه وأتقن كل ما صنع وما يحصل للنفوس البشرية من الضرر والأذى فله فى ذلك سبحانه أعظم حكمة مطلوبة وتلك الحكمة إنما تحصل على الوجه الواقع المقدر بما خلق لها من الأَسباب التى لا تنال غاياتها إلا بها ، فوجود هذه الأَسباب بالنسبة إلى الخالق الحكيم سبحانه هو من الحكمة ، ولهذا يقرن سبحانه فى كتابه بين اسمه الحكيم واسمه العليم تارة وبين اسمه العزيز تارة كقوله : ﴿ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النساء : 26] [الأنفال : 71] ، ﴿ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة : 240] [المائدة : 38] ، وقوله : ﴿ وَكَانَ اللهُ عزِيزاً حَكِيماً ﴾ [النساء : 158 ، 165]

(152/256)

---

[الفتح : 7 ، 19] ، ﴿ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ [النساء : 170] [الفتح : 4] ، ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [النمل : 6]

فإن العزة تتضمن القوة ، ولله القوة جميعاً ، يقال : عز يعز – بفتح العين – إذا اشتد

(153/256)

وقوى ، ومنه الأرض العزاز : الصلبة الشديدة ، وعز يعز بكسر العين إذا امتنع ممن يرومه وعز يعز بضم العين إذا غلب وقهر ، فأعطوا أقوى الحركات وهى الضمة – لأقوى المعانى وهو الغلبة والقهر للغير وأضعفها وهى الفتحة لأَضعف هذه المعانى وهو كون الشئ فى نفسه صلباً ، ولا يلزم من ذلك أَن يمتنع عمن يرومه والحركة المتوسطة وهى الكسرة للمعنى المتوسط وهو القوى الممتنع عن غيره ، ولا يلزم منه أن يقهر غيره ويغلبه ، فأعطوا الأقوى للأقوى والأضعف للأضعف والمتوسط للمتوسط . ولا ريب أن قهر [المريد] عما يريده من أقوى أوصاف القادر ، فإِن قهره عن إرادته وجعله مريداً كان أَقوى أنواع القهر ، والعز ضد الذل ، والذل أصله الضعف والعجز فالعز يقتضى كمال القدرة [والعزة] ، ولهذا يوصف به المؤمن ولا يكون ذماً له بخلاف الكبر . قال رجل للحسن البصرى : إنك متكبر . فقال : لست متكبراً ، ولكنى [عزز] . وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : 8] ، وقال ابن مسعود : ما زلنا أعزة الإسلام [منذ أسلم عمر . وقال النبى صلى الله عليه وسلم "اللهم أعز] بأحد هذيْنِ الرَّجُلَيْنِ : عُمَرَ بْنَ الْخَطَّاب ، أَوْ أَبِى جَهْل بْن هِشَام" ، وفى بعض الآثار : إِن الناس يطلبون العزة فى أبواب الملوك ، ولا يجدونها إِلا فى طاعة الله عز وجل . وفى الحديث : "اللَّهُمَّ أَعِزَّنَا بِطَاعَتِكَ وَلا تُذِلَّنَا بِمَعْصِيَتِكَ" وقال بعضهم : من أَراد عزاً بلا سلطان ، وكثرة بلا عشيرة ، وغنى بلا مال ، فلينتقل من ذل

المعصية إلى عز الطاعة . فالعزة من جنس القدرة والقوة وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أَنه قال : "الْمُؤْمِنُ الْقَوِى خَيْر وَأَحَبُّ إِلَى اللهُ مَنَ الْمُؤْمِنِ الضعيف ، وفى كل خير" . فالقدرة إن لم يكن معها حكمة بل كان القادر يفعل ما يريده بلا نظر فى العاقبة ، ولا حكمة محمودة يطلبها بإرادته ويقصدها بفعله ،

(154/256)

---

كان [فعلة] فساداً كصاحب شهوات الغى والظلم ، الذى [يفعله] بقوته ما يريده من شهوات الغى فى بطنه وفرجه ومن ظلم الناس ، فإِن هذا وإن كان له قوة وعزة لكن لما لم يقترن بها حكمة كان ذلك معونة على شره وفساده . وكذلك العلم كماله أن [تقترن به الحكمة وإلا فالعالم الذى لا يريد ما] تقتضيه الحكمة وتوجبه ، بل يريد ما يهواه ، سيفه غاوٍ ، [وعلمه عون له على الشر والفساد هذا إذا كان عالماً قادراً] مريداً له إِرادة من غير حكمة ، وإِن قدر أنه لا إرادة له فهذا أولاً ممتنع من الحى ، فإن

وجود الشعور بدون حب ولا بغض ولا إِرادة ممتنع كوجود إرادة بدون الشعور ، وأما القدرة والقوة إذا قدر وجودها بدون إرادة فهى كقوة الجماد ، فإن القوة الطبيعية التى هى مبدأُ الفعل والحركة [لا إِرادة لها] وقد قال بعض الناس : إِن [للجماد] شعوراً يليق به

واحتج بقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ ﴾ [البقرة : 74] ، وبقوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ [الكهف : 77] وهذه المسألة كبيرة تحتاج إلى كلام يليق بهذا الموضع . والمقصود أَن العلم والقدرة المجردين عن الحكمة لا يحصل بهما الكمال والصلاح وإنما [يحصل] ذلك بالحكمة معها ، واسمه سبحانه "الحكيم" يتضمن حكمته فى خلقه وأَمره فى إرادته الدينية الكونية وهو حكيم فى كل ما خلقه وأَمر به .

*(155/256)*

---

والناس فى هذا المقام أَربع طوائف : الطائفة الأُولى الجاحدة لقدرته وحكمته فلا يثبتون له [تعالى] قدرة ولا حكمة ، كما يقوله من ينفى كونه تعالى فاعلاً مختاراً وأَن صدور العالم عنه بالإيجاب الذاتى لا بالقدرة والاختيار وهؤلاء يثبتون حكمة يسمونها عناية إلهية ، وهم من أشد الناس تناقضاً ، إذ لا يعقل حكيم لا قدرة له ولا اختيار ، وإنما يسمون ما فى العالم من المصالح والمنافع عناية إلهية من غير أَن يرجع منها إلى الرب [تعالى] إرادة ولا حكمة وهؤلاء كما أَنهم مكذبون لجميع الرسل فإنهم مخالفون لصريح العقل والفطرة ، قد نسبوا الرب [تعالى] إلى أَعظم النقص ، وجعلوا كل قادر مريد مختار أَكمل منه وإن كان من كان ، بل

سلبهم القدرة والاختيار والفعل عن رب العالمين شر من شرك عباد الأَصنام به بكثير ، وشر من قول النصارى أَنه – تعالى عن قولهم – ثالث ثلاثة وأَن له صاحبة وولداً ، فإِن هؤلاءِ أَثبتوا له قدرة وإِرادة واختياراً وحكمة ، ووصفوه مع ذلك بما لا يليق به . وَأَما أُولئك فنفوا ربوبيته وقدرته بالكلية وأَثبتوا له أَسماءَ لا حقائق لها ولا معنى .

والطائفة الثانية أقرت بقدرته وعموم مشيئته للكائنات وجحدت حكمته

(156/256)

---

وما له فى خلقه من الغايات المحمودة المطلوبة له سبحانه التى يفعل لأَجلها ويأْمر لأَجلها ، فحافظت على القدر وجحدت الحكمة ، وهؤلاءِ هم النفاة للتعليل والأَسباب والقوى والطبائع فى المخلوقات ، فعندهم لا يفعل لشيء ولا لأجل شيء ، وليس فى القرآن عندهم لام تعليل ولا باءُ تسبب ، وكل لام توهم التعليل فهى عندهم لام العاقبة وكل باءٍ تشعر بالتسبب فهى عندهم باءُ المصاحبة وهؤلاء سلطوا نفاة القدر عليهم [بما نفوه من الحكمه والتعليل والأسباب فاستطالوا عليهم بذلك] ، ووجدوا مقالاً واسعاً بالشناعة فقالوا وشنعوا ، ولعمر والله إنهم لمحقون فى أَكثر ما شنعوا عليهم به ، إِذ نفى الحكمة

والتعليل والأَسباب له لوازم فى غاية الشناعة ، والتزامها بمكابرة ظاهرة لعامة [عند عامة] العقلاءِ .

*(157/256)*

---

والطائفة الثالثة أقرت بحكمته أثبتت الأَسباب والعلل والغايات فى أَفعاله وأَحكامه ، وجحدت كمال قدرته ، فنفت قدرته على شطر العالم وهو أَشرف ما فيه من أَفعال الملائكة والجن والإِنس وطاعاتهم ، بل عندهم [هذه] كلها لا تدخل تحت مقدوره [تعالى] ، ولا يوصف بالقدرة عليها ولا هى داخلة تحت مشيئته ولا ملكه ، وليس فى مقدوره عندهم أَن يجعل المؤمن مؤمناً والمصلى مصلياً والموفق موفقاً ، بل هو الذى [جعل] نفسه كذلك . وعندهم أَن أَفعال العباد من الملائكة والجن والإِنس كانت بغير مشيئته واختياره فتعالى الله عن [قولهم] ، وهؤلاءِ سلطوا عليهم نفاة الحكمة والتعليل والأَسباب فمزقوهم كل ممزق ووجدوا طريقاً وسيعاً إلى الشناعة عليهم ، وأَبدوا تناقضهم فقالوا وشنعوا ، ورموهم بكل داهية . أو نفى قدرة الرب [تعالى] على شطر المملكة له لوازم فى غاية الشناعة والقبح والفساد ، والتزامها مكابرة ظاهرة عند عامة العقلاءِ ، ونفى التزامها تناقض بين ، فصاروا بذلك بين التناقض – وهو أحسن حالهم – وبين التزام تلك العظائم

التى تخرج عن الإِيمان ، كما كان نفاة الحكمة والأَسباب والغايات كذلك .

فهدى الله الطائفة الرابعة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاءُ إلى

(158/256)

---

صراط مستقيم ، فآمنوا بالكتاب كله ، وأقروا بالحق جميعه ، ووافقوا كل واحدة من الطائفتين على ما معها من الحق ، وخالفوهم فيما قالوه من الباطل ، [فآمنوا] بخلق الله وأَمره بقدرته وشرعه وأَنه سبحانه المحمود على خلقه وأَمره ، وأَنه له الحكمة البالغة والنعمة السابغة ، وأَنه على كل شيء قدير : فلا يخرج عن مقدوره شيء من الموجودات أَعيانها وأَفعالها وصفاتها ، كما لا يخرج عن علمه ، فكل ما تعلق به علمه من العالم تعلقت به قدرته ومشيئته . وآمنوا مع ذلك بأَن له الحجة على خلقه ، [وأنه لا حجة لأحد عليه بل لله الحجة البالغة] وأَنه لو عذب أَهل سماواته وأَهل أَرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، بل كان تعذيبهم منه عدلاً منه وحكمة لا بمحض المشيئة المجردة عن السبب والحكمة كما يقوله الجبرية ، ولا يجعلون القدر حجة لأَنفسهم ولا لغيرهم ، بل يؤمنون به ولا يحتجون به ويعلمون أَن الله سبحانه أَنعم عليهم بالطاعات وأَنها من نعمته عليهم وفضله وإِحسانه ، وأَن المعاصى من نفوسهم الظالمة الجاهلة ، وأَنهم هم جناتها وهم الذين اجترحوها ، ولا يحملونها على

القضاء والقدر مع علمهم بشمول قضائه وقدره لما فى العالم من خير وشر وطاعة وعصيان وكفر وإيمان ، وأَن مشيئة الله سبحانه محيطة بذلك كإحاطة علمه به ، وأَنه لو شاءَ ألا يعصى لما عصى وأَنه [سبحانه] أَعز وأَجل من أَن يعصى قسراً ، والعباد أَقل من ذلك وأَهون ، وأَنه ما شاءَ الله كان وكل كائن فهو بمشيئته ، وما لم يشأْ لم يكن ، وما لم يكن فلعدم مشيئته ، فله الخلق والأَمر وله الملك والحمد وله القدرة التامة والحكمة الشاملة البالغة .

فهذه الطائفة هم أَهل البصر التام ، والأولى لهم العمى المطلق ، والثانية والثالثة كل طائفة منهما [لهم] عين عمياءُ ، ومع هذا فسرى العمى من العين العمياءِ إلى العين الصحيحة فأَعماها ولا يستكثر تكرار هذا الكلمات من يعلم شدة الحاجة إليها وضرورة النفوس إليها ،

فلو تكررت فالحاجة إليها فى محل الضرورة . والله المستعان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ طريق الهجرتين صـ 112.64 ﴾

*(159/256)*

---

قوله تعالى ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (150)

﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما صدق الحق ، وانكسر جند الباطل واندق ببطلان جميع شبههم ، ونطقت الدلائل وأفحم المجادل ، فبان أنه لا شاهد لهم بحق لأنه لا حق لهم ، كان كأنه قيل : قل لهم : ها أنا قد شهد لي بما قلته مَن لا ترد شهادته وزكاتي الذي لا يقبل إلا تزكيته بهذا الكتاب الذي كان عجزكم عن الإتيان بشيء من مثله شاهداً بأنه قوله ، فهل لكم أنتم من شاهد يقبل ! ولما لم يكن لهم شاهد غير متخرصيهم ، فإن المبطل يظهر باطله عند المحاققة سنة من الله مستمرة ، فيظهر للمشهود لهم بما يلوح من بهتهم أنهم ليسوا على شيء ، أمره سبحانه أن يأمرهم بدعائهم ليظهر خزيهم وتشتهر فضيحتهم فقال : ﴿ قل هلم ﴾ أي احضروا ، وهي كلمة دعوة يستوي فيها المذكر والمؤنث والواحد والجمع عند الحجازيين ﴿ شهداءكم ﴾ .

ولما كان كأنه قيل : أيّ شهداء ؟ قال : ﴿ الذين يشهدون ﴾ أي يوقعون الشهادة على ﴿ أن الله ﴾ أي الذي لا حكم لغيره ﴿ حرم هذا ﴾ أي الذي ذكرتموه من قبل ، وإضافة الشهداء إليهم ووصفهم ب " الذين " دليل على أنهم معروفون موسومون بنصرة مذهبهم بالباطل ، ولو قال : شهداء – من غير إضافة لأفهم أن المطلوب من يشهد بالحق وليس

كذلك ، لأنه أقيم الدليل العقلي على أنه لا حجة لهم وأن الحجة لله على خلاف ما ادعوه ، فبطل قطعاً أن يكون أحد يشهد على ذلك بحق .

ولما كان كأنه قيل : فإنهم إذا أحضروا لا يقدرون - إن كان لهم عقل أو فيهم حياء - على النطق إذا سمعوا هذا الحق ، بني عليه قوله : ﴿ فإن ﴾ اجترؤوا بوقاحة ﴿ شهدوا ﴾ أي كذباً وزوراً بذلك الذي أبطلناه بالأدلة القطعية ﴿ فلا تشهد معهم ﴾ أي فاتركهم ولا تسلم لهم ، فإنهم على ضلال وليست شهادتهم مستندة إلا إلى الهوى ﴿ ولا تتبع أهواء ﴾ وأظهر موضع الإضمار تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف دلالة على أن القائد إلى التكذيب وكل ردى إنما هو الهوى ، وأن من خالف ظاهر الآيات إنما هو صاحب هوى ، فقال : ﴿ الذين كذبوا ﴾ أي أوقعوا التكذيب ﴿ بآياتنا ﴾ أي على ما لها من الظهور بما لها من العظمة بإضافتها إلينا .

ولما وصفهم بالتكذيب ، أتبعه الوصف بعدم الإيمان ، ودل بالنسق بالواو على العراقة في كل من الوصفين فقال : ﴿ والذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أي التي هي دار الجزاء ، فإنهم لو جوزوها ما اجترؤوا على الفجور ﴿ وهم بربهم ﴾ أي الذين لا نعمة عليهم ولا خير عندهم إلا وهو منه وحده ﴿ يعدلون ﴾ أي يجعلون غيره عديلاً له ، وسيعلمون حين يقولون لشركائهم وهم في جهنم يختصمون ﴿ تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين ﴾ [ الشعراء : 97 ، 98 ] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 2 صـ 739 .

﴿740﴾

وقال الفخر :

اعلم أنه تعالى لما أبطل على الكفار جميع أنواع حججهم بين أنه ليس لهم على قولهم شهود ألبتة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 188 ﴾

فصل

قال الفخر :

(160/256)

---

﴿ هَلُمَّ ﴾ كلمة دعوة إلى الشيء ، والمعنى : هاتوا شهداءكم ، وفيه قولان : الأول : أنه يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع ، والذكر والأنثى قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ الذين يَشْهَدُونَ ﴾ وقال : ﴿ والقائلين لإخوانهم هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ [ الأحزاب : 18 ] واللغة الثانية يقال للاثنين : هلما ، وللجمع : هلموا ، وللمرأة : هلمي ، وللاثنين : هلما ، وللجمع : هلمن .

والأول أفصح .

فائدة :

في أصل هذه الكلمة قولان : قال الخليل وسيبويه أنها "ها" ضمت إليها "لم" أي جمع ، وتكون بمعنى ؛ أدن يقال : لفلان لمة ، أي دنو ، ثم جعلتا كالكلمة الواحدة ، والفائدة في قولنا : "ها" استعطاف المأمور واستدعاء إقباله على الأمر ، إلا أنه لما كثر استعماله حذف عنه الألف على سبيل التخفيف كقولك : لم أبل ، ولم أر ، ولم تك ، وقال الفراء : أصلها "هل" أم أرادوا "بهل" حرف الاستفهام .

وبقولنا : "أم" أي أقصد ؟ والتقدير : هل قصد ؟ والمقصود من هذا الاستفهام الأمر بالقصد ، كأنك تقول : أقصد ، وفيه وجه آخر ، وهو أن يقال : كان الأصل أن قالوا : هل لك في الطعام ، أم أي قصد ؟ ثم شاع في الكل كما أن كلمة "تعالى" كانت مخصوصة بصورة معينة ، ثم عمت . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 188.189 ﴾ .

بتصرف يسير .

فصل

قال الفخر :

إنه تعالى نبه باستدعاء إقامة الشهداء من الكافرين ليظهر أن لا شاهد لهم على تحريم ما حرموه ، ومعنى ﴿ هَلُمَّ ﴾ أحضروا شهداءكم .

ثم قال : ﴿ فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ تنبيهاً على كونهم كاذبين ، ثم بين تعالى أنه إن وقعت منهم تلك الشهادة فعن اتباع الهوى ، فأمر نبيه أن لا يتبع أهواءهم ، ثم زاد في تقبيح

ذلك بأنهم لا يؤمنون بالآخرة ، وكانوا ممن ينكرون البعث والنشور ، وزاد في تقبيحهم بأنهم يعدلون بربهم فيجعلون له شركاء . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 13 صـ 189 ﴾

*(161/256)*

---

وقال السمرقندى :

﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الذين يَشْهَدُونَ أَنَّ الله حَرَّمَ هذا ﴾ عليكم ﴿ فَإِن شَهِدُواْ ﴾ على تحريمه ﴿ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ فأخبر الله أنهم لو شهدوا ، كانت شهادتهم باطلة ، ولا يجوز قبول شهادتهم ، لأنهم يقولون بأهوائهم .

ثم قال : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الذين كَذَّبُواْ بآياتنا ﴾ يعني : بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن ﴿ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ يعني : البعث ﴿ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ يعني يشركون بالله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 1 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ الذين يَشْهَدُونَ أَنَّ الله حَرَّمَ هذا ﴾ أي احضروهم وأتوا بهم فقالوا : نحن نشهد ، فقال الله تعالى : ﴿ فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ يَعْدِلُونَ ﴾

يشركون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 4 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ هلم ﴾ معناه هات ، وهي حينئذ متعدية ، وقد تكون بمعنى أقبل ، فهي حينئذ لا تتعدى ، وبعض العرب يجعلها اسماً للفعل كرويدك ، فيخاطب بها الواحد والجميع والمذكر والمؤنث على حد واحد ، وبعض العرب يجعلها فعلاً فيركب عليها الضمائر فيقول هلم يا زيد وهلموا أيها الناس وهلمي يا هند ونحو هذا ، وذكر اللغتين أبو علي في الإغفال ، وقال أبو عبيدة اللغة الأولى لأهل العالية واللغة الثانية لأهل نجد ، وقال سيبويه والخليل : أصلها هالم ، وقال بعضهم : أصلها هالمم ، وحذفت الألف لالتقاء الساكنين فجاء هلمم فحذف من قال أصلها هالم وأدغم من قال أصلها هلمم على غير قياس ، ومعنى هذه الآية قل هاتوا شهداءكم على تحريم الله ما زعمتهم أنه حرمه ، ثم قال الله تعالى لنبيه عليه السلام ﴿ فإن شهدوا ﴾ أي فإن افترى لهم أحداً وزور شهادة أو خبراً عن نبوة ونحو ذلك فتجنب أنت ذلك ولا تشهد معهم .

*(162/256)*

وفي قوله ﴿ فلا تشهد معهم ﴾ قوة وصف شهادتهم بنهاية الزور ، ﴿ ولا تتبع أهواء ﴾ يريد لا تنحط في شهوات الكفرة وتوافقهم على محابهم و ﴿ والذين لا يؤمنون ﴾ عطف نعت على نعت ، كما تقول جاءني زيد الكريم والعاقل ، هذا مذهب عظم الناس ، وقال النقاش : نزلت في الدهرية من الزنادقة . ﴿ وهم بربهم يعدلون ﴾ أنداداً يسوونهم به ، وإن كانت في الزنادقة فعدلهم غير هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قل هَلُمَّ شهداءَكم ﴾ قال الزجاج : زعم سيبويه أن "هلم" هاء ضمت إليها "لُمَّ" وجعلتا كالكلمة الواحدة ؛ فأكثر اللغات أن يقال : "هلمَّ" : للواحد ، والاثنين ، والجماعة ؛ بذلك جاء القرآن .

ومن العرب من يثنِّي ويجمع ويؤنث ، فيقول للذكر : "هلمَّ" .

وللمرأة : "هلمِّي" ، وللاثنين : "هلمَّا" ، وللثنتين : "هلمَّا" ، وللجماعة : "هلمُّوا" ، وللنسوة : "هلمُمْن" .

وقال ابن قتيبة : "هلم" ، بمعنى : "تعال" .

وأهل الحجاز لا يثنُّونها ولا يجمعونها .

وأهل نجد يجعلونها من "هَلْمَمَتْ" فيثنُّون ويجمعون ويؤنِّثون ؛ وتوصل باللام ، فيقال : "هلم لك" ، "وهلم لكما" .

قال : وقال الخليل : أصلها "لُم" ، وزيدت الهاء في أولها .

وخالفه الفراء ، فقال : أصلها "هل" ضم إليها "أُمّ" ، والرفعة التي في اللام من همزة "أُمّ" لما تركت انتقلت إلى ما قبلها ؛ وكذلك "اللهم" يرى أصلها : "يا ألله أمّنا بخير" فكثرت في الكلام ، فاختلطت ، وتركت الهمزة .

وقال ابن الأنباري : معنى "هلم" : أقبل ؛ وأصله : "أُمَّ يا رجل" ، أي : "اقصد" ، فضموا "هل" إلى "أم" وجعلوهما حرفاً واحداً ، وأزالوا "أم" عن التصرف ، وحوّلوا ضمة الهمزة "أم" إلى اللام ، وأسقطوا الهمزة ، فاتصلت الميم باللام .

وإذا قال الرجل للرجل : "هلم" ، فأراد أن يقول : لا أفعل ، قال : "لا أهَلُمّ" و"لا أُهَلِمُّ" .

قال مجاهد : هذه الآية جواب قولهم : إن الله حرم البحيرة ، والسائبة .

*(163/256)*

---

قال مقاتل : الذين يشهدون أن الله حرَّم هذا الحرث والأنعام ، ﴿ فإن شهدوا ﴾ أن الله حرَّمه ﴿ فلا تشهدْ معهم ﴾ أي : لا تصدِّقْ قولهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 2 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ﴾

أي قل لهؤلاء المشركين أحضروا شهداءكم على أن الله حرّم ما حرمتم .

و﴿ هَلُمَّ ﴾ كلمة دعوة إلى شيء ، ويستوي فيه الواحد والجماعة والذكر والأُنثى عند أهل الحجاز ، إلا في لغة نجد فإنهم يقولون : هَلُمَّا هَلُمُّوا هَلُمِّي ، يأتون بالعلامة كما تكون في سائر الأفعال .

وعلى لغة أهل الحجاز جاء القرآن ، قال الله تعالى : ﴿ والقآئلين لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ [ الأحزاب : 18 ] يقول : هَلمّ أي أحضر أو ادن .

وَهَلُمّ الطعام ، أي هاتِ الطعام .

والمعنى هاهنا : هاتوا شهداءكم ، وفتحت الميم لالتقاء الساكنين ؛ كما تقول : ردّ يا هذا ، ولا يجوز ضمها ولا كسرها .

والأصل عند الخليل "ها" ضُمّت إليها "لُمّ" ثم حذفت الألف لكثرة الاستعمال .

وقال غيره .

الأصل "هل" زيدت عليها "لُمّ" .

وقيل : هي على لفظها تدل على معنى هات .

وفي كتاب العَيْن للخليل : أصلها هل أؤمّ ، أي هلْ أقصدك ، ثم كَثُر استعمالهم إياها حتى صار المقصود بقولها احضر كما أن تعال أصلها أن يقولها المتعالي للمتسافل ؛ فكثر

استعمالهم إياها حتى صار المتسافل يقول للمتعالي تعال .

قوله تعالى : ﴿ فَإِن شَهِدُواْ ﴾ أي شهد بعضهم لبعض ﴿ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ أي فلا تصدق أداء الشهادة إلا من كتاب أو على لسان نبيّ ، وليس معهم شيء من ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 7 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ قل هلم شهداءكم الذين يشهدون ﴾

يعني هاتوا وادعوا شهداءكم .

*(164/256)*

---

وهلم كلمة دعوة إلى الشيء يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع والذكر والأنثى وفيها لغة أخرى يقال للواحد هلم وللاثنين هلما وللجمع هلموا للأنثى هلمي واللغة الأولى أفصح ﴿ إن الله حرم هذا ﴾ وهذا تنبيه من الله باستدعاء الشهود من الكافرين على تحريم ما حرموه على أنفسهم وقالوا إن الله أمرنا به ليظهر أن لا شاهد لهم على ذلك وإنما اختلقوه من عند أنفسهم ﴿ فإن شهدوا فلا تشهد معهم ﴾ وهذا تنبيه أيضاً على كونهم كاذبين في شهادتهم فلا تشهد أنت يا محمد معهم لأنهم في شهادتهم كاذبون ﴿ ولا تتبع أهواء الذين

كذبوا بآياتنا ﴾ يعني إن وقع منهم شهادة فإنما هي باتباع الهوى فلا تتبع أنت يا محمد أهواءهم ولكن اتبع ما أوحي إليك من كتابي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿ والذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أي ولا تتبع أهواء الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴿ وهم بربهم يعدلون ﴾ يعني يشركون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 2 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ قل هلمّ شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا فإن شهدوا فلا تشهد معهم ﴾

*(165/256)*

---

بين تعالى كذبهم على الله وافتراءهم في تحريم ما حرموا منسوباً إلى الله تعالى فقال : ﴿ أنبئوني بعلم ﴾ وقال : ﴿ أم كنتم شهداء ﴾ ولما انتفى هذان الوجهان انتقل إلى وجه ليس بهذين الوجهين وهو أن يستدعي منهم من يشهد لهم بتحريم الله ما حرموا ، و ﴿ هلم ﴾ هنا على لغة الحجاز وهي متعدية ولذلك انتصب المفعول به بعدها أي أحضروا شهداءكم وقربوهم وإضافة الشهداء إليهم تدل على أنهم غيرهم وهذا أمر على سبيل التعجيز ، أي لا يوجد من يشهد بذلك شهادة حق لأنها دعوى كاذبة ولهذا قال : ﴿ فإن شهدوا فلا تشهد معهم ﴾ أي فإن فرض أنهم يشهدون فلا تشهد معهم أي لا توافقهم لأنهم

كذبة في شهادتهم كما أن الشهود لهم كذبة في دعواهم ، وأضاف الشهداء إليهم أي الذين أعددتموهم شهوداً لكم بما تشتهي أنفسكم ولذلك وصف ب ﴿ الذين يشهدون ﴾ أي هم مؤمنون بالشهادة لهم وبنصرة دعاواهم الكاذبة ، ولو قيل : ﴿ هلمّ ﴾ شهداء بالتنكير لفات المعنى الذي اقتضته الإضافة والوصف بالموصوف إذا كان المعنى هلم أناساً يشهدون بتحريم ذلك فكان الظاهر طلب شهداء بالحق وذلك ينافي معنى الآية .

وقال الحسن : أحضروا شهداءكم من أنفسكم ، قال ولا تجدون ولو حضروا لم تقبل شهادتهم لأنها كاذبة .

وقال ابن عطية : فإن افترى أحد وزوّر شهادة أو خبر عن نبوة فتجنب أنت ذلك ولا تشهد معهم ، وفي قوله : ﴿ فلا تشهد معهم ﴾ قوة وصف شهادتهم بنهاية الزور .

وقال أبو نصر القشيري : فإن شهد بعضهم لبعض فلا يصدق إذ الشهادة من كتاب أو على لسان نبي وليس معهم شيء من ذلك .

*(166/256)*

---

قال الزمخشري : أمرهم باستحضارهم وهم شهداء بالباطل ليلزمهم الحجة ويلقمهم الحجر ويظهر للمشهود لهم بانقطاع الشهداء أنهم ليسوا على شيء لتساوي أقدام الشاهدين ،

والمشهود لهم في أنهم يرجعون إلى ما يصح التمسك به وقوله : ﴿ فلا تشهد معهم ﴾ فلا تسلم لهم ما شهدوا به ولا تصدقهم ، لأنه إذا سلم لهم فكأنه شهد معهم مثل شهادتهم فكان واحداً منهم ؛ انتهى ، وهو تكثير .

﴿ ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون ﴾

الظاهر في العطف أنه يدل على مغايرة الذوات و ﴿ الذين كذبوا بآياتنا ﴾ يعم جميع من كذب الرسول وإن كان مُقراً بالآخرة كأهل الكتاب .

﴿ والذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ قسم من المكذبين بالآيات وهم عبدة الأوثان والجاعلون لربهم عديلاً وهو المثل عدلوا به الأصنام في العبادة والإلهية ، ويحتمل أن يكون العطف من تغاير الصفات والموصوف واحد وهو قول أكثر الناس ، ويظهر أنه اختيار الزمخشري لأنه قال : ﴿ لا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا ﴾ من وضع الظاهر موضع المضمر لدلالته على أن من كذب بآيات الله وعدل به غيره فهو متبع للهوى لا غير ، لأنه لو تبع الدليل لم يكن إلا مصدقاً بالآيات موحداً لله .

وقال النقاش : نزلت في الدهرية من الزنادقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 4 صـ ﴾

(167/256)

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ ﴾ أي أحضِروهم وهو اسمُ فعلٍ لا يتصرَّف على لغة أهلِ الحجاز ، وفعلٌ يؤنث ويُجمع على لغة بني تميم على رأي الجمهور وقد خالفهم البعض في فعليته وليس بشيء ، وأصلُه عند البصريين هالُمّ من لَمّ إذا قصَد حُذفت الألفُ لتقدير السكون في اللام فإنه الأصل وعند الكوفيين هلْ أُمُّ فحذفت الهمزةُ بإلقاء حركتِها على اللام وهو بعيد لأن هل تدخل على الأمر ويكون متعدياً كما في الآية ولازماً كما في قوله تعالى : ﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ ﴿ الذين يَشْهَدُونَ أَنَّ الله حَرَّمَ هذا ﴾ وهم قدوتُهم الذين ينصُرون قولَهم وإنما أُمروا باستحضارهم ليُلزِمَهم الحجةَ ويظهر بانقطاعهم ضلالتَهم وأنه لا متمسَّكَ لهم كمن يقلدهم ولذلك قُيِّد الشهداءُ بالإضافة ووُصفوا بما يدل على أنهم شهداءُ معروفون بالشهادة لهم وبنُصرة مذهبهم ﴿ فَإِن شَهِدُواْ ﴾ بعد ما حضَروا بأن الله حرم هذا ﴿ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ أي فلا تصدقْهم فإنه كذِبٌ بحتٌ وافتراءٌ صِرْفٌ وبيِّنْ لهم فسادَه فإن تسليمَه منهم موافقةٌ لهم في الشهادة الباطلة ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الذين كَذَّبُواْ بآياتنا ﴾ من وضع المظهرِ مقامَ المضمرِ للدِلالة على أن من كذَّب بآياتِ الله تعالى وعدَل به غيرَه فهو متبعٌ لا غيرُ ، وأن من اتبع الحجةَ لا يكون إلا مصدقاً بها ﴿ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ كعبدة الأوثان ، عطفٌ على الموصول الأولِ بطريق عطفِ الصفةِ على الصفة مع اتحاد الموصوفِ كما في

قوله :

إلى الماجد القَرْمِ وابنِ الهمام . . . وليثِ الكتائبِ في المزدَحَمْ

(168/256)

---

فإن من يكذب بآياته تعالى لا يؤمن بالآخرة وبالعكس ﴿ وَهُم بِرَبِهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ أي يجعلون له عديلاً ، عطفٌ على لا يؤمنون ، والمعنى لا تتبع أهواءَ الذين يجمعون بين تكذيبِ آياتِ الله وبين الكفرِ بالآخرة وبين الإشراكِ به سبحانه . لكن لا على أن يكون مدارُ النهي الجمعُ المذكورُ بل على أن أولئك جامعون لها متصفون بكلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 3 صـ ﴾

(169/256)

---

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ ﴾ أي أحضروهم للشهادة هو اسم فعل لا يتصرف عند أهل الحجاز وفعل يؤنث ويثنى ويجمع عند بني تميم وهو مبني على ما اشتهر من أن ما ذكر من

خصائص الأفعال .

وعن أبي علي الفارسي أن الضمائر قد تتصل بالكلمة وهي حرف كليس أو اسم فعل كهات لمناسبتها للأفعال .

وعلى هذا تكون ﴿ هَلُمَّ ﴾ اسم فعل مطلقاً كما في "شرح التسهيل" وعليه الرضي حيث قال : وبنو تميم يصرفونه فيذكرونه ويؤنثونه ويجمعونه نظراً إلى أصله .

وأصله عند البصريين ها لم من لم إذا قصد حذفت الألف لتقدير السكون في اللام لأن أصله المم وعند الكوفيين هل أم فنقلت ضمة الهمزة إلى اللام وحذفت كما هو القياس ، واستبعد بأن هل لا تدخل الأمر .

ودفع بما نقله الرضي عنهم من أن أصل هل أم هلا أم وهلا كلمة استعجال بمعنى أسرع فغير إلى هل لتخفيف التركيب ثم فعل به ما فعل .

ويكون متعدياً بمعنى أحضر وائت ولازماً بمعنى أقبل كما في قوله تعالى : ﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ [ الأحزاب : 18 ] ) .

﴿ الذين يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هذا ﴾ وهم كبراؤهم الذين أسسوا ضلالهم .

والمقصود من إحضارهم تفضيحهم وإلزامهم وإظهار أن لا متمسك لهم كمقلديهم ولذلك قيد الشهداء بالإضافة ووصفوا بما يدل على انهم شهداء معرفون بالشهادة لهم وبنصر

مذهبهم .

وهذا إشارة إلى ما حرموه من الأنعام على ما حكته الآيات السابقة .

*(170/256)*

---

وقال مجاهد : إشارة إلى البحائر والسوائب ﴿ فَإِن شَهِدُواْ ﴾ أي أولئك الشهداء المعرفون بالباطل بعد ما حضروا بأن الله حرم هذا ﴿ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ أي فلا تصدقهم فإنه كذب بحت وبين لهم فساده لأن تسليمه منهم موافقة لهم في الشهادة الباطلة والسكوت قد يشعر بالرضا ، وإرادة هذا المعنى من ( لا تشهد ) إما على سبيل الاستعارة التبعية أو المجاز المرسل من ذكر اللازم وإرادة الملزوم لأن الشهادة من لوازم التسليم أو الكناية أو هو من باب المشاكلة ، ومن الناس من زعم أن ضمير ﴿ شَهِدُواْ ﴾ للمشركين أي فإن لم يجدوا شاهداً يشهد بذلك فشهدوا بأنفسهم لأنفسهم فلا تشهد وهو في غاية البعد ، وأبعد منه بل هو للفساد أقرب قول من زعم أن المراد هلم شهداءكم من غيركم فإن لم يجدوا ذلك لأن غير العرب لا يحرمون ما ذكر وشهدوا بأنفسهم فلا تصدقهم .

﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الذين كَذَّبُواْ بآياتنا ﴾ من وضع المظهر موضع المضمر للإيماء إلى أن مكذب الآيات متبع الهوى لا غير وأن متبع الحجة لا يكون إلا مصدقاً بها ، والخطاب قيل

لكل من يصلح له .

وقيل : لسيد المخاطبين والمراد أمته .

(171/256)

---

﴿ والذين لاَيُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ كعبدة الأوثان عطف على الموصول الأول بطريق عطف الصفة على الصفة مع اتحاد الموصوف فإن من يكذب بآياته تعالى لا يؤمن بالآخرة وبالعكس ، وزعم بعضهم أن المراد بالموصول الأول المكذبون مع الإقرار بالآخرة كأهل الكتابين وبالموصول الثاني المكذبون مع إنكار الآخرة ولا يخفى ما فيه ﴿ وَهُم بِرَبِهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ أي يجعلون له عديلاً أي شريكاً فهو كقوله تعالى : ﴿ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [ النحل : 100 ] وقيل : يعدلون بأفعاله عنه سبحانه وينسبونها إلى غيره عز وجل ، وقيل : يعدلون بعبادتهم عنه تعالى ، والجملة عطف على ﴿ لاَيُؤْمِنُونَ ﴾ والمعنى لا تتبع الذين يجمعون بين التكذيب بالآيات والكفر بالآخرة والإشراك بربهم عز وجل لكن لا على أن مدار النهي الجمع المذكور بل على أن أولئك جامعون لها متصفون بها ، وقيل : الجملة في موضع الحال من ضمير ﴿ لاَيُؤْمِنُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 8 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا ﴾

استئناف ابتدائي : للانتقال من طريقة الجدل والمناظرة في إبطال زعمهم ، إلى إبطاله بطريقة التّبيين ، أي أحضروا من يشهدون أنّ الله حرّم هذا ، تقصياً لإبطال قولهم من سائر جهاته .

ولذلك أعيد أمر الرّسول صلى الله عليه وسلم بأن يقول لهم ما يظهر كذب دعواهم .

وإعادة فعل ﴿ قل ﴾ بدون عطف لاسترعاء الأسماع ولوقوعه على طريقة المحاورة كما قدمناه آنفاً .

*(172/256)*

---

و ﴿ هلمّ ﴾ اسم فعلٍ أمْرٍ للحُضور أو الإحضار ، فهي تكون قاصرة كقوله تعالى : ﴿ هلمّ إلينا ﴾ [ الأحزاب : 18 ] ومتعدية كما هنا ، وهو في لغة أهل الحجاز يلزم حالة واحدة فلا تلحقه علامات مناسبة للمخاطب ، فتقول : هلمّ يا زيدُ ، وهلمّ يا هندُ ، وهكذا ، وفي لغة أهل العالية أعني بني تميم تلحقه علامات مناسبة ، يقولون : هَلُمّي يا هند ، وهلُمَّا ، وهلُمّوا ، وهلْمُمْنَ ، وقد جاءَ في هذه الآية على الأفصح فقال : ﴿ هلم شهداءكم ﴾ .

والشّهداء : جمع شهيد بمعنى شاهد ، والأمر للتّعجيز إذ لا يَلقون شهداء يشهدون أنّ الله

حرّم ما نسبوا إليه تحريمه من شؤون دينهم المتقدّم ذكرها .

وأضيف الشّهداء إلى ضمير المخاطبين لزيادة تعجيزهم ، لأنّ شأن المحقّ أن يكون له شهداء يعلمهم فيحضرهم إذا دُعي إلى إحقاق حقّه ، كما يقال للرّجل : اركَب فرسك والْحَقْ فلاناً ، لأنّ كلّ ذي بيت في العرب لا يَعدِم أن يكون له فرس ، فيقول ذلك له من لا يعلم له فرساً خاصاً ولكن الشأن أن يكون له فرس ومنه قوله تعالى : ﴿ يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾ [ الأحزاب : 59 ] وقد لا يكون لإحداهن جلباب كما ورد في الحديث أنَّه سئل : إذا لم يكن لإحدانا جلباب ، قال : لتُلْبِسْها أخْتُها من جلبابها .

ووصفُهم بالموصول لزيادة تقرير معنى إعداد أمثالهم للشّهادة ، فالطّالب ينزّل نفسه منزلة من يظنّهم لا يخلُون عن شهداء بحقِّهم من شأنهم أن يشهدوا لهم وذلك تمهيد لتعجيزهم البين إذا لم يحضروهم ، كما هو الموثوق به منهم ألا ترى قوله : ﴿ أم كنتم شهداء إذ وصّاكم الله بهذا ﴾ [ الأنعام : 144 ] فهو يعلم أن ليس ثمة شهداء .

وإشارة ﴿ هذا ﴾ تشير إلى معلوم من السّياق ، وهو ما كان الكلام عليه من أوّل الجدال من قوله : ﴿ ثمانية أزواج ﴾ [ الأنعام : 143 ] الآيات ، وقد سبقت الإشارة إليه أيضاً بقوله : ﴿ أم كنتم شهداء إذ وصّاكم الله بهذا ﴾ [ الأنعام : 144 ] .

ثمّ فرع على فرض أن يحضروا شهداء يشهدون ، قوله : ﴿ فإن شهدوا فلا تشهد معهم ﴾ ، أي إن فرض المستبعد فأحضروا لك شهداء يشهدون أنّ الله حرّم هذا الذي زعموه ، فكذّبهم وأعلم بأنّهم شهود زور ، فقوله : ﴿ فلا تشهد معهم ﴾ كناية عن تكذيبهم لأنّ الذي يصدق أحداً يوافقه في قوله ، فاستعمل النّهي عن موافقتهم في لازمه ، وهو التّكذيب ، وإلاّ فإنّ النّهي عن الشّهادة معهم لمن يعلم أنّه لا يشهد معهم لأنّه لا يصدّق بذلك فضلاً على أن يكون شاهده من قبيل تحصيل الحاصل ، فقرينة الكناية ظاهرة .

وعُطف على النّهي عن تصديقهم ، النّهيُ عن اتّباع هواهم بقوله : ﴿ ولا تتبع أهواء الذين كذبوا ﴾ .

وأظهر في مقام الإضمار قوله : ﴿ الذين كذبوا بآياتنا ﴾ لأنّ في هذه الصّلة تذكيراً بأنّ المشركين يكذّبون بآيات الله ، فهم ممّن يتجنّب اتّباعهم ، وقيل : أريد بالذين كذبوا اليهود بناء على ما تقدّم من احتمال أن يكونوا المراد من قوله : ﴿ فإن كذّبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ﴾ [ الأنعام : 147 ] وسمّى دينهم هوى لعدم استناده إلى مستند ولكنّه إرضاء للهوى .

والهوى غلب إطلاقه على محبّة الملائم العاجل الذي عاقبته ضرر .

وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم ﴾ في

سورة البقرة ( 145 ) .

وقوله : والذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ عطف على ﴿ الذين كذبوا ﴾ والمقصود عطف الصّلة على الصّلة لأنّ أصحاب الصّلتين متّحدون ، وهم المشركون ، فهذا كعطف الصّفات في قول القائل ، أنشده الفراء :

إلى الملك القرم وابن الهما

م وليثِ الكتيبة في المزدَحَم . . .

كان مقتضَى الظاهر أن لا يعاد اسم الموصول لأنّ حرف العطف مغن عنه ، ولكن أجري الكلام على خلاف مقتضى الظاهر لزيادة التّشهير بهم ، كما هو بعض نكت الإظهار في مقام الإضمار .

وقيل : أريد بالذين كذّبوا بالآيات : الذين كذّبوا الرّسول عليه الصّلاة والسّلام والقرآن ، وهم أهل الكتابين ، وبالذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربِّهم يعدلون : المشركون ، وقد تقدّم معنى : ﴿ بربهم يعدلون ﴾ عند قوله تعالى : ﴿ ثم الذين كفروا بربّهم يعدلون ﴾ في أوّل هذه السورة ( 1 ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 7 صـ ﴾

*(174/256)*

ومن فوائد صاحب المنار فى الآيات السابقة

قال رحمه الله :

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ)

قَدْ كَانَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ بَيَانًا مُفَصَّلًا لِعَقَائِدِ الْإِسْلَامِ فِي الْإِلَهِيَّاتِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْبَعْثِ ، وَدَحْضًا لِشُبَهَاتِ الْمُشْرِكِينَ الَّتِي كَانُوا يَحْتَجُّونَ بِهَا عَلَى شِرْكِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ لِلرُّسُلِ وَإِنْكَارِهِمْ لِلْبَعْثِ ، وَعَلَى أَعْمَالِهِمُ الَّتِي هِيَ مَظَاهِرُ شِرْكِهِمْ مِنْ تَحْرِيمٍ وَتَحْلِيلٍ ، وَخُرَافَاتٍ وَتَضْلِيلٍ ، وَأَوْهَامٍ وَأَبَاطِيلَ ، وَقَدْ جَاءَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ بِشُبْهَةٍ مِنْ أَكْبَرِ شُبُهَاتِهِمُ الَّتِي ضَلَّ بِمِثْلِهَا كَثِيرٌ مِنَ الْكُفَّارِ قَبْلَهُمْ ، وَلَمْ يَكُونُوا أَوْرَدُوهَا عَلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ هَذِهِ السُّورَةَ جَامِعَةً لِكُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِتَقْرِيرِ الْعَقَائِدِ وَإِثْبَاتِهَا بِالْحُجَّةِ النَّاهِضَةِ ، وَإِبْطَالِ مَا يَرُدُّ عَلَيْهَا مِنَ الشُّبُهَاتِ الدَّاحِضَةِ ، مَا قِيلَ مِنْهَا ، وَمَا سَيُقَالُ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

بَعْدَ نُزُولِهَا . فَذَكَرَهَا وَرَدَّ عَلَيْهَا بِمَا يُبْطِلُهَا ، فَكَانَ ذَلِكَ مِنْ إِخْبَارِهِ بِأُمُورِ الْغَيْبِ قَبْلَ وُقُوعِهَا ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ :

*(175/256)*

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ) أَيْ سَيَقُولُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ : لَوْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى أَلَّا نُشْرِكَ بِهِ مَنِ اتَّخَذْنَا لَهُ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَالشُّفَعَاءِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْبَشَرِ ، وَأَلَّا نُعَظِّمَ مَا عَظَّمْنَا مِنْ تَمَاثِيلِهِمْ وَصُوَرِهِمْ أَوْ قُبُورِهِمْ وَسَائِرِ مَا يُذَكِّرُ بِهِمْ - وَأَلَّا يُشْرِكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلِنَا كَذَلِكَ لَمَا أَشْرَكُوا وَلَا أَشْرَكْنَا - وَلَوْ شَاءَ أَلَّا نُحَرِّمَ شَيْئًا مِمَّا حَرَّمْنَا مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ وَغَيْرِهِمَا لَمَا حَرَّمْنَا . أَيْ وَلَكِنَّهُ شَاءَ أَنْ نُشْرِكَ هَؤُلَاءِ الْأَوْلِيَاءَ وَالشُّفَعَاءَ بِهِ وَهُمْ لَهُ يُقَرِّبُونَنَا إِلَيْهِ زُلْفَى ، وَشَاءَ أَنْ نُحَرِّمَ مَا حَرَّمْنَا مِنَ الْبَحَائِرِ وَالسَّوَائِبِ وَغَيْرِهَا فَحَرَّمْنَاهَا ، فَإِتْيَانُنَا مَا ذُكِرَ دَلِيلٌ عَلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ ، بَلْ عَلَى رِضَاهُ وَأَمْرِهِ بِهِ أَيْضًا ، - كَمَا حَكَى عَنْهُمْ فِي آيَةٍ أُخْرَى بِقَوْلِهِ : (وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (7 : 28) وَقِيلَ : أَرَادُوا أَنَّ مَشِيئَتَهُ مُلْزِمَةٌ وَمُجْبِرَةٌ ، فَهُمْ غَيْرُ مُخْتَارِينَ فِي ذَلِكَ . وَلَمَّا وَقَعَ هَذَا الْقَوْلُ مِنْهُمْ بِالْفِعْلِ حَكَاهُ تَعَالَى عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ فِي سُورَةِ النَّحْلِ : (وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) (16 : 35) وَفِي مَعْنَاهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الزُّخْرُفِ : (وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) (43 : 20) .

وَقَدْ رَدَّ تَعَالَى شُبْهَتَهُمْ هُنَا بِقَوْلِهِ : (كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا) إلَخْ .

*(177/256)*

---

أَيْ مِثْلُ هَذَا التَّكْذِيبِ مِنْ مُشْرِكِي مَكَّةَ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنْ إبْطَالِ الشِّرْكِ وَإِثْبَاتِ تَوْحِيدِ اللَّهِ فِي الْأُلُوهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ ، وَمِنْهَا حَقُّ التَّشْرِيعِ وَالتَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ ، قَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ لِرُسُلِهِمْ . أَيْ مِثْلُهُ فِي كَوْنِهِ تَكْذِيبًا جَهْلِيًّا غَيْرَ مَبْنِيٍّ عَلَى أَسَاسٍ مِنَ الْعِلْمِ ، وَالرُّسُلُ - وَلَا سِيَّمَا خَاتَمُهُمْ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - قَدْ أَقَامُوا الْحُجَجَ الْعِلْمِيَّةَ وَالْعَقْلِيَّةَ عَلَى التَّوْحِيدِ وَغَيْرِهِ ، وَأَيَّدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ ، وَلَكِنَّ الْمُكَذِّبِينَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي هَذِهِ الْآيَاتِ نَظَرَ الْإِنْصَافِ لِاسْتِبَانَةِ الْحَقِّ ، بَلْ أَعْرَضُوا عَنْهَا وَأَصَرُّوا عَلَى جُحُودِهِمْ وَعِنَادِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَهُ تَعَالَى ، وَهُوَ عَذَابُ الِاسْتِئْصَالِ لِلْمُعَانِدِينَ الَّذِينَ اقْتَرَحُوا عَلَى رُسُلِهِمْ آيَاتٍ مُعَيَّنَةً فَجَعَلَهَا الرُّسُلُ نَذِيرًا لَهُمْ بِالِاسْتِئْصَالِ

فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ، وَمَا دُونَهُ لِغَيْرِهِمْ . وَلَوْ كَانَتْ مَشِيئَةُ اللهِ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الشِّرْكِ وَالْمَعَاصِي إِجْبَارًا مُخْرِجًا لِذَلِكَ عَنْ كَوْنِهِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ لَمَا عَاقَبَهُمْ عَلَيْهِ .

(178/256)

---

وَهُوَ قَدْ قَالَ إِنَّهُ أَخَذَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَهْلَكَهُمْ بِظُلْمِهِمْ وَكُفْرِهِمْ – وَلَوْ كَانَتْ مَشِيئَتُهُ لِذَلِكَ مُتَضَمِّنَةً لِرِضَاهُ عَنْ فَاعِلِهِ وَأَمْرِهِ إِيَّاهُ بِهِ – خِلَافًا لِمَا قَالَ الرُّسُلُ – لَمَا عَاقَبَهُمْ عَلَيْهِ تَصْدِيقًا لِلرُّسُلِ . فَقَوْلُهُ تَعَالَى : (حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا) بَيَانٌ لِلْبُرْهَانِ الْفِعْلِيِّ الْوَاقِعِ الدَّالِّ عَلَى صِدْقِ الرُّسُلِ فِي دَعْوَاهُمْ وَبُطْلَانِ شُبَهَاتِ الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ ، وَأَمْثَالِهِمْ مِنَ الْجَبْرِيَّةِ الَّذِينَ عَطَّلُوا شَرَائِعَهُمْ ، وَهُمْ يَزْعُمُونَ كَمَالَ الْإِيمَانِ بِهَا وَبِهِمْ .

(179/256)

---

وَبَعْدَ هَذَا التَّذْكِيرِ بِهَذَا الْبُرْهَانِ أَمَرَ اللهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُطَالِبَ الْمُشْرِكِينَ بِدَلِيلٍ عِلْمِيٍّ عَلَى زَعْمِهِمْ فَقَالَ : (قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا) أَيْ هَلْ عِنْدَكُمْ بِمَا تَقُولُونَ عِلْمٌ مَا تَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ وَتَحْتَجُّونَ بِهِ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا لِنَبْحَثَ مَعَكُمْ فِيهِ ، وَنَعْرِضَهُ عَلَى

مَا جِئْنَاكُمْ بِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْمَحْكِيَّةِ عَنْ وَقَائِعِ الْأُمَمِ الَّتِي قَبْلَكُمْ ، وَنَنْصِبَ بَيْنَهُمَا الْمِيزَانَ الْقِسْطَ لِيَظْهَرَ الرَّاجِحُ مِنَ الْمَرْجُوحِ ؟ وَالِاسْتِفْهَامُ هُنَا لِلتَّعْجِيزِ وَالتَّوْبِيخِ ; وَلِذَلِكَ قَفَّى عَلَيْهِ بَيَانَ حَقِيقَةِ حَالِهِمْ فَقَالَ : (إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ) أَيْ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ مَا مِنَ الْعِلْمِ ، بَلْ مَا تَتَّبِعُونَ فِي بَقَائِكُمْ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ عَقِيدَةٍ وَقَوْلٍ فِي الدِّينِ وَعَمَلٍ بِهِ إِلَّا الظَّنَّ ، وَهُوَ فِي اللُّغَةِ مَا لَيْسَ مِنْ مُدْرَكَاتِ الْحِسِّ وَلَا ضَرُورِيَّاتِ الْعَقْلِ ، وَقَدْ يَكُونُ مِنْهُ مَا يُؤْخَذُ مِنْ نَظَرِيَّاتٍ يَطْمَئِنُّ لَهَا الْقَلْبُ وَيُرَجِّحُهَا الْعَقْلُ ، وَهُمْ لَمْ يَكُونُوا عَلَى هَذَا النَّوْعِ مِنْهُ ، وَإِنْ كَانَ لَا يَكْفِي فِي إِثْبَاتِ أَصْلَيِ الدِّينِ وَهُمَا عَقَائِدُهُ وَقَوَاعِدُ التَّشْرِيعِ الَّتِي يَجِبُ الْجَزْمُ بِهَا ، بَلْ كَانُوا يَتَّبِعُونَ أَدْنَى دَرَجَاتِهِ وَأَضْعَفَهَا لَا يَعْدُونَهَا ، وَهِيَ دَرَجَةُ الْخَرْصِ ، أَيِ الْحَزْرِ وَالتَّخْمِينِ الَّذِي لَا يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَقِرَّ عِنْدَهُ الْحُكْمُ ، كَخَرْصِ مَا يَأْتِي مِنَ النَّخِيلِ أَوِ

(180/256)

---

الْكَرْمِ مِنَ التَّمْرِ وَالزَّبِيبِ ، وَكَثِيرًا مَا يُطْلَقُ الْخَرْصُ عَلَى لَازِمِهِ الَّذِي يَنْدُرُ أَنْ يُفَارِقَهُ وَهُوَ الْكَذِبُ ، وَقَدْ فُسِّرَ بِهِ هُنَا .

بَعْدَ أَنْ نَفَى عَنْهُمْ أَدْنَى مَا يُقَالُ لَهُ عِلْمٌ ، وَحَصَرَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ فِي أَدْنَى مَرَاتِبِ الظَّنِّ

، مَعَ أَنَّ أَعْلَاهَا لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ مِنْ شَيْءٍ . أَثْبَتَ لِذَاتِهِ الْعَلِيَّةِ فِي مُقَابَلَةِ ذَلِكَ الْحُجَّةَ الْعُلْيَا الَّتِي لَا تَعْلُوهَا حُجَّةٌ فَقَالَ :

(قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) الْحُجَّةُ فِي اللُّغَةِ الدَّلَالَةُ الْمُبَيِّنَةُ لِلْحُجَّةِ ، أَيِ الْمَقْصِدُ الْمُسْتَقِيمُ - كَمَا قَالَ الرَّاغِبُ - فَهِيَ مِنَ الْحَجِّ الَّذِي هُوَ الْقَصْدُ ، وَالْمَعْنَى قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ لِهَؤُلَاءِ الْجَاهِلِينَ الَّذِينَ بَنَوْا قَوَاعِدَ دِينِهِمْ عَلَى أَسَاسِ الْخَرْصِ الَّذِي هُوَ أَضْعَفُ الظَّنِّ ، بَعْدَ تَعْجِيزِكَ إِيَّاهُمْ عَنِ الْإِتْيَانِ بِأَدْنَى دَلِيلٍ أَوْ قَوْلٍ يَرْتَقِي إِلَى أَدْنَى دَرَجَةٍ مِنَ الْعِلْمِ : إِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَكُمْ عِلْمٌ مَا فِي أَمْرِ دِينِكُمْ ، فَلِلَّهِ وَحْدَهُ أَعْلَى دَرَجَاتِ الْعِلْمِ ، مِمَّا بَعَثَنِي بِهِ مِنْ مَحَجَّةِ دِينِهِ الْقَوِيمِ ، وَصِرَاطِهِ

*(181/256)*

---

الْمُسْتَقِيمِ ، وَهُوَ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ لِمَا أَرَادَ مِنْ إِحْقَاقِ الْحَقِّ وَإِزْهَاقِ الْبَاطِلِ ، وَهِيَ مَا بَيَّنَهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى أُصُولِ الْعَقَائِدِ وَقَوَاعِدِ الشَّرَائِعِ وَمُوَافَقَتِهَا لِحِكَمِ الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ وَالْفِطَرِ الْكَامِلَةِ ، وَسُنَنِ اللهِ فِي الِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ وَتَكْمِيلِهَا لِلنِّظَامِ الْعَامِّ ، الَّذِي يُعَرِّجُ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ فِي مَرَاقِي الْكَمَالِ ، وَلَكِنْ لَا يَكَادُ يَهْتَدِي بِهَذِهِ الْآيَاتِ الْمُنْبَثَّةِ

فِي الْأَكْوَانِ ، الْمُبَيَّنَةِ فِي آيَةِ اللهِ الْكُبْرَى وَهِيَ الْقُرْآنُ ، إِلَّا الْمُسْتَعِدُّ لِلْهِدَايَةِ ، وَهُوَ الْمُحِبُّ لِلْحَقِّ الْحَرِيصُ عَلَى طَلَبِهِ ، الَّذِي يَسْتَمِعُ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُ أَحْسَنَهُ ، دُونَ مَنْ أَطْفَأَ بِاتِّبَاعِ الْهَوَى

(182/256)

---

نُورَ فِطْرَتِهِ ، أَوِ اسْتِخْدَامَ عَقْلِهِ لِكِبْرِيَائِهِ وَشَهْوَتِهِ ، الْمُعْرِضِ عَنِ النَّظَرِ فِي الْآيَاتِ اسْتِكْبَارًا عَنْهَا ، أَوْ حَسَدًا لِلْمُبَلِّغِ الَّذِي جَاءَ بِهَا ، أَوْ جُمُودًا عَلَى تَقْلِيدِ الْآبَاءِ ، وَاتِّبَاعِ الرُّؤَسَاءِ ، فَإِنَّمَا الْحُجَّةُ عِلْمٌ وَبَيَانٌ ، لَا قَهْرٌ وَلَا إِلْزَامٌ ، وَمَا عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ ، وَإِلَّا فَلَوْ شَاءَ هِدَايَتَكُمْ بِغَيْرِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي أَقَامَ أَمْرَ الْبَشَرِ عَلَيْهَا وَهِيَ التَّعْلِيمُ وَالْإِرْشَادُ ، بِطَرِيقِ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ ، وَمَا ثَمَّ إِلَّا الْخَلْقُ وَالتَّكْوِينُ أَوِ الْقَهْرُ وَالْإِلْزَامُ – لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ بِجَعْلِكُمْ كَذَلِكَ بِالْفِطْرَةِ كَمَا خَلَقَ الْمَلَائِكَةَ مَفْطُورِينَ عَلَى الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَطَاعَةِ الرَّبِّ (لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) (66 : 6) أَوْ بِخَلْقِ الطَّاعَةِ فِيكُمْ بِغَيْرِ شُعُورٍ مِنْكُمْ وَلَا إِرَادَةٍ كَجَرَيَانِ دِمَائِكُمْ فِي أَبْدَانِكُمْ ، وَهَضْمِ مِعَدِكُمْ لِطَعَامِكُمْ ، أَوْ مَعَ الشُّعُورِ بِأَنَّهَا لَيْسَ مِنْ أَفْعَالِكُمْ ، وَحِينَئِذٍ لَا تَكُونُونَ مِنْ نَوْعِ الْإِنْسَانِ الَّذِي قَضَتِ الْحِكْمَةُ وَسَبَقَ الْعِلْمُ بِأَنْ يُخْلَقَ مُسْتَعِدًّا لِاتِّبَاعِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَعَمَلِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَكَوْنُهُ يُرَجِّحُ بَعْضَ مَا هُوَ مُسْتَعِدٌّ لَهُ عَلَى بَعْضِ الِاخْتِيَارِ ، وَاخْتِيَارُهُ لِأَحَدِ النَّجْدَيْنِ عَلَى الْآخَرِ بِمَشِيئَتِهِ لَا يَنْفِي مَشِيئَةَ اللهِ

تَعَالَى وَلَا يُعَارِضُهَا ، فَإِنَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي شَاءَ أَنْ يَجْعَلَهُ فَاعِلًا بِاخْتِيَارِهِ ، كَمَا بَيَّنَّاهُ مِنْ قَبْلُ فِي مَوَاضِعَ ،

*(183/256)*

---

وَمِثْلُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ : (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا) (107) وَقَوْلُهُ مِنْهَا أَيْضًا : (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى) (35) وَأَيْضًا (مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (39) وَقَوْلُهُ : (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) (5 : 48) وَقَوْلُهُ : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ) (11 : 118 ، 119) وَقَوْلُهُ : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ) (10 : 99) فَالْآيَاتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كُلُّهَا بَيَانٌ لِسُنَّةِ اللَّهِ فِي خَلْقِ الْإِنْسَانِ كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِ مَا تَقَدَّمَ مِنْهَا وَفِي مَوَاضِعَ أُخْرَى ، وَهِيَ حُجَّةٌ عَلَى الْمُجْبِرَةِ وَالْقَدَرِيَّةِ جَمِيعًا لَا لَهُمَا .

وَقَدْ تَمَارَى الْمُعْتَزِلَةُ وَالْأَشْعَرِيَّةُ فِي تَطْبِيقِ هَذِهِ الْآيَاتِ عَلَى مَذَاهِبِهِمَا فِي إِنْكَارِ تَعَلُّقِ الْمَشِيئَةِ الْإِلَهِيَّةِ بِمَا هُوَ قَبِيحٌ كَالشِّرْكِ وَالْمَعَاصِي ، وَفِي نَفْيِ عَقِيدَةِ الْجَبْرِ عِنْدَ

الْمُعْتَزِلَةِ وَإِثْبَاتِ الْأَشْعَرِيَّةِ لَهُمَا . وَقَدْ جَمَعْنَا فِيمَا جَرَيْنَا عَلَيْهِ آنِفًا بَيْنَ رَدِّ الشُّبْهَتَيْنِ لِأَنَّ الْمَفْتُونِينَ بِهِمَا إِلَى الْيَوْمِ كَثِيرُونَ يَنْتَمُونَ إِلَى مَذَاهِبَ مَا لَهُمْ بِهَا مِنْ عِلْمٍ .

(184/256)

---

وَقَدْ رَأَيْنَا أَنْ نُلَخِّصَ أَقْوَالَ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ فِي الْآيَاتِ لِيُعْرَفَ مِنْهُ ضَعْفُ الْمَذَاهِبِ النَّظَرِيَّةِ الْمُتَعَارِضَةِ لِأَهْلِ الْكَلَامِ . قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي تَفْسِيرِ : (كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) بَعْدَ أَنْ قَالَ : إِنَّ احْتِجَاجَهُمْ كَمَذْهَبِ الْمُجْبِرَةِ بِعَيْنِهِ مَا نَصُّهُ : أَيْ جَاءُوا بِالتَّكْذِيبِ الْمُطْلَقِ لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ رَكَّبَ فِي الْعُقُولِ وَأَنْزَلَ فِي الْكُتُبِ مَا دَلَّ عَلَى غِنَاهُ وَبَرَاءَتِهِ مِنْ مَشِيئَةِ الْقَبَائِحِ وَإِرَادَتِهَا ، وَالرُّسُلُ أَخْبَرُوا بِذَلِكَ ، فَمَنْ عَلَّقَ وُجُودَ الْقَبَائِحِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي بِمَشِيئَةِ اللهِ وَإِرَادَتِهِ فَقَدْ كَذَّبَ التَّكْذِيبَ كُلَّهُ ، وَهُوَ تَكْذِيبُ اللهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، وَنَبَذَ أَدِلَّةَ الْعَقْلِ وَالسَّمْعِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ اهـ .

(185/256)

---

وَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِ خُصُومُهُمُ الْأَشْعَرِيَّةُ بِأَنَّ الرُّسُلَ لَمْ تَنْفِ بَلْ أَثْبَتَتْ وُقُوعَ كُلِّ شَيْءٍ بِمَشِيئَةِ اللهِ وَتَقْدِيرِهِ ، وَإِنْ كَانَ قَبِيحًا مِمَّنْ فَعَلَهُ ، لِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ عِقَابِهِ عَلَيْهِ لِإِتْيَانِهِ إِيَّاهُ بِاخْتِيَارِهِ كَالْكُفْرِ وَالْمَعْصِيَةِ ، وَأَنَّ الْمَشِيئَةَ وَالْإِرَادَةَ مِنْهُ تَعَالَى لَيْسَتْ بِمَعْنَى الرِّضَا وَلَا تَسْتَلْزِمُهُ ، وَقَرَّرَ جُمْهُورُهُمْ أَنَّ مُرَادَ الْمُشْرِكِينَ بِشُبْهَتِهِمْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى رَاضٍ عَنْ شِرْكِهِمْ وَتَحْرِيمِهِمْ لِمَا حَرَّمُوا ، بِدَلِيلِ مَشِيئَتِهِ لَهُ مِنْهُمْ دُونَ غَيْرِهِ لَا أَنَّهُ أَجْبَرَهُمْ عَلَيْهِ . وَقَدِ احْتَجَّ السَّلَفُ بِالْآيَةِ عَلَى مُنْكِرِي الْقَدَرِ قَبْلَ حُدُوثِ مَذْهَبَيِ الْمُعْتَزِلَةِ وَالْأَشْعَرِيَّةِ ، فَقَدْ رَوَى أَكْثَرُ مُدَوِّنِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ وَأَبُو الشَّيْخِ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ : إِنَّ أُنَاسًا يَقُولُونَ إِنَّ الشَّرَّ لَيْسَ بِقَدَرٍ ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَهْلِ الْقَدَرِ هَذِهِ الْآيَةُ : (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا) إِلَى قَوْلِهِ : (فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) وَأَخْرَجَ أَبُو الشَّيْخِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ قَالَ : انْقَطَعَتْ حُجَّةُ الْقَدَرِيَّةِ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ ، أَيِ الْأَخِيرَةِ .

(186/256)

---

وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي رَدِّ الْآيَةِ عَلَى شُبْهَتِهِمْ : أَيْ بِهَذِهِ الشُّبْهَةِ ضَلَّ مَنْ ضَلَّ قَبْلَ هَؤُلَاءِ ، وَهِيَ حُجَّةٌ دَاحِضَةٌ بَاطِلَةٌ لِأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ صَحِيحَةً لَمَا أَذَاقَهُمُ اللهُ بَأْسَهُ

وَدَمَّرَ عَلَيْهِمْ ، وَأَدَالَ عَلَيْهِمْ رُسُلَهُ الْكِرَامَ ، وَأَذَاقَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَلِيمِ الِانْتِقَامِ انْتَهَى . وَقَدْ جَزَمَ ابْنُ جَرِيرٍ أَيْضًا بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَذَّبَ الْمُشْرِكِينَ هُنَا بِزَعْمِهِمْ أَنَّ اللَّهَ رَضِيَ مِنْهُمْ عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ ، وَتَحْرِيمِ مَا حَرَّمُوا مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ ، لَا بِقَوْلِهِمْ : (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا) إِلَخْ . فَإِنَّهُ قَوْلٌ صَحِيحٌ ، أَيْ وَلَكِنَّهُ حَقٌّ

أُرِيدَ بِهِ بَاطِلٌ ، وَاسْتَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ بِتَشْبِيهِهِ تَعَالَى تَكْذِيبَهُمْ بِتَكْذِيبِ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ لِرُسُلِ اللَّهِ إِلَيْهِمْ ، وَمَا جَاءُوهُمْ بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَإِنْكَارِ الشِّرْكِ ، وَمَا لَمْ يَأْذَنِ اللَّهُ بِهِ مِنَ الشَّرْعِ فِي التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ وَالْعِبَادَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَلَكِنَّ عِبَارَتَهُ فِي هَذَا الْمَقَامِ مُضْطَرِبَةٌ لَيْسَتْ كَسَائِرِ عِبَارَاتِهِ فِي الْجَلَاءِ . وَقَدْ قَالَ فِي آخِرِهَا أَنَّ لَهَا عِنْدَهُ عِلَلًا أُخْرَى غَيْرَ مَا ذَكَرَهُ يَطُولُ بِذِكْرِهَا الْكِتَابُ (قَالَ) : " وَفِيمَا ذَكَرْنَاهُ كِفَايَةٌ لِمَنْ وُفِّقَ لِفَهْمِهِ " وَمَا قَالَ هَذَا إِلَّا مِنْ شُعُورٍ بِضَعْفِ الْعِبَارَةِ وَأَنَّهَا لَا تَكَادُ تُفْهَمُ بِسُهُولَةٍ .

*(187/256)*

---

وَقَدْ جَارَى أَحْمَدُ بْنُ الْمُنِيرِ صَاحِبَ الْكَشَّافِ عَلَى جَعْلِ شُبْهَةِ الْمُشْرِكِينَ عَيْنَ شُبْهَةِ الْمُجْبِرَةِ ، ثُمَّ جَعَلَ الْآيَتَيْنِ مُبْطِلَتَيْنِ لِمَذْهَبَيِ الْمُعْتَزِلَةِ وَالْمُجْبِرَةِ جَمِيعًا ، فَقَالَ فِي الِانْتِصَافِ مَا نَصُّهُ : قَدْ تَقَدَّمَ أَيْضًا الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ وَأَوْضَحْنَا أَنَّ الرَّدَّ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا كَانَ لِاعْتِقَادِهِمْ

أَنَّهُمْ مَسْلُوبُونَ اخْتِيَارَهُمْ وَقُدْرَتَهُمْ ، وَأَنَّ إِشْرَاكَهُمْ إِنَّمَا صَدَرَ مِنْهُمْ عَلَى وَجْهِ الِاضْطِرَارِ ، وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ يُقِيمُونَ الْحُجَّةَ عَلَى اللهِ وَرُسُلِهِ بِذَلِكَ ، فَرَدَّ اللهُ قَوْلَهُمْ وَكَذَّبَهُمْ فِي دَعْوَاهُمْ عَدَمَ الِاخْتِيَارِ لِأَنْفُسِهِمْ ، وَشَبَّهَهُمْ بِمَنِ اغْتَرَّ قَبْلَهُمْ بِهَذَا الْخَيَالِ فَكَذَّبَ الرُّسُلَ وَأَشْرَكَ بِاللهِ ، وَاعْتَمَدَ عَلَى أَنَّهُ إِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ كُلَّهُ بِمَشِيئَةِ اللهِ وَرَامَ إِفْحَامَ الرُّسُلِ بِهَذِهِ الشُّبْهَةِ ، ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُمْ لَا حُجَّةَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ ، وَأَنَّ الْحُجَّةَ الْبَالِغَةَ لَهُ لَا لَهُمْ بِقَوْلِهِ : (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) ثُمَّ أَوْضَحَ تَعَالَى أَنَّ كُلًّا وَاقِعٌ بِمَشِيئَتِهِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَشَأْ مِنْهُمْ إِلَّا مَا صَدَرَ عَنْهُمْ ، وَأَنَّهُ لَوْ شَاءَ مِنْهُمُ الْهِدَايَةَ لَاهْتَدَوْا أَجْمَعُونَ بِقَوْلِهِ : (فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) وَالْمَقْصُودُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَتَمَحَّضَ وَجْهُ الرَّدِّ عَلَيْهِمْ وَتَتَلَخَّصَ عَقِيدَةُ نُفُوذِ الْمَشِيئَةِ وَعُمُومِ تَعَلُّقِهَا بِكُلِّ كَائِنٍ عَنِ الرَّدِّ وَيَنْصَرِفَ الرَّدُّ إِلَى دَعْوَاهُمْ بِسَلْبِ الِاخْتِيَارِ لِأَنْفُسِهِمْ وَإِلَى

*(188/256)*

---

إِقَامَتِهِمُ الْحُجَّةَ بِذَلِكَ . وَإِذَا تَدَبَّرْتَ هَذِهِ وَجَدْتَهَا كَافِيَةً فِي الرَّدِّ عَلَى مَنْ زَعَمَ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ أَنَّ الْعَبْدَ لَا اخْتِيَارَ لَهُ وَلَا قُدْرَةَ أَلْبَتَّةَ ، بَلْ هُوَ مَجْبُورٌ عَلَى أَفْعَالِهِ مَقْهُورٌ عَلَيْهَا ، وَهُمُ الْفِرْقَةُ الْمَعْرُوفُونَ بِالْمُجْبِرَةِ ، وَالْمُصَنِّفُ يُغَالِطُ فِي الْحَقَائِقِ فَيُسَمِّي أَهْلَ السُّنَّةِ مُجْبِرَةً وَإِنْ أَثْبَتُوا لِلْعَبْدِ اخْتِيَارًا وَقُدْرَةً ؛ لِأَنَّهُمْ يَسْلُبُونَ تَأْثِيرَ قُدْرَةِ الْعَبْدِ وَيَجْعَلُونَهَا مُقَارِنَةً لِأَفْعَالِهِ

الِاخْتِيَارِيَّةِ ، مُمَيِّزَةً بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَفْعَالِهِ الْقَسْرِيَّةِ ، فَمِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ سِوًى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُجْبِرَةِ وَيَجْعَلُهُ لَقَبًا عَامًّا لِأَهْلِ السُّنَّةِ ، وَجِمَاعُ الرَّدِّ عَلَى الْمُجْبِرَةِ

(189/256)

---

الَّذِينَ مَيَّزْنَاهُمْ عَنْ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا) إلَى قَوْلِهِ : (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) وَتَتِمَّةُ الْآيَةِ رَدٌّ صُرَاحٌ عَلَى طَائِفَةِ الِاعْتِزَالِ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَاءَ الْهِدَايَةَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ فَلَمْ تَقَعْ مِنْ أَكْثَرِهِمْ ، وَوَجْهُ الرَّدِّ أَنَّ (لَوْ) إذَا دَخَلَتْ عَلَى فِعْلٍ مُثْبَتٍ نَفَتْهُ ، فَيَقْتَضِي ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا قَالَ : (فَلَوْ شَاءَ) لَمْ يَكُنِ الْوَاقِعُ أَنَّهُ شَاءَ هِدَايَتَهُمْ ، وَلَوْ شَاءَهَا لَوَقَعَتْ . فَهَذَا تَصْرِيحٌ بِبُطْلَانِ زَعْمِهِمْ وَمَحَلِّ عَقْدِهِمْ ، فَإِذَا ثَبَتَ اشْتِمَالُ الْآيَةِ عَلَى رَدِّ عَقِيدَةِ الطَّائِفَتَيْنِ الْمَذْكُورَتَيْنِ : الْمُجْبِرَةِ فِي أَوَّلِهَا ، وَالْمُعْتَزِلَةِ فِي آخِرِهَا ، فَاعْلَمْ أَنَّهَا جَامِعَةٌ لِعَقِيدَةِ السُّنَّةِ مُنْطَبِقَةٌ عَلَيْهَا ; فَإِنَّ أَوَّلَهَا كَمَا بَيَّنَّا يُثْبِتُ لِلْعَبْدِ اخْتِيَارًا وَقُدْرَةً عَلَى وَجْهٍ يَقْطَعُ حُجَّتَهُ وَعُذْرَهُ فِي الْمُخَالَفَةِ وَالْعِصْيَانِ ، وَآخِرُهَا يُثْبِتُ نُفُوذَ مَشِيئَةِ اللَّهِ فِي الْعَبْدِ ، وَأَنَّ جَمِيعَ أَفْعَالِهِ عَلَى وَفْقِ الْمَشِيئَةِ الْإِلَهِيَّةِ خَيْرًا أَوْ غَيْرَهُ ، وَذَلِكَ عَيْنُ عَقِيدَتِهِمْ . فَإِنَّهُمْ كَمَا يُثْبِتُونَ لِلْعَبْدِ مَشِيئَةً وَقُدْرَةً يَسْلُبُونَ تَأْثِيرَهُمَا وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ ثُبُوتَهُمَا قَاطِعٌ لِحُجَّتِهِ ،

مُلْزِمٌ لَهُ بِالطَّاعَةِ عَلَى وَفْقِ اخْتِيَارِهِ ، وَيُثْبِتُونَ نُفُوذَ مَشِيئَةِ اللهِ أَيْضًا وَقُدْرَتَهُ فِي أَفْعَالِ عِبَادِهِ ، فَهُمْ كَمَا رَأَيْتَ تَبَعٌ لِلْكِتَابِ الْعَزِيزِ ، يُثْبِتُونَ مَا أَثْبَتَ وَيَنْفُونَ مَا نَفَى

(190/256)

---

، مُؤَيِّدُونَ بِالْعَقْلِ وَالنَّقْلِ ، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ اهـ .

وَنَقُولُ : إِنَّهُ قَدْ أَجَادَ إِلَّا فِي زَعْمِهِ أَنَّ مَذْهَبَ أَهْلِ السُّنَّةِ : أَنَّ قُدْرَةَ الْعَبْدِ لَا تَأْثِيرَ لَهَا ، فَهَذَا مَذْهَبُ الْأَشْعَرِيَّةِ أَوْ أَكْثَرِهِمْ ، وَمَذْهَبُ أَهْلِ الْأَثَرِ وَهُمْ أَئِمَّةُ السُّنَّةِ وَبَعْضُ مُحَقِّقِي الْأَشَاعِرَةِ كَإِمَامِ الْحَرَمَيْنِ : أَنَّ قُدْرَةَ الْعَبْدِ مُؤَثِّرَةٌ فِي عَمَلِهِ كَتَأْثِيرِ سَائِرِ الْأَسْبَابِ فِي الْمُسَبَّبَاتِ بِمَشِيئَةِ اللهِ

الَّذِي رَبَطَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ ، كَمَا هُوَ ثَابِتٌ بِالْحِسِّ وَالْوُجْدَانِ وَالْقُرْآنِ ، وَأَطَالَ الْمُحَقِّقُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي إِثْبَاتِهِ فِي شِفَاءِ الْعَلِيلِ وَغَيْرِهِ .

(191/256)

---

ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى أَمَرَ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنْ يُطَالِبَ مُشْرِكِي قَوْمِهِ بِإِحْضَارِ مَنْ عَسَاهُمْ يَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ مِنَ الشُّهَدَاءِ فِي إِثْبَاتِ تَحْرِيمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ مَا ادَّعَوْهُ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ بَعْدَ أَنْ نَفَى عَنْهُمُ الْعِلْمَ ، وَسَجَّلَ عَلَيْهِمُ اتِّبَاعَ الْحَزْرِ وَالْخَرْصِ لِيُظْهِرَ لَهُمْ أَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ يُعْتَدُّ بِهِ مِنَ الْعِلْمِ الِاسْتِدْلَالِيِّ وَلَا الشُّهُودِيِّ فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَلَا عَلَى شَيْءٍ مِنَ النَّقْلِ عَنْ ذِي عِلْمٍ شُهُودِيٍّ فَقَالَ لَهُ : (قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا) أَيْ أَحْضِرُوا شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يُخْبِرُونَ عَنْ عِلْمٍ شُهُودِيٍّ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ هَذَا الَّذِي زَعَمْتُمْ تَحْرِيمَهُ ، وَهُوَ طَلَبُ تَعْجِيزٍ لِأَنَّهُ مَا ثَمَّ شُهَدَاءُ يَشْهَدُونَ ، فَهُوَ كَالِاسْتِفْهَامِ عَنِ الْعِلْمِ بِذَلِكَ قَبْلَهُ ، وَكَقَوْلِهِ مِنْ قَبْلُ : (أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا) (144) فَرَاجِعْ تَفْسِيرَهُ ، وَلَمْ يَقُلْ هَاتُوا

*(192/256)*

---

شُهَدَاءَ لِيُحْضِرُوا أَيَّ امْرِئٍ يَقُولُ مَا شَاءَ ، فَإِضَافَةُ الشُّهَدَاءِ إِلَيْهِمْ وَوَصْفُهُمْ بِمَا وَصَفَهُمْ يَقْتَضِي أَنَّ الْمَطْلُوبَ مِنْهُمْ إِحْضَارُهُ هُوَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، الَّذِينَ تَتَلَقَّى عَلَيْهِمُ الْأُمَمُ الْأَحْكَامَ الدِّينِيَّةَ وَغَيْرَهَا بِالْأَدِلَّةِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي تَجْعَلُ النَّظَرِيَّاتِ كَالْمَشْهُودَاتِ بِالْحِسِّ ، أَوْ كَالرُّسُلِ الَّذِينَ يَتَلَقَّوْنَ الدِّينَ مِنَ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ وَهُوَ أَقْوَى الْعُلُومِ الضَّرُورِيَّةِ عِنْدَهُمْ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ

: إِذَا لَمْ تَكُونُوا أَنْتُمْ عَلَى عِلْمٍ تُقِيمُونَ الْحُجَّةَ عَلَى صِحَّتِهِ ، وَكَانَ عِنْدَكُمْ شُهَدَاءُ تَلَقَّيْتُمْ عَنْهُمْ ذَلِكَ وَهُمْ يَقْدِرُونَ عَلَى مَا لَا تَقْدِرُونَ عَلَيْهِ مِنَ الشَّهَادَةِ فَأَحْضِرُوهُمْ لَنَا ، لِيَدُلُّوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْحُجَّةِ الَّتِي قَلَّدْتُمُوهُمْ لِأَجْلِهَا ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : (فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ) أَيْ فَإِنْ فُرِضَ إِحْضَارُ شُهَدَاءَ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ، أَيْ فَلَا تَقْبَلْ شَهَادَتَهُمْ وَلَا تُسَلِّمْهَا لَهُمْ بِالسُّكُوتِ عَلَيْهَا فَإِنَّ السُّكُوتَ عَنِ الْبَاطِلِ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ كَالشَّهَادَةِ بِهِ ، بَلْ بَيَّنَ لَهُمْ بُطْلَانَ زَعْمِهِمُ الَّذِي سَمَّوْهُ شَهَادَةً – فَأَمْثَالُ هَذِهِ الْفُرُوضِ تُذْكَرُ لِأَجْلِ التَّذْكِيرِ بِمَا يَجِبُ أَنْ يَتَرَتَّبَ عَلَيْهَا إِنْ وُجِدَتْ كَمَا يَزْعُمُ أَصْحَابُ الْأَهْوَاءِ فِيهَا ; وَلِذَلِكَ قَالَ : (وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) أَيْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هَؤُلَاءِ النَّاسِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْمُنَزَّلَةِ ، وَمَا أَرْشَدَتْ إِلَيْهِ

*(193/256)*

---

مِنْ آيَاتِنَا فِي الْأَنْفُسِ وَالْآفَاقِ ، فَوَضَعَ الظَّاهِرَ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ إِذْ لَمْ يَقُلْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، لِبَيَانِ أَنَّ الْمُكَذِّبَ بِهَذِهِ الْآيَاتِ وَالْحُجَجِ الظَّاهِرَةِ – إِصْرَارًا عَلَى تَقَالِيدِهِ الْبَاطِلَةِ – إِنَّمَا يَكُونُ صَاحِبَ هَوًى وَظَنٍّ لَا صَاحِبَ عِلْمٍ وَحُجَّةٍ .

(وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) أَيْ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى جَهْلِهِمْ وَاتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ ، لَا

يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فَيَحْمِلُهُمُ الْإِيمَانُ عَلَى سَمَاعِ الْحُجَّةِ إذَا ذُكِّرُوا بِهَا ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يُشْرِكُونَ بِرَبِّهِمْ فَيَتَّخِذُونَ لَهُ مَثَلًا وَعِدْلًا يُعَادِلُهُ وَيُشَارِكُهُ فِي جَلْبِ الْخَيْرِ وَالنَّفْعِ وَدَفْعِ الضُّرِّ ، إنْ لَمْ يَكُنْ بِاسْتِقْلَالِهِ وَقُدْرَتِهِ ، فَبِحَمْلِهِ لِلرَّبِّ عَلَى ذَلِكَ وَالتَّأْثِيرِ فِي عِلْمِهِ وَإِرَادَتِهِ .

وَمِنْ مَبَاحِثِ اللَّفْظِ أَنَّ " هَلُمَّ " اسْمٌ بِمَعْنَى فِعْلِ الْأَمْرِ يَسْتَوِي فِيهِ عِنْدَ أَهْلِ الْحِجَازِ وَعَالِيَةِ نَجْدٍ الْمُذَكَّرُ وَالْمُؤَنَّثُ وَالْمُثَنَّى وَالْجَمْعُ ، وَيَقُولُ الْبَصْرِيُّونَ : إنَّ أَصْلَهُ " هَا " الَّتِي لِلتَّنْبِيهِ وَ " لُمَّ " الَّتِي بِمَعْنَى الْقَصْدِ ، وَفِعْلُهُ يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ وَيُجْمَعُ فِي لُغَةِ بَنِي تَمِيمٍ فَيُقَالُ : هَلُمِّي وَهَلُمَّا وَهَلُمُّوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 8 صـ 154. 161 ﴾

*(194/256)*

---

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا ﴾

وما دمتم لا تملكون العلم فمن المحتمل انكم تملكون شهودا على ما تقولون . والخطاب : ﴿ هلم شهداءكم ﴾ هو خطاب للجماعة ، و" هلم " يستوي فيها المفرد والمفردة والمثنى مذكرا كان أم مؤنثا . والجمع مذكرا أو مؤنثا ، فتقول : هلم يا زيد إلي ، وهلم يا هند إلي ، وهلم أيضا لجماعة الذكور ولجماعة الإناث ، وهذه لغة الحجازيين . وتختلف عن لغة بني

تميم التي يزيدون علها فيقال : " هلم يا رجل " ، و" هلمي يا امرأة " ، و" هلما ، وهلموا ، وهلممن " . والقرآن نزل بلغة قريش " الحجازيين " ، والحق يقول : ﴿ هلم شهداءكم ﴾ . أي هاتوا وأحضروا شهداءكم أن الله حرم هذا ، لإنكم بلا علم ، وكذلك لا شهود عندكم على المدعي ؛ فإن كان عندكم شهود هاتوا هؤلاء الشهود .

وماذا إن أحضروا شهود زور ؟ إنه- سبحانه- يحذر رسوله ويوضح له أنهم حتى ولو أحضروا شهداء إياك أن تصدقهم فهم كذابون :

وكأن الله يريد أن يفضح الشهود أيضا أمام المشهود أمامهم ، ويعطي أيضا قضيتين اثنتين ؛ فسبحانه يدحض ويبطل حجتهم ، ويفضح الشهود الذين جاءوا بهم . فكأنه قال : هاتوا هؤلاء الذين قالوا لكم هذا الكلام ، وفي ذلك فضيحة لمن لقنهم هذه الأوامر .

ويأمر الحق رسوله ألا يتبع الذين كذبوا بآياته سبحانه . وكلمة " أهواء " ، جمع هوى ، وهو ما يختمر في الذهن ليلوي الإنسان عن الحق ؛ فهو شهوة ترد على الذهن فتجعله يعدل عن الحق : ﴿ ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ [ الأنعام : 150 ]

وهم لا يكذبون بآيات الله فقط بل لا يؤمنون بالآخرة أيضا ؛ لأنهم لو كانوا يؤمنون بالآخرة لعلموا أنهم مجازون على هذا جزاء يناسب جرائمهم ، ولو أنهم قدروا هذه المسألة لامتنعوا عن اتباع أهوائهم .

ويذيل الحق الآية بقوله الكريم : ﴿ . . . وهم بربهم يعدلون ﴾ [ الأنعام : 150 ]

ونفهم من كلمة " يعدل " أنها من العدل بمعنى القسط ؛ إذا قيل : عدل في كذا ، أو عدل بين فلان وفلان ؛ أو عدل في الحكم ، أما عدل بكذا فيكون المراد منها أنه جعله عديلا ومساويا . وجاءت بهذا المعنى في آية أخرى هي قوله الحق : ﴿ الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ [ الأنعام : 1 ]

أي يجعلون ما لا يصح أن يكون مساويا لله ؛ ومساويا وعدلا لله . وهذا فعل من جعلوا لله شركاء ، وكذلك من لا يؤمنون بالله ؛ فالواحد منهم يعدل عن ربه عدولا ويميل ويعرض عنه ويشرك به ويسوي به غيره . ويجب أن نلحظ عند النطق بكلمة " التوحيد " وهي : ( لا إله إلا الله ) ألا نقف عند قول : ( لا إله ) لأن ذلك يعني إنكار ونفي وجود إله وهذا والعياذ بالله كفر . إذن يجب علينا أن نصلها بما بعدها فنقول : ( لا إله إلا الله ) أو نكون عند نطقنا بلفظ ( لا إله ) قد انعقدت قلوبنا على وحدانيته وما يجب له – تعالت عظمته – من صفات الجلال والكمال ، ومعنى ( لا إله إلا الله ) أنه لا معبود بحق إلا الله ، لأن المعبودين بباطل كثيرون كالأصنام والنجوم والجن وبعض الإنس والملائكة وغير ذلك .

وكلمة ﴿ بربهم يعدلون ﴾ تفيد أنهم أهل شرك ، وكذلك من ينكر وجود الله إنه عن ربنا يعدل ويميل ويحيد عن الاعتراف به إلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(196/256)

---

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (150) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ قل هلم شهداءكم ﴾ قال : أروني شهداءكم .

وأخرج أبن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ الذين يشهدون أن الله حرم هذا ﴾ قال : البحائر والسوائب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 3 صـ ﴾

(197/256)

---

ومن فوائد ابن كثير فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (149) قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (150) ﴾

هذه مناظرة ذكرها الله تعالى وشبهة تشبثت بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا ؛ فإن الله مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما حرموه ، وهو قادر على تغييره بأن يلهمنا الإيمان ، أو يحول بيننا وبين الكفر ، فلم يغيره ، فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منا ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴾ كما في قوله [تعالى] : ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ [مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ] ﴾ [الزخرف : 20] ، وكذلك التي في "النحل" مثل هذه سواء قال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي : بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء . وهي حجة داحضة باطلة ؛ لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ، ودمر عليهم ، وأدال عليهم رسله الكرام ، وأذاق المشركين من أليم الانتقام .

﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي : بأن الله [تعالى] راض عنكم فيما أنتم فيه ﴿ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ أي : فتظهروه لنا وتبينوه وتبرزوه ، ﴿ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ ﴾ أي : الوهم والخيال . والمراد بالظن هاهنا : الاعتقاد الفاسد . ﴿ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلا تَخْرُصُونَ ﴾ أي : تكذبون على الله فيما ادعيتموه .

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس [رضي الله عنهما] : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ﴾ وقال ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ ثُمَّ قَالَ ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ﴾ [الأنعام : 107] ، فإنهم قالوا : عبادتنا الآلهة تقربنا إلى الله زُلْفَى فأخبرهم الله أنها لا تقربهم ، وقوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ﴾ ، يقول تعالى : لو شئت لجمعتهم على الهدى أجمعين .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ يقول [تعالى] لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ ﴾ لهم - يا محمد : ﴿ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾ أي : له الحكمة التامة ، والحجة البالغة في هداية من هَدى ، وإضلال من أضل ، ﴿ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وكل ذلك بقدرته ومشيئته واختياره ، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين

ويُبْغض الكافرين ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ﴾ [الأنعام : 35] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ [كُلُّهُمْ جَمِيعًا ] ﴾ [يونس : 99] ، وقوله ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود : 118 ، 119] .

قال الضحاك : لا حجة لأحد عصى الله ، ولكن لله الحجة البالغة على عباده .

*(199/256)*

---

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ ﴾ أي : أحضروا شهداءكم ﴿ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا ﴾ أي : هذا الذي حرمتموه وكذبتم وافتريتم على الله فيه ، ﴿ فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ أي : لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه كذبًا وزورًا ، ﴿ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ أي : يشركون به ، ويجعلون له عديلا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 3 صـ 357 . 359 ﴾

*(200/256)*

ومن فوائد الشوكاني في الآيات

قال رحمه الله :

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (149) قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (150) ﴾

*(201/256)*

---

أخبر الله عن المشركين أنهم سيقولون هذه المقالة ، وهم كفار قريش أو جميع المشركين ، يريدون أنه لو شاء الله عدم شركهم ما أشركوا هم ولا آباؤهم ، ولا حرّموا شيئاً من الأنعام ، كالبحيرة ونحوها ، وظنوا أن هذا القول يخلصهم عن الحجة التي ألزمهم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن ما فعلوه حق ، ولو لم يكن حقاً لأرسل الله إلى آبائهم الذين ماتوا على الشرك ، وعلى تحريم ما لم يحرمه الله رسلاً يأمرونهم بترك الشرك ، وبترك التحريم لما لم

يحرمه الله ، والتحليل لما لم يحلله : ﴿ كذلك كَذَّبَ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي مثل ما كذب هؤلاء كذب من قبلهم من المشركين أنبياء الله ﴿ حتى ذَاقُواْ بَأْسَنَا ﴾ أي استمروا على التكذيب حتى ذاقوا بأسنا الذي أنزلناه بهم ، ثم أمره الله أن يقول لهم : ﴿ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ أي هل عندكم دليل صحيح بعد من العلم النافع ، فتخرجوه إلينا لننظر فيه ونتدبره ، والمقصود من هذا التبكيت لهم ، لأنه قد علم أنه لا علم عندهم يصلح للحجة ، ويقوم به البرهان ، ثم أوضح لهم أنهم ليسوا على شيء من العلم ، وأنهم إنما يتبعون الظنون ، أي ما يتبعون إلا الظنّ الذي هو محل الخطأ ، ومكان الجهل ﴿ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ ﴾ أي تتوهمون مجرّد توهم فقط كما يتوهم الخارص ، وقد سبق تحقيقه ، ثم أمره الله سبحانه بأن يخبرهم أن لله الحجة البالغة على الناس ، أي التي تنقطع عندها معاذيرهم ، وتبطل شبههم ، وظنونهم وتوهماتهم .

والمراد بها الكتب المنزلة ، والرسل المرسلة ، وما جاءوا به من المعجزات ﴿ فَلَوْ شَاء ﴾ هدايتكم جميعاً ﴿ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ولكنه لم يشأ ذلك ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاء اللهُ مَا أَشْرَكُواْ ﴾ [ الأنعام : 107 ] و ﴿ مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء اللهُ ﴾ [ الأنعام : 111 ] ومثله كثير .

ثم أمره الله أن يقول لهؤلاء المشركين ﴿ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ ﴾ أي هاتوهم وأحضرهم ، وهو اسم فعل يستوي فيه المذكر والمؤنث ، والمفرد ، والمثنى ، والمجموع عند أهل الحجاز ، وأهل نجد يقولون : هلما هلمي هلموا ، فينطقون به كما ينطقون بسائر الأفعال ، وبلغة أهل الحجاز نزل القرآن ، ومنه قوله تعالى : ﴿ والقائلين لإخوانهم هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ [ الأحزاب : 18 ] والأصل عند الخليل " ها " ضُمَّت إليها " لم " ، وقال غيره : أصلها " هل " زيدت عليها الميم ، وفي كتاب العين للخليل : أن أصلها هل أؤم ، أي هل أقصدك ، ثم كثر استعمالهم لها ، وهذا أيضاً من باب التبكيت لهم ، حيث يأمرهم بإحضار الشهود على أن الله حرّم تلك الأشياء ، مع علمه أن لا شهود لهم ﴿ فَإِن شَهِدُواْ ﴾ لهم بغير علم ، بل مجازفة وتعصب ﴿ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ أي فلا تصدقهم ولا تسلم لهم ، فإنهم كاذبون جاهلون ، وشهادتهم باطلة ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الذين كَذَّبُواْ بآياتنا ﴾ أي ولا تتبع أهواءهم ، فإنهم رأس المكذبين بآياتنا .

قوله : ﴿ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة ﴾ معطوف على الموصول ، أي لا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا ، وأهواء الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴿ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ أي يجعلون له عدلاً من مخلوقاته كالأوثان ، والجملة إما في محل نصب على الحال ، أو معطوفة على لا يؤمنون .

وقد أخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ،

والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ سَيَقُولُ الذين أَشْرَكُواْ ﴾ قال : هذا قول قريش إن الله حرم هذا ، أي البحيرة والسائبة ، والوصيلة والحام .

وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة : ﴿ قُل فِللَّهِ الحجة البالغة ﴾ قال : السلطان .

(203/256)

---

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن ابن عباس أنه قيل له إن ناساً يقولون ليس الشرّ بقدر ، فقال ابن عباس : بيننا وبين أهل القدر هذه الآية ﴿ سَيَقُولُ الذين أَشْرَكُواْ ﴾ إلى قوله : ﴿ فِللَّهِ الحجة البالغة فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ قال ابن عباس : والعجز والكيس من القدر .

وأخرج أبو الشيخ ، عن عليّ بن زيد ، قال : انقطعت حجة القدرية عند هذه الآية ﴿ قُلْ فِللَّهِ الحجة البالغة فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ عن السديّ ، في قوله : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءكُمُ ﴾ قال : أروني شهداءكم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(204/256)

" فوائد بلاغية "

قال الشيخ الصابونى :

البَلاَغَة : 1 - ﴿ حَمُولَةً وَفَرْشاً ﴾ بينهما طباقٌ لأن الحمولة الكبارُ الصالحة للحمل ، والفرشُ الصغار الدانية من الأرض كأنها فرش .

2 - ﴿ خُطُوَاتِ الشيطان ﴾ هذا من لطيف الاستعارة وهي أبلغ عبارة للتحذير من طاعة الشيطان والسير في ركابه .

3 - ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ من صيغ المبالغة أي مبالغ في المغفرة والرحمة .

4 - ﴿ رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ القوم المجرمين ﴾ جاءت الأولى جملة اسمية لأنها أبلغ في الإِخبار من الفعلية فناسبت وصفه تعالى بالرحمة الواسعة وجاءت الجملة الثانية فعلية ﴿ وَلاَ يُرَدُّ ﴾ لئلا يتعادل الإِخبار عن الوصفين ، وباب الرحمة أوسع أفاده في البحر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 427 ﴾

*(205/256)*

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال ابن عادل :

قوله : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُم ﴾

" هَلُمَّ " هنا اسْم فِعْلٍ معنى " أحْضِروا " ، و " شُهَدَاءكم " مفْعُول به ؛ فإن اسْم الفِعْل يعمل عَمَلَ مُسَمَّاه من تعدّ ولُزُوم .

واعمل أن " هَلُمَّ " فيها لُغَتَان : لغة الحِجَازِيّين ، ولغة التميميين :

فأمّا لغة الحِجَاز : فإنّها فيها بصيغَةٍ واحدةٍ سواء اسْندت لمُفْرَدٍ أم مُثَنى أم مَجْمُوع أم مؤنث ، نحو : هَلُمَّ يا زَيْد ، يا زَيْدَان ، يا زَيْدُون ، يا هِنْد ، يا هِنْدَان ، يا هِنْدات ، وهي على هذه اللّغَة عن النُّحَاةِ اسْم فِعْل ؛ لعدم تغيُّرها ، والتزمت العَرَب فَتْح المِيم على هذه الأفْعَال ، فَيُقَال : هَلُمَّا ، هَلُمُّوا هَلَمّي ، هَلُمْنَ .

وقال الفراء : " يقال هَلُمّينَ يا نِسْوَة " وهي على هذه اللُّغَة فعل صَرِيحٌ لا يتصيرف ؛ هذا قول الجُمْهُور ، وقد خَالفَ بَعْضُهم في فِعْليَّتِها على هذه اللُّغَة ؛ وليس بشيء ، والتزَمَت العَرَب أيضاً فِيهَا على لُغَة تَمِيم فَتْح الميم إذا كانت مُسْندة لضيمر الواحِد المُذَكَّر ، ولم يُجيزُوا فيها ما أجَازُوا في ردّ وشدَّ من الضَّمّ والكَسْر .

واختلف النحويين فيها : هل هي بَسِيطَةٌ أو مركبة ؟ ثم القائلون بتركِيبَها اختلفوا فيما رُكِّبَت مِنهُ : فَجُمْهُور البَصْرِيّين على أنَّها مركَّبَة من " هَا " الَّتِي للتَّنْبِيه ، ومن " المْ " أمراً من لَمَّ يَلُمُّ ، فلما رُكِّبَتا حُذِفَتْ أِلفُها لكثرة الاسْتِعْمَال ، وسقطت هَمْزَة الوصْل ؛ للاسْتِغْنَاء عنها بِحَرَكَة الميم المنقُولة إليْهَا لأجْل الإدْغَام ، وأدغمت الميمُ في الميم ، وبُنيت على الفَتْح .

وقيل : بل نُقِلَت حركَةُ الميم للاَّم ، فَسَقَطت الهَمْزَة للاستِغْنَاء عنها ، فلّما جيئَ لـ " هَا " التي للتَّنْبيه ، التقى ساكنان : ألف " هَا " واللاَّم من " لَمَّ " لأنها سَاكِنَة تقديراً ، ولم يَعْتَدوا بهذه الحركَة ؛ لأن حَركة النَّقْل عارِضَة ، فحُذِفَت أِلف " هاء " الالْتِقَاء السَّاكنيْن تقديراً .

وقيل : بل حُذِفَت ألف " هَا " لالتقاء السَّاكنين ؛ وذلك أنَّه لمَّا جيء بها مع الميم ، سَقَطَت هَمْزَة الوَصْل في الدرج ، فالتقى ساكنان : الف " ها " ولام " المْ " فحذفت ألف " هَا " فبقى " هَلْمُم " فنقلت حَرَكَة الميمِ إلى اللاَّم وأدْغِمَت .

وذهب بعضهم إلى أنَّها مركَّبة من " هَا " التي للتَّنْبيه أيضاً ، ومن " لَمَّ " أمْراً مِنْ " لَمَّ اللَّهُ شَعْثَه " أي : جَمَعَه ، والمعنى عليه في هَلُمَّ ؛ لأنه بمعنى : اجمع نَفْسَك إلَيْنَا ، فحذفت أِلف " ها " لكثْرة الاستِعْمَال ، وهذا سَهْل جداً ؛ إذا ليس فيه إلا عَمَلٌ واحِدٌ ، هو حَذْفُ ألف " ها " ؛ وهو مَذْهَب الخَلِيل وسيبوَيْه .

وذهب الفرَّاء إلى أنها مركّبة من " هَلْ " التي هي للزَّجْر ، ومن " أمَّ " أمراً من " الأمّ " وهو

القَصْد ، وليس فيه إلا عَمَلٌ واحد ؛ وهو نَقْل حَرَكة الهَمْزة إلى لامِ " هَلْ " وقد رُدّ كل واحد من هذه المَذَاهِب بما يطُولُ الكتاب بذِكْرِه من غير فَائِدة .

(207/256)

---

و " هلم " : يكون مُتَعَدِّيَة بمعنى أحْضِر ، ولازمَة بمعنى أقْبِل ، فَمَنْ جَعَلَها مُتعدّية ، أخذها مِنَ اللَّمِّ وهو الجمع ، ومَنْ جَعَلَها قَاصِرَةً ، أخذها مِن اللَّمَمِ وهو الدُّنُو والقُرْب . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 8 صـ 502 . 503 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (150) ﴾

أشار إلى أَنَّ مَنْ تجرَّد عن برهانٍ يُصَرِّحه وبيان ( يوضِّحهُ ) فغيرُ مقبول من فاعله . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 1 صـ 510 ﴾

(208/256)

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾

أَنْشَأَ جَنَّاتٍ من الكروم مَعْرُوشَاتٍ مسموكات «1» وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ متروكات على وجه الأرض لم تعرّش . وقيل : المعروشات» ما في الأرياف والعمران مما غرسه الناس واهتموا به فعرّشوه وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ مما أنبته وحشياً في البراري والجبال . فهو غير معروش . يقال : عرّشت الكرم ، إذا جعلت له دعائم وسمكا تعطف عليه القضبان . وسقف البيت : عرّشه مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ في اللون والطعم والحجم والرائحة . وقرئ «أكله» بالضم والسكون وهو ثمره الذي يؤكل . والضمير للنخل والزرع داخل في حكمه ، لكونه معطوفا عليه . ومختلفاً : حال مقدّرة لأنه لم يكن وقت الإنشاء كذلك ، كقوله تعالى فَادْخُلُوها خالِدِينَ . وقرئ «ثمره» بضمتين . فإن قلت : ما فائدة قوله إِذا أَثْمَرَ وقد علم أنه إذا لم يثمر لم يؤكل منه ؟ قلت : لما أبيح لهم الأكل من ثمره قيل : إذا أثمر ، ليعلم أن أول وقت الإباحة وقت إطلاع الشجر الثمر ، لئلا يتوهم أنه لا يباح إلا إذا أدرك وأينع وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ الآية مكية ، والزكاة إنما فرضت بالمدينة ، فأريد بالحق ما كان يتصدّق به على

(1) . قوله «مسموكات» أي مرفوعات . وفي الصحاح «سمك اللّه السماء» رفعها .

والسمك : السقف . (ع)

(209/256)

---

المساكين يوم الحصاد ، وكان ذلك واجباً حتى نسخه افتراض العشر ، ونصف العشر .

وقيل مدنية ، والحق هو الزكاة المفروضة . ومعناه : واعزموا على إيتاء الحق واقصدوه واهتموا به يوم الحصاد ، حتى لا تؤخروه عن أول وقت يمكن فيه الإيتاء وَلا تُسْرِفُوا في الصدقة كما روى عن ثابت بن قيس بن شماس أنه صرم خمسمائة نخلة ففرّق ثمرها كله ولم يدخل منه شيئاً إلى منزله وَلا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 142 إلى 144]

وَمِنَ الْأَنْعامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (142) ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (143) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي

الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (144)

حَمُولَةً وَفَرْشاً عطف على جنات . أى : وأنشأ من الأنعام ما يحمل الأثقال وما يفرش للذبح ، أو ينسج من وبره وصوفه وشعره الفرش . وقيل : «الحمولة» الكبار التي تصلح للحمل ، «و الفرش» الصغار كالفصلان والعجاجيل والغنم ، لأنها دانية من الأرض للطافة أجرامها ، مثل الفرش المفروش عليها وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ في التحليل والتحريم من عند أنفسكم كما فعل أهل الجاهلية ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ بدل من حمولة وفرشاً اثْنَيْنِ زوجين اثنين ، يريد الذكر والأنثى ، كالجمل والناقة ، والثور والبقرة ، والكبش والنعجة ، والتيس والعنز - والواحد إذا كان وحده فهو فرد ، فإذا كان معه غيره من جنسه سمى كل واحد منها زوجاً ، وهما زوجان ، بدليل قوله خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى والدليل عليه «1» قوله تعالى ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ ثم فسرها بقوله مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ، وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ونحو تسميتهم الفرد بالزوج ، بشرط أن يكون معه آخر من جنسه : تسميتهم الزجاجة

---

(1) . قوله «و الدليل عليه» عبارة النسفي : ويدل عليه . (ع)

كأساً بشرط أن يكون فيها خمر. والضأن والمعز جمع ضائن وما عز، كتاجر وتجر. وقرئا بفتح العين. وقرأ أبيّ. ومن المعزى. وقرئ: اثنان، على الابتداء.

الهمزة في آلذَّكَرَيْنِ للإنكار والمراد بالذكرين: الذكر من الضأن والذكر من العز.

وبالأنثيين: الأنثى من الضأن والأنثى من المعز، على طريق الجنسية. والمعنى إنكار أن يحرّم اللّه تعالى من جنس الغنم ضأنها ومعزها شيئا من نوعي ذكورها وإناثها، ولا مما تحمل إناث الجنسين، وكذلك الذكران من جنسى الإبل والبقر، والأنثيان منهما وما تحمل إناثهما، وذلك أنهم كانوا يحرّمون ذكورة الأنعام «1» تارة، وإناثها تارة، وأولادهما كيفما كانت ذكوراً وإناثاً، أو مختلطة تارة، وكانوا يقولون قد حرّمها اللّه، فأنكر ذلك عليهم نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ أخبرونى بأمر معلوم من جهة اللّه تعالى يدل على تحريم ما حرّمتم إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ في أنّ اللّه حرّمه أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ بل أكنتم شهداء. ومعنى الهمزة الإنكار، يعنى أم شاهدتم ربكم حين أمركم بهذا التحريم؟ وذكر المشاهدة على مذهبهم، لأنهم كانوا لا يؤمنون برسول وهم يقولون: اللّه حرّم هذا الذي نحرّمه، فتهكم بهم في قوله أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ على معنى: أعرفتم التوصية به مشاهدين، لأنكم لا تؤمنون بالرسل فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فنسب إليه تحريم ما لم يحرّم لِيُضِلَّ النَّاسَ وهو عمرو بن لحى بن قمعة الذي بحر البحائر وسيب السوائب.

[سورة الأنعام (6): آية 145]

قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (145)

فإن قلت : كيف فصل بين بعض المعدود وبعضه ولم يوال بينه ؟ قلت : قد وقع الفاصل بينهما اعتراضا غير أجنبى من المعدود . وذلك أنّ اللّه عزّ وجلّ منّ على عباده بإنشاء الأنعام لمنافعهم وبإباحتها لهم ، فاعترض بالاحتجاج على من حرّمها ، والاحتجاج على من حرّمها تأكيد وتسديد للتحليل ، والاعتراضات في الكلام لا تساق إلا للتوكيد فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ تنبيه على أنّ التحريم إنما يثبت بوحي اللّه تعالى وشرعه ، لا بهوى الأنفس مُحَرَّماً طعاماً محرّماً من المطاعم التي حرّمتموها إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً إلا أن يكون الشيء المحرّم ميتة أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أى مصبوباً سائلا ، كالدم في العروق ، لا كالكبد والطحال . وقد رخص في دم العروق بعد الذبح

---

(1) . قوله «ذكورة الأنعام» يجمع الذكر على ذكارة كحجارة ، وذكور وذكران . هذا ما في الصحاح ، لكن عبارة النسفي كعبارة المصنف ، فحرر . (ع)

أَوْ فِسْقاً عطف على المنصوب قبله. سمى ما أهلّ به لغير اللّه فسقاً لتوغله في باب الفسق. ومنه قوله تعالى وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وأهل: صفة له منصوبة المحل.

ويجوز أن يكون مفعولا له من أهلّ، أى أهلّ لغير اللّه به فسقاً. فإن قلت: فعلام تعطف أُهِلَّ؟ وإلام يرجع الضمير في بِهِ على هذا القول؟ قلت: يعطف على يكون، ويرجع الضمير إلى ما يرجع إليه المستكنّ في يكون فَمَنِ اضْطُرَّ فمن دعته الضرورة إلى أكل شيء من هذه المحرّمات غَيْرَ باغٍ على مضطر مثله تارك لمواساته وَلا عادٍ متجاوز قدر حاجته من تناوله فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ لا يؤاخذه.

[سورة الأنعام (6): الآيات 146 إلى 147]

وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما إِلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أَوِ الْحَوايا أَوْ ما اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصادِقُونَ (146) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (147)

«ذو الظفر» ما له أصبع من دابة أو طائر، وكان بعض ذات الظفر حلالا لهم، فلما ظلموا حرّم ذلك عليهم فعمّ التحريم كل ذى ظفر بدليل قوله فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وقوله وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما كقولك: من زيد أخذت

ماله ، تريد بالإضافة زيادة الربط . والمعنى أنه حرّم عليهم لحم كل ذى ظفر وشحمه وكل شيء منه ، وترك البقر والغنم على التحليل لم يحرّم منهما إلا الشحوم الخالصة ، وهي الثروب «1» وشحوم الكلى .

وقوله إِلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما يعنى إلا ما اشتمل على الظهور والجنوب من السحقة «2» أَوِ الْحَوايا أو اشتمل على الأمعاء أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ وهو شحم الإلية . وقيل الْحَوايا عطف على شحومهما . و«أو» بمنزلتها في قولهم : جالس الحسن أو ابن سيرين ذِلِكَ الجزاء جَزَيْناهُمْ وهو تحريم الطيبات بِبَغْيِهِمْ بسبب ظلمهم «3» وَإِنَّا لَصادِقُونَ فيما أوعدنا

---

(1) . قوله «الثروب» هي شحوم رقيقة قد غشيت الكرش والأمعاء ، كذا في الصحاح . (ع)

(2) . قوله «من السحقة» السحقة : الشحمة الملتزقة بالجلد على الظهر من الكتف إلى الورك ، نقله في الصحاح . (ع)

(3) . قال محمود : معناه ذلك الجزاء جزيناهم ببغيهم بسبب ظلمهم . . . الخ» قال أحمد : هذه الآية وردت فيمن كفر وافترى على اللّه ووعيد الكافر باتفاق واقع به غير مردود عنه . وأهل السنة وإن قالوا : يجوز العفو عن العاصي الموحد ، فلا يقولون إن ذلك حتم ، ولا يلزمهم ذلك ، لأن اللّه تعالى حيث توعد المؤمنين العصاة ، علق حلول الوعيد بهم

بالمشيئة ، وأخبر أنه يغفر لمن يشاء منهم ، فمن ثم اعتقدنا أن كل موحد عاص في المشيئة ، وحيث أطلق وعيدهم في بعض الظواهر فهو محمول على المقيد ، فلا يلزمهم حينئذ اعتقاد الخلف في الخبر . والزمخشري إنما يدندن حول إلزامهم ذلك وأنى له .

*(212/256)*

---

به العصاة لا نخلفه ، كما لا نخلف ما وعدناه أهل الطاعة . فلما عصوا وبغوا ألحقنا بهم الوعيد وأحللنا بهم العقاب . فَإِنْ كَذَّبُوكَ فِي ذلك وزعموا أن اللّه واسع الرحمة ، وأنه لا يؤاخذ بالبغي ويخلف الوعيد جوداً وكرماً فَقُلْ لهم رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ لأهل طاعته وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ مع سعة رحمته عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ فلا تغترّ برجاء رحمته عن خوف نقمته .

[سورة الأنعام (6) : الآيات 148 إلى 149]

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذاقُوا بَأْسَنا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ (149)

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا إخبار بما سوف يقولونه ، «1» ولما قالوه قال وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ يعنون بكفرهم وتمردهم «2» . أن شركهم وشرك

(1) . قال محمود : «هذا إخبار بما سوف يقولونه . . . الخ» قال أحمد : وفائدته توطين النفس على الجواب ومكافحتهم بالرد وإعداد الحجة قبل أوانها ، كما قال سَيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النَّاسِ .

(2) . عاد كلامه . قال : فلما وقع ذلك منهم قال وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ يعنون بكفرهم . . . الخ» قال أحمد رحمه اللّه : قد تقدم أيضا الكلام على هذه الآية ، وأوضحنا أن الرد عليهم ، إنما كان لاعتقادهم أنهم مسلوبون اختيارهم وقدرتهم ، وأن إشراكهم إنما صدر منهم على وجه الاضطرار ، وزعموا أنهم يقيمون الحجة على اللّه ورسله بذلك ، فرد اللّه قولهم وكذبهم في دعواهم عدم الاختيار لأنفسهم ، وشبههم بمن اغتر قبلهم بهذا الخيال فكذب الرسل وأشرك باللّه واعتمد على أنه إنما يفعل ذلك كله بمشيئة اللّه ورام إفحام الرسل بهذه الشبهة ، ثم بين اللّه تعالى أنهم لا حجة لهم في ذلك ، وأن الحجة البالغة له لا لهم بقوله فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ ثم أوضح تعالى أن كل شيء واقع بمشيئته ، وأنه لم يشأ منهم إلا ما صدر عنهم ، وأنه لو شاء منهم الهداية لاهتدوا أجمعون ، بقوله فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ والمقصود من ذلك أن يتمحض وجه الرد عليهم ، ويتخلص عقيدة نفوذ المشيئة وعموم تعلقها بكل كائن عن الرد ، وينصرف الرد إلى دعواهم بسلب الاختيار لأنفسهم وإلى إقامتهم الحجة بذلك خاصة . وإذا تدبرت هذه وجدتها كافية في الرد على من زعم من أهل القبلة أن العبد لا اختيار له ولا قدرة البتة ، بل هو مجبور على

أفعاله مقهور عليها ، وهم الفرقة المعروفون بالمجبرة .

والمصنف يغالط في الحقائق فيسمى أهل السنة مجبرة وإن أثبتوا للعبد اختياراً وقدرة ، لأنهم يسلبون تأثير قدرة العبد ويجعلونها مقارنة لأفعاله الاختيارية ، مميزة بينها وبين أفعاله القسرية ، فمن هذه الجهة سوى بينهم وبين المجبرة ، ويجعله لقبا عاما لأهل السنة . وجماع الرد على المجبرة الذين ميزناهم عن أهل السنة في قوله تعالى سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا – إلى قوله – قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ وتتمة الآية رد صراح على طائفة الاعتزال القائلين بأن الله تعالى شاء الهداية منهم أجمعين ، فلم تقع من أكثرهم . ووجه الرد أن «لو» إذا دخلت على فعل مثبت نفته ، فيقتضى ذلك أن الله تعالى لما قال فَلَوْ شاءَ لم يكن الواقع أنه شاء هدايتهم ، ولو شاءها لوقعت ، فهذا تصريح ببطلان زعمهم ومحل عقدهم ، فإذا ثبت اشتمال الاية على رد عقيدة الطائفتين المذكورتين المجبرة في أولها والمعتزلة في آخرها ، فاعلم أنها جامعة لعقيدة السنة منطبقة عليها ، فان أولها كما بينا يثبت للعبد اختياراً وقدرة على وجه يقطع حجته وعذره في المخالفة والعصيان ، وآخرها يثبت نفوذ مشيئة الله في العبد ، وأن جميع أفعاله على وفق المشيئة الالهية خيراً أو غيره ، وذلك عين عقيدتهم ، فإنهم كما يثبتون للعبد مشيئة وقدرة ، يسلبون تأثيرها ويعتقدون أن ثبوتهما قاطع لحجته ملزم له بالطاعة على وفق اختياره ، ويثبتون نفوذ مشيئة الله أيضاً وقدرته في أفعال عباده ، فهم كما رأيت تبع للكتاب العزيز ، يثبتون ما أثبت ، وينفون ما نفى ، مؤيدون بالعقل والنقل ، والله الموفق .

آبائهم ، وتحريمهم ما أحل اللّه ، بمشيئة اللّه وإرادته . ولولا مشيئته لم يكن شيء من ذلك ، كمذهب المجبرة بعينه « 1 » كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أي جاءوا بالتكذيب المطلق ، لأنّ اللّه عزّ وجلّ ركب في العقول وأنزل في الكتب ما دل على غناه وبراءته من مشيئة القبائح وإرادتها ، والرسل أخبروا بذلك . فمن علق وجود القبائح من الكفر والمعاصي بمشيئة اللّه وإرادته فقد كذب التكذيب كله ، وهو تكذيب اللّه وكتبه ورسله ، ونبذ أدلة العقل والسمع وراء ظهره حَتَّى ذاقُوا بَأْسَنا حتى أنزلنا عليهم العذاب بتكذيبهم قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ من أمر معلوم يصح الاحتجاج به فيما قلتم فَتُخْرِجُوهُ لَنا وهذا من التهكم ، والشهادة بأن مثل قولهم محال أن يكون له حجة إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ في قولكم هذا وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ تقدّرون أن الأمر كما تزعمون أو تكذبون . وقرئ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ بالتخفيف قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ يعنى فإن كان الأمر كما زعمتم أن ما أنتم عليه بمشيئة اللّه فللّه الحجة البالغة عليكم على قود مذهبكم «2» فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ منكم ومن مخالفيكم في الدين ، فإن تعليقكم دينكم بمشيئة اللّه يقتضى أن تعلقوا دين من يخالفكم أيضاً بمشيئته ، فتوالوهم ولا تعادوهم ، وتوافقوهم ولا تخالفوهم ، لأنّ المشيئة تجمع بين ما أنتم

عليه وبين ما هم عليه .

[سورة الأنعام (6) : آية 150]

قُلْ هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هذا فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (150)

هَلُمَّ يستوي فيه الواحد والجمع ، والمذكر والمؤنث عند الحجازيين . وبنو تميم تؤنث وتجمع . والمعنى : هاتوا شهداءكم وقرّبوهم . فإن قلت : كيف أمره باستحضار شهدائهم الذين

---

(1) . قوله «كمذهب المجبرة بعينه» يعنى أهل السنة ، من أن كل كائن فهو مراد له تعالى ولو شراً . وتحقيق الفرق بينه وبين قول المشركين في علم التوحيد ، ويكفى فيه أن قولهم من باب التهكم ، كما قالوا لما قيل لهم أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ : أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ . (ع)

(2) . قوله «على قود مذهبكم» لعله من قاد الفرس ونحوه قوداً ، إذا جره بسهولة ، أى على طبق مذهبكم ، أى على مقتضاه وما يؤدى إليه . (ع)



---

يشهدون أنّ اللّه حرم ما زعموه محرما ، ثم أمره بأن لا يشهد معهم ؟ قلت : أمره باستحضارهم وهم شهداء بالباطل ، ليلزمهم الحجة ويلقمهم الحجر ، ويظهر للمشهود لهم

بانقطاع الشهداء أنهم ليسوا على شيء ، لتساوى أقدام الشاهدين والمشهود لهم في أنهم لا يرجعون إلى ما يصح التمسك به . وقوله فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ يعنى فلا تسلم لهم ما شهدوا به ولا تصدقهم ، لأنه إذا سلم لهم فكأنه شهد معهم مثل شهادتهم وكان واحداً منهم وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا من وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على أنّ من كذب بآيات اللّه وعدل به غيره فهو متبع للهوى لا غير ، لأنه لو اتبع الدليل لم يكن إلا مصدقا بالآيات موحداً للّه تعالى . فإن قلت : هلا قيل : قل هلم شهداء يشهدون أنّ اللّه حرّم هذا ؟ «1» وأى فرق بينه وبين المنزل ؟ قلت : المراد أن يحضروا شهداءهم الذين علم أنهم يشهدون لهم وينصرون قولهم ، وكان المشهود لهم يقلدونهم ويثقون بهم ويعتضدون بشهادتهم ، ليهدم ما يقومون به يحق الحق ويبطل الباطل ، فأضيفت الشهداء لذلك ، وجيء بالذين للدلالة على أنهم شهداء معروفون موسومون بالشهادة لهم وبنصرة مذهبهم ، والدليل عليه قوله تعالى فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ولو قيل : هلم شهداء يشهدون ، لكان معناه هاتوا أناساً يشهدون بتحريم ذلك ، فكان الظاهر طلب شهداء بالحق وذلك ليس بالغرض . ويناقضه قوله تعالى فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 2 صـ 78.72﴾

---

(1) . عاد كلامه . قال : «فان قلت هلا قيل قل هلم شهداء يشهدون أن اللّه حرم هذا وأى فرق بينه وبين المنزل . . . الخ» قال أحمد رحمه اللّه : ووجه مناقضته له أنه لو قيل على

خلاف المنزل ، وهو قوله : هلم بشهداء يشهدون ، يفهم أن الطالب للشهداء ليس على تحقيق من أن ثم شهداء ، كما يقول الحاكم للمدعى : هات بينة تشهد بذلك ، فهو لا يتحقق أن للمدعى بينة ، ثم يكون قوله فَإِنْ شَهِدُوا تحقيقاً لأن ثم شهداء ، فالجمع بينهما متناقض كما ترى ، والله الموفق . [ . . . . . ]

*(215/256)*

---

وقال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾

التفسير : إنه سبحانه جعل مدار هذا الكتاب الكريم على تقرير التوحيد والنبوة والمعاد وإثبات القضاء والقدر وإنه بالغ في تقرير هذه الأصول وانتهى الكلام إلى شرح أحوال السعداء والأشقياء ، ثم انتقل منه إلى تهجين طريقة منكري البعث والقيامة ، ثم أتبعه حكاية أقوالهم الركيكة تنبيهاً على ضعف عقولهم ، فلما تم هذه المقاصد عاد إلى ما هو المقصود الأصلي وهو إقامة الدلائل على إثبات ذاته ووجوب توحيده فقال : ﴿ وهو الذي أنشأ ﴾ الآية نشأ الشيء ينشأ نشأ إذا ظهر وارتفع ، وأنشأه الله ينشئه إنشاء أظهره ورفعه ﴿ جنات معروشات وغير معروشات ﴾ يقال : عرشت الكرم إذا جعلت له

دعائم وسمكاً تعطف عليه القبضان . وقيل : كلاهما الكرم فإن بعض الأعناب تعرش وبعها يبقى على وجه الأرض منبسطاً كالقرع والبطيخ . وقيل : المعروشات ما يحتاج إلى أن يتخذ له عروش يحمل عليها فتمسكه وهو الكرم وما يجري مجراه ، وغير معروشات هو القائم من الشجر المستغني باستوائه وقوة ساقة عن التعريش .

(216/256)

---

وقيل : المعروشات ما في البساتين والعمارات مما غرسه الناس واهتموا به فعرشوه ، وغير معروشات ما أنبته الله وحشياً في البراري والجبال فيبقى غير معروش . ﴿ والنخل والزرع ﴾ فسر ابن عباس الزرع بجميع الحبوب التي الذكر تقتات ﴿ مختلفاً أكله ﴾ والأكل كل ما يؤكل والمراد ههنا ثمر النخل والزرع فاكتفى بإعادة الذكر على أحدهما كقوله : ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها ﴾ [ الجمعة : 11 ] أي إليهما . والمراد أن لكل شيء منهما طعماً غير طعم الآخر و ﴿ مختلفاً ﴾ حال مقدّرة أي أنشأه مقدرّاً اختلاف أكله لأنه لم يكن وقت الإنشاء كذلك ﴿ متشابهاً وغير متشابه ﴾ في القدر واللون والطعم . ثم قال ﴿ كلوا من ثمره ﴾ وقد قال في الآية المتقدمة أعني نظير هذه الآية وذلك قوله : ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ﴾ الآية إلى قوله ﴿ انظروا إلى ثمره

﴾ [ الأنعام : 99 ] تنبيهاً على أن الأمر بالاستدلال بها على الصانع الحكيم متقدم على الإذن في الانتفاع بها لأن الحاصل من الأول سعادة روحانية أبدية ، والحاصل من الانتفاع سعادة جسمانية زائلة . وفائدة هذا الأمر الإباحة ، وقدم إباحة الأكل على إخراج الحق كيلا يظن أنه يحرم على المالك تناوله لمكان شركة المتشاركين فيه . وفي الآية إشارة إلى أن خلق هذه النعم إما للأكل وإما للتصدق ، والأول لكونه حق النفس مقدم على الثاني لأنه حق الغير . وفيه أن الأصل في المنافع الإباحة والإطلاق لأن قوله : ﴿ كلوا ﴾ خطاب عام يتناول الكل ، ويمكن أن يستدل به على أن الأصل عدم وجوب الصوم وأن من ادعى إيجابه فهو المحتاج إلى الدليل ، وأن المجنون إذا أفاق في أثناء النهار لا يلزمه قضاء ما مضى ، وأن الشارع في صوم النفل لا يجب عليه الإتمام . قال علماء الأصول : من المعلوم من لغة العرب أن صيغة الأمر تفيد ترجيح جانب الفعل ؛ فحملها على الإباحة أو الوجوب لا يصار إليه إلا بدليل منفصل ، وفائدة قوله : ﴿ إذا

(217/256)

---

أثمر ﴾ وقد علم أنه إذا لم يثمر لم يؤكل منه هي أن يعلم أن أول وقت الإباحة وقت اطلاع الشجر الثمر ولا يتوهم أنه لا يباح إلا إذا أدرك وأينع ، أما قوله : ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده

﴿ فعن ابن عباس في رواية عطاء وهو قول سعيد بن المسيب والحسن وطاوس والضحاك . ، أن الآية مدنية والحق هو الزكاة المفروضة وعلى هذا فكيف يؤدى الزكاة يوم الحصاد والحب في السنبل . والجواب أن المراد فاعزموا على إيتاء الحق يوم الحصاد واهتموا به حتى لا تؤخروه عن أوّل وقت يمكن فيه الإيتاء ، وقال مجاهد : الآية مكية وإن هذا حق في المال سوى الزكاة وكان يقول : إذا حصدت فحضرك المساكين فاطرح لهم منه ، وكذا إذا دسته وإذا عرفت كيله فاعزل زكاته وزيف بقوله صلى الله عليه وآله :

*(218/256)*

---

" ليس في المال حق سوى الزكاة " وبأن قوله : ﴿ وآتوا حقه ﴾ إنما يحسن ذكره لو كان ذلك الحق معلوماً قبل ورود هذه الآية والإلزام الإجمال . وعن سعيد بن جبير أن هذا كان قبل وجوب الزكاة فلما فرض العشر أو نصف العشر فيما سقي بالسواقي نسخ ، والقول الأول أصح . ثم إن أبا حنيفة احتج بالآية على وجوب الزكاة في الثمار لأنه قال : ﴿ وآتوا حقه ﴾ بعد ذكر الأنواع الخمسة وهي العنب والنخل والزرع والزيتون والرمان . واعترض عليه بأن لفظ الحصاد مخصوص بالزرع . وأجيب بأن الحصد في اللغة عبارة عن القطع وذلك يتناول الكل . واحتج هو أيضاً بها على أن العشر واجب في القليل والكثير للإطلاق .

والجواب أن بيانه في الحديث " ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة " ثم قال تعالى : ﴿ ولا تسرفوا ﴾ ولأهل اللغة فيه تفسيران : فعن ابن الأعرابي : السرف تجاوز ما حد لك . فعلى هذا إذا أعطى الكل ولم يوصل إلى عياله شيئاً فقد أسرف كما جاء في الخبر " إبدأ بنفسك ثم بمن تعول " وروي أن ثابت بن قيس بن شماس عمد إلى خمسمائة نخلة فخذها فقسمها في يوم واحد ولم يدخل منها إلى منزله شيئاً فنزلت الآية ﴿ ولا تسرفوا ﴾ أي لا تعطوا كله وإذا منع الصدقة فقد أسرف وبه فسر الآية سعيد بن المسيب ، فإن مجاوزة الحد تكون إلى طرف الإفراط وإلى طرف التفريط . وقال عمر : سرف المال ما هذب منه في غير منفعة . وعلى هذا فقد قال مقاتل : معناه لا تشركوا الأصنام في الأنعام والحرث . وقال الزهري : ولا تنفقوا في معصية الله تعالى . وعن مجاهد : لو كان أبو قبيس ذهباً فأنفقه رجل في طاعة الله تعالى لم يكن مسرفاً ، ولو أنفق درهماً في معصية الله كان مسرفاً ، وهذا المعنى أراد حاتم الطائي حين قيل له لا خير في السرف فقال : لا سرف في الخير . ثم ختم الآية بقوله : ﴿ إنه لا يحب المسرفين ﴾ والمقصود منه الزجر فإن كل مكلف لا يحبه الله فإنه من أهل النار لأن محبة الله تعالى عبارة عن إرادة إيصال الثواب إليه . قوله :

﴿ حمولة وفرشاً ﴾ معطوف على جنات أي وأنشأ من الأنعام هذين الجنسين . فالحمولة ما يحمل الأثقال " فعولة " بمعنى " فاعلة " والفرش للذبح أو ينسج من وبره وصوفه وشعره الفرش مصدر بمعنى " مفعول " . وقيل : الحمولة الكبار التي تصلح للحمل ، والفرش الصغار كالفصلان والعجاجيل والغنم لأنها دانية من الأرض للطافة أجرامها مثل الفرش المفروش عليها . ﴿ كلوا مما رزقكم الله ﴾ قالت المعتزلة . أي مما أحلها لكم ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ لا تسلكوا طريقه الذي يدعوكم إليه في التحليل والتحريم من عن أنفسكم كما فعل أهل الجاهلية ﴿ إنه لكم عدوّ مبين ﴾ بين العداوة .

*(220/256)*

---

وفي انتصاب ﴿ ثمانية أزواج ﴾ وجهان : قال الفراء : هو بدل من قوله : ﴿ حمولة وفرشاً ﴾ . وجوز غيره أن يكون مفعول ﴿ كلوا ﴾ والعرب تسمي الواحد فرداً إذا كان وحده فإذا كان معه غيره من جنسه سمي كل واحد منهما زوجاً وهما زوجان ، قال عز من قائل : ﴿ خلق الزوجين الذكر والأنثى ﴾ [ النجم : 45 ] وقال : ﴿ ثمانية أزواج ﴾ ثم فسرها بقوله : ﴿ من الضأن اثنين ﴾ أي زوجين اثنين ﴿ ومن المعز اثنين ﴾ وفي الآية الثانية : ﴿ ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين ﴾ قال الجوهري : الضائن خلاف الماعز

والجمع يعني اسم الجمع الضأن والمعز مثل راكب وركب وسافر وسفر . وضأن أيضاً مثل حارس وحرس . وقال في الكشاف : إنه قرىء بفتح العين . والضأن ذوات الصوف من الغنم والمعز ذوات الشعر منها ﴿ قل ءالذكرين حرم الأنثيين ﴾ نصب بقوله : ﴿ حرم ﴾ والاستفهام يعمل فيه ما بعده ولا يعمل فيه ما قبله . ويريد بالذكرين الذكر من الضأن وهو الكبش ، والذكر من المعز وهو التيس ، وبالأنثيين الأنثى من الضأن وهي النعجة ، والأنثى من المعز وهي العنز ، وذلك على طريق الجنسية والمشاكلة . ومعنى الاستفهام إنكار أن يحرم الله من جنسي الغنم ضأنها ومعزها شيئاً من نوعي ذكورها وإناثها ولا مما يشتمل عليه أرحام الأنثيين أي مما يحمل إناث الجنسين ، وكذلك الذكر من جنسي الإبل والبقر يعني الجمل والثور والأنثيان منهما الناقة والبقرة وما يحمل إناثهما وذلك أنهم كانوا يحرّمون ذكور الأنعام تارة وإناثها أخرى وأولادها كيفما كانت ذكوراً أو إناثاً ، أو من خلط تارة وكانوا يقولون : قد حرمها الله فقيل لهم : إنكم لا تقرون بنبوّة نبي ولا شريعة شارع فكيف تحكمون بأن هذا يحل وهذا يحرم ؟ وأكد ذلك بقوله : ﴿ نبئوني بعلم ﴾ أخبروني بأمر معلوم من جهة الله يدل على تحريم ما حرمتم ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في أن الله حرمه . واعلم أنه سبحانه منّ على عباده بإنشاء الأزواج الثمانية من الأنعام لمنافعهم وإباحتها لهم إلا

أنه فصل بين بعض المعدود وبعضه بالاحتجاج على من حرمها وليس ذلك بأجنبي وإنما هي جملة معترضة جيء بها تأكيداً وتشديداً للتحليل ، فالاعتراضات في الكلام لاتساق إلا للتوكيد ، أما قوله : ﴿ أم كنتم شهداء ﴾ ف " أم " منقطعة أي بل أكنتم شهداء ومعناه الإنكار وفحواه أعرفتم التوصية به مشاهدين لأنكم لا تؤمنون بالرسل وتقولون إن الله حرم هذا فلم يبق إلا المشاهدة فتهكم بهم بذلك وسجل عليهم وعلى مثالهم بالظلم بقوله : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ فنسب إليه تحريم ما لم يحرم ، قال المفسرون : يريد عمرو بن لحي بن قمعة الذي غيَّر شريعة إسماعيل عليه السلام وبَحَّر البحائر وسَيَّب السوائب . والأقرب أن للفظ عام فيتناول كل مفتر وإذا استحق هذا الوعيد على افتراء الكذب في تحريم مباح فكيف إذا كذب على الله تعالى في مسائل التوحيد ومعرفة الذات والصفات والملائكة وفي النبوّات وفي المعاد ؟ ! قال القاضي : في الآية دلالة على أن الإضلال عن الدين مذموم فلا يجوز أن ينسب إلى الله تعالى .

*(222/256)*

وأجيب بأنه ليس كل ما كان مذموماً منا كان مذموماً من الله تعالى فإن تمكين العبيد من أسباب الفجور وتسليط الشهوة عليهم مذموم منّا دونه ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ قال القاضي : لا يهديهم إلى ثوابه وإلى زيادات الهدى التي يختص المهتدي بها . وقالت الأشاعرة : معناه أنه لا ينقل المشركين من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، ثم لما بيّن فساد طريقة الجاهلية فيما يحل ويحرم من المطاعم أتبعه البيان الصحيح في الباب فقال : ﴿ قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرماً ﴾ أي طعاماً محرماً ﴿ على طاعم يطعمه ﴾ على آكل يأكله ﴿ إلا أن يكون ﴾ ذلك المأكول أو الموجود أو الطعام ﴿ ميتة أو دماً مسفوحاً ﴾ مصبوباً سائلاً . قال ابن عباس : يريد ما خرج من الأنعام وهي أحياء وما خرج من الأوداج عند الذبح فلا يدخل فيه الكبد والطحال لجمودهما ، وما يختلط باللحم من الدم فإنه غير سائل . وسئل أبو مجلز عما يتلطّخ باللحم من الدم وعن القدر التي سلف في أمثالها ، وانتصاب ﴿ فسقاً ﴾ على أنه معطوف على المنصوبات قبله ، و ﴿ أهل ﴾ صفة له منصوبة المحل سمي ما أهل به لغير الله فسقاً لتوغله في باب الفسق كما يقال : فلان كرم وجود . وجوز أن يكون ﴿ فسقاً ﴾ مفعولاً له من ﴿ أهل ﴾ وعلى هذا فقد عطف ﴿ أهل ﴾ على ﴿ يكون ﴾ والضمير في ﴿ به ﴾ يعود إلى ما يرجع إليه المستكن في ﴿ يكون ﴾ قالت العلماء : إن هذه السورة مكية وقد بيّن في الآية أنه لم يجد فيما أوحي إليه قرآناً أو غيره محرماً سوى هذه الأربعة ، وقد أكد هذا بما في النحل وفي البقرة مصدرة

بكلمة " إنما " الدالة على الحصر فصارت المدنية مطابقة للمكية ، والذي جاء في المائدة ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ﴾ [ الآية : 3 ] إلى قوله : ﴿ وما أكل السبع إلا ما ذكيتم ﴾ [ الآية : 3 ] من أقسام الميتة ولكنه خص بالذكر لأنهم كانوا يحكمون على تلك الأشياء بالتحليل فثبت أن الشريعة من أولها إلى اخرها كانت مستقرة على هذا الحكم .

*(223/256)*

---

وعلى هذا الحصر بقي الكلام في الخمر وفي سائر النجاسات والمستقذرات فنقول : إنه سبحانه قد وصف الخمر بأنه رجس وههنا علل تحريم لحم الخنزير بكونه رجساً فعلمنا أن النجاسة علة لتحريم الأكل وكل نجس فإنه يحرم أكله ، هذا بعد إجماع الأمة على تحريم الخبائث والنجاسات . وإن جوزنا تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد كما روي أنه صلى الله عليه وآله نهى عن كل ذي ناب من السباع وذي مخلب من الطيور .

*(224/256)*

---

فلا إشكال . وقيل : المراد أن وقت نزول هذه الآية لم يكن محرم على اليهود وزيف بأن تحريم شيء خامس نسخ والأصل عدمه . ثم بين سبحانه أنه حرم على اليهود أشياء أخر سوى هذه الأربعة فقال : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا ﴾ وذلك نوعان : الأول أنه حرم عليهم ﴿ كل ذي ظفر ﴾ وفيه لغات : ضم الفاء والعين وهي الفصحى ، وكسرهما وهي قراءة ابن السماك ، والضم مع السكون والكسر مع السكون وهي قراءة الحسن ، واختلف في ذي الظفر فعن ابن عباس في رواية عطاء أنه الإبل فقط ، وعنه في رواية أخرى وهو قول مجاهد أنه الإبل والنعام ، وقيل : كل ذي مخلب من الطير وكل ذي حافر من الدواب ، وسمي الحافر ظفراً على الاستعارة ، وزيف بأن الحافر لا يكاد يسمى ظفراً وبأن البقرة والغنم مباحان لهم كما يجيء مع أن لهما حافراً فإذن يجب حمل الظفر على المخلب والبراثن من الجوارح والسباع بل على كل ما له إصبع من دابة وطائر . وكان بعض ذوات الظفر حلالاً لهم فلما ظلموا عمم التحريم . فعموم التحريم خاص بهم ولهذا قدم الجار في قوله ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا ﴾ فيستدل بذلك على حل بعض هذه الحيوانات على المسلمين وهو ما سوى ذات المخلب والناب فيكون الخبر مبيناً للآية لا مخالفاً كما ظن صاحب التفسير الكبير . النوع الثاني قوله ﴿ ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما ﴾ قال في الكشاف : هو كقولك : " من زيد أخذت ماله " تريد بالإضافة يعني إضافة الأخذ إلى زيد بواسطة من زيادة الربط . والمعنى أنه حرم عليهم من كل ذي ظفر كله ومن البقرة والغنم

بعضهما وذلك شحومهما فقط ، هذا أيضاً ليس على الإطلاق لقوله : ﴿ إلا ما حملت ظهورهما ﴾ قال ابن عباس : إلا ما علق بالظهر من الشحم فإني لم أحرمه . وقال قتادة : إلا ما علق بالظهر والجنب من داخل بطونها . وقيل : إلا ما اشتمل على الظهور والجنوب من السحفة وهي الشحمة التي على الظهر الملتزقة بالجلد فيما بين الكتفين إلى الوركين . وهي بالحقيقة لحم سمين لأنه

(225/256)

---

يحمر عند الهزال ولهذا لو حلف لا يأكل الشحم فأكل من ذلك اللحم السمين لم يحنث على الأصح . والاستثناء الثاني قوله : ﴿ أو الحوايا ﴾ قال الجوهري : الحوايا الأمعاء واحدها حوية وفي معناها حاوية البطن وحاوياء البطن . وقال الواحدي : هي المباعر والمصارين والفحوى ، أو ما اشتمل على الأمعاء يعني أن الشحوم المتصقة بالمباعر والمصارين غير محرمة ، والاستثناء الثالث : ﴿ أو ما اختلط بعظم ﴾ قال جمهور المفسرين : يعني شحم الآلية . وقال ابن جريج : كل شحم في القوائم والجنب والرأس وفي العينين والأذنين فإنه مخلوط بعظم فهو حلال لهم . والحاصل أن الشحم الذي حرم الله عليهم هو الثرب وشحم الكلية . وقيل : إن الحوايا غير معطوف على المستثنى وإنما هو معطوف

على المستثنى منه والتقدير : حرمنا عليهم شحومهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم إلا ما حملت الظهور فإنه غير محرم .

(226/256)

---

ودخوله كلمة " أو " كدخولها في قوله تعالى : ﴿ ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً ﴾ [ الدهر : 24 ] والمعنى كل هؤلاء أهل أن يعصى فاعص هذا واعص هذا فكذا ههنا المعنى حرمنا عليهم هذا وهذا ﴿ ذلك ﴾ الجزاء وهو تحريم الطيبات ﴿ جزيناهم ببغيهم ﴾ بسبب قتلهم الأنبياء وأخذهم الربا واستحلالهم أموال الناس بالباطل وغير ذلك من قبائح أفعالهم ﴿ وإنا لصادقون ﴾ في هذه الأخبار أو فيما يوعد به العصاة . قال القاضي : نفس التحريم لا يجوز أن يكون عقوبة على جرم صدر عنهم لأن التكليف تعريض للثواب والتعريض للثواب إحسان . وأجيب بأن المنع من الانتفاع يمكن أن يكون لمزيد الثواب ويمكن أن يكون بشؤم الجرم المتقدم ﴿ فإن كذبوك ﴾ في ادعاء النبوّة والرسالة أو في تبليغ الأحكام ، وعلى أصول المعتزلة فإن كذبوك في إنجاز إيعاد العصاة وزعموا أن الله واسع الرحمة وأنه يخلف الوعيد جوداً وكرماً . ﴿ فقل ربكم ذو رحمة واسعة ﴾ فلذلك لا يعجل بالعقوبة ﴿ ولا يردّ بأسه ﴾ إذا جاء وقت عذابه ﴿ عن القوم المجرمين ﴾ يعني

المكذبين . وعلى أصولهم رحمته واسعة لأهل طاعته ولا يرد بأسه مع ذلك عن الذين ارتكبوا الكبائر فماتوا قبل التوبة .

(227/256)

---

ثم حكى أعذار الكفار الواهية فقال : ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ﴾ وإنما جاز العطف عل الضمير المرفوع المتصل من غير أن أكد بالمنفصل لمكان الفصل بعد حرف العطف بلا الزائدة لتأكيد النفي . أخبر الله تعالى بما سوف يقولونه ولما قالوه . قال في سورة النحل : ﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء ﴾ [ النحل : 35 ] وإنما قال في سورة النحل بزيادة " نحن " و" من دونه " مرتين لأن الإشراك مستنكر مطلقاً . فلفظ الإشراك يدل على إثبات شريك لا يجوز إثباته ، وعلى تحليل أشياء وتحريم أشياء من دون الله فلم يحتج إلى لفظ من دونه ، وأما العبادة فإنها غير مستنكرة على الإطلاق وإنما المستنكر عبادة شيء مع الله سبحانه ، ولا تدل على تحريم شيء فلم يكن بد من تقييده بقوله : ﴿ من دونه ﴾ ولما حذف من الآية لفظة ﴿ من دونه ﴾ مرتين حذف معه ﴿ نحن ﴾ لتطرد الآية في حكم التخفيف . أما تفسير الآية فزعمت المعتزلة أنها تدل على قولهم في مسألة إرادة الكائنات من سبعة أوجه : الأول أن الذي

حكى عن الكفار في معرض الذم والتقبيح وذلك قولهم : " لو شاء الله منا أن لا نشرك لم نشرك " هو صريح قول المجبرة فيكون هذا المذهب مذموماً . الثاني قوله : ﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم ﴾ فلم يذكر المكذب به تنبيهاً على أنهم جاؤا بالتكذيب المطلق لأن الله عز وعلا ركب في العقول وأنزل في الكتب ما دل على غناه وبراءته من مشيئته القبائح وإرادتها ، والرسل أخبروا بذلك فمن علق وجود القبائح من الكفر والمعاصي بمشيئة الله وإرادته فقد كذب التكذيب كله وهو تكذيب الله ورسوله وكتبه ونبذ أدلة السمع والعقل وراء ظهره .

*(228/256)*

---

والحاصل أن هذا طريق متعين لكل الكفار المتقدمين منهم والمتأخرين في تكذيب الأنبياء وفي دفع دعوتهم عن أنفسهم لأنهم يقولون الكل بمشيئة الله تعالى . الثالث قوله : ﴿ حتى ذاقوا بأسنا ﴾ وذلك يدل على أنهم استوجبوا الوعيد من الله تعالى في هذا المذهب . الرابع قوله : ﴿ قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ﴾ وإنه استفهام على سبيل الإنكار أي لا علم لهؤلاء القائلين ولا حجة الخامس : ﴿ إن تتبعون إلا الظن ﴾ السادس : ﴿ وإن أنتم إلا تخرصون ﴾ السابع : ﴿ قل فللَّه الحجة البالغة ﴾ لأنه أزال الأعذار بالتمكين

والإقدار فلم يبق لكم على الله حجة وإنما الحجة البالغة له عليكم وذلك أنكم تقولون : لو أتينا بعمل على خلاف مشيئة الله لزم أن يكون الإله عاجزاً مغلوباً . وهذا الكلام غير لازم لأن الله قادر على أن يحملكم على الإيمان والطاعة على سبيل القهر والإلجاء إلا أن ذلك يبطل الحكمة المطلوبة من التكليف وهذا هو المراد من قوله : ﴿ فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ وبوجه آخر إن كان الأمر كما زعمتم أن ما أنتم عليه بمشيئة الله فلله الحجة الكاملة عليكم فإن تعليقكم دينكم بمشيئة الله يقتضي أن تعلقوا دين من يخالفكم أيضاً بمشيئته فتوالوا جميع أهل الأديان ولا تعادوهم . أجابت الأشاعرة بأنا قد بينا بالدلائل القاطعة من أول القرآن إلى ههنا صحة مذهبنا فوجب تأويل هذه الآية دفعاً للتناقض فنقول : إن القول كانوا يتمسكون بمشيئة الله تعالى في إبطال دعوة الأنبياء ، وفي أن التكليف عبث فبين الله تعالى أن ذلك من تكاذيبهم وأكاذيبهم ، وأن التشبث بهذا العذر لا يفيدهم لأنه إله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا اعتراض لأحد عليه ، شاء الكفر من الكافر ومع ذلك بعث الأنبياء وأمر بالإيمان ، وورود الأمر على خلاف الإرادة غير ممتنع ويؤيد ذلك ما روي عن ابن عباس : أول ما خلق الله القلم فقال : اكتب القدر فجرى بما يكون إلى قيام الساعة . وقال رسول الله صلى الله عليه وآله "

المكذبون بالقدر مجوس هذه الأمة " ثم إن ظاهر آخر الآية معناه وهو قوله : ﴿ فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ وحمل المشيئة على مشيئة الإلجاء والقسر تعسف والله أعلم . ثم لما أبطل جميع حجج الكفار بين أنه ليس لهم على قولهم شهود فقال : ﴿ قل هلم ﴾ ومعناه إذا كان لازماً أقبل وإذا كان متعدياً أحضر . قال الخليل : أصله " هالم " من قولهم لمَّ الله شعثه أي جمعه كأنه قال : لمَّ نفسك إلينا أي أقرب والهاء للتنبيه واستعطاف المأمور ، ثم حذفت ألفها لكثرة الاستعمال وجعلا اسماً واحداً يستوي فيه الواحد والجمع والتذكير والتأنيث في لغة أهل الحجاز ، وأهل نجد يصرفونها " هلما هلموا هلمي هلممن " والأول أفصح وقد يوصل بإلى كقوله تعالى :

﴿ والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ﴾ [ الأحزاب : 18 ] وقال الفراء : أصلها " هل أم " أرادوا بهل حرف الاستفهام ومعنى أم اقصد . وقيل : إن أصل استعماله أن قالوا هل لك في الطعام أم أي اقصد . ثم شاع في الكل . أمر الله تعالى نبيه باستدعاء إقامة الشهداء من الكافرين ليظهر أن لا شاهد لهم على تحريم ما حرموه . وإنما لم يقل شهداء يشهدون لأنه ليس الغرض أحضار أناس يشهدون بالتحريم وإنما المراد إحضار شهدائهم الموسومين بالشهادة لهم المعروفين بنصرة مذهبهم ولهذا قال : ﴿ فإن شهدوا ﴾ أي فإن وقعت شهادتهم ﴿ فلا تشهد معهم ﴾ أي لا تسلم لهم ما شهدوا به ولا تصدقهم لأن شهادتهم

محض الهوى والتعصب ولأجل ذلك قال أيضاً : ﴿ ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا ﴾ فوضع الظاهر موضع المضمر تسجيلاً عليهم بالتكذيب وليرتب عليه باقي الآية فيعلم أن المتصف بهذه الصفات لا تكون شهادتهم عند العقلاء مقبولة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 176.184 ﴾

*(230/256)*

---

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (141) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (150) ﴾

بعد ذلك يردهم السياق إلى الحقيقة الأولية التي ضلوا عنها ، والتي أشار إليها إشارة في أول هذا الحديث بقوله : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ﴾ . . يردهم إلى

مصدر الحرث والأنعام التي يتصرفون في شأنها هذه التصرفات ؛ ويتلقون في شأنها من شياطين الإنس والجن الذين لم يخلقوها لهم ولم ينشئوها . . إن الله هو الذي ذرأ الحرث والأنعام ، متاعا للناس ونعمة ؛ ذرأها لهم ليشكروا له ؛ ويعبدوه وما به سبحانه من حاجة إلى شكرهم وعبادتهم ، فهو الغني ذو الرحمة ، إنما هو صلاح حالهم في دينهم ودنياهم - فما بالهم يحكمون من لم يخلق شيئاً ، فيما ذرأ الله من الحرث والأنعام ؟ وما بالهم يجعلون لله نصيبا ، ولأولئك نصيبا ، ثم لا يقفون عند هذا الحد فيتلاعبون - تحت استهواء أصحاب المصلحة من الشياطين - في النصيب الذي جعلوه لله ؟ !

إن الخالق الرازق هو الرب المالك .

الذي لا يجوز أن يُتصرف في هذا المال إلا بإذنه ممثلا في شرعه . وشرعه ممثل فيما جاء به رسوله من عنده ، لا فيما يدعي الأرباب المغتصبون لسلطان الله أنه شريعة الله !

*(231/256)*

---

﴿ وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ، والنخل والزرع مختلفا أكله ، والزيتون والرمان ، متشابها وغير متشابه . كلوا من ثمره إذا أثمر ، وآتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . ومن الأنعام حمولة وفرشا . كلوا مما رزقكم الله ، ولا

تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين ﴾ .

إن الله – سبحانه هو الذى خلق هذه الجنات ابتداء – فهو الذى أخرج الحياة من الموات – وهذه الجنات منها الإنسيات المعروشات التى يتعهدها الإنسان بالعرائش والحوائط ؛ ومنها البريات التى تنبت بذاتها – بقدر الله – وتنموا بلا مساعدة من الإنسان ولا تنظيم . وإن الله هو الذى أنشأ النخل والزرع مختلف الألوان والطعوم والأشكال . وإن الله هو الذى خلق الزيتون والرمان ، منوع الصنوف متشابها وغير متشابه ، وإنه – سبحانه – هو الذى خلق هذه الأنعام وجعل منها ﴿ حمولة ﴾ عالية القوائم بعيدة عن الأرض حمالة للأثقال . وجعل منها ﴿ فرشاً ﴾ صغيرة الأجسام قريبة من الأرض يتخذ من أصوافها وأشعارها الفرش . .

إنه هو – سبحانه – الذي بث الحياة فى هذه الأرض ؛ ونّوعها هذا التنويع ؛ وجعلها مناسبة للوظائف التى تتطلبها حياة الناس فى الأرض . . فكيف يذهب الناس – فى مواجهة هذه الآيات وهذه الحقائق – إلى تحكيم غير الله فى شأن الزروع والأنعام والأموال ؟

إن المنهج القرآنى يكثر من عرض حقيقة الرزق الذى يختص الله بمنحه للناس ، ليتخذ منها برهانا على ضرورة إفراد الله سبحانه بالحاكمية فى حياة الناس . فإن الخالق الرازق الكافل وحده ؛ هو الحقيق بأن تكون له الربوبية والحاكمية والسلطان وحده . . بلا جدال

:

وهنا يحشد السياق مشاهد الزرع والإثمار ، ومشاهد الأنعام وما فيها من نعم الله . .

يحشد هذه المؤثرات فى صدد قضية الحاكمية ، كما حشدها من قبل فى صدد قضية الألوهية . . فيدل على أن هذه وتلك قضية واحدة فى العقيدة الإسلامية .

وعندما يذكر الزروع والثمار يقول :

(232/256)

---

﴿ كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين ﴾ . .

والأمر بإيتاء حقه يوم حصاده هو الذي جعل بعض الروايات تقول عن هذه الآية إنها مدينة . وقد قلنا فى التقديم للسورة : إن الآية مكية ، لأن السياق فى الجزء المكي من السورة لا يتصور تتابعه بدون هذه الآية . فإن ما بعدها ينقطع عما قبلها لو كانت قد تأخرت حتى نزلت فى المدينة .

وهذا الأمر بإيتاء حق الزرع يوم حصاده ، لا يتحتم أن يكون المقصود به الزكاة . وهناك روايات فى الآية أن المقصود هو الصدقة غير المحددة . . أما الزكاة بأنصبتها المحددة فقد حددتها السنة بعد ذلك فى السنة الثانية من الهجرة . .

وقوله تعالى :

﴿ ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ . .

ينصرف إلى العطاء ، كما ينصرف إلى الأكل . فقد روي أنهم تباروا في العطاء حتى أسرفوا ، فقال الله سبحانه : ﴿ ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ . .

وعندما يذكر الأنعام يقول :

﴿ كلوا مما رزقكم الله ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين ﴾ . .

ذلك ليذكرهم أن هذا رزق الله وخلقه ، والشيطان لم يخلق شيئا . فما بالهم يتبعونه في رزق الله ؟ ثم ليذكرهم أن الشيطان لهم عدو مبين . فما بالهم يتبعون خطواته وهو العدو المبين ؟ !

ثم يأخذ السياق في مواجهة دقيقة يتتبع بها مكامن الأوهام الجاهلية . ليلقي عليها الضوء ، ويستعرضها واحدا واحدا ، وجزئية جزئية ؛ فيكشف فيها عن السخف الذي لا يمكن تعليله ولا الدفاع عنه ؛ والذي قد يخجل منه صاحبه نفسه ، حين يكشف له في النور ؛ وحين يرى أن لا سند له فيه من علم ولا هدى ولا كتاب منير :

﴿ ثمانية أزواج : من الضأن اثنين ومن المعز اثنين . قل : آلذكرين حرم أم الأنثيين ؟ أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ؟ نبئوني بعلم إن كنتم صادقين ! ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين . قل : آلذكرين حرم أم الأنثيين ؟ أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ؟ أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ؟ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم ؟ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ . .

فهذه الأنعام التي يدور حولها الجدل ؛ والتي ذكر في الآية السابقة أن الله خلقها لهم ، هي ثمانية أزواج – وكل من الذكر والأنثى يطلق عليه لفظ زوج عندما يكون مع رفيقه – زوج من الضأن وزوج من المعز . فأي منها حرمه الله على أي من الناس ؟ أم إنه حرم أجنتها في البطون ؟

﴿ نبئوني بعلم إن كنتم صادقين ﴾ . .

فهذه الشؤون لا يفتى فيها بالظن ، ولا يقضى فيها بالحدس ، ولا يشرع فيها بغير سلطان معلوم .

وبقية الأزواج ذكر وأنثى من الإبل ؛ وذكر وأنثى من البقر . فأيها كذلك حرم ؟ أم أجنتها هي التي حرمها الله على الناس ؟ ومن أين هذا التحريم :

﴿ أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ؟ ﴾ . .

فحضرتم وشهدتم وصية الله لكم خاصة بهذا التحريم . فما ينبغي أن يكون هناك تحريم

بغير أمر من الله مستيقن . لا يرجع فيه إلى الرجم والظنون .

وبهذا يرد أمر التشريع كله إلى مصدر واحد . . وقد كانوا يزعمون أن الله هو الذي شرع هذا الذي يشرعونه . لذلك يعالجهم بالتحذير والتهديد :

﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم .

إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ . .

إنه لا أحد أظلم ممن يفتري على الله شريعة لم يأذن بها ، ثم يقول : شريعة الله ! وهو يقصد أن يضل الناس بغير علم ، إنما هو يحيلهم إلى هدى أو ظن . . أولئك لن يهديهم الله ؛ فقد قطعوا ما بينهم وبين أسباب الهدى . وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا . . والله لا يهدي القوم الظالمين . .

*(234/256)*

---

والآن وقد كشف لهم عما في معتقداتهم وتصوراتهم وتصرفاتهم من وهن وسخف وهزال . وقد بين لهم أنها لا تقوم على علم ولا بينة ولا أساس . وقد ردهم إلى نشأة الحرث والأنعام التي يتصرفون فيها من عند أنفسهم ، أو بوحي شياطينهم وشركائهم ، بينما هؤلاء لم يخلقوها لهم ، إنما الذي خلقها لهم هو الله ، الذي يجب أن تكون له وحده الحاكمية فيما

خلق وفيما رزق ، وفيما أعطى من الأموال للعباد . .

الآن يقرر لهم ما حرمه الله عليهم من هذا كله . ما حرمه الله حقاً عن بينة ووحي ، لا عن ظن ووهم . والله هو صاحب الحاكمية الشرعية ، الذي إذا حرم الشيء فهو حرام ، وإذا أحله فهو حلال ؛ بلا تدخل من البشر ولا مشاركة ولا تعقيب في سلطان الحاكمية والتشريع . . وبالمناسبة يذكر ما حرمه الله على اليهود خاصة ، وأحله للمسلمين ، فقد كان عقوبة خاصة لليهود على ظلمهم وبعدهم عن شرع الله !

﴿ قل : لا أجد فيما أوحي إليّ محرماً على طاعم يطعمه ، إلا أن يكون ميتة ، أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير - فإنه رجس - أو فسقاً أهل لغير الله به . فمن اضطر - غير باغ ولا عاد - فإن ربك غفور رحيم . وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر . ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما - إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم - ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون . فإن كذبوك فقل : ربكم ذو رحمة واسعة ، ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين ﴾ . .

قال أبو جعفر بن جرير الطبري :

" يقول – جل ثناؤه – لنبيه محمد – صلى الله عليه وسلم – قل ، يا محمد ، لهؤلاء الذين جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، ولشركائهم من الآلهة والأنداد مثله . والقائلين : هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء – بزعمهم – والمحرمين من أنعام أخر ظهورها ، والتاركين ذكر اسم الله على أخر منها . والمحرمين بعض ما في بطون بعض أنعامهم على إناثهم وأزواجهم ، ومُحليه لذكورهم . المحرمين ما رزقهم الله افتراء على الله ؛ وإضافة ما يحرمون من ذلك إلى أن الله هو الذي حرمه عليهم : أجاءكم من الله رسول بتحريمه ذلك عليكم ، فأنبئونا به ، أم وصاكم الله بتحريمه مشاهدة منكم له ، فسمعتم منه تحريمه ذلك عليكم فحرمتموه ؟ فإنكم كذبة إن ادعيتم ذلك ، ولا يمكنكم دعواه ، لأنكم إذا ادعيتموه علم الناس كذبكم .

فإني لا أجد فيما أوحي إلي من كتابه وآي تنزيله شيئاً محرماً على آكل يأكله ، مما تذكرون أنه حرمه من هذه الأنعام التي تصفون تحريم ما حرم عليكم منها – بزعمكم – إلا أن يكون ﴿ ميتة ﴾ ، قد ماتت بغير تذكية ، أو ﴿ دماً مسفوحاً ﴾ ، وهو المنصبّ ، أو إلا أن يكون لحم خنزير ﴿ فإنه رجس ﴾ . . ﴿ أو فسقا ﴾ يقول : أو إلا أن يكون فسقاً ، يعني بذلك : أو إلا أن يكون مذبوحاً ذبحه ذابح من المشركين من عبدة الأوثان لصنمه وآلهته فذكر اسم وثنه . فإن ذلك الذبح فسق ، نهى الله عنه وحرمه ، ونهى من آمن به عن أكل ما ذبح كذلك لأنه ميتة .

" وهذا إعلام من الله – جل ثناؤه – للمشركين الذين جادلوا نبي الله وأصحابه في تحريم الميتة بما جادلوهم به ، أن الذي جادلوهم فيه من ذلك هو الحرام الذي حرمه الله ، وأن الذي زعموا أن الله حرمه حلال أحله الله ؛ وأنهم كذبة في إضافتهم تحريمه إلى الله " .

وقال في تأويل قوله تعالى : ﴿ فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم ﴾ :

(236/256)

---

. . . " أن معناه : فمن اضطر إلى أكل ما حرم الله من أكل الميتة والدم المسفوح أو لحم الخنزير ، أو ما أهل لغير الله به ، غير باغ في أكله إياه تلذذاً ، لا لضرورة حالة من الجوع ؛ ولا عاد في أكله بتجاوزه ما حده الله وأباحه له من أكله ، وذلك أن يأكل منه ما يدفع عنه الخوف على نفسه بترك أكله من الهلاك . . لم يتجاوز ذلك إلى أكثر منه . . فلا حرج عليه في أكله ما أكل من ذلك . ﴿ فإن الله غفور ﴾ فيما فعل من ذلك ، فساتر عليه ، بتركه عقوبته عليه . ولو شاء عاقبه عليه . ﴿ رحيم ﴾ بإباحته إياه أكل ذلك عند حاجته إليه . ولو شاء حرمه عليه ومنعه منه " .

أما حد الاضطرار الذي يباح فيه الأكل من هذه المحرمات ؛ والمقدار المباح منها فحولهما خلافات فقهية . . فرأي أنه يباح ما يحفظ الحياة فقط عند خوف الهلاك لو امتنع . . ورأي

أنه يباح ما يحقق الكفاية والشبع . . ورأي أنه يباح فوق ذلك ما يدخر لأكلات أخرى إذا خيف انقطاع الطعام . . ولا ندخل في تفصيلات الفروع . . فهذا القدر منها يكفي في هذا الموضع .

فأما اليهود فقد حرم الله عليهم كل ذي ظفر من الحيوان – أي كل حيوان قدمه غير مشقوقة ؛ وذلك كالإبل والنعام والأوز والبط . وحرم كذلك شحم البقر والغنم – إلا شحم الظهر ، أو الدهن الملتف بالأمعاء ، أو ما اختلط منه بالعظم . . وكان ذلك عقوبة لهم على بغيهم بتجاوز أوامر الله وشرائعه :

﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر .

ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما – إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم – ذلك جزيناهم ببغيهم ، وإنا لصادقون ﴾ .

والنص يبين سبب هذا التحريم ، وهو سبب خاص باليهود ، ويؤكد أن هذا هو الصدق ، لا ما يقولونه هم من أن إسرائيل ، وهو يعقوب جدهم ، هو الذي حرم هذا على نفسه فهم يتبعونه فيما حرم على نفسه . . لقد كان هذا مباحا حلالاً ليعقوب . ولكنه حرم عليهم بعد ما بغوا ، فجازاهم الله بهذا الحرمان من الطيبات .

﴿ فإن كذبوك فقل : ربكم ذو رحمة واسعة ، ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين ﴾ .

فقل ربكم ذو رحمة واسعة بنا ، وبمن كان مؤمنا من عباده ، وبغيرهم من خلقه . فرحمته – سبحانه – تسع المحسن والمسيء ؛ وهو لا يعجل على من استحق العقاب ؛ حلما منه ورحمة . فإن بعضهم قد يثوب إلى الله . . ولكن بأسه شديد لا يرده عن المجرمين إلا حلمه ، وما قدره من إمهالهم إلى أجل مرسوم .

وهذا القول فيه من الإطماع في الرحمة بقدر ما فيه من الإرهاب بالبأس . والله الذي خلق قلوب البشر ؛ يخاطبها بهذا وذاك ؛ لعلها تهتز وتتلقى وتستجيب .

وعندما يصل السياق إلى هذا الحد من تضييق الخناق عليهم ، وسد الذرائع في وجوههم ، يواجه مهربهم الأخير الذين يحيلون عليهم شركهم وضلال تصوراتهم وتصرفاتهم . . إنهم يقولون : إنهم مجبرون لا مخيرون فيما اعتسفوا من شرك وضلال . فلو كان الله لا يريد منهم الشرك والضلال لمنعهم منه بقدرته التي لا يعجزها شيء :

﴿ سيقول الذين أشركوا : لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من شيء . كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا . قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون . قل : فلله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ :

وقضية الجبر والاختيار كثر فيها الجدل في تاريخ الفكر الإسلامي بين أهل السنة والمعتزلة والمجبرة والمرجئة . . . وتدخلت الفلسفة الإغريقية والمنطق الإغريقي واللاهوت المسيحي في هذا الجدل ، فتعقد تعقيداً لا تعرفه العقلية الإسلامية الواضحة الواقعية . . ولو أخذ الأمر بمنهج القرآن المباشر الميسر الجاد ، ما اشتد هذا الجدل ، وما سار في ذلك الطريق الذي سار فيه .

ونحن نواجه قول المشركين هذا والرد القرآني عليه ، فنجد قضية واضحة بسيطة محددة :



---

﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ﴾ . . فهم يحيلون شركهم هم وآباؤهم ، وتحريمهم ما حرموه مما لم يحرمه الله ، وادعاءهم أن هذا من شرع الله بغير علم ولا دليل . . يحيلون هذا كله على مشيئة الله بهم . فلو شاء الله ما أشركوا ولا حرموا . .

فكيف واجه القرآن الكريم هذه المقولة ؟

لقد واجهها بأنهم كذبوا كما كذب الذين من قبلهم ، وقد ذاق المكذبون من قبلهم بأس الله .

وبأس الله ينتظر المكذبين الجدد :

﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ﴾ . .

وهذه هي الهزة التي قد تحرك المشاعر ، وتوقظ من الغفلة ، وتوجه إلى العبرة . .

واللمسة الثانية كانت بتصحيح منهج الفكر والنظر . . إن الله أمرهم بأوامر ونهاهم عن محظورات . . وهذا ما يملكون أن يعلموه علماً مستيقناً . . فأما مشيئة الله فهي غيب لا وسيلة لهم إليه ، فكيف يعلمونه ؟ وإذا لم يعلموه يقيناً فكيف يحيلون عليه :

﴿ قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ﴾ . .

إن لله أوامر ونواهي معلومة علماً قطعياً ، فلماذا يتركون هذه المعلومات القطعية ، ليمضوا وراء الحدس والخرص في واد لا يعلمونه ؟

هذا هو فصل القول في هذه القضية . . إن الله لا يكلف الناس أن يعلموا غيب مشيئته وقدره حتى يكيفوا أنفسهم على حسبه . وإنما يكلفهم أن يعلموا أوامره ونواهيه ، ليكيفوا أنفسهم على حسبها . . وهم حين يحاولون هذا يقرر الله سبحانه أنه يهديهم إليه ، ويشرح صدورهم للإسلام . . وهذا حسبهم في القضية التي تبدو عندئذ – في واقعها العملي – يسيرة واضحة ، بريئة من غموض ذلك الجدل وتحكماته !

إن الله قادر لو شاء على أن يخلق بني آدم ابتداء بطبيعة لا تعرف إلا الهدى ، أو يقهرهم على الهدى . أو يقذف بالهدى في قلوبهم فيهتدوا بلا قهر . . . ولكنه – سبحانه – شاء غير هذا ! شاء أن يبتلي بني آدم بالقدرة على الاتجاه إلى الهدى أو الضلال ، ليعين من يتجه منهم إلى الهدى على الهدى ، وليمد من يتجه منهم إلى الضلال في غيه وفي عمايته . . وجرت سنته بما شاء . .

﴿ قل : فلله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ .

قضية واضحة ، مصوغة في أيسر صورة يدركها الإدراك البشري . فأما المعاظلة فيها والمجادلة فهي غريبة على الحس الإسلامي وعلى المنهج الإسلامي . . ولم ينته الجدل فيها في أية فلسفة أو أي لاهوت إلى نتيجة مريحة . لأنه جدل يتناول القضية بأسلوب لا يناسب طبيعتها . .

إن طبيعة أي حقيقة هي التي تحدد منهج تناولها ، وأسلوب التعبير عنها كذلك . الحقيقة المادية يمكن تناولها بتجارب المعمل . والحقيقة الرياضية يمكن تناولها بفروض الذهن . والحقيقة التي وراء هذا المدى ، لا بد أن تتناول بمنهج آخر . . هو كما قلنا من قبل : منهج التذوق الفعلي لهذه الحقيقة في مجالها الفعلي . ومحاولة التعبير عنها بغير أسلوب القضايا الذهنية التي عولجت بها في كل ما جرى حولها من الجدل قديماً وحديثاً .

وبعد فلقد جاء هذا الدين ليحقق واقعاً عملياً ؛ تحدده أوامر ونواه واضحة . فالإحالة على المشيئة الغيبية دخول في متاهة ، يرتادها العقل بغير دليل ، ومضيعة للجهد الذي ينبغي أن ينفق في العمل الإيجابي الواقعي المشهود .

وأخيراً يوجه الله – سبحانه – رسوله – صلى الله عليه وسلم – إلى مواجهة المشركين في موقف الإشهاد على قضية التشريع ، كما واجههم من قبل في موقف الإشهاد على قضية الألوهية في أوائل السورة :

في أوائل السورة قال له :

*(240/256)*

---

﴿ قل : أي شيء أكبر شهادة ؟ قل الله . شهيد بيني وبينكم ، وأوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ . أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل : لا أشهد . قل : إنما هو إله واحد ، وإنني بريء مما تشركون ﴾ وهنا قال له :

﴿ قل : هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا . فإن شهدوا فلا تشهد معهم . ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون ﴾ . .

إنها مواجهة هائلة ، ومواجهة كذلك فاصلة . ودلالتها على طبيعة هذا الدين غير

خافية . . إن هذا الدين يسوي بين الشرك العلني الواضح باتخاذ آلهة أخرى مع الله ؛ وبين الشرك الآخر الذي يتمثل في مزاولة حق الحاكمية والتشريع للناس . بما لم يأذن به الله – دون اعتبار لما يدعونه هم من أن ما يشرعونه هو شريعة الله ! – كما أنه يصم الذين يرتكبون هذه الفعلة بأنهم يكذبون بآيات الله ، ولا يؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون . . أي يجعلون له أنداداً تعدله . . وهو ذات التعبير الذي جاء في أول آية في السورة وصفا للذين كفروا :

﴿ الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ هذا حكم الله على الذين يغتصبون حق الحاكمية ويزاولونه بالتشريع للناس – دون اعتبار لدعواهم أن ما يشرعونه هو من شريعة الله ! – وليس بعد حكم الله رأي لأحد في هذه القضية الخطيرة .

فإذا أردنا أن نفهم لماذا يقضي الله – سبحانه – بهذا الحكم ؟ ولماذا يعدهم مكذبين بآياته ؛ غير مؤمنين بالآخرة ، مشركين يعدلون بربهم غيره . . فإن لنا أن نحاول الفهم . فتدبر حكمة الله في شرعه وحكمه أمر مطلوب من المسلم . .

إن الله قد حكم على المشرعين للناس من عند أنفسهم – مهما قالوا إنه من شرع الله – بأنهم يكذبون بآياته . لأن آياته – إن كان المراد بها آياته الكونية – كلها تشهد بأنه الخالق الرازق الواحد . . والخالق الرازق هو المالك . فيجب أن يكون وحده المتصرف الحاكم . . فمن لم يفرده – سبحانه – بالحاكمية فقد كذب بآياته هذه . . وإن كان المقصود آياته القرآنية ، فالنصوص فيها حاسمة وصريحة وواضحة في وجوب إفراده – سبحانه – بالحاكمية في حياة البشر الواقعية ، واتخاذ شريعته وحدها قانونا ، وتعبيد الناس له وحده بالشرع النافذ والحكم القاهر . .

كذلك حكم عليهم – سبحانه – بأنهم لا يؤمنون بالآخرة . . فالذي يؤمن بالآخرة ، ويوقن أنه ملاق ربه يوم القيامة ، لا يمكن أن يعتدي على ألوهية الله ، ويدعي لنفسه حقه الذي يتفرد به . وهو حق الحاكمية المطلقة في حياة البشر .

ممثلة هذه الحاكمية في قضائه وقدره ، وفي شريعته وحكمه . .

ثم حكم عليهم في النهاية بأنهم بربهم يعدلون . . أي أنه حكم عليهم بالشرك الذي وصف به الكافرين . . ذلك أنهم لو كانوا موحدين ما شاركوا الله – سبحانه – في حق الحاكمية الذي تفرد به . أو ما قبلوا من عبد أن يدعيه ويزاوله وهم راضون !

هذه – فيما يبدو لنا – هي علة حكم الله على من يزاولون حق الحاكمية ويشرعون للناس ما لم يأذن به ، بالتكذيب بآياته ، وعدم الإيمان بالآخرة والشرك الذي يتحقق به الكفر . .

أما الحكم ذاته فلا يملك " مسلم " أن يجادل فيه . فقد صدرت فيه كلمة الفصل التي لا معقب عليها . فلينظر كل " مسلم " كيف يتأدب أمام كلمة العزيز الحكيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 3 صـ ﴾

(242/256)

---

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ وهو الذي أنشأ جنات ﴾ في القلوب ﴿ معروشات ﴾ من شجرة الإسلام والإيمان والإحسان ﴿ وغير معروشات ﴾ هي الصفات الروحانية التي جبلت القلوب عليها كالسخاء والحياء والوفاء والمودة والفتوة والشفقة والعفة والعلم والحلم والعقل والشجاعة والقناعة ونخل الإيمان وزرع الأعمال الصالحة وزيتون الأخلاق الحميدة ورمان الإخلاص بالشواهد والأحوال ﴿ متشابهاً ﴾ أعمالها ﴿ وغير متشابه ﴾ أحوالها ﴿ كلوا من ثمره ﴾ انتفعوا من ثمار الإيمان والأعمال والإخلاص بالشواهد والأحوال لا بالدعاوى والقيل والقال . ﴿ وآتوا حقه ﴾ وحقه دعوة الخلق وتربيتهم بالحكمة والمواعظة الحسنة و ﴿ يوم حصاده ﴾ أوان بلوغ السالك مبلغ الرجال البالغين عند إدراك

ثمرة الكمال للواصلين دون السالك الذي يتردد بعد بين المنازل والمراحل . ﴿ ولا تسرفوا ﴾ بالشروع في الكلام في غير وقته والحرص على الدعوة قبل أوانها . ﴿ ومن الأنعام ﴾ أي ومن الصفات الحيوانية التي هي مركوزة في الإنسان ما هو مستعد لحمل الأمانة وتكاليف الشرع ، ومنها ما هو مستعد للأكل والشرب لصلاح القالب وقيام البشرية . ﴿ كلوا مما رزقكم الله ﴾ فرزق القلب هو التحقيق من حيث البرهان ، ورزق الروح هو المحبة بصدق التحرز عن الأكوان ، ورزق السر هو شهود العرفان بلحظ العيان ، فانتفعوا من هذه الأرزاق بقدر ما ينبغي . ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ يخرجكم بالتفريط والإفراط إلى ضد المقصود . ثم إن الصفات الحيوانية ثمان بعضها ذكور وبعضها إناث يتولد منها صفات أخر كلها محمودة إذ استعملت في محالها ، وبمقدار ما ينبغي ﴿ من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ﴾ والضأن والمعز من جنس الفرشية كما أن الإبل والبقر من جنس الحمولية .

*(243/256)*

---

والذكر من الضأن والمعز هما صفة شهوة البطن والفرج والأنثى منهما صفة حسن الخلق عند الاستمتاع بها وصفة التسليم عند تحمل الأذى ، والذكر من الإبل والبقر صفتا الظلومية والجهولية ، وأنثاهما الحمولية والاستسلام للاستعمال فبهذه الصفات الإنسانية

صار الإنسان حامل أعباء الأمانة التي أبت المكونات عن حملها وهن أيضاً حملة عرش القلب فافهم ، وقد أحل الله تعالى استعمالها واستعمال المتولد منها على قانون الشرعية والطريقة ، ومن زعم أنه يجب تركها وفصلها بالكلية فقد افترى ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ﴾ الكلام في نفسه حق وصدق إلا أنهم لما ذكروه في معرض الإلزام دفعاً للأذية والآلام كذبوا فيما قالوا والله سبحانه أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 185.184 ﴾

*(244/256)*

---

# AL-HAWI FE AL-TAFSEER

Sheikh Abdul Rahman Bin Mohammed AL-QAMMASH

13